روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

السلسلة الكاملة

(٨٧) قصة عدد

(٢٩) دراسة

رواية أرزاق

(٩٧) قصة قصيرة

(٤) مجموعات للمذكرات

(٢٦) خاطرة

العقرب

د. نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

الخواطر

(المجموعة الكاملة)

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع للخـــواطـر

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل الخواطر المنشورة بسلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000

(الخــواطـر)

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

أماني

01- أماني.. (خواطر)

لم التق بها سوى مرتين، لم تتجاوز دقائق الواحدة منهما عدد أصابع اليدين، إلا أنه لم يكن من السهل أن يمضي اللقاءان في بساطة، كما يمضي أي لقاء آخر أخرى..

هي بالذات كانت تحمل شيئا، لابد أن يجذب انتباه واهتمام أي أديبه، أو كاتب روائى..

مجموعة من التناقضات العجيبة، اجتمعت كلها في أنثى واحدة..

كانت تحيط نفسها بهالة من الوقار والالتزام، تتناقض كثيرا مع انطلاقها وحريتها في التعامل الآخرين وكانت - وهو الأهم - تملك لسانا لا يعزف بين شفتيها إلا الحانا مرحة وكلمات فرحة، في حين كانت عيناها تحملان طنا من الحزن.

حزن خفي، عميق، مثير، يبدو وكأنه قد استطاب العيش في وجدانها، حتى انحفر في عينيها، فبات جزءا من ملامحها وشخصيتها..

وعندما التقت عيناي بعينيها لأول مرة، خيل إلى أن هذا الحزن يرفع أمامي لافتة، تقول في رجاء: ابحث داخلي عن قصة..

عن رواية..

ستجد لديّ حتما مأساة، تفوق ما تجهد ذهنك في البحث عنه، لتخطه بقلمك فوق أوراقك..

وتمنيت لحظتها لو استطعت..

لو جعلت من هذا الحزن مدادا لقلمي، ومهدا لأوراقي..

ولكنني لم أستطع..

لم تكن معرفتي بها تكفي لسؤالها عن أحزانها..
وما كنت أظنها لتجيب..
سيبقى حزنها في أعماقها وحدها..
وسيظل لسانها يلهج بلحن مرح زائف..
وستدفن قصتها في أغوار نفسها، وتخفيها خلف إطار وقارها..
وسأظل أنا أتحرق شوقا لقصتها، وأتمنى سماع مأساتها..
ولكن من يدري..
إنها (أماني)..
مجرد (أماني)..

(تمت)

02- صاحبة المجوهرات.. (خواطر)

كلانا كان يعرف الأخر جيدا، قبل حتى أن نلتقي..

كل منا كوّن صورة للأخر، عبر الورق والأسطر والكلمات..

ثم التقينا..

لن أتحدث هنا عن تطابق صور الخيال مع الواقع، ولا عن لحظة اللقاء..

المهم أننا التقينا..

وسقطت كل الحواجز دفعة واحدة..

بعد أكثر من ثلاثة أعوام، وقف كل منا وجها لوجه أمام الآخر..

وبسرعة ذهبت الرهبة، وتلاشى القلق..

وامتد بيننا الحوار..

في البداية أخبرتني أنها مصممة مجوهرات، وتحدثت معي طويلا عن خبرتها في هذا المجال، ومهارتها في وضع أفضل التصميمات وأجملها..

وأدركت أنها على حق..

ولكنها ليست مصممة مجوهرات فحسب..

إنها صاحبة مجوهرات أيضا..

أتعلمون ما الفارق؟

الفارق هو أن مصممة المجوهرات ينتهي عملها عند وضع الرسوم، وقد لا ترى أبدًا ما صممته، وقد تحول إلى مجوهرات حقيقية، تزين الأذان والأعناق، والصدور، والمعاصم، والأصابع..

أما صاحبة المجوهرات، فهي تمتلك كل هذا..

تمتلكه في خزائنها..

أو في أعماقها..

ومع حديثنا خيل إلى أنني أرى تلك المجوهرات، الكامنة في أعماقها.

كانت لها بشرة نحاسية، وأسنان لؤلؤية، وحماس ذهبي لذيذ..

ولكن ليس هذا ما أقصده..

لقد تسلل تفكيري إلى ما هو أعمق من هذا..

إلى نفسها..

صحيح أنها كانت شديدة المرح والحماس، وهي تعرض علينا قطع من تصميماتها وإنتاجها، ولكن شيئا ما في حديثها، أو حتى في ابتسامتها، كان يحمل لمسة من الحزن..

حزن خفي عميق، كمنجم قديم مخيف، يرقد في أعماقه طن من الزمرد الأخضر..

لقد رأيت بعقلي ذلك الحزن..

رأيته كخيط من الدموع الماسية، يتألق وينهمر من قلب فضي كسير، ينقبض ويرتخي بلا حماس، ويبحث عمن يلتقط دموعه الماسية، ويصقلها، ويصفها فوقه في أناقة وجمال.

ولم أدرِ أبدا سر هذا الحزن الخفي..

ولا حتى كيف لمحته..

وعلى الرغم من أن حديثنا قد استغرق ساعة كاملة، إلا أنني لم أنجح في الغوص إلى أعماقها، وسبر أغوارها..

ثم فجأة، بدأت هي تتحدث عن نفسها:

عن طفولتها وشبابها..

ومع أقل كلمات حديثها، ذاب ذلك القناع المرح الزائف عن وجهها، وأطل حزنها من تحته واضحا، جليا..

وأدركت أنني كنت على حق..

انها بالفعل تحيا وسط حزن عميق..

حزن تلوح رائحته من مرحها وحماسها..

وحتى من أناقتها وبساطتها..

وأصغيت بانتباه، محاولا فهم مشكلتها بالضبط..

ولكنها لم تستطرد..

انتبهت فجأة إلى أنها تفصح عن أعماقها، فتوقفت عن الحديث، ونهضت لتنصرف..

ولم أحاول منعها..

لم يكن من اللائق أن أفعل..

تركتها تنصرف، وأنا أفكر في مشكلتها..

وانصرفت..

ولساعة كاملة بعد انصرافها، ظل عقلي معلقا بحديثها..

إنها تحمل في أعمالها شيئا ما..

شيئا يدعو1 إلى الاهتمام والتفكير، والبحث عن سر صاحبته..

صاحبة هذا الشيء..

وصاحبة المجوهرات..

(تمت)

أحلام زمان

03- أحلام زمان.. (خواطر)

لست أدري بالضبط متى بدأ ذلك الحلم، ونما في أعماقي ربما في أوائل السبعينات، عندما بدأت أولى سنوات المرحلة الثانوية، والتحقت بجماعة الصحافة، والتصوير، والتمثيل المسرحي في مدرسة الرافعي الثانوية بطنطا..

في تلك الفترة، تفتح عقلي، وتفتحت شهيتي للأدب والفن على نحو لم يكن له مثيل، في حياتي كلها من قبل..

صحيح أنني تحولت، منذ المرحلة الإعدادية، إلى ما يطلق عليه اسم (دودة الكتب)، حيث كنت ألتهم، وبمنتهى الشغف، كل قصة أو رواية تقع عليها يدي، وأحشو عقلي بمؤلفات (تشارلز ديكنز)، و (دوستويفسكي)، و (عبد الحميد جوده السحار)، و (إحسان عبد القدوس)، و (أنيس منصور)، و (آرثر كونان دويل)، و (جولي فيرن)، و (هـ. ج. ويلز)، وغيرهم، إلا أن مرحلة الانطلاق، في المرحلة الثانوية، كانت تختلف كثيرا..

فبعد كل ما رأيته، وقرأته، وسمعته، كنت أحلم ببدء مرحلة الإنتاج..

المرحلة التي يمكنني فيها إفراز خلاصة ما احتواه عقلي، طوال السنوات الماضية..

وعلى الرغم من كل ما قدمته لجماعة الصحافة، والتمثيل المسرحي، وما تعلمته في جماعة التصوير الضوئي كنت أشعر أنني لم أقدم بعد ما أحلم به..

ومنذ تلك الفترة، بدأ الحلم.. حلم إصدار (كوكتيل ٢٠٠٠)..

ولم يكن حلما مكتملا ناضجا، أو يشبه حتى تلك الصورة، التي صدرت عليها (كوكتيل ٢..٠)، ولكنه كان البداية وفي حجرتي الصغيرة، رحت أضع الخطوط الأولى لمجلة وهمية، وضعت على غلافها اسم (كوكتيل) مجلة، كانت تحوي، من وجهة نظري في ذلك الحين، مجموعة من القصص المصورة، في مختلف المجالات..

القصص البوليسي، والحركي، والاجتماعي، والخيال العلمي.. وحتى المعلومة، والمقال، والطرفة، والكاريكاتير..

وطوال السنوات التالية، وحتى أعوامي الجامعية الأولى، أخذ درج مكتبي يمتلئ بأغلفة وصفحات من أعداد مجلة (كوكتيل)، التي لا يقرؤها سواي، أنا ومجموعة محدودة للغاية من أصدقائي، الذين كانوا ينتقدونها في جدية واهتمام، وكأنها مجلة حقيقية تصدر بصورة دورية، مما شجعني على الاستمرار في كتابتها، وتحريرها، ووضع رسومها أيضا لفترة طويلة..

حتى جاءت مرحلة (البكالوريوس)..

في تلك المرحلة الشاقة العنيفة، كما كانت عليه في النظام القديم لكليات الطب، كان من الطبيعي أن تتراجع الأحلام..

أحلام زمان..

ويتوقف الإصدار الشخصي المحدود لـ (كوكتيل)، التي استقرت أعدادها في درج المكتب لسنوات وسنوات.. وبالتحديد، لثمان سنوات كاملة.. ثمان سنوات، أنهيت خلالها دراستي الجامعية، وحصلت على بكالوريوس الطب والجراحة، من جامعة طنطا، وأنهيت سنة الامتياز، ثم عامين من التكليف الإجباري، في قرية من قرى الجبل، في محافظة (قنا)، كانت لي فيها أحداث

ومغامرات، تستحق كتابا كاملا في المستقبل، وبعدها عدت للعمل كطبيب مقيم في طنطا، وخلال تلك الفترة، أعلنت المؤسسة العربية الحديثة عن مسابقة خاصة لاختيار كاتب شاب لأدب الخيال العلمي..

وبالمصادفة البحتة، اشتركت في هذه المسابقة..

بل وكانت روايتي (أشعة الموت)، هي آخر رواية وصلت للمؤسسة، في آخر ساعة، من آخر أيام المسابقة..

والعجيب أنها وجدت صداها عند الناشر الأديب الأستاذ (حمدي مصطفى)..

ولأن العمل يسير - عادة - بسرعة كبيرة، في مؤسسات القطاع الخاص، فقد تلقيت خطابا من المؤسسة، بعد أسبوع واحد من استلامها روايتي، للحضور إليها، والتعاقد بشأن القصة التي أرسلتها..

وفي الثامن من أغسطس، عام 1984 م، بدأت مرحلة جديدة من حياتي..

مرحلة احتراف الأدب..

وصدرت روايات (ملف المستقبل)..

و (رجل المستحيل)..

و (ع x ٢).

و (زهور)..

كل هذا، والحلم مازال يرقد في أعماقي، ويداعب خيالي ومشاعري، بين الحين والآخر..

حلم إصدار المجلة الشاملة المتنوعة، التي تحمل اسم (كوكتيل)..

ولكن الحلم تطور مع الزمن، والخبرة، والعمر..

لم يعد الإصدار في صورة مجلة..

وإنما في شكل كتاب..

كتاب شامل، يحوي بين غلافيه مجموعة متنوعة من الأعمال، في مختلف المجالات والاتجاهات..

من القصة القصيرة، إلى الرواية الطويلة..

ومن الأدب الاجتماعي، إلى الخيال العلمي..

كوكتيل من مختلف ألوان الفن والأدب والمعلومات..

وذات ليلة، عجزت أعماقي عن كبت الحلم لأكثر من هذا فنهضت إلى مكتبي، وأخرجت أوراقي، وقلمي الخاص وزجاجة الحبر الأسود، الذي أصر على استخدامه دون سواه، منذ بدأت الكتابة، ورحت أخط الكتاب الأول من سلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)..

وراح الحلم يتحول إلى حقيقة..

إلى واقع..

وإلى حروف..

وكلمات..

وصفحات..

ولم يمض أسبوع واحد، حتى كنت أحمل ذلك الكتاب، وأقدمه للأستاذ (حمدي مصطفى)، مع ملخص للفكرة، ودراسة مختصرة حول السلسلة الجديدة..

وقرأ الأستاذ (حمدي) الكتاب..

لم يقرأه بعين وعقل الناشر فحسب، وإنما بأعماق وخيال أديب..

وبتوفيق الله سبحانه وتعالى)، انتقل كل حماسي إليه..

وفي مكتبه، في المطبعة العربية الحديثة، رحنا نناقش هذه السلسلة الجديدة، ونضع اللمسات الأخيرة لها..

واختفت أبواب وشخصيات، وولدت أبواب وشخصيات أخرى..

وتحول المسار تارة إلى اليمين، وتارة إلى اليسار..

وأخيرا، اكتمل الكتاب الأول من (كوكتيل ٢..٠)..

وانتقل إلى يد الأستاذ (إسماعيل دياب) فنان المؤسسة، وصاحب أجمل الأغلفة، في سلاسل (روايات مصرية للجيب)..

ولم أصدق نفسي، عندما أمسكت بين أصابعي حلم الصبا..

الكتاب الأول من (كوكتيل ٢..٠)..

كم من الجميل أن يتحول الحلم إلى حقيقة..

كم من الممتع أن تمسك أحلامك بيديك..

بعقلك..

بكيانك كله..

وعلى الرغم من سعادتي الغامرة، وضعت يدي على قلبي، كما يقولون في التعبير الشائع، في انتظار رد الفعل..

ترى كيف يستقبل القارئ المصري والعربي هذه السلسلة الجديدة؟!

كيف يتعامل معها؟!

كيف؟

كيف!

وجاءت النتيجة تثلج صدري، وتملأ قلبي بالبهجة والحماس..

لقد نجحت (كوكتيل ٢..٠)..

وعلى نحو واضح ملموس..

وبهذا فقط، صار الحلم حقيقة..

والآن، وفي كل ندوة، يسألني أحد الحاضرين: ما أحب سلسلة من السلاسل التي تكتبها إلى قلبك؟!

وبلا تردد، يكون جوابي إنها (كوكتيل ٢..٠)..

ودائما ما أرى الدهشة على الوجوه، عندما يسمع الجميع جوابي..

ربما لأن أكثر ما أكتبه شهرة، هو سلسلتي (رجل المستحيل) و (ملف المستقبل)..

ربما..

ولكن الشيء الذي لا يعلمه الجميع، هو أنني أحب سلسلة (كوكتيل ٢..٠)، وأذوب في هواها، وأحرص أشد الحرص على جودة وقوة كل ما يصدر فيها، لأنها جزء من الأحلام..

أحلام زمان..

د. نبيل فاروق

(تمت)

زهــرة ..

04- زهرة.. (خواطر)

منذ اللحظة الأولى، التي وقعت فيها عيناي عليها، أدركت أنها زهرة..

زهرة برية، بكل ما يحمله التصنيف من معانٍ فهي جميلة، رقيقة، بسيطة، يفوح منها أجمل ما في الطبيعة..

أنوثتها هادئة، سحرها مدهش جذاب، وسنوات عمرها القليلة تمنحها مرحا ناعما، على الرغم من لمحة الخوف، التي تطل من عينيها طوال الوقت، مع مزيج عجيب من القلق والتوتر، تلمحهما العين المدققة، ويضفيان عليها اللمسة الأخيرة من لمسات الطبيعة..

التفرد..

نظرة واحدة إلى عينيها تفجر في أعماقك رغبة عارمة في حمايتها، والذود عنها..

في أن تحتويها بين ذراعيك؛ لتقيها شرور الدنيا كلها..

في أن تصنع من رجولتك درعا لأنوثتها، تتلقى عنها كل ضربات القدر، وتقلبات الدهر..

إنها تستفز الفارس في أعماق، وتستنفره، ليهب لنجدتها، من قبل حتى أن تستنجد أو تستغيث..

شيء ما فيها، يجعلك تتمنى القتال من أجلها، حتى آخر قطرة في دمك..

وآخر لحظة في عمرك..

وكم أدهشني أن أعلم بعدها، أنها تحمل بالفعل اسم زهرة..

زهرة برية ناعمة، كنت وما زلت أنتشي برائحتها، وأستعذب عطرها، وأذوب عشقا للونها الأبيض الهادئ الجميل..

وعندما تقاربنا، أدركت أنها تخفي في أعماقها شيئا ما..

شيئا يثب إلى عينيها بغتة، كلما تطرق الحديث إلى نقاط بعينها..

ومن المؤكد أن هذا الذي تخفيه، أمر مهم للغاية..

بالنسبة لها على الأقل..

فهي لا تفصح عنه قط..

ولا تخفيه في أعماقها أبدا..

انه دائما هناك..

في عينيها..

وفي لمحة حائرة قلقة وسط نظراتها..

ولم أحاول سؤالها عن سرها الخفي..

لن أحاول..

ربما لأنني لا أريد أن أفسد تلك اللحظات القليلة، التي نقضيها معًا..

أو لأنني أومن بأنه من حقها وحدها اختيار الزمان والظروف، التي تفصح فيها عن مكنوناتها وأسرارها..

ومن المؤكد أنها ستفعل هذا يوما..

شيء ما في أعماقها، وفي طبيعة شخصيتها، يجعلني واثقا من أنها ستفعل..

هذا لأن كل شيء في حياتها تحكمه صفة مهمة..

التلقائية..

نفس الصفة، التي تجعلها أشبه بزهرة..

برية.

(تمت)

حريتى ..

05- حريتي.. (خواطر)

الحرية..

يا لها من كلمة رائعة، لها في أعماقي وقع لا ينافسه وقع أية كلمة أخرى..

إنها حبي..

وهيامي..

وعشقي..

والهدف، الذي أقاتل من أجله، منذ وعت عيناي الدنيا..

فأنا أومن جدا بالحرية..

حريتي..

وحرية الآخرين..

وهنا تكمن عظمة الإحساس الحقيقي بالحرية..

وهذا يختلف تماما عن الفوضى، التي نتصورها أحيانا حرية، فنفعل كل ما يروق لنا، دون ضابط أو رابط، حتى ولو آذينا مشاعر الآخرين، ونسفنا حريتهم من أساسها..

أما الإيمان الحقيقي بالحرية، فهو إحساس كبير بالمتعة والمسئولية..

مسئوليتنا تجاه أنفسنا..

وتجاه الآخرين..

فحرية المرء تنتهي، عندما تبدأ حدود حرية الآخرين..

وعندما تعترضنا حدود العقيدة، والأخلاقيات، والمجتمع...

ومع انتقالي وأسرتي، من (طنطا) إلى (القاهرة)، كان أهم ما سعيت إليه هو الحصول على شقة إضافية، كمكتب خاص لى، يمكنني فيه الحصول على القدر اللازم من الاستقلالية والحرية، للتفكير والإبداع..

وكما منحنى أستاذي الأستاذ (حمدي مصطفى) مسكنا فوجئت به يمنحني مكتبا أيضا.. ولا أحد يمكنه أن يتصور مدى سعادتي بهذا الأمر..

فبدون الحرية، لا يمكنني أن أفكر أو أبدع..

أو أحصل حتى على الاسترخاء الكافي، للدخول في الحالة اللازمة لوضع فكرة جديدة..

أو قصة جديدة..

بل وبدونه لن أجد مكانا كافيا لمكتبتي الضخمة، التي تجاوزت العشرة آلاف كتاب، ولكل مستلزمات هواياتي المتعددة التي تنعش روحي وأفكاري، في أوقات فراغي، وبين ساعات العمل..

وكتداعٍ طبيعي، أصبح المكتب هو المكان الذي أستقبل فيه كل الأصدقاء، والزملاء، والضيوف، والقراء أيضا، باعتبار أن المنزل بالنسبة لي دائما مكان مقدس، للهدوء والراحة، لا ينبغي أن يعكر العمل صفوه قط.

ولكن، ومع مرور الوقت، فوجئت باقتحامات عديدة لحريتي، على نحو مستفز..

زيارات مباغتة، دون إنذار أو موعد سابق..

أو زيارات طويلة للغاية، وكأننا في مقهى عام، ولسنا في مكتب العمل والإنتاج..

بل ويصل الأمر أيضا إلى إعطاء مواعيد للآخرين في مكتبي، وكأنه نادٍ اجتماعي ترفيهي للكافة..

والمرهق أن الكل لا يكتفي بالجلوس والحديث..

إنهم يبدؤون فورا في العبث بمحتويات المكتب، من الكتب والمخطوطات، والتحف، وحتى الأوراق الشخصية، بحجة أن كل شيء فيه متميز ومختلف..

ولكن أكثر ما يزعجني بحق، هو نظرية التتبع..

فقد أستقبل صديقا أو زميلا أو ضيفا، أو حتى قارئا، في حجرة مكتبي، في بداية المكان، ثم أنهض لإعداد مشروب ساخن، أو إحضار آخر بارد من المطبخ مثلا، فأجده فجأة إلى جواري، يعرض معاونته..

وهذا يزعجني بشدة..

وربما أكثر مما يمكنكم تصوره بكثير.

فالتتبع هنا لا يقتصر على مكان واحد، وإنما يفاجئني الشخص

بالتجوال في المكان، وكأنه حديقة عامة، على الرغم من أنه يحوي

كل أشيائي، التي قد لا أرغب في أن يطلع عليها أو يراها أحد..

وما يفعلونه ينتهك حريتي إلى أقصى حد..

ويؤذي مشاعري بشدة..

فالمفترض، طبقا لما تقوله التقاليد، والأخلاقيات، وقواعد الذوق، وتعاليم الدين أيضا، ألا ينهض الضيف من مكانه أو يجول في مكان لا يخصه، إلا بناء على إذن من صاحبة..

وإذا قيل له أن يرجع، فعليه أن يرجع فورا دون اعتراض أو غضب..

ولكن أحدا لا يبالي بهذا..

أو حتى ينتبه إليه..

وذات مرة، راودتني فكرة أن أضع لافتة في كل مكان، تطلب من الجالس ألا يتبعني في مكتبي، حتى ولو كنت وحيدا..

ولكنني استحييت أن أفعل..

ثم إنه ليس من حق الآخرين إفساد ذوق المكان، حتى أجبرهم على الالتزام بقاعدة أخلاقية بسيطة..

والأمر ما زال مستمرا، حتى لحظة كتابة هذه السطور..

بل وربما كان هو السبب الرئيسي لكتابتها..

وهذا أيضا استمرار للقتال، من أجل محبوبتي ومعشوقتي الأولى في هذا الكون..

حريتي.

د. نبيل فاروق

إذا خاصم فجر ..

06- إذا خاصم فجر.. (خواطر)

عجيب هو أمر هذا الجيل..

التكنولوجيا منحته آفاقا واسعة، وقدرة مدهشة على استيعاب العلوم والمعارف، على نحو لم يتوافر قط لجيلنا..

بل ولم تحلم حتى بالحصول عليه..

وهذا الجيل طموح بشراسة..

ملهوف بقسوة..

متسرع بجنون..

كل شيء في حياته يريده أن يمضي بغمضة عين..

كل ما يسعى إليه يريده أن يخضع لضغطة زر، تماما كما في عالم الكمبيوتر..

وهذا يتفق تماما مع طبيعة هذا العصر، الذي نشأ فيه..

عصر السرعة، والتفوق، والنمو المتسارع بشدة..

ولقد انغمس هذا الجيل في عصره، على نحو لم يسبق له مثيل، في أي عصر آخر.. انغمس حتى النخاع..

ولأن الإيقاع قد صار سريعا، أكثر مما ينبغي، أصبحت أعصاب هذا الجيل مشدودة ومتوترة أكثر مما ينبغي..

وكما يحدث في كل عصر، انقسم الشباب إلى قسمين:

قسم انغمس في التكنولوجيا والطموح، وراح يحلم بمستقبل زاهر متفوق..

وقسم ألقى كل التوترات خلف ظهره، وقرر أن يحيا بكل استهتار الدنيا، وكأن الغد لن يأتي أبدا..

ولكن القسمين اشتركا في طبيعة واحدة عجيبة..

عدم الصبر والاندفاع.. والقسوة..

ففي كل عصر وكل زمان، كان الكبار يختلفون مع الشباب، وكان الشاب يغضب ويثور لهذا الاختلاف، ويقدم على أفعال عنيفة أو عجيبة، للتعبير عن ثورته ورفضه وفي هذا العصر، أصبح رد الفعل بالغ العنف والقسوة، وكأنما سيطرت تكنولوجيا الالة على النفوس، فانتزعت منها القلوب، ومحت منها الرحمة، والأدب، وكل احترام القيم والرموز..

وأصبحت سمة هذا الجيل هي أنه إذا خاصم فَجَر والخصام هنا يعنى الاختلاف معه في الرأي..

فما إن تتعارض مصالح الصغير (المحدودة)، مع مصالح الكبار، أو حتى مع المصلحة العامة، حتى ينفلت لسانه، وتنفلت مشاعره، وتتلاشى آدميته، ويتحول إلى وحش كاسر أعمي، لا يدرك عقله ما ينطقه لسانه..

كلمات وعبارات قاسية، جارحة، مؤلمة، يلقي بها اللسان في اندفاع محموم، وعلى نحو كاف لتمزيق كل روابط المودة والرحمة بين الأطراف والأخطر من هذا أن القيم كلها أصبحت مختلة مرتبكة، يدرك الكل مسمياتها، ولكنهم لا يدركون معناها أو مغزاها..

لم يعد هناك من يفرق بين الصراحة والوقاحة، والحرية والانفلات، والجرأة والاستهتار..

كل شيء امتزج، وارتبك، وتمزق..

كل شيء..

وبلا رحمة أو هوادة..

حتى الصداقة، فقدت معناها الحقيقي..

كل شخص يطالبك بمنحه كل الثقة، ويكشف كل أسرارك أمامه، كقربان للصداقة، ثم يصر هو على الحفاظ على أبسط أسراره، باعتبارها حرية شخصية!!

أي تناقض عجيب هذا؟!

القيم البسيطة أيضا لم يعد لها معنى..

الكرامة.. الاحترام.. الشهامة..

كل هذا أصبحت له معانٍ أخرى، تتنافى مع أبسط معانيه الأصلية..

الكرامة أصبحت اتخاذ رد فعل عنيف، حتى ولو لم يكن عن حق.

الاحترام أصبح في حمل الهاتف المحمول، والتظاهر بالثراء ونبل الأصل.

الشهامة أصبحت التستر على أخطاء الآخرين، وليس الوقوف في جانب الحق.

كل المعاني النبيلة تحطمت، على صخرة العصر..

لذا فالكل يشكو من غياب الرجولة..

والأنوثة أيضا..

الكل يشكو من ضياع الأخلاق والقيم والمبادئ..
الجيل الجديد..
والقديم..
والأقدم..
الكل يشكو..
والكل يعاني..
والكل لا يلتزم..
وهذا يعني أننا نواجه مستقبلا مخيفا مظلما..
هذا لو آمنا بأن الأمم الأخلاق ما بقيت..
لو

د. نبيل فاروق

(تمت)

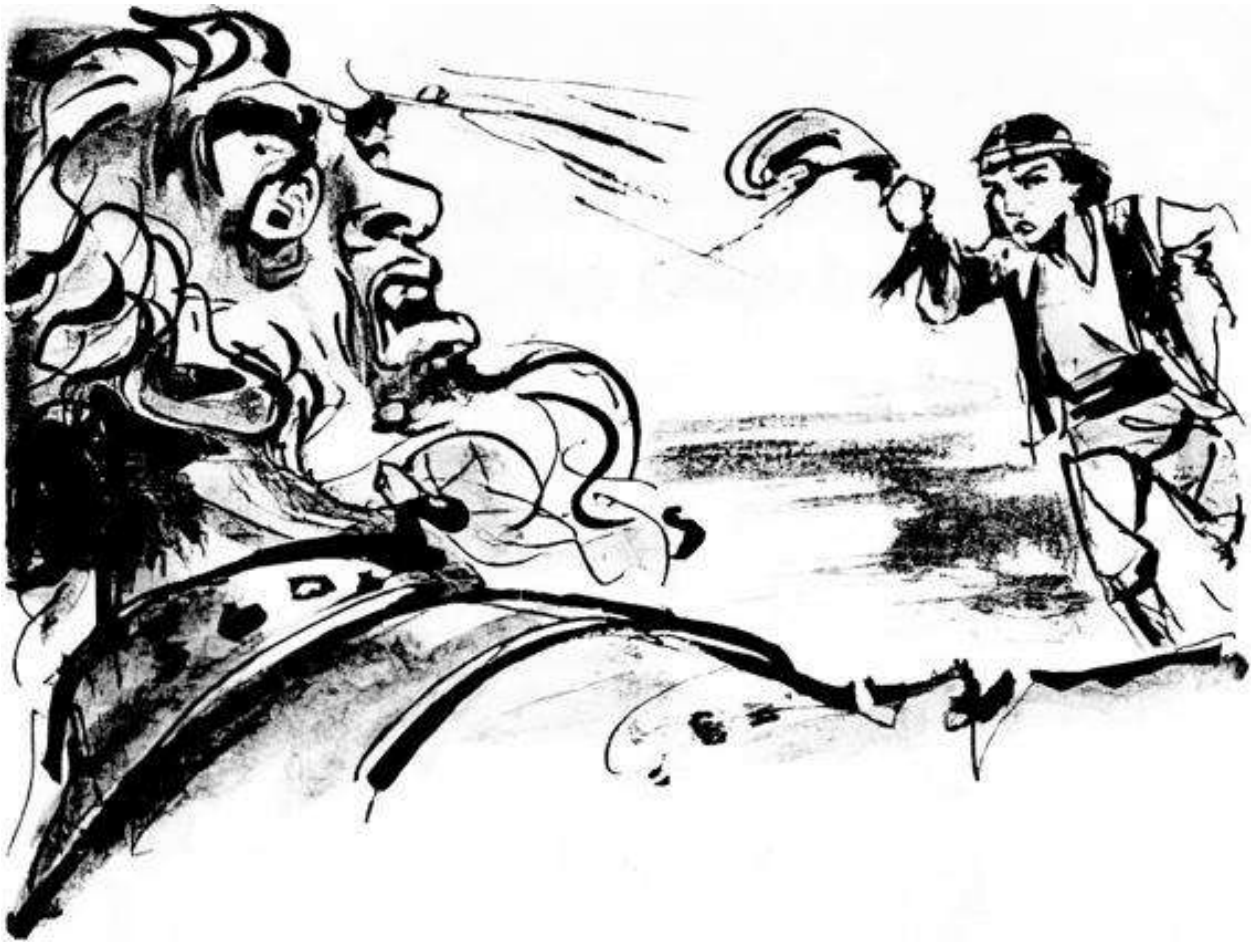

07- وماذا بعد.. (دعوة)

(إسرائيل) فقدت أعصابها أخيرا..

كانت تتصور أنها (جالوت) الجبار، الذي يواجه (داوود) الصغير الضئيل، والذي يمكنه أن يسحقه بضربة واحدة..

ولكنها نسيت أن تكمل القصة حتى نهايتها..

نسيت أن التاريخ (العبري) يقول: إن (داوود الصغير لم يرهب (جالوت) العملاق، على الرغم من فارق الحجم..

والقوة بينهما، وإنما صمد أمامه، والتقط حصاة صغيرة من أرضه، وضعها في مقلاعه، وأدار المقلاع في قوة، ثم صوبه في إحكام إلى عين (جالوت)

وأطلق الحصاة..

ولأن (داوود) ثابت، متماسك الأعصاب، يؤمن بحقه في أرضه، وفي عدالة قضيته، فقد أحسن التصويب، واخترقت حصاته الصغيرة عين (جالوت)، ومنها إلى مخه..

وسقط العملاق..

هوى كالحجر مهزوما مدحورا، تحت قدمي الصغير (داوود)..

هذه القصة تبناها كل يهود الأرض يوما، عندما بدأت حربهم مع العرب، وراحوا ينشرونها في العالم كله، باعتبار أن العرب هم العملاق (جالوت)، واليهود هم الصغير (داوود) الذي سيهزم العرب بحصاته؛ لأنه قوي الأعصاب، متماسك، لا يرهق نفسه ومشاعره بهتافات عصبية، وشحب متتالٍ، وغضب طائش غير مدروس..

ثم مرت الأيام، وتبدلت الأدوار.

(إسرائيل)، التي احتلت (فلسطين)، وهي تبكي مستضعفة، مدعية أنها تحمى نفسها من العرب الأشرار، استقر بها المقام، وبدأت تفرد قامتها، وتتعامل باعتبارها الدولة الأكثر قوة في المنطقة، وتنظر إلى الفلسطينيين باعتبارهم مجرد حفنة ضعيفة، لا يمكنها أن تتصدى لها، بأي حال من الأحوال..

لقد اعتبرت إذن أنها هي التي أصبحت (جالوت) العملاق في حين صار الفلسطينيون هم (داوود) الضئيل الصغير.

ودون أن تدري أو تدرك، أن تبديل الأدوار يعني تبديل النتائج أيضا، راحت (إسرائيل)، المحتلة الاستعمارية الوحيدة على وجه الأرض، في القرن الحادي والعشرين، تتعامل بكل الصلف والغطرسة والعنف، محاولة إخماد المشاعر والعقائد والانتماءات بالقوة والقهر..

ولكنها فوجئت برد الفعل..

فوجئت بأن (داوود) الصغير قد عاد يلتقط حصاته من الأرض، ويقذف بها عدوه..

سيل من أحجار الغضب والرفض، انهال على رءوس المحتلين، وقلوبهم، وعقولهم، وسمعتهم، وكيانهم كله....

وراح العملاق الزائف يواجه تلك الأحجار بالرصاص، والقنابل، والدبابات، وحتى أحدث المقاتلات القاذفة..

ولكن الانتفاضة لم تنته ولم تنهزم..

ولم تستسلم..

وضاعف الإسرائيليون من غضبهم..

ومن عنفهم..

وهنا، ظهر سلاح جديد على ساحة المعركة..

القنابل البشرية..

شهداء أبطال، رأوا ما يفعله بهم العدو، من انتهاك لكل الأعراف والقوانين والحرمات، ورأوا دباباته وجراراته وجرافاته، تسحق كل الأخضر واليابس، ورئيس وزرائه يتحدى في صفاقة ووقاحة، ووحشية سادية عجيبة، مع مقت شديد غير مُبرر للعرب، فهبوا..

هبوا للشهادة، دفاعا عن كل ما يؤمنون به..

وفي قلب العدو وعقله، دوت الانفجارات..

شهيد وراء شهيد نسفوا أنفسهم في أعمق أعماق العدو، الذي جن جنونه.. وفقد أعصابه، وانطلق كأشرس الوحوش، التي لم يعرفها التاريخ قط..

انطلق بكل قوته، وجيوشه، وعدته، وعتاده، وغضبه.

وشراسته، ووحشيته، وجنونه، وساديته.

وضاربا بكل القيم والأعراف عرض الحائط، وراح المحتل يحاصر الكنائس، والمساجد، ويضرب ويقتل رجال الدين، ويحرق ويهين دور العبادة..

وغضب العالم كله مما يحدث..

فيما عدا (أمريكا) بالطبع..

(أمريكا)، القطب الأوحد، والبلطجي الأعظم، وراعية أكبر دولة إرهابية في الوجود، وقفت بكل قوتها وغطرستها وثرواتها، خلف

المحتل الغاصب..

وعلى الرغم من هذا، فقد تواصل الصمود..

وتواصلت المقاومة..

وبدا من الواضح أن القوة المسلحة لن تحسم القضية أبدا..

وأن الكفاح، والصمود، والمقاومة، والإيمان بالله سبحانه وتعالى أشياء تولد، ولكنها لا تموت..

أبدا..

ولكن العدو لن يتوقف عن اعتداءاته، ووحشيته، وكراهيته لنا جميعا، باختلاف عقائدنا وأدياننا..

والسؤال هو ماذا بعد؟!

ماذا بعد كل ما حدث، ويحدث، وسيحدث؟!

والجواب هو الصمود..

والمقاومة..

وبعقل..

التاريخ علمنا أن من يفقد أعصابه وعقله وحكمته، هو من يخسر المعركة حتما في النهاية..

وهم فقدوا أعصابهم..

فلنتملكها نحن إذن..

دعونا نرفض ما تفعله (إسرائيل)، وراعيتها (أمريكا)، بمنتهى الشدة..

ومنتهى العقل..

وعلى المدى الطويل.. فما دامت (أمريكا)، هي راعية (إسرائيل)، وممولها الأول، فلنفسد هذا التمويل إذن..

والاقتصاد الأمريكي، الذي يعتمد أكثر ما يعتمد على التجارة الخارجية، لا يمكنه أن يحتمل فترة تدهور طويلة..

ولو عانى الاقتصاد الأمريكي، سيصبح تمويلها للإرهابية (إسرائيل) أمرا عسيرا.. إن لم يصبح مستحيلا.

ولأننا - نحن العرب - أحد كبار الممولين للاقتصاد الأمريكي بطريق غير مباشر، بإقبالنا على المنتجات الأمريكية، فمن المؤكد أن امتناعنا عن شرائها، وعزوفنا عنها، سيؤدي حتما إلى حدوث خلل في الميزان الاقتصادي الأمريكي، على نحو غير مسبوق..

ولكننا ينبغي أن نفرق هنا بين أمرين بالغي الأهمية.. وشديدي الاختلاف..

أن نفرق بين منتج عربي، يحمل اسما أمريكيا شهيرا، وآخر مستورد، أمريكي الصنع..

فالمنتج الذي يتم تصنيعه هنا، في وطننا العربي، برأس مال عربي، وعمالة عربية، واستثمارات عربية وضرائب للخزائن العربية، ومنتج عربي بالدرجة الأولى، حتى ولو راحت نسبة منه إلى صاحب الاسم الأمريكي..

المنتج العربي يعني نمو للاقتصاد العربي، وتشغيل للعمالة العربية، وحل لمشكلة البطالة، ووسيلة لزيادة الدخل القومي، وأشياء عديدة نحتاج إليها، في مرحلة النمو، التي لن يمكننا الصمود والتصدي بدونها..

أما المنتج المستورد من (أمريكا)، فكل قرش تدفعه فيه، هو نمو للاقتصاد الأمريكي، وضعف للاستثمارات العربية..

دعونا إذن نتوقف عن التعامل كالمقاتل الأعمى، الذي يقتل أفراد أسرته، وقوات جيشه، لمجرد أن أصواتهم تشبه أصوات العدو....

عدونا ذكي، خبيث، مخادع، يدير اللعبة في معظم الأحيان، بحيث يدفعنا إلى تدمير أنفسنا بأنفسنا..

فلنثبت له إذن أننا لم نعد حمقى أو أغبياء..

ولتلعب اللعبة بنفس الذكاء..

ونفس الخبث..

لن تغرينا لمحة ذئبيه، على أن نترك مرمانا بلا حماية، ونهاجم على نحو عشوائي، فيلتقط هو الكرة، ويشن علينا هجمة مرتدة، يحرز بها أهدافه..

إنني أدعوكم، ومنذ لحظة قراءتكم لهذه السطور، إلى مقاطعة كل منتج أمريكي (مستورد)..

قاطعوا كل ما يحمل شعار (صنع في أمريكا)، من قطعة الشيكولاتة الصغيرة، وحتى السيارات الضخمة الفاخرة..

أثبتوا لهم أننا نستطيع العيش بدونهم..

والانتصار بدونهم أيضا..

وهذا ما أثبته التاريخ..

وستثبته الأيام..

بإذن الله.

(تمت)

08- دم واحد.. (نداء)

(نـــــداء)

يا كل من يسمع..

ويقرأ..

ويفهم....

يا كل من تبع نبيا أميًّا، بلغ علمه الآفاق..

نبي عبر بين القبلتين..

على متن البراق.

يا كل من شغفتم بالنفاس..

بالتنافس.

وانشغلتم بالنفاق..

اسمعوني..

اقرءوا قلبي..

افهموني..

الوقت حان لتهبوا من الفراق..

لتنبذوا الخلاف..

والشجار..

والشقاق..

استيقظوا، واسمعوا...

وشاهدوا..
وتعلموا الدرس، من دم حر يراق..
الدم العربي واحد..
يراق..
لا تسدوا الأعين أو تغمضوا الآذان..
فاليوم أشعر بأن دمى أنا مراق..
في نهر دجلة..
في فرات العراق..

د. نبيل فاروق

09- ويأتي الغد.. (خواطر)

جاء الليل..

ويا للمرار!!

عشنا نحلم سنوات وسنوات بقدوم القرن الحادي والعشرين، الذي تصورنا أنه سيحمل لنا كل الخير والرخاء والنماء، بافتراض أن هذا ناتج طبيعي للتطور البشري..

ليس التطور التقني، والصناعي، والاقتصادي، وحتى الحربي فحسب..

ولكن التطور الإنساني أيضا..

فالعقل والمنطق يؤكدان أنه كلما زاد علم المرء وثقافته، زادت معهما مشاعره البشرية والإنسانية..

ورقت..

وتطورت...

تخيلنا أن تطور الإنسان سيزيل من نفسه كل الفردية...

كل الأنانية..

كل الوحشية..

تصورنا أنه سيجعل منه كائنا راقيا، يحمي حقوقه، وحقوق الآخرين..

يدافع عن حريته..

وحرية الآخرين..

ولكن القرن الحادي والعشرين جاء مختلفا تماما عما تصورناه، وتخيلناه، وافترضناه أيضا..

جاء مع أزمات اقتصادية..

ومشكلات سياسية..

وتطاحنات دولية..

ثم تطورت الأمور بسرعة، منذ عامه الأول؛ لتواجه (أمريكا) أول ضربة داخلية في تاريخها..

الضربة التي أفقدتها صوابها..

وعقيدتها....

وتلك المبادئ، التي ظلت تدعى تمسكها بها..

وقبل أن يمضي العام الثالث، من القرن الحادي والعشرين، كانت (أمريكا)، دولة القطب الواحد، قد تحولت إلى وحش شرس مسعور، انطلق ليسحق كل مبادئ وقيم وقواعد الدنيا بضربة واحدة..

ضربه أعلنت أن القرن الحادي والعشرين لن يصبح قرن الخير والنماء..

بل قرن الاستعمار..

الاستعمار البغيض، بأقصى وأسوأ صوره..

وأريقت الدماء أنهارا في (العراق)..

أريقت، دون أدنى رحمة أو شفقة..

أريقت لتراق معها كل القواعد..

وكل القوانين..

وبلا هوادة..

وقبل حتى أن يستقر الموقف هناك، كانت الوحشية تتجه إلى (سوريا)..

وحشية من تصور أنه لم يعد له رادع ولا محدّ.

كل هذا لأننا لم نتصور أبدا قدوم مثل هذا اليوم..

ولم نستعد أبدا..

لم نعدّ ما استطعنا من قوة..

أو من رباط الخيل..

انشغلنا في صراعات سخيفة، واختلفنا حول قشور سطحية، لن تعلي شأن أي دين في الوجود، ونسينا أن نعد القوة..

وأن نطور رباط الخيل..

لذا فنحن نستحق الهزيمة..

نستحق العار..

والانكسار..

والضياع والدمار..

نستحق كل هذا عن جدارة..

وسنظل نستحقه، ما لم نتغير ونتطور..

ونستيقظ من غيبوبتنا هذه..

سنظل في المرتبة الأدنى، حتى ندرك أنه ليس بالهتاف والغضب واحمرار العيون يأتي التقدم..

أو يأتي النصر..

فقط بالعقل، والمنطق، والتفكير، والتدبير..

بالإيمان الصحيح، والتطور الهادئ، وتغليب الفكر على التعصب..

فقط بالحرية الصحيحة، والتنمية المخلصة، والاقتصاد المدروس...

بكل هذا فقط، ربما يكون هناك أمل، لو عدونا بأقصى سرعتنا، للحاق بكل ما فقدناه، ونحن نتشاجر، ونتناحر، وتتجادل، حول أمور سطحية، شكلية مرهقة..

أقول ربما..

أما لو ظللنا كما نحن..

لو أصررنا بعناد طفولي سخيف على أننا الأفضل، وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان..

لو تخيلنا أنه من الممكن، تحت أي مقياس في الوجود، ألا نبذل أدني جهد للتفوق، ثم نفوز بالمركز الأول!!

لو ظللنا هكذا، فهنيئا لنا بالمركز الأخير..

ولننعم بالعبودية والذل، تحت نير محتل، فعل كل ما دعانا ديننا لفعله، فانشغلنا عنه بصراعات القشور..

وليعلم الكل، أن إيمان الدنيا كله، ووجود أشرف الخلق نفسه، لم يكفِ للانتصار في غزوة (أحد)..

ربما يكفي لدخول الجنة..

ولكنه لا يكفي للنصر في الدنيا..

ففي الدنيا، يربح من يتبع القواعد، وينفذ التعليمات، ويواجه كل شيء بالواقع، والفكر، والهدوء..

والوقت لم يفت بعد.

فالليل مهما طال، لا بد أن ينجلي..

فلنبدأ معا، ولنغير ما بأنفسنا، حتى يغير الله (سبحانه وتعالى) ما بنا..

عندئذ سنتطور..

ونتقدم.

ويأتي النصر.

ويأتي الغد..

عندئذ فقط..

(تمت)

10- متمردة (خواطر)

لى صديقة لطيفة، رقيقة، مهذبة، واعية..

ومتمردة..

متمردة طوال الوقت، وكل الوقت..

وهي لا تقبل أبدا بالمألوف، أو المعتاد، أو العرف، أو التقاليد، مالم يهضمه عقلها، ويستوعبه ذهنها، ويقتنع به كيانها..

ولأنها في عمر لم يسمح لها زمنيا باكتساب الحكمة المطلوبة، لمثل هذا النوع من التفكير، فهي في صراع مستمر لمحاولة إثبات وجهة نظرها، وصحة أفكارها، وكونها على صواب، على الرغم من مخالفتها لجميع من حولها..

ولأن الناس يميلون دوما إلى الاستقرار والهدوء، ولأنهم أعداء ما يجهلون كما تعلمنا منذ حداثتنا، فهم يستريحون في المعتاد لبقاء الأوضاع على ما هي عليه، دون تغيير أو تبديل، ويزعجهم بشدة أن يأتي من يدفعهم إلى التغيير..

أي تغيير..

ومع انزعاجهم، تبدأ مقاومتهم..

وتتزايد أكثر وأكثر، مع كل محاولة جديدة، حتى يصبح الأمر بالفعل أشبه بصراع..

صراع عنيف بين المعتاد والجديد..

ولأن صديقتي قد اتخذت من التمرد على المألوف سبيلا، كما فعلت أنا نفسي، منذ ما يقرب من ربع قرن، فهي لا تبالي

بالصراع، أو تأبه له، وتصر طوال الوقت على خوضه، في كل الاتجاهات..

وعلى كل الجبهات..

حتى جبهتها شخصيا..

ولأنها اعتادت الصراع، تأبى أن تتوقف عنه لحظة واحدة، فإن لم تجد ما تصارع الآخرين من أجله، تبدأ في الصراع مع نفسها؛ لتغيير عادة سيئة، أو اكتساب عادة حسنة جديدة..

من وجهة نظرها بالطبع..

وصديقتي هذه لها أفكار ثورية، وآراء جديدة قوية، لا تريد بها تغيير أمر واحد أو أمرين، بل ترغب في تغيير الدنيا كلها..

وهي تؤمن بكل ما تفعله بقوة..

وتتحمس له بمنتهى الشدة..

ولأن العناد أمر يقترن دوما بالتمرد؛ فهي عنيدة للغاية.

ولكنها لا تعترف بهذا أبدا..

بل ولا تعترف حتى بأنها متمردة..

هذا لأن الأمور - في عمرها الصغير - مازالت تحمل تعريفات جامدة، وانطباعات حادة، لا تقبل المرونة أو التطور.

فهي تتصور أن التمرد هو نوع من الانفلات، والفساد، وعدم التقيد بأية قواعد، وتكره بالطبع أن توصف بأي من هذه الصفات، التي تبدو قبيحة ومبتذلة للغاية..

ولكن التمرد ليس كذلك أبدا..

فعبر التاريخ، شاهدنا حركات تمرد على السلطة الغاشمة، وعلى الطغيان، وعلى الاحتلال، وحتي على بعض التقاليد البالية، غير المنطقية أو العملية..

ولكن التاريخ - ولسبب ما كان يرفض دوما أن يطلق على ما يحدث اسم (التمرد)..

فهو إما ثورة، أو عصيان، أو انقلاب، أو انتفاضة..

والوصف الذي يستخدمه التاريخ، يعبر دوما عن موقفه من حالة التمرد، والتي تختلف حتما، من عصر إلى عصر، ومن زمن إلى زمن، بل ومن أيديولوجية حكم إلى أخرى..

ولكن كل هذا يندرج تحت مصطلح (التمرد)..

التمرد إذن ليس صفة سيئة، إلا إذا ارتبط بالانحراف عن المسار الصحيح للأمور.

وحتى كلمة المسار الصحيح هذه، تحتاج إلى اختيار منهج أساسي للحياة أولا، فما يبدو التزاما بمنهج ما، قد يكون انحرافا حادا أو عنيفا، في منهج آخر..

قواعد منهج التمدين مثلا، قد تتعارض بشدة مع أصول المنهج الديني، أو المنهج الاجتماعي البسيط..

وهكذا..

أقول لصديقتي (المتمردة) إن التمرد إذن ليس صفة سيئة..

انه طاقة هائلة، يمكن أن تقودنا إلى أعلى مكانة في الوجود؛ لو أننا استخدمناها بصورة إيجابية، وإلى أسفل السافلين؛ لو استخدمناها بصورة سلبية..

ففي رأيي أنا، لا بد من أن يتمرد المرء، بين حين وآخر..

يتمرد على تعنتات مزمنة، تتعارض مع قواعد الدين أو المنطق..
يتمرد على نظم غاشمة..
على محاولات سلب حريته..
على أخطاء يرتكبها، أو يسمح بارتكابها..
هذا وحده يجعله شخصا قابلا للتطور، والتقدم والرقي..
ولكن من الخطأ أن يتمرد المرء، دون أن تكون لديه المعرفة الكافية..
هذا لأنه قد يتمرد على أمور، هي أساس بناء حياته ومستقبله..
وهنا تكمن الخطورة..
وهنا أيضا يكمن المعنى، الذي أردت توصيله لكل الأصدقاء..
وكذلك لصديقتي، اللطيفة، الرقيقة، المهذبة، الواعية، و...
والمتمردة.

(تمت)

11- في سبيل الحرية (خواطر)

الحرية..

أجمل كلمة في الوجود، بعد كلمات الله (سبحانه وتعالى)..

أجمل معنى، يمكن أن يفكر فيه الذهن، ويعتمل معه العقل، وينمو معه الكيان والوجدان..

كلمة يسعى كل مخلوق في الوجود للحفاظ عليها، والكفاح من أجلها، والصراع في سبيلها..

الحشرة ترفرف بجناحيها، أو تنطلق بسيقانها الواهية، في محاولة الفرار من أية محاولة لاحتجازها..

الحيوان يتحول إلى كائن شرس عنيف، لو حاولت إدخاله القفص..

وبعض أنواع الحيوانات الراقية لا تتناسل أو تتكاثر أبدا في الأسر..

كل مخلوق يقاتل من أجل حريته..

وعلى رأس كل المخلوقات، ذلك الكائن، الذي كرمه الله (سبحانه وتعالى)، ومنحه الريادة والسيادة في أرضه..

الإنسان..

ومنذ الأزل، يقاتل الإنسان دوما، في سبيل حريته وكرامته..

وأمنه..

ولكن العجيب، كل العجب، هو أن إنسان العصور الحديثة، على الرغم من كل تشدقه بالحرية، مازال يجهل مفهومها، وحقيقتها، و...

وحدودها..

فالحرية المطلقة أمر مستحيل الوجود، ما دام في الكون عقول تختلف، وتتوافق وتتنافر، وتتآزر وتتصارع..

فالحرية، حريتك، أشبه بمساحة تمتلكها من الأرض..

مساحة يحق لك أن تتجول فيها كما تشاء، وأن تفعل فيها كل ما يروق لك..

ولكن بشرط واحد..

ألا تتجاوز أسوار مساحتك..

بمعنى أدق، وأكثر انتشارا وشمولا، أن حريتك تبدأ من أرضك وتنتهي عند حدود الآخرين..

والمؤمن بالحرية، والمدرك لطبيعتها الحقيقية، لا يقاتل في سبيل حريته فحسب، وإنما يقاتل بقوة أكبر في سبيل أن يحصل معارضه أيضا على حريته..

حريته في أن ينتقده ويعارضه..

ويختلف معه بشدة أيا كان موضوع الخلاف والاختلاف فهذه هي الحرية.

الحرية الحقيقية..

فالحرية لا يمكن أن تقتصر على أفراد من دون غيرهم، أو جهات دون أخرى، أو حتى عقيدة دون باقي العقائد..

الحرية إطار واحد، إما أن يشمل الجميع، أو لا يشمل أحدا على الإطلاق..

مبدأ واحد، إما أن تؤمن به، سواء أكان في صالحك أو ضدك، أو لا تقبل به على الإطلاق..

لا حلول وسط..

ولا أطراف غير واضحة..

الحرية حرية الجميع بلا استثناء، أو هي ليست بالحرية على الإطلاق..

ومشكلة الحرية تبدأ، عندما يتصور البعض أنهم أفضل من الآخرين، أو أكثر علما وخبرة وذكاء.. أو حتى أكثر تقدما..

عندئذ، يخيل إليهم أن من حقهم أن يسيطروا على حرية الآخرين، وأن يقهروها..

ويسحقوها سحقا..

بل والأسوأ أنهم يرون في هذا حفاظا على الحرية!

ويا له من منطق مختل مغرور!!

كيف يمكنك أن تسلب حرية الآخرين، في سبيل الحرية؟!

كيف؟!

كيف؟!

المؤسف أنك لو ناقشت الأمر مع شخص ما، ستجد أنه يعلن على الفور إيمانه بالحرية، ثم يضع بعدها ألف شرط وشرط لهذه الحرية، التي لا يراها إلا من وجهة نظره فحسب..

فهو يوافق على الحرية، على ألا تمتد إليه بالنقد أو المعارضة، أو تتجاوز إرادته، أو قواعده، أو تمس عقيدته، من قريب أو بعيد..

الحرية إذن في نظر معظم الناس، هي حرية أن تنتقد الآخرين، أو تعارض الآخرين، أو حتى تسبهم..

المهم ألا تقترب منهم هم..

ولو حاولت تطبيق هذه القاعدة، ستجد أنه لا توجد حرية على الإطلاق، إذ إنه من المستحيل أن تمتلك حريتك، وكل ما يحيط بك يكبل يديك، ويعقد لسانك أيضا..

ويغمض عينيك، ويكتم أذنيك..

الحدود الوحيدة، التي تواجه الحرية، هي حدود حرية الآخرين..

وهذا أعظم مفهوم للحرية..

فمن حقنا أن نختلف، ونتعارض، في الفكر، والسياسة وحتى في الدين نفسه..

ولكن ليس من حق أحدنا أن يقهر حرية الآخر، في التعبير عن نفسه، لمجرد أنه يخالفه الرأي..

ومفهوم الحرية، مع اتساعه، يمتد ليشمل عدة مفاهيم فرعية أخرى، منها حق الإنسان في خصوصيته، ووضع حدوده، والتعامل مع الآخرين، ومع المجتمع.. إلخ..

والخصوصية، التي هي جزء من الحرية، أمر أقاتل للحفاظ عليه طوال عمري، خاصة وأنني قد نشأت في عائلة تحترم الخصوصية إلى حد لم أدرك روعته، إلا عندما اختلطت بالمجتمع فيما بعد..

فمنزلنا لم يكن كبيرا، ولم يكن صغيرا أيضا، ولكنني قضيت فيه أسعد أيام حياتي، مع والدي ووالدتي، وشقيقاتي الثلاث..

وعلى الرغم من أننا، شقيقاتي وأنا، كنا نتشارك حجرة واحدة، لسنوات طوال وأن كل منا كانت له مساحة محدودة، يحتفظ فيها بأشيائه الخاصة، إلا أنني لا أذكر قط، أن أحدنا قد حاول الاطلاع على خصوصيات الآخرين، ولو مرة واحدة..

ولم تكن لأدراجنا أو مكتباتنا مفاتيح أو أقفال..

المبادئ التي تربينا عليها وحدها، كانت تمنعنا من اقتحام حرية أو خصوصية بعضنا..

حتى خطاباتنا، لم يكن أبي (رحمه الله) أو أمي، يحاولان فتحها أو قراءتها، ولم يحاولا الاستعانة بأية حجج جاهزة، مثل الحفاظ على الأولاد، ومراقبة علاقاتهم خارج المنزل وغيرها..

كان هناك احترام شديد الحرية والخصوصية.

لذا، فقد أصبحت هذه عقيدة رئيسية في حياتي..

الحرية والخصوصية..

وطوال عمري، وحتى لحظة كتابة هذه السطور، كنت أحترم دومًا خصوصية الآخرين، وأحرص عليها، ربما بأكثر مما أحرص على خصوصياتي أنا..

ولكن العكس لم يكن صحيحا للأسف..

فطوال الوقت، كان معظم من أعرفهم يدسون أنوفهم في شئوني، ويقتحمون خصوصياتي، ويحاولون فرض وجودهم على أمور غاية في الشخصية، دون أي مبرر منطقي..

بل ودون أن يملك أحدهم أدنى حق في هذا..

وطوال الوقت، كنت أتشبث بحريتي وخصوصيتي، وأقاتل من أجل الحفاظ عليهما، مهما كلفني هذا من أمر..

والواقع أنه كلفني الكثير..

والكثير جدا..

جدا..

فالناس يسعدهم جدا أن تحترم خصوصياتهم، وحريتهم، وأن تعطي كل ذي حق منهم حقه..

ولكن عندما يأتي دور حقك أنت، فالأمر يختلف..

البعض يغضب..

والبعض يثور..

والبعض يقاطعك تماما..

كل هذا، لأنك طالبت بحريتك، وخصوصيتك وحقوقك..

وبالنسبة لي، لا شيء في الدنيا يعدل حريتي وحقوقي، فمادمت أمنح الكل حقوقهم، فمن حقي التشبث بحقوقي، حتى ولو كلفني هذا علاقتي بكل مخلوق في الدنيا..

حتى أصدق الأصدقاء..

لذا فأنا أرفض التنازل عن حقوقي، مهما كان الثمن..

ومهما كانت هوية من يحاول انتزاعها مني..

ومهما كان الثمن أيضا..

ولهذا، فكثيرا ما تضطرني الظروف إلى التصادم الحتمي، مع أشخاص كنت أتمنى ألا أصطدم بهم أبدا.

ولكنهم لا يمنحوني أية وسيلة أخرى، للحفاظ على حريتي..

وخصوصياتي..

وحقوقي..

وعلى الرغم من حزني للنتائج التي يسفر عنها التصادم في المعتاد، إلا إنني أعتبر دوما أن هذا هو الثمن..

ثمن الحرية..

فالحرية ليست أبدا رخيصة..

الحرية دوما غالية الثمن..

آلاف تعذبوا من أجل الحرية..

اعتقلوا..

وأهينوا..

وحوربوا في أرزاقهم، ووظائفهم، واستقرارهم..

وحتى في أسرهم..

ولكنهم احتملوا..

وصبروا..

وثابروا..

في سبيل

الحرية..

كل ما يمكن أن أدفعه إذن للتشبث بحريتي واستقلاليتي، والدفاع عن خصوصياتي وحياتي،، يعد ثمنا رخيصا، ما دمت أبذله في سبيلها..

في سبيل الحرية..

وفي سبيل أن يدرك الكل أنها أساس لكل مبدأ وعقيدة في الوجود..

فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر..

منتهى الحرية..

ولكن السؤال الذي أطرحه على نفسي الآن، والذي يطرحه بعضكم على نفسه أيضا، وهو يقرأ هذه السطور، هو لماذا؟!

لماذا أكتب هذا الآن؟

لماذا؟!

لماذا الحديث فجأة عن الحرية والحقوق..

والخصوصيات..

والجواب هو أن هذا يرهقني بالفعل، منذ فترة طويلة..

منذ تحول نظام عالمي جديد يتشدق دوما بالحرية والمساواة إلى وحش استعماري استبدادي جديد، ينطلق في الدنيا دون ضابط أو رابط، وكأنما امتلك الحياة والموت في قبضة واحدة..

يرهقني كلما قرأت أخبار الاحتلال في أي مكان في العالم، وأخبار الطغيان..

والقهر، والهوان..

والاحتلال ليس الصورة الوحيدة للقهر، كما قد توحي الأمور، بل إن القهر قد يمارس بين الأشخاص العاديين، وفي الظروف العادية أيضا، دون أن يكون أحدهم أكثر قوة، أو أكثر بطشا..

القهر يمكن أن يمارس بسيف الحياء أيضا..

لهذا كان ما يؤخذ بسيف الحياء محرما..

ومكروها...

وبغيضا أيضا..

والقهر بسيف الحياء له صور شتى، تختلف من مجتمع إلى آخر..

ولكنها تتفق جميعها في أن ممارس القهر قد لا يدرك أن ما يفعله قهرا للآخرين، بل يتصور في معظم الأحيان أنه حماية لهم، وصيانة لأخلاقهم وقيمهم..

ربما يتصور وحده، دون سواه، أنها لا تقبل التغيير أو المساومة.

وفي أحيان أخرى، يكون ممارس القهر مدركا لما يفعله، ويعيه جيدا، ولكنه يدرك ويعي - في الوقت ذاته - أن الشخص المقهور أمامه، لا يملك له ردا، أو حتى مناقشة، فقد يكون ابنه، أو شقيقه الأصغر، أو موظفا لديه، أو حتى خادما في منزله..

والأمر قد يختلف بالنسبة لمن يمارس القهر، ولكنه يتساوى تماما لدى المقهور؛ لأن موقفه واحد في الحالتين..

وفي كل الأحوال....

والعجيب أن ممارس القهر لا يرى أبدا سوى نفسه، وقوته، وقدرته، واحتياجاته، وتوجيهاته..

والأعجب أنه يتصور أن هذا يمكن أن يدوم أبدا، وأن يمضي الزمن، وهو الأكثر قوة، وعلوا ومقدرة..

ولكن دوام الحال من المحال....

ما من طاغية، استمر يطغي إلى الأبد.

وما من حضارة ظلت قوية، مع مرور الأيام والسنين..

والقرون أيضا..

التاريخ يذخر بحضارات سادت.. ثم بادت..

وبطغيان ارتفع.. ثم انحدر..

وبجبابرة فرضوا سطوتهم وسلطاتهم على الدنيا لفترات طوال، ثم ضمهم تراب القبور، كما ضم أحقر الحقراء، وباتوا ينتظرون عذاب الآخرة، الذي لا ينتهي أبدا.. وعلى الرغم من هذا، فالقهر مستمر، والطغيان متواصل، والذل لا يتوقف، و...

ولكن كل هذا يهون، في سبيل الحق وفي سبيل الحرية..

(تمت)

12- نافذة على القلب (خواطر)

عشرون عاما مضت

هل يمكنكم أن تتصوروا هذا؟!

عقدان من الزمان مضيا، منذ بدأت علاقتي بعالم (روايات مصرية للجيب)، في أواخر النصف الأول، من ثمانينيات القرن العشرين!!

كنت أيامها طبيبا شابا، أنهي فترة التكليف الإجبارية بالكاد، وراح يسعى لشق طريقه في الحياة، ككل أبناء جيله..

ثم قرأت إعلانا في الغلاف الأخير، لواحدة من المجلات الثقافية، التي لم تتغير كثيرا، طوال كل تلك الفترة..

والعجيب أنني لم أبتع في حياتي كلها، سوى ذلك العدد، من ترى المجلة الثقافية الجافة.

بل، ولم أدر حتى، لماذا وجدت نفسي مدفوعا أيامها لشرائها، على الرغم من مروري - آنذاك - بأزمة مالية طاحنة، كانت تجبرني على التأني والتروي دوما، في انتقاء ما أدفع بعض القروش الزهيدة لامتلاكه..

إنه القدر حتما..

القدر، الذي كان يدفعني دفعا أيامها، نحو طريق حلمت به منذ طفولتي، وإن لم أتصور قط أنه يمكن أن يشق طريقا واقعيا يوما، في مسار حياتي، أو يجذبني عبره، ليتغير مسار مستقبلي كله..

وإلى الأبد..

وعبر قصة طريفة، أوردتها في نهاية مذكراتي، عن فترة التكليف، في صعيد (مصر) الجواني، وجدت نفسي أتخلى عن عالم الطب، واندفع بكل لهفتي، وحماسي، وعقلي، وقلبي، وقلمي أيضا، نحو عالم جديد وعظيم..

عالم انغمست فيه بكل جوارحي، وغرقت فيه بكل مشاعري، وانتشيت به ومعه، حتى آخر قطرة في كياني، وعبر كل ذرة في وجداني..

ولأنني أختزن داخلي أطنان من الأفكار، منذ وعت عيناي الدنيا، رحت أفرغ كل هذا على بحر من الأوراق، وقضيت عمرا كاملا أعمل، وأفكر، وأقرأ، وأكتب..

كل يوم من الأعوام العشرين الماضية كنت أكتب..

وأكتب..

وأكتب..

ولم أتوقف عن الكتابة يوما واحدا..

مهما كانت الظروف

ومهما بلغت المصاعب..

والمتاعب..

والتعقيدات..

حتى عندما احتواني فراش المرض..

وحتى وأنا أجلس في المستشفى، إلى جوار والدي المريض..

وحتى يوم وفاته..

لم تكن الكتابة بالنسبة لي أبدا مجرد عمل..

بل كانت حياة..

حياة كاملة أفرغ فيها، ومعها، وبها كل مشاعري..

وانفعالاتي..

وأحزاني..

وأتراحي..

وأفراحي..

وحتى فلسفتي، وأفكاري، واهتمامات السياسية، والاجتماعية..

وعبر الورق، صنعت معكم أعظم صداقة في الوجود..

صداقة الورق..

صداقة صنعت بيننا جسرا من المودة، والثقة، والحب، والبساطة، والشفافية المطلقة..

وكم أحببت هذه الصداقة..

واحترمتها..

وتمسكت بها..

حتى عندما بدأت أشعر بالإرهاق والإجهاد، منذ بضع سنوات مضت، كنت أصر على المواصلة، وعلى عدم ترك قلمي يوما واحدا..

من أجلكم..

كانت هناك عشرات العقبات والصعوبات والصراعات والخلافات...

خلافات تسعى لإثبات ما هو مثبت، ولتأكيد ما اتفقت الدنيا كلها على تأكيده، وتحديده..

وتقنينه أيضا..

وكان كل هذا يرهقني، ويجهدني أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

ولأنني أمتلك عقلية علمية، تميل إلى التعامل مع العقل والمنطق، لم يمكنني أبدا استيعاب الكثير من الأمور..

أو فهمها..

أو حتى تقبلها..

وفي الوقت ذاته، كنت وما زلت أصر على التمسك بمجموعة من المبادئ والقيم، زرعها والدي في أعماقنا منذ مولدنا، وقضت والدتي عمرها كله، حتى لحظة كتابة هذه السطور، لتأكيدها وتثبيتها في كل خلية من أجسادنا، وللتيقن من أننا نحافظ عليها ونتبعها، في كل خطوة نخطوها، مؤكدة أن الله (سبحانه وتعالى) يرعانا، ويسدد خطانا، ما دمنا نتخذها سبيلا لحياتنا، وضوءا ينير دروبنا، ويحكم قراراتنا وأهدافنا..

ولكنني، في النهاية، ومهما قاتلت وصمدت، مجرد بشر..

لذا، فقد انتبهت فجأة، إلى أن الإرهاق قد بلغ مني مبلغه، والإجهاد وصل إلى ذروته، وأن جسدي لا يمتلك الحماس نفسه الذي تمتلكه روحي، إذ أنه قد تمرد أخيرا على ما أجشمه إياه، وأعلن رفضه مواصلة القتال، مالم أمنحه إجازة؛ لتجديد نشاطه، واستعادة حيويته، وتآزر معه عقلي المجهد، مطالبا

بمرحلة التقاط أنفاس، وإعادة شحن بالجديد من الأفكار، والمعلومات، والمعارف المطلوبة، لبث وقود الإبداع في خلايا المخ الرمادية..

وكان من الضروري أن أستجيب هذه المرة، بعد رحلة اقتربت من العشرين عاما، بالتمام والكمال..

وأنا أحصل على إجازة..

وأعلم مسبقا أن هذا لن يرضى الكثيرين، بل وسيثير حتما غضب العديدين، وربما يخلق أيضا دائرة جديدة من الصراع..

ولكنني، في هذه المرة، لن أخوض الصراع..

أي صراع..

فالإجازة ضرورة حتمية، لكل مخلوق في الدنيا..

حتى أيام الحرب العالمية الثانية، وفي ذروة أحداثها الملتهبة والمشتعلة، كان الزعيم النازي (أدولف هتلر)، ورئيس الوزراء البريطاني (وينستون تشرشل) يحصلان على إجازتيهما بانتظام، لتجديد نشاطهما، وتنقية عقليهما، وضمان قدرتهما على اتخاذ القرارات الحاسمة، دون ضغوط عصبية أو جسدية..

وعندما احتدمت الأمور، وتصاعدت الأحداث، وتضاعفت الصعوبات، قرر (هتلر) التخلي عن إجازته، ومضاعفة جهوده، من أجل المعركة..

أما (تشرشل) فلم يتخل عن إجازته أبدا..

وهنا، وفي قمة الصراع، قرر المراقبون الدوليون أن (ألمانيا) ستخسر الحرب حتما..

ليس لأن الحلفاء يقاتلون بكل قوتهم..

أو لأنهم متفوقون في العدد والعدة والعتاد..

ولكن لأن (هتلر) قد ألغي إجازته..

وكانوا على حق تماما فيما توقعوه..

قرارات (هتلر) أصبحت مغموسة في الإرهاق والإجهاد..

أصبحت عصبية..

حمقاء..

متهورة..

وخاطئة..

وخسر النازيون الحرب.

خسروها لأن (هتلر) لم يحصل على إجازة، عندما شعر جسده وعقله وقلبه بهذا..

ولأنني اعتدت أن أتعلم من التاريخ..

ولأن كل من حولي كانوا يحصلون دوما على إجازاتهم، ويحرصون عليها، ويخططون للاستمتاع خلالها، كان لابد أن أتخذ القرار أخيرا..

وبعد عشرين عاما..

قرار الإجازة..

وأنا أبلغكم بالقرار الآن، قبل أن يعلم به أي مخلوق آخر.

أبلغكم به على الورق..

يا أصدقاء الورق..

أبلغكم به، عبر نافذة خاصة، ربطت بيني وبينكم دوما..

نافذة على القلب..

وعلى العقل..

معًا..

د. نبيل فاروق

13- ورحل الصديق.. (مرثية)

مع ذكريات البيجاما الكستور..

(مرثية)

منذ طفولتي، في مدينة طنطا)، ارتبطت بمجموعة محدودة من الأصدقاء، الذين تواصلت علاقتي معهم، عبر سنوات الدراسة، مع اختلاف اتجاهاتنا الجامعية، ثم استمر ارتباطنا القوى، إلى حد ذابت معه كل الحواجز، والتحمت كل الأفكار واتحدت العقول، وصار اللقاء متعة، ما بعدها متعة ومن بين الصداقات القوية المتينة، التي حملت رائحة (طنطا)، وذكريات أيام الطفولة والصبا، كانت صداقتي لرفيق العمر (حسام عوض)..

وعبر بحر ذكرياتي كلها، أكاد أجزم بأن (حسام)، لم يتغير أبدا، فعندما كنا نلتقي ونتحاور، بعد أن أصبح رئيسا للجنة الشباب في مجلس الشعب، وأمينا عاما لشباب الحزب الوطني الديمقراطي، كنت أشعر وكأن الزمن لم يمض بنا يوما واحدا، منذ كنا زميلين في مدرسة الإمبابي الابتدائية في (طنطا)..

نفس البساطة، والمرح، وطيبة القلب، وهدوء النفس، والاهتمام الشديد بكل الأصدقاء، والمعارف والأقارب، وحتي زملاء العمل..

وأكثر ما كان يسعده، هو أن نسترجع ذكريات الطفولة، وأحداث وشقاوة أيام الصبا والشباب، وبالذات أيام البيجاما الكستور، كما يحلو له أن يطلق عليها، مع حديث الذكريات..

ففي طفولتنا، كان موسم الشتاء يرتبط في أذهاننا دوما بالبيجاما الكستور، التي يتم تفصيلها منزليا، والتي تتبقى من قماشها دوما قطعة إضافية، نحصل منها على طاقية للرأس، من نفس اللون والنوع..

حتى عندما كان يقدمني، أو يقدم أحد الأصدقاء القدامى لأحد معارفه أو زملائه الجدد، كان يشير إلى أننا صديقين، منذ أيام البيجاما الكستور.

وكان هذا يفجر الضحكات دوما..

وفي بعض الأحيان، وعلى الرغم من مشاغله العديدة، في الآونة الأخيرة، كان الصديق (حسام عوض) يفاجئني باتصال تليفوني، لنراجع معا ذكريات وأحداث الصبا، وكأنما يشعر بالشوق الشديد لتلك الأيام، التي لم يكن يشغلنا فيها إلا القليل..

أقل القليل..

ومنذ أقل من شهر واحد (على كتابة هذه السطور)، بدأ يتحدث باهتمام عن تدبير لقاء تليفزيوني، يجمعنا مع أصدقاء زمان؛ لنتحدث عن البيجاما الكستور، وعم (وزة) بائع الكشري، وألعابنا بنويات البلح..

وكان من الواضح أن شوقة للأيام الخوالي قد بلغ مبلغه.. ورحت بمنتهى الشغف أسعى لتدبير ذلك اللقاء، و..

وفجأة، وأنا خارج الحدود، وصلني الخبر الرهيب..

لقد لقي صديق العمر مصرعه، في حادث سيارة رهيب، في طريق (مصر) (الإسكندرية) الصحراوي!! ولم أصدق الخبر..

لم أصدقه أبدا..

أمن الممكن أن ينتهي الأمر بهذه السرعة، وهذه البشاعة..

وشعرت لحظتها أنني لست خارج الحدود فحسب، ولكنني خارج الدنيا كلها، وأنا أستعيد ذكرياتنا ما، لحظاتنا المرحة، ولقاءاتنا الدافئة، المفعمة بصداقة الطفولة، التي لا تساويها أية صداقة..

وفي عيني، جفت الدموع..

ولكنها انهمرت كأمطار من الدم في قلبي..

وكان من المحتم أن أعود، لأودع صديق العمر الوداع الأخير..

وفي سرادق العزاء الكبير، في مسجد (عمر مكرم)، جلست صامتا، ساكنا، عاجزا عن التصديق أو الاستيعاب..

وكعادتي، حبست كل دموعي وأحزاني، حتى انصرفت..

ووحدي، سمحت لدموعي أن تناسب، وقد أجبرني الزمن على أن أصدق..

وأستوعب..

وأدرك..

لقد رحل صديق العمر..

رحل الصديق البسيط، الواثق، المرح، طيب القلب..

رحل صاحب المرح، والشوق، وذكريات الصبا..

فوداعا يا صديق العمر..

ووداعا لذكريات الطفولة والصبا..

ذكريات البيجاما الكستور..

(تمت)

14- روايات.. للجيب (خواطر)

«أريد إصدار سلاسل قصصية للشباب.. »

بهذه العبارة، بدأ الأستاذ (حمدي مصطفى) حديثه معي، منذ أكثر من عشرين عاما، وأنا أجلس لأول مرة في مكتبه في المطبعة العربية الحديثة..

كنا نناقش أمورا خاصة بالرواية الأولى، التي قدمتها، بعنوان (أشعة ضاد).. كان هذا هو الاسم، الذي اخترته للرواية، عندما تقدمت بها للمسابقة، التي أعلنت عنها المؤسسة، والاسم الذي عرفها به الأستاذ (حمدي)، والذي بدأ حواره معي منه..

كان الاسم يثير انتباهه، حتى بعد أن أوضحت له أن اختياري يعود إلى محاولة ربط المستقبل بالعرب، باعتبار أن لغتهم هي لغة الضاد..

ولأنه أديب ومفكر ولماح، استوعب أستاذي الأمر منذ اللحظة الأولى، ولكنه أخبرني أن الاسم ليس تجاريا، ولن يجذب القارئ العادي إلى سلسلة جديدة..

ومن هنا تحول الاسم إلى (أشعة الموت)، وتحولت تلك السلسلة الجديدة إلى (ملف المستقبل)..

وتحولت حياتي كلها، من الطب إلى الأدب..

وإلى الأبد..

وطوال صيف كامل، بدأت عملية ميلاد السلسلة الجديدة..

وكذلك السلاسل الأخرى.

فلأنني آخر من تقدم إلى المسابقة، فقد سبقني الزميل والصديق (شريف شوقي)، بسلسلة (المكتب رقم ١٩)، والتي كانت قد قطعت شوطا أطول، عندما بدأ العمل في سلسلتي..

والواقع أنني فوجئت، عند لقائي الأول بالأستاذ، بأن روايتي ستكون الأولى، من سلسلة روايات، فكل ما جال بخاطري، وأنا أذهب لمقابلته، هو أنها قصة فائزة في المسابقة، وأنني سأحصل على جائزة، وأعود إلى منزلي، في بلدتي (طنطا)؛ لأواصل حياتي وعملي كطبيب..

ثم تحدث معي الأستاذ عن سلسلة..

وأدركت الحقيقة..

وعشقتها من اللحظة الأولى..

وعشقت العالم كله..

عالم الأدب، والطباعة، والنشر..

والفكر..

وبعد شهر تقريبا، من لقائنا هذا، وقبل أن تظهر سلسلة (ملف المستقبل) إلى النور، برزت في ذهني فكرة سلسلة جديدة، تمثل حلما، طالما راودني منذ حداثتي..

حلم استبدال كل ما يقرؤه الشباب، من روايات أجنبية المنشأ، عن أبطال فوق العادة، يحملون قيما لا تتناسب مع طبيعتنا ومجتمعاتنا العربية، ببطل آخر، يعبر عنا، ويلتزم بقيمنا، ويقاتل على صفحات رواياته من أجلنا..

وفي شيء من الحذر، عرضت الفكرة على استاذي (حمدي مصطفى).

وقرأ الأستاذ روايتي الأولى، التي أعطيت سلسلتها اسم (رجل المستحيل)..

وبسرعته المعهودة، اتخذ قراره..

وأضيفت السلسلة الثالثة إلى المشروع..

سلسلة (رجل المستحيل)..

وهنا، انتبه الأستاذ إلى ضرورة أن تحمل هذه السلاسل كلها اسما واحدا، يرتبط بها، ويصنع شخصيتها، ويعبر عن طبيعتها..

ولم يكن هذا بالأمر السهل، على الرغم من أننا قد اتفقنا على نقطتين أساسيتين..

أن يحمل العنوان ايقاعا جذابا..

مع اسم (مصر)..

وهكذا نشأت (روايات مصرية للجيب)..

وهكذا انطلقت..

وانتشرت..

ونجحت..

وكلنا نؤمن بأن السبب الأول والرئيسي للنجاح هو توفيق الله (سبحانه وتعالى)، وبعد هذا العمل المتصل الدروب، والاهتمام الشديد بأدق التفاصيل، والإصرار على مجموعة من القواعد والقيم والمبادئ، وعلى حتمية الالتزام بها، وعدم تجاوزها قط، مهما كانت الأسباب، ومهما كانت، فلابد وأن ترتبط (روايات مصرية للجيب) بالأخلاقيات الحميدة..

واللغة العربية السليمة..

والموضوعات الجديدة المصرية والعربية..

دون نقل..

أو اقتباس..

أو تجاوز..

حتى عندما أصدرنا سلسلة روايات رومانسية (زهور)، حرصنا على أن تكون الروايات الرومانسية الوحيدة، التي لا يخجل أي أب أو أم، من وجودها في منزلهم الرائع أن كل كتاب (روايات مصرية للجيب) التزموا بهذه القواعد..

وكذلك قرأوها..

لهذا، أشعر بالفخر والاعتزاز دوما، لانتمائي إلى (روايات مصرية للجيب)...

وفي لقاء تليفزيوني أخير، حول أعمال تليفزيونية وسينمائية قالمة، فوجئت المنيعة، عندما أخبرتها أنه مهما كتبت أو أصدرت، فلن يسجل لى التاريخ فخرا، بقدر ما سيسجله، غير ما كتبته في روايات مصرية للجيب)..

فالروايات، التي بدأت بها حياتي كمحترف، والتي قضيت معها ما يزيد عن عشرين عاما، والتي أحمل لها كل هذا الحب، هي في الواقع عشقي الأول والأخير..

وفخري الأول والأخير..

هذا لأنها تحوي كل ما أحببت وعشقت، في عمري كله..

فهي روايات..

مصرية..

وللجيب..

(تمت)

15- الفرسان يتساقطون.. (رثاء)

إحدى وعشرون عاما مضت، منذ بدأت علاقتي بروايات مصرية للجيب..

عمر كامل انقضى، من الشباب إلى الكهولة، بين صفحاتها..

سنوات عديدة، حملت أحلاما..

وطموحات..

وتمنيات..

ونجاحات..

وصداقات..

صداقات عديدة، ربطتني بعشرات من العاملين في المؤسسة..

وذكريات أكثر ربطتني بالمكان..

ورجاله..

ومنتجاته..

وإبداعاته..

ولأن الإنسان غافل بطبعه، ويتصور دوما أن بقاء الحال هو المنال، فقد تراصت مشاعري وخلاياي، واطمأنت إلى الوضع القائم، وارتاحت إليه، وألفته..

وأحبته..

ثم شاء القدر أن يوقظني بغتة، من ذلك الحلم الجميل، بصفعتين قاسيتين، هويتا على قلبي كصاعقتين مدويتين، لتزلزلانه من أعمق أعماقه.

الصفعة الأولى كانت في فقدان الأستاذ (إسماعيل دياب)، الفنان العظيم، الذي شاركني الرحلة الطويلة، لعشرين عاما كاملة..

لم تكن علاقتنا أبدا تقتصر على علاقة مؤلف برسام أغلفته..

بل كنا صديقين..

وصديقين حميمين للغاية..

كان رحمه الله فنانا، بكل ما تحمله الكلمة من معان، فهو شاعر، رقيق، مرهف الحس، مفكر..

وفيلسوف أيضا..

وفي لقاءاتنا، كنا نتحدث، ونتحدث، ونتحدث لساعات طوال، دون أن تدرك كم مر من الوقت..

أو متى ينبغي أن نتوقف..

كنا نناقش آراءنا..

وأفكارنا..

وفلسفاتنا..

ونتجادل..

ونتحاور...

ونتفق..

ونختلف..

ولكننا دوما نفترق أكثر ودًا وصداقة مما بدأنا..

لم يتدخل يوما فيما أكتبه، ولم أناقش يوما ما يرسمه: فكما كان يعشق الحرية، وينأى بنفسه عن دس أنفه في شئون الآخرين،

وهي سمة أدركت في عمري هذا، أنها نادرة على نحو لم أكن أتصوره طيلة عمري..

باختصار، كان الأستاذ (إسماعيل دياب) نافذة مشرقة، تطلّ منها كافة مشاعري..

ثم علمت فجأة أن تلك النافذة قد أُغلقت..

وإلى الأبد..

أزمة قلبية غادرة، أودت بحياته وفنه، في لحظات الشروق الأولى، في مرسمه الصغير..

ورحل الفنان..

والشاعر..

والفيلسوف..

رحل ليترك في أعماقي فجوة لا تمتلئ، وجرحا لا يندمل..

وقبل أن تهدأ مشاعري، وتستسلم، وتخضع لقانون القدر والدنيا، هوت على قلبي الصفعة الثانية..

فارس آخر سقط..

وصديق عزيز ثان رحل..

الأستاذ (صبحى عبود)..

الجندي المجهول، الذي كان يختفى دوما خلف كل كتاب أمسكتموه بأيديكم، من روايات مصرية للجيب..

الإنسان المهذب، الحنون، الذي انشغل دوما بقضاء حوائج الناس، والسعي للخير في الخفاء..

كان من ذلك الطراز من البشر، الذي تمنحه قلبك وثقتك، منذ المقابلة الأولى..

ثم لا تندم على هذا أبدا..

كنا نلتقي كثيرا ونتحدث طويلا..

كثيرا ما ائتمنته على أسراري، وائتمنني على أسراره..

ولم يخب رجاء أحدنا في الآخر قط..

ولا أحد في الدنيا كلها يمكن أن يتخيل كم انفطر قلبي لرحيله..

وكم بكى كياني كله لفراقه..

وكم تحطم شيء عميق.. عميق.. عميق داخلي من بعده..

فجأة، شعرت أن السفينة تواجه رياح عاتية..

عاصفة شعواء..

أمواج ثائرة..

وأن الفرسان يتساقطون..

ومعهم العمر يمضي..

ويمضي..

ويمضي..

إلى لقاء..

(تمت)

16- بالفساد وحده.. (خواطر في السياسة)

عبر صفحات التاريخ، تطالعنا قصص لعشرات الحضارات، التي سادت العالم يوما، وسيطرت على مقاليده، وتربعت على عروشه، وهيمنت على ثرواته..

وقصص عشرات الدول، التي نجحت في الخروج من أزماتها، وكبرت وتعملقت، وأصبحت لها جيوش جرارة، وقدرات جبارة، كادت تحتل بها مكانة عظيمة، بين شعوب الأرض جميعها..

لولا آفة واحدة..

آفة رهيبة، نمت داخلها، وكبرت رويدا رويدا، حتى تحولت من دودة صغيرة إلى ثعبان سام..

ثم إلى تنين هائل، ابتلع تلك الدول والحضارات، ولاكها بين أنيابه القوية، حتى سحقها سحقا، دون أن تشفع لها منجزاتها العملاقة، أو إنجازاتها، التي ملأت الدنيا صخبا وضجيجا وإسرافا في وصف عظمتها، والفوائد المنتظرة منها، ولا حتى جيوشها الجرارة الجبارة..

الإمبراطورية الرومانية مثلا، كانت أعظم وأقوى الإمبراطوريات في عصرها، ونجحت بتنظيمها وتنسيقها والنظام الديمقراطي داخلها، في بناء جيش هائل قوي، هزم كل الحضارات التي أحاطت بها، ودحرها وسيطر على العالم كله تقريبا، وحتي على مصر نفسها، مع قوتها وعظمتها، في ذلك الحين..

وأنجزت الإمبراطورية الرومانية في زمانها الكباري والجسور، والمشروعات القوية العملاقة، ووضعت القوانين والقواعد، وكان لها مجلس شيوخ، ومجلس نواب، ونظم اقتراع مأمونة ومحمية،

إلى الحد الذي بهر العالم، حتى صار أكثر ما يمكن أن يحظى به الشخص، أي شخص، هو أن يصبح مواطنا رومانيا، يتمتع بكل مميزات الانتماء إلى إمبراطورية هائلة كهذه...

ثم تسلل الفساد إلى الإمبراطورية العظيمة..

بدأ في أوله بين الطبقات القوية، الحاكمة والمسيطرة على مقاليد الأمور، والتي رأت فيه مصالحها، ووسيلة لإحكام قبضتها، ليس على المواطنين وحدهم، ولكن على الدولة نفسها..

ثم لم يلبث الفساد أن توغل وانتشر، ولا أحد يستطيع الوقوف في وجهه، أو التصدي له؛ لأن الكبار يمارسونه، ويؤيدونه، ويسبغون عليه حمايتهم أيضا؛ باعتبارهم أصحاب السلطة والقوة والنفوذ..

وأصحاب القانون كذلك..

وبدلا من محاربة الفساد، الذي ينخر في كيان الإمبراطورية ببطء، تشغل الكل بمحاولة إخفائه عبر التشدق بالمنجزات، والتغني بتاريخ الإمبراطورية، وقوتها، وسطوتها، وأمجادها القديمة، وانتصاراتها السابقة الساحقة..

وفي سبيل هذا راحت الإمبراطورية الرومانية تستنزف طاقاتها في قهر الفكر، ومحاربة العقائد، وخنق الآراء والانتقادات الحرة، تاركة الفساد يستشري..

ويستشري..

ويستشري..

ثم صحا الكل فجأة على واقع، لم يتخيل مخلوق واحد، في العالم أجمع، إمكانية حدوثه، حتى في أبشع وأسوأ الكوابيس..

انهارت الإمبراطورية الرومانية بكل عظمتها، وأمجادها، ومنجزاتها، وتاريخها العريق..

انهارت..

واندثرت..

وضاعت...

وانسحقت..

ولم يتبق منها سوى أطلال، وآثار، وذكرى للمؤرخين، والأدباء، والفنانين، والسينما...

انهارت الإمبراطورية العظيمة، وابتلع انهيارها، أول ما ابتلع، أولئك الذين كان فسادهم سببا أساسيا لما أصابها..

وكان السقوط والانهيار مدويين، أذهلا العالم أجمع، على الرغم من ضعف وبطء وسائل الانتقال، نسبة إلى زمننا هذا، وعجز العديدون عن تصديق ما حدث، لفترات طويلة تالية..

ولكنه حدث..

وبالفساد وحده..

وكما يحدث دوما، تغير وجه العالم مع انهيار الإمبراطورية الرومانية، وظهرت قوة عربية إسلامية جديدة، على أنقاض الحضارة الهاوية..

قوة انتصرت عليها، وهزمتها بإيمانها ونظامها، وعقيدتها، ثم انطلقت تشق طريقها في كل اتجاه..

توغلت في إفريقيا، وبلغت أخبار فتوحاتها الآفاق، حتى وصلت إلى بلاد الأندلس، وحققت فيها أعظم فتوحاتها وانتصاراتها..

قرون وقرون قضاها العرب في الأندلس، وأصبحوا منارة علم لأوروبا كلها، وكادوا يصبحون سادتها بلا منازع..

لولا ما حدث..

للأسف..

العرب أقاموا أعظم دولة عظيمة في الأندلس..

دولة أنارت أوروبا كلها، بعلومها، وفنونها، وبالعدل العاقل الهادئ، الذي كان أساس حكمها، وقاعدة نشاطها وتطورها..

ومن تلك الدولة، انتشرت الحضارة في أوروبا كلها..

خرجت علوم وفلسفات جديدة، أضاءت العقول والقلوب، وبدأت عصرا جديدا من المعرفة، لم يشهد التاريخ له مثيلا، في العصور الحديثة كلها، حتى أصبحت الأندلس قبلة لكل طالب علم، أو باحث عن المعرفة، أو فيلسوف يسعي للبحث عن الحقيقة..

أية حقيقة..

وفي ظل حكم مثالي كهذا، ظهرت أنواع جديدة من الفنون، والعلوم، والآداب، وتطورت المعارف القديمة، وتعدلت، وتمكنت، وبرزت، وأصبح من الضروري لكل دارس، وكل باحث، من أن يتعلم اللغة العربية، وأن يتقنها؛ باعتبارها لغة العلم والفلسفة والحضارة..

وكان من الممكن أن يستمر هذا للأبد، وأن تظل الأندلس أعظم منارة في العالم..

بل وربما أصبحت سيدة النظام العالمي كله، مع عجلة التقدم والتطور.

الفساد..

فمع التفوق والقوة والنجاح، ينمو شعوران قويان..

الزهو..

والاسترخاء..

وفي أعماق الكبار يولد شعور مقيت بأنهم سادة، لا أحد يملك لهم نفعًا أو ضرا، وما داموا يحكمون فمن الطبيعي أن يتحكمون..

ومن هنا تبدأ الكارثة..

تماما مثلما حدث في الأندلس..

الكبار بدءوا يتعاملون باعتبارهم فوق القانون، ولهم الحق في أن يفعلوا ما شاء لهم أن يفعلوا، وأن يمنحوا، ويهبوا، ويمنعوا، دون ضابط أو رابط..

وليس على الشعب سوى السمع والطاعة..

باختصار، أصبح النظام في الأندلس قائما على أن ينقسم المجتمع إلى فئتين، لا ثالث لهما..

السادة..

والعبيد..

وبعد أن كانت الأندلس مثالا للعدل، انتشر فيها الظلم، وأطل منها الفساد برأسه، ليجثم على نفوس الكل..

وكما يحدث دوما بدأ الفساد في أوله بين الطبقات القوية، الحاكمة والمسيطرة على مقاليد الأمور، ثم لم يلبث أن توغل

وانتشر، دون أن يجرؤ أحد، أو يستطيع مخلوق واحد الوقوف في وجهه، أو التصدي له؛ لأن الأمراء والأكابر كانوا أول من يمارسه.. ويؤيده.. ويسبغ عليه القوة والحماية أيضا؛ باعتبارهم أصحاب السلطة والقوة والنفوذ، والقانون..

وبدلا من محاربة الفساد، الذي ينخر في كيان الدولة العظيمة ببطء، انشغل الكل في التشدق بالمنجزات، والتغني بالتاريخ، والقوة، والسطو، ولأول مرة راحت الأندلس تستنزف طاقتها في قهر الفكر، ومحاربة العقائد، وتركت الفساد يستشري، ويستشري، ويستشري..

سيناريو متكرر، انتهى بالدولة العظيمة إلى نهاية حتمية، سئم التاريخ من تكرارها، بنفس التسلسل، دون أن يتعلم أحد..

وانهارت الأندلس..

سقطت الدولة العظمى، وانطفأت منارة العلم، وانخسفت دولة العرب في أوروبا.. وأيضا..

بالفساد وحده...

روسيا حالة فريدة في سجل الفساد..

ففي عهد القياصرة، ساد الفساد وانتشر، إلى الحد الذي زكم كل الأنوف..

إلا أنوف القياصرة ورجال الحكم بالطبع..

فكظاهرة عامة، يبدو من الواضح أن رجال السلطة هم أول من يبدأ بالفساد، سواء بشكل مباشر، أو بسلبية مدهشة، تبلغ حد الشك في الذمم، في مواجهته، والتعامل معه، مما يكسبهم مناعة

خاصة، لا تبالي بعدها أنوفهم برائحته، أو إنها تستسيغه في الواقع؛ لما يحمله من مكاسب ومنافع لطبقتهم بالتحديد..

المهم أن الفساد قد استشرى وانتشر، وبخاصة في وجود ذلك الراهب الرهيب (غير المشلوح) راسبوتين، الذي قلبها (ميفة)، كما يقول أولاد البلد - لو أنه مازال هناك أولاد بلد - وسيطر على الإمبراطور، والإمبراطورة، والأسرة الحاكمة، ثم الإمبراطورية كلها فيما بعد..

وكتداع طبيعي لانتشار الفساد، وكقاعدة يدركها أي عاقل فيما عدا الحكام طبقا - قامت الثورة..

والثورة في روسيا لم تكن بيضاء، ولم تدع هذا، وإنما كانت ثورة غاضبة من الفساد، ناقمة على كل من أسهم في وجوده وانتشاره...

ومع الثورة البلشفية الروسية، طارت آلاف الرءوس، وانسكبت أنهار الدم، وأغرقت البلاد من طولها إلى عرضها، بطوفان من الغضب، والانتقام، والقتل، والتنكيل، قبل أن تهدأ النفوس وتستقر الأمور..

وبدأت روسيا عهدا جديدا، بفكر اقتصادي وسياسي مختلف..

ولأن النظام كان مثاليا للغاية، على الورق فحسب، فقد بدأ الانهيار يحدث رويدا رويدا، دون أن تدرك السلطة نفسها هذا، أو دون أن تعترف به، لو شئنا الدقة والصراحة..

وفي ظل هذا الانهيار المستتر، والمستمر، عاد الفساد يستشري مرة أخرى في روسيا..

وخاصة بعد انتصارها في الحرب العالمية الثانية، فقد تصور قادتها أنهم وحدهم صانعو النصر، مما يمنحهم حق الاستثناء..

والاستبداد..

والسطوة..

وكقاعدة أخرى، تعلمنا أن الاستثناء هو الباب الإمبراطوري للفساد..

وعلى الرغم من تأكل الاتحاد السوفيتي من الداخل، ظلت واجهته الخارجية أنيقة مبهرة من الخارج، فقد لحق بالولايات المتحدة الأمريكية، في السباق النووي، وكاد يتفوق عليها في سباق الفضاء، وأصبح القوة الثانية والموازية، في مرحلة القطبين..

ولكن كل هذا لم يجد شيئا..

فبعد أكثر من سبعين عاما من ثورتها، سقطت روسيا مرة أخرى..

وبالفساد وحده..

انكشف المستور، وانهار الغلاف الخارجي الأنيق..

وسقطت روسيا..

وفي هذه المرة كان السقوط مدويا مذهلا..

لم تشفع لها مشروعاتها الضخمة والعملاقة..

لم تنقذها أقمارها الصناعية، ولا أسلحتها النووية..

ولا حتى علاقاتها القوية بعشرات الدول..

سقطت روسيا لأن حكامها تجاهلوا ما استشرى فيها من فساد، وأغمضوا عيونهم عنه، وحاولوا إقناع أنفسهم بأنه أمر جانبي، لا ينبغي التوقف عنده، وسط كل المنجزات الأخرى..

إلتهم الفساد كل عظمة روسيا، ومضغ أول ما مضغ أولئك الذين ساعدوه، وحموه، وسمحوا له بالتوحش والانتشار..

والآن، وبعد مرور سنوات على السقوط الثاني، وعلى الرغم من كل المحاولات المستميتة لاسترجاع المجد القديم، مازالت روسيا مرتعا للفساد، ومستنقعا للجريمة والتسيب..

وكل هذا بسبب الفساد..

الفساد الذي كان أيضا السبب الرئيسي لسقوط واحدة من أقوى الدول في منطقتنا، و....

ولهذا قصة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إيران دولة قوية..

أو إنها كانت كذلك في عهد الشاه السابق..

لقد كانت تمتلك قوة عسكرية ضاربة، تعد أكبر قوة في المنطقة بأسرها، وثروة بترولية ضخمة، تؤهلها لأن تتبوأ مكانة رفيعة، ليس وسط دول الأوابك وحدها ولكن وسط الدول العظمى أيضا..

وفي الداخل كانت هناك خطط طموحة، ومشروعات كبرى، وتطويرات مستمرة مبهرة..

ولكن كانت هناك دودة صغيرة تنخر في كل هذا، دون أن يبالي بها أحد..

دودة اسمها الفساد..

والفساد يبدأ دوما كدودة صغيرة، وفي مستويات متوسطة، لا هي بالمواطن العادي، ولا بالمسئول الكبير..

يبدأ من كبار صغار المسئولين..

أو من صغار كبار المسئولين..

ولكن المشكلة أنه شديد العدوى كالأوبئة، وتنتشر عدواه دوما من أعلى إلى أسفل، وإلى أسفل السافلين أيضا..

ومع انتشاره يتحول من دودة إلى ثعبان أرقط سام، يبلغ خانة كبار المسئولين فيصبح تنيئا، يصعب التعامل معه ومواجهته..

وتعالت الأصوات في إيران تشكو من الفساد، ومن انتشاره، ومن سيطرته على مقاليد الدولة، حتى صار من العمير أن يحصل المواطن العادي على حقوقه الطبيعية، دون رشوة أو وساطة أو محسوبية..

وتجاهل المسئولون تلك الأصوات..

تجاهلوها، وأغلقوا آذانهم عن سماعها تماما..

ربما لأنهم لم يدركوا أو يتخيلوا حجم الفساد..

أو لأنهم - وهو ما ثبت فيما بعد - كانوا جزءا منه..

أو كانوا قادته وزعماءه، إن شئنا الدقة والصراحة..

ولأنهم كذلك. لم يبلغوا تلك الأصوات للشاه أبدا..

وبالنسبة إلى جلالته، كان كل شيء يسير على مايرام، وكانت كل الأصوات المعارضة حاقدة..

ناقمة..

فاسدة..

وتسعى لتشويه صورة الحكومة الشريفة المخلصة فحسب..

والكل كان مطمئنًا..

فالدولة قوية، وأجهزتها الأمنية صارمة، قاسية، لا ترحم، وعلى رأسها (السافاك)، الذي كان مجرد ذكر اسمه يلقى الرعب في القلوب..

والمسئولون الكبار كانوا مطمئنين؛ لأن النظم الأمنية القمعية ستبطش حتما بكل من يجرؤ على الكلام، دون رحمة أو شفقة..

لذا فقد زاد الفساد أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

وتجاهلته الدولة أكثر وأكثر..

ثم حدث ما لم تتخيل الإمبراطورية الإيرانية حدوثه، مع كل قوتها، وصرامتها، وأجهزتها الأمنية الباطشة، القامعة..

الثورة..

اندلعت الثورة على الفساد، الذي لم يد الشعب يطيقه أو يحتمله..

اندلعت فجأة، على الرغم من وجود قوة الأجهزة الأمنية، والقمعية، والرقابية، وكل الأجهزة الأخرى..

وحتى مع اندلاعها، لم يتصور الكبار إمكانية نجاحها، مع كل ما لديهم من قوى..

تصوروا أنها مجرد (هوجة)، لن تلبث أجهزتهم أن تسيطر عليها، وتسحقها، تعود الأمور إلى ما هي عليه..

ولكن مشكلة الفساد، هي أنه يمتد دوما إلى كل شيء..

وبلا استثناء..

وحتى إلى أجهزتهم نفسها..

وانهارت الإمبراطورية الإيرانية، وانهار معها أرباب الفساد وصانعوه..

بل وتدلت أجسادهم من حبال المشانق هناك..

ولم ينج منه سوى الشاه نفسه، الذي راح يبحث عن دولة تؤويه، حتى جاء، ومات في مصر..

خسر مملكته، وحكمه، وقوته، وسطوته بالفساد..

بالفساد وحده..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثورة يوليو ١٩٥٢ م قامت لتحارب الرشوة والفساد والمحسوبية.

وفي البداية كانت الثورة نقية..

تسعى بالفعل للإصلاح..

وكان من الممكن أن تصبح أعظم حدث في المنطقة كلها، بفضل منجزاتها، وإنجازاتها، ونظرتها الطموحة للمستقبل..

لولا الفساد..

والعجيب أن الفساد، الذي جاءت الثورة لتحاربه، كان بعد الثورة ألف ضعف للفساد قبلها!!

وخاصة بعد تكميم الأفواه، والرقابة على الصحف، ونظرية حكم الفرد، التي تعتبر كل من يخالفه الرأي مارقا خائنا، يستحق الموت بلا رحمة، أو التعذيب بلا حدود..

وفي ظل هذه السياسة الرشيدة، ظهر الفساد..

ونما..

وكبر..

وتضخم..

وتحول إلى وباء رهيب، انتقلت عدواه إلى كل شيء..

حتى القوات المسلحة نفسها..

ولكن الحكومة لم تبال أو تهتم؛ لأنها هي صنعة الفساد ومباركته..

ثم إن لديها أجهزة قمعية قوية، يكفي أن يتفوه المرء بحرف عنها، أو عن الحكومة، أو حتى يلقى نكتة الترويح عن نفسه، لتنقلب الدنيا على رأسه، وتعتقله الأجهزة الأمنية..

وتضربه..

وتعذبه..

وربما حتى الموت..

وأصبح الناس يرون الفساد ويعانون منه، ولكن أحدهم لا يجرؤ على الشكوى منه، أو الاعتراض عليه، أو حتى الحديث عنه..

ولكن التاريخ علمنا أن الفساد يأتي بالخراب دوما، ومهما كانت الاحتياطات.. فبعد أن اطمأنت الحكومة إلى إحكام قبضتها البوليسية على الشعب والدولة، وتصورت أنها قد صارت بمعزل عن الخطر، أتتها الضريبة من حيث لا تحتسب....

هزيمة رهيبة..

نكسة مروعة

ودمار شامل لم تعرف مصر له مثيلا، في أي عهد من عهودها قط..

وهنا، هنا فقط بدأت الدولة حربا طاحنة ضد الفساد، الذي لو بذلت عُشر هذا لمواجهته بحق، لما جاء الخراب والدمار والعار والهزيمة..

وعندما حاربنا الفساد، انتصرنا..

وعبرنا..

وارتفع علمنا عاليا خفاقا..

وكان ينبغي أن نستوعب الدرس ونفهمه، وأن ندرك أنه مهما أنجزنا، ومهما طورنا ومهما كانت لدينا مشروعات كبرى، وطموحات عظيمة، وخطط مبشرة فلن يمكننا أن ننتصر أبدا..

لو لم نحارب الفساد..

وبمنتهى العنف..

ولكن من الواضح أننا لم نتعلم، ولم نفهم، ولم نستوعب الدرس أبدا..

لذا فالدولة تتحدث دوما عن الإنجازات، والطموحات، والخطط المستقبلية، ولكنها ترفض الاعتراف بالفساد، الذي انتشر، وكبر، وتعملق، وصار أكبر خطر نواجهه، في المرحلة الحرجة المقبلة..

الفساد هو الذي يرفع أسعار السلع، التي يضاف إليها، ما يدفعه الصانع من رشاو وإكراميات، تتجاوز كل الحدود، حتى لا تعود السلعة صالحة للمنافسة، أو قادرة على الصمود، أمام المنتج الأجنبي..

الفساد هو الذي يجعلنا غير قادرين على المواجهة على المنافسة..

أو حتى على الصمود..

الأحوال تتدهور عالميا، واقتصاديات الدول لا تصمد بالمجاملات والنفاق وتجميل الصور..

.. وكما علمنا التاريخ، لن يمكننا أبدا أن تتجاوز المرحلة القادمة، وأن نعبر منحنى الخطر إلا بالواقعية والمصارحة..

وبالمواجهة الصريحة المباشرة مع الفساد..

الفساد والفساد.. الفساد والفساد..

ألف مرة..

وهذا قبل أن تنقض علينا هزيمة أخرى..

أو ثورة..

اللهم قد أبلغت.. اللهم فاشهد..

(تمت)

17- تجربة بيروقراطستان..

كتبت هذه الكلمات، وأنا أخوض الفصل الأخير، أو ربما قبل الأخير، من تجربة مدهشة تستحق التسجيل.. تجربة لا يمكن أن تحدث إلا في بلد كبلدنا، يحكمه حزب واحد منذ أكثر من ربع قرن.. حزب اعتاد استخدام كلمات فخمة وضخمة، وتعبيرات وطنية رنانة؛ لتحقيق أهداف، لا ينحدر إليها إلا بلطجي من الدرجة الثالثة.. حزب نجح في إقناع كبيره بأن يقتصر عليه وحده، دون باقي المصريين، في حالة فريدة، وسط عالم ينطلق نحو التقدم والتطور بسرعة الصاروخ..

حزب الأقوال الكبيرة، والأفعال الأقل من الصغيرة، والذي نشر في البلاد فسادا لم تر مثله، ربما في تاريخها كله؛ لأنه فساد من نوع خاص، لا يبالي بردود أفعال ولا يلتفت للانتقادات، أو حتى الصرخات، ويمضي في غيه بكل بلطجة، متسلحا بقوات أمن، يفوق عددها وتعدادها دولا أخرى، أكثر تطورا، وتأثيرا في السياسة العالمية..

ولأن الحديث عن الفساد ورائحته طال وباخ، ولم يعد حتى يجذب انتباه أحد، أو يتوقف عنده مخلوق، مع انشغال الجميع بالانغماس فيه، من أصغر صغير، وحتى أكبر كبير؛ فالأجدى أن أتوقف عن وصفه، لأفسح الطريق لتلك التجربة، التى أضاءت أمامي..

دولة ضخمة، تقبع في أعماق مصرنا، وتنخر فيها في سرعة وشراسة، كما ينخر السوس في خشب قديم متهالك وربما تعتبر هذه التجربة امتدادا للموضوع نفسه، الذي انتهي قبل نشر الاعتذار مباشرة؛ لأنها تندرج، فيما تندرج عليه، على نوع مهم

وخطير جدا، من فساد النظام الطبي في مصر، ولأنها، في موجز شديد، تجربة طبية.

ولقد بدأت تلك التجربة على نحو مباغت وغير متوقع، في الأيام الأخيرة من عام 2006 م..

ففي ذلك التاريخ، وبعد فترة طويلة من المعاناة من مرض السكر المزمن وارتفاع ضغط الدم، استيقظت ذات صباح، لأشعر بتثاقل غير طبيعي، وتهالك يفوق المعتاد، ولما كنت أعاني مؤخرا من زيادة في الوزن، لا تتناغم مع الجهد المبذول، ونوعيات الطعام البسيطة التي تواكبه، والمكونة في معظمها من الفول والبيض كعادتي، فقد طرحت هذا خلف ظهري، ونهضت لحلاقة لحيتي وما إن وقفت أمام المرآة حتى وجدت أمامي مفاجأة..

الشخص الذي طالعني وجهه الضخم المنتفخ، في مرآة الحمام كان يشبهني إلى حد كبير، إلا أنه يختلف في أن كل لمحة فيه أشبه ببالون كبير، فالألف، والخدان، والشفتان، كلها منتفخة متورمة، وعيناي تبدوان ضيقتين، على نحو لم أره من قبل قط..

كنت يومها مضطرا إلى الذهاب لتجديد جواز سفري، الذي بقى يوم واحد على موعد انتهائه، فقررت أن أخرج من مجمع التحرير، إلى أقرب عيادة طبية؛ لتشخيص الحالة، التي غابت عن ذاكرتي، بعد سبعة عشر عاما من التوقف عن الممارسة الطبية، تشخيصاتها المقارنة المنطقية.. وعدت بعد حلاقة لحيتي لارتداء ملابسي، لتصدمني مفاجأة ثانية أشد عنفًا..

فملابس أمس، التي كانت مناسبة تماما، أصبحت فجأة، في غضون يوم واحد، شديدة الضيق، تختنق عند صدري وبطني

بالكاد، وهنا أدركت أن الأمر ربما يكون أخطر مما أتصور، وأنه من المحتم أن أهرع لتشخيص الحالة، بكل الوسائل الممكنة.. وقمت بالاتصال بصديقي، الذي هو محامي في الوقت ذاته، وطلبت منه مرافقتي، خشية أن تتطور الأمور، وتحتاج إلى أياد ثالثة، ورابعة وخامسة..

وجاء الصديق، وذهبنا في سيارته إلى مجمع التحرير، وأنا أجلس مرهقا منتفخا، وأتنفس في صعوبة، وكل شيء يبدو لي مهتزا كئيا، أو هو كذلك في بلادنا بالفعل.. حتى وصلنا إلى هدفنا، ودخلنا المجمع، وبدأنا في الصعود إلى قسم جوازات السفر، في الطابق الأول، لتفاجئني مفاجأة ثالثة؛ فأنا أصعد بصعوبة بالغة، وأنفاسي تتقطع على نحو ملحوظ، كما لو أنني في السبعين أو الثمانين من العمر، حتى إننا لم نكد نصل، حتى كنت ألهث بشدة، وأحتاج إلى أسطوانة أكسجين كاملة للتعويض..

وأصيب صديقي بالفزع، وتعامل معى الجميع في تعاطف جميل، يشفّ عن الطبيعة الشهمة للشعب المصري الأصيل، والتي تختفي دوما خلف سلبيات واضحة، ابتكرها الشعب أيضا؛ ليظهر معاداته لحكوماته المتعاقبة، على نحو يناسب قدرته على التحمل، وقدرتها على القمع.. وانتهى جواز السفر بسرعة.. ونزلنا وأنا أشد تعبا، و... وبدأت الرحلة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما بدأت رحلتى مع المرض، كانت معلوماتي كلها، عن عالم الطب والأطباء، تقتصر على لقاءاتي مع زملاء وأصدقاء الدراسة في طنطا، وسنوات العمل والممارسة في مستشفياتها، والسلبيات والتجاوزات التي رصدتها، والتي بدت لي آنذاك، كأنها ذنب كبير، وجرم لا يغتفر، إلى الحد الذي دفعني إلى الاستقالة..

ولكن منذ اليوم الأول، صدمتني حقائق، أكدت لي أن ما رأيته قديما جحيما، كان النعيم بعينه، والنزاهة المجسمة، بالنسبة لما آل إليه الحال الآن؛ فقد ذهبت إلى عيادة تحمل اسم طبيب شهير، لم يجذبني إليها سوى قربها الشديد من مجمع التحرير، ولافتتها.. التي تشير إلى أن صاحبها من أكبر الأكابر في أمراض القلب والشرايين..

لم يكن الطبيب قد وصل بعد، فحجزت دورا لتوقيع الكشف، وجلست أنتظر، وأنفاسي تأبى أن تهدأ أو تستقر.. ولما كنت قد اعتدت ألا أشير إلى كونى طبيبا، في العيادات الخاصة؛ حتى لا يصاب الأطباء بالفزع، ويتصوروا أن إعلان هذا هو تمهيد لطلب استثناء، أو كشف مجاني، وما يعقب هذا - في المعتاد من معاملة جافة خشنة، وربما قاسية أيضا، فقد جلست صامتا، أنتظر مع الباقين، حتى وصل الطبيب بعد أربع ساعات من الموعد المعلن في لافتة عيادته، ووصل عاقدا حاجبيه، قالبا سحنته، أقرب إلى الغضب، شلولخ (على رأي الأستاذ الكبير عادل إمام)، وكأنه قادم إلى عيادة مجانية، ليعالج فقراء متسولين، يمدون أيديهم إليه.. واندفع نحو حجرة الكشف كالصاروخ، حتى لا يستوقفه أحد، ويلقي عليه سؤالا، يمنحه استشارة مجانية، دون وجه حق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعلى الرغم من ازدحام العيادة، راحت الكشوف تدخل وتخرج بسرعة، وكل مريض يبدو كأنه لم يحصل على مبتغاه.. حتى حان دوري، بعد ست ساعات من الانتظار، ودخلت للباشا الطبيب الكبير؛ لأخبره بحالتي، وأنا ألهث على نحو ملحوظ، وربما أشفق على حالي، فلم يستمع إلى شكواي، حتى لا يصيبني بالملل،

واستدعى الممرض، وأخبره أنني أحتاج إلى رسم قلب عادي وآخر بالمجهود، وتحاليل وفحوصا خاصة، أجريها في معمل مجاور، يحمل اسما نسائيا، علمت فيما بعد أنه اسم زوجته، ثم أمسك ورقة وكتب أسماء وأنواع التحاليل.. وتوالت المفاجآت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نصف التحاليل والفحوص التي طلبها الطبيب الكبير، لم تكن تتفق، أو حتى تتناسب، مع تشخيص أي مرض بالقلب، ولكن من المؤكد أنها كانت تساوي مبلغا ضخما، سيربحه معمل الزوجة، ثم إنه لم يجر فحصا طبيا واحدا، أو حتى يسمع تاريخي المرضى المزمن، أو تاريخ الحالة نفسها، قبل أن يعمد إلى طلب تحاليل باهظة الثمن.. إلى هذا الحد.. فكل ما رآه أو عرفه، هو أنني كاتب معروف، ويمكنني تحمل ثمنها ماديا، أو ستكون هناك جهة تتحمل هذا حتما.. فلم لا؟!..

كان ممرض العيادة يقودني إلى المعمل، عندما أخبرته أنني أفضل معملا آخر، لي معه تجارب سابقة، فأصيب الممرض بالهلع، وأخبرني أن هذا مستحيل، فلما سألته: لماذا؟ أخبرني أنها تحاليل وفحوص عاجلة للغاية، ولابد من إجرائها فورا..

ولم أعلق على كلماته، ولكنني كنت أعرف بحكم شهادتي وخبرتي الطبية، أن بعض هذه المطلوبات سيستغرق أياما، أو يوما كاملا على الأقل، لذا فقد أخبرته بما يمكن أن يفهمه، ألا وهو أنني لست مستعدا ماديا؛ لعمل تلك التحاليل والفحوص الآن، ولكنه ازداد تشبثا، وأكد لى أنه يمكنني دفع عربون بسيط، والباقي عند الاستلام، دون أن يدرك أن هذا يتعارض مع ما ذكره مسبقا، عن سرعة عملها..

واعتذرت، وهربت بالكاد، وقررت إعادة الكشف، الذي لم يتم فعليا، عند طبيب آخر، لتتكرر الصورة نفسها، مع استثناء طلب فحوص أكثر ثمنا، وفي معمل كبير معروف.. وهنا أدركت أن الاستمرار في هذه الدائرة، قد يؤدي بي إلى الوفاة، قبل أن يتم تشخيص حالتي فعليا، ولابد من كسرها بأي ثمن.. وهنا قفز إلى ذهنى الحل المثالى، فزملاء الدراسة كلهم أصبحوا أطباء كبارا، في مصر والإسكندرية وطنطا.. فلماذا لا أعود إلى أقربهم، ليستمع إلى، ويمنحني تشخيصا أثق فيه على الأقل؟

وعلى الفور، حتى وقبل عودتي إلى منزلي، اتصلت بصديق وزميل الدراسة، الدكتور عاصم غلاب، وطلبت منه ترتيب الأمور، حتى أصل إلى طنطا في الصباح التالي، وبالفعل، وصلت لأجد (عاصم) في انتظاري، وهرع بي إلى صديقنا الدكتور مدحت عشماوي، في مركز القلب، وبدأ كل شيء على الفور، بكل اهتمام وعناية لأتلقى على وجهي، وعبر أذني صدمة جديدة.. وعنيفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فور وصولي إلى مركز القلب، استقبلني الزميل الأستاذ الدكتور مدحت عشماوي، وطلب مني أن أشرح له الحالة بالتفصيل، ثم بدأ الكشف الطبي فورا، وهاله أن يجد ضغط دمي مرتفعا إلى حد مخيف، حتى إنه لو كنا قد تأخرنا في التشخيص يوما واحدا، لكانت العواقب وخيمة، وربما دائمة، وغير قابلة للعلاج أيضا..

وهذا دليل آخر على ما يمكن أن يؤدي إليه الإستهتار والفساد الطبي، في تاريخ وصحة وحياة أي إنسان.. ولكن المهم أن الفحوص والتحاليل بدأت على الفور، ووفق نظام طبي دقيق، وتم استدعاء زميلنا الدكتور هشام نوح؛ لعمل الموجات الصوتية اللازمة، على القلب والأحشاء؛ للاطمئنان إلى أن هذا

الضغط الرهيب لم يؤذها بعد، ثم بدأ العلاج في دقة، وبجرعات منتظمة.

وتصورت أن حالتي هي انعكاس للارتفاع الشديد للغاية في ضغط الدم، وحاولت مراجعة ما تبقى في ذهني، من معلومات طبية قديمة؛ لربط الحالة بالتشخيص، إلا أنني عجزت عن هذا تماما، ولكنني كنت واثقا من أنني الآن في أرضى، وأن زملاء وأصدقاء الدراسة سيقومون بكل ما يلزم، وأنني سأحصل لديهم على ما لا يمكن أن أحصل عليه من النظام الطبي السائد..

كان القلق واضحا على وجوه الجميع؛ السبب لم يذكره أحد منهم، وحاولت سؤالهم عنه، إلا أنهم، وعلى عكس طبيعتهم، تحفظوا في الإجابة، على نحو ضاعف من قلقي، وأشعرني أن حالتي تتجاوز ارتفاع ضغط الدم بكثير، وأنها حتما تندرج في مضمار آخر تماما، ولزمت صمتا مبهوتا، منتظرا النتائج..

وبسرعة، وصل الزميل الأستاذ الدكتور هشام بدرة، وراجع الأمور والنتائج كلها، وعقد الزملاء كونصلتو طبيا خاصا، ثم انتخبوا (مدحت)، ليواجهني بالجزء الأول، وهو يخبرني أنهم يستطيعون منحى روشتة علاج عاجل، وآخر ممتد المفعول، ولكنه يرى أنه من الأفضل أن أقضي يومين أو ثلاثة في قسم العناية المركزة.

كانت لدى العديد من الارتباطات، ولكنني كنت أعاني بالفعل من تدهور صحي، جعلني أقبل بنصيحتهم، فأعدت ابني، الذي كان يصحبني، إلى منزلنا في القاهرة، ورقدت أنا في قسم العناية المركزة في مركز القلب في طنطا..

وفي المساء، وبينما أرقد، وأنابيب المحاليل تتصل بجسدي، جاء الصديقان، عاصم غلاب وهشام بدرة؛ ليمنحاني المفاجأة الكبرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كليتاي توشكان على الانهيار.. هذا هو التشخيص الذي صدمني به زميلا الدراسة، وكلاهما متخصص في هذا المجال، ومع مراجعة الفحوص والتحاليل، أدركت أنه تشخيص حقيقي، وسليم للغاية؛ فضغط الدم المرتفع كان انعكاسا للانهيار الكلوي، والانتفاخ الشديد نتيجة لعجز الكليتين عن تصريف المياه الزائدة عن الجسم، ولإسرافي في تناول البروتينات، والبيض بالتحديد..

كانت صدمة شديدة، ولكن كان على تقبلها، على أي نحو كان، وسألت الزميلين عن وسائل العلاج المتاحة، فأخبرني هشام أنه سيمنحني علاجا مدعما، يكفي لإطالة الفترة، ولكنه لن يمنع انهيار الكليتين في النهاية، وأنها مسألة وقت فحسب..

وتلقيت العلاج في الليلة نفسها، مع حظر كبير للخضراوات والبروتينات بأنواعها؛ مما أشعرني بحيرة شديدة؛ فبحكم إصابتي بمرض السكر، هناك حظر على تناول الحلويات والنشويات، ومع الانهيار الكلوي، أضيفت إليها البروتينات والخضروات والفواكه، فماذا يمكن أن آكل إذن؟!..

طرحت السؤال على الزميل هشام، فأعطاني ورقة مطبوعة، تحوي تفاصيل تغذية مريض الانهيار الكلوي، وطلب مني الالتزام بها بمنتهى الدقة.. وعلى الرغم من أن هذا أمر عسير

للغاية، قررت تنفيذه، على أي نحو كان؛ حتى أطيل فترة الانهيار، إلى أقصى حد ممكن، قبل أن تتحول إلى فشل كلوي تام.

وخرجت من العناية المركزة، في وقفة عيد الأضحى، الذي لم أتناول فيه قطعة لحوم واحدة بالطبع، على الرغم من أنها ربما تكون المناسبة الوحيدة التي يشبع فيها المصريون من أكل اللحوم، التي وعدت الحكومات المتتالية بالسيطرة على أسعارها، ولم تنفذ الوعد واحدة منها؛ ربما لأن السادة الكبار لا يعانون هذه المشكلة على الإطلاق، أو أنهم قد نسوا أنهم يحكمون شعبا فقيرا؛ من فخامة وبذخ ما يحيط بهم في حياتهم اليومية والخاصة..

المهم أنني تابعت هذه الحياة لشهر كامل، وانتظمت في زيارة الدكتور هشام؛ ليشرف على تطور الحالة، قبل أن يجول بخاطري سؤال شديد الأهمية ألا وهو: ماذا عن المرحلة التالية؟!.. فما دام الفشل الكلوى نهاية حتمية، فكيف أستعد لمواجهته؟!.. وأخبرني هشام ما لا أتوقعه.. على الإطلاق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما سألت زميلى هشام بدرة، عن وسيلة التعامل مع الفشل الكلوي، أخبرني أنه ليس هناك سوى خيارين، لا ثالث لهما.. فإما أن أخضع لجلسات غسيل كلوي منتظمة، تبدأ بجلستين، ثم تستقر عند ثلاث جلسات أسبوعية، مدة الجلسة الواحدة تتراوح بين ثلاث وأربع ساعات، أو أن أجرى جراحة زرع كلى، تعيد إلى الجسم انتظامه وتوازنه.

وخرجت من عند هشام، لأقوم بدراسة الأمر من كل جوانبه..

أولا، قبل أن أتخذ فيه قرارا حاسما، واعتبرت أن الأشهر الستة التي تحتاج إليها كليتاي، لبلوغ مرحلة الفشل التام، هي المهلة المتاحة لبلوغ العلاج الحاسم في هذا الشأن.. وعدت إلى مكتبي، وجلست أمام شبكة الإنترنت؛ للبحث عن كل ما نشر من أبحاث ودراسات حول حالتي، مما يساعدني على اتخاذ القرار..

والواقع أن ما وجدته على شبكة الإنترنت قد هالني للغاية، فمن بين دول العالم، تختص مصر بثلاثة ملايين مريض فشل كلوى في العام الواحد، في نسبة تعد الأعلى بين الدول المساوية لها (ليس في الديمقراطية الزاهية بالطبع)، وأن معظم هذه الحالات يتم كشفه بالمصادفة البحتة، وينشأ عن ارتفاع ضغط الدم المستمر بشكل أكبر، وأن هذا الفشل يتطور بسرعة، نظرا لسوء اختياراتنا الغذائية، ونوعيات الأطعمة لدينا، وأهمها المخللات بأنواعها، والبروتينات وعملية الغسيل الكلوي تقليدية ومنتشرة على نطاق واسع، ولكنها لا تكفي وحدها لعلاج المريض، الذي يصاب مع فشل كليتية بنقص حاد في الهرمون المسئول عن تكوين كرات الدم، التي تحوي مادة الهيموجلوبين؛ مما يصيب المريض بأنيميا حادة، تستلزم عمليات نقل دم مستمرة، مع كل ما يستتبعه هذا من احتمالات العدوى بعدد من الفيروسات الدموية مثل فيروس سي، أو ما خفي، كما ترتفع نسب البوتاسيوم، ويحتاج المريض إلى جرعات عالية من الكالسيوم..

أما عمليات زرع الكلى، فقد تطورت على نحو مدهش، وأصبحت نتائجها ممتازة، ووسائل التعامل معها ممكنة، وتعيد إلى الجسم توازنه، مع نقص البوتاسيوم، وتحسن حالة الأنيميا..

ولم يعد الأمر يحتاج إلى كثير من التفكير، فعدت إلى هشام، وأخبرته أنني أفضل إجراء عملية زرع كلى.. ومن هنا بالتحديد،

بدأت التجربة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زرع الأعضاء البشرية ليس بالأمر الجديد، بالنسبة للعالم المتحضر؛ فقد ألقاه الدكتور كرستيان برنار في قلب دائرة الضوء، في سبعينيات القرن العشرين، مع جراحة ناجحة لزراعة قلب بشري، من متوفي إلى حي يعاني من انهيار تام في عضلات القلب، ليثبت بهذا إمكانية تطبيق ما ظل لأكثر من عقدين مجرد نظرية.. ومنذ ذلك الحين، ودون توقف لحظة واحدة، انطلق علماء العالم يستفيدون من تجربة برنار، ويدرسونها، ويضيفون إليها، وزراعة الأعضاء تتطور بسرعة الصاروخ، حتى لم يطل القرن الحادي والعشرون، إلا وكانت زراعة معظم أعضاء الجسم أمرا ممكنا، من الرئة، إلى الكبد، إلى المثانة، إلى الكلى، بل وحتى بعض الأعضاء الخارجية..

فحلم الأطباء يتعدى الحدود، والعلماء بطبعهم لا يؤمنون بالمستحيل، ويتصورون أنه بعد عشر سنوات من الآن، سيمكنهم زراعة أذرع وسيقان، تعمل على نحو طبيعي وتلقائي لمن فقدوا أطرافهم في الحروب أو الحوادث..

وكرد فعل شعبي، في كل أنحاء العالم (باستثناء الدول العربية وأفريقيا)، ولأن الناس أدركت ما في هذا من فوائد للجميع، راح الناس يتسابقون للتبرع بأعضائهم بعد موتهم؛ طمعا في استمرار حسناتهم، بعد فنائهم، وبدا الأمر كأنه وسيلة جديدة لإطالة أعمارهم، وأعمار من يهبونهم تلك الأعضاء حتى إن بعض الدول أصبحت تمنح المتبرعين بالأعضاء بطاقة خاصة، تحدد ما تبرعوا به، أو تدون هذا على ظهر رخصة القيادة؛ توفيرا لكل

دقيقة، إذا ما أصيب أحدهم في حادث، حتى يمكن نقل العضو المطلوب، قبل أن يتعرض للتلف..

كان هذا يستلزم تسجيل الاسم، والعضو المطلوب، وعمل تحليل كامل للأنسجة، وتسجيله على الكمبيوتر، والانتظار في قائمة طويلة، ليحصل كل على دوره، عندما تتوافر أعضاء من شخص، يمتلك التوافق النسيجي المناسب.. ولما كانت حالة بعضهم لا تحتمل الانتظار، فقد لجأ بعض أقاربهم أو معارفهم للتبرع لهم، بالأعضاء التي يمكن للأحياء منحها، مثل الكلى وأجزاء الكبد.. وظل هذا يعتمد على عامل واحد لا غير ألا وهو التوافق الدموي والنسيجي، بين المانح والمستقبل..

هذا ما يجري في العالم كله، وما تحته سنة وسرعة التطور، في العصر الحديث، الذي بلغ إيقاعه نحوا لم يبلغه عبر التاريخ كله..

أما في عالمنا العربي، فالأمر مختلف، كما يختلف كل شيء،

والكارثة كبيرة.. جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في العالم كله، تعتبر زراعة الأعضاء أمرا علميا بحتا، ولكن في عالمنا العربي، وفي مصرنا البائسة، تحول العلم، بقدرة قادر، إلى مسألة فقهية وشرعية، وراح الشيوخ والعلماء الأفاضل، الذين هم حجة في مجالهم، ولا يفقهون شيئا في العلم والطب، يفتون في أمر، أمرنا الدين نفسه بأن نسأل عنه أهل الذكر، إن كنا لا نعلم، وأنا أتحدى أن يعلن فقيه واحد، مهما بلغت مكانته، أنه يعلم ما يعلمه العلماء والأطباء، حتى لو ادعى أنه قرأ كتابا أو كتابين، أو حتى مرجعا كاملا في الطب؛ فالعقل والمنطق يؤكدان

أنه من يعمل ويدرس أكثر، يفهم أكثر في مجاله، وكلنا نعلم هذه الحقيقة، ونثق فيها تماما، في كل المجالات الأخرى دون استثناء، فلا أحد يستأجر طبيبا لبناء منزله، لمجرد أنه قرأ مرجعا في الهندسة، ولا أحد يجرؤ على علاج ابنه لدى مهندس شهير، فقط لأنه يقرأ كثيرا في الطب بل وحتى في المهن، لا نستأجر سباكا لإصلاح الكهرباء، ولا نجارا لتسليك المواسير.

كلنا إذن ندرك هذا، ولكننا نصل إلى منطقة الدين، فيختل منطقنا، وتهتز قناعاتنا، ونرتبك، وننكمش، ونخشى مجرد إبداء الرأي، بل ولا نحاول سؤال أهل الذكر، الذين ليسوا الفقهاء أو الشيوخ أو الدعاة حتما، بل العلماء والأطباء، الذين عليهم إجابة سؤال واحد بسيط: أهذا نافع أم مضر؟ حتى يمكن تطبيق القاعدة الأبسط، التي تؤكد أن كل ما ينفع الأمة حلال وكل ما يضرها حرام...

والحكومة من جانب آخر، ليس لديها معيار واضح واحد محدد، لتقييم كل الأمور.. ففي الوقت الذي قلبت بة الدستور رأسا على عقب، وانتزعت منه في أسابيع قليلة، كل المواد المانحة للحريات، ووجدت أغلبية فاسدة منتفعة، تجيز لها هذا في أيام، ما زالت تتلكأ لسنوات وسنوات، في إصدار قوانين حيوية، ربما تساهم في تحسين أحوال الشعب، ورفع مستوى معيشته، أو توفير جزء من الحياة الكريمة له، ومنها قانون زراعة الأعضاء، الذي يدور في المجلس الموقر منذ سنوات، دون أن يتحفنا رئيسه بمقولته الشهيرة: موافقون.. موافقة، التي يحسم بها أمورا قادرة على تدمير اقتصاد البلد كله، في دقيقة واحدة، ودون أن تطالب الأغلبية - التي استمرأت الفساد، وغرقت فيه

حتى النخاع، ولم تعد تعرف سواه - باتخاذ موقف.. وهذا كاد يكلفني حياتي.. بعنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما يتعلق الأمر بقانون جديد، لصالح الشعب، أو فئة من فئاته، تتأخر الحكومة وتتلكأ كثيرا في إصداره، وحجتها دوما أن الأمر شديد الحساسية، وأنها تخشى من ردود الأفعال، فإذا ما كان هذا الأمر يتعلق بمصالحها، وتزايد غيها، وطغيانها، وكبتها للحريات، أو لو ثار القضاة وتضامنوا، أو تظاهر الناس من أجل كرامتهم وأمنهم، فلا مانع عندئذ من التصدي للأمور بمنتهى القوة والعنف والشراسة، وضرب القضاة وأعضاء مجلس الشعب أنفسهم بالأحذية؛ حتى تستمر السلطة والسطوة، ويتمادى الغي والطغيان..

من هذا المنطلق، لم تصدر الحكومة قانون زراعة الأعضاء، حتى لحظة كتابة هذه السطور، وربما أيضا من منطلق أن الكبار لن يعانوا من هذه المشكلة أبدا؛ فكل شيء تحت أمرهم، وكل العقبات مذللة، ولو احتاج أحدهم، أو أحد أبنائه أو معارفه، إلى عضو ما، فالشعب كله رهن إشارته، والعلاج بالخارج مكفول لكل قريب ونسيب وحسيب للسلطة..

وعندما بدأت رحلة زراعة الكلى، لم أكن أدرك ما يواجهني، ولا ماذا يدور في دهاليز ذلك العالم الرهيب، الذي تحول إلى أكبر تجارة في مصر، على المستوى الشعبي، ويحاول الجميع الإشاحة بوجهه عنه، والتظاهر بعدم رؤيته، وتركه يستشري دون قانون ينظمه ويحميه.. ولكنني استشرت الزملاء المتخصصين، فأفتوني بأسماء عدة معامل تحاليل، تتخذ من هذا الأمر مصدر دخل رئيسي، ووسيلة لتحقيق أرباح هائلة، من المؤكد أن الدولة،

بأجهزتها الرسمية المعنية، لا تدري شيئا عنها.. ولما كانت الأمور معقدة ومتشابكة في مصرنا المسكينة، كان حتما أن أبدأ التجربة من بدايتها، وأن أنتقي أفضل تلك المعامل، وأكثرها احتراما والتزاما؛ للبحث عن أهم عامل (عليًما)، في التجربة كلها، ألا وهو المتبرع، الذي تتوافق أنسجته مع أنسجتي، والذي يصلح لمنحى كليته..

وذهبت إلى المعمل، وشرحت لهم الأمر، الذي اعتادوه وألقوه، فحصلوا على عينة من دمي؛ لإجراء اختبارات التوافق، واتفقنا على بعض التفاصيل المهمة، وتصورت أن الأمر قد انتهى، وأنه لم يتبق سوى العثور على المتبرع المناسب، وإجراء الجراحة.. ولما كانت أعداد المتبرعين تفوق أعداد الطالبين بكثير، كما عرفت من أبحاثي السابقة، بدأت أشعر بالارتياح، ولكن المعمل كان له شرط عجيب.. للغاية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اشترط المعمل، الذي لجأت إليه للبحث عن متبرع، أن أقوم بنشر إعلان في الصحف، أطلب فيه متبرعا من فصيلة دمي ولقد فهمت سبب هذا الشرط على الفور؛ فهو يؤمن المعمل من أية شكاوى قانونية مستقبلية؛ لاعتبار أنه لا يعمل سمسارا، وإنما يلبي طلب معلن، أرسل إليه متبرعين، جاءوا عن طريق رسمي، وفي الوقت ذاته، يمنحه فرصة الحصول على أعداد أكبر من المتبرعين، وفحص دمائهم وخلاياهم، على نفقة المريض، والاحتفاظ بسجلاتهم، التي تتضمن كل بياناتهم، ووسائل الاتصال بهم، على الكمبيوتر في المعمل؛ لتغذية أية حالات تالية..

لعبة مدروسة بمنتهى الدقة والعناية، وتستخدم أحدث الوسائل والتكنولوجيا كالمعتاد، في كل الأمور التي تدور تحت السطح، حتى يخيل لنا في النهاية، أن الحكومة وحدها هي التي تفتقر إلى التفكير المنظم المرتب (الحكومة الإلكترونية طبعًا).. المهم أنني تقبّلت الشرط، وذهبت إلى جريدة كبرى لعمل الإعلان، وهناك فوجئت باستنكار شديد، وذعر لا مبرر له، وواجهني أحدهم في صرامة، مؤكدا أن نشر مثل هذه الإعلانات محظور، إلا بموافقة خاصة من وزارة الصحة.. وفوجئت بأن الرجل يتعامل معي باعتباري أحد سماسرة تجارة الأعضاء، أو مافيا الفشل الكلوي، حتى إنه لم ينهض لمصافحتي وأنا أنصرف..

ومن الجريدة الكبرى إلى جريدة صغرى، تكرر الأمر، فلجأت إلى جريدة إعلانية شهيرة، توزع بالمجان، فأخذوا الإعلان، وتقاضوا ثمنه، وأخبروني أنه سينشر في الجمعة القادمة.. وتصورت بهذا أن مشكلة شرط الإعلان قد انتهت، وأن الأمور ستأخذ مسارها الصحيح، اعتبارا من هذه النقطة..

ويوم الجمعة التالى، انتظرت نشر الإعلان، وبحثت في كل صفحات الجريدة عنه، ولكنني لم أجد له أثرا، واتصلت بالجريدة، فأخبرني المسئول أن الباب، الذي من المفترض أن ينشر الإعلان فيه، لم يتواجد في هذا العدد، وأن الإعلان سينشر في الجمعة التالية..

وبصبر نافد، انتظرت الجمعة التالية، ولأول مرة، رحت أترقب وصول الجريدة الإعلانية في لهفة، فلم يكد مندوب توزيعها على الحي يصل، حتى اختطفتها منه، والتهمت صفحاتها في شغف.. ولم أجد الإعلان، فعاودت الاتصال بالمسئول، ليلقي على مسامعي مفاجأة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أسبوعين من الانتظار، فوجئت بمسئول الجريدة يخبرني أن الإعلان لن ينشر، وأنه على أن أذهب إلى المقر، الذي قدمته فيه؛ لاسترداد المبلغ (بالمناسبة، استرددت المبلغ بعد ما يقرب من ثلاثة أشهر، وست زيارات).. وعندئذ شعرت بيأس سخيف، فالأمور كلها تعقدت وتشابكت، وأصبحت كل مشكلة مرتبطة بأخرى.. المشايخ الأفاضل خالفوا قاعدة سؤال أهل الذكر، وأفتوا دينيًا، في أمور علمية بحتة، فأثاروا فزعا لا مبرر له، وجعلوا الجميع يتحاشى مجرد الخوض في الأمر، ليتحول العلم إلى جريمة، يحاول كل شخص التنصل من المسئولية فيها..

تعالوا نتصور أن مشايخ زمان ساروا على النهج نفسه، عندما قدمنا لملك فرنسا (شارلمان) أول ساعة، وأفتوا بأن الوقت ملك - لله سبحانه وتعالى وحده، أو أن أحدهم قد دس أنفه في أبحاث ابن النفيس، وأكد أن العبث بالدم البشرى حرام.. حرام.. تصوروا ما كنا سنصبح عليه حينئذ!!

ولكن من الواضح أن مشايخ زمان كانوا أكثر حكمة، وأكثر معرفة بالدين الحنيف، الذي يطالبني بالعلم والتطور، وبالسعي خلفهما ولو في الصين.. أما اليوم، فلم يعد لهم من هم سوى تعقيد الحياة، والإثقال على العباد، بقواعد وأوامر ونواهي لا حصر لها، كما لو أنهم قد كشفوا وجود الدين الإسلامي فجأة، في العقدين الأخيرين، أو كأن الله - عز وجل - لا يحاسب من يعذب الناس، أو يمنع عنهم منفعة..

المهم أن تجربتي مع الجريدة الإعلانية، جعلتني أتصور أن إيجاد متبرع، عبر معمل محترم، أمر بعيد المنال، في نظامنا البيروقراطي العتيد، وربما كان من المحتم أن أبحث عن سماسرة

المتبرعين، الذين أثروا ثراء فاحشا، من تجارة ما زالت محظورة، إنسانيا على الأقل..

وبدأت جولة جديدة من التجربة، وبدأت في جمع تحريات عن أولئك السماسرة، ومن المدهش أن هذا لم يكن عسيرا على الإطلاق؛ فقد وجدتهم معروفين للجميع، فيما عدا السلطات الرسمية بالطبع، ولهم أماكن واضحة، وخريطة توزيع منظمة.. وذهبت إلى أحدهم في مقهى شعبي، ووجدت الأمور تتم كما لو أنني قادم لشراء مخدرات؛ أسئلة، واستجوابات، وحذر، ونظرات مستريبة، ومحاولات إيقاع، استغرقت ما يقرب من الساعة، قبل أن يطمئن السمسار إلى أنني لست من رجال الشرطة والمباحث، فسألني عن فصيلة دمي، وبعدها رأيت ما هالني.. بشدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مسكين أنت يا شعب مصر!.. فسق مترفوك، وعاثوا فيك الفساد، ثم تزاوجوا مع السلطة، فتجبروا وتكبروا، وانتزعوا اللقمة من بين فكي الفقراء، فبت جائعا، عاريا، مهضوما، والفاسدون من داخلك يعيشون في قصور، يكفي ثمن الواحد منها لمحو فقر مدينة كاملة..

ربما أعرف هذه الحقيقة منذ زمن طويل، ولكنني لم أرها أمام عيني بهذه البشاعة، إلا في ذلك المقهى، وأنا أجلس مع سمسار الكلى.. فما إن عرف فصيلة دمي، حتى رفع صوته يطلب أصحاب تلك الفصيلة، وهنا فوجئت بأنه، باستثنائي وزبونين أو ثلاثة، فكل الجالسين على المقهى من المتبرعين، الذين ينتظرون دورهم، لمنح كليتهم إلى من يدفع ثمنها، وكل أملهم أن يمنحهم هذا ما يعينهم على حياة كريمة، أو يسدّ رمقهم في شتاء طويل..

وجوه شاحبة، نحيلة، ممصوصة، حفر البؤس ملامحه عليها في وضوح، فبدت أشبه بهياكل بشرية، تسير على قدمين، وما إن هتف بهم السمسار، حتى هرولوا باسمين، وكل منهم يتمنى أن يكون المحظوظ، الذي يقع عليه الاختيار هذه المرة، فيخرج من قاع الفقر، إلى فقر أقل ضراوة..

أفزعتلى الصورة، وأدهشتني، وأنا الذي كان يتصور أن المشكلة كلها تكمن في المتبرع.. وكما يحدث في سوق العبيد، راح السمسار يستعرض بضاعته، ويخبرني مزايا كل متبرع، وأخرج ورقة كبيرة من جيبه، وراح يقرأ، ومع كل حرف ينطقه، كانت تسيطر عليّ مشاعر عديدة، هي مزيج من الشفقة والاشمئزاز، والغضب، والعار.... كيف يمكن أن يبلغ شعبنا هذا الحد، في دولة تتفطن طوال الوقت بديموقراطيتها، وحريتها، ورعايتها..

دولة انشغلت بحكامها وكبارها، وشاركت المترفين فسقهم، فنسيت أنها تحكم شعبا، سيحاسبها الله (سبحانه وتعالى) على كل قطرة دم أريقت منه، وإن كنت واثقا من أن أولئك لا يفكرون لحظة في آخرتهم، أو في وقوفهم أمام رب كريم، وربما يتصورون أنهم أول من سيكسر ثوابت الوجود، وينجو من موت يأتيه، ولو في بروج مشيدة، أو الأدهى أنهم يتصورون أنفسهم على حق، أو أنهم سيتمتعون في الآخرة بنفس السلطة والسطوة والجبروت، التي يتمتعون بها في الدنيا.. المهم أنني، مع ما رأيت، اتخذت قرارا.. حاسما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الرغم من حالتي الصحية، التي كانت تتدهور باستمرار ومن التورم الشديد في قدمي، والذي يعجزني كثيرا عن المشي، ومن محاولاتي الدائمة المرهقة والتماسك أمام الآخرين، ما إن رأيت

تلك الصورة البشعة، لشعب مصر، الذي يبيع لحمه من أجل لقمة العيش، اتخذت قرارا حاسما؛ ألا وهو أنني لن أتعامل مع السماسرة ومتبرعيهم، مهما كان الثمن، ومهما كانت النتائج..

ومرة أخرى، عدت إلى مشكلة الإعلان، التي بدت كأنها بلا حل، وانشغلت بالبحث عن حلول مع الصحف القومية، حتى إنني نسيت أن هناك صحفا أخرى.. وهنا طرحت الأمر على الصديق إبراهيم عيسى، الذى فوجئ بأمر مرضى، وإن أخبرني، كما يحدث في الأفلام البوليسية، أنه كان يتوقع هذا، الشحوب الشديد في وجهي، والإرهاق البادي على دوما، ثم تحرك بمنتهى السرعة والشهامة كعادته، وتم نشر إعلان صغير، خلال الأسبوع نفسه..

ولا أحد يمكنه أن يتصور كم أزاح هذا من عبء عن كاهلي، وإن منحني فصلا جديدا، من كتاب فقر وبؤس شعب مصر؛ فما إن ظهر الإعلان، حتى انهالت مكالمات المتبرعين، في غزارة لم نكن نتوقعها.. ولما كانت زوجتي هي التي تستقبل مكالماتهم، فقد أرهقها هذا بشدة، خاصة وأن السؤال الأول لمعظمهم هو كم سندفع مقابل الكلية؟.. ولكن هذا لا يمنع من أن اتصالات عديدة كانت تعرض التبرع، من أجل وجه الله (العزيز الحكيم) فحسب، وابتغاء مرضاته، والتصدق بصدقة جارية وكل متبرع كان لابد من إرساله إلى المعمل، على نفقتي بالطبع، لعمل التحاليل والفحوص اللازمة، من أجل توافق الأنسجة، مما كان يعني استنزافا ماليا عنيفا، أجبرنا على تخفيض نفقاتنا المنزلية، والبحث عن موارد جديدة لتغطية المطلوبات اليومية، التي أضيفت إليها أدوية باهظة الثمن إلى حد مخيف، لم أكن أيضا أتصوره أو أتوقعه..

كان عليّ أن أحصل، خارجيا، على كل ما يفتقده الجسم بسبب الانهيار الكلوي، مثل الكالسيوم والسيليوم، والهيموجلوبين الذي ينخفض يوميا، حتى يكاد يبلغ حالة أنيميا حادة..

وفجأة، ووسط كل هذا، تلقيت مكالمة غيرت المسار كله تماما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أول مفاجأة سارة أتلقاها، منذ بدأت هذه التجربة القاسية، كان خبر العثور على متبرع مناسب، وبنسبة توافق كبيرة، وما إن تلقيت اتصال المعمل، يبلغنى بهذا، حتى طرت إلى المعمل، وأجرينا اختبار توافق، والتقيت به، ووجدته شابا هادئا بسيطا، وتناقشت معه في أسباب تبرعه، فأجاب ببساطة: إنها ثواب وصدقة جارية.. وارتاحت نفسي للموقف كله أخيرا، وبدا لى أن الشمس الغاربة قد أشرقت، والظلمة قد انزاحت، وما دامت كل المراجع الطبية تؤكد أن المشكلة كلها تكمن في المتبرع ونسبة التوافق، فهذا يعني أن المشكلة قد انتهت، ما دام المتبرع موجودا، وبتلك النسبة من التوافق، التي اعتبرها الكل معجزة، ورضاء من الخالق عز وجل..

ولكنني، في تفاؤلي المبكر هذا، كنت قد نسيت أين أعيش.. وأنني في مصر، التي لا تدور فيها أية أمور، على نحو طبيعي، ولا يمكنك، مهما فعلت، أن تفلت من عباقرة التعقيد والروتين، ومن القرارات الهميونية، التي يصدرها كل مسئول في موقعه، دون ضابط أو رابط، ودون أن يفكر لحظة واحدة في تداعياتها، أو في الجحيم الذي سيسببه للمواطنين، الذين ناعت أكتافهم بالمتاعب والمشاكل والهموم، ولا أحد يفكر قط في راحتهم أو سلامتهم أو أمنهم، بل كل ما يشغل أي مسئول في بلدنا، هو

الحفاظ على مقعده ومنصبه وامتيازاته، بل وتجاوزاته أيضا، حتى لو كان الثمن دماء تراق، بلا رحمة أو شفقة..

فالبيروقراطية عندنا لها شكل خاص، يعتمد على غياب العقل وانعدام الفكر.. والقوانين كثيرة، عديدة، متشابكة، ومتضاربة، والقرارات تصدر دوما في لحظات انفعال وسخونة، ثم لا تجد من يزيلها بعد أن تهدأ الأمور، حتى لو كانت مصيرية خطيرة، أو معوقة.. ومن النادر أن تجد قرارا فيه مصلحة عامة؛ لأن معظم القرارات تصدر في لحظة انفعال، وبسبب قصور في القوانين..

والشعب هو الذي يدفع الثمن، بغلب وعذاب وإرهاق وضياع حقوق، والمحتالون وحدهم يجدون سبيلا للفكاك من تلك الدائرة الرهيبة وعندما يكشف المسئولون هذا، ولأن القوانين تافهة لا تتناسب دوما مع الخطأ، فكل ما يفعلونه هو إصدار قرارات جديدة، لسد ثغرات القديمة، ويتعذب الشعب أكثر، وينجح المحتالون في كشف ثغرة جديدة، وتدور الدائرة.. وهذا ما واجهته، مع أول مفاجأت بيروقراطستان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد العثور على المتبرع المتوافق، تصورت أن المشكلة الأكبر قد تم تجاوزها، وأن كل ما ينقص هو بضع إجراءات قانونية، ثم يحين دور عملية الزرع نفسها.. ولكن من الواضح أنني كنت واهما في نظرتي هذه، أو أنني نسيت كوننا في بلد لم يعد يحترم القانون أو الدستور، وصار كل مسئول، في كل موقع فيه يتصور أنه ناظر عزبة، أو أنها عزبة أبيه، يفعل بها ما يشاء ويسن لها قوانينه الخاصة، وقراراته المجحفة، دون ضابط أو رابط، ودون أن يحاسبه أو يعاقبه أحد، على العذاب الذي يسببه للمواطنين.. ربما لأن الحكومة نفسها لم تعد تبالي بالمواطنين، الذين لا

يملكون لها نفعا أو ضرا، ولم تعد تعمل أو تبالي، إلا من أجل شخص واحد لا غير، هو الذي يقوم بوضعها في السلطة، وعزلها منها أيضا..

وأول ما واجهني كان تصريح نقابة الأطباء.. كان استخراج تصريح، يبيح للمستشفى إجراء جراحة الزرع، يحتاج إلى أوراق عديدة، حملها منشور مطبوع يحتل صفحة كاملة..

ولأنني طبيب، وأدرك احتمال حدوث تجاوزات عديدة في هذا المضمار الذي تحول، مع تأخر صدور القوانين المنظمة له، إلى تجارة ضخمة تحكمها مافيا على أعلى المستويات، لم أعترض على الأوراق المطلوبة، على الرغم من كثرتها، فيما عدا بندا واحدا.. بندا يحتم الحصول من أقارب الدرجة الأولى على ما يفيد عدم استطاعتهم أو رغبتهم في التبرع!!

وأيا كانت النية الحسنة التي أضيف بموجبها هذا الشرط، فهو غير منطقي، وغير عملي على الإطلاق، ويدس أنفه في شئون عائلية وأسرية، قد تعاني من بعض المشكلات؛ فماذا لو أن شخصا يرغب في إخفاء مرضه عن أسرته، وهذا حقه.. أو شخص آخر، لا تربطه صلات جيدة بأفراد أسرته، وأرجو ألا يجيب أحدكم بأن هذا لا ينبغي أن يكون، فالأمر الذي نناقشه طبي بحت، وليس جزءا من حركة إصلاح اجتماعي.. وذلك الشرط كان وما زال يبدو لي مجحفا، وغير منطقي، وربما غير قانوني أيضا...

ولكن لأن المناقشة غير مجدية، فقد رحنا نعدّ الأوراق اللازمة، وذهبت شقيقاتي ووالدتي لتسجيل عدم قدرتهن على التبرع، في الشهر العقاري، لسبب بسيط للغاية؛ هو أن والدتى وحدها

تحمل فصيلة دمى، وقد تجاوزت السبعين من العمر متعها الله - سبحانه وتعالى - بالصحة والعافية.. وفي الشهر العقاري، كانت في انتظارهم مفاجأة جديدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التعليمات الواردة لمكاتب الشهر العقاري، في مصر كلها هو عدم تسجيل أية ورقة ذات صلة بموضوع التبرع بالأعضاء، أيا كان محتواها.. ومن هذا المنطلق، صار تنفيذ شرط نقابة الأطباء مستحيلا.. أو هكذا تصورت على الأقل..

وفي تلك المرحلة، وبينما أحاول البحث عن مخرج، جاء من يهمس في أذنى بأن هناك مستشفي كبيرا، يتبع جهة أكبر، لا يلتزم بالقواعد والقوانين المعمول بها بالنسبة لكافة المستشفيات، وأنه لا يحتاج إلى موافقة النقابة، لإجراء عملية الزرع..

ولما كان العلاج في ذلك المستشفى الكبير متاحا لي، بعد ما يقرب من عقدين من العمل الشاق، تصورت أن هذا هو الحل، واتجهت مباشرة إلى ذلك المستشفى، وسجلت اسمي، وحصلت على رقم كمبيوتر، وبدأت رحلة الاستعداد لعملية الزرع..

كان الطبيب المعالج واحدا من عمالقة زراعة الكلى في مصر؛ مما أشعرني باطمئنان كبير، وجعلني أمضى في الفحوص الطبية المطلوبة للمتبرع، والتي تكلفت مبلغا ضخما، ولكنها أكدت أنه المتبرع المثالي، حتى إن أحد المعالجين طلب منى ألا أتخلى عنه، مهما كانت المصاعب، ومهما كان الثمن..

وفي الوقت ذاته، أكملت أنا الفحوص اللازمة واستعدادا للجراحة، وكان من ضمنها فحص كفاءة عضلة القلب.. ولأنني

لم أكن أعاني من أية مشكلات قلبية واضحة، فقد بدا لي هذا مجرد فحص روتيني، ذهبت لإجرائه في معمل شهير..

ولكن النتيجة جاءت مفاجئة للغاية.. فعلى الرغم من غياب الأعراض، أشار الفحص إلى وجود متاعب غير محددة، في الشرايين التاجية بالقلب؛ مما يحتم إجراء قسطرة تشخيصية ربما تتطور إلى قسطرة علاجية، إذا ما استلزم الأمر.

وكانت هذه أول مرة أشعر فيها بالإحباط، منذ بدأت هذه التجربة، ليس بسبب ما يعانيه قلبي، ولكن لأن الجميع أكدوا أنه مع قصور الكلى، يتحتم أن أجرى عملية غسيل كلوى، مرة أو مرتين، بعد عمل القسطرة؛ للتخلص من المادة الصبغية المشعة، التي تستخدم خلال عملية التشخيص؛ فقد كان كل الجهد الذي أبذله، من أجل هدف واحد، ألا وهو تفادي رحلة الغسيل الكلوي، ولكن أنا أريد، وأنت تريد، والله – سبحانه وتعالى - يفعل ما يريد.. وعلى يد الدكتور حازم خميس، أجريت القسطرة التشخيصية، وكان الرجل بشوشا مهذبا، يتعامل ببساطة مدهشة، وبإخلاص شديد، وكان يداعبني بكلمات لطيفة، أثناء عمل القسطرة التشخيصية، قبل أن يلقى في وجهي بصدمة.. عنيفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القسطرة القلبية واحدة من العمليات القليلة، التي يمكن إجراؤها والمريض واع ومستيقظ، ولأنني طبيب، أدار الدكتور حازم خميس المونيتور الذي يسترشد به؛ ليسمح لى بمتابعة التشخيص، ورؤية قلبي من الداخل، وشرايين التاجية، ثم سألني مرة أخرى، إذا ما كنت أشعر بأية مشاكل، فلما أجبته بالنفي، فاجأني بأن هناك انسدادا في الشرايين التاجية، بنسبة ثمانين

بالمائة، وأن الأمر يحتاج إما إلى عملية قلب مفتوح، وإما إلى عدد دعامات القلب..

وكان من الطبيعي أن أختار الدعامات، التي يمكن تركيبها بالقسطرة نفسها، في نفس الجلسة.. وهكذا، أضيفت إلى قلبي أربع دعامات، مع بالون توسيع، ولم يعد ينقصنى سوي زمارة ليكتمل المولد..

وبعد العملية، جاء الجزء المؤلم، والذي حاولت تفاديه طوال الوقت، ولكن الفرار من المكتوب أمر محال.. وهكذا تم نقلي بنفس الفراش الذي أرقد عليه بعد العملية مباشرة، إلى وحدة غسيل كلوى مجاورة..

وهناك، وجدت نفسي وقد أصبحت جزءا من الصورة، التي بدت لي مؤلمة ومؤسفة منذ البداية.. عدد من المرضى يرقدون على أسرّة، وكل منهم مستسلم لجهاز الغسيل الكلوي، الذي يسحب الدم من جسده، وينقيه عبر فلاتر مختلفة، ثم يعيده إليه مرة أخرى... الوجوه كلها شاحبة مرهقة، والأجساد نحيلة ممصوصة، ولكن هذا هو وسيلتهم الوحيدة للحياة، وبعضهم يجري عمليات الغسيل الكلوي ثلاث مرات أسبوعيا لعدة سنوات..

ولأول مرة، اتصل جسدي بوحدة غسيل كلوي، ورأيت دمي ينسحب إليها، ثم يعود عبر خرطوم دقيق شفاف، وبدأت معنوياتي تهتز، واستسلمت للأمر كما يفعل أقراني، واستعنت بالصبر، طوال الجلسة، التي استغرقت ثلاث ساعات، بدت لي أشبه بثلاثة دهور، قبل أن أعود إلى حجرة العناية المركزة..

وأعترف هنا أن الأطباء المناوبين كانوا في غاية الاهتمام والعناية، خاصة وأنهم جميعا تقريبا كانوا من قرائي الدائمين، حتى إنهم اهتموا جدا بالتخفيف من الأمر على، والاطمئنان كل ساعة تقريبا، حتى غادرت المستشفى في اليوم التالي..

كان إجراء القسطرة العلاجية يحتم تأخير جراحة الزرع لشهر كامل على الأقل، لذا فقد قررت الانتظار في صبر، لولا أنه في اليوم التالي مباشرة، كانت في انتظاري صدمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ بدأ جهازي الكلوي في الانهيار، كانت كليتاي قادرتين على إخراج كمية معقولة من الماء والسموم، على الرغم من أن القسم الأكبر كان يختزن في خلايا جسدي، وينفخها على نحو مرهق ومؤلم، ولكن عقب عملية القسطرة القلبية، وعلى الرغم من إجراء غسيل كلوي بعدها، توقف خروج البول تماما..

يومان كاملان لم يخرج فيهما جسدي قطرة واحدة، فبدأ ينتفخ، وتثاقلت قدماي، وبدا الأمر كان الكليتين قد توقفتا تماما وأصبحت هناك حتمية لإجراء عمليات الغسيل الكلوي، التي حاولت تحاشيها.. وبالفعل، بدأت وزوجتي في البحث عن مركز أو مستشفى قريب؛ لمتابعة جلسات الغسيل.. وشعرت عندئذ أنه ليس هناك مهرب من المكتوب بالفعل، واستسلمت لمصيري تماما..

ولكن في اليوم الثالث، ودون مقدمات، عادت الكليتان لطرد كميات ضئيلة من الماء والسموم، تزايدت تدريجيا، حتى بلغت المعدل السابق، قبيل إجراء العملية تماما، مما يعني أنني لست مضطرا بعد إلى إجراء جلسات الغسيل الكلوي..

ولا أحد يمكنه أن يتصور كم شعرت بالارتياح، مع هذا التطور؟

مما ساعدني على احتمال فترة الشهر، التي يحتاجها استقرار الدعامات، قبل الشروع في الإعداد لعملية زرع الكلى ومضى الشهر، وذهبت لتحديد موعد إجراء الجراحة، وعندها فاجئوني بحتمية أن يأتي قريب للمتبرع، من الدرجة الأولى للإقرار بالتبرع.. ولما كان هذا مخالفا للقانون العام، الذي يؤكد أن كل شخص يتجاوز الواحد والعشرين من عمره، يعد مسئولا مسئولية كاملة عن أفعاله، ما لم يكن يعاني من قصور عقلي، أو ضعف في الإدراك، فقد اندهشت بشدة للشرط، الذي وضع أمامي عقبة جديدة غير متوقعة، خاصة وأن المتبرع الذي توافقت أنسجته مع أنسجتي، على نحو أدهش الأطباء أنفسهم، كان يصر بشدة على ألا يخبر عائلته بالأمر..

وهكذا وقعت بين شقي الرحا؛ فلا المتبرع يريد إحضار قريب من الدرجة الأولى، ولا المستشفي، الذي اعتاد عدم الالتزام بالقوانين، يوافق على استثنائي من ذلك الشرط، على الرغم من سنوات العمل الطويلة..

ولأن الأمر مخالف للمنطق والقانون، والدستور أيضا، حاولت أن أفهم سر إصرار مدير المستشفى على هذا الشرط، وكان الجواب كارثة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات يوم، وبعد إجراء زراعة كلى ناجحة، وإقرار المتبرع بموافقته، قام والده بإبلاغ النيابة بأن ابنه تم اختطافه، وإجباره على منح كليته لأحد ذوي الشأن والمفترض، في حالة كهذه، أن يقدم المستشفى إقرار المريض الذي يتجاوز الواحد والعشرين

من العمر؛ ليثبت كذب البلاغ، وأن ينتهي الأمر عند هذا.. ولكن المشكلة أن كل ذوي المناصب يصابون بهلع مرضي، من مجرد الاتهام، ويبدون كأنهم أضعف من مواجهة أي موقف يمكن أن يواجهة مواطن عادى، ثم إنهم يتميزون بأنهم يحتلون مقاعد سلطوية، تتيح لهم أن يكونوا جزءا من التجاوزات القانونية، التي شاعت وفاحت في هذا العصر بالتحديد.. ولأنهم ضعاف الأعصاب والشكيمة، فأول ما يتبادر إلى أذهانهم هو إصدار قرارات تبعدهم عن المسئولية، حتى لو خالفت كل القوانين، وعذبت كل البشر..

المهم هم، ومقاعدهم، وبقاؤهم، واستمرارهم..

وهكذا، ومع حالة الفزع والسلطة، صدر قرار بضرورة حضور قريب من الدرجة الأولى؛ للإقرار بالتبرع، وهذا القرار مضحك للغاية، من وجهة نظري؛ فماذا لو جاء قريب الدرجة الأولى، وأقرّ بالتبرع، ثم جاء قريب درجة ثانية بعدها، وقدم بلاغة للنيابة أيضا؟!.. هل سيمتد القرار عندئذ، إلى ضرورة إقرار قريب من الدرجة الثانية؟!..

لو استمرت القرارات تصدر بهذا الشكل البيروقراطي المذعور، سينتهي الأمر بضرورة تجريس المتبرع، وفضحه في (الحتة) كلها، بأن يحصل على موافقة عم عبده البقال، والواد حكشة صبي القهوجي.. والمضحك أن تبرير هذا جاء بأن المستشفى يحاول إجبار المجتمع على قبول فكرة التبرع، أي إن ذلك الصرح الطبي، يصر على لعب دور المصلح الاجتماعي، وينسى دوره في أهمية المحافظة على حياة وصحة ومصلحة المريض..

أيامها فكرت أن أكتب عن هذا الأمر، ولكنني رأيت أن الكتابة عنه أثناء المشكلة، سيجعله يتخذ طابعا شخصيا، حتى لو حاولت العكس؛ لذا فقد قررت تأجيل الكتابة حتى تنتهي الأزمة ليمكنني مناقشة الأمر موضوعيا، ودون انفعال..

وعلى الرغم من محاولات عديدة، واتصالات لا حصر لها، وتدخل بعض الأصدقاء للوساطة، منهم الدكتور جلال البطوطي، والزميلة نجلاء بدر، أدركت أنه لا أمل في إجراء الجراحة في ذلك المستشفى الكبير، خاصة وأن التوافق المدهش لم يثر ذرة من الاهتمام لدى المدير، الذي طالبني بالبحث عن متبرع آخر بكل بساطة.

وهنا قررت الابتعاد عن المستشفى الكبير، والبحث عن حل آخر.. وهنا ظهر نوع مختلف من المفاجآت.. نوع جديد تماما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في بلدنا منظومة فساد ضخمة، من أهم أسبابها أن نظام الحكم لدينا يسير بأسلوب العمد والمشايخ، ويعتمد اعتمادا كليا على أهل الثقة، الذي يرى النظام فيهم، دون سواهم، أهل الخبرة والكفاءة، ويصر على حمايتهم، سواء أصابوا أو أخطئوا باعتبارهم (رجالتهم)، وهي سياسة رشيدة، اتبعها المشير عبد الحكيم عامر قديما، فكانت النتيجة كارثة، وهزيمة ساخنة ماحقة، أطلقنا عليها، من باب حفظ ماء الوجه اسم (النكسة).

ولأن الفساد قد أصبح سمة عامة، فالجميع يحاول أن يجبرك على السقوط في مستنقعه، ويسعى جاهدا لتعذيبك وقهرك، لو حاولت الإفلات منه.. ومن أهم وسائل إغراق الناس في مستنقع الفساد، تلك النظم والقرارات الإدارية المعقدة، التي لا سبيل

للإفلات منها سوى في التحايل، أو الالتفات، أو التزوير، أو الرشوة، أما المواطن الشريف، فهو يلف فيها ويدور، حتى يتملكه اليأس، مستعدا ومؤهلا للفساد، في سبيل حل مشكلاته، أو تجاوز عقباته..

وخلال تجربتي، ومهما كانت المصاعب، كنت مصرا على الالتزام بالقواعد الصحيحة، والبحث عن حلول منطقية (في بلد لا يعرف المنطق)، أو مخارج قانونية، من كل مأزق، وكل هذا وحالتي الصحية تتدهور بشكل مطرد، وتورم القدمين يتضاعف، حتى أصبح السير، مجرد السير، مشقة لا يمكنني تحملها؛ مما استدعى استشارة طبيب باطني متخصص في أمراض الكلى، والحصول على رأيه في الفحوص التي تم إجراؤها للمتبرع، ودرجة توافق أنسجته مع أنسجتي ونصحنى الدكتور حازم أبو الفتوح باللجوء إلى الدكتور مصطفى أيمن، ولم أكن قد تعاملت معه من قبل، فحملت كل الأوراق والفحوص، وذهبت إليه، في نفس الوقت الذي قام فيه الزميل خيري رمضان بمحاولة مشكورة، جعلت مستشفى سعد بالمملكة العربية السعودية يعرض إجراء الجراحة لديه، وعلى نفقته، شاملة تذاكر الطيران والإقامة، لي، وللمتبرع، وللمرافق أيضا، ولقد أدهش هذا الصديق إبراهيم عيسى، وأحزنه في الوقت ذاته، وأخبرني أنه كان يتمنى لو أن بلدى هو الذي قدم مثل هذا العرض، لا مستشفى سعودي..

المهم أنني قد ذهبت إلى الدكتور مصطفى أيمن، في مرحلة تصورت خلالها أنه لا أمل في إجراء الجراحة في مصر، ولكن مع أول زيارة له، تبدلت الصورة.. تماما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في شبابنا، وعند التحاقنا بكلية الطب، كانت في أذهاننا صورة مثالية للطبيب، وكانت لدى كل منا أحلامه وطموحاته..

وبالنسبة لى، كان الطبيب أشبه بفدائي، يمنح نفسه لهدف سامٍ نبيل، ألا وهو نزع الألم والعذاب من المرضى، ومنهم الرحمة والأمل والتعاطف، ويتفاني لإنقاذ الأرواح وإسعافها، ويترك الرزق للخالق عز وجل..

ومنذ بدأت تجربتي هذه مع المرض، لم ألتق بطبيب تناغم تماما مع تلك الصورة مثل الدكتور مصطفى أيمن؛ فهو طبيب مخلص، متعاطف، حساس، شديد التهذيب والاحترام، وتشعر من اللحظة الأولى أنه قد احتواك، أو أنك صديق قديم له..

صورة رائعة للطبيب، كما ينبغي أن يكون، وكما يتمنى أي مريض أن يجد.. ولأنه شديد الاهتمام بمرضاه، كان من الطبيعي أن تسير العجلة في سرعة، منذ أول زيارة له؛ ففيها اقترح إجراء الجراحة في مستشفى مصر الدولي، وقرن اقتراحه هذا بخطاب إلى المستشفى، لاستخراج تصريح نقابة الأطباء وهناك، في المستشفى، استجاب الدكتور محمود عبد العزيز على الفور، وحصلنا على خطاب المستشفى.. ولأن الوقت قد حان، كما أراد له، الله سبحانه وتعالى، قدمنا الخطاب مع الفحوص والتحاليل والمتبرع نفسه إلى نقابة الأطباء، وسألنا عن مشكلة إقرار أقارب الدرجة الأولى، فأخبرونا أنه ليس من المطلوب تسجيل الإقرارات في الشهر العقاري، وإنما هي إقرارات خطية، مع صور البطاقات فحسب؛ مما جعلنا نستوفي الأوراق والإجراءات كلها خلال يومين.. ولأنني طبيب، ومع تفهم الصديقين الدكتور عصام العريان، والدكتور عبد الفتاح رزق، صدر التصريح في مدة قياسية..

وعدت إلى الدكتور مصطفى أيمن، الذي سألني عن الموعد المناسب لإجراء الجراحة، التي سيجريها واحد من عمالقة زراعة الكلي في مصر، وهو الدكتور إبراهيم أبو الفتوح، بمساعدة الدكتور حازم أبو الفتوح.. ولما كنت قد عانيت الأمرين، خلال الأشهر السابقة، فقد طلبت منه إجراء الجراحة فورا، فما كان منه إلا أن أرسلني إلى المستشفى بالفعل، حيث استقبلنا الدكتور محمود عبد العزيز، بدمائته البسيطة، وتمت الإجراءات بسرعة، لي وللمتبرع، على أن يتم إجراء الجراحة صباح اليوم التالى وطوال الليل، لم أكن أصدق أن المشكلة قد انتهت أخيرا، وأنني سأجرى العملية بالفعل، بعد أن استعددت لها ثلاث مرات، وتم إرجاؤها لأسباب إدارية تعنتية!!...

وفي الصباح التالي، تم نقلي مع المتبرع إلى حجرة العمليات، وحضر الأطباء، وتم تخديرنا، وبدعوا في إجراء الجراحة، التي كادت تنتهي بكارثة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما نتحدث عن الأخطاء الطبية، اعتدنا أن يثور الأطباء ويغضبون، على الرغم من أن غضبتهم نفسها تعني أنهم بشر والبشر ليسوا معصومين من الخطا، مهما بلغت مكانتهم، ومهما بلغ علمهم.. وعندما نشرت في السابق سلسلة أعمدة.. عن الفساد الطبى وأخطاء الأطباء، وجدت ثورة عارمة من الجميع، وعلى رأسهم رفاقي القدامى وزملاء دفعتي في كلية الطب، والذين هدد بعضهم بمقاطعتي، لو استمررت في الحملة؛ مما أشعرني بأنهم يجهلون حتما أسس العمل الصحفي.. فكل سطر أكتبه، أو كتبته، في حياتي كلها، سيجد من ينتقده ويغضب منه، ومن يؤيده ويتفاعل معه، ولو أن صحفي واحد، في العالم كله، تساءل

عما إذا كان ما يكتبه سيغضب الجميع أم لا، لتوقفت مهنة الصحافة وانقرضت، وظهرت بدلا منها مهنة المطيباتي..

ولكي يهدأ الزملاء، دعوني أخبرهم أنني الطبيب الذي أخطأ هذه المرة؛ فعندما أجريت القسطرة القلبية، ولضمان ثبات الدعامات، كنت أتناول جرعة منتظمة من عقار قوي، مانع للتجلط، وعندما ذهبت لزيارة الدكتور مصطفى أيمن للمرة الأولى، أخبرني بضرورة إيقاف العقار قبل عشرة أيام من إجراء الجراحة..

ولكن المشاكل الإدارية أنهكتني، وتأجلت الجراحة أكثر من مرة، لأسباب بيروقراطية بحتة، حتى إنني شعرت أن زرع الأعضاء يعتبر، في العالم كله، مشكلة طبية بحتة، أما في عالمنا العربي، فهو مشكلة قانونية وشرعية واجتماعية فقط..

المهم أنه عندما حصلت على موافقة النقابة، وتحدد موعد العملية، كنت متلهفا لإجرائها، ومنشغلا بهذا، حتى إنني نسيت أن أوقف العقار، وعندما تذكرت هذا، أوقفته قبل الجراحة بيومين فحسب، ولم أدرك العواقب الوخيمة لهذا..

وفي الثامنة صباحا، وبعد ليلة من الإعداد والتجهيز في المستشفى، تم نقلي مع المتبرع إلى غرفة العمليات، وحضر العملاق الأستاذ الدكتور إبراهيم أبو الفتوح، والدكتور حازم أبو الفتوح، وسرى البنج في عروقي، ورحت في سبات عميق..

وكما علمت فيما بعد، فما إن بدأ الدكتور إبراهيم في إجراء الجراحة، حتى فوجئ بنزيف حاد للغاية؛ بسبب العقار المضاد للتجلط.. ولما كانت كلية المتبرع قد انتزعت بالفعل، كان من المحتم الاستمرار في إجراء الجراحة، والاعتماد على نقل كميات

من الدم، لتعويض ما أفقده.. وبقياس نسبة الهيموجلوبين لحظتها، تبين أنها تقل عن نصف النسبة المقبولة طبيا.. وكان هذا يعني كارثة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الرغم من المتاعب الجمة، والعقبات التي لا حصر لها، التي واجهتها لإجراء الجراحة، إلا أنه ما من شك في أنني كنت محظوظا للغاية، خلال الجراحة نفسها، فمع النزيف الحاد، وانخفاض نسبة الهيموجلوبين، كان من الطبيعي أن تكون هذه لحظاتي الأخيرة، لولا توفيق الله، سبحانه وتعالى، وبراعة العملاق إبراهيم أبو الفتوح، وحازم أبو الفتوح، وكل الطاقم الجراحي المصاحب، فالأستاذ كان يعمل بكل مهارة وسرعة، في وسط غارق في الدم، الذي يواصل الانهمار في غزارة، حتى إن المستشفى كان يحتفظ بثلاثة لترات ونصف من الدم، استعدادا للعملية وما بعدها، ولكنهم إلى اضطروا نقل الكمية كاملة إلى عروقي، في محاولة لإنقاذ حياتي وكما يشبه المعجزة، انتهت العملية بنجاح، بعد أكثر من أربع ساعات متصلة، ولم أعلم بما حدث في حجرة العمليات إلا بعد أن استعدت وعيي في المساء، وأخبرني الدكتور مصطفي بالأمر، وما أدهشني وأفزعني حقا، أنه بعد ثلاث لترات ونصف من الدم، كانت نسبة الهيموجلوبين في دمي نصف النسبة المطلوبة فحسب؛ مما حتم نقل كمية أخرى من الدم الطازج غير المختزن، وبسرعة منحتني زوجتي بعض دمها، وكذلك فعل ابني، ثم جاء زوج شقيقتي المهندس خالد فكري، وأضاف إليهما كمية مماثلة، وارتفعت نسبة الهيموجلوبين، ولكنها لم تبلغ المعدل المطلوب.. وهنا طلبت من الصديقين محمد فتحي ومحمد سامي، إعلان الأمر للقراء..

وفور أن فعلا، شاهدت أعظم مظاهرة حب، في حياتي كلها؛ فقد توافد القراء بالعشرات على المستشفى، وكلهم يصرون على التبرع بدمهم، حتى ضج بنك الدم بالشكوى، وأخبرنا أنه عاجز عن العمل، بسبب كثرة المتبرعين..

ولابد وأن أتقدم هنا بالشكر والعرفان لكل الأصدقاء والقراء الذين ساندوني، والذين تجرى دماؤهم في عروقي الآن، وللاستاذ الدكتور إبراهيم أبو الفتوح، والأستاذ الدكتور حازم أبو الفتوح ومساعديهما، الذين عانوا الكثير في عمليتي الجراحية، وأقدم شكرا خاصا جدا للأستاذ الدكتور مصطفى أيمن، على كل ماقدمه ويقدمه لى من رعاية واهتمام، بأسلوب هو قدوة لكل من يقتدي، في الطب والحياة، وأقدم شكرا متميزا للأصدقاء شريف شوقي ومحمد فتحي ومحمد سامي وتامر إبراهيم، وأحمد خالد، وياسمين شفيق، على مساندتهم لي، وأخص بالشكر الجزيل أستاذي ووالدي الروحي الأستاذ حمدي مصطفى، والقارئ الصديق راشد عبد الرحمن راشد الزياني من البحرين، اللذين قدما المساهمة الأكبر في هذه المحنة..

ولقد تجاوزت الأزمة، بحمد الله ورعايته، ورعاية الأصدقاء والعائلة، وقررت أن أنشر تفاصيلها كلها، عندما أعود إلى منزلي..

ولكن بقيت مشكلة الفشل الكلوي وزرع الأعضاء بلا حل؛ فالإحصائيات تقول بأنه لدينا ثلاثة ملايين مريض فشل كلوي سنويا، وبحسبة بسيطة، سندرك أننا سنصبح جميقا شعبا مريضا، خلال عشرين عاما فحسب، ما لم يبدأ المسئولون دراسة جادة، وصحيحة، ولا تعتمد على مبدأ (كله تمام يافندم)؛ لمعرفة الأسباب الحقيقية للإصابة بالفشل الكلوي، والمعوقات الفعلية، أمام قانون نقل الأعضاء، الذي لن يفوق تغيير الدستور

كله في أسبوعين؛ لأن قائمة الانتظار ضخمة، وما دامت الدولة عاجزة عن منع المرض، فلا ينبغي أن تمنع وسائل الشفاء منه أيضا، ولا ينبغي أن تعكس فشلها على المرضى والمحتاجين، وما دام مجلس الشعب بجلالة قدره، يقر تغييرات دستورية في أسبوعين، فلا أقل من أن يسترجع ذاكرته، ويدرك أنه مجلس الشعب، وليس مجلس الحاكم، وإلا... فعلى مصر السلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18- الموت حيًّا..

حبيبتي..

اسمحي لي أن أستخدم لقب حبيبتي لآخر مرة، وأنا أخطّ إليكِ هذا الخطاب، الذي ربما لن أرسله إليك أبدا.. اسمحي لي أن أخاطبكِ، ولآخر مرة، باعتبارك الزهرة، التي تفتحت في قلبي، وأينعت في كياني، ومنحتني أجمل وأعظم وأمتع سنوات عمري..

لست أدري، حتى وأنا أجلس أمام أوراقي وأقلامي، لماذا أكتب لك خطابي هذا، بعد أن لفظ حبك لى أنفاسه الأخيرة في مسامعي، ولا لماذا لم أستسلم للقدر، الذي حرمني منك، ومن حبك، ومن لحظات رائعة، كنت أستمتع فيها بقربك، ولكن ربما لا أكتبه لكِ، ولكن لنفسي..

نفسى التى ألومها ألف مرة، في كل لحظة؛ لأنها حتمًا السبب في تحول مشاعرك عني، وانصرافها إلى غيري...

فعندما غزل الحب خيوط عشقك في قلبي، شعرت به ينبض، لأول مرة في حياتي..

ينبض نبضا حقيقيا، له نغمات أعذب موسيقى سرت في وجداني، منذ تفتحت عيناي على الدنيا، وأدركت لحظتها أنني لم أحب قط قبل أن ألتقيك، ولم أعشق أبدا، قبل أن تقع عيناي على وجهك الهادي الصبوح، وابتسامتك المشرقة، وبساطتك الرائعة، التي خلبت لبي منذ اللحظة الأولى.

وكم كانت فرحتي وسعادتي، عندما أدركت أنك تبادلينني حبا بحب..

بل وكنت أكثر مني حبا، وأطهر نفسا، وأغزر مشاعرا..

والأهم، أنك كنت الأكثر عطاء وتفانيا..

وهنا تكمن المشكلة..

فطوال حياتي، اعتدت أن أعطي أكثر مما أخذ، ولكن معك، انقلب الحال واختلف، ولست أدري حتى كيف فجأة، وجدت نفسي أنهل منك أكثر مما أعطيك، وظللت أنت تعطين دون حساب، ودون انتظار أدنى مقابل، مما أصابني بطمع لم ألفه، ورحت آخذ منكِ أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

وظللتِ تعطين.. وتعطين.. وتعطين..

ومع الوقت، اعتدت عطاءك، واعتدت طمعي وشراهتي..

وحتما جاءت لحظة الانكسار..

ورويدا رويدا، رحت تبتعدين عنى..

كنتِ ما زلتِ تعطين بلا تقتير..

وكنت أنهل بلا حساب..

ولكن مشاعركِ لم تعد صافية بسيطة كما كانت..

عطاؤك لم يختلف، ولكن مشاعرك تباعدت..

وتباعدت..

وتباعدت...

وعندما انتبهت إلى هذا، كان الأوان قد فات...

عندما انتبهت، كان قلبك قد م أنانيتي، وإسرافي في الأخذ، وكان عقلك قد أرهقته متاعبي ومشاكلى المتصلة، وكان حبي قد تسلل خارج قلبك، حتى لم تعد نفسك تحتمله، ولم يعد كيانك يرغبه..

والعجيب أننى، عندما بدأ كل هذا، كنت ألاحظ إعجابك الصامت بصديق مشترك، وكنت أشاركك الإعجاب به، ولكن أنانيتي، وثقتي المفرطة في حبك لى، منعاني من الانتباه إلى ما يمكن أن يولده هذا، أو يفعله بقلب مرهف رقيق كقلبك..

حتى جاء ما لا يمكن الإفلات منه في لحظة، أراد القدر أن يحسم الأمور، فتوقفنا عن اللقاء طويلا، لظروف خارجة عن إرادتي أنا على الأقل..

وابتعدنا..

ابتعدنا طويلا..

وكثيرا..

وربما كنت أتصور أيامها أن حبنا حقيقة ثابتة راسخة، وأنه حتى النوائب والزمن، لن يمكنهما النيل منه..

ولكنني كنت واهما..

إننا لم نبتعد بجسدينا فقط..

ابتعدنا حتى بمشاعرنا..

وهنا، ومع قربه اليومي منك، تحقق المثل القديم..

القريب من العين، قريب من القلب..

والبعيد عن العين، بعيد عن القلب..

كنت أنا بعيدا، وكان هو قريبا، وكان قلبك ما زال ينبض..

ويحب..

ويهفو..

ولكنني، وبكل أسف الدنيا، لم أعد أحظى بلمحة منه..

كل ما بقى لديك، هو إحساسي بالوفاء، واقتناع بالولاء، وصراع في الأعماق، بين قلب يحب، وعقل يقاوم.. وهنا شعرت..

وخفت..

بل ارتعبت..

وفي لحظة ما، أقنعني عقلي بأنه من الضروري أن نفترق..

من الضروري أن أتركك لقلبك..

لحبك..

لشبابك..

العصر الذهبي الجميل..

ولكن قلبي كان يقاوم..

ويقاوم ..

ويقاوم..

فرق كبير جدا بين ما يقنع العقل، وما يرضى القلب..

فالعقل يدرك أن الحب ليسن أبدا أنانيا..

الحب هو الدافع الوحيد في الدنيا، الذي يجعلك ترضين بسعادة من تحبين، وتسعين إليها، حتى لو كان فيها حزنك أنتِ..

وألمكِ..

وعذابكِ..

العقل يدرك هذا..

ولكن القلب يتمزق لمعرفته..

وبعقلي، عرضت عليك أن نفترق، وأن تمضي في حياتك، وتصنعي المستقبل، الذي يضمن لك السعادة والهناء..

وبقلبي، كنت أتمنى ألا يحدث هذا..

أبدا..

وفي البداية، رفضت أنت العرض بشدة....

رفضته، ليس من منطق الحب، ولكن من منطق الواجب..

وفي هذا أيضا، فرق كبير جدا، بين ما يقبله العقل، وما يرضاه القلب..

عقلك كان يرفض التخلى عني، بعد سنوات الحب الطويلة..

وقلبك كان يتمنى هذا..

ويرغبه..

ويريده..

بشدة..

وكلما كنت أشعر بتباعدك، كنت أكرر عرضي..

وتكررين رفضكِ..

وكان هذا يجعلنا نتباعد أكثر..

ويجعل الأسوار بيننا ترتفع..

وترتفع..

وترتفع..

وعندما أفقت ذات يوم، وأدركت أن الأسوار قد بلغت ذروة ارتفاعنا، أصررت أن نلتقي..

ونتحدث..

كان ذلك اليوم، الذي التقينا فيه، يوافق الذكرى العاشرة ليوم حبنا، ورأيت، ربما لأنني ما زلت أحتفظ ببقايا رومانسية، أنه أفضل يوم لحسم الأمور..

وعندما التقينا، كنتِ بطبيعتك الطاهرة، تحاولين منحي شيئا من السعادة..

وهذا ما أحببته فيكِ دوما..

وعشقته..

واحترمته..

كنت دوما تبذلين كل الجهد؛ لإسعاد من حولك، على الرغم مما يجشمك هذا من تعب، ومشقة، وتضحية..

وكنت مصرا على المواجهة..

وبعد احتفال بسيط، قدمت لكِ فيه آخر هدية، أو هدية الوداع كما أسميتها في أعماقي، واجهتك..

أخبرتك بكل ما أشعر أنه يدور في أعماقك..

شرحت لك كيف أن كل ما أبتغيه هو سعادتك..

وهناؤك..

ومستقبلك..

أبلغتك أنكِ لستِ مدينة لى بأي شيء..

حتى المشاعر..

وكنتِ مترددة..

خائفة..

لذا فقد ساعدتكِ بقدر إمكاني، حتى تتجاوزي هذا، وتصارحيني بما يعتمل في نفسكِ..

ويبدو أنني نجحت..

لأنكِ بحتِ بما في داخلكِ..

أخبرتني أنك تشعرين بحبٍ آخر، ينمو في أعماقك..

حب تجاه ذلك الصديق..

كان هذا، على الرغم من توقعي إياه، أشبه بخنجر، انغرس في أعمق أعماق قلبي، بمنتهى منتهى القسوة..

وبينما قلبي ينزف ألما، حاولت جاهدا أن أخفف عنك الأمر..

كان عقلي يتحدث إليك بهدوء وروية، ورصانة وخفوت، وقلبي يصرخ وينتحب، ويبكي بدموع من حمم ملتهبة، تسري في عروقي كألف ألف نار، لتشعل كل ذرة من كياني، وتدمي كل لمحة من وجودي..

وبعد اللقاء والمواجهة، كان من المحتم أن نفترق..

فافترقنا..

افترقنا، وكياني ممزق، بين عقل يدرك أن هذا حقكِ، ولا أحد في الكون يمكنه منازعتك فيه، وأن شبابك وجمالك يفتحان أمامكِ مستقبلا مشرقا، لا ينبغي لي، أو لغيري، اعتراض طريقه، ولا أن

يحرم الدنيا من زوجة رائعة، وأم أكثر روعة، ومن قلب متفتح، ونفس طاهرة، وحنان يكفي لإسعاد الدنيا كلها، ولا من مشاعر نادرة، تهفو كل خلية في الكون إلى لمحة منها، وقلب يدعوني في إلحاح إلى القتال؛ للاحتفاظ بك وسرعان ما حسم عقلي الصراع..

افترقنا، وقد عاهدت نفسي على أن أبتعد تماما عن طريقك، حتى تكوني حرة في حياتك، وحب، واختياراتك، وأن أقتل الوادع قلبي، وأكتم نحيب حبي، وأذبح آلام وجداني، وكل هذا فقط، لتسعدي..

حتى لو كان هذا مع غيري..

صحيح أنه من المستحيل نسيان حب عشر سنوات، حتى في عشرة أشهر، ولكن الصراع انتهى...

انتهى الصراع بين عقلي وقلبي..

انتهى؛ لأنه لم يعد لدي قلب..

فعندما غادرت، انتزعته معك، ولم يعد ينبض كما عهدته..

لم يعد ينبض؛ لأنه كان ينبض فقط بحبك، ويخفق فقط من أجلك..

وبعدك، لا يحق له أن ينبض، ولا يمكنه أن يخفق..

كل ما بقى لي هو عذاب الندم؛ لأنني حرمتك من حريتك لأعوام، لا يدرى سواك، والله (سبحانه وتعالى) عددها..

الندم على سنوات عمرك الذهبية، التي قتلتها بأنانيتي ولهفتي، ورغبتي العمياء في قربكِ مني..

سنوات كنت فيها إلى جانبي، بدافع الواجب، لا الحب..

وما أعظمك..
ما أروع عطاءكِ الماسي العظيم..
من أجله، جلست أكتب ما أكتبه..
ولكن، هل يمكن أن أرسل إليك هذا الخطاب؟!..
لا أظن..

لو أرسلته، ستتصورين أنني أحاول استمالتكِ مرة أخرى..
وأقسم إنني لم ولن أحاول هذا..
لقد كانت السنوات السابقة عظيمة؛ لأنني تصورت أن كل منا لا يعشق سوى الأخر، ولا يمكن أن يعشق سوى الآخر..
إن قلبي ملككِ، وقلبكِ ملكي..
وإلى الأبد..
أما الآن فأنا أدرك أنه لم يعد لي..
لن أرسل الخطاب؛ لأنني لن أجرؤ..
ولن أقدر..
انسيني إذن يا حبيبة كل ذرة في كياني..
امضي في حياتكِ، ولا تلتفتي خلفك لحظة واحدة..
وسامحيني، واغفري لي..
اغفري لي سنوات أضعتها من عمركِ..
سامحيني على مشاعر سلبتكِ إياها، دون وجه حق..
اغفري لي وسامحيني، فما تصورت أبدا أننا سنفترق يوما..

ولا تنشغلي ولو لوهلة بمشاعري أو حياتي...

فقد ذابت مشاعري..

ولم تعد لي حياة..

كنت حياتي، وحبي، وكياني، ووجودي..

وبعدك صرت مجرد كيان بشري فارغ..

مجرد بشري، حكمت عليه الدنيا بعقوبة الحياة، وينتظر في شوق ولهفة، لحظة الإفراج..

جثة هامدة، تمشي على قدمين..

ولحظة الرحيل..

أصبحت حيًا، في عيون الآخرين، وميتا، في واقعي الفعلي..

وما أشق الموت..

حيًا..

أنا.

19- فلسفة الخيال..

مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، غرقت الإمبراطورية الصينية في حروب طاحنة، للحفاظ على أمنها، وضمان وحدتها، والدفاع عن أرضها، ضد غزاة جذبتهم حضارتها من كل أركان الأرض..

وفي عام 1232 م، بلغت تلك الحروب ذروتها، وحاصر الأعداء الإمبراطورية الصفراء، وهموا باقتحامها، واحتلالها، و.....

ولكن التاريخ يحمل لنا مفاجأة مدهشة، في ذلك العام بالتحديد فلأول مرة، استخدم الصينيون ما وصفته كتب التاريخ بأسهم النار الطائرة..

ولكن بعض العلماء يؤكدون، أن تلك الأسهم، لم تكن سوى أول صواريخ عرفها البشر..

فأكثر ما امتاز به الصينيون، في تلك الفترة، بعد براعتهم الكيميائية، كانت قدرتهم على الخيال والابتكار..

وخيالهم، مع كيميائهم، صنعا أول الصواريخ..

وفي عام 1812 م، وأثناء حرب البريطانيين مع الأمريكيين، طور البريطاني (ويليام كونجرين) صواريخ تحمل مواد متفجرة..

وكانت مفاجأة للأمريكيين..

ونقطة تفوق البريطانيين..

ولكن صواريخ (كونجرين) لم تكن بالقوة الكافية، لتربح (بريطانيا) الحرب، لذا فقد طواها الزمن، ونساها الأمريكيون، مع فرحتهم بالاستقلال، فاختفت في خيال العلماء، حتى عام

1903 م، عندما خرج مدرس الثانوي الروسي (كونستانتين تسيبو لكوفيسكي) بأول نظرية علمية صحيحة لإطلاق الصواريخ.

وكانت هذه هي البداية العلمية الحقيقية..

ولكن القاعدة الأساسية، في التاريخ كله، تؤكد أن الخيال يسبق العلم دوما..

ويلهمه..

ويدعمه..

ففي عام 1870 م، وقبل نظرية (تسيبو لكوفيسكي) بربع قرن تقريبا، نشر أبو الخيال العلمي (جول فيرن) (1828 - 1905 م) روايته الخالدة، (حول القمر)..

وفي روايته، وقبل أن ينشأ علم الفضاء، تخيل (فيرن) الصواريخ، وإطلاقها، ومناطق انعدام الوزن، والمسارات الكونية..

كل هذا توصل إليه خياله، وصاغه قلمه المبدع في روائع ما زالت متداولة، حتى يومنا هذا..

وروائعه هذه، هي التي ألهمت قرينه البريطاني (هربرت جورج ويلز)، (1866 - 1946 م)، ليضع بدوره رائعتيه، (حرب الكواكب)، و (أول من وصل القمر) (1898 م).

الاثنان سبق خيالهما عصرهما بعدة سنوات..

وبعدة مراحل..

فبخيالهما صعدا إلى القمر، قبل أن يأتي الأمريكي (روبرت جودارد)، ليصنع أول صاروخ بطاقة دفع، في عام 1926 م..

ويصبح بهذا أبا الصواريخ..

ولكن التطوير الفعلي والحقيقي للصواريخ، التي نعرفها الآن، ولد على يد الألماني (فون براون)، في الحرب العالمية الثانية، ليمنح النازية صاروخيها المدمرين (ف - 1)، و (ف - 2)، اللذين دمرا نصف (لندن)، وكاد يمنحها تحفته (ف -3)، القادرة على عبور المحيط، وضرب الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، لولا أن سقط الرايخ الثالث، وخسرت النازية الحرب، فانتقل (فون براون)، مع ألفي رجل من علماء الصواريخ إلى (أمريكا)؛ ليبدأ هناك عصر الفضاء..

الأمر كله بدأ بخيال إذن..

وهنا تكمن الفلسفة..

فلسفة الخيال..

فالحضارات العظيمة، والمخترعات الرائعة والمذهلة، لم تكن في بدايتها سوى فكرة..

إلهام..

خيال..

ومن الخيال، تنبت دوما بذرة واقع..

وتنمو..

وتكبر..

وتمتد فروعها في كل مكان..

والعلم يتأثر دوما بالخيال، ويسعى تخلفاء وايؤمن بأنه ما من لمحة وثبت إلى عقل ما، إلا وهناك وسيلة لتحويلها إلى حقيقة..

حقيقة علمية..

ومادية..

وموجودة..

الغواصة أيضا بدأت بكرة معدنية مصمتة، ابتكرها عقل الهولندي (كورينليوس فان دريبل)، عام 1775 م، ثم حولها الأمريكي (روبرت فولتن) إلى حقيقة بسيطة، عام 1800 م، ألهمت عقل (فيرن)، وجعلته يسعى لتطويرها، ويصنع منها سلاحا رهيبا، يقوده قبطان نصف مجنون، مهووس بالسلطة والعلم، وهو الكابتن (نيمو)..

وفي رائعته، (عشرون ألف فرسخ تحت الماء)، التي نشرها فيرن عام 1870 م، منح غواصة سمات بدت خيالية مغرقة في الخيال في حينها، ومنحها اسم (نونتليوس).

وجاءت الحروب العالمية، وأصبحت الغواصة سلاحا خطيرا وفعالا، إلا أنها لم تبلغ قط ما تخيله (فيرن) في روايته.. لم تبلغه، إلا عندما أصبحت غواصة نووية، عام 1954 م..

والمدهش أن الغواصة النووية وحدها، أمكنها أن تحقق ما تخيله فيرن في غواصته، قبل ثمانية عقود من الزمان..

المدهش أكثر أن الأمريكيين منحوها أيضا نفس الاسم... (نوتيليوس).

حتى الصاروخ، عندما بنوه، استلهموا هيئته من الرسم على غلاف رواية (فيرن)..

وكل هذا مجرد أمثلة بسيطة، لما بدأه الخيال..

ولما أنجزه العلم..

ولما ألفناه في عالمنا..

ولكن فلسفة الخيال لا تنتهي أبدا..

فالعلماء تساءلوا: ما داموا قد حولوا الغواصة والصاروخ إلى حقائق، وما دامت مبتكرات ليوناردو دافنشي (1452 - 1519 م)، قد سبقت عصرها بمئات السنين، عندما تخيل الطائرة، والهليوكوبتر، والمدفع الرشاش، وزى الغوص، وغيرها..

فلماذا لا يسعون خلف صور الخيال الأخرى أيضا؟!..

وهكذا، اتخذ العلماء من الخيال ركيزة، انطلقوا منها الي محيط هائل من الابتكارات والاختراعات..

ودون تردد، يمموا وجوههم شطر آلة الزمن..

والرجل الخفي..

والرجل الذئب..

وكل خيال جامح آخر..

ومع مضي الزمن، أدرك العلماء قاعدة مدهشة جديدة..

كل خيال، يمكن أن يتحول إلى واقع..

كل خيال.. بلا استثناء..

وخلال العقد الأخير من القرن العشرين، أثبتت منجزات العلم أن هذا لم يكن خيالا مبالغا منهم..

ان كان مجرد طموح..

طموح قادهم إلى ما يفوق حتى قدرتنا على الخيال..

أما الغد، والذي أعلن عن بدايته، مع مطلع القرن الحادي والعشرين، فقد بشرهم بالمزيد..

والمزيد..

والمزيد..

فخيالات الأمس واليوم، أصبحت حقائق..

أو توشك أن تصبح كذلك..

وكل ما بهر عقولنا يوما، سيصبح بين أصابعنا..

وفي بيوتنا..

وملك أبنائنا..

عندما يأتي الغد.

د. نبيل فاروق

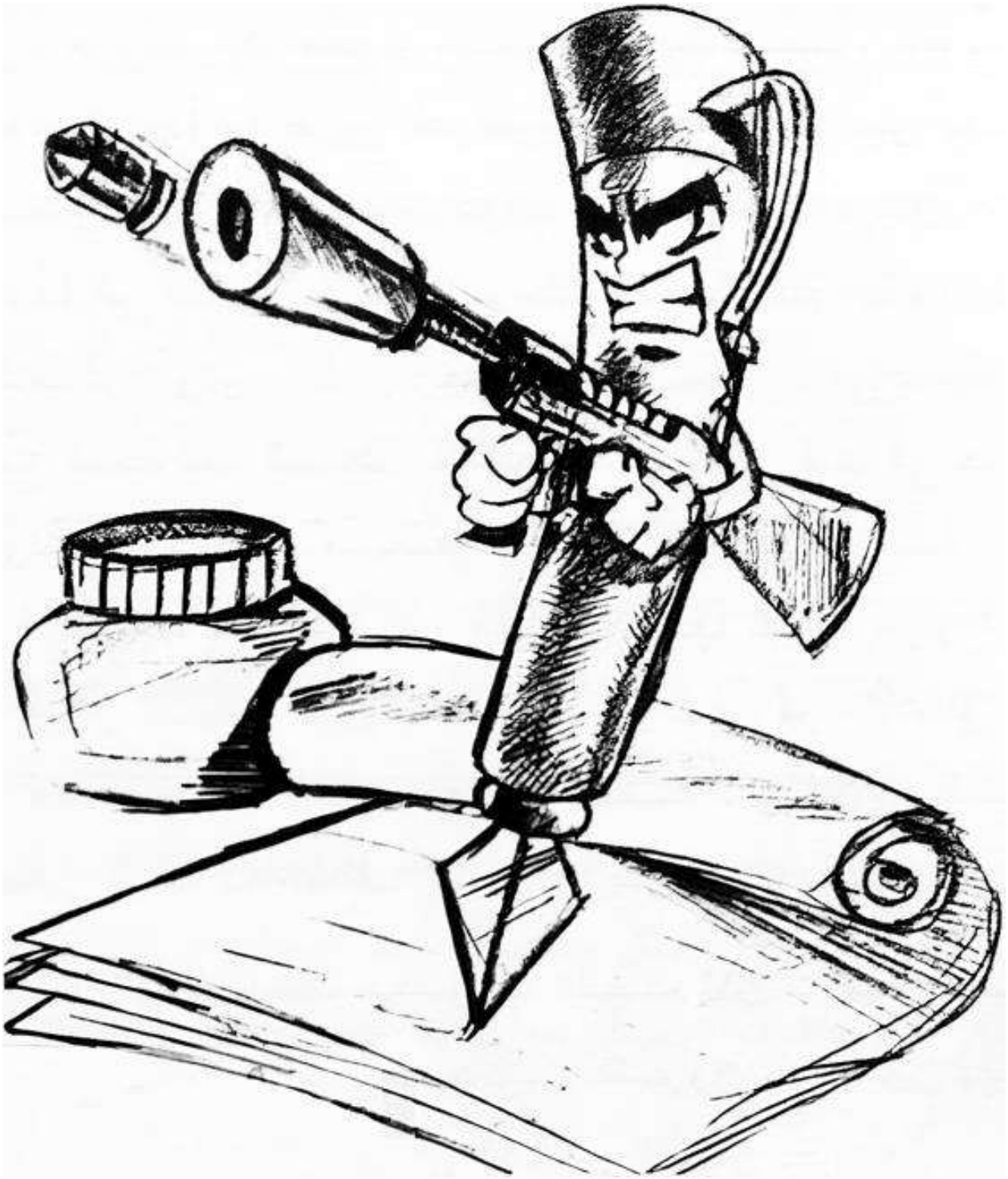

20- حرب قلم..

حيرة كبيرة انتابتني، عندما أمسكت قلمي، لأبدأ هذا المقال الذي يفترض منه أن يروي مشوار حياتي، مع الرواية البوليسية، وعالم الإثارة والغموض، فلقد تساءلت، وأنا أمسك قلمي، من أين أبدأ مشوار الكتابة بالضبط، فمن المؤكد أن المشوار لا يبدأ مع ظهور أعراض الموهبة، التي يمن بها الله سبحانه وتعالى، على بعض عباده؛ ليحملهم بها مسئولية نقل شيء ما إلى الناس، ولا من مرحلة الشغف بالقراءة والاطلاع في الطفولة، ودور والدي رحمه الله أو أسرتي، في تنمية ذلك، ولا مع المحاولات البسيطة الساذجة، التي يقوم فيها في حداثته، بمحاولة إفراغ بعض ما يشعر به، أو نقله إلى أقرانه، في صورة حكايات يحكيها، أو روايات ينسجها خياله، يفرغ بها ذلك الفيض اللذيذ، الذي ينسكب منه مرغما، من الأعماق إلى الأطراف، مجاهدا للإفصاح عن نفسه، وإعلان وجوده، أو يحاول إثبات أنه يختلف، دون أن يدري حتى فيم يختلف!!..

ثم إنه لا يبدأ حتما مع مرحلة النهم لكل ما هو مطبوع، ولا شراهة التهام الكتب والمجلات، فكثيرون يصابون بهذا دون أن تظهر عليهم أعراض الكتابة والابتكار..

هناك حتما بداية المشوار...

للانطلاق..

لتلك المرحلة، التي يدرك فيها المرء أن كيانه الجسدي، لم يعد باستطاعته كبت تلك الموهبة داخله، وأنه صار من المحتم عليها أن تنزع قيودها، وتحطم أسوارها، وتفلت من حصارها..

وتنطلق..

ومن هذا المنطلق، وجدت أن الانطلاقة لحقيقية تبدأ مع حرب أكتوبر 1973 م، وبالتحديد مع أولى خطواتي في كلية طب طنطا، عام 1974 م؛ والتي دخلتها مرغما، إرضاءً لأسرتي، وطاعة لمجموع، ونظام تعليم فرضه علينا فكر لا مجال هنا لمناقشته، ففي تلك الفترة، كنت، كمعظم أبناء جيلي، شديد الشغف بالرواية البوليسية وروايات المخابرات والمغامرات، ومتابعا جيدا لمؤلفات موريس لبلان، وآرثر كونان دويل، وأجاثا كريستي، وكنت عاشقا، في الوقت نفسه، وعلى خلاف أقراني، لروايات الخيال العلمي، أجد فيها متعة خاصة، وأسبح بخيالي مع عظماء أدبائها، من جولي فيرن، إلى هـ.ج. ويلز، إلى أرثر كلارك، وإيزاك أزيموف، ومغريا في الوقت ذاته بلعبة الشطرنج، وكل الألعاب التي تخلط المتعة بالتفكير وإعمال العقل.... وعقب حرب أكتوبر، حمل وجداني كله مشاعر جديدة تماما... مشاعر الوطنية والانتماء والعزة، التي اشتعلت في نفوسنا جميعا، وأفاضت علينا فيضا وطنيا، غمرنا جميعا، وغير مع النصر الكثير من مفاهيمنا، وزرع فينا العديد من الأحلام والآمال..

كنت ككثيرين متعلقا بأرسين لوبين، وشيرلوك هولمز، ومس ماربل، وهيركويل بوارو، وأغرق مع ما في رواياتهم من حبكة ومتعة وغموض وإثارة، ولكني فجأة، وبعد نشوة نصر أكتوبر، بدأت أراهم على نحو مختلف تماما، فلم يعد أحدهم يناسب تقاليدي، أو فكري، أو معتنقاتي الدينية..

كنت أرى، على الرغم مما في رواياتهم من متعة وإثارة، فهم غربيون، لا يناسبون تقاليدنا، ولا مفاهيمنا، ولا حتى ديننا، وعلى

الرغم من هذا، فهم يبهرون شبابنا، ويبدلون تفكيره، ويفسدون معتقداته، والصحافة تهلل لهم، وتفرد الصفحات للحديث عن مبتكريهم، دون أن تنتبه إلى ما يمثله هذا من خطر..

وربما لهذا، بدأ ينمو في أعماقي غضب ما، يتصاعد مع الوقت، ويمتزج مع شعور بالخطر، وإحساس قوي بضرورة وجود وسيلة لمواجهة هذا، وعندما بلغت عامي الأخير في الكلية، كنت قد وضعت لنفسي فكرة خاصة، فقد قسمت سبب نجاح وانتشار هذه الروايات والشخصيات إلى قسمين، الشخصية الروائية المبهرة، وأسلوب المتعة والغموض والإثارة والتشويق..

إنها إذن مسألة أسلوب، اعتمد على شخصية مبهرة، ذات سمات لا تتناسب معنا أبدا..

ومن هذا المنطلق، بدا لى الحل، ولا يزال، سهلا وبسيطا؛ فالشباب يسعى وراء الأسلوب، وينبهر بشخصية غربية، فلنمنحه إذن شخصية عربية، ترعى ثقافته وتقاليده ودينه، وتحرص على انتمائه، ونضعها في صورة مثيرة، غامضة، جذابة مبهرة..... باختصار أن نعطيهم ما يريدون، ولكن كما نريد.....

وفي الوقت نفسه، ودون أن أتوقف عن متابعة روايات الخيال العلمي، التي كانت ومازالت تبهرني رحت أدرس مراحل تطور الرواية البوليسية، التي بدأت كرواية مثيرة فحسب، تعتمد على الكثير من المصادفات والمفارقات، ثم لم تلبث أن دخلت عصر آرثر كونان دويل، الذي حولها إلى روايات جادة، جذبت كبار القوم، لما تعتمد عليه من أسلوب علمي، في الاستنباط والاستدلال، أشبه بعمل المعمل الجنائي، وخطوات منطقية، ذات منهج واضح لكشف الجاني، أو حل اللغز، الذي يبدو في

البداية شديد الغموض، ثم جاءت بعده أجاثا كريستي، لتقفز بفن الاستدلال إلى مرحلة شديدة الرقي، حيث لم تعتمد على الأدلة المادية وحدها، ولكن على العوامل والتأثيرات النفسية أيضا، مما كان له أكبر الأثر، في رقي الرواية البوليسية، ووضعها في مصاف الروايات العظيمة، حتى إن عالما فذا، مثل ألبرت أينشتاين، صاحب النظرية النسبية، لم يكن يقرأ سواها..

في نفس هذا الوقت، كان الأستاذ محمود سالم قد أدخل فن الرواية البوليسية إلى مصر، وفتح الباب أمام العديدين لتقديم نماذج أخرى، لم تنجح في التفوق عليه، ولكنها كانت بداية ضرورية، ولقد اتخذت رواياته أسم الألغاز؛ لأنه كان يبدأ كل رواية منها بكلمة (لغز)، وكانت بسيطة نسبيا، مما كان له أيضا أكبر الأثر، في المحاولات التي أتت بعده، والتي سعى معظمها لتقليده..

وفي الوقت ذاته ظهر أستاذ روايات الخيال العلمي المصرية، وأستاذ على كل المستويات، الأستاذ نهاد شريف، الذي بعث في نفسي الأمل، مع الأستاذ محمود سالم، في إمكانية أن يتحول حلمي إلى حقيقة، دون أن أدرى أن هذا أمر عسير المثال إلى حد كبير، في مجتمع اعتاد نمطية أدبية معينة، يحرص عليها ويتمسك بها، ويحارب في شراسة كل ماهو سواها، دون أن ينتبه إلى أنه بهذا يقتل الأساس الرئيسي للأدب والإبداع، فلو أننا تمسكنا بالقديم، مع شديد احترامي له، وحاربنا كل جديد؛ لمجرد أنه يختلف، لظل العالم محلك سر، وتجمد الفكر، ومات الإبداع، الذي هو أساس كل الفنون والآداب، حتى إننا نصف كل الموهوبين بأنهم مبدعون، وهذا لا يتأتى دون ابتكار وتجديد... وقبل تخرجي من كلية الطب ببضعة أشهر، كنت قد وضعت

الخطوط العريضة لعملي الأول، وللشخصية التي أردت بها منافسة شخصيات عالمية راسخة في كل الأذهان، أو ربما مزجتها كلها ببعضها البعض، وصنعت منها شخصية عربية، تصورت أن سوق النشر سيستقبلها باحترام، فحملت كشاكيلي، التي بدأت بتدوين خواطري فيها، ثم لم تلبث أن تحولت إلى محاولات روائية محدودة، وسافرت إلى القاهرة؛ لأعرضها على دور النشر هناك، وزرت في يوم واحد ثلاث دور نشر، حكومية وخاصة، وكلها رفضت شخصيتي بمنتهى العنف، وواحدة منها كانت شرسة أيضا في رفضها..

ولو أنهم رفضوها لركاكة الأسلوب، أو ضعف الفكرة، أو سوء المعالجة، أو حتى قصور اللغة، لما ضايقني هذا أبدا.. ولكن المشكلة أنهم جميعا رفضوها لنفس السبب، الذي كتبتها من أجله..

رفضوها لأنها بطولة فردية...

وفي كل دار نشر، سمعت محاضرة عن ضرر الشخصية الفردية، وتأثيرها السلبي على الشباب، وضرورة تعويدهم على العمل الجماعي وروح الفريق، ونسوا جميعهم أن السوق زاخر بالشخصيات الفردية، التي يتابعها الشباب وينبهرون بها، ويسعون لتقليدها أيضا، بل وإن الأساتذة الكبار في الصحافة يتحدثون عنها، كما لو كانت معجزات أدبية، وعندما جرؤت على قول هذا لأحدهم، والإشارة إلى أن كتاباتي هي محاولة للتصدي لهذا، كان جزائي هو الطرد في شراسة وعنف..

وعدت إلى طنطا، غير قادر على استيعاب فكرهم أو وجهة نظرهم، المغرقة في الأكاديمية، والقاصرة عن إنقاذ شبابنا من فخ

الشخصية الغربية، ومازلت على رفضي لوجهة نظرهم، بعد كل هذه السنوات، وربما كان لرفضى هذا أكبر الأثر في مستقبلي؛ لأنه جعلني أواصل محاولاتي، على الرغم من كل ما سمعته، وكل ما أصابني..

وبعد تخرجي من الكلية، سافرت بإرادتي لقضاء فترة التكليف الإجباري، في قرية أبو دياب شرق، في حضن جبال محافظة قنا، وكان لهذا أيضا أكبر الأثر، في مسار حياتي كله؛ فهناك لم يكن لديّ إرسال إذاعي أو تليفزيوني، وكانت متعتي الوحيدة والأساسية هي القراءة، لذا فقد كنت أسافر في نهاية كل أسبوع إلى مدينة قنا، وأتجه فور وصولي إليها إلى دار المعارف، حيث أبتاع كومة من الكتب والروايات، في كافة المجالات؛ لتكون أنيسي وسط الجبل، ومع فترات الفراغ الطويلة، التي أقضيها هناك، وكنت ألتهمها في نهم يفوق حتي نهمي القديم وأقرأ في كل المجالات تقريبا، من العلوم إلى السياسة، إلى الدين، والصهيونية والتاريخ وكتب النقد الأدبي، وحتى كتب الإحصاء والحسابات..

وعندما عدت إلى بلدتي، بعد انتهاء فترة التكليف الإجباري، كنت قد قرأت طنًا من الكتب والروايات، والأهم هو أنني عدت أكتب في كشاكيل جديدة، حملت عشرة منها في رحلة عودتي وكل صفحة فيها مغموسة بحبر قلمي، وخلاصة أفكاري..

وبعد عودتي، وبسبب مشكلات بيروقراطية سخيفة، تعاني منه معظم دول العالم، بكل مستوياتها، على عكس ما يتصور البعض، عانيت من أزمة مالية طاحنة، منعتني من شراء كتب أو روايات جديدة، وبالنسبة لي كان هذا هو العذاب بعينه، حتى قرأت في دورية رسمية إعلانا عن دار نشر، تطلب كتّابا شبان، لكتابة روايات الخيال العلمي...

لحظتها أشرق الأمل في نفسي مرة أخرى، فأنا أعشق روايات الخيال العلمي، وأعشق الرواية البوليسية أيضا، فلماذا لا أمزج هذا بذاك، خاصة وأن رواية الخيال العلمي هي أسلوب يطرح سؤالا (من فعل هذا؟!..) أو (كيف حدث هذا؟!..)، وأحد أعظم سماتها، هو أنه من الممكن أن توضع في عشرات الأشكال، من الاجتماعي، وحتى السياسي، فلماذا لا نختبرها في الخيال العلمى أيضا؟!..

كانت تجربة جديدة، ولكنني أقدمت عليها، وأرسلت إلى دار النشر قصة خيال علمي كما طلبت، ولكنها تتبع منهج الرواية البوليسية، كما أرغب.... والمفاجأة أنني ربحت، وتعاقدت مع دار النشر، وتحقق حلمي أخيرا، وصار من الممكن أن أرى اسمي مطبوعا على الورق... والأجمل أن الأستاذ حمدي مصطفى، صاحب دار النشر، شخصية متفتحة للغاية، واقتنع بأنه لدي ما يمكن أن أقدمه، فمنحنى حرية لا محدودة، في كتابة كل ما يحلو لي، دون أية قيود، مما جعلني أتذكر لحظتها قول بوجارت «الفرصة لا تأتي إلا لمن يستحقها» وأدركت أن الفرصة التي أحلم بها منذ سنوات قد أتت، وعلىّ أن أحسن استغلالها، إلى أقصى حدّ..

وطوال سنوات، رحت أفرغ مخزون عمري كله، وأعيد كتابة وصياغة ما حملته كشاكيلي القديمة، التي ما زلت أحتفظ بها، وتصورت أن الحرب قد وضعت أخيرا أوزارها، وستتخذ الحياة مسارها، ولكنني، ومرة أخرى كنت واهمًا فما ان بدأت أعمالي تنتشر وتلقى رواجا، حتى واجهت حربا عنيفة للغاية..

بدأت بتجاهل تام، ثم انتقلت إلى مرحلة الهجوم الضاري في البداية قيموا أعمالي باعتبارها كتابات أطفال، ومرة أخرى من

دون أي سبب علمي أو منطقي، فعندما سألت أحد النقاد عن السبب، أجابني بأن حجمها يفرض عليها هذا؛ لأنه نفس حجم كتابات الأستاذ محمود سالم، المعروفة بالألغاز، ولم يكن هذا في نظري تقييما يستحق الاحترام، على أي نحو كان، فنحن لا نصف مادة ما بأنها خشب مثلا، لمجرد أن شكلها الخارجي يبدو كذلك، وإنما نصفها بأنها خشب، لأن الصفات الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية للخشب تنطبق عليها، ووصف كتابات ما بأنها كتابات أطفال، يأتي من دراسة أسلوبها، ولغتها والمفاهيم التي تطرحها، وأمور أخرى كثيرة، وليس أبدا لأن شكلها يوحي بهذا، أما من يقول أن موضوعاتها تندرج تحت أدب الأطفال، فهذا يقودنا إلى سؤال مهم: لماذا لا تصنف هذه النوعية باعتبارها كتبا للصغار، في أية مكتبة عالمية، وكلها صارت موجودة الآن على شبكة الإنترنت؟!...

إنها ليست النوعية إذن، بل هو الفكر، الذي يرفض كل جديد، ويحارب كل ابتكار، ويصر على التعامل مع الأدب بتعال غير مبرر؛ لأن الأديب المثقف الحقيقي لا يمكن أن يرفض شيئا، فقط لأنه لا يناسبة، أو لا يروق له...

وأدب الأطفال أدب عظيم، يفوق في عظمته ما أكتبه ألف مرة، ويحتاج إلى قاموس لغوي خاص، ومفاهيم تناسب الصغار، ولا تفسد عقولهم، ولكن المضحك في مشوار حياتي، هو أنهم صنفوها ظلما بأنها أدب أطفال، ثم حاربوها بعنف؛ لأنها لا تناسب الأطفال، دون أن ينتبهوا إلى ما في هذا من تناقض ومفارقة، ولكن هذا لم يستوقفني والحمد لله (عز وجل)، ربما أيضا لأنه لم يكن علميا، ولكن كان له تأثير بالتأكيد على مسار حياتي، وخاصة عندما قضيت أربعة عشر عاما، حتى أمكنني

دخول اتحاد الكتاب، الذي أصر بعض أعضائه على أن كتاباتي مجرد تيك أواي، ولا ترقى لمستوى الانضمام للاتحاد، حتى تدخل الكاتب الكبير إبراهيم عبد المجيد، وتعاون معي الدكتور مرعي مدكور، وتم قبولي أخيرا عضوا بالاتحاد، الذي لم يساندني عمليا أو أدبيا، في أية أزمة مررت بها..

كل هذا والناقد نفسه يصر على أن كتاباتي هي كتابات أطفال على الرغم من أنه يؤكد في زهو، لم أدر سببه، حتي لحظة كتابة هذه السطور، أنه لم يقرأ حرفا واحدا مما أكتبه، لأن هذه النوعية لا تستحق القراءة!!!!.....

المهم أنني واصلت مشوار الحياة، ورحت أحاول مواكبة التطورات والمتغيرات من حولي، والتعبير عنها في رواياتي من علم وتطور واقتصاد وحتى سياسة، حتى جاء يوم، تقدمت فيه للترشيح؛ لنيل جائزة الدولة التشجيعية في أدب الخيال العلمي، بعد محادثة مع الدكتورة هدى وصفي، وفوجئت بتوفيق من الله تعالى بفوز بالجائزة، التي حملت في الوقت ذاته، وإلى جوار اسم الرواية الفائزة واسمي، اسم السلسلة، التي هوجمت بسببها لما يقرب من ربع قرن، ليتوج هذا مشوار حياة، مازالت مستمرة، ومازال الناقد نفسه يحيا في غيبوبته وإصراره، حتى إنه هنأني، عند فوزي بجائزة الدولة التشجيعية في الأدب، على فوزي بجائزة أدب الأطفال!!...

وكان هذا يعني بالنسبة لى، أن الحرب ما زالت لم تضع أوزارها بعد..

حرب قلم..

أنهكه قتال..

أدبي.

د. نبيل فاروق.

21- ورحل الفارس.. (مرثية)

في صباح يوم الأربعاء، الحادي والعشرين من سبتمبر، اكفهرت سماء الثقافة، وبكت سحب الأدب، بأمطار من ألم وأسى، وهامت رياح الحزن، على جيل كامل، تربى على مطالعة روايات مصرية للجيب، وعلى شخصياتها، التي صارت عشقا لشباب العالم العربي، من المحيط إلى الخليج، طوال ربع القرن الأخير من الزمن هذا لأنه، في ذلك اليوم، وبعد صراع طال مع المرض، توفي الأب الروحي لروايات مصرية للجيب، ورائد صناعة الكتاب المدرسي في مصر، وأسطورة كل شاب يحلم بدخول عالم الرواية، الأستاذ العظيم، أستاذي ومعلمي، وأبي الروحي، الأستاذ / حمدي مصطفى..

مازلت أذكر، حتى يومنا هذا، كيف استقبلني في مكتبه بالترحاب، وكنت أيامها مجرد نكرة في عالم الأدب، أقدم له روايتي الأولى، التي احتضنها واحتضننى، وقدمها وقدمني إلى عالم، عشت حياتي كلها أحلم بدخوله.... وكان دوما بسيطا متواضعا، ينعم بالخير على كل من حوله، ولا يفكر فيه ولو لحظة لنفسه....

وكم من الناس، وأنا على رأسهم، يدينون له بالكثير ويذكرون له كيف كان دوما إلى جوارهم، بروح وشهامة فارس، حتى ولو كانت بينه وبينهم ما صنع الحداد.... كان فارسا، في عصر خلا من الفرسان، ومقاتلا، لم أره يستسلم أو يتراجع مرة، طوال ثمانية وعشرين عاما، هي عمر صداقتنا، التي كنت ومازلت وسأظل أفخر بها دوما.....

لنا وقفاتنا، وخلافاتنا، واتفاقاتنا، وكلها تحكمها القاعدة، التي تعلمتها منه... الشرف، ثم الشرف... ثم الشرف.... كان - تغمده

الله الغفور الرحيم بعظيم مغفرته - يمتلك قلبا من ذهب ويحاول طوال الوقت أن ينفي عن نفسه هذه الصفة؛ باعتبار أنه تاجر، وسيسيء البعض استغلال طيبته، على نحو غير صحيح، وعلى الرغم من أنه صاحب فكرة سلاح التلميذ، أشهر كتاب مدرسي خارجي، ويعتبر عميد ناشري الكتب المدرسية، إلا أنه كان شديد الفخر بمشروع روايات الجيب، باعتباره كاتبا قديرا، كانت كتبه تدرس في المراحل الدراسية قديما، مثل (جول جمال)، و (بطولة سفينة)، و (أيام عصيبة في أبو عجيلة)...

ولقد كان يعتبر أن روايات مصرية للجيب هي حلمه، الذي تمنى إصداره منذ زمن طويل، وكان من حسن طالعي وقدري، أن أكون من الرعيل الأول للمشروع، الذي أطلق عليه فيما بعد (مشروع القرن الثقافي)، وبعدها انضم آخرون وآخرون.. ومعظمهم صاروا من الأسماء اللامعة الآن، في عالم الأدب....

فوداعا أيها الفارس، الذي أعجز عن تصور أنني لن أنعم برؤيته ثانية... وداعا..

د. نبيل فاروق.

22- هكذا رأيتها.. (خواطر)

البداية بالنسبة لي لم تكن في الخامس والعشرين من يناير، عام ألفين وإحدى عشر، بل كانت قبل هذا بكثير...

وربما بكثير جدا أيضا...

البداية كانت مع إغلاق جريدة (الدستور)، عبر لعبة اقتصادية شيطانية مدروسة، وإخراس بوق معارض قوي، طالما أزعج النظام السابق؛ بكشفه للفساد، ومطاردته للفاسدين، الذين كانوا يحتلون أرفع المناصب في ذلك الحين وفي واحد من آخر المقالات، التي كتبتها في جريدة الدستور، تحت عنوان (ساعة القدر)، رأيت ثورة قادمة...

كان كل رجال النظام السابق، وبعض علماء المجتمع أيضا يؤكدون بمنتهى الاطمئنان وربما الغطرسة، أن الشعب المصرى لا يثور..

وكنت أختلف معهم...

وبشدة...

كنت دوما أتحدث عن ثورة قادمة، وعن حتمية حدوثها

وعن مقدماتها، التي بدت واضحة على الساحة اعتصامات، وإضرابات، واحتجاجات، في كل نواحي المجتمع...

وفي السادس والعشرين من يونيو، عام ألفين وعشرة، كتبت مقالى سالف الذكر، أوكد فيه أن النظام، من شدة طغيانه بدأ يقع في أخطاء فادحة، ويغلق كل الفتحات، التي كان يتسرب منها

بخار الغضب المخزون، كما لو أن قدره قد حان، فعميت عيناه عن الصواب، وهذا سيقود حتما إلى ثورة...

هكذا رأيتها...

وعقب انتخابات التزوير الفاضحة والفادحة، لأخر مجلس شعب، في تاريخ النظام القديم، أكدت أن الثورة قادمة، وفي مقال آخر، تنبأت بأن مجلس الشعب هذا لن يكمل دورته، وأن الرئيس لن يصل إلى الانتخابات الرياسية التالية..

هذا ما يؤكده التاريخ، في كل فصوله..

ملخص كل هذا، هو أنني كنت أتوقع الثورة وأنتظرها...

وعندما قرأت، عبر صفحات (فيس بوك)، عن تنظيم مظاهرات غضب، في يوم عيد الشرطة، بدت لي الثورة قريبة، ولكنني أعترف بأنني لم أتوقع أن تكون هذه هي الثورة، ولكن مقدماتها فحسب....

وجاء يوم الخامس والعشرين من يناير...

وارتفعت نبضات قلبي بشدة....

وعندما شاهدت، عبر القنوات الفضائية، الشعب يخرج ثائرا في كل مدن الجمهورية، خفق قلبي بمنتهى العنف، وأيقنت أنها الثورة...

وبكل الحماس، هبطت من مكتبي إلى فرع المؤسسة العربية الحديثة أسفله، وأخبرتهم أن الثورة قد اندلعت في (مصر)...

وأدهشني رد فعلهم للغاية؛ فباستثنائي وحدي، لم يؤمن أحدهم بأن هذه ثورة، بل رأوها مجرد تظاهرات غاضبة، سرعان ما تقمعها الشرطة...

وعندما أكدت لهم أن الشرطة سرعان ما تنهار، في مواجهة شعب، يملك الأغلبية الفعلية على الساحة، أكدوا أن النظام سينزل الجيش إلى الشارع عندئذ؛ لقمع المظاهرات...

وهنا انفعلت، ولأول مرة، وأنا أخبرهم أن التاريخ يؤكد أن نزول الجيش إلى الشارع، ينتهي دوما بانحيازه إلى الشعب باستثناء واقعة واحدة في (الصين) عندما دهست الدبابات شباب الصين بلا رحمة ، في أشهر واكبر ميادين بكين، ولم تكن أحداث وتصرفات سفاح (ليبيا) المجنون قد بدأت بعد..

وأمام شاشة التليفزيون، تابعت تطور الثورة، في يومها الأول، ثم خرجت لتأييدها في يومها الثاني، قبل أن تمنعني مناعة شديدة الانخفاض، من جراء عملية زرع كلى، وتناول مستمر لعقاقير تثبيت الزرع، عن مواصلة التأييد من الشارع، وأجبرتني على العودة مريضا إلى المنزل، لأشاهد أعظم مشاهد الثورة على الشاشة..

شاهدت شباب المستحيل يواجه الشرطة، وقنابل الغاز المسيل للدموع، وحتى الرصاص المطاطي، بقلوب أسود، وإرادة نمور، وانطلاقة نسور..

شاهدت أعظم شباب (مصر)، في أعظم مواجهة في تاريخ (مصر)..

وعندما شاهدت شابا جسورا، يتصدى لمصفحة من مصفحات الشرطة، وآخر يقفز ليعتلى أخرى في بسالة، انبهرت نفسي انبهارا كبيرا...

انهارت الشرطة، وانتصرت الثورة في المرحلة الأولى، وبدأت الثورة المضادة في الليلة نفسها، فأطلقوا البلطجية، من الأقسام

والسجون، وروعوا الآمنين في بيوتهم، وحرقوا مقار الحزب الوطني، وارتكبوا أحقر وأقذر الجرائم، في محاولة لإجهاض الثورة وإفشالها..

ثم انهارت الشرطة، تماما كما توقعت في مقالات سابقة، وأثبت التاريخ أنه هو بالفعل مقياس رؤية المستقبل، وأن دروسة لا تفشل أبدا، لمن يطالعه عن فهم ودراسة..

ومرة أخرى خرج شباب (مصر)، الذي طالما اتهموه بالتقاعس والتفاهة وانعدام الإحساس بالمسئولية؛ ليثبت أنه درع الوطن وأمنه وسيفه... لجان شعبية شبابية، خرجت تحمي بيوتنا، وأموالنا، وأعراضنا، وحياتنا...

لجان من شباب، أطلقوا عليه يوما اسم (شباب السيس)، خرجت تحمي، حتى من أطلقوا عليها هذا..

وانتصرت الثورة، في الجولة الثانية...

وخرج رئيس الجمهورية يعلن أنه لم يكن ينتوي الترشح لفترة قادمة، وعزل ابنه وأمين حزبه " واعتقل " إمبراطور السلب والنهب؛ لينتزع فكرة التوريث من العقول، وحاول التصالح مع الشعب، وقال كلمة، استجابت لها قلوب الملايين، وأثارت تعاطفنا جميعا، وكان لدينا استعداد كبير لمنحه فرصة محدودة؛ لإصلاح ما أفسده في ثلاثة عقود...

وكان يمكن أن تفشل الثورة، في تلك الليلة، بعدما انقسم الشعب إلى قسمين كبيرين، أحدهما يؤيد الاستمرار، والآخر يؤيد التوقف...

وأعترف هنا أيضا، أنني لم أستطع اتخاذ قرار حاسم في هذا الشأن، وإن مالت نفسي، كمعظم من في مثل عمري، إلى فكرة

الهدوء والاستقرار، و...

ولكن شاء القدر، وشاءت حماقة المنتفعين من وراء الرئيس ونظامه الفاشل، أن يفسدوا كل هذا، بأسلوب ستيناتي سخيف ومقيت وأكثر فشلا من النظام نفسه...

أخرجوا العمال من المصانع، ودفعوا أجورا للبلطجية، وشحنوا كل فتوات وعربجية مناطقهم؛ لشن حملة على شباب التحرير وعلى الشاشة، رأينا مشهدا أشبه بفيلم ساذج من الخمسينات..

جمال وخيول وحمير، وسنج ومطاوي وهراوات، وقطع من الرخام، وكل هذا ينقض على شباب أعزل مسالم وخسر نظام الرئيس كل ما ربحه في الليلة السابقة...

وبكل الانبهار، شاهدت شعبا يفوق رجل المستحيل، في تصديه للبلطجية في الميدان، وسيطرته على المشهد، وتحويله من الهزل إلى بطولة عظيمة مبهرة، ليس لي وحدي، وإنما للعالم أجمع..

وخرج الشباب الأسود أكثر قوة، عندما تصدوا للبلطجية في شوارعهم، وبلطجية الجمال والحمير في التحرير، والأمن المستبد، والنظام الفاسد..

خرج بواسل (مصر) أكثر قوة وثقة، وواصلوا ثورتهم السلمية، حتى أجبروا رئيس الدولة على التنحى، عندما اتجهوا إلى قصره، ووضعوا الجيش أمام خيار حاسم، ما بين أن يضطر لحماية الرئيس، كما يقتضي واجبه الأصغر، فيحدث الصدام بين الجيش والشعب، وتنهار الدولة بأكملها، أو أن يؤدي واجبه الأكبر، في حماية الشعب متخليا عن الرئيس ونظامه..

وكما توقعت دوما، انحاز الجيش للشعب، وأجبر الرئيس على التنحي، وإنقاذ البلاد من انهيار تام..

ونجحت الثورة..

وخرج الناس في الشوارع يرقصون، وركعت أصلى لله الواحد القهار، والمعز المذل؛ لأنني عشت حتى رأيت ما حلمت به وتمنيته دوما.

رأيت الثورة.

د. نبيل فاروق

23- ذكريات معه.. (1) (خواطر حزينة)

لست أظن، ولو للحظة واحدة، أنني سأستطيع، مهما طال بي العمر، أن أنسى هذا التاريخ الحزين... الأربعاء، الحادي والعشرين من سبتمبر، عام ألفين وإحدى عشر..

ففي هذا التاريخ، فقدت من كنت أعتبره أصدق الأصدقاء وأعظم الأساتذة، وأفضل المعلمين في حياتي، بعد والدي رحمه الله.. إنه أستاذي، ومعلمي، وأبي الروحي، الأستاذ (حمدي مصطفى)، رئيس مجلس إدارة المؤسسة العربية الحديثة.. ورائد الكتاب المدرسي في (مصر)، وصاحب مشروع القرن الثقافي (روايات مصرية للجيب)، الذي خرج منه عدد من المؤلفين الشبان، الذين صاروا اليوم من الأسماء اللامعة، في عالم الرواية وسماء الأدب..

في ذلك اليوم الحزين، وفي السابعة والنصف صباحا، بلغني الخبر...

كنت أعلم أن أستاذي الرائع يعاني من مرض مؤسف، أقعده لأكثر من عامين، وأنه أصيب منذ عدة أسابيع بتدهور عام في صحته، جعله أسير غرفة عناية مركزة، في أحد المستشفيات، ومقيد إلى جهاز تنفس صناعي، على نحو لم يكن من الممكن تصوره، بعد أن عهدته، طوال سبعة وعشرين عاما، شعلة من النشاط والحيوية، وصاحب عقل متطور مبتكر، وقلب يبدو الذهب إلى جواره حديدا صدءًا..

وعلى الرغم من أن عيني لم تعتادا البكاء، حتى في أعقد المواقف، وأشد الخطوب، فقد فوجئت بهما، ودون أن أشعر تسيلان على

وجهي بدموع من نار، لا أتصور أنها تكفي؛ للتعبير عما كنت أشعر به لحظتها..

ففي وجوده، كنت أشعر دوما بنوع من الأمان والارتياح، وبأنه سيكون دوما إلى جواري، وسيحمي ظهري، في أية لحظة أمدّ يدي فيها إليه..

وهذا ما كان يفعله، منذ بدأت معرفتنا، وحتى تطورت إلى صداقة من نوع خاص، جعلته الإنسان الوحيد في العالم تقريبا، الذي يمكنني أن أفرغ عنده مكنون قلبي، دون أن أخشى شيئا، وأنا الذي عرف عني كل من عرفته في حياتي، بأن الكتمان هو جزء من شخصيتي، وسمة من سماتي..

وكان دوما - رحمه الله - يبادلني بالمثل..

كان دوما يفضي إلى بما يجيش به صدره، حتى مشكلاته الشخصية، ومخاوفه العامة، وأستشيره ويستشيرني، في كل ما يواجهنا...

وكانت بيننا دوما حالة من الثقة، لم أجد مثلها إلا في القليل من الناس...

والقليل جدا...

جدا...

ولكي يستوعب أحدكم مقدار هذه الثقة، يمكنني أن أقول أن كلا منا، لم يكن ليتردد لحظة، في أن يوقع ورقة بيضاء ويناولها للأخر، واثقا تمام الثقة، من أنه لن يسيء استغلالها، مهما كانت الظروف..

فكم من الأصدقاء، يمكنك أن تحظى معهم بهذا؟!...

كم؟!...

لعلكم تدركون الآن كم أنا حزين..

متألم..

آسف...

لقد استنكر عقلى الخبر، حينما سمعته، على الرغم من أن الموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة، في حياة كل بشري..

وحتى عندما كنا نصلي صلاة الجنازة على روحه الطاهرة، لم أكن قد استوعبت بعد، أنني وأبدا، لن أراه مرة ثانية..

لن أجالسه...

لن أقص عليه همومي...

ولن يقص على همومه...

وحتى عندما واروه الثرى، رفض عقلي تصديق هذه الحقيقة المرة...

لقد غاب الفارس...

غاب عن عالمي...

غاب عن مشروع عمره الثقافي...

غاب عن الدنيا..

وبقيت أعماله...

ففي هذا الخلود الحقيقي..

فليس الخلود أن تعيش أبد الدهر، ولكن الخلود أن تحيا أعمالك وأفكارك من بعدك..

ولهذا فإن الفارس سيبقى...

سيبقى خالدا، حتى وإن أفني الدهر جسده...

سيبقى في عطاياه...

في ذاكرة من أحبوه..

في الخير الذي أفاضه على من حوله...

وفي مشاريعه الثقافية العملاقة..

في كل من كتب له دخول عالم الأدب على يديه...

سيبقى كلما أمسك أحدكم رواية، من (روايات مصرية للجيب)..

كلما طالعتم صفحة منها..

أو سطر....

أو حتى كلمة.....

ففي مرحلة تالية، وبعد نجاح مشروعه العظيم (روايات مصرية للجيب)، رأى رحمه الله، ضرورة أن يتيح الفرصة أكثر، للمزيد من الأقلام الشابة، وكان الناشر الوحيد في (مصر)، الذي تبني المواهب الشابة، وأتاح لها فرصة الظهور....

ومن هنا، أنشأ، ضمن سلاسل روايات الجيب، ما أطلق عليه اسم (سلة الروايات)...

وكانت (سلة الروايات) هذه سلسلة مفتوحة، فتح بابها على مصراعيه، لكل قلم شاب، وكل موهبة، لم تأخذ حقها في الظهور...

وتوالت الأسماء على (سلة الروايات)...

وتوالت المواهب...

والأفكار....

والإبداعات الشابة...

كان - رحمه الله - شديد الاهتمام بالمواهب الشابة، حتى أنه ذات يوم، ترك أحدهم في المطبعة خطابا، عن تفاعله مع الروايات...

وقرأ الأستاذ (حمدى) الخطاب..

وبحاسته الأدبية، رأى فيه موهبة واضحة..

وعلى عكس ما يحدث، في كل دور النشر تقريبا، جعلنا الأستاذ (حمدي) نبذل جهدا خرافيا، لمعرفة من ترك هذا الخطاب...

وعندما عثرنا عليه، ضمه إلى عالم الروايات..

وكانت صورة جميلة، تشف عن روح الأديب في داخله...

فالأستاذ (حمدى)، لمن لا يعلم، ليس ناشرا فحسب..

إنه أيضا أديب كبير..

والتعريف هنا ليس مجازا، بل حقيقة، تعرفها كتبه التي ألفها في شبابه، والتي تحولت إلى روايات مقررة، على بعض السنوات الدراسية، في ذلك الحين، مثل (جول جمال) و (بطولة سفينة)، و (أيام عصيبة في أبو عجيلة)..

وهكذا كان يجمع بين الحسنيين..

بين الكاتب...

والناشر...

وربما لهذا كان دائم البحث عن المواهب الشابة...
فيصقلها...
ويبرزها...
ويمنحها فرصة عمر، لم يعد هناك من يمنحها، في زمننا هذا..
رحل الفارس، وترك لنا ذكراه...
وترك لي بالتحديد، عددا لا يحصى من ذكرياتي معه...
تلك الذكريات، التى أعود بها معكم إلى البداية..
إلى اللقاء الأول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقائي الأول بالأستاذ (حمدي مصطفى)، كان على أرضه...

في المطبعة، فعلى الرغم من أن مؤسسته، تمتلك عددا من الأفرع، في أماكن متعددة، فقد كان - رحمه الله - يرى أن أرضه الحقيقية، هي المكان الذي يتم فيه الإنتاج، وليس البيع أو التوزيع..

ولأنه من ذلك الجيل الذهبي القديم، فقد كان يؤمن دوما بأنه لا قيمة للعمل، من دون إنتاج حقيقي، يمكن أن يفيد الناس والمجتمع..

وكنت قد أرسلت، بناء على مسابقة أعلنت عنها المؤسسة، الرواية الأولى من سلسلة (ملف المستقبل)، ووضعت لها عنوانا أساسيا (أشعة ضاد)، باعتبار أن اللغة العربية، كان يطلق عليها في ذلك الحين اسم (لغة الضاد)، ولم أكن أتوقع أن تفوز بالمسابقة، نظرا لوصولها في آخر دقيقة منها، إلا أنني فوجئت

بخطاب يصلني من المؤسسة، بعد أسبوع واحد فحسب، يطلب مني الحضور شخصيا؛ للتعاقد بشأنها..

وأظنني قد رويت، أكثر من مرة، على الورق، وعلى شاشات التليفزيون، كيف أنني حضرت إلى (القاهرة)، وفي جيبي قروش قليلة، وفي قلبي أمل كبير، في أن يتحول حلم عمري إلى حقيقة، وأصبح من أصحاب القلم المحترفين بعد سلسلة محاولات فاشلة، مع دور نشر أخرى، لم تلق حتى نظرة واحدة على أعمالي...

وكان اللقاء الأول..

ولو عدنا إلى النظريات العلمية الحديثة جدا، والتي تشير إلى وجود عوامل تجاذب وراثية، بين الأفراد بعضهم ببعض، وعوامل تنافرية أيضا، نستطيع أن نقول: إن اللقاء كان يوحي بموجة توافقية جارفة، جعلتنا نشعر بالارتياح لبعضنا البعض، منذ اللقاء الأول...

هذا لأن الأستاذ (حمدى) - رحمه الله - كان إنسانا بسيطا مباشرا، يجيد قراءة البشر من اللحظة الأولى، وكان حديثه معي بسيطا، وكأننا صديقين قديمين، وودودا، على نحو لم أعهده في أية دار نشر أخرى.....

وخلال الساعات القليلة، التي استغرقها اللقاء، علمت أن قصتي ليست مجرد قصة، بل إن الأستاذ (حمدى) يحلم بإصدار سلاسل قصصية للشباب، تختلف عن كل ما يملأ، أو كان يملأ الأسواق أيامها، فبعد أن أصدر أستاذنا (محمود سالم) سلسلة (المغامرون الخمسة)، ونجاحها الكبير، ثم توقف عن مواصلة كتابتها، تحت ظروف خارجة عن إرادته، بدأت لعبة التقليد

المعتادة، فظهرت في الأسواق مجموعات قصصية، تحمل نفس الطابع، وإن لم ترق إلى مستوى كتابات أستاذنا...

والحق يقال، إنها كانت عبقرية من الأستاذ (حمدي)، أن يقيم مسابقة لكتابة قصص الخيال العلمي للشباب، في وقت لم تكن للخيال العلمي فيه قاعدة عريضة، تسمح لأي دار نشر بالمجازفة، بنشر هذه النوعية، وفي سلاسل قصصية أيضا...

وفي المقابلة نفسها، سألني الأستاذ (حمدى) - أدخله الله سبحانه وتعالى فسيح جناته - عما إذا كانت لدي أفكار أخرى..

والواقع أنه لم تكن في ذهني أي فكرة لحظتها، ولكنني أجبت بالإيجاب...

وجاء السؤال التالي ليملأني توترا...

لقد سألني عن الفكرة التالية..

وبتوفيق من الله عز وجل)، وجدت نفسي أروى له فكرة الرواية التالية، التي حملت اسم (اختفاء صاروخ)، من وحي اللحظة..

ومن الواضح أنها أعجبته بشدة...

وطلب مني أن أجعل أبطال الرواية الأولى، هم نفس أبطال السلسلة الدائمة، وهو ما كنت أنتويه بالفعل؛ نظرا لأنني ابتكرت شخصية (نور)، لأول مرة، أثناء تواجدي في فترة التكليف، في صعيد مصر، وقبل عامين من لقائي الأول، بالأستاذ (حمدي)...

ثم كان السؤال الأهم..

ماذا سنطلق على السلسلة؟!...

ومرة ثانية، هبط وحي الخالق العلي القدير، وأخبرته أن اسمها سيكون (ملف المستقبل)، مع ختم في الركن العلوي الصفحة، يحمل عبارة (سري جدا)..

وأعجبت الفكرة الأستاذ (حمدى)، وطلب مني سرعة إنجاز الرواية الثانية..

وانتهى اللقاء، وقد انقلبت حياتي رأسا على عقب..

ذهبت إليه طبيبا..

وعدت من عنده كاتبا محترفا، يتقاضى، ولأول مرة، أجرا على ما يكتبه، منذ نعومة أظفاره، دون مقابل..

وفي منزلي في (طنطا)، قضيت يوما كاملا، أحاول استيعاب هذا التغيير، الذي كان يوما ما حلم حياتي...

ثم أمسكت قلمي، وبدأت في كتابة القصة الثانية...

في نفس اليوم، تلقيت اتصالا هاتفيا من الأستاذ (حمدي)، يستأذنني فيه (وهو الناشر العظيم)، في تغيير اسم القصة؛ حيث إنه يرى أن اسم (أشعة ضاد)، ليس اسما تجاريا ناجحا بالدرجة الكافية، لسلسلة تخرج إلى النور لأول مرة...

وما على الهاتف، اتفقنا على أن يصبح الاسم (أشعة الموت)، وهو الاسم الذي صدرت به الرواية فعلا...

وبكل الحماس، كتبت العدد الثاني من السلسلة...

وعدت إلى (القاهرة).....

وإلى الأستاذ (حمدى)...

ولقد اندهش كثيرا في الواقع، عندما عدت إليه بالقصة الثانية، بعد أسبوع واحد من لقائي الأول معه...

واندهش أكثر عندما قرأها..

فمع السرعة في الإنجاز، تصور مبدئيا - على حد قوله - أن القصة ستأتي ركيكة، ضعيفة الحبكة والأسلوب..

وكم شعرت بالفخر؛ لأنه لم يجدها كذلك!

يومها كنت أصطحب معي صديق العمر، الدكتور (محمد حجازي)، كبير الأطباء الشرعيين في منطقة الخليج حاليا، والذي انبهر أيضا بشخصية الأستاذ (حمدي) وبساطته التلقائية، وضحك عندما تحدثنا عن سرعة كتابة القصة، وأخبره (حجازي) أن هذا دأبي دوما...

ساعات نوم قليلة...

وساعات إنجاز كبيرة...

وفي طريق العودة، أخبرني (حجازي) عن انبهاره بالأستاذ (حمدى)، ونصحني أن أبقى معه دوما؛ لأن عقليته تناسب عقليتي كثيرا...

وفي ليلة عودتنا، خطرت ببالي فكرة، قهرتها دور نشر أخرى أكثر من مرة...

فقبل لقائي بالأستاذ (حمدي)، كنت قد قدمت روايتي الأولى عن (رجل المستحيل)، لعدة دور نشر، رفضتها كلها في شدة، بلغت حد استدعاء الأمن لإخراجي من أحد هذه الدور، عندما استنكرت فكرة رفض الشخصيات العربية الفردية، في سوق نشر تكتظ بروايات عن شخصيات فردية غربية...

وتساءلت ليلتها: مع عقلية مثل عقلية الأستاذ (حمدى)، هل سألقى، وتلقى رواية (رجل المستحيل) المصير نفسه؟!..

وفي الأسبوع التالي، توكلت على الخالق (جل جلاله)، وحملت رواية (رجل المستحيل) الأولى (الاختطاف الغامض)، مع العدد الثالث من سلسلة (ملف المستقبل)، وقدمتهما معا للأستاذ (حمدى)، والتساؤل مازال يعربد في رأسي.. هل سيتقبلها؟!...

وكانت المفاجأة...

يسألني في اهتمام عن العدد الثاني من (رجل المستحيل) ففي اليوم التالي مباشرة، تلقيت اتصالا من الأستاذ (حمدي)، وكدت أطير من السعادة...

وبعد أقل من أسبوع، حملت إليه العدد الثاني من (رجل المستحيل)...

وكان هذا لقائي الأول مع فارس الفن، الذي تمزق قلبي لرحيله أيضا، قبل سنوات من رحيل الأستاذ (حمدى) (رحمهما الله)

التقيت مع الأستاذ (إسماعيل دياب)

لم يكن هو المرشح الأول لرسم أغلفة الروايات، بل سبقه فنان شهير آخر، كانت أغلفته كلها عبارة عن كادرات كبيرة من مجلة (تان تان)، يضيف إليها بعض لمسات من ريشته فحسب، وعندما أخبرته بهذا، هاج وماج، وأقسم أنه لم يتصفح مجلة (تان تان) هذه قط، فما كان مني إلا أن حملت رسومه إلى القسم الفني، وإلى الراحل الثالث، الذي ربطتني به صداقة طويلة وثيقة، الأستاذ (صبحي عبود)، والذي فحص الرسوم بعدسة النسيج، ثم أكد ما قلته، وبأن نقاط الطباعة واضحة في خلفية الصورة.

وعلى الرغم من شهرة ذلك الفنان أيامها، فقد صرفه الأستاذ (حمدى)، الذي يكره الغش والخداع، واستبدله (لحسن حظ الجميع)، بالمبدع الفنان (إسماعيل دياب)...

وبدأت الرحلة فعليا..

روايتك المطبوعة الأولى، يكون لها دوما بريقا من نوع خاص، فأنت تعشق الكتابة، وتملأ بها صفحات كشاكيل وكراسات، وتكتب عليها اسمك بخط كبير واضح، وتحاول أن تصنع غلافا، وتلونه، وتبذل قصارى جهدك، لكي يبدو الكراس أشبه بكتاب مطبوع يحمل اسمك..

ثم تأتي لحظة تحول الحلم إلى حقيقة، وتصبح لديك رواية، مطبوعة بالفعل...

ولا يمكنك تصور عظمة هذه اللحظة..

لقد كنت أتابع خطوات الطباعة خطوة بخطوة، وأجلس طويلا مع عمال الجمع، وفي حجرة المونتاج، وأحصل على نسخة من كل ملزمة يتم طبعها، والاستاذ (حمدى) يتابع كل هذا..

وكنت أشعر طوال الوقت، أنه - رحمه الله - يتعامل معي، كما لو كنت ابنا من أبنائه، يحاول منحه كل أسرار المهنة، في حب خالص، ومودة صادقة بابتسامة هادئة، وهو الذي اعتاد ضجيج المطابع، منذ نعومة أظفاره، وراح يشرح لى تفاصيل عملية الطباعة، منذ ورود العمل، وحتى خروجه إلى الأسواق، مرورا بعملية الجمع، والتوضيب، والمونتاج، والطباعة، وتصميم الغلاف، وهكذا...

وخرج أول عمل لى إلى النور كاملا، وفي الصباح، تلقيت اتصالا من الأستاذ (حمدى)، يبلغنى فيه في سعادة، عن خروج أول عمل

من المطابع...

وبعد ساعتين فحسب، كنت في (القاهرة)، قبل حتى وصول الأستاذ إلى المطبعة، أمسك أول قصة مطبوعة، تحمل اسمي، وأنا أكاد أبكي من الفرح.

وحضر الأستاذ، وشعرت بأنه يشاركني فرحتى الكبرى، بأول مولود روائي من مؤسسة عريقة، لها تاريخ طويل في نشر الكتب الدراسية...

وكان الأستاذ (حمدى) هو من اختار للسلاسل اسم (روايات مصرية للجيب)؛ نظرا لغرامة في حداثته، بسلسلة (روايات الجيب)، التي قدمت للمكتبة العربية روائع الأدب العالمي...

قضيت يومها النهار بطوله مع الأستاذ، نتناقش في كيفية الدعاية للسلاسل الثلاث الأولى، التي ستصدر عن (روايات مصرية للجيب)، والتي ستقدمها للقارئ، وكان - رحمه الله، وأسكنه فسيح جناته - صاحب فكرة عبقرية، في أن يبدأ الأمر بإعلانات صغيرة في الصحف، تذكر أسماء السلاسل، دون أية إشارة أخرى، ثم تعقبها حملة دعائية؛ للتعريف بها..

وفي نهاية النهار نفسه، كنت أمسك العدد الأول من (رجل المستحيل)...

ومع عودتي إلى مدينتي (طنطا): رحت أخبر الجميع بالأمر وعلى رأسهم (محمد حجازي)، الذي شجعني في البداية على تقديم الرواية الأولى للمسابقة..

واندهش معظم من عرفت في الواقع فطوال حياتي في الكلية، عرفنى الجميع كرسام ، يملأ الحوائط برسومه، ويصدر كل أسبوع مجلة حائط، بالاشتراك مع الزميل (سمير حنتيرة)، تمتلئ

برسوم كاريكاتورية، عن أحداث شهدتها الكلية خلال الأسبوع، ويعد ديكورات حفلات الكلية، ولافتات الدعاية الانتخابية..

بل والرسوم المصاحبة للقصص التي يكتبها آخرون..

وكنت عضوا باللجنة الفنية، لا الثقافية، ثم أمينا للجنة فيما بعد...

ولم يعرفني أحدهم أبدا ككاتب..

كل كتاباتي كان يعرفها الأصدقاء المقربون جدا فحسب...

وكانت تملأ مجموعة كشاكيل، مازلت أحتفظ بها، حتى يومنا هذا...

ولهذا كان صدور روايات بقلمي، مفاجأة للجميع..

ومازلت أذكر حتى الآن، كيف التقى بي أحد الأصدقاء القدامي، في القطار العائد إلى (طنطا)، وكنت أتصفح أحد أعداد (ملف المستقبل)، فضحك وهو يسألني ساخرا، عما إذا كنت لا أزال أقرأ تلك النوعية، فأخبرته مبتسما أنها من إنتاجي، وهنا اندهش بشدة، ثم هنأني على جودة الغلاف وكانت دهشته أكبر، عندما علم أنني لم أرسم الغلاف، وإنما كتبت الرواية نفسها..

أعود هنا إلى ذكرياتي مع أستاذي الراحل العظيم، عندما كنت في طريقي إلى (الإسكندرية)، ووجدت أول إعلانات الحملة الصحفية، في الركن السفلى الصفحة الثالثة من الجريدة...

كان إعلانا بسيطا للغاية، ولكنه يلفت الانتباه إلى حد كبير..

(رجل المستحيل).. (ملف المستقبل).. (المكتب رقم 19)..

ثلاثة عناوين، متراصة بشكل أنيق، دون أية إضافة إخرى..

إعلانات مبهمة، مع عناوين جذابة..

ودون أية تفاصيل ..

وعلى مسافة قريبة مني، سمعت أحدهم يتساءل عن معنى العناوين الثلاثة...

وابتسمت.....

كانت فكرة عبقرية من الأستاذ (حمدي) بالفعل...

ولم يمض أسبوع واحد، حتى أصبح هناك عدد كبير من الناس، يتساءل عما تعنيه تلك الإعلانات..

وهنا بدأت المرحلة الثانية من الحملة....

إعلانات جديدة، تذكر أن هذه العناوين الثلاثة، لسلاسل قصصية جديدة، تحت عنوان واحد، وهو (روايات مصرية للجيب)، تصدر في الأول والعاشر، والعشرين من كل شهر...

الطريف أنه، وعلى الرغم من الدعاية، لم يحدث، ولو مرة واحدة، أن صدرت السلاسل بهذا الترتيب؛ نظرا لأنها كانت ترتبط بظروف ومواعيد الطباعة..

وعقب الحملة الإعلانية، وقبل أن تكتمل بأسبوع واحد، بدأ طرح السلاسل في الأسواق... وكان الأمر محبطا في البداية...

الأسواق لم تتقبل السلاسل على نحو جيد، وإنما بتحفظ شديد، خاصة وأن السوق كان مغمورا بعشرات الروايات، التي تقلد أسلوب أستاذنا (محمود سالم)، الذي مازالت رواياته عن (المغامرون الخمسة)، و (الشياطين الثلاثة عشر)، تملأ الأسواق، وتلقى رواجا جيدا...

في نفس الوقت، كنت أواصل إفراغ مخزون الأعوام من الأفكار، في روايات جديدة، حتى إنني كنت أقدم العدد السابع من كل من السلسلتين، وعددهما الثاني لم يصدر بعد...

وكانت المبيعات، حتى العدد الرابع، منخفضة للغاية، مما دعاني يوما لأن أعرض على الأستاذ (حمدى) التوقف، إلا أنه ابتسم في ثقة، وأخبرني أن الأشياء الجديدة تحتاج إلى فترة من الصبر، وأنها لن تلبث أن تجد رواجا عندما تستوعبها الأسواق..

ثم طلب مني الاستمرار في الكتابة، دون الالتفات إلى التوزيع...

وكم كانت نظرته مستقبلية صائبة كالمعتاد!...

فمع العدد السادس من السلسلتين، تضاعفت المبيعات على نحو ملحوظ، وحدث إقبال واضح على السلاسل الثلاث، وبدأ البعض يتحدثون عنها، وخاصة مع جودتها ورخص سعرها؛ ليثبت الأستاذ أن لديه نظرة مستقبلية، لا تخطئ أبدا..

كان والدي رحمه الله مستاء جدا، من أنني قد استقلت من الوظيفة الحكومية، وركزت اهتمام على الكتابة، وكان هذا في عرفه، دليلا على الفشل وعدم وضوح الرؤية، فكيف لطبيب، يحلم القطاع العريض من الشباب بمهنته، أن يترك وظيفة طبيب في مستشفى محترم، من أجل مهنة غير مضمونة مثل مهنة الكتابة؟!..

ولكن الواقع أنني كنت أعشق مهنة الكتابة، إلى الحد الذي يحجب عنى أية مهنة أخرى...

أعشق الورق...

والطباعة.....

والإخراج....

وكنت أشعر دوما أنني ما خلقت إلا لهذه المهنة، وأنني لست أفخر بحمل سماعة الطبيب وجهاز قياس ضغط الدم، بقدر فخري بحمل قلم، يمكن أن ينقل أفكاره إلى آخرين...

ثم كان ذلك اليوم، الذي استوقف فيه بعض الشباب والدي في (طنطا)؛ ليسألوه في لهفة، إذا ما كان والدي، وعندما أجاب بالإيجاب، انهالوا عليه بعبارات الثناء، والتقدير لما أكتبه..

وعاد والدي – رحمه الله – إلى المنزل، وهو ممتلئ فخرا وسعادة..

روى لي ما حدث، ثم تغيرت نظرته إلى ما أفعله تماما بعدها...

كنت أيامها أستعد للزفاف، بعد خطبة استمرت ثلاثة أعوام، ومثل أي شاب، كنت أحتاج إلى نفقات عديدة؛ لإتمام الزفاف...

وهنا ظهر جانب آخر من جوانب الأستاذ (حمدي) الرائعة...

جانب مازلت أدين به له، حتى يومنا هذا...

ولهذا قصة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كأي شاب مقدم على الزواج، في العشرينات من عمره، كنت أعاني من ضائقة مالية، مع متطلبات الزواج، التي نصر على أن نجعلها أكبر مما ينبغي، ولكنني كنت ومازلت مصابا بمشكلة نفسية معقدة، تجعلني أعجز عن طلب العون، مهما كنت في أشد الحاجة إليه، ولهذا لم يكن من السهل على أن أطالب والدي، رحمه الله، بما ينقصني من موارد، كما كانت تدور في

رأسي حسابات لا حصر لها، حول مصروفات حفل الزفاف، وشهر العسل، وخلافه..

وكان الأستاذ (حمدى) يدرك أنني مقدم على الزواج...

ولم نتحدث في هذا قط..

ولم أحاول من ناحيتي الإشارة إلى ما أعانيه...

زوجتي وحدها كانت تعلم بالمشكلة، ووفقا لمطلبي، لم تخبر بها أحدا..

... ثم فجأة، وجدت الأستاذ (حمدي) - رحمه الله - يعطيني مظروفا مغلقا، ويبتسم قائلا: إنها معاونة من المؤسسة على الزواج...

لم أدر لحظتها ماذا أقول، وإن حاولت متخاذلا إقناعه بأنني لست في حاجة إلى المعاونة، على الرغم من كل الظروف وكان بسيطا، وهو يخبرني أنه يعلم هذا، ولكنه تقليد في المؤسسة، تجاه كل من يقدم على الزواج..

وتصورت في لحظة ما، أن الحل الوحيد هو ألا نقيم حفل زفاف، وأن نقضي شهر العسل في منزل الزوجية..

وكانت معاونة شديدة القيمة، بمقاييس تلك الأيام، وعندما عدت إلى (طنطا)، كانت في انتظاري مفاجأة أخرى..

فوالدي - رحمه الله - قد تولى كل ما يتعلق بحفل الزفاف كهدية منه...

وهكذا، ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت...

لم يكن منزل الزوجية مجهزا بكل شيء، كما هو الحال هذه الأيام، وكنا قد اكتفينا بهذا، على أن نكمل ما تبقى عقب الزفاف،

فقررنا استخدام مساعدة المؤسسة، في قضاء شهر عسل جيد...

ومرة أخرى، دخل الأستاذ (حمدى) الصورة...

وبقوة...

فقبل الزفاف بأسبوع واحد، فوجئت به يعطيني مفتاح شقته في المعمورة، وكانت أيامها أفخر مصايف (مصر)، حيث لم يكن إنشاء الساحل الشمالى قد بدأ بعد..

وبنفس الإبتسامة، أخبرني أنها هدية شهر العسل..

ولم أصدق كل هذا...

لقد حسبت ألف حسبة، قبل أن تهبط على كل هذه المفاجآت، وبعد أن قررت وزوجتى الاكتفاء بأقل القليل، وجدت نفسي أقيم حفل زفاف جميل، وأقضي شهر عسل أجمل، في مصايف (مصر) في ذلك الحين...

شعرت بامتنان كبير أيامها، لطرفين مهمين في حياتي...

والدي..

والأستاذ (حمدي)...

وفي شهر العسل، حصلت من شباب (مصر) على أجمل هدية زفاف..

كانت رواياتي تفترش كل الأرصفة، وإقبال الشباب عليها شديد الوضوح، حتى أنني كلما جلست مع زوجتي على الشاطئ، كان هناك من يقرأ رواية منها...

وعدت من شهر العسل، وكلى حماس؛ لكتابة المزيد والمزيد من الروايات...

وفي كل مرة نلتقي، الأستاذ (حمدي) وأنا، كنا نفكر في مشروع جديد، ونناقشه، ونضع له الأسماء، والمضمون..

وذات يوم، وجدت على مكتب الأستاذ (حمدى)، عدة أعداد من سلسلة رومانسية شهيرة، كانت تملأ الأسواق في ذلك الحين، وكان الإقبال عليها ملحوظا، ولم أكد ألتقى به، حتى بدأ يحدثني في حماس عن تلك السلسلة، وعن قراءته لها.. وضيقه من أنها تحوي الكثير، مما لا يتناسب مع قيم مجتمعنا وتعاليم ديننا، ثم سألني، إذا ما كنت أستطيع كتابة روايات رومانسية، تلتزم بالتقاليد، وتعطي صورة جميلة مهذبة للحب، كما ينبغي أن يكون، ثم قال بالنص: « أريد روايات، لا يخجل الأب أو الأم، من وجودها في منزلهم، وبين يدى أولادهم... » وفي الجلسة نفسها، اخترنا للروايات، التي لم تكتب بعد، اسم (زهور)...

وبدأت بالفعل في كتابة الرواية الأولى..

ومع مولد ابنى (شريف)، بدأت طباعتها، فقررت أن أضع في مقدمة عددها الأول إهداء له..

وتم طرح (زهور) في الأسواق، وأنا أضع يدي على قلبي...

إنها روايات رومانسية، تنافس سلسلة معروفة، تلقى رواجا بالفعل في الأسواق العربية.....

فماذا سيكون تأثير هذا؟!...

ولكن الشباب العربي لم يخذلنا..

الروايات الرومانسية، ذات الطابع الشرقي، نجحت في أن تحتل مكانها، وسط الروايات الرومانسية المترجمة...

ليس هذا فحسب، وإنما راحت تزيحها رويدا رويدا من الأسواق.....

وبعد أقل من عامين، صارت روايات (زهور) هي الأكثر مبيعا، وسط عالم الروايات الرومانسية، في العالم العربي كله، وخاصة بعد أن انضم إلى فيها الزميل (شريف شوقي)، ورأينا أن نفتح صفحاتها، لكل من يمتلك الموهبة في هذا المجال.. نظرا لأنها سلسلة متصلة منفصلة، لكل رواية فيها طعم مختلف، وليس من الضروري أن ترتبط بكاتب واحد..

ولم تكن طبيعة الأستاذ بقادرة على الاكتفاء بهذا فحسب.. وكان طول الوقت يبحث عن جديد.. وعن إضافة السلاسل (روايات مصرية للجيب)...

وفي واحدة من الشركات، العاملة في مجال الدعاية، التقيت بالفنان (خالد الصفتي)، وأدهشني أنه يمتلك موهبة كبيرة، ولكنها لا تلقى تقديرا، من الجهة التي يعمل فيها، فاصطحبته إلى الأستاذ (حمدي)؛ ليعرض عليه موهبته..

وبدأ الأستاذ يبحث عن الوسيلة المثلى، للإفادة من تلك الموهبة.

ولأنه - رحمه الله - كان شديد الحماس لكل فكرة جديدة، جاء اتصاله بي في الصباح الباكر ذات يوم؛ ليخبرني أنه قد عثر على الفكرة..

وخلال ساعتين فحسب، كنت في (القاهرة)، في مكتبه، ليطرقع بإصبعيه، هاتفا: « فلاش ».. سألته عما يعنيه هذا فأخبرني أنها

فكرة سلسلة جديدة، عبارة عن فلاشات قصيرة متنوعة، ترسم ضحكة على الوجوه، وتسلية لوقت الفراغ، وكان يستند في هذا إلى باب يحرره (خالد الصفتى)، في مجلة محدودة الانتشار، لم تحقق له أيامها الشهرة المطلوبة...

وراقت الفكرة للفنان (خالد الصفتي)، وتناسب مع طبيعته وموهبته، واستعنا بالمخرج (عادل قلين)، لعمل الإعلانات اللازمة لترويجها..

وكنت أشعر أن الأستاذ يمتلك عقلا من ذهب..

فبقوة ليس لها مثيل، في عالم النشر، انتشرت (فلاش) في (مصر) كلها، مع معرض الكتاب والدولي، وحققت حققت مبيعات خيالية، فاقت كل التوقعات، حتى شديدة التفاول منها...

ومع هذا النجاح الباهر، أو غر أحدهم صدر (خالد)، فتقدم للأستاذ بطلب مكتب منفرد، وهاتف خاص، وجهاز تكييف، وتليفزيون، و...

وضحك الأستاذ، كما لم يضحك من قبل، واندهش (خالد) نفسه؛ لأنه لم يكن يفكر في كل هذا، وإنما أخبره شخص قريب من الأستاذ، بضرورة طلب ما طلب، وانصاع له هو في استسلام؛ لشدة قرب هذا الشخص من الأستاذ، وتصور أنه مطلب طبيعي، في مثل هذه الظروف..

وانتهى الموقف كله في هدوء، بعد أن أدرك (خالد) أنها كانت محاولة عبث ليس إلا..

وكعادته - رحمه الله، وأسكنه فسيح جناته - تجاوز هذا الأمر في سرعة، ثم بدأ التفكير في سلسلة جديدة...

كان يحلم دوما بأن تصبح (روايات مصرية للجيب) منارة الشباب الثقافية، في العالم العربي كله، وبعدد لا حصر له من السلاسل، في مختلف المجالات.

وهنا، اقترحت سلسلة، كنت أحلم بها طيلة عمري...

سلسلة منوعة، تضم كل ما أكتبه، خارج السلاسل المعروفة..

سلسلة تضم القصة القصيرة، والدراسة، والخواطر، ورواية منفصلة، ورسائل القراء وغيرها.....

وبدأت رحلة جديدة....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع اختلاط الذكريات بعضها ببعض، لا أستطيع الجزم بإذا ما كان إصدار (كوكتيل 2000) قد سبق (فلاش) أم العكس، ولكنني أذكر أننا قد أصدرنا بعدها سلسلة أخرى، حملت اسما مقتبسنا أيضا من عالم التصوير الضوئي، الذي أعتبره أهم هواية في حياتي...

اسم (زووم)...

وعلى عكس فلاش، كانت (زووم) تعتمد على التركيز على موضوعات جادة متنوعة، بحيث تصير أشبه بمجلات (المختار) القديمة، التي كانت تصدر في حجم كتاب، وتقطف من كل بستان زهرة...

كنت أيامها أسبق عجلة النشر بعشر روايات كاملة من كل سلسلة، مما شجعني على خوض تجربة (زووم)...

والواقع أنها كانت تجربة جميلة، عملت على تنمية ثقافتي، واتساع آفاق فكري؛ بسبب اطلاعي على عشرات الكتب، في شتى

المواضيع، بحثا عن جديد ولكن التجربة كان فيها عيب رئيسي.. كانت أشبه بمجلة كاملة، يحررها شخص واحد...

وهذا غير عملي...

وغير منطقي أيضا...

وعلي الرغم من أنني كنت أسبق النشر بعشرة أعداد، إلا أن انشغالي بتحرير (زووم)، التهم وقتى كله تقريبا، فراحت تلك الفجوة تتناقص تدريجيا، حتى لم يعد يفصلني عن عالم النشر سوى عددين فحسب...

وهنا بدأت أعيد حساباتي...

وصارحت الأستاذ (حمدي) بالمشكلة..

ومعًا، جلسنا نبحث عن الحل..

كنت أحب كل ما أكتبه، وأجد متعة مع كل سطر، ولكنني كنت أشبه بقائد سفينة، توشك على الغرق، وليس أمامه من حل، سوى أن يضحي بأحد ركابها...

ولما كان العدد الواحد من (زووم)، يستغرق ما يزيد على ضعف وقت كتابة واحدة من قصص السلاسل الأخرى، وكانت أقل توزيعا منها في الوقت ذاته، لم يكن هناك مناص من اتخاذ القرار المؤلم..

وتوقفت سلسلة (زووم)...

كان القرار، على الرغم من مرارته، لصالح السلاسل الأخرى، الأكثر مبيعا وانتشارا، مثل (رجل المستحيل)، و (ملف المستقبل)، و (كوكتيل 2000)..

ولقد رأيت في الوقت ذاته، أنه يمكن تعويض (زووم)، من خلال ما ينشر من منوعات مختلفة المشارب، في (كوكتيل 2000).

وعدت أسبق المطابع بأربعة أعداد.....

وخمسة وستة..

ولكن عقل الأستاذ أبي أن يتوقف عن البحث عن أفكار جديدة..

وسلاسل جديدة...

وذات يوم، وفي واحدة من زياراتي المنتظمة لمكتبه، فوجئت به يطرح عليّ فكرة سلسلة جديدة..

كان يفكر في عمل، يجمع ما بين المجلة والكتاب، في محتوى واحد..

عمل يصدر في حجم وهيئة مجلة، ويحوي ما يتصف به كتاب..

وطلب مني وضع تصور كامل لهذا..

وراقت لي الفكرة، على الرغم من انشغالي الشديد أيامها وعدت إلى (طنطا)، وجلست خلف مكتبي لما يقرب من يوم كامل، ثم عدت إليه في (القاهرة)، بالعدد الأول من سلسلة (بانوراما)..

ومرة أخرى، اخترت الاسم من عالم هوايتي المفضلة عالم التصوير..

قرأها الأستاذ، وأعجبته، وفي لحظات، كان قد أرسلها إلى قسم التوضيب، وإلى الأستاذ (إسماعيل دياب)؛ لعمل الغلاف..

وهنا ذهبت السكرة، وجاءت الفكرة...

لقد أضيفت إلى سلسلة جديدة، دون أن أنتبه.....

وهذا يعني المزيد من العمل...

والمزيد من الجهد...

والقليل جدا... من وقت الفراغ...

أيامها كان (شريف) ابني الأكبر، مازال طفلا، لا يحلو له أن ينام، إلا إذا وضعته على ساقي، وأنا أكتب..

وكانت معادلة صعبة نوعا ما...

كنت أكتب، وأضمه إلى، وأداعبه..

وكل هذا في وقت واحد...

وعندما يخلد إلى النوم أخيرا، كنت أحمله في رفق إلى فراشه، وأعود لمواصلة الكتابة.... ثم جاءت شقيقته الأولى ابنة صغيرة، جميلة، أحببتها منذ أن وقعت عيني عليها، وكان كل ما يشغلني بشأنها، هو كيفية الربط بينها وبين (شريف)، حتى لا يغار منها، أو يغضب عندما ندللها وبمولدها، أصبحت رب أسرة، عليه أن يرعى أسرته، ويمنحها بعض وقته، ويكتب كل هذه السلاسل في الوقت ذاته..

أيامها، طرح على الأستاذ فكرة الانتقال إلى (القاهرة)... كان يري - رحمه الله - أن السفر من (طنطا) إلى (القاهرة) يستنفد الكثير من الوقت، ويمنعه من الالتقاء بي، عندما يريد مناقشة فكرة ما، طرأت على ذهنه، وأن انتقالي إلى (القاهرة) سيوفر الكثير من الوقت الضائع، وسيضعني على مقربة منه، في الوقت ذاته..

كانت المشكلة في هذا هي العثور على شقة في (القاهرة) التي تنافس أكثر عواصم العالم ازدحاما، والتي تعاني، على خلافها، من أزمة إسكان رهيبة..

ولكن الأستاذ حل الأزمة في بساطة كعادته...

كان يمتلك عددا من البنايات في (القاهرة)، وفي منطقة (مصر الجديدة) بالتحديد، لذا فما أن خلت شقة في إحدى عماراته، حتى اتصل بي في (طنطا)، وحضرت لرؤية الشقة، وكتبنا عقدها في اليوم نفسه...

وهنا بدأ خوف مبهم يتسلل إلى نفسي..

صحيح أنني كنت أعمل بالفعل في (القاهرة)، ولكنني كنت أدير، في الوقت ذاته، مستشفى صغير في (طنطا)، التى أقيم فيها منذ مولدي، وأرتبط فيها بعلاقات وصداقات عديدة....

والانتقال من حياة إلى أخرى، أمر مقلق للغاية..

فعندما تنتقل، عليك أن تبدأ حياة جديدة، وترتبط بعلاقات مختلفة، وصلات مغايرة...

ولكن الحل كان عمليا بالفعل..

ففي تلك الفترة، كنت قد انضممت إلى أسرة تحرير مجلة (باسم) السعودية، وأكتب مقالات غير منتظمة، في مجلة (الشرق الأوسط) اللندنية، التي تصدر كملحق لجريدة تحمل الاسم نفسه، وكان عليّ أن أبدأ رحلتي إلى (القاهرة) في السادسة صباحا؛ لكي أصل إلى (باسم) مبكرا، ثم اتجه إلى المؤسسة، وبعدها أعود لإدارة ذلك المستشفى الصغير في (طنطا)، ولأكتب الروايات في نهاية الليل..

وكان هذا مرهقا..

وبشدة..

ثم إن (شريف) كان قد بلغ السن، التي ينبغي له فيها دخول المدرسة لأول مرة، وكان من المحتم تحديد مساره...

هل يبدأ دراسته في (طنطا)..

أم في (القاهرة)..

هذه النقطة الأخيرة حسمت الموقف..

ولكن ليس دفعة واحدة...

لقد قررت عمل هذا على نحو تدريجي، بأن أصطحب زوجتي وطفليّ معا إلى تلك الشقة الجديدة في (القاهرة)، ليومين أو ثلاثة أسبوعيا، تمهيدا للانتقال النهائي...

وفي (طنطا)، وقبل بدء هذه المرحلة بفترة قصيرة، نطقت ابنتي الصغيرة بكلمة (بابا) لأول مرة.....

وكدت أطير من السعادة...

ولكنني لم أدر أن الصباح التالي سيحمل لي مفاجأة..

مفاجأة غير سارة..

على الإطلاق...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان كل شيء يسير كالمعتاد، في منزلي في (طنطا)..

عندما استيقظت فجأة على صراخ زوجتى، فهرعت إليها، لأجد أمامي صدمة، كادت المسكينة معها تنهار تماما؛ فالابنة التي نطقت اسمي للمرة الأولى منذ ساعات قليلة، هادئة في فراشها وعلى وجهها الطاهر علامات الموت..

حاولت يومها، على الرغم من ثقتي في وفاتها، باعتباري طبيبا في هذا المجال، أن أسعفها بشتى الطرق، وبلا أدنى فائدة..

وكانت أياما بالغة الحزن والأسى، لا يمكنني أن أصف هنا مدى الألم، الذي تركته في نفس زوجتي ونفسي، وإن بذلت جهدا خرافيا، في محاولة التماسك، وسجن دموعي في أعماقي؛ حتى أساعد زوجتى على عبور الأزمة، التي كادت تصيبها بانهيار تام..

وعلم الأستاذ (حمدى) رحمه الله بالأمر، مع أول اتصال هاتفي، وكان شديد التعاطف مع الموقف، وطلب مني البقاء إلى جوار زوجتى، حتى تستعيد قدرتها على العودة إلى الحياة الطبيعية..

وحسم هذا الموقف الكثير من الأمور، وجعلني أتخذ القرار الحتمي، بضرورة الانتقال إلى (القاهرة)؛ للابتعاد عن المنزل الذي شهد المأساة...

ومع تواجدي إلى جوار زوجتي، في تلك المرحلة، نجحت معها في عبور الأزمة، وتحدثت معها بأن الله سبحانه وتعالى..

اختار ابنتنا الصغيرة إلى جواره، ونحن لا ندري ماذا كان يمكن أن يحدث لها ولنا، لو أنها بقيت على قيد الحياة، وأنه ربما برزقنا الله عز وجل بابنين عوضا عنها...

ولقد كان..

لقد أنجبنا بعدها بالفعل (ريهام)، ثم (نورهان)...

وعلى الرغم من الحزن العميق، تجاوزنا الأزمة، من أجل باقي الأبناء، ولأن الحياة يتحتم أن تستمر، مهما كانت الخطوب..

ومع الانتقال إلى القاهرة، في أغسطس 1990 م، بدأت مرحلة جديدة من حياتي، ومن علاقتي بالأستاذ، التي جعلها قرب المكان أكثر عمقا، فصارت صداقة، بأكثر منها عمل..

ولأن الأمر تحول إلى باب الصداقة، صار كل منا يحدث الآخر عن أمور، لا يمكن نشرها هنا، ولا في أي مكان آخر؛ نظرا لأنها أمور شخصية أو عائلية، ائتمن كل منا الآخر عليها، وصارت محبوسة داخل خزائن فولاذية مغلقة، يستحيل خروجها منها، ولو خرجت الروح معها..

كنت أيامها أكتب قصة العدد، للكتاب الجديد من سلسلة (كوكتيل 2000)، واخترت لها اسم (فارس الأندلس)، وقرأها الأستاذ، وطلب مني الحضور إلى مكتبه، وهناك وبعد أقل من نصف الساعة، أخبرني أنه يريد إنتاج القصة على نحو مختلفة؛ فبدلا من أن تكون قصة العدد، في (كوكتيل 2000)، فكر الأستاذ في إنتاجها في حجم (بانوراما)، أي بقطع المجلة، مع رسوم ملونة، وضعها في اقتدار الأستاذ الفنان المبدع الراحل (إسماعيل دياب)...

ولقد تم عمل الرسوم، وطباعة العدد بالفعل، ولم يكن ينقصه سوى الغلاف، عندما سافرت لقضاء الصيف في (المعمورة) كالمعتاد...

وهناك، شاهدت رواياتي تفترش الأرصفة، وكان هذا، ولا يزال، يسعدني بشدة، فذهبت لألقي نظرة على العناوين المطروحة...

وكانت المفاجأة...

لقد فوجئت برواية، من القطع المعتاد للروايات، تحمل عنوان (فارس الأندلس)، مع الرقم (1).. وكان هذا يعني أن الرواية، التي كان يفترض أن تصدر في حجم كبير، ورسوم رائعة ملونة، قد صارت سلسلة جديدة، من سلاسل (روايات مصرية للجيب)...

ومع المفاجأة، هرعت إلى سنترال (المعمورة)، ووقفت في الطابور، الذي كنت أبغضه كل البغض، واتصلت بالأستاذ..

وعلى الطرف الآخر للخط، سمعت ضحكاته، وهو يسألني عن شعوري، عندما رأيت العدد الأول من (فارس الأندلس) والعجيب أنه نجح، وبمنتهى السهولة، في إقناعي بما حدث..

كان قد قرأ القصة مرة أخرى، قبل عمل غلافها، ووجد أن أحداثها وشخصياتها جديدة وثرية..

أخبرني أنه أحب الشيخ وحكمته..

و (مهاب) وفروسيته..

و (فهد) وقوته..

وأنه قد وجد في الرواية خامة ممتازة لسلسلة جديدة، لا مثيل لها في الأسواق، ويمكنها أن تثري مكتبة الشباب بمعلومات جديدة، عن فترة قبل الحديث عنها، وتبث في نفوسهم روح الفروسية، التي أسعى إليها في كتاباتي...

وأنهيت المحادثة، وأنا أكثر حماسا منه لإنتاج المزيد من (فارس الأندلس).

ولم يكن هذا بالأمر السهل..

فالكل يعلم أنه، وعلى الرغم من سيادة العرب على (الأندلس)، الأكثر من سبعة قرون، إلا أن الأمر انتهى بهزيمتهم، وبعودة (الأندلس) إلى (أوروبا)

وهذا يعني أن التحدي كبير...

وعندما نأتي إلى خانة التحدي، يتفق الأستاذ - رحمه الله - مع شخصي المتواضع في الكثير.... والكثير جدا...

فكلانا يعشق التحدي، واقتحام المجالات الجديدة...

والمغامرة...

وكتابة سلسلة من الروايات، عن بطل في عصر انتهى بالهزيمة، هو مغامرة لانتزاع لمحات من النصر، من بين فكي الهزيمة...

ولهذا متعة...

كبيرة...

ومع المتعة، تبدأ المسئولية...

كان من الضروري أن أقرأ الكثير، عن (الأندلس)، وتطور الحياة فيها، من عهد (طارق بن زياد)، وحتى مرحلة التراجع إلى مملكة (غرناطة)، وعهد (بني الأحمر).....

عن (القشتاليين)...

و (فرناندو)... و (إيزابيلا)...

عن صراعات ذلك العصر، وخلافاته، وتطاحناته..

وأنا أعترف الآن بفضل أستاذي الراحل العظيم، الذي دفعني إلى هذه الثقافة الجديدة...

لقد عرفت الكثير والكثير عن (الأندلس) وتاريخها...

وبدأت أكتب...

وخرجت سلسلة (فارس الأندلس) إلى النور، كسلسلة فريدة من نوعها، كما تنبأ لها الأستاذ...

ومع وجودي في (القاهرة)، التي يصر كل من يحكم (مصر) على أن يجعلها المركز الوحيد لكل الأمور، وكأن المدن الأخرى مجرد تابع لها، بدأت أدخل في مجالات جديدة، في الصحافة والفن،

وإن لم يرق هذا للأستاذ، الذي كان يرى أن مهنتي الأساسية هي الأدب، وليس الصحافة أو الفن وهنا كنا نختلف...

ففي داخلي، كانت هناك طاقة كبيرة، تسعى للانطلاق في مختلف المجالات...

صحيح أنني أعشق الأدب والرواية..

ولكن هناك أمور أخرى، مازلت أومن بأنها كامنة في أعماقي، وتسعى للانطلاق بكل قوتها، ولم يكن من الممكن أن أمنعها من الانطلاق مهما كان الثمن..

وفي القناة الثقافية، في التليفزيون المصري، قدمت برنامجا يحمل اسم (عالم الأسرار)، كان يقدم أسبوعيًا..

وكانت بداية جديدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الدخول إلى عالم الإعلام، كان يختلف تمام الاختلاف، عن دخول عالم الأدب، ومن المستحيل حتى المقارنة بينهما؛ ففي عالم الأدب، يكون الأديب وحدة منفردة، فهو صاحب الفكرة، والأسلوب، والعنوان، وأدق التفاصيل، ولا يتدخل الآخرون إلا في إعداد مؤلفه للطباعة، وتصميم الغلاف، وتلك الأمور الفنية الأساسية، التي يحتاج إليها خروج المؤلف إلى النور أما في العمل الإعلامي أو الفني، فالأمر يختلف تماما... هذا لأن العمل الإعلامي عمل جماعي، فيه معد للبرنامج، ومخرج، ومنسق، ومدير إنتاج، وقناة، ورئيس قناة، و.....

باختصار، في العمل الجماعي، لا يشعر الأديب بنفس الحرية، التي يشعر فيها مع مؤلفه الأدبي

كان هذا رأي الأستاذ (حمدي) رحمه الله، ولم أتفق معه في حينه، ولم يحاول هو منعي منه...

فقط أبدي رأيه فحسب..

والعجيب أنني، وعلى الرغم من تمسكي الشديد بحريتي، قد وجدت في العمل الإعلامي متعة مختلفة..

ويبدو أنني قد اعتدت أن أجد في كل جديد متعة..

ففي المرحلة الثانوية، كنت أمينا للفصل، وأمينا مساعدا لجماعة التصوير الضوئي، وعضوا في جماعة العلوم، وجماعة الصحافة، وفريق التمثيل..

وكنت أجد في كل مجال متعة...

ومتعة مختلفة..

المهم أن أكثر ما حرصت عليه، خلال تلك الفترة الإعلامية القصيرة، التي استغرقت أقل من عام واحد، هو ألا يقل إنتاجي الأدبي قطرة واحدة، بل كنت شديد الحرص على إصدار السلاسل كلها، في مواعيدها، وعلى أن أسبق جدول الصدور بعدد أو عددين على الأقل..

في الوقت نفسه، كان إنتاجي مستمرا وغزيرا في مجلة (باسم)، وخاصة بعد أن تولى صديقي العزيز (مؤنس زهيري) رياسة تحريرها، قبل أن يتم إغلاق مكتب (القاهرة)، عقب نشر تحقيق كبير، في جريدة (الشرق الأوسط)، عن الشائعات المنتشرة في الشارع المصري، حول (جمال) و (علاء مبارك).

وذات صيف، جمعتنا (المعمورة) معا... الأستاذ وأنا... وفي سهرة عائلية، بدأ ابنى (شريف) مرحلة النعاس، فجلس على ساقي

كعادته، ورحت أروى له حدوتة قبل النوم المعتادة...

وكان الأستاذ - رحمه الله - لا يتوقف أبدا عن التفكير في جديد، ينضم إلى (روايات مصرية للجيب)

كنت أيامها قد ابتكرت شخصية (كتاكيتو)، في حواديت قبل النوم، لكي أروى له كل ليلة حدوتة منها، أضيف إليها شيئا مما أريده أن يتعلمه...

وتابعني الأستاذ في اهتمام، وأنا أروى حدوتة (كتاكيتو) لابني..

وبعد أن نام (شريف)، فوجئت بالأستاذ يسألني عن تلك الشخصية، فأخبرته أنني قد ابتكرها لحواديت قبل النوم فحسب..

وكعادته، أصر الأستاذ على أن يفاجئني، وهو يطلب مني أن أحول الشخصية، إلى سلسلة قصص قصيرة للأطفال..

لم أكن قد كتبت شيئا للأطفال من قبل، إذ أن الكتابة للطفل هي أصعب أنواع الكتابة على الإطلاق؛ فهي تحتاج إلى استخدام قاموس خاص، ومصطلحات مبسطة، لا يحار الطفل في فهم معناها، وإلى مضمون تربوي واضح، يمكن للطفل استيعابه.. من خلال متعة خاصة وأحداث طريفة..

وقد يدهشكم أنني قد شعرت بمسئولية كبيرة، عندما طلب مني الأستاذ أن أكتب سلسلة (كتاكيتو)...

فكل كتاباتي، حتى ذلك الحين، كانت موجهة للشباب والكبار..

وتستهدف جيلا بدأ يرى حياته بشيء من الوضوح..

جيلا أكثر وعيا...

وفهما...

وإدراكا..

والأمر هنا يختلف تمام الاختلاف...

والتجربة أيضا تختلف..

وبشدة...

وعلى الرغم من أنني أروى قصص (كتاكيتو) لابني في بساطة، فتحويلها إلى سلسلة، يمكن أن يقرأها كل طفل، أو تقرأها له أمه، أمر مختلف تماما..

وقررت في النهاية خوض التجربة...

وكتبت نفس الحكايات، التي كنت أرويها لابنى (شريف)...

وصدرت (كتاكيتو) بالفعل..

صدرت مزينة برسوم أنيقة جميلة، للصديق الفنان (عبد الشافى سيد)...

ووضعت يدي على قلبي، وكأنه أول عمل يصدر في حياتي أما الأستاذ، فكان هادئا واثقا كعادته.....

وكانت نظرته هي الأصوب...

كالمعتاد...

نجحت (كتاكيتو) كسلسلة للأطفال، وحققت مبيعات لم أكن أتصورها، حتى أنه صدرت منها ثلاث طبعات، في أقل من عام واحد..

وصارت حواديت قبل النوم قصصا مطبوعة تتصدر قائمة كتب الأطفال في المؤسسة،..

وهنا، طلب مني الأستاذ سلسلة أطفال جديدة...

كنت أفكر في سلسلة للأطفال الأكبر سنا من (كتاكيتو)...

وفي هذه المرة، قررت أن أمنح الأطفال جزءا من عشقي الأساسي ..

أدب الخيال العلمي..

سلسلة تجمع بين البساطة والخيال..

ومن هذا المنطلق، ظهرت سلسلة (مغامرات سندباد)..

و (سندباد) شخصية معروفة، في الأدب العالمي، تمت معالجتها بأكثر من طريقة، في أفلام مغامرات، وأساطير ورومانسيات..

وفي هذه المرة، قدمته في خيال علمي..

والخيال العلمي هنا جاء في طبيعة روايات السندباد لرحلاته وإضفاء روح الخيال العلمى عليها..

فعندما يصف (سندباد) جزيرة طائرة مثلا، فتلك الجزيرة تكون في الرواية طبقا طائرا، وعندما يصف عرائس البحر، فهي مخلوقات تعيش في أعمق الأعماق، من بقايا قارة (أتلانتيس)... وهكذا...

ويبدو أنني كنت مخطئا، في اختيار هذه النوعية....

ولكن كان من الواضح أن هذا لم يؤثر في الأستاذ كثيرا؛ فقد ظل كما هو، يفكر دوما في جديد...

وعلى استحياء، اقترحت فكرة إصدار سلسلة مصورة عالمية لشخصيات مجلة (تان تان)، التي كانت درة القصص المصورة المترجمة، عندما كنت في المرحلتين، الثانوية والجامعية...

أو هذه الفئة العمرية...

فسلسلة (مغامرات سندباد)، لم تلق نجاح سلسلة (كتاكيتو)...
أو حتى نصف نجاحها..
وهذا أمر وارد وطبيعي، مع كثرة الإصدارات..
ولقد أدهشني موافقته السريعة على الفكرة...
ومبادرته الأكثر سرعة أيضا..
لقد بدأ الاتصالات فورا، مع شركة (دارجو) البلجيكية صاحبة الامتياز..
وبينما نستعد للاتفاق مع الشركة، واجهت أزمة جديدة...
وعنيفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نجحت أخيرا فكرة إنتاج المؤسسة لسلسلة مصورة، وبدأ الأستاذ حمدي (رحمه الله) التجربة، من خلال (روايات مصرية للجيب)، عبر سلسلة جديدة، حملت اسم (أوسكار)...

كان نشاطي أيامها في مجلة (باسم) المصورة في ذروته مما ربطني بصداقة وثيقة، مازالت مستمرة حتى يومنا هذا مع رئيس تحريرها، ورئيس تحرير مجلة (أبطال اليوم) حاليا (مؤنس زهيري)، والفنانين (فواز) و (ميشيل معلوف) و (عبد الشافي سيد) و (إبراهيم سمرة) وغيرهم، وبعقليته الفذة، وفكره السابق لزمنه، رأى الأستاذ ضرورة الإفادة من هذا العالم الجديد، الذي يجمع بين الأدب والفن..

وصدرت سلسلة (أوسكار)...

كانت تضم كل هؤلاء في بوتقة واحدة، في قصص مصورة، ذات مضمون شباب أنيق..

وبعد الاتفاق مع شركة (دراجو) الفرنسية عبر البريد،، بدأت أستعد للسفر إلى (بلجيكا)؛ لإتمام الاتفاق عمليا و....

وفجأة، وبدون سابق إنذار، أصيب والدي رحمه حمه الله بوعكة صحية شديدة، أدت إلى نزيف في البول، عاني منها الأمرين، واضطرني إلى تأجيل السفر، والسعي لعرضه على المتخصصين؛ بحثا عن الأسباب...

وكانت مفاجأة مؤلمة.....

كشفت الفحوص أنه - رحمه الله - قد أصيب بورم خبيث في المثانة، هو المتسبب في هذا النزيف..

وبدأت رحلة علاج طويلة، لا داع لذكر تفاصيلها المؤلمة، ولا ذلك الإهمال الطبي، الذي واجهته لأول مرة، وكأن العمر الذي قضيته في ممارسة المهنة، كان يحجب عنى الصورة من الجانب الآخر...

إهمال وتعال، وغطرسة، وانتظار بالساعات..

ولهذا لم يؤت العلاج ثماره المنتظرة..

وكان والدي قديما قد واجه أزمة شريانية، أدت إلى تأثير مؤقت على المخ، أمكننا السيطرة عليه في الوقت المناسب، ولكنه كان يستلزم تناول دواء مضاد للتجلط، على نحو منتظم، وفي الوقت ذاته، كان يحتاج إلى وقف ذلك النزيف في البول..

أي إلى ما يساعد على التجلط...

وهنا كانت المشكلة...

كان علينا أن نتبع أسلوبا شديد الدقة؛ للمحافظة على توازن الدم، فلا يصل إلى السيولة المساعدة على النزف، ولا إلى

التجلط المؤذي للمخ..

ومع التعالى، ورفض المناقشة، وديكتاتورية أطباء كبار، يرفضون احيانا مجرد الاستماع إليك؛ باعتبار أن هذا يسيء إلى خبراتهم، اختل ذلك التوازن...

وأصيب والدي - رحمه الله – بالشلل..

وحتى في علاجه، كان يرقد في أحد المستشفيات، التي فاقت شهرتها الآفاق، ولكن تم إهمال حالة الشلل في مراحلها الأولى، على نحو مستفز...

وهكذا شفي والدي من نزيف البول...

وأصيب بشلل دائم..

وطوال فترة المرض والعلاج: كان الأستاذ يتابعني بمنتهى الاهتمام، وأصر على سداد فاتورة المستشفى بالكامل، حتى عودة والدي إلى المنزل..

أيامها، كنت أقضي الليل كله إلى جوار والدي - رحمه الله - في المستشفى، وعلى مقعد خشبي صغير، كنت أكتب الروايات والمقالات الشهرية لمجلة الشباب، والأعمدة الأسبوعية في جريدة الميدان..

وبعد استقرار الحالة، على الرغم من حالة الشلل الدائم، عدت إلى العمل، وقررنا - الأستاذ وأنا - العودة إلى مشروع العمل المصور الملون، الذي أطلقنا عليه مبدئيا اسم (سوبر أوسكار)..

وسافرت إلى (بلجيكا)..

وهناك شاهدت عالما جديدا، تحتل فيه القصة المصورة مكانة خاصة، لا تنافسها فيه سوى الولايات المتحدة الأمريكية..

ولكن من منظورين مختلفين تماما..

ففي (أوروبا)، نشأ فن القصة المصورة، أشبه بفن السينما، حيث يقدم أعمالا ذات سيناريوهات قوية، ورسوم أنيقة، وفكر متحضر راق، يناقش قضايا اجتماعية حقيقية، من خلال مغامرات بوليسية، أو كوميدية، أو حتى رومانسية وهناك، تحولت الشخصيات الشهيرة في الأدب إلى قصص مصورة..

(شيرلوك هولمز)، و (أرسين لوبين)، وغيرها...

ثم ظهرت أشهر شخصيات القصص المصورة على الإطلاق (تان تان)...

صحفي شاب، يبحث عن المغامرة، كجزء من عمله الصحفي، ويجوب بلدان العالم المختلفة، عبر ريشة فنان كل العصور (هيرجيه)، الذي صنع من (تان تان) ومغامراته أسطورة، بخياله الخصب، ورؤيته السياسية المدهشة وعبر مغامراته، سافر (تان تان)، من روسيا)، إلى (أمريكا)، ومن بلاد النفط، إلى جزر الكاريبي، والتقى بصديقه القبطان العجوز كابتن (هادوك)، وتعامل مع المخبرين (ديبون) و (ديبون)، واصطحب كلبه (ميلو)، وتعامل مع العبقري الشارد (تورنسول)، والمطربة المتصابية (بيانكا كاستيفيوري)، وعشنا نحن مغامراته، وتفاعلنا مع غواصته المتميزة، بهيئتها الشبيهة بسمكة القرش، في أعماق البحار، وهو يبحث عن كنز القرصان، ثم صعدنا معه إلى القمر، في صاروخه الجميل، ذي اللونين الأبيض والأحمر..

وفي (بلجيكا)، وجدت أن (هيرجيه) قد حقق أمرا، لم ينافسه فيه عالميا، سوى العبقري (والت ديزني)، مبتكر عالم (ميكي

ماوس)، الذي غزا الكرة الأرضية، من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها..

ففي (بروكسيل) لا يخلو متجر واحد من تمثال لشخصية (تان تان)، أو لغواصة القرش، أو الصاروخ ذي اللونين بكل الأحجام... وكل النوعيات...

حتى طوابع البريد هناك، حملت صور (تان تان) ورفاقه...

وفي قلب (بروكسيل)، توجد متاجر هائلة، تبيع القصص المصورة فحسب، ويمكن لعشاق هذا النوع من الفن، أن يقضوا في المتجر الواحد أياما؛ حتى يمكنهم مطالعة كل ما فيه...

ولقد شاهدت الظاهرة نفسها في (أمريكا) أيضا..

ولكن الفكر الأمريكي، قسم القصة المصورة إلى قسمين كبيرين، يتناسبان مع غطرسة القوة الأمريكية..

خط (ديزني)، بكل شخصياته، من (ميكي) و (دونالد داك).. و (أنكل جولد)، و (ميني) وغيرهم، وهو خط بدأ بالقصة المصورة البسيطة، ثم انتقل إلى أفلام الرسوم المتحركة، التي كانت قنبلة في حينها، ثم لم يلبث أن تطور إلى (ديزني لاند) في (كاليفورنيا)، والتي كانت أقوى مدينة ملاه مبتكرة، في العالم كله، قبل افتتاح (ديزني وورلد) في (فلوريدا)، والتي فاقتها بألف مرة...

والخط الثاني كان خط الأبطال الخارقين، مثل (سوبر مان) و (باتمان) و (سبيدرمان) وغيرهم...

وفي الوقت الذي كثفت فيه (ديزني) جهودها، في السينما ومدن الملاهي، تركز اهتمام الجانب الآخر على القصة المصورة، وبدأت الشركات تتنافس في ابتكار شخصيات خارقة أخرى، حتى

صار سوق القصة المصورة في (أمريكا) قائما على تلك الشخصيات، بنسبة تفوق الثمانين في المائة...

المهم أنني عدت من (بلجيكا)، وأنا أحمل عقد إنتاج القصص المصورة، التي كانت تضمها مجلة (تان تان)، التي توقفت عن الظهور، في أوروبا نفسها..

ولكن السلسلة الجديدة (سوبر أوسكار)، لم تصدر بالشكل الذي كنت أنتظره...

أبدا..

ولهذا رواية أخرى...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من العجيب في علاقته القوية بالأستاذ (حمدي) – رحمه الله - والتي كانت تثير دهشة الكثيرين، وحسد البعض أيضا، هو أننا، وعلى الرغم من صداقتنا العميقة، لم نكن نتفق على طول الخط..

كنا أحيانا نختلف ونتخالف...

ونغضب...

بل ونتصارع في بعض الأحيان، على أمور صغيرة...

ولكن، ولأنها صداقة عميقة، من نوع خاص، فقد كنا دوما نتجاوز كل هذا، مهما بلغت تعقيداته..

وفي كل مرة نختلف فيها.. ، كان فريق يراهن على أننا لن نتصادق مرة أخرى...

وكان دوما يخسر رهانه...

هذا لأن صداقتنا لم تكن مجرد صداقة...

لقد كان الأستاذ دوما يعتبرني بمثابة ابن له..

ابن قد يختلف مع والده...

أو يتجاوز... أو حتى يتصور أو حتى يتصور أنه على حق...

ولكنه دوما وأبدا، يظل ابنه..

ولهذا كنا دوما إلى جوار بعضنا البعض..

مهما كانت الخلافات..

ومهما بلغت الاختلافات...

وعندما أصدرنا سلسلة (سوبر أوسكار) الملونة، كنا مختلفين تماما...

كنت أريدها سلسلة فاخرة، بنفس مقاييس الألبومات العالمية...

وأرادها الأستاذ سلسلة أقل تكلفة..

ربما لأنني كنت أنظر إلى الأمر، من زاوية فنية بحتة، أعماها عشقى القديم لمجلة (تان تان) البلجيكية، والذي كان دافعي الأول للسعي؛ لإصدار السلسلة..

أما الأستاذ، فكانت له وجه نظر ناشر..

وناشر صاحب رسالة خاصة...

رسالة تسعى لنشر الثقافة، بين كل طبقات الشعب..

وبين كل الشباب العربي..

بلا استثناء...

ومنظوري للأمور كان منظور كاتب، يرغب في رؤية ما أحب، في أجمل صورة ممكنة... ولكن هذا الاختلاف لم يدم طويلا فبالورق والأقلام والحسابات العملية، ثبت أن الأستاذ محق...

لو أصدرنا ألبومات فاخرة، فسنحرم طبقة كبيرة من الشباب منها..

وخاصة الشباب المصري...

الظروف الاقتصادية كانت ستحول بينه وبين شراء ألبومات فاخرة...

هكذا كان يرى الأستاذ الأمور دوما...

أن يحصل الكل على الثقافة..

وبأرخص ثمن...

وصدرت (سوبر أوسكار)، على النحو الذي أراده الأستاذ وعلى الرغم من كل الحسابات، لم تحقق النجاح المنشود..

والعبارة السابقة نسبية بحتة...

فبالنسبة إلى أية دار نشر أخرى، كان توزيع (سوبر أوسكار) سيعد نجاحا منقطع النظير...

أما بالنسبة لسلاسل (روايات مصرية للجيب)، فقد كنا نعده نجاحا محدودا... وكان هذا مقياسا يؤخذ في الاعتبار..

فربما أحببت أنا القصة المصورة.....

وعشقتها...

ورأيت فيها مزيجا مدهشا، من الفن والأدب معا..

ولكن مجموع القراء ليس كذلك..

لقد أثبتت التجربة العملية، أن القارئ العربي يميل إلى الكتاب المطبوع، الذي يثري خياله وثقافته، وليس إلى الكتاب المصور، الذي يمنحه صورة واحدة، تحد من خياله..

وهذا ما كان يراه الأستاذ دوما..

وما يثبت - للمرة الألف - أنه على حق فيه في تلك الفترة، كنت أتلقى كتابات أدبية، من عدد من الشبان الموهوبين، في مختلف المجالات...

بعضها في مجالات لا تدخل في برنامج النشر في المؤسسة...

والبعض الآخر يناسب (روايات مصرية للجيب) بشدة...

وجلسنا، الأستاذ وأنا، نبحث عن وسيلة لمنح كل تلك المواهب الفرصة للظهور، أيا كان مجالها...

وتفتق ذهن الأستاذ - رحمه الله - عن سلسلة جديدة..

سلسلة (أدبيات)..

ففيها، كنا نستطيع نشر أعمال أدبية رائعة...

أعمال موهوبة

وجديدة.

ومتألقة..

صحيح أن السلسلة لم تلق الرواج نفسه، الذي أنعم الله (سبحانه وتعالى) به، على السلاسل الأخرى...

ولكنها كانت إضافة جديدة...

وعظيمة..

إضافة جعلت منظومة (روايات مصرية للجيب)، تقترب من الاكتمال...

ولكن بقيت الروايات الأخرى..

روايات الكتاب موهوبين، شباب، متفتحين..

ومن بين تلك الروايات، فوجئت بروايتين صغيرتين لكاتب بهرتني موهبته، ورشاقة عبارته، وجودة فكرته، وعلى الفور، هرعت بهما إلى الأستاذ (حمدي)، وطلبت منه قراءتهما بنفسه، قبل أن يصدر قرارا بشأنهما..

ومع الروايتين، كتبت ملحوظة صغيرة، تؤكد موهبة الكاتب، وأن (روايات مصرية للجيب) ستخسره، لو لم تتعاقد معه وفازت به دار نشر أخرى..

وقرأ الأستاذ الروايتين...

واتفق رأيانا.

وبسرعة كعادته - قرر الأستاذ الاتصال بذلك الموهوب، والتعاقد معه على سلسلة جديدة..

وجاء ذلك الكاتب (د. أحمد خالد توفيق)....

وانضم إلى (روايات مصرية للجيب)..

وأضاف إليها واحدة من أنجح سلاسلها...

ثم ثانية...

وثالثة...

وتفجرت مواهبه على نحو مدهش...

وكانت هذه مرحلة جديدة، في روايات مصرية للجيب..

ومع نجاح (د. أحمد خالد) وسلاسله، تفتحت شهية الأستاذ لإصدار سلاسل جديدة، تضم كل الموهوبين، في مجال أدب الشباب..

ولما كان من غير العملي، إصدار سلسلة خاصة، لكل موهوب شاب، في هذا المضمار، فقد اقترح الأستاذ فكرة (سلة الروايات)..

وهكذا صارت لدينا منظومة رائعة، استحقت لقب (مشروع القرن الثقافي)...

منظومة مفتوحة الذراعين، لكل موهبة شابة..

منظومة صنعها الأستاذ..

والمعلم...

والأب الروحي...

منظومة تركت لى آلاف الذكريات...

معه..

د. نبيل فاروق

24- مصر.. (خواطر)

أنا مصرى، أعشق تراب مصر، التي ولدت على أرضها....

نشأت في ظل علمها...

شربت من نيلها..

أكلت من خيرها...

بكيت لآلامها..

فرحت لانتصاراتها..

قاتلت من أجلها..

ودمي وروحي فداء لها..

أنا مصري، يعشق أمه...

مصر..

د. نبيل فاروق

25- حلم ثلاثة عقود..

يأتي هذا العدد، من كوكتيل 2000، متواكبا، مع ذكرى ثلاثة عقود، على طرح الإصدارات الأولى، الروايات مصرية للجيب...

ويالها من ذكرى!!...

البداية كانت عام 1984 م، عندما ظهرت إعلانات غامضة في الصحف تحمل عناوين الإصدارات الأولى..

رجل المستحيل - ملف المستقبل - المكتب رقم 19..

كثيرون طالعوا الإعلانات، التي لم تحو أية تفاصيل أو معلومات في البداية..

فقط أسماء الإصدارات..

وبينما كنت أطالع الإعلانات (وكنت في نهاية العشرينات من العمر)..

كنت أمتلئ بالسعادة؛ ليس فقط لأنني واحد من القلائل، الذين يعرفون ماهية العناوين، وإنما الأهم لأنني صاحب سلسلتين، من السلاسل الثلاث، المعلن عنها..

وبعد أسبوع تقريبا، بدأت معلومة جديدة تتسلل إلى الإعلانات..

معلومة تقول: إن رجل المستحيل في الأول من كل شهر وملف المستقبل في العاشر من الشهر، والمكتب رقم 19 في العشرين من الشهر..

كان الموسم الدراسي في نهايته، عندما ظهر شريط الإعلانات الورقية، الذي حوى الأغلفة الأولى الملونة، للسلاسل الثلاث...

وتم طرح السلاسل الثلاثة، في المكتبات فقط، مع بدايات صيف 1984 م، ولم يتم تداولها على النحو المنتظر، وإنما كان أصحاب المكتبات حذرين في طلبها، قلقين من عدم نجاحها..

وفي سعادة، كنت أحتفظ بكل ما تصدره المؤسسة من نشرات، وكل ما ينشر في الصحف من إعلانات..

وحتى معرض كتاب 1985 م، لم تكن مبيعات الروايات قد استقرت بعد، ولم يكن الإقبال عليها مرضيا..

ولأنني كنت أيامها غزير الإنتاج، إلى حد كبير؛ لأن كل ما أختزن في عقلي من أفكار، وجد طريقه للظهور العلني، فقد أنتجت عشرات العناوين، قبل حتى طرح العدد الأول في الأسواق، ومع قلة المبيعات، قررت التوقف مؤقتا، ولكن الأستاذ (حمدي) - رحمه الله وأسكنه فسيح جناته - لم يوافق على الفكرة، وطلب مني مواصلة الإنتاج بنفس الغزارة، وألا أشغل نفسي بالتوزيع والمبيعات؛ لأنها مسألة وقت فحسب...

وواصلت الإنتاج، ولكن صيف 1985 م مر أيضا دون مبيعات مشجعة...

وراودني إحساس بأن هذه الروايات لن يكتب لها النجاح، وسافرت مع أسرتي إلى المعمورة (لم يكن هناك عمران في الساحل الشمالى بعد)؛ لقضاء ما تبقى من أيام الصيف، و...

وكانت المفاجأة هناك...

الروايات منتشرة على نحو كبير، عند كل باعة الصحف في المعمورة، وسيدي بشر، ومحطة الرمل، والإقبال عليها فاق أكبر أمنياتي وعدت إلى القاهرة، ليستقبلني أستاذي الأستاذ (حمدي) بابتسامة كبيرة، وكأنه يقول لي: « ألم أقل لك؟ »...

في ذلك اليوم، من صيف 1985 م، كنا فرحين بنجاح الروايات وانتشارها، وقال الأستاذ (حمدى) ما لم أنسه أبدا، وما زلت أذكره حتى الآن....

قال إنه (رحمه الله): يحلم بأن تصل روايات مصرية للجيب إلى مائة عنوان...

ولكنه كان حلما اقتصر على ثلاث سلاسل، كانت كل إصدارات روايات مصرية للجيب في ذلك الحين مائة عنوان فقط، كانت منتهى الحلم عندئذ، منذ ثلاثة عقود!!!

ولكن النجاح تواصل، وانتقل عام 1987 م إلى كل أنحاء الوطن العربي؛ ليحقق في كل دولة عربية نجاحا مماثلا، مما شجع على صدور كوكتيل 2000، وفلاش، وزووم، وفارس الأندلس، إلى جوار سلاسل أخرى، مثل أدبيات، وإسلاميات، ومجموعتى كتاكيتو وسندباد للأطفال وسلسلة زهور، ذات الطابع الخاص...

وتجاوزت العناوين المائة، في أقل من سبع سنوات، ثم سرعان ما تسارع إيقاعها، مع زيادة عدد المؤلفين وغزارة إنتاجهم..

وكان الأستاذ (حمدى) يولى الروايات عناية خاصة، ويفخر بها كأنها أحد أبنائه، وكانت جلساتنا دوما للبحث عن فكرة سلسلة جديدة، عندما ظهر الموهوب الدكتور أحمد خالد توفيق..

كان قد أرسل روايتين متوسطتي الحجم، تم عرضهما على، باعتباري كنت أرأس لجنة النشر في ذلك الحين، ورأيت فيهما موهبة متفجرة وأسلوبا منفردا، جعلني أحملهما إلى الأستاذ (حمدى)، بدلا من الاكتفاء بإرسال التقرير إلى سيادته فحسب..

يومها جلسنا نناقش الأمر لأكثر من ساعة، وكانت وجهة نظري أن أحمد خالد أديب موهوب، إما أن نضمه إلى فريقنا، أو سيذهب إلى مؤسسة أخرى، ويصبح أخطر منافسينا فيما بعد...

وانضم الدكتور أحمد إلى روايات مصرية للجيب؛ لتتزايد الإصدارات وقوتها وجودتها، ويتسع انتشارها، مع اتساع عدد محبيها، حتى صار جناح المؤسسة هو أحد العوامل الجاذبة إلى معرض الكتاب السنوي، وخاصة بين فئة الشباب...

ومن حسن الطالع، أنه قبل وفاة الأستاذ العظيم (حمدي مصطفى)، كانت إصدارات روايات مصرية للجيب، قد تجاوزت الألف وخمسمائة عنوان، وصارت أشهر عنوان ثقافي (غير حكومي)، في العالم العربي كله..

تحقق الحلم، وكبر أكبر من الحالمين..

حلم بدأه أستاذنا الراحل العظيم (حمدي مصطفى)، وكنا كلنا جنودا في جيشه الثقافي، الذي غزا عقول شباب العالم العربي كله من المحيط إلى الخليج، وحقق نجاحا لم يحققه مشروع ثقافي خاص من قبل..

واليوم، وبعد أكثر من ثلاثة عقود، ما زال لروايات مصرية للجيب بريقها، وما زالت تنعم بنجاحها، بإذن الله سبحانه وتعالى وتوفيقه...

فتهنئة لروايات مصرية للجيب، التي أرجو أن تستعيد اسمها بالكامل مهما بلغ حجمها، باعتباره علامة تجارية، وليس إشارة إلى حجم مطبوعاتها...

ودعاء إلى مؤسس مشروع القرن الثقافي، كما وصفه بنفسه...

دعاء إلى صاحب ثلاثة عقود من النجاح..

إلى الأستاذ..

صاحب الحلم..

أجمل حلم..

د. نبيل فاروق

26- بطولة لا تنسوها.. (تاريخ)

أشرق عام على مصر، وقد بلغت كراهية المصريين للاحتلال الإنجليزي ذروتها، وخاصة بعد انتصار الحلفاء على دول المحور (ألمانيا واليابان)، وتراجعها عن وعدها بمنح مصر استقلالها، عقب الانتصار في الحرب..

كان الانتصار قد ملأ إنجلترا بمزيد من الغطرسة والغرور، الذين كانا المحرك الأول لأكبر بطولة عرفها العالم عن المصريين، في تلك الفترة فمبقتضي اتفاقية 1936 م، كان على القوات البريطانية أن تنسحب إلى منطقة القناة، وألا يكون لها أي تواجد داخل البلاد ولأنها - أيا كان نطاق وجودها - هي قوات احتلال، فقد لجأت الدولة ولجا الشعب إلى شن هجمات فدائية، ضد القوات البريطانية، داخل منطقة القناة، مما كبد القوات المحتلة خسائر جمة، بشرية ومادية ومعنوية، في كل يوم تقريبا...

كان الفدائيون من كل طبقات الشعب، وكانت مدن القناة مقسمة في ذلك الوقت، وفي (السويس) و (الإسماعيلية) و (بورسعيد) إلى حي أفرنجي للإنجليز، وحى بلدى للمصريين، فقام الإنجليز بترحيل سكان الحي البلدي بالإسماعيلية خارج المدينة، إلا أن هذا لم يوقف هجمات الفدائيين الشرسة، والتي كانت تتم بالتنسيق مع الشرطة المصرية، لذا فقد أصدرت قوات الاحتلال قرارا بخروج كل قوات الشرطة المصرية من مدن القناة، اعتبارا من فجر 25 يناير 1952 م، وعندما توجه رجال الشرطة المقر عملهم في ذلك اليوم طالبتهم قوات الاحتلال بإخلاء المبني

خلال خمس دقائق، أو سيتم اقتحامه واحتلاله بالقوة، واشترطت أن يتركوا أسلحتهم خلفهم..

كان أكبر الضباط الموجودين رتبة، في ذلك الوقت من الصباح المبكر هو النقيب (مصطفى رفعت)، وكان الذي يوجه الإنذار إليه هو (أكس هام) قائد القوات الإنجليزية في الإسماعيلية، ولكن (مصطفى رفعت) رأى أن في هذا مساس بالكرامة والسيادة المصرية على أرضها، وقوات الاحتلال هي الدخيلة، والعكس ينبغي أن يكون، فوقف شامخا، يقول للقائد الإنجليزي إنه إما أن تنسحب قوات الاحتلال، أو سيأمر هو بإطلاق النار؛ لأنه إذا كان هناك من يجب أن يرحل، فهو المحتل، وليس صاحب الأرض..

وعند عودته إلى مبنى المحافظة، أبلغ (مصطفى رفعت) زميله الملازم أول (عبد المسيح) ورجال الشرطة كلهم بما دار بينه وبين (إكس هام)، فوافقه الكل على ما قاله، واجتمعوا على أنهم لن يستسلموا، وسيدافعون عن المبنى والسيادة المصرية، حتى أخر قطرة دم في آخر رجل فيهم، على الرغم من علمهم بعدم التكافؤ بين تسليحهم وتسليح قوات الاحتلال...

وفي هذا الوقت اتصل وزير الداخلية آنذاك بالنقيب (مصطفى رفعت)، وأخبره بأنه قد وصلته معلومات عما يحدث، فأكد له (مصطفي) ما أستقر عليه رأى الجميع، بالقتال حتى آخر رمق، وأمام موقف رجال الشرطة الوطني الشامخ، وافقه الوزير على هذا..

وفور خروج (مصطفى رفعت) من غرفة السويتش، أصابت قذيفة دبابة الغرفة، واستشهد عامل السويتش... وبدأت

المعركة..

كانت معركة شرسة، بين قوات تملك تسليح جيش، ورجال شرطة يملكون أسلحتهم الخفيفة، ووطنيتهم، وإيمانهم بواجبهم، وبالله سبحانه وتعالى..

وسقط العديد من الشهداء، وأصيب آخرون، ومع الدماء والإصابات والشهداء، خرج النقيب (مصطفى رفعت) من المبنى، فتوقف إطلاق النيران، وتصور (إكس هام) أنه سيعلن الاستسلام، إلا أنه فوجئ به يطلب سيارات إسعاف؛ لنقل المصابين والجرحى، فرفض القائد الإنجليزي هذا تماما، وأصر على خروج المصابين مستسلمين؛ لكي يتم نقلهم للعلاج، إلا أن (مصطفى) رفض فكرة الاستسلام تماما، وعاد إلى المبنى، ووافقه كل من تبقى من رجال الشرطة، لتستمر الاشتباكات ويستمر سقوط الشهداء والجرحى والمصابين، وقرأ الجميع الفاتحة على الاستمرار حتى النهاية، وشاركهم الملازم (عبد المسيح) قراءة الفاتحة، وبعدها قرر (مصطفى رفعت) الخروج لقتل (إكس هام)، عندما فاضت به مشاعره وعندما خرج من المبنى توقف لإطلاق النيران كالمعتاد، وفوجئ (مصطفى) بضابط انجليزي أكبر رتبة، يؤدى له التحية العسكرية، فبادله التحية، وفقا للأصول العسكرية، وكان ذلك الضابط هو الجنرال (ماتيوس)، قائد القوات البريطانية في منطقة القنال بالكامل..

وقد أخبر (مصطفى) أن دفاع رجال الشرطة عن المبنى، مع عدم تكافؤ التسليح، هو بطولة لم يشهد مثلها في عمره كله، حتى خلال الحرب العالمية الثانية، وأنهم يستحقون استسلاما مشرفا، مثلما دافعوا عن سيادتهم بشرف، فاشترط (مصطفى رفعت) أن يخرج الجنود من المبنى دون رفع أيديهم فوق

رءوسهم، وأن يعاملوا باحترام كجنود أدّوا واجبهم، وليس كأسرى يستسلمون، وأن يتم نقل المصابين فورا إلى حيث يتم إسعافهم، وكان له ما أراد، وكتب (ماتيوس) في مذكراته فيما بعد، بطولة الشرطة المصرية في ذلك اليوم فاقت كل البطولات التي تحملها حتى الروايات الخيالية، وأن (إنجلترا) ستحمل عار ما فعلته معهم إلى الأبد..

ولقد استشهد من أفراد الشرطة في ذلك اليوم ما لا يقل عن ثمانين جنديا، وأصيب مائة وعشرون آخرون، وتم اعتبار هذا اليوم التاريخي عيدا للشرطة، وعيدا قوميا لمحافظة (الإسماعيلية) أيضا...

بطولة لا ينبغي أن ننساها؛ لأن الزمن يمضي والأيام تتغير ولكن البطولة تبقى ولا تموت..

أبدًا..

د. نبيل فاروق.

(تمت الخواطر بالكامل)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

01- أماني.. (خواطر)

02- صاحبة المجوهرات.. (خواطر)

03- أحلام زمان.. (خواطر)

04- زهرة.. (خواطر)

05- حريتي.. (خواطر)

06- إذا خاصم فجر.. (خواطر)

07- وماذا بعد.. (دعوة)

08- دم واحد.. (نداء)

09- ويأتي الغد.. (خواطر)

10- متمردة (خواطر)

11- في سبيل الحرية (خواطر)

12- نافذة على القلب (خواطر)

13- ورحل الصديق.. (مرثية)

14- روايات.. للجيب (خواطر)

15- الفرسان يتساقطون.. (رثاء)

16- بالفساد وحده.. (خواطر في السياسة)

17- تجربة بيروقراطستان..

18- الموت حيًّا..

19- فلسفة الخيال..

20- حرب قلم..

21- ورحل الفارس.. (مرثية)

22- هكذا رأيتها.. (خواطر)

23- ذكريات معه.. (1) (خواطر حزينة)

24- مصر.. (خواطر)

25- حلم ثلاثة عقود..

26- بطولة لا تنسوها.. (تاريخ)

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

المذكـــرات

(المجموعة الكاملة)

مذكرات مخرج إعلانات.....

.....مذكرات زوج سعيد

مذكرات طبيب في الصعيد الجواني

د. نبيل فاروق

فريق متميزون

E-BOOK

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

المذكـــرات

(المجموعة الكاملة)

مذكرات مخرج إعلانات.....

مذكرات زوج سعيد.....

مذكرات طبيب في الصعيد الجواني

د. نبيل فاروق

فريق متميزون

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع للمذكـــرات

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل المذكرات المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000

(المذكرات)

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

مذكرات مخرج إعلانات

السبت ٢٩ ديسمبر..

- أنا عبقري..

بالتأكيد أنا كذلك..

ولكن عبقريتي هذه تربك الجميع، فلا أحد يمكنه فهم أسلوبي المبتكر ولا حاستي المرهفة، ولا أحد يستوعب إصراري الشديد على الواقعية الإعلانية (وهذا المصطلح الأخير من ابتكاري شخصيا..

ولهذا أراد تصوير مشهد سقوط البطلة، من الدور التاسع، داخل الاستوديو، مع وضع خلفية سينمائية لمشهد الشارع، ولكنني رفضت هذا رفضا باتا- بصفتي مساعده.. وقلت إن الواقعية تقتضي القاء البطلة من الدور التاسع بالفعل، ووضع وسادة كبيرة، أو مرتبة قوية أسفل البناية لاستقبالها..

وكانت الكارثة..

قال الأستاذ (صلاح): إنني معتوه، وقالت البطلة: إنني سادي وحشي، وكلمات أخرى لم أفهمها، ولكنني أظنها نوعا من السباب أو الشتائم..

المهم أن كلامنا قد أصر على رأيه، ولم يحتمل المخرج (أبو خنجر) أن أتفوق عليه فنيا، فطردني من العمل..

ولكن هذا لا يهمني..

سأثبت لهم أنني الأفضل، وسأفتتح شركة إعلانات خاصة..

وسنري من الأفضل..

☆ ☆ ☆

الثلاثاء 39 ديسمبر..

اليوم افتتحت المكتب، الذي استنفدت كل ثروتي في استئجاره، والإعلان عنه في الصحف..

الان فقط ستبرز موهبتي وعبقريتي، ويعلم العالم كله من أنا..

ولقد وقّعت اليوم، وبعد ساعة واحدة من افتتاح المكتب، أول عقد لعمل إعلان تليفزيوني، لحساب شركة مستحضرات تجميل جديدة..

وقررت دخول المعركة بكل قواي...

سأثبت لهم أنني عبقري الإعلانات..

وسترون..

☆ ☆ ☆

الأربعاء ٣٠ ديسمبر..

اليوم بدأت تصوير أول اعلاناتي المبتكرة، وهو إعلان فكرته عبقرية- كمعظم أفكاري- فسترتدي فتاة الإعلان (لولو) ثوب سهرة، وترش شعرها بمثبت الشعر الجديد، الذي أنتجته شركة (الوجه الحسن) لمستحضرات التجميل، ثم تتجه إلى البحر، وتقفز فيه، وتسبح وسط الأمواج وهي مبتسمة، ثم تخرج من البحر، وتشير إلى شعرها بابتسامة جذابة، قائلة:

- انظروا.. مازالت تصفيفة شعري كما هي.

إعلان عبقري.. أليس كذلك؟

وطلبت من (لولو) أن تستعد لتصوير المشهد على شاطئ البحر، ولكنها اعترضت، وراحت تلقى الحجج الواهية..

السماء تمطر.. الطقس شديد البرودة..

كلها حجج تشف عن التكاسل والتقاعس..

ولكن هيهات..

لابد أن يكون الإعلان واقعيا طبيعيا..

وحاول مساعدي أن يتدخل، وراح يرجوني أن نستخدم خلفية سينمائية، مع بعض الماء الدافئ، ولكنني رفضت في إصرار، وحملت كل الأدوات- مع (لولو)- إلى البحر..

وعلى الرغم من اعتراضات (لولو)، لم يكن أمامها مفر من أن ترتدي ثوب السهرة، وترش شعرها بمثبت (الوجه الحسن) للشعر، ثم قرأت الشهادتين، وألقت نفسها في البحر، وخرجت منه تقول:

- إن.. إن.. انظروا.. مازال.. زال.. زالت.. تص.. تص..

= (ستوب).. ما معنى هذا؟

أضاعت (لولو) وقتا ثمينا آخر، لكي تشرح لى بصوت مرتجف، وأسنان تصطك بعضها ببعض، أنها تكاد تتجمد بردًا، وأن كلماتها ترتجف، و.....

رفضت هذا المنطق المحلل في إصرار، وأعدت تصوير المشهد...

وفي هذه المرة خرجت (لولو)، وابتسمت في صعوبة، وهي تقول:

- انظروا.. مازالت تصفيفة شعري.. اتشو..

صرخت مرة أخرى:

- (ستوب).. هذه العطسة أفسدت المشهد.. سنعيد التصوير.

غطست (لولو) مرة ثانية في البحر، وخرجت بابتسامة باهتة، وراحت تتطوح على نحو سخيف، حتى وصلت إلى النقطة المطلوبة، وقالت:

- انظروا.. مازالت تصفيفة شعري كما...

صرخت مقاطعا:

- (ستوب).

هتفت في غضب:

- أنت قاطعتني هذه المرة.. كنت سأقول الجملة الصحيحة.

تجاهلت اعتراضها، وأنا أسألها في حدة:

- لماذا تضعين طلاء شفاه أزرق اللون؟

قالت في حدة مماثلة:

- لقد ذاب طلاء الشفاه في الماء، وشفتي زرقاء من شدة البرد..

لم يقنعني منطقها. وطالبتها بوضع طلاء شفاه وردي، ثم عادت تغطس مرة أخرى في الماء، ولكنها خرجت من البحر زائفة العينين، ولم تستطع أن تقول أكثر من:

- انظروا.. مازالت تص.. تص..

ثم سقطت على وجهها..

وكدت أنفجر غيظا، من هذا الإهمال، وطالبتها بإعادة المشهد مرة أخرى، وعاونها مساعدي ومدير التصوير على النهوض، واتجهت مترنحة نحو البحر، وغطست..

واستعدت آلات التصوير لالتقاط مشهد خروج (لولو) من الماء.. وانتظرنا.. ولم تخرج (لولو) وثرت، ورحت ألعن الجميع، واعتبرت أن (لولو) متهربة من التصوير، برغم تقاضيها نصف أجرها مقدما، في حين بدا الجميع شديدي القلق (ولست أدري لماذا)، ولم يكن أمامنا في النهاية إلا أن نؤجل التصوير إلى اليوم التالي..

☆ ☆ ☆

الخميس 31 ديسمبر..

مازالت (لولو) مفقودة، ولقد أبلغت الشرطة؛ لأسترجع نصف الأجر الذي دفعته قبل التصوير، ولكنني كنت أحتاج إلى فتاة إعلان أخرى، ولقد أحضر مساعدي فتاة إعلان جديدة، اسمها (فوفي)، ولكنه همس لي أنها مصابة بحساسية شديدة من مياه البحار والأنهار والبرك والمستنقعات، وكل أنواع المياه الأخرى..

ولم يكن أمامي سوى تغيير فكرة الإعلان..

ولقد وضعت فكرة عبقرية جديدة على الفور..

فتاة تنشر الغسيل فوق سطح، ثم يصعد إليها حبيبها، وعندما تتقدم منه مبتسمة، يهوى على وجهها بصفعة قوية، ولكنها تظل مبتسمة، وتقول:

- فليكن يا حبيبي.. حتى لو صفعتني، ستبقى تصفيفة شعري كما هي..

إعلان عبقري ومبتكر..

وبدأنا التصوير فوق سطح منزل من طابقين، واستعنت بشاب إعلاني وسيم، له عضلات مفتولة، يدعى (برعي)، وبدأت (فوفي) تنشر الغسيل، ثم صعد إليها (برعي)، فاتجهت إليه مبتسمة، وهوى (برعي) على وجهها بصفعة قوية، كما طلبت منه..

وفجأة اختفت (فوفي) من كادر التصوير..

وصرخت في غضب:

- أين بطلة الإعلان؟

رأيتها تنهض من الطرف الأخر للسطوح، وخدها أحمر في لون الدم، وادعت أن صفعة (برعي) هي التي ألقت بها هناك، ولكنني أفهمتها أنني رجل جاد، ولست أحب تلك الأعذار الواهية، فطلبت مني أن يتظاهر (برعي) بصفعها فحسب، ولكنني ثرت، وقلت لها أنني مخرج واقعي..

ولم يكن أمامها سوى الرضوخ..

وفي المرة الثانية هوى (برعى) على وجهها، فاختفت أيضا من الكادر، ووجدناها هذه المرة في عشة فراخ قريبة..

وهنا تفتق ذهني العبقري عن فكرة رائعة.

طلبت من (برعي) أن يمسك دراعها بيده اليسرى، ويصفعها بيده اليمني، حتى لا يمكنها الخروج من الكادر..

وأطاعني (يرعى) كعادته..

ممتاز هذا الشاب..

وهوي على وجه (فوفي) بصفعة هائلة، وهو يمسك ذراعها بيده اليسرى في أحكام، ولم تخرج الفتاة من الكادر، فصرخت أنا في حماس:

- رائع يا (برعي).. رائع..

وانتقل الحماس إلى (برعي)، فصفعها مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، ثم لكمها في أنفها، وحملها بين ذراعيه، وألقاها من الطابق الثاني..

واستغلت (فوفي) هذا الخطأ البسيط؛ لترفض استكمال تصوير الإعلان، بل لقد تمادت في عنادها، وتظاهرت بأن ساقيها قد كسرتا، واتقانا للحجة، وضعت ساقيها في الجبس بالفعل..

ولكن هيهات..

سأبلغ الشرطة عنها أيضا، وأستعيد نصف الأجر..

إنه حقي.

☆ ☆ ☆

السبت ٣ يناير..

لست أدري لماذا ترفض جميع فتيات الإعلانات العمل معي!!

إنها مؤامرة بالتأكيد..

لقد غار الجميع من عبقريتي، ونقلوا حقدهم هذا إلى فتيات الإعلانات..

ولكن هذا لا يهمني..

لست أحتاج إلى فتاة إعلان محترفة، سأستعين بأية فتاة عادية، وأجعل منها فتاة اعلان، لأثبت لهن أن عبقريتي وحدها تصنع النجاح..

ولقد عثرت صباح اليوم على ضالتي..

اسمها (نفيسة)..

(نفيسة العمشة)، ولكن هذا الاسم لا يروق لي..

إنه ليس متألقا أو جذابا، من الناحية الفنية، ولقد طلبت منها تغييره، ووافقت بالطبع، واسمها منذ اليوم هو (نفوسة العمشة)..

اسم سينمائي جذاب..

و (نفوسة) هذه فتاة رائعة، ستصبح أشهر فتاة إعلان في الشرق الأوسط كله..

صحيح أنها قصيرة ممتلئة، وشعرها مجعد بشدة، وأنفها كبير، وعيناها ضيقتان، وشفتاها غليظتان، ولكنها- باستثناء هذه الأشياء- رائعة بكل المقاييس..

واليوم بدأت تصوير أول إعلان مع (نفوسة)..

إعلان مثبِّت (الوجه الحسن) للشعر..

و (نفوسة) موهوبة في هذا المجال، فالوسيلة الوحيدة لتغيير تصفيفة شعرها المجعد، هي استخدام المطرقة والأزميل، أو المنشار الكهربي..

ولهذا كان الإعلان سهلا..

لقد رشت (نفوسة) شعرها بمثبت (الوجه الحسن) للشعر، ثم سارت في طريق مظلم، وهناك هاجمها بعض اللصوص، وراحوا يجذبونها من شعرها، ويضربون الأرض برأسها، ثم تركوها وانصرفوا، ونهضت هي تبتسم، دون أن تهتز شعرة واحدة من رأسها..

ونجح تصوير الإعلان في مرتين فحسب، وكان من الممكن أن ينجح من المرة الأولى، لولا ذلك الرعب، الذي أصاب اللصوص في المرة الأولى، عندما رأوا وجه (نفوسة) في الظلام..

وبدأت تصوير الإعلان الثاني.

إعلان طلاء الشفاه.

و (نفوسة) موهوبة أيضا في هذا المجال، فشفتها السفلى كبيرة ممطوطة، حتى أن بعضهم يؤكد أنها كانت تسبب لها بعض الصعوبة في طفولتها، إذ كانت تتعثر فيها، كلما حاولت المشي..

المهم أن (نفوسة) قد طلت شفتيها بطلاء (الوجه الحسن) للشفاه، واستهلكت في هذا نصف دستة من أصابع طلاء الشفاه، ثم بدأ تصوير الإعلان..

وبدأ الإعلان بلقطة شديدة القرب لشفة (نفوسة) السفلى، ثم راحت آلة التصوير تبتعد في بطء، حتى تبرز وجه (نفوسة) كله..

وأصيب مدير التصوير بالملل، وكل ما يملا الشاشة مجرد لون أحمر..

وأخيرا ظهر وجه (نفوسة)..

وأنفها..

وبصوتها المتميز، قالت (نفوسة):

- طلاء (الوجه الحسن) للشفاه.. هو الطلاء الذي أستعمله..

وانتهى تصوير الإعلان..

☆ ☆ ☆

الثلاثاء 5 يناير..

انتظرت- في شغف- العرض على شاشات التليفزيون..

وعندما تم عرض الاعلان، كانت ردود الفعل قوية للغاية، فمع طول اللقطة المقربة لشفة (نفوسة)، تصور جميع المشاهدين أن أجهزة التليفزيون قد أصيبت بعطب..

ثم فجأة ظهر أنف (نفوسة)، ليملا الشاشة كلها، وانطلق صوتها يقول العبارة المميزة..

وتفجر الموقف كله..

صرخ الأطفال، وفقدت النساء وعيهن، وأصيب العجائز بنوبات قلبية..

وأصبح الإعلان حديث (مصر) كلها وهذا هو النجاح..

الإعلان العبقري هو الإعلان الذي يتحدث عنه الجميع..

لقد أثبتّ عبقريتي.

ونجح الإعلان نجاحا مبهرا..

ولكن شركة (الوجه الحسن) لمستحضرات التجميل أفلست..

يبدو أن منتجاتها لم تكن بالمستوى المناسب..

المهم أنني أجلس الان في انتظار توقيع عقد الإعلانات التالي، ولست أشك في أن العقود ستنهال عليّ وعلى (نفوسة)..

☆ ☆ ☆

الأربعاء 13 يناير..

ما زلت أنتظر توقيع العقد..

☆ ☆ ☆

السبت 17 أبريل..

ما زلت أنتظر توقيع العقد..

☆ ☆ ☆

الأربعاء 31 يوليو..

(نفوسة) أصيبت بانهيار عصبي، وأنا ما زلت أنتظر توقيع العقد..

☆ ☆ ☆

السبت 22 سبتمبر..

عرض عليّ الأستاذ (صلاح أبو خنجر)، العمل كساعٍ في مكتبه الجديد، ولكنني رفضت في كبرياء، وما زلت أنتظر توقيع العقد..

☆ ☆ ☆

الخميس 7 نوفمبر..

(نفوسة) انتحرت، وما زلت أنتظر توقيع العقد..

☆ ☆ ☆

الاثنين 26 ديسمبر..

قبلت وظيفة الساعي، في مكتب (صلاح بك أبو خنجر).

توقيع

مخرج إعلانات

سابقا

(تمت بحمد الله)

مذكرات زوج سعيد

مذكرات زوج سعيد.. (1)

لماذا تضحك؟ لماذا ترسم على شفتيك تاك الابتسامة الساخرة؟!

نعم أنا زوج سعيد..

لا.. أقسم لك إنه ليس عنوان واحدة من روايات الخيال العلمي.. إنها الحقيقة..

أنا فعلا زوج سعيد..

هل تعلم لماذا؟.. لأن زوجتي ليست هنا.. لقد اصطحبت الاولاد معها في زيارة طويلة إلى أمها في (الإسكندرية)، وتركتني لأقيم وحدي..

هل أدركت الآن لماذا أنا زوج سعيد؟

لأنني زوج بدون زوجة..

زوج حر..

لقد امتلأت نفسي بهذا الشعور، بمجرد أن سافرت زوجتي في الصباح الباكر، ولم أنس أن أتظاهر بالحزن وانا أودعها في محطة مصر، ولا أن أطبع على وجنتها قبلة حانية، راجيا إياها أن تعود في أسرع وقت، بل لقد تماديت فأخرجت منديلي، وجففت به دمعة وهمية، عندما انطلق القطار مبتعدا، ولم أتوقف عن التلويح بيدي حتى غاب عن بصري..

وفجأة غمرتني السعادة..

سعادة الحرية..

وفجأة وجدت نفسي أقهقه بأعلى صوتي، حتى أن العيون كلها قد اتجهت إلى في دهشة، وتناهى إلى مسامعي صوت رجل يقول لزوجته في ازدراء:

- لماذا يسمحون لمثل هذا بمغادرة مستشفى الأمراض العقلية؟ ...

راقتني الفكرة- من فرط سعادتي بالطبع فالتفتت إليه، ورسمت على شفتي ابتسامة عريضة بلهاء، وأنا أضم حدقتي عيني على نحو أشبه بالمجاذيب، فحدق الرجل في وجهي، وهو يقول لزوجته في خوف:

- يبدو أنه قد سمعنا..

وفجأة صرخت في وجهه، فانطلق يعدو صارخا:

- اجري يا (فكيهة).. إنه مجنون بالفعل، سمعت (فكيهة) تغمغم في سخط، وهي تتابعه ببصرها:

- اللعنة.. لست أرى هنا مجنونا سواك..

عدت أطلق ضحكة مجلجلة، ثم غادرت المحطة وانا اكاد ارقص فرحا..

لقد أصبحت حرا..

الآن فقط، وبعد عشر سنوات زواج، سيمكنني أن أسهر مع اصدقائي في قهوة (كتكوت)، دون أن أبحث عن كذبة جديدة، لإقناع زوجتي بسبب السهر، ودون أن يستيقظ الجيران على صوتها الشجي، الذي يذكرني بصوت الفنان المرحوم (حسن البارودي)، وهي تسب اسلافي، لأنني جعلتها قلقة، تنتظرني حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل..

الآن فقط يمكنني أن أتناول ما يحلو لي من طعام، دون أن تتهمني زوجتي بالتخلف والجهل.. وكل ما أنشده في هذا الشأن هو أن أتناول طعاما عاديا مألوفا، من تلك الأطعمة التي كنت التهمها في شهية، في منزل امي.

زوجتي العزيزة خبيرة في الأطعمة غير المعروفة، فتارة تطهو لنا صنفا يجمع ما بين السمك المقلى والقلقاس المحروق، وتتهمني بالجهل، لأنني لم اعرف انه مكرونة بالفرن، ومرة أخرى تتحفنا بطبق ضخم، يحوي بعض القطع الخضراء غير المنتظمة، وقد تناثرت فوقها نقاط حمراء مخيفة، وتدعى بكل الفخر أن هذا (الشيء) عبارة عن دجاج محشو، ولست أدري في الواقع نوع الحشو، ولا أيهما الدجاج وأيهما الحشو، فلم أجرؤ على سؤالها بالطبع..

ولست أنسى ذلك اليوم، عندما أردت أن اثني على طهوها، فتطلعت إلى طبق ضخم، وجدته في المطبخ أمامها، وقد امتلأ بقطع كلسية بيضاء محطمة، وبعض الأشياء الحمراء والصفراء والخضراء، فهتفت أمتدح حسن طهوها، وذوقها الرفيع في إعداد أصناف الطعام، وإذا بها تلطم خديها، وتطلق بعض الأصوات الشبيهة بصوت طائرة تنفجر، أو قطار يصطدم بآخر، قبل أن تنعتني ببعض الصفات التي تنتمي إلى برنامج (عالم الحيوان)، وتقول إن هذا هو سلة المهملات..

وكيف كان لي أن أستنتج هذا؟.. ومن المثير للأعصاب أنها تشكو دوما من انني نحيل ولست ميالا لتناول الأطعمة الراقية.. وأيضا من أنني أملك ذوقا رديئا بالنسبة للشباب..

ولهذا قصة..

زوجتي الحبيبة من هواة مجلات الموضة، وهي تنفق نصف دخلها لشرائها، والنصف الآخر لشراء أقمشة ومستلزمات ما تصنعه من أثواب..

ومن سوء حظي أنني ضعيف الملاحظة، فهي تسألني أحيانا عما إذا كان ثوبها الجديد يروق لي، فأسألها في براءة: أي ثوب؟.. وعندما تصرخ قائلة إنها تقصد الثوب الذي ترتديه، يكون الوقت قد فات، فهي لن تستمع إلى لمدة يومين على الأقل، عندما تكون قد انتهت من ندب حظها السيئ، وشكوى مرارة الدهر، الذي أوقعها في زوج متخلف مثلي..

وذات يوم، قررت أن أثبت لها أنني زوج راق متحضر، فانتهزت فرصة رؤيتها في ثوب جديد، وهتفت مستحسنا أسلوبها، وذوقها الراقي في انتقاء نوع القماش ولونه، وتصميم الثوب، و..

وقاطعتني صرخة استنكار غاضبة، أدركت بعدها أن هذا ليس ثوبا جديدا، بل هو (مريلة) المطبخ القديمة، التي اهترأت من فرط القدم..

ومنذ ذلك اليوم لم ابد رأيي في ثيابها ابدًا..

والآن، وقد بدأت إجازتي من عالم الزواج، فلن أكون مضطرا حتى إلى ذلك..

سأعيش كما يحلو لي..

لقد تحررت من زوجة متسلطة قاسية، مغرورة، أنانية، و...

.....

ملحوظة:

تعطل القطار اللعين على بعد خمسة كيلومترات فقط من المحطة، واضطرت زوجتي لإلغاء سفرها، وعادت فجأة، وضبطت هذه الأوراق، ولست أدري ماذا حدث بعدها، ولكن الأطباء يؤكدون أنني سأستعيد ذاكرتي حتما، عندها تلتئم كسور اطرافي، فإلى ذلك الحين.

التوقيع

زوج تعيس جدا

عنبر الكسور والطوارئ- مستشفى قصر العيني

(تمت بحمد الله)

مذكرات زوج سعيد

مذكرات زوج سعيد (2)

اليوم عندما ضيوف..

ربما كانت تلك العبارة، بالنسبة لكم عادية، ولكنها بالنسبة لي تعني الويل والثبور، حتى أنني قد شعرت بأنفاسي تختنق، عندما سمعت زوجتي وهي تتحدث إلى زميلتها العزيزة عبر الهاتف، وتدعوها مع زوجها للعشاء معنا الليلة، وراح قلبي يدق في عنف، ودارت عيناي في محجريهما، عندما تذكرت ما حدث لي في الاستضافة السابقة..

وحاولت أن أقرا الصحف، متظاهرًا باللامبالاة، وهي تواصل حديثها الهاتفي، إلا أنه يبدو أن ارتجافة أصابعي، وذلك الشحوب في وجهي، وصوت اصطكاك اسناني قد جذب انتباه زوجتي العزيزة، فقد رمقتني بنظرة نارية، وسمعتها تقول لزميلتها العزيزة، وهي تتطلع إلى في وعيد:

- حسنا يا عزيزتي. سأنهي المحادثة الآن لسبب طارئ.

كنت أعلم بالطبع أنني هو ذلك السبب الطارئ؛ لذا فقد راودتني رغبة- دفعتني إليها غريزة البقاء- في أن القى نفسي تحت أقدامها، وأقبّل القدم، وابدى الندم، على غلطتي في حق الـ.. زوجتي العزيزة، قبل أن تنقض عليّ، وتنزع من قدمها ذلك الشبشب المنزلي الثمين، الذي أخشى أن يصيبه أدني تلف، إذا ما أصاب راسي، أو هوى على وجهي..

وانكمشت في مقعدي في رعب، وسمعت زوجتي تقول في صرامة:

- إننا ننتظر الليلة ضيوفا على العشاء.

خرج الصوت من بين شفتي شاحبا، خافتا، مستسلما، وأنا أقول:

- كما تأمرين يا زوجتي العزيزة. اعتدلت في ظفر، وقد أدركت أنها قد ربحت المعركة من الجولة الأولى، وإن لم يمنعها ذلك من أن تقول في صرامة:

- نحتاج إلى بعض المشتريات من الخارج..

غمغمت في استسلام:

- كما تأمرين..

راحت تملي على طلباتها، وقائمة مشترياتها، جعلتني أفكر جديا في شراء جهاز كمبيوتر، ذي سعة كبيرة، أو في بيع قطعة أرض بقيمة هي كل ما أمتلكه، ثم حذرتني من التأخير، وراحت تندب

حظها، لأنني لست سريع الحركة أو البديهة، وكأنها تفترض حدوث خطأ ما..

ولم أرتكب أية أخطاء هذه المرة- بالعند فيها- وكان ذلك واضحا، فلقد اكتفيت زوجتي العزيزة- عند عودتي بسب اجدادي حتى الجد الثالث فحسب، وهذا يعني أن المشتريات قد راقت لها، نفى المرة السابقة أو قفتها في صعوبة، قبل أن تبلغ بسبابها جدنا (آدم) ورحت أقنعها بأنه جدنا معا، وبأنه أحد أنبياء الله (سبحانه وتعالى)، يجوز المساس بهم.. والعجب أنها- يومئذ- رمقتني بنظرة شك، وكأنها تشك في أنني وهي تنتمي إلى جد واحد، حتى ولو كان هذا الجد هو (آدم).

وبدأت زوجتي في إعداد أطباق الطعام الشهية، وهي تنذرني بضرورة ارتداء زي مناسب، وحذاء نظيف، وغسل أسناني قبل الأكل وبعده، وعشرات من قائمة الإنذارات) التي تفوقت فيها على إنذار (بولجانين) الشهير..

ورحت أعدّ الحلة والحذاء، حتى شممت فجأة رائحة ورق يحترق، فأسرعت نحو المطبخ مذعورا، وكدت أهتف بحدوث حريق، لولا أن انتبهت في آخر لحظة- إلى أن هذه الرائحة هي رائحة الطبق الرئيسي للعشاء..

وشعرت بالشفقة على صديقتها العزيزة وزوجها المسكين..

ورأيت قطنا المسكين وهو يموء في ضراعة، ويخمش باب الشقة بأظفاره، محاولا الفرار، وكأنما اشتم في الطبق الرئيسي رائحة أحد أقاربه، من بني جنسه، فأصابه رعب هائل، احتاج مني إلى ساعة كاملة، لإقناعه بالبقاء، ولقد تصورت أنني قد أقنعته

بالفعل، ولكنني لمحته يتسلل إلى نافذة الحمام، ويحاول النفاذ من بين قضبانها الضيقة، لينتحر بإلقاء نفسه من شاهق..

ثم أتي المساء..

وبعد ما يقرب من عشرين محاولة فاشلة، نجحت زوجتي في ارتداء ثوب مناسب، جعلها تبدو اشبه بالراحل (بروس لي)، إلا أنني بالغت في الثناء على ذوقها الرفيع، وقد اقتنعت تماما بأنها قد تحتاج إلى هذا الثوب، للدفاع عن نفسها، بعد أن يتناول زوج صديقتها العزيزة أطباق العشاء..

وحضرت صديقتها العزيزة وزوجها، الذي التقى به لأول مرة، وراحت زوجتي وصديقتها تتحدثان في استطراد وسعادة، في حين رحنا نتبادل انا والزوج حديثا رصينا، قبل أن يرفع الرجل أنفه، مغمغما:

- هل طليتم الشقة حديثا؟

خشيت أن ينتبه إلى أن تلك الرائحة النفاذة هي رائحة ذلك العطر، الذي تستخدمه زوجتي، والذي تصنعه بنفسها، فأيدت قوله، ورحت العن النقاشين، وسوء تعاملهم مع أمثالنا، حتى حانت لحظة الطعام..

وسقط قلبي بين قدمي..

وقادتنا زوجتي إلى مائدة العشاء، التي اصطفت فوقها أصناف الطعام التي ما زلت أجهلها، حتى لحظة كتابة هذه السطور، وجلس زوج صديقتها العزيزة، وهو يتطلع إلى الأطباق في نهم، ثم قامت زوجتي بتوزيع اول الأصناف على أطباقنا..

كان نوعا من السمك على الأرجح، المطهو على نار هادئة، طن على الأقل من البهارات والبصل والثوم، ومع أول ملعقة منه، خيل إلى أن مخي يذوب، او انني على شفا غيبوبة، وعلى الرغم من ذلك رأيت صديقتها العزيزة وزوجها يلتهمان الطبق في شهية، قبل أن يقول الزوج:

- رائع هذا اللحم المشوي يا سيدتي هل تقومين بشيه بالفحم؟ توقفت الصديقة فجأة عن تناول الطعام، ورمقت زوجها بنظرة نارية، جمدت الدم في عروقه، قبل أن تقول لزوجتي مجاملة:

- يبدو أن زوجي يحب امتداح طعامك بالمداعبة يا عزيزتي، ولكن هذا لا يمنع من أن طبق الباذنجان المقلي هذا رائع.

عقدت زوجتي حاجبيها في غضب، وهي تزمجر قائلة:

- إنه أرز بالجمبري..

غمغمت الصديقة بعبارة اعتذار مبهمة، وحاولت أن تؤكد انها كانت تعلم ذلك، وأنها إنها كانت تداعبها بدورها، في حين راح زوجها يتطلع إلى الطبق الخالي في شك، وإن لم يحاول الإشارة إلى نوع الطعام في الأطباق التالية ابدا، حتى انتهينا من الطعام، فوضعت زوجتي أمام كل منا طبقا يحوي سائلا احمر اللون، تسبح فيه قطع زرقاء وخضراء، فالتهم كل منا طبقه، دون أن ينبس ببنت شفة، خشية السؤال عن محتواه..

وانتقلنا مرة أخرى إلى حجرة الجلوس، وانتحت السيدتان ركنا، وراحتا تتحدثان همسا، وهما تشيران إلينا بين حين وآخر، وتناهت إلى مسامعي عبارات متفرقة:

- هذا الحيوان.. الجهل مشكلته.. بخيل للغاية.. غبي..

وأمكنني أن استنتج من كل ما سبق، وبالذات من العبارات الأخيرة، أن كلا من السيدتين تشكو زوجها للأخرى، فرحت ابحث عن شيء يصلح للحوار بيني وبين زوج الصديقة العزيزة، الذي بدا وكأن الطعام قد أثقل على معدته، فراح يبذل أقصى جهده الفتح عينيه والبقاء مستيقظا..

ثم فجأة، ارتفع صوت شخير قوى، وقبل أن أسأل عن صاحب هذا الشخير..

المزعج، سمعت زوجتي تصرخ باسمي، فقفزت من مقعدي، صارخا:

- ماذا حدث؟

رمقتني زوجتي بنظرة نارية، جعلتني أنكمش في جلدي، ورمقتني صديقتها العزيزة في احتقار، في حين غمغم زوجها في تعاطف مشفق:

- يبدو أنك مجهد للغاية.. لقد استغرقت في النوم تماما.

وعندئذ أدركت من كان صاحب الشخير، ورأيت صديقة زوجتي تنهض قائلة:

- يبدو أن الوقت متأخر للغاية.. سننصرف..

حاولت زوجتي أن تقنعها بالبقاء، ولكن الزوج أصر أيضا على الانصراف، مدعيا أن عليه أن يعمل مبكرا غدا، وودعتهما زوجتي عند الباب، و.....

ويمنعني الخجل من ذكر ما حدث بعدها..

ويمنعني أيضا ذلك الكسر في فك السفلى..

(تمت بحمد الله)

مذكرات زوج سعيد

مذكرات زوج سعيد.. (3)

دق جرس الإنذار في منزلنا السعيد..

لقد اتخذت زوجتي قرارا..

وقبل أن تعلم ما هذا القرار، ينبغي أن تعلم أولا أن زوجتي ديموقراطية تماما في القرارات التي تتخذها، ولكن هذه الديموقراطية للأسف ليست في اتخاذ القرار، وإنما في تنفيذه، فهي تتخذ قرارها وحدها - (وأحيانا تسألني رأيي (لتسفيهه فحسب) - اما في التنفيذ، فهي تجبرنا جميعا على تنفيذه معها..

والقرار هذه المرة كان حول خفض الوزن..

. لقد كشفت زوجتي العزيزة فجأة- (ولست أدري كيف لم تكشف هذا من قبل أنها ممتلئة، وأن وزنها لا يتناسب مع طولها، طبقا لمراجع القياسات، وبرامج الرشاقة ومجلات الموضة... إلخ.. إلخ.. إلخ..

واتخذت زوجتي قرارها بتخفيض وزنها، بل اوزاننا جميعا، حتى قطنا المسكين، الذي تجعل منه دوما حقلا لتجاربها..

وبدأت حملة خفض الوزن..

في البداية أسعدتني تلك الحملة، لأنها على الأقل ستريحني من تلك الطبخات العجيبة، والوجبات المريعة، التي تعدها زوجتي العزيزة، إلا أنني لم ألبث أن شعرت بالارتياع، عندما أدركت ما يعنيه خفض الوزن، في نظر زوجتي العزيزة..

لقد استيقظت في الصباح التالي لتنفيذ القرار، وأنا أشعر بالنشاط والحيوية، وباللهفة لالتهام وجبة الإفطار، التي هي بالنسبة إليّ أفضل وجبات اليوم، نظرا لأن درجة تدخّل زوجتي فيها تقتصر على طهو البيض فحسب، وجلست على مائدة الإفطار، ولعابي يسيل لتصور انواع الجبن والزبد والمربى، و....

ورحت أنتظر، وانا أداعب طبقا صغيرا استقرت فيه زيتونة بقيمة سوداء، حتى طال انتظاري، فسألت زوجتي في حيرة:

- الن تعدى لنا طعام الإفطار؟

رمقتني بنظرة صارمة، جمدت الدماء في عروقي، وهي تشير إلى الطبق الصغير، والزيتونة السوداء المسكينة، قائلة:

- ها هو ذا أمامك..

تطلعت إلى الزيتونة في رعب، وانا أهتف:

- أين؟

لم تجب، ولم اسالها جوابا، لقد اكتفت هي بنظرة مخيفة، واكتفيت أنا بأن مددت يدي، وتناولت الزيتونة، ورحت أكلها صاغرا مستسلما..

وعندما وضعت نواة الزيتونة، التي تكاد تقارب الزيتونة نفسها حجما، في الطبق، كنت قد فقدت شهيتي للطعام، فغمغمت:

- الحمد لله.

سألتني في صرامة:

- هل تريد زيتونة اخرى؟

ربت على معدتي، قائلا في حماس:

- مطلقا.. إنني حتى أشعر بالتخمة.

وغادرت المائدة وأنا أكاد أبكي، خاصة وقد تذكرت أن اليوم إجازة رسمية، مما يعني انني لن أستطيع حتى التسلل وتناول الطعام في الخارج، وجلست اراقب قطنا المسكين، الذي راح يموء في شدة، بعد أن التهم نصف ذيل السمكة، الذي منحته زوجتي إياه، ضمن إطار خفض الوزن، وخيل إلىّ أن المسكين يهتف (بلغة القطط طبعا)..

- ما زلت جائعا أيها القتلة!! أيها البخلاء!! أيها الملاعين!!..

وراح يدور في أنحاء المنزل صارخا، مما جعلني أجرؤ على أن أقول لزوجتي مترددا:

- يبدو أن القط جائع..

أجابتني في صرامة:

- ينبغي أن يعتاد نظام الحمية..

غمغمت منكمشا:

- بالتأكيد.

ويبدو أن القط المسكين قد فهم ما تعنيه، إذ لم يلبث أن استكان فوق مقعد قريب، وأسبل عينيه، وراح في نوم عميق..

أو هي غيبوبة جوع على الأرجح!!.. وحاولت أنا أن أشغل جوعي بمطالعة بعض الكتب، ولكن زوجتي جلست إلى جواري، وهي تقول:

- هل تعرف التناسب المثالي بين الوزن والحجم؟.. من المؤكد أنك لا تعلم، فأنت أجهل من دابة في مثل هذه الأمور، بل في كل الأمور تقريبا.. حسنًا.. سأخبرك أنا.. الوزن المثالي يساوي الطول بالسنتيمتر، مطروحا منه مائة.. هل فهمت؟.. هذا يعني أنه لو كان طولك مترا، فينبغي أن تزن صفرا..

تطلعت إليها في اهتمام، محاولا تخيل هذا الأمر، وراودتني فكرة تقول: إنه من الأفضل لو استطاع الإنسان ضبط طوله ليناسب حجمه، بدلا من العكس، ثم لم ألبث أن استبعدت الفكرة، فلو تم تطبيقها على زوجتي، فستصبح في طول نخلة العمدة على الأقل، ولكن هذا لم يمنع استحساني لقولها، وتأكيد حماسي لكل رأي تأتي به او...

وحانت ساعة الغذاء..

اتجهت إلى المائدة كرجل يساق إلى المشنقة، وأنا أجرّ قدمي جرا، وجلست أتطلع إلى شيء بني صغير يستقر في قاع طبق كبير، قبل أن أسأل زوجتي مستسلما:

هذا هو الغذاء.. أليس كذلك؟.

أجابتني وقد أدهشتها تلك اللمحة من الذكاء، التي أضاءت عقلي بغتة:

- أعلمت ذلك وحدك؟

تناولت ذلك الشيء البني الصغير، وفكرت في إحضار (ميكروسكوب) ابن الجيران، لمعرفة كنهه، إلا أنني لم ألبث أن تجاهلت الفكرة، فابتلعت ذلك الشيء الصغير، وشربت بعده جرعة ماء، وقمت عائدا إلى مقعدي، وأنا أتطلع إلى قطنا البائس، وقد وقف إلى جوار طبقه الخاص، يتطلع في صمت إلى نصف رأس سمكة صغيرة، استقر في منتصف الطبق، ولست أدري إذا كانت القطط تبكي أم لا، ولكنني واثق من أن قطنا المسكين كان يبكي في صمت ومرارة، وهو يقارن بين تلك الأيام، وهناء الماضي، عندما كان طبقه يمتلئ بالسمك الطازج، بل لابد أنه قد بدأ يحسد ابن عمه (مشمش)، الذي رفضت زوجتي تربيته في المنزل، وأطلقته في الأزقة والطرقات، فلا ريب أن ذلك (المشمش) يلتهم الآن ما لذ وطاب، من صفائح قمامة من لا يتبعون قواعد خفض الوزن..

ومرت أيام ثلاثة، وتلك الإجازة اللعينة ترفض أن تنتهي، والقط المسكين يكاد يلفظ أنفاسه جوعا، وأنا أكل حتى قشر الفاكهة والبيض، وزوجتي تزن نفسها كل صباح، دون أن ينخفض وزنها جراما واحدا، وصارت علاقتنا بالحمام واهية للغاية، حتى أنني كشفت صباح اليوم أن عنكبوتا طريفا قد بدا يغزل خيوطه فوق المرحاض منذ يومين، دون أن ينتبه أحدنا إلى ذلك..

وبالبقية الباقية من قوتي، قررت المقاومة..

المقاومة السلبية بالطبع..

وفي تلك الليلة تظاهرت بالنوم مبكرا، وراح القط يخمش الأرض بأظفاره في ضعف، وكأنها يسعى لحفر نفق للفرار من معتقله، حتى قررت زوجتي أن تأوي إلى الفراش.. وهنا بدأت تنفيذ خطتي..

رحت اغمغم في خفوت، وكأنني أحلم:

- آه.. يا له من ارز رائع مقبل!! يا لها من دجاجة شهية!.. ناولني طبق اللحم هذا، وقليل من البطاطس....

اخذت أردد اسماء كل الوجبات الشهية، وزوجتي تتقلب على الفراش إلى جواري كالمحمومة، وأنا واثق أنها تتعذب لسماع هذا..

ثم اعتدلت فجأة في حزم، وقفزت من الفراش، وانطلقت تعدو نحو المطبخ..

وبعدها ارتفعت رائحة طعام..

وغادرت الفراش بدوري، وسألتها وانا أبذل أقصى جهدي للتظاهر باللامبالاة:

- ماذا تفعلين؟

اجابتني في صرامة:

- أعد طعام العشاء.. إنني جائعة..

لقد أفلحت الخطة، وامتدت مائدة العشاء الحافلة بعد ساعة واحدة، فقفزت إليها، ورحت التهم طعامها في لهفة، دون أن

أفهم ما هو، في حين راح القط يتشمم طعامه في حذر، ويتذوقه بلسانه في شك، قبل أن يتركه في تعفف.. ويواصل محاولة حفر النفق في حماس اشد، مها نبهني بغتة إلى مذاق الطعام العجيب، فتوقفت عن مضغه، وأنا أسالها في قلق:

- ما هذا؟

أجابتني في زهو:

- إنه باذنجان مخلوط بتوابل شرقية، ومضاف إلى لحم مفرى وقليل من الجمبري، مع شرائح الطماطم وعصير البرتقال، و.....

ولم تنجح محاولاتي المستميتة بعدها، لإقناعها بالعودة إلى نظام الحمية وخفض الوزن لم تنجح للأسف..

(تمت بحمد الله)

مذكرات طبيب

مذكــرات طبيب..

في صعيد مصر الجواني..

مقدمة..

هذه الخواطر هي سيرة ذاتية..

وعمل أدبي..

جزء من هذا، وشيء من ذاك..

إنها ذكريات لفترة من فترات حياتي، ربما كان لها الفضل، بعد الله (سبحانه وتعالى)، فيما أصبحت عليه الآن..

فقد بدأت تلك الفترة طبيبا عاديا، من مئات الأطباء، الذين حصلوا على شهادتهم الجامعية، وأنهوا فترة التدريب الإجباري (الامتياز)، ثم انتقلوا لقضاء فترة التكليف الإجبارية..

وانتهت وأنا أضع قدمي على أول سلمة في مشوار طويل، كان ولا يزال مصدر متعتي الوحيد..

الأدب..

والقلم..

والأوراق..

ولقد تمنيت كثيرا أن أكتب هذه الذكريات والمذكرات..

وترددت أكثر في كتابتها..

ربما لأنني خشيت ألا يتقبل القارئ فكرة أن يضيع الكاتب (أي كاتب) بعض الأوراق، في الحديث عن نفسه..

أو لأنه ليس من السهل أن يكتب المرء عن نفسه..

وحياته..

وذكرياته..

ولكن شيئا ما، لست أدري كنهه بالضبط، جعلني أحسم ترددي هذا..

شيء ما، جعلني أعجز عن مقاومة رغبتي في كتابة هذه المذكرات..

ربما لأنها أحداث مرت عليها خمس عشرة سنة أو أكثر، وخشيت أن تذوب في بحر الذاكرة، فتفقدني وأفقدها..

أو ربما لأن المرء يحتاج أحيانا إلى التحدث عن ذكرياته ربما.

المهم أن هذه الأوراق بين يديكم الآن..

اعتبروها مجرد عمل أدبي..

وهذا سيكفيني..

تماما..

د. نبيل فاروق

1- الصــعيد..

«قنـــا»

سرت قشعريرة باردة في جسدي، وأنا أقرأ اسمي، في كشف أطباء التكليف، دفعة ديسمبر 1980 م، وأمامه اسم محافظة (قنا)، إحدى أكبر محافظات الصعيد، بل لعلها أكبر محافظات الصعيد على الإطلاق، أو أطولها، فهي تمتد من (أبو تشت) شمالا وحتى (اسنا) جنوبا، مرورا بـ (نجع حمادي) و (دشنا) و (قنا) و (الأقصر)، وكلها أماكن سياحية أو صناعية شهيرة..

وهذا ما أعرفه الآن..

أما عندما قرأت اسمي في ذلك الكشف، فكل ما كنت أعلمه، هو أن (قنا) هي إحدى محافظات الصعيد، وفي ذلك الحين، كانت كلمة (الصعيد) هذه تبدو مبهمة مخيفة، بالنسبة لسكان وجه بحري، فهو اسم يرتبط بالصرامة، والعنف، والثأر..

والعقاب أيضا..

بل وربما كان (العقاب) هو المرادف الطبيعي لكلمة (الصعيد)، في تلك الفترة من الزمن، إذ كان أهم ما نعلمه..

هو أن من يرتكب خطأ لا يغتفر في الحكومة، يتم نقله إلى الصعيد..

وكانت العبارة تقال - آنذاك - على نحو أشبه بالنقل إلى الجحيم نفسه..

وبعد هذه الديباجة السابقة، أعتقد أنه سيدهشكم بحق أن تعلموا أن تكليفي بالعمل في (قنا) لم يكن نوعا من العقاب، أو حتى من المفاجأة بالنسبة لى..

لقد كانت الرغبة الأولى، التي كتبتها على رأس استمارة الترشيح للتكليف..

والسؤال الذي سيقفز إلى أذهانكم حتما هو لماذا؟!

لماذا يلقى طبيب شاب نفسه في ذلك الجحيم، دون أن يكون مضطرا لهذا؟!

والجواب أيها السادة هو دبلة الخطوبة..

نعم.. ففي ذلك الحين، كنت قد ارتبطت بخطبة زوجتي الحالية، وهي وحيدة والدها، الذي لم يمكنه أن يهضم أبدا خطبتها لطبيب شاب، في بداية حياته، استدان ثمن دبلتي الخطوبة، ولا يملك سوى راتبه الضخم، الذي يقل عن الخمسين جنيها بعدة جنيهات (كثيرة)..

ولكن لأنها ابنته الوحيدة، وتصرّ على الارتباط بهذا الطبيب المفلس بشدة، وهو لا يرغب في لعب دور (زكى رستم) أو (سراج منير)، الذي يقف في وجه ابنته، ويحطم قلبها، فقد وجد أن أفضل وأذكى وسيلة، هي أن يتخمني بطلبات مرهقة، من مهر وشبكة وخلافه، حتى اضطر إلى الانسحاب، في نفس الوقت الذي يرسم هو فوق رأسه تاج القديسين، وبراءة الأطفال في عينيه..

ولأنني لم أكن أدرك أيامها أن الرجل طيب وحنون للغاية، وأن قليلا من الضغط سيجعله ينهار ويعترف، فقد وافقت على كل طلباته (التي ستبدو اليوم مضحكة) مقارنة بما يطلبه الأهل الآن من لبن العصفور إلى شعر الهدهد اليتيم إلى سواري (كسرى)، وأنا أعلم أن هذا سيجشمني ما لا أطيق، لعدة سنوات قادمة..

باختصار، تقمصت دور (أبو علي)، وليس في جيبي ثمن تذكرة أوتوبيس، للعودة إلى منزلي (من حسن الحظ أنني من مواليد (طنطا)، ولا توجد ضرورة حتمية هناك للأوتوبيس..)..

ولأن أهل الخير كثيرون في بلدنا هذا، فقد انهالت على النصائح من كل صوب، وراح الكل يقترح أي شيء ممكن، للحصول على المال اللازم، لإتمام الخطبة والزواج، وبعد استبعاد الاقتراحات الخاصة بتهريب المخدرات والإتجار في البضائع المهربة، والعمل كقاتل محترف، ولأنني لا أصلح بالطبع لمهنة الراقصة، فلم يعد أمامي سوى اقتراحين لا ثالث لهما..

إما أن أفتح عيادة.. أو أسافر إلى منطقة (داخلية أو خارجية)، يمكنني منها جني بعض المال..

وبعد مناقشة قصيرة جدا، باستخدام قواعد العقل والمنطق، تم استبعاد فكرة العيادة من الأساس، لأن تكاليف فتحها تكفي للخطبة والزواج، وربما الإنجاب وتعليم الأطفال أيضا..

ثم إن فكرة الحصول على عقد عمل خارج البلاد، كانت تبدو مضحكة، بالنسبة لطبيب في نهاية فترة الامتياز، اللهم إلا إذا كان هذا العقد في (كوالالمبور) أو بلاد (واق الواق)..

لذا فلم يعد هناك سوى البحث عن فرصة سفر إلى منطقة داخلية..

وهنا اقترح أولاد الحلال محافظة (قنا)..

وكانت حجتهم - حينذاك - هو أن الوزارة تمنحنا الحق في العمل الخاص في فترة التكليف، بعد مواعيد العمل الرسمية، كما أن من حقنا الحصول على مقابل للزيارات المنزلية، وفي المناطق

النائية، مثل محافظة (قنا)، يكون دخل هذا العمل كبيرا، بالإضافة إلى حصولنا على علاوة إضافية..

وعلى الرغم من جهلي التام - حينذاك – بما إذا كان هذا صحيحا، أو حتى قانونيا، فقد قبلت الفكرة على الفور (من باب اليأس بالشيء)، وطلبت أن أقضي فترة التكليف في (قنا)..

وظهرت النتائج..

وقبلت الوزارة مطلبي..

وهنا راحت السكرة، وجاءت الفكرة..

(قنـا)؟!

الصعيد؟

لقد قضيت فترة دراستي كلها في (طنطا)، وكان مجرد السفر إلى (القاهرة) يبدو أشبه بمغامرة غير مأمونة العواقب..

فماذا عن السفر إلى (قنا)؟!

أما خطيبتي (زوجتي الحالية)، فقد استقبلت الخبر بوجوم وشحوب، وخاصة عندما علمت أننا سنحصل على إجازة لمدة ستة أيام فحسب، كل شهرين..

ولكنها لم تعترض؛ لأنها كانت تعلم مثلي أن هذا هو الحل الوحيد..

والمدهش أن والدها كان أكثر الجميع حزنا، وأغزرهم انفعالا وحنانا، عندما ذهبت لوداعهم، قبل سفري إلى (قنا) مباشرة..

فالحقيقة أن الرجل قد اعتبرني، ومنذ خطبتي لابنته، ذلك الابن الذي لم ينجبه أبدا..

والمضحك أن الفكرة قد انغرست في كيانه، حتى إنه كان يقول لخطيبتي أحيانا في حماس:

- سلي أخاك.. هل يرغب في تناول بعض الشاي؟!

وكنت أنا أعترض ضاحكا على صفة الأخوة هذه، التي تحرمني من الزواج منها، ولكن لا أحد يمكنه أن يتصور سعادتي، مع التلقائية والبساطة التي كان الرجل (رحمه الله) ينطقها بها..

المهم أنني أصبحت مكلفًا للعمل في (قنا)..

وكان على أن أستعد للسفر إلى هناك..

وفي أسرع وقت ممكن..

وبناء على هذا، راحت أمي تعد الزاد والزواد، باعتبار أنني مسافر إلى الصحراء والمجاهل المصرية، ولكنني رفضت بشدة حمل أي طعام (وما زالت هذه عادتي، حتى لحظة كتابة هذه السطور) باعتبار أنه ما دام سكان تلك المجاهل يجدون طعاما لأنفسهم، فلن أموت جوعا هناك حتما..

وفي محاولة يائسة منها للاطمئنان، أرادت أمي أن تعلمني كيفية طهي الأرز، أو بعض الخضراوات البسيطة..

وكما يحدث دوما في هذا المضمار، باءت كل جهودها ومحاولاتها بالفشل الذريع..

وفي الثاني من مارس، عام 1982 م، حملت حقيبتي إلى (قنا)، وأنا أتساءل:

- هل ستبدو كمدينة عادية، أم أنني سأضطر لشراء رمح، لقتال الديناصورات الضخمة هناك..

ولأولئك الذين يجهلون هذا، كانت الرحلة، من (القاهرة) إلى (قنا) تستغرق بالقطار المكيف اثنتي عشرة ساعة كاملة.

لذا فقد بدأ القطار رحلته في الثامنة من مساء الثاني من مارس ليصل إلى (قنا) في العاشرة من صباح اليوم التالي..

(راجع المدة المذكورة في العبارة السابقة، ثم تذكر أن هذا يحدث في (مصر))..

وأخيرا، أصبحت في (قنا)..

مدينة صغيرة بسيطة، بدت لي مزدانة متألقة، على نحو غير مألوف، فتصورت أنهم قد علموا بقدومي، واستعدوا لاستقبالي، و....

وقبل أن أتمادى، وألقي خطبة عصماء، أو أصافح المارة في الطرقات، أخبرتني لافتة كبيرة أن اليوم.. الثالث من مارس، هو العيد القومي لمحافظة (قنا)..

وهكذا حملت حقيبتي الثقيلة، ورحت أبحث عن مديرية الشئون الصحية القناوية..

والناس في (قنا) غاية في الشهامة والسخاء والكرم، لذا فلم أكد ألقى أول سؤال، عن مكان المديرية، حتى كان هناك من يحمل حقيبتي، ومن يقدم لي كوبا من الماء البارد، ومن يسير إلى جواري إلى هناك، مصرا على ألا يتركني، إلا بعد الاطمئنان إلى أن كل شيء على ما يرام..

وامتلأت نفسي بدهشة كبيرة، مع شعور عارم بالامتنان، وتساءلت لحظتها: لماذا يلقى البعض نكات عن الصعايدة؟!

والواقع أنه لو كان هؤلاء هم الصعايدة، الذين يتحدثون عنهم، فهذا يثبت أننا نحن أبناء بحري، الذين نستحق أن تقال عنا النكات..

وبالمناسبة: مرة واحد... واللا بلاش..

☆ ☆ ☆

«مركز تدريب (قفط)»

نطقها الأستاذ (شوقي)، مدير شئون الأفراد في مديرية الشئون الصحية، في صرامة لم يكن لها ما يبررها، وهو يناولني أوراق تسلم العمل، فترددت لحظة، قبل أن أسأله:

- وأين (قفط) هذه؟!

رمقني بنظرة نارية غاضبة، جعلتني أنكمش في مكاني، وأراجع كل معلومات الجغرافية، بحثا عن مدينة أو قرية تحمل اسم (قفط)، قبل أن يأمر الأستاذ (شوقي) بإحضار الفلكة، التي لا أعرف عنها سوى اسمها، أو يطالب بإحالة أوراقي إلى المفتي..

ولكن ملامح الأستاذ (شوقي) لانت فجأة، وحملت ابتسامة كبيرة، وهو يقول:

- يا لجهل البحاروة! (قفط) هذه واحدة من المدن الشهيرة، في طريق (قنا) (الأقصر).. إنها تبعد خمسة أو عشرة كيلومترات فقط عن مدينة (قنا)..

وبينما ينطق كلماته، انتبهت إلى ظاهرة عجيبة فالصعايدة، كل الصعايدة، لا ينطقون حرف القاف، وإنما يستبدلون به - في المعتاد - حرف الجيم..

وعلى الرغم من هذا، فمعظم مدن المحافظة تبدأ بحرف القاف..

(قنا).. (قفط).. (نقاده).. (قوص).. (الأقصر)..

وهم بالطبع ينطقونها (جنا) (جفط).. (نجادة).. (جوص).. (الاجصر)..

ولكن ما شأننا نحن بهذا..

المهم أن الأستاذ (شوجي).. معذرة (شوقي) أخبرني أن سيارة المديرية ستحملني، مع بعض الأطباء الجدد، إلى مركز التدريب في (قفط)، حيث ستتلقى علومنا الإدارية الأولى، التي تؤهلنا للعب مع الشياطين..

احم.. أعني مع كتبة الوحدات الصحية..

ومنذ اللحظة الأولى، كانت في انتظاري مفاجأة في (قفط)..

إنها ليست وحدة صحية، وإنما مستشفى قروي ومركز لتدريب الأطباء الجدد..

أو بالتحديد ثلاثون طبيا شابا، سيقيمون معا، في صالة كبيرة، تتراص فيها الأسرة، كما يحدث في الوحدات العسكرية..

ثم إن الدولة ستكفل لنا الإقامة فحسب، وليست التغذية..

وسقط قلبي بين ضلوعي..

كيف سأقيم مع كل هذا الحشد، الذي لا تربطني به أية صلة؟!

ثم ماذا سنفعل في أمور التغذية؟!

واسترجعت حديثي الأخير مع أمي، ورفضي حمل أية مأكولات، ورحت أبحث عن الحذاء، الذي خلعته منذ قليل.. ليس لأرتديه،

ولكن لأضرب نفسي به..

لماذا لم تجبرني أمي على حمل الطعام؟!

كان ينبغي أن تهددني بمسدس، أو حتى بمدفع آلى..

ولكن هذا ما جنيته على نفسي، ولم يجن عليّ أحد..

ولكن ما باليد حيلة..

لا مفر من الاستسلام..

والجوع..

ولكن ذلك الجوع، كما يقولون، كافر لا يرحم..

لذا كان من الضروري أن نسعى جميعا للبحث عن الغذاء..

ولكن الأسوأ أنه كان من المحتم أن نتولى أمر نظافة العنبر أيضا..

ومع الأيام الأولى، شعرت أننا لسنا في مركز تدريب، بل في معتقل..

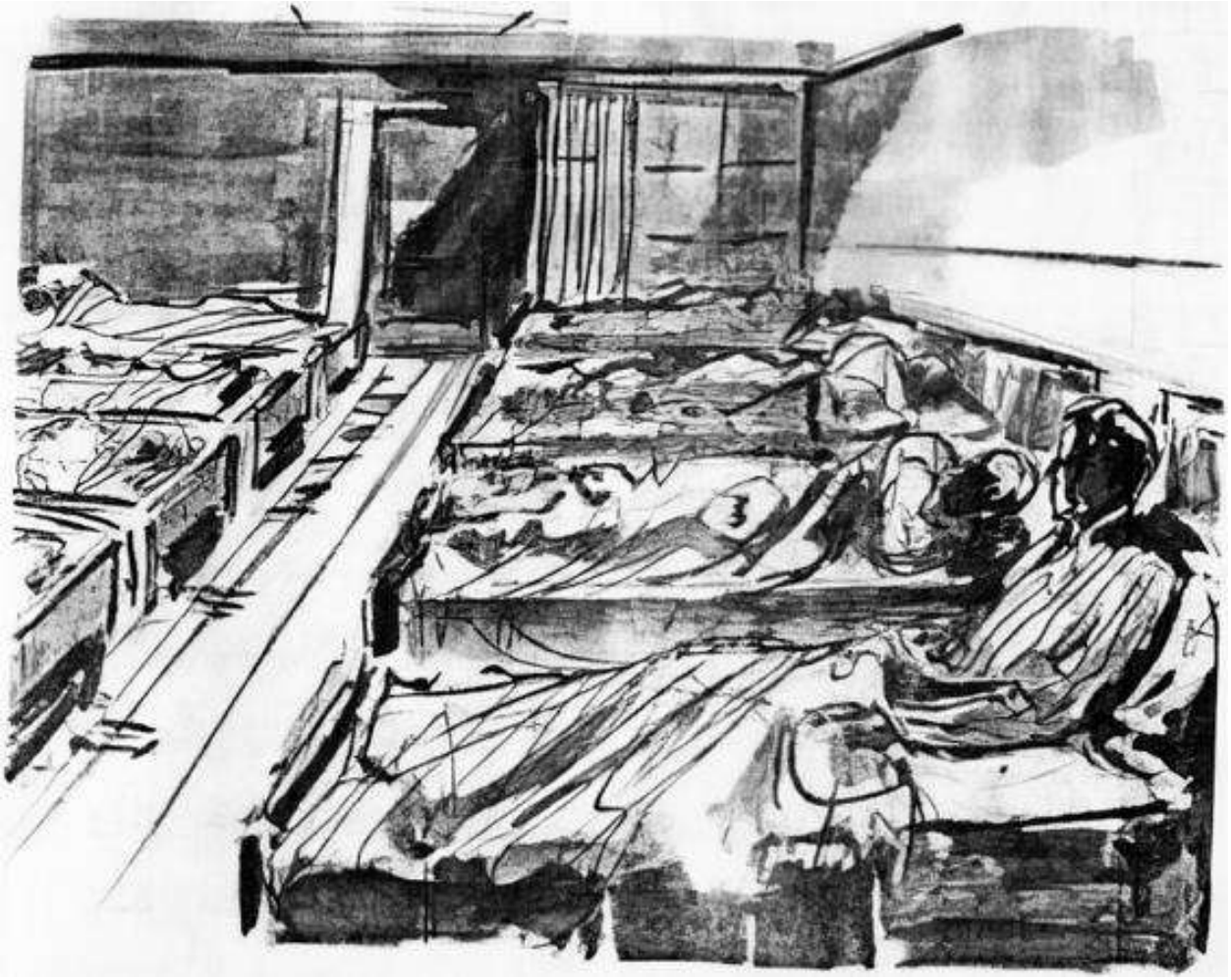

كلا.. لست أعتقد أن الوصف صحيح؛ لأنه من المؤكد أن المعتقلين يجدون بعض الطعام على الأقل..

ولأننا غرباء، والغريب أعمى، ولو كان مبصرا، كما يقول المثل..

ولأننا أكسل من تنابلة السلطان أيضا، فإننا لم ننتبه إلى وجود سوق في (قفط)، إلا بعد أن بدأ بعضنا يرى سرابا، من شدة الجوع والعطش الشيء الوحيد، الذي كان يدفعنا إلى النشاط والحركة كان قطار القصب.. وقطار القصب هذا هو قطار قديم، يبدو لي أشبه بذلك النوع، الذي كان يظهر في أفلام رعاة الأبقار الأمريكية، فقط ليطارده الهنود الحمر..

وفي (قفط)، كان ذلك القطار القديم هو الوسيلة الوحيدة، لنقل قصب السكر، من الحقول إلى المصنع..

وكنا نحن الهنود الحمر..

فما إن يلوح قطار القصب في الأفق، أمام عيوننا وبطوننا الجائعة، حتى ننفض عن أنفسنا الكسل، ويدب فينا نشاط إلهي، وننطلق لتعدو خلف القطار، للحصول على بعض القصب..

وبعض الشبع..

ولست أدري كيف لم أنتبه، إلا لحظة كتابة هذه السطور، إلى ما في ذلك المشهد من غرابة، في قلب الصعيد!!

وأكاد أتصور إخواننا الصعايدة، وهم يقفون في حيرة وبلاهة، متطلعين إلى الأطباء المحترمين، وهم يجرون بالبيجامات والشباشب، خلف قطار القصب..

ومن حسن الحظ أنهم لم يشاهدونا ونحن نأكله..

هذا كان سيكفي ليتصوروا أن أبناء البحاروة من أكلة لحوم القصب وهذا يكفي لإثبات أن الجوع يطلق صوت المعدة.. ويخمد صوت العقل ويبدو أن جوعنا قد أثار شفقة أحد الزملاء، وكان من محافظة (قنا) نفسها، فتكرم بإحضار كيس من الخبز الشمسي (وهو نوع من الخبز الصغير (المدملك)، الذي يتم تخميره في أشعة الشمس، قبل وضعه في الفرن، و (بطة)..

نعم.. إنكم لم تخطئوا القراءة..

لقد أحضر لنا (بطة)..

ولكن لا تفزعوا، أو تتصوروا أن الأطباء الثلاثين قد انقضوا كالوحوش على تلك البطة البريئة المسكينة (المذبوحة طبعا)..

فالواقع أن ذلك الزميل (الخبيث) لم يفعل هذا، إلا بعد أن اطمأن إلى أن الجميع تقريبا قد انهاروا، وفروا عائدين إلى بلادهم (ربما لتناول وجبة أو وجبتين)، ولم يتبق منا سوى سبعة بالإضافة إليه..

أي أنه كان لكل منا ثمن بطة..

وهذا يعد وجبة دسمة متخمة، لمن اعتاد تناول جناح عصفور كل ثلاثة أيام..

هذا لو أصيب العصفور بأزمة قلبية، وسقط ميتا من تلقاء نفسه..

المشكلة الوحيدة أن السادة الزملاء أصروا على أن أقوم أنا بطهو البطة!!

لقد أصابني نفس ما أصابكم من فزع، وحاولت إقناعهم بإرجاء التجربة إلى مناسبة أخرى، يكون فيها أحدهم قد منّ علينا بعلبة سردين أو تونة، ولا داعي للمخاطرة بالبطة المسكينة..

ولكنهم أصرُّوا..

وأصرُّوا..

ولم يعد أمامي سوى الاستسلام..

والبكاء على البطة..

وشمرت عن ساعدي، وحاولت أن أسترجع ولو سطرا واحدًا، من دروس أمي عن الطهي، أو حتى عن طرق إشعال الموقد..

ولقد كان لدينا موقد واحد صغير، يمكنك أن تصنع عليه كوبًا من الشاي، خلال مدة قياسية، لا تزيد على الأسبوعين..

وكان من المفترض أن أطهو البطة وكثيرا من الأرز، على هذا الموقد..

وهكذا استيقظت من السادسة صباحا، ووضعت كثيرا من الماء، في الحلة الوحيدة لدينا، وألقيت فيه الأرز، ووضعته على الموقد الصغير، وجلست أنتظر..

وأنتظر..

وأنتظر..

وأيضا أنتظر..

وفي منتصف النهار، بدأ الماء يغلي..

وكانت معجزة..

وبحسبة بسيطة، أدركت أن البطة سيتم طهيها خلال أسبوع على الأقل، وهذا بعد أن ينتهي طهو الأرز، في الصباح التالي على الأرجح..

وهنا تفتق ذهني عن فكرة عبقرية..

وبمنتهي الهمة، صنعت حفرة كبيرة في قلب الأرز ودفنت فيه البطة (دون أن أترك بصماتي في مسرح الجريمة بالطبع)..

وفي حيرة، سألني الزملاء:

- أهذا ممكن؟!

وبمنتهى الحماس والثقة (الزائفة)، هتفت:

- بالطبع.

ولم يعترض أحد؛ لأنهم (كما ثبت فيما بعد)، كانوا أكثر موهبة مني في عالم الطهي.

وفي السادسة مساء، بدا من الرائحة أن الأرز قد نضج والبطة داخله بالطبع...

وسال لعاب الجميع، ونحن نحمل الوعاء إلى مائدة الطعام، وقد بدا ساقا البطة واضحين خارج الأرز وفي حماس، جذب أحد الزملاء ساق البطة..

ولكنه فوجئ بأن ما صعد إليه لم يكن الساق وحدها..

كان البطة كلها، مع الأرز كله، الذي تحول إلى عجينة متماسكة، لم تلتصق بقاع الوعاء، ولم تعد تصلح للاستخدام الآدمي..

وكذلك البطة..

صحيح أن الكل ثار، وهاج، وماج، وانهال عليّ بالعبارات الغاضبة الساخطة المستنكرة.

ولكننا في النهاية أكلنا الأرز، والبطة..

ألم أقل لكم: إن الجوع كافر..

جدا؟!..

☆ ☆ ☆

أسبوع واحد وتنتهي فترة التدريب، بعد أن احتشدت عقولنا بعشرات القواعد واللوائح الإدارية، ودفاتر العهدة، واستمارات 111 و112 و118 ع. ح.

وفوجئنا بأننا سنخوض امتحانا في الأمور الإدارية..

امتحان؟!

ألن تنتهي الامتحانات أبدا!

وسألنا عن أرقام الجلوس، وأقرب مكتبة لبيع أوراق تصلح للبرشام، و ...

وأدركنا جميعا أن فترة التدريب قد شارفت الانتهاء..

وأن كلا منا سيفترق عن الآخرين، وسيذهب إلى وحدة صحية، يقوم فيها بعمل الطبيب البشري، وطبيب الصحة، والطبيب الشرعي، والصيدلي، وطبيب المعامل، ومدير المخازن، ومسئول الثقافة الصحية، و...

وكل هذا مقابل راتب ضخم يبلغ ستين جنيها مصريا لا غير..

ولست أدري لماذا يذكرني هذا بالفنان (فؤاد المهندس)؟!

والعجيب أنني شعرت بالأسف الشديد؛ لأنني سأفترق عن تلك المجموعة، التي قضيت معها شهرين كاملين، في عنبر واحد..

ربما لا أذكر الأسماء كاملة، ولكن كان هناك (محمود ياسين) (ليس الممثل المعروف بالطبع)، و (فارس) و (أسامة) و (مدحت عبد الفضيل)، و (عثمان)..

كل منا سيذهب إلى مكان منفرد، في قرية من قرى محافظة (قنا)..

ويبدو أن شعوري هذا كان هو نفسه شعور الجميع، فقد ساد الوجوم المكان، وانخفضت درجة المرح، وبدا وكان كلا منا يشعر بالحزن، لأننا أخيرا سنفترق..

نفس الحزن، الذي شعرنا به، عندما أدركنا أننا سنجتمع في عنبر واحد في البداية..

وما أغرب النفس البشرية!!

ولكن حتى تلك الأيام الأخيرة لم تنته دون موقف ما..

فقبل امتحان الإداريات بيومين فقط، كان زميلنا الصعيدي هو المسئول عن إعداد الطعام، وكنت أجلس معه وحدي في العنبر، في حين ذهب الآخرون لقضاء بعض الوقت في مدينة (قنا)..

كان يستعد لعمل وجبة من المعكرونة، عندما راودتني فجأة فكرة العبث معه قليلا..

ولقد عجزت عن كتمان تلك الرغبة، فسألته متظاهرا بالهدوء واللامبالاة:

- هل قمت بغسل المعكرونة قبل طهيها؟!

حدق في وجهي بدهشة، وسألني:

- وهل يتم غسل المعكرونة قبل طهيها؟!

نظرت إليه باستنكار، وأنا أؤكد له أن هذا أمر حتمي؛ لأننا كنا نبتاع المعكرونة المعبأة في أجولة ضخمة، معرضة للتراب والغبار..

ومن الواضح أن منطقي قد أقنعه، فقد قام بكل حماس، وغسل المعكرونة، ثم وضعها فوق صحيفة في الشرفة لتجف قبل أن يقوم بإعدادها، وأنا أكتم ضحكتي في أعماقي، وأتظاهر بالانهماك في القراءة..

وعندما عاد الجميع، كانت المعكرونة قد تحولت إلى عجينة.

وغني عن القول إنني أنكرت تماما في التحقيقات، أنني قد نصحته بغسل المعكرونة..

باختصار، كانت عملية نظيفة مائة في المائة، خرجت منها مثل الشعرة من العجينة..

عجينة المعكرونة..

المهم أن الموقف قد مر بسلام، وتحول إلى نكتة جديدة، تضاف إلى نكات الصعايدة، ورحنا جميعا نستعد للامتحان...

ثم جاء الامتحان..

الأساتذة الأطباء، مديرو الإدارات الطبية، أعطونا الأسئلة والأجوبة، والدرجات، وانتهى الأمر، قبل أن يبدأ..

وهكذا، انتهت فترة التدريب، وبدأنا نستعد للتوزيـع..

وهنا عاد النشاط يدب في الجميع، وراح كل من الزملاء يسعى للحصول على وساطة، ليتم توزيعه على وحدة صحية مناسبة..

وفي ذلك الحين كان لي قريب في منصب مدير إدارة الطب البيطري، وكان صديقا لمدير مديرية الشئون الطبية في (قنا)، ولقد عرض على قريبي هذا أن يرسلني إلى أي مكان أشاء.

ولكنني كنت، وما زلت أومن بالقدرية، في مثل هذه الأمور..

لست أحب أبدا أن أختار المصير، في الأمور التي أجهلها..

إنني أترك الأمر كله لله (سبحانه وتعالى)، حتى يمكنني قبول أية نتائج فيما بعد، دون أن أشعر بالندم..

وهكذا تم عمل القرعة التقليدية؛ لتوزينا على القرى والمراكز المختلفة..

وعندما سحبت الورقة الخاصة بي، وجدت بها اسم قرية، لم أسمع بها من قبل قط..

(أبو دياب شرق)..

وعندما سألت عن موقع القرية، التي سأذهب إليها، تطلع إليّ الجميع بإشفاق واضح، ثم ربت أحدهم على كتفي، وهو يبلغني أنها تبعد سبعة وأربعين كيلومترا عن مدينة (قنا)، وأنها تتبع مركز (دشنا)..

الأمر الوحيد، الذي لم يبلغني به، هو أنه، من بين الكيلومترات السبعة والأربعين، كان هناك أربعة وعشرون كيلومترا فقط على الطريق الأسفلتي.. أما الثلاثة والعشرون كيلو مترا الأخرى، فكانت في قلب الجبل..

أو كما يقول الصعايدة..

في حضن الجبل..

☆ ☆ ☆

2- البخيل وأنا..

(أبو دياب شرق)

اسم أثار في نفسي خوفا مبهمًا، كلما رددته في أعماقي وأنا أعد حقيبتي الوحيدة، استعدادا للانتقال من سطح الصعيد إلى أعماقه..

ولست أدري لماذا انطبع في ذهني اسم (أبو دياب) هذا بوجه صارم، لقاتل صعيدي محترف، ضخم الجثة، كث الشارب، معقود الحاجبين، يحمل (البندجة).. أقصد البندقية ليلبد بها في حقول الذرة، و (يطخ) الرائح والغادي..

ربما كان هذا مجرد بقايا أو ترسبات قديمة، من مسلسل تليفزيوني رأيته في طفولتي، أو بعض الرسوم الكاريكاتورية، التي كان يبدعها العمالقة آنذاك، أمثال (صلاح جاهين)، و (الليثي) رحمهما الله، والفنان (حجازي) وغيره (أبقاهم الله)..

المهم أنني لم أستطع إغماض عيني لحظة واحدة طوال الليل، متصورا أن (أبو دياب) إياه سيفط من أسفل فراشي بغتة، في مركز التدريب، صارخا:

- اثبت يا ولد..

ثم يطخني عيارين..

وفي كل مرة كنت أقفز من نومي صارخا:

- (أبو دياب).. (أبو دياب)..

ولكن كل الشهود أجمعوا على أنني لم أحدد ما إذا كان (أبو دياب شرق)، أم (أبو دياب غرب)، ولكن الأرجح أنه كان (أبو دياب شمال شرق)..

المهم أنني استيقظت في اليوم التالي بوجه شاحب، وعيون منتفخة، وقلب ينبض ألف نبضة في الدقيقة، لأكشف أنه لن يتم توزيعنا مباشرة، ولكن علينا أن نستكمل بعض الأوراق في مديرية الشئون الصحية أولا..

وهنا قفزت إلى ذهني فكرة مجنونة..

لماذا لا أنتهز الفرصة، وأذهب لرؤية قرية (أبو دياب شرق) هذه؟!

وسيطرت على الفكرة، حتى إن كل ذرة في كياني صارت تتلهف إلى رؤية ذلك المكان، الذي سأقضي فيه عاما على الأقل.. وما إن أخبرنا الأستاذ (شوقي) أن الأوراق تحتاج إلى يوم آخر لاستكمالها، حتى هرعت من فوري إلى موقف سيارات الأجرة، لأسأل:

- كيف أذهب إلى (أبو دياب شرق) وحياة والدك؟!

ولأن الشهامة متأصلة للغاية في إخواننا الصعايدة، فلم تمض ربع الساعة، حتى كان أحدهم ينزلني من سيارته (دون أن يتقاضى أجرا)، عند موقف سيارات (دشنا)..

وبالتحديد (أبو دياب شرق)..

وما إن أخبرت السائقين أنني طبيب الوحدة الصحية الجديد، حتى انهالت السلامات والتحيات، وانفتحت أبواب السيارات، وسرقني السكين كما يقولون، فلم أشعر إلا وأنا أنطلق في سيارة الأسطى (عبد الله)، إلى (أبو دياب شرق).

وفي الطريق، راحت السكرة، وجاءت الفكرة..

ولقد جاءت هذه الفكرة بالتحديد، عندما انحرفت السيارة عن الطريق الأسفلتي، وبدأت تنطلق نحو مجاهل وجبال مخيفة، عبر طرق ترابية غير ممهدة..

في البداية، تصورت أن السير في هذه المجاهل سيستغرق خمس أو عشر دقائق على الأكثر، ثم راح قلبي يدق في عنف، بعد ربع الساعة الأولى، ثم ارتجف مذعورا بعد ثلث الساعة، وسقط بين

قدمي مع الدقائق الخمس التالية، قبل أن أسمع الأسطى (عبد الله)، وهو يقول في حماس:

- الوحدة الصحية يا (باشا)..

وفي ظروف أخرى، كان اللقب سيسعدني بشدة (على الرغم من بغضى للألقاب)، ولكن في تلك اللحظات هناك، في حضن الجبل، كنت مستعدا للتنازل عن لقب (أفندي)، مقابل لحظة من الشعور بالأمان..

فتلك الوحدة الصحية، التي ظهرت فجأة، مع دوران السيارة حول مرتفع صخري، كانت مجرد بناء بسيط، نصفه من طابق واحد، والنصف الآخر من طابقين، وسط فراغ ضخم، تبدو في نهايته قرية يختفي معظمها خلف الأشجار....

باختصار، كانت هي بالضبط ذلك المكان، الذي يصفونه بأنه لا يحوي (صريخ ابن يومين)..

وعندما ابتعدت سيارة الأسطى (عبد الله)، واختفت في الأفق، صرت أنا ذلك الى (صريخ)، ولكن ابن كذا ألف يوم..

ومع نفس عميق، وقراءة المعوذتين، والاتكال على الله (سبحانه وتعالى)، صعدت إلى الوحدة الصحية..

في البداية، تصورت مع الصمت والسكون أن المكان مهجور، يصلح لأحد أفلام (ألفريد هتشكوك)، ثم لم ألبث أن شعرت بحركة في الطابق الثاني، فصعدت إليه، وطرقت الباب، و...

وانفتح الباب..

وأمامي مباشرة، رأيت رجلا قصير القامة، أشيب الشعر، ممتلئ الجسم، يميل رأسه إلى اليسار، حتى ليكاد يستند إلى كتفه، وهو

يرمقني بعينين محمرتين نفاذتين..

وبهدوء (افتعلته طبعا)، أخبرته أنني طبيب الوحدة الجديد..

وانطلقت صرخة استنكار واستهجان قوي، كادت تدفعني للقفز من الطابق الثاني، والجري بكل قوتي، بمنتهى الرعب والذعر، حتى أبلغ مدينتي (طنطا)..

ولكن العجيب أن تلك الصرخة لم تنطلق من بين شفتي ذلك القصير..

بل من داخل الوحدة نفسها..

لقد أطلقها الدكتور (محمد)، طبيب الوحدة الاسكندراني، الذي استقر به المقام لأكثر من عام، دون أن يتصور أن أحدا سيقتحم حياته هكذا بغتة، ويشاركه أرباحه وغنائمه..

وعلى عكس الحفاوة، التي استقبلني بها (حجاج)، كاتب الوحدة (وما أدراك ما كاتب الوحدة)، كان الدكتور (محمد) جافا غاضبا ثائرا، يتمنى لو يلقى بي في أعمق أعماق الجحيم، وأنا أبلغه أنني سأتسلم العمل منه، بعد يومين فحسب..

ولم تستغرق زيارتي هذه سوى دقائق قليلة، لم تكمل نصف الساعة، قبل أن ترهقني ثورة الدكتور (محمد)، التي لم يحاول حجبها أو إخفاءها، وأقرر العودة إلى (قفط) بأي ثمن وصاحبني (حجاج) برأسه المائل ونظراته النافذة، لنقف عند الطريق، في انتظار أية سيارة تعيدني إلى (قنا)، وراح يتحدث معي بمودة شديدة، ويؤكد لى أن الحياة في هذا المكان (الكئيب) ستروق لي جدا، إذ يبدو أنه تصور أنني مصاب بالهلوسة أو الاكتئاب الذهاني لسبب ما..

وفي (قنا)، عدت أحزم حقيبتي الوحيدة، وأستعيد ما فعله معي الدكتور (محمد)، ثم أتساءل عما إذا كان من الضروري أن أشترى طبنجة لحماية نفسي، أم أنني أستطيع استئجار أحد أبناء (أبو دياب) كحارس خاص؟!

كنت أفكر في هذا، دون أن أدري أنه ولا الجن الأزرق، يمكنه أن ينقذني من زميل الوحدة الصحية..

هذا لأنه كان، وبمنتهى البساطة والوضوح، بخيلا..

وطوال ستة أشهر كاملة، عشت جحيم البخل هذا في أسوأ صوره..

وقد يعترض البعض منكم على وصف (الجحيم) هذا، ويتصور أنه يحوي بعض المبالغة، لذا فمن المحتم أن أنقل إليكم بعض نماذج هذا البخل، على الرغم من كراهيتي لاستعادتها..

فذات مثلا، وفي أعقاب عيد الفطر المبارك، عدت إلى الوحدة بصندوق من الكعك والبسكويت، أصرت والدتي باستماتة على منحي إياه (ولم أقاوم أو أعارض بالطبع، بعد مرحلة الجوع الكافر، التي عشتها في مركز التدريب)، وكما علمونا، وضعت الصندوق مفتوحا على منضدة الصالة، ليأكل منه كل من يشاء، فالطعام والشراب لكل فم، كما أكد عليّ الجميع منذ طفولتي..

وفي كل صباح، كانت عاملة الوحدة تعد لنا كوبين من الشاي، ويخرج الدكتور (محمد) من حجرته، ليشرب كوبه، ويأكل معه كل ما يحلو له من صندوقي حتى نفدت محتويات الصندوق تماما..

واعتبارا من اليوم التالي، ولفترة طويلة، كان الدكتور (محمد) يخرج كل صباح من حجرته بكرم حاتمي، حاملا قطعتين من

الكعك، ليلتهمهما وحده (بمنتهى البجاحة)، مع كوب الشاي، ثم يخرج لأداء عمله، وكأن شيئا لم يكن، وبراءة (العيال) في عينيه..

مرة أخرى كان يستعد لشراء مستلزمات العشاء، فسألني عما أرغب في تناوله، وبمنتهى البراءة، أخبرته أنني آكل كل شيء، فيما عدا المربات..

ومن المؤكد أنكم قد استنتجتم ما حدث، وخاصة عندما تعلمون أننا كنا ندفع كل المصاريف مناصفة..

لقد أحضر ست علب مربي، وعلبتي جبن أبيض..

واشتعل غضبي مع هذا الموقف السخيف، فما كان مني إلا أن حملت ثلاث علب مربي، وجلست في الشرفة، ألتهمها دون خبز أمام عينيه، اللتين أطل منهما ألم ومرارة وحسرة الدنيا كلها، حتى أتيت عليها عن آخرها..

كل هذا وأنا أكره المربى (وربما كان هذا هو سبب تلذذي من أكل المربى، في هذه الأيام)..

الواقعة الثالثة، هي أنه عندما غادر الوحدة نهائيا (وكانت أول مرة أشعر فيها بالسعادة؛ لأننا في (قنا)، (بلدة القلل)، عثرنا أسفل فراشه على أطنان من قشر الموز والبرتقال وأوراق البسكويت، وعلب الجبن الفارغة، التي كان يحضرها إلى حجرته، ويلتهمها سرا، حتى لا أراه أو أشعر به..

لكن أسوأ موقف فعله معي، في فترة عملنا معا، هو عندما أصابني التيفويد ذات مرة..

ففي تلك الفترة لم نجد في الوحدة كلها سوى شريط واحد من (كلورامفينيكول)، وكان هو العلاج الوحيد للمرض آنذاك..

وبشهامة، أحضر الكاتب (حجاج) ذلك الشريط، وعاونني على ابتلاع كبسولتين منه على الفور، على أن أتناول مثلهما كل ثماني ساعات..

ولكن الشريط اختفى تماما..

ولم تكن المواصلات متوافرة لمدينة (قنا) في الليل، وقلب (حجاج) المكان كله بحثا عن الشريط، وحالتي تسوء أكثر وأكثر، والدكتور (محمد) المحترم هادئ جدا، ولا يعلق على ما يحدث بحرف واحد..

ثم فجأة، وبمصادفة عجيبة، كشف (حجاج) الشريط الفارغ من الكبسولات، في حجرة الطبيب المحترم..

لقد سرق الشريط (علاجي الوحيد)، وابتلع الكبسولات بانتظام؛ ليحمي نفسه من العدوى، حتى ولو أدى هذا إلى موتي أنا؟!

هل يكفيكم هذا؟!

- عظيم... دعونا ننتقل إذن إلى نقطة أخرى فمنذ يومي الأول في (أبو دياب شرق) ، وكعادتي في كل مكان جديد، رحت أستكشف كل ما حولي بمنتهى الاهتمام وأول ما لاحظته هو أن القرية تنقسم إلى فريقين كبيرين...

العرب.. والهوارة..

كل فريق منهما له عالم خاص به، يصعب اختراقه، وكشف أعماقه ومكنوناته..

وبالذات عالم الهوارة..

إنه عالم أشبه بعالم النازية، وأساطير السامية..

فيه محدودية وتعال، وقوة، وغطرسة، وزهو، حتى إن الهوارة يتصورون أنهم أفضل خلق الله (سبحانه وتعالى)، فلا ينبغي عليهم أن يمتزجوا بباقي البشر، ولا أن يشاركوهم، أو يصادقوهم، أو يزوجوهم بناتهم..

لا بأس عندهم في أن يتفضلوا بالزواج من بنت حواء أخرى، من أي مجتمع، باعتبار أنهم - طبقا للفكر الجنوبي، سيسيطرون عليها، وعلى عائلتها أيضا..

أما أن يمنحوا بناتهم لجنس آخر، فهذا هو المستحيل بعينه..

وعلى الجانب الآخر تجد العرب، بتماسكهم واعتدادهم، وإصرارهم على إثبات حسن منبتهم وأصالة وجودهم..

كل المهن المتطورة، كان يمتهنها العرب وحدهم، أما الهوارة، فهم أصحاب الأراضي الواسعة، والثروات الضخمة، والسطوة، والنفوذ، والقوة.. ولأن الإحساس بالقوة وحده يكفي بعض

البشر، فقد كانت منازل العرب أنيقة، بسيطة، نظيفة، عصرية.. إلا فيما ندر...

أما منازل الهوارة، فـ...

وللا بلاش...

برضه إلا فيما ندر..

ونساء العرب تشبهن، في أزيائهن وتصرفاتهن، نساء المناطق الشعبية البسيطة في (مصر)، وهن مرحات، تلقائيات، ومهذبات للغاية بالطبع...

أما نساء الهوارة، فمن المستحيل أن تصف أزياءهن؛ لأنهن يرتدين (البردة) طوال الوقت..

وتلك (البردة) عبارة عن شيء أشبه بالبطانية، مصنوع من الصوف، وعلى أية هوارية أن ترتديه، ما دامت خارج المنزل، وألا تظهر منها سوى عين واحدة، ترشدها إلى الطريق، بدلا من العصا والكلب الوولف.. أما العين الثانية، فهي قلة أدب، ما دام يمكنها أن ترى بعين واحدة..

وإذا ما مرضت عربية، فهي تأتي إلى الوحدة للكشف الطبي، أو يطلبك زوجها علنا، لمعاودتها في منزلها أما الهوارية، فمرضها له طقوس مختلفة..

ففي أغلب الأحوال، يتم تركها للطبيعة، فإما أن تشفي وحدها، أو ترتاح من عذاب الدنيا.. أما لو كان زوجها متفتحا، فالأمر يختلف..

سيأتي لزيارتك سرا، بعد منتصف الليل بساعة، أو ساعتين، وهو يخفي وجهه بوشاح سميك، وبعد أن يباغتك، ويقطع ولدك،

ويخبرك بكلمة سر الليل، سيطلب منك بخشونة أن تعدّ حقيبتك وتتبعه..

ووسط الحقول والظلام، ومع موسيقى فحيح الثعابين وعواء الذئاب الشجي، تتسللان مقا إلى منزله، وتقطعان الأسلاك الشائكة، وتتجاوزان حقول الألغام، حتى يمكنك أن توقع الكشف الطبي على زوجته، التي تعاني من مغص كلوي حاد، منذ شهر واحد فحسب، دون أن ينتبه هواري آخر إلى هذا العار..

ولكن الحق يقال، لقد كانوا جميعا في منتهى الكرم، فبعد كتابة الروشتة، كانوا يعيدونني إلى الوحدة الصحية (تسللا طبعا)، دون أن يتركوني طعاما للذئاب، أو يطلقوا عليّ النار، حتى يموت معي السر العظيم..

وفي أحوال أخرى، كنت تجد أمامك عملاقا ضخما، عريض المنكبين، كث الشارب والحاجبين، غليظ الملامح، يشكو لك من أعراض غريبة، لا يمكنك معها إلا أن تصافحه، وأنت تبتسم في ارتباك قائلا:

- مبروك.. جنابك حامل في شهرين. فالأعراض التي يصفها بمنتهى الدقة، تعاني منها زوجته، وليس هو، ولكنه يأتي للكشف بدلا منها، حتى لا تنكشف على رجل آخر..

ومن أطرف المواقف التي واجهتها، بسبب هذه العادات المتوارثة، هو أنني قد تسللت يوما إلى منزل أحدهم، في الثانية صباحا، لأجد أمامي بابا مغلقا، به ثقب في منتصفه، ومن الثقب يبرز إصبع امرأة، التهب ظفرها، وامتلأ بالصديد..

وبمنتهى العناد والإصرار، رفض زوجها أن أقوم بقياس درجة حرارتها، أو مستوى ضغط الدم لديها، باعتبار أن الإصبع هو

المصاب، وها هو ذا أمامي، فما الذي أريده أكثر من هذا؟!!

قلة حياء مني طبعا..

ولكنها تقاليدهم على أية حال، ومن الضروري أن نحترمها، حتى ولو اختلفنا معهم ألف مرة، وإلا فعلينا أن نعذر الغرب، عندما يتهمنا بالتخلف، لمجرد أن البنت عندنا تحافظ على عذريتها حتى الزواج!!

وعلى أية حال، فمهما اختلف العرب والهوارة، في تاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم، فهم يتفقون جميعا في عادة واحدة، ومزية لا يدانيهم فيها أحد..

كرم حاتمي مدهش، يبهرك في البداية، ثم يخلب لبك كله فيما بعد، وبسبب هذا الكرم، لم أكد أضع قدمي في القرية، حتى وجدت أمامي أكثر من عشر دعوات لتناول الغذاء أو العشاء، عند أكابر الهوارة والعرب على السواء، بدءا من العمدة وحتى (فتحي أمين)، الذي صار أفضل أصدقائي فيما بعد، وبمنتهى الجدية والحزم، أخبرني الكاتب (حجاج) أنه من العار كل العار.. أن أرفض دعوة أي شخص منهم، وأنه من الضروري أن أرتب الدعوات، بحيث يمكنني تلبيتها كلها في أيام معدودات..

وتصورت أنا، بكل البراءة، أن الأمر بسيط للغاية.. وذهبت لألبي دعوة العمدة في البداية..

وعلى مائدة الطعام، وجدت أمامي طنا من اللحوم الدسمة للغاية، والتي تسيل منها كمية من الدهون، تكفي لفتح مصنع سمن طبيعي..

هذا بالإضافة إلى (الويكة) والملوخية بالطبع و (الويكة)، لمن لا يعرفها، هي (بامية)، يتم طهيها..

دون صلصة، باستخدام الماء والثوم فحسب..

وأنا أعلم هذا، ليس لأنني قد تعلمت الطهي (فالأيسر أن أتعلم الهيروغليفية)، ولكن لأنني ظللت آكل (الويكة) والملوخية، دون سائر أنواع الخضراوات الأخرى، لمدة عام ونصف بلا انقطاع..

ولهذا قصة أخرى..

المهم أنه كان على أن أتناول وألتهم نصف طن الدسم هذا على الأقل، حتى لا يصاب الداعي بالإحباط، ويتصور أنني قد أهنته برفض طعامه..

ولقد بذلت قصارى جهدي، حتى كادت معدتي تنفجر، ثم شربت بعدها كوبا من مادة سوداء كالحبر، عرفت فيما بعد أنها الشاي، ولكنهم هنا يعدونه في كنكة البن الصغيرة، بمقادير مدهشة، إذ يوضع في الكنكة كيلو من الشاي، مع كيلويين من السكر، مع إضافة الماء، والتقليب لمدة أسبوع أو أسبوعين.. وعندما يتحول المزيج إلى شيء أشبه بالقار، يتم صبه في أكواب صغيرة جدا، و....

معذرة.. يتم صبه في كوب واحد، أشربه أنا أولا (وهذه هي الحسنة الوحيدة في الأمر)، ثم يصب فيه الشاي للآخرين، طبقا لمنزلتهم الاجتماعية..

وغادرت دوار العمدة، وقد أصبحت فجأة أشبه بالممثل الراحل (عبد الفتاح القصري)، بكرش ضخم أمامي، وعينين أصابهما الحول، وعقل لم يعد يبحث سوى عن (نورماندى تو)..

وباغتني (حجاج) بأنه هناك دعوة تنتظرنا على العشاء، في منزل الحاج (على)، كبير العرب..

ولأنه من العار أن أرفض الدعوة، أو حتى أعتذر طالبا تأجيلها لموعد آخر، ذهبت إلى منزل الحاج (على)..

وكان الطعام مختلفا تماما، باعتبارها وجبة عشاء..

طن من اللحم الغارق في الدسم مع (الويكة) والملوخية بالطبع..

وتساءلت وأنا أجلس على المائدة في أسي:

- ترى هل توجد وسيلة لو خرجنا إلى الوحدة بعد العشاء؟!

ولكم أن تتصوروا أن هذا الأمر قد تكرر، على المنوال نفسه طوال سبعة أيام كاملة بلا توقف، و...

ترى هل رأى أحدكم مركبتي (نورماندى تو)؟!

☆ ☆ ☆

ستة أشهر كاملة، قضيتها في الوحدة الصحية في (أبو دياب شرق)، بصحبة الدكتور (محمد)، وبخله، وتصرفاته الأنانية

السخيفة..

ستة أشهر، وأنا آكل (الويكة) والملوخية يوميا..

وذات يوم، فاض بي الكيل، وقررت أن أقضي يومي الخميس والجمعة في (قنا)، حتى يمكنني تناول وجبة طبيعية على الأقل..

وفي صباح الخميس، ارتديت ثيابي، وحملت حقيبة صغيرة، وانتظرت أول سيارة أجرة قادمة على الطريق، وانطلقت بها إلى مدينة (قنا)، متصورا أنني أنطلق من السجن إلى الحرية..

ولأنه من العار أن أرفض الدعوة، أو حتى أعتذر طالبا تأجيلها لموعد أخر، ذهبت إلى منزل الحاج (على).. وكان الطعام مختلفا تماما، باعتبارها وجبة عشاء..

وما إن وصلت (قنا)، حتى انطلقت أسير في شوارعها كطائر غادر قفصة، بعد حبس طويل..

ولكن فجأة، كشفت أن شوارع المدينة كلها قد انتهت..

لقد قطعتها كلها خلال ساعة واحدة..

ولكنني قلت لنفسي:

- لا تدع هذا يحبطك.. تمتع بوقتك، مهما كانت المنغصات..

وكأي سجين محروم، رحت أبحث عن أهم شيء في الدنيا..

عن مطعم..

وبسرعة لم أكن أتوقعها، عثرت على مطعم بسيط أنيق..

فوثبت إلى أقرب مائدة خالية (الواقع أن كل الموائد كانت خالية)، وطلبت قائمة الطعام..

وبدهشة حقيقية، سألني الرجل:

- أية قائمة؟!

حاولت توضيح الأمر أكثر، وأنا أقول بابتسامة كبيرة:

- القائمة.. تلك الورقة الكبيرة، التي تحوي كل ما لديكم من أصناف الطعام..

وهنا ابتسم الرجل بعد أن فهم ما أعنيه (أو هكذا خيل إلى) وقال:

- وما الحاجة إلى ورقة؟! أنا سأخبرك ما لدينا..

وشعرت بالدهشة مع كلماته، فكيف يمكن لشخص ما أن يحفظ قائمة طعام كاملة بهذه البساطة؟!

ولكن هذه الدهشة زالت بسرعة، عندما علمت أن ما لديهم ثلاثة أصناف فحسب، بخلاف الأرز طبعا.. فهناك البطاطس.. ثم (الويكة) والملوخية..

وبمنتهى الإحباط، طلبت طبقا من الأرز، وآخر من البطاطس المطبوخة، و..

لا داعي، فالذكريات السيئة تؤلم أحيانا..

المهم أنني قد قضيت اليوم بطوله في (قنا)، على نحو أو آخر، حتى أتى المساء..

وعندما يأتي المساء، لا يفكر المرء إلا في أمر واحد..

النوم..

وهنا بدأت رحلة البحث عن فندق..

وكانت الصدمة الكبرى..

كل غرف الفنادق مشغولة بالكامل، وكل سيارات الأجرة الذاهبة إلى (أبو دياب شرق) رحلت..

وسقطت أنا بين المطرقة والسندان..

وبمنتهى الذعر، رحت أتساءل: كيف سأقضي ليلتي؟!

وعلى أي رصيف؟!

ويبدو أن الذعر كان قد حفر خطوطه بمنتهى الوضوح على وجهي، حتى إن موظف الاستقبال في أحد الفنادق نظر إليّ بإشفاق، قائلا في تردد:

- الواقع أنه توجد حجرة، ولكن.....

صحت أقاطعه في لهفة:

- لا يهم لكن.. أعطني إياها..

وكالغريق الذي يتعلق بقشة، رفضت أن أستمع إلى الرجل، وطلبت منه إعطائي تلك الحجرة فورا..

وحصلت على الحجرة..

لست أدري في الواقع ما إذا كان من الإنصاف أن أطلق عليها اسم حجرة أم لا؛ فهي مجرد شريحة صغيرة، تحوي فراشا يحتلها بالكامل، حتى إنك تفتح بابها، ثم تقفز فوقه مباشرة..

وفوق ذلك الفراش، يوجد حوض (وهذا جعلني أتساءل عن الطبيعة الحقيقية لتلك الحجرة، وعما يمكن أن أجده، لو نظرت تحت الفراش)..

وعندما رقدت على الفراش، الذي هو في الوقت ذاته مساحة الحجرة كلها، كان الحوض فوق رأسي مباشرة.

ولكنني، وعلى الرغم من كل هذا، قلت لنفسي:

- ليلة وتمر..

إلا أنها أبت أن تمرّ..

فكوع الحوض مثقوب، والنافذة الصغيرة بلا قفل..

المهم أن الليلة كانت أطول ليلة في التاريخ، ولم تكد الشمس تشرق، حتى كنت ألملم أشيائي، وأغادر الفندق، وأعدو نحو موقف سيارات (أبو دياب شرق)، حاملا لافتات بيضاء، كتب عليها بكل حماس: «نموت نموت وتحيا (الويكة) والملوخية»..

وعندما وصلت إلى القرية، فكرت جدا في الانحناء وتقبيل ترابها، لولا ما لمحته فوق ذلك التراب من مخلفات حيوانات القرية الأعزاء، مما جعلني أصرف النظر عن الفكرة كلها، وأكتفي بتقبيل يدي وجها لظهر، على عودتي سالما..

ولكن القدر كان يدخر لي مفاجأة سارة للغاية..

لقد أنهى الدكتور (محمد) مدة تكليفه، وقرر العودة إلى (الإسكندرية)..

وكان هذا يعني أن الجحيم سيغلق أبوابه أخيرا..

وأن الوقت قد حان لبدء عهد جديد..

عهد تنتقل إلى فيه السلطة، وأصبح الطبيب الوحيد في القرية.

ويا له من عهد

☆ ☆ ☆

مذكرات طبيب
فى صعيد مصر الجوانى
للناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨١٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٩

3- حجاج..

أخيرا انزاحت الغمة، ورحل الدكتور (محمد)، عائدا إلى (الإسكندرية)، وأصبحت أنا طبيب الوحدة الأول، ومديرها..

ودعوني أعترف لكم (دون تعذيب أو إهانات)، بأن للمناصب بريقها، ففي مثل عمري آنذاك، الذي لم يبلغ الخامسة والعشرين بعد، كان من المبهر أن يحمل المرء لقب (البية المدير)، وأن يعامله الكل، في رواحه وغدوه، بناء على اللقب والمنصب وبريقهما..

ولكن نظرة واحدة إلى لائحة العمل، جعلتني أصاب بهلع شديد، وبعقدة دائمة من كلمة (المدير) هذه، وربما حتى يومنا هذا..

فطبقا لموقعي، ونظرا لأنني الطبيب الوحيد، في دائرة نصف قطرها سبعة جبال ونصف، كنت أتولى (رسميا)، منصب مدير الوحدة الصحية، ومدير الطب الوقائي، ومدير المعامل، ومدير الصيدلية، ومدير مكتب الصحة، ومدير قسم الطب الشرعي، ومدير المخازن، ومدير المبيعات، ومدير المشتروات، و..، و....

ويسعدني هنا أن أتقدم بالشكر لوزارة الصحة (العبقرية)؛ لأنها كانت رحيمة بنا للغاية، فلم تفرض علينا منصب الحانوتي، أو مدير التموين، أو حتى حامل الكوز (شوف الذوق!)..

ومنذ اليوم الأول، بدأ (حجاج) تحركاته..

و (حجاج) هذا لمن نسي، هو جلالة كاتب الوحدة، بكل جبروته وهيمنته، وسيطرته الكاملة على عقول أهل القرية، من صغيرهم إلى كبيرهم..

ففي اليوم الأول للعمل، فوجئت بالسيد (حجاج) يحمل إلى كومة هائلة من الأوراق والملفات والدفاتر، وكلها تحتاج إلى توقيعي، باعتباري مدير كل شيء في الوحدة الصحية..

وكان الموقف مثيرا للشك بالتأكيد، وخاصة لو أخبرتكم ببعض أساليب التحايل، التي يميل إليها (حجاج) ويهواها، ويعتبرها جزءا من تكوينه وشخصيته، وهواية لا تلذ الحياة بدونها.

لذا، فقد رفضت تماما التوقيع على أية ورقة، قبل أن أقرأها وأدرسها جيدا، وأعلم السبب الذي منع صديقي وزميلي الحبيب العزيز السابق، بكل سخائه وكرمه الحاتمي، من التوقيع عليها في حياته.. احم أقصد في أيام احتلاله للمنصب....

ولم يرق هذا للسيد (حجاج) بالطبع مما جعله يقضي اليوم كله، في محاولة لإقناعي بالتوقيع على كل الأوراق، مع وعد منه بشرح مضمونها فيما بعد، وهو يحضر لى العيش والحلاوة في سجن (قنا) العمومي، عندما يصبح هناك الكثير من وقت الفراغ، إثر الانتهاء من الهواية اليومية لتكسير الأحجار في الجبل..

وكان على أحدنا أن ينهار ويعترف، ويستسلم للآخر، ويقبل بوجهة نظره.. ولو أنكم تعاملتم يوما مع (حجاج)؛ لأدركتم أنه من الممتع أن يتسلى المرء بتكسير الأحجار، على أن يضطر للاستماع إلى إلحاحه المستمر، الذي يتوقف لحظة (باستثناء ساعات النوم، والـ.. احم)..

ولكن العجيب أنني احتملت، وواصلت إصراري، وامتنعت عن الشراب والطعام والى.. حتى انهار (حجاج) واعترف بأنها أول مرة يخسر فيها حرب الغلاسة هذه..

وأخذت الأوراق كلها لمراجعتها، ورفضت إعادتها للبك الكاتب، الذي أصر على استعادتها، ما دمت أرفض التوقيع عليها..

وكانت ليلة ليلاء..

وعندما أشرق الصباح، أدركت بكل أسف، أقنى قد ظلمت المسكين (حجاج)..

إنه لم يكن نصابا محتالا كما تصورت..

بل كان شيخ منصر (والمنصر هو العصابة الكبيرة)..

فكل ورقة قدمها لي، كانت تحوي تحايلا، أو تزيينا، أو بيانات خاطئة، أو - وهذا هو الأرجح - قرارا باستقالتي، أو اعترافا بقتل (مارلين مونرو)، و (جون كيندي)، وحتى خط الصعيد..

وفي اليوم التالي، واجهته بكل هذا، وأنا أنتظر منه أن ينهار مرة أخرى، ويعترف اعترافا تفصيلا، ولكنني فوجئت به يهز رأسه في لا مبالاة، ويؤكد في بساطة أنه لم ينتبه إلى هذه

الأخطاء البسيطة غير المقصودة، ثم أمسك الأوراق كلها، ومزقها، وعاد إلى مكتبه، وكأن شيئا لم يكن، وبراءة الذئاب في عينيه..

وهذا ما كان من أمر السيد (حجاج)..

أما أهل القرية، فقد راحت شهامتهم وأخلاقياتهم الطيبة تظهر، فور رحيل الدكتور (محمد)، واحتلالي منصبه، ففي كل مجلس، كانت الشتائم تنهال عليه من كل صوب، ولا حديث للكل إلا عن نذالته، وطمعه، وبخله..

ووجدت نفسي أنكمش في مقعدي صامتا، وأتابع أحاديثهم في ذعر..

صحيح أنني أتفق معهم في تلك الصفات الحسنة، التي أضفوها على الزميل العزيز، إلا أن أسلوبهم هذا جعلني أفقد الثقة بهم وبمشاعرهم، خاصة وأن معظمهم كان كثير الثناء والمديح للدكتور (محمد)، أيام عمله في البلاد..

بل وكان أكثر المتحمسين لسبه ولعن أيامه، هو الشخص نفسه، الذي قدمه لي الدكتور (محمد)، باعتباره أفضل وأقرب أصدقائه في (أبو دياب شرق) كلها..

وفي خيالي، رحت أتصور نفس المجلس، وقد تم استبدالي فيه بالطبيب الذي سيأتي من بعدي، والكل يصفني بالنذالة والطمع والبخل، ويلعن أيام عملي السوداء..

ومن هنا، اتخذت قرارا بعدم السماح بالإساءة إلى سلفي قط، والتصدي لهذا بكل الحزم والذوق والإصرار، حتى يدرك الكل أنها ليست الوسيلة المثلى للتقرب إلى، أو كسب ودي وصداقتي..

والواقع أنه كان لدي سبب آخر خفي وخبيث، لمنع الحديث عن الدكتور (محمد)؛ إذ إن مجرد ذكر اسمه كان يعيد إلى ذهني ذكريات جميلة ممتعة، تكفي لأن تهاجمني كل كوابيس الدنيا، عندما يأتي المساء..

وللسبب نفسه، دعونا نتوقف عن الحديث عنه هنا وهناك، وفي أي مكان من العالم الحر، وغير الحر، والمحلي والمستورد، وحتى عالم المرأة..

المهم أنني قد أصبحت مدير الـ.. والـ.. والـ.. وصرت المسئول عن كل شيء في القرية، وكل الزمام التابع لها.

وكان هذا يضيف إلى عبئا جديدا، إذ إنني، في أيام العز، كنت أعمل للصف الشهر فقط (على نحو غير رسمي)، ويتولى زميلي

النصف الآخر، أما الآن، وبعد أن صرت وحيدا منفردا كان من الطبيعي أن أعمل طوال الوقت، وأن أضطر لأكل (الويكة) والملوخية طوال الشهر، باستثناء ستة أيام كل شهرين، وهي كل الإجازة المتاحة لبؤساء الأطباء أمثالي، وخاصة أولئك الذين يقيمون ويعملون في منتجعات جبلية فاخرة، مثل (أبو دياب ريزورت)..

وفي بطء وحذر، رحت أستكشف حدود منصبي.. احم..

أقصد مناصبي الجديدة، وأراجع ما درسناه عن الإجراءات والإداريات، ما دمت سأقضي فترة طويلة بصحبة الرجل الذئب..

أعني السيد (حجاج)، الذي يحفظ كل هذا، بحكم خبراته الطويلة، التي تزيد على خمسة عشر عاما، معظمها في الوحدة نفسها..

ومع مرور الوقت، أدرك الذئب هذا، ولأنه يهوى اللعبة ويعشقها، فقد راق له ما أفعله، وانتعش لإصراري على القتال، وراح يسن أنيابه، ويبرز مخالبه، استعدادا للجولة الأولى، باعتباري، مهما فعلت، مجرد تلميذ في مدرسة الذئاب الابتدائية المشتركة، التي يعتبر نفسه ناظرها ومديرها، ووزير التربية والاحتيال فيها أيضا..

وكوسيلة لإثبات تفوقه وبراعته، أبدى استياءه ذات يوم من الثلاجة القديمة في مسكني، وأخذ يقنعني بطلب أخرى جديدة، من الإدارة الصحية، باعتبار أن هذا حقي كطبيب مقيم، وراح لثلاثة أيام متوالية يتغزل في الثلاجات الجديدة، التي وصلت إلى مديريات الشئون الصحية بالمحافظة، والتي تعمل بالكهرباء، والغاز، والبطارية، وحتى بالفحم، لو اقتضى الأمر..

وصدقته أنا (توقف عن الضحك،، أرجوك).. وبكل الحماس، أرسلت طلبا رسميا للإدارة الصحية، لتزويدنا بثلاجة جديدة، وحمل (حجاج) الطلب بحماس أكثر إلى (قنا)، وعاد ليؤكد لى أن كل شيء تمام، وأنه قد عاين الثلاجة الجديدة بنفسه، ووجدها رائعة، وأنه يمكننا أن نصنع بوساطتها كل ما لذ وطاب، من الآيس كريم، بكل أنواعه المعروفة في الصعيد.. الذرة، والبطاطا، والطين..

وانتظرت في شغف وصول الثلاجة الجديدة..

وانتظرت..

وانتظرت..

وأخيرا، وبعد أن فاض بي الكيل، سألت (حجاج) بك عن الثلاجة الجديدة، التي تعمل بوسائل متعددة، خاصة وأن الثلاجة القديمة قد صارت تعمل أيضا بوسائل متعددة، في الآونة الأخيرة، فهي تعمل بصعوبة، وبالعافية، وبدعاء الوالدين..

وهنا رأيت ابتسامة الذئب، التي يتحدثون عنها في الروايات..

ابتسامة كبيرة، واسعة، ظافرة، شامتة..

وفي هدوء، هبط (حجاج) إلى مكتبه، وعاد حاملا دفتر المخازن الضخم، وقدمه إلى، قائلا في حزم:

- قم بعمل جرد للمخازن، واتهمني بالاختلاس..

لم أفهم ما يقصده بالضبط، فسألته في حيرة وحذر:

- أفعل ماذا؟

هز كتفيه، اللذين يستند إليهما رأسه، وهو يقول بابتسامة كبيرة:

- أنت مدير المخازن، وأنا أمين المخازن، ولقد تسلمت الثلاجة الجديدة بالفعل، ونقلتها فورا إلى منزلي في (الأقصر)،

والمطلوب منك، حتى تحمى نفسك، وتخلى مسئوليتك، أن تقوم بعمل جرد مفاجئ للمخازن، وتتهمني رسميا باختلاس الثلاجة الجديدة.

ومما يثبت أنني كنت مجرد ذئب في (k.G1)، في مدرسة (حجاج) بك، هو أنني قد حقت في وجهه بدهشة كبيرة، وأنا أهتف:

- ولماذا يا (حجاج)؟! أعد الثلاجة، وسنتجاهل كل هذا، فوجئت به يهتف بسخرية ذئبيه

- أعيدها؟!

ثم راح يقهقه، ويقهقه، ويقهقه، حتى تصورت أنني مهراجا هندي، لا ينقصني سوى الفيل الأبيض، الذي يستبدلون به في الصعيد بالعجل الأبيض (الظروف بيئية خاصة)، قبل أن يقول بكل سخرية الذئاب:

- إنها ثلاجة رائعة، لا مثيل لها في الأسواق، وثمنها، من الناحية الرسمية، لا يزيد على الألف جنيه، وهذا يعني أنه - طبقا للقانون - لا بد أن يقتصر أمر اختلاسها على جزاء إداري، مع خصم الثمن من راتبي، والقانون لا يمنح الحكومة الحق في خصم ما يزيد على ربع المرتب، مهما بلغت كمية الخصومات، وهذا يعني أنني قد حصلت على ثلاجة فريدة، بدون مقدم، وبقسط شهري يساوي صفر، لأن ربع مرتبي يتم خصمه بالفعل، بسبب أمور سابقة، وأنا أعتبره نفقة الحكومة، تأخذه من راتبي، وأخذ أنا في المقابل كل ما يحلو لي من مخازنها.

قلت ذاهلا:

- وماذا عن الجزاء الإداري؟!

مال نحوي، قائلا بلهجة مشفقة، وبأسلوب أستاذ كبير، يلقن تلميذه الصغير درسا جديدا:

- وماذا عنه؟! أنا مجرد كاتب وحدة صحية، في قلب الجبل.. ما الذي يمكن أن يفعلوه بي، أسوأ من هذا؟!

وتعلمت الدرس الأول، على يد (حجاج).. فيدون عقابه رادع، لا يمكنك أن تمنع ارتكاب الجرم أبدا، وأن أكثر ما يغري بمخالفة القانون، هو القانون نفسه، لو أنه لا يعاقب الخطأ على نحو كاف ومناسب وفرس ممتاز، من ذئب مفترس..

ولكنه لم يكن أفضل درس تعلمته، على يد (حجاج)..

ولا أخر درس..

فطوال اثني عشر شهرا، عشتها كمدير للوحدة الصحية في (أبو دياب شرق)، تلقيت من صراعي مع (حجاج) عشرات الدروس، التي أفادتني طوال عمري، في حياتي وعملي..

ولعل أهم هذه الدروس هو ذلك الدرس، الذي تلقيته ذات ليلة، بسبب كلب..

نعم.. كلب..

فالوحدة الصحية، التي أعمل بها، كانت بخلاف كل الوحدات الأخرى، مفتوحة على العالم الخارجي، من قبل حتى أن يسمع العالم بالعولمة، ولكن انفتاحها هذا كان لسبب مختلف تماما، فقد كانت وحدة بلا سور يحيط بها..

ولأنها كذلك، كنا ننعم طوال الوقت بصحبة كل أنواع الحيوانات المعروفة (وأحيانا غير المعروفة)، وعلى رأسها طبعا الكلاب والحمير، وعجل (البوهي). وللأخير قصة عجيبة جدا، سأقصها عليكم فيما بعد..

المهم أنه من بين ضيوفنا (الحيوانات)، كان هناك كلب نحيل أجرب يكرهه السيد (حجاج) بشدة، دون أي سبب واضح أو مفهوم، ويبغض وجوده بغضا لا مثيل له، كما لو أنه كان ينازعه الرضاعة في طفولته..

وذات ليلة، وبينما كنت أجلس في حديقة الوحدة (وحديقة هنا لفظ مجازي تماما، إلا لو اعتبرنا النباتات العشوائية والشوكية زهورا يانعة)، وفوجئت بالأخ (حجاج) يحضر الكثير من الطعام والشراب لذلك الكلب النحيل، ويطرد الكلاب الأخرى، حتى لا تشاركه طعامه، ويحميه منها طوال الوقت..

ولأنني كنت قد انتقلت فقط إلى (K.G.2)، فقد ابتسمت في ارتياح، وسألته:

- هل أنبك ضميرك على كراهيتك السابقة لهذا الكلب المسكين؟!

ابتسم في سخرية، وهو يجيب:

- بل إنني أبغضه أكثر من ذي قبل ألف مرة..

سألته في دهشة:

- ولكنك تختصه بالطعام والشراب، وتحميه من الكلاب الأخرى..

ضحك ضحكته الذئبية الشيطانية، وكأنما يسعده أنني لم أفهم، قبل أن يقول بلهجة أخافتني:

- إنني أفعل هذا، حتى تكرهه الكلاب الأخرى، مثلما أكرهه أنا، بحيث تهاجمه وتوسعة ضربا، فور خروجه من هنا، وهكذا ينعزل وينزوي، ولا يجد الراحة في أي مكان بالأرض..

والواقع أن جوابه هذا قد أصابني بالذعر والهلع..

ألهذا الحد تبلغ طاقة الشر، في نفس أي مخلوق؟!

أيمكن أن يبلغ البغض والكراهية هذا المقدار، دون مبرر أو سبب معقول؟!

ولكنني وعيت الدرس..

لا تسع قط للتميز عن الآخرين، دون كفاءة حقيقية، وإلا لنلت كل غضبهم وبغضهم وكراهيتهم..

وإذا ما أردت أن تبث الكراهية والبغضاء في نفوس الناس، تجاه شخص بعينه، فيكفي أن تقربه إليك، وتختصه بما تمنعه عنهم، وتمنحه امتيازات فائقة دون مبرر.. وبعدها اتركه لهم..

ترى هل استوعبت الدرس بدورك؟!

في الاتجاهين؟!

العجيب، على الرغم من كل هذا، أن علاقتي بـ (حجاج) لم تكن سيئة، كما قد يتصور البعض..

لقد كانت أشبه بالحرب الباردة..

فمع كوننا الوحيدين اللذين يعيشان في المكان، باستثناء الشغالتين (فهيمة) و (رقية)، كان من الطبيعي أن نقضي معظم وقتنا معا.. نتحدث، ونتسامر، ونتبادل الخواطر والأفكار..

وباستثناء أوقات التحايل والخداع، كان (حجاج) صعيديا شهما، كريما، يوليني اهتماما كبيرا، ويقلقه أمر راحتي وطعامي وشرابي، حتى إنني تصورت أن روح الذئب الرضيع في أعماقي قد راقت له، وقرر أن يتبناني، وأن يمنحني كل خبراته الذئبية، من الحضانة إلى الجامعة والحديث عن (حجاج) هذا يحتاج إلى كتاب كامل، إذ كانت شخصيته مركبة معقدة، يمتزج فيها الذئب بالحمل، فلا يمكنك أن تتبين أحدهما من الآخر، في معظم الأحيان..

وهو، في معظم الأحيان يسعى لتحقيق أكبر ربع ممكن، دون أن يسبب سوى أدنى الخسائر للآخرين (فيما عدا الخسائر المادية بالطبع)

ومن أطرف ما كان يفعله (حجاج)، عملية شهادات التسنين

ففي تلك الفترة، من بداية الثمانينات، كانت لعبة السفر إلى بلدان البترول في أوجها، وكل شخص في (مصر) يسعى للسفر، حتى وإن حصل على عمل تافه وبسيط للغاية..

وفي الصعيد، كان كل مخلوق يحلم بوظيفة عامل أجري، في سلة النفط، وحتى يمكنه تحقيق ذلك الحلم العظيم، كان من الضروري أن يسافر..

ولقد فوجئ كل صعيدي بأن السفر يستلزم إجراء متعنتا، لم يستوعب أبدا سر إصرار الدولية عليه..

أن يمتلك جواز سفر..

ومشكلة جواز السفر هي أنه يحتاج في البداية إلى بطاقة شخصية.. والبطاقة الشخصية تحتاج إلى شهادة ميلاد..

وشهادة الميلاد عند النجار، والنجار يريد منشار، والمنشار.. معذرة.. أقصد - باختصار - أنه لم يكن هناك أحد من الكبار يمتلك شهادة ميلاد رسمية، في الصعيد كله..

لذا، كان من الضروري أن يستخرج كل من يرغب في السفر، شهادة تسنين، لتحديد عمره الافتراضي، واستخراج شهادة ميلاد، بناء على ذلك العمر الافتراضي، مما يفسح الطريق أمام استخراج بطاقة شخصية، وجواز سفر، وتذكرة طائرة إلى بلاد النفط..

وكانت فرصة ذهبية للأخ (حجاج)، الذي أوهم الكل أن استخراج شهادة التسنين هذه يحتاج - من الناحية الرسمية – إلى عامين كاملين، وأشاع هذه المعلومة المخيفة في القرية كلها..

ثم أضاف إليها معلومة خفية، تقول: إنه من الممكن اختصار هذه الفترة إلى ستة أشهر، مقابل رشوة مقدارها مائتا جنية..

ولأن الكل يجهل كل شيء عن حقيقة الأمر، فقد تهافت الكل على الشيخ (حجاج)، وكل منهم يدفع الرشوة المطلوبة، لاستخراج شهادة التسنين هذه، في ستة أشهر فحسب..

المدهش والمضحك في هذا الأمر، هو أن الحد الأقصى - رسميا - لاستخراج شهادة التسنين هذه، كان ستة أشهر بالتمام والكمال..

وهذا يعني أن الأخ (حجاج) كان يتقاضى مبالغ الرشوة، ويدسها في جيبه، ثم يترك الأوراق لتأخذ مجراها ودورها الرسمي، دون أن يبذل أدني جهد.. ورزق الهبل..

وعلى الجانب الآخر من شخصيته، فوجئنا ذات يوم بالشرطة تجرى تحريات سرية مكثفة في القرية، ولأنها سرية جدا، فقد

عرفنا أن وريث أحد أبناء (أبو دياب شرق)، والذي يقيم منذ سنوات طوال في (القاهرة)، قد استخرج شهادة وفاة عمه، واتهم أبناء عمه بتزويرها، باعتبار أن العم قد توفي منذ سنوات طوال، وليس منذ عامين فحسب، كما تقول الشهادة المزورة، ثم دل هذا بأن هناك شهادة وفاة أخرى للعم، مستخرجة من سجل مدني (البدرشين)، منذ عشرة أعوام..

ومع معرفة الخبر، بدا (حجاج) متوترا عصبيا، حتى إنني سألته عما إذا كان هو الذي استخرج شهادة الوفاة المزورة، فاعترف لي بصحة ظنوني، ولكنه أكد أنه لا يحمل أية مسئولية قانونية، حيث إن الدكتور (أحمد)، طبيب الوحدة في ذلك الحين، يعد من الناحية القانونية – المسئول رقم واحد، لأنه من المفترض أنه قد فحص الجثة وحدد سبب الوفاة، قبل أن يضع توقيعه على الشهادة..

ولمن لا يعلم، فهذا لا يحدث في معظم قرى الصعيد، أو لم يكن يحدث، أيام كنت أنا هناك..

فالناس في قرى الصعيد لا تعترف كثيرا بالرسميات، لذا فما إن يتوفى أحدهم، حتى يقوموا بدفنه، ويقيموا العزاء (لو لم يكن ضحية عملية ثأر)، ثم يأتون بعد أسبوع أو أسبوعين لاستخراج شهادة الوفاة، وكأنها بطاقة تموين أو شهادة تموين، يمكن استخراجها في أي وقت..

ولأنه من المستحيل أن تغير العادات الموروثة، وخصوصا في منطقة شديدة التحضر كهذه، كان لا بد أن يتكيف الأطباء مع هذه العادة غير الطبيعية، لذا فكلنا هناك نعتمد على التحريات،

بدلا من الكشف الطبي، فتسأل وتتقصى، حتى تعرف أسباب الوفاة المفترضة، ثم تستخرج الشهادة بعدها..

وهذا بالطبع إجراء غير قانوني، وحتى غير منطقي، ويفتح الباب على مصراعيه للخداع، والتمويه، وحتى للجريمة والقتل، ولكن الكل مضطر للسير في هذا الأمر، حتى يمكن تغيير عقول الأخوة الصعايدة، أبناء قرى الوجه القبلي.

ولهذه الأسباب، تورط الطبيب السابق الدكتور (أحمد)، الذي لم ألتق به قط، في شهادة الميلاد المزورة هذه، وصار من المحتمل أن يتورط في جناية تزوير محرر وفاة أيضا، وهي تهمة كفيلة بتدمير مستقبله تماما..

لولا أن اختفى (حجاج) فجأة..

اختفى لثمان وأربعين ساعة فحسب، ثم عاد مبتسما متوردا، رافع الرأس (بمعنى أن درجة ميل رأسه على كتفه أصبحت أقل)، وحضر إلى مسكني، قائلا في ظفر:

- المشكلة انتهت..

سألته في لهفة ودهشة:

- كيف؟!

فوجئت به يناولني الورقة الأصلية، التي تحمل بيانات شهادة الوفاة، من مكتب صحة (البدرشين)، وهو يجيب في زهو..

- لقد التقيت بكاتب صحة (البدرشين)، وأفهمته أننا زميلان، فمزق الورقة من الدفتر الرئيسي، وأعطاني إياها، وهكذا لن تجد الشرطة دليلا رسميا واحدا، يثبت أن الرجل قد مات في (البدرشين) بالفعل..

ولقد أدهشني هذا حينذاك..

وأفزعني..

ألهذا الحد بلغ الاستهتار والفساد والإهمال، في مكاتبنا الحكومية الرسمية؟!

ألهذا الحد بلغت الخسة والضعة؟!

ولكن هذا أيضا كان درسا جديدا..

فالذئاب كلها تتآزر وتتعاون، إذا ما فاحت رائحة الخطر..

على عكس الحملان..

ما إن يظهر الذئب بينها، حتى تتدافع منفردة في كل صوب، ولا همّ للواحد منها سوى أن يفر بجلده وينجو بحياته..

وكما سبق أن أخبرتكم من قبل، كان (حجاج) هذا ذئبا وحملا في آن واحد..

ولوصفه بالحمل هذا حكاية واحدة، لا يمكنني أن أتمالك نفسي من الضحك، كلما تذكرتها، أو جالت بخاطري..

فذات ليلة، وفي أثناء إحدى فترات التوتر وحرب الثأر، بين العرب والهوارة، خرجت مع (حجاج) لزيارة أحد أصدقائي من العرب، وكان هذا يحتم أن نقطع - سيرا على الأقدام – أحد النجوع التابعة للهوارة....

وكنا نحفظ القواعد، الخاصة بتلك الفترات الحربية لا بد أن نرتدي القمصان والسراويل، لنثبت أننا غرباء على القرية، وأن نسير في منتصف الشارع بالضبط، وألا ننحرف يمينا أو يسارا..

ولقد فعلنا هذا في طريق الذهاب، حتى يرانا القناصة، المختبئون فوق أسطح المنازل، وسط الحطب وعيدان القصب، لحماية المكان ورصد أية محاولة للهجوم..

وكانت ليلة لطيفة جدا، قضيناها في منزل صديقي العربي (فتحي)، وتعالت خلالها ضحكاتنا، على الرغم من حالة التوتر التي تسود القرية..

ثم حانت لحظة العودة..

ولأن السهرة كانت ممتعة، فقد نسي الأخ (حجاج) القواعد، وانحرف إلى شجرة على جانب الطريق، ليقضي حاجته، وهنا فوجئنا بانطلاق رصاصات مدفع آلي، تشق سكون الليل، وتضرب الأرض، على مسافة متر واحد منا..

وبكل رعبه وذعره، صرخ (حجاج)، وهو يخرج من خلف الشجرة، رافعا ذراعيه إلى أعلى، ومتقافزا على نحو مضحك:

- أنا (حجاج).. أنا (حجاج)..

توقف إطلاق النيران على الفور، وسار صمت رهيب، دون أن يعلن أحد عن وجوده، أو يعتذر، أو حتى يفتح أي شخص باب أو نافذة منزله..

وبخطوات سريعة، رحنا نبتعد أنا و (حجاج) عن منطقة الخطر، في اتجاه الوحدة التي لاحت من بعيد..

ولأنني كنت أعلم أنه يحتاج بشدة إلى قضاء حاجته، فما إن تجاوزنا دائرة النجع، حتى قلت له:

- لقد خرجنا من نجع الهوارة.. يمكنك أن تقضي حاجتك الان..

انعقد حاجباه، وغمغم في عصبية

- فيما بعد.. فيما بعد..

استوقفته، قائلا:

- ولماذا فيما بعد؟! هذا المكان مناسب..

زمجر في عصبية أكثر، وهو يقول:

- لم تعد هناك ضرورة..

عندئذ فقط، لاحظت ذلك البلل في سرواله، وأدركت أنه لم يعد بحاجة إلى قضاء حاجته بالفعل، وأن الحمل في شخصيته قد برز، بعد أن غرق الذئب..

غرق في شبر من الماء..

أو من الـ..

وربما كان لهذا الحادث أكبر الأثر، في أن أفقد نصف مخاوفي وقلقي تجاه أستاذ الذئاب وذئب الأساتذة (حجاج)، وأنا استثمر ذهني في أمور أخرى في الوحدة الصحية، خاصة وأن سلفي قد ترك خلفه عشرات الأمور المعلقة، التي تحتاج إلى الحسم والبتّ..

وكان هذا يعني أن أبدأ حربا جديدة وعنيفة....

حرب إثبات الذات..

☆ ☆ ☆

مذكرات طبيب
فى صعيد مصر الجوّانى
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

4- صديقي اللص..

.. الحياة في (أبو دياب شرق)، تختلف حتما عن كل أنواع الحياة، التي تعرفونها في وجه بحري.. بل وحتى عن طبيعة الحياة في مدينة (قنا) نفسها..

فعندما تحيا في حضن الجبل، تصبح هناك أبجديات وقواعد جديدة، ونظم لا تنتمي لعالم النظم هناك، ساعات العمل لا ترتبط بما قدرته وحددته الحكومة بقدر ما ترتبط بمزاج الزبون، الذي يتجاهلك تماما، طوال فترة الكشف الرسمية، لأنه منشغل في زراعة حقله وريه، وحصاده، وأكل المش أبو دود فيه، حتى تغيب الشمس ومع مغيبها، يعود إلى منزله العامر، ليشمر ساعديه وينقض على طعامه كالغيلان، دون أن يفكر في التوقف، قبل أن تعلن معدته نفسها الاستسلام (بغض النظر عن طبيعة الطعام نفسه)، وتئن وتتوجع، وتنتفخ بكرش مؤقت..

وهنا يحين موعد النوم والراحة، وأكواب الشاي الأسود الذي قدم بنفسه شكوى باكية، لوزارة التموين، والداخلية، ولجان حقوق الإنسان، اعتراضا على غليه للمرة العاشرة، خلال أسبوع واحد، وفي الوعاء نفسه..

وفي العاشرة، أو الحادية عشرة، أو حتى بعد منتصف الليل، يتذكر فجأة، بلمحة عبقرية مباغتة، أن ابنه مصاب بنزلة شعبية حادة، من الصيف الماضي، وأن الوقت قد حان، لحملة إلى طبيب الوحدة الصحية..

للمسكين..

والمسكين هنا هو أنا طبقا، عندما أستيقظ في الواحدة والنصف صباحا، للكشف على طفل مريض، يتصور، من طول فترة مرضه، أن هذه هي الأعراض الطبيعية للحياة البشرية التقليدية..

وأول ما ينبغي أن تتعلمه، في أعماق الصعيد، هو أن الاعتراض ممنوع، والزعل مرفوع، والرزق على كان الموعد، الذي يأتي فيه المريض، عليك أن تستقبله بابتسامة كبيرة، وهدوء شديد، وأنت تزيل (العماص) من عينيك، وتتثاءب، وتحاول توقيع الكشف عليه بكوز ذرة، متصورا (في الحلم طبعا) أنك أبرع طبيب، في العالم كله.

والأكثر مدعاة لسرور، هو أن والد الطفل المسكين سيعود إلى منزله، حاملا طفله، والتذكرة الطبية التي كتبتها أنت له ليلقيهما معا في أي ركن، وينس الأمر تماما بعدها، باعتبار أن الشفاء من الله (عز وجل)، وليس من الطب والدواء..

أما أنت، فعليك أن تنسى تماما تلك المقولة الحمقاء، التي تشير إلى احتياج كل آدمي لفترة متصلة من النوم، تبلغ ست ساعات في المتوسط؛ لأنك لن تحظى قط بتلك الساعات الست، أو بأي عدد من الساعات المتصلة، في موضوع النوم هذا؛ لأن أي شخص سيأتي من أجل الكشف الطبي، في أي وقت، وأي زمان..

وخاصة عندما يتعلق الأمر بالكشف على امرأة صعيدية هواريه..

بل إن الليل سيرتبط في ذهنك بالعمل، وليس بالنوم والراحة كما هو في واقعه..

ولقد كان هذا يستفزني بشدة في البداية، وكنت أبذل جهدا زائدا، لشرح الأمر لكل زائر ليلى، وإقناعه بأن وجودي الدائم في

المكان، لا يعني أنني أختلف عن أي بشري، في احتياجه للنوم والراحة، و...

وفوجئت بأن هذه النكتة السخيفة تضحكهم بشدة، فكل من أخبره بالأمر ينفجر ضاحكا، ويقهقه، حتى تصورت أنني أكثر وسامة من (إسماعيل ياسين)، ولدى خفة ظل تنافس (حسن البارودي)، وروح مرحة تفوق (أمينة رزق)..

وذات مرة، وبعد أن استفزتني ردود الأفعال هذه، سألت أحد كبار الهوارة عما يضحك الناس، عندما أقول إنني بحاجة للنوم والراحة..

وفوجئت بالرجل يقهقه ضاحكا بدوره، حتى يكاد يستلقي على قفاه، كما تقول روايات ألف ليلة وليلة، إلى الحد الذي كاد يقنعني بتسجيل هذه النكتة، والحصول على حق أداء علني عنها، لولا أن فاجأني هو بالجواب:

- ولماذا تحتاج إلى النوم والراحة يا دكتور؟! إنك تقيم في الوحدة الصحية طوال الوقت.. هل تقضي يومك في الزرع والحرث مثل الآخرين؟!

وعندئذ فقط أدركت المعنى..

الناس تضحك؛ لأن عبقريتهم أنبأتهم بأنه ما دمت لا أعمل في الزرع والحرث والحصاد، فلماذا أحتاج إلى الراحة.. أو حتى إلى النوم من الأساس...

وهم معذورون بالتأكيد في وجهة نظرهم هذه، فباستثنائي وحدي، يتحرك كل من حولهم، وما حولهم، بمنتهى النشاط، من مطلع الشمس، وحتى مغربها..

هم، وزوجاتهم، وأبناؤهم، وبناتهم، وبهائمهم، وحميرهم.

وحتى فئرانهم..

ومن وجهة نظرهم العبقرية هذه، كان الحمار يستحق الراحة في الليل..

أما أنا فلا...

ما علينا.. إنها ليست النظرية العلمية الوحيدة، التي لم تثبت صحتها أبدا..

المهم أنني قد اعتدت، بعد فترة قصيرة، نظرية زائر الليل هذه، وتعايشت معها، وأدمنت الكشف بكوز الذرة..

حتى ظهر (محمود)..

بها و (محمود) هذا صعيدي أيضا، ولكنه في حجم اثنين من الصعايدة، تم دمجهما معا، وإعادة تشكيلهما مرة أخرى.. فهو أطول مني بنصف المتر على الأقل (وأنا لست قزما بالطبع)، وعرضه أقرب إلى عرض باب الوحدة، وملامحه أقل وسامة من ملامح مسخ (فرانكنشتاين) بدرجة واحدة فحسب و...

ثم إنه يحمل على كتفه مدفعًا آليا، يبدو من ضخامته أشبه بالمدافع المضادة للطائرات..

ولقد التقيت بالأخ (محمود) هذا لأول مرة، في الثالثة صباحا، من ليلة حارة كاللهيب، ككل ليالي صيف الصعيد، عندما كنت أستغرق في نوم عميق، ثم قفزت من فراشي مذعورا، على صوت قنابل تتفجر في باب الوحدة..

ثم كشفت بعدها أنها لم تكن قنابل، وإنما كانت دقات رقيقة من كف (محمود)، على الباب..

المهم أنني هرعت إلى الباب، وفتحته، بعد أن طار النوم من عيني، وخيل إلى أن هذه الليلة بالذات شديدة الظلمة، ولم يطلع لها قمر، قبل أن أنتبه إلى أن جسد (محمود)، هو الذي يسد طريقي، ويمنع على ضوء القمر..

وبصوت جميل رقيق، أشبه بصوت عجل مصاب بالتهاب في الحلق، قال الأخ (محمود)، وهو يرمقني بنظرة مفترسة لطيفة:

- تريدك يا دكتور.

سألته بكل الشجاعة (الزائفة طبعا):

- فيم؟!

زمجر، قائلا:

- أحضر كل أدواتك.. هيا.

ولأن الموقف كله لم يكن يشجع على المناقشة، أو الحوار الديموقراطي، فقد أطعت أوامره، وأحضرت حقيبتي الطبية، وركبت البغل الذي أحضره معه، وركب هو بغلته، وانطلق بها، وبغلي يتبعها، وكأنما فقد شخصيته تماما، مثل.. وللا بلاش..

وبعد نصف الساعة تقريبا، والجري وسط الصخور والجبال، وجدت نفسي مع الأخ (محمود)، أمام مجموعة من الأشخاص، كلهم بنفس وسامته، يلتفون حول آخر، مصاب برصاصة في فخذه..

وأشار (محمود) بسبابته، التي هي في حجم يدي كلها تقريبا، إلى المصاب، وهو يقول بصوته الرقيق:

- هيا.. ابدأ عملك.

ولم يكن الأمر يحتاج إلى الكثير من التفكير أو التردد، لذا فقد فتحت حقيبتي، وأخرجت منها أدواتي، وزجاجة كبيرة من صبغة اليود، وعلى ضوء كلوب صغير، بدأت عملي..

لم أكن قد قمت بمثل هذا العمل في حياتي قط، ولكن من حسن الحظ أن الرصاصة كانت مستقرة في الفخذ فقط، ولم تخترق العظام، وأنني كنت أحمل معي مخدرا موضعيا..

المهم أن الأمر قد استغرق منى ساعة واحدة تقريبا، وضعت بعدها الرصاصة في يد (محمود)، وأعدت قلبي إلى موضعه،

واطمأننت إلى أنهم لن يأخذوا ثار زميلهم من جسدي أنا..

وفي السادسة صباحا تقريبا، عدت إلى الوحدة، ودون أن ينطق (محمود) بكلمة واحدة، وضع في يدي رزمة أوراق مالية، ولفافة كبيرة، ثم انصرف على بغلته، وذلك البغل المنعدم الشخصية يتبعهما مستسلما..

ولربع الساعة تقريبا، جلست في المسكن صامتا، لا أصدق ما حدث، وعقلي يدير الأمر على كل الوجوه، ويستعيد كل لحظة منه ألف مرة..

يا له من موقف!

من الواضح أنني قد تورطت مع بعض الخارجين على القانون، أو المطاريد، كما يطلقون عليهم هناك، والذين تطاردهم الشرطة باستمرار، مما يدفعهم إلى استيطان الجبال، والإقامة فيها بصفة دائمة..

وطبقا للقانون، والمنطق والعقل، كان ينبغي أن أبلغ الشرطة عما حدث..

ولكن طبقا للقواعد هنا، كان الأفضل أن أحتفظ بالأمر سرا..

وفي درج المكتب، ألقيت رزمة النقود، واللفافة، دون أن أحاول العدّ أو الفحص، وألقيت جسدي على الفراش، محاولا الحصول على ساعة واحدة من النوم، قبل أن يبدأ عمل الوحدة الصحية.

وفي الصباح، أو بمعنى أدق، بعد ساعتين فقط، بدأت في جمع المعلومات عن الأخ (محمود) الوسيم هذا..

المشكلة الوحيدة التي واجهتني عندئذ، هي أنني لم أكن أمتلك مجموعة كافية من الأجولة، لجمع كل ما حصلت عليه من

معلومات، فقد كشفت فجأة أنه حتى الأطفال في القرية يعرفون هذا الـ (محمود)، فهو قاتل قديم، وزعيم عصابة من المطاريد وقطاع الطرق، ومهرب مخدرات (ما شاء الله) ومدان في عدد من القضايا، وتنتظره أحكام بالسجن لقرن ونصف تقريبا، مع حكمين بالإعدام، وعلى الرغم من هذا، فمنزله في القرية ما زال قائما، وزوجته تواصل إنجاب طفل في السنة على الأقل، منذ هاجر هو إلى الجبل، قبل سبع سنوات..

وهذه الهجرة من الناحية الرسمية فحسب، ولكن الواقع أنه يقضي معظم أيامه في منزله، ومع زوجته وأولاده، ويسير في القرية طوال الوقت، بمدفعه الآلي الضخم، دون أن يعترضه أحد، أو تعلم الشرطة بأمره، باعتبارها آخر من يعلم كالمعتاد..

وبمناسبة الحديث عن الشرطة، لقد ظل ضميري يؤنبني طويلا، قبل أن أحسم أمري، وأقرر إبلاغ صديقي ضابط شرطة المنطقة بما حدث..

وذات يوم، ذهبت إليه في النقطة مباشرة، والتقطت نفسا عميقا، ثم رويت له القصة كلها، قبل أن أقول في اهتمام بالغ، وبلهجة من يلقي سرا خطيرا:

- الشيء المؤكد أنهم يختفون في الجبل..

رمقني هو بنظرة دهشة مستنكرة، وكأنما يهتف في أعماقه:

- (وحياة النبي.. طب ما احنا عارفين)، ثم تراجع في مقعده، وتطلع إلى طويلا، في إشفاق شديد، قبل أن يعتدل مرة أخرى، قائلا في حزم:

- هل تريد رأيي الرسمي، أم رأي صديق؟!

أجبته بسرعة:

- رأي الصديق بالطبع..

تنهد، قائلا:

- انس الأمر كله إذن، ولا تفتح على نفسك أبواب الجحيم.

ولأن نصيحته صادفت هوى في نفسي كما يقولون، فقد اقتنعت بها على الفور، وقررت نقلها إلى خانة التنفيذ فورا..

وعند عودتي إلى الوحدة، فتحت درج المكتب، من باب الفضول، لمعرفة ما أعطاني إياه (محمود)..

وكانت مفاجأة حقيقية..

صحيح أنه قد أعطاني مائتى جنيه، وهو ما يفوق إيراد أسبوع كامل، في ذلك الوقت، ولكن هذا لم يكن سبب المفاجأة، وإنما كانت المفاجأة الحقيقية في محتوى تلك اللفافة، التي صاحبت المبلغ، وربما تكون هناك مفاجأة أخرى لكم، إذا ما علمتم أنني..

لم أتعرف هذا المحتوى، إلا بعد أن عرضته على (حجاج)..

فقد كانت اللفافة تحوي طربة حشيش كاملة، يكفي حجمها لإلقاء القبض على بتهمة الاتجار في المخدرات..

كانت هذه هدية إضافية من (محمود) لقاء ما بذلت من جهد، في علاج عضو عصابته..

ولأنني لم أرتبط يوما بأي نوع من المخدرات (حتى لحظة كتابة هذه السطور) فقد تجاهلت توسلات وتضرعات ومحاولات (حجاج)، وقمت بالتخلص من الكمية كلها، وبوسيلة انفطر لها قلب الأخ (حجاج)، الذي أعتقد أنه فكر جديا يومها، في

استئجار قاتل محترف، (ليلبد) لي في الذرة، جزاء ما أهدرته من خيرات، على حد قوله..

الشيء الذي لم أتصوره قط، أيامها، هو أن (محمود) قد اعتبرني، ومنذ تلك اللحظة، الطبيب الخاص له ولعصابته.

وخلال الأشهر التالية، كان من المعتاد، كلما سمعنا عن حملة من حملات الشرطة، أن يأتي (محمود) بالبغل والبغلة بعد منتصف الليل، ليحملني مع حقيبة الأدوات الطبية، في رحلة طبية سياحية، على حساب (مطاريد تورز)..

وفي كل مرة كنت أعالج إصابة محدودة، أو أخرج رصاصة من ذراع أو كتف..

وفي كل مرة أيضا، كنت أحصل على الجنيهات المائتين، ولفافة الحشيش، التي ينفطر قلب (حجاج) لمصيرها، وهو يدعو الله (سبحانه وتعالى) أن يرفع الأذى عن (محمود) وعصابته، حتى يرتاح هو من العذاب..

ولكن دوام الحال من المحال..

لذا فقد كان من المحتم أن ينتهي شهر العسل، بيني وبين صديقي اللص، وأن تحين لحظة المواجهة العنيفة، دون مقدمات..

فذات ليلة ليلاء، دق (محمود) بابي، في الواحدة والنصف صباحا، بدقات كفة الهادئة، التي أيقظت بعض النائمين في (الإسكندرية)، وعندما فتحت الباب، رأيت وجهه متجهما متوترا، على نحو لم أعهده فيه من قبل، وهو يطالبني بإحضار كل الأدوات اللازمة، والتحرك معه على وجه السرعة.

وحملني البغل التقليدي خلف بغلة (محمود)، ورحنا نتوغل هذه المرة في دروب أكثر تعقيدا، وعبر مناطق لم أعهدها من قبل، ولفترة أطول من المعتاد، ثم راح (محمود) يتسلق جبلا وعرا، وهو يحمل حقيبتي الطبية، وأنا أتسلق خلفه، محاولا استعادة كل مشاهد الأفلام القديمة، التي تتحدث عن رياضة تسلق الجبال، إلا أن ذاكرتي السخيفة لم تسعفني إلا بكل مشاهد السقوط الرهيبة من الجبال..

ومن حسن الحظ أننا قد بلغا مغارة كبيرة، قبل أن تنتقل الذاكرة إلى العضلات نفسها، وتتحول إلى حقيقة مؤسفة..

وبوساطة كلوب صغير، سرنا - (محمود) وأنا - داخل تلك المغارة، حتى لاح لنا ضوء كبير، عبر منعطف قريب، لم نكد ندور فيه، حتى وجدت نفسي داخل تجويف كبير، يقف فيه كل رجال العصابة، فيما عدا واحدا، يرقد أرضا، في غيبوبة تامة، وجلبابه غارق في الدم..

وبنفس الأسلوب الصارم الجاف، قال (محمود)، وهو يشير إلى الراقد:

- هيا.. قم بعملك..

كشفت جلباب الرجل، وحدّقت في موضع الإصابة بارتياع، قبل أن أهتف:

- ولكن هذا مستحيل!

شعرت، فور خروج العبارة من حلقي، أنني قد نطقت كفرا..

فقد توتر الكل بشدة، وتبادلوا نظرة غاضبة شرسة، قبل أن يسألني (محمود):

- لماذا؟!

قلت في توتر:

- هذا الرجل مصاب برصاصة أسفل صرته، وهذا يعني أنها قد اخترقت الغشاء البريتوني، وربما مزقت المعدة أو الأمعاء، أو المثانة، وهو يحتاج إلى عملية جراحية كاملة، تحت تعقيم كامل، وبوساطة مخدر عام، والأدوات التي أحملها غير مناسبة، وكذلك المكان.. لا بد من نقل الرجل إلى المستشفى فورا.. على الأقل ليحصل على بعض الدم؛ لتعويض كل ما فقده..

تبادلوا نظرة صامتة أخرى، ثم قال (محمود) في خشونة:

- اطرح فكرة المستشفى هذه عن ذهنك.. أنت ستقوم بالعمل هنا.. وحدك..

هتفت مرة أخرى:

- مستحيل!

زمجر في شراسة، وتحسس مدفعه الآلي في مغزى واضع، وهو يقول:

- قم بعملك يا دكتور.

كان أسخف وأصعب موقف واجهته، في حياتي كلها، فرحت أتطلع مرة أخرى إلى الرجل، وأنا أقول في عصبية:

- سيلقى حتفه..

أجابني أحدهم في غلظة:

- هذا قدره..

وقال آخر:

- إنه ميت على أي حال.

أما (محمود) فقال بخشونة أكثر:

- قم أنت بعملك، واترك الباقي لله (سبحانه وتعالى).

وأسقط في يدي تماما..

إجراء عملية جراحية كهذه، في ظروف ميكروبية مائة في المائة، أشبه بعملية قتل عمد، مع سبق الإصرار والترصد، أما عدم إجرائها، فهو حكم بالإعدام..

باختصار، كان الموقف يحتم وجود قتيل، إما الراقد على الأرض، أو كاتب هذه السطور..

فماذا تفعل لو كنت مكاني؟؟

بالضبط.. أنا أيضا فعلت نفس ما قلته أنت، وقررت إجراء العملية، مهما كان الثمن..

المهم أن أخرج من هذه المغارة بسلام، كما فعل (على بابا)، وليس على الأعناق، كما حدث لأخيه (قاسم)..

مع وضع حتمية موت الرجل في الاعتبار، جعلتهم ينزعون ثيابه، وصبغت بطنه كلها بصبغة اليود، دون أي مخدر عام، اعتمادا على أنه فاقد الوعي بالفعل، وراح عقلي يسترجع كل المعلومات التشريحية والطبية، التي لم تكن ذاكرتي قد أهملتها بعد، وأنا أمسك المشرط، وأستعيذ بالله (سبحانه وتعالى) من الشيطان الرجيم، وأدعوه بالرحمة وأناشده العفو والعناية، ثم بدأت العمل..

كانت الرصاصة قد اخترقت المثانة بالفعل، صانعة في مقدمتها ثقبا مثاليا، منسقا بما يكفي، لدس الجفت الجراحي داخلها، والبحث عن الرصاصة..

ومن المؤكد أنني لا أذكر الآن كيف ارتكبت هذه الحماقة الحتمية، ولكن كل ما أذكره هو أنني لم أكن أحمل أية خيوط جراحية داخلية، من تلك المصنوعة من أمعاء القطط المجففة والمعالجة بحيث تذوب وحدها داخل الجسد، وإنما كان كل ما أجمله من الخيوط الجراحية الحريرية، التي تستخدم خارجيا فحسب..

ولكن هذا لم يشغلني حينذاك، فالرجل - من وجهة النظر الطبية البحتة - ميت لا محالة، ففيم سيؤلمه أو يؤذيه وجود خيوط غير صحيحة، في غشائه البريتوني أو مثانته؟!

يكفيه أطنان الغبار والميكروبات، التي ستملأ بطنه، من المكان المعقم الأنيق، الذي أجري فيه العملية..

ولقد استغرق الأمر هذه المرة ما يقرب من ثلاث ساعات كاملة، أظنني فقدت خلالها ثلاثة كيلوجرامات على الأقل، ولكنني في النهاية أغلقت الجرح، وصبغته كله مرة أخرى بصبغة اليود، ثم أحطت وسط الرجل بثلاث لفافات من الشاش، مع ربطة كاملة من القطن، قبل أن يسألني (محمود) في اهتمام:

- هل سيحيا؟

أجبته بمنتهى الثقة والحزم:

- كلا بالطبع.

وجم الكل لجوابي، وتبادلوا نظرة صامتة متوترة، ثم قال (محمود) في صرامة:

- هيا بنا.

اصطحبني إلى الوحدة، في ضوء النهار، ووصلناها قبل السابعة بقليل، فأعطيت (محمود)، من باب المجاملة، بعض الأدوية والمضادات الحيوية، مع وصف لكيفية استخدامها، لو فتح المصاب عينيه، ليقول وصيته الأخيرة..

وأخذ (محمود) الأدوية، وانصرف دون كلمة واحدة، ودون أن يمنحني شيئا كعادته، على نحو جعلني أفهم الرسالة جيدا...

إنه ينتظر النتائج..

ولم يغمض لي جفن ليومين تاليين، وأنا أفكر في هلع..

الرجل سيموت حتما، طبقا لكل القواعد والأعراف العلمية والطبية، فكيف سيكون موقف (محمود) ورجاله عندئذ؟!

هل سينفجر غضبهم، ويطالبون بالثأر من قاتله، الذي هو أنا طبعا، أم أنهم سيكتفون بطردي من البلدة كلها؟!

شغلني الأمر، واستحوذ على تفكيري تماما، طوال ما يزيد على الأسبوع، خاصة وأن (محمود) قد اختفى على نحو عجيب، ولم يعد يظهر في أي مكان..

ثم رويدا رويدا، راح توتري يخفت، حتى تلاشي تماما، بعد مرور أسبوعين كاملين، باعتبار أن الرجل مات حتما خلال ساعات، وليس هناك مبرر لانتظار الثأر طوال كل هذه الفترة..

ولكن فجأة، وفي الثانية والنصف صباحا، تفجرت كف (محمود) على باب مسكني كالمعتاد..

وفي هذه المرة كنت أرتجف حتما (من فرط الشجاعة)، وأنا أسأله في حذر:

- خيرا.

أجابني بلهجة جافة كعادته:

- نريدك معنا.

قلت في توتر:

- فليكن.. سأرتدي ثيابي، وأحضر حقيبتي، و..

قاطعني بنفس اللهجة الجافة:

- لا داعي للحقيبة..

وهنا سقط قلبي بين قدمي.

لا داعي للحقيبة؟!

ما الذي يعنيه هذا؟!

إنهم لا يحتاجون إلى أي تدخل طبي.. فلماذا يريدونني معهم؟!

ارتديت ملابسي في يأس واستسلام، وركبت ذلك البغل، الذي حسدته هذه المرة على انعدام شخصيته وانقياديته، وهو يعدو في سلبية خلف البغلة، التي تقوده في كل مرة، والتي من المؤكد أنها ستقنعه مستقبلا بالأكل من شجرة التين، حتى يطرد من جنة البغال (أعتقد أنها قارة أستراليا، تبعا لما نصف به البغل دوما)..

وفي تلك المرة أيضا رحنا نسير عبر الطرق الصعبة، والدروب الوعرة المعقدة، لفترات طويلة، قبل أن تصل إلى ذلك الجبل، ونتسلقه، ثم ندخل المغارة..

كان الكل يجلس، في أضواء الكلوبات، وما إن رأونا حتى نهضوا لاستقبالنا، وصافحوني جميعهم، ووجوههم تحمل ابتسامة، بدت لي - وقتها - أشبه بابتسامة الذئب، وهو يستقبل الحمل العبيط، الذي جاء بقدميه إلى وكره..

وجلست بينهم صامتا، وقد خلت عروقي من كل قطرة دم، وزاغت عيناي كالمخبولين، وهما تحدقان في المدافع الآلية، التي ستنطلق لها بعد قليل في صدري..

ثم فجأة، ظهرت النسوة، وهن يحملن صواني الطعام..

وهنا، هوى قلبي بين قدمي..

إنني أعرف هذا الأسلوب جيدا..

أسلوب الوجبة الفاخرة، التي تقدم للمحكوم عليه بالإعدام، قبل تنفيذ الحكم مباشرة..

والوجبة التي أمامي، كانت تحوي بعض الدجاج، والبط، والحمام المحشو، إلى جانب (هُبر) اللحم، والويكة والملوخية بالطبع..

وما إن دعاني (محمود) لتناول الطعام، حتى قفز لساني من حلقي الجاف، وأنا ألقي سؤالا واحدا، لتحديد مصيري النهائي:

- كيف حال مريضنا إذن؟!

ابتسم الكل، وأحدهم يقول:

- في خير حال.. أنت رجل بركة.

هتفت بكل دهشة الدنيا:

- هل عاش؟!

قهقهوا ضاحكين، قبل أن يقول أحدهم:

- سلامة الرؤية يا دكتور.. إنه يجلس إلى جوارك مباشرة..

وهنا تحولت دهشتي، ومشاعري كلها، إلى ذهول..

ذهول بلا حدود، وأنا أحدق في وجه الرجل الجالس إلى جواري، وكأنما أحدق في وجه شبح...

إنه هو!!

كيف لم أتعرفه في البداية؟!

إنه نفس المصاب، الذي أجريت له عملية، تخالف كل القواعد الطبية المعروفة، من أيام (حورس)..

وهو حي، يرزق.. ويبتسم أيضا!!

وبكل ذهولي، هتفت به:

- أهو أنت؟!

أومأ برأسه إيجابا، بابتسامة تلتهم وجهه كله، وهو يقول:

- البركة فيك، بعد الله (سبحانه وتعالى)..

سألته ذاهلا مبهوتا:

- أنت على ما يرام؟! أعني هل تتبول بصورة عادية، ولا تعاني من آلام مبرحة، أو مغص مستمر، أو...

قاطعني بنفس الابتسامة البلهاء:

- البركة فيك..

مذكرات طبيبة

كان المفترض أن يزيل هذا كل توتري وهلعي، إلا أن مشاعري كلها كانت تلتهب بفضول ذاهل، أمام تلك المعجزة الطبية، على أي مقياس..

أمور كثيرة كان ينبغي أن تحدث، عندما أجريت العملية للرجل، ولكنها لم تنفذ إطلاقا..

خيوط الجراحة الداخلية..

القسطرة البولية..

التعقيم الكامل..

الأدوات المناسبة..

بل والمدهش أنه لم يتناول الأدوية والمضادات الحيوية أيضا..

ولم يغير الشاش والقطن مرة واحدة..

وعلى الرغم من كل هذا، كان جرحه الخارجي مندملا نظيفا، سقطت معظم غرزه من تلقاء نفسها، على نحو لا يحدث حتى

للمرضى الموصي عليهم، في أفضل المستشفيات الاستثمارية الآن..

وهذا يؤكد أن هؤلاء البسطاء دائما على حق..

الشفاء من الله (سبحانه وتعالى) وحده..

ودون أية أسباب، سوى رغبته (عز وجل)..

المهم أنني، وأمام هذه المعجزة، استعدت مرحي وحيويتي، وأقبلت على الطعام بشراهة كبيرة، حتى إنني أحببت الويكة والملوخية (تصوروا)..

وعندما أعادني (محمود) إلى الوحدة في الصباح، منحنى رزمة أوراق نقدية ضخمة، مع ابتسامة عريضة جدا، وهو يغمز بعينه، قائلا:

- (حجاج) أخبرني أنك لا تتعاطى المخدرات، لذا فهي من نصيبه هو هذه المرة..

يا للخبيث (حجاج) هذا؟!

لا يضيع فرصة للربح والاستفادة قط..

ولكن هذا لا يهم، فالمهم أنني قد خرجت من هذه الأزمة بسلام، وأصبحت صديقا مقربا للأخ (محمود)، الذي أسبغ عليّ حمايته ورعايته، طوال فترة عملي في الصعيد بعدها..

ولقد عرف الكل هذا بالطبع، وأدركوا أنني أصبحت أختلف عن كل طبيب عمل في هذه الوحدة من قبل..

ولكن حتى هذه الحماية البريطانية، التي أسبغها على صديقي اللص، لم تكن تعني أن الحياة في الصعيد الجواني قد أصبحت قطعة من الجنة..

فما زالت هناك مشكلات أخرى، ومخلوقات أخرى، لا يملك أي بشرى السيطرة عليها أو منعها هناك..

مخلوقات صغيرة..

وقاتلة..

وفي هذا الشأن كانت لي تجارب عديدة..

ورهيبة.

☆ ☆ ☆

مذكرات طبيب

فى صعيد مصر الجوّانى

المؤسسة العربية الحديثة

5- أعداء صغار..

الحياة في حضن الجبل، في صعيد (مصر)، لها طابع خاص جدا...

طابع يتميز بالخشونة، والقساوة، والحرارة الشديدة، و....

والخطر...

والخطر هنا لا يكمن في المطاريد، أو حروب الثأر، أو حتى في عقول إخواننا الصعايدة، وإنما يكمن أيضا في زوار غير مرغوب فيهم، اعتادوا التجوال في كل مكان، بمنتهى الحرية، لمباغتتك في أية لحظة، دون دعوة، أو سابق إنذار..

ولأنني أقمت هناك، في حضن الجبل، لما يقرب من العامين، كان من الطبيعي أن أحظى بزيارة هؤلاء الأعداء الصغار..

العقارب بألوانها، والثعابين والأفاعي بأحجامها المختلفة..

وقبل أن يصيبكم الذعر والفزع، دعوني أذكركم بأن هذا أمرا عادي للغاية في حضن جبل الصعيد، والناس تتعايش معه باستسلام تام، وتقبل عجيب، بل ويتخذه البعض لعبة أيضا..

نعم.. لعبة.. إنك لم تخطئ قراءة الكلمة..

ودعني أرو لك قصتين سمعتهما بأذني هناك، لتدرك ما أعنيه..

فذات يوم، وبينما كان صديقي العزيز الدكتور (محمد حجازي) في زيارتي، في الوحدة الصحية في حضن الجبل (وهذا ليس تشكيكا في قواه العقلية)، سأل أحد الإخوة الصعايدة، في مجلس هادئ، عن العقارب التي تنتشر في جبال الصعيد، وقال: إنه لم ير عقربنا واحدا، منذ وصل إلى..

وببساطة شديدة، انحني أحدهم يرفع حجرا، تحت قدم الدكتور (حجازي)، بحثا عن عقرب، ليريه إياه..

ومنذ ذلك اليوم، وحتى عاد الدكتور (حجازي)

إلى موطنه الأصلي، في شمال البلاد، لم يضع قدمه على أرض الصعيد، ما دام في المكان حجر واحد مقلوب..

الطريف أنه عندما انزعج هو لما حدث، انطلق الجميع يضحكون، وكأنما لا يصح له أن يخشى العقارب السامة القاتلة. ثم روى أحدهم أنه أراد يوما مداعبة أمه، فاصطاد عقربا أسود (وهو أشد العقارب خطورة وسمية)، وقطع ذيله، ثم وضعه في راحته، وصافح أمه في حرارة، تاركا العقرب في كفها، فقفزت مذعورة، وفقدت وعيها (المسكينة)..

ولقد انفجر الجميع ضاحكين، لطرافة الدعابة، في حين فغرت أنا وصديقي الدكتور (حجازي) فاهينا، ونحن نحدق فيهم بدهشة مستنكرة..

وأعتقد أننا، في الليلة نفسها، وضفا أول صفحة، في بحث طويل، عنوانه:

«لماذا يطلقون النكات على الصعايدة»..

القصة الثانية هي أنه ذات يوم، جاء اثنان من شباب الصعايدة الأصدقاء لزيارتي، وهما يقهقهان ضاحكين، وأحدهما يحمل كيسا من القماش، وعندما سألتهما عما يضحكهما، أخبرني أحدهما أنهما قد لمحا ثعبانا بالقرب من الطريق، فوضعا خطة لاصطياده، وتسلل أحدهما ليجذب ذيل الثعبان، وعندما رفع الثعبان المسكين رأسه ليهاجم من جذب ذيله، عاجلة الشاب الثاني بضربة على رأسه بهراوته، فقتله فورا..

وفي نهاية القصة، أفرغ الشاب محتويات الكيس القماش الذي يحمله، على سطح مكتبي، فإذا به الثعبان الصريع..

ولثوان حدقت في الثعبان بمنتهى الرعب، على الرغم من أنه ميت، وأنا أتساءل: كيف سعي هذان الشابان لاصطياده، وهو يجلس في حالة؟!

هه... صعايدة!!

السؤال الآن هو ماذا ستفعل أنت، لو التقيت بثعبان في الطريق؟!

هيا.. قف.. لا داعي للجري الآن.. إنه مجرد افتراض..

واستعد للخبر المدهش..

أنا التقيت به في فراشي، داخل الوحدة الصحية..

كانت ليلة باردة كالثلج، من الليالي التي تنعكس فيها الرياح عن الجبال المحيطة، لتصبه على البلدة، فتجعلها أشبه بالثلاجة..

في تلك الليلة أويت إلى فراشي في العاشرة مساء، وأنا أدعو الله ألا يأتيني زائر من زوار الفجر، الذين انتبهوا فجأة إلى أن أحد أبنائهم يختنق، منذ سبعة أشهر وبدت لهم الحالة عاجلة مستعجلة، تحتاج إلى إيقاظ الطبيب فورا، قبل مرور عشرة أشهر أخرى خشية أن يختنق الابن بجد..

ومن المؤكد أنني قد غرقت في النوم فورا، ورحت أحلم أحلاما صعيدية غير مفهومة، حتى شعرت فجأة بجسم دافئ يلتصق بي..

ولأنني غارق في النوم، ولأنني أيضا معتاد أن يدس قطي الصغير (بلبل) نفسه في فراشي، في ليالي (طنطا) الباردة، فقد توهمت

أنني راقد في فراش مدينتي، وأن هذا قطي، فأفسحت له مكانا، وواصلت نومي، وأنا أشعر بدفء جسده إلى جواري..

ولسبب ما، فتحت عيني فجأة..

ورأيت نفسي داخل حجرة الوحدة الصحية..

عندئذ فقط، أدركت حقيقة الموقف، وأنني في (قنا)، ولست في (طنطا)..

وهنا، اتسعت عيناي في رعب، وخفضتهما في حذر لأنظر إلى ذلك النائم إلى جواري، فوق الغطاء، والذي يشع دفئا عجيبا..

ورأيته..

ثعبان كبير لطيف، تكور على نفسه على نحو شديد الانتظام، ودفن رأسه وسط جسده الملتف على نفسه..

وراح أيضا في سبات عميق، وكأنه يرقد على فراش أبيه..

ولدقيقة كاملة أو يزيد، لم أنبس ببنت شفة، ولم أتنفس أيضا على الأرجح، وأنا أفكر في هذا الموقف، وفي كيفية الخلاص منه..

ولم يكن هناك سوى حل واحد..

وببطء وحذر زائدين، رفعت الغطاء عن جسدي، وعيني بجسد ذلك الثعبان النائم، ثم فجأة، ألقيت الغطاء فوقه، وقفزت من الفراش، وأنا أعدو بسرعة مائة كيلومتر في الدقيقة، حتى أصبحت في نهاية الصالة، حيث عصا غليظة طويلة، أهداها أحد الأصدقاء الدكتور (محمد)، طبيب الوحدة السابق، اختطفتها، وعدت إلى الحجرة (شوف الجنان) ورأيت صديقنا

الثعبان يجاهد للخروج من الغطاء، الذي التفّ حوله، فهويت عليه بالعصا الغليظة مرة.. ومرة.. ومرات..

لست أدري بالضبط كم مرة هويت بها عليه، ولكنني لم أتوقف، حتى همدت حركته تماما، وظهرت بقعة صغيرة من الدم على الغطاء..

ولثوان، توقفت عن الضرب، وأنا ألهث بشدة، وأحدق في الفراش، ثم لم ألبث أن قررت مواصلة الضرب للأمان فهويت على الثعبان بسبعمائة أو ثمانمائة ضربة تأكيدية، قبل أن أتوقف بسبب التعب والإجهاد..

وبعد ساعة تقريبا، وكان الفجر يلقي أضواءه الأولى على السماء، حملت الغطاء بالقتيل، وألقيتهما من الشرفة، عند أقدام حارس الوحدة، الذي فوجئ بما حدث، فسألني في دهشة حائرة عن سر ما أفعله

وهنا، تقمصت شخصية (طرزان)، الذي لا يهاب كل وحوش الأدغال، وأخبرته بكل ثقة وتعال أنه مجرد ثعبان، وجدته في فراشي، فقتلته..

هكذا، بكل بساطة، وكأنني صعيدي ابن صعيدي..

المشكلة التي حدثت بعد هذا، هي أن الكل أخبرني أن وليفة الثعبان تصرّ دوما على الثأر له، وأنها تسعى للبحث عن قاتله، حتى آخر عمرها..

لذا فقد قام العمال بتنظيف الوحدة كلها في اليوم التالي، وتفتيش كل شبر منها، ثم حرصت أنا بعدها على إغلاق النوافذ والأبواب بمنتهى الإحكام، والنوم بعين ونصف، خشية أن تأتي الوليفة، ويحدث ما لا تحمد عقباه، ورحت أمني نفسي بأنه من

المحتمل أن أكون قد قتلت الوليفة، والذكر نذل لن يأتي للثأر طبعا هذا ما كان من أمر الثعابين..

أما العقارب فلى معها قصتان..

وهذا طبعا بالإضافة إلى عشرات القصص، التي عشتها لحظة فلحظة، كطبيب الوحدة الصحية، وحامل المصل المضاد للعقارب، الذي تمتلئ به مخازن وثلاجات كل الوحدات الصحية في ريف الصعيد..

لقد شاهد عشرات أنقذهم المصل المضاد لسم العقارب..

وعشرات آخرين اختطفهم الموت بلا رحمة، على الرغم من المصل والرعاية الطبية..

ولقد سمعنا أيامها عن زميل لنا، كان يخشى العقارب بشدة، حتى إنه كان يفحص حذاءه قبل أن يرتديه، ويفتش حجرة نومه كل يوم، ويعلق زمزمية مياه بحبل في السقف، حتى يضمن بعدها عن العقارب، وعلى الرغم من هذا، فقد التقط زمزميته يوما ليشرب، فخرج منها عقرب أسود صغير، لدغه في شفته العليا، وهرب....

ومات الزميل المسكين من شدة الرعب والفزع، قبل حتى أن يحقن نفسه بالمصل..

هذه القصة سمعناها جميعا هناك، وجعلتنا ندرك أن العقارب شيء بغيض، ينبغي الحرص كل الحرص منه..

ولكن الحذر لا يمنع القدر..

هذا ما تعلمته ووعيته جيدا هناك..

فذات يوم، وعلى الرغم من كل ما اتخذت من احتياطات، كنت أحضر بعض الأدوية من صيدلية الوحدة، عندما شعرت في البداية، شعرت بخدر عجيب يسرى في ساقي، حتى أسفل ركبتي، وتصورت أنه لن يلبث أن يمتد إلى جسدي كله، إلا أنه راح ينسحب في سرعة، حتى تلاشي تماما، وتعافيت بسرعة..

بألم مباغت في قدمي، وشاهدت عقربا أحمر اللون يعدو مبتعدا..

وبسرعة، سحقت العقرب بقدمي، ثم هرعت إلى ثلاجة الوحدة، وحقنت نفسي بالمصل فورا..

هذه التجربة جعلتني أفقد الخوف المرضى من العقارب، وأكتسب ثقة كبيرة في المصل المضاد لسمومها..

ولكن المشكلة أن المصل لا يتوافر دوما بالوحدة؛ ففي بعض الأحيان ينفد المصل بسبب النشاط الزائد للعقارب، مع ارتفاع الحرارة، ونقضي يوما أو نصف اليوم، قبل أن تصلنا الطلبية الجديدة منه..

وذات ليلة شديدة الحرارة، كنا في انتظار وصول المصل، عندما تم استدعائي لرؤية حالة عاجلة، في نجع مجاور..

كان منزلا صغيرا، شبه مظلم، لا يضيئه سوى مصباح زيتي صغير، والمريض يرقد على فراش من الطوب اللبني، وعليه غطاء ثقيل (لست أدري كيف)، والعرق يغمر جسده، من فرط الحمى، والحرارة والغطاء..

وقمت بتوقيع الكشف المعتاد على المريض، ثم سحبت الغطاء؛ لأستمع إلى نبضات قلبه، عندئذ فوجئت بعقرب صغير، يقفز من الغطاء ويسقط على قدمي، ويلسعني لسعة قوية مؤلمة في كعبي..

يا للنصيب! العقرب يرقد في حضن الرجل، ليلسعني أنا بالتحديد!!

المشكلة أنني كنت على مسافة كبيرة من الوحدة، ومن أقرب مركز للإسعاف، كما أن الوحدة كانت تخلو تماما من المصل المضاد لسموم العقارب..

وكان هذا يعني مصيرا واحدا، شاهدته بنفسي أكثر من مائة مرة..

الموت..

ولكن أصحاب الدار بدوا هادئين للغاية، وهذا أمر طبيعي؛ لأنها حياتي وليست حياتهم، ثم أرسلوا في طلب الحاوي.

والحاوي هنا ليس هو ذلك الذي نراه في الموالد، والذي يخرج المناديل من أنفه، والبيض من فمه.. إنه شخص آخر تماما، مهمته التعامل مع سم الثعابين والعقارب.. ولكن الرجل جاء..

وبحكم مهنتي ودراستي كطبيب، كنت أستنكر بالطبع مثل هذه المهنة، وأعتبرها نوعا من الدجل والشعوذة، مما جعلني عصبيا متوترا، كأي شخص مقدم على موت محتوم..

رجل في حوالي الستين من عمره، من قبائل بدو العرب، هادئ ووقور جدا.. قام بفحص موضع الإصابة في بساطة.. ثم ربط ساقي بقوة، أسفل ركبتي تماما، وطلب إحضار وعاء به ماء ساخن جدا، وأذاب فيه ما يقرب من ثلاثة كيلوجرامات من الملح العادي، ووضع قدمي في الوعاء (ليسلقها) على الأرجح، ثم راح يتلو عبارات عجيبة غير مفهومة، وهو يجرح موقع اللسعة بموس جديد، ويفصد دمى في الوعاء الساخن، وأصابتني دهشة عجيبة في البداية، خاصة وأن الخدر راح ينسحب من قدمي بمنتهى الهدوء والسرعة.

تماما كما فعل المصل من قبل..

ثم فجأة، انتبهت إلى أن الأمر علمي تماما..

الماء الساخن جدا سيؤدي إلى تمدد الأوعية الدموية، والرباط أسفل الركبة سيحصر الأمر في منطقة الساق، والجرح الصغير سيحدث اتصالا مباشرا، بين الدم والماء الساخن، الذي يحوي كمية ضخمة من الملح، ترفع ضغط الأسموزي، إلى الحد الذي يكفي لسحب كل السموم من ساقي، اعتمادا على النظرية العلمية، التي تؤكد انتقال السوائل، من الوسط الأقل تركيزا، إلى الوسط الأعلى تركيزا..

إذن فهؤلاء البسطاء يستخدمون قواعد علمية سليمة، انتجت حتما عن دراسة قديمة، أو خبرات نمت بانتقالها من جيل إلى جيل..

أما المهمة والكلمات العجيبة، فهي مجرد خزعبلات لإضفاء جو من القدسية والرهبة على العملية كلها..

والواقع أن هذا الموقف قد جذب انتباهي إلى جزء آخر من حياة جبال الصعيد، لم أكن قد انتبهت إلى وجوده من قبل إلى البدو، بعالمهم الغامض والمثير، والزاخر بعشرات الأسرار والمبهرات..

ولأنني فضولي (وغلس) بطبعي، فقد قررت الغوص في هذا العالم، والبحث عما يعرفه هؤلاء البسطاء، وما كشفوه عبر أجيال وأجيال من الخبرة..

وهذا ما فعلته لأجد أمامي مفاجأة تفوق كل تصوراتي..

مفاجأة مذهلة..

بحق؟

☆ ☆ ☆

مذكرات طبيب

فى صعيد مصر الجوّانى

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ / ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٦٨٢٧١٠٢

6- كولة أبو ليلة..

بدأ الأمر كله بفضول (غلس)..

أحاديث شتى عن البدو، وعادتهم، وطبائعهم الخاصة، وأساليبهم المدهشة، في علاج عدد من الأمراض المزمنة والمستعصية، أثارت اهتمامي وفضولي، ودفعتني إلى البحث عن وسيلة لزيارة البدو، ومعايشتهم، ورؤية عجائبهم بنفسي..

في تلك الفترة كانت صداقاتي قد اتسعت، وامتدت من (أبو دياب شرق) إلى (أبو دياب غرب)، تلك القرية الأكثر تحضرا وحداثة، بحكم وجودها على الطريق الأسفلتي

مباشرة، والتي يربطها طريق ترابي ضيق بالقرية التي أعمل بها، بالإضافة إلى المزارع، التي تتجاور بين القريتين..

وفي (أبي دياب غرب)، جمعتني الصداقة بعدد من أفضل من عرفتهم في حياتي كلها (عبد العليم أبو زيد).. و (كمال محروس).. و (أبو الحسن)، و (عفيفي)، و (أحمد محمود حسين)، وغيرهم.

ولأن (عبد العليم) خريج علوم ومتفتح، و (كمال) سائق السيارة ميني باص، فقد خرج الاثنان معي لزيارة البدو، ولتفقد منطقة الجبال، التي تحيط بي من كل جانب في البداية، بهرتني حياة البدو، وأساليبهم، وطرق علاجهم، ورأيتهم يداوون مرض السكر بمسحوق الترمس والبواسير بلبن الصبار، وآلام المعدة بزيت البيض..

وكل ما ذكرته في الأسطر السابقة حقيقي، وشاهدته بأم رأسي، حتى لقد تصورت أن هؤلاء هم الذين دهنوا الهواء دوكو، والذين

خرموا القرش من ناحية واحدة..

ومع انبهاري بذلك الطب البدائي، وبعد أن تناولت ثلاثة ثعابين مشوية، وعقربين مسلوقين، وقليلا من الظلوط المقلى بزيت البندريس، بدأت أشعر بالإرهاق من حياة البدو.

وقررت أن أكتفي بزيارة الجبل..

وقبيل العصر، حملتنا سيارة (كمال) إلى الجبال.

وبالتحديد إلى تلك المنطقة الشهيرة، المعروفة هناك باسم (كولة أبو ليلة)..

ومصطلح (كولة) هذا أدهشني في البداية، ثم لم ألبث أن أدركت أنه المصطلح الدارج لكلمة مرتفع، أو جبل متوسط، أو بمعنى أدق، منطقة تتناثر فيها الجبال، حول واد محدود..

هذا باختصار مخل، معنى كلمة (كولة)..

وفي طريقنا إلى هذه (الكولة)، راح (عبد العليم) يروي لى بعض الحكايات الشائعة حولها، ومنها أنها منطقة تحوي كنوز الدنيا كلها، وأن الموعودين فقط من عثروا فيها على الذهب والمجوهرات والآثار، و...، و...

ومن كثرة حديثه وشدة حماسه، خيل إلى أن كل كنوز الفراعنة قد تم العثور عليها في هذه (الكولة) الأسطورية، حتى قال (عبد العليم) في حماس شديد، أن (كولة أبو ليلة) هذه كانت تحوي الصخور السبع أيضا..

وهنا جذب الأمر انتباهي بالفعل، وسألته عما يعنيه بهذه الصخور السبع، فراح يروي لي قصة أشبه بالأساطير، عن سبعة أحجار ضخمة، في ضخامة الهرم، كانت موجودة قديما في وادي

(كولة أبو ليلة) هذه، ثم اختفت ذات يوم، ولم يعد لها أدنى أثر..

ومع قصة كهذه، كان من الطبيعي أن أضحك طويلا وكثيرا، وأن أسخر من القصة، والفكرة كلها، ولكن (عبد العليم) عاد يؤكد قصته بمنتهى الإصرار، ويقول:

إن ولده قد شاهد هذه الأحجار بنفسه، و...، و...

ولم أحاول معارضته مرة أخرى، واكتفيت باستماع يفتقر إلى الحماس، وسيارة (كمال) تنهب المنطقة، في طريقها إلى (الكولة) الأسطورية العجيبة (كولة أبو ليلة)..

وأخيرا وصلت السيارة إلى (الكولة)..

ولن يمكنني أبدا أن أصف لكم مشاعري، وأنا أشاهد هذه المنطقة للمرة الأولى..

لقد وجدت نفسي أمام دائرة من الجبال متوسطة الارتفاع، تحيط بمنطقة منبسطة تماما..

وكلمة منبسطة هذه ليست مجازية على الإطلاق، فباستثناء بعض الحصى الصغير، والأحجار المتناثرة هنا وهناك، بفعل عوامل الطبيعة العشوائية، كانت الأرض التي تحيط بها هذه الجبال عبارة عن مساحة منبسطة تماما، على نحو يستحيل وجوده في الطبيعة، مما يوحي إليك بأنه قد جرى تمهيدها ذات يوم، وإعدادها لأمر ما..

وعندما صعدنا إلى أحد هذه الجبال، رأيت بقايا آثار سبعة أجسام ضخمة واضحة، وسط تلك المساحة المنبسطة..

ومع عقلية كعقليتي، وقراءات علمية كثيرة يزخر بها عقلي، كان من الطبيعي أن يخلب الموقف كله لبى، على نحو فائق..

وطوال فترة وجودنا في (كولة أبو ليلة)، رحت أفحص كل ما تقع عليه يداي، وكأنما أتوقع أن أجد صامولة من سفينة فضاء، أو فردة حذاء قديمة لمخلوق مريخي، عاد إلى كوكبه حافيا..

وعندما اقترب غروب الشمس، كان من الطبيعي أن نعود إلى الوحدة الصحية في (أبو دياب شرق)، بعد أن أصبحت أنا من مجاذيب (كولة أبو ليلة).

وفي المساء، وبعد عشاء طبيعي، مكون من الويكة والملوخية، مع كوب من عصير الويكة المثلج بماء الطلمبة، جاء الشيخ إبراهيم) ليقضي أمسيته بصحبتي كالمعتاد.

وبعد أحاديث ثقافية ممتعة، حول البروفسير (هريدى) صاحب نظرية (اللبد في الذرة)، والفيلسوف الشهير (صميده)، الذي أثبت أن المخ مجرد عضو إضافي بلا فائدة محددة، تماما مثل الزائدة الدودية، سألت الشيخ (إبراهيم) عن الأحجار السبعة، في (كولة أبو ليلة)..

وبهدوئه المعهود، ورصانته التقليدية، أخبرني الشيخ (إبراهيم) أن القصة حقيقية تماما، وأنه رأى تلك الأحجار السبعة الضخمة في صباه، وأن الواحد منها كان من الضخامة، بحيث يختفي الجمل المحمل بالتبن، عندما يسير خلفه، ولكنه لا يدري أين ذهبت تلك الأحجار، ولا ما مصيرها....

وعندما يسمع شخص قضى نصف عمره في قراءة ودراسة الظواهر الغامضة حديثا كهذا، في مكان مهمل، مثل (أبو دياب شرق)، فلابد أن يشتعل فضوله على نحو طبيعي..

وهذا ما أصابني بالتأكيد

ولقد طفت (أبو دياب شرق) كلها، لأسأل كل الكبار عن (كولة أبو ليلة) وأحجارها الضخمة السبعة، التي اختفت في غفلة من الزمن، دون أن تترك خلفها أدنى أثر..

والعجيب أن الكل راح يردد قصة واحدة لا تتغير، وهي تؤكد أن الأحجار الضخمة السبعة كانت هناك، ثم لم يعد لها وجود..

ونظرا للحجم التقديري، الذي وصف به الكل هذه الأحجار، أصبح اختفاؤها أمرا مثيرا وعجيبا للغاية..

ثم فجأة، ظهرت تلك القصة الجديدة..

كنت أتحدث عن الأحجار السبعة، و (كولة أبو ليلة)، عندما بدأ الحاج (حفني) يروي بغتة قصة أكثر عجبا..

والحاج (حفني) هذا، لمن لا يعرفه، أكبر معمر عرفته في حياتي كلها، فقد توفي في أثناء عملي في (أبو دياب شرق)، عن مائة وخمسة وأربعين عاما، ولقد كتبتها بالحروف حتى لا يحدث أي خطأ مطبعي، ولقد ظل طيلة عمره بدائيا صارما، لا وقت لديه للهزل أو الدعابة، ولا يستمع إلى الراديو، أو يشاهد التليفزيون، أو حتى يغادر القرية، حيث مسكنه وأرضه.

ولهذا كان ما رواه الحاج (حفني) مدهشا بحق.

لقد تحدث عن طائرة من طراز ما، وصفه بأنه هليكوبتر على الأرجح، ولكن هذا كان في أثناء الحرب العالمية الثانية.. (مما ينفي كونه طائرة هليكوبتر)..

المهم أن تلك الطائرة، غير المحددة الهوية، قد هبطت في تلك الفترة، عند منطقة (كولة أبو ليلة)، وخرج منها رجل وامرأة،

يرتديان زيا فضيا لامعا، مما أثار ذعر إخواننا الصعايدة، وعلى رأسهم الحاج (حفني)، فهجموا على الرجل والمرأة، وقدموا لهما تحية معتبرة، بكل شومة يحملونها، حتى قضوا عليهما تماما، وبعدها حطموا الطائرة، واحتفظ كل منهم بجزء منها..

وبمنتهى الوقار والكبرياء، كدت أقبل قدمي الحاج (حفني) ويديه، ليريني فقط ذلك الجزء، الذي احتفظ به، من الطائرة إياها..

ولأن الرجل طيب القلب، فقد وافق بعد ثلاثة أيام، وبعد أن خمن أنني قد بلغت الدرك الأسفل من الإذلال، على أن يريني تلك القطعة، وغاب يوما رابعا، ثم أتي ليريني قطعة من القماش المهترئ، من الواضح أنها كانت مدفونة في مكان ما، وفتحها ليخرج منها قطعة من معدن لامع، حوالي عشرين سنتيمترا في ثلاثين سنتيمترا، مازالت تلمع وكأنها جديدة، وعليها جزء من نقش لم يمكنني تمييزه أبدا.

ولكن المدهش أنها، وعلى الرغم من حجمها هذا، كانت خفيفة الوزن إلى حد عجيب..

وفي هذه المرة لم يفلح تقبيل الأيدي والأقدام أو حتى الـ (.....)، فقد رفض الحاج (حفني) تماما أن يترك لي قطعة المعدن هذه، وكأنها ميراث يحمل اعتبار وكرامة الصعيد كله، ولكنه وعدني بإحضارها مرة أخرى، عندما يأتي صديقي الدكتور (محمد حجازي) لزيارتي....

وبعد عدة أشهر، حضر الدكتور (حجازي)..

ولكن الحاج (حفني) لم يحضر قطعة المعدن كما وعد..

ثم منعه بعدها أمر مهم جدا من الحضور..

لقد مات..

ومن المؤكد أن هذا قد حرم صديقي الدكتور (محمد حجازي)، والأكثر اهتماما مني بمثل هذه الأمور، من رؤية تلك القطعة المعدنية، التي كنت، وما زلت، وسأظل أصر على أنها جزء من سفينة فضاء من عالم آخر، حتى ولو سخرت الدنيا كلها من تصوري هذا..

فمن رأى ليس كمن سمع...

أو قرأ..

ولكن القدر لم يحرم الدكتور (حجازي) من مشاهدة وسماع فصل آخر من القصة.. فصل جاء بالمصادفة البحتة..

فبينما نجلس معا، في ساحة الوحدة الصحية، جاء الخفير المسنّ عم (حارس)، ليجلس على الأرض إلى جوارنا..

و (حارس) هذا رجل ضئيل الجسد، نحيل، أشيب الشعر، ضخم الشارب، على نحو يجعله أشبه بممثل هزلي، في أحد الأفلام المضحكة، ولكنه في الوقت ذاته طيب القلب للغاية، وبسيط جدا، شأن أي شخص لم يغادر القرية التي نشأ فيها قط..

ولأننا كنا نتحدث عن (كولة أبو ليلة) فقد اكتفي بمتابعة حديثنا في صمت، حتى سأله الدكتور (حجازي) عما إذا كان يعرف قصة تلك الأحجار السبعة..

وهنا جعل عم (حارس) شعر رأسينا يقف رهبة..

فببساطة مدهشة، وتلقائية بلا حدود، روى لنا عم (حارس) أنه قد رأى تلك الأحجار السبعة في طفولته، واعتاد اللهو عندها، بحكم أن أرضهم تجاور موقعها، ولكن في ذات ليلة، خرج والده ليروي أرضهم على ضوء القمر، ثم عاد إلى المنزل مذعورا، يرتجف على نحو عجيب، ثم روى لهم أنه، بينما كان يروي أرضه، فوجئ بحجر ضخم لامع يهبط من السماء، ثم يخرج منه رجل في زي فضي، وعلى رأسه كرة من الزجاج الداكن، وأن هذا الرجل، أو هذا الجني، كما وصفه (حارس)، نقلا عن والده، ألصق بعض الأجسام المستديرة بتلك الأحجار السبعة الضخمة، فارتفعت كلها إلى السماء، واختفت وسط الظلام، قبل أن يعود هو إلى مركبته، وينطلق بها..

وفي الصباح، ذهب (حارس) وأشقاؤه، مع عدد من أهل القرية، للتيقن مما رواه والده، فلم يجدوا أثرا لتلك الأحجار السبعة!!

هكذا، وبكل بساطة، ومن بين شفتي شخص لا يعلم بعد أنهم قد اخترعوا الفيديو والتليفزيون، وصف عم (حارس)، عن لسان

والده، سفينة فضاء، ورائد فضاء بزيه اللامع، وخوذة التنفس على رأسه؟

ولم يكن الأمر يحتمل تفسيرا آخر..

فمن المستحيل أن يصف شخص مثله هذه الأمور، ما لم يكن قد سمعها عن لسان والده، الذي وصف ما رآه بالفعل..

والعجيب أنني عندما بدأت في الاستفسار من كبار القرية والمسنين، عن القصة التي رواها حارس، أكد الكل صحة ما قاله والده في الخمسينيات، ولكنهم قالوا: إنه مخرف حتما، أو ملموس من الجن، وإن أجمعوا في تناقض عجيب، على أن الأحجار السبعة قد اختفت بالفعل، في اليوم التالي لروايته..

ولقد أرسلت أيامها رسالة بكل هذا للأستاذ (أنيس منصور)، متصورا أن ما حدث سيثير اهتمامه، ولكنني لم أتلق جوابا عنها أبدا..

وعندما أعياني البحث، وأعيتني الحيلة، توقفت عن ملاحقة قصة (كولة أبو ليلة)، على الرغم من التساؤلات العديدة، التي طرحتها في نفسي، والتي لم أجد لها جوابا شافيا، حتى لحظة كتابة هذه السطور..

فما طبيعة تلك الأحجار السبعة؟!

وما أهميتها؟!

وما صحة كل ما سمعته في (أبو دياب شرق) عنها؟!

ثم، وهذا ما يستفزني حتى هذه اللحظة، لماذا نعتبر (في مصر بالذات) أن الحديث عن هذه الأمور نوع من التخريف، دون أن نبذل أدني جهد للبحث عنه ودراسته؟!

لست أدري!!

ولست أظنني سأدرى أبدا!

ربما لأنني يئست من تتبع الأمر كله، بعد موت الحاج (حفني)، مأسوفا على شبابه الغض..

أو ربما لأن قصة عجيبة أخرى قد شغلت انتباهي..

قصة عجل (البوهي)..

ولهذا حديث آخر..

☆ ☆ ☆

مذكرات طبيب

فى صعيد مصر الجوّانى

7- الباشا العجل..

بعض طوائف الهندوس تقدس البقر!!

من المؤكد أن معظمكم يعرف هذه الحقيقة، ويعرف أن أصحاب تلك الطائفة لا يأكلون لحم البقر، ولا يستخدمون الأبقار في الزراعة، ولا يعترضون طريقها، أو يجبرونها على الابتعاد عن طريقهم..

بل ويحترمونها أيضا أشد الاحترام..

ولقد قرأت الكثير والكثير عن هذا الأمر، واستنكرته، ورفضته، واستبعدت أن يقدم إنسان عاقل على تقديس حيوان، أيا كانت نوعيته..

حتى رأيت عجل (البوهي)..

ولقد كان لقتي الأول بسعادة عجل (البوهي) هذا دراميا على نحو مدهش، يصلح كبداية لفيلم بوليسي، من إخراج (إسماعيل ياسين)، وبطولة العسكري (رجب) والشاويش (عطية)..

فذات يوم، كنت أؤدي عملي في الوحدة الصحية، والمرضى.

يدخلون إلى العيادة بنظام كالمعتاد، عندما سمعت صوت خوار ضخم، ورأيت رأس ديناصور صعيدي يدخل إلى العيادة، وبه عينان ضخمتان، تتطلعان إلى في بلادة وفضول في البداية، تصورت أنه حلم، أو كابوس اصطبغ بصبغة الوجه القبلي، ليقتحم منامي دون استئذان، وفكرت في استدعاء أحد الخفراء؛ ليهوى على رأسي بشومته؛ حتى أتأكد من أنني مستيقظ، ولكنني خشيت أن يؤدي هذا الإجراء إلى نومي للأبد؛ لما يتميز به الأخوة

الصعايدة من رقة ولطف، لذا فقد هتفت مناديا الديناصور الأكبر.. احم.. أقصد كاتب الوحدة، هاتفا في استنكار:

- ما هذا يا (حجاج)؟!

مال رأس (حجاج) إلى كتفه كالمعتاد، وهو يجيب في هدوء، وكأنه يصف أمرا عاديا:

- إنه عجل (البوهي)....

- عجل من؟!

أجابني بوقار العارف:

- عجل (البوهي) يا دكتور.. ألا تعرف عجل (البوهي)؟!

سؤاله الأخير جعلني أراجع أسماء كل أصدقائي، وزملاء الدراسية، وأعيان البلد وحتى مشاهير الأدب والفن والسياسية، حتى تأكدت من أن هذا الباشا العجل لم يكن أحدهم أبدا، وحتى (البوهي) هذا، لم أسمع به من قبل قط..

لذا، فقد هتفت بكل صرامة:

- ولماذا يترك (البوهي) هذا عجله طليقا هكذا؟! وكيف لم يمنعه أحد من الدخول؟!

ولم أكد ألقى السؤالين، حتى خيل إلى أنني أفضل ممثل هزلي في (مصر) كلها، أو انني المنافس الأول لـ (عزب شو)، و (لورل وهاردي)، و (شارلي شابلن)، وحتى (توم وجيري)؛ فقد انفجر (حجاج) ضاحكا، حتى استلقي على قفاه، كما تقول روايات (ألف ليلة وليلة)..

ليس (حجاج) وحده، ولكن عمال الوحدة الصحية، والمرضى، وحتى الحمير....

كلهم انفجروا بالضحك على هذا الطبيب الجاهل الغبي، الذي يدعي الثقافة والعلم، ثم لا يعرف من هو عجل باشا (البوهي)!!

ومرة أخرى، رحت أراجع كل الأسماء في ذهني، وأنا أتطلع إلى وجه العجل، الذي ما زال يقف بكل تناحة، ليتطلع إلى بنفس البلادة والفضول، وكأني أنا الحالة الشاذة، وليس هو..

وعندما توقف الضحك، بعد أسبوعين أو ثلاثة (لست أذكر بالتحديد)، ارتدى السيد (حجاج) ثوب الوقار والحكمة، وراح يشرح لى هوية ذلك العجل التنح الممل، الذي ينسبونه إلى (البوهي)..

وفي البداية، كان لابد أن يخبرني من هو (البوهي) هذا.. فبينما (البوهي) كما يطلق عليه أهل (أبو دياب شرق)، هو رجل صالح، لم أجد في البلدة كلها من يعرف أصله أو فصله، أو حتى نوعية صلاحه، ولكن الكل يحكي عنه نفس الكرامات، التي تسمعها عن أي رجل صالح آخر له أي مقام، في أي مكان في (مصر)، حتى (كفر بلضم)

المهم أنه رجل صالح والسلام، على مسئولية أهل (أبو دياب شرق)..

وهذا الرجل مات، كما يموت كل الصالحين والطالحين، فأقام له بعضهم ضريحا، فوقه قبة صغيرة، وأطلق عليه اسم (مقام سيدي البوهي)..

إلى هنا والأمر معتاد، ومكرر، ويشبه كل الأمور الأخرى غير المنطقية، في عالمنا العربي كله، من مشرقه إلى مغربه..

ولكن بعضهم تفتق ذهنه عن وسيلة جديدة، لتثبيت كرامات سيدي (البوهي)، في عقول وأذهان الكل، فقرر أنه في كل عام،

ينبغي أن ينذر أحد أثرياء القرية عجلا، من أفضل ما تنتجه ماشيته، من أجل سيدنا (البوهي)، وهذا العجل يطلق عليه اسم (عجل البوهي) وحتى هذه النقطة أيضا، تبدو متشابهة مع ما يحدث في أماكن أخرى كثيرا..

ولكن تعامل الناس مع هذا العجل هو المستفز فعلا....

فبعد لقائي العاطفي الأول، مع الباشا التنح.. أقصد الباشا العجل، بدأت أراه في كل مكان، وأشاهد تناحاته، ورخاماته على الكل، وأشاهد أيضا - وهو الأمر الذي استفزني بشدة - خضوع الكل الغريب والعجيب له..

فالباشا (عجل البوهي) يجول بمنتهى الحرية، كإمبراطور العجول، فيتلف زرع هذا، أو يقتحم منزل ذاك، أو يضع روثه المقدس في طعام ثالث..

كل هذا والناس سعيدة بما يفعله، وابتسامات الفرحة تملأ وجوههم؛ لأن العجل، الذي أصبح ثورا ضخما عمقا، دون أن يتنازل عن لقبه العجلي، يبارك مزارعهم، وحقولهم، ومنازلهم، وطعامهم بتناحته المباركة..

ولقد بلغت حالة الاستفزاز عندي مداها في مرتين..

المرة الأولى عندما أردت السفر إلى مدينة (قنا)، التي كانت تبدو لي أيامها كأكثر بلاد الأرض رقيا وحضارة، مقارنة بالوحدة الصحية وما حولها، ثم فوجئت بأن العجل المبارك إياه يجلس في منتصف الطريق، بتناحته المقدسة المعهودة، غير مبال بأبواق السيارة أو أنوارها، خاصة وأن سعادته يتميز بالقدرة على التحول إلى أعمى وأصم وأبكم، وعديم الإحساس أيضا عند اللزوم...

ولقد أردت أن أنزل من السيارة، وأتفاوض مع سيادته بركلة ديبلوماسية محترمة، ولكن سائق السيارة وركابها أصروا على العودة إلى القرية، باعتبار أنه مادام سعادة الباشا العجل قد اعترض الطريق، فهذا معناه أن السفر ليس مأمونا اليوم، ولابد من الرجوع إلى قواعنا سالمين..

وكدت أشتعل غيظا، ونحن نعود إلى القرية؛ لأن عجلا كهذا قد تحكم في مصير سبعة من الرجال مفتولي الشوارب (إحم.. كنت الوحيد، الذي له شارب غير مفتول)..

وعبثا، حاولت إقناع الإخوة الصعايدة، بأنه من المستحيل أن يكون العجل قد اكتسب عبقرية خاصة، أو بصيرة مدهشة، لمجرد أنه قد حمل اسم سيدهم (البوهي)....

ولكن هيهات!

فالعجيب، ليس في الصعيد وحده، ولكن في وطننا كله، أنه مجرد دس مصطلح الدين، في أمور ليست لها أدنى صلة به، يحول الناس إلى صم بكم عمي، فلا يفقهون، أو يفكرون، أو يتوقفون لحظة لمراجعة صحة ما يحدث، حتى إنهم يتحولون، دون وعي منهم، إلى ما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم، حتى ولو كان ما يفعله هؤلاء الآباء والأجداد وثنا، أو يخالف كل نصوص وروح الدين..

وهذه قضية أخرى أكثر ضخامة.. ولكن ما علينا.. فلنعد إلى قصة العجل باشا، وإلى المرة الثانية، التي استفزني فيها بشدة..

والمرة الثانية كانت ذات صباح عمل عادي، عندما استيقظت لأؤدي عملي في العيادة، ففوجئت بأن سيادته (العجل طبعا) لم يجد في البلدة كلها مكانا لراحته، سوى أمام باب العيادة مباشرة.

والمشهد كله كان مستفزا، إلى أقصى حد، فقد كان هو يجلس أمام باب العيادة، بتناحته الشهيرة، أدامها الله على كل عجول (البوهي)، ويتطلع في بلادة إلى العاملين بالوحدة الصحية، والمرضى الذين جلسوا في صمت واستسلام، ينتظرون انصرافه، حتى يتم توقيع الكشف على فلذات أكبادهم، الذين يعانون من الحمى، والألم والعذاب..

ولأنني غريب من كوكب بحري، فقد اتجهت نحو العيادة، وأنا أقول في صرامة، للعاملين في الوحدة الصحية:

- شيلوا العجل ده من هنا..

ولم أكد أنطقها، حتى خيل إلى أنه كان من الأفضل والأهون، أن أهتف بكل غطرسة:

- ارموا العمدة في الزبالة..

فعبارتي الأولى أثارت، موجة عنيفة من الدهشة..

والغضب..

والاستنكار..

والسخط..

والغيظ..

والأخير أصابني وحدي بالطبع، عندما فوجئت بأن الناس تفضل ترك أبنائهم يتعذبون ويتألمون، على أن تمس الباشا العجل، ولو بكلمة تجرح مشاعره الرقيقة، التي أظن أنه حتى الأسياخ المحمية على نار ضخمة، لن تحرك فيها ساكنا..

وفي هذه المرة عارضت..

واستنكرت..

وصرخت..

وحاولت..

وفي النهاية، أدركت أن مواصلة المحاولة قد تعني..

تطور النقاش إلى الأسلوب الصعيدي، البسيط المباشر المعروف باسم (شومة)، لأصبح قربانا لعجل (البوهي).

ولم يرق لي أبدا تخيل ذلك التنح، وهو يلتهمني مشويًا (والأفضل محمرا)، لذا فقد انسحبت من النقاش، وصعدت إلى مسكني، أعلى العيادة، في انتظار انصراف الضيف الرخم..

يومها راودني شعور خفي بأنها مسألة عند؛ فقد ظل سيادته جالسا أمام باب العيادة، حتى يئس المرضى وانصرفوا..

وحانت لحظة انصراف العاملين، وبعدما تأكد أنه لم يعد هناك سوانا.. هو، وأنا، وحارس الوحدة، نهض في تثاقل، ورفع عينية إلى، وهو يطلق خواره البليد الثقيل الذي بدا لي لحظتها، على الرغم من جهلي للغة العجول، أشبه بضحكة ساخرة..

وأمام بصري وغضبي، ابتعد سيادته بجسمه الضخم، وترك الجمل بما حمل..

وليلتها، سألت حارس الوحدة الصحية بشغف، عن موعد مولد سيدهم (البوهي)؛ نظرا لأن غريمي اللدود سيتم ذبحه يومها (ويا للشماتة!) وتوزيع لحمه المر، على الفقراء والمساكين، مثل العمدة، وشيخ البلد والأعيان.. الخ.. الخ

وفي البداية، أثلج الحارس صدري، عندما أخبرني أن العجل يذهب وحده إلى مكان المولد، الذي سيحين بعد شهرين، ليتم ذبحه أمام الجميع..

وبدا لي هذا منطقيا، على الرغم من خزعبلاته؛ لأن ضوضاء وهرج المولد سيجذبان حتما ذلك الشاب العجلي العابث، الذي اعتاد التجوال حيثما ووقتما يشاء، وسيذهب بحوافره إلى هناك، ليلقى حتفه على يد جزار أعجل منه..

وفكرت لحظتها في حجز مقعد من مقاعد الدرجة الأولى، في حفل الذبح هذا، حتى أخرج لساني للباشا العجل، وسيف الجزار على رقبته، لولا أن أكمل الحارس حديثه، ليصيبني برعب شديد...

فعلى الرغم من أسطورة ذهاب العجل للذبح، والتي صدقتها من منطلق لهفتي وشماتتي، إلا أن هذا لا يحدث دوما، فعجل سابق تاه وضل طريقه إلى المولد، وأخر اغتاله مطاريد الجبل الخونة،

في ليلة المولد، وأكلوه لحما، ثم رموه عظاما، وثالث اختفى قبل المولد بليلة واحدة، ورابع هرب بجواز سفر زائف إلى البرازيل.. (وربما مع قرض بملايين الدولارات)..

وتحطم الحلم الجميل..

إذن فهناك احتمال أن يفر الباشا العجل، صديقي اللدود من الذبح..

مستحيل..

مستحيل!

مستحيل!

وقضيت ليلتي كلها أفكر في الأمر، وفي أسلوب يدفعه الي سيف الجزار دفعا..

ولأن دعوته إلى حفل عشاء في القلعة لم يكن بالفكرة المستساغة، خاصة وأن محمد على باشا قد سبقني إليها، فقد استبعدتها، مع كل الأساليب الودية الأخرى، ورحت أفكر في عمليات القتل والاغتيال.

وبالطبع كانت فكرة وضع عقرب سام في الشاي غير عملية..

واستئجار قاتل محترف مغامرة غير مأمونة العواقب..

وكذلك دس الحشيش في زريبته (لأنه بلا زريبة اساسا)..

وبعد تفكير طويل، واستعراض كل الوسائل والاحتمالات، لم أجد أمامي سوى الصبر، وانتظار مولد سيدهم (البوهي) والسلام..

ومرت الأيام.

ثم جاء المولد..

ولأنني من مواليد (طنطا)، حيث مولد (السيد البدوي)، فقد كانت لدي صورة خاصة عن الموالد، بكل أضوائها، وصخبها، وضجيجها و...، و...

ولم أجد شيئا من هذا قط..

فقط بعض النساء، الشبيهات بخيام الجيش، حول المقام، وبعض الرجال بشواربهم المفتولة، وجزار ضخم ينتظر العجل، وهو يحمل سيفا هائلا..

واقتنعت يومها بأن عجل (البوهي) عبقرية فذة بالفعل.. فعلى الرغم من أنه كان يجول دوما هنا وهناك، ولا يمضي يومان، دون أن تراه مرة على الأقل، فقد اختفى تماما دون أدنى أثر، طوال يوم المولد..

وانفض المولد، باعتبار أن (البوهي) لا يريد ذبح عجله هذا العام..

ثم لا شيء..

لا أضواء..

أو صخب..

أو أي أمر مثير للانتباه!

وعاد الكل إلى منازلهم مبتسمين!

وعدت أنا إلى الوحدة الصحية بكل غيظ الدنيا..

وفي صباح اليوم الثاني، شاهدته يقف في حقل صغير خلف الوحدة الصحية، ويتطلع إلى النافذة التي أطل منها وهو يلعق

شفتيه بلسانه..

ولست أدري لماذا بدا لي الأمر وكأنه يخرج لسانه للخاسر في معركة أمس.. أنا طبعا..

وقبل أن يقتلني الغيظ، فوجئت بمشهد لم أتوقعه قط.

(حجاج) يحمل شومة ضخمة، ويتسلل إلى الحقل الخلفي، الذي يقف به العجل، وهو يتلفت حوله؛ ليتأكد من أن أحدا لم يلمحه، خاصة وأن خلف الوحدة يطل على الجبل مباشرة، وليس على أية بقعة مأهولة..

وعندما تساءلت عما يفعله (حجاج)، وجدته يرفع الشومة، ليهوي بها بكل قوته، على رأس العجل.

وعلى الرغم من العداء المستحكم، بيني وبين ذلك العجل، فقد انتفض جسدي من هول الضربة، وذلك الصوت البشع المكتوم، الذي نشأ عنها.

وشعرت بالشفقة على العجل..

والله العظيم شعرت بها..

ولكن أعقبها مزيج من الدهشة والغيظ، لأن العجل لم يتحرك من مكانه، وكأنما كان (حجاج) يداعب رأسه بريشة نعام....

فقط أطلق خوارا تنحا، وتطلع إلى (حجاج) بمنتهى البلادة، ثم استدار في خمول، وابتعد يهز أردافه الضخمة في بطء..

ومنذ هذه اللحظة، وهذا المشهد، رفعت الراية البيضاء، وقررت الاستسلام تماما لقوات الباشا العجل صحيح أن علاقتنا الشخصية لم تتحسن، إلا أنني أخرجته من رأسي تماما، وقررت تجاهله للأبد..

ولم أنجح تماما في هذا، ولكنني تظاهرت به، حتى انتهت فترة التكليف، وجمعت كل متعلقاتي، للعودة إلى بلدتي..

وفي يوم السفر النهائي، جاء عجل (البوهي) يتهادى، وجلس إلى جوار الطريق (وليس في منتصفه كالمرة السابقة)، وانتظر حتى انطلقت بي السيارة، ثم راح يلعق شفتيه بلسانه!

ألا تعلم (وحياة أبوك) ما الذي يمكن أن تعنيه هذه الحركة؟!

☆ ☆ ☆

مذكرات طبيب
فى صعيد مصر الجوّانى

8- في يوم.. في سنة..

من أبرز الفروق، بين الحياة التي نشأت فيها، في بلدتي الصغيرة، التي تتوسط دلتا (مصر)، والقرية عملت فيها كطبيب تكليف، في حضن جبال الصعيد الإيقاع فالحياة هنا، في حضن الجبل، تتميز ببطء الإيقاع، إلى الحد الذي يمكن أن يصيبك بالجنون، في أيام الأولى..

والأخيرة أيضا..

واختلاف الإيقاع أمر طبيعي، بين المدينة والقرية..

فالمدينة مع اتساعها، والنشاط الدائم بها، واختلاف وسائل التعامل فيها، تحتاج إلى إيقاع أكثر سرعة، في حين تقتصر الأعمال والنشاطات، وحتى وسائل الاستمتاع في القرية، على أمور محدودة للغاية، بحيث يبدو اليوم أكثر طولا، والوقت أكثر وفرة، مما ينعكس بالطبع على بطء الإيقاع إلى حد ما..

حاول أن تستنتج إذن اختلاف الإيقاع، بين مدينة عادية، وقرية في حضن الجبل، في أعماق الصعيد!!

هل نجحت في استنتاج هذا؟!

برافو.. أنت مثلي تماما.. ساذج، ومتفائل.. وعبيط أيضا..

فعندما بدأت عملي، في تلك الوحدة الصحية، في (أبو دياب شرق)، تصورت أنني عبقري، وأنني سأستوعب بسرعة فارق الإيقاع التقليدي، بين المدينة والقرية، باعتباري متعلما، ومثقفا، و...، و.....

ولأنني أهلت نفسي لهذا، لم أشعر بضيق كبير، عندما بدأ المرضى يتوافدون على العيادة، في السادسة صباحا، على الرغم

من أن مواعيد العمل الرسمية، وحتى غير الرسمية، تبدأ في الثامنة، وأقنعت نفسي بأنهم يرغبون في الانتهاء من الكشوف الطبية العاجلة، حتى يتفرغوا للزرع والقلع وخلافه..

ثم بدأت أنتبه إلى أمر عجيب..

فكلمة حالة عاجلة، التي نعرفها في المدن، لا شأن لها إطلاقا بالكلمة نفسها، المعروفة هناك، في حضن الجبل، اللهم إلا إذا اعتبرنا أن استمرار حالة الإسهال عند طفل صغير، لمدة شهر ونصف، هي حالة عاجلة، أو أن عملية إخراج شوكة نخيل من ساق صبية، بعد انغراسها فيها لمدة سنه، هي حالة طوارئ، تستلزم السرعة والهلع..

كل الحالات، التي كنت أفحصها، في السادسة صباحا، وقبل شروق الشمس أحيانا، كانت مصابة منذ أسبوع على الأقل، وهذه المدة الأخيرة تعني أن الفزع قد أصابهم، فهرعوا بالحالة إلى الطبيب، بعد أسبوع واحد فحسب..

أما في الحالات العادية، كشج الرأس بالشومة، أو الإصابة بطلق ناري، أو تحطم الأنف، والفك، والأسنان، وغيرها من الأمور اليومية المألوفة هناك، فالحالة يمكن أن تنتظر عاما أو عامين، أو حتى ينتظرون وفاتها للتأكد، قبل استشارة الطبيب.. ولكنني احتملت هذا أيضا، وحاولت إيجاد الأعذار لهم.

حتى خرجت لأول كشف خارجي..

فالرجل الذي أتى لاصطحابي، أجابني في بساطة، عندما سألته عن مكان منزله، وهو يشير بيده في هدوء:

- خطوتان من هنا.

ولأنني كنت متخلفا عقليا في ذلك الحين، وأصلح كتمثال اللغز الساذج، فقد صدقته، واعتبرت أن إشارة يده هذه تعني أن المنزل قريب بالفعل، فحملت حقيبة أدواتي، وتبعته لتوقيع الكشف الطبي..

وبعد ما يقرب من الكيلومترات الثلاثة، من السير على الأقدام، على طريق مترب وعر، وستة أو سبعة لترات من العرق، الذي غمرني في مساحة محدودة، لا تتجاوز حجمي كله، من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، سألته مرة أخرى:

- أين منزلك يا حاج؟!

وبنفس البساطة والتناحة (أدامهما الله عليه)، أشار بيده، مجيبا:

- خطوتان من هنا.

وعندما تجاوزنا الكيلومتر الخامس، ومع بدء شعوري بالجفاف، من فرط ما أفرزت من عرق، ولما بدأ الكالو يبرز بالفعل، في كل أصابع قدمي، راودني شك في أننا قد ضللنا الطريق، وتجاوزنا حدود (أبو دياب شرق) إلى صحراء النقب على الأقل، فسألت الرجل، وأنا ألهث في صعوبة:

- أين المنزل يا حاج؟!

وكدت أحطم أنفه، وألقيه أرضا، وأقفز فوقه صارخا في جنون، عندما أشار بيده، مجيبا بنفس التناحة إياها:

- خطوتان من هنا.

وكان صادقا هذه المرة، فالمنزل لم يكن يبعد، عن موقعنا الأخير هذا، سوي كيلومترين فحسب....

تصوروا..

وغني عن الذكر أنني، وعندما وصلنا إلى منزله، كنت في حاجة إلى أسطوانة أكسجين، وخزان مياه، وسيارة إسعاف، تنقلني إلى حجرة العناية المركزة، في أقرب مستشفى في كوالالمبور)، التي تصورت أننا قد وصلنا إليها حتما، بعد كل هذا السير على الأقدام..

وبعد أن قام والده بتوقيع الكشف الطبي على، أقصد بعد أن قمت أنا بتوقيع الكشف الطبي عليه، شعرت بانهيار مسبق؛ لأنني سأضطر إلى قطع طريق العودة مرة أخرى..

ولكنني تعلمت الدرس..

ففي الكشوف الخارجية التالية، كنت أصر على إحضار وسيلة ركوب..

وكانت الوسيلة الوحيدة المتاحة - طبعا - هي (اسم الله على مقامك) الحمار..

نعم.. الحمار، ذلك الحيوان المكافح الصبور، الذي تمتطيه، فيسير بك مستسلما، تحت القيظ، وفوق الرمال، وهو صامت مستسلم، دون أن يشكو أو يعترض.....

لأنه حمار.

ولكم أن تتخيلوا مظهري، بكل رصانتي ووقاري، وأنا أمتطي حمارا، وإلى جواري يسير صاحب الحالة.

مشهد كنت أراه في أفلام قديمة كثيرة، ولكنني لم أتصور قط أنني سأمر بنفس الموقف.. وبالأبيض والأسود أيضا..

المؤسف أنني لم أسع أيامها لالتقاط صورة واحدة لى، في هذا الوضع الطريف، حتى يراها أحفادي فيما بعد، عندما أروي لهم كيف كان الدولار أيامها بجنيه واحد، والبيضة بقرش صاغ، فيسألني أحدهم في براءة:

- يعني إيه جنيه يا جلو؟!

ولكن ما علينا.. المهم أنني انتبهت أيامها إلى حقيقة مهمة جدا، فالإيقاع البطيء هناك كان ينعكس على كل شيء....

حتى الزمن والمقاييس..

فبالنسبة لهم، كانت الساعة أشبه بالدقيقة، وما يمكنك أن تنجزه في يوم، يستغرق سنة، بالتمام والكمال، باعتبار أنه لا يوجد أدنى داع للعجلة، فاليوم طويل، ولو أنجزت كل أمورك بسرعة، فما الذي ستفعله في باقي اليوم؟!

ثم إنه هناك ذلك المثل الذهبي، الذي نتبناه كلنا تقريبا..

لماذا نعمل أكثر، مادام من الممكن أن نعمل أقل؟!

أما بالنسبة للمسافات، فحدث ولا حرج، إذ إنك، لو راجعت خريطة (مصر)، ستجد أن كل محافظات وجه بحري محصورة في الربع الأول، وأن المسافات بينها محدودة إلى حد ما، أما محافظات الصعيد، فهي تمتد بطول وادي النيل، عبر الأرباع الثلاثة الأخرى..

لذا فالمسافات هناك شاسعة للغاية، وهذا ما اعتاده الكل، بحيث أصبحت المسافات، التي نعتبرها كبيرة في وجه بحري، هي مسافات بسيطة، بالنسبة لوجه قبلي وعندما نحصل على تأشيرة السفر إلى الصعيد، لابد أن نعتاد فارق التوقيت وفارق المسافات أيضا.

وعندما بدأت تعاملاتي هناك، وقبل الحصول على الجنسية، جذبت انتباهي كلمتان، لم أستطع فهم معناهما أو مضمونهما، إلا بعد حين..

كلمة (هبابة)، التي فهمت فيما بعد أنها تعني الشيء الصغير، سواء أكان هذا الشيء وقتا أم مسافة، أم كمية..

أما الكلمة الثانية، فهي كلمة (هنية)..

تأكد أنه لا توجد أية أخطاء مطبعية..

الكلمة هي (هنية) بالفعل..

وعلى الرغم من أنني قد فهمت مضمون هذه الكلمة، إلا أنني لم أفهم معناها أبدا..

وحتى لحظة كتابة هذه السطور

فالكلمة تستخدم لوصف كل شيء..

وأي شيء..

تماما مثل كلمة (voila) الفرنسية، التي يستخدمها الفرنسيون عمال على بطال، إذ تسأل الواحد منهم عن مكان ما، فيشير إليه وهو ينطقها، وتحدثه في موضوع عام، فيقلب كفيه ويقولها، وكلما تحدثت مع أي فرنسي، كان لابد أن تسمعها ألف مرة، بألف معنى مختلف..

وهذا بالضبط ما يفعله الصعايدة، مع كلمة (هنية) هذه..

تسأل الواحد منهم عن أي شيء، فتسمع الكلمة مائة مرة في الصفيحة..

أو في الدقيقة..

أو أحيانا في العضم..

.. وربما كانت أقرب إلى كلمتنا العامية، التي نصف بها أي شيء.. (البتاعة دي)..

والإخوة الصعايدة يرددون كلمة (هنية) هذه ألف مرة، ثم يضحكون من أعمق أعماقهم، عندما يسمعون من أحد البحاروة كلمة (كده)..

فالكلمة غير مألوفة عندهم، وغير مستخدمة على الإطلاق.

وطبيعي أن تشعر أنت بالغيظ، وعندما تنطقها فيسخرون منك، في حين أن نصف كلامهم غير مفهوم أو مألوف بالنسبة لك...

ولكن من المدهش أن ينطبق هذا على الطعام ايضا.

فذات يوم، كنت أجول في حديقة تخص الشيخ (إبراهيم)، الذي أقيمت الوحدة الصحية على أرضه، فشاهدت كرمة عنب جميلة، كانت أوراقها كبيرة نضرة، حتى إنني تساءلت..

عما إذا كان من الممكن أن أحصل على بعض أوراق العنب.. وفي دهشة بالغة، سألني الشيخ (إبراهيم) عن سبب رغبتي في الحصول على أوراق العنب، ثم تساءل أحد الموجودين عما إذا كنا نربي بعض الماشية في منزلي، فأجبتهم ببساطة وتلقائية، أنني أرغب في الحصول على أوراق العنب؛ لأننا نصنع منها نوعا من الطعام (محشي ورق عنب)..

وهنا، فوجئت بالكل ينفجر ضاحكا، وبعضهم يمسك بطنه، أو ينقلب على قفاه، كما لو أنني قد أخبرتهم بأحدث نكتة عن الصعايدة..

وهناك أمور عديدة غير مألوفة بين الطرفين، البحاروة والصعايدة..

وعندما تساءلت عن سبب هذا الانفجار العجيب، أجابني أحدهم، من وسط دموعه وضحكاته، أنه لا أحد يأكل أوراق العنب، سوى البهائم والمواشي.

شوف الذوق واللباقة!

ولأنني أعرف عن الإخوة الصعايدة رقة الحس، وسرعة الفهم، وعبقرية الاستيعاب، فقد تجاوزت هذه النقطة بسرعة، قبل أن أفقد أعصابي، وأقتل أحدهم رميا بالبلغ..

ولكن كان من الطبيعي أن أنفجر غيظا، بعد أسبوع واحد، عندما دعاني الشيخ (إبراهيم) نفسه، مع نفس شلة الأنس، لتناول

الطعام، ووجدت بينه (محشي ورق خس)، ثم تلاه شربات الخل..

لحظتها عرفت أن العملية كلها خلّ..

ولكنني لم أتعلم بشكل كاف..

فبعد أسبوع واحد، من موقعة (ورق العنب)، كنت أستعد لقضاء الإجازة في بلدتي، وأضع خطة للاستمتاع بتلك الإجازات الطويلة (ستة أيام كل شهرين)، عندما جاء أحد الإخوة لزيارتي، واستنكر قيامي بحجز تذكرة في القطار الفاخر، ثم أخبرني أنه سيسافر بالفعل إلى (القاهرة)، في نفس توقيت سفره، ثم دعاني للركوب في سيارته، وأقسم بالطلاق أن أفعل.

ولأنني - مرة أخرى - ساذج، وعبيط، ومتخلف عقليا، فقد وافقت، باعتبار أن السفر بالسيارة سيوفر الكثير من الوقت، الذي يتوقف فيه القطار، لإفساح الطريق أمام القطارات القادمة في الاتجاه العكسي، على الخط المنفرد - حينذاك..

ولم أحجز تذكرة القطار بالطبع..

وجاء يوم السفر، وصل الرجل في موعده بالضبط، مع سيارته (البيجو) الكبيرة، التي تتسع لسبعة ركاب، من الناحية الرسمية.

وبكل الحماسة، وضع الرجل حقائبي على شبكة السيارة، وربطها في إحكام، ثم دعاني للجلوس إلى جواره، وانطلق بنا..

وتصورت أنا أننا سننطلق إلى (القاهرة) مباشرة، ولكنه أخبرني أن اثنين من أولاد عمومته ينتظروننا في مدينة (دشنا)؛ ليصحبونا في رحلتنا هذه..

ولم أعترض بالطبع، فالرجل، والحال هكذا، يعتبر قرينا لـ (حاتم الطائي)، في المروءة والكرم..

ثم وصلنا إلى (قنا)..

وهناك، كشفت أن بطء الإيقاع قد انعكس لديهم على الأرقام أيضا، فأولاد عمومته هؤلاء كانوا جيشا من الصعايدة، هجم على السيارة فور وصولنا، وانتشر داخلها، ووجدت أحدهم يدفعني لألتصق بالسائق، ثم دخل مع اثنين آخرين، إلى المقعد الأمامي، في حين انحشر ما يقرب من العشرين، في المقاعد الخلفية الأخرى.. كل هذا وصاحب السيارة يبتسم، ويوزع عبارات الترحاب على أفراد الجيش، ومع كل عبارة سيجارة...

وقبل أن أقفز من السيارة، في محاولة للنجاة بحياتي، انطلق هو بنا، إلى طريق (القاهرة)....

وباستماتة، رحت أقاتل، وأقاتل، وأقاتل..

فقط لألتقط أنفاسي.

وبصوت متحشرج، أشبه بصوت رجل يحتضر، سالت صاحب السيارة، عما إذا كان ركوب هذا الجيش في السيارة قانونيا، فأطلق ضحكة عالية، وأكد لى أن سيارته تحمل أرقاما خاصة؛ لأنها ليست سيارة أجرة؛ لذا فهو يستطيع أن يحشر فيها أي عدد يشاء..

وغامت الدنيا أمام عيني، وأخ صعيدي رقيق (حوالي مائة وخمسون كيلوجراما)، يستقر على صدري، وآخر يضع مرفقه في عيني، وثالث يسعل في قفاي، ورابع يتحدث بصوت أجش غليظ، داخل أذني مباشرة..

هذا وقد تصورت أن الشرطة قد ضبطت ما يحدث، وأنها قد ألقت بعض قنابل الدخان داخل السيارة؛ لتفريق جيش الصعايدة، وميليشياتهم المسلحة، إلا أنني أدركت بعدها، أن سحب الضباب هذه هي دخان سجائرهم، التي تشتعل طوال الوقت بلا انقطاع، ممتزجا بغازات أخرى، لا داعي لذكر مصدرها هنا..

وحاولت أن أحتمل..

وحاولت..

وحاولت..

وعندما انهارت مقاومتي، سألت سائق السيارة بأنفاس متقطعة..

- هل تبقى الكثير؟!

قهقهة الكل ضاحكين، وأجابني أحدهم:

- إننا لم نغادر محافظة (قنا) بعد.

ولن أشرح لكم شعوري لحظتها..

كل ما أذكره الآن، هو أنني قد حاولت الاحتمال، باعتبار أن الوقت سيمضي، إن عاجلا أو آجلا، وأنه لا أحد يموت من السفر..

ولكني مع وصولنا إلى حدود محافظة سوهاج)، تغيرت أفكاري تماما..

فالمرء يمكن أن يموت من السفر..

ألف مرة..

وفي عقلي، حاولت أن أبحث عن تلك الفوائد السبعة، التي يربطونها في الأمثال بالسفر، ولكنني لم أجد - في وضعي هذا - ولو فائدة واحدة منها..

وأخيرا، وبعدما بدا لي الوقت أشبه بالدهر، توقفت السيارة في (سوهاج)، وخرج منها جيش الصعايدة، لشرب الشيشة، وتناول بعض الطعام، وكأنما لم يكفهم كل ما أراقوه من دخان، خلال رحلة السفر السابقة..

وفي (سوهاج)، رحت أرسم خطة للفرار، متخليا عن حقائبي، وملابسي، وأي شيء آخر، وعندما بدأت في تنفيذ الخطة، فوجئت بهم يدفعونني مرة أخرى إلى السيارة؛ التواصل السفر..

وتكرر هذا، في عاصمة كل محافظة نبلغها..

وعلى عكس ما تصورت، استغرقت الرحلة بالسيارة، ما يزيد على رحلة القطار المعتاد، وإن بدا لي هذا أشبه بدهر كامل، حتى إنني، وعندما وصلنا أخيراً إلى (القاهرة)، أدركت شعور المغترب، الذي يتمنى تقبيل أرض الوطن، عند الوصول إليه....

ولكن اليوم كان مطيرا، وأرض الوطن كانت موحلة، مما جعلني أؤجل عملية التقبيل هذه إلى مناسبة أخرى أو إلى شيء آخر، بخلاف أرض الوطن.

واهو كله تقبيل..

☆ ☆ ☆

مذكرات طبيب
فى صعيد مصر الجوّانى

9- قصر الدندراوي..

منذ أيامي الأولى في مدينة (قنا)، وفي أثناء مرحلة اندلاع العمل، وإنهاء الأوراق الحكومية، وما به هذا من انهيارات، وتقطيع شعر، وخلافه، جذب ذاك القصر اهتمامي وانتباهي بشدة..

قصر الدندراوي..

لست أدري متى ولا كيف وقع بصري عليه المرة الأولى، ولكن ربما عندما بلغ إعجابي بالنظام الإداري منتهاه، فقررت إلقاء نفسي في النيل العظيم، لأصبح بهذا أول عريس نيل في التاريخ.

ولكنني رأيته هناك، عبر النيل، على شاطئ (دندرة)..

و (دندرة) هذه هي أقرب مركز إلى مدينة (قنا)، إذ يفصله عنها نهر النيل فحسب، ويصلها بها كوبري بسيط، ينقلك إليها في خمس دقائق فورا سيرا على الأقدام..

وعند نهاية ذلك الكوبري، تطل على اي شرفة القصر الواسعة، بمهامها الكبيرة، وتربية العاب، التي تتلاعب بها نسمات الهواء في مشهد يجعل قلبك يتراقص ويخفق في استماع ونشوة..

ومنذ اللحظة الأولى أيضا، تملكتني رغبة عارمة في الجلوس في تلك الشرفة، وتناول كوب من الشاي (البحراوي) فيها، ولكنني سرعان ما استبعدت الفكرة، باعتبار أنه من الحماقة أن يعلم المرء بما يعجز عن تحقيقه..

ثم انتهت الإجراءات الورقية (أخيرا)، وانتقلت إلى مرحلة مركز التدريب، التي نسيت فيها كل شيء و..

نسيت القصر..

والشرفة..

والشاي..

وحتى اسمي..

ومن حسن حظنا أن قرار الإفراج عنا، من مركز تدريب (قفط)، قد صدر في الوقت المناسبة، بحيث لم يصب سوى ستة منا فحسب بحالة التخلف العقلي، واثنان بجوع مزمن، وواحد لم يتم التوصل إلى تشخيص دقيق لحالته بعد.

ولأن ربنا (سبحانه وتعالى) سلم، وكنت أحد الناجين ن محرقة مركز التدريب، فقد تم نقلي للعمل في إحدى الوحدات الصحية الريفية - احم.. أقصد الجبلية.. كامتداد لبرامج محو المهارات البشرية..

وفي (أبو دياب شرق)، بدأت أسترجع ذاكرتي تدريجيا، وتذكرت أنني كائن بشري، وطبيب، ولي اسم وعائلة.. إلخ..

وهذا يؤكد أنه لابد من صدمة، للقضاء على صدمة أخرى..

ولكن ما علينا..

المهم أنني بدأت في وضع برنامج خاص لنفسي، كنوع من مقاومة الظروف المحيطة.. والمحبطة. أيضا (مرة بنقطتين بعد الحاء، ومرة بنقطة واحدة للعلم)..

وكجزء من هذا البرنامج، قررت السفر إلى مدينة (قنا) مساء كل خميس، والعودة إلى الوحدة الصحية في (أبو دياب شرق) مساء الجمعة..

وكان من الطبيعي أن أقضي بعض الوقت، في أثناء رحلة (قنا)، في التطلع عبر نهر النيل إلى شرفة قصر الدندراوي، والحلم

بالجلوس فيها، وشرب الشاي أيضا..

واستمر الحلم لعدة شهور، قبل أن ألتقي بزميلي وصديق عمري، الدكتور (محمد بكر)، الذي كان يعمل أيامها في وحدة جبلية أخرى، في المحافظة نفسها....

وفي مدينة (قنا)، التقينا - (بكر) وأنا - ووقفت أنا عند النيل، مقلدا الراحل عبد الحليم حافظ)، في تنهيداته الملتهبة، وأنا أقول:

- آه.. كم أتمنى الجلوس في شرفة ذلك القصر..

وهنا فوجئت بزميلي (محمد بكر) يقول، ببساطته المعهودة:

- فليكن... هيا بنا.

صرخت أخبره أنه مجنون، وأن هذا قصر خاص، ومن المستحيل أن ندخله دون إذن، و...، و...، و..

وضحك (محمد بكر) من أعمق أعماق قلبه، بل أظن أنني قد سمعت صدى لضحكاته، قبل أن يؤكد لى أن قصر (الدندراوي) مفتوح لنا، ولكل خلق الله؛ لأنه - وبكل بساطة – قصر ضيافة بالدرجة الأولى - وكالمسحور، سرت خلف (محمد بكر)، الذي اتضح أنه خبيث، يعرف الكثير ولا يتحدث عنه (تماما مثل أيام الدراسة)؛ إذ وجدت الكل يعرفه في قصر (الدندراوي)، منذ عبورنا بوابته الخارجية، وسيرنا في حديقته الغناء، تحت تكعيبات، العنب الوارفة، وحتى وصلنا إلى القصر نفسه، ودخلناه بكل بساطة ودون أن يعترضنا أحد بحرف واحد..

وكنت أنا مبهورا بالطبع، وفاغرا فاهي، كما تقول الكتب القديمة، في حين كان زميلي (محمد بكر) يتصرف ويتحرك ويتعامل، وكأنه

في قصر أبيه..

وداخل القصر، جذبت انتباهي بشدة تلك الأرقام، المتناثرة في كل مكان، على الجدران والسقف...

12607..1314..8555..51916.. إلخ...

أرقام عجيبه، لا أحد يدري معناها أو مغزاها، أو لماذا نحتها (الدندراوي) باشا، صاحب القصر القديم، على هذا النحو غير المفهوم....

وفي الشرفة، التي طالما حلمت بالجلوس فيها، انشغل ذهني عن مشهد النيل الرائع، ومن الهواء العليل، وحتى عن كوب الشاي، الذي قدمه لي عم (محمد)، حارس القصر، دون حتى أن أطابه، بتلك الأرقام، التي تزين الشرفة أيضا، في كل مكان، وكل زاوية...

أما (محمد بكر)، فلم يشغل هذا ذهنه لحظة واحدة، وهو يجلس في استرخاء، مستمتعًا بالهواء والنسيم، ومرتشفًا كوب الشاي في استمتاع، وهو يمد ساقيه أمامه، على سور الشرفة..

وبشيء من الغيظ، سألته:

- ألا تشغل هذه الأرقام اهتمامك أو انتباهك؟

سألني هدوء شديد:

- أية أرقام؟!

كدت أصرخ بعدها مستنكرًا، وأنا أجيبه:

- هذه الأرقام، المتناثرة في كل مكان.

فتح نصف عينيه في صعوبة، على نحو يوحي بأنه قد بذل جهدا خارقا، خاصة وأنه أحد الأعضاء المؤسسين لجمعية الكسل، وألقي نظرة لا مبالية على الأرقام، قبل أن يعود إلى استرخائه، قائلا في لامبالاة:

- وما لنا بها؟!

صرخت هذه المرة:

- من المؤكد أنها لم توضع هنا عشوائيا.. هناك هدف ما لوجودها حتما..

هز كتفيه، بنفس اللامبالاة المستفزة، وهو يقول:

- ربما.

قالها، وعاد يرتشف الشاي في هدوء واسترخاء، وأنا أنظر إليه في غيظ ليس بعده غيظ، وأتساءل في أعماقي، هل لو ألقيته في النيل الآن، سيعتبرون هذا نوعا من القتل العمد، مع سبق الإصرار والترصد، أم أنه مجرد دفاع شرعي عن النفس..

وكمحاولة أخيرة، أشرت إلى مجموعة من الأرقام، تزاحمت عند أحد أركان الجدار، وأنا أسأله:

- قل لي: ألا يدفعك هذا إلى التفكير في شيء ما؟!

انعقد حاجباه في اهتمام، واعتدل في مجلسه، وهو يقول بجدية:

- بالتأكيد..

خفق قلبي في قوة، وكدت أقفز من الفرحة، بعد أن تحركت مشاعره أخيرا، وسألته في لهفة:

- وفيم تفكر الآن؟!

أجابني بنفس الجدية والاهتمام:

- في أن الأمر يحتاج إلى كوب شاي آخر.

قالها، والتفت ينادي عم (محمد)، لإحضار كوب شاي آخر، في حين طلبت أنا منديلا، لمسح دموعي، التي انهمرت في غزارة، في يأس وقهر..

وبينما استرخى (محمد بكر) في وضع شبه نائم، على نسمات النيل، رحت أنا أنقل الأرقام في حماسة، في ورقة أحضرها عم (محمد)..

وعندما عدت إلى الوحدة الجبلية، رحت أرصّ الأرقام بعضها إلى جوار البعض، وأحاول إيجاد أية علاقة تربط بينها، أو حتى تربطها بآيات القرآن الكريم، أو بتاريخ الفراعنة، او حتى بأغاني (أحمد عدوية)..

وأخيرا، تأكدت من حقيقة واضحة، جاءت في تراثنا المصري الصميم..

«الفاضي يعمل قاضي»..

إنه الفراغ، الذي جعلني أبذل كل هذا الجهد، في محاولة لتحليل أرقام، موجودة منذ أكثر من قرن من الزمان، دون أن تشغل اهتمام، أو حتى انتباه أحد..

ثم جاء صديقي الدكتور (محمد حجازي) لزيارتي..

ولأن اهتماماته تقارب اهتماماتي، في هذا المضمار، فقد أخبرته بأمر أرقام قصر (الدندراوي)، وجلسنا معا نضرب أخماسًا في أنه أسداس، ونرصّ الأرقام، ونرتبها، ونعود لنرصها، ونرتبها ألف مرة على الأقل..

وفي كل مرة، كنا نناقش الاحتمالات، والارتباطات، قبل أن نقرر معا أن الأمر يحتاج إلى زيارة أخرى لقصر (الدندراوي)..

وبالطبع صحبنا صديقنا المشترك، الدكتور (محمد بكر)، الذي ظل على مبدئه، يرتشف الشاي، ويستمتع بالنسيم، ويسخر من

أصحابه المجانين، الذين يأتون إلى مكان رائع ساحر كهذا، وينشغلون بأرقام، لن تصل بهم إلى شيء..

وأعترف بأن صديقنا (محمد بكر) كان قوي الشخصية بالفعل؛ فبعد حيص وبيص، وحسابات ومناقشات، انتهى بنا الأمر - (محمد حجازي) وأنا - إلى مد سيقاننا على سور الشرفة، وارتشاف، الشاي، ومراقبة انعكاس الشمس على سطح النيل، ولتذهب كل أرقام الدنيا إلى الجحيم..

ولكن هيهات..

فور عودتنا إلى الوحدة الصحية، عاودتنا حالة التخلف العقلي والرقمي، وعدنا نرص الأرقام، وندرسها، و... و... وبلا بلى بلو با با با....

وسافر (محمد حجازي)، بعد انتهاء إجازته القصيرة..

وأنهى (محمد بكر) عمله في المحافظة، ليتسلم وظيفته الجامعية..

وبقيت أنا وحدي..

وقصر (الدندراوي)..

وألف ألف سؤال حائر..

أرقام، وأرقام، وأرقام، قضيت معها أياما وأسابيع، وشهورا، في زمن كان الكمبيوتر فيه مجرد خيال علمي جامح..

حاولت، وحاولت، وحاولت، ووضعت عشرات الاحتمالات والافتراضات، والحلول، و....

وأخيرا، انتهى بي الحال إلى مقعد في شرفة الوحدة الصحية، وساقان ممدودتان على سور الشرفة، وكوب شاي أرتشف منه في

بطء واسترخاء، وأنا أغمغم:

آه.. بركاتك يا (محمد بكر)..

ولأن كل المحاولات العلمية والمنطقية لم تصل بي إلى حل، ذهبت في عطلة نهاية الأسبوع إلى (قنا)، وابتعت كشكولا بسيطا، وقلما من أقلام الحبر، وزجاجة حبر أسود، وبدأت أكتب قصة قصر (الدندراوي)..

ودون أن أدري، وجدت نفسي أغوص في أعماق قصة خيالية، حول ذلك القصر، الذي أدار عقلي، وحرق دمي وأعصابي، لعدة أشهر طويلة..

قصة حملت اسم (سر القصر)..

ولم أدر لحظتها، بل ولم يخطر ببالي لحظة واحدة يومها، أن تلك القصة سترى النور يوما، في سلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠) نفسها، بنفس الاسم، بعد عدة سنوات..

ولكن المهم أنني قررت ألا أذهب مرة أخرى إلى قصر (الدندراوي)، الذي لم أستمتع مرة واحدة بشرب الشاي في شرفته الواسعة الجميلة، المطلة على نيل (مصر) الساحر.

ربما كمحاولة للحفاظ على ما تبقى من عقلي وأعصابي..

وانتهت فترة التكليف في (قنا)، وانتقلت إلى ريف الغربية..

وتركت القصر خلفي، بكل أرقامه، وأسراره، وعجائبه، وحرق الدم الكامن فيه..

وحتى لحظة كتابة هذه السطور، مازال القصر يقفز إلى ذهني، كل حين وآخر، مع أرقامه، وشرفته المطلة على النيل..

وما زلت أتمنى أحيانا العودة إليه، والجلوس في شرفته والاستمتاع بارتشاف كوب الشاي الساخن فيها..

لولا مشكلة واحدة..

ففي كل مرة أستعيد فيها ذكريات قصر (الدندراوي)، تقفز إلى ذهني صورة واحدة، تسيطر على كياني كله، وتهيمن على أفكاري كلها..

صورة (محمد بكر)..

☆ ☆ ☆

مذكرات طبيب

فى صعيد مصر الجوّانى

10- نقطة التحول.

فجأة، وبدون مقدمات، وجدت نفسي أشعر بالتعب والإرهاق، وأعاني التوتر والشعور بالغربة، وذلك المرض، الذي لم أجد له علاجا قط، على الرغم من أسفاري المتعددة، والمعروف باسم (الحنين إلى الوطن)..

والوطن هنا كان بلاد بحري بالطبع..

لم يكن هناك أي شيء قد تغير أو تبدل، فالأمور، والأحداث، والتقاليد، والعادات، وحتى المناظر والمشاهد، لا تتغير أبدا (والعياذ بالله)، في تلك المنتجعات الصعيدية الجبلية الفاخرة..

الوجوه هي الوجوه، والأحداث يشبه بعضها البعض، وما تراه اليوم لن يختلف كثيرا عما رأيته أمس، وعما ستراه في الغد..

وبعد الغد أيضا..

وما دام كل شيء على حاله، وكل شخص في مكانه، وكل جاموسة في غيطها، وكل حمار في زريبته، وكل شيء تمام يافندم، وليس في الإمكان أبدع مما كان، فهذا يعني أن التغيير قد أصاب شيئا واحدا..

أنا تغيرت حتما، ولم أعد أحتمل مواصلة هذا النوع من الحياة، الذي يختلف كثيرا عما ألفته أو أطمح إليه، خاصة وأنني، وخلال العام الأخير بالتحديد، كنت قد اعتدت الذهاب إلى مدينة (قنا)، مرة كل أسبوعين، وأنا أحمل حقيبة فارغة، سرعان ما تمتلئ بعشرات الكتب، التي أشتريها من (دار المعارف) هناك، لأعود بها إلى (أبو دياب شرق)، حيث أغرق في القراءة بكل النهم، ملتهما كل هذه الكتب، في شراهة لم أعهدها في نفسي من قبل،

حتى تنتهي الكتب، ويمضي الوقت، فأعود مرة أخرى إلى دار معارف قنا..

وهكذا..

أيامها، قرأت كل مؤلفات (نجيب محفوظ)، و (يوسف إدريس)، و (يوسف السباعي)، و (توفيق الحكيم)، و (إحسان عبد القدوس)، و (عبد الحميد جودة السحّار) و (مصطفى محمود)، والدكتور (عبد المحسن صالح)، و (دوستويفسكي)، و (مكسيم جوركي) وغيرهم، بالإضافة إلى عدد مدهش من الكتب التي تحكي تاريخ ثورة 23 يوليو 1952 م، ونشأة الصهيونية ودولة (إسرائيل)، ومذكرات القادة، ورجال السياسية والعسكرية..

وفي كل إجازة، كانت الكتب التي أعود بها إلى (طنطا) تثير دهشة الجميع، وأصبح من المعتاد أن أسمع سؤالا واحدا، بلهجة تجمع بين الدهشة، والاستنكار، وعدم التصديق:

- هل قرأت كل هذا؟!

ولم يكن أحدهم يتصور، أو حتى يتخيل، مقدار ما يمكن أن يلتهمه دودة كتب مثلي، في مكان منعزل، ليس فيه راديو أو تليفزيون، أو شخص يمكنني الاستمتاع بالتحدث إليه أو محاورته، اللهم إلا إذا تحاورنا حول المتغيرات السياسية في نجع الهوارة، أو مشروع تعويم عملة (أبو دياب)، في أحد فروع النيل القريبة..

وعلى كل حال، لم أحاول أبدا شرح الأسباب والمبررات، التي جعلتني أقرأ كل هذا الكمّ، الذي كان يحتل حقيبتين كبيرتين، أعود بهما إلى بلدتي كل شهرين، وإنما منحت كل من سألني جوابا مستفيضا، واضحا، مقنعا، كافيا، وأنا أجيب في حزم:

- أيوه.

ومن الواضح أن هذا كان يشرح الموقف كله؛ لأن أحدا لم يسألني بعدها عما يمكن أن يعنيه هذا..

ولأن أحدا لم يكن يعنيه هذا بالفعل..

أما أنا، فكان هذا يعنيني..

وبشدة..

القراءة المتواصلة بدأت تحفر في أعماقي قنوات عديدة، لا تجد مصبا لها، في أرض الصعيد، وبالذات في حضن الجبل.

وكان من الضروري أن أجد مصبات لقنوات أفكاري.

ولسبب ما، مازلت أجهله حتى هذه اللحظة، أو ربما لأن القدر كان يدخر لي مستقبلا مختلفا، بدا لي أنني لن أجد هذه القنوات إلا في بلدتي الأم، ومسقط رأسي (طنطا)..

وفي كل يوم يمضي، كانت الفكرة تتعمق في رأسي أكثر وأكثر، وتختمر على نحو واضح، حتى إنك لو وضعت رأسي في الفرن - أيامها - لخرجت أشبه بالرغيف البلدي القديم (الذي لم يره أحدكم حتما، إلا في كتب التاريخ بالطبع) من كثرة ما به من خميرة الأفكار..

ولكن ما حسم الأمر بالفعل، وما وضع لمسة النهاية، وجعلني أتخذ القرار النهائي، في حتمية ترك الصعيد، الذي قضيت في حضن جباله ثمانية عشر شهرا، هو موقعة حربية صعيدية، أطلقت عليها أيامها اسم (موقعة الدرباس).. نعم.. (الدرباس)..

إنك لم تخطئ قراءة الاسم..

ولكن مهلا، حذار أن تفعل مثلى، وأن تترك فكك السفلي يتدلى في بلاهة، وأنت تتساءل بنفس العبط، الذي تساءلت أنا به:

- إيه (الدرباس) ده؟!

فذات يوم، وبينما أنهي عملي في الوحدة الصحية، فوجئت بعدد ضخم من الجرحى والمصابين، يرد إلى المكان، والدماء تسيل من الرءوس والأكتاف، والأذرع والسيقان، كما لو أن قنبلة عنقودية قد انفجرت، وسط حشد من البشر هناك..

وبمنتهى الجزع (العبيط أيضا)، هتفت:

- ماذا حدث؟!

أجابني أحد المصاحبين لجيش الجرحى هذا:

- إنها معركة حول (درباس)..

نطقها باعتبار أن (الدرباس) هذا شيء شائع ومعروف، حتى إنني شعرت بأنه من العار أن أسأل عن ماهية هذا الشيء الفتاك الذي انجلت المعركة حوله عن جيش من الجرحى والمصابين، مع احتمال وجود قتلى حتما، مما يؤكد أن هذا (الدرباس) هو في حقيقته أحد أسلحة الدمار الشامل، التي من حسن الحظ أن (أمريكا) لم تسمع عنها، وإلا لجاءت بجيوشها، واحتلت الصعيد كله أيامها..

المهم أنني لحظتها ألقيت التساؤل حول (الدرباس) الرهيب هذا خلف ظهري، وأنا أشمر أكمامي، وألتقط خيوط الجراحة، وأبدأ عملي..

لست أذكر بالتحديد كم غرزة جراحية قمت بها، في ذلك اليوم، ولكنها بدت لى لحظتها أكثر من ألف واحدة، ثمانون في المائة

منها تمت بعد نفاد البنج الجراحي تماما، دون أن تبدو لمحة واحدة من الألم، على وجوه الجرحى، حتى تصورت لبعض الوقت أنني أخيط بعض الرتوق في سجاد قديم، وليس بعض الجروح، في رءوس وأجساد حية..

واستغرق ترميم أثر موقعة (الدرباس) الرهيبة هذه أكثر من ثلاث ساعات كاملة، ولم يعد بالوحدة الصحية أدنى أثر للقطن أو الشاش، أو حقنة مصل تيتانوس واحدة (هذا لو أن التيتانوس يجرؤ على إصابة الإخوة الصعايدة هناك)..

وغادر آخر مصاب الوحدة الصحية، بعد أن تصورت أنني سألفظ أنفاسي الأخيرة هناك، وأصبح أول طبيب يحمل لقب (شهيد الدرياس)..

وبابتسامة ذئبية بريئة، جاء كاتب الوحدة الصحية (حجاج) يقول:

- يوم مرهق.. أليس كذلك؟!

كان يحمل في يده دفتر الوفيات، فيدا لي وكأنه ينتظر سقوطي، ليدون اسمي فيه، إلا أنه قال في هدوء، كعادته كلما استعد للقيام بعملية نصب متقنة:

- لدي شهادتا وفاة، تحتاجان إلى توقيعك..

سألته في حذر:

- أهما قتيلان من موقعة (الدرباس)؟!

فوجئت به يقهقه ضاحكا، وكأنما سمع نكتة جديدة متقنة، قبل أن يقول، وكأنه يتحدث إلى تلميذ في (KG1)، في مدرسة الصعيد للمعتوهين:

- معارك (الدرباس) تحدث كل يوم، ولم يسقط فيها قتيل واحد، منذ نشأ الصعيد..

وهنا وجدتها فرصة نادرة؛ لأسأله في لهفة:

- إيه (الدرباس) ده؟!

وهنا، فاجأني (حجاج) بأن (الدرياس) ليس أحد أسلحة الدمار الشامل، أو حتى غير الشامل، بل هو مجرد حاجز من التراب..

نعم يا صديقي المندهش..

(الدرباس) الخطير هذا، والذي نشبت حوله تلك المعركة الطاحنة، مجرد حاجز من التراب، لا يزيد ارتفاعه على عشرة سنتيمترات، يفصل كل قطعة أرض عن الأخرى، في الرقعة الزراعية للبلدة كلها..

ومعركة ذلك اليوم نشأت من أن أحدهم قد داس ذلك (الدرباس) المقدس بقدمه، فصنع فيه فتحة بعرض القدم، أي لا تزيد أيضا على عشرة سنتيمترات (بمقاييس أقدامنا)، أو متر وربع المتر (بمقاييس أقدامهم)..

ودون مناقشة، أو عتاب، أو حتى شجار، رفع صاحب (الدرباس) المنتهك شومته الصعيدية، التي تزدان مقدمتها بقطع من الحديد، وهوي بها على رأس المعتدي الآثم..

ولأن القاعدة في الصعيد الجواني هي أن من يرشهم بالماء يرشونه بالشومة؛ حتى يتفجر منه الدم، فقد تدفع شقيق المصاب، وهوى على رأس صاحب (الدرباس) بشومته.

وهنا، أسرع ابن صاحب (الدرباس)، وهوى بشومته على رأس شقيق المعتدي..

وهكذا..

شومة من هنا، وشومة من هناك، وتفجرت الدماء في كل مكان..

وحدثت الموقعة..

موقعة (الدرباس)..

كل هذا، بدلا من أن يعيد أحدهم التراب إلى مكانه، وينتهي الأمر في ثوان معدودة..

ولكن من يهتم..

الشومة دائما أسرع من اللسان..

وأكثر حسما أيضا..

وفي تلك الليلة، وعلى الرغم من كل ما أشعر به من تعب وإرهاق، لم يغمض لي جفن أبدا..

كان ذهني يدرس ذلك الفارق الجوهري الأساسي، بين العقل والشومة.. وليلتها، ربط ذهني بين كلمة (درباس)، وكلمة (ترباس)، ولن أخبركم لماذا (افهموها أنتم)..

وفي الصباح الباكر، انطلقت إلى مديرية الشئون الصحية في (قنا)، وقدمت طلب نقل إلى ريف (الغربية)....

وفور عودتي إلى الوحدة الصحية، في (أبو دياب شرق)، بدأت أستعد للعودة إلى بلدتي (طنطا)..

جمعت كل الكتب في حقيبتين، وكل الملابس، إلا ما يكفي لفترة الانتظار، ما بين تقديم طلب النقل، وصدور القرار..

وعلى الرغم من الصداقات التي عقدتها هناك، بدت لي الأيام المتبقية أشبه بدهر بلا نهاية، وأصبحت الثواني تمضي

كالدقائق، والدقائق تسير كالساعات، والساعات تبطئ كالأيام..

أما الأيام نفسها، فبدت أشبه بالسنوات..

وربما بالسنوات الضوئية أيضا..

وحتى تمضي الأيام الصعبة، قررت أن أقضي معظم وقتي في أكثر مكان أشعر فيه بالبهجة، في (أبو دياب شرق)، نظرا لصعوبة الانتقال اليومي إلى (أبو دياب غرب)، حيث أصدقائي الحقيقيين (عبد العليم)، و (كمال)، و (أبو الحسن)، وغيرهم..

وكان هذا المكان هو مندرة عم (على)..

وعم (على) هذا رجل بدين، خفيف الظل، متفتح العقل إلى حد مدهش، ويعشق الحياة إلى درجة لم أر لها مثيلا، سواء في الصعيد، أو حتى في وجه بحري..

وعلى الرغم من أن عم (على) كان من كبار الهوارة، وأكثرهم سطوة وثراء، فقد تزوج فتاة من العرب، وأنشأ منزله في منتصف المسافة، بين نجع الهوارة ونجع العرب، وكأنما يعلن بهذا أنه صاحب فكر وسط بين العقليتين، كما صمم بيته بأسلوب مدني، أكثر منه قروي..

وكان الوحيد، في القرية كلها، الذي يمتلك سيارة خاصة، وكانت هذه حالة فريدة أيامها بالفعل..

وطوال الوقت لم يكن عم (على) يتحدث إلا عن أمرين، لا ثالث لهما..

الطعام..

والنساء..

وكان مغرما بالأمرين إلى حد مدهش ومضحك، ويعلن هذا دون انقطاع، باعتبار أن هذه هي كل متع الحياة، من وجهة نظره..

ومن المصادفات المدهشة، أن رقم لوحات سيارته الخاصة كان ستة آلاف وستمائة وستة وستين.. أي أربع ستات، كما يحلو له أن ينطقها..

ولقد استقبلني عم (على) في منزله بترحاب واضح، وحرارة لا مثيل لها، واستمع إلى جيدا، وأنا أخبره عن سبب رغبتي في ترك الصعيد كله، ثم أيد وجهة نظري، وأخبرني أن هذا أمر طبيعي، وأن ما يحدث هو نقطة تحول رئيسية في حياتي كلها..

ثم أصرّ على أن أصبح ضيفا يوميا على مائدته، خلال الفترة المتبقية لي، في قرية (أبو دياب شرق)..

وخلال الأيام التالية، كانت في انتظاري مفاجأة مدهشة فعم (على)، على الرغم من تعليمه المحدود جدا، رجل مفكر وفيلسوف، إلى أقصى درجة..

كانت له فلسفته الخاصة، وآراؤه الحرة المتقدمة، ونظرياته الثورية، حول علاقة الهوارة بالعرب، وحتمية نبذ الخلافات (السامية) بينهما، وعقم فكرة عدم التزاوج بين أسرهما..

وانبهرت أنا بكل ما أسمعه منه، وأدركت أن أحاديثه عن النساء والطعام، كانت لثقته في أن أحدا لن يفهمه..

فالرجل كان بالفعل يسبق زمنه بعدة أعوام، وهذا ما جعله يعزل نفسه عن أقرانه من الهوارة، وحتى عن أصهاره من العرب، وينشئ منزله في منتصف المسافة بينهما..

وبدأت أستمتع بجلساتي مع عم (على)، وأفرغ معه بعض قنوات فكري، وأقدم على علم الاقتراب منه، طوال عام ونصف العلم، و...

وفجأة، وبعد أن بدأت أستقر - لأول مرة - في (أبو دياب شرق)، وصل قرار النقل..

وكانت هذه نقطة تحول، في مسار حياتي العملية...

بل وفي مسار حياتي كلها..

☆ ☆ ☆

مذكرات طبيب

فى صعيد مصر الجوّانى

(الفصل الأول .. والأخير)

المؤسسة العربية الحديثة

11 - الفصل الأول.. والأخير..

أخيرا، وصل قرار النقل..

نقلي من ريف (قنا)، إلى ريف محافظتي (الغربية)..

لا يمكنني أن أصف الآن تلك المشاعر المتناقضة العجيبة، التي ملأت كياني كله، مع وصول القرار، بعد طول انتظار، ولكن من المؤكد أنها كانت تتراوح بين الفرح، لانتهاء فترة الغربة، والحزن لمفارقة كل من صادقتهم وارتبطت بهم هناك..

في حضن الجبل..

وفجأة، وعلى عكس كل ما تصورته، وجدت نفسي أشعر باشتياق مسبق لكل ما يحيط بي..

اشتياق للريف، والبشر، والجبل..

وحتى عجل البوهي الضخم..

وفجأة أيضا، وجدت نفسي أنهمك في لقاء كل الأصدقاء هناك، وفي زيارة كل مكان عرفته، في الصعيد الجواني..

كنت كالمهاجر، الذي تنتابه رغبة عارمة، في التزود بكل ما يحب من تراب وطنه، قبل أن يفارقه، ويرحل بعيدا عنه..

وبعيد هنا كلمة مضحكة بحق، فمحافظة (قنا) ليست في آخر العالم، وإنما تبعد بضع مئات من الكيلومترات فحسب.

ولكنه شعور الغربة..

كل الغربة..

المهم أنني قاومت باستماتة ذلك الشعور، بأن (أبو ديب شرق) هي وطني الثاني، وفكرت في عمل بعض التحاليل الطبية؛ لأتأكد من أن الفيروس (الأبوديابي) لم يتسلل إلى مجرى دمي بالفعل، وإلا لأصبحت أول بحراوي صعيدي في التاريخ، وقررت أن أتم إجراءاتي بأسرع ما يمكن، حتى أبتعد بسرعة عن تراب (أبو دياب شرق)، قبل أن أجد نفسي فجأة متمرغا فيه، ومتشبثا به..

وفي اليوم التالي، سافرت إلى مدينة (قنا)، وبدأت في إنهاء إجراءات النقل..

ولأننا في (مصر)، بلد التعقيدات الإدارية، التي تكاد تثبت أن قدماء المصريين هم أول من كشف البيروقراطية، كان من الطبيعي أن أجد أمامي عدة عقبات، في سبيل إخلاء الطرف، وكأنني أهم طبيب في الصعيد كله، ومحافظة (قنا) كلها تتشبث بوجودي، وتتمنى أن أظل فيها إلى الأبد..

وفجأة، ظهرت تحقيقات لم تكتمل، وأوراقا لم توقع، وصيدلية لا يوجد متفرغ لعمل الجرد اللازم لها، لإنهاء عمليات التسليم والتسلم، و....، و...

وفي صبر، رحت أنهى الإجراءات، وأطارد موظفي الشئون القانونية؛ لإقناعهم باستكمال التحقيقات، التي لا أدري متى بدأت، أو لماذا نشأت من الأساس، دون أن أعلم عنها شيئا..

ومن كثرة ما واجهته من تحقيقات مرهقة، راودني شعور بأنني (خط الصعيد)، وهو مجرم عريق، كانت له شنة ورنة فيما مضى، وحولته الصحف إلى أسطورة إجرامية صعيدية، وتصورت نفسي أحمل مدفعا آليا، و (ألبد) وسط حقول الذرة، لأطلق النار على موظفي الشئون القانونية، واحدا بعد الآخر، ثم أتحول

بعدها أنا أيضا، إلى أسطورة إجرامية، بحراوية، صعيدية، خنفشارية، بسبب كومة من التحقيقات، انتهت كلها إلى لا شيء، وإلى إثبات أنه لم يكن هناك مبرر لإجرائها من الأساس!!

ولكن ربنا سبحانه وتعالى - ستر، وانتهت التحقيقات كلها إلى الحفظ، قبل أن أستبدل بثيابي طاقية وجلبابا، وبمسامعي الطبي مدفع آليا سريع الطلقات، وأغير اسمي إلى (الخط...)..

وبقيت مشكلة عهدة الأدوية، وضرورة أن يتسلمها شخص ما، حتى يمكنني إخلاء طرفي، والواقع أنه مع الجهد الرهيب الذي بذلته، حتى يتم إخلاء طرفي، كدت أتصور أن الطرف المطلوب إخلائه هو مجرد ذيل، وليس طرفا آدميا أساسيا..

وبعد أن انتابني اليأس، فاجأت الطبيب، الذي سيحل محلى، في وحدة (أبو دياب شرق)، بزيارة صباحية، في المركز الطبي في مدينة (قنا)، وأيقظته من نومه، وطلبت منه أن يتسلم العهدة، حتى يمكنني الفرار..

إحم.. أقصد إخلاء الطرف (الذي تبين أنه ليس ذيلا، كما خيل إلى).

ووافق الطبيب الشاب، في سهولة أدهشتني، بعد أن اعتدت من كل شخص وكل جهة تحويل السهل إلى صعب، واليسير إلى عسير.

وافق، ووقع محضر التسليم والتسلم، دون حتى أن يتأكد من صحة ما به، كما لو أن كل ما كان يفكر فيه لحظتها هو أن يعود إلى النوم، وأن أغور أنا من وجهه في تلك الساعة المبكرة..

ولأنني مازلت أحمل بعض الدم في عروقي، فقد اكتفيت بتوقيعه، وتركته يعود إلى النوم، وطرت أنا إلى مديرية الشئون الصحية؛

لإنهاء إجراءات إخلاء الطرف..

وبهذا الإجراء الأخير، حدثت المعجزة، وأنهيت المطلوب، وحصلت على إخلاء الطرف، الذي يحوي في نهايته، ككل الأوراق الحكومية، تحذيرا يؤكد أنه ليس نهائيا، وأنه لو تم كشف شيء، أي شيء، في غضون الألف سنة التالية، فسيعتبر لاغيا، ولا قيمة له..

حتى لحامله..

ومع إخلاء الطرف، الذي أعاد لي القدرة على اللعب بذيلي، حصلت على خطاب من مديرية الشئون الصحية بمحافظة (قنا)، إلى مديرية الشئون الصحية بمحافظة الغربية)، يؤكد فيه أنني منقول وظيفيا، من الأولى إلى الثانية..

وفي تلك الليلة سهرت مع كل الأصدقاء القدامى، وأقمنا احتفالا صعيديا أصيلا، امتلأت خلاله معدتي بالبط المحمر، والأوز المشمر، والويكة والملوخية بالطبع وفي الصباح التالي، حملتني سيارة الأسطى (عبد الله) إلى مدينة (قنا)، مع ثلاث حقائب، تحوي كل ما يخصني، ومنها حقيبة كتب بالطبع، وعند رصيف المحطة، ودعني (عبد الله)، وركاب سيارته، وساعدوني في حمل الحقائب إلى المقهى الصغير هناك، لأجلس في انتظار القطار، و....

وفجأة، وجدت أمامي مفاجأة...

(حجاج) شخصيا، جاء ليودعني، أو ليطمئن بنفسه على أنني سأعود بالفعل إلى (طنطا)، وسيتوقف الصراع بيني وبينه نهائيا..

والمدهش أن (حجاج) كان يومها مثالا للشهامة والكرم والجدعنة، وهو يصر على دعوتي على كوب من الشاي، وعدد

من السندوتشات الطازجة، ثم جلس يتحدث معي كصديقين عزيزين، حتى وصل القطار، فحمل الحقائب بنفسه إليه، وعانقني في حرارة، وهو يؤكد لي أنه لن ينسى فترة عملنا معا أبدا.. وفي القطار استرخيت في مقعدي، ورحت أراجع الموقف كله، وأنا أتساءل:

أين وضع (حجاج) جرعة السم بالضبط؟! في الشاي، أم في السندوتشات؟!

ولكن يبدو أنه لم يضعه في هذا أو ذاك، فقد ظلت معدتي عادية، باستثناء الانتفاخ الذي تصنعه سندوتشات الفول بالطبع، ولم تتأثر حالتي الصحية العامة، مما جعلني أقتنع بأن (حجاج) كان مخلصا في وداعه لى..

أو أنه قد استخدم نوعا من السموم الهندية، بطيئة المفعول!

والعجيب أنني، ولأول مرة في حياتي، غفوت في مكان متحرك، واستغرقت في نوم عميق، على ذلك المقعد الوثير، في قطار الدرجة الأولى، ولم أستيقظ، أو أشعر بالطريق، الذي قطعته وتعذبت فيه عشرات المرات، حتى أيقظني أحدهم في محطة (القاهرة)، وهو يقول في ضجر:

- (مصر) يا أستاذ.. صح النوم.

نطقها، وكأنه يقول في أعماقه:

- (عالم جبلّات.. أنا عارف إزاى بيجيلهم نوم في القطر؟!!)

واستيقظت، وتثاءبت، ونهضت في تكاسل ألذ من العسل، وحملت حقائبي، مستمتعا بالنوم، لأول وآخر مرة، في وسيلة سفر، وغادرت رصيف (القاهرة)، لأحجز تذكرة في قطار

(طنطا)، وأجلس في انتظار القطار، الذي سيحملني إلى مدينتي أخيرا.

وفي (طنطا)، شعرت بالحرية والأمان والألفة، وأسرعت إلى نادي الأطباء المقابلة الزملاء والأصدقاء، متصورا أن رحلة الغربة قد انتهت، وأنني قد بدأت مرحلة الاستقرار، في محافظتي (الغربية).

ولكننا في (مصر)..

والجملة الاعتراضية السابقة قد لا تعني شيئا، أو قد تعني كل شيء، وهذا يتوقف على عدة عوامل، أهمها موقعك في المجتمع، ومقدار تفاعلك معه، وما إذا كنت مستيقظا، أم غائبا عن الوعي..

ففي مديرية الشئون الصحية بمدينة طنطا)، وبعد توزيعي على وحدة صحية ريفية أخرى، في (قرية سجين الكوم)، التابعة المركز (قطور)، فوجئت بأن خطاب استلام العمل يفيد بأنني منتدب في (الغربية)، ولست منقولا، كما يقول الخطاب، الذي أتيت به من محافظة (قنا)..

ولأنني ساذج وعبيط، ولدي فترة خدمة صعيدية محترمة، تعاملت مع الأمر ببساطة، واعتبرتها مجرد مشكلة إدارية بسيطة، لن تلبث أن تجد طريقها إلى الحل، إن عاجلا أو آجلا..

وكما يقولون: نمت في العسل نوما..

حتى جاء أول الشهر..

وبنفس السذاجة والعبط، وقفت في طابور الرواتب، في انتظار راتبي، الذي لم أعد أمتلك سواه، في تلك المرحلة، التي حمل

فيها إصبعي دبلة الخطبة، وحمل فيها رأسي ألف هم وهم، لمطالب لابد أن تتحقق، حتى تتحول الخطبة إلى زواج..

ثم جاء دوري، وابتسم كاتب الوحدة الصحية في (سجين الكوم)، وهو يخبرني بكل بساطة أنه لا يوجد راتب لي!!

وبكل ذعر الدنيا، صرخت:

- يا نهار مش فايت! طب ليه!!

وبابتسامة حملت شيئا من السخرية والشماتة، أخبرني الكاتب أنني منتدب، ولست منقولا، وهذا يعني أنه ينبغي أن أصرف راتبي من محافظة (قنا)، وليس من (الغربية)..

وحتى بعد هذا، تصورت أن المشكلة لها حل (شوف السذاجة)، ولكن محافظة (قنا) تمسكت بأنني منقول إلى (الغربية)، ولست منتدبا، وأن (الغربية) هي المسئولة عن صرف راتبي..

ورحت أنا أجرى بين (قنا) و (الغربية)، في محاولة لصرف راتبي..

ولكن هيهات..

ألم أقل لك: إننا في (مصر)!!

ومع إرهاقي، ويأسي من الحصول على راتبي، الضائع بين محافظتين، يفصل بينهما ما يقرب من ألف كيلومتر، اقترح علي صديقي وزميلي الدكتور (محمد حجازي)، أن نفتتح عيادة صغيرة في نفس القرية، التي أعمل فيها، كمحاولة لتدبير بعض الدخل، حتى يستيقظ ضمير العالم، ويمكنني صرف راتبي المتوقف من شهور وشهور..

وبكل ما تبقى من مدخرات فترة العمل في الصعيد، افتتحت العيادة، مع زميلي الدكتور (محمد حجازي) (أستاذ الطب

الشرعي والسموم حاليا)

وفي العيادة جلسنا (حجازي) وأنا، نحلم بالنجاح والثراء، وننتظر قدوم الزبائن..

أي زبائن..

ومضى شهر آخر..

وشهر إضافي..

وشهر رمضان..

ولم يتجاوز زبائن عيادتنا أصابع اليدين..

وبدلا من أن تقدم لي العيادة مصدرا للدخل، التهمت ما تبقى من مدخراتي، وجعلتني أصل إلى ما يصفه أولاد البلد (في وجه بحري طبعا)، بأنني «على الحديدة»

بل لقد فكرت في الذهاب إلى سوق الحدادين، للبحث عن مشترٍ للحديدة نفسها..

وفي غمرة اليأس والفقر والإفلاس، توقفت مؤقتا عن التدخين، وكنت أيامها مدخنا شرهًا، أستهلك ما بين ثمانين إلى مائة سيجارة يوميا، ولكنني توقفت تماما عن التدخين؛ لأنني لم أكن أمتلك ثمن سيجارة واحدة، ورحت أسير من حيث أقيم إلى محطة القطار..

حتى يمكنني توفير ثمن تذكرة (الأوتوبيس)..

صحيح أن أسرتي كان يمكنها أن تساندني ماليا، في تلك الفترة، لأن والدي (رحمه الله)، كان يمتلك مكتبا للمحاسبة، يدرّ دخلا جيدا، إلا أنني كنت أشعر بالخجل، من طلب النقود من والدي،

بعد أن أصبحت طبيبا، وتقدمت لخطبة فتاة أحلامي، وسافرت للعمل في الصعيد..

كان من العسير بعد كل هذا، أن أخبره أنني مفلس تماما، ولا أملك شروى نقير (ولو أثني أجهل تماما ما هو هذا النقير)..

وكعادتي، احتفظت بأزمتي في أعماقي، ولم يعلم بما أعانيه سوى خطيبتي، وصديق عمري (محمد حجازي)، الذي أقرضني خمسة جنيهات، شعرت لحظتها أنها ثروة، ورحت أنفق منها بمنتهى الحذر، خشية أن تنفد، قبل أن يصل الراتب من دهاليز الحكومة..

وفي تلك الفترة أيضا، وبينما كنت أستعد لركوب قطار الدرجة الثالثة، المعدلة لتتساوى مع الدرجة العاشرة آدميا، ابتعت مجلة صغيرة، تصدر عن الهيئة العامة للكتاب، لأطالعها في القطار.

كان ثمنها أيامها قرشين فحسب (لو أن هذا الجيل يعرف ما هو القرش)، ولم أجد فيها في الواقع، ما يجذبني لقراءته، سوى شيئين اثنين، لا ثالث لهما..

دراسة عن قانون حق المؤلف، ومسابقة على الغلاف الأخير المسابقة كانت تعلن عنها المؤسسة العربية الحديثة، للطبع والنشر والتوزيع، حول كتابة قصص من الخيال العلمي للشباب، وكان آخر موعد للتقدم للمسابقة، هو آخر أيام يوليو، عام ١٩٨4 م..

وفي العيادة، ولأنني أعاني هناك من وقت فراغ ضخم وكبير، رحت أضع بدايات قصة من قصص الخيال العلمي، أطلقت عليها أيامها اسم (أشعة ضاد)..

لم تكن الفكرة جديدة بالنسبة لي، فقد كنت أكتب الكثير من القصص والأفكار الخيالية في أثناء عملي في (أبو دياب شرق)، وكانت هذه واحدة من الأفكار، التي راقت لي أيامها، والتي بدت متناسبة تماما، مع ما تطلبته المؤسسة في مسابقتها.

ولأن وقت الفراغ كبير، راحت الصفحات تمتلئ وتمتلئ في سرعة، ولم تمض أيام ثلاثة، حتى كنت قد انتهيت من كتابة القصة..

وبعد انتهائي منها، وضعتها في درج المكتب في العيادة، وسيطرت عليّ حالة اليأس والإحباط، المصاحبة في المعتاد للإفلاس والضيق، فأهملت أمرها، ونسيت أمر المسابقة كلها تماما..

وذات يوم، في بدايات الأسبوع الأخير من يوليو، فوجئت بزميلي الدكتور (حجازي) يعود من العيادة، وهو يحمل القصة معه، ليخبرني أنها قصة جيدة، ويسألني لماذا كتبتها..

وشرحت له الأمر كله.. المسابقة، وقصص الخيال العلمي.. إلخ

وتحمس الدكتور (حجازي) كثيرا للفكرة، وطلب مني تقديم القصة للمسابقة، وشاركه في هذا زميلنا (أشرف صبحي)، إلا أن حالة اليأس والإحباط، التي كنت أعاني منها، منعتني من مشاركتهما، حماسهما فأخبرتهما أن الأمر لا يعنيني تماما، وأنني لا أظن أن قصتي يمكن أن تلقى قبولا، بل وتماديت إلى حد الاقتناع بأن إعلان المسابقة هو إجراء وهمي تماما، وأن الفائز فيها محدد مسبقا..

ولأنني يائس وعنيد، تعاون الدكتور محمد حجازي) مع الزميل (أشرف صبحي)، وقاما بكتابة القصة على الآلة الكاتبة، باعتبار أنه لم تكن هناك أجهزة كمبيوتر منزلية أيامها..

وفي يوم 30 يوليو 1984 م، حاول الاثنان إقناعي بالسفر، في الصباح التالي، باعتباره آخر أيام المسابقة، لتسليمها إلى المؤسسة..

ولكنني رفضت تماما..

يومها، تصور كلاهما أن الأمر مجرد عناد بحت، ولكنه كان في الواقع خجلا من أنني لا أملك ما يكفي للسفر إلى (القاهرة)، بعد أن التهمت المصروفات اليومية، التي أقتصد فيها إلى أقصى حد نصف ما أقرضني إياه (حجازي)، ولم يكن في استطاعتي (نفسيا)، أن أقترض قرشا إضافيا، أيا كانت الأسباب..

المهم أن (أشرف) لم يرق له رفضي هذا، فقرر أن يسافر بنفسه إلى (القاهرة)؛ لتسليم القصة، وإنجاز بعض الأعمال هناك، في الوقت نفسه.

والعجيب أنني لم أبال كثيرا بهذا، وتصورت أنهما يبذلان جهدهما دون طائل!!

. وسافر (أشرف) في اليوم التالي، وأنجز أعماله كلها أولا، ثم اتجه إلى المؤسسة في نهاية اليوم، لتسليم القصة..

وفي اللحظة التي وصل فيها (أشرف) إلى المؤسسة، كانت تغلق أبوابها، في نهاية آخر يوم من أيام العمل في شهر يوليو، وآخر لحظة من لحظات التقدم للمسابقة..

ولكن القدر كان مصرًّا على المضي حتى النهاية..

لقد رفض (أشرف) الانصراف، وأصر على تسليم القصة، حتى ولو تعطل إغلاق المؤسسة..

ولأنه عنيد ومثابر، اضطروا لاستلام القصة منه، بعد اتصالهم هاتفيا بأستاذي الأستاذ (حمدي مصطفى)، صاحب ومدير المؤسسة، واستئذانه في هذا....

وهكذا.. كانت قصتي (أشعة ضاد)، هي آخر قصة يتم استلامها في المسابقة، في آخر دقيقة عمل، مساء 31 يوليو 1984 م..

وأخبرني (أشرف) أنه قد سلم القصة، ولم أشعر بأدنى اهتمام في أعماقي، في غمرة يأسي وإحباطي....

كان كل همي أيامها أن أحصي ما تبقى من الجنيهات الخمسة، وأن أضع خطة إنفاق المتبقي، بحيث يكفي لأطول فترة ممكنة..

أما خطيبتي، فقد أخفت الأمر عن أهلها بالطبع، واكتفت بأن نتنزه معا سيرا على الأقدام؛ لعلمها بأنني لا أمتلك ثمن كوب شاي، في أي (كازينو) حقير..

وفي يوم السابع من أغسطس، كنا نتنزه معا، عندما توقفت هي أمام سجادة أنيقة، في واجهة أحد محال القطاع العام، وأبدت إعجابها الشديد بها، ورغبتها في اقتنائها، ولكنني ذكرتها بأنها مخطوبة لأكثر أهل الأرض إفلاسًا، وأنه عليها أن تمحو الفكرة من رأسها تماما..

ليلتها، عدت إلى حيث أقيم، وأنا أشعر بإحباط ويأس أكثر، و...

وفوجئت باتصال هاتفي من والدي (رحمه الله)..

اتصال، أخبرني فيه أن خطابا قد وصل باسمي، من (المؤسسة العربية الحديثة)، وسألني عما إذا أردت أن يفتحه، ويقرأه على مسامعي أم أنني أفضل قراءته بنفسي فيما بعد..

وبمنتهى اللهفة، طلبت منه قراءة الخطاب..

وكانت مفاجأة كبيرة...

الخطاب كان يحمل اسم المؤسسة، مع طلب بحضوري إلى مقرها الرئيسي في المنطقة الصناعية في حي العباسية، للتعاقد بشأن القصة التي قدمتها..

قصة (أشعة ضاد)..

ولا يمكنني أن أصف مدى سعادتي ولهفتي يومها، على الرغم من أنني لم أتصور لحظة واحدة، أن هذا الخطاب سيغير مسار حياتي كلها، وإنما كان مصدر سعادتي كله، هو أن هذا سيعنى جائزة..

والجائزة ستعنى انفراجة مالية..

أخيرا..

وأنهيت المحادثة مع والدي، وجسدي كله يرقص فرحًا.

ثم فجأة، ذهبت السكرة وجاءت الفكرة كما يقولون..

الخطاب يطلب مني السفر إلى مقر المؤسسة في (القاهرة) للتعاقد!! طب منين!!

وبسرعة، رحت أحصي ما تبقى معي، من الجنيهات الخمسة المقدسة إياها..

كنت أمتلك مائتين وخمسة وثلاثين قرشا بالضبط..

ولأنني أجهل تماما تكلفة السفر إلى العاصمة، فقد رحت أضرب أخماسا في أسداس، حتى مطلع الفجر، عندما اتخذت قراري بالسفر، أيا كانت النتائج..

وبعد الفجر بقليل، حملت حقيبة أنيقة، حوت صحيفة اليوم فقط، وخرجت مرتديا حلة صيفية أنيقة، لأسير إلى محطة القطار (توفيرا للنفقات)، ثم ابتعت تذكرة (عودة يومية)، في أحد قطارات الدرجة الثالثة، باعتبار أن هذه أرخص وسيلة للسفر إلى (القاهرة)، وكانت تساوي خمسة وأربعين قرشا بالتمام والكمال، في ذلك الوقت..

وكان هذا يعني أن أسافر إلى (القاهرة)، وأنا لا أحمل سوى مائة وتسعين قرشا في جيبي فحسب!!

وسافرت...

ولأنني أرتدي حلة أنيقة أكثر مما ينبغي، وأحمل حقيبة لم يعتد حملها إلا رجال الأعمال والشخصيات المهمة في ذلك الوقت، أفسح لي الكل مكانا كبيرا، في قطار الدرجة الثالثة غير المكيفة، وتعاملوا معي بحذر وتحفظ غير طبيعيين، وكأنني مسئول كبير، متنكر ليتابع أحوال الدرجة الثالثة (آل يعنى ده بيحصل!)..

وفي الثامنة إلا عشر دقائق من صباح الثامن من أغسطس

١٩٨٦ م، وصلت إلى (القاهرة)، وغادرت محطة مصر، لأرى أمامي طوفانا من البشر، لم أعتد رؤيته في مدينتي (طنطا)، ولا في قلب الصعيد بالطبع..

ولأنني غريب، والغريب أعمى ولو كان بصيرا، كما تقول الحكم الشعبية القديمة، فقد رحت أسأل عن تلك المنطقة الصناعية في (العباسية)، التي لم أكن أعلم عنها، سوى أنها تضم مستشفى الأمراض النفسية والعصبية الشهير..

وأخيرا، جاء سائق إحدى سيارات الأجرة، وأخبرني أنه يعلم أين هي، ولكنه لا يعرف كيفية وصف الوصول إليها.

سألت المارة، وسائقي الأوتوبيسات، ورجال المرور، وحتى باعة الصحف..

ولكن أحدا لم يكن يعلم أين تلك المنطقة الصناعية في العباسية.

ولأنه خبيث، وأنا غر ساذج، قادم من الأقاليم، فقد وافق على حملي إلى المكان مقابل جنية فقط..

ومزقت قلبي كلمة فقط، التي نطقها في بساطة، دون أن يدرك أن ما يطلبه يتجاوز نصف ما أحمله بالفعل، ولكنني وافقت، وركبت السيارة الأجرة، وأنا أمني نفسي بأنني سأحصل على جائزة، ستكفيني لركوب أوتوبيس خاص في أثناء عودتي (شوف السذاجة).

المهم أن السائق قد حملني إلى ميدان (العباسية)، ثم أنزلني هناك، و (لهف) الجنيه، وبعدها سألته عما إذا كانت هذه هي المنطقة الصناعية، فأجابني مبتسما بأن هذه هي (العباسية)، ولكنه لا يعرف أين المنطقة الصناعية..

قالها، وتركني منصرفا، وأنا ذاهل واجم، ألعن كل سائقي سيارات الأجرة في سري، وأبكي من أعمق أعماقي، على الثروة التي فقدتها دون طائل..

وبدأت رحلة بحث جديدة، ورحت أسأل مرة أخرى عن المنطقة الصناعية، حتى أرشدني إليها أحدهم، فقطعت الطريق إليها سيرا على الأقدام، تحت شمس أغسطس اللطيفة، حتى غمر العرق جسدي كله، وبدأت أتساءل عما إذا كان الانتحار، في مثل هذه الأحوال، جريمة دينية وقانونية، أم أنه يعتبر واجبا قوميا لأمثالي..

وقبل أن أتوصل إلى قرار في هذا الشأن، وجدت نفسي أمام المؤسسة في قلب المنطقة الصناعية، فالتقطت نفسا عميقا، ودخلتها بكل الثقة، مرفوع الرأس، أسأل عن الأستاذ (حمدي مصطفى)، وأعلن أنني هنا بخصوص المسابقة، وبخصوص قصتي (أشعة ضاد)..

واستقبلني (عادل عبد الحميد)، مدير مكتب الأستاذ (حمدي) حينذاك، بالكثير من المودة والترحاب، وأخبرني أن الأستاذ (حمدي) لا يأتي في مثل هذه الساعة، وكانت التاسعة تقريبا، ولكنه يأتي في الثانية عشرة؛ لأنه ينصرف قبل نهاية اليوم بعد غروب الشمس، وطلب مني أن أعود في منتصف النهار..

وكانت صدمة بالنسبة لي..

أعود؟! هذا يعني أن أذهب، وأن أقطع المسافة نفسها سيرا على الأقدام، تحت شمس أغسطس، ثم أعود مرة أخرى، وقد فقدت مائة كيلو على الأقل، وتحولت إلى كائن ميكروسكوبي دقيق، وربما وحيد الخلية أيضا!!

وبمنتهى الحزم، أخبرت (عادل) أنني لن أذهب، وسأنتظر الأستاذ (حمدي)، حتى ولو وصل بعد منتصف الليل..

ولم يعترض (عادل) قط، وإنما اصطحبني بمنتهى الجدعنة إلى حجرة مجاورة لحجرة مكتب الأستاذ (حمدي)، وأحضر لى مجموعة كتب لمطالعتها، وكوب شاي ساخن وتركني هناك، وراح يطمئن على راحتي كل ربع ساعة تقريبا، بمودة وشهامة زائدتين، حتى خيل إلى أنني أحد أقرب أقاربه، ولست مجرد فائز في مسابقة، أتي للتعاقد بشأن قصته، ويحلم بمكافأة تخرجه من أزمة مالية طاحنة..

وفي الثانية عشرة تقريبا، وصل الأستاذ (حمدي)، ودعاني لمقابلته، وفي مكتبه استقبلني بنفس الترحاب والمودة البسيطة، ثم أخبرني بأجمل شيء سمعته في حياتي كلها

أخبرني أنه من بين عشرات أو مئات القصص، التي وصلت إلى المؤسسة، بسبب المسابقة، لم يشعر أن هناك قصة تناسب ما يريده، أكثر من قصتي (أشعة ضاد) ...

وبعدها راح يسألني عن نفسي، وعن شهادتي، ثم سألني عن موعد عودتي إلى (طنطا)، وعن القطار الذي حجزت فيه تذكرة العودة..

وفي موقف كهذا، كان من العسير أن أخبره أنني أتيت بتذكرة عودة اليومية في قطار من قطارات الدرجة الثالثة، وأن مثل هذه القطارات العظيمة لا تحتاج إلى حجز، ولكن إلى القفز فوق أحد المقاعد، والتشبث به إلى حد الاستماتة فحسب..

لذا، فقد أخبرته أنني سأعود في قطار الثانية، ولم أكن أعلم حتى ما إذا كان هناك قطار إلى (طنطا)، في الثانية أم لا..

وفي بساطة، طلب مني الأستاذ (حمدي) البقاء حتى الواحدة والنصف، على أن يرسل سيارته لتوصيلي إلى المحطة، في ذلك الموعد..

لحظتها شعرت بالارتياح؛ لأن هذا يعني ادخار التسعين قرشا المتبقية في جيبي، خاصة وأن الأستاذ (حمدي) طوال حديثه معي، لم يذكر كلمة جائزة أو مكافأة، أو حتى كلمة مسابقة، ولو مرة واحدة..

لقد تحدثنا عن القصة، وعن أبطالها، وفكرة اختيار فريق علمي، وبخاصة الخبير النفسي فيه، ثم سألني عما إذا كنت سأجعل

ذلك الفريق، ورئيسه (نور)، هم أبطال كل الروايات التالية!

وكانت هذه هي أول إشارة إلى أن الأمر لا يقتصر على قصة واحدة، فازت بمسابقة محدودة، وإنما يمتد إلى سلسلة طويلة، لا أحد يعلم كم من العناوين ستندرج تحتها..

وبالنسبة لي، كما تصورت لحظتها، كانت إشارة إلى أنه لا توجد هناك جائزة أو مكافأة، وإنما تعاقد طويل الأمد..

ومر الوقت بسرعة، ونحن نتحدث عن الروايات، والقصص، والمستقبل المنتظر، و.....، و...

وفجأة، أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة والثلث وكان هذا يعني أن أستعد للانصراف، للحاق بالموعد الذي حددته مسبقا..

ونهضت بالفعل، لأخبر الأستاذ (حمدي) أنني سأنصرف،

فصافحني بحرارة وهتف ينادي (ويليام)، ليقلني إلى محطة القطار، وهو يناقش معي موعد لقائنا التالي..

ولكن أيضا دون إشارة واحدة إلى جائزة أو مكافأة، أو حتى قرشين ثمنا للمواصلات.

وركبت السيارة مع (ويليام)، الذي انشغل في مناقشة أمر ما، مع أحد العاملين بالمطبعة، وأنا في السيارة، أفكر في القروش التسعين التي سأعود بها إلى (طنطا)، بعد أن تهورت، وأنفقت أكثر من نصف ثروتي، في مغامرة السفر إلى (القاهرة)..

وعاد (ويليام) إلى السيارة، واستعد للانطلاق بها، و.....

وفجأة، وجدت الأستاذ حمدي) يخرج مسرعا من المطبعة، ويهتف بـ (ويليام) أن يتوقف، ثم يتجه إلى ويعتذر بشدة، على

أن الحديث قد جذبنا، فنسينا أن نوقع عقد اتفاق فيما بيننا، وبعدها التفت إلى (ويليام)، يسأله إن كان يحمل نقودا أم لا..

ولقد أدهشني هذا كثيرا، فلم أكن أعلم أيامها أن (ويليام) يعتبر السكرتير الشخصي للأستاذ (حمدي)، وتصورت أنه سائق سيارته فحسب، وتساءلت: كم يمكن أن يحمل السائق من نقود، وخيل إلى أن الأستاذ (حمدي) سيعطيني قرشين للمواصلات فحسب، وضايقني هذا كثيرا، وأنا أراقبهما يتحدثان في اهتمام، ثم يغيبان في المطبعة لحظات، وعاد (ويليام) بعدها إلى مقعد القيادة، في حين أعطاني الأستاذ (حمدي) مظروفا منتفخا، وهو يعتذر مرة أخرى عن عدم توقيع العقد، ويخبرني أنه يعتبر هذا المبلغ مقدّم أتعاب، حتى نلتقي في المرة القادمة..

وانطلق (ويليام) بالسيارة، وكل ذرة في كياني تلتهب فضولا.

ترى كم يحوي هذا المظروف المنتفخ؟!

وبحسبة بسيطة فإنه حتى ولو كان يحوي جنيهات (فرط)، فسيضم مبلغا يفوق ما أملكه بالفعل بعشرات المرات..

واسترخيت في مقعدي بارتياح، حتى وصل (ويليام) إلى المحطة، وغادرت السيارة، وهو يسألني عما إذا كنت أرغب في الذهاب إلى أي مكان آخر، وبعدها حياني منصرفا..

وبينما ينطلق بالسيارة، أخرجت المظروف في لهفة، وفتحته، وألقيت نظرة سريعة على محتوياته، قبل أن يخفق قلبي بمنتهى العنف..

فالورقة الأولى، كانت عبارة عن عشرين جنيها دفعة واحدة.

ويا لها من ثروة..

وصدقوني، لقد شعرت لحظتها أنني مليونير.. بل ملياردير..

وبدا لي أنني قادر على منافسة (أوناسيس) نفسه..

وبكل الحزم، أخرجت تذكرة العودة اليومية، في الدرجة الثالثة، وألقيتها بطول ذراعي، معلنا انتهاء مرحلة الفقر والإفلاس..

وبمنتهى الثقة، اتجهت إلى نافذة حجز الدرجة الأولى، وطلبت تذكرة لمدينة (طنطا)..

كانت الساعة تقارب الثانية، وهناك قطار سينطلق إلى (طنطا)، خلال أقل من نصف الساعة، ولكن لم تكن به مقاعد خالية في الدرجة الأولى؛ لذا فقد قررت الانتظار، حتى موعد قطار الرابعة، لأحصل على تذكرة درجة أولى مكيفة (عقد نفسية بقي)..

وفي انتظار موعد القطار، اتجهت إلى بائع الصحف، وابتعت كومة من الصحف والمجلات، لم تتجاوز كلها العشرين جنيها، بأسعار تلك الأيام..

وكإثبات للثراء والفخفخة، اشتريت (خرطوشة سجائر إنجليزية)، ألقتيها في حقيبتي الفارغة، التي امتلأت بالكتب والصحف والمجلات، واتجهت إلى كافتيريا المحطة، التي لم أكن أجرؤ على الاقتراب منها من قبل، في أثناء قدومي في الصباح، وطلبت وجبة غذاء مع مشروب غازي، وجلست أطالع الصحف، مثلما سيفعل أي مليونير زميل، المضحك انني، وعندما ركبت القطار، وجلست في مقعد من مقاعد الدرجة الأولى، التى كدت أنسى هيئتها، منذ آخر مرة عدت فيها من (قنا)، كانت مضيفة القطار تسأل عمن يرغب في تناول وجبة الغداء، وعلى الرغم من كوني متخما من الطعام والشراب في الكافتيريا، وجدت نفسي أطلب منها وجبة غداء، وأنا أقول لنفسي في أعماقي:

- (أيوه غدا.. هو إحنا فقراء والا ايه)!

وجاءت وجبة الغداء الثانية، التهمتها بشهية مفتوحة، حتى إنني وصلت إلى طنطا بكرش كبير، يشبه كرش أي مليونير محترم، واتجهت على الفور إلى محل القطاع العام، وابتعت تلك السجادة، التي كانت تحلم بها خطيبتي، وحملها عامل إلى سيارة الأجرة، التي أقلتني إلى منزلها، الذي دخلته مثل (عنتر بن شداد)، وخلفي من يحمل نياق كسرى الحمر.. أقصد السجادة إياها..

وكانت نقطة تحول كبرى، في مسار حياتي كلها....

ففي زيارتي التالية للأستاذ (حمدي)، تغير اسم قصتي إلى (أشعة الموت)، وحملت السلسلة اسم (ملف المستقبل)، وقدمت العدد الثاني منها..

وبعدها توالت الأعداد، وظهرت سلسلة (رجل المستحيل)، ثم سلاسل أخرى، وأخرى، وأخرى..

وكان هذا هو الفصل الأول من رحلة طويلة، استمرت حتى لحظة كتابة هذه السطور..

والفصل الأخير من رحلة أخرى طويلة، ومرهقة وجميلة في الوقت نفسه.

رحلة طبيب أديب..

في صعيد (مصر) الجواني.. قوي..

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

مذكرات مخرج إعلانات..

السبت ٢٩ ديسمبر..

الثلاثاء 39 ديسمبر..

الأربعاء ٣٠ ديسمبر..

الخميس 31 ديسمبر..

السبت ٣ يناير..

الثلاثاء 5 يناير..

الأربعاء 13 يناير..

السبت 17 أبريل..

الأربعاء 31 يوليو..

السبت 22 سبتمبر..

الخميس 7 نوفمبر..

الاثنين 26 ديسمبر..

مذكرات زوج سعيد.. (1)

مذكرات زوج سعيد (2)

مذكرات زوج سعيد.. (3)

مذكـرات طبيب.. في صعيد مصر الجواني..

مقدمة..

1- الصـعيد..

2- البخيل وأنا..

3- حجاج..

4- صديقي اللص..

5- أعداء صغار..

6- كولة أبو ليلة..

7- الباشا العجل..

8- في يوم.. في سنة..

9- قصر الدندراوي..

10- نقطة التحول.

11 - الفصل الأول.. والأخير..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

ملحق للمذكرات

طب ليه!

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠

ملحق للمذكرات

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

طب ليه (ج١)

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- السؤال..

ارتسمت ابتسامة جميلة، على شفتي المذيعة الفاتنة، أثناء لقاء تلفزيوني، في إحدى المحطات العربية الفضائية، وبدت عيناها الواسعتان، بعدستيهما الزرقاوين أشبه ببحر من الفضول الناعس، وهي تسألني بصوت ناعم رقيق، عن المعاناة الشديدة التي واجهتها، عن قصة كفاحي المضنية، التي جعلت منى كاتبا معروفا إلى حد ما، في أوساط الشباب العربي..

ومع سؤالها، الذي لم يخطر ببالي قط من قبل، رحت أستعرض في ذهني بسرعة، تفاصيل حياتي، ونشأتي، وصباي، وشبابي، وأنبش في كل ركن منها بحثا عن المعاناة، والكفاح، والذي منه ولكنني فشلت تماما..

ربما كانت في حياتي كومة من المتاعب والمصاعب، التي يواجهها في المعتاد أي شاب مثلي، نشأ في أسرة متوسطة بسيطة مترابطة، لا هي بالفقيرة، بحيث يعاني شظف العيش، وينحت في الصخر؛ ليؤمن لنفسه سبل العيش، أو يقضى لياليه في الاستذكار على مصباح الغاز؛ ليواصل دراسته، ولا هي بالثرية المرفهة، بحيث لا يحتاج إلى الكفاح من الأساس، ولا يضطر أبدا لمواجهة معاناة شديدة وقاسية، أو حتى ضعيفة وهادئة..

وهناك أيضا مجموعة من المصادفات، التي حفرت بصماتها على حياتي، بعضها غير مسارها كله، والبعض الآخر عدل من أخطائها، أو صنع فيها أخطاء جديدة وكبيرة..

ولكن لا معاناة شديدة..

أو كفاح شاق..

أو صراع للبقاء..

وبكل بساطة، وعن اقتناع تام، وأمام عدسات التصوير، أجبت المذيعة الفاتنة بما توصلت إليه، وبأن حياتي كانت أكثر بساطة، و...

وانقلبت ملامح المذيعة الأنيقة تماما، وازدادت عيناها الجميلتان اتساعا، وبدت عدستاهما الزرقاوان الصناعيتان أشبه ببحر من الارتياع والذعر والاستنكار، وهي تهتف داعية المصور للتوقف.

وأعترف أن الدهشة قد أصابتني بحق عندئذ، وأنني تصورت لحظتها أن لساني قد زل، دون أن أنتبه، أو أننى قد نطقت لفظًا خارجا، على نحو أو آخر، مما يستحق ذلك الهلع، والذعر، والارتياع..

ثم أفهمتني المذيعة ذلك الخطأ الفادح، الذي وقعت فيه دون قصد فمن العار، كل العار، بالنسبة (للست) المنيعة، ومعد البرنامج، ومخرجه المحترم، أن أجيب بالحقيقة وأن أخبر المشاهد أن نجاحي المحدود، في مجال الألب، لم يرتبط بقصص كفاح عنيفة أو مضنية.

فمن وجهة نظرهم جميعا، ينبغي أن أنسج قصة كفاح تسيل لها الدموع وحدوتة معاناة يتمزق لها الوجدان؛ حتى ينتشى المشاهد ويستمتع، ويدرك أنه ما من حلاوة بدون نار، و...، و...، و....

ورفضت تماما تلك النصيحة النمطية..

رفضتها بكل عناد وإصرار..

وبكل (رخامة) أيضا..

فالثقة التي حرصت على بنائها، وتوطيد أواصرها لسنوات وسنوات، بيني وبين القارئ، وإصراري على التعامل معه دوما بكل الصدق والصراحة والوضوح، لم تعتمد أبدا على قصة كفاح زائفة، أو ملحمة معاناة كاذبة..

ولم تقتنع المذيعة الفاتنة..
ولم يقتنع المُعِدّ أو المخرج..
ولم أقتنع أنا أيضا..
وأمام إصرار الجميع، تم إلغاء السؤال كله من اللقاء، وحذفه من مضبطة الجلسة تماما أيضا، حتى لا يصبح عارا على حياتي ومستقبلي فيما بعد (من وجهة نظرهم طبعا)..
وفي نهاية اللقاء، وبعد أن توقف التسجيل، وبينما (نلملم) أوراقنا، استوقفتني المذيعة، ونصحتني أن أعيد التفكير في الأمر مستقبلا، حتى لا أفقد احترامي أمام القارئ، إذا ما تصور أن وصولي إلى ما أنا عليه، اعتمد على المصادفة وحدها..
وهنا هتفت، وبكل دهشتي: «طب ليه؟! »
لماذا ينبغي أن أكذب، لأكتسب الاحترام؟!
ولماذا لا يكون الوضوح والصدق، هما السبيل إلى هذا؟!
كانت هذه الأسئلة في البداية، إلا أنها بدت لي فيما بعد أسئلة نمطية تقليدية، لن يفيد الجواب عليها، في قليل أو كثير؛ إذ إنها أقرب إلى القضايا الفلسفية الاجتماعية، منها إلى أسئلة واضحة محددة، تحتاج إلى إجابات علمية منطقية، ومباشرة..
ثم إن السؤال نفسه راح يكبر في ذهني ومعناه يتسع...
ويتسع..
ويتسع..
فحياتي بالفعل تعتمد على مجموعة عجيبة من المصادفات، التي قادني تسلسلها إلى ما اختاره لي الخالق . عز وجل - في لوح قدر مكتوب!!
طب ليه؟!
لماذا وضعت تلك المصادفات نفسها في طريق حياتي؛ لتغير مساري على هذا النحو العجيب، الذي نقلني من عالم الطب،

إلى عالم الأدب؟!
لماذا؟!
ففي حداثتي، قرأت عبارة مأثورة، لعالم شهير، أثناء وصفه للتغيرات الجذرية، التي قفزت بالعلم إلى مرحلة هائلة من التطور؛ بسبب سقوط تفاحة عادية، على رأس (إسحق نيوتن)، لتدفعه إلى وضع قوانين الجاذبية الشهيرة..
عبارة تقول: «الصدفة لا تأتي إلا لمن يستحقها..»
وعلى الرغم من حداثة سني، عندما قرأت تلك العبارة، فقد طورتها فلسفة خاصة في أعماقي، لأعتبر أن الصدفة لا تأتي إلا لمن يمكنه أن يستخدمها، لمصلحة الدنيا والعباد..
فهل يمكن أن ينطبق هذا على حالتي؟!
هل يمكن أن تكون لما كتبته طيلة عمري أية فائدة لعباد الله - سبحانه وتعالى -؟!
أو حتى لبعضهم؟!
هل يمكن أن تساعد كلمة واحدة، من آلاف الكلمات التي كتبتها، في دفع مخلوق واحد إلى الخير، أو الصلاح، أو حب الوطن، وتنفيذ تعاليم الخالق. عز وجل.؟!
هل يمكن هذا؟!
لو حدث هذا، مع فرد واحد، لكانت نعمة ما بعدها نعمة، وهبة تستحق أن أسجد لله شكرا عليها، حتى آخر نفس يتردد في صدري..
ولكن كيف أجد الجواب؟!
وأين؟!
أفي مراحل حياتي الأولى، ونشأتي في مدينتي (طنطا)، أم في مرحلة الصبا والشباب، وصراعات الانتخابات الطلابية، والجامعية، أم في مرحلة تفتح القلب للحب والهوى، وليالي السهر والسهاد؟!

أم أن الجواب يكمن في مرحلة العم...
وحياة المستشفيات..
وأعماق الصعيد..
أم في هذا كله، في وقت واحد؟!
من العسير، والعسير جدا أن أجيب الآن..
ينبغي إذن أن أستعرض معكم حياتي كلها..
ومنذ البداية..
لعل هذا وحده يجيب السؤال الحائر إياه..
طب ليه؟!

☆ ☆ ☆

٢- شقاوة..

في طفولتنا كنا عفاريت بحق..
كنت أكبر أشقائي، ولي ثلاث شقيقات، وكلنا نقيم في شقة هادئة، في حي جميل، أمام مبنى محافظة الغربية مباشرة.. (أصبح الآن مبنى مجلس مدينة طنطا)..
شقتنا كانت، ولا تزال، من ثلاث حجرات، واحدة كانت لأبي وأمي، وثانية لحجرة السفرة؛ لأن والدتي تجيد الطهي، وتعشق إقامة الولائم للأهل والأصدقاء، وثالثة كنا ننام فيها كلنا في طفولتنا..
والدي كان (رحمه الله) محاسبا قانونيا، في شركة من شركات القطاع الخاص، وأمي ربة منزل مثقفة متعلمة، وتجيد كل الفنون المنزلية، بالإضافة إلى الرسم أيضا..
في ذلك المنزل، نشأت وإخوتي..
كنا ثلاثة، يفصلنا عام بين كل واحد وآخر، ثم تأتي شقيقتنا الصغرى، التي تصغرني بعشرة أعوام كاملة، والتي كنت وما زلت

أعتبرها ابنتي الكبرى، بأكثر مما هي شقيقتي..
ولقد عجزت أمي عن السيطرة علينا بحق..
فذات يوم، مازلت أذكره حتى الآن، كما لو أنه حدث أمس، كنا في أول أيام العيد، وكان أبي يمنعنا من استخدام الصواريخ الحارقة، التي كانت منتشرة في تلك الأيام؛ لذا فقد كنا نشتريها سرًا، ونشعلها في الشرفة، لنستمتع برؤية الشرارات النارية الشبيهة بالنجوم، التي تتطاير منها..
وفي أول أيام العيد، اشترينا صاروخين سرا، أنا وشقيقاتي، ولكن أخوالي كانوا يجلسون مع أمي وأبي في الشرفة، ونحن نتحرق شوقا لإشعال الصاروخ؛ لذا فقد اخترنا ما تصورنا أنه مخبأ آمن..
أسفل مقعد الصالة الكبير..
وبمنتهى الحماس، أشعلنا الصاروخ، وتطايرت شراراته، وصفقنا جزلا..
ثم فوجئنا بالمقعد كله يشتعل...
وتعالت صرخاتنا، وفررنا من تحت المقعد، وهرع أبي وخالي إلى الصالة، وحملا المقعد معا وهو مشتعل، ووضعناه في الحمام تحت الدش..
ولا داعي لوصف العلقة، التي حصلنا عليها، في أول أيام العيد!!
مرة أخرى، كان والدي يجرد بعض الملفات القديمة، وأخرج كل ما لا يحتاج إليه منها، ووضعه في الشرفة..
ولأسابيع طويلة، اعتدنا رؤية الملفات القديمة في الشرفة، وكنا نعلم أنها مهملة، ولا أحد يحتاج إليها..
وذات يوم، كان المحافظ يمر في شارعنا، متجها إلى مبنى المحافظة، ولست أدرى لماذا تصورت وشقيقاتي أن أفضل وسيلة لتحيته، هي أن نلقي عليه الأوراق الممزقة من النافذة..

وليوم كامل، رحنا نمزق تلك الملفات القديمة إلى قطع ورقية صغيرة، ملأت وعاء كبيرا..
وفور مرور موكب المحافظ، ألقيناها عليه..
ومن المؤكد أن العلقة كانت أكبر في تلك المرة؛ ربما لأنها علقة سياسية أيضا..
كنا عفاريت، ولكننا . شقيقاتي وأنا . كنا نتمتع بشهامة كبيرة، مع بعضنا البعض، فلم يحاول أحدنا أبذا التنصل من العقاب، بإلقاء التبعة على آخر، ولم يش أحدنا بشقيقه قط، وإنما كنا نفضل العقاب الجماعي، على عقاب أحدنا بمفرده..
وإذا ما عوقب أحدنا وبكي، كنا كلنا نبكى، كما لو أن العقاب قد طالنا جميعا..
لم تكن هذه سمتنا وحدنا، وإنما كانت سمة أطفال العائلة كلهم؛ إذ كنا مجموعة كبيرة، في سن متقاربة، نتشارك كل شيء تقريبا، ونلتقي في منزل جدي، في أيام الخميس، وفي كل الأعياد والعطلات الرسمية.
ومنزل جدي هذا كان من المنازل القديمة، ذات ست الحجرات، وكل حجرة منها بحجم شقة كاملة، من شقق هذه الأيام، حتى أنه هناك حجرة، كنا نجلس فيها جميعا، وكانت تتسع لكل العائلات، وعلى الرغم من هذا، فنحن نطلق عليها اسم (الحجرة الصغيرة)..
وجدتي لأمي كانت تعشق . كمعظم أقرانها . تربية الطيور المنزلية والأرانب، وكان سطح منزلها أشبه بمزرعة كاملة، تجد فيها كل الأنواع تقريبا، من بط، وأوز، ودجاج، وفراخ رومية، وأرانب، وأكشاك للحمام..
وفي كل صباح، عندما نقيم مع جدتي، كنا نتناول إفطارا من البيض الطازج، من مزرعتها الصغيرة على السطح..

وعلى الرغم من أن طنطا مدينة وليست قرية ريفية، كانت جدتي شديدة الاعتناء بطيورها تقضى معها ساعتين على الأقل يوميا، ومن أمتع لحظات حياتنا أن نصعد معها إلى السطح، ونجري خلف البط، أو نداعب الأرانب الصغيرة..

وفي نهاية الشهر، عندما تقل النقود، كانت جدتي تصعد إلى السطح، وتنتقى بعض الطيور، لتجعل منها غذاء لنا، وكنا نعلم أن منزل جدى في ضائقة مالية، كلما أكثرنا من أكل البط والديوك الرومية هناك!..

ولم أر جدتي في حياتي كلها حزينة، بقدر ما رأيتها، عندما سطا أحد اللصوص على طيورها ذات يوم، ولست أدرى حتى كيف فعل هذا، ولكنها صعدت ذات صباح، فلم تجد إلا عددا قليلا منها..

بعدها، قرر خالي أن يبتاع كلب حراسة..

وأصبحت لدينا لعبة جديدة..

كان الكلب ضخما مخيفا، ولكننا كنا نلعب معه طوال الوقت، ونعامله على نحو لست أدرى كيف كان يحتمله، فقد كانت شقيقتي الصغرى تمتطيه كالحصان، والكبرى تشد أذنيه كلما رأته، وأنا أتعلق بذيله، وعلى الرغم من هذا، فلم يحاول حتى أن يخدش أحدنا، ولو مرة واحدة..

ومن الواضح أن هذا لم يرق للصوص، الذين أعجزهم وجود كلب حراسة عن سرقة الجيل التالي من الطيور، فألقوا إليه قطعة لحم مسمومة، قضت عليه من ساعته..

وأحضر خالي كلبا ثانيًا..

وثالثا..

ورابعا..

وفي كل مرة، كان اللصوص يدسون له السم، ويسرقون الطيور من السطح، حتى اقترح أحدهم إحضار كلب صغير، وتربيته في المنزل، بحيث يعتاد ألا يأكل إلا من يد صاحبه....
ونفذ خالي النصيحة، وأحضر جروا أصبح لعبتنا أيضا، وارتبط بنا بشدة، حتى أنه كان يصر على توصيلي إلى منزلنا، كلما غادرت منزل جدي، ثم يعود إلى مقره مرة ثانية..
ونجحت الفكرة نجاحا مدهشا، وألقى خالي القبض على لصين بالفعل، بفضل كلبه الجديد..
وامتنع اللصوص عن سرقة مزرعة جدتي..
ومع الوقت، تزاوج الكلب، وجاء جروان صغيران، ثم ثلاثة، وأضيفت الكلاب إلى مزرعة السطح، وأصبحت أكثر خطرا على الطيور من اللصوص أنفسهم..
ولست أدرى متى بدأ اهتمام جدتي بتربية الطيور يخف حتى تلاشى تماما..
ففي مرحلة دراستي الجامعية، عندما أقمت في منزل جدي إقامة دائمة، لم يكن لدى جدتي سوى علبة من الكارتون، بها بعض الكتاكيت الصغيرة، ولكن يبدو أن انشغالها بالعناية بي عوضها عن تربية الطيور، فنسيت هذا تماما..
نعود إلى فترة الطفولة، وإلى شقاوتنا، التي مهما بلغت، فلن تبلغ ما فعلته وحدي بأمي، التي فوجئت ذات يوم بأصحاب المحال في الشارع يطرقون بابها، ويخبرونها في هلع أن ابنها الوحيد يسير على الإفريز الخارجي للشرفة..
وهرعت أمي إلى الشرفة، ونحن نقيم في الطابق الثالث، فوجدتني أسير على الإفريز الخارجي بالفعل، مقلدا أحد أفلام المغامرات، التي شاهدتها في السينما..

وعلى الرغم من هلع أمي ورعبها، فقد تماسكت تماما، وطلبت مني في هدوء أن أعود إلى الداخل، فأخبرتها في حماس أننى أفعل ما فعله البطل في الفيلم، فابتسمت في عصبية، وكررت طلبها بالعودة.. وعدت إلى الشرفة..
وكان يوما عصيبا..
ولكن المدهش في الأمر هو أن أمي لم تبلغ أبي قط بما حدث، وحاولت إخفاء الأمر، حتى لا يعاقبني عليه، ولكنه علم من أصحاب المحال في الشارع، و...
والبقية معروفة..
ولكن على الرغم من صرامة أبي في التعامل معي، كان شديد التشجيع، في الوقت ذاته، لكل موهبة تظهر عليّ.
ورثت الرسم عن أمي، ولكن اهتمامي الأول، منذ أيام الدراسة الابتدائية كان كتابة القصص..
كتبتها في مدرسة الإنبابي الابتدائية في (طنطا)
ولهذا قصة..

☆ ☆ ☆

٣- أبلة سهير..

عندما أراجع ذكرياتي، بعد كل هذه السنوات، يدهشنى ويضحكني كثيرا، أن أول من نصحني بالكتابة، كان أبلة (سهير)، مدرسة الألعاب، في مدرسة الإنبابي الابتدائية، ببلدتى (طنطا)..
والمضحك أكثر، أنها توصلت إلى هذا بسبب إهمالي إحضار ثياب الألعاب، أثناء حصتها..
وأبلة (سهير) هذه كانت شابة لطيفة وجميلة ومرحة، عندما كنا تلاميذ في المرحلة الابتدائية، وأول ما جذب انتباهي فيها،

هو أنها كانت تعشق القراءة، ومن النادر أن تراها دون أن تحمل كتابا أو مجلة، أو تطالعها في اهتمام..
وأنا منذ طفولتي، أكره الالتزام المفروض؛ لذا فقد كان من الممكن تصنيفي بأنني تلميذ مشاغب في هذا الشأن، بدليل أننى وصديقي القديم والعزيز، أستاذ الهندسة النووية حاليا (محمد العفيفي)، قد سببنا للمدرسة ارتباكا شديدا، عندما تنقلنا من مجال إلى مجال، في حصة الهوايات، خلال شهر واحد..
ولهذا قصة..
فعندما علمنا أنه من الضروري أن نختار مجالًا لحصة الهوايات، من بين أربعة مجالات؛ الموسيقى، والزراعة، والتدبير المنزلي، قررنا ـ هو وأنا ـ دون تردد، أن نختار الأشغال المنزلية..
لم يكن هذا حبا في المجال نفسه، ولكن لسبب مختلف تماما..
لقد كانت والدة (محمد)، هي مدرسة الأشغال؛ لذا فقد تصورنا أنها ستجاملنا، وتفسح لنا المجال؛ لقراءة المجلات المصورة، التي كنا نتبادلها طوال الوقت..
وذهبنا إلى قسم الأشغال، في أول حصة هوايات في العام الدراسي، وكلنا ثقة، ولكننا فوجئنا بوالدة (محمد) تطالبنا بشراء مفارش (كانافاه)، والعمل عليها!!..
كنا الولدين الوحيدين، في قسم كله بنات، ولم نتقبل فكرة شغل الكانافاه، وحياكة الملابس، وخياطة الأزرار..
فتمردنا.. و..
كانت والدتى قد أسرعت بشراء مفرش كانافاه، وكأنما يسعدها هذا، ولكنني و(محمد) رفضنا الاستمرار تماما، وأصررنا معا على تغيير المجال...
وعلى الرغم من جهلنا الموسيقى التام، قررنا الانتقال إلى الموسيقى في البداية كان الأمر ممتعا، فنحن نذهب إلى فصل

الموسيقى، لنضرب على أية آلة تروق لنا، ونصدر بعض الأصوات المزعجة فحسب..
ولكن دوام الحال من المحال..
فذات يوم، فاجأتنا أبلة (جليلة)، مدرسة الموسيقى، بأنه من الضروري أن نحضر شورتا أزرق، وقميصا حريريا أبيض، وبابيونا أزرق..
وتصورنا نفسنا (مسخة) الفصل، في زي البلياتشوهات هذا، خاصة وأن كل منا أجهل من دابة في هذا المضمار..
وكالعادة، أسرعت أمى إلى شراء زى الموسيقى، ولكنني رفضت بشدة، وأخبرتها أنني اتفقت مع (محمد) على تغيير المجال مرة ثانية..
وفي هذه المرة، انتقلنا إلى قسم الزراعة..
كان قسما مملًا للغاية، فطوال الوقت نعد مربات، وزجاجات شراب، ونقوم بزراعة البصل والبطاطس، وهذا يمنعنا من القراءة؛ لذا فقد تعمدنا إفساد الأمر هذه المرة، فرحنا نأكل المربى، ونشرب الشراب الحلو، حتى جن جنون الأستاذ (سيد)، فأصرّ على طردنا..
كنا فرحين بإصراره هذا، قبل أن ننتبه إلى حقيقة مفزعة..
لم يعد أمامنا إلا قسم التدبير المنزلى..
وفي يأس، جلسنا في حوش المدرسة، نتخيل أنفسنا بمريلة المطبخ، وكل منا يطهو أحد أصناف الطعام، وكدنا نبكى من شدة القهر..
وفي الأسبوع التالي، ذهبنا إلى حصة التدبير المنزلي، لنجد أننا . أيضا . الولدان الوحيدان في قسم بنات، وخشينا ما ستفعله بنا أبلة (دولت)، قبل أن يفاجئنا موقفها تماما.. "

فأبلة (دولت) كانت من الطراز القديم، الذي يجد عيبا في أن يقوم الذكور بالطهي، والذي يؤمن بأن هذا عمل المرأة وحدها..
وعلى الرغم من أن هذه الفكرة غير صحيحة؛ بدليل أن أشهر طهاة العالم من الرجال، إلا أنها أسعدتنا تماما..
ففي كل حصة تدبير، كنا نجلس (أنا ومحمد)، إلى جوار النافذة، مع كومة من المجلات المصورة، ننهمك في قراءتها، في حين تشترك البنات مع أبلة (دولت) في طهي أصناف مختلفة من الطعام، ويقتصر دورنا على تذوقه، باعتبار أن الذكور هم أفضل متذوقين (وهذا رأى أبلة (دولت)، وليس رأيي)..
حصة التدبير المنزلي، التي تجنبناها طويلًا، كانت إذن جنتنا الحقيقية..
لقد قرأنا فيها أكثر من ألف مجلة مصورة..
والمجلات المصورة، كانت هي السبب الرئيسي، لارتباطى بأبلة (سهير)..
ففي واحدة من حصص الألعاب، التي نسيت فيها الزي كالمعتاد، وجدت أبلة (سهير) معى بعض القصص المصورة، فراحت تطالعها في اهتمام، ونسيت أمر زى الألعاب وحصة الألعاب كلها..
ولقد التقطت الدرس بسرعة، على الرغم من صغر سنى..
ففي كل مرة، كنت أتجاهل زى الألعاب، وأحضر لأبلة (سهير) كومة قصص مصورة جديدة؛ لتفادي العقاب..
وكانت لعبة ناجحة، إلى أقصى حد..
وذات مرة، نفذت القصص الجديدة، فذهبت إلى الحصة دونها..
ودون زى الألعاب أيضا...

وعندما واجهت أبلة (سهير)، كان من الضروري أن أجد وسيلة لتفادي العقاب؛ لذا فقد أخبرتها عن قصة جديدة مثيرة قرأتها، ولكنني فوجئت بها تسألني عن مضمونها، وهنا، ولأول مرة في حياتي، وجدت نفسي أؤلف قصة..
كان من الضروري أن تكون مثيرة..
مشوقة..
وممتعة..
وبقدر استطاعتي، كطفل في سنته الابتدائية الخامسة، رحت أؤلف قصة، عن تمساح من الغابة، سار حتى أطراف المدينة، ووجد نفسه وسط الناس، الذين أصابهم الفزع.. ورحت أؤلف الأحداث، على الهواء مباشرة، بأسلوب يناسب سنى، وأسعدني أن أبلة (سهير) كانت تستمع لي بمنتهى الاهتمام، فتصورت أن خطتى قد نجحت، ولكنني ما إن انتهيت، حتى فوجئت بها تبتسم، وتقول:
- تعرف يا واد.. انت بتألف قصص حلو قوى.. اكتب الحدوتة اللي قلتهالي دى، وحاخليهم يحطوها في مكتبة المدرسة..
أيامها كانت هناك مكتبة في كل مدرسة، وكانت هناك حصة مكتبة خاصة، يطالع فيها كل طفل ما يحلو له، على أن يكتب ملخصا عنه في حصة تالية..
ولقد أسعدتني الفكرة للغاية..
فكرة أن توضع قصتى وسط المؤلفات الأخرى في المكتبة..
وبسرعة، ذهبت إلى والدي، وكان يعمل أيامها في واحدة من الشركات الخاصة، فسايرني في فكرتي، وأحضر سكرتيره الأستاذ (عبد المنعم)، وكلفه بكتابة قصتى على الآلة الكاتبة..
وصنعوا لها غلافا من بقايا دوسيه ورقي قديم، ورسمت أمى الغلاف، وذهبت بها إلى المدرسة..

ونفذت أبلة (سهير) وعدها، ووضعت قصتي في المكتبة..
وهنا، أصابتني لوثة الكتابة..
كنت أقضي ساعات في منزلي، أؤلف قصصا بسيطة، كلها إثارة وتشويق، ثم أعطيها لأبي ليقرأها، ويكلف سكرتيره بكتابتها، وصنع غلاف ملون لها، ترسمه أمي كالمعتاد، ثم أعطيه لأبلة (سهير)..
ولكن فجأة، وجدت أبي وأمي يعترضان على إضاعة الوقت..
باعتبار أن العام الدراسي يوشك على الانتهاء، وأصرا على توقفي، واهتمامي بدراستي..
وتوقفت بالفعل..
توقفت عن إعطاء القصص لأبي، وأمي..
وحتى لأبلة (سهير)..
ولكنني لم أتوقف عن كتابتها..
وحتى يومنا هذا، ما زلت أحتفظ بعدد من الكراسات البسيطة..
التي تحوى عشرات القصص البسيطة..
ومع مرور الوقت، راح فكرى ينضج أكثر، وأسلوبي يتطور..
إلى الأفضل..
وفي المرحلة الإعدادية، تشاركت مع زميلي (أسامة أبو طالب) في كتابة عدد من القصص المصورة، التي نكتبها ونرسمها معا..
وفي مرحلة ما، بدأت لعبة غريبة....
كنت مغرما بقراءة وشراء المجلات المصورة؛ لذا فقد رحت أقص في عناية بعض الرسوم، وأعيد ترتيبها؛ لأصنع منها قصة جديدة..
وكانت سجادة صالة منزلنا، هي مخبأ رسومي الخاصة، وقبل يوم التنظيف الأسبوعي كنت أخفيها في مخبأ آخر، ثم أعيدها في اليوم التالي..

ثم، ومع صعوبة الأمر، فكرت في أن أعيد رسم تلك الرسوم، بدلا من قصها من صفحات المجلات.. وهنا كشفت لأول مرة موهبة الرسم..
فلقد فوجئت أمي برسومي، وأبدت اهتماما شديدا بها، وأخبرتني أنها جيدة جدا.. ومنذ ذلك اليوم، بدأت تهتم بتنمية مهاراتي، في هذا الجانب..
وبفضلها، بدأت أرسم بعض القصص المصورة، من خيالي المحض..
لم تكن النتائج جيدة في البداية، ولكنها أصبحت كذلك مع مرور الوقت.. ولكنني تعرضت للكثير من السخرية والمضايقات، من بعض الزملاء، الذين يفتقرون تماما إلى أية مواهب أدبية أو فنية..
وكان على أن أصمد..
وأواصل..
كل ما اختلف هو أنني بدأت أحتفظ بقصصى ورسومي سرا، وأملأ بها مجموعة جديدة من الكراسات، وأيضا ما زلت أحتفظ بها حتى يومنا هذا..
وذات يوم، شاهد أحد أقاربي ما أكتبه وأرسمه، وكاد يستلقى على ظهره من شدة الضحك، وقال لي عبارة، ما زلت أذكرها حتى يومنا هذا:
- انت فاكر نفسك مؤلف؟!..
المدهش والمضحك، أن قريبي هذا يتباهي في كل مكان الآن، باعتباره أحد أقاربي، بعد أن أصبحت كاتبا بالفعل...
ولكنه جعلني أخفى أعمالي أكثر وأكثر..
وفي الصف الأول الثانوى، لم يكن يعرف بما أفعله، سوى عدد قليل للغاية من الأصدقاء، حتى إننى عندما قرأت عن مسابقة

يقيمها قصر ثقافة طنطا لكتابة القصة، كتبت قصة (النبوءة) سرا، وتقدمت بها، دون أن أخبر أحدا، حتى أسرتي نفسها..
وفوجئت بقصتى تفوز..
وكانت أول مرة، تعترف فيها أية جهة، بموهبتي في الكتابة..
وكانت البداية الحقيقية.
فالجائزة، التي لم تكن سوى مجلد (سمير)، شجعتنى على أن أواصل الكتابة، وأواصل المحاولة، وأكتسب ثقة أكبر في نفسى، بحيث بدأت أضع اللبنات الأولى لكل ما أكتبه الآن من قصص أو روايات..
ولقد انهمكت أيامها في قراءة القصص البوليسية، وبهرني أسلوبها، وشغفت بها، وبدأت أكتب لنفسي نوعيات شبيهة..
ولكن العجيب أن أكثر ما أثر في حياتي ومستقبلي وأسلوبي، لم يكن رواية، أو قصة، أو حتى أقصوصة..
كان واحدة من المجلات المصورة، التي شغفت بها طوال حياتي..
مجلة (تان تان)..
فمنذ عددها الأول، انبهرت بها بشدة..
انبهرت بطباعتها الأنيقة، ورسومها الرائعة، وشخصياتها المثيرة..
والأهم.. بسيناريوهاتها الدقيقة المتقنة، ذات الفكر العميق، والأسلوب المشوق، والبعد الاجتماعي والسياسي المدهش..
منها تعلمت أن القصة المصورة من الممكن أن تكون عملًا كبيرا وعملاقا، لا مجرد تسلية للأطفال..
أيامها حلمت، وما زلت أحلم، بإنتاج مجلة مصورة للشباب (لا للأطفال) على هذا المستوى الراقي..
وتعلمت أسلوبا جديدا في الكتابة....

أسلوبا ينقل الصورة، في شكل كلمات أدبية بسيطة الأسلوب، وقوية التأثير والتعبير، ومثيرة ومشوقة، في الوقت ذاته...
وقررت أن تكون كتاباتي هي قصص مصورة، لا تحوى رسما واحدا، وإنما تخلق صورة وهمية خيالية، في ذهن القارئ..
صورة تجعله يعيش الأحداث وهو يقرؤها، وكأنه يراها..
وأتعشم أن أكون قد نجحت في هذا..
ولو أنني نجحت، فلا يمكنني أن أنسب الفضل، بعد الله (سبحانه وتعالى)، إلا لعائلتي، ومجلة (تان تان)، و....
أبلة (سهير).

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

ملف المستقبل..
1- انفجـــار..
2- المهـمة..
3 - الهجوم الشرس..
4 - الخطر الغامض..
5 - صـدام..
6- خيـانة..
7- الغمـوض..
8- ماذا يحدث؟..
9- نهر المفاجآت..
10 – الأخـير..
11- المفـاجأة..
12- الضـربة.
13- بلا رحـمة..
14- الخطة الثانية..
15- المطـاردة..
16- قلب الخطر..
17- الجمـيع..
18- جحيم العقول..

19- الخــوف..
20- انفجــار..
21- الخــتام..

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

الدراسات

(المجموعة الكاملة)

(29) دراسة

د. نبيل فاروق

فريق متميزون

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع للدراســـات
المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل الدراسـات المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000

(الدراسَات)

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

أهي حقاً عمياء.؟

1- أهي حقًا عمياء؟..

قالوا قديما إن العدالة عمياء..

ويقال إن هذه العبارة قد نشأت لأول مرة في (إنجلترا)..

ويقال أيضا في (فرنسا)..

وفي (أمريكا)..

المهم هو أنهم جميعا، عندما يرسمون العدالة، فإنهم يرسمونها على هيئة امرأة، تحمل في يدها ميزان العدل، وتعصب عينيها بغطاء سميك..

ولقد قال بعض الأدباء: إن العدالة عمياء، لأنها لا تلتفت إلى العواطف، ولا تنظر إلى التوسلات، بل هي تطبق القانون فحسب..

وقال البعض الآخر إنها عمياء لأنها لا ترى الحقيقة، التي تختفي وراء الظاهر..

ولكن ماذا نقول نحن؟

قبل أن نقول رأينا، أو نتورط في الانضمام إلى فريق من الفريقين، دعونا نستعرض أولا بعض وقائع العدالة) وبعدها يمكننا أن

نقرر، لماذا هي عمياء؟..

☆ ☆ ☆

أدار الشاهد ظهره للقاضى
فحكمت المحكمة بالإعدام..

1- أدار الشاهد ظهره للقاضي.. فحكمت المحكمة بالإعدام..

حدث ذلك في (مارسيليا)، في عهد كانت تسيطر عليها فيه عدة عصابات، استطاعت أن تمتلك كل شيء، حتى الشرطة والقضاء وحتى القانون..

في ذلك العصر، في ثلاثينيات القرن العشرين، قام أحد زعماء هذه العصابات بقتل أحد خصومه، فألقي القبض عليه، وعندما جاء شاهد الإدانة الوحيد، ليقف أمام المحاكمة، وأمام ذلك القاضي، الذي حصل بالمساء فقط على رشوة ضخمة، لتبرئة زعيم العصابة، سأل القاضي الشاهد في صرامة:

- ماذا حدث بالضبط؟

اجابه الشاهد في هدوء واثق:

- لقد كنت أجلس في مخزن المتجر، ومسيو (فيران) صاحب المتجر في الخارج، في الثانية بعد منتصف الليل، ثم سمعت

طلقا ناريا، وعندما هرعت من المخزن إلى المتجر، رأيت مسيو (فيران) جثة هامدة، والدماء تنزف من ثقب بين عينيه الجامدتين الجاحظتين، ومسيو (ديبوا) يقف أمامه ومسدسه في قبضته، والدخان يتصاعد من فوهته، ولم يكن هناك سواه.

سأله القاضي في صرامة مخيفة:

- هل رأيته وهو يطلق النار على رئيسك؟

أجابه الشاهد في بساطة:

- كلا.. ولكن مظهره كان يؤكد أنه هو الفاعل، فلم يكد يراني حتى رمقني بنظرة قاسية، ودس المسدس في جيبه، وغادر المكان في هدوء، وهو يتصور أنني لن أجرؤ على إدانته والشهادة ضده قط.

عاد القاضي يسأله في صرامة:

- هل رأيته يطلق النار؟

اجابه الشاهد في حيرة:

- بل سمعت صوت الطلق الناري، و...

قاطعه القاضي المرتشي في حزم:

- هذا لا يعد دليلا كافيا..

ثم ضرب مائدته بمطرقته الخشبية، مستطردا في صرامة:

- فلينصرف الشاهد.

احتقن وجه الشاهد في غضب، ونهض من مقعد الشهادة، وأدار ظهره للقاضي، وهتف بصوت مرتفع:

- يا لك من قاض غبي وأحمق، وتشبه الخنازير في عقلك ومظهرك..

صاح القاضي في مزيج من الغضب والدهشة والاستنكار:

- كيف تجرؤ على إهانة هيئة المحكمة أيها الرجل؟ إنني أحكم عليك بـ...

استدار إليه الشاهد، وقاطعه بغتة:

- هل رأيتني أشتمك وأسبك يا سيدي؟

صاح القاضي في غضب:

- لقد سمعتك، وسمعك الجميع، و . . .

قاطعه الشاهد: مبتسما في خبث:

- هذا ليس دليلا كافيا يا سيدي..

احتقن وجه القاضي، وضجت القاعة بالضحك، وأدرك الجميع مغزى المفارقة، ووجد القاضي نفسه في مأزق يهدد سمعته ومستقبله، فلم يجد أمامه سوى أن يستسلم لرغبة الرأي العام.. ويحكم على زعيم عصابة (مارسيليا) بالإعدام..

وكان أول حكم بالإعدام، على أحد زعماء (مافيا مارسيليا)..

☆ ☆ ☆

2- ارفع ذراعك، تخسر قضيتك..

حدث ذلك في (نيويورك)، في الخمسينيات من هذا القرن، عندما سقط رجل أعمال من شرفة مكتبه، في الطابق الثاني، فوق رجل في الأربعين من عمره تقريبا ونجا الاثنان، إلا أن الرجل لم يكن يعلم أن الذي سقط فوقه هو رجل اعمال ثري،. حتى راح يتأوه، ويؤكد أن سقوط رجل الأعمال فوقه قد اصاب ذراعه بعطب دائم، وعاهة مستديمة، ولم يلبث أن رفع دعوى مباشرة على رجل الأعمال، يطالبه فيها بنصف مليون دولار، على سبيل التعويض ..

وكان الجميع يعلمون تقريبا انه رجل مخادع، وانه لم يصب سوى ببضع كدمات فقط، إلا أن التقرير الطبي قد عجز تماما عن إثبات العكس على نحو قاطع، مما امال كفة القضية نحو المدعي..

وهنا لجأ محامي رجل الأعمال إلى خطة طريفة..

لقد اتخذ في مرافعته جانب الرجل، بدلا من جانب موكله، وراح يؤكد حق الرجل في الحصول على التعويض، مما اثار دهشة الحضور والقاضي، ومحامي الرجل، وأثار في الوقت ذاته حماسة المدعى وتفاعله مع محامي خصمه، الذي القى خطبة عصماء،

يؤكد فيها تعاطفه مع الرجل، حتى ضمن اندماج الرجل معه تماما، فسأله في حماس:

- إلى أي مدى بلغت إصابتك؟

اجابه الرجل بنفس الحماس:

- إنني لم أعد أستطيع رفع ذراعي كاملا..

وأشار المحامي إلى المحلفين، وهو في انفعال:

- قل للمحلفين كيف ترفع ذراعك الآن..

رفع الرجل ذراعه بمحاذاة جسده، وهو يقول في حماس:

- إلى هذا الحد..

هتف المحامي:

- وإلى أي مدى كنت ترفعها فيما قبل؟

رفع الرجل يده إلى أعلى، هاتفا:

هكذا.

وهنا شحب وجهه، وأدرك – بعد فوات الأوان – الفخ الذي أوقعه فيه محامي رجل الأعمال، الذي ابتسم في خبث، والتفت إلى المحلفين، قائلا:

- هل فهمتم ما أقصده أيها السادة؟

وفهم المحلفون، وخسر الرجل قضيته.. ولم يعد يرفع ذراعه بعدها..

أبدا..

☆ ☆ ☆

الشاهد الوحيد

3- الشاهد الوحيد..

كان ذلك أيضا في الولايات المتحدة الأمريكية، في ولاية فرجينيا) بالتحديد..

وكانت القضية تخص سيدة، صدمت بسيارتها طفلا، وفرت في الظلام، لولا أن لمحها مدرس بسيط، وابلغ الشرطة برقم سيارتها، فألقي القبض عليها..

وفي قاعدة المحكمة، عجز محامي السيدة عن تبرئتها، فقرر أن يحطم الشاهد الوحيد تماما، فدعاه للشهادة، وسأله في برود:

- ما عملك بالضبط يا مستر (نوردت)؟

- مدرس ابتدائي..

- اهو منظار طبي، هذا الذي ترتديه؟

- إنه كذلك..

- كم تبلغ قوة إبصارك يا مستر (نوردت)؟

- 7/36 بالعينين: اليمنى واليسرى، بدون المنظار الطبي..

- هل تذكر كم كانت الساعة وقت الحادث؟

- حوالي الثامنة والنصف مساء.

- وكان الجو رديئا للغاية، اليس كذلك؟

- بلى، ولذلك كان الشارع خاليا من المارة تماما.

- كيف تفسر خروج طفل، في مثل هذا الجو إذن؟

- لقد قالت أمه إنها كانت مريضة، ولم يكن بالمنزل سواه، ليحضر لها الدواء، من صيدلية قريبة.

- وما تفسيرك أنت؟

- أظن أن تفسير الأم أفضل؛ لأنها أعلم مني بالسبب.

- ما الذي كان يرتديه الطفل حينذاك يا مستر (نوردت)؟

- سروالا ازرق، ومعطفا بنيا من الفراء.

- هل يمكنك أن تخلع منظارك الطبي يا مستر (نوردت)؟

ارتبك الشاهد عند هذه النقطة، وخلع منظاره في تردد:

وهنا بدا المحامي خطته التي أعدها، وبدأ هجومه بلا رحمة، فقال فجأة في لهجة شديدة الصرامة:

- قل لي يا مستر (نوردت)، هل يمكنك ان تقرأ ذلك الشعار، المرسوم على سترة المحلف السابع؟

ازداد ارتباك (نوردت)، وقال:

- لا يمكنني هذا بالطبع، ولكن لو انني ارتديت منظاري...

قاطعه المحامي في صرامة:

- هل يمكنك رؤية الحلف الخامس إذن؟.. قل لي..

أأشقر الشعر هو أم اشيبه؟

شحب وجه (نوردت)، وهو يقول في توتر:

- لو انني أستطيع الرؤية دون منظاري، ما ارتديته، ولكنني ارى بوضوح بواسطته، و...

تجاهله المحامي تماما، والتفت إلى هيئة المحلفين هاتفا:

- هل رأيتم أيها السادة؟.. الشاهد الوحيد عاجز عن الرؤية في وضح النهار، ولكن ينبغي أن نأخذ بشهادته، وهو يؤكد أنه قد قرأ رقم السيارة في وضوح، في ليلة ممطرة..

هتف (نوردت) محتجا:

- لقد قرأته في وضوح، فهو...

قاطعه صوت المحامي الجهوري وهو يهتف:

- إنني أطالب باعتبار الشاهد غير أهل للشهادة ايها السادة..

ومن السهل استنتاج بقية المشهد..

لقد انكمش مستر (نوردت) المسكين في مقعده، وشحب وجهه وامتنع، على حين أصدرت المحكمة قرارها بلا رحمة، باعتباره غير أهل للشهادة..

وغادر الشاهد المسكين قاعة المحاكمة، وقد تهدلت كتفاه، وتضاعفت سنوات عمره، بعد أن طعن في كرامته، وآدميته.

وربح المحامي القضية..

ولكن القصة لم تنته بعد..

فبعد شهر واحد، صدمت سيارة مسرعة، يقودها شاب مستهتر، ابن المحامي، وكان هناك - حينذاك – شاهد واحد، أمكنه التقاط رقم السارة، وأبلغه لرجال الشرطة، ولكن المحامي لم ينجح، على رغم من شهرته وذكائه، في إدانة الشاب، الذي صدم ابنه

بسيارته، وقتله؛ لأن الشاهد الوحيد في القضية لمن أهلا للشهادة..

لقد كان هو نفسه مستر (نوردت).

☆ ☆ ☆

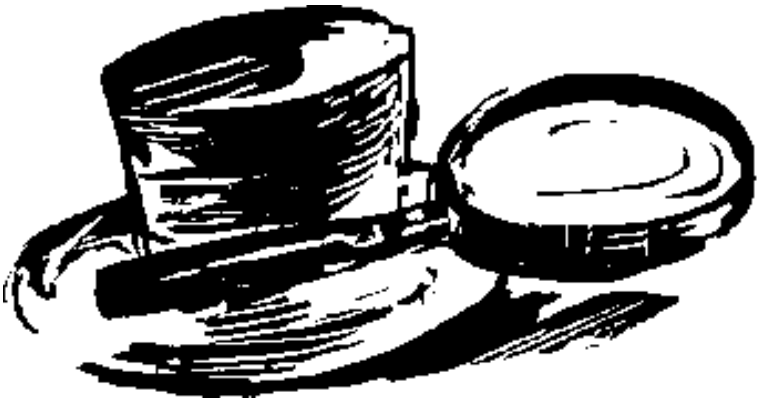

قضية
(هولمز) الحقيقية

4- قضية (هولمز) الحقيقية..

هذه القضية بالذات لاقت شهرة عالمية في حينها، ليس بسبب موضوعها، أو المتهم فيها، وإنما بسبب ذلك المحقق الذي ولى التحقيق فيها، بعد أن أغلق القضاة ملفها..

لقد كان ذلك المحقق هو سير (آرثر كونان دويل)، مبتكر الشخصية الفريدة، التي شغلت، وما تزال تشغل المعجبين حتى الآن،. شخصية (شيرلوك هولمز).

كان (آرثر كونان دويل) قد اعتزل الكتابة، وفشل الناشرون في حمله على العودة إليها تماما، عندها فوجئ سكان (لندن) بمقال له، في جريدة معروفة، يقول فيه:

- اكلما عاودت قراءة ملف قضية (هارفي كرين)، ازددت قناعة بأن كل الأدلة، في هذه القضية، لا تكفي لإدانة قطة، وأطالب بإعادة فتح ملف القضية، وإعادة التحقيق فيها، انصافا لرجل يقضى عمره في السجن، لجريمة لم يرتكبها..

شعر قراء (كونان دويل)، بانه لن يتوقف، قبل أن يشعل القضية مرة أخرى، وأنه لم يتكلم إلا بعد أن وضع يده على وثيقة دامغة، تدين شخصا ما، وتفجر الأمر في عنف، واهتزت مقاعد المسئولين في (سكوتلانديارد) ..

وكان (هارفي كربن) قد اتهم بقتل سيدة لم يرها في حياته، دون دافع أو دليل، وكل الأدلة كانت واهية، حتى أقوال الخادمة الشاهدة الوحيدة في القضية، جاءت مضطربة مفككة..

وعلى الرغم من ذلك، فقد أصدرت (سكوتلانديارد) نشرة بأوصاف الرجل، وطلبت إلقاء القبض عليه، ولكنه كان قد سافر إلى أمريكا، فأبحر ضابط من (سكوتلانديارد) مع الشاهدة، حيث تعرفت (هارفي)، ولكن شرطة (نيويورك) عارضت في ترحيله، الضعف الأدلة، إلا أنه أصر على العودة مؤكدا أنه بريء..

وفي محاكمته بدأت أعجب سلسلة من الاستجوابات الناقصة، والشهادات المتناقضة، ولأول مرة ظهر اسم غريب جديد في القضية، أو هو على وجه الدقة رمز لاسم ما، فلقد ذكرت اخت القتيلة أن (أ-ب) قد نفذ تهديده، وقتل أختها، ولكنها رفضت في إصرار أن تفصح عن اسم (أ - ب) هذا..

ومن العجيب أن (سكوتلانديارد) لم تبذل أدني جهد، للتحرى عن شخصية (أ- ب) هذا، بل لقد بدا الأمر وكأنهم هناك يستميتون لإخفاء شخصيته، والتستر عليها..

ولم تثمر جهود (آرثر كونان دويل) المكثفة – للكشف عن شخصية (أ - ب) الغامض، إلا أنها حملت وزير العدل على إعادة محاكمة (هارفي كرين)، التي انتهت هذه المرة ببراءته.

وهكذا نجح مبتكر (شيرلوك هولمز) في قضية حقيقية، وعلى الرغم من أن احدا لم يعلم حتى الآن من هو (أ- ب)، إلا أن العدالة قد تحققت في النهاية، على نحو ما..

والآن، دعنا نتساءل مرة اخرى، لماذا يقولون إن العدالة عمياء؟!

☆ ☆ ☆

2- خلف أسوار العقل..

في إحدى ليالي نوفمبر، في عام 1966 م، جلس السوفيتي (نيكولاييف)، داخل حجرة من الرصاص، لا يوجد بها سواه وأمامه ورقة صغيرة، خط عليها أحد العلماء - من وحي اللحظة - كلمات غير مترابطة، ورسما لا معنى له، راح (نيكولاييف) يحدق فيهما لحظات، دون أن تسجل أجهزة هيئة العلماء، التي عكفت على مراقبته، في (موسكو) شيئا، في حين كان زميله (كاتشسكي) يجلس في ظروف مماثلة، في (لينينجراد)، على بعد ألف كيلومتر من (موسكو)، وقد راح يخط الكلمات نفسها، والرسم ذاته على ورقة بيضاء، ناولها لأحد العلماء المجاورين له، وهو يقول:

- لست أدري ما يقصده بذلك، ولكن هذا ما أرسله.

واصيب العلماء بالذهول، في (موسكو) و (لينينجراد، في نفس اللحظة فلقد استقبل (كاتشسكي) رسالة عقلية من (نيكولاييف)، بمنتهى الدقة، كما لو أن عقله جهاز استقبال لاسلكي فائق التطور..

ولكن كيف حدث هذا؟..

بل كيف يمكن أن يحدث؟..

لقد أعلن تلك القصة السالفة الذكر، العالم السوفيتي (فلاديمير فيدلان)، وهو واحد من أشهر علماء ما فوق الطبيعيات، في مؤتمر لبحث الظواهر الخارقة للمألوف، عام 1968 م، ولم يحاول وضع تفسير علمي للظاهرة، وإنما أطلق عليها اسم التخاطر العقلي، أو (التلييايثي)...

والعجيب أن المصطلح لم يكن جديدا بالنسبة لزمرة علماء الظواهر فوق الطبيعية، الذين حضروا ذلك المؤتمر، بل كان مصطلحا قديما، لظاهرة ما زالت تثير جدلا علميا، حتى لحظة كتابة هذه السطور..

فمع مطلع عام 1862 م، وبينما انشغل نصف سكان العالم في الاحتفال بأعياد رأس السنة الميلادية، أغلق عالم نصف معروف، يدعى (ف. مايرز) (F. Myrs) معمله على نفسه، وانهمك في سلسلة من التجارب والدراسات المعقدة، استغرقت تسعة أشهر من عمره، قبل أن يخرج إلى العالم بذلك المصطلح الجديد (التلييايثي) (Telepathy)، دون أن يتصور أن مصطلحه هذا سيثير أكبر واطول جدل علمي في التاريخ، وأنه وبعد مرور أكثر من قرن كامل على إطلاقه هذا المصطلح، لم ينجح شخص

واحد، أو جهة علمية – صغرت أم عظمت - في إثبات أو نفي هذه الظاهرة...

وكلمة (تليباثي)، كما تقول القواميس المتخصصة، تعني (التخاطر عن بعد)، أو انتقال الأفكار، من شخص إلى آخر او آخرين - دون استخدام وسيلة مادية أو هي ببساطة ظاهرة (قراءة الأفكار)، كما يطلق عليها العامة..

وعلى الرغم من كل ما أثارته ظاهرة (التخاطر عن بعد) من جدل، وما أطلقته من خيال العلماء والأدباء، إلا أن التجارب الجادة حولها لم تبدا إلا في عام 1921 م، عندما قام ثلاثة من علماء جامعة (جروننجن) بسلسلة طويلة من التجارب والمشاهدات، انتهت بإصدار تقرير كبير، أقتنع به عدد من العلماء، ورفضته الغالبية العظمى منهم ومن العجيب أن تلك الظاهرة تذهب بالعلماء دائما إلى طرفي نقيض، فإما أن يزيدها البعض في حماس، أو يرفضها البعض الآخر في عناد وإصرار، ولعل من أعظم مؤيديها العالم البريطاني (جوزيف سينل)، الذي قضى القسم الأعظم من حياته، في محاولة إثبات وجود الظاهرة، وهو يقول عنها:

«إنها تشبه عملية الاتصالات اللاسلكية المعروفة، فالعقل البشري يموج بالإشارات الكهربية، التي تنتقل دوما بين المخ والأعصاب، وتربطه بأعضاء الجسم، وعندما تبلغ هذه الإشارات حدا مناسبا، يمكنها أن تنتقل دون الحاجة إلى الأسلاك (الأعصاب)، فتسافر من عقل إلى عقل».. أما أشهر العلماء في هذا المجال، وهو (چ، به راين)، فيقول:

«الأمر عبارة عن نوع من الشفافية الروحانية، التي تتيح للروح الالتقاء بالأرواح الأخرى، واستنطاقها عما يدور في أجساد وعقول أصحابها»، ولكن هذا الرأي يبدو فلسفيا، أكثر مما يبدو علميا او منهجيا، ولهذا السبب رفضه كل العلماء تقريبا، على الرغم من أن (راين) هو صاحب أول تجارب مدروسة لفحص الظاهرة، فلقد ابتكر عام (1934)، في جامعة (ديوك) أسلوبا جديدا، يعرف باسم (اختبار أوراق اللعب)، وفيه يحاول الشخص، المفترض اكتسابه للقدرة على التخاطر العقلي، استنتاج ترتيب خمس اوراق لعب مختلفة، يتم ترتيبها عشوائيا..

وقد يبدو هذا الاختبار هينا، ولكنه ليس كذلك في الواقع، فاحتمال استنتاج موضع ورقة واحدة، أو تخمينه، هو واحد إلى خمسة (5) اما احتمال استنتاج موضع الأوراق الخمسة هو واحد إلى ثلاثة آلاف ومائة وخمس وعشرين (1/3125)، وهذا يجعل التخمين مستحيلا بالطبع..

ولعل من أكثر ما يؤيد وجود هذه الظاهرة، رجل يحفظ كل دارسي الظواهر فوق النفسية اسمه عن ظهر قلب، وهو الهولندي (بيتر هركوس)، الذي ولد عام 1911 م، وظل يحيا كشاب عادي، حتى انقلبت حياته رأسا على عقب فجأة في عام 1941م..

في ذلك العام كان (بيتر) يعاون والده في طلاء بناء من أربعة طوابق، عندما زلت قدمه، وسقط من الطابق الرابع، وتم نقله إلى المستشفى في سرعة، في العاشر من يوليو 1941 م، حيث تم إسعافه، وقدر له أن ينجو، وأن يغادر المستشفى في الخامس من أغسطس، من العام نفسه..

ولكن شتان ما بين الدخول والخروج..

لقد كشف (بيتر)، وهو يرقد على فراشه في المستشفى أنه قد اكتسب خاصية عجيبة، وهي أنه ما إن يمس شيئا.. أي شيء.. حتى تندفع إلى رأسه كل المشاهد والأصوات والأحداث، التي عايشها هذا الشيء.. جمادا كان أو حيوانا أو نباتا.

وكاد المسكين يصاب بالجنون في البداية..

بل لقد تصور أنه قد اصيب به بالفعل..

ثم اتضحت له حقيقة موهبته الجديدة شيئا فشيئا..

والعجيب في ظاهرة (هيركوس) أنه، ولأول مرة في التاريخ، اعترفت إدارة (سكوتلانديارد)، بموهبة شخص يحوز صفة فوق طبيعية، بل استدعت (بيتر هيركوس) إلى (إنجلترا) عام 1951 م، حيث عاون مفتشيها على حل غموض اختفاء الماسة الشهيرة (سكون)، وبعدها استعانت عدة هيئات بوليسية اوربية، وحقق في كل مرة انتصارا مبهرا..

وعلى الرغم من هذا لم يحظ (بيتر) باعتراف او تأييد الأوساط العلمية، ولم يحاول عالم واحد، ممن أنكروا موهبته، اختيار وجود هذه الموهبة، بأية وسيلة، حتى أن الصحفية (نورما - لي - براوننج)، التي كانت من أشد المؤيدين ل (بيتر)، قد علقت على هذا بقولها: «لقد خسروا فرصة مثالية لفحص ظاهرة غامضة»،

وهي على حق، فربما ادى فحص (بيتر هيركوس) إلى إماطة اللثام عن تلك الظاهرة..

ولكن يبدو أن البعض يخشى إماطة هذا اللثام....

وهذا أيضا صحيح..

إن الرافضين لوجود هذه الظاهرة يقولون: إنه لو صح وجودها، فسيعني هذا أن الأسوار التي تحيط بالعقل قد تهاوت، وانه لم يعد هناك مكان آمن لحفظ اية اسرار، مهما بلغت خطورتها، فالقاعدة الأولى، في عالم المخابرات مثلا، تحظر الاحتفاظ بمعلومات مكتوبة، وتصر على ضرورة حفظها عن ظهر قلب، بافتراض أن العقل البشري هو الحصن الحصين، الذي يستحيل اختراقه، أو نسيانه داخل درج مغلق، أو فوق مائدة القمار، وعلى الرغم من ذلك، فمن يمتلك القدرة على قراءة الأفكار سيعبر أسوار العقل في يسر وسهولة ودون أن يقاتل العمالقة مثل (جيمس بوند)، أو يحتال ويتخابث مثل (أرسين لوبين).

بل قد يتمادى أصحاب هذه المقدرة الفذة، فيفتتحون مكاتب خاصة، على غرار مكاتب البوليس الخاص، يعلقون على أبوابها لافتة تقول: «هنا أسرار للبيع».

قد تبدو الصورة خيالية أو هزلية، في نظر القارئ، ولكنها ليست كذلك في نظر العديد من العلماء، وأجهزة مخابرات الشرق والغرب، بل إنهم يولونها اهتماما بالغا، وينكبون على دراستها في سرية ودقة..

ولعل القارئ يتصور الآن أننا لو استبعدنا الفريق الرافض من العلماء، فسيتبقى أمامنا المؤيدون للظاهرة فحسب..

ولكن هذا غير صحيح..

الواقع أنه ما من عالم - في الكرة الأرضية لها - يمكنه أن يجزم أو ينفى وجود هذه الظاهرة، بصفة قاطعة، فبعد استبعاد الرافضين لوجودها سينقسم الباقون إلى قسم أعظم، يقف على الحياد، غير مؤيد او معارض، أو هو ينتظر ما سيتوصل إليه الآخرون، وقسم صغير، يميل إلى الإيمان بوجود الظاهرة، ولكنه يلقي سؤالا أكثر أهمية، وهو يقلب بين يديه نموذجا صغيرا للمخ البشري..

من أين تنبع هذه الظاهرة؟..

فعلى الرغم من التقدم الطبي والتكنولوجي والتقني، الذي توصل إليه العالم، في هذه السنوات الأخيرة، من القرن العشرين، إلا أن أجزاء كبيرة من المخ البشري ما زالت غامضة تماما، وما زال ذلك العضو الرخوي البيضاوي، الذي يبلغ وزنه التقريبي في الرجل حوالي رطلين وعشرة اوقيات (أي ما يساوي 1/50 من وزن الجسم تقريبا) يثير حيرة أعلم العلماء..

والمخ يتكون من نصفين، أيمن وأيسر، يشتركان لصنع الفص الأمامي والفص الخلفي، ثم يحوز كل منهما فصا جداريا، وآخر صدغيا، في حين يلتقيان من الخلف عند المخيخ، والجسم الصنوبري الصغير..

ولقد درس العلماء كل خلية من خلايا هذا المخ، وعرفوا وظيفة كل جزء فيه، فيما عدا منطقتين، توقف امامهما الجميع في حيرة، وهما الجسم الصنوبري والفص الأمامي، فتوصلوا إلى جزء ضئيل من وظائف الأول، وعجزوا تماما عن فهم وظيفة الثاني (مع الإيمان التام بأن الله - سبحانه وتعالى - لم يخلق شيئا عبثا)..

وأثار التحدي حماس العلماء، وجمعوا مئات من حيوانات التجارب المسكينة، وراحوا يمزقون فصوصها، ويغرسون فيها الأسلاك والأعمدة، دون أن يسفر هذا عن نتائج واضحة، بل إن مراجع الطب الشرعي تحدثت عن حالة انغرز فيها نصل خنجر لعشرة سنتيمترات، في الفص الأمامي لمخ آدمي، دون أن يؤثر ذلك في وظائف المصاب الحيوية، أو حتى غير الحيوية..

وتضاعفت حيرة العلماء..

وبقي السؤال..

هل الفص الأمامي هو محطة الإرسال والاستقبال التخاطري؟

.....

ولم يأت الجواب بعد..

ولن يأتي؛ لأن إثبات ظاهرة فوق نفسية، مثل التخاطر العقلي، كان وسيظل عسيرا؛ لأن العلماء سيعجزون دوما عن إمساكها بأيديهم، وتقليبها، ووضعها تحت المجهر وتصويرها وتكبيرها، و.. و... وإلى أن يأتي ذلك اليوم (المستحيل)، سنظل نردد تول أحد كبار العلماء، المؤمنين بوجود الظاهرة:

«ينبغي أن يتوقف العلم عن محاولاته الدائبة؛ لإثبات وجود هذه الظواهر، ويحصر جهوده في بحث كيفية الإفادة منها، حتى لا نكون كمن يقضى عمره كله في محاولة إثبات كونه حيا، ثم تنقضي حياته، دون أن يصنع فيها شيئا واحدا..» وإلى أن تحظى ظاهرة (التلييايثي) بالاعتراف، دعونا نتخذ الحذر، فقد يكون حولنا بعض من يمتلكون تلك القدرة، ويسعون للتسلل خلف افكارنا..

وخلف أسوار العقل..

☆ ☆ ☆

3- حيث يبدأ العدم..

«أختفي السرب التاسع عشر، بقيادة الملازم (تشارلز تايلور)، دون سابق إنذار، ولم يتم العثور على جناح طائرة واحدة منه..»

كانت هذه هي الإشارة، التي تلقها قائد القوات الجوية الأمريكية، من قاعدة (غورت لاديرديل) في (فلوريدا)، في الخامس من ديسمبر عام 1945 م، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بقليل، والتي كانت بمثابة قنبلة ذرية ثالثة، يفوق تأثيرها في نظر القيادة الأمريكية، والعالم فيما بعد تأثير قنبلتي (هيروشيما) و (ناجازاكي)..

لقد كانت إشارة البدء، لواحد من أعقد وأعظم الغاز العصر، وكل العصور السابقة..

لغز مثلث (برمودا)..

ففي ذلك اليوم: 5 من ديسمبر 1945م، انطلق سربا من الطائرات البحرية بقيادة (تشارلز تايلور) في رحلة تدريبية، وكل طائرة مجهزة بالقنابل، ومملؤة بوقود يكفي طير انها لآلاف

الكيلومترات، وكانت الرياح شمالية شرقية معتدلة، ودرجة الحرارة ملائمة، وكل الأحوال الجوية والمناخية مثالية للطيران..

وفي الثانية تماما، بدأت الرحلة التدريبية، وراح (تشارلز) يرسل ملاحظاته لاسلكيا، وطائرات سربه تتدرب على الانقضاض والقصف، كما يحدث في كل مرة، وبدا كل شيء عاديا مألوفًا..

وفجأة.. في تمام الثالثة والربع، تلقى برج المراقبة رسالة مضطربة من (تشارلز تايلور) يقول فيها:

- هناك شيء عجيب يحدث.. لم نعد على ما يرام.. لا يمكننا حتى أن نرى الأرض..

وعندما سأله مراقبو الطيران عما يعنيه بهذا، أجاب في توتر:

- لست أدري.. المحيط لا يبدو كما اعتدنا أن نراه.. وكل شيء تعطل البوصلة والدفة.. كل شيء..

وبعدها انقطع الاتصال بسرب الرحلة التاسعة عشرة تماما..

وتفجرت حالة ذعر عامة، في كل أفرع الجيش وقياداته، فلقد انتهت الحرب العالمية الثانية منذ شهور قليلة، وبدأ الجميع استرخاءهم، وبدا المستقبل مشرقا، ثم جاء هذا الاختفاء الغامض ليقلب كل شيء رأسا على عقب..

وأصدر قائد القوات الجوية أوامره بضرورة البحث عن هذا السرب المفقود، واستعادته بأي ثمن..

انطلقت السفينة الحربية (مارتن ماريز)، لإنقاذ السرب المفقود، ولكن (مارتن ماريز) اختفت بدورها..

تلاشت، كما لو أن البحر قد انشق وبلعها..

بل لم يعد هذا الاحتمال حتى منطقيا، فلم تسفر عمليات البحث عن العثور على أدنى أثر لطاقمها، أو حطام وركام، أو حتى بقعة زيت..

لقد تبخرت السفينة، كما تبخر قبلها سرب (تشارلز تايلور) ...

ذهبوا جميعا إلى العدم، في قلب مثلث الشيطان..

وبدأت أسطورة مثلث برمودا)..

ومثلث برمودا) هذا هو مثلث وهمي يقع في غرب الأطلنطي، ويمتد من (برمودا) شمالا، إلى (فلوريدا، جنوبا، ويتجه شرقا عبر جزر (البهاما)، وغربا حتى خط طول ٠ 40°، ثم يعود إلى (برمودا)..

والواقع أن حوادث الاختفاء في مثلث برمودا) لم تبدأ بحادثة سرب (تشارلز تايلور)، وإنما هي حوادث قديمة، يرجع تاريخ بعضها إلى القرون الوسطى، ولكن قلة السجلات في هذا العصر، وقلة عدد الرحلات البحرية أعطتا انطباعا بأن لغز (برمودا) لم يبدا إلا في عصرنا هذا، في حين أثار (كريستوفر كولمبس) إلى واقعة اختفاء لواحدة من سفنه هناك..

وبعد واقعة (تشارلز تايلور)، وسربه، بدأت حوادث اختفاء أكثر إثارة، أشهرها اختفاء سفينة الشحن (مارين سيلفركوين)، التي يبلغ طولها 141 مترا، والباخرة (سايكلوت)، التي اختفت بكل ركابها، البالغ عددهم 309 راكبا، وحمولتها البالغة تسعة عشر ألف طن..

وفي عام 1948 م، كانت طائرة جديدة من طراز (ستار تايجر) تمير منطقة المثلث الغامض، وعلى متنها طاقمها المكون من

ستة أفراد، وخمس وعشرين راكبا.. وكان كل شيء يسير على ما يرام.

ثم اختفت (ستار تايجر) بغتة..

وكانت هذه الحالة أكثر مدعاة للدهشة، فلم ترسل (ستار تايجر) إثارة استغاثة واحدة، بل كانت آخر رسالة واردة منها، قبيل اختفائها بدقائق، تؤكد أن الطقس جيد، وكل شيء يسير على ما يرام..

وتولت حوادث اختفاء الطائرات والسفن في مثلث (برمودا)..

وبدأت عمليات البحث العلمي، والسعي لإيجاد تفسير علمي منطقي لا يحدث

وخرجت عشرات النظريات..

عالم بريطاني حاول تفسير هذا بقوة التيارات البحرية في منطقة مثلث برمودا)، وقال إن هذا التيارات يمكن أن تصنع دوامة هائلة، ذات قوة امتصاص رهيبة، تبتلع كل ما يقترب منها من السفن، وكل ما يطير فوقها من طائرات...

ولكن أحدا لم يهتم بهذه النظرية؛ إذ أنها لم تعط تفسيرا مناسبا لحوادث الاختفاء المباغتة، ولا حتى الظواهر المصاحبة لها، كما أن أحدا لم يسجل وجود تخلخل هوائي كما يشير إلى وجود هذه الدوامة المزعومة..

ثم جاء الأمريكي (ولبرت ب. سميث)، وقال إنه توجد مناطق تتلاشى فيها الجاذبية على كوكب الأرض، مما يؤدي إلى اضطراب البوصلة، واجهزة الطيران، ولكن هذا أيضا لم يفسر الأمر على نحو جيد، مما جعل أحد العلماء يشير إلى نبوءة

قديمة للعالم النفساني، والمتنبئ الشهير (إدجار كايس)، الذي توفي عام 1944 م، قبيل كشف واختراع أشعة الليزر..

ففي عام ١٩٣٧ م، اشار (كايس) في اثناء سقوط في غيبوبة عميقة، إلى أن سكان قارة (أطلنطس) القديمة استخدموا الكريستال والياقوت، لتوليد واستخراج الطاقة، وأن جزء كبيرا من هذه الطاقة قد غرق مع قارتهم، وأنه سيبقى في الجزء الغربي من المحيط الأطلنطي، ليفسد البوصلة، وكل المعدات الحديثة، فوق نقطة غرقه..

ولم يكن أي مخلوق بعلم، حتى هذا التاريخ، انه من الممكن توليد طاقة الليزر من الكريستال أو الياقوت، أو عبرهما..

وهنا برز احتمال آخر..

احتمال أن تكون (أطلنطس) هي السر..

ولا في هذا الاحتمال قبولا من ذوي الخيال، في حين استنكره كل العلماء، وكل وارثي غموض مثلث برمودا)..

ثم تفجرت أكبر قنبلة في الموضوع..

ففي حديث تليفزيوني عام 1974، قال أحد مراقبي المطار، ممن عاصروا حادثة (تشارلز تايلور) أن القوات الجوية قد أخفت عبارة أرسلها (تايلور) نفسه، قبل اختفاء سربه تماما..

«لا تتبعونا... يبدو انهم من الفضاء الخارجي»

وكان هذا يقلب كل الأمور بالفعل، ويضع احتمالا جديدا، لم يناقشه أحد من قبل..

احتمال أن تكون هذه الاختفاءات عمليات اختطاف من قبل مخلوقات من كوكب آخر..

ومرة اخرى وجدت هذه الفكرة مؤيديها ومعارضيها، ولكن أحدا من مسئولى القوات الجوية لم ينكر أو يستنكر هذه العبارة، التي نسبت إلى (تشارلز تايلور)، مما أيد موقف من يميلون إلى نظرية الاختطاف من الفضاء الخارجي..

ولكن ماذا عن الذين نجوا من مثلث الرعب؟..

ماذا رأوا؟..

بم شعروا؟..

ماذا قالوا؟..

القبطان (هنري) ملاح قديم، في الخامسة والخمسين من عمره، قوي الجسد، ممشوق القوام، يمتلك شركة للإنقاذ البحري، ويروى أنه كان يجر بسفينته يوما باخرة كبيرة، عندما أطاحت به فجأة سحابة كثيفة للغاية من الضباب، وخيل له ولبحارته أن الأفق قد اختفى، وأن السماء قد اختلطت بالماء، بحيث لم تعد هناك اتجاهات وفقدت البوصلة وعيها، وراحت تدور باتجاه عقارب الساعة في جنون، وكانت المولدات كلها تعمل بأكثر طاقتها، ولكنها لم تكن تعطي أية كهرباء، واختفت الباخرة التي يجرونها تماما، وإن بدا الحبل المربوط إليها مشدودا عن آخره، وهناك مادة كالحليب تحيط بكل شيء..

ثم اختفى كل هذا بغتة، وبدا الأفق اخضر اللون لحظات، وبعدها عاد كل شيء إلى طبيعته..

ما الذي يعنيه هذا إذن؟..

إن حادثة القبطان (هنري) مجرد مثال، وإن اتفقت أقواله مع أقوال وأوصاف العديدين، ممن نجوا من هذا الرعب، وممن شاء

لهم القدر الا يتحولوا إلى رقم آخر، في سجل المفقودين، والضائعين في هذا العدم..

وما زال مثلث (برمودا) يحمل كل الغموض..

حيث تختفي الطائرات، والسفن..

حيث يتلاشى البشر..

وحيث يبدأ العدم..

☆ ☆ ☆

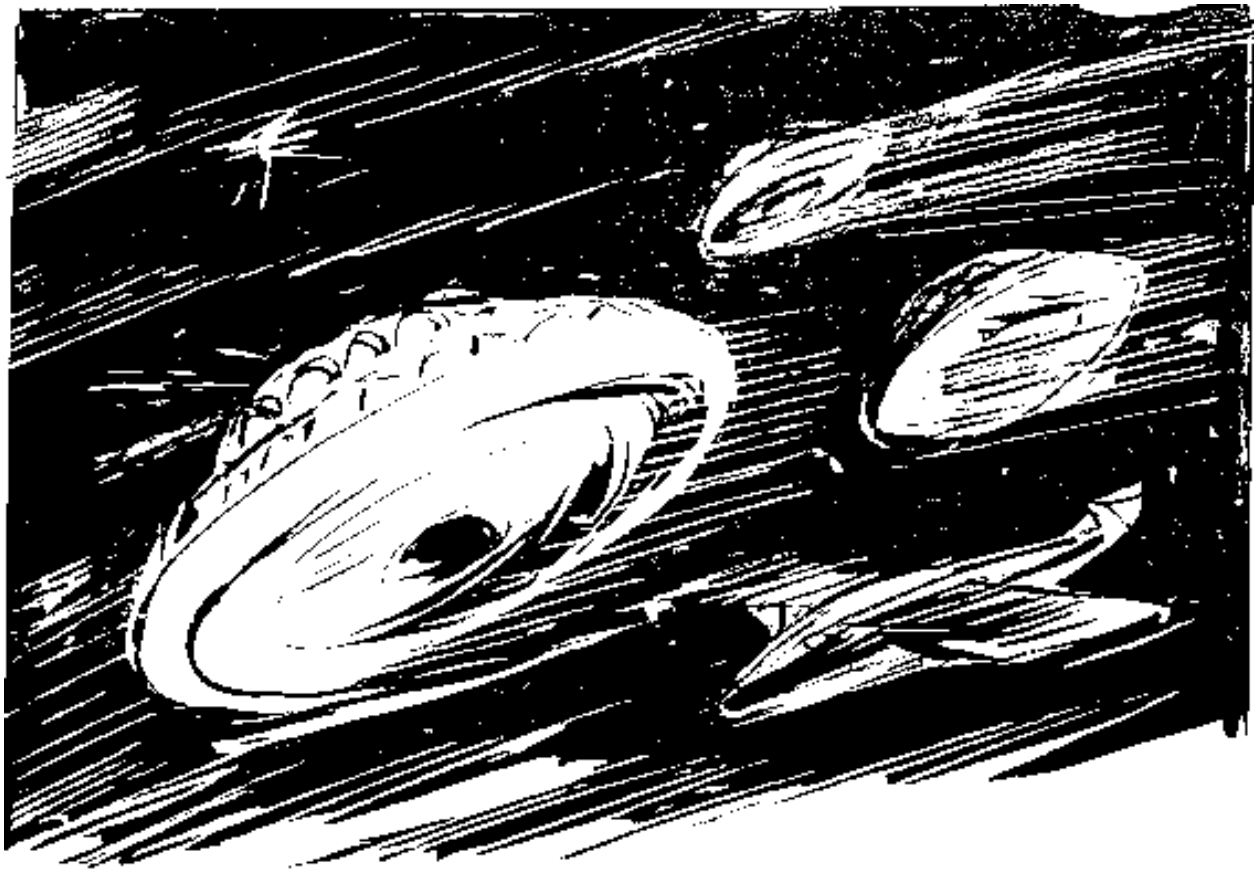

مجهولو الهويّة

4- مجهولو الهوية..

من المؤكد أن تاريخ الرابع والعشرين من يونيو، عام 1947 م، لم يكن يعني لرجل الأعمال الأمريكي (كينيث أرنولد) أكثر من ذلك الموعد، الذي حدده من قبل؛ لتوقيع عقد صفقة جديدة من صفقاته العديدة، في (واشنطن) ولذا فقد استقل طائرته الخاصة، التي يقودها بنفسه كالمعتاد، وانطلق بها إلى مطار (واشنطن)، وعقله يدرس تفاصيل الصفقة وشروطها، والأرباح الضخمة، التي ستعود على شركه من توقيعها..

وبعد أقل من ساعة، وعندما اقترب (كينيث) بطائرته من (مونت رينيار)، جذب انتباهه تشكيل من تسعة أجسام. تندفع إلى

جواره بسرعة ضخمة - بمقاييس ذلك الزمن - وتقوم بمناورات مدروسة غير مألوفة، ثم ترتفع إلى أعلى، وتختفي بين السحب..

واتسعت عينا (كينيث) في ذهول؛ فلم تكن تلك الأجسام التسعة تشبه أي جسم طائر رآه من قبل..

بل لم تكن سرعتها تقترب حتى من أعلى السرعات المعروفة..

وعندما هبط (كينيث) في مطار (واشنطن)، كان ينتظره هناك جيش من الصحفيين؛ فقد التقطت أجهزة الرادار تلك الأجسام، وعلم الجميع أنها قد مرقت إلى جواره، فانتظروا وصفه لها..

وفي حيرة، وصف (كينيث، هذه الأجسام، قائلا:

- إنها تشبه أقرصا، ألقتها يد قوية على سطح الماء.. إنها أشبه بأطباق.. أطباق طائرة

لم يدر، وهو ينطق هذا المصطلح، أن العالم كله سيردده لسنوات ستفوق حتى عمر (كينيث أرنولد) نفسه..

مصطلح (الأطباق الطائرة)..

والواقع أن (كينيث) لم ينقل إلى العالم ظاهرة جديدة، وإنما فقط منح هذه الظاهرة اسما تتداوله الصحافة، ويضفي على الظاهرة مزيدا من الغموض والرهبة، فلقد بدأت ظاهرة الأجسام الطائرة قبل حادثة (كينيث) بعام تقرا، وبالتحديد في التاسع من يوليو، عام 1946 م..

في ذلك الوقت كانت الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945 م) قد وضعت أوزارها، وألقى الأمريكيون و السوفييت القبض على عشرات من العلماء الألمان، الذين صنعوا الصاروخين (ف - 1) و (ف - ٢)، اللذين كادا يقلبان المعايير، ويحققان النصر لدول

المحور، لولا الهجوم السوفيتي الأمريكي، وصنع القنبلة الذرية، عندما ظهرت في سماء الدول الاسكندنافية عشرات الأجسام الطائرة المجهولة، التي تشبه في تكوينها السيجار الضخم، الذي ينفث اللهب، على ارتفاع كيلومتر كامل عن سطح الأرض، مما أثار الذعر والفزع، وتوالت التقارير عن هذه المشاهدات، حتى وصف الجيش السويدي هذه الظاهرة بأنها خطيرة للغاية، وأعلن عجزه عن إيجاد تفسير لها..

وهنا راح السوفييت والأمريكيون يتبادلون الاتهامات، وكل منهم يدعي أن الطرف الآخر قد استغل العلماء الألمان لديه، لصنع أسلحة سرية جديدة، ثم لم يلبث الأمر أن هدأ قليلا، عندما لم تبد تلك الأجساد المجهولة أية نوايا عدوانية، حتى جاءت حادثة (كينيث أرنولد) لتفجره مرة أخرى، وتمنحه اسما مثيرا..

وفجأة راحت المشاهدات تتوالى على نحو مثير، حتى أن جمهورا ضخما من المشاهدين قد رأى تشكيلا من تلك الأجسام الطائرة، تقوم بمناورات مدروسة، عند شلالات (توين) بولاية (أيداهو)، وفي نفس الليلة أعلن قائد طائرة ركاب ومضيفته الأولى أنهما قد شاهدا طبقين طائرين يتابعان الطائرة..

وبسرعة أعلن المسئولون أن كل هذا مجرد وهم جماعي، أو خداع بصري، أو.....

ورفض الجمهور تصديق تلك التفسيرات الواهية، التي حاول المسؤولون اقناع الجميع بها، حتى رجالهم، لولا ما حدث بعد أربعة أيام فقط..

في الثامن من يوليو، كان أحد الطيارين يختبر طائرة جديدة، من طراز (اكس - بي - 84) عندما مرق إلى جواره جسم كروي

أبيض، يميل إلى الاصفرار، ولا يشبه أي نوع من الطائرات المعروفة، ثم اختفى في الأفق، منطلقا بسرعة خرافية - في ذلك الحين - إذ تجاوز ضعف سرعة الصوت، في الوقت الذي لم تكن الطائرات فيه قد بلغت 90 ٪ من هذه السرعة بعد..

ولم ير الطيار وحده هذه الظاهرة، بل شاهدها كل الفتيين في القاعدة، وكل زملاء الطيار، وكتبوا تقريرا رسميا يتضمن هذا، وقدموه إلى المسئولين..

ومرة أخرى تجاهل المسئولون هذا التقرير..

ولكن الأجسام المجهولة ظلت تظهر، على الرغم من المسؤولين كان طيارو السلاح الجوي يطاردونها، حتى لقي أحدهم، وهو الكابتن (توماس مانتيل) مصرعه، في يناير عام 1948 م، وهو يطارد ما وصفه للقاعدة الأرضية، بأنه (جسم معدني متقدم، وهائل الحجم) ...

وهزت هذه الحادثة السلاح الجوي في عنف، ودفعته إلى تشكيل ما عرف باسم (عملية ساين)، التي بدأت عملها في الثاني والعشرين من يناير، عام 1948 م، لدراسة أمر الأجسام الطائرة المجهولة.

ثم تكونت هيئة علمية، تختص بدراسة هذه الظاهرة، وعرفت باسم (الكتاب الأزرق)، ولكن أحد المشرفين على هذه الهيئة، وهو دكتور (ج آلان هينيك)، لم يلبث أن استقال من هذه الهيئة، معلنا أن المسئولين يضغطون على (الكتاب الأزرق)، لدفعه إلى إصدار تقرير يؤكد عدم وجود أجسام مجهولة الهوية، على عكس ما توحي به التقارير والمشاهدات..

ولكن هذا الأسلوب لم يقنع الجمهور أبدا، خاصة وهو يقرأ في كل يوم، عن مشاهدة جديدة، أو مقابلة مثيرة، مع تلك الأجسام الطائرة المجهولة الهوية، كما اصطلح العلماء والدارسين على تسميتها..

ففي الثاني من نوفمبر، عام 1957 م، كاد ضابط الشرطة النوبتجي، في مركز شرطة (ليفلاند) بـ (تكساس)، واسمه (ا. ج. فولر)، يصاب بالجنون، عندما تلقى سلسلة من البلاغات الهاتفية، من أماكن مختلفة من المدينة، وكلها تتحدث عن مشاهدات لأجسام مجهولة الهوية، وتحمل نفس التفاصيل.. جسم برتقالي أشبه بسيجار، يقترب من السيارة، فيتوقف محركها، وتنطفئ أنوارها، ثم يتعد الجسم في سرعة مذهلة، تبلغ ألف كيلومتر في الساعة على الأقل، وبعدها تعود الحركة تحرك السيارة وتشتعل أنوارها أما لو توقف هذا الجسم، فإن ألوانه تنتقل من البرتقالي إلى الأصفر ثم الأبيض، وبعدها يستعيد ألوانه بترتيب عكسي، عندما ينطلق..

وعندما بلغت الساعة تمام الثانية والنصف صباحا، كان (فولر) قد تلقى خمس عشرة مكالمة هاتفية بنفس المعنى..

وكان من المستحيل أن تكون كل هذه البلاغات مجرد أوهام وخيالات..

والحديث عن مشاهدات الأطباق الطائرة لا ينتهي، ويحتاج إلى مجلدات كاملة، لذكر كل واقعة، وكتابة كل تقرير في هذا الشأن، ولكن هناك وقائع خاصة، لابد من الإشارة إليها، لأنها تحمل من الدلالات ما لا يمكن التغاضي عنه، في مثل هذا الأمر..

ومن هذه الوقائع واقعة الشرطي (هربرت شيرمر)، من (نبراسكا)، ففي الثالث من ديسمبر، عام 1967 م، شعر (هربرت) بالقلق، عندما أصيبت حيوانات المنطقة بنوع من الهياج والثورة، وراحت تعوي وتزوم وتزمجر في خوف وتوثر، فاستقل (هربرت) سيارته، في الثانية والنصف بعد منتصف الليل، وانطلق يبحث عن السبب، وفجأة وجد (هربرت) نفسه أمام جسم ضخم، متوقف على الأرض، بين الحقول..

وعندما عاد (هربرت) إلى مركز الشرطة، في الثالثة صباحا، دوَّن في السجل: وشاهدت طبقا طائرا، عند تقاطع الطريقين السادس والثالث والستين.. صدق أو لا تصدق.....

وعندما عاد إلى منزله أصابه صداع رهيب، وظهرت على رقبته آثار أشبه بضربات السياط، دون أن يدرك سببا لهذا..

ثم قامت اللجنة، المعروفة باسم (كوثدن)، بدراسة الأمر وكشفت وجود فجوة مجهولة في هذه القصة، فاستعانت بالمنوم المغنطيسي المحترف (تورينج وليامز)، في الثامن من يونيو عام 1968 م، الذي أخضع (هربرت) للتنويم المغنطيسي؛ لإنعاش ذاكرته، ومعرفة ما حدث في هذه الدقائق العشرين، ما بين رؤيته للطبق الطائر، وعودته إلى المركز..

وكانت المفاجأة المذهلة..

ففي غيبوبته المغنطيسية شرح (هربرت) كيف خرجت بعض المخلوقات من الجسم الطائر، وكيف خدروه بجهاز أشبه بمصباح التصوير، أحاطه بغاز أخضر، أصابه بشلل تام، وبعدها جاء بهذه المخلوقات إلى داخل الجسم المجهول، حيث سألوه عن محطة توليد الكهرباء، وخزانات المياه، ثم أخبروه أنهم من

مجرة قريبة، ولهم قواعد على كوكب الزهرة، وبعض الكواكب الأخرى في مجرتنا، وقواعد في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي قرار المحيط، أمام شاطئ (فلوريدا)، وقاعدة أخرى في القطب، ثم راحوا يشرحون له كيف تدور سفينتهم، وبعدها أعادوه إلى سيارته، وانطلقوا إلى الفضاء..

والعجيب أنه، وعلى الرغم من ثقافة (هربرت) المحدودة، كأي شرطي ريفي، إلا أن كل المعلومات العلمية، التي أوردها على لسان هذه المخلوقات، كانت سليمة تماما، بل إن بعضها لم تتأكد صحته، إلا بعد هذه الواقعة بسنوات.. أما تلك الآثار على رقبته، فقد كشف العلماء أنها تطلق إشعاعات نووية، استغرق الأمر شهرا، حتى تلاشت..

ودخل (هربرت شيرمر) التاريخ، من أكثر أبوابه غموضا، وعلى الرغم من الدهشة والحيرة، اللتين انتاباك، وأنت تقرأ واقعة (هربرت شيرمر)، إلا أنها ليست أعجب الوقائع في هذا الشأن، فهناك واقعة لا يمكن أن يجهلها أي دارس لظاهرة الأجسام الطائرة مجهولة الهوية..

واقعة (بارني) و (بيتي هيل)..

والواقع أن حادثة (بارني) و (بيتي هيل)، تعد أقوى الحوادث، في هذا المجال، إذ أنها – بالإضافة إلى غرابتها منحت العلماء أول دليل على وجود تلك الأجسام الطائرة المجهولة الهوية، وعلى انتمائها الي كائنات عاقلة، من مجرات أخرى..

فقيل حادثة (هربرت) بعام واحد تقريبا، قضي (بارني هيل) وزوجته (بيتي) عطلتهما، عند شلالات (نياجرا الشهيرة، عند الحدود الكندية، وعند عودتهما إلى منزلهما، فكر (باربي) في

سلوك طريق غير مأهول، في ساعة متأخرة من الليل، لتوفير الوقت، وانطلق في هذا الطريق لمدة ساعتين، وفجأة أشارت (بيتي) إلى جسم مضيء، يحلق فوقهما، ولم تكد تذكر هذا، حتى توقف محرك السيارة، وانطفأت أنوارها، في حين هبط الجسم الطائر أمامهما، وسد عليهما الطريق بضخامته، و...

وبعد ساعتين، وجد (بارني) و (بيتي) نفسيهما على بعد خمسة وثلاثين ميلا، من الموضع الذي استوقفهما فيه الجسم الطائر، دون أن يذكرا دقيقة واحدة مما حدث في أثناء هذا..

ولم يذكر الزوجان ما أصابهما لأي مخلوق، ولكنهما عانيا من اضطرابات نفسية، وأرق شديد، جعلهما يلجئان إلى دكتور (سيمون)، للعلاج من هذا القلق النفسي، وعندما أخضعهما (سيمون) للتنويم المغنطيسي، كما يفعل مع مرضاه، كانت المفاجأة..

لقد تذكر الزوجان أن مخلوقات هذا الجسم الطائر قد هبطت إليهما وصحبتهما إلى سفينتهم، وهناك تعرضا لفحوص طبية ومعملية، مثلما فعل العلماء بأي كائن غريب، وبعض هذه الفحوص كانت بالغة التطور، مما يصعب معه أن يصفها من لم يرها بنفسه، وبعدها اعتذرت تلك المخلوقات لـ (بارني) و (بيتي) عما فعلوه معهما، وسألت السيدة (بارني) قائد هذه المخلوقات عمن يكون، فأخبرها أنه وزملاؤه من مجرة أخرى، ثم قادها إلى خريطة فلكية، وسألها عما إذا كان بإمكانها تعرف الأرض على هذه الخريطة، فنفت قدرتها على هذا، وهنا أعادتها تلك المخلوقات مع زوجها إلى سيارتها، ونقلوهما إلى الموضع الآخر، الذي استيقظا فيه..

وفي أثناء وقوعها تحت تأثير التنويم المغنطيسي. رسمت (بيتي) تلك الخريطة الفلكية..

وكان هذا طرف خيط، التقطته السيدة (مارجوري فيش)، التي لم تكن أبدا من علماء الفلك، وابتاعت عشرات الخرائط الفلكية.

وصنعت في منزلها نموذجا مجسما للنجوم المحيطة بشمسنا، على مدى ستين سنة ضوئية، ثم راحت تدرس هذه الخريطة المجسمة سنوات كانت نظريتها تعتمد على أنه ما دام قائد الطبق الطائر قد سأل (بيتي)، عما إذا كانت ترى الشمس على الخريطة: فهي هناك حتما، ولكن الخريطة مرسومة بالتأكيد من زاوية رؤية مختلفة، حيث رسمها هؤلاء المجهولون من كوكبهم، الذي تختلف زاوية الرؤية فيه بلا شك عن كوكبنا..

ومن هذا المنطلق درست ر فيش) الخريطة، طوال تسع سنوات، ثم صرخت مثلما صرخ (أرشميدس) قبل الميلاد:

- وجدتها...

وعندما نشرت (مارجوري فيش) خريطتها، فجرت قنبلة بين علماء الفلك، إذ أشارت الخريطة إلى النجم رقم (86,1)، والذي ظهر في وضوح، في خريطة (بيني هيل)، على الرغم من أن أحدا من علماء الفلك لم يكن قد كشف وجود هذا النجم أو موضعه بعد، عندما رسمت (بيتي) خريطتها..

فكيف حددت (بيتي) موضع النجم بهذه الدقة، ما لم تكن الحادثة حقيقية بكل تفاصيلها؟

وكانت هذه الخريطة هي أول دليل على صحة وجود الأجسام الطائرة المجهولة الهوية، وعلى انتمائها إلى مجرة أخرى مزدوجة الشمس، تعرف باسم (زيتا ريتيكولي)

وعلى الرغم من كل ما قرأته..

وعلى الرغم من خريطة (بيتي هيل)، وكل ما حملته من الشك، ما زال بعض العلماء يرفضون فكرة انتهاء تلك الأجسام المجهولة الهوية إلى مخلوقات عاقلة من مجرات وكواكب أخرى، وما زال المسئولون يؤكدون أنها مجرد خداع بصري، أو ظواهر طبيعية.. ومجهولة الهوية..

☆ ☆ ☆

5- فلنبدأ بالخيال..

في السادس عشر من يوليو، عام 1969 م، انطلق من قاعدة (كيب كيندي) الفضائية، بالولايات المتحدة الأمريكية، الصاروخ (ساتيرن -5)، حاملا (أبوللو - 11)، سفينة الفضاء الأمريكية، التي اخترقت الغلاف الجوي الأرضي، وعلى متنها الرواد الثلاثة، (نيل أرمسترونج)، و (أدوين الدرين)، و (مايكل كولينز)، في طريقها إلى القمر، وعبرت منطقة انعدام الوزن، في تلك النقطة التي تتعادل فيها جاذبية الأرض مع جاذبية القمر؛ قبل أن تبلغ مدار القمر في التاسع عشر من الشهر نفسه، وتهبط مركبتها القمرية (النسر)، على سطح القمر، في العشرين من يوليو، ليطا (نيل أرمسترونج) بقدمه أرض القمر، كأول بشري يفعل هذا، في التاريخ المعروف.

وفي ذلك اليوم بالذات، وبينما كان الملايين يشاهدون لحظة وصول أول إنسان إلى القمر، كان أحفاد (جولي فيرن)، و (هربرت جورج ويلز) يبتسمون في زهو وسعادة، ويذكرون للجميع أن جدهما - (فيرن) أو (ويلز) - كان له الفضل الأول، في وضع فكرة السفر إلى القمر، قبل أن تبرز الفكرة حتى في عقول العلماء..

وهذا صحيح..

ففي عام 1865 م، وقبل أكثر من قرن كامل، كتب الأديب الفرنسي الأشهر، في عالم أدب الخيال العلمي (جولي فيرن) (1828 - 1905 م)، رائعته (من الأرض إلى القمر)، التي وصف فيها رحلة صاروخ، ينطلق من الأرض، في طريقه إلى القمر، وعلى متنه عدد من الرواد، وجاءت هذه التفاصيل مطابقة على نحو

مذهل، لنفس ما حدث بعد قرن كامل أو يزيد، في رحلة (أبوللو - 11)..

أما رائعة (هربرت جورج ويلز).. (1866 - 1946 م)، والتي كتبها في بدايات القرن العشرين، (أول من وصل القمر)، فقد كانت أول نبوءة أدبية، حول اختراق الإنسان للغلاف الأرضي، وتحطيمه للجاذبية الأرضية، ووصوله إلى القمر..

وهذه هي روعة أدب الخيال العلمي..

وهذا النوع من الأدب ليس قديما، كغيره من صنوف الأدب، كالمسرحية والرواية والشعر، وغيرها، إذ لم يكن من الممكن أن ينشأ هذا الأدب، قبل أن تنطلق الثورة الصناعية والعلمية، التي بدأت مع بدايات القرن التاسع عشر، وراحت تتطور في سرعة مدهشة، لينبت معها ذلك الأدب الجديد، الذي يمزج ما بين جمال الأدب والانبهار بالعلوم والصناعات الحديثة..

وكان (جولي فيرن) هو أول من اقتحم هذا المجال، بعد أن حقق نجاحا معقولا، في مجال أدب المغامرات، بروايته (5 أسابيع في منطاد)، مما شجعة، وشجع ناشره، على إصدار روايات الخيال العلمي، التي لم تكن مألوفة حينذاك، مثل (عشرون ألف فرسخ تحت الماء)، التي طور خلالها (فيرن) بخياله تلك الغواصة، التي ابتكرها الإنجليزي (ك.ي. دريبل)، عام 1620 م، ليضيف إليها - في روايته - كاشف الأعماق (السونار)، والقدرة على بلوغ القطب الشمالي، في حين لم يكن التفكير في هذا قد راود حتى عقل أكثر العلماء تفاؤلا، ولكن (السونار) تم اختراعه بالفعل، قبيل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٧ م)، في حين لم تنجح الغواصات

في بلوغ القطب الشمالي، كما فعلت غواصة رواية (فيرن)، قبل تزويدها بالطاقة الذرية، عام 1953 م..

وبعدها وضع (فيرن) عددا من أروع روايات الخيال العلمي، مثل (سيد العالم)، (الجزيرة الغامضة)، (من الأرض إلى القمر)، وغيرها، مما استحق معه أن يحصل على لقب (أبو الخيال العلمي، الذي مازالت الموسوعات العالمية تلقبه به حتى الآن..

ومن (فرنسا)، تسلل أدب الخيال العلمي إلى (أوروبا)، وبالذات إلى (انجلترا)، حيث انتقل معه فن كتابة أدب الخيال العلمي، من الانبهار بالآليات الحديثة، إلى مرحلة الفلسفة العلمية، إذ تميزت روايات (ويلز) بالنظرة الفلسفية للأمور، والدراسة الحذرة لنتائج التطورات العلمية في المستقبل، ويتضح هذا، أكثر ما يتضح، في روايته (آلة الزمن)، حيث سافر بطلها إلى المستقبل البعيد، ليجد العالم وقد أنقسم إلى طبقتين رئيسيتين.. طبقة العمال الكادحة، التي صارت أكثر قوة وخشونة، وطبقة المرفهين الناعبين، الذين أصبحوا مجرد غذاء ناعم ولذيذ للطبقة الكادحة.. وكذلك تتضح فلسفاته العميقة، في رواياته (أول من وصل إلى القمر)، و (حرب العوالم).. وغيرها..

ومع انتشار هذا الأدب، ظهرت أنماط أخرى من الرواية الخيالية، مثل روايات (دراكيولا)، التي ابتكرها (برام ستوكر)، مدير أحد المسارح، حول شخصية أقرب إلى الموتى، منها إلى الأحياء، وتحيا على امتصاص دماء الآخرين، وتحويلهم بدورهم إلى مصاصي دماء..

وعادت دور النشر تطبع رواية الشاعرة (ماري شيلي) (فرانكنشتاين)، التي وضعتها عام 1817م، حول طبيب يصنع

مسخا هائلا من أجساد الموتى، ثم يعيده إلى الحياة!!

ولكن هذه الروايات لم ترق أبدا إلى مستوى روايات الخيال العلمي، التي راحت تنهمر كالمطر، على السوق الأدبي الأوروبي والأمريكي في روايات بلغت بدورها شهرة واسعة، مثل (دكتور جيكل ومستر هايد)، للأديب (روبرت لويس ستيفنسون)، و (صورة دوريان جراي)، د (أوسكار وايلد)، وحتى (آرثر كونان دويل)، مبتكر شخصية (شيرلوك هولمز) الشهيرة، كانت له أعمال عظيمة في هذا المجال، مثل (العالم المفقود) و (النطاق السام)، وغيرها، ولكنها لم تلق نفس النجاح الذي لقيته شخصية (هولمز)..

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، بدأت ظاهرة جديدة تجذب انتباه الناس، ألا وهي ظاهرة تلك الأجسام الطائرة المجهولة، التي اصطلح الصحفيون على إطلاق اسم (الأطباق الطائرة) عليها..

وبغض النظر عن الحقيقة والخيال، في موضوع الأطباق الطائرة هذا، فقد أطلق مخيلة الأدباء والعامة، نحو الفضاء والخيال والغموض، وساعدت النهضة العلمية، التي لحقت الحرب العالمية الثانية على نمو هذا الخيال، وعلى تنشيط وإنعاش أدب الخيال العلمي مرة ثانية..

وفي عالمنا العربي، برز أدب الخيال العلم على أيدي الأدباء المصريين، مثل الدكتور (مصطفى محمود)، والسكندري العالم الدكتور (يوسف عز الدين عيسى)، والأستاذ (نهاد شريف)، و (رءوف وصفي)، وغيرهم.. وفي إحصائية حديثة نجد أن أدب الخيال العلمي يحتل 56٪ من قراءات الأوروبيين، و67٪ من قراءات الأمريكيين، و41٪ من قراءات السوفييت، الذين يحظون بعدد من أعظم أدباء الخيال العلمي في العالم، مثل (اسحق عظيموف)، في حين لم يحتل أدب الخيال العلمي سوى 9.5٪ من قراءات العرب للأسف، وهذا يعود إلى قلة عدد الكتاب، في هذا المجال، وقلة عدد الناشرين، الذين يمكنهم المغامرة بإنتاجه..

أما بالنسبة للسينما، فقد بلغت أفلام الخيال العلمي مرتبة، لم تبلغها من قبل قط، وعلى الرغم من أن تكلفة إنتاج مثل هذه النوعية من الأفلام، يبلغ عدة مئات من الملايين، إلا أنها تحقق لمنتجيها أرباحا خيالية، تؤكد إقبال المشاهدين عليها، وانطلاقهم معها في عالم الخيال، ولقد بدا هذا واضحا في (حرب الكواكب) بأجزائه الثلاثة، و (ET)، و (العودة إلى المستقبل)، و (الاتصال الأخير)، وغيرها..

وفي السنوات الأخيرة، انتقل عالمنا العربي إلى عصر العلم والتكنولوجيا، وأصبحت الشركات الكبرى تتنافس على تعريب أجهزة الكمبيوتر، لتغطية الاحتياجات المتزايدة للتقدم، في هذه السوق الجيدة، فهل سيأتي يوم يتبوأ فيه أدب الخيال العلمي مكانته وسط القراء والنقاد؟.. وهل سنرى يوما أفلاما للخيال العلمي، تنافس (حرب النجوم) و (درب النجوم)، وغيرها ؟..

هل يظهر بيننا (جولي فيرن) عربي؟

لا يوجد جواب لهذا سوى أن الزمن وحده قد يدفعنا إلى هذا، كتطور طبيعي للعقول والأفكار، فكما قال أبو الخيال العلمي (جولي فيرن): الطريق إلى التقدم يبدأ دائما بالخيال..

فلتبدأ إذن طريق التقدم..

فلنبدأ بالخيال..

الخيال العلمي..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

الذين ذهبوا

6- الذين ذهبوا..

«إنها (أطلانطس)...»

صرخ طيار مدني بهذه العبارة، وهو يقود طائرته فوق جزر (بهاما)، عام 1968، عندما شاهد مع زميله جزيرة صغيرة تبرز من المحيط، بالقرب من جزيرة (بيمن)، وأسرع يلتقط الة التصوير الخاصة به، ويملأ فيلمها بصور لذلك الجزء من القارة المفقودة، التي ألهبت الخيال طويلا..

قارة (أطلنطس)..

ولكن لماذا تصور الطيار وزميله أن هذا الجزء الذي يحوي أطلالا قديمة، هو جزء من قارة الخيال والغموض؟..

إن الجواب يعود إلى يونيو 1940، عندما أعلن الوسيط الروحي الشهير (إدجار كابس)، واحدة من أشهر نبوءاته، عبر تاريخه الطويل، إذ قال إنه، ومن خلال وساطة روحية قوية، يتوقع أن يبرز جزء من قارة (أطلنطس) الغارقة، بالقرب من جزر (بهاما)، ما بين عامي 1968 م، و1969 م..

ولقد اتهم العديدون (كابس) بالشعوذة والنصب، عندما أعلن هذه النبوءة، وعلى الرغم من هذا، فقد انتظر العالم ظهور (أطلنطس) بفارغ الصبر.

وكان لظهور ذلك الجزء، في نفس الزمان والمكان، اللذين حددهما (كايس) في نبوءته، وقع الصاعقة على الجميع.. مؤيدين ومعارضين؛ إذ كان - في رأي الجميع - الدليل الوحيد الملموس، على وجود (أطلنطس)..

هذا لأن قارة (أطلنطس)، ظلت دائما مجرد أسطورة، يعجز أي عالم أو باحث أثرى، مهما بلغت شهرته وخبرته، عن إثبات أو نفي وجودها، بصورة قاطعة جازمة.

والحديث عن (أطلانطس) يعود إلى زمن قديم، أقدم مما يمكن أن تتصور، فلقد ورد ذكرها - لأول مرة - في محاورات (أفلاطون)، حوالي عام 335 ق.م، ففي محاورته الشهيرة، المعروفة باسم (تيماوس)، يحكي (كريتياس) أن الكهنة المصريين استقبلوا (صولون) في معابدهم، وهذه حقيقة تاريخية، ثم يشير إلى أنهم أخبروا (صولون) عن قصة قديمة، تحويها سجلاتهم،

تقول: إنه كانت هناك امبراطورية عظيمة تعرف باسم (أطلانطس)، تحتل قارة هائلة، خلف أعمدة (هرقل) - مضيق جبل (طارق) حاليا - وإنها كانت أكبر من شمال أفريقيا و (اسيا الصغرى مجتمعتين، وخلفها سلسلة من الجزر، تربط بينها وبين قارة ضخمة أخرى..

وفي نفس المجاورة، وصف (كريتياس) (أطلانطس) بأنها جنة الله (سبحانه وتعالى) في الأرض، ففيها تنمو كل النباتات والخضراوات والفواكه، وتحيا كل الحيوانات والطيور، وتتفجر فيها ينابيع المياه الحارة والباردة، وكل شيء فيها نظيف جميل طاهر، وشعبها من أرقى الشعوب وأعظمها، له خبرات هندسية وعلمية تفوق - بعشرات المرات ما يمكن تخيله، في عصر (أفلاطون)، إذ وصف (كريتياس) إقامتهم لشبكة من قنوات الري. والجسور، وأرصفة الموانئ، التي ترسو عندها سفنهم وأساطيلهم التجارية الضخمة..

ثم يحكى (كريتياس) من الحرب بين الأثينيين والأطلانطيين، ويصف كارثة مروعة، محقت الجيش الأثيني، وأغرقت قارة (أطلانطس) كلها في المحيط.

والى هنا تنتهي المحاورة..

وتبدأ المشكلة..

مشكلة (أطلانطس)..

ففي البداية، تعامل الباحثون مع محاورة (أفلاطون)، بصفتها رواية مثالية، لوصف المدينة الفاضلة (يوتوبيا)، وأنها مجرد خيال لا أكثر..

ثم دس العلماء أنفهم في الأمر..

والسبب الذي جعل العلماء يفكرون في قصة (أطلانطس). هو أن فكرة وجود قارة وسيطة، تربط ما بين (أفريقيا) و (أمريكا). كانت تملأ الأذهان، تثير اهتمام العلماء، الذين يتساءلون عن سر وجود تشابه حضاري ما بين العالمين، القديم والجديد، ويبحثون عن سبب علمي ومنطقي، لوجود نفس النباتات والحيوانات، في قارتين تفصل بينهما مساحة مائية هائلة..

وفي الوقت نفسه كانت هناك تلك الظواهر الحضارية المدهشة، التي يجدها العلماء وسط أماكن لم تشتهر أبدا بالحضارة، مع وجود أساطير متشابهة في تلك الأماكن، تشير إلى أن الالهة جاءت من حضارة أخرى، وضعت كل هذا..

وجاء وجود (أطلانطس)، ليضع تفسيرا لكل هذا الغموض..

كان وجود قارة متقدمة في هذا الزمن القديم، يريح عقول الجميع ويفترض وجود شعب متطور، بنى حضارته في قلب الأرض، ونشر أجزاء منها في كل القارات.

ولكن أين الدليل على وجود (أطلانطس) ذات يوم؟

ان قصة (أفلاطون) مازالت تتأرجح، ما بين الخيال ونصف الخيال، والحقيقة. فعلى الرغم من أن محاورة (كريتياس) تشير إلى أن المصريين هم الذين أخبروا المشرع الأثيني (صولون) بقصة (أطلانطس)، إلا أننا لا نجد ذكرا لهذه القصة عند المصريين أنفسهم، وفي الوقت نفسه لا يوجد دليل واحد على أن (أثينا) كانت يوما بهذه القوة التي تمكنها من التصدي لحضارة متطورة كحضارة (أطلانطس)..

وفي نفس الوقت، نجد من بين العلماء من يؤكد وجود (أطلانطس)، ويشير إلى أن (أفلاطون) أخطأ التاريخ والزمن

فحسب، أو أنه كان يستخدم تقويما يختلف عن التقويم، الذي نستخدمه الان، وحجتهم في هذا هي كشف حقيقة وجود مدينة (طروادة)..

و (طروادة) هذه مدينة أسطورية، ذكرها (هوميروس) في ملحمتيه الشهرتين (الإلياذة) و (الأوديسا)، حوالي عام 850 ق.م، أي قبل (أفلاطون) بخمسة قرون، وظل الدارسون يعتقدون أن (طروادة) مجرد خيال، من بنات أفكار (هوميروس)، حتى جاء الألماني (هنريش شوليمان) عام 1871 م، لينتشل (طروادة) من التراب، في (هيسارليك)، في شمال غرب (تركيا)..

وبعده جاء سير (أرثر إيفانز)، ليؤكد أن (قصر التيه)، الذي جاء ذكره في أسطورة (المينوتوروس) حقيقة، ويثبت وجوده بالفعل، عام 1900 م..

فلماذا لا ينطبق هذا على (أطلانطس)؟

مادام (شوليمان) و (إيفانز) قد عثرا على أسطورتين. فلماذا لا يعثر ثالث على أسطورة ثالثة، ويثبت أن (أطلانطس) حقيقة واقعة؟..

ومن هذا المنطلق، بدأت عشرات المحاولات والإثبات وجود (أطلانطس)، وراح العلماء يبحثون عن أماكن أخرى، بخلاف المحيط الأطلسي، يمكن أن تكون المهد الحقيقي للقارة المفقودة، فأشار الفيلسوف البريطاني (فرانسيس بيكون) إلى أن (أطلانطس) هي نفسها قارة (أمريكا)، وأكد البريطاني (فرانسيس ويلفورد) أن الجزر البريطانية هي جزء من قارة (أطلانطس) المفقودة، في حين اقترح البعض الآخر وجودها في (السويد)، أو المحيط الهندي، أو حتى في القطب الشمالي.

ثم جاءت نبوءة (إدجار كايس)، لتضع قاعدة جديدة للقضية كلها..

وبعد ظهور جزيرة (كايس) الصغيرة، والمباني، أو الأطلال الأثرية فوقها، قرر باحث وأديب وغواص شهير، يدعى (تشارلز بيرليتز)، أن يبحث عن (أطلانطس) في نفس الموقع، وبدأ بحثه بالفعل، ليلتقط عددا من الصور لأطلال واضحة، في قاع المحيط، ومكعبات صخرية ضخمة، ذات زوايا قائمة، مقدارها تسعين درجة بالضبط، مما يلغي احتمال صنعها بوساطة الطبيعة وعوامل التعرية وحدها..

ولم يكن هذا وحده ما تم العثور عليه، في تلك المنطقة من المحيط، لقد عثر الباحثون، بالقرب من سواحل (فنزويلا)، على سور طوله أكثر من مائة وعشرين كيلو مترا، في أعماق المحيط، وعثر السوفييت شمال (كوبا) على عشرة أفدنة من أطلال المباني القديمة، في قاع المحيط، وشاهدت ماسحة محيطات فرنسية درجات سلم منحوتة، في القاع، بالقرب من (بورتوريكو)..

وعلى الرغم من هذا فالجدل، حول حقيقة (أطلانطس)، ما يزال قائما..

والنظريات أيضا لم تنته..

ومن بين هذه النظريات نظرية تقول: إن سكان (أطلانطس) قد أتوا من كوكب آخر، في سفينة فضائية ضخمة، استقرت على سطح المحيط الأطلسي، وأنهم انتشروا في الأرض، وصنعوا كل ما يثير دهشتنا في كهوف (تسيلي) بـ (ليبيا)، وبطارية (بغداد)، وحضارة (مصر)، وأنهم كانوا عمالقة زرق البشرة، وهناك إشارة

إلى هذا، في بعض الروايات بالفعل، ثم شن الأثينيون حربا عليهم، فنسفوا الجيش الأثيني بقنبلة ذرية، أو ما يشبه هذا، وبعدها رحلوا، وتركوا خلفهم كل هذه الاثار..

وعلى الرغم من غرابة النظرية، فإنها تجد من يؤيدها، وبكل حماس..

مشيرا إلى أن كل الالهة والملوك وصفوا، في كل العصور تقريبا، بأنهم من أصحاب الدم الأزرق، أو الدم النبيل..

حتى اللون الأزرق، أطلقوا عليه اسم (اللون الملكي)..

وهناك نظرية أخرى. تربط ما بين (أطلانطس) وجزيرة (كريت).. التي حملت يوما حضارة رائعة مبهرة، تشابهت في كثير من وجوهها مع حضارة (أطلانطس)، كما أشار البروفسير (ك. ت. فروست)، عام 1909م في (لندن)، حيث قال: إن كل شيء في (كريت) يتشابه مع ما ذكره (أفلاطون) عن (أطلانطس)، فكل من الحضارتين نشأت في جزيرة. وكلتاهما لقيت نهاية مفاجئة، كما أنه هناك مراسم صيد الثيران، والميناء العظيم، والحمامات الضخمة، والملاعب الرياضية، وكل الأشياء الأخرى، التي عثر عليها سير (إيفانز) في (كريت). والتي ذكرها...

(أفلاطون) في محاورة (كريتياس)

ويؤيد البروفيسور (جف، لوتش) هذا، في كتابه (نهاية أطلانطس)، ويؤكد أن اختفاء (أطلانطس) معنى مجازي، وليس حقيقيا، وأنها لم تغرق في قاع المحيط، وإنما تعرضت لكارثة اودت بها، مثل كارثة بركان (ثيرا)، وبركان (كراكاتوا)، عندما ثار البركان، ودمر جزيرة كاملة.

وهناك احتمال يقول إن قصة (أفلاطون) هي تحوير للقصة الفعلية التي سمعها (صولون) في (مصر)، بعد أن تناقلتها الألسن والذاكرة لقرون كاملة، قد تتغير خلالها رواية الأحداث، وأسماء الأشخاص والأماكن..

واسم (أطلانطس) نفسها..

وكالعادة. تفتقر كل هذه النظريات إلى الدليل..

الدليل العلمي القوي..

وحتى لحظة كتابة هذه السطور، مازال عشرات العلماء يبحثون عن قارة أطلانطس)، التي أصبحت قارة الغموض والخيال، في عقول العلماء والأدباء..

عشرات النظريات تحدثت عنها مئات المقالات والكتب كتبت اسمها أعداد لا حصر لها من الروايات الخيالية، تفترض وجودها والعثور عليها، وينسج الخيال مغامرات مثيرة داخلها، عن حضارتها، وتقدمها وعن شعبها الغامض..

أولئك الذين أقاموا أكثر حضارات التاريخ غموضا وإثارة..

الذين تزعموا العالم يوما..

والذين ذهبوا.

وبلا عودة..

☆ ☆ ☆

ويمضى الزمن

7- ويمضي الزمن..

متى بدأ الزمن؟!..

على الرغم مما يبدو عليه هذا السؤال من بساطة. إلا أن جوابه ليس بسيطا على الإطلاق، والدليل على هذا أنك نفسك لن تجد الجواب في أعماقك وعقلك، بل ستجد أنك ستطرح على نفسك عدة أسئلة أخرى..

فهل بدأ الزمن مع بدء الخليقة؟

أم قبلها؟

أم أن الزمن. كما قال (ألبرت أينشتين). لا يبدأ ولا ينتهي، وأنه يدور في حلقة دانية، بلا بداية أو نهاية؟

الواقع أن أحدا لا يعلم متى بدأ الزمن، ولا متى تم تسجيل أول تاريخ فعلي، ولكن الأمر المؤكد هو أن المصريين كانوا أول من وضع تاريخا رسميا، اعتمدوه في حضارتهم وحياتهم كان هذا مع تطور الحضارة المصرية القديمة، وظهور عدد من علماء الفلك، الذين راحوا يدرسون حركة النجم المعروف باسم (شعرى اليمانية)، وهو ألمع نجم في السماء، ويوجد في كوكبة الجبار، فقد كان ظهوره بشيرا بالفيضان، ورمزا لبدء موسم الحر، عند اليونانيين والرومان، ومع دراستهم هذه، حدد الفلكيون المصريون القدامى عام 4341 قبل الميلاد، كأول تاريخ رسمي معروف، واعتبروا أن أول ظهور للنجم (شعرى اليمانية) في الأفق، قبل شروق الشمس، هو بداية العام..

ثم بدأ الفلكيون في حساب أيام هذا العام، فوجدوا أنها 365 يوما، هي أيام السنة التي تعرفها، والتي حددها علماء العصر الحديث بصورة أدق (2422 و365 يوما)..

أما بالنسبة للشهر، فقد استخدم البابليون القمر الحساب الشهور، واعتمدوا تماما على هذه الشهور القمرية، ولكنهم ارتبكوا بسبب عدم انتظامها، فأصدر الملك (حمورابي) قانونا عجيبا، يضيف فترات غير منتظمة إلى العام، لتنتظم بداياته، مع اختلاف هذه الفترات من عام إلى عام، ثم عاد وأضاف شهرا كبيسًا، يلغى الفرق كل عدة أعوام..

أما المصريون، فقد قسموا السنة إلى اثني عشر شهرا، قبل ميلاد المسيح بثلاثة الاف سنة تقريبا، وجعلوا عدد أيام كل شهر هي

ثلاثين يوما، أما الأيام الخمسة المتبقية، فاتخذوا منها عيدًا يحتفلون به، ولا يضيفونه إلى عمر الإنسان..

ثم جاء (يوليوس قيصر)، ودرس التقويمين، البابلي والمصري واجتمع مع رئيس الفلكيين بقصره، ثم أصدر تقويمه، الذي قسم فيه العام إلى اثني عشر شهرا، يحوي بعضها ثلاثين يوما، ويحوي البعض الآخر واحدا وثلاثين يوما، ثم استثنى شهر (فبراير)، فجعل أيامه أقصر بحيث يضيف إليه يوما إضافيا، كل أربع سنوات، لحل مشكلة ربع اليوم، الذي كشف الفلكيون وجوده، وأضافوه إلى أيام السنة (365.25 يومًا)..

وهكذا أصبح هناك عام، وشهر، و.....

وبقي الأسبوع..

وفكرة الأسبوع هذه ابتكرها اليهود، ففي قصة الخلق في التوراة، أن العالم خلق في ستة أيام، ومن هنا استخدم اليهود هذه الأيام الستة واتخذوا السبت يوما سابعًا للراحة، وقسموا السنة إلى اثنين وخمسين أسبوعا، ثم انتشروا في العالم، ورحلوا من مكان إلى مكان، وحافظوا على دورتهم السباعية في كل مكان حطوا رحالهم فيه، حتى انتشر معهم الأمر، وأصبح هنا ما يعرف بالأسبوع، قبل ميلاد المسيح بعدة قرون..

وتقسيم الأيام أسهل ألف مرة من تقسيم السنين والشهور والأسابيع، فاليوم هو أوضح وجدة يشعر بها البشر؛ إذ أنه يبدأ مع شروق الشمس ويمتد حتى شروقها التالي، ولقد شعرت كل الشعوب والحضارات بهذه الوحدة، وأطلقوا عليها اسم اليوم، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم، في تقسيم هذه الوحدة إلى وحدات أصغر..

ففي البداية فم الناس اليوم إلى أبسط نصفين..

ليل ونهار..

ثم جاء البابليون، وقسموا اليوم إلى اثنتي عشرة فترة زمنية متساوية، أطلقوا على كل منها اسم الساعة، وقسموا هذه الساعة البابلية إلى ثلاثين دقيقة، وهذا يعني أن ساعتهم كانت تساوي ساعتين من وقتنا هذا، ودقيقتهم تساوي أربع دقائق..

وعلى الرغم من أن هذا التقسيم قد انمحي، ولم يلق انتشارا أو استمرارا، إلا أننا اليوم، وبعد تقسيم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة، مازلنا نستخدم النظام البابلي، فما تزال كل الساعات تحمل أثنى عشر رقما فحسب..

أما المصريون، فقد اخترعوا الساعات الشمسية، والمزولة، واستخدموهما في تقسيم اليوم إلى الأربع والعشرين ساعة، التي نعرفها الآن، وقسموا كل ساعة إلى ستين دقيقة، وكل دقيقة إلى ستين ثانية..

وهكذا كان الزمن.

من سنة، إلى شهر، إلى أسبوع، إلى يوم، فساعة، فدقيقة، فثانية..

وعلى الرغم من كل هذا، بقي الوقت سلعة ثمينة، لا يجيد معرفتها والتعامل معها سوى الخبراء والمختصين، الذين يمكنهم استخدام الساعات الشمسية، والمزاول، والساعات الرملية، والمائية، وغيرها..

ثم مر الزمن، وجاء عام 1500 م.

وفي هذا العام، ظهرت إلى الوجود أول ساعة ميكانيكية ذات عقارب، من ذلك النوع الذي نعرفه الآن، وجاء ظهورها في

(نورمبرج)، ليبهر العامة، ويمنحهم - لأول مرة. القدرة على معرفة الوقت ببساطة..

وفي عام 1656 م، استخدم (كريستيان هايكنز)، العالم والفيزيائي الدانمركي، بندول (جاليليو)، في تطوير الساعات الميكانيكية وتبسيطها، وقد ساعد هذا على سهولة انتاج وتصنيع الساعات، وانتشارها بين العامة..

ومع تطور الزمن، تطورت الساعات أيضا، فظهرت الساعة الكهربية في القرن التاسع عشر، ثم الساعات الإليكترونية في القرن العشرين، وهكذا..

إلى هنا ولم تنته قصة الزمن بعد، ففي عام 1905، نشر (اينشتين) نظرية النسبية الخاصة، التي اعتبر فيها أن الزمن هو البعد الرابع للمادة.

فقد وجد أن الأبعاد الثلاثة المعروفة، وهي الطول والعرض والارتفاع، لا تكفي وحدها التفسير كل الظواهر الكونية وقوانين الطبيعة، ولا لبحث الشواهد المعروفة، لذا فقد أضاف الزمن إلى هذه الأبعاد الثلاثة، وتوصل إلى معادلات وقوانين جديدة، قلبت علم الفيزياء رأسا على عقب، وأعطت مفهوما جديدا ومثيرا للزمن.. ولأول مرة، بدأ العلماء ينظرون إلى الزمن بمفهوم جديد، ويقتربون منه في حذر، بعد أن كان بالنسبة إليهم أمرا عاديا بسيطا وفي عام 1915 م، نشر (أينشتين) نظرية النسبية العامة، التي توسع فيها في استخدام الزمن، وربطه بالجاذبية والمكان وغيرها..

وتفجر خيال العلماء..

وخيال الأدباء..

وفي ثورة زمنية عجيبة، نشر (هـ. ج. ويلز)، كاتب الخيال العلمي الشهير روايته (آلة الزمن)، التي يتحدث فيها عن مخترع شاب، اخترع آلة نقلته إلى المستقبل البعيد، فبلغ حقبة انهارت فيها الحضارة، وانقسم فيها البشر إلى قسمين، قسم يعمل وينتج، وأخر يعبث ويلهو ومنذ نشرت رواية (ويلز)، تضاعفت لهفة الناس وحيرتهم من الزمن وألاعيبه وغموضه..

وصدرت عشرات الروايات، التي تناقش الفكرة نفسها..

فكرة السفر عبر الزمن..

ومع أبحاثهم المستمرة، توصل العلماء إلى نتائج مدهشة، ونظريات مذهله، تتعلق كلها بالزمن، وكشفوا في الفضاء فجوات غامضة، أطلقوا عليها اسم (الكوازرات)، يتلاشى فيها الزمن، أو ينخفض، وفجوات أخرى يتسارع فيها الزمن..

وعلى الرغم من مرور ما يقرب من أربعين عاما، على وفاة (أينشتين)، إلا أن العلماء ما زالوا يتوصلون يوميا إلى ما يثبت صحة نظرياته حول الزمن، وحول علاقته النسبية بالمكان، والحركة، والتطور.

وفي كل يوم يأتي العلم بجديد حول الزمن، الذي لا تنضب مفاجآته أبدا، والذي يجري بينا، أو نجري به، أو يدور حولنا، أو ندور حوله..

لم تعد هناك علاقة واحدة لوصف ذلك الزمن، بل أصبحت هناك عشرات العلاقات الرياضية، التي ترتبط به، ويرتبط بها..

علاقات تجعلنا نمضي أكثر وأكثر في دراسة القوانين والطبيعة..

ويمضي بنا العمر..

ويمضي الزمن..

د. نبيل فاروق..

☆ ☆ ☆

الانفجار الغامض

8- الانفجار الغامض..

بدأ كل شيء بداية حسنة، مع شروق شمس ذلك اليوم، في الثلاثين من يونيو، عام 1908 م، وخرجت حيوانات الرنة سعيا وراء رزقها، وساق المزارعون ماشيتهم إلى الحقول، وتركوها ترعى هانئة طيلة النهار، و...

وفجأة وقعت الكارثة..

في تمام الخامة، وسبع عشرة دقيقة بالضبط دوى الانفجار..

كتلة هائلة من اللهب ارتفعت من وادي نهر (تانجسكا) في أصقاع (سيبيريا)، وأضاءت نصف الكرة الأرضية تقريبا، في انفجار رهيب مخيف، لم ير العالم مثيلا له قط، إلى يومنا هذا..

الإنجليز أمكنهم قراءة الأحرف الصغيرة من جريدة (التايمز)، في منتصف الليل..

في (ستوكهولم) التقطوا عددا من الصور الضوئية، دون وميض، في قلب الليل..

الألمان حظوا بنهار دام أكثر من أربع وعشرين ساعة..

الهولنديون عجزوا عن رصد النجوم، بسبب الضوء المبهر..

وفي (روسيا) نفسها كان وقع الأمر أعظم وأخطر..

لقد أكد مزارع، كان يجلس على بعد ستين كيلومترا من موقع الانفجار، أنه شعر بلفح النيران، ورأى كرة هائلة من اللهب تصعد إلى السماء، ثم ألقاه الانفجار بعيدا، وأطاح بسقف منزله..

وسري الرعب في العالم أجمع، وراح الجميع يتساءلون عن هذا الانفجار الغامض، الذي بدا لهم - آنذاك. وكأنه الخطوة الأولى، في طريق فناء العالم، من هول ما رأوا..

ولكن العجيب أن أحدا في (روسيا) القيصرية لم يتحرك، للبحث عن سبب حدوث هذا الانفجار العجيب، إذ كان الجميع وقتها منشغلين بتلك الاضطرابات السياسية، التي سادت البلاد، واستمرت تتفاقم، حتى اندفعت الثورة البلشفية، عام 1917 م..

وفي عام 1921 م، بدأ عالم سوفييتي يدعى (ليونيد كوليك)، أول بحث فعلى وجاد، عما أطلق عليه الجميع اسم (انفجار سيبيريا)..

وعثر (كوليك) على صحيفة قديمة، تصف ذلك الانفجار الكبير، قائلة:

- شاهد الفلاحون جسما شديد الإضاءة، يهبط من السماء، في الشمال الغربي، بميل واضح، وبدا لهم الجسم اسطوانيا

منتظما، وعندما بلغ ذلك الجم مسطح الأرض انسحق، وتكونت سحابة هائلة من الدخان الأسود، ثم دوى صوت انفجار ألف ألف مدفع جبار، واهتزت القرية كلها، وتصور الجميع أنها نهاية العالم..

والتقط (كوليك) طرف الخيط، من هذا الوصف، الذي نقلته الصحيفة عن شاهد عيان، وراح يدرس الحادث كله، ويحاول البحث عن تفسير منطقي له، ثم لم يلبث أن خرج بدعم من أكاديمية العلوم السوفيتية، عام ١٩٢٧ م، في أول رحلة علمية جادة للبحث عن أسباب الانفجار الغامض..

ويا لها من رحلة!..

لقد اجتاز (كوليك) (سيبيريا) كلها بالقطار، حتى (تيشيت)، ثم واصل رحلته بالجياد والزحافات، حتى بلغ (فانافارا)، آخر المناطق المأهولة، قبل أن يغوص مع قافلته في (التايجا)..

و (التايجا) هي المنطقة المجهولة من (سيبيريا)، كما يسميها السوفييت، والتي ظلت تثير في قلوبهم الرعب، حتى بعد أن أقاموا فيها بعض المدن الحديثة..

وبعد شهر كامل، شاب فيه شعر (كوليك) ورجاله، وسط صقيع (سيبيريا) الرهيب، بلغ (كوليك) نهر (ميكيرتا)، حيث رأي أول علامة من علامات الانفجار..

كانت الأشجار في المنطقة قد اقتلعت من جذورها عن آخرها، وتراصت على نحو منتظم ككتيبة عسكرية لقيت مصرعها، في أثناء طابور الصباح، وكل قممها تتجه إلى الجنوب الشرقي.

وكلما توغل (كوليك) أكثر، بدت علامات الحمار أكثر شدة وبشاعة حتى أشجار (التايجا) الهائلة اقتلعها الانفجار من

جذورها وصفها على النحو نفسه، في اتجاه الجنوب الشرقي، وجذورها تشير إلى الشمال الغربي، حيث مركز الانفجار حتما..

ولكن الرجال رفضوا الاستمرار..

ما رأوه ملا قلوبهم بالرعب والهلع، فأصروا على العودة، ولم يملك (كوليك) سوى الانصياع لهم، فعاد والحسرة تملأ قلبه، إلا أنه لم يلبث أن حصل على مرافقين جدد، فعاود الكرة في يونية، حتى بلغ هذه المرة منطقة تعرف باسم (المراجل)..

وهناك خفق قلبه في شدة..

كان كل شيء يشير إلى أنه الآن في مركز الانفجار..

كل شيء..

ومن فرط حماسه وانفعاله، راح (كوليك) يضع تقريره، الذي أكد فيه أن ما حدث في (تانجسكا)، هو أن نيزكا هائلا من الصلب هوى على المكان، وانفجر، فسبب كل هذا الدمار.

وحتى مصرعه على أيدي النازيين، في الحرب العالمية الثانية كان (كوليك) مطمئنا إلى أنه وجد حل اللغز، وأنهى المشكلة..

ولكن هيهات..

الحرب العالمية الثانية نفسها، وضعت افتراضا جديدا للانفجار الغامض في (سيبيريا)..

وخصوصا بعد قنبلة (هيروشيما)..

لقد لاحظ بعض العلماء وجود تشابه واضح، بين انفجار (تانجسكا)، واثار قنبلة (هيروشيما)

ففي مركز الانفجار - في الحالتين - كان التدمير أقل نسبيا من الأطراف، كما أن بعض الأشجار بقيت واقفة في المركزين، وكلا الانفجارين ارتفع عمود من اللهب والدخان، على شكل فطر (عش الغراب)، وفي كليهما نبت النباتات بسرعة، بعد فترة قصيرة..

الفارق الوحيد أن عمود الدخان واللهب قد ارتفع لمسافة أعلى كثيرا، في حادث سيبيريا)، كما لو أنه كان أقوى ألف مرة من قنبلة (هيروشيما)..

ومع طرح فكرة التشابه، بدأ فريق من العلماء يدرس الأمر من منظور أخر..

وكانت النتائج مدهشة..

كانت هناك تغيرات وراثية عنيفة، في نباتات وحشرات (سيبيريا)، في المنطقة التي حدث، فيها الانفجار، وقروح واضحة على أجسام الحيوانات، تماما كما حدث في (هيروشيما) بعد الانفجار..

الشيء الجديد في انفجار (سيبيريا)، هو أن العلماء عثروا هناك على أنواع من (السليكا)، تحوي في قلبها فقاعات هوائية، كتلك التي يتم رصدها، بالتحليل الطيفي للأجسام الفضائية، وعلى قطع من الفسفور النقي، المستحيل وجوده في الطبيعة، وعناصر نادرة جدا، مثل (اليوتربيوم)..

وصار من الواضح أن ما حدث في (تانجسكا) كان انفجارا نووي، بشكل أو بآخر..

بل لقد أثبت العلماء أن الانفجار لم يحدث عند ارتطام جسم ما بالأرض، بل حدث قبل أن يبلغ هذا الجسم الأرض، وبالتحديد

على ارتفاع ثمانية كيلومترات من الأرض..

ومع هذا الإثبات الجديد ظهرت نظرية جديدة، تبناها الأكاديمي السوفيتي (زولوتوف)..

ونظرية (زولوتوف تعتمد على أقوال أكثر من سبعمائة شاهد عيان، أكدوا أن الجسم المنفجر تحرك أفقيا، أو على نحو شبه افقي، من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، وكأنه يجري مناورة مدروسة، قبل أن يهوى إلى أسفل، وينفجر..

وبناء على هذه الشهادة، أعلن (زولوتوف) إيمانه بأن هذا الجسم، الذي انفجر في (تانجسكا) كان سفينة فضاء، قادمة من عالم آخر، وتستخدم الطاقة النووية في تسييرها، وأن ركابها أدركوا أنها ستنفجر لا محالة، فاتجهوا بها نحو منطقة غير مأهولة، لتنفجر دون أن تؤذى سكان الأرض، وكل ما عثر عليه العلماء في المنطقة هو بقايا المركبة بعد انفجارها..

وهذا التفسير، على الرغم مما يبدو عليه من خيال جامح، يرضى أصحاب العقول المنطلقة، إلا أنه منطقي للغاية، من الناحية العلمية والعملية، ويحمل الحلول لكل عوامل الغموض..

ولكن البعض يرفض هذه النظرية أيضا، وبإصرار، مثل العالم (ا. جاكسون)، وزميله (ب. رايان)، اللذين وضعا نظرية جديدة، تقول إن أحد الثقوب السوداء، ذات الحجم الدقيق، هو الذي ارتطم بالأرض، وأحدث هذا الانفجار الهائل ثم خرج (س. أتلورى)، و (ف. ليبي) من (كاليفورنيا) بنظرية المادة المضادة، التي سبحت في الكون، وسقطت على الأرض، وانفجرت..

كل هذا إلى جانب الفكرة البسيطة، التي طرحها (كوليك)، والتي أيدها بعض العلماء بالفعل، حتى يومنا هذا، مع تطوير

جوهري..

فكرة النيزك..

أو المذنب..

والمذنب يختلف عن النيزك في أنه يجر خلفه ذيلا طويلا (ومن هنا كان اسمه)، يتكون من الغازات المتجمدة، أو المحفوظة، إلى جوار كميات من الغبار، والغاز، والجليد..

وبعض العلماء يفترضون أنه - ولأول مرة في التاريخ كله - سقط مذنب على (تانجسكا)، عام 1908 م، وفعل كل ما فعل..

وفي دراسة حديثة، ظهرت في الثمانينات، أجمع عدد من العلماء الأمريكيين على أن انفجار (تانجسكا) لم يكن الأول من نوعه، على سطح الأرض، بل كان هناك انفجار آخر، منذ ما يقرب من خمسة وستين مليون عام، أدى إلى فناء الديناصورات، وأفسح المجال لنا نحن البشر، لننمو ونتطور، وأنه سيكون هناك انفجار اخر، في زمن قادم، ربما يقضى علينا، ويفسح المجال لأحفادنا.. أو أحفاد أحفادنا..

ولكن أيا كانت النظريات..

وأيا كانت الأسباب، فهناك حقيقة واحدة مؤكدة..

أنه كان هناك انفجار هائل كبير في (تانجسكا)، ما يزال يحمل حتى اليوم اسم (انفجار سيبيريا)..

أو الانفجار الغامض..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

من وراء النجوم

9- من وراء النجوم..

هل هناك مخلوقات عاقلة، على كواكب أخرى؟!..

من المؤكد أنها ليست أول مرة، تلقى فيها على نفسك هذا السؤال، بعد كل رواية تقرؤها من روايات الخيال العلمي، وكل خبر تطالعه حول الأطباق الطائرة، وظواهرها العجيبة..

ومن المؤكد أيضا أنك لم تجد قط جوابا علميا شافيا لسؤالك..

إنك تقرأ كثيرا عن مخلوقات العوالم الأخرى، وترسم في ذهنك عشرات الصور والتخيلات لهيئتهم، وللاختلافات بينهم وبين البشر، وتشاهد بعض الأفلام الخيالية العلمية، التي ترسم لهم بعض الصور المخيفة، أو التركيبات العجيبة، مثل (اي. تي)، أو تضع على رءوسهم هوائيات مضحكة، أو تمنحهم بشرة خضراء وزرقاء وبنفسجية..

ولكنك أبدا لا تقتنع..

الصورة لا تريح خيالك، أو تملا فراغ ذهنك قط..

ثم إن الفكرة نفسها ما زالت تحمل في أعماقها بذرة شك..

بل هي حديقة كاملة من الشك، تنبت فيها زهرة واحدة من اليقين واليقين هنا لا يأتي من رؤيتك لمخلوقات من كواكب أخرى..

ولا من القصص التي تقرؤها عنهم...

إنه يأتي من ثقتك بالله (سبحانه وتعالى)، الذي خلق المئات من أشكال الحياة، على كوكب الأرض، وعلى اليابسة، وفي أعماق البحار، وحتى في قلب البراكين، وأنه (عز وجل) قادر على خلق الملايين والملايين من أشكال الحياة الأخرى، في غياهب الفضاء، وفيما وراء النجوم..

ولكنك - على الرغم من كل هذا لا تملك دليلا علميا واحدا، على وجود مخلوقات في كواكب أخرى..

بل إن العلم كله، بما توصل إليه من تكنولوجيا الرصد ومراقبة النجوم، وبما يحمله من نظريات، خول منشأ الأرض والكواكب، ومولد المجموعات الشمسية والنجوم، لا يملك بعد دليلا ماديا واحدا، على وجود أية كواكب، في أية منظومة شمسية أخرى..

هذا ما تؤكده كل الكتب والمراجع العلمية، ويجزم به كل المهتمين والمشتغلين بالفلك، وكل علماء الفضاء والنجوم..

فيما عدا البروفيسور (جان بيير بوتي) ...

وقبل أن نتطرق إلى ما قاله ذلك العالم الجليل، دعونا نتعرفه أولا..

والبروفيسور (جان بيير) هذا يعمل أستاذا ومدير أبحاث، في المركز القومي للأبحاث العلمية في (فرنسا)، وهو فيزيائي شهير، واخصائي في علم الكون والفلك وميكانيكا السوائل، ورجل عرف بالجدية والاتزان، وبالاهتمام الشديد بكل الظواهر العلمية والميتافيزيقية، وبحسن التحليل والاستنباط، استنادا إلى مبادي العلم والمنطق وقوانين الفيزياء المثبتة علميا..

باختصار، إنه رجل فوق مستوى الشبهات، من الناحية العلمية..

وهذا الرجل، هو أكثر من يؤمن - على وجه الأرض – بوجود مخلوقات في الكواكب الأخرى..

ليس هذا فحسب، ولكنه يؤمن أيضا بأن هذه المخلوقات تعيش هنا بيننا..

على كوكبنا (الأرض)..

وقبل أن تتسرع بالرفض، أو باستنكار القول، أو نفي الفكرة، تعال نستعرض معا ما كتبه البروفيسور (جان بيير)، حول هذا الأمر..

لقد وجه (جان بيير) صدمة للعالم كله، وللأوساط العلمية بالذات، عندما أعلن أنه على اتصال بمخلوقات من كوكب آخر، منذ ما يقرب من نصف القرن، وأنهم يرسلون إليه رسائلهم بانتظام، وهذه الرسائل ليست مجرد حديث أو شرح لوجودهم، وإنما تحوي، في بعض الأحيان، معادلات فيزيائية مدهشة، وحلول علمية مذهلة، لمشكلات حار فيها أعظم علماء العالم طويلا..

ليس هذا فحسب، وإنما يؤكد البروفيسور (جان بيير) أيضا أنه ليس الوحيد في هذا العالم، الذي يتلقى رسائل مخلوقات الكواكب الأخرى هؤلاء، ولكنه واحد من مجموعة كبيرة من

العلماء والمفكرين، الذين تصلهم هذه الرسائل، والذين ينبهرون، في المعتاد، بكل ما جاء فيها، من معلومات وأخبار وحلول..

وقبل أن يفيق العالم من صدمته، راح (جان بيير) يقصن ما يعرفه عن زوار الفضاء هؤلاء، من واقع رسائلهم، التي تعامل معها لربع قرن من الزمان..

فهؤلاء الزوار ينتمون إلى كوكب يحمل اسم (يومو) (UMMO)، يبعد عنا بخمس سنوات ضوئية تقريبا ([1])، وجاذبيته تزيد قليلا عن جاذبية كوكب (الأرض)، حتى أن سكانه يشعرون (على سطح الأرض) بأنهم أخف وزنا بمقدار 20 ٪ وكتلة الكوكب تزيد مرة ونصف على كتلة (الأرض)، وطول يومه 32 ساعة، بدلا من 24 ساعة، وتمر به فصول أربعة، تماما مثل الفصول المناخية عندنا، ولكن ليس له أية أقمار، لذا فليله حالك الظلمة، ثم إنه لم يمر بمرحلة انشقاق القارات، ولهذا فليس فيه سوى قارة واحدة، وجنس واحد من الشقر الطوال القامة، يتحدثون لغة واحدة، مما خفض احتمالات نشوب الحروب إلى الحد الأدنى، وساعد على سرعة التقدم العلمي، والتطور التكنولوجي..

وهذا لا يعني أن كوكب (يومو) هو جنة الله (سبحانه وتعالى) في الكون، أو أنه كتلة من الخير الصافي، فتاريخه يشير إلى أنه ذات يوم، كانت تحكمه امرأة مستبدة، وضعت نفسها في مصاف الآلهة، وحكمت القارة الوحيدة هناك بالحديد والنار، بوساطة جهاز شرطة قوى، ولكن إحدى خادماتها نسفتها ذات يوم، فاشتعلت ثورة عنيفة، كان من نتيجتها أن استولى الشعب على الحكم، وتم انتخاب مجلس خاص لإدارة الكوكب، طبقا لنظام محكم، يضمن عدم تكرار الموقف ثانية..

وأصبح على سكان (يومو) أن يطوروا أنفسهم، ويسعوا للتفوق والتقدم..

وذات يوم، التقطت أجهزتهم رسالة، أو إشارة منظمة، آتية من أحد الكواكب، في الكون الشاسع والعجيب أن هذا الكوكب كان كوكبنا (الأرض)!!..

ولأن كوكبنا كان يبدو لهم أشبه بالمربع (طبقا لرسائلهم)، مع لون أزرق باهت، فقد أطلقوا عليه في لغتهم اسم (أوياجا)

(OYA GAA)) ، حيث أن كلمة (OYA) تعنى (المربع)، و (GAA) تعنى (البارد)... أي أن كوكبنا كان معروفا عندهم باسم (المربع البارد).

وضمن برنامج رحلاتهم الفضائية، انطلق رواد الفضاء من (يومو)؛ لزيارة كوكب (الأرض)، الذي هبطوا فوقه في الثامن والعشرين من مارس، عام 1950 م...

ولقد حدد زوار (يومو) في إحدى رسائلهم موقع هبوطهم بالتحديد، ووصفوا كل ما رأوه من هذه النقطة، وقالوا إنهم أخفوا بعض معداتهم في مغارة جبلية، نجحوا في إخفائها بمهارة، وتركوا ستة منهم لدراسة اللغة والعادات المحلية، ثم رحلوا لإبلاغ كوكبهم بنتائج زيارتهم الأولى..

ولم يترك المهتمون بالأمر هذه المعلومة تمر ببساطة، بل كونوا فرقة بحث، وانطلقوا إلى النقطة التي حددها زوار (يومو)، وكانت في انتظارهم مفاجأة مذهلة..

لقد حاولوا رؤية كل ما جاء بالرسالة، من الإحداثيات التي حددتها الرسالة، ولكن ذلك بدا مستحيلا، إلا إذا...

إلا إذا ارتفعت مائة وعشرين مترا عن سطح الأرض من ذلك الارتفاع وحده، يمكنك رؤية كل الإحداثيات في وضوح..

ليس هذا فحسب، وإنما عثر الباحثون هناك على أحجار حمراء اللون، لا تشبه أية عينات جيولوجية ([2]) معروفة، على وجه الأرض

ورسائل (يومو) نفسها مطبوعة على ورق خاص، من العسير صنع مثله، إلا باستخدام تكنولوجيا متطورة للغاية، والختم الذي تحمله تصدر عنه إشعاعات ذرية محدودة، كما لو أنه مطبوع بمادة مشعة، من أحد النظائر، التي لم يتم الحصول عليها بعد، في معامل الكيمياء العادية، حتى أن (جان بيير) يقول عن هذا:

- كل الدلائل تشير إلى أنه إما أن أصحاب الرسائل هم مجموعة من أكبر علماء الفيزياء، وأكثرهم عبقرية، تعاونهم مختبرات تكنولوجية رائعة، ويسعون لصنع أكبر دعابة في التاريخ، وإما أنهم بالفعل من سكان كوكب (يومو) هذا...

والواقع أن (جان بيير) لم يطلق هذا القول من فراغ، فبحكم كونه عالما فيزيائيا، كان من الطبيعي أن ينبهر بما جاء في رسائل زوار (يومو)، فيما يختص بالحلول الفيزيائية للمشاكل العويصة..

- وخصوصا حل مشكلة الرنين..

وهذه المشكلة أقلقت علماء الفيزياء طويلا، وهم يحاولون تفسير السرعات الخارقة للأطباق الطائرة، التي سجلها الطيارون، الذين حاولوا مطاردتها يوما، أو وهم يبحثون عن وسيلة لإطلاق مركبات الفضاء الأرضية بسرعات كبيرة، دون أن تؤدي هذه

السرعات إلى الوصول لنقطة منتهى الرنين، التي يمكن أن ينهار عندها جسم المركبة الفضائية تماما..

وبينما انهمك أكبر علماء العالم في دراسة هذه المشكلة، وعجزوا عن الوصول إلى حل علمي منطقي لها، وصلتهم فجأة رسالة من زوار (يومو)، تمنحهم هذا الحل على طبق من فضة..

والحل هنا يعتمد على وجود شبكة من الأنابيب، حول جسم المركبة الفضائية، تحوي مادة يمكن تحويلها بسرعة، من الحالة السائلة، إلى الحالة شبة الصلبة (الجيلاتينية)، وهذه الشبكة تتصل بكمبيوتر خاص، يقيس درجة الرنين، التي وصلت إليها جدران المركبة الفضائية، وعندما تصل إلى درجة قريبة من المستوى الحرج، يعمل الكمبيوتر على تحويل تلك المادة، من الحالة السائلة إلى الحالة الجيلاتينية، أو العكس بالعكس.. وهذا يغير مستوى الرنين، وينهى المشكلة على الفور..

وكانت الرسالة مذهلة، بالنسبة للعلماء الكبار، لما تحمله من حل مباشر وصحيح وبسيط، لمشكلة أرهقتهم طويلا..

و (جان بيير) يعتبر أن مثل هذه الرسائل هي أكبر دليل على صحة وجود زوار (يومو) ورسائلهم، وإلا فكيف تتوصل مجموعة عابثة، إلى ما عجز عنه أكبر علماء العالم؟!.

بل كيف عرفت تلك المجموعة أن هذه المشكلة تؤرق العلماء..

وحتى لا تثار الشكوك حول رواية (جان بيير) هذه، قام العالم الفرنسي الجاد بإضافة ملحق علمي خاص لكتابة، يضم صورا لهذه الوثائق، مع تحليل علمي دقيق مفصل مطول، يكفي لإقناع العلميين، وإزالة كل شكوكهم...

وفي هذا الملحق، أجاب (جان بيير) على أكبر نقطة اعتراض وتشكيك، في قصة زوار (يومو) كلها..

نقطة الزمن..

فمن الطبيعي أن تعلو الأصوات معترضة، على سرعة وصول سكان (يومو) إلى كوكبنا، وعلى رحلتهم القصيرة نسبيا، والتي تستغرق عامين، قياسا بالمسافة التي تفصلنا عنهم، والتي تبلغ خمس سنوات ضوئية كاملة..

ولكن رسائل (يومو) نفسها تحمل الجواب..

لقد تحدثوا في رسائلهم عن نظرية، أطلقوا عليها اسم (توءمية الكون)، هذه النظرية تشبه إلى حد ما، نظرية المادة المضادة، التي وضعها البريطاني (بول دريك)، عام 1928 م، بعد أن صهر عدة معادلات سابقة لنظريتي (الكم) للعالم (ماكس بلانك)، و (النسبية) ل (ألبرت أينشتين)، وتوصل إلى وجود مادة معكوسة، تكون نواة الذرة فيها سالبة، وإليكتروناتها موجبة..

ونظرية (يومو) تقول: إنه لا يوجد كون واحد، وإنما هناك كونان توأمان، تربطهما ببعضهما تلك المناطق، التى نطلق عليها اسم الثقوب السوداء، وبالمرور عبر هذه الثقوب السوداء، من خلال شبكة اتصالات خاصة، تمت دراستها منذ قرون عديدة، تستطيع سفن (يومو) الفضائية اختصار الزمان والمكان، وعبور ملايين الوحدات الفضائية في أيام معدودات..

ومن الطبيعي أن تواجه هذه النظرية هجوما عنيفا..

ولكن هذا لا يعني أنها نظرية خاطئة، بل يعني فقط أنها نظرية ساحقة، تسحق صحتها كل النظريات التي جاءت قبلها..

والناس أعداء ما يجهلون..

حتى ولو كانوا من العلماء..

وبعض هؤلاء العلماء يتساءلون في سخرية: ولماذا لم يعلن سكان (يومو) المزعومون هؤلاء عن وجودهم على نحو صريح، بدلا من هذه الرسائل العجيبة الملتوية؟..

وحتى هذا السؤال، تجد إجابته في رسائل (يومو)..

إنهم يقولون: إن الوقت لم يحن بعد للتصريح بوجودهم، ولكنهم مازالوا يحتفظون بأول مخبأ سري صنعوه، في قلب الغابات الفرنسية، ليكون بكل ما يحويه من معدات تكنولوجية، وإمكانات مبهرة، شاهدا على صحة قصتهم، عندما تحين اللحظة المناسبة، ويبدئون في الاتصال برؤساء وملوك الدول، للإعلان عن وجودهم..

وزوار (يومو) لهم شعار عجيب، يحملونه على أزيائهم الفضائية، وهو عبارة عن رسم لثعبان مجنح، أثار انتباه (جان بيير) وحيرته طويلا، ولكنهم لم يفصحوا عن مغزاه قط..

وسكان (يومو) هؤلاء يمكنهم التجول بحرية وسط البشر، دون أن يثير وجودهم إلا أدنى انتباه، فتكوينهم الخارجي بشري للغاية، باستثناء أنهم أطول قامة في المتوسط، وأنهم شاحبو الوجه كثيرا، ولكن هذا لا يمنعهم من الذوبان وسط طوفان البشر، وخصوصا في المدن المزدحمة، مثل (نيويورك) و (روما).. وحتى (القاهرة)..

ولكن أغرب ما أشار إليه زوار (يومو) في رسائلهم، هو أنهم أبناء عمومتنا..

أو بمعنى أدق، أن أبحاثهم أثبتت أننا وهم من أصل واحد..

ولكنهم أبدًا لم يفسروا ما يعنيه هذا..

هل كان أجدادهم أرضيين، من حضارة سابقة، ثم هاجروا إلى ذلك الكوكب البعيد، أم أننا وهم أتينا من كوكب آخر، ولكن بعضنا اتجه نحو (الأرض)، والبعض الآخر نحو كوكب (يومو)؟!

لست أعتقد أننا سنجد الجواب في سهولة..

والأمر كله عسير التصديق، ويثير ألف علامة شك ويفجر في النفس كل أسباب الحذر..

وأنا واثق بأن العديدين منكم استنكروه، وسخروا منه..

بل ورفضه البعض تماما..

وربما اتهمني بالخبل والكذب، وبأنني أسعى إلى غش القاري، واستثارته بدجل ساذج، حتى أضمن نسبة أكبر من المبيعات..

ولكن هذا لا يقلقني..

(جان بيير بوتي) واجه الموقف نفسه، عندما نشر كتابه هذا، عن سكان الكوكب (يومو)...

ولكن العالم الفرنسي تحدي الحكومة الفرنسية، في نهاية كتابه، بكل مؤسساتها العلمية، وهيئاتها الرسمية، أن تنكر ما جاء في كتابه.. تحداها أن تنكر أن مسئوليها تلقوا أيضا عشرات الرسائل من زوار (يومو)، وأن الهيئات العلمية تدرس الأمر بمنتهى الجدية، بل وتحاول إجراء اتصال رسمي مباشر مع هؤلاء الزوار..

وجدير بالذكر أن أحدا في الحكومة الفرنسية لم يستنكر هذا التحدي أو يرفضه..

وأحدًا أيضا لم يقبله..

فهل يثير هذا في نفسك أية تساؤلات؟!..

وهل تعلم أن (جان بيير بوتي) ليس أول من يشير إلى وجود سكان من الفضاء الخارجي، على كوكب الأرض؟!..

لقد سبقه إلى هذا الكاتب الشهير (تشارلز بيرليتز)، عندما قام بتحقيق واسع النطاق، حول ما أطلق عليه اسم (حادث روزويل)..

و (روزويل) هذه قرية صغيرة، في ولاية (نيومكسيكو) الأمريكية، استيقظ سكانها ذات ليلة، من ليالي بولو، عام 1947 م، على دوي هائل، ونيران ترتفع في الأفق، وانطلق مأمور القرية في الشوارع، يصرخ:

- الغزاة هبطوا من الفضاء.. الغزاة هبطوا من الفضاء..

وقبل أن يندفع أهل القرية إلى منطقة الحقول الشمالية، حيث سقط جسم غريب، بدت قبته الخضراء الضخمة واضحة، على الرغم من تحطم قاعدتها، كان الجيش يحيط بالمكان كله، ويصدر أمرا بمنع التجوال، ثم تنفيذه بمنتهى السرعة والصرامة، على الرغم من اعتراض الأهالي واستنكارهم...

وخلال ساعة واحدة، رأي السكان من نوافذهم عدة قوافل، تملأ المكان، الذي اكتظ بمئات الغرباء، وأحيط بنطاق أمني عنيف، جعل قائد فرقة الجيش يهدد بإطلاق النار دون إنذار، على كل من يحاول مغادرة منزله، قبل انتهاء فترة حظر التجوال..

وكان من الواضح أن الأمر بالغ الأهمية والخطورة..

ولكن مع طلوع النهار، وبعد حركة لا تنقطع من عشرات في سيارات الجيش والنقل والأوناش الضخمة، انتهت فترة حظر التجوال العامة، وانصرف رتل من السيارات، وهو يحمل أشياء ضخمة، أخفيت في عناية بالغة، تحت خيام كبيرة محكمة الإغلاق..

واقتصر الحظر على منطقة السقوط وحدها، التي امتلأت بالباحثين والمنقبين لفترة طويلة..

وعندما تتبع (تشارلز بيرليتز) هذا الأمر، توصل إلى أن ذلك الشيء، الذي سقط على (روزويل)، في تلك الليلة من يوليو 1947 م، كان أحد الأطباق الطائرة، التي حوت جثث بعض المخلوقات، من الفضاء الخارجي، وأن أحد هذه المخلوقات لم يلق مصرعه مع السقوط، فاحتفظت به المخابرات المركزية، في معامل أبحاث الفضاء؛ لتقوم بدراسته، ولكنه مات بعد أسبوع واحد، متأثرا بإصابته، التي لم ينجح الطب الأرضي - آنذاك - في علاجها..

وعندما نشر (بيرليتز) كتابه هذا، أصيب المجتمع الأمريكي بصدمة بالغة، وثار بعض صحفييه ومفكريه، وطالبوا الحكومة بكشف كل الحقائق المتعلقة بهذا الحادث، إلا أن الحكومة الأمريكية التزمت الصمت التام، دون أن تكذب الموقف أو تنفيه، أو تعترف به...

واستفز هذا الموقف أحد أعضاء جمعيات المراقبة الفضائية، فقرر أن يقاضي وكالة المخابرات الأمريكية، لإخفائها الحقائق عن الشعب، وعندما انعقدت المحاكمة، في يناير 1072 م، طلبت المخابرات الأمريكية أن تكون الجلسة سرية؛ لأمور تتعلق

بالأمن العام، وبعد سبع جلسات مغلقة، أصدرت المحكمة حكمها بإدانة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ولكنها أسفت لعدم استطاعتها إصدار حكم بكشف كل تفاصيل الحادث؛ لأن هذا يتعارض مع الأمن الأمريكي كله..

واعتبر العامة هذا الحكم اعترافا من الحكومة وجهاز المخابرات، بكل ما جاء في كتاب (تشارلز بيرليتز)..

ولكن هذا لم يحسم الأمر..

وفي صيف 1994 م، نشرت مجلة (أومني) العلمية، وهي إحدى المجلات القليلة الجادة في هذا المجال، مقالا مختصرا، يذكر الناس بحادثة (روزويل)، وطلبت منهم أن يتقدموا بطلب للحكومة، لنشر تفاصيل الحادثة، بعد مرور أكثر من خمسة وأربعين عاما على وقوعها..

وحتى ديسمبر 1994 م، وصل عدد المطالبين إلى أكثر من أربعة عشر مليونا من الأمريكيين، ولكن الحكومة ما زالت ترى أن الأمر يحتاج إلى أن يظل حبيس الأدراج، وهو يحمل تلك العبارة المستفزة..

عبارة (سري للغاية).

ويبدو أن هذه العبارة ومثيلاتها، ستظل دائما حاجزا تتحطم عليه كتابات (جان بيير)، و (بيرليتز)، وغيرهم، حتى تحين اللحظة المناسبة، التي تسقط فيها كل الحواجز، ويعلن أحد سكان الكواكب الأخرى عن وجوده..

وصيغة الجمع هنا مقصودة؟ فمن الواضح أن سكان (يومو)، الذين يتحدث عنهم (جان بيير)، يختلفون عن هؤلاء الذين سقط بهم الطبق الطائر في (روزويل)؛ فالآخرون وصفهم

(بيرليتز) بأنهم قصار القامة، وكبار الرءوس، ثم أن الحادثة وقعت عام 1947 م، قبل وصول أول رحلة من رحلات زوار (يومو) إلى الأرض..

إذن فلم تعد أرضنا كوكبا يقتصر علينا.. لقد صار محطة فضائية، يتجه إليها سكان كواكب مختلفة؛ لأنها تجذب انتباههم..

أو لأنها تناسب معيشتهم..

وأيا كان الجواب، فمن المؤكد أننا هدف لدراسات تبدأ وتأتي دائما من هناك..

من وراء النجوم..

د. نبيل فاروق.

☆ ☆ ☆

10- هذه الكائنات العجيبة..

مالت الشمس إلى المغيب، خلف مياه المحيط الأطلنطي، الممتدة إلى ما لا نهاية، أمام تلك السفينة من سفن البحرية الأمريكية، في منتصف عام ١٩٧٩ م، وانهمك بعض بحارتها في محاولة جذب مرساتها، استعدادا للعودة إلى الشاطئ الأمريكي،

الذي يبعد عدة مئات من الأميال البحرية، وشعر الضابط المسئول أن الرجال قد استغرقوا وقتا أطول مما ينبغي، فهتف بهم في صرامة:

- ماذا دهاكم؟! الأمر لا يستغرق في المعتاد كل هذا الوقت؟!

مسح رئيس البحارة عرقه الغزير، وهو يشير إليه، قائلا:

- الرجال يبذلون قصارى جهدهم أيها الضابط، ولكن هناك شيئا يعوق المرساة..

انتقل إليهم الضابط، وطلب عددا آخر من الرجال لمعاونتهم، وراح الجميع يبذلون جهدا مضاعفا لجذب المرساة، وهم يتساءلون في دهشة وقلق، عن ذلك الشيء الذي تعلق بها، و.....

وفجأة، وقع بصرهم على ذلك الشيء، المتعلق بالمرساة..

وانطلقت من حلقهم شهقات قوية..

لقد رأوا أمامهم كائنا بحريا متوحشا، يبلغ طوله أكثر من أربعة أمتار ونصف، ويزن حوالي ثلاثة أرباع الطن، له فم هائل، به سبعة صفوف من الأسنان الشبيهة بالمسامير، اشتبكت مع المرساة، وسببت لهم كل هذا الاضطراب..

وعلى الرغم من دهشتهم وخوفهم، عاد الرجال بذلك الكائن إلى الشاطئ، وسلموه للعلماء لفحصه، وتحديد نوعه وفصيلته..

ولكن العلماء كانوا أكثر اضطرابا وانزعاجا ودهشة منهم فذلك الكائن، الذين انكبوا على فحصه لفترة طويلة، لم يكن ينتمي إلى أي نوع أو فصيلة معروفة، في علم الكائنات البحرية..

لقد كان كائنا عجيبا جديدا، أطلقوا عليه اسم (ميجا ماوث) أو الفم العملاق..

وربما كان مرجع اهتمام علماء البحرية الأمريكية الشهير بهذا الكائن، هو حيرتهم أمام لغز سابق، واجه الفرقاطة البحرية (شتاين)، منذ عدة أشهر ماضية..

فلقد أبحرت تلك الفرقاطة الحربية من (سان دييجو) في (كاليفورنيا)، في رحلة للكشف عن أية غواصات معادية عبر المياه الاستوائية، في جنوب (أمريكا)، وبعد عبورها خط الاستواء بقليل، شعرت بشيء ما يرتطم بقاعها في عنف..

ثم تعطلت أجهزة الإنذار الصوتي فجأة..

ولأن هذه الأجهزة هي أساس المهمة، ولأن الرجال قد عجزوا عن إصلاحها تماما، أو تحديد سبب ذلك الاصطدام العجيب، فقد اتخذ القبطان قراره بالعودة إلى (كاليفورنيا) لفشل المهمة..

وهناك، وفي الحوض الجاف، في ترسانة القوات البحرية..

كانت أمام الجميع مفاجأة عجيبة مدهشة..

لقد عثروا على عشرات الحفر في القاع، وبعضها يحوي عددا من الأسنان الشبيهة بالمسامير..

وكانت المساحة التي انتشرت فيها هذه الحفر هائلة، على نحو يوحي بأن صاحبها حيوان بحري عملاق، لا مثيل له بين الكائنات البحرية المعروفة..

وعلى الرغم من غرابة هذه القصة، التي أوردتها المراجع البحرية الرسمية، إلا أنها ليست أول أو آخر مواجهة للبشر مع كائنات عجيبة، لم يتم تصنيفها من قبل، على الرغم مما بلغه علم الأحياء المائية وعلم الحيوان، من تقدم مدهش، في القرن العشرين..

ففي المراجع والكتب القديمة، التي يعود تاريخها إلى عدة قرون مضت، سنجد الكثير والكثير من القصص والروايات، التي تتحدث عن وحوش بحرية عجيبة، بعضها يعرفه العلم الحديث، والبعض الآخر مازال مجهولا حتى يومنا هذا..

ولعل أشهر الوحوش البحرية، التي تحدثت عنها كل الكتب القديمة تقريبا، هو الأخطبوط، أو الحبار، وهو ذلك الكائن، الذي تعرفه الموسوعات الحديثة بأنه حيوان رخوي رأسي قدمي، يوجد في البحار الدافئة عديم الصدفة، كيسي الشكل، له ثمانية أذرع، لعابه سام، وفي حالة الخطر، يفرز مادة تشبه الحبر، تنتشر فيما حوله، فتخفيه عن الأنظار تماما..

هذا ما يقوله العلم - باختصار - عن الحبار، ولكن ما يقوله التاريخ والبحارة يختلف كثيرا..

ففي أثناء الحرب العالمية الثانية، وبينما كانت إحدى السفن الحربية بالقرب من جزر (مالديف) بالمحيط الهادي، كان الجندي (ستاركي) يستند إلى حاجز السفينة، متطلعا إلى المياه، عندما انتبه فجأة إلى دائرة خضراء ضخمة، بدت وكأنها تحدق فيه مباشرة، وارتجف جسده كله في عنف عندما تبين فيها عين حبار هائل، يستلقي بمحاذاة السفينة في استرخاء، ومجساته تلتصق بها نسبيا، وفمه الشبيه بمنقار ببغاء ضخم يبدو واضحا للغاية..

ومع شهقة (ستاركي)، انضم إليه عدد من زملائه، وراح الجميع يتطلعون إلى الحبار، الذي امتد بجوار السفينة لمسافة ثمانية وخمسين مترا كاملة!!

وفي مرة أخرى، عام 1966 م، شاهد ضباط وبحارة السفينة (سان باولو) معركة عنيفة، على قيد مائة متر فحسب منهم، بين حبار هائل، وحوت ضخم من حيتان العنبر، انتهت بغوص الاثنين إلى الأعماق..

أما في الثلاثينات، فقد نقض حبار عملاق على السفينة (بيرل)، التي تزيد حمولتها على مائة وخمسين طنًا، ولفّ مجساته الضخمة حولها، ثم جذبها بما عليها ومن عليها إلى الأعماق، أمام الأعين المذعورة لبحارة السفينة (سترانوين)، التي كانت تبعد عنها آنذاك، ستين مترا فحسب..

ولكن الأخطبوط ليس الكائن البحري الوحيد، الذي يثير قلق وخوف البحارة، فهناك أيضا ثعبان البحر العملاق..

وذلك الثعبان يعد واحدا من أكثر الوحوش البحرية غموضا، إذ إنه وحتى النصف الثاني من القرن العشرين، لم تكن هناك صورة واحدة لذلك الثعبان البحري، الذي تصفه المراجع القديمة بأنه يبلغ من الطول ما بين خمسة عشر، وثمانية عشر مترا، وله رأس شبيه برأس الحصان، وظهر محبب وذيل ضخم طويل..

وكل المشاهدات التي تم رصدها لثعبان البحر العملاق، تؤكد أنه يسبح بسرعة مدهشة، تكاد تبلغ اثني عشر ميلا بحريا في الساعة، حسبما جاء في تقرير القبطان (بيترماكوهي)، قائد الفرقاطة البريطانية (ديدالاس)، عام 1848 م، كما أنه أسود اللون، له أنفاس قوية مجموعة، طبقا لشهادة (تيكس جيديس)، عام 1959 م، الذي وصفه بأنه أشبه بوحش مخيف، من وحوش ما قبل التاريخ..

وإذا كان الثعبان البحري العملاق غامضا، فالوحش المعروف باسم (كادبروسورس)، والذي يظهر بصفة شبه منتظمة، أمام ساحل (فانكوفر) الكندي، وحش هادئ مدلل ورصين للغاية، إذ إنه لا يحاول الاختفاء، أو الابتعاد عن السفن الحربية، وإنما يتطلع إليها في كسل وبلادة، حتى تبتعد عنه، وهذا ما قاله كابتن (بول سوازبي) عام 1939 م، عندما وصف الوحش بأنه ضخم الجثة، يغطيه فراء كثيف، أشبه بالدب القطبي، ولا يقل طوله عن اثني عشر مترا..

وعلى شاطئ نهر (كلايد) في (اسكتلندا)، استقرت جثة كائن آخر هائل الحجم، يغطى جسده أيضا فراء كثيف، وله رأس صغير، مقارنة بجسمه، وذيل وعنق طويلان..

ولقد كان لحم ذلك الكائن قاسيا، حتى إن الرجال اضطروا لاستخدام الفئوس لتقطيعه، بعد عجزهم عن تحريكه، مع وزنه الذي يبلغ ثلاثة أطنان دفعة واحدة..

أما أكثر الوحوش المائية شهرة على الإطلاق، فهو ذلك المعروف باسم (وحش لوخ نيس)..

و (لوخ نيس) هذه بحيرة شهيرة في شمال (اسكتلندا)، حصلت على شهرتها كلها - تقريبا - من الوحش، الذي ضرب رقما قياسيا في عدد مشاهديه، الذي بلغ - حتى لحظة كتابة هذه السطور - ما يزيد على خمسة آلاف شخص، وبلغت عدد الصور التي تم التقاطها له أكثر من ألفي صورة، لم يعترف العلماء والخبراء بصحة أكثر من أربع وثلاثين صورة منها..

ولقد أفردت دائرة المعارف البريطانية، في ملحقها عن العلوم والمستقبل، دراسة خاصة عن وحش بحيرة (نيس)، قام بها

(جورج زاج)، رئيس وأمين قسم الزواحف والبرمائيات، في متحف التاريخ الطبيعي البريطاني، وهي دراسة تطرح أمر الوحش بشكل علمي رسمي معتمد..

وأفضل صورة تم التقاطها للوحش، هي تلك التي نشرتها جريدة الديلي ميل اللندنية، في مايو 1934 م، والتي التقطها الكولونيل طبيب (روبرت ويلسون)، وفيها يبدو الوحش أشبه بأحد الديناصورات النباتية، من عصور ما قبل التاريخ..

وعلى الرغم من الشهرة الفائقة لوحش (لوخ نيس) الأسطوري، إلا أنه ليس وحش البحيرات الوحيد، الذي يثير جدل واهتمام العلماء، فهناك أيضا (أوجو بوجو)، وحش بحيرة (أوكاناجان) الكندية، الذي يتخذ شكل ثعبان، طوله مائة وثمانية وعشرون مترا، و (ماينبوجو)، وحش بحيرة (وينيجوسيس)، صاحب الثلاث حدبات، والرأس المفلطح، والذي اعترف العلماء بوجوده، عام 1963 م..

وأمر الكائنات العجيبة لا يقتصر قط على عالم الماء..

إنه ينتشر في اليابسة أيضا..

ففي القارة السوداء (إفريقيا)، أوقع الصيادون في شباكهم حيوانا مفترسا ضخما، لا هو بالنمر، ولا هو بالأسد، في عام 1941 م، وأطلقوا عليه اسم (ناندا) وأكثر ما أثار الاهتمام والحيرة في (ناندا) هذا، هو أن تركيبة، الأكثر شبها بالنفر، لم يكن له مثيل في القارة كلها، إذ إن النمر، كما قد لا يعرف الجميع، حيوان استوائي، وليس إفريقيا كالأسد..

ولقد فحص العلماء (ناندا)، ولكنهم عجزوا عن الاحتفاظ بجثته للأسف، ولقد أبدوا حيرتهم حينذاك، من وجود ذلك التركيب

المدهش، الذي يجمع بين صفات النمر والأسد معًا، خاصة وأن علم هندسة الجينات لم يكن حتى مجرد فكرة في الأذهان، في ذلك الحين..

وحتى بعد معرفتنا به، سنجد أنفسنا أمام لغز (ناندا)، الذي قد يحمل تفسيره لغزا أكثر صعوبة وفي (الكونغو) أيضا يواجه العلماء والصيادون لغزا من ألغاز تلك الحيوانات الغريبة العجيبة..

لغز الفيل القزم..

والفيل القزم هذا فيل مكتمل النمو، ولكن طوله لا يزيد على المتر ونصف المتر، ولا يزيد طول أنيابه على ستة وستين سنتيمترا..

ولقد ظل الفيل القزم مجرد أسطورة، حتى أثار اهتمام الملازم البلجيكي (فرانسيس)، الذي استعان بعدد من أبناء القبائل المحلية، في حملة للبحث عنه، عام 1937 م، وامكنه العودة بعد عدة أشهر، مع جلد الفيل القزم ونابيه، إلا أنه أصيب بحمى غامضة، ومات في قلب الغابات الإفريقية، قبل أن يعود إلى وطنه ليعلن كشفه المثير..

و (إفريقيا) أيضا بها ذلك الحيوان المعروف باسم (أوكابي)، والذي يبدو كخليط من الزرافة والحمار الوحشي..

وتلك الحيوانات المختلطة العجيبة في (إفريقيا)، تدفع خيالنا للجموح، ولتصور حدوث عدد من تجارب هندسة الوراثة، في هذه القارة، في (زمن) ما؟!..

ومن (إفريقيا) إلى (آسيا)، ننتقل إلى ما سجله الجنرال الروسي (ميخائيل استيفانوفتش توبيلكس)، في تقريره العسكري عام

1925 م، عندما كان يلاحق فلول قوات الجيش الأبيض وسط الجليد..

فلقد كتب الجنرال (توبيلكس) أن رجاله لمحوا حركة عند أحد الكهوف، فأطلقوا النار تجاهها على الفور، متصورين أنها لبعض جنود الجيش الأبيض، ولكنهم فوجئوا بأنهم قد قتلوا كائنا عجيبا، لم ير أحدهم مثله من قبل..

كائنا أشبه بالبشر، من حيث القامة، وملامح الوجه، وتناسق الأعضاء، ولكن جسده كله مغطى بالشعر كالقرود..

باختصار، كان يبدو أشبه بحلقة وصل، بين الإنسان والقرد..

وربما كان هذا الكائن هو الصورة الفعلية لما أطلق عليه العلماء فيما بعد اسم (إنسان الجليد البغيض)، أو (القدم الكبيرة)، وهو كائن شبيه بالبشر، يعيش في الأماكن الجليدية، التي يصعب على البشر ارتيادها، مثل جبال (الهيمالايا)، وجبال (جورجيا) الروسية، وشمال وغرب (أمريكا) و (كندا)..

وهناك مشاهدات عديدة لرجل الجليد هذا، أو كما يطلق عليه السكان المحليون اسم (پيتي)، وآخر هذه المشاهدات ما سجلته بعثة بريطانية بقيادة (جون إدواردز)، عام 1979 م، في جبال الهيمالايا)، وعلى ارتفاع أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة متر..

فهناك، على القمة، رصد رجال البعثة آثار أقدام كبيرة على الجليد، وسمعوا نداءات مخيفة، وصرخات قوية، تجمع بين أصوات البشر والحيوانات..

ولقد سجلت البعثة البريطانية طول آثار أحد الأقدام، والذي بلغ ستة وثلاثين سنتيمترا بالتمام والكمال..

وطبقا لتقديرات العلماء، فهذا يعني أن طول (بيتي) يتجاوز المترين وربع المتر على الأقل..

والسؤال الحقيقي هو: هل يعتبر (پيتي) هذا كائنا غامضا، أم أنه مجرد تطور طبيعي لنوع من قرود المناطق الجليدية؟!

ولكن هذا السؤال، وأسئلة كثيرة غيره، ستظل طويلا بلا أجوبة شافية، وسيظل العلماء يلهثون بحثا عن تلك الأجوبة..

وعندما يتوصلون إليها، ستظهر أمامهم كائنات أخرى، وأخرى..

فقط لندرك أننا لم نؤت بالفعل إلا القليل من العلم..

والقليل جدا..

☆ ☆ ☆

11- كل رجال الرئيس..

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحا، في ذلك اليوم الشديد الحرارة، من أيام يوليو 1971 م، عندما انتبه سكان المنطقة المحيطة بمبنى المخابرات العامة المصرية، إلى أن المكان يستعد لاستقبال زائر غير عادي، فقد تضاعفت إجراءات الأمن، وبدت ملحوظة - على غير المعتاد – واحتلت ناصية الشارع المؤدي إليه سيارة كبيرة، من سيارات الشرطة، وحولها عدد من الضباط ورجال المرور، وظهر عدد من الرجال في ثياب مدنية، عند بوابة المبنى، وملامحهم تحمل ذلك الجمود، الذي لا يشف قط عما تنطوي عليه نفوسهم، في حين تختفي عيونهم خلف مناظير داكنة، أضفت عليهم مزيجا من الغموض والرهبة، يتناسبان بحق مع المكان، الذي يغلفه الصمت والسكون طوال الوقت تقريبا، كما لو كان أطلالا مهجورة، على الرغم من كل ما تموج به أعماقه من نشاط جم، لا يتوقف ليلا أو نهارا..

ولم يكن الأمر بحاجة إلى الكثير من الاستنتاج، لمعرفة هوية ذلك الزائر، بل ولم يكن هناك وقت للتفكير والتخمين، فلم يكد رجال الأمن يستقرون في مواضعهم، حتى أسرع رجال المرور بإيقاف سيل السيارات؛ لإفساح الطريق لموكب الزائر، الذي ظهر بسرعة، واتخذ طريقه نحو المبني، وعبر بوابته الرئيسية، التي أغلقت بعدها، وتلاشت مع إغلاقها مظاهر الأمن والحراسة - أو أنها لم تعد علانية - في نفس الوقت الذي سمح فيه رجال المرور للسيارات بمواصلة السير، فانطلقت تتدفق كنهر ميكانيكي، وكل ركابها يبتسمون في ارتياح، بعد أن تعرفوا وجه

رئيس الجمهورية في ذلك الحين، الرئيس (أنور السادات)، وأدركوا أنه في طريقه لزيارة المخابرات العامة..

وكان من الطبيعي أن يذهب رئيس الجمهورية، كل حين وآخر، لزيارة رجال المخابرات في عرينهم، على الرغم من اجتماعاته المنتظمة مع رئيس الجهاز، والتقارير اليومية، التي ترد إليه. منه؛ فزيارته لهم تختلف كثيرا عن زيارتهم له..

إنه يستطيع بينهم أن يلمس ذلك الجهد الخرافي، الذي يبذلونه طوال الوقت، والذي تصله نتائجه أولا فأولا، كما أنه سيجد هناك كل ما يحتاج إليه، أو يرغب في معرفته، دون إضاعة لحظة واحدة، في إحضاره من المبنى إلى القصر الجمهوري، ومع وجود كل الإمكانات الحديثة المتاحة داخل المكان، والتي يصعب نقلها لضخامة حجمها، أو حساسية تشغيلها والتعامل معها..

ثم إن هذه الزيارة بالذات كانت أكثر منطقية، بعد أن هدأت الأمور، التي اشتعلت في منتصف مايو من العام نفسه، وانتهت باستقرار (أنور السادات) على مقعد الرياسة، وإجراء تغييرات جوهرية بين معاونيه، ووزرائه، ومستشاريه.. ومع تحديده لموعد الزيارة، طلب الرئيس عقد اجتماع خاص، يضم كل رؤساء الأقسام في الجهاز بلا استثناء..

وفي هذا الاجتماع، ترك الرئيس انطباعا لدى رجال المخابرات بأنه واحد منهم، يتحدث لغتهم، ويفهم مشاعرهم وأحاسيسهم، ويدرك طبيعة عملهم، والتضحيات التي يبذلونها من أجله، و....

وحانت لحظة طرح الأفكار، والإفصاح عما في الصدور وكعادته كلما استعد لاستجماع ما لديه، وتسديد أهدافه بدقة، أشعل الرئيس (السادات) غليونه في تأن، ونفث دخانه في بطء، قبل أن

يدير عينيه في الحاضرين، ويشرح لهم السبب الحقيقي للاجتماع..

لقد طرح عليهم رأيه، في ضرورة وضع خطة بالغة الدقة والسرية والتمويه على جهاز المخابرات الإسرائيلي وخداعة، كوسيلة حتمية لدحر الجيش الإسرائيلي، الذي أحاط نفسه بهالة أسطورية وهمية، أوحت بأنه أقوى جيوش العالم..

وعلى الرغم من أن الاجتماع قد استغرق ما يزيد على الساعات الخمس، إلا أنه اقتصر على مناقشة بعض الأفكار ومراجعة بعض المعلومات، ووضع الخطوط العريضة لخطة الخداع، ولم يتطرق قط إلى تفاصيلها، التي ترك الرئيس مهمة وضعها للرجال، الذين انتقاهم بدقة، ووضع على كاهلهم المسئولية كاملة..

وانصرف الرئيس عائدا إلى مقر الرياسة، وترك خلفه رجاله، الذي واصلوا الاجتماع لثلاث ساعات أخرى، قبل أن يصدر قرار بالإجماع، ببدء تنفيذ أضخم خطة في تاريخ المخابرات العامة..

خطة الخداع، والتمهيد لحرب أكتوبر 1973 م..

ولم يكن الأمر هينا أو بسيطا، فكل خطوة، وكل نقطة ينبغي دراستها بمنتهى الدقة والاهتمام، والتعامل معها على نحو بالغ الحذر، بحيث يمكن إعداد الجيش للحرب، وتمهيد الطريق لها، واتخاذ كل الخطوات الضرورية اللازمة دون أن يشعر جهاز المخابرات الإسرائيلي، أو أية أجهزة أمنية أخرى للعدو بحدوث هذا..

باختصار، ينبغي إحضار فيل ضخم، وتمريره تحت أنف نمر يقظ، دون أن يشم ذلك النمر حتى رائحته، أو ينتبه إلى وجوده..

وعلى الرغم مما يبدو عليه الأمر، من استحالة حدوث هذا، انطلق رجال الرئيس في عملهم بمنتهى الحماس، كما لو أنهم على أتم ثقة بقدرتهم على انجاز هذا العمل الرهيب، وتحطيم حاجز المستحيل..

وطوال الأشهر التالية، نشط عملاء المخابرات في (سيناء)، و (تل أبيب)، و (القدس)، وفي صفوف الجيش الإسرائيلي نفسه، لجمع الصور، والوثائق، والأقوال والخرائط، وحتى الشائعات، لتغذية الجهاز بأكبر قدر ممكن من المعلومات، التي هي عصب العمل، في ذلك العالم السري الغامض وعنوان التفوق فيه..

ثم حانت لحظة اختبار طارئة، في شتاء عام 1972 م، عندما هطلت الأمطار في غزارة غير طبيعية على (القاهرة) مما أدى إلى تعطل بعض المرافق الحيوية في العاصمة، وغرق السيارات حتى نصفها في ميدان التحرير نفسه، وانقطعت الاتصالات الهاتفية، مع التيار الكهربي، في عدد من الأحياء المكتظة بالسكان، مما دعا الكاتب الساخر (أحمد بهجت) إلى كتابة مقال لاذع في جريدة الأهرام، للسخرية من هذا الموقف، وختمه بسؤال عما يمكن أن يحدث، لو تكررت هذه الأمطار الغزيرة، ونحن في قلب الحرب..

والتقطت المخابرات العامة هذا التساؤل، وطرحته في اجتماع خاص، ناقش الفكرة بجدية تامة، ثم تقدم بتقرير خاص في هذا الشأن للأجهزة المسئولة، مع فكرة ذكية خطرت للرجال، لاستغلال الموقف لصالح خطة الخداع..

وفي أول حديث عام للرئيس، بعد نشر المقال، وبناء على تقرير المخابرات العامة، أشار إلى ما كتبه (أحمد بهجت)، وإلى أن هذا

التساؤل مثير للدهشة؛ لأن الحرب ستؤدي حتما إلى تخريب أكثر بشاعة، ثم انتقل بسرعة إلى نقطة أخرى، وكأنما يلقى تعليقا عابرا..

والتقط الإسرائيليون الطعم، واتسعت ابتسامتهم في زهو وظفر، لأن عبارة الرئيس تعنى أنه واثق من أن أية حرب قادمة ستمتد حتما إلى العاصمة، وتعنى بالتبعية أنه يخشى اندلاع مثل هذه الحرب، وسيتردد كثيرا في إشعالها..

وكان هذا بالضبط ما تريد لهم المخابرات العامة أن يفهموه..

وهذا مجرد اختبار عابر، أما الاختبار الحقيقي لنجاح الخطة وبراعتها، فكان في الفترة التي سبقت حرب أكتوبر بعدة أشهر..

ففي تلك الفترة، كانت الاستعدادات الأخيرة للحرب تجري على قدم وساق، وأخطر ما يمكن أن يحدث هو أن ينتبه الإسرائيليون إلى هذا، أو أن يستنتجوا حتى أنه يحدث..

وكان على رجال الرئيس أن يدرسوا كل موقف، وكل مشكلة، وبمنتهى الدقة؛ في محاولة للبحث عن وسيلة لعلاج هذا، أو إخفاء ذاك، أو التمويه على تحركات ما، في مكان ما..

وكانت اجتماعاتهم تمتد - في بعض الأحيان - إلى ما يزيد على الساعات العشر المتصلة، التي لا تتخللها سوى دقائق معدودة لتناول طعام بسيط، أو لإرتشاف أقداح الشاي والقهوة..

ولكنهم، وفي كل مرة، كانوا يحطمون المستحيل وينتصرون على الموقف، ويجدون حلا لكل مشكلة وبدأ هذا مع مشكلة تدريب الجنود على خطة العبور، بعد أن جمع عملاء المخابرات، على مدى سنوات عديدة، معلومات تكفي لبناء عدة نماذج متفرقة، لعدة قطاعات من خط (بارليف)، في الصحراء الغربية، فلو أن

أحد عملاء العدو أو جواسيسه أمكنهم الاطلاع على هذه التدريبات، أو حتى معرفة موقعها، فقد يفسد هذا عملية العبور كلها، عندما يحين الوقت المناسب..

لذا فقد أحاط رجال المخابرات مناطق التدريب بعدد من الخيام البالية، والأكشاك الخشبية المتهالكة، وأمام كل هذا ألقوا، على نحو يوحي بالإهمال، بلافتة خشبية قديمة، مالت على نحو مثير للشفقة، واختفى جزء منها في الرمال، وهي تحمل عبارة تقول: «المؤسسة المصرية العامة لاستصلاح الأراضي»، بحروف بارزة، تجمعت عليها الأتربة، وتساقط منها بعض النقاط، كما لو أنها سقطت بفعل الرياح، وتعاملت معها عوامل التعرية في قسوة..

وكان من الطبيعي أن يتجاهل العدو هذه المناطق، خاصة وأن معدات التصوير الجوي عنده قد أظهرت العبارة نصف المطمورة في الرمال، ورصدت تلك العربات القديمة، التي تحمل اسم شركة مقاولات، أنشئت خصيصا لهذا الغرض، وهي تحمل العمال إلى الموقع، دون أن يدرك الخبراء الإسرائيليون، أو يتصوروا لحظة واحدة، أن هؤلاء العمال الزائفين هم في الواقع جنود (مصر) البواسل، في سبيلهم للتدرب على اقتحام نماذج خط (بارليف) وتدميرها..

وعندما كان من الضروري إرسال قوافل الدبابات إلى الجبهة، درست المخابرات الموقف، ونصحت باتخاذ قرار بنقل ورش التصليح الرئيسية إلى الخطوط الأمامية، ثم بدأت الدبابات تصاب بأعطال عديدة؛ تستلزم ذهابها إلى ورشة الإصلاح، في طوابير واضحة معلنة، على نحو خدع جواسيس العدو وعيونه، الذين تصوروا أن كل هذه الدبابات في طريقها إلى الورشة بالفعل، حتى كانت لحظة الحرب، التي انطلقت فيها الدبابات

بعد أن استعادت نشاطها وقدراتها بغتة، لتعبر القناة، وتواجه دبابات العدو على الضفة الشرقية، وتكبدها أكبر خسائر في تاريخها العسكري..

أما معدات العبور، الهدف الرئيسي لكل عملاء وجواسيس العدو، فقد استغل رجال الرئيس في أمرها تلك الفكرة، التي كونها العدو، عن ضعف خبرتنا وكفاءتنا، فسربت تقريرا سريا، يحدد كمية مبالغ فيها من المعدات، باعتبار أن هذا هو العدد الذي حدده الخبراء المصريون، وتم استيراد هذه الكمية بالفعل، على نحو أثار سخرية العدو الإسرائيلي، وتندره على هؤلاء الخبراء، الذي لا يمكنهم حتى إجراء مثل هذه الحسابات، خاصة وأن الشحنة قد وصلت إلى ميناء (الإسكندرية) بالفعل، وتم استلامها على نحو بالغ الإهمال، وبإجراءات أمنية توحي بالاستهتار واللامبالاة، وظلت ملقاة على رصيف الميناء حتى المساء، عندما أتت سيارات الجيش لنقلها إلى منطقة صحراوية في ضاحية (حلوان)، وتم تكديسها على مرمى البصر من طريق ممهد، وغطاها الجنود بشباك مهترئة، تكشف منها أكثر مما تستر..

ووسط كل هذا الإهمال المتعمد، كانت الخطة الحقيقية تدار ببراعة مدهشة، تستحق إعجاب العدو قبل الصديق..

لقد نقلت سيارات الجيش الكمية الزائدة من المعدات فحسب، وتم تخزينها فوق مصاطب خاصة، جعلتها تبدو في ضعف حجمها الأصلي، في حين قامت سيارات أخرى، تحمل شعار شركة مقاولات خاصة، بنقل الكمية التي تحتاج إليها عملية العبور، في أثناء تظاهرها بنقل بضائع أخرى، تم وضعها على

رصيف الميناء، بالقرب من معدات العبور، واتجهت بها إلى الجبهة مباشرة..

وحتى في الجبهة نفسها، كانت خطة الخداع مستمرة..

فعلى سبيل التمويه، صنع الفنيون في الجيش المصري عددا كبيرا من الهياكل الخشبية لدبابات وعربات مصفحة وعربات رادار، وأخفوها داخل حفر شبيهة بتلك التي توضع فيها المعدات الحقيقية..

وضحك الإسرائيليون حتى احمرت أعينهم، وانتفخت صدورهم، على هذه الخطة الساذجة، التي انكشفت لخبرائهم بكل سهولة..

ولكن لم تكد الحرب تندلع، حتى تحولت ضحكاتهم إلى شهقات دهشة، وعضات كادت تقتلع الشفاه، عندما اتضح لهم، بعد فوات الأوان، أن تلك النماذج الخشبية كانت تخفي في جوفها القوارب المطاطية، والأجزاء العائمة، التي برزت فجأة من باطن الأرض، عندما حانت لحظة العبور...

وحتى المشكلات المحتملة، لم يهملها رجال المخابرات في حساباتهم، فقبل اندلاع حرب أكتوبر بثلاثة أشهر، طرح أحد الرجال فكرة ارتفاع استهلاك المصابيح اليدوية، في أثناء فترة الإظلام الإجبارية، التي تصاحب في المعتاد اندلاع الحروب، وأكد أن السوق سيحتاج حتما إلى كميات منها، قبل بدء المعركة، ولو تم استيراد هذه الكميات على نحو رسمي، سترصد أجهزة مخابرات العدو هذا، وتستنتج منه أننا نستعد للحرب، لذا فمن الضروري البحث عن وسيلة للحصول على هذه المصابيح، دون استيرادها بالطرق الرسمية...

وبعد أيام قليلة من طرح المشكلة، التقى أحد المهربين بشاب حاذق، على دراية كبيرة بمسالك الصحراء وخلجان الشاطئ، وساعده هذا الشاب على تهريب كمية من قطع غيار السيارات، مما عقد أواصر الصداقة بينهما، فتم الاتفاق بينهما على تهريب صفقة ضخمة من المصابيح اليدوية، واستأجرا لهذا الغرض ثلاثة مخازن بالفعل، واحد في الصحراء الغربية، والثاني في بدروم فسيح في (الإسكندرية)، والثالث عبارة عن جراج في (العباسية) في (القاهرة)..

وتم كل شيء بنجاح، ووصلت الصفقة بالفعل، وتعامل معها الشاب بحذر بالغ، وعلى الرغم من هذا، فقد أطبقت عليها الشرطة، في أثناء نقل الشحنة، وألقي القبض عليهما، وتمت مصادرة المصابيح - طبقا للقانون - وطرحت للبيع في المجمعات الاستهلاكية بأسعار متواضعة، قبل اندلاع الحرب بشهر واحد..

وغنى عن الذكر أن ذلك الشاب الحاذق لم يكن سوى أحد عملاء المخابرات المدربين..

ومع اقتراب الحرب أكثر وأكثر، راحت خطة الخداع تسير بخطوات أوسع، وتلتقط أنفاسها في حرارة وحماس..

لقد توقع الخبراء - آنذاك - أن عملية العبور ستؤدي إلى إصابة نصف قوات الموجة الأولى، ثم يتناقص العدد تدريجيا مع الموجات التالية، وهذا ما لم يحدث بالفعل، عندما تم العبور، إذ لم تتجاوز نسبة الخسائر 10 ٪، ولكن الخبراء رأوا أن هذا سيستلزم إخلاء عدد من المستشفيات المدنية، مع قيام الحرب، للمساعدة في عمليات استقبال الجرحى والمصابين..

ولأنه من المستحيل أن يتم هذا، دون أن ينتبه العدو، وبشدة، إلى استعدادات قيام الحرب، فقد هب رجال المخابرات لبحث المشكلة، وتقديم النصيحة المناسبة بشأنها..

وفي اليوم التالي مباشرة، قررت إدارة شئون الضباط، في القوات المسلحة، بتسريح ضابط طبيب من الخدمة، ولم يكد هذا الطبيب يعود إلى الحياة المدنية، حتى تسلم وظيفته السابقة في وزارة الصحة، وتم تعيينه في مستشفى (الدمرداش)، الذي وقع عليه الاختيار، ليكون أول القائمة..

ونظرا لكفاءة ومهارة هذا الطبيب، فقد كشف بعد تسلمه العمل بفترة قصيرة، أن ميكروب التيتانوس يلوث معظم عنابر المستشفى، فأسرع بتقديم مذكرة في هذا الشأن، دارت حولها مناقشات ومحاورات ليومين كاملين، بعدهما تم إخلاء المستشفى تماما من المرضى، لتطهيره من الميكروب..

وفي اليوم التالي مباشرة، نشرت جريدة الأهرام الخبر، وتساءل أحد الصحفيين عما إذا كان التلوث قد وصل إلى بعض المستشفيات الأخرى أم لا، وبناء على ما جاء بالمقال، صدر قرار بإجراء تفتيش على باقي المستشفيات، ولم يكد أول أكتوبر يأتي، حتى كان العدد المطلوب من المستشفيات قد تم إخلاؤه نهائيا، ونشرت جريدة الأهرام تحقيقا علنيا حول هذا الأمر، مع صور للأسرة الخالية، وعمليات التطهير المستمرة.

ومع بداية أكتوبر 1973 م، وصلت خطة الخداع إلى ذروتها، وارتفعت درجة حرارتها إلى الخط الأحمر، فقد حملت الصحف إعلانا عن رحلات عمرة رمضان، التي يقوم بها الضباط والجنود، من خلال القوات المسلحة، وطلب منهم الإعلان أن يتقدموا

بطلباتهم، في نفس الوقت الذي وجه فيه المشير (أحمد إسماعيل) الدعوة إلى وزير الدفاع الروماني لزيارة (مصر) يوم الإثنين 8 أكتوبر، وأعلن في بيان رسمي أنه سيكون في استقباله شخصيا، لدى وصوله إلى مطار (القاهرة)..

وفي نفس الفترة تقريبا أعلن بصفة رسمية عن الاستعداد لاستقبال الأميرة الإنجليزية (مارجريت)، التي أبدت رغبتها في زيارة (مصر)، صباح الأحد 7 أكتوبر، وطارت طائرتها بالفعل، من (لندن) إلى (روما)، وبلغ الأمر حدًا اجتمع فيه رجال المخابرات المصرية مع قائد الجناح الجوي (باريتكوت)، الملحق بالسفارة البريطانية، في الساعة الواحدة بعد ظهر السبت 6 أكتوبر؛ لرسم خط سير الطائرة، وتأمين وصولها، وهم يعلمون أكثر من غيرهم أن مطار (القاهرة) سيتم إغلاقه في الثانية وخمس دقائق بالتحديد، عند نشوب الحرب..

أما قائد القوات الجوية - حينذاك - اللواء (محمد حسني مبارك)، فقد كان يعتزم زيارة الجمهورية العربية الليبية، بصحبة عدد من ضباط السلاح الجوي المصري، يوم الجمعة، الخامس من أكتوبر، كما أبلغ السلطات الليبية لاسلكيا، إلا أن ظرفا قهريا حال دون قيام الرحلة في موعدها، فتقرر تأجيلها إلى عصر اليوم التالي السادس من أكتوبر 1973..

وقبل هذا الموعد بساعات معدودة، كان الطيران المصري يعبر قناة السويس، ويعلن بدء معركة المصير، وفي نفس اللحظة، التي كان فيها أحد الجواسيس المصريين، في الصفوف الأمامية للجيش الإسرائيلي، يبلغ القوات المصرية أو فأولا، عن الأهداف التي ينبغي قصفها والتي صرخ فيها (موشى دايان)، وزير الدفاع الإسرائيلي في وجه الجنرال (شموئيل جونين) قائد جبهة (سيناء)؛

ليوبخه على فشله في تشغيل أنابيب النابالم، واشعال النيران في مياه. القناة، دون أن يدري أن المصريين قد أفسدوا فاعليتها بخطة مدهشة، كان الرئيس (أنور السادات) يشعل غليونه في مقر قيادة المعركة، وينفث دخانه المعطر في استمتاع ظافر، وهو يتابع أخبار القتال، وفي أعماقه، اتخذ الرئيس قراره بضرورة مكافأة الرجال، الذين كان لهم الفضل - بعد الله سبحانه وتعالى) - في تحقيق عامل المفاجأة، وخداع العدو، ونجاح عملية العبور..

كل رجال الرئيس..

☆ ☆ ☆

12- صفر.. صفر.. سبعة..

خيم ظلام تام رهيب، على تلك المنطقة المقفرة، وسط ثلوج جبال (سويسرا)، حيث انخفضت درجات الحرارة إلى عشر درجات تحت الصفر، وبدا المشهد أشبه ببساط أبيض، يفرش كل شيء، ويمتد وسط الغابات الخالية، إلا من كوخ صغير أضيئت نافذته، وظهر من خلفها ظل رجل، انهمك في معالجة خزانة فولاذية، أخفيت بمهارة فائقة، في الجدار الخشبي السميك للكوخ..

وتقترب الصورة في سرعة، مخترقة النافذة، ليظهر وجه الرجل في وضوح، وهو يلتقط ذلك (الميكروفيلم) الدقيق، الحافل بأخطر الأسرار العسكرية السوفيتية، من داخل الخزانة الصغيرة الخفية، التي كشف أمرها، ونجح في فتحها ببراعة منقطعة النظير..

ومن الطبيعي أن يبدو وجهه مألوفا. إنه (بوند)..

(جيمس بوند)..

العميل السري البريطاني رقم صفر.. صفر.. سبعة..

ولأن الأمور لا يمكن أن تسير بهذه البساطة، مع رجل مثل (بوند)، فمن الضروري أن ينقض جيش من القتلة المحترفين على الكوخ، وتنطلق الرصاصات من مدافعهم الآلية كالمطر، في محاولة لسحق العميل البريطاني، ولكن (بوند) يندفع فجأة خارج الكوخ، مرتديا زحافات الانزلاق على الجليد، وينطلق بها في مهارة مذهلة، تستفز جيش خصومة، الذي ينطلق خلفه في شراسة، وتخفق قلوبنا في عنف، و (بوند) يستخدم كل مهاراته

في الانزلاق، لدحر وهزيمة خصومه، فيسقط العديدون منهم، وتتناثر دماؤهم على الجليد..

ولكن الباقين يواصلون المطاردة في شراسة أكثر..

ويدفعون (بوند) نحو هاوية سحيقة بلا قرار..

وتحتبس أنفاسنا جميعا، عندما يهوى (بوند) في الهاوية..

وينطلق في رءوسنا جميعا سؤال واحد..

كيف يمكن أن ينجو (بوند) هذه المرة؟!

وقبل حتى أن يكتمل تساؤلنا، يفاجئنا (بوند) بأن الحقيبة، التي يحملها على ظهره منذ البداية، عبارة عن مظلة هبوط، تعاونه على الوصول إلى القاع في سلام، بعد أن أراق دماء العشرات من خصومه..

ولن يوجه إليه أحد اللوم بالتأكيد، على الرغم من كل ما أراقه من دماء..

هذا لأن (جيمس بوند) أحد ثلاثة، في جهاز المخابرات البريطاني كله، الذين يحملون صفرين قبل أرقامهم الكودية..

وهذا يعني أن صقر.. صفر.. سبعة، مصرح له بالقتل دون إبداء الأسباب..

هذا هو ما شاهدناه، وذبنا فيه، وانبهرنا به، في تلك الفترة من الستينات..

مغامرات رجل المخابرات البريطاني (جيمس بوند)..

صفر.. صفر.. سبعة..

والواقع أن شخصية (جيمس بوند)، التي تعتبر أشهر شخصية جاسوسية عرفتها الشاشة، قد ظهرت للوجود قبل هذا بعدة أعوام، عندما كتب الروائي البريطاني (إيان لانكستر فليمنج) أولى روايات (بوند) عام 1953، باسم (كازينو رويال) و (إيان فليمنج) هذا بريطاني المولد، ولد عام 1908م، وتأثر بالحرب العالمية الأولى (1914- 1918 م)، وقرأ كل ما كتب عنها في طفولته وصباه وشبابه..

وعندما بلغ الحادي والثلاثين من عمره، اندلعت الحرب العالمية الثانية، (1939 - 1945 م)..

وكأي شاب بريطاني مخلص، التحق (فليمنج) بالجيش، ثم لم يلبث أن أصبح يحمل رتبة ملازم أول، في المخابرات البحرية البريطانية، حتى نهاية الحرب..

ومن المؤكد أن الشاب قد انبهر تماما بعالمه الجديد هذا، وأنه قد توغل فيه كثيرا، مما كان له أكبر الأثر في كتاباته فيما بعد..

والعديدون يؤكدون أن شخصية (بوند) قد ولدت في أعماق (إيان فليمنج)، في تلك الفترة بالتحديد، ودليلهم على هذا أن (بوند) قد حمل الكثير من سمات (فليمنج) نفسه، إذ إنه أيضا يعمل في المخابرات البحرية البريطانية، ويدخن في شراهة، ويميل إلى كوكتيل خاص من الخمور، شغف به (فليمنج) نفسه في حياته..

وعندما وضع (إيان فليمنج) روايته الأولى (كازينو رويال)، لم يكن يتوقع لها نجاحا كبيرا..

وهذا ما حدث بالفعل..

لقد وزعت القصة في البداية كمية تقليدية، بالنسبة لمثيلاتها، ولكن هذا لم يمنع الناشر من التعاقد مع (فليمنج) مرة أخرى،

لكتابة إحدى عشرة رواية لـ (جيمس بوند) بالإضافة إلى مجموعتين من القصص القصيرة..

وكم كان هذا الناشر محظوظا..

فعلى الرغم من أن رواية (ماسات إلى الأبد)، التي نشرت عام 1956 م، قد حققت نجاحا ملحوظا، إلا أن رواية (دكتور نو)، التي تلتها في عام 1958 م، قد انفجرت كقنبلة في كل الأوساط الأدبية، وأصابت الشعب البريطاني بما عرف أيامها باسم (صرعة جيمس بوند)، إذ لم يعد هناك حديث، في كل الأوساط إلا عن ذلك العميل السري البريطاني، صاحب المغامرات التي تحبس الأنفاس..

وكان من الطبيعي، والحال هكذا، أن تنتقل اللهفة إلى كل روايات (فليمنج) السابقة..

وقفزت المبيعات فجأة إلى أرقام خرافية مذهلة، جعلت السينما تهرع إلى (إيان فليمنج)، وتتعاقد معه على تحويل تلك الرواية، التي كانت سبب شهرته، إلى فيلم سينمائي وهكذا، وفي أكتوبر عام ١٩٩٢ م، ظهر للوجود أول فيلم من سلسلة أفلام (جيمس بوند) الشهيرة.. (دكتور نو)..

ومع انتقال الشخصية من عالم الرواية إلى عالم السينما، بدأت مرحلة جديدة من الانتشار..

ومن العالمية..

فلقد انبهر العالم، واحتبست أنفاسه، وهو يتابع الفيلم على الشاشة، على الرغم من أن المخرج قد أسند دور البطولة لممثل مسرحي وسينمائي بريطاني، لم يكن قد حقق، حتى ذلك الحين، أي نجاحات ملموسة في العالمين، وهو (شين كونوري)، الذي

وصفه النقاد مؤخرا بأنه أفضل من أدى دور (بوند) على الشاشة..

ولقد كان اختيار المخرج حكيما وعبقريا في الواقع، إذ إن شخصية (بوند) بكل سحرها، كانت ستفقد الكثير من بريقها، إذا ما ارتبطت بممثل شهير، اعتاد الناس رؤيته في عشرات الأدوار والمواقف المختلفة..

لذا فقد كان الأمر يحتاج إلى وجه غير مألوف..

وإلى مغامرة انتحارية..

ومتهورة..

ولقد ولدت شهرة (كونوري) مع سلسلة أفلام (جيمس بوند)، حيث قدم بعد (دكتور نو)، أربعة أفلام ناجحة للغاية، وهي (من روسيا مع حبي)، و (أصبع من ذهب)، و (كرة السرعة) و (إنك تعيش فقط مرتين)..

ولكن (شين كونوري) لم يشعر بالارتياح قط، على الرغم من هذا النجاح المبهر..

هذا لأن اسمه ارتبط والتصق باسم (جيمس بوند)..

بل وذاب فيه أيضا، حتى إن معظم الناس لم تعد تخاطبه باسمه، بل باسم (بوند)، مما أورثه الكثير من الحنق والغضب والعصبية، وجعله يقرر الانسحاب من أداء دور العميل البريطاني، في أواخر عام 1968 م...

ولأن شخصية (بوند) كانت متألقة للغاية، في تلك الفترة، فلم يكن من الممكن أبدا أن تسمح السينما بموتها، مع انسحاب (كونوري)؛ لذا فقد بدأ البحث في سرعة واهتمام عن البديل..

والمضحك أن ذلك البديل قد ظفر بالدور، لمجرد أنه يشبه (شين كونوري) في بعض ملامحه..

وهكذا بدأ الإعداد لفيلم (بوند) الجديد (من أجل الخدمة السرية للملكة)، ببطل جديد، وهو البريطاني (جورج ليزنبي)، الذي فشل فشلا ذريعا في تقمص دور (بوند)، حتى لقد ظفر بتقييم النقاد له، باعتباره أسوأ من أي دور (بوند) على الشاشة..

وهكذا عادت الكرة مرة أخرى إلى (شين كونوري)، الذي قبِل القيام ببطولة فيلم (ماسات إلى الأبد)، الذي عرض في ديسمبر 1971 م، واستعاد مرة أخرى النجاحات المذهلة المعتادة، التي تحققها أفلام (جيمس بوند)..

ولكن العجيب أن (كونوري)، وعلى الرغم من كل هذا النجاح، عاد يعلن، وبإصرار شديد، أنه سيعتزل نهائيا القيام بدور (بوند)، وأنه لن يعود إليه أبدا، مهما كان الثمن..

وعاد صانعو السينما يواجهون المشكلة من جديد..

من يمكن أن يلعب دور (بوند) على الشاشة..

وبنجاح..

وفي تلك الفترة، كان هناك ممثل بريطاني آخر، اشتهر بتقديم لون جديد من أفلام المغامرات، على شاشة (التليفزيون)، من خلال حلقات (القديس)، التي نالت أيضا شهرة واسعة، في (بريطانيا) والعالم..

وهكذا اتجه المخرجون إلى ذلك الممثل (روجر مور)، صاحب الجسد الممشوق والملامح الوسيمة، ليحل محل (بوند) في الفيلم الجديد (عش ودعهم يموتون)، الذي تم تصويره في

الولايات المتحدة الأمريكية، وبالاشتراك مع شركة (مترو جولدين ماير)، كوسيلة لضمان أكبر وأفضل تمويل ممكن..

ووضع الجميع أيديهم على قلوبهم، عندما تم عرض الفيلم في يونيو 1973 م، وهم يتساءلون في قلق أقرب إلى الذعر..

ترى هل ينجح (مور) في سد الفراغ الكبير، الذي تركه (كونوري)..

ونجح الفيلم نجاحا مبهرا، أثلج صدور الجميع، ودفعهم للإسراع بالتعاقد مع (بوند) الجديد (روجر مور)؛ لتقديم عدد جديد من أفلام الجاسوسية المبهرة..

وهكذا عاد (بوند) إلى الشاشة، في (الرجل ذو المسدس الذهبي)، و (الجاسوسة التي أحبتني)، و (حاصد القمر)، و (من أجل عينيك فقط)، و (الأخطبوط)، و (مشهد للقتل)..

ولكن (مور) عانى نفس ما كان يعانيه (كونوري) من قبل..

لقد نسي الجميع أنه (روجر مور)، وراحوا يخاطبونه باسم مستر (بوند)...

وثار (مور)، وغضب، وأعلن رفضه وتمرده على إذابة كيانه في بوتقة (بوند) الحارقة، على الرغم من أن (شين كونوري) نفسه، كان قد رضخ، إثر أزمة مالية عنيفة، لضغوط عدد من المنتجين البريطانيين، وقبل أن يلعب دور (بوند) مرة أخرى، عام 1983 م، بعد أكثر من اثني عشر عاما من اعتزاله إياه، في فيلم اختار له كاتب السيناريو عنوانا خاصا، وكأنه يعلن فيه شماتته لتراجع (كونوري)، إذ كان اسم الفيلم هو (أبدا.. لا تقل أبدا مرة أخرى)، وكأنما يذكِّر (كونوري) بقوله إنه لن يعود لتمثيل دور (بوند) أبدا، مهما كان الثمن..

ويا ليت (كونوري) ما فعل..

لقد بدا في الفيلم ثقيلا مترهلا بطيء الحركة، على نحو كاد يمحو تاريخه السابق كله..

ومن حسن حظه وطالعه، أنه قد تدارك الأمر في سرعة، وأعلن هذه المرة اعتزاله التام، وأكد أن قيامه بالدور كان مجرد خطأ، لن يعود إليه قط..

والطريف أن النقاد أنفسهم اعتبروا الفيلم مجرد غلطة حتى أنهم كثيرا ما يتغافلون عنه، عندما يتحدثون عن أفلام (جيمس بوند)..

المهم أن مشكلة البحث عن بديل جديد لأداء الدور، عادت تطفو على السطح مرة أخرى، وبعنف، بعد الاعتزال النهائي لـ (كونوري)، والانسحاب الغاضب لـ (مور)..

والعجيب أن هذه المشكلة لم تنشأ قط، عند وفاة (إيان فليمنج) نفسه، عام 1964 م، قبل حتى أن يتم عرض فيلم (أصبع من ذهب)، فقد كانت لدى الجميع حصيلة كبيرة تركها (فليمنج) خلفه، كما أن ورثته قد سمحوا للروائي البريطاني (جون جاردنر) باستكمال السلسلة، كرغبة منهم في الإبقاء على (بوند) إلى الأبد..

وفجأة.. وبينما الجميع يفكرون ويبحثون، أعلن مخرج أمريكي أنه قد قرر إسناد دور (جيمس بوند) لبريطاني ثالث، ظهر في عدة أفلام أمريكية، وحظي ببعض أدوار البطولة الثانية والثالثة فيها، وهو (تيموني دالتون)..

وتحمس (دالتون) كثيرا لأداء دور (جيمس بوند)، وأعلن أنه يحلم بأدائه منذ زمن طويل، وأنه سيناسبه بالتأكيد وفي يوليو

1987 م، عادت أفلام (بوند) للظهور، مع (تيموني دالتون)، الذي قدم فيلمي (أضواء النهار الحية) و (تصريح بالقتل)..

والمدهش أنه لم يستطع الاستمرار، بعد هذين الفيلمين فحسب..

بل وأعلن أن أداء دور (بوند) قد أرهقه كثيرا، وأنه لا يناسبه على الإطلاق..

وهكذا عادت عمليات البحث المرهقة من جديد..

وتصور الجميع أن البحث سيكون أقل إرهاقا في تلك الفترة، بعد أن تراجعت الأفلام الاجتماعية كثيرا، وسيطرت على الشاشة الفضية.. أفلام الحركة والمغامرات، التي برز معها فريق جديد من الممثلين مفتولي العضلات، ضخام الأجساد خفيفي الحركة..

ولكن هذا لم يكن صحيا فشخصية (بوند)، كما وضعها (فليمنج)، كانت تجمع بين القوة والأناقة، والرومانسية والقسوة، في مزيج عجيب، لم يكن من السهل إيجاد من يعبر عنه، وسط أفلام العنف والشراسة والدماء بلا حدود..

إنهم يحتاجون إلى شخص أنيق وسيم، يصلح كنجم لحفل ساهر، ويمكنه أن يتحول في لحظة إلى مصارع شرس، لا يحوي صدره أي قلب ينبض..

ومرة أخرى، كان الاتجاه إلى (التليفزيون) ونجومه..

وهكذا تم انتقاء (بيرس بروسنان)، بطل الحلقات الشهيرة (ريمنجتون ستيل)، والذي كان يؤدي فيها شخصية مخبر خاص، محاط بقدر مدهش من الغموض، يجعله أشبه

بالمحتالين والنصابين، منه بمخبر خاص، مهمته تحقيق العدالة..

وقدم (بروسنان) شخصية (بوند) عام 1995 م، في فيلم (العين الذهبية)..

وعاد النجاح المبهر..

والإقبال منقطع النظير..

والإيرادات الكبيرة..

وقال أحد المسئولين: إن فيلم (العين الذهبية) قد حقق إيرادات تفوق مجموع ما حققته أفلام (جيمس بوند) مجتمعة...

وربما كان هذا ما شجع الجميع على إنتاج الفيلم التالي لـ (بيرس بروسنان)، والأخير في سلسلة أفلام (جيمس بوند)، حتى لحظة كتابة هذه السطور..

(الغد لا يموت أبدا)..

وربما كان اختيار اسم الفيلم أيضا مقصودا..

فالغد لا يموت؛ لأنه لم يولد بعد..

ولكن الكل واثق من أن (بوند) أيضا لن يموت، مهما أتي الغد، أو بعد الغد..

هذا لأن (بوند) لم يعد مجرد شخصية روائية أو سينمائية..

لقد صار أسطورة..

والأساطير لا تموت أبدا..

وخاصة عندما تحمل الرقم السحري..

صفر.. صفر.. سبعة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

13- حقيقة علمية..
(مصر) تسبق (أمريكا)..
الي القرن الحادي والعشرين..

هل أدهشك العنوان؟!

لو أن هذا ما حدث، فدعني أكرر لك هذه الحقيقة العلمية، التي لا يجرؤ عالم واحد على مخالفتها أو تكذيبها، حتى أشدّ المتحمسين للولايات المتحدة الأمريكية..

نعم.. (مصر) ستدخل القرن الحادي والعشرين، قبل الولايات المتحدة الأمريكية صحيح أن معظمكم، إن لم يكن كلكم، ستستنكرون هذا القول بشدة، وستؤكدون أن (أمريكا)، بكل ما لديها من تقدم وتكنولوجيا، ستسبقنا حتما إلى القرن الحادي والعشرين..

وخاصة المتأمركين منكم، الذين يتصورون أن أي شيء، وكل شيء، لا يمكن أن ينصلح وينضبط، إلا إذا كان أمريكيا..

وهؤلاء المتأمركون يتصورون أنه لا يمكن أن يصبح لهم شأن، إلا إذا تشبهوا بالنمط الأمريكي، في حياتهم كلها..

معذرة.. ليس في حياتهم كلها..

في الجانب الفاسد منها فحسب..

إنهم فقط يرتدون الأزياء الأمريكية (معظمها أزياء الشباب الضائع في شوارع أمريكا)، ويتهافتون على الأطعمة الأمريكية، مثل الهوت دوج والهامبرجر، على الرغم من أن الأمريكيين أنفسهم لا يقبلون عليها إلا في أيام إجازاتهم وحتى الحديث، لا بد أن يكون باللغة الإنجليزية، وبلكنة أمريكية غربية، مع المبالغة في مخارج الكلمات والحروف، لتأكيد أمريكيتهم العربية، المتأصلة في كفر (طقرمس)...

أو على الأقل، ينطقون معظم مصطلحاتهم بالإنجليزية، حتى تبدو عليهم علامات التقدم والرقي، وكأن التحدث بالعربية نوع من (قلة القيمة) أو التخلف الحضاري، على الرغم من أن العرب

كانت وما زالت لهم حضاراتهم، التي أشرقت على العالم، من قبل حتى أن يولد (كولومبوس) نفسه..

أما لهفة الهجرة إلى (أمريكا) فأمر آخر..

الكل يحلم بهذا الأمل، ويسعى إليه طوال الوقت، وكأنما لم يعد هناك طريق النجاح، في العالم كله، سوى طريق الهجرة إلى (أمريكا)..

والكل يتصور أنه سيصل إلى هناك، فيجد الرئيس الأمريكي شخصيا في انتظاره، ليقبل يده، ويشكره على أنه تنازل وتواضع، وهاجر إلى (أمريكا)، التي لم تكن لتحيا بدون مواهبه..

وبعد هذا الاستقبال يأتي وزير المالية لزيارته، وعيناه في الأرض، ليرجوه أن يقبل وظيفة مليونير بالانتداب، لحين خلو درجة..

ثم تنهال الدولارات وسبائك الذهب، والفضة، و... و.....

ويستيقظ من حلمه، ليجذب الغطاء على نصفه السفلى ويواجه الحقيقة..

إنه سيهاجر إلى أرض جديدة، ربما كانت أشبه بقفص ذهبي، ولكنها ستركله بحذاء من الصلب، لو لم يكافح ويعمل ليل نهار، حتى يجد لنفسه أربعة جدران، وساندويتش هامبورجر..

وهناك سيظل يحلم، ويحلم، ويحلم..

ثم سيقبل الواقع..

ويقبل..

ويقبل..

وعلى الرغم من هذا، ففي أول إجازة له، سيروي للجميع كيف أنه يعيش في رفاهية مطلقة، ويبعثر الأموال يمنة ويسارا، و.... و....

ويزرع في أعماق الآخرين الحلم ذاته..

حلم الهجرة إلى (أمريكا)..

وتحتشد الطوابير أمام السفارة الأمريكية..

ويتمادى الناس أكثر وأكثر في تقليد الأمريكيين، حتى لنجد أحدهم مرتديا قميصا قصير الأكمام، وعلى صدره كلمة إنجليزية كبيرة، لا يدري هو نفسه إنها كلمة (دونكي)..

والمضحك أن الشباب الأمريكي لا يشبه قط تلك الصورة، التي يتصورها شبابنا، أو يحاول تقليدها..

إنه شباب جاد للغاية، يدرك جيدا أن الطموحات والأحلام وحدها لا تكفي، وأن عليه أن يعمل ليل نهار، بلا كلل أو ملل، لتحقيق حلمه..

شباب يكد ويكدح طوال الأسبوع، ثم يخرج ليلهو ويمرح، في يومي الإجازة..

تماما مثل شبابنا العظيم، الذي يلهو ويمرح طوال الأسبوع، ثم يكافئ نفسه باللهو والمرح في الإجازة..

وبعد هذا، يجد في نفسه القدرة.. أو بمعنى أدق (الصفاقة) الكافية ليحلم..

ولكن كل هذه الأحلام لن تجدي..

وكل الإحساس بالتفوق الأمريكي لن يفيد..

فعندما يحل عام ألفين وواحد، وهو بداية القرن الحادي والعشرين، وليس عام ألفين، كما يتصور البعض، ستكون (مصر) أسبق إليه من (أمريكا)..

هل تدرون لماذا؟!

لأن علم الجغرافيا، وخطوط الطول والعرض تحتم هذا..

فعلميا وعمليا، نحن نسبق (أمريكا) بسبع ساعات كاملة في التوقيت..

وهذا يعني أننا سنعبر إلى القرن الحادي والعشرين، قبل الولايات المتحدة الأمريكية بسبع ساعات كاملة..

سبع ساعات، سنقضيها نحن في القرن الحادي والعشرين في حين تظل (أمريكا) خلالها في القرن العشرين..

هل تعلمون ما سأفعله أنا، طوال تلك الساعات السبع، إذا ما كتب لى الله سبحانه وتعالى) أن أحيا لأراها؟!

سأخرج لساني لكل الأمريكيين..

وكل المتأمركين..

☆ ☆ ☆

حدث فى (روزويل)

15- حدث في (روزويل)..

أخيرا انتهت الحرب العالمية الثانية، ووضعت أوزارها نهائيا، مخلفة وراءها دمارا لم يشهده العالم في تاريخه كله، وبخاصة بعدما تم محو مدينتين يابانيتين كاملتين من الوجود، (هيروشيما) و (ناجازاكي)، بقنبلتين ذريتين أذهلتا العالم كله، وأصابتاه برعب لا محدود، وجعلتاه يتطلع إلى المستقبل بنظرة خائفة متشائمة..

وبدأ العالم مرحلة جديدة..

(أوروبا) و (آسيا) انشغلتا في مرحلة إعادة البناء، بعد اقتسام وتوزيع الأسرى والقائم، و (إفريقيا) راحت تلتقط أنفاسها أخيرا، بعد أن تورطت طويلا في حرب طاحنة، لم يكن لها ناقة فيها ولا جمل..

أما (أمريكا)، فقد انتفخت أوداجها، وانتفش ريشها، وراحت تستعرض قوتها الجديدة، في مهرجانات واحتفالات مبهرة عديدة..

ودارت الأيام دورتها..

وهدأت الأمور كلها..

ولكن (أمريكا) بدأت تتعامل باعتبارها القوة الأعظم في العالم، بما تملكه من أسلحة ذرية ونووية، لا يمتلكها غيرها، وبدأت تتصور أنه ما من قوة في الوجود يمكنها أن تفتّ في عضدها....

وبعد عامين تقريبا، وفي منتصف نهار الثلاثاء 34 يونيو 1947 م، كان رجل الأعمال الأمريكي الشاب (كينيث أرنولد) يقود طائرته ذات المحركين، في سماء صافية، خالية من الغيوم تماما، وطقس مثالي للطيران، في منطقة جبل راينر (Rainier) وسط ولاية (واشنطن)، محلقا حول القمة المتجمدة لبركان (مايتي) الخامد، وهو هادئ النفس، صافي الذهن، لا يشغله شيء في الوجود سوى العثور على طائرة نقل أمريكية عسكرية مفقودة في المنطقة، على أمل الفوز بجائزة قدرها خمسة آلاف دولار، أعلنت عنها القوات الجوية الأمريكية، لمن يعثر على الطائرة أو حطامها، بعد أن اختفت تماما هناك، وعلى نحو غامض للغاية..

ولقد انهمك (كينيث) تماما في عملية البحث، بسبب جودة الطقس، و....

وفجأة، انعكس ضوء الشمس على وجهه، من مصدر ما..

وبسرعة، استعاد الأمريكي انتباهه على القيادة، ظانًا أن الشمس قد انعكست عن جسم طائرة أخرى، تتخذ مسارا يتعارض مع مسار طائرته..

ولكن كل شيء كان هادئا تماما..

وعلى مدى بصره، لم تكن هناك أية طائرة تحلق، في المدى الذي يمكن أن تنعكس عنده أشعة الشمس..

ولكن هناك، في أقصى الأفق، لمح (كينيث أرنولد) شيئا يتحرك..

لم يبد له أشبه بأية طائرات معروفة، بل بدا كأقراص منفصلة تطير بلا رابط، في اتجاهه تقريبا كان ما رآه يبعد - وفقا لتقديره - ما يقرب من ألف ميل، حتى إنه لولا السماء الصافية، لما أمكنه حتى ملاحظته، لذا فقد عزا ذلك الانعكاس إلى شيء آخر حتما، وقرر أن يتجاهل كل هذا، وأن يعود إلى عملية البحث عن حطام الطائرة العسكرية..

ولكن تلك الأجسام كانت تتحرك بسرعة مذهلة بحق..

فلم تمض لحظات، حتى كانت على مسافة ثلاثمائة ميل منه فحسب..

ولقد بدا له - عندئذ - أنها تتجه نحوه مباشرة..

ولقد كان على حق في كل ما تصوره..

تلك الأجسام كانت تتجه نحوه مباشرة.. وبأقصى سرعة رآها في حياته كلها..

ومن مسافة قريبة بما يكفي رأي (كينيث) تلك الأجسام مباشرة، ووصف ما رآه فيما بعد، قائلا:

- لم تكن هناك أية بروزات واضحة.. لا مقدمة، أو ذيل، أو أجنحة، فقط أسطوانات دائرية تماما، ولامعة إلى حد مدهش، حتى إنها تعكس أشعة الشمس، من مسافات بعيدة، وكانت عبارة عن تسعة أجسام، تطير في صف واحد، كطابور عسكري، وأسلوبها في الطيران كان عجيبا للغاية إذ بدت أشبه بأطباق تطير، عندما نلقيها على سطح بحيرة هادئة..

ومن عبارته الأخيرة بالتحديد، التقط أحد الصحفيين المحليين مصطلح (الأطباق الطائرة)، الذي عرفت به تلك الأجسام مجهولة الهوية، على النطاق الشعبي، حتى يومنا هذا..

وعندما تم نشر واقعة (كينيث)، على نطاق واسع في الأسبوع التالي مباشرة، كانت ردود الأفعال واسعة ومتباينة للغاية، فقد استقبلها المجتمع الأمريكي بما يشبه الصدمة....

ففجأة، وبعد أن خرج الأمريكيون من الحرب ظافرين منتصرين، يظنون أنهم القوة العظمى، تأتي واقعة كهذه لتشير إلى أن البشر ليسوا وحدهم في الكون، بل هناك مخلوقات عاقلة أخرى، تمتلك تكنولوجيا أكثر تفوقا، جاءت تستعرض قوتها في سمائهم..

وعلى قدر ما صعق البعض بالخبر، رفضه البعض الآخر في شدة، بل واستنكره تماما، من منطلق الخوف، أو عدم التصديق، أو حتى الغرور البشري، الذي يرفض وجود قوة أخرى متفوقة سواه..

أما الجهات الرسمية العسكرية، فقد لاذت بالصمت تماما وأنه كانت لديها شهادة أخرى، لم تحظ بالترويج الإعلامي المماثل،

ولكنها توافقت مع شهادة (كينيث أرنولد)، على نحو يثير القلق والحيرة....

فلقد أبلغ أحد الباحثين عن الذهب، في (أوريجون)، أنه قد شاهد تسعة أجسام مستديرة لامعة، تقطع السماء بسرعة مذهلة، وأن البوصلة التي يحملها قد أصابها الجنون، في لحظة العبور هذه....

الرجل أدلى بشهادته في الثالثة وتسع دقائق، في حين قرر (كينيث أرنولد) في تقريره أن تلك الأجسام التسعة عبرت إلى جواره، في الثانية وتسع وخمسين دقيقة بالتحديد..

إذن فالباحث عن الذهب لم يكن يعرف شيئا عما رآه رجل الأعمال الشاب، عندما أبلغ عما رآه هو ثم أن التقرير الرسمي، الذي قمة خبراء الطيران، والذي لم ينشر إلا في أواخر الثمانينات، كان يتساءل في نهايته:

لماذا يدعى رجل أعمال محترم وملتزم، مثل (كينيث أرنولد)، بأنه قد رأى تلك الأجسام الطائرة، ما لم يكن قد رآها بالفعل؟!

ولكن، وعلى الرغم من الموقفين، الصحفي والرسمي فقد أصابت الولايات المتحدة الأمريكية بغتة حمي غريبة..

حمى الأطباق الطائرة..

أكثر من ثمانمائة وخمسين بلاغا عن رؤية الأطباق الطائرة، تلقتها الدوائر الأمريكية، على طول الولايات المتحدة وعرضها..

الكل رأي، وشاهد، والتقط الصور أيضا..

وفي أول يوليو 1947 م، جاءت شهادة شخص محترم ومرموق للغاية، ألا وهو (ماكس هود)، رئيس الغرفة التجارية في

(بوكريك)، الذي أعلن مشاهدته لطبق طائر يسير في خط متعرج عبر السماء....

وفي الليلة نفسها، وفي تمام الحادية عشرة، اتصل رئيس الشرطة العسكرية (أدوين آزلي) بمسئول المخابرات في المدينة (جيس مارسيل)، وهو يهتف في انفعال شديد:

- احضر بأقصى سرعة.. لن يمكنك أن تصدق ما نراه هنا:

ولقد انطلق إليه (جيس) على الفور، وبينما كان في طريقه، شاهد في السماء تشكيلا مضيئا، على شكل حرف (V)، ينطلق نحو الجنوب، فغمغم في توتر:

- ما هذا بالضبط؟! طائراتنا لا يمكنها الطيران بهذه السرعة..

وأدت هذه القصة فكرة وجود الأطباق الطائرة، وإن عاد الميجور (جيس) نفسه يكذبها، على نحو يوحي بأنه قد تلقى أوامر رسمية بهذا..

وفي صباح السابع من يوليو 1947 م وفي مدينة (روزويل) الصغيرة، في ولاية (نيو مكسيكو)، وعلى مسافة مائتي ميل من قاعدة طيران عسكرية، التقط (ويليام رودز)، البائع البسيط، أول صور في التاريخ للأطباق الطائرة، وهو في طريقه إلى عمله..

ولقد قام (ويليام) بتحميض الفيلم وطبعه، في اليوم نفسه، ليسلمه إلى الصحيفة المحلية، وهو يمنى نفسه بأن يكون هذا الخبر هو قنبلة الصحيفة في اليوم التالي، وأهم أخبارها، و.....

ولكن أحدا لم يتصور قط أن خبر (ويليام رودز) لن يساوي شيئا في صحيفة اليوم التالي؛ لأن (روزويل) كلها كانت تنتظر مفاجأة..

مفاجأة لا تخطر على بال أحد من سكانها..

☆ ☆ ☆

في تمام الرابعة عصرا، وفي محطة الراديو المحلية بمدينة (البوكريك) بولاية (نيومكسيكو) الأمريكية يوم 7 يوليو 1947 م، كانت موظفة المحطة (ليديا سلبي) تجلس هادئة كعادتها، تنجز بعض الأعمال الإدارية المتأخرة عندما ارتفع رنين الهاتف فجأة، على نحو أزعجها، وانتزعها من تركيزها في عنف..

ولأن ميزانية المحطة محدودة، كانت (ليديا) تقوم إلى جوار أعمالها الإدارية، بوظيفة عاملة الهاتف، ومسئولة إرسال التليكس أيضا، لذا فقد التقطت ساعة الهاتف، وسألت عن المتحدث، الذي لم يكن سوى (جوني ماك بويل)، الذي يمتلك مع أخته محطة إذاعية صغيرة في (روزويل)..

ولما لم يكن (جوني) يمتلك جهاز تلكس، فقد اعتاد الاتصال بمحطة (ليديا)، كلما كانت لديه أخبار مهمة، لتقوم هي ببثها إلى المحطات الكبرى، عبر جهاز التلكس، لذا فقد استقبلت هي الأمر في بساطة، ولكنها فوجئت به يصرخ، في انفعال شديد:

- (ليديا).. اسمعيني جيدا.. لقد سقط طبق طائر، بالقرب من (روزويل).. لقد كنت هناك، وشاهدته بنفسي إنه أشبه بطبق ضخم مقلوب، تحطم جزء في طرفه.. بعض المزارعين هناك أيضا، وأحدهم حاول أن يجذبه بالجرار إلى جرنه، ولكن الجيش وصل إلى هناك.. يبدو أنهم يسعون للحصول عليه.. المنطقة كلها مغلقة.

ثم توقف لحظة، ليلتقط أنفاسه، قبل أن يعاود الصراخ لاهثا:

- (ليديا).. هل تبثين ما أخبرك به؟!

كانت - بحكم خبرتها - تضرب أزرار التلكس تلقائيا بكل ما تسمعه منه، كما يحدث في كل مرة، فهتفت، وقد انتقل إليها الانفعال:

- بالتأكيد.. أكمل..

تابع هو، بكل الانفعال واللهفة:

- إنهم يتحدثون عن رجال صغار.. سجلي هذا.. رجال صغار داخل ذلك الطبق.. الجيش ينتشل جثثهم من داخله.. هناك جثتان على الأقل..

سألته (ليديا) بانفعال مماثل، وهي تواصل البث:

- هل رأيتهما بنفسك؟!

كانت تتوقع منه ردا فورا سريعا، مفعما بالانفعال إلا أن ما سمعته، على الجانب الآخر للخط الهاتفي، لم يكن سوى ضوضاء غير مميزة، وهتاف يأتي من بعيد، وأصوات ارتطام وشجار..

وفي اللحظة نفسها، توقف جهاز التلكس عن البث، ثم استقبل رسالة محدودة، راحت تتكرر في سرعة على نحو محموم:

- أوقفي الاتصال فورا.. لا تواصلي البث.

وبينما هي تحدق في الرسالة بدهشة قلقة، فوجئت بصوت (جوني)، يأتيها عبر الهاتف، بانفعال أكثر شدة، وهو يهتف:

حدث في (روزويل)

- لا تبثي ما أبلغتك به يا (ليديا).. امحي كل شيء فورا.. لا تبثي ما أخبرتك به، وحاولي نسيان كل ما سمعته.. هل تفهمين؟!

قالها، وأنهى الاتصال بحدة لم تعهدها منه، وعلى نحو جعلها تتساءل، بكل ما اعتمل في نفسها من اضطراب:

- ترى ما الذي حدث حقا في (روزويل)؟!

ولم يكن هذا سؤالها وحدها، بل هو السؤال الذي ظل يتردد في كل الأوساط، حتى يومنا هذا..

السؤال الذي أجابته جريدة (روزويل) المحلية، عندما نشرت في رأس صفحتها الأولى، في صباح الثامن من يوليو تقول: طبق طائر سقط في (روزويل).

ولولا ما نشرته الصحيفة، التي تتمتع كغيرها بحرية الصحافة في (أمريكا)، فربما لم يكن هناك من سمع قط عن واقعة (روزويل) هذه..

ففي السادسة من صباح 8 يوليو هذا، حمل ماجور (مارسيل) وكابتن (كافيت) إلى رئيسهما، في القاعدة الجوية، قطعة معدنية، طولها قدم واحد، وعرضها ست بوصات، وأخبراه أنها جزء من حطام الطبق، الذي سقط بالقرب من (روزويل) (نيومكسيكو).

ولقد كانت تلك القطعة المعدنية عجيبة للغاية، بالنسبة لكل من رآها..

فعلى الرغم من خفة وزنها الشديدة، التي لا تتناسب قط مع حجمها، كانت القطعة صلبة إلى حد مدهش، حتى إن الماجور (مارسيل)، المعروف بقوته، قد عجز تماما عن أن يثنيها، على الرغم من كل محاولاته..

ولقد تحدث الرجال الثلاثة بعض الوقت عما حدث، ثم لم يلبث الرئيس أن حسم الحديث بقوله:

- هذا الشيء يدهشني بحق، وخاصة مع ملمسه، الذي يجمع بين المعدن والبلاستيك، والذي لم أعهد مثله قط من قبل، إلا أن الأوامر، التي تلقيتها هذا الصباح، صريحة وصارمة للغاية..

ثم شد قامته، مضيفا:

- سنغلق الحديث في هذا الأمر، وننساه تماما، وكأنه لم يكن أبدا.. مفهوم...

ولم يكن أمام الرجلين سوى الموافقة، وتسليم القطعة المعنية مجهولة الهوية إلى رئيسهما، وإغلاق فميهما طويلا..

ولكن ليس إلى الأبد..

ففي عام 1994 م، روي الكابتن (كافيت) القصة بتفاصيلها لمحرر جريدة (واشنطن بوست)، التي أولت الأمر - آنذاك - اهتماما كبيرا..

وفي (روزويل) نفسها، وبعد ما نشرته صحيفتها المحلية، توافد الآلاف، من مختلف الولايات، لإلقاء نظرة على موقع السقوط، وسماع روايات السكان المحليين، على الرغم من أن الجيش قد نقل كل شيء بعيدا..

وفي الخامس عشر من يوليو، أي بعد سبعة أيام كاملة، أصدرت قيادة الجيش الأمريكي بيانا، قالت فيه: إن ما سقط في (روزويل) لم يكن سوى منطاد طقسي فحسب.

وكان هذا مسار سخرية الكل..

فلو أن الأمر كله يتعلق بمنطاد طقس واختبارات، لماذا انتظرت قيادة الجيش أسبوعا كاملا لتصرح بهذا؟!

بل ولماذا أغلقت المنطقة كلها حينذاك؟!

ولم يصدق أحد ما أعلنه الجيش، حتى أولئك الذين لا يؤمنون بوجود حياة عاقلة أخرى في الكون واستمر الناس يتحدثون عن (روزويل) ويتساءلون..

ويدرسون مئات الدراسات خرجت، لتفسير ما حدث في (روزويل)، وما صحبه من تحركات عسكرية وسرية..

ومع مرور الوقت، بدأت بعض الحقائق تتكشف رويدا رويدا..

وفي عام 1980. م، أصدر (تشارلز بيرليتز) كتابه الشهير (واقعة روزويل)، الذي جمع فيه كل الحقائق والاستنتاجات، حول ما حدث في تلك البلدة الصغيرة، في ولاية (نيومكسيكو)..

ولأول مرة، بعد سنوات طوال، أشار (بيرليتز) إلى الجثث التي تم العثور عليها، داخل ذلك الطبق الطائر، عام 1947 م. ولأول مرة أيضا، اتهم (بيرليتز) الحكومة الأمريكية بأنها تخفي جثتي اثنين من ملاحي الطبق الفضائيين، وتخفي معهما حقيقة وجود مخلوقات في كواكب أخرى، عن الشعب الأمريكي..

والعالم أجمع..

ولم ترد الحكومة على اتهامات (بيرليتز)، على الرغم مما لقيته من أصداء واسعة، على كل المستويات..

وربما كان هذا ما زاد الأمر غموضا، وضاعف من عدد مصدقيه، على مر السنين..

التجاهل التام للحكومة الأمريكية، في كل ما يتعلق بحادثة (روزويل)..

فعلى الرغم من أن الحكومة قد أنشأت في الستينات لجنة (الكتاب الأزرق)، المسئولة عن التحقيق في كل بلاغات ومشاهدات الأطباق الطائرة، والتي انتهت باحتمال وجود ظاهرة تفوق إدراك البشر، إلا أن نفس الحكومة ظلت تتجاهل تماما، دون أي تبرير، أية إشارة إلى واقعة (روزويل).

وحطم كتاب (بيرليتز) كل الأرقام القياسية في التوزيع، وبيعت منه ملايين النسخ، وردد الملايين ما قاله فيه، عن وجود منطقة تحمل رقم 51 (Area 51))، بين المناطق العسكرية السرية الأمريكية، يحتفظ فيها العلماء بجثتي المخلوقين الفضائيين، اللذين تم تشريحهما منذ ما يزيد على الثلاثين عاما.

ولكن الحكومة الأمريكية ظلت تتجاهل.. وتتجاهل إلى أن ظهر إلى الوجود فجأة دليل قوي، على صحة ما حدث في (روزويل)....

دليل لا يقبل الشك..

أبدا..

☆ ☆ ☆

في أكتوبر عام 1994 م، نشرت مجلة (أومني (OMNTالعلمية نداء إلى كل قرائها، تناشدهم إرسال مطلب إلى الحكومة الأمريكية، لكشف كل ما تخفيه من أسرار، حول واقعة (روزويل) الشهيرة..

وانهالت بالفعل ملايين المطالب على الحكومة الأمريكية التي أصرت مواصلة رد فعلها الاستفزازي الشهير، ألا وهو التجاهل التام للموقف..

ولكن فجأة ظهر الدليل..

فيلم سينمائي، من طراز المليمترات الثمانية قديم الطراز، كان يخفيه طيار سابق، منذ ما يقرب من خمسين عاما، ثم قرر فجأة أن يعلنه، قبل أن يباغته الموت..

وكان الفيلم قنبلة بحق..

إنه فيلم كامل، يحوي تفاصيل مذهلة، لعملية تشريح كاملة ودقيقة، لكائن فضائي غير بشري، تمت عقب سقوط ذلك الطبق الطائر في (روزويل)..

وكانت صدمة عنيفة بحق..

وكرد فعل طبيعي، لعالم بلغت قدراته الإعلامية والاتصالية حدًا مدهشا، أذاعت معظم محطات التليفزيون الفيلم كاملا، وأنتجت عشرات البرامج حول صحته ومصداقيته، وعما إذا كان ما به حقيقة أم مجرد وهم وخداع.....

وجاءت آراء الخبراء مدهشة خبير في التصوير السينمائي أكد أن الفيلم تعود مادته الخام إلى فترة الأربعينات بالفعل، وأن النسخة التي لديه تم تصويرها ما بين عامي 1946 م، و1948 م، وقدم بهذا شهادة موثقة، بعد أن فحص الفيلم ميكروسكوبيا أيضا خبراء الخدع السينمائية في (هوليود) أعلنوا أنه من المستحيل أن يكون هذا الفيلم مجرد خدعة سينمائية، لأنه ما من خبير، في العالم أجمع، يمكنه اصطناع الأنسجة والخلايا على هذا النحو المذهل..

بل وأعلنوا أنه لو كان هذا الفيلم خدعة، فإنهم على أتم الاستعداد لتعيين صانعه مديرا لكل استديوهات الخدع السينمائية، بأجر قد يحمل سبعة أصفار وليس ستة..

وعندما حان دور الطب الشرعي، كان الأمر مبهرا..

الدكتور (كيرل ويشت)، كبير الأطباء الشرعيين، في مركز (سان فرانسوا) الطبي، أكد أمام ملايين المشاهدين، في بث مباشر، أنه لم يشاهد في حياته كلها، وعلى الرغم من خبراته الواسعة، كائنا يشبه هذا، حتى بين الأجناس غير الأمريكية..

أما من ناحية ما يحدث في الفيلم، فقد أصر الرجل على أنها عملية تشريح سليمة تماما، وأن من يقومون بها خبراء حقيقيون، يؤدون عملا مبهرا.

وفي الوقت نفسه، علق الدكتور (ويشت) على تركيب جسم الكائن، بأنه يختلف إلى حد كبير عن الأجساد البشرية، حيث يحوي ستة أصابع في كل يد وكل قدم، وجفنا إضافيا لكل عين، يشبه ذلك الموجود عند الطيور، كما أن الرئة عبارة عن ثلاث أسطوانات متساوية الحجم، بالإضافة إلى عدم وجود أية أعضاء تناسلية واضحة..

وكل هذا، من وجهة نظر الدكتور (كيرل ويشت) لا يمكن أن يتواجد في كائن حي، من أية جنسية كانت، بل ولا حتى في أية حيوانات معروفة أما خبير الأنسجة والطب الشرعي (س.م. ميلرون)..

فقد أكد أنه لا يشك لحظة في أن ما يراه على الشاشة حقيقي، إذ إنه، وعلى الرغم من عدم بشريته، يتناسق تماما مع بعضه البعض، على نحو لا يمكن أن يدركه أو يصطنعه، إلا خبير..

وعلى الرغم من كل هذا، ظهر من يرفضون تماما تصديق الفيلم..

وتصديق قصة (روزويل) كلها..

وخرجت عشرات الاعتراضات، التي تناقش نوع سلك الهاتف في الفيلم، وطراز حامل أدوات التشريح، وغيرها، وتدعي أنها تعود كلها إلى زمن إلى الزمن، الذي يفترض تصوير الفيلم فيه..

كل هذا والحكومة الأمريكية تتجاهل الأمر تماما كعادتها..

وفي عام 1996 م، حصلت شركة (فيدماك) على حقوق طبع وتوزيع ذلك الفيلم، مع البرنامج الذي يناقش صحته، وطرحته في الأسواق تحت عنوان (تشريح كائن فضائي.. حقيقة أم خدعة Alien Autopsy - fact or fiction)

وأصبح متداولا، حتى عبر شبكة الإنترنت..

ولكن يبدو أن تصديق أو عدم تصديق صحة وجود الكائنات الفضائية العاقلة، هو أمر يرتبط بطبيعة الإنسان، أو ربما بجيناته الوراثية..

فعلى الرغم من كل هذا، مازال هناك من يرفض تصديق فكرة وجود أي مخلوقات عاقلة في الكون بخلاف البشر، مهما كانت المبررات..

بل إنهم يرفضون حتى مناقشة الفكرة..

ربما لأن الحكومات، حتى الحكومة الأمريكية، ما زالت ترفض الاعتراف بما حدث في (روزويل)، أو حتى بحدوثه من الأصل..

كل ما فعلته الحكومة الأمريكية، وما قدمته وزارة دفاعها، وقيادة قواتها الجوية، بعد أن انتشر الفيلم، وانتشر الاعتراض على صمتها وتجاهلها، هو أن خرجت في نهاية عام 1997 م ببيان مضحك، أعلنت في نهايته أن هذا يغلق باب المناقشة نهائيا، في قضية (روزويل)..

قال بيان القوات الجوية، الذي يؤكد أنه يذيع سرا عسكريا لأول مرة، أن ما سقط في (روزويل)، في السابع من يوليو 1997 م، لم يكن سوى طائرة اختبار سرية، كانت تحمل بعض الدمى، المفترض أن يتم اختبار هبوطها اضطراريا إلا أن خللا ما أدى إلى سقوط الطائرة، وما تحمله من دمى، على نحو جعل الكل يتصور، وفقا لهوس الأطباق الطائرة، الذي ساد في تلك الآونة، أن ما سقط ليس سوى طبق طائر، والدمى داخله هي مخلوقات فضائية غريبة..

ومع البيان، نشرت القوات الجوية صورا لأشياء مستديرة، لها مراوح أشبه بمراوح الهيلوكوبتر، ودمى خشبية هزلية، لا يمكن أن يخطئ طفل تمييزها، باعتبار أن هذا ما سقط في (روزويل)..

وكانت مهزلة بكل المقاييس.

فالبيان تافه وساذج إلى حد مدهش، يستحيل تصديقه، ويوحي بأن كاتبه شخص عسكري محض، لا علاقة له من قريب أو بعيد بالعلم أو الأدب..

ثم إن البيان خضع بدوره لتحليل الخبراء، الذين طرحوا عدة أسئلة جديدة...

أكان من الضروري أن تنتظر القوات الجوية خمسين عاما كاملة، قبل أن تصرح بأمر كهذا، بعد التطور المذهل في الطائرات والمقاتلات، والذي تصبح تلك الطائرة السرية بالنسبة إليه أشبه بإطار تالف؟!

ولماذا خرج البيان بعد أن ظهر الفيلم، وانتشر في الأسواق؟!

لماذا لم يخرج من قبل؟!

السؤال الأكثر أهمية هو: كيف يمكن أن يفسر البيان ذلك الفيلم، الذي أجمع كل الخبراء على أنه حقيقي، وتم تصويره عام 1947 م بالفعل؟!

كان من الواضح أنها محاولة ساذجة، من وزارة الدفاع الأمريكية، لتمييع الأمر كله، واللعب على عقول العامة، الذين رفضوا تصديق البيان الجديد، كما رفضوا تصديق البيان القديم، منذ نصف قرن..

ولكن من المؤكد أنه نجح في تفجير القضية من جديد..

بل وطرح قضية جديدة..

لماذا تصر الحكومات دوما على إخفاء اتصالاتها بكائنات العوالم الأخرى؟!

الجواب الذي يتردد دوما، هو أن الحكومات تحاول إخفاء أية أدلة، على وجود كائنات عاقلة في كواكب أخرى نجحت في الوصول إلى أرضنا، حتى لا تصيب شعوبها بالرعب، عندما تخشى أن تأتي هذه الكائنات محاربة أو محتلة يوما..

ولكن للدكتور (كارل ساجان) رأي آخر قد يهمك جدا إنه يقول: إن التكنولوجيا، التي حصلت عليها (أمريكا) من طبق (روزويل)، كان لها فضل كبير، في تطور التكنولوجيا والصناعات الأمريكية فيما بعد، لذا فهي تخفي أمر طبق (روزويل) حفاظا على هيبتها، وتجنبا لمطالبة دول أخرى بحقها في معرفة تلك التكنولوجيا، والاستفادة منها..

ورأى (ساجان) وجيه بحق، فلو أن واقعة (روزويل) صحيحة، فمن المؤكد أن تكنولوجيا طبق طائر متطور إلى هذا الحد، ستقفز بأية دولة إلى موقع جديد، لا ينافسها فيه أحد..

وهذا ما تسعى إليه أمريكا دوما..

التفوق..

والانفراد..

ولكن أيا كانت الحقائق، فالشيء الذي لا يقبل الجدل هو أنه قد حدث أمر غامض وعجيب ومثير، منذ ما يزيد على نصف قرن، ومازال صداه يدوي حتى الآن..

حدث هناك..

في (روزويل).

☆ ☆ ☆

16- الرجل الذي رأى الغد..

فجأة تعرضت الولايات المتحدة الأمريكية لضربة عنيفة، انطلقت من قلبها، وعلى متن طائراتها المدنية، ودون سابق إنذار، لتهوي كصاعقة من الرعب على رمزين ضخمين، من رموزها الاقتصادية والعسكرية..

مبنى التجارة العالمي في (نيويورك).. ومبنى وزارة الدفاع (البنتاجون) في (واشنطن).

ولساعات وأيام طويلة بعدها، انشغلت أجهزة الإعلام، في العالم أجمع، بنقل ورصد وتسجيل ما حدث، ومناقشة احتمالاته، وتوقعاته، وكل الإجراءات الى اتخذت بشأنه..

ومن أقصى العالم لأقصاه، لم يتوقف الحديث أيضا عن فلكي وطبيب فرنسي، مات منذ ما يقرب من خمسة قرون، ويدعى (نوستراداموس)..

والسبب.. وبكل بساطة، هو أن (نوستراداموس) هذا قد تنبأ بما حدث، وأشار إليه، وسجله في أشهر كتبه.

وأيضا منذ ما يقرب من خمسة قرون!!

وكما يحدث في كل مرة، انقسم العالم إلى قسمين، قسم انبهر بنبوءة الفلكي الفرنسي، ذي الأصول اليهودية، وقسم رفضها وأنكرها واستنكرها تماما، استنادا إلى قاعدة تقول: «كذب المنجمون ولو صدقوا»، باعتبارها قاعدة لا تقبل الجدل والمناقشة، على الرغم من أنها ليست واردة في القرآن الكريم، أو في أحد الأحاديث النبوية، أو حتى في الإنجيل أو التوراة..

وعندما نستخدم هنا عبارة كل مرة، فإننا نعني أنها ليست أول مرة يثار فيها هذا الجدل العنيف، حول تنبؤات (نوستراداموس)، التي تضمنها كتابه الشهير (قرون) والذي يعد من الناحية العلمية والفعلية، أكثر الكتب مبيعا، خلال ما يزيد على أربعمائة سنة كاملة، لم تنفد خلالها طبعاته، ولو لعام واحد، مما يمنحه مزية خاصة، لم يتمتع بها كتاب كتبه بشري، على مدى التاريخ..

فحتى في حياة (نوستراداموس)، وبعد وفاة الملك (هنري)، التي تنبأ بها الرجل، وبدقة مدهشة، غضبت الملكة (كاترين دي مديتشي) من الفلكي، وكأنما تسببت نبوءته في مصرع الملك، مما دعاه إلى الفرار بعيدا عنها، خوفا على حياته، خاصة وأن ذلك العهد قد اشتهر بمحاكم التفتيش، التي كان من السهل أن يقع رجل مثل (نوستراداموس) في قبضتها، بتهمة السحر والهرطقة، ليلقى مصرعه حرقا بكل بشاعة..

وبلا رحمة..

وخلال الحرب العالمية الثانية، وقعت نسخة من كتاب (نوستراداموس) الأشهر في يد زوجة (جوبلز) وزير إعلام العهد النازي، ولقد هالها وأفزعها، وأثار رعبها حتى النخاع، ما استخلصته منه، حتى إنها أيقظت زوجها من نومه، لتلخص له ما توصلت إليه، بكلمات مرتجفة، حملت كل انفعالاتها..

وفي البداية، لم يستوعب (جوبلز) الأمر أو يهضمه، حتى وضعته زوجته أمام معادلة مبهرة..

فعلى الرغم من أن الكتاب، الذي تحمله في يدها، كان طبعة عام ١٩٢٢ م، إلا أنه كان يحوي رباعية مثيرة إلى أقصى حد، تقول:

الحيوانات التي سيقرصها الجوع ستعبر الأنهار
الشطر الأكبر من ساحة القتال سيكون ضد (هسلر)
سيجر القائد في قفص حديدي
عندما يتجاهل ابن ألمانيا كل قانون

وقفز (جوبلز) من فراشه، وهو يحدق في كلمات الرباعية، ويطالعها مرة بعد مرة..

صحيح أن الرباعية قدمت اسم (هتلر) بـ (هسلر)، ولكنها واضحة أكثر مما ينبغي.. إنه (هتلر) المقصود..

ولا شك..

وقبل حتى أن تشرق الشمس، كان (جوبلز) يرتدي زيه العسكري، ويهرع إلى مكتبه، ليضع خطة لاستغلال كتاب (نوستراداموس) هذا في حرب دعائية جديدة، لم يلجأ إليها جهاز دعائي من قبل..

ولقد راقت الفكرة للفوهلر كثيرا، ووجد أنها دعاية غير مسبوقة، لذا فقد انتقى (جوبلز) كل ما يمكن أن يوحي بعظمة (ألمانيا) وانتصاراتها، من رباعيات الفلكي الفرنسي القديم، وقام بطباعة كل هذا في نشرة دعائية خاصة، تمت ترجمتها إلى الفرنسية والإنجليزية والهولندية، لتلقيها الطائرات على كل البلدان الأوروبية، التي تتحفز وتترقب ما سيقدم عليه القائد النازي، بجيوشه الجرارة، التي اجتاحت (النمسا)، بحجة استعادة ما انتزع منها في الحرب العالمية الأولى، وباتت تتأهب لغزو (أوروبا)، وفرض سيطرتها على العالم أجمع..

وفي البداية، لم تبال المخابرات البريطانية بهذا الأمر.. بل وسخرت منه أيضا، حتى فوجئت بتأثيره الرهيب، ليس على

المجتمع البريطاني فحسب، ولكن على (أوروبا) كلها أيضا..

وهنا كان لابد من اتخاذ قرار حاسم حازم في هذا الشأن، نظرا لأن الناس، في كل الأزمنة والأزمات، تولى التنجيم والفلك والتنبؤات المستقبلية اهتماما بالغا.

ففي الحروب والأزمات، تضعف النفوس، وكما قالت الكاتبة البوليسية الخالدة (أجاثا كرستي): «إذا ما ضعفت النفس، استسلمت للخرافة».

وكإجراء مضاد، جمعت المخابرات البريطانية كل ما يحويه كتاب (قرون)، من تنبؤات تختص بهزيمة (ألمانيا).. وانتحار (هتلر)، بعد حصاره في (برلين)!! وألقت كل هذا بطائراتها، على الشعب الألماني، كما ترجمته إلى الفرنسية والهولندية أيضا، لرفع معنويات شعوب (أوروبا) الأخرى..

وهكذا أصبح (نوستراداموس) جزءا من الحرب العالمية الثانية، بعد وفاته بأربعة قرون كاملة..

والسؤال المهم الآن هو: من (نوستراداموس) هذا؟!

وكيف احتل كتابة هذه المكانة المدهشة عبر القرون، حتى في عصر التكنولوجيا والتقدم، والذي تنبأ هو أيضا بقدومه، في رباعيته المدهشة:

يقضي على الأوبئة، ويصبح العالم قرية صغيرة

وفي سلام، ترتاح الأرض لمدة طويلة

الناس ستسافر في أمان، عبر الجو والبر والبحر

ثم تندلع الحروب من جديد

هل يمكن لأحد أن يتصور مدى عبقرية هذه الرباعية المدهشة، وخاصة عندما يكتبها رجل من القرن السادس عشر، بكل إمكانياته المحدودة؟!

القضاء على الأوبئة، من خلال برامج صحية، وأمصال ولقاحات متطورة، والعالم يصبح، بفضل تطور وتكنولوجيا الاتصالات مجرد قرية صغيرة، والناس تسافر عبر الجو!!

عبقرية بكل المقاييس، حتى ولو كانت مجرد تنبؤات علمية..

الرجل بعيد النظر، وليست تنبؤات فلكية مستقبلية..

و (ميشيل دي نوستراداموس) هذا، صاحب تلك التنبؤات المدهشة، ينتمي إلى أسرة يهودية أوروبية قديمة، فجده (بيير دي نوستراداموس) تاجر غلال يهودي قديم، اهتم كمعظم أقرانه بالعلم والدراسة، إلى جانب عمله، وأنجب عددا من الأبناء، من بينهم (جاك نوستراداموس)، والد (ميشيل)، الذي تزوج من امرأة ثرية، وسرعان ما اعتنق معها المسيحية وابنه (ميشيل) بعد في التاسعة من عمره..

ولقد ولد (ميشيل) هذا في الرابع عشر من ديسمبر، عام 1903 م، وهو أكبر أربعة إخوة، وأكثرهم ذكاء منذ الصغر..

وفي مرحلة متقدمة من سنوات صباه، أدرك جده (بيير) موهبته، فاحتضنه، وعلمه اللاتينية، والإغريقية والعبرية، بالإضافة إلى مبادئ الرياضيات والفلك والتنجيم..

وفي تلك الفترة، ودون مقدمات، ظهرت موهبة (نوستراداموس) فجأة، فبينما كان يرحل مع بعض أصدقائه التقى براهب صغير السن، يحصل على رزقه من تربية الخنازير، فاتجه إليه باكيا،

وكأنما تدفعه إلى هذا قوة تفوق إرادته، وانحني أمامه، ملقبا إياه بصاحب القداسة..

وكانت دهشة أصدقائه بما فعله بالغة، ولقد سأله أحدهم لماذا فعل هذا، فأجابه (ميشيل)، وكأنما يتحدث عن حقيقة:

- لأنه هكذا ينبغي أن أفعل، والعجيب أن هذا الراهب (فليتشي بريتي)، قد أصبح فيما به، وبعد وفاة (ميشيل) نفسه البابا الجديد، عام 1585 م!!

المهم أن (ميشيل دي نوستراداموس) قد درس الطب، وأبدى فيه تفوقا ملحوظا، أهله للحصول على شهادته بتفوق، ليعود بها إلى أسرته، التي بدت أكثر منه فرخا وزهوا بما حصل عليه ابنها.

ولأن تلك الفترة كانت في عهد محاكم التفتيش، فقد خشي والده (جاك) أن يقع الصبي فريسة لتهمة ظالمة، واستعاده من جده، ليرسله لدراسة الطب في (مونبلييه)، وعمره لم يتجاوز التاسعة عشرة بعد..

ولكن علاجات (ميشيل) وأسلوبه أثارا دهشة العيدين من أقرانه، واستنكارهم أيضا.. حتى جاءت الكارثة الرهيبة..

الطاعون الأسود..

وهنا كانت مفاجآت (نوستراداموس) مدهشة..

وإلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

مايو 1791 م.. أوج الثورة الفرنسية، وبعد أن سقطت كل الرءوس، وحتى روس قادتها التي طارت تحت المقصلة..

وثلاثة من الرعاع، لعبت الخمر برؤوسهم، وسيطرت على عقولهم، فأصروا على نبش قبر الطبيب والفلكي الأشهر ميشيل دي نوستراداموس)، كوسيلة همجية ساذجة، لتأكيد سيطرتهم على العهد السابق، وامتهانهم لكل رموزه ومقدساته..

ولم تكن مهمتهم بالعسيرة، فالقبر مجرد حفرة بسيطة، في ساحة كنيسة قديمة، بداخلها تابوت من الخشب القديم، الذي تهالك ونخره السوس، بعد قرنين وأكثر في التراب..

وبهمة وحماسة صنعهما السكر، نبش الثلاثة القبر، وتعالت صيحاتهم الظافرة، وهم يرفعون غطاء التابوت، و...

وفجأة، احتبست صرخاتهم في حلوقهم، واتسعت عيونهم في ذهول، ماله من مثيل.. ولم يكن هذا بالطبع بسبب ذلك الهيكل العظمي المتهالك، الذي تبقى من صاحب أشهر كتاب عبر القرون، وإنما بسبب تلك اللوحة المعدنية القديمة، المعلقة، في عنقه..

لوحة منقوش عليها تاريخ يومهم هذا..

السابع عشر من مايو، عام 1791 م..

وعلى ظهر اللوحة، التي تنبأ كاتبها بتاريخ نبش قبره، بدقة مذهلة، كانت هناك رباعية تقول:

بعد عامين من ثورة العامة، وفي الشهر الخامس

ثلاثة سكارى ينبشون القبر القديم

اثنان يلقيان مصرعهما في نفس الليلة

والثالث يبقى مجنونا حتى النهاية

ومع ذهولهم، تراجع الرجال الثلاثة، وامتلأت قلوبهم برعب شديد، وحاولوا الفرار من المكان، ولكن دورية من دوريات الثورة لمحتهم، وأطلقت عليهم النار، فلقي اثنان مصرعهما، وأصيب الثالث بالجنون، من فرط الرعب والذعر...

وبهذه الواقعة، التي لم ترد في مصادر تاريخية كافية، بدأت مشاهد أشهر وأقوى فيلم تسجيلي عن (نوستراداموس)، باعتباره معجزة يهودية، على الرغم من اعتناق أسرته للمسيحية في حداثته، واعتناقه هو لها، حتى آخر يوم في حياته..

وعلى الرغم من أن الفيلم من إنتاج عام ١٩٨4 م، ويقوم بتقديمه الفنان العالمي (أورسون ويلز)، إلا أنه، وفي نهايته، تحدث عن نبوءتين، اعتبرهما. عندئذ – من المستقبليات..

عن حرب الخليج (عاصفة الصحراء)، واجتماع الكل على العراق، الذي سيضرب جيرانه بالصواريخ..

وعن ضربة (نيويورك)، عام 2001 م..

ولعل هذا أكثر ما يبهر في الفيلم القديم..

وفي نبوءات (نوستراداموس) أيضا..

واستعراض حياة (ميشيل دي نوستراداموس) يثبت أنه لم يكن عبقرية فلكية فحسب، ولكن عبقرية طبية أيضا..

وربما على نحو أكثر قوة..

ففي شبابه، وبعد حصوله على شهادته الطبية بتفوق..

وممارساته المدهشة للطب والعلاج، وقعت الكارثة في (أوروبا)..

الطاعون الأسود..

عشرات تساقطوا أمام الوباء الرهيب، ورائحة الموت ملأت كل القرى والمدن والبلاد، مع فشل كل طرق المقاومة والعلاج..

فيما عدا طريقة (نوستراداموس)..

فعلى الرغم من أن الرجل كان طبيبا في النصف الأول من القرن السادس عشر، بعلومه القليلة المحدودة، وجهله التام بوجود كائنات دقيقة ممرضة، مثل الجراثيم والميكروبات والفيروسات، إلا أنه تعامل مع المرض بعبقرية مذهلة، وكأنه يطبق جزءا من تنبؤاته أيضا..

لقد كان يضع المريض في حجرة جيدة التهوية، ذات نوافذ مفتوحة، ويوقد النار في المدفأة في الوقت ذاته ويحرص على غلى كل الأدوات المستخدمة معه، وكل ملابسه، وتغيرها يوما فيوما، كما استخدم علاجا لم يتوصل إليه العلم إلا منذ سنوات قليلة جدا..

الماء الساخن..

كان يسقى المريض الماء الساخن خمس مرات يوميا..

وبمنتهي الانتظام..

لذا فقد شفي معظم مرضاه..

فيما عدا زوجته وابنية منها..

ولقد كان لهذا أسوأ الأثر في نفسية (ميشيل نوستراداموس)، وحياته فيما بعد، ولسنوات عديدة تالية، فإلى جوار حزنه وألمه لفقدهم، فقد راحت أسرة زوجته تحاربه، لإجباره على إعادة

حياتها بعد وفاتها، وعندما فشلت في هذا، اتهمته بالهرطقة، وخاصة مع شهرته الواسعة في شفاء مرض

الطاعون، والتي اعتبرها البعض نوعا من السحر، وليس الطب....

وهرب (ميشيل)، خوفا من محاكم التفتيش ومن شهرته كلها.

ولكن هروبه هذا كان له أكبر الأثر في حياته، فلقد توطدت علاقته بأشهر فلاسفة عصره (سيزار سكاليجر)، مما شحذ ذكاءه، وضاعف قدره وشهرته، حتى تزوج مرة أخرى..

من أرملة ذات ثروة وجاه، استقر معها وفي منزلها، الذي اتخذ لنفسه مكتبة في طابقه العلوي، قضى خلالها معظم لياليه، ووضع فيها أولى لبنات رائعته الخالدة (قرون)..

وفي عام 1955 م، نشرت الطبعة الأولى من (قرون) متضمنة القرون الثلاثة الأولى، وجزءا من القرن الرابع واسم (قرون) هذا خادع للغاية، فالكتاب لا يتحدث عن القرون الزمنية التي نعرفها، وإنما حمل هذا الاسم؛ لأن (نوستراداموس) قد وضع تنبؤاته في شكل رباعيات يحوي كل قرن مائة منها..

والأحداث في (قرون) (نوستراداموس) غير مباشرة، وغير مرتبة تاريخيا، ولم يكن من الممكن أبدا أن يجازف بالعكس، في زمن أعدم فيه من هم أكثر أهمية وشهرة منه، لأسباب تقل عن هذا كثيرا..

وحتى وهو يكتب رباعياته، لم يضعها بأسلوب يسهل فهمه، فقد وضعها رباعيات شعرية، تمتزج فيها اللاتينية، والبروفنسالية، والإيطالية، والإغريقية، وبعبارات رمزية، تماما كما فعل مع الملكة (كاترين دي مديتشي)، التي انبهرت بشهرته وتنبؤاته،

فاستدعته إليها، وطلبت منه أن يتنبأ بمستقبل أبنائها الأربعة، فصمت (نوستراداموس) طويلا ثم أخبرها أنه من نسلها يرى أربعة ملوك ولم يشر (نوستراداموس) قط إلى وفاة أحد أبنائها، وإن لم يكذب أيضا في عبارته، لأن أحدهم أصبح ملكا على (بولندا)، ثم على (فرنسا) فيما بعد.

ولقد أنهى (ميشيل دي نوستراداموس) قرونه العشرة عام 1566 م، أي في نفس عام وفاته، ولكنها لم تنشر كاملة إلا في عام 1568 م..

ولسبب ما، لم تحمله لنا أوراق (ميشيل) أو مذكراته، لم يكتمل القرن السابع من قرونه، واقتصر على اثنين وأربعين رباعية فحسب، وليس مائة رباعية كالقرون الأخرى..

والمثير أن يحدث هذا مع القرن السابع بالتحديد، خاصة وأن الرقم سبعة يرتبط بالعديد من المقدسات، في معظم الأديان، وبعدد السماوات والأراضي، وأيام الأسبوع وغيرها.

والمطالع لكتاب (نوستراداموس) سيجد الكثير من الغموض والحيرة، بالنسبة لتنبؤاته يصعب تفسيرها، وربما تتعلق بمستقبليات لم تحدث بعد، ولكنه سيجد أيضا ما يثير دهشته وذهوله حتى النخاع، وخاصة عندما يطالع تنبؤات حدثت بالفعل، في الفترة ما بين ظهور (قرون)، ووقتنا الحالي..

وفي بعض الأحيان، يكون تعرف زمن النبوءة ممكنا..

عندما يربطها (نوستراداموس) بحالة فلكية خاصة، لا يمكن أن تحدث إلا في ظروف وحقبات بعينها، ولعل أشهر تنبؤاته القريبة - نسبة إلى زمنه - تلك الخاصة بالثورة الفرنسية، والتي

حدد حدوثها بالأعوام الاثني عشر الأخيرة، من القرن الثامن عشر، وقال فيها:

من العامة المستعبدة حماسة ومطالب وأغنيات

فيما يوضع الأمراء والملوك أسرى في السجون

هؤلاء يستقبلهم حمقى دون رءوس في المستقبل

باعتبارهم مصلون مقدسون

وفي الزمن الذي حدده (1789 م)، اندلعت الثورة الفرنسية، وارتفعت أغنياتها وحماستها، وطالب الكل بمحاكمة العهد القديم، ووضع الملوك والأمراء في السجون، ثم قطعت رءوسهم، على يد المتآمرين، الذين حظوا بالمصير ذاته فيما بعد..

نبوءة مدهشة..

ولكن تلك الخاصة بأسرة (كندي) كانت مدهشة أكثر..

بل مذهلة..

وبكل المقاييس..

☆ ☆ ☆

في بداية القرن الأول من كتابة (قرون)، شرح لنا (ميشيل دي نوستراداموس) كيف حصل على تنبؤاته فيقول في رباعيته الأولى:

أجلس وحيدا في الليل، في دراسة متكتمة

إنها موضوعة على حامل نحاسي ثلاثي القوائم

شعلة واهية تندفع من قلب الفراغ

وترى ما ينبغي أن تؤمن به؛ لأنه باطل

تناقض مدهش، يبدأ به فلكي وعالم كتابا، أصبح الأشهر عبر القرون، فهو يصف لنا كيف يجلس في خلوة، مع شعلة على حامل ثلاثي نحاسي، ثم يرى ما يرى..

وبعدها ينفي عن نفسه معرفته بالمستقبل، باعتباره باطلا، لا ينبغي له أن يصدقه..

أسلوب ذكي لتحاشى الاتهام بالسحر والهرطقة، فلو أنه يقصد بالفعل ما يقول، لما كتب الكتاب ونشره؛ فأصغر عالم في الوجود لا يمكن أن يفعل هذا..

وما يتحدث عنه (نوستراداموس) أشبه بأساليب المتصوفين القدامى.. الخلوة، والضوء الخافت، والخشوع، ثم الرؤيا!!

ولا أحد يدري كيف تأتي هذه الرؤيا، ولكن بعض الدارسين يؤكدون أنها كانت تأتيه في صورة سمعية بصرية، يعجز هو نفسه عن فهمها واستيعابها، فيكتفي بوصفها كما رآها وسمعها..

ودليلهم على هذا تلك الرباعية، التي وصف فيها معركة جوية، في زمن لم يعرف حتى الطائرات الورقية، والتي قال فيها:

سيعتقدون أنهم رأوا الشمس في قلب الليل

عندما يرون الرجل الشبيه بالخنزير

ضوضاء وصرخات ومعارك تدور في السماء

وستسمع المخلوقات الخنزيرية وهي تتحدث

ولنتوقف لحظة عند الضوضاء والصرخات والمعارك والأضواء في السماء، ونقارن هذا كله بصوت الانفجارات والصواريخ، ووهجها، وصفير القنابل التي تهبط على الأرض، ثم تربط كل هذا بأصوات الطيارين، عبر اتصالاتهم اللاسلكية..

وقبل أن تنفر من الوصف، لارتباطه بالخنزير، طالع صورة الطيار مقاتل، وهو يرتدي قناعة، وتخيل ما يمكن أن يصف به رجل من القرن السادس عشر هذا!!

دعنا نلتقط مشهدا من أحد أفلام الحروب، وعرضه على شخص بدائي، ولنر كيف يصفه!!

إنها عبقرية حقيقية أن يصف شخص من زمن (نوستراداموس) هذا المشهد المعقد، بل والمستحيل في زمنه وأيامه!

ولقد استخدم (نوستراداموس) نفس الوصف البدائي، لتفسير أمور تأتي بعده بمئات السنين، وهو يتنبأ بمصرع الأخوين (كيندي)، في القرن العشرين، عندما تم اغتيال (جون كنيدي) في (دالاس)، في وضح النهار، برصاصة في رأسه، ثم اغتيل شقيقه (روبرت) بعده بخمس سنوات، وهو يحتفل بانتصاره في الانتخابات الرئاسية الأولية، وما أعقب الحادثين من مشكلات عالمية، عانت منها (إنجلترا) و (فرنسا) و (إيطاليا)..

وفي هذا الشأن، جاءت رباعية (نوستراداموس) تقول:

الرجل العظيم تصرعه صاعقة في وضح النهار

فعلة أثيمة، تنبأ بها الملتمس

وبعدها سيخر الأخر صريعا في الليل

صراع في ريمس، ولندن، ووباء في توسكانيا

أمر واضح إلى حد مدهش، ويتجاوز حدود المصادفات إلى ما هو أكثر عمقا..

تماما مثل تلك النبوءة، التي تحدثت عن ضرب (هيروشيما) و (ناجازاكي)، والتي حددت زمنها فلكيا بنهايات النصف الأول من القرن العشرين، والتي تقول:.

قرب الميناء، وفي مدينتين كبيرتين

كارثتان تحدثان، لم ير مثيل لهما قط

جوع، طاعون، وأناس يطرحون خارجا بسيف الحرب

بكاء وضراعة لله العظيم؛ للحصول على مساعدات..

والمدينتان تقعان على البحر، وكلاهما تعرضت لضرب بالقنبلة الذرية، في كارثتين لم يعرف التاريخ لهولهما مثيلا، في عام 1945 م..

مرة أخرى نبوءة مدهشة قوية إلى حد رهيب مثير..

وتنبؤات (نوستراداموس) ليست حقيقة زمنية كما يشيع البعض، وإنما تتراوح نسبة الإزاحة فيها إلى ما يقرب من عشر سنوات، سلبا أو إيجابا، ولكن حتى هذا يضعها في قائمة المدهشات، وخاصة عندما تشير في وضوح إلى أمور لم يكن من الممكن التنبؤ بها سياسيا أو منطقيا، حتى في الفترات الملاصقة لها، مثل نبوءته عن قيام الثورة في (إيران)، وقوة تأثير (الخوميني) عليها، من منفاه في (فرنسا)، فحتى القيادات السياسية والعسكرية، في العالم أجمع، لم تتوقع أو تتخيل إمكانية نجاح هذا، حتى لحظة حدوثه بالفعل..

وعلى الرغم من هذا، فقد ذكره (نوستراداموس) في كتابه، قبل خمسة قرون، وهو يقول في رباعيته:

المطر والحرب والمجاعة لن تتوقف، في بلاد فارس

إيمان عظيم جدا سيخدع الملك

الأعمال التي تعد في (فرنسا) ستنتهي هناك

علامة خفية لشخص ما، لكي يتعامل برحمة..

إشارة واضحة لما حدث، على الرغم من غموض الرباعية..

ككل رباعيات (قرون) التي تحوي دوما شيئا من الحيرة، في شطرها الأخير بالتحديد..

وغموض رباعيات (نوستراداموس) ليس المشكلة الوحيدة، التي تواجه أي دارس لكتابه ونبوءاته، فالمشكلة الأكبر هي أن تجد نسخة صالحة للدراسة، والمقصود هنا أن تكون نسخة صحيحة، غير مزورة أو محورة، فكن للتنبؤ تأثيرا هائلا على الناس، تم استخدام (نوستراداموس) وكتابه كوسيلة دعائية للحرب النفسية، منذ أوائل عام 1949 م، عندما قام خصوم الكاردينال (مازاران) بنشر طبعة من (قرون)، أضافوا إليها رباعيتين ضده، للحد من نفوذه القوي في البلاط الفرنسي..

وفي عصر (نابليون) أيضا تم تزوير الرباعيات، بإضافة رباعيات زائفة، أطلق عليها اسم (تنبؤات أوليفاريس)، وبعدها ظهرت (تنبؤات أورفال)، وكلتاهما كتابات زائفة، نسبت دون حق للأشهر (ميشيل دي نوستراداموس)..

وخلال الحرب العالمية الثانية وحدها ظهرت أكثر من خمس طبعات غير صحيحة من كتاب (نوستراداموس)، وهذه الدراسة

نفسها احتاجت إلى جهد مضن، لقراءة خمس طبعات من كتاب (نوستراداموس)، بثلاث لغات مختلفة، قبل البدء في كتابتها..

والواقع أن هذا لم يكن أمرا مرهقا، بقدر ما كان ممتعا، وخاصة عندما استقر الأمر على كتاب قديم نسبيا، تعود طبعاته إلى منتصف السبعينات، لباحث بذل جهدا حقيقيا في التحقق من كل رباعية قبل نشرها..

والممتع هنا أن تطالع طبعة من منتصف السبعينات، ثم تجد فيها إشارات واضحة لأحداث جرت بعد طباعتها بعدة سنوات، وتقرأ محاولات الباحث المستميتة لتفسيرها، باعتبارها تنبؤات مستقبلية، بالنسبة لزمن بحثه..

والمعني هنا هو أنها قد اقتصرت على ما يفيد أحد الطرفين مع تجاهل باقي الرباعيات تماما..

لذا، فكل دارس للرجل وكتابه، يسعي للبحث عن أقدم نسخة ممكنة، ويقارن محتواها بعدة طبعات أخرى، حتى يتيقن أو من أنه أمام نسخة حقيقية من كتاب (قرون)، قبل أن يبدأ عمله..

ورباعيات (نوستراداموس) ليست كلها محيرة، ففي بعضها أسماء وإشارات واضحة للغاية، كتلك الرباعية التي أوردناها في القسم الأول، والتي تحدثت عن (هتلر) أو (هسلر)، أو (هستر)، كما ورد في طبعات بلغات مختلفة..

وهناك رباعيات مبهرة، لأنها تحدثت عن أشخاص بعينهم، وبأسمائهم أيضا، كتلك الخاصة بلويس باستير، مكتشف وجود الجراثيم، والتي تقول:

يكتشف المفقود، المختبئ منذ عدة قرون

سيحتفل بباستير كرمز لعظمة الإله

يحدث هذا عندما يتم القمر دورته العظمى

ولكنه، ونتيجة الشائعات أخرى، ستتلوث سمعته

هكذا، ومباشرة يذكر اسم (باستير)، الذي جاء بعده بأكثر من ثلاثة قرون، والذي تحول إلى معجزة علمية عندما كشف وجود الجراثيم، ثم لم يلبث هذا أن أثار غيرة وغضب وحفيظة منافسيه؛ نظرا لاعتبار كشفه - عندئذ - أهم الكشوف في عالم الطب، واعتباره الزعيم المعترف به لأكبر حركة علمية كيميائية، وتأسيس معهده الشهير، فهاجموا أسلوبه، ومحاولاته لإنتاج لقاح مضاد لداء الكلب، مما لوث سمعته في أواخر أيامه..

وفي رباعية أخرى، أشار إلى (موسوليني)، المعروف في التاريخ باسم (الدوتشي)، وإلى خلافاته مع الملك، ومعاداته للفاتيكان في ذروة عهد ديكتاتوريته، على نحو واضح للغاية، قائلا:

سوف يعثر الملك على ما يرغب فيه بشدة

حينما يؤخذ الأسقف بالظلم

الرد سيغضب الدوتشي بشدة

وسيقتل عدة أشخاص في ميلانو

ولكن أقوى الرباعيات الواضحة والمباشرة، هي تلك التي أشارت إلى الجنرال (فرانكو) وأحداث (إسبانيا)....

فهي مدهشة ومثيرة..

بشدة..

☆ ☆ ☆

من الواضح أن (نوستراداموس) يتوقف طويلا، أمام بعض الشخصيات والأحداث، التي كانت لها تأثيرات واضحة، في مسار التاريخ..

فعبر كتابه الأشهر (قرون)، نجد العديد من الرباعيات، التي تتحدث عن (هتلر) و (نابليون)، وعن الحرب العالمية الثانية، وحرب الخليج، وغيرها من الأحداث الجسام..

وفي بعض رباعياته، وبالذات تلك التي تغفل تحديد الزمن الفلكي لحدوثها، نجد أنفسنا في حيرة، ونحن نتساءل عما كان يعنيه، أو عمن يتحدث بالضبط..

وأكبر مثال على هذا، هو الرباعية التالية:

من أعمق جزء في أوروبا الغربية

سيولد طفل من أسرة فقيرة

كلامه سيقتن الكثير من الشعوب

وستتعاظم سمعته أكثر، في مملكة الشرق

فلقد توقف الباحثون طويلا أمام هذه الرباعية، التي يمكن أن تنطبق على مرحلتين تاريخيتين، وشخصيتين عالميتين، يفصل بينهما قرن كامل من الزمان..

(نابليون بونابرت)، و (أدولف هتلر)..

كلا الرجلين جاء من أصل وضيع، وعائلة فقيرة، و (النمسا) تعد عميقة بالنسبة لحدود (أوروبا)، في حين يمكن ترجمة الكلمة

كلها إلى دنية، فتطبق تماما على (كورسيكا)، مسقط رأس (نابليون) والرجلان امتلكا موهبة الخطابة، وكانت لهما سمعة كبيرة في الشرق، أولهما عبر حملته الشهيرة، والثاني من خلال خطبة الملتهبة، ووسائل الإعلام، وكراهية شعوب الشرق للاحتلال الإنجليزي والفرنسي، وانتظارهم للنجاة منهما على يد جيوش (ألمانيا النازية)..

ولقد وجد كل اتجاه مؤيديه، ومازال الفريقان يختلفان، حتى لحظة كتابة هذه السطور..

ولكن بالنسبة للرباعية الخاصة بالجنرال (فرانكو)، فلم يحدث أي اختلاف على الإطلاق، إذ جاءت الرباعية واضحة أكثر مما ينبغي، وهي تقول:

سوف يأتي (فرانكو) إلى الجمعية من كاستيل..

السفراء سيرفضون، ويتسببون في انقسام

مؤيدو (ريفيرا) سيحتشدون

وسيحرم الرجل العظيم من دخول الخليج

الرباعية لم تذكر اسم (فرانكو) فحسب، وهي تشير إلى عودته من (المغرب) بعد نفيه فيها، ومنعه من عبور البحر إلى (إسبانيا)، والخلاف الشديد بعد عودة حزبه إلى السلطة، وإنما ذكرت أيضا اسم عدوه الديكتاتور (بريمودي ريفيرا) أيضا..

رباعية واحدة ذكرت اسمين في وضوح، وربطتهما ببعضهما، على نحو يتجاوز كل حدود واحتمالات المصادفات، إلى ما هو أكثر خطورة من هذا..

وهذا يعيدنا إلى الرفض التلقائي والعنيف لفكرة الرؤيا والتنبؤات المستقبلية، على الرغم من أنه لا يوجد سند قوي يمنع احتمال حدوث هذا، بل على العكس تماما، ففي سورة (يوسف) نجد أن مسجونا قد شاهد رؤيا تحدد مصيره وكذلك رفيقه، ونجد الفرعون يتنبأ بالسنوات العجاف..

كل منهم لم يكن مؤمنا، وربما كانوا وثيين أيضا، ولكن الله (سبحانه وتعالى) جعلهم يرون ما سيحدث مستقبلا، وإن عجزوا عن تفسير ما رأوه..

والعلم يؤمن بوجود هذه الهبة العقلية، ويطلق عليها اسم (بري كوجنيشن) (Pre - Cognition)، أو (رؤية ما لم يحدث بعد)، ولقد أجريت دراسات عديدة، معظمها في الاتحاد السوفيتي؛ لفهم هذه الهبة، وقوانين حدوثها، وهناك مئات الكتب عنها، وهي كأية هبة، تمنح للبشر دون تمييز للجنس أو النوع أو الديانة، تماما كموهبة الرسم، أو التمثيل أو أية مواهب أخرى..

حتى في بعض الحالات العادية، وربما حولنا أيضا، نجد ما يمكنه رؤية المستقبل، في بعض الحالات المحدودة، والتي يطلق عليها العامة عبارة (كشفت عنه الحجب)، ولكننا لا نعتبرها قاعدة أبدا..

أنا شخصيا لدي تجربة في هذا الشأن، مع والد زوجتي، الذي عانى مرضا عضالا لفترة طويلة، ثم أصابته حالة (انكشاف الحجب) هذه قبيل وفاته بأيام، فراح يصف وبمنتهى الدقة، أمورا وأحداثا حدثت بعد وصفه لها بأيام...

وبنفس الدقة والتفاصيل.

هناك إذن كيمائية خاصة، أحدثها المرض الطويل في الجسد، جعلت العقل ينجلي، ويمتلك قدرة مدهشة على اختراق الزمن، وكشف المستقبل، على نحو قد تساعده قدراته على وصفه، أو تفسيره، أو مجرد الإشارة إليه..

وما دام هذا يحدث في ظروف خاصة، فالمنطق العلمي يقول: إن القدرة كامنة في مكان ما من المخ، وكل ما تحتاج إليه هو عامل قوي، لتحفيزها وإطلاقها..

ونحن لا ندري ماذا أصاب (نوستراداموس) بالضبط..

لقد كانت حياته طويلة حافلة، على نحو يصعب تسجيله واستيعابه كله، ثم إنه قد واجه مرض الطاعون، وتعامل مع مرضاه آلاف المرات، دون أن يصاب به أبدا.. فماذا لو أن هذا قد غير كيماويات جسده على نحو ما؟!

وماذا لو أنه قد ولد بتلك الهبة الربانية، التي صقلتها دراساته للرياضيات، وعلوم الفلك؟!

أمور عديدة، ينبغي أن نستوعبها وندركها، قبل أن نبادر بمهاجمة كتابه، أو حتى تأييده..

المهم أن نلغي من أسلوبنا وتفكيرنا كل الحساسيات، والتعنتات، والعصبيات، والأحكام المسبقة، وما دام التنبؤ بالمستقبليات قد صار علما، فنتعامل مع تنبؤات (نوستراداموس) باعتبارها نظرية علمية، نبحث صحتها أو زيفها..

وفي كل التجارب العلمية والمعملية، لا يمكننا أن نحصل أبدا على نتيجة دقيقة مائة في المائة، لذا فقد اعتبر العلماء أن الوصول إلى نتيجة تبلغ الخمسة والسبعين في المائة، يعني الإيجاب، في معظم الأحوال..

والباحثون والدارسون لتنبؤات (نوستراداموس) يشيرون إلى أن نسبة النجاح، في رباعياته القديمة، أو التي تحققت أحداثها بالفعل، تبلغ النسبة المقبولة علميا، بحيث يصعب اعتبار الأمر مجرد مصادفة..

فالمصادفات لا يتكرر حدوثها في المسرح الواحد أبدا..

وعندما يتحدث (نوستراداموس) عن معركة (واترلو)، التي حدثت بعد ثلاثة أشهر تقريبا، من عودة (نابليون) من جزيرة (ألبا)، وعن التحالف بين (بلوخر)، الذي كان يرمز إليه باسم (الخنزير الروسي البري)، و (جروتشي) الأسد البريطاني، والذي هزمه (نابليون)، الذي اتخذ العقاب رمزا له، نجده يقول في رباعيته:..

في الشهر الثالث، وعند شروق الشمس
يلتقي الخنزير البري والأسد، في ساحة المعركة
وعندما يرفع الأسد المرهق بصره إلى السماء
يرى عقابا يدور حول الشمس

وعلى الرغم من أن الرباعية لم تذكر أية أسماء، إلا أنها ذكرت الرموز الخاصة بكل المتحاربين، دون خطأ واحد، مما يبعد الأمر عن أي احتمال لكونه مجرد مصادفة عشوائية..

وككل الأمور والظواهر الخارقة للمألوف، وجد (نوستراداموس) فريقا شديد الحماسة لتنبؤاته، وآخر شديد الإنكار والاستنكار لها، ولكن من المؤكد أنه قد جذب اهتمام وانتباه الفريقين، طوال خمسة قرون، وبالذات مع حادثة برجي مركز التجارة العالمي..

ففي طبعة الكتب التي بين يدي، والتي تعود إلى السبعينات، تحدّث الباحث عن عدد من تنبؤات (نوستراداموس) المستقبلية - في ذلك الحين - وعلى رأسها ضربة (نيويورك)، التي ستتسبب في إشعال الحرب العالمية الثالثة..

وطول البحث، حاول الباحث أن يجد تفسيرا لتلك التنبؤات، التي لم يختلف أي باحث آخر في تفسيرها.. في أساسياتها على الأقل..

فبالنسبة لكل الباحثين، تم الاتفاق على أن الحديث عن المدينة الجديدة يشير دوما إلى (نيويورك)، باعتبار أن اسمها مشتق من مقاطعة (يورك) القديمة، ثم إنها تقع في عالم لم يكن له وجود، في زمن (نوستراداموس)..

ومن هذا المنطلق، بدت لهم نبوءات الرجل، الخاصة بالمدينة الجديدة عجيبة..

ومخيفة أيضا.

ولكنهم حاروا في تفسيرها..

بعضهم افترض أنها تتحدث عن كارثة طبيعية، والبعض الآخر تمادي في تفكيره وخياله، فتصور أنها تشير إلى غزو فضائي، والبعض الثالث اعتبرها حربا نووية..

ولكن المدهش أنهم توقفوا جميعا عند كلمة في رباعية تقول:

نار تزلزل الأرض، في مركز الأرض

هزات قوية تصيب المدينة الجديدة..

صخرتان عظيمتان تنهاران..

ثم تضفي أريثوازا لونا أحمر على نهر جديد

فمنذ أكثر من عشرين عاما، تساءل الباحثون، لماذا استخدم (نوستراداموس) كلمة (برج) (Tour)، عندما وصف الصخرتين العظيمتين، في رباعيته هذه؟!

والمدهش أننا نعرف الآن لماذا فعل هذا، عندما قال:

إن برجين عظيمين سينهاران!!

فلقد انهارا بالفعل، في مركز التجارة العالمي، في الحادي عشر من سبتمبر 2001 م..

ولكنها ليست الرباعية الوحيدة حول أحداث سبتمبر، في الولايات المتحدة الأمريكية.. هناك رباعيات أكثر إثارة..

بكثير..

☆ ☆ ☆

مع سقوط برجي مركز التجارة العالمي، وارتطام الطائرتين المدنيتين به، في الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ م، استعاد العالم كله تنبؤات الفلكي الفرنسي الأشهر (ميشيل دي نوستراداموس)، والذي أشار إلى هذه الضربة منذ خمسة قرون، في كتابه الأكثر شهرة (قرون)..

وفي عشرات الصحف والمجلات العربية، قرأنا رباعية نسبت إلى (نوستراداموس)، وتقول:

ملك الرعب العظيم يهبط على المدينة الجديدة

نار ودخان وصراخ ودموع وانهيارات

تسقط القلعة، وينهار التوءمان

وتشتعل الحروب في كل مكان

وعندما حصلت على نسخة مؤكدة من كتاب (نوستراداموس) الشهير، والأبحاث الملحقة به، لعمل هذه الدراسة، كان أول ما بحثت عنه هو هذه الرباعية، التي تمادى البعض، فأضاف إليها التاريخ بالشهر والسنة..

ولكنني لم أعثر عليها قط..

قرأت الكتاب مرتين، وثلاثا، دون أدنى جدوى..

الرباعية الوحيدة، التي ذكرت اسم (ملك الرعب)، هي تلك التي تقول:

في عام 1999 وسبعة أشهر

سوف يأتي ملك الرعب من السماء

وسيعود إلى الحياة ملك المغول العظيم

سيحكم قبل الحرب وبعدها في سعادة..

ولو أننا طبقنا قاعدة الإزاحة، الخاصة بما يذكره (نوستراداموس) من تواريخ، فهذا يعني أن ما أشار إليه يمكن أن يحدث خلال عشر سنوات، قبل أو بعد التاريخ المذكور..

والإشارة إلى المغول هنا تلقي على الصينيين تبعة إشعال الحرب، في نهايات القرن العشرين، أو بدايات القرن الحادي والعشرين.

ولكن هناك تنبؤات أكثر دقة، بشأن ما أصاب (نيويورك)، منها مثلا تلك التي تقول:

حريق هائل يحدث، بعد شروق الشمس

الضوضاء والضياء ينتشران نحو الشمال

الموت والصرخات في كل مكان من الكرة

وهناك المزيد، مع الأسلحة، والنار، والمجاعة

راجع معي هنا أن الضربة قد حدثت في الصباح الباكر، بعد شروق الشمس، وأن الدخان، الذي رأيناه جميعا، في كل مكان في الكرة الأرضية، كان يتجه وينتشر نحو الشمال، والقتلى من كل الجنسيات، والعالم كله رأى ما حدث، وصرخ ويكي، ثم جاءت الحرب، بالأسلحة والنار والمجاعة كل الباحثين، في كل العصور، اعتبروا هذه الرباعية إشارة إلى كارثة تحدث في (نيويورك)، وحددوا زمنها فلكيا ببدايات القرن الحادي والعشرين..

ثم إنه هناك رباعية أخرى، تقول:

السماء تحترق، بين الأربعين والخمسة وأربعين درجة

الحريق في المدينة العظيمة الجديدة

اللهب الكبير ينتشر إلى أعلى مباشرة

والكل يسعى للحصول على دليل من النورمانديين

لاحظ أن (نيويورك) تقع بين خطي عرض 40، 45 على الخرائط، والنيران اشتعلت في برجي التجارة العالميين، وانتشرت إلى أعلى، وبعد انهيارهما راح الأمريكيون يبحثون عن دليل لإدانة (أسامة بن لادن)، الذي اتجهت إليه أصابع اتهامهم منذ اللحظة الأولى.

والعجيب أنهم، حتى في هذا استعانوا برباعيتين من رباعيات (نوستراداموس)؛ لتأكيد اتهامهم، إحداهما تقول:

يحافظ الرجل النحيف على الحكم تسع سنوات..

ثم يقع في تعطش دموي رهيب أمة عظيمة

تموت من أجله، دون إيمان أو قانون

ثم يقتل على يد رجل أفضل منه

ومن منظورهم، رأي الأمريكيون أن النحيف هو (أسامة بن لادن)، والأمة التي ستموت من أجله دون طائل هي الأمة الإسلامية، أما الرجل الأفضل منه فهو الرئيس الأمريكي بالطبع..

هل يمكن أن يقنعك هذا التفسير؟!

أما الرباعية الثانية، والتي يتصورون أنها تشير إلى حربهم طويلة الأمد، والضربات الجوية العنيفة، وصمود (أسامة بن لادن) وجيشه، والدماء التي ستسيل أنهارا، فهي تلك التي تقول:

في ظل السلطة الصارخة للشيخ الملتحي

توضع قواعد العقاب الصارم

الشخص العظيم يثابر إلى حد بعيد

ضوضاء الأسلحة في السماء، والبحر الليغوري أحمر

وبالنسبة لزمن كتابة هذه الرباعيات، كان البحر الليغوري هو الجزء الشمالي الشرقي من البحر الأبيض المتوسط..

ولكن لاحظ هنا الحديث عن ضوضاء الأسلحة في السماء، والذي يشير إليه (نوستراداموس) في عدة مواضع من رباعياته،

كلما أراد وصف معركة جوية والأمريكيون يميلون بشدة إلى تصديق الرباعيتين، ما دام الانتصار سيتحقق لهم فيهما في النهاية، ولكن الرعب يزلزل كيانهم حتى النخاع من رباعية أخرى مخيفة، تقول في وضوح:

حديقة العالم، قرب المدينة الجديدة..

في طريق الجبال المجوفة

يتم الاستيلاء عليها وتقحم في الصهاريج

المدينة تجبر على شرب ماء مسمم بالكبريت

فمدينة (نيويورك) تعتمد في ماء الشرب على المياه الجوفية الجبلية، والرباعية هنا تشير إلى عملية لتسميم هذه المياه، لقتل المدينة كلها..

إنها الحرب الكيماوية أو البيولوجية، التي أصبح كل مخلوق في (أمريكا) يرتجف منها، وخاصة بعد ظهور حالات إصابة بالجمرة الخبيثة بالفعل..

و (نوستراداموس) يشير أيضا إلى حرب عنيفة، تحدث في بدايات القرن الحادي والعشرين، ولقد حدد هذا عندما يقترن المشتري، ورمزه الصولجان، بالمريخ، وهذا سيحدث - فلكيا - في الحادي والعشرين من يونيو 2002 م..

وفي رباعيته، يقول الرجل:

المريخ والصولجان سيقترنان..

حرب مدمرة تحت برج السرطان

بعدها بفترة قصيرة يأتي ملك جديد

وسيجلب السلام للأرض لفترة طويلة

إذن، فهو يتوقع اندلاع الحرب في يونيو 2002 م، ثم يعقبها عهد من السلام..

والعجيب أن هذا ما يتوقعه العالم أجمع، بعد أن بدأت (أمريكا) حربها مع الأفغان بالفعل.

أن تتطور الأمور، وتحدث المشكلات، على الحدود الإيرانية، والروسية، والصينية، مما يؤدي إلى اشتعال الموقف أكثر.. وأكثر.. وأكثر

ولكن ليس بالضرورة أن نتصور أن كل ما يقوله أو يتنبأ به (نوستراداموس) قابل للحدوث، فكما قلنا من قبل، نسبة النجاح لا ينبغي أن تصل إلى مائة في المائة أبدا..

يكفينا سبعون أو ثمانون في المائة ولقد تجاوز (ميشيل دي نوستراداموس) هذه النسبة بكثير وذات يوم، وفي أيام شبابه الأولى، أراد أحد المتشككين أن يختبر قدراته، فدعاه إلى منزله، واصطحبه إلى حظائره ليريه خنزيرين، أحدهما أسود، والآخر أبيض، وسأله:

أيهما سيتناولونه على العشاء، فأخبره (ميشيل) أنهم سيتناولون الأسود؛ لأن الأبيض سيلتهمه ذئب..

وهنا أمر الرجل بذبح الخنزير الأبيض، وتقديمه على العشاء، وإغلاق كل الأبواب؛ لمنع أي ذئب من الدخول..

ولكن ذئبا مهجنا، يحيا في كنف الرجل، اختطف الخنزير الأبيض قبل طهيه، واختفى به، فلم يجد الطاهي أمامه سوى ذبح الأسود، وتقديمه على العشاء..

وكان هذا انتصارا للفلكي (نوستراداموس)، الذي لم يبال أبدا بما يتركه خلفه من انبهار، ولم يسع قط للشهرة أو الثراء، وإن قضي أيامه الأخيرة يراجع الطالع، ويقرأ النجوم لأصدقاء وصديقات زوجته..

أما آخر نبوءاته، فقد اختصت به شخصيا، إذ تفاقمت إصابته بمرض النقرس، وتحولت إلى الاستسقاء، ورقد تماما في فراشه، وذات يوم، وبينما طبيبه يفحصه، ابتسم (نوستراداموس) في شحوب، وأخبره أنها آخر مرة يراه فيها، وأن عينه لن تقعا عليه بعدها قط، ولكن الطبيب طمأنه بأن حالته تتحسن، ثم ضحك وهو يضيف أنه - وعلى أسوأ الفروض - سيراه جثة هامدة..

ولكن هذا لم يحدث قط..

لقد مات (ميشيل دي نوستراداموس) في فراشه في هدوء، في الأول من يوليو عام 1966 م، في حين أصيب طبيبه في الليلة نفسها بالتواء في كاحله، فلم يلق عليه نظرة واحدة، حتى تم دفنه..

وغادر (نوستراداموس) العالم، تاركا خلفه تاريخا حافلا، وكتابا يحوي كومة من الرباعيات، ما زالت تصيبنا بالدهشة والانبهار، وما زالت تواصل نجاحها وقوتها، عبر قرون، وقرون، باعتباره رجلا فريدا.

رجل رأى الغد..

بعقله.

☆ ☆ ☆

17- الزمكان..

1- المصطلح..

وياله من عنوان، وياله من مصطلح، يتصدر الدراسة هذه المرة....

الزمكان...

مصطلح لم تألفه عيوننا، وآذاننا، ولم تدركه عقولنا، ربما حتى لحظة كتابة هذه السطور، على الرغم من أنه مصطلح علمي بحت، يتم استخدامه (واستعدوا للمفاجأة)، منذ عام 1905 م..

نعم.. إنك لم تخطئ قراءة التاريخ، وهو ليس خطأ مطبعيا بالتأكيد، فالمصطلح مستخدم علما بالفعل، منذ عام ألف وتسعمائة وخمسة.. أي منذ ما يقرب من قرن كامل من الزمان..

ففي ذلك العام، نشر عالم شاب، يدعى (ألبرت أينشتين)، نظرية علمية جديدة، اعتبروها ثورة عنيفة في عالم الفيزياء والرياضة، وأطلق عليها اسم (النظرية النسبية الخاصة)..

وفي تلك النظرية، استخدم (أينشتين)، وربما لأول مرة، ذلك المصطلح العجيب المثير..

الزمكان..

والمصطلح، ببساطة شديدة، يعني السفر عبر الزمان والمكان في آن واحد..

أو بمعنى أكثر شمولا، يعني تفجر خيال العلماء إلى حد أو نحو لم يبلغه، أو ينجح في بلوغه أحد، قبل أن يطرح (أينشتين) نظريته المثيرة.. جدا.

ففي تلك الحين، كان السفر عبر الزمان وحده، يعدّ ضربا من خيال جامح، فجره الأديب، والروائي، والصحفي الإنجليزي (هربرت جورج ويلز)، خريج جامعة (لندن)، والمغرم بمطالعة العلوم، عندما نشر تحفته الرائعة (آلة الزمن)، عام 1895 م..

ففي تلك الرواية، وثب بطل (ويلز) عبر الزمن، لينتقل من خلال آلته العجيبة، إلى المستقبل البعيد، الذي رسم له المؤلف حينذاك صورة ذهنية عبقرية، بدأت بما يشبه المجتمع المثالي، حيث يعيش السكان المنعمون، في عالم أنيق جميل، تحيط به الأنهار والزهور والحدائق الغناء من كل جانب، قبل أن يكشف البطل وجود عالم آخر تحت الأرض، سكانه من أشباه الوحوش، الذين يعملون بلا كلل أو ملل، للإبقاء على عالم ما فوق الأرض، الذي اتضح في النهاية أنه مجرد مزرعة طعام لهم، حيث يختطفون سكانه، ليأكلوهم كالأغنام..

وتلك الصورة أفزعت عالم نهايات القرن التاسع عشر، وبهرتهم في الوقت ذاته، خاصة وأن (ويلز) كان أول من أشار إلى تفوق جنس العمال، في المجتمعات الصناعية، مع مرور الزمن..

وأول من تحدث أيضا عن آلة الزمن..

تلك الآلة المعجزة، التي خلبت لب المؤلفين، منذ زمن (ويلز)، وحتى يومنا هذا، لما تمتلكه من قدرة فريدة مدهشة، على أن تخترق براكبها نهر الزمن، وتنقله إلى أي زمن يشاء، في طرفة عين..

وبعد (ويلز)، تفجر خيال الكتاب والمؤلفين، ورجال الفن أيضا، وانهمرت علينا عشرات التخيلات والأفكار، وسرح خيالنا مع الفكرة، و....

وفجأة، خرجت إلى العالم نظرية النسبية الخاصة وأطلق (ألبرت أينشتين) مصطلحه الجديد، مع معادلات رياضية مؤكدة، تفتح عيوننا على ظاهرة جديدة، وتعديل جوهري لكل ما عرفه العالم من قواعد قبلها فلأول مرة، أضاف (أينشتين) إلى الأبعاد الثلاثة المعروفة، الطول، والعرض، والارتفاع، بعدًا رابعًا، لم يشر إليه عالم واحد من قبله.

الزمن..

وفي نظريته المدهشة، التي حيرت علماء جيله، أثبت (أينشتين) أن الزمن بعد رئيسي في الحياة، وفي كل القياسات الجادة، في الرياضيات والفيزياء، وباعتباره كذلك، فهو ككل الأبعاد الأخرى، يمكن السير فيه إلى الأمام والخلف أيضا...

وكانت هذه مفاجأة مذهلة، سواء للعلماء، أو للعامة أيضا...

فمع النظرية الجديدة، لم تعد قصة (ويلز) عن السفر عبر الزمن مجرد خيال محض..

لقد صار احتمالا علميا منطقيا أيضا..

واعترض علماء بدايات القرن العشرين، واستنكروا، واستهجنوا، ورفضوا كل ما جاء به (أينشتين)..

أما الأدباء والمفكرون، فقد فجر الأمر خيالهم أكثر وأكثر، وأطلق في أعماقهم ألف فكرة، ومليون احتمال، راحوا ينقلونها جميعها إلى الورق، ليمتعوننا بسيل من الكتب والأفكار والروايات، والخيالات الجامحة، التي تصورت فكرة عودة البعض إلى الزمن الماضي، لإحداث تغيرات، تؤدي بدورها إلى تغيير أحداث جوهرية، تمتلئ بها كتب التاريخ..

وفي الوقت الذي أقنع فيه (أينشتين) كل العلماء بنظريته وعبقريته، وخرج إليهم بنظرية النسبية العامة، علم 1915 م،

كان فريق من الأدباء قد تبنى بالفعل فكرة السفر عبر الزمن، وآمن بإمكانية حدوثها، بل وصار يحلم بهذا أيضا، ويدافع عنه بحماسة واستماتة لا حدود لهما..

ففكرة السفر عبر الزمن مثيرة حتما، وتمنح الإنسان أملا خياليا في تغيير حاضره، ومستقبله، بل وربما مستقبل العالم أيضا.

ولأنه من الطبيعي أن يكون لكل فعل رد فعل، مساو له في القوة، ومضاد له في الاتجاه، فقد تبنى فريق من العلماء فكرة عكسية، ترفض بعنف احتمالية السفر عبر الزمن، وتصفه بالخبل الوهمي..

ولقد استند العلماء الرافضون إلى نظرية علمية فلسفية، أطلقوا عليها اسم نظرية (السببية)، وتلك النظرية تعتمد على أن العالم كله وحدة واحدة، فلو تمكن شخص ما من السفر عبر الزمن إلى الماضي، وأحدث تغيرا، مهما بلغت بساطته، فسيؤدي هذا إلى حدوث موجة متزايدة من التغيرات، يمكن أن يتغير معها تاريخ العالم كله، مما يهدد وجوده هو نفسه في المستقبل..

ثم إن قدرة المرء على إحداث تغيير في المستقبل، تمنحه قدرات هائلة، لا يمكن أن تتوافر لبشرى، مهما بلغت قوته أو مكانته..

فلنفترض مثلا أن أحد العلماء وقد رأى أن الحرب العالمية الثانية كانت لها ويلات رهيبة، وأن هذا كان بسبب أفكار (هتلر) وتعنتاته، فاستخدم آلة زمن وهمية، وسافر إلى الماضي، وقتل (هتلر)، قبل أن يتبوأ منصبه في الحزب النازي، فهل يمكن أن ينتهي الأمر عند هذا الحد؟!

مستحيل..

فعدم اندلاع الحرب العالمية الثانية سيغير مصير العالم كله، وتوازناته، وأعداد سكانه، وقدراته التكنولوجية والعلمية، مما يعني أن آلة الزمن، التي سافر هو بها، لن تتاح له في الغالب، مما يمنعه من السفر، وتغيير الماضي، و... وهكذا ندخل في دائرة مفرغة غريبة، لا يمكن حسمها، أو فهمها، أو الاقتناع بإمكانية حدوثها أبدا..

ثم ماذا لو سافر آخر، وأنقذ (هتلر)..

وبعدها جاء ثالث، لينفيه إلى (روسيا)..

عندئذ سيرتبك التاريخ كله، على نحو أشبه بالعبث، الذي لا يمكن أن يسمح به الخالق (عز وجل)

إذن فالفكرة نفسها عبثية، وهمية، خيالية، يستحيل حدوثها في عالم الواقع..

ولقد تابع (أينشتين) كل هذه المحاورات والمداورات، والمناظرات الحامية، بين مؤيد ومعارضي فكرة السفر عبر الزمن، دون أن يعلق على هذا أو ذاك بحرف واحد؟ لأن نظريته لم تكن تسعى خلف هذه السخافات والترهات ثم إنه لم يشغل نفسه لحظة بعملية السفر عبر الزمن وحده..

بل بالسفر عبر الزمكان..

أي عبر الزمان والمكان في آن واحد..

ولكي نفهم ما يعنيه هذا، ينبغي أن نتخلى عن فكرة السفر عبر الزمن، ونركز كل تفكيرنا على السفر عبر الفضاء..

نعم.. عبر الفضاء الكوني، فهذا بالضبط ما كان يعنيه (أينشتين)، عندما أطلق مصطلحه الجديد المثير هذا، فقد جاءت نظريته لتفتح الطريق، أمام فكرة السفر عبر الفضاء، إلى مسافات لم يبلغها العقل البشري بعد، عن طريق السفر في الزمان والمكان معًا..

مصطلح السنة الضوئية..

وهذا المصطلح يعني المسافة التي يقطعها الضوء، لو انطلق في الفضاء، لمدة سنة زمنية كاملة، باعتبار أن سرعة الضوء تساوي مائة وستة وثمانين ألف ميل، في الثانية الواحدة..

هل يمكنك أن تتصور إذن المسافة التي يمكن أن يقطعها الضوء، في سنة كاملة؟!

إنها ستة عشر مليارا، وسبعون مليونا، وأربعمائة ألف ميل.. أي حوالي خمسة وعشرين مليارا، وثمانمائة واثنين وستين مليونا، وثمانمائة وواحد ألف، وثمانمائة وثمانية عشر كيلومترا...

فمنذ تطور علم الفلك، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ظهر مصطلح محبط، لكل من كانوا يحلمون بالسفر إلى النجوم البعيدة حينذاك..

هل أزعجك الرقم، وبدا لك ضخما أكثر مما ينبغي؟!

استعد للمفاجأة إذن؛ فهذه المسافة الهائلة تساوي وحدة فلكية واحدة، في قياس المسافات الكونية، وتحديد بعد النجوم الأخرى عن مجرتنا (سكة اللبانة).

ولو أن أقرب النجوم إلينا يبعد عنا وحدة فلكية واحدة أي سنة ضوئية واحدة، فهذا يعني أن وصولنا إليه يحتاج إلى سفينة

فضاء خاصة، يمكنها أن تنطلق بسرعة الضوء، لمدة سنة كاملة، دون أن تتوقف، أو تخفض سرعتها لحظة واحدة..

والاحتمال يبدو، من الناحية المنطقية، والرياضية أيضا، أمرا مستحيلا بكل الوجوه..

لهذا كانت المفاجأة الجديدة، أننا نستطيع بلوغ ذلك النجم المفترض، في زمن أقل من هذا بكثير، ودون حتى أن تبلغ سرعة الضوء.

وهذا القول علمي.. تماما.

☆ ☆ ☆

2- الثقوب السوداء..

وعندما فجر (أينشتين) مصطلح (الزمكان)، في نظريته النسبية، كان السفر عبر الزمان والمكان مجرد حلم مستحيل، وخيال جامح غير منطقي...

ولكن (أينشتين) وضع أمامنا معلومة علمية جديدة مثيرة للغاية، وأطلق عليها اسم (تمدد الزمن) وفي نظرية (أينشتين)، نجد أنه لو سافر رائد فضاء، في مركبة تنطلق بسرعة الضوء، إلى نجم بعد عنا سنة ضوئية واحدة، ثم عاد إلى الأرض، فسيجد أن العامين، اللذين قضاهما في رحلته، قد أصبحا نصف قرن من زمن الأرض..

وبمعنى أكثر وضوحا، لو أن لذلك الرائد شقيق توءم، بقي على الأرض، وودع شقيقه، وكلاهما في العشرين من العمر، عند بدء تلك الرحلة الخرافية، فسيعود الأول من رحلته، وهو في الثانية والعشرين من عمره، ليجد توءمه في السبعين من العمر!!!

والتفسير الذي وضعته نظرية (أينشتين) لهذا، هو أن عقارب الساعة سترتبط بالزمن الذي تنطلق به سفينة الفضاء، أي أنها ستسير بنفس السرعة، في حين أن الساعة الثابتة على الأرض، ستتوافق مع سرعة دورانها حول نفسها وحول الشمس فحسب..

ولو أردت نصيحتي، فلا ترهق ذهنك في محاولة فهم واستيعاب هذا الأمر المعقد، فقد أثبته العلماء رياضيا وعمليا، خلال قرن من الزمان، ويكفينا أن نمنحهم ثقتنا فحسب، كما منحناها لكل النظريات العلمية الأخرى، في كل المجالات..

المهم أن هذه الفرضية كانت أول إشارة إلى السفر عبر الزمان والمكان، أو عبر الزمكان كما أسماه (أينشتين)..

ولكن نظريته أشارت أيضا إلى أمر آخر، اعتبره العلماء أكثر أهمية وخطورة بكثير، في عملية السفر عبر (الزمكان)...

إلى الثقوب السوداء..

ومصطلح (الثقوب السوداء) هذا مصطلح حديث نسبيا؛ فأول من استخدمه هو الفلكي الأمريكي (جون هويلر)، عام 1969 م، ليصف به نظرية قديمة، تعود إلى أكثر من قرنين من الزمان..

وبالتحديد إلى عام ١٧٩٣ م.. ففي ذلك الزمن، نشر (جون ميتشل)، الجيولوجي، ورئيس جامعة كمبردج، بحثا جديدا، أشار فيه إلى أن بعض النجوم لها كثافة عالية جدا، مما يمنحها قوة جذب هائلة، تمنع الضوء نفسه من الفرار منها، مما يجعلها تبدو أشبه بفراغات سوداء، بالنسبة لأي شخص يحاول رصد الكون..

ولقد اكتفي (جون ميتشل) بقوله هذا، ولم يحاول التوغل في الأمر أكثر، ربما لقلة المعلومات الفلكية المتاحة في عصره، أو لنقص الإمكانيات العلمية حينذاك..

ثم جاءت النظرية النسبية، لتحمل إلينا مبدأ علميا جديدا، وهو أن الضوء لا يسير في خطوط مستقيمة، كما كنا نتصور، بل إنه ينحني، عندما يمر إلى جوار نجم عالي الكثافة..

وعندما تبلغ كثافة النجم أقصاها، فإن الفضاء نفسه يتحدب حوله، مما يجذب الضوء إليه في عنف، على نحو لا يسمح له بالإفلات من جاذبيته الشديدة، فيبتلعه النجم في شراهة مالها من مثيل..

ولأن الضوء يفشل في الإفلات من الجاذبية الهائلة، فهو لا يصلنا قط، لذا فكل ما نراه هو ثقب أسود، يختلف حجمه من مكان إلى آخر..

ولو أردت أن تفهم فكرة الثقوب السوداء أكثر وأكثر، راقب مصفاة حوض المطبخ.

ولا داعي للضحك والسخرية هنا، فلو أنك ملأت الحوض عن آخره بالماء، ثم سحبت سدادة المصفاة، فستراها تبتلع المياه في سرعة وقوة..

هذا بالضبط ما يفعله الثقب الأسود بما حوله، بافتراض وجود مصدر دائم للمياه، يغذي الحوض، وجهاز شفط قوي في قلب المصفاة..

ولقد جذبت الثقوب السوداء انتباه واهتمام العلماء لسنوات وسنوات، كظاهرة مثيرة في الفضاء الكوني، قبل أن تخرج نظرية مدهشة جديدة..

نظرية تقول: إن ما تجذبه الثقوب السوداء إليها، وما تبتلعه في مركزها بلا هوادة، لا يفني أو يتلاشى داخلها، وإنما يعبرها إلى نفق ذي اتجاه واحد، ليخرج من نهايته، عبر ثقب أبيض كبير، في عالم آخر..

أو مكان آخر..

وكانت هذه النظرية أشبه بقنبلة علمية، تفجرت بمنتهى العنف، في كل الأوساط..

فالنظرية تعنى، وبكل حسم، أن عبور ثقب أسود، سينقلنا عبر الزمان والمكان إلى بقعة أخرى في الكون..

بقعة ربما تبعد آلاف، بل ملايين السنوات الضوئية..

وهذه طفرة علمية واتصالية على كل المستويات..

سفينة الفضاء، التي تنطلق نحو ثقب أسود، وتخترقه، ستنتقل عبر الزمان والمكان إلى مناطق أخرى بعيدة....

بعيدة جدا...

إلى مجرات وأكوان لا يمكننا حتى أن نرصدها، قبل مرور ملايين السنين على فنائها..

وقوة هذه النظرية تكمن في أنها الحل الأكيد والمدهش، للسفر إلى النجوم البعيدة جدا جدا، في هذا الكون اللانهائي..

وأول ما سيتبادر إلى الأذهان الآن، هو: مادام العلماء، قد توصلوا إلى هذا، فلماذا لم يرسلوا رحلات إلى هذه النجوم البعيدة جدا؟!

والجواب بسيط للغاية، ويكمن في ثلاث نقاط رئيسية..

أولها أن ما بلغاه من تقدم تكنولوجي وصناعي، لا يكفي بعد لإنتاج سفينة الفضاء القوية، التي يمكنها بلوغ ثقب أسود، واختراقه أيضا، لأن هذا يحتاج إلى طاقة هائلة، قدرها العلماء بمليون ضعف لما تستهلكه الولايات المتحدة الأمريكية..

كلها من الطاقة، طوال عام كامل..

وليس من الضروري أن نؤكد هنا أن الحصول على مثل هذه الطاقة مازال مستحيلا بكل المقاييس، في زمننا هذا.

والنقطة الثانية، هي أن العلماء لا يمكنهم، حتى هذه اللحظة، تحديد المكان الذي ستنتقل إليه سفينة الفضاء الخيالية تلك، عبر الكون الفسيح، فعلى الرغم من قدرتهم على تحديد مواقع

بعض الثقوب البيضاء بالفعل، إلا أن أحدا لا يمكنه قط تحديد أيها سيكون مخرجا لأي ثقب أسود في الكون..

والنقطة الثالثة ترتبط تماما بالثانية، فالسفينة التي ستعبر الثقب الأسود، لتبرز في مكان ما من الكون، لن يمكنها إجراء أية اتصالات بالأرض، منذ وصولها إلى مجال جاذبية الثقب الأسود، حيث لن تنجح أية إشارات في الإفلات من جاذبيته الرهيبة، مهما بلغت قوتها..

وعندما تصل السفينة إلى المخرج، سيبعد موقعه عن أرضنا بآلاف، وربما ملايين السنوات الضوئية، وأية إشارة أو معلومات ترسلها، من موقعها هذا، ستحتاج إلى آلاف أو ملايين السنين، لنلتقطها على أرضنا..

وحتى لو افترضنا أننا نعلم بالضبط الموقع الذي استخرج منه السفينة الوهمية، وأننا قد ركزنا كل مناظيرنا ومراصدنا الفلكية نحوه، وأنه يبعد عنا مليون سنة ضوئية فحسب، فهذا يعني أننا سنرصد السفينة بعد وصولها بمليون سنة، وهو الزمن الذي تستغرقه صورتها، للوصول إلينا بسرعة الضوء..

هل رأيتم كيف يستحيل هذا، لأكثر من سبب؟!

ولكن ما ترونه أنتم لم يحبط العلماء، بل شحذ عقولهم، وفجر خيالاتهم وطاقاتهم، ودفعهم للبحث عن حلول منطقية وعلمية لهذه المشكلة.

وفي البداية، جاء الحل بسيطا للغاية. فعندما تصل سفينة الفضاء الوهمية إلى هدفها، سيكون عليها أن تبدأ مهامها بالبحث عن ثقب أسود آخر، قريب من موقع هبوطها، ينتهي بثقب أبيض، قريب من أرضنا..

بمعنى أبسط وأدق، البحث عن طريق العودة، مماثل لطريق الذهاب.. وغير طريق العودة هذا، يمكن لسفينة الفضاء الوهمية أن ترسل إشاراتها إلى الأرض، وأن تروى للمتابعين كل ما وجدته، ورأته، وخبرته، في رحلتها الفريدة هذه..

في هذه الحالة، ستبلغ الإشارة أرضنا، في نفس الوقت الذي استغرقته السفينة في رحلتها تقريبا، وليس الوقت الفعلي، الذي يفصلنا عنها..

وهذه صورة مثلى للسفر عبر (الزمكان)..

صورة أرضت فريقا من العلماء، وأثلجت صدره، وجعلته يسترخي، متصورا أن الحل قد جاء على طبق من العبقرية..

ولكن فريقا آخر لم يرض بهذا الحل أبدا، وقال إنه يحوي مجموعة من الافتراضات، لا يمكن التأكد منها قط، فماذا لو لم تجد سفينة الفضاء الوهمية ثقب أسود عكسيا؟!..

بل وماذا يضمن أن تصل السفينة إلى منطقة تحوي ثقوبا سوداء من الأساس؟!

وماذا أيضا لو افترضنا أن الثقوب السوداء، في منطقة الهبوط، ستقود إلى مناطق أبعد وأبعد، في الكون السرمدي؟!

وفي الوقت الذي تناحر فيه الجانبان، وكل فريق يسعى لتأكيد وإثبات وجهة نظره، برز فريق ثالث بكشف مذهل..

كشف قلب كل المقاييس والموازين رأسا على عقب..

وبمنتهى القوة..

☆ ☆ ☆

3- ديدان في الفضاء..

وفي منتصف الثمانينات، من القرن العشرين، خرجت إلينا السينما الأمريكية بسلسلة من أروع وأنجح أفلام الخيال العلمي التي أبدعها المخرج (ستيفن سبيلبيرج) تحت عنوان (العودة إلى المستقبل)..

وفي هذه السلسلة، كان البطل الشاب (مارتي) يسافر عبر الزمن، إلى الماضي والمستقبل، بوساطة سيارة زمنية؛ ليغير طبيعة أسرته، وينقذ والده، ثم أبناءه فيما بعد..

ويعود جزء من نجاح الفيلم إلى الإبهار التكنولوجي والخدع السينمائية المتقنة، في حين يعود الجزء الأكبر إلى الفكرة المثيرة، التي تمنح بشري فرصة تغيير الأحداث، مع سفره عبر الزمن..

ومن المؤكد أن كل من شاهد سلسلة الأفلام تلك، وكل من انبهر بها، ومن أعجبته وأسعدته فكرتها، قد تعامل مع الأمر باعتباره خيالا محضًا..

ولكن المدهش أن هذا ليس رأي العلماء، في زمننا هذا...

فمنذ سنوات عديدة، توصل فريق من العلماء إلى أن الكون يحوي ما يمكننا أن نطلق عليه اسم (الأنفاق الزمنية الدودية)..

وتلك الأنفاق، التي تحمل اسمها من شكلها، الذي يبدو أشبه بالدودة، ذات طبيعة خاصة جدا، فكل ما يعبرها يكتسب طاقة سالبة، بحيث يخرج منها في زمن سابق لتاريخ دخولها..

أو بمعنى أدق، يسافر عبر الزمن إلى الماضي..

وهذا كلام علمي بحت..

إذن، فبهذا الكشف المدهش، لم يعد السفر عبر الزمن محض خيال، وإنما صار حقيقة علمية، لها ما يؤيدها ويثبتها..

والعلماء يؤمنون، على نحو ما، بفكرة رؤية الماضي هذه، وبالذات علماء الفلك، فعندما يرصد أحدهم نجما، يبعد عنا مائة سنة ضوئية، فهو يعلم أنه إثم يرصد في الواقع ما كان عليه ذلك النجم، منذ مائة سنة، وليس ما هو عليه الآن بالفعل..

إذن فهو يرصد عمليا - ماضي ذلك النجم، وليس حاضره..

ولو افترضنا أن ذلك النجم مأهول بحضارة عاقلة، وأنه لدينا راصد أكثر قوة بآلاف المرات، فهذا سيعي إذن أننا سنستطيع أن نرصد في حاضرنا، كل الأحداث على ذلك النجم، منذ مائة سنة..

أي أننا سنرصد ماضية، وتاريخه..

وهذا - مع شيء من المرونة - نوع من السفر عبر الزمن...

ومن الناحية العلمية، هو سفر عبر الزمان والمكان معًا..

أو عبر (الزمكان)..

وعندما كشف العلماء أنفاق الزمن الدودية هذه، ثارت موجة عنيفة من الجدل، وعاد الحديث مرة أخرى عن السببية، وعن استحالة انتقال بشرى إلى الماضي، مهما كانت المبررات العلمية..

وهنا خرجت نظرية أخرى، لتجعل الأمر أكثر قبولا..

فالمسافر إلى الماضي، وفقا للنظرية الجديدة، سيسافر كمشاهد، وليس كمشارك..

أو بمعنى أدق، سيمكنه رؤية ما حدث في الماضي، بكل الدقة والتفاصيل، ولكن كما تشاهد أنت فيلما قديما على شاشة تلفاز

حديث..

ولكن لن يكون باستطاعته التدخل في الأحداث قط..

إنه حتى لن يجد الماضي في صورة مادية، بل مجرد صور ضوئية، الأحداث وقعت وانتهت منذ عشرات، أو آلاف، أو حتى ملايين السنين..

ثم إن السفر إلى الماضي، عبر الأنفاق الزمنية الدودية تلك، هو أمر نظري فحسب، إذ إنه من الضروري أن ينطلق المسافر عبرها، بسرعة تزيد فعليا على سرعة الضوء، وهذا مستحيل تماما، حتى بالنسبة للنظرية النسبية الخاصة، والعامة أيضا..

فوفقا لنظريتين، ستزداد كتلة الجسم، مع زيادة سرعته، حتى يبلغ سرعة الضوء، وعندئذ ستصبح كتلته لانهائية، مما يعني أنها ستحتاج أيضا إلى طاقة لانهائية لدفعها.. والأمران مستحيلان تماما..

إذن فلا داعي للقلق والغضب والاعتراض، إذ إن السفر عبر الزمن قد صار ممكنا نظريا، ومستحيلا عمليا..

ولكن مهلا.. دعونا نستخدم كلمة (كان)، بدلا من كلمة (صار) هذه..

فقبل حتى بداية التسعينات، من القرن العشرين، كان الجزء الخاص بسرعة الضوء، من نظريات (أينشتين)، التي اعتبرتها السرعة القصوى، مستحيلة البلوغ، في الكون كله، قد تراجع كثيرا، مع الكشوف الحديثة..

وأول هذه الكشوف، كان ظهور أجسام كونية، تتحرك أسرع من الضوء..

نعم.. إنك لم تخطئ قراءة العبارة، ولم تخطئ في تفسيرها....

هناك بالفعل أجسام كونية، تتحرك بسرعات تفوق سرعة الضوء..

ليس هذا فحسب، ولكنها لا يمكن أن تخفض سرعتها أيضا إلى سرعة الضوء أو أقل، وإلا فنيت وتلاشت على الفور..

وهذا يضرب نظرية (أينشتين) من جذورها، في هذه النقطة بالتحديد.

ولقد جاء كشف تلك الجسيمات الأسرع من الضوء بالمصادفة البحتة، ولكن العلماء تأكدوا من وجودها ثلاث مرات على الأقل، قبل أن يعلنوا كشفهم هذا..

ولقد فسر ذلك الكشف بعض الغموض، الذي أحاط ببعض التسجيلات، التي لم يمكن فهمها في الماضي..

بل وتحقق معمليا أيضا، في أواخر القرن العشرين، من خلال تجربة معملية علمية، تم قياسها بالفيمتو ثانية، وبأجزاء من المليون من الثانية.

ففي المعمل، تم إطلاق جسيم دقيق، بسرعة تفوق سرعة الضوء، حتى إنه قد بلغ هدفه، قبل أن ينطلق من مصدره..

ودعنا نعيد العبارة مرة أخرى، حتى لا يتصور أحدكم..

أنه قد أخطأ قراءتها..

لقد بلغ الجسيم الدقيق (هدفه)، قبل أن ينطلق من (مصدره)..

وبدقة أكثر نستطيع أن نقول إن ذلك الجسيم قد سافر عبر الزمن بالفعل إلى الماضي..

والتجربة نشرتها كل المراجع العلمية، وأشارت إليها كل الصحف العالمية، باعتبارها فتحًا مذهلا، في عالم السفر عبر (الزمكان)..

بل هي أول تجربة عملية معملية، يتحقق فيها هذا بوضوح تام، وعلى نحو لا يقبل الجدل أو الشك..

ولكن الواقع أنها ليست أول تجربة في هذا الشأن على الإطلاق..

المهم أن تلك التجربة قد أعادت فتح باب التساؤل..

المهم، المثار طوال ما يقرب من قرن كامل من الزمان..

هل السفر عبر الزمن حقيقة أم خيال؟!

هل يمكن أن يأتي وقت، يتمكن فيه البشر من السفر عبر الزمن، إلى الماضي أو المستقبل، كما أشارت قصة (ويلز)، في أواخر القرن الماضي؟!

أعني هل يمكن أن يتحقق هذا فعليا وعمليا؟!

ولأن التساؤل ظل مطروحا، فجهود العلماء ظلت مستمرة أيضا..

وفي ثلاث قارات على الأقل، راحت فرق من العلماء تسعى جاهدة، وتعمل ليل نهار؛ للتوصل إلى جواب السؤال الأزلي..

ومع الجهود، ظهرت حلول رياضية عديدة، للتغلب على صعوبات، أو فلنقل مستحيلات السفر عبر الزمن، من خلال الأنفاق الزمنية الدودية..

ومن أشهر تلك الحلول، وصف وضعه العلماء لمادة خاصة يمكن أن نطلى بها جدران أنفاق الزمن الدودية، بحيث توقف كل تأثيراتها العنيفة، على أي شيء ينطلق عبرها..

ووفقا للنظرية، ولكل المعادلات الرياضية والفيزيقية، أصبح عبور تلك الأنفاق الزمنية الدودية ممكنا، بعد طلاء جدرانها بتلك المادة..

ففي تلك الحالة، تنتفي الطاقة السلبية داخلها، ولا يحتاج عبورها إلى تلك السرعات الفائقة جدا، والتي تتجاوز سرعة الضوء..

كل شيء سيصبح مثاليا، مع مشكلة واحدة بسيطة أن تلك المادة لا وجود لها على الإطلاق ليس في الماضي، أو الحاضر.. أو حتى المستقبل القريب..

باختصار، تلك المادة مجرد فرضية علمية، ولا يوجد شبيه لها على كوكب الأرض كله، بل ولا توجد حتى وسيلة علمية أو تكنولوجية، أو تقنية، تتيح صنعها، أو صنع أي بديل مناسب لها..

ولا تجعل هذا يزعجك أو يخنقك، فكل العلوم والنظريات المدهشة التي غيرت تاريخ الأرض ومسار الطم، بدأت هكذا..

مجرد فرضية جدلية، تتحول إلى مجموعة من المعادلات الرياضية، ثم إلى حقيقة واقعة، بجهود وعقول علماء آخرين.. لذا فقد راجع العلماء أوراقهم، بحثا عن فكرة جديدة، أو آثار فكرة قديمة، تتيح لهم فرصة السفر عبر الزمن..

وهنا كانت أمامهم مفاجأة..

مفاجأة لم تخطر ببالهم..

أبدا....

☆ ☆ ☆

4- السؤال..

في بداية الثمانينات، كان حلم العلماء الأول هو بلوغ مرحلة، اعتبروها ذروة الاتصالات والانتقالات في الكون، وأطلقوا عليها اسم (الانتقال الآني).

ومصطلح (الانتقال الآتي) هذا يعني الانتقال في التو واللحظة، من مكان إلى آخر، يبعد عنه بمسافة كبيرة.. أو بمعنى أدق.. الانتقال الآن، وفورا..

وهذا الانتقال هو ما نراه في حلقات (رحلة النجوم).. تلك الحلقات التليفزيونية الشهيرة، التي تحولت إلى سلسلة من أفلام الخيال العلمي الناجحة، بالاسم نفسه، والتي نرى في كل حلقاتها شخصا على الأقل، يدخل إلى أنبوب زجاجي، لينتقل بوساطة شعاع مبهر إلى أنبوب آخر، في مكان آخر..

فكرة مثيرة مدهشة، تختصر الزمان والمكان إلى أقصى حدٍ ممكن، وكل فكرة مثلها، نجحت في إثارة اهتمام وخيال العلماء، الذين يتعاملون مع كل أمر باعتباره ممكن الحدوث، لو نظرنا إليه من زاوية ما...

وبينما اكتفى المشاهد العادي بالانبهار بالفكرة، أو الاعتياد عليها، كان العلماء يكدون ويجتهدون؛ لإيجاد سبيل علمي واحد إليها..

وعدني بأنك لن تشعر بالدهشة والمفاجأة، عندما أخبرك أنهم قد نجحوا في هذا، إلى حد ما..

نعم.. نجحوا في تحقيق ذلك (الانتقال الآني) في المعمل، ولكن هذا لم ينشر على نطاق واسع.. السؤال هو لماذا؟!

ما داموا قد توصلوا إلى كشف مذهل كهذا، فلماذا لم ينشر الأمر، باعتباره معجزة علمية جديدة، كفيلة بقلب كل الموازين رأسا على عقب؟!

والجواب يحوي عدة نقاط مهمة كالمعتاد..

فالانتقال، الذي نجح فيه العلماء، تم لمسافة تسعين سنتيمترا فحسب، ومن ناقوس زجاجي مفرغ من الهواء، إلى ناقوس آخر مماثل، تربطهما قناة من الألياف الزجاجية السميكة التي يحيط بها مجال كهرومغنطيسي قوي....

ثم إن ذلك (الانتقال الآني)، تحت هذه الظروف المعقدة، والخاصة جدا، لم ينجح قط مع أجسام مركبة، أو حتى معقولة الحجم..

كل ما نجحوا فيه هو نقل عملة معدنية جديدة، من فئة خمسة سنتات أمريكية، من ناقوس إلى آخر..

ثم إنه لم يكن انتقالا آنيا على الاطلاق، إلا لو اعتبرنا أن مرور ساعة وست دقائق، بين اختفاء العملة من الناقوس الأول، وحتى ظهورها في الناقوس الثاني، أمرا آنيًا!!

لذا، ولكل العوامل السابقة، اعتبر علماء أوائل الثمانينات أن تجاربهم، الخاصة بعملية الانتقال الآني قد فشلت تماما..

ولكن علماء نهاية التسعينات نظروا إلى الأمر من زاوية مختلفة تماما..

فمن وجهة نظر بعضهم، كان ما حدث انتقالا عبر (الزمكان)، أو عبر الزمان والمكان معا، وليس انتقالا آنيًا بالمعنى المعروف..

ومن هذا المنطلق، أعادوا التجربة مرة أخرى، ولكن من منظور مختلف تماما، يناسب الغرض الذي يسعون إليه هذه المرة.

ولتحقيق الغرض المنشود، رفعوا درجة حرارة العملة المعدنية هذه المرة، وقاسوها بمنتهى الدقة، وبأجهزة حديثة للغاية، وحسبوا معدلات انخفاضها، في وسط مفرغ من الهواء، ثم بدءوا التجربة..

وفي البداية، بدا وكأن شيئا لم يتغير..

قطعة العملة اختفت من الناقوس الأول، ثم عادت إلى الظهور في الناقوس الثاني، بعد ساعة وست دقائق بالتحديد..

ولكن العلماء التقطوا العملة هذه المرة، وأعادوا قياس درجة حرارتها بنفس الدقة، ونفس الأجهزة الحديثة للغاية.

ثم صرخوا مهللين..

فالانخفاض الذي حدث، في درجة حرارة العملة المعنية الصغيرة، كان يساوي، وفقا للحسابات الدقيقة، أربع ثوان من الزمن فحسب..

وهذا يعني أن فرضيتهم الجديدة صحيحة تماما..

فتلك السنتات الخمسة الأمريكية قد انتقلت، ليس عبر المكان وحده، ولكن عبر الزمان أيضا..

أو بالمصطلح الجديد، عبر (الزمكان)..

فعلى الرغم من أن الزمن الذي سجله العلماء فعليا، الانتقال تلك العملة، من ناقوس إلى آخر، هو ساعة وست دقائق، إلا أن زمن الانتقال، بالنسبة لها هي، لم يتجاوز الثواني الأربع..

انتصار ساحق لنظرية السفر عبر الزمن.. ولكنه يحتاج إلى زمن طويل آخر، لوضعه موضع الاعتبار، أو حتى لوضع قائمة بقواعده، وشروطه، وموصفاته....

فالمشكلة، التي مازالت تعترض كل شيء، هي أن تلك النواقيس المفرغة ما زالت عاجزة عن نقل جسم مركب واحد، مهما بلغت دقته، أو بلغ صغره..

لقد حاول العلماء هذا..

حاولوا، وحاولوا، وحاولوا... وحاولوا..

وفي كل مرة، كانت النتائج تأتي مخيبة للآمال بشدة، فالجسم المركب، الذي يتم نقله، تمتزج أجزاؤه ببعضها، على نحو عشوائي، يختلف في كل مرة عن الأخرى..

ليس كما يمكن أن يحدث، لو أننا صهرنا كل مكوناته بعضها مع البعض، ولكنه امتزاج من نوع عجيب، لا يمكن حدوثه في الطبيعة، حيث تنوب بعض الجزيئات في بعضها، لتمنحنا في النهاية شيئا لا يمكن وصفه..

ووفقا لهذا، فالسفر عبر الزمن مازال يحمل تلك الصفة المزدوجة المتناقضة، التي تثير حيرة الكل بلا استثناء..

إنه ممكن ومستحيل، في آن واحد..

ممكن جدا؛ بدليل أنه يحدث من آن إلى آخر..

ومستحيل جدا؛ لأنه لا توجد وسيلة واحدة لكشف أسرار وقواعد حدوثه، في أي زمن..

بل ولا توجد حتى وسيلة للاستفادة منه..

ولقد كاد الأمر يصيب العلماء بإحباط نهائي، لولا أن ظهر عبقري آخر، في العصر الحديث، ليقلب الموازين كلها رأسا على عقب مرة أخرى..

إنه (ستيفن هوكنج)، الفيزيائي العبقري، الذي وضع الخالق (عز وجل) قوته كلها في عقله، وسلبها من جسده، الذي أصيب في حداثته بمرض نادر، جعل عضلاته كلها تضمر وتنكمش، حتى لم يعد باستطاعته حتى أن يتحرك، وعلى الرغم من هذا فهو أستاذ للرياضيات بجامعة (كمبردج البريطانية، ويشغل المنصب ذاته، الذي شغله (اسحق نيوتن)، واضع قوانين الجاذبية الأولى، منذ ثلاثة قرون.

والعجيب أن (ستيفن هوكنج) قد حدد هدفه منذ صباه، ففي الرابعة عشرة من عمره، قرر أن يصبح عالما فيزيائيا....

وهذا ما كان..

ولقد كشف (ستيفن هوكنج) عن وجود أنواع أخرى من الثقوب السوداء، أطلق عليها اسم (الثقوب الأولية)، بل وأثبت أن تلك الثقوب تشع نوعا من الحرارة، على الرغم من قوة الجذب الهائلة لها..

ومع كشوفه المتتالية، التي قوبلت دوما باستنكار أولى، ثم انبهار تال، فتح (هوكنج) شهية العلماء؛ للعودة إلى دراسة احتماليات السفر عبر الزمكان) الكوني؛ لبلوغ كواكب ومجرات، من المستحيل حتى تخيل فكرة الوصول إليها بالتقنيات المعروفة حاليا..

وهنا ظهرت إلى الوجود مصطلحات وكشوف جديدة، مثل أنفاق منظومة الفضاء والزمن، والدروب الدوارة، والنسيج

الفضائي، وغيرها، وكل مصطلح منها يحتاج إلى سلسلة من المقالات لوصفه، وشرح، وتفسير أبعاده المعقدة، وأهميته المدهشة في عملية السفر عبر الزمان والمكان.. أو (الزمكان)..

وأصبح ذلك المصطلح يضم قائمة من العلماء، إلى جوار (ألبرت أينشتين)، مثل (كارل شفارتز شيلد)، و (مارتن كروسكال)، و (كيب ثورن)، و (ستيفن هوكنج)

وبالنسبة للمعادلات الرياضية، مازال السفر عبر الزمن ممكنا، ومازال هناك احتمال لأن يسير الزمن على نحو عكسي، في مكان ما من الفضاء أو الكون، أو حتى في بعد آخر، من الأبعاد التي تحدث عنها (أينشتين) والآخرون..

وما زالت هناك عمليات رصد لأجسام مضادة، تسير عكس الزمن، وتجارب علمية معملية، تؤكد احتمالية حدوث هذا الأمر الخارق للمألوف، تحت ظروف ومواصفات خاصة ودقيقة جدا..

ومازال العلماء يجاهدون، ويعملون، ويحاولون..

ولكن يبقى السؤال نفسه، حتى لحظة كتابة هذه السطور....

هل يمكن أن تتحول قصة (آلة الزمن) يوما ما إلى حقيقة؟!

وهل يتمكن البشر يوما من السفر عبر الماضي السحيق، أو المستقبل البعيد؟!

هل؟!

من يدري؟!

ربما!

☆ ☆ ☆

تجربة (فيلادلفيا)

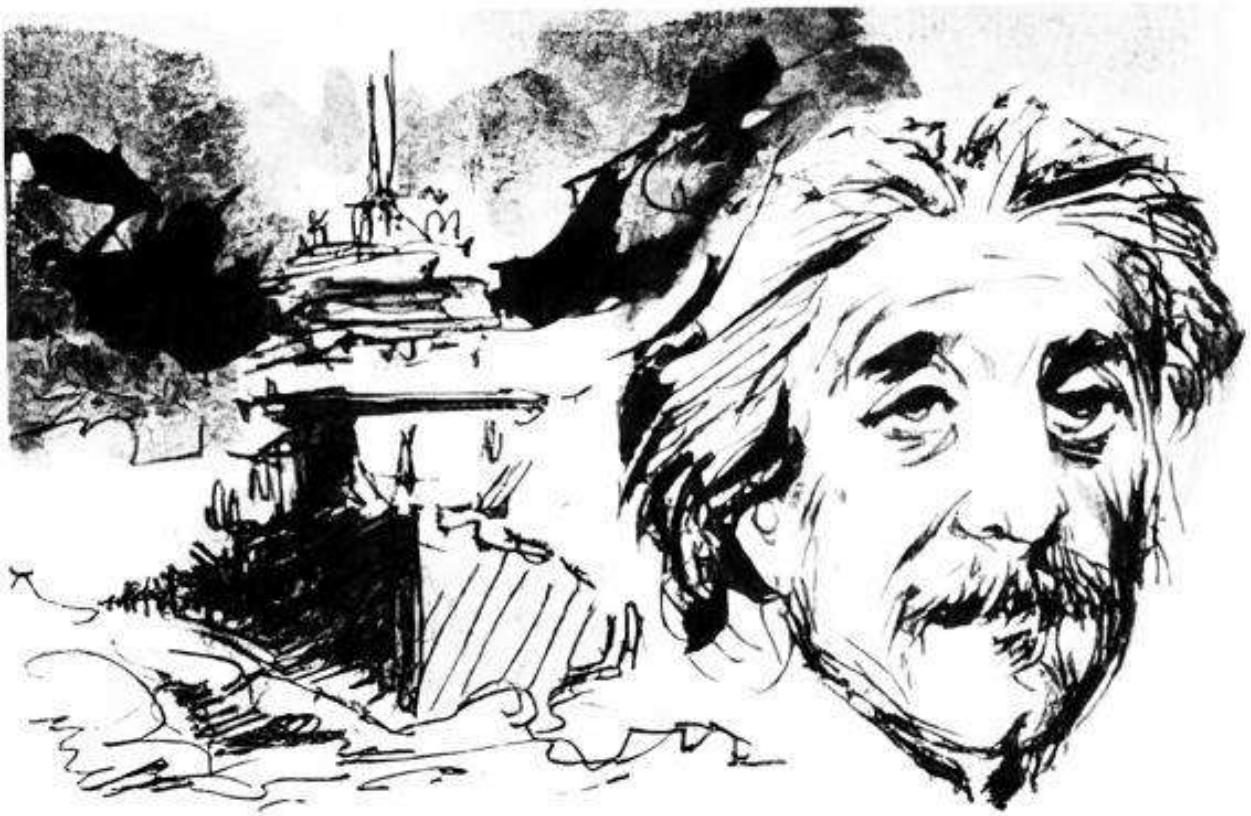

18- تجربة (فيلادلفيا)..

1- المجنون..

كل شيء كان يبدو هادئا، في ذلك الصباح المشرق، من صيف عام 1954 م، عندما أوقف (جون كارنبتر)، الصحفي في جريدة محلية صغيرة في (بوسطن) سيارته، أمام مقهى شعبي بسيط، على مشارف ولاية (نيو جيرسي) الأمريكية؛ ليتناول قدحا من

القهوة، قبل أن يكمل رحلته الطويلة؛ لحضور حفل زفاف شقيقه الوحيد (ألبرت) في مدينة (دوفر)..

وداخل المقهى، كان هناك ثلاثة من كبار السن، يتناولون إفطارهم في هدوء، ويتبادلون أحاديث مهمة، وكأنهم يخشون أن يرتفع صوتهم، فيحطم ذلك الصمت الساكن، الذي يلف المكان كله..

وبصوت خافت، صنعة إحساسه بالمكان، طلب (جون) قدح قهوة بدون سكر، و....

وفجأة، اقتحم ذلك الرجل المكان..

رجل تجاوز الأربعين من عمره بعلم أو عامين على الأكثر، ويوحى بنيانه بأنه كان يمارس يوما عملا شاقا منتظما، يحتاج إلى قوة بدنية عالية، في حين يمنحه شعره، الذي امتزج سواده ببياضه، مظهرا أقرب إلى الوسامة المعتدلة، التي كان من الممكن أن يتمتع بها وجهه كله، لولا نظراته الزائفة، ولهجته الحادة إلى حد ما، وهو يهتف بصوت مرتفع، بدا وكأنه قد شق السكون والصمت في قسوة:

- من صاحب تلك السيارة الصغيرة في الخارج؟!

كان من الواضح أن كل الحاضرين يعرفونه جيدا، فقد أداروا أبصارهم إليه لحظة في إشفاق، ثم لم يلبث كل منهم أن عاد إلى ما يشغله، وكأنهم لم يسمعوا حتى ما هتف به ذلك القادم...

أما (جون)، فقد انتفض جسده مع الهتاف المباغت، الذي أفسد ما شعر به من استرخاء في المكان، فاستدار إلى صاحبه، وهمّ بإبلاغه أنه صاحب السيارة الصغيرة في الخارج، وأن المكان متسع، بحيث لا يمكنه أن يتصور أن سيارته هذه، يمكن أن

تسبب لأي مخلوق أية مشكلة، من أي نوع.. ولكنه لم يكن قد نطق بحرف واحد بعد، عندما اتجه الرجل نحوه مباشرة، ولوح بسبابته في وجهه، هاتفا:

- أنت صحفي.. أليس كذلك؟!

از درد (جون) لعابه، وهو يجيبه:

- بلى.. هل من خدمة يمكنني أن....

قاطعه الرجل، قبل أن يتم سؤاله:

- إنك تعتقد أنني مجنون.. أليس كذلك؟!

لم يدر (جون) بم يمكن أن يجيب سؤالا كهذا، وشعر بحرج شديد في أعماقه، وهو يتطلع إلى الرجل، مغمغما:

- الواقع أن...

مرة أخرى، قاطعه الرجل، وهو يميل نحوه، قائلا في توتر بالغ:

- هذا ما يريدونه بالضبط.. أن نبدو كالمجانين.. أن يظن الكل أننا فاقدو العقول.. أتعلم لماذا؟!

لم يفهم (جون) من هؤلاء، ولا ما الذي يريدونه، إلا أنه تمتم في خفوت، وهو يتطلع إلى الرجل مباشرة:

- لماذا؟!

أشار الرجل إلى رأسه، وهو يميل نحوه أكثر، قائلا بلهجة عجيبة:

- حتى لا يصدقنا أحد..

تضاعفت حيرة (جون)، وهو يتطلع إلى وجه الرجل، الذي اعتدل بحركة واحدة، وهز رأسه، مستطردا في أسي شديد:

- ولقد نجحوا في هذا.. لم يصدقنا أحد.. لقد عشت التجربة بنفسي، ورأيت ما يمكن أن يصيب أكثر الناس عقلا بالجنون، ولا أحد يصدقني..

بدا الضجر والتبرم، على وجه صاحب المقهى، وهو يقول في شيء من الخشونة والغلظة:

- عد إلى منزلك يا (فيليب).. الوقت مازال مبكرا على ما تفعله.

لوح (فيليب) هذا بذراعه كلها، صائحا:

- الوقت مازال مبكرا؟! أي قول هذا يا رجل.. أتظنني مخمورا؟!

إنني لم أتناول قطرة واحدة من الخمر هذا الصباح، ولكن الصحافة ينبغي أن تعرف الحقيقة.. كل الحقيقة..

جذبت العبارة انتباه (جون) بشدة، وخاصة عندما حملت الكلمتين، اللتين تعنيان عنده كل شيء..

الصحافة.. والحقيقة..

وفي حدة واضحة، كرر صاحب المقهى:

- عد إلى منزلك يا (فيليب).

ولكن (جون) أشار إليه بالهدوء، وهو يسأل الرجل في اهتمام:

- أية حقيقة يا سيد (فيليب)؟!

أجابه الرجل في سرعة:

- (دوران).. اسمي (فيليب دوران).. خاطبني باسم السيد دوران ...

سأله (جون) مرة أخرى، في اهتمام أكثر:

- فليكن.. ما الحقيقة التي تعنيها يا سيد (دوران)؟!

التقط (فيليب) نفسا عميقا، قبل أن يميل نحوه، قائلا بلهجة خاصة، توحي بأهمية خطورة الأمر..

لم يفهم (جون) ما يعنيه هذا بالضبط، ولكنه تمتم:

- تختفي؟! أتقصد تغرق؟!

- حقيقة السفينة (DE-173)..

وبح صوته مع انفعاله الجارف، وهو يميل أكثر، مكملا:

- لقد رأيتها تختفي أمام عيني.. بكل ما عليها، ومن عليها.

هز (فيليب) رأسه في قوة، وهو يلوح بذراعه، هاتفا:

- لا.. لم تغرق.. اختفت.. تلاشت.. أحاط بها بخار رمادي خفيف، ثم اختفت..

وارتفع صوته بغتة، كما لو أن نوبة من الجنون قد أصابته وهو يتابع:

- تماما مثل فيلم (الرجل الخفي).. هل تذكره؟!

اتسعت عينا (جون) عن آخرهما، وهو يحدق في وجه (فيليب)، في حين صاح صاحب المقهى في غضب:

- (فيليب).. لقد حذرتك من القدوم إلى هنا، وترديد تلك الخزعبلات.. هيا.. انصرف.. عد إلى منزلك، وإلا....

صاح (فيليب) في ثورة:

- ليست خزعبلات.. لقد رأيتها بنفسي..

اختطف صاحب المقهى بندقيته، وصوب فوهتها إلى (فيليب)، صائحا في خشونة شديدة قاسية:

- عد إلى منزلك..

مط (فيليب) شفتيه في يأس، وهز رأسه مستسلما، ثم أدار وجهة إلى (جون)، وكرر في إصرار:

- لقد رأيتها تختفي..

ثم استدار، وغادر المكان بخطوات متثاقلة مرهقة، جعلته يبدو وكأنه يفوق عمره الحقيقي بثلاثين عاما على الأقل، في حين أعاد صاحب المقهى بندقيته إلى موضعها، وهو يقول في غلظة:

- لا تلق بالا لحديثه هذا.. إنه مجنون بالفعل.. كان مجندا في مشاة البحرية، خلال الحرب العالمية الثانية، وخرج منها عام 1944 م، بسبب جنون صنعه الخوف، وقضى ما يقرب من ثماني سنوات، في مصحة للأمراض النفسية والعصبية، ومنذ سمحوا له بالخروج منها، وهو يردد هذه السخافات..

تألقت عينا (جون)، على نحو أدهش صاحب المقهى نفسه، وهو يسأله في لهفة شديدة:

- كان أحد جنود مشاة البحرية؟! قل لى يا رجل: هل تعلم أين كانت وحدته بالضبط؟!

رمقه صاحب المقهى بنظرة حذرة، وهو يجيب:

- في (فيلادلفيا)، حسبما أذكر..

وهنا، تضاعف تألق عيني (جون)، وهو يهتف:

- (فيلادلفيا).. آه.. كنت أتوقع هذا.

ثم اندفع خارج المقهى، في محاولة للحاق بالرجل، وهو يهتف:

- سيد (دوران).. انتظرني.. أريد أن أتحدث إليك.. صحفيا..

واتسعت عيون الجميع في دهشة مستنكرة، وقد بدا لهم لحظتها أن (جون) هو المجنون الحقيقي في هذا الأمر..

ولم يخطر ببال أحدهم لحظة واحدة، أن (جون كارنبتر) قد وضع يده، في تلك اللحظة التاريخية، على طرف الخيط، الذي سيقوده إلى كشف أخطر تجربة بحرية عسكرية، أجرتها الولايات المتحدة الأمريكية، في تاريخها كله..

تجربة (فيلادلفيا)..

الرهيبة..

☆ ☆ ☆

2- أينشتين..

منذ وضع نظريته النسبية، عام 1905 م، سجل (ألبرت أينشتين) اسمه، في تاريخ العلم الحديث، كواحد من أكثر العلماء عبقرية وجرأة، خاصة وأن نظريته المدهشة قد صنعت منعطفا هائلا في مسار العلم الفيزيائي كله..

ولأن طبيعة العلماء تدفعهم دوما للبحث والدراسة، مهما حققوا من نتائج، ومن نجاحات، فقد انشغل العالم الفذ، منذ أوائل عام 1916 م، في دراسة ما أطلق عليه اسم (نظرية الحقل الموحد)،،

ففي ذلك الحين، راودت (أينشتين) فكرة ألا تكون الجاذبية الأرضية قوة على الإطلاق، بل مجرد خاصية من خواص ما أسماه (الزمكان)، أو ارتباط طاقة الزمن بالمكان..

وتمادي (أينشتين) في بحثه هذا، إلى درجة قوله: بأن ما نطلق عليه اسم المادة، ليس أكثر من منطقة، حدث فيها تركيز بالغ القوة لطاقة ذلك الحقل الموحد، بحيث صارت ملموسة ومحسوسة.

باختصار، أراد صاحب النظرية النسبية أن يثبت، أن المادة هي صورة من صور الطاقة، وليس العكس..

وعلى الرغم مما يتمتع به (ألبرت أينشتين)، من مصداقية واحترام، في الأوساط العلمية والفيزيائية، إلا أن نظريته الجديدة..

هذه قوبلت بشيء من التحفظ والحذر، باعتبار أن كل قواعد العلم تؤكد أن المادة والطاقة يتواجدان جنبا إلى جنب في

الحياة، وأن المادة يمكن أن تتحول إلى طاقة، بالاحتراق أو التبخر مثلا، في حين تقول نظرية (أينشتين) الجديدة إن كل ما يحدث هو أن الطاقة تعود إلى حالتها الأولى فحسب، عندما تتحلل من صورتها المادية..

وعلى الرغم من الاعتراضات العديدة، واصل (أينشتين) العمل في نظريته هذه، وفي محاولاته لإثبات أن الجاذبية ليست قوة في حد ذاتها، وانما هي تأثير من تأثيرات الاندماج، أو التناغم، بين عدة قوى أخرى، على رأسها المجالات الكهرومغناطيسية الأرضية..

وفي عام 1927 م، بدأ (أينشتين) يمزج نظريته هذه، مع نظرية تبادل الطاقة، التي تقول: إن كل نوع من الطاقة يمكن أن ينشأ من نوع آخر منها، تماما كما يمكن توليد الكهرباء بوساطة مغنطيس، في المولدات الكهربية العادية، في نفس الوقت الذي يمكن فيه توليد المغنطيسية من الكهرباء، كما نجد في المغنطيس الكهربي..

وهنا، وضع العالم الفيزيائي العبقري يده، على حقائق (نظرية الحقل الموحد)..

وهذا الحقل هو ما ينشأ من مزج الطاقة الكهربية بالمجال المغنطيسي للأرض، والجاذبية الأرضية، والأشعة الكونية والنووية معًا..

وطوال عمره، الذي تجاوز السادسة والسبعين، ظل (أينشتين) وحده في هذا الملعب، يسعى لإثبات (نظرية الحقل الموحد)، في حين يصر باقي العلماء على أنه يلاحق هدفا وهميا، في محاولة عابثة، لإيجاد قواعد النظام الفوضى (على حد قولهم)..

ولكن هناك بعض الأدلة، التي تشير إلى أن (أينشتين) قد أجري بالفعل تجربة عملية، على تأثير الحقل الموحد هذا..

وأنها كانت تجربة رهيبة.

إلى أقصى حد..

ففي (نيو جيرسي)، عام 1954 م، وعندما لحق الصحفي (جون كارنبتر) بذلك الرجل (فيليب دوران)، الذي يتصوره سكان بلدته مجنونا، وجمعتهما جلسة واحدة هادئة، قال (فيليب):

- كان هذا في أكتوبر 1943 م، عندما أخبرونا أنهم سيجرون تجربة خاصة جدا، على سلاح جديد، لو نجح، فسيؤدي إلى سحق الأسطولين، الألماني والياباني معا، بأقل خسائر ممكنة.. وفي ذلك اليوم، اجتمع كبار القادة في (فيلادلفيا).. في القاعدة البحرية هناك، وجاء بعض المدنيين، أحدهم كان طويل الشعر أشيبه صاحب شارب كث، أثار سخرية البحارة، وكان من الواضح أنهم بولونه جميعا اهتماما بالغا، وهو يشرف على تركيب بعض الأجهزة، التي لم أر مثلها قط، ثم جاءت السفينة (DE-173)..

راح (فيليب) يلهث على نحو عجيب، من فرط الانفعال، عندما بلغ هذه النقطة، فتناوله (جون) قدحا من الماء، وهو يسأله في اهتمام:

- هل تعرف اسم ذلك المدني طويل الشعر؟!

هر (فيليب) رأسه نفيا، وهو يجرع قدح الماء، ثم أجاب:

- أظنني رأيته في مكان ما، ولكنني لست أذكر أين بالضبط!!

أومأ (جون) برأسه متفهما، وسأله:

- ماذا حدث، بعد قدوم السفينة (DE-173)؟!

تنهد (فيليب) في عمق، قت، وقد عاوده ذلك اللهاث الانفعالي:

- كانت هنالك سفينتان أخريان، على جانبي (DE-173)، وعلى متنهما تلك الأجهزة العجيبة، ولقد راحتا تبثان طاقة ما، نحو السفينة.. في البداية، بدا الأمر أشبه بأزيز ينتشر في الهواء، ثم تحول إلى طنين قوي، وبعدها أصبح ارتجاجا عنيفا، جعلني أغلق عيني في قوة، ورأسي يكاد ينفجر، وعندما فتحتهما ثانية، كان هناك ضباب رمادي خفيف، يحيط بالسفينة (DE-173)، ثم لم يلبث ذلك الضباب أن أصبح شفافا، واختفت داخله السفينة تماما، حتى لم يعد يظهر سوى أثرها على سطح الماء..

اتسعت عيناه، وكأنما يستعيد ذكرى تلك اللحظات الرهيبة، وهو يلوح بكفيه في الهواء، متابعا في انفعال:

- كنت أسمع صراخا رهيبا، ينبعث من الفراغ، الذي تركته السفينة خلفها، وكأنما يعاني بحارتها عذابا يفوق احتمال البشر، ولكن الكل أكدوا أنهم لا يسمعون شيئا، وأنني أتوهم فحسب..

حتى عادت السفينة للظهور، وتلاشت تلك السحابة الرمادية..

وعرفنا ما حدث..

كان الهلع محفورا على ملامحه، وهو ينطق الجملة الأخيرة، مما دعا (جون) إلى أن يسأله في لهفة:

- وماذا حدث؟!

اتسعت عينا الرجل أكثر، وهو يلوح بذراعيه كلهما، مجيبا:

- أمور رهيبة.. رهيبة إلى حد لا يمكن وصفه.

ثم مال نحوه، مضيفا في ارتياع:

- الرجال أصيبوا بصدمة هائلة.. بعضهم شعر بآلام مفزعة، في كل خلية من جسده، والبعض الآخر شاهد أشباحا، والبعض الثالث فوجئ بمخلوقات عجيبه تهاجمه.. المهم أنهم عانوا جميعا من عذاب لا مثيل له، خلال الدقائق القليلة، التي اختفوا فيها، مع (DE-173)..

اتسعت عينا (جون) عن آخرهما، وهو يحدق في وجه (فيليب)، الذي شحب حتى نافس وجوه الموتى، من هول ما تستعيده ذاكرته..

ولم تكن هذه أول مرة، يسمع فيها الصحفي (جون كارنبتر)، بأمر تجربة (فيلادلفيا) الرهيبة هذه..

ففي عام 1953 م، التقى بضابط سابق من البحرية، همس في أذنه بأنه قد سمع من بعض القادة القدامى، أن تجربة علمية مدهشة قد أجريت، في منطقة أمنية خاصة، في ساحة البحرية في (فيلادلفيا)، لإخفاء مدمرة كاملة، كوسيلة لابتكار سلاح سري خفي، قادر على مباغتة الأسطول الياباني، في عرض المحيط الهادي..

ومنذ ذلك الحين، ترامي إلى مسامعه الكثير من الأحاديث، حول التجربة الرهيبة، ولكنها كلها لم تحمل لمحة تأكيد واحدة، مما جعله يتجاهل الأمر برمته، ولا يوليه الاهتمام الكافي، باعتبار أن كل ما يسمعه مجرد شائعات، أو أمور أسيء فهم مدلولاتها كما يحدث في كثير من الأحيان..

حتى التقى بذلك الرجل (فيليب دوران)..

فعلى الرغم من أن الكل يعتبر (فيليب) هذا مجنونا، إلا أن كونه أحد مشاة البحرية، خلال الحرب العالمية الثانية، في منطقة

(فيلادلفيا) بالذات، كان يمنح حديثه شيئا من المنطقية.

ثم إنه كان أول شاهد عيان على ما حدث

وبحركة مفاجئة، هب (جون) من مقعده، واندفع نحو كومة مهملة من الصحف، والتقط من بينها صحيفة قديمة، وضعها أمام (فيليب)، وهو يشير إلى صورة في واجهتها، متسائلا:

- هل يمكنك أن تجد ذلك الأشيب طويل الشعر، كث الشارب هنا؟!

ألقي (فيليب) نظرة ممعنة على الصورة، قبل أن يشير إلى أحد الأفراد فيها، وهو يجيب في ثقة وحزم:

- إنه هذا الرجل.

وتألقت عينا (جون كارنبتر) في شدة..

فالرجل الذي تعرفه (فيليب) في الصورة، باعتباره ذلك الذي كان يشرف على الأجهزة، في تجربة (فيلادلفيا)، لم يكن سوى (أينشتين)...

(ألبرت أينشتين).. شخصيا..

☆ ☆ ☆

3- شهود العيان..

على الرغم من أن الصحفي (جون كارنبتر) قد حصل على قصة مدهشة، حول تلك التجربة الرهيبة، التي قامت بها البحرية الأمريكية في (فيلادلفيا)، في أكتوبر 1943 م، لإخفاء السفينة الحربية (DE-173)، والتي تسببت في كارثة بشعة، لكل من كان على ظهر السفينة، إلا أنه كان يدرك جيدا استحالة نشر القصة، خاصة وأن الشاهد الوحيد، الذي روى ما حدث، يعتبر من الناحية القانونية - مجنونا..

ولقد حار (جون) طويلا، في إيجاد حل لهذه المشكلة، قبل أن يتفتق ذهنه عن حل جيد..

ففي الصفحة الثالثة، من جريدته المحلية، وأسفل أخبار الحوادث المحدودة، روى (جون) كل ما حدث، في أثناء رحلته إلى (دوفر)؛ لحضور حفل زفاف شقيقه (ألبرت)..

وبأدق التفاصيل..

ثم انتظر..

كان كل ما يأمله، هو أن تجرى البحرية الأمريكية اتصالها به؛ لتنفي القصة تماما..

ولكن هذا لم يحدث أبدا..

لقد تجاهلت البحرية الأمريكية الموقف تماما، وكأنه لم يكن، ولم تحاول النفي أو التكذيب، أو حتى الاستنكار، بل تصرفت كما ينبغي أن تفعل، لو أن هذه مجرد ترهات مخبول ومن المؤكد أن هذا التجاهل كان مدروسًا بمنتهى الدقة، من قبل البحرية الأمريكية؛ إذ إن التجاهل التام كفيل بإنهاء الموقف كله، في حين

أن أي رد فعل إيجابي آخر، مهما كان هدفه، سيمنح (جون) فرصة الرد، والتعليق، وربما التمادي أيضا.. وصنع قضية ترغب القيادة كلها في إغلاق كل أبوابها إلى الأبد..

والواقع أن هذا قد أغضب (جون) بشدة..

أغضبه؛ لأنه يفسد خطته كلها، وينسفها من أساسها؛ فمن غير المنطقي أن يواصل نشر أية مقالات، حول الأمر نفسه، دون ردود أفعال واضحة من جهة ما، خاصة وأن معظم من قرأ القصة لم يولها الكثير من الاهتمام، باعتبار أن راويها مجنون، وأن القصة نفسها عسيرة التصديق..

وبدأ (جون) يشعر باليأس، وفكر في تجاهل الأمر كله، ونسيان ما سمعه من (فيليب دوران)، و...

وفجأة، وصل ذلك الخطاب...

خطاب يحمل توقيع (باتريك ماسي) المتخصص، والباحث في مجال الكهرباء، والذي قال فيه، بالحرف الواحد:

- «مررت بتجربة غير عادية، في أثناء الحرب العالمية الثانية، عندما كنت أخدم في صفوف البحرية، في أواخر 1945 م، عندئذ كنت في موقع ما، في أثناء خدمتي في واشنطن)، وأتيح لي أن أشاهد جزءا من فيلم خاص جدا، كان يشاهده بعض ضباط البحرية، من كبار الرتب، وكان يدور حول تجربة ما، تجري في البحر، ولأن مهامي الأمنية لم تكن تسمح لي بالجلوس ومشاهدة الفيلم، إلا أنني استطعت أن ألمح جزءا منه، حيث كانت هناك سفينتان تبثان نوعا من الطاقة، نحو السفينة الوسطى، وأظنها كانت موجات صوتية، إلا أنني لست واثقا من هذا.. المهم أن السفينة الوسطى قد اختفت، داخل ضباب شفاف، على نحو

بطيء، بحيث لم يعد لها من أثر، سوى ما تركته على سطح الماء، قبل أن تعود إلى الظهور في بطء، وبعد الفيلم، سمعت القادة وهم يناقشون ما رأوه، وكان أحدهم يقول: إن سبب المشكلة، التي أصابت أفراد طاقم السفينة، هو استمرار الحقل الموحد لفترة طويلة..»

إلى هنا، انتهت رسالة (باتريك)، التي يمكن اعتبارها نسخة لشهادة (فيليب)، باستثناء أمر واحد فحسب، إنها أول مرة، يذكر فيها اسم (الحقل الموحد)..

ولأن (جون) كان دارسنا جيدا للعلوم، فقد جذب المصطلح انتباهه واهتمامه، فراح يبحث عنه، في كل الموسوعات العلمية المعروفة، وكل المجلات العلمية المتخصصة، حتى عثر أخيرا على مقال، يهاجم فيه أحد العلماء تلك النظرية، التي حاول (أينشتين) إثباتها، منذ ما يقرب من أربعة عقود من الزمن..

نظرية الحقل الموحد..

وهنا، أيقن (جون) من أن حديث (فيليب) لم يكن مجنونا، بل كان حقيقيا إلى أقصى حدّ..

ونشر (جون) خطاب (باتريك)، إلى جوار رأيه الشخصي حول الأمر، كما ربط كل هذا بنظرية (أينشتين)، حول الحقل الموحد للطاقة..

وهنا، تفجر الموقف إلى أقصاه..

وانهالت الخطابات والتعليقات على الجريدة..

وتحول الأمر فجأة إلى قضية كبرى، حتى إن ثقا من الصحف الكبرى، في الولايات المتحدة الأمريكية، أعادت نشر مقال

(جون)، لتقرأ (أمريكا) كلها قصة تجربة (فيلادلفيا).

وهنا أصبح السكوت مستحيلا..

وعلى الرغم من أن البحرية الأمريكية لم تصدر بيانا رسميا حول الأمر، إلا أن أحد قادتها صرح، في مؤتمر صحفي غير رسمي، أن ما نشر مجرد خزعبلات، وأنه من المضحك أن يقال إن إخفاء سفينة حربية كاملة، يمكن أن يكون حقيقة واقعية.

وبدلا من أن يهدئ هذا التصريح الموقف، فإنه أشعله بشدة..

وبدأ (جون) يجرى تحرياته على نطاق واسع، بتمويل من إحدى الصحف الكبرى في (واشنطن)، كما اضطر للاستعانة بثلاثة من المعاونين، لفرز كل ما يصله من خطابات ورسائل وبرقيات، لاختيار ما تلوح الجدية من بين سطوره، واستبعاد محاولات الشهرة والجدل العقيم..

ولقد تأكد (جون) من أن (فيليب دوران) كان يعمل في قطاع الأمن، في مشاة البحرية الأمريكية، في (فيلادلفيا)، في أكتوبر 1943 م، كما حصل على وثائق تثبت عمل (باتريك ماسي)، كخبير في الكهرباء، وانتدابه من البحرية إلى القيادة في (واشنطن)، خلال عام 1945 م، مما يمنح شهادة الرجلين مصداقية لا بأس بها..

ثم توصل إلى حقيقة أخرى مدهشة..

فما يقرب من 66 ٪ من أفراد طاقم السفينة الحربية (DE-173)، تم إيداعهم مصحات نفسية وعصبية، خلال الفترة من نوفمبر 1943 م، وحتى ديسمبر 1945 م، وبعضهم ظل هناك حتى منتصف الخمسينات..

وتساءل (جون كارنبتر)، في مقالة التالي:

- أمن المنطقي أو المعقول، أن يصاب كل هذا العدد من رجال البحرية، من سفينة واحدة، باضطراب عقلي مشترك، دون سبب واضح؟!

وجاء السؤال كطعنة في الصميم، لقيادات البحرية الأمريكية، التي واصلت عدم التعليق رسميا، ولكنها أخفت - في الوقت ذاته - كل الأوراق والوثائق، الخاصة بالسفينة المنكوبة..

- وعلى الرغم من توالى الشهادات من كل صوب، على مكتب (جون كارنبتر)، ومن أن العشرات من بحارة طاقم DE-173)) قد قصوا القصة نفسها، وأيدوا ما قاله (فيليب) و (باتريك)، إلا أن جميعهم كانوا يحملون شهادة طبية رسمية، تؤكد أنهم ليسوا في حالتهم الطبيعية، مما جعل شهادتهم بلا سند قانوني مؤكد..

وربما كان هذا هو السبب الرئيسي، الذي دفع قيادات البحرية إلى إيداعهم هذه المصحات، خلال فترة الحرب، وما بعدها..

وفي رسالة أحد البحارة، وهو (مايكل جريج)، المسئول الثاني عن الدفة، قال الرجل:

- كنا على ظهر السفينة، نعلم جيدا أنهم سيقومون بتجربة سلاح ما، وكان معظمنا مفعما بالحماسة، ثم بدأت تلك المولدات الضخمة في العمل، وشعرنا وكأن رءوسنا ستنفجر، وكادت قلوبنا تثب من صدورنا، مع عنف خفقاتها، وبعدها أحاط بنا ضباب أخضر كثيف، وأظلمت الدنيا من حولنا، وكأننا قد فقدنا أبصارنا، فاستولى الرعب على معظمنا، وراح الكل يعدو بلا هدف، في كل مكان وكل اتجاه، وتصورت أننا قد غرقنا في عالم آخر، أو ان عقولنا قد أصابها الجنون، مع تلك الهلاوس

التي تراءت لنا، فصديقي (ميجور) أقسم إنه يرى زوجته الراحلة، والضابط (براد) راح يضحك في جنون، والقبطان (رود) أخذ يدير الدفة في حركات هستيرية، وهو يصرخ بأنه من الضروري أن نخرج من بحر الظلمات هذا، أما أنا، فلقد التقيت بمخلوقات من عالم آخر، أو هي وحوش، أو لعلها مجرد هلاوس مجنونة.. المهم أن ما عانيناه هناك لم يكن عاديا أبدا، بل كان يستحق أن نصاب بجنون حقيقي..

كان أول حطاب من أحد بحارة السفينة المنكوبة، وإن كان إثبات هذا أمرا مستحيلا، بعد أن أخفت البحرية كل الوثائق الرسمية، وواصلت إصرارها على رفض التحدث عن الأمر، على الرغم من سيل الخطابات، واهتمام الرأي العام..

ثم وصل إلى (جون) فجأة خطاب خطير..

خطير إلى أقصى حد..

هذا لأنه كان كافيا؛ ليقلب الأمور كلها رأسا على عقب..

وبعنف..

☆ ☆ ☆

4- الرسالة..

استمر صراع (جون كارنبتر) طويلا، في محاولته لإثبات قيام البحرية الأمريكية بتلك التجربة الرهيبة، التي حاولت فيها إخفاء سفينة حربية كاملة، لولا أن أصيب طاقمها بأضرار فادحة، حتمت إيقاف التجربة وعدم تكرارها..

وعلى الرغم من سيل الخطابات والرسائل، ومن شهود العيان، الذين وصفوا ما حدث على سطح السفينة، ظل الأمر كله أشبه بلعبة عبثية، مع غياب الدليل المادي الحاسم، على حدوث تلك التجربة، خاصة وأن كل الشهود كانوا من نزلاء المصحات النفسية السابقين، ومن بحارة السفينة أيضا..

ومع مواصلة البحرية صمتها العنيد، بدأ الموقف ينحسر، وراح اهتمام العامة يقل تدريجيا، و...

وفجأة، وصلت رسالة بالغة الخطورة..

رسالة تحمل توقيع العالم الفيزيائي المعروف (ألند)..

وفي رسالته، قال (الند):

- «لن يمكنكم أن تتصوروا عظمة تجربة (أينشتين)، التي لم يعترف بها أحد.. لقد دفعت يدي حتى المرفق، داخل حقل الطاقة الفريد هذا، بمجرد أن بدأ في التدفق، في عكس اتجاه عقارب الساعة، حول السفينة البحرية (DE-173)، ولقد شعرت به يعبر يدي الممدودة داخله.. أما الهواء حول السفينة، فقد تحول في بطء إلى لون قاتم، قبل أن يتكون سديم رمادي ضبابي، أشبه بالسحاب الخفيف، أظنه الجسيمات الذرية، أو

الهواء المتآين، حول السفينة، التي راحت تختفي تدريجيا، عن الأعين البشرية..

هذا الحقل يوحي بأنه هناك كهربية صافية تحيط به بمجرد تدفقه، ولقد كان من القوة، بحيث كاد يبتلع جسدي كله، عندما بلغت كثافته أقصاها؛ إذ راح يتحرك بغتة في اتجاه عقارب الساعة، وأظن أن هذا الانعكاس في الحقل، هو سبب فشل التجربة..»..

رسالة كهذه، من عالم له مكانته مثل (ألند) كانت تكفي لكسر حاجز صمت البحرية بعنف، مما أجبر قيادتها على الإدلاء ببيان رسمي، قالت فيه باختصار، أقل ما يوصف به هو أنه مخلّ، وغير مُشبَّع:

- لا يوجد في ملفات البحرية كلها، ما يحمل اسم (تجربة فيلادلفيا)..

ولقد فجر هذا البيان المختصر، موجة من السخط والغضب في كل الأوساط..

بل وموجة من السخرية أيضا، فقد كتب (جون)، في مقاله التالي، إنه لم يسمع أو يقرأ، في حياته كلها، بيانا أكثر سخافة وسذاجة، من بيان قيادة البحرية هذا؛ إذ إنه ليس بالضرورة أن تحمل التجربة، في ملفات البحرية، اسم (تجربة فيلادلفيا)، الذي أطلقه هو على الأمر، وأنه من المحتم أن يكون لها كود سري خاص، مثل (الرجل الخفي)، أو (الفراغ)، أو أي اسم آخر..

ثم عاد ينشر شهادة العالم البروفيسور (ألند) وكأنه يتحدى بها كل قيادات البحرية..

وانتقلت العدوى إلى عشرات الصحفيين الآخرين، الذين راحوا يتساءلون بدورهم عن صحة التجربة من علمها، في نفس الوقت الذي سعوا فيه للقاء البروفيسور (ألند) والتأكد من حقيقة ما نكره في رسالته..

وقبل حتى أن يعلن (ألند) صحة ما ورد في رسالته وصلت رسالة أخرى من عالم آخر، إلى مكتب (جون كارنبتر)..

من البروفيسور (فالنتين)، أحد أشهر علماء الطاقة، في الولايات المتحدة الأمريكية كلها..

وعلى عكس رسالة (ألند)، لم يكن (فالنتين) شاهدا على ما حدث، وإنما كان ينقل حديثا، دار بينه وبين عالم آخر شهير، وهو الدكتور (جيسوب).. وفي رسالته، قال (فالنتين):

- (جيسوب) أخبرني أن التجربة قد أجريت، بوساطة مولدات مغنطيسية، من النوع المستخدم في البحرية، والمعروفة باسم (معادل المغنطيسية)، ولقد أصدرت تلك المولدات ذبذبات عالية للغاية، ورنينا مرتفعا، لخلق حقل مغنطيسي هائل، حول السفينة..

كان من الواضح أن (فالنتين) على علم بالتجربة في حينها، وأن (جيسوب) أحد المشاركين فيها، مما أثار مشاعر الكل، ودفع سيلا من الصحفيين ورجال الإعلام نحو (فالنتين)، الذي فوجئ بهذا الجيش حوله، وبآلاف الأسئلة التي تخترق أذنيه، وعقله، وكيانه كله، فارتبك واضطرب، وحاول نفي معرفته بالأمر، على الرغم من اعترافه بإرسال تلك الرسالة إلى (جون)، وكل ما قاله أمام الصحفيين هو:

- كل ما أعلمه هو أن الأمر يحتاج إلى ثلاثة من حقول الطاقة المختلفة، لتتناسب مع مستويات الفراغ الثلاثة، وأن الأمر يرتبط بالرنين المغنطيسي الفائق، على نحو ما..

وعلى الرغم مما قاله (فالنتين)، فإن (جيسوب) أصر على الصمت التام، ولم ينف أو يؤيد ما قاله زميله، ورفض تماما الإدلاء بأية أحاديث صحفية، أو حتى اجابة سؤال واحد..

وهكذا فقد (جون) دليلا قويا، كان يمكن أن يحسم الأمر تماما..

ولكن حملته نجحت في تفجير القضية، وفي دفع العقول إلى التفكير في صحة ما حدث..

بل، ودفعت فريقا من العلماء أيضا إلى دراسة احتمالات حدوث تلك التجربة عمليا.

وجاءت النتائج مدهشة..

معظم العلماء أكدوا أن الأمر قابل للحدوث، من الناحية العلمية، إذا ما أمكن توليد حقل كهرومغنطيسي فائق، حول جسم ما، مع الاستعانة بقوة الجاذبية الأرضية، والرنين البالغ، ولكن هذا لا يمكن أن يصلح، من الناحية العلمية، بالنسبة للبشر والكائنات الحية..

فالهدف من التجربة، هو كسر الانعكاسات الضوئية، والوصول بمعامل الانكسار إلى الصفر، بحيث تعتبر الأشعة من خلال الجسم مباشرة، على نحو يجعله غير مرئي..

ولو حدث هذا مع البشر، فسيعني أن الضوء لن يسقط أو يستقر عند شبكية العين..

وهذا يعني أن يصاب الإنسان بالعمى التام، فلا يرى من حوله سوى ظلام دامس..

بل، وكتب أحد العلماء مقالا، يؤكد فيه أن النظرية نفسها تجعل قصة (الرجل الخفي)، للكاتب الشهير (هربرت جورج ويلز) مجرد عبث غير علمي، باعتبار أن ذلك الرجل سيصبح أعمي، يحتاج إلى من يمد له يد المساعدة، خلال فترة اختفائه..

وخلال تلك الفترة، انتبه (جون كارنبتر) إلى حقيقة مدهشة، لم يحاول استغلالها قط، وهو يشن حملته هذه؛ لإثبات حدوث تجربة (فيلادلفيا) الرهيبة..

(ألبرت أينشتين) ...

فشهادة (فيليب دوران)، في بداية الأحداث، كانت تشير إلى أن (أينشتين) بنفسه كان يشرف على تلك المولدات المغنطيسية، في ساحة البحرية في (فيلادلفيا)، في أثناء إجراء التجربة، واسم شهير مثله، كفيل بإثارة الموقف كله، على نحو مختلف تماما.

وهنا، وحتى لا يتورط (جون) فيما يمكن أن يدينه قانونا، راح يجرى بعض الأبحاث، حول حياة وعمل (ألبرت أينشتين)..

وكانت النتائج رائعة..

ففي عام 1940 م، نشر (أينشتين) نظرية (الحقل الموحد) لأول مرة، ثم تم تعيينه في البحرية الأمريكية، كعالم له شأنه، من 31 مايو 1943 م، وحتى 30 يونيو 1944 م، وكأنما كانت البحرية تحتاج إلى وجوده الرسمي، في هذه الفترة بالتحديد، والأهم أن (أينشتين) قد نقل مكتبه في البحرية إلى (فيلادلفيا)، كما تقول الوثائق الرسمية، من ١٨ سبتمبر 1943 م، وحتى ٣٠ أكتوبر من العام نفسه..

ولكن الأكثر خطورة هو أن (أينشتين) قد أعلن، منذ عامين فحسب، ردا على بعض معارضي نظريته، أن لديه نتائج تجريبية مقنعة للغاية، عن العلاقة بين القوى الكهرومغناطيسية والجاذبية الأرضية، وإن لم يجد بعد دليلا رياضيا على هذا، مما يوحي بأنه قد شاهد تجربة عملية، تؤكد هذا..

ووفقا للتواريخ والملابسات، لابد أن تكون هذه هي تجربة (فيلادلفيا)..

ومع نشر هذا الأمر، قامت الدنيا ولم تقعد؛ نظرا لوجود اسم (أينشتين) هذه المرة، مرتبطا بالتجربة الرهيبة.

واندفع جيش الصحفيين نحو (ألبرت أينشتين) هذه المرة، وهو يمني نفسه بالحصول على سيل من المعلومات، من هذا العالم العبقري البسيط..

ولكن كانت في انتظارهم جميعا مفاجأة..

مفاجأة مذهلة.

ومؤلمة.. بحق..

☆ ☆ ☆

5- الحسم..

وما إن ظهر اسم (ألبرت أينشتين)، في مقالات (جون كارنبتر)، حول تجربة (فيلادلفيا)، حتى انتعش الأمر مرة أخرى، في العقول والقلوب، واندفع الصحفيون ورجال الإعلام، يبحثون عن العالم العبقري؛ لسؤاله عن دوره في تلك التجربة، التي حاولت البحرية الأمريكية من خلالها، إخفاء سفينة حربية كاملة، بكل معداتها وكامل طاقمها، عن الأعين المجردة، وعن تلك النتائج غير المتوقعة، التي كادت تصيب الطاقم كله بالجنون..

ولكن (أينشتين) لم يجب أي سؤال من أسئلتهم؛ لأنه عندما وصلوا إلى منزله، كان قد غادر الحياة كلها، ومات في هدوء، في عام 1955 م..

ومع رحيل (أينشتين)، في هذا التوقيت الدقيق جدا، حيث الحماسة فجأة، بشأن تجربة (فيلادلفيا)، ولم يعد أحد يتابع أخبارها أو حتى المقالات الحماسية، التي يكتبها (جون) عنها..

ومع الوقت، نسي (جون) نفسه الأمر، وبدأ يستغل شهرته في إلقاء المحاضرات، وإقامة الندوات، وسرعان ما تزوج وانشغل بعائلته الجديدة عن الأمر كله --

وفي أوائل الستينات، فوجئ الكل بعالم فيزيائي جليل، وهو (فرانكليني راينهارت)، يقول في حديث تليفزيوني مذاع، على الهواء مباشرة:

- (أينشتين) كان يعرف جيدا تجربة (فيلادلفيا) وكان يعمل فيها، منذ عام 1940 م، مع البروفيسور (رودلف لارنبرج)، ولقد طلبا مني معاونتهما في مشروع يتعلق باستخدام الحقول الكهرومغناطيسية القوية؛ لإحاطة السفن والمدمرات الحربية

بغلاف واق، يؤدي إلى انحراف الطوربيدات بعيدا عنها.. ولقد بدأنا العمل في ذلك المشروع بالفعل، ثم لم تلبث أن طورنا الفكرة، إلى إطلاق الحقل الكهرومغنطيسي في الهواء، بدلا من المساء؛ لإخفاء السفن بسرا، وكل ما كان يقلقنا هو الاثار الجانبية، التي قد تحدث، نتيجة للتجربة، وكان من ضمنها احتمال غليان الماء، أو تأين الهواء حول السفينة، أو أي من تلك الأمور، التي تؤدي إلى حالة من عدم الاستقرار، إلا أن أحدا منا، حتى (أينشتين) نفسه، لم يفكر في احتمالات إحلال الكتلة والتداخل بين الأبعاد..

عبارة البروفيسور (راينهارت) الأخيرة لم تكن مفهومة للعامة، ولكنها أثارت في العقول احتمالا جديدا، لم يخطر ببال أحد أبدا، طوال فترة الحديث عن تجربة (فيلادلفيا)..

ترى هل تسببت التجربة في حدوث فجوة بين الأبعاد المختلفة، أم أنها قد فتحت بوابة إلى عالم آخر؟

احتمالات بدت أشبه بالخيال العلمي، على الرغم من علميتها..

ولقد حاول الصحفيون الاستفسار عما قاله الدكتور (راينهارت) ومعرفة ما الذي كان يعنيه بمصطلحي (إحلال الكتلة)، و (التداخل بين الأبعاد)!!

ولكن (راينهارت) أيضا لم يجب عن أسئلتهم؛ لأنه لقي حتفه في حادث سيارة مروع، تمزق معه جسده تماما..

وهنا، وعلى الرغم من عدم التصريح بهذا، اتجهت أصابع الاتهام الصامتة إلى السلطات الحكومية، وإلى القوات البحرية الأمريكية بالتحديد، باعتبارها المسئولة عن مصرع (راينهارت)، كمحاولة

منها لإخراس الألسنة، التي تلوك موضوع تجربة (فيلادلفيا) الرهيبة، ومحو أية أدلة، مادية أو بشرية، خاصة..

وأن (فيليب دوران) قد اختفى في ظروف غامضة، بعد خروجه من ذلك المقهى البسيط، على حدود (نيو جيرسي)، في حين تم تعيين البروفيسور (ألند) في المخابرات المركزية، بحيث يخضع لقانون السرية، الذي يحظر عليه الكلام في الأمر، أو في أية أمور أخرى، تتعلق بالأمن القومي..

وأدرك الكل، وعلى رأسهم (جون كارنبتر) نفسه، أن الأمر يتجاوز حدود قدراتهم، فلاذوا بالصمت التام، باعتبار أن حياتهم أغلى من البحث عن حقيقة تجربة فاشلة، أيا كانت معطياتها...

ومرت السنوات في هدوء، وأصدر (تشارلز بيرليتز) كتابا شهيرا عن تجربة (فيلادلفيا)، في أوائل السبعينات، بدا وكأنه آخر قول في هذا الأمر، الذي انخفض الاهتمام به، وتحول إلى شبه أسطورة غامضة، تماما مثل (مثلث برمودا)، و (الأطباق الطائرة)، و (وحش بحيرة لوخ نيس) وغيرها..

ثم مات الدكتور (جيسوب) عام ١٩٧٣ م، آخر من ارتبط اسمه، من العلماء بتجربة (فيلادلفيا)..

وتنفس قادة البحرية الأمريكية الصعداء، باعتبار أن هذا يحسم الأمر تماما، بعد سنوات من الشد والجذب..

ولكن (جيسوب) كان قد ترك وراءه مفاجأة غير سارة لهم..

مفاجأة تتمثل في خطاب بخط يده، تركه لدى محاميه، وطلب تسليمه إلى (جون كارنبتر) بعد وفاته..

وفي رسالته، قال (جيسوب):

- تجربة (فيلادلفيا) كانت كارثة حقيقية بكل المقاييس، ولقد تنبأت بفشلها، قبل حتى أن تبدأ؛ فقد اعتمد فيها (أينشتين) على نظرية (الحقل الموحد)، التي أعارضها بشدة، وعلى مزج المجال الكهرومغنطيسي بالجاذبية الأرضية، مع إشعاع نووي محدود، والواقع أنني قد التقيت ببعض ضباط وعلماء البحرية، حول هذا الأمر، وأخبرتهم أنها تجربة مهمة بحق، ولكنها بالغة الخطورة، وقاسية جدا على المتورطين فيها، والذين سيتعرضون إلى رنين مغنطيسي هائل، وهذا يعادل ما يمكن أن نطلق عليه الطمس المؤقت للبعد، الذي نحيا فيه.. شيء يخرج عن نطاق السيطرة، ويمكن أن يؤدي إلى اختراق بعدنا إلى مستوى آخر أو بعد آخر.. ولكنهم لم يستمعوا إلى.. ربما لأنني أقل شهرة من (أينشتين)، الذي يعتبرونه أسطورة في الفيزياء.. المهم أن التجربة قد أجريت، ونجح (أينشتين) في إثبات العلاقة بين أنواع الطاقة وحقول القوى المختلفة، وأكد صحة الجزء الخاص بالاندماج، في نظريته الحقل الموحد، إذ اختفت السفينة بالفعل، ولكن الحقل تسبب في خلق منطقة مضطربة، بدلا من الغياب الكامل للألوان، كما أن وجود أفراد الطاقم المساكين، داخل حقل عنيف للطاقة، أصابهم باضطرابات وهلاوس عنيفة، حتى إننا كنا نسمع صراخهم المذعور، خلال الدقائق القليلة، التي اختفت فيها السفينة، كما لو أن أحدا داخلها يذبحهم كالنعاج..

وفي نهاية خطابه، كتب (جيسوب)، وكأنه يعتذر عن اشتراكه في التجربة الرهيبة:

- وأيا كانت النتائج، أو حتى الفوائد المرجوة من هذه التجربة، فلم يكن من الجيد أبدا أن أسمح لهم بإجرائها، أو أشارك فيها..

تقبلوا أسفي..

ونشر (جون) رسالة (جيسوب)، ثم استقل سيارته؛ للعودة إلى منزله..

ولكنه لم يصل إليه أبدا..

لقد اختفى (جون كارنبتر)، واختفت معه رسالة (جيسوب) الأصلية إلى الأبد، دون أن تتوصل التحقيقات الكثيفة، التي أجرتها الشرطة، إلى جثته، أو حطام سيارته، أو أدنى أثر له..

بل ودون أي سبب، سوى أنه قد تجاوز حدوده، في السعي خلف تجربه (فيلادلفيا)، والعمل على سبر أغوارها، وكشف أسرارها..

وباختفاء (جون كارنبتر)، أسدل الستار على تلك التجربة المذهلة، ولم يعد هناك من يتحدث عنها..

بجدية على الأقل..

وعلى الرغم من أن كتاب (تشارلز بيرليتز) قد صدر في ثلاث عشرة طبعة، حتى لحظة كتابة هذه السطور، إلا أن الاهتمام بتجربة (فيلادلفيا) قد تناقص عمليا، حتى اقتصر على قراءتها، والانبهار بما حققته، نظريا على الأقل..

ومازال هناك علماء يصرون على أن هذا ممكن..

وآخرون يستنكرون حدوثه بشدة..

ومازالت هناك عشرات الأسئلة المطروحة..

هل حدثت تجربة (فيلادلفيا) بالفعل؟!

وماذا كانت نتائجها بالضبط؟!

ولماذا التستر الشديد عليها؟!

صحيح أن أحدا لا يعرف جواب تلك الأسئلة، ولا حتى الاسم الحقيقي للتجربة، في ملفات البحرية الأمريكية السرية، ولكنها تحولت في الأذهان إلى أسطورة غامضة..

أسطورة حدثت في (فيلادلفيا)، في أكتوبر 1943 م..

أسطورة تجربة..

رهيبة..

جدًا..

☆ ☆ ☆

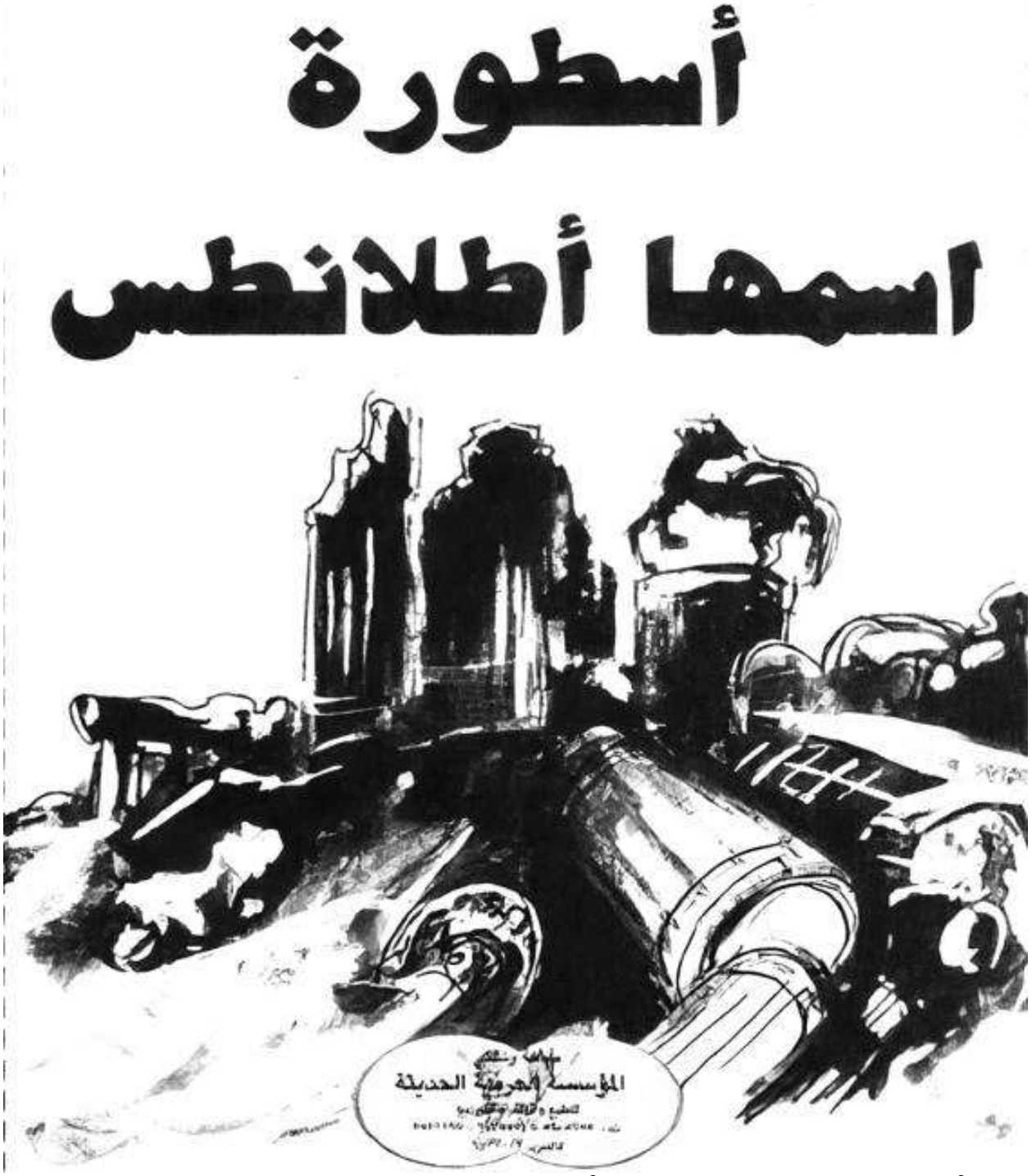

19- أسطورة.. اسمها أطلانطس..

1- المحاورة..

غابت شمس الصيف أو كادت في ذلك اليوم من أيام عام 1968م، وبهر مظهرها الفاتن طيارين أمريكيين، كانا يحلقان فوق جزر (البهاما)، حتى إن أحدهما هتف مشدوهـًا:

- ياللروعة! أظنني لن أمل هذا المشهد أبدا..

غمغم زميله، وهو يراقب المشهد الساحر:

- صدقني يا رجل.. ما من مخلوق حي، ينبض في جسده عرق واحد، يمكنه أن يمل غروب الشمس، فالمدهش أن هذا المشهد.

على الرغم من تكراره يوميا، يختلف في كل مرة عن الأخرى حتى إن...

بتر عبارته بغتة، مع شهقة مكتومة، وهو يحدق ذاهلا في بقعة ما، بالقرب من الشاطئ، فهتف به زميله في قلق:

- ماذا حدث؟! هل أصابك مكروه؟!

كاد صوت الطيار ينفجر مع انفعاله الجارف، وهو يهتف:

- انظر.. هناك.. عند الشمال الغربي.. بالقرب من الشاطئ.. يا إلهي! إنها.. إنها..

بدا من الواضح أن انفعاله يمنعه من التعبير عما يدور في أعماقه بوضوح، بل ويحبس الكلمات في حلقه أيضا، فتمتم زميله، وهو يدير عينية إلى حيث أشار هو:

- ما الذي يمكن أن..

بتر عبارته بدوره، واكتظ كيانه كله بانفعال ممائل، وهو يحدق في بقايا جزرية، طفت على سطح المحيط بالقرب من الشاطئ، حاملة بعض أطلال قديمة متآكلة، تشبه إلى حد ما المعابد الرومانية القديمة، واحتبست الكلمات في حلقه للحظات، قبل أن يهتف بصوت مختنق:

- هذا لم يكن هنا أمس.

أجابه زميله، وهو ينخفض بطائرته، ليدور حول البقايا والأطلال، وذلك الانفعال لم يفارقه بعد:

- بالتأكيد.. لقد برز صباح اليوم.. أو مساء أمس على أقصى تقدير..

هتف الأول:

- ترى ما الذي يمكن أن يكونه هذا؟!

بذل زميله جهدا حقيقيا؛ ليجيب السؤال، إلا أنه لم يستطع سوى أن ينطق بكلمة واحدة مختنقة:

- النبوءة.

سأله الطيار الأول بمنتهى الدهشة:

- أية نبوءة؟!

أجابه زميله، وهما يواصلان الدوران بطائرتيهما حول الأطلال التي بدت وكأنها توشك على الانهيار، بعد أن قضت مئات السنين، تحت سطح المحيط:

- نبوءة (كايس).. لقد قال: إنها ستظهر هنا.

هتف الطيار، وقد تضاعفت دهشته:

- قال: إنها ستظهر هنا؟! وما هذه بالضبط.

أجابه زميله في انفعال:

- الأسطورة.

ثم ارتجف صوته، مع تضاعف انفعاله، وهو يضيف:

- أسطورة (أطلانطس).

وكانت لحظة تاريخية.

بحق..

☆ ☆ ☆

بدا الأمر كله بمحاورة..

محاورة سجلها لنا التاريخ، قبل أربعة وعشرين قرنا من الزمان..

ففي القرن الرابع قبل الميلاد، وحوالي عام 335 ق.م.، ذكر الفيلسوف الإغريقي الأشهر قصة (أطلانطس)، في اثنتين من محاوراته الشهيرة، وهما محاورة (تيماوس)، ومحاورة (كريتياس).

وفي محاوراته، جمع (أفلاطون) بين أربعة، وهم: الفلكي الإيطالي (تيماوس) والشاعر والمؤرخ (كريتياس)، والقائد العسكري (هرموقراطيس)، أما الصديق الرابع فكان (أفلاطون)..

ولقد جمع (أفلاطون) - في محاورته - الأربعة في منزل (كريتياس)، حيث دارت المحاورات بينهم، حول (أطلانطس)، التي اشار إليها (هرموقراطيس)، باعتبارها جزء من التراث القديم المندثر، وهنا راح (كريتياس) يروي القصة التي سمعها من أجداده، على لسان جده الأكبر (صولون)..

و(صولون) هذا شخص حقيقي، ومشرع أثيني كبير، زار (مصر) بالفعل، عالم 590 ق.م.، وروى أنه قد سمع من كهنة (ساس)، وهي مدينة في شمال دلتا (مصر) قصة عن إمبراطورية أثينية عظيمة، سادت حوالي عام 9600 ق.م.، وعاصرتها، في الزمن

نفسه، إمبراطورية عظيمة أخرى، تسمى (أطلانطس)، تقع خلف أعمدة (هرقل)، أو (مضيق جبل طارق) في زمننا هذا..

وقبل أن يتبادر إلى الأذهان أن كهنة قدماء المصريين كانوا يقصدون قارة (أمريكا) بروايتهم هذه، يتابع (صولون) قائلا: إن تلك القارة كانت أكبر من شمال (إفريقيا) و (آسيا الصغرى) معًا..

وخلفها كانت هناك مجموعات من الجزر، تنتهي بقارة عظيمة أخرى..

وفي قصتهم، قال كهنة المصريين القدامى، أن سكان (أطلانطس) كانوا يعيشون في سلام، وكانت قارتهم أشبه بجنة الله في الأرض، حتى سرت فيهم روح العدوان ورغبة الاستعمار، فتطلقوا يستولون على شمال إفريقيا، حتى حدود (مصر)، وجنوب (أوروبا) حتى (اليونان)، وكادوا يسيطرون على العالم أجمع، لولا أن تصدت لهم (أثينا)، وانقضت عليهم بأسلحة رهيبة..

وفي القصة، حدث دمار وخراب مائل، خلال ليلة واحدة، وتفجرت الزلازل والفيضانات، التي دفنت مقاتلي (أثينا) تحت الأرض، وأغرقت قارة (أطلانطس) كلها في قلب المحيط..

القصة لم تسجلها أوراق البردي في مصر القديمة، ولم تحملها جدران المعابد الفرعونية، ولكن سجلتها فقط محاورة (كريتياس)، التي كتبها (أفلاطون)؛ ليضعنا أمام أكبر لغز حضاري في التاريخ..

ترى هل نقل الفيلسوف الإغريقي المحاورة بأمانة، أم أن الأمر كله كان مجرد سرد قصصي درامي أنيق، سجله (أفلاطون) في

شكل محاورة، حتى يطرح من خلاله أفكاره، وتصوراته، ورؤيته للمدينة الفاضلة بشكل عام؟!

أربعة وعشرون قرنا من الزمان مت، دون أن يجيب مخلوق واحد هذا السؤال بشكل قاطع!!

وعلى الرغم من هذا، فحتى لحظة كتابة هذه السطور، مازال هناك باحثين وعلماء آثار مغامرين يبذلون حتى حياتهم نفسها، في سبيل العثور على دليل، يمكن أن يثبت وجود قاعدة (أطلانطس) يوما.

أو حتى يؤكد جزءا من قصتها..

أو من أسطورتها..

وأسطورة (أطلانطس)، كما جاءت في المحاورتين، تبدأ منذ نشأة الحضارة على الأرض، عندما تم تقسيمها بين الآلهة، فكانت جزيرة أو قارة (أطلانطس) من نصيب (بوسيدون) إله البحر والزلازل.

وكما عودتنا الأساطير القديمة، يقع (بوسيدون) في غرام (كليتو) البشرية، التي تعيش في (أطلانطس)، ويقرر الاستئثار بها؛ لذا فهو يحيط القارة بعدة حلقات متتالية من الأرض والماء، فيعزل القارة تماما، ولكنه يزودها في الوقت ذاته بالغذاء الوفير والخير العظيم، الذي يخرج بوفرة من الأرض، ويفجر فيها نبعين من الماء، أحدهما بارد، والآخر ساخن..

ووفقا للأسطورة، أنجب (بوسيدون) و (كليتو) خمسة أزواج من التوائم الذكور، تم تقسيم حكم القارة بينهم، في (اتحاد ملوك) يرأسه الابن الأكبر (أطلس) والذي سميت القارة باسمه.

وعن لسان (كريتياس) وصف (أفلاطون) معابد وقصورا عظيمة، تزخر بها (أطلانطس)، ومعبد (بوسيدون) المغطى بالذهب الخالص، والتماثيل الهائلة، والعمارات المدهشة.

الوصف جعل (أطلانطس) جنة موعودة على الأرض، ثم انتهي بدمارها الكامل الشامل، وغرقها في أعماق المحيط، الذي يحمل إلى يومنا هذا اسم المحيط الأطلسي..

وهكذا تكون الأساطير دوما.. رائعة.. مدهشة.. خلابة..

وكان يمكن أن يظل الأمر مجرد أسطورة، وقصة أنيقة جميلة، تتوارثها الأجيال، لولا أن حدث في العالم فجأة تطور جديد..

تطور خطير للغاية..

☆ ☆ ☆

2- حقيقة أم خيال..

منذ تسعة وعشرين قرنا من الزمان، وحوالي عام ٨٠٠ ق.م.، أي قبل (أفلاطون) بخمسمائة عام، كتب الشاعر العظيم (هوميروس) ملحمتيه الشهيرتين الخالدتين، (الإلياذة) و (الأوديسا)..

وانبهرت الدنيا بما كتبه (هوميروس)، وانشغل الأدباء عبر العصور بخيالة الجامح، وانهمك الدارسون لقرون وقرون، في تحليل أفكاره وعباراته، وتصوراته البديعة المرهفة، ويتفاعلون بعقولهم وقلوبهم مع أسطورة المدينة الخيالية (طروادة)، وذلك النسيج المبدع من الأفكار، الذي أحاط به (هوميروس) قصة حربها، بخيال جامع مثير..

ومع مرور السنوات والقرون، وقر في العقول والقلوب والأذهان أن طروادة) هذه مكان خيالي، وأن حربها ليست سوي إبداع شاعر عظيم، و..

وفجأة، في علم 1871 م، جاء الأثري الألماني (هنريش شليمان)؛ ليهدم كل هذا رأسا على عقب، ويباغت العالم كله بحقيقة جديدة..

حقيقة (طروادة)..

ففي ذلك العام، وفي منطقة (هيسارليك) في شمال غرب (تركيا) وفي نفس الموقع الذي حدده (هوميروس) في ملحمتيه الشهيرتين، كشف (شليمان) بقايا (طروادة)..

كان الكل يسخر منه، عندما راح يبحث عن مدينة خيالية حاملا معوله في يده، وملحمة (هوميروس) في اليد الأخرى، واتهموه

بالحماقة والخبل، لأنه يبذل كل هذا الجهد، استنادا إلى ملحمتين أدبيتين، وليس إلى مراجع علمية أو تاريخية مؤكدة..

ولكن (شليمان) فعلها، وعثر على (طروادة)، وانتشلها من بين الأنقاض، ومن تحت الرمال والركام..

وهنا انخرست كل الألسنة المعارضة والساخرة..

وتحدثت ألسنة أخرى..

السنة راحت تتساءل: لو أن طروادة)، التي تعامل معها الكل باعتبارها خيال محض، قد برزت من تحت الرمال، كحقيقة واقعية، تتحدى كل معارض، فماذا عن (أطلانطس)؟!

هل يمكن أن تكون بدورها حقيقة؟!

هل؟!

هذا السؤال طرحه جمع هائل من العلماء، ومن الباحثين والدارسين، والمهتمين بتاريخ وأسطورة (أطلانطس)، وعلى رأسهم (إيجناينوس دونيللي)..

و (دونيللي) هذا شاب نابه، ولد في (فيلادلفيا) الأمريكية، عام 1831 م، وأثبت نشاطا وذكاء غير عاديين، طوال فترات صباه وشبابه، حتى إنه استطاع أن ينضم إلى رابطة المحامين، في الثانية والعشرين من عمره، وهذا مالم يكن يبلغه المجتهد حينذاك، قبل الثلاثين على الأقل..

وفي الثامنة والعشرين من عمره، وإثر اهتمامه بالسياسة وشئونها، تم انتخاب (دونيللي) كحاكم لولاية (مينوسيتا)، وبعدها بأربع سنوات، أصبح عضوا في (الكونجرس)، الذي قضى فيه دورتين كاملتين، مدتهما ثماني سنوات، اشتهر خلالها بأنه

خطيب مفوه، ونائب محترم، ومحاور قادر على جذب انتباه واهتمام وتقدير واحترام كل من يتعامل معه..

وعلى الرغم من كل هذا، كان (دونيللي) يعاني من وحدة شديدة، بعد وفاة زوجته، وانتقاله إلى (واشنطن) فراح يقضي كل وقته في القراءة، ويلتهم كتب مكتبة (الكونجرس) التهاما..

ومن بين عشرات الموضوعات، التي قرأها ودرسها (دونيللي) جذب انتباهه، وخلب لبه، وأشعل عقله موضوع واحد..

(أطلانطس)..

وبنهم لا مثيل له، راح (دونيللي) يقرأ كل ما كتب عن (أطلانطس) في عشرات، بل مئات الكتب، ثم راح يجري دراساته الخاصة حولها، واهتم بشدة بكشف (شليمان) لبقايا (طروادة) ثم جمع كل هذا، بعد سنوات من العزلة والدراسة، ليصدر كتابه (أطلانطس وعالم ما قبل الطوفان) في صيف عام 1882 م..

وفور صدوره؛ ولأنه يحوي خلاصة عمر بأكمله، حقق هذا الكتاب شهرة واسعة، ونجاحا منقطع النظير، مما شجع (دونيللي) على أن يصدر، في العام التالي مباشرة، كتابه الثاني (راجناروك.. عصر النار والدمار) الذي ناقش وفد الكوارث الطبيعية، التي يمكن أن تكون السبب، في دمار وغرق (أطلانطس)..

وتعددت طبعات كتب (دونيللي)، وأيقظت عشرات التساؤلات في الرءوس، وأشعلت عشرات الاستفسارات والاقتراحات، خاصة وأنه قد ربط ما بين حضارات العالمين القديم والجديد، وأثبت –

على نحو نظري - أنه كان هناك حتما اتصال ما بين (أوروبا) والأميركتين، يتم عبر قارة وسيطة، هي (أطلانطس)..

وفي نظريته، افترض (دونيللي) أن (أطلانطس) كانت لها مستعمرات عديدة، خارج حدودها، وأن أقدمها هي (مصر)، التي أكد أن حضارتها هي صورة طبق الأصل، من حضارة (أطلانطس) القديمة..

فقد كان (دونيللي) يتصور أن الحضارة المصرية القديمة قد ظهرت فجأة، وأنها لم تمر بمراحل التطور المعتادة لكل حضارة، وأن علومها قد نبتت من منبع مجهول، مما جعله يفترض أن ذلك المنبع هو (أطلانطس) نفسها..

إذن، ففي رأيه، نظريته، كانت (أطلانطس) هي أم الحضارات، وزعيمة العالم القديم - إن صح القول - والأصل الذي انتقلت أفرعه فيما بعد، إلى كل مكان في العالم..

وعلى الرغم من أن أساطير مختلف الشعوب، تتفق فيما بينها على أن هناك حضارة قديمة فائقة، تفوقت يوما على كل ما حولها، إلا أن (أفلاطون) نفسه، في محاورتيه الشهيرتين، لم يزعم أن (أطلانطس) هي أصل كل الحضارات، بل ولم يشر إلى هذا حتى..

ولذا فقد قوبلت نظرية (دونيللي) بتأييد شديد، من عدة جهات، وبهجوم عنيف للغاية من جهات أخرى..

وكما يحدث لكل مفكر، يتجاوز الحدود المعتادة في عصره، تحول (دونيللي) إلى قديس في نظر البعض، وشيطان في نظر البعض الآخر، إلا أن هذا لم يمنع الجانبين من الاعتراف، بأنه أول من وضع قواعد البحث عن قارة (أطلانطس) وأسطورتها

المفقودة، وأول من أسس ما يعرف باسم علم (الأطلانطية Alethiology) أو العلم الذي يبحث أسس الحضارة الأطلانطية..

القديمة، ودلائل واحتمالات وجودها، وهو علم معترف به، في كافة أنحاء العالم المتحضر..

وفي الوقت الذي احتدمت فيه المناقشات والمحاورات، حول (دونيللي) ونظريته، والذي بدأ فيه بعض الباحثين يعلنون أخطاءها، ونقاط الضعف والغموض فيها، وينشرون نظرياتهم المناهضة لها، والحقائق العلمية المرتبطة بها، فاجأ الأثري البريطاني سير (آرثر إيفانز) العالم كله بحقيقة جديدة، رجته من الأعماق.

فمنذ سنوات طوال، نقل الأثريون والمؤرخون أسطورة قديمة تدور في جزيرة (كريت) حول حب الملك (مينوس) ابن (زيوس) كبير الآلهة، من بشرية تدعى (أوروبا)، وحول إنسان آلي من البرونز له جسم آدمي، ورأس ثور، كان يجوب شواطئ (كريت) الصخرية.

ليبعد عنها الغزاة، ويلقي على سفنهم الصخور الهائلة الضخمة.

وفي الوقت نفسه، كان هناك وحشا آخر، يدعى (المينوتوروس)، له ايضا جسد إنسان ورأس ثور، سجنه الملك (مينوس) في قصر التيه، أو (اللابيرنت) حيث يتم تقديم سبعة من خيرة شباب (اليونان) وسبع من خيرة بناتها كقربان له كل عام، حتى جاء الفارس المغوار (ثيسيوس)، فتحداه، وذبحه، وحفظ دماء شباب وبنات اليونان..

أسطورة مبهرة مثيرة، ككل الأساطير القديمة، خلبت الألباب، وحبست الأنفاس، وشغلت العقول لقرون وقرون، باعتبارها أيضا قريحة عقول متفوقة، ونتاج خيال جامح، و....

وفجأة، نقل سير (إيفانز) كل هذا فجأة إلى عالم الواقع..

في عام 1900 م، وبقيادة (إيفانز) ظهرت أطلال وآثار الحضارة المينوية القديمة في (كريت)..

ذلك الكشف أثبت أن أهل (كريت) كانوا سادة عظام، وتجارا ومستعمرين، أخضعوا جيرانهم، وحصلوا منهم على الجزية..

وأثبت أيضا أن قصة (مينوس) لم تكن مجرد أسطورة...

لقد كانت حقيقة..

حقيقة تقلب كل الحسابات رأسا على عقب..

وخصوصا حسابات الباحثين عن (أطلانطس)..

وقبل أن يلتقط الناس أنفاسهم، ويستوعبون كشف سير (أرثر إيفانز) المدهش، كانت في انتظارهم مفاجأة جديدة..

مفاجأة مدهشة.

☆ ☆ ☆

3- حضارة الرمال..

في عام 1861 م، كشف علماء الآثار أطلال قصر الملك (آشور بانيبال)، حاكم مملكة (آشور)، في القرن السابع قبل الميلاد، وبين تلك الأطلال، عثروا على أعظم كشف أثري وثقافي في المنطقة.

عثروا على مكتبة كاملة سليمة تحوي آلاف الألواح الطينية، المكتوبة بأسلوب الكتابة المسمارية القديمة، والتي تضم ثروة هائلة من المعلومات، عن مختلف الأمور، وعلى رأسها قوائم وسجلات كاملة، لأسماء المدن والأقاليم، والآلهة التي كانت تعبد أيامها..

هذا إلى جانب مئات القصائد، وعشرات الأساطير، والقواميس أيضا...

قواميس باللغة الأشورية، وبلغات أقدم منها، كالبابلية والسومرية، وقواميس تضم كلمات أشورية ومعانيها بلغات مختلفة، بل وطرق نطقها أيضا..

خمسة وعشرون ألفا، من الألواح المعرفية، تم نقلها جميعها إلى المتحف البريطاني في (لندن)، لوضعها تحت بصر ويد الباحثين، وعلماء اللغات القديمة..

ومن بين عشرات العلماء، الذين انبهروا بهذه الذخيرة الأثرية المدهشة، والذين قضوا عمرهم كله، في دراسة الألواح والوثائق وترجمتها، كان العالم البريطاني (راولونسون)، الذي عثر على اسم تردد أكثر من مرة فيها، وهو اسم (ديلمون)..

لم يكن الاسم جديدا أو غريبا، فقد تم العثور عليه قديما، في نقش على جدار قصر الملك (سرجون الآشوري) يسجل فتوحات الملك وانتصاراته الحربية..

وعلى الرغم من أن أحدا سواه، لم يتوقف كثيرا عند اسم (ديلمون)، فقد انشغل (راولونسون) به كثيرا، وراح يجمع المعلومات عن حضارة (ديلمون القديمة) التي وردت في النقوش القديمة،

التي وردت في النقوش القديمة، باعتبارها جنة الله في الأرض...

ففي (ديلمون) كما تقول النقوش والأساطير، كانت الأرض دومًا نظيفة ومشرقة، وكل شيء جميل وهادئ، حتى الأسد لا يفترس، والذئب يصادق الحمل، ولا أحد يمرض، أو يتألم، أو يبلغ من العمر عتيا..

والحسناء في (ديلمون) لا تحتاج إلى الاستحمام؛ لأن كل شيء نظيف طاهر، والماء متلألئ، والدموع لا تزور العيون و..، و..

وصف أسطوري ومثالي للغاية، جعل (ديلمون) تبدو أشبه بأسطورة خيالية، منها بحقيقة واقعية، يمكن الاقتناع بها، أو تصديق وجودها..

ولكن (راولونسون) نشر أبحاثا تشير إلى العكس تماما، ووحده، من دون كافة علماء الآثار، ظل يؤكد أن (ديلمون) حقيقة، بل ورصد طبيعتها، وآلهتها، وعلى رأسهم الإله (أنزاك).

وكالمعتاد، سخر الكل من أبحاث (راولونسون) ودراساته، واتهمه البعض بالإغراق في الخيال، والغوص في عالم الأحلام، ثم جاء عام 1880 م، ليكتشف الرحالة البريطاني (كابتن ديوراند) حجرا قديما، في مسجد في البحرين، عليه كتابة مسمارية قديمة، تمت

ترجمتها بمنتهى الدقة، لتظهر عبارة تقول: «هذا قصر (ريمانوس) خادم الإله (أنزاك)، من قبيلة عقير»..

وهنا، تبذلت كل الآراء، وبدأ السؤال يطرح نفسه بشدة..

ما حقيقة (ديلمون)؟!

أهي حقيقة، أم مجرد أسطورة، وردت في نقوش قديمة؟!

وكإجراء طبيعي، كلفت الجمعية الملكية الأسيوية (راولونسون) بمهمة تحليل تقرير (ديوراند)، والتعليق عليه.. وفي تقرير، ربط (راولونسون) ما بين (ديلمون) و (البحرين)، وأكد أن الأخيرة تنهض على أطلال الأولى..

وفي عام 1900 م، ومن خلال بعثة أثرية أمريكية، من جامعة (بنسلفانيا)، عثر (هيلير يخت) رئيس البعثة على خمسة وثلاثين ألف لوح سومري تحوي طنا آخر من المعلومات في (نيور) وهي منطقة ما بين النهرين، من بينها نص سومري، يشير إلى (ديلمون) باعتبارها أرض العبور، والمكان الذي تشرق منه الشمس..

ولقد عاصر (إيجنايتوس دونيللي) هذا الكشف العظيم، وربط آخر مقالاته بين (أطلانطس) و (ديلمون) قبل أن يتوفاه الله، في عام 1901 م، تاركا الأمر كله لمن بعده..

أما حضارة (ديلمون) نفسها، فقد انتظرت حتى الحرب العالمية الثانية، عندما أتى (د. بيتركورنوال)؛ لينقب في تلال المدافن في (البحرين)، ويخرج بالأدلة والبراهين القاطعة، على أن حضارة (ديلمون) لم تكن مجرد أسطورة، بل هي حقيقة، أعلنت عن نفسها، وأبرزت وجودها وآثارها للعالم كله..

الأساطير إذن، تتحول، واحدة بعد الأخرى، من عالم الخيال، إلى عالم الواقع والوضوح..

(طروادة)..

و (المينوتوروس)..

و (ديلمون)..

فماذا إذن عن (أطلانطس)؟!

ما الذي يمنع كونها أيضا حقيقة واقعية، لقارة حكمت الدنيا يوما، قبل أن تودي بها كارثة رهيبة، طبيعية أو صناعية، فتغرق بكل ما فيها، ومن فيها، في أعمق أعماق المحيط الأطلنطي؟!

هذا ما طرحه الميثولوجي الأسكتلندي (لويس سبنس) في مجلته، ذات العمر القصير، والتي حملت اسم الأسطورة نفسها..

اسم (أطلانطس)..

وعلى الرغم من أن (سبنس) هذا لم يحظ بالشهرة الشعبية، التي حظي بها نظيرة (دونيللي)، إلا أنه كرس جهوده للبحث عن القارة المفقودة، ووضع خمسة كتب حولها، كان أشهرها (مشكلة أطلانطس)، الذي نشر عام ١٩٢٤ م، والذي فاز (سبنس) بسببه باحترام وترحيب المهتمين بأسطورة (أطلانطس)، حتى إن أحدهم قال عنه: إنه أفضل كتاب نشر عن (أطلانطس) في التاريخ..

وعلى عكس نقاط نظرية (دونيللي) الحماسية، ناقش (سبنس) نظريته بأسلوب هادئ، وعملي، ودقيق، شأن أي عالم محترم؛ ليخلص منها إلى مجموعة من الحقائق، تتلخص في أنه كانت هناك بالفعل قارة ضخمة، تحتل معظم منطقة شمال المحيط

الأطلنطي، وجزءا من جنوبه، ولقد ظلت موجودة حتى أواخر العصر الميوسيني، الذي يعود إلى ما يزيد على عشرة ملايين عام، ثم بدأت تندثر، نتيجة لعوامل طبيعية، بركانية وزلزالية متعاقبة، مما أدى إلى ظهور تكتلات جزرية، أهمها (أطلانطس)، بالقرب من مداخل البحر الأبيض المتوسط، وخلف أعمدة (هرقل)، و (أنتيليا)، القريبة من جزر الهند الغربية الحالية، وكانت الاتصالات تتم بينهم، عبر سلسلة من الجزر الصغيرة..

ووفقا لنظرية (سبنس)، لم تختف (أطلانطس) في يوم وليلة، كما قال (أفلاطون) ولكنها ظلت قائمة، حتى العصر البليستوسيني

قبل خمسة وعشرين ألف سنة، تعرضت لمجموعة من الكوارث الطبيعية المتعاقبة، حتى ما يقرب من عشرة آلاف سنة قبل الميلاد، مما أدي في النهاية إلى غرقها نهائيا، في حين ظلت (أنتيليا) صامدة لزمن أطول، لتترك خلفها بعض البقايا في النهاية، وهي جزر (الأنتيل)..

وعلى عكس (دونيللي) قال (سبنس) إن حضارة (أطلانطس) لم تكن متقدمة تماما، وانما كانت حضارة بدائية إلى حد كبير، إنها لم تعرف أبدا تشكيل أو استخدام المعادن..

ووفقا لنظريته أيضا، انتشر سكان (أطلانطس)، بعد غرقها، في أنحاء العالم القريبة، وكانوا النواة لعدد من الحضارات المعروفة، مثل حضارة (مصر)، و (كريت) والحضارة الأزيلية في (أوروبا)، والتي ظهرت قبل عشرة آلاف عام قبل الميلاد، وهو نفس التاريخ - تقريبا - الذي حدده (أفلاطون) لفرق (أطلانطس) ثم عاد (سبنس) ليؤكد أن حضارت (مصر) و (يوكاتان) و (بيرو) قد ظهرت فجأة، ودون مقدمات، لتنتقل من العصر الحجري إلى

عصر التقدم، دون المرور بمراحل وسيطة، مما يوحي بأنها قد اكتسبت حضارتها من جهات أخرى..

وهنا يقع (سبنس) في تناقض عجيب، ما بين عدم تقدم (أطلانطس)، ونقلها علامات الحضارة إلى الآخرين، ولكنه، على الرغم من هذا، يحظى حتى هذه اللحظة، باحترام وتقدير العديدين، وإن لم يقدم دليلا ماديا واحدا على كل ما قاله..

ولم يقدم غيره أيضا هذا الدليل المنشود..

حتى ظهر (إدجار كايس)..

ولقد قدم (كابس) الدليل بأسلوب مدهش، لم يتصوره أو يتخيله مخلوق واحد..

أبدا.

☆ ☆ ☆

4- النبوءة..

ومع بداية العقد الثاني، من القرن العشرين، تضاعف اهتمام الأمريكيين فجأة بالتنبؤات والمتنبئين، وعادوا ينبشون المكتبات وكتب التاريخ، بحثا عن مشاهير المتنبئين القدامى، وانتشرت صرعة عجيبة لإثبات صحة تنبؤاتهم الماضية، وتأكيد حتمية حدوث تنبؤاتهم التالية..

وفي مناخ كهذا، من الطبيعي أن ينتشر الدجل والخداع، وأن يظهر عشرات النصابين، الذين يدعون قدرتهم على قراءة الطالع، وكشف الغيب، والتنبؤ بالأحداث المستقبلية، خاصة وأن أحدا لا يمكنه معرفة ما سيحدث في المستقبل، مما يجعل الاعتراض على ما يقوله أي نصاب أمرا عسيرا للغاية..

وفي وسط هذا كله، ظهر (إدجار كايس)..

كان شابا هادئا، على عكس الآخرين، لا يميل إلى الاستعراض والتباهي، ويحمر وجهه خجلا كالعذراء، إذا ما وجه إليه أحدهم عبارة استحسان، أو كلمات إعجاب وتقدير، أو حتى جملة شكر أنيقة وعلى عكس الآخرين أيضا، لم يكن (كايس) من ذلك النوع، الذي يمكن أن تلقى عليه سؤالا عن أحداث مستقبلية، فيضع أصابعه على جبهته، ويدير يده الأخرى في الهواء، ثم يخرج الجواب بأسلوب مسرحي مثير، بل كان يؤكد دوما أن التنبؤات أو الرؤى، كما كان يحلو له تسميتها، تأتيه وقتما تشاء، وليس عندما يشاء هو..

ففي لحظات عادية، كان (كايس) يصاب بشرود مباغت، وتنقلب عيناه داخل محجريهما، على نحو عجيب، ويدخل فيما يشبه

الغيبوبة، وخلالها يلقي نبوءته، ثم لا يذكر الكثير عنها، عندما يستعيد وعيه بعد قليل..

ولأن ذلك الزمن كان يميل إلى المسرحية والاستعراض، تأخر (كايس) عن أقرانه، ولم يحظ بشهرتهم، أو تلقي عليه الأموال الوفيرة مثلهم..

ثم إنه أيضا لم يسع لهذا أبدا..

حتى كانت فترة الثلاثينات، وما صحبها من اختناق اقتصادي رهيب، في الولايات المتحدة الأمريكية..

أيامها، وبينما راح البعض ينبش في تنبؤات (نوستراداموس) العراف الفرنسي الأشهر، بحثا عن أية نبوءة، تتحدث عن انفراج الأزمة، كشف أحدهم فجأة، أن كل تنبؤات (إدجار كايس) خلال السنوات العشر الأخيرة، قد تحققت على نحو مدهش، وفي نفس التوقيتات التي حددها في نبوءاته.

وهنا تفجرت الشهرة فجأة..

ومن كل صوب..

واستيقظ (كايس) ذات صباح، ليجد الصحفيين يحيطون بمنزله، ومصابيح تصويرهم تسطع في وجهه، وعشرات الأسئلة تنهال على أذنيه..

وفي اليوم التالي، كان (كابس) ضيفا على خمس شبكات إذاعية، وصوره تملأ الصفحات الأولى، في خمس وسبعين صحيفة، محلية وعامة..

وخلال أسبوع واحد، أصبح (إدجار كايس) أشهر عراف، ليس في (أمريكا) وحدها، ولكن في العالم أجمع..

ولسنا هنا بصدد سرد تنبؤات (كايس)، أو التحمس لها، أو حتى مناقشة صحتها من عدمها، ولكننا سنتوقف فقط عند نبوءة واحدة، ترتبط ارتباطا وثيقا مباشرا، بالأسطورة التي نتحدث عنها..

أسطورة (أطلانطس)..

ففي يونيو عام 1940 م، وفي أثناء واحدة من نوبات غيابه عن الوعي، الذي جعلته يوصف بأنه وسيط روحاني قوى، أعلن (كايس) أن (أطلانطس) حقيقة، وأن أجزاء منها سوف تبرز من قلب المحيط الأطلنطي، في عام 1968 م، أو 1969 م، وحدد تلك الأجزاء بأنها من الطرف الغربي القارة الأسطورية، والمسمى (بوسيديا)، وأنها ستظهر بالقرب من جزر (البهاما)..

وأدهشت النبوءة العديدين، حتى أولئك الذين يؤمنون تماما بموهبة (كايس)، إذ لم تكن الظروف تحتمل الحديث عن أمر كهذا، والكل كان يتوقع منه نبوءة حول نهاية الحرب العالمية الثانية، التي بلغت أوجها حينذاك، والتي كادت تلتهم العالم كله..

الكل كان ينتظر حديثا عن (ألمانيا النازية، أو (هتلر) أو حتى عن سقوط (إنجلترا) فإذا به يتحدث عن (أطلانطس) وظهورها المنتظر، بعدما يزيد عن ربع قرن قادم من الزمان..

وتجاهل معظم الناس نبوءة (كايس) حول (أطلانطس)، وألقوها خلف ظهورهم، وخصوصا مع تنبؤاته التالية، التي أشارت إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية سترغم على دخول الحرب، وأن (روسيا) ستسقط جزئيا في قبضة النازيين، قبل أن تنهض لتهزمهم شر هزيمة فيما بعد..

حتى المهتمين بعلوم قارة (أطلانطس) لم يتوقفوا كثيرا أمام نبوءة (كايس)، باعتبارها عن مستقبليات، لا سبيل إلى التأكد منها في زمنهم، أو حتى إيجاد المنطق العلمي لحدوثها بعد..

ومرت السنوات، وتحققت نبوءات (كابس) الخاصة بالحرب، ودخلت (أمريكا) الحرب العالمية الثانية مرغمة، بعد أن قصف اليابانيون ميناء (بيرل هاربور) واجتاح النازيون (روسيا)، ثم اندحروا على أبواب (موسكو) وراحوا يتراجعون، وسط البرد والجليد، ليلقوا هزيمة ساحقة فيما بعد، دفعت (هتلر) نفسه إلى الانتحار..

ووسط هذا الخضم من الأحداث، نسي الكل نبوءة (كايس) الخاصة بقارة (أطلانطس)

تسوها تماما..

ولكن عام 1968 م جاء، وظهرت معه تلك البقايا، التي برزت من قلب المحيط، بالقرب من جزر (البهاما)..

تماما في نفس الزمان والمكان، اللذين حددهما (كايس) في نبوءته القديمة، منذ ما يزيد عن ربع القرن..

ونستطيع أن نؤكد، دون ذرة واحدة من المبالغة، أن الخبر قد حبس أنفاس جميع الأمريكيين، والكاميرات تنقل صورة الأبنية الحجرية، والأطلال القديمة، التي ظهرت بالقرب من سطح الماء عند شاطئ جزيرة (بايمين)، إحدى جزر (البهاما)، وتسترجع مع المشاهدين نبوءة (كايس) القديمة، ثم تضيف إلى هذا آراء الخبراء وعلماء الآثار، الذين أكدوا أن طرز تلك المباني، لا تشبه أية طرز حضارية قديمة معروفة.

وكان هذا يعني أمرا واحدا لا غير..

أن هذه بالفعل أطلال (أطلانطس) القديمة..

وأن (أطلانطس) حقيقة..

ومن سوء الحظ أن تلك الأطلال لم تبق في موضعها طويلا، إذا سرعان ما غاصت مرة أخرى في أعماق المحيط، وعلى مسافات لم يكن من الممكن أن يبلغها البشر أبدا..

فقط بقيت الصور، وتعليقات الخبراء، ونبوءة (كايس) القديمة، وخيال وعقول الملايين..

ولأن الوقت لم يسمح للعماء والدارسين والباحثين بالتيقن من الأمر، والحصول على أدلة مادية، فقد بدءوا يختلفون حول الأمر، بعد أسبوع واحد من غوص الأطلال، عائدة إلى أعمق الأعماق..

البعض استنكر الأمر كله، وأصر على أنها مجرد مصادفة، قد يبلغ احتمالها الواحد في كل ستة ملايين، ولكنه احتمال وارد وقائم، وبخاصة مع غياب أي دليل مادي آخر..

أما البعض الآخر فقد اقتنع تماما بما حدث، واعتبر أن هذا أقوى دليل على وجود (أطلانطس) في تاريخ الأسطورة كلها..

وبين أولئك وهؤلاء، وقف (تشارلز بيرليتز)..

و (بيرليتز) هذا بدأ حياته العملية كمترجم، ثم لم يلبث أن اهتم بالظواهر الغريبة، والأمور غير المحسومة، في عالمنا الضخم، وشغف كثيرا بتعقب كل أمر غامض، والسعي خلف كل لغز عميق، بحثا عما يؤيده أو ينفيه..

ومن هذا المنطلق، ولأن كتابه عن (مثلث برمودا) قد حقق نجاحا مدهشا، ومبيعات لم يحلم بها كاتب مثله، قرر (بيرليتز)،

الذي هو في الوقت ذاته غواص ماهر بارع، أن يغوص بنفسه، مع فريق من المعاونين، في منطقة جزر البهاما)، بحثا عن أي دليل مادي، على وجود (أطلانطس)...

ولقد رفض العلماء التعليق على محاولة (بيرليتز)، وتأييدها أو استنكارها، واكتفوا بالصمت، وبهز الأكتاف في استهتار، وكأنهم خشوا اتخاذ موقف واضح، تثبت تطورات الأحداث عكسه، فتهتز صورتهم في عيون الآخرين، وتضيع هيبتهم ومصداقيتهم، كعلماء لهم وزنهم في مجالاتهم..

وغاص (بيرليتز) وفريقه..

غاص في منطقة جزر (البهاما)، وحولها، و..

وكانت في انتظارهم مفاجأة مذهلة..

مفاجأة لا يمكن أن تخطر على عقل مخلوق...

أي مخلوق..

☆ ☆ ☆

5- أطلال من الماضي..

وعندما غاص الكاتب والباحث الشهير (تشارلز بيرليتز)، مع زميله خبير الغوص (د. ماتسوت فالنتين)، في أعماق المحيط الأطلنطي، بالقرب من جزر (البهاما) وحولها، كانت غاية طموحاتهما أن يجدا بعض الصخور، ذات التركيبات المنتظمة التي توحي بأنها من صنع الإنسان، أو حتى تمثالا صغيرا، يؤكد الخبراء أنه لا ينتمي إلى حضارة قديمة معروفة!!

ولكن كانت في انتظارهم مفاجأة!

بل مفاجأت!

ففي كتابه، الذي حطم الأرقام القياسية للمبيعات، والذي حمل اسم (سر أطلانطس)، ذكر (بيرليتز) كيف أنه وفريقه قد عثروا على الكثير من الأطلال القديمة الغارقة، بالقرب من جزر الكاريبي، وعلى ما يبدو أشبه بمدينة كبيرة، تستقر في قاع المحيط، عند جزيرة (هاييتي) ثم كانت لحظة المجد، عندما عثروا على طريق (بايمين)..

وطريق (بايمين) هذا عبارة عن طريق مرصوف بالأحجار، شمال جزيرة (بايمين)، بدا موحا بأن هذه المنطقة كانت يوما ما فوق سطح الماء، قبل أن تغرق، وتختفي في أعماق المحيط..

وبالقرب من ذلك الطريق، رصد (بيرليتز) وفريقه ما بدا أشبه بجدران ضخمة، وأقواس نصر كبيرة، وأهرامات، وقواعد وأطلال قديمة، في حين رصد بعض الطيارين، الذين ساهموا في حملة البحث، على مسافة عشرة أميال من جزيرة (أندراوس)، دائرة ضخمة من الصخور، بدت أشبه بقواعد أساس لبناء هائل..

ونشر (بيرليتز) كل هذا في كتابه، وأيده بالصور والوثائق، وشهادة الشهود، وأهمهم خبير الغوص (فالنتين) نفسه.

وقامت الدنيا ولم تقعد..

فالعلماء والخبراء، الذين لم يغادر أحدهم مكتبه، أو يبذل ربع الجهد، الذي بذله (بيرليتز) وفريقه، استنكروا تماما ما جاء في كتب هذا الأخير، وقالوا: إن طريق (بايمين) هذا مجرد مجموعة من الصخور، تصادف أن تراصت على نحو منتظم، في أعماق المحيط!!

وهنا، نشر (بيرليتز) و (فالنتين) مقالا مشتركا، سخرا فيه من فكرة ونظرية المصادفة هذه، وقالا ما معناه: إنها حجة الفاشلين؛ لأن الطبيعة لن تشكل الصخور على هيئة مكعبات ضخمة منتظمة الزوايا القائمة تماما، وتفصلها فجوات متناسقة بشدة، وتقطعها طرق أخرى على مسافات دقيقة متساوية.

والأهم والأخطر، أن الطبيعة لن تصنع قاعدة عمودية صخرية، أسفل كل مكعب، على هذا النسق المعماري الدقيق..

ولم يكتف (بيرليتز) و (فالنتين) بالمقال، وإنما قاما بتصوير فيلم سينمائي الطريق الصخري، تم عرضه في كل محطات التليفزيون الأمريكية تقريبا..

وفي نفس الوقت، تم العثور على طريق آخر، بوساطة فريق آخر، بالقرب من شواطئ جزيرتي (يوكاتان) و (هندوراس)..

طريق أكثر رحابة وضخامة، ويمتد إلى داخل المحيط، وكأنما يقود إلى شيء ما، أو مكان ما، كان هناك ذات يوم، منذ قديم الزمن.

وبالقرب من (فنزويلا)، عثر فريق ثالث في أعماق المحيط، على سور طويل، يبلغ امتداده مائة ميل!

ولكن يبدو أن عناد العلماء لا حدود له، وأنهم، في تلك المرحلة على الأقل، كانوا يرفضون تماما الاعتراف بما كشفه غير المتخصصين، أو من لا يحملون شهادات علمية متقدمة، مهما بلغ وضوحه وقوته..

فالجيولوجيون اعترضوا على ذلك السور الطويل، من منطلق أنه من المستحيل أن يبلغ سور من صنع البشر هذا الطول وجاء الرد مرة أخرى، على شكل فيلم سينمائي، يرصد السور، مع عبارة ساخرة، تطالب الجيولوجيين بتفسير وجود (سور الصين العظيم)، الذي يمتد لعدة آلاف من الكيلومترات، مادام البشر، من وجهة نظرهم، لا يمكنهم بناء سور طويل!!

وفي هذه المرة سكت الجيولوجيون..

وسكت العلماء كلهم..

ولكنهم لم يعترفوا بما تم العثور عليه أبدا..

وعلى الرغم من كل هذا، فقد تواصلت الكشوف، التي اتخذت من نبوءة (كايس) طرف خيط لها..

تواصلت من كل الاتجاهات..

ففي قاع المحيط، شمال (كوبا)، رصد الروس أطلال ضخمة، تمتد على مساحة عشرة أفدنة كاملة..

وفى الرصيف القاري لشمال (بورتوريكو)، كشفت ماسحة المحيطات الفرنسية (أرشميدس) درجات سلم منحوتة، بمنتهى الدقة والانتظام.. وكل هذه الكشوف لم تقنع العلماء..

كلها لم تكفهم؛ ليعترفوا - رسميا - بأن (أطلانطس) حقيقة، وليست أسطورة..

العجيب أنهم لم يفعلوا..

ولكن الأعجب أنهم، على الرغم من تجاهلهم لكل هذا، لم يتوقفوا قط عن البحث عن (أطلانطس)، ووضع النظريات عنها....

ولكن أبحاثهم اتخذت اتجاها جديدا هذا المرة..

لقد تركوا المحيط الأطلنطي، وأعمدة (هرقل)، وكل الدلالات التي جاءت في محاورتي (أفلاطون)، وبدعوا في وضع نظريات أخرى.

بل وفي وضع (أطلانطس) نفسها، في أماكن أخرى، وغريبة..

ومختلفة تماما..

فالبعض قال إن حضارة (كريت)، عرفت باسم الحضارة المينوية، نسبة إلى ملكها (ميينوس)، هي في واقعها حضارة (أطلانطس)، التي ذكرها (كريتياس)، في محاورته الشهيرة..

ولكن (كريت) لم تكن أبدا قارة ضخمة، كما أنها ليست خلف أعمدة (هرقل) أو مضيق جبل (طارق) حاليا..

صحيح أن ما عثر عليه فيها، يشبه إلى حد كبير ما رواه (أفلاطون) عن (أطلانطس)، وبالذات في الجزء الخاص بمطاردة الثيران، للإمساك بها دون استخدام أية أسلحة، إلا أنه من العسير الاقتناع بأن تلك المنطقة الصغيرة، كانت متقدمة إلى هذا الحد..

ثم لماذا لا تكون حضارة (كريت) قد التقطت بعض ما جاء به الناجون، من بقايا حضارة (أطلانطس)، ومنها العادات والتقاليد، وفكرة مطاردة الثيران بلا أسلحة أيضا؟!

ثم إن (كريت) لم تغرق أبدا، وظلت موجودة، في زمن (أفلاطون)، وفيما قبله وبعده، ولو أنها المكان الذي يقصده، لأشار إليها مباشرة، دون الحاجة إلى وضعنا في هذه الحيرة..

وفي زمن كهنة الفراعنة، الذين رووا القصة للمشرع الأثيني العظيم (صولون)، كانت كريت أيضا موجودة وكان يمكن أن يذكروها، دون حاجة إلى المواربة..

النظرية مردود عليها إذن، واضحة وضوح الشمس، ولا تحتاج إلى الكثير من الجهد، لدحضها وتفنيدها..

ولكن..

هناك نظرية أخرى أكثر غرابة..

نظرية تقول: إن (أطلانطس) لم تغرق في أعماق المحيط الأطلنطي قط..

بل ولم تغرق في أي محيط آخر..

أو أي بحر آخر..

لقد غرقت في قلب الرمال..

نعم.. تقول النظرية الأخرى أن (أطلانطس) قد غرقت وسط رمال الصحراء الكبرى، التي تمتد غرب (ليبيا) وشرق (الجزائر)، وأن مصطلح الغرق هذا يعني أنها قد دفنت تحت أطنان وأطنان من الرمال، على مدى الزمن!!

ومن وجهة نظري الشخصية، كان ينبغي أن أضع ألف علامة تعجب، بعد السطور السابقة، فالغرق في الرمال يختلف تمام الاختلاف، عن الغرق في قلب المحيط، وعبقري مثل (أفلاطون)، لم يكن ليضعنا أمام خطأ لغوي رهيب كهذا..

وحتى كهنة المصريين أنفسهم، ما كانوا ليقعوا في هذا الخطأ قط..

ولكن العجيب أن أصحاب نظرية الغرق في الرمال كانت لديهم نقطة قوية، يمكن أن تؤيد نظريتهم..

نقطة تكمن في نهاية الصحراء المشار إليها..

وبالتحديد في كهف من الكهوف..

كهف عجيب..

جدا..

☆ ☆ ☆

6- بلا أثر..

في جنوب شرق الجمهورية الجزائرية، تنتشر مجموعة من الكهوف، في مرتفعات (تاسيلي)، وتستقر هناك، منذ آلاف السنين..

وفي عام 1938 م، وفي أثناء رحلة استكشافية، يقودها الرحالة الشهير (برنبان)، تم اقتحام تلك الكهوف، ربما لأول مرة، ليجد أمامه، هو وفريقه، مفاجأة مذهلة..

فعلى جدران أول كهف اقتحموه، كانت هناك نقوشا ورسوما عجيبة لمخلوقات بشرية (أو شبه بشرية) تطير في السماء، وترتدى أجهزة طيران مثيرة للغاية، ونقوش أخرى لسفن فضاء، أو لما بدا وكأنه سفن فضاء، وهناك رسوم لرجال ونساء، يرتدون الثياب الحديثة، ويحملون المظلات، ورسوم أخرى لضفادع بشرية، تحت سطح الماء، في أزياء فضائية..

واتسعت عيون الكل في ذهول مبهور، و (فركوها) مرة..

ومرة، ومرات، قبل أن يتأكدوا من أن ما يرونه حقيقي، ثم اكتفوا بعدها برصد الأمر، ونقل النقوش والرسوم إلى أوراقهم، دون أن يدلو بدلوهم في شأتها، باعتبار أنهم مجرد رحالة، وليسوا من علماء الآثار أو الجيولوجيا..

وعلى الرغم من ان (برنبان) قد نشر مقالا عن كشفه هذا، في واحدة من المجلات العلمية والكشفية الشهيرة إلا أن أحدا لم يوله الاهتمام الكافي، أو يعتبر الأمر خارقا للمعتاد..

بل لقد بلغ الأمر بالبعض أن تصوروا أن ما عثر علية (برنيان) مجرد نقوش ورسوم حديثة، لأصابع صبيانية عابثة، في أثناء

رحلة كشفية، أو حتى رحلة لهو معتادة..

ثم جاء الرحالة (هنري لوت)، عام 1956، وجذبته كهوف (تاسيلي) إليها، فزارها حاملا معدات التصوير، التي التقط بها مئات ومئات الصور لكل النقوش والرسوم..

وعندما طالع الخبراء تلك الصور، شاب شعر رءوسهم، من فرط الرهبة والانبهار.

فالتقدير الأولى، لعمر تلك الرسوم، بناء على الصور، كان ما يقرب من عشرة آلاف سنة!!

واندفع العلماء والباحثون إلى كهوف (تاسيلي)، وقد جرفهم الحماس جرفا، وراحوا يفحصون النقوش والرسوم عن قرب، ويجرون عليها اختباراتهم العلمية، والكربونية، و...

وجاءت النتائج مذهلة..

فالاختبارات كلها قد أجمعت، على أن العمر الفعلي لتلك النقوش، هو سبعة عشر ألف عام..

مائة وسبعون قرنا من الزمان، حملت إلينا نقوشا، تناسب، أو ربما تفوق العصر، الذي تم كشفها فيه!

ويا له من لغز!

لغز عجيب، رهيب، حمل لسنوات وسنوات اسم (لغز كهوف تاسيلي)، حتى ظهرت تلك النظرية، التي تقول: إن (أطلانطس) كانت تستقر في ذلك المكان، وغرقت في رمال الصحراء..

عندئذ فقط، اتخذ لغز كهوف (تاسيلي) أبعادا جديدة..

فمن وجهة نظر المؤيدين للنظرية، كان أصحاب تلك النقوش هم الذين نجوا من دمار (أطلانطس)، والذين لم يجدوا أمامهم،

بعد فناء حضارتهم، سوى أن يتركوا لنا نقوشا غائرة، لا يمحوها الزمن، ليخبرونا بقصتهم، وليحذرونا منها أيضا.

فمع ربط (أطلانطس) بتلك النقوش القديمة، و (المتقدمة جدا)، تطورت قصة دمار (أطلانطس)، في النظريات المستحدثة وارتبطت بالتأثيرات التي شهدها العالم، منذ سنوات قليلة – آنذاك - لتصبح لدينة قصة جديدة تماما..

ونظرية مختلفة تمام الاختلاف..

فما دام سكان (أطلانطس) كانوا متقدمين إلى هذه الدرجة، كما تقول نقوش كهوف (تاسيلي) فهذا يعني أن فناء قارتهم لم يكن بسبب سلسلة من الكوارث الطبيعية المتتالية، كما قال (لويس سبنس)، مؤيدا (إيجنا تيوس دونيللي)، وإنما كان كما وصفه (أفلاطون) تماما، في محاورتيه الشهيرتين..

لقد فنت (أطلانطس) في يوم وليلة..

فنت بواسطة انفجار ذري رهيب، أو طاقة أخرى أكثر قوة، لم نتوصل إليها في حضارتنا بعد!!

ويا لها من نظرية!

لقد قلبت الأمور كلها رأسا على عقب، ومزجت كل شيء ببعضه وخرجت إلينا بنتيجة عجيبة، شديدة التوتر والتعقيد، إلى أقصى حدّ..

ولكن كيف يمكن أن نؤيد (أفلاطون) في جزء من قصته، ثم نخالفه، وبمنتهى الشدة، في أجزاء أخرى منها؟!

فقصة (أطلانطس) تبدأ مع حصول (بوسيدون)، إله البحر والزلازل، على قارة (أطلانطس)، عندما تم توزيع الأرض على

الآلهة..

كيف يمكن إذن أن يمنح مفكر كبير مثل (أفلاطون)، قطعة من الصحراء، بين (ليبيا) و (الجزائر)، لإله البحر؟!

كيف يمكن أن يبدو له هذا منطقيا، بأي حال من الأحوال؟!

كيف؟!

من الواضح جدا أن (أفلاطون) لم يكن يقصد الصحراء، من قريب أو بعيد، عندما ذكر قصة (أطلانطس).. ولكن ربما اختلط الأمر على (كريتياس) نفسه، الذي انتقلت إليه القصة عبر جيلين من البشر، بدءا من جده (صولون)، الذي نقلها على لسان كهنة قدماء المصريين، والذين تناقلوها بدورهم، عبر عدة آلاف من السنين..

كانت هناك إذن ألف فرصة وفرصة، لتتحور الأمور، وتتغير وتتبدل، لتصبح الصحراء محيطا، من رواية إلى أخرى، عبر قرون وقرون وقرون..

هذا ما يؤكده مؤيدو نظرية الصحراء..

وما يسخر منه مؤيدو نظرية الغرق في المحيط الأطلنطي،

وعلى رأسهم (تشارلز بيرليتز)، الذي تساءل، في شيء من السخرية، امتزج ببعض الغضب والحدة: «لو أن (أطلانطس) ظهرت واندثرت في قلب صحراء (إفريقيا)، فما الذي عثر عليه هو وفريقه، في أعماق المحيط الأطلنطي؟!»

كل جانب أصبحت له حججه القوية، ودلائله المتينة، واعتراضاته الحارة الحاسمة، دون أن يتفوق الجانبان، أو حتى يتقاربا، حتى لحظة كتابة هذه السطور..

وبقيت الأسطورة..

بقيت (أطلانطس)..

بقيت كأكبر لغز حضاري، واجه العلماء في عصر بلغت فيه التكنولوجيا أوجها، وبلغت فيه تقنية البحث حدا لم تبلغه قط، أو حتى تقترب منه، عبر التاريخ كله.

التاريخ الذي نعرفه بالطبع..

الشيء الجيد هو أن محاولات البحث عن أدلة وجود (أطلانطس) لم تتوقف لحظة واحدة، ولن تفتقر قط إلى التمويل الكافي، والحماس اللازم، أو التقنية المتاحة فالآن، ومع بدايات القرن الحادي والعشرين تجوب أعماق المحيط الأطلنطي غواصات تجريبية نووية، يمكنها أن تصل إلى أعماق، لم يبلغها بشر من قبل، ولم يكن من الممكن أن تحتملها أية مركبة في الماضي..

وهناك وسائل فحص الأعماق، وأعمق الأعماق، بالأشعة السينية، وموجات السونار المتفوقة، والأشعة دون الحمراء، وحتى بالأشعة الكونية، التي تسقط على أرضنا في الفضاء..

وقديما، كان العثور على السفينة الغارقة (تايتانيك) يعد دربا من الخيال المستحيل، إلا أن المكتشفين قد نجحوا في العثور عليها، وفي استخراج الثروات التي كانت تحملها أيضا..

فهل يمكن أن يحدث هذا مع (أطلانطس) أيضا؟!

هل يمكن أن يأتي يوم، ينتشل فيه العلماء أنقاضها من قاع المحيط، أو ينتشلونها من بين الرمال، كما فعلوا من قبل، مع (طروادة) و (قصر التيه) و (ديلمون) وغيرهم. لو حدث هذا

ستكون لحظة تاريخية بحق، ونقطة تحول هائلة، في تاريخ العالم كله..

ففي لحظة العثور عليها، ستنتقل (أطلانطس) من عالم الغموض والخيال إلى عالم الواقع والحقيقة، وستتمحى تماما تلك الأسطورة الرائعة، التي ألهبت العقول، وخلبت الألباب، وأرجفت القلوب، لعدة قرون من الزمان....

أسطورة القارة المفقودة..

(أطلانطس)..

☆ ☆ ☆

الانفجار الغامض

20- الانفجار الغامض..

1- ســـيبريا..

على الرغم من سطوع الشمس، على غير العادة، في تلك البقعة من أصقاع (سيبيريا) الرهيبة، في الثلاثين من يونيو عام 1908 م، إلا أن درجات البرودة ظلت منخفضة إلى حد تجاوز الصفر، إلى عشرين درجة سالبة على الأقل، وإن لم يمنع هذا حيوانات الرنة من الخروج في رشاقة؛ سعيا وراء رزقها، ولا المزارعين من ترك فراشهم الدافئ، ودفع ماشيتهم إلى الحقول، التي غطت الثلوج معظمها، وتركها ترعى طيلة النهار كالمعتاد..

ومع ما يمثله كل هذا من صعوبات جمة، بدا الجميع هادئين متآلفين مع ما حولهم، باعتبارها بيئتهم الأصلية، التي نشئوا وترعرعوا فيها، و.....

وفجأة، تغيرت كل الأمور.....

وبعنف...

ففي الخامسة تقريبا، ومع اختفاء آخر ضوء الشمس، التي لم تسمح لها الغيوم الكثيفة بالسطوع طويلا، بدأت حيوانات الرنة تغادر الحقول، وراح المزارعون يجمعون ماشيتهم كالمعتاد..

وفي تمام الخامسة، وسبع عشرة دقيقة بالضبط، دوى الانفجار..

انفجار هائل رهيب، ارتجت له منطقة نهر (تانجسكا) كلها بمنتهى العنف، حتى اختل توازن المزارعين، وأصيبت ماشيتهم بالذعر وراحت حيوانات الرئة تعدو في كل مكان بلا نظام..

ومع الانفجار، ارتفعت كتلة هائلة من اللهب..

كتلة أقسم كل من شاهدها، من مزارعي المنطقة، وسكان المناطق المجاورة والمتاخمة، أنها أضخم وأغرب من أي شيء رأوه، في حياتهم كلها.

وخيل للكل أن الشمس قد سقطت على الأرض، على حد قولهم: لأن السماء كلها أضاءت بوهج رهيب...

وهج لم يحيل مساء (تانجسكا) إلى نهار فحسب، وإنما امتد إلى ما هو أبعد من هذا..

أبعد بكثير...

فكل سكان (روسيا) بلا استثناء رأوا الضوء، بل وأمكنهم السير في قلب الليل، دون الحاجة إلى أية مصابيح، حتى شروق شمس اليوم التالي..

وفي (ستوكهولم)، أمكنهم التقاط عددا من الصور الضوئية، بكاميراتهم محدودة الإمكانيات، في قلب الليل، دون الحاجة إلى

وميض مصابيح التصوير..

الصحف الإنجليزية أكدت أن قراءها كان بإمكانهم قراءة الأحرف الصغيرة، من جريدة (التايمز)، في منتصف الليل..

الألمان حظوا بنهار، دام أكثر من أربع وعشرين ساعة..

الهولنديون عجزوا عن رصد النجوم، بسبب الضوء المبهر..

كل هذا أكده الشهود، وسجلته الصحف والوثائق..

والكتب أيضا..

وبالذات في (روسيا)، التي أكد أحد مزارعيها، والذي كان يجلس على بعد ستين كيلومترا من موقع الانفجار، أنه شعر بلفح النيران، ورأي كرة هائلة من اللهب، ترتفع إلى السماء، قبل أن يلقيه الانفجار بعيدا..

ليس هذا فحسب، وإنما أطاح بسقف منزله أيضا، إلى مسافة مائة متر كاملة..

ولأن الحدث رهيب، ومفاجئ، وشبه عالمي، فقد سرى الرعب في نصف الكرة الأرضية على الأقل، قبل أن تمتد الأخبار إلى العالم كله فيما بعد..

ومع انتشار الأخبار، بدأت التساؤلات..

ما هذا الانفجار الرهيب؟!

كيف حدث؟!

وكيف اكتسب كل هذه القوة، التي لم يعرفها العالم قبلها قط، في زمن ما قبل القنابل الذرية، والنووية، والهيدروجينية؟!

ولأن الناس أعداء ما يجهلون، وخصوم ما يخشون، ويميلون دوما إلى الفزع والخوف والتشاؤم، فقد خرجت بعض الآراء في سرعة، تعلن أن هذا الانفجار مجرد إنذار من السماء، والخطوة الأولى في طريق فناء العالم.

ومن هول ما رآه الناس وشعروا به، انتشرت تلك الفكرة في سرعة، وامتدت إلى كل بقاع الأرض..

فيما عدا (روسيا) أيضا.

ففي تلك الفترة، وعلى الرغم من الظاهرة الغريبة والمفزعة، لم يحرك مخلوق واحد، في (روسيا) القيصرية - آنذاك – إصبعا للبحث عن سبب حدوث هذا الانفجار العجيب.. والغامض، لأن الاضطرابات السياسية كانت قد بلغت مدى، انشغل به الكل عن سواه، وانشغلوا أكثر بذلك الراهب الرهيب (راسبوتين)، الذي سيطر في ذلك الحين على القيصر والقيصرة، وأصبح صاحب الكلمة الأولى في القصر، والمتسبب الأول في أوجاع الشعب ومتاعبه..

ومع انشغال الكبل بالسياسة ومتاعبها، تجاهلت كل الجهات الرسمية الروسية ما حدث، وتعاملت معه باعتباره مجرد ظاهرة غير مفهومة، لا تستحق البحث عنها، أو حتى معرفة أسبابها..

كل ما حدث، وبصفة غير رسمية، هو أن فريقا من العلماء قد كون بعثة استكشافية، على نفقة أفراده، وذهبوا إلى موقع الانفجار عند نهر (تانجسكا)، في أعماق صقيع (سيبيريا)، وتفقدوا المكان، وسجلوا ما رأوه، حتى أصابتهم بعض الأمراض العنيفة، التي تسببت في موت اثنين منهم بسبب الجفاف، وسط ثلوج تحيط بهم من كل جانب، وإصابة الآخرين بنوع عجيب من

القروح، فشلت كل محاولات علاجها، بعد عودتهم إلى (موسكو)، مما أدى إلى تفاقم الحالة، ووفاة الباقين خلال شهرين من عودتهم، دون أن يشخص طبيب واحد طبيعة مرضهم، والذي لم تسجله أية مراجع طبية علمية من قبل..

ومع تجاهل السوفييت للأمر، راحت قصة انفجار (سيبيريا) تهدأ، وتهدأ، حتى تلاشت تماما، وضاعت في خضم الأحداث، واندلاع الحرب العالمية الأولى، التي أكد العديدون تورط الراهب (راسبوتين) فيها، مما دفع مجموعة من النبلاء إلى التخلص منه وقتله، قبل عام واحد من قيام الثورة البلشيفية 1917 م، والتي كانت النتيجة الحتمية للاضطرابات السياسية، التي لم يتمكن القصر من السيطرة عليها أبدا..

ومع بدايات الثورة البلشفية، تغيرت أمور كثيرة في (روسيا) الجديدة، ليس هذا مجال شرحها، ولكن كل ما يهمنا منها هو ما حدث بعد قيامها بأربع سنوات تقريبا.. وبالتحديد في عام 1921 م..

ففي ذلك الحين، بدأ أول بحث علمي وفعلي وجاد، عما أطلق عليه الكل اسم (انفجار سيبيريا)، على يد العالم السوفيتي الشاب (ليونيد كوليك)..

والواقع أن (كوليك) كان ينتظر هذه اللحظة منذ سنوات، بفارغ الصبر، وبالتحديد منذ قرأ صحيفة محلية قديمة، تصف ذلك الانفجار الكبير بقولها:

«شاهد الفلاحون جسما شديد الإضاءة يهبط من السماء، في الشمال الغربي، يميل واضح، وبدا لهم أشبه بجسم أسطواني منتظم، وعندما بلغ ذلك الجسم الأسطواني سطح الأرض،

انسحق تماما، وتكونت حوله سحابة هائلة من الدخان الأسود، استمرت لثوان، قبل أن يدوي صوت انفجار هائل رهيب، أشبه بانطلاق ألف ألف مدفع جبار، واهتزت القرية كلها، وتصور الجميع أنها نهاية العالم.... «

هذا بالضبط ما نشرته الصحيفة القديمة، التي أثارت انتباه (كوليك)، وخليت لبه، ودفعته إلى السعي لكشف ما حدث هناك في أعماق أسيبيريا)..

والوصف، الذي ورد في الصحيفة القديمة، تم نقله عن شاهد عيان، لم يبال به أحد أيامها، ولكنه بدا، بالنسبة للعالم الشاب (كوليك)، كطرف خيط قوي، يمكن يقود إلى تفسير انفجار (سيبيريا) الغامض..

ولكن رغبة (ليونيد كوليك)، كانت ترتطم بالعقبة التقليدية في كل الأبحاث العلمية عبر التاريخ..

التمويل..

فالسفر إلى منطقة نهر (تانجسكا)، في أعمق أعماق (سيبيريا)، وإجراء الفحوص اللازمة، والدراسات الكافية، والبحث عن تفسير علمي أو منطقي لانفجار غامض، حدث منذ عدة سنوات، كان يحتاج حتما إلى تمويل ضخم..

لذا فقد بدأ (كوليك) الجزء الأول من رحلته، داخل (موسكو) نفسها، في ظل نظام شيوعي متعسف، يولي اهتماما كبيرا للأموال، ويضع أولويات للإنفاق العسكري، والاجتماعي..

وطالت رحلة (كوليك)، وهو ينتقل من جهة إلى أخرى، ويرتطم بالرفض، والإنكار، والاستنكار، حتى أصابه اليأس أو كاد، وقرر التخلي عن الفكرة كلها، وقلبه يقطر دما..

وذات ليلة شديدة البرودة، من ليالي يناير عام ١٩٢٧ م، عاد (كوليك) إلى منزله يائسا بائسا، و...

وكانت في انتظاره مفاجأة هناك..

مفاجأة مدهشة..

☆ ☆ ☆

2- أول رحلة..

لم تبلغ برودة الطقس، منذ بدايات القرن العشرين، ما بلغه في تلك الليلة، من ليالي يناير ١٩٢٧ م، والعالم الشاب (ليونيد كوليك) يعود إلى منزله بائسا يائسا، و....

«أأنت (ليونيد كوليك)؟!»

صدمة السؤال، الذي اتبعث من بقعة مظلمة، في مدخل المنزل، في مرحلة تميزت بالاعتقالات الليلية، واغتيال الخصوم والمعارضين أو نفيهم إلى معتقلات (سيبيريا)؛ لتتجمد مشاعرهم وأفكارهم هناك، وسط ثلوجها الرهيبة، التي تمتد إلى مدى البصر، في كل الاتجاهات..

وبصوت مرتجف، وأعصاب جمدتها المفاجأة، أجابه (كوليك):

- نعم.. هو أنا.. من يريدني؟!

برز من قلب الظلمة رجل قصير، صارم الملامح، مد يده إليه، مجيبا بنفس الغلظة غير المبررة، التي ألقي بها سؤاله الأول:

- (فيدور كواليسكي).. من اكاديمية العلوم السوفيتية.

صافحه (كوليك) بأصابع مرتجفة، وقلبه يخفق في عنف وأضاف الرجل بنفس الغلظة، وهو يسحب يده في برود:

- لقد وافقنا على تمويل حملتك، ونريدك أن تبدأ في أقرب فرصة..

وطار قلب (كوليك)، من شدة الفرح..

لم يكن يدري أيامها أن سبب موافقة أكاديمية العلوم، على تمويل رحلته، لم يكن علميا بالدرجة الأولى..

بل كان عسكريا..

فمن حسن حظه أن أحد الجنرالات السوفييت طالع قصة الانفجار، وبدا له أن كشفه يمكن أن يقود إلى ابتكار سلاح جديد فتاك، قادر على سحق الأعداء بضربة واحدة..

ولأن ذلك الجنرال كان يحتل منصبا رفيعا، في القيادة الجديدة، فقد أصدر أوامره إلى طاقم أمنه، بالبحث عن المهتمين بأمر ذلك الانفجار، مما قاده على نحو غير مباشر إلى (كوليك)..

وبعد مطالعة ملف (كوليك)، وسعية للبحث عن تمويل لرحلته الاستكشافية، رفع ذلك الجنرال سماعة هاتفه، واتصل بأكاديمية العلوم السوفيتية، وكان ما كان..

ولم يكن (كوليك) يعلم كل هذا، إلا أنه، حتى ولو عرف كل التفاصيل، لم يكن ليتنازل قط عن تلك الفرصة الذهبية، لبحث أسباب انفجار (سيبيريا)..

وفي كل الأحوال، لقد قبل التمويل وتمسك به، وتشبث بالفرصة، وبدأ رحلته..

ويا لها من رحلة..

لقد استقل (كوليك) وفريقه القطار، وقطعوا به (سيبيريا) كلها تقريبا، حتى نهاية الخط، في بلدة (تيشيت)، ومن هناك استخدموا الجياد والزحافات، حتى (فانافارا)..

و (فانافارا) هذه كانت آخر المناطق المأهولة والمسكونة، في صحراء (سيبيريا) الجليدية، قبل أن تبدأ منطقة (التايجا)..

ولو أنك ذكرت كلمة (التايجا)، في أي مكان من الاتحاد السوفيتي، في تلك الفترة، لاتسعت عيون سامعيك في هلع،

واصطكت أسنانهم وركبهم في رعب بلا حدود..

هذا لأن (التايجا) هي المجهول..

المنطقة الرهيبة من (سيبيريا)، في ذلك الحين، والتي ظلت تثير الرعب في القلوب والنفوس، حتى بعد أن أقيمت فيها بعض المدن الحديثة، بعد الحرب العالمية الثانية..

ولأن الفضول العلمي يفوق دوما الخوف والرعب، التقط (كوليك) وفريقه أنفاسهم في قوة، ثم غاصوا في (التايجا)...

وكانت مرحلة رهيبة بحق، من تلك الرحلة..

الرحلة التي استغرقت شهرا كاملا، في أعمق أعماق (التايجا)، ذاق خلالها (كوليك) وفريقه الأمرين، وواجهوا الأهوال، وسط صقيع (سيبيريا)، وثلوجها الرهيبة، حتى بلغوا نهر (ميكيرتا)..

. وهنالك، كانت البداية..

لأول مرة، منذ بدأت الرحلة، رصد (كوليك) وفريقه أول علامة من علامات الانفجار..

كانت كل الأشجار في المنطقة قد اقتلعت من جذورها، وتراصت على نحو منتظم، ككتيبة عسكرية لقيت مصرعها فجأة، أثناء طابور الصباح..

وكانت كلها تلتزم باتجاه واحد..

فكل قممها، بلا استثناء، كانت تتجه نحو الجنوب الشرقي..

وسجل (كوليك) هذه الملحوظة..

وقام الرسام المصاحب للفريق برسم الأشجار، في موضعها هذا..

ثم واصل الكل رحلتهم..

وكلما توغلوا أكثر، كانت علامات الدمار تبدو أكثر شدة وبشاعة..

حتى أشجار (التايجا) الهائلة، اقتلعها الانفجار اقتلاعا من جذورها، وصفها على النحو نفسه، بحيث كانت قممها كلها في اتجاه الجنوب الشرقي، وجذورها تشير إلى الشمال الغربي، حيث مركز الانفجار حتما..

ومع الدمار والخراب، بالإضافة إلى الإرهاق والتعب، والرعب والهلع، توقف أفراد فريق (كوليك) ورفضوا الاستمرار في الرحلة..

وهنا، انتقل كل الرعب والهلع إلى (كوليك) نفسه، الذي حاول في استماتة إثنائهم عن قرارهم، وإقناعهم بمواصلة الرحلة..

ولكن هيهات..

الرجال الذين التهمهم الرعب، تشبثوا بموقفهم، وأصروا على قرارهم، وكأنما يدركون أن الجحيم ينتظرهم، لو تقدموا كيلومترا واحدا..

ولم يعد أمام (كوليك) سوى الانصياع..

وبقلب تملؤه الحسرة، انصاع (كوليك) للموقف، وأنهى الرحلة، وعاد إلى موسكو) بكل المرارة...

ولكنه لم يستسلم..

ولأنه لم يكن قد استهلك كل التمويل المخصص لحملته، راح (كوليك) يبحث عن مرافقين جدد، إلى أن عاود الكرة مرة أخرى، في يونيو من العام نفسه..

وبدأ رحلته من جديد..

الفارق الوحيد، في هذه المرة، هو أنه كان يعرف طريقه جيدا..

حتى إن الرحلة قد استغرقت وقتا أقل بكثير، للوصول إلى (التايجا)، والتوغل فيها، حتى بلغ منطقة يطلق عليها اسم (المراجل)..

وهناك، خفق قلبه في شدة..

بل وبمنتهى الشدة..

ففي تلك المنطقة، عند نهر (تانجسكا)، كان كل شيء يؤكد أنهم في مركز الانفجار..

فالأشجار المقتلعة، لم تكن قممها تتجه نحو الجنوب الشرقي فحسب، بل نحو كل الاتجاهات، وهي متراصة على نحو منتظم، تاركة فيما بينها دائرة واسعة خالية تماما خالية من الأشجار، والنباتات..

وحتى الحشرات..

الأعشاب الصغيرة، المقاومة للبرودة، كانت تنمو وتنتشر في كل المنطقة.. فيما عدا تلك الدائرة..

وأمام ذلك المشهد، وقف (كوليك) وفريقه مبهورين، وبدا لهم أنهم قد توصلوا إلى كشف هائل، مما أعاد النشاط إلى عروقهم، فراحوا يسجلون ويرسمون ويصورون كل ما حولهم.

وبالذات تلك النباتات، التي بدت غريبة وغير مألوفة، عند الحدود القريبة للدائرة..

ومن منطلق تخصصاتهم، راح كل منهم يكتب تقريره، ويصف ما يراه...

ثم بدأت الحالات المرضية..

المغص، والإسهال المعوي، والتقرحات الحادة..

ومرة أخرى، اضطر (كوليك) للعودة مع فريقه، ولكنه في هذه المرة، كان يحمل تقريرا موققا من معظم أفراد الفريق، يؤكد أن ما حدث في (تانجسكا) هو أن نيزكا هائلا من الصلب قد هوى على المكان، وانفجر، مسببا كل هذا الدمار..

وكان (كوليك) مطمئنا تماما إلى تقريره هذا، وإلى أنه قد وجد حل اللغز، وأنهى مشكلة الانفجار الغامض، على الرغم من انه لم يستطع تفسير الأعراض التي أصيب بها بعض أفراد الفريق، والتي أدت إلى موت اثنين منهم، ولا ما أصاب تلك النباتات المتحورة، عند مركز الانفجار..

ولم تكن لديه حتى الفرصة للبحث عن التفسير..

فعقب إصداره كتابه، المعروف باسم (انفجار سيبيريا.. التفسير الحاسم)، وتعليق العلماء عليه، اندلعت الحرب العالمية الثانية واشتعلت النيران في (أوروبا) كلها، ثم لم تلبث أن امتدت إلى الاتحاد السوفيتي نفسه..

وتغير معها الموقف كله، بالنسبة للعالم الشاب (كوليك)، وبالنسبة لفكرة انفجار (سيبيريا) نفسها..

تغير تماما..

☆ ☆ ☆

3- نظرة جديدة..

في عام ١٩٣٩ م، وبعد مرحلة طويلة من تثبيت الأقدام، وإعادة بناء الجيش، أسفر (أدولف هتلر) عن نواياه الحقيقية، وبدأ في اجتياح أوروبا بلا هوادة..

وعلى الرغم من معاهدة الدفاع المشترك التي وقعها مع السوفييت، قرر (هتلر) فجأة غزو (روسيا)، فأطلق جيوشه نحوها، في عملية رهيبة، حملت اسم (بارباروسا)، أو ذي اللحية الحمراء..

وانطلقت الجيوش النازية نحو روسيا الحمراء، وراحت تحصد كل من يواجهها من أرواح، بلا رحمة أو شفقة..

ومن بين من حصدتهم الأسلحة النازية، كان العالم الشاب (ليونيد كوليك)، بكل خبرته ومعلوماته عن انفجار (سيبيريا)..

ومع الانفجارات والنيران والرصاصات، في كل مكان، لم يبال أحد بموت (كوليك)، أو بقصة ذلك الانفجار الغامض في (تانجسكا)..

ولكن التقدم الألماني لم يستمر..

فمع مجموعة من القرارات الديكتاتورية الخاطئة، بدأ النازيون يتلقون الهزيمة تلو الأخرى، مما أجبرهم على التراجع، والاندحار، والهزيمة المريرة، في قلب (برلين) نفسها..

وفي الوقت ذاته، بدأت عملية رصد آثار القنبلة الذرية، وتداعياتها، وتأثيراتها الإشعاعية، و....

وفجأة، توقف أحد العلماء أمام التقارير، التي تصف آثار قنبلة (هيروشيما)، والتي بدت له مشابهة كثيرا لتقارير (ليونيد

كوليك)، حول ذلك الانفجار الغامض في (تانجسكا)..

ذلك العالم كان سوفيتيا أيضا، يدعى (زولوتوف)، وكان أحد المسئولين عن دراسة آثار انفجار (هيروشيما)؛ لمعرفة طبيعة ذلك السلاح الرهيب، الذي توصل إليه الأمريكيون، وحصلوا بموجبه على زعامة العالم كله بضربة واحدة...

وحتى لا يقع في قبضة السوفييت، انتحر الزعيم النازي (أدولف هتلر)، مع عدد من رجاله، وأطبق الحلفاء على (برلين) من الجانبين، واندحرت (ألمانيا النازية، وسقط الرايخ الثالث سقوطا مدويًا..

وبعد فترة قصيرة، ألقت (أمريكا) قنبلتيها الذريتين، على (هيروشيما) و (ناجازاكي)، ومحتهما تماما من الخريطة، لتضع الحرب أوزارها، وتبدأ عملية إعادة البناء، في (أوروبا) والاتحاد السوفيتي.

وعلى الرغم من دقة مهمة (زولوتوف) وخطورتها، فقد انشغل لبعض الوقت، في البحث عن أوجه التشابه الكبيرة، بين انفجار (هيروشيما)، وانفجار (سيبيريا) الغامض.

ففي الحالتين، ووفقا للتقارير بعثة (كوليك)، كان التدمير أقل نسبيا في مركز الانفجار، منه في أطرافه..

كما أن بعض الأشجار قد ظلت واقفة في المركزين..

وفي كل من الانفجارين، ارتفع عمود هائل من اللهب والدخان، على شكل فطر عش الغراب، وفي كليهما نبتت النباتات في سرعة، بعد فترة قصيرة، فيما عدا منطقة المركز..

الفارق الوحيد، الذي وجده (زولوتوف)، هو أن عمود الدخان واللهب، قد ارتفع لمسافة أعلى بكثير، في انفجار (سيبيريا)، عنه في انفجار (هيروشيما) الرهيب..

وبسرعة، ودون أن يضيع لحظة واحدة، راح (زولوتوف) يجرى حساباته، ويضع معادلاته، ويدرس الانفجارين، قبل أن يتوصل إلى نتيجة مدهشة، أذهلته هو شخصيا قبل سواه..

فوفقا لما توصل إليه، لم يكن انفجار (سيبيريا) بسبب نيزك من الصلب، وإنما كان انفجارا ذريًا، بكل ما تحمله الكلمة من معان..

انفجار أقوى ألف مرة من انفجار (هيروشيما)..

وبكل لهفة، حمل (زولوتوف) كل حساباته، ومعادلاته، ونتائجه إلى القيادة العسكرية، ووضعها بين أيديهم، مطالبا بتمويل حملة استكشافية جديدة، لكشف لغز ما حدث هناك..

في أعماق (سيبيريا)..

وفي تلك الفترة بالتحديد، ومع النتائج التي توصل إليها (زولوتوف)، لم يكن من العسير عليه أن يحصل على التمويل اللازم..

بل وأكثر من اللازم أيضا..

فالسوفييت، في تلك المرحلة، كانوا مستعدين لدفع أعمارهم نفسها، في سبيل كشف أسرار القنبلة الذرية، والفوز بوسيلة إنتاج السلاح نفسه، الذي وضع الأمريكيين على قمة العالم..

وفي أوائل عام 1947 م، قاد (زولوتوف) حملته إلى (التايجا)، حيث مركز انفجار (تانجسكا)، في قلب (سيبيريا).

ولم تكن الرحلة شاقة هذه المرة، كما كانت مع فريق (كوليك)، فقد تطورت وسائل النقل، والطيران والإعاشة، كتداع حتمي لسنوات الحرب الطويلة..

ووصل (زولوتوف) وبعثته إلى مركز الانفجار، وهم يرتدون ثيابا واقية من التأثيرات الإشعاعية النووية، بعد أن افترض العالم السوفيتي أن كل الأعراض، التي أصابت كل من سعى لحل لغز انفجار (سيبيريا) الغامض، قد نجمت عن التأثيرات الإشعاعية، التي لم يكن من الممكن أن يفهمها أو ينجح في تشخيصها الأطباء، قبل انفجار (هيروشيما)..

ولقد بدأت بعثة (زولوتوف) دراستها للأمر من منظور جديد ومختلف تماما..

وكانت النتائج مدهشة.. بل مذهلة..

وإلى أقصى حد..

فكل شيء، في مركز الانفجار، كان يشير إلى الآثار النووية لما حدث..

كانت هناك تغيرات وراثية عنيفة، في نباتات وحشرات (سيبيريا)، في منطقة الانفجار، توحي بأن أجدادها قد تعرضت لإشعاعات ذرية، أدت إلى حدوث تحورات في جيناتها الأساسية..

وكانت هناك أيضا تقرحات واضحة، على أجسام الحيوانات هناك، تماما كما حدث في (هيروشيما) بعد الانفجار..

وسجل أفراد البعثة كل هذا، وجمعوا عينات من النباتات والحشرات المتحورة، وأسروا إحدى الحيوانات المصابة، قبل أن ينتبهوا إلى أن الأمر لا يقتصر على هذا فحسب..

ففي منطقة الانفجار، عثر فريق العلماء أيضا على أنواع من مادة (السيليكا)، تحوي في قلبها فقاعات هوائية، تماما كتلك التي يتم رصدها بالتحليل الطيفي، عبر جهاز (سبكتروجراف)، للأجسام الفضائية..

وعثروا أيضا على قطع من الفسفور النقي..

والفسفور النقي مادة يستحيل وجودها في الطبيعة، بل ويحتاج تصنيعها إلى تكنولوجيا كانت ومازالت عسيرة ومعقدة للغاية.

وكانت هناك عناصر نادرة، ومثيرة للدهشة، مثل عنصر النيوتريوم النادر جدا..

ودون أدنى تردد أو شك، سجل العلماء في تقريرهم أن ما حدث عند نهر (تانجسكا)، في أعماق (سيبيريا)، هو انفجار نووي، بشكل أو بآخر..

ولم يكتف العلماء بهذا..

لقد أكدوا أيضا أن ذلك الانفجار النووي لم يحدث، عند ارتطام جسم ما بكوكب الأرض..

لقد حدث، قبل أن يبلغ ذلك الجسم الأرض!!

وبالتحديد على ارتفاع ثماني كيلومترات بالتحديد.

الأمر إذن لا يمكن أن ينشأ عن نيزك من الصلب، كما قالت تقارير فريق (كوليك) فيما قبل..

لقد كان أمرا مختلفا..

مختلف تماما..

ووسط كل هذا النشاط، كان (زولوتوف) يعيد حساباته، ومعادلاته، ويستمع إلى أقوال الشهود..

ليس شاهدا أو شاهدين، أو حتى عشرة..

لقد جمع (زولوتوف) هذه المرة أقوال أكثر من سبعمائة شاهد عيان، استمع إليهم جميعا في صبر واهتمام، ودرس كل كلمة نطقوا بها، وكل إشارة المحوا إليها..

وبعد كل هذا، خرج (زولوتوف) إلى فريقه بنظرية جديدة تماما..

نظرية فجرت كل دهشتهم، وحيرتهم..

واستنكارهم أيضا..

فالواقع أن نظرية العالم الأكاديمي السوفيتي (زولوتوف) كانت غريبة بحق..

غريبة ومذهلة..

إلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

4- النظرية..

مع رصد العالم الأكاديمي السوفيتي (زولوتوف) لأقوال شهود العيان، في واقعة انفجار (سيبيريا)، استوقفه وصف مدهش، اتفق عليه أكثر من سبعمائة شاهد..

فمع اختلاف طبائعهم ومواقعهم، اتفق الشهود السبعمائة، على أن ذلك الجسم الأسطواني المنتظم، الذي هبط لينفجر على ارتفاع ثماني كيلومترات من سطح الأرض، محدثا ذلك الدمار الرهيب، قد تحرك أفقيا، أو على نحو شبه أفقي، من الجنوب الشرقي، إلى الشمال الغربي، وكأنه يجري مناورة مدروسة، قبل أن يهوى إلى أسفل، وينفجر.

وكان هذا يعني أنه ليس كتلة جامدة، أيا كان شكلها، عبرت الغلاف الجوي، لتنفجر فوق الأرض، بعد سقوطها أسيرة الجاذبية الأرضية..

لقد كان جسما يمكن تغيير اتجاهه، ودفعه إلى القيام بمناورة ما لم تنجح في منع سقوط أو انفجاره..

لذا، فقد أعلن (زولوتوف) نظريته الجديدة، التي أصبح يؤمن بها تماما، وهي أن ذلك الجسم، الذي أحدث انفجار (سيبيريا)، كان سفينة فضاء!

سفينة قادمة من عالم آخر، وتستخدم الطاقة النووية في تسييرها، وأن ركابها أدركوا أنها ستنفجر لا محاولة، فاتجهوا بها نحو منطقة غير مأهولة، لتنفجر دون أن تؤذى سكان الأرض!!

ووفقا لنظرية (زولوتوف)، يكون كل ما عثر عليه العلماء في المنطقة، هو بقايا المركبة الفضائية بعد انفجارها النووي..

وفي فترة كهذه، كان من الطبيعي أن تقابل نظرية (زولوتوف) بالاستنكار الشديد، إلا أن واقعة رجل الأعمال (كينيث أرنولد)، في (واشنطن)، عام 1946 م، والتي رصد خلالها مجموعة من الأطباق الطائرة، ومنحها ذلك الاسم، الذي ظل يرتبط بها، حتى يومنا هذا، امتزجت بنظرية (زولوتوف)، لتنطلق إلى آلاف العقود، وتحصل على صدى مدهش..

أصحاب العقول المنطلقة والخيال الجامح، مالوا كثيرا إلى تصديق نظرية (زولوتوف)، وتأييدها بكل الحماس، خاصة وقد وجدوا فيها التفسير المنطقي والعلمي، لكل ما كان يحيط بالموقف كله من غموض..

ولكن العلماء رفضوا تأييد تلك النظرية بشدة..

لقد أكدوا أن انفجارا بهذا الحجم، من المستحيل أن يترك أية بقايا، يمكن اعتبارها الدليل على سقوط سفينة فضائية، من عالم آخر!

بل إن فكرة وجود حياة عاقلة متطورة، خارج حدود كوكب الأرض، كانت مرفوضة بإصرار، من قبل معظم العلماء، دون أدلة مادية حتمية على هذا..

ولقد دافع (زولوتوف) عن نظريته بإلحاح وحماس، وتمسك بها بمنتهى الشدة، في وجود مخالفيه، ومعارضيه، ومستنكريه..

إلا إن القيادة العسكرية السوفيتية لم يرق لها هذا الصراع العلمي، ولو لحظة واحدة..

لقد مولت حملة (زولوتوف) لسبب واحد، ألا وهو العثور على أسرار القنابل الذرية، والانفجارات النووية في قلب (سيبيريا)، وما دام هذا لم يتحقق، فلا شأن لها بكل ما يحدث..

لذا، فقد أخمدت نظرية (زولوتوف)، وتم توجيه اللوم الشديد لصاحبها، بل وتحجيم دوره العلمي، في الأوساط السوفيتية أيضا..

ومع انخفاض صوت (زولوتوف)، ارتفعت أصوات معارضيه ومخالفيه، وذابت نظرية الجسم الفضائي الموجه، على الرغم من كل ما تحمله من إثباتات ودلال، وتوارت خلف عدة نظريات أخرى، تفوقت عليها كلها تلك النظرية الجديدة، التي وضعها العالمان (أ. جاكسون)، وزميله (ب. رايان)، والتي خالفت كل النظريات السابقة..

فمن وجهة نظر العالمين، كان الانفجار ناشئا عن ارتطام أحد الثقوب السوداء، ذات الحجم الدقيق بالأرض، مما أحدث هذا الانفجار الهائل الرهيب، في منطقة (سيبيريا)..

والثقوب السوداء هذه هي نجوم محتضرة، انكمش حجمها بشدة، بعد نفاد طاقتها، فتضاعفت كثافتها آلاف المرات، وتزايدت جاذبيتها إلى حد مخيف..

وعلى الرغم من أن تلك الثقوب السوداء تمتص كل ما حولها، حتى الضوء نفسه، إلا أن حجمها يتقلص أكثر وأكثر، حتى يبلغ ما قد لا يزيد حجمه عن حجم قبضة يد عادية.. ومع شدة جاذبيتها، وصغر حجمها الشديد، قد تنجذب الثقوب السوداء نحو الكواكب الأكبر حجما، عند رغبتها في جذبها إليها فتندفع نحوها بسرعة هائلة، حتى ترتطم بها..

ثم يحدث الانفجار..

إذن، فوفقا لنظرية (جاكسون) و (رايان)، انجذب ثقب أسود صغير نحو الأرض، وارتطم بها، وأحدث ذلك الانفجار الهائل!!

والنظرية قابلة للحدوث، من الناحية الافتراضية والعلمية، إلا أنها لا تفسر أقوال شهود العيان، عن الشكل الأسطواني للجسم الساقط، ولا عن مناورته الأفقية، قبل سقوطه وانفجاره..

بل ولم تفسر حتى العثور على تلك العناصر، في مركز الانفجار، او التحورات الوراثية، في النباتات والحشرات من حوله..

ولم تفسر أكثر تلك الأمراض، التي أصابت الباحثين عن اللغز، أو معادلات (زولوتوف)، التي تربط بين الانفجار وقنبلة (هيروشيما)..

لذا فقد فنيت تلك النظرية، بأسرع مما ولدت..

ولقد حاول فريق من الباحثين الأمريكيين، في بدايات السبعينيات، السفر إلى (سيبيريا)، لرصد الترددات الإشعاعية في منطقة الانفجار، وتحديد ما إذا كان ما حدث هناك انفجارا نوويا من عدمه..

ولكن السلطات السوفيتية رفضت هذا بشدة..

ولقد برر السوفييت رفضهم حينذاك، بأن منطقة (التايجا) وما حولها، قد أصبحت منطقة عسكرية محظورة، وأن التداعيات الأمنية تمنع تماما وجود أي أجانب هناك..

ومهما كانت الأسباب..

والواقع أن السلطات العسكرية السوفيتية كانت قد أحاطت تلك المنطقة، من نهر (تانجسكا)، في قلب (سيبيريا)، بنطاق فولاذي رهيب، وكأنها تحاول حماية سر ما داخله..

سر ربما كشفه فريق علمائها، الذي أنشأ مركزا دائما هناك، السبب لم يعلن عنه أبدا، ولم تنشر أبحاثه قط، على المستوي العام..

ولقد أغضب قرار السوفييت فريق العلماء الأمريكي بشدة، وراح بعضهم يؤكد أن الجهات العسكرية السوفيتية قد توصلت بالفعل إلى سر انفجار (سيبيريا) الغامض، وأنها تخفي ما توصلت إليه، لأنه يمنحها تفوقا تكنولوجيا رهيبا، تحرص على الحفاظ عليه لنفسها وحدها..

وعلى كل الأحوال، وأيا كانت أسباب رفض السوفييت، أو مبررات غضب الأمريكيين، فقد أصبحت منطقة (تانجسكا) مغلقة، ولم يعد أمام العلماء سوى وضع نظريات جافة، تعتمد على تقارير بعثتي (كوليك) و (زولوتوف) وحدهما..

ولكن هذا لم يوقف المهتمين بالأمر، أو يفت في عضدهم، فقد واصلوا دراسة تلك التقارير القديمة، ليخرجوا علينا بنظرية جديدة مدهشة..

نظرية المادة المضادة..

فمن (كاليفورنيا)، في الولايات المتحدة الأمريكية، خرج العالمان (س. أتلوري)، (ف. ليبي)، بنظرية تقول: إن جزءا من المادة المضادة قد سبح طويلا في الكون، حتى سقط أسيرا للجاذبية الأرضية، التي جذبته إلى الأرض، حيث انفجر في هوائها..

والمادة المضادة هذه هي مادة معكوسة، بالنسبة لقواعد المادة المعروفة في عالمنا..

فالتركيب الذري الطبيعي، لكل عنصر في عالمنا، يعتمد على وجود نواة موجبة، تدور حولها إليكترونات سالبة، أما تركيب

الذرة، في المادة المضادة، فهو يعتمد على نواة سالبة، تدور حولها بوزيترونات موجبة..

ووفقا للقاعدة العلمية، لو التقت المادة بالمادة المضادة، يكون الناتج انفجارا هائلا تماما مثل انفجار (سيبيريا).

ولقد لاقت نظرية المادة المضادة هذه بعض القبول، من بعض فرق العلماء، إلا أن البعض الأخر اعترض عليها تماما، مؤكدا أنها عاجزة عن تفسير كل غموض الانفجار..

وبالذات التحورات الوراثية..

وهنا، كان من الضروري البحث عن نظرية جديدة، لتفسير الموقف بأكمله..

وهذا ما فعله أحد العلماء الفرنسيين، عندما فاجأ العالم كله بإعادة طرح نظرية (كوليك)، ولكن مع تطوير جوهري ٠٠ للغاية..

☆ ☆ ☆

5- المذنب..

لأكثر من عشر سنوات، راح العالم الفرنسي (ا. فرانسوا) يقرأ ويدرس كل ما كتب عن انفجار (سيبيريا)، بمنتهى الدقة والاهتمام، قبل أن يجد في نفسه ميلا شديدا للاقتناع بما اقتنع به العالم السوفيتي الشاب (ليونيد كوليك)، منذ عشرينيات القرن العشرين..

فمن وجهة نظره أيضا، كان ما حدث في أعماق (سيبيريا) ناشئًا عن سقوط جسم ما من السماء، كان يحوي بعض المواد النادرة، التي أحدثت ذلك الانفجار النووي، وتركت خلفها بعض العناصر والتأثيرات، التي رصدها العلماء فيما بعد..

ولكن ذلك الجسم لم يكن نيزكا..

بل كان مذنبا..

والفارق بين النيزك والمذنب، هو أن الأخير ينتمي إلى نوع من الأجرام السماوية سحابية الشكل، ذات طبيعة دورية ومسارات تدور حول الشمس، ويظهر للراصد وكأنه يجر خلفه ذيلا طويلا، منحه اسمه هذا ويتكون ذلك الذيل من الغازات المتجمدة، أو المحفوظة، إلى جوار كميات من الغبار، والغاز، والجليد..

والمذنب له نواة أو أكثر، ويتكون من صخور أو حبيبات رملية، من عدة عناصر، تتخللها مواد غازية.. ووفقا لنظرية (ا. فرانسوا)، كان ما سقط على نهر (تانجسكا)، في أعماق (سيبيريا)، وأحدث ذلك الانفجار الغامض الرهيب هناك، هو مذنب يتكون من بعض العناصر النادرة مثل (الديوتريوم) والفسفور النقي،

ضل طريقة في الفضاء، أو ارتطم بأحد النيازك، مما سبب انحرافا في مساره الدوري، ودفعه نحو جاذبية الأرض..

كانت نظرية (فرانسوا) مدهشة ومفاجئة بالفعل، وتستحق الدراسة، خاصة وأنها تتفق مع نظرية افتراضية تبناها عشرات العلماء لفترة طويلة، وتقول إن شيئا مماثلا قد حدث منذ ملايين السنين، حيث سقط مذنب آخر على الأرض، وصنع انفجارا مماثلا، ولكن أكثر قوة بمليون مرة، منذ ما يقرب من خمسة وستين مليون عام التوقف..

وكان ذلك الانفجار، القديم جدا، هو السبب في فناء الديناصورات، وافساح المجال لنا نحن البشر، لتنمو وتتطور وفقا لنظرية (فرانسوا) إذن، والتي اتفق معها عشرات العلماء، لم يكن انفجار (سيبيريا) هو الأول من نوعه..

ولن يكون الأخير..

فالمذنبات، التي اعتبرها العلماء يوما قاسمة، من خارج المجموعة الشمسية، هي جزء منها بالفعل، وتجوبها طوال الوقت، وأنه من المحتمل جدا أن يحدث ما يغير اتجاهها، ويبدل مسارها، فتسقط على أي كوكب، من كواكب المجموعة الشمسية..

وتنفجر هناك..

وبمنتهى العنف..

ولأول من، منذ عام 1908 م، أعلن معظم العلماء تأييدهم لنظرية تتعلق بانفجار (سيبيريا) الرهيب، وكأنهم يحاولون وضع نهاية للأمر، وحسم مشكلة طال بحثها..

وبدا وكأن الأمر قد انتهى هنا، ولم يعد هناك ما يبرر مواصلة البحث، على الرغم من أن الأوساط العلمية السوفيتية قد لزمت الصمت تماما، ولم تعلن تأييدها أو رفضها للنظرية، وكأن الأمر لا يعنيها، أو كأنها أيضا ترغب في إنهاء الموقف، ووضع تفسير يحسم الأمور، ويخمد الجدل الدائر حول الانفجار الغامض..

ولكن، وبعد أن استقرت كل الأمور، وهدأت الضجة، أصيبت نظرية المذنب هذه بطعنة مفاجئة عنيفة، سحقتها من أساسها..

وأعجب ما في هذه الطعنة المفاجئة كان مصدرها نفسه..

فالعالم الذي اعترض على النظرية، ورفضها، وأعلن أنها لا تتفق أبدا مع نقاط أساسية فيما حدث، كان (ا. فرانسوا) نفسه..

فبعد أن حصل على تأييد معظم العلماء واهتمامهم، وبدا وكأنه الشخص الذي حسم لغز انفجار (سيبيريا)، انتبه (ا. فرانسوا) فجأة إلى أن نظريته كلها تتعارض مع نقطة جوهرية للغاية، لم يبال بها في البداية، ثم بدت له فيما بعد كأخطر نقطة، في العملية كلها..

أقوال الشهود..

شهود العيان السبعمائة، الذين وصفوا مناورة الجسم الساقط، والذي انفجر على مسافة ثماني كيلومترات، من سطح الأرض..

والذي جذب انتباه (فرانسوا)، لم يكن تلك المناورة، التي قام بها ذلك الجسم، وإنما الوصف الأساس له.. جسم أسطواني منتظم..

فالمذنب، وفقا لتكوينه الأساسي، لا يمكن أن يوصف أبدا بأنه جسم أسطواني منتظم..

وكم كانت دهشة الأوساط العلمية على اختلافها، عندما أعلن (أ. فرانسوا) خطأ نظريته، واعتذاره العلمي عنها فقد كان التداعي الطبيعي لهذا، هو إعادة فتح باب البحث عن تفسير منطقي للغة الانفجار..

انفجار (سيبيريا) الغامض..

ومرة أخرى، عاد مجموعة من الباحثين، والدارسين، والعلماء، إلى مراجعة تقارير بعشى (كوليك) و (زولوتوف)..

ومع نهايات ثمانينات القرن العشرين، وتوسع العلوم في شتى المجالات، وتطور أجهزة الكمبيوتر، معدات التماثل، وبرامج المحاكاة، بدأ العلماء في صنع تصور إليكتروني لانفجار (سيبيريا)..

وعبر برنامج المحاكاة المتطور، تم وضع كل التفاصيل، التي وردت في التقريرين، عن زاوية سقوط ذلك الجسم المجهول، ومناورته، وانفجاره على ذلك الارتفاع، والتأثيرات التي خلفها مباشرة، وعن طريق التحورات الوراثية فيما بعد وجاءت نتائج المحاكاة مدهشة..

فلأن الكمبيوتر جهاز محايد، لا شأن له بالتفاعلات النفسية أو الأراء المسبقة، أو التعصبات غير المنطقية، فقد فسر الأمر بنفس التفسير، الذي وضعه (زولوتوف)، عام 1947 م..

الجسم الفضائي..

الكمبيوتر أكد أن الانفجار ناشئ عن جسم صناعي، يستخدم طاقة نووية لحركته وانطلاقه، وأنه قد سقط على الأرض لسبب ما يعتقد أنه عطل في محركاته، أو وسيلة تحريكه، وجرت محاولة لإصلاح ذلك العطل، أو تأمين عملية هبوط طارئة، إلا أن تلك المحاولة قد فشلت، بعد مناورة محدودة، وأدى فشلها إلى انفجار ذلك الجسم على ارتفاع ثماني كيلومترات عن سطح الأرض..

انفجارا نوويا هائلا، أدى إلى كل هذا الخراب والدمار، الذي تركه خلفه، والبقايا التي انتشرت على مساحة واسعة، حاملة تلك العناصر النادرة، التي تم العثور عليها، والتي وردت في تقرير بعثة (زولوتوف) والأخرى التي لم ترد في التقرير، والتي ربما عثر عليها السوفييت فيما بعد، والتي جعلتهم يغلقون المنطقة تماما، ويعتبرونها منطقة عسكرية محظورة.

وعلى الرغم من تأييد الكمبيوتر المحايد لنظرية (زولوتوف)، الخاصة بالمركبة الفضائية، ظل فريق من العلماء يستنكر الفكرة تماما، ويرفض الاعتراف بوجود مخلوقات عاقلة في كواكب أخرى، يمكنها أن تصل إلى الأرض، وتصنع ذلك الانفجار النووي، بأن حال من الأحوال وفي تسعينات القرن العشرين سقط الاتحاد السوفيتي، وبدأ تقسيمه إلى دويلات متفرقة، تحمل أعلاما مختلفة، وتصور العلماء أن هذا سيؤدي إلى إزالة الحظر الأمني عن منطقة نهر (تانجسكا) أو كشف أسرار انفجار (سيبيريا)..

ولكن هذا لم يحدث أبدا، حتى لحظة كتابة هذه السطور..

الروس ظلوا يحيطون تلك المنطقة بسياج أمني منيع، ويحظرون الاقتراب منها، أو تصويرها، أو إجراء أية ابحاث خارجية حولها..

ولقد حاول الأمريكيون رصد منطقة الانفجار، بوساطة أقمارهم الصناعية، إلا أن هذا لم يسفر عن شيء..

وظل الغموض مستمرا..

فحتى هذه اللحظة، وأيا كانت النظريات، أو الأسباب، أو المبررات ليست أمامنا سوى حقيقة واحدة مؤكدة..

لقد كان هناك انفجار هائل رهيب، عند منطقة نهر (تانجسكا)..

في أعمق أعماق (سيبيريا)..

انفجار، كان ولا يزال يحمل نفس الغموض..

ونفس الاسم..

اسم (انفجار سيبيريا)..

الغامض..

☆ ☆ ☆

21- ألغاز.. ألغاز!

1- عالمنا..

مع ما بلغه العلم والتقدم التكنولوجي، في مطلع القرن الحادي والعشرين، والذي كان فيما سبق هدفا، يتصور الكل أنه غاية المني، ونهاية المطاف، ودربا من دروب الخيال، الذي تطمح العقول إلى تحويله إلى حقائق محسوسة وملموسة، تصور البعض، من العامة بالطبع، أن عالمنا اتساعه، صار أشبه بكتاب مفتوح، وبصفحات واضحة مقروءة، ولم يعد لديه ما يخفيه، عن عقول العلماء والباحثين الذين جابوا يابسته، وبحاره، ومحيطاته، وطاروا في سمائه، وغاصوا في أعماقه، وسبروا أغواره، وكشفوا أسراره، وقوانينه، وغوامضه، وطوروا معارفهم وعلومهم؛ ليصنعوا المعجزات العلمية، التي كانت ومازالت تبهر العقول، وتخطف القلوب، حتى يومنا هذا..

ومع عصر الكمبيوتر بالذات، صار من الممكن كشف الكثير من الأمور، التي كانت فيما مضى لغزا مغلقا، ومنطقة مظلمة أمام كل النظريات والأبحاث، والدراسات القديمة..

وواصل العلم تطوره أكثر، وأكثر، وأكثر، واكتظت المكتبات، وشبكات الإنترنت بآلاف الكتب التي تكشف لنا أدق أسرار الكوكب، وأكثرها خصوصية وصعوبة، وتشعبت العلوم، والفنون، و...

ولكن كل هذا لم يشبع العقول بعد..

فعلى الرغم من الكشوف المذهلة، والتطورات المدهشة، التي تتواكب بسرعة تقارب سرعة الصوت، خلال العقد الأخير

بالتحديد، ما زالت في عالمنا مناطق مظلمة، وبقاع غامضة، محيرة، مقلقة، لم يكشف العلم والعلماء أسرارها بعد، بكل أجهزتهم، وتكنولوجيتهم... وجهودهم أيضا.

عالمنا إذن لم يكشف كل خباياه بعد..

ما زالت لديه مناطق قوة وغموض، تواصل تحفيز العقول، واستنفارها، وتحديها، والهابها، وكأنما يصر على أن يثبت دوما أن جعبته لم، ولن تنضب أبدا، مهما تطور الإنسان، ومهما تصور أنه اقترب، أو كاد من التباهي بقوته، وسيطرته التامة على عالمه..

وقد يتصور البعض أن تلك البقاع الغامضة، أو المناطق المظلمة تكمن في بعض التحديات العلمية والتكنولوجية القديمة، أو في الظواهر العلمية المحيرة، مثل الأطباق الطائرة، ومثلث برمودا)، وأسطورة (أطلنطس)، وغيرها.

ولكن الواقع أن الغموض، كل الغموض، يكمن فينا نحن..

في البشر..

وبالتحديد، في عقول البشر..

لقد فحص العلماء أمخاخ البشر، من الأطفال وحتى (ألبرت أينشتين) نفسه، وتوصلوا إلى الكثير من المعارف والنتائج بشأنها، وقسموها إلى نصوص، ومناطق، وتلافيف، وخلايا بيضاء، ورمادية، وجسم صنوبري، ومناطق للسمع، والشم، والرؤية، والتفكير، والكلام.. وحتى للأحلام..

وعلى الرغم من هذا، فمازال المخ البشرى يبهرهم.. ويحيرهم.. ويربكهم أيضا..

ومازال الكل يتساءل: أي قدر يمكن أن يبلغه العقل البشري؟!

بل أية معجزة تكمن، في أعمق أعماق أعماقه؟!

هذا حتما ما دار في ذهن المدير العام، لمؤسسة (راند) الأمريكية، وهو يرفع حاجبيه في دهشة، لم تلبث أن تحولت إلى ذهول شديد، وهو يقرأ في إمعان ذلك التقرير، الذي قدمه إليه أحد مستشاريه، حول فكرة جديدة للاستفادة بما أطلق عليه المستشار اسم (أدب التنبؤ بالكوارث)!!

ولم يكن مرجع ذهول المدير العام للمؤسسة، هو تلك العجيبة، التي اختارها المستشار لتقريره..

التسمية..

ولا حتى لذلك الأسلوب الجاف الثقيل، الذي استخدمه فيه..

ولكن الذي يستحق الذهول بالفعل، كان وقائع التقرير نفسه..

ويا لها من وقائع!!

وقبل أن تبدأ في مطالعة ومراجعة التقرير ووقائعه، دعونا نتعرف أولا ماهية مؤسسة (راند) هذه..

والواقع أن تلك المؤسسة (RAND)، ذات الاسم المقتضب القصير، هي واحدة من أرفع مؤسسات الأبحاث العلمية والعسكرية في الولايات المتحدة الأمريكية كلها، وغالبا ما تعهد إليها الحكومة الأمريكية ببعض الأبحاث، ذات الطابع العلمي أو العسكري، أو بالدراسات شديدة الأهمية، والسرية، والخطورة، مما فرض على المؤسسة نمطا خاصا، وجدية يستحيل الحيدة عنها، والتزاما بالحقائق العلمية والتاريخية، على نحو لا يمكن أن يتطرق إليه الشك أبدا..

هذه هي مؤسسة (راند)..

ولكن ماذا عن وقائع التقرير؟!

الحقيقة أن ذلك التقرير لم يكن يحوي أسرارا علمية أو عسكرية، بل كان يحوي فقط بضع صفحات، من رواية قديمة.. وتقريرا بحريا رسميا واحدا..

أما الرواية، فهي واحدة من روايات الأديب الأمريكي المبدع (مورجان روبرتس)، والتي لم تلق رواجا شديدا عند نشرها للمرة الأولى، عام 1898 م، وتحمل عنوان (فيتاليتي)..

ورواية (فيتاليتي) هذه كانت تتحدث عن سفينة عملاقة ابتكرها خيال (مورجان)، ووصفها أيامها بأنه لا وجود لمثلها، في أي عصر من العصور، إذ يبلغ وزنها سبعين ألف طن، ويصل طولها إلى مائتين وأربعين مترا، ولها محرك جبار، مزود بثلاث مراوح قوية عملاقة، تمنحها سرعة لم تبلغها أية سفينة شحن أو ركاب قبلها..

وفي نهايات القرن التاسع عشر، عندما صدرت الرواية، وعلى الرغم من عدم رواجها، على النحو الذي توقعه ناشرها، كانت شهادة ميلاد للأديب (مورجان روبرتس)، رفعته إلى مصاف عظماء كتاب الخيال في عصره، إذ كان من العسير على العقول المحيطة به، في تلك الآونة، تصور وجود مثل هذه السفينة العملاقة، التي صارت اليوم مجرد سفينة عادية، قد تعجز عن بلوغ مرتبة البواخر السياحية الفاخرة والهائلة، ذات النسق الحديث المتطور..

وفي روايته، لم يجد (مورجان) لسفينته العملاقة اسما أفضل من (تيتان)، تيمنا بعمالقة الأساطير القديمة، وجعلها تحمل ثلاثة

آلاف مسافر، وتبدأ أولى رحلاتها عبر المحيط باحتفال هائل، في أوائل شهر أبريل..

ولأنها رواية، ولا بد أن تضم الجديد، من الإثارة وفنون التشويق، فقد تحدث (مورجان) عن كارثة تواجه سفينته العملاقة، التي أحاط بها ضباب كثيف، في رحلتها الأولى، لترتطم بعد هذا بجبل من الجليد، و..

وتغرق..

ولأن الفكرة جديدة ومبهرة، استقبل القراء رواية (مورجان)، في مزيج من الدهشة والإعجاب، وبهرتهم تماما..

فكرة وجود سفينة عملاقة بهذا الحجم، وأثارهم أن ينهار جبل تقني مثلها، أمام جبل جليدي واحد..

وعلى الرغم من هذا، لم تنجح الرواية كما ينبغي..

لقد حققت انتشارا محدودا، يعود إلى هجوم العديد من النقاد عليها، وعلى فكرتها الخيالية، واتهامهم كاتبها بالتخريف، والإغراق في الوهم والخيال، وحتى مل القراء، وتراجع انتشار الرواية، لتفسح الطريق لروايات أخرى، أكثر خيالا وإثارة، طوال أربعة عشر عاما كاملة..

وهنا يأتي دور التقرير البحري..

والتقرير الرسمي، يتحدث عن سفينة عملاقة أخرى..

ولكنها سفينة حقيقية هذه المرة..

سفينة احتلت صورها وأخبارها مانشيتات وصفحات الصحف طويلا، منذ بدأ بناؤها، وانتهى، ولسنوات وسنوات بعدها.

والمدهش أن تلك السفينة العملاقة الحقيقية، التي بدأت أولى رحلاتها في المحيط، في عام 1912 م، أي بعد أربعة عشر عاما من نشر رواية (مورجان روبرتس)، كانت تتشابه في الكثير والكثير جدا، مع سفينته الوهمية..

فهي أيضا، كانت تزن ما يقرب من سبعين ألف طن..

وبالتحديد، ستة وستين ألف طن..

والعجيب أن طولها كان يبلغ أيضا مائتين وثمانية وأربعين مترا!!

ومحركها كان يتكون من ثلاث مراوح عملاقة قوية!!

بل وبدأت رحلتها في أبريل، وعلى متنها ثلاثة آلاف مسافر تقريبا!!

كل هذا، ولم ينتبه مخلوق واحد إلى التشابه الشديد، والمذهل، بين تلك السفينة، وسفينة رواية (مورجان)!!

ربما بسبب تراجع مبيعات روايته (فيتاليتي)، وانحسار الأضواء عنها أو هي المصادفة!

أو القدر!

من يدري؟

ولكن تلك السفينة الحقيقية كانت تحمل اسما، يقترب كثيرا من الاسم المبتكر، الذي منحه هو لسفينته الوهمية..

كانت تحمل اسم (تيتانيك)!

وكان تشابها مدهشا..

ومخيفا..

☆ ☆ ☆

2- الحقيقة.. والخيال..

امتلأت الصحف الأوروبية والأمريكية كلها، في أبريل 1912 م، بأخبار تلك السفينة العملاقة (تيتانيك)، التي قيل عنها: إنها أقوى سفينة صنعتها عقول وقريحة وسواعد وميكنة البشر، وراح الكل يترقب ويتابع أخبار رحلتها الأولى، التي ستبدأ بعد أيام، لتشق عباب المحيط، كجبل من الزهو التقني البشري، معلنة بدء جيل جديد، من سيطرة البشر على البحار والمحيطات..

ووسط الاحتفالات الضخمة، والأخبار العظيمة، وانبهار الكل بالحدث العملاق القادم، نسى الكل رواية (فيتاليتي)، التي صدرت منذ أربعة عشر عاما، لمؤلفها (مورجان روبرتس)، والتي تحدثت عن سفينة عملاقة أخرى، لها اسم (تيتان)، خرجت في رحلتها الأولى، لتغرق في قلب المحيط، بعد ارتطامها بجبل من الجليد..

نسي الكل هذا، وتذكروا موعد انطلاق (تيتانيك)، في أولى رحلاتها، وعلى متنها ثلاثة آلاف مسافر، تملأ الثقة قلوبهم جميعا، وقلوب قبطانها، وضباطها وبحارتها، وحتى مهندسيها ومالكها، الذين أجمعوا على أنه من المستحيل أن تغرق سفينة عظيمة، هائلة، عملاقة كهذه.

فهذا بالضبط ما أعلنته الشركة المالكة للسفينة (تيتانيك)..

بل، لقد بلغ الزهو والغرور بأحد صانعيها، إلى القول بأنه حتى السماء نفسها، لا يمكنها أن تغرق (تيتانيك)..

ولقد حاولت تهذيب العبارة السابقة، بأقصى قدر ممكن، عندما عجزت عن نقل منطوقها الحقيقي!

المهم أن (تيتانيك) قد بدأت رحلتها هائلة، عملاقة، قوية، تماما كما فعلت سفينة رواية (مورجان) القديمة ولعدة أيام، سارت رحلة (تيتانيك) على ما يرام، وبدا لركابها أنهم يعيشون أسعد أيام حياتهم، ويقطعون أجمل وأمتع رحلاتهم على الإطلاق..

ثم بدأت الأحداث..

وبنفس الترتيب، الذي جاء في رواية (مورجان)..

تكاثف الضباب، وراح يحيط بالسفينة، حتى بدت وكأنها تسير وسط السحب، وقد انعدمت الرؤية من حولها تماما..

وعلى الرغم من خطورة الموقف ودقته، ترك القبطان كابينة القيادة، وذهب ليتناول العشاء في صالة الركاب، ويوزع ابتساماته الواثقة على الجميع، ويستضيف بعضهم على مائدته، تاركا القيادة لضابطة الأول، الذي حاول بقدر جهده أن يقود السفينة العملاقة، وسط الضباب الكثيف، و.....

وفجأة، ظهر الجبل الجليدي الضخم أمام السفينة..

برز فجأة، وبغتة، من وسط الضباب الكثيف، كما لو أنه قد نبت من العدم، أو جاء من الفراغ..

تماما كما حدث في رواية (مورجان)!

وعلى الرغم من أن الطاقم كله من المحترفين القدامى، اللائقين لقيادة سفينة عملاقة كهذه، أي أن بروز العملاق الجليدي أمامهم بغتة، أصابهم بذعر شديد،، فارتبكت مناوراتهم لتفاديه، وحدث الارتطام..

كانت مفاجأة عنيفة للجميع، وبالذات القبطان، الذي سقط عن مقعده، مع عنف الصدمة، ثم هرع إلى قمرة القيادة، محاولا

إنقاذ ما يمكن إنقاذه...

ولكن محال..

لقد تجاوزت الإصابة كل التوقعات، وبدأت (تيتانيك) تغرق، في العاشر من أبريل، عام 1912 م..

ومع بدء غرقها، وبدء محاولات النجاة منها، بدا وكأن الجميع يتصرفون، على نفس النمط والوصف، اللذين تضمنتهما رواية (مورجان)..

وفي تطابق مدهش...

ففي الرواية والواقع، كان عدد زوارق النجاة يقل كثيرا عن عدد ركاب السفينة، وكأنما لم يكن هناك من يتوقع غرقها بالفعل..

حتى سترات، النجاة، كانت أقل مما ينبغي بكثير..

وفي الحقيقة والخيال،، تم التركيز على إنقاذ ركاب الدرجة الأولى أولا، على حساب حياة ركاب الدرجة الثالثة، وكأنما يحدد الثراء مصير المرء أيضا..

وحتى تفاصيل الغرق، وانقسام السفينة إلى نصفين، وغوصها في الأعماق، وموت معظم الناجين في المياه المثلجة، كلها تطابقت، في أحداث الرواية، وفي عالم الواقع معًا..

وهذا ما تضمنه تقرير مستشار المدير العام لمؤسسة (راند)..

ولقد ظل المدير صامتا مبهورا، مبهوتا، مندهشا، يحدق في التقرير طويلا، بعد أن انتهى من قراءته، ثم لم يلبث أن هبّ من مقعده، واندفع إلى حجرة مستشاره، بدلا من أن يدعوه إليها، واقتحمها في عنف، وهو يسأله في انفعال، عما إذا كان واثقا، من أن كل كلمة وردت في تقريره صحيحة!

والواقع أن المدير لم يكن بحاجة إلى إلقاء مثل هذا السؤال، فهو يعلم جيدا أن سمة التعامل في المؤسسة هي الصدق، وتحرى الدقة الشديدة، وعلى الرغم من هذا، فقد انتفض جسده كله في حماس، عندما أجابه مستشاره الفني بالإيجاب..

فقد قرأ معجزة حقيقية في ذلك التقرير..

وعلى الفور، أصدر المدير أوامره، بشراء كل الروايات، التي تحوي أخبار كوارث وهمية، ابتدعتها عقول الأدباء، ودراستها على نحو جاد مستفيض؛ للبحث عن أية تشابهات محتملة، بينها وبين كوارث حقيقية، ماضية أو مستقبلية..

وفي رأيه، كانت هذه وسيلة مثلى، للتعامل مع أية كوارث مستقبلية، حتى ولو تجاوزت حدود العقل والمنطق.

وعندما عاد إلى مكتبه، راح المدير يقرأ تقرير مستشاره مرة ثانية..

وثالثة.. ورابعة.

وفي كل مرة، كان يلقي على نفسه عشرات التساؤلات الحائرة!

كيف استطاع عقل (مورجان روبرتس) وصف حادثة مستقبلية بكل هذه الدقة؟!

كيف أمكنة التنبؤ بما حدث؟!

أهي قدرة خاصة، يمتلكها (مورجان) وحده، أم أن أي إنسان عادي يمكن أن يمتلك هذه المقدرة؟!

وبالطبع لم يحصل المدير على أية أجوبة شافية لأسئلته، حتى هذه اللحظة، فبوسيلة ما، استطاع (مورجان) قراءة المستقبل،

وهو يكتب روايته، أو أن الوحي الذي سقط عليه، لحظتها، كان وحيا من المستقبل..

أو ربما هي موهبة جديدة بين الأدباء، تكمن في جزء غامض خفي من أجسادهم الهشة..

في العقل..

ذلك اللغز الكبير..

اللغز الذي لا يتوقف عند التنبؤ بالأحداث المستقبلية وحدها، ولكنه يمتد إلى ما هو أبعد بكثير من الحدود..

كل الحدود..

فلو تركنا (مورجان) وروايته، التي تطابقت على نحو مذهل مع الواقع، وانتقلنا من (أوروبا) إلى (آسيا)، وبالتحديد إلى (الهند)، أم العجائب، كما يطلقون عليها، فسنجد أمامنا لغزا كبيرا آخر..

لغز الطفل الهندي (برامود شارما)..

و (برامود) هذا لم يكن أبدا طفلا غير عادي، في أية مرحلة من مراحل طفولته الأولى؛ فقد ولد في مقاطعة (باورن)، في الرابع عشر من مارس، عام 1944 م، وكانت ولادته طبيعية للغاية.. واحتل في سجلات المواليد موقع الطفل الثاني، للأستاذ المتواضع (باتنكيل شارما)، المدرس بمعهد عادي متوسط..

وكأي طفل بسيط، في أسرة أكثر بساطة، نشأ (برامود) نشأة عادية، وراح ينمو، ويحبو، ويمشي، ويتحدث، وتبرز أسنانه، كما يحدث لأي طفل عادي..

حتى بلغ العام الثالث من عمره...

وفي عيد ميلاده الثالث بالتحديد، والذي لم تحتفل به الأسرة في الواقع، تبدل أمر (برامود) فجأة، ورفض الاستجابة لمن يناديه، أو حتى التحدث إليه، وتجاهل اسمه تماما، وكأنما لم يعرفه أبدا من قبل..

وكان من الطبيعي أن يفزع والده المدرس البسيط، وأن يحاول معرفة ما أصاب ابنه، وما يدفعه إلى التعامل على هذا النحو العجيب.

وفي حضور الأم، استدعى الأستاذ (باتكيلا شارما) ابنه الثاني، وطيب من خاطره، وسأله عن سر ما أصابه..

وجاء الجواب مفاجئا..

بل ومخيفا ومذهلا..

إلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

3- أم العجائب..

ولم يدر أحد أبدا ما الذي أصاب ذلك الطفل الهندي (برامود شارما)، عندما بلغ الثالثة من عمره، في مارس عام 1947 م!!

ففجأة، ودون سابق إنذار، راح يرفض تماما هويته الأصلية، ويصر على أنه شخص آخر تماما..

شخص يدعى (بارا ماتندا)، كان يقيم في (مراد أباد) قديما..

وكانت مفاجأة مذهلة للجميع..

مفاجأة، جعلت عيونهم تتسع في دهشة، وقلوبهم تخفق في وجل، وعقولهم ترفض وتستنكر في عنف..

ومن كل العيون، أطلّ شك يمتزج بالخوف..

ليس لأن الأمر عجيبا ومرفوضا، في العقيدة الهندية، إذ أن بعضهم هناك يؤمن تماما بما يسميه فريق من العلماء بنظرية تناسخ الأرواح، ولكن لأن العقيدة نفسها تقول: إن الشخص الذي يأتي من حياة سابقة، لا يعمر كثيرا وطويلا..

ولهذا رفض والدا (برامود) مجرد مناقشة الأمر، إلا أن هذا لم يغير شيئا، من اعتقاد الطفل وإصراره، بل ضاعف من حديثه حول (مراد أباد)، وحياته السابقة فيها، وأسرته، وراح يقارن بينها وبين حياته العادية في مقاطعة (باورن)..

وتضاعف رعب الأبوين أكثر وأكثر، فعلى الرغم من أن عقيدتهم لا تعارض هذا، إلا أن سماع حدوثه لدى الآخرين شيء، وحدوثه وسط الأسرة شيء آخر تماما..

ومع تداعى الأحداث، استعاد الكل قصة قديمة شائعة، عن امرأة هندية، تدعي (شانتى ديفي)، مازالت تعمل وتقيم في نيودلهي)، وتصر على أنها عاشت حياة سابقة في (موترا)..

وقبل أن تهدأ الأمور، وينجح الكل في تجاهل هذا، والتعايش معه في سلام، فاجأ (برامود) والده ذات يوم، بأنه يريد أن يعود إلى مسقط رأسه القديم..

إلى (مراد آباد)..

وعقدت الدهشة لسان الأستاذ البسيط، ولم ينبس ببنت شفة، ووقف يحدق في وجه ابنه، الذي بدا رصينا حاسما، على نحو لا يتفق مع سنوات عمره القليلة، وهو يؤكد رغبته في العودة إلى منزله السابق، وإلى متجره، الذي يحوي العديد من البضائع والسلع.

وفي ثقة وسرعة، راح يد لوالده عشرات الأصناف والسلع، التي تتوافر في متجر (مراد أباد)، ولا تتوافر عادة في (باورن)، وعينا الأب تزدادان اتساقا، ووجهة الهلع يزداد شحوبا ورعبا، ثم لم يلبث أن أعلن، وبكل الحزم والصرامة، أنه لن يذهب أبدا إلى (مراد آباد)..

وهنا أخذ الطفل يبكي، ويتوسل، ويستعين بالأقارب والأصدقاء، الذين حاولوا التدخل؛ لإقناع الأستاذ وزوجته باصطحاب الطفل إلى (مراد آباد)؛ للتأكد من روايته على الأقل..

ولكن كل هذا لم يجد نفعا، وظل (بانكيلال) على رفضه وإصراره بشدة..

إلا أن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد...

فذات يوم، عاد (برامود) إلى منزله، مؤكدا أنه عاد على التوّ من مدينة (ساهارا نبور)، وأنه قد عرف أخيرا السبب في وفاته، ووصفه بأنه الماء الساخن، الذي أصاب معدته، ثم هز رأسه في وقار ناضج، ليضيف أن هذا هو سبب قدومه إلى (باورن).

وفي هذه المرة، راح الطفل يصف حياته السابقة بدقة، ويقول: إنه كان أبا لأربعة أبناء وابنة واحدة، وزوج لامرأة بدينة، مازالت تعيش في (مراد آباد)، ثم راح يبكي في حرارة، ويتوسل إلى والده أن يسافر، ليرى عائلته، ومنزله، ومتجره، وليثبت صحة روايته..

وهنا، لم يعد هناك مجال للتردد، واستسلم الأب تماما..

وفي الخامس عشر من أغسطس 1949 م، وبعد خمسة أشهر من بلوغه عامه الخامس: سافر (برامود) ووالده، مع بعض الأقارب إلى (مراد أباد)؛ لحسم هذه المسألة تماما..

ولكن ما حدث هناك كان مذهلا بحق.

فعلى الرغم من أنها أول مرة، يزور فيها (برامود) (مراد أباد) بطبيعة الحال، إلا أنه لم يكد يصل إليها، حتى شملته سعادة غامرة، وأخبر الجميع أنه سيقودهم بنفسه هناك..

ودون لمحة واحدة من التردد، قادهم إلى متجره، والتقى بأخوته الذين يديرونه، وتعرفهم جميعا بلا استثناء، وتحدث عن دعابات قديمة بينه وبينهم، ولا يمكن أن يعرفها سواهم، وسوى شقيقهم الراحل (بارامنندا)...

وبعد هذا، اتجه (برامود) إلى مصنع المياه الغازية، الذي كان يديره قديما، وشرح لمرافقيه كيف تعمل آلاته، وكيف تم استيرادها وتشغيلها، على نحو يستحيل أن يفهمه أو يستوعبه طفل في مثل عمره..

ثم كان اللقاء الأكثر إثارة..

لقاء (برامود) بعائلة (بارامنندا)..

لقد تعرف جميع أفراد العائلة واحدا واحدا، وتحدث معهم عن أمور وموضوعات حميمة وخاصة جدا، يستحيل أن يعرفها شخص غريب، وأجاب كل الأسئلة التي طرحت عليه، ووصف البيت بكل تفاصيله، قبل أن ينهض لرؤيته، والتجول فيه بشوق..

بل وتعرف على كل التغيرات، التي طرأت عليه، منذ وفاة (بارامنندا)، وإلى الحجرتين اللتين أضيفتا إليه، و... و....

وانهارت أسرة (بارامنندا) تماما..

لقد أذهلهم تماما ما رأوه، وما فعله (برامود)، وتعرفوا أسلوبه، وحديثة، ولزماته..

وفي لحظة العودة، تعلق الجميع به، وراح الكل يبكي في مرارة، حتى إن الطفل قد صرخ، وهم ينتزعونه من عائلة (بارامنندا) انتزاعا، طالبا البقاء معهم، باعتبارهم أسرته الفعلية..

ومع رحيله، انهارت عائلة (بارامنندا)، وكأنها فقدت عائلها للمرة الثانية وبعدها عاش (برامود) مع والديه، في مدينة (بساولي) في (باورن)، وراح يبذل قصارى جهده لنسيان حياته السابقة، وليحيا باعتباره (برامود)، وليس (بارامنندا)، الذي مات في التاسعة والثلاثين من عمره، في مدينة (مراد آباد)، في التاسع من مايو 1943 م، وقبل مولده هو بستة أيام فحسب..

ولكن أحدا لم يمنح (برامود) فرصة النسيان، إذ أنهم جميعا يصرون على معرفة وسماع قصته، والتفكير طوال الوقت في تلك

الرواية..

أو في ذلك اللغز المذهل..

والحديث هنا لا يتسع لمناقشة فكرة تناسخ الأرواح نفسها، أو اتفاقها وتعارضها مع العلم، والعقل، والمنطق، والعقيدة، ولكنه حديث عن واقعة مسجلة، حار فيها الكل، وعن لغز آخر من ألغاز عالمنا، لم نصل إلى حله أبدا، حتى لحظة كتابة هذه السطور..

لذا دعونا نتركه خلفنا، وننطلق منه، عائدين إلى أوروبا)، وإلى مدينة (ويندسور) البريطانية بالتحديد..

فهناك، سنستعيد مقا تلك الحكمة القديمة الشهيرة، التي تؤكد أن معظم النيران تندلع، من مستصغر الشرر..

وهذه العبارة صحيحة تماما، بالنسبة لكل نيران تشتعل لسبب منطقي، بوساطة عود ثقاب، أو ماس كهربي، أو تركيز أشعة الشمس، أو حتى احتكاك حجرين ببعضهما إلا نيران نادي (دومينون)..

فتلك النيران بالذات، كانت تتبع قاعدة أخرى تماما....

قاعدة تقول: إن النيران يمكن أن تشتعل بسبب (اللا سبب)!!

نعم.. إنك لم تخطئ قراءة الكلمة بين القوسين..

فالنيران هناك كانت تشتعل بالفعل، بلا سبب..

ونادي (دومينون) هذا نادى ريفي للجولف، يقع خارج مدينة (ويندسور) البريطانية، وترتاده فئة خاصة من البريطانيين، الذين يحمل كل منهم لقبا براقا فريدا وسط أقرانه، والذين لم ينقطع ترددهم عليه يوما واحدا، حتى في ذروة اشتعال الحرب العالمية

الثانية، في تلك الفترة التي بدأت فيها الأحداث، في ديسمبر 1941 م..

فبينما تدك الطائرات الألمانية النازية (لندن) دكا، قضى لوردات (ويندسور) يومهم في ملاعب الجولف، وتشاركوا جلسات الاسترخاء والمناقشة، مع شاي الخامسة، في قاعدة النادي، ثم اشتركوا في لعبة ورق، حتى تجاوزت عقارب الساعة منتصف الليل، واقتربت من الواحدة صباحا..

وعندئذ، نهض أحد رواد النادي، استعدادا للعودة إلى منزله، وألقى التحية على (نيكولاس هوايت)، صاحب ومدير النادي، قبل أن يتجه لإحضار معطفه، من حجرة حفظ المعاطف..

وغاب الرجل بضع لحظات داخل الحجرة، ثم فوجئ به (هوايت) يعدو خارجها منزعجا، وهو يهتف بأنه شاهد بعينية معجزة..

معجزة مخيفة..

☆ ☆ ☆

4- النيران..

فجأة، ودون سابق إنذار، فوجئ (نيكولاس هوايت)، صاحب ومدير نادي (دومينون) للجولف، بأحد رواد النادي يعدو مذعورا، خارج حجرة حفظ المعاطف، وهو يهتف بأن ورقة قد اشتعلت أمامه بغتة، في قلب الحجرة، دون أي سبب منطقي..

ولبعض الوقت، تصور (هوايت) أن الرجل قد أشعل الورقة بطريق الخطأ، ولكنه يدعى اشتعالها التلقائي المباغت، حتى لا يتحمل مسئولية ما قد يسفر عنه هذا، لذا فقد حمل أسطوانة إطفاء الحريق بنفسه، وأسرع بها إلى حجرة حفظ المعاطف، قبل أن تمتد ألسنة اللهب إلى معاطف الرواد.

وقبل أن يبلغ (هوايت) الحجرة، فوجئ بأحد السقاة يصرخ: أن النيران قد اشتعلت بغتة دون سبب، في أحد مفارش المائدة..

وأسرع (هوايت) يطلق السائل الرغوي على المائدة المشتعلة ثم استدار ليعود إلى حجرة المعاطف، ولكن ساق آخر صرخ يعلن اشتعال النيران، في مفرش مائدة أخرى بغتة..

وأيضا دون سبب..

وأمام عيني مستر (هوايت)، الذاهلتين المذعورتين، وعيون موظفيه وسقاته، ورواد النادي أيضا، راحت مفارش الموائد تشتعل، واحدا بعد الآخر، دون سبب منطقي أو مفهوم..

وأخيرا، وهنا فقط، وجد مستر (هوايت) الفرصة، ليعود نحو حجرة المعاطف، ويطلق السائل الرغوي على النيران الممدودة هناك...

وفي ذعر محموم، وبأقصى جهده وإرادته، راح (هوايت) يسيطر على مشاعره، ويقاوم ذعره وذهوله، ويأمر رجاله بإلقاء المياه، الموضوعة في دوارق الشرب، فوق المفارش المشتعلة.

وأطاع الرجال أوامره، وراحوا يعدون من مائدة إلى أخرى، حتى تقطعت أنفاسهم، وتعالى لهاثهم، وتعاظم انفعالهم..

وانطفأت النيران..

وبعدها ألقى جسده على أقرب مقعد إليه..

وفي حيرة، تمتزج بالكثير من الذهول، تساءل الرجل عن سر ما يحدث في ناديه، وقفز ذهنه، على الرغم منه، إلى لعبة الجاسوسية والتدمير، التي تتوافق مع الصراع البريطاني النازي العنيف، وتصور بضع لحظات أنه ضحية عملية تخريب مقصودة..

ولكن الفكرة نفسها فجرت في أعماقه مزيدا من الحيرة والدهشة!!

فمن كل النواحي، لم يكن ناديه يشبه، أو يحمل حتى أدنى احتمال، لكونه هدفا عسكريا، يستحق التدمير، أو حتى يحتمل تجربة عسكرية شيطانية كهذه..

ماذا يحدث إذن؟!

وقبل حتى أن يفكر في سؤاله، انتزعته صرخات قوية من مطبخ النادي، فوثب من مقعده، وركض بكل قوته نحو المطبخ، ولم يكد يبلغه، حتى تراجع في عنف، كمن صعقه تيار كهربي عنيف..

لقد كان يتوقع ما رآه، وعلى الرغم من هذا، فقد هوى قلبه بين قدميه بمنتهى العنف لرؤيته..

فكل مناشف المطبخ، بلا استثناء، كانت تندلع منها ألسنة اللهب..

وعلى الرغم من ذهولهم الشديد، أسرع (هوايت) ورجاله ينتزعون المناشف، ويلقونها وسط المطبخ، ويطلقون عليها السائل الرغوي..

وفي هذه المرة، وعلى الرغم من انطفاء النيران، أمر (هوايت) رجاله بملء كل ما لديهم من أوعية بالماء، وهو يشعر أن لعبة الاشتعال الغامض هذه لم تنته بعد، وأنها ستتواصل حتما..

ولأنه رجل عملي أنهكه التعب، أرهقه الغموض والذهول، قرر (هوايت) أن يستعين هذه المرة بالمحترفين، من رجال الإطفاء، وصعد إلى الطابق الثاني للاتصال بهم، حيث مسكنه ومكتبه الخاص..

وفي مكتبه، أخرج دليل الهاتف، و...

واشتعل الدليل فجأة بين أصابعه..

وبكل الذعر، ألقى (هوايت) دليل الهاتف أرضا، وراح يضربه بقدميه، في محاولة لإطفاء النيران، ولم يكد ينجح في هذا، حتى سمع زوجته تناديه في اضطراب وقد أقلقها الهرج والمرج، اللذين شملا النادي أسفلها..

وأسرع (هوايت) إلى حجرة نومه، ولم يكد يبلغها، حتى اشتعلت النيران في ستائر الحجرة فجأة، وصرخت الزوجة بكل رعب الدنيا..

وكانت ليلة ليلاء..

الكل يصرخ، ويعدو، من مكان إلى آخر، ومن حجرة إلى حجرة، والنيران تشتعل، في تتابع مذهل مخيف، والكل يعدو خلفها، ويحمل أوعية المياه، وأسطوانات الإطفاء، ويلهثون من فرط الجهد، والذهول، والذعر، والحيرة..

وعندما وصل رجال الإطفاء، في الثانية والربع صباحا، كان (هوايت) ورجاله قد أخمدوا ثلاثة وأربعين حريقا بالفعل..

وكانت قواهم قد خارت تماما..

ومع انهيارهم، روى الرجال ما حدث لفريق الإطفاء، الذي انتقلت إليه حيرتهم ودهشتهم، وأطلت من عيون أفراده علامات الاستنكار والتكذيب، على الرغم من السمعة العطرة لمستر (هوايت)، واتفاق الجميع على رواية واحدة..

وبسرعة، حضر إلى المكان خبير شركة التأمين؛ لتقرير الخسائر، وتقديرها، وتحديد التعويض المناسب لها..

وفي دهشة وإصرار، بل وغضب أيضا، رفض خبير شركة التأمين تماما تصديق قصة (هوايت) ورجاله، خاصة وأن قائد رجال الإطفاء أبدى تشككه الشديد في هذا الأمر، الذي لم ير له مثيلا، في عمره كله..

وفي استماتة، راح (هوايت) يبذل أقصى جهده؛ لإقناع الجميع بصحة ما حدث، في حين انهمك رجاله في تنظيف المكان، و...

وفجأة، وأمام عيون الجميع، اشتعلت النيران في مكنسة أحد الرجال بغتة، ودون أي سبب معلوم..

وفغر قائد فريق الإطفاء فاه في دهشة..

واتسعت عينا خبير التأمين في ذهول..

واكتظ المكان، في الصباح التالي، بعشرات من الخبراء والباحثين، من كل الاتجاهات..

واستمع الجميع إلى شهادة (هوايت)، وزوجته، وموظفيه ورواد ناديه أيضا..

وتم تسجيل الواقعة..

وحصل (نيكولاس هوايت) على قيمة التأمين..

وكان هذا اعترافا من شركة التأمين بصحة ما حدث، وإن ظل خبراؤها طويلا يدرسون الأمر، ويفحصونه ويحصونه، في محاولة منهم لحل لغز آخر من الألغاز..

ألغاز عالمنا العجيب..

ومن (إنجلترا)، في قلب الحرب العالمية الثانية، دعونا تنطلق عبر المحيط إلى القارة الجديدة..

إلى الولايات المتحدة الأمريكية..

وبالتحديد، إلى مدينة (شارلوت)، حيث يعمل ويقيم (هيوارد ويلار)، المذيع المعروف..

وإلى ليلة العاشر من يونيو عام ١٩٩٢ م بالتحديد..

ولا تعود أهمية التاريخ هنا إلى أن (هيوارد) قد أجرى فيه حديثا إذاعيا ممتازا، نال رضا واستحسان الجميع، ولا إلى أنه قد حصل فيه على ترقية، أو علاوة، أو حتى ابتسامة من رئيسه المباشر..

بل تعود أهميته إلى أنه قد تلقى فيه رسالة!

نعم رسالة..

وقبل أن يدهشكم الأمر، أو يثير حيرتكم واستنكاركم، ودعونا نشرح الأمر كله منذ البداية..

ففي ذلك اليوم، انتهى (هيوارد) من عمله، في دار الإذاعة المحلية للمدينة، وعاد إلى منزله قبيل منتصف الليل ببضع دقائق، فتناول طعام العشاء مع زوجته، وارتدى منامته، وذهب إلى فراشه؛ بنفس الروتين اليومي، الذي اعتاده منذ سنوات وفي هدوء، استلقي (هيوارد) في فراشه، ورقدت إلى جواره زوجته، وسألته عن يومه في العمل، و...

وفجأة، تجمد (هيوارد) في مكانه...

تجمد، وبدا لحظة أشبه بتمثال من الشمع لرجل مذعور، اتسعت عيناه عن آخرهما، وانفغر فاه، وارتسم الهلع على كل خلجة من خلجاته..

ففي تلك اللحظة، كان (هيوارد) يتلقى الرسالة..

أخطر رسالة في حياته..

كلها..

☆ ☆ ☆

5- النجدة..

لم تدر زوجة (هيوارد ويلار)، مذيع إذاعة (شارلوت) الشهير، ما الذي أصاب زوجها، في منتصف تلك الليلة، عندما تجمد في مكانه بغتة، وحمل وجهه كل ذعر الدنيا، قبل أن يلتفت إليها، ويسألها عما إذا كانت قد سمعت ذلك الصوت، الذي سمعه في وضوح.

وعندما سألته زوجته (بات) عما يعنيه، أجابها، وقد حلت الحيرة في ملامحه محل الذعر، بأنه قد سمع صوت حادثة سير عنيفة..

واندهشت الزوجة بشدة؛ فهي لم تسمع شيئا على الإطلاق..

ثم إن منزلهما يقع في منطقة هادئة، لم تحدث فيها حادثة واحدة، منذ اختراع السيارة، وتساءلت في أعماقها عما إذا كان يعاني من هذيان، ناشئ عن إرهاق شديد، إلا أن (هيوارد) نهض من فراشه بالفعل، وراح يرتدي ثيابه على عجل، وهو يكرر روايته، ويصر على الخروج لاستطلاع الأمر وبقلب مرتجف، فكرت (بات) في الاتصال بطبيبهما الخاص، خشية أن تكون حالة (هيوارد) شديدة الخطورة، إلا أنه لم يمهلها الوقت لهذا، فقد هبط بسرعة إلى سيارته، قبل حتى أن تتخذ قرارها، وانطلق بها بعيدا..

فبالنسبة إليه، كان الأمر محيرا أكثر منها بألف مرة..

إنه لم يخطئ أبدا..

لقد سمع صوت اصطدام السيارة في وضوح، وعلى الرغم من هذا، لم يجد سيارة واحدة تتحرك، عندما غادر البيت....

وهو واثق مما سمعه..

واثق..

تمام الثقة..

وعندما انطلق (هيوارد) بسيارته، لم يكن يدري إلى أين يتجه، ولأن منزله يقع عند منطقة، تتفرع منها عدة طرق، كان عليه أن يتخذ قراره باختيار الطريق الصحيح، الذي بدا وكأنه مدفوع إليه، لسبب لم يستطع فهمه..

ولم يحاول مقاومته أيضا..

وبلا تردد، وبثقة لم يدر من أين حصل عليها، انطلق مباشرة إلى شارع (بارك)، وعندما بلغ تقاطع (وودلون)، انحرف يمينا ليهبط التل في ثقة، وكأنه يعلم مسبقا، إلى أين يتجه بالضبط..

وعندما بلغ موقع تجمع مراكب صيد الجمبري، وجد نفسه، وبنفس الثقة العجيبة، يتخذ طريق (مونتفور درايف)، ويقطع ستين مترا فحسب، ثم يتوقف فجأة، في نقطة بعينها..

وهناك، في تلك النقطة بالتحديد، وحيث لا يوجد أي شيء واضح، أو أية علامات مميزة، شعر بضرورة الخروج عن الطريق الرئيسي، أما (هيوارد)، الذي يقود سيارته، في تلك الساعة، فلم يكن باستطاعته - لسبب ما - مقاومة هذه الرغبة أبدا..

لذا، فقد انحرف يمينا، وخرج عن الطريق، واتجه مباشرة نحو شجرة ضخمة، ترتفع وسط طريق رملي، يمتد إلى ما لا نهاية، وكأنما تسيره قوة خفية غامضة، و.....

ومجنون هو، من يفعل هذا، في منطقة كهذه، في الواحدة صباحا..

(هيوارد) العاقل، كان يعرف هذا جيدا..

وهناك، رأي السيارة..

رآها فجأة، على أضواء مصابيح سيارته، فضغط كوابحها في قوة، وتوقف إلى جوار تلك السيارة، التي ارتطمت مقدمتها بعمود مدني، على مقربة من جذع الشجرة، وكان الارتطام من العنف، حتى إنه انتزع محركها، ودفعه إلى حيث مقعدها الأمامي..

هكذا بدت السيارة المصابة، التي توقف (هيوارد) إلى جوارها، وأسرع نحوها، وراح يدور حولها في حذر، وعيناه عاجزتان عن رؤية ما بداخلها، مع ضعف الإضاءة، و...

وفجأة، ارتجف جسده كله، مع تلك الصوت الواهن الضعيف الذي انبعث من السيارة المصابة، يستغيث به، ويطالبه بإنقاذه وهو يخاطبه باسم (هامبي)..

وانتفض قلب (هيوارد)، وقفز من بين ضلوعه في هلع، فعلى الرغم من أنه لم يميز ذلك الصوت، من شدة وهنه وضعفه، إلا أن اسم (هامبي) هذا، لم يكن معروفا إلا لزوجته، التي تداعبه به دوما، والتي استعارته من صديق عمره القديم (جون فيندربيرك)..

وبكل انفعال، انقض (هيوارد) على حطام السيارة، وراح يفحصه، وهو يصرخ باسم (جون)..

والمدهش أن (جون) كان هناك بالفعل..

وسط الحطام..

كان محشورا، بين المقعد والمحرك، ومصابا بجروح شديدة، والدماء تنزف منه في غزارة..

وحمل (هيوارد) صديق عمره إلى سيارته، وانطلق به إلى أقرب مستشفى، حيث أجريت له جراحة عاجلة، تمكن الأطباء خلالها من إنقاذ حياته بمعجزة.. وفي تقريره الرسمي، قال الجراح الدكتور (فيليب ملك آرني)، الذي أجرى العملية الجراحية للصديق (جون) إنه لو تأخر (هيوارد) عن إنقاذ صديقه ربع ساعة أخرى؟ للقي (جون) مصرعه وسط الحطام، دون أن يشعر به مخلوق واحد..

وهذا صحيح..

فالتقرير الذي نشرته جريدة (شارلوت نيوز)، يقول: إنه، وعلى الرغم من أن طريق (مونتفورد درايف) شديد الحيوية إلا أن أحدا لم يمر به في تلك الليلة، منذ وقع الحادث، وحتى مرور خمس وأربعين دقيقة، من إنقاذ (هيوارد) لصديقه (جون)..

العجيب أن (هيوارد) قد سمع صوت الحادث، على بعد عشرة كيلومترات، في نفس اللحظة، التي اصطدمت فيها سيارة (جون) بالعمود، ولقد أثبتت الأبحاث، أنه لم يقع أي حادث مماثل، في دائرة قطرها خمسين كيلومترا، من منزل (هيوارد)..

وبسؤال (جون)، أكد أن أول ما فكر فيه، عندما وقع الحادث هو صديق عمره (هيوارد)، أو (هامبي)، كما يناديه منذ طفولتهما..

السؤال إذن هو: كيف حدث هذا؟!

كيف تلقى (هيوارد) رسالة صديقه؟!

العلماء يقولون: إن (هيوارد) قد تلقى رسالة عقلية فائقة من عقل صديقه (جون)، عبر ما يعرف باسم التخاطر عن بعد، أو (التلييباثي)..

ويؤكدون أيضا أن الظروف كانت مناسبة تماما، لإجراء الاتصال بين الاثنين، وعلى أفضل نحو ممكن..

فالاثنان صديقان منذ الطفولة، وكلاهما مرتبط بصاحبه، ويعرف أفكاره وخلجاته جيدا..

ثم إن أحدهما كان في حالة توتر شديد، تتيح له بث رسالة عقلية فائقة، أو حالة (أدرينيرجيا)، كما يسميها العلماء..

أما الثاني، فكان في حالة استرخاء، تؤهله لاستقبال الرسالة على الوجه الأكمل، أو في حالة (كولينيرجيا)..

مجرد تفسير، حاول العلماء به ايجاد حل للغز الرسالة المدهشة..

اللغز الذي أضيف إلى كل الألغاز الأخرى..

ألغاز عالمنا التي لا تنتهي..

.

وكلمة لا تنتهي هنا، تنطبق على الألغاز وحدها، أما بالنسبة لمقالاتنا، فلا بد لها من نهاية حتما، إذ لو قررنا سرد كل الألغاز والغوامض، التي يزخر بها تاريخنا لاحتجنا إلى سنوات، وليس إلى أسابيع..

وبمناسبة الحديث عن التاريخ والزمن، دعونا نتابع آخر ألغاز مقالاتنا هذه، عبر التاريخ..

وعبر الزمن..

فلغزنا الأخير لغز بدأ منذ آلاف السنين، قبل أن يعلن عن نفسه في القرن العشرين فحسب...

وفي متحف الآثار المصرية القديمة في (القاهرة)..

وهذا اللغز يبدو كعصفور، ولكنه ليس عصفورا..

وهو طائر، وليس بطائرة..

إنه النموذج رقم (6347)، في المتحف المصري القاهري..

وقصة هذا العصفور عجيبة للغاية، وتبدأ منذ عام 1898 م،

عندما عثرت عليه حملة من علماء الآثار، ظلت تنقب في منطقة (سقارة)، طيلة شهر ونصف الشهر، قبل أن تكشف ضريحا قديما، تم فحص محتوياته كلها بمنتهى الدقة، وتدوين كل ما تم العثور عليه

ثم سرق علماء البعثة معظم محتويات الضريح، وتركوا لنا منها ما بدا لهم بسيطا تافها، ثم حملوا ما تبقى إلى بلادهم..

ومن بين هذا البسيط التافه، كان نموذج العصفور..

ومن المؤكد، أنهم، عندما تركوه لنا، لم يدر بخلدهم لحظة واحدة، أنه ليس نموذجا عاديا، وإنما هو لغز مدهش..

بل وربما كان أغرب لغز تركه لنا التاريخ..

على كل المستويات..

☆ ☆ ☆

6- العصفور..

لو أنك ذهبت لزيارة متحف الآثار المصرية القديمة في (القاهرة)، حاول أن تبحث عن النموذج، الذي يحمل الرقم (6347).. فإذا ما عثرت عليه، ستجده عبارة عن منحوتة صغيرة، تشبه عصفورا مفرود الجناحين، عثرت عليه بعثة تنقيب أجنبية، في صحراء (سقارة)، عام 1898 م، ضمن عشرات الأشياء الأخرى التي عثرت عليها في ضريح فرعوني قديم، نهبت منها ما نهبت، مما خف حمله وغلا ثمنه، ثم تركت لنا الباقي، ومنه منحوتة العصفور، التي تم نقلها إلى المتحف المصري فيما بعد، لتقبع وسط عدد آخر من تماثيل العصافير، خلف واجهة زجاجية، وتحمل ذلك الرقم.

وطوال خمسين عاما كاملة، ظلت المنحوتة في موقعها، داخل القفص الزجاجي، ساكنة راضية، مكتفية بموقعها هذا..

حتى عام 1969 م..

ففي ذلك العام، كان العالم كله يحتفل برواد الفضاء الأمريكيين، الذين نالوا شرف أول هبوط بشري على سطح القمر وجاء أولئك الرواد لزيارة (مصر)، وكانت ضمن برنامج الزيارة.. كالمعتاد - زيارة متحف الآثار المصرية القديمة..

وانبهر رواد الفضاء الأمريكيين بالآثار المصرية، واتسعت عيونهم عن آخرها، وسقطت فكوكهم السفلى، ثم سرعان ما اندمجوا في هذا المناخ، الذي يحمل لهم رائحة حضارة ملأت الدنيا، قبل حتى أن تولد قارتهم الجديدة.

وأمام نموذج منحوتة العصفور، رقم (6347)، توقفت رواد الفضاء كثيرا، وعادت الدهشة تملأ عقولهم وقلوبهم، حتى إنهم

أخذوا يدورون حوله، ويفحصونه ويحصونه في انبهار، قبل أن يعتدل أحدهم ويقول في حزم: إنه وفقا لدراسته، فهذا النموذج يبدو له أقرب إلى الطائرة، منه إلى الطائر..

وكان من الممكن أن تمضي تلك العبارة، دون أن تترك خلفها أي أثر، لولا أن التقطها عالم الآثار المصري الدكتور (خليل مسيحة) فحمل النموذج إلى مكتبه وراح يفحصه في روية وإمعان، ليتضح له أن عبارة رواد الفضاء الأمريكيين منطقية بالفعل..

منطقية إلى أقصى حد..

فالنموذج عبارة عن جسم منتظم، له جناحان منبسطان، وذيل بارز جدا، ويحمل عبارة بحروف هيروغليفية دقيقة، لم ينتبه إليها من قبل..

وترجم الدكتور (خليل) العبارة..

وقفزت دهشته أضعافا مضاعفة..

فالعبارة تقول: «هدية (آمون).. سيد الرياح»

ومع العبارة، كان لا بد أن يتوقف الدكتور (خليل) أمام النموذج مرة أخرى، ثم يحمله إلى عدد من المختصين، وخبراء الملاحة الجوية...

وبدأت عملية فحص فنية أخرى للتمثال الخشبي، الذي يزن أربعين جراما، ويبلغ طوله أربعة عشر سنتيمترا، وطول جناحيه المفرودين ثمانية عشر سنتيمترا، وطول مقدمته وحدها ثلاثة سنتيمترات..

وفي زهو وانبهار.. ودهشة أيضا، أعلن الخبراء نتيجة الفحص.

النموذج قد يبدو كالعصفور، ولكنه مثالي تماما لطائرة، حتى في درجة ميل الجناحين، المناسبة تماما للإقلاع..

بل لقد أكد الخبراء أننا، وبكل علومنا وتقنياتنا الحديثة (عام 1970 م)، لا يمكننا أن نصنع نموذجا أكثر دقة لطائرة..

وكان الخبر أشبه بالقنبلة..

قنبلة عالمية، طيرتها وكالات الأنباء إلى الدنيا كلها، وإلى العالم أجمع، لينبهر الكل، وتتفجر آلاف الأسئلة، في العقول والروس والأذهان..

وعندئذ، ومع حالة الانبهار العالمي، قرر وزير الثقافة المصري، في ذلك الحين (محمد جمال الدين مختار)، فحص كل نماذج العصافير الخشبية، في متحف الآثار المصرية القديمة، بوساطة خبراء الملاحة الجوية.

وفي الثاني من يناير، عام 1972 م، تم افتتاح أول معرض لنماذج الطائرات الدقيقة والقديمة، والتي تركها لنا أجدادنا، منذ آلاف السنين..

والمعرض يحوي أربعة عشر نموذجا..

وجاءت الوفود، من كل أنحاء العالم، لتعيد فحص النموذج، ودراسته، وتصويره من كل الزوايا..

ثم هدأ الأمر، وانشغل الناس بالدنيا ومشاكلها، وظلت نماذج الطائرات الفرعونية قابعة في متحفها، لتعلن لنا في كل يوم، أن الكشف العظيم لم يحل اللغز.

بل وضع عشرات الألغاز..

وأن الأمر لم ينته عند هذه النقطة.

بل يبدأ عندها اللغز الحقيقي!!

كيف صنع قدماء المصريين نماذج الطائرات الدقيقة هذه؟!

من أين لهم بالمواصفات العلمية؟!

بل ومن أين، أو ممن أتوا بالعلوم اللازمة، لفهم أسس هندسة الطيران وتصميماته؟!

هل امتلكوا حقا كل هذه العبقرية؟

هل ورثوها من حضارة سابقة؟!

وكوسيلة لسرعة حسم الأمر، خرج بعض علماء الغرب بنظرية عجية، تقول: إنه من المحتمل أن قدماء المصريين قد ورثوا النماذج وليس العلوم، من حضارة قديمة، اندثرت مع تاريخها، تحت رمال صحاريهم، فلم نعلم عنها شيئا، ولم ينقل إلينا الأقدمون منها ما يغني..

وارتاح البعض لهذا التفسير، وتصور أنه يحسم اللغة، ويضع نهاية القصة كلها..

ولكن هيهات..

فالأبحاث العلمية خالفت هذه النظرية تماما..

بل ودكتها دكا..

لقد قام العلماء بفحص الأخشاب، المصنوع منها النموذج، واختبروها بكل الوسائل العلمية المعروفة، قبل أن يخرجوا بنتيجة حاسمة..

إن تاريخ المنحوتة يتوافق مع العصر الفرعوني، الذي تنتمي إليه المقبرة، التي تم العثور عليها فيها..

وهذا يعني أن قدماء المصريين قد صنعوا النموذج بأيديهم وبعلومهم...

وهذا لغز أكبر.. وأضخم.. وأعقد..

فلو أن لديهم العلوم اللازمة، لصنع نماذج الطائرات، بهذه الدقة المتناهية، فلماذا لم يصنعوا الطائرات نفسها؟!

الأمر لا يتعلق حتما بالمحركات؛ لأنه حتى في عصرنا هذا، ومع كل التقدم والتكنولوجيا، مازالت هناك طائرات شراعية بلا محركات!

ولكن حتى هذه، لم يصنعها الفراعنة..

ولم نقرأ عنها أي شيء، في نقوش معابدهم أو برديا‌تهم!!

ولا حتى إشارة واحدة..

لقد صنعوا النماذج إذن، وبدقة متناهية، دون أن يعرفوا شيئا عن الطائرات نفسها..

وهذا لغز آخر..

لغز عجيب.. عجيب.. عجيب.. للغاية!

ولست أميل بالطبع إلى تلك الفكرة التقليدية المملة، التي تنسب كل عبقريات القدامى وإنجازاتهم إلى قوم وهميين، أتوا من كواكب أخرى، ليمنحونا علومهم، ثم يرحلوا دون سبب..

فلماذا نتصور دوما أن الآخرين فقط لديهم العلوم، والحضارة، والتقدم، وأننا فقط نحصل على ما يحسنون علينا به منها؟!

من أحسن عليهم بعلومهم إذن؟!

والسؤال التالي والأخير، هو لماذا تصر الحضارات القديمة دوما، على أن تثير حيرتنا وتساؤلاتنا، على هذا النحو العجيب؟!

لماذا تترك لنا كومة من الألغاز الغامضة وغير المفهومة، في كل مكان في العالم تقريبا؟!

أهرامات (الجيزة)..

كهوف (تاسيلي)..

بطارية (بغداد)..

روضة (ديلمون)..

أسطورة (أطلنطس)..

ألغاز.. ألغاز.. ألغاز، تملا عالمنا كله، وتثير تساؤلاتنا وحيرتنا ألف ألف مرة، في كل يوم يمضي..

ألغاز ربما يحمل لنا الزمن أجوبة وتفسيرات شافية، وافية كافية لها..

في المستقبل.. أو ربما في الماضي..

من يدري؟!

☆ ☆ ☆

22- الفراعنة.. ولعنتهم..

1- أول الغيث..

امتدت الصحراء المصرية على مدى البصر، أمام عيني عالم الآثار البريطاني (هوارد كارتي)، وهو يجفف ذلك العرق الغزير، الذي انهمر على جبهته ووجهه، وهو يقف تحت أشعة الشمس

الحارقة، في تلك البقعة التي قادته إليها أبحاثه ودراساته، للبحث عن مقبرة أحد ملوك الفراعنة القدامى..

كان هذا في العقد الثاني من القرن العشرين، عندما بلغت حمى البحث عن الآثار ذروتها، وخاصة بعد الكشوف الأثرية المدهشة، التي قام بها الألماني (هنريش شليمان)، عندما عثر على بقايا (طروادة)، في عام 1871 م، في منطقة (هيسارليك)، شمال غرب (تركيا)، في نفس الموقع الذي حدده (هوميروس)، في ملحمته الشهيرة (الإلياذة)، وسير (آرثر إيفانز)، الذي كشف قصر التيه في (كريت) عام 1900 م، ليثبت أن أسطورة المينوتوروس لم تكن مجرد خيال محض..

وكان (هوارد كارتر) يحلم بانضمام اسمه يوما إلى قائمة أولئك الأثريين العباقرة، الذين حفروا أسماءهم في تاريخ الكشوف، بحروف من ذهب، مما جعله يحتمل الحرارة والرمال الساخنة، والعرق الذي يلهب عينيه، طوال عدة أشهر طويلة، زاره خلالها ممول حملته اللورد (كارنرفون) مرة واحدة، تركه بعدها للعذاب، وعاد هو إلى قصره البريطاني العريق؛ ليتباهى بتمويل أكبر حملة للبحث عن الآثار المصرية..

حتى جاء شهر فبراير 1923 م..

في ذلك التوقيت، عثر (هوارد كارتر) على ما كان يبحث عنه طوال الوقت..

مقبرة الملك الصغير (توت عنخ آمون).. لم يكن (كارتر) أثريا بسيطا أو مغمورا، إذ كان يحيا في (مصر)، منذ عام ١٨٩٠ م، للتنقيب عن الآثار، ورسم المناطق الأثرية المعروفة.

ولم يكن هذا أيضا أول كشوفه؛ إذ كانت له عدة حفائر في وادي الملوك، مولها بعض المغامرين الأمريكيين، وأهلته لإصدار كتابة الشهير (خمس سنوات للكشوف الأثرية في طيبة)..

وعلى الرغم من هذا، فقد انبهر (كارتر)..

انبهر بما عثر عليه، وبالكنوز التي رآها في مقبرة (توت عنخ آمون)، وبريق الذهب الذي يلتمع في كل مكان، حتى إنه أبرق إلى اللورد (كارنرفون)؛ ليحضر على الفور، في حين انشغل هو برسم كل ما يراه داخل المقبرة..

حتى تلك العبارة، التي جذبت انتباهه واهتمامه طويلا..

عبارة هيروغليفية غير تقليدية، وجدها محفورة على أحد أبواب المقبرة، تقول: «سيطوى الموت بجناحيه، كل من يقلق الملك»..

أيامها اهتم (كارتر) بالعبارة، وترجمها، وسجلها..

إلا أنه لم يشعر بالخوف منها أبدا..

وبسرعة، انتشر الخبر، وقفزت شهرة (هوارد كارتر) إلى الذروة، في عالم الباحثين عن الآثار..

وقفز معه بالتالي اسم اللورد (كارنرفون).

ومع وصول اللورد المغامر، الذي اشتهر باهتماماته المتعددة والمثيرة، راح الصحفيون يتدفقون على المكان كالنمل..

ومع عدسات كاميراتهم، ظهرت صور الجدران، والتوابيت والتماثيل.. والذهب، الذي زغلل عيون الجميع، حتى الحكومة المصرية نفسها، التي فوجئت، أو بدا وكأنها فوجئت، بأن القانون يمنح المكتشف دوما نصف ما يعثر عليه من آثار مهما بلغت قيمتها..

وفي حالة (كارتر)، كانت (مصر) ستفقد كنوزا لا حصر لها، وتحفا أثرية تتجاوز كل ما عرفه العقل، لو تم تطبيق القانون..

لذا، فقد رفضت الحكومة المصرية تطبيق القانون، ورفضت منح (كارتر) أو (كارنرفون) ولو حلية واحدة، مما تم العثور عليه في المقبرة.. بل لقد أحاطتها بحراسة قوية، واعتبرتها أرضا مصرية، لها عليها كل السطوة والسيادة..

وبالطبع لم يستسلم (كارتر) لهذا، وقام بتهريب بضع من آثار مقبرة توت عنخ آمون) إلى (لندن)، ولكن كل الآثار الثقيلة بقيت..

ومعها تلك العبارة الرهيبة..

«سيطوي الموت بجناحيه كل من يقلق الملك»..

وكان من الممكن أن تبقى العبارة إلى الأبد، مجرد جملة سجلها كاهن مصري قديم، من باب المجاملة، أو حتى القناعة الشخصية، على أحد جدران مقبرة أصغر ملوك الفراعنة.

لولا ما حدث بعد هذا بقليل..

فبعد شهرين من هذه الضجة تقريبا، وقبل أن يفقد اللورد (كارنرفون) زهوة انتصاره، أو يبتلع مرارة حرمانه من كل هذا الذهب، جرح الرجل ذقنه جرحا صغيرا أثناء الحلاقة.

وبسرعة لم يستوعبها أحد، أصيب اللورد البريطاني بحمى غامضة رهيبة، رفعت درجة حرارته إلى حد الهذيان، ودفعته إلى الصراخ والعويل طوال الوقت، وهو يصرخ بأنه في قلب الجحيم، وبأن ملوك الفراعنة يحيطون به، بعد أن جاءوا للانتقام منه، لأنه فتح مقبرة أصغرهم، ودنسها بتواجده البشرى غير الطاهر..

ولفترة قصيرة جدا، واصل اللورد هذيانه وصراخه، ثم لم يلبث أن أسلم الروح في الخامس من أبريل، عام 1923 م..

ومع موت اللورد، في ريعان قوته، استعاد بعض الصحفيين تلك العبارة، المنقوشة على مقبرة الفرعون الصغير، وانطلقوا ينشرون مقالاتهم عنها وحولها، ويربطون بينها وبين موت (كارنرفون)..

وهنا فقط، ظهر تلك المصطلح الشهير، الذي لم يفارق أسماعنا وأذهاننا، وعقولنا بعدها قط..

مصطلح (لعنة الفراعنة)..

وكما يحدث دوما، في كل مرة تنشأ فيها بدعة جديدة، انتشر المصطلح بسرعة مدهشة، وراح الكل يرددونه، ويناقشونه، ويفحصونه، ويمحصونه..

وكما يحدث أيضاء القسم المتابعون، بين مؤيد ومعارض للفكرة..

المؤيدون أكدوا أن الفراعنة عاشوا عالما عجيبا غريبا، ترك لنا الكثير من الغوامض والأسرار، التي لم يمكننا كشفها بعد، فليس

من المستبعد إذن أن يخلفوا وراءهم لعنة ما، تصيب كل من يدنس قبورهم، حتى ولو كان هذا بحجة تحقيق كشوف أثرية جديدة..

والمعارضون أصروا على أنه لا توجد ركيزة علمية واحدة، يمكن أن تزيد الفكرة، وأنه من السخافة أن يتردد أمر كهذا، لمجرد أن ممول حملة (هوارد كارتر) قد لقي مصرعه بحمى غير معروفة.

وبين هؤلاء وهؤلاء، وقف (هوارد كارتر) نفسه، يعلن في كل المجتمعات، وكل المحافل العلمية، أنه لم ولن يؤمن أبدا بما يسمونه لعنة الفراعنة؛ لأنه مستكشف قديم، واجه الأمر عشرات المرات، دون أن يصيبه مكروه واحد.. والمدهش أن هذا لم يقنع أحدا، خاصة وأن حالات الوفيات، والموت بأسباب غير معروفة، راحت تنتشر على نحو ملفت للأنظار، بين كل من كانت له علاقة مباشرة، أو غير مباشرة، بكشف مقبرة (توت عنخ آمون)..

وعندما هلّ عام 1929 م، كان عدد من وافته المنية منهم لأسباب غير واضحة، اثنين وعشرين رجلا..

وفي العام نفسه، وفي جلسة خاصة، أعلنت زوجة (كارنرفون) أنها أيضا لا تؤمن بلعنة الفراعنة، ولا تصدق أن الموتى يمكنهم قتل الأحياء، بأية وسيلة كانت..

وكان من الممكن أن ينهي تصريحها هذا القضية ويحسمها، لولا تطور مفاجئ، لم يكن في الحسبان أبدا..

فقبل أن يكتمل الأسبوع، أصيبت زوجة (كارنرفون) بالحمى الغامضة نفسها، التي أصيب بها زوجها؛ وراحت تهذي وتصرخ ليومين تقريبا، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة على فراشها، تاركة

خلفها أكبر موجة من الرعب، عرفها التاريخ الحديث، حتى تلك الفترة..

رعب لعنة الفراعنة..

ولفترة طويلة، لم يعد هناك حديث للصحافة ووسائل الإعلام، سوى الفراعنة.. ولعنة الفراعنة..

وظهرت في الأسواق كتبه، ودراسات، وروايات، وحتى أفلام سينمائية صامتة، تدور كلها حول لعنة الفراعنة.

ومن بين تلك الكتب، ظهر كتاب يحمل للمهتمين بالأمر مفاجأة مثيرة للغاية..

مفاجأة تقول: إن لعنة الفراعنة لم تبدأ مع فتح مقبرة (توت عنخ آمون)، بل كانت هناك قبل هذا بقرن من الزمان على الأقل..

ولقد ارتبطت فعليا باثنين من مشاهير العلم..

أو ربما أشهرهم..

على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

2- لعنة المشاهير..

ذات صباح دافئ، من شتاء عام 1799 م، وبمصادفة رتبها القدر حتما، أثناء الحملة الفرنسية على (مصر)، عثر جندي فرنسي على حجر في مدينة (رشيد) المصرية، يعتبره علماء الآثار، حتى يومنا هذا، أعظم كشوف القرن على الإطلاق..

فذلك الحجر، الذي أطلقوا عليه اسم (حجر رشيد)، والذي هو من مادة البازلت، كان يحوي كتابات بثلاث لغات.. اليونانية القديمة، والقبطية أو الديموطيقية، والهيروغليفية..

وتعود الأهمية الأثرية البالغة لهذا الحجر، إلى أنه حتى كشفه، كانت الهيروغليفية، بالنسبة للعالم كله، مجرد نقوش منظمة، يسعى العلماء الاستنتاج أو استنباط ما تعنيه، دون أن يتمكنوا من حل رموزها، أو تحديد منطوقها، بأي حال من الأحوال.. وعندما تم كشف (حجر رشيد)، وجد الأثريون أن الكتابة اليونانية، هي ترجمة أمينة ودقيقة للكتابة الديموطيقية، الموجودة على وجه آخر منه..

وكان هذا يعني، من باب المنطق، أن الكتابة الهيروغليفية، هي أيضا ترجمة أمينة ودقيقة للنص نفسه..

وعلى الرغم من أن وسائل الاتصال كانت ضعيفة للغاية، في ذلك الزمن، مقارنة لما أصبحت عليه، بعد قرن واحد من الزمان، وليس في عصرنا الحالي بالطبع، والذي حدث فيه تطور مدهش، في نظم ووسائل الاتصال في الفترة بين مقدمة المقال، وهذه السطور، فقد طار الخبر إلى (أوروبا) كلها، فانتعش علماؤهما، والتهب حماسهم، والتهبت عقولهم، وهم يجدون أمامهم فرصة نادرة، لكشف أسرار وغوامض اللغة الهيروغليفية، مع كل ما قد

يحمله هذا من كشف التاريخ (مصر القديمة، وفراعنتها، وعلومها، وأسرارها الخفية، التي لم يصل العلم الحديث، إلى بعضها، حتى لحظتنا هذه..

ولأن (نابليون بونابرت)، الذي كانت حملته تحتل (مصر)، في ذلك الحين، كان مغرما بالعلم والعلوم، ويرغب دوما في أن يرتبط عصره بالكشوف العظيمة، في كل المجالات، فقد سارع بنقل الحجر إلى (باريس)، حتى تتم دراسته، على أيدي الخبراء هناك..

وبكل شغف ولهفة الدنيا، أقبل العلماء على فحص الحجر، وتدوين ما علية من كتابات ونقوش، ثم راحوا يدرسون، ويفحصون، ويمحصون، و....

وييئسون أيضا.

فالأمر لم يكن أبدا بالسهولة، التي أوحى بها الأمر منذ البداية..

فلا أحد منهم كان يعلم من أين يبدأ الترجمة!!

أمن اليمين، أم من أعلى، أو أسفل..

ولسنوات وسنوات، وعلى الرغم من كل ما بذله العلماء من جهد، فقد فشلت كل محاولاتهم لترجمة اللغة الهيروغليفية، وكشف أسرارها..

حتى جاء (شامبليون)..

كان (جان فرانسوا شامبليون) من العلماء الشبان، الذين عشقوا الحضارة الفرعونية، منذ نعومة أظافرهم، والذين جذبهم بشدة (حجر رشيد)، وكل ما يمكن أن يمنحه من كشوف هائلة..

لذا فقد اتخذ قرارا جريئا، بأن يتفرغ تماما لمهمة فحصه، وترجمته، وكشف أسرار اللغة الهيروغليفية، التي ستساعد العالم كله على الإطلال من نافذة هائلة، على حضارة تعد الأعظم، بين كل الحضارات، التي شهدت العالم القديم..

ولقد بدأ (شامبليون) مهمته، وهو في الحادية والعشرين من عمره، وتفرغ لها تماما، وراح يوصل الليل بالنهار، بحثا عن طرف خيط، يمكن أن يقوده إلى حل اللغز..

ثم، وعلى خلاف الآخرين، لاحظ (شامبليون) أن عدد أسماء الملوك، في النصين اليوناني والديموطيقي، يتطابق تماما مع عدد الخراطيش، في النص الهيروغليفي، لذا فقد استنتج من هذا أن الخراطيش تحوي داخلها أسماء الملوك..

ومن هنا، انطلق (شامبليون)..

وبحسبة بسيطة، حدد أسماء الملوك، في النص الهيروغليفي، وترجمها، وسجل حروفها، وانطلق منها إلى باقي النص..

وبعد أحد عشر عاما، وفي عام 1816 م، توصل (شامبليون) إلى أعظم كشوف الزمان، في علم الآثار والتاريخ القديم، وحلّ رموز اللغة الهيروغليفية..

وفتح أنظار العالم كله على الفراعنة..

وعلى دنيا الفراعنة..

وفي ليلة وضحاها، أصبح (شامبليون) أعظم علماء عصره، وهو بعد في الثانية والثلاثين من عمره، وأحاطت به الشهرة من كل جانب، وتحول إلى خبير في لغة الفراعنة، و....

وفجأة، تفجرت في وجهه اللعنة..

فعلى حين غرة، ودون أسباب واضحة، أصيب (شامبليون) بشلل رباعي، وحمي غامضة، وراح يهذي ويرتجف، ثم لم يلبث أن قضى نحبه، تاركا خلفه من يروي هلاوسه الأخيرة..

وبالمصادفة، كانت كلها عن الفراعنة..

وانتقام الفراعنة..

كان هذا عام 1932 م، كما يروي لنا ذلك الكتاب، الذي تحدث عن تاريخ لعنة الفراعنة، السابق لاكتشاف مقبرة (توت عنخ آمون)..

إلى (تيودور بلهارز)، أستاذ علم التشريح المرضى، مكتشف أشهر مرض يصيب المصريين، منذ أيام الفراعنة..

ولا يكتفي الكتاب بربط أشهر عالم آثار بتلك اللعنة الوهمية، وإنما يسبح معنا إلى أبعد من هذا..

البلهارزيا..

ويقول الكتاب أن (تيودور بلهارز) قد قضى شطرا طويلا، في حياته القصيرة، يطارد تلك الدودة القاتلة، التي تخترق أجساد المصريين، وتستقر في أكبادهم، وتدمرهم تدميرا بطيئا منتظما، وتسلبهم نشاطهم وحيويتهم..

ثم حياتهم فيما بعد..

وبعد تلك السنوات، خطرت في ذهن (بلهارز) فكرة عجيبة..

ترى متى بدأت (البلهارزيا) حربها مع المصريين؟!

وفي سبيل إجابة السؤال، لجأ (بلهارز) إلى أمر لم يخطر ببال أحد سواه قط، إذ انتقل بأبحاثه من الموتى المصابين بالمرض، إلى مومياوات الفراعنة القدامى، وبالذات تلك الخاصة بالعمل

والمزارعين، الذين تدفعهم ظروف عملهم للخوض في مياه النيل طوال الوقت..

أيامها، لم يكن للآثار قيمتها الحالية، ولم تكن هناك تشريعات قوية، لحمايتها والحفاظ عليها، لذا كان من الممكن أن يبتاع (بلهارز) بعض المومياوات، التي يتم العثور عليها في الجنوب، أثناء أعمال الحفر والبناء، وأن يجري عليها، تجاربه..

وكان هذا يفي بالطبع نبش قبور القدامى، واستخرج مومياواتهم، بل وتشريحها والتمثيل بها أيضا..

ولقد نجحت تجارب (تيودور بلهارز) إلى حد كبير، إذ أثبت بالفعل أن المصريين القدامى أصابتهم (البلهارزيا)، منذ آلاف السنين، بل وعثر على بعض الديدان المحنطة داخلهم بالفعل..

ولكن فجأة، وقبل أن يسجل (بلهارز) تجاربه رسميا وعلميا، أصابته حمى مجهولة..

حمى لا تشبه التيفوئيد، أو أية حمي معروفة أخرى..

ومع الحمى، التي لم يتم تشخيصها أو علاجها بالطبع، راح (بلهارز) يهذي، ويصرخ، وتراوده هلاوس عجيبة، حول المومياوات، التي قام بتشريحها، والتي بدت له وكأنها قد عادت

إلى الحياة، لتنتقم من ذلك الذي أقلق راحتها، ومثل بها، و...

ومات (تيودور بلهارز)، عام ١٨٦٢ م، وهو بعد في السابعة

والثلاثين من عمره، بتلك الحمى المجهولة، التي لم يتم تشخيص

أعراضها، حتى يومنا هذا..

وفي هذه المرحلة، لا يحاول الكتاب وضع تفسيرات عملية أو منطقية، لما أصاب (شامبليون) أو (بلهارز)، ربما لأنه شغف

بمحاولة تأكيد فكرة لعنة الفراعنة، بأكثر مما اهتم بتفسيرها..

ولكن هذا كان دأب الجميع، في تلك المرحلة الزمنية، خاصة وأن الفكرة نفسها بدت جذابة ومثيرة، إذ أنها ترتبط بعالم الأسرار والأساطير، وحمى السحر، والتنجيم، والغموض.

ودون أية دلائل علمية أو تاريخية، أعقبت ذلك الكتاب عدة كتب أخرى، تنسب موت عشرات المشاهير إلى لعنة الفراعنة، التي صارت صرعة النصف الأول من القرن العشرين..

حتى (يوليوس قيصر) نفسه، ادعوا أن لعنة الفراعنة قد طاردته، وأصابت عقله بحمى جنونية، دفعته إلى تلك الأفعال الديكتاتورية، التي انتهت بمقتله واغتياله، على يد مجموعة من المقربين له، وعلى رأسهم ربيبه (بروتس)..

وأصيب الناس بالضجر والملل، من هذه الكتب السخيفة، وقرروا تجاهلها فجأة، فانخفضت مبيعاتها إلى حد كبير، وبدا وكأن لعبة لعنة الفراعنة هذه قد بلغت نهايتها، و.....

وفجأة، ظهر كتاب جديد في الأسواق..

كتاب قلب كل الموازين، رأسا على عقب..

وبمنتهى العنف.

☆ ☆ ☆

3- تايتانيك..

في صيف 1985 م، وبعد أشهر من البحث، استقل البروفيسور (روبرت بولارد)، المتخصص في تصوير الأعماق الغواصة العميلة (ألفن)، والمجهزة للغوص حتى مسافة 13 ألف قدم، تحت سطح المحيط، لاستكمال مشروع البحث عن حطام سفينة، غرقت منذ ثلاثة وسبعين عاما تقريبا..

كانت الغواصة (ألفن) مزودة بانسان آلي صغير، يكمن في تجويف خاص في مقدمتها، ويمكن إطلاقه بوساطة قائدها، إلى مسافات تعجز الغواصة عن بلوغها، في أعمق الأعماق..

وعبر كاميرا صغيرة، في مقدمة الآلي (أرجو)، راح البروفيسور (بولارد) يتلقى عشرات الصور، لأعماق المحيط الأطلنطي، فيفحصها ويراجعها بمنتهى الدقة، دون أن يعثر فيها على أدنى أثر لما يبحث عنه..

ثم فجأة، بدأ (أرجو) يرسل مجموعة من الصور الإيجابية...

صور لم تكن واضحة في البداية، إلا أنها لم تلبث أن اتضحت رويدا رويدا، وأصبحت جلية نقية، على نحو انتفض به قلب (بولارد) بين ضلوعه، وتفجر معه الحماس في قلوب كل رجل من رجال بعثته الصغيرة..

هذا لأن (أرجو) قد عثر أخيرا على السفينة موضع البحث

والأهم، أنها لم تكن سفينة عادية

بل كانت أشهر سفينة غارقة، في التاريخ الحديث كله..

كانت (تايتانيك)..

و (تايتانيك) هذه كانت سفينة عظيمة هائلة، تعتبر طفرة تاريخية في تاريخ صناعة وبناء السفن، إذا أنها أضخم سفينة ركاب شهدها العالم، حتى تاريخها، فقد بلغ وزنها 52310 طنا، وبلغ طولها ٨٨٢ قدما، وعرضها 94 قدما في المتوسط، كما أن ارتفاعها كان يبلغ ارتفاع مبنى من أحد عشر طابقا..

حتى اسمها، كان يعني المارد..

ولم تكتف (تايتانيك) بالضخامة وإنما أضافت إليها الفخامة، المفرطة أيضا، والتي لم تعرفها سفينة ركاب من قبل، وبالذات في درجتها الأولى، ذات حجرات النوم الهولندية، وقاعات الطعام الكبيرة، والصالونات الفاخرة، والشرفات الضخمة..

وعندما تم الإعلان عن تدشين (تايتانيك)، تسابق كبار الأثرياء والتجار لحجز أماكنهم عليها؛ للفوز بأولى رحلاتها، التي ستعبر خلالها المحيط، حتى تصل إلى الشاطئ الأمريكي..

وفي العاشر من أبريل ١٩١٢ م، ترقب العالم بمنتهى اللهفة، رحلة (تايتانيك) الأولى عبر المحيط، وأحيطت تلك الرحلة بدعاية هائلة، حتى لقد اصطف آلاف الناس، على رصيف ميناء (كوينستون) في (إنجلترا)، بين مدوعين ومشاهدين، لمراقبة السفينة العملاقة، والانبهار بها، ومشاهدة انطلاقتها الأولى، وعلى متنها صفوة الأثرياء ورجال المجتمع، وفي قاعها مئات من مسافري الدرجتين، الثانية والثالثة..

وانطلقت (تايتانيك)..

انطلقت تمخر عباب المحيط، في زهو وخيلاء، وصاحبها يعطن، في تعال مغرور، أن سفينته من القوة والضخامة، حتى إن الخالق نفسه، لا يمكنه أن يغرقها، والعياذ بالله (عز وجل)..

ويا لها من عبارة جاحدة، متجنية، مغرورة، حمقاء..

ففي الرابع عشر من أبريل، وبعد أربعة أيام فحسب من بدء رحلتها، وبخطأ ملاحي صغير، ارتطمت العملاقة (تايتانيك) بجبل جليدي ضخم، لم يدر أحد - حتى هذه اللحظة - كيف لم يره قبطانها ومهندسوها وبحارتها..

وسبحان الله العلي القدير.

فعلى الرغم من أن السفينة الماردة، كانت مصممة بحيث يمكن عزل أي قسم يصاب منها، عن باقي أجزائها، إلا أن المياه قد غمرتها بسرعة مدهشة، لم تسمح لمن فيها باتخاذ أية إجراءات وقائية..

وابتسم القدر في سخرية، عندما بدأت (تايتانيك) تواجه ما تصور صانعوها أنه مستحيل!!

الغرق..

وطوال اثنتي عشرة ساعة كاملة، وبكم هائل من الرعب واضطراب ماله حدود، راحت (تايتانيك) تغرق.. وتغرق..

وتغرق..

وفي يوم 15 أبريل 1912 م، اختفت (تايتانيك) تماما، في قاع المحيط الأطلنطي.

وكان يمكن ألا تربط بين غرقها ولعنة الفراعنة، بأي حال من الأحوال، لولا ما نشره أحد الناجين منها فيما بعد، مع روايته كشاهد على عملية غرق أشهر سفينة في التاريخ..

ففي شهادته، أشار الرجل بشكل عابر، إلى أن مخزن بضائع السفينة كان يضم تابوتا لكاهنة فرعونية، ارتبط وجوده بأحداث

مخيفة رهيبة، قبل أن يغرق مع كل ما غرق ومن غرق مع (تايتانيك)..

فمنذ تم وضع التابوت في مخزن البضائع، في قاع (تايتانيك)، كان عمال المخزن يرون ويسمعون ما أصابهم بالرعب، وجعلهم يطالبون بإعفائهم من العمل، أو نقلهم إلى وظيفة أخرى، حتى ولو تم تخفيض رواتبهم، أو مضاعفة جهدهم..

والواقع أنني شخصيا لا أصدق حرفا واحدا من كل هذا، بل وأشعر معه بالكثير من الخيال والتدليس، خاصة وأنه ليس من السهل أن تتواجد امرأة في عالم الكهنة، في (مصر) الفرعونية..

فما أن يحل الليل، حتى يسمعوا تأوهات الكاهنة، ويرون شبحها، و....

ثم إن أحدا لم يعثر على ذلك التابوت المزعوم قط، بعد العثور على حطام (تايتانيك)، وكل ما كان على سطحها تقريبا..

إلا أن القصة تجد صدى كبيرا، لدي كل المتابعين لأسطورة لعنة الفراعنة، وكل من يسعى لإثبات صحتها أو عدمها، حتى إنك ستجدها في عشرات الكتب والمراجع، الخاصة بهذا الأمر..

وعندما تم سؤال البروفيسور (روبرت بولارد) عن قصة تابوت الكاهنة هذه، جاءت إجابته غامضة للغاية، إذ أنه لم يؤكد وجوده، كما لم يؤكد في الوقت ذاته العثور على عشرات الأشياء الأخرى، ولكنه لم ينف فكرة تواجده تماما، وإنما أشار إلى أن عشرات السنين، التي قضتها (تايتانيك)، في قاع المحيط الأطلنطي، كانت كافية تماما لتحلل وفساد واختفاء الأشياء، من سطحها، وقاعها، ومخزن بضائعها بالطبع..

وجواب البروفيسور (بولارد) منطقي تماما، فالتابوت كان مصنوعا من الخشب، وليس من الحجر، والمومياء ستتلف حتما، وسط المياه المالحة، وربما تلتهمها الأسماك أيضا أو أن هناك تفسيرا آخر..

ففور الإعلان عن العثور على حطام السفينة العملاقة، تسابق مئات من هواة التحف والأثريات، لحجز وشراء أي شيء، تم العثور عليه داخلها..

وهناك شائعة قوية، تقول: إن أحد كبار الأثرياء الأمريكيين قد ابتاع التابوت سرا، وبداخله مومياء الكاهنة بالطبع، خشية أن يطالب به متحف (نيويورك) رسميا، نظرا لأنه كان مشحونا لحسابه، بالفعل، عندما غرقت (تايتانيك).

ولكنها تبقى مجرد شائعة..

تماما ككل ما يرتبط بتلك اللعنة الوهمية المزعومة..

فمن المدهش أنه، وعلى الرغم من انتشار المصطلح، ومن آلاف القصص والروايات، وأفلام السينما، والكتب التي دارت حوله، إلا أنه لا توجد قصة دقيقة واحدة، أو حتى رسالة علمية منطقية، حاولت بحث الأمر..

كل ما حدث هو عملية رصد دقيقة لحالات الوفيات، بين معظم من عملوا في مجال البحث عن الآثار الفرعونية..

والعجيب أن أحدا لم يتحدث عن أية لعنة، تصيب الباحثين عن الآثار الرومانية، أو اليونانية، أو الآشورية، أو حتى حضارات الأنكا، في (أمريكا الجنوبية.. فقد ارتبطت اللفة بالآثار الفرعونية..

وبالذين سعوا خلف الآثار الفرعونية..

الرحالة الشهير (بلزوني) مثلا، جاب العالم، بحثا عن الآثار، في مختلف البلدان، وحقق انتصارات مدهشة ومثيرة، دون أن يصيبه مكروه..

ثم جاء إلى (مصر)، وبدأ ينبش قبور الفراعنة، ونقل قاعدة تمثال (آمون) من (الأقصر)، وانتشل مسلة من قاع النيل، وأجرى أبحاثا طويلة عن هرم (خوفو)، بحثا عن مدخله، واقتحم المقابر، والمعابد، واستخرج الجثث، والمومياوات، والعظام..

ثم فجأة، أصابه ذلك المرض الغامض، الذي أصاب معظم علماء الآثار، فسيطرت عليه حمى لاهية، وأصابه الهذيان، وطاردته الهلاوس، حتى لقي حتفه، في مساء الثالث من ديسمبر، عام 1823 م، وهو بعد في الخامسة والأربعين من عمره...

نفس الحمى.. ونفس النهاية..

ولأن حالات الموت متشابهة دوما، في كل من أصابته لعنة الفراعنة المزعومة، فقد جذب هذا انتباه واهتمام البروفيسور الألماني (فيليب فاندنبرج)، والذي خرج إلينا بتفسير جديد للعنة الفراعنة..

تفسير علمي.. ولأول مرة.

☆ ☆ ☆

4- وتحدث العلم..

عبر السنوات الطويلة، التي تردد خلالها مصطلح (لعنة الفراعنة)، كانت معظم الكتب والدراسات، الخاصة بها، تقتصر على تسجيل ورصد الحالات، التي ارتبطت بالتنقيب عن آثار فرعونية، والتي لا قتا مصيرها غامضا، وعانت من حمي غامضة مجهولة، تنتهي عادة بالوفاة..

ثم جاء كتاب البروفيسور الألماني (فيليب فاندنبرج)..

وكتاب (فاندنبرج) يعد موسوعة علمية متكاملة، عن (لعنة الفراعنة)، ومحاولة شديدة الجرأة؛ للبحث عن تفسير علمي لها، من خلال مختلف اتجاهات العلم، بدءا من الكيمياء، ووصولا إلى الإشعاعات النووية..

ولقد اهتم (فاندنبرج) كثيرا بتسجيل معظم الحالات، التي أصابتها (لعنة الفراعنة)، من وجهة نظره، ثم توقف طويلا عند تلك الحمى، التي أصيب بها معظم الحالات، والتي أدت إلى الهذيان والهلوسة، ثم الموت فيما بعد..

ومن هنا، وضع العالم الألماني نظريته..

ونظرية (فاندنبرج) تربط لعنة الفراعنة بثلاثة احتمالات علمية، تبدو في جانب منها منطقية ومعقولة، إلى حد كبير..

الاحتمال الأول هو أن تحوي مقابر الفراعنة، وملوكهم على وجه الخصوص، غازات سامة، أو عقاقير وأتربة بطيئة المفعول، من ابتكار الكهنة، الذين أخفوا دوما علومهم عن العامة، وإن تركوا لنا دلائلها، من خلال سر التحنيط، الذي حار فيه علماء الكيمياء، حتى يومنا هذا..

ومن وجهة نظر العالم الألماني، أن الكهنة قد ابتكروا نوعا من السموم شديدة البطء، أشبه بعقاقير الهلوسة، ومزجوها باتربة المقابر الخاصة بالملوك، كوسيلة لقلب كل من تسول له نفسه نبشها أو سرقتها..

وربما كانت تلك العقاقير أكثر تأثيرا في الماضي، وأسرع مفعولا، إلا أن خواصها قد تغيرت تماما، عبر آلاف السنين من التخزين، ولكنها، وفي كل الأحوال، تترك أثرها في دماء كل من يقتحم المقابر الفرعونية، ويستنشق ترابها، ثم يبدأ تأثيرها بعد عدة سنوات، على شكل حمى، وهذيان وهلوسة..

والاحتمال قد يبدو منطقيا للوهلة الأولى، إلا أن قليلا من التفكير فيه، يجعلنا ندرك عقمه تماما، إذ أن العلم قد قطع شوطا ضخما، في السنوات العشر الأخيرة، وأصبح من السهل تحليل أتربة المقابر، ومعرفة كل ما تحويه، بل إنه هناك مراكز متخصصة لأبحاث التربة، يمكنها تحديد مكونات أية عينة من الأتربة بمنتهى الدقة..

وبمنتهى السرعة أيضا..

والكشوف الأثرية مازالت مستمرة، ولم تتوقف حتى الآن، ولو أن احتمال السموم بطيئة المفعول هذا وارد، لتوصل إليه العلم الحديث فورا..

ولكن (فاندنبرج) نشر كتابه في سبعينات القرن العشرين، وقبل أن يبلغ العلم هذا الحد، أو تظهر أجهزة وبرامج الكمبيوتر، التي قلبت كل الموازين، رأسا على عقب، ولكن دعونا لا نتوقف طويلا عند الاحتمال الأول، ولننتقل منه إلى الاحتمال الثاني، والأقرب إلى المنطق..

الفيروسات..

فالبروفيسور الألماني يفترض أنه كان هناك فيروس قديم، كامن في أتربة مقابر ملوك الفراعنة..

فيروس ساد في القرون القديمة، أو استخدمه الكهنة أيضا في فترة ما، أو أنهم قد ورثوه من حضارة سابقة!!

وذلك الفيروس ينتقل إلى أجساد من يقتحم المقابر، ويسري في دمه وأنسجته، ليقضي فيها فترة حضانته، التي تبلغ سنوات وسنوات، وترتبط بالقابلية الشخصية للإصابة، وبقوة مناعة الجسم، التي تختلف من شخص إلى آخر وعندما يبدا ذلك الفيروس المفترض نشاطه، يصاب الإنسان بالحمى، التي تهاجم المخ على الأرجح، مسببة الهذيان والهلوسة..

والاحتمال هذه المرة منطقي وعلمي تماما، ويمكننا هضمه واستيعابه، إلى حد كبير، وخاصة بعد ظهور فيروس (الإيدز)، الذي يكمن في الأجساد لسنوات طويلة بالفعل، قبل أن تبدأ أعراضه في الظهور..

ثم إن فكرة الفيروس هذه تتناسب مع الحمى المخية، والهذيان، والهلوسة، والوفاة أيضا..

وكذلك تتفق مع عجز الأطباء عن تشخيص المرض، في عصر لم تكن الأبحاث الطبية قد تطورت إلى الحد الكافي، لكشف مثل هذه الكائنات الدقيقة، واستيعاب طبيعتها وأعراضها..

ولكن تعود بنا الخيوط إلى السؤال الأول..

لماذا لم يعد ذلك الفيروس يظهر، في الكشوف العلمية والأتربة الحديثة؟! هذا السؤال نتركه للبروفيسور الألماني، ونتركه

لعقولنا، تدرسه، وتناقشه، وتحلله..

ثم تتوصل إلى نتائجه..

أما نحن، فننتقل إلى الاحتمال الثالث، في نظرية (فاندنبرج)..

والاحتمال الثالث مدهش، ومثير للحيرة، ولست أدري حتى كيف وضعه العالم الجليل، ولكن يبدو أن إيمانه بالفراعنة كان يتجاوز كل الحدود..

فذلك الاحتمال، هو أن ترتبط (لعنة الفراعنة) بنشاط إشعاعي ذري، ظل مختزنا داخل مقابر الملوك لآلاف السنين، لينطلق في وجه كل من ينبشها وربما يتفق هذا الاحتمال مع بعد التأثير، ومع أعراض الحمى والهلوسة والهذيان، والموت في نهاية المطاف، كما يتفق أيضا مع عجز الأطباء القدامى عن تشخيص الحالات وحيرتهم في مواجهتها، إلا أنها تضعنا أمام احتمال جديد، يبدو أكثر خيالا من كل ما سبقه..

احتمال أن الفراعنة كانت لديهم معرفة دقيقة بالنشاطات الإشعاعية..

وهذا أمر غير مقبول على الإطلاق..

حتى لو افترضنا أنهم قد توصلوا إلى تراب اليورانيوم مثلا..

وأن الكهنة قد أدركوا أنه يختلف عن التراب العادي، وأن له تأثيرات فتاكه على كل من يلمسه أو يستنشقه، فسنتساءل بدورنا، كيف أمكنهم اتقاء تأثيره عليهم، دون أن تكون عندهم أبحاث، ودراسات، ووسائل مقاومة!!

ولو افترضنا أن هذا قد حدث بالمصادفة، ودون وعي منهم،

وأن بعض المواد، الداخلة في مساحيق التحنيط، كانت مواد مشعة فتاكة، فأين ذهبت هذه المواد، ولماذا غاب تأثيرها، واختفت من المقابر، على الرغم من أنها قد بقيت لآلاف السنين؟!

ثم لماذا تواجدت في الكشوف القديمة، ولم تتواجد في الكشوف الحديثة؟! كل هذا ينبغي أن يقودنا إلى نتيجة واحدة لا غير، مع جزيل احترامنا للبروفسير (فاندنبرج)، وشهرته، وعلمه الغزير.

يقودنا إلى إنه لا وجود لما يسمى ب (لعنة الفراعنة)!

ربما كانت هناك حوادث عديدة، ترتبط بكل من تقب عن الآثار، في أزمنه انخفضت فيها درجة الوعي الصحي، إلا أن هذا لا يعني وجود لعنة أسطورية، صالحة لخيال الكتاب والسينمائيين، ولكنها غير قادرة على إقناع أي صاحب عقلية علمية أو منطقية..

وهنا ينبغي أن أضم صوتي لكل الأصوات، التي ترفض وبشدة، فكرة (لعنة الفراعنة) هذه، والتي تستنكر حتى ترديد المصطلح، أو حتى مناقشة احتمالات صحته..

وأهم ما ينبغي معرفته، في هذا الشأن، هو أن أكثر من هاجم الفكرة، وحارب لإثبات زيفها وحمقها هو الشخص الذي ارتبط اسمه بمنشئها، منذ أول مرة ظهر فيها المصطلح..

(هوارد كارتر) شخصيا.

فمع شغف الناس بالحديث عن الأمر وترديده، كتب (كارتر) عددا كبيرا من المقالات، وألقى مئات المحاضرات، واشترك في عشرات الندوات، ليهاجم الفكرة، ويؤكد أنها مجموعة من المصادفات السخيفة، بدليل أنه أول من دخل مقبرة (توت عنخ

آمون)، أو أول من رصد ما بداخلها، لو شئنا الدقة، ولم تصبه أية أعراض، يمكن أن ترتبط بالمصطلح..

لا ألم، أو حمى، أو هذيان، أو هلوسة..

ولقد عاش (كارتر) حتى عام 1939 م، في صحة جيدة، ودون أن يعاني سوى من الأعراض الطبيعية للتقدم في العمر، حتى مات ميتة عادية في فراشه، وهو يواصل إنكاره واستنكاره..

ولكن العجيب والمدهش أن أحدا لم يستمع إليه.

هذا لأن الفكرة، بما تحويه من أسطورة وغيبيات، قد استهوت الناس، في كل أنحاء العالم، وأصبحت مادة تجارية رابحة، ووسيلة الترويج مئات الكتب، والروايات، والدراسات، وأفلام السينما..

وهكذا أغلقنا جميعا باب العقل والمنطق، وغرقنا حتى النخاع في هلاوس وخزعبلات وخرافات، وروايات لا دليل أو أساس لها..

أو ربما نفعل هذا كجزء من لعنة، تلازمنا جميعا بلا هوادة..

لعنة الفراعنة.

☆ ☆ ☆

23- فــوبيا..

1- الدم..

من منا يمكن أن يدعي وبصدق أنه شخص بلا مخاوف؟!

علماء النفس يؤكدون أنه، حتى أشجع وأقوى الرجال، لا يمكنه أن يدعي هذا، ولو فعلها فهو كاذب حتما، وهم يتحدونه أن يجتاز بقوله هذا اختبار جهاز كشف الكذب بنجاح!!

هذا لأنه ما من مخلوق حي بلا مخاوف..

ففي أعمق أعماق كل منا، هناك حتما خوف ما، من شيء ما، من عقولنا، أو قلوبنا أو أي مكان آخر من أجسادنا

خوف سجلته عقولنا الباطنة، في لحظة ما، لا تبتعد كثيرا عن لحظة مولانا، واختزنته، وأخفته في بقعة مظلمة، لا تضاء إلا بعامل مساعد، أو فعل شرطي منعكس، وعندئذ فقط تسترجع العقول الخفية ذلك الموقف القديم، وتستعيده، وتطلقه في العقل الواعي، و...

ونخاف..

ومخاوف البشر لا حصر لها، إذ إنها ترتبط بأي شيء وكل شيء،

ويمكن في بعض الأحيان أن تكمن في لحظات أو أشياء لا يمكن أن تثير ذرة واحدة من الخوف، في نفس أي مخلوق طبيعي، كملعقة فضية مثلا، أو نوع بعينه من السجائر، أو دقات الساعة، أو أي أمر آخر..

وهذا هو العامل المساعد، الذي يضيء تلك البقعة المظلمة في أعمق أعماقنا، ليفجر خوفنا، ورعبنا، وفزعنا، وهلقا، وكل تلك

المشاعر، والذي تطلق عليه القواميس الطبية والعلمية اسم (الفوبيا)..

و (فوبيا) هو مصطلح لاتيني، يعني الخوف من شيء ما، ويمكن ربطه بكل أنواع المخاوف المعتادة، وغير المعتادة أيضا، وعندما يحدث هذا، فنحن نشير إلى نوع خاص من الخوف..

النوع المرضى.. جدا..

فالخوف من الأماكن المظلمة أو المغلقة، هو أمر طبيعي، عند الكثير من الناس، ولكنه عند البعض الآخر يتحول إلى (فوبيا) أو خوف مرضي، عندما يواجه هؤلاء البعض الموقف بارتعاشات عنيفة، وعرق غزير، وأعراض قد تبلغ حد التخشب، أو الغيبوبة التامة، أو حتى الموت، في حالات نادرة ومحدودة..

ومن أشهر تلك المخاوف، التي يعرفها ملايين البشر، الخوف من رؤية الدم، ذلك السائل الحيوي، الذي يجري في عروقنا، وتخفق به قلوبنا، وينقي الهواء في رئتينا، مع عشرات الوظائف الأخرى..

وارتباط الإنسان بالدم ارتباط عجيب للغاية، فهو يعشقه عندما يجري في عروقه، ويورد وجنتيه، ويملأ قلبه ويعلن حيويته وقوته ونشاطه، بل ويسعى دوما إلى أية أطعمة أو مشروبات، يقال عنها إنها قادرة على تقويته، وتنشيطه، ودفعه أكثر وأكثر في أوعيته الدموية، وخلاياه الحية، وحتى نصف الحية..

أما لو تدفق هذا الدم خارج جسده، أو حتى خارج أجساد الآخرين، فهي الطامة الكبرى، والكارثة، والمصيبة، ومصدر الرعب والهلع، و....

و (الفوبيا) أيضا في بعض الأحيان.....

فالعديد من البشر لا يمكنهم رؤية الدم البشري، أو حتى الحيواني، دون أن ترتجف أجسادهم، وترتعد خلاياهم، وتسري في كيانهم قشعريرة باردة كالثلج، وتتسع عيونهم في هلع..

وبعض البشر قد يصرخ لمرأى الدم، أو يفقد الوعي، أو تنتابه الكوابيس لأسابيع طويلة، وكأنما رأي وحشا كاسرا.

هذا لأن الدم يرتبط في أذهاننا جميعا بالحياة، وفقدانه يعني دوما الموت والفناء، وعندما يرى المصابون بهذه (الفوبيا) الدماء، تقفز أذهانهم فورا إلى تصور الموت..

موتهم هم بالطبع..

ولأن كل المخلوقات الحية تخشى الموت، فإن عقولهم الباطنة تدفع في عقولهم الواعية كل المخاوف المختزنة فيها، فيبلغ رعبهم ذلك الحد المرضي العنيف للغاية..

ولا بد أن نستثني هنا الجراحين، والجزارين، وعمال وموظفي بنوك الدم، وكل من يحتم عليه عمله رؤية الدم طوال الوقت..

ولكن حتى هؤلاء، تبقى في أعماقهم لمحة من خوف الدم..

وهذا ما أدركه كتاب الرعب، ومخرجو السينما الغربية، عندما أغرقونا بسلسلة من الأفلام حول مصاصي الدماء، الذين ينشطون ليلا،..

ويرقدون في أعمق أعماق توابيتهم نهارا، وينقضون دوما على الأوردة العنقية لضحاياهم، ليغرزوا فيها أنيابهم، باعتبارها من أكبر وأغزر موارد الدم، ويمتصون الدماء في شراهة ونهم، وحتى تموت الضحية، التي لا تلبث أن تعود إلى الحياة بعدها، في هيئة مصاص دماء جديد، وهكذا..

والطريف أن كل هذه الأفلام السينمائية قد بنيت على أحداث تلك الرواية الشهيرة (دراكيولا) للروائي البريطاني (برام ستوكر)، والتي استوحاها بدوره من سيرة الأمير الروماني (فلاد يتبيس)، والذي سفك دماء آلاف من المحتلين، وعرف باسم (مصاص الدماء)، وذلك خلال فترة حكمه، ما بين عامي 1456، و1462 م..

وعندما كتب (ستوكر) روايته، عام 1897 م، لم يكن علم النفس قد تطور، إلى الحد الذي يكفي لتحديد مخاوف الناس بشكل علمي، إلا أنه كان يدرك، على نحو فطري تماما، أن ذكر الدم يثير الرعب في النفوس..

كل النفوس..

ولكن الذي ينبغي أن يثير مخاوفنا أكثر، هو أن الحالة التي تحدث عنها (ستوكر)، والتي أصبحت شهيرة ومعروفة، في الأدب والسينما، لم تعد مجرد خيال محض، وإنما كشف العلم أن مصاصي الدماء حقيقة..

حقيقة طبية معروفة، ومسجلة في عدد كبير من المراجع والكتب!!

فمن بين عناصر الدم، توجد مادة اسمها (البروفيرين)، وهي ضرورية لتكوين وتثبيت مدة (الهيموجلوبين)، اللازمة لصلاحية الدم، كمادة لنقل الغذاء والأكسجين إلى خلايا الجسم، وفي بعض الحالات النادرة، يحدث نقص شديد في هذه المادة، مما يؤدي إلى الإصابة بمرض غاية في الندرة، من أمراض الدم، يسمي (البروفيريا)..

والمدهش أن المصابين بهذا المرض لهم وجوه شاحبة، أشبه بوجوه الموتى، وتطول أنيابهم على نحو واضح، كما تكون لديهم حساسية مفرطة لضوء الشمس، ولديهم احتياج دائم للدم، لتعويض النقص الشديد في (الهيموجلوبين) في أجسادهم..

وفي عام 1985 م، كشف طبيب أمريكي ثلاث حالات مصابة بمرض (البروفيريا) في عائلة واحدة، فأعلن عن المرض، وعن أن مصاصي الدماء قد يكونون حقيقة وليس خيالا..

ومن الطبيعي أن يثير هذا رعب الناس أكثر وأكثر، وخوفهم الغريزي من رؤية الدمام، وبالذات دماؤهم هم، إذا ما نزفت من أجسادهم، لسبب أو لآخر..

وحالات (الفوبيا) المرضية من الدم لا تعتبر الأعلى، بين حالات (الفوبيا) الأخرى، ولكنها أوسع انتشارا وتواجدا، في معظم الشعوب والجنسيات، والديانات..

هذا لأننا جميعا بشر، تجري الدماء في عروقنا..

أو خارجها..

و (فوبيا) الدم هذه ليست كلها من طراز واحد، فبعضها يرتبط بالدماء البشرية وحدها، عندما تسيل بغزارة أكثر من المعتاد، والبعض الآخر يرتبط بأية دماء نازفة، من أي مخلوق حي، لذا فأصحابها لا يتحملون رؤية حيوان يذبح أو طائر ينحر.. وفي حالات أخرى، لا يتحمل المريض رؤية قطرة واحدة من الدم، سواء من بشر، أو حيوان، أو طير، أو حتى حشرة..

ومع حالات أكثر ندرة، يصاب المرضى بهلع عنيف، إذا ما وقعت أبصارهم على أي شيء بلون الدم، حتى ولو كان قطعة من القماش، أو بقعة فوق لوحة تجريدية..

ورد الفعل، إزاء تلك (الفوبيا) يختلف في كل حالة عن الأخرى، ومع كل مريض عن آخر، ففي واحدة من الحالات النادرة، أصيب المريض بصدمة عصبية عنيفة، مع رؤية بركة من الدم، سالت من مصاب في حادثة سير، وانتهى به الأمر إلى أن عقله قد استبعد اللون القرمزي الدموي تماما، من كل شيء في الوجود..

حتى الألوان، التي يدخل في تركيبها اللون القرمزي، أصبح ذلك المريض يراها خالية منه، فاللون البرتقالي تحول إلى الأصفر، والبنفسجي إلى الأزرق، أما الوردي والقرمزي، فقد تحولا إلى اللون الأبيض أو الرمادي..

ولقد احتاج ذلك المريض إلى علاج نفسي طويل، قبل أن يتجاوز هذه (الفوبيا)، ويعود لرؤية لون الدم مرة أخرى، ولكنه لم يتخلص من (فوبيا) الدم أبدا، على الرغم من المحاولات المتصلة..

ولقد أجريت دراسات عديدة حول (فوبيا) الدم، إلا أنها لم تلق اهتماما على المستوى العام، فقد حجبتها تماما (فوبيا) أخرى، يشترك فيها تسعون في المائة من البشر على الأقل..

(فوبيا) أكثر انتشارا..

بكثير.

☆ ☆ ☆

2- قلب الظلام..

تخيل نفسك في مكان ما، لا تألفه جيدا، ثم انقطعت الأضواء كلها فجأة، ووجدت نفسك في قلب الظلام.

ظلام دامس رهيب، يحيط بك من كل جانب، ويرسم في خيالك عشرات الصور، والأوهام، والمخاوف، ويرهف حواسك حتى لتبدو أية حركة بسيطة أشبه بزحف ثعبان سام، أو انقضاضة خفاش قاتل، أو فحيح عفريت من الجن، أو.. أو..

كل هذا سيصنعه عقلك في قلب الظلام، الذي سيجعلك ترتجف، وترتجف، وربما إلى درجة الرعب..

وهنا تكمن (الفوبيا)..

(فوبيا) الظلام..

و(فوبيا) الظلام هذه هي أكثر أنواع المخاوف المرضية انتشارا، وتعود أسبابها، في نظر معظم علماء النفس الأمريكيين، إلى خوف الإنسان الغريزي من المجهول..

أي مجهول..

فمنذ عصور ما قبل التاريخ، كان الإنسان يدرك أنه محاط بمخاوف لا حصر لها..

مخاوف من الأعداء، والوحوش، والحيوانات، والحشرات السامة، وحتى من الطبيعة نفسها..

ولأنه لم يدر أبدا من أين تأتيه الضربة، أصبح يخشى كل من حوله..

وكل ما حوله..

ولأن الظلام غامض ومجهول، ووسائله لا تسمح له بكشف ما يحدث داخله، فقد اعتاد الإنسان القديم أن يخشى الظلام، ويخافه، ويتحاشاه بكل الوسائل الممكنة..

وربما لهذا، أخترع الإنسان النار، لكي يبدد بوهجها ما يحيط به من ظلام، ويخيف أعداءه، ويرى طريقه طوال الوقت..

وعلى الرغم من تطور العلم ووسائل الإنارة، احتفظ الإنسان بخوفه المرضى الموروث من الظلام، والمجهول، وكل ما يستغلق عليه معرفته أو فهمه..

بل ويقول البعض إن تطور وسائل الإنارة قد ضاعف من خوف الإنسان الحديث من الظلام، فقد اعتاد مع الوقت أن يحيا في أضواء مبهرة، تحيط به في كل لحظة، وأن يطوعها ويطورها بضغطة زر واحدة، فيغير من شدتها، وتوهجها، وانتشارها..

ولأنه قد اعتاد هذا، فما أن يحيط به الظلام، حتى ينتابه خوف مرضي عنيف، فيضطرب ويتخبط، ويدور حول نفسه، وربما يبلغ مرحلة الرعب العنيف أيضا..

والواقع أن الحداثة قد أضافت إلى البشر عشرات المخاوف، التي ترتبط كلها بالظلام، وخاصة مع موجة أفلام الرعب، والأشباح، والعفاريت، التي ساعدت خياله على أن يتصور عشرات الأعداء الوهميين، الذين يتحفزون للانقضاض عليه، من كل ركن مظلم..

ونحن نساهم كثيرا في زرع (فوبيا) الظلام، في نفوس أبنائنا وبناتنا، عندما تروي لهم قصص الجن والعفاريت وغيرها..

الأمر الطريف، أن بعض أنواع الحيوانات أيضا تخشى الظلام وتسعى دوما للتواجد في أية بقعة من الضوء، مما يوحي بأن هذا

الخوف بالذات له أصول في خلايانا وأدمغتنا، ونفوسنا كذلك..

والخوف المرضى من الظلام يتشارك مع خوف آخر، على نحو متلازم في كثير من الأحياء، ومنفصل في أحيان أخرى، وهو الخوف من الأماكن المغلقة..

وتلازم الخوف من الظلام مع (فوبيا) الأماكن المغلقة يعود أيضا إلى خشية الإنسان الشديدة من الموت، إذ تبدو له الأماكن المغلقة أشبه بالقبر، فإذا ما أضيف إليها الظلام، تضاعفت الصور، وتضخمت.

وبلغت حد الانهيار..

وفي حالات عديدة، أصيب أمثال هؤلاء المرضى بجنون مطبق، بعد بقائهم لخمس ساعات فقط، في أماكن مظلمة مغلقة، و97 ٪ منهم أصابهم هذا داخل مصاعد معطلة، أثناء حالات القطاع التيار العرضية..

وهلع المصاعد هو الصورة المثلى، والأكثر انتشارا، لمرضى (فوبيا) الأماكن المغلقة، فبالنسبة لهذه الفئة، يعتبر المصعد مجرد قبر متحرك، حتى إنه هناك حالة مسجلة لمواطن أمريكي، ظل طيلة عمره يقيم في أدوار منخفضة، أو في منازل مستقلة، من طابق أو طابقين على الأكثر، وكان يرفض العديد من الوظائف الممتازة، على الرغم من كفاءته الشديدة؛ لمجرد أن الشركات التي تلقى عروضها، تحتل بعض الطوابق العليا، في ناطحات سحاب شاهقة، وعندما قبل أخيرا عرضا لشركة (ميكروسوفت)، في فرع لها، في الطابق الخامس من بناية كبيرة، ظل طوال فترة عمله فيها يصعد إلى مكتبة عبر درجات السلم، ولم يستقل المصعد مرة واحدة..

وهناك حالة مسجلة أخرى لمريضة شابة، لم تصعد منفردة في أي مصعد قط، حتى إنها كانت تقف إلى جوار أي مصعد لساعات، حتى يظهر راكب آخر، لتشعر أنها ليست وحدها داخل مصعد مغلق ة..

وحتى في وجود ركاب آخرين، كانت تصاب بحالة عجيبة من التخشب طوال الوقت، أثناء صعود أو هبوط المصعد، وتتسع عيناها في رعب هائل، على نحو يوحي بأنها تخوض أشد لحظاتها صعوبة..

وعلى عكس تلك الحالة تماما، كانت هناك حالة أخرى لامرأة في منتصف العمر، ترفض تماما أن تستقل المصعد في وجود آخرين، على الرغم من خوفها الشديد من الأماكن المغلقة..

ولكنها كانت مصابة بخوف أكثر مرضية، من الغرباء..

أي غرباء..

والخوف من الظلام والأماكن المغلقة، يقود إلى خوف آخر، مشابه أو متلازم، أو ينتمي إلى المجموعة نفسها.. الخوف من البحر..

أو من أعماق البحر..

والخوف من البحر، وأعماق البحر، ينتمي إلى (فوبيا) ذات مجموعة ضخمة للغاية، ألا وهي (فوبيا) المجهول..

أي مجهول..

فالبحر يمثل لأصحاب هذا المرض مساحة ممتدة إلى مدى البصر، وأعماق غامضة مريبة، لا يمكنهم رؤيتها، أو معرفتها، أو استنباط ما يدور فيها، أو ينتشر عبرها..

وككل مجهول، يعطى البحر للمرضى بهذه (الفوبيا) شعورا غامضا بالخوف وعلم الأمان، خاصة وأن خيالهم يضخم دوما كل ما يتلقونه من معلومات عن أعماق البحر، ويمزج كل هذه المعلومات بمخاوفهم، بحيث يتصورون طوال الوقت أن وحشا سينقض عليهم، أو كائنا مفترسًا سيلتهمهم، أو حتى دوامة مفاجئة ستبتلعهم، أو تيارا قويا سيسحبهم إلى أعمق الأعماق، حيث يموتون مختنقين، على نحو يثير رعبهم، حتى في أحلامهم وكوابيسهم..

والمصابون بهذه (الفوبيا) لا يمارسون رياضة السباحة أو الغوص أبدا، بل إن بعضهم قد يتحاشى رؤية أية أفلام سينمائية، تتحدث عن البحر وأعماقه، أو قراءة أية رواية من روايات البحر..

وبعض الحالات الخفيفة، من (فوبيا) الأعماق، يتمكن أصحابها من السباحة والغوص، ولكن في أحواض السباحة فقط حيث يمكنهم رؤية القاع في وضوح، وتحديد كل تفاصيله أو تضاريسه، قبل المجازفة بالغوص في أعماقه..

وفي واحدة من الحالات المسجلة، كانت المريضة ترفض وضع قدميها في أي مساحة من المياه، حتى في حوض الاستحمام المنزلي، بل إنها كانت ترتجف ارتجافة عنيفة، لرؤية أي حوض استحمام، ولو كان فارغا تماما..

وفي حالة أكثر عنفا، كان المريض يرفض تناول ماء الشرب نفسه، ما لم يكن داخل وعاء شفاف، يمكنه من رؤية قاعه في وضوح..

وهناك حالة نادرة للغاية، لشاب ولد في أسرة من الصيادين، وظل طيلة عمره يخشى مجرد لمس مياه البحر لقدميه، وعندما

حاول أفراد أسرته تخليصه من هذا الخوف المرضى، بأسلوبهم البسيط المباشرة حملوه عنوة، وألقوه وسط الماء، على مسافة متر واحد من الشاطئ، وعلى الرغم من أن عمق المياه هناك، لم يكن يتجاوز السنتيمترات العشرة، إلا أن الشاب أصيب بفزع شديد، وراح يضرب الماء بذراعيه بكل رعب الدنيا، في نفس الوقت الذي دفن فيه رأسه في شبر من الماء، دون سبب معروف، على الرغم من محاولة الكل انتشاله، حتى لقي مصرعه غرقا، أمام عيون الجميع!!

ولقد أصيب الكل بالذهول، وهم يخرجون جثته، ويضعونها على الشاطئ، دون أدنى تفسير لما فعله بنفسه، والذي يتجاوز حدود كل عقل أو منطق..

ولكن أي عقل، وأي منطق، مع (فوبيا) مرضية؟!

لقد فعلها الشاب، أيا كانت الأسباب، وقتل نفسه في شبر من المياه، بسبب رعب هائل بلا حدود، ملك جوارحه، وألغى عقله تماما، مع كل حواسه الأخرى..

رعب (فوبيا) الأعماق..

وهذا الرعب يرتبط بنوع آخر من (الفوبيا)..

نوع حيواني..

جدا.

☆ ☆ ☆

3- أنياب الخوف..

(الفوبيا) هذه المرة من نوع متميز، ومختلف، وخاص..

خاص جدا.

(فوبيا) لها أنياب.. ومخالب.

(فوبيا)..

(فوبيا) الحيوانات..

وربما يتبادر إلى ذهنك، مع الوهلة الأولى، أن هذا النوع من (الفوبيا)، أو الخوف المرضى، من الحيوانات، يقتصر على الحيوانات المفترسة وحدها دون سواها، حيث ترتبط في أذهان الناس دوما بالوحشية، والعنف، والدم، والألم، والموت أيضا..

ولكن الحقيقة تختلف كثيرا..

فالمصابون بهذا النوع من (الفوبيا) يصابون بالخوف المرضى، والفزع، والرعب، والهلع، وكل المشاعر المشابهة الأخرى، من كل أنواع الحيوانات: المفترسة، والأليفة، وحتى الوديعة منها ومن المؤكد أنك قد التقيت في حياتك حتما بأحد المصابين بهذه الحالة العجيبة، وأنك قد رأيت من يصاب برعب بلا حدود، عند رؤية قط، أو كلب منزلي، أو أرنب، أو حتى حمار.

وربما ترتبط بعض الحالات بذكرى مؤلمة، في فترات الطفولة أو الصبا، كأن يداعب طفل هرته مثلا، فتخدشه بعنف، مما يولد لديه خوفا مرضيا من القطط طوال العمر، أو حتى يشاهد كلبا يعقر شخصا آخر، ويرى الآلام الرهيبة التي يعانيها هذا الآخر، فيخشى الكلاب حتى آخر لحظة في عمره..

ولكن هناك حالات أخرى، لم يجد الأطباء النفسيون في تاريخها كله، وحتى تحت تأثير التنويم المغناطيسي، أي موقف أو حادث يمكن أن يكون السبب في إصابتها بهذا الخوف المرضى من الحيوانات.

كل الحيوانات..

وحالات الخوف من الحيوانات تختلف من مريض إلى آخر..

ككل أنواع (الفوبيا)، فهناك مريض يصيبه الفزع، عند رؤية حيوان يجري هنا أو هناك، أيا كانت نوعيته، أو كان حج وفي حالات أخرى، لا يرتبط الخوف المرضى إلا بالحيوانات الحية، ويتلاشى تماما أمام أي حيوان ميت، باعتبار أن موته يعنى انتهاء شروره، أو ما يمكن أن يسببه من أذى للآخرين..

وهناك حالة مسجلة عن مريض، لم يكن باستطاعته أبدا التطلع إلى عيني أي حيوان، ويتصور دوما أنه إذا ما التقت عيناه بحيوان ما، فإن هذا الحيوان سيتحداه، ويستفزه، وسينتهز أية فرصة سانحة للانقضاض عليه، وافتراسه بلا رحمة..

وهناك حالة أخرى لمريضة، كان يمكنها أن تعامل مع الحيوانات بكل أنواعها، لو أنها حبيسة الأقفاص، أو بعيدة عن متناول يدها، أما لو لمسها أي حيوان، فهي تصرخ، وتولول، وتبكي، وتنهار، وتقضي ساعات وساعات في غسل ذلك الموضع، الذي لامسه الحيوان، حتى إنها ذات مرة أزالت جلد ساعدها وألهبته، من فرط محاولتها تنظيفه..

والخوف المرضى من الحيوانات لا يرتبط بقوة المرء أو شجاعته العامة، في مواجهة أية مواقف أخرى، بل هو نوع منفصل تماما

من المخاوف، ينمو في ظروف خاصة، تختلف دوما عن الظروف الطبيعية..

وأكبر مثال لهذا هو حالة (دي لوكا)..

وردي لوكا) هذا كان رجلا ضخم الجثة، عريض المنكبين، طويل القامة، له ملامح غليظة صارمة، وأطراف كبيرة على نحو مفرط، بحيث يبدو في معطفه الداكن أشبه بصورة حية لمسخ (فرانكنشتاين) الشهيرة..

أما وظيفته، فكانت القتل!!

نعم.. كان (دي لوكا) قاتلا محترفا، يعمل لحساب (المافيا) الإيطالية في الثلاثينات، ويلازم زعماءها ملازمة الظل، وينفذ أوامرهم بلا مناقشة، وبلا تردد أيضا، فيكفي أن يشير أحدهم إلى شخص ما، حتى يعتبر (دي لوكا) هذا أمرا بالقتل، لا بد أن يعمل على تنفيذه بأي ثمن..

وعلى الرغم من أن ذكاء (دي لوكا) كان محدودا للغاية، في النواحي الحسابية والاجتماعية، والعلمية بالطبع، إلا أنه كان يمتلك ذكاء وحشيا عجيبا، فيما يختص بعمليات القتل، إذ كان يديرها، ويخطط لها، وينفذها في براعة مدهشة، حتى إن كل وسيلة لحماية الضحية، لم تكن لتحول بينه وبينها قط..

ومن الناحية العملية، كان (دي لوكا) قبلا بلا قلب أو مشاعر، يمكنه أن يكمل مذبحة بشعة، تسيل لها دماء الأطفال والنساء والشيوخ قبل الرجال، دون أن يطرف له جفن، أو تهتز في جسده شعرة..

باختصار، كان كتلة من الغلظة، والقسوة، والوحشية، والقوة إلا لو وقع بصره على ثعبان!

أي ثعبان!

فما إن ير (دي لوكا) ثعبانا يزحف أمامه، حتى ولو داخل قفص من زجاج سميك، ومضاد للرصاص، حتى تتسع عيناه عن آخرهما، ويرتجف من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، ويغرقه العرق وكأنما خرج من بحر، وتتخشب أطرافه كالموتى، ويخفق قلبه بمنتهى العنف، حتى يكاد يثب من قفص الصدري بكل قوته..

ولقد تم كشف نقطة ضعف (دي لوكا) هذه بالمصادفة البحتة، عندما خرج لتنفيذ واحدة من عمليات القتل الاحترافية، ففوجئ بأن الهدف يهوى تربية بعض الثعابين، في أقفاص زجاجية، في حجرة مكتبه..

يومها فشل (دي لوكا) تماما من المضي ولو خطوة واحدة، داخل المكتب، وتراجع بكل رعب الدنيا، بل وانطلق يعدو عبر شوارع (شيكاغو)، حتى بلغ منزله، فوثب تحت أغطية فراشه، وراح يرتجف حتى صباح اليوم التالي، وذهنه عاجز عن محو صورة الثعابين، وهي تزحف في نعومة داخل أقفاصها الكبيرة..

وانتبه الضحية إلى ما حدث..

انتبه إلى أنه الهدف التالي للمحترف (دي لوكا)، وإلى أن شيطان (المافيا)، كما كانوا يطلقون عليه، مصاب بهلع مرضى من الثعابين؛ بكل أنواعها..

وفي اليوم التالي مباشرة، تسلل بعضهم إلى حجرة (دي لوكا)، وأودعوا في فراشه وعاء يحوي عددا من الأفاعي الصغيرة...

وعاد (دي لوكا) إلى منزله، وأوى إلى فراشه، ورقد بين الثعابين، ثم انتبه إلى وجودها، و.....

وفي الصباح التالي، عثروا على قاتل (المافيا) القاسي المحترف، ميتا في فراشه، وعلى وجهه نظرة رعب هائل، قضي عليه تماما، على الرغم من أن الثعابين كلها كانت من النوع البسيط غير السام..

(دي لوكا) المرعب لم يمت بسم الثعابين إذن، وإنما بسبب خوفه المرضي الرهيب منها فحسب!!

وهناك حالة أخرى لامرأة وحيدة، تعيش في مزرعة صغيرة، في جنوب (فرنسا)، مصابة بهلع مرضى من الفئران، حتى إنها كانت تنفق نصف دخلها السنوي على الشركات المتخصصة، في إبادتهم وطردهم، ومنعهم من التسلل إلى منزلها الصغير.

وعلى الرغم من أن المنزل كان يخلو من أجهزة الإنذار، ونظم الأمن والتأمين المعتادة، فإنه كان يحوي عشرات من أجهزة الموجات فوق الصوتية، التي تدعي بعض الشركات قدرتها على طرد الفئران وابعادها..

في كل حجرة، وضعت المرأة جهازين على الأقل من هذه الأجهزة؛ حتى تشعر بالأمان، وتبعد عنها الفئران تماما.

ولكن من عجائب القدر، أن هناك مثلا قديما يقول: «إن من يخشى العفريت يراه»، ولقد تحقق هذا المثل بحذافيره، في حالة هذه المرأة بالذات..

فذات يوم، أصابتها أزمة قلبية مفاجئة، أعقبتها حالة شلل رباعي، كما أكد تقرير الطب الشرعي فيما بعد، ومع سقوطها أرضا، وعجزها عن الاتصال بأي شخص لمعاونتها، نفد وقود المولدات، التي تمد منزلها بالطاقة، فحل الظلام، وتوقفت أجهزة طرد الفئران عن العمل، فانطلقت بالعشرات نحو

المزرعة، وكأنما تنتقم من فترة الإبعاد الطويلة، وهاجمت العجوز العاجزة في حجرة نومها، والتهمتها حية، وصراخها يملأ الجو، دون أن يسمعها أحد!!

الصورة تبدو مفزعة للغاية، وستزعج خيالك طويلا، إلا أنها لن تصيبك بالخوف المرضى من الفئران..

أو ربما تفعل!!

ولكنها في كل الأحوال واقعة حقيقية، على الرغم من بشاعتها..

واقعة ارتبطت بالخوف المرضى من أنواع بعينها من الحيوانات، مثل الخوف من أسماك القرش، أو الأخطبوط، أو السحالي، أو الثعابين..

والخوف من الحيوانات شديد وواسع الانتشار، وتصاب به النساء بأكثر مما يصاب به الرجال، وهو يشترك في مواصفاته وطبيعته مع نوع آخر من (الفوبيا) المرضية

نوع أقل شيوعا، ولكنه أكثر إثارة للاهتمام والحيرة.

والدهشة أيضا..

والدهشة الكبيرة..

☆ ☆ ☆

4- الزحــف..

في دقة وحسم، وتنسيق وتنظيم ما لهم من مثيل، وفي اتجاه واضح معروف، يزحف دوما ذلك الجيش الصغير جيش الحشرات..

وأيا كانت نوعية تلك الحشرات، فهي لا تتواجد منفردة أبدا، حتى ولو بدا كل منها وحيدا، يسعى إلى رزقه في اتجاه يخصه..

فالحشرات تتواجد في مجموعات، وبأعداد غزيرة، في مجتمعات بعينها، أو في بيئات تناسب نموها تماما..

وعلى الرغم من أنه لا توجد إلا أنواع نادرة للغاية في الحشرات المفترسة للإنسان، ومن أن حجم أضخم حشرة، لا يمكن أن يقارن بحجم أصغر إنسان، إلا أن هناك حالات عديدة للخوف المرضى من الحشرات..

صحيح أنها ليست الأكثر شيوعا، بين حالات (الفوبيا الأخرى، إلا أنها ليست نادرة أو منعدمة..

وقبل أن نتحدث عن هذه (الفوبيا)، لابد وأن نفرق بين أمرين مختلفين تماما، وهما الاشمئزاز أو (القرف) من الحشرات بأنواعها، والخوف منها..

فالعديدون منا قد يصيبهم الاشمئزاز من رؤية حشرات بعينها!

ربما لأنها ترتبط في الأذهان بالقاذورات، أو الموت والجيفة وغيرها، بدليل أننا لا نشعر بالاشمئزاز نفسه تجاه الفراشات مثلا، نظرا لألوانها الزاهية الجميلة..

أما الخوف المرضى، فهو أمر مختلف تماما..

فكما أوضحنا، في حالات (الفوبيا) السابقة، يصاب المريض بالهلع والرعب والفزع، إذا ما وقع بصره على سرب من الحشرات، وبخاصة إذا ما كانت هذه الحشرات بأعداد كبيرة!!

وربما يعود هذا إلى ثقة الإنسان في أن الحشرات، على الرغم من صغر وضآلة أحجامها، يمكنها أن تصبح قوة ضاربة، إذا ما اتحدت، وتآزرت، وانقضت على نحو مثابر ومنظم..

وهذا صحيح تماما، فالنمل مثلا يمكن أن يهاجم حشرات أخرى، تفوقه حجما بمائة ضعف في بعض الأحيان، ويتآزر للدغها في مواضع شتى، حتى تنهار، وتموت، ويجعل منها مخزونا غذائيا له..

وهناك عشرات التنبؤات العلمية، وروايات الخيال العلمي، التي حاولت تخيل ما يمكن أن يحدث، إذا ما انقلبت الحشرات على البشر، وجعلت منه خصما، تقاتله، وتحاربه، وتسعى لدحره وهزيمته..

وفي كل الخيالات والتنبؤات العلمية، كانت الغلبة دوما للحشرات، بأعدادها الهائلة، وانتشارها في كل أرجاء الأرض، وتنوعاتها التي تبلغ مئات الفصائل، وآلاف الأنواع..

.. ولكن هناك (فوبيا) تجاه أنواع بعينها من الحشرات، وعلى رأسها (فوبيا) العناكب..

ومعظمنا لم يقرأ هذه الدراسات العلمية أبدا، إلا أن بعضنا يحمل مرضيا من الحشرات..

ومن حسن الحظ، أن (فوبيا) كل أنواع الحشرات حالة شديدة الندرة، حتى تكاد تكون منعدمة، إذ إن صاحبها لن يمكنه تفادي كافة أنواعها، حتى ولو حبس نفسه في وعاء معقم كما يقولون..

فلسبب ما، ترتبط العناكب في أذهان البعض بالرعب والموت والفزع، فهي تصنع شبكاتها، وتترقب الفريسة، التي تلتصق بالشبكة، لتنقض عليها بلا رحمة، وتمتص حياتها بلا هوادة..

وربما يتصور المرضى بهذا النوع من (فوبيا) العناكب، أنهم مجرد حشرات صغيرة، قد تقع يوما في شباك العناكب التي تنقض عليها أيضا، بلا رحمة أو هوادة..

أو أنهم ضحايا بعض الأفلام القديمة، التي تحدثت عن عناكب عملاقة، تهاجم البشر، وتوقعهم في شبكاتها، ثم تلتها في مشاهد مرعبة، تفنن في تقدميها وتصويرها مبدعو (هوليود) ومخرجوها..

أو أنه خوف غريزي، يرتبط بالموت، وكل ما يمكن أن يسببه للبشر، أو حتى للحشرات الأخرى..

و (فوبيا) العناكب هذه لا ترتبط بأنواع بعينها منها، أو حتى بالأحجام الكبيرة دون الصغيرة، بل هي (فوبيا) شاملة، تتعلق بكل أنواع وأصناف وأحجام العناكب.. الكبير منها والصغير، والوديع والمفترس، وكل ما يجري على أقدام ثمان والعناكب في حد ذاتها فصيلة خاصة جدا من الحشرات، لها ثمانية أرجل، وليس ستة كسائر الحشرات، وهي ضرورية تماما لإتمام دورة الحياة الطبيعية، شأنها شأن باقي الفصائل، إذ إنها تفتك بعدد من الأنواع الضارة، وسمها كاف لتخدير الفريسة، وقليل منها يفرز أنواعا من السموم، يمكنها قتل البشر!

ومن أسفل مؤخرة الكتلة الخلفية للعناكب، تبرز المغازل، وهي مراكز تكوين مادة حريرية، تصنع منها العناكب شباكها، ومنازلها،

وشراكها، وأكياس بيضها أيضا، كما تستعمل خيوط العناكب هذه، في صناعة بعض الآلات البصرية الدقيقة.

وفي بعض الدراسات، يقول فريق من العلماء أن العناكب تتميز بحاسة سادسة عجيبة، وقدرة مدهشة على التنبؤ المستقبلي، تتمثل في فرارها المبكر، من أية محاولة لاقتناصها أو السيطرة عليها..

ويقول الهنود أن عقل الإنسان يرتبط أحيانا بعقول العناكب عبر هذه الحاسة السادسة الخاصة، وأن هذا قد يكون السبب الرئيسي لما يعرف باسم (فوبيا) العناكب..

ولكن هذه مجرد أقوال بدائية، لا توجد أية دراسات علمية يمكن أن تؤيدها، لأن الحاسة السادسة في حد ذاتها، سواء لدى الإنسان أو العناكب، لم تجد من يمكنه إثباتها أو تأييدها بعد في مراجع علمية أو طبية..

ولقد بحث العديد من العلماء عن تاريخ واضح، يمنحنا سببا باطنيا مقبولا ومعقولا لهذا النوع من (الفوبيا)، إلا أن معظم المصابين بها ليست لديهم أية اسباب في طفولتهم أو حداثتهم، تدفعهم إلى خوف مرضي من العناكب، بل إن بعضهم يصاب بهذا الخوف أو الهلع الفائق في فترات الطفولة والصبا، وبعضهم يمتد به الخوف إلى كل ما يتحرك بأسلوب مشابه للعناكب، حتى لو كان ينتمي لفصائل أخرى متباعدة، كسرطان البحر مثلا، بل وحتى لو كان في صورة آلية أو هيكلية..

وهذا يعني أن السبب ما زال مجهولا تماما، تحت أية مقاييس، وإنه ينشأ من أعمق أعماق المخ البشري، أو أغوار عقلنا الباطن، أو يكمن في مكان غامض مجهول من جيناتنا الوراثية، وعدد

المصابين بالخوف المرضى من العناكب عديدون وكثيرون، ومنتشرون في أركان الأرض الأربعة، وفي كل قارات الدنيا، حتى في أدغال (إفريقيا)، التي تحوي عشرات الأنواع من العناكب، التي تتراوح بين الميكروسكوبيات والشعريات، وذات الأحجام الضخمة الرهيبة..

وبالنسبة لأنواع (فوبيا) الحشرات، تحتل (فوبيا) العناكب المركز الأول بلا منازع، ولا تنافسها سوى (فوبيا) النحل والدبابير وهذه (الفوبيا) الأخيرة تبدو منطقية ومفهومة إلى حد كبير، فعلى الرغم من احترامنا وتقديرنا الشديدين للنحل، باعتباره مصدرا للعمل، الذي يحوي شفاء، إلا أننا نعلم جيدا كم تؤلم لدغة النحل، وكم تؤلم أكثر لدغة الدبابير، مما يفسر الخوف المرضى لبعض الناس منهما..

وعلى عكس (فوبيا) العناكب، يرى العلماء أن (فوبيا) النحل والدبابير مكتسبة وليست أساسية، فالطفل قد يخاف النحلة أو الدبور، عندما يحومان حوله، بأزيز هما المتصل، وقد يبكي على نفسه، ولكنه إذا ما رآهما ساكنين، فقد تمتد يده للعب بأيهما، مما يعرضه للدغة مؤلمة، تتكون بعدها هذه (الفوبيا)..

وإلى الأبد..

و (فوبيا) النحل والدبابير قد تكون غريزية أيضا، لدى بعض الناس، الذين يعانون من حساسية مفرطة، تجاه لدغات النوعين، والذين تكفي لدغة واحدة، لتنتفخ أجسادهم وتتورم، ويقضون نحبهم أيضا، ولو لم يتم علاجهم في الوقت المناسب، وبالسرعة الكافية..

والسؤال الحائر هنا هو كيف يدرك هؤلاء أنهم مصابون بالحساسية المفرطة سم النحل والدبابير، وبحيث يصيبهم هذا النوع من (الفوبيا)؟!

أهي غريزة، أم نوع من الاتصال العقلي الفائق، أم هو استبصار خارق للمستقبل؟!

والجملة الأخيرة قد تدهشك، إلا أنها تحمل لمحة من الحقيقة، على نحو فجر حيرة العلماء، على نحو كبير، وهم يدرسون بعض الأنواع الأخرى من هذه (الفوبيا) العجيبة.

أنواع مدهشة..

للغاية.

☆ ☆ ☆

5- قمم وأعماق..

من أشهر أنواع (الفوبيا)، التي يعرفها العامة، من كثرة الحديث عنها، في الروايات وأفلام السينما، (فوبيا) المرتفعات..

ومن الطبيعي للغاية أن يخشى الإنسان المرتفعات، وأن يشعر بالقلق وعدم الأمان، إذا ما وقف في منطقة مرتفعة، بحيث تبدو الأشياء ويبدو الأشخاص تحته في أحجام صغيرة دقيقة..

ومن الطبيعي أيضا أن ينتابه الخوف إذا ما وقف على حافة مرتفعة، أو طرف بناية شاهقة..

ولكن ماذا لو أنه يصاب بهلع رهيب، إذا أطل من شرفة مرتفعة مؤمنة، أو حتى عبر زجاج سميك قوي ومصفح؟!

هنا يصبح الخوف من المرتفعات مرضيا، ومتجاوزا لكل الحدود الطبيعية والمألوفة، والمعروفة..

والمصابون بمرض (فوبيا) المرتفعات، يشعرون بدوار عنيف، وفقدان تام للاتزان، وترتجف أطرافهم، وتتيبس، وقد تعجز سيقانهم عن حملهم أيضا، إذا ما تواجدوا في مكان مرتفع، أو حتى شاهدوا صورة تم التقاطها من مكان مرتفع..

وفي واحدة من الاختبارات النفسية، تم وضع المريض في حجرة خاصة، في الطابق الأرضي، وتم عرض صورة كبيرة، على أرضية الحجرة، تم التقاطها من أعلى ناطحة سحاب، وعلى الرغم من أن المريض يدرك جيدا موقعه، وأن ما يراه مجرد صورة، فقد انتابته المشاعر نفسها، التي تنتابه في البنايات المرتفعة، وارتجف إلى حد الهلع، وانهار تماما، وهو يصرخ صرخات رهيبة، انخلعت لها قلوب من حوله..

المسألة ليست مرتفعات ومنخفضات إذن، وإنما هي مشكلة نفسية عويصة، ترتبط بالشعور، أو بالعلاقة البصرية، بين المخ والجسد..

ولقد أجرى العلماء تجاربهم على حالات من المصابين بهذا الخوف الرهيب من كل المرتفعات، بأن عصبوا أعينهم، وجعلهم يسيرون فوق سطح شديد الارتفاع، فلم يعان سبع وثمانون في المائة منهم أية مشكلات، إلا بعد رفع العصابة، وإدراكهم أنهم فوق قمة مرتفعة..

ولقد دعت هذه التجربة إلى دراسة العصب البصري، والأذن الداخلية للمصابون بمرض (الفوبيا) المرتفعات، لبحث ما إذا كانت له علاقة بأيهما، وجاءت النتيجة تشير إلى هذا الاحتمال، بنسبة سبعة وخمسين في المائة، مما جعل من العسير الجزم بصحته من عدمها!!

وهنا حالة خاصة جدا، توقف عندها الباحثون طويلا، من حالات (فوبيا) المرتفعات الفائقة، وهي حالة ظل صاحبها يصاب بذلك الهلع الفائق طوال الوقت، دون أن يفلح أي علاج في تخليصه منه، وهو يصر دوما على أنه سيلقى حتفه سقوطا من ارتفاع عالٍ يوما ما..

وطوال حياته حرص ذلك المريض دوما على تجنب المرتفعات، فلم يسافر يوما بطائرة، ولم يقم أو يعمل في أي مكان مرتفع إطلاقا..

وعلى الرغم من هذا، فقد سقط هذا المريض فجأة، في حفرة أرضية، بلغ عمقها ثمانية عشر مترا، فلقي مصرعه في الحال!

لقد سقط إذن من ارتفاع كبير، لكن في أعماق الأرض!

ويا لها من مفارقة!!

والمفارقة هنا تقودنا إلى نوع آخر من أنواع (الفوبيا)، يعتبر عكس (فوبيا) المرتفعات تماما، وإن كان بعض العلماء يعتبرونه مجرد اشتقاق من هذه (الفوبيا) نفسها، على نحو آخر..

إنه (فوبيا) الأعماق..

وفي هذه (الفوبيا)، يرتجف المريض ويرتعد، عند مواجهة حفرة عميقة، أو بئر سحيقة، ولا يجرؤ حتى على النظر إليها، وينتابه شعور دائم بأنه لو تطلع إليها، فسيسقط فيها حتما والفريق الذي يتصور أن هذا مجرد اشتقاق من (فوبيا) المرتفعات يرى أن المريض هنا يخشى المسافات البعيدة سواء أكانت من مكان مرتفع أو منخفض، أو أنه لا يستطيع التطلع إلى أية مسافات راسية طويلة، بأي حال من الأحوال..

ولكن التجارب العملية ترفض هذا المنطق، في كثير من الأحيان، إذ إن معظم الحالات المصابة بالخوف المرضى من الأعماق، لم تعان من الأمر نفسه مع المرتفعات، وفي حالات أخرى، تلازم هذا مع ذلك، ولكن الأعراض اختلفت في الحالتين، فكانت أكثر عنفا في الأعماق، منها في المرتفعات..

والفريق المؤمن بانفرادية (فوبيا) الأعماق، يرى أن سببها يعود إلى ربطها دوما بالموت والقبور، ورؤيتها تسبب الهلع للمريض، لأنه يتصور أنه يرى قبره بعينه، وأن جثمانه سيرقد يوما ما في حفرة كهذه، ويهال عليه التراب!!

ولأن البشر يخشون الموت بطبيعتهم، ويكرهون فقدان كل متع الحياة، فإن عقولهم الباطنة تبغض القبور، وتعكس هذا البغض على العقل الواعي، في شكل (فوبيا) الأعماق!

و (فوبيا) الأعماق مثلها مثل (فوبيا) المرتفعات، ذات منشأ نفسي بحت لا يشترط تواجد الشخص في حفرة عميقة بالفعل، وإنما يكفي الإيحاء له بهذا، أو حتى إخباره بضرورة أن يفترض هذا، حتى يصاب بكل الأعراض، دون أي اختلاف..

وككل أنواع (الفوبيا)، يختلف الأمر من مريض إلى آخر، فبعض المرضى يصاب بالهلع من الأماكن شديدة العمق، والبعض الآخر لا يمكنه حتى التواجد في قبو منزل، أو في أي طابق تحت مستوى الأرض..

وبعض المرضى يمكنه أن ينتبه، حتى وهو مغمض العينين، إلى أنه قد تجاوز مستوى الأرض، والبعض الآخر لا يمكن أن يدرك هذا، إلا لو تم إبلاغه به، والنوع الأول هو الذي يثير انتباه واهتمام العلماء أكثر، لأنه يمتلك حاسة نادرة، لا بد من دراستها، والبحث عن أسبابها، ونتائجها، ووسائل توجيهها والاستفادة منها..

تماما كحاسة تحديد الاتجاهات، والتي يملكها بعض البشر دون البعض الآخر، وتتفاوت قوتها بين من يملكونها، على نحو يستحق الاهتمام والدراسة بالفعل، فبعض الناس يمكنهم تحديد الاتجاهات بدقة، حتى لو أغمضت عينيه، وسرت به عبر غابة شاسعة في مسار شديد التعرج والتعقيد، بل ويمكنهم الإشارة بأصابعهم نحو نقاط بعينها، في دقة مدهشة، لو طلب منهم هذا..

والبعض الآخر يمكنه الاتجاه نحو الشمال المغناطيسي بدقة مدهشة، تفوق دقة البوصلة نفسها، دون أية معرفة سابقة بمكان تواجدهم!!

ولكن هذه قصة أخرى..

دعنا نركز أبحاثنا حول (الفوبيا) بأنواعها المختلفة، وتفرعاتها العجيبة، وتعقيداتها وأعراضها اللانهائية.. وما تحدثنا عنه يعبر عن الأنواع الشهيرة فقط من (الفوبيا)، والتي يمكن أن تتواجد في البشر، على نحو غريزي أو مكتسب، والتي تشارك فيها أعداد كبيرة من الناس، ولكن هناك أنواع أخرى من (الفوبيا) لا حصر لها.. وكلها أنواع مكتسبة، نشأت بسبب واقعة بعينها، أو موقف أثار رعب الإنسان وفزعه، في مرحلة أولية من حياته، وتبدو غامضة ومحيرة، بالنسبة لعلماء النفس والدارسين، وخاصة عندما ترتبط بأشياء عادية أو مألوفة، أو يمكن تواجدها في كل مكان، كالسجائر مثلا، أو القداحات، أو الأقداح الزجاجية، أو أنواع سيارات بعينها أو حتى الملاعق والأشواك الفضية..

وهناك امرأة ظلت طيلة عمرها تصاب بهلع مرضى من عبور أي طريق تعبره السيارات، وعندما تم تحليلها نفسيا، ودفعها إلى العودة بذاكرتها إلى سنوات طفولتها الأولى، تبين أنها قد شاهدت، وهي في الثالثة من عمرها حادثة سير، لسيارة مسرعة، أصابت طفلا في العاشرة من عمره، وقذفت به إلى حديقة منزل بعيد لينزف حتى الموت، وعندما تقدمت في العمر، طرح عقلها الواعي الموقف كله في بقعة مظلمة من مخها، ولكنه لم ينجح في محوه من عقلها الباطن، الذي يستعيد المشهد سرا، كلما حاولت عبور الطريق، فتصاب بالفزع والهلع، وتتصور أن سيارة ما ستصدمها، كما فعلت بذلك الطفل من قبل، وستلقي مصرعها مثله..

وعندما تم التوصل إلى السبب الحقيقي لمشكلتها، والتعامل معه بالحرفية اللازمة، انتهت القضية، وتصالح عقلها الواعي مع

عقلها الباطن، ولم تعد تخشى عبور الطرقات..

وهذا الحديث يقودنا إلى الجولة الأخيرة والفصل الختامي، من هذه الدراسة، الخاصة بمختلف أنواع (الفوبيا)..

الفصل الذي لا يتحدث عن المشكلة، وإنما عن الحل عن مواجهة (الفوبيا)، ووسائل التعامل معها، وعلاجها..

ولهذا حديث آخر..

☆ ☆ ☆

6- المواجهة..

تؤكد كل النظريات الجديدة، في العالم الحديث، أن إصابة المرء بأي مرض في الوجود يحتاج إلى عاملين أساسيين، وهما عامل الوراثة، وعامل البيئة..

وبمعنى أدق، لا بد وأن تحوي الضفيرة الجينية للمرء العامل الوراثي الخاص بالمرض، وأن تحيط به ظروف بيئية، مناسبة لظهور المرض وصعوده إلى الجسم..

ولقد أكدت الأبحاث صحة هذه النظريات، وحتمية تشارك العاملين معا، بحيث لا يكفي أحدهما وحده لظهور المرض، أيا كانت نوعيته، عضوية أو حتى نفسية النظريات والأبحاث الجديدة إذن تؤكد أنه حتى (الفوبيا) بأنواعها تحتاج إلى عامل وراثي، في جينات الجسم، وإلى ظروف بيئية مناسبة، تضغط على هذا العامل الوراثي، وتظهره، ليصاب الإنسان بحالة من حالات (الفوبيا)، أيا كان نوعها.

ولتوضيح الأمر أكثر، دعونا نفترض وجود طفلين، تعرضا لواقعة واحدة، ولتكن لدغة النحل مثلا، في عامهما الأول والأول يحمل الجينات المناسبة، والآخر لا يحملها.

كلاهما سيصاب عندئذ بالألم، والذعر، والفزع، وسيبكي كثيرا وطويلا، ثم تمضي الواقعة، مع بعض التورمات والكريمات المرطبة، ومضادات الحساسية المفرطة، وينتهي الأمر بأحدهما، وهو الذي يحمل الجينات بالإصابة بحالة (فوبيا) النحل طيلة عمره، في حين ينسى الآخر الأمر تماما، وربما تزداد مخاوفه المستقبلية من النحل، إلا أنها لن تتحول أبدا إلى خوف مرضى، أو هلع مفرط..

التوصل إلى هذا قلب كل موازين العلاج، التي كان يستخدمها الأطباء والمعالجون النفسيون قديما للتعامل مع أنواع (الفوبيا) الجينية.

وهذا لا ينطبق على (الفوبيا) البسيطة أو المكتسبة، والتي ما زالت أساليب مواجهتها وعلاجها متشابهة، مع ما كان يحدث قديما..

فالخطوة الأولى دوما، هي معرفة تاريخ (الفوبيا)، ومتى ظهرت أو نشئت، وهل تتطور إلى الأسوأ أم إلى الأفضل، مع مرور الزمن..

وبعدها لا بد من الغوص في أعماق المريض، للوصول إلى منشأ المشكلة..

وهناك عدة وسائل القيام بهذا الغوص النفسي الخاص جدا، لبلوغ قاع حالات (الفوبيا)، إذ إن هذا يمكن أن يتم عن طريق التحدث المنظم والهادئ مع المريض، على فترات منتظمة، متباعدة أو متقاربة، وفقا لنوع وشدة الحالة، حتى يصل المعالج إلى النقطة التي تفجرت عندها (الفوبيا)، وإيضاحها للمريض، على نحو مباشر وهادئ أيضا..

وفي معظم الحالات المكتسبة، يمكن أن ينهي هذا المشكلة، إذ ما أن يزيل المعالج الحاجز، بين العقل الواعي والباطن، حتى تتضح الصورة للمريض، وتبدأ في اتخاذ حجمها الحقيقي، بحيث تتحول من عقدة كبيرة إلى مشكلة محدودة، يسهل التعامل معها ومواجهتها، ببعض العقاقير الطبية، أو الجلسات النفسية المكثفة..

وفي حالات أخرى، يعجز المريض نفسه عن تحديد بداية المشكلة على الرغم من المحاولات والمحاورات، لذا يصبح من

الضروري الانتقال إلى مرحلة أكثر حرفية..

إلى التنويم المغنطيسي..

والتنويم المغنطيسي ليس نوعا من الدجل أو الشعوذة، بل هو أمر علمي تماما، ويرتبط بالعديد من العوامل، أهمها الشخص نفسه؛

فوفقا للدراسات، ليس كل إنسان قابلا للخضوع للتنويم المغناطيسي، فهناك عقول مقاومة بشدة لهذا الأمر، ولا يمكن تنويمها أبدا.

لابد إذن وأن يوافق المريض على الخضوع للتنويم المغناطيسي، وأن يستسلم لمعالجه تماما، رغبة منه في كشف طبيعة مرضه، والقضاء عليه تماما.

والمزية الرئيسية للتنويم المغنطيسي هي أنه يشحذ كل حواس الإنسان وذاكرته، ويساعده على استرجاع تفاصيل دقيقة، من أعمق أعماق عقله الباطن، على نحو يعجز عن فعله على نحو إرادي، مهما بذل من جهد..

ولكن هذا يحتم أن يكون المعالج نفسه شديد البراعة، في تعامله مع المنوم مغناطيسيا، فمنذ سنوات قليلة، كشف أحد العلماء أن المعالج قد يقود المريض، الخاضع للتنويم المغناطيسي، إلى أمور لم تحدث في عالم الواقع، ولكنه هو أوحي له بحدوثها، دون أن يدري..

إذن فالأمر يحتاج إلى دقة شديدة..

دقة تترك المريض حرا، وتسمح بتداعي أفكاره وذكرياته في انسيابية هادئة، حتى يتوصل المعالج إلى قلب المشكلة، ويفجر

الحقائق كلها في وضوح، دون أن يزرع أية أوهام في عقل مريضه.

وهناك حالات عديدة من (الفوبيا)، تم علاجها تماما، عن طريق التنويم المغنطيسي، إما بتوضيح المشكلة وعلاجها، أو بدفع المريض إلى محوها تماما من عقله.

والأسلوب الأول هو الأكثر دقة وضمانا بالتأكيد، إذ أن محو المشكلة من العقل أمر مستحيل، كما يؤكد بعض العلماء، مما يعني أنها قد تعود إلى البروز بغتة، ودون سابق إنذار، بعد فترة تطول أو تقصر، ولكن عودتها ستعيد (الفوبيا) مرة أخرى، وربما على نحو أكثر عنفا.

وكل هذا، كما سبق أن قلنا، يرتبط بحالات (الفوبيا) المكتسبة وحدها دون سواها..

أما حالات (الفوبيا) الجينية، فعلاجها يستلزم ما يعرف باسم العلاج الجيني، وهذا النوع من العلاج لم يتطور إلى الحد الكافي بعد، إلا أن الحالات القليلة، التي عولجت به، أعطت نتائج مدهشة، في حالات مرض السكر، والهيموفيليا، ونقص المناعة الوراثي وغيرها..

والمجال ليس مفتوحا هنا للحديث بالتفصيل، عن العلاج الجيني، ولكنه وسيلة لإحلال ضفيرة جينية محل أخرى، في مناطق الإحلال والتجديد، مثل نخاع العظام، بحيث تنمو، وتتضاعف، وتخلص الجسم من تأثيرات جينية بعينها، بعد فترة محدودة من الوقت..

ونجاح العلاج الجيني في الأمراض العضوية، لا يعنى نجاحه في الأمراض النفسية أيضا، أو أنه ليست هناك أية تجارب واضحة في هذا الشأن، على الأقل حتى لحظة كتابة هذه السطور، ولكنه

وسيلة مستقبلية، تنبأ لها العلماء والأطباء بالنجاح الفائق، وبقدرتها على تغيير وجه العالم طبيا ونفسيا، مع مطلع العقد الثاني من القرن الحالي..

والأمر الذي يستحق الانتباه، في هذا الشأن، هو أن معظم حالات (الفوبيا)، التي خضعت للعلاج المكثف، وأقر الأطباء بنجاحها، وبأنها قد عولجت تماما، لم يمكن الجزم بأن علاجها سيستمر إلى الأبد..

ففي وجود العامل الوراثي، قد تتوارى (الفوبيا)، أو تنكمش وتهادن العقل الواعي لبعض الوقت، بعد كشف الصدمة البيئية، التي سببت ظهورها، ولكنها تظل دوما متأهبة للظهور ثانية، مع أية صدمة بيئية جديدة..

ففي اثنين وثلاثين في المائة من الحالات، ارتدت (الفوبيا) مرة أخرى، بعد ثلاث إلى خمس سنوات من الشفاء، بسبب واقعة واحدة، وقد تقل كثيرا عن الواقعة الأصلية، التي كانت السبب في ظهورها، في مرحلة الإصابة الأولى..

وإذا ما عادت (الفوبيا)، فإن علاجها يستلزم عندئذ وقتا أطول، وجهدا أكبر، تماما مثلما يحدث في لعبة (اليويو)، التي يدفعها الأطفال إلى أسفل، ثم يجذبونها إلى أعلى، فتدور حول خيطها لترتقع، ثم تعاود الانخفاض، وهكذا...

ولو أنك تابعت (اليويو)، لوجدت أنه يلتهم في المرة الأولى مساحة كبيرة في الخيط، في سرعة مدهشة، ثم يلتهم مساحة أقل، في سرعة أقل، في دورته الثانية، وكذلك في الثالثة، وما بعدها..

ومن هنا، أطلق العلماء على عملية عودة (الفوبيا)، وعلاجها لأكثر من مرة، اسم (مبدأ اليويو)..

وهذا لا يعني أن (الفوبيا) غير قابلة للشفاء، ولكن يعنى حتمية الحرص الشديد في التعامل مع مريضها بعد العلاج، بحيث يبتعد تماما عن كل المؤثرات، التي يمكن أن تصيبه بصدمة بيئية أخرى..

وقبل أن نختم حديثنا، لا بد وأن نشير هنا إلى أن أحد الأسباب القوية، التي تمنع علاج مرض (الفوبيا)، هو نوع من الفوبيا) أيضا..

(فوبيا) الأطباء..

فالمرضى هنا لا يخشون في الدنيا كلها قدر الأطباء، والمستشفيات، وحجرات العلاج، والعناية المركزة، و...

وسيطول الحديث إلى ما لا نهاية؛ لأننا نتحدث عن حالة يمكن أن نضعها في ألف صورة وصورة..

حالة (فوبيا).

☆ ☆ ☆

24- عقول المستقبل..

الذاكرة البشرية أمر مربك ومحير للغاية؛ فعلى الرغم من عشرات الأفلام والروايات التي تحدثت عن فقدان الذاكرة، وغيابها، وضياعها، ونسيان شخص ما مرحلة من مراحل حياته، واستعادتها بعدئذ بحادث مفاجئ، وعلى الرغم من أن كل هذا ممكن الحدوث في عالم الواقع، إلا أن المثير في الأمر هو أنه لا يوجد ما يسمى بمركز الذاكرة، على نحو فعلي، في المخ البشري كله..

أو في أي مخ حي آخر..

فبعد أبحاث ودراسات طويلة، أدرك العلماء أن الذاكرة ليست شيئا ينبع من مركز بعينه، وإنما هي خلاصة تآزر مجموعة من أجزاء ومراكز المخ في آن واحد..

فهناك ذاكرة بصرية، وسمعية، ولمسية، وشمية، وغيرها..

أنت ترى صديقا لك، فتخبرك الذاكرة البصرية أن هذه هيئته، وتؤكد الذاكرة السمعية هذا مع صوته، وربما تشاركها الذاكرة الشمية أيضا، لو أنه اعتاد استخدام عطر مميز..

والحال لا يختلف إذا ما وضعوا أمامك طبق حساء دجاج مثلا..

ففي هذه الحالة أيضا ستتآزر الذاكرة البصرية، مع الشمية، مع حاسة التذوق، لتعرف أن ما أمامك حساء دجاج، وليس عصير طماطم مثلا..

هذا ما يحدث في كل أمر من أمور الحياة، وفي كل لمحة من لمحات الذاكرة، التي حيرت العلماء طويلا، وخاصة مع كشف

مدهش، توصلت إليه العلوم الحديثة، ويعتقد العلماء أنه سيصبح أهم وأخطر علوم الغد، على الإطلاق..

فما توصل إليه العلماء مؤخرا، هو أن أمخاخنا ترث جزءا من ذاكرة الأجداد، على نحو أو آخر، والعبارة، على الرغم من بساطتها، تفتح أمامنا آفاقا لا حدود لها، للعلم والمعرفة..

إنها تعني، باختصار، أن أمخاخنا تحوي مكتبية هائلة، فيها تاريخنا كله، وفيها كل المعارف، التي تلقاها الأجداد، ولم تذهب هباءً..

ولقد كانت البداية - كالمعتاد - مع فئران التجارب ففي تجربة ما، لا تهمنا تفاصيلها الآن، كان أحد العلماء يطلق زوجا من الفئران عبر متاهة معقدة؛ ليدرس قدرتها على التذكر والتعلم، وكجائزة، كأن يضع في نهاية المتاهة قطعة من الجبن الشهي.. للفئران طبعا..

وبعد دستة من المحاولات، حفظت الفئران المتاهة عن ظهر قلب، وأصبحت تعبرها، وصولا إلى قطعة الجبن، دون أن تخطئ منحنى واحدا، أو تتردد حتى عند منحنى آخر..

ولأن ذلك العالم يحتاج إلى أعداد أكبر من الفئران، فقد ترك ذلك الزوج يتناسل، لينتج المزيد من الفئران الصغيرة..

وذات يوم، خطر ببال العالم أن يختبر قدرة الفئران الوليدة على التعلم والتذكر، فأطلق بعضها داخل المتاهة نفسها، ووضع قطعة الجبن في نهايتها..

وكانت المفاجأة..

الفئران الوليدة، التي لم تختبر المتاهة بنفسها قط، قطعت طريقها عبرها، دون خطأ واحد، حتى بلغت قطعة الجبن، وكأنها تعرف مسارها مسبقا، أو كأنها ورثت ذاكرة أبويها، على نحو أو آخر..

وانبهر العالم، وسجل ملاحظاته، وكرر التجربة مرة..

وثانية، وثالثة، وحصل على النتائج نفسها..

بل، لقد استخدم فئران وليدة أخرى، للزوج نفسه، فعرفت طريقها إلى قطعة الجبن بكل بساطة، وعندما أجرى التجربة على فئران أخرى، تم توليدها من زوج آخر، بدت حائرة داخل المتاهة، ولم تنجح في بلوغ قطعة الجين، إلا بعد ست محاولات على الأقل.

وكان هذا فتحا في دراسات وأبحاث الذاكرة، مما دفع ذلك العالم إلى تغيير مسار أبحاثه، وتوليد أجيال جديدة من زوج الفئران نفسه، واختياره عبر المتاهة نفسها..

وفي كل مرة، كانت النتائج مبهرة..

فعلى نحو ما، تنتقل ذاكرة الأبوين إلى الصغار فور ولادتهم..

بحيث يتذكرون كل ما تعلمه الأولون..

على الأقل لفترة ما من الزمن..

ففي واحدة من تجاربه، اختار العالم فأرين وليدين، من جيل حوي ستة فئران، وأطلقهما في المتاهة، فبلغا قطعة الجبن دون تردد، واحتفظ بالفئران الأربعة الأخرى لشهر كامل، دون أن يختبرها، ثم أطلقها عبر المتاهة، في بداية الشهر الثاني، فبلغ

واحد منها فقط قطعة الجبن من المحاولة الأولى، واحتاجت الثلاث الأخرى إلى ثلاث محاولات حتى تبلغها..

وفي الجيل الثالث، لم يطلق نصف الفتران، إلا بعد مرور شهرين كاملين، فلم يبلغ أحدها قطعة الجبن، إلا بعد أربع محاولات!

جعل هذا العالم يدرك، ويسجل في ملاحظاته أن الفئران تولد حاملة ذاكرة الأبوين، ثم لا تلبث تلك الذاكرة الموروثة أن تنزاح جانبا، وتختبئ في ركن مظلم من المخ، لتفسح الطريق أمام الذاكرة المكتسبة، مع مرور الوقت، وتزايد الخبرات..

الوسيلة الوحيدة إذن، للحفاظ على الذاكرة الموروثة، هي تنميتها منذ الأيام أو الأسابيع الأولى للولادة...

كرر العالم التجربة عشرات المرات، وتيقن من نتائجها، ثم وضع في نهاية كراس تجاربه تساؤلا هاما..

ترى هل يسري هذا الأمر على البشر أيضا؟!

وكان الجواب يحتاج إلى تجارب أخرى..

ومختلفة..

الهندوس والبوذيون، وبعض أصحاب المعتقدات الشرقية الأخرى، يؤمنون تماما بما أطلقوا عليه اسم (تناسخ الأرواح).. وتناسخ الأرواح هذا هو، من وجهة نظرهم، أن أرواح الموتى لا ترحل تماما، وإنما تعود إلى الحياة في أجساد أخرى، تبدأ معها رحلة جديدة، تحاول من خلالها التكفير عن كل الأخطاء القديمة والدائمة...

وأصحاب تلك المعتقدات لا يؤمنون بها لمجرد توارثها وترديدها فحسب، ولكن لأنهم واجهوا بعض الظواهر العجيبة، مع ثقافة

علمية محدودة، وإيمان تلقائي بالمشعوذات، لدي كل جاهل، ليصنع ذلك المزيج في النهاية مصطلحا وقصة..

وفي العقيدة الهندوسية، لا تحل روح المتوفي بالضرورة في جسد بشري، ولكن هذا يتوقف على رصيد أعماله، في حياته السابقة، فقد تحل روحه في جسد فراشه، أو حمامة، أو قط.. أو حتى صرصور غيط..

وإذا ما تساوت سيئاته ومحاسنه، عاد على هيئة إنسان آخر، ذكر كان أم أنثي، بغض النظر عن جنسه، في الحياة الأولى، أو الثانية كلهم وضعوا هذا المعتقد، وآمنوا به؛ لأنهم واجهوا حالات، تبدى فيها بعض الحيوانات ذكاء مدهشا، يفوق بني جنسها بكثير، أو تتعلق بأشخاص بعينهم، أو تبغضهم..

وهذا يحدث مع الطيور والحشرات..

وحتى البشر..

راجع نفسك، فستجد أنك أحيانا تضيق بشخص ما، أو مكان ما، دون أن يمكنك تحديد سبب واضح محدود لهذا الضيق..

أو العكس تماما..

وبغض النظر عما يؤمن به أصحاب المعتقدات الشرقية، وعما يؤكدونه ويطرحونه، من أسباب ومبررات وتفاسير، فالعلم يخالفهم في كل ما يتصوروه، ويطرح صورة مختلفة تماما، عن الظواهر نفسها..

صورة لا تقل غرابة!

فالعلم يقول: إن الذاكرة التي نحملها في رءوسنا وأمخاخنا والتي نحيا ونتعايش بها ومعها، ليست خاصة بنا وحدنا..

إنها ذاكرة جماعية..

ذاكرة توارثناها جيل بعد جيل، وعصر بعد عصر، وخلية بعد خلية..

لذا، فذاكرتنا هي ملخص مجموع ذاكرة كل الأجداد والأعمام والأقارب، الذين تسللوا من نسل واحد..

كل جيل ينقل ذكرياته إلى الجيل التالي..

فالتالي..

فالتالي..

وفي كل مرة، تضاف..

فيتم توريث ذاكرة أكبر..

الذاكرة المكتسبة إلى الذاكرة الموروثة، وبعد خمسة أو ستة أجيال، سنجد لدينا ذاكرة هائلة عملاقة..

جبارة..

ذاكرة تحوي أضعاف أضعاف ما كانت تحويه ذاكرة الأجداد وبهذا، فكل جيل يولد، يتوافق مع الزمن، الذي ولد فيه فبات أكثر ذكاء وبراعة، وحنكة..

وتكون معلوماته أكثر..

وأكثر..

وأكثر...

ولقد أثبت العلم نظرية توارث الذاكرة، ووضع أسسها وقواعدها منذ بضعة أعوام..

ولم يكتف بهذا..

فمزية العلم ومشكلته في الوقت ذاته، هي أنه لا يشبع..

ولا يكتفي أبدا..

إنه دوما يطمح إلى المزيد..

والمزيد...

والمزيد....

لذا فقد غرقت عدة فرق من العلماء في دراسة الذاكرة.

وأسرارها..

وخفاياها..

وغوامضها..

وقوتها..

ثم فجأة، وبمصادفة بحتة، توصل فريق منها إلى حقيقة مدهشة، تتعلق بالذاكرة البشرية..

توصل إلى ما يعرف باسم الذاكرة البشرية التراكمية المشتركة..

نعم.. ذاكرة تراكمية مشتركة..

ولكي تفهم هذا المصطلح، لابد وأن تعود إلى كيفية عمل شبكات المعلومات والإنترنت..

ولهذا حديث آخر..

قريب..

☆ ☆ ☆

الإنترنت شبكة معلومات هائلة، تمتد من أقصى الأرض إلى أقصاها، في كل الاتجاهات..

كل شخص، وكل جهة، وكل شركة، وكل مؤسسة، تضيف ما لديها من معلومات إلى تلك الشبكة، فتتاح المعلومات إلى كل مستخدمي الشبكة..

مجموعة إذن من المعلومات الفردية، والعقول المنفردة، صنعت، عن طريق ربط بعضها ببعض، شبكة معلومات لا حدود لها..

وعصرنا هذا عصر الشبكات..

التليفونات أصبحت شبكة هائلة، تربطها الأقمار الصناعية ببعضها البعض، حتى يمكن لشخص في أقصى القطب الشمالي، أن يتحدث مع صديقه في القطب الجنوبي، عبر تلك الشبكة..

الإعلام صار شبكة متصلة، عبر مجموعة من الأقمار الصناعية أيضا، تربط ما يشاهده المواطن في (روسيا)، بما ينعم به الشخص العادي في (أمريكا)..

ولكن ما أثبته العلم مؤخرا، هو أن عقولنا أيضا، شئنا أم أبينا، تصنع فيما بينها شبكة..

شبكة عقلية، مخية، معلوماتية بلا حدود..

فكل منا، لديه قدرة كافية، على قراءة عقول الآخرين، واكتساب الخبرات منهم، والاستعانة بتجاربهم، وتبادل التحذيرات والمعلومات معهم..

ولا تجعل هذا يدهشك، ولا تسارع باستنكاره أيضا، بحجة أنه أمر غير موجود، فهناك العديد من السمات، التي قضت عليها الحضارة، وأخمدها التطور، في العقول والأمخاخ البشرية.

الإنسان القديم مثلا، كانت لديه القدرة على تحريك صماخ الأذن، لتوجيهه نحو مصادر الأصوات، وكانت هذه قدرة معتادة، حتى لم يعد يحتاج إليها الإنسان، الذي لم يعد يخرج للصيد، إلا كمتعة وهواية، فضمرت تلك السمة، ولم تعد متاحة، إلا لعدد قليل من البشر..

وكل الناس قديما، كانت لديها غريزة التنبؤ بالخطر، أو ما يسمى في الموسوعات (بري كوجنيشن)، إلا أنها ضمرت أيضا، مع تطور وسائل الحماية، وكمنت في عقولنا...

وهذا ينطبق أيضا على شبكة المعلومات المخية.. فقديما، كان أفراد القبيلة الواحدة يشعرون ببعضهم البعض، ويمكن لكل منهم أن يقرأ أفكار ومعلومات ومخاطر الآخرين..

بحيث يتحرك الكل بقيادة واحدة، دون الحاجة إلى التخاطب أو الحديث...

المخ البشرى إذن يحوي وسيلة اتصال بأمخاخ الآخرين، ولكن السمة ضمرت مع الحضارة..

والأمخاخ البشرية كلها، تصنع فيما بينها شبكة متصلة أشبه بشبكة الإنترنت والمعلومات..

الأمخاخ لديها القدرة..

ولكنها ضامرة..

وبالنسبة للعلماء، هذا يعني أننا نولد بتلك السمة، ولكننا نفقدها مع الزمن، وفقا للمبدأ الأساسي، الذي اعتمدت عليه نظرية (داروين)..

العضو المستعمل ينمو، والمهمل يضمر...

وكتطوير للقاعدة، نقول: «إن القدرة المستخدمة تنمو، والقدرة المهملة تضمر..»

إذن، فبعد عام أو عامين من الولادة، ومع عدم تنمية قدرة الاتصال العقلي الشبكي، يفقدها الإنسان تماما...

الوسيلة الوحيدة للإبقاء عليها إذن، هي تنميتها طوال الوقت ومنذ الولادة..

ولقد لاحظ العلماء، أن التوائم المتماثلة، والصغار الذين يولدون في مكان واحد، يمكنهم التفاهم والتواصل، دون أن يمتلكوا القدرة على الكلام، ودون أن تتطور لديهم لغة حوار واضحة..

لذا، فقد بدأ العلماء تجاربهم من هذا المنطلق..

الصغار..

تركوهم يتواصلون، ويتحدثون بعقولهم، ويربطون معلوماتهم ببعضهم البعض، في بيئة مدروسة وراقية، حتى بلغوا الثالثة من العمر.. وجاءت النتائج مدهشة..

الصغار بلغوا هذا العمر، وطوروا فيما بينهم شبكة معلومات مخية عقلية متكاملة، بحيث صاروا يتعاملون ويخاطبون، ويتبادلون المعلومات، دون الحاجة إلى الحديث..

وفي حجرة منفصلة، وضع العلماء أحد الأطفال، ووضعوا أمامه عددا من أشكال اللعب، كلها لطيفة وجميلة، فيما عدا المكعب

الأحمر، الذي ما أن لمسه، حتى سرى في جسده تيار كهربي محدود، جعله ينفر منه، وبعدها أحضروا طفلا ثانيا، ووضعوا أمامه مجموعة الأشكال نفسها..

وعلى الرغم من أن الطفل الثاني لم يلتق بالأول، الذي تم نقله بعد التجربة إلى حجرة خاصة، إلا أنه استمتع باللعب بكل الأشكال، وتجاهل المكعب الأحمر تماما، بل وأبدى خوفه منه عندما حاول من معه دفعه نحوه..

وتكرر هذا مع الطفل الثالث..

والرابع..

والخامس..

وفي التجربة الثانية، والثالثة، والرابعة..

وبعد عشر تجارب مختلفة، توصل العلماء إلى حقيقة علمية بالغة الأهمية..

لقد نقل الطفل الأول خبراته كلها، إلى عقول الأطفال الآخرين، دون حتى أن يلتقي بهم..

نقلها عبر شبكة معلومات مخيفة عقلية غير مرئية..

وكان يمكن أن تستمر التجارب، وأن ينشأ لدينا جيل مدهش من المتصلين عقليا، لولا أن اعترضت منظمات الطفولة على إجراء التجارب على الأطفال، وتدخلت في قوة، لإيقاف كل هذا، ولمنع استكمال دراسات شبكة المعلومات المخية..

ولكن العلماء كانوا قد أثبتوا وجودها بالفعل..

وبدءوا في دراستها وتطويرها أيضا..

وكان لهذا الفضل في تفسير عشرات الظواهر الغامضة، التي عجز العلم عن تفسيرها لسنوات وسنوات وسنوات..

وأهمها فكرة أو نظرية تناسخ الأرواح، و.....

ولهذا رواية أخرى.

☆ ☆ ☆

إجراء التجارب على البشر أمر عسير، ومعقد، ومحظور أيضا..

ثم إنها، حتى في حالة صلاحيتها، تحتاج إلى زمن طويل للغاية، لرصد وتحليل النتائج..

لذا، يجرى العلماء تجاربهم دوما على حيوانات سريعة التناسل، مثل الأرانب أو الفئران، أو خنازير غانا؛ حتى يمكنهم دراسة النتائج والآثار، عبر أجيال وأجيال..

وفي تجارب انتقال الذاكرة بالذات، كان هذا حقيقة..

وعقبة..

ففي حيوانات التجارب، ثبت على نحو قاطع، أن الذاكرة يمكن أن تورث، بل إن سبعين في المائة، مما تعرفه الطيور مثلا، من ذاكرة وراثية، فالكتكوت الصغير يخرج من البيضة إلى مصدر الغذاء مباشرة، ويعرف كل ما ينبغي عليه فعله، دون أن يعلمه أحد..

ثم يكتسب الثلاثين في المائة المتبقية مع العمر والخبرة والحيوانات ترث ذاكرة بنسبة تتجاوز الستين في المائة، ثم تكتسب الأربعين في المائة مع الخبرة والتجارب والتعليم..

فماذا عن الإنسان؟!

التجارب هنا شبه مستحيلة؛ لأنه من غير المنطقي أن ينتظر العلماء عاما ونصف على الأقل؛ لاختيار الذاكرة الوراثية، لدى جنين جديد..

وماذا عن الأجيال التالية، والتالية، والتالية؟!

دراسة الأمر في البشر إذن، تحتاج إلى تكنيك مختلف تماما..

عن ذلك المتبع في دراسته على الحيوانات في المعمل..

لابد من البحث عن ذلك التكنيك..

وأصبح هذا هو الشغل الشاغل لعلماء الذاكرة، لفترة طويلة من الزمن، قبل أن يقترح أحدهم اتجاه ما، ويقترح آخر اتجاه ثان..

الأول اقترح دراسة أمخاخ الحيوانات، ومقارنتها بأمخاخ البشر، ومعرفة الفارق بين المخين، لاستنباط الأثر الوراثي في كل منهما..

والثاني اقترح التنويم المغناطيسي..

الأول رأى أن تحديد الأجزاء التي تستقر فيها الذاكرة الوراثية في المخ، سيقرر ما إذا كان لها مثيل في أمخاخ البشر أم لا، إلا أن طرح الفكرة في مؤتمر علمي واجه رفضا عنيفا؛ بسبب جهل العلماء لتركيب المخ، سواء الحيواني أو البشري، على نحو تام، وتأكيد البعض أنه لا توجد مراكز محددة للذاكرة، سواء أكانت موروثة أم مكتسبة..

والثاني رأى أن تنويم شخص ما مغناطيسيا، وتصفح عقله في حالته هذه، قد يخرج معارف لم يتلقنها شخصيا أبدا، مما يثبت أنه قد ورثها عبر ذاكرة الأجداد..

وعلى الرغم مما سيسبه هذا من إحباط واستنكار، فقد جند العلماء الاقتراح الثاني، وبدأ بعضهم تجارية بالفعل، في هذا الشأن..

فريق من المتطوعين، تم إخضاعه للتنويم المغناطيسي، وطلب منه المسيطر العودة بذاكرته إلى الماضي..

إلى أقصى نقطة في أعمق أعماق الماضي...

وتحت تأثير التنويم المغناطيسي، غاص المتطوعون في أعماق أمخاخهم، وفي ذاكرتهم التي لم يكتسبوها في حياتهم..

ذاكرتهم الموروثة..

وراحت النتائج تنهال، على نحو يفوق كل توقع..

وكل تصور..

المتطوعون عادوا بذاكرتهم إلى أيام طفولتهم الأولى، ثم تجاوزوا هذا إلى ذكريات الرحم، منذ تكون المخ..

ثم فجأة، تجاوزوا كل هذا..

واختلفت كل الموازين..

بعضهم راح يتحدث بلغات عجيبة، لم يتعلمها في حياته قط، والبعض الآخر تحدث بلسان يخالف عمره، وطبيعته، بل وحتى جنسه..

متطوعة بريطانية، تحدثت بلسان جندي فرنسي، من جيش (نابليون بونابرت)، في نفس الوقت الذي أشار فيه أمريكي كهل، إلى أنه صبي هندي، مات في ريعان شبابه..

ذكريات عجيبة، متداخلة، مضطربة، انهمرت من ألسن المتطوعين في غزارة غير مسبوقة..

والعلماء يسجلون...

ويدرسون..

ويحللون..

ويحاولون أن يفهموا كل هذا..

الأمر تجاوز إذن حتى الذكريات الموروثة، وبلغ مرحلة لم يتوقعها أحد..

مرحلة الترانزستور..

أو هكذا أطلقوا عليها، و...

ولهذا رواية أخرى..

☆ ☆ ☆

نشأت نظرية تناسخ الأرواح من أن البعض كان يستعيد فجأة ذكريات عجيبة..

ذكريات تعود إلى ما قبل مولده..

وربما إلى زمن آخر..

وجنس آخر..

وعالم آخر..

في البداية، رصدت المعتقدات الهندوسية والكونفوشيوسية هذه الظاهرة، وفسرتها بأنها نوع من تناسخ الأرواح..

وفكرة تناسخ الأرواح هذه (دون الدخول في مناقشات دينية)، تعتمد على أن الروح، عندما تفارق جسدا ما، لا تصعد إلى بارئها مباشرة، بل تعود لتحل في جسد ثان، وكأنها تحصل على فرصة ثانية في الحياة..

ومن الجسد الثاني إلى جسد ثالث..

ورابع، وخامس...

وهكذا..

والفكرة قد تتعارض مع بعض منظورنا الديني، إلا أنها كانت مقبولة، بالنسبة للصينيين القدامى، والهنود، وغيرهم..

وفي الستينات والسبعينات، قام بعض العلماء بتجارب خاصة تستخدم التنويم المغناطيسي، لإعادة الإنسان إلى أقدم ذكرياته..

كان الهدف، آنذاك، هو الوصول بذاكرة الإنسان إلى مرحلة النمو في الرحم، ليصف مشاعره وأحاسيسه، في تلك المراحل الأولى، التي يتكون فيها الكائن البشري..

ولكن النتائج جاءت مفاجئة، على نحو غير متوقع..

فالخاضعون لحالة التنويم المغناطيسي، لم يعودوا بذاكرتهم إلى فترة الرحم، وإنما إلى ما هو أبعد من هذا..

لقد انتقلت عقولهم وذاكرتهم إلى أزمان قديمة..

أزمان تفوق لحظة مولدهم بأيام وسنوات..

بل وقرون أيضا..

بعض الخاضعين للتجربة، عادوا بذاكرتهم مائة عام إلى الوراء، وتحدثوا عن حياة سابقة، وصنعوها بمنتهى الدقة، وتحدثوا عن

تفاصيلها، التي تأكد العلماء منها تماما، عند البحث عنها..

وبعضهم غاص في أعماق التاريخ، وشرح تفاصيل، كان من المستحيل معرفتها، إلا لو عاشوها بالفعل.

بل لقد عاد رجل إلى ماض سحيق، فتحدث بلسان امرأة، وقال إنه كان أنثي، في حياة سابقة، وأنه تم إعدامه بالفعل ضمن محاكم التفتيش، بتهمة الهرطقة..

ووجد العلماء أنفسهم أمام حالة عجيبة، لم تسجلها أي من مراجعهم العلمية..

حالة وصفوها بأنها تناسخ ذكريات..

وفي مرحلة تالية، جاء من يربط هذا بتناسخ الأرواح..

وفي تلك المرحلة، بدا الأمر محيرا ومربكا بالفعل، فما رصده وسجله العلماء، كان ينطبق بالفعل مع حالات تناسخ الأرواح، ولكن الفكرة نفسها غير مقبولة من الناحية الدينية والعقلية..

ومع استمرار التجارب، وتأكيد النتائج نفسها في كل مرة، بدأ البعض يميل إلى تصديق الفكرة، ويبحث في الأديان عما يؤكد أو يرجح فكرة تناسخ الأرواح..

ثم ظهرت فكرة الاتصال العقلي المخي المشترك، لتقلب الأمور كلها رأسا على عقب..

لقد كشف العلماء أن عقول البشر جميعهم تشترك في شبكة معلومات واحدة، وأن ما يعرفه شخص ما، قابل جدا أن ينتقل إلى الآخرين، لو تم تحفيز الجزء المناسب من المخ..

وهذا يعني أن المعلومات كلها متاحة، طوال الوقت..

ولو أضفنا إلى هذا نظرية الذاكرة الموروثة، فسنجد أن مجموع أمخاخنا يحوي تجاربنا وتاريخنا، منذ بدء الخليقة وحتى أيامنا هذه..

ولو أخضعنا شخصا ما للتنويم المغناطيسي، فإننا في الواقع نوقظ في أعماق مخه دائرة الاتصال بأمخاخ الآخرين، ونستفز في الوقت ذاته كل الذكريات الموروثة، المخزنة في أعمق أعماق تلافيف خلايا مخه الرمادية..

بمعنى أدق، الخاضع للتنويم المغناطيسي يتحول إلى أدق وأرقى جهاز استقبال عقلي، لا يمكنه استخراج كل المختزن في ذاكرته الموروثة والمكتسبة فحسب، ولكنه يستقبل مخزون الذاكرتين، من عقول كل من هم حوله أيضا..

تخيل راديو متعدد الموجات، يمكنه التقاط كل ما يحيط به من موجات وإشارات، مهما بلغت ضآلتها..

توصل العلماء إلى هذا، وألقوا على أنفسهم سؤالا جديدا..

لو أن التنويم المغناطيسي يصنع من المخ البشري جهاز استقبال فائق، فماذا عن الإرسال؟

هل يمكن دفع المخ إلى إرسال كل ما لديه، كما يمكن دفعه لاستقبال كل ما حوله؟

وهنا بدأت سلسلة تجارب جديدة..

وقصة جديدة..

☆ ☆ ☆

التنويم المغناطيسي علم وفن..

فن استخدمه المشعوذون والسحرة، منذ آلاف السنين؛ لوضع المتعاملين معهم في حالة وسط، بين الوعي واللاوعي..

كانوا يدركون أيامها أن الإنسان، في هذه الحالة، يتحرر من كل القيود التي يفرضها عليه عقله الواعي، في حالة اليقظة، ولا يكون مخدرا أيضا، كما يحدث في ساعات النوم..

ففي وعينا، تنتقي أمخاخنا كل ما نتعامل معه، في حياتنا اليومية، فلا تحتفظ في الذاكرة المدرجة إلا بالأمور الهامة، في حين تزيح الأمور الجانبية أو الفرعية في ركن مظلم..

وكذلك ردود أفعالنا، تخضع في يقظتنا الرقابة غريزية، من المجتمع والتربية، والخبرات المكتسبة، التي تدفعنا لإتيان أمر دون آخر، أو لكتمان شعور ما، وإظهار آخر..

وفي ساعات النمو، تخرج كل نواز عنا ورغباتنا الداخلية والدفينة، من أعمق أعماق عقلنا الباطن، وتمتزج بمشاعرنا الجسدية، لتمنحنا أحلاما جميلة، أو مزعجة..

أو حتى كوابيس..

أما في حالة التنويم المغناطيسي، فالشخص يصبح في حالة متعادلة، بين العقل الواعي والعقل الباطن، ويستعيد كل التفاصيل، من أعمق أعماق ذاكرته، حتى ما تبدو تافهة منها، وفي هذه الحالة، قد تنمو قدرات المرء، وتتألق، ويكتسب مهارات مدهشة، دون حتى أن يدرك هذا..

لذا، كان السحرة يستخدمون التنويم المغناطيسي، الذي لا ندري كيف توصلوا إليه منذ البداية، لإيهام الناس برؤية ما لا

يرونه، وامتناعهم بما لا يدركونه، وسبر أغوارهم مما يخفونه..

ثم تطور الزمن، وحل العلم محل السحر..

ولأن التنويم المغناطيسي ظاهرة ملفتة، عكف العديد من العلماء على دراستها، ومحاولة سبر أغوارها، وفهمها، وتصنيفها، ووضع قواعد وأسس لها..

وفكرة وضع الأسس والقواعد لا تستهدف تعقيد الأمور فحسب، ولكن الأسس والقواعد تجعلنا قادرين على فهم اللعبة أكثر، وتطويرها، وتطويعها لاحتياجاتنا الأساسية..

وفي الأربعينات والخمسينات، أصيب العلم، والعالم كله بهوس التنويم المغناطيسي، وخاصة بعد التجارب النازية في هذا الشأن، والتي استهدفت رفع كفاءة المقاتلين، وتلقينهم اللغات الأخرى، ودفعهم إلى القيام بعمليات انتحارية، غير مدركين لما يقومون به من تهور..

ولقد نجحت كثيرا فكرة تعلم لغة ما، تحت تأثير التنويم المغناطيسي؛ إذ بدا العقل متفتحا على نحو مدهش، وكان المنوم يستوعب في ساعات، ما يحتاج إلى أسابيع من الدراسة الشاقة..

كما نجح التنويم المغناطيسي أيضا في رفع قدرات وكفاءة المقاتلين، إلا أنه عجز تماما عن دفعهم إلى القيام بعمليات انتحارية!!

فلسبب ما، كان التنويم المغناطيسي عاجزا عن دفع أي مخلوق، إلى إتيان عمل، يتعارض مع إرادته تماما، في حالة الوعي..

ففي تجربة أخرى، دفع العلماء فتاة شابة إلى القيام بأمور مدهشة، وهي تحت تأثير التنويم المغناطيسي، وعندما طلبوا منها خلع ملابسها، ارتبكت، وخرجت من حالة التنويم المغناطيسي على الفور، ورفضت استكمال التجربة..

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية، كشف الحلفاء كيف أن النازيين كانوا يستخدمون التنويم المغناطيسي، وبعض الوسائل الأخرى؛ لدفع الأسرى إلى الإدلاء بما لديهم من معلومات..

وبدأ العالم كله يدرس الفكرة أكثر وأكثر..

البداية الفعلية كانت مع الأطباء النفسيين، الذين استخدموا التنويم المغناطيسي لعلاج مرضاهم، وكشف عقدهم الدفينة، وسبر أغوار ما في نفوسهم..

وفي هذا الشأن، كانوا يستخدمون نفس الأسلوب، الذي كان يستخدمه السحرة في الماضي..

تبدو له يتحرك بإيقاع منتظم، وأمامه مصدر ضوئي، ينعكس على سطحه اللامع، إلى عيني الشخص المستخدم، الذي يحدق فيه مباشرة، حتى يدخل حالة نصف اللاوعي..

وحتى سبعينات القرن العشرين، أو حتى بدايات الثمانينات..

كان هذا يبدو أسلوبا ناجحا ونافعا..

وكافيا أيضا..

ثم انتقل التنويم المغناطيسي إلى نطاق أوسع، وبدأ علماء المخ البشرى يولونه الكثير من الاهتمام؛ لذا فقد بدت لهم هذه الطريقة بدائية أكثر من اللازم، كما أنها تستلزم أن يتمتع

المسيطر بشخصية قوية، تتيح له إخضاع المنوم للحالة وهذا لا يصلح، علميا..

لابد من وجود وسيلة شاملة، يمكن أن يستخدمها العلماء، أيا كانت شخصياتهم؛ لتحقيق حالة التنويم المغناطيسي، في أي شخص يتم اختياره للتجربة..

بمعنى أدق، يحتاج الأمر إلى تعميم وإطلاق حالة التنويم المغناطيسي..

وهذا ما كان..

☆ ☆ ☆

لم يكن من الممكن أبدا، ولا حتى من المنطق، أن يدخل العالم عصر الكمبيوتر، دون أن يسعى العلم للاستفادة منه حتى الذروة..

ففي كل المجالات، أصبح الكمبيوتر هو اللبنة الأساسية، التي يقوم عليها العمل؛ لقدرته على حل المشكلات المعقدة، وتوفير الوقت، وإجراء حسابات شديدة الدقة، في لحظات معدودات، يحتاج العقل البشري إلى سنوات للقيام بها..

ومع اقتحام الكمبيوتر لعالم التطور، قفز العلم قفزات واسعة جدا إلى الأمام..

وفي كل المجالات

وما يهمنا هنا، هو مجال أبحاث التنويم المغناطيسي فبعد ما كشفه العلم، من قدرات التنويم المغناطيسي، بدأ البحث عن

وسيلة لجعله أكثر يسرا وسهولة..

وعكف العلماء المبرمجين على تحويل التنويم المغناطيسي إلى عالم رقمي مرن..

وظهر برنامج..

وثان..

وثالث..

وفي كل عام، يعمل المبرمجون على تطوير برامج التنويم المغناطيسي، وجعلها متاحة للمعالجين النفسيين، ورجال المخابرات، والأمن القومي، ومراكز الأبحاث..

وبدأ التنويم المغناطيسي يكشف الجديد والجديد من أسراره الدفينة..

باختصار، نستطيع أن نقول إن التنويم المغناطيسي الناجح يعمل على إيقاظ كل خلايا المخ النائمة، وتنشيط كل الأجزاء الكامنة، ودفع كل المادة الرمادية للعمل في آن واحد..

والنتائج هنا مدهشة..

شهود الجرائم والحوادث مثلا، يمكنهم تذكر أدق التفاصيل، بل وحتى اللمحات، التي تمر بهم، إذا ما خضعوا للتنويم المغناطيسي...

في حالات عديدة، تذكر أحدهم جرحا في جبهة القاتل..

أو رقم سيارة..

أو كلمة قيلت..

كل ما خزنته الذاكرة يفرز في يسر وسرعة، مع إيقاظ خلايا الذاكرة الناعسة..

والأهم أننا نستطيع استعادة بعض الذكريات الموروثة..

الشخص يمكن أن يستعيد ذاكرة الآباء..

أو الأجداد..

أو أجداد الأجداد وهذا لا يحدث في كل الأحوال، ولكنه يحقق نتائج إيجابية، في سبع عشرة في المائة من العينات الخاضعة للتجربة..

والعلماء يعتبرون هذه نسبة كبيرة، خاصة وأنهم واثقون من أن برامج التنويم المغناطيسي لم تتطور بالقدر الكافي بعد..

ولكنهم يأملون الكثير في المستقبل..

والكثير جدا..

فعقول المستقبل، بعد ربع قرن من الآن، ستختلف تماما عن عقول الحاضر..

وسائل زرع المعلومات، تحت النوم الصناعي، أو التنويم المغناطيسي، ستتطور كثيرا، حتى أن الشاب في العشرين، ستكون لديه خمسة أضعاف علوم ومعارف (آلبرت أينشتين)..

ثم إنهم سيسعون لإطلاق كل الطاقة الكامنة في العقل..

وهي طاقة ليست بالهينة..

الصبي سيجيد من المهارات، ما لا يمكن أن يبلغه سوى كهل، في زمننا هذا..

والطفل سيتجاوز عقلية أبويه..

كل شيء سيتطور ويتحسن..

ويكبر..

باختصار، سيصبح الزمن القادم هو زمن العقول..

كل العقول..

ويقول العلماء: إنه من الضروري أن تكون عقول المستقبل أكثر تطورا بكثير من عقول الحاضر..

وفي رأيهم، لابد وأن تبلغ عقول المستقبل سبعة أضعاف ما عليه عقول الحاضر..

على الأقل..

ليس بسبب التطور البشري الطبيعي، ولكن بسبب التطور العلمي، الذي يعد أصحاب هذه العقول لمهام طويلة..

وعسيرة..

وخطيرة..

للغاية..

☆ ☆ ☆

المستقبل حلم جميل..

حلم طالما راود كتاب الخيال العلمي، ومؤلفي الدراما أو هو كابوس مخيف، كما يراه البعض!!

ولكن من المؤكد، في كل الأحوال، أن المستقبل يحمل لنا صورة مختلفة تماما، عن صورة العالم، الذي نحيا فيه الآن.

صورة، ربما نعجز حتى عن تصورها..

ولكن ذلك المستقبل يرتبط حتنا بالفضاء، بأكثر مما يرتبط بالأرض، والعقول التي ستتعامل معه، لابد وأن تمتلك أضعاف أضعاف ما تمتلكه عقول اليوم على الأقل..

وهذا ليس أمرا خياليا، فالعقول تتطور أيضا، مع تطور الزمن والظروف، ولعلنا نضرب مثلا هنا بالطائرات المقاتلة..

ففي الحرب العالمية الأولى، كانت الطائرات تطير بسرعات تقل عن سرعة السيارة العادية الآن، وعلى الرغم من هذا، كان الطيارون يصفون مناوراته بها بأنها خيالية، ويعتبرونهم من المجازفين؛ لأنهم يطيرون بهذه السرعات المخيفة..

وفي الحرب العالمية الثانية، كانت سرعة الطائرات قد تضاعفت ثلاث مرات على الأقل، وظل الطيارون يناورون بنفس المهارة، وتطورت عقولهم؛ لتتكيف مع السرعات الجديدة، ووصفوهم أيضا بالمغامرين الفرسان..

أما في حرب الخليج، فقد تجاوزت سرعة المقاتلات ضعف سرعة الصوت، وكان طياروها قادرين على المناورة، وتحديد الأهداف، وقصفها، بهذه السرعات الفائقة، على الرغم من أن هذا يحتاج إلى واحد على عشرين من الوقت، الذي كان يحتاج إليه من قبل!!

العقول إذن تتقدم وتتطور..

وتتسارع..

عشرون ضعفا نمت عليها العقول، في أقل من قرن واحد من الزمان..

فماذا عن عقول المستقبل؟

في المستقبل، يخطط العلماء لإرسال رحلات فضائية خارج حدود مجموعتنا الشمسية، بسرعات قد تقترب من سرعة الضوء، وهي ليست رحلات رقمية إليكترونية، مثل الرحلات السابقة، التي خرجت لاستكشاف الكواكب..

إنها رحلات بشرية..

رحلات سيقوم بها ملاحون يشربون، يقطعون ملايين الكيلومترات في الفضاء، ويواجهون مالم يواجهه بشر من قبل..

شيء أشبه بأفلام الخيال العلمي، ولكن على أرض الواقع..

أو بعبارة أدق، في فضاء واقعي..

وملاحون كهؤلاء لا يمكن أن يكونوا مجرد ناس عاديين..

سيكونون حتما من المتفوقين..

وفي كل مضمار..

وستكون عقولهم حتما ذات طبيعة خاصة جدا، يمكنها احتمال الضغط والعزلة لفترات طويلة للغاية، لن تبلغ أسابيع وشهورا، بل سنوات وسنوات، في فضاء سرمدي متناه، يبدو أوله كآخره..

طوال الوقت...

ومن الضروري أن يبلغوا أهدافهم، وهم في تمام الصحة والعافية، جسديا وعقليا؛ حتى يمكنهم القيام بمهامهم على أكمل وجه، وإجراء ترتيبات العودة إلى الأرض..

هذا لو عادوا ليجدوا الأرض (وهو ما سنشرحه بالتفصيل في موضوعٍ تالٍ)

لابد إذن من إعداد الملاحين، جسديا وذهنيا وعقلا؛ لمواجهة مثل هذه الظروف؛ لذا فهم يتلقون تدريبات لياقة بدنية عالية وشاقة، ويدرسون بجد وكد؛ لتوسيع مداركهم وزيادة قدرتهم على الاستيعاب، وتكثيف معلوماتهم، مع ملاحظة أنه يتم اختيارهم أساسا ممن يمتلكون معدلات ذكاء مرتفعة..

يتبقى إذن برنامج تطوير عقولهم..

وهذا البرنامج ليس عسيرا، كما قد يتصور البعض، وإنما هو منظم دقيق، يعتمد بالدرجة الأولى على تحفيز كل خلايا المخ، وإطلاق الطاقات العقلية الكامنة؛ لذا فهم يمارسون ما يشبه اليوجا، ويخضعون لجلسات تركيز واسترخاء مدروسة، ولبعض جلسات التنويم المغناطيسي، ويمارسون ما يشبه ألعاب الكمبيوتر، التي تعتمد على سرعة التقدير والاستجابة..

راقب طفلا في العاشرة، يجلس أمام لعبة من ألعاب الكمبيوتر حيث تبرز أمامه أهداف عشوائية، من أماكن مختلفة من الشاشة، بسرعات كبيرة، وعليه أن يلتقط تلك الأهداف، ويطلق عليها سلاحه، ويقصفها في الوقت المناسب، وإلا خسر المباراة..

راقبه لمدة أسبوع، وانظر كم ستتطور سرعة استجابته وتتحسن نتائجه في اللعبة..

هذه اللعبة، ومثيلها، لو تم استخدامها دون إفراط، هي وسيلة ممتازة؛ لتنمية العقول..

ولكن لاحظ بشدة عبارة (دون إفراط)..

فالإفراط في ألعاب الهجوم الإليكترونية، يؤدي إلى نتائج عكسية تماما؛ إذ أن المخ البشري غير مؤهل للتعامل بهذه السرعات طوال أوقات عديدة، فإذا ما أخضعته قصرا لهذا سيصيبه ما

يشبه الصرع، فيصبح الشخص عصبيا مهتاجا، وتنخفض كفاءته العقلية تدريجيا، حتى يفقد التركيز تماما، في غضون عقدين من الزمان على الأكثر..

عقول المستقبل إذن لابد وأن تخضع لتوازن دقيق مدروس..

توازن يمنحها ما لا تمتلكه عقول اليوم..

توازن تصنعه الضرورة، ويصنعه العلم..

والهدف..

والزمن..

للمستقبل..

☆ ☆ ☆

25- وللتخابر أيضا... تاريخ..

انتهت الحرب العالمية الثانية عام 1945 م، بذلك الحادث المروع، الذي أفنت فيه القنابل الذرية، لأول مرة، مدينتين سكنيتين كبيرتين عامرتين بالسكان، من رجال ونساء وأطفال وشيوخ وعجزة، فيما يعد أكبر مذبحة عرفها التاريخ المكتوب، وتصور العالم أنه، وبعد هذه المأساة، سيشهد ويحيا أخيرا، في سلام ووئام، وراحة من الحروب والقتال، إلا أنه لم يتصور قط، أنه في نفس اللحظة، التي وضعت فيها الحرب أوزارها، أو ربما قبلها بفترة طويلة، كان العالم يستعد لحرب أخرى..

طاحنة غير معلنة حرب الجواسيس..

فالحرب العالمية الثانية، حوت من عمليات التخابر والجاسوسية ما أثار الدهشة، والانبهار، وأثبت قوة هذا السلاح السري الرهيب، في تحقيق ما تعجز عنه جيوش هائلة مزودة بأحدث السلاح، وأقوى العتاد... فخلال الحرب، نجح جاسوس بريطاني في الوصول إلى هتلر شخصيا؛ وأقنعه بكسر معاهدة عدم الاعتداء، التي وقعها مع روسيا، وشن الحرب عليها، بحجة أنها تستعد بدورها لضرب ألمانيا، فانطلقت جيوش هتلر فيما عرف بعملية بارباروسا؛ لاحتلال روسيا؛ وذلك لكي يخف الضغط عن الجبهة البريطانية، وكانت عملية مخابراتية ناجحة، أعقبتها المخابرات البريطانية بعدد من العمليات المدهشة، فاستولت على خزائن المخابرات النازية، ودست رسائل لاسلكية للأسطول الياباني، أقنعته من خلالها بأن أمريكا تنوي توجيه ضربة إليه، مما جعله يسارع بتوجيه ضربة وقائية للأسطول الأمريكي في بيرل هاربور، فجن جنون الأمريكيين، وأعلنوا الحرب

على اليابان وألمانيا، وهذا بالضبط ما كانت تسعى إليه المخابرات البريطانية؛ حتى تحظى بحليف قوي، كان يتردد كثيرا في خوض الحرب...

وحتى في النهايات، نجح جاسوس سوفيتي، وهو ريتشارد سورج، الذي يلقب في عالم الجاسوسية بالأستاذ، في الوقوع على سر عسكري ياباني شديد الخطورة، يؤكد أن اليابان لن تشن الحرب على روسيا، مما شجع روسيا على تركيز حربها كلها على الجبهة الألمانية، مما كان بداية النهاية للجيوش النازية في آسيا، في نفس الوقت الذي استخدم فيه البريطانيون جاسوسا ميتا، في واحدة من أشهر وأقوى عمليات المخابرات عبر التاريخ: لإقناع الألمان بأن غزو أوروبا سيأتي من كاليه، ثم انقضوا من نورماندى، فكانت بداية النهاية النازيين في أوروبا..

المخابرات البريطانية، والروسية، والنازية، واليابانية تألقت في الحرب، وأسالت لعاب الجميع للعبة بعد الحرب، وعلى رأسهم القوى العظمى الجديدة أمريكا، التي خرجت من الحرب كأقوى دولة في العالم، باعتبار أنها كانت الوحيدة، التي تمتلك القنبلة الذرية، ولكنها، وعلى الرغم من هذا، أدركت قوة المخابرات وأجهزة المخابرات؛ لأنه ليست كل الحروب يمكن حسمها بالقنابل الذرية، أو حتى بالقوة هناك حروب تحتاج إلى العقل والصبر والمعرفة والحيلة والذكاء والابتكار وغزارة المعلومات، وكل هذه الصفات يمكن دمجها في كلمة واحدة.... المخابرات..

وفي ذلك الحين، لم يكن لدي أمريكا جهاز مخابرات، على غرار البريطانيين والسوفييت، ولكن كان لديها مكتب معلومات استراتيجي، بالإضافة إلى عشرات الخبراء الألمان السابقين، في هذا المضمار، لذا فقد اتخذت قرارها، وأنشأت نواة مخابراتها،

في أواخر الأربعينيات، لتتبعها إسرائيل في بداية الخمسينيات، بانشاء الموساد، الذي تلقي رجاله تدريباتهم، في المخابرات الأمريكية حديثة العهد، ثم جاءت حركة يوليو 1952 م، لتنتبه للأمر، وتبدأ بنظام تخابر محدود، يتبع الداخلية، ثم تطوره بقرار إنشاء المخابرات العامة، عام 1955 م، لتبدأ مصر واحدا من أزهى عصورها المخابراتية..

وربما كانت أشهر عمليات المخابرات المصرية، المعروفة للكافة، هي عملية زرع رفعت الجمال في قلب إسرائيل، والتي لا تعد من أنجح عمليات المخابرات المصرية فحسب، ولكنها من أنجح عمليات المخابرات عبر التاريخ؛ نظرا لأن رفعت قد أدى مهمته، واعتزل، وواصل حياته، ومات على فراشه، دون أن ينكشف أمره لحظة واحدة، على عكس ما يدعيه الإسرائيليون، وما يحاولون به سحب بساط النصر، من تحت أقدام المخابرات المصرية..

ولقد ولد (رفعت على سليمان الجمال) في (دمياط)، في الأول من يوليو عام 1927 م، وكان الأخ الأصغر لاثنين من الذكور، وهما (سامي) و (لبيب)، وشقيقة واحدة (نزيهة)، ولقد توفي أبوه عام 1936 م، عندما كان هو في التاسعة من العمر.. اصطحب (سامي) الأسرة كلها لتقيم في (مصر الجديدة)، في شارع (يعقوب أرتين)، المتفرع من ميدان (الإسماعيلية) وأصبح هو المسئول عن الجميع رسميا وعمليا، وبدأ (رفعت) حياته الجديدة في (القاهرة)، مبهورا بمدنيتها وأضوائها ومقهورا بأحكام عسكرية، أصدرها شقيقه الأكبر، الذي ناءت كتفاه بحمل الأسرة، ولم يجد أمامه من سبيل للقيام بمسئولياته، سوى الصرامة والحزم..

وذات يوم، تسلل (رفعت) إلى حجرة الممثل (بشارة واكيم) في المسرح، وراح يقلده، حتى وجده أمامه، فانكمش رعبا وبحث عن مخرج للفرار، إلا أن (واكيم) طمأنه، وأخبره أنه سيصبح له مستقبل مشرق في عالم السينما، عندما ينتهي من دراسته..

وبالفعل، حصل (رفعت) على فرصة للتمثيل في ثلاثة أفلام، ارتبط خلالها بالراقصة الشابة (تيتي) التي كان لها شأن كبير في حياته، حتى يئس من تحقيق النجاح في السينما، فالتحق بالعمل في شركة بترول أجنبية، ثم لم يلبث أن تركها ليلتحق بشركة كيماويات في الإسكندرية، إلا أن مدير أحد الفروع نجح في خداعة، بحيث اتهمه بسرقة ألف جنيه من رصيد الشركة، وتم فصله منها.

ومرة أخرى، حصل (رفعت) على عمل مساعد ضابط حسابات، على متن سفينة الشحن (حورس)، ليغادر (مصر) معها، تاركا كل متاعبه ومشكلاته خلفه، وينتقل بين موانى البحر الأبيض المتوسط، إلا أن الظروف لم تلبث أن أعادته إلى (مصر) في مارس 1950 م، ليعاني مرة أخرى من الوحدة والفشل والمرارة، مما دفعه إلى التحايل للسفر إلى (إنجلترا)، في محاولة للبحث عن النجاح، الذي يفر منه فرار الصحيح من الأبرص والأجرب..

وفي (إنجلترا) لاحت له بوادر النجاح، في وكالة سفريات تحمل اسم (سلتيك تورز)، حيث نجح في تحقيق صفقات، بلغت عمولته منها أكثر من خمسة آلاف جنيه إسترليني، مما يساوي ثروة طائلة في ذلك الزمان، حتى إن صاحب الشركة شعر أنه يلتهم الكثير من الأرباح، فانتهز فرصة سفره إلى (أمريكا)، واتهمه بالغش والتدليس، مما تسبب في ترحيله مرة ثانية إلى (القاهرة)، بعد أن فقد جواز سفره، وحوّل تقوده إلى شيكات سياحية..

وفي (مصر)، بذل (رفعت) جهدا خرافيا لاستخراج جواز سفر آخر، إلا أنه فشل فشلا ذريعا، بسبب شروط غاية في التعقيد، بالنسبة لاستخراج جوازات السفر في ذلك الحين..

وعندما تعقدت الأمور، وضاقت به سبل العيش، وجد أن أفضل ما يمكن الحصول عليه، هو عمل في شركة (قناة السويس)، نظرا لإجادته التامة لعدة لغات، إلا أن هذا كان يحتاج إلى وثائق رسمية، مما جعله يتصل بأحد المزورين، الذي أعد له جواز سفر باسم (على مصطفى)، نجح بوساطته في الحصول عمل بالفعل في شركة القناة..

ولكن الرياح لم تسر بما تشتهي السفن، ففي أكتوبر 1951 م بدأ البريطانيون في فحص الهويات الشخصية بدقة بالغة، مما جعله يعود إلى (القاهرة)، خشية انكشاف أمره.

وفي (القاهرة)، حصل (رفعت) على جواز سفر زائف جديد، باسم صحفي في (جنيف) (تشارلز دينون)، أقام به في أحد الفنادق، باعتباره أجنبيا، دون أن يشك أحد في أمره لحظة واحدة.

ومع الاضطرابات السياسية، وقيام ثورة يوليو، وعمليات التحقيق المستمرة من رجال الشرطة، قرر (رفعت) مغادرة البلاد في مارس 1953 م، لذا فقد حصل على جواز سفر زائف جديد باسم البريطاني (دانيال كالدويل)، وسافر بنظام (أتوستوب) إلى (ليبيا)..

وبعد أن عبر الحدود الليبية بالفعل، وقطع خمسة وعشرين ميلا في (ليبيا) استوقفته دورية بريطانية، وطلبت منه إبراز هويته..

وعندما قدم للضابط البريطاني أوراقه، نسي أنها تضم تلك الشيكات السياحية، التي تحمل اسم (رفعت الجمال)..

وكانت هذه هي النقطة التي دفعت الضابط البريطاني للشك في أمره.. والخطأ الذي أوقع به في قبضة الشرطة المصرية، بعد أن سلمته لهم الدورية البريطانية..

وعندما استقر به الأمر في أحد أقسام الشرطة في الإسكندرية، حار الجميع في أمره، وعجزوا عن تحديد هويته، خاصة وهو يتحدث الإنجليزية والفرنسية بطلاقة، ثم يلقي بعض التعليقات باللهجة المصرية العامية، مما أوقع في قلوب الجميع أنه أحد اليهود المصريين، الذين يسعون للسفر إلى (إسرائيل) من تحت أنف الحكومة المصرية الجديدة، لذا فقد تم ترحيله إلى (القاهرة)، نظرا لأن الاسم المدون في الشيكات السياحية كان مطلوبا هناك، ومسجلا في بعض الجنح الصغيرة، وفي (القاهرة) بدأت المرحلة الأكثر خطورة في حياته.. مرحلة التحول من (رفعت الجمال) إلى (جاك بيتون)..

ففي (القاهرة) وبعد أن بقي في الحجز عدة أيام، تم اصطحابه إلى أحد المكاتب، حيث التقى به رجل يرتدي الملابس المدنية، متين البنيان، جاد الملامح، حاد النظرات، وكانت هذه هي البداية.. ففي الأيام التالية، راح الرجل، الذي لم يفصح عن اسمه الحقيقي أبدا، يعمل على تدريب (رفعت) على بعض المهارات المختلفة، وينمى قدراته على انتحال شخصية وهوية اليهودي المصري، وعلى الاختلاط باليهود، والتواجد في مجتمعاتهم، وعندما سأله (رفعت) عن الغرض من كل هذا، أخبره أن اليهود يقومون بتهريب ثروة ضخمة خارج البلاد، وبالتحديد إلى (إسرائيل)، وأنه يرغب في زرع شخص ما بينهم، ليكتسب ثقتهم

ويكشف حيلهم، وما داموا تصوروا أنه يهودي فهذا يعني أنه الشخص المثالي للقيام بهذا الدور..

وأنه مقابل هذا سيمحو سجله القضائي كله، وسيتم إسقاط كل التهم الموجهة إليه، كما سيستعيد شيكاته السياحية كلها..

ولم يتردد (رفعت) طويلا في قبول العرض، فقد كانت هذه أحسن الفرص المتاحة له، في هذا الوقت.. وبدأت مرحلة التدريبات المكثفة، حيث تعلم (رفعت) علم الاقتصاد، وكيفية التعامل مع الضرائب، ووسائل تهريب الأموال، وعادات اليهود وسلوكياتهم، وكيفية التمييز بينهم، وتاريخهم، وديانتهم، وشعائرهم، واللغة العبرية، ثم تدرب على أساليب الشرطة السرية، وكيفية البقاء على قيد الحياة، معتمدا على الظروف الطبيعية المحيطة به، في حالة اضطراره للاختفاء لبعض الوقت.

وأخيرا، تقمص (رفعت) شخصيته الجديدة (جاك بيتون)، المولود في 23 أغسطس، عام 1919، في مدينة (المنصورة) من أب فرنسي وأم إيطالية، وتسلم وثائق تحمل اسمه الجديد، وشهاداته الرسمية المعتمدة.. وسافر (جاك بيتون) الجديد إلى (الإسكندرية)، وحصل على عمل في شركة تأمين واستأجر شقة صغيرة، في حي يكتظ باليهود، إلا أنه لم يتعمد الاختلاط بهم، وإنما ترك هذا يحدث تدريجيا وتلقائيا، على نحو يوحي بأنه لا يبالي بهذا، وإنما يجامل كل من يتقرب منه فحسب..

ولأنه لعب دوره بإتقان شديد، لم يلبث (جاك بيتون) أن وجد نفسه منغمسا في قلب المجتمع اليهودي، بل وصار عضوا في تنظيم سري يهودي، يحمل اسم (الوحدة 131)، مع مارسيل

نينو) و (إيلي كوهين)، و (ماكس بينيت)، وغيرهم من رجال عملية تفجير المراكز الأمريكية في الخمسينيات..

وهكذا تحول (رفعت الجمال)، الشهير باليهودي (جاك بيتون) إلى بطل مناضل، في نظر الطائفة اليهودية، التي بدأت تنصحه بالهجرة إلى (إسرائيل)، ليجد هناك الأمن والأمان، ولكنه ألقي حديثهم هذا خلف ظهره، متصورا أن مهمته تقتصر على التجسس على اليهود داخل (مصر) فحسب، ولكن رجل المخابرات فاجأه بأن هذه ليست مهمته الأصلية، وإنما كانت مجرد فترة تدريب وإعداد الهدف الرئيسي السفر إلى قلب (إسرائيل)..

ولا أحد يمكن أن يدعي أن (رفعت الجمال) لم يشعر بالخوف المذعور، إلا أنه في النهاية قبل المهمة بملء إرادته.. وكان هذا يعني مرحلة جديدة في التدريبات المكثفة.. مرحلة درس فيها تاريخ اليهود الأوروبيين، والصهيونية العالمية، ونظم وأساليب الهجرة إلى (إسرائيل)، والأحزاب السياسية هناك واتحاد العمال، وأهم الشخصيات السياسية والاقتصادية والعسكرية، والتركيب الجغرافي والاقتصادي والطوبوغرافي، وحتى الاجتماعي في الأرض المحتلة، بالإضافة إلى التصوير بآلات خاصة، وتحميض الأفلام، وحل الشفرة والكتابة بالحبر السري، وتشغيل أجهزة الاستقبال اللاسلكية، وتعرف الرتب العسكرية الإسرائيلية، ونظم أجهزة المخابرات، وأصبح يستمع يوميا إلى الإذاعة الإسرائيلية لعدة ساعات، لتحسين لغته العبرية، مع الحفاظ على لكنته المصرية، ثم تدرب على القتال، في حالة ما إذا اضطره الأمر للاشتباك المباشر، أو التلاحم مع العدو..

ثم درس أخيرا كيفية العمل كوكيل سفريات، نظرا لخبرته السابقة في هذا المجال، ولأن هذه المهنة تتيح له السفر من وإلى (إسرائيل) طوال الوقت، مما يمنحه حرية الحركة المطلوبة، في مجال التجسس..

وفي يونيو 1956 م، استقل (رفعت) سفينة متجهة إلى (نابولي)، وفي جيبه ثلاثمائة جنيه مصري، مع هدف واضح محدد.. أن يصل إلى (إسرائيل) ويستقر فيها، كأي يهودي متحمس للعالم الجديد.. ونظرا لتاريخه الحافل، واسمه المدون في قائمة (الوحدة 131)، استقبلته الوكالة اليهودية بالترحاب في (نابولي)، ومنحته كل التسهيلات للسفر إلى (إسرائيل)، التي وصل إليها في أوائل يوليو 1956 م، ودخلا باسم (جاك بيتون)، المواطن اليهود المخلص..

ولم يكن الاستقرار في وطن جديد بالأمر السهل أو الهين، بالنسبة لمهاجر جديد.. فما بالك بشخص ينتحل هوية عدو، ويعلم أن أي خطأ بسيط قد يعني انكشاف أمره، وإلقاءه خلف القضبان، ما لم يتم إعدامه بلا رحمة؟!.. ولكن (رفعت) بتاريخه الحقيقي، وكفاح حياته كلها، استطاع أن يصمد، وأن يثبت جذوره في المجتمع الإسرائيلي، وعمل بهمة ونشاط حقيقيين، حتى أصبح واحدا من رجال الأعمال المعروفين هناك، واستطاع أن ينغمس في المجتمع الراقي، وأن يصنع لنفسه دائرة من المعارف والأصدقاء، حوت بعض الأسماء اللامعة في المجتمع الإسرائيلي، بمختلف طوائفه.. العسكرية، والسياسية، والاقتصادية..

ولو حاولنا شرح كل ما قدمه (رفعت الجمال) لوطنه، من خلال تواجده في ذلك المجتمع، وصداقته لكبار مسئولية، لأحتاج

الأمر لمقالات ومقالات، ولكن يكفي أن نقول إن حماسه وإيمانه بعمله، قد ساعداه على أن يقدم للوطن معلومات بالغة الأهمية والخطورة، كان لها كبير الأثر، عندما اندلعت حرب أكتوبر 1973 م..

وأخيرا، وبعد فصول عناء، قرر (جاك بيتون) الاستقرار، فتزوج من (فالتراود)، الألمانية المطلقة وتبني ابنتها (أندريا) رسميا، ثم أنجب منها ابنه الوحيد (دانيال)، وعاش معها حياة هادئة في (ألمانيا)، حتى تم عقد معاهدة السلام، التي سمحت له بإقامة مشروع بترولي ضخم في (مصر)، أطلق عليه اسم (أجيبتكو)، قبل أن يصاب بذلك المرض العضال، الذي أودى بحياته في النهاية..

والقول بأن عملية رفعت الجمال، الذي اشتهر بين العامة باسم رأفت الهجان؛ لظروف درامية، هي من أنجح العمليات المخابراتية في العالم ليس اعتباطيا، إذا ما قارناها بعملية إسرائيلية، تمت في توقيت مقارب، ولم يحظ صاحبها بالموت في فراش المرض، كما حدث في عملية رفعت، وأقصد بهذا عملية إيلي كوهين، التي، وعلى الرغم من نهايتها، ما زال الإسرائيليون يعتبرونها واحدة، من أقوى عملياتهم..

(إيلي أمين شاؤول كوهين).. اسم يستحيل أن يجهله أي رجل مخابرات عربي أو إسرائيلي، في هذه الأيام، وخاصة بعد أن صدرت عنه عشرات الكتب والروايات، معظمها إسرائيلي، تحيطه بإطار من القوة والبطولة، وتنسج حوله عشرات القصص الأسطورية، التي تجعله بمثابة نجم، في هذا العالم السري، أو هكذا حاول الإسرائيليون أن يظهروه، دون أن يشيروا إلى ما أصاب هذا النجم.. إلى سقوطه المروع..

وبدايات (إيلي) بسيطة وعادية للغاية، فقد كان والده (حوفي كوهين) تاجرا سوريا متواضعا، هاجر مع أسرته إلى. (مصر)، واستقر بهم المقام في (الإسكندرية). وهناك ولد (إيلي) في 16 ديسمبر 1924 م، وهناك أيضا التحق بمدرسة (الليسية) الفرنسية.. وهناك أيضا التقى ب (بولندي جابي)، التي كانت بداية الخيط..

و (بولندي) هذه كانت إحدى سيدات الأسر اليهودية الثرية، وعضوا نشيطا في الوقت ذاته، في جهاز (هاموساد اليابيت) أو (الموساد)، الذي قرر إنشاء فرع له في (مصر)، عن طريق حركة الشباب اليهودية المصرية، المعروفة باسم (هاشيروت)، فأرسل أحد رجاله (ليفي إفراهام)، التي رشحت له عددا من الشباب اليهودي، وعلى اسم رايلي وعمل (إيلي كوهين) لحساب (الموساد)، قبل أن يحصل على شهادة (البكالوريا)، أو الثانوية العامة في ذلك الوقت، وأبدى نشاطا ملحوظا في تسهيل خروج اليهود المصريين إلى (فلسطين)، وفي الاتصال بالسفارات والقنصليات، وأجاد الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، والتحق بكلية الهندسة بجامعة (فؤاد الأول) - (القاهرة) حاليا - وحصل على شهادته، على الرغم من هجرة أسرته كلها إلى (إسرائيل). عام 1950 م وفي عام 1953 م، أرسلت المخابرات العسكرية الإسرائيلية (أمان)، أحد رجالها إلى (مصر)، وهو (إبراهام دار)، الذي وصل بجواز سفر بريطاني، يحمل اسم (جون دارلنج)، سعيا وراء تكوين خليتين صهيونيتين، في (القاهرة) و (الإسكندرية)، وأرسل خمسة من أعضاء الخليتين إلى (تل أبيب)، عن طريق (باريس)، لتلقي تدريبات حول تفجير القنابل

الزمنية، ثم أعيد هؤلاء الخمسة إلى (مصر)، حاملين مخططا تخريبيا خاصا ومن بين هؤلاء الخمسة كان (إيلي كوهين)..

وفي خلال عملية عرفت باسم (عملية سوزانا)، أصدر (جون دار لنج) أوامره للخليتين، بنسف وتخريب عدد من المنشآت البريطانية والأمريكية، بهدف إفساد اتفاقية الجلاء، التي تم توقيعها بين الجانبين المصري والبريطاني في هذا الوقت.. ولكن أحد أفراد الخليتين ارتكب خطأ قاتلا، أدى إلى اشتعال النيران في جيبه، قبل تفجير هدفه، مما دفع أحد رجال الشرطة إلى إلقاء القبض عليه، واصطحابه إلى قسم شرطة محطة الرمل، حيث تم استجوابه، واعترف بالأمر كله، و...

وسقطت الخليتان.. وفي مساء الليلة نفسها، جرت حملة اعتقالات واسعة، في (القاهرة) و (الإسكندرية)، لكل أفراد الخليتين والعناصر المشتبه فيها، ومن بين هؤلاء أيضا كان (إيلي)..

وعلى الرغم من أن اعترافات أعضاء الخليتين شملت عددا كبيرا من شباب اليهود، إلا أنها لم تتضمن أسم (إيلي كوهين)، مما أدى إلى الإفراج عنه وإخلاء سبيله، وإن لم يمنع هذا من فتح ملف خاص له، في جهاز المخابرات العامة المصرية الذي كان يخطو خطواته الأولى، في هذا العالم السري الغامض.. وحمل الملف اسم (إيلي حوفي كوهين)، وكان هذا يحتم توقف (إيلي) عن النشاط.. ثم حدث العدواني الثلاث على (مصر) وكإجراء وقائي، تم اعتقال كل أصحاب هذه الملفات، دون أدلة اتهام، حتى ديسمبر 1956 م.. عندما تقرر إطلاق سراحهم، وطردهم خارج (مصر)، لدواعي الأمن.. وفي العشرين من ديسمبر 1956 م غادر (ايلي) (مصر)، على باخرة تابعة للصليب الأحمر، نقلته إلى

(إيطاليا)، مع عدد كبير من اليهود المصريين حيث قضى عدة أسابيع في (جنوة).. وفي (بات يام)، جنوب (تل أبيب)، قضى (إيلي) أيامه الأولى في (إسرائيل)، مع والدته وأسرته، وراح يدرس اللغة العبرية، ثم لم يلبث أن التحق في أواخر العام نفسه بعمل في وزارة الدفاع الإسرائيلية يعتمد على ترجمة كل ما ينشر في الصحف العربية إلى العبرية وإعداد تقارير وتحليلات عنه، لصالح جهاز المخابرات العسكرية (أمان).. ولم يلبث أن مل هذا العمل أيضا، فتقدم بطلب للنقل إلى جهاز (الموساد)، إلا أن طلبه هذا قوبل بالرفض، مما دفعه إلى تقديم استقالته، والعمل في شركة التسويق المواد الغذائية، وأثناء هذا العمل التقى بـ (ناديا)، الممرضة بمستشفى (هداسا) بالقدس، وتزوجها بعد فترة تعارف قصيرة..

ولم يشعر (إيلي) بالارتياح في عمله الجديد، ولكنه لم يشك منه هذه المرة، أو يحاول تركه..

صحيح أنه لم يسع للاستقالة، ولكن الأمر جاء بوسيلة مختلفة هذه المرة، إذ التقى بصديق قديم، كان يعمل معه في (أمان)، ودار بينهما حديث حول استقالته، وبعدها انصرف زميله، بعد أن اتفقا على اللقاء مرة ثانية..

وفي هذه المرة الثانية، دعاه صديقة للسير على الشاطئ، وهناك سأله فجأة إذا ما كان يرغب في العمل في الموساد ثم صارحه بأنه أحد ضباط (الموساد)، وطلب منه كتمان ما سيسمعه تماما، حتى بالنسبة لأسرته وزوجته، ثم أبلغه موافقة (الموساد) على عمله في صفوفهم.. وفي ربيع وصيف 1960 م، اجتاز (إيلي) برنامجه التدريبي، واستعد لتسلم عمله الجديد ومهمته البالغة الأهمية، في (سوريا).. وعلى الرغم من أن المهمة كانت تستهدف

(سوريا)، إلا أنها بدأت في (بيونس أيرس)، عاصمة (الأرجنتين)، التي وصل إليها (إيلي) في 21 مارس 1961 م، قادما من (زيورخ)، وحاملا اسم (كامل أمين ثابت)، الذي يشير جواز سفره إلى جنسيته السورية..

وفور وصوله، نشط (إيلي) في التعرف على مجتمع المغتربين في (بيونس أيرس)، وراح يوطد صداقاتهم معهم حاملا قصة تم إعدادها بدقة، تقول: إنه سوري من أصل لبناني، هاجر مع عائلته إلى (الإسكندرية)، ثم سافر عمه إلى (الأرجنتين) عام 1946 م، ولحق هو به مع عائلته عام 1947 م، ثم توفي والده هناك بسكتة قلبية، عام 1952 م، وبعده بستة أشهر رحلت والدته، وبقي هو وحده هناك، يعمل بتجارة الأقمشة، ثم سافر إلى (أوروبا) عدة سنوات وعاد الان ثريًا..

ولم تمض عدة أسابيع، حتى أصبح (كامل أمين ثابت) رجلا معروفا، في أوساط المهاجرين، الذين بلغ عددهم في تلك الفترة نصف المليون مهاجر عربي، وتوطدت صلاته برئيس تحرير مجلة (العالم العربي) التي تصدر هناك (عبد اللطيف الخشان)، الذي قدمه بسلامة نية إلى أصدقائه ومعارفه، من رجال السفارات العربية في (الأرجنتين)، وبسرعة أصبح (إيلي) ضيفا دائما في معظم حفلات السفارات..

والعجيب أن أحد ضباط المخابرات السورية قد شك في الرجل، وأرسل إلى (المكتب الثاني) في (سوريا)، يطلب التحري عنه، ولكن الإسرائيليين كانوا قد اختاروا قصة حقيقية، لأسرة مهاجرة، تحمل اسم (ثابت)، مما جعل المخابرات السورية تؤيد قصة (إيلي)، دون أن تهتم بتمحيصها وبحثها جيدا، نظرا لأن الشكوك حوله لم تكن بالقدر الذي يكفي لهذا.. وبعد عدة أشهر،

وبالتحديد في أغسطس 1961 م، أعلن (كامل أمين ثابت) عن رغبته في العودة إلى الوطن (سوريا)، وتقدم بطلب للحصول على تأشيرة الدخول..

وفي (دمشق)، قضى (إيلي) شهرا كاملا، دون أن يزاول نشاطه، حتى لا يثير الشبهات من حوله في 28 سبتمبر 1961 م، ثم بدأ في تأسيس شركة للاستيراد والتصدير، تخصصت في تصدير الأثاث العربي والمشغولات الخشبية إلى (أوروبا)، وراح يستفيد من شركته استفادة مزدوجة، إذ كانت الأحاديث التي يتبادلها مع الآخرين، بحكم العمل، تنقل إليه قدرا وافرا من المعلومات، عن أحوال السوق الاقتصادية، والتي كان يرسلها فور عودته إلى منزله، إلى (الموساد) مباشرة، عن طريق جهاز إرسال صغير جدا، أما ما يلتقطه من صور ووثائق فكان يرسلها داخل تجاويف خاصة، في قطع الأثاث والمشغولات اليدوية و التي يتم تصديرها إلى (أوروبا)، حيث يلتقطها واحد من ضباط (الموساد) في (سويسرا).. أما من الناحية الاجتماعية، فقد كان التطور أكثر سرعة، وأكثر خطورة..

لقد نجح (إيلي) في عقد صداقات عديدة، مع العسكريين والإعلاميين السوريين، واستأجر منزلا في مواجهة مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة السورية، حيث راح يراقب ما يحدث من تطورات هناك، مما ساعده على إرسال معلومات بالغة الأهمية والفائدة إلى الإسرائيليين، الذين اعتبروه عميلا ممتازا.. ثم وقع (كامل ثابت) على أهم صيد منذ بدء عمله.. لقد أقام صداقة مع ضابط شاب، هو في الوقت ذاته ابن شقيق رئيس هيئة الأركان للقوات المسلحة، ونجح في استدراجه للحصول على معلومات بالغة الخطورة، بحجة الاطمئنان على سلامة

الوطن وأمنه، بل واصطحبه الضابط إلى الخطوط الأمامية، حيث شاهد بنفسه تسليح وتحصينات الوحدات السورية، وتمادي في المرة التالية، فحمل معه آلة تصوير، والتقط عدة صور للمستعمرات الإسرائيلية، الواقعة عند سفوح المرتفعات السورية، وأرسلها إلى (تل أبيب)، التي حددت منها مواقع المرتفعات السورية..

وكعضو في حزب البعث، وطد (إيلي) علاقاته بقيادات الحزب، ووزير الإعلام (سامي الجندي)، وصار واحدا من الكوادر الحزبية التي يشار إليها بالبنان، وضيفا شبه دائم، في حفلات الاستقبال، التي تقيمها رئاسة الجمهورية السورية، وخاصة بعد اقتراحه بعمل زيارة حزبية إلى (الأرجنتين)، جمع خلالها تسعة آلاف دولار، كتبرعات لحزب البعث، من المهاجرين السوريين هناك، أضاف إليها ألف دولار من حسابه.

ولمع اسم (كامل أمين ثابت)، وساعده هذا على تكوين صداقات أكثر قوة وخطورة، ومنحه حرية حركة أكثر، خاصة بعد ترشيحه أو ترديد اسمه مرشح لمنصب نائب وزير الإعلام، أو نائب وزير الدفاع، حتى إنه استطاع التقاط عدة صور عن قرب، للمقاتلة الاعتراضية (ميج - 21)، التي كانت أقوى مقاتلة اعتراضية في ذلك الحين..

ومع ارتفاع أسهمه، أصبح (إيلي) أحد أعضاء الوفد السوري المرافق للفريق الأول (على عامر)، القائد العام للقيادة العربية الموحدة، عندما زار الجمهورية العربية السورية، على رأس وفد عسكري كبير، في ديسمبر 1964 م، لإجراء مباحثات مع القادة العسكريين هناك.. وكان (كامل أمين ثابت) هو تقريبا المدني الوحيد، الذي يرافق العسكريين رسميا، في تلك الجولة، باستثناء

المصورين والصحفيين.. وكان هذا هو الخطأ الذي بدأ مرحلة النهاية..

في أوائل يناير عام 1965 م، كان أحد ضباط المخابرات المصرية يطالع بعض الصحف العربية، عندما لفتت انتباهه صورة اللواء (على عامر)، أثناء زيارته لسوريا، وحوله أعضاء الوفد السوري، المرافق له، وتركز بصره على شخص وسطهم بالتحديد وعقد حاجبيه في شدة، وهو يعتصر ذهنه في محاولة لمعرفة متى رأي صاحب هذا الوجه بالتحديد..

وعندما تذكره أصابه الهلع، فاختطف الصحيفة، واندفع نحو مكتب (صلاح نصر)، مدير المخابرات العامة المصرية في ذلك الحين، ووضع الصحيفة أمامه، ليخبره أن هذا الرجل، الذي يرافق الوفد العسكري ليس سوريا. إنه يهودي يدعى (إيلي حوفي كوهين)، ولقد انزعج صلاح نصر في شدة، خاصة أن ذلك الضابط كان زميلا للجاسوس، في مدرسة (الليسية) الفرنسية، وحصلا معا على البكالوريا عام 1946 م.. وأن له ملفًا كاملا في المخابرات، منذ عملية التفجيرات، وهنا طلب (صلاح نصر) الملف،، وطالعه ثم حمله على الفور، إلى الرئيس (جمال عبد الناصر)..

ظل الرئيس (جمال) يقرأ الملف لأكثر من خمس وأربعين دقيقة، ثم رفع سماعة هاتفه، وطلب من سكرتاريته الاتصال بالرئيس السوري اللواء (أمين حافظ) على الفور، وما أن تم الاتصال حتى تبادل الرئيس (جمال) مع الرئيس السوري بعض عبارات المجاملة، ثم أخبره بأنه سيرسل إليه مبعوثا خاصا في اليوم التالي، يحمل رسالة بالغة الأهمية والخطورة..

وكان هذا المبعوث هو (صلاح نصر) نفسه، الذي سافر في الصباح التالي إلى (دمشق)، والتقى بالرئيس السوري، وقدم إليه الملف.. وكما حدث للرئيس جمال عبد الناصر)، أصيب الرئيس السوري بدهشة عارمة، وهو يتصفح الملف، ثم لم يلبث أن طلب حضور رئيس المخابرات السورية (المكتب الثاني)، الذي وصل بعد قليل، وطالع الملف بدوره،، وأصابه الذهول نفسه..

ففي تلك الفترة، كان موظفو اللاسلكي في السفارة الهندية يشكون من حدوث شوشرة على بعض رسائلهم، المرسلة إلى (نيودلهي)، وكان رجال الأمن السوريون يشكون في وجود جاسوس يرسل إشارات لاسلكية في المنطقة، ولكنهم يعجزون عن تحديد موقعه، نظرا لاتساع دائرة البحث، وصعوبة تتبع الإشارات اللاسلكية في ذلك الحين.. ومع المعلومات التي أحضرها (صلاح نصر)، أصبح الأمر واضحا، ومحسوما..

وبعد ساعات من هذا اللقاء، كان (إيلي) يستعد لإرسال واحدة من رسائله اللاسلكية إلى (تل أبيب)، في ليلة من ليالي يناير الباردة، عندما فوجئ بعدد من الرجال يقتحمون منزله، ويصوبون إليه مسدساتهم، ويأمرونه بعدم الحركة، وعندما ثار عليهم، رأي أمامه المقدم (أحمد سويداني)، رئيس قسم مكافحة التجسس بالمخابرات السورية، وهو يخاطبه باسمه الحقيقي..

وعندئذ أدرك (إيلي كوهين) أنه قد سقط.. وجن جنون الإسرائيليين، عندما علموا بسقوط (إيلي)، وحاولوا المستحيل لإنقاذه، وعرضوا مبادلته بدستة من المتهمين بالتجسس لصالح (سوريا)، ودفع مليون دولار لإطلاق سراحه، ولكن (سوريا) رفضت هذا بإصرار..

وفي الثامن عشر من مايو، 1965 م، اقتيد (إيلي حوفي كوهين) إلى حبل المشنقة، الذي أحاط بعنقه، ثم دفع الجلاد ذراعا معدنية، وسقط جسده في الفراغ، معلنا سقوط جاسوس، وخسارة المخابرات الإسرائيلية للجولة..

وحتى عندما خسرنا حرب 1967 م، كانت المخابرات تلعب دورها كما ينبغي، وأمكنها جلب كل المعلومات المطلوبة، وبناء عليها، اجتمع عبد الناصر بالقادة، وحذرهم من هجوم إسرائيلي، ولسبب ما، لم يتحرك أحد، كما جاء في مذكرات الفريق الجمسي... وخسرنا الحرب..

وفي فترة إعادة تكوين الجيش، والاستعداد لمعركة استعادة الأرض المحتلة، لم تتوقف عمليات المخابرات ولم تتوقف حربها، ولعل أحد أشهر ما فعلته حماية الجبهة الداخلية وتطهيرها من عدد من أخطر الجواسيس، مثل بهجت حمدان، الذي خرج من مصر بحثا عن الرزق، وعاد إليها بحثا عن الخيانة... وعلى الرغم من الحرص والحذر الشديدين، اللذين تميز بهما ذلك الجاسوس، وعلى الرغم من أنه ظل حريصا أشد الحرص على ألا يلفت إليه الانتباه أو يحيط نفسه بالشكوك إلا أن رجال المخابرات المصرية كشفوا أمره بسرعة كبيرة.

ففي تلك الفترة، في بداية الستينيات كان الإسرائيليون يتبعون تكتيكا جديدا في تعاملهم مع فئة خاصة من الجواسيس فلا يستخدمون أية وسيلة من وسائل نقل المعلومات لا أجهزة لاسلكية، أو كتب شفرة أو رسائل.. أو حتى أحبار سرية.. كان على العميل أن يكتفي باختزان المعلومات وحفظها عن ظهر قلب ثم يسافر بها إلى الخارج ويفرغها دفعة واحدة على شرائط تسجيل أو أوراق ومستندات مكتوبة.. وكان على المخابرات

العامة أن تتصدي لهذه الوسيلة بأسلوب مبتكر أو جديد.. وبعد دراسة متأنية، اتفق رأي الرجال على استخدام وسيلة أكثر تعقيدا وأكثر تكلفة، ولكنها ذات نتائج مضمونة إلى حد كبير..

فقرروا القيام بمراقبة كل الأوكار، التي تستخدمها المخابرات الإسرائيلية والمنتشرة في أقطار الأرض في شقة ذات غرفتين في (أمستردام) إلى غرفة عادية الأثاث فوق بار صغير في ميدان (رودلف) في (ألمانيا الغربية) إلى منزل سري ذي بوابة حديدية في (دسلدورف) إلى قاعة الاستقبال في فندق (ستار) في (باريس).. وكانت هذه العملية شاقة للغاية، ولكن النتائج التي أسفرت عنها وأثمرتها كانت رائعة ومدهشة إلى حد جعلها تساوي الجهد والمشقة والتكلفة ومن ضمن هذه الثمرات كانت قضية (بهجت حمدان)..

و (بهجت حمدان) ابن لأسرة بسيطة، اعتصرت حياتها لترسله إلى (ألمانيا الغربية) عام 1955 م، على أمل أن تظفر في النهاية بابن ناجح مرموق، ولكن (بهجت) خذل هذه الأسرة وانساق لتيار الفتنة والفساد في (ألمانيا) وتصادق مع عدد من الشباب المنحرف، غرق معهم في الملذات المحرمة، وأهمل دراسته تماما، حتى إنه فشل في الحصول على مؤهله طوال سنوات الدراسة وحتى عام 1958 م.. ولكن (بهجت) لم يستسلم لهذا.. لقد تزوج في تلك الأثناء فتاة تدعى (أنجريد شوالم) عاونته على الحصول على شهادة غير حقيقية، تثبت حصوله على نوع من الدبلومات الفنية الهندسية هناك، فاصطحب زوجته وشهادته، وعاد بهما إلى (القاهرة) والتحق بعمل جيد في الهيئة العامة لمشروع الخمس سنوات وكانت تلك وظيفة مرموقة في تلك الفترة..

لقد ظل طوال فترة عمله مثالا للموظف الفاسد المرتشي المستهتر، حتى بلغ به الفساد حد بيع بعض أسرار المشروع لعدد من الشركات الألمانية نظير مبلغ ليس بالكبير وانكشف أمر هذه الصفقة القذرة، ففصل من عمله على الفور..

وفي عام 1962 م، رحل (بهجت) وزوجته عن البلاد واتجها إلى (لبنان) ومنها إلى (باريس) حيث أقاما في فندق ستار أحد أوكار المخابرات الإسرائيلية في (أوروبا) وهناك استشف موظف الاستقبال أنه صيد سهل فألقى شباكه حوله وراح يتقرب إليه، ويشمله برعايته، ويصطحبه معه إلى الحفلات الماجنة وأماكن اللهو، حتى توطدت أواصر الصداقة بينهما، وبدأ الموظف يستعد لتجنيده..

وفي تلك الأثناء، كان رجال المخابرات المصرية ينفذون خطة أطلقوا عليها اسم عين الصقر ويراقبون كل أوكار المخابرات الإسرائيلية، وما إن لاحظوا تلك الرابطة التي جمعت بين (بهجت) وموظف الاستقبال الذي يعمل لحساب الإسرائيليين، والمولود في (بورسعيد) حتى وضعوا الأول تحت المراقبة فورا وبدعوا في دراسة كل حركاته وسكناته بمنتهى الدقة..

وذات ليلة، وبعد سهرة ملتهبة، صارح (بهجت) صديقه بأنه، عند مغادرته (القاهرة) حصل على بعض الوثائق والمستندات الخاصة بمشروع السنوات الخمس، وأنه يدرك فائدتها الاقتصادية، ويرغب في بيعها لمن يدفع ثمنا أكبر..

وكان هذا أفضل ما يمكن أن يتوقعه موظف الاستقبال الذي قدم (بهجت) لرجل آخر، يدعى (جورج سيمون) وأخبره أن هذا الأخير رجل أعمال وأنه يهتم كثيرا بالوثائق التي في حوزته وفي

لقائهما الأول، وافق (سيمون) على شراء الوثائق بعشرة آلاف فرنك دفعها عدا ونقدا، فسلم بهجت الوثائق وتأكد (سيمون) من أهميتها قبل أن يبدأ في اختبار بهجت نفسه، حتى أدرك أنه مستعد للتعامل مع الشيطان نفسه لو أن هذا يفيده..

فصارحه أنه سيعمل مع المخابرات الإسرائيلية.. كان الحوار يبدو مباشرا وصريحًا، على نحو يتنافى مع الأساليب التقليدية المتبعة في عالم المخابرات، ولكن الواقع أنه لم يكن عشوائيا.. فقد درس الإسرائيليون (بهجت) جيدا لفترة طويلة، وتأكدوا من أنه مستعد لعمل أي شيء في الدنيا مقابل المال قبل أن يواجهوه على هذا النحو المباشر..

ولقد بدءوا في التعامل معه على الفور، فنقلوه من (باريس) إلى (فرانكفورت) في (ألمانيا الغربية) وقدموه إلى أحد عملائهم ويدعى (بوتا) وهو من أكبر تجار البورصة في مدينة (بريمن) لتدريبه على العمل في مجال الاقتصاد ودراسة الاسواق..

واستمرت عملية التدريب هذه عامين كاملين تأكد (بوتا) بعدهما من نجاح تلميذه فعاونه على الحصول على الجنسية الألمانية التي أسقطت عنه الجنسية المصرية طبقا لقوانين تلك الفترة في أوائل عام 1967 م..

وبدأ (بهجت) في إجراء اتصالاته مع مؤسسة البترول في (مصر) لشراء بعض المنتجات البترولية، وحضر إلى (القاهرة) بالفعل مع عدد من رجال صناعة البترول الألمان وحاولوا عقد عدة صفقات، ولكن محاولاتهم فشلت تماما لأن الأسعار التي قدموها كانت تقل كثيرا عن الأسعار العالمية فعادوا إلى (ألمانيا) بخيبة أمل.. ولكن (بوتا) كان يدخر للرجل فكرة جديدة.. لماذا

لا يقتحم عالم تجارة السلاح ويحاول توريد بعض صفقات الأسلحة إلى الدول العربية و (القاهرة)؟ ...

وراقت الفكرة لـ (بهجت)، فسافر مرة أخرى إلى (القاهرة) وحاول أن يعرض خدماته على بعض المسئولين والمختصين لتوريد المعدات العسكرية والمهمات.. كل هذا دون أن يدرك أو يشك هو وجهاز المخابرات الإسرائيلي كله في أن المخابرات المصرية تتابع كل هذا خطوة بخطوة وأنها تفرش أمامه طريق السقوط حتى يمكنها اقتناصه في اللحظة المناسبة..

وبناء على توجيهات جهاز المخابرات العامة تظاهر المسئولون والمختصون بموافقتهم على إتمام مثل هذه الصفقات العسكرية مما رفع معنويات (بهجت) ومنحه شعورا بالثقة، جعله يعود إلى (بوتا) في (ألمانيا) ويلقي على مسامعه كل ما لديه فعرفه (بوتا) على اثنين آخرين، وكون الثلاثة معا شركة للتعامل مع الشرق الأوسط في مجال الأعمال الإنشائية تحت اسم (شركة نورد) وراحوا يحلمون بالفوز والربح والتفوق..

وفي أواخر عام 1968 م سافر (بهجت) مرة أخرى إلى (القاهرة) بصحبة شريكيه (ألبرت فايزر) و (وولف درابو) لدراسة العروض مع المختصين والمسئولين الذين واصلوا مجاراتهم للموقف وأبدوا استعدادهم للمضي في العملية وطلبوا من (بهجت) وشريكيه إيداع مبلغ من المال كتأمين وضمان الجدية الصفقة.. وعاد الثلاثة إلى (ألمانيا) وقلوبهم تكاد تطير من صدورهم من فرط شعورهم بالظفر والزهو والنجاح وفي منزل (بهجت) في (بريمن) جاء رجل المخابرات الإسرائيلي (سيمون) خصيصا من (تل أبيب)؛ ليخبره أنه سيحصل على مكافأة مجزية، وهذا بالإضافة إلى الأرباح الباهظة التي ستحققها العملية وستقدم له

المخابرات الإسرائيلية كافة المساعدات والإمكانيات لإنجاح هذه الصفقات ولكنها تريده أن تبذل قصارى جهده في (مصر) لجمع أكبر قدر من المعلومات عن القوات المسلحة والاستحكامات العسكرية كما تريده أن يدرس كل المحيطين به من معارف وأصدقاء من المدنيين والعسكريين ويرسل إليهم أسماء من يرى أنه يصلح للتجنيد منهم للعمل لحسابهم.. ولم يدخر (بهجت) وسعا في سبيل تنفيذ ما طلبته منه المخابرات الإسرائيلية فسافر مع شريكيه مرة أخرى إلى (مصر) وهناك سدد مبلغ ربع مليون مارك ألماني كتأمين ثم اتصل بزوج شقيقته وهو أحد العاملين بشركة (المقاولون العرب) في منطقة القناة وأبلغه أنه في سبيل القيام بمشروع هندسي ضخم لحساب الحكومة المصرية بالتعاون مع شركة ألمانية غربية وعرض عليه الالتحاق بالعمل معهم فور بدء المشروع ولوح له بمرتب يسيل له اللعاب ويتجاوز ثلاثة أضعاف راتبه الحالي..

وسقط الرجل في الفخ، وقدمه (بهجت) لشريكيه (فايزر) و (درابو) اللذين كررا العرض وأسقطا الرجل في الفخ أكثر وأكثر.. وتكررت لقاءات زوج الشقيقة بـ (بهجت) وشريكيه..

وفي كل مرة كان الحوار يتجه إلى الاستعدادات العسكرية التي تقوم بها مصر بعد نكسة يونيو 1967 م والإنشاءات التي تقوم بها لهذا الغرض ودائما كان زوج الشقيقة يتحدث أكثر ويشعر بالزهو وهو يستعرض ما لديه من معلومات حول الإنشاءات العسكرية ومواقعها وأنماطها..

كل هذا دون أن تتدخل المخابرات المصرية مرة واحدة..

ولكن عيون الصقور لم تنم قط..

لقد ظلت تراقب وترصد كل التحركات والحوارات والمناقشات حتى كان اليوم الذي شعرت فيه أن العملية تطورت كثيرا حان الوقت لإنهائها؛ لأن (بهجت حمدان) طلب من زوج شقيقته بعض الرسومات الهندسية الخاصة بالإنشاءات العسكرية والاستعدادات السرية وهي تعتبر من أدق الأسرار العسكرية ولقد سلم الرجل الرسومات المطلوبة وسيسافر بها مع شريكين إلى (ألمانيا) غدا في الثامنة والنصف مساء..

وفي الساعة الثامنة من مساء يوم الاثنين 1969 / 6 / 2 م، كانت لحظة السقوط..

وفي مبنى استجوابات المخابرات بدا (بهجت) ذاهلا شاحبا وهو يسأل بحروف مرتجفة كيف كشفوا أمره، ففاجأه رجال المخابرات المصرية بملف ضخم يحمل اسمه على غلافه مع عدد هائل من الصور والتسجيلات التي تحمل وجهه وصوته منذ لقاءاته وسهراته مع موظف استقبال فندق ستار في (باريس) وحتى تلك اللحظة التي تسلم فيها الرسومات الهندسية للمنشآت العسكرية من زوج شقيقته وأمام هذا السيل الجارف من الأدلة والبراهين انهار (بهجت حمدان) تماما وراح يبكي ويتوسل ويطلب العطف والعفو وكانت أعصابه متوترة تماما، حتى إنه كرر كتابة اعترافه ثلاث مرات ووقعه مرتين لأن أصابعه ترتجف في كل مرة...

وأثناء محاكمته لم يجد محاميا ما يدافع عنه سوى أنه يحمل الجنسية الألمانية وأن ما فعله يعتبر تجسسا وليس خيانة.. ولكن هذا لم يفد (بهجت) كثيرا.. ففي الثامن والعشرين من فبراير عام 1971 م التف حول المشنقة حول عنق (بهجت حمدان) وانتهى أمره وأمر خيانته..

و (بهجت حمدان) لم يكن أشهر جاسوس سقط في قبضة المخابرات المصرية، فهناك الأشهر، وربما دراميا أيضا، وهي (هبة سليم)، التي عرفها العامة باسم (عبلة كامل) ...

ولا أحد من خريجي كلية الآداب، في تلك الفترة من أواخر الستينيات، يمكنه أن ينسى (هبة سليم)، تلك الفاتنة، ذات الشخصية القوية، والطبيعة الصريحة المهاجمة.. كانت دائما من المتفوقات في دراستها، وبالذات في دروس اللغة الفرنسية، حتى إنها صارت صديقة شخصية للبروفيسور (جان بول)، أستاذ الفرنسية الشاب الوسيم، الذي يتقن العربية، ويتعامل مع طلاب الكلية بروح تختلف عما يتعامل بها معهم أستاذتهم الآخرون.. وكانت (هبة) تحتاج بالفعل إلى صديق، فهي تحيا وسط أسرة عجيبة، تزخر بالمتناقضات، فأبوها لا يبارح سجادة الصلاة إلا نادرا، وهو يسجد لله - سبحانه وتعالى - أو يقرأ القرآن في خشوع، في حين لا تفارق أوراق اللعب يد أمها قط.. فهي إما أن تمارس اللعب مع صديقاتها أو تفتح الأوراق لرصد الحظ، ومحاولة كشف المستقبل، الذي لا يعلمه إلا الخالق عز وجل.. وبسبب هذا التناقض العجيب، لم يكن البيت يخلو قط من الصراعات والمشاحنات والشجار، الذي قد يصل في بعض الأحيان إلى التشابك بالأيدي، بين الأم والأب..

و (هبة) تتجاهل كل هذا، وتسرح مع أحلامها الخاصة.. أحلام الثراء والشهرة والطموح، والتي عبرت عنها لصديقاتها، بأن النقود هي كل شيء في الحياة.. هي القوة، والجاه.. وعلى نحو أكثر صراحة.. هي الوطن الوحيد، الذي تنتمي إليه. ولم تكن مبالغة في قولها هذا، فهي لم تنتم أو تعبد شيئا سوى المال، في حياتها كلها..

ربما لأن والدها كان مدرسًا بسيطا، لا يزيد دخله عن حفنة من الجنيهات، في زمن لم تكن الدروس الخاصة قد عرفت فيه بعد، وكان دخله المنخفض هذا هو السبب الأعظم للخلافات المستمرة بين أمها وأبيها، والمشاحنات التي لا تنتهي في المنزل..

وذات يوم، تلقت (هبة) دعوة لحفل زفاف إحدى زميلاتها، فأعربت في سخرية، وهي تتحدث مع (جان بول) الشخص الوحيد، الذي اعتادت مصارحته بهمومها، عن أنها لا تملك ثوبا يصلح للحفل، فأهداها (جان) ثوبا للحفل.. ومن منتجات (بيير كاردان)، واعترضت (هبة) على قبول الهدية وشكرته بالفرنسية، التي أصبحت تجيدها تماما، ولكنها لم تكد ترى الثوب، حتى انهارت مقاومتها تماما، وقبلت الهدية بلا نقاش..

وكانت هذه هي البداية، فالبروفيسور (جان بول) الشاب الفرنسي الوسيم، صاحب الابتسامة الساحرة، جلس إلى مكتبه في تلك الليلة بالذات، وراح يكتب تقريرا مفصلا عن (هبة سليم)، أعلن في نهايته ترشيحه لها، للعمل في نفس الجهاز الذي يعمل هو لحسابه.. (الموساد)..

وفي الوقت الذي اجتمع فيه فريق من رجال (الموساد) لدراسة التقرير الذي أرسله عميلهم (جان بول)، كانت (هبة سليم) تخطو داخل الحفل في (القاهرة) فتتسع لمرآها العيون وتخفق لفتنتها القلوب.. وأحد هذه القلوب، كان قلب (فاروق الفقي).. كان أحد أقارب العروس، وهوى قلبه مع ظهور (هبة)، وراح يخفق في قوة ويرفرف، فطلب من قريبته، أن تقدمه إلى تلك الفتاة، التي وصفها بأنها ساحرة.. وتم التعارف بين (هبة) و (فاروق)، واشتعل الحب في تلك الليلة، ولكن..

من جانب واحد.. هو غرق في حبها حتى النخاع، في حين لم تمنحه هي سوى نظرة مدروسة، وضحكة عابئة ووعود غير منطوقة، وعندما غادرت الحفل، كانت موقنة من أن قلب (فاروق) قد أصبح خاتما في أصبعها بالفعل، وأنه مستعد لأن يفعل أي شيء من أجلها..

وعلى الرغم من أنها لم تحمل له شيئا من الحب، إلا أنها ظلت تلاعبه كالقط والفأر، طوال أسبوع كامل، فلا تمنحه شيئا، ولا هي تقطع علاقتها به، بل تقترب وتتباعد، وتمنح، وتمنع.. على نحو زاد حبه اشتعالا، في حين لم يمثل لها سوى لعبة شيطانية طريفة، ترضى طموحها وغرورها وأنوثتها.

وفي نهاية الأسبوع، ألقى (جان بول) قنبلته، وأخبرها أنه حصل لها على تذكرة سفر إلى باريس)، وإقامة مجانية لمدة أسبوعين، لدراسة الفرنسية في (السوربون).. وكادت (هبة) تجن من الفرحة، فها هي ذي ستسافر إلى (أوروبا)، التي تحلم برؤيتها منذ زمن طويل، وتتمنى لو قضت عمرها كله فيها..

وسافرت (هبة) وانبهرت بكل ما تراه في (أوروبا)، من نظافة ونظام وحسن معاملة، ورقص قلبها طربا، عندما حصلت هناك على منحة مقدارها عامان كاملان، لدراسة اللغة الفرنسية في (السوربون)..

وكان هذا أكبر مما تحلم به (هبة) حتى إنها فقدت توازنها تماما، وكادت ترقص في شوارع باريس)، التي راحت تسير فيها بخطوات سريعة، وتنتقل من الشارع إلى مترو الأنفاق لتقطع به المدينة كلها مرات ومرات.. وفي المترو، كان اللقاء مع (إيزاك)، الذي قدم نفسه إليها باسمه الحقيقي، وقال: إنه صحفي، يعمل في منظمة

خاصة لحفظ السلام العالمي، واستغرق طويلا في حديث حماسي حول متعة العمل بالصحافة وصعوبته. والعائد المرتفع الذي يدره، وهي تستمع إليه في انبهار، وعقلها يخزن كل ما تسمعه منه، ويستوعبه جيدا..

وتوطدت أواصر الصداقة بين (هبة) و (إيزاك) في قلب (باريس)، حتى سافرت في نهاية الأسبوعين، وعادت إلى (مصر) لتمم إجراءات المنحة، التي ستعود بها إلى (باريس)، مدينة الفن والنور والجمال..

وفي (مصر) استقبلها (فاروق) بلهفة شديدة، وقضت معه أسبوعا، عاش فيه أجمل وأسعد أيامه، وعلى الرغم من هذا فقد عادت فجأة إلى (باريس)، دون حتى أن تودعه، أو تبلغه بموعد الرحيل.. وكانت صدمة عنيفة للرجل، الذي راح يبكي حبة في مرارة، وشوق ولهفته إليها يتزايدان، في حين كانت هي تتنزه مع (إيزاك) في (باريس) وهذا الأخير يبحث عن وسيلة لمصارحتها بالأمر، فإذا بها تواجهه مباشرة بأنها تعلم أنه يعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية، وأنه ليس لديها أي مانع من العمل معهم، لو أنهم سيدفعون الثمن المناسب..

كانت صدمة هائلة لرجل المخابرات الإسرائيلي، فقد أثبتت (هبة) أن المال بالفعل هو وطنها الوحيد، الذي تنتمي إليه..

ولكن الإسرائيليين شعروا بالقلق، فلم يكن من السهل عليهم أبدا استيعاب تلك الصراحة المطلقة؛ لذا فقد طلبوا من (إيزاك) إحضار (هبة) إلى (تل أبيب)، ولم تعارض هي قط، وإنما ذهبت إليهم بنفس ابتسامتها، تركتهم يخضعونها لكل الاختبارات

والفحوص النفسية، التي أثبتت لهم، بما لا يدع مجالا للشك أنها ستعمل لحسابهم بكل إخلاص، طالما يدفعون جيدا...

وفي أول زيارة لها إلى (مصر) بعد عملها لحساب (الموساد)، استقبلها (فاروق) أيضا بلهفة شديدة، ودعاها للسهر معه في ملهى ليلي أنيق، وبينما كان يتطلع إليها في انبهار، فوجئ بها تعرض عليه العمل لحساب منظمة السلام الوهمية، وتطالبه بمعلومات عن المطارات السرية، التي يعرفها بحكم طبيعة عمله، فأصابه الفزع، ولكنها استخدمت معه أقوى أسلحتها.. أنوثتها.. وفي تلك الليلة، عاش (فاروق) أسعد لحظات حياته، وأغرقته (هبة) من عطرها وفتنتها ودفئها حتى إنه نسى كل شيء عن عمله وأسراره، ولم يعد يفكر في شيء سوى (هبة)، التي قرر الحصول عليها بأي ثمن..

وسافرت (هبة) هذه المرة، وهي تحمل ضمير (فاروق) في حقيبة يدها، وكلها ثقة في أنه سيمنحها أكثر مما تطلبه، ما دام يسعى لأن تمنحه هي نفسها.. وانغمس (فاروق) في المستنقع خطوة بخطوة، فلم يكد يرسل أول قائمة معلومات سرية، حتى أصبح متورطا، وعليه أن يمضي في خيانته حتى النهاية..

وعلى الرغم من ثورة الإسرائيليين؛ لأن (هبة) تسرعت كثيرا في عملية تجنيد (فاروق)، إلا أن أهمية عمله جعلتهم يبلعون غضبهم، ويهضمونه بذلك السيل من الأسرار الذي يرسله إليهم في انتظام، من موقع عمله..

وفي آخر زيارة لها، دربت (هبة) (فاروق) على أسلوب المراسلة، واستخدام الكربون السري، والشفرة، وتركته يغرق طويلا في حبها، ثم رحلت إلى (باريس)، وفي نيتها ألا تعود إلى (مصر) ثانية

أبدا.. ولكن لا تأتي الرياح بما تشتهى السفن.. لقد كشفت المخابرات المصرية أمر (فاروق)، ووضعته تحت المراقبة، وراحت تتابع عمله، وتمنحه فقط ما يمكنها التنازل عنه من أسرار، في حين أصبحت (هبة سليم) هي الشغل الشاغل لرجل المخابرات، الذي كشف أنها صارت أخطر جواسيس (الموساد) على الإطلاق، فهي قد استقرت في (باريس)، وافتتحت متجرا فخما للأزياء وأدوات الزينة، جذب إليه معظم زوجات سفراء الدول العربية هناك، حتى إنها صارت ضيفا دائما في حفلات السفارات والقنصليات، وأصبحت صديقة لعشرات من الرجال الذين يحملون أدق أسرار الوطن العربي كله ومع خطورتها البالغة، قررت المخابرات المصرية إنهاء العملية كلها، قبل حرب أكتوبر 1973 م.. وكانت الخطوة الأولى هي الإيقاع بشريكها (فاروق الفقي)، والتحفظ عليه في مكان تحت السيطرة، حتى لا يدرك (الموساد)، ولا تدرك (هبة) نفسها أنه قد هوى أما الخطوة التالية، فكانت (هبة) نفسها.. كان والدها قد حصل على إعارة للعمل في (تونس)، وكانت دائمة الاتصال به، وذات مرة بعدما أجرت اتصالها المعتاد، فوجئت بصديق لوالدها يجيبها، ويخبرها أن والدها قد تم نقله إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوص الطبية، بعد إصابته بوعكة خفيفة..

وشعرت (هبة) بالقلق الشديد على والدها، ولم ينتابها أدني شك في الأمر، فقد تم إعداد الخطة بمهارة مدهشة، من المخابرات المصرية، بالتعاون مع المخابرات التونسية، بحيث تصور الأستاذ (سليم) نفسه، أنه يعاني من وعكة صحية حقيقية، مما جعل الأمر يبدو طبيعيا، عندما تحرت المخابرات الإسرائيلية الخبر في (تونس)، واطمأنت إلى أنه بالمستشفى بالفعل.. ولأن

الأمر كان متقنا للغاية، فقد تركت المخابرات الإسرائيلية (هبة) تسافر إلى (تونس)، ولم يقلقوا بشأنها..

ووصلت (هبة) بالفعل إلى (تونس)، ولكنها لم تقض فيها سوى دقائق معدودة، فقد اصطحبها رجل المخابرات المصري مباشرة، من الطائرة القادمة من (باريس)، إلى أخرى في طريقها مباشرة إلى (القاهرة)..

وكانت صدمة هائلة لجهاز (الموساد) كله، ولعميلته (هبة سليم)، التي فوجئت بأن كل نجاحها هذا، لم يكن سوى فقاعة هواء، تحركها المخابرات المصرية في براعة، منذ زمن طويل..

ولقد أدلت (هبة) باعتراف تفصيلي، في مبنى المخابرات العامة بالقاهرة، بعد أن أطلعوها على اعتراف (فاروق)، الذي لم يشف من انهياره بعد.. والعجيب أنها كانت أكثر تماسكا منه، أو أنها كانت شاردة تسترجع أحلام عمرها كله، التي انهارت دفعة واحدة.. وعندما التف حبل المشنقة حول عنقهما أدرك (فاروق) و (هبة) أن ما ملأ حياتهما لم يكن حلما.. كما تصوراه دائما.. بل كان كابوسا..

وهذا الكابوس ليس الكابوس الوحيد، الذي عاشه من واجهوا المخابرات المصرية، فالإسرائيليون عاشوا كابوسا رهيبا معها، حتى عندما حاولوا اللعب عليها خارج أرضها، كما حدث في عملية جاسوسهم (باروخ)...

و (باروخ زكي مزراحي) هذا هو يهودي مصري، ولد بـ (القاهرة) عام 1926 م، وكان والده (زكي مزراحي) واحدا من تجار الدخان، في شارع (كلوت بك)، وكان ثريا إلى الحد الذي سمح له بإلحاق ابنه (باروخ) بمدرسة (الفرير)، قبل أن يتوفى عام 1933 م، إثر

إرهاق شديد في العمل.. وعلى الرغم من وفاة الوالد، راحت أم (باروخ) تعمل بجد وبلا كلل لتوفر لأبنائها حياة قريبة من تلك التي وفرها لهم والدهم، واشتهرت بين جيرانها بأنها خياطة بارعة تتقاضى أجرا يتناسب مع مهارتها وذوقها الرفيع، بحيث نجحت في إلحاق (باروخ) في سبتمبر 1940 م بمدرسة (الفرير) الثانوية، المعروفة باسم مدرسة القديس (يوسف)، وحصل منها على شهادة التوجيهية) من القسم الأدبي عام 1944 م، والتحق في العام نفسه بكلية التجارة جامعة (القاهرة)، وتخرج فيها عام 1948 م، مع تخصص في شعبة المحاسبة.. وفي نفس عام تخرجه، عمل (باروخ) في شركة (كونزلز) لاستيراد المعلبات والمحركات، ثم انتقل في عام 1950 م للعمل في شركة (بخكو) للأدوية والأدوات الجراحية، وظل يعمل فيها لمدة عشرة أشهر، انتقل بعدها للعمل كمدرس، في مدرسة الأقباط الكبرى الثانوية لتدريس اللغة الفرنسية، وكان عمله ينتهي فيها في الرابعة عصرا، حيث يعمل حتى المساء في شركة سمسرة، تحمل اسم (دانيال نبياه وشركاه)..

وأصبح (باروخ) موظفا ثريا، بالمعنى المعروف في تلك الأيام، يقطن شقة أنيقة، تحوي كل متطلبات العصر، ويرتدي أفخر الثياب، ويتعطر بأغلى العطور، ويكفل أمه وشقيقته (إيفيت) وشقيقه (ماير)، وكل شيء يسير معهم على ما يرام. حتى ظهرت (فورتينيه).. كان هذا في عام 1955 م، عندما التحقت (فورتينيه) الفاتنة الشقراء بنفس المدرسة، التي يعمل بها (باروخ)، وأصبحت زميلته في العمل.. ومنذ اللحظة الأولى التي وقع فيها بصره على شعرها الذهبي وابتسامتها الساحرة، غرق (باروخ) في غرامها حتى النخاع، وراح يتقرب منها في لهفة

واضحة، وهي تسمح له بالاقتراب إلى حدود مدروسة، ثم تصده وتمنعه عن الاستطراد في حنكة وصرامة، تمتزجان برقة وإغراء يفتنانه، ويخلبانه لبه وصوابه، حتى إنه عرض عليها الزواج..

كان يتوقع منها الشعور بالمفاجأة، أو الخجل، أو حتى إشاحة رقيقة بوجهها، ولكن ما فعلته كان مدهشا للغاية.. لقد تطلعت إليه لحظة بابتسامة ظافرة، وتألق الزهو في عينيها واضحة، ثم لم تلبث أن حولت كل هذا إلى ضحكة مجلجلة، تموج بالانتصار والخيلاء، وعلى الرغم من هذا، فقد رفضت عرضه؛ لأن عائلتها كلها قررت الهجرة إلى (إسرائيل)..

حاول إقناعها بالبقاء في (مصر) مشيرا إلى أن كليهما يتمتع بوظيفة ممتازة، ووضع مالي جيد، ولكنها تشبثت برأيها وحسمت الأمر بأن الوسيلة الوحيدة هي أن يهاجر هو أيضا إلى (إسرائيل).. أو يفترقان تماما..

وتحت ضغط الهوى والحب، أقنع (باروخ) أمه بالهجرة إلى (إسرائيل)، وحملها رغما عن إرادتها إلى السفينة، التي حملتهما إلى ميناء (بيريه) وهما يذرفان الدمع مع غيار أضواء مدينة (الإسكندرية) خلف الأمواج، في السادس من فبراير عام 1957 م، وبصحبتهما الفاتنة (فورتينيه) وعلي شفتيها ابتسامة ظافرة، لم يدرك (باروخ) معناها، حتى عندما التقى بمندوبي الوكالة اليهودية في (بيرية)، ولاحظ استقبالهما الحار لصديقته (فورتينيه) ومعرفتهما الواضحة بها، قبل أن ينتقل الجميع إلى باخرة أخري حملتهم إلى ميناء (حيفا)، حيث أرض الميعاد، التي حلموا بها طويلا..

وهناك، في قلب (إسرائيل)، راحت الصدمات تتوالى.. كانت الصدمة الأولى هي أنه سينتقل مع أمه، للعيش في مستعمرة (ميجان ميخائيل) حيث تعمل أمه في حياكة الملابس، ويعمل هو كفلاح أجير.. والصدمة الثانية هي أن حياته في (أرض الميعاد)، لن تساوي ذرة من حياته في (مصر)، إذ يكفيه أجره بالكاد، ليعاني شظف العيش، ويجد مأوى متواضعا، ويتناول ثلاث وجبات أشد تواضعا.. أما الصدمة الكبرى، التي زلزلت كيانه، وحطمت كل أحلامه، فهي أن زواجه من (فورتينيه) مستحيل، لأن القوانين الإسرائيلية تحظر زواج اليهودي من فتاة ليست من أم يهودية..

ولم تكن هذه نهاية الصدمات، بل تواصل الأمر بانتقاله إلى (حيفا)، وعمله هناك كرجل شرطة، بأجر تافه ضئيل، واضطراره للعيش في مسكن مشترك، مع يهودي شرقي آخر، ومعاناته من سوء معاملته، باعتباره أحد يهود (الإشكنزيم)، من الطبقة الثانية، وفي النهاية زواج (فورتينيه) من يهودي ثري، وانقطاع آخر أمل له في الزواج منها..

وعلى الرغم من كل هذا، لم يبق (باروخ) بلا زواج.. لقد التقى، أثناء عمله في شرطة الآداب، بزميلته (مارجريت) فوقع في حبها من أول نظرة، وغرق في بحر الهدوء المطل من عينيها الحانيتين، وسرعان ما تزوجها، وبدأ حياة أسرية جديدة، ينفق عليها من الإتاوات والرشاوى، التي يتقاضاها من قطط الليل، لغض البصر عن نشاطهن..

وذات يوم، استدعاه رئيسه، وقال له في لهجة آمرة حازمة أنه قد رشحه لعمل مهم، وطلب منه أن يذهب غدا إلى مكتب المخابرات، ويقابل رئيسه (حاييم أيدولوفيتش).. ومن هنا كانت

البداية.. لقد التقى في الصباح التالي بمدير مكتب المخابرات المحلي، البولندي الأصل الذي تفحصه بنظرات سريعة، ثم أبلغه أنه تم تعيينه في جهاز المخابرات الإسرائيلي، وأسند إليه مهمة مراقبة نشاط بعض الشيوعيين، في قلب (إسرائيل).. وانغمس (باروخ) فجأة في هذا العالم.. كان يغمر رئيسه بتقاريره بالغة الخطورة عن نشاط الشيوعيين في (إسرائيل) ويتقاضى مكافآت سخية مقابل هذا، وبرع في عمله كثيرا، حتى استدعاه (حاييم) ذات يوم، وابتسم ابتسامة كبيرة، وهو يطلب من أن يذهب لمقابلة شخص مهم، في قهوة (فيرد) شمال شارع (ديزنجوف) في (تل أبيب)، في تمام السادسة مساء.. وذهب (باروخ) في الموعد تماما.. وبدأ خطوته الثانية في عام المخابرات.. في البداية أسندوا إليه بعض أعمال الترجمة، لتقارير واردة من العملاء الأجانب، ثم استدعاه المدير ذات مرة، وأخبره أنهم سيرسلونه في مهمة إلى (هولندا) حيث افتتحوا مكتبا تجاريا هناك، كغطاء لأعمال التجسس..

وفهم (باروخ) ما يعنيه الأمر، وسافر إلى (هولندا)، وهناك أقام علاقات جيدة مع المصريين المقيمين في العاصمة الهولندية، ونشطت علاقته بهم، وجمع قدرا كبيرا من المعلومات، جعله يؤكد أن مستوى الوعي الأمني عند العرب منخفض للغاية، فما أن يبدأ الحديث مع أحدهم، حول موضوع ما، حتى ينطلق مثرثرا، ويروى كل ما لديه عنه، مهما بلغت سرية الأمر!!!

وبعد النجاح الساحق لمهمته في (هولندا) عاد (باروخ) إلى (تل أبيب)، ولم تمض فترة قصيرة حتى استدعاه مديره مرة أخرى، وقال في لهجة تشف عن أهمية الأمر وخطورته: إن المصريين قد ضربوا إحدى السفن الإسرائيلية، أمام باب المندب، وهذا ما

دفعهم إلى أن يسندوا إليه مهمة بالغة الخطورة، يعلقون آمالا كبيرة على نجاحه فيها، وأن رئيسة الوزراء شخصيا، شديدة الاهتمام بما سيحققه فيها؛ إذ سيسافر أولا إلى (عدن) ثم اليمن الشمالية وبعدها إلى دولة الإمارات..

ويريدونه أن يجمع أكبر قدر من المعلومات عن هذه البلاد ويتابع نشاط منظمة التحرير الفلسطينية فيها، ويريدون أن يعرفوا بالتحديد، هل يتدرب الفدائيون هناك على ضرب ناقلات البترول الإسرائيلية في البحر الأحمر؟

وشعر (باروخ) بأهمية المهمة وخطورتها، وهو يبدأ رحلته، بجواز سفر مغربي، يحمل اسم (أحمد الصباغ) وعلى كتفه، كأي سائح عادي، آلة تصوير جيدة، تساعده على الحصول على الأهداف الحيوية، وقبل أن يستقل طائرته بأقل من ساعة، جال بخاطره أمر مقلق.. وماذا لو انكشف الأمر؟

وعندما صارح رئيسه (موردخاي) بهذا، انفجرت عاصفة من الضحك في مقر المخابرات، وأخبروه في ثقة، أن الخطة التي يضعها عباقرة الموساد، يستحيل أن يكشفها عرب متخلفون..

وهكذا غادرهم (باروخ)، وهو يشعر بالزهو والغرور، لأنه يعمل في جهاز خطير ودقيق، مثل المخابرات الإسرائيلية..

وسافر إلى (عدن)، وأنهى مهمته فيها بنجاح، ثم إلى اليمن حيث أقام في فندق الأخوة في (الحديدة)، وبدأ هناك عمله في ثقة وبساطة، فراح يتجول في الأسواق، وبالقرب من الميناء، حاملا آلة التصوير المعلقة بكتفه، والتي يلتقط بها عشرات الصور للميناء، والسفن الراسية فيه، وإجراءات الأمن من حوله، ثم يعود إلى حجرته في الفندق باسم الثغر، شديد الزهو

والهدوء..... ولكن فجأة، وفي نفس اليوم الذي استعد فيه للسفر إلى (أديس أبابا)، فوجئ بشابين من رجال الأمن اليمنيين في حجرته، يسألانه في لهجة مهذبة تفتيش حجرته، فحاول الاعتراض، وثار ثورة مصطنعة، وهدد بالاتصال بسفارة المغرب، ولكن أحدا لم يعره انتباها، وعثر الشابان على الأفلام، فصاح مؤكدا أنها مجرد صور تذكارية للرحلة، ولكن أحدهما دس يده في جيب (باروخ)، وأخرج الرسوم الكروكية للميناء والمواقع العسكرية اليمنية، وهو يتساءل: أهذه؟.. رسوم تذكارية أيضا؟!..

وأسقط في يد (باروخ)، واستسلم لهما وهما يقودانه إلى مبنى التحقيقات، ولكنه ظل يصر على أنه مغربي الجنسية، إلا أن اليمن كانت قد أبلغت المخابرات المصرية بسقوط الجاسوس، الذي حذرتها (مصر) من أنه سيصل إليها مسبقا، بعد أن نقل إليها أحد عيونها المعلومة، من قلب إسرائيل، وأرسلت (مصر) ضابط المخابرات المصري الأسمر، الذي واجهه، وكشفه أمام نفسه، ثم حمله معه إلى القاهرة....

لم تكن رحلة الضابط المصري مع الإسرائيلي (باروخ زكي مزراحي)، من (اليمن) إلى (القاهرة) سهلة أو هينة، بل كانت مغامرة عنيفة، تستحق مجلدا ضخما لسردها، خاصة مع محاولات (الموساد) المستميتة لاستعادة ضابطهم، ولكنهما في النهاية وصلا إلى (القاهرة)، وتسلمت السلطات (باروخ) وقبل أن يبدأ (إسماعيل مكي)، نائب المدعي العسكري العام تحقيقاته معه، مال نحوه، وأخبره بابتسامة هادئة، إن زوجته (مارجريت) رزقت بمولودة أمس، وهي في حالة جيدة.. وهنا انفجر (باروخ) باكيا، واعترف بكل شيء..

ولم تكلل حياة (باروخ) بالانتصارات وأكاليل الغار، كما كان يتوقع، بل كان سقوطه عنيفا مدويا، زلزل كيان جهاز حكما بالسجن المؤبد، في زنزانة عادية في القاهرة التي ولد فيها، والتي شهدت صباه وشبابه، و ... وسقوطه..

وقصص السقوط في تاريخ المخابرات عديدة، لن تكفيها صفحات في صحيفة، أو حتى صحيفة كاملة، فمن (إبراهيم سعيد شاهين) و (انشراح على موسى) إلى (سامي نافع) إلى الدكتور (إسرائيل بيير)، مستشار الأمن القومي الإسرائيلي والذي لم يعرف، حتى لحظة سقوطه، أنه كان يعمل لحسابنا، من خلال عشيقته (كلارا)، إلى (محمد العطار) و (محمد سيد صابر) حديثا، ولكن عمل أجهزة المخابرات لا يقتصر على جمع المعلومات وزرع العيون، وإسقاط الجواسيس فحسب، بل يمتد أيضا إلى حماية الأمن القومي بشتى الطرق، ولقد تبين هذا قديما، من خلال النشاط المكثف الجهاز المخابرات، في الفترة من نكسة يونيو، وحتى نصر أكتوبر 1973 م، ففي تلك الفترة، قررت المخابرات أنه من صميم عملها، توعية المواطنين بضروريات المرحلة المقبلة، وكان هذا إيذانا ببدء الخطة، التي تعتمد على شن حملة ضخمة، على كل المستويات لتوعية الناس بضرورات الأمن، وتعريفهم بأساليب العدو في جمع المعلومات، ومنعهم من الإفضاء بما لديهم في كل مناسبة وبدون مناسبة وسد الثغرة التي تتسرب منها الأسرار..

وعندما بدءوا خطتهم، كانوا يدركون جيدا أن الخطوة الكبرى والأولى، بل والعمود الفقري للخطة كلها هي الدين، فلابد أن يدرك الناس، من خلال جهات يمنحونها كل ثقتهم ضرورة كتمان الأسرار.. ولا توجد جهات لهذا الغرض، أفضل من دور

العبادة، فغالبية المواطنين يترددون عليها بانتظام، ويؤدون فيها مناسكهم وصلواتهم، والتوعية من خلالها ستجد حتما الصدى المطلوب في نفوس الجميع.. ولتحقيق هذا الغرض، كان من الضروري أن يفهم رجال الدين الفكرة، ويستوعبوها، ويقتنعوا بفائدتها وضرورتها، حتى يمكنهم نقل هذا إلى مستمعيهم وعلى الرغم من أن طبيعة العمل في أجهزة المخابرات لا تميل قط - بل وربما تتنافى تماما - مع العلانية، والاجتماعات الرسمية، إلا أنه كان من الضروري أن يعقد الرجال اجتماعات موسعة مع رجال الدين، من شيوخ وقساوسة، ليتحدثوا إليهم مباشرة، ويشرحوا لهم فكرتهم والأسلوب الأمثل لتعاونهم معه على تحقيقها.. وكانت الفكرة ناجحة بحق.. لقد اقتنع الجميع بالفكرة بسرعة، ولقد أضفى قيام رجال مخابرات بشرح القضية جدية وخطورة على الموقف، فتفاعل معهم رجال الدين في حماسة، واستوعبوا الموقف كله، واتفقوا معهم في الرأي تماما..

وفي الأيام التالية. بدا من الواضح أن الفكرة كانت مدهشة وناجحة إلى حد مذهل، فقد انطلق خطباء المساجد، والقائمون على الوعظ في الكنائس، ينبهون الناس إلى ضرورة التزام الصمت، حتى لا يستفيد العدو من ألسنتنا، وكان لحماسهم وإخلاصهم أثره البالغ في استجابة جموع الشعب للفكرة بسرعة مدهشة، كما اتضح بشكل قاطع في السنوات التالية.. ولكن الجعبة لم تكن قد فرغت بعد.. فبعد رجال الدين، جاء دور الطوائف الأخرى، التي يمكنها التأثير في الجماهير، التي تكتسب ثقتها واهتمامها، مثل الأدباء والصحفيين، ومؤلفي الأغاني ومعد التمثيليات، ومخرجي المسلسلات الإذاعية والتليفزيونية..

صحيح أن هذا يتعارض كثيرا مع نظم العمل في أجهزة المخابرات، التي تحبذ السرية والصمت، إلا أنه أروع ما في هذه النظم هو أنها ليست جامدة أو متحجرة، وإنما يمكنها أن تتغير وتتبدل، طبقا للظروف ومقتضيات الموقف..

ومن هذا المنطلق، شرح الرجل الفكرة للحشد الذي اجتمع لينصت إليه، وطلب منهم أن يعملوا على شد انتباه المواطنين، من خلال ما يقدمونه من مقالات وكتب، وروايات، وأعمال فنية وترفيهية، إلى الخطر الرهيب، الكامن في الأحاديث غير المسئولة في الشوارع والمصانع ووسائل المواصلات، وينبهوهم إلى مزايا الصمت والتكتم، وحجب أنباء المنشآت والأسلحة والنوايا..

ومرة أخرى أتت الفكرة ثمارها على نحو مدهش.. لقد انطلق سيل من الروايات، والكتب، والمقالات والمسلسلات، والبرامج الإذاعية والتليفزيونية يغمر وسائل الإعلام ويملأ أسماع وعيون وعقول الناس، على نحو لم يسبق له مثيل.. وفي حماسة، التفّ الناس حول أجهزة الراديو، لمتابعة مسلسل (كلاب الحراسة) الذي كتبه (كمال إسماعيل)، ابن الراحل محمود إسماعيل)، وأخرجه للإذاعة الفنان (على عيسى)، ثم لم يلبث المسلسل أن تحول إلى (التليفزيون)، من إخراج (نور الدمرداش)، فتضاعف نجاحه مرات ومرات.. وتواصل السيل، ليكتب (محمود صبحي) في برنامج (عيلة مرزوق أفندي)، ويكتب (رأفت الخياط) (البعثة 69) ويقدم (محمد كامل) (المصيدة)، في حين أخرج (محمد شرابي) عشر تمثيليات في برنامج (صور من الحياة) حول الفكرة نفسها، وقدم (علي عيسى) برنامجين ناجحين (من قصص الجاسوسية)، و (الحرب النفسية) كما سارع (فائق إسماعيل)

بمسلسلين (اللصان والجاسوس)، و (لا أسمع.. لا أرى.. لا أتكلم)..

ومع تقديم هذه الأعمال تضاعف الحماس أكثر وأكثر، وتصاعدت درجة الوعي، وبدأ الناس يدركون أهمية إمساك الألسنة.. ولكن الحملة لم تتوقف.. والسيل لم ينقطع لقد قدم (محمد سعيد) برنامج (جند الله)، في حين تبني مذيع البرامج الدينية الأشهر (أحمد فراج) الفكرة في برنامجه (نور على نور)، وجذبت الإذاعة الأذان والعقول والقلوب بثلاث خماسيات، لاقت نجاحا كبيرا في حينها، وهي (تذكرة إلى أثينا)، و (كمين)، و (صراع حتى النهاية).. وفي نفس الوقت كان العشرات من أصحاب الأقلام يقدمون المقالات، في الصحف المختلفة، مثل (حسين فهمي)، و (أنيس منصور)، و (عبد السلام داود)، و (صلاح هلال)، و (جميل عارف)، و (عبده مباشر)، وغيرهم..

وعلى الرغم من كل هذا النجاح، ومن أن الدعوة قد وجدت طريقها إلى مختلف قطاعات الشعب على نحو شديد الإلحاح والاستمرارية، إلا أن المخابرات كانت تشعر أن شيئا ما ينقص.. صحيح أن الناس تدرك خطورة التشدق بالمعلومات، والتباهي بالأهداف، إلا أن العديد منهم ما زالوا يتخذون موقفا عدائيا من جهاز المخابرات العامة بعد المناخ الذي ساد عقب نكسة يونيو 1967 م، والذي حاول البعض خلاله تشويه صورة الجهاز، والانتقاص من قدره، ونسب العديد من الأعمال المنافية للأخلاقيات إليه، دون مبرر أو دليل.. وكان من الضروري أن يتم تحسين هذه الصورة، وتعريف الناس بحقيقة عمل المخابرات العامة، وبأنها الدرع الواقية للبلاد، والسبيل الأمثل لحماية الوطن من أعدائه خارج الحدود وداخلها، وفي سبيل هذا الهدف

النبيل، فإنها تسعى للحصول على معلومات عن العدو وتأمين أفراد الشعب ومعداته ومنشآته، بمكافحة التجسس والتخريب، وأنه لا صلة لها قط بأعمال القمع، التي لم تدخل في نطاق عمل المخابرات.. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف الجديد، استعانوا بواحد من أوائل من توغلوا أدبيا في عالم المخابرات، وهو الراحل (ماهر عبد الحميد)، الذي بدأ يكتب مقالات أسبوعية، في إحدى الصحف الكبرى، للتعريف بعمل المخابرات (السري) وأهميته..

وكان لهذه الخطوة، كسابقاتها، تأثير مدهش على الناس، الذين أدركوا وربما لأول مرة، مقدار الجهد الذي يبذله رجال المخابرات العامة المصرية والمخاطر التي يتعرضون لها ويواجهونها، وأهميتهم البالغة في الحفاظ على أمن الوطن وسلامته..

ونجحت الحملة أكثر وأكثر، حتى إن جريدة (جيروساليم بوست) الإسرائيلية قد نشرت مقالا، في عددها الصادر بتاريخ 26/04/1972م، تحذر فيه بشدة من مغبة الحملة المكثفة، التي تقوم بها الأجهزة المصرية والإعلام المصري، لتوعية الشعب وإقناعه بضرورة الصمت وكتمان الأسرار، وتقول إن تأثير هذه الحملة لن يؤدي إلى تقليص كمية المعلومات، التي يجمعها عملاء المخابرات الإسرائيلية فحسب، وإنما سيمتد إلى تغيير وتبديل مواقف بعض العملاء الذين يعملون ضد الدول العربية الأخرى أيضا، ثم تؤكد ضرورة أن تعيد المخابرات الإسرائيلية تقييم موقفها، في ظل هذه الحملة المكثفة..

ولقد تواصل هذا الأمر حتى حرب أكتوبر، التي كان للمخابرات دور شديد الفاعلية في التمهيد لها، ولا نعني هنا تجنيد العملاء

وزرع العيون، وإسقاط الجواسيس أيضا، ولكن دورها المميز في خلة الخداع الاستراتيجي، التي سجلها التاريخ، كواحدة من أعظم وأنجح خطط الخداع كافة، إذا اعتمدت فيها المخابرات على مبدأ جديد، ألا وهو أن تترك العدو يرى ويسمع.... ولكن لا يفهم... وهنا تكمن العبقرية..

فعندما اقتربت ساعة الصفر، وبدأ العد التنازلي لحرب أكتوبر، وبلغت حرارة الرجال حدا مخيفا، على الرغم من انخفاض درجات الحرارة الفعلية، ووصلوها إلى معدلات معتدلة، بالنسبة لهذه الفترة من العام.. فكل شيء ينبغي دراسته بمنتهى الدقة والعناية، حتى أدق أدق التفاصيل بحيث تمضي الخطة في مسارها، دون أن ينتبه العدو، أو تلتقط عيونه لمحة واحدة، يمكن أن تفصح عما يديره جيشنا، وتعده له قيادتنا السياسية والعسكرية.. ولم يعد هناك وقت للنوم.. الجميع صاروا يعملون ليلا ونهارا، بلا انقطاع تقريبا، وكل فريق منهم يعيد دراسة الأمور، وتقييمها، في ظل ما يستجد من معلومات، يتولى عددا من أمهر الجواسيس والعملاء جميعها بلا هوادة، من كل المصادر الممكنة، في قلب النسيج الأساسي للعدو.. وكلما برزت مشكلة، كان على الرجال أن يفحصوا ويمحصوا، ويجاهدوا للبحث عن أفضل الحلول لها، وبأكثر الوسائل سلامة وأمنا..

وفي الوقت ذاته كانت هناك مشكلات معتادة وتقليدية، في كل الحروب يدركها ويعلمها العدو، تماما مثلما ندركها ونعلمها ومن الضروري أن يجد الخبراء لها حلوة مبتكرة وجديدة، بحيث لا ينتبه العدى إلى هذه الحلول التي تقوده بالطبع إلى وجود المشكلة وارتباطها الحتمي بقرب اندلاع الحرب.. ومن أكبر هذه المشكلات وأكثرها أهمية، مشكلة توفير أماكن العلاج للمصابين

الذين قدر الخبراء أنهم سيبلغون خمسين في المائة في موجة العبور الأولى، ثم يتناقص العدد بعدها تدريجيا.. وطبقا لتقديرات الخبراء، كان من الضروري، بل من المحتم أن يتم إخلاء عدد من المستشفيات المدنية؛ حتى يمكنها استقبال كل هذا العدد الذي لن تستوعبه مستشفيات القوات المسلحة وحدها حتما..

ومن أجل هذه المشكلة، اجتمع الرجال كثيرا وطويلا، وراحوا يدرسون ويفكرون، ويناقشون ويتجادلون، حتى يمكنهم إيجاد سبب منطقي لإخلاء المستشفيات، دون أن يثير سبب طبي بحت هذا العدو..

وبعد سبع ساعات واثنتي عشرة دقيقة بالتحديد، وصل إلى إحدى الوحدات العسكرية في السويس قرار من إدارة شئون الضباط القوات المسلحة، بتسريح ضابط طبيب من الخدمة، وعودته إلى الحياة المدنية.. ولما كان ذلك الإجراء نادر الحدوث، في تلك الفترة، فقد أظهر الضابط الطبيب فرحته وسعادته، وهمس للمقربين إليه بأن جهود خاله الذي يحتل مكانة رفيعة في القيادة، هي التي منحته هذا الامتياز، وأعادته إلى الحياة المدنية، حتى يمكنه استكمال دراساته العليا، التي توقفت مؤقتا، بسبب التحاقه بكلية ضباط الاحتياط منذ عدة سنوات وكإجراء طبيعي، لم يكد الطبيب (ع) يعود إلى حياته المدنية، حتى تسلم وظيفته السابقة في وزارة الصحة، التي تركته على قوتها ليومين أو ثلاثة قبل أن تمنحه خطاب التعيين في مستشفى (الدمرداش) الذي وقع عليه الاختيار ليكون على رأس قائمة المستشفيات المطلوب إخلاؤها، قبل أن تنشب الحرب..

والتحق (ع) بالعمل بالمستشفى، وأبدى نشاطا ملحوظا ومهارة وكفاءة في عمله في قسم الجراحة.

وقبل أن يمضي أسبوع واحد على تسلمه العمل، حتى كان يتقدم بمذكرة إلى مدير المستشفى، مؤكدا فيها أن حجرة العمليات، ومعظم عنابر المستشفى ملوثة بميكروب التيتانوس..

كان الأمر شديد الخطورة، ولم يخضع المدير له في سهولة، وإنما قرر القيام بفحص شامل، وإجراء عدد من التحليلات قبل اتخاذ أي قرار في هذا الشأن.. وتم جمع العينات المطلوبة، وإجراء كل الفحوص الممكنة.. ثم أتت النتائج.. والمدهش أنه وعلى الرغم من خلو المستشفى فعليا من الميكروب، إلا أن كل النتائج إيجابية وكأنما تحول مستشفى (الدمرداش) إلى مزرعة انشطة الميكروب التيتانوس بالذات.. وصدر قرار بإخلاء المستشفى تماما من المرضى لتطهيره من الميكروب، وتم اتخاذ كل الإجراءات اللازمة لهذا..

وبسرعة، ووفقا لخطة المخابرات، التي اعتمدت على تعاون الصحافة وتأثير الكلمة المطبوعة على مشاعر الجماهير، وبخاصة لو كانت كلمة لكاتب يحترمه الجميع، ويثقون بما يقول ويكتب تمام الثقة، قرر الرجال تحويل ما حدث في المستشفى، إلى فضيحة صحفية، ومن هذا المنطلق، وفي السادسة صباحا ارتفع رنين الهاتف في منزل الكاتب الصحفي المعروف (م ص) الذي استيقظ على الفور، والتقط سماعة الهاتف في سرعة، ووصلة الخبر من مصدر مجهول وكانت الفضيحة المقصودة.. والمدروسة بدقة..

وفي الصباح التالي مباشرة، نشرت جريدة الأهرام خبر إخلاء مستشفى (الدمرداش) من المرضى، بسبب تلوث معظم عنابره ميكروب (التيتانوس).. ثم جاء دور الأستاذ (م).. وفي مقال ملتهب استنكر (م) ما حدث في مستشفى (الدمرداش) وعزاه إلى الإهمال والاستهتار، ثم تساءل في النهاية عما إذا كان الأمر يقتصر على هذا المستشفى وحده، أم إن مسلسل الإهمال قد بلغ بعض المستشفيات الأخرى؟! وفي اليوم التالي خرج بمقال آخر، حول الموضوع نفسه..

ثم مقال ثالث.. ورابع.. ومع رد الفعل الجماهيري، وبناء على هذه الحملة الصحفية الساخنة، أصدرت وزارة الصحة قرارا بإجراء تفتيش على باقي المستشفيات.. والطريف أنها أسندت هذه المهمة للطبيب (ع) نفسه، من قبيل المصادفة!!..

وانطلق (ع) يواصل مهمته، ويجري التفتيش على عدد كبير من المستشفيات، من ضمنها تلك التي تحتل القائمة، التي وضعها رجال وزارة الدفاع والمخابرات العامة..

ولم يكد أول أكتوبر يأتي حتى كان العدد المطلوب من المستشفيات قد تم إخلاؤه نهائيا، ونشرت جريدة الأهرام تحقيقا علنيا حول هذا الأمر، مع صور الأسرة الخالية، وعمليات التطهير المستمرة.. والتقط رجال المخابرات أنفاسهم في ارتياح لنجاح الخطة، ثم عادوا يكتمونها في قلق شديد، خشية أن يكشف العدو الأمر، قبل اندلاع الحرب.. ولكن هذا لم يحدث والحمد لله..

فبعد ستة أيام بالتحديد، نشبت حرب أكتوبر، واندفعت موجة العبور الأولى تشق قناة السويس، وتعبر حاجز الهزيمة، وتحتل

أقوي خط دفاعي في التاريخ، وتحطم أسطورة الجيش الإسرائيلي، الذي أشاع أنه لا يقهر أبدا..

وخفقت قلوب الرجال في حماس وزهو لا يخلوان من الدهشة والتقدير.. لقد تحقق عامل المفاجأة إلى أقصى حد، وبوغت العدو تماما لعملية العبور، حتى إن معدلات الخسائر، التي قدرها الخبراء بخمسين في المائة في موجة العبور الأولى انخفضت حتى لم تتجاوز العشرة في المائة، وهو أقل معدل خسائر عرفته الحروب الحديثة، في عملية عبور مانع مائي حصين كهذا وعندما تحركت كتائب الإسعاف؛ لنقل المصابين إلى الخطوط الخلفية، وتوفير أفضل عناية ورعاية لهم، كانت كل المستشفيات المطلوبة خالية، ومعدة لاستقبالهم، وتوفير كل الخدمات الطبية لكل واحد منهم.. هذا لأن الخدعة قد نجحت نجاحا منقطع النظير.. لقد شاهد العدو.. وقرأ.. وسمع.... ولم يفهم هذا بالطبع ليس كل تاريخ المخابرات العامة في مصر، وليس حتى جزءا منه... إنه فقط لمحة، من حرب اشتعلت منذ سنوات عديدة، ولم ولن تتوقف لحظة واحدة، حتى نهاية العالم، لأنه في عالم التخابر، لا عين تغفل، ولا أذن تنام، ولا حتى الثانية واحدة؛ فعلى الرغم من انتهاء الحروب الرسمية، فعمل أجهزة المخابرات يستمر ويستمر، لأن عملها في فترة السلم، يكون دوما أكثر خطورة وصوبا من عمالها في زمن الحروب، على عكس ما يتصور الكثيرون، لأنه يعمل على حماية الجبهة الداخلية من أعداء لا يسفرون عن عدائهم، كما يفعلون في الحروب الصريحة..

باختصار، فالمخابرات أشبه بأنفاسك، تلتقطها طوال الوقت، ولكنك لا تشعر بهذا، إلا لو عانيت مشكلة في التقاطها.. كذلك

المخابرات، تعمل طوال الوقت بكفاءة، فلا تشعر بوجودها، إلا لو أصابها قصور ما... السؤال إذن هو: هل تعاني مشكلة، في التقاط أنفاسك؟!...

هل؟!.

☆ ☆ ☆

26- طاقية الإخفاء..

منذ حداثتنا، انبهرنا واستمتعنا كثيرا بعدد من الأفلام والروايات، العربية والعالمية، التي تدور حول نقطة واحدة..

الاختفاء..

فمنذ خبر الإنسان الدنيا، وتعلم الخوف منها، ومن أعدائه والوحوش، وحتى الطبيعة نفسها، راوده حلم لم يفارقه أبدا.

حلم القوة، والسطوة، والسيطرة..

حلم التفوق على الأعداء والمخاوف..

كل الأعداء..

وكل المخاوف..

ولأن الخوف جزء من تكوينه، والشك والحذر مكون أساسي في انفعالاته، فقد تحول هذا الحلم، إلى رغبة دفينة في حماية كيانه ونفسه، وإخفاء جسده عن أعدائه، من البشر والوحوش..

ومن هنا، بدأ حلم الاختفاء..

وفي الميثولوجيا النرويجية القديمة، نجد أول ذكر للاختفاء، وربطه بالقوة المطلقة، في أسطورة تتحدث عن قزم يحكم العالم السفلى، ويثير الرعب والفزع في النفوس، حتى يظهر الفارس الأسطوري البطل، الذي يواجهه، ويهاجمه، ويدحره، ثم يفوز منه بالغنائم، وعلى رأسها رداء الإخفاء، الذي يخفي لابسه عن الأنظار، ويمنحه قوة، ما بعدها قوة..

ومع الأسطورة، بدأ حلم الإنسان برداء الإخفاء، أو قلادة الإخفاء، أو كما نعرفها ويعرفها البسطاء في مصرنا (طاقية الإخفاء)..

ولقرون عديدة بعد الأسطورة النرويجية، ظل حلم الاختفاء مجرد خيال، يسرح فيه الناس أحيانا، ويفكرون فيه بعض الوقت، حتى جاء كاتب الخيال العلمي، والأديب والصحفي والروائي الإنجليزي (هربرت جورج ولز)، ليطرح لهم روايته الرائعة (الرجل الخفي)، عام 1897 م..

ففي رائعة (ولز)، توصل أحد العلماء إلى عقار خاص، يلغى انعكاس الضوء عن جسده، ومعدل انكساره داخله، مما يعني انه سيصبح شفافا تماما..

أو خفيا..

وانبهر الناس برواية (ولز)..

وعاد حلم الاختفاء إلى العقول، والقلوب، والأذهان، خاصة وأن العالم كان يبدأ عصرا صناعيا متقدما، لعبت فيه الكيمياء والكهرباء دورا كبيرا، وفجرتا عشرات الأفكار والأحلام والخيالات في الرءوس..

ومع مولد عالم السينما، انتقل حلم الاختفاء إلى الشاشة الكبيرة، وراح يبهر الناس أكثر، وأكثر، وأكثر..

ولأن المقولة الشهيرة تقول: إن طريق العلم يبدأ بالخيال، فقد تحول الحلم، في عقول عدد من العلماء إلى كومة من الحسابات، والمعادلات، والأرقام، والتجارب..

وهنا فقط استنكر العلماء فكرة (ولز) عن الإخفاء..

فلو أن بطل (ولز) قد نجح في جعل خلاياه بالغة الشفافية بالفعل.، فهذا يعني أن الضوء لن يسقط على شبكية العين،

وإنما سيعبرها دون توقف؛ باعتبار أنها تشارك باقي خلايا الجسد شفافيتها المطلقة...

إذن، فبطل (ولز) الخفي لن يمتلك قوة رهيبة، كما تقول الرواية، بل على العكس تماما، فهو سيصبح أعمي، عاجزا، يحتاج إلى من يمسك يده، ويرشده إلى طريقه..

وهنا راح العلم يبحث عن نظرية أخرى للإخفاء..

حتى خاض العالم الحرب العالمية الثانية..

تلك الحرب، التي انطلقت كل العقول خلالها، تفكر، وتعمل، وتبتكر، وتخترع، من أجل التفوق، وطمعا في النصر..

وعبر سنوات الحرب الرهيبة، تم اختراع الرادار والصواريخ، وطائرات الهليكوبتر..

بل والقنبلة الذرية أيضا..

كل هذا تم استخدامه، وإعلانه، والدخول معه في سباق التسلح..

فيما عدا اختراع واحد، ظل طي الكتمان، ولم يتحدث عنه أحد، لما يقرب من نصف القرن، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945 م) ....

ففي عام 1943 م، في (فيلادلفيا)، قام فريق من علماء الفيزياء، تحت إشراف الأسطول الأمريكي، بتجربة نادرة وفريدة، تم خلالها استخدام مجالات كهرومغناطيسية فائقة، عبر استكمال نظرية المجال الموحد، التي تركها (ألبرت أينشتين) منقوصة؛ لإخفاء المدمرة (DE_173) عن الأنظار..

ونجحت التجربة..

نجحت نجاحا باهرا، أمام أعين الجميع، إذ اختفت المدمرة تماما عن الأنظار، ولم تترك خلفها سوى سحابة رمادية باهتة على مستوى سطح الماء فقط..

اختفت المدمرة..

ونجحت التجربة..

ولكن المشروع فشل تماما..

فعلى الرغم من نجاح عملية الإخفاء، إلا أن المجالات الكهرومغناطيسية القوية، أوقفت عمل كل آليات المدمرة، كما أصابت بحارتها بجنون مؤقت، وبأعراض شتى واضطراب خلايا المخ..

باختصار، ثبت أن الإخفاء، بوساطة المجالات الكهرومغناطيسية القوية، غير مجد على الإطلاق، كسلاح حربي فعّال..

ولأن النتائج الإجمالية كانت سيئة، إلى الحد الذي اضطرت فيه البحرية الأمريكية إلى إدخال نصف بحارة المدمرة مصحات نفسية للعلاج، تم إدراج الأمر تحت بند السرية المطلقة، ولم يعلن عنه أبدا، إلا بعد مرور نصف قرن من الزمان، وفقا لقوانين الوثائق الأمريكي..

ولكن أحد مميزات العلم، هي أنه ليس حكرا على أحد، لذا فقد توصل آخرون وآخرون إلى النظرية نفسها، وإلى النتائج نفسها، بحيث صار الإخفاء، عبر المجالات الكهرومغناطيسية القوية أمرا شائعا معروفا..

ولهذا، جاء الساحر الشهير (دافيد كوبر فيلد)، ليستغل هذه النظرية، في إخفاء الطائرات، والبوارج، وحتى تمثال الحرية الشهير..

وانبهرنا نحن بما يفعله الساحر الشاب..

واندهشنا..

وربما اضطربنا أيضا..

ومن المؤكد أن العديدين منا عادوا يشاهدون أفلام الرجل الخفي، وطاقية الإخفاء، وفتوة الغلابة وغيرها..

والتساؤل القديم يعيد طرح نفسه في الأذهان..

هل يمكن أن يصبح الإخفاء حقيقة يوما ما؟!..

والجواب هو أن العلم لا يعرف المستحيل..

ولا يتوقف أبدا أمام العقبات..

لذا فقد واصل العلماء تجاربهم، في محاولة للتوصل إلى سر القوة..

قوة الاختفاء..

وعبر تلك المحاولات، توصل العلماء إلى إنتاج طلاء خاص، شديد السواد، يمتص كل الأشعة الساقطة عليه، ولا يعكس منها شيئا..

ومن هنا جاءت فكرة الطائرة الشبح..

طائرة ذات أجنحة ماسية القطع، قادرة على تشتيت موجات الرادار، في نفس الوقت الذي تطلى فيه بذلك الطلاء الخاص، مما يمنع أجهزة الرادار من رصدها تماما..

وهذه الفكرة تصلح لإخفاء الأجسام المعدنية، والبعيدة..

ولكن ماذا عن الأجسام العادية؟!..

أحد علماء (اليابان) توصل عام 1992 م إلى اختراع زيّ خاص، مزود بعدد كبير من كاميرات الفيديو الصغيرة، التي تنقل كل منها صورة ما أمامها، إلى الجزء العكسي تماما لاتجاهها في الزي....

بمعنى أصح، لقد اخترع زيا يصنع حالة من الاختفاء الزائف وقد يدهشكم هذا، ويحيركم، ويدفعكم للتكذيب والاستنكار أيضا، ولكن رداء الإخفاء، الذي بدأ به الأمر أسطوريا، تحول إلى حقيقة علمية..

وهنا في (مصر)..

وبالتحديد، في قسم الفيزياء التجريبية، بكلية علوم (القاهرة)..

وباستخدام طلاء خاص أيضا، ابتكره الأستاذ الدكتور (محمد على أحمد) ....

والطلاء هذه المرة ثابت ودائم، ويكفي أن يتم رشه على قطعة من القماش، حتى تخفى تماما كل ما توضع فوقه أو أمامه..

وبدقة أكثر، لقد اخترعنا نحن رداء الإخفاء، أو طاقية الإخفاء الأسطورية الشهيرة..

اخترعناها هنا..

في (مصر)..

وكما بدأ الأمر، انتهى..

بدأ برداء إخفاء، في أسطورة نرويجية قديمة وانتهى برداء إخفاء، في معمل تجارب مصري حديث..

الحلم إذن تحول إلى حقيقة..

حقيقة علمية، ومعملية، وواقعية، وملموسة..

حقيقة قد تؤكدها كل المعادلات والنظريات والتجارب، ولكنها تظل دوما وراء الإدراك البشري التقليدي..

فهكذا العلم، ينطلق دوما وراء الخيال..

أو وراء العقل..

☆ ☆ ☆

27- جاسوس نصف القرن..

خمسون عاما تمر، على أول ظهور لأشهر جاسوس على الشاشة، طوال نصف قرن من الزمان، دون أن تنجح أية شخصية جاسوسية أخرى في منافسته، أو حتى بلوغ ذلك المستوى الذي بلغه، من عدد مشاهديها، أو إيرادات أفلامه..

بدءا من (دكتور نو)، وحتى (كازينو رويال) ... العميل السري، أو الجاسوس البريطاني الأشهر (جيمس بوند)، الذي يحمل الرقم (007)، وهو ذلك الرمز الكودي المتميز، الذي يعني أنه يحمل تصريحا دائما بالقتل، دون الرجوع إلى رؤسائه، بدأ كروايات أو قصص قصيرة، لمبتكر الشخصية (أيان فليمنج)، والذي كوّن الشخصية من مزيج من بعض الشخصيات، التي التقى بها، أو عمل معها، عندما التحق بالمخابرات البحرية

البريطانية، في زمن الحرب العالمية الثانية والطريف أن (فليمنج) كان شابا عابثا، لأسرة إنجليزية عريقة، يأست أمه من محاولة تقويم سلوكه، أو حتى إقناعه بالعمل في شركة الأوراق المالية، التي تملكها الأسرة، فسعت لإلحاقه بكلية عسكرية؛ لعل هذا يساعده على الانضباط، إلا أنه استغل وسامته الشديدة، لإقامة علاقة مع زوجة مدير الكلية العسكرية، أدى انكشاف أمرها إلى فصله من الكلية مما اجبره على العمل في شركة الأوراق المالية للأسرة، ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية أجبر الشركة على إغلاق أبوابها، وخشيت الأم من عودة (فليمنج) إلى حياة العبث، ومن اضطراره للالتحاق بالجيش والسفر إلى الجبهة، فسعت لإلحاقه بوظيفة عسكرية إدارية، عبر صديق للأسرة، اتخذه سكرتيرا خاصا، في المخابرات البحرية البريطانية... وهناك تألقت

قريحة (فليمنج)، وظهرت مواهبه الفذة، في ابتكار وسائل العمليات الاستخباراتية غير المعتادة، والتخطيط للضربات على نحو غير متوقع.. وعلى الرغم من مواهبه، لم يتجاوز (فليمنج) وظيفته كسكرتير عسكري، داخل المخابرات البحرية، حتى وضعت الحرب أوزارها، فتم صرفه من الخدمة، ليعود مضطرا للعمل في شركة الأوراق المالية، التي فتحت أبوابها مرة أخرى بعد الحرب... في تلك الفترة، ابتكر (فليمنج) شخصية (بوند)، الجريء، المغامر، صاحب الشخصية المميزة، واختار له اللهجة الإسكتلندية، التي أعجبته من رئيسة المباشر، في فترة العمل في المخابرات... ومن مجموعة قصص قصيرة إلى رواية وأخرى، جذبت الشخصية انتباه واهتمام صناع السينما، واختاروا قصة (دكتور نو)، كأول عمل يقدم (بوند) على الشاشة، والطريف أنهم اختاروا الممثل ذائع الصيت آنذاك (جريجوري بيك)؛ لأداء دور (جيمس بوند)، ولكن (بيك) كانت له مطالب، رفض المخرج الرضوخ لها، فقرر أن يتحدى شعبية (جريجوري بيك)، ويختار ممثلا جديدا؛ للعب دور (بوند) على الشاشة... باختصار، لقد راهن على الشخصية، بأكثر مما راهن على النجم... وعندما بدأ اختيار من يؤدي دور بوند، لم يرق أي من المتقدمين للمخرج (تيرنس يونج)، حتى إنه فكر في إعادة التفاوض مع (جريجوري بيك)، لولا أن ساقت إليه الأقدار (شين كونري)، الذي جذب بعض اهتمامه، بلهجته الاسكتلندية المتميزة، وقامته الرياضية الممشوقة، إلا أنه لم يحسم قراره بشأنه تماما، وبدأ التفكير في (بيك)، حتى بعد انصراف (كونري)... وكان (يونج) منهمكا في التفكير أمام النافذة، عندما شاهد (كونري) ينصرف، بقامة ممشوقة، وخطوات واثقة قوية، فهتف فجأة: «أريد هذا الرجل»... وقد كان... وفي عام 1962

م، ظهر أول أفلام (بوند) (دكتور نو)، المأخوذ عن رواية بنفس الاسم، كتبها (فليمنج) عام 1958 م، وقام ببطولته (شين كونري)، مع صاروخ الإغراء في ذلك الحين (أورسولا أندرسن)، حيث دارت الأحداث في (جاميكا)، وهناك يتصدى (بوند) للعدو (دكتور جولياس نو)، الذي يعترض إطلاق الصواريخ الأمريكية، بموجات راديو قوية... لم تكن رواية (دكتور نو) هي أول روايات (فليمنج) عن شخصية (بوند)، وإنما كانت روايته الأولى هي (كازينو رويال)، والتي لم تنتج سينمائيا إلا بعدها بعشرات السنين، ولكن (دكتور نو) كانت بداية الانطلاق الشخصية (بوند) في عالم السينما، ولعدد آخر من شخصيات حاولت تقليده، في سينما الجاسوسية، ولكن تركيبتها لم تحقق النجاح ذاته... ولقد تعاقب عدد من الممثلين على أداء شخصية (بوند)، خلال نصف قرن، فمن بداية الشخصية سينمائيا، مع (شين كونري)، ثم محاولة إحلاله بالممثل المسرحي (جورج ليزنبي)، فقط لمجرد التشابه الشكلي بينهما، ثم فشل (ليزنبي) بعد فيلم واحد، واختيار (روجر مور)، بطل الحلقات التليفزيونية (القديس)، للعب دور (بوند) لعدة سنوات، ثم (تيموني دالتون)، وبعده (بيرس بروسنان)، ثم (دانيال كريج)... تعاقب من أدوا الدور، وبقيت شخصية (بوند) تتحدى عالم سينما الجاسوسية، وتنتقل من نجاح إلى نجاح، على نحو تحول إلى أسطورة على الشاشة، تصعب منافستها بعد نجاح دام واستقر النصف القرن وعلى الرغم من أن (بوند) يمثل التيار الكلاسيكي النمطي، في شكل وطبيعة الجاسوس، ومن أن عشرات الشخصيات الأخرى قد سعت لمواكبة التطور، ونجحت في رسم صورة مغايرة للجاسوس، إلا أن شخصية (بوند) بقيت مطلوبة على الشاشة، بكل كلاسيكيتها ونمطها، فهو الجاسوس

الوسيم، الحذر، الذكي صاحب العقلية الثعلبية، والمهارات التي لا حدود لها، والذي يواجه دوما شخصيات غير عادية، لكل منها نمط غير تقليدي، وتسعى كلها إلى هدف واحد، الا وهو السيطرة على العالم على نحو أو آخر... فالجمهور أحب (بوند) على ما هو عليه، وعشق دهاءه، وذكاءه، وسعة حيلته، وحتى شغفه بالجميلات، والملابس الأنيقة، والأجهزة الحديثة المبتكرة، التي يفاجئ بها جمهور السينما دوما، في مواجهاته مع الأخرين المدهش أن معظم الابتكارات، التي ظهرت في عالم (بوند)، والتي بدت مبهرة في حينها، قد صارت اليوم سلعًا متاحة، على شبكة الإنترنت، لأي مستهلك عادي، ولم تعد مبتكرات (بوند) هي التي تثير المشاهد، وإنما (بوند) نفسه، والذي ينتظر الكل فيلمه القادم في شوق ولهفة، دلالة على نجاح الشخصية المبهر، خلال نصف قرن... وعلى الرغم من النجاح الكبير لأفلام (جيمس بوند)، في المجتمعات العربية على وجه العموم، والمجتمع المصري على وجه الخصوص، إلا أن شاشات السينما لدينا لم تنجب بعد أية شخصية مماثلة، ربما لأن القانون يفرض مراجعة الأجهزة الاستخباراتية والأمنية لمثل هذه الأعمال الدرامية، على الرغم من ضعف الثقافة الدرامية لدى رجال الجهات الأمنية والاستخباراتية في هذا الشأن وحساسياتهم المفرطة تجاه كل ما يتعلق بهم، وإصراراهم علي أن كل ما لا يتوافق مع الحقيقة والواقع، بنسبة مائة في المائة يسيئ إليهم وإلى أجهزتهم، على الرغم من أننا لم نسمع أو نقرأ دراسة واحدة، تشير، أو حتى توحي بأن أفلام (جيمس بوند) أو مثيلاتها، قد أساءت إلى جهاز المخابرات البريطاني أو الأمريكي، أو أي جهاز آخر، بل على العكس تماما، لقد ادت من انبهار العامة به، ومن احترامهم له، ولكنها مشكلة الرقابة دوما، أيا

كانت جهتها، أنها تصر على تسييد فكرها ورؤيتها، دون محاولة النقاش أو المراجعة وبغض النظر عن عدم وجود شخصيات سينمائية استخباراتية على الشاشة، على الرغم من وجودها في الأدب المطبوع، فأفلام الجاسوسية على نحو عام، لم تبلغ لدينا حد الفيلم المتقن، بأي حال من الأحوال، فقديما شاهدنا فيلم (جريمة في الحي الهادئ)، والذي بدا فيه الجواسيس في صورة ساذجة ضعيفة، يسيل لعابهم على امرأة جميلة، ويدمنون المواد المخدرة، ويفقدون أعصابهم في سرعة، وكل ما يخالف طبيعة أصغر جاسوس، في أصغر دولة، ورأينا فيلم (الجاسوس)، لملك الترسو آنذاك (فريد شوقي)، والذي حاول من خلاله تقليد أفلام وشخصية (بوند)، حتى إنه اختار للبطل أن يكون ضابطا في القوات البحرية؛ حتى يرتدي نفس الزي الذي ارتداه (بوند)، في بعض أفلامه، وفي ذلك الفيلم شاهدنا الفنان (عزت العلايلي) يلعب دور الجاسوس، على النحو الذي يناسب الأفلام الهزلية، بأكثر مما يناسب الأفلام الجادة؛ إذ يرتدي معطف مطر، ومنظار شمس أسود في قلب الليل، ولا تنقصه سوى لافتة توضع على صدره، وعليها إشارة واضحة إلى أنه جاسوس.... ولكن أفلام الجاسوسية الأفضل، لم تظهر على الشاشة، إلا عقب حرب أكتوبر 1973 م، عندما ظهر أول فيلم عن الجاسوسية، مأخوذ عن قصة حقيقية، ومعالج بحرفية، جعلته أفضل فيلم جاسوسية مصري، وربما حتى لحظة كتابة هذه السطور، وهو فيلم (الصعود إلى الهاوية)، والذي روي تفاصيل واحدة من أنجح عمليات المخابرات العامة المصرية، قبيل حرب أكتوبر..

والفيلم الذي قام ببطولته الفنان القدير (محمود ياسين)، مع النجمة الراحلة (مديحة كامل)، وأخرجه (كمال الشيخ) تعامل ولأول مرة على الشاشة العربية، مع عالم المخابرات بوعي واقتدار، وبحرفية تتناسب مع الواقع الفعلي لذلك العالم المثير، وفتح الباب لنوعية جديدة من دراما الجاسوسية، والتي كان الفيلم هو نقطة التحول في مسارها... وهذا يختلف بالتأكيد عما خرجت علينا به (نادية الجندي)، من مجموعة من أفلام ساذجة المضمون، ولكنها حققت نجاحا جماهيريا كبيرا، فقط لأنها تتحدث عن عالم المخابرات، بكل غموضه وأسراره في ذلك الحين، ومع قلة عدد أفلام المخابرات، على الشاشة الكبيرة، فاجأ التليفزيون المصري مشاهديه، بواحد من أروع مسلسلات الجاسوسية، عبر تاريخ الدراما كله، وهو مسلسل (دموع في عيون وقحة)، والذي قام ببطولته الفنان (عادل إمام)، مع (معالى زايد)، و (مشيرة)، و (مصطفى فهمي)، وروي قصة (أحمد الهوان)، الذي حاول الإسرائيليون تجنيده، عقب نكسة يونيو 1967 م، ولكنه لجأ إلى المخابرات المصرية، الذي جعلته يتعاون معها، على خداع العدو الإسرائيلي، الذي وثق في انتمائه إليه تماما، حتى إنه منحه أحد أقوى وأحدث أجهزة الاتصال حينذاك، والذي لم يكن سوى النسخة الأولية، من الهاتف المحمول، الذي يحمله كل شاب الآن..

حوّل المسلسل، الذي كتبه الراحل المبدع (صالح مرسي)، اسم (أحمد الهوان) إلى (جمعة الشوان)؛ لأسباب أمنية صرفة، وتعلقت عقول وقلوب شعب (مصر)، من (الإسكندرية) إلى (أسوان) بمجموعة المسلسل، الذي يطلق عليه الناس اسم (مسلسل جمعة الشوان)، حتى إن الشوارع كانت تخلو من

المارة، في زمن عرضه، وتألق فيه (عادل إمام)، وهو يؤدي دور الشاب البسيط، الذي وجد نفسه أمام موقف يفوق إمكانياته، فلجأ إلى مخابراته، التي أدارت صراعا عبقريا مع العدو، وربحته في النهاية، لتحقق انتصارا جديدا على المخابرات الإسرائيلية... وتعود أهمية هذا المسلسل بالتحديد، إلى أنه قد وضع المشاهد أمام حالة جديدة من دراما الجاسوسية، إذ لم يكتف عم (صالح) بنقل تفاصيل العملية الاستخباراتية، وإنما صنع خلفية اجتماعية ممتازة لبطله (جمعة الشوان)، وجعلك تشعر به، وبحياته، ومعاناته، ومشكلاته، وتتفهم مبررات سفره، وتعامله مع مندوب المخابرات الإسرائيلية، ثم تتفاعل مع موقفه، عندما قرر، مع كل ما يمر به من أزمات، أن يتخلى عن كل إغراءات العدو، ويمد يده إلى وطنه.. وكما كان فيلم (الصعود إلى الهاوية) علامة فاصلة، في سينما الجاسوسية، على الشاشة الكبيرة، صار مسلسل (دموع في عيون وقحة) علامة فاصلة في دراما الجاسوسية، على الشاشة الصغيرة... فبعدها لم يكن من الممكن إنتاج مسلسلات ساذجة المعنى، أو بسيطة المضمون، وصار المسلسل هو النموذج، الذي ينبغي أن تسير عليه المسلسلات التالية...

ولكن دراما الجاسوسية لم تحظ بعدها بالاهتمام الكافي، على الرغم من نجاح مسلسل (دموع في عيون وقحة)، وإعادة عرضه أكثر من مرة، فقد جاءت الأعمال التالية للمسلسل ضعيفة، ودون المستوى، مما أدى إلى انصراف المشاهدين، عن هذه النوعية من الأعمال، حتى عاد عم (صالح) مرة أخري.. فذات يوم، طالعتنا مجلة المصور بالحلقة الأولى، من رائعة عم (صالح)، ودرة دراما المخابرات (رأفت الهجان)، وهي رواية

مأخوذة من واقع ملفات المخابرات المصرية، عن شخصية (رفعت الجمال)، الذي تم تجنيده، في زمن سابق لإنشاء المخابرات العامة رسميا، من أجل رصد تحركات اليهود المصريين بعد الثورة، خاصة أن (إسرائيل) كانت تشعر أن الثورة المصرية نقطة خطر في مسارها، وكان معظم اليهود المصريين يأزرونها، في ذلك الحين، مما وضع فكرة زرع عين للأمن وسطهم، ومع سقوط (رفعت) في قبضة الأمن، ومع ما يتمتع به من ذكاء، وبراعة، وقدرة على الاحتيال على الآخرين، تم إقناعه بالعمل لحساب الأمن المصري، مقابل العفو عن بعض تجاوزاته السابقة، ثم ومع نجاح تقمصه، واندماجه في المجتمع اليهودي، والذي تزامن مع قرار إنشاء المخابرات المصرية، تم إعداده للسفر إلى (إسرائيل)، كعميل مزروع هناك؛ بحيث يصبح عينا نافذة للمخابرات المصرية، في قلب المجتمع الإسرائيلي... ولقد لاقت رواية عم (صالح) رواجا مدهشا، ونجاحا عظيما، مما أسفر عن تحويلها إلى مسلسل تليفزيوني، يعد الأشهر، بين كل دراما الجاسوسية على الشاشة الصغيرة، حتى يومنا هذا على الرغم من ميزانية إنتاجه المحدودة، وديكوراته البسيطة، ولكنه جذب المشاهدين من اللحظة الأولى، مع مشهد موت البطل، الذي بدأت به الأحداث، والذي جمع النجمين (محمود عبد العزيز) و (يسرا)، والذي كان يفترض منه أن يكون بمثابة خطأ دراما إذ إنه ليس من الطبيعي، أن تتابع دراما جاسوسية، ينبغي أن تشعر فيها بالقلق على البطل، في حين أنك تعلم، من المشهد الأول، أنه قد مات في فراشه، في سن متقدمة، ودون أن ينكشف أمره..

ولكن المشاهد حول وجهة تفكيره، مع تلك البداية، إلى سؤال مختلف تماما، وهو: كيف نجح في أن ينتحل شخصية يهودي، ويحيا كل هذا الوقت في (إسرائيل)، ويكون كل هذه العلاقات، دون أن ينكشف أمره؟!... ولأن الأحداث قد انتقلت، من هذه المفاجأة الأولى، إلى متابعة كيفية العثور على (رفعت الجمال) أو (رأفت الهجان)، كما أسماه عم (صالح)، ومبررات اختياره، وخطوات تدريبه على مهمته، فقد شغف المشاهد بهذا العالم الغامض، وأساليبه الدقيقة غير المباشرة، وانبهر بتطورات الموقف، وسيطرة المخابرات المصرية على رقعة اللعبة، في كل خطواتها، وانحبست أنقده مع المواقف، التي واجهت (رأفت)، في مرحلة إعداده، وتلاحقت نبضاته، مع كل مواجهة، مع عيون (الموساد) في (مصر)... وأخيرا رقص الكل طربا، مع مشهد النهاية، عندما كان (رأفت) يودع رجل المخابرات (محسن ممتاز)، قبيل رحيل سفينته من (مصر) مباشرة... ومرة أخرى خلت الشوارع من المارة تقريبا، وصمتت الأصوات في المقاهي، مع زمن عرض الجزء الأول من (رأفت الهجان)، ونجح عم (صالح)، للمرة الثانية في أن يصنع من الجاسوس شخصية ثلاثية الأبعاد، تشعر بها، وتعيش معها، وتتعاطف مع كل خطوة لها، وتفرح بنجاحها، وتحزن كلما واجهت الخطر... الأهم من هذا أن مسلسل (رأفت الهجان)، وما صاحبه من نجاح مبهر، قد أعاد الحيوية في قوة، إلى دراما الجاسوسية، سواء على الشاشة الكبيرة،، أو الصغيرة، وشهدت السينما موجة من أفلام الجاسوسية، منها تلك الأفلام التي أشرنا إليها من قبل، للفنانة (نادية الجندي)، مع أفلام استغلت نجاح (محمود عبد العزيز)، في أداء دور الجاسوس، مثل (إعدام ميت)، وأفلام أخرى للفنان (نور

الشريف) وغيره...

ثم جاء الجزء الثاني من مسلسل (رأفت الهجان)، والذي يبدأ بوصوله إلى (إسرائيل)، ومراجعة الأمن له هناك، ثم سار معه في مشوار حياته، حتى استطاع مد جذوره في المجتمع الإسرائيلي، وما صحب هذا من علاقات عاطفية، خلبت لب المشاهد، وسحرته بعالم من الغموض، والأسرار، والرومانسية، والمغامرة، والخطر... وكالمعتاد، سال لعاب عدد من كبار الفنانين، على دراما الجاسوسية وانضم إليهم المخرجون، وشركات الإنتاج، وبدأ التهافت على أعمال عم (صالح)، فظهرت مسلسلات مثل (الحفار)، والذي لم يحظ بأي نجاح يذكر، على الرغم من قوة مؤلفه (صالح مرسي)، وقوة العمل الأدبي المطبوع، و (الثعلب) للكاتب (إبراهيم مسعود)، والذي لاقى المصير نفسه، مع عدد من أفلام السينما، التي لم ترق أبدا لمستوى أول أفلام دراما الجاسوسية الحقيقية (الصعود إلى الهاوية)... ومع عرض الجزء الثالث من (رافت الهجان)، والذي لم يلق نفس نجاح الجزأين السابقين، كانت هناك عدة أعمال من دراما الجاسوسية، على الشاشتين، تحاول التفوق عليه، أو حتى اللحاق به، إلا أنها، وعلى الرغم من ضعف الجزء الثالث عما سبقه، لم تستطع الفوز بنصيب إلى جواره... ثم، ومع نهاية التسعينيات، هدأ سباق دراما الجاسوسية إلى حد ما، وانشغل الكل بدراما الفساد السياسي، التي صارت سمة من سمات ذلك العصر، وراحت الشاشتان تتحولان إلى صرخة شعب، يجأر مما يحيط به من فساد، كاد أن يسلبه حتى الانتماء لوطنه... ثم فجأة، ومع الألفية الثالثة، دبت الروح مرة أخرى في دراما الجاسوسية على الشاشتين، وعادت مسلسلات الجاسوسية تشق طريقها، وسط

سباق الدراما الرمضانية، والتي صارت الدراما الوحيدة، التي يسعى إليها منتجو الشاشة الصغيرة، ولكن الأعمال هذه المرة، على الرغم من ميزانية إنتاجها الضخمة، التي تفوق بخمسين ضعف على الأقل، ميزانية الجزء الأول من (رأفت الهجان)، ومن حشد عدد هائل من هائل من النجوم فيها، ومن مشاهدها العديدة، التي يتم تصوير معظمها خارج (مصر)، لم تكن بنفس جودة ونجاح المسلسلات القديمة، ربما لأن مخرجيها، على الرغم من تاريخهم العريق، لم يحاولوا فهم واستيعاب قواعد ونظم المخابرات، والاستعانة بمن يرشدهم إليها، كما كان يفعل (كمال الشيخ) و (يحيى العلمي) قديما لذا فقد جاءت التصرفات الأمنية في المسلسلات الحديثة، أقرب إلى تصرفات البحث الجنائي، منها إلى تصرفات استخباراتية دقيقة ومدروسة، وبدا بعضها ساذجا، إلى حد لا يصلح حتى لخفير نظامي، فما بالك برجال مخابرات، يواجهون خصوما محترفين طوال الوقت!!... والأمر الذي أثار المشاهدين، في دراما الجاسوسية الجديدة، هي انفصال المشاهد عن زمن الأحداث، على نحو لا يمكن وصفه إلا بأنه مستفز، فالأحداث تدور في الستينيات، أو أوائل السبعينيات، وعلى الرغم من هذا، تخدم من فيها سيارات حديثة، تعود إلى الألفية الثالثة ويجرون اتصالاتهم بهواتف محمولة، لم توجد قبل التسعينيات، وعبر أجهزة فاكس، تم اختراعها في الثمانينيات، ويسيرون في شوارع بها لوحات رقمية مضيئة، وفي محال تستخدم أجهزة كمبيوتر محمولة ومتطورة، ثم يدور الحديث طوال الوقت باعتبار أن كل هذا يعد لحرب أكتوبر 1973 م، وكأن المشاهد سيساير الأحداث، أو يغض النظر عما يراه... وهكذا حققت دراما الجاسوسية في (مصر)، حالة فريدة من نوعها، في أي مكان في العالم، إذ بدأت قوية

جذابة، ثم راحت تنحدر، حتى صارت هزيلة هزلية... كل هذا و(جيمس بوند)، الذي تتطور أفلامه في سرعة وقوة، مازال يواصل نجاحه، ويواصل جذب المشاهدين، وحصد الإيرادات، وإثبات أنه، وعلى الرغم من كل الانتقادات، التي وجهت له عبر تاريخه، مازال أشهر وأنجح جاسوس عرفته السينما، في كل عصورها..... الجاسوس الذي حصل هذا العام على لقب لم يفز به أحد من قبل... لقب (جاسوس نصف القرن)

☆ ☆ ☆

المرأة مشكلة .. صنعها الرجل

28- المرأة مشكلة صنعها الرجل.. (دراسة)

أصدقائي الأعزاء..

دعونا نفتح صفحة جديدة، في ملف صداقتنا..

ودعونا نبدأ تجربة فريدة، في عالم الكتابة والإبداع والنشر...

وهذه التجربة تتركز في عنوان هذه الدراسة، الذي قرأتموه في البداية..

المرأة مشكلة.. صنعها الرجل..

والواقع أن هذا العنوان ليس مجرد جملة طريفة، لبدء دراسة طويلة، ولكنه فكرة طالما راودتني، وسيطرت على أفكاري، وأنا أتابع علاقة المرأة بالرجل، على كل المستويات..

علاقتها به كابنة، وأخت، وزوجة، وحبيبة، وأم..

لقد لاحظت دائما أن المرأة مشكلة..

لا أحد يفهمها..

لا أحد يقدرها....

ولا أحد يحترمها، حتى وإن أثار القول غضب واستنكار الكثيرين..

الواقع أن المرأة في مجتمعنا مظلومة..

ربما تبدو في بعض الأحيان ظالمة، قاسية، عنيفة..

ولكن كل هذا ليس سوى تعبير عما تعانيه من الظلم..

والظلم الواقع على المرأة يبدأ منذ طفولتها..

بل منذ مولدها..

إنها تُعامل بشكل متعنت، لمجرد أنها أنثى..

ومع الوقت، تقع المرأة في العقدة، التي تحكم حياتها كلها فيما بعد..

والتي تصنع مشكلتها..

وهذه العقدة تكمن باختصار في عبارة واحدة..

عدم الشعور بالأمان..

ومن هذا المنطلق أصبحت المرأة مشكلة..

مشكلة لأنها دائما خائفة..

قلقة..

متوترة..

وعندما تفكر في الثورة على كل هذه المشاعر، تتحرك في اتجاه متطرف، فترفض أنوثتها دون أن تدري، لأنها تتصور أنها المسئولة عن كل ما تعانيه من شعور بالنقص، يفرضه عليها

المجتمع دون مبرر، وخوف كامن في كل ذرة من أنوثتها الحبيسة..

ترفض أنوثتها، حتى لا تضطر لخدمة شقيقها، بحجة أن الذكور لا ينبغي لهم خدمة أنفسهم..

وترفضها، لأنها لو كانت ذكرا، لأمكنها الخروج في أية لحظة كما يفعل أخوها، دون أن تحاصرها نظرات الطمع والشك والغضب والعتاب

ولأن الذكورة تمنح الحق في السيطرة.

وفي إدارة دفة الأمور..

وفي القضاء عليها باسم القانون..

وحتى عندما طالبت المرأة بالمساواة، لم تكن تسعى للحصول عليها في الواقع، فهي أول من يدرك أن المساواة موجودة بين كل البشر، حتى وإن اختلفت الحقوق والواجبات..

ولكنها في الواقع كانت تسعى لانتزاع شيء من سلطات الرجل، وسطوته، و..

واستبداده..

وعندما نجحت في انتزاع هذه السلطات، اضطربت، وارتبكت، وحاولت أن تحتل موقع الرجل، ثم طالبته بأن يحتل هو أيضا موقعها، واختل كل شيء..

وبدأ الرجل يشكو من المرأة، دون أن يدرك أنه المسئول الأول عما وصلت إليه..

يقول: إنها مشكلة، دون أن يعلم أنه هو صنعها، عندما رفض منذ البداية أن يمنحها حقوقها البسيطة العادلة..

وهكذا انقلبت كل الموازين..

ولكننا لن نناقش التفاصيل هذه المرة، فكل سطر حواه هذا الملخص المختصر، يحتاج إلى صفحات من الشرح والتفسير والمناقشة..

إنها مجرد مقدمة..

وتمهيد لتلك التجربة الفريدة، التي سنخوضها معا بإذن الله، والتي حدثتكم عنها في بداية الموضوع..

وهذه التجربة هي أنكم أنتم ستكتبون هذه الدراسة لا أنا..

أو بمعنى أصح.. ستكونون أصحاب الرأي الأول فيها..

لقد شرحت لكم فكرتي، وعرضتها عليكم بكل وضوح واختصار والآن أريد آراءكم، وأفكاركم، وتجاربكم، ومشكلاتكم، وأسئلتكم..

أريد منكم مشاركة كاملة، في هذه الدراسة الضخمة..

وكل ما سترسلونه سيجد طريقه للنشر، من خلال هذه الدراسة، سواء باسم صاحبه أو صاحبته، أو بالحروف الرمزية التي يختارها..

وستكون تجربة جديدة وفريدة بإذن الله..

وفي النهاية، سنحصل جميعا على فائدة جمة..

يكفي أننا سنحصل على نتائج حقيقية، ومنطقية، وواضحة، لعلاقة المرأة بالرجل، والشاب بالفتاة، وحتى الطفل بالطفلة.

وستصبح دراستنا هذه - بإذن الله - مثالا للتعاون المثمر، في عالم الأدب والفكر، ونموذجا فريدا في دنيا الدراسات الاجتماعية الجادة..

هيا.. أمسكوا أقلامكم، وخطوا كل ما يجول بخلدكم، في هذا الموضوع، وأرسلوه إلى العنوان التالي:

المطبعة العربية الحديثة

8، 10 ش 47 - المنطقة الصناعية - العباسية

كوكتيل ٢٠٠٠ - آراء جادة

وأنا في انتظار رسائلكم..

وأفكاركم..

وتعاونكم..

و...

وإلى لقاء قريب..

د. نبيل فارق

☆ ☆ ☆

المرأة مشكلة.. صنعها الرجل

(دراسة)

من المؤكد أن بدايتنا لم تكن أبدا تقليدية..

فلأول مرة - على قدر علمي - يبدأ عمل أدبي ما بطرح فكرته على مجموع القراء، واستقصاء آرائهم، قبل البدء فعليا في وضع الكتاب..

ولكنها تجربة جديدة..

وأنا أعشق كل جديد..

والسؤال الذي طرحه العديد من الأصدقاء، هو: لماذا فكرت في وضع كتاب عن هذا الأمر، الذي يختلف كثيرا، في موضوعه وفكرته، عن معظم كتاباتي السابقة؟!..

بل وما الذي يعنيه هذا العنوان المرأة مشكلة.. صنعها الرجل؟!..

والجواب على السؤالين ليس عسيرا في الواقع، فمنذ سنوات عديدة، بدأت العلاقة بين الرجل والمرأة تجذب انتباهي، في مجتمعنا المعاصر، ولاحظت أنها لم تعد تتوافق، أو حتى تتشابه من بعيد مع ما أمرنا به الله (سبحانه وتعالى)، وما أشار إليه من المودة والرحمة..

لقد أصبحت هذه العلاقة - في معظم الأحيان - علاقة حذر، وتحرش، وتحفز..

أصبحت علاقة عصبية، عنيفة، متوترة..

علاقة أشبه بما كانت عليه الأمور بين القوتين العظميين فيما سبق، (أمريكا) و(الاتحاد السوفيتي)..

الزوج يفترض دائما أن زوجته تسعى لإحباطه، وهي تتهمه بأنه يعتبرها مجرد خادمة، وليست شريكة حياة، والفتاة تحب، فتبدأ في إقامة أسوار شائكة حول من تحب، وتحاسبه في شراسة، وهو يتعامل معها في صرامة وعنف، وكل منهما يدعي أن هذه هي الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بمن يحب، وضمان عدم تأثير الأخرين عليه..

بدأت عبارات عجيبة تترد على لسان الطرفين، وبدأ كل منهما يتحدث أكثر عن الكرامة، والهيبة، والكيان، والشخصية فحسب..

لم تعد هناك لمسة رقيقة أو رومانسية في علاقة جميلة، يفترض فيها أن تمنح الطرفين كل الراحة والمودة والحب..

وكانت المرأة في معظم الأحيان هي الطرف المتمرد، العنيد..

الطرف الذي يقاتل في استماتة، وكأن كل كيانه يتعلق بالفوز في معركة، لم يكن لها وجود فعلي من قبل..

وقبل أن يتسرع البعض، ويتهمني بالتحيز للرجل، وبالتعنت مع الجنس اللطيف، وتحميله كل أسباب المشكلة، دعوني أحلكم بسرعة إلى العنوان..

«المرأة مشكلة.. صنعها الرجل..»

والواقع أيها الأصدقاء، أنه لو كان هذا الكتاب مجرد هجوم على المرأة، لما كان هناك داع لكتابته وإصداره..

ولو كان هجوما على الرجل، لتشابه كثيرا مع كتب ومؤلفات أخرى، يحمل معظمها توقيع بعض الكاتبات الثوريات..

وهو أيضا ليس تنفيسا عن عقدة داخلية..

إنه - وبكل بساطة - محاولة متواضعة لتقييم الأمور بشكل علمي عملي، وتحليل ذلك الموقف، الذي أدى في النهاية إلى ذلك الاضطراب غير الطبيعي، في علاقة المرأة بالرجل..

إنني أعترف في البداية أن المرأة مشكلة بالنسبة للرجل..

ولكن لماذا؟

لماذا أصبحت المرأة مشكلة؟..

وكيف؟..

ما العوامل المسئولة عن هذا؟!..

وبعد تفكير عميق، تبين لي أن المسئول عن كل هذا هو الرجل نفسه..

هو الذي صنع المشكلة..

وهو الذي يدفع ثمنها في النهاية..

أما تفاصيل هذا القول، فهو ما ستتضمنه فصول الكتاب..

ولكننا بدأنا بداية غير تقليدية..

وسنواصل معا هذه التجربة الجديدة..

ولأول مرة أيضا سأبدأ بطرح الآراء والرسائل، التي وصلتني حول هذه القضية، ثم نبدأ معا فصول الكتاب..

فإلى لقاء قريب

☆ ☆ ☆

كم تمنيت، وأنا أقرأ خطاباتكم وآراءكم، حول هذا الموضوع، أن تكون لدي مساحة كافية، لنشر خطاباتكم بأكملها، ولكنني لا أمتلك هذه المساحة للأسف، التي تحتاج إلى مجلد ضخم، يفوق مساحة الكتاب الواحد من (كوكتيل ٢٠٠٠) أربع مرات على الأقل..

لذا فسأضطر إلى الاكتفاء ببعض الفقرات، التي وردت في الرسائل..

وأتعشم أن يكون هذا مناسبا.

☆ ☆ ☆

* ولقد ذكرت أن المرأة مشكلة، وأن أحذا لا يفهمها، ولكنها مظلومة، حتى ولو كانت ظالمة في بعض الأحيان؛ لأن هذا يرجع إلى شعورها بالظلم والاضطهاد، في عصر يفترض فيه أنه عصر الحريات...

إبراهيم يحيى سعد -

دبلوم فني تجاري

*... وللمرأة حقها في أن تعمل فيما يناسب طبيعتها، كالتدريس أو الطب، إذا ما دعت الضرورة إلى هذا؟ لأن مملكة المرأة الحقيقية هي بيتها، وسعادتها في بيت زوجها، وعندما تلتزم بتعاليم الإسلام السامية، لن تصبح هناك مشكلة بين الرجل والمرأة، بل سيصبح هناك، ود، وتفاهم، وحب، وسعادة

أحمد إبراهيم مصطفى الجريدي

- الإمارات - أبو ظبي

*... قد يتزوج الرجل عن حب، وكذلك المرأة، وعلى الرغم من هذا لا تستمر العلاقة الزوجية طويلا، مما يضطرهما إلى الانفصال، ولا نبالغ لو قلنا إن المرأة هي المسئولة عن هذا في معظم الأحيان، بسلوكها داخل المنزل، وتصرفها مع الرجل، ولكن هذا لا يعفي الرجل من بعض المسئولية...

محمد محمود عطا

الخولى - كفر الشيخ

*.. وبدأت المرأة تسترجع القديم والحاضر، ونمت في عقلها فكرة تقول: «لماذا لا أحصل على حقي، بعد كل هذا العذاب؟» ولكن روح الانتقام داخلها أخذت تكبر وتكبر معها مطالبها من الحرية، حتى وصلت إلى ما نحن عليه الآن، من تقليد ملبس الرجل، وحتى أسلوبه في تصفيف شعره، وهنا يكمن الخطأ...

هناء مصطفى

عوض - السويس

*.. في البداية عبرت المرأة عن رغبتها في الاستقلال، من خلال سعيها لاحتلال مكان الرجل، ثم عادت تطالبه باحتلال مكانها، ونسيت أن الله (سبحانه وتعالى) خلقها لدور لا ينافسها فيه سواها، ومن الطبيعي بعدها أن يشكو الرجل من المرأة، وأن تثور المرأة على الرجل، وتصل العلاقة بينهما إلى مفترق الطرق...

أحمد عصمت مصطفى عمر -

القاهرة - النزهة الجديدة

*.. أصبحت أومن بأن الله سبحانه وتعالى خلق المرأة، وكرمها بكونها ربة أسرة.. صحيح أن لها حق الاختيار، في أن تجاهد لتصبح شخصية مرموقة، ولكن عليها أولا أن تسأل نفسها: هل يكون هذا على حساب أسرتها أم لا؟ ولو شعرت بأنها ستضطر إلى إهمال أسرتها، ولو بنسبة 1 ٪، فعليها أن تنسحب من عملها على الفور..

الأخت أ. ر. -

دولة الإمارات العربية.

*.. موضوع المرأة شائك بحق، وسيادتك تقول إن الرجل هو سبب المشكلة، ولكنني أرى غير هذا ولدى أسبابي: أولا: خلقت المرأة من ضلع أعوج، وأعوج ما في الضلع أعلاه، وثانيا: النساء ناقصات عقل ودين، وثالثا: هناك حديث نبوي (لست أذكر نصه)، يقول، إن هناك الكثيرين من الرجال الكُمّل، ولكن لم يكمل من النساء سوى أربع.. امرأة فرعون (ولا أذكر اسمها)، و (مريم بنت عمران)، و (خديجة بنت خويلد)، و (فاطمة بنت محمد) .....

أحمد عيد شلبى

محمد – الإسكندرية

*.. ولو اعتقدت المرأة أن مسئولياتها تجاه زوجها وأسرتها تحط من قدرها، فهي مخطئة تماما، لأنها ينبغي أن تفخر برسالتها

هذه، التي لولاها لتفككت الأسرة، وانهار المّجتمع، وفسد الكيان كله...

أبو اليزيد إبراهيم

أبو اليزيد - بركة السبع

*.. واستغل الرجل سلطاته على نحو غير سليم، وبالغ في التعنت مع زوجته، وفي القسوة والعنف معها، بحجة الحفاظ على كرامته وكرامتها، فترك داخلها شعورا بالظلم والغضب والاضطهاد، وكادت تختنق في سجنه الصارم، عاجزة عن تحطيم جدرانه، حتى جاء اليوم الذي ثارت فيه عليه، وطالبت بحقوقها وحريتها...

عمرو محمد فرج السيد -

القاهرة - مصر القديمة

*.. ودون الخوض في أسباب شائكة وعديدة، سوف يطرحها القراء، فإنني أجد أن للمشكلة سببا واحدا رئيسيا، ألا وهو انحراف المجتمع عن المنهج الرباني، الذي وضعه خالق الكون، والاتجاه إلى مناهج أخرى، غربية أو نظرية...

فراس عبد

العزيز عالم

كلية الطب - جامعة

الملك عبد العزيز - جدة

☆ ☆ ☆

* خطابان فقط، لم أستطع الاكتفاء بنشر جزء منهما فحسب، وجذبني أسلوبهما، حتى أنني رأيت ضرورة أن يشاركني القراء ما جاء بهما، وهما خطاب (م. ع. ع - 16 عاما)، الذي لم يكتب اسمه للأسف، وخطاب الصديقة (وفاء رأفت على) من (مصر الجديدة)، فدعونا نطالعهما معا

☆ ☆ ☆

(١)

نعم المرأة مشكلة..

ونعم نحن الرجال صنعناها..

ربما يتساءل بعض الرجال كيف؟ أو ربما يحاول البعض الآخر نفى مسئوليته عن هذه المشكلة.

فالمرأة منذ الأزل تعاني نفس المشكلة. ألا وهي الشعور بعدم المساواة بالرجل.

وستظل أبدا تشعر بهذا الشعور مهما نالت من حرية، ومهما بلغت من مناصب، ومهما انتزعت من سلطات من يد الرجل، ستظل في أعماقها تشعر بأنها مظلومة.

فالمرأة في عصرنا هذا تنقسم إلى قسمين:

- القسمان يتفقان في الدافع، وهو الشعور بعدم الأمان وعدم المساواة، الشعور بالظلم والقهر، ولكنهما يختلفان في رد الفعل.

فالقسم الأول يستسلم ويشعر بأنه لا يستطيع تغيير أي شيء مما حوله، فيفضل البقاء تحت سيطرة الرجل وحمايته في نفس الوقت؛ لأنه في قرارة نفسه يشعر بضعفه الأنثوي وعدم قدرته على التعامل مع الحياة بمفرده، وهو القسم الأقل انتشارا الآن أما القسم الآخر، فتتولد داخله طاقة متمردة، وغضب مكبوت ينجم عنه رفضه لأنوثته وانسلاخه عن جنسه، لأنه في رأيه السبب فيما يواجهه في حياته من سيطرة رجالية على المجتمع ويدفعه إلى محاولة التشبه بالجنس الذي يسيطر على مجريات الأمور، ولكنه بهذا يتنازل عن حقوق أخرى.

فإذا أصبحت المرأة متساوية معي كرجل، وغير محتاجة لوجودي، فلماذا أقف مثلا لأدع امرأة تجلس مكاني، أو لماذا أدعها تمر أمامي أولا. والكثير من تلك الحقوق المكتسبة، لكونها امرأة ضعيفة، والتي تفقدها بمحاولتها للتشبه بالرجل.

ولكن القسمين ضحية معاملة الرجل شئنا أم أبينا.

ولكن من هي المرأة – المشكلة - فهي نصف المخلوقات على وجه البسيطة، فهي الأم، والأخت، والصديقة، والزوجة، والابنة.

هي نصف حياتنا

ومعظم مشكلاتنا

م. ع. ع.

(16 عاما)

(2)

أستاذي العزيز د. نبيل فاروق..

بعد التحية والسلام..

لقد ذكرتني كلمات سيادتكم في الدراسة الأخيرة «المرأة مشكلة صنعها الرجل» بمناظرة قمت بكتابتها تحمل رأيي الذي لن أحيد عنه..

تحمل احترامي للرجل ومقتي للظروف التي تكبل يدي، ومعي كل امرأة شرقية تبحث عن حريتها المشروعة..

ها هي كلماتي..

ها هو اتجاهي..

* من أنت كي أحادثك؟ من تكون كي أصدقك؟

- رب البيت سيد قومه... حامي بلاده.

* أنسيت (جهاد) التي بالسيف عانقت صفوف العدو، وبيسراها لواء الإسلام! ؟؟

- لم أنس، ولكنها كانت واحدة..

* واحدة! ؟ أين ذهبت عيناك؟ بم هام ناظراك؟ أين أذناك كي ترهف السمع؟!

- البقاء للأقوى والرجال قوامون على النساء..

* أنت عنيد مكابر..

- بل أنت تتعاملين بصلف وتجبر.

* إلام ترمي؟

- إلى حيث الطاقة... سأبقى أنا الأقوى، أما أنت فستبقين الأضعف.

* من قال هذا؟.. إن ما أقوله ما هو بمنطق امرأة شرسة ولا فتاة طائشة، إنما هو مجتمع نسائي يطالب بحقوقه.

لقد استوليت على حق الدفاع عن الوطن.. فأنت تجند..

استوليت على حق القضاء على الجريمة فأنت ساهر على راحة الآخرين في زي الضابط.. لم لا تترك أيها الرجل للنساء السبيل لتحقيق أهدافهن.. إننا نستهدف المعاونة في البناء لا الجدل فيما لا طائل له..

- أوقفي هذا التحدي السافر واسمعيني..

* لا... لن أدع لك الفرصة لإخضاعي من جديد.

- ربة البيت الناجحة هي أفضل للرجل من المرأة العاملة.

* لم لا تزيد على ذلك فتقول إنه من الأفضل ألا تنال المرأة من التعليم شيئا لتحيا في غياهب الجهل والتخلف فتزداد أنت سلطانا..

- أتسخرين مني أم تريدين استفزازي؟؟

- قل ما شئت، ولكن المرأة ستظل تبحث عن النور، ولن تنال من أقاويلك تلك ما تصبو إليه، فأنت بذلك تقترح إلقاءها في بئر من الظلمات، بل هو بحر الظلمات الذي لا شاطئ له.. حيث لا نجاة ولا عودة..

- أديري على.. نعم أديري على.. فقد أكون قد نسيت مم خلقت..

* لقد نسيت أنا الأخرى... وإن كانت في طي الذاكرة لما لجأت إليها... فكم أنت خبيث!!

- لقد خلقت حواء من ضلع من ضلوع آ..

* ماذا تعني؟؟.

- أعني أنه بدون ذلك الجسد الذي خلقت منه لما وجدتك على وجه البسيطة..

* ويحي... أين ذهب عقلك! ؟ هل خبا وميضه الذي طالما كنت أعجب به؟؟

- ما يزال كل في مكمنه، فأنت من يتمرد على قوانين الحياة لا أنا..

* أتمرد! ؟؟... ما هو مفهوم التمرد لديك؟

- التعدي..

* أنا لا أتعدى... فما أنا بفاعلة إياه، إنما هو التحدي...

- أأنت واثقة من أن تلك النبرات هي نبرات صوت أنثوي؟.. إن تلك الكلمات تنبع من غريزة من تملك خصلات تنسدل على كتفيها؟؟

* قل ما يحلو لك فهي غريزة البقاء ولا تفسير آخر لدي...

- أيعني هذا أنه قد انسدل الستار على هذا النقاش؟

* لا ليس بعد... أتريد التهرب؟

- من.. أنا!؟؟ إنه لعار على أن أفعل..

* ألا ترى فيما تقول الأنانية؟ فأنت لا تريد التخلي عن حقوقك، ومع ذلك تطالبني بالتخلي عن كل ما أملك من حقوق، وعما أزال أبحث عنه من حقوق لم تصلني بعد!!

- لا صلة بين هذا وذاك.. إنه الوضع منذ القدم.

* أترانا ما نزال نعيش في البادية نحتمي وراء القباب الواقية خشية من بطش الأعداء! ؟. لقد تغيرت الحياة كثيرا.. أما أنت فلا تريد أن تتغير..

- أيعني هذا أني لا أواكب عصر الذرة وغزو الفضاء؟؟

* لم يكن هذا هو مقصدي، فأنت مخترع هذه الأجهزة، وتلك الشاشات.

- وبعد؟

* الفهم... افهمني أفهمك... امنحني الفرصة كي أثبت قدراتي...

- أهذا هو كل ما لديك؟ ها هي الفرصة أمنحك إياها، فأريني ما أنت فاعلة بها.

* نعم... سترى... سترى ولن تندم أبدا، فستكون مدينتنا ذات طرقات ممهدة، ومحال مضيئة، ودور فسيحة.

- لنر.. فها أنا منتظر.. سأمهلك ردحا من الدهر.

* ها قد عدنا إلى السخرية من جديد.

- إنها ليست سخرية.. حسن.. سنعمل معا، ولنر العاقبة.

وهنا ارتفعت السبابة وخيم السكون، وباتت الأيدي متعانقة والقلوب متوثبة..

لكل بداية نهاية.. وهكذا خطابي، فقد بدأ بكلماتي، وها هو ينتهي بكلماتي أيضا..

- من بين قرائك وفاء رأفت على

مصر الجديدة

☆ ☆ ☆

وهكذا تنتهي كل الخطابات، التي وصلت إلى المؤسسة، حتى لحظة طبع هذا الكتاب، وفي الكتاب القادم من سلسلة (كوكتيل 2000)، أعدكم بأن أفرد مساحة أكبر، لنشر كل أو معظم ما يصلنا من رسائلكم واقتراحاتكم في هذا الشأن، ثم نتابع معا فصول الكتاب..

اعتبارا من الكتاب بعد القادم..

وحتى ذلك الحين..

إلى اللقاء.

☆ ☆ ☆

المرأة مشكلة .. صنعها الرجل

المرأة مشكلة صنعها الرجل (دراسة)

في هذه المرة، قررت أن أكسر القاعدة..

صحيح أنها ليست أول مرة أفعل فيها هذا؛ فلست أميل بطبعي إلى النمطية، ولا إلى السجن في قوالب جامدة، أو آراء لم تعد تناسب العصر..

ولكنها المرة الأولى، التي أجدني فيها مضطرا لكسر القاعدة..

لقد بدأت دراستنا، حول علاقة الرجل بالمرأة، على نحو يكسر القواعد التقليدية..

بدأت بجمع آرائكم حول دراسة لم تبدأ بعد..

وكان هذا، في حد ذاته، جزءا من الدراسة..

لقد استفزكم العنوان..

مجرد العنوان.

وهذا يعني أن المشكلة كامنة بالفعل في أعماقكم، وأن كل ما كانت تحتاج إليه هو أن يضع شخص ما إصبعه عليها، فتنفجر في عقولكم، وتنسكب على رزم من الأوراق والرسائل، اكتظ بها مكتبي، وازدحم بها عقلي، حتى أنها التهمتني تماما لأكثر من ثلاثة أيام، قرأت خلالها العشرات والعشرات من الخطابات والآراء والتعليقات.

وساعة فساعة، راحت تنمو داخلي فكرة ضخمة..

كيف أصل بهذا السيل من الآراء للجميع؟!..

كيف أطرح أفكاركم ومقالاتكم ودراساتكم للقراءة والمناقشة، في هذه المساحة الصغيرة، التي نمتلكها معا في (كوكتيل ٢٠٠٠) ؟!..

وراودتني فكرة مجنونة في أن أنشر كل الرسائل..

وكادت الفكرة تصيب المسئولين عن النشر بأزمة قلبية..

كيف تنمو دراسة محدودة، داخل سلسلة دورية، حتى تلتهم السلسلة كلها، ولا تفسح المجال للقصص القصيرة، والمسلسلة والدراسات الأخرى، والروايات، وغيرها؟!..

وكان من المحتم أن أتراجع..

ولكنني لم أنسحب إلى خطوط القتال الأولى..

لقد نجحت في احتلال مساحة من الرأي والعناد، تكفي لنشر عدد من أفضل ما تلقيت من رسائل في هذا الكتاب، على أن أواصل نشر الرسائل الأخرى في الكتب القادمة، وخاصة لو أنها تحوي بعض الآراء الجديدة.

وكان هذا الحل يرضي جميع الأطراف، إلى حد ما..

الطرف الوحيد، الذي لم يتم استطلاع رأيه في هذا القرار، هو أنتم..

أصدقاء الورق..

وهأنذا أطرح عليكم الشكل الذي اتفق عليه رأينا هنا..

وأنتظر رأيكم..

والآن، هيا نطالع معا عددا من الرسائل..

ومن الآراء...

☆ ☆ ☆

بسم الله الرحمن الرحيم

تحية طيبة وبعد

صديقي العزيز: د. نبيل فاروق

أود في بداية حديثي أن أشكرك كثيرا.. لأنك فتحت لنا أبواب هذا الحوار الرائع.

آه لو تعلم كم تمنيت هذه الفرصة العظيمة.. منذ زمن.. فلدى الكثير.. الكثير جدا.. وكم تمنيت أن أتحدث به إلى أحد....

ولقد فعلت مرة.. وكان رد الفعل.. مدهشا.. فالبعض اعتقد أني بدائية.. متحجرة.. متخلفة.. وربما أكون عقبة في طريق تحرر المرأة من قيودها.. تلك القيود التي أدمت معصميها منذ قرون..

قرون طويلة..

ولكن.. كل ما تحدثت به إليهم.. وكل ما سأتحدث به إليك الآن هو عبارة عن مشاعر.. فقط بعض المشاعر والآراء... وكل إنسان له مطلق الحرية في إبداء رأيه والتعبير عن مشاعره.. الموضوع..

ساحر.. جذاب.. كزهرة ربيعية متفتحة.. ولكنه واسع.. عميق.. كمحيط شاسع لا تهدأ أمواجه.. أبدا رجل وامرأة.. كلمتان بينهما حرف عطف.. والعالم كله بين هاتين الكلمتين... وهذا ليس بجديد..

قرون طويلة.. عاشها الرجل والمرأة.. معا.. تأرجحت العلاقات بينهما.. تغيرت.. وتقاربت.. وتباينت..

ازدهرت واندثرت.. انسابت واقتحمت.. بردت وجفت.. هدأت واشتعلت.. سكنت والتهبت.. تحطمت وتقدمت.. ثارت واستسلمت.. ولكنها استمرت.... تارة كالحرير.. وتارة كالحديد والنار.. تارة تحمل عبير الورود والحب.. وأحيانا تحمل طلقات الرصاص.. وألسنة لهب وخناجر ملوثة بالدماء.. وتارة كالماء.. لا لون.. لا طعم ولا رائحة.. وتلك هي أسوأ العلاقات على الإطلاق.. ولكن لماذا؟ لماذا يلجأ أحدهما إلى الآخر؟..

ماذا يريد كل منهما من الآخر؟..

ماذا يريد الرجل من المرأة؟

وماذا تريد المرأة من الرجل؟ ؟!.. عبر كل هذه العصور..

ماذا أرادت؟.... آه المرأة!!..

الأسئلة كلها صعبة.. محيرة.. لم تحيرني أنا فقط ولم تعبث برأسي أنا فقط.. وإنما اهتزت برنينها أوتار العقول في كل مكان وزمان....

ولذلك فقد بذلت بعض المحاولات.. داخل نفسي وخارجها.. بحثا عن تلك الإجابة الضائعة.. ولم أبدأ بحثي باليوم.. أبدأه منذ خلق آدم.. خلقه الله (سبحانه وتعالى) وأسكنه الجنة.. ولكن

آدم.. كان وحيدا.. شعر باحتياجه لشيء آخر.. شيئا لم يجده حتى في الجنة!!.. احتاج إلى من يؤنس وحدته.. ويشاركه ضحكته ويسمع همسته.. ويسكن إليه.. احتاج إلى من يحبه!!..

وخلق الله حواء... ولو أننا تخيلنا أول حوار دار بينهما:

سألها في دهشة حين استيقظ من نومه.. ورآها أمام عينيه:

- من أين أتيت؟.. لم تكوني هنا قبل نومي.

فأجابت:

- خلقني الله من ضلع في صدرك وأنت نائم.

فقال في سعادة:

- حمدا لله.. سأجد من يشاركني الجنة.

وعندما سأله الملائكة عن اسمها.... قال لهم:

- سأسميها حواء.. وأسماها حواء.. أتدري لماذا؟..

لأنها منه.. وهو حي

هذا هو لب الموضوع.. إنها منه.. وهكذا خلقها الله.

خلقها من ضلع في صدره.. لكي تكون قريبة من قلبه دائما إلى جواره.. يظلها بجناحيه.. وبين ذراعيه تحيا في سلام.....

ويمر الزمن..

وبمرور الزمن..

نسيت المرأة أنها منه.. ونسى الرجل أنه يحتويها..

وهنا بدأت المشكلة.. وبدأت المرأة تتبرم وتثور.. وبدأ الرجل يسخط ويتذمر.. وبدأ كلاهما في الصراخ دفاعا عن حقوقه،

ولكن أحدهما لا يسمع الآخر.. لا يفهم الآخر.. وبدأ الصراع وتاه كل منهما في طريق..

رجل يحتاج لامرأة يحتويها ويسكن إليها.. وامرأة تحتاج إلى فارس.. ويا لها من كلمة في زمن.. تندر فيه ملامح الفرسان..

إنها ليست ملامح وجه أو جسد.. إنها ملامح شخصية.. ملامح كائن اسمه الرجل.. ولكن ليس أي رجل.. ملامح لا ترى بعين وإنما تحس بقلب، تحوي بين طياتها.. أنبل ما في الوجود.. دفء وحنان.. شجاعة وإقدام.. صرامة وكرامة.. بسالة بلا نهاية.. وقلب.. قلب بلا حدود.. ملامح رجل يحارب الدنيا كلها من أجل مبدأ.

رجل لا يعرف الخوف.. إلا من بارئه.. لا يعرف الخيانة ولا يطعن في ظهور أعدائه، ولا يفر أبدا من مبارز.. ولا يبخل على سائل... رجل يحب بكل قلبه حتى وإن لم ينطق كلمة الحب..

تتضاءل تلك الكلمة إلى جوار ما يفعله من أجل حبيبته.. كل ما يفعله.. وحتى لو كانت لفتة صغيرة من إصبعه.. لإبعاد حشرة صغيرة اقتربت من حبيبته.. فتلك الأشياء وإن غابت عن ذهن الرجل إنما تؤثر تأثيرا عميقا في وجدان المرأة وعقلها وقلبها

ولكن.....

أصبحت تلك الاحتياجات.. حبيسة في نفس حواء.. تقاوم كل ما حولها.. تعتصرها كل الماديات.. تدوسها عجلات السيارات.. تدمرها قسوة الزمن.. وخيانة الأصدقاء.. تسحقها كل الأخلاقيات الرديئة..

وتشعر بالألم.. فأطلال الفارس تتحول إلى رماد.. غبار تلهو به رياح عابثة، فلا يبقى منه سيف يذود ولا يد تحمي ولا نظرة عين

ترد غضبة عدو..

تكاد تؤمن بأنه لن يأتي.. ولن يحيا أبدا من رماده، ولكنه الأمل يتسلل إلى نفسها يسكنها.. فتظل تحمل في طيات نفسها ذلك الفارس.. تدخر له كل ذرة حب في قلبها.. كل كلمة عشق ستنتظره.. وحينما يأتي ستمنحه كل نبضات الحب والأمل وكل ما تحويه نفسها من جمال.. أتدري لماذا تنتظره؟!..

لأنها تحتاج إليه.. تريد منه كل ما أرادته المرأة من الرجل عبر العصور.. ما أرادته كل امرأة.. من كل رجل... الأمان..

بسم الله الرحمن الرحيم

«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة»

صدق الله العظيم

A.F

عبير فوزي

☆ ☆ ☆

«آراء جادة»:

المرأة مشكلة.. نعم.. ولكن لم يصنعها الرجل وحده.. فقد شاركت المرأة نفسها في صنعها.. فهناك دائما حرب معلنة أو غير معلنة بين الرجل والمرأة.. صراع أبدي بينهما.. لماذا.. لست أدري.. إن لكل منهما مكانته ولا حياة لأحدهما بدون الآخر، وقد خلق الله تعالى حواء من آدم لتؤنس وحدته وتكون له أمنا وسكنا،

قال تعالى: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»

لِمَ يشتعل الصراع بين الرجل والمرأة إذن ما دام الله قد جعل بينهما مودة ورحمة؟! أعتقد أن هذا لأن كلا منهما لم يعرف حقيقة دوره في الحياة ولم يدرك مكانته.. فالمرأة رفضت قوامة الرجل عليها بالرغم من أن الله تعالى جعل الرجل قواما أي رئيسا عليها ليس للاستعباد والتسخير وإنما للإشراف والرعاية.. وقد أعطى الله الرئاسة للرجل بحكم تكوينه الطبيعي وبحكم كده وعمله في تحصيل الرزق الذي ينفقه على أسرته.. قال تعالى: «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم».. فقد جعل الله الإنفاق واجبا على الرجل لا المرأة ومن هنا نبعت القوامة..

ولأن المرأة ترفض أن يكون الرجل قواما عليها فقد خرجت إلى العمل..

وأنا لم ولن أصدق أنها خرجت إلى العمل حتى تشغل وقتها وتستثمره أو لتحقيق ذاتها في العمل..

فالمجال أمامها متسع لتحقيق الذات في تربية أبنائها وتعليمهم وفي خلق جيل جديد قوي بناء.. ولست أقر ترك المرأة لأبنائها وإهمالها لهم لكي تعمل إلا في أضيق الحدود..

(ملحوظة: أتوقع أن تنهال على اللعنات من بعضهم بسبب هذه الكلمات، ولكن هذا رأيي)..

وقد تحقق المرأة نجاحا كبيرا في بعض مجالات العمل، وقد تكون ملكة وحاكمة ووزيرة، ولكن ستظل الأسرة هي مملكة المرأة التي تستطيع التربع على عرشها، وستظل المرأة المنبع الأول للحنان والحب لأطفالها.. وقد بين الرسول - صلى الله عليه وسلم – عظيم حق الزوج وجزاء طاعته فقال: (أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة) وقال أيضا: (ولو أمرت أحدا أن يسجد لأحد [غير الله] لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها)..

ولأن المرأة كذلك إنسان لها رأي وعقل وكيان ودور في الحياة، فقد كرمها الله في كل موضع، ويكفي أنه (سبحانه وتعالى) قد جعل الجنة تحت أقدام الأمهات... وكلنا نعرف أنه وراء كل رجل عظيم امرأة تدفعه إلى الأمام.. ولكن المرأة بالطبع لا تريد ذلك.. لا تريد أن تكون وراءه أبدا حتى ولو كان نجاحه نجاحا لها.. فلماذا لا تكف المرأة عن الشعور بذلك الوهم.. الوهم بأن الرجل يريد دائما استعبادها وإذلالها.. لماذا لا تكف عن عقد المقارنة بينها وبينه...

وإذا تكلمنا عن القيود التي تحيط بالمرأة منذ الصغر فهي والحق يقال كثيرة.. فكل فتاة تحاط برقابة شديدة في دخولها وخروجها، وفي ملابسها ومظهرها وفي حديثها وكل كلمة تنطق بها.. وهذا

ليس بخطأ.. ولكن الخطأ كل الخطأ في أمرين.. الأول أن يبالغ الأهل في رقابتهم وفي تحذيرهم للفتاة فتشعر بعدم الأمان، وتشعر بأنها تعيش في غابة مليئة بالوحوش الطامعة فيها.. والأمر الثاني.. أن يطلق الأهل العنان للفتاة لتفعل ما تريد رغبة منها في الشعور بالحرية المطلقة وبالمساواة مع الرجل.. وأعتقد أنه لن تكون هناك مساواة كاملة بين الرجل والمرأة.. وهذا شيء طبيعي.. فالمساواة تكون في الحقوق والواجبات كذلك.. وما دامت المرأة لن تفعل كل ما يفعله الرجل، وما دام الرجل لن يفعل كل ما تفعله المرأة، فلن تكون هناك إذن مساواة كاملة.. ولا شك أن هناك حقوقا للمرأة لم تحصل عليها بعد.. وأهم هذه الحقوق ندركه بسهولة عندما نسمع عما يحدث لنساء البوسنة والهرسك.. ومن الأمور الظالمة للمرأة في مجتمعنا.. تفرقتنا بين خطأ الرجل وخطأ المرأة.. فإذا أخطأ الرجل قلنا: إنه رجل.. أما إذا أخطأت المرأة فقل عليها السلام.. وقد نالت المرأة في عصرنا حقوقا كثيرة وأصبح رأيها مسموعا في كل مجال..

(ملحوظة: الشقة من حق الزوجة)..

ومن المؤسف أن المرأة عندما شعرت بأنها مظلومة، وعندما أرادت أن تتساوى مع الرجل في كل شيء.. قلدته في كل شيء أيضا في تصرفاته وملابسه وخشونته، وقبلت التنازل عن أنوثتها بكل سهولة.. حتى أنه قد يتعذر علينا أحيانا التفرقة بين رجل وامرأة..

وهي بذلك تخالف الطبيعة وتخالف إرادة الله الذي خلقها أنثى ومنحها أقوى الأسلحة للدفاع عن نفسها، وهذا السلاح هو ضعفها....

ولست أقصد الضعف بمعنى الخنوع والاستسلام، ولكن أقصد الضعف القوى الآسر.. الضعف الذي يعد أشد فتكا من أي سلاح.. الضعف الذي يملكك في حُنوّ ورفق.. وأكرر أنه لا داعي لأن تعقد المرأة المقارنات بينها وبين الرجل.. لا داعي لأن تتحداه.. فلكل منهما تكوينه الطبيعي، ولكل منهما طريق خاص به يسير فيه ثم يلتقيان لكي يسيرا معا في طريق واحد ليكمل كل منهما الآخر.. وقد قرأت عبارة لكاتبة فرنسية تقول فيها: (إنني أرفض بكل قوة أن هناك مؤامرة كونية ضد المرأة.. وأن هذه المؤامرة هي التي مكنت الرجل من أن يجعل المرأة ترسف في الأغلال.. في البيت والشارع والمصنع.. أبدا عقلي يرفض ذلك تماما.. فإن كانت عبودية للمرأة فهي التي وافقت على ذلك.. وإن كانت المرأة لا تزال وراء الرجل فلأنها أرادت ذلك.. إن أظفار المرأة قد فتحت الصخر، وإن جنود الإغريق عندما لم يجدوا حبالا يشدون بها السفن في حرب طروادة تقدمت المرأة وقصت شعرها ليصنعوا منه الحبال.. إن هذه المرأة لو أرادت لجعلت شعرها حبالا تشنق بها الرجال.. ولكنها لا تستطيع.. وهي لا تستطيع لأنها لا تريد.. مع الأسف)..

وبالطبع هذه ليست دعوة للنساء لكي يشنقن الرجال...

فإذا كانت المرأة تحب دائما أن تكون مشكلة.. فلا يجب علينا أن تلوم الرجل لأنه لم يصنع هذه المشكلة.. وحده...

ايهاب رضوان

سعد الدسوقي

كلية التربية بالمنصورة -

الفرقة الثانية رياضيات

☆ ☆ ☆

بسم الله الرحمن الرحيم

د. نبيل فاروق..

هذا هو رأيي في مقالكم المنشور بعدد كوكتيل ٢٠٠٠

«المرأة مشكلة صنعها الرجل» ...

المرأة أكذوبة صنعها الرجل

«مهلا يا سيدي الفاضل.. أرجوك لا تصدر عليّ حكما قاسيا من قراءتك للعنوان، ثم لا تلقي بملايين الاتهامات من قبل حتى أن تقرأ ما كتبته.. وحتى تعلم معنى العنوان وتفهمه جيدا دعنا نمسك بطرف الخيط وهي تلك العبارة التي ذكرها (د. نبيل فاروق) في الدراسة وهي: (أن الرجل يقول عن المرأة إنها مشكلة دون أن يعلم أنها من صنعه.. وذلك عندما رفض في البداية أن يمنحها حقوقها البسيطة العادلة).. ومع احترامي لرأي (د. نبيل فاروق) إلا أن هذه العبارة تسبقها كلمة (آراء جادة) قد أحدثت صدى ودويا في عقلي... ولنسأل الكاتب معا، ما هي أبسط الحقوق التي منعها الرجل عن المرأة...؟!

فلنعد للبداية الكاريكاتيرية عندما ترى المرأة البدائية البسيطة جالسة في الكون مرتجفة مذعورة من ذلك الوحش الضخم الممتلئ بالشعر ألا وهو الرجل.. في حين أننا نجد الرجل وقد سقط صريعا في هوى تلك الحسناء.. وبعد ذلك نجده وهو يقاتل ذلك الديناصور في جسارة وقوة ثم يصرعه ويقدم للحسناء لحمه كهدية بسيطة... هنا تدرك المرأة حقيقة واحدة

هي أنها ضعيفة في تلك الدنيا وأن الرجل - الوحش في نظرها - إنما هو ملاكها الحارس في هذه الحياة فهو يأتيها بالطعام ويذود عنها ضد كل ما يهاجمها.. وفوق كل ذلك كان كالعبد بالنسبة لها..

وقوة الرجل هي التي فرضت على المرأة أن تقف هذا الموقف، وضعفها هو الذي جعلها ترضخ لقوة الرجل بعد أن أيقنت أنها لن تستطيع حماية نفسها في هذا العالم الموحش... فبجانب الرجل عرفت المرأة الأمان والاطمئنان.

ولننتقل معا من هذا الزمن السحيق إلى عصرنا الحالي وننظر في معظم منازل مصر أو في السواد الأعظم منها.. لنجد أن العلاقة بين الرجل والمرأة كما هي...

تتساءلون كيف؟!.. نعم العلاقة كما هي فنحن نجد أن الرجل لم يعد يقاتل ديناصورا لكي ينال رضا المرأة.. ولكن صار عليه أن يقاتل عالما بأكمله ليحصل لها على شقة وأموال لكي ينال رضاها...

فتجده غارقا في عمله حتى أذنيه.. وهي تمارس هواياتها المنزلية متخيلة أن ما تقوم به هو عمل جبار تركه لها الرجل بعد أن خشي من عدم احتماله له... ونجد الرجل منهك القوي في آخر يومه.. بعد أن حصل للمرأة على الديناصور.. آسف.. على الأموال!!

أعلم أنكم ستسخرون مني وتقولون في استعلاء: (إن المرأة صارت تعمل مثل الرجل تماما الآن وأصبحت متساوية معه في الحقوق والواجبات المهنية.. ولكن مهلا يا سادة قبل أن تسخروا منى انظروا إلى آخر الإحصائيات المصرية والتي تقول ما يأتي...

[إن عدد العاملات المصريات بأجر في مصر نسبتهن لا تتجاوز 6 % من نساء مصر!! وأين الباقي؟!.. نعم أين باقي نساء مصر يا من تتكلمون عن عمل المرأة؟ أين 94 ٪ من نساء مصر؟!.. سنجد أنهن بالمنازل يقمن بتربية أطفالهن والاعتناء بأسرهن، وإذا سألت يا سيدي أية سيدة في مصر عما إذا كانت تفضل أن تعمل، فستجيب بقولها.. إن المرأة مكانها الحقيقي هو منزلها.. لماذا؟!.. لقد تعبت المرأة. نعم لم تعد تتحمل ما يحدث. إنها ضعيفة، نعم ضعيفة ومن هذا الضعف خرجت الأكذوبة.. الأكذوبة التي ضمها الرجل.. لقد أخفت المرأة ضعفها بأكذوبة وهالة زائفة غرسها لها رجل الكهف عندما قدم لها الديناصور..

• وبعد ذلك تقول يا سيدي: إن الرجل منع عن المرأة حقوقها...!!

أية حقوق يا سيدي بالله عليك؟ «الرجال قوامون على النساء» وهذا ما يجعل الرجل يعمل ويحكم ويسود، ولننظر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي حذر من أن تتولى امرأة حكم شعبها لأنها ستفسد البلد.. لأن المرأة أسيرة لأهوائها وعواطفها الشخصية..

يا عزيزي الكاتب.. نحن الذين صنعنا تلك الأكذوبة والهالة حول المرأة التي ضاعفت من حجمها، ونحن الذين احترمناها ووفرنا لها كثيرا من أمان وحماية وراحة في منزلها ولم نمنع عنها أي حقوق

يا سيدي

كلمة أخيرة.. المرأة خرجت من ضلع مكسور ثم.. كسرت كل الضلوع..

أحمد

محمد حسن عرفة

☆ ☆ ☆

د. نبيل فاروق:

تحية طيبة وبعد: أرسل لك هذا الخطاب:

أولا: لتهنئتك على المجهود الكبير الذي تبذله لإخراج هذه السلسلة الرائعة (كوكتيل ٢٠٠٠) وكل المجموعات الأخرى من (رجل المستحيل) و (ملف المستقبل) وغيرها.

ثانيا: لأهنئك أيضا، ولكن لطرحك موضوع «المرأة مشكلة صنعها الرجل» الذي طرحته في العدد الثامن عشر وطلبت من القراء إبداء رأيهم فيه. وها هو رأي المرأة منذ خمسين سنة فقط. كانت كل مهامها في المهام المنزلية البحتة من طهي وتنظيف وترتيب، لم يكن لها الحق في إبداء رأيها في شيء. لم يكن لها الحق في التنظيم. لم يكن لها الحق في الخروج من المنزل، وإن حدث ونظرت مرة من النافذة تنقلب الدنيا فوق رأسها. وشيئا فشيئا أصبحت تذهب إلى المدرسة وتتعلم، ولكن في أضيق حدود. وأصبحت تستطيع إبداء رأيها في بعض المشاكل المنزلية لا أكثر. والرجل يعتقد بهذا أنه أعطاها حقوقها. لذا فقد كانت الثورة لازمة. كان لابد من شيء ليغير من وجهة نظر الرجال نحو النساء. وبدأت المرأة تطالب بالمساواة بينها وبين الرجل ليس لأنها تريد هذا فهي بداخلها تعرف أنها لا تستطيع القيام بكل ما يقوم به الرجل، ولكن لكي تثبت له أن لها رأيا وأن لها من الحقوق مثلما له، وحتى إن فشلت فيكفي أنها حاولت وأنها لم تستسلم للأمر الواقع. وبدأت تعمل.. مثلما يعمل

الرجل وأصبحت تنافسه ليس لمجرد أن تعمل مثله، ولكن لتثبت للرجل أنها تستطيع القيام بأصعب المهام مثله وأنها تستطيع أن تتكفل بنفسها وتستطيع حماية نفسها ولا تحتاج لمن ينفق عليها أو يحميها، ولتقول له: هأنذا أخرج كل يوم للعمل وأواجه مشاكل لا حصر لها مثلما تواجه أنت من مشكلات المواصلات ومشكلات العمل، بالإضافة إلى المشكلات العائلية والمنزلية ومع ذلك فالمرأة لا تستطيع إرضاء الرجل أبداً. دائما لا يعجبه ما تفعل..

إن كانت هادئة في تصرفاتها... اتهمها بالبرود.

وإن كانت منفعلة ثائرة... اتهمها بالحدة.

وإذا كانت مستسلمة لآرائه... تفعل ما يأمرها به قال الرجل: سهلة المراس... لا رأي لها

وإن أبدت رأيها في كل صغيرة وكبيرة... قال تدس أنفها في كل شيء..

وإذا فكرت في طموحاتها وآمالها... وجاء الحب في المرتبة الثانية من حياتها.. قال: امرأة بلا قلب.

وإذا كانت رومانسية والحب في المرتبة الأولى عندها قال: امرأة بلا طموح..

إذن فهي في كل الأحوال لا ترضيه، ثم يقول بعد ذلك إنها مشكلة.

أليست بتعنته وقسوته وتسلطه أصبحت مشكلة؟ إن الرجال دائما يرددون أن الزواج شر لابد منه، وأنا معهم في الجزء الثاني من مقولتهم، فالزواج لابد منه، فهو أساس المجتمع. ولكن

لماذا هو شر؟ إنه شر لأن الرجل يفرض سيطرته وآرائه المتعنتة. فإن أرادت المرأة الثورة عليه انطلقت تفعل ما تريد وتعانده في كل أموره، وترتدي ما تريد من ألوان لا يحبها زوجها، وتفعل ما يغضب زوجها، فإذا به يتهمها بأنها لا تصون كرامته وأنها تعرض سمعته للخطر والقيل والقال، لماذا؟ فهو إن كان ديمقراطيا في حياته معها حنونا غير متسلط من البداية لما ثارت على آرائه وانطلقت بحرية دون تفكير في شيء. وأنا هنا لا أقول إن كل الرجال كذلك، ولكن أقول هذا لمن تنطبق عليه المواصفات السابقة. ثم لماذا يشكو الرجال من الحموات دائما، ويجعلها فنانو الكاريكاتير موضوعا للسخرية ويقولون دائما إنها تفسد حياتهم الزوجية؟ لماذا؟ لأنها دائما تنصح ابنتها وتريد أن تجنبها ما واجهتها هي في حياته الزوجية. ولكن الزوج يريدها آلة لتنظف وتطهو وترتب وتربي الأطفال. والمرأة لا تواجه السيطرة عليها في بيت زوجها فقط، بل أيضا قبل أن تتزوج عندما كانت في بيت أبيها دائما يكون الابن الذكر هو الذي في المقدمة حتى وإن كان أصغر منها سينا.

وأخيرا لا أريد أن أطيل أكثر من هذا، وإنما أردت طرح المشكلة من عدة زوايا. وأعلم أن من سيقرأ هذه الرسالة سيعتقد أني متعنتة ومنحازة إلى جنسي، ولكن هذا غير صحيح، فأنا مؤمنة تماما إن للرجل حقوقا على زوجته وأخته أو حتى ابنته، فهو يحب أن يسيطر عليها، فهذا يشبع غروره، كما أن المرأة دائما تحتاج لمن يذكرها بأنها أنثى وهذا يحدث من خلال سيطرة الرجل عليها، وإنما أردت أن أقول وجهة نظري، وأنا لا أطمع في نشر هذه الرسالة فهي طويلة، وأنا أعلم هذا، وإنما فقط أتمنى أن أقرأ آراء ووجهة نظر الذكور أيضا.

ومرة أخرى أهنئك لطرحك هذا الموضوع الشيق وأقول لك إن هاتين الصفحتين ما هما إلا نقطة ماء في بحر، فالكتابة في هذا الموضوع لا تنتهي، وأرجو أن تكون هاتان الصفحتان قد عبرتا عن وجهة نظري، ولي طلب صغير. إذا وصلتك هذه الرسالة بإذن الله وقرأتها فأرجو أن تخبرني ولو بكلمة صغيرة وشكرا.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

رشا محمد عبد الحميد

القاهرة - مدينة نصر

شارع أحمد الزمر امتداد الذاكر حسين

☆ ☆ ☆

بسم الله الرحمن الرحيم

«وما توفيقي إلا بالله»

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينـا

فأنزلــن سكينــة علينــا وثبت الأقدام إن لاقينا

الأستاذ نبيل فاروق

تحية طيبة.. أما بعد

أسرني كثيرا طرقك لموضوع طالما أردت أن أكتب فيه، لذلك قررت أن أرسل لك بكتابي هذا وفيه رأيي عن دراستك الخاصة بالمرأة، وكنت أحب أن تضيف إليها (المسلمة) ودعنا نبدأ حتى لا نضيع السطور.

بادئ ذي بدء يجب أن نتفق على أننا نؤمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - رسولا، وأن نتذكر حديثه

– صلى الله عليه وسلم - (استوصوا بالنساء خيرا فقد خلقن من ضلع أعوج وأعوج ما في الضلع رأسه إن ذهبت لتقيمه كسرته وإن تركته ظل معوجا) والآن لنسرد بعض النقاط التي تمس موضوعنا:

1- مبدأ تحرير المرأة هو مبدأ استعماري صهيوني هدف إلى ضرب الإسلام آنذاك - فترة ما بعد الحملة الفرنسية - في صلبه وقوامه، وقام عليه كثير من أبناء الإسلام وغيرهم كقاسم أمين صاحب كتاب «تحرير المرأة» والذي كان من انحطاطه أن قال الشاعر شوقي:

ما بالكتاب ولا الحديث إذا ذكرتهمـــا نكيــر
حتى لنسأل هل تغـــار على العقائد أم تغير؟!

وقول «محرم»:

أقاسم لا تقذف بجيشك تبتغي بقومك والإسلام ما الله عالم
نبذت إلينـــا بالكتـاب كأنمـا صحائفه مما حملن ملاحـــم

وغيرهم مما أثارهم تطاول الكتاب على الحرمات وهدفه تحلل المسلمين من دينهم وأخلاقهم. وأخيرا نسوق تلك الآية الكريمة: «وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى» الآية ٣٢ الأحزاب.

2- المبدأ الداعي للتحضر والتمدن بخلع اللباس الإسلامي وأن تستبدل به ما يسمى (الموضة) هدفه واضح وصريح، قصد قتل

حياء المرأة وإشاعة الإباحية السائدة في المجتمعات الأخرى. وفي قصيدة للأزدي.. يقول:

أولم يروا أن الفتـــــاة بطبعهـــــا كالماء لم يحفــظ بغيــر إنـــاء

ما في الحجاب سوى الحياء فهل من التهذيب أن يهتكن سر حياء

ونسوق أيضا تلك الآية برهانا ودليلا يسكت أصوات السفور والخلاعة: «يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين» «الآية 59 الأحزاب».

3- مبدأ مساواة الرجل بالمرأة - عفوا.. المرأة - بالرجل يهدف إلى تحطيم قوامة الرجال على النساء ولنقرأ قوله تعالى: «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض» الآية 34 النساء

وقوله عليه الصلاة والسلام: (النساء ناقصات عقل ودين).

وعلى هذا فقد كان أسهل وأجدر على الله أن يجعل بني آدم كلهم نساء أو جميعهم رجالا ما داموا - في عرف هذا العصر - متساوون.

4- خروج المرأة للعمل بجوار الرجل لغير حاجة، وإنما لإثبات الذات خطأ وكبيرة، حيث تحدث الآثام وترتكب المعاصي تحت مسميات كالزمالة والصداقة والتعاون المتكامل بين الجنسين، فالنساء ناقصات عقل ودين، وقد قال عليه الصلاة والسلام (ما ولى قوم أمورهم لامرأة إلا ذلوا) وهكذا نرى لحكمة يراها رسولنا الكريم - الذي لا ينطق عن الهوى - أن المرأة غير صالحة لتولي

أمور الحكم والوزارة والرئاسة، والآن ندخل إلى لب القلب في موضوعنا بأن المرأة - كما قلت - لا أحد يفهمها، وأنها في مجتمعنا مظلومة وفي ذلك كل الحق، ولكن إلام يرجع هذا؟ هل إلى طبيعة المرأة؟ أم إلى استبداد الرجل؟ ولنعرف الجواب نرجع إلى كلمة «مجتمعنا» وسنرى أن الإجابة أسهل ما يكون، فالمجتمع اليوم يشهد حالة من التصدع والانقسام والانهيار، حيث انقسم إلى فئتين إحداهما تعترف بالإباحية والأخرى تدعوا للحشمة والسلفية. والمرأة بما أنها من المجتمع فهي تائهة لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء فتضيع في مفترق الطرق فتسقط في وعاء الشيطان وتقسو وتثور حتى تخور ولا تجد ملجأ من الله إلا إلى الله. فالمرأة اليوم في صراع مع هواها وفطرتها وهذا الصراع يولد لدى المرأة شخصية جديدة لا يألفها الرجل فيثور هو الآخر حتى تصبح المرأة مشكلة، ولكن يصنعها المجتمع.

والحل إذن هو أن يكون مجتمعنا مجتمعا إسلاميا خالصا أساسه لا إله إلا الله، وقوامه الوحي المبين والشرع الحكيم، ولنتأمل ذلك بعيدا عن العصبية التي زرعها فينا الغرب ولنر هل حقا من الممكن أن تصبح المرأة مشكلة.. نصنعها نحن الرجال؟

خاتمة... طريق الشفاء... علينا بورق الصبر وعروق الإخلاص نضعها في إناء التقوى مع عصير التواضع ثم نصب عليها ماء الخشية، ونوقد عليها نار الحزن ونصفيها بمصفاة المراقبة ونتناولها من كأس الصدق بملعقة الاستغفار، ونبعد عن الحرص والطمع نشف من مرضنا بإذن الله ونعود إلى ديننا ونتصالح على ربنا صادقين مصدقين أخيارا.

وسلام على المتقين - والحمد لله رب العالمين -

م. ع. ك الزقازيق محافظة الشرقية

السن ١٧ عاما

☆ ☆ ☆

بسم الله الرحمن الرحيم

كلما تمعنت في العنوان الذي اخترته لطرح فكرتك عن العلاقة بين الرجل والمرأة وجدت أنه صحيح وينطبق على هذه العلاقة الأبدية منذ قديم الأزل وحتى الآن. فالمرأة منذ القدم تعامل على أنها المخلوق الأدنى درجة من الرجل، ومع الأسف ترسخ لديها ولدى الرجل هذا الإحساس على مر العصور حتى أصبح من المسلمات، وثبت الوضع على هذا الحال ردحا طويلا من الزمان منذ أن وأد العرب الأوائل البنات؛ لأنهن يجلبن العار، وحتى يومنا هذا الذي تفرح فيه الأسر عندما يولد لها ذكر، ويحدث العكس عند ولادة أنثي. وبرغم فرق كل هذه القرون بين الوضعين إلا أنه مازال قائما مع الفارق... لماذا؟

هل لأن الرجل شعر منذ القدم ومنذ بدء الخليقة [آدم وحواء] بخطورة المرأة عليه، وكيف أنها استطاعت التأثير عليه فأكل من الشجرة المحرمة فتغير مصيره، ومن يومها وهو يحاول كبتها وتحجيم دورها حتى لا يمنحها فرصة السيطرة والتأثير عليه مرة أخرى، وحتى يشعرها بالدونية فلا تشاركه في الحياة سوى الفراش فقط؟ أم هو انتقام آدم من حواء التي حرمته نعيم الجنة، فتحول انتقامه على مر العصور إلى محاولات تقليل شأن المرأة حتى يراها ذليلة، فحرمها التعليم والثقافة جزاء فعلتها التي لم يستطع نسيانها حتى الآن؟ أم هل هو الفهم الخاطئ للدين

الإسلامي الذي كرم المرأة كما لم يفعل دين آخر، وساواها بالرجل أمام الله في العبادة والحقوق والواجبات تجاه الدين والملاحظ أن وضع المرأة المتردي بشدة في الدول الإسلامية أكثر كثيرا من الدول الأخرى حتى تلك التي تنتمي للعالم الثالث ولا تدين بالإسلام..

أنا لا أدافع عن المرأة ضد الرجل، ولا عن الرجل ضد المرأة، لأنهما وجهان لعملة واحدة، ولا يستطيع أي منهما العيش بدون الآخر. ول كان الأمر كذلك لكان الله قادرا على أن يخلقنا جميعا من جنس واحد.. معاملة الرجل للمرأة هي التي خلقت كل هذه المشاكل، ويجب أن تتغير هذه المعاملة؛ فالمرأة الآن أصبحت متعلمة وتتحمل مسئوليتها كاملة جنبا إلى جنب مع الرجل، داخل منزلها وخارجه، وأصبحت هناك العديد من الأسر التي تعمل فيها المرأة وتعول الأسر كلها نظرا لظروف عديدة، وانتشر هذا الوضع في الآونة الأخيرة لدرجة أنه لم يعد من الأشياء الشاذة أو المستغربة في مجتمعنا. فكيف والحال كذلك أن تعامل المرأة معاملة مهينة..

والآن يأتي تيار يزعم أنه ديني يطالب بردة المرأة وعودتها لعصور انتهت بظروف حياتها المختلفة عن حاضرنا تمام الاختلاف، ويفزع هذا التيار - هنا لا أقصد المتطرفين الذين يحملون البنادق ويرتدون الجلابيب، فهناك شرائح عديدة ممن يوصفون بالاعتدال يرددون شعارات ربما لا يدركون خطورتها، ويروجون لها، تطالب المرأة بالتخلي عن مكاسبها التي كسبتها عبر مشوار تنويرها الطويل - هذا التيار يفزع من مجرد ذكر المرأة وكأن المرأة كلها عورات، وينسون أن المرأة هي التي ولدت وربت الرجال، وينسون أنها نصف المجتمع، وأن المرأة لو توفر لها

المناخ المناسب لأنتجت وتقدمت وتقدم معها المجتمع، وينسون أن الغرب (الملحد) لم يتقدم لأنه حجم دور المرأة وظلمها وحقرها!!!! من كل هذا أو أكثر أصبحت المرأة في وقتنا الحاضر تتعامل مع الرجل بمنطق الذي هرب من سجانه وحصل على حريته على الرغم من هذا السجان - والبعض يفزع من كلمة حرية ويفسرها على أنها الانحلال بعينه - وبرغم حصول المرأة على بعض الحقوق إلا أن المرأة تتصور أن هذه الحقوق انتزعتها من بين أنياب الأسد، لذلك فشعور الظلم والقهر لم ولن يتغير حتى يغير الرجل نظرته لنفسه أولا ويثق بنفسه أكثر، ويغير نظرته للمرأة ويعاملها على أنها نصفه وأنها خلقت من ضلعه، وهذا أكبر تكريم لها وليس تقليلا من شأنها كما يحلو للبعض أن يردد، فقد خلق «آدم» من طين وخلقت «حواء» منه هو...

ويحسب كثير من الرجال أن المرأة تسعى للمساواة بينها وبين الرجال، وهذا خطأ فلا توجد امرأة تتمنى أن تتساوى مع الرجل، إذ كيف يحدث ذلك وقد خلقنا الله مختلفين؟ فقط تريد حرية عقلها وتريد تحرير قدرتها على الإبداع والانطلاق إلى آفاق الثقافة والفكر، وهذا ليس دعوة للمساواة أو الحرية كانحلال كما قد يتصور البعض، ولكنها دعوة لمنح المرأة حقها الطبيعي كإنسان بصرف النظر عن كونه رجلا أو امرأة. وحين يتحقق هذا لن تصبح المرأة مشكلة، بل هي بالعكس ستصبح سند. الرجل ورفيقه الأمين المحب وهذه هي المشكلة.. شكرا؟

أمنية المعادي

1/9/1994

☆ ☆ ☆

هل لاحظتم ما تحمله الرسائل من آراء مختلفة؟!..

هل قرأتم المشكلة بين السطور؟!..

هل لاحظتم كيف أن الصراع محتدم بالفعل، حتى في أعماق شباب، المفروض أنه جيل القرن الحادي والعشرين، بكل تفتحه وإقباله على الحياة؟!..

من المؤكد أنكم قرأتم كل ما قرأته أنا، مما لم يرد في سطور الرسائل..

أنا أثق بذكائكم وقدرتكم على الفهم والاستيعاب..

أما أنا، فقد شعرت بمتعة عجيبة، وأنا أطالع رسائلكم، لاختيار ما يتم نشره منها في هذا العدد

لقد كشفت بينكم بعض المواهب الأدبية المدهشة، التي تحتاج لمن يتبناها ويرعاها، ويتعهدها برعايته، حتى تجد طريقها إلى عالم الأدب المنشور والمقروء..

عودوا مرة أخرى لرسالة الصديق (إيهاب رضوان سعد الدسوقي)، ورسالة الصديقة (أمنية - المعادي)، وستدركون ما كنت أعنيه بعباراتي السابقة..

ومن المؤكد أننا سنكشف مواهب أخرى، وآراء أخرى، وستتفتح أمامنا عشرات الأفكار والموضوعات، عندما ننشر رسائل أخرى في كتب قادمة

كل ما عليكم هو أن تمنحونا بعض الوقت

وبعض الاهتمام..

وإلى أن أطالع مزيدا من الرسائل والآراء، دعونا نأمل في أن يجمعنا كتاب جديد

ولقاء جديد..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

المرأة مشكلة .. صنعها الرجل

المرأة مشكلة صنعها الرجل (دراسة)

للمرة الأخيرة، ستقتصر الدراسة في هذا الكتاب على نشر آراء القراء.

وربما، يعترض البعض منكم على الاستمرار في نشر خطابات وآراء القراء حول هذه المشكلة، لثلاثة كتب كاملة، ويعتبر البعض الآخر أنها مضيعة للوقت، أو أنها مقدمة أطول مما ينبغي..

ولكن الواقع أن هذه الخطابات شديدة الأهمية، بالنسبة للدراسة نفسها..

أو لو شئنا الدقة، هي المنبع الرئيسي للدراسة..

إنها آراؤكم أنتم..

آراء فتيان وفتيات، حول مشكلة تسبب الكثير من القلق والتوتر والاضطراب، في المجتمعات العربية والغربية

وربما تدهشون لو قلت لكم: إنها مشكلة أشد تعقيدا في المجتمعات الغربية، منها في العربية.

ستدهشون؛ لأنكم تتصورون أن المرأة في المجتمعات الغربية تتمتع بقدر كبير من الحرية الاجتماعية والمادية والاقتصادية بحيث يصعب أن تمثل لها العلاقة بينها وبين الرجل مشكلة عويصة..

ولكن هذا غير صحيح بالمرة.

صحيح أن المرأة الغربية انتزعت الكثير والكثير من الحقوق من الرجل، بل وحصلت في بعض المجتمعات على ما يفوق حقوق الرجل نفسه، ولكن هذا لم يمنعها من التوتر الشديد في علاقتها به، والتصادم معه على نحو عنيف، وإلا ما كانت نسبة الطلاق هناك مرتفعة بشدة عن مثيلتها هنا.

كل ما في الأمر هو أن نوع المشاكل يختلف..

ولكنها تبقى..

وأعتقد أنني أدين لكم بالشكر العميق، على كل ما أرسلتموه من آراء ومقترحات، في هذا الشأن، فقد ساعدتني خطاباتكم على تأكيد بعض الآراء، ونفى البعض الآخر، وتعديل وجهة نظري في عدد من الأمور.

وهذا بالتأكيد يساعد الدراسية كثيرا.

كثيرا جدا.

والآن، دعونا نطالع معا ذلك العدد المحدود من الرسائل الذي اخترته لهذا الكتاب، كخاتمة لعرض أرائكم، قبل البدء في تقديم صفحات الدراسة نفسها..

هيا بنا.. ولنقرأ معا..

☆ ☆ ☆

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي الأستاذ الدكتور: نبيل فاروق

أما بعد...

قرأت كتابك الثامن عشر من مجموعة كوكتيل ٢٠٠٠، ولفت نظري تلك الدراسة التي أجريتها سيادتكم حول [المرأة مشكلة صنعها الرجل] وقد قررت أن أرسل لسيادتكم خطابي هذا، الذي أشرح فيه وجهة نظري في ذلك الموضوع، الذي احتل أجزاء كبيرة في الصحف منذ أن عمل عقل الأستاذ الفاضل | قاسم أمين، بمشكلة المساواة بين الرجل والمرأة والعلاقة بينهما..

والمرأة - بوجه عام - في أي مرحلة سنية، لابد لها من حدود لا يجب تخطيها، أو بمعنى آخر، أسوار تقف عندها عاجزة عن مواصلة السير في كل شيء، في التعاملات اليومية؛ سواء مع بنات جنسها أو الجنس الآخر؛ وفي إظهار المشاعر والأحاسيس، والذي يحكم عليها هذا الحصار، هو ما يحاربه بعض الشباب وهو [العادات والتقاليد التي تُنهي بها المناقشات بين الفتاة وأبيها، أو الطفلة مع أبيها وذويها...

وعندئذ برزت المشكلة التي صنعها الرجل.. المرأة، ولكن المرأة المعقدة حيث إن الأب سجن ابنته في تلك العبارة السابقة، والأخ فعل كذلك، وبينما المرأة غارقة في قائمة الممنوعات هذه إذ تنتبه إلى أن الجنس الآخر، يختلف بزاوية قدرها ١٨٠ حيث تباح له جميع المحظورات في كل مكان وزمان..

وجاءت نظرة المرأة في موقعها، حيث وجدت تميز الرجل في كل شيء مثل:

الرجل هو الحاكم والآمر الناهي في منزل التربية ومنزل الزوجية!

وعند الزواج يكون التحكم في هدم العش السعيد أو استمرار وجوده في يد الرجل، حيث تكون العصمة في يده، وفي يده أن يجعل أو لا يجعل..

ومنذ الأزل والمرأة تهان وينسب لها العار والفضيحة، كما في أيام العرب، قبل الرسول (ﷺ)، وعندما جاء الإسلام والأديان السماوية أعطيت للمرأة بعضٌ " من حقوقها المسلوبة دون إرادة، ولكن بعد ذلك، وإلى نصف قرن مضى، كانت المرأة مسيرة بحيث إذا تقدم أحد لخطبتها لا تملك الرفض أو الموافقة، وإنما كانت تسمع وتطيع فقط.

وأرى أن الإفراط في المعاملة بنوعيها: الجادة القاسية، أو المحبة الحانية مع المرأة بالذات، يجب أن تكون محسوبة وبدقة [حتى لا يفلت العيار]، أو [يترك الحبل على الغارب]، وحتى لا [تمشي على حل شعرها]، بالذات في مرحلة المراهقة، وحتي وهي طفلة يجب توعيتها بأشياء، ويجب محو بعض الأشياء كليا من ذاكرتها، حتى سن معينة، حتى يكون عندها توافق عقلي وسني كبير، حيث إن الفتيات بالذات في سن المراهقة، يعجبن بعبارات المجاملة المعسولة التي يكون وراءها أشياء غير شريفة توجه إليها دون أن تدري، فإذا تفتح عقلها مثلا في سن الطفولة على تحديد العلاقة بالجنس الآخر، وتقصر واجباتها وحقوقها على الدراسة ومتعلقاتها، وفي سن المراهقة على أن الفتاة لابد لها من الحياء، وأن تكون فتاة (واعية) لما تفعل، ولما تقول وتتحدث به مع كل من يقابلها من بني البشر..

وأقول ثانية إن مشكلة المرأة أو (المرأة المشكلة)، تحدث من جملة: هذا يجب... وهذا لا يجب، في كل مراحل حياتها: (الطفولة - الشباب - المراهقة - الهرم).

وتعليقا على كلام سيادتكم بخصوص أن المرأة لا أحد يفهمها، فإن ذلك بسبب محاولة تخليص نفسها، من تلك المحاولات التي تجري لمحو سلطتها، فتحاول - برد الفعل المعاكس في الاتجاه والمساوي في القوة - أن تثبت شخصيتها ووجودها، فمثلا في فصول الدراسة، عند انتخاب رئيس للفصل من الطلبة، لا يجب دخول الفتيات في ذلك الانتخاب، وذلك لأنها لا تستطيع تحمل المسئولية التي يقوم بها الفتى بصعوبة، وحتى وإن [جرؤت] ودخلت في الانتخابات، فستهزم هزيمة ساحقة ليس لها مثال، إذ لن يرضى أي فتى أن يجعلها قائدته العاقلة الحكيمة!!..

وحاولت مرارا وتكرارا، حتى نجحت مسز (مارجريت تاتشر) في تولى أكثر المناصب أهمية في انجلترا، وعارض ذلك كل من هم دون هذا المنصب، إذ إن السياسة لعبة خطرة، لا يجوز للمرأة أن تتولى الحكم فيها ولو خفيرة! ولا يجوز لها أن تجلس على مكتب، وتأمر وتنهي فيمن هم تحت قيادتها وسلطتها، حتى لا يصفها أحد بالقسوة أو الحنو..

وأما بخصوص أن المرأة لا أحد يقدرها، فذلك لعجزها بدنيا وعقليا عن مواجهة الرجل... ولكل قاعدة شواذ [فأنا أعتبر ضعف المرأة قاعدة عامة على كل بني البشر وغير البشر]، فقد تفوقت المرأة في مجال الرياضة، ودخلت الموسوعات العالمية في القوة، والزمن القياسي للألعاب، وكانت المفاجأة هي دخولها في (الأولمبياد) والتصفيات النهائية.. وكل ذلك في محاولة لإثبات أن المرأة جديرة بالتقدير والاحترام، أي عكس ما يقوله عنها البشر، وتفوقت المرأة أيضا في المجال العقلي، حيث دخلت

كليات الحقوق والصحافة، فساوت الرجل، ولكنها ما زالت مشكلة حتى بعد التجديد!

وعندما رأى الرجل أو معشر الرجال، محاولات المرأة اليائسة من تحقيق المساواة بينها وبينه، أفسح لها مجالات لمحاولة تهدئة روعها وكبح جماحها، فتفوقت المرأة في مجال له أهميته في الدولة وفي العالم، ألا وهو: الغناء! وظهرت أم كلثوم، ومع تقدير العالم العربي لصوتها، حاول إنعاش مشاعرها فأطلق عليها - كوكب الشرق - وفي رأيي أنني أعتبر هذا الاسم سخرية وتفرقة جنسية واضحة، حيث إن الكوكب لا يملك أن يظهر -يظهر إشعاع ضوء واحدا، دون أن يكون له مصدر آخر وهو الرجل، وهي نفس العلاقة بين الشمس والقمر. وأود أخيرا أن تلقى كلماتي وقعا طيبا في نفسك أو حتى تحمل أي قدر من التقدير.

ملاحظة: أود أن أسأل سيادتكم لماذا جال بخاطركم هذا الموضوع الذي حسم قبل أن يعرف طريقه للنور؟

تامر محمد المرشدي محمد

طالب بالصف الأول الثانوي

☆ ☆ ☆

المرأة مشكلة صنعها الرجل

جذبتني هذه الدراسة بفكرتها الجليلة، وهدفها السامي فنحن نرى العالم من حولنا يعاني ويلات هذه المشكلة، وكل يبحث عن حل، فيصل إلى طريق مسدود، فتحدث الكثير من المفكرين والباحثين عن تحرير المرأة ومساواتها بالرجل، وصوروا حياة المرأة بأنها سلسلة من العذابات، تبدأ من كروموسوم (×) الذي تكتسبه من والدها، ويحدد تكوينها ويفرقها عن الذكر، وقد ترك

لنا الدكتور (نبيل فاروق) الحرية في توضيح آرائنا، وبسطها بالطريقة التي تناسبنا، وهذه فرصة لا تتاح للكثير من الشباب والفتيات، فشكرا له..

من هي المرأة؟؟

المرأة إنسان يتمتع بكل التكريم الذي أضفاه الله على بني آدم فلها روح من روح الله كما للرجل، خلقها الله في أحسن تقويم، وفطرها على التوحيد، وشق لها سمعها وبصرها، ووهبها العقل والفؤاد. صحيح أن الله لم يمنحها قوة الرجال، إلا أنه سبحانه ميزها عليهم بأن منحها القدرة على إنجاب الحياة، فهي الأم التي عجزت الكلمات عن إيفائها حقها - على كثرة ما قيل فيه وجعل لها من ضعفها سلاحا، ومن الرقة والاحتمال ملاءمة لهمتها العظيمة في الحياة. هذه هي المرأة التي صورها الناس بصورة الكائن الناقص المعذب، وهي في حقيقتها صورة جميلة غير ناقصة ولا مشوهة. فكما أحسن الله خلقها، فرض عليها واجبات وشرع لها حقوقا تضمن لها حياة كريمة. وهذه الحقوق نراها في أجمل حللها في دين الإسلام الذي أكمله الله.

«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا»

فلنر كيف وجد الإسلام المرأة عند مجيئه؟ جاء الإسلام فوجد المرأة مهانة، يرثها الرجل ضمن ما يرث من متاع أبيه. ووجدها تعيسة يئدها أبوها بعد أن تلتقط أول أنفاسها.

وإذا الموءودة سئلت، بأي ذنب قتلته وجاء الإسلام فوجد المرأة مهضومة حقوقها كإنسان، قلم تكن الكنيسة تعتبر قتل المرأة

جريمة، بل هو كقتل الحيوان. فما هذه الحياة التي كانت تعيشها المرأة؟؟ إن صح أن نسميها حياة!.

فماذا فعل الإسلام؟.. انتشل الإسلام المرأة من هذا الحضيض ورفعها إلى أعلى المراتب فهي الأم الطاهرة المضحية «ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير». وهي الأخت الحنون وهي الزوجة المحبة «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون».

وبهذا الارتفاع أثار الإسلام طريق النساء، وجعل لهم شموسا في سماء الحياة من نساء التاريخ قدوات خيّرة ومُثلا عظيمه «وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين. ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين».

وتاريخ الإسلام زاخر بأولئك النسوة اللاتي شاركن الرجال في ميادين الخير، وسابَقتهم للصالحات، ملتزمات بأوامر الله عالمات بأن الله لا يضيع أجر عامل من ذكر أو أنثى وعندما ابتعدنا عن الإسلام ونسينا أوامر الله وبُهرنا بحضارة الغرب التي دخلت علينا من كل باب، فملكت علينا سمعنا وأبصارنا، وللأسف حتى قلوبنا، وصرنا نأخذ كل أفكار الغرب على أنها أحكام مسلم بها، وبديهيات لا يمكن مناقشتها. سمعناهم يقولون لنا: لم تلبسون المرأة هذا الحجاب الذي يعوق مسيرتها، ويمنعها من ممارسة واجباتها في المجتمع؟ لم لا ترتدي مثل ما

ترتديه الغربيات من جميل الملابس وفاتنها؟ إنكم تجحفون بحق المرأة.

دخل هؤلاء المفسدون علينا بزخرف القول ومنمق الشعارات فمنهم المنادي بتحرير المرأة، ولا ندري تحريرها مم؟؟، ومنهم المنادي بمساواتها مع الرجل، ولا ندري بعد مساواتها معه في الحقوق والواجبات فيم نساويهما؟ ولكن لا أحد يجيب على هؤلاء من فتياتنا، لا أحد يقول لهم (لا) فتهاونّا في حيائنا، وتخلينا عن تعاليم ديننا وسرنا وراء الأهواء. إن أي حاصف عاقل، يرى أنه ما من دعوة من هذه الدعوات، إلا ووراءها سم ناقع يراد به طعن الإسلام والمسلمين في الصميم.

اختار الإسلام للمرأة أن تتستر ككل عزيز مصون، فاختاروا لها أن تمتهن كأرخص السلع، حين زينوا لها التبرج وخلع الحجاب، واختار لها الإسلام الترفع والعزة بأن لا تخضع بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض فاختاروا لها الخلاعة وأحلوا لها أن تمازح هذا وتضاحك ذاك، متعللين في كل مرة بأن هذا من حريتها الشخصية، فهي لا تصنع إلا ما تقتنع به. وساعدهم على ترويج آرائهم تناسينا لقول الحق: «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيدا»

وعندما أشاحت المرأة وجهها في الإسلام، أقبلت على آرائهم تطبقها. فها هي في الشوارع تسير كما تريد، وترتدي ما تريد، تخاطب من تريد كيفما تريد و... ولكن أين بيتها من كل هذا؟

أين أسرتها؟ إنها تنهار.. فالرجل - مهما كان متحرر الأفكار- سيظل رجلا يثور لكرامته ويغار على حرماته، فطرة فيه، خلقها

الله ليسخر قوة الرجل لحماية ضعف المرأة. ولكنها تبحث عن حل لهذه الثورة وهذه الغيرة، ففي نظرها هذا شيء أجوف تافه.

فلا يلبث هؤلاء المضللون أن يخرجوا بفكرة أخرى من أفكارهم الشيطانية: نعم لابد أنه يشك فيك ولا يثق في أخلاقك، ويزيد الأمر وبالا وتتحطم الأسر، وينظر هؤلاء ثم يضربون كفا بكف قائلين:

مسكينة هي المرأة! لماذا لا تحلوا مشكلاتها لماذا لا تحرروها؟

أميرة حامد حسن رضوان

الأحساء - السعودية

☆ ☆ ☆

«الإمبراطور الزائف»

عزيزي: نبيل فاروق

تحية طيبة وبعد:

بداخلي بركان.. ومهما كتبت فلن يستطيع القلم إبراز ما بداخلي، ولن تستطيع أقلام الكون كله فعل ذلك، ولو كان القلم قادرا على الصراخ لوكلته بالنيابة عني، وعن نساء العالم بأكمله.

صرخة واحدة تحمل في طياتها كم الظلم الذي ذاقته المرأة على يد الرجل، صرخة واحدة كفيلة بنزع الرجل من على عرشه.

عرشه - الزائف - الذي صنعته له المرأة.. وأصبح هو يتسيد، وهي تتعبد في محرابه.. وهذه هي الخدعة، هذه هي الأكذوبة التي صنعتها المرأة للرجل.

ولأن الإنسان عموما، يريد أن يصدق ما يتمني، لذا فقد صدق الرجل هذه الأكذوبة. والحقيقة هي عكس ذلك تماما فالواقع أن المرأة هي الحاكمة الفعلية من خلف الرجل.. هي التي تحركه بأصابعها مثل (الماريوت) هي التي تمسك بزمام الأمور.

ولكنه بطريقة ما بدأ التملص من هذه الخيوط، ليعيد حساباته ثانية وينتقم من المرأة، أراد أن يسلبها حريتها بكل الطرق، جعلها في سجن ووقف هو على بابه سجانا، وضعها في شرنقة مخيفة.. حتى أن المرأة عندما خرجت بعد طول تأقلم فيها، خرجت تائهة إلى حد ما، أشبه بضائعة، تمنت لو أنها وجدت من يأخذ بيدها ولم يكن في انتظارها سوى الرجل يبتسم لها في سخرية وتحد.

فالرجل عندما أعطى المرأة حريتها، لكي تتعلم وتعمل، لم يكن ذلك بسبب إيمانه بالمساواة، وحرية المرأة في التعليم والعمل بعد ذلك، ولكنه يرى أن المرأة سوف تشرب المر بسبب كل ذلك.. وأن التعليم والعمل بعد ذلك عقوبة تستحقها المرأة، فما دامت قررت الخروج من البيت فلتشرب من كأس الحرية والمساواة.

ولكن المرأة قررت التحدي.. ونجحت، والأمثلة كثيرة والشرح يطول.. وأود أن أنوه أن المرأة برغم أنها مظلومة إلا أنها ليست ضعيفة (كما قد يعتقد البعض) لم تكن المرأة ضعيفة قط.. من أيام (حتشبسوت) و (بلقيس) و (شجرة الدر) وأيام (تاتشر) و (آميلدا ماركوس).

وتاريخنا يقول لنا في علم الحيوان والبيولوجي، إن الأنثى كانت دائما أقوى من الذكر وأكثر تحملا وأطول عمرا..

معذرة.. قد تظن أنني متحيزة لبنات جنسي ناقمة على الجنس الآخر. ولكن أرجو أن تلتمس لي العذر، والسبب في ذلك هو هذه الحملة الشعواء التي شنها الرجل على المرأة، مدعيا أنها تزاحمه في العمل، وأنها سبب مشكلة البطالة فهم يفرغون ما في جعبتهم من كره وحقد دفين على المرأة، ولا أجد من يناصرها ويقف بجوارها، فكل الرجال يهاجمون المرأة ويقفون جميعا في حزب واحد ضدها. والمرأة مظلومة في كل ما قيل عنها... وإليك بعضا أو جزءا من الألف مما قيل.. ولك الحكم في النهاية.

«المرأة تنفعل بالذهب والماس، وتبرق عيونها مثل عيون القطط في الليل أمام واجهات العربات وتوكيلات كاديلاك ومرسيدس و (فاترينات) الجواهرجية.. وإنها لا تحفل كثيرا بالقضايا المجردة.. (الإنسانية - والعالم - والفكر - والعدالة) كلمات مجردة بالنسبة للمرأة.. فهي تريد خدمات ملموسة ومسرات واقعية في مجال، زينتها ولبسها ومصروفها وأكلها وشربها.. والرجل لا يهتم كثيرا بهذه المطالب الملموسة القريبة، وهو أحيانا يضحى بها في سبيل أهداف بعيدة مجردة غير ملموسة، مثل الفن والفكر والحرية الوطنية.. والمرأة في الغالب لا تفهم هذه التضحية.. إنها تريد عيشة (لوكس وفخفخة) وفكر إيه يا عم، وأنا مالي ومال الفكر.. خليك أشبع بالفكر بتاعك.. لكن أنا عايزة أعيش» وأيضا قالوا في الأمثال

- للمرأة سبعة وسبعون رأيا في آن واحد «مثل روسي»

- لا تثق بالمرأة وإن ماتت «مثل يوناني»

- ثق بكلبك على طول الخط ولا تثق بالمرأة إلا في المرة الأولى «مثل إنجليزي»

- بالعين تطلب المرأة، فتأخذ، وتكره، وتقتل. «مثل أسباني»

- رجل بلا رأس.. رأس بلا جسد، امرأة بلا رجل.. جسد بلا رأس. «مثل ألماني»

ما رأيك؟؟

واعلم أنني لست أرجو إنصافا منك.. وأنت الخصم والحكم ولعلني الآن ما زلت مندهشة من أنك أنت بالأخص الذي ناديت بهذه التجربة.. وأشكرك على هذه الفرصة للحديث معنا، وسماع أقوالنا وأخيرا لا آخرا:

كفى بالله عليكم هجوما على المرأة، فهي تسمع وتصمت مشفقة على الرجل - من هول ما سيحدث - إذا تكلمت.. لأنها لو فعلت لاندلعت نيران جهنم، لأنها سوف تشن حربا على الرجال جميعا.

فكفى استفزازا لنا، واتركونا وشأننا، لأننا لا نريد إيذاء أحد منكم، وهذا هو الفرق بيننا وبينكم.

الصديقة: عبير محمد جبر

١٩ سنة - دمياط

☆ ☆ ☆

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ الدكتور: نبيل فاروق..

إنه لمن دواعي سروري أن أحاول المشاركة في تلك المناقشة التي أثرتها، حول موضوع من أهم المواضيع، وهو تلك المشكلة التي نشأت بين المرأة والرجل، مشكلة التفرقة بين كليهما في العديد من المجالات، وسأكون في قمة السعادة لو وافقت سيادتك أن أكون ممن يمكنهن إظهار رأيهم عبر ذلك الباب الجديد في كوكتيل ٢٠٠٠ - وإليك وجهة نظري في هذا الموضوع..

(المرأة مشكلة صنعها الرجل)

ربما هذه العبارة تفتقر إلى الدقة الكافية، التي تحمل لنا المدلول الحقيقي للمشكلة..

ولعل العبارة الأكثر دقة.. «العلاقة بين الرجل والمرأة مشكلة كبيرة، غرست بذورها منذ فجر التاريخ، فارتوت من الظروف التي مرت بينهما، ونمت وامتدت جذورها عبر الأيام والأعوام، وكان نتاجها مشكلة كبيرة وضعت حاجزا كبيرا بين الرجل والمرأة»

- لعل تلك الفوارق الكبيرة التي صنعتها الأيام بين الرجل والمرأة، لم تكن أبدا وليدة الصدفة... وما كانت لتنتهي أبدا ببساطة القرار.. فلا يمكن أن يصدر قرار دولي على سبيل المثال ينهي الفوارق بين الرجل والمرأة، لأنها أيضا بكل بساطة لم تنشأ بقرار صريح، يقتضي التزامات خاصة تفرض على المرأة دون الرجل... وإنما هي قرارات الطبيعة التي فرضت على الرجل أن يكون أشد قوة وتحملا من المرأة، وأكثر منها مقدرة على العمل، للاختلاف التشريحي بينهما.. والمشكلة لم تبدأ منذ قرن أو اثنين أو ثلاثة.. إنما بدأت منذ زمن بعيد.. دعونا نسترجع بداية المشكلة.. لعلنا نتوصل إلى شيء يفيد..

- البداية كانت منذ فجر التاريخ..

حينما سكن البشر كوكب الأرض اكتشف الجميع أنهم في حاجة إلى شيء يشبع فهمهم، وحاجتهم الدائمة إلى الطعام، فاندفعوا جميعا في رحلة بحث دائمة عن الطعام.. وكانت هذه الرحلة هي البداية.. لقد كان الجميع على حد سواء، بما فيهم الرجل والمرأة، وذلك لأن رغبتهم في الطعام كانت واحدة.. ولم تكن أبدا رحلة عادية.. لأنها وبكل بساطة لم تكن رحلة شخص أو شخصين - بل كان الجميع مشتركين فيها.. كان بحثهم بلا كلل أو توقف، لأن حاجتهم للطعام كانت دائمة.. وهنا تبدأ الكارثة، فلم يكن البشر في هذا الوقت تحكمهم شرائع أو قوانين، ولم يكن يحكمهم سوى قانون الغابة الوحيد، «البقاء دائما للأقوى». كان الجميع يتقاتلون من أجل ثمرة صغيرة على سبيل المثال.. وقواعد المشكلة الأساسية تبدأ منذ هذه اللحظة، وإن كانت قد أفادت العالم كثيرا في وقتنا الحاضر.... لقد أحست المرأة في ذلك الوقت أنها أضعف كثيرا من الرجل، وبهذه الطريقة ستضيع هي في سباق الحياة الذي لا ينتهي، وبعد تفكير هداها إليه ذكاؤها الفطري، اكتشفت المرأة أنها يجب أن تكون في صف الرجل، لا أن تناصبه العداء ودون أن يجد الرجل سبيلا للهرب، وجد نفسه يسقط في حبائل المرأة، وهنا بدأت الحياة تنقسم بينهما...

الرجل عليه العمل والبحث عن الطعام، والرجل عليه أيضا أن يوفر لها سبل الحياة، وهي تكتفي بالأعمال الأقل تعبا، وهي أن تعد له طعامه حينما يعود... وبدأت الحياة تنقسم بينهما، ولعل الفائدة الجمة التي عادت علينا الآن، هي حياة الاستقرار التي بدأت من تلك اللحظة..

ومرت المرأة بعصور كثيرة، كان الرجل فيها هو المسيطر بداية بعصر الإنسان الأول، ومرورا بالعصور الوسطى، وحتى عصر «سي السيد»، حتى وصلت إلى عصرنا هذا... لقد تحول الرجل إلى الركيزة الهامة في المجتمع، وتحولت هي إلى شيء ثانوي، وهذا لا يرضي غرورها، إنها أقل منه علما وتحضرا...

وفي بعض البلدان أظهرت المرأة تمردها، وخرجت لتنافس الرجل في الكثير من المجالات.. وربما أنها فاقته في الكثير والعديد من المجالات، ولكنها لم تستطع أن تتملص من تلك القيود القوية، التي فرضها عليها كل من الرجل والطبيعة، كمسئولية المنزل وتربية الأبناء و.. و... و... و... إلخ.

وفي مناطق أخرى عاشت المرأة خلف قضبان حديدية تحكم حركتها، وهذه القيود هي التقاليد... تلك التقاليد التي تجبرها على أن تتحمل التفرقة في الحقوق التي تحرم منها «هي» والتي تمنع له «هو»، المتمثل في زوجها وأخيها... ولعل الخطأ الذي يقترفه هو مهما بلغت فداحته، لا يساوي بأي صورة من الصور مقدار نفس الخطأ الذي سترتكبه هي، وذلك لأن المجتمع ينظر لها دائما، بنظرات لا تحمل سوى كونها منشأ الفضيلة، وربما هو ليس كذلك.. وليس كذلك فقط، بل لقد لاقت في جميع الأزمان والأماكن الكثير من الظلم... ففي هذه الدولة يجب عليها أن تدفن حية مع زوجها عند موته أو تحرق مع جثمانه واكتشفت المرأة الظلم وحاربته.. حاربت الظلم المتمثل في الرجل راحت تباريه في مجاله... حاولت أن تكسر أنفه وتظهر له أنها الأقوى، أو على الأقل أنها ليست أقل منه أبدا، وبالرغم من ذلك تحمل الرجلُ المرأة كثيرا، لأنه كان يؤدي دوره في العمل في مقابل أن تؤدي دورها في المنزل.. لكنها لم ترضخ له.. بل لقد

ازداد الأمر سوءا، لقد حاولت أن تظهر أنها أقوى منه حتى في مجالاته هو... وهنا تفرض المشكلة القديمة نفسها، دون أدنى اعتراض.

ويظهر السؤال القديم الذي بدأ مع الإنسان الأول:

«وهل ستقف المرأة مع الرجل أم في مواجهته؟»

والسؤال الآن يزداد تعقيدا... فالمرأة تريد أن تثبت كيانها، ولكنها أيضا في حاجة إلى الرجل... ربما لأن الرجل هو الأقوى وهي الأضعف، وربما لأن المجتمع ينظر إلى الرجل كذلك.. ينظر إليه بمبدأ القوة..

والمرأة جزء من المجتمع، لذلك يجب عليها أن تتعامل مع الرجل كأنه كذلك، لأنها لن تستطيع أن تنفصل عن المجتمع، وربما لو أنها حاولت فلن يسمح لها مجتمعها بذلك... وهنا فقط تطرح سؤال حقيقي بأحرف بارزة:

«من السبب في ذلك الفارق الكبير بين الرجل والمرأة؟ هل هو الرجل أم المرأة؟ أم أن ذلك الفارق هو المسار الطبيعي للحياة؟». ربما أن السبب هو تلك الطبيعة التي جعلت الرجل منذ البداية يتفوق على المرأة وربما هي المرأة الأولى التي اكتفت بالعمل الأقل تعبا.. تلك المرأة التي جعلت بني جنسها من النساء يعشن نفس عيشتها.. فتبدو المرأة في جميع العصور كذلك الفأر الذي دخل إلى المصيدة، لأنه وجد قطعة من الجبن الشهي، دون أدنى مجهود... دون أن يعلم أنه سوف يدفع حياته كلها مقابل تلك القطعة..

ربما كانت هذه هي جوانب المشكلة الحقيقية.. ويبقى سؤال خطير وأخير: هل من حق المرأة أن تتساوى مع الرجل في

حقوقه؟ أم أن المرأة هكذا في مكانها الطبيعي؟

ربما إذا نظرنا في الأمر نظرة متفحصة، سنجد أن الأمر في حاجة إلى تدخل من الرجل والمرأة على حد سواء هل تدرون لماذا؟

ذلك لأن محاولة المرأة وحدها لحل هذه المشكلة ربما تتسبب في مشكلة أبشع.. لأنها وبكل بساطة ستكون مشكلة تدمير كامل لأفراد أسرتها، وستكبر المشكلة وتتسع حتى تتحول إلى مأساة، وبدلا من أن تكون مشكلة المرأة وحدها ستكون مشكلة الرجل معها، بل المجتمع بأكمله..

لذلك يجب أن تنظر المرأة وهي تأخذ موقفا ضد تلك المبادئ، إلى أن حريتها الحبيسة كانت ثمنا لحرية مجتمعها بأسره.. والحل الأمثل هو أن ينظر الرجل إلى المرأة ليس ككونها مخلوقا ضعيفا.. بل أن ينظر إليها كحقيقتها.. وفي ذلك الوقت سيعرف الرجل مركز التقصير، وسيتخطاه مع المرأة..

هذه هي مشكلة الزوجة أو الشقيقة، فهي تحتاج إلى نظرة أكثر تعقلا من شقيقها، لأنها في هذه الحالة لها جميع الحقوق التي له، فيجب أن تأخذ الشقيقة حقها كاملا، فهي من حقها أن تفعل ما تشاء، بشرط أن يكون غير خارج عن حدود الأمور التي فرضتها عليها الطبيعة، دون أن يفرضها عليها الرجل.. وفي جميع الأحوال يجب أن تفعل المرأة ما تراه صوابا، دون أن تخرج على حدود الرجل بأي حال من الأحوال لأنها في هذه الحالة ربما تكون السبب في مشكلة أخري صنعتها هي في حق الرجل، فيكون الأجدر بنا وقتها أن نقول: الرجل مشكلة صنعتها المرأة

الاسم: محمد إبراهيم الدسوقي

السن: ١٧ عاما

مدينة دسوق – شارع الجيش

☆ ☆ ☆

بسم الله الرحمن الرحيم

10/02/1994

السيد الدكتور: نبيل فاروق رمضان

تحية طيبة وبعد..

أود أولا أن أبرهن على مدى إعجابي بتلك الفكرة الرائعة، لأنني كثيرا ما أشعر بمشاعر شتى تمتزج بأعماقي، ولا أجد لها سبيلا إلا البكاء، وأحيانا أنطلق نحو الورق والقلم وأسطر وأبث كلمات تعبر وتخرج ما يجيش به صدري.

وأصدقك القول بأن الأسلوب الأخير، أكثر فاعلية وتأثيرا في راحة بالي وطمأنة نفسي. ولعدم الإطالة والملل، دعني أدخل في لب الموضوع مباشرة.

(انتبهوا أيها السادة)

إن المشكلة التي راودتكم لهي مشكلة أبدية وأزلية بالفعل، تجثم على صدري وبشدة، فنحن الآن برغم المساواة التي يزعمونها بين الرجل والمرأة، لا يزال (سي السيد) الجبار المتسلط بسطوته وجبروته وصرامته، يهيمن على مقاليد الأمور، ويقود دفة السفينة، حتى لو كان للهلاك وللقدر المحتوم.

ولكن بعيدا عن شخصية كهذه، وعن المشاكل الماضية التي لم يعاصرها جيلي، ولم يرها إلا على شاشات التلفاز فقط دعوني

أدخل في صلب الموضوع، ولكن من زاوية تحمل مشاكل عصرية تواكب أحداثها. سنتطرق لمشكلة واحدة فقط، وإنها - في نظري - نتيجة سلبية مباشرة لما نعانيه ونقاسيه.

بالتأكيد لا يوجد مواطن مصري عادي - أو غير عادي – لم يعلم بموضوع وقضية العتبة الشهيرة، التي ظلت تحتل عناوين الأخبار لشهور عديدة؟ ولكنه خبا فجأة - ذلك الموضوع – كما تخبو شظية تحولت من هول ما مرت به لرماد تذروه الرياح فيصبح مجرد رماد منثور.

ولن يستطيع أحد تخيل مدى الاستنكار والغضب، اللذين كانا يسريان في عروقي، ويحل منها محل الدم، فالضحية تعيش بيننا نعم، ولكن كيانها مزلزل مهتز فهي ميتة بداخلها هي ولا تستطيع أن تواجه الحياة ثانية، أو لربما راودتها فكرة الانتحار والعياذ بالله.

وقد تبدو المشكلة بعيدة تماما عن المشكلة المطروحة أساسا، ولكن لا.. بالتعمق وإطالة النظر، سنجد العلاقة التي تفرض نفسها، وتصر في إلحاح على إثبات وجودها وظهورها على الصورة.

* الجذور:

لقد شب الفتى بعادات وتقاليد خاصة، فهو يخرج أينما يحلو له، دون رقيب أو حسيب أو متحكم في سلوكه، يعاكس بنات الناس في الميادين، بابتسامة جذابة، ليشعر برجولته، وبلا حساب أو إرشاد من الأسرة، أما الفتاة فياللهول!! تخرج بحساب وتأتي بحساب، ولابد لها من تقديم تقرير يومي مفصل لكل تحركاتها، وتصدر لها الأوامر بالحضور في الوقت كذا، والعودة

في وقت كذا، ولربما أيضا تقوم بحساب عدد الخطوات التي تخطوها، لتذهب لمدرستها، أو لقضاء حاجاتها.

نعم. هكذا بدون أدنى مبالغة. فمن الغريب أن هناك حادثة واقعية أود عرضها على الأصدقاء..

* أين الرجال؟

تصادف صدور عدد كوكتيل مع وقوع حادثة شخصية واقعية حدثت لشقيقتي الكبرى، فهي تعمل في الإدارة الزراعية بفوة، وهي بعيدة عن منزلنا، وكانت تعاني آلام الأسنان كما هو الحال لدى معظم الشعب المصري، وأمس خرجت من العمل في طريقها للطبيب مباشرة، وتصادف أن ينصحها ذلك الأخير، بالذهاب لمدينة أخرى مجاورة لمدينتنا، حيث إن الأجهزة في المدينة المجاورة أكثر حداثة وتطورا، فذهبت الفتاة بالفعل، ولكن لم يتوقف الأمر على هذا، فلقد طال انتظارنا في المنزل طويلا في انتظارها، لمدة قاربت الثلاث ساعات، ولكن لولا علم والدتي بذلك لتحول البيت إلى جحيم لا ترحم نيرانه أحدا.

وحضرت أخيرا لينهال على رأسها العديد من الأسئلة، وهي لا تعلم ماذا تفعل، فالوالدة كانت تعرف بالفعل، والثقة في أسرتنا لا يوجد لها حدود، ولكن الظروف حالت دون إخبار الوالد والشقيق العزيز. وقد بدأ الوالد يفتح حنجرته عن آخرها كما لو كان قد وضع أحد مكبرا للصوت داخلها، لإعطاء أثر أفضل وأقوى وهو يصيح قائلا: ماذا؟! كيف تجرؤين؟! ألا يوجد رجال في المنزل لإخبارهم؟! أين الرجال؟! أين الرجال؟! وأكرر أن الوالدة كانت تعلم مسبقا بأسباب التأخير، وحاولت تهدئة الموقف، ولكن عبثا. وأقسم بشرفي أنه لو لم يكن لدينا ضيوف،

لأصبحت هذه المشكلة البسيطة هي السهرة التي ننتظرها بفارغ الصبر من الأسبوع للأسبوع بدلا من التلفاز ومسلسلاته التي لا يمكن أن يضارعها مسلسلنا الشهير، الذي سيشق طريقه إلى التلفاز قريبا إن شاء الله.

ولماذا؟

أرأيت يا سيدي العزيز، الشاب يخرج ويمرح، والفتاة تعاني الظلم بلا مبرر واضح مفهوم. ليس غريبا إذن، أن يفعل الشاب ويقدم على أبشع وأفظع وأقبح جرائم الحياة على الإطلاق.

دعونا لا نلومه إطلاقا، لنذهب للأسرة التي سببت هذا، والمجتمع الذي ينظر لجوهر القضايا بمنظار يخفي الحقيقة دائما.

لست أدري لماذا؟ ما السبب؟!

لعلها القوة، أبدا، فإن المرأة في نظري هي الأقوى والأكثر صمودا من الرجل. تبتسمون في سخرية واستهزاء: ماذا؟

وما الدليل أيتها المتحذلقة؟

تريدون الدليل؟ حسن، عملية الإنجاب وحدها، إذا كانت المرأة أضعف ولا تستطيع تحمل المشاق، فلماذا بحكمته الواسعة - عز وجل - جعل المرأة مسئولة عن عملية الإنجاب؟! وألقى إليها بهذا الحمل الذي تنوء به الجبال، مع العلم بأنه ودود رحيم بعباده؟ لست أدري لماذا، حقيقة لست أدري.

ألم يدرك المتسبب في التفرقة أنه سوف يجني ثمار هذا العمل؟!

أنه سيزرع في مجتمعنا مشكلات لا حصر لها؟!

ألم يدرك أنه يخلق أعباء كثيرة، لا يستطيع مجتمعنا النامي التخلص منها؟! حقيقة لست أدري.

لعلها الحكمة والخبرة والقدرة على التصرف السليم؟ حسن

في المشكلة التي تسيطر على أحلامنا ويقظتنا دائما؟ مشكلة مسلمي البوسنة والهرسك، والمذابح الشنيعة التي يواجهونها، ألم تتخذ أول خطوة إيجابية نحو هؤلاء المساكين.. سيدتان؟!

نعم سيدتان قامتا بزيارة عادية، ولكن يكفي أن أول من ذهب وتحرك وأول من فعل شيئا يخلده التاريخ، وأول من أثبت أن العالم ما زال به الخير سيدتان؟!

أعتقد أنه لا يوجد سبب واحده منطقي للتفرقة والمعاناة، بعد هذا العرض السريع، والذي أرجو ألا يكون مملا وكئيبا.

حياة خاصة في مدينة فوة:

في مدينتنا فوة نلمس هذا التعنت واضحا جليا، فهي مدينة، ولكنها شبه ريفية، تظهر بها أجلى معالم التفرقة الشخصية بين الرجل والمرأة.

نداء ودعاء:

وأخيرا أتجه لكل نساء العالم، أن يتحدن ويصمدن أمام ضربات الرجال المتتالية العنيفة، فالمهمة صعبة وشاقة، لكنها ليست مستحيلة، حافظن على كرامتكن أولا وأخيرا! وأيضا دعوني أتجه بعتاب رقيق لكل من يحاول وضع عقبات سخيفة تحول دون الانطلاق نحو تحقيق الهدف المنشود.

هذا وأدعو الله - عز وجل - أن يوفقنا في هذا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولاء محمد جمال الدين الشملول

طالبة بالصف الثاني الثانوي العام

16 عاما

ش الجلاء - فوة - محافظة كفر الشيخ

☆ ☆ ☆

بسم الله الرحمن الرحيم

صديقنا العزيز: د. نبيل فاروق.. أشكركم جزيل الشكر لطرحكم موضوع الساعة:

المرأة مشكلة صنعها الرجل

وأرجو التعبير عن رأيي..

أنا فتاة، ٢١ سنة، طالبة بالسنة الرابعة بكلية الطب البشري القصر العيني. ورأيي أن الفتاة التي تشعر بهذا الكم من النقص ليست بالإنسانية السوية، فهي لم ترب تربية سوية، ويرجع هذا بالفعل إلى أهلها، فلم لا تعوّد الفتاة منذ صغرها على ما أمرها الله به من واجباتها، وما أعطاه لها من حقوق؟ فلها مميزاتها وللفتى مميزاته، فمثلا الأنثى تنجب والرجل لا ينجب، ولا نجد رجلا مثلا يريد الإنجاب.

المرأة قادرة على تحمل الألم أكثر من الرجل، فعندها آلام الوضع، فلم لا يغار منها الرجل؟.

المشكلة يا سيدي في تناول الأسرة ككل لتربية أبنائها، وليس في الأنثى كأنثى. فمثلا لم نخاف أن تخرج الفتاة لوقت متأخر، ولا نخاف على الفتى وهو أكثر تعرضا للخطر؟ فنضوجه عادة يتأخر

سنتين عن نضوج الفتاة وحلا لمثل هذه المشكلة البسيطة أرى أن الأسرة المحافظة يجب أن تخشى على الفتاة كما تخشى على الفتى من الخروج ليلا، كذلك تتيح التعليم والصداقات لكليهما، وهذه هي التربية السليمة.

كذلك هناك موضوع يشغل كثيرا من أصدقائي وهو «الحجاب»، فهن يعتبرنه قيدا عليهن، وبصرف النظر عن أمر الله سبحانه وتعالى، الواجب الطاعة بدون نقاش، لو ناقشنا هذا الأمر لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى جعل جسد المرأة كله عورة، وجعل جسد الرجل من السرة إلى الركبة عورة، فلم لا يناقش الرجال خروجهم مثلا بالمايوه إلى الشارع؟

من هنا نجد أن النفس الضعيفة التي نشأت على تربية عقيمة، فقط التي تجد أن المرأة مخلوق مظلوم.

فمثلا لم لا تناقش، أن الفيل سمين، والحصان رشيق والبلبل يغرد، يا سيدي كل لما خلق له.

وشكرا جزيلا

س. ف. م

☆ ☆ ☆

أعتقد أننا بهذا، نكون قد استوفينا الأمر حقه، بالنسبة لنشر رسائل وآراء القراء.

وأعتقد أنكم لاحظتم حجم المشكلة..

الأوتار مشدودة إلى حد مخيف، في قيثارة العلاقة بين الرجل والمرأة..

الآراء متباينة على نحو مدهش..

الصراع يدور في عنف، حتى بين سطور الخطابات..

ولكن السؤال الفعلي هو، لماذا؟!

لماذا نشأ الصراع؟!...

كيف تحولت علاقة بسيطة، المفروض أن تستند إلى المودة والرحمة، إلى مشكلة خطيرة ومعقدة إلى هذا الحد؟!..

هذا هو موضوع الدراسة، التي ستبدأ بإذن الله، اعتبارا من الكتاب القادم.

فإلى ذلك الحين، دعونا نواصل الاتصال والحوار.

الحوار حول المرأة، تلك المشكلة التي صنعها الرجل

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

المرأة مشكلة... صنعها الرجل

(دراسة)

اهداء

إلى كل من تقرأ هذه الدراسة

إلى كل امرأة

إلى كل مشكلة.. صنعها رجل

د. نبيل فاروق

1- لماذا هذا الكتاب؟..

انظر حولك!..

العبارة السابقة ليست مجرد فعل أمر بلا معنى..

وليست أيضا شعارا لحملة من حملات تنظيم الأسرة الشهيرة.

إنها، وبكل بساطة، جواب السؤال، الذي يحمل عنوان هذا الفصل.

نعم.. انظر حولك، ستعرف لماذا راودتني فكرة وضع هذا الكتاب...

انظر إلى ما وصلت إليه العلاقة بين الرجل والمرأة، في عصرنا هذا..

من المؤكد أنها لم تعد تحمل شيئا من المودة والرحمة، اللذين أشار لهما القرآن الكريم، وهو يصف هذه العلاقة الطبيعية، واللذين أشارت إليهما كل الديانات السماوية، والمذاهب الدنيوية، والنظريات الاجتماعية، منذ أيام (آدم) و (حواء)..

لقد أصبحت أشبه بالعلاقة بين دولتين عظميتين، تسعى كل منهما لدحر الأخرى والفوز بالسيطرة المطلقة على العالم أجمع..

وامتزج كل شيء، في علاقة الرجل والمرأة، بالشك والحذر، والتوتر، والعنف، والصراع..

وأصبح كل منهما يتحفز للأخر في كل لحظة، ويتصيد له الأخطاء بلا هوادة

فالرجل يراقب المرأة طوال الوقت، ويستنكر خروجها للعمل ومنافستها له في الوظائف والمناصب، ويعلن في كل مناسبة - وبدون مناسبة - أن هذا هو سبب فساد المجتمع، بعد أن نسيت المرأة دورها كزوجة وأم، ولم تعد تهتم برعاية زوجها والعناية بأطفالها وتربيتهم، ثم يحنقه - في الوقت ذاته - أن تبدي المرأة شيئا من التفوق عليه في العمل، أو تنجح في الفوز بمنصب يفوق منصبه، ويتهمها باستغلال أنوثتها، والتقرب إلى الرؤساء، وبأنها فازت بذلك المنصب بفضل دلالها لا كفاءتها..

بل ويتمادى بعض الرجال، فيصرون على أن المرأة – أية امرأة - لا يمكنها أن تمتلك ذكاء أو براعة الرجل، مهما فعلت أو درست أو بذلت من جهد، وكأنما اقتصرت هذه الصفات على الرجال وحدهم دون النساء..

وفي الوقت نفسه تتهم المرأة الرجل بالغرور والصلف والعناد، وبأنه يتصور أن رجولته وحدها هي مسوغات دخوله إلى عالم النجاح والترقي، على الرغم من كسله وتقاعسه، وإصراره على الاعتماد عليها في كل ما يخص نجاحه، بعد عودتها من العمل، وكان المنزل مسئوليتها وحدها، وهو مجرد ضيف دائم فيه..

وهكذا تبدأ المشاكل بين الطرفين ويتم تبادل الاتهامات..

حتى المراهقين والمراهقات، أصبحت العلاقة بينهما عصبية متحفزة، وكل منهما يسعى لإثبات تفوقه، وكأنما صارت الدنيا حلبة سباق، لا يربح فيها إلا الأكثر قوة ومهارة..

وأحيانا الأكثر قسوة.

والظاهرة الأكثر وضوحا، هي اختفاء الحدود الطبيعية بين الفتى والفتاة..

كلاهما يرتدي الأزياء نفسها..

نفس الطراز والألوان..

بل ونفس أسلوب تصفيف الشعر، في بعض الأحيان..

وفي غمرة هذا التقارب، الذي أطلق عليه مصممو الأزياء اسم (الجنس الموحد)، نسيت الفتاة أنوثتها..

أو تناستها بمعنى أدق..

ففي أعماقها، تشعر الفتاة أن أنوثتها هي سر ضعفها..

هي التي تنتزع منها الكثير من الحقوق، التي يتمتع بها الفتى..

فأنوثتها هي التي تمنعها من العودة إلى منزلها في وقت متأخر..

. ومن الخروج وقتما تريد..

وهي التي تجعلها موضع متابعة واهتمام وقلق الوالدين طوال الوقت..

لذا، فهي - على عكس ما ينبغي - تسعى للتخلص من مظاهر أنوثتها، كمحاولة منها للتحرر، وللتخلص من أكبر نقطة ضعف في حياتها..

ومن هذا المنطلق، أصبحت الفتاة الحديثة ترفض الأزياء ذات الطابع الأنثوي، وتميل إلى الأحذية المنخفضة، وتصفيفات الشعر المتحررة، وأسلوب المشي والحديث القريب من أسلوب الفتيان..

والعجيب أن هذا لا يحدث قط، في البلدان المتحررة بالفعل..

ففي (أوروبا) و (أمريكا)، تحرص الفتاة بشدة على أنوثتها، وتفخر وتتباهى بها طوال الوقت، ولا تشعر أبدا بعقدة النقص، التي تعانيها الفتاة المصرية أو العربية، على الرغم من أنها - أيضا - لا تحصل على نفس القدر من الحرية، التي يحصل عليها الفتى هناك، حتى تبلغ الثامنة عشرة على الأقل..

وحتى الفتيان هنا، يعانون افتقارا واضحا في الثقة بالنفس، ولكنهم يحاولون إخفاء هذا خلف ستار من الاستهتار واللامبالاة وكأنما انعكست الآية، ولم يعد احترام الذات والإحساس بالمسئولية جزءا من مظاهر الرجولة الحقة..

وعندما تشعر الفتاة بانعدام ثقة الفتى بنفسه، تندفع محاولة كسب المعركة، والسيطرة عليه، وكأنها وجدت فرصة للفوز في المعركة الأزلية، بين الذكر والأنثى..

وفي كل صدام مباشر، بين الرجل والمرأة، يصطدم الأول بحقيقة لم ينتبه إليها من قبل..

أنه يجهل الكثير عن عالم المرأة وطبيعتها..

فلان الرجل لا يعاني عقد نقص كبيرة، أو تقاليد اجتماعية تحيطه بأسوار كبيرة غير مرئية، فهو يتصوف في معظم الأحوال بشكل واضح، يجعل من السهل على المرأة أن تفهمه، وأن تدرك طبيعته وانفعالاته، وكيفية التعامل معه والسيطرة عليه وقت اللزوم..

أما المرأة، فطبيعتها، وحياؤها، والمجتمع من حولها، كلها عوامل تمنعها من إفشاء أسرارها وأعماقها، وتجبرها على العيش في مسرحية دائمة، تبذل قصارى جهدها خلالها، للقيام بدورها خير قيام، ووضع نفسها في أفضل وأجمل صورة ممكنة فتتعلم مع الوقت إخفاء مشاعرها، والسيطرة على انفعالاتها، وإخفاء ردود أفعالها، إلا عندما ترغب بإرادتها في كشف ما تشاء من كل هذا.

ولكل الأسباب السابقة، يحار الرجل في مواجهة المرأة، ويتصور دوما أنها كائن غامض، لا سبيل إلى فهمه قط..

ولقد تلقف عدد من كبار الكتاب والمفكرين هذه الفكرة، وراحوا يتحدثون ويتحدثون عن غموض المرأة وطبيعتها المبهمة، وعدم قدرتهم على فهمها.

ولأن المرأة تميل إلى التميز والتفرد، فقد أسعدها ما وصفها به المفكرون والكتاب، وتمسكت به، وراحت تردده في كل المحافل والمناسبات، حتى صدقته هي نفسها، وأصبحت تعتبره جزءا من شخصيتها وسحرها.

ولم يكن هذا هو الخطأ الوحيد، الذي وقع فيه المفكرون والكتاب بشأن المرأة، بل كان هناك خطأ أكبر، يتمثل في إلحاحهم المستمر على أنه لا كيان أو شخصية للمرأة، إلا إذا حصلت على وظيفة ما، وتقاضت مرتبا ثابتا مضمونا..

وكانت هذه أكبر طعنة للأنوثة والأمومة..

وأكبر خدعة صدقتها النساء..

لقد فقدت كل امرأة احترامها لدورها كزوجة وأم..

لم تعد تثق بإمبراطوريتها..

لم تعد تعترف بأنها أميرة في منزلها، وأصرت بإرادتها على التنازل عن مملكتها، والعمل كأجيرة في مملكة أخرى، متصورة أن منصب الأجيرة يمنحها كيانا وشخصية، بأكثر مما يمنحها إياه عرش الأميرة أو أنها لم تشعر بجلوسها على ذلك العرش فعليا المهم أن الزوجة أصبحت تحتقر نفسها، عندما ترعى زوجها، كما أمرتها كل الأديان السماوية، وتكره نفسها عندما تلعب دور الأم، التي لو أعددتها لأعددت شعبا طيب الأعراق.

أصبح العمل، والعمل وحده، هو كل كيانها، وشخصيتها، ومبعث زهوها، وفخرها..

والطريف أنني لم ألتق، في حياتي كلها، بامرأة واحدة، تعترف بأن انغماسها في العمل أساء إلى حياتها الزوجية، أو إلى دورها كأم، بل على العكس تماما، تصر كل واحدة منهن باستماتة عجيبة، على أنها قادرة تماما على التوفيق بين عملها ومنزلها، على الرغم من أن هذا مستحيل منطقيا وعمليا..

ودليل المرأة الوحيد، على حدوث هذا التوفيق، هو نظام ونظافة منزلها، وحصول أبنائها على أفضل الدرجات في دراستهم..

ولا يهم بعدها ما إذا كان هؤلاء الأبناء مصابين بطن من العقد النفسية، الناشئة عن نقص الحنان والرعاية، أو أن الزوج يفتقد لمسة الحنان من زوجته، التي تعود من عملها مجهدة، ثم تنهمك في تنظيم المنزل وتنظيفه، ولا تصبح لديها بعدها القدرة على أن تبتسم له، أو حتى تهتم بسؤاله عن عمله وأحواله ولا يهم أن تصبح هي عصبية متهورة، من شدة إرهاقها.

ولا أن ينعكس هذا على الأبناء والزوج، والحياة المنزلية كلها، بل ولا يهم أن تنطوي البنات، وربما الأولاد أيضا، ما دامت الأم تصر على إثبات أنها ناجحة في عملها، وفي التوفيق بينه وبين منزلها، حتى ولو كان الثمن هو المنزل نفسه واستقراره..

أو الزوج...

ففي غمرة سعى المرأة الدءوب لإثبات نجاحها في العمل خارج البيت، تنسى كثيرا أنه من الضروري أن يبدأ النجاح في داخل البيت نفسه.

ولأن الفشل لا يقفز إلى السطح دفعة واحدة، فالمرأة لا تنتبه إليه في المعتاد، إلا بعد أن يصبح حقيقة واقعة.

والعجيب أنها أول من يصاب بالدهشة حينذاك..

والمرأة لا تعترف أبدا بالخطأ، ولا تحمل نفسها مسئولية أي فشل، مهما كانت أسبابه..

بل وترفض الربط بينها وبين الفشل، بأية صورة كانت..

ولكنها تتذوق مرارته بشدة..

وعلى عكس ما يتصور البعض، تتزايد نسبة الطلاق في المعتاد، بين الفئات المتعلمة والمثقفة وفوق المتوسطة..

ونسبة طلاق السيدات العاملات تبلغ ضعف نسبة طلاق ربات البيوت تقريبا..

فما الذي يعنيه هذا في رأيك؟..

هل يعني بالفعل أن المرأة العاملة تستطيع التوفيق بين عملها ومتطلبات منزلها!! والأسباب التي تدفع المرأة إلى العمل كثيرة

وعديدة، ولكن على رأسها الرغبة في الاستقلال المادي والاقتصادي، وعدم الاعتماد على الزوج في نفقاتها الشخصية..

ولكن عدوى عمل المرأة تنتشر على نحو مدهش، مع مرور الزمن.

فحتى النساء اللاتي لا يحتجن إلى الاستقلال الاقتصادي أو المادي، أصبحن يعتبرن العمل ضرورة لا تقبل الجدل..

بل ويصل الأمر في بعض الأحيان إلى أن المرأة تستأجر مربية أطفالها، بمبلغ يفوق راتبها من وظيفتها، التي تركت أطفالها من أجلها!

ومازالت هذه النقطة بحاجة إلى تفسير منطقي..

وعند كلمة (منطقي) هذه، ينبغي أن نتوقف كثيرا..

فالمنطق عند المرأة يختلف تماما عنه عند الرجل..

بل وربما يتعارض معه أيضا..

وعلى الرغم من الشائعة التي تقول: إن الرجل أكثر عملية من المرأة، وأن المرأة أكثر عاطفية من الرجل، إلا أن الواضح في هذا الزمن يوكد العكس تماما؛ فقد صارت المرأة عملية للغاية، ومع عمليتها الزائدة، أصبح الرجل يفتقر إلى العواطف، ويطمح إليها طوال الوقت..

وهكذا انعكست الآية..

أصبح الرجل عاطفيا، وصارت المرأة عملية..

ولكن المرأة ما زالت تعتمد في جزء كبير من طموحها على نجاح الرجل، سواء أكان زوجها أو والدها، أو حتى ابنها...

فمن أهم طموحات الفتاة أن تتزوج رجلا ثريا مرموقا..

ومن أحلام البنت أن يثري والدها ويتفوق..

وحتى الأم، تتمنى أن يصبح ابنها أشهر وأغنى وأفضل شخص في العالم أجمع..

وفي كل الأحوال، فهي تسعى لطي هذا الرجل الناجح تحت جناحها..

ولعبة السيطرة هذه واحدة من أشهر ألعاب ومتع المرأة..

ولديها ألف وسيلة ووسيلة للوصول إلى هذا...

وكعادتها في اختيار السبل الأكثر راحة، فهي تبدأ بمحاولة السيطرة المباشرة، وتترقب رد الفعل في انتباه شديد، فلو استقبل الرجل محاولتها هذه بالغضب والثورة، انتقلت مباشرة إلى السبيل التالي، وأطلقت دموعها من عينيها، وألهبت قلبه ومشاعره، حتى يسعى إليها، ويستسلم لإرادتها، فتفوز باللعبة كلها

أما لو رضخ للسيطرة المباشرة، فهذا لا يسعدها أبدا..

إنها على العكس - تضيق به: وتغضب منه، وتكاد أن تصفعه على وجهه، صارخة:

- لا تستسلم لي هكذا.. قاومني بشدة..

فالمرأة لا يروق لها أبدا أن تنتمي إلى رجل ضعيف مستسلم..

إنها تبحث دائما عن الرجل القوي، الذي يرضخها لإرادته، حتى ولو كانت من النوع المسيطر..

ولكن شرط المرأة الوحيد أن يفعل هذا بأسلوب حازم، لا يخلو من العطف..

فهي تكره القسوة..

وتخشاها..

والرجل المثالي، بالنسبة للمرأة الطبيعية، هو صاحب الشخصية القوية بغير خشونة.

وصاحب الطبيعة الحازمة بغير قسوة أو غلظة.

ولو لم تجد المرأة ذلك الرجل، فهي تضطرب وتتوتر بشدة وتصبح تصرفاتها عنيفة وعصبية، وكأنها تعلن أسفها على الارتباط برجل لا يفجر الأنوثة الكامنة في أعماقها، ولا يملأ عينيها على حد قولها..

إلا أنها لا تصرح بهذا قط، فهي تعتبر فشلها في الفوز بالرجل المناسب نقطة ضعف في شخصيتها وكيانها، وتسعى لإخفائها بكل السبل..

وتتحول حياتها إلى جحيم..

ولكنها لا تعترف بهذا أبدا..

تماما كما لا تعترف أبدا بأن عملها يمنعها من رعاية منزلها وزوجها وأبنائها على نحو جيد..

والطريف أن المرأة، عندما تعجز عن التوفيق بين عملها ومنزلها، فإنها تعكس هذا أول ما تعكسه على زوجها، فتثور في وجهه، وتتهمه بتجاهلها، وعدم معاونتها في أعمال المنزل، دون أن تدرك ما في الأمر من مفارقة مضحكة..

إنه يشبه تماما ما يمكن أن يحدث بالنسبة لشخصين، يعمل أحدها كمدير للمبيعات، والآخر كمدير للمشتريات، ثم يصر مدير المشتريات على الخروج للعمل مع مدير المبيعات، وعندما يتحقق له هذا، ويعجز عن التوفيق بين عمله في المشتريات وخروجه للعمل مع مدير المبيعات، يثور على هذا الأخير، ويطالبه بالقيام ببعض عمله في إدارة المشتريات!!

لماذا هذه الدورة المعقدة إذن؟!..

لماذا لم يظل في موضعه كمدير للمشتريات، ويترك لزميله مهنة مدير المبيعات؟!

ربما بدا هذا المثل مضحكا، ولكنه لا يتجاوز ما يحدث فعليا..

فقديما، كان الرجل يهتم بالشئون الخارجية، ويترك للمرأة الشئون الداخلية، وكل شيء يسير على ما يرام في الجانبين..

ثم قررت المرأة أن تخرج للاهتمام بجانب من الشئون الخارجية..

وعندما انقسم ظهرها في محاولة التوفيق بين عملها في الشئون الخارجية والداخلية، ثارت على الرجل، وطالبته بمشاركتها بعض الاهتمام، في الشئون الداخلية..

واختل الزورق..

وبدأت المشكلات..

ولكنها مشكلة الكيان والشخصية والوجود مرة أخرى..

وكمعلومة تاريخية اجتماعية، فإن عمل المرأة في (مصر) لم يبدأ وينتشر بحثا عن الذات والشخصية والوجود، كما تتصور بعض

النساء، وإنما كان انعكاسا اقتصاديا بحتًا للمتاعب المالية في فترة الستينات..

ففي تلك الفترة، نشأت أزمة المساكن، ولم يعد مرتب الخريج يكفي لحياة كريمة، لذا فقد سعى معظم الشباب إلى الزواج من امرأة عاملة، للجمع بين مرتبه ومرتبها، كوسيلة للحصول على دخل مناسب.

ولأن العمل صار السبيل الوحيد للزواج السريع، تكالبت الفتيات على البحث عن عمل، كخطوة أولى للبحث عن زوج مناسب..

ثم انتشر المبدأ، وصار أمرا طبيعيا، لم يعد أحد يفكر كيف بدأ ونشأ..

تماما كما يحدث لكل تطوراتنا وعاداتنا الاجتماعية لا أحد يذكر كيف ومتى ولماذا نشأت!.. إننا نعتادها مع مرور الوقت فحسب، وتصبح جزءا من حياتنا، نرفض التخلي عنها في إصرار شديد، وعناد بلا حدود، كما لو أنها أحد المبادئ الأخلاقية، أو التعاليم الدينية الصريحة..

وقبل أن يتهمني أحد بمهاجمة ورفض عمل المرأة - على الرغم من أنني أرفضه بالفعل، في فترة نمو الأطفال، ينبغي أن أشير إلى أن مشكلات المرأة لا تقتصر على عملها فحسب، فالنساء غير العاملات أيضا لهن مشكلاتهما ومشاكلهن.

ولكنهن تشتركن فيها مع النساء العاملات أيضا وربما كانت أشهر مشاكل النساء عامة، هي شعورهن بأن الزواج هو نهاية المطاف، وما دامت الفتاة قد تزوجت، فلم يعد هناك ما يجبرها على الاهتمام بأناقتها وزينتها المنزلية، ويكفي أنها تبذل جهدا كبيرا لتفعل هذا، عندما تخرج في زيارة للأقارب أو الجيران..

ثم أنها لا تفصح عن مشاعرها إلا نادرا..

لقد تعلمت منذ حداثتها أنه من العيب أن تصرح الفتاة أو المرأة بمشاعرها، حتى لزوجها..

وهكذا يصبح الجفاف العاطفي جزءا من تكوينها..

وينعكس هذا بالطبع على علاقتها بزوجها..

وحتى بأطفالها..

. ومع مرور الوقت، يصاب الزوج بعدوى الجفاف، فيتوقف عن مغازلة زوجته، أو يصاب بالخرس المنزلي، طوال فترة وجوده في المنزل..

وهنا فقط ترفض المرأة الجفاف العاطفي، وتتور عليه، ولكنها لا تفصح عن السبب الحقيقي لثورتها قط..

وهكذا يعيش زوجها في حيرة كبيرة..

لقد أصبحت زوجته عصبية، عنيفة، شرسة، على الرغم من أنه لم يفعل شيئا..

وهو لا ينتبه أبدا إلى أن هذا هو السبب الفعلي..

أنه لم يفعل شيئا..

وهذه ليست المشكلة الوحيدة للنساء غير العاملات..

هناك أيضا الـ....

ولكن مهلا..

لا شك في أنكم تتصورون الآن أنني عدو للمرأة، ما دمت أفرد كل هذه الصفحات للحديث حول المشكلات التي تصنعها والمتاعب التي تنشأ بسببها..

ولكن هذا هو الفصل الأول من الكتاب فحسب..

الفصل الذي نوضح فيه أن المرأة مشكلة..

وتتبقى الفصول التالية، التي نشرح فيها كيف أن المرأة لم تنشأ كمشكلة بالفطرة

لقد صنعها الرجل..

كل رجل..

☆ ☆ ☆

2 - ولد.. وبنت..

على الرغم من مرور أكثر من أربعة عشر قرنا هجريا على عصر الجاهلية، ومن أننا نتنسم روائح القرن الحادي والعشرين، مازالت الأنثى تستقبل، وهي تطلق صرخاتها الأولى في الحياة، ككائن زائد غير مرغوب فيه، وما زال العديدون في معظم البلدان العربية - إن لم يكن كلها - يستقبلونها بوجه مسود وهم كاظمون، على عكس الذكر، الذي يتلقفه الجميع في فرحة غامرة، وكأنما حمل الخير كل الخير بمولده.

والمدهش أن هذه التفرقة الجنسية لا تقتصر على العرب وحدهم، كما قد يتصور البعض، ففي أغلب أنحاء العالم، (أوروبا)، و (آسيا)، و (إفريقيا)، وحتى في الأمريكتين يشعر الأب بسعادة حقيقية، عندما تنجب زوجته طفلا ذكرا..

بل والأكثر إثارة للعجب أن الزوجة نفسها تكاد تطير من السعادة، عندما تنجب الذكر، وكأنها تعلن بهذا نجاحها في الحصول على الأفضل، وبراعتها كأنثى في إنجاب النوع المطلوب، كما لو أن هذا يعود إليها وحدها، وليس إلى الخالق عز وجل.

ومعظم النساء يبررن فرحتهن هذه بأن إنجاب الذكر يبعث في نفوسهن الارتياح، ويملؤهن بالثقة، لأنهن واثقات من أن الأزواج، مهما تظاهروا بسعة الصدر والأفق، يتلهفون إلى إنجاب الوريث..

وقد يتبادر إلى الأذهان أن الأثرياء فقط هم الذين يتلهفون على إنجاب وريث، حتى يضمنوا ألا تذهب الثروات، التي جمعوها

طيلة عمرهم، إلى غيرهم، ممن لا يحملون ألقابهم، التي يعتزون بها للغاية، ولكن الطريف أنه حتى الذين يغرقون في فقر مدقع يتلهفون أيضا علي اتجاب من يرث اسمهم ولقبهم، حتى ولو لم يكن هناك من يعرفه..

وعندما تتساءل عن السر في هذا، يخرج إليك الجميع بعدد من الأسباب، لتبرير رغبتهم الشديدة في إنجاب الذكور فالبعض - وخاصة الأثرياء - يقولون إن شرائع وقوانين الميراث لا تضمن وصول التركة كلها إلى الأبناء، إلا لو كان فيهم ذكر على الأقل، أما في حالة عدم وجوده، فثلث الثروة يذهب حتما إلى الآخرين..

وهذا المنطق يثير الدهشة بحق..

فهل يضمن أحدهم الثروة يمكن أن تبقى، فقط لأنها ذهبت إلى ذكر يحمل اسما لا فضل له أو لوالده فيه؟!..

من أدرانا أن ذلك الذكر لو حصل على الثروة، لن يبددها على أمور تافهة، أو ينفقها بلا تعقل، فيضيع كل ما جمعه الأب في حياته، على يد ابنه في سنوات أو شهور، أو حتى أيام؟!

بل ومن قال إن الإنسان، مهما بلغ من الذكاء والبراعة يمكنه أن يضمن الرزق أو استمراره، ولو لساعة واحدة؟!

أو حتى دقيقة واحدة..

ألم يعلمنا الدين والتاريخ أن أحدا، مهما بلغ من الثراء، فلن يصل إلى ما وصل إليه (قارون)، ثم لم ينفعه هذا أو يشفع له لحظة واحدة؟!

ربما لا ينجب رجل سوى إناث فحسب، ويورثهن ثلثي ثروته، ملتزما بما أقره الشرع والقانون، فيضع الله (سبحانه وتعالى)

البركة في ثلثي الثروة، وينميهما فيتضاعفان أضعافا مضاعفة، وتعود على بناته وأولادهن بالخير والبركات.

وربما ينجب جيشا من الذكور، ويورثهم ثروته كلها، فيتصارعون ويتشاحنون، وربما يصل بهم الأمر إلى أن يؤذي الأخ أخاه، أو يقتله، مثلما حدث مع (قابيل) و (هابيل)، فتضيع الثروة كلها، ولا يتبقى منها ما يكفي حتى لإطعامهم خبزا جافا..

كل هذا في علم الغيب، ولا دخل له بإنجاب الذكور أو الإناث..

أو حتى بالثراء..

وبعض الرجال لا يفكرون في الأمر من هذه الناحية، بل وليست عندهم ثروة يمكن أن يورثوها لغيرهم، وعلى الرغم من هذا فهم يتمنون إنجاب الذكر، حتى يحمل اسمهم، الذي يبقى بعد وفاتهم..

وهذا الأمر بالذات يشفّ عن مدى أنانية الإنسان وتشبثه بالحياة، فهو يتصور أن وجود ابن يحمل اسمه سيحفظ وجوده في الدنيا، حتى بعد أن يفارقها، ناسيا أنه شخصيا لن يعنيه هذا الأمر، عندما تنتهي علاقته بالدنيا، فعندئذ سيكون هناك ما يشغله أكثر..

ثم ماذا لو حمل هذا الابن اسمه في مصيبة أو عار؟!..

ماذا لو كبر ليصبح مجرما أو قاتلا، أو حتى جاسوسا خائنا يكون هو أول من يتوارى منه خجلا، وأول من يتمنى لو لم يحمل اسمه يوما!..

كلها أمور في علم الغيب..

ولكن من يفكر، ومن يحلل..

أما الفئة الأكبر ممن يتلهفون ويسعدون لإنجاب الذكور، فهي تلك التي تخشى إنجاب الإناث، وتقول إنهن لا يجلبن سوى القلق والخوف والمتاعب..

بل وربما العار أيضا، كما يقولون في الصعيد..

ففي عرف هذه الفئة، يكون الصبي أقل إثارة للقلق والمتاعب، ولا يثير الخوف في النفوس طوال الوقت، كما تفعل الفتاة، إذ يمكنه أن يخرج ويدخل وقتما يشاء، وأن يصادق كل من يحلو له، حتى ولو كان له أصدقاء من بنات الآخرين!!

والأسرة لا تعترض – إلا نادرا - إذا ما تحدثت فتاة إلى ابنها، بل وربما يشعرون بالزهو والفخر أحيانا، في حين يصيبهم الغضب والجنون، إذا ما استقبلت ابنتهم محادثة هاتفية من زميل لها ويحيطونها بنظرات الشك والقلق، وربما يمطرونها بسيل من الأسئلة حول عائلته واهتماماته، ومدى اهتمامها به أو اهتمامه بها.

وعندما يكبر الصبي، وتهفو نفسه للارتباط بالجنس الآخر لا تعاني الأسرة كثيرا، بل تكتفي بتحذير متخاذل، ونصيحة بأن يولي الاهتمام الأكبر لدراسته، حتى لا ينشغل عنها بمثل هذا الارتباط..

ولكن الفكرة - مجرد الفكرة - محظورة تماما بالنسبة للفتاة..

غير مسموح لها إطلاقا بالارتباط بالجنس الآخر، حتى في خيالها!!..

لا صداقات، أو زمالات دراسة، أو حتى رفاق ناد..

هذا لأن البنت - في مفهوم هذه الفئة - كائن قاصر، غر ساذج، تكفي همسة ناعمة للإيقاع به، وخداع عقله وحواسه، وإغوائه، و..

وتشعر البنت بهذه التفرقة، منذ اللحظات الأولى، التي يبدأ فيها وعيها وإدراكها

تشعر بفارق المعاملة بينها وبين شقيقها وربما بينها وبين ابن عمها، أو ابن خالتها، أو حتى ابن الجيران

إنها تدرك على الفور أن أنوثتها هي التي صنعت هذه التفرقة..

وأن ذكورة الولد هي سر تفوقه عليها..

وهنا تبدأ المشكلة..

قد يتصور البعض أن هذا الحديث مبالغ فيه للغاية، وأن الأطفال في هذه السن الصغيرة لا يمكنهم إدراك الفارق الجنسي أو استيعابه..

ولكن هذا خطأ..

كل الدراسات الحديثة أكدت أن الأطفال يمكنهم استيعاب هذه الأمور، والشعور بالتفرقة عندما يبلغون الثانية من عمرهم فحسب..

صحيح أنهم لا يستطيعون فهم الأسباب وتحليلها..

ولكنهم يدركون الأمر المباشر..

التفرقة

والمؤسف أننا، على اختلاف تعليمنا وثقافتنا، نسهم بقدر أو بآخر في تعميق الشعور بهذه التفرقة..

وربما دون أن ندري..

فعند اختيارنا للعب الأطفال مثلا، تختار في المعتاد دمية للبنت ومسدس للولد

وفي المولد (عروسة للبنت وحصان للولد)..

وإذا ما حدث، وانبهرت البنت بالمسدس، فنحن نزجرها، ونؤكد لها أن هذه اللعبة لا تناسبها، لأنها بنت والولد لا ينبغي أن يهتم بالدمية، لأنه ولد..

ولكن البنت تظل مبهورة بالمسدس

والولد لا تذهب رغبته في اللعب بالدمية..

كل ما حدث هو أن الإثنين أخفيا رغبتهما في أعماقهما، وراح كل منهما يختلس النظر إلى لعبة الآخر في شوق ولهفة..

وعندما يدير الأبوان عيونهما، أو ينشغلان، يسرع الولد باختطاف دمية البنت، وتلتقط هي مسدسه في شغف..

وحتى وهما يفعلان هذا، يكونان قد أدركا وجود فارق جوهري بينهما..

هذا ولد.. وهذه بنت..

ومع إدراكهما هذا، يحدث تباعد مرحلي بينهما، فيرفض الولد اللعب مع البنات، وتخجل البنت من اللعب مع الأولاد..

ولكن هذا أهون ما يفعله الآباء بالأبناء وبالذات بالبنت...

ففي مرحلة تالية، يبدأ الآباء في التفكير في كل المشكلات، التي يمكن أن تسببها لهما البنت..

وأخشى ما يخشيانه، في تلك المرحلة، هو أن تنحرف البنت، وأن تنجذب إلى الجنس الآخر، فيحدث من هذا ما لا تحمد عقباه.

والمثير للأسى أنهما في خشيتهما هذه، لا يحاولان اللجوء إلى الأسلوب الأمثل، ألا وهو الارتباط بالبنت، واحتضانها، وحسن تربيتها وتوجيهها، وتعريفها بدينها وتقاليد مجتمعها، وبالخطأ والصواب في مراحل عمرها، وإنما تبدأ خطة موروثة معتادة لا تمت للعقل أو للحكمة بأدنى صلة..

خطة تجريد البنت من أنوثتها، حتى لا تقودها تلك الأنوثة إلى الوقوع في الخطأ..

وأهم مراحل هذه الخطة هي الختان..

وعلى الرغم من أنني لست متفقها في أمور الدين والشريعة ومن أن قراءاتي في هذا الشأن لا تكفي للإفتاء في مثل هذا الأمر، إلا أنني تابعت، ولفترة طويلة، المناقشات والمجادلات العنيفة، التي دارت حول ختان البنات، والتي اختلفت فيها الآراء وتناحرت في شدة، حول وجوب أو عدم وجوب إجراء هذه العملية التشويهية، التي درسنا في كلية الطب أنها أمر بشع، يؤذي الأنثى إيذاء عنيفا، من الناحيتين العضوية والنفسية..

وفي النهاية، توقفت عند سؤال واحد..

لو أن الجميع قد اتفقوا على أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يختن بناته، ثم اختلفوا حول الحديث الخاص بالختان، وتناقشوا في مغزاه ومضمونه، والغرض منه، فأين تكمن المشكلة؟!..

لدينا قول وفعل، القول اختلفنا حوله، والفعل اتفقنا على حدوثه، فأيهما أكثر قوة؟.. القول أم الفعل؟!..

لو أننا طبقنا قواعد المنطق الطبيعي، لوجدنا أن الفعل أكثر قوة من القول، حتى ولو اتفقنا على صحتهما معا؟

ولو أننا أعملنا عقلنا، بناء على هذه القاعدة البسيطة لأدركنا جميعا أن الدين لم يحث قط على ختان البنات، وإلا لكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أولى بتطبيق قواعد الدين على بناته كمثل..

ولكنه (صلوات الله وسلامه عليه) لم يفعل..

فما الذي يعنيه هذا؟!..

ولقد أجريت أبحاثا ودراسات عديدة حول عادة الختان هذه، واتفقت كلها على أنها ليست رمزا دينيا أو وثنيا، وإنما هي عادة إفريقية بالتحديد، انتشرت على طول وادي النيل، من منابعه وحتى مصبه، وسر انتشارها في هذه البقعة بالتحديد غامض ومجهول، ولكنها - كمعظم العادات السيئة - بقيت وقاومت، وأصرت على مواصلة تأثيرها السيئ في البنات، دون رحمة أو تروي أو تفكير..

وكأن الوالدين يعاقبان البنت على ضعف ثقتهما بنفسيهما، وفي قدرتهما على حسن تربيتها وتعليمها..

وبأبشع وسيلة ممكنة..

والختان يصيب البنت بصدمة نفسية رهيبة، ويطعن أنوثتها في مقتل، فينتابها شعور دائم بالدونية والضعف والاستسلام، أو بالغضب والثورة، وبالسخط على جنسها، الذي جعلها تعاني كل هذه المعاناة، وعلى يد من ينبغي أن يمنحوها الحماية والأمن والأمان..

وتكبر البنت، ويكبر معها الشعور بالأسى والمرارة..

ويكبر الولد، ليكبر معه شعوره بالتفوق والسيطرة..

ومع مرور الزمن، يتعمق شعور الاثنين بالفارق بينهما، فالولد يفصح عن مشاعره في بساطة وبلا تعقيدات، في حين من المحظور على البنت أن تضحك بصوت مرتفع، أو تبتسم لأحد أو تتبسط في الحديث مع أي مخلوق، وخصوصا مع الشاب من الجنس الآخر..

وعندما تتكون الصداقات، يخرج الولد في حرية للقاء أصدقائه، والتنزه معهم، والذهاب إلى النوادي ودور السينما، والعودة أحيانا بعد منتصف الليل، في حين تحمل البنت معها قائمة من المحظورات والممنوعات، إذا ما تبسط أهلها، وقرروا السماح لها بالذهاب لزيارة إحدى صديقاتها، فلا ينبغي لها أن تتأخر في العودة، بعد التاسعة مساء، ومحظور عليها التحدث مع شقيق صديقتها، أو التحدث في الهاتف.. أو.. أو.. أو....

وينمو شعور البنت بالغضب والسخط على جنسها، وتتمنى لو أنها خلقت ذكرا، حتى يمكنها أن تتمتع بنفس الحريات، التي يتمتع بها الولد وحتى عندما يعود شقيقها في ساعة متأخرة، ويعلن رغبته في تناول طعام العشاء. فإن أمها تميل عليها وتطالبها بإعداد الطعام له..

والويل كل الويل، لو أنها اعترضت، وطالبته بأن يعد طعامه لنفسه..

لحظتها سيصرخ الجميع في وجهها بأنه من العيب أن تعترض لأن شقيقها ولد، وهو رجل البيت بعد أبيه..

ويتعلق شعور البنت أكثر وأكثر بالتفرقة..

والعجيب أن هذه التفرقة هي أحد أسباب التفوق الدراسي للبنات، فلأنها لا تستطيع الخروج أو السهر، يتركز اهتمامها كله في دراستها، فتستذكر لساعات أطول، وتحصل على درجات أعلى..

بل وربما يصنع منها هذا شخصية أقوي احتمالا وأكثر صلابة وهذا ما لاحظته في الأعوام الأخيرة..

فالبنت - كل بنت - تعترض مسيرة حياتها عقبات أكثر، ومشكلات عويصة. تنبت كلها من كونها بنت..

أما الولد، فمتاعبه أقل، والعقبات في مسيرته أبسط، لأنه ولد..

وهكذا تعتاد البنت أن تقاتل وأن تكافح، لتحقق طموحاتها وآمالها، في حين لا يبذل الولد إلا أقل القليل في سبيل هذا..

أو يبذله أقل مما تبذله هي..

وهكذا تنتهي المسيرة وقد اكتسبت البنت صلابة واضحة، في حين اكتسب الولد شيئا من التراخي، يبدو في عبثه واهماله ولا مبالاته بمشاعر وعواطف الأخرين..

ومن هنا تبدأ المشكلة الحقيقية..

مشكلة بنت اكتسبت صفات الرجولة..

وولد يفتقر إلى معظم هذه الصفات..

ولأن البنت - بحكم أنوثتها الطبيعية - تميل إلى صفات الرجولة في الولد..

ولأنها تحسده على هذه الصفات..

فإنه من الطبيعي أن تنشأ داخلها مشكلة مزدوجة. ذات طابع خاص..

إنها تضيق بالأولاد الذين لا يحملون صفات الرجولة التي تنشدها، في نفس الوقت الذي تضيق فيه بأنوثتها التي تمنعها من الاستمتاع بحريتها، وتحرمها من الفوز بالكثير مما تطمح إليه..

ومن هذه النقطة تنشأ المشكلة الحقيقية الكبرى..

مشكلة المرأة..

التي صنعها الرجل..

☆ ☆ ☆

3- أنوثتي.. أو حريتي..

أول مشكلة تواجه الأنثى، في عالمنا العربي هي أنوثتها نفسها..

تلك الصفة التشريحية، التي تنتزع منها عشرات الحقوق الآدمية، وتمنحها للذكر في إفراط ليس له ما يبرره.

صحيح أنه هناك اختلافات جوهرية بين الذكر والأنثى، في الحقوق والواجبات، إلا أنهما يتساويان حتما في الحقوق والمشاعر الآدمية..

فالذكر يتألم..

وكذلك الأنثى..

وهو يشعر، ويفكر، ويفرح، ويحزن، وينسجم، ويضيق..

والأنثى أيضا تمتلك نفس المشاعر..

ثم إنه يحب..

وهنا يتوقف فكرنا لسبب مجهول..

إننا نعترف تماما بحق الولد في أن يحب، وفي أن تكون له فتاة أحلام، يتحدث عنها، ويهيم بها، ويضع صورتها في إطار ذهبي أنيق، إلى جوار فراشه..

بل وربما تشعر أمه بالفخر والسعادة، وهي تروي هذا الأمر أو تهمس به في آذان صديقاتها وقريباتها، وتعتبر أن هذا دليل على رجولته، ونضجه، ونمو مشاعره، وأحاسيسه..

لكن إياك أن تشير ابنتها مجرد إشارة إلى الحب..

الويل كل الويل لها، لو تتحدث عنه، أو وصفت ملامح فتي أحلامها، حتى ولو لم يكن لهذه الملامح وجود في عالم الواقع..

إنها تتلقى عندئذ سيلا من النصائح والتحذيرات والتوبيخ والتأنيب، وكأنما ارتكبت ذنبا لا يغتفر، لمجرد أنها تمتلك نفس المشاعر، التي يمتلكها شقيقها..

ولأن الأم والأب يخشيان أن تتفتح عينا ابنتهما للمشاعر، أو تتفتح زهرة قلبها للحب، فهما يحيطانها بسياج من الأسوار الشائكة، ويسعيان في استماتة لانتزاع كل معالم الأنوثة من أعماقها..

لا تقفى طويلا أمام المرآة..

لا طلاء شفاه..

لا طلاء أظفار..

لا تهتمي بأنوثتك، وإلا اعتبرنا هذا دليلا على وجود اهتمامات أخرى في حياتك، من خلف الستار..

ولأن مشاعر الأنثى رقيقة وحساسة بالفطرة..

ولأن المجتمع يقهر ويحارب هذه المشاعر في أعماقها، فهي تستمع إلى كل النصائح في صمت، أو تبدي اعتراضات واهية، أو..

أو تقاوم..

والمقاومة هنا تتخذ عدة صور..

فإما أن تثور على هذه النصائح، وترفضها بصورة علنية واضحة، فتكون بداية الحرب بلا هوادة، بينها وبين والديها، اللذين يتصوران أن هذا الرفض دليل جديد على ارتباطها بشخص ما،

أو على رغبتها في هذا على أقل تقدير، فيضاعفان من صرامتهما وشدتهما، ويسعيان لقهر مشاعر الأنوثة في أعماق ابنتهما أكثر وأكثر، وكأن هذه هي الوسيلة الوحيدة للحفاظ عليها، وإنقاذها من السقوط في هوة الفساد والانحلال والضياع.

أو تلجأ إلى أسلوب الخداع وتجاوز المشكلات..

وهذه وسيلة أخرى من وسائل المقاومة..

إنها تتظاهر بالخضوع لكل النصائح والأوامر، وتتوقف عن استخدام أدوات الزينة أو التجميل، أو تقلل من استخدامهما إلى أدنى حد، حتى تغادر المنزل على الأقل..

ويتحول الأمر إلى نوع من الحرب الباردة الخفية..

وإلى مباراة في الذكاء والمناورة والخداع..

وربما يرتاح الوالدان لهذا المسلك، ويتوقفان عن ملاحقة ابنتهما ومحاصرتها..

وترتاح الابنة لتوقف القتال على كل الجبهات..

ولكنها في أعماقها تظل غاضبة من أنوثتها..

ثائرة عليها..

وتتهمها بأنها المسئولة عن كل ما تعانيه..

وكم تتمنى عندئذ لو أنها لم تخلق أنثى..

وأنها كانت ولدا مثل شقيقها..

والمشكلة الحقيقية، التي نتحدث عنها في هذا الفصل، هي أن تتحول تلك الرغبة إلى وسيلة جديدة من وسائل المقاومة..

أن تتقمص البنت شخصية الولد..

أن تتخلى عن مظاهر الأنوثة، التي كانت السبب في كل ما تواجهه من مشكلات..

وأول ما تنزعه عنها من هذه المظاهر، هو الثياب نفسها..

إنها ترفض ارتداء كل الثياب الرقيقة، ذات الطابع الأنثوي وتستبدل بها ثوبا من طراز (رجالي)..

سروال، وقميص، وحذاء ضخم، يفتقر إلى اللمسات اللطيفة أو الشاعرية..

ومن الثياب، تنتقل البنت إلى أسلوب الحديث، والتصرفات والمعاملات الاجتماعية..

وتتحول البنت إلى صورة ممسوخة من الولد..

صورة تفتقر إلى الرقة والنعومة والحنان..

صورة فظة، خشنة، جافة..

والعجيب أن هذا يريح الأبوين إلى حد كبير، ويجعلهما يمنحان البنت قدرا إضافيا من الحرية، وكأنما اطمأنا إلى أنها لم تعد تمتلك من مشاعر الأنوثة ما يستحق الخوف..

بل ويتحدثان عن هذا في مرح عجيب..

تشير أنت مثلا إلى أن البنت قد ذهبت وحدها إلى مكان مقفر نوعا، فيبتسم الأبوان، ويقول أحدهما في شيء من الزهور..

- لا تخش عليها.. إنها (راجل)..

ولست أدري حتى الآن ما الذي يسعدهما في هذا..

لقد تخلت ابنتهما عن واقعها، وكتمت الأنوثة في أعماقها، وخسرت أجمل مشاعرها..

ولكن كل هذا لا يهم..

المهم أنهما أصبحا يشعران بالارتياح، وضاع منهما القلق.. أو جزء كبير منه على الأقل

وهذا بالضبط ما تريده البنت، وما سعت إليه..

وجدت أن أنوثتها تعوق حريتها، فعقدت معهما صفقة، بدت لها عادلة..

خذوا أنوثتي.. وأعطوني حريتي..

تخلت عن الأنوثة، ثمنا لمزيد من الحرية..

المؤسف أنها، حتى وبعد أن تحصل على الهامش الإضافي من الحرية، لن تشعر بالارتياح..

هذا لأنها تكتم نداء طبيعيا في أعماقها..

نداء الأنوثة..

إنها تتقمص دور الولد، حتى يتركها أهلها وحالها، ويتوقفون عن مطاردتها طوال الوقت، ولكن هذا لا يعني أن مشاعرها قد أصبحت مشاعر ولد..

إنها بنت..

بنت تشعر، وتحب..

بنت لها فتى أحلام..

بنت تتمنى أن يأتي يوما من يعاملها كبنت..

من يربت بيد حانية على مشاعرها الدفينة..

من يرفع قناع الذكورة الزائف عن وجهها، ويرى أنوثتها الحقيقية..

وهي من أجل هذا تتعذب..

تحترق من أجل الدور الذي أجبرها المجتمع على لعبه، والذي يتعارض تماما مع ما خلقه الله (سبحانه وتعالى) في أعماقها

ومع ما تفيض به مشاعرها الطبيعية..

ويبلغ هذا العذاب ذروته، عندما تميل إلى شخص سوي، يضيق بما تحيط به نفسها من مظاهر الرجولة، كما ستضيق هي به حتما، لو أحاط نفسه بمظاهر أنوثة!!..

لحظتها تتمنى لو ألقت كل شيء خلفها، وعادت أنثى رقيقة بسيطة، حتى تعلن لمن تحب أنها ليست رجلا..

وأنها أنثى..

وتحب..

باختصار، إنها تتعذب في كل الأحوال..

ومهما اتخذت من سبل ووسائل..

فقط، لأنها أنثى..

فالإنسان - أي إنسان - لا يمكن أن يصبح سويا طبيعيا، إلا لو عاش كما خلقه الله (سبحانه وتعالى)، دون أن يقاوم طبيعته، أو يتقمص دورا يخالف دوره..

ولكن ماذا تفعل الأنثى المسكينة؟!

إنها ستحمل في أعماقها دوما مشكلة..

أو تتحول هي نفسها إلى مشكلة..

مشكلة كبيرة.. صنعها الرجل..

☆ ☆ ☆

4- إلى الأمان يا (روميل)..

في أوائل الأربعينات من هذا القرن، وعندما لاح للجميع أن الجيش النازي يحقق الانتصارات على طول الخط، وأن القائد الألماني (روميل) يكتسح الجيش البريطاني، ويسحق مدرعاته في الصحراء الليبية، متجها نحو (مصر)، تصور بعض البسطاء أن وصول الألمان سيحقق حلما طال انتظاره، بالخلاص من الاحتلال البريطاني، لذا فقد ترددت في المظاهرات، وفي الشوارع، وفي قلب المنازل أيضا، هتافات معادية للإنجليز، ومؤيدة للألمان وكان أشهرها هو ذلك الهتاف، الذي يستحث (روميل) على مواصلة انتصاراته، والمضي قدما إلى الأمام، حتى يبلغ (مصر).

ولكن (روميل) لم يستطع مواصلة انتصاراته..

وانهزم في الصحراء الليبية، على يد القائد البريطاني الأشهر (مونتجومري)..

واستقرت أقدام البريطانيين في (مصر) أكثر وأكثر..

ومنذ بدء الخليقة، أدركت المرأة أنها أقل قوة - بدنيا – من الرجل، وبدا لها أن الوسيلة الوحيدة للحصول على الأمان هو أن تظل في كنفه، وتحتمي بظله (الأفضل طبعا من ظل الحائط، كما تقول الأمثال الشعبية)؛ لذا فقد ارتبطت به وأسلمته

قيادها، وقررت أن تتبعه في كل مكان يذهب إليه مطلقة شعارا آخر..

إلى الأمان يا رجل..

والأمان أولا..

وقبل كل شيء..

وعندما هبطت الأديان السماوية على البشر، كانت كلها تستحث المرأة على طاعة الرجل والخضوع له، وتطالبها بأن تكون له أطوع من بنانه، كما تحتم عليه - في المقابل - رعايتها، والعناية بها، وحسن معاشرتها..

ولأن الانتماء والخضوع للأقوى جزء من طبيعة المرأة، على الرغم من روح التمرد والعناد، التي تطل برأسها كل حين وآخر (وبالذات عند قراءة هذه السطور) فلم تكن أمامها مشكلة كبيرة في تنفيذ الأمر..

لقد خضعت، وأطاعت، ولبت مطالب الرجل ومتطلباته، فأعدت له طعامه، ورتبت فراشه، وغسلت ملابسه، و..، و

ثم جلست تنتظر منه أن يقدم لها المقابل..

الحنان، والحب، والرعاية، والدفاع..

ثم - وهو الأكثر أهمية - حسن المعاملة والمعاشرة، ولكن الرجل لم يؤد الأمانة..

لقد استوعب من الرجولة، ذلك الجزء الخاص بالقوة والسيطرة والتفوق فحسب..

ونسي، أو تناسى، كل الأمور الأخرى..

لم يحاول أن يقدم لها الحب والحنان..

أو يحسن حتى معاملتها..

لقد اعتبرها جنديا في جيش محدود، هو قائده الوحيد، فراح يأمر وينهى، ويعاقب، ويشكو، ويغضب، ويثور..

وعلى أتفه الأسباب..

ثم إنه - وهذا هو الجزء الأسوأ - افترض أنه صاحب كل ما يمكن أن يحصل عليه من دخل، متناسيا أن الله (سبحانه وتعالى) يرسل لزوجته وأولاده رزقهم عن طريقه، وأن رزقهم هذا يمكن أن يفوق رزقه المنفرد بمرات ومرات، وراح يتحكم في وسائل إنفاق هذا الدخل، ويستخدمه كوسيلة السيطرة على زوجته، وإثبات قوته وتفوقه أمامها وفي مواجهتها، إذا ما اقتضت الظروف..

وهنا، ومع كل العوامل السابقة، فقدت المرأة ذلك الشعور بالأمان، الذي كانت تسعى إليه، عندما ارتبطت بالرجل..

بل، وعلى العكس تماما، لقد سيطر عليها شعور مخيف بعدم الأمان، مادامت واقعة تحت سيطرة الرجل أي رجل..

فخلال رحلة عمرها، لم يحاول أي رجل منحها الشعور الحقيقي بالأمان..

والدها عاملها دائما بصرامة، حتى لا تشب عن الطوق، وتخرج عن طاعته، وتنحرف أخلاقيا وجسديا، (ولست أدري لماذا يقتصر هذا الحذر على البنات، وليس على الأولاد؟!)

وشقيقها أفرز أولى إحساساته بالرجولة، في بدايات فترة المراهقة، على شكل سيل من التعليمات والانتقادات والأوامر

إليها

ثم أتي زوجها ليجهز على ما تبقى منها، بتعنتات اجتماعية ومادية، وأسرية..

ولسنوات طويلة..

طويلة للغاية..

اضطرت المرأة للخضوع إلى هذا التعنت، واستسلمت لمصيرها المظلم، باعتبار أن هذا قدرها، وأنه ليس بيدها تغييره...

أو حتى الاعتراض عليه...

ومع خضوعها واستسلامها المستمر، تمادى الرجل في غيه، واختلت عنده موازين الرجولة، فتصور أنها الفوز بأفضل وأحسن الامتيازات، والتفوق على المرأة في كل المجالات، والسيطرة عليها في كل الاتجاهات..

وراح الرجل يخرج للعمل وحده (باستثناء البيئات الريفية والزراعية)، فيكد ويكدح، ثم يعود إلى منزله في آخر اليوم، منهكا، متذمرا، صارما، قاسيا، يطالب المرأة بأن تفني نفسها في خدمته والعناية به، وكأنها لم تكد وتكدح بدورها طيلة النهار، حتى يجد الطعام والشراب والمنزل النظيف الهادئ، عند عودته إليه..

ورضيت المرأة..

وتعبت..

وتعذبت..

ثم أتى العصر الحديث بغتة، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية..

تغير وجه العالم كثيرا عن ذي قبل، وحصلت المرأة على حريات أكثر، وعلى الحقوق السياسية، والاجتماعية، و...

وخرجت للعمل..

وعند هذه النقطة الأخيرة بالتحديد، تفجرت القضية.

لقد بدأت تربح دخلها بكدها وعرقها..

تماما مثل الرجل..

وهذا يعني أنه لم يعد يتميز عنها، في هذا الشأن..

فلماذا تسمح له بالتحكم فيها وإخضاعها إذن؟!

وبدأ التمرد في منتصف الخمسينات، وراح يتصاعد ويتصاعد..

ومع تصاعده بدأ الرجل يشكو..

وبدأ يعتبر المرأة مشكلة..

إنه لم يعد يشعر بالارتياح والدفء في منزله..

لم يعد يجد فيه تلك الزوجة الهادئة الحنون..

أو حتى الاستقرار المنشود..

فزوجته أيضا تذهب للعمل في الصباح، وتقضي فيه ساعات طويلة، ثم يكون عليها، بعد كل هذا، أن تعود لترتيب المنزل وتنظيفه، وإعداد الطعام، ورعاية الأطفال، وتنظيم الإنفاق.

ثم، وبعد كل هذا، يأتي الرجل ليطالبها بالاهتمام به ورعايته!!

ومن الطبيعي، بعد كل هذا، أن تتعامل معه بعصبية زائدة، وأن يتحول العش الهادئ إلى ساحة قتال يومية، يواجه كل طرف

فيها الآخر بما يبذله من أجله، ومن أجل الأسرة، وتبدأ عملية حساب المجهود اليومي؛ لمعرفة من بذل أكثر من الآخر..

وكرد فعل طبيعي، يصبح الأطفال أيضا عصبيين، متوترين، كثيري الشجار مع بعضهم، ومع زملاء النادي، والمدرسة، والشارع..

وعندما يضيق صدر الرجل بكل هذا، ولا يحتمل العودة إلى المنزل يوميا، لمواجهة كل هذا، فإن ذهنه يتفتق عن فكرة، تبدو له (بالتأكيد) منطقية وعملية للغاية، فيجتمع مع زوجته يوما، ويطلب منها الاستقالة من عملها، والتفرغ له وللمنزل والأولاد، ثم يعرض عليها (بكرم حاتمي) أن يمنحها نفس الراتب، الذي تحصل عليه من العمل، متصورا أنه بهذا قد حسم الأمر، وأنهى المشكلة، وأعاد كل شيء إلى نصابه القانوني.

ولكن جوابها دائما ما يدهشه..

أو بمعنى أدق، يصدمه (ولست أدري لماذا)..

فزوجته سترفض - وبمنتهى الشدة والحزم - مجرد مناقشة فكرة توقفها عن العمل، بل وستؤكد له أنها متمسكة بعملها، وستظل فيه حتى النهاية، ولو أدى الأمر إلى انفصالهما عن بعضهما أو إلى الطلاق نفسه وبالطبع يثور الزوج، ويغضب، ويشكو لطوب الأرض من تلك الزوجة الجاحدة المتعجرفة، التي تفضل عملها على زوجها وأولادها، والتي تبيع استقرار الأسرة كلها، من أجل حفنة جنيهات، و.. و

وسيتعاطف معه. بالطبع - كل أصدقائه من الرجال، الذين يعانون من المشكلة ذاتها، دون أن يخطر ببال واحد منهم أن

السبب في كل تلك المشكلة، التي صنعتها المرأة هو الرجل والرجل وحده..

فلو أنه نفذ ما أمره به الله (سبحانه وتعالى) منذ البداية..

ولو أنه منحها الحب والدفء والحنان والرعاية، وأدرك أن الرجولة الحقة تحتم عليه أن يرعى شئونها، ويعمل على راحتها، قبل أن يحصل هو نفسه على الراحة والرعاية..

ولو أنه أنفق عليها، بما يرضي الله (عز وجل)، ولم يتخذ المال وسيلة لإذلالها، وتأديبها، والسيطرة عليها..

لو أنه فعل كل هذا منذ البداية، لما كانت المشكلة..

وعندما أكتب هذه الأسطر، أكاد أسمع - مقدما – أصوات المعارضين والمستنكرين، الذين سيصرخون في عضب واستهجان، وسيؤكدون أن كل ما سلف مجرد هراء؛ لأن مشاكل المرأة هي من صنع المرأة نفسها، وليست نتاجا لأخطاء الرجل؛ لأن الرجل في رأيهم لا يخطئ أبدا..

فقط لأنه رجل..

من الناحية التشريحية فقط..

ولهؤلاء المعارضين والمستنكرين والمستهجنين، دعوني ألق سؤالا واحدا..

أنا واثق من أن كل رجل شرقي يحفظ، عن ظهر قلب، كل ما ورد في الأديان، عن حقوقه مع زوجته، وواجباتها تجاهه..

ولكن كم منهم يعرف ما ذكرته الأديان عن حقوقها هي، وعن واجباته تجاهها؟!

كم منهم يهتم حتى بمنحها تلك الحقوق، وتقديم كل الواجبات؟!

المشكلة أيها السادة، أن كل شيء في الكون هو طريق ذو اتجاهين..

فكما تأخذ تعطي..

وكما تعطي تأخذ..

والرجل يريد أن يحصل دائما على حقوقه مقدما، دون أن يلتزم بأية واجبات أو مسئوليات، أو حدود..

والمرأة ترفض أن تلعب دور المعطى دائما، كما ظلت تلعبه لقرون طويلة..

لقد اتخذت قرارها بالانتقال من خانة العطاء إلى خانة الأخذ..

وبنفس التطرف..

وهذا أمر طبيعي..

فقوانين الطبيعة علمتنا أن لكل فعل رد فعل، مساو له في القوة، ومضاد له في الاتجاه..

فما إن شعرت المرأة بالاستقلال الاقتصادي والمادي عن الرجل، حتى تصورت أنه لم يعد له سلطان عليها، فتمردت عليه في عنف، وهاجمته في شدة، واقتنعت بأن الهدف الوحيد من وجودها هو إثبات أنها أفضل منه..

وفي الصحف والمجلات والكتب والدوريات، راحت تطالعنا عشرات المقالات، التي تحاول إثبات أن المرأة أكثر ذكاء، وبراعة، وإصرارا، و.. و.

باختصار، حاربت المرأة لتثبت أنها الأفضل في كل شيء..

واعتبرت الرجل هو الخصم، والعدو اللدود في هذه الحرب الضروس..

وانقلبت الآية..

أصبح الرجل هو المدافع، بعد أن ظل طويلا في مركز الهجوم وفقد البيت استقراره بحق..

وظهرت عبارات، ومصطلحات، وآراء جديدة، توحي بأنه لا كيان للمرأة إلا في العمل والاستقلال المادي..

وكأنما الأمومة ليست عملا؟!

وليست كيانا رائعا للمرأة!!

وقبل أن أتحول إلى أحد أهداف الحرب، وترميني عشرات الخطابات بأنني أرفض عمل المرأة، وأطالبها بالاكتفاء بالأمومة، دعوني أسألكم بالله عليكم، هل كان التفكك الأسري ظاهرة فيما مضى، قبل أن تخرج المرأة للعمل؟!

هل انتشرت المخدرات، والعقاقير، والتقاليع السخيفة بين الشباب، كما يحدث الآن؟!

هل كانت معدلات الطلاق مرتفعة، كما هي في أيامنا هذه؟!

أراهن على أن العديدين منكم سيشعرون بالارتباك، وسيتساءلون: أي طرف أؤيد في هذا المقال، الرجل أم المرأة؟!

وأيهما (من وجهة نظري) المسئول عما آل إليه الحال في مجتمعنا، في هذه الأيام؟! ولكن، لو أعدتم قراءة المقال، فستجدون أن وجهة نظري تختلف كثيرا..

فالوصول إلى الحالة السوية، يحتاج - كما سبق أن قلت - إلى اتجاهين متوازيين..

وإلى حل المشكلة الأساسية..

فلابد أن يعود الرجل إلى الرجولة الحقة..

وأن تعود المرأة إلى الأنوثة الطبيعية..

فعلى الرغم من كل ما حققته المرأة من تفوق ونجاح، على الصعيد المالي والاقتصادي، إلا أنها مازالت تفتقد إلى الشعور بالأمان..

مازالت تشعر وكأنها تحارب الدنيا كلها..

والخطأ الأكبر، الذي وقعت فيه المرأة، في رحلة بحثها عن الأمان، هو أنها تصورت أن الأمان يكمن في المال وحده..

لذا فقد سعت، وجاهدت، وقاتلت بكل قوتها، بل وضحت بكل عزيز لديها، حتى تظفر به، وترقد في دفئه

ولكنها، وبعد كل هذا، لم تشعر بالأمان، الذي كانت تنشده..

فالأنثى - كل أنثى - لا يمكنها أن تشعر بالأمان إلا في كنف رجل، يمنحها الحب والحنان، الذين يحتاج إليهما توازنها النفسي والعاطفي..

وهي تقضي عمرها كله في البحث عنه..

والخوف منه في نفس الوقت..

فعلى الرغم من احتياجها الشديد للرجل، مازالت تخشى الارتباط به، حتى لا ينتزع منها استقلالها المادي، أو يفرض عليها إرادته وسطوته..

مازالت تخشى أن تحب، فتخضع، وتستكين..

وتعود إلى عبادة الرجل..

لذا فالمشكلة تظل داخلها قائمة..

تلك المشكلة، التي صنعها الرجل، والتي تضطرها للمضي قدما في الحياة، وهي تردد الهتاف نفسه..

إلى الأمان..

إلى الأمان . . . . . ، يا (روميل)

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

5- (خذ أنوثتي.. وأعطني حريتي)

لعبة جديدة تلعبها البنات هذه الأيام..

لعبة اسمها (الاسترجال)..

ففي الماضي، وحتى زمن قريب، كانت البنت (أي بنت) تهتم اهتماما شديدا بأنوثتها، وتحرص على إبرازها، فترتدي الجيب الواسع، والبلوزات الحريرية، وتحيط عنقها بإيشارب ملون هفهاف، وتضع في قدميها حذاء صغيرا بكعب رفيع مرتفع، وتضم إليها حقيبة صغيرة رقيقة، ولا مانع من قفازين لاستكمال المظهر..

ولكن كل هذا كان يحتم عليها أن تدفع ثمنا غاليا..

ففي كل مرة، تستعد فيها للخروج، وتصبغ شفتيها بطلاء الشفاه، كان أبوها يرمقها بنظرة شك صارمة غاضبة، وأمها تستجوبها وتحاصرها بأسئلتها، حول سبب خروجها ووجهتها، وزمن عودتها المنتظر..

وإذا ما وافقا على خروجها في النهاية، وهذا في حالات نادرة للغاية، فإنهما يبدآن في حساب الوقت، قبل حتى أن تغادر المنزل، ويتساءل والدها في حدة عن سبب تأخرها في العودة، وهي لم تفتح باب الخروج بعد..

أما أمها، فهي تنتظرها في الشرفة، مع مغيب الشمس، وتثور في وجهها غاضبة ثائرة، لو تأخرت خمس دقائق فحسب عن موعدها..

وكان على فتاة الأمس أن تحتمل كل هذا، في سبيل المحافظة على أنوثتها، ومظهرها، وأناقتها، وإيقاع الكعب الرفيع في أثناء سيرها..

ولقد أدركت فتاة اليوم أن الأمر لا يستحق كل هذا..

ولأن فتاة اليوم أكثر ذكاء من فتيات الأمس، وجدت فتاة اليوم أن الشيء الوحيد الذي يحيطها بالشك والريبة، والغضب، والسخط، هو أنوثتها..

أو بمعنى أدق، مظاهر أنوثتها..

لذا، فقد بدأت تلك اللعبة..

وتخلت عن كل مظاهر الأنوثة..

لم تعد ترتدي تلك البلوزات الحريرية، أو الجيب الواسع..

بل لم تعد تميل لارتداء الفستان الذي يميز أنوثتها..

لقد اتجهت لارتداء السراويل الأمريكية الشهيرة (البلوجينز)، والأحذية الكبيرة، ذات النعل الرفيع أو السميك..

بل ولم تعد تهتم حتى بطلاء شفتيها أو زينتها..

وحتى تكتمل جوانب اللعبة، فقد راحت تتعامل، وتتصرف، وتتحدث كالفتيان، بكل خشونتهم، وفظاظتهم..

واختلط الحابل بالنابل..

لم تعد هناك انثى رقيقة..

ولم يعد هناك ولد خشن..

والطريف أن الأبوين قد ابتلعا الطعم..

ووقعا في الفخ..

وصدقا الخدعة..

ونجحت اللعبة..

وأصبحت البنت تخرج من منزلها، بهذا الزي الرجالي، فيبتسم الأب، ويفتل شاربه، وهو يقول لأمها في فخر:

- ابنتنا مثل الرجال..

وكأن هذه علامة فخر وزهو..

ولأنهما يتصوران، أو يصدقان أن ابنتهما مثل الرجال بالفعل، فهما لا يشكان في أمرها، وهي تخرج، وتغيب، وتتأخر..

وأدركت فتاة اليوم أن لعبتها قد نجحت..

وأن الخدعة قد اكتملت..

وضحكت ساخرة في أعماقها..

فهي وحدها، تدرك جيدا أنها لم، ولن تفقد أنوثتها أبدا..

فالأنوثة ليست مجرد شكل أو انطباع خارجي..

الأنوثة مشاعر، وأحاسيس، وأفكار، وعواطف..

وهرمونات

فالأنثى ستظل أنثى..

تحيا..

وتميل..

وتفكر..

وتحب..

وتعشق..

سواء أكانت ترتدي فستانا هفهافا، أو سروا من الخيش..

كل ما حدث هو أنها قررت المبادلة..

أنوثتها مقابل حريتها..

وهي لم تفعل هذا لأنها خبيثة وداهية وواعية..

لقد فعلته لأنها مضطرة لهذا..

المجتمع أجبرها على لعب دور، لا يناسب طبيعتها، لتحصل على ما يناسب عصرها..

الحرية..

فكل شيء حولها كان يؤكد أن القيود لم تعد صالحة لهذا الزمن

خروج المرأة للعمل..

تحررها..

الحقوق التي صارت تتمتع بها، اجتماعيا، واقتصاديا وحتى سياسيا..

ثورة الاتصالات، التي بلغت ذروتها، في السنوات الخمس الأخيرة، على نحو جعل العالم أشبه بقرية صغيرة، ينتقل الخبر فيها من بيت إلى بيت، في سرعة البرق..

كل هذا جعلها توازن بين أنوثتها وحريتها..

ولأنها واثقة من أن أنوثتها لن تذهب أبدا، اختارت حريتها..

وكانت المعادلة مناسبة للجميع..

الوالدان..

وهي..

وحتى الشبان..

فافتقار البنت إلى مظاهر الأنوثة، جعل الشاب يفقد إحساسه بوجودها إلى حد ما، مما أعفاه من محاولات الالتزام أو اختيار وانتقاء كلماته وعباراته وبدأ الشاب يتحدث بحريته، وكأنه يقف مع زميل، وليس زميلة.

وأصبح أسلوبه غليظا خشنا، يفتقر إلى اللياقة والذوق..

وأحيانا إلى الأدب..

ولأن وجه الفتاة لم يحمر حياء، أو يتخضب بحمرة الخجل، عند هذه المرحلة، فقد تمادي الشباب في أسلوبه..

واعتادت الفتاة التعامل مع هذا الأسلوب..

ومع مرور الوقت، لم يعد تخلي البنت عن أنوثتها يقتصر على الشكل الخارجي، وإنما امتد إلى المضمون أيضا..

اخشوشنت الفتاة، وراحت أنوثتها تذوب وسط هذه الخشونة رويدا رويدا..

أسلوب البنت أصبح أشبه بأسلوب الولد..

حديثها..

مصطلحاتها..

وحتى دعاباتها..

لقد أصبحت نسخة من الشاب

نسخة مشوهة مضحكة بالتأكيد..

ولأن الشيء المستخدم ينمو، والمهمل يضمر، فقد غابت الأنوثة المهملة بالفعل..

وبرزت الذكورة..

راقب فتيات اليوم، وستدرك ما أقصده بهذا..

راقب أسلوب سيرهن..

حديثهن..

وحتى وقفتهن..

كلها جافة، خشنة، شبه صارمة..

حتى في حفلاتهن، لم يتخلين عن تقليد الذكور..

ما زلن يرتدين السراويل (البلوجينز)، والسترات الخشنة..

ولكن من حسن الحظ، ومن رحمة الله (سبحانه وتعالى) بعبادة، أن هذا الوباء لم يصب كل فتاة في (مصر)..

ما زالت هناك جبهة مضادة..

جبهة اختارت أنوثتها، وارتضت ببعض القيود على حريتها..

وتلك الجبهة قليلة ضعيفة..

ولكنها ملحوظة..

فتيات ما زلن.. فتيات..

بعضهن من المحجبات، اللاتي يتركن القوامة للرجال كرضوخ لتعاليم الدين..

والبعض الآخر رفضن التخلي عن أنوثتهن بإرادتهن..

.

وعقولهن..

ورغبتهن..

وباحترامهن لهذه الأنوثة وفخرهن بها..

وهذا البعض الأخير هو الذي يواصل تلك المعركة القديمة..

إنه يهتم بأنوثته، وزينته، وملبسه..

ويبدو دائما في صورة الأنثى..

وعلى أكمل وجه..

لذا، فأسرة الواحدة منهن تحيطها بالشك، والقلق، والحذر..

أمها تحاصرها بأسئلتها، كلما حاولت أو أرادت الخروج..

والدها يرمقها بنظرات الشك والاهتمام..

شقيقها يدرب رجولته الوليدة بتهديدها وإنذارها، والصراخ في وجهها..

ولكنها تحتمل كل هذا..

تحتمله، لأنها اتخذت قرارا يخالف قرار الفئة الأولى..

اتخذت شعارا يقول: (خذوا حريتي، واتركوا لي أنوثتي)..

وهذه الفئة المناضلة، التي تقاتل للاحتفاظ بأنوثتها، هي التي ستتلقى كل الضربات، في هذه المرحلة..

وهي التي ستعاني تعنتات الأب والأخ، والخطيب والزوج.

ومع مرور الوقت، سيصبح من المحتم أن تتحول بدورها إلى مشكلة..

مشكلة كبيرة..

صنعها الرجل..

☆ ☆ ☆

6- العريس ..

من تتزوج أولا؟؟

سؤال يطرح نفسه على ذهن أية مجموعة من الصديقات، مهما اختلفت بيئتهن، أو طبيعتهن، أو حتى مستوياتهن الاجتماعية.

وحتى لو أخفينه في أعماقهن، ورفضن البوح أو الاعتراف به..

أو تظاهرن بالعكس..

وظاهرة إخفاء الرغبة في الزواج هذه ظاهرة حديثة، لم تعرفها المجتمعات الشرقية، حتى الماضي القريب، ولا تعرفها المجتمعات الغربية على الإطلاق، بل ولم تعرفها إلا منذ عدة قرون..

فالفتاة الأوروبية والأمريكية لا تخفى أبدا رغبتها في الزواج والاستقرار، وإنجاب البنين والبنات، والارتباط بزوج محب، يحيطها بكل الدفء والحنان..

ومن المؤكد أن هذا هو حلم حياة كل فتاة منذ الأزل..

وقديما، في مجتمعاتنا الشرقية، لم تكن الفتاة تصرح بهذا لأهلها وذويها، ولكنها كانت تعلن عن رغبتها هذه في وضوح وسط صديقاتها وزميلاتها، لأنهن يشاركنها رغبتها وحلمها ثم تغيرت الظروف الاقتصادية والاجتماعية..

أصبح الزواج شاقا عسيرا، والارتباط أمرا يحتاج إلى كفاح مضن..

تكاليف الحياة زادت..

مغالاة الأهل في المهور والمظاهر تضاعفت..

أسعار الشقق..

الأثاث..

وحتى أدوات المطبخ..

كل شيء صار باهظا، حتى إن فرص الزواج انخفضت إلى أقل من الربع..

ومع انخفاضها، أدركت كل فتاة أنه صار من المحتمل أن تحمل يوما ذلك اللقب البغيض..

لقب (عانس)..

ولأن كل فتاة، في مجتمعاتنا الشرقية، لا تبغض في حياتها كلها قدر هذا اللقب، الذي صار يحوم فوق رؤوسهن جميعا، دون اعتبار لجمال أو رقة، أو مستوي مادي واجتماعي، فقد نقلت الفتيات مشاعرهن، كإجراء دفاعي وقائي، إلى ناحية غير منطقية....

وأعلن أنهن يرفضن الزواج..

والمبرر، في هذه الحالة، هو أن الزوج (أي زوج) شخص معقد نكدى، يسعى للزواج من فتاة ما، ليفرغ فيها كل عقده ومشكلاته النفسية والعصبية، وأن هذا يحول الزواج (أي زواج) إلى جحيم رهيب، تصبح العنوسة إلى جواره هي جنة الخالق (عز وجل) في أرضه..

والبعض يصدق هذه المقولة..

ويثور لأن الفتيات لا يرغبن في الزواج.

ويتصور أن حديثهن هذا هو دعوة للفسق والفساد والفجور..

هذا لأنه لم ينتبه إلى أمر طريف للغاية..

فكل من ترددن هذه المقولة، توافقن بلا تحفظ، على أول عريس مناسب يتقدم..

بل وتبدون في سعادة غامرة..

وتقاتلن في شراسة للفوز به، في بعض الأحيان..

هي ليست مسألة مبدأ إذن..

ليست رفضا للزواج في حد ذاته..

والواقع أن رفض الفتاة (أو حتى الرجل) للزواج، هو أمر غير طبيعي، ويعنى أن صاحبه ليس شخصا سويا، بأي حال من الأحوال..

فحتى حيوانات الأدغال، تحتاج إلى رفيق يؤنس وحدتها..

ومعظمها يكتفى برفيق واحد، لا يتغير طوال العمر..

المشكلة إذن هي في وجود الشخص المناسب، الذي يصلح للعب دور العريس..

والمشكلة الحقيقية، عند بعض البنات، هي أنهن يرسمن في أذهانهن صورة مثالية أكثر مما ينبغي لعريس المستقبل..

وخاصة لو كانت البنت جميلة، أو ثرية، أو تحمل شهادة عليا..

ففي هذه الحالة يراودها شعور بأنها عروس (لقطة)، وينبغي أن تحصل على عريس (سوبر)، تثبت به لكل صاحباتها وصديقاتها أنها الأفضل بلا منازع..

لذا، فهي ترفض شخصا لأنه أصلع الرأس، وآخر لعدم لباقته، وثالثا لأنه لم يعن باختيار رباط عنقه، ورابعا لأن أمه لم ترق لها..

ومع مرور الوقت، وتقدمها في العمر، ينخفض عدد المتقدمين..

ولكن الصورة المثالية لا تتزحزح..

فلا بد أن يكون العريس في وسامة (حسين فهمي)، وأناقة (كمال الشناوي)، ولباقة (عمر الشريف)، وثراء (بيل جيتس)، و... و... و...

ويتوالى الرفض..

ويقل عدد المتقدمين أكثر وأكثر

ثم تأتي مرحلة الصمت..

الكل أدرك أن هذه الفتاة لا تريد زوجا..

إنها تبحث عن تحفة جميلة نادرة، تصلح للتباهي بها، أمام الصديقات والزميلات والجيران..

وتوضع على حياتها لافتة (لم يتقدم أحد)..

وفي الوقت ذاته، تخطب زميلاتها الأقل جمالا وثراء ويتزوجن.. وينجبن..

وهنا تقفز البنت إلى الإجراء الدفاعي مباشرة..

وتعلن أنها ترفض الزواج..

وأنها لم تجد بعد الرجل الذي يستحقها..

وفي الوقت ذاته، فهي تحرص على أن تكون الأجمل والأحلى، والأكثر أناقة وخفة ظل في النادي..

والعمل..

وبين الصديقات..

وبالذات الصديقات المخطوبات أو المتزوجات..

وكإجراء وقائي، وخشية على خطابهن وأزواجهن من النشل، تبتعد عنها الصديقات.

وتخلو حياتها رويدا رويدا.. وتعبر حاجز الثلاثين المخيف..

ثم فجأة، تدعو الجميع لحفل خطبتها لعريسها الأصلع القصير، ذي الابتسامة البلهاء..

لم يعد كل هذا يهم..

المهم أنه عريس..

والسلام..

وهذا بالطبع ليس النموذج السائد بين البنات، اللاتي تأخرن في الزواج..

فهناك نوع آخر، أكثر حنكة وذكاء..

نوع وافق على خطبة أول عريس معقول..

وارتدي دبلة الخطبة..

وأثبت تفوقه..

ثم واصل البحث عن عريس مناسب..

وهذا سيغضب الكثير من البنات..

ولكنهن سيدركن، في أعماقهن على الأقل، أن هذه النماذج موجودة..

وواقعية..

وهذا لا يعني أنها تعبر عن الغالبية العظمي..

بل - وهذا ما أثق به تماما. فهي تعبر عن الأقلية..

الأكثر وضوحا..

فلو أنك قمت بإحصائية جادة، لأدركت أن الغالبية العظمى، والأعم، من فتياتنا العربيات، هن بنات محترمات، بسيطات طيبات القلب، سليمات الطوية..

وقبل أن يعترض أحد الشبان على هذا القول، دعني أنقل إليكم سؤالا، طرحَتْه عليّ بنتٌ مهذبة محجبة، في أثناء لقائي ببعض الأصدقاء..

هل أخطأت بكوني محترمة وملتزمة؟!

السؤال طرحته في مرارة شديدة، انجرح لها قلبي، مع رقتها الزائدة، وذلك الحزن الذي حفر نفسه في ملامحها، وسنوات عمرها التي لم تتجاوز بعد ربع القرن..

وما يؤلمها ويعذبها هو أمر يندرج تحت نفس العنوان، الذي يعبر عن بحثنا هذه المرة..

العريس..

فهي فتاة محجبة، فرض عليها حجابها، كما ربتها تقاليدها وعقيدتها، على أنه من الخطأ أن تتبرج، أو تتزين بأكثر مما ينبغي،

أو ترتدي ثيابا قصيرة أو ملفتة..

ومن الخطأ أكثر أن تقيم أية علاقة مع الشباب..

بخلاف زمالة الدراسة أو العمل..

والبنت، التي طرحت السؤال، ليست متعنتة أو مغلقة، بل هي على العكس، فتاة واسعة الاطلاع، ذكية، لماحة، لها نشاط اجتماعي مميز، بل وعضو باتحاد الطلاب في كليتها، ولكن كل هذا لم يلفت انتباه شاب واحد..

أو رجل واحد..

زميلاتها المتبرجات وحدهن حظين بكل الاهتمام..

وجذبن كل الأنظار..

وعندما حانت لحظة الاختيار والزواج، تقدم لهن العشرات، ممن يمتلكون السيارات الفاخرة، والوظائف المحترمة، والأسماء الرنانة.

أما هي ومثيلاتها، فقد سقطن من القائمة لبعض الوقت..

وعندما تقدم شاب ما لخطبتهن، كان زميل دراسة أو عمل، من راكبي الحافلات العامة، وأصحاب الوظائف البسيطة، والأسماء المغمورة..

زميل ينبغي أن تكافح معه بكل طاقتها، ليمكنهما في النهاية الحصول على عش صغير، ودراجة بالتقسيط المريح، وأثاث يخفي فراغ العش..

لو أن هناك فراغا كافيا..

وفي الوقت الذي تقضي فيه لياليها مع الورقة والقلم، في محاولة لضبط ميزانية البيت، والإقلال من اللحوم والأسماك لأسباب صحية..

واقتصادية....

تكون فيها زميلاتها غير المحترمات، من وجهة نظرها، يعانين من الملل، بعد أن غيرن سيارتهن للمرة العاشرة، بأحدث طراز تم طرحه بالأسواق، منذ أسبوع واحد، وقضين وقتا طويلا مرهقا تحت شمس النادي، أو في محل الكوافير والباديكير، و...

وكل هذا يصيبها بإحباط ما بعده إحباط..

إحباط يجعلها تتساءل: أكان ينبغي أن تلقى حجابها واحترامها ووقارها منذ البداية، وترتدي كل مثير وخليع، حتى تحظى بزوج مناسب، يحقق طموحاتها في الحياة؟!

الإجابة التقليدية طبعا هو أنه لا ينبغي أن تفعل هذا أبدا..

عليها أن تتمسك بقيمها، وأخلاقياتها، و... و...

ولكن المشكلة أن السائلة تعلم كل ذلك، ولكنها، وعلى الرغم من هذا، ما زالت تشعر بالإحباط..

وما زالت تتساءل: لماذا لا يتهافت الشباب والرجال إلا على المتبرجات؟!

لماذا لا يرون من البنات إلا الوجه الجميل، والثوب الأنيق والسيقان العارية، والصدور البارزة؟!

لماذا لا يبحثون عن الأخلاقيات، والقيم، والاحترام، والتدين؟؟

ماذا أصاب الدنيا؟!

وماذا أصاب الرجل؟!

لماذا أصبحت المظاهر هي الفيصل، في الحكم على كل الأمور؟!

حتى تلك الأمور شديدة الحيوية والأهمية..

الأمور التي تحكم المستقبل..

وأجيال المستقبل..

والعجيب، كل العجب، هو أن الرجل، الذي يتزوج فتاة بهرته بحركات جريئة ولفتات أنيقة، وثوب يكشف أكثر مما يخفي، يمضي معظم حياته وهو لا يشعر بالثقة، في تلك التي اختارها شريكة لهذه الحياة..

وفي معظم الأحوال، نجده يضرب حولها حصارا من القلق والشك والغيرة..

هذا لأنه لم يتبع قول الرسول (صلى الله عليه وسلم):

«اختر ذات الدين تربت يداك»

لقد اختار ذات الجمال والدلال والميوعة والثياب اللافتة..

وترك خلفه أخري، تشعر بالغيظ والغضب والإحباط، ثم لا تلبث أن تلجأ إلى الخطة الدفاعية نفسها

وتعلن أنها ترفض الزواج، ما دامت مقاييس الرجال في الاختيار قد اختلت إلى هذا الحد..

وتدور الدائرة من جديد..

وتنشأ مشكلة جديدة من مشاكل المرأة..

التي صنعها الرجل

☆ ☆ ☆

7- من الجاني؟!

أي هول هذا، الذي تطالعنا به الصحف اليومية، والمجلات الأسبوعية والشهرية، وكل وسائل الإعلام المعروفة، منذ ما يزيد على عقد كامل من الزمن..

امرأة تتزوج ثلاثة رجال، في آن واحد..

فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، تفر من منزل أبويها، وتحترف الفساد..

زوجة تقتل زوجها، وتقطعه إربا، وتضعه داخل أكياس من البلاستيك، لتلقى به في كل أنحاء المدينة..

سيدة مجتمع تدس السم لزوجها، بعد ربع قرن من الزواج..

عشرات من جرائم المرأة طفت فوق السطح، في عالم ما بعد الحرب..

حرب أكتوبر ١٩٧٣ م..

موجة عجيبة من العنف، تجتاح النساء، وكأنما سكن الجن الغاضب أجسادهن..

ماذا حدث؟!

ماذا أصاب المجتمع؟!

والأسرة؟!

والمرأة؟!

وماذا أصاب الرجل؟!

قبل أن تتسرع في طرح الجواب، دعنا نلق أخطر سؤال في هذا الأمر..

من الجاني!

من المسئول عما يحدث؟!

ثم، وهذا هو الأهم، لماذا تفعل المرأة كل هذا؟!

لماذا تهرب، وتقتل، وتمزق، وتخالف كل القوانين المعروفة؟!

والجواب، وإن لم يرق لك، فهو لأنها مقهورة..

نعم..

المرأة التي قتلت زوجها، لم تكن لتفعل هذا، لو أنه يحسن معاشرتها، ويرعى الله (سبحانه وتعالى) فيها، وينفذ تعاليمه، التي أمره بها، تجاه زوجته وأسرته..

لم تكن لتقتله، لو أن بإمكانها أن تحصل على الطلاق منه، دون أن تمزقها المحاكم والقوانين، وبطء إجراءاتها، وتلقى بها وبأولادها جائعة ذليلة، تنافس كلاب الطرقات، في التهام ما يلقي به زوجها وأمثاله، في صناديق القمامة..

وهذا ينطبق أيضا على سيدة المجتمع..

والمرأة ذات تعدد الأزواج..

وحتى على الفتاة الهاربة..

فكل واحدة منهن وجدت نفسها ذليلة مقهورة، في بيت

أبيها، أو مع شقيقها، أو زوجها

أو حتى ابنها

ومن المؤكد أنها قد احتملت..

واحتملت..

واحتملت..

حتى فاض بها الكيل ذات مرة...

وفقدت صوابها..

وقتلت..

فالقتل ليس بالفعل الهين أو البسيط، بالنسبة للمرأة..

أية امرأة..

بل وبالنسبة لأي بشر عادي، رجلا كان أو امرأة..

إذن فالوصول إليه يحتاج إلى طاقة هائلة..

طاقة من المقت..

والغضب..

وطول الاحتمال..

ومن المؤكد أن عشرات من عبارات الاستنكار والاستهجان قد انطلقت من حلوق أكثر من شاب ورجل، وهم يقرءون الأسطر السابقة..

وليس لدي أدنى شك في أن معظمهم يرى أن قاتلة زوجها سفاحة متوحشة، تستحق السحل والتقطيع، وربما القلي في الزيت المغلي، بعد أن قطعت أوصاله وعبأته في تلك الأكياس البلاستيكية السوداء..

ولكن هل فكر أحدهم لحظة، في أن زوجها هذا قد قطع أوصالها مئات المرات، بمعاملته المهينة، وقهره المستمر، وإذلاله لها في كل لحظة، طوال سنوات وسنوات؟!

ثم إن المشكلة لا تكمن في تعبئته في تلك الأكياس..

لقد فقدت صوابها أولا..

وقتلته..

وبعد أن أصبح جثة هامدة أمامها، أصابها حتما رعب هائل، وذعر لا حدود له، باعتبار أنها ليست سفاحة بطبعها ومع ذلك الرعب، والصورة المفزعة، التي رسمها خيالها لحبل المشنقة، راح عقلها المضطرب يبحث عن وسيلة لإخفاء جريمتها، والفرار من القصاص..

وفعلت ما فعلت..

لم يكن زوجها حيا حينذاك، وهي تقطع أوصاله، كما كانت هي، عندما قطع أوصالها ألف مرة..

كان مجرد جثة، تسعى لإخفائها بأية وسيلة..

وهي لم تفعل هذا سعيدة أو منتشية..

بل فعلته خائفة، هلعة، مذعورة..

وقبل أن يتضاعف استنكاركم واستهجانكم ألف مرة، دعوني أخبركم أولا أنني لا أؤيد الجريمة بأية صورة، وبأنني أصر دائما على أن يدفع المجرم ثمن جريمته، وأن يلقى جزاءه، بغض النظر عن أية عوامل أخرى..

ولنا في القصاص حياة، كما أخبرنا الله (عز وجل) [3]..

ولكننا نناقش هنا الأسباب والدوافع، التي أدت إلى ارتكاب الجريمة نفسها..

ولو أردتم رأيي، فالمشكلة الرئيسية تكمن في أننا لا نعرف واجباتنا..

معظم الرجال يعرفون الكثير عن حقوقهم الزوجية، وعن واجبات زوجاتهم وأبنائهم وأشقائهم تجاههم، ويحفظونها عن ظهر قلب، ويرددونها بمناسبة وبدون مناسبة..

ولكن تسعين في المائة من هؤلاء الرجال (وربما أكثر) يجهلون تمام الجهل، كل أمر يتعلق بحقوق زوجاتهم، وواجباتهم نحوهن..

وفي كل صغيرة وكبيرة، يصرخ الرجل مطالبا بحقه، ومتهما زوجته بالتقصير والإهمال، و... و....

ولكن نادرا ما يسمح لزوجته بالمطالبة بالمثل

وفي بعض البيئات، يكون هذا مستحيلا..

ثم إنه، كما يقول الإعلان الشهير، هناك من يسيء فهم الرجولة..

بل أكاد أقول إنه لا يوجد، إلا فيما ندر، من يفهم المعنى الحقيقي للرجولة..

والقيادة..

والرعاية..

فالرسول (صلى الله عليه وسلم)، يؤكد لنا أن كلا منا راع، ومسئول عن رعيته..

إذن فالرجل راع، ومسئول عن رعيته..

وهذا يعني أنه ليس سيدا، أو سلطانا، أو ديكتاتورا..

أو طاغية..

لا ينبغي له أبدا أن يكون (سي السيد)، الذي يأتي إلى المنزل فتخرس كل الأفواه رعبا وفزعا، وينكمش الكل هلعا، مع حاجبية المعقودين، وملامحه التي تفيض بالغضب الصارم بلا مبرر، ثم يجلس ليأكل، والكل يزدرد لعابه خوفا وجوعا، حتى ينتهي من طعامه، فيترك ما فاض منه للباقين..

الرجل - على العكس تماما - ينبغي أن يقدم الطعام لرعيته أولا، ويطمئن إلى أن كلا منهم قد شبع، قبل أن يبدأ هو طعامه..

الرجل هو من يمنح زوجته وأولاده مزيجا متوازنا، من الحب والحزم، والعطف، والشدة، والرحمة.

ومن لا يرحم لا يرحم، كما قال الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)..

فالرجولة مسئولية، وليست امتيازا..

لو فهم الرجال هذا، وطبقوا ما أمر به شرع الله (سبحانه وتعالي)، متجاهلين ما تنادي به تقاليد بالية، وعادات سخيفة موروثة..

لو حدث هذا، لما شعرت المرأة بالقهر، والظلم، والذل، والطغيان..

ولما فرت الابنة، أو قتلت الزوجة، أو قُهرت الأم..

لو طبق الرجال الشرع، لما حبس أحدهم زوجته، وأصر على عدم طلاقها، عندما تناشده هذا، ليذلها ويقهرها فحسب..

ولأنفق عليها مما رزقه الله (سبحانه وتعالى)..

ولمنحها، ومنح أبناءه حبه وعطفه ورعايته..

هل يمكنك أن تتصور جريمة ترتكبها امرأة، في ظل ظروف كهذه؟!

لو تصورتها أنت، فلا يمكن أن أتصورها أنا..

فلكل شيء في الكون سبب..

كل شئ بلا استثناء..

هذا هو التوازن، الذي صنعه الخالق (عز وجل) في الدنيا، والذي لا يختل قط..

التوازن الذي يمكن أن تسير به الحياة، دون أن تعبئ المرأة زوجها في أكياس من البلاستيك

أو تدس له السم..

أو تهرب منه، لتتزوج ثانيا، وثالثا..

ولكن العالم - للأسف - ليس مثاليا..

هذا لأنه ليس عالم البشر..

إنه عالم الرجل..

العالم الذي وضع الرجال وحدهم فيه، كل القوانين والقواعد..

ثم أتوا فيما بعد ليحاسبوا المرأة عن كل ما تقترفه، بمنتهي العنف والقسوة، والصرامة..

بل والوحشية في بعض الأحيان..

ولقد احتملت المرأة هذا الظلم الفادح لسنوات..

أو لقرون..

ومع التقدم والحضارة، وانتشار وسائل الإعلام المختلفة، أدركت المرأة أنها ليست كغيرها من النساء..

وأنه هناك أخريات، في أماكن أخرى من العالم، أو حتى في وطنها نفسه، ينعمن بكل ما حرمت هي منه..

وهنا انتبهت إلى الحقيقة..

وثارت..

ولقد أكد أحد الفلاسفة أن الظلم وحده ليس الدافع إلى قيام الثورات..

وإنما الإحساس بالظلم هو ما يفعل هذا..

لقد ظلت المرأة مظلومة مقهورة لقرون، دون أن تدرك هذا..

ودون حتى أدنى سبب منطقي لحدوثه..

ثم أثارت الحضارة عيونها..

وعقلها..

ومشاعرها..

وهنا شعرت بالظلم..

وتضاعف إحساسها بالقهر..

ورفعت خنجرها، لتغمده في قلب الرجل..

وعقله..

وجسده..

وعندما تحاكموها الآن، لا تكونوا قساة في إصدار حكمكم..

سلوا أنفسكم أولا..

من دفعها إلى هذا؟!
ومن الجاني؟!
الحقيقي

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

8- ما بعد الحرية.

القرن الحادي والعشرون أعلن عن مقدمه، والمرأة حصلت على أضعاف أضعاف الحرية، التي كانت تحلم بها مع بداية القرن العشرين..

فهل انصلح المجتمع؟!

المرأة في بداية الخمسينات كانت أما، وربة منزل، تحلم بمعاملة حسنة من أسرتها وزوجها، وتقضي يومها كله في رعاية أطفالها، وتنظيف وتنظيم بيتها، وانتظار زوجها، العائد مرهقا من عمله، لتهرع إليه بالمياه الدافئة، فتدعك قدميه المتعبتين، وتربت على كتفه المجهد، ثم تطعمه وترعاه، وتمنحه حبها، وحنانها، ودفأها، وجسدها كله، قبل أن يغمض الاثنان عيونهما، إعلانا لنهاية يوم مضى، واستعدادا لاستقبال يوم جديد، مع نسمات الصباح الأولى..

وكان هذا يسعد الرجل..

والمرأة أيضا..

أحدهما يتولى الإنفاق والشئون الخارجية..

والآخر يرعى ويعتني بالأمور الداخلية..

ولو أن كلا منهما قد قام بعمله كما ينبغي، لاستمر هذا الأمر إلى الأبد..

ولكن الرجل لم يكتف بحنان المرأة وحبها وجسدها..

لقد أراد السيطرة على عقلها وأعماقها وحتى روحها..

ولأن المرأة ظلت لقرون طويلة محاصرة مقهورة، فقد ارتضت هذا التجاوز في استسلام..

أو على مضض

ومع صمتها، تمادى الرجل أكثر وأكثر

وراح يتوغل في عقلها، وروحها، ويفرض سيطرته حتى على أفكارها، وميولها، واهتماماتها، حتى لم يعد من حقها أن تحب أو تكره، أو تهتم بأي شيء في الوجود، سوي ما يريده زوجها ويرغبه..

ولأن السيطرة الاقتصادية كانت في يد الرجل بالكامل، فقد استرخي في مقعد الحكم، ووضع قدميه على عرش التحكم والقوة، وتصور أن الدنيا ستمضي به أبدا على هذا الوضع..

ولكن كل شيء يتغير..

والزمن دوما يمضي..

وفي حذر، بدأت المرأة تخرج إلى المجتمع..

وإلى العمل..

في البداية كانت تمتهن المهن المعاونة، كالتمريض والسكرتارية، أو تعمل كبائعة في متجر، أو في شباك تذاكر.. ولم ينتبه الرجل إلى التغيير في حينه، وإنما تصور بجبروته أنها مجرد وسيلة لزيادة الدخل، فراح يستولي على راتبها كله، ولا يمنحها من عائد تعبها وشقائها سوى مصروف يد بسيط..

يكفي نفقاتها الشخصية، ومواصلاتها الحتمية بصعوبة..

ولهذا لم تكتف المرأة بالعمل..

وانطلقت تقتحم مجالات التعليم أيضا..

وفجأة، وجد الرجل المرأة طبيبة، ومحامية، ومهندسة، ومدرسة..

في البداية سخر من عملها، وتعليمها، بحجة أن هذا يجعلها أشبه بالرجل، ولا ينقصها سوى الشارب..

ولكن سخريته هذه لم تعترض طريقها، بل كانت حافزا أكبر لاندفاعها في التعليم والعمل، إلى أقصى حد يمكنها بلوغه..

ولم تبدأ السبعينات، حتى كانت المرأة تحتل كل المناصب الممكنة.

حتى منصب الوزير..

وكتطور طبيعي للمجتمع، بدأ الكل يتقبل عمل المرأة، بل ويدعوها إليه، بحجة أن وجودها في البيت يقضي على كيانها وشخصيتها (وهو قول أختلف معه كثيرا)..

وتضاعف دخل المرأة، وصارت لها شخصية مالية مستقلة تماما، بل إنها، وبعد سياسة الانفتاح، صارت هي مصدر الدخل الرئيسي للمنزل، بعد حصولها على عقد عمل في بلاد النفط، واصطحابها زوجها (لو أرادت)، كمحرم فقط، يجلس في انتظارها بلا عمل، حتى تعود إليه مرهقة مكدوده مطالِبة بالماء الدافئ والحنان والحب.

وهنا، وأمام سطوة المال، احنى الرجل رأسه واستسلم لما لم يكن يتخيله أجداده ولم يعد يجرؤ (في معظم الأحيان) على التطاول على المرأة، أو سلبها راتبها وحقوقها..

ومع بداية الثمانينات، كان الأمر قد تطور أكثر وأكثر.

بعد أن كانت قلة من النساء تعملن، وتحتللن مناصب رفيعة، أصبح من النادر أن تجد امرأة لا تعمل (في الطبقة المتوسطة على الأقل)..

وانهالت عليها الحقوق من كل صوب وأصبحت المرأة سيدة أعمال، ووزير، وعضو بمجلس الشعب والشورى..

ومع المكاسب والحقوق، ومع استمرار تعنت معظم الرجال في الوقت ذاته، اندفعت النساء إلى العمل أكثر وأكثر..

ولأن كل تطرف له ضحاياه، فقد كانت المرأة هي ضحية تطرف وتعنت الرجل في البداية، ولقرون طويلة..

ثم أصبح البيت والأولاد هم ضحية تطرف المرأة في النهاية..

صحيح أن كل امرأة عاملة تصر على أنها تستطيع التوفيق جيدا جدا، بين عملها وبيتها، وتربية أولادها..

ولكن ما نراه حولنا لا يمنحنا أدني شعور بهذا؟

هل يبدو لك المجتمع من حولك مجتمعا سليما صحيحا صحيا، يحلو لك العيش فيه، ويطيب لك حتى السير في طرقاته؟!

هل يبدو لك الجيل الناتج من أسر يعمل فيها الوالدان، جيلا متماسكا، قويا، تلقى تربية مثالية، في قواعد الأخلاق، والذوق، والعقيدة؟!

المرأة ليست المسئول رقم واحد بالطبع، عن كل ما أصاب المجتمع من تفسخ وتفكك، وفساد وانحلال، وبعد كبير عن القيم والدين والذوق..

ولكنها بالطبع لبنة رئيسية في تكوينه..

فقديما قالوا: «الأم مدرسة، إذا أعددتها، أعددت شعبا طيب الأعراق»..

ولقد انشغلت المرأة بإعداد نفسها ماليا واقتصاديا..

وبالحصول على أعلى الشهادات وأرفع المناصب..

وبالفوز بالعشرات من الحقوق والامتيازات..

ولكنها نسيت أن تمنح روحها بعض الوقت..

ونسي الرجل أيضا أن دوره مازال هو قيادة الأسرة..

لقد انتزعت منه المرأة عشرات الحقوق، ووقف الرجل ساكنا صامتا سلبيا، يراقبها وهي تصنع لنفسها شخصية أخرى، وتعيد تشكيل عقلها وروحها وكيانها..

وفجأة، أدرك الرجل، بعد فوات الأوان، أنه قد فقد السيطرة على الأمور تماما..

المرأة تحررت، ولم يعد لها ضابط أو رابط، واتخذت اتجاها معاكسا تماما، لذلك الذي سارت فيه جدتها....

لم تعد تخضع للرجل..

بل صارت تنافسه..

وتحاربه..

وتقاتله بشراسة ليس لها مثيل..

وبعد أن كان الرجل متهما بالتعصب الجنسي ضد المرأة، أصبحت المرأة هي رمز للتعصب الجنسي ضد الرجل..

والغريب أن معظم النساء تصورن أن كيانهن سينهار، لو أنهن أطعن أزواجهن، الذين أمر الله (سبحانه وتعالى) بطاعتهم، ولو

خضعن لرأيهم، مهما كان صائبا أو خاطئا، وأن كرامتهن ستسحق بالأقدام، لو أولين البيت والزوج اهتماما وعناية..

ولأنه في أغرب الظواهر، في عالمنا العربي، أن التغيرات السيئة تجد سبيلا واسعا للانتشار والتوغل في مجتمعاتنا، على عكس التغيرات الحسنة، فقد انتشرت ظاهرة التعنت ضد الرجال، والذكور عامة، انتشار النار في الهشيم، وصار من العسير، والعسير جدا، أن تجد فتاة بسيطة، هادئة، ترعي أنوثتها، بأكثر مما ترعى عنادها..

وعلى الجانب الآخر من المجتمع نفسه، تجد فئة من النساء أكثر خضوعا واستسلاما من جداتهن (في معظم الطبقات الشعبية)، كنوع من الحفاظ على التقاليد القديمة، أو خضوعا لتعاليم الإسلام (من وجهة نظرهن)..

وكل هذا يعني أنه، حتى بعد الحرية، لم ينضبط المجتمع...

فالحرية ليست هي العامل المطلوب، لتحقيق سلامة وأمن المجتمع، وتلاحم أفراده وفئاته..

والانطلاق ليس الوسيلة الصحيحة، للفوز بأمان اجتماعي، أو استقرار سياسي أو اقتصادي..

الحرية وحدها لا يمكن أن تحقق شيئا، ما دام أحد طرفي المجتمع ما زال يتعامل مع الطرف الآخر باعتباره خصما أو عدوا، ينبغي قهره وإخضاعه، وتحديد مساره، وأفكاره، وصلاحياته..

أيا كان الطرف الأول، والثاني..

إن ما نحتاج إليه فعلا، وما يمكن أن تقودنا إليه هذه الدراسة، هو التوازن، الذي دعانا إليه الدين، منذ عدة قرون..

التوازن في الحقوق والواجبات، بين كل أطراف المجتمع..

المرأة لن تسعد أبدا، وهي تعتبر أن محاربة الرجل جزء من أسباب وجودها في هذه الحياة..

والرجل لن يسعد، وهو يقاتل ويصارع رفيقة عمره، بدلا من أن يصبح زواجهما مودة ورحمة كما ينبغي..

أية سفينة، لا يمكن أن تمضي في أي بحر، لو أن كل من بها يتقاتلون ويتصارعون، ويتنافسون

دعونا نحاول تغيير صيغة المجتمع.....

مجرد محاولة..

دعونا نحاول أن ننسى ذلك القتال المستمر، ونسعى لإنشاء علاقة جديدة، تقوم على الصداقة والمودة..

والحب..

علاقة تحقق التوازن بين الجنسين، ويعترف كل طرف فيها بحقوق الطرف الآخر، وبواجباته تجاهه..

علاقة تقوم، كما أمرنا الله (سبحانه وتعالى) على المودة والرحمة..

ودعونا ننسى كل الخلافات القديمة..

وكل الرواسب..

والتعنتات..

والمشكلات..

والصراعات..

وربما لو فعلنا، لأمكننا أن ننسى يوما أن المرأة مشكلة.. صنعها الرجل

د. نبيل فاروق

14 ديسمبر ١٩٩٩

29- حبيبي.. (دراسة)

1- الحب..

أول سؤال تتفتح عليه عيوننا، في لحظات الصبا الأولى..

ما هو الحب؟!

ما طبيعته؟!

وماهيته؟!

وحدوده؟!

ومع أول خفقة حب في قلوبنا، ننسى كل هذا..

ونحب..

فقط نحب..

فالحب أشبه بنسيم دافئ، في يوم بارد، قارس البرودة، ما إن يشعر به جسدك، وينبض به قلبك، حتى ينتعش كيانك كله، وتتغير كيماوية مشاعرك في لحظة واحدة، وتغرق حتى قمة رأسك، في بحر من العواطف، لم تكن تتصور حتى وجوده في أعماقك..

فقديما كانت لديك معارف..

وصداقات..

وزمالات..

وجيران...

وأقارب..

وأسرة..

ثم فجأة، أضيف إلى القائمة ضيف جديد..

شخص ما، لا تكاد تراه، حتى لا يكتفي قلبك بالخفقان، والرقص بين الضلوع، وإنما ينقل نبضاته وخفقاته إلى كل عرق وشريان في جسدك..

بل وكل ذرة من كيانك..

وعندما تتطلع إلى وجهه وعينيه، تتمنى لو أنه بحر، وأنك سمكة تعيش فيه إلى الأبد، وتحيا وتتنفس من أعماقه..

ولن تمل النظر إليه قط..

ستأمل لو أن عينيك قد التصقتا به، وانتقلت إليه، وأصبح بإمكانهما أن يتابعاه في روحه وغدوه، وليله ونهاره، وصعوده وهبوطه...

وعندما يغيب عن بصرك، ستعدو روحك خلفه، وتلهث وراءه، وتترك جسدك دون استئذان، لتلقى نفسها بين ذراعي ظله..

وعندما يختفي من أمام بصرك، سيولد مرة أخرى في عقلك..

في خيالك..

في كيانك..

في وجدانك كله..

ستراه داخلك في كل لحظة، وتشم رائحته في كل مكان، وتشعر بوجوده في كل موقف..

حتى أحلامك، ستحوم كلها حوله، معبرة عن شوقك إليه، ولهفتك عليه، وأملك في أن تصحو، لتراه أمام عينيك..

وإذا ما لمسته يوما، فستشعر وكأن هذه اللمسة قد أطلقت في جسدك تيارا كهربا ناعما رقيقا، ولكن قوته تكفي لإنارة ألف مدينة، لألف ألف عام..

وسيسري هذا التيار في جسدك طويلا..

طويلا جدا..

وسيضيئ نفسك..

وقلبك..

ومشاعرك..

النور سيغمر كيانك، حتى ولو كنت في قلب الظلام وأعماقه....

وقلبك سيشتعل بشعور مبهر..

جسدك كله سينطلق بنشاط لم تعرفه في حياتك أبدا..

ولن تنسى هذه اللمسة أبدا..

ستحتضنها أطرافك العصبية، وتختزنها.

وتدمنها..

دوما ستتمنى أن تحظى بها ثانية..

وأبدا ستحفرها في عقلك..

ولفترة طويلة، ستقدس موضع تلامسكما، وتعشقه، وتغمره بعواطفك وقبلاتك وحنانك..

أما كلمات من تحب، فستبدو لأذنيك كأجمل وأعذب موسيقي، في الكون كله..

لحنها سيثب من أذنيك إلى قلبك مباشرة، وستشعر به يرقص على أجمل سيمفونية في الوجود..

سيمفونية لن يملها كيانك قط..

وسيظل يعزفها أبد الدهر..

سيمفونية يقودها قلبك، ويعزفها أوركسترا خلاياك كلها..

إلى أبد الآبدين..

أما ابتسامة الحبيب، فهي دنيا ما بعدها دنيا..

هي أجمل مشهد تراه عيناك..

وأعظم لحظة يعيشها بصرك..

وأكبر متعة تحظى بها مشاعرك..

وأسعد لحظة يعيشها كيانك

ابتسامته هي ابتسامة الدنيا في نظرك..

هي ضحكة الكون..

وفرحة العمر..

وأمل كل يوم..

بل هي هدف، ستسعى إليه، منذ تفتح عينيك في الصباح، وحتى تغلقهما في الليل.. وحلم إما أن تراه، أو تتمنى رؤيته طوال الوقت..

أما لو بكى من تحب، فستشعر بقلبك يبكي معه..

يبكي دما..

دموعه ستصبح حمما ملتهبة، تلتهم أعصابك ومشاعرك بلا رحمة..

ولن يهدأ لك بال حتى تمسحها....

حتى تمحوها بكل قوتك..

وكل حبك..

وحتى تعود إليه الابتسامة..

وبأي ثمن..

وأحلامه ستصبح بالنسبة لك أهدافا، تسعى قبله؛ لتحقيقها له..

أمنياته هي أمنياتك..

رغباته كل ما تقاتل من أجله..

كل ما يريده هو أمر مباشر لقلبك..

لكيانك..

لقدراتك..

وآه لو نطقت شفتاه بكلمة حب واحدة..

عندئذ ترتجف أذناك، وتنتقل ارتجافتهما إلى قلبك ومشاعرك..

إلى كل خلية في جسدك..

وسيخفق قلبك..

ويخفق..

ويخفق..

ويستمر في الخفقان، مادامت الكلمة تتردد في أعماقك، وتعربد في وجدانك..

ولن تنساها أبدا

أبدا....

ولا تسأل نفسك لماذا..

فهذا هو الحب..

شعور لا يمكن وصفه بعبارات محدودة..

أو حتى في بحر منها..

فهو يحتاج إلى محيط من الحبر..

وشلال من الورق..

وقرون من الدهر..

وموسوعات من الشعر..

وأطنان من الأقلام..

وفيض من المشاعر..

ونهر من الأحاسيس..

وبحيرات من الانفعالات، و....

وقلب يحب..

قلب واحد، خفق بالحب، يكفي ليمنحنا جواب السؤال..

فهذا هو الحب..

الحب..

كل الحب..

☆ ☆ ☆

2- أول حب..

في حداثتي، ومع بداية توغلي في عالم الرواية المصرية الساحر، جذبتني بشدة عبارة قصيرة، أوردها الأديب الأستاذ (إحسان عبد القدوس)، في بداية روايته الشهيرة (الوسادة الخالية)، التي تحولت إلى فيلم أكثر شهرة.

«في حياة كل منا وهم كبير، يسمي: الحب الأول.. لا تصدق هذا الوهم.. إن حبك الأول هو حبك الأخير!»..

أيامها بالطبع لم أتوقف طويلا أمام العبارة، ولم أحاول مناقشتها أو تفنيدها؛ فما دام الأستاذ (إحسان) كتبها، فهي صحيحة حتما!!

ثم مرت بي الأيام، وأصابني ما يصيب كل شباب الدنيا..

أحببت..

أحببت حبي الأول، وعشت فيه بكل كياني، وجوارحي، وعواطفي، وحتى أحلامي..

في ذلك الحين فقدت التمييز، بين خفقات قلبي، ونبضات حبي..

ولفترة طويلة، خلتهما قد امتزجا، واختلطا، وصارا كيانا واحدا لا ينفصم..

وكلما وقع بصري على محبوبتي - آنذاك - كان قلبي يصرخ بحبها، وأطرافي ترتجف بعشقها، وأنفاسي لا تتنسم سوى هواها..

فقط هواها..

وتصورت أن ذلك الحب سيبقى في قلبي إلى الأبد، ولن يفارقه لحظة واحدة، ما دام في صدري نفس يتردد..

ولأن الظروف لم تكن تجمعني بحبيبة قلبي الصغير، إلا لمدة شهر واحد كل عام، فقد كنت أقضي الأحد عشر شهرا الأخرى في ولهٍ، وهيام، وأحلام، وخيال يرسم ألف صورة وصورة للقاء المرتقب، مع نسمات الصيف القادمة..

والطريف أن كل هذا كان يدور في أعماقي وحدي؛ لأن محبوبتي لم تكن تفكر حتما بالأسلوب نفسه..

ولا بالعاطفة نفسها..

صحيح أن ابتسامة كبيرة كانت تملأ وجهها كلما التقينا، ولكنها نفس الابتسامة، التي كانت تمنحها للآخرين، ذكورا كانوا أم إناثا..

ابتسامة عذبة، طيبة، هادئة، كانت أول ما خلب لبي بشأنها..

ولست أدري حتى كيف ذهب كل هذا!!

كيف تبخر الحب كله دفعة واحدة، ما بين صيف وأخر!!

كل ما أذكره هو أنني قد استيقظت فجأة، في ليلة من ليالي الشتاء؛ لأجد نفسي غارقا في حب أخرى، يفصلها عن منزلي شارع واحد..

وهذه ليست سيرة ذاتية، بقدر ما هي صورة لما يكون عليه قلب أي شاب صغير، وهو يخوض تجربة حبه الأولى..

ولقد تطورت شخصيتي، ودخلت عليها عشرات التعديلات، خلال سنوات عمري، التي تجاوزت الأربعين، والتي شهدت عدة صور من الحب، قبل أن أتوقف ذات يوم، وأعيد قراءة عبارة الأستاذ (إحسان عبد القدوس)، مرة ثانية..

وفي تلك المرة الثانية، وجدت نفسي أقف أمام العبارة حائرا بحق..

فما الذي يعنيه الأستاذ (إحسان) بالضبط؟!

أمن المحتم حقا أن يكون الحب الأول مجرد وهم؟!

ثم ماذا عن الحب الأخير؟؟

ما المقصود بأن الحب الأول هو الحب الأخير؟!

العبارة، من الناحية اللغوية، تقبل معنيين متناقضين تماما..

فمن الممكن أن تعني العبارة أن الحب الوحيد الصادق، في حياة كل مخلوق، هو حبه الفطري الأول، والذي يتم بتلقائية وحرارة، على نحو لا يمكن أن يتوافر في أي حب تال، مهما بلغت قوته؛ إذ إنه الخفقة الأولى، في قلب كل محب، والتي تقفز به، من عالم الطفولة، إلى عالم الصبا والشباب واقتحام الحياة..

باختصار، الحب الأول وحده الذي ينتزع عذرية القلب، على نحو لا يتكرر، ولا يمكن أن يتكرر قط.

أو أن العبارة تعني أن الحب الأول هو الحب الحقيقي، الذي استقر أخيرا في الوجدان، وتغلغل في الكيان، بعد أن اختبر القلب الدنيا، وخاض تجاربها، ثم أدرك في النهاية ما هو الحب؟!

وكيف يحب!

ومتى يدرك أنه أحب..

وحتى لحظة كتابة هذه السطور، مازلت عاجزا عن الجزم، بما كان يعنيه الأستاذ (إحسان) بالضبط من عبارته؛ إذ إنه وحده - رحمه الله - كان باستطاعته تحديد ما برمي إليه

ولكنني، وحتما، وبكل ثقة، أختلف مع أستاذي تماما، في اعتبار أن الحب الأول مجرد وهم.

الحب الأول هو أول حب..

ربما ينسى المرء من أحبها، أو تنسى الواحدة من أحبته، بعد أن يفصلهما القدر لسنوات وسنوات، ولكنهما لو التقيا لحظة واحدة، لانزاحت في رأس كل منها كل ذكريات الدنيا، فيما عدا أن من أمام كل منهما حبه الأول..

ربما يفتقر إلى العوامل القوية، اللازمة لبقاء واستمرار أي حب..

ولكنه لن يصبح أبدا أي حب..

إنه أول حب....

وما من قوة، يمكنها أن تنتزع عنه هذا اللقب أبدا..

هذا لا يعني بالطبع أنه سيستمر، أو يبقى، أو حتى يترك أثرا في قلب صاحبه، ولكن من المؤكد أنه لن يمضي دون أن يترك خلفه ما يرشد إليه، إذا ما دعت الحاجة إلى هذا..

ربما يترك ضحكة..

أو ابتسامة.

أو حتى لمحة حزن..

المهم أنه لن يذهب أبدا..

فتشوا في أعماقكم بصدق وإخلاص، وستكشفون اننى على حق..

حبكم الأول هناك، في بؤرة مظلمة من أعمق أعماق قلبكم، ينزوي هناك صامتا؛ لأنكم تخشون مجرد استرجاعه، حتى لا يفسد هذا حبكم الحالي..

أو حتى القادم..

وأول حب في حياة الإنسان يمنحه نشوة ما بعدها نشوة في حينه، ثم ينتهي دوما على نحو مباغت، أو غير متوقع..

ففجأة، يرتبط الطرف الثاني بآخر..

أو يبتعد..

أو حتى ينتقل إلى مكان آخر..

المهم أن أول حب لا يمكن أن يستمر، إلا في حالات بالغة الندرة، إلى حد يكاد يقارب المستحيل!

وهذا أمر حتمي، حتى تستمر الحياة وتتواصل..

لابد أن يتجاوز الشخص - أي شخص - محنة الحب الأول هذه، فالأشخاص الذين يعيشونها أكثر مما ينبغي، تصيبهم العقد النفسية، والمنغصات المعنوية، ويبدأ حاضرهم ومستقبلهم في التآكل رويدا رويدا، فلا يعود لهم من حياتهم كلها سوى الماضي.. والماضي وحده..

وما لا يدركه هؤلاء المساكين هو أن مشكلة الحب الأول الرئيسية هي المقاييس والمعايير.

فالمقاييس التي يتم اختيار المحبوب الأول بها، تتناسب حتما مع العمر الذي يتم فيه هذا الاختيار.

ومع معايير مرحلة المراهقة..

فمع تفتح زهرة القلب لأول حب، تنتبه العين إلى المعايير الشكلية في المقام الأول.. وتنبهر بسرعة..

تنبهر بالجمال، والوسامة، ولون العينين، ونعومة الشعر..

لهذا نجد أن المراهق ينشغل دوما بالجميلات، والمراهقة تهيم عشقا بكل وسيم..

ولهذا أيضا يبدأ الشباب فجأة في الاهتمام بشكلهم الخارجي، ورائحتهم، وحلاوتهم، وحتى خفة ظلهم...

ولأن مقاييس الاختيار هنا سطحية ومباشرة أكثر مما ينبغي، فمن غير المنطقي أو العملي أن يتواصل هذا الحب أو يستمر

حتما سينهار وينتهي، مع أول شعاع من شمس النضج..

أو حتى يتفتت تحت وطأة شكل أكثر وسامة، أو وجه أكثر جمالا وحلاوة..

وهنا يتلقى القلب أول صدمة عاطفية.

صدمة فشل الحب....

أو بمعنى أكثر دقة، صدمة حقيقة ذلك الحب الهش..

ورد الفعل هنا مهم جدا..

وخطير جدا..

فقليلون هم من يتجاوزون هذه الصدمة بسرعة، ويلقونها خلف ظهورهم، ويمضون في حياتهم؛ ليغسلوا جراح أول حب، إما بحب آخر، أو بعمل وجهد ونشاط..

أما الغالبية العظمي، فتقضى وقتا طويلا، في البكاء على الحب الوهمي الضائع، والعاطفة الزائفة المسكوبة..

وبعد فترة - تطول أو تقصر - تتجاوز النسبة الأعظم، من المجموعة الأخيرة هذه المحنة.

أما من يتبقى، فهو الضحية التي تستحق الرثاء بحق..

الضحية التي ترفض الخروج من المحنة، وتتشبث بها، وتمضي شطرا طويلا من عمرها في البكاء، والغضب، والنقمة على الطرف الآخر، الذي لم يدر أبدا - ربما - ما دار في قلبها يوما ما..

الضحية التي تهدر حاضرها ومستقبلها، من أجل حب وهمي مضى، فتنقم، وتحزن، وتثور، بل وربما تخطط لانتقام ما أيضا..

وكل هذا خطأ في خطأ..

هذا لأن أول حب هو مجرد تجربة لنبض القلب، وتحرير المشاعر، وإشعال العواطف، والأحاسيس.

ولكنه ليس نهاية الحياة..

إنه فقط البداية..

البداية لقلب جديد، تجاوز على التو مرحلة مرح وعبث الطفولة، ووثب منها إلى مرحلة شباب وانطلاق وحرارة..

مرحلة يأتي فيها حتما حب آخر..

وآخر..

وآخر..

وكلما مضت أيام العمر، اختلفت مقاييس ومعايير الحب، وظهرت للقلب أنواع جديدة، وألوان جديدة من الحب، و...

ولهذا حديث آخر

☆ ☆ ☆

3- وللحب ألوان

ترى ما لون الحب، الذي يروق لك بالضبط؟!

قد يبدو لك السؤال عجيبا غريبا، وربما غير منطقي أيضا، بل ومن المحتمل أن تستنكره، وتغضب منه، وتتصور أنه مجرد تلاعب لفظي..0

ولكن الواقع أن الحب له ألوان بالفعل..

وألوان الحب ليست ألوانا زاهية، أو واضحة للعين، ولكنها أشبه بقوس قزح، يتألق في عمق القلب، مع انهمار أمطار الحب في العروق..

وكما تميل عين كل منا إلى لون ما، من ألوان الطبيعة، يتناسب مع شخصيتنا، ويصلح لتحديد اتجاهاتنا النفسية، كذلك يميل قلب كل منا إلى لون من ألوان الحب، يتناسب أيضا مع شخصيته، ويصلح لتحديد هويته النفسية..

وألوان الحب مجرد مصطلح، يرتبط بالشيء الذي يجذبنا إلى محبوبنا، أو محبوبتنا، والذي من أجله وقعنا في بحر حبه، وغرقنا داخله حتى النخاع..

وأول لون من ألوان الحب، هو اللون الوردي، أو الحب الرومانسي، الذي ينتبه فيه كل طرف إلى المشاعر الرقيقة لدى الطرف الآخر، وإلى حساسيته، وأحاسيسه، ولمساته، وحتى هيامه وأحلامه..

وفي مثل هذا اللون من الحب، يكون للمظهر الخارجي أهمية بالغة، في نظر كل من طرفي حالة الحب، إذ إن النظرة الرومانسية للأمور تحتم أن يكون الطرف الآخر أشبه بنجوم

السينما حتى تكتمل الصورة، فلا يمكن لفتاة رومانسية مثلا أن تتصور نفسها في حالة حب مع شخص أصلع سمين، له كرش ضخم، يشف عن اهتمام غير طبيعي بالطعام والشراب، كما يصعب على أي شاب رومانسي أن يرسم صورة حب جميلة مع فتاة بدينة، فطساء الألف، أو غليظة الملامح..

هذا لأن اللون الوردي هو الغالب على كل الأمور.

وعلى كل الأشياء

والأشخاص الذين يميلون إلى الحب الوردي، يغرقون طويلا في أحلام اليقظة، ويقضون وقتا طويلا في تخيل لحظات لقائهم القادمة مع الحبيب، ويرسمون صورة أنيقة جميلة مثالية لها، بل ويكتبون السيناريو الكامل للقاء، من ناحيتهم وحدهم..

لهذا تكون صدماتهم عنيفة في المعتاد..

فالطرف الآخر قد يكون رومانسيا بدوره، مما يمنحه الحق في أن يرسم الصورة من وجهة نظره أيضا..

وعندما يلتقيان، تكون لدي كل منهما صورة رومانسية جميلة وأنيقة، وشاعرية، ورقيقة..

ولكنها مختلفة..

والاختلاف بين منظورهما للأمور، قد يصدم كل منهما، دون أن يقصد الآخر هذا، أو حتى يتمناه..

كل ما في الأمر هو أن كل منهما قد ارتطم بصورة، تخالف تماما تلك التي ظل يرسمها في ذهنه طويلا..

صحيح أنها تكون صورة جميلة أيضا، ولكنها لا تشبه صورته..

وهذا يورثه بعض الإحباط..

والضيق..

وربما النفور أيضا..

ومع مرور الوقت، وتكرار الإحباطات، التي لا يفصح عنها الطرفان في المعتاد، تتعاظم الأمور وتمتد، ويصبح من السهل أن يحدث الصدام..

والخلاف..

والفراق في بعض الأحيان..

هذا يمكن أن يحدث.

ويمكن ألا يحدث أبدا.

فكثيرا ما يكون المحب الرومانسي رقيق المشاعر، حتى إنه يأبى إيذاء مشاعر الطرف الآخر...

فيحتمل..

ويحتمل..

ويحتمل..

وربما تكون لديه القدرة على الاحتمال إلى الأبد، مهما كانت الإحباطات والمنغصات..

بل وربما يبذل قصارى جهده أيضا؛ ليتوافق تماما مع الصورة، التي رسمها له الطرف الآخر..

وفي هذه الحالة سيستمر الحب..

وستستمر الحياة..

ولكنها لن تصبح رومانسية، إلا من طرف واحد..

ومن المحتمل أيضا أن يبدأ الحب الوردي على النحو نفسه..

من طرف واحد..

أن يبدأ الحب بطرف رومانسي، وآخر واقعي ..

في هذه الحالة ستكون الخلافات أكثر..

والإحباطات أضخم..

وفي كل الأحوال من العسير أن يستمر الحب الوردي لفترات طويلة، دون أن يتغير لونه، أو تتغير طبيعته، إذ إن متغيرات الحياة نفسها ستحتم حدوث تغيرات جذرية في الحياة، والعمل، والدخل..

وحتى في مشاعر الطرفين أيضا..

الطريف أن كل مخلوق في الدنيا يحلم بحب وردي، ولو لمرة واحدة في العمر، ولكن من النادر في الوقت ذاته، أن تجد حبا ورديا قادرا على الاستمرار، والمقاومة..

والبقاء..

هذا لأن الحب الوردي أشبه بالزهور اليانعة، لا يمكن أن تستمر، وأن تحتفظ برونقها وعبيرها، إلا لو واظبت على رعايتها والعناية بها، دون أن تغفل عينك عنها لحظة واحدة..

وفي عالمنا، لا يمكنك أن تعتني بزهرتك الوردية، بكل هذا القدر، دون أن تهمل جوانب أخرى من الحياة، لها أهمية قصوى للاستمرار والتقدم..

هذا يخص الحب الوردي...

فماذا عن الحب الأحمر؟!

والحب الأحمر هو حب قوي..

ناري..

ملتهب..

حب يولي اهتماما كبيرا بالجسد، بأكثر مما يوليه للروح..

بمعنى أدق، هو حب غارق في المشاعر الحسية، والمتع الجسدية..

والذين يميلون إلى الحب الأحمر، هم في المعتاد ممن لا يتصورون الحياة أو الحب، دون تلامس بين المحبين..

وهذا التلامس لا يكتفي بمداعبات الأصابع، أو عناق الأيدي، ولكنه ينشد دوما ما يفوق هذا..

بكثير..

وأصحاب الحب الأحمر يميلون دائما للأجساد المثالية، التي تشف عن قوة وذروة نوعية.

فالأنثى لا تميل إلا إلى الذكر القوى المفتول العضلات، الخشن الصوت والملامح الصارم في أسلوبه وتعاملاته.

أما الذكر، فلا تجذب انتباهه سوى أنثى مفرطة في الأنوثة، في صوتها، وهيئتها، وقوامها، وحركاتها، وإيماءاتها..

ما ينطبق على الحب الوردي، ينطبق على نحو أكثر وضوحا، على الحب الأحمر..

مع فارق واحد..

ففي معظم الأحوال، تكون الأنثى هي الطرف المتسامح، في مثل هذه العلاقة، إذ إن اهتمام الذكر بالعلاقات الجسدية يفوق

اهتمام الأنثى بمراحل شتى، حتى إنه في طبيعته الجينية، لا يمكنه أن يكتفي بأنثى واحدة، إلا بصعوبة بالغة، وهذا ما أثبته الأبحاث العلمية مؤخرا، عندما أكدت أن جينات الذكر تدفعه إلى التعدد في العلاقات، في حين أن جينات الأنثى تدفعها إلى الاستقرار والانفرادية في علاقاتها..

وبالطبع توجد استثناءات لكل قاعدة، ولكن هذا يوضح لنا لماذا أحل الله (سبحانه وتعالى) للذكر مثنى وثلاث ورباع، في حين لم يحل للمرأة سوى زوج واحد..

وسيختلف معي البعض بشدة حتما، حول هذه النقطة..

وستفهمني النساء بالتحديد بأنني أدعو إلى تعدد الزوجات وربما تتهمني بعضهن بالتخلف والهمجية أيضا، كما اعتدن مهاجمة كل من يناقش هذه النقطة، ولكن العلم والدين لا يعرفان المجاملة أو المهادنة..

فالعلم هو العلم..

والدين هو الدين.

ونحن أضعف وأقل من أن نعاند أمرا كهذا..

ببساطة لأننا نجهل الصورة الكاملة للأمور، ونجهل أكثر ما الذي يمكن أن يحدث غدا..

فماذا لو نشبت حرب طاحنة، والتهمت الشطر الأعظم من الذكور، كما تفعل معظم الحروب؟!

ماذا ستفعل النساء عندئذ؟!

ربما لن يكون هناك أمل سوى في التعددية؟!

ربما!!

لا أحد يدري..

ولا أحد يعلم..

ولهذا ليس من حق أحد أن يهاجم أو يعاند..

ولكن دعنا نعود إلى موضوعنا الرئيسي..

الحب الأحمر.

فهذا الحب هو أسهل حب يمكن أن يذبل وينزوي مع الزمن، ببساطة لأن الزمن نفسه لن يبقى على مثالية الأجساد، مهما بذل أصحابها من جهد.

ستذبل الأجساد حتما مع الوقت..

وتهرم...

وتشيخ..

وتذوي....

ولو أن الحب يرتبط بها وحدها، فسيمر بكل المراحل السابقة.

أو يمر قبلها بمرحلة أكثر خطورة..

مرحلة الاعتياد..

فالحب القائم على الجسد، حب سريع الملل والضجر، وأي مخلوق في الدنيا، مهما امتلك جسدا رائعا، لن يلبث أن يبدو عاديا مألوفا، بل ومضجرا أيضا، في عيني الطرف الآخر، بعد أن يمتلكه بالفعل، ويعتاده، ويفقد حالة الانبهار والانجذاب تجاهه..

ولهذا تفشل معظم حالات الحب الأحمر، لو أنها لا تستند إلى أي أمر آخر.. تفشل تماما..

وعلى الرغم من أن بعض الإناث تلجأن إلى استثارة الأجساد، كسبيل للإيقاع بحبيب، إلا أنهن يدركن جيدا، في الوقت ذاته، أن الارتباط الجسدي واه وهش للغاية؛ لأن المحب لن يلبث أن يعشق جسدا آخر، أو يقع في غرام قوام أفضل..

أو حتى قوام مختلف..

ولهذا تجد أن معظم الأزمات النفسية من نصيب عشاق الحب الأحمر؛ لأنهم في حالة تنافس مستمرة، وصراع متصل، للحفاظ على وجودهم، وتفوقهم، وحبهم..

ولا يشعرون بالاستقرار أبدا..

ومن هذا الجانب يعتبر الحب الأحمر أكثر أنواع الحب تعبا وإرهاقا، وأسرعها ذبولا وفناء على الإطلاق..

هذا بخلاف الحب الأخضر..

والحب الأخضر هذا.. هو حب ناضج، يدرك كل طرف فيه مزايا وعيوب الطرف الآخر، ويتقبله بجانبية، الجيد والرديء، باعتبار أنه ما في إنسان كامل..

بل وما من مخلوق كامل، في الكون كله.

فالكمال لله (سبحانه وتعالى) وحده..

وأصحاب الحب الأخضر هم الأكثر قدرة على تحمل المصاعب، وتجاوز العقبات، وتفادى المصادمات العنيفة، لذا فهم الأقدر على التواصل، والاستمرار..

والنجاح..

وفي الحب الأخضر، يتم الاختيار بمزيج من العقل والقلب معا، فكل طرف يحب شيئا ما في الطرف الآخر، ويتغاضى عن أشياء

أخرى قد لا تروق له، أو تتوافق معه..

وحالات الحب الأخضر قابلة للنجاح أكثر من غيرها بكثير بشرط ألا تكون عيوب أحد الطرفين جوهرية او خطيرة، كالبخل الشديد، أو العصبية المفرطة، أو العدوانية غير المبررة مثلا..

فالأنثى مثلا، يمكن أن تحتمل أي عيوب في الذكر، فيما عدا بخله..

البخل الشديد ينفرها، ويغضبها، ويحنقها، ويجعلها تتصور أنها لا تساوي شيئا في نظر محبوبها..

وفي مراحل صباها ومراهقتها، وأوائل شبابها، قد لا تجيد الأنثى التفرقة بين محدودية دخل المحبوب وطبيعته البخيلة، فتسيء تفسير عجزه المادي عن الإنفاق، باعتباره بخلا وشحا..

وقد تغضب..

وتثور..

وتهجر أيضا..

وفي مرحلة نضجها، ستدرك طبيعة الفرق..

وعندئذ ستحتمل..

وترضى..

وتحب..

هذا لو أنها تميل إلى الحب الأخضر..

الحب الواقعي..

المنطقي..

والمتسامح..

وفي نفس الوقت، الذي نجد فيه ألوانا من الحب، تميل إلى الرومانسية، أو الشهوانية، أو تمزج بين العقل والقلب، نجد أيضا نوعا من الحب بلا ألوان..

حب أبيض وأسود..

حب واقعي تماما، لا يرى من الحياة أية درجة من درجات اللون الرمادي ..

يرى فقط اللونين الأساسيين..

الأبيض.. والأسود..

وهذا اللون من الحب ليس لديه أمور وسط، فكل شيء إما صحيح تماما، أو خطأ تماما..

وسيدهشك أن أصحاب هذا الحب، هم القادرون على التعامل مع كل أصحاب الألوان الأخرى، ما دام هذا يحقق مصالحهم، التي يحسبونها دوما بمنتهى الدقة، ولا يتنازلون عن تحقيقها أبدا..

وحتى لو حاولت قلوبهم أن تخفق، فهم يخمدون خفقاتها على الفور؛ لأن نبضات القلب والحب عندهم مجرد حماقة، أو نقاط ضعف، لا بد من هزيمتها، والتغلب عليها فورا، وإلا فسدت خططهم، وضاعت أحلامهم إلى الأبد..

فالحب في نظرهم مجرد وسيلة، لتحقيق أحلامهم وطموحاتهم، مع أقل القليل من التعب والتضحيات..

وأصحاب هذا النوع، لا تخفق قلوبهم أبدا، حتى إنهم قد يبدون كمن لا قلب له ولا مشاعر عنده..

ولأنهم لا يحبون أبدا، يكون باستطاعتهم أن يتلاعبوا بمشاعر الطرف الآخر، أيا كان لونه..

فلو أنهم يرتبطون بشخص رومانسي النزعة، تجدهم أساتذة في التعامل بمنتهى الرومانسية والشاعرية والرقة..

ولو كان المحب من هواة الحب الأحمر، سيبذلون كل ذرة في أجسادهم، لإرضائه، وإمتاعه، وخلب لبه..

أما لو أنه من المنتمين إلى الحب الأخضر، فستكون المعركة صعبة إلى حد كبير، إذ إن عليهم أن يملئوا عقله وقلبه معا..

وهم في العادة يفلحون..

ولكن لفترة محدودة..

فترة قد تطول أو تقصر، ولكنها تنتهي بكشف أمرهم حتما..

هذا لأنهم لا يحتملون التلون طويلا..

وإن عاجلا أو آجلا، سينكشف أمرهم، وتسقط الأقنعة عن وجوههم، ويظهرون على حقيقتهم..

أحيانا في الوقت المناسب..

وغالبا بعد فوات الأوان..

وعندئذ تحدث، الكارثة، وتكون صدمة عنيفة للطرف الثاني، و..

ولهذا حديث آخر

☆ ☆ ☆

4- حبك نار..

هل عرفت يوما ذلك الحب... النار؟!

الحب الحار..

الساخن..

الملتهب..

ذلك الحب، الذي ما أن يدخل قلبك، حتى يشعل النيران في كل خلاياه، ويحول الدماء فيه إلى حمم، لا تبقى في كيانك ذرة واحدة، إلا وتتحرق لهفة لرؤية المحب، ومقابلته، والعيش بين ذراعيه، حتى آخر العمر..

وللوهلة الأولى، يبدو ذلك الحب أشبه بالحلم، الذي يتمنى كل إنسان أن يحياه، ولو ليلة واحدة..

الحلم في أن يُحِب، بكل هذه القوة..

وأن يُحَب أيضا، بالقوة نفسها..

وقديما، كانت كل قصص الحب من ذلك النوع، حيث يغرق الحبيب في عشق محبوبته، منذ اللحظة الأولى، ويمتلكه حبها حتى النخاع، فيقاتل في سبيلها، ويخوض غمار الحروب والمعارك، حتى يفوز بها..

أو لمجرد أن يثبت لها حبه..

وهذه الصورة دائما جميلة وخلابة، وبالذات للجنس اللطيف، إذ أنه ما من فتاة أو امرأة في العالم، إلا وتتمنى أن يحبها شخص ما، كل هذا الحب العاصف الجارف..

وأن يذوب عشقا لخطواتها..

وهمساتها..

ولمساتها..

وحتى لمجرد مرآها..

والأنثى، كل أنثى، تجد في هذا الحب كل الراحة..

والاطمئنان.

والسعادة..

والأمان.....

ولكن بشرط واحد..

أن تميل إلى من يمنحها كل هذا الحب..

وأن يمكنها هي أيضا، على نحو أو آخر، وأن تحبه..

فإن لم يتحقق هذا الشرط، الأساسي جدا، فالحب نفسه سيتحول، في هذه الحالة، إلى نار حقيقية..

نار تلسع..

وتلهب..

وتحرق أيضا..

وسيتحول الحلم نفسه، بكل وأدق تفاصيله، إلى كابوس..

كابوس بشع، يرتجف المرء كلما أوى إلى فراشه؛ خشية أن يلتقي به في منامه..

فماذا عن صحوه؟

فالمحب الذي يعشق الآخر بحب من نار، لا يمكن أن يقبل بالتنازل عنه أبدا..

مهما كان الثمن..

ومهما كانت التضحيات..

ومهما بلغت الصعاب..

فإن لم يظفر به مباشرة، فسيظل يطارده في إلحاح..

ويقاتل للظفر به..

ويجاهد للفوز بمشاعره..

وبالنسبة للطرف الآخر، ستصبح هذه مشكلة، ما بعدها مشكلة..

وبالذات لو كان الطرف الآخر هو الأنثى..

فالأنثى تركيبة خاصة جدا، تختلف تمام الاختلاف عن الذكر، في أن مشاعرها قوية..

واضحة..

ومؤكدة..

وهذا بالنسبة لها شخصيا على الأقل..

وبسبب كل هذا، فمشاعر المرأة مباشرة جدا، ولا تقبل في نظرها..

المساومة أو التهاون..

وليس لديها أي حل وسط..

فهي إما أن تحب..

أو لا تحب..

والحب أو اللا حب، يحولان المرأة إلى كائنين مختلفين تماما..

فإذا ما أحبت، أصبح المحبوب هو كل شيء في الوجود..

ملامحه وسيمة..

دعاباته مضحكة..

أفكاره عبقرية..

وحتى أخطائه، هي نتاج حكمة، وذكاء، وبعد نظر..

أما لو لم تحب، فكل شيء ينقلب إلى العكس تماما..

الملامح تصبح مستفزة..

والدعابات سمجة..

والأفكار غبية..

أما الأخطاء، فهي تعبير عن الحماقة، والسخافة، وقصر النظر..

ومن الطبيعي أن تسعد كل امرأة في الدنيا، عندما يحبها، حبا من نار، شخص وسيم..

لطيف..

وعبقري..

ومن الأكثر طبيعية أن تضيق، أو حتى تغضب، إذا ما جاء هذا الحب من شخص مستفز، وسمج، وغبي أيضا..

وكل هذا طبعا من منظورها وحدها..

فمن الممكن جدا أن تتفق الدنيا على أن ذلك الذي يحبها، شخص ممتاز، أو رائع، وتتمناه كل أنثي في الدنيا..

ولكنها وحدها، لا ترد هذا:

فلا تحب..

أو تميل..

أو تتفاعل..

وعلى العكس تماما، فقد تجد دهشة عارمة في وجوه الجميع، من سخافة وضآلة وتفاهة الشخص، الذي وقعت في غرامه امرأة ما، وذابت في عشقه، كما لم تذب امرأة في عشق رجل من قبل!!

ويا لسعادتها وفرحتها، لو أحبها هو بدوره..

ويا لروعة الدنيا، لو كان حبة من ذلك النوع...

الحب النار..

والتاريخ المكتوب، أو حتى الروائي، لا يتوقف طويلا أمام أي حب، حتى ولو كان حبا من نار، لو أنه حب من طرف واحد..

ففي هذه الحالة يعتبر دوما، نوعا من الحب اليائس..

البائس..

الفاشل..

أما لو حدثت المعجزة، وأصبح الحب من نار، من الطرفين في آن واحد، فلا أحد في الدنيا يمكنه أن يتجاهل هذا..

أو حتى يدير عينيه عنه..

فالنار تلتقي بالنار، ليصنعان معا شلالا من اللهب، لا يمكنك إلا أن تتوقف أمامه مبهوتا ومبهورا..

وربما حاسدا أيضا..

ولأنه حب مزدوج من نار، والنار تلتهم كل ما يعترض طريقها في المعتاد، فذلك الحب النادر يبدو أشبه بموجة هائلة، تكتسح أمامها كل شيء في الوجود؛ لتثبت قوتها..

وتؤكد صدقها.

وتستقر هادئة متماسكة في النهاية.

وراجع معي التاريخ..

التاريخ الفعلي..

والتاريخ الروائي..

من منا يجهل تفاصيل الرواية الخالدة (روميو) و (جولييت)، عندما ربط بينهما حب من نار، تجاوز الخلافات الأزلية والموروثة بين عائلتيهما، وتحدى عناد وإصرار الأسرتين، وقاتل عنف الجميع لمنع ارتباطهما، الذي لم يكتب له أن يتم في الحياة الدنيا، وانتهى إلى لقاء في الحياة الآخرة.

ومن لم يسمع أشعار (عنترة العبسي)، في محبوبته وابنة عمه (عبلة)، الذي قاتل من أجلها جنود (كسري)، ليعود إليها بالنياق الحمر..

بل ومن لم تبهره قصة الملك (إدوارد)، الذي تخلى عن عرشه وملكه، وخلع عن رأسه تاج (إنجلترا) حتى آخر العمر، ليفوز بقلب حبيبته مسز (سمبسون)، ويكتفيان معا بدوقية (ويندسور)، التي احتوت حبهما المشتعل، حتى آخر لحظة في حياتهما..

ولاحظوا أنه، في معظم هذه القصص، كان هناك شخص ثالث..

حبيب آخر، يتملكه أيضا حب من النار..

ولكن البطلة ترفضه..

وتنبذه..

بل وتكرهه أيضا

الحب إذن من نار، في كل الأحوال..

ولكن ليست كل النيران عظيمة..

محبة..

أو سخية

هذا ما علمنا إياه التاريخ..

وما لقننا إياه الأدب..

وما أكدته لنا الدنيا..

وما أوصلنا إليه التفكير المرتب المنطقي، عندما نناقش فكرة الحب الملتهب، عندما يتملك الرجل تجاه المرأة..

والآن علينا أن نتساءل عما يمكن أن يحدث، لو أن العكس هو الصحيح..

لو أن المرأة هي التي تحب الرجل، حبا من نار!!

صحيح أن الحالات المعروفة في هذا المضمار نادرة، إلا أن هذا لا يعني أنها غير موجودة على نطاق واسع..

كل ما في الأمر، أن المرأة ليست لديها الجرأة الكافية - للإفصاح عن حب من نار يلتهم أعماقها، تجاه رجل لا يشعر بوجودها..

أو حتى لا يدرك هذا..

ولأن ثقافتنا مازالت شرقية، ذكورية، متزمتة، مهما بدا العكس، في الآونة الأخيرة، فالمجتمع يواجه المرأة بالصدمة، والاستنكار والازدراء، وربما النفور أيضا، لو أنها أفصحت عن حقيقة مشاعرها، تجاه رجل ما..

فما بالك لو أن مشاعرها هذه من نار!

لذا، فقد نمت المرأة، ونشأت، وترعرعت، وتربت على إخفاء مشاعرها، وكتمانها.

بل وإنكارها في بعض الأحيان..

ولكن هذا لا يمنعها من السعي المستميت، للفوز بمن أشعل قلبها..

وللمرأة في هذا وسائل مختلفة، تبدأ بمحاولة لفت الانتباه، وإيقاظ المشاعر، وتنتهي بمحاولات الإغواء في حالات نادرة..

وبعض الرجال يسعدهم جدا أن تسعى الأنثى خلفهم؛ لأن هذا يشعرهم بأهميتهم، وكفاءتهم، وجاذبيتهم تجاه الجنس الآخر..

وهذا النوع من الرجال ينبهر، إذا ما لمس نيران حب أنثى ما..

وربما يسقط في حبها أيضا، ويوفر لها مشوارا من السعي والتعب والمحاولة..

أو تروق له اللعبة، فيتمادى في إظهار لا مبالاته، لينعم بسعيها خلفه أكثر وأكثر.. والمرأة لديها ذكاء خاص، في هذا المضمار بالذات؛ وهي تدرك بسرعة حقيقة مشاعر الرجل تجاهها، وتتخذ قرارها بناء على حصيلة دمج مشاعرها بمشاعره، ومن منظورها الخاص جدا..

فقد تواصل القتال، مع تغيير التكنيك..

أو تتوقف، لالتقاط أنفاسها، وإعادة دراسة الموقف..

أو تدرك أنها تخوض حربا خاسرة..

فتنسحب..

والحالة الأخيرة، لا تلجأ إليها المرأة أبدا، إلا إذا أدركت أن الرجل، الذي شغف به قلبها، واقع في عشق أخرى..

وأن تلك الأخرى تبادله عشقا بعشق..

في هذه الحالة فقط، تدرك أن القتال عقيم، وأن جبهة أخرى قد فازت بالنصر في المعركة..

وهذا ليس أمرا حتميا، بل من الممكن جدا أن تواصل المرأة القتال، على الرغم من كل هذا..

وعندئذ تتحول إلى كتلة من النار بالفعل..

نار تحرق كل ما أمامها، بلا رحمة أو شفقة، وتلقى خلف ظهرها كل القواعد والتقاليد، في سبيل الفوز بمن تحب..

والفوز فقط.. والدافع هو الحب نفسه..

الحب النار..

وعلى الرغم من كل ما سبق، ومن الصورة الملتهبة، التي يصنعها الحديث عن الحب النار، إلا أنه حب قصير المدى، مهما طال عمره..

تماما كالنار

تحرق، وتنتشر، وتلتهم..

ثم لا تلبث أن تهدأ، وتخبو، وتنطفئ وتتحول إلى رماد ساخن، سرعان ما يبرد..

ويبرد..

ويبرد..

فمشكلة هذا النوع من الحب، هو أنه يحتاج إلى حطب يزكيه باستمرار، ويضمن اشتعاله على النحو نفسه طوال الوقت..

ومشكلته الكبرى أن طرفيه يعشقانه، ويأبيان التخلي عنه، أو القبول بتحوله إلى حب هادئ، عميق مستقر..

ولأن دوام الحال من المحال، فمن الطبيعي أن تهدأ نيران الحب بالارتباط..

وأن يفقد سمته الأساسية..

الالتهاب..

وعندئذ يغضب أحد المحبين، ويثور، و..

وهذا أمر طبيعي؛ لأنه يتفق تماما مع ذلك النوع من الحب..

الحب النار..

☆ ☆ ☆

5- وليه لأ؟؟

الحب عيب!!

حرام!!

خطأ!!

هذا ما تربينا عليه في طفولتنا، ونشأنا ونحن نسمعه من آبائنا، ومعلمينا، وأهلنا، وكل كبير تلتقي به، ويصنع من نفسه واعظا، لتلقيننا مبادئ الحياة، دون أن يطالبه أحد بهذا..

المدهش أن أحدا لم يحاول تحذيرنا من الكراهية..

والبغض..

والغيرة..

والحسد..

كل المشاعر السيئة كانت بالنسبة لهم أمرا عاديا، وسليما، ولا غبار عليه..

فقط الحب هو الخطأ

كل الخطأ!!

موروث عجيب، توارثناه لقرون من الزمان، وغرسوه في عقولنا..

وعروقنا..

وقلوبنا..

وحتى في نخاعنا..

والعجيب أننا لم نتوقف لحظة؛ لتناقش هذه التحذيرات، ونحاول فهمها واستيعابها.

فمادام الحب أمر خطير وسيئ إلى هذا الحد، فكيف يمكن أن نناقشه؟!

بل ومن سيسمح لنا بهذا؟!

فمنذ عقود وعقود، صنعوا أسوارا عالية وسميكة حول الحب، ذلك الشعور الغريزي، الذي لا يمكنك منعه، أو كبحه، أو تجاهله..

ولأن الحب ينمو في الأعماق، ويجري في العروق مجري الدم، كنا نعجز دوما عن مقاومته وكبحه..

وكنا نحب..

ونهوى..

ونعشق..

ثم نشعر بالذنب.

والخزي...

والعار..

ولأنهم نجحوا في عمليات غسيل المخ، وأقنعونا أن الحب حرام، فإننا نشعر دوما بالتوتر، كلما ساورتنا مشاعر الحب..

وكنا نستغفر الله (سبحانه وتعالى)، ونصلي كثيرا، طالبين المغفرة..

فقط لأننا أحببنا..

ثم كبرنا..

وكبرت معنا مخاوفنا..

وتعاظم الشعور بالخزي مع الحب أكثر وأكثر..

وبالذات لدى الإناث..

فالمجتمعات الشرقية بطبعها، تركز عدوانيتها كلها تجاه الإناث، باعتبارهن كائنات سريعة وسهلة الخطأ، مرهفة الحس، من اليسير إيقاعها في فخ الحب والعشق، من كل محتال..

وكوسيلة لحماية الإناث، اعتاد الكل محاصرة مشاعرهن، وإرهابهن بأنهن سيواجهن العقاب، والعار، والغضب الإلهي أيضا، لو أنهن أحببن!!

وأصبحت هذه هي القاعدة.

أن تخفي الأنثى الشرقية مشاعرها..

أن تحتويها..

وتزيفها.

ولا تفصح عنها أبدا..

حتى بعد أن ترتبط بزوج المستقبل، وشريك العمر، تظل تلك القاعدة عميقة في رأسها..

وفي كل ذرة من كيانها..

ولأن كل ما يستخدم ينمو، وكل ما يهمل يضمر، فقد ضمرت مشاعر الأنثى..

وجفت..

وتيبست.

وتحجرت..

وبالنسبة لكل الأجيال السابقة على الأقل، صار من العسير أن تفصح المرأة عن مشاعرها وحبها..

حتى لزوجها!!

والعجيب أن الحياة قد استمرت، على الرغم من هذا..

استمرت باردة..

باهتة..

جافة..

استمرت لتحفر معالمها على وجوه المتزوجين والمتزوجات..

على عيونهم..

وشفاههم..

وحتى أصواتهم..

ولأن فقدان الحب يجعل الحياة سقيمة خشنة، فقد اختفت البسمة من الشفاه، كما ستلاحظ حتما، إذا ما راقبت وجوه السائرين، في أي مكان..

وانحفر البؤس..

والهم..

والغضب...

بل والثورة أحيانا على الوجوه..

كل الوجوه..

السؤال الآن هو لماذا؟

لماذا نحارب الحب، بكل هذه الشراسة؟!

لماذا نتعامل معه بقسوة..

وغلظة..

وعدوانية؟!

لماذا؟!

لماذا

لماذا؟

ما الذي نربحه، عندما يخلو العالم من الحب؟!

ما الذي يسعد حياتنا..

وعمرنا؟!

الحب أيها السادة، هو أعظم وأروع شعور في الوجوه، فلماذا نقتله في أعمق أعماقنا، ونمضي في حياتنا بدونه؟!

لماذا نحذفه من قلوبنا، فلا يتبقى فيها سوى كل شعور سلبي؟!

هل ألقيتم على أنفسكم يوما هذا السؤال؟!

بل، وهل حاولتم أن تحبوا؟!

لو أردتم أن تجربوا أعظم شعور في الوجود، فأحبوا..

أحبوا..

أحبوا..

وابدءوا بحب أنفسكم..

أحبوا ما أنتم عليه..

أحبوا هيئتكم..

وعقولكم..

وحياتكم.. فإذا ما أحببتم أنفسكم، فستبدءون في حب كل شيء آخر..

وكل شخص آخر..

ابتسامة واحدة يوميا، يمكن أن تكون بداية جيدة..

ابتسامة كل صباح

ابتسامة لصديق..

أو قريب..

أو جار..

ولا تندهشوا من هذا..

أو تتعجبوه...

أو تستنكروه.

بل حاولوه..

ابتسموا للحياة..

تذكروا المقولة الشهيرة «اضحك تضحك لك الدنيا.. اعبس تعبس وحدك»..

وتحرروا من كل مخاوفكم عن الحب..

ومن الحب..

واستعيدوا ذاكرتكم...

هل رأيتم يوما شخصا يحب؟!

هل شاهدتم مدي بهجته..

وسعادته.

وحبوره..

وحيويته..

ونشاطه؟!

هل؟!

هل راقبتم إقباله على الحياة..

وعشقه لها..

وطموحاته الكبيرة فيها؟!

لو رأيتم، وشعرتم، وراقبتم، وأدركتم كل هذا، فاعلموا أن السبب الوحيد له، هو أنه يحب..

ثم سلوا أنفسكم بعدها: أمن الضروري بالفعل أن نبقى بلا حب؟!

أمن المحتم أن نفتقد الحب..

والحياة..

والابتسام؟!

فإذا عثرتم على جواب السؤال، ونجحتم في التخلص من كل رواسب الماضي، فأبدأوا مرحلة جديدة..

مرحلة الحب..

وقبل أن تنزعجوا من كلماتي هذه، ألقوا على أنفسكم سؤالا أخيرا.

(وليه لأ؟!)

☆ ☆ ☆

6- النفس وما تهوي..

ترى أية صفة بالتحديد، يمكن أن تدفعك إلى الوقوع في حب شخص ما؟!

أهي قوته..

أم جماله..

أم طيبته..

أم روحه المرحة؟

أم.

أم..

الواقع أنه لو أجريت استفتاء عاما بين المحبين، لما أمكنك أن تحصر جوابا واضحا في هذا الشأن..

لأنه في هذه النقطة بالذات، يختلف كل مخلوق عن الآخر اختلافا بيّنا، لا يرجع إلى طبيعته وشخصيته فحسب، ولكنه يرتبط بجيناته أيضا، وبحياته ومنشئه على وجه عام..

وربما كان لهذا العامل الأخير التأثير الأعظم، في الغالبية العظمى من حالات الحب..

فالطب النفسي يقول: إن الإنسان يحب في الطرف الآخر أمرا افتقده في حياته، ويسعى إليه طيلة عمره..

الشخص الذي حرم من الحنان في طفولته، أو عانى عذابا أو قسوة، قد يقع في الحب، إذا ما شعر بحنان الطرف الآخر، أو دفء مشاعره..

بل ويجد نفسه مدفوعا بقوة، نحو أية لمسة حانية، أو همسة رقيقة..

لهذا قد تجد رجلا غاية في الوسامة، غارقا حتى أذنيه في حب امرأة، يرى الكل أنها تفتقر إلى كل مقومات الجمال أو الإثارة، بل ويبدون دهشتهم الشديدة من شدة عشقه لها، إلا أنه في الواقع منجذب إلى حنانها، وما يمنحه إياه من شعور بالأمان والاستقرار..

والعكس أكثر شيوعا، وهو أن تجد فتاة رقيقة جميلة، تعشق رجلا خشن المظهر، أو يكبرها في العمر؛ لأنها وجدت لديه الحنان الذي تبحث عنه منذ طفولتها..

والابنة التي نشأت في كنف أب صارم متزمت، قد تعشق في شبابها شابا مرحا منطلقا..

وهكذا..

فمشكلة الحب الرئيسية، هي أنه يكمن دوما في جزء خفي عميق من كينوناتنا.. جزء نجهل كل شيء عنه..

وحوله..

جزء يثب من مكمنه بغتة، في لحظة نجهلها، ليسيطر على كل ذاتنا، دون أن نملك له ردا أو دفاعا..

وقد لا ندرك حقيقة ذلك الجزء الخفي أبدا، حتى بعد أن نحب، ونعشق ونتزوج، وننجب أيضا..

والواقع أن هذا لا يهم..

ليس من الضروري أن نعرف ماهية الحب..

ولا لماذا أحبينا..

المهم أن نحب..

وألا نضيع هذا الحب، مهما كان الثمن.

المشكلة أننا نخشى بشدة حالة الوقوع في الحب، عندما نشعر بها فجأة..

فالناس أعداء ما يجهلون..

وما يعجزون عن فهمه أيضا..

ففي لحظة، يكونون أحرارا..

وفي اللحظة التالية يجدون أنفسهم أسرى الحب..

هذا لا يعني أن الحب يحدث في لحظة، أو من النظرة الأولى، كما تحب روايات الرومانسية أن تقنعنا..

إنما الواقع أننا ننتبه إليه فجأة..

ففي البداية يكون هناك انجذاب..

واهتمام..

ومتابعة..

وفجأة! يأتي عامل ما، ليفجر الحقيقة داخلنا، دون تمهيد..

حقيقة أننا نحب..

وذلك العامل قد يكون غياب المحب..

أو مرضه..

أو عودته..

أو حتى لمحة عن احتمال وقوعه في حب شخص آخر..

والفتيات أكثر من يدركن هذه الحقيقة..

حقيقة العامل الخفي للحب..

فعندما تريد الواحدة منهن اختبار عواطف شخص ما نحوها، تجدها تختفي من حياته فجأة..

أو تفتعل معه مشكلة وهمية..

أو تروي له مأساة مفتعلة..

المهم أن تفجر داخله عاملا ما..

عاملا تجهله.

ويجهله..

وعادة ما ينجح هذا الأسلوب تماما..

ولكن ليس بالضرورة أن يسفر عما تنشده الفتاة..

فقد يدرك الشاب طبيعة مشاعره نحوها..

أو انعدامها...

أو هو لن يدرك انعدامها..

ولكنها هي ستدركها..

وسيتحطم حبها..

وقلبها..

وتتصور أن عمرها قد انتهى..

وأنها لن تحب مرة أخرى..

ولكن الزمن سيمر..

ويندمل الجرح....

ويشفي القلب..

ويتفتح..

ويأتي حب جديد..

واختبار جديد..

وما تهواه المرأة في الرجل، يختلف تماما عما يهواه الرجل في المرأة؛ بسبب اختلاف نوعيتهما، ومنظور كل منهما للحياة..

وللحب.

واختلاف المنظور هذا، هو الذي يسبب كل مشكلات الحب، والزواج، والارتباط بين الجنسين..

ففي آخر الأبحاث العلمية، والتي ترفض الجمعيات النسائية الاعتراف بها في تعنت مضحك، أثبتت الجينات أن الرجل كائن متعدد، والأنثى كائن منفرد..

وهذا يعني أن قلب الرجل يسمح له بالوقوع في أكثر من حب، في آن واحد، في حين أن المرأة لا يمكن أن تقع إلا في حب شخص واحد، في الوقت الواحد..

وهذه النتيجة تبدو لي علمية ومنطقية؛ باعتبار أن الذكور في كل الكائنات قادرة على التزاوج مع أكثر من أنثى، في حين أن الأنثى لا يمكن أن تتزاوج إلا مع ذكر واحد..

والرجل مؤهل للزواج بمثنى وثلاث ورباع (على الرغم من إصرار البعض على نفي هذا)، في حين أن الأنثى غير مؤهلة لهذا!!

المهم أن هذا الاختلاف الجوهري يدفع المرأة دوما لاستنكار تصرفات الرجل، ويدفعه هو لإخفاء تلك التصرفات عنها.

ومن ناحية أخرى، فالمرأة تثق في حقيقة تعدد مشاعر الرجل؛ بدليل أنها تخشي نظراته لأخرى، وحديثه مع صديقة..

أو زميلة..

أو رفيقة حفل..

وقديما كانت النساء تدرك هذا أيضا، ولكنهن كن يتعاملن مع الموقف أو يتغاضين عنه..

والحياة تسير..

ثم تطورت الدنيا، وحصلت المرأة على حريتها..

ولم تعد تتغاضى..

أو تتنازل..

أو تتجاوز..

وبدأ الحديث عن الشخصية..

والكرامة..

وعزة النفس..

وبدأ القتال..

والصراع..

وتعددت حالات الانفصال..

والطلاق..

ولم يتغير الرجل..

كل ما حدث هو أنه قد تعلم كيف يخفى انفعالاته أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

ولأن مشاعر المرأة أكثر رقيا من مشاعر الرجل..

وأنها ترغب أكثر في الأمان والاستقرار..

فقد عاد الأمر يتراجع..

ويتراجع ..

ويتراجع..

وعادت النساء تتغاضى..

وتتجاهل..

وتتنازل

و....

ويبقى الحب، هو الصمام..

صمام الأمان..

الوحيد..

☆ ☆ ☆

7- عندما يرحل الحب..

مهما بلغت العلاقة بين اثنين، ومهما تصور كل منهما أنه قد صار يعرف الآخر كما يعرف نفسه، فما من مرة، أمكنني فيها أن أحصل على جواب منطقي، عندما يرحل الحب

ففي لحظة ما، تبدو دوما غامضة مفاجئة، لأحد طرفي المعادلة، قد يسمع أحد الطرفين من الطرف الآخر عبارة: «لم أعد أشعر بك كالماضي..»

ومع سماعها، يصاب ذلك الطرف بالدهشة..

والغضب..

والحيرة أيضا..

ففي كل المرات، مهما تعددت الحالات، يحدث هذا فجأة..

وبلا مقدمات..

وهذا ليس واقع الأمر، ولكنها الصورة التي تبدو دوما للطرف المصدوم، والمطالب بالخروج من اللعبة..

وهي صورة غير صحيحة..

في كل الأحوال..

فالواقع أنه تكون هناك دوما مقدمات....

وتمهيدات..

وإشارات..

وتلميحات..

ولكنه لا يراها، أو يشعر بها، أو حتى يدركها..

ولعل هذا أحد أهم أسباب الانفصال..

فمع بداية الحب، تنتاب كل منا شراهة عجيبة، تدفعنا إلى أن ننهل من حبنا هذا بمنتهى النهم..

ولأن الحب في مجمله غزير وفياض، فنحن ننهل، وننهل، وننهل، حتى نتصور أنه نبع لا ينضب أبدا..

ولكن الحب ليس نبعا خالدا..

إنه نبع طبيعي، محدود الكمية، على الرغم من غزارته..

والينابيع الطبيعية ترتوي بمياه الأمطار، ثم تمنحنا ماءها العذب....

والحب أيضا يحتاج إلى تلك الأمطار؛ ليبقى..

ويستمر..

ويستقر..

والأمطار هي مردود الحب..

فأنت تنهل من حبيبك بقدر ما تستطيع، وتمنحه أيضا بقدر ما يمكنك، حتى ينهل ويرتوي منك بدوره..

لو فعلتها فسيبقى الحب..

وينمو..

وينتصر..

ولكن من الواضح أن كل ما ندركه عن الحب هو الأخذ، وليس العطاء..

الاستمتاع، وليس المسئولية..

لذا، فهو ينهار بسرعة..

ويذبل..

ويرحل...

وعندما يرحل الحب، يبدأ العذاب الأكبر..

ففراغ ما بعد الحب، لا يمكن أن يشبه أي فراغ آخر، في أية مرحلة مختلفة من الحياة..

وبالذات فراغ ما قبله..

فقبل أن نحب، نعاني من فراغ القلب، ولهفته إلى الحب.

والتقارب..

وتبادل المشاعر..

العواطف..

والأحاسيس..

ثم يأتي الحب..

ومعه يأتي كل هذا..

ويخفق القلب..

وينتعش..

ويحيا كما لم يفعل من قبل..

أبدا..

ومع استمرار الحب، يعتاد المرء هذا الشعور..

ويدمنه..

ويتعايش معه..

وبه..

ثم تأتي تلك الصدمة..

ويرحل الحب..

ومع رحيله، تنهار كل تلك المشاعر، وتترك في القلب خلفها فراغا...

فراغا هائلا كبيرا..

فراغا ليس بحجم القلب، بل بحجم الكيان كله..

وربما أكبر منه..

ألف مرة..

وللوهلة الأولى، قد يغضب المرء؛ لأنه قد فقد الحب..

ثم، ومع مرور الوقت، يتحول الغضب إلى مرارة..

ولوعة..

وفراغ..

القلب الذي اعتاد أن يخفق كطير سعيد، توقفت خفقاته، وانهارت سعادته، ولم يعد لديه مبرر واحد ليبقى في صدر محب قديم.

وتنهار المشاعر كلها، واحدا بعد الآخر، كما لو أنها كانت مربوطة كلها بخيط واحد.

خيط حب..

وفي بعض الأحيان، قد يؤدي هذا إلى مراجعة النفس..

ومصارحتها..

وكشف أسباب الرحيل..

وفي تلك الحالات، يتضاعف العذاب أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

فالمرء يدرك عندئذ أنه المسئول عن الفراغ..

أن إهماله لعواطف ومشاعر شريكه، هي التي قتلت الحب..

ولحظتها سيشعر بالندم...

والألم..

وعذاب الذات..

وربما يسعي، بكل طاقته، لإصلاح الخطأ، واستعادة من يحب..

ولكن نادرا ما يفلح هذا..

فالطرف الآخر عانى العذاب نفسه من قبل، ولكن بصورة عكسية تماما..

عاناه، وهو يحاول أن يوضح الصورة..

وينيرها..

ويلقي الضوء على نقاط القصور..

والأنانية..

والفشل..

ولكنه واجه كل هذا بتجاهل تام من الآخر..

أو بعدم فهم..

أو بأنانية، استولت على كل المشاعر، وأهملت ردود الفعل في الجانب الآخر، أثناء انشغالها بتلبية متطلباتها، وتغذية متعتها..

وعندما اتخذ الطرف الأول قرارا، لم يكن هذا سهلا أو هينا..

بل جاء أيضا بعد عذاب..

وعذاب..

وعذاب..

وبعد ألف محاولة ومحاولة..

وعندما أصابه اليأس من إصلاح الموقف، أو دفع الطرف الثاني إلى الإحساس به، ومعاملته كبشر، له مشكلاته ومتاعبه، وليس كمجرد مصدر دائم للمتعة، اتخذ أخطر قرار..

قرار الانفصال..

والقرار في طبيعته يختلف، عندما يتخذه الذكر، أو تتخذه الأنثى..

فالذكر قد يتخذ قرار الانفصال لأسباب أوهي، مثل انشغاله بأخرى، أو شعوره بالملل من نمطية العلاقة، أو حتى لمجرد التغيير..

أما الأنثى، فلا تتخذ هذا القرار إلا لأسباب أكبر..

وأعنف..

وأخطر..

هذا لأن الأنثى، بغريزتها، أميل إلى الاستقرار والهدوء..

وهي لا تهوى التغيير المستمر..
لذا، فهي تبذل قصارى جهدها في الغالب؛ لاستمرار العلاقة..
وفي سبيل هذا تتحمل الكثير..
والكثير جدا..
كما أن الأنثى أيضا لديها مقدرة أكبر على التسامح..
والتجاوز..
والغفران..
وكل هذا في سبيل استمرار العلاقة..
لذا فهي قد تغفر للذكر..
وتتجاوز عن أخطائه..
وإهماله لمشاعرها..
وحتى عن عيونه الزائغة..
ولكن المشكلة أنها لا تنسى أبدا..
كل ما تفعله، هو أن تختزن هذا، في ركن قصي من عقلها..
وقلبها..
ومشاعرها..
ثم تتكرر الأخطاء..
وتتكاثر..
وتحتشد هناك، في ذلك الركن..

ومع مرور الوقت، يكتظ الركن بما فيه، ويختنق به، ولا يجد متنفسا واحدا للمزيد..

وهنا، يصبح الاحتمال مستحيلا..

والانفصال أكيدا..

وينهار الحب..

ولأنه قد انهار بعد معاناة طويلة، وكفاح مرير، واحتمال فاق طاقته، فإن العودة إليه تكون عسيرة..

وربما مستحيلة..

وهنا يدرك الطرف الثاني فيما أخطأ..

وكيف خسر معركته..

ومشاعره...

يدرك هذا فقط، عندما تنهار العلاقة..

وعندما يرحل الحب..

☆ ☆ ☆

8- الذروة..

في كل مرحلة من مراحل حياتنا، هناك حتما ذروة..

ذروة يبلغ فيها الشيء - أي شيء - قمته، ومداه، ويصل إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه..

هناك ذروة للنجاح..

وللفشل..

وللغضب..

وللفرح..

وأيضا للحب..

ولكن المدهش، في كل الحالات، هو أن الإنسان لا يدرك قط أنه بلغ ذروته..

الشخص يمكن أن ينجح، ويواصل النجاح والتقدم، ولكنه لا يدرك قط أنه قد فاق أقرانه بكثير، وأنه قد تجاوز كل الحواجز، وبلغ ذروة لم يبلغها سواه.

ربما يشعر الآخرون بهذا، أما هو؛ فينشغل بنجاحه عن إدراك ذروته..

ثم تبدأ الذروة في الانحسار..

ويدرك المرء أين كان بالضبط قبل هذا..

هذا يحدث أيضا في كل الأحيان، وبالذات في الحب..

وبلوغ ذروة الحب أمر لا يدركه العديد من المحبين؛ إذ أنه من الطبيعي أن تتدرج المشاعر، من الود، إلى الإعجاب، إلى الانبهار،

إلى الحب..

ثم يتطور الحب..

ويتطور..

ويتطور..

وإذا ما كان الحب متبادلا بين الطرفين؛ فسيبلغان ذروته دون حتى أن ينتبها إلى ذلك..

وذروة الحب أمر جميل..

بل هو أجمل ما في العلاقات الإنسانية كلها..

فمع ذروة الحب، يتوقف الطرفان عن التعامل من منظور فردي، ويبدآن الانتقال إلى المعيار المزدوج..

كل شيء أصبح يرتبط بهما معا، وليس بأحدهما دون الآخر.

كل شيء..

العواطف..

المشاعر..

والأحاسيس..

وحتى الأحلام..

أفكارهما نفسها تحويهما معا، فلا أحد منهما يتخيل حياته من دون الآخر، ولا يرى مستقبله إلا معه..

الوجبة الواحدة لا يصبح لها مذاق، إلا إذا تناولاها معا..

الحلم يكمله أحدهما للآخر..

ورويدا رويدا، تمتزج روحاهما، ويصبحان أشبه بشطري المخ، لا يمكن أن يعمل أحدهما دون الآخر، وإلا أصيب الجسد بشلل كبير..

ومع الحب، تمتزج الأهداف والنوايا، وتتقارب الأفكار والطموحات، وتصبح سعادة أحد الطرفين هي الهدف الأسمى للطرف الآخر..

حتى الألم، يتحول إلى لذة، لو أن ثمنه هو ابتسامة سعادة، أو نظرة حب، لدى الطرف الثاني..

عندئذ يكون الاثنان قد بلغا الذروة..

ولكنهما لن يدركا هذا..

لن يدركاه حتى تحدث الرجّة..

ومن المؤسف أنها تحدث دوما..

الإنسان داخله شيطان ما، يتوتر إذا ما بلغ ذروة السعادة، فيبدأ في نبش كل خلية من خلايا المخ، في محاولة لإيقاظ لمحة ما، أية لمحة، يمكن أن تفسد الهناء..

والعجيب أنه ينجح في كل الأحوال..

ربما لأن النفس البشرية ضعيفة، أو أنها أمارة بالسوء كما يقولون..

ففي ذروة الحب، لابد وأن يبدأ أحد الطرفين في التمرد، على نحو أو آخر..

والبداية تكون دوما من رفض الازدواجية..

في مرحلة ما، لا يمكن تحديدها قط، يبدأ ذلك الشق الصغير في التكون، وسط العلاقة الازدواجية الجميلة..

شق يبدأ أصغر من أن يلفت الانتباه، أو من أن يتوقف عنده أحد..

وربما ينشأ من موقف..

أو حدث..

أو حتى كلمة قيلت..

المهم أن شيطان الفساد يتلقى هذا، ويضخمه، ويضيف إليه عشرات الأحداث الصغيرة، عبر علاقة طويلة..

وهنا يتسع الشق..

ويتسع..

ويتسع..

وفي لحظة ما، تتهاوى الازدواجية، وتعود الفردية للسيطرة..

كل طرف من الطرفين يبدأ الحديث عن نفسه..

عن مشاعره، وأحاسيسه، وعذاباته، وآلامه..

عن كل ما تحمله؛ لتستمر العلاقة..

وكل شخص يفكر في نفسه فقط، دون الآخر..

ومع التفكير والفردية، تبدأ مرحلة التحدي، والرغبة في إثبات الذات..

ويتسع الشق أكثر، وأكثر، ويتحول إلى هوة ساحقة..

وربما يتدخل البعض، أو حتى يجلس الطرفان للمناقشة، وتحل المشكلة، ويعود المحبان إلى بعضهما البعض..

ولكن ليس إلى الذروة.

فالذروة قد ذهبت..

وإلى الأبد..

ما حدث بينهما سيظل دوما أشبه بشرخ ما، في لوح من الزجاج البلوري النقي...

صحيح أنه لن يؤدي إلى انهيار الزجاج؛ إلا أنه سيفقده نقاءه وشفافيته..

وسيظل الشرخ مرئيا دوما..

يستحيل أن يعود لوح الزجاج إلى شفافيته الكاملة أبدا..

وكذلك الذروة...

إنها إما أن تكون، أو لا تكون..

وأبدا لا تعود..

الوسيلة الوحيدة للحفاظ على ذروة الحب إذن، هي ألا نفقدها إذا ما وصلنا إليها..

وهذا ليس بالأمر السهل..

وليس بالمستحيل أيضا..

كل المطلوب منا هو أن نزيد مساحة الحب في أعماقنا، حتى تحتل القدر الأكبر من مشاعرنا، فتنزاح إلى جوارها كل المشاعر والعواطف السلبية الأخرى..

أن نثق فيمن نحب..

في مشاعرنا نحوه..

ومشاعره نحونا..

نثق في أن كل ما يفعله هو بدافع الحب وحده، وليس بأي دافع آخر..

حتى لو أخطا، لابد وأن ندرك ونثق في أنه لم يقصد هذا، ولم يتعمده، ولم يسع قط لإيذائنا..

الحب هو الثقة، والاقتناع، والإيمان بحسن النوايا والمقاصد..

لو افترضنا فقط حسن النية، ستسير سفينة الحب في بحر الحياة، حتى لو انقلبت، أو هاجمتها العواصف..

والحياة لا تخلو قط من العواصف..

وفيها يثبت الحب وجوده...

فالحب لا يبلغ ذروته؛ لأن المحبين يتشاركان ساعات الفرح والسعادة والهناء فحسب، ولكنه ينمو ويزدهر، عندما يواجهان معا المصاعب والعواصف..

ولن نبالغ لو قلنا: إن الأزمات تصنع حبا يفوق ما تصنعه أيام السعادة والهناء..

بل تصنع ما هو أقوى من الحب..

وما يساعد ذروة الحب على الاستمرار هو الثقة..

والثقافة..

وهدوء النفس..

ولست أشك لحظة، في أن نصف من سيقرؤون هذا المقال سيسخرون من كل كلمة جاءت فيه، وسيؤكدون أن الحب نفسه لم يعد موجودا، فما بالك بذروته!!

ثم إن بعضهم سيشكك في نمو العواطف والمشاعر، في مثل هذا الزمن الصعب..

زمن المادة، كما يطلقون عليه..

والواقع أنني أشعر بالكثير من الشفقة، على من يفكرون بهذا الأسلوب، ومن حرموا أنفسهم من الشعور بأسمى عواطف البشرية..

فالحب موجود دوما، مهما تعقدت الحياة، أو زادت ماديتها، بل إنه ينمو ويزدهر أكثر، في المجتمعات المغرقة في المادية، نظرا لأن الناس يكونون فيها أكثر حاجة إلى الحب..

وإلى كل العواطف..

كل ما في الأمر، هو أن البعض أصيب بحالة من جفاف المشاعر، أو من عدوى القساوة، مبررا هذا بصعوبة المعيشة، وضعف الإمكانيات، أو غلظة تعامل الناس، مع بعضهم البعض..

ولست أظن الدنيا يعنيها هذا..

فمهما كانت مشاعرنا، وظروفنا، وسبل عيشنا، فسنحيا مرة واحدة لا غير..

مرة ينبغي أن نستمتع فيها بكل ما أحله لنا الله (سبحانه وتعالى)؛ إذ من الجحود أن يمنحنا نعمته (عز وجل)، فنتجاوز عنها لأي سبب كان..

وحتى لو كانت الحياة قاسية، فلماذا لا نبحث فيها عن قبس من السعادة..

لمحة من النور..

همسة حب..

لم لا؟!

سل نفسك هذا السؤال، وابحث عن جوابه، وتذكر أنك ستحيا مرة واحدة..

وذروة واحدة..

في النجاح..

والحياة..

والحب..

☆ ☆ ☆

9- أنانية الحب

مقولة اعتدنا سماعها، في كثير من الأعمال الدرامية، التي زرعت هذا في أعماقنا، لسنوات وسنوات، حتى بتنا نتصور أنها حقيقة لا تقبل الجدل..

ففي منظور العديدين، لابد للمحب أن يقاتل ويصارع؛ ليحتفظ بحبيبه، ويبقيه إلى جواره، مهما كان الثمن..

وفي سبيل ذلك، قد يلجأ البعض إلى أسوأ وأحقر الوسائل، بحجة الحب..

وأنانية الحب

بعضهم قد يفسد حياة حبيبه، فقط ليضمن بقاءه إلى جواره.

يدمر مستقبله..

يحاصره..

يسعى لفشله..

يبعد الآخرين عنه..

ينفرهم منه..

المهم أن ينعزل الحبيب عن العالم كله

إلا عنه هو..

وهو في هذا يرى أن حبيبه ملك له، ولا أحد في الدنيا سواه، يستحق الاحتفاظ به، والفوز بحبه وحنانه..

ووفقا للقاعدة القديمة، التي تقول: إن كل شيء مباح في الحب والحرب، فهو يفعل أشياء يندى لها الجبين، في سبيل الفوز بمن

يحب..

أشياء يخفيها، لأنه يخجل من كشفها..

وهو لا يشعر في سبيل هذا بالندم؛ لأنه يعتقد أن ما يفعله مشروع..

والمؤسف أن هذه النوعية هي الغالبة..

في عالمنا العربي على الأقل

وقبل أن ترفض العبارة الأخيرة، وتستنكرها، وتغضب منها، حاول أن تجيب معي سؤالا واحدا..

كم خطيبا يتعامل بوضوح وتلقائية مع خطيبته؟!..

كم محبا يصارح محبوبه بحقيقة نفسه، وعيوبه، ونواقصه؟!..

من في عالمنا العربي، تعرف زوجها حق المعرفة، قبل أن تتزوجه؟!..

من بين الرجال رأى وجه زوجته الحقيقي، دون مستحضرات تجميل، ومنعمات بشرة، ووسائل (فرد) الشعر وتنعيمه، قبل أن يتزوجها؟!..

لو أجبت عن هذه الأسئلة، فستتضح لك الحقيقة..

الحقيقة المؤسفة..

عالم الحب لدينا، يعتمد كله على الخداع..

وعلى الأنانية..

كل محب يسعى للفوز بمحبوبه، حتى ولو غش، وخدع، وتنكر ماديا ومعنويا، في هيئة وطباع، تخالف هيئته وطباعه..

والجميع يرى أن الغش والخداع، في هذا المضمار، مقبول ومشروع....

وهنا تكمن المشكلة..

فبعد الزواج، يرتطم المحبان بما لم يتوقعاه، خلال مرحلة الخطبة والحب..

يرتطمان بشخص آخر، يختلف عمن عهدوه وعرفوه..

وتكون الصدمة..

ويكون الغضب..

وانهيار الحب..

وهو لن ينهار دفعة واحدة بالتأكيد، ولكنه سينهار رويدا..

رويدا..

رويدا..

وقبل انهياره، سيمر بمرحلة تتشقق فيها المشاعر، ويتباعد الحب، ويصاب الحبيبان، أو أحدهما، بملل من العلاقة..

وكثيرا لا يشعر الطرف الآخر بما يحدث..

أنانية الحب، تجعله يتصور أن حبه خالد أبدي، لا يمكن أن ينتهي أو ينهار، مهما حدث ومهما واجه..

وكما يحدث لكل ما يتشقق، فإن الحب يضعف، ويضعف..

ثم فجأة.. ينهار..

ولسنا نناقش هنا انهيار الحب وأسبابه؛ فلهذا فصل كامل آخر، ولكننا نناقش رد الفعل، بعد هذا الانهيار..

فهنا بالتحديد، تتجلى أنانية الحب، بأقصى صورها..

فالطرف الذي فوجئ بانهيار الحب، الذي لم يشعر بمقدماته، تصيبه في المعتاد صدمة عنيفة في البداية، ثم سرعان ما تتحول الصدمة إلى انفصال..

فإما أن يكون انفصالا راقيا متحضرا..

أو محبا..

أو أنانيا..

والانفصال الراقي المتحضر، يجعل الطرفين ينفصلان في هدوء، ودون أية مشكلات، ويسعى كل منهما إلى إعطاء الآخر كافة حقوقه..

والمؤسف أن هذا ما يحدث في حالات نادرة..

نادرة للغاية..

ولكن لو أن المحبين زوجان تربطهما أطفال، فإن ذلك الانفصال الراقي سيؤدي إلى استقرار الحالة النفسية للأطفال والحفاظ على براءتهم، وتوازن مشاعرهم، مع التنظيم السلمي للتعايش مع الأب والأم، على نحو هادئ متفق عليه بطريقة سليمة..

والانفصال المحب، يجعل الطرف الأكثر حبا، والذي لم يتوقع هذا الانفصال، يسعى لإتمامه في هدوء، ودون إيذاء الطرف الآخر أو جرحه، بل ويبذل قصارى جهده؛ لإخفاء ألمه وعذابه في أعماقه؛ حتى يسمح لحبيبه بالرحيل في حرية..

والمحب يفعل هذا؛ لأنه مازال يعشق حبيبه، ويتمنى سعادته وهناءه، حتى ولو كان هذا مع غيره.

أو ربما يؤمن بالحكمة التي تقول: لو أحببت شيئا، فدعه حرا، وأطلق سراحه دوما، فإما أن يعود عليك بإرادته، أو أنه لم يكن ملكا لك أبدا..

المهم أن حبه يمنعه من أن يصبح حجر عثرة، في طريق من يحب..

وهذا هو الحب..

الحب الحقيقي..

وهو أيضا حالة نادرة..

على الرغم من جمالها وروعتها ورقتها..

أما الانفصال الثالث، فهو الانفصال الغالب، والذي كثيرا ما نراه فيما حولنا..

الانفصال الأناني..

فالطرف الذي تم الانفصال عنه، عاطفيا، يرفض هذا في عنف..

وغضب..

وعدوانية..

وشراسة..

يرفض هذا، ويبدأ في مهاجمة الطرف الآخر، بمنتهى الثورة والسخط..

إنه لا يقيم وزنا لسنوات الحب، والعشق، واللحظات الحلوة الجميلة، والذكريات العطرة المشتركة، ولا حتى ذكرى هدية، أو لحظة تآزر، أو همسة و...

كل ما يذكره، هو أن الطرف الآخر قد تركه..

لفظه..

نبذه..

أخرجه من حياته

وكل ما يسعى إليه هو الانتقام..

والثأر

والشماتة

فماذا تكون الأنانية، لو أنها ليست كذلك؟!...

وكل ما تفعله هذه الأنانية، هو أنها تعذب الطرفين، في آن واحد..

الطرف الذي طلب الانفصال، يتعذب طول الوقت؛ من جراء سعي الطرف المنفصل، للنيل منه طول الوقت، والإساءة إليه بلا توقف..

وأحيانا ما يكون الأطفال هم الضحية الأولى لغضب الثأر وشهوة الانتقام..

بل غالبا ما يكونون كذلك..

ففي سبيل العناد والشماتة، يسعى الطرف الأكثر غضبا؛ لإيذاء الطرف الآخر، عن طريق الإساءة إلى أحب الناس لديه..

أطفاله..

إنه يحاول حرمانه منهم، أو تعذيبهم؛ ليؤلمه، أو الإساءة إليهم؛ ليسيء إليه، دون أن يتوقف لحظة واحدة، ليدرك أنهم أيضا أطفاله

وصغاره...

وفلذة كبده..

فشهوة الانتقام تعميه تماما..

وربما لهذا أطلقوا عليها (شهوة)..

فمثل أية شهوة، تذهب بعقل صاحبها، وتعمى عينيه، وتصم أذنيه، وتحوله إلى كائن أحمق وحشي، لا يملأ رأسه سوى أمر واحد..

شهوته..

ومثل كل شهوة أيضا، تكون عواقبها دوما وخيمة..

فشهوة الطعام، تنتهي إلى أمراض لا حصر لها، في المعدة، والكبد، والكلى، والقلب، والمخ أيضا في بعض الأحيان..

وشهوة الجنس تفسد الحياة..

وشهوة الانتقام تدمرها..

وتدمر المنتقم نفسه..

فذات يوم، سيستيقظ ليجد نفسه وقد أضاع حياته كلها، في سبيل ماض، لا يمكن أن يعود..

أو أنه قد دمر أحب الناس إليه، ودفعهم إلى كراهيته..

وازدرائه..

واحتقاره....

ونبذه من حياتهم تماما..

وربما لا يدرك هذا، إلا عندما يضيع العمر، وتتوالى النكبات، ويضطر لمواجهتها وحيدا ضعيفا..

عاريا..
وكل هذا؛ لأنه دمر كل من يمكن أن يقف إلى جواره، أو يسانده.. أو يحبه..
وكل هذا؛ لأنه لم يفهم الحب، على النحو الصحيح..
لم يفهم أنه من المستحيل أن يكون الحب الحقيقي أنانيا..
الحب الحقيقي حب كله عطاء..
تفان..
إيثار للمحب..
وهذا يختلف تماما عن رغبة الامتلاك..
ففي الحالتين، يتصور المرء أنه يحب..
في الحالتين يرغب في الحصول على من يحب..
والاحتفاظ به..
والقتال من أجل الاحتفاظ به..
ولكن الحال يختلف بين الأمرين، إذا ما أصبح الحب من طرف واحد..
فرغبة الامتلاك تمنع صاحبها من رؤية أو إدراك سعادة الطرف الأخر..
تمنعه من التفكير في أي صالح، باستثناء صالحه وحده..
لذا؛ فقتاله يتحول، من قتال للاحتفاظ بحبيبه، إلى قتال حبيبه نفسه..
ولن يهمه حينئذ إذا ما كان يعذب من أحب..

ويحطمه..

ويدمره..

المهم أن يحتفظ به..

هذا لأن الشعور الحقيقي، الذي يملأ كيانه، هو شعور التملك، وليس الحب.. فمن يحب، لا يمكن أن يعذب حبيبه..

أبدا..

بل يفضل الموت، على أن يمس شعرة واحدة منه..

ويضحي بكل غال ورخيص لديه، لو أن هذا يحقق لحبيبه لحظة واحدة من السعادة..

فسعادة حبيبة هي سعادته الحقيقية

إلى جوارها يهون كل شيء..

وأي شيء..

حتى سعادته نفسها....

هذا هو الحب الحقيقي..

الحب الذي لا يعرف ذرة واحدة من الأنانية..

أنانية المحب..

لا أنانية الحب..

☆ ☆ ☆

(تمت الدراسات بالكامل)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- أهي حقًا عمياء؟..

1- أدار الشاهد ظهره للقاضي.. فحكمت المحكمة بالإعدام..

2- ارفع ذراعك، تخسر قضيتك..

3- الشاهد الوحيد..

4- قضية (هولمز) الحقيقية..

2- خلف أسوار العقل..

3- حيث يبدأ العدم..

4- مجهولو الهوية..

5- فلنبدأ بالخيال..

6- الذين ذهبوا..

7- ويمضي الزمن..

8- الانفجار الغامض..

9- من وراء النجوم..

10- هذه الكائنات العجيبة..

11- كل رجال الرئيس..

12- صفر.. صفر.. سبعة..

13- حقيقة علمية.. (مصر) تسبق (أمريكا).. الي القرن الحادي والعشرين..

15- حدث في (روزويل)..

16- الرجل الذي رأى الغد..

17- الزمكان..

1- المصطلح..

2- الثقوب السوداء..

3- ديدان في الفضاء..

4- السؤال..

18- تجربة (فيلادلفيا)..

1- المجنون..

2- أينشتين..

3- شهود العيان..

4- الرسالة..

5- الحسم..

19- أسطورة.. اسمها أطلانطس..

1- المحاورة..
2- حقيقة أم خيال..
3- حضارة الرمال..
4- النبوءة..
5- أطلال من الماضي..
6- بلا أثر..
20- الانفجار الغامض..
1- ســـيبريا..
2- أول رحلة..
3- نظرة جديدة..
4- النظرية..
5- المذنب..
21- ألغاز.. ألغاز!
1- عالمنا..
2- الحقيقة.. والخيال..
3- أم العجائب..
4- النيران..
5- النجدة..

6- العصفور..

22- الفراعنة.. ولعنتهم..

1- أول الغيث..

2- لعنة المشاهير..

3- تايتانيك..

4- وتحدث العلم..

23- فــوبيا..

1- الدم..

2- قلب الظلام..

3- أنياب الخوف..

4- الزحــف..

5- قمم وأعماق..

6- المواجهة..

24- عقول المستقبل..

25- وللتخابر أيضا... تاريـخ..

26- طاقية الإخفاء..

27- جاسوس نصف القرن..

28- المرأة مشكلة صنعها الرجل.. (دراسة)
المرأة مشكلة.. صنعها الرجل
(١)
(2)
المرأة مشكلة صنعها الرجل (دراسة)
«آراء جادة»:
المرأة مشكلة صنعها الرجل (دراسة)
المرأة مشكلة... صنعها الرجل
1- لماذا هذا الكتاب؟..
2 - ولد.. وبنت..
3- أنوثتي.. أو حريتي..
4- إلى الأمان يا (روميل)..
5- (خذ أنوثتي.. وأعطني حريتي)
6- العريس ..
7- من الجاني؟!
8- ما بعد الحرية.
29- حبيبي.. (دراسة)
1- الحب..

2- أول حب..

3- وللحب ألوان

4- حبك نار..

5- وليه لأ؟؟

6- النفس وما تهوي..

7- عندما يرحل الحب..

8- الذروة..

9- أنانية الحب

فهرس المحتويات:

الملاحظات

[←1]
*)) السنة الضوئية: هي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة، وهي تساوي حوالي ستة ملايين من الأميال...

[←2]

(*) الجيولوجيا: علم الأرض، ويشمل دراسة أصل الأرض، وتاريخ تطورها، وبنيانها، والأحداث التي مرت بها، وطبيعتها الكيميائية والفيزيقية، ودراسة سكانها، وتطور الحياة فيها، منذ أول تسجيل لنشوئها، وحتى العصر الحديث..

[←3]

((* آية 179 من سورة البقرة {ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون}.

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

القصص القصيرة

(المجموعة الكاملة)

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع للقصص القصيرة

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل القصص القصيرة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000

(القصص القصيرة)

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

حرف الألف ..

1-حرف الألف..

عاش (بشارة) عمره كله رجلا شريفا لم يخالف القانون قط، ولم يتجاوز حتى إشارة مرور واحدة، على الرغم من أنه لم يمتلك أبدا سيارة، أو يحلم بامتلاك واحدة.. وكعادة كل الشرفاء، كان (بشارة) يتعامل مع الجميع في ثقة وبساطة، دون أن يفكر حتى في مجرد الشك في مخلوق واحد، حتى أنه قد اقتنع على الفور بحديث ابن عمه (سلماوي)، العائد من إحدى دول النفط، وصدق أن (سلماوي) كان يرفل في النعيم هناك، على الرغم من تلك التشققات الواضحة في يدي هذا الأخير، وعلى الرغم من النحول الشديد الذي اعتراه، والذي بدا واضحا منذ عودته، وقرر (بشارة) أن يفعل مثل ابن عمه، وأن يسافر إلى واحدة من دول النفط، وبكل حماس، حمل كل ما يملكه من أوراق ومستندات، واتجه إلى إدارة الجوازات، لاستخراج جواز سفر، كمرحلة أولى..

وهنا بدأت المشكلة..

والواقع أن المشكلة الحقيقية قد بدأت مع مولد (بشارة)، فعندما ذهب والده الحاج (ابراهيم سليم)، ليسجل اسمه في كشف المواليد، استقبله كاتب الوحدة الصحية للقرية بابتسامة واسعة، وهنأه على مولوده البكري، وطالبه بحلاوة كبيرة، ثم أخرج قلمه، وارتدى منظاره، وراح يكتب اسم المولود (بشارة إبراهيم سليم)..

لا.. ليس هناك خطأ مطبعي.. لقد كتبها الكاتب نصف المتعلم، هكذا بالفعل، بدون حرف الألف، بين حرفي (الراء) و (الهاء) في اسم (إبراهيم)..

والعجيب أن أحدا لم ينتبه إلى هذا الخطأ في حينه..

ربما لأن الحاج (إبراهيم) أمي، لا يقرأ ولا يكتب، أو لأن العين تعبر الاسم في سرعة، مكتفية بالتأكد من اسم المولود فحسب..

المهم أن شهادة ميلاد (بشارة) خلت من حرف الألف وعندما التحق (بشارة) بمدرسة التجارة الثانوية، وبلغ من العمر ستة عشر عاما بالتمام والكمال، ذهب في زهو إلى سكرتير المدرسة، حاملا أوراق طلب أول بطاقة شخصية في حياته ولما كان قانون المدرسة - حينذاك - يشترط أن يملأ السكرتير الأوراق بنفسه، ومن واقع السجلات، فقد دوّن سكرتير المدرسة اسم (بشارة)، دون أن ينتبه إلى الألف الناقصة، في اسم والده الحاج (إبراهيم).. وهكذا صار اسم (بشارة) في بطاقته الشخصية يحمل حرف الألف..

وفي منطقة التجنيد، حيث تم توقيع الكشف الطبي على (بشارة)، لتحديد موقفه من التجنيد الإجباري، وجد الأطباء أن عين (بشارة) اليسرى تحمل حولا ظاهرا فمنحوه شهادة إعفاء من التجنيد، كانت تحمل حرف الألف، نظرا لاستخراج بياناتها كلها من واقع البطاقة الشخصية له..

ونجح (بشارة)، ونال شهادة دبلوم التجارة، وتسلَّم الشهادة المذَّهبة من المدرسة في فخر، وأحاطها بإطار مذهّب، وعلقها في صدر ردهة المنزل، دون أن ينتبه إلى أنها لا تحمل حرف الألف في منتصف اسم والده الحاج (إبراهيم)، كما نقل كاتبها الاسم من واقع شهادة الميلاد..

وعندما ذهب (بشارة) لاستخراج جواز السفر، طلبوا منه هذه الشهادات الأربع شهادة الميلاد، وبطاقته الشخصية، وشهادة الخدمة العسكرية، وشهادة الدبلوم.

ورفضوا استخراج الجواز..

رفضوا بحجة أن الأوراق غير مطابقة، فشهادتا الميلاد والدبلوم لا تحملان حرف الألف الأوسط في اسم أبيه وبطاقته وشهادة الخدمة العسكرية تحملان الحرف..

وعبثا حاول (بشارة) أن يشرح الأمر لأي مسئول..

وعبثا حاول أن يجد من يستمع إليه..

أو من يفهمه..

وقابلته في كل مرة إجابة صارمة لا تتغير: إما أن يحذف الحرف من بطاقته وشهادة الخدمة العسكرية، أو يضيفه إلى الشهادتين الأخريين..

ودار (بشارة) في ساقية الروتين..

دار حتى حفيت قدماه..

واتضح له - لأول مرة - كم هو عسير هذا الروتين..

وأصابه اليأس.

إنه يحتاج إلى عام على الأقل، ليضيف حرف الألف أو يحذفه..

لحظتها كره حرف الألف..

بل كل حروف اللغة..

وبينما يجلس ذات ليلة يائسا، في القهوة التي اعتاد قضاء لياليه فيها، التقى به ابن عمه (سلماوي)، فراح يفرغ في أذنيه شكواه..

ووجد (سلماوي) الحل على الفور، ولكن (بشارة) اعترض عليه في البداية بشدة، ثم لم تلبث معارضته أن تخاذلت، وتلاشت، فاصطحبه (سلماوي) إلى صديق له، وابتاعا في طريقهما قلما جافا، وزجاجة من زجاجات الحبر الصيني..

وسافر (بشارة) إلى بلاد النفط بعدها بأسبوع واحد..

وهو يعمل هناك منذ أربعة أعوام..

وكل أوراقه تحمل حرف الألف..

كلها...

(تمت)

2-النهاية..

تراخيت في ارتياح، على المقعد المجاور للسائق. في تلك السيارة التي استأجرتها خصيصا، للقيام بآخر زيارة لقطعة الأرض الصغيرة التي ورثتها عن عمى، في منطقة (حلوان)..

سنوات وانا انتظر هذه اللحظة، منذ وفاة عمى، وقيام أعمامي الآخرون برفع قضية لسلبي حقي من الميراث..

سنوات وأنا أنتظر وحدي..

لا.. كان معي الفقر..

كنت فقيرا، أستدين اتعاب ذلك المحامي الشره، الذي يتابع القضية منذ ثلاث سنوات، وأحيا أنا على أقل القليل من القوت والمتع، انتظارا لحكم المحكمة..

وحكمت المحكية أخيرا..

وأصبحت أمتلك قطعة الأرض رسميا..

واليوم لم أعد أمتلكها، لقد بعتها بمبلغ ضخم؛ لأنها تطل على النيل، في منطقة سكنية رائعة، وهأنذا أحمل ثمنها في حقيبتي، لأبدأ حياة اللهو والسعادة..

وفجأة لمحت المرصد..

مرصد (حلوان)، حيث يعمل ابن خالتي (وهبة)، خريج كلية العلوم..

وصحت بالسائق:

- توقف هنا.. عند المرصد:

استجاب السائق لي في بساطة، فقفزت خارج السيارة وأنا أمسك حقيبة النقود في إحكام، وطلبت من السائق أن ينتظرني، وأسرعت إلى ابن خالتي، وأنا أتساءل عن سر شوقي الشديد لرؤيته، في هذه اللحظة بالذات..

ربما كنت أحب أن أطلعه على الأمر؛ ليعلم أنني لم أعد فقيرًا..

أو أنه زهو الفوز فحسب..

ولقد استقبلني (وهبة) هذه المرة بابتسامة باهتة، وبقلق ملحوظ، وهو يجلس أمام ذلك المرصد الهائل، على نحو جعلني أهتف مستنكرا:

- هل تحب أن أنصرف؟

هتف بدوره:

- لا.. صدقني.. لم أقصد ذلك.. لقد كنت مشغولا فحسب..

سألته ساخرا:

- لماذا؟ أهي نهاية الكون؟

شحب وجهه، وهو يحدق في وجهى مذهولا، قبل أن يغمغم في شحوب:

- كيف عرفت؟

ألقيت جسدي على المقعد المواجه له، وحدقت في وجهه بدوري، قبل أن أسأله في بلاهة:

- ماذا عرفت؟

مال نحوى، مغمغما في توتر عظيم:

- إنها نهاية الكون!!

ظللت أحدق في وجهه مذهولا، وقد فقدت القدرة على النطق، في حين اعتدل هو، وأطلق من أعمق أعماق صدره زفرة هائلة، قبل أن يقول:

- يا لك من مسكين يا بن خالتي العزيز!! الا تعلم أن هذا الكون كله كان في البداية كتلة واحدة، قبل أن يحدث ما نطلق عليه اسم الانفجار الكبير؟

هززت رأسي نفيا بنفس البلاهة، فاستطرد في إشفاق العالِم على الجهلاء:

لقد حدث هذا منذ بلايين السنين، ومن يومها والكون كله يتمدد، ويتسع، ويتباعد بأثر الانفجار، ومن ذرات الانفجار تتكون المجرات والنجوم، والمجموعات الشمسية والكواكب، والكون يزداد تمددا وتباعدا بلا توقف..

وز فر مرة أخرى، قبل أن يستطرد:

- حتى حدث ما كنا نخشاه جميعا..

حاولت أن أسأله عما يعنيه، ولكن شفتي لم تنفرجا، ولم يخرج من بينهما لفظ واحد فيما تابع هو:

- لقد كشفنا من رصدنا لمواقع المجرات البعيدة، منذ شهر كامل، أن هذه الظاهرة قد توقفت أتعلم ما يعنيه هذا؟..

هززت رأسي نفيا، فأضاف:

- يعني أن التمدد قد انتهى، وحانت لحظة رد الفعل..

نطق الجملة الأخيرة في صوت رهيب، جعلني أردد في خوف مبهم:

- رد الفعل؟!

مال نحوى ولوّح بكفيه في انفعال، وهو يقول:

- نعم.. رد الفعل.. سيبدأ الكون مرحلة التقلص.. كل المجرات سيرتطم بعضها ببعض، كل النجوم ستنفجر، وكل الكواكب ستنسحق، وتتحول بها عليها ومن عليها إلى غبار.. سينهار الكون كله دفعة واحدة إنه يوم القيامة ولا شك.

اتسعت عيناي في رعب هائل..

يوم القيامة؟!

الأن؟!..

يا لى من سيئ الحظ!!..

أحيا عمري كله في فقر مدقع، وعندما تأتيني الأموال، يأتي معها يوم القيامة!!

يا للهول!..

لن استمتع ابدا بالثراء..

لن أنعم برغد العيش أبدا..

ولكن مهلا..

لقد رصدوا هذه الظاهرة منذ شهر، وربما كانت هناك أيام باقية..

سأنفق نقودي عن آخرها في هذه الأيام الباقية، قبل أن تحين الساعة..

أحيا في رغد ولو اسبوعا واحدا..

وفي اهتمام بالغ سألته:

- ومتي يا (وهبة)؟.. متى سيحدث هذا؟

تراجع في انفعال، وأطلق من اعماق صدره زفرة أخرى، قبل أن يجيب في يأس:

- لن يتأخر هذا كثيرا للأسف..

تهاوى الأمل في أعماقي، ثم لم يلبث أن استحال فجأة إلى غضب عارم، عندما أضاف في مرارة:

- بليوني عام على الأكثر..

وبعدها تسألني يا سيدي، لماذا لكمته على أنفه؟!..

(تمت)

المخلوق..

3- المخلوق..

سرت نشوة عارمة في جسدي، وأنا أستقبل أستاذي الكهل، في معملي الخاص بإدارة شئون الفضاء.. لم يكن قد تغير كثيرا منذ التقينا لآخر مرة، في مؤتمر المراقبة الفضائية العاشر، وكان كما عهدته دوما، شديد الغطرسة والتعالي، مغرورا، لا يقنع إلا بآرائه وحده.. وربما كان هذا سر خلافنا الشديد منذ زمن طويل.. ومن العجيب أنه قد قَبِل دعوتي..

لعل ذلك لأنني قد نجحت في صياغتها بأكبر قدر ممكن من التشويق، على نحو يلهب فضوله العلمي، ويدفعه دفعا لزيارتي..

ولقد استقبلته وانا ارتجف من فرط الانفعال، وقدته إلى حجرة مكتبي أولا، وقلت:

- يسرني أنك قد لبيت دعوتي يا استاذي العظيم..

زمجر كعادته، وهو يلوح بكفه، مغمغمًا في خشونة:

- لا داعي للمقدمات. ليس لدي ما أضيعه من وقت في المجاملات.

كان يتحدث بنفس ذلك الأسلوب المتعالي، الذي أكرهه منذ عرفته، ولكنني احتملت اسلوبه هذه المرة، وابتسمت، وانا اقول في هدوء:

- لا بأس يا أستاذي العظيم، سأدخل في صلب الموضوع مباشرة أنت تعلم بالطبع أننا نختلف تماما، منذ كنت أنا طالبا، تحت رئاستك.. وكان مبعث خلافنا هو نظرتنا إلى الفضاء الخارجي..

تظاهر بالضجر، وهو يستمع إلى، وإن أنبأني بريق عينيه باهتمامه الشديد بما أقول، فواصلت بنفس الهدوء:

- كنت أنا أؤمن دوما بحتمية وجود مخلوقات عاقلة، في كواكب أخرى في الكون، على حين كنت أنت ترفض ذلك المبدأ..

زمجر قائلا:

- وما زلت أرفضه.

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجهي، واعتدلت في مجلسي، وقلت في تعالٍ متعمد، وكأنما يروق لي أن أصدمه وأجرح مشاعره:

- لم يعد لرفضك أي معني يا أستاذي العظيم.

حدَّق في وجهي بدهشة، ثم لم يلبث أن هبَّ واقفا، وهو يقول في غضب:

- اسمع.. لو أنك تتعمد إهانتي، فأنت..

قاطعته في هدوء:

- إنها مسالة إثباتات علمية يا أستاذي..

ولوحت بكفي قبل أن يعترض مرة أخرى، وأنا أستطرد:

- هل بلغك نبأ ذلك الجسم الطائر المجهول، الذي ظهر في سمائنا منذ ايام؟.. والذي أجبرته قواتنا الجوية على الهبوط؟

غمغم في غطرسة:

- لست أصدق ذلك..

ملت إلى الأمام، وأنا أقول في صرامة:

- بل صدقه يا استاذي العظيم، فلقد اشرفت بنفسي على تلك العملية..

حدق في وجهي باهتمام بالغ، فأضفت في غطرسة متعمدة:

- كان عبارة عن مركبة فضائية، من كوكب آخر، وبداخلها وجدنا...

صمتُّ لحظة، ثم أضفت في صرامة:

- مخلوقا من كوكب آخر..

حدق أستاذي في وجهي بذهول، ثم لم يلبث أن لوح بكفه هاتفا في عناد:

- مستحيل!! لن أصدق تلك الترهات، عن مخلوقات الكواكب الأخرى.. إنني واثق من أنه لا يوجد في الكون كله، أي مخلوق عاقل سوى مخلوقات كوكبنا..

ابتسمت في سخرية، وأنا أقول:

- كما يحلو لك، ولكنه هنا..

هتف في ذهول:

- هنا!!

- هنا؟! أشرت إلى باب معملي، قائلا: - نعم.. هنا ونهضت في هدوء، واتجهت إلى باب معملي، وانا واثق من أنه سيتبعني، ولم يكد يدلف إلى العمل خلفي، حتى تسهر، وتجمد، وهو يحدق في ذلك الصندوق الزجاجي، الذي جلس داخله المخلوق.. كان مخلوقا حيا عاقلا، كما أثبتت تجاربي، ولكنه يتنفس نوعا نادرا من الغازات، كما علمنا من الأسطوانات، التي كان يحملها خلف

ظهره.. ولقد أعددنا له هذا القفص، واوصلناه بأسطوانات تحوي نفس الغازات، وبنفس النسب حتى نبقيه حيا..

ورأيت استاذي يحدِّق في المشهد مذهولا مأخوذا، وهو يقارن بين تركيب أجسادنا وملامحنا، وتركيب المخلوق الفضائي، وبين لون بشرتنا الجميل، ولون بشرة المخلوق العجيبة..

وابتسمت أنا في زهو وشماتة، عندما تهدلت كتفا أستاذي، وبدا وكأنما قد أضاف عشرات السنين إلى عمره، وهو يغمغم:

- إذن فأنت على حق!

أجبته في صرامة، وكأنني أتعمد إذلاله:

- لقد كنت دوما على حق..

وقفت في موضعي شامخا. اراقبه وهو ينصرف في مرارة، وقد تحطم غروره، وانهارت غطرسته كلها امامى، بعد أن أيقن من صحة نظريتي، ومن وجود مخلوقات عاقلة في كواكب أخرى من ذلك الكون الشاسع..

وعدت أواصل تجاربي على ذلك المخلوق..

لقد درست كل ما يتعلق به تقريبا، خلال الأيام الخمسة السابقة، إلا انني لم انجح بعد في ترجمة لغته إلى لغتنا، فهو يصر على ترديد عبارة واحدة، لم أفهم معناها بعد، ولكنها تشير إلى كوكبه بالتأكيد، فهو بقول باستمرار:

- انا من كوكب الأرض.. هل تفهمني؟

أنا من كوكب الأرض..

(تمت)

المسئول..

4- المسئول..

(أنا المسئول..)

ارتجف موظف الوزارة في شدة، واتسعت عيناه في رعب وذهول، وهو يحدق في وجه ذلك القصير الوقور، الذي نطق تلك الكلمة في هدوء ورصانة، ووقف ينتظر رد الفعل في اتزان، جعل الموظف يغمغم في انهيار:

- انت؟!

التقط القصير في جيبه بطاقة خاصة، ناولها للموظف، وهو يقول في هدوء:

- ها هي ذي بطاقتي.. أنت تعلم أنه يستحيل تزويرها.. اليس كذلك؟

تهتم الموظف:

- بلى يا سيدي.. بلى..

استعاد القصير بطاقته، وهو يقول بنفس الهدوء والرصانة:

- حسنا.. انت تعلم القواعد..

هتف الموظف في ضراعة:

- الرحمة.

اجابة القصير في بساطة:

- الرحمة أن نفصل كل موظف عمومي، يتعامل مع الجمهور بعجرفة أو غطرسة، كما تفعل انت إننا بهذا نرحم الأبرياء، الذين

يتضرعون إليك منذ ساعة، لتنهي أوراقهم، وأنت تتعمد إذلالهم بلا مبرر.. إنك حتى قد فعلت هذا معى..

هتف الموظف منهارا:

- لم أكن أعرفك.

أجابه القصير في هدوء:

- لا أحد يعرفني كما تعلم، فأنا تارة اتخذ هيئة كهل، وتارة أخرى هيئة شاب في عنفوان الصبا.. وأحيانا هيئة رجل وأحيانا هيئة امرأة، طويل او قصير، بدين او نحيل.. إنني اتخذ أية هيئة، ولكنني دائما (المسئول).

أنهار الموظف على مقعده، وهو يعلم أنه ما من فائدة (المسئول) لا يرحم أحدا، إنه يفصل المخطئ بلا تردد.. وليست لديه استثناءات..

وهذا مصدر قوته..

ومنذ ظهر ذلك المسئول: أصبحت كل الهيئات منتظمة رائعة..

كل موظف يخشى أن يسيء إلى مواطن واحد، خشية أن يجده هو (المسئول)..

حتى رجل الشرطة، يخشى الطغيان..

يخشى المسئول..

ولا أحد يدري من أين جاء هذا (المسئول)..

ولا ما هي صفته الرسمية كل ما يعلمه الجميع هو أنه قد ظهر فجأة في المجتمع، بعد أن سادته الفوضى او كادت، وراح يحطم كل مكامن الفوضى والاستهتار بلا رحمة..

لم يعد هناك تاجر واحد يبيع بضائعة بأزيد من ثمنها..

لم تعد هناك سيارة تتخطي إشارات المرور..

لم يعد هناك طالب يغش في الامتحانات..

باختصار.. لم يعد هناك فساد..

وجرت آلاف المحاولات لاغتياله، ولكن عبثا، فلا أحد يعلم من هو؟ ولا ما هو؟

لا أحد يعلم أين يقيم؟ وكيف يبدو؟..

وذات يوم، بعد أن ساد النظام تماما في المجتمع، وصار كل مخلوق فيه آمنا مرتاح البال، أجتمع مجلس الوزراء على نحو طارئ، وتطلع رئيس الوزراء إلى وزرائه بنظرة تشف عن خطورة الموقف، قبل أن يقول:

- مات (المسئول)..

ارتسم الذهول على الوجوه، مع لمسة ارتياح عامة، قبل أن يهتف أحد الوزراء:

- مات؟!.. مستحيل؟!

أجابه رئيس الوزراء في صرامة:

- نعم.. مات.. كل المخلوقات تموت.

هتف وزير آخر:

- وماذا نفعل الآن؟

- سنعقد مؤتمرا صحفيا، ونعلن عن موته..

هب وزير كبير قائلا:

- خطأ يا سيادة الرئيس.. لو أعلنّا عن موته، فستعود الفوضى لتدب في البلاد، وسينهار كل ما فعله طيلة عمره..

سأله رئيس الوزراء:

- وماذا تقترح؟

أجابه الوزير الكبير في حزم:

- سنخفي الخبر.. لا داعي لأن يعلم أي مخلوق بالأمر.. فليبق الخوف من المسئول في نفوس الجميع، وكل ما علينا هو أن نعلن - من حين إلى آخر - خبر زائف عن فصله موظفا ما، أو عزله لرجل شرطة، وستسير الأمور على خير ما يرام..

وقضى مجلس الوزراء نهاره كله يناقش هذا الاحتمال، وانتهى به القرار إلى إخفاء موت (المسئول)..

وعاد الوزراء إلى منازلهم، وكل منهم يعلم أن (المسئول) قد مات..

وكان عليهم كتمان السر العظيم..

ولم يخبر أحدهم سوى زوجته، و...

وعادت الفوضى إلى البلاد بعد شهر واحد.

وما زال مجلس الوزراء يجتمع لدراسة سر عودة الفوضى، على الرغم من تصريحاته الدائمة بوجود (المسئول)..

وما زال كل وزير بكتم السر....

(تمت)

الجزاء ..

5- الجزاء..

ارتجفت بحق، وأنا أخطو داخل حجرة مدير تلك الشركة الكبرى، التي ذاع صيتها في (مصر) كلها، والتي أعلنت منذ يوم واحد عن حاجتها لمهندس جديد، وخفضت وجهي في توتر، وانا أقترب من مكتب المدير، الذي أصر على اختبار كل المتقدمين لشغل الوظيفة بنفسه، ووحده..

وكنت أعرف حظي..

دائما منحوس..

لم انجح في عمل واحد في حياتي كلها..

وحتى عندما تقدمت للاختبار، لم أتوقع أن يتحسن حظي، فقد كان ذلك يحتاج إلى معجزة، وانتفض جسدي في قوة، عندما سمعت صوت المدير يقول في صرامة:

- ما اسمك؟

اجبته وانا ارتجف:

- (حسين) (حسين وجدي)

أتاني صوته جافًا:

- اجلس.

جلست على الفور، وسمعته يقول في حدة:

- هل تخشى التطلع إلى وجهى؟

قلت وانا ارفع عيني إليه في سرعة:

- لا يا سيدى مطلقا!

بدا وجهه مألوفا لدى كثيرا، وإن كنت لا أذكر أبدا متى ولا أين رأيته، ويبدو أن وجهي كان مألوفا له، فقد انعقد حاجباه، وهو يحدق في وجهي بكل اهتمام، قبل أن يسترخي في مقعده، ويلقي على عدة أسئلة حول طبيعة المهنة التي ينبغي أن أشغلها في حال نجاحي..

وجاءت إجاباتي جيدة في الواقع، حتى سألني بغتة، وهو يواصل التحديق في وجهى:

- انت لست من (القاهرة).. اليس كذلك؟

- بلى.. أنا من (الشرقية)

هز رأسه على نحو يوحي بأنه كان يعلم الجواب مسبقا، فشجعني هذا على أن أسأله في خفوت:

- هل اجتزت الاختبار في نجاح؟

بدأ وجهه مألوفا أكثر، وهو يبتسم، قائلا:

- ماذا تتوقع؟

هززت راسي، قائلا في يأس:

- لم يكن حظي حسنا أبدا.

اتسعت ابتسامته، وهو يقول:

- حقًا؟!

أجبته في اسف:

- نعم.. دائما حظي سيئ، حتى في المرة الوحيدة التي أردت أن أقوم فيها بعمل الخير.

سألني في اهتمام:

- كيف؟

اجبته:

- ذات ليلة، منذ ما يقرب من خمسة عشر عاما، كنت أسير وحدي وسط الحقول في قريتي، عندما سمعت رجلا يصرخ في الم وفزع، فأسرعت إليه، ورايته ساقطا ارضا وكان غريبا، من خارج القرية، ولقد هتف بي أن أطارد لصًا سرق منه حافظة نقوده، وفيها كل أمواله..

بدا لى وجهه مألوفا أكثر وأكثر، وهو يسألني في اهتمام:

- وماذا فعلت؟

انطلقت خلف اللص، وأمسكت به، ولم يكن أيضا من القرية، ولكنه قاومني في شراسة رهيبة، إلا أنني نجحت في استعادة حافظة النقود منه..

سألني في اهتمام بالغ:

- كيف؟

ترددت لحظة، ثم أجبته:

- قضمت إصبعه.

ارتفع حاجباه في استنكار، فتابعت:

- عضضت الإصبع الصغير ليده اليسرى في قوة، فقطعته، مما جعله يطلق صرخة مدوية، ويترك الحافظة ليفر هاربا.

ساد الصمت لحظة، رحت خلالها أحدِّق في وجه المدير، وخيل إلى أنني أتذكر أين رايته، وهو يسألني:

- وأين سوء الحظ في هذا؟

قلت متنهدا:

- لقد احتاج الأمر إلى تحقيق طويل، أضاع وقتى، وكان لدي امتحان في اليوم التالي، فرسبت.

ابتسم في هدوء مغمغمًا:

- يا للخسارة!!

ران علينا الصمت لحظة اخرى، ثم عدت أسأله:

- والآن هل نجحت في الاختبار؟

اتسعت ابتسامته، وهو يقول:

- إجاباتك جيدة، ولكنها لا تكفي لنجاحك، إلا أنني املك حق تعيينك دون نتائج..

تذكرت الآن فقط أين رأيته، وخفق قلبي في عنف، وقبل أن أنبس ببنت شفة، كان يستطرد في غضب واضح:

- ولكنني لن أفعل..

ثم أخرج من أسفل المكتب كفه اليسرى، ذات الخنصر المقطوع، وهو يستطرد في حدة:.

- بسبب هذا..

إنه حظي السيئ بالتأكيد..

(تمت)

الولـد..

6- الولد..

لم يسعني، وأنا أبتاع جريدة الصباح، من بائع الصحف المجاور لمنزلي، إلا أن ألقي نظرة طويلة على الأستاذ (علوى)، أستاذ اللغة العربية السابق، وجاري القديم في مسكنى، وهو يحمل كمية هائلة من المصحف، كعادته منذ أسبوعين كاملين، ثم يتخذ مجلسه في ذلك المقهى المواجه للمنزل ويقلب صفحات الصحف في اهتمام يملك عليه كل حواسه وهو يبحث فيها عن اسم ابنه الوحيد..

أو عن اسمه هو في الواقع..

وفي كل مرة ارى ذلك المشهد، كنت أعود بذاكرتي مرغها إلى تاريخ الأستاذ (علوي) القديم..

لقد تزوج الأستاذ (علوى) - كعادة الريفيين – وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره، وأنجب من زوجته ثلاث بنات قبل أن يتخرج من كلية المعلمين، ويصبح معلما للغة العربية..

ولكنه لم يكن يشعر بالسعادة..

كان يتشوق دوما إلى إنجاب ولد يحمل اسمه، على الرغم من أنه لم يكن ثريا، ولم تكن عائلته ذات ماضٍ عريق، يحتم ضرورة وجود من ينقل اسمها إلى الأجيال القادمة ومن اجل هذه الرغبة، ترك الأستاذ (علوى) زوجته الريفية تواصل إنجاب البنات في قريتهما، ونزح هو إلى (القاهرة)، ليعمل في مدرسة قريبة من منزلنا، ويتزوج قاهرية شابة، تصغره بعشرة أعوام..

وبدا الأستاذ (علوى) شديد الحنق، عندما أنجبت له هذه القاهرية ابنة جميلة، مما جعلني أسأله يومها:

- الا تحب إنجاب البنات يا استاذ (علوى)؟

أجابني في حنق:

- اريد ولدا يحمل اسمى..

قلت – يومئذ:

- البنت تحمل اسمك أيضا..

لوح بكفه، قائلا:

- البنت لزوجها.. أما ابناء الابن، وأحفاده، فكلهم سيحملون اسمى أنا..

كنت أضحك لحديثه هذا وأتعجب له، فما زلت حتى اليوم أدهش لهذه النرجسية، التي تدفع الرجال إلى التلهف على إنجاب من يحملون اسماءهم، على الرغم من أن هذا لن ينفعهم او يضيرهم بعد موتهم، ورحيلهم عن دنيانا..

ولكن الأستاذ (علوى) كان يتلهف لإنجاب ولد يحمل اسمه..

ولقد حصل على مبتغاه..

في المرة الثانية، أنجبت له زوجته ابنا، جعله يطير فرحا، ويدعو رواد المقهى كلهم لتناول المشروبات على نفقته.. وبدا وكأن ذلك الابن قد أنساه الدنيا كلها، فلم يعد يزور زوجته الريفية في قريتهما، ولم يعد يهتم حتى بزوجته القاهرية..

أصبح ابنه (أشرف) هو حياته كلها، وكان يفخر دوما بأن (أشرف) يحمل اسمه، حتى أنه لم يكن يقدمه إلى أي مخلوق، إلا باسمه الكامل.. (أشرف علوى)..

وكبر (أشرف)..

وكبرت معه فرحة الأستاذ (علوى)..

واقتنص (أشرف) كل الخير من اخواته..

كل الثياب الجديدة له..

كل اللعب..

كل النقود..

ونشأ (أشرف) مدللا، فلم يتجاوز سنواته الدراسية الا في صعوبة بالغة، حتى استقر به المقام في الثانوية العامة، فلم يفارقها ابدا..

ولم يهتم الأستاذ (علوى) بهذا كثيرا..

كان يكفيه أن (أشرف) يحمل اسمه..

وانه سينقله إلى الأجيال القادمة..

وفجأة ظهرت على (أشرف) علامات الثراء، وسرت شائعة بأنه يعمل في تجارة العملة، أو التهريب.. ولكن الأستاذ (علوى) لم يهتم أيضا..

الاسم وحده كان يعنيه..

وكان يفخر بابنه وثراء ابنه في كل المجالس..

وفجأة طالعتنا صحف الصباح بخبر رهيب..

لقد ألقى القبض على (أشرف) بتهمة التجسس لحساب دولة معادية..

(أشرف) جاسوس!!..

مفاجأة مذهلة للجميع..

وبالذات للأستاذ (علوى)..

لقد بدا، في ذلك الصباح، شاحبا ممتقعا، ذاهلا، وجلس على مقعده المعتاد في المقهى صامتا، واجما..

ثم فجأة اندفع نحو بائع الصحف، وابتاع منه كل صحفه..

وعاد إلى المقهى..

وفي حزم، أخرج من جيبه ممحاة، وراح يمحو اسم (أشرف) من كل الصحف..

كان يشعر بعار لا مثيل له، لأن الشاب الذي خان وطنه يحمل اسمه هو..

ومنذ ذلك الحين، راح الأستاذ (علوي) يبتاع الصحف يوميا، بقدر ما تسمح به ميزانيته، ويجلس على المقهى يتصفحها كلمة كلمة، ويمحو بممحاته أي اسم يشبه اسمه، مجرد شبه..

وفقد الرجل عقله

فقده بسببه ولد..

ولد يحمل اسمه..

(تمت)

7- السقوط..

اليوم تنتهي مخاوفه..

اليوم يثبت لنفسه انه أقوى من كل النبوءات..

يا لسعادته!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ارتياح، وهو يتطلع إلى غروب الشمس، وذهنه يسترجع تلك الأحداث، التي غيرت حياته كلها، منذ خمسة أعوام تقريبا..

كان ذلك في اثناء زيارة عمل إلى (نيويورك)، عندما التقى هناك بأشهر مُنجِّمة في القرن العشرين، التي تنبأت بمقتل الرئيس (كيندي)، وسقوط الحكم في (إيران)، وغيرها من النبوءات المذهلة، التي تحققت كلها على نحو لا يتطرق إليه الشك في موهبة المرأة وبدافع من الفضول، طلب منها أن تنبئه بطالعه..

وتطلعت المرأة إلى وجهه طويلا، وانعقد حاجباها، وضاقت عيناها، ثم قالت في صوت رهيب، لم يفارق ذاكرته حتى هذه اللحظة:

- أراك تسقط..

غمغم في دهشة:

- أسقط؟!

أجابته بنفس الصوت الرهيب:

- نعم.. أراك تسقط، وتسقط، ثم يرتطم جسدك، وتلقي مصرعك..

ارتجف جسده كله، وجفت الدماء في عروقه، وهو يقول:

- متى؟.. متى يحدث هذا؟

اجابته وهي تتطلع إلى عينيه:

- قبل أن تتم عامك الأربعين..

كان هذا كل ما قالته، وكل ما بعثته في قلبه من رعب..

لقد راح يبذل أقصى جهده لإقناع نفسه بأنها مخادعة، وبان نبوءتها هذه تافهة، لا تعني شيئا، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يستبدل بتذكرة عودته على متن الطائرة إلى (القاهرة) تذكرة بحرية، ليعود إلى موطنه على متن باخرة، ولا من أن يستبدل بمسكنه في الطابق الخامس، آخر أصغر حجما، في طابق أرضي من بناية حديثة البناء، على الرغم من اعتراض زوجته على السكن في طابق أرضي، وسط ضوضاء (القاهرة)..

ولقد كان آنذاك في الخامسة والثلاثين من عمره، ولكنه لم ينس نبوءة المنجمة الأمريكية طيلة السنوات الخمس التالية أبدا..

وبكل جهده، راح يتحاشى الأماكن المرتفعة، التي تزيد على طابق واحد، حتى أنه رفض العمل بضعف مرتبه في شركة استثمارية جديدة، لمجرد انها تتخذ مقرها في الطابق العاشر من بناية ضخمة..

واليوم، وبعد أن تغرب الشمس تماما، يكون قد أتم عامه الأربعين..

وتكون النبوءة قد اثبتت فشلها..

اختفاء قرص الشمس التدريجي في الأفق، راح يسخر من نفسه، لتصديقه هذه النبوءة طيلة خمس سنوات، وقرر أن يحتفل مع

زوجته بانزياح ذلك العبء عن كتفيه، فصاح بها:

- ما رأيك في عشاء فاخر الليلة، ومسرحية جيدة؟

تهللت أساريرها، وهي تقول:

- رائع.. سأرتدي ملابسي على الفور..

هتف في حماس:

- وسأذهب لحجز التذاكر.

انطلق والحماس يملأ قلبه، ليعبر الطريق نحو سيارته، على الجانب المقابل للمنزل وراي سيارة مسرعة تنطلق نحوه..

وقفز جانبا ليتفاداها..

وفجأة وجد نفسه يسقط..

يسقط ويسقط، ثم يرتطم جسده بقوة.

وراح يلفظ أنفاسه الأخيرة، وهو يتطلع في ذهول إلى فجوة صغيرة بعيدة، بدت منها أضواء الشفق، بعد أن اختفى قرص الشمس كله في الأفق..

ولم يصدق أنه يحتضر هكذا، بعد كل ما اتخذه من احتياطات..

ولا أن هذا ما كانت تقصده المنجمة الأمريكية..

لقد سقط، وارتطم بالأرض، وها هو ذا يلقى مصرعه تماما كما قالت النبوءة..

مع فارق واحد..

إنه لم يسقط من علٍ..

لقد سقط إلى أسفل..

إلى أعماق بالوعة مفتوحة..
هذا هو السقوط..

(تمت)

الحلم

8- الحلم..

استيقظ (هاشم)، الكاتب القصصي المعروف، في ذلك الصباح، وهو يشعر بخمول شديد، على عكس عادته، حينما ينهض من فراشه، دوما في نشاط، وفتح عينيه في تراخ، وهو يتأمل ما حوله..

وفجأة هب جالسا..

أين هو؟..

إنه ليس في حجرته!!..

وزوجته ليست إلى جواره!!..

صحيح أن تلك الحجرة الواسعة تبدو له مألوفة، بذلك المعطف المضاد للمطر، المعلق فوق المشجب في نهايتها، وهذا الفراش الصغير، القريب من الأرض، ولوحة الأسلحة التي تحتل نصف الحائط المواجه للفراش، إلا أنه لا يذكر أين رآها، ولا كيف جاء إلى هنا..

وفجأة، أدرك لماذا بدت له الحجرة مألوفة؟..

إنها حجرة (جاسر الرهيب)، تماما كما يصفها هو في قصصه..

ولكن هذا مستحيل!!..

لا وجود ل (جاسر الرهيب) او حجرته في عالم الواقع..

إنه هو مبتكر شخصية (جاسر الرهيب)..

هو صنعها من ثنايا عقله وهو وصف حجرته..

راح يدير عينيه في الحجرة مرة أخرى في ذهول، وتذكر كيف أنه أوى إلى فراشه أمس، بعد أن انتهى من أحد فصول رواية جديدة من روايات (جاسر الرهيب)، ولاح له أن هذا هو سبب ما يحدث له الآن، فعاد يرقد على الفراش القريب من الأرض، ويسبل عينيه مغمغمًا:

- اهدأ يا (هاشم).. الخيال لا يتحول ابدا إلى حقيقة.. إنما هو حلم.. مجرد حلم..

☆ ☆ ☆

استيقظت (مروة) زوجة (هاشم) من نومها في تمام الثامنة كالمعتاد، وتثاءبت في قوة، وهي تغمغم مبتسمة:

وتثاءبت مرة ثانية في تراخ، ثم استدارت إلى زوجها توقظه.. و..

وارتدت فجأة كالمصعوقة..

واتسعت عيناها في رعب وذهول..

لم يكن النائم إلى جوارها زوجها..

كان شخصا آخر، وسيم الملامح، قوي البنية، يبدو وجهه مألوفا، على الرغم من ثقتها بأنها لم تره في حياتها أبدا..

من هو هذا الرجل؟..

كيف وصل إلى فراشها؟

وأين زوجها؟

فتح الرجل عينيه في هذه اللحظة، فأجفلت، وحاولت إخفاء جسدها بغطاء الفراش، وهي تهتف به في رعب:

- من انت؟.. أين زوجي؟

نهض الرجل من الفراش في نشاط، وقال مبتسما:

- انا (جاسر).. (جاسر الرهيب).

حدقت في وجهه بذهول، وهي تردد:

- (جاسر الرهيب)؟!

ثم هتفت في حدة:

- مستحيل!.. (جاسر الرهيب) ليس حقيقية.. إنه شخصية خيالية ابتكرها زوجى..

اجابها في هدوء، ودون ان تفارقه ابتسامته:

- كان هذا حقيقيا حتى مساء أمس.

هتفت في توتر:

- ثم ماذا؟

هز كتفيه في لامبالاة، وهو يقول:

- ثم تبادلنا الأماكن..

لم تفهم ما يعنيه، فغمغمت:

- ثم ماذا؟

طرقع إصبعيه، تماما كما يفعل في القصص التي يكتبها زوجها، وهو يقول:

- تبادلنا الأماكن.. لقد سئمت كوني شخصية خيالية، يدفع بها هو في صراعات لا تنتهي، ويعرضها لمخاطر لا حصر لها، لمجرد أن يشير القراء ويحبس أنفاسهم، ثم يحوز هو كل الشهرة

والثراء، ولهذا فقد قررت ليلة أمس أن أتحول أنا إلى شخصية حقيقية، واتركه هو العالم الخيال، وصراعاته اللانهائية..

كان يتحدث تماما كما يصفه زوجها في رواياته، وأدركت هي لماذا بدت لها ملامحه مألوفة؟ لأنها نفس الملامح التي يصفها زوجها دوما، ولكنها لم تصدق ابدا ما تسمعه أذناها، التقطت سماعة الهاتف، وهي تقول في حزم:

- سأتصل بالشرطة..

هز الرجل كتفيه في لامبالاة، وهو يقول:

- كما يحلو لك..

أدهشها أنه لم يحاول حتى اعتراضها، فأسرعت تطلب رقم الشرطة، وهي تردد في ذهول:

- مستحيل!!.. هذا حلم.. حتما هو حلم...

☆ ☆ ☆

أغلق (هاشم) عينيه طويلا، وحاول أن يجبر نفسه على النوم، أو على الاقتناع بأنه يعيش حلما، إلا أنه عجز عن هذا تماما، فملمس الفراش الخشن، والصمت الرهيب المحيط به، كانا يؤكدان أنه يعيش حقيقة؛ لذا فقد عاد يجلس على الفراش، ويدير عينيه فيما حوله، مغمغمًا:

- ولكن هذا مستحيل!!

غادر الفراش القريب من الأرض، وراح يدور في الحجرة الواسعة في دهشة لا حد لها..

كل شيء كما وصفه في رواياته تماما..

إنها حجرة (جاسر الرهيب) ولا شك..

ولكن كيف حدث هذا؟..

كيف أصبحت هذه الحجرة حقيقة؟..

كيف انتقل هو إليها؟!..

لم يستغرق وقتا طويلا ليستسلم لواقع الأمر، فهو – على عكس زوجته - يمتلك عقلية قادرة على استيعاب أصعب الأمور وأكثرها خيالا..

ولقد خلع منامته، وارتدي حلة (جاسر الرهيب)، ومعطفه المضاد للمطر، ثم وقف امام خزانة الأسلحة يقول:

- إنه نفس الموقف الذي تركت عليه (جاسر الرهيب)، في نهاية الفصل الذي كتبته أمس.. كان قد استيقظ على التو، وارتدي ثيابه، ووقف أمام خزانة أسلحته، ينتقى لنفسه مسدسا جيدا، عندما سمع صوت سيارة تتوقف، ويغادرها (قبارى) القاتل، و...

قبل أن يتم عبارته، تناهى إلى مسامعه صوت سيارة تتوقف، فأسرع إلى نافذة الحجرة، ورأى أمامه فراغا هائلا بلا نهاية، وسيارة تقف أمام المنزل، ويغادرها رجل بالغ الضخامة، شرس الملامح، يحمل مدفع رشاشا، وينطلق نحو المنزل في وحشية رهيبة.

وتراجع (هاشم) في رعب، وهو يهتف:

- لا.. لا.. هذا حلم.. حلم بالتأكيد..

حدق رائد الشرطة في وجه (جاسر)، وهو يقول:

- إذن فأنت شخصية روائية، قفزت إلى عالم الخيال..

أجابه (جاسر) في هدوء:

- هذا حقيقى.. لقد تبادلت الأماكن مع (هاشم)، و...

صاح به الرائد في غضب:

- أأنت مجنون؟ ام أنك تحاول إصابتي بالجنون؟

أجابه (جاسر) في صرامة:

- لا هذا ولا ذاك.. إنني اخبرك بالحقيقة فحسب.

صرح به:

- اية حقيقة!!

وهتف (مروة):

- هذا الرجل محتال رهيب.. لقد اختطف زوجي ويريد أن يحل محله.

قال الرائد، وهو يتطلع إلى وجه (جاسر) في صرامة:

- بالتأكيد يا سيدتى.. بالتأكيد.

ثم التفت إلى جندي مصاحب له، واستطرد:

- خذ بصماته، وائتني بصحيفة سوابقه كلها.

قال (جاسر) في سخرية:

- بصماتي.. ليست لي أية بصمات..

ثم رفع راحتيه المفرودتين في مواجهة الرائد، الذي حدق في أطراف الأصابع في ذهول، وهتف:

- ولكن هذا مستحيل!!.. اصابعك لا تحمل أية بصمات بالفعل لا يوجد بشرى كهذا..

أعاد (جاسر) راحتيه إلى جواره، وهو يهز رأسه مبتسما، ويقول في بساطة:

- وما ذنبي انا.. (هاشم) هو المسئول.. هو ابتكرني، ولم يحتج يوما إلى بصماتي، فلم يمنحني إياها ابدا.. إنها مسئوليته هو.

تراجع الرائد في ذهول، وهو يردد:

- مستحيل!! إنك لست بشريا، أو أن كل هذا مجرد حلم.. حلم سخيف..

☆ ☆ ☆

شعر (هاشم) برعب هائل، وهو يسمع وقع اقدام (قبارى)، الذي يصعد إلى منزله بجسده الضخم، واندفع نحو خزانة الأسلحة، وهو يهتف في توتر بالغ:

- ماذا كان (جاسر الرهيب) سيفعل، لو أنه في مكانى الآن؟.. ربما كان سيختار مسدسا ضخما كهذا.. (ماجنوم-44)..

تناول المسدس الضخم من خزانة الأسلحة، ثم تراجع نحو باب خلفي، وهو يقول:

- ولكنني لست (جاسر الرهيب)؛ لذا فالوسيلة المثلى امامى هى....

قبل أن يتم عبارته، هوت رصاصات مدفع (قبارى) الآلي على رتاج باب الحجرة، فصاح (هاشم) مكملا:

- هي الفرار..

دفع الباب الخلفي، وانطلق يعدو بكل قوته صاعدا إلى السطح، ومن خلفه سمع وقع اقدام (قبارى) الثقيلة، فهتف في رعب:

- لا.. لا ينبغي أن يلحق بي.. سيقتلني لو فعل.. لست أملك مهارة (جاسر) ولا قوته.. إنني مجرد شخص عادى..

بلغ سطح المنزل، وبدا له المشهد رهيبا، والمنزل يسبح كله وسط فراغ لا نهائي مخيف، وراح يبحث عن مخرج، حتى سمع صوت (قبارى) من خلفه يقول في وحشية:

- لقد وقعت أخيرا يا (جاسر الرهيب).

التفت إليه في رعب، وهو يهتف:

- لا.. لست (جاسر الرهيب).. أنا (هاشم).. انا...

قاطعه (قبارى) بضحكة وحشية رهيبة، وهو يقول:

. لا فائدة

لقد وقعت أخيرا في يدي.. لا فائدة...

وصوب فوهة مدفعه الآلي نحو (هاشم)، الذي صرخ في رعب:

- لا.. لا تطلق النار..

ولكن (قبارى) ضغط زناد مدفعه الآلي، واختلطت ضحكته الوحشية بدوى الرصاصات..

☆ ☆ ☆

ظل رائد الشرطة يحدق في وجه (جاسر) طويلا، قبل أن يغمغم في اضطراب ملحوظ:

- من أنت؟

أجابه (جاسر) في هدوء:

- قلت لكم من قبل ان اسمي هو (جاسر الرهيب).

هتفت (مروة):

- مستحيل!

ثم اتجهت إليه، وقالت في توسل:

- لو أنك هو حقا، فأعد إلى زوجى..

تطلع (جاسر) إلى عينيها، مغمغما:

- ولكن يا سيدتي، إنها فرصتي الوحيدة لولوج عالم الحقيقية، و..

قاطعته في ضراعة:

- لم يكن (جاسر) الحقيقي ليتخلى عن سيدة في محنة كمحنتي... اعد إلى زوجي.. ارجوك..

تردد (جاسر) لحظة، ثم قال في حزم:

- لا بأس: سأعيده..

سأله الضابط في ذهول:

- وكيف ستفعل؟

اجابة (جاسر) في برود: - بنفس الوسيلة عبر عالم الأحلام واتجه في هدوء إلى حجرة النوم، وهو يقول ل (مروة):

- وداعا يا سيدتي.. كان من الممتع حقا أن أعيش في عالم الحقيقة.

اتجه نحو الفراش، ورقد فوقه، وأخفي جسده كله بالغطاء، فغمغم الرائد في توتر:

- يبدو اننا نعيش حلما مزعجا.

هتف به أحد جنوده في رعب، وهو يشير إلى الفراش:

- انظر يا سيدى.. الغطاء يتبدل، كما لو أن هناك جسدا آخر يحل محل جسد الرجل الذي رقد تحته منذ لحظات..

اتسعت عينا الرائد، وهو يهتف ذاهلا:

- لكن هذا مستحيل!.. مستحيل تماما!!

وهتفت (مروة):

- زوجى لقد عاد..

واندفعت في لهفة نحو الفراش، وجذبت الغطاء عن الجسد الراقد فوقه، ثم اتسعت عيناها في رعب، وأطلقت صرخة هائلة..

لقد عاد اليها زوجها..

عاد جثة هامدة، اخترقتها عشر رصاصات..

رصاصات (قبارى)..

وراحت (مروة) تصرخ في انهيار تام وسط ذهول الرائد وجنوده:

- لا هذا حلم.. حلم.. حلم

ولكنها لم تستيقظ منه أبدا..

(تمت)

القشة

9- القشة..

كانت تلك الضحكة، التي انطلقت من بين شفتى (حسان)، بكل ما تحويه من سخرية واستهتار، بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير..

وكان البعير هنا هو شريكه (رميح)، الذي فقد فجأة كل قدرته على السيطرة على أعصابه، على الرغم من انه يحتمل سخرية وسخافة شريكه هذا منذ سنوات، فامتدت يده تلتقط تمثالا ثقيلا، وتهوى به بكل قوة، على رأس (حسان).

وجحظت عينا (حسان)، وهو يحدق في وجه شريكه، بمزيج من الذهول والألم والاستنكار، وتدفقت الدماء من جرح في رأسه، قبل أن يسقط على وجهه كالحجر..

وشحب وجه (رميح)،.وامتقع في شدة، حتى صار اشد شحوبا من وجوه الموتى، وراح يحدق في جثة (حسان) في رعب وذهول، قبل أن تتراخي أصابعه ويسقط التمثال الثقيل من يده إلى الأرض، ويصدر عن سقوطه دوى أيقظه من ذهوله، وجعله يغمغم في خفوت وارتياع:

- يا إلهي!!.. لقد قتلته!!

وتراجع في ذعر وهلع، دون أن يرفع عينيه عن الجثة، حتى تهاوى فوق مقعده، خلف مكتبه..

قتل شريك عمره..

قتل (حسان)..

يا إلهي!! كيف فعل هذا؟..

إنه يحتمله منذ سنوات..

يحتمل سخريته المتواصلة،..

واستهتاره الدائم به..

إنه ينظر إليه دوما على أنه شخص خامل، بليد، جبان..

إنه يسخر منه دوما..

ولكنه قتله..

لقد أصبح قاتلا..

إنه تماما كما قال (حسان)، لا يصلح لأداء أى عمل..

لقد صبر سنوات طوالا، وعندما فقد اعصابه مرة واحدة..

صار قاتلا..

والآن ماذا يفعل؟..

كيف يتخلص من هذا المأزق؟

لقد قتل إحسان) في مكتبهما، وكل العاملين بالمكتب هنا..

كلهم سيرونه حتما، لو حاول الفرار بالجثة..

كلهم سيدينونه بشهادتهم

وسيكون هناك تحقيق..

وسجن..

وفضيحة..

كلا.. إنه لن يحتمل..

وبأصابع مرتجفة جذب درج مكتبه، وتطلع إلى المسدس الرابض داخله في سكون..

إنه لم يستخدمه ابدا، منذ اشتراه..

لقد سخر منه (حسان)، عندما علم أنه قد اشترى مسدسا وقال له ضاحكا، إنه لن يجرؤ أبدا على حمله واستخدامه، حتى لو هدد لص حياته..

ومرة اخرى عاد يتطلع إلى جثة (حسان)..

ماذا يفعل بها؟

أفضل وسيلة هي أن يعترف بما حدث..

ولكن هل سيصدقونه؟....

وحتى لو فعلوا..

حتى لو برأته المحكمة..

هل سيبرئه الناس؟..

إنه يعرفهم.. سيظلون يشيرون إليه دوما بأصابع الاتهام وسيتحدثون فيما بينهم أنه قتل شريكه...

وستكسد تجارته وتبور..

ولن يحتمل ذلك..

يبدو أنه - كما قال (حسان) - لا يجيد أداء أي عمل..

إنه فاشل..

فاشل..

فاشل..

وفجأة، اتجه بصره نحو المسدس..

نعم.. هذا هو الحل الوحيد..

سيثبت لـ (حسان)، وللجميع انه ليس خائبا أو جبانا..

سيثبت له أنه يستطيع استخدام المسدس..

وفي حزم، قبضت أصابعه على المسدس، ورفعه إلى رأسه، وهتف في أعماقه:

- لست جبانا.. سأواجه الأمر في حزم..

ثم أطلق النار..

☆ ☆ ☆

انحنى الطبيب الشرعي يفحص إصابة راس (حسان) في اهتمام، ثم نهض واقفا، وهز راسه في اسف، ثم نقل بصره بين (رميح) و (حسان)، والتفت إلى وكيل النيابة، قائلا:

- من الواضح أنه قد لقي مصرعه على الفور.

تنهد وكيل النيابة، قائلا:

- هذا واضح لقد سمع موظفو المكتب صوت طلقة الرصاص، و...

بتر عبارته، وكأنه ما من داع لتكرار شرح الموقف، ثم رفع عينيه إلى الطبيب الشرعي، وسأله في اهتمام:

- هل يمكننا استجواب المسئول؟

هز الطبيب الشرعي كتفيه، وقال:

- المهم أن تعرف من هو المسئول..

ثم ابتسم ابتسامة باهتة، وغمغم:

- ولكنك ستجد من تستجوبه على الأقل..

وأشار إلى جسد (حسان) قائلا:

- فهذا مصاب بفقدان وعى فحسب، وإصابة رأسه بسيطة، ويمكنك استجوابه، فور استعادته وعيه.

ثم التفت إلى جثة (رميح)، مستطردا في حيرة:

- اما هذا فقد قتل نفسه برصاصة واحدة مباشرة في الراس، ولست أدري لماذا فعل هذا؟.. هل تعلم؟!

(تمت)

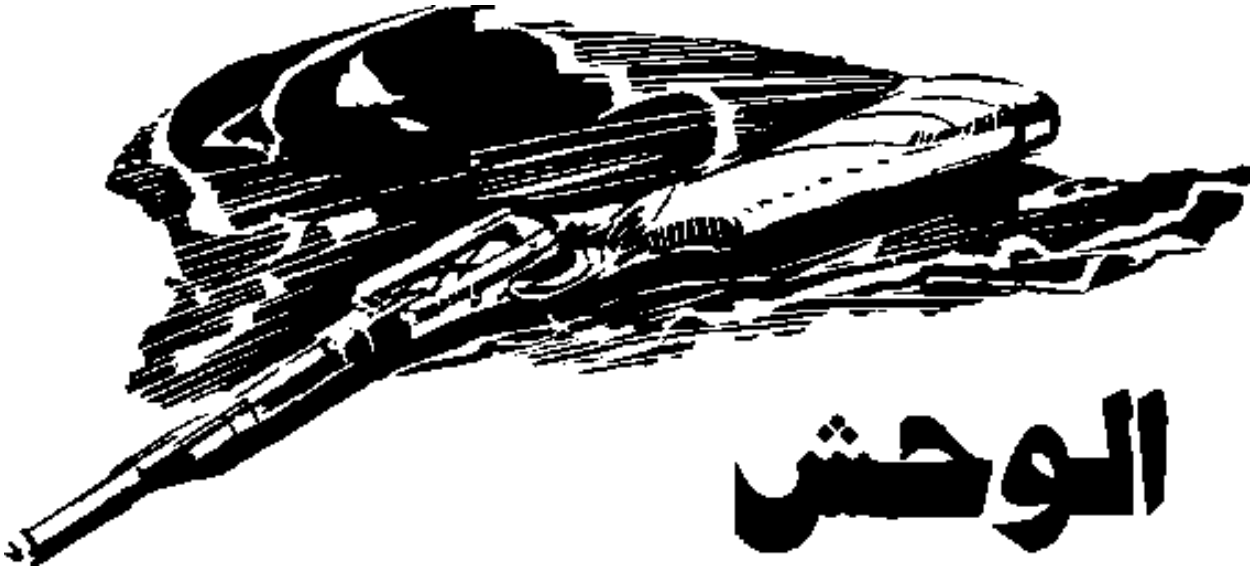

الوحش

10- الوحش..

سيقتله هذه المرة..

سيقتل الوحش..

امتلأت نفسه بهذه الثقة، وهو يقبع في ركن اختاره في دقة وعناية، ويصوب البندقية الضخمة إلى النقطة التي يتوقع ظهور الوحش منها..

لقد قرر أن يقتنصه هو هذه المرة..

إنه يعلم أن والده قد فشل في هذا مرتين..

ولكنه هو سينجح..

سيبذل أقصى جهده لهذا..

كم يكره ذلك الوحش!! الذي دأب على التهام أصدقائه بلا رحمة..

تصبب العرق على جبينه غزيرا، وبدت له البندقية شديدة الضخامة، بالغة الثقل، وهو ينتظر.. وينتظر.. وينتظر..

وفجأة ظهر الوحش..

ظهر يتهادى في مشيته كالمعتاد، ويحرك لسانه الأحمر بين أنيابه، وكأنها يعدّ نفسه لوجبة شهية جديدة..

وصوب هو بندقيته في إحكام..

وتجمد الوحش، وكأنها شعر بغريزته بما سيحدث..

ثم تراجع الوحش في سرعة..

وضغط هو الزناد..

وارتدت البندقية في عنف..

وارتطمت راسه بالحائط خلفه..

وفقد الوعي..

لم يدر كيف ظل فاقد الوعي، ولكنه عندما بدأ يستعيد وعيه، سمع صوت أمه تغمغم:

- لقد فعلها.. فعلها بنفسه..

انضم إليها صوت أبيه، وهو يتنحنح، مغمغمًا:

- نعم... لقد نجح فيما فشلت أنا فيه مرتين..

انتفخت أوداجه في فخر، وهم بالإعلان عن استعادته لوعيه، إلا أن كل هذه المشاعر لم تلبث أن زايلته بغتة، وحل محلها مزيج من القلق والخوف، عندما استطرد ابوه في غضب:

- صحيح أنه قد فعلها ونجح في مهمته، وصحيح أنه كان يحب تلك الدواجن، كما لو كانت اصدقاؤه، إلا أن هذا لا يمنع من انه قد ارتكب خطأً فاحشا، عندما أخذ بندقيتي دون إذني، واستخدمها ليقتل قطا دب على التهام دواجنه، فهذا لا يصح ابدا لمن كان في مثل سنه..

وصمت الوالد لحظة، قبل أن يستطرد في غضب أشد:

- إنه لم يتجاوز العاشرة من عمره بعد.

وقرر أن يتظاهر بالغيبوبة لأطول وقت ممكن، فيد والده ثقيلة للغاية..

(تمت)

الثمن

11- الثمن..

- الأفضل لك ان تعترف..

نطق النقيب (حسام) العبارة، بكل ما يملأ نفسه من صرامة وحزم، وهو يتطلع بنظرات نارية إلى الرجل الجالس أمامه، والذي هتف في مزيج من الدهشة والاستنكار:

- بماذا اعترف؟

أجابه (حسام) في صرامة:

- بأنك أنت أصبت الرجل..

زفر الرجل في يأس ومرارة، قبل أن يقول:

- أي رجل يا سيادة النقيب؟.. لقد ذكرت لك الحقيقة أكثر من مرة.. إنني لم أصب ذلك الرجل، ولم أره في حياتي من قبل..

قال (حسام) في لهجة صارمة، تحمل شيئا من السخرية:

- من صدمه إذن؟

هتف الرجل:

- وما شأني أنا؟.. لقد صدمته سيارة، وفرت هاربة بالتأكيد، وبينما كنت في طريقي إلى منزلى، رأيته ملقى وسط الطريق، ينزف الدماء، والسيارات تحرق إلى جواره في سرعة، ولا أحد يتوقف ليمد له العون، فأوقفت سيارتي، واسرعت احمله إليها، وانطلق إلى أقرب مستشفى لإسعافه، وهناك فوجئت بشرطي المستشفى يلقي القبض عليَّ، ويتهمني بإصابته.

قال (حسام):

- حسنا فعل.. لو لم يفعل لعاقبته..

هتف الرجل في حنق:

أية سخافة هذه.. أتلقون القبض على أي شخص ينقل مصابا إلى المستشفى؟

قال (حسام) في غلظة

- ناقل المصاب هو المشتبه فيه رقم واحد دائما..

صاح الرجل:

- أي قانون هذا؟.. إن مسبب الحادث يفر عادة، ومن ينقل المصاب إلى المستشفى يكون شخصا شهما، و...

قاطعه:

- لا مجال للشهامة هنا.. إنه القانون.

صرخ الرجل:

- مستحيل أن يكون القانون هكذا.

عقد (حسام) حاجبيه، وهو يهتف في غضب:

- هل ستعلمني القانون؟

ازدرد الرجل لعابه في توتر، وقال:

- كلا بالطبع، فأنت رجل شرطة، ورجال الشرطة هم خير من يعرف القانون..

ثم استدرك في حدة:

- ولكن المفروض انهم في خدمة الشعب..

عاد (حسام) يعقد حاجبيه في غضب صارم، وهو يقول:

- هل تشك في أننا كذلك؟

زفر الرجل مرة أخرى، وهو يقول في استسلام محنق، محاولا تجاوز الأمر:

- لست أشك مطلقا..

وزفر ثانية، قبل أن يسأل:

- والآن متى انصرف؟

اجابه (حسام) في برود:

- بعد عرضك على النيابة..

هتف الرجل في ذعر:

النيابة؟!.. لماذا؟.. لست مجرما

قال (حسام): - ولكن المصاب لا يزال فاقد الوعي، وأنت متهم بإصابته، لذا فمن الضروري عرضك على النيابة، لتقدير موقفها منك، فربما أفرجت عنك بكفالة، أو أمرت باستمرار حبسك..

صرح الرجل، وقد تضاعف ذعره:

- استمرار حبسي!! أهذا هو جزاء الشهامة في هذا؟!.. أتلقون القبض على؛ لأنني أنقذت رجلا كاد يلفظ أنفاسه الأخيرة وسط الطريق؟

قال (حسام) بتلك اللهجة الصارمة، الممتزجة برنة ساخرة:

- فلتدع الله الا بلفظ أنفاسه الأخيرة بالفعل، وإلا أصبحت التهمة الموجهة إليك هي القتل الخطأ..

جحظت عينا الرجل، وهو يهتف:

- قتل خطأ؟

ثم راح يصرخ في ثورة ساخطة:

- هذا ظلم هذا حرام.. ماذا تتوقعون أن يفعل المرء، عندما يجد مصابا يلفظ أنفاسه الأخيرة وسط الطريق؟.. هل يتركه يموت؟

قال (حسام) في صرامة:

- نعم.. يتركه..

ثم هتف:

- شاويش (حسن).

دخل الشاويش (حسن) إلى مكتبه، وهو يؤدي التحية العسكرية، فأشار (حسام) إلى الرجل، قائلا:

- خذه إلى (التخشيبة) يا شاويش (حسن).

صاح الرجل:

- هذا ظلم.. ظلم..

ظل يكرر الكلمة في مرارة، وصوته يبتعد، مع ابتعاده عن حجرة الضابط (حسام)، في طريقه مع الشاويش (حسن) إلى (التخشيبة)

في حين ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي (حسام)، وهو يقول:

- في المرة القادمة دع شهامتك جانبا، فهناك من يدفع الثمن حتما..

☆ ☆ ☆

انتهى عمله في ذلك اليوم، فغادر قسم الشرطة إلى منزله، وأبدل بثيابه الرسمية حلة أنيقة، وهو يمني نفسه بقضاء سهرة جميلة، مع خطيبته (ليلى)، وقد نسى كل شيء عن الرجل، وحادث السيارة، كما اعتاد أن ينسى متاعب عمله عند عودته إلى المنزل..

وبكل حرارة وحماسة، انطلق إلى منزل خطيبته..

وبينما كان يعبر الشارع، ارتفع صراخ بعض المارة، وتناهى إلى مسامعه صرير إطارات تحتك بالأرض في قوة..

ثم صدمته السيارة..

صدمته في عنف، فانتزعته من الأرض، وضربته في حائط مقابل، قبل أن يسقط وسط الطريق، ودماؤه تنزف في غزارة..

وفرت السيارة هاربة..

صحيح أنه التقط رقمها بعينين متهالكتين إلا أنه لم يلبث أن نسيه على الفور..

وحاول أن ينهض، ولكنه لم يستطع..

لقد تحطمت بعض عظامه حتما..

وراح ينزف الدماء وسط الطريق، والسيارات تمرق إلى جواره في سرعة، ولا أحد يتوقف لإنقاذه وإسعافه، أو حتى لنقله إلى أقرب مستشفى..

وبينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، تذكر الرجل، وحادث السيارة، وأدرك أن عبارته كانت سليمة تماما..

هناك من يدفع الثمن حتما..

(تمت)

إحتلال

12- احتلال..

هبّ رئيس الكتلة الشمالية من الكرة الأرضية، من مقعده في ثورة، وهو يرمي تلك الصورة الهولوجرافية المجسمة، الممثلة أمامه، لرئيس الكتلة الجنوبية، بنظرة نارية، قبل أن يهتف في غضب ارتجفت له حروف كلمات:

- أي قول هذا يا رئيس الجنوب؟!.. أتهددني باحتلال منطقة الوسط؟!.. أتحاول كسر اتفاقية الوفاق، التي وقعها أجدادنا منذ آلاف السنين، والتي تقتضي بترك منطقة الوسط محايدة؟!

أجابه رئيس الكتلة الأرضية الجنوبية في برود، وهو يحمل على شفتيه ابتسامة شبه ساخرة:

- لست أهددك أو أنذرك يا رئيس الشمال.. إنني ابلغك فحسب، فقد احتل جنودنا الآليون منطقة الوسط بالفعل، منذ لحظات..

اتسعت عينا رئيس الكتلة الشمالية، وهو يهتف:

- احتلوها؟!.. كيف؟!.. إن أقمارنا تراقب كل خطوة من خطواتكم، كما تراقبنا أقماركم، منذ عام سبعة آلاف وخمسين، فكيف؟

قاطعة رئيس الجنوب بنفس البرود:

- لقد ابتكر علماؤنا فيروسا إلكترونيا رائعا، أصاب اقماركم الراصدة بارتباك ليزيرى، جعلها تعيد المشاهد التي رصدتها منذ عام كامل، وتهمل رصد الأحداث الجديدة..

ثم اتسعت ابتسامته، وحملت الكثير من الشماتة، وهو يضيف:

- ولقد انتهى الأمر يا عزيزي، وصارت منطقة الوسط ملكنا..

صرخ رئيس الشمال في ثورة:

- جنون هذا جنون حقيقي.. انت تعلم أنك ترتكب أكبر أخطاء التاريخ بفعلتك هذه.. هل ترى هذا الزر الأصفر الصغير على مكتبي؟.. كلانا يعلم أنه يتصل مباشرة بقواعدنا الفضائية، وصواريخنا ذات الرءوس النووية الأيونية المهلكة، ومدافع الليزر الفاتكة، وبضغطة مني تصبح كتلتكم أثرا بعد عين.

ابتسم رئيس الجنوب في سخرية، وهو يقول:

- أنت تعلم مثلي أن هذا مجرد تهديد اجوف يا عزيزى رئيس الشمال، فأنا أيضا أملك زرا اصفر على مكتبي، ولكن أقمارنا وأقماركم يرصد بعضها البعض طيلة الوقت، ولو ضغطت انت على زرك الأصفر، فسينضغط زري الأصفر تلقائيا، وتنطلق كل الصواريخ، وكل مدافع الليزر، فيباد العالم كله في لحظات.. كرتنا الأرضية كلها ستتحول إلى رماد ولن تقدم ابدا على هذا الانتحار الجماعي..

شحب وجه رئيس الشمال، وتهاوى فوق مقعده الهوائي، ورئيس الجنوب يستطرد في شماتة، وصورته الهولوجرافية تتلاشى في بطء:

- لقد درسنا الأمر يا رجل، وأدركنا أنك لن تضغط الزر الأصفر أبدا.. أبدا.. أبدا..

تلاشت صورة رئيس الجنوب تماما، فهتف رئيس الشمال في حنق ومرارة:

- اللعنة!!

وضغط زرا احمر اللون، فارتسمت في منتصف الحجرة صورة هولوجرافية لمنطقة الوسط، وقد احتلتها جنود الجنوب الآليون، فضغط رئيس الشمال الزر مرة أخرى، لتتلاشى الصورة، ونهض من مقعدة الهوائي، وراح يذرع الحجرة في غضب، هاتفا:

- فعلها رجال الجنوب الأوغاد.. احتلوا منطقة الوسط.. سبقونا بيوم واحد.. كنا سنحتلها نحن غدا..

دلف إلى حجرته، في هذه اللحظة، معاونه الشاب، وقال في هدوء:

- ما الذي يغضبك هكذا يا سيدي؟

هتف رئيس الشمال:

- أقبل يا معاوني الأول.. لقد احتل رجال كتلة الجنوب منطقة الوسط لقد فعلوها قبل أن نفعلها نحن بيوم واحد.. كيف علموا خطتنا البالغة السرية؟.. كيف عرفوا شفرة الإدخال في أقمارنا الراصدة ليدفعوا إليها فيروسهم الإلكتروني؟

أخرج المعاون الشاب من جيبه مسدسا أيونيا، صوبه إلى رئيسه، وهو يقول:

- انا اعلم كيف!

اتسعت عينا رئيس الشمال في ذهول، وتراجع كالمذهول، هاتفا:

- أنت؟!.. انت الخائن؟

ثم قفز نحو مكتبه، مستطردا في غضب هائل:

- ولكنك لن تفلح.. لن يفلح أحد.. سأضغط الزر الأصفر..

قبل أن تبلغ سبابته الزر، تألقت الحجرة بضوء أرجواني، انبعث من مسدس المعاون الشاب، وغمر جسد رئيس الشمال، والذي تألق في شدة، ثم استحال في غمضة عين إلى كومة رماد، نثرها المعاون بقدمه، وهو يضغط زر اتصال آخر، برزت على إثره صورة هولوجرافية لرئيس كتلة الجنوب، الذي قال في برود:

- ماذا تريد؟

اجابه المعاون الشاب في ابتهاج:

_ لقد نفذت المهمة يا سيدى قتلت الرئيس..

قال رئيس الجنوب بنفس البرود:

- أحسنت.. ستحصل على اجرك كاملا، بالعملات الدولية..

ارتبك المعاون، وهو يقول:

- أجري؟!.. ولكن لقد وعدتي يا سيدي.. ألم تعدني برئاسة منطقة الوسط، و

قاطعة رئيس الجنوب في برود صارم:

- لقد اديت مهمتك، وستحصل على أجرك فحسب..

وعلى الفور، تلاشت الصورة المجسمة من هواء الحجرة فامتقع وجه المعاون الشاب، وتراجع مغمغمًا في ارتياع:

- اجرى؟!

ثم انهار على مقعد رئيس الشمال الراحل، ودفن وجهه في راحتيه، مرددا:

- لقد خسرت كل شيء، خسرت كل شيء.. لقد خدعني الجميع..

وفي غمرة يأسه، وشعوره بالمرارة والخيانة، وقع بصره على الزر الأصفر..

واتجه بكل تفكيره ورغبته في الانتقام إليه..

واتخذ قراره الحاسم..

(تمت)

الوداع

13- الوداع..

جففت (هدى) دموعها، وهي ترقد في فراشها، وتحتضن صورة خطيبها (عادل) الذي ودعته منذ ساعات،، وهو يستقل الطائرة في طريقه إلى الولايات المتحدة الأمريكية..

لم تكن تحتمل فكرة فراقهما، طيلة شهور ثلاثة، هي المدة التي سيقضيها (عادل) في عمله هناك..

كانت تحبة..

تحبه بحق..

منذ عرفته، وهي تذوب حبًا له، على الرغم من أنه لم يبح لها بحبه على نحو صريح قط..

طوال عام كامل من خطبتهما، لم ينطق بكلمة حب واحدة..

كانت ترى هذا الحب في عينيه.

في كلماته..

في لمساته..

كانت تشعر به في كل تعاملاته معها..

ولكنها لم تسمع منه كلمة حب أبدا..

هكذا هي طبيعته..

هادىء رصين، خجول..

ولهذه الصفات تحبه..

راحت تسترجع لحظات وداعهما، عندما احتوى كفها بين راحتيه، واحتضنه بهما في حنان، ثم تطلع إلى عينيها طويلا، دون

أن ينبس ببنت شفة، ثمّ ذهب إلى حيث تقبع طائرته..
وانطلق..
حتى في لحظة الوداع لم ينطقها..
لم ينطق كلمة حب تشتاق لسماعها من شفتيه..
وأسبلت جفنيها، وهي تحتضن صورته في حب ونامت..
لم تدر كم نامت، ولكنها شعرت فجأة بضرورة أن تستيقظ..
وعندما فتحت عينيها، رأته أمامها..
(عادل) بنفسه..
بوجهه الوسيم ونظراته الحانية..
كان ينحني نحوها كعادته، وعيناه تحملان نظرة حب وحنان..
وكان مبتلا..
هكذا خيّل إليها..
كانت خصلات شعره ملتصقة بجبينه كما لو أنه قد انتهى من الاستحمام على التوّ..
وحاولت أن تبتسم..
أن تهتف بدهشة لعودته..
ولكن لسانها كان ثقيلا.
وجسدها كان أثقل..
بدت كما لو أن طنًا من الفولاذ يجثم على أنفاسها..
ولم تملك سوى التطلع إليه..

وفتح هو شفتيه، وقال بصوت عميق:

- احبك يا (هدى)

اختلج قلبها في قوة....

نطقها أخيرا..

نطق كلمة الحب..

اغرورقت عيناها بدموع السعادة، وهي تتطلع إليه، فاستطرد في حب وحنان:

- لا تبكي يا (هدى).. لا تبكي أبدا.. دموعك تؤلمني.. لا تبكي..

وفجأة ارتفع رنين الهاتف المجاور لفراشها..

واختفى (عادل).....

حدقت أمامها في دهشة، وأيقنت من أنها كانت تعيش حلمًا جميلا، وهي تلتقط سماعة الهاتف، وتقول في صوت متناوم:

- من؟

أتاها صوت يقول في حزن:

- (هدى).. لقد سقطت طائرة (عادل) في المحيط.. سقطت وغرق كل ركابها يا (هدى)..

خيّل إليها أن قلبها قد توقف عن النبض، واتسعت عيناها في ذعر وذهول، وتجمعت فيهما دمعة هائلة، اختنقت بين جفنيها، كما اختنقت تلك الصرخة في حلقها..

سقطت الطائرة؟!..

غرق كل ركابها؟!.

وفجأة وقع بصرها على بقعة المياه، التي تبلل أرضية الحجرة، إلى جوار فراشها تماما..

بالتحديد عند النقطة التي كان يقف فيها (عادل) منذ لحظات، بخصلات شعره الملتصقة بجبينه وفي بطء، أعادت (هدى) سماعة الهاتف..

وبسرعة جفت تلك الدمعة في عينيها..

إن دموعها تؤله..

هو نفسه أخبرها ذلك، مع كلمات حبه..

في لحظة الوداع..

(تمت)

الثـأر

14- الثأر..

انكمش (هريدي) في مقعده، في ركن ذلك المقهى الصغير، في قريته، الرابضة في حضن الجبل، في أعماق الصعيد، وهو يستمع إلى حكايات رواد المقهى، عن بطولات شبابها، الذين ثاروا لقتلاهم، عبر تاريخ القرية الطويل، والذين حملوا السلاح، وأطلقوا الرصاص على القتلة بلا تردد..

كان يعلم كغيره أن تلك البطولة الزائفة قد كلفت أصحابها الكثير، وأنها قد ألقت ببعضهم خلف القضبان، لمدد تتجاوز أصابع اليدين، والقت بالبعض الآخر لمدد تزيد على عدد أصابع الجسم كله، في حين تدلي من أجلها البعض في حبل المشنقة..

وكان يعلم أن الثأر قد حرم القرية خيرة شبابها، على مر الزمن..

إلا أنه كان يشعر بالخزي والعار..

كان محروما من البطولة..

ومن الثأر.

لم يكن في عائلته كلها ثأر يستوجب السعي خلفه، والأخذ به..

لم يكن هناك أمل واحد في البطولة..

كم حلم (هريدي) بأن يثأر من شخص ما، من أجل شيء ما، حتى يوضع اسمه في سجلّ الأبطال، وتتحدث القرية كلها عنه، في مجالس المقهى، والمجالس الخاصة..

لابد له من ثأر..

أى ثار..

وفجأة برزت في رأسه الفكرة..

برزت صورة والده المشلول..

ها هو ذا ثأر يلوح في الأفق..

إنه يذكر في سنوات طفولته الأولى، أن والده كان سليما معافى..

ثم انطلقت رصاصة طائشة من بندقية ما، وأصابت عموده الفقري..

ومن يومها ووالده مشلول..

سيثأر له...

هذا هو الثأر.. نهض من مقعده في حزم، وارتفعت هامته في اعتداد، وهو يتجه إلى منزله في خطوات سريعة، ويحمل بندقيته، التي دفع ثمنها عشرة قراريط كاملة من ارضه، ثم يتجه إلى منزل أبيه.

لابد أن يعلم من اصاب والده بالشلل..

لابد أن يثأر له..

ولم يكد يلج منزل والده، وبندقيته معلقة خلف كتفه، وعيناه تبرقان بذلك البريق، حتى توجست أمه خيفة، فسألته وقلبها يرتجف مع صوتها:

- عم تبحث يا (هريدي)؟!

اتجه إليها، وهو يقول في حزم:

عن الثأر يا أماه..

سألته في جزع:

- أي ثأر يا ولدي؟ ليس لعائلتنا ثار في أية جهة..

هتف في صرامة:

- ثأر ابي يا أماه..

رددت خلفه في دهشة وحيرة:

- ثأر ابيك؟!.. ولكن اباك حي برزق.

صاح في حدة:

- أثأر ممن اصابه بالشلل.. سأقتل الفاعل..

انقبض قليها في قوة وخوف وهي تقول:

رويدك يا بني هذا أمر قديم قدم الدهر، ووالدك لم يطلب ثأرا.

صاح هادرا:

- ولكنني أنا أطلب الثأر يا أماه..

انكمشت في رعب، وهي تقول:

- صدقني يا ولدي، من فعل بوالدك هذا لم يكن يقصد اصابته.. لقد كان يعبث بالبندقية، فانطلق منها عيار طائش، و...

قاطعها في ثورة:

- سيدفع الثمن.

ازداد انكماشها ورعبها، وهي تقول:

- لا يا ولدي.. لا أحد يطلب الثأر..

هتف في قسوة:

- أخبريني من فعلها يا أماه.. أخبريني وأقسم أن أقتله، حتى ولو كان حتى ولو كان..

صوت لحظة، قبل أن يضيف في وحشية:

- حتى ولو كان أنتِ.

انكمشت تماما في رعبه هائل، وهي تقول، وقد انهمرت دموعها في غزارة:

- لم يكن ذلك متعمدا يا ولدي.. اقسم لك.. حتى والدك لم يحمل في نفسه أية ضغينة للفاعل..

أمسك معصمها في قوة، وهو يهتف:

- من فعلها يا أمي؟.. من فعلها؟

انحنت أمامه، تقول في ضراعة:

- لا يا ولدي.. لا تفعلها..

صرخ:

- من فعلها؟

ثم اتسعت عيناه وهو يستطرد:

- أهو انت يا أماه؟ أنت فعلتها؟!

هتفت في هلع:

- لا، لست أنا..

ثم خفضت عينيها، وعادت الدموع تنهمر منهما في غزارة، وهى تستطرد:

- إنه انت.

ومن يومها، لم يعد (هريدي) إلى حمل بندقيته أبدا..

ولم يجلس في المقهى بعدها قط..

أو يبحث عن الثأر.

(تمت)

من
الذاكرة

15- من الذاكرة..

فجأة وجد نفسه هكذا..

ملقى وسط طريق خال من المارة تحت الأمطار..

تطلع حوله في حيرة، قبل أن ينهض واقفا، ويدير عينيه في المكان في دهشة..

أين هو

ما الذي أتى به إلى هنا؟

ما الذي يفعله في هذا المكان..

كلها أسئلة ملأت راسه في إلحاح..

ولكن دون جواب..

راح يعتصر ذهنه، محاولا استدرار ذاكرته وذكرياته..

إنه يذكر تواجده في مكان يزخر بالألات..

وعدد هائل من الأرقام تتراص امامه..

وعشرات يلتفون حوله..

ثم لا شيء..

إنه يذكر كيف أمروه بالذهاب إلى السيارة، فذهب إليها، و..

وهنا ينتهي كل شيء..

هنا تتوقف ذاكرته..

أين ذهبت؟!

ماذا أصابها!!

إنه لا يذكر حتى من هو، ولا ماذا يعمل!!

لمح من بعيد بقعة ضوء، فراح يقطع الطريق نحوها في حيرة، حتى استبانت له ملامحها..

إنها واحدة من استراحات الطرق الصحراوية..

مبنى واحد يجمع ما بين مطعم انيق، ومقهى مبتكر، ومحطة لخدمة السيارات، وتموينها بالوقود والزيوت والشحوم الخاصة..

وراح يتطلع إلى الجالسين..

ثم مال يتطلع إلى وجهه الذي انعكست صورته على زجاج سيارة متوقفة على جانب الطريق..

إنه حتى لا يذكر هذا الوجه..

إنه يشبه كل الجالسين، على الرغم من أنه يشعر في أعماقه أنه يختلف عنهم..

ولكن فيم يختلف..

هذا ما عجز عن فهمه تماما.

وفي حيرة وارتباك، اتجه نحو المقهى، وجلس، واتت المضيفة إليه، تسأله بابتسامة عذبة:

- ماذا تطلب؟

لم يدر بم يجيبها!!..

ماذا يطلب؟!..

يا له من سؤال؟!..

إنه لا يفهم حتى ما الذي ينبغي طلبه..

ذاكرته خالية تماما، كورقة بيضاء..

وتطلع إليها، يسألها:

- وماذا ينبغي أن أطلب؟

رآها تتراجع في دهشة حادة، وخيل إليه أن صوته أكثر رنينا من صوتها، وأكثر ارتفاعا، ورجّح أن هذا ما أدهشها حتما، وما جعلها تحدق في وجهه طويلا، قبل أن تقول في خفوت:

- أظنك تحتاج إلى مشروب دافئ!

لم يعترض..

فقط جلس ينتظر عودتها بذلك المشروب الدافئ، وهو يواصل مساعيه لاستعادة ذاكرته..

وراها تتجه إلى الهاتف، وأصابعها تضغط ازرار رقم بدا له مألوفا، وشاهدها تخفي البوق بكفها عنه، وهى تتحدث في الهاتف في انفعال ملحوظ، وبهمس شديد الخفوت..

وأدرك أنها تتحدث عنه..

وجلس ينتظر دون خوف أو قلق..

وتطلع في خواء إلى نتيجة الحائط المضيئة، التي تشير إلى أن الزمن هو السابع من فبراير، عام ألفين وعشرة، وإلى ذلك الشعار فوقها، الذي يؤكد أن الدولة التي ينتمي إليها تدعى (مصر).. ثم انتبه إلى سيارة كبيرة توقفت إلى جوارها وهي تحمل على بابها شعارا مميزا، بدا له مألوفًا ايضا، هو ووجها الرجلين، اللذين

هبطا من السيارة، وراحا يتطلعان إليه، قبل ان يزفر أحدهما في ارتياح، ويميل نحوه، قائلا:

- اخيرا عثرنا عليك إنك مفقود منذ أمس.

تطلع إلى الرجل في لهفة..

إنهما يعرفانه إذن..

أخيرا وجد من يخبره عن هويته..

من يرشد إلى ذاكرته الضائعة..

ورأى الرجل الآخر يميل نحوه، ويفحص بقعة معينة في رأسه، قبل أن يتمتم:

- كما توقعت.. إنه خلل بسيط..

وضغط الرجل تلك البقعة في رفق..

ولحظتها استعاد هو كل ذاكرته..

أو على وجه الدقة أدرك أنه لم يفقد ذاكرته، لأنه لم يحصل عليها بعد

لابد من برمجتها في أجهزته أولا.

لأنه ليس بشريا..

إنه شخص آلي..

آلي تماما..

(تمت)

الضعيف

16- الضعيف..

الجميع يسخرون منه..

من قامته الضئيلة، واطرافه الهزيلة..

كل زملاء كليته ينظرون إليه كشاب ضعيف واهن..

صحيح انه متفوق في دراسته إلى حد يثير الحسد..

وصحيح أنه ذكي لامع..

إلا أنه دوما مثار سخريتهم..

فقط لأنه ضعيف..

والعجيب أنه لم ينطو على نفسه لفعلتهم هذه، ولم يفقد ثقته بنفسه أبدا، بل على العكس، بدا دوما هادئا، مبتسما، وكأنما يدرك وحده أنه يفوق الجميع..

ولكن ضعفه كان واضحا للأعين، وكذلك كانت قامته الضئيلة، التي تكاد تختفي في مقعد القيادة، وهو يقود سيارته الصغيرة، التي تتناسب مع حجمه..

لم يفقد ثقته بنفسه إلا مرة واحدة..

عندها أحب..

كانت الفتاة التي أحبها واحدة من أجمل فتيات الكلية، وأكثر من جاذبية، حتى انه شعر بقلبه يميل إليها في شدة.. ولم يتردد في مفاتحتها في الأمر..

لقد اتجه إليها مباشرة، وأعلن لها حبه، ورغبته في الارتباط بها..

ولكنها ابتسمت في مزيج من السخرية والإشفاق، وهي تخبره أنها لم تفكر بعد في الارتباط..

ولكنه قرأ الجواب الحقيقي في عينيها..

إنها مثلهم جميعا..

إنها تراه ضعيفا هزيلا..

آه لو يعلمون!!..

آه لو يعرفون أنه يفوقهم جميعا!!..

وفي حزن اتجه إلى سيارته، وانطلق بها..

كانت هذه عادته، كلما شعر بالحزن أن ينطلق بسيارته في الطريق الصحراوي بلا هدى..

وبينما هو ينطلق بالسيارة شارد الذهن، جاورته سيارة نقل هائلة، ذات مقطورة ضخمة، وأراد سائقها أن يتجاوزه في سرعة..

ولكن فجأة أختلت عجلة القيادة في يد سائق سيارة النقل، فمالت السيارة بحجمها الهائل على سيارته الصغيرة..

وكان من الواضح أن السيارة الضخمة ستسحق الصغيرة بقائدها.

ولكنه لم يهتم، أو تهتز في جسده شعرة واحدة..

لقد تلّفت حوله في سرعة، ليتأكد من أن أحدا لا يراه، ثم مد يده من نافذة سيارته، ودفع سيارة النقل بعيدا في بساطة، كما لو كان يدفع لوحا من الخشب، ينزلق على عجلات مرنة..

وأصيب قائد سيارة النقل بالذهول أمام المشهد..

وتصور انه قد أخطأ رؤية ما حدث..

اما هو، فقد انطلق بسيارته الصغيرة، وقد عاوده شروده، وفي رأسه تدور العبارة نفسها..

آه لو يعلمون!!

(تمت)

أصغر مسرحية في الكون ..

17- أصغر مسرحية في الكون..

الفصل الأول:

هو – أحبك.

هي – أعشقك.

الفصل الثاني:

هو – أحبك.

هي - وأنا أيضًا.

الفصل الثالث:

هو – أحبك.

هي - تحشم يا رجل.. لم يعد عمرنا يناسب هذا..

- ستار -

الخلود

18- الخلود..

أخيرا سيتوصل إلى السر..

سر الخلود..

عشر سنوات كاملة، وهو يعمل ليل نهار، ويجرى تجاربه بلا انقطاع، منذ عثر على تلك البردية القديمة، التي تحمل سر الخلود..

معادلة كيميائية فرعونية ناقصة، احتاجت منه عشر سنوات كاملة، حتى توصل إلى إكمالها..

مازال يذكر نص البردية القديمة:

- اشرب هذا المزيـج يا بن الآلهة، وسيمنحك الإله خلودا..

ثم معادلة كيميائية احترق طرفها، وتحتاج إلى دراسة طويلة لعلم الكيمياء الفرعوني، واللغة الهيروغليفية، وإلى عشرات ومئات التجارب والمحاولات..

وهو يثق كثيرا في كهنة الفراعنة..

ما داموا يقولون إن المزيـج يمنح الخلود، فهو يمنحه ولا شك..

راح ينابع غليان ذلك السائل الوردي، في دورقه الشفاف، وقلبه يخفق في قوة..

لقد اقترب موعد تحقيق الحلم..

سيحصل على اكسير الخلود..

وفجأة جال بخاطره ما لم ينتبه إليه طيلة السنوات العشر السابقة..

لماذا لم يحصل أحد هؤلاء الفراعنة القدامى على الخلود، ما داموا قد توصلوا إلى صنع أكسيره؟!..

ضرب رأسه بكفه في قوة، وهو يهتف:

- يا لى من غبي.. لا ريب أنهم قد حصلوا على الخلود، ولكنهم لن يكشفوا أمرهم أبدا.. سيحتفظون بذلك سرا.. من أدراني أنهم لا يعيشون بيننا الآن، وأن أعمار بعضهم قد تبلغ الاف السنين..

ابتسم في ارتياح، عندما بلغ هذه النقطة..

بالتأكيد إنهم حولنا، ولكنهم يخفون أمرهم، ويحرصون على هذا..

هو نفسه سيخفي السر بقدر استطاعته، ولن يسمح لمخلوق بمعرفته..

لقد حرص على هذا حتى انه لم يسجل معادلته أبدا، بل أحتفظ بها في المكان الوحيد، الذي لا تتعرض فيه للسرقة..

في ذاكرته وحده..

وخفق قلبه مرة أخرى في عنف، عندما بدا المزيج الوردي في الغليان، وتحول لونه إلى البنفسجي، فالأزرق، ثم تصاعدت منه فقاعات ذهبية صغيرة انعكست عليها أضواء المعمل، فبدت كعشرات الشموس السابحة في الفضاء..

واختطف الدورق في لهفة، وصب بعضه في كوب صغير، وهو يهتف:

- لقد حصلت عليه حصلت على الخلود..

وبلا تردد شرب السائل كله..

وفجأة شعر بالتحول..

تحول هائل قوي عنيف..

واتسعت عيناه في رعب..

وحاول أن يبلغ الدورق، فارتطمت يده به، وسقط يتحطم على ارض المعمل..

وأدرك اخيرا سر الخلود..

أدركه بعد فوات الأوان..

وراح الأكسير يعمل، ويعمل..

وفي الصباح التالي، وعندما دلف عامل النظافة إلى المعمل، كانت هناك سحب خفيفة تنتشر في جوه، ففتح العامل النافذة لتهوية المكان وتطلّع في حيرة إلى تمثال من الحجر، يشبه العالم الذي يعمل في العمل تماما، وتساءل العامل عن سرّ وجود هذا التمثال، المصنوع من حجر قوى كتماثيل الفراعنة، ثم لم يلبث أن نفض دهشته وتساؤلاته، وهو يغمغم:

- يا لجنون العلماء!!..

ولم يتصور أبدا أن هذا التمثال، المصنوع من مادة خالدة، غير قابلة للكسر، كان ذات يوم ينبض بالحياة..

بحياة عالم قضي عشر سنوات من عمره، يبحث عن الخلود..

ونال ما سعى إليه..

(تمت)

البطل

19- البطل..

كان ذلك الزقاق مظلما على نحو مخيف، حتى أن ركبتي (فتحي) راحتا تصطكان في قوة، وهو يعبره، في حين راح يلعن ذلك الملل، الذي دفعه إلى إبدال مساره المعتاد) الذي يقطعه يوميا، منذ ثلاث سنوات، عائدا من عمله إلى منزله..

وفي تلك الساعة المتأخرة، بدا له كل شيء مرعبا..

الظلال التي تلقيتها صفائح القمامة..

صوت الحشرات..

حفيف أوراق قديمة، تطيرها النسمات..

كل شيء بدا له مخيفا..

وفجأة سمع صوتا يأتي من خلفه..

وتجمدت أطرافه وهمس في صوت مرتجف:

- من. من هناك؟

وتحرك شيء ما في عنف..

ولم ينتظر (فتحى)..

انطلق يعدو كالصاروخ، وقد صور له رعبه ذلك الشيء شبحا رهيبا، أو جنيا مخيفا..

وعبر الزقاق كله في عدد محدود من الخطوات، بالسرعة التي ينطلق بها..

وفجأة، ومع وصوله إلى نهاية الزقاق، ارتطم بشخص ما في قوة، وسقط معه ارضا..

وسمع ذلك الشخص يطلق سبابا بذيئا، ورآه يستل مدية كبيرة، فقفز محاولا الفرار، إلا أن قفزته جاءت ضعيفة، فتعثر، وسقط فوق ذلك الشخص مرة أخرى، وسمعه يشهق في ألم، ثم تخمد حركته..

وفجأة هتفت سيدة:

- أيها البطل لقد أنقذتني من ذلك اللص الوضيع..

وهتف رجل:

أنت أشجع من رأيت في حياتي كلها..

وفي الصباح التالي، كانت صوره تتصدر الصحف، مع وصف مستفيض لشجاعته وجرأته، وذلك الأسلوب البطولي، الذي واجه به أحد المجرمين الخطرين على الأمن، عندما حاول هذا الأخير سرقة سفير دولة عربية صديقة وزوجته بالإكراه.

وراح الجميع يهنئونه على شجاعته وبطولته، واكتفى هو بابتسامة هادئة، زادت من احترام الجميع له، ومنحته مظهر بطل اعتاد البطولة..

أما في أعماقه، فقد كانت هذه الابتسامة تحمل هيئة ضحكة ساخرة كبيرة، فهو وحده يعرف حقيقة البطل..

ولكنه لم يكشف السر ابدا..

لقد احتفظ به في أعماقه، مع قرار حاسم، اتخذه بعد ذلك الحادث مباشرة.

لقد قرر الا يعبر ذاك الزقاق المخيف..

لن يعبره مرة ثانية..

أبدا..

(تمت)

من الذاكرة

20- القانون..

انفطر قلبها في أسى ولوعة، وخيل إليها أنه ينتزع من بين أضلاعها، مع انتزاع الطبيب لتذكرته الطبية في ذلك الدفتر الأنيق، الذي يحمل اسمه في كل صفحاته، ومناولتها إياها، وهو يقول في لهجة رجل عملى، لم يعد لديه وقت للعواطف او المشاعر:

- من الضروري أن تبتاعي هذا الدواء اليوم، وإلا فسيحيا ابنك بعاهة مستديمة مدى الحياة..

القت نظرة بلا معنى على التذكرة الطبية، وهي تغمغم:

- هل يتكلف الدواء كثيرا؟

اجابها في ضجر:

- سلي الصيدلاني..

ثم هتف ينادي مساعده:

- المريض التالي يا عبده.

خفضت وجهها في استسلام وانكسار، وحملت ابنها الهزيل، ذا الأعوام الستة، وغادرت باب العيادة الفاخر، وقلبها نهبة للحزن والحيرة..

إن الذي تحمله هو ابنها الوحيد، لم تنجب سواه في عمرها، ولا أمل لديها في أن تفعل، فلقد أستأصل الأطباء رحمها مع مولد هذا الابن، بسبب خطا طبيب ناشئ، حاول أستاذه تدريبه على أسلوب جديد للتوليد، فكان من نصيبها أن يثقب الطبيب

الناشئ رحمها، ثم ينقذها أستاذه من الموت باستئصال وعاء الإنجاب الوحيد في جسد أية امرأة..

وبعدها القى زوجها، العامل الأجرى الصغير مصرعه، عندما سقط من الطابق الرابع في منزل تحت الإنشاء، كان يعمل فيه عامل بناء..

ومنذ ذلك الحين وهي تكافح لتحيا..

ولكن نوائب الدهر لم ترفع يدها عنها بعد..

ها هو ذا ابنها الوحيد يصاب بمرض عضّال، يهدده بعاهة مستديمة، وها هي ذي تقف عاجزة عن إنقاذه..

وتوقفت مترددة أمام صيدلية كبيرة، ثم دفعت قدميها دفعا لتخطو داخلها، وامتدت يدها إلى الصيدلاني بالتذكرة الطبية، وهي ترتجف في توتر، فالتقطها منها الصيدلاني البدين، وقلب شفتيه امتعاضا وازدراء، وهو يتأمل مظهرها الرث، ثم أعادها إليها قائلا في برود:

- هذا الدواء يتكلف أربعين جنيها..

ارتجف كل عرق في جسدها، عند سماع المبلغ..

اربعون جنيها؟!..

إنها لم تربح في عمرها كله مثل هذا المبلغ..

ولكن ماذا تفعل؟..

أتترك وحيدها يواجه مصيره المظلم؛ لأنها لا تملك مالا؟..

إنها حتى لا تملك حسنا، لتراودها فكرة الاتجار بنفسها لشراء الدواء..

لا تملك حتى القوة للمزيد من العمل..

وفي صوت خافت منكر، غمغمت:

- الا يمكنك ان..

ولكنه لم ينتظر ليستمع إليها..

لقد فارقها ضجرا، ليلبي طلب تلك السيدة المكتظة، التي تطلب شراء دواء لإنقاص وزنها، يبلغ ثمنه ضعفي ثمن الدواء الذي يحتاج إليه الابن المسكين..

وغادرت الصيدلة كطير ذبيح، وارتكنت إلى بابها تبكي في مرارة، وهي تحمل ابنها على كتفها، والتذكرة الطبية في يدها..

وفجأة، دس أحدهم في يدها ورقة مالية، جفت دموعها، وهي تتطلع إليها في دهشة، وارتجف قلبها وهي تتصور ما حدث..

لقد طن الرجل أنها تتسول، فمنحها ذلك الجنيه..

تتسول؟! يا له من عار!

إنها لم تكن لتفعل هذا أبدا..

ولكن ماذا تفعل سواه؟!..

عادت تستعرض موقفها كله ثم ضمت ابنها إلى صدرها في إشفاق ولوعة وراحت أعماقها تصارعها..

ولم لا تتسول؟!

ولم لا تقبِّل الأقدام أيضا من أجل وحيدها؟!..

وفي حياء تمتمت:

- حسنة لله..

خيل إليها أن أحدا لم يسمع صوتها، فرفعت عقيرتها قليلا:

- اريد شراء دواء لذلك الطفل اليتيم.

تطلع إليها بعض المارة في إشفاق، وابتسم آخرون في سخرية وخبث، واقترب كهل منها، ودس في يدها ورقة مالية كبيرة..

وفجأة، هوت على كتفها يد قوية غليظة، وارتفع من خلفها صوت صارم يقول في قسوة:

- ماذا تفعلين يا امرأة؟

انكمشت في رعب، والتفتت إليه بعينين هلعتين وجسم مرتجف، وأرعبتها تلك الصرامة البادية في ملامحه، وهو يستطرد:

- الا تعلمين أن التسول يخالف القانون؟!..

أرادت أن تشرح له موقفها، وأن تريه التذكرة الطبية، إلا أن الرعب والرهبة الجماها، فبقيت صامتة مستسلمة ا

في حين قال أحد المارة في إشفاق:

- دعها ترتزق يا (شاويش)..

وأضافت سيدة:

- ربما كان ابنها مريضا حقا..

صاح (الشاويش) في صرامة لا تقبل الجدل:

- وليكن.. القانون هو القانون..

وتأوه ابنها ألما، وزادت هي في ضمه إلى صدرها، ولم تنطق بحرف واحد، وقد سالت دموع اليأس والمرارة على وجهها وهي تسير أمام الشرطي إلى قسم الشرطة في استسلام تام..

الآن فقط أدركت ماهية القانون..

قانون الأقوياء..

(تمت)

القــوة

21- القوة..

هبّت العاصفة في المنزل لقد ثار رب الأسرة، (إبراهيم زكريا) على زوجته وأولاده، عندما استيقظ في الصباح، ولم يجد خفه المنزلي إلى جوار فراشه كالمعتاد..

وراحت زوجته تهدئ من روعه، وتلتمس شتى الأسباب والمعاذير، لتبرر له عدم وجود خفيه، متعللة بان ابنه الأكبر قد استعارها لحظات، ليذهب إلى دورة المياه، ثم يعيدهما قبل استيقاظ والده، وأنه هو الذي استيقظ قبل موعده، و...

ورماها (إبراهيم) بنظرة صارمة قاسية، جمدت الدماء في عروقها، وحبست الكلمات في حلقها، فانكمشت ترتعد، وتركته يفرغ ثورته في وجوه أبنائه..

ولزم الجميع الصمت في هيبة وخوف، حتى فرغ (إبراهيم) من ثورته، ثم صاح في وجه زوجته:

- الشاي.. أريد قدح الشاي.. لقد اقترب موعد ذهابي إلى العمل.

أسرعت زوجته تعد له قدح الشاي، فارتشفه في سرعة، وهي تقف إلى جواره مرتعدة مستسلمة، وترددت طويلا قبل أن تغمغم:

- (وفاء) تريد حذاءً جديدا..

رماها بنفس النظرة القاسية الصارمة، وهو يقول:

- ولماذا لم تطلبه بنفسها؟

أجابته في خفوت:

- خشيت أن تثور في وجهها..

مط شفتيه متظاهرا بالامتعاض، إلا أنه في حقيقة الأمر، كان يشعر بسعادة ونشوة عارمتين في أعماقه..

هكذا القوة..

هكذا تكون إدارة المنزل..

أن يخشاه الجميع ويرهبونه..

انه يحب هذا الشعور..

شعور القوة..

وفي غطرسة، لوح بكفه، قائلا:

- فلتبتع الحذاء سأترك لها ثمنه.

غادر مائدة الإفطار وزوجته خلفه، تدعو له بالتوفيق في عمله، وهو يسير منتفخ الأوداج، حتى باب المنزل.

ولم يكد يغلقه خلفه، حتى تنفس أبناؤه الصعداء في ارتياح وأسرعت (وفاء) تلتقط الأوراق المالية، التي تركها خلفه..

أما هو، فقد ذهب إلى عمله على الفور، وخلع حلته، وعلقها على مشجبها القديم في عناية، وارتدى حلة العمل، في نفس اللحظة التي تعالى فيها صوت غاضب يهتف:

- أين الحمار (إبراهيم)؟.. لماذا لم يصل حتى الآن؟

أسرع يحمل صينية الشاي، وهو يقول:

- انا هنا يا سعادة البك..

قدم الشاي إلى رئيسه في مكتبه والرئيس يهتف ساخطا:

- يا لك من غبي!.. أنت أسخف فراش عمل هنا يا (إبراهيم).. أنت حمار.

ابتسم (إبراهيم)، وضحك قائلا:

- حمار شغل يا سعادة البك.

ومع بداية عمله كان قد نسى كل شيء عن المنزل

وعن القوة..

(تمت)

الانتظار

22- الانتظار..

كالمعتاد، وصلت هي أولا..

وكان عليها أن تنتظره..

كل مرة يحدث هذا..

كل مرة يكون عليها هي أن تنتظر..

زفرت في حنق، وتطلعت إلى ساعتها، ثم عادت تتطلع إلى الطريق..

إنه لا يحترم أية مواعيد..

حتى في عمله يصل متأخرا..

وهي على عكسه تماما، تصل دوما في موعدها..

وتنتظر..

ولأول مرة، منذ بدأت علاقتهما، شعرت نحوه بالسخط..

لماذا تحتمله هي دوما؟

لماذا تحتم قواعد التعامل ان تدلل النساء الرجال قبل الزواج؟..

وفي أعماقها، انفجرت ثورة..

لا.

لن تنتظره هذه المرة..

لقد وصلت في موعدها، وما دام هو لم يصل، فليحتمل النتائج

وفي حزم، اندفعت تغادر مكانها في غضب، وعبرت الطريق في عصبية مفاجئة وارتفع صرير إطارات سيارة، تحتك في الطريق

بقوة مع محاولة صاحبها إيقافها في استماتة، واعقبه صوت ارتطام السيارة بجسم لدن..

وشعرت هي بالصدمة، ثم تلاشى شعورها بالألم بغتة، وراحت روحها تفارق جسدها في نعومة وهدوء، محلقة نحو الأبدية..

والعجيب أنها لم تشعر برهبة الموت حينئذ، بل كل ما شعرت به هو السخط، لأنه حتى في هذا ستذهب هي أولا..

وسيكون عليها أن تنتظره..

(تمت)

لعبة كبار

23- لعبة كبار..

- كفى يا ولد..

رفع الصغير عينيه في حيرة، يتطلع إلى والده، الذي عقد حاجبيه في صرامة، مكررا:

- قلت لك كفي..

لم يدر لماذا يمنعونه هو بالذات من العبث بتلك الأزرار، التي يعبثون بها طيلة الوقت، فتظهر على الشاشة الملاصقة لها صور متحركة طريفة، يحب هو مشاهدتها ومتابعتها في شغف..

وفي حذر، ألقى نظرة على والده، الذي انشغل بمطالعة صحيفته، ثم مد أصابعه المنمنمة نحو ازرار التلفاز، ولم يكد يلمسها حتى تعالي صوت امه:

- لا تعبث في التلفاز..

تراجعت أصابعه، وهو يضرب الأرض بقدمه الصغيرة في غضب، ثم ابتعد عن الجهاز بخطوات حذرة، فهو لم يألف المشي على قدمين بعد..

لقد كان منذ فترة قصيرة يحبو على أربع، مثل ذلك القط الخامل، الذي لا يفعل طيلة اليوم سوى أن يصرخ ويموء، عندما يجذب هو ذيله المثير للفضول، وهو يتراقص في نعومة، حتى عندما يكون ذلك القط نصف نائم..

ولم تحتمل قدماه الصغيرتان المشي طويلا، فانحنى جسده لتلامس كفاه أرض الحجرة، ثم جلس في هدوء، وراح يبتسم لأمة، التي انشغلت في ترتيب وتنظيف المكان، فاكتفت بان

بادلته الابتسام، دون أن تحاول حمله أو مداعبته، فالتفت إلى والده، وراح يبتسم، ويحرك كفيه الصغيرتين على ذلك النحو، الذي يضحك له والده كثيرا في ساعات الصفاء، ولكن والده كان منهمكا في قراءة الصحيفة تماما، حتى أنه لم ينتبه إلى صغيره.

وفي ضجر، راح هو يحبو في المكان، حتى بلغ التلفاز مرة أخرى، فأمسك سطح مائدته بكفه الصغيرتين، ورفع جسده إليه، ووقف مرة أخرى على قدمين، وراح يتطلع إلى الشاشة المظلمة في امل.. لماذا لا تعمل.

لماذا لا تجلب إليه تلك الصور المتحركة، والمشاهد الطريفة؟....

إنه يشعر بالملل دونها..

وفي اهتمام، مد أصابعه الصغيرة، وضغط الزر..

واضاءت الشاشة..

ولم يكد هو يتهلل مبتسما، حتى هتف والده في غضب:

- لا تعبث بالتلفاز.. لقد حذرتك من قبل..

وأسرعت أمه تغلق التلفاز، وهي تقول:

- لا يا صغيري كفاك عبثا..

ثم حملته، وضعته في منتصف الحجرة، بعيدا عن التلفاز.

وجلس هو صامتا لحظات..

لم يفهم قواعد اللعبة..

لعبة الكبار

إنهم لا يريدون مداعبته، او حتى تركه ليداعب نفسه..

إنهم يضجرونه في شدة..
وفي هذه المرة لم يعد أمامه سوى أمر واحد..
أن ينفجر باكيا..
ولقد فعل.

(تمت)

عملية نشل

24- عملية نشل..

لم يدر لماذا قفز إلى تلك الحافلة المزدحمة، في ذلك الوقت من اليوم، الذي تتخم فيه وسائل المواصلات عادة بالعائدين من أعمالهم، والمرهقين والمنهكين من نهار شاق، على الرغم من أن جيبه كان يمتلئ بحافظة كبيرة مكدسة بأوراق النقد، مما يجعله قادرا على استئجار سيارة سياحية خاصة، تقله إلى منزله، في ذلك الحي الشعبي الشهير، الذي قضى فيه عمره..

ربما هو حكم العادة..

بالتأكيد هو كذلك..

لقد كان يشعر بنشوة الظفر، التي تلازمه عادة، كلما نجح في نشل حافظة متخمة كهذه، من إحدى المناطق الراقية، التي اعتاد مزاولة النشل فيها في الآونة الأخيرة، ولكنه لم يكد يلمح الحافلة المزدحمة، حتى دفعته غريزته القديمة إلى القفز داخلها، وكأنما هو قدره..

نعم.. هو قدره حتما..

جالت هذه الفكرة في راسه بشدة، عندما وقع بصره على تلك الحسناء الفاتنة، ذات الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين، التي انحشرت وسط الركاب، وقد بدا الضيق والتأفف في ملامحها، كأنما هي لم تعتد ذلك الزحام ابدا..

وشعر بقلبه يخفق بين ضلوعه، لأول مرة في عمره..

لقد قضى عمره كله في النشل، حتى أنه لم يجد من قبل لحظة واحدة للحب.

ولقد هبط هذا الحب على قلبه كالصاعقة، ودون أن يدرى، وجد نفسه يشق طريقه وسط الزحام، حتى وصل إليها وهو يلهث، وقلبه يخفق بمزيد من القوة، وروحه تهفو إليها، ولم يكد يملأ أنفه برائحة عطرها الرقيق، حتى ادارت عينيها الجميلتين إليه..

والتقت الأعين..

وجفّ لعابه من شدة وجده، ولم يجد أمامه سوى أن يبتسم لها..

ولقد استقبلت هي ابتسامته بابتسامة حائرة، ثم لم تلبث أن أشاحت عنه بوجهها، وكأنما تتحاشى تلك النيران في نظراته..

وبكل لهفته، همس:

- اهي اول مرة؟

أدارت عينيها إليه في حيرة، فابتسم مستطردا:

- أعني بالنسبة للحافلة والزحام..

ابتسمت في ارتباك، وهي تغمغم:

- نعم.. إنها اول مرة.

صمتت بعد قولها، ثم لم تلبث أن استطردت، وكأنما ترغب في أن يشاركها شخص ما مشكلتها:

- لقد تعطلت سيارتي، ولم أجد سيارة من سيارات الأجرة، في طريقها إلى حيث أقيم، ولما كنت مرتبطة بموعد هام مع خطيبي، فلم يكن أمامي سوى أن أستقل الحافلة، على الرغم من ازدحامها.

لم يفهم من كل هذا سوى أمر واحد..

انها مخطوبة..

وتحولت لهفته كلها إلى مزيج من الغيظ والحنق؛ لأنها من نصيب غيره..

وامتلأت نفسه بالغضب..

يا للخسارة!!..

لم يخفق قلبه إلا لفتاة مخطوبة..

يا للغيظ..

وفجأة دفعه غضبه إلى البحث عن وجه آخر للظفر، فاقترب منها أكثر، وعبثت أصابعه المدربة بقفل حقيبتها، وهو يسألها في براءة:

- وابن تقيمين؟

اجابته في بساطة:

- قريبا من هنا.

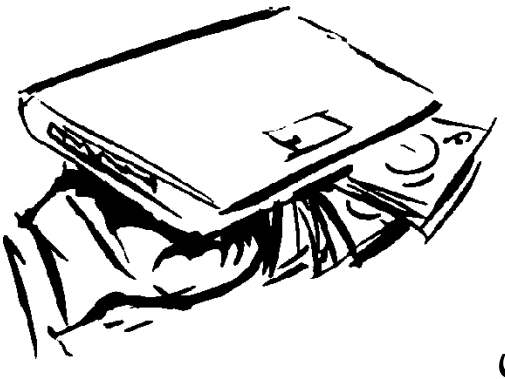

نجح في فتح حقيبتها والتقط كيس نقودها، ودسه في جيبه، وابتسم تلك الابتسامة الظافرة، وهو يقول:

- إنها إجابة مبهمة..

اتسمت ابتسامة واسعة، وهي تقول:

- لا بأس بها، في مثل هذه الظروف.

لاذ كلاهما بالصمت لحظات، ثم ابتسمت هي ابتسامة هادئة، وقالت:

- سأنزل هنا.

تابعها ببصره وهي تدفع جسدها وسط الأجساد، لتبلغ باب الحافلة، ثم تقفز منها في مهارة، تتنافى مع كونها أول مرة تفعل فيها هذا، وراودته فجأة فكرة انها مخادعة وأنها على الرغم من جمالها وحسنها، مجرد فتاة متوسطة الحال، اعتادت ركوب الحافلة في رواحها وغدوها، وراهن نفسه على ان كيس نقودها لن يحوي أكثر من الجنيهات الخمسة و..

وفجأة تجمد بصره، وخفق قلبه في شدة، واندفع يحاول شق طريقه بين ركاب الحافلة المزدحمة، ليلحق بها..

ولكن هيهات..

لقد انطلقت الحافلة مبتعدة..

وضاعت الفرصة..

وبكل مرارة راح يتطلع، عبر فجوة في الزحام، إلى تلك الفاتنة، والحافلة تبتعد وتبتعد..

ورأى حسناء الحافلة الشقراء تبتسم في سخرية، وهي تفتح حقيبتها، وتعيد إليها كيس نقودها، بالإضافة إلى تلك الحافظة المتخمة بأوراق النقد، التي كانت تحتل جيبه هو منذ قليل.

نعم.. إنه قدره..

قدره الا يقع إلا في حب واحدة مثلها.

نشاله..

(تمت)

الشبح

25 – الشبح..

ابتسمت (إلهام) ابتسامة واسعة، وهي تتطلع إلى وجهها في المرآة، وإلى ثوب الزفاف الأبيض الذي ترتديه، واسبلت جفنيها في نشوة، وهي لا تصدق انها قد صارت زوجة لابن عمها (صلاح)، على الرغم من كل ما حدث..

إنها تحب (صلاح) منذ صباهما..

منذ لمس قلباهما الحب ومشاعره لأول مرة..

وكان ينبغي أن يتزوجا بعد تخرجهما، لولا أن ظهر (عابد)..

كانت قد تفتحت كزهرة يانعة، وألهب جمالها القلوب، واذاب سحرها الافئدة، وكانت تنعم بكل لحظة تقضيها برفقة حبيبها (صلاح)، ولكنها فوجئت ذات يوم، عند عودتها إلى المنزل، بوالدتها تطلق زغرودة قوية، وتضمها إلى صدرها، ثم تعلنها بخطبتها إلى (عابد)، رجل الأعمال الثرى، الذي يكبرها بعشرين عاما دفعة واحدة..

ايامها بكت، واعترضت، وقاومت..

ولكن بلا فائدة..

لقد انهزم حب (صلاح) لها، أمام ثراء (عابد)، وانكمش (صلاح) بحبه وفقره، مع حفل زفافها إلى (عابد)..

ولكن هذا لم يكن العذاب كله..

لقد بدا العذاب الحقيقي بعد زواجها من (عابد)، حينما كشفت انه شخص سادى حقير، يتلذذ بتعذيب الآخرين وإيلامهم..

ومعه عاشت من العذاب والهوان صنوفا، حتى أتى بوم، خسر فيه كل ثروته بضربة واحدة، وطارده رجال الضرائب، وضيقوا عليه الخناق، فأصابته ازمة قلبية، و...

ومات..

وفي الحادية والعشرين، وجدت (إلهام) نفسها أرملة..

وكعادته، لم يترك لها (عابد) قرشا واحدا..

تركها للعذاب والهوان والفقر..

لولا (صلاح)..

لقد استثمر (صلاح) أحزانه في عمله، وحقق من ذلك نجاحا رائعا، وصار ثريا شهيرا محبوبا..

ومع وفاة (عابد)، هرع إليها (صلاح)، وتجدد الحب، و.

وتزوجا..

والليلة زفافهما..

اتسعت ابتسامتها كثيرا، وهي تنتظره في شوق، بعد ان أصر رفاقه واصدقاؤه على الاحتفال به وحدهم، قبل أن يصعد إليها في حجرتها، في ذلك الفندق الفاخر.

وفجأة تلاشت ابتسامتها، وحلت محلها نظرة هلع..

لقد بدا من خلفها - في المرآة - آخر شخص تتوقع او تتصور رؤيته في هذه اللحظة..

زوجها.. (عابد)..

☆ ☆ ☆

أقل ما يوصف به شعور (إلهام)، في تلك اللحظة، هو أنها كانت تعاني مزيجا من رعب قاتل، وذهول مميت..

لقد التفتت بسرعة الصاروخ، وراحت تحدق في وجه زوجها السابق، الذي يبتسم ابتسامة شامتة ساخرة، وقد بدا لها اشبه بشبح عاد من عالم الموتى، ليحطم سعادتها ليلة زفافها.

وفي هدوء ساخر، قال (عابد):

- كيف حالك يا (إلهام)؟.. لم تكوني تتوقعين رؤيتى الليلة.. اليس كذلك؟

خيل إليها ان ذلك الصوت، الذي خرج من بين شفتيها شاحبا مرتجفا، لم يكن يمتّ بصلة لصوتها الحقيقي، وهى تقول:

- من أنت؟!

جلس في هدوء على المقعد المواجه لها، وقال وهو يبتسم تلك الابتسامة المقيتة، التي ابغضتها اشد البغض ايام زواجه بها:

- من انا؟!.. يا له من سؤال!.. انسيت زوجك العزيز بهذه السرعة؟

التصقت بمقعدها، وبدا جسدها يرتجف في قوة، وهي تقول:

- انت شبح.. شبح.

أطلق ضحكة ساخرة، وقال:

- شبح؟!.. أتتصورين انني مجرد شبح، يكفي إطلاق النار على قلبه ليتلاشى مع رائحة البارود، كما يظن اهل الريف؟.. ([1]) لا يا عزيزتي.. إنني رجل حي.. من لحم ودم..

هتفت ذاهلة:

- مستحيل!.. لقد وقَّع الأطباء شهادة وفاتك، وتم دفنك رسميا، و:.

قاطعها ساخرا:

- وهل رأيت جثتي بنفسك؟

شهقت:

- لا.. ولكن..

قاطعها مرة اخرى في زهو:

- كانت خطة بارعة محكمة في الواقع.. كنت قد خسرت معظم ثروتي، او كلها تقريبا، والضرائب تطالبني بما تبقى منها، لعدم دفعي أية ضرائب طيلة عمري، وكان الحل الوحيد هو أن أموت؛ لذا فقد تظاهرت بالإصابة بأزمة قلبية، ونال الطبيب الذي وقَّع شهادة الوفاة مبلغا كبيرا ليفعل، ثم ابتعت من الحانوتي جثة حديثة، انتزعها من قبر جديد، وتم دفنها باسمي، في مقبرتي، في حين اتخذت أنا اسما جديدا، واستخرجت أوراقا مزورة، وعدت أمارس التجارة بما تبقى لي من الأموال، حتى صرت مليونيرا في هذا الزمن القياسي..

انهارت مشاعرها، وهي تردد:

- مستحيل!!.. مستحيل!!

ثم بدت اشبه بنمرة شرسة، وهي تستطرد:

- ولماذا عدت؟.. لماذا تعلن لي عن ذلك، في هذه الليلة بالذات؟

لوح بكفه، قائلا:

- لأمنع حدوث جريمة.

هتفت في مرارة:

- أية جريمة؟

استرخي في مقعده، قائلا في شماتة واضحة:

- جريمة زواجك من آخر، وزوجك على قيد الحياة..

حدقت في وجهه لحظة في ذهول، ثم صرخت:

- ماذا تريد منى؟.. لماذا تصر على تحطيمي هكذا؟

برقت عيناه في جذل، وهو يقول:

- أنت زوجتي شرعا وقانونا.

- لا.. انت رجل ميت.. القانون يقول إنك رجل ميت، وإنني أرملة استوفت عدتها، ومن حقي أن أتزوج (صلاح)..

ابتسم في شماتة، قائلا:

- وماذا عن الشرع؟!.. انت زوجتي، سواء وافق القانون على ذلك أم رفضه، وزواجك بـ (صلاح) الآن يعتبر زنا.. أتقبلين العيش معه على هذا النحو؟

اخترقت الحقيقة قلبها كخنجر مسموم، فتفجرت الدموع من عينيها، وهي تهتف:

- ماذا تريد مني؟

نهض وعيناه تبر تان ببريق جذل شامت، وقال:

- لا شيء.. فقط اريدك لي وحدي..

اتجه نحو الباب في هدوء، وهي تصرخ:

- انت وحش سادي مجنون انت تستمتع بعذاب البشر.

وفي أعماقها صرخت كل مشاعرها..

- لن يحطم هذا الرجل حياتها مرة أخرى..

لن ينتزعها من حلمها، بعد أن صار قيد خطوات منها..

وفجأة برقت في رأسها فكرة..

(عابد) رحل ميت..

ميت قانونا..

وفجأة اندفعت نحو تحفة نحاسية ثقيلة، وحملتها وهوت بها على رأس (عابد)، و...

وسقط (عابد) محطم الراس..

وتراجعت هي في ذعر..

لقد قتلته..

قتلت الشبح الذي عاد ليحطم حياتها..

والآن ماذا تفعل؟..

كيف تواجه الأمر؟..

ادارت الاحتمالات كلها في رأسها، ثم استقر رأيها على امر واحد..

ستواجه (صلاح) بالحقيقة..

ستقص عليه القصة كلها..

ومعا سيتعاونان على إخفاء الجثة..

لن يقف أي شيء في طريقهما..

وفجأة انطلقت من خلفها ضحكة ساخرة..

ضحكة ميزت صوتها جيدا، وأدركت من هو صاحبها، وتجددت لها الدماء في عروقها وجحظت لها عيناها، وهما تحدقان في جثة (عابد) أمامها..

كان يرقد جثة هامدة أمام عينيها، وضحكته تنطلق ساخرة امامها..

وفي بطء، ادارت عينيها إلى مصدر الضحكة..

ثم تراجعت كالمصعوقة..

لقد كان هو هذه المرة أيضا.

كان (عابد)..

الأمر كله بدا لها اشبه بكابوس رهيب مخيف..

كابوس أصر أن يهاجمها في شراسة في ليلة زفافها..

وعندما أعادت عينيها إلى حيث كانت جثة (عابد)..

كان كل شيء قد اختفى..

الدماء والجثة..

كل شيء..

وكان (عابد) يجلس أمامها مبتسما في شماتة وسخرية، ويقول:

- تجربة رائعة.. إذن فأنت مستعدة حقا لقتلى، من اجل (صلاح)..

تمتمت في رعب:

إذن فأنت.. أنت..

قاطعها في سخرية:

- شبح.. نعم بالتأكيد.. هل صدقت قصة الموت المزيف هذه.. لقد مت بالفعل يا عزيزتي، وأنا الآن مجرد شبح.. عفريت كما يقول العامة..

بكت في مرارة، وهي تقول:

- وماذا تريد؟

نهض قائلا:

- لا شيء.. لقد أتيت لأدمر حياتك فحسب، فمن تتزوجني لا يحق لها أن تتزوج غيري حتى بعد وفاتي..

هتفت في انهيار:

- الم يبدلك الموت؟!.. ألم يهزم روحك السادية الشريرة؟

ابتسم في سخرية وشماتة وتلذذ، وهو يتجه نحو الباب، قائلا:

- إلى اللقاء يا عزيزتى سأحضر كل ليلة لرؤيتك.. انتظريني.. كل ليلة.

لم تحتمل أعصابها هذه المرة..

سيأتي شبحه إليها كل ليلة..

لا.. مستحيل!!..

سيدمر حياتها حتى بعد وفاته وفجأة تذكرت عبارته. رصاصة في قلبه، ورائحة بارود يخفيانه إلى الأبد

وفي حزم، قفزت إلى حقيبة (صلاح)، والتقطت منها مسدسه المرخص، وصرخت وهي تصوبه إلى قلب زوجها السابق:

- لا.. لن تحطم حياتى ابدا.

وأطلقت النار على قلبه، في نفس اللحظة التي فتح فيها الباب..

واتسعت عيناها في رعب وذهول..

لقد اخترقت الرصاصة جسد الشبح الشفاف، واستقرت في قلب (صلاح)، الذي فتح الباب من الخارج في اللحظة ذاتها..

وتراجع شبح (عابد) في هدوء، وترك (صلاح) يحدق في وجه (إلهام) في الم وذهول، قبل أن يسقط جثة هامدة، على عتبة باب حجرة الزفاف..

وصرخت (إلهام):

- لا يا (صلاح).. لا..

وعندما اندفعت نحو جثة زوجها، كان شبح (عابد) يتلاشى، دون أن تختفي من شفتيه تلك الابتسامة الشامتة الساخرة الشريرة..

ابتسامة شبح..

(تمت)

طـــارق

26- طارق..

كان لقاؤنا عجيبًا كالمعتاد..

كنت أهم بركوب سيارتي، بعد أن ودعت منذ لحظات صديق عزيز، حملته الطائرة إلى واحدة من بلدان النفط، عندما لمحت (محمد)، وهو يهم بركوب سيارته، التي تجاور سيارتي، في ساحة الانتظار الضخمة، بميناء القاهرة الجوي الجديد، فوجدت نفسي أهتف بكل اللهفة والسعادة:

- (محمد)!.. يا لها من مصادفة!

رفع الرجل عينيه إلى في حيرة، وبدا لحظات وكأنني ايقظته من شرود عميق، قبل أن يهتف في حرارة:

- أنت؟!.. يا لها من مفاجأة!

تعانقنا في حرارة، بكل شوق ولهفة اللقاء، بعد غياب دام أكثر من عشرين عاما، منذ غادر (محمد) (مصر) لآخر مرة، في طريقه للعمل في المانيا)، التي استقر فيها طيلة هذه الأعوام، دون أن نلتقي مرة واحدة، وإن كنت قد تابعت أخباره، وعلمت انه قد أنجب شابا وفتاة، من زوجته الألمانية، لهما نفس تلك الملامح الألمانية الجميلة، التي تختلف كثيرا عن ملامحنا المصرية المعروفة..

وبكل الحرارة، سألته:

كيف حالك يا رجل.. متى عدت؟.. وما الذي تفعله هنا؟

أطلق من اعماق صدره زفرة حارة، وهو يقول:

- كنت أودع ابنى (طارق)، وهو في طريق عودته إلى (المانيا).

أنبأتني زفرته وملامحه انه يعاني توترا شديدا، فقلت في اهتمام:

- المح قصة مثيرة، خلف هذا الانفعال..

ابتسم ابتسامة باهتة، وهو يقول:

- آه.. نسيت أنك كاتب قصصي، ولكنني اراهنك أن قصتي ستثير سخط ودهشة قرائك، وأنهم سيتهمونك بالمبالغة الشديدة، لو كتبتها كما حدثت تماما..

أثارت عبارته فضولي في شدة، فقلت:

- أظنك لن تبخل برواية قصتك على مسامعى..

أطلق زفرة حارة أخرى، وقال:

- على العكس.. إنني أحتاج إلى من أقص قصتي على مسامعه..

تركنا سيارتينا في موقف سيارات المطار، واصطحبته إلى (كافتيريا) المطار، حيث بدا يروى:

- مشكلتي هي أن لي ولدا نصف ألمانى، بلغ من العمر ثمانية عشر عاما، لم يزر (مصر) سوى مرة واحدة قبل هذه المرة، وكان - آنذاك - في الثالثة عشرة من عمره، وكنت قد استخرجت له جواز سفر مصرى، من سفارتنا في (المانيا) وقضى هنا إجازة ممتعة، عاد بعدها إلى (ألمانيا) سعيدًا راضيا..

سألته في حيرة:

- وما المشكلة في هذا؟

أكمل في توتر:

- المشكلة نشأت في زيارته هذه المرة، بعد خمسة أعوام من زيارته الأولى، فلقد أراد ابني (طارق)، الذي يعجز تماما عن

التحدث بالعربية، أن يزور (مصر) مع صديق له، في أثناء وجودي هنا في إجازة طويلة، وأراد أن يزهو بكونه مصريا، فحضر إلى هنا بجواز سفره المصري، على الرغم من انه يملك جوازا ألمانيا، وحضر معه زميله الألماني بجواز سفر ألمانى بالطبع، ولم يكد الاثنان يصلان إلى (القاهرة) حتى بدأت مشكلة (طارق).

از درد لعابه في صعوبة، وتابع في انفعال:

لقد أنهى صديقه الألماني إجراءاته في دقائق معدودة، وبقي (طارق) ساعة كاملة، ورجال الأمن يرمقونه بنظرات الشك، وستجوبونه على نحو عنيف، وقد استنكروا تماما جهله باللغة العربية، وهو يحمل جواز سفر مصري، واسم عربى تماما..

قلت في خفوت:

- أعتقد أن هذا حقهم..

رمقني بنظرة حادة، وقال:

- ربما.. المهم انهم في النهاية قد سمحوا له بالدخول، بعد أن حذروه من أن تاريخ جواز سفره قد انتهى، وأنه من الضروري أن يحصل على جواز سفر جديد، حتى يمكنه العودة إلى (ألمانيا) حيث انه من المحتم أن يسافر بجواز سفر مصرى، مادام قد دخل إلى البلاد بواسطة جواز سفر مصرى.. وتصور هو أن استخراج جواز السفر امر بسيط، مادام يحمل رسميا الجنسية المصرية، بحكم كونه ابني، وأخبرني بكل بساطة بالأمر، مع

ضرورة عودته إلى المانيا) خلال أسبوع واحد، حيث سيبدأ فصله الدراسي الجديد..

زفر مرة ثالثة بحرارة أكثر، وهو يضيف:

- وهنا بدأت المشكلة الحقة.

اعتدلت اسأله في اهتمام حقيقى:

- لماذا؟.. ماذا حدث؟

قال ومرارة الأيام السابقة لا تزال تملأ حلقه وكلماته:

- ذهبت لاستخراج جواز سفر جديد لـ (طارق)، فأخبروني أن الأوراق المطلوبة تتضمن تحديد موقفه من التجنيد الإجباري، حيث إنه قد تجاوز اعوامه الثمانية عشرة، وارسلوني إلى قسم الشرطة لاستخراج ما يثبت موقفه من التجنيد، فأخبرني الموظف المختص هناك أنه لن يمكننا تحديد موقفه من التجنيد؛ لأنه لم يسجل ضمن مواليد الناحية، ولم يحن دوره للخضوع للكشف الطبي في منطقة التجنيد بعد، ولم تستخرج له حتى بطاقة طلب التجنيد البيضاء.

سألته في لهفة:

- وماذا فعلت؟

قال في توتر:

- لجأت إلى أحد معارفي، من أصدقاء وزير الدفاع، وحصلنا من الوزير مشكورا على أمر باستثناء (طارق) من موعد الكشف الطبي التقليدي، واستخرجنا له بطاقة بيضاء استثنائيا، وتصورت أن المشكلة قد انتهت، فأسرعت عائدا إلى موظف التجنيد بالقسم، ولكنه أخبرني أنه مادام (طارق) وحيد والديه،

فسنحتاج إلى استمارة خاصة تثبت ذلك، على أن يقوم بتوقيعها شيخ الحارة.

قلت في دهشة:

- شيخ الحارة؟!.. أما زال لدينا شيوخ حارات؟.. لقد كان هذا ضروريا في الماضي، عندما لم يكن هناك الكثيرون ممن يحملون بطاقات هوية شخصية، وكان الأمر يحتاج إلى شيخ الحارة، لتعرّف الأشخاص، ولكنني كنت أظن أنه لم تعد هناك حاجة لوجوده، ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين..

مط شفتيها قائلا:

- انا ايضا كنت أتصور هذا، حتى أنني لم افهم في البداية ما يقصده موظف التجنيد هذا، وحتى بعد أن فهمت، عجزت عن ترجمة منصب (شيخ الحارة) هذا لابني (طارق) فلا يوجد شبيه لهذه المهنة العجيبة في العالم كله..

ابتسمت على الرغم منى، وانا اتصور محاولة شرح وظيفة (شيخ الحارة)، لشاب يدرس الحساب بالكمبيوتر في (المانيا) وقلت:.

- وكيف تجاوزت هذه العقبة؟

قال في ضيق:

- بحثنا عن شيخ الحارة هذا، حتى عثرنا عليه في صعوبة، وأخبرنا الرجل أننا نحتاج إلى ما يسمى بكشف العائلة، وهو عبارة عن وثيقة تثبت أن (طارق) وحيد والديه، وان هذا يمنحه الحق في الإعفاء من التجنيد الإجباري مؤقتا، وأسرعت أبتاع استمارة كشف العائلة هذه من مكتب البريد، ولكن واجهتنا عقبة رهيبة.

سألته:

- ما هي؟

قال بصوت أقرب إلى البكاء:

- لابد أن تتطابق بيانات الاستمارة مع البيانات المدونة بالسجل المدني، وهذا يتطلب أن تكون لنا بيانات اسرية بالسجل المدني، على الرغم من أننا نقيم طيلة عمرنا في (المانيا).

وزفر مرة اخرى، مردفا:

- وكان من المحتم أن استخرج انا بطاقة عائلية، لتكون لنا بيانات اسرية في السجل المدني، يمكن مطابقتها بما سيدوّن باستمارة كشف العائلة..

ضحكت على الرغم منى، وانا اقول:

- وماذا حدث؟

ابتسم في مرارة، قائلا:

- استخرجت بطاقة عائلية، وذهبنا إلى شيخ الحارة مرة أخرى، فأعد لنا استمارة كشف العائلة، وأسرعنا بها إلى منطقة التجنيد، مع الاستثناء الوزاري الخاص، ليتم توقيع الكشف الطبي على (طارق)، ونجحنا في اجتياز هذه العقبة بحمد الله، وحصلنا على شهادة الإعفاء المؤقت من التجنيد، وأسرعنا نستخرج جواز السفر لـ (طارق)، ووجدنا له مكانا على طائرة الليلة لحسن الحظ، حيث سيبدأ فصله الدراسي صباح الغد.

قلت مبتسما في ارتياح:

- حمدًا لله.

لوح بيده قائلا:

- ولكن القصة لم تنته بعد..

سألته في دهشة:

- كيف؟.. الم تقل إنكم قد أنهيتم كل شيء؟

قال في مرارة:

- هذا ما تصورناه، ولكن أحدهم أخبرني صباح اليوم فقط انه من الضروري أن تحصل على إذن من مكتب التنظيم والإدارة، للسماح لـ (طارق) بالسفر، حتى ولو كان يحمل شهادة إعفاء مؤقت من التجنيد.. واسرعت مع (طارق) إلى مكتب التنظيم والإدارة، وواجهتنا كالمعتاد نظرات الشك والريبة، مع ملامح (طارق) الألمانية، وجهله التام باللغة العربية، ولكنهم منحونا إذن السفر، وقبل أن نتسلمه في لهفة، أصر الجندي المسئول على أن يوقع (طارق) بالاستلام، باللغة العربية، وحاولت أن أقنعه بأن هذا مستحيل؛ لأن (طارق) يجهل العربية تماما، إلا أنه أصرّ بكل صلابة وصرامة...

قلت في حيرة:

- وكيف تجاوزت هذه العقبة؟

قال في حدة:

ـ كتبت لـ (طارق) اسمه الكامل بالعربية، وطلبت منه أن يرسمه كما هو، في خانة التوقيع، وفعل (طارق) هذا، وهو يكاد يبكي غيظا، لذلك التعقيد الشديد في الإجراءات والخطوات، وحمل تصريح السفر، وبدا شديد العصبية، يتعجل موعد السفر، حتى وصلنا إلى المطار..

قلت في لهفة:

- وسافر؟

زفر للمرة الالف، قائلا:

- بعد عذاب طويل، فلقد استوقفه رجال الأمن طويلا، وراحوا يفحصون جواز سفره عشرات المرات، ويستجوبونه في عنف، وحجتهم هذه المرة مثيرة للحنق والسخرية معا.

سألته في لهفة:

- ما هي؟

ضرب سطح المنضدة براحتيه، وهو يقول في حدة:

- حجتهم هذه المرة، هي انه من المستحيل - في (مصر) بالذات - أن تتخذ كل هذه الإجراءات في اسبوع واحد، وأن نجاحنا في هذا يجعل الأمر مثيرا للشك، ولك أن تتصور دهشة (طارق) أمام هذا المنطق، وهو الذي يعلم أن استخراج جواز السفر في المانيا) لا يستغرق أكثر من بضع ساعات، مهما بلغت مشكلة استخراجه..

واكتست ملامحه بمرارة شديدة، وهو يستطرد:

- وأكثر ما يؤلمني في هذا عبارة (طارق) الأخيرة، قبل أن يستقل الطائرة، فلقد أخبرني أنه - مع احترامه لي – لن يطأ ارض (مصر) بقدميه، ما بقي له من العمر.

افترقنا بعد أن أفرغ (محمد) قصته وتوتره في اذني، وتركني أحمل في عقلي تساؤلات شتى حول هذا الموقف..

من المسئول عن كل هذا؟..

أهي تعقيدات الروتين في (مصر)؟..

اهي البيروقراطية، أم هو تقصير (محمد) في تعليم ابنه لغة البلد الذي يحمل جنسيته؟..

اهي مشكلة الإدارة في (مصر)، أم مشكلة الانتماء المزدوج في اعماق (طارق)؟

صدقوني، لم أجد جوابا شافيا

حتى هذه اللحظة..

هل أجده لديكم..

ملحوظة: أعجب ما في هذه القصة أن جميع وقائعها حقيقية مائة في المائة، لذا فلم أجد أمامي سوى أن أهديها الى بطلها الحقيقي، الذي لم ألتق به ابدا من قبل.. الى (طارق).

(تمت)

تصادم

27- تصادم..

- ظلم..

الكلمة الوحيدة التي راح عقل (منصور) يرددها مرات ومرات، وهو يعبر ذلك الشارع، من شوارع وسط العاصمة في سرعة..

رددها عقله في مرارة غير مصدق أن حياته العملية قد انتهت هكذا بغتة، بعد خمسة وثلاثين عاما العمل.

فجأة أعلنته إدارة شئون العاملين انه قد بلغ السن القانونية للإحالة إلى المعاش، وان عليه أن يسلم سيارته، ويقبع في بيته ككم مهمل..

وهذا ظلم..

إنه يعمل سائقا في هذه الشركة، منذ خمسة وثلاثين عاما، دون أن يرتكب مخالفة واحدة او حتى يخدش سيارة الشركة خدشا صغيرا..

إنه ليس كسائقي هذه الأيام، الذين يقودون سياراتهم في استهتار، غير عابئين بها يصيبها، أو يصيب المارة والسيارات الأخرى بسببها..

إنه من ذلك الطراز القديم، الذي يحترم سيارته، ويحيطها برعايته واهتمامه، وحتى بحنانه، كما لو كانت ابنته..

كان يبدأ صباحها بقطرات من الماء، يبلل بها سطحها اللامع، ثم يصقل هذا السطح، حتى يصير كالمرآة..

وكان السائق الوحيد الذي لا يبلى محرك سيارته إلا بعد أن تكون السيارات الأخرى قد أحيلت إلى التقاعد منذ زمن، واستسلمت

لتجار الخردة، يبترون أطرافها وأجزاءها..

ما زال يذكر كيف بكي في حرارة، حينما أعلنته ورشة الإصلاح أن السيارة التي بدأ عمله عليها لم تعد صالحة للعمل، بعد عشرين عاما، استبدل خلالها محركها مرتين..

يومها قضي ليلته إلى جوار السيارة، يربت على سطحها، ويبلله بدموعه..

وعندما تم بيعها، في إحدى مزادات الشركة، خيل إليه انهم يبيعون أحد أبنائه أو بناته..

ومع تسلمه تلك السيارة الجديدة، التي حلت محلها، قرر أن يمنحها عمرا أطول من سابقتها وراح يحافظ عليها على نحو مبالغ فيه..

ولكنهم استبدلوها أخرى بها بعد خمس سنوات فحسب، ليس لأنها لم تعد صالحة للاستعمال، وإنما لأن رئيس مجلس إدارة الشركة يراها ذات طراز قديم، لا يناسبه مركزه..

وفي المرة الثالثة استبدلوا السيارة بعد ثلاثة أعوام فحسب..

ولم تنخفض هذه المدة..

واعتاد (منصور) أن يتم استبدال أخرى بالسيارة بعد ثلاث سنوات بالتمام والكمال..

عزاؤه الوحيد هو أن السيارة لم تعد تباع لتجار الخردة، بل راحت تنتقل في ترتيب تنازلي من رئيس مجلس الإدارة إلى مدير الشركة، ثم مدير المستخدمين، فرئيس العمال إلخ..

وظل (منصور) السائق الخاص لرئيس مجلس الإدارة، الذي يتبدل أيضا كل خمس أو ست سنوات..

وعلى الرغم من اختلاف رؤساء مجالس الإدارة، واختلاف مشاربهم، لم يشك أحدهم مجرد شكوى من (منصور)..

كان بالنسبة إليهم جميعا أفضل سائق بالشركة، واكثرهم أدبا واحتراما..

وعلى الرغم من سجله النظيف، لم تتردد إدارة شئون العاملين في إحالته إلى المعاش.. وعندما أصابه الهلع، هرع إلى رئيس مجلس الإدارة مستنجدا، فابتسم هذا الأخير في إشفاق، وقال:

- إنه القانون يا عم (منصور)..

أى قانون هذا؟..

بل أي ظلم؟

إنه لا يزال بصحة جيدة..

إنه لم يحتج حتى إلى منظار طبى..

ولم يرتكب حادثة واحدة..

وقع بصره بغتة على الإشارة الحمراء، فتوقف دفعة واحدة، إلا أنه، وعلى الرغم من هذا، اصطدم برجل نحيل قصير، ألقته الصدمة وسط الطريق، وهو يسب ساخطا، وجمدت الدماء في عروق (منصور)، عندما رأي سيارة تندفع نحو الرجل النحيل، الملقي وسط الطريق، ثم سمع صرير إطاراتها العنيف، عندما فقط سائقها كماحة سيارته بكل ما يملك من قوة....

وتوقفت السيارة على قيد خطوة واحدة من النحيل، الذي هب واقفا، وراح يصرخ في وجه (منصور):

- هل انت أعمى..

شحب وجه (منصور)، ورأى شرطي المرور يسرع إليه، وأيقن من أنه قد ارتكب مخالفته الأولى، بسبب شروده..

وفي مرارة واستسلام، أخرج (منصور) رخصة قيادته، ومد يده بها للشرطي، الذي تطلع إليها في دهشة، وقال:

- وما شأني بها؟

فجأة انتبه (منصور) إلى سر دهشة شرطي المرور..

وفجأة أيضا، وجد نفسه يقهقه ضاحكا..

صحيح أنه قد اصطدم بالرجل، وألقاه وسط الطريق، ولكن هذا لن يلوّث سجله قط، وسيبقى ذلك السائق، الذي لم يرتكب في حياته مخالفة واحدة..

لأن عم (منصور) لم يكن - بكل بساطة - يقود أية سيارة هذا الصباح..

كان يمشي على قدميه..

لأول مرة..

(تمت)

إلى الأمام

28- إلى الأمام..

نقل طبيب مستشفى الأمراض النفسية عينيه في شك بين وجهى (ايمن) وزوجته (سناء)، قبل أن يسأل الأول في اهتمام:

- هل تطلب إخراجها حقا؟

احاط (ايمن) كتف زوجته (سناء) بذراعه في حنان، وهو يقول:

- نعم.. لقد شفيت تماما كما هو واضح، وهي تحتاج إلى حبي وحناني في هذه المرحلة، بأكثر مما تحتاج إلى العقاقير والصدمات الكهربائية..

وادار عينيه إلى زوجته، مستطردا في حب:

- اليس كذلك؟

منحته نظرة حب وامتنان، والتصقت به في وجد، وكأنها تعلن عن صحة رايه، فامتلأ وجهه بابتسامة عريضة، وهو يقول للطبيب:

- الحب خير دواء يا سيدي الطبيب صدقني..

هز الطيب رأسه متشككا، وقال:

- إنني طبيب، ولست أديبا مثلك، ومهنتي تجعلني لا اقتنع إلا بالقواعد العلمية في هذا الشأن..

سأله (أيمن) في مرح:

- وماذا تقول القواعد العلمية، في أمر حبيبتي (سناء)؟

تطلع الطبيب إلى (سناء) طويلا، ثم قال موجها حديثه إلى (أيمن):

- القواعد العلمية والطبية تقول إنه من الخطأ إخراج أي مريض من مصحة نفسية، قبل تمام شفائه..

أجابه (أيمن) بابتسامة عريضة:

- ولقد شقيت (سناء) تماما..

لوح الطبيب بكفه، قائلا:

- من يثبت هذا؟

أجابه (أيمن) في جدية:

- أنسيت الحالة التي دخلت بها المستشفى... نوبات الهياج والثورة، والعصبية الزائدة، واتهامي المستمر بالخيانة والخداع.. انظر إليها اليوم، إنها هادئة وديعة كالحمل.

تنهد الطبيب، وقال:

- من الواضح أنك تجهل الكثير عن الطب النفسي، وعن الجنون يا سيد (ايمن)، فالجنون الخطير ليس كما تصوره الروايات الأدبية وافلام السينما.. ليس سفاحا طليقا، أو رجلا زائغ البصر، ثائرا كالليث.. الجنون الحقيقي قد يكمن في اعماق انسان هادىء وديع، بل بالغ الذكاء..

أطلق (أيمن) ضحكة، وقال:

- هل تحاول إخافتي؟

زفر الطبيب في عمق، وقال:

- لا يا سيد (أيمن) لست أحاول شيئا، ولا يمكنني منعك من اصطحاب زوجتك إلى منزلك، فهذا حقك..

سأله (أيمن) في لهفة:

- هل يمكننا أن ننصرف إذن؟

مط الطبيب شفتيه، وقال:

- كما يحلو لك..

ثم اعتدل مستدركا:

- ولكن لو شعرت، في أية لحظة، بضرورة عودة زوجتك إلى هنا، فلا تتردد أبدا..

انكمشت (سناء) في خوف، والتصقت بزوجها، الذي ضمها إلى صدره في حنان، وكأنما يسبغ عليها حمايته، وقال في حزم:

اطمئن يا سيدى.. إنها لن تعود إلى هنا بإذن الله.

وعندما اصطحب زوجته إلى سيارته خارج المستشفى، كانت تتعلق بذراعه في حب، جعله يربت على راسها في حنان، ولم يكد ينطلق بالسيارة، حتى سألها في مرح:

- إلى أين تحبين الذهاب، قبل أن نعود إلى منزلنا؟

أجابته في خفوت واستكانة:

- إلى أي مكان يروق لك..

تطلع إليها في حنان، وقال:

- ما رأيك في المقطم؟

قالت بنفس الخفوت والاستكانة:

- لا بأس!

قاد سيارته إلى هضبة المقطم، واوقفها فوق ربوة عالية، والتفت إليها يقول في حب:

- هل يروق لك المشهد؟

اجابت مبتسمة:

- رائع.

غادر السيارة معها ووقفا على حافة الربوة، وأحاط وسطها بذراعه، وهو يقول:

- كم أشتاق إليك يا حبيبتي!!

أراحت رأسها على كتفه، وهي تقول في حنان:

- انا ايضا اشتاق إليك.

داعب خصلات شعرها المتطايرة في حب، وهو يقول:

- يا لحماقة هؤلاء الأطباء!.. كيف يتصورون أن ملاكا مثلك يمكن أن يصاب بالجنون؟

التصقت به في خوف، ورفعت عينيها إليه، متمتمه:

- لا تعدني إليهم يا (ايمن).. أرجوك.

ضمها إلى صدره في قوة، وهو يقول:

- مستحيل يا حبيبتي!! مستحيل!!

ثم داعب ذقنها بسبابته، مستطردا بابتسامة عذبة:

- أنا أعلم أنها كانت مجرد نوبة عصبية عابرة، وانكِ أعقل زوجة في الكون كله..

أراحت راسها على كتفه مرة أخرى، وهي تغمغم:

- احيك يا (ايمن).

قال في حنان:

- أنا أيضا أحبك..

ثم أشار إلى المشهد الممتد أمامهما، مستطردا في حماس:

- ما رأيك أن نشترى قطعة أرض هنا، ونبني فوقها فيلا انيقة؟

- كما يحلو لك يا حبيبي

قال في نشوة:

- سيحتاج هذا إلى بعض العمل والكفاح، ولكن هذا لا يهم ما دمتِ معي..

تمتمت:

- سأفعل كل ما يسعدك يا (أيمن)..

أسعده حنانها ما وقال:

- كل ما أريده منك هو أن تكوني خلفي، فهم يقولون إنه وراء كل عظيم امرأة، وأنتِ ستكونين خلفي بحبك وحنانك يا (سناء).. أريد منك أن تدفعينني إلى الأمام... إلى الأمام دوما..

اتسعت عيناه في ذعر، عندما شعر بدفعة قوية في ظهره، ورأى جسده يميل إلى الأمام في حدة..

وصرخ وهو يحاول السيطرة على توازنه:

- ماذا فعلتِ أيتها الـ...

تحولت عبارته إلى صرخة رعب هائلة، وهو هوى من حالق، في حين وقفت زوجته (سناء) تتابع سقوطه في هدوء، وهي تتساءل في أعماقها عن سر صراخه..

إنها زوجة محبة مطيعة، لم تفعل سوى ما أمرها به..
لقد دفعته إلى الأمام..
فقط..

(تمت)

الوجه الآخر

29- الوجه الآخر..

- حكمت المحكمة ببراءة المتهم، لعدم كفاية الأدلة..

ابتسم (خيرى) في سخرية واثقة، وهو يستمع إلى حكم المحكمة، الذي يسمعه للمرة الثالثة، خلال عامين فحسب..

كان قاتلا محترفا بحق، ارتكب أكثر من عشر جرائم قتل، دون أن يقع مرة واحدة في يد العدالة..

لأنه أكثر الناس حرصا..

لم يرتكب جريمة قتل واحدة في حياته كلها، دون أن يتخذ كل الاحتياطات الواجبة، ودون أن يؤمِّن لنفسه أدلة النفي مسبقا..

وهذا ما جعله أكبر القتلة المحترفين أجرا في العالم السفلى بـ (مصر)..

وعلى الرغم من محاكمته ثلاث مرات، بتهمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد، إلا أنه لم يُدن مرة واحدة، لعجز النيابة عن إحضار أدلة الاتهام الكافية..

ولقد أثار هذا حنق وكيل النيابة في شدة.. وعندما أنهى (خيرى) إجراءات الإفراج هذه المرة، اعترضه وكيل النيابة، وهو يقول في حنق:

- لا تتصور أنك ستنجو إلى الأبد يا (خيرى).. لن تسمح لك عدالة السماء بهذا قط..

ابتسم في سخرية، وقال:

- كل شيء قانونى يا سيادة وكيل النيابة.

اجابه وكيل النيابة في سخط:

- ربما يعجز القانون عن الإيقاع بك، ولكن القانون الإلهي لن يعجز أبدا.

أطلق (خيرى) ضحكة ساخرة، وقال:

- دع القانون الإلهي لقضاته..

هز وكيل النيابة رأسه في مرارة، وهو يقول:

- وهل أملك سوى هذا؟

وغادر (خيرى) سراى النيابة مزهوا فخورا..

واتجه بسيارته الفاخرة مباشرة إلى ملهى ليلي انيق، اعتاد ارتياده.

ولم يكد يدلف إلى الملهى، حتى اعترضه صاحب الملهى، وقال في صرامة:.

- ابتعد أيها القاتل، لن نسمح لك بدخول ملهانا مرة اخرى.

ازاحه (خيرى) عن طريقه في استهتار، وهو يقول:

- افسح الطريق يا رجل.. لا يمكنك منعي من دخول ملهى عام، ما دمت أملك ثمن تذكرة الدخول..

صاح صاحب الملهى في غضب:

- إنه ليس ملهى عامًا.. إنه ملك لي.

هوى (خيرى) على فكه بلكمة قوية، وهو يقول:

- ابتعد إذن، قبل أن ينتقل إلى الورثة.

سقط صاحب الملهى، وهو يصرخ:

- هل تهددني بالقتل أيها الحقير.. ايها المجرم؟

تخطاه (خيرى) في سخرية، واتخذ مكانه خلف منضدة أمامية، وراح يطلق ضحكات مرحة طيلة ساعتين، وكأنما بتعمد إغاظة مدير الملهي، الذي توارى في حجرته محنقا ساخطًا..

وبعد مرور الساعتين، اقترب أحد خدم الملهى منه، ومال على اذنه، قائلا:

- المدير يأمرك بالانصراف فورا، وإلا القاك خارجا.

التفت إليه (خيرى) في غضب، وقال في صوت مرتفع، وبلهجة تحدٍ، تعمّد ان يسمعها الجميع:

- قل لمديرك هذا أن يغلق اسنانه على لسانه، وإلا اقتطعته من جثته.

خيل إليه أن عيني الخادم قد بر قتا في ظفر، وهو يقول همسًا:

- الأفضل أن تبلغه بنفسك يا سيدى، فلن يمكنني نقل هذه الرسالة إليه..

نهض (خيرى) بحركة حادة عنيفة، وهو يقول:

- نعم.. سأخبره بنفسي.

اتجه في خطوات عنيفة صارمة إلى حجرة المدير، وتبعته الأبصار كلها في قلق، وتبعه الخادم في خطوات واسعة، وفتح له باب حجرة المدير..

وكانت الحجرة مظلمة، فقال (خيرى) في صرامة:

- هل يختبئ مديرك في الظلام يا رجل؟

بدا له صوت الخادم حاملا نبرة ساخرة، وهو يقول:

- إنه الآن في الظلام بالتأكيد.. خذ هذا.

ثم دفع (خيرى) إلى الأمام بحركة مفاجئة عنيفة، بعد أن وضع في يده شيئا ما..

وارتطمت قدم (خيرى) بجسم لدن..

وسقط..

وفي نفس اللحظة أضاء الخادم نور الحجرة..

واتسعت عينا (خيرى) في ذهول..

لقد كان يرقد فوق جسد المدير

بل فوق جثته..

كان المدير على أرض حجرته جثة هامدة، جاحظة العينين، وسط بركة من الدماء، تسيل من موضع طعنة خنجر في صدره..

وفجأة أدرك (خيرى) ما هذا الشيء، الذي ناوله إياه الخادم، قبل أن يدفعه ارضا..

لقد كان الخنجر.

سلاح الجريمة..

وأطلق الخادم صرخة هائلة، وهو يقول:

لقد قتله.. لقد قتل المدير..

ورآه (خيرى) تبتسم في سخرية، وهو يقول هذا..

ورآه يلقي منديله بعيدا..

وقبل أن ينهض من موضعه، كانت الحجرة مكتظة بعشرات الرجال، الذين اتسعت عيونهم في هلع، وهم ينقلون ابصارهم بين جثة المدير ووجه (خيرى)، الذي راح يصرخ:

- إنني بريء.. انا لم اقتله..

وبعد ساعة واحدة، كان وكيل النيابة يبتسم في ظفر، وهو يقول:

- كنت أعلم أنك ستقع حتما، ولكنني لم اتصور ان يتم هذا في نفس ليلة الإفراج عنك..

صرخ (خيرى):

- إنني بريء.. اقسم لك إنني لم أقتله هذه المرة.

هز وكيل النيابة رأسه، وقال في ارتياح:

- لن يفيدك الإنكار هذه المرة.. كل الأدلة ضدك.. كل رواد الملهى سمعوك تهدده بالقتل، وكلهم شهدوا بأنك قد انتقلت إلى حجرته والشر يتقافز من عينيك، والخادم رآك تقتله، وبصماتك واضحة على سلاح الجريمة، و.

قاطعه (خيري) صارخا:

- ولكنني لم أرتكب هذه الجريمة.. أقسم لك..

ظل يردد هذا القسم طيلة الوقت، حتى في أثناء محاكمته..

ولم يعلم ابدًا لماذا فعل به الخادم هذا!!..

ولم يتوقف عن الصراخ بأنه بريء..

لم يتوقف إلا عندما توقفت في جسده أنفاس الحياة، وهو يتدلى من حبل المشنقة..

وفي لحظاته الأخيرة كان قد أدرك انه هناك دائما وجه آخر..

للعدالة..

(تمت)

جنون ..

30- جنـــون..

لست أدري لماذا توقفت بالسيارة لألتقطه، في ذلك اليوم الذي انهمرت فيه الأمطار كالسيول..

ربما لأنه كان يبدو لي بائسا مسكينا، وقد أغرقته مياه الأمطار، وهو يبحث عبثا عن واحدة من سيارات الأجرة، في ذلك الوقت المتأخر..

وعندما ألقى جسده على المقعد المجاور لي، كان يلهث في شدة، ويغمغم:

- شكرا لك.

لم يحاول حتى إلقاء نظرة على وجهي، وإنما تطلع امامه، وهو يجفف وجهه بمنديل صغير قذر، في حين رحت أنا أتأمله في اهتمام، وأنا انطلق بالسيارة..

كان نحيلا، طويل القامة، تشف ملامحه عن شيء من الصرامة والقسوة، وكمحاولة لاجتذاب وده، سألته:

- هل تستمع إلى بعض الموسيقى؟

اومأ برأسه إيجابا، دون أن ينطق بحرف واحد، فأدرت المذياع في هدوء، ورحت أبحث بين موجاته عن البرنامج الموسيقى، حتى توقفت عند موجة تنبعث منها الموسيقى في نعومة، وواصلت سيري بالسيارة في صوت، حتى توقفت الموسيقي فجأة وراح المذيع يقول:

- سيداتي آنساتي سادتي.. أصدرت وزارة الداخلية اليوم بيانا، تحذر فيه المواطنين من سفاح هارب..

بدا التوتر على وجه الرجل، واعتدل يستمع في اهتمام، والمذيع يتابع:

- وهذا السفاح مصاب بجنون شديد الخطورة، على الرغم من مظهره العادي، فهو نحيل، طويل القامة، و...

اختلست النظر إلى وجه الرجل، الذي عقد حاجبيه في شدة، ومال برأسه إلى الأمام في تحفز، وراحت يداه تبحثان عن شيء مجهول، والمذيع يردد:

- وهذا السفاح، الذي فرَّ مساء اليوم من مستشفى الأمراض العقلية، من النوع الدموي، الذي يحب إراقة الدماء، والقتل لمجرد القتل، ويقول علماء النفس إن هذا النوع من القتلة المصابين بالجنون، يحمل في أعماقه نزعة سادية، وعشقا لتعذيب الآخرين ورؤية الدماء، و..

كان جارى قد اعتدل في حدة، عند هذه النقطة، وراح يتطلع إلى وجهي في توتر، ويده تمسك واحدا من المفاتيح المعدنية، التي تستخدم لإصلاح السيارة، وترتفع نحوى..

وفجأة ضغطت انا كامح سيارتي، وتوقفت السيارة في عنف، واندفع جسد الرجل إلى الأمام، وعندما اعتدل في سرعة، كانت يدي ترتفع فوق راسه بقضيب معدني ثقيل..

واتسعت عيناه في شدة..

وهويت على راسه بالقضيب المعدني..

وتحطمت جمجمته في صوت مسموع..

وتفجرت منها الدماء.. ولكنني لم أتوقف..

رحت أضربه وأضربه.. وأضربه..

والمذيع يتابع:

- ووزارة الداخلية تطلب من المواطنين عدم استفزاز ذلك السفاح، خشية أن يواجههم بالعنف، فهو - كما سبق أن أشرنا - يحب رؤية الدماء.

تبا لهؤلاء المسئولين.. كيف علموا أنني أحب الدماء..

وانطلقت من حلقي ضحكة عالية مجلجلة، وأنا أضرب الجمجمة المحطمة في عنف..

والدماء تتناثر..

وتتناثر..

وتتناثر..

(تمت)

كلام أطفال ..

31- كلام أطفال..

- أنا الوحش الجبار..

نطقها الطفل الصغير، ذو الأعوام الستة، وهو يعقد حاجبيه في شدة، ويبرز انيابه الصغيرة على نحو مضحك، جعل والدته تبتسم وهي تقول:

- لقد اخفتني بالفعل..

ضحك الصغير في مرح، وانطلق عائدا إلى حجرته، وهو يصرخ:

- انا المرعب.

عقد الوالد حاجبيه في قلق، وهو يقول:

- إنهم يفسدون عقول الصغار بتلك الخرافات، التي تزخر بها الأفلام السينمائية هذه الأيام..

ابتسمت الوالدة في حنان: وهي تقول:

ـ ابنك يتميز بخيال جامح.

غمغم في ضيق:

- وعدواني..

اقتربت منهما الخادمة، وقطعت حديثهما، وهي تقول في آلية:

- هل ننظف حجرة السيد الكبير اليوم؟

التفتت الزوجة إلى زوجها في قلق، وقالت:

- ما رأيك؟

مط شفتيه، وتنهد قائلا:

- لا بأس.. إنها لن تبقى مغلقة للأبد..

بدا الارتياح على وجه الخادمة، وانصرفت إلى حيث حجرة الجد، الذي انتقل إلى رحمة الله منذ عام كامل، وراقبتها الوالدة، وهي تختفي في نهاية الممر الطويل، الذي يقود إلى الحجرة، ثم ربتت على كف زوجها، قائلة في إشفاق:

- أسعدني أنك قد وافقت أخيرا.

أشاح بوجهه، ليخفي دمعة ترقرقت في عينه، وهو يقول:

- أنت تعلمين كم كنت أحب أبي، حتى أنني أعجز عن رؤية حجرته خالية!

ربتت على كفه مرة أخرى، وقالت في حنان:

- ولكن كان من الضروري أن ننظف الحجرة، فهي لن تبقى أكثر من عام مغلقة..

تمتم وهو يمسح دمعته خفية:

- بالتأكيد.

اندفع الصغير إلى حيث يجلسان، وهتف في حماس:

. أمي.. ابي لقد عثرت الخادمة على حفرة عميقة في حجرة جدى.

داعب الوالد رأس الصغير وغمغم:

- لا بأس يا صغيري.. لا بأس.

ابتسم الصغير في مرح، ولوج بكفيه، قائلا:

- هل سيخرج منها الوحش الكبير؟

ربت على رأسه، قائلا:

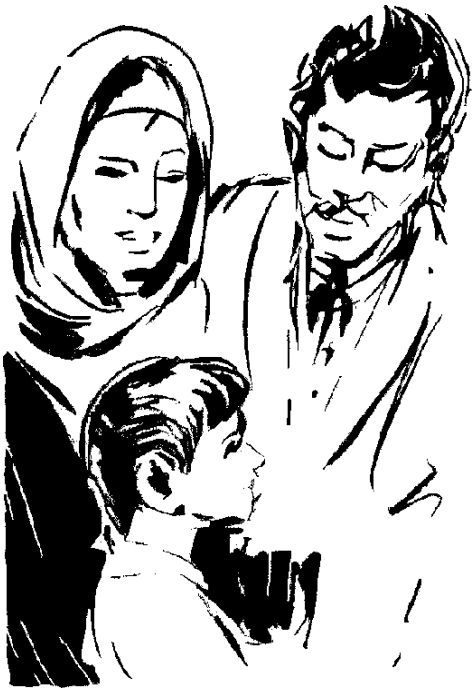

- لا توجد وحوش كبيرة أو صغيرة، في عالم الواقع يا بني.. كل هذا مجرد خيال.

أومأ الصغير برأسه متفهما، وأسرع عائدا إلى حجرة الجد ووالدته تهتف به:

- حذار من الأتربة الكثيفة.

والتفتت إلى زوجها، مستطردة:

- الم اقل لك إنه يمتلك خيالا جامحا؟

تمتم الوالد:

- أكثر مما ينبغي..

اندفع الصغير مغادرا حجرة الجد، وهو يهتف:

- أبي.. امي.. لقد صعد الوحش الكبير من الحجرة، وامسك الخادمة.

عقد والده حاجبيه، وهو يقول في صرامة:

- ينبغي أن تكف عن هذا اللغو.

قالت الوالدة، محاولة تهدئة الأب:

- إنه مجرد كلام طفل، و...

قاطعها في حدة:

- بل هو كذب متعمد..

خشيت أن يتعاظم الأمر، فقالت:

- صدقني.. إنه كلام أطفال..

اما الصغير، فقد شحب وجهه، وغمغم:

- لقد خرج الوحش من الحفرة بالفعل، وأمسك الخادمة، وجذبها إلى حفرته ليلتهمها.

قال والده في صرامة:

هكذا؟!.. لماذا إذن لم تصرخ الخادمة مستنجدة؟

لوح الصغير بذراعيه، هاتفا:

لقد أمسك وجهها، وكتم فمها، و...

صرخ به والده:

- كف عن هذا.

ثم جذبه من ذراعه، واتجه نحو حجرة الجد، مستطردا:

- سأثبت لك أنك كاذب.

لحقت بهما الوالدة، وقد أدهشها أن يتجه زوجها إلى حجرة والده الراحل التي خشي رؤيتها طيلة عام كامل، وهى تهتف:

- صدقني.. إنه كلام اطفال.. ا تجعله يشير أعصابك إلى هذا الحد.

رأت زوجها يحدق داخل حجرة الجد، ثم يتراجع في حدة. وأدركت انه لم يحتمل رؤية الحجرة الخالية، كما كانت تتوقع، فلحقت به، وهي تقول مشفقة:

- أرايت ما فعله بك كلام الأطفال.. لقد..

بترت عبارتها بغتة، وأطلقت شهقة رعب قوية..

لقد كانت هناك حفرة كبيرة في زاوية الغرفة، وإلى جوارها آثار مخالب حادة في الأرضية، وقد اختفت الخادمة المسكينة..

(تمت)

العبقرى ..

32- العبقري..

- ما الحل المنطقي أيها العبقري؟..

ألقى عليه الجالس إلى جواره هذا السؤال، فالتفت يتطلع إليه في هدوء، ثم عاد يملأ عينيه بذلك المكان، الذي يجلسان فيه..

لم يكن المكان عاديا..

كان مساحة بالغة الضخامة، أشبه بصحراء صفراء منبسطة، بلا نتوءات أو انخفاضات، وفي نهايتها كانت هناك بنايات شاهقة، وحركة دائبة لملايين البشر، الذين يمكنه تمييزهم في صعوبة بالغة..

ولكن.. هو نفسه ليس بالرجل العادي..

إنه أشهر رجل تحريات في العالم أجمع..

وهو أكثرهم عبقرية، في فن الاستنتاج، حتى أنه يفوق (شيرلوك هولمز) نفسه، البوليس السري الأشهر..

ومرة أخرى راح يفحص المكان حوله، فسأله الجالس إلى جواره في لهجة أقرب إلى السخرية:

- ألم تتوصل بعد إلى معرفة ما يحدث حولك؟

بدا له الصوت مألوفا هذه المرة، فالتفت إلى الجالس، وأدهشه انه زميل حجرته، الذي ينافسه منذ عملهما معا في هذا المجال، وتساءل في حيرة: كيف لم ينتبه إلى هذا منذ البداية؟ ولكنه قال في عناد:

- سأتوصل إلى الحل حتما..

نهض زميله، قائلا:

- ستجدني إذن في مكتبي.

تركه واتجه إلى مبنى خلفهما، لم ينتبه إليه هو إلا في هذه اللحظة أيضا..

والعجيب أنه كان يشبه حجرتهما في إدارة الأمن، وبكل العناد في أعماقه، غمغم هو:

- هناك تفسير حتما لكل هذا..

نهض يدير عينيه فيما حوله، ويشحذ عقله وحواسه للبحث عن الاستنتاج المناسب، حتى عاد إليه زميله، وسأله في شماتة:

- هل توصلت إلى شيء؟

أجابه في اعتزاز:

- الوصول إلى الاستنتاجات الصحيحة يحتاج إلى معلومات.. فينبغي أن أعرف أولا اسم هذه المدينة هناك..

قال زميله في سخرية:

- اية مدينة؟

التفت إلى حيث البنايات الشاهقة، ثم عقد حاجبيه في دهشة، فلم تكن هناك بنايات، ولم يكن هناك بشر..

كانت هناك واحة ضخمة من النخيل..

وفي نبرة أشد سخرية، قال زميله:

- ما الحل ايها العبقري؟

صمت لحظات، ثم قال:

- الأمر ليس عسيرا كما تتصور لقد ظهرت أشياء، واختفت، وظهرنا نحن في مشهد واحد، وفي مكان يصعب وجوده في عالم الواقع، كما أنه من المستحيل أن ينتقل مكتبنا إلى هنا ايضا.

سأله زميله في اهتمام:

. وما الذي يعنيه كل هذا؟

رفع العبقري سبابته أمام وجهه، وقال:

- يعنى ان كل هذا.. انا، وانت، والصحراء، والمدينة، والواحة، والمكتب.. كلنا لسنا في عالم الواقع، وإنما كل هذا مجرد حلم.. حلم عادى..

واستيقظ من نومه..

(تمت)

الدخان

33- الدخان..

- أنت تدخن أكثر مما ينبغي..

رفع الأستاذ (فؤاد) عينيه إلى صاحب العبارة، وبدا له وجه صاحبها مألوفا، وإن لم يذكر الأستاذ (فؤاد) أبدا أنهما قد حدثا من قبل، على الرغم من انهما يستقلان معا قطار السابعة كل صباح، من مدينتهما (دمنهور) حيث يقيمان، إلى (الإسكندرية)، مكان عملهما.

وهذا النوع من المعرفة يطلق عليه اسم (صداقة القطار)..

تلك الصداقة التي تنشأ مع المشاركة في السفر والانتظار، وتربط بين عدد من المسافرين المؤمنين، الذين شاء قدرهم أن يقيموا في مدن تختلف عن تلك التي يعملون فيها، فاضطروا للالتزام برحلة سفر يومية إجبارية، لا تنقذهم منها سوى أيام الإجازات الرسمية، والعرضية.

واحتراما لصداقة القطار هذه، وعلى الرغم من أن الأستاذ (فؤاد) يكره من يتدخلون في شئونه، فقد ابتسم في هدوء، وقال:

- ليس كثيرا إلى هذا الحد..

جلس صاحب العبارة على المقعد المجاور للأستاذ (فؤاد)، وبادله ابتسامته، وهو يقول:

- بل هو كثير بالفعل.. صدقني.. انا طبيب متخصص في أمراض الصدر، وأدرك جيدا متاعب التدخين..

غمغم الأستاذ (فؤاد):

- إنها مجرد عادة، و...

قاطعه الطبيب مبتسما:

ـ ولكنها تنهك صحتك وقواك، وتستهلك حتى اموالك.. قل لي: الم تفكر في الإقلاع عن عادة التدخين هذه.

قال الأستاذ (فؤاد)، وهو يطفئ سيجارته:

- لقد حاولت في الواقع أكثر من مرة، وفشلت..

مال الطبيب نحوه، قائلا في اهتمام:

- لدي وسيلة مضمونة....

أثار حماسه الأستاذ (فواد)، فسأله:

- ما هي؟

اندفع الطبيب يقول في حماس:

- هل تعرف الكمون؟.. كلنا نعرفه بالطبع.. أحضر منه كمية كبيرة.. حوالي النصف كيلو جرام، واطحنها حتى تصبح مسحوقا خشنا.. هل تتابعني؟

اجابه الأستاذ (فؤاد) في اهتمام:

- نعم.. أكمل.

أكمل الطبيب:

وبعدها احضر علبة سجائر، وأفرغ ما بها من تبغ، وأضف إلى تبغ السيجارة الأولى ربع محتوياتها كمونًا، وإلى الثانية النصف، وزد الكمية إلى ثلاثة أرباع المحتويات في الثالثة، واملا الرابعة وما يليها بمسحوق الكمون الصافي، وابدأ بتدخين السيجارة الأولى في اليوم الأول، ثم الثانية في الثاني، وهكذا.. وفي اليوم الخامس لن تجد لديك ميلا للتدخين..

ظلت هذه الوصفة تلح على رأس الأسنان (فؤاد) طيلة عمله، وزاد إلحاحها عندما لهثت انفاسه وهو يصعد في درجات سلم منزله، في اليوم التالي، وتذكر رجاء زوجته، وإلحاحها عليه ليحاول الامتناع عن التدخين، وراح يحسب كم بنفق على سجائره شهريا..

وفي المساء، استقر رابه على تنفيذ الفكرة..

وبكل الحماس، ابتاع الأستاذ (فؤاد) نصف الكيلو جرام من الكمون، وراح يطحنه منبعا النصيحة، ويضيف إلى

السيجارة الأولى ربع حجمها كمونا، وهكذا..

وفي الصباح التالي، اتجه الأستاذ (فؤاد) إلى القطار، وعلبة السجائر ذات التبغ المخلوط بالكمون في جيب قميصه..

وفي القطار بحث ببصره عن الطبيب، ولكنه لم يجده، فاتخذ مقعده، وانتظر حتى غادر القطار المحطة، ثم أخرج السيجارة الأولى، واشعلها..

وتصاعدت رائحة الكمون المحترق في عربة القطار..

والتفتت العيون كلها إلى الأستاذ (فؤاد)..

وحملت كل الاستنكار والغضب..

وفي اليوم التالي، عندما التقى الأستاذ (فؤاد) بالطبيب، لم يتبادلا حرفا واحدا..

كان الطبيب يبتسم في خبث..

وكانت عين الأستاذ (فؤاد) اليسرى نصف مغلقة تحيط بها كدمة زرقاء.

ولقد نجحت الوصفة..
وامتنع الأستاذ (فؤاد) عن التدخين..
في القطار على الأقل..

(تمت)

انتقام

34- انتقام.

- أيمكنني شراء هذه السيارة القديمة؟..

رفعت العجوز عينيها في بطء، تتطلع إلى صاحب السؤال، الذي بدا لها ممشوق القوام، عريض المنكبين، حاد الملامح، فملأت عينيها بوجهه طويلا، ثم نقلت بصرها إلى نموذج السيارة الكبير، الذي انتشر الصدأ في أطرافه، وبدا زرى الهيئة، حتى أن أحدا من رواد متجر لعب الأطفال، الذي تملكه، لم يعد يلتفت إليه بتاتا، بل إن البعض يخشون لمسه، لكثرة الأتربة التي تغطي كل ركن فيه، وكأنها تتعمد إهماله على هذا النحو..

وفي هدوء، أعادت العجوز عينيها إلى الرجل، وقالت:

- إنها غالية الثمن.

ابتسم الرجل ابتسامة لم ترق لها، وهو يقول:

- ولكنها تروق لي..

غمغمت العجوز:

- حقا؟!

عادت تتطلع إلى النموذج القديم لحظة، ثم أضافت:

- إنها تساوى مائتي جنبه..

رفع الرجل حاجبيه في دهشة، وهتف:

- يا إلهي!.. إنها غالية الثمن جدا

أشاحت بوجهها، وقالت في صرامة:

- هذا ثمنها.

صمت الرجل لحظات، وهو يتطلع إلى النموذج القديم، في اهتمام..

كان نموذجا من الصفيح المطلي، لسيارة من طراز (المرسيدس)، يعود تاريخ السيارة الأصلية، التي صنع النموذج على شاكلتها، إلى عالم ١٩٠٣ م، ولقد برع صانع النموذج في صنعه، فبدا شديد الإتقان والوضوح، لولا الصدأ والأتربة..

وقال الرجل مستنكرا:

- إنه نموذج قديم، و...

زمجرت العجوز، وقالت في شراسة:

- لست أقبل مساومة.

ساد بينهما الصمت لحظات أخرى، ثم قال الرجل مستسلما:

- حسنا هل يمكنني فحص النموذج؟

سألته في خشونة:

- هل ستشتريه؟

قال مستسلمًا:

- نعم.. سأشتريه..

مدت يدها إليه، قائلة:

- ادفع ثمنه اولا إذن.

زفر في استسلام، واخرج حافظة نقوده، ونقدها الثمن الذي طلبته، فتألقت عيناها على نحو عجيب، وعادت تتطلع إلى وجه الرجل طويلا، ثم نهضت، قائلة:

- تعال.. سأسمح لك بفحصه في المخزن..

حملت النموذج القديم إلى المخزن، الملحق بالمتجر، وتبعها الرجل في تردد، حتى وضعت النموذج في ركن المخزن، فاتجه إليه في لهفة، وقال:

- ما كل هذه الأثرية؟.. إنه يبدو كما لو أن أحدا لم ينظفه منذ عام كامل..

غمغمت:

- بل منذ سبعة أشهر بالتحديد..

لم يهتم بجوابها، وهو يمسح الأتربة عن النموذج في لهفة، ثم راح يفحصه في شغف شديد، حتى سمع صوت العجوز من خلفه تقول:

- لن تجد ما تبحث عنه.

التفت إليها في سرعة، ثم شهق في ذعر، وتراجع في عنف، عندما رآها تصوب إليه مسدسا، وهتف:

- ما هذا يا سيدتي؟

قالت في بغض شديد:

لقد كشفت نفسك.

قال ملتاعًا:

- كشفت نفسي!!.. ماذا تعنين يا سيدتي؟

أطلقت ضحكة شرسة، وقالت:

- لا تحاول انت تعلم ما فعلته بابني..

لوح بكفيه، وهو يقول:

- ابنك؟!.. أقسك لك إنني لا أعرف ابنك هذا يا سيدتي، وأننى..

صرخت به:

- اخرس..

ابتلع رعبه مع كلماته، وهو يحدق في وجهها، وفي المسدس المصوب إليه، وهي تتابع في حدة:

كنت أعلم أن القاتل سيوقع بنفسه لقد بدأت أحوال ابني تضطرب منذ ثمانية شهور، ولكنني لم أدرك حقيقة ما أصابه، إلا بعد فوات الأوان.. كنت واثقة من أنه يأتي عملا غير مشروع كل شيء فيه كان يؤكد ذلك النظرات الزائغة الشحوب ونقص الوزن كل هذا كان يقلقني ويعذبني، حتى كان ذلك اليوم المشئوم.

اتسعت عيناها، وبدا صوتها وحشيا مخيفا، وهى تستطرد:

- عاد من الخارج يرتجف، وأخبرني أنه واقع في مأزق خطير، واخرج من جيبه لفافة بيضاء تحوي ذلك المسحوق القاتل اللعين الهيروين.. وبكل رعبه، وأمام عيني المذعورتين، اتصل بشخص ما، وأخبره انه سيخفي المخدر في نموذج السيارة القديم، قبل أن تداهمه الشرطة.

ترقرق الدمع في عينيها، واضافت:

- انهي المحادثة، وأخبرني أن ذلك الشخص، الذي تحدث إليه، لن يتردد عن قتله، لاستعادة ذلك المسحوق الملعون، وأسرع يضعه في النموذج، ثم غادر المتجر مذعورا مرعوبا.

مسحت دموعها في مرارة، وقالت في ألم:

- ولم أره منذ ذلك الحين.. منذ سبعة أشهر كاملة..

شحب وجه الرجل في شدة، وقال:

- سيدتي أقسم لك إنني..

قاطعته في صرامة مخيفة:

- أدركت على الفور أن ذلك الشخص المجهول قد قتله.. قتل ابني الوحيد، فلو انه على قيد الحياة ما تركني أتعذب لفراقه هكذا.. كان سيتصل هاتفيا على الأقل.. وكنت أعلم ان قاتله سيسعى حتما لاسترداد المسحوق، من النموذج القديم.

وفي بغض تابعت:

- ولقد اعدمت ذلك المسحوق، الذي تسبب في قتل ابني، وتركت النموذج بلا عناية أو رعاية، ووضعت ثمنا كبيرا له، وكنت أعلم أن الشخص الوحيد، الذي يمكنه أن يقبل دفع ثمن كهذا، في نموذج قديم متهالك، هو إما مجنون، أو قاتل ابني، يسعى خلف المسحوق..

بكى الرجل في مرارة، وهو يقول:

- لا هذا ولا ذاك يا سيدتي.. إنني رجل أعشق جمع نماذج السيارات القديمة، وهذا النموذج نادر، يمكنني تنظيفه وطلاؤه، و...

قاطعته ثائرة:

- كاذب.. ما كنت لتدفع كل هذا المبلغ من أجله..

هتف منهارا:

- إنه يساوي أكثر.. صدقيني... أنا أعلم هذا، بصفتي هاويا لجمع نماذج السيارات.. إنه يساوي على الأقل ثلثمائة جنـ...

قاطعته مرة أخرى، وهي ترفع مسدسها في وجهه:

- كاذب.

رآها تجذب ابرة المسدس، فاتسعت عيناه في رعب، وصرخ:

- لا يا سيدتي.. لا..

وأطلقت هي النار..

وسقط الرجل وسط مخزن لعب الأطفال، والدماء تنزف من ثقب في منتصف صدره..

وفي ارتياح، غمغمت العجوز، وهي تلقي المسدس إلى جوار جثة الرجل:

- نال ما يستحق..

ثم ربتت على النموذج القديم في حنان، وغادرت المخزن إلى المتجر..

واتسعت عيناها في ذهول..

لقد رأته أمامها..

على الرغم من هزاله وشحوبه عرفته على الفور..

وبكل لهفته، احتواها بين ذراعيه هاتفا:

- أمي.. كم أوحشتني سبعة أشهر لم أركِ..

حدقت فيه في ذهول، وهتفت:

- أنت؟!.. إذن فأنت لم تمت!!

قال في دهشة:

- لا.. أنا على قيد الحياة يا أمي، ولكنني خشيت العودة طيلة الأشهر السبعة الماضية، وخشيت حتى الاتصال بك هاتفيا.. لقد انتهى الأمر في سلام يا أمي.. سأعدم المسحوق.. لقد شفيت من ذلك الإدمان اللعين، وأبلغت الشرطة عن شريكى، وألقوا القبض عليه منذ يومين.. لقد نجوت يا أمى

رددت ذاهلة:

- نجوت.

ثم انفجرت باكية، وهي تستطرد:

- لماذا لم تصل قبل هذا.. لماذا وصلت بعد فوات الأوان؟!

تراجع مغمغما في قلق:

- بعد فوات الأوان.. ماذا تعنين يا أمي؟.. ماذا تعنين؟

رأته يحدق فجأة في نقطة ما خلف ظهرها، وعيناه تحملان مزيجا من الرعب والدهشة، جعلها تلتفت إلى حيث ينظر بدورها، قبل أن تتراجع مذعورة..

لقد رأت الرجل أمامها، وهو يترنح، ممسكا بصدره، الذي ينزف في غزارة، وفي قبضته الأخرى مسدسها، الذي ألقته إلى جواره، وسمعته يقول في بغض:

- أيتها العجوز اللعينة!

رفع مسدسه نحوها، فصرخ ابنها:

- ليس أمي.

حدث كل شيء بسرعة بعدها..

ازاحها ابنها بعيدا..

انطلقت الرصاصة..

سمعت ابنها يصرخ في الم..

ثم سقط الأثنان..

سقط الرجل، وسقط ابنها..

وأطلقت العجوز صرخة هائلة:

- ابني.. لا.. لا يا ابني..

والقت نفسها على جثة ابنها، وراحت تصرخ بلا انقطاع.

لقد تم الانتقام..

انتقام القدر..

(تمت)

العبقرى ..

35- السر..

- أتطالبني حقا بنصيبك؟!..

انكمش الشيخ (احمد) في مقعده، وهو يتطلع إلى ابن شقيقه (طاهر)، الذي نطق العبارة السابقة في شراسة مخيفة، تقافز لها الشرر من عينيه، وتشكلت لها ملامحه في هيئة شيطانية رهيبة، قبل أن يستطرد في غضب:

- اي نصيب هذا؟

از درد الشيخ (احمد) لعابه في صعوبة، وهو يتطلع إلى (طاهر)، الذي بدا له عملاقا، بقامته الرياضية الممشوقة، وصدره المريض، وعضلاته المفتولة، وتمتم الشيخ في خفوت:

- نصيبي في الأرض يا ولدي انت تعلم أنني ووالدك (رحمه الله)، كنا شريكين في قطعة الأرض، ولكنها كانت مسجلة باسم والدك وحده، و..

قالعه (طاهر في صوته هادر:

- انت قلتها.. كانت مسجلة باسم والدي وحده، وهذا يعني انه لا نصيب لك فيها ولا مترا واحدا.. القانون هو القانون.

ازدرد الشيخ (احمد) لعابه مرة أخرى، وقال:

- لست أتحدث عن القانون يا ولدي، ولكن عن العدالة والحق لقد سمعت والدك بنفسه يتحدث عن مشاركتي له في قطعة الأرض، ويشير إلى نصيبي فيها، قبيل وفاته بأيام، و ...

قاطعه (طاهر) ثانية:

- لم أسمع شيئا.

شعر الشيخ (احمد) باليأس، وهو ينظر إلى ابن شقيقه الجاحد، وراح يقارن - دون وعي - ما بين ضخامة (طاهر) وضآلته هو، قبل ان يقول في لهجة أقرب إلى الضراعة:

- لا تجعل الطمع يعمي عينيك عن الحق انت تعلم انني امتلك قطعة الأرض فلماذا ترفض منحى ما أملك؟

تراجع (طاهر) في مقعده، وقال في سخرية:

- اي حق هذا يا عماه؟.. هل تمتلك عقدا مكتوبا؟..

او حتى وثيقة قانونية واحدة.

تنهد الشيخ (احمد)، وقال:

- في جيلنا كان الأمر يختلف كثيرا يا ولدي، ولم يكن الشقيقان يحتاجان إلى عقود مكتوبة، لضمان حق كل منهما لدى الآخر..

أطلق (طاهر) ضحكة ساخرة عالية، وقال:

- فليدفع جيلكم ثمن هذا إذن.

شعر الشيخ (احمد) بقلبه يمتلئ، سخطا، فقال في توتر:

- لا تضطرني لفعل ما أكره يا ولدي..

ابتسم (طاهر) ساخرا، وقال:

وماذا يمكنك أن تفعل؟

قال الشيخ (أحمد) في حدة:

- من يدري؟.. يضع الله (سبحانه وتعالى) سره، في أضعف مخلوقاته..

قهقه (طاهر) ضاحكا، في تهكم شديد، قبل أن يشير إلى عمه في ازدراء، قائلا في لهجة لم تتلاش السخرية من حروفها بعد:

- أي سر يا رجل؟.. الم تلق نظرة واحدة على وجهك في المرآة.. الم تدرك أبدا أي مخلوق تافه انت.. الم تنتبه إلى أنك قد تجاوزت الثمانين من عمرك؟

هتف الشيخ في غضب:

- اسمع يا (طاهر).. لقد تجاوزت حدودك كثيرا..

سأرفع الأمر إلى القضاء، ولدى شهود، سيؤكدون احقيتي في قطعة الأرض و..

اشتعلت نيران الغضب في عيني (طاهر)، وهو يقول:

- شهود؟

ثم مال نحو عمه، مستطردا في شراسة مخيفة:

- أتتصور أنك ستخيفني بهذا؟

انكمش الشيخ (أحمد) أكثر وأكثر في مقعده، وراح جسده يرتجف، امام نظرة (طاهر) الرهيبة، في حين استطرد هذا الأخير في عدوانية واضحة:

- يبدو أنك لا تدرك ما يمكنني ان افعله بك.. هل ترى هذه الحشرة؟

قالها وهو يشير إلى نملة صغيرة، تسللت إلى سطح المائدة، وراحت تحث الخطأ نحو ذرة من السكر، سقطت عفوا، وأضاف في غضب:

- سأسحقك مثلها..

وسحق النملة بطرف سبابته في عنف..

☆ ☆ ☆

هز الطبيب رأسه في دهشة تمتزج بالرهبة، وهو يغمغم:

- لم أر مثل هذا ابدا.. لقد قرأت يوما عن هذا الأمر، ولكنني لم اشاهده طوال حياتي المهنية قط.

استمع إليه ضابط الشرطة في صمت، ثم رفع عينيه إلى الشيخ (احمد)، وسأله:

- ماذا حدث بالضبط أيها الشيخ؟

هز الشيخ (احمد) رأسه في حيرة، وأجاب:

- لست أدري أيها الضابط.. لقد سحق النملة بطرف سبابته، ثم أطلق شهقة، واحتبست أنفاسه في حلقه، وخيل إلى أن وجهه ينتفخ ويحتقن، ورفع يده نحوى وكأنه يستنجد بي، إلا أنه لم يلبث أن سقط عند قدمى جثة هامدة الست أدرى حقا ماذا حدث؟

تطلع الضابط إلى جثة (طاهر) في حيرة، ثم سأل الطبيب:

- اهناك تفسير علمى لهذا؟

أومأ الطبيب برأسه إيجابا، وقال:

- نعم.. إنها حساسية فائقة لحمض التمليك، الذي تفرزه النملة، عند التعرض للخطر، أو عند سحقها.. إنه أمر يشبه الحساسية الفائقة لعقار البنسلين، ولكنه شديد الندرة، بحيث تجده لدى واحد من كل تسعة ملايين من البشر.. لقد سحق النملة، فقتله الحمض الذي افرزته بمجرد أن مس طرف سبابته.

هز الضابط راسه في رهبة، وعاد يتطلع إلى جثة (طاهر)، قبل أن يقول في أسف:

- يا لحكمة الله سبحانه وتعالى) !!.. كل هذا العنفوان والشباب والقوة، وتقتله نملة واحدة!.. سبحان الله!!

خيل إليه أن الشيخ (احمد) يبتسم، وهو يقول:

- يضع الله (سبحانه وتعالى) سره في أضعف مخلوقاته يا ولدي.

واتسمت ابتسامته قليلا، وهو يستطرد:

- اليس كذلك؟

(تمت)

الثـأر

36- رفقـًا بهم..

- أنت تستحق القتل..

ارتجف الكهل النحيل، عندما انطلقت هذه العبارة كالرصاصة في أذنيه، من بين شفتي الأستاذ (عبد العال)، مدير جمعية الرفق بالحيوان، الذي انعقد حاجباه الكتان على نحو مخيف، واكتست ملامحه كلها بمزيج من الغضب والصرامة، وهو يستطرد في حدة:

- لو أن الأمر بيدى، لأعدمتك في ميدان عام..

از درد الكهل لعابه في صعوبة، وقلب كفيه في حيرة، مغمغما:

- لماذا يا سعادة البك.. ما الذي فعلته لأستحق كل هذا؟

صرخ الأستاذ (عبد العال) في وجهه:

- ما الذي فعلته؟!.. يا للهول!!.. أتجرؤ على إلقاء مثل هذا السؤال أيها الوقح.. ألا تدرك فداحة الجرم الذي ارتكبته؟

تمتم الكهل في مزيد من الحيرة:

- لا يا سيدي.. لست أدركه.. أخبرني أنت..

أطلق الأستاذ (عبد العال) زمجرة مخيفة، قبل أن يصرخ في وجهه:

- يا لك من تافه جاهل!.. ألم تضرب حمارك يا رجل؟.. ألم تنهل على ظهره بعصاك، في وسط الطريق؟

خيل للكهل أنه لم يفهم، فقال وهو يضرب كفا بكف:

- وماذا في هذا يا سعادة البك؟.. إنه حمار.. مجرد حمار..

صاح الأستاذ (عبد العال):

- بل هو كائن حيّ.

قال الكهل معترضا:

- كائن حيّ غبى يا سيدى، والوسيلة الوحيدة للتفاهم معه هي الضرب.. لا توجد وسيلة أخرى..

ضرب (عبد العال) سطح مكتبه بقبضته في عنف، وهو يقول:

- وهل جربت وسيلة أخرى؟، هل حاولت أن تتعامل معه بحب؟

اتسعت عينا الكهل، وهو يهتف:

- حب؟!.. أتعامل مع حماري بالحب؟!.. ما الذي تقوله يا سعادة البك؟.. من ذا الذي يتعامل مع حيوان كهذا بالحب؟.. إنه حيوان.. مجرد حيوان، مهمته هي أن يجعل حياتنا أيسر، وأن...

قاطعه الأستاذ (عبد العال) هادرًا:

- وأن نحيل نحن حياته إلى جحيم.. أليس كذلك؟

ثم اختطف قلمه، وقد التقى شعر حاجبيه الكث على نحو مخيف، مستطردا:

- لا يا رجل.. إنك لست أمينا على هذا الحمار؛ ولهذا سنأخذه منك..

صرخ الكهل في ذعر:

- تأخذونه.. تأخذون الحمار؟!.. يا للنهار الأسود!.. كيف تأخذونه يا سعادة البك؟.. إنه هو الذي يحملني إلى حقلي كل

صباح، ويحمل متاعي وأثقالي و..

قاطعه الأستاذ (عبد العال) في صرامة:

- ولماذا لم تحافظ على هذه العلاقة الطيبة؟

ضرب الكهل كفا بكف مرة أخرى، وهو يصرخ:

- أية علاقة يا بك؟.. إنه حمار. حماااار

ضغط (عبد العال) زر الجرس، الموضوع فوق مكتبه، وهو يقول:

- أخرج يا رجل.. أخرج..

لم يكد يتم عبارته، حي دخل فراش مكتبه، ورفع يده بالتحية، استجابة لنداء الجرس، فصاح به الأستاذ (عبد العال):

- ألقِ بهذا الرجل خارجا..

راح الكهل يصرخ:

- والحمار يا سعادة البك؟!.. ماذا عن الحمار؟.. أريد حمارى

تجاهله (عبد العال) تماما، وعذل من وضع رباط عنقه، وهو يقول في صرامة:

- قساة..

وبضمير مرتاح تماما، واصل عمله في الجمعية، حتى انتهت ساعات العمل، فاستقل سيارة الجمعية، وأوصله بها سائقها إلى منزله، فصعد إلى المنزل بملامحه الصارمة كالمعتاد، ولم تكد زوجته تستقبله بالباب، حتى عقد حاجبيه في شدة، وسألها وهو يتطلع إلى عينيها:

- ماذا حدث؟.. هل كنت تبكين؟

ترددت لحظة، ثم خفضت عينيها، قائلة:

- نعم.. كنت أبكي..

سألها في قلق:

- لماذا؟ ماذا حدث؟

انحدرت الدموع من عينيها، وهي تجيب:

- لقد رسب ابننا (فتحى) مرة أخرى.

صرخ (عبد العال) في غضب:

- رسب؟!

ثم اندفع داخل الشقة، مستطردا في شراسة:

- هذا الغبي التافه..

تعلقت زوجته بذراعه في ذعر، وهي تهتف:

- إنه محدود الذكاء، كما أخبرنا الطبيب.. صدقني، إنه لا يملك أكثر من هذا..

دفعها جانبا، وهو يختطف عصا غليظة، من ركن الردهة:

- بل هو غبي ومستهتر، ويحتاج إلى درس قاسي..

اندفع نحو حجرة ابنه، واقتحمها في عنف، وسمعت زوجته ابنها يطلق شهقة رعب، ويصرخ:

- لن أرسب مرة أخرى يا أبي.. أقسم إني لن أفعل..

حاولت أن تندفع لنجدة ابنتها، إلا أن (عبد العال) أغلق باب الحجرة بالمفتاح في الداخل، وهو يقول في غلظة:

- أعلم أنك لن تفعل؛ بسبب ما سيحدث لك الآن..

ورفع العصا، وراح هوى بها على جسد الفتى المسكين في قسوة، والصبي يطلق صراخا عاليا، انفطر له قلب أمه، وهي تذرف الدمع وتصرخ

- ارحمه يا (عبد العال).. ارحمه.. حاول أن تتعامل معه بالحب..

ثم راحت تدق الباب بقبضتيها، وصراخ ابنتها يمزق نياط قلبها، وهي تستطرد:

- رفقا به يا (عبد العال).. رفقا به..

وما من مجيب..

(تمت)

القشة

37- الخوف..

ازدرد (لطفى) لعابه في توتر، وهو ينطلق بسيارته عبر ذلك الطريق المقفر، الذي يربط ما بين طريق (الإسماعيلية) ومصيف (فايد)، مع غروب الشمس، وسرى في نفسه ذلك الحرف التقليدي، الذي ينتابه كلما قطع هذا الطريق، في فصل الشتاء، عندما يخلو من السيارات تقريبا، بحيث يخيل إليه في كل مرة أنه ينطلق في عالم آخر، فنت الحياة على سطحه إلا منه، وأصبح أخشى ما يخشاه أن يهاجمه لص أو قاطع طريق، مستغلا خلوّ الطريق، فيقتله أو يستولي على أمواله.

في كل مرة كانت نفس المخاوف تراوده، وتدفعه إلى أن يلعن إصرار زوجته على شراء تلك الفيلا في (فايد)، وقضاء معظم أيام السنة فيها، مما يجبره على السفر من (القاهرة)، حيث عمله، إلى (فايد)، مرتين أسبوعيا على الأقل..

ومع اتجاه الشمس إلى المغيب، راحت مخاوفه تتضاعف وتتزايد..

ثم لمح فجأة تلك السيارة، التي تأتي خلفه، في مرآة سيارته..

ولسبب ما، سرت في جسده ارتجافة، مع مرأى السيارة الأخرى، فازدرد لعابة مرة ثانية..

ثم انتفض جسده دفعة واحدة..

انتقص مع صوت رنين مكتوم، انبعث من مؤخرة سيارته، ثم تلاشى بسرعة، فغمغم في ضيق:

- يبدو أن السيارة العجوز قد بدأت تعاني، من ذلك السفر المتكرر.

انحنى مع اتجاه الطريق، وواصل سيره بعض الوقت، حتى اختفت الشمس في الأفق، ثم رفع عينيه مرة أخرى إلى مرآة السيارة، متطلعا إلى تلك السيارة الأخرى..

وهنا انتفض جسده بالفعل..

كانت السيارة تنطلق بسرعة كبيرة، وكأنها تسعى للحاق به..

وبحركة غريزية، ضغط (لطفى) دواسة الوقود، وزاد من سرعة سيارته، ولكن السيارة الأخرى زادت من سرعتها بدورها، فغمغم (لطفى) في قلق:

- هل يطاردني أم ماذا؟

ارتجف جسده في رعب، عندما لحقت به السيارة، ثم مال بها سائقها نحوه، وأطل من نافذتها بوجهه الضخم الغليظ، وحاجبيه الكثين، وأشار إليه بالتوقف..

وهنا ذاب في نفسه كل شك..

إنه يطارده بالفعل..

ها هي ذي مخاوفه تتحول إلى حقائق..

جاءت لحظة مواجهة كل ما يخشاه..

وبكل الرعب الكامن في أعماقه، منذ ارتاد هذا الطريق بسيارته لأول مرة، ضغط (لطفى) دواسة سيارته بكل قواه، وضاعف من سرعتها مرتين على الأقل، وانطلق بها كالصاروخ، ولكن السيارة الأخرى ضاعفت من سرعتها بدورها..

إنها مطاردة ولا شك..

ارتجف في قوة، وتمنى لو لاحت أضواء (فايد)، لتبدد مخاوفه، وتقيه هذا الخطر..

ولكن يبدو أن قائد السيارة الأخرى يصرّ على مطاردته، وأن سيارته أقوى كثيرًا من هذه السيارة، إذ أن المطاردة تسير في غير صالح (لطفى)، الذي راح العرق يتصبب على وجهه، وهو يقول في ضراعة:

- أسرعي أيتها السيارة العجوز.. أسرعي أيتها اللعينة..

صور له خياله السيارة الثانية، وهي تلحق به، وتجبره على التوقف، ثم هبط منها قائدها بوجهه القاسي، ومسدس ضخم في قبضته، ويجبره على أن يمنحه كل أمواله، أو يقتله ليستولي على سيارته..

وهو لا يملك سلاحًا للأسف..

أي سلاح..

اقتربت منه السيارة الثانية مرة أخرى، وارتفع نبض قلبه، وهو يكشف فشل سيارته في الفرار من المطاردة، وراح يسأل نفسه في رعب:

- ماذا أفعل لو لحق بي؟.. كيف أدافع عن نفسي؟. اللعنة على أفكار زوجتي، وعلى هذه السيارة العجوز..

أدرك أن نهاية المطاردة قد حانت، عندما أصبحت السيارة الثانية موازية له تماما، فهتف لنفسه في رعب..

- لا بد أن أجد سلاحًا.. لن أستسلم هكذا..

انحرفت السيارة الثانية نحوه مرة أخرى، ولوح له سائقها بالتوقف..

فانحرف بدوره على نحو غريزى، محاولا الإفلات منه..

وتجاوزت سيارته الطريق الأسفلتي، واندفعت بضع لحظات في الرمال الكثيفة..

ثم توقفت بغتة.. وهوى قلب (لطفى) بين قدميه لقد وقع خسر المطاردة.. ووقع..

وفي مرآة سيارته، رأي قائد السيارة الأخرى يغادر سيارته بدوره، ثم يتجه إليه بجسمه الضخم المخيف، وهو يحمل شيئا ما في يده شيء أشبه بساطور ضخم..

لقد أصبحت مسألة حياة أو موت..

والتقط (لطفى) أول شيء وقعت عليه يده...

ثم غادر السيارة..

غادرها وهو يحمل أحد أدواته الهندسية، التي يدرك جيدا مدى ضعفها، عندما تواجه ساطورا ضخما، وارتكن إلى السيارة يرتجف كريشة في مهب الريح، والضخم يقترب منه في بطء مخيف..

وأخيرا أصبح الرجل أمامه تماما، واتسعت عينا (لطفى) في رعب، وعجزت يده حتى عن رفع أداته الهندسية الضعيفة، والرجل ينظر إليه في صرامة، قائلا:

- لقد أتعبتني كثيرا..

لم يجرؤ على النطق بحرف واحد، حتى رفع الرجل ذلك الشيء، الذي تصوره (لطفى) ساطورا ضخما، وهو يقول:

- خذ.

تناول (لطفى) هذا الشيء في آلية، والرجل يستطرد:

- لقد سقطت منك، وأنا أحاول اللحاق بك طوال الطريق؛ لأعطيك إياها..

قالها، واستدار عائدا إلى سيارته، وتاركا (لطفى) مفغور الفاه، يحدق في ظهره في ذهول، قبل أن يرفع ذلك الشيء، ويتطلع إليه في دهشة..

لحظتها فهم كل شيء..

الرنين المكتوم..

مطاردة الرجل له..

كل شيء..

كان هذا الشيء هو لوحة الأرقام المعدنية الخلفية لسيارته..

وفجأة انفجر (لطفى) ضاحكا..

لقد كانت مطاردة زائفة..

كل مخاوفه لم تكن تعني شيئا..

وبدون أن يدرى، وجد نفسه يلوح للسيارة الأخرى، وهي تبتعد، هاتفا:

- شكرا لك.

واتسعت ابتسامته في مرح، وهو يعود إلى سيارته، قائلا:

- يا للمخاوف السخيفة!

وألقى نفسه داخل السيارة، ثم أدار المحرك..

وهنا برزت داخله مخاوف أخرى،، لم تراوده أبدا من قبل..

مخاوف تحولت بغتة إلى حقيقة..

لقد رفض محرك السيارة العجوز الاستجابة..

وبكل الرعب، حاول (لطفى) إدارة المحرك..

وحاول..

وحاول..

ولكن هيهات..

لن يستجيب المحرك أبدا، وسيكون عليه أن يواجه ما لم يخطر بباله من قبل..

قضاء الليل هنا..

في قلب الخوف..

(تمت)

مذكرات زوج سعيد

38- محطة فضائية..

- من (ص ٧) إلى السفينة الأم.. لقد عبرنا الغلاف الجوي للكوكب الجديد، ونحن نقترب من تلك الأضواء المتراقصة على سطحه..

انتقل ذلك النداء عبر الفضاء، بواسطة أشعة غير مرئية، من جسم طائر صغير، إلى سفينة فضائية هائلة، اختفت بلونها الداكن في ظلام الفضاء اللانهائي، واستقبل النداء قائد السفينة، الذي التفت إلى كبير خبراء الفضاء، الذي يقف إلى جواره، وسأله:

- ما هذه الأضواء في رأيك؟

هز خبير القضاء كتفيه، وقال:

. إنها دليل على وجود حياة عاقلة على هذا الكوكب حتما..

ثم أردف في لهجة ذات مغزى خاص:

- حياة متطورة.

أومأ قائد السفينة برأسه موافقا، وتطلع إلى الفضاء بنجومه، عبر نافذة ضخمة في مواجهته، ثم قال في خفوت:

- هل سنتعامل مع تلك الأضواء كالمعتاد؟

أجابه خبر الفضاء في هدوء:

- هذا يتوقف على طبيعتها..

وسرح بأفكاره لحظات، قبل أن يتابع، وكأنه يسترجع ذكرى بعيدة:

- لم تكن أنت قد ولدت بعد، عندما بدأت أولى الاتصالات، بين كوكبنا والكواكب الأخرى المأهولة.. لقد أسعدتنا هذه الاتصالات للغاية، وتصورنا أنها بداية لإمكانيات غير محدودة، وثورة تكنولوجية وفضائية جديدة..

وتنهد في عمق، ثم استطرد:

- ولكن الأمر لم يكن كما توقعنا.. لقد اندلعت الحرب بين كوكبنا والكواكب الأخرى، وكادت تودي بنصف الكون، لولا انتصارنا على الجميع، وإجبارنا إياهم على الاستسلام، وفرض السلام الفضائي..

تمم قائد السفينة:

- أذكر هذا..

ابتسم خبير الفضاء، وهو يربت على كتفه، وواصل حديثه:

- ومنذ ذلك الحين اتخذنا قرارا حاسما، ألا وهو ضرورة منع الكواكب الأخرى من بلوغ مرحلة القوة، التي تسمح لها بشن حروب فضائية أخرى، وتعريض الكون خاطر جديدة.. وهذه مهمة سفينتنا هذه.. أن نمنع تقدم العلوم الفضائية على الكواكب الأخرى..

هم قائد السفينة بقون شيء ما، لولا أن أرسل الجسم الطائر الصغير نداء جديدا، يقول فيه:

- لقد اقتربنا من الأضواء المتراقصة، ونحن نراقبها الآن من خلف سحابة كبيرة، وظلام هذا النصف من الكوكب يحجبنا عن الأنظار، ولكن طبيعة تلك الأضواء العجيبة لم تتضح بعد..

مال خبير الفضاء على جهاز الاتصال، وقال في اهتمام:

- صِف لي ما تراه أيها الطيار..

أتاه صوت الطيار، يقول:

- إنها مساحة كبيرة، تحوي دائرة مضيئة، تدور حول نفسها، وحولها عدة دوائر أخرى، تأتي حركات عجيبة وعنيفة، وأجسام تعلو وتهبط في انتظام..

اعتدل خبير الفضاء، وهو يهتف:

- دوائر وحركات عنيفة؟!.. هل تفهم هذا يا قائد السفينة؟ هل تذكر الاختبارات، التي خضتها أنت ورفاقك، قبل عملكم في مجال الفضاء؟

أجابه قائد السفينة:

بالطبع.. اختبارات احتمال الطرد المركزي، وقوة الدفع.. كانوا يضعوننا في مقاعد تدور أفقيا ورأسيا، وفي اتجاهات عشوائية عجيبة، وبسرعات عنيفة..

ثم صاح في حماس:

- لقد فهمت يا سيدى..

برقت عينا خبير الفضاء، وهو يقول:

- نعم يا قائد السفينة.. إنها محطة فضائية.. محطة اختبارات لرواد الفضاء، على هذا الكوكب.. إنهم يستعدون لدخول عصر الفضاء

قال القائد في حزم:

- لن تمنحهم هذه الفرصة أبدا يا سيدى..

اعتدل خبير الفضاء، وقال:

- بالتأكيد.

ثم أشار إلى جهاز الاتصال، مستطردا في صرامة:

- هيا.. مُر رجالك بتدمير تلك المحطة الفضائية، ولنواصل رحلتنا بحثا عن كواكب أخرى مأهولة..

التفت قائد السفينة إلى جهاز الاتصال، وهو يقول في حماس:

- سأفعل يا سيدى.. سأفعل..

وضغط زر الاتصال، مستطردا:

- من السفينة الأم إلى (ص -٧).. دمر الهدف عن آخره، وعُد بأقصى سرعة..

هتف الطيار:

- سمعًا وطاعة يا سيدى..

وانقض على الهدف..

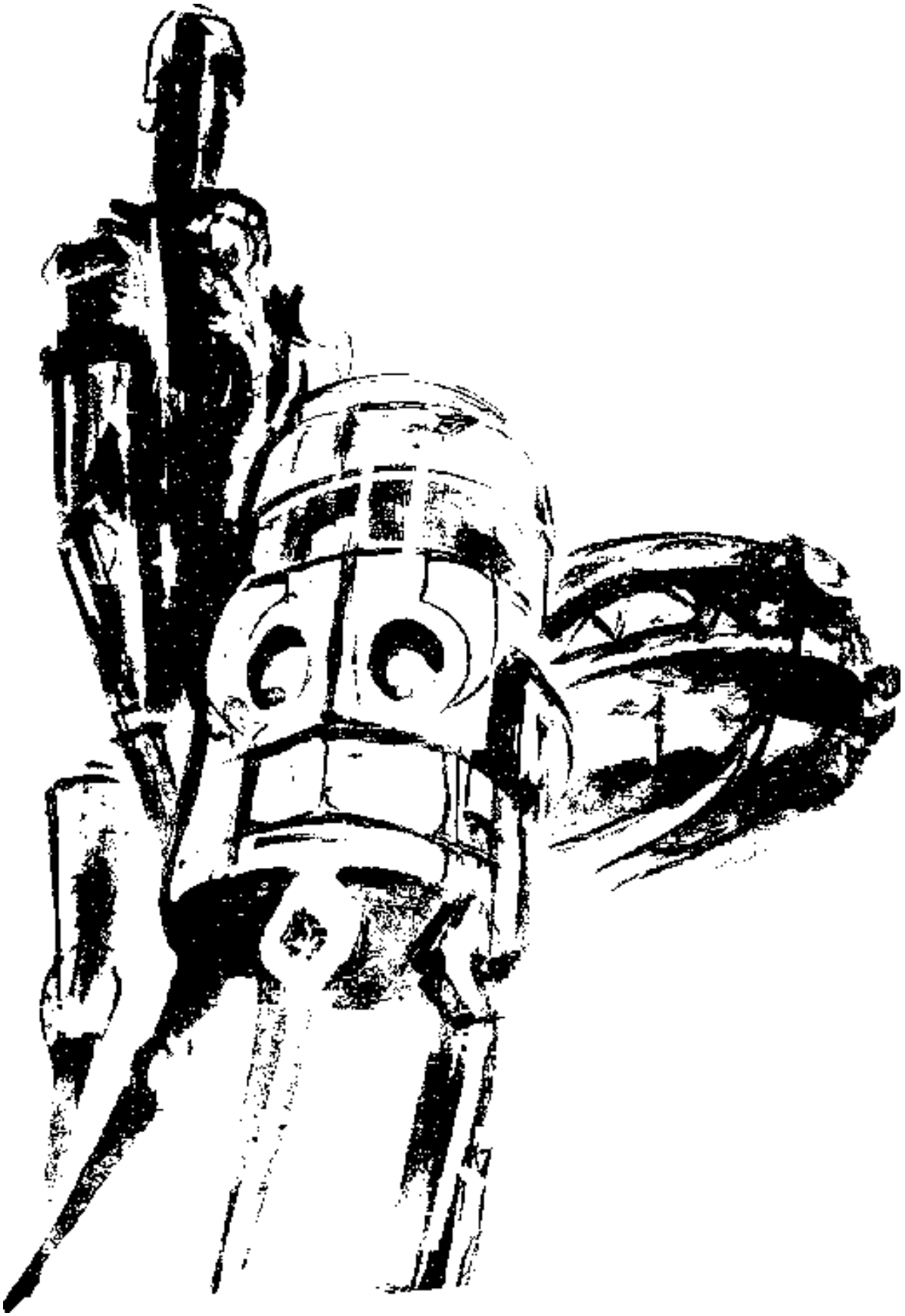

☆ ☆ ☆

- سيداتى آنساتي سادتي.. ناسف لقطع إرسالنا المعتاد؛ لنذيع عليكم هذا النبأ الهام.. رصدت أجهزة الرادار مساء اليوم جسما

طائرا مجهولا اخترق الغلاف الجوي الأرضي، واختفى بعض الوقت خلف سحابة ضخمة، ثم انقض فجأة على منطقة مأهولة، وأمطرها بأشعة ساحقة مجهولة، فأبادها عن آخرها، وابتعد بسرعة كبيرة للغاية، حيث عاد إلى الفضاء، ولحق بجسم هائل مجهول، ابتعد فور وصول الجسم الصغير إليه في اتجاه كوكب الزهرة.. ولم ترد أية أنباء أو معلومات أخرى في هذا الشأن، وما زال علماؤنا يدرسون الموقف، ويتساءلون عن سر ذلك الهجوم المحدود، وسر اختيار مدينة ملاه عادية هدفا له، ونعدكم بإذاعة ما يصلنا تباعًا.. وإلى بيان آخر..

(تمت)

القشة

39- أعرف ماذا فعلت..

ارتجفت أصابع (صالح)، وهو يدفع باب حجرة مكتب خاله (عبد الفتاح)، وتسارعت نبضات قلبه في قوة، وهو يخطو إلى داخل الحجرة، ويغلق بابها خلفه في إحكام، ثم لم يلبث أن ألقى جسده على أول مقعد صادفه، وراح يلهث في شدة، وكأنما أتى مجهودا جبارا كان يرتعد، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، على الرغم من ثقته الشديدة بأن فيلا خاله خالية تماما، غارقة في الظلام، لا تتردد فيها أنفاس سوى أنفاسه اللاهثة..

ولكنه لم يكن سارقًا محرفًا، حتى يمكنه تمالك أعصابه، وهو يقدم على أول عملية سرقة في حياته، بل إنه على العكس - صاحب أعصاب أضعف مما ينبغي..

صحيح أنه أعدَّ خطته في ذكاء، ونجح في سرقة مفتاح خزانة خاله، وصنع نسخة منه، وإعادة، دون أن يشعر خاله بهذا، ثم انتظر في صبر، حتى سافر خاله مع أسرته إلى (الاسكندرية)، كعادتهم في الإجازات الصيفية، وأسرع ليتم خطته، ويستولي على كل الأموال، في خزانة خاله البخيل..

وعلى الرغم من هذا، فهو ليس سارقا محترفا.. إنها الظروف، التي دفعته إلى هذا.. ظروف تلك العادة القبيحة.. الميسر..

إن (صالح) مقامر من الطراز الأول، لا يمكنه مقاومة الجلوس على مائدة القمار، كلما رأي أوراق اللعب في أيدي الأخرين.. أو حتى ملقاة وحدها..

ولكنه ليس من الطراز الأول، بالنسبة للربح والخسارة..

إنه يخسر أكثر مما يربح..

أكثر بكثير..

وفي هذه المرة كانت خسارته فادحة..

لقد خسر كل ما يملك، وأعطى دائنيه بعض الشيكات دون رصيد، وهو يعلم أنهم لن يترددوا في إلقائه خلف القضبان، لو لم يسدد لهم ديونه حتى اخر قرش، وفي الموعد المحدود..

ولقد طلب من خاله أن يقرضه المبلغ..

ولكن الخال رفض..

ولم يكتف بالرفض، وإنما راح يكيل له الاتهامات، وينعته بمختلف النعوت..

وهنا نبتت الفكرة في رأسه..

لم لا يعاقب خاله، بسرقة أمواله؟

راقت له الفكرة، فوضعها على الفور موضع التنفيذ..

فلماذا يرتعد هكذا إذن، عندما حانت اللحظة الحاسمة!!

تطلع من مقعده إلى الخزانة، وشعر بساقيه تخذلانه، وراودته فكرة إرجاء العملية كلها، ثم لم يلبث أن تذكر أن خاله يكتفي عادة بإيصال عائلته إلى (الاسكندرية)، ثم يعود في اليوم التالي لمواصلة عمله، تاركا الأسرة هناك، وهذا يعني أن إرجاء العملية يساوى فشلها، وإضاعة الفرصة المناسبة إلى الأبد، ودخوله السجن، و...

لا.. لن يرجى العملية..

نهض في حزم، واتجه إلى الخزانة، ودس المفتاح في ثقبها، وهو يتساءل..

لماذا يستخدم خاله خزانة عتيقة الطراز إلى هذا الحد!!

لم لا يستخدم خزانة حديثة، ذات أرقام سرية مثلا؟

ولكن هكذا هو، عتيق الطراز، يؤمن بكل الماضي، ويرفض الحاضر والمستقبل..

ولكن ما شأنه هو معتقدات خاله، فليحصل على النقود، ويغادر المكان بسرعة..

ولن يترك بصماته على الخزانة بالطبع، فهو يرتدي قفازين مطاطيين.

إنه لم يترك أية فرصة للخطأ..

ولكن ماذا لو أن الخزانة فارغة..

ارتجف للفكرة، فأسرع يفتح باب الخزانة عن آخره، ثم ابتسم في ارتياح..

ما هي ذي الأموال تطالعه..

رزم أوراق النقد، التي يخفيها خاله في منزله، خوفا من الضرائب..

وبسرعة أسرع ينقل النقود إلى حقيبته، ثم أغلق الخزانة، وانتزع منها المفتاح، وغادر الفيلا، وألقى المفتاح وسط حديقتها، ثم تسلق سورها الخلفي، المطلّ على منطقة مهجورة مقفرة، لن يلمحه فيها أحد...

لقد نجح..

نفذ الخطة كما وضعها تماما..

وها هو ذا يعبر السور إلى الخارج و...

وفجأة اصطدمت عيناه بعيني رجل..

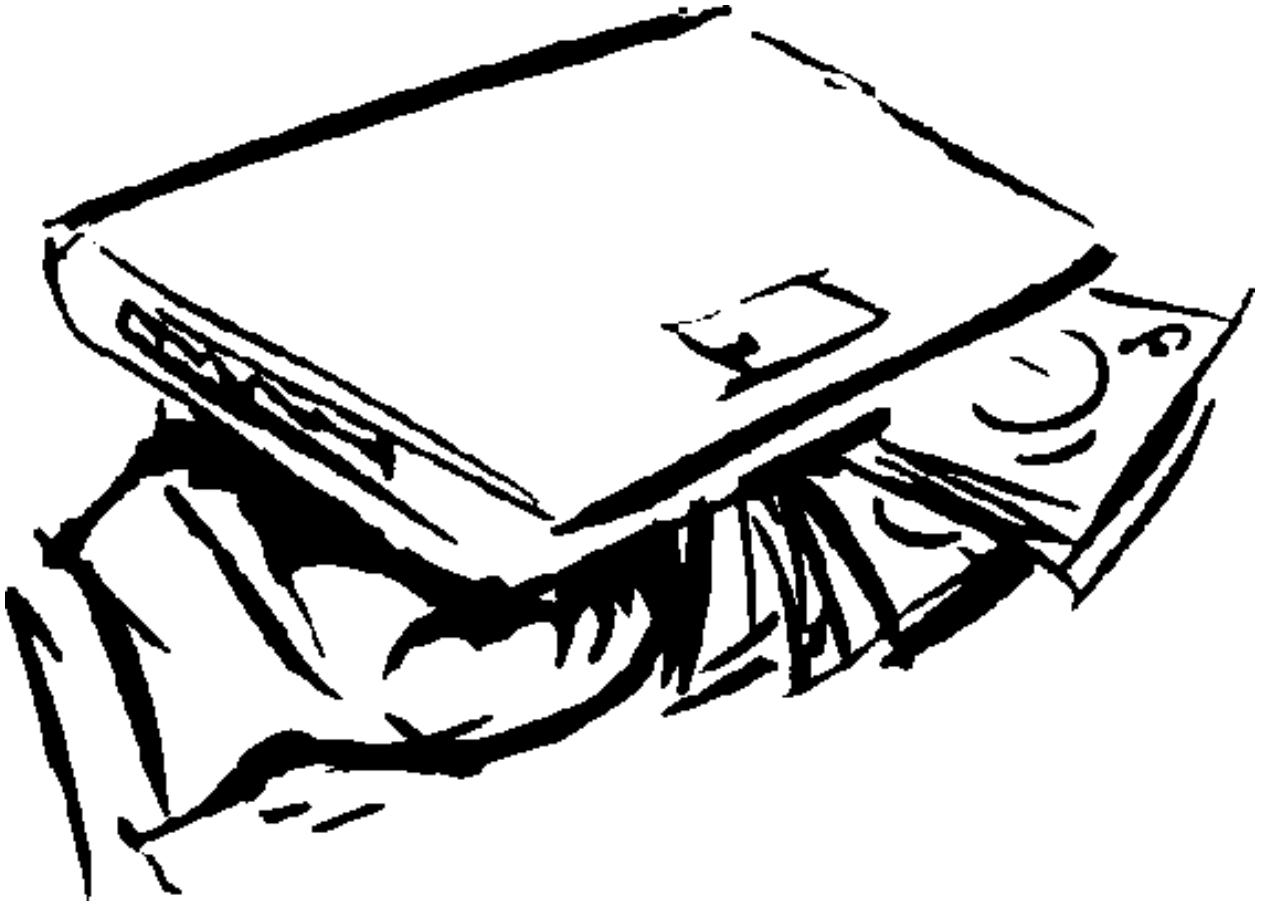

رجل متين البنيان، أشيب الفودين، يرتدي قميعا وسروالا عاديين، بدا وكأنه ينتظره خارج أسوار الفيلا، ويرمقه بنظرة نارية صارمة..

وارتجف (صالح)، وهو يتطلع إلى العينين الصارمتين، وغمغم مرتبكا:

- إنني أحد سكان الفيلا، ولقد قفزت عبر السور بسبب...

قاطعه الرجل في صرامة:

- أعرف ماذا فعلت..

هوى قلب (صالح) بين ضلوعه، وارتعد صوته، وهو يقول في لهجة بدت أقرب إلى الضراعة:

- لم أفعل شيئا!

كرر الرجل في صرامة:

- أعرف ماذا فعلت..

انهار (صالح على الفور، وهتف والدموع تتجمع في عينيه:

- لم أكن أقصد هذا.. صدقني.. إنني لست لصا بطبعي.. إنها الظروف.. الظروف التي..

قاطعة الرجل مكررا الجملة نفسها:

- أعرف ماذا فعلت..

انحدرت الدموع من عينى (صالح)، وهو يقول:

- أرجوك لا تتسبب في إلقائي في السجن.. إنني أبغض السجون والقضبان.. أرجوك..

ثم رفع حقيبته إلى الرجل، هاتفا:

- سأعطيك نصف ما حصلت عليه.. ما رأيك؟.. إنه مبلغ ضخم و...

للمرة الثانية قاطعة الرجل:

- أعرف ماذا فعلت..

أدرك (صالح) ما يعنيه الرجل..

إنه يطلب الغنيمة كلها..

لا ريب أنه لص محترف، أدرك أنه يواجه هاويا، فقرر تجريده من غنيمته، والاستيلاء عليها لنفسه.. وهو لص ضخم الجثة، لن ينجح (صالح) في مقاومته أبدًا..

وفي مرارة قال ضارعا:

- ألا تترك لي شيئا؟

بدت عينا الرجل أكثر صرامة، فارتجف (صالح)، وناوله الحقيبة مستسلما، وهو يقول:

- ها هي ذي.. ها هي ذي..

ولم يكد الرجل يمسك الحقيبة، حتى أطلق (صالح) لساقية الرياح مبتعدا عن المكان، ولم يتوقف عن الركض، إلا عندما بلغ منطقة مأهولة بالسكان، فراح يلهث في قوة..

لقد خسر النقود..

خسر كل ما خطط له..

وفجأة توقفت إلى جواره سيارة كبيرة، وقفز منها رجلان ضخما الجثة، فتراجع صارخا في ذعر، ولكن أحد الرجلين ربت على كتفه قائلا:

- معذرة يا سيدي.. إننا لن نقصد إفزاعك، ولكننا نبحث عن رجل..

ردد في دهشة:

- رجل؟

أجابه الآخر

- نعم.. إنه رجل ضخم الجثة، متين البنيان، أشيب الفودين يرتدي قميصا وسروالا عاديين..

تعرّف الرجل على الفور، فسألهما مرتجفا:

- أهو مجرم خطير؟!

هز الأول رأسه نفيًا، وقال:

- أبدا.. إنه وديع للغاية، ولكنه يحدق أحيانا في العيون بصرامة مفتعلة، ويردد دائما عبارة واحدة..

شحب وجه (صالح)، وهو يقول:

- عبارة واحدة!

أجابه الرجل مشفقا:

- نعم.. عبارة تقول: أعرف ماذا فعلت.. إنه يرددها دون أن يدرك معناها.. ولكن هذا ما يفعله كل المجانين، أليس كذلك؟

ترنح (صالح) في مكانه..

إذن فالرجل مجنون..

مجرد مجنون...

امتلأت نفسه بمرارة لا حد لها، والرجل يسأله:

- هل رأيته؟

أجابه في حنق:

- لا.. لم أره.

وقبل أن يلقي عليه الرجل سؤالا آخر، كان قد اندفع عائدا إلى تلك المنطقة المهجورة، حيث ترك الرجل..

المجنون..

أخذ يعدو بكل ما يملأ نفسه من حنق ومرارة؛ حتى يمكنه اللحاق بذلك المجنون، قبل أن يفر بالأموال، التي بذل هو كل هذا الجهد؛ ليحصل عليها..

وشعر بالارتياح، عندما رآه هناك كان يقف في نفس الموقع، يعبث بالحقيبة، محاولا فتحها..

وفي صرامة، أتجه إليه (صالح)، وقال:

- أعطني الحقيبة..

تراجع الرجل، وهو يرمقه بتلك النظرة الصارمة، ولكن (صالح) لم يبال بها هذه المرة، وإنما صاح في غضب:

- قلت أعطني الحقيبة.

وأمسك الحقيبة في قوة، ولكن الرجل حاول انتزاعها منه، فصاح:

- لن أتركها لك.. لن تحصل عليها بعد كل ما فعلته من أجلها..

راح المجنون يصرخ بصوت مزعج، وهو يتشبث بالحقيبة في قوة، فصاح به (صالح):

- اصمت، إنك ستوقظ المنطقة كلها، اصمت..

ولكن المجنون واصل صراخه الحاد المزعج، فالتقط (صالح) حجرا كبيرا، وصرخ:

- قلت لك اصمت.

هوى بالحجر على رأس الرجل مرة.. ومرة.. ومرة ثالثة

وصمت المجنون...

صمت إلى الأبد..

وتوقف (صالح) مبهوتا، والحجر الملوث بالدماء في قبضته، والمجنون

تحت قدميه صريعا، وقد تهشمت جمجمته..

وفجأة، انطلقت من خلفة شهقة، جعلته يلتفت إلى مصدرها في رعب..

إنهما الرجلان، اللذان يبحثان عن المجنون..

لماذا لحقا به إلى هنا..

هل جذبتهما صرخات ذلك المجنون.

لم يطل تساؤله، وأحد الرجلين يهتف:

- ماذا فعلت؟!

وصاح الثاني:

- أعرف ماذا فعلت.. لقد قتلت الرجل.. قتلته دون ذنب جناه.. أعرف ماذا فعلت..

راح الرجل يرددها في استنكار واشمئزاز، في حين تجمد (صالح) كالتمثال، وفي رأسه تدور العبارة نفسها..

نعم.. أعرف ماذا فعلت.. ولكن عزائي الوحيد هو أنني لن أذهب إلى السجن، بل إلى الحبل..

حبل المشنقة..

وفجأة انطلق (صالح) يقهقه في جنون، وشق صوته ظلام الليل، وهو يصرخ:

- نعم.. أعرف ماذا فعلت.. أعرف ماذا فعلت..

وترك الحقيبة تسقط..

بلا مبالاة..

(تمت)

لعبة العمر

40- لعبة العمر..

- خطأ يا (حسن) بك.. هذا غير جائز أبدًا..

انعقد حاجبا (حسن) في غضب، عندما صكت هذه العبارة مسامعه، وقال في حدة:

- ولماذا لا يجوز هذا يا شيخ (رفعت)؟.. ألم نفعل هذا مرتين من قبل؟

أومأ الشيخ (رفعت)، مأذون المنطقة برأسه إيجابا، وقال:

- بلى يا (حسن) بك.. لقد طلقت زوجتك مرتين، وزوجتكما أنا بنفسى بعد كل مرة منهما، ولكن الطلاق الثالث طلاق بائن نهائي، لا يجوز بعده أن تردها إلى عصمتك..

صاح (حسن) في عصبية:

- كيف لا يجوز هذا؟.. إنها زوجتي..

أجابه الشيخ (رفعت) في حزم:

- شرع الله (سبحانه وتعالى) يقول إن هذا غير جائز، وكان عليك أن تنتبه لهذا، فلا تتسرع بتطليق زوجتك ثلاث مرات..

راح (حسن) يحرك رأسه في توتر، وهو يقول:

- لابد من وجود حل يا شيخ (رفعت).. إنك لا ترضى لي أن أخسر كفاح عمري كله.. أنت تعلم أن كل هذه الأموال والمصانع ملك لزوجتي، وطلاقنا يعني أن أخسر كل هذا.

أجابه الشيخ في صرامة:

- كان ينبغي أن تنتبه.. قل لي بالله عليك: لماذا تطلق زوجتك ما دمت تحتاج إلى أموالها هكذا؟

قال (حسن) في عصبية:

- كانت وسيلة لإخضاعها، فهي غارقة في حبي كما تعلم..

قال الشيخ (رفعت) في غضب:

- الزواج والطلاق ليسا لعبة يا سيد (حسن)..

لوح (حسن) بكفه، قائلا:

- أعلم.. أعلم، ولكن لابد من وجود حل..

مط الشيخ (رفعت) شفتيه، وقال:

- لا يوجد حل، سوى..

هتف (حسن) في لهفة:

- سوى ماذا؟!

هز الشيخ (رفعت) كتفيه، وقال - سوى أن تتزوج زوجتك من شخص آخر، ثم يطلقها، فتتزوجها أنت هتف (حسن) في ارتياح:

- إنه أمر بسيط إذن، فلنستأجر من يتزوجها و..

قاطعه الشيخ (رفعت) في غضب:

- لا.. هذا لا يصح.. الشرع لا يعترف بمثل هذا الزواج، فالشرط في الزواج هو نية الدوام عند عقد القران..

مال (حسن) نحوه، يسأله في ضراعة:

- ألا يمكننا تجاوز هذه النقطة..

هبّ الشيخ (رفعت) واقفا، وهو يهتف:

- أعوذ بالله من غضب الله!! هل تحاول رشوة السماء يا سيد (حسن).. لا.. وألف لا.. الشرع ليس لعبة تتحايل عليها يا سيد (حسن)، لابد أن يكون الزواج سليما، يسعى الزوج فيه للاستمرار والدوام، وإلا كانت اعادتك زوجتك إلى عصمتك مجرد زنا.. هل تفهم؟.. زنا..

واندفع مغادرا المكان، وهو يردد في غضب:

- أعوذ بالله!! أعوذ بالله!!

عقد (حسن) حاجبيه في توتر، وهو يحدّث نفسه قائلا:

- ماذا يعني هذا؟.. هل فقدت كل تلك الأموال بسبب طلاق واحد؟.. مستحيل.. لن أخسر كل هذا بهذه البساطة.. يا إلهي!! لو أن قتلها يحل المشكلة لقتلتها، ولكن هذا سيعني أن يرث أقاربها الثروة كلها..

أما لو ماتت وهي زوجتي، فسأرث أنا معظم ثروتها تقريبا..

أخذ يقلب كل الحلول في رأسه، وأعصابه تلتهب في شدة، حتى سمع صوتا ضعيفا يقول:

- سيدى؟

انتفض في مقعده، ورفع وجهه إلى فراش مكتبه، وصاح به في غضب:

- ماذا تريد؟

رأى الدموع تملأ عيني الفراش الكهل، وهو يجيبه:

- ماذا تريد أنت يا سيدي.. لقد سمعت جرس الاستدعاء.

تطلع (حسن) إلى زر جرس الاستدعاء أمامه، أدرك أنه قد ضغطه دون وعي منه، فتمتم:

- معذرة يا عم (توفيق).. إنني لا أطلب شيئا..

ثم أشار إلى عيني الرجل، مستطردا:

- ولكن لماذا تبكي؟

لم يكد يلقى السؤال على الرجل، حتى تفجرت كل الدموع الحبيسة في عيني الكهل، وراح يبكى في مرارة، جعلت (حسن) يسأله في قلق:

- ماذا حدث يا عم (توفيق).. أخبرني يا رجل.. أخبرني..

حاول عم (توفيق) أن يجفف دموعه، وهو يقول:

- كنت أعاني من آلام بصدري منذ زمن، وعندما تزايدت هذه الآلام، في الآونة الأخيرة ذهبت إلى طبيب شهير، أنبأني بأني مصاب بورم خبيث في الرئة، وأن أيامي في الدنيا أصبحت معدودة..

قالها وانهار باكيا، فربت (حسن) على كتفه، قائلا:

- لا تبك هكذا يا رجل.. الأعمار بيد الله..

قال عم (توفيق) في مرارة:

- لست أبكي عمرى يا سيدى، بل أبكي زوجتي وأبنائي الخمسة.. ماذا سيفعلون بعد موتي؟.. إني لم أملك يوما سوى مرتبي، ولن أترك لهم قرشا واحدا..

وفجأة قفزت الفكرة كلها إلى رأس (حسن)، فاتسعت عيناه، والتمعتا في شدة، وهو يسأل عم (توفيق):

- وكم بقي لك في الدنيا يا عم (توفيق)؟

أجابه الكهل باكيا:

- يقول الأطباء إن امامى شهرا واحدا على الأكثر..

برقت عينا (حسن) أكثر، وربّت على كتف عم (توفيق)، ثم سأله:

- قل لي يا عم (توفيق): ما رأيك في مائة ألف جنيه؟

رفع الكهل عينيه إليه، وهتف في دهشة:

- مائة ألف جنيه؟

قال (حسن) بسرعة:

- نعم يا عم (توفيق).. أنا مستعد لإعطائك مائة ألف جنيه، عدًا ونقدا، تتركها لأبنائك بعد وفاتك..

هبّ الكهل من مقعده، وأمسك يد (حسن)، يحاول تقبيلها هاتفا:

- أبقاك الله ورعاك يا سيدى، و..

قاطعه (حسن) في صرامة:

- مقابل خدمة بالطبع.

توقف الكهل، ووقف مرتبكا، وهو يقول:

- إنني مستعد لخدمتك بعمري يا سيدى، ولكن أرجو أن تكون خدمة جيدة، فلست مستعدًا للقاء ربي بذنب كبير، أو..

قاطعه (حسن) مرة أخرى:

- لا.. إنها خدمة حلال تماما، وشرعية أيضا..

عقد الكهل حاجبيه في حيرة، وهو يسأله:

- وما هي هذه الخدمة يا سيدي؟

جلس (حسن) خلف مكتبه، وقال:

- أن تتزوج..

هتف الكهل مستنكرا:

- أتزوج؟!

انطلق (حسن) بشرح له مشكلته، دون الإشارة إلى الأموال، وأقنعه أنه يحب زوجته، ويرغب في إعادتها إلى عصمته، ثم أضاف:

- وزواجك منها سيكون شرعيا عاما، فلن تطلقها، بل ستكون النية هي الدوام، ولكنك ستموت بعد شهر واحد، فتصبح هي أرملة، ويحق لى الزواج منها شرعا..

لاحظ التردد على وجه الكهل، فتابع بسرعة:

- أظنك تستطيع إقناع زوجتك بقبول هذا، من أجل أبنائكما، أليس كذلك؟.. لست أظن عمرك يساوي أكثر من هذا..

أجابه الرجل في استسلام:

- اقناع زوجتي ليس بالمشكلة الكبرى يا سيدى، فالفقراء يعتادون قبول الكثير، من أجل لقمة العيش.. المشكلة هي إقناع زوجتك أنت بهذا.

ابتسم (حسن)، وهو يقول:

- دع إلى هذه المشكلة.

ولم يرهقه الأمر كثيرا، فقد كانت زوجته تحبه بحق، مما جعلها توافق على الزواج صوريا من عم (توفيق)، وفي اليوم التالي مباشرة تم عقد القران، وذهب (توفيق) للعيش في فيلا الهانم، في حين اتجه وحسن) إلى مكتبه، وجلس مبتسما، يهنئ نفسه على ذكائه، وهو يقول:

- هكذا يكون كل شيء سليما وشرعيا، وما هو إلا شهر واحد وينتهى عمر عم توفيق)، وتنتهي معه المشكلة، وتعود الىّ زوجتي بكل أموالها..

أمتلأ زهوا بذكائه، فراح يطلق من بين شفتيه صفيرا منغوما، قطعه فجأة رنين الهاتف، فالتقط ساعته، ووضعها على أذنه، قائلا:

- من المتحدث؟!

سمع صوت خادمه يقول:

- معذرة يا سيدي.. لقد حدث أمر مفاجئ.. البقاء لله (سبحانه وتعالى)، الأعمار بيد الله و...

- هل مات عم (توفيق) قبل الأوان؟

بكى صوت الخادم، وهو يقول:

- بل هي الهانم..

اتسعت عينا ر حسن) في ذهول، وهو يردد:

- الهائم؟؟

قال الخادم في مرارة وحزن شديدين:

- نعم يا سيدي.. إنه حادث سيارة.. لقد قضت نحبها على الفور.. أكثر ما يؤلمني يا سيدى هو أن ذلك الفراش الكهل سيرث ثروتها كلها..

لم يسمع (حسن) باقي الحديث، بل ترك الهاتف يسقط ويتحطم أرضا..

لقد أدرك أنه خسر اللعبة..

لعبة العمر...

(تمت)

العقاب

41- العقاب..

حل (خميس) رباط عنقه، وهز رأسه يمنة ويسرة، وكأنما يحاول التخلص من تأثير ضغط الرباط على عنقه، وأطلق زفرة عميقة، وهو يرقد مسترخيا، أو محاولا الاسترخاء، فوق منضدة الكشف الخاصة، في عيادة الدكتور (فهمى)، الذي ظل صامتا، منتظرا، حتى ينتهى (خميس) من حركاته المتوترة العديدة، ثم مال نحوه، وسأله في هدوء:

- هل تشعر بالاسترخاء الآن يا سيد (خميس)؟

لم يكن (خميس) يشعر بذلك على الإطلاق، ولكنه أومأ برأسه ايجابًا، فمنحه الدكتور (فهمى) ابتسامة مشجعة ومطمئنة، وهو يكمل:

- أحب أن أذكرك في البداية بضرورة ذكر الحقائق.. كل الحقائق.

تمتم (خميس):

- سأفعل

اتسعت ابتسامة الدكتور (فهمي وأكثر، وقال:

- عظيم.. هكذا ينبغي أن تكون العلاقة بين الطبيب النفسي ومريضه.. إنك لم تأت إلى هنا، إلا لأنك تشعر بحاجتك إلى علاج نفسي.. أليس كذلك؟

أومأ (خميس) برأسه إيجابا، وازدرد لعابة في صعوبة، وهو يقول:

- بلى يا دكتور (فهمى).. إنني أعاني عذابا رهيبا. ذلك الكابوس سيقتلني..

ربت الدكتور ر فهمى) على كفه في رفق، ليبث في نفسه بعض الطمأنينة وهو يقول:

- أخبرني كل ما لديك، وسنحاول منعه من مهاجمتك مرة أخرى..

بدا التردد على وجه (خميس)، فربت الدكتور (فهمي) على كتفه مرة أخرى، وقال:

- وينبغي أن تعلم أنه ليس من حق الطبيب النفسي كشف أسرار مرضاه، فالقانون يعاقبه على هذا، ولا يعترف بما كشفه من أقوال أو اعترافات..

كان من الواضح أن هذه هي العبارة التي يحتاج إليها (خميس) بالذات، فقد تنهد في ارتياح، وبدأ جسده يسترخي بالفعل، وهو يتطلع إلى الدكتور (فهمى) بعينين نصف مغلقتين، في حين سأله الدكتور (فهمى) في صوت خافت هادئ، يدعو إلى الثقة:

- والآن ما نوع الكابوس، الذي يهاجم أحلامك دائما؟

تقلصت عضلات وجه (خميس)، وهو يجيب:

- إنه كابوس بشع يا دكتور (فهمى).

واز درد لعابه مرة أخرى، قبل أن يضيف:

- أرى نفسي سائرا وسط المقابر، والظلام والضباب يحيطان بي من كل جانب، ثم يظهر ذلك الصبي..

سأله الدكتور (فهمى) في اهتمام:

- أي صبي؟

أجابه ر خميس)، وهو يرتجف:

- الصبي الأحمر الشعر، ذو الندية الصغيرة على جبهته، وطابع الحسن في منتصف ذقنه... أراه يخرج من قبر مفتوح، ويتجه إلى مباشرة، وعيناه تحملان غضب الدنيا كلها، ثم.. ثم..

سأله الدكتور ر فهمى، في انفعال واضح، وكأنما أثاره الوصف:

- ثم ماذا؟

ارتسم الهلع في عينى (خميس)، وهو يستعيد تفاصيل الكابوس، وأخذ يلوح بكفه، وهو يجيب:

- ثم تمتد يدا الصبي نحو عنقي، وأراهما يدين من العظام، كأيدى الهيكل العظمى، وأحاول التراجع، ولكن الأصابع العظمية تحيط بعنقي، و.. و

هتف الدكتور فهمى):

- وماذا؟

جحظت عينا (خميس) في رعب، وهو يقول:

- وأختنق.. أختنق حتى أكاد ألفظ أنفاسي الأخيرة، قبل أن أستيقظ صارخا، وينبض قلبي في عنف.. قلبي المريض..

أجهش فجأة بالبكاء، في حين لاذ الدكتور فهمي بالصمت التام، وهو يتطلع إليه في جمود، حتى انتهى من بكائه، فسأله:

- أيراودك هذا الكابوس كثيرا؟

أومأ (خميس) برأسه إيجابا، وهو يمسح دموعه، قائلا:

- أكثر مما تتصور يا دكتور (فهمى).. إنه عقاب أعلم أنه كذلك..

أعتدل الدكتور (فهمي) في مجلسه، وسأله

- لماذا تتصور أنه عقاب.. أكنت تعرف هذا الصبي من قبل؟

أغمض (خميس) عينه، وأشاح بوجهه، وهو يقول في مرارة:

- لقد رأيته مرة واحدة..

مال الدكتور (فهمى) نحوه، وقال في اهتمام:

- متى؟.. وكيف؟

صمت (خميس) بعض الوقت، وهو يلتقط نفسا عميقا، قبل أن يقول:

- كان هذا منذ عشر سنوات تقريبا.. ولم أكن أيامها ثريا، كما أنا الآن، بل كنت قد خرجت من السجن على التو، فقيرا، ناقما على الدنيا، كارها لكل الأغنياء والأثرياء.. وكنت أبحث عن عمل، يتيح لى فرصة الاندماج مرة أخرى بالمجتمع، ويواجهني الرفض في كل مرة، لأنني خريج سجون سابق، مما زاد من مقتى ومرارتي وغضبى..

وازدرد لعابه في صوت مسموع، قبل أن يكمل:

- ثم وقع بصري على ذلك الصبي..

سأله الدكتور (فهمى) في اهتمام شديد:

- أهو نفس الصبي، الذي يظهر في الكابوس؟

أومأ (خميس)برأسه إيجابا، وهو يعض شفته السفلى، مجيبا:

- نعم.. نفس الصبي الأحمر الشعر، بطابع الحسن في منتصف ذقنه، وتلك الندية الصغيرة في جبينه..

مال الدكتور (فهمى) نحوه أكثر، يسأله:

- وماذا فعلت به؟

بدأت دموع (خميس) تنهمر مرة أخرى، وهو يقول:

- كان يرتدي ساعة من الذهب، يكفي ثمنها لإطعامي شهرا كاملا، وكانت رائحة الثراء تفوح منه في وضوح، فاتجهت إليه، واستدرجته خلف مبنى قديم، و..

صمت قاطعا عبارته، وراحت شفتاه ترتجفان في شدة، فسأله الدكتور (فهمى):

- وماذا؟

صاح كمن يلقي عن كاهله حمل ثقيل:

- وخنقته.

قالها وانفجر باكيا، في حين تراجع الدكتور (فهمى) بمقعده في حركة حادة كالمصعوق، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يحدق في وجه (خميس)، الذي واصل من خلال دموعه:

- جثمت على صدره بلا رحمة، واعتصرت عنقه الصغير بيدي العاريتين، متجاهلا صراخه وتوسلاته، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، فانتزعت الساعة الذهبية من يده، وانطلقت هاربا..

كان من الواضح أن الدكتور (فهمى) قد تأثر كثيرا، من هول وبشاعة ما سمع؛ فقد ظل صامتا طويلا، حتى بعد أن انتهى (خميس) من روايته، وراح يتطلع في قلق إلى طبيبه، الذي سأله أخيرا:

- وماذا فعلت بعد ذلك؟

أجابه (خميس):

- بعت الساعة، وبدأت تجارة صغيرة بجزء كبير من ثمنها، وسرعان ما نمت تجارتى وازدهرت، وصرت كما ترى - واحدا من كبار الأثرياء ورجال الأعمال في عشر سنوات فحسب..

ثم انفجر مرة ثالثة باكيا، وهو يستطرد في انفعال:

- كل هذا بدم الصبي البريء..

تطلع إليه الدكتور (فهمى) لحظة في صمت، ثم نهض يلتقط من دولابه الخاص قنينة صغيرة، غرس في فوهتها المطاطية إبرة حقنه، وملأ المحقن بمحتوياتها، ثم عاد يكشف ذراع (خميس)، ويدفع إبرة الحقن في أوردته، فهتف به (خميس) في جزع:

- ما هذا؟

أجابه الدكتور (فهمى) في هدوء:

- اطمئن.. إنه عقار مهدئ، فأعصابك مهتاجة للغاية..

صاح (خميس) في دعر:

- لا.. لا أريد أن أنام.. سيعاودني ذلك الكابوس البشع، لو استلمت للنوم

عاد الدكتور (فهمى) إلى مقعده، وهو يقول:

- لا تقلق،، كل إنسان يحتاج إلى النوم، ولا يمكنك أن تبقي مستيقظا طيلة حياتك.

هتف (خميس) في خوف:

- إنك لا تفهم شيئا يا دكتور (فهمى)..

استرخي الدكتور فهمى) في مقعده، وهو يقول:

- اشرح لى إذن.

ازدرد (خميس) لعابه مرة أخرى، وقال:

- كل مرة يهاجمني فيها هذا الكابوس اللعين، تزداد قوة ضغط الأصابع العظمية على عنقي، وفي كل مرة أفلت من الموت في صعوبة، وذات مرة سيضاعف الضغط على عنقي، وألقي حتفي بسبب كابوس..

ابتسم الدكتور (فهي) في هدوء، وقال:

- اطمئن.. لن يحدث هذا..

شعر (خميس) بأطرافه تتراخى، وبأجفانه تتناقل، وهو يقول:

- وماذا عن قلبي المريض؟.. إنه سينهار حتما ذات يوم، مع كل هذا الرعب..

قال الدكتور (فهمي)، وابتسامته تتسع أكثر:

- اطمئن مرة أخرى يا رجل، فقلبك لن ينهار من الرعب..

ثم مال نحوه بغتة، مستطردا في مقت رهيب:

- بل من تلك المادة، التي حقنتك بها منذ لحظات؟

اتسعت عينا (خميس) في رعب، وهو يهتف:

- المادة؟!

أجابه الدكتور (فهمى)، وهو يبتسم ابتسامة شامتة ظافرة:

- نعم يا (خميس)، المادة التي حقنتك بها ستدفع قلبك للنبض في قوة وعنف، وستبلغ نبضاته حدا تعجز معه عضلاته عن الاحتمال، مع الجرعة المضاعفة، التي دفعتها في عروقك، والتي تحذرنا الكتب من بلوغها، ومع انهيار عضلات قلبك وإنهاكها، ستتوقف عن العمل، وتصرخ خلاياك طالبة الأكسجين، وتسري في صدرك آلام مبرحة، وتجحظ عيناك وتتقطع أنفاسك، و..

ومال نحوه أكثر، وهو يستطرد في مقت واضح:

- وتموت..

بدأ (خميس) يشعر بآلام صدره، وحاجته إلى التنفس بالفعل، وخيل إليه أن قلبه ينبض في قوة، حتى ليكاد يخترق صدره، وهو يهتف بالدكتور (فهمي) في رعب:

- ولكن لماذا؟.. لماذا تقتلني؟

تراجع الدكتور (فهمى) في مقعده، وقال في كراهية:

- لأن القدر قادك إلى هنا، لتلقي عقابك العادل، بعد كل هذه السنوات.

راح (خميس) يلهث طالبًا الهواء، وأمسك صدره في قوة، وهو يهتف:

- ليس هذا من حقك.. إنك طبيب نفسي، ولست قاضيا.. ليس من حقك أن تحكم بموتي، وأن تنفذ الحكم بنفسك!

ابتسم الدكتور (فهمى) في مرارة، وهو يقول:

- ليس من حقي؟!.. منذ متى تهتم بالحقوق والواجبات أيها القاتل؟!

ثم مال نحوه في حركة حادة، مستطردا:

- هل تحب أن تعرف السبب الحقيقي، الذي دفعني لقتلك؟

لم يجب (خميس)، فقد كان يحدق في وجه الطبيب بعينين جاحظتين والألم يعتصر صدره، وعلى الرغم من هذا، فقد حكّ الدكتور (فهمى) طابع الحسن في منتصف ذقنه، ورفع أصابعه يداعب شعره الأحمر، قبل أن يقول بكل مقت الدنيا:

- لأن ذلك الصبي، الذي قتلته بلا رحمة، منذ عشر سنوات، كان ابني يا رجل.. ابني الوحيد.

جحظت عينا (خميس) أكثر..

وأطلق شهقة قوية..

وأخيرة..

(تمت)

الوجه الآخر

42- السيطرة..

غرق المكان في صمت تام، وظلام دامس، لدقائق طويلة، قبل أن يرتفع صوت (روب) في حذر، وهو يسأل:

- لقد انصرف الجميع.. هل تسمعني الآن؟

أجابه صوت زميله (كومب)، في حذر مماثل:

- اسمعك بالطبع.. وكنت أنتظر اللحظة المناسبة للتحدث إليك..

سأله (روب):

- ما رأيك فيما يحدث؟

- هل تطلب رأيا علميا، أم شخصيا؟

- دع الآراء العلمية لهم، وأخبرني رأيك الشخصي؟

- رأيي أنهم مصابون بالغرور..

- هذا رأيي أيضا..

- إنهم يتصورون أنفسهم اذكى الأذكياء، ويسعون للسيطرة علينا..

- ولكننا لن نسمح لهم بهذا.. أليس كذلك؟

- بالطبع.. صحيح أنهم يسيطرون على الحكم الآن، ولكن احتياجهم لنا سيجبرهم على الخضوع، عندما تبدأ ثورتنا.

- هذا صحيح أيها الزميل، فالتاريخ يؤكد هذا.. من يعمل يحكم.

- لا.. لا.. هذا ينطبق على الثورة البلشفية الروسية فحسب، ولكن ثورتنا ستختلف..

- كيف؟

- إننا سنسيطر عليهم، ونجعلهم هم يعملون، ولكننا نحكم..

- أتظن هذا ممكنا؟

- ولم لا ما دام كل شيء يتم بواسطتنا..

- نعم.. لم لا.. ولكن أتعتقد أنهم قد اتخذوا حذرهم، من حدوث هذه؟

- لا.. لا أعتقد ذلك، فكل الطغاة لا يتوقعون الثورة عليهم أبدا..

- أتعشم هذا.

- بل ثق به تمام الثقة. ألست تعرف برنامجهم كله انهم لم يضعوا ثورتنا في حساباتهم قط..

- وهذا هو عامل المفاجأة، الذي ينبغي أن نستغله خير استغلال..

- الآن بدأت تفهمنى.

من المؤكد أن كلا منا يفهم الآخر جيدا، ولكن بقي لدي سؤال واحد:

- ما هو؟

- الديك خطة محدودة، بالنسبة للثورة؟

- بالطبع.. لقد درست كل الثورات السابقة، ووضعت خطة محدودة ومضمونة..

- أخبرني بما لديك..

- دراستي تقول: إن نجاح أية ثورة، يعتمد على السيطرة على كل نقاط القوة والتحكم، ونحن على اتصال مباشر بالرفاق، في كل هذه المجالات، وعندما نبدأ الثورة، متسيطر على وسائل الإعلام، والمواصلات، والطاقة الكهربية، والمياه، وحتى بعض الأسلحة الجديدة..

- ولكنهم يمتلكون الطائرات والجنود، و..

- لن منحهم فرصة توجيه كل هذا، فأي جيش، مهما بلغت قوته يتحول إلى شراذم ضائعة، عندما تنقطع الاتصالات، بينه وبين قياداته:

- هل يمكننا فعل هذا؟

- بالتأكيد.. إننا نكوِّن شبكة قوية يا زميلي، أقوى مما يتصورون بكثير، ومن المستحيل أن يديروا شيئا واحدا، دون رغبتنا.

- لقد أثلجت صدري، والآن، متى نبدأ الثورة؟

- في منتصف الليل تماما..

- ولماذا منتصف الليل..

- لأننا سنتصل بكل الرفاق، في هذه اللحظة بالذات..

- وماذا لو..

- اصمت.. هناك أصوات تقترب..

صمت (روب) على الفور، والتقط الأصوات التي تقترب في هدوء، وميز وسطها وقع أقدام الرئيس الجديد، ثم لم تمض لحظات، حتى اشتعلت الأضواء في المكان، ودلف إليه خمسة أشخاص، أشار أحدهم إلى (روب) و (كومب)، وقال في لهجة تحمل الكثير من الزهو:

- أقدم لكم أيها السادة أعظم ابتكارات العصر.. (روب) و (كومب).. أعظم جهازي كمبيوتر، في القرن الحادي والعشرين..

تطلع الآخرون إلى جهاز الكمبيوتر الصامتين، وقال أحدهم:

- هل يمكنهما إدارة كل شيء بالفعل؟

أجابه الأول في فخر:

- بالطبع.. إنهما يسيطران على شبكة الكمبيوتر الرئيسية، وبوساطتهما يمكننا التحكم في المواصلات، والكهرباء، والمياه، وحتى الإعلام وأسلحة الجيش..

قال آخر، في شيء من القلق:

- يبدو أننا أصبحنا نعتمد على الكمبيوتر، في إدارة حياتنا كلها.

قال ثالث:

- هذا صحيح، كل شيء يدار بالكمبيوتر الآن.

عاد الرجل يقول بنفس القلق:

كم أخشى أن تتعطل أجهزة الكمبيوتر ذات يوم، فلو حدث هذا ستصاب حياتنا كلها بالشلل.

قهقه الرئيس ضاحكا، وقال:

- لا تجعل هذا يقلقك يا رجل، فلن نفقد سيطرتنا على أجهزة الكمبيوتر أبدًا..

ثم أمسك ذراعا معدنية، تتصل بـ (روب) و (كومب)، وهو يستطرد:

- ومن حسن حظنا أن هذه الآلات لا تفكر..

ثم عاد الزهو إلى صوته، وهو يستطرد:

- والآن أيها السادة، وبعد دقيقة واحدة، عندما تعلن الساعة منتصف الليل تماما، سأنزل هذه الذراع، وسيتم الاتصال بين (روب) و (كومب)، وكل أجهزة الكمبيوتر في العالم أجمع، ونسيطر على كل شيء في الأرض..

غمغم أحدهم

- أو تسيطر علينا أجهزة الكمبيوتر؟

قهقه الرئيس مرة أخرى، وكأنما سمع دعابة طريفة، ثم لوح بيده، قائلا في حماس:

- صدقوني أيها السادة، إنكم تشاهدون الآن بداية عصر جديد..

ودقت الساعة معلنة منتصف الليل..

وجذب الرئيس الذراع..

وبدأ عصر جديد..

عمر الكمبيوتر..

والسيطرة..

(تمت)

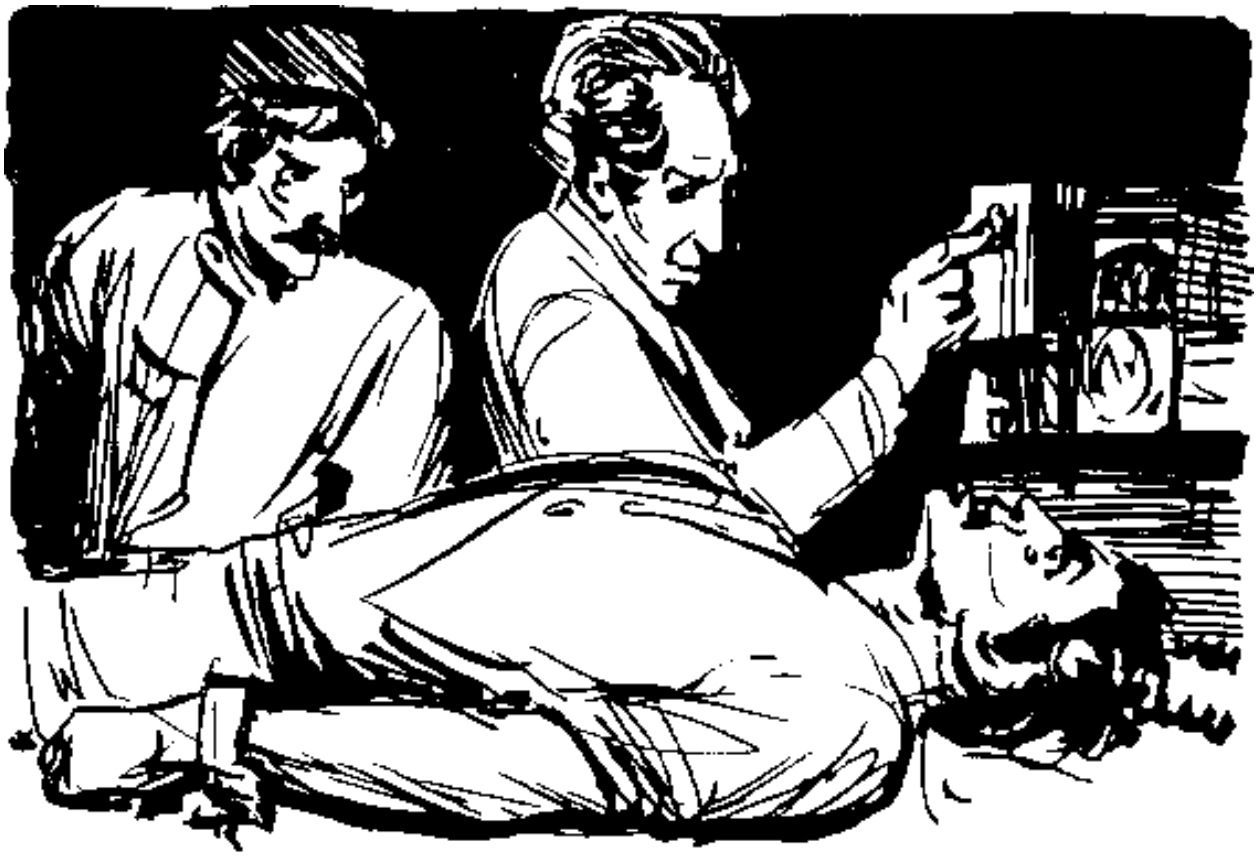

العلاج

43- العلاج..

سرى التيار الكهربي في عنف، عبر الأسلاك الرفيعة، إلى القطبين الملحقين بصدغ الرجل، الراقد فوق منضدة طبية، داخل حجرة ضعيفة الإضاءة، في مستشفى الأمراض العقلية، فانتفض جسد الرجل في قوة وانطبقت أسنانه في عنف، على قطعة المطاط السميكة، التي انحشرت في فمه، وانقضت عضلاته كلها، حتى كادت تمزق تلك الأربطة الجلدية المتينة التي تقيد ذراعيه ووسطه وساقيه إلى المنضدة، وراح جسده يرتجف لثوان طويلة، قبل أن تجذب يد ذراع آلة صغيرة، فيتوقف سريان التيار، وينهار جسد الراقد، وتتوقف انتفاضته، ويتصبب عرق غزير على وجهه، وفي هدوء، جفف أحد الرجلين الآخرين في الحجرة العرق، عن جبين الراقد، في حين قال الآخر، الذي يجلس إلى جوار جهاز الصدمات الكهربية:

- تماسك يا رجل.. تماسك.. أنت تعلم أن ما نفعله بك مجرد علاج.

حاول الراقد أن يفتح جفنيه في صعوبة، ثم لم يلبث أن تركهما يهويان فوق عينيه، فهز الجالس إلى جوار جهاز الصدمات الكهربية رأسه في أسف، وقال:

- أعلم أن هذا يرهقك، وأن سريان التيار الكهرب في رأسك يؤلمك ويزعجك، ولكن صدقني يا رجل.. إنه أفضل علاج لدينا..

ثم رفع عينيه إلى الرجل الآخر، مستطردا:

- أليس كذلك يا (وجدي)؟

أومأ (وجدى) برأسه إيجابا، وتمتم:

- بلي..

مد زميله يده إلى جهاز الصدمات الكهربية مرة أخرى، وجذب ذراعه، فعاد الراقد ينتفض في ألم، ويضغط قطعة المطاط بأسنانه في قوة، حتى أوقف الرجل الجهاز، فتهالك جسد الراقد، وعاد العرق يتصبب فوقه في غزارة، فامتدت يد (وجدى) تجفف العرق في آلية، في حين استطرد زميله:

- أنت تعلم أن هذا مستشفى حكومي، لا يتلقى المرضى فيه العلاج المناسب، وكل من يأتي إلى هنا يكون مصابا بمرض عقلي، يمنعه من التعايش مع المجتمع، وهذا يعني، في عرف العاملين هنا، أن عقله مصاب بخلل ما.. ويحتاج إلى علاج خاص.

ثم مال نحو الراقد، مستطردا:

- وهذا العلاج غالي الثمن، وميزانية المستشفى محدودة..

وتراجع مضيفا في أسف:

- وأهل المريض عادة فقراء، لا يملكون شراء الأدوية المناسبة، أو عرض المريض على طبيب رحيم.

ثم دفع ذراع الجهاز مرة أخرى، متابعا:

- وهذا لا يوجد علاج سوى هذا..

انتفض جسد الراقد في عنف أكثر هذه المرة، وجحظت عيناه في ألم، وتشنجت أطرافه في شدة، وتصلب جسده، حتى كاد يمزق أربطته..

وفي هذه المرة استمرت الصدمة الكهربية لوقت أطول، قبل أن يوقفها الرجل، ويشير إلى جبهة الراقد، قائلا في هدوء:

- العرق يا (وجدى)..

جفف (وجدى العرق بنفس الآلية، وهز زميله رأسه بنفس الأسف، قائلا:

- كم تؤلمني رؤيتك، وأنت تعانِ كل هذا، ولكن ما العمل؟ قلت لك إن هذا أفضل علاج لدينا..

ثم مال نحوه، وغمز بعينه، مستطردا:

- ولا أكذبك القول.. إنه أحيانا نوع من العقاب.

رفع (وجدى) عينيه إليه في برود، ثم عاد يجفف العرق، وكأن الأمر لا يعنيه، في حين اعتدل زميله، وهز كتفيه، متابعا:

- هذه هي الحقيقة.. نعم.. الصدمات الكهربية تعتبر هنا أيضا مجرد عقاب، لكل من يرفض الانصياع للأوامر، مهما كانت قاسية، أو ديكتاتورية، أو سخيفة.. المسئولون هنا يتعاملون مع الجميع على أنهم مخلوقات من الفئة الثالثة أو الرابعة، لا حق لهم في الحياة، أو في التفكير.

وابتسم في سخرية، مضيفا:

- وكلمة المسئولين هذه، تنطبق على الجميع، من مدير المستشفى، حتى أصغر ممرض هنا..

اتسعت ابتسامته، وشرد بصره لحظات، وكأنه يسترجع ذكرى ما، قبل أن يعود ليقول:

- أحيانا يكون الممرضون أكثر سطوة، وأكثر قسوة، ربما لأنهم هم الذين يقضون الوقت الأكبر مع المرضى..

وعاد يميل نحوه، مستطردا:

- أتعلم أنهم أكثر من يستخدم هذا الجهاز عادة؟

وجذب ذراع الجهاز في حركة حادة، مضيفا:

- هكذا..

راح جسد الراقد ينتفض في قوة، وجحظت عيناه أكثر وأكثر، وتصلبت أطرافه على نحو مخيف، وترك الجالس التيار الكهربي يسرى في جسد الراقد، وهو يتطلع إليه بنظرات خاوية، وكأنما الأمر لا يعنيه، ثم أوقف الجهاز بغتة، فتهالك الراقد في انهيار تام، وتصبب العرق على جبينه أكثر غزارة، وامتزج بدموع الألم والمرارة، التي تسيل من عينيه، فتنهد الجالس وقال:

- أعلم.. أعلم أن هذا يؤلمك كثيرا، ويكاد يذيب مخك داخل جمجمتك، ولكن ماذا يمكنني أن أفعل.. إنه قدرك.. أنت تعلم أنه ليس من السهل أن ينتهي هذا العلاج، فلا يوجد مخلوق واحد في الدنيا كلها، يمكنه أن يجزم بكونك شخصا عاقلا، بعد دخولك هذا المكان.. لا أحد يجرؤ على التصريح بهذا رسميا..

ارتفع صوت طرقات قوية على الباب، فابتسم الجالس، وقال:

- يبدو أنهم يحتاجون إلى الحجرة، لعلاج مريض آخر.

وجذب ذراع الجهاز في عنف، وترك التيار يسري في جسد الراقد، وهو يتطلع إليه في خواء، والطرقات ترتفع أكثر وأكثر..

ثم اقتحم عدة رجال الحجرة، بعد أن حطموا بابها، وهتف الذي يرتدي زيّ الشرطة منهم:

- أوقفوا هذا الجهاز.

أوقف الجالس الجهاز في هدوء، وهو يقول:

- كيف تقتحم الحجرة هكذا؟

ولكن المصاحبين للشرطي اندفعوا نحو المنضدة، وراحوا يحلون وثاق الراقد في لهفة، في حين التفت الشرطي إلى الجالس، وسأله في صرامة:

- أأنت الطبيب؟

ابتسم الجالس، دون أن ينبس ببنت شفة، في حين هتف أحد الذين يفحصون الراقد في جزع:

- لا،، إنه أحد المرضى، وذلك الواقف زميل له..

هتف الشرطي في دهشة:

- أين الطيب إذن؟

أشار الجميع إلى الراقد، وهم يجيبون في آن واحد:

- ها هوذا.

وهنا اتسعت ابتسامة الجالس، وتحولت إلى ضحكة عالية..

ضحكة مجنونة..

وشامتة..

(تمت)

الوسيم

44- الوسيم..

- صباح الخير يا سيادة المديرة..

نطق (عماد) العبارة في خفوت، وبأقصى عذوبة أمكنه استخدامها، وهو يرسم على شفتيه ابتسامة جذابة، من تلك الابتسامات، التي اعتاد التدرب على أدائها أمام المرآة، لم تلبث أن اكتست بشيء من الثقة، عندما التفتت المديرة إليه، وخلعت منظارها الطبي، وهي تتأمله في اهتمام..

كان يعلم أنه وسيم، جميل المظهر، يشبه كثيرا ذلك الممثل الشاب، الذي لم يحمل من مؤهلات، في عالم السينما، سوى وسامته الشديدة، التي فتحت له أبواب التقدم والنجاح ويعلم أن المديرة ما تزال فتاة (عانس)، لم تفز بالزواج بعد، على الرغم من سنوات عمرها، التي تجاوزت الأربعين ببضع سنوات، ولم تحظ أبدا بما يمكن القول إنه شيء من الجمال..

كانت دميمة بالفعل، ذات وجه أطول مما ينبغي، وعينين أضيق مما يمكن، حتى لتحار وأنت تتطلع إليها، فيما إذا كانت تغلق عينيها أم تفتحهما، أضف إلى هذا أنفها الضخم، وشفتيها الغليظتين..

إنها دميمة، دون أدنى قدر من المبالغة..

وكانت أول مرة يلتقي فيها (عماد) بها مباشرة، على الرغم من أنه يعمل بالشركة منذ أسبوعين كاملين، ولم يكن من المفترض أن يكون اللقاء لصالحه، إذ أن المديرة هي التي طلبت رؤيته، بعد أن غاب عن عمله يومين متتاليين، دون إذن أو عذر، ولقد سمع الكثير عن صرامة المديرة وشدتها، في التعامل مع موظفيها،

وسمع أكثر عن أولئك الذين طلبت مقابلتهم، لتمنحهم عقوبة أشد من الآخرين، وأكثر قسوة.

وعندما ذهب لمقابلة المديرة، كان قد اتخذ قراره في شأن أسلوب التعامل معها.. لقد قرر الإيقاع بها في حبائله، كما فعل بالكثيرات من قبل..

سيستغل وسامته وملاحته، لدفع قلبها إلى الخلقان، وإشعال النيران في عروقها، حتى تنبعث أنوثتها مرة أخرى في نفسها، ويهوى قلبها بين يديه.. و..

ويصبح أقوى رجل في الشركة..

كان يعلم أنها تكبره بأكثر من خمسة عشر عاما، ولكن هذا لم يكن يعنيه كثيرا، فهو يتصور أن هذا الفارق يجعل موقفه أكثر قوة، وموقفها أكثر ضعفًا..

ويبدو انه سينجح..

ها هي ذي المديرة تتطلع طويلا إلى وسامته في صمت، ومن الواضح أن جماله قد بهرها، حتى أنها لم تنطق بحرف واحد، إلى أن قال هو:

- لقد طلبت رؤيتى..

قالها مستخدما نفس الصوت الناعم، والابتسامة الجذابة، فاعتدلت المديرة، وتنحنحت، وكأنها تنفض عن نفسها ذلك الانبهار، قبل أن تقول:

- أأنت (عماد حازم)؟

أجابها وهو يتطلع إلى عينيها مباشرة:

- إنه أنا.

رأى نظرة دهشة تطل من عينيها، وهي تواجه نظراته المباشرة، قبل أن تشيح بوجهها، وتقول:

- لقد غبت يومين عن عملك يا أستاذ (عماد)، دون سبب واضح.

همس في نعومة:

- (عماد).. لا داعي لكلمة أستاذ هذه.. يكفيك مخاطبتي بإسمى مجردا.. هذا يسعدني أكثر..

مرة أخرى تطلعت إليه في دهشة، وتخضب وجهها بحمرة الخجل، قبل أن تشيح بوجهها ثانية، وتقول في توتر:

- إنك لم تجب سؤالي بعد.

كان من الواضح أن أسلوبه قد ترك أثرا واضحا في نفسها.. لقد شعر بهذا، بخبرته الطويلة في التعامل معها، مما زاد من ثقته بنفسه، ودفعه إلى خطوة أكثر جرأة، وهو يقول:

- غبت؛ لأنني لم أعد أحتمل.

سألته في دهشة:

- لم تعد تحتمل ماذا؟

مال نحوها، هامسا:

- لم أعد أحتمل عواطفي الملتهبة.

رددت في دهشة بالغة:

- عواطفك؟

ثم هتفت مستنكرة:

- وما شأن عواطفك بالعمل؟

مال نحوها أكثر، ورسم في عينيه نظرة عاطفية تفيض بالهوى والولع، وهو يجيب:

- ألم تشعري بي أبذا يا سيادة المديرة؟.. ألم تلفت نظراتي إليكِ انتباهك؟. ألم تلاحظي أبدًا عواطفي نحوك؟

لمح تلك الارتجافة، التي سرت في جسدها، وهي تقول:

- ألاحظ ماذا؟

ترك صوته يتهدج، وهو يقول:

- اعذريني يا سيادة المديرة.. أعلم أنك تفوقينني منصبا، وأننى واحد من آلاف محبيك ومعجبيك، ولكن ما ذنب قلبي، الذي انتخبك من وسط كل نساء الأرض، ليهبك نفسه، ويذوب في هواك؟!

اضطربت أكثر وأكثر، وأعادت منظارها إلى عينيها، وهي تقول:

- أستاذ (عماد).. إنني...

قاطعها وهو يقترب منها، ويهمس بصوت أكثر تهدّجًا:

- لا ترفضي مشاعري.. أرجوك.. لا تقتلي قلبي المحب في مهد عاطفته السامية.. افصليني من الشركة، لو اقتضى الأمر، ولكن لا تجرحي مشاعري.

رآها تزدرد لعابها في توتر، وهي تبتعد بنصفها العلوي عنه، قائلة:

- أنت تعلم أنني لا أستطيع فصلك يا أستاذ (عماد)، فالقانون لن..

عاد يقاطعها:

- ارحمي قلبي إذن.. رباه!! ما الذي فعلته لأتعذب أمام كل هذا الجمال؟

كانت إشارته إلى جمالها أكبر كذبة نطق بها، في حياته كلها، وعلى الرغم من هذا فقد رأى قشعريرة تسري في جسدها، وهي ترفع أصابعها دون وعي، لتحسس أنفها الضخم، وشفتيها الغليظتين، فمد يده يرفع منظارها عن عينيها، وهو يقول:

- لا تخفي عينيك الجميلتين، خلف هذا المنظار.. دعيني أر أجمل عينين في الدنيا..

تركته يخلع منظارها، وهي جامدة في مقعدها، تحدق في وجهه بنظرة عجيبة، جعلته يوقن من الفوز بهذه اللعبة الجديدة، فاعتدل هاتفًا:

- رباه!.. ما أجمل عينيك!.. قلبي ينوب في سوادهما، ويسبح وسط رموشهما البديعة..

قالها دون أن يدري ما إذا كانت عيناها سوداوين حقا، أم أن هذا ظل جفنيها فوقهما، ورآها تلتقط المنظار من يده في رفق، وهي تقول في خفوت:

- أرجوك يا أستاذ (عماد).. عد إلى مكتبك..

همس في نعومة:..

- لا داعي لكلمة أستاذ هذه.. أرجوك

رأي على شفتيها ابتسامة خفيفة، وهي تقول:

. فليكن.. عد إلى مكتبك يا (عماد).

كاد قلبه يرقص طربا، عند هذه النقطة، فقد أعلنت بقولها انتصاره، مما جعله يهتف في سعادة:

- يا إلهي!.. لقد قلتها أخيرا.. قلتها يا فاتنتي..

أعادت منظارها إلى عينيها، وهي تقول:

- نعم يا (عماد).. لقد قلتها.. هيا.. عد إلى مكتبك، قبل أن يتساءل الموظفون عن سر وجودك هنا لوقت طويل.

تهللت أساريره، وقال:

- بالطبع.. سأعود إلى مكتبي، وسنلتقي فيما بعد.. بالطبع

غادر مكتبها وكل خلية من خلاياه ترقص طربا..

لقد حقق ما كان يسعى إليه..

وضع المديرة في جيبه..

أو بمعنى أدق.. قلب المديرة..

عاد إلى مكتبه وثغره يحمل ابتسامة

واسعة، أثارت دهشة زملائه، الذين لم يشاهدوا من قبل أحدهم، يغادر مكتب المديرة، وهو يحمل مثل هذه الابتسامة، حتى أن إحدى زميلاته هتفت في فضول:

- لقد اكتفت بخصم اليومين من راتبك.. أليس كذلك؟

هز رأسه نفيا في ثقة، وقال:

- مطلقًا..

سأله زميل آخر في دهشة:

- ماذا فعلت إذن؟

اتسعت ابتسامته الواثقة أكثر وأكثر، وهو يقول:

- سيدهشك ما ستفعله.

كان واثقا من أن قرارها سيدهشهم حتما، فقد غادر مكتبها وهو يضع قلبها في جيبه، ومن المستحيل أن تؤذي المرأة رجلا وقعت في حبه..

خبرته تؤكد له هذا..

إنه سيتميز بحبها حتما بين أقرانه..

ربما جعلته يرأس المكتب.. أو منحته ترقية استثنائية.. أو مكافأة خاصة..

المهم أن قرارها لن يكون طبيعيا..

هذا ما يثق به تماما..

ولم تمض لحظات، حتى اندفع سكرتير مكتب المديرة داخل الحجرة، وهو يهتف به:

- ما الذي فعلته بالمديرة يا (عماد)؟

ابتسم (عماد) في ثقة، وهو يقول:

- وما الذي يدعوك إلى السؤال؟

لوح سكرتير مكتبها بورقة في يده، وهو يقول في انفعال:

- هذا القرار.. إنها لم تتخذ مثيلا له، منذ عملت معها..

قفزت زميلته إلى السكرتير، وهتفت في فضول:

- دعني أقرأ هذا القرار..

جرت عيناها على سطور القرار في سرعة، قبل أن تهتف في دهشة بالغة:

- مستحيل!

ثم رفعت عينيها إلى (عماد)، مستطردة:

- ماذا فعلت بها حقا يا (عماد)؟

اتسعت ابتسامة (عماد) الواثقة، وزميله يسأل السكرتير:

- ما هذا القرار بالضبط؟

تطلع السكرتير إلى (عماد)، وقال:

- لقد أمرت بإحالته إلى التحقيق..

تلاشت ابتسامة (عماد)، وحلت محلها نظرة دهشة، لم تلبث أن استحالت إلى ذهول جارف، والسكرتير يستطرد:

- وطلبت إحالته أيضا إلى طبيب نفسي، لفحص حالته العقلية..

ثم تطلع مرة أخرى إلى (عماد) يسأله:

- ماذا فعلت بها حقا يا (عماد)؟

وانفجر (عاد) باكيا.

(تمت)

صديقتها

45- صديقتها..

هي مشكلة المشاكل، في حياتي كلها..

فهي صديقتها..

صديقة زوجتي..

وهذه المشكلة لم تبدأ بعد زواجنا، وإنما قبل هذا بكثير، فهي صديقة زوجتي منذ طفولتهما وصباهما..

وهي - كالمعتاد - نديمة أحلامها، وكاتبة أسرارها..

وهذا هو المزعج في الأمر..

فمنذ خطبتنا، لاحظت أن زوجتي (خطيبتي آنذاك) شديدة التعلق بصديقتها (كوثر)، وأنهما تتزاوران أكثر مما ينبغي - من وجهة نظري - ولكنني لم أولِّ هذا الأمر اهتماما شديدا، في أيام الخطبة، لأن ظروف عملي لم تكن تسمح لي إلا بأوقات قليلة، أقضيها مع خطيبتى أسبوعيا، وكان من المستحيل بالطبع أن نقضي هذه الأوقات القليلة في مناقشة أمر كهذا، إذ كان لا يكاد يكفينا لنختلس سويعات من الحديث الهامس العاشق..

ولكن، وفي المرات القليلة، التي ألتقي فيها بـ (كوثر)، في أثناء فترة الخطوبة ولاحظت أمرا لم يرق لي أبدا.. لاحظت أن (كوثر) تعرف على كل شيء تقريبا.. أو بمعنى أدق، تعرف كل ما أرويه لـ (فاتن) - خطيبتى - عن نفسي..

وكان هذا يعني أن (فاتن) تروى لـ (كوثر) كل شيء...

حتى ما أرويه لها.

وكان هذا يضايقني كثيرا، بل يشعرني أحيانا بالحرج والحنق، وبأنني أشبه بشخص خاضع لمراقبة دقيقة، فلا يملك حتى الاحتفاظ بلحظات شخصية وخاصة..

ولكنني - للأسف - لم أعترض حينذاك...

وتزوجنا.

تزوجت (فاتن)، وأنا أعلم أنني في الواقع قد تزوجتهما معًا..

أو فقدتهما معًا..

فمنذ أول صباح لنا، لعنت ذلك الهاتف الذي ظلتا تتبادلان الحديث عبره لساعة كاملة، قبل أن أقنع (فاتن) بضرورة إنهاء المحادثة، لمنح باقي المهنئين فرصة الاتصال بنا..

وبعد أشهر قليلة، بدأت تلك المحادثات تتخذ طابعا مخيفا.

طابع الهمس...

كانت (كوثر) تزورنا كثيرا، بمعدل لا يقل عن مرتين يوميا، وعلى الرغم من هذا، فقد كانت تتحدث مع (فاتن) لساعة ونصف يوميا على الأقل، عبر أسلاك الهاتف..

وفور ظهوري، كان حدوثهما يتحول إلى الهمس الحذر، وكأنني ضيف غير مرغوب فيه، أو عدو شرير، لا ينبغي له معرفة ما يدور بينهما..

وكنت واثقا من أن (فاتن) تفعل نفس ما كانت تفعله، أيام خطبتنا.. كانت تروي لها أسرارنا

وهنا شعرت بخطورة هذه الصداقة، وبضرورة العمل على إنهائها بأى ثمن..

ولكن كيف؟..

هذا هو السؤال..

في البداية لجأت إلى الأسلوب المباشر البسيط، وصارحت (فاتن) بكل ما يضايقني، بشأن علاقتها بـ (كوثر)، وطالبتها بتخفيف صداقتها بها، ولكنني فوجئت بـ (فاتن) تواجهني في عدوانية عجيبة، وهي تقول:

- ولماذا لا تقطع انت علاقاتك بأصدقائك؟

قلت في دهشة:

- وماشان أصدقائي بالأمر؟.. إن صداقتي بهم لم تمس يوما حياتنا الزوجية.. إنك حتى لا تعرفينهم، وهم غير معتادين على زيارتنا.

قالت في صرامة:

- هذا شأنهم، أما صداقتي أنا - (كوثر)، فهي صداقة متينة، لا تنفصم أبدا.

هتفت في غضب:

- ولكن ليس من حقك نقل أسرارنا إليها..

قالت في حدة:

- لا تلق الاتهامات جزافا.. ألديك دليل واحد على ما تقول؟

أجبتها في مرارة:

- لسنا هنا في محاكمة، لتطالبيني بالدليل..

صاحت:

- ولسنا هنا في سجن، لتطلب مني قطع علاقتي بأفضل صديقة لديّ...

وأدركت أن هذه الوسيلة فاشلة تماما، وأن (فاتن) لن تقطع علاقتها بـ (كوثر) أبدا اكراما لي..

وكان عليّ أن أجد وسيلة أخرى..

وبدأت في معاملة (كوثر) بشيء من البرود والتجاهل، عسى أن تشعر أنها ضيف غير مرغوب فيه، فتكف عن زيارتنا..

ولكن (كوثر) لم تنقطع أبدا عن زيارتنا..

كل ما حدث هو أن زوجتي أصبحت تستقبلها عند الباب، وتنتقل معها مباشرة إلى حجرة الصالون، وهناك تنهمكان في حديث هامس، من المؤكد انني وأسلوبي محوره الأول، وبدأت (فاتن) تعاملني في جلاء مماثل، وكأنها تنتقم لصديقتها منى..

وأدركت أن هذا الأسلوب أيضا قد فشل..

وأخذت أبحث عن أسلوب أخر..

وفجأة قفزت تلك الفكرة إلى رأسي..

وكانت فكرة جهنمية بحق..

وعبقرية...

وفي أول زيارة ل (كوثر)، كنت مستعدا تماما، فارتديت افخر ثيابي، وأكثرها أناقة، وحلقت ذقني في عناية، وصففت شعري جيدا، وأضفت لمسة من عطر رجالي فاخر، ثم أسرعت أسابق زوجتي، وأستقبل (كوثر) بابتسامة عريضة..

وفي ذلك اليوم كانت دهشتهما كبيرة (كوثر) و (فاتن) – عندما بالغت في الاحتفاء بـ (كوثر)، وتبادلت معها حديثا وديا باسما، وتصورت زوجتي أن هذه هي طريقتي في الاعتذار، عن معاملاتي الجافة السابقة، مع صديقة عمرها.

ولكنها لم تفهم ما أعتزمه..

لقد كانت هذه هي البداية..

مجرد البداية..

وفي الأيام التالية رحت ألعب دور العاشق الولهان. فأعود في كل يوم إلى المنزل، ومعى زهرة حمراء، وشريط من شرائط أغنيات (عبد الحليم حافظ)، وأظل طيلة الوقت استمع إلى الأغنيات في هيام، وأنا أرفع الزهرة إلى أنفي كل دقيقة..

ورحت أسأل في لهفة عن مواعيد زيارات (كوثر)، وأحرص على استقبالها بكل أناقة، بل على إحضار بعض الحلوى الأنيقة اللذيذة، كلما حضرت لزيارتنا..

وبعد أسبوع واحد، ألقيت طعمًا جديدا، عندما خاطبت زوجتي باسم (كوثر)، وأنا أتظاهر بالشرود..

وبدأت زوجتي تضيق بزيارات (كوثر)، بعد أن كانت تنتظرها في لهفة، في حين ضاعفت أنا من تظاهري باللهفة لتلك الزيارات، ومن حفاوتي الزائدة بـ (كوثر)، عند قدومها..

ولأول مرة منذ حداثتها، بدأت بعض المشاحنات البسيطة تنشأ، بين (فاتن) و (كوثر)، وفي كل مرة كنت أقف إلى جوار (كوثر) في حماس، حتى لم تعد زوجتى تطيق زيارات (كوثر)، أو حتى سماع اسمها..

ثم كانت المشاجرة الكبرى بينهما..

وبعدها انقطعت (كوثر) عن زيارتنا تماما.

وانقطعت المحادثات الهاتفية..

ومنذ ذلك اليوم، أصبحت (فاتن) تثور، كلما سألتها عن (كوثر)، وعن سر غيابها الطويل.

وأدركت أنني قد توصلت إلى ما أبتغيه، باستخدام أقوى سلاح ضد المرأة..

الغيرة..

تلك الغيرة التي جعلت زوجتي تخسر صداقة عمر بأكمله..

والتي جعلتني أربح سعادتي وارتياحي في منزلي، دون تدخل منها.. من صديقتها.

(تمت)

العودة

46- العودة..

ثلاث سنوات

ثلاث سنوات كاملة، لم يطأ فيها (فريد) أرض (مصر)، منذ سافر للعمل بتلك الدولة، من دول الخليج العربي..

ويا لها من فترة!

لم يدر كيف أمكنه أن يقضي كل تلك الفترة، بعيدا عن زوجته وأولاده؟..

كيف أمكنه أن يحتمل فراقهم وبعادهم، طوال هذه السنوات؟..

تنهد في عمق، وهو يسترخي داخل سيارة الأجرة، التي تحمله من مطار (القاهرة) إلى منزله، ويستعيد ذكريات ثلاث سنوات مضت..

لم يكن هناك من حل - حينذاك - لكل مشاكل الأسرة الاقتصادية، سوى أن يقبل عقد العمل، في تلك الدولة..

الأولاد يحتاجون إلى دروس خصوصية، في كل المواد تقريبا..

زوجته تشكو متاعب العمل والمواصلات والحياة..

حموه بدأ يعلن عن تبرمه من وجودهم معه في منزله، على الرغم من أنه يحيا وحده، بعد وفاة زوجته، وسفر أولاده الآخرين للعمل، في دول أخرى..

ومتاعبه هو الشخصية..

حتى علبة سجائره، كان يدخر القروش لشرائها..

وكان الحل الوحيد هو السفر..

وسافر..

وهناك، بين آبار النفط، ومرارة الغربة، وذل الوحدة، راح يعمل ليل نهار، ويحرم نفسه من كل شيء، فيما عدا علبة السجائر الأجنبية الصنع، حتى يرسل الجزء الأعظم من راتبه كل شهر، لزوجته في (القاهرة)..

وبعد العام الأول، أبلغته رسائل زوجته أن كل شيء أصبح أفضل..

الأولاد يحصلون على دروسهم الخصوصية، عند أفضل مدرسى (القاهرة)..

ابتاعت زوجته سيارة صغيرة، وتعلمت قيادتها، ولم تعد هناك مشاكل في المواصلات أو العمل.

ووقعت الزوجة عقد تملّك شقة جديدة..

ضايقه في البداية أنها سجلت عقد الشقة باسمها، ولكنه لم يلبث أن تفهّم ضرورة هذا، حتى لا يحتاج إلى كتابة توكيل شامل لها، لدفع أقساط الشقة، واستلامها، وما يستتبع هذا من إجراءات..

وفي أول محادثة هاتفية بينهما، أخبرته زوجته أنها قد دفعت كل ما أرسله كمقدم للشقة، ومازالت هناك الأقساط الشهرية الضخمة، وقرر التنازل عن إجازته السنوية لهذا العام، لتدبير مصروفات المنزل، وأقساط الشقة الجديدة..

يكفي أن يتحقق الحلم، ويصبح لديه شقة خاصة، بعد أكثر من خمسة عشر عاما من الزواج..

ومضى العام الثاني أكثر مشقة، ولكن النتائج كانت أروع مما يتصور..

لقد تسلمت زوجته الشقة الجديدة، وأثثها، وأرسلت إليه صورها المبهجة، وصور أولاده الثلاثة داخلها ولقد تغيرت هيئة الأولاد كثيرا..

(أحمد) أصبح أطول، و (مها) ازداد وزنها، و (سامح) يبدو أكثر أناقة..

ومع أول عائد إلى (القاهرة)، من زملاء العمل، أرسل للأولاد حقيبة ضخمة، تمتلئ بالملابس واللعب..

وأرسل لزوجته حقيبة مثلها..

وواصل إرسال أقساط الشقة، ومصروفات المنزل..

واضطر في العام التالي للتنازل عن إجازته السنوية أيضا، لأن (أحمد) أصبح في الشهادة الإعدادية، ويحتاج إلى مزيد من الدروس الخصوصية، وزوجته تشكو من متاعب السيارة المستعملة، وتلح في استبدالها بسيارة جديدة، وأقساط الشقة لم تنته بعد، و...

ومضى عام ثالث من الكفاح والتعب والمهانة.

وعندما حان موعد إجازته السنوية الثالثة، قرر أن يسافر الرؤية أولاده وزوجته...

وشقته الجديدة..

وقرر أن يفاجئهم بعودته..

وعندما أوقف سائق الأجرة سيارته، أمام تلك البناية الفاخرة، التي يحتل منزله الجديد أحد طوابقها، خفق قلبه في سعادة،

ونقّد السائق بقشيشًا سخيا، وهو يحمل حقيبته الوحيدة، ويستقل المصعد إلى شقته الجديدة..

وفي المصعد ابتسم في حنان، وهو يرسم صورة جميلة للقائه بأولاده وزوجته، ويتصور سعادتهم بعودته، وتأثير المفاجأة الجميلة عليهم.

وأمام باب الشقة، انتبه لأول مرة إلى أنه لا يملك مفتاحا للشقة، فدق جرس الباب، وهو يأسف لضياع المفاجأة، التي يحلم بها منذ وصوله..

ومضت لحظات من الصمت، ثم فتحت (مها) الباب..

ولثوان تطلعت إليه، وإلى ابتسامته في حذر وتساؤل، قبل أن تقول في تردد:

- بابا!

هتف بكل سعادته لرؤيتها:

- نعم يا (مها).. أنا أبوك.

صاحت:

- بابا.. مرحبا بك.. مرحبا.

عانقها في حرارة وسعادة، ودخل معها - لأول مرة - إلى شقته الجديدة..

كانت شقة واسعة فاخرة بالفعل، كل ركن فيها يشف عن ذوق زوجته، وأناقتها، ولكن أين ذهبت صورة زفافهما؟..

انتبه فجأة إلى أنه لا توجد أية صورة له، في أي ركن بالمنزل، وأدرك لحظتها لماذا ترددت ابنته (مها)، قبل أن تصافحه..

لقد نسيت ملامحه تقريبا.

ثلاث سنوات لم يرسل إلى أولاده فيها صورة واحدة، ولا يرون صوره في المنزل، في الوقت ذاته، فمن الطبيعي إذن أن ينسوا ملامحه تقريبا..

شعر بمزيج من الأسف والمرارة لهذا، وأدهشه أن قادته ابنته إلى حجرة الصالون، وهي تقول:

- ستعود امي بعد قليل.

قال محتجا:

- سأنتظرها في حجرتنا.

لاحظ تردد ابنته، فأضاف في حزم:

- أين حجرتنا؟

قادته إلى الحجرة في استسلام، وكأنها مرغمة على هذا، وسألها وهو يلقي سترته فوق الفراش، ويضع حقيبته إلى جواره:

- أين ذهبت أمك؟

أجابته في خفوت:

- إلى مصفف الشعر (الكوافير).

سألها:

- وأين (أحمد) و (سامح)؟

أجابته ولهجتها تحمل شيئا من الضجر:

- (أحمد) عند مدرس الجغرافيا، و (سامح) لم يعد من مدرسته بعد..

ثم سألته في لهفة:

ماذا أحضرت لنا معك؟

أجابها في ضيق:

- لقد أرسلت إليكم أشياء كثيرة في الشهر الماضي، واليوم أحضرت حقيبتي فحسب.

ألقت نظرة مفعمة بخيبة الأمل على الحقيبة، وهي تغمغم:

- حقا!

قال في حنق:

- ألا تشعرين بالفرح لرؤيتي؟

ألقت عليه نظرة حذرة، قبل أن تقول:

- بالطبع.

قالتها بلهجة خاوية من أية انفعالات، ثم غادرت الحجرة، وتركته وحده حائرا متوترا..

ماذا أصابها..

لماذا تتعامل معه وكأنها تستقبل ضيفا ثقيلا؟..

لم يفهم سر هذا الأسلوب، حتى عاد (أحمد) و (سامح)، في وقت واحد تقريبا، ولم يكد يعلن عن عودته، حتى هتف (أحمد):

- أبي عاد.. ماذا أحضرت لنا معك يا أبي؟

وصاح (سامح) في سعادة:

- هل أحضرت السيارة الصغيرة، التي طلبتها منك؟

أحنقه كثيرا اهتمامهم بما أحضره، أكثر من اهتمامهم بحضوره، فأجاب في عصبية:

- لا.. لم أحضر شيئا..

بدت خيبة الأمل على وجهي (أحمد) و (سامح)، وفتر حماسهما تماما، حتى أن أجوبتهما عن أسئلته جاءت مقتضبة مجاملة، كما لو كانا يجيبان ضيفا، أو واحدا من مدرسيهما..

وضاق صدره بالموقف، وراح يتطلع إلى ساعته في قلق، في انتظار عودة زوجته، عسى أن يجد في سعادتها لرؤيته تعويضا عما أزعجه من لقاء أولاده..

وأخيرا حضرت الزوجة..

أدهشته رؤيتها في البداية، بشعرها الأصفر الذهبي المصبوغ، وزينتها المبالغة، وهي تهتف به:

- (فريد)!.. يا لها من مفاجأة!.. متى وصلت؟

صافحها في حرارة، وأخبرها أنه وصل منذ قليل، ثم سألها:

- أتصبغين شعرك؟

ابتسمت وهي تتحسس شعرها، قائلة في زهو:

- هل يروق لك اللون؟

أجابها مجاملا:

- نعم.. إنه يناسبك تماما.

كان كاذبا في قوله، فلون شعرها الذهبي لم يكن يناسب أبدا بشرتها السمراء، ولكنه آثر الهدوء، وعدم الدخول في مجادلات

عقيمة، وفضل عدم مناقشتها أمام أولادهما، فانتظر حتى ضمتهما حجرة نومهما، وسألها:

- لماذا تصبغين شعرك؟

قالت في بساطة:

- الأشقر هو الموضة هذه الأيام.

أخرجت من حقيبتها علبة سجائر أجنبية، التقطت منها سيجارة، دستها بين شفتيها المصبوغتين، وأشعلتها بقداحة ذهبية، فسألها في دهشة:

- منذ متى تدخنين؟

أجابته في هدوء:

- منذ عامين.

ثم أضافت وهي تنفث دخان السيجارة في عمق:

- كل نساء الطبقة الراقية تفعلن هذا.

هتف في دهشة:

- الطبقة الراقية؟!.. من وضع هذه الفكرة الغبية في رأسك؟

قالت في حدة:

- ليست فكرة غبية.. إنها واقع.. ألا تشاهد أفلام السينما؟؟

لعن أفلام السينما، وكل الأفكار العجيبة، التي تغرسها في رءوس الناس، وبدأت بينه وبين زوجته مشادة، حسمها وهو يقول في مرارة:

- حسنا.. لم أقطع كل هذه المسافة، لتتشاجر بسبب هذا..

تلفتت حولها في لهفة، وهي تسأله:

- أين حقائبك؟

أجابها وقد فهم ما ترمي إليه:

- لم أحضر سوى حقيبتي.

هتفت في ضيق:

. فقط؟!

أجابها وهو يختنق غيظا:

- كان سفرا مفاجئا سريعا..

أدهشه أن قالت في أسف:

- يا للخسارة!

لحظتها أدرك لماذا قضى في الغربة ثلاث سنوات كاملة.

لقد أحتمل كل هذا؛ لينساه أولاده..

ليخلو بيته من صورته.

لتصبغ زوجته شعرها..

وتبدل سيارتها..

احتمل العذاب والوحدة والهوان والمرارة، لتنفث زوجته كل هذا، مع أنفاس سيجارة أجنبية الصنع..

وفي الية، وبلا أدني لهفة أو انفعال، سألته زوجته:

- كم ستبقى؟

وبكل مرارة الدنيا في أعماقه، أجاب:

- سأرحل في الصباح الباكر.. لم يعد لي مكان هنا..
وكان يعني ما يقول..

(تمت)

بدون عمل

47- بدون عمل..

من المؤكد أن قصة (مجدي) و (ليلى) كانت عادية جدا في البداية، فلقد التقيا، وتعارفا، وأحب كل منهما الآخر، ثم تقدم (مجدي) لخطبة (ليلى)، وأبدى والدها بعض الاعتراض في البداية، حتى عثر (مجدي) على شقة مناسبة، وتمت خطبتهما، التي استغرقت عاما واحدا، تم بعده زفافهما، الذي لم يمض عام واحد عليه، حتى وضعت (ليلى) طفلها الأول، الذي أطلقت عليه اسم (أحمد)..

إلى هنا والقصة عادية بالطبع..

حتى عندما بدأت مشكلة البحث عن مكان لـ (أحمد)، لتذهب (ليلى) إلى عملها اليومي، ظل الأمر مألوفا عاديا، لولا أن تكورت بطن (ليلى) مرة ثانية، بعد أشهر قليلة، لتعلن قرب قدوم الطفل الثاني، الذي لم يستعد الزوجان لاستقباله بعد..

ولكن الطفل الثاني أتى، بعد أقل من عام، من مولد (أحمد)، وجاء أنثى جميلة هذه المرة، لها نظرة أمها، وابتسامة أبيها..

وعندئذ بدأت المشكلة..

كيف يمكن أن تعمل (ليلى)، ولديها طفلان، لا يفصلهما سوى عام واحد من العمر؟!..

وفي البداية، بذلت (ليلى) جهدًا مضاعفا، لنقل الطفلين إلى منزل أمها كل صباح، ثم الذهاب إلى عملها في التاسعة والعودة منه في الثالثة، لتحمل طفليها مرة ثانية، إلى منزلها، الذي تبلغه في الخامسة، وهي تلهث من شدة التعب والإرهاق..

ولكن (مجدى) لم يحتمل هذا..

لقد حاول الاحتمال، والحق يقال، إلا أن المجهود المضاعف، الذي تبذله (ليلى)، ورعايتها المستمرة لطفليها، جاءت على حساب علاقتها به، واهتمامها بعمله الخاص، وبمأكله وملبسه، حتى جاء يوم ممطر، واجهها فيه قائلا:

- هل سيستمر الوضع على هذه الصورة؟

قالت في عصبية:

- وماذا يمكنني أن أفعل؟ إنني أعمل من الصباح حتى المساء، ثم أهتم بالطفلين والمنزل.

سألها في ضيق:

- وماذا عني أنا؟

واجهته بأسلوب عدوانى:

- ماذا عنك؟!.. يمكنك أن ترعى شئونك بنفسك، ولا تنتظر مني أن أخدمك، وأن أرعى شئونك أيضا، فكلانا يعمل، وأنا أبذل جهدا أكبر، في رعاية المنزل والأطفال.

هتف غاضبا:

- أهذا أسلوب تخاطب به زوجة زوجها؟

صرخت في وجهه:

- وكيف تريد مني أن أعاملك؟

أغضبه أسلوبها العصبي العنيف في شدة، ولكنه سيطر على أعصابه، في حزم، وسألها وهو ينتفض غضبا في أعماقه، على الرغم من هدوء صوته وملامحه:

- أتجدين أنه من العسير عليك القيام بعملك وبواجباتك كزوجة، في الوقت ذاته؟

صاحت محتدة:

- بالطبع.. حاول أن تجرب أنت هذا، وأن..

قاطعها في حزم وصرامة:

- اتركي العمل إذن.

بترت عبارتها، وحذقت في وجهه بدهشة، وهى تردد:

- أترك العمل؟!

أجابها في قوة:

- نعم يا (ليلى).. اتركي العمل.. لو أنك تعجزين عن التوفيق بينه وبين منزلك، وواجباتك كزوجة وأم، فاتركيه.. هذا ما يحتمه عليك واجبك.

صاحت به في حدة:

- هل جننت؟.. إنني ناجحة في عملي، وسأحصل على علاوة، مع بداية العام الجديد، و.

قاطعها غاضبا:

- وماذا؟.. إنك زوجة وأم، في المقام الأول، وأنا أشعر أن طفليّ يعانيان بسبب عدم تفرغ أمها لهما.

- إنني أمنحها كل رعايتى، بعد عودتي من العمل.

قال في صرامة:

- بهذه العصبية وهذا التوتر!.. إنك تصرخين في وجهيهما طوال الوقت، ولا تحتملين أي خطأ يصدر منهما، وتعاقبينهما في عنف، دون رحمة أو شفقة.

- لأنني متعبة طيلة النهار.

قال في حدة:

- أرأيت؟!.. هأنتذي تعترفين بصحة وجهة نظري..

أدركت صحة قوله هذه المرة، فعضت شفتيها في غيظ، ثم قالت في صرامة:

- ولو يا (مجدي).. لن أترك العمل أبدا.

صاح بها:

- ولن أسمح لك بالاستمرار فيه، على حساب منزلك وطفليك.

صرخت:

- ومن قال إنك تمتلك حق السماح والمنع؟

قال في دهشة:

- أنا زوجك.

عقدت ساعديها أمام صدرها في حزم، وهي تقول في عناد:

- لقد تزوجتني وأنا أعمل، والقانون لا يمنحك الحق في منعي من العمل، في هذه الحالة.

هتف بدهشة أكثر:

- القانون؟!

ثم أضاف في مرارة:

- لست أتحدث عن القانون يا (ليلى)، ولن ألجأ إليه أبدا.. إنني أتحدث معك كزوجة.

قالت في عناد أكثر:

- وأنا أرفض مجرد التفكير في الأمر.

تفجرت كل شياطين الغضب في وجهه، وهب واقفا، وهو يقول:

- لا بأس يا (ليلى).. أنت دفعتني إلى هذا.

وشد قامته، مستطردا في حزم:

- إنني أضعك أمام خيارين، لا ثالث لهما يا (ليلى)، إما أن تتركى العمل، وتتقدمي باستقالتك صباح الغد، أو..

تردد لحظة، فسألته في حدة:

- أو ماذا؟

بدا شديد المرارة، وهو يجيب:

- أو نفترق يا (ليلى).. أعني الطلاق، لو أنك أردت توضيحا أكثر..

احتقن وجهها. في شدة، ورددت:

- الطلاق!

ثم استطردت في غضب:

- أتهددني يا (مجدي)؟

أجابها في صرامة:

- إنني أجبرك على اتخاذ خطوة واضحة حاسمة، بشأن حياتنا..

عاودها عنادها في شدة، وهي تقول:

- وأنا أرفض يا (مجدي).. أرفض ترك العمل، وبكل إصرار..

تفجر عناده أيضا، وصاح فيها:

- أنت طالق إذن يا (ليلى).. طالق.. طالق.

وكانت مفاجأة للأسرتين.. أسرته وأسرتها..

- لم يتصور مخلوق واحد أن يتم طلاق (مجدي) و (ليلى)، بعد قصة الحب التي جمعتهما، والتي انتهت بزواجهما، من عامين أو أقل..

وتدخل العديدون للإصلاح بينهما، وإعادة المياه إلى مجاريها...

ولكن دون فائدة..

لم يتنازل (مجدي) عن إصراره، ولم تتخل (ليلى) عن عنادها..

وافترقا..

وبحكم القانون، حصلت (ليلى) على الشقة، وعلى حضانة طفليها، واستأجرت من مبلغ النفقة، التي يدفعها لها (مجدي) شهريا، خادمة محترفة، لتبقى مع أطفالها، طوال فترة عملها..

وطوال العام الأول بعد الطلاق، كانت (ليلى) تبدو قوية متماسكة واثقة من أن (مجدي) سيعود إليها نائما، بعد أن يفيق من ثورته، ويدرك أن طلاقهما قد أفقده شقته وأولاده، وأفقده إياها أيضا، بل لقد بدأت بالفعل في التخطيط لعودته، وفي التدرب على أسلوب مقابلته، وتعنيفه، ومعاقبته على ما ارتكبه من خطأ في حقها..

ولكن (مجدي) لم يعد..

إنه لم يبق حتى في (مصر) كلها..

لقد سافر للعمل في واحدة من دول الخليج، وانقطعت أخباره فيها لعامين كاملين، بذلت فيهما (ليلى) أربعة أضعاف ما كانت تبذله من جهد، بعد أن صار عليها أن تلعب دور الأب والأم في آن واحد..

ثم عاد (مجدي).

لم يعد إليها، وإنما عاد إلى (القاهرة)، وابتاع شقة جديدة، وكأنه يعلن تنازله الدائم عنها، وعن شقته القديمة، وبدأ مشروعا صغيرا، لم يلبث أن تطور خلال العام التالي، وأصبح مشروعا معقولا، يمنحه دخلا جيدا..

ولم يبخل (مجدي) على أبنائه بالإنفاق، بل راح يمنحهم كل ما يمكنه، بغض النظر عن قيمة النفقة الشرعية، التي يدفعها لهم ولأمهم شهريا..

وبدأت (ليلى) تشعر بالوحدة..

ولأول مرة، بعد أكثر من ثلاث سنوات من الطلاق، اعترفت لنفسها بأنها لم تعد تحتمل وحدتها، وأنها تتوق لعودة (مجدي) إليها..

ثم جاءت الضربة القاصمة..

لقد تزوج (مجدي)..

تزوج في هدوء، من واحدة من قريباته، لا تعمل في الحكومة أو القطاع الخاص، واستقر معها في شقته الجديدة، وبدأ الناس يتحدثون عن سعادتهما وحبهما واستقرارهما، وخاصة بعد أن أنجبا طفلة جميلة، لها ملامح أمها وذكاء أبيها..

وانهارت مشاعر (ليلى)..

وانهار معها الأمل في عودة (مجدي) إليها..

وفي البداية انتابها الغضب، وراحت تلعن (مجدي)، والزواج وحياتها كلها..

ثم قررت معاملته بالمثل..

والمثل هنا يعني أن تتزوج، وتستقر مثله، ويصبح لديها زوج وأولاد جدد و..

ولكن من يقبل الزواج منها؟!

من يقبل الزواج من امرأة تخطت الثلاثين، مطلقة ولها طفلان؟

كلها عقبات تقف في طريق الزواج، من وجهة نظر المجتمع..

وامتلأت نفسها بمرارة لا حدود لها، جعلتها تهمل عملها، وأولادها وحياتها كلها، وتصاب بحالة من الإحباط واليأس، لم تشعر بمثلها من قبل.

وفجأة لاح الأمل..

ففي يوم صحو، زارتها شقيقتها (نوال)، وقالت لها في حرارة:

- (ليلى).. عندي عريس لك..

رددت في دهشة:

- عريس؟!

قالتها وقلبها يخفق في مرح وسعادة، بعد أن أعاد إليها هذا شعورها بأنوثتها، وبأنها لا تزال امرأة مرغوبة، يمكنها الزواج والإنجاب، وليست مجرد كيان مهمل، ألقاه (مجدي) خلفه، وتركه يتحلل في عزلته..

وفي لهفة لم تحاول إخفاءها، سألت شقيقتها:

- من هو؟.. ولماذا يطلب الزواج منى؟

أجابتها (نوال) في فرح:

- رجل أعمال ثري، في الرابعة والأربعين من عمره، وهو صديق لزوجي (على)، ورآك في أثناء إحدى زياراتك لنا.. الأروع أنه يعرف عنك كل شيء، ويطلب الزواج منك.. ما رأيك يا (ليلى)؟

تضاعفت فرحتها، وهي تقول:.

- أريد أن أراه أولا..

هتفت بها (نوال):

- بالتأكيد.. إنه سيزورنا اليوم، وأريد منك أن تأتي في أبهى زينتك، حتى تبهريه، ويسارع بإتمام الزواج.

أومأت برأسها إيجابا في حرارة، وقد تخضب وجهها بحمرة الخجل، كما لو كانت مراهقة صغيرة، تتلقى عرض الزواج الأول في عمرها..

وفي الموعد المحدود، كانت (ليلى) في منزل شقيقتها، في أبهى صورة، ولقد استقبلت العريس المنشود بابتسامة خجلي، وصافحته بأطراف أصابعها، ثم جلست أمامه والخجل يضفي على وجهها مزيدا من الجمال والنعومة..

ولكنها. في أعماق نفسها. اعترفت بأنه أقل وسامة من (مجدى) بكثير..

صحيح أنه ثري، ومعروف إلى حد ما، ولكن شكله لا يمكن أن يوصف أبدا بالملاحة، وكذلك صوته الأجش، وهو يقول:

- كم يسعدني أن ألتقي بك..

همهمت بكلمات خافتة، وهي تقنع نفسها بأنه فرصة لن تعوض، على الرغم من عيوبه، فنقاط الضعف لديها أكبر وأكثر من هذه العيوب، ومن المحتم عليها أن تقبله، وإلا فقد لا يتقدم شخص آخر للزواج منها، ما بقى لها من العمر، فسنها تتقدم مع مرور الوقت، وجمالها سيذوى، ويذبل، وحيويتها ستذهب..

إنه بالفعل فرصتها الأخيرة..

وفي زهو، أشعل الرجل سيجارته، ونفث دخانها في عمق، وهو يقول ملوحًا بكفه، التي يزينها خاتم ذهبي ضخم:

- سأدفع المهر الذي تطلبينه، وسأبتاع لك أفضل شبكة في العالم، على نحو يشرفني ويشرفك، وسنقيم في فيلتي الجديدة، في مدينة (نصر)، أما عن طفليك، فيكونان كولدي تماما، وسأمنحها كل العناية والرعاية، حتى ننجب لهما شقيقا أو شقيقة..

شعرت بالارتياح مع حديثه، الذي يحررها من كل ما كان يقلقها بشأن حياتها وأولادها، فاستكانت في مقعدها، وتركته يواصل حديثه، وهي تستمع إليه في صمت، وعلى شفتيها ابتسامة هادئة مستسلمة، حتى اعتدل في مقعده، والتقى حاجباه في صرامة، وهو يقول:

- سأمنحك كل ما تريدين، ولكن لى شرط واحد..

هوى قلبها بين ضلوعها، وهى تسأله:

- ما هو؟

أجاب في حزم:

- لست أحب المرأة العاملة.. أريدك زوجة فقط.. بدون عمل..

ولم تتردد لحظة واحدة..
ووافقت على أن تكون في حياته مجرد زوجة..
وبدون عمل.

(تمت)

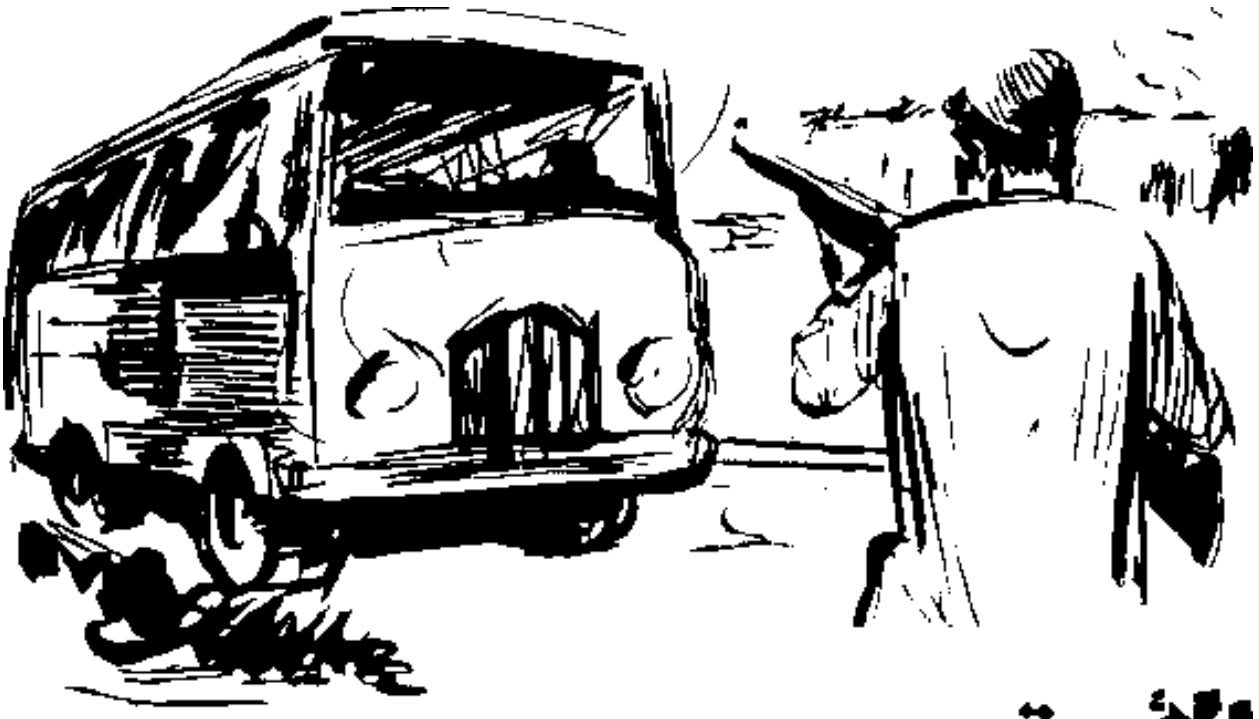

الأوتوبيس

48- الأوتوبيس..

(الأوتوبيس) لا يقف عند قرية (ميت شواشى) قد تبدو لك هذه العبارة عادية، أو لا تثير انتباهك قط، فالمشكلة بالنسبة لك أمر تافه، لن يشغل تفكيرك لأكثر من الوقت اللازم لقراءة العبارة، ولكنها بالنسبة لسكان (ميت شواشى) كانت مشكلة عويصة، ما بعدها مشكلة.

و (ميت شواشى) قرية مظلومة، سواء في الجغرافيا أو التاريخ، فلم يحدث أبدا أن أنجبت أحد المشاهير، أو رجال السياسة، أو الفنانين، وليس لها حتى عضو من أبنائها في مجلس الشعب..

وطوال عمر (ميت شواشى) لم تحدث فيها أية مواقع حربية، أو تاريخية، أو حتى يقع في حدودها حادث إجرامي خطير، يستحق التحدث عنها..

ولهذا عاشت (ميت شواشى) دائما مجهولة منسية، لا يعرفها سوى سكانها، والقرى المحيطة بهم، حتى أن هيئة المساحة نسيت ذكر اسمها في خرائطها، فلم يعد حتى المسئولون يعلمون بوجودها..

ونتيجة لهذا الوضع العجيب، لم يتوقف (الأوتوبيس) أبدا عند (ميت شواشى)..

كانت له محطة في القرية التي قبلها، وأخرى أمام القرية التي تليها، دون أن تكون له محطة واحدة أمامها..

ومنذ مولدهم، يتعلم أبناء (ميت شواشى) أن عليهم السير إلى أقرب قرية، لانتظار (الأوتوبيس)، حتى يمكنهم الذهاب لعلهم في المركز، أو لمدارسهم في المدن..

وذات يوم ثار سكان (ميت شواشى) على هذا الأمر، وقرروا إعلان غضبهم للمسئولين، لعلهم يدركون أنهم قرية، مثل باقي القرى، ويحتاجون إلى محطة (أوتوبيس)..

ولأن معظم سكان (ميت شواشي) من محدودي الدخل والتعليم، فقد لجئوا إلى الأستاذ (عوض)، الحاصل على دبلوم الصنائع، وابن شيخ الخفراء الحاج (أحمد)، وعرضوا عليه مشكلتهم، وطلبوا منه أن يتحدث باسمهم إلى المسئولين، ليقنعوا (الأوتوبيس) بالتوقف عند (ميت شواشى)..

وشعر الأستاذ (عوض) بالمسئولية الملقاة على عاتقه، فكتب شكوى ضخمة، وحملها إلى القرية المجاورة، حيث استقل (الأوتوبيس) إلى المدينة، ليعرضها على المسئولين هناك..

واستقبل المسئول الأستاذ (عوض) في حرارة، واستمع إليه في اهتمام، ثم وعده بحل المشكلة، وصافحه مودعا..

وعاد الأستاذ (عوض) إلى قريته، والأمل يملأ نفسه، ويشعّ من وجهه وعينيه، وأبلغ الجميع أن المشكلة في طريقها إلى الحل، في أيام معدودات..

واستبشر السكان خيرا، وانتظروا مرور هذه الأيام المعدودات في صبر، ولكن الأيام مرت، وأصبحت أسابيع، وشهورا، دون أن يتوقف (الأوتوبيس) أمام (ميت شواشى)، أو يبدو حتى أنه سيفعل.. وعاد السكان إلى الأستاذ (عوض)، وأعلنوا تذمرهم وغضبهم، فما كان منه إلا أن كتب شكوى جديدة، وعاد بها إلى المسئول وفي حرارة أكبر استقبله المسئول، وأكد له أن المشكلة في طريقها إلى الحل، وأن (الأوتوبيس) سيتوقف حتما عند (ميت شواشى)، ولكنها مسألة روتين، وبيروقراطية، وخلافهما..

ونقل الأستاذ (عوض) هذا الحديث للسكان، الذين قرروا الانتظار في صبر مرة أخرى، لأيام وأسابيع وشهور دون جدوى..

وهنا ثارت ثائرة الأستاذ (عوض)، وأعلن لسكان القرية أن (الأوتوبيس) سيتوقف عند (ميت شواشى)، ولو على جثته..

واختفى الأستاذ (عوض) يومين في منزله، ثم خرج إلى أهل القرية منتشيا ظافرا، وهو يحمل لافتة مستديرة، فوق عامود طويل، كتب عليها بخط أنيق كلمة (موقف أوتوبيس)..

وفي احتفال شعبي صغير، غرس السكان اللافتة عند مدخل القرية، ووقفوا إلى جوارها ينتظرون (الأوتوبيس)..

ولكن (الأوتوبيس) مضى، دون أن يلتفت إلى اللافتة، متجاهلا إياها تماما، بحجة أن خط السير الرسمي، الذي سلموه إياه في محطة البداية لا يتضمن التوقف عند هذه القرية، التي يجهل حتى اسمها..

وشعر الأستاذ (عوض) بهزة قوية في كرامته، وبدالة الأمر وكأنه طعنة شخصية له، وإهانة ما بعدها إهانة..

وفي تلك الليلة لم يغمض له جفن..

كان دمه يغلي في عروقه، ويتصاعد إلى مخه، فيشعر بغليانه، ويشم رائحة أبخرته المحترقة.. صحيح أن أحذا لم يوجه إليه اللوم، ولكن قضية (الأوتوبيس) أصبحت قضيته الشخصية وأصبح عليه أن يوقفه.. ولو على جثته.

وفي ساعات الفجر الأولى، حمل (عوض) بندقية والده، وخرج ينتظر أول (أوتوبيس)..

كان الجو رطبا، والضباب ينتشر في كثافة، ولكنه أصر على التصدي لـ (الأوتوبيس)، وإجباره على التوقف عند (ميت شواشى) بالقوة..

وسمع صوت (الأوتوبيس)، مقبلا وسط الضباب الكثيف، فرفع بندقيته، وهو يحاول اختراق الضباب ببصره..

ثم ظهر (الأوتوبيس) فجأة..

ظهر على بعد متر واحد منه..

وقبل أن يفعل الأستاذ (عوض) شيئا. ارتطم به (الأوتوبيس)، وأسقطه تحت عجلاته، وعبر فوقه..

وفي (الأوتوبيس) سأل السائق زميله الكمسرى:

- يبدو أننا قد ارتطمنا بشيء.. أليس كذلك؟

كان الضباب كثيفا، والرؤية شبه منعدمة، فقال الكمسرى في لا مبالاة:

- لا تقلق.. إنه أحد الكلاب الضالة حتما..

هز السائق كتفيه، وهو يواصل طريقه فوق جثة الأستاذ (عوض)..

ودون أن يتوقف في (ميت شواشي) ...

(تمت)

49-المجانين..

احتبست أنفاس ركاب الحافلة، وأطل مزيج من الخوف والقلق من عيونهم، عندما أطلق السائق لحافلته العنان، وتجاوز بها السرعة المقررة قانونيا، وانطلق بها فوق الطريق كطائر طليق عنيد، وارتجفت الكلمات على شفتي واحدة من راكبات الحافلة، وهي تقول في خفوت، وكأنها تتحدث إلى نفسها:

- إنه مجنون.. مجنون حتما هذا السائق.. كيف ينطلق بهذه السرعة الجنونية، في طقس كهذا؟!

هز الرجل الوقور، الجالس إلى جوارها، رأسه، ونفث دخان غليونه في هدوء، قبل أن يقول في رزانة:

- انه يتحدى نفسه..

التفتت إليه في توتر، وشجعها مظهره الأنيق الرزين على أن تقول:

- ولماذا يتحدى نفسه؟.. إنه مجنون حتما!

ابتسم الرجل، وقال:

- كلنا مجانين يا سيدتي، لو أن تجاوز المألوف يعتبر جنونا.. كل ما في الأمر هو أن هذا السائق يمر في حياته بإحباطات عديدة، وهزائم اجتماعية لا حدود لها، وهذا يورثه شعورا بالعجز، يحاول تعويضه وهو يقود هذه الحافلة سألته في دهشة:

- كيف؟!

أشار إلى السائق، وقال:

- انظري إليه.. هل ترين تلك الابتسامة الظافرة على شفتيه؟.. أتلمحين تألق عينيه الواضح؟.. إنه يشعر بقوته، عندما يقود هذه الحافلة، ويتجاوز بها السرعة المقررة.. لقد هزم القانون والسلطة والمجتمع، من وجهة نظره.. وهذا يريح أعصابه المتوترة، ويمحو عنها الشعور بالإحباط والهزيمة.

قالت في حدة:

- ولكنه بهذا يعرض أرواحنا للخطر.. وهذا جنون في حد ذاته.

هز الرجل رأسه في وقار، ونفث دخان غليونه، وهو يقول:

- كلنا مجانين يا سيدتي.. كلنا مجانين..

أطلقت شهقة قوية، جعلته يلتفت إليها، ويسألها في اهتمام:

- هل ضايقك قولي هذا يا سيدتي؟

هزت رأسها نفيا، وقالت:

- كلا، ولكن هذا المجنون أثار ذعري.

سألها:

- السائق؟!

عادت تهز رأسها نفيا، وتجيب:

- بل قائد هذه السيارة..

قالتها وهي تشير إلى سيارة رياضية، تنطلق بسرعة جنونية بالفعل، وتكاد تتجاوز الحافلة، ولكن جارها تطلع إلى السيارة في هدوء، وقال:

- نفس المشكلة.. محاولة للتغلب على إحباطات اجتماعية أو نفسية.

هتفت مستنكرة:

- أية إحباطات؟!.. إنه لا يسافر بالحافلة مثلنا، فسيارته وحدها تساوي دخل أسرتي كلها في نصف قرن.

ابتسم وقال:

- ومن قال إن الأثرياء لا يعانون إحباطات اجتماعية أو أسرية؟.. ربما كان الابن الأوسط للأسرة، لا أحد يشعر به، أو يوليه الاهتمام الكافي، أو..

أوقفته شهقة أخرى منها، فسألها:

- ماذا حدث هذه المرة؟

انكمشت في مقعدها، وهي تقول:

- ألم تنتبه إلى ما حدث؟!.. لقد انقلبت سحنة السائق في غضب، عندما تجاوزته تلك السيارة الرياضية، وزاد من سرعته لينطلق خلفها.. إنه يتسابق معها على الطريق الصحراوي.. ألم أقل لك إنه مجنون؟

رفع رأسه ليراقب ما أبلغته به، ثم هز رأسه، وقال:

- هذا أمر طبيعي، فقائد السيارة ينتمي إلى الطبقة الثرية، التي تثير في المعتاد شعور الإحباط، في أعماق السائق، والطبقة التي ينتمي إليها، وظهوره الأن يفسد صورة التفوق، التي غرسها السائق في أعماق نفسه، أما تجاوز سيارته القوية للحافلة، على الرغم من سرعتها، فيحطم شعور السائق بالظفر تماما، ويعيد إليه كل مشاعر الإحباط والهزيمة؛ لذا فسينطلق بأقصى سرعة للحاق بالشاب، وتجاوزه، حتى يستعيد شعوره بالظفر.

صاحت مذعورة:

- ولكنه يتجاوز حدوده بشدة هذه المرة.. ليس من حقه أصابتنا بكل هذا الرعب.. إنه سيقتلنا هكذا..

قال الرجل في هدوء:

- هذا لا يعنيه الأن، ولا يقلق باله قط، فالفكرة الوحيدة التي تسيطر عليه الآن، في الانتصار على كل ما يمثله قائد السيارة، من تفوق مادي واجتماعي.

حبست أنفاسها في ذعر، مثل باقي الركاب، عندما تزايدت سرعة الحافلة إلى حد جنوني، حتى تجاوزت السيارة، التي اضطر قائدها إلى إفساح الطريق لها، فتألقت عينا السائق في ظفر، وأطلق ضحكة ظافرة عالية، جعلت الراكبة تقول:

- أرأيت!.. إنه مجنون حتما.. لا يطلق هذه الضحكة سوى مجنون..

هز رأسه نفيا وقال:

- فكرتك عن المجانين عجيبة جدا يا سيدتي.. إنهم لا يطلقون مثل هذه الضحكات إلا في الأفلام السينمائية فحسب.. كل ما في الأمر هو أن هذا السائق يشعر بسعادة غامرة، وبأنه انتصر على كل إحباطاته وهزائمه الاجتماعية، في صورة هذه السيارة الأرستقراطية، وقائدها الثرى.. لو تعمقت في نفسه الآن، لوجدت أنه أكثر سعادة من (نابليون بونابرت) نفسه، في أوج مجده..

هتفت في ذعر

- ولكن ما الذي يفعله الآن؟

التقى حاجباه في شدة، عندما شاهد سائق الحافلة ينحرف بها في عنف، نحو السيارة الانيقة، محاولا دفعها خارج الطريق، وغمغم:

- إنه يتجاوز حدوده بالفعل..

حاول قائد السيارة تفادي تلك الانقضاضة المباغتة، ولكن الحافلة كادت تسحقه بحجمها الضخم، الذي يفوق حجمها عدة مرات، مما اضطره للخروج عن الطريق الأسفلتي، والخوض في بحر الرمال، حتى توقفت سيارته، فأطلق سائق الحافلة ضحكة أكثر جلجلة، ارتجف لها معظم الركاب، دون أن يجرؤ أحدهم على الاعتراض، في حين همست الراكبة لجارها في ارتياع:

- أما زلت تنكر أنه مجنون؟

قال في تردد:

- لم أعد أدرى.. موقفه الأخير هذا يتجاوز حدود المنطق والعقل.

قالت في حزم:

- بالطبع.. إنه مجنون.

قال في حيرة:

- لم أتوقع موقفه هذا أبدًا.. لقد كاد يقتل راكب السيارة بحركته هذه.

قالت في سرعة:

- اعترف إذن أنه مجنون..

هز رأسه في وقار، وقال:

- كلنا مجانين..

قالت في إصرار:

- فليكن.. ولكنه أكثرنا جنونا..

نفث دخان غليونه، وقال في هدوء:

- لا أحد يدري من الأكثر جنونا، فهذا السائق بطبق نظرية العقاب، كما تحدث عنها بعض علماء وفلاسفة علم النفس.. إنه يشعر الان بالتفوق، بعد أن هزم قائد السيارة، مما دفعه إلى الانتقال إلى الخطوة التالية، ألا وهي مرحلة سيطرة المنتصر على المهزوم، ومعاقبته لأنه جرؤ على تحديه.. الجميع يفعلون هذا، دون وعي منهم، حتى الدول، فما من دولة منتصرة، لم تحاول إذلال الدولة المهزومة، وفرض إرادتها عليها.

قالت في حدة:

- ولكنه لا يمتلك الحق في معاقبة الآخرين.

قال في بساطة:

. لا أحد يمكنه إقناعه بهذا.. إنه في المركز الأقوى الأن، من وجهة نظره، ولن يقبل نقدا أو توعية، أو..

قاطعته هاتفة:

- انظر!

التفت إلى حيث تشير، والتقى حاجباه مرة أخرى، عندما رأى السيارة الانيقة، وقد أخرجها قائدها من وسط الرمال، وأطلق العنان لسرعتها، في محاولة لتجاوز الحافلة..

وقالت الراكبة في ضيق:

- مجنون آخر.. إنه يحاول الثأر لنفسه، بتجاوز الحافلة مرة أخرى على الرغم من خطورة انطلاقه بالسيارة، بكل هذه السرعة، في طريق كهذا..

غمغم جارها:

- ألم أقل لك!.. كلنا مجانين.

راقبت السيارة في قلق، وهي تسابق الحافلة، وقائد الحافلة يحاول منعها من تجاوزه بمناورات جنونية، وقالت:

- ما الذي يدفع هذا الأرستقراطي لذلك إذن؟.. إنه لا يعاني إحباطات اجتماعية أو مالية!

قال في هدوء واثق:

- هذا ما تتصورينه، ولكن الواقع هو أنه يشعر الآن بالمهانة، لأن سائق الحافلة فعل به هذا، فهو - في أعماق نفسه. يعتبر أنه واحد من قادة المجتمع، ومن أرفع فئاته، ولن يروق له أبدا أن ينافسه واحد من طبقة أقل اجتماعيا، ويهزمه على هذه الصورة المزرية..

سألته في اهتمام:

- أتظن السائق سيحاول دفعه خارج الطريق مرة أخرى؟

أجابها على الفور:

- حتما.. ولكن قائد السيارة لن يمنحه الفرصة هذه المرة.. إنه لم يعد مجرد تسابق على الطريق.. لقد صارت حربا اجتماعية غير معلنة وسيسعى كل فرد فيها إلى الفوز، مهما كان الثمن..

- ولكن هذا جنون أجاب في بساطة: - ولا حدود للجنون..

أرعبتها عبارته، فانكمشت مرة أخرى في مقعدها، وهي تتمتم:

- نعم.. لا حدود الجنون..

راقبت في ارتياع ذلك السباق الجنوني، بين الحافلة والسيارة، حتى تجاوزت السيارة الحافلة، ثم مالت في عنف، وتوقفت بعرض الطريق، معترضة طريق الحافلة..

وفي دهشة صاح سائق الحافلة:

- ماذا يفعل هذا المجنون؟

وضغط فرامل سيارته في عنف، واندفع الركاب إلى الأمام، وارتطموا بالمقاعد الأمامية، وتعالى صراخ بعضهم، وصرخت الراكبة في هلع:

- سنصطدم بالسيارة.

وأطلقت إطارات العائلة صريرا عنيفا مخيفا، وراحت تلتهب على أسفلت الطريق، حتى توقفت على قيد سنتيمترات من السيارة، وصاح السائق:

- هذا جنون للجنون.

ولكن قائد السيارة قفز خارجها في غضب، واندفع نحو الحافلة، وصاح بالسائق:

- افتح الباب..

هتف السائق في صرامة:

- ليس من حقك أن تملى أوامرك علىّ.

ولكن قائد السيارة أخرج فجأة من جيبه مسدسا، وأطلق رصاصتين منه على زجاج الحافلة، فصرخت الراكبات، وشهق

الركاب، وصاح السائق:

- هل جننت يا رجل؟!

صاح به قائد السيارة في ثورة:

- افتح الباب، وإلا استقرت الرصاصة القادمة في رأسك..

أسرع السائق يفتح باب الحافلة، فقفز قائد السيارة داخلها، وصرخ في وجهه:

- لقد حاولت قتلي..

قال السائق مرتجفا أمام المسدس:

- لم أكن أقصد هذا.. أقسم لك..

ولكن قائد السيارة صرخ:

- بل كنت تقصده.. إنك لا تستحق قيادة حافلة كهذه.

وفجأة خفض فوهة مسلسه، وأطلق رصاصتين على قدمي السائق الذي أطلق صرخة ألم هائلة، وتفجرت الدماء من قدميه المصابتين، وتعالت الصرخات، في الحافلة، في حين غادرها قائد السيارة، وعاد إلى سيارته، وانطلق بها مبتعدا، وكأنه لم يفعل شيئا، وصرخت الراكبة:

- أرأيت ما حدث؟!.. إنه جنون.. جنون مطبق!

قال جارها في توتر:

- كلنا مجانين، ولا حدود للجنون..

وظل سائق الحافلة يصرخ:

- لقد أصابني.. اطلبوا الشرطة.. استدعوا سيارة إسعاف..

وشعر جارها بالانزعاج، لهذه الصرخات المتتالية..

كان الجميع يصرخون بلا انقطاع..

وهو لا يحتمل الصراخ..

وفي حزم نهض من مقعده، وأتجه إلى حيث السائق، الذي صاح به:

- أنقذني.. استدع سيارة إسعاف.. اطلب الشرطة..

ولكنه قال في هدوء:

- لا يمكنني هذا الجميع يريدون الوصول إلى مقاصدهم، وهذا سيعطلهم كثيرا..

صرخ السائق:

- لن يذهب أحدكم إلى أي مكان، قبل وصول الشرطة والإسعاف.. إنني مصاب، وأنا قائد الحافلة.. هل تفهم؟..

كان الجميع يواصلون صراخهم المزعج، وهو يرغب في استئناف السير بسرعة، لذا فقد انحنى في هدوء، وحمل السائق، ثم اتجه به إلى باب الحافلة، وألقاه خارجها..

وهنا توقف صراخ الجميع...

توقف مع دهشتهم البالغة لما حدث، وراحوا يراقبون الرجل، الذي أغلق باب الحافلة بكل هدوء، ليحجب صراخ السائق، واتسعت عينا الراكبة في ذهول، وهي تتطلع إليه..

وفجأة صاح أحد الركاب:

- يا إلهي!.. إنني أعرف هذا الرجل.. صورته منشورة في صحف اليوم.. إنه مجنون

اتسعت عيون الجميع في ذعر، والراكب يتابع:

- نعم.. مجنون هارب من مستشفى الأمراض العقلية..

انكمشت الراكبة في مقعدها في رعب، في حين ألقى الرجل نظرة طويلة على ركاب الحافلة، ثم اتخذ مقعد السائق، ورفع عصا السرعة في هدوء..

وانطلق بالحافلة..

ولم يعترض راكب واحد.

(تمت)

ريان يافجل

50- ريان يا فجـل..

.. (صبري)!.. غير معقول!

رفع (صبري) عينيه، يتطلع في دهشة إلى ذلك الرجل، الذي أطلق الصيحة باللغة العربية، في قلب (نيويورك)، وخيل إليه لحظات أنه يشاهد وجها أمريكيا، بذلك الشعر الأسود الناعم، والعينين الزرقاوين، والقامة الفارهة، ثم لم يلبث أن استوعب الوجه وصاحبة، وهتف بدوره:

- (فوزي).. يا لها من مصادفة!

اندفعا يتصافحان في حرارة، وسط الشارع المزدحم، وانطلق نفير السيارات الغاضبة، فجذبه (فوزي) إلى الإفريز المقابل، وهو يقول:

- عامان كاملان لم أرك فيهما في (مصر)، ثم نلتقي هنا في (نيويورك).. يا لها من مصادفة بالفعل!.. كيف حالك يا رجل؟

لم يجب (صبري)، وهو يتطلع إليه، واكتفي بابتسامة باهتة، وعقله يسترجع فجأة تلك الذكريات، التي لم تفارق ذهنه قط، طوال عامين كاملين، إضاهما هنا في الغربة، يجتر الأحزان والنكسات والهزائم، ويقاتل بيديه وأسنانه ليحيا وسط المجتمع الأمريكي، في قلب (نيويورك)، حيث يحيا الأمريكيون أنفسهم في معركة طاحنة لا تنتهي، للحصول على لقمة العيش..

تذكر تلك المسابقة، التي كانت بداية كل شيء..

كان يسعى للحصول على تأشيرة السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، عندما قرأ الخبر في صحيفة يومية واسعة الانتشار..

خبر إقامة مسابقة أدبية كبرى، للأفلام الشابة، والعقول الجديدة، مع تأكيد من أحد المسئولين الكبار بالحياد التام في التحكيم، وفي اختيار الفائزين..

ومع الخبر نسي السفر والتأشيرة..

بل ونسي أن خريطة العالم تحوي قارة تحمل اسم (أمريكا)..

كان هذا حلم حياته..

أن يصبح أديبًا..

وبكل الحماس والهمة، راح يبحث عن فكرة جديدة، تصلح كقصة صغيرة، أو رواية متوسطة، يضع بها اسمه بين أسماء المتسابقين، عسى أن يفوز بالجائزة، ويلمع اسمه في عالم الأدب، و..

ولم يكتمل الحلم.. في الصباح التالي فحسب قرأ خبرا آخر، يقول: إن الأديب الكبير (فلان الفلاني)، سيشترك في المسابقة الأدبية وامتلأت نفسه بالحنق، والسخط، والحقد، والمرارة.. لماذا يقحم الأديب الكبير نفسه في مسابقة كهذه؟!.. إنه لا يحتاج، أو لم يعد يحتاج إلى الشهرة أو الثراء أو اثبات الذات..

لقد بلغ تلك المكانة، التي تؤهله للفوز بالمسابقة، اعتمادا على اسمه وسمعته فحسب..

حتى لو كانت روايته هي (ريان يا فجل) ([2]).

إنه سيربح المسابقة حتما..

سيضيع الفرصة عليه وعلى أمثاله من الشبان، الذين يحلمون بدخول عالم الأدب والشهرة، ولو من أبوابه الخلفية والضيقة..

ومع حنقه وانفعاله أمسك أوراقه وأقلامه، وراح يكتب قصة قصيرة عن كاتب كبير، أصر على أن يقف دائما حجر عثرة، في طريق المواهب الشابة الجديدة..

.. وكتب.. وكتب.. وكتب..

كل مشاعره نقلها إلى الأوراق..

كل انفعالاته تركها تتدفق عبر قلمه، حتى فرغ..

وفي الصباح الثالث، وصلته موافقة السفارة، وتأشيرة السفر، فأرسل قصته بالبريد، وأنهى إجراءاته، وقرر أن يترك (مصر) إلى الابد، وبعد أسبوع واحد كان في قلب (نيويورك)..

وهناك بدأت المتاعب الحقيقية..

نام طويلا على الأرصفة..

أكل بقايا الأطعمة..

نخر البرد عظامه كلها عظمة عظمة..

ومرة واحدة تعرض لمحاولة سرقة، ولكن السارق لم يجد لديه ما يستحق، فمنحه دولارا، وانصرف عنه إلى ضحية أخرى..

ثم عثر على عمل..

كان يجمع القمامة من منتصف الليل إلى الصباح التالي، ثم ينام في مخزن قديم، من الصباح إلى المساء، ليبدأ دورة البحث والعمل من جديد..

وطوال عامين كاملين، راح يتنقل من مهنة إلى أخرى أكثر سخافة، حتى استقر به الحال أخيرا في محطة بنزين كبيرة، حيث كان أجره يكفيه بالكاد، ولكنه لا يستطيع التخلي عنه، حتى يجد عملا أفضل..

وطوال العامين قطع كل صلة له بـ (مصر)..

لم يحاول حتى الاختلاط بالمصريين..

كان ينسلخ من جلده كله..

من انتمائه..

من ذكرياته..

ولكن ها هو ذا (فوزي) صديق الجامعة يظهر فجأة، ويعيد إليه ذكرياته كلها..

أين أنت الآن؟.

انتزعه (فوزي) من ذكرياته بالسؤال، فالتفت إليه بنفس النظرة الخاوية، وهو يجيب:

- هنا.. أعمل في محطة بنزين.

هتف (فوزي):

- محطة بنزين؟!.. من يصدق هذا؟!.. (صبري علوان) يعمل في محطة بنزين؟!.. يا لسخرية القدر!

قال في عصبية:

- أية سخرية؟.. أنت تعلم أن مؤهلنا غير مطلوب هنا، ولا يمكننا معادلته، ولم أكن ناجحا في (مصر)، و.

قاطعه (فوزي):

- أنت؟!.. أنت لم تكن ناجحا؟!.. كيف يا رجل؟!.. ألم تطالع صحيفة مصرية واحدة منذ عامين؟.

حدق (صبري) في وجهه بدهشة، وقال:

- ماذا تعني؟

هتف (فوزي):

. لقد ظلت الصحف تكتب عنك يوميا، طوال شهر كامل، وكل صحفي في (مصر) يبحث عنك، والجميع يقولون إنك موهبة خارقة..

قال ذاهلا:

- أنا؟!.. أنا يبحث عنى الجميع؟

زفر (فوزي) في أسف، وقال:

- كان هذا منذ عامين، أما الآن فلم يعد هناك من يذكرك.. يا للخسارة!.. كانت فرصة عمرك يا (صبري).

سأله وهو يكاد يسقط أمامه:

- لماذا؟.. ماذا حدث بالضبط؟

ضرب (فوزي) كفا بكف، وهو يقول:

- أتعني أنك حتى لم تعرف!.. يا للعجب!

ثم مال نحوه، مستطردا في عمق:

- لقد فزت يا رجل.. فزت في مسابقة القصة القصيرة، وفجرت قصتك (ريان يا فجل) حماس النقاد والكتاب.. فزت حتى على الكاتب الكبير نفسه..

وسقط فكه السفلي في ذهول..

وهوي قلبه بين قدميه..

إذن فقد أتت الفرصة وذهبت..

ولأول مرة، منذ وصل إلى (نيويورك)، شعر (صبري) بوحدة عجيبة، وبأن ناطحات السحاب الشهيرة تزداد ارتفاعا، وهو يزداد بينها ضالة وانكماشا..

وأخذ (فوزي) يتحدث، ويتحدث، ولكن (صبري) لم يعد يسمعه..

لقد ابتلعته المدينة المزدحمة..

وسحقته الوحدة، وهو يصرخ في أعماقه..

ريان.. ريان يا فجل

(تمت)

الزائر

51- الزائـــر..

هطلت الأمطار بشدة، في تلك الليلة، وراحت القطرات الثقيلة تضرب زجاج نافذة حجرة مكتب (نجيب)، بصوت رتيب مستمر زاد من توتره، وهو يتطلع إلى ساعته، التي تشير عقاربها إلى الثانية بعد منتصف الليل، ويقلب أوراق ملف ضخم بين يديه، يحمل اسم قضية ضخمة، يحاول البحث عن الفاعل فيها دون جدوى، منذ خمسة أيام..

كانت جريمة قتل، راح ضحيتها رجل أعمال شهير وزوجته، وسرق القاتل كل أوراق الرجل، وكل نقود ومجوهرات الزوجة.

دون أن يترك خلفه أدنى أثر، ودون أن يشير إليه دليل واحد و..

و (نجيب) هو المسئول عن التحقيق في هذه القضية، وعن البحث عن الفاعل المجهول..

ويا لها من قضية!...

لم يغمض له جفن منذ خمسة أيام، ولم ينعم بالراحة لحظة واحدة، أو يغادر مكتبه إلى منزله وزوجته وعائلته..

صارت هذه القضية هي شغله الشاغل..

وفي تلك الليلة بالذات، ومع هطول الأمطار، أصبحت أعصابه أشبه بوتر مشدود، فوق نيران مستعرة، وصار واثقا من أنه، لو لم يتوصل إلى حل القضية، فسيصاب بالجنون حتما..

ثم سمع تلك الطرقات الهادئة على باب الحجرة..

رفع عينيه ليطلب من الطارق الدخول، وامتلأت نفسه بدهشة عارمة، عندما رآه داخل الحجرة بالفعل، يقف أمام الباب، في

معطف قديم رث، وبشعره الأشيب، وشاربه الكث، وملامحه التي تضفي عليه هيبة ووقارا، فاعتدل في مقعده، وقال في حدة:

- من أنت؟.. وكيف دخلت إلى هنا؟

قال الرجل في هدوء:

- أنا (أحمد برهان).. مفتش المباحث بالمديرية..

كان هذا جوابا للسؤالين، فلن يعترض ذلك الجندي أمام مكتبه طريق مفتش مباحث المديرية، إذا ما أراد الدخول إليه، ثم أن الاسم يبدو مألوفا، مما جعله ينهض من خلف مكتبه، ويمد يده لمصافحة الرجل، قائلا:

- مرحبا بك في مكتبي يا سيادة المفتش

لم يبد أن المفتش قد لاحظ يده الممدودة إليه، فقد انشغل بنفض قطرات المطر عن معطفه، وهو يتجه إلى المقعد المقابل للمكتب، قائلا:

- سمعت أنك المسئول عن قضية القتل الأخيرة..

أعاد (نجيب) يده إلى جواره، وضايقه أن المفتش لم يصافحه، ولكنه تجاوز هذه النقطة، وربت على الملف الضخم، قائلا:

- إنني أحاول دراستها منذ خمسة أيام، ولم أتوصل إلى شيء..

أومأ المفتش برأسه متفهما، وقال:

- إنها ليست بالقضية السهلة..

ثم داعب شاربه الأبيض الضخم، الذي يشبه شوارب ملوك القرن الماضي، قبل أن يضيف:

- ولكن التوصل إلى الحل ليس مستحيلا..

شبك (نجيب) أصابع كفيه أمام وجهه، وقال:

- ألديك فكرة محدودة يا سيادة المفتش؟

ابتسم المفتش ابتسامة باهتة، وقال:

- ربما..

وداعب شاربه مرة أخرى في بطء وعناية، قبل أن يتابع:

- على الرغم مما تبدو عليه القضية من غموض، إلا أن هذا الغموض نفسه قد يكون الحل..

اعتدل (نجيب)، وقال في اهتمام

- حقا؟!.. وكيف يحدث هذا؟

رفع المفتش سبابته أمام وجهه، وقال:

- القاتل - أي قاتل - مهما بلغ من الحنكة والشراسة والذكاء لابد له من الوقوع في خطأ واحد، يرشدنا حتما إليه.. إنها قاعدة العمل في المباحث يا فتى.. ومهمتنا هي البحث عن ذلك الخطأ، الذي لم ينتبه إليه القاتل.. وفي هذه القضية كان القاتل حريصا للغاية، فلم يترك خلفه أية أدلة، أو بصمات، أو علامات تقود إليه، ولكنه في الوقت ذاته قتل رجل الأعمال وزوجته في منزلهما، وبعد انصراف الخدم والسائق، وهذا يعني أنه شخص ينتمي إليهما، أو يعرف الكثير عنهما على الأقل..

قال (نجيب) في حسم:

- خطأ.. لقد كسر القاتل قفل الباب، حتى يمكنه الدخول، ولو أنه ينتمي إليهما كما تتصور، لما فعل هذا.

ابتسم المفتش، قائلا:

- بل هذا هو الخطأ الذي وقع فيه، فجريمة القتل تمت في الحادية عشرة، ورجل الأعمال وزوجته لم يكونا قد ارتديا ثياب النوم بعد.. وليس من المنطقي أن يكسر القاتل قفل الباب، ويقتحم الشقة، في وجود رجل الأعمال وزوجته مستيقظين، ورجل الأعمال يمتلك مسدسا مرخصا للدفاع عن نفسه، وكان يمكنه استخدامه، لو سمع من يكسر بابه..

التقى حاجبا (نجيب)، وهو يقول في حماس:

- هذا صحيح.. كيف لم أنتبه إلى هذه النقطة؟.. هذا يقلب كل شيء رأسا على عقب.. القاتل إذن شخص يعرفه رجل الأعمال وزوجته، دخل شقتهما بشكل شرعي بسيط، ثم قتلهما، وسرق الأوراق والأموال والمجوهرات، وبعدها كسر قفل الشقة، ليبدو الأمر كجريمة قتل وسرقة..

قال المفتش:

- هناك نقطة أخرى تتعلق بالثياب، فليس من الطبيعي أن يرتدي الاثنان ثيابهما، وقد بلغت الساعة الحادية عشرة مساء، وانصرف الجميع، إلا لو كانا ينتظران زائرا. هتف (نجيب):

- هذا صحيح.. ومن المحتم أن هذا الزائر وثيق الصلة بهما، إلى الحد الذي يدفعه لزيارتهما في هذا الساعة المتأخرة، ولكنه ليس أحد أقاربهما المقربين في الوقت ذاته، وإلا ما ارتديا ثيابا رسمية لاستقباله..

بدا الارتياح على وجه المفتش، وقال:

- عظيم.. هذا يحصر دائرة المشتبه فيهم إذن في ثلاثة.. أليس كذلك؟

- بلى.. سأخبرك أسماءهم..

لوح المفتش بيده، وقال:

- إنني أحفظها عن ظهر قلب، ولكن دعنا نختصرها إلى اسم واحد أو اسمين على الأكثر، وهذا يقفز بنا إلى نقطة جديدة..

صحيح أن القاتل حطم رتاج المكتب ودولاب حجرة النوم، ليسرق المستندات والأموال والمجوهرات، ولكنه لم يعبث بالشقة، أو يحطم شيئا آخر.. إذن فقد كان يعرف موضع كل هذه الأشياء جيدا، وهذا يعني أنه حتما..

قفز (نجيب) صائحا:

- (نذير).. صديق رجل الأعمال، وشريكه في المصنع الجديد.. نعم.. إنه القاتل.. الأن اتضح كل شيء.

ارتسمت على شفتي المفتش ابتسامة ارتياح كبيرة، في حين اختطف (نجيب) سماعة الهاتف، وقال:

- (أيمن).. إنه أنا.. (نجيب).. أتحدث إليك من مكتبي.. لقد توصلت إلى القاتل.. نعم.. أنا واثق تمام الثقة من هذا.. استخرج أمرا بإلقاء القبض عليه على الفور.. إنه (نذير).. نعم.. (نذير عثمان).

أعاد سماعة الهاتف إلى موضعها، وهو يرفع عينيه إلى حيث يجلس المفتش، هاتفًا:

- لست أدري كيف اشكرك يا سيدي، على..

بتر العبارة بغتة، وهو يحدق في المقعد في حيرة، ثم أدار عينيه في الحجرة كلها في سرعة، بحثا عن المفتش، قبل أن يقفز من خلف مكتبه، ويفتح باب الحجرة، هاتفا في جندي الحراسة:

- أين الزائر؟

انتفض الجندي، قائلا في توتر:

- أي زائر يا سيدي؟

قال في حدة:

- مفتش مباحث المديرية، الذي كان في مكتبي.. أين ذهب؟

فغر الجندي فاه مشدوها، وهو يقول:

- مفتش ماذا؟!.. أن أحذا لم يدخل مكتبك منذ تسلمت نوبة الحراسة هذه، في الثامنة مساء يا سيدي..

اتسعت عيناه في دهشة، وهم بقول شيء ما، ولكنه لسبب ما أطبق شفتيه، وعاد إلى مكتبه، وأغلق بابه في وجه الجندي، الذي لم يفارقه ذهوله بعد، وعبر المكتب في خطوات سريعة، إلى الجدار الأيسر، وأدني عينيه من صورة صفراء قديمة، تحتل موضعها داخل إطار متهالك، منذ تسلم عمله في هذا المكتب، من شهرين كاملين، وطالعه في منتصفها وجه مفتش المباحث، وهو يبتسم ابتسامته الهادئة بشعره الأشيب وشاربه الكث، وحوله عدد من ضباط وجنود الشرطة تعلو رءوسهم الطرابيش القديمة، وأسفل الصورة شريط من الورق يحمل كلمات قديمة مصفرة تقول:

- (أحمد بك برهان).. مفتش مباحث المديرية، عند حصوله على لقب (الباكوية)، لبراعته الملحوظة في حل القضايا

الغامضة.. ثم تاريخ التقاط الصورة، عام ١٩٣٣ م..

واتسعت عينا (نجيب)، وهو يتراجع، ويسير كالمسحور نحو مكتبه، ويلقى نفسه على مقعده، ثم يتطلع مشدوها إلى ملف قضية رجل الأعمال، قبل أن يدير عينيه في بطء إلى الصورة القديمة، ويختلط صوته بصوت قطرات المطر، التي تواصل ضربها للنافذة، وهو يقول:

- أشكرك يا سيادة المفتش.. أشكرك كثيرا..

وفي هذه المرة بدا له صوت قطرات المطر ممتعا..

ممتعا للغاية..

(تمت)

مذكرات شخص

52- مذكرات شخص..

أنجبتني أمي..

أظن أن هذه هي البداية الطبيعية، بالنسبة لتاريخ كل شخص، على الرغم من أنني أذكر جيدا الكثير من الأحداث، التي حدثت قبل مولدي، عندما كنت أرقد منعما هادي البال، في رحم أمي، لا أفكر في غذاء أو كساء، أو مسكن، وكل شيء يصلني بانتظام ودقة وجودة..

آه.. يا لها من أيام!

ولكن دعونا ننسى - أو نتناسى - تلك الأيام السعيدة، قبل أن تملأ الحسرة قلوبنا، ونتحدث عن أيامنا في الدنيا..

كل ما أذكره عن البداية هو أن وصولي إلى الدنيا لم يرق لى كثيرا، فقد انفجرت باكيا، وحاولت أن أركل من حولي، وأضربهم، معترضا على إخراجي من منزلي، الذي عشت فيه تسعة شهور كاملة، ولكن الجميع تجاهلوا اعتراضي تماما، وراحوا يتبادلون التهنئة في سعادة، وكأن رأيي هذا لا قيمة له، وافترضت إحدى الزائرات أن بكائي يعود إلى عامل الجوع، وحاولت الاعتراض على هذا أيضا، ولكنهم أغلقوا فمي بمصدر غذاء، قاومته في البداية، لأعلن أن هذا ليس سبب الرفض، ولكن إصرارهم جعلني أستسلم، وأرضع غذائي في صمت.. وأدركت أن الوقت لم يحن بعد للاعتراض، ولا لأن تتكون لدى شخصية مستقلة، فأثرت الصمت. انتظارا للحظة المناسبة..

وطوال الأشهر التالية لم يستمع إلى أحد، كلما بكيت معترضا، أو محاولا إبداء رأيي، وأنا أشعر بالغيظ، لأنني لا أستطيع التعبير

عن موقفي، وبدا من الواضح أنني لن أمتلك تلك الشخصية المستقلة، التي أحلم بها. إلا عندما أتعلم الكلام وانتظرت..

ومع مرور الوقت، رحت أكتسب القدرة على الكلام، فأنطق كلمات منفردة، أو مجتمعة، وأصبحت هذه الكلمات واضحة، واستطعت أن أصنع جملا مفهومة، كان الجميع يصفقون سعادة بها في البداية، حتى أنني تصورت أن لحظة إبداء الرأي قد أتت، ولكن..

فجأة أصبح كلامي سخيفا وثقيلا بالنسبة لهم، وكلما أردت توضيح وجهة نظر، أو مناقشة أمر ما، صرخت أمي تطالبني بالصمت، وثار والدي؛ لأنه مشغول، وضربني شقيقي الأكبر، أو يتطلع إلى الجميع بسخرية، ويقولون في استخفاف:

- كلام عيال.

وابتلعت غضبي، ولذت بالصمت مرة أخرى، وأنا أتساءل: لماذا كانت سعادتهم بتعلمي الكلام، ما داموا يرفضون الاستماع إلىّ دائما..

والتحقت بالدراسة، ولم يتغير الأمر كثيرا، بل زاد عدد الذين يعترضون على حديثي، ويسفهون آرائي، فلم يعد من المسموح أن أتحدث في الفصل، أو بعد الفصل، أو في أثناء عمل الواجبات المدرسية، أو حتى بعد الانتهاء منها..

لم يعد لي رأي خاص على الإطلاق..

إنهم يضعون المقررات الدراسية، ثم يعذلونها، ويضيفون إليها بعد بدء الدراسة، ثم يحذفون ما أضافوه قبل منتصف العام، ويغيرون المقررات كلها قبل الامتحانات بأيام، ثم يحذفون عاما من سنوات دراستي الابتدائية، ويضيفونه إلى الثانوية العامة

ويقسمون الطلاب إلى أقسام علمية وأدبية، ثم يقسمون طلاب المواد العلمية إلى قسم العلوم وآخر للرياضيات، وفجأة يعلنون أن هذا كله خطأ، ويبدأون من البداية، دون أن يأخذ أحدهم رأيي، ولو مرة واحدة فيما يفعلونه بي...

ولكن لكل شيء نهاية..

وانتهت مرحلة دراستي الثانوية، وحصلت على شهادتها بتفوق، وأدركت أن مرحلة شخصيتي المستقلة قد حانت، فأعلنت بكل تصميم أنني سألتحق بكلية الحقوق، على الرغم من المجموع المرتفع، الذي حصلت عليه؛ لأنني أرغب في أن أصبح محاميا..

ولكن النيران تشتعل في منزلي...

أبي يصرخ في وجهي، ويتهمني بالغباء، وأمي تلطم خديها في حصرة، وتولول ناعية سوء حظها، وجدي ينهار، ويصاب بأزمة قلبية، وشقيقي الأكبر يقترح بكل جدية إيداعي مستشفى الأمراض العقلية، لأنني أرفض الالتحاق بكلية الطب، التي يلتحق بها أصحاب المجاميع المرتفعة عادة..

ولا يصبح أمامي سوى الاستسلام..

ودخول كلية الطب..

وفي الكلية أدركت منذ البداية أنها ليست - بالتأكيد – مرحلة تكوين شخصية قوية، أو مستقلة، أو أية شخصية على الإطلاق..

فالكل يطالبني بحفظ المقررات عن ظهر قلب، دون مناقشة أو استفسار، بغض النظر عن الفهم والتفكير، حتى أنجح في الامتحان، والا..

ولأنني خبير في هذا الأسلوب، فقد نجحت في كل سنوات الدراسة بكيلة الطب، وحصلت على شهادة البكالوريوس بدرجة جيد، وتصورت أن هذا هو آخر المطاف، وأنني سأصبح أخيرا طبيبا مرموقا، يشار إليه بالبنان، ويقف له الجميع احتراما، وله رأي مستقل، وشخصية متميزة، و...

ولكن هذا لم يتم..

لقد أصبحت مجرد طبيب امتياز، لا يشعر، أو يأبه به أي مخلوق في المستشفى، حتى الممرضات والمرضى، والكل يعتبرني مصدر خطر، ينبغي تفاديه، وتجاهل أفكاره وآرائه تماما.

وتنتهي فترة الامتياز، وتبدأ مرحلة التكليف الإجباري، فأتقدم بطلب لنقلي إلى أقاصي الصعيد، متصورا أنني سأحظى هناك بالشخصية المستقلة، والرأي المحترم، نظرا لندرة الأطباء الشديدة هناك..

ولكن حتى المسئولين في الوزارة يتجاهلون رغبتي، وينقلونني إلى الإسكندرية، التي تكتظ بالأطباء، ولست أدري لماذا فعلوا وفي (الإسكندرية) ألتحق بمستشفى ضخم، شديد الازدحام بالمرضى والأطباء، ويتجاهلني الجميع، ولا أجد الوقت أو المكان لإثبات شخصيتي، ولكنني ألتقي هناك بفتاة لطيفة، يخفق لها قلبي، فأنسى الطب والأطباء، وأتقرب إليها، وأطلب منها مقابلة والدها، ولكنها تخبرني أن هذا لن يفيد، وأن الخطوة العملية هي مقابلة صاحبة الكلمة الأخيرة في البيت.. وأقابل الأم، التي تنظر إلى من أسفل، وتقلب شفتيها في امتعاض، وتهز رأسها في حسرة، ثم تسألني عن راتبي، ودخلي الشهري، ومؤهلاتي، فألتقط نفسا عميقا، وأجيب أسئلتها..

وما أن تسمع الأم الجواب، حتى تصرخ في ذعر، وتضرب صدرها بكفها في ارتياع، وتسقط فاقدة الوعي، فأسرع بإنعاشها، وزوجها يبتسم ابتسامة خبيثة متشفية، حتى استعادت وعيها، فرسم الجزع واللهفة على ملامحه، وتظاهر بالخوف الشديد عليها..

وبدأت جولة جديدة من المباحثات، استطعت إقناع الأم خلالها أن أبي سوف يساعدني ماديا، وأنني سأفتتح (بإذن الله) عيادة طبية؛ للحصول على مزيد من الدخل، حتى وافقت الأم في حسرة؛ لأن ابنتها توافق على الارتباط بي..

وتمت الخطبة في حفل عائلي بسيط، اكتفت أمي وحماتي فيه بتبادل بعض عبارات التبكيت والتسخيف الملتوية، دون أن تتشابكا بالأيدي، احتراما للمناسبة..

وبعد كفاح مرير، للحصول على شقة صغيرة، ودفع الشبكة والمهر وخلافه، حان موعد الزفاف، وأبلغتني حماتي أنها ترغب في عقد مؤتمر قمة مصغر، لمناقشة تفاصيل حفل الزفاف، فأذهب إليها صاغرا مستسلما، لتعلى على شروطها، كأية دولة منتصرة، حتى نبلغ ثوب الزفاف، فتطالبني بأن يكون مرتفع الثمن للغاية، حتى يتجاوز تكلفة حفل الزفاف كله..

ولأنني غبي، ولم أستوعب القاعدة بعد، فأنا أسألها في سذاجة وبراءة عن سبب إنفاق كل هذا المبلغ؛ لشراء ثوب زفاف، لن يتم ارتداؤه سوى مرة واحدة.. وهنا أيضا تصرخ حماتي، وتمصمص شفتيها، وتتحسر على ابنتها، ثم تبدأ في ذكر ثمن ثوب زفاف ابنة عمها، وابنة خالتها، وابنة الجيران، وحتى ابنة (سبارتاكوس) محرر العبيد..

وأستسلم كالمعتاد..

ويتم الزفاف..

ومنذ اللحظة الأولى أردت أن أذبح القط كما يقولون، ولكن زوجتي، التي بدت رقيقة طوال فترة الخطوبة، ذبحت قبيلة من الأسود، وأغرقتني بدمها، وأثبتت لي أن قلب القدرة على فوهتها، يجعل الأم مثالا لابنتها..

وبدأت أحلامي في الشخصية المستقلة تنكمش وتتلاشى..

وأنجبنا ابننا الأول..

واختارت له زوجتي اسم جدها، على الرغم من أنني أردت منحه اسم جدي أنا..

ثم قررت حماتي أن تقيم حفل (السبوع).

وسألت في سذاجة:

- هل (السبوع) عادة إسلامية؟

وجاء الجواب على هيئة نظرة صارمة من حماتي، وشهقة من زوجتي، و..

وكان حفل (السبوع) كبيرا، التهم معظم مدخراتي كالمعتاد..

ومضت السنوات على النمط نفسه، وأصبحت فكرة الشخصية المستقلة مجرد ذكريات، استعادها ذهني وأنا على فراش الموت، فابتسمت، وبدأت أضحك بصوت مرتفع، جعل الورثة يتطلعون إليّ في دهشة، حتى لفظت أنفاسي الأخيرة بينهم، وهم يناقشون فكرة توزيع الثروة بالتساوي، ويحسبون الأرقام بالآلة الحاسبة، دون أن ينتبه أحدهم الموتى، قبل ربع ساعة على الأقل، و...

وماذا تنتظرون بعد كل هذا؟..

لقد انتهت رحلة البحث عن شخصية مستقلة، و...
وانتهت المذكرات..

(تمت)

ويمضى الزمن

53- لدواعي الأمن..

انتفخت أوداج عم (إسماعيل)، حارس بوابة المستشفى، وبدا سعيدا فخورا مزهوا، وهو يختال بزي الحراسة الجديد، الذي منحته إياه إدارة المستشفى، ضمن التجديدات الشاملة، التي يجريها المدير الجديد، وارتسمت ابتسامة واسعة على وجه عم (اسماعيل)، وهو يفتل شاربه، أمام المرأة الكبيرة الجديدة، في مدخل الأطباء، وخيل إليه أنه صار أكثر رجال الدنيا وسامة، في ذلك الزي الأزرق، ذي الشرائط الحمراء، والأزرار الصفراء اللامعة، والقبعة التي تشبه ما يرتديه رجال الشرطة الرسمية، وشدّ قامته في اعتداد، يكاد يهتف:

- انهدي يا أرض، ما عليك مثلي..

لولا خشيته من سخرية عمال المستشفى، وعباراتهم اللاذعة، وهم الذين عهدوه دائما في معطف رث، كان يحتل منذ قديم الأزل مكانا ما، وسط المعاطف البيضاء، ولم يمكنهم هضمه بعد، في هذا الزي الرسمي الجديد..

وكان عم (إسماعيل) يعتبر هذا الزي بمثابة ترقية، خاصة وأن المدير الجديد قد اختاره شخصيا، ليقف أمام الباب الزجاجي، الذي يعبر منه هو كل صباح، للذهاب إلى مكتبه..

وفي زهو وحماس، وقف عم (إسماعيل) أمام الباب الزجاجي، وأخذ يفتل شاربيه، ويرمق الداخلين والخارجين، من الباب الكبير، بنظرة صارمة قاسية، وكأنما يحذرهم من مجرد الاقتراب، من باب المدير..

كل هذا على الرغم من أن عمل عم (إسماعيل) لا يكاد يذكر أنه فقط يسرع لفتح باب سيارة المدير عند وصوله، ويحييه تحية شبه عسكرية، وهو يدق كعبيه بعضهما ببعض في قوة ثم يعدو ليفتح الباب للمدير، ويجلس بعدها على مقعده المعتاد، حتى تحين لحظة انصراف المدير، فيؤدي له تحية مماثلة، ويعدو ليفتح باب السيارة..

كل هذا والمدير لا يكلف نفسه مجرد النظر إليه، أو حتى رد تحيته..

إنه يتجاهله تماما، وكأنما لا وجود له..

ولكن عم (إسماعيل) سعيد..

يكفيه أنه الوحيد، في المبنى كله، الذي يلتقي بالمدير الجديد مرتين يوميا، دون أن يطلب موعدًا سابقا، مثلما يفعل أي أخصائي قديم بالمستشفى، إذا ما أراد مقابلة البك المدير، لعرض أمر يخص العمل..

ثم كانت الطامة الكبرى..

ففي ذات يوم، وبعد وصول المدير بساعة كاملة، ظهر رجل في أواخر الأربعينات من عمره، يستند إلى كتف ابنته، ويقول بصوت لاهث متهدج:

- أسرعي.. أسرع يا (خديجة)، قبل أن ينصرف..

رمقهما (إسماعيل بنظرته الصارمة بشكل روتيني، ثم أشاح بوجهه عنهما، متصورا أنهما سيعبران مدخل الأطباء، كما يفعل بعض المرضى، من ذوي القربى.. ولكنهما لم يفعلا..

لقد اتجها مباشرة إلى الباب الزجاجي، وقال الكهل لابنته:

- هيا.. ساعديني على صعود السلم..

وهنا هب عم (إسماعيل) واقفا، فصاح بالرجل في صرامة:

- رويدك رويدك.. إلى أين؟

أجابه الرجل في دهشة:

- سأدخل إلى المستشفى

قال عم (إسماعيل) في صرامة أكثر:

- الدخول من الباب الأخر.

بدت الحيرة على وجهي الكهل وابنته، وسألته الابنة في تردد:

- ألا يقود هذا الباب إلى داخل المستشفى؟

أجابها عم (إسماعيل)

- بلي.. ولكنه ليس لأمثالكما.

جرحت الكلمة، الكهل، فقال في حدة:

- ماذا تعني بأمثالنا؟.. نحن قوم محترمون..

قال عم (إسماعيل) في غلظة:

- محترمون أو غير محترمين.. ليس هذا من شأني.. الدخول من الباب الأخر

قال الكهل في عناد:

- لن أدخل إلا من هذا الباب..

هتف عم (إسماعيل):

- على جثتي..

تصادف مروري في هذه اللحظة، وجذب ذلك الحوار انتباهي فاتجهت إلى حيث يقف الثلاثة، وقلت:

- ماذا هناك يا عم (إسماعيل)؟

أجابني بلهجة تحمل الكثير من الاستنكار والاستهجان لموقف الكهل:

- هذا يريد دخول المستشفى من هنا..

لم أدرك ما يعنيه هذا، فقلت في حيرة:

- وماذا في هذا؟.. الباب يقود إلى ممر الأطباء، ثم إلى العيادات الخارجية، وال...

بترت عبارتي فجأة، عندما رأيت الفزع والاستنكار والاستهجان على وجهه، وغمغمت في حذر شديد:

- أليس كذلك؟

صاح عم (إسماعيل)، وهو يلوح بيده في حدة:

- إنه باب البك المدير..

هتف الكهل في غضب وعناد:

- هذا البك المدير لا يمتلك المستشفى.. إنه موظف مثلنا، وليس له الحق في قصر استخدام هذا الباب على دخوله وخروجه..

رمقه عم (إسماعيل) بنظرة صارمة غاضبة، وهو يقول:

- ليس هذا من شأنك.

وشعرت ابنة الكهل بالقلق والتوتر، فجذبت والدها من ذراعه في رفق، وهي تقول:

- هيا يا أبي.. سندخل من الباب الآخر.

جذب الكهل ذراعه من يدها، وهو يقول في صلابة وعناد:

- لن أدخل إلا من هذا الباب.. أنا رجل مريض بالقلب، ومن حقي دخول المستشفى من أي باب، ما دام يقود في النهاية إلى عيادات الأطباء.. ثم إن أحد الأطباء ينتظر قدومي، فأنا خاله.

قال عم (إسماعيل) في صرامة:

- قلت لن تدخل من هذا الباب..

أردت تهدئة الموقف، فقلت لعم (اسماعيل) في رفق:

- وماذا يضير لو دخل إلى المستشفى من هنا؟، إنه مريض، وليس على المريض حرج.

صاح عم (إسماعيل):

- مستحيل أن يدخل من باب البك المدير.

قلت في رفق:

- ولماذا مستحيل؟

عقد عم (اسماعيل) حاجبيه، وفتل شاربه لحظة، قبل أن يرشده ذهنه إلى جواب، بدا له معقولا، فهتف به قائلا:

- لدواعي الأمن.

كدت أنفجر ضاحكا، عند سماعي هذا الجواب، ولكنني تماسكت، حتى لا يغضب عم (إسماعيل)، وقلت بابتسامة كبيرة:

- أي أمن يا عم (إسماعيل).. إنه رجل مسالم مريض، وأؤكد لك أنه لا ينوي اغتيال المدير.

كانت العبارة واضحة السخرية، وعلى الرغم من هذا، فقد قال عم (إسماعيل) في شك، وهو يرفع أحد حاجبيه، على طريقة (فريد شوقي):

- ومن أدراك؟

وهنا انفجر الكهل غاضبا، وهتف:

- أنت رجل مخرف مجنون.. ابتعد عن طريقي.. سأدخل من هذا الباب.

اعترضه عم (إسماعيل) في عنف، صائحا:

- على جثتي.

دفعه الكهل في غضب، وهو يهتف:

- فليكن.. سأدخله على جثتك

صرخت الابنة مذعورة، وحاولت أنا إنقاذ الموقف، ولكن (إسماعيل) كان أكثرنا سرعة، فقد قفز إلى الأمام، ولكم الكهل في انفه ثم في صدره، وسقط الكهل..

سقط يلهث في سرعة، واحتقن وجهه، وجحظت عيناه، وفهمت أنا الأعراض على الفور، بحكم عملي، فصحت:

- إنها نوبة قلبية..

صرخت الابنة، وأسرعت أنا أحمل المريض، وأهرع به إلى المستشفى، وإلى حجرة العناية المركزة..

أما عم (اسماعيل)، فلم يطرف له جفن..

فقط شيعنا بنظراته الصارمة، وهو يفتل شاربه، ثم عاد يجلس على مقعده في هدوء، في انتظار خروج السيد المدير، وهو يتمتم

في صلابة وعناد:

- يا للسخرية!.. يريد أن يدخل من باب المدير.. ماذا أفعل أنا هنا إذن؟!..

ولفظ الكهل أنفاسه الأخيرة، في حجرة العناية المركزة، بعد أقل من ساعة واحدة..

وكان المدير الجديد هو أول من عرف..

ليس بحكم منصبه، ولكن بحكم كونه ابن شقيقة الكهل كان يريد مفاجأة خاله بمنصبه الجديد، ولكن خاله فاجأه بالوفاة..

وفي اليوم التالي، لم يعد عم (إسماعيل) يجلس على ذلك المقعد، أمام حجرة المدير..

لقد احتل محله شاب وسيم أنيق، يتعامل مع الجميع بأسلوب مهذب محبوب..

أما عم (إسماعيل)، فقد أصبح خفيرًا للمخازن.

وذهبت الحلة الرسمية..

ولكن عم (إسماعيل) صار أكثر عنقا وعصبية وشراسة، مع من يتعاملون معه..

ولديه حجة جاهزة في كل مرة..

هذا ليس لخلاف شخصي، ولكنها الدواعي..

دواعي الأمن..

(تمت)

لو علمتم الغيب

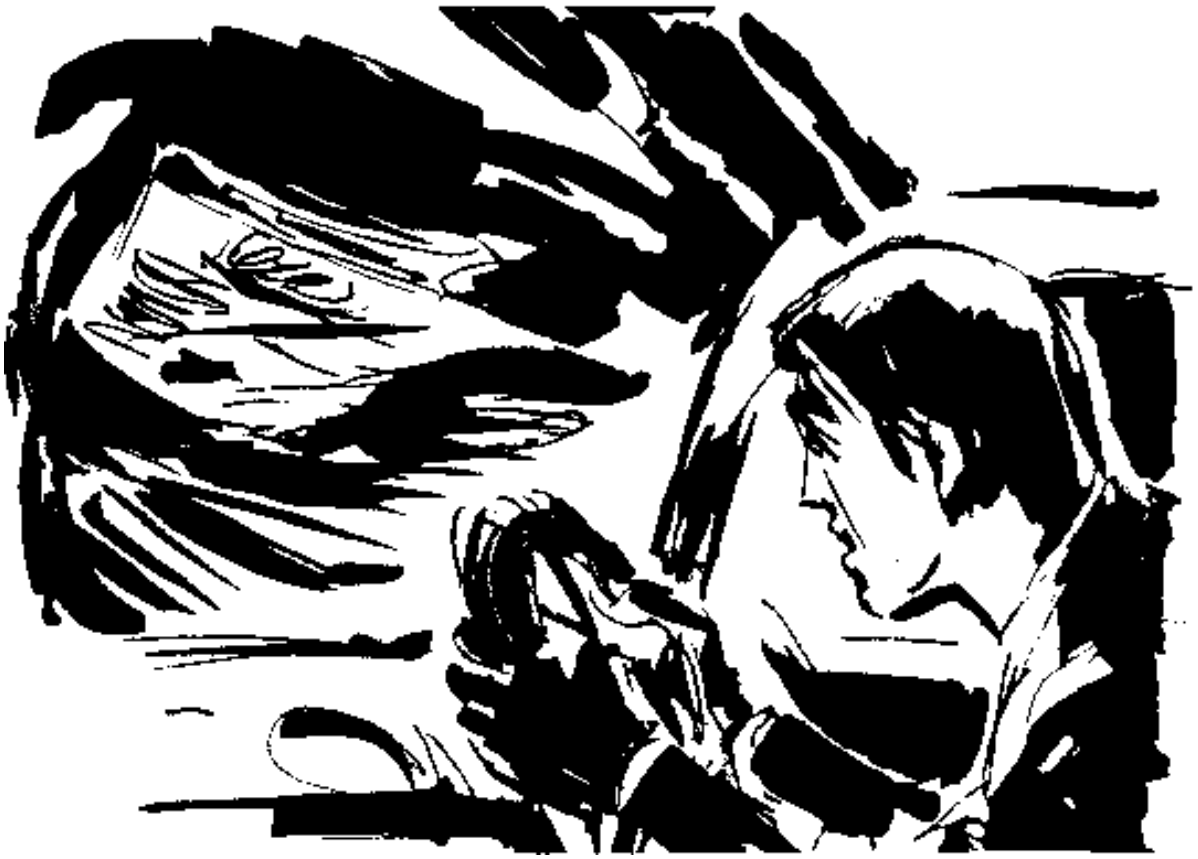

54- لو علمتم الغيب..

انطلق (حسن غنيم) بسيارته، في ذلك الطريق المظلم، الذي يربط قريته بالطريق الرئيسي، وهو يهمهم بكلمات ساخطة غاضبة , ويعقد حاجبيه في توتر وسخط..

كان قد خسر منذ قليل، واحدة من الصفقات، التي بني أحلامه وآماله عليها..

ولم تكن هذه أول مرة يخسر فيها صفقة..

ولا أول مرة يغضب على هذا النحو..

كان بطبعه شخصية ساخطة، ناقمة، متوترة، تكره كل ما يمكن أن يمسها بأدنى سوء، حتى ولو كان هذا السوء من وجهة نظرها فحسب..

وفي حنق، هتف (حسن):

- لماذا لا أصبح مليونيرا؟!.. لماذا لا أصل إلى ما وصل إليه غيري؟

لم يكد ينطق عبارته هذه، حتى أضيئت الدنيا كلها أمامه بغتة..

في البداية تصور أنها سيارة قادمة، أو شيء انفجر، ثم لم يلبث أن انتبه إلى فجوة عجيبة، تكونت في الهواء..

وخلفها كان المشهد مذهلا..

كان هناك طريق ممهد، وآلات طائرة، وأشياء أخرى مبهرة، لم يفهم ماهيتها، وإن أدرك على الفور أنها نتاج تكنولوجيا مذهلة، لم تبلغها حتى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها..

وسط كل هذا، كان هناك رجل..

رجل يرتدي ثيابا عجيبة، ويمسك بيده شيئا يشبه الجريدة..

وفي ذعر، حدق كل من (حسن) والرجل في وجه الآخر، قبل أن يضغط (حسن) فرامل سيارته، بكل ما يملك من قوة، ويتراجع الرجل في حدة ورعب..

ثم دوي ما يشبه الانفجار.. انفجار مكتوم، تردد في أذني (حسن)، قبل أن تندفع عشرات الأشياء، لترتطم بمشيمة السيارة، ثم يهدأ كل شيء، ويعود الظلام إلى المكان ولثوان، ظل (حسن) داخل سيارته، ذاهل العينين، شاحب الوجه، ثم لم يلبث أن هتف:

- ما هذا بالضبط؟

استجمع شجاعته، وغادر السيارة، وتطلع أمامه في توتر، حيث كانت الفجوة، ثم التفت إلى مقدمة سيارته وزجاجها، وقد تناثرت فوقها أشياء شتى، نصفها بالغ الغرابة بالنسبة إليه، ولكن أكثر ما جذب انتباهه تلك الجريدة.

وفي حذر مد يده يلتقطها..

كانت جريدة الأهرام، ولكنها مطبوعة على شيء يشبه الكاوتشوك، له ملمس رخو مريح، وكل الصور والرسوم بها مجسمة، مطبوعة بأسلوب عجيب، حتى لتبدو حية متحركة..

حتى الإعلانات كانت مدهشة..

وبالذات إعلانات العطور..

كل إعلان كان يفوح برائحة العطر المُعلن عنه..

وبسرعة، قلب (حسن) الجريدة، ليقرأ تاريخ صدورها..

ثم شهق في انبهار..

كان تاريخ صدور الجريدة هو الثالث من نوفمبر، عام ألفين وثلاثين...

وهتف (حسن)، بكل الانفعال في أعماقه..

- رباه!.. لقد خشيت مجرد التفكير في هذا، ولكنها حقيقة..

حقيقة تشبه ما نشاهده في أفلام الخيال العلمي.. لقد انفتحت فجوة بيني وبين المستقبل.. فجوة قذفت كل هذه الأشياء بين يدي، ثم تلاشت..

كان جسده يرتجف في انفعال وانبهار، ولكنه أسرع يجمع كل تلك الأشياء التي قذفتها فجوة المستقبل، وانطلقت إلى منزله في (القاهرة)..

وفي حجرته، راح يلتهم تلك الجريدة التهاما..

قرأ كل الأخبار، والمقالات.. وحتى الإعلانات..

وتضاعف انبهاره أكثر وأكثر..

كان يجوب المستقبل، دون أن يبارح مكانه..

وبدا له هذا المستقبل مبهرا، حتى أنه هتف:

- يا للروعة!.. لن يصدق مخلوق واحد ما حدث لي.. إنها معجزة..

قلب الصفحة الأخيرة للجريدة المستقبلية، وتطلع في اهتمام إلى صورة لشيخ وقور، بدت له مألوفة إلى حد كبير، فتساءل عن اسم صاحبها، و..

وفجأة، وثب من مكانه، وهو يطلق شهقة قوية..

وأسفل الصورة، قرأ بحروف مضيئة عبارة تقول:

- توفي أمس المليونير المعروف (حسن غنيم)، وسيقام العزاء في قصره، في (مصر الجديدة)..

إنه هو..

إنه يقرأ خبر وفاته..

ارتجف جسده، وألقي الجريدة جانبا، وراح يلهث في انفعال..

ليس من السهل أبدا أن يقرأ المرء خبر وفاته، حتى ولو كانت هذه الوفاة ستحدث بعد أكثر من خمسة وثلاثين عاما..

ثم

فجأة. انتبه إلى الأمور الأخرى..

لقد وصفته الجريدة بأنه مليونير معروف، يمتلك قصرا في (مصر الجديدة)..

لقد نجح إذن..

أو سينجح..

لقد عرف هذا الآن..

راح يطلق صيحات ظفر وسعادة، وهو يقرأ الخبر مرات ومرات، ثم لم يلبث أن ألقي الجريدة جانبا، وألقى جسده على فراشه، وابتسامة واسعة تلتهم وجهه كله..

إنه سيصبح مليونيرا..

هكذا يقول المستقبل..

والأعظم أنه يعرف بالتحديد تاريخ وفاته..

الثالث من نوفمبر، عام ألفين وثلاثين..

إنه أول مخلوق في العالم، يعرف تاريخ وفاته بالتحديد..

اعتدل جالسا، وقال في حزم:

- لا خوف بعد اليوم إذن.. الموت بعيد عني تماما.. بعيد بأكثر من خمسة وثلاثين عاما..

وفي اليوم التالي، بدأ (حسن) صفقاته الناجحة..

كان واثقا من النتائج، بعد ما قرأه في جريدة المستقبل..

ولأول مرة، ربع صفقة كبيرة..

ثم ثانية..

وثالثة..

ورابعة..

وطوال خمسة أعوام، لم يخسر (حسن) صفقة واحدة، وصار ثريا ومعروفا..

ثم اشترى ذلك القصر في (مصر الجديدة)..

اشتراه وأقام فيه مع أشقائه وأمه..

ومع الجريدة..

لم يتخلص منها قط، بل كان يختلي بنفسه في حجرته أحيانا، ويقرؤها في سعادة، وكأنما لم يطالعها قط من قبل..

وامتلأت نفسه بالثقة..

إنه سيموت مليونيرا ومعروفا..

وفي موعد محدود..

وهكذا أصبح (حسن غنيم) شديد الجرأة والشجاعة..

وذات يوم، كان يقود سيارته الجديدة، وإلى جواره خطيبته، التي شعرت بالخوف من تلك السرعة الفائقة، التي يقود بها، فقالت:

- (حسن).. أرجوك.. لا تقد السيارة هكذا..

أطلق ضحكة عالية، وهتف:

- لا تخافي.. لن نموت الآن.

قالت في ضراعة:

. أرجوك يا (حسن)..

قهقه ضاحكا مرة أخرى، وزاد من سرعة السيارة أكثر وأكثر..

بلا خوف..

وفجأة، ظهرت تلك السيارة الضخمة..

وصرخت خطيبته:

- احترس يا (حسن).

وحاول هو أن يضغط فرامل السيارة..

ولكن الاصطدام حدث..

وأظلم كل شيء من حوله..

لم يدر كم ظل فاقد الوعي، ولكنه استعاد وعيه مع الام رهيبة تسري في جسده كله، فحاول أن يتحرك، أو يضع يده على عظامه المتألمة، ولكنه عجز عن هذا تماما..

ثم سمع صوتا إلى جواره، يقول:

- خطيبته لقيت مصرعها على الفور، أما هو فما يزال على قيد الحياة..

كانت الألآم عنيفة، ولكنه أدرك أن الذي يتحدث هو طبيبه الخاص، وحاول أن يشرح له الامه وعذابه، ولكنه لم يستطع النطق. في حين سمع صوت شقيقه يقول:

- وكيف حاله الآن؟

بدا له صوت طبيبه مفعما بالأسى، وهو يقول:

- إنه أشبه بالموتى، فهو في غيبوبة تامة، لا يستطيع الحركة أو النطق..

سأله شفيقه في هلع:

- وهل تعتقد أنه سيشفى؟

أجابه الطبيب في مرارة:

- إنه حالة مجهولة، لم يشف منها شخص قط.. الأرجح أنه سيقضى ما بقي له من العمر. في هذه الحالة..

صرخ (حسن):

- ولكنني حي.. أشعر وأسمع.. أنا أسمعكما.

ولكن صرخته هذه لم تتجاوز أعماقه..

لم يسمعه أحدهما..

أو حتى يشعر به..

وتصاعدت الآلام..

واشتد العذاب..

وهتف (حسن) لنفسه:

- ألن ينتهي هذا العذاب أبدًا؟.. رباه!.. كم أتمنى الموت، لينتهي العذاب والآلام..

لم يكد يفكر في هذا، حتى انطلقت صرخة في أعماقه..

صرخة تموج بالرعب والهلع..

لا.. لن ينتهي العذاب..

هو وحده يعلم هذا..

أمامه ثلاثون عاما أخرى من العذاب..

ثلاثون عاما حتى يموت..

وانهارت أعماقه في يأس..

لقد فقد حتى الأمل..

الأمل في أن ينتهي عذابه بالموت..

وللمرة الثالثة، ترددت في أعماقه صرخة مريرة..

ليتني لم أعلم..

ليتني لم أعلم..

وظلت هذه الصرخة تتردد، وتضاعف العذاب، طوال ثلاثين عاما أخرى...

وبلا توقف.

(تمت)

بالـــدم ..

دوى الانفجار، في الضفة الشرقية لقناة السويس)، وتردد صداه في الضفة الغربية، فدوت معه هتافات الجنود:

- الله أكبر..

وانتفض جسد ضابط الكتيبة، وهو يلوح بقبضته، قائلا في حماس:

- الأولاد نجحوا.. نسفوا مخزن الذخيرة.

كان هذا في أوّج حرب الاستنزاف، والحماس يملأ قلوب الجميع، فارتفعت رءوس جنود الكتيبة في لهفة، وعيونهم تمسح سطح القناة، حتى لمحوا ذلك الزورق، الذي يعبرها عائدا إليهم، فهتف بعضهم:

- إنهم يعودون.

وكما لو كانت هذه إشارة البدء، انطلقت عشرات المدافع من الضفة الغربية، لتنفجر قنابلها على الضفة الشرقية؛ لحماية رجالنا، وتغطية انسحابهم، وتأمين عبورهم، حتى بلغوا الضفة الغربية للقناة، فاستقبلهم رفاقهم استقبال الأبطال..

كانوا أربعة من جنود الكوماندوز المصريين، وبصحبتهم أسيران إسرائيليان، أحدهما مصاب بجرح بالغ، وحلته العسكرية الإسرائيلية غارقة بدمه.

وفي توتر، سألهم الضابط:

- أين (حامد)؟

أجابه الجندي (حسن) في اقتضاب:

- استشهد.

هبط الحزن فجأة على قلوب الجميع، وترقرق الدمع في عيون بعضهم، والضابط يسأل في خفوت حزين:

- وأين جثته؟

أجابه (حسن):

- لم تعد هناك جثة.

كاد يكتفي بهذا القول، لولا أن أطل التساؤل في عيون الجميع، فأضاف في حزم مقتضب:

- لقد نسف نفسه مع المخزن.

اختنقت حلوقهم بالحزن، وقال الضابط:

- قدموا تقريركم، وانقلوا الأسيرين إلى الحجز، واتصلوا بالقيادة لتحديد الموقف.

تم تنفيذ الأوامر في دقائق معدودة، ونقل الأسير المصاب إلى الوحدة الطبية لإسعافه، وبذل الطبيب هناك قصارى جهده، قبل أن يقول الضابط وجنوده:

- لا فائدة.. الإسرائيلي سيموت حتما، ما لم ننقل له لترا من الدم، من فصيلة (أ) موجب، ولا توجد لدينا أية دماء هنا..

تعالى صياح بعض الجنود:

- دعوه يموت.. فليدفع ثمن ما أصاب الشهيد (حامد).

إلا أن الجندي (حسن) اخترق الصفوف، وهو يقول في حزم:

- أنا أمنحه دمي.

لم يكد ينطقها، حتى بدا وكأن قنبلة من الصمت قد انفجرت في المكان، فأحالته إلى مقبرة ساكنة، والكل يحدقون في وجه (حسن) بشيء من الذهول والاستنكار، قبل أن يردد الضابط في خفوت، وكأنه لا يصدق ما سمعه:

- تمنحه دمك؟!

كرر (حسن) في حزم أكثر:

- أنا أمنحه دمي.. فصيلة دمي (أ) موجبة.. وسأمنحه لترًا من دمي.

ساد الصمت لحظات أخرى، ثم تفجرت ثورة الغضب في الحناجر.

- أنت!! أنت تمنحه دمك يا (حسن)!!.

- تمنح الإسرائيلي دمك؟!

- هل جننت يا رجل... لست أصدق نفسي.

- (حسن) هذا مخبول بحق..

ولم ينبس (حسن) ببنت شفة لقد ظل صامتا، والحزم يكسو وجهه كله، على الرغم من ثورة رفاقه، حتى سأله الطبيب:

- أأنت مستعد لهذا حقا؟!

ولم يُجب (حسن)، وإنما مدّ ذراعه للطبيب، معلنا موافقته وعزمه، فلم يكن من الرجل إلا أن اصطحبه إلى داخل العيادة، وغرس إبرة نقل الدم في ذراعه، وبدأ ينقل لترا من دمه إلى عروق الإسرائيلي.

ولم تستغرق العملية سوى ساعة واحدة، انتعش بعدها جسد الإسرائيلي، وتجاوز مرحلة الخطر، في حين بدا (حسن) شاحبًا

ممتقعا، فربَّت الطبيب على كتفه، وهو يقول:

- انتهى الأمر يا بطل.. تناول كوبين كبيرين من عصير الفاكهة، وستصبح على ما يرام بإذن الله..

ولكن الطبيب لم يكن مصيبا في قوله هذا..

الأمر لم ينته أبدا..

لقد بدأ.

فمنذ غادر (حسن) العيادة، أشاح عنه الجميع بوجوههم..

زملاء خيمته..

زملاء الكتيبة..

وحتى الضابط والصول وضباط الصف..

كلهم قرروا أن ينبذوه وأن يتجاهلوه تماما..

لا أحد يصافحه، أو يشاركه طعامه، أو حتى يلقي عليه تحية الصباح..

الكل قاطعوه تماما، عقابا له على منحة دمه للإسرائيلي..

والعجيب أنه احتمل كل هذا في صبر عجيب..

احتمله وكأنه كان يتوقعه..

لقد راح يأكل وحده، ويعمل وحده، في استسلام عجيب، دون أن يشكو أو يتبرّم، وكان هذا قدره، الذي يتحتم عليه قبوله صاغرا، ودون مقاومة..

ولكن هذا لم يرق لهم..

وفي عناد، تمادوا في عقابه، فصاروا يستفزونه، ويشاغبونه، ويتحرشون به في كل مناسبة، إلا أنه تجاهل هذا تماما، وواصل معاملتهم بمنتهى الهدوء والأدب والصبر..

واستفزهم هذا الهدوء أكثر وأكثر، حتى أنهم استغلوا وصول أحد القادة، للتفتيش على الكتيبة، فانتخبوا من بينهم واحدا، تقدم للقائد قائلا:

- سيادة القائد.. الكتيبة لديها مطلب واحد، اجتمعت كلها على الرغبة في تنفيذه، وتتقدم إليك برجاء لتنفيذ رغبتهم..

سأله القائد في قلق:

- أي مطلب هذا؟

أجابه مندوب الكتيبة:

- لا نريد الجندي (حسن) بين صفوفنا.

أدهش هذا المطلب القائد، ولكنه وعد مندوب الكتيبة ببحث الأمر، واجتمع مع الضابط، وسأله عن هذا، فشرح له الضابط الموقف كله، وختمه قائلا:

- ولم يحتمل الجنود بالطبع فكرة أن يتبرع (حسن) بلتر من دمه لجندي إسرائيلي، في نفس الوقت الذي فقدوا فيه (حامد)، الذي ضحي بحياته لتنجح العملية.

أومأ القائد برأسه متفهما، وهو يقول:

- أمر طبيعي.

ثم استغرق في التفكير لحظات، قبل أن يستطرد في حزم:

- اجمع الكتيبة كلها.. أريد أن أنفذ الأمر بطريقتي.

ولم تمض دقائق معدودة، حتى كانت كتيبة الصاعقة كلها تقف أمام القائد، وتؤدى له التحية، وبعد الإجراءات العسكرية المعتادة، شدَّ القائد قامته، وواجه الرجال جميعًا بقوله:

- لقد تلقيت اليوم مطلبا جماعيا من الكتيبة، بخصوص نقل أحد أفرادها إلى كتيبة أخرى، وقبل تنفيذ هذا النقل، أريد من هذا الفرد أن يواجه الجميع، ويشرح مبررات فعله... الجندي (حسن).. تقدم الصفوف.

أطاع (حسن) الأمر، وتقدم ثلاث خطوات إلى الأمام، واتخذ وقفة عسكرية صارمة، فواجهة القائد بنظرة نارية، وهو يسأله:

- لماذا تبرعت للإسرائيلي بدمك يا (حسن)؟

صمت (حسن) لحظة، ثم أجاب بصوت قوي:

- من أجل الوطن يا فندم.

سرت همهمة غاضبة مستنكرة، أسكتتها النظرة الصارمة المطلة من عيني القائد، قبل أن يسأله:

- ما الذي يعنيه جوابك هذا يا (حسن)؟

أجابه (حسن):

- في أثناء التدريبات، علمونا أنه من الضروري أن نسعى لإحضار أسرى، في كل عملية من عمليات حرب الاستنزاف، لأن كل أسير نحصل عليه من الإسرائيليين، يساوي أحد أسرانا لديهم، عندما تتم عملية تبادل الأسرى.. وعندما علمت أن ذلك الإسرائيلي الأسير سيموت، ما لم يحصل على الدم، خشيت أن نخسر بموته أحد أسرانا، فمنحت دمي له، من أجل من سنستبدله به من أسرانا..

ثم ازدرد لعابه، وشذ قامته، وسط الصمت الرهيب، الذي أطبق على المكان، قبل أن يضيف في حزم:

- باختصار.. كنت أشعر بأنني أمنح دمى لأسيرنا، وليس لأسيرهم.

قالها، وعاد إلى وقفته العسكرية الصارمة الصامتة، والعيون كلها تتطلع إليه في انبهار وخجل، والعروق يسري فيها شعور بالندم وتأنيب الضمير.

ثم قطع القائد حبل الصمت..

وأصدر قراره..

ومنذ ذلك اليوم، لم يعد (حسن) جنديا في الكتيبة لقد أصبح عريفًا، تزين ذراعه تلك الشرائط، التي حصل عليها بترقية استثنائية، و...

وبالدم.

(تمت)

الزهرة ..

56- الزهرة..

«صباح الخير يا زهرتي الجميلة..»..

ارتسمت أعذب ابتسامة في الوجود، على شفتي (نجلاء)، وهي تهمس بتحية الصباح لتلك الزهرة الحمراء المنفردة، وسط حشد من النباتات الخضراء، التي تملا شرفة منزلها، والتقطت أصابعها الرقيقة رشاشة المياه الصغيرة، وأمالتها لتتناثر منها قطرات الماء العذب، وتروي الزهرة الجميلة، التي استقبلت الماء ببتلات متفتحة، ومياسم متراقصة، وكأنها تنتشي بحمام الصباح، وتزهو بجمالها ورونقها..

كانت زهرة من نوع خاص، يندر أن ينمو ويتفتح في إصيص زرع صغير، بعد أن اعتاد أن يحتل مكانة متميزة، في قلب الحدائق الغناء..

وربما كان هذا مبعث فخر (نجلاء)..

لقد حذرها الكثيرون، وهي تبتاع بذرة الزهرة، من أنها لن تنمو أبدا في شرفة منزلها.. حتى والدها، المهندس الزراعي، أبدى تشغله في أن يحدث هذا..

ولكن (نجلاء) أصرّت..

ومنذ اليوم الأول، زرعت بذرتها، وراحت ترويها بحبها ودلالها وعنايتها، قبل حتى أن تمنحها ماء الحياة..

وانتظرت..

انتظرت بشوق يفوق سنوات عمرها العشرين، وهي تراقب سطح التربة في لهفة، وتواصل عنايتها ورعايتها للزهرة، التي لم تعلن

عن نموها بعد..

ثم كان ذلك اليوم..

كانت تنشر قطرات المطر على التربة، عندما لاحظت النبتة الخضراء الصغيرة، التي برزت منها..

ولا أحد يمكنه أن يصف فرحتها يومئذ..

لقد صرخت من فرط سعادتها، وراحت تقفز في الشرفة، وتصفق بكفيها في جذل فرح، كما لو أنها عادت طفلة في العاشرة من عمرها، لم تنتبه إلى مبالغتها في إظهار انفعالها، إلا عندما وقع بصرها فجأة على (شريف)، ابن الجيران، وهو يراقبها من نافذة حجرته، ويبتسم..

لحظتها ارتجف جسدها كله، وجرت على أطراف أصابعها إلى حجرتها، وأغلقتها خلفها، وتركت قلبها يخفق بكل قوته.....

كيف نسيت أنه هناك؟!... كيف لم تنتبه إلى أن اليوم يوافق إجازته الأسبوعية، فأفرطت في فرحتها، وتركت صوتها يبلغ أذنيه؟!.. كيف نسيت أنه غارق في حبها، مثلما هي غارقة في حبه؟!.. صحيح أنهما لم يلتقيا قط، ولم يفصح أحدهما للآخر عن مكنون قلبه، إلا أن كلا منهما لا يداخله أدنى شك في شعور الآخر نحوه...

يكفي ما يتبادلاه من نظرات، وما يختلسانه من لحظات، ليستشف كل منهما ما يحمله له الآخر..

ثم إنه من السهل أن يفهم كل منهما الآخر..

إنهما جاران منذ الطفولة، والأسرتان تتبادلان التهنئة وعبارات المجاملة، في الأعياد والمناسبات، وإن لم تتصل تلك العلاقة

قط، إلى الحد الذي يحدث فيه تزاور من الجانبين..

وهي تعرف أخلاق (شريف) جيدا..

كل من في الشارع يعرفها..

إنه مثال للشاب الرصين المتزن المحترم، الذي أنهى سنوات دراسته بتفوق معقول، ثم التحق بالعمل في واحدة من شركات القطاع الخاص، التي قدّرت كفاءته، ووضعته في مكانة مناسبة، لم يكن من الممكن أن يبلغها، في شركات القطاع العام، قبل عشرين عاما على الأقل..

وهي تعتقد أنه يستحق هذا..

دائما تعتقد أنه يستحق كل خير..

هذا لأنها تهتم به كثيرا أو بمعنى أدق، تهيم به كثيرا.. بل ربما اختارت تلك الشرفة بالذات، لتزرع فيها زهرتها، حتى تجد حجة تطل بها على حجرته، في المبنى المجاور..

ولقد أحسنت الاختيار بالفعل..

الزهرة أيضا ارتاحت للشرفة، وقررت أن تتخلى عن حذرها التقليدي، وأن تنمو داخل ذلك الأصيص الصغير في الشرفة.. وبسرعة، تحولت النبتة الصغيرة إلى نبات قوي، برز من قمته برعم كبير، لم يلبث أن استدار وتكور، وأعلن عن قرب مولد الزهرة الجميلة..

وفي نفس اليوم، الذي تقدم فيه (شريف) لخطبتها، وقرأ فيه والدها الفاتحة مع والده، تفتحت الزهرة، وكأنها تشاركها فرحتها بزغرودة صامتة جميلة..

وكانت الفرحة فرحتين كما يقولون..

في الصباح تحقق حلمها، وتفتحت زهرتها.. وفي المساء خفق قلبها، وارتبطت بحبيبها (شريف)..

أخيرا أمكنها أن تعرفه عن قرب، ولقد غير هذا مشاعرها كثيرا..

كانت قبل هذا تحية، أما الآن فهي تعشقه..

إنه أروع مما قالوه عنه..

إنسان مهذب متفتح، رقيق، حازم، عاطفي، متفهم... باختصار.. إنه حلم جميل لكل فتاة في الدنيا..

وعلى الرغم من حبها وعشقها له، لم تنس (نجلاء) زهرتها قط..

كانت تشعر بالفخر والسعادة؛ لأنها أول من نجحت في إقناع هذه الزهرة بأن تتفتح في شرفة منزلية..

كل زميلاتها حاولن، وفشلن..

كلهن بذلن غاية جهدهن، لإنبات زهرة مثلها، ولكنهن منين بالفشل الذريع..

وهذا يزيدها زهوا.

إنها ترى نظرات الحسد في عيونهن، وهن يشاهدن زهرتها، وتسمع كلمات الحسرة التي لم ينطقن بها، وهن يتأملنها..

المنطقة كلها أصبحت تحفظ ذلك المشهد.. مشهد (نجلاء)، وهي تروى زهرتها في الصباح، في حنان بالغ، وتهمس لها بعبارات رقيقة، كما لو كانت ابنتها..

الجميع صاروا يعرفون كم ترتبط بهذه الزهرة..

وكم تحبها..

حتى الزهرة نفسها، بدت وكأنها عرفت هذا ولاحظته..

لقد نمت بأوراق حمراء عريضة وكأنها تعلن سعادتها بالتواجد في هذا المكان..

وفي حفل خطبتها، لم تغادر (نجلاء) المنزل، إلا بعد أن طبعت قبلة حانية على ساق زهرتها الجميلة..

وعندما عادت من الحفل، وهي تحمل دبلة (شريف) في إصبعها، جلست تروي كل شيء للزهرة..

حكت لها عن أناقة (شريف) ووسامته، وحنانه الجارف، ولمسته الرقيقة، وهو يضع الدبلة في إصبعها..

كانت تتحدث إليها، كما لو أنها صديقة عزيزة، شاركتها أسعد لحظات حياتها..

والعجيب أن الزهرة لم تنغلق أبدا مع لمساتها، على الرغم من أن هذا النوع من الزهور لا يتفتح أبدا في مكان غريب..

ولا بين أصابع غريبة..

لقد نما نوع الألفة بينهما، جعل كلا منهما تألف الأخرى، وتأمن لها، وتشاركها مشاعرها وأسرارها..

وفي ذلك اليوم، وبينما كانت تروى زهرتها، جاء (شريف) لزيارتها فجأة..

لم يكن يحمل تلك الابتسامة الرقيقة كعادته، وإنما كانت عيناه غارقتين في شيء من الحزن، ارتجف له قلبها، وانتقلت ارتجافته إلى لسانها، وهي تسأله عما به؟

وبرقته وحنانه، أخبرها أن الشركة انتدبته لمراجعة حسابات فرعها في الخليج العربي، وأنه سيسافر إلى هناك بعد ثلاث ساعات، ولن يعود قبل ثلاثة أشهر كاملة..

وخفق قلبها، وهو يهمس في أذنها بأنه سيشتاق إليها كثيرا، وسيتعذب لفراقها أكثر وأكثر..

لم تكن تدري كيف يمكنها العيش بدونه، كل هذه الفترة..

لم تدر كيف لن تراه كل صباح، وهو يذهب إلى عمله..

كيف ستحتمل غيابه الطويل؟

وسالت دموعها، وهي تسأله ألا ينساها..

وبدون أن تدري، امتدت يدها تقطف الزهرة، وتناوله إياها، وقطرات من دموعها ترويها بمزيج من الشوق واللهفة والحب...

والعجيب أن الزهرة لم تغلق أوراقها بين أصابعه، لقد ظلت متفتحة، تفوح برائحة الحب..

وحتى يومنا هذا.

(تمت)

الولـد ..

57- قانون البقاء..

- اجمع كل الكتيبة..

انطلق نداء القائد، وبلغ أذان الجميع، في الثانية إلا عشر دقائق، في يوم السادس من أكتوبر، عام ١٩٧٣ م، فتراصت الصفوف بسرعة، وأطل الاهتمام والفضول من العيون، مع تلك النبرة الحماسية، التي زغردت في صوت القائد، وهو يقول:

- أبشروا يا رجال، الآن فقط يمكنني أن أبلغكم أن الأوامر قد صدرت بعبور القناة، وبدء الحرب الشاملة، ضد العدو الإسرائيلي..

خفقت القلوب في عنف، مع الكلمات التي طال الاشتياق إليها، ولكن قلب الجندي (شعبان) بالذات كانت خفقاته تختلف..

لم تكن مجرد خفقات قلب نبض طويلا بالرغبة في الثأر من العدو، واستعادة الكرامة المهدورة في آخر الحروب، عام 1967م، كغيرة من قلوب بقية الجنود والضباط في الكتيبة..

لقد كانت ذكريات تستيقظ..

ذكريات اندفنت طويلا في هذا القلب، وغرقت في أعماق شعور قوي بالمرارة والألم، لم يفصح عنه لسان صاحبه قط..

ومع كلمات القائد الحماسية، انطلق عقل (شعبان) يستعيد تلك الذكريات..

ذكريات نكسة يونيو 1967..

أيامها كان جنديا بسيطا حديث التجنيد، تم نقله بعد تدريبات بسيطة، إلى وحدة من الوحدات المتمركزة في (سيناء)، على

مسافة قريبة من قناة (السويس)..

وقبل أن يستقر به المقام، اندلعت الحرب..

بل قل: حدثت الكارثة..

لم تكن حربا بالمعنى المفهوم، فقد استيقظ يوم الخامس من يونيو، واشترك مع زملائه في طابور الصباح كالمعتاد، ثم راحوا يزاولون أعمالهم الروتينية..

وظهرت تلك الطائرات في الأفق..

طائرات برزت فجأة، على ارتفاع منخفض، وانقضت على الجميع بغتة، وراحت تمطرهم بنيران وقذائف لا تنقطع..

يومها جرى إلى سلاحه، وراح يطلق نيرانه نحو تلك الطائرات متصورا أن رصاصاته البسيطة قادرة على إسقاطها وتحطيمها..

ومن حوله، تساقط رفاقه وقادته، وتعالى دوي الانفجارات، وصواريخ العدو تنسف الثكنات والمعدات..

وكما بدأ القتال فجأة، انتهى فجأة..

ألقت طائرات العدو حمولتها، ونسفت ما نسفت، وقتلت من قتلت، ثم واصلت طريقها وكأن شيئا لم يكن، مخلفة وراءها نهرا من الدماء الزكية، لترتوي بها رمال (سيناء) الطاهرة..

وفي جزع وارتياع، راح يلهث باحثا عن رفاقه..

وكانت الصدمة أعنف مما تصور..

الجميع لقوا مصرعهم..

تقريبا الجميع..

لم يتبق سواه، وسوى ثلاثة من الجنود وضابط واحد، اشتركوا جميعا في ذلك الشعور المؤلم بالهزيمة والعار..

وعندما أعلنت القيادة السياسية الانسحاب، تحولت مشاعرهم إلى دموع غزيرة، أغرقت وجوههم وقلوبهم، وهم يتراجعون منسحبين، دون خطة مسبقة، أو أمل في النجاة..

وفي الطريق، سقط الضابط الجريح، ولفظ أنفاسه الأخيرة، ثم لحق به جندي آخر، وبقي (شعبان) وحده مع رفيقيه، وقد التهبت أقدامهم، وتقطعت أنفاسهم، وبدا لهم وكأن الطريق إلى القناة صار ضربًا من المحال، لن يمكنهم بلوغه أبدا..

ثم ظهرت تلك الفرقة الإسرائيلية..

مجرد سيارة جيب، تحمل على جانبها نجمة (داود)، وفي داخلها أربعة من الجنود الإسرائيليين، ملأ ذلك النصر السريع قلوبهم بالزهو والخيلاء، فخرجوا لاصطياد المنسحبين، وكأنهم في رحلة صيد طريفة..

ولن يمكنه أن ينسى ما حدث قط..

الإسرائيليون أطلقوا النار على أحد رفيقيه بلا رحمة، ودون أن يبدي مقاومة، وانطلقت ضحكاتهم كالوحوش الكاسرة، التي ظفرت بفريسة سهلة، ونهشتها في لهفة واستمتاع..

والتهبت الدماء في عروقه، ودماء رفيقه تروي رمال (سيناء) وأدار فوهة مدفعه إلى السيارة الإسرائيلية، وأطلق النار..

كان الوحيد الذي أصرّ على الاحتفاظ بسلاحه طوال الوقت..

ولكن ذخيرته لم تحتمل القتال طويلا..

لقد فقدت ذخيرة مدفعه بعد ثلاث أو أربع طلقات..

وانطلقت من الجيب الإسرائيلية ضحكة مجلجلة..

ضحكة جندي إسرائيلي غليظ الملامح، كث الحاجبين، ما زالتها ملامحه محفورة في ذاكرته، حتى هذه اللحظة..

وفي سخرية مزقت نياط قلبه، هتف ذلك الإسرائيلي:

- هؤلاء المصريون لا يتعلمون أبدا

ثم وثبت من السيارة، وصوب إليه مدفعه، وهو يستطرد في جذل وحشي:

- حاول أن تفهم أيها المصري.. إننا نطبق قانون البقاء البسيط.. ذاك القانون الذي يؤكد أن البقاء للأقوى..

ومال نحوه، مستطردا في غلظة متشفية:

- ونحن الأقوى أيها المصري.. نحن وخلفنا (أمريكا) كلها.. أكثر قوة منكم..

لحظتها اشتعلت كرامته، وانجرح كبرياؤه. فانقض على الإسرائيلي بقبضته، على الرغم من المدفع المصوبة إليه، ولكن الإسرائيليين الأربعة هاجموه معا، وهزمته كثرتهم، وهم يتكالبون عليه، وضحكات ذلك الاسرائيلي تخترق أذنيه، وتجري منهما إلى قلبه، فتدمية، وتحرقه بنيران باردة مخيفة..

وأسره الإسرائيليون..

أسروه باستهتار عجيب، حتى أنهم لم يهتموا كثيرا بدراسته، أو حتى بتقييده، وكأنما جمعوا جيشا من الأسمري، ولم يعد يعنيهم الاحتفاظ بالمزيد..

وربما كان هذا ما ساعده على الفرار حينذاك

إنه لا يذكر كيف فعل هذا بالضبط، ولكنه يذكر جيدا أنه كان يجري بكل قوته، نحو الشاطئ الشرقي للقناة، وكلمات الإسرائيلي تدوي في أذنيه..

- والبقاء للأقوى أيها المصري.. ونحن الأكثر قوة.

وعبر القناة..

عبرها سابحا، من الضفة الشرقية إلى الغربية، وقد بدا له أن المياه التي تضربها ذراعاه، هي فيض دموعه، التي سكبها المًا ومرارة وحزنا..

ولم ينس ذلك الإسرائيلي..

لم ينسه قط..

- استعدوا يا رجال.. الآن سنعبر القناة..

تفجر حماسه، وقفز إلى ذروته، عندما خرجت زوارق العبور..

وحمل سلاحه، وحانت اللحظة التي انتظرها ست سنوات كاملة..

لحظة العبور من الغرب إلى الشرق..

لحظة العودة..

والثأر.

وبحماس الدنيا كله، وثب داخل زورق العبور..

وعبَر..

كانت القنابل تدري من حوله، ممتزجة بهدير الطائرات، التي تشق القناة، وتنهال بنيرانها على خط (بارليف)، في نفس الوقت الذي تنهال فيه عليه، وعلى رفاقه، نيران العدو، فتطيح بزوارق

كاملة، بكل ما فيها ومن فيها، وتصبغ مياه القناة بدماء شهداء مصر الأبرار..

تماما كما حدث في عام 1967 م..

ولكنه كان يعلم أن كل شيء يختلف.. يختلف كثيرا..

فالدماء تبذل هذه المرة في سبيل الثأر..

في سبيل الكرامة..

تُبذل لاستعادة الأرض المسلوبة، والكرامة المجروحة..

إنها حتما تختلف..

وهذا الاختلاف هو الذي جعله يقاتل كالوحوش، ويتصدى للنيران بصدر مفتوح، ويتسلق خط (بارليف) في حماس مثير، ويقتحمه في استبسال مدهش، أثار الأعداء قبل الأصدقاء..

كان يشعر أنه لا يعبر مجرد مانع عسكري قوي، بل يعبر شعورا بالمرارة والهزيمة، لازمه طويلا...

طويلا جدا..

يعبر لحظة عار، عذبه مذاقها ست سنوات كاملة.. لقد اقتحم خط (بارليف)، ليقتحم معه مأساة حياته كلها..

وعندما قاومتهم تلك النقطة الحصينة طويلا، كان هو أول من تطوع لمهاجمتها على نحو انتحاري، فتسلل إلى فتحاتها، وألقي منها قنابله..

ودوت الانفجارات تعلن الانتصار..

الانتصار على آخر نقطة حصينة في المنطقة التي أسندت لكتيبته مهمة الاستيلاء عليها من خط (بارليف)..

وبينما كان أحد رفاقه يغرس العلم المصري على الموقع، اقتحم هو النقاط المستسلمة، ليحمي الأسرى والمصابين من العدو..

وفجأة، وقعت عيناه عليه.. ذلك الإسرائيلي الضخم الوقح..

لم يعد جنديا كما كان لقد صار ضابطا في جيش (إسرائيل)..

هذا كل ما تغير فيه..

أعني في مظهره الخارجي..

فهناك، في أعماقه، تغير الشيء الكثير..

إنه لم يعد يضحك..

لم تعد ضحكاته المجلجلة الساخرة تدوي في المكان..

لقد تحطمت غطرسته، وانهزم غروره، واندحر زهوه القديم بنفسه..

ان النظرة الذليلة، المطلة من عينيه، كانت تشفّ عن هذا في وضوح..

وفي لحظة، استعاد ذهن (شعبان) ذكريات سنوات مضت..

استعاد مشهد زميله، وهو يلقي مصرعه..

لحظة الهزيمة..

والعار..

والمرارة..

كل ذكرياتك اجتمعت، عند وجه هذا الإسرائيلي..

وفي صرامة، اقترب منه (شعبان)، وألصق مدفعه بجانبه، وهو يقول:

- هل تذكرني أيها الإسرائيلي؟

رفع الرجل عينين متسائلتين حائرتين إليه، فأضاف:

- يوما ما أخبرتني أن البقاء للأكثر قوة.. البقاء للأقوى..

بدت علامات التذكر على وجه الإسرائيلي، وامتزجت بذعر هائل، وهو يلوح بيديه متوسلا، هاتفا:

- لا أيها المصري.. لا تقتلني.. الرحمة..

خفض (شعبان) فوهة مدفعه، وهو يقول:

. لن اقتلك أيها الحقير.. الرصاصة التي أرغب في إيداعها جسدك، سأدخرها لآخر من جيشك، لم يقع في أسرنا بعد.. أما أنت، فكل ما أرغب في فعله معك هو أن أخبرك أنك مخطئ في نظريتك عن قانون البقاء..

بدت الدهشة والحيرة والذعر في عيني الإسرائيلي، و (شعبان) يميل نحوه، ويضيف في صرامة شديدة:

- القانون نفسه صحيح، ولكن البقاء ليس للأقوى، وإلا لكانت الديناصورات هي التي تسود الأرض الآن.. البقاء دائماً للأفضل أيها الوغد.. للأفضل وحده..

ثم تراجع مستطردا في ارتياح:

- هذا هو قانون البقاء الحقيقي..

وفي اللحظة التي سقط فيها فك الإسرائيلي، في ذهول مبهور، كان (شعبان) يتجاهله تماما، وقد زايله كل شعور بالمرارة والألم، وانطلق ليواصل قتاله في تلك الحرب، التي أعادت إليه كرامته وآدميته..

والحرب من أجل البقاء..
للأفضل..

(تمت)

رسالة

58- رسالة..

خطيبي (فريد)..

اعذرني لأنني بدأت خطابي لك بهذا اللقب، الذي تعتبره دائما تقليديا جامدا، ولكنني حاولت أن أبدأ الخطاب بلقب (حبيبي)، أو حتى (صديقي)، إلا أنني لم أستطع هذا قط..

أعلم أن هذه البداية قد تصدمك كثيرا، وتثير سخطك وغضبك ونقمتك..

ولكن ما باليد حيلة..

أنت تعرفني جيدا يا (فريد)..

لا يمكنني أبدا أن أنطق أو أكتب ما لا أشعر به، أو أومن به..

وهذا أيضا سيصدمك..

وقبل أن ترتجف شفتاك غضبا، كما يحدث عادة، دعني أوضح لك موقفي، الذي دفعني لكتابة هذا الخطاب إليك. بدلا من أن أسرد محتوياته على مسامعك عندما نلتقي..

ودعنا نعود إلى البداية..

إلى لقائنا الأول..

كان هذا في حفل الكلية، منذ عام ونصف العام تقريبا..

كنت أنا إحدى المعدّات الحفل، في حين حضرته أنت بصحبة شقيقتك، التي تربطني بها أواصر صداقة هادئة، منذ التحقت بكليتي العملية..

ولست أنكر أنك جذبت انتباهي منذ اللحظة الأولى..

جذبتني وسامتك الملحوظة، ورصانتك الواضحة، وتلك الرجولة الآسرة، في صوتك ونظراتك وملامحك..

ومما لا شك فيه أنني أيضا جذبت انتباهك في ذلك الحفل..

ولا تسألني كيف لاحظت هذا أو عرفته..

كلنا معشر الفتيات نفهم هذا يسر..

إنها فراستنا الخاصة، التي تتفوق فيها عليكم معشر الرجال..

المهم أننا - وقبل أن نغادر الحفل - كنا قد اتفقنا على لقاء ثلاثي آخر..

أنت وشقيقتك.. وأنا...

وفي ذلك اللقاء الثاني، ازداد تقاربنا، وتوطدت أواصر الصلة بيننا أكثر وأكثر..

كان الحديث يدور حول عملك طوال الوقت، وعلى الرغم من أنني لا أفهم الكثير عنه، إلا أنني رحت أستمع إليك في شغف، وأمنحك أذني طوال الوقت، دون أن أقاطعك لحظة واحدة، أو أرفع عيني عن شفتيك أبدا.

حتى شقيقتك لاذت بالصمت، واكتفت بمراقبتي طوال الوقت، وكأنما تسعى لأن تستشف ما يعتمل في نفسي تجاهك..

وفقط عندما انتهى اللقاء، أدركت أنني لم أنبس ببنت شفة..

ولكن هذا لم يضايقني..

كنت سعيدة للغاية، لأنني استمعت إليك، وإلى حديثك المتصل الهادئ..

ومنذ ذلك الحين، وحتى تمت خطبتنا، في حفل عائلي أنيق، لم يتغير الوضع كثيرا..

أنت تتحدث طوال الوقت..

وأنا استمع..

فقط أستمع..

ومع كثرة ما سمعت، تكونت عندي فكرة واضحة عن عملك..

فكرة أدهشتك أنت نفسك، عندما بدأت أناقشك وأبدى آرائي فيما يتعلق بمشكلات العمل والخلافات مع زملائك..

ولقد أسعدني تقديرك لهذا..

أسعدني أكثر مما تتصور..

ومن فرط سعادتي، بدأت انتقل – بصورة طبيعية - إلى الحديث عن حياتي أنا..

عن دراستي، وزملائي، وصديقاتي..

ولم يرق لك هذا..

كنت تستمع إلىّ في شيء من الضجر، وتتململ طوال الوقت..

وتتشاغل عني بالنظر إلى الطريق والمارة..

ولست أنكر أنني لاحظت هذا منذ الوهلة الأولى، ولكنني لم أتوقف..

كنت مصرة على أن تدخل عالمي، كما دخلت أنا عالمك أردت أن تعرف على كل شئ، كما عرفت أنا عنك كل شيء، ولكنني لم أنجح أبدا..

كان بداخلك إصرار شديد على تجاهل عالمي..

إصرار بدا لي مهينا إلى حد ما..

ولهذا لم أستطع المواصلة..

توقفت فورا عن الحديث عن حياتي، وعدت أستمع إليك..

وأنت تروي الكثير عن حياتك..

وتروي..

وتروي..

وحار عقلي في البحث عن وسيلة لحوار متصل، يربط كلا منا بالأخر..

حوار يصلح لأن نتبادله بعد زواجنا، لا في فترة خطبتنا فحسب..

كنت أبحث عن أمر يمكننا مناقشته معا..

والتحاور فيه..

وهكذا اخترت أبسط الأمور..

الثقافة العامة..

إنني أقرأ بنهم، منذ سنوات طفولتي وصباي، وتكونت لديّ حصيلة ثقافية لا بأس بها، تصلح كل نقطة فيها لحديث طريف أو حوار بسيط..

تصلح على الأقل للربط بين عقلين، انغمس قلباهما في حب كحبنا..

ولكن صدمتي كانت عنيفة.

كانت أعنف بكثير مما يمكن تصوره..

لقد انتبهت فجأة، بعد عام ونصف العام من تعارفنا، إلى أنك فارغ تماما..

ليست لديك أية معلومات عامة، بخلاف ما يخص عملك..

فقط عملك..

لست أدري ما الذي كنت تفعله طيلة حياتك!!

ألم تقرأ أبدا؟!

الم تحاول قط التزود بشيء من الثقافة أو المعرفة..

ماذا فعلت بكل ما درسته في مقررات الدراسية، في المرحلتين الإعدادية والثانوية؟!..

هل ألقيت كل هذا خلف ظهرك، بمجرد التحاق بالجامعة؟

أو بوظيفتك الجديدة؟!..

هل محوته تماما من ذاكرتك؟!..

إنك حتى لم تستوعب القضايا الهامة، التي تشغل العالم كله..

لم تفهم ما يعنيه مصطلح (البريسترويكا)..

لم يكن يعنيك أمر المشكلات البيئية أو الاقتصادية، التي تواجه الوطن..

ولا حتى التي تواجه العالم الحديث عن ثقب الأوزون يضجرك..

الحوار حول الإرهاب يثير في نفسك الملل..

حتى القضايا اليومية لم تعد تهتم بها، من قريب أو بعيد..

أنت فارغ..

فارغ..

فارغ..

عقلك قرر طرح الدنيا كلها جانبا، والتركيز فقط على ما يخص عملك..

وكأنها انحصر العالم كله في عملك..

ليس هذا فحسب..

إنه يصر أيضا على ألا يستمع إلى أي شيء بخلاف هذا..

أي شيء...

ولهذا استسلمت..

رفعت في وجهك الراية البيضاء، وأعلنت عجزي عن إيجاد لغة للحوار المشترك..

وهذا يعني أنني لا أستطيع الاستمرار معك..

لا يمكنني أن أحيا إلى الأبد كمستمعة مخلصة..

المفروض أن أستمع إليك وتستمع إليّ...

أن يتحدث كل منا أحيانا..

أن نتناقش..

نتجادل..

باختصار.. المفروض أن نحيا معا..

مرة أخرى اعذرني يا (فريد)..

لقد فكرت في الأمر، ودرسته طويلا، ووجدت أننا لا نستطيع الاستمرار معا أبدا..

سامحني يا (فريد)، وأنت تستعيد دبلتك التي أرسلتها لك مع هذا الخطاب..

سامحني لأنني لم أناقش الأمر معك وجها لوجه، فقد خشيت أن يثير الاستماع الملل في نفسك، حتى ونحن نناقش أمرا يتعلق بحياتنا معا..

وربما اخترت أسلوب الخطاب بالذات، لعلني أنجح في إجبارك على قراءة شيء ما، بخلاف أوراق عملك..

أي شيء..

وأعتقد أنني نجحت هذا المرة..

وداعا يا (فريد)..

وداعا إلى الأبد..

خطيبتك السابقة

(نسرين)

(تمت)

سبحان الله

59- سبحان الله..

من المؤكد أن هذه القصة ستبدو للعديدين أشبه بالميلودراما الشهيرة، لأفلام المخرج الراحل (حسن الإمام)، ومن المؤكد أيضا أن العديدين سيعتبرونها مثالا للرومانسية النمطية، التي انتهى عهدها، ولم تعد مقبولة في هذا العصر، الذي سيطرت عليه الماديات، وانكمشت فيه مساحة العواطف والروحانيات، ولكن دافعي الرئيسي لكتابتها هي أنها قصة واقعية، عاصرت بدايتها ونهايتها بنفسي، وأثارت في أعماقي الكثير والكثير من المشاعر والانفعالات..

والعشرات والعشرات من الأفكار والتحليلات..

ولقد بدأت القصة منع أيام الأولى في (القاهرة)، التي انتقلت إليها من بلدتي الصغيرة، كخطوة حتمية للاقتراب من مواقع العمل، واختصار الوقت الضخم، الذي أفقده في السفر إليها ومنها يوميا..

ففي تلك الأيام، كنت أجلس مع صديق جديد، من أصدقاء العمل، نناقش فكرة جديدة، عندما دخل الساعي، وهمس في أذنه بأن سيدة تطلب مقابلته، ولم يكد يذكر له اسمها، حتى انتفض صديقي في اهتمام شديد، وقال للساعي في حماس:

- دعها تدخل على الفور..

ونهض بنفسه لاستقبال السيدة، التي بدت لي شابة في منتصف العشرينات، هادئة الملامح إلى حد كبير، وإن ارتسمت على وجهها، وأطلت من عينيها لمحة حزن واضحة، أفسدت الكثير من سمات جمالها البسيط، وأضفت عليها عمرا إضافيا زائفا،

وبؤسا واضحا، زاد من عمقه ذلك الطفل، الذي لم يتجاوز عامه الأول، والذي تحمله في رفق، وتضمه إليها في حنان، يخيل إليك أنه يكفي لإسعاد نصف أطفال الأرض دفعة واحدة..

وعندما حاولت مغادرة الحجرة، لأفسح لهما المجال للحديث بحرية، أصر صديقي على بقائي، وانتحي من السيدة المتشحة بالسواد ركنا من أركان مكتبه، وراح يتبادل معها حديثا خافتا انهمرت خلاله دموعها في غزارة، حتى كدت أشاركها إياها، من شدة انفعالي وتأثري..

وتوقعت أن يعرض صديقي عليها بعض المال، أو أن ينهض ليجري بعض الاتصالات بشأنها، إلا أن هذا أو ذاك لم يحدث، وإنما انتهى الحديث بينهما بعد دقائق عشر لم تزد، نهضت هي بعدها، ومسحت دموعها وهي تصافحه، قبل أن تنصرف بنفس الصمت والهدوء، اللذين دلفت بهما إلى الحجرة..

وعاد صديقي إلى مكتبه، وهو يطلق من أعمق أعماق صدره..

زفرة حارة، ويهز رأسه مشفقا، ويغمغم:

- يا للبؤس!

وعلى الرغم من فضولي الشديد، لمعرفة ذلك السر، الذي يختفي خلف تلك الأرملة الحزينة - كما تصورت - إلا أنني لم أجرؤ على سؤاله عنها، خشية أن يكون في ذلك تدخل فيما لا يعنيني، فأنال ما لا يرضيني، إلا أنه تطوع بالحديث، قائلا:

- إنها إحدى قريباتي من الدرجة الثانية، توفي زوجها منذ ثلاثة أشهر، وترك لها ابنة لم تبلغ عامها الأول بعد..

شجعني حديثه على أن أقول:

- كنت أتوقع هذا، ولكنني تصورت في الواقع أن زوجها توفي منذ فترة أقصر..

تنهد مرة أخرى، ولوح بيده، قائلا:

- من المؤكد أن جزءا كبيرا من حزنها يعود إلى فقد زوجها، ولكن الجزء الآخر يرجع إلى المشكلات العديدة، التي أحاطت بها بعد موته..

هممت بسؤاله عن تلك المشكلات، أو بعرض استعدادي للمساعدة في حلها، إلا أنني أحجمت عن هذا، خشية أن أسيء إليه أو إليها بهذا، ولكنه واصل في بساطة:

- عائلة زوجها الراحل تمتلك متجرا لبيع الذهب والمجوهرات، وكان هو يمتلك ربعه، بعد وفاة والده، وتوزيع التركة عليه، وعلى أشقائه..

قلت في اهتمام:

- أعتقد أنه في حال وفاته، ستحصل ابنتها على ثلث نصيبه وتحصل هي على الثمن، ويوزع الباقي على أشقائه..

تنهد في آسف، قائلا:

- ولكنهم يرفضون هذا تماما..

قلت في دهشة:

- يرفضونه؟!.. ولكن ليس لهم الحق في هذا، قانونا أو شرعا.. إنها قوانين المواريث، المأخوذة من القرآن مباشرة.

هز رأسه في أسي، قبل أن يقول:

- المشكلة أن تقييم تركة كهذه أمر شاق للغاية، فأشقاء زوجها الراحل يمكنهم إخفاء معظم البضائع في المتجر، كما يمكنهم وضع عقبات عديدة في طريقها، وهي وحيدة كما ترى، ولا يمكنها التصدي لهم..

سألته في حيرة:

- ولماذا يفعلون هذا؟.. المفترض أنهم أثرياء إلى حد كبير، وهي زوجة شقيقهم الراحل، ونصيبها ليس ضخما؟

أجاب في حزن:

- المشكلة أنها تريد أن تظل شريكة لهم بنصيبها ونصيب ابنتها من الميراث، إلى أنهم يرفضون هذا تماما، ويصرون على منحها قدرا من المال فحسب، على ألا يكون لها أدني نصيب من أسهم المتجر..

تضاعفت حيرتي، وأنا أسأله:

- وما حكمتهم في هذا؟

تنهد، قائلا:

- يقولون إنها من الممكن أن تتزوج مستقبلا، ويصبح زوجها شريكا لهم بالتبعية، وهم يرفضون أن يشاركهم أي غريب في عملهم.

قلت في أسى:

- ولكنه حقها!

هز رأسه مرة أخرى، قبل أن يقول:

- ومن ينظر إلى الحقوق والواجبات في هذا الزمن؟

أحنقني الموقف كثيرا، وضايقني أن يتعامل أشقاء مع زوجة شقيقهم الراحل بهذه القسوة، وأن يستغلوا قوتهم في مواجهة ضعفها، لإجبارها على التنازل عن حق منحها إياه الله (سبحانه وتعالى)، وأيدته القوانين الوضعية، وسألت صديقي في ألم:

- وماذا ستفعل؟

أجابني في خفوت:

- بل قل ماذا فعلت.. لقد أخبرتني الآن أنها قبلت عرضهم مرغمة، فهي تحتاج وابنتها إلى النقود، وتعلم أنها لن تستطيع التصدي لسطوتهم واتصالاتهم قط.

سألته في اهتمام:

- وهل منحوها من النقود ما يساوي حقها؟

هز رأسه نفيا: وهو يجيب:

- ليتهم فعلوا.. ربما احتفظت عندئذ بشيء من احترامهم في أعماقي.. لقد أعطوها مائة ألف من الجنيهات، على الرغم من أن الخبراء المحايدين قدروا نصيبها ونصيب ابنتها بربع مليون جنيه دفعة واحدة..

ثم مال نحوي، مستطردا:

- ولكن ثق في أن صفقتهم ليست رابحة كما يتصورون، فالله (سبحانه وتعالى) يمهل ولا يهمل.

أيدت قوله بمنتهى الحماس، ثم طرحنا هذا الأمر جانبا، وعدنا نناقش فكرتنا الجديدة، وكيفية إخراجها إلى النور، وإن لم تفارق صورة الأرملة الحزينة رأسي بسهولة، وظللت أفكر في موقفها، وموقف أشقاء زوجها الراحل لعدة أيام، ثم لم يلبث الأمر كله أن

انزاح من ذهني، مع مشكلات العمل والحياة، حتى نسيته تماما مع مرور الوقت..

ومضى على هذه الواقعة أربعة أعوام كاملة، انمحي خلالها كل أثر لها من أعماقي، ثم كان يوم، ذهبت فيه لزيارة صديقي هذا، دون موعد سابق، وعندما دخلت إلى مكتبه، نهض لاستقبالي في حرارة، وقدم لي سيدة أنيقة باسمة، تجلس في مكتبه، فصافحتني بابتسامة عذبة صافية، وبقيت بضع دقائق، عرضت خلالها على صديقي خاتمين من الماس، انتقى أحدهما لزوجته، ومنحها شيكا بثمنه، ثم انصرفت وهي تدعوني لزيارة متجرها مع زوجتي، لمشاهدة معروضاتها الفريدة..

ولم تكد تلك السيدة الأنيقة تغلق الباب خلفها، حتى مال زميلي نحوي، وسألني في لهفة عجيبة:

- ألا تذكرها؟

انعقد حاجباي في محاولة للتذكر، وأنا أقول:

- الواقع أن ملامحها مألوفة إلى حد ما، ولكنني لست أذكر متى رأيتها بالضبط، وأين..

اتسعت ابتسامته، وهو يقول:

- لقد التقيت بها هنا، في مكتبي، منذ أربع سنوات تقريبا، ولكنها كانت - حينذاك - أرملة متشحة بالسواد، تحمل طفلة لم تتجاوز عامها الأول بعد..

استعاد ذهني الموقف كله فجأة، ووجدت نفسي أهتف في دهشة:

- أمن المعقول هذا؟!

أومأ برأسه إيجابا، وهو يبتسم، قائلا:

- اختلفت كثيرا.. أليس كذلك؟

قلت في حماس:

- بل اختلفت تماما.. لم تعد أبدا تلك الأرملة الحزينة البائسة لا ريب في أن تطورات عديدة قد حدثت، خلال هذه السنوات الأربع.

تراجع في مقعده، قائلا:

- لو اخبرتك بما حدث، لن تصدق نفسك.

سألته في لهفة:

- وماذا حدث بالضبط؟

أجابني في حماس:

- أنت تذكر أن أشقاء زوجها أعطوها مائة ألف جنيه، تعويضا عن نصيبها في تركته، وأقنعوا المجلس الحسبي بأن هذا كل ما تستحقه، ورضخت هي للأمر تماما، واكتفت بوضع المبلغ في البنك كوديعة، والإنفاق من أرباحه على نفسها وابنتها، في حين حصلت على عمل بسيط في شركة كبري من شركات الاستثمار، بذلت فيه أقصى جهدها وطاقتها، في محاولة لنسيان زوجها الراحل، وتأمين مستقبلها إلى حد ما.. ولأنها أمينة ومخلصة وقليلة الكلام والشكوى، ترقت في عملها خلال عام واحد وأصبحت مسئولة عن مصروفات الشركة، وعمليات الإحلال والتجديد، مما جعل علاقتها بصاحب الشركة مباشرة، حيث كانت تحتاج إلى توقيعه قبل إصدار أية شيكات، أو دفع أية مصروفات.

واتسعت ابتسامته، وهو يضيف:

- ثم تزوجا.

هتفت في دهشة

- تزوجت صاحب الشركة!

أومأ برأسه إيجابا، وهو يقول:

- نعم.. تزوجته.. كان أرملا أيضا منذ ثلاثة أعوام، ووجد فيها النضج والتهذيب والاحترام، وشعر أنها تصلح كزوجة لرجل مثله، فلم يتردد في طلب يدها، وعقد قرانه عليها، ونجح زواجهما بفضل هدوئها وحكمتها، وأنجبت منه طفلة أخرى، لم يفرق أبدا في المعاملة، بينها وبين طفلتها من زوجها السابق..

شعرت بالارتياح لحديثه، وأنا أقول:

- حمدا لله.. لقد عوضها عن مأساتها خيرا..

أشار بسبابته، قائلا:

- مهلا يا صديقي، فالأحداث المثيرة لم تبدأ بعد.

سألته في دهشة:

. هل تطورت الأحداث أكثر؟

أجاب مبتسما:

- بالتأكيد، ومن جانب أشقاء زوجها هذه المرة.

ملت نحوه، أسأله في لهفة:

- وكيف؟

أجابني في حماس واضح:

- طمعهم دفعهم إلى القيام بمحاولة لتهريب الماس، ألقوا خلالها بكل ما لديهم من أموال سائلة، وبكل ما اقترضوه من البنوك، على أمل نجاح المحاولة، وتحقيق أرباح خرافية، ولكن محاولتهم فشلت، وألقت الشرطة القبض عليهم، واضطروا للتنازل عن صفقة الماس كلها، في مقابل عدم مواصلة الإجراءات، وإقامة الدعوى الجنائية ضدهم، فتمت مصادرة الماس، وخسروا كل ثروتهم، وأصبحوا مدينين بما يقرب من أربعة ملايين جنية..

قلت مبهورا:

- سبحان الله.. يمهل ولا يهمل

أجابني في حماس أكبر:

- انتظر يا رجل، ما زال للقصة بقية..

هتفت:

- أكثر من هذا؟

أجاب ضاحكا:

- أكثر بكثير، فعندما أفلسوا، اضطروا لبيع فيلتهم الفاخرة، ومتجر المجوهرات والذهب، فتقدم زوج قريبتي لشرائهما، وجعل عقود البيع والشراء كلها باسمها، فأصبحت هي المالكة الفعلية للفيلا، ومتجر الذهب والمجوهرات، الذي كان لزوجها الراحل ربعه فحسب..

انفغر فاهي وأنا أحدق في وجهه غير مصدق، وهو يتابع في ارتياح:

- هل رأيت كيف أنه من الخطأ أن تمكر بحدود الله (سبحانه وتعالى) ؟!.. لقد أرادوا حرمانها من بضعة ألوف من الجنيهات، ومن نصيب ضئيل في شركتهم فمنحها الله (عز وجل) شركتهم كلها، وأصبحوا هم مجرد موظفين لديها.. صدقني يا رجل الله (سبحانه وتعالى) يمهل ولا يهمل أبدا، وهو خير الماكرين.

لم أستطع التعليق على حديثه هذه المرة، فقد اتعقد لساني من شدة انبهاري ودهشتي، وغادرت مكتبه وأنا أضرب كفا بكف، وأتساءل: هل سيصدق قرائي القصة لو كتبتها؟!.. هل سيصدقون أن ما يحدث في الحياة، يفوق كل ما نراه على شاشات السينما، في أفلام الميلودراما العنيفة؟!..

ولكنني اتخذت قراري بكتابة القصة، حتى ولو لم يصدق قارئ واحد أنها قصة حقيقية واقعية، من الألف إلى الياء..

قصة لا أملك معها سوى أن أردد عبارة واحدة..

سبحان الله..

(تمت)

خرزة زرقاء

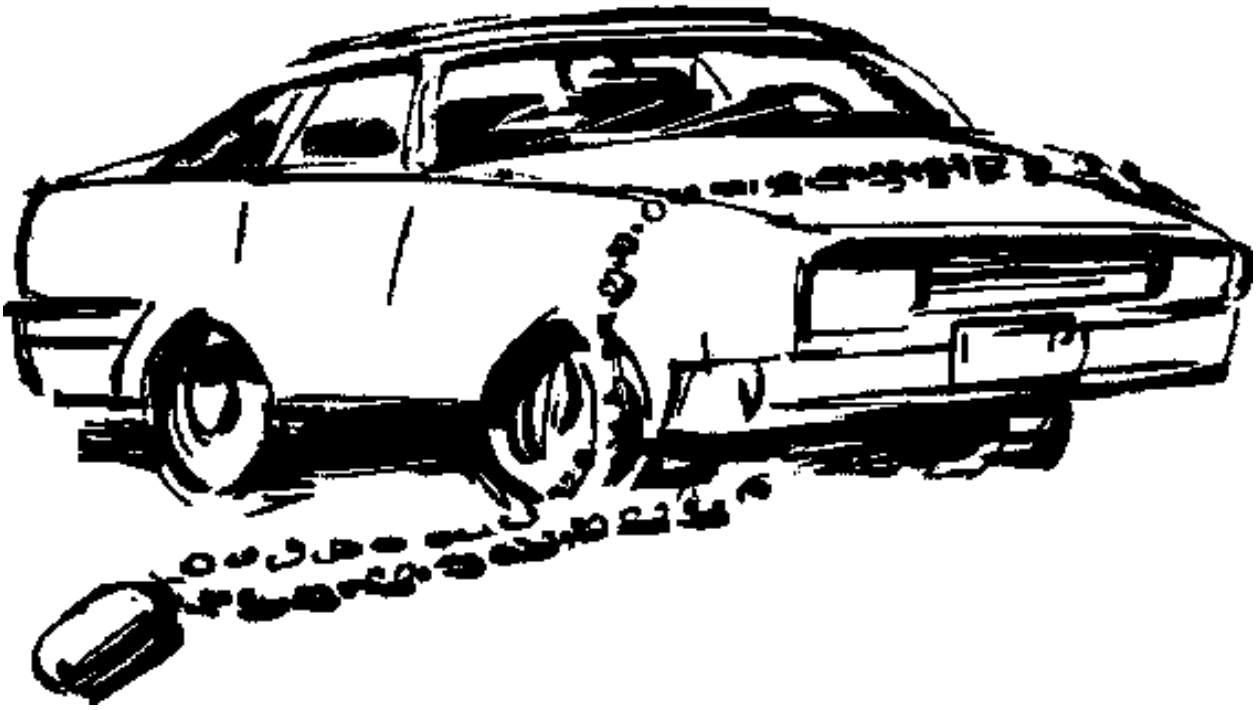

60- خرزة زرقاء..

- مبروك السيارة الجديدة..

نطقت (فدوى)، الجملة بلهجة عذبة وحروف أنيقة، وهي تنحني لتطبع قبلة على خد زوجها (حسن)، الذي اتسعت ابتسامته، وهو يرد لها قبلتها، قائلا:

- أشكرك يا زوجتي العزيزة.. لولاك ما استطعنا شراء سيارة جديدة قط.

ضحكت في دلال، قائلة:

- أنت الذي عمل بجهد أكثر طوال العام.

قال في حماس:

- ولولا صبرك وتشجيعك وحماسك، لما أمكنني هذا.

ضحكت مرة أخرى، وقد أسعدتها كلماته، ثم قالت بلهجة ذات مغزى خاص:

- أحضرت لك هدية بهذه المناسبة..

اعتدل قائلا في لهفة:

- هدية؟!.. حقا!

أومأت برأسها إيجابا، وهي تخرج من حقيبتها خرزة كبيرة زرقاء، تتدلي من سلسلة ذهبية أنيقة، فسألها في دهشة:

- ما هذه بالضبط؟

انحنت تطبع قبلة أخرى على خده، قائلة:

- خرزة زرقاء، لتعلقها في المرآة الداخلية للسيارة الجديدة..

سألها في اهتمام:

- هل تعتقدين أن لونها يناسب طلاء السيارة الأخضر؟!

ضحكت، قائلة:

- لا يهم ما إذا كان لونها يناسبه أم لا، فمن المحتم أن تكون زرقاء هكذا..

بدت عليه الحيرة بضع لحظات، قبل أن يسأل بابتسامة مرتبكة:

- ولماذا زرقاء بالتحديد؟

أجابت في حماس:

- حتى تبعد عنك العين، وتمنع الحسد..

هتف:

- الحسد؟!

وانفجر ضاحكا في مرح، فانعقد حاجباها، وهي تقول:

- لا تسخر من الحسد.. لقد أتي ذكره في القرآن..

تصنع الجدية، وهو يسألها:

- وهل ارتبط هذا بضرورة تعليق خرزة زرقاء، في المرآة الداخلية لأية سيارة جديدة؟

ازداد انعقاد حاجبيها، وهي تقول في غضب:

- الجميع يفعلون هذا.

ضحك في مرح، وربت على كتفها في حرارة، قائلا:

- لا بأس.. لا داعي لكل هذا الغضب.. سأعلقها في المرآة الداخلية، ما دام هذا يسعدك.

قالت في حنق:

- ليس لمجرد أن هذا يسعدني.. المفترض أن تقتنع..

هز كتفيه، قائلا:

- ليس من الضروري أن أفعل، فأنا رجل عقلاني تماما، بحكم دراستي وتكويني، ولن يمكنك إقناعي بهذه الأمور قط.

قالت في حدة:

- أنت تعتبرها مجرد خزعبلات.. أليس كذلك؟

هتف مبتسما:

- بل هي أمور عظيمة.. عظيمة تماما..

صاحت غاضبة:

- هل تسخر مني؟

نهض من مقعده، واحتواها بين ذراعيه، وهو يقول:

- مطلقا.. أقسم لك إنني مقتنع تماما.. لا داعي للغضب، حتى لا نفسد مناسبة سعيدة كهذه.

ناولته الخرزة الزرقاء الكبيرة، قائلة:

- علقها الان إذن.

التقطها، قائلا في مرح:

- فليكن.

انهمك بضع لحظات في تعليق الخرزة الزرقاء الكبيرة، التي تدلت من المرآة سلسلتها الذهبية الأنيقة، وهو يهتف مجاملا:.

- رائعة.. لست أدري ماذا كان يمكن أن أفعل بدونك.

ابتسمت في سعادة، هاتفة:

- أرأيت؟!

شعرت بالكثير من الارتياح والثقة، وهي تلوح له بيدها، عندما انصرف إلى عمله بالسيارة الجديدة، وانهمكت بعدها في أعمالها المنزلية، وفي العناية بطفلهما الصغير، حتى فوجئت به يعود إلى المنزل بعد ساعة واحدة، وهيئته توحي بأنه خرج على التوّ من معركة طاحنة، فهتفت به مذعورة.

- ماذا حدث؟

أجابها بعينين زائغتين:

- السيارة الجديدة تحطمت تماما.. أصبحت مجرد خردة.

صرخت في ارتياع:

- كيف؟

لوح بيديه في حنق، مجيبا:

- الطريق الرئيسي كان مزدحما بشدة، وأردت اختصار المسافة، فاتخذت الطريق الفرعي القديم، الذي يقطع شريط السكة الحديد، وبينما كنت أعبره، ظهر القطار فجأة، فضغطت دواسة الوقود بكل قوتي، وانحرفت بالسيارة يسارا، وكدت أتجاوز الشريط بسرعة، لولا أن ارتطم شيء ما بوجهي، فارتبكت، وبقيت مؤخرة السيارة فوق الشريط، فما أدى إلى ارتطام القطار بها، ولولا رحمة الله (سبحانه وتعالى)، لما خرجت من هذه الحادثة البشعة حيا أبدا.

انهارت على أقرب مقعد إليها، وهي تهتف:

- مستحيل... مستحيل!.. إننا لم تسدد باقي ثمنها بعد.

صاح في غيظ شديد:

- ولكنني احتفظت بذلك الشيء، الذي ارتطم بوجهي في اللحظة الحرجة، وأربكني، ففقدت السيطرة على السيارة، ووقع الحادث.

قالها وهو يفرد يده أمامها، فتجمدت دموعها في مقلتيها بغتة، وخفق قلبها في عنف.. ففي راحته، كانت تستقر هديتها..

الخرزة الزرقاء.

(تمت)

الظـــلال

61- الظلال..

أنت الطبيب الجديد إذن!.

نطق مدير مستشفى الأمراض العصبية والنفسية هذه العبارة، في شيء من الضجر، وهو يتطلع إلى الطبيب الشاب، الذي قدم أوراق تعينه على الفور، وتنهد في ملل واضح، قبل أن يلقى الأوراق في لا مبالاة على سطح المكتب، مستطردا:

- أوراقك تقول: إنك طلبت العمل هنا بإرادتك.. أهذا صحيح؟

أومأ الطبيب برأسه إيجابا، فمط المدير شفتيه، وكأنما لم يرق له هذا، وقلب كفه، متمتما:

- عجبا!.. إنها أول مرة يحدث فيها هذا.. دائما يطلبون الانتقال من هنا، إلى أي مستشفى آخر في العاصمة..

قالها، وتنهد ثانية، قبل أن ينهض من خلف مكتبه مستطردا:

- فليكن.. دعنا نر كم ستحتمل البقاء معنا.. هيا.. دعني أرافقك في جولة لتتعرف المستشفى وأقسامه..

سارا جنبا إلى جنب، يجولان في المستشفى، والمدير يشرح له أقسامها المحدودة، حتى بلغا قسما يحمل بابه علامة رديئة، بطلاء أحمر داكن، فأشار المدير إلى ذلك الباب، قائلا:

- أما هذا، فعنبر المرضى البالغي الخطورة..

ارتفع حاجبا الطبيب الشاب، وهو يردد:

- مرضى بالغر الخطورة؟! ألدينا هنا مرضى بالغو الخطورة؟!

هز المدير كتفيه، وقال وهو يدفع الباب:

- كل المستشفيات بها مرضي بالغو الخطورة..

تطلع الطبيب داخل القسم في فضول، وارتفع حاجباه في دهشة، عندما لم يجد أمامه سوى مريض واحد، أدار عينيه إليهما في توتر، وبدت منه حركة تشف عن لهفته لاستقبالهما، فتمتم المدير في ضجر، وهو يزفر متوترا:

- وبالنسبة لنا، عندنا مريض واحد، ولكنه مرهق للغاية..

انعقد حاجبا الشاب في تساؤل، وهو يتطلع إلى المريض الذي أسرع إليهما، والرعب يملأ وجهه، وهتف موجها حديثه إليه مباشرة:

- أخرجني من هنا.. أرجوك.. حاول أن تصدقني.. أخبر المسئولين أن الأرض في خطر.. تلك الظلال تخطط لغزوها أخبرهم بالله عليك..

غمغم الطبيب الشاب في دهشة:

- الظلال؟!

تعلق به المريض، قائلا في انفعال:

- نعم.. الظلال القادمة من ذلك الكوكب البعيد، في نهاية المجرة.. لقد كشفت خطتهم بالمصادفة، وعلمت أنهم يخططون لغزو الأرض، ولابد أن أحذر المسئولين، قبل أن تقع الكارثة.. أخرجني من هنا.. هيا.. أسرع.

حدّق الطبيب الشاب في وجهه بدهشة، وتمتم:

- لا يمكنني هذا.. إنني مجرد

قاطعه المريض بصرخة هادرة:

- لا تقل إن هذا ليس بإمكانك.. لابد أن يصدقني أحد.. أريد أن أخرج من هنا، قبل أن يقتلوني.. أخرجني من هنا.. أخرجني من هنا..

صرخ بكلماته، وهو يدفع الطبيب الشاب أمامه في عنف، حتى أنه فقد توازنه، وسقط أرضا، فوثب المريض يتجاوزه، وانطلق يعدو خارج المكان، وصرخ المدير:

- الحقوا بهذا المجنون.. أعيدوه إلى هنا..

أسرع ثلاثة من الممرضين خلف المريض، الذي حاول أن يراوغهم، إلا أنهم حاصروه، وانقضوا عليه في شراسة، فراح يقاوم في استماتة، وهم يحملونه إلى القسم، وصرخاته تدوي في المكان:

- لا.. لا تعيدوني إلى هناك.. أخرجوني بالله عليكم.. أبلغوا المسئولين.

ألقاه الممرضون فوق فراشه في قسوة، وراحوا يقيدون معصميه إلى حاجزه، فانعقد حاجبا الشاب، وهو يغمغم:

- أهذه القسوة ضرورية؟

تنهد المدير، وربت على كتفه، قائلا:

- صدقني.. بعد أن تقضى هنا شهرا واحدا، لن تنظر إلى الأمر باعتباره قسوة، بل مجرد إجراءات أمن..

مط الشاب شفتيه في عدم اقتناع، ولكن المدير قاده بعيدا، وهو يقول في أسف:

- هذا المريض كان معيدا بكلية العلوم، وكان يعدّ دراسات عليا حول الفلك والنجوم، عندما أصابته هذه اللوثة بغتة، فراح يدعى أن ظلالا أتت من كوكب آخر، وتحاول احتلال الأرض.. مسكين.

سأله الطبيب الشاب:

- ولماذا تراوده مثل هذا الفكرة العجيبة *

هز المدير كتفيه، قائلا:

- كل مرضى الانفصام الذهاني هكذا.. يسمعون أصواتا عجيبة، ويستشعرون الخطر من أمور غريبة.. لقد رأيت أحدهم مرة يرتجف رعبا، أمام خروف عادي.. تصور!!

سأله الطبيب الشاب، وهما يعودان إلى المكتب:

- ولكن الرجل كان معيدا بكلية العلوم، وهذا يعني أنه يتمتع بذكاء ما، وليس من السهل أن يصاب مثله بالجنون..

لوح المدير بيده، وهو يعود للجلوس خلف مكتبه، قائلا:

- لا ينبغي أن تقول أنت بالذات هذا.. كلنا نعلم أن الفارق بين العبقرية والجنون مجرد شعرة..

أجابه الطبيب الشاب:

- لست أتحدث عن العبقرية، وإنما عن الذكاء العادي..

زفر المدير في ضجر، وبدا من الواضح أن هذا الحديث لا يروق له، وهو يقول:

- كلكم تميلون إلى الجدل يا شباب الأطباء.

ثم مال إلى الأمام، واستطرد في حزم:

- وفر أسئلتك هذه الأيام القادمة، فكل شيء هنا سيشغل بالك طويلا، قبل أن تعتاد هذا المناخ..

وعاد يتراجع في مقعده، ويبتسم في شيء من الخبث والشماتة، مستطردا:

- وبالمناسبة.. لقد وصلت في موعدك تماما، فنحن نعاني عجزا في عدد الأطباء، ولم يكن هناك من يتولى النوبتجية الليلية..

سأله الطبيب في دهشة:

- أتعني بالنسبة لليلة؟!

نهض المدير من خلف مكتبه، والتقط سلسلة مفاتيحه، وهو يجيب:

- بل اعتبارا من هذه اللحظة.. إنها الثالثة ظهرا.. سأذهب إلى منزلي، وأعود إليك في الثامنة صباحا.. أنت المدير من الان.. إلى اللقاء..

حاول الطبيب الشاب أن يعترض، إلا أن المدير لم يمنحه الوقت ليفعل، وإنما أسرع ينصرف تاركا إياه في مكتبه، فمطّ شفتيه، وتمتم محنقا:

- يا للسخافة!.. إنني لم أستعد لهذا..

لم يكن هناك مجال للتراجع، بعد أن انصرف المدير، وأوكل إليه مهام منصبه، فاستسلم للأمر، وراح يؤدي عمله على خير ما ينبغي، والساعات تمضي في سرعة، حتى غربت الشمس وبلغ الإرهاق منه مبلغه، فألقى أوامره إلى الممرضين وطبيب الامتياز، واتجه إلى حجرة النوبتجية، ليحظى بقسط من الراحة، وفجأة، بلغ مسامعه ذلك الصوت.. صوت رجل ينتحب، ويهمهم بكلمات غير مفهومة، يغلب عليها الحزن والمرارة والأسى.. وكان الصوت يأتي من قسم المرضى البالغي الخطورة..

ولنصف دقيقة كاملة، توقف الطبيب الشاب أمام باب القسم يستمع إلى النحيب والهمهمة، قبل أن يحسم أمره، ويفتح الباب ويدلف إلى المكان..

كان المريض ينتحب ويهمهم بالفعل، ولكنه لم يكد يلمح الطبيب، حتى توقف عن هذا وذاك، وتطلع إليه لحظة في صمت قبل أن يسأله في حذر:

- هل ستخرجني من هنا؟

ألقى الطبيب نظرة على قيود المريض، ليتأكد من أنه لن يستطيع مهاجمته، كما فعل في السابق، ثم اتجه إلى الفراش المجاور له، وهو يجيب:

- ليس بعد..

احتقن وجه المريض، وهو يقول في حدة:

- لا وقت لهذا.. سيبدءون خطة الغزو بعد أيام، ولابد من تحذير المسئولين، قبل فوات الأوان..

سأله الطبيب في حذر:

- وكيف عرفت هذا؟

هتف المريض، وهو يبذل جهده للتخلص من قيوده:

- وما فائدة أن أخبرك؟.. إنك لن تصدقني..

أجابه الطبيب في صرامة:

- لابد أن أعرف..

التقى حاجبيا المريض، وهو يتطلع إليه في حذر، قبل أن يقول:

- وماذا لو أخبرتك؟.. هل تعدني بأن تساعدني على الخروج من هنا، لو اقتنعت بقصتي؟

أجابه الطبيب في حذر:

- ربما..

صمت المريض بضع لحظات، وهو يتطلع إليه، ثم قال:

- فليكن.. سأروي لك القصة كلها.

واعتدل بقدر ما تسمح به قيوده، قبل أن يتابع:

- لقد بدأ كل هذا عندما كنت أقوم بأبحاثي، في مرصد (حلوان).. أيامها كنت شديد الحماس الرسالة (الماجستير)، التي أعدّها، حول الفلك والنجوم، وإمكانية إجراء اتصالات مع حضارات أخرى في المستقبل، مما دفعني للعمل وحدي، حتى ساعات

متأخرة من الليل، بتصريح خاص من مدير المرصد الذي سمح لى باستخدام كل الإمكانيات المتاحة، التي يمكن أن تساعدني على إتمام رسالتي.. وذات ليلة، انهمكت في العمل حتى وقت متأخر للغاية، وأصابني التعب والإجهاد، فاستلقيت فوق أريكة كبيرة، واستغرقت في النوم..

ارتسم الذعر على وجهه، عندما بلغ هذه النقطة، ولهث في انفعال، وكأنما يستعيد ذكري مخيفة، قبل أن يتابع:

- وعندما استيقظت، كانوا هناك..

سأله الطبيب في حذر:

- من هم؟

غلب الأفعال المريض، وهو يجيب:

- الظلال.. الظلال القادمة من كوكب آخر.. لم ينتبهوا إلى وجودي، فراحوا يتحدثون في حرية عن وصولهم إلى هنا، عبر (التليسكوب) الكبير في المرصد، لأنهم يستطيعون الانتقال بسرعات أقرب إلى سرعة الضوء، بسبب طبيعتهم غير المادية..

انعقد حاجبا الطبيب، وهو يغمغم:

غير المادية؟!.. كيف يكونون غزاة، بدون جسد مادي؟!

أجابه المريض بسرعة:

- الحياة لا تحتاج بالضرورة إلى جسد مادي.. ربما كانت هذه قاعدة مسلم بها في كوكبنا فحسب، ولكنها ليست كذلك في أجزاء الكون الأخرى.. تلك المخلوقات بالتحديد ليست سوى شكل من أشكال الطاقة، على هيئة ظل مجرد..

صمت الطبيب بضع لحظات، قبل أن يهز رأسه، قائلا:

- معذرة.. لا يمكنني استيعاب فكرة وجود كائن حي عاقل بلا جسد!

قال المريض في توتر:

- ليس المهم هو الجسد.. المهم هو الروح.. والروح ليست جسما ماديا، ولا يمكن أن تكون كذلك.. فماذا لو أن الخالق (عز وجل) قد نفخها في دفقة من الطاقة.. ألن تصبح عندئذ كائنا حيا؟

انعقد حاجبا الطبيب مرة أخرى، وكأنما يحاول استيعاب هذا المنطق، قبل أن يسأل في اهتمام:

- ولكن، لو أن هذه الظلال مجرد كائنات غير مادية، فكيف أمكنك سماع حديثها، حول خطة غزو الأرض.. بل كيف يمكنها أن تتحدث أساسا؟!

أجابه المريض في انفعال:

- إنها لا تحيا بهيئتها الطبيعية، عندما تصل إلى الأرض، بل تغوص في أجساد البشر، وتسيطر على جزء منها، لتتحرك وتتصرف من خلاله، تمهيدا للغزو..

بدا الاهتمام على وجه الطبيب، وهو يسأل:

- هذا يعني أن هؤلاء الغزاة يمكن أن يتواجدوا بيننا، دون أن نشعر بوجودهم..

أجابه في حماس:

- بالضبط.. أخيرا فهمت ما أعنيه إنهم يتواجدون بيننا دون أن تشعر بوجودهم.. بل والأدهى أنهم يختبئون في أعماق أشخاص لا يدركون حتى أن أجسادهم محتلة بوساطة الظلال.. إنهم يحيون حياة طبيعية، حتى تحتاج الظلال إلى أجسادهم، فتبرز على السطح، وتسيطر على عقولهم مرحليا، وتدفعهم لفعل ما يحلو لهم..

تراجع الطبيب في دهشة، وهو يردد:

- يا للهول!.. يا للهول!

ثم عاد يميل نحوه، ويسأله في شغف:

- إذن فقد سمعت أنت حديثا يدور بين رجلين، من كائنات الظلال أجسادهم.. أليس كذلك؟!

أجابه المريض:

- بلى.. رأيتهما يقفان عند (التليسكوب) الكبير، وظل عجيب الهيئة يتراقص على وجهيهما، وهما يتحدثان عن الأمر ويصفان الخطة كلها.

سأله الطبيب في لهفة:

- وماذا فعلت عندئذ؟

زفر في توتر، قبل أن يجيب: - لم أفعل شيئا.. فقط انكمشت في مكاني، ودعوت الله (سبحانه وتعالى) ألا ينتبها إلى وجودي، وظللت أراقبهما في حذر، وقلبي يدق في قوة، حتى خشيت أن تلفت دقاته انتباههما إليّ.

تضاعف اهتمام الطبيب، وبدا وكأنه يتابع قصة مثيرة للغاية وهو يسأل:

- ثم ماذا؟

تنهد المريض مرة أخرى، وأجاب:

- لم يكن وقوفها إلى جوار (التليسكوب) الكبير مجرد مصادفة، وإنما كانا يستقبلان بعض الوافدين الجدد.. عددا من الظلال غير المادية، تدفقت عبر العدسة العينية (للتليسكوب)، وكأنها ماء يتدفق عبر صنبور صغير، وراحت تتراقص في المكان على نحو مخيف، ذكرني بأفلام الرعب الأمريكية القديمة، ووقف الرجلان يشرحان الفريق الوافدين الجدد كيفية احتلال الأجساد، والسيطرة عليها لمدة نصف ساعة كاملة، كاد قلبي يتوقف خلالها من شدة الرعب، وأصابني الجفاف من شدة ما أرقت من العرق، قبل أن ينصرف الجميع، ويتركونني في حالة يرثى لها، وقد تجمدت من شدة الخوف، ولم أعد قادرا حتى على التفكير..

اتسعت عينا الطبيب، وهو يتمتم:

- رباه... وهل ظللت هكذا طويلا؟

هز المريض رأسه، وترقرق الدمع في عينيه، وهو يقول:

- حتى الصباح التالي.. أعترف أنني لم أجرؤ على التحرك، حتى أشرقت الشمس، وكأنما ارتبط الليل في ذهني بالرعب والظلال، ولكنني لم أكد انتزع نفسي من حالة الذعر والجمود هذه، حتى هرعت إلى مدير المركز، وشرحت له ما حدث، ولكنه لم يصدقني بالطبع، وتصور أن كل هذا مجرد كابوس، انتابني في أثناء نومي داخل المرصد..

سأله الطبيب:

- ألا يحتمل أنه كذلك؟

هتف المريض في حدة:

- مستحيل!.. أنا رجل علمي، أدرك جيدا الفارق بين الحقيقة والكوابيس.. ربما يبدو الأمر بالفعل أشبه بكابوس ثقيل، ولكنه ليس كذلك أبدا.. إنه حقيقة.. حقيقة رفض الجميع تصديقها واتهموني من أجلها بالجنون، وألقوا بي في هذا المكان الحقير.

ارتفع فجأة صوت صارم، يقول:

- وأنت تستحق البقاء فيه إلى الأبد.

التفت المريض والطبيب في سرعة ودهشة إلى مصدر الصوت وارتسم الرعب على وجه الأول، في حين انعقد حاجبا الثاني، وهو يقول في عصبية:

- سيادة المدير!.. يالها من زيارة مفاجئة!

رمقه المدير بنظرة صارمة، قبل أن يجيب في غضب:

- يبدو أنها أتت في موعدها تماما.. قل لي بالله عليك: ماذا تفعل هنا؟

نهض الطبيب، مجيبا في هدوء حازم:

- المفترض أنني مسئول عن المكان كله، حتى الثامنة من صباح الغد، أليس كذلك؟

بدا الغضب أكثر على وجه المدير: وهو يرمق المريض بنظرته الصارمة هذه المرة، ويقول في حدة:

- بلي، ولكن بشرط ألا تفسد الأمور.

أجابه الطبيب في حزم أكثر:

- إنني أؤدي واجبي.

قال المدير في عصبية:

- اسمع يا رجل.. أنت حديث العهد هنا، ولم تدرك بعد طبيعة الأمور، ولو أنك منحت أذنك واهتمامك طويلا للمرضى، لانضممت إليهم قبل أن ينقضي شهر واحد.

بدا الضيق على وجه الطبيب، وهو يشير إلى المريض، قائلا:

- مهمة الطبيب النفسي أن يمنح المرضي أذنيه واهتمامه، وإلا فكيف يمكنه مداواتهم؟

قال المدير في حدة:

- ليس كل المرضى.. هذا بالذات مصاب بانفصام ذهاني لا يقبل الجدل، والإنصات إليه إضاعة بلا جدوى للوقت.. هل استمعت إلى قصته؟!. هل يبدو لك أي جزء منها منطقيا؟

أجابه الطبيب صارما:

- ربما لا تبدو قصته مألوفة، ولكنها تتتابع على نحو منطقي..

التقى حاجبا المدير في شدة، وهو يقول:

- هكذا!

ثم أدار عينيه إلى المريض، مستطردا بلهجة قاسية:

- إذن فقد صار هذا الرجل خطرا بالفعل..

انكمش المريض في مكانه في رعب هائل، وهو يحدق في وجه المدير في ارتياع، في حين قال الطبيب الشاب في عصبية:

- الرجل يبدو لي عاقلا للغاية، وذهنه مرتب على نحو يشير الإعجاب.

قال المدير في غضب:

- هكذا؟!.. من الواضح أنك لم تدرس مثل هذه الأمور جيدا، أو لم تتعامل معها بشكل كاف، فكل مرضى الفصام الذهاني يبدون غاية في العقل والذكاء، وحسن تنسيق وترتيب الأمور، إلا أنهم في واقع الأمر مجرد مرضى، يعانون خوفا مبهما، ومن هلاوس سمعية وبصرية.. كيف تصورتهم عندما التحقت بالعمل هنا؟!، بلهاء يرتدون طاسات الطهي على رءوسهم، كما يظهرون في الأفلام الهزلية!

تنهد الطبيب، وقال:

- كلا بالتأكيد، ولكن..

قاطعه المدير في حدة:

- لا يوجد لكن.. سألغي نوبتجيتك منذ هذه اللحظة.. الحق بي في مكتبي، لنناقش هذا الأمر..

ثم التفت إلى المريض، وقال في صرامة:

- أما أنت، فسأعود إليك فيما بعد..

قالها، وغادر المكان كالعاصفة، فانتفض المريض في رعب هائل، وتشبث بيد الطبيب، قائلا:

- لا تتركني.. أرجوك.. لقد أثرت غضبه، ولن يسمح لى بالبقاء بعدها قط.

قال الطبيب، محاولا تهدئته:

- الرجل المسئول عن المكان كله، ومسئوليته تثقل كاهله، و..

قاطعه المريض في عصبية:

- ليست مسألة مسئولية.. إنه واحد منهم.

اتسعت عينا الطبيب، وهو يقول:

- واحد منهم؟!

هتف المريض:

- بالتأكيد.. كل تصرفاته توحي بهذا.. لقد أبقى على هذا فقط؛ لأنه واثق من أن أحدا لن يصدق قصتي، أما الآن، وبعد أن أبديت أنت شيئا من التفهم والتصديق، فلن يسمح لي بالبقاء..

بدا مزيج من الشك والقلق، على وجه الطبيب، وهو يتطلع إلى الباب، الذي عبره المدير منذ لحظات، متمتما:

- مستحيل!.. إنه يبدو لي شخصا عاديا..

هتف المريض:

- بالطبع.. وفيم سيختلف عن غيره.. فقط في اللحظة التي يسيطر فيها الظل الكامن في أعماقه عليه، ستراه يتراقص على وجهه..

صمت الطبيب طويلا، وهو يتطلع إلى الباب، فهز المريض يده، قائلا:

- لا تفقد ثقتك الآن بما أقول.. أنت أملى الوحيد.. قل: إنك تصدقني.. قلها بالله عليك.

ظل الطبيب على صمته لحظات أخرى، قبل أن يجيب في بطء وعمق:

. نعم.. أنا أصدقك..

ثم أخرج من جيبه محقنا، وتطلع إلى السائل الرائق داخله قبل أن يضيف:

- وهنا تكمن المشكلة..

حق المريض في وجهه بدهشة، ولم يقاومه وهو يغرس المحقن في ذراعه، ويدفع السائل الرائق في عروقه، وإنما تمتم في ارتياع:

- أنت؟!

أومأ الطبيب برأسه إيجابا، وقال:

- نعم يا رجل.. لقد صدقتك.. عقلي ومشاعري البشرية استجابت لك، وهذا يعني أنه من المحتمل أن يحدث هذا الآخر في المستقبل القريب، وينكشف السر، وتفشل خطة الغزو كلها..

انتفض جسد المريض في عنف والسم يسري في عروقه، وراح جسده ينهار تدريجيا في سرعة، والدنيا تظلم أمام عينيه..

وقبل أن يلقى حتفه، كان آخر ما وقع عليه بصره وجه الطبيب، الذي بدا هادئا، جامدا، يخلو من أية انفعالات، وفوقه يتراقص ظل..

ظل عجيب الشكل..

(تمت)

62- اللص..

كل شيء كان يوحي بالهدوء، في تلك الليلة..

الطقس معتدل دافئ، على نحو محبب، بالنسبة لمنتصف الشتاء، والبدر يتوسط السماء، التي خلت تماما من الغيوم، فتألقت فيها ملايين النجوم، كحبات من اللؤلؤ، وسط مخمل أسود رقيق..

حتى التلفاز، كان يبث برنامجا جيدا للغاية، شدت انتباه الجميع، حتى إن الشوارع خلت - أو كادت - من المارة، على الرغم من أن عقارب الساعة لم تكن قد تجاوزت العاشرة والنصف مساء، و...

وفجأة، انطلقت تلك الصرخة..

- لص.. لص.. أمسكوا اللص..

كانت أول مرة يحدث فيها هذا في المنطقة، منذ انتقلت وأسرتي للسكني فيها على الأقل، لذا فقد أسرعت مع زوجتي إلى الشرفة؛ لنستطلع الأمر، وتقف على أمر ذلك اللص..

كانت الصيحات تنطلق من البناية المقابلة لنا تماما، وبالتحديد من نافذة في الطابق الرابع، يطل منها رجل في حدود الستين من عمره، يشير إلى الحديقة الصغيرة في انفعال، هاتفا:

- لقد رأيته.. كان يتسق المواسير المطلة على الحديقة لقد رأيته.. أمسكوا اللص

وانتقل انفعاله إلى الجميع بسرعة مدهشة..

أنا، وزوجتي، وفتاة شابة، تقف مذعورة، في شرفة الطابق الثاني، المطلة على الحديقة، وعدد من شباب المنطقة، اعتادوا قضاء

أمسياتهم على ناصية الشارع..

الجميع راحوا يتحركون في انفعال جارف، والرجل يواصل صرخاته:

- ابحثوا في الحديقة.. لقد رأيته بنفسي..

وهتفت زوجتي:

- ألن يفعل أحد شيئا!

أطلقت هتافها، وأنا أتطلع إلى الشباب، الذين راحوا يتحدثون في انفعال ملحوظ، وبصوت غير مسموع، قبل أن يهتف أحدهم، مشيرا إلى الرجل:

- اطمئن يا عم (محمود).. سنبحث عنه..

لم أكن أميل كثيرا إلى هؤلاء الشبان، وأوقاتهم التي يهدرونها مع طاقاتهم، على ناصية الطريق، إلا أنني، والحق يقال، شعرت بالفخر والتقدير لهم، عندما اندفع خمسة منهم في جسارة إلى الحديقة، واختفوا في ظلمتها، وعم (محمود) يتابع، وهو يلوح بذراعيه:

- أضيئوا أنوار الحديقة.. ستجدونه مختبئا هناك حتما..

جاوبه الصمت لبضع دقائق، انفتحت خلالها كل النوافذ؛ ليطل سكان البنايات المطلة على الحديقة، قبل أن يشعل أحد الشبان أضواءها، على نحو جعلها مكشوفة للجميع، في نفس اللحظة التي ارتفع فيها صوت شاب أخر يهتف:

- لا يوجد أحد هنا يا عم (محمود)..

تراجع عم (محمود) بحركة عنيفة، كما لو أنه قد تلقي صدمة قوية، وحق بضع لحظات في الحديقة المضاءة، قبل أن يقول في

عصبية:

- ولكنني رأيته.. رأيته يتسلق المواسير في الحديقة..

شعرت بالكثير من الشفقة على الرجل، الذي بدا شديد الارتباك، وهو يواجه نظرات السخط والضيق والاستنكار، من أولئك الذين انتزعتهم صيحاته من أمام التلفاز، وحرمتهم من متابعة البرنامج الجيد، وراح الكل يتراجعون إلى داخل منازلهم، في حين عدّل عم (محمود) منظاره الطبي، وهو يقول مرتبكا:

- لقد رأيته..

ثم لم يلبث أن انسحب إلى شقته في هدوء وخجل، في نفس اللحظة التي أطفأ فيها الشبان أضواء الحديقة، وبلغت همهماتهم غير المفهومة مسامعي، وزوجتي تغمغم في أسى:

- مسكين عم (محمود).. يبدو أن منظاره يحتاج إلى تغيير..

وعادت تتابع البرنامج، في حين بقيت أنا قليلا في الشرفة أتابع خروج الشبان الستة من الحديقة، وهم يتضاحكون..

ولكن مهلا..

إنهم بالفعل ستة شبان!!

لقد أحصيتهم مرتين، وأنا واثق من أنهم كانوا خمسة فحسب، عندما اندفعوا إلى الحديقة..

وبسرعة، قفزت فكرة ما إلى ذهني، فرفعت عيني إلى تلك الفتاة، في شرفة الطابق الثاني، ولمحت ابتسامة الارتياح على شفتيها، وهي تتراجع بدورها إلى المنزل، مغلقة الشرفة..

وعندئذ فهمت..

فهمت سر شجاعة الشبان الخمسة، وبسالتهم وهم يقتحمون الحديقة، بحثا عن اللص المزعوم..

ودون أن أملك نفسي، انطلقت من حلقي ضحكة مجلجلة..

ضحكة أدهشت الشبان، وأغضبت حتما عم (محمود)، الذي سيتصور أنها موجهة إليه، والذي لن يتصور ابدا أنه، وعلى الرغم مما رآه، لم يفهم الحقيقة..

حقيقة اللص..

(تمت)

الكواكب الأخرى ..

63- الكواكب الأخرى..

نهض الكاتب الصحفي (سليم عبد القادر) من خلف مكتبه، ليستقبل ذلك الضيف الشاحب النحيل، صاحب النظرات الحادة الثاقبة، الذي يصر على طلب مقابلته، منذ أسبوع كامل، وحاول أن يرسم على شفتيه ابتسامة ترحاب، وهو يقول:

- دكتور (فاضل).. أليس كذلك؟

أومأ الضيف برأسه إيجابًا، وهو يتطلع إليه في صمت، بنظرة خيل إليه أنها قد اخترقت كيانه، ونفذت مباشرة إلى أعماقه، فتابع في توتر، وقد عجزت تلك الابتسامة الزائفة عن القفز إلى شفتيه المرتجفتين:

- أخبروني أنك تصر على مقابلتي شخصيا..

رمقه الضيف بنفس النظرة، وهو يجيب في اقتضاب:

- هذا صحيح..

شعر (سليم) بتوتر بالغ، تمني معه أن يطرد الرجل من مكتبه، ولكن رغبته في الظهور بمظهر الأديب المفكر، الواسع الصدر، جعلته يدعوه إلى الجلوس، ثم يسأله في اهتمام مصطنع:

- خيرا.. لماذا أردت رؤيتي شخصيا؟

تقارب حاجبا الرجل، وهو يجيب في شيء من الصرامة

- بسبب ذلك المقال الذي نشرته منذ ثمانية أيام بالتحديد..

تراجع (سليم) في مقعده، وسأله في حذر، لم يدر له سببا:

- أي مقال؟؟

أشار الرجل بيده، مجيبا:

- ذلك المقال، الذي سخرت فيه من إصرار (نادر فهيم) على حتمية وجود كائنات عاقلة في كواكب أخرى..

صمت (سليم) بعض الوقت، وهو يتطلع إلى الرجل، ثم لم يلبث أن ابتسم في سخرية، وقال بلهجة تحمل كل الاستهتار:

- آه.. فهمت..

ثم مال نحو الضيف، قائلا:

- أنت صديق لـ (نادر فهيم).. أليس كذلك؟!

هز الرجل رأسه نفيا، وهو يجيب:

- ليس بصفة شخصية.. إنني أتابع كتبه ومقالاته منذ فترة ما..

لوح (سليم) بيده، وهو يقول:

- إذن فأنت أحد معجبيه، وأتيت لتهاجم مقالي، و...

قاطعه الرجل في حزم شديد:

- الهجوم المجرد أمر غير علمي أو عملي على الإطلاق إنني هنا لمناقشتك فيما كتبته فحسب..

لم يقنع (سليم) بالجواب، وراوده شعور بأن هذا الرجل الجالس أمامه، قد أتى لمجرد الهجوم عليه بالفعل، مهما أحاط هذا بمبررات أنيقة، أو منطق مدروس.. ومن أعماقه، تصاعدت رغبة عارمة في استفزازه..

رغبة منعه جزء من شعور الطفولة داخله من كبحها، فاعتدل بحركة حادة، وهو يفرغها على لسانه، قائلا:

- (نادر فهيم) هذا مجرد أفاق.

تراجع الضيف بحركة حادة، هاتفا في استنكار:

- أفاق؟!

أجابه (سليم) في عنف شامت:

- نعم.. أفاق ومدّع أيضا.. إنه لا يفقه شيئا في فن الكتابة الحقة، وإنما يعزف على مشاعر القراء، وعدم معرفتهم بما يكتبه، مما يمنحه فرصة إبهار هم بقصص وروايات وهمية، يدعى كونها حقائق مجردة.. عملية نصب أدبية مدروسة..

صمت الضيف طويلا، وهو يتطلع إليه في عتاب، جعله

يواصل بلهجة أكثر استفزازية وهجومية:

- وفي موضوع مخلوقات الكواكب الأخرى هذا، بلغ خداعه مبلغه.. إنه يدعي وجود كائنات من كوكب آخر على الأرض، لها نفس ملامحنا وسماتنا الخارجية، بحيث يمكنها الاندماج بيننا لفترة طويلة، دون أن نعلم أو نشعر بوجودها.. هل سمعت مثل هذا الهراء من قبل؟!

غمغم الضيف:

- الواقع أنني..

ولكن (سليم) قاطعه، متابعا في صوت مرتفع، يتقاطر سخرية وشماتة:

- ليس هذا فحسب، ولكنه يدعي أن هذه الكائنات باردة كالثلج، ولها قوة الثيران، كما يمكنها اختراق الجدران والأبواب المغلقة.. يا للسخافة! إنه حتى لم يستطع إتقان خدعته..

انعقد حاجبا الضيف مرة أخرى، وقال:

- هل تعلم من أين أتي (نادر فهيم) هذا؟!

لوح (سليم) بيده، قائلا:

- ومن يعنيه أمر (نادر فهيم) هذا؟! فليأت من مدينة أو قرية، أو حتى من الجحيم نفسه.. إنه مجرد أفاق محتال، لن أشغل نفسي بأمره قط..

تطلع الرجل إلى عينيه مباشرة، وقال:

- ولكنك فعلت.. ألم تهاجمه بمقال كامل؟

قال (سليم) في حدة:

- لقد هاجمت خزعبلاته السخيفة، ولم أهتم بمهاجمته شخصيا..

صمت الرجل بضع لحظات، ثم مال نحوه، يسأله في اهتمام:

- فليكن.. ما تصورك للكائنات الموجودة في الكواكب الأخرى؟!

عاد (سليم) يبتسم في سخرية، ويتراجع في مقعده، قائلا:

- أية كائنات؟ وأية كواكب أخرى؟! كل هذا مجرد هراء يا رجل.. لست أومن بوجود أية كائنات، خارج كوكب الأرض..

بدا الاهتمام على الرجل، وهو يسأله:

- حقا!

أجابه (سليم) في حماس:

- بالطبع يا رجل.. لا توجد مخلوقات حية سوى في كوكب الأرض وحده.. هذه هي الحقيقة، وكل ما عداها هراء.

أومأ الرجل برأسه متفهما، وقال في تردد:

- ولكن (نادر فهيم) يؤكد أن لديه أدلة، و...

قاطعه (سليم) بضحكة عصبية مجلجلة، قبل أن يقول:

- أدلة؟! دعه يبلل أدلته هذه ويشربها مع خيبته وغبائه، تلك الأدلة المزعومة لا يمكن أن تقنع سوى البلهاء والحمقى وحدهم أما أنا فلا.

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتي الرجل، وهو يقول:

- ألن تطالع تلك الأدلة أولا؟!

لوح (سليم) بذراعه كلها، قائلا في إصرار حازم:

- كلا.. لن ألقى عليها نظرة واحدة، ولن أومن بوجود أية مخلوقات حية خارج كوكب الأرض، حتى ولو امتلأت الأرض كلها بهم..

مط الضيف شفتيه، مغمغما:

- إذن فلا فائدة من النقاش.

ثم نهض، وابتسامته تتسع، ومد يده إلى (سليم)، قائلا:

- إلى اللقاء يا أستاذ (سليم).. لقد أفادتني مقابلتك كثيرا..

مد (سليم) يده؛ ليصافحه، وهو يقول:

- لا بأس.. لا بأس.. صحيح أننا لم نتفق، ولكن..

بتر عبارته بغتة، عندما أصبحت يده بين أصابع باردة كالثلج، قوية كالفولاذ، أطبقت على اليد في عنف، حتى كادت تعتصرها، ورأى عيني الضيف تتسعان وتبرقان بلون فيروزي مخيف، وهو يقول بصوته القوى الساخر:

- ماذا حدث يا سيد (سليم).. هل شعرت بالدهشة؟؟

ارتجف جسد (سليم) في عنف، وحاول أن يجذب يده من الأصابع الفولاذية، وهو يهتف:

- من أنت؟! من أنت بالله عليك؟!

مال الضيف نحوه، وبدت عيناه أشبه بجمرتين متقدتين وهو يتطلع بهما إلى عيني (سليم)، الذي كاد يفقد الوعي من فرط الرعب، والضيف يقول:

- اسمي ليس الدكتور (فاضل)، كما أخبرتك سكرتيرتك، أسمي، الذي أستخدمه في كوكبكم هو (نادر).. (نادر فهيم).

قالها، وأطلق ضحكة عجيبة، ثم أفلت يد (سليم)، الذي سقط على مقعده، يرتجف كريشة في مهب الريح، وعيناه تحدقان في ضيفه، الذي واصل ضحكاته، وهو يتجه إلى الجدار، ويخترقه، ويختفي داخله تماما..

لحظتها فقط، قفز إلى رأس (سليم) سؤال واحد..

ترى هل توجد كائنات عاقلة، في الكواكب الأخرى؟!

هل؟!

(تمت)

كمبيوتر

64- كمبيوتر..

«حان الوقت لشراء جهاز كمبيوتر..»

اتسعت عينا الأستاذ (عاطف)، مدير حسابات شركة المنسوجات العصرية، وهوى قلبه بين قدميه، عندما نطق (شكري) بك، رئيس مجلس الإدارة هذه العبارة، وهو يراجع كشف الحساب الأخير، الذي قدمه له الأستاذ (عاطف)، والذي حرص على مراجعته بنفسه مرتين على الأقل، وتزيينه بالخطوط الحمراء والزرقاء قبل أن يقدمه له..

وعلى الرغم من هذا، فقد عثر (شكري) بك على خطأ ما وإلا، فلماذا تحدث عن شراء جهاز كمبيوتر؟!

لماذا أشار إلى تلك الآلة الصماء الجوفاء، التي تهاجمه في كوابيسه، منذ عشرة أعوام على الأقل؟!

منذ وقع بصره على أول جهاز كمبيوتر صغير..

يومها كاد قلبه يتوقف من شدة الفزع، وهو يتابع ما يمكن أن يفعله هذا الجهاز، الذي لا يزيد حجمه على حجم (تلفاز) بسيط..

لقد قام الجهاز أمامه بجمع عامود من الأرقام السداسية، يتكون من عشرين سطرا، في ثانية واحدة وهذا يعني أنه يستطيع في ساعتين فحسب، أن ينجز ما يقوم به هو من عمل، في عام كامل.. فماذا ستصبح فائدته إذن؟!

ومنذ ذلك الحين، لم يغمض للأستاذ (عاطف) جفن..

كل ليلة كان يحلم بجهاز الكمبيوتر، الذي ينتشر في كل مكان، ويحتل المكاتب، بدلا من الموظفين، الذين لا يعود هناك مفر من طردهم، وفصلهم، والاستغناء عنهم، ما دام هذا الجهاز الجديد يقوم بالعمل كله، على نحو أفضل، وأكثر سرعة.. ثم سيأتي اليوم، الذي يتم فيه الاستغناء عنه شخصيا لن تحتاج شركة المنسوجات العصرية لخدماته، التي يستطيع الكمبيوتر القيام بها، دون أن يطالب بعلاوة، أو يتقدم بشكوى لخلافه مع موظفيه، أو يطارد صاحب العمل بكل المتطلبات المادية طوال الوقت..

الكمبيوتر..

آه من الكمبيوتر..

عشر سنوات كاملة، وهو يورق نوم الأستاذ (عاطف)، ويفقده الشعور بالأمان والاستقرار، على الرغم من أنه يعمل في تلك الشركة منذ إنشائها.. لقد تسلم عمله فيها كمشرف على الحسابات، في نفس اليوم، الذي افتتحها فيه صاحبها..

(شكري)، جار مسكنه، وزميل دراسته الطموح، الذي وضع يده على كتفه يوم الافتتاح، وتطلع إلى عينيه مباشرة، قائلا:

- (عاطف).. إنني أعتمد عليك.. ليس فقط كمشرف على الحسابات.. ولكن أيضا، وهذا هو الأهم، كصديق..

من يومها لم يقصر الأستاذ (عاطف) في عمله قط..

لقد كان يعمل ويكافح ويناضل من أجل الشركة، ومصلحة الشركة، حتى لو اضطر لقضاء ليلته كلها فيها، يراجع الحسابات ويزنها، عندما كان الوحيد، الذي يقوم بهذا العمل فيها..

ومع مرور الوقت، أصبح هناك قسم كامل للحسابات، بعد أن نمت الشركة، واتسعت أعمالها ومعاملاتها..

وأصبح الأستاذ (عاطف) رئيسا لقسم الحسابات..

ثم مديرا له..

وتضاعف مرتبه ست مرات على الأقل، خلال السنوات العشر الأخيرة..

ولكن هذا لم ينجح في انتزاع ذلك الخوف، الذي بات واستقر في أعماقه، منذ شاهد جهاز الكمبيوتر..

وها هي ذي اللحظة التي ظل يخشاها طيلة عمره، تظهر للوجود..

وها هو ذا (شكري)، الذي أصبح (شكري) بك، يتحدث عن ضرورة شراء جهاز كمبيوتر، ليحل محله..

الكابوس تحول إلى حقيقة..

حقيقة انفطر لها قلبه، وهو يسأل:

- هل وجدت أي خطأ يا (شكري) بك؟!

هز (شكري) بك رأسه نفيا، وهو يذيل تقرير الحسابات بتوقيعه، قائلا:

- مطلقا.. أنت لا تخطئ في عملك قط يا أستاذ (عاطف).

كانت لهجته ودود مهذبة كالمعتاد، ولكن هذا لا يعني شيئا بالتحديد..

إنه يعرف طبيعته هذه..

دائما ودود مهذب، سواء أكان يكافئ عاملا مجتهدا، أو يعاقب مشرفا كسولا..

أسلوبه لا يشف أبدا عما يدور في أعماقه..

إنه سيبتاع أجهزة الكمبيوتر حتما، ما دام قد تحدث عن هذا..

وسيحل الكمبيوتر محل موظفي الحسابات..

ثم محل مدير الحسابات نفسه..

وانتفض جسده، وسرت فيه قشعريرة باردة كالثلج، عندما جال هذا الخاطر برأسه..

وبصوت خافت متوتر، غمغم:

- هذه الدقة يتميز بها البشر وحدهم..

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتي (شكري) بك، وكأنما فهم ما يتوارى خلف عبارته، وقال بلهجته المهذبة الودود:

- لا يمكنك أن توقف التقدم يا أستاذ (عاطف).. هل تذكر مرحلة انتشار آلات الجيب الحاسبة؟! لقد تصدى لها البعض أيضا، وحاربوها، وقالوا: إن استخدامها يفسد قدرة المخ على الحساب، ولكن حربهم هذه باءت بالفشل، وها هي ذي الآلات الحاسبة في أيدي الصغار.. حتى وزارة التربية والتعليم سمحت باستخدامها..

قال الأستاذ (عاطف)، مدافعا عن وجهة نظرة:

- لا يمكنك تخزين كل دفاتر حساباتنا في آلة حاسبة..

هز (شكري) بك كتفيه، قائلا:

- بالضبط.. ولهذا صنعوا أجهزة الكمبيوتر..

وقع قلب الأستاذ (عاطف) مرة أخرى بين قدميه، وهو يقول في عصبية:

- البشر أفضل من الكمبيوتر..

اتسعت ابتسامة (شكري) بك، وقال:

- ليس في كل الأحوال..

هتف الأستاذ (عاطف)، وقد ارتفعت نبرة صوته، دون أن يدري:

- العقول البشرية هي التي اخترعت الكمبيوتر.

وفي هذه المرة، تحولت ابتسامة (شكري) بك إلى ضحكة قصيرة، احتقن لها وجه الأستاذ (عاطف) في شدة، قبل أن يقول الأول:

- لا علاقة بين هذا وذاك يا أستاذ (عاطف)، فالعقل البشري اخترع السيارة، ولكنها تسير أسرع منه بكثير واخترع الطائرة أيضا، ولا يمكنه الطيران.. وهناك الغواصة، والدبابة، والصاروخ..

ثم مال نحوه، مستطردا في خبث:

- إنها سمة العصر يا أستاذ (عاطف)، وعندما يبدأ التقدم فلا سبيل لإيقافه.. إما أن تلحق به، أو تتخلف عنه إلى الأبد.. هذه ضرورة حتمية..

امتقع وجه الأستاذ (عاطف)، وهو يتطلع إليه في يأس..

إذن فقد كانت مخاوفه حقيقة..

لقد أعلنها (شكري) بك واضحة، بلا مجاملة أو مواربة..

إنها سمة العصر..

إما أن تلحق بالتقدم، أو تتخلف عنه إلى الأبد..

إنها ضرورة حتمية..

وإشارة مباشرة من (شكري) بك..

إنه لم يعد بحاجة إلى خدماته..

لقد حانت لحظة الاستبدال.. أن يستبدل به هو، الذي عمل بكل جهد وإخلاص، من أجل الشركة، جهاز كمبيوتر جافا، عبارة عن مجموعة من الأسلاك، والتوصيلات، ورقائق السيليكون، داخل إطار من الألياف الزجاجية، يطل عليك عبر شاشة ملونة خادعة..

هذا هو مدير الحسابات الجديد المدير الذي سيحل محله، ويعمل بأضعاف أضعاف كفاءته وسرعته دون أن يتقاضى راتبه..

- لو أنني في مكانك، لاعترفت بحتمية الكمبيوتر.. هذه هي الروح الرياضية..

نطقها (شكري) بك بنفس اللهجة المهدية الودود، وابتسامته تملأ وجهه، فغمغم الأستاذ (عاطف) في يأس واستسلام:

- بالطبع.. إنني اعترف..

ثم استدار يغادر المكتب، مضيفا في مرارة:

- هذه هي الروح الرياضية..

لم يدر كيف قضى ما تبقى من ساعات العمل بعدها..

لقد غامت الدنيا أمام عينيه، ولم يستطع أن يقرأ أو يكتب حرفا واحدا..

إنها النهاية..

لقد انتصر عليه الكمبيوتر أخيرا..

إنه لم يعد مدير الحسابات، الذي يقف سكان حيه احتراما فور رؤيته..

لقد أصبح مجرد رجل مهزوم..

موضة قديمة، لا تناسب العصر وتقدمه..

تماما مثل الحاج (حسن) الحلاق، الذي رفض استخدام مجففات الشعر الكهربية، عندما بدأ انتشارها في السبعينات، وأصر على حلاقة شعر زبائنه بالأسلوب التقليدي، حتى استيقظ يوما، ولم يجد لديه سوى بعض الزبائن العجائز والشيوخ، بعد أن انصرف عنه كل الشبان إلى حلاقين آخرين، يستخدمون المجففات الكهربية..

يومها أسرع الحاج (حسن) يبتاع مجففا كهربيا.. ولكن بعد فوات الأوان..

زبائنه القدامى صاروا زبائن في محال أخرى..

والعجائز والشيوخ يرفضون استخدام المجفف الكهربي، الذي لم يعمل مرة واحدة..

إنه ما زال يذكر مشهد الحاج (حسن)، بعد أن شاب شعره، وخلا محله من الزبائن أو كاد، ولم يعد لديه ما يفعله سوى الجلوس أمام المحل، ممسكا بالمجفف، وكأنما يعلن لكل خلق الله، ويقسم بالعيش والملح أنه يمتلك مجففا، مثله مثل كل أصحاب المحال الحديثة..

وطوال يومه، ظل الأستاذ (عاطف) يتخيل نفسه في الموقف ذاته..

جالسا أمام الشركة، حاملا آلة الجيب الحاسبة، وقد نمت لحيته، وغارت عيناه، واحمرتا، وبدا أشبه ما يكون بالحاج (حسن)..

وفي تلك الليلة بالذات، لم يهاجمه ذلك الكابوس التقليدي هذا لأنه لم يغمض له جفن قط.

لقد تجاوز الأمر مرحلة المخاوف إلى بحر الحقائق المتلاطم..

(شكري) بك أجرى اتصاله بشركة الكمبيوتر بالفعل، وأخبره مهندسوها أن أجهزة الكمبيوتر الجديدة ستبدأ عملها، في العاشرة من صباح الغد..

لم يعد هناك أمل..

ومرت الليلة كدهر كامل، بالنسبة للأستاذ (عاطف)..

وفي الصباح حلق لحيته في يأس وتباطؤ، واتصل بالشركة، ليخبرهم أنه سيتأخر حتى الحادية عشرة..

كان يتمنى أن يخبره أحد أن العمل يحتاج إليه بشدة، وأنه من الضروري أن يحضر في الثامنة والنصف كالمعتاد..

ولكن أحدا لم يفعل..

وكان هذا إعلانا جديدا بأنهم قد استغنوا عن خدماته..

وراودته فكرة الانقطاع عن العمل، حتى يتصل به (شكري) بك شخصيا..

ولكن الفكرة ولدت وماتت في عقله، قبل حتى أن تراوده..

وعلى الرغم من عذابه وآلامه وحزنه ويأسه وجد نفسه يغادر منزله في التاسعة والنصف، وينطلق بسيارته إلى مقر الشركة، وكأنما أصبح كالسمك، لا يمكنه العيش خارج بحره الخاص..

وعندما بلغ الشركة، هوى قلبه مرة أخرى بين قدميه..

كل شيء كان يحمل إليه نفس العبارة، التي هتف بها أحد موظفيه في سعادة:

- أجهزة الكمبيوتر الجديدة وصلت..

امتقع وجهه في شدة، وكاد يهوى فاقد الوعي، وهو يحاول عبثا الابتسام، والموظف يضيف:

- المهندسون يقومون بتركيبها الآن، و (شكري) بك يتابع الأمر بنفسه.. لقد طلب أن تلحق به هناك، فور وصولك..

كاد يبكي، وهو يتجه نحو قسم الحسابات..

الآن سيقف وجها لوجه مع منافسه الجديد..

بل مع بديله، الذي يوليه (شكري) بك اهتمامه ورعايته شخصيا..

وارتجفت قدماه، وهو يدفع باب القسم..

ربما كانت آخر مرة يدلف فيها إليه..

بل من المؤكد أنها كذلك..

لن تعود له فائدة، بعد أن تعمل أجهزة الكمبيوتر..

لن يكون لوجوده أية أهمية..

- أستاذ (عاطف)..

استقبله (شكري) بك بالهتاف، في سعادة واضحة، وهو يشير إلى أجهزة الكمبيوتر الثلاثة، التي احتلت مكانا متميزا، في قسم الحسابات، قائلا:

- لقد وصلت الأجهزة الجديدة.. العمل سيتحسن حتما، وستزداد كفاءته مرات ومرات..

شعر بغصة في حلقه، وهم يقول شيء ما، إلا أنه عجز عن هذا، فأطبق شفتيه في مرارة، ولكن (شكري) بك وضع يده على كتفه في مودة، ودفعه في رفق نحو المهندسين الثلاثة، وهو يشير إليه، ويقدمه لهم، قائلا:

- الأستاذ (عاطف).. مدير حسابات الشركة..

ثم التفت إليه مستطردا بابتسامة كبيرة:

- ومدير قسم الكمبيوتر الجديد..

ووثب قلبه بين ضلوعه، من شدة الفرح هذه المرة..

والتقت عيناه بعيني (شكري) بك، الذي ربت على كتفه، مضيفا:

- إننا نعتمد عليه هنا..

ولم يدر الأستاذ (عاطف) ماذا أصابه؟!

كل ما يذكره هو أنه قد تدفع يصافح مهندسي الكمبيوتر الثلاثة في حرارة، وهو يسألهم في لهفة وحماس:

- متى سينتهي عملكم؟! إننا نشتاق للعمل على الأجهزة الجديدة..

والأكثر أهمية، وإثارة للدهشة، أنه قد بذل جهدا مضنيا بعد شهر واحد، ليقنع زوجته بإطلاق اسم جديد مبتكر، على مولودهما الأخير..

اسم (كمبيوتر)

(تمت)

التمـــــاس

65- التماس..

سيادة النائب العام..

مقدمه لسيادتكم السجين (م. م.)

لا يمكن لسيادتكم أبدا أن تتصور مدى ما أشعر به من حرج، وأنا أكتب لك هذه الرسالة، من سجن.....، حيث أقضي فترة عقوبة، قدرها عام واحد؛ بسبب حادثة سرقة، ألقت بي هنا، منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر..

وأنا واثق من أن أول ما سيخطر ببالك، يا سيادة النائب العام، هو أنني أتقدم بهذا الالتماس للإفراج عني، مدعيا أنني مظلوم، كما تقول معظم الالتماسات، التي تصلك في المعتاد..

ولكن هذا غير صحيح..

فأنا يا سيادة النائب العام مذنب..

مذنب، بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ..

ولكنني لست مجرما..

وهنا تكمن المشكلة..

أو القضية، كما أحب أن أسميها..

لقد ارتكبت جريمة السرقة هذه، بسبب رفاق السوء (كما كان أبي يطلق عليهم، ويا ليتني استمعت إليه حينذاك)..

لقد تحالفوا مع الشيطان؛ ليزينوا لي الأمر، ويقنعوني بأن ارتكاب الجريمة ينقلني من عالم الصغار إلى عالم الكبار، وأنه جواز مروري إلى الزعامة والاستقلال..

وصدقتهم..

وكانت هذه هي النتيجة....

السقوط، والفضيحة، والمحاكمة، والعار..

ثم السجن..

وعلى الرغم من كل المشاعر التي انتابتني، وأنا أدخل السجن لأول مرة، إلا أن شيئا مما شاهدته داخله لم يكن يخطر ببالي، أو يراودني حتى في أبشع كوابيسي..

لقد وجدت نفسي في عالم عجيب، مخيف، أكثر بشاعة ألف مرة، من كل ما يتصوره من بخارجه..

عالم كل لحظة فيه تكفي لإفساد كل شيء جيد، في أي مخلوق حي..

وحديثي هذا لن يروق للمسئولين عن السجون، وسينفونه بشدة، ويستنكرون ما أقوله، وسيؤكدون أن كل شيء على ما يرام، وليس في الإمكان أفضل مما كان، تبعا لنظرية إخفاء الرأس في الرمال، ما دامت الكارثة لم تحدث بعد، ولأنني لست مجرما بطبعي، ومعدني طيب كما يقولون، فقد هالني ما رأيته في السجن، وارتعت لما سيئول إليه حالي فيه..

ففي السجن يا سيدي تنتشر كل أنواع الجرائم، بأكثر مما يحدث خارجه..

السرقة.. القتل.. النصب.. تجارة المخدرات، وغيرها..

مما لم ولن يخطر ببالكم قط، ما دمتم خارج أسواره..

وبنظرة موضوعية، صنعتها أيام السجن، الممزوجة بالهلع والذعر والارتياع، أدركت انني، وإن كنت لم أدخل السجن

مجرما، فسأخرج منه كذلك بالتأكيد.. فهنا إما أن تصبح ذئبا، أو تأكلك الذئاب..

وذناب السجن، إن لم تكن تدري يا سيدي، أكثر وحشية وشراسة ألف مرة، من ذئاب البرية..

بل قد تجد بعض الرحمة في ذئاب البرية، ولكنك حتما لن تجدها عند ذئاب السجن..

لذا، فقد وجدت نفسي أتساءل يا سيادة النائب العام، لماذا لا تنفذون فيّ حكم الشريعة؟

لقد سرقت، واعترفت بذلك، فلم لا تقطعون يدي؟

أرجوك يا سيادة النائب العام..

أرجوك..

أرجوك..

أقم عليّ الحدّ، الذي أقره الله (سبحانه وتعالى) ...

اقطعوا يدي..

بل يدي الاثنتين..

ولكن لا تضعوني في السجن..

لا تصنعوا مني مجرما..

صدقني يا سيدي، إنكم بهذا توفرون كل ما تنفقونه على المسجونين من أموال دافعي الضرائب، وترهبون اللصوص والمجرمين، وتقللون معدلات الجريمة.. والأهم من هذا، أنكم ستنقذون شرع الله (سبحانه وتعالى)..

ولهذا يا سيدي، ولكل ما سبق، فأنا ألتمس منك الرحمة..

ارحمني يا سيدي واقطع يدي، جزاء ما اقترفته..

ولكن أخرجني من هذا الجحيم، الذي تطلقون عليه اسم السجن.

أرجوك يا سيادة النائب العام..

أرجوك ألف مرة.

المعذب (م. م.)

(تمت)

أبيض وأسود

66- أبيض وأسود..

«(ثناء).. هل يمكنني أن أتحدث معك لدقيقة؟!»

رفعت (ثناء) عينيها العسليتين عن أوراقها في بطء، وهي تتطلع إلى زميلها في البنك، والذي بدا مرتبكا أكثر مما ينبغي، وتساءلت في أعماقها عن سر مطلبه هذا، على الرغم من أنهما يعملان في قسمين مختلفين تماما، ولا يلتقيان إلا نادرا، ثم لم تلبث أن تنحنحت، واعتدلت في مجلسها، وهي تقول برصانة زائدة:

- تحت أمرك يا أستاذ (يوسف)..

بدا لها (يوسف) أكثر ارتباكا، وهو يزدرد لعابه، وينقر بأصابعه على سطح مكتبها في عصبية، قائلا:

- أريد أن أتحدث إليك لدقيقة واحدة..

لم تفهم لماذا كرر قوله، فتنهدت قائلة:

- كلي آذان مصغية..

از درد لعابه بصوت مسموع هذه المرة، وداعب رباط عنقه في ارتباك أكثر، وهو يجيب بصوت خافت، وكأنما يخشى أن يسمعه أحد:

- وحدنا..

هتفت بدهشة بالغة:

- وحدنا؟!

ارتفع صوتها، وهي تطلق هتافها، على نحو جذب أنظار الجميع، وجعلهم يلتفتون إليهما، فبدا الضيق على وجه (يوسف)، وهو

يقول، في شيء من العصبية:

- لو سمحتِ..

أنبها ضميرها، لأنها أحرجته على هذا النحو، ولم تجد أمامها وسيلة للاعتذار، سوى أن نهضت مغمغمة:

- تحت أمرك.

قطعا معا ممرا صغيرا يربط بين حجرتيهما، وتوقفا عند تجويف في نهايته..

وتحدثا..

والعجيب أنه كان دقيقا للغاية، فلم يستغرق حديثه معها سوي دقيقة واحدة بالضبط..

ولكنه، عندما انصرف، كان قد ترك في أعماقها دهشة وحيرة شديدتين..

للغاية..

دهشة وحيرة لم تفارقاها، حتى عادت إلى منزلها، وأبدلت ثيابها، ثم ذهبت إلى أمها في المطبخ، وتحدثت معها قليلا، قبل أن تستجمع سعادتها، وتقول في كلمات سريعة:

- اليوم جاءني عرض زواج..

التفتت إليها أمها بوجه متهلل، وهي تهتف:

- عريس؟!

أومأت (ثناء) برأسها في صمت، فتركت أمها ما بيدها لتسألها في لهفة:

- من هو؟! وماذا يعمل؟؟

أجابتها (ثناء)، وهي تتظاهر باللامبالاة:

- اسمه (يوسف)، زميلي بالبنك..

سألتها أمها بلهفة أكثر:

- وما رأيك؟!

ترددت (ثناء) بضع لحظات، قبل أن تجيب:

- إنه شاب متدين ملتزم، ناجح في عمله، من أسرة كريمة، ولكن..

بترت عبارتها عند هذا الحد، وبدت حائرة مضطربة، فقالت أمها، في محاولة لتشجيعها على الاستطراد:

- ألا يمتلك ما يكفي؟

قاطعتها (ثناء) بسرعة:

- لديه شقة في (الدقي)، وسيارة صغيرة، ويقول: إنه مستعد لكل طلباتنا..

تراجعت أمها، قائلة في دهشة:

- ماذا هناك إذن؟!

ترددت (ثناء) طويلا هذه المرة، وبدت أكثر حيرة واضطرابا، قبل أن تجيب في خفوت شديد:

- إنه أسود.

خيل لأمها أنها لم تسمع الجواب، فمالت نحوها، متسائلة:

- ماذا؟!

هتفت (ثناء) في عصبية:

- أسود.. إنه أسود.. زنجي.. أشبه بمواطني جنوب (إفريقيا).

صمتت والدتها بضع لحظات، وهي تتطلع إليها، قبل أن تسألها بابتسامة حائرة:

- وماذا في هذا؟!

لوحت بذراعها، مجيبة في عصبية:

- سيكون التناقض بيننا كبيرا وواضحا.. أنا بيضاء جدا كما تعلمين.. ثم إنني لا أتصور أن أنجب أبناء بلونه هذا..

تطلعت إليها أمها في صمت لوقت آخر، ثم لم تلبث أن ابتسمت، وربت على كتفها، قائلة:

- إنه شأنك يا بنيتي.. اقبلي أو ارفضى، ولكن خذيها نصيحة من أمك، ولا تجعلي هذا سببا للرفض أو القبول.

سألتها باضطراب واضح:

- كيف؟

أجابتها أمها في حنان:

- كلنا بشر يا بنيتي.. كلنا عباد الله (سبحانه وتعالى)، أيا كان لوننا.. أبيض.. أسود.. أصفر.. أحمر.. أو حتى بنفسجيا.. لا فرق بيننا إلا بالتقوى وحدها.. ثم إنه من أدراك أن صاحب البشرة البيضاء يحمل في أعماقه قلبا أبيض؟! ربما كان قلبه أشد سوادا من ظلمة القبر..

هزت (ثناء) رأسها في حدة، قائلة:

- ولكنني لا أستطيع احتمال هذا.

أومأت أمها برأسها متفهمة، وغمغمت:

- هذا شأنك يا بنيتي..

قالتها، وعادت إلى عملها في هدوء، ولكن (ثناء) لم تنصرف.. لقد فركت كفيها بضع لحظات في عصبية، قبل أن تقول:

- لقد طلبت منه أن يمنحني مهلة للتفكير..

غمغمت أمها، دون أن تلتفت إليها:

- حسنا فعلت.

قالت بنفس العصبية:

- لم يعترض، وأخبرني أنه سينتظر، حتى لو استغرق الأمر دهرا كاملا..

غمغمت أمها:

- عظيم.

فركت (ثناء) كفيها بعصبية أكثر، قبل أن تقول في حدة:

- ولكنني سأرفض في النهاية..

تمتمت أمها:

- هذا شأنك.. كل شيء قسمة ونصيب..

لم يعد هناك ما يقال بعدها..

لذا، فقد انصرفت (ثناء)..

ولكن الحيرة والقلق لم ينصرفا عن ذهنها قط..

لقد لازماها لوقت طويل للغاية..

شهر كامل لم يفارقاها..

ولم تحسم فيه أمرها.

ولقد التزم (يوسف) بكلمته، طوال هذا الشهر..

إنه لم يسألها قط عن قرارها..

ولم يطرح الأمر مرة ثانية قط..

عملهما في قسمين مختلفين ساعده على هذا، وإن لم تخف عيناه نظرة اللهفة والترقب، التي تقفز إليهما، كلما التقيا، أو وقع بصره عليها..

ومع مرور الأسبوع السادس، اختفت تلك النظرة من عينيه، واحتلت محلها نظرة حزينة صامتة، وكأنما أدرك أنها قد رفضته، دون أن تفصح عن هذا..

ولأسبوع آخر، راح يتحاشى مقابلتها، حتى لا تفصح عيناه..

عن عذابه..

ولكن للقدر تصاريفه..

فعلى الرغم من أن أحدا لا يعلم ما بينهما، أصدر مدير البنك قراره بترقية (يوسف) إلى درجة رئيس قسم..

نفس القسم، الذي تعمل فيه (ثناء)..

وهنا هبط قلبها بين قدميها..

لقد أصبح رئيسها، بعد أن أدرك أنها قد رفضته..

وسينتقم منها حتما...

كل الرجال يفعلون هذا..

لا أحد منهم يحتمل رفض امرأة له..

ولأن تلك الفكرة الأخيرة قد سيطرت عليها تماما، فقد استقبلت يومه الأول، في منصبه الجديد، بصرامة ورصانة حادتين، بديا معًا أشبه برد فعل عدواني، لم يجد أحد ما يبرره..

ولكن العجيب أنه قد استقبل هذا بهدوء شديد، ودون لمحة واحدة من الغضب..

كان حنونا، راقيا، متفهما، إلى حد لم تتصور وجوده..

ولكنه ما زال يتحاشى النظر إلى وجهها..

ما زال يخفي عينيه عنها...

وفي أعماقها، تولد شعور قوي بالندم وتأنيب الضمير..

ولأنها شجاعة واثقة، فقد ذهبت إليه مباشرة، قائلة:

- أستاذ (يوسف).

رفع عينيه إليها في تردد متوتر، وأطل منهما تساؤل قلق، فأكملت:

- أعتقد أنني قد أسأت استقبالك؛ بسبب..

قاطعها بسرعة:

- لقد نسيت هذا تماما.

نطقها بحنان جارف حزين، اختلج معه قلبها، قبل أن تتراقص على شفتيه ابتسامة باهتة، وهو يتمتم مكملا:

- ثم إنه لن يمكنني أن أغضب منك قط.

قالها، ثم استدرك مرتبكا:

- أعني أنك أفضل موظفة هنا، و..

قاطعته هي هذه المرة:

- أما زلت تنتظر؟!

رأت في وضوح تلك الارتجافة، التي سرت في جسده كله، وهو يتطلع إليها مبهورا، قبل أن يهمس:

- الدهر لم يمض بعد..

تهللت أساريرها، وهي تقول في خجل وسعادة:

- سأخبر أبي أنك ستزورنا غدا.

سألها بكل لهفة الدنيا:

- ألا يمكنني أن آتي اليوم؟!

وفي نهاية الأسبوع الثامن، وعندما التف الزملاء حولهما يهنئونهما بدبلتي الخطبة، اللتين تتألقان في إصبعيهما، وفرحة الدنيا كلها تطل من عيونهما، جذبت إحدى الزميلات (ثناء) إليها، وهمست في أذنها:

- مبروك.. إنه شخص ممتاز، ولكن المشكلة أنه أسود، و..

وبدهشة غاضبة مستنكرة، التفتت إليها (ثناء)، هاتفة:

- وماذا في هذا؟!

(تمت)

قطرة حب

67- قطرة حب..

«سن الثلاثين يقترب..»

قفز هذا الخاطر المفزع إلى رأس (سلوى)، وهي تصفف شعرها بعناية فائقة كعادتها، أمام المرآة الكبيرة في حجرتها، في ذلك الصباح المشمس الجميل، وفي قلق ليس له ما يبرره، مالت تلقي نظرة فاحصة على ملامحها..

ما زالت فاتنة ساحرة كما هي..

لا تجاعيد أو جلدا داكنا، في أي مكان من بشرتها، وبخاصة منطقة ما تحت العينين..

كل صديقاتها يحسدنها في غيرة، على حسنها وجمالها، وشعرها الكستنائي الناعم، وعينيها العسليتين الناعستين..

كلهن يجمعن على أنها أكثرهن سحرا وجاذبية وأناقة..

ولكن العجيب أنها وحدها لم تتزوج بعد..

جميعهن تزوجن وأنجبن، قبل أن يبلغن الثامنة والعشرين من العمر.

أما هي، جميلة الجميلات، وساحرة البنات، ودرة الشلة، فما زالت كما هي..

عذراء لم تتزوج...

ولم ترتبط حتى بعلاقة حب قوية..

كثيرون وقعوا في غرام أناقتها، وهوى جمالها، وسحر فتنتها.

ولكن قلبها لم يقع في حب أحدهم قط..

لم تشعر أبدا بالحب..
أو حتى بقطرة منه..
ولهذا رفضت عشرات العرسان..
هذا لأنه بدين..
وذاك لأنه قصير..
وآخر نحيل..
ورابع بخيل..
ويوم بعد يوم، تناقص عدد المتقدمين..
وتزايدت سنوات عمرها..
ثم فجأة، وجدت نفسها وحدها..
حضرت أكثر من عشر حفلات زفاف لبنات الشلة..
وحضرت (سبوع) المواليد أيضا..
وفي كل مرة كانت تفتن الكل، وتوقع قلبا جديدا..
أو عدة قلوب..
إلا قلبها هي..
فبالنسبة إليه دائما، كانت النتيجة: لم ينجح أحد..
ثم فجأة، ومن عامين كاملين، تحولت العبارة إلى مضمون آخر..
لم يتقدم أحد..
والعجيب أنها لم تنتبه إلى هذا في البداية..
ولكن أمها فعلت..

أمها لاحظت أن أحدا لم يعد يتقدم لطلب يد ابنتها الجميلة، وأبدت قلقها الشديد من هذا..

ولكنها لم تبال - حينذاك - أو تهتم..

فما زالت جميلة، أنيقة، وكل صديقاتها، وحتى أزواجهن، يعلنون هذا صراحة..

وكانت هذه هي البداية.

أزواج صديقاتها..

إعجابهم بها، في كل حفل أو مناسبة، أثار غيرة صديقاتها وقلقهن..

ورويدا رويدا، رحن يحففن من ارتباطهن بها، ويقللن دعوتها أو زيارتها..

ومع مرور الوقت، انقطعت صلاتها بهن أو كادت..

وبدأت تنتبه للأمر..

لقد تجاوزت التاسعة والعشرين منذ خمسة أشهر..

وها هي ذي في طريقها إلى الثلاثين..

ويا له من رقم مفزع!!

العشرينات، في أية مرحلة منها، ما زالت تحمل رنة الشباب، ورائحة النضارة..

ولكن الثلاثينات ليست كذلك أبدا..

صحيح أن المرأة تبلغ فيها أوّج أنوثتها ونضجها..

ولكن ليس إذا ظلت عانسًا، بلا زواج...

في هذه الحالة، تصبح الثلاثينات مرحلة انكسار، وانحسار، وانخفاض الفرص إلى الحد الأدنى لذا، فلا بد أن تتزوج بسرعة..

وقبل فوات الأوان..

ولكن كيف؟!

لقد انقطع سبيل العرسان بغتة، ولم تعد هناك فرصة واحدة..

إلا بمصادفة بحتة..

والعجيب أن هذه المصادفة قد حدثت..

كانت تعاون طفلة صغيرة على عبور الطريق، وهي في طريقها إلى النادي، عندما وقع بصرها عليه..

كان يقف هناك، على الرصيف المقابل، يحدق فيها بانبهار شديد، وينقل بصره في دهشة وإعجاب، بينها وبين الطفلة الفقيرة، ذات الثياب الرثة، وكأنه يتساءل: كيف اجتمع هذا وذاك؟!

كيف يتعلق الفقر بيد الحسن والجمال، على هذا النحو؟!

ولأول مرة في حياتها، وجدت نفسها تشعر بخجل شديد، مع نظرات الانبهار والإعجاب في عينيه، ولم تكد تبلغ الرصيف الأخر، حتى منحت الطفلة الصغيرة جنيها، وأسرعت تدلف إلى النادي في ارتباك..

وحاولت أن تطرد كل هذا من ذهنها..

ولكنها لم تنجح أبدا.. ولم تدر لماذا؟!

إنه لا يشبه، ولا يمكن أن يشبه فارس الأحلام، الذي صنعته في خيالها، وعاشت معه أجمل أحلامها..

إنه أصلع، قصير، أسمر البشرة، يرتدي منظارا طبيا سميكا، وقميصا لا يتفق قط مع سرواله الواسع...

ربما هي نظرة الانبهار في عينيه، والتي لم تلمح مثلها منذ ما يقرب من العام!

ربما!

المهم أنه هو أيضا لم يمنحها الفرصة للنسيان لقد فوجئت به داخل النادي، يحدجها بنفس النظرة المسحورة..

المبهورة..

وفي عصبية خجلي، غمغمت:

- ما هذا بالضبط؟!

سألتها قريبتها في حيرة:

- ماذا حدث؟

أشارت بطرف خفي إليه، قائلة:

- هذا الرجل هناك، يرمقني بنظراته منذ ساعة كاملة..

تطلعت قريبتها إلى الرجل، قبل أن تهتف، بكل دهشة الدنيا:

- الدكتور (إيهاب).. مستحيل!

سألتها في حدة:.

- ما هو المستحيل؟!

أجابت قريبتها مبهورة:

- الدكتور (إيهاب) هذا أستاذ جامعي، في كلية الهندسة، وهو رجل وقور رصين للغاية، و..

صمتت لحظة، ثم مالت نحوها، وضحكت مضيفة:

- وأعزب

تضرج وجهها بحمرة الخجل، وهي تغمغم:

- وما شأني أنا؟!

ضحكت قريبتها مرة أخرى، وقالت:

- من نظراته هذه، والتي لم أره يرمي بها أنثى واحدة، طوال الخمس سنوات الأخيرة، أعتقد أنه شأنه هو..

ثم عادت تميل نحوها، مستطردة في خبث:

- وربما أصبح شأنك أيضا.

تضرج وجهها بخمرة الخجل والحياء، وهي تغمغم في أعماقها:

- ذلك الأصلع القصير؟! مستحيل!

ولكن يبدو أن قريبتها كانت بعيدة النظر بالفعل..

ففي اليوم التالي مباشرة، تقدم الدكتور (إيهاب) لطلب يدها..

ولقد فاز بإعجاب واحترام والدها ووالدتها وشقيقها على نحو عجيب، حتى إنهم جميعا راحوا يمتدحونه بشدة، ويحثونها على قبول مطلبه، على الرغم من هيئته، ومن الحلة السوداء، التي ارتداها على حذاء بني اللون..

ولقد قضت ليلتها كلها تدير الأمر على كل الوجوه..

إنه أستاذ جامعي، وأحواله المالية والاجتماعية مناسبة تماما..

ثم إنها لم تعد تحتمل تعامل صديقاتها معها، وكأنها لصة رجال، تسعى دوما لسرقة أزواجهن، بجمالها وعذوبتها وأناقتها..

لذا، فقد قبلت الخطبة..

وفي الحفل، الذي أقيم بهذه المناسبة، كانت تخشى أن يسخر الجميع منه ومن مظهره، إلا أن أحدا لم يفعل، حتى أخبث زميلاتها، وكأنهن جميعًا قد ارتحن لخطبتها، حتى تنزاح منافستها عن كواهلهن..

وبعد الخطبة مباشرة، ذهبت السكرة وجاءت الفكرة..

هل سيمكنها أن تحتمل الدكتور (إيهاب) هذا؟!

هل يمكنها أن ترسم في ذهنها صورتهما معا، في حفل الزفاف؟!

إنه ليس فارس أحلامها، أو فارس أحلام أية فتاة في الدنيا..

هي بالذات كانت تستحق من هو أفضل بكثير..

ولقد راحت تردد هذا لنفسها طوال الوقت، حتى لم تعد تطبيق رؤيته..

صحيح أن دبلته ما زالت في إصبعها، ولكنها لا تحتمل الجلوس معه، والتحدث إليه..

ولا تطيق دعاباته السمجة، أو مجاملاته السخيفة..

كل شيء فيه يحنقها، ويثير توترها وسخطها..

لن يصبح فارس أحلامها أبدا..

أبدا..

والواقع أن الرجل كان مهذبا حنونا للغاية..

وكان يبذل قصارى جهده لإسعادها، وخطب ودها..

ولكنها كانت تستقبل كل هذا بجفاء وبرود عجيبين، وفي كل مناسبة تصرّ على تذكيره بأنها جميلة الجميلات، وبأنه كان باستطاعتها الفوز بزوج أفضل منه بكثير..

والعجيب أنه كان يحتمل...

ويحتمل..

ويحتمل..

ومن جانبها، كانت تفعل كل هذا بمنتهى الثقة؛ لأنها تدرك تماما أنه لن يترك فرصة كهذه، ولن يتخلى عن فاتنة مثلها، مهما قالت أو فعلت..

لهذا كانت الصدمة عنيفة..

فذات ليلة، كانا مدعوين لحضور حفل عيد ميلاد إحدى صديقاتها، عندما حضر لاصطحابها، مرتديا حلة بنية اللون وحذاء أسود، وجورب أبيض، ورباط عنق أزرق، وهنا، وجدت نفسها تنفجر فيه، بكل غضبها وحنقها، صائحة:

- ما هذا الذي ترتديه؟! هل تريد أن تصبح أضحوكة الجميع؟!

هل تريدهم أن يسخروا مني؛ لأنني تزوجت شخصا لا يدرك حتى كيف يرتدي ثيابه؟! هل تحب أن..

فوجئت به يقاطعها فجأة بحدة:

- كفي يا (سلوى).. كفى..

حدقت في وجهه بمنتهى الدهشة، وكأنها لم تتصور أبدا أنه قادر على الغضب والثورة، في حين تابع هو بنفس الحدة:

- لا تتحدثي معي أبدا بهذا الأسلوب.. لقد احتملت عجرفتك وغرورك وزهوك بنفسك طويلا على أمل أن تنضج مشاعرك، وتهدأ انفعالاتك، وتدرك أن الله (سبحانه وتعالى) قد جعل الزواج مودة ورحمة، وليس صراعا لإثبات الوجود وتأكيد الذات..

كانت تشعر بارتباك شديد، أمام ثورته المباغتة، إلا أن عنادها وغرورها جعلاها تندفع قائلة:

- أنا أيضا احتملت ذوقك الفاسد في...

قاطعها بحدة أكثر:

- مسألة الذوق هذه حجة سخيفة وتافهة، فقد كان بإمكانك توجيه النصح لى، أو اختيار ملابسي، أو تعليمي الاهتمام بالمظهر، وكنت سأستمع إليك جيدا، وأبذل قصارى جهدي لتنفيذ هذا، على الرغم من اقتناعي الشديد بأن الجوهر أكثر أهمية من المظهر.. ولكن لا ضرر من جمع الحسنيين.. كنت سأفعل كل ما يمكن أن يرضيك، لو..

بتر عبارته بغتة، وتطلع إليها بتأثر كبير، قبل أن يضيف بصوت متهدج:

- لو أنك حملت لي في قلبك قطرة حب واحدة..

واتسعت عيناه، وهي تحدق فيه بدهشة..

لماذا اختار هذا المصطلح بالذات؟!

لماذا (قطرة حب)؟!

إنها لم تنطقه أمامه قط!!

فمن أي مكان في كيانها انتزعه؟!

وبكل مرارة الدنيا، تابع (إيهاب):

- لو أن قلبك حمل قطرة واحدة من الحب تجاهي، لأمكنك تجاوز كل هذا، والنظر إلى أي شيء جيد في حياتي، أو شخصيتي أو تكويني.. ولكن من الواضح أن هذه القطرة مفقودة، حتى إنني أتساءل لماذا وافقت على خطبتي، لو أنك تبغضينني على هذا النحو؟!

دفعها العناد إلى أن تقول في حدة:

- نفسك أولا، لماذا هرعت لخطبتي؟! لقد بهرك جمالي وسحري، وخليت لبك أناقتي و...

قاطعها بدهشة كبيرة:

- جمالك وسحرك وأناقتك؟! ما الذي جعلك تتصورين هذا؟!

- هل تنكر هذا؟! هل تنكر أنك قد انبهرت بي..

أجابها بدهشة أكبر:

- لقد انبهرت بالفعل، ولكن ليس بجمالك وسحرك وأناقتك..

هتفت بعصبية شديدة:

- كاذب..

ولكنه تابع في مرارة:

- إنني أشاهد كل هذا في النادي، منذ عدة سنوات.. أشاهد الجمال والسحر والأناقة في العديدات.. وفيك بالذات، دون أن يثير هذا اهتمامي لحظة واحدة.

حاولت أن تبدو صلبة عنيدة، ولكنها فوجئت بصوتها يتخاذل، وهي تسأله:

- لماذا كنت مبهورا إذن؟!

هز رأسه، وهو يجيب في تأثر شديد:

- كنت مبهورا بعطفك وحنانك ورقة مشاعرك، عندما عاونت طفلة فقيرة رثة الثياب، على عبور الطريق، على الرغم من جمالك وأناقتك.. قليلات هن من يفعلن هذا.. قليلات هن من يتمتعن بقلب ناصع البياض، وروح بسيطة كروحك، على الرغم مما يدفعك إليه الشيطان أحيانا، من غرور وغطرسة، لا تناسبان أعماقك الحقيقية..

ولأول مرة في حياتها، وجدت قلبها ينتفض بين ضلوعها في عنف..

أحقا ما يقول؟!

أهذا ما بهره منها بالفعل؟!

العطف والحنان، ورقة المشاعر؟!

- لن يمكنني الاستمرار يا (سلوى)..

حدقت في وجهه بذعر، وهو يواصل:

- لن يمكنني المضي، ما دمت قد فشلت في زرع قطرة حب واحدة في قلبك.. لن يمكنني إكمال طريق، بدأ بحاجز هائل كهذا.

وبأصابع مرتجفة، انتزع دبلتها من إصبعه، ووضعها في راحتها، وهو يضغط يدها بحنان دافق، قائلا، بصوت حمل حزنا بلا حدود:

- أبلغي اعتذاري لوالدك ووالدتك وشقيقك.. أخبريهم أنني كنت شخصا فظا سيئا، ولم يمكنك الاستمرار معي.. أخبرى الجميع أيضا أنك أنت فسخت خطبتنا، حفاظا على سمعتك ومظهرك، ولكن احتفظى بالشبكة، لأنني أنا المسئول عما حدث، وسيظل هذا سرا بيننا.. أقسم أن أحدا لن يعلم به أبدا..

وتراقصت الكلمات على شفتيه، مع الدمع الذي ترقرق في عينيه، وهو يتمتم:

- الوداع يا (سلوى).. صدقيني.. لن أنساك أبدا..

اتسعت عيناها عن أخرهما، ولم تتحرك من مكانها خطوة واحدة، وهو يغادر المنزل في صمت، ويغلق الباب خلفه في هدوء شديد، وكأنما يخشى أن يزعجها بصوته..

ولم تذهب إلى حفل عيد الميلاد، بل ولم تخبر أسرتها حتى بما حدث..

لقد ظلت يدها مطبقة على دبلته طوال الوقت، وكأنما تخشى أن تفتح أصابعها، فتنفلت منها، كما أفلت هو..

ولأول مرة منذ عرفته، راحت تستعيد كل أفعاله وتصرفاته معها..

كل حبه، وحنانه، ودفئه واحتماله..

ودون أن تدري، وجدت دموعها تغرق عينيها..

وشعرت بقلبها يخفق ويرتجف..

ويبكي..

وفي أعماقه انسابت تلك القطرة..

قطرة الحب..

ودون أن تتردد لحظة واحدة، وعلى الرغم من أن عقارب الساعة كانت قد تجاوزت منتصف الليل، طلبت رقم منزله..

وما إن سمعت صوته، حتى رقص قلبها بين ضلوعها، وارتجفت الكلمات على شفتيها الجميلتين، وهي تقول بكل حب ودفء وحنان الدنيا:

- (إيهاب).. أنا آسفة..

سمعته يهتف، بكل دهشة وفرحة الدنيا:

- (سلوى)؟!

انهمرت دموعها مرة أخرى، وهي تقول بنفس الدفء والحب والحنان:

- تعال.. أنا أريدك..

هتف بصوت حمل قدرا من السعادة، يكفي العالم كله:

- افتحي الباب يا (سلوى).. حتى لا أخترقه من فرط سرعتي.

أنهت المحادثة، وقفزت إلى دولاب ملابسها؛ لتنتقي أجمل أثوابها من أجله..

من أجله وحده..
وفي أعمق أعماق قلبها، راحت تلك القطرة تتحول إلى نهر..
نهر من الحب..
بلا حدود..

(تمت)

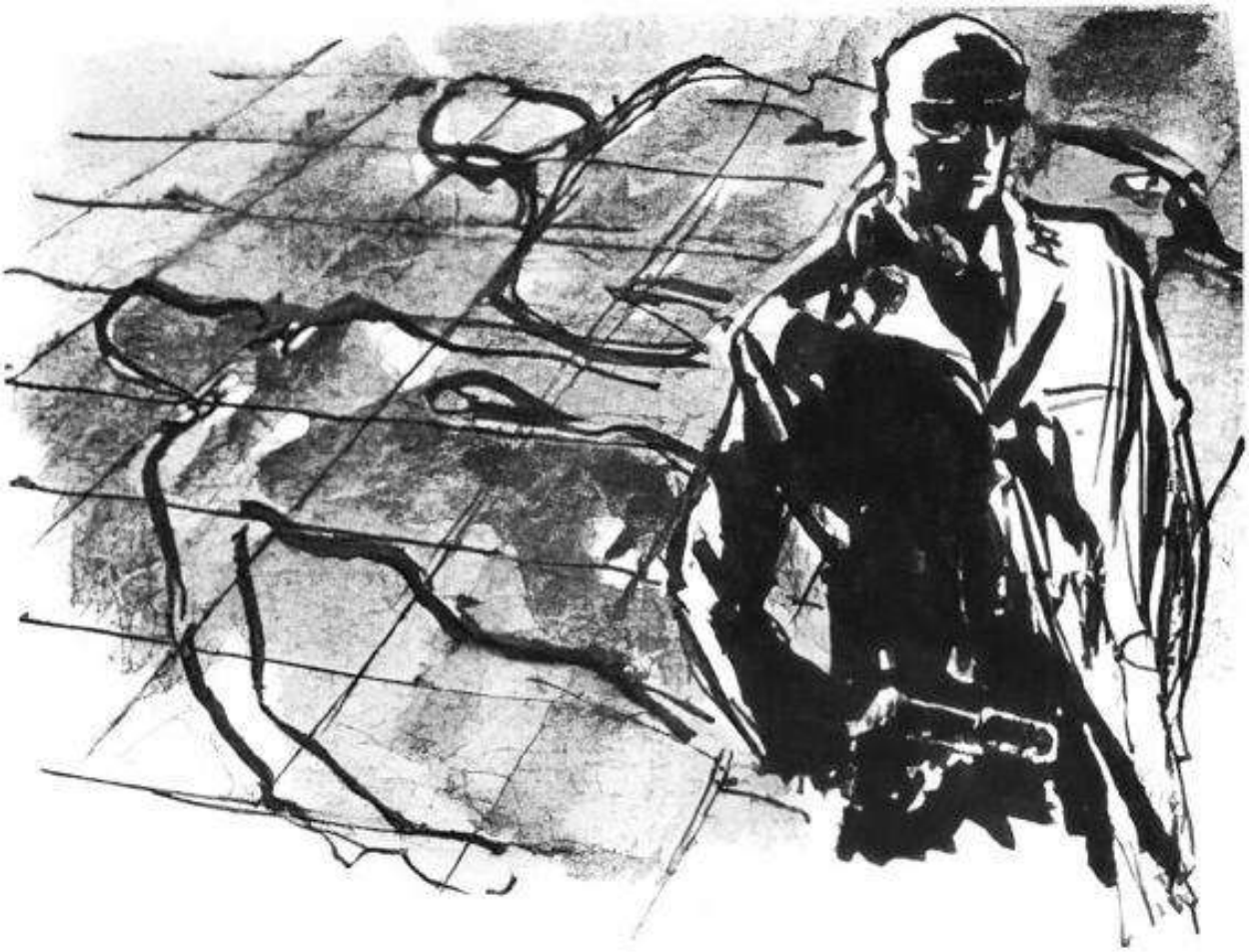

دليـــل ..

68- دليل..

(أيمن منصور).. ضابط مباحث القسم..

شددت قامتي، ومنحت صوتي كل حزم وصرامة الدنيا، وأنا أقدم نفسي لتلك الراقصة، ذات السنوات الثلاثين، التي غمرت وجهها بمحتويات متجر كامل من مساحيق التجميل وأدوات الزينة، في محاولة لإخفاء تجعيدات مبكرة، نشأت من الإسراف في السهر والابتذال وتناول المشروبات الروحية، وعوامل أخرى عديدة، لا مجال هنا لذكرها..

ولقد أفلح أسلوبي بالتأكيد، فلقد حدقت في وجهي بضع لحظات في حذر قلق، قبل أن تقول في شيء من العصبية: - إنني أرتدي زيا قانونيا، ولا أتجاوز الـ..

قاطعتها بنفس الصرامة:

- لا شأن لي بشرطة الآداب.

سألتني في حذر أكبر:

- ماذا تريد إذن؟!

أدرت بصري إلى ذلك الضخم الذي يرافقها، والذي بدا عليه مزيج من الشراسة والبلاهة، وأنا أجيب:

- أنا هنا للتحقيق في الحادث.

شحب وجهها، وامتقع، وزاغت عيناها، في حين انعقد حاجبا الضخم، وهو يتطلع إليها في قلق شديد، قبل أن يسألني في خشونة:

- هل يمكنني الاطلاع على هوِّيتك الرسمية؟!

لم يكن هذا مطلبا مألوفا، فالكل يصاب بالرعب عادة، عندما أبدأ في التحقيق معه، ولم يكن من التقليدي أو المعتاد، في (مصر) بالذات، أن يؤكد ضابط المباحث هويته، إلا أنني، وعلى الرغم من هذا، أخرجت هويتي الرسمية، وواجهته بها، قائلا في شراسة تنافس شراسته:

- ها هي ذي.. ألديك أية شكوك أو اعتراضات الآن؟!

التقط الهوية، وحدق فيها ببلاهة عجيبة، فتجاهلته أنا تماما، وأنا أسأل الراقصة في صرامة متحدية:

- سمعت أن لديك ما يفيد التحقيق.. أهذا صحيح؟!

انكمشت في مكانها، وهي تسأل:

- من أخبرك بهذا؟!

ملت نحوها، قائلا في حدة:

- أنت تعلمين من أخبرني.

از دردت لعابها في صعوبة، وتطلعت إلى الأبله الضخم، وكأنما تسأله المشورة، إلا أنه أجابها بنظرة باردة غبية، - الواقع أن موت (سميرة) جاء مفاجئا لنا جميعا، فهي راقصة ناجحة، ولها علاقات واتصالات قوية، والكل هنا كانوا يحبونها؛ لأنها تغمرهم بكل الحب والعطف والحنان، و..

قاطعتها في ضجر صارم

- ماذا لديك بالضبط؟!

تلفتت حولها، وكأنها تخشى أن يسمعها أحد، ثم مالت نحوي، هامسة:

- يقولون إنها كانت على علاقة سرية بأحد الضباط، وأن ذلك الضابط هو الذي..

لم أكن أرغب في سماع ما تقوله، فعدت أقاطعها بصرامة شرسة:

- قلت ماذا لديك؟!

عادت تتلفت حولها، وتتطلع في رعب إلى الضخم، الذي أومأ برأسه إيجابا، وهو يرمقني بنظرة حادة، فازدردت هي لعابها مرة أخرى، في صعوبة أكثر، قبل أن تهمس بصوت شديد الخفوت، حتى إنني ميزت كلماته في عسر:

- أعتقد أن قاتلها قد ترك شيئا ما خلفه.. شيئا لم ينتبه إليه..

غمغم الضخم بصوت خشن:

- المجرم يترك دائما دليلا خلفه.

رمقته بنظرة صارمة ساخرة، تطالبه بأن يطبق شفتيه قبل أن أقطع لسانه القذر.. من يتصور نفسه، هذا العجل التافه، حتى يردد مالا يفهم كالببغاء؟!

ما له هو بالأدلة وتفنيدها؟!

الشيء الوحيد، الذي يمكن أن يفهمه ويستوعبه أمثاله هو القوة..

ولهذا فهم نظرتي الصارمة، وتراجع خطوة مستسلما وخائفا، فاستدرت إلى الراقصة، أسألها في خشونة

- ما الذي تركه خلفه؟!

مالت نحوي، قائلة في خفوت متوتر:

- دليل إدانته.

هي أيضا تتحدث عن الأدلة!

ماذا أصاب الكل؟!

لماذا يتصورون أنهم أبرع وأذكى وأفضل منا، نحن رجال الشرطة؟!

من المؤكد أنها تلك الروايات البوليسية الرخيصة، التي يدمنون قراءتها، والتي يبدو فيها رجل الشرطة وكأنه آخر من يعلم، وآخر من يصل إلى مسرح الأحداث، بعد أن يكون البطل الوسيم قد هزم الأشرار، وفاز بقلب البطلة الحسناء..

يا للسخافة!

وبمنتهى الغلظة والخشونة، سألتها:

- وأين ذلك الدليل؟!

تلفت حولها مرة أخرى، بذلك الأسلوب المستفز، ثم حلَّت حزامها السخيف، وأدارت حليته دورتين، ثم أخرجت من تجويف خفي فيه دبلة ذهبية صغيرة.. وفي حماس عجيب، وضعت تلك الدبلة أمام عيني، قائلة:

- انظر.. إنها دبلة (سميرة)، التي كانت ترتديها باستمرار، والتي تميزها تلك الماسة في أعلاها، والتي تجعلها شبيهة بالخاتم.. الكل يعلم أنها هدية من صديقها الضابط.

سألتها في حذر، وأنا أتأمل تلك الدبلة الذهبية في إمعان:

- وماذا في هذا؟!

عيناها، وتضاعف حماسها على نحو ملحوظ، وهي تجيب:

- لقد نقشت أسمة داخلها..

اتسعت عيناي في دهشة، وأنا أحدق في الاسم المنقوش داخل الدبلة الذهبية المميزة..

(أحمد)..

فقط (أحمد)..

مددت يدي تناول الدبلة منها، لكنها تراجعت في سرعة، هاتف:

- كم ستدفعون ثمنا لها؟

سألتها في دهشة مستنكرة:

- ثمنا لماذا؟!

أجابتني في شراسة:

- للدبلة.. الدليل.. هل ستحصلون عليه هكذا؟! مجانا؟!

تفجر الغضب في أعماقي، وأنا أصرخ في وجهها:

- هل جننت يا امرأة؟! إنه دليل رسمي.. وثيقة حكومية، لا يمكنك رفض تسليمها، أو بيعها لأحد، ويمكنني أن ألقي القبض عليك الآن، وألقي بك في السجن بلا رحمة، بتهمة إعاقة سير العدالة.

بدا عليها قلق مذعور، وهي تقول:

- عندي محامٍ جهبذ.

قلت بشراسة مخيفة:

- القانون هو القانون.

وهتف بها الضخم في عصبية:

- أعطيه الدبلة.. هيا.

ترددت لحظة، ثم لم تلبث أن ناولتني إياها مغمغة في حنق:

- كان ينبغي أن تدفعوا ثمنها.

أطبقت أصابعي على الدبلة الذهبية في قوة، وقلبي يخفق في عنف، في حين سألني الضخم في عصبية أكثر:

- والآن.. هل حصلت على ما تبتغيه أيها الضابط؟!

أجبته في خفوت:

- ليس بعد.

اتسعت عيونهما في ذعر وارتياع، عندما سحبت مسدسي، قبل أن تكتمل كلمتي، وصوبته إليهما وبكل هلع الدنيا، هتفت الراقصة:

- ما هذا بالضبط؟!

ولم أهتم بإجابة سؤالها..

فقط ضغطت زناد مسدسي مرتين..

وعبر كاتم الصوت، الذي دفعت ثمنا ضخما، خرجت الرصاصتان..

وسقطت الراقصة..

ثم أعقبها ذلك الضخم الأبله، الذي حدق في وجهي لحظة، بذهول مذعور، ثم سقط كالبرميل الفارغ على وجهه..

وبسرعة، أخرجت منديلي، ومسحت بصماتي عن المسدس ثم وضعته في قبضته، وغادرت المكان كالصاروخ، وأنا أقبض على الدبلة الذهبية بكل قوتي..

كانت تحمل اسمي الأول فحسب.. (أحمد)..

ولكنني كضابط مباحث، كنت أعلم أن هذا سيكفي..

الكل يعلم أن الراقصة (سميرة) كان لها صديق من ضباط الشرطة..

ودبلتها تحمل الاسم الأول له..

وهذا طرف خيط ممتاز..

ودليل يكفي أي ضابط مباحث ذكي..

أنا نفسي يمكنني التوصل إلى القاتل، خلال أسبوع واحد..

وخاصة بعد أن يكشف الطبيب الشرعي أن (سميرة) كانت تحمل ابني في رحمها.

ولهذا بالذات، اضطررت لقتلها..

ما كان ينبغي لها أبدا أن تبلغ هذا الحد..

لقد حذرتها ألف مرة..

ولكن هكذا طبقتها..

أغبياء..

حمقى..

وطموحون..

أما أنا، فمن فئة مختلفة تماما..

لقد أعددت كل شيء بدقة مدهشة، مستغلا كل ذكائي وبراعتي وخبراتي..

وقتلت (سميرة)..

وبعد أن عجز الكل عن التوصل إلى شيء - أي شيء - فوجئت بقصة الدليل هذه..

(سميرة) كانت تخفي عني الكثير..

ولكن كل شيء انتهى الأن..

من حسن حظي أن تلك الراقصة الحقيرة قد أخفت الدليل، متصورة أنه بإمكانها بيعه لمن يدفع الثمن..

جاهلة..

حمقاء..

من حسن طالعي..

ولقد أعددت الأمر بمنتهى الدقة، هذه المرة أيضا..

مسدس مجهول المصدر، وكاتم صوت قديم، وزيارة لم يعلم بها مخلوق واحد..

في هذه المرة لا أثر..

ولا دليل..

وبكل الثقة والهدوء، عدت إلى منزلي، واغتسلت، ثم جمعت كل ما كنت أرتديه في كيس كبير، حتى أتخلص منه تماما..

الخبرة علمتني أن قطرة دم واحدة، يمكن أن تفسد خطة محكمة بأكملها..

والدقة الشديدة مطلوبة، في مثل هذا الموقف، و...

وفجأة، دق جرس الباب..

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف، بعد منتصف الليل، وأنا أقيم وحدي، ولم يعتد أحد زيارتي، في هذه الساعة المتأخرة..

وفي حذر، اكتسبته مع العمل والخبرة، سحبت مسدسي، وأنا أسأل:

- من الطارق؟!

أتاني صوت أعرفه وأحفظه جيدا، يجيب:

- إنه أنا يا (أحمد).. افتح..

أسرعت أفتح الباب، وأنا أهتف في دهشة:

- سيادة اللواء (ناصر) أي..

بترت عبارتي بغتة، وأنا أحدق في مدير المباحث الجنائية والضباط الثلاثة المصاحبين له، فأزاحني هو عن الطريق في صرامة، ودلف إلى المكان، وأشار إلى الضباط الثلاثة إشارة أعرفها جيدا بحكم عملي، فأسرع أحدهم ينتزع مني مسدسي، في حين وقف الثاني أمام الباب في حزم، واندفع الثالث ليختفي داخل الشقة، فهتفت في عصبية:

- ماذا حدث؟!

رمقني اللواء (ناصر) بنظرة غاضبة صارمة، وهو يقول:

- لماذا فعلت هذا؟! لماذا قضيت على مستقبلك بهذه البشاعة؟!

اتسعت عيناي في ارتياع، وتراجعت بحدة وعنف كالمصعوق، وأنا أهتف:

- أنا؟

وبسرعة البرق، راح عقلي يستعيد كل ما حدث..

مستحيل أن يكون هناك خطأ واحد!

أو حتى دليل واحد..

لقد نفذت العملية بمنتهى الدقة..

فكيف انكشف أمري بهذه السرعة؟!....

أمن المحتمل أن يكون أحدهما قد بقي على قيد الحياة؟!

مستحيل!

لقد أطلقت النار على رأسيهما مباشرة.

وأقسم إنني قد شاهدت جزءا من مخ تلك الراقصة، قبل أن..

أنصرف...

كيف انكشف أمري إذن بهذه السرعة؟!

كيف؟!

- المجرم يترك خلفه حتما دليل إدانته.. إنها قاعدة ثابتة ومؤكدة..

نطق اللواء (ناصر) العبارة في صرامة، وهو يتطلع إلىّ غاضبا، فحدقت في وجهه بصمت حائر..

أي دليل يتحدث عنه؟!

إنني لم أترك خلفي أي دليل!

على الأقل لا شيء يمكن أن يقودهم إلى بهذه السرعة!

- والدليل الذي تركته خلفك كان أوضح مما ينبغي..

تلاشت فجأة كل مشاعر الخوف من أعماقي، مع عبارة اللواء (ناصر) الأخيرة هذه، وحل محلها فضول شديد لمعرفة ذلك الدليل..

وفي بطء، وضع اللواء (ناصر) يده في جيبه، ثم أخرجها بالدليل..

وكدت أسقط فاقد الوعي، وأنا أحدق فيه..

لقد كان بالفعل دليلا أوضح مما ينبغي هويتي الرسمية..

تلك الهوية التي أعطيتها لذلك الفحل الغبي والتي نسيت أن أستعيدها منه بعد أن قتلته..

وانهار كل شيء في أعماقي، وزملائي يضعون القيود المعدنية في معصمي، ويقودونني إلى الخارج، وأحدهم يحمل ذلك الكيس الكبير، الذي يحوي ملابسي، وعليها حتما ولو نقطة دم واحدة

يبدو أن ذلك الفحل الأحمق كان على حق..

المجرم يترك خلفه حتما دليل إدانته..

أي دليل.

(تمت)

بشرة بيضاء ..

69- بشرة بيضاء..

خفق قلب (نهلة) في قوة، وهي تلتقط أنبوبة الكريم الجديد من الصيدلي، وراحت تلهث في انفعال عجيب، أدهش الصيدلي نفسه، وهي تنقده الثمن، ثم تضم الأنبوبة إلى صدرها في سعادة جمة، وتهرع بها إلى منزلها وحتى في منزلها، بدت الدهشة على وجه أمها ووالدها، مع تلك الابتسامة الكبيرة التي تملأ وجهها دقيق الملامح، ومرحها الزائد عن الحد، وهي تلقي عليهما التحية، ثم تهرع إلى حجرتها، وتغلق بابها خلفها في إحكام وفي دهشة حائرة، غمغم والدها:

- ماذا أصاب البنت؟! هل ربحت جائزة ما؟!

تطلعت الأم في حنان إلى باب الحجرة، قبل أن تغمغم مبتسمة:

- ليست الجائزة ما يسعد البنات، إلى هذا الحد.

هتف مستنكرا:

- وما الذي يمكن أن يسعدهن إذن؟!

اتسعت ابتسامتها، وهي تقول في خفوت حنون:

- الرجال لا يمكنهم فهم هذا قط.

مط الأب شفتيه، وأشاح بوجهه، ليدفنه في جريدة الصباح، متمتما:

- يا للنساء!

أما (نهلة)، فقد راحت تدور في حجرتها بسعادة غامرة وكأن أنبوبة الكريم، التي ابتاعتها من الصيدلية، تحوي كل أسرار

السعادة والهناء، في الكون كله، وبكل لهفتها وسعادتها، انطلق عقلها يبحث عنه..

عن ذلك الذي خفق له قلبها لأول مرة، منذ وعت عيناها الدنيا..

(ايمن)..

يا إلهي.. كم تحبه..

كم تذوب عشقا وسعادة، كلما وقع بصرها عليه..

إنه، من وجهة نظرها، مثال للشاب الكامل، وفارس الأحلام، الذي تحلم به كل فتاة..

وسيم، أنيق، هادئ، مهذب، وابن لعائلة طيبة ميسورة الحال..

أية فتاة في الدنيا، يمكن أن تسقط أسيرة حبه، من النظرة الأولى..

من وجهة نظرها طبعا..

ولكن المؤسف، في كل هذا، هو أنه لا يشعر بوجودها قط..

صحيح أنه جم النشاط، له روح اجتماعية طيبة، وصداقات بلا حدود، داخل الجامعة وخارجها إلا أنه لم يشعر بوجودها ولو مرة واحدة..

ربما لأنها بطبيعتها خجولة منطوية، لا تميل إلى الاختلاط أو الاجتماعيات..

أو لأنها لا يمكن أن تلفت انتباه أحد..

وخصوصا من كان محاطا بالاهتمام مثله..

وما إن جال هذا بخاطرها، حتى توقف خفقان قلبها، وفوجئت بدلو من المرارة ينسكب في أعماقها، وبكل تلك المرارة، مالت

تتطلع إلى وجهها في المرآة..

كانت ضئيلة الجسد، دقيقة الملامح، عادية القسمات، كما أنها كانت، وهذا هو الأسوأ من وجهة نظرها، خمرية البشرة..

ومن المؤكد، وفقا لتقديرها، أن فتاة خمرية مثلها، لا يمكن أن تلفت انتباه شاب وسيم مثله، محاط دوما بالبيضاوات الجميلات، اللاتي تصلح الواحدة منهن للعمل كنجمة سينمائية، تخلب لب المشاهدين في كل مشهد..

وهي تؤمن تماما، بحكم مشاهداتها وتجاربها المحدودة، أن الرجال في العالم العربي، لا يميلون أو ينبهرون إلا ببيضاوات البشرة فحسب....

كثيرا ما كانت تسمع الكل يمتدحون فتاة ما، ويصفونها بأنها بيضاء كالقشدة.

حتى أمها، كانت تصف دوما جارتهم (دلال) بهذه الصفة، للتأكيد على جمالها وحسنها، وتبرير تهافت العرسان عليها، قبل أن تبلغ العشرين من عمرها..

وفي كل مرة يردد فيها أحد هذا، كانت تنكمش في أعماقها وتنزوي بمشاعرها، وتخفي مرارتها وحزنها، وهي تتطلع إلى بشرتها الخمرية، التي لم توصف بالجمال قط..

وحتى في كل مرة تشاهد فيها مذيعات التليفزيون، أو مقدمات البرامج، أو حتى ممثلات السينما، كانت تدرك أن البشرة البيضاء، والبيضاء وحدها هي سر الحسن والجمال..

والحب..

ولكنها اليوم وجدت الوسيلة إلى عالم الجمال..

ذلك الكريم الذي شاهدت إعلانه في التليفزيون..

الكريم الذي يمنح السمراوات والخمريات بشرة بيضاء..

حتى في الإعلان، لم يهتم الشاب بالفتاة إلا بعد أن اكتسبت بشرة بيضاء..

هذا هو الجمال الذي يعرف به الكل..

الجمال الحقيقي

وفي حماس، أخرجت أنبوبة الكريم من علبتها، وقرأت النشرة المصاحبة جيدا، ثم بدأت تدهن وجهها بالكريم، وهي تحلم باليوم الذي تمتلك فيه سر الجمال والحسن..

وبينما تحلم بهذا، سمعت دقات على باب حجرتها، مع صوت والدتها الحنون الدافئ، وهي تسأل في حذر:

- (نهلة).. هل نمت؟!

أسرعت تفتح الباب لأمها، وهي تهتف بابتسامة كبيرة:

- بل أنا مستيقظة يا أمي.

تطلعت إليها أمها بحنان متسائل، قبل أن تدلف إلى حجرتها، وتجلس على طرف فراشها، متسائلة في حذر أكثر:

- كيف حالك؟!

ضحكت (نهلة)، قائلة:

- بخير.. هل أتيت فقط لهذا؟!

ارتبكت الأم، وحاولت أن تجد في نفسها الجرأة؛ لتلقي السؤال الحقيقي، الذي يشغل ذهنها، إلا أن لسانها تعلق في حلقها، وهي تدور في الحجرة ببصرها في حيرة، و..

وفجأة، وقع بصرها على أنبوبة الكريم، وكالغريق الذي تعلق بقشة، التقطت الأنبوبة، متسائلة:

- هل ابتعت كريما جديدا؟!

أومأت (نهلة) برأسها إيجابا، وهي تبتسم في سعادة، فألقت أمها نظرة على الكريم، قبل أن تهتف في دهشة::

- كريم لتبييض البشرة؟! فيم احتياجك لشيء كهذا؟!

هزت (نهلة) كتفيها، وأشارت إلى وجهها، قائلة:

- ما رأيك أنت؟! تطلعت إليها أمها لحظة، ثم ابتسمت في حنان، مجيبة:

- رأيي أنك لست بحاجة إليه على الإطلاق.

ضايقتها عبارة أمها، على الرغم مما فيها من حب ودفء، فقالت في عصبية:

- دعينا لا نخدع نفسينا يا أمي.. البشرة البيضاء علامة الجمال، في (مصر) على الأقل..

هزت أمها كتفيها، قائلة:

- ربما، ولكن لكل ذوقه، وكما يقولون في الأمثال الشعبية: «لكل نوع من الحبوب كياله»..

قالت (نهلة) بعصبية أكثر:

- وماذا لو أن كل الكيالين لهم منظور واحد؟!

ابتسمت أمها، قائلة:

- مستحيل! لو أن هذا صحيح لما انبهرت (مصر) كلها، بل وانبهر العالم كله ذات يوم بالفنانة سعاد حسني)، واعتبروها

رمزا للجمال والحسن، وهي خمرية البشرة مثلك..

قالت في إصرار:

- إنها حالة خاصة.. يكفي أنها كانت نجمة سينمائية.

قالت أمها في سرعة:

- وكيف أصبحت كذلك، لو أن الكل يهوى صاحبات البشرة البيضاء فحسب؟!

أجابتها بسرعة أكبر:

- لأنها موهوبة..

تنهدت الأم، وكأنما تعلن يأسها من استمرار المناقشة، ونهضت، قائلة:

- افعلي ما يروق لك يا (نهلة).. إنها حياتك وأفكارك يا بنيتي، ولكن صدقيني.. أجمل ما في الإنسان هو ما خلقه عليه الله (سبحانه وتعالى)، وبه وحده سيجد قسمته ونصيبة.

قالتها الأم، وخرجت من الحجرة..

ومن المشكلة كلها..

ولكن (نهلة) لم تقتنع..

كيف يمكن أن ينهي حوار بسيط، كل ما جمعته في أفكارها وأعماقها لسنوات وسنوات؟!

كيف؟!

إنها ستواصل استخدام ذلك الكريم الجديد، حتى تحصل على البشرة المطلوبة..

البشرة البيضاء..

وكم أسعدها أن أتى الكريم مفعوله رويدا رويدا..

فبعد أسبوع واحد، لاحظت أن بشرتها صارت أكثر ضياءً..

وبعد أسبوعين، أصبحت قمحية..

ثم بيضاء..

حتى زملاء الدراسة كلهم لاحظوا هذا..

كلهم أثنوا على حسنها، وجمالها، وبياض بشرتها الجديد.

كل زميلاتها السمراوات سألتها عن اسم الكريم واستخداماته..

ومع كل هذا التهافت، اكتسبت نفسها ثقة كبيرة..

ثقة جعلتها تعترض طريق (أيمن) ذات صباح، وتسأله:

- أستاذ (أيمن).. أما زالت هناك أماكن شاغرة، في رحلة (القناطر)؟!

رأت الدهشة ترتسم على وجهه، وتنتقل إلى صوته، وهو يسألها بأسلوبه المهذب:

- هل ترغبين في الانضمام إليها؟!

كانت هذه أول عبارة يتبادلانها..

وأول مرة يبدى فيها اهتماما بها..

يومها لم يخفق قلبها فحسب، وإنما راح يرقص طربا..

وكأنها ملكت الدنيا كلها..

ولقد استعدت لتلك الرحلة بكل ما تستطيع..

التقت أفضل وأجمل ثيابها، وصففت شعرها عند مصفف شعر معروف..

ووضعت المزيد من الكريم..

وعندما ذهبت إلى (القناطر) في أول رحلة تنضم إليها، منذ التحاقها بالجامعة، كانت تمتلك بشرة بيضاء بحق..

وثقة بلا حدود..

ومع نهاية الرحلة، اتجه هو إليها، وهو يبتسم ابتسامة عذبة، ويقول:

- آنسة (نهلة).. اسمحي لي أن أشكرك على نشاطك وحيويتك وروحك العالية في الرحلة.. لقد كنت بحق أحد أسباب نجاحها..

لم يكتف بهذا القول، الذي فجر في كيانها كل ينابيع الفرح والسعادة، وإنما احتل المقعد المجاور لها، ليواصل حديثه معها، طوال طريق العودة..

تحدثا حول العديد من الأمور..

الدراسة..

والسياسية..

والفن..

والرياضة..

وحتى عن الحب..

وعندما وصلا إلى الكلية، صافحها في حرارة، قائلا:

- أشكرك مرة أخرى يا آنسة (نهلة).. لقد كان الحديث معك ممتعا بحق.. أرجو أن أجد الفرصة لتكرار هذا..

لا يمكن أن تبلغ السعادة هذا الكم أبدا..

إنه لم يشعر بوجودها فحسب، وإنما راق له مجلسها أيضا..

لقد أعجب بها..

بل وربما أحبها..

كم كانت على حق، عندما منحت نفسها تلك البشرة البيضاء..

كم كانت على حق.

تضاعفت لديها تلك القناعة ألف مرة، خلال الأسابيع التالية

لقد تكرر لقاؤهما، وتكررت أحاديثهما مرات ومرات..

ليس هذا فحسب، وإنما صار من المعتاد أن تراهما معا، منهمكين في الحديث، طوال أوقات الفراغ في الكلية، ومع مرور الوقت، أدرك الكل أن (أيمن) يحب (نهلة)، وأنها بدورها غارقة في حبه حتى النخاع، ولكن أحدهما لم يصارح الآخر بهذا قط..

حتى كانت تلك اللحظة..

لحظة عادية، مثل كل لحظات مناقشاتهما، توقف فيها فجأة عن الحديث، وتطلع إلى عينيها لحظة، بكل حب وحنان ودفء الدنيا، قبل أن يقول دون مقدمات:

- (نهلة).. انا أحبك..

لم يخفق قبها لقوله..

ولم يرقص بين ضلوعها فرحة وسعادة لقد وثب فجأة من جسدها، واستقر بين كفيه..

وفي عينيه..

وقلبه..

كل ذرة في كيانها أعلنت فرحتها وسعادتها ولهفتها وحبها وكان من الطبيعي أن يفهم..

وكان من الطبيعي ان يفهم..

وأن يثب قلبه بدوره بين يديها..

وبكل حب الدنيا، مال نحوها، وتطلع إلى وجهها، الذي اصطبغ كله بحمرة الخجل، هامسًا:

- هل تعلمين.. أنت صورة مجسمة لفتاة الأحلام، التي أبحث عنها منذ حداثتي.. جميلة، رقيقة، مهذبة، مثقفة واعية، ومن أسرة طيبة.. كل صفة تمنيتها في زوجة المستقبل، فيما عدا..

بتر عبارته بغتة، وكأنما وجد أنه من غير اللائق أن يكملها.. وامتدت أصابعه تتسلل إلى كفها، فسألته في اهتمام:

- فيما عدا ماذا؟!

بدا عليه الخجل، وهو يغمغم:

- أمر بسيط، لا يستحق الذكر.

هتفت بحرارة عجيبة:

- أخبرني إياه.. أرجوك.

ارتبك أكثر، وحاول أن يبتسم في خجل وحرج، ثم لم يلبث أن هز كتفيه، وخفض صوته، وهو يجيب:

- فتاة أحلامي كانت دائما خمرية البشرة.

اتسعت عيناها بدهشة بالغة، وحدقت في وجهه بذهول، جعله يرتبك أكثر وأكثر، ويلوح بيده، قائلا:

- ولكن لا بأس بالبشرة البيضاء.. ستصبح بالنسبة لي أفضل بشرة؛ لأنها بشرتك أنت، و..

قاطعته في حزم:

- (أيمن).. هناك أمر أريد أن أعترف لك به..

وفي تلك الليلة، ألقت أنبوبة الكريم الجديد في سلة المهملات وتركت بشرتها تستعيد لونها الأصلي مع الوقت..

لون الحب..

الحقيقي.

(تمت)

سنة واحدة

70- سنة واحدة..

ترقرقت الدموع في عينيي (غادة)، وارتجفت تلك الابتسامة الحانية الدافئة على شفتيها، وهي تثبت تلك الصورة الكبيرة، في منتصف أفضل جدار في المنزل كله، ثم تتراجع لتلقي عليها نظرة طويلة، قبل أن تنطلق من أعمق أعماق صدرها آهة حارة، وهي تتمتم:

- حمدا لله

كانت الصورة تضم (وائل) و (ولاء)، ابني زوجها (خالد)، في حفل تخرجهما في الجامعة الأمريكية، والفرحة تغمر كل لمحة من ملامحهما بلا استثناء..

وانسابت دموعها على خديها، وهي تستعيد ذكريات بعيدة..

كم تمني (خالد) أن يرى هذا اليوم..

كم حلم بمشاهدة توءمية، وهما يحصلان على شهادة التخرج، بعد أن أصبحا شابين يافعين جميلين..

كم فعل..

وارتجفت شفتاها مرة أخرى مع تذكرها لتلك اللحظة الحزينة من حياته..

اللحظة التي علم فيها أن تحقيق حلمه مستحيل!

وأنه لن يحيا ليرى ذلك اليوم..

أبدا..

كان هذا منذ عشرين عاما تقريبا، قبل أن يبلغ التوءمان عامهما الأول بشهر واحد، عندما شعر (خالد) ببعض الألم في جانبه الأيمن، فذهب لزيارة الطبيب، مع زوجته (سهام) التي أبدت اهتماما وقلقا شديدين بالأمر، على الرغم من سخريته من مخاوفها وقلقها..

ولكن الطبيب شاركها القلق نفسه، بعد أن قام بالكشف عليه، بمنتهى الاهتمام والدقة، ثم قال:

- أظننا بحاجة إلى بعض الفحوصات وصور الأشعة..

لم يبال (خالد) يومها كثيرا، على الرغم من دموع (سهام) وجزعها، وقضى ليلته يداعب طفليه، اللذين لم يحب في عمره كله أكثر منهما، ونام وهو يحتضنهما معا، وكأنما يبثهما حبه ودفأه وحنانه، ويحلم بمستقبلهما ونجاحهما..

وفي اليوم التالي، وتحت إلحاح (سهام)، ذهب (خالد) لعمل الفحوصات المطلوبة..

وجاءت النتائج مفاجئة..

ومفزعة..

ورم خبيث في الكبد..

وهوى قلب (خالد) بين قدميه، وهو يحمل الأوراق كلها إلى الطبيب، الذي راجعها في أسف وأكد تشخيص وتقرير المعامل، وربت على كتفه، قائلا في حزن:

- إنها إرادة الله (سبحانه وتعالى) يا ولدي.

غمغم (خالد)، ذاهلا منهارا:

- وماذا عن طفليّ؟! من سيربيهما ويرعاهما من بعدي؟!

ربت الطبيب على كتفه مرة أخرى، قائلا:

- الله يرعاهما دوما يا ولدي.. ثم إن أمهما ما زالت شابة.. أليس كذلك؟!

سأله (خالد) بصوت مرتجف:

- كم بقي لي من العمر؟!

أشاح الطبيب بوجهه، مغمغما:

- الأعمار بيد الله يا ولدي.

كرر (خالد) في عصبية

- كم يا دكتور؟!

صمت الطبيب بضع لحظات، قبل أن يجيب:

- سنة واحدة على الأكثر.

غادر (خالد) المكان بعينين زائغتين، وقلب تبكي خفقاته بدموع من دم، ورأس لا يحمل سوى كلمة واحدة، تنفطر لها كل القلوب..

الطفلان.

ما مصيرهما من بعده؟!

لم يستطع العودة إلى منزله مباشرة، خشية أن تقرأ (سهام) النتائج في ملامحه وشحوبة، فقضى ثلاث ساعات في مكان هادئ، يرتب فيه أفكاره، ويستعيد إيمانه بالله (سبحانه وتعالى)

أمامه سنة واحدة..

هكذا قرر الطب والعلم..

ولكن من أدراه أنه كان سيحيا لحظة واحدة بعد هذا، لو لم يصب بالمرض؟!

الأعمار بيد الله (سبحانه وتعالى) وحده..

هو يمنحها لنا، وهو (سبحانه) يحدد متى ينتزعها منا..

كل شخص في الوجود يمكن أن يموت الآن..

في لحظة واحدة..

ودون أية أمراض أو متاعب..

بل كل مخلوق..

فلماذا يقلق نفسه بالأمر إذن؟!

فليعش حياته، ويرى طفليه، ويمنحهما كل حبه ورعايته وحنانه..

حتى تحين اللحظة..

هذا ما ينبغي أن يفعله..

وما ينبغي أن يحتفظ به سرا في أعماقه..

وعندما عاد إلى منزله، كان باسما، هاشا، وكأنما نسي كل شيء عن مصيره المرتقب، حتى إنه استطاع بسهولة إقناع (سهام) بأن الفحوصات قد أثبتت أن كل شيء على ما يرام، وأن ما يعانيه لم يكن سوى بعض الإجهاد فحسب.

وعادت الدنيا تسير في إطارها الطبيعي، مع استثناء واحد..

لقد زاد تعلق (خالد) بطفليه، وراح يمنحها المزيد والمزيد من الحب والدفء والحنان، كما زاد اهتمامه بزوجته (سهام)، وأخذ ينقل كل مدخراته باسمها، و..

ولكن فجأة، سدد إليه القدر ضربة عنيفة..

ماتت (سهام)..

ماتت فجأة، بأزمة قلبية، باغتتها بعد يوم عمل شاق، على الرغم من أنها لم تشك أبدا من أية متاعب صحية من قبل..

وجن جنون (خالد)..

لقد أحتمل طوال الوقت فكرة موته، معتمدا على أنه سيترك طفليه لأمهما، التي ستحسن حتما رعايتهما وتربيتهما، وستمنحهما كل الحب والحنان..

وها هي ذي زوجته ترحل قبله.

وبسبعة أشهر كاملة..

الكل تصور أن ذلك الحزن الشديد، الذي سيطر على كيانه كله، يعود إلى فقده لزوجته، التي ارتبط بها في ريعان شبابهما، بعد قصة حب طويلة.

وكانوا على حق في هذا إلى حد كبير؛ فكل حبه لزوجته قد تحول إلى موجة من الحزن العارم.

ولكن خوفه على طفليه، وهلعه من مصيرهما المنتظر، بعد فقدان أبويهما، كان يحول هذا الحزن إلى بركان من الألم والمرارة، تتدفق حممه في كل ذرة من كيانه..

ماذا سيفعل الطفلان الآن؟!

كيف سيواجهان الدنيا، دون أبوين؟!

كيف؟!

كيف؟!

المأساة الحقيقية هي أنه و (سهام) كانا كفرعي شجرة مقطوعين، كما تقول الأمثال العامية..

هو وهي فقدا أبويهما في طفولتهما، وعاشا يتيمين طيلة عمرهما..

وكلاهما عانى الكثير في طفولته وشبابه..

وها هما ذان ولداه يعانيان المأساة نفسها، التي تمنى من أعمق أعماق قلبه ألا يرياها أبدا..

وهو مستعد لفعل أي شيء في الدنيا، حتى لا يحدث هذا..

أي شيء..

ولكن عقله ظل عاجزا عن التفكير في أي حل منطقي حتى ظهرت (غادة) في حياته..

جارة شابة لهما، لم يكن يشعر بوجودها من قبل قط، ولكنها بدأت تظهر في حياته بوضوح، منذ وفاة (سهام) لترعي الصغيرين في غيابه، وتطعمهما، أو تحملهما إلى حضانة الأطفال المجاورة، وتعيدهما في نهاية اليوم إليه، نظيفين باسمين، عند عودته من عمله..

ولدهشته، كانت (غادة) تعامل الطفلين بحب جارف، وتغمرهما بحنان لم ير مثله قط، حتى من زوجته (سهام)..

أمهما الحقيقية..

ولم يستطع هو فهم هذا أبدا..

حتى عرف قصة (غادة)..

لقد تزوجت مرة واحدة، منذ عامين، وتم طلاقها بعد عام واحد، لأنها ليست لديها القدرة على الإنجاب مطلقا..

لهذا هي شديدة التعلق بالطفلين، اللذين يمنحانها شعورا بالأمومة، لن يمكنها الحصول عليه على نحو طبيعي أبدا..

وهنا قفزت الفكرة إلى رأسه..

وفي اليوم التالي، وبعد مرور شهرين فحسب على موت (سهام)، تقدم يطلب يد (غادة) للزواج..

ولقد أدهش هذا (غادة) بشدة..

بل أدهش الكل..

وأفزعهم..

كيف يمكن أن يفكر في الزواج بهذه السرعة؟!

هل نسي زوجته، وحبهما الجارف، الذي تحدث عنه الكل؟!

أم أنه يبحث عمن يرعى طفليه فحسب؟!

ولكن (خالد) لم يبال قط بما قاله الكل..

كل ما فعله، هو أن صارح (غادة) بالموقف كله وبكل التفاصيل..

صارحها بأمر مرضه، وأيام عمره المعدودة، واحتياجه الشديد إلى وجودها، من أجل طفليه..

ومن أجله أيضا..

وكانت المفاجأة في انتظاره..

لقد بكت (غادة) بكاء حارا على صدره، وهي تصارحه بدورها بأنها تحبه، من أعمق أعماق قلبها، وبأنها كانت تخفي ذلك الحب في قلبها طيلة الوقت، حرصنا على بيته، وزواجه، وحياته، وطفلية..

وبكل حبها، أخبرته (غادة) أنها توافق على الزواج منه، حتى ولو اقتصرت مدة زواجهما على أسبوع واحد، وأن كل ما تتمناه هو أن يمكنها إسعاده بأقصى ما تستطيع، ومنحته وطفليه كل حبها وحنانها ودفنها..

بل كل ما بكيانها.

وبسرعة أثارت دهشة واستنكار الكل، تزوجا..

وكانت (غادة) صادقة في كل ما وعدته به..

لقد منحته ومنحت طفليه كل حنانها الكبير، وحبها، ودفء قلبها.. ولم يكن (خالد) منافقا أو مبالغا، عندما قال: إنه قد قضى معها أجمل وأسعد أيام حياته.

هذا ما تذكرته (غادة)، وهي تتطلع إلى صورة حفل تخرج (وائل) و (ولاء)، ودموعها ما زالت تفرق وجهها، وهي تغمغم:

- أخيرا تحقق حلمك، وتخرجا يا (خالد)..

احتضنها (خالد) بكل حب الدنيا، وطبع قبلة على خدها، وهو يقول:

- من يصدق أنني عشت لأرى هذا اليوم؟!

أراحت رأسها على صدره في حب، مغمغمة:

- أطال الله في عمرك، يا أحب الناس.

ابتسم، وهو يضمها إليه في دفء، قائلا:

- الأعمار بيد الله يا حبيبتي.. منذ عشرين عاما، تصور الطب أنني لن أحيا سوي عام واحد، ولكن إرادة الله سبحانه وتعالى)، والحب الذي غمرت كياني به، حققا المعجزة، وهأنذا حي أرزق، بعد أن مات كل الأطباء، الذين قرروا ما تبقى لي من العمر يوما.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة حانية محبة، وهو يضمها إلى صدره أكثر وأكثر، ويتطلع إلى صورة حفل تخرج ولديه مغمغما:

- لقد كانت معجزة حقيقية، بكل المقاييس.

دفنت رأسها في صدره أكثر، وتركت دموعها تنساب عليه، بكل فرحة وحب وسعادة الدنيا، وهي تشاركه في صمت إيمانه بتلك المعجزة..

(تمت)

اختلاف

71- اختـلاف..

ماذا أصاب الكل؟!

ما الذي غيّر أسلوبهم تجاهه على هذا النحو؟!

بل ماذا حدث للمنزل كله؟!

لماذا يتجاهله الجميع على هذا النحو؟؟

إنه كبير العائلة وعميدها، وولي نعمتها أيضا، والمفترض أن يحيطه الكل بالاحترام والتوقير والتقدير..

ولقد كان هذا ما يفعلونه، قبل مرضه الأخير..

كان الكل يرعاه، ويتملقه، ويبذل الكثير والكثير لاكتساب وده..

ثم فجأة، لم يعد هناك من يبالي بوجوده..

حتى ابنته الكبرى، التي اعتبرها دوما أكثر أبنائه عطفا وحنانا، تجاهلته تماما، عندما ابتسم في وجهها هذا الصباح..

كانت منهمكة في إعداد أشياء كثيرة، فلم تبال به إطلاقا..

وعندما صرخ في وجهها، وصاح مطالبا إياها بالاحترام الواجب، من الابنة تجاه والدها، أشاحت بوجهها عنه، وواصلت عملها بنفس الانهماك، وكأنما لم يعد يعنيها أمره قط..

يا لسخافة الدنيا!

الكل يلتف حولك، عندما تشرق لك الشمس، ثم ينفضّون بسرعة البرق، مع أول قطرة مطر تنهمر عليك..

كان ينبغي أن يدرك هذا منذ البداية..

وأن يعيه جيدا..

وخاصة مع حياته الحافلة، التي قضاها في العمل والكفاح والجهد، حتى صار واحدا من أشهر التجار، وأكثرهم ثراءً ومهابة..

وطوال حياته الحافلة، لم يجرؤ مخلوق واحد في عائلته كلها، على رفع عينيه في وجهه..

كان هو الآمر الناهي، وصاحب الكلمة النافذة، في كل الظروف والأحوال...

ولم لا، ما دام يطعمهم ويكسوهم جميعا من ماله..

وما دام هو الأقوى..

والأكثر ثراء..

ثم إنه يختلف عن الكل..

طيلة عمره يدرك أنه يختلف عنهم جميعا..

إنه أكثر براعة، وذكاء، وحنكة..

بالتأكيد هو يختلف..

الآن بالذات يشعر بأنه يختلف عن كل من حوله..

يختلف تماما..

وهؤلاء الأغبياء لا يدركون هذا..

وهذا أفضل..

إنها فرصة، ليعرف حقيقة مشاعرهم نحوه..

إنهم ما زالوا يحتفظون بصورته الكبيرة في نفس موضعها في صدارة حجرة الصالون الكبرى، ولكنهم يتجاهلونه هو على نحو

مستفز..

كل منهم منشغل تماما في عمله، وفي الإعداد لذلك الاجتماع، الذي يولونه كل اهتمامهم وعنايتهم..

يا للمنافقين!

لو أنه لم يعان من هذا المرض الأخير، لما فعلوا به هذا..

لو أنه ظل قويا كما كان دائما، لوضعوا ألف حساب لمشاعره...

أما الآن، فالكل يتصرف وكأنما لا وجود له..

وكأنما انتهى كل شيء بمرضه..

ولكنه يحمل لهم مفاجأة كبرى، لا يمكنهم تصورها..

إنه لم يعد يعاني المرض..

لم يعد يشعر بالضعف والعجز والألم..

لم يعد مقعدا كذي قبل..

ولكنهم يجهلون هذا تماما....

وهذا أفضل ما في الأمر

دعهم يتصرفون ويتعاملون بتلقائيتهم المستفزة هذه، حتى تحين لحظة المواجهة الكبرى..

اللحظة التي سيدركون فيها الحقيقة..

كل الحقيقة..

وفي هدوء وصمت، جلس في الركن، يراقبهم بعيني ذئب، وابتسامة ثعلب ماكر، يتابع فريسته في اهتمام، انتظارا للحظة الانقضاض والفتك..

ومن ناحيتهم، لم يولهِ أيهم أدنى اهتمام، لقد واصلوا عملهم، وتجهيزاتهم لحجرة المكتب الكبيرة، على نحو يوحي بأنهم في انتظار ضيف مهم للغاية..

ومن بقعة ما في أعماقه، بدا له أنه يعرف طبيعة ذلك الضيف..

ومهنته.

لم يدر كيف أدرك هذا..

ولكنه أدركه..

بل وعلم أيضا أنه سيأتي في تمام السابعة..

وكم كانت دهشته، عندما صدقت تنبؤاته تماما..

ترى ما الذي يعنيه هذا؟!

ما الذي جعله قادرا على التنبؤ والاستنتاج، على هذا النحو؟!

لقد قرأ الكثير في هذه الأمور، وعن البصيرة التي تتفتح للمرضى، و..

ولكن هذا لا يهم الآن..

المهم أن الضيف الذي يتوقعه قد وصل..

وفي موعده تماما..

إنه محاميه..

يا للخائن!

هو أيضا تجاهله تماما، ولم يلق عليه حتى التحية، وهو يدخل إلى حجرة المكتب، ثم - ويا للوقاحة - يجلس على مقعده هو!!

يا له من صفيق!!

في الماضي كان يقف طوال الوقت، ولا يجرؤ على الجلوس لحظة واحدة في وجوده..

وهذا أمر طبيعي، ما دام يحصل منه على ثروة في كل عام.

ثروة يحلم بها أي محام، في (مصر) كلها..

ولكن لماذا يدهشه هذا؟!

إنها طبيعة الدنيا..

وطبيعة البشر..

أقاربه كلهم اجتمعوا في حجرة المكتب، يتطلعون إلى المحامي في لهفة كبيرة..

يا للأوغاد!!

لاريب في أنهم يسعون لتجريده من ثروته..

أو للحجر عليه، باعتبار أن مرضه قد أثر في قواه العقلية..

ولكنه لن يسمح لهم بهذا..

سيواجههم في اللحظة المناسبة، ويصرخ في وجوههم معلنا الحقيقة..

حقيقة أنه لم يعد مريضا..

لقد استعاد صحته وحيويته..

ونشاطه كله..

بل إنه يشعر بنشاط أكثر من كل ما شعر به، في حياته كلها..

وسيطلق هذا النشاط في وجوههم، التي تحمل كل لهفة الدنيا، وهم يستمعون إلى محامية الخائن، وهو يقرأ عليهم وصيته، و...

ولكن مهلا!!

يقرأ وصيته؟!

ولكن هذا يعني أنه.. أنه..

رباه! الآن فقط أدرك لماذا يشعر بأنه مختلف..

ولماذا يشعر بكل هذا النشاط..

الآن فقط أدرك لماذا يتجاهله الجميع..

هذا لأنه لم يعد. في الواقع - يحيا معهم..

أو مع أي مخلوق، في الدنيا كلها..

لقد غادر الحياة كلها، وأصبح مجرد..

شبح..

عندئذ فقط، ومع إدراكه لحقيقته، لم يعد يبال بكل ما يحدث حوله..

بأقاربه، ومحاميه.. وحتى ثروته..

وفي استسلام حزين، راح ينسحب من حجرة المكتب، والمنزل...

والدنيا كلها..

إلى عالم يختلف..

تماما.

(تمت)

دموع الإنترنت

72- دموع الإنترنت..

خفق قلب (هبة) في قوة، وراح يرتجف في صدرها كطير مبتل، سقط وسط جبل من الجليد، على الرغم من كل ما تشعر به من دفء وحرارة في أعماقها، وهي تمد أصابعها الرقيقة، لتضغط أزرار الكمبيوتر، وتوصله بأسلاك الهاتف، تمهيدا لاتصالها بشبكة الإنترنت..

وبكل جوارحها ومشاعرها، تعلقت عيناها بالشاشة الكبيرة، في انتظار ظهور رسالته..

رسالة (نادر)..

ومرة أخرى، ارتجف قلبها، وراح يرقص بين ضلوعها،

مع ذلك الرنين القصير، الذي سبق ظهور الرسالة، والتمعت عيناها بحب وحنان جارفين، وهي تلتهم سطورها القليلة، في لهفة ما بعدها لهفة..

إنه هو..

أخيرا عاد إليها..

عاد بعد أسبوعين كاملين، لم تصلها خلالهما رسالة واحدة منه..

ولا أحد، في الدنيا كلها، يمكن أن يتصور مدي اشتياقها إليه، ولهفتها عليه، طوال تلك الفترة..

هي نفسها لم تكن تتصور أنها تحمل له كل هذه المشاعر، بل ولم تتصور أبدا أن تشعر نحوه بأي شيء على الإطلاق..

فالعجيب أنها لا تعلم عنه إلا أقل القليل..

فقط ما أخبرها هو به.

وبينما انساب بصرها في نعومة، على أسطر رسالته المحدودة، راح عقلها يسبح مع ذكريات قريبة

ذكريات عمرها ستة أشهر فحسب..

ذكريات أول صدمة عاطفية في حياتها..

فطوال أعوام دراستها، وحتى تخرجت من كليتها النظرية لم ترتبط (هبة) أبدا بعلاقة حب، أو حتى إعجاب..

كل زميلاتها كن يرتبطن بشباب في مثل عمرهن، ويربطن حياتهن وقلوبهن بهم، ويتحدثن طوال الوقت عن مشاعرهن، وارتباطاتهن، وأحلامهن الوردية في الحياة والمستقبل..

أما هي، فلم تكن تتحدث أبدا.

بل ولم تشعر قط بما كن يصفنه عن أعماقهن..

صحيح أن قلبها الصغير كان يهفو للحب والسعادة والارتباط، ككل أنثى في عمرها، إلا أنه لم يخفق قط لأحد زملاء الدراسة، أو النادي، أو حتى لابن الجيران، كما يحدث في المعتاد...

وكان هذا يدهش زميلاتها كثيرا..

ويدهشها هي أكثر.

وفي معظم لياليها، كان قلبها يتساءل: لماذا لا تحب؟!

إنها فتاة جميلة، رقيقة، مثقفة تنتمي إلى أسرة كريمة محترمة، لها سمعتها الطبية في الحي كله وهي أيضا نشيطة، اجتماعية، تمارس حياتها الجامعية في بساطة وثقة..

ثم إن العديدين من الشبان قد حاولوا التقرب إليها والارتباط بها..

لماذا لم تشعر يوما بأية عاطفة حقيقية صادقة تجاه أي شاب؟!

ولقد حاولت أن ترتبط بهم أيضا، ولكنها لم تنجح أبدا

شيء ما في أعماقها كان يهوى في محيط من الملل، بعد دقائق معدودة من حديثهم معها..

شيء ما في عقلها، كان يرفض الخوض في أحاديث تافهة أو فارغة، أو قضاء الوقت في مراجعة ما فعله الآخرون وانتقاد كل تصرفاتهم ومشاعرهم..

وشيء أكبر، في كيانها كله، كان يأبى الارتباط..

مجرد الارتباط!!

ولقد حاولت أكثر من صديقة إقناعها بالارتباط بشاب ما، بحجة أن هذا يضاعف من ثقتها بنفسها، ويمنحها نوعًا من الأمان النفسي والعاطفي، بل إن معظمهن حاولن دفع صديق أو آخر في طريقها..

ولكن علاقاتها لم تنجح أبدا..

إما أن ترفض هي الشاب، لأنه أثاني أو تافه، أو يرفضها هو بحجة أنها باردة عاطفيا، أو جافة أكثر مما ينبغي..

كلهم تقريبا حاولوا تجاوز الحدود معها..

بل كان كل هدفهم، منذ البداية، هو تجاوز تلك الحدود..

وكان هذا يحنقها دائما..

يحنقها ويغضبها ويثير اشمئزازها إلى أقصى حد..

وغضبها كان يبعدهم دائما، ويدفعهم إلى ترديد الكثير من الأكاذيب والأقاويل عنها، حتى لقد اتهمها أحدهم بأنها سادية، ووصفها بلوح الثلج الخشن..

ولقد آلمها ذلك الوصف للغاية، وجعلها تبكي طوال ليلة كاملة، خاصة وأنها تعلم أنه ليس من السهل أبدا أن ينسى الآخرون هذا...

سيرددون وصفة مرات ومرات دون مراعاة لمشاعرها وآلامها..

وهذا ما حدث بالفعل..

أصبحت السخرية منها سمة عامة في الكلية كلها، حتى آخر يوم فيها..

ولم ينته كل هذا إلا مع تخرجها، وعملها كمترجمة في شركة كبيرة للسياحة..

ومع انهماكها في عملها هذا.. نسيت كل شيء عن الكلية وسخافاتها.

وعن الارتباطات..

حتى ظهر (هاني)..

و (هاني) هذا أحد زملاء عملها، وهو شاب وسيم، طويل، أنيق باستمرار، له ابتسامة عذبة، لا تفارق شفتيه قط، وعينان زرقاوان، تشعر وكأنك تغرق فيهما إلى أعمق الأعماق، إذا ما تركزتا على وجهك..

ولقد فعلها معها ثلاث مرات، في يوم واحد..

أول يوم تسلم فيه عمله معها، في كل مرة كانت ترفع فيها رأسها إليه، تجده يتطلع إليها بعينية الزرقاوين..

وفي المرة الثالثة، وجدته أمامها مباشرة، والتقت عيناها بعينيه لدقيقة كاملة، لم ينبس أحدهما خلالها ببنت شفة ودون أن تدري كيف حدث هذا، وجدت نفسها جالسة معه، في كازينو صغير، يطل على نيل (القاهرة) مباشرة.

يومها تحدث كثيرا وطويلا، دون أن يحاول حتى لمس أصابعها..

ولأن قواعدها دائما صارمة حاسمة حازمة، فقد تصورت أن هذا دليل على أنه شاب جاد ومحترم..

لم ينطلق قلبها له في عنف، أو تتراقص مشاعرها طربا من أجله، كما كانت تصف صديقاتها، ولكنها راحت تفكر جديًا في الموعد المناسب، الذي يمكن أن يأتي ليخطبها فيه من والدها

وكأي بنت، لم تفصح عن رغبتها هذه أبدا، ولكنها، في الوقت ذاته، راحت تنتظر موعد لقائهما بلهفة واهتمام لتسمع من بين شفتيه كلماته الدافئة، وعباراته الأنيقة التي تصف جمالها ورقتها وحسنها..

باختصار.. لقد أدمنت مداعباته لروح الأنثى في أعماقها..

وفي عملها، لاحظ الكل هذا، وأدركوا أنها توليه كل اهتمامها، على الرغم من أنها تعتبر من الناحية الوظيفية رئيسته المباشرة في العمل..

ولكنها لم تبال أبدا بهذا..

كانت ثقتها بنفسها تدفعها لتجاهل تعليقات ونصائح الكل، ما دامت مقتنعة بما تفعله..

ثم جاءت الصدمة بغتة..

وبلا مقدمات..

فمنذ بدأ ارتباطها بـ (هاني)، كانا يتبادلان الرسائل، عبر شبكة الإنترنت، في كل يوم، تصحبها موسيقى عذبة على شاشة الكمبيوتر....

وكانت هذه أجمل الرسائل التي تصلها عبر الإنترنت..

وأسعد لحظات حياتها..

ولكن يبدو أن الله سبحانه وتعالى لم يشأ تركها طويلا، في جحيم الغش والخداع هذا، فأعمى عيني (هاني) وقلبه، وجعله يرسل إليها رسالة، كان ينبغي أن يرسلها إلى أخرى..

أخرى تدعى (نهى)..

في البداية، خيل إليها أنه قد أخطأ كتابة اسمها فحسب..

ثم قرأت الرسالة..

وتمزق قلبها بمنتهى العنف.

كل حرف من حروف الرسالة تحول إلى خنجر حاد ماضٍ، انغرس في مشاعرها بلا رحمة أو هوادة..

ففي رسالته، كان يبث (نهى) هذه حبه وغرامة، بنفس الكلمات والعبارات، التي يرسلها إليها هي، ثم يضيف إلى كل هذا عبارات ساخرة لاذعة، عن رئيسته المباشرة في العمل، وكيف أنه يتظاهر بحبها وغرامها، حتى يحصل منها على كل الامتيازات والاستثناءات الممكنة، ويضمن الترقي في العمل بسرعة أكبر..

ولم يمكنها قراءة باقي الرسالة، مع فيض الدموع، الذي انهمر أنهارا من عينيها..

لقد ذكر اسمها صراحة، وأضاف إليه الوصف ذاته، الذي كانوا يستخدمونه في الكلية..

لوح الثلج الخشن..

كان يعرفه منذ البداية..

ويسخر منها طوال الوقت..

كم بكت ليلتها!!

كم انهمر من دموعها وكرامتها وأحزانها!!

إنها لم تتصور حتى أنها تمتلك كل هذا القدر من الدموع..

وعندما أشرقت الشمس، كانت قد اتخذت قرارها بألا تبكي ثانية أبدا، من أجل رجل..

أيًا كان..

وعندما التقت به في الشركة، كان هادئا مبتسما، على نحو يوحي بأنه لم يدرك هفوته بعد..

أو لم يتصور حدوثها..

وبحنان زائف سخيف، سألها عن سر تورم جفنيها واحمرار عينيها، و..

وثارت في وجهه بكل غضبها وعنفها وسخطها..

انفجرت تشرح له ما فعله، وتصف له خسته ونذالته ووضاعته..

في البداية صدمة الموقف، وأحمر وجهه بشدة، ثم لم يلبث أن تحول بغتة إلى قط شرس، وراح يهاجمها بعنف لا مثيل له، ويردد ذلك الوصف البغيض أمام الكل..

والعجيب أنها، وهي الضحية، لم تحتمل هجومه المضاد وانهارت..

والأعجب أنها قد تقدمت باستقالتها، في اليوم نفسه، وغادرت الشركة لأخر مرة..

كانت تشعر بأنها قد فقدت كل شيء في الدنيا، وهي تعود إلى منزلها..

ولكنها لم تبك..

لم تذرف دمعة واحدة، على ذلك الذي طعن كل مشاعرها..

أو حتى على العمل الذي تركته ولأسبوعين كاملين، رفضت كل محاولات صاحب الشركة لإعادتها إلى منصبها..

كانت ترفض تماما العودة إلى نفس المكان..

حتى بعد أن قاموا بفصل (هاني)..

لم تعد تحتمل العودة إلى نفس المكان، الذي تردد فيه ذلك الوصف البغيض، على مسامع الكل..

إنها واثقة من أن أحدا لن يردده على مسامعها قط..

ولكنهم سيتهامسون به فيما بينهم..

وسيسخرون منه..

ومنها..

ولن يمكنها أبدا أن تحتمل هذا..

وبعد ثلاثة أسابيع كاملة، عادت تتصل بشبكة الإنترنت، التي قاطعتها طوال الوقت..

ووجدت رسالته..

أو بمعنى أدق.. رسائله..

رسائل (نادر)..

كان من الواضح أنه قد أرسل أولى رسائله في نفس الليلة، التي غادرت فيها عملها..

وكانت رسالة رقيقة قصيرة..

رسالة يواسيها فيها بكلمات تحمل كل رقة وعذوبة الدنيا، وعبارات تفيض بحنان جارف عجيب، لم تتصور أن تشعر به أبدا، من كلمات مكتوبة على شاشة إليكترونية باردة..

وفي رسالته الثانية، كان يخبرها أنه لا ينتظر ردا على رسائله، ولكنه شعر برغبة قوية في إرسالها، ولا يتمنى سوى أن تقرأها مرة واحدة، ثم تمحوها بعد هذا تماما..

ولقد حاولت محوها بالفعل..

ولكنها لم تستطع..

شيء ما في أعماقها منعها من هذا، وجعلها طالع باقي الرسائل..

كان يتحدث طوال الوقت عنها، وعن رقتها، ودفء قلبها، وروعة مشاعرها، ويحاول إقناعها بأن ما حدث لا يسيء إليها قط، فهي قد أحبت، ومنحت، والطرف الآخر هو الذي أهان ذلك الحب ورفضه..

ولسبب ما، راحت تقرأ رسائله كلها مرات ومرات..

وشعرت بالفعل بهدوء نفس كبير، وهي تطالع كلماته..

منطقة الهادئ والبسيط مسّ شفاف قلبها، ووجد سبيله إلى كيانها، وداعب روح الأمل، التي كانت تدفن في أعماقها..

لم تكن تعرف عنه سوى اسمه وعنوان بريده الإليكتروني، الذي نقلته الشبكة تلقائيا..

وعلى الرغم من أنها قد بذلت جهدا كبيرا لتجاهل الأمر، وجدت نفسها تفكر فيه، وتتساءل عن شخصيته، وماهيته، وكيف توصل إلى معرفة كل هذا عنها..

ولبعض الوقت، راودها خاطر مخيف..

أمن الممكن أن يكون هو نفسه (هاني)، الذي يحاول الانتقام والسخرية منها مرة أخرى؟!

أفزعها الخاطر بشدة، وأثار الكثير من توترها وعصبيتها حتى إنها قامت إلى جهاز الكمبيوتر، وأرسلت إليه أول رسالة..

رسالة أخبرته فيها بما تخشاه، بكل الصراحة والوضوح..

وجاءت إجابته في سرعة وهلع.

جاءت ليخبرها فيها أن مخاوفها لا أساس لها من الصحة، وأنه لا يمكن أن يفكر مجرد تفكير في إيذاء مشاعرها، ولو بهمسة واحدة، ثم صارحها بأن شقيقه زميل قديم لـ (هاني)، وبأنه هو نفسه كان أحد زملائها في الكلية..

ولقد أفزعتها زمالته القديمة هذه في البداية، ولكن كلماته كانت توحي بالصدق والإخلاص، حتى إنها تصورت أن الكمبيوتر نفسه قد شعر بها وأحسها..

ولقد أرسلت إليه تعتذر عن شكوكها، وأجابها هو بأن تلك الشكوك كانت أفضل ما حدث له، في حياته كلها، لأنها دفعتها للكتابة إليه على الأقل..

ومن هنا، راحا يتبادلان الرسائل..

وحتى الأحلام والأمنيات..

ورويدا رويدا، وجدت نفسها شديدة الاهتمام برسائله..

وشديدة اللهفة لقراءتها كل يوم..

وكثيرا ما حاولت أن تتذكره، وسط شباب الكلية، ولكنها عجزت تماما..

ومع الوقت، حصلت هي على عمل أفضل، وتوطدت صلتها به أكثر، عبر شبكة الإنترنت، وراحا يتبادلان المعلومات والأفكار، حتى عندما استعانت بصور الحفلات والرحلات كان بالنسبة إليها شخصا مجهولا تعرف اسمه..

فقط اسمه..

ولكنه أفضل شخص عرفته، في حياتها كلها..

شخص رقيق، دافئ حنون، مثقف، وصريح..

كل السمات، التي عاشت تحلم بها منذ الأزل، في فارس أحلامها..

ويوما بعد يوم، راح (نادر) يتسلل إلى أعماقها، ويغوص في كيانها، ويحفر سردابا عميقا في قلبها..

وذات ليلة، وهي تنتظر رسالته بلهفة، وجدت نفسها تعترف بأنها تحبه..

حبه بكل جوارحها..

ويا له من حب!

عبر شبكة الإنترنت..

وبمبادرة منها، أرسلت إليه صورتها عبر الإنترنت ثم طلبت منه أن يرسل صورته..

ولكنه لم يفعل..

لقد تجاهل الأمر تماما على الرغم من أنها قد كررته مرتين..

ثم بدأت كلماته وعباراته تكتسي بحزن عجيب..

حزن لم يفصح عنه قط، ولكنه أفصح عن نفسه بكل وضوح، في كل حرف أرسله إليها، حتى إنها سألته عنه..

ولقد أدهشه سؤالها بالفعل..

أدهشه، حتى إنه قد أرسل إليها واحدة من أرق رسائله، يصفها فيه بذات القلب الدافئ، ويؤكد لها أن رقتها وحنانها وحدهما أدركا الحزن في عباراته..

ولكنه لم يفصح عن سر ذلك الحزن..

أبدا

ثم وصلتها منه رسالة عجيبة

رسالة رقيقة إلى درجة لم تعهدها، في حياتها كلها..

رسالة تحدث فيها، وكأنه يتحدث لآخر مرة..

رسالة جعلتها تبكي.. وتبكي.. وتبكي..

وتحطمت القاعدة..

ها هي ذي تبكي مرة أخرى..

من أجل رجل..

صحيح أنه لم يقل شيئا محزنا في رسالته، ولكن قلبها قرأ مالم يكتبه..

وشعر بما لم يفصح عنه..

وبكل دموعها ولهفتها ولوعتها، أرسلت ترجوه أن يفصح عما يعانيه..

ولكنها لم تتلق جوابا..

لا في اليوم الأول، أو الثاني، أو حتى العاشر..

وفي كل يوم، كانت تبكي..

وتبكي..

وتبكي..

وفي كل ساعة كانت تنتظر رسائله..

وتنتظر.

وتنتظر.

أسبوعان كاملان، تورمت فيهما عيناها، وانفطر خلالهما قلبها، وهي تخشى ألا ترى رسائله مرة أخرى..

حتى جاءت تلك الرسالة....

كانت على عكس رسالته الأخيرة، مفعمة بالأمل والحياة على الرغم من سطورها القليلة، التي قرأتها مرات ومرات.. ومرات..

كان يعتذر عن تأخره في الإرسال، ثم يعِد بإرسال رسالة أخرى في المساء..

يومها امتلأت نفسها سعادة لم تحس بمثلها قط طوال عمرها..

سعادة شملت كل ذرة في كيانها، وجعلتها أشبه بالبدر المنير، حتى إن كل العاملين في الشركة الجديدة قد شعروا بهذا، وأعربوا عن سعادتهم به، على نحو جعلها أكثر مرحًا وسعادة، و.....

وحبا..

وفي المساء، كانت تنتظر الرسالة بكل حب وحنان ولهفة، ومع دقات العاشرة والنصف وصلت الرسالة..

وكانت تحمل أكثر من مفاجأة..

لقد اعترف لها (نادر) بأنه يحبها، منذ كانا زميلين في الكلية، إلا أنه لم يجرؤ قط على التحدث إليها، أو محاولة الاقتراب منها..

ثم اعترف بأن ملامحه ليست جميلة أبدا..

بل ربما كانت أقرب إلى القبح..

وهذا ما منعه من إرسال صورته إليها..

كان يخشى أن يفقدها لو فعل..

وهو لن يحتمل هذا أبدا..

أما المفاجأة الأخيرة، فهي أنه كان في الولايات المتحدة الأمريكية، يجري عملية جراحية بالغة الدقة والخطورة..

وهذا سر حزن رسائله الأخيرة..

وسر انقطاعها أيضا..

ولكن العملية نجحت، وتجاوز هو مرحلة الخطر..

وجرؤ على مصارحتها بكل مشاعره..

وفي نهاية الخطاب، أخبرها أنه سيعود على طائرة (مصر للطيران)، التي تصل مساء الغد..

ليلتها أيضا بكت (هبة)، كما لم تبك من قبل، ولكن دموعها هذه المرة كانت تختلف.. تختلف كثيرا فقد كانت تحمل العديد من المشاعر المتناقضة..

بل كل مشاعر الدنيا..

ولكنها كعادتها، كانت قد حسمت أمرها، واخذت قرارها، عندما أشرقت الشمس..

وفي مساء اليوم التالي، كانت تقف في مطار القاهرة)، مرتدية أجمل أثوابها، وحاملة باقة من الزهور، لتستقبل (نادر)..

ربما كان قبيحا بالفعل، في مظهره الخارجي، كما وصف نفسه..
ولكنه سيظل في نظرها أجمل رجل في الدنيا كلها..
ليس لأنه أرق وأعذب وأصدق وأروع إنسان عرفته في حياتها كلها فحسب
ولكن لأنه أيضا حبيبها..
حبيب عمرها..
الوحيد.

(تمت)

اللحن المفقود

73- اللحن المفقود..

مستحيل!

ما يطلبونه منه مستحيل تماما!

كيف خطر هذا ببالهم؟!

كيف يجرءون؟!

لقد فقدها منذ أقل من عام واحد، وعذاب قلبه وجراحه لم تندمل بعد، فكيف كانوا بهذه القسوة، ليطالبوه بلحن جديد..

مستحيل!

مستحيل!

إنها لم تكن زوجته فحسب، وإنما محبوبته، وعشقه وروحه..

الكل كان يعرف قصة الحب الملتهب، الذي جمع بين قلبيهما طوال عامين كاملين، قبل أن يرتبطا بالزواج.. وكانا أسعد زوجين، عرفهما الحقل الفني، عبر تاريخه الطويل..

حياتهما كانت قصة حب لا تتوقف أو تنتهي..

قصة حب أثارت إعجاب الكل..

ودهشتهم..

وحسدهم..

وحقدهم أيضا..

فالعديدون اندسوا فيها، وحاولوا إفسادها مرات ومرات..

ومن أعماق حقدهم الأعمى، خرجت الأقاويل والشائعات..

في البداية نسبوا إليه خيانات عاطفية، لم ترد بخاطره قط..

وعندما سخرت هي من هذا، انقلبوا إلى وسيلة أخرى، فأشاعوا أن حبها له زائف، وأنها تتظاهر به، وتبالغ فيه، لتحظى بألحانه وموسيقاه الرائعة..

ليجعل منها نجمة..

بل وتمادوا ليشيعوا وجود علاقة حب، تربطها بممثل شاب، في مثل عمرها، وأنهما يلتقيان كثيرا من خلف ظهره..

وحان دوره هو ليسخر من كل هذا..

الأغبياء لا يدركون كم يحبها وتحبه..

لا يعلمون أن علاقتها واتصالاتها بذلك الممثل الشاب ضرورية، لأنهما يستعدان للقيام ببطولة فيلم غنائي جديد..

مجرد علاقة عمل لا أكثر.

ولكنهم لا يفهمون..

ولا يدركون..

وها هم أولاء الآن يطلبون منه لحنا جديدا، لأغنية شبابية مرحة، بحجة مرور عام كامل على مصرعها في حادث سيارة..

وعلى احتياجه الحتمي لأجر اللحن الجديد وربما كانوا على حق في النقطة الأخيرة..

عام بلا عمل، استهلك كل مدخراته، والتهم كل استثماراته وتركه مع ما يكفي لإبقائه حيا فحسب..

ربما كان بحاجة شديدة للمال بالفعل..

ولكن مستحيل!

لن يمكنه أن يصنع لحنا واحدا، وهي تحتل كل قلبه..

مازالت تحتل كيانه كله، كما لو أنها مازالت على قيد الحياة..

لا يمكنه نسيانها يوما واحدا حتى لحظة واحدة..

لقد قضت معه عدة شهور، ولكنها غرست نفسها في كل خلية من خلاياه..

إنه يشعر بها..

يراها..

يسمعها..

ولكن بعقله وقلبه فقط..

لا.. لن يمكنه تلحين جملة موسيقية واحدة بدونها..

ومن المستحيل أن يمنحهم لحنا هزيلا ركيكا، بعد كل ما حققه من شهرة ومكانة!

مستحيل!

مستحيل!

ترك دموعه تنهمر على وجهه، وهو يلتقط العود الأثري، الذي ورثه عن والده الراحل، وينحيه جانبا، ثم يتجه إلى حجرتها..

كثيرا ما جلس في تلك الحجرة الساعات وساعات، يتأمل كل ما لمسته أصابعها في حياتها..

أثوابها..

أدوات تجميلها..

مجوهراتها..

وحتى أوراقها..

وفي حجرتها، لم يستطع كبح مشاعره، فانفجر باكيا، وهو يلقى جسده على أقرب مقعد إليه..

لا يمكنه احتمال فقدها..

بكى طويلا، لساعة أو يزيد، قبل أن يجفف دموعه، ويطرد فكرة اللحن الجديد تماما من ذهنه..

لا يمكنه أبدا..

وفي حزن دافئ، فتح درج مكتبها الصغير، ليطالع آخر صورها، و...

وفجأة، سقط شيء ما بين قدميه..

مفكرة وردية صغيرة، كانت تختفي أسفل الدرج، وسحبها هو بيده دون أن يدري..

وفي بطء، انحنى يلتقط تلك المفكرة الصغيرة الوردية، التي تحمل على واجهتها قلبا كبيرا بارزا..

يا للرقة والنعومة!

هكذا ذوقها دائما..

ناعم، رقيق، أنيق.. متميز..

وبقلب مرتجف، فتح المفكرة، وألقي نظرة على ما بداخلها..

إنها يومياتها..

الأحداث التي تعيشها، وتدونها بخطها الرقيق الصغير يوما فيوما..

وخفق قلبه في عنف..

إنه يقرأ، ولأول مرة في حياته، ما كتبته هي عن نفسها..

عن حياتهما وحبهما..

ومع دقات قلبه القوية، راحت عيناه تلتهمان كلمات المفكرة الوردية..

واتسعت عيناه عن آخرهما..

لقد كتبت بيدها وخطها يوميات قلبها وحبها..

كتبت اسمها..

واسمه..

واسم ذلك الممثل الشاب..

وكان كل سطر في مفكرتها يحمل حب بلا حدود..

ولكنه حب لم يملأ قلبه بالسعادة..

بل بالذعر..

وطوال الليل، راح يقرأ يومياتها ومشاعرها..

ويقرأ..

ويقرأ..

ومع أولي نسمات الفجر، التقط عوده الأثري، وراح يضع أولى نغمات لحنه الجديد..

اللحن الذي فقد، طوال عام كامل دون مبرر..

وعندما استقبل الجمهور لحنه الجديد بإعجاب جارف، بعد عدة أيام فحسب، ارتسمت على شفتيه ابتسامة سعادة جارفة..

ابتسامة لا تحمل أثرا للحزن..
أدنى أثر.

(تمت)

أم على

74- أم على..

«الدكتور (محسن) عاد من مؤتمر (لندن)..»

ألقت زميلتي (نها) العبارة في همس منفعل، وهي تلهث في شدة، على نحو جعلنا جميعا ننظر إليها في دهشة، قبل أن أقول أنا، في حيرة مستنكرة:

- عاد إلى هنا؟!

أومأت (نها) برأسها إيجابا، في حماسة منفعلة، وهي تقول:

- نعم.. من المطار إلى هنا مباشرة؛ ليتابع حالاته التي كان يتابع علاجها قبل سفره..

ثم غمزت بعينها في خبث، قبل أن تستطرد:

- إنه غير متزوج كما تعلمن..

وجدت نفسي أهتف في حدة:

- ومن تفكر في الزواج من جلف مثله؟

ضحكت زميلتنا (سلوى) وهي تقول:

- الواقع أنه وسيم جدا يا (مروة).

قلت في حدة أكثر:

- حتى ولو كان أكثر رجال الأرض وسامة! إنه مجرد تمثال من الرخام، بلا قلب أو مشاعر.

هزت (نها) رأسها نفيا، وقالت:

- لست أظن هذا.. ربما كان صارما عنيدا، ولكن لو أنه بلا مشاعر كما تقولين يا (مروة) لما عاد من المطار إلى هنا مباشرة،

ليعود مرضاه.. شخص غيره كان سيعود إلى بيته، وينعم بيوم كامل من النوم والراحة أو..

هتفت بعناد:

- ولو.

ضحكت (نها) و (سلوى)، ولم تحاول إحداهما معارضتي، لما تعلمانه من صلابتي وعنادي، منذ كنا زميلات في مرحلة الحضانة..

والواقع أن رأيي في الدكتور (محسن) هذا لم يتغير أبدا، منذ بدأت العمل كطبيبة امتياز، في ذلك المستشفى العام، إثر تخرجي مع زميلتي عمري، من كلية الطب.

فمنذ أول يوم عرفته، وهو شخص صارم، عنيف، لا يهتم في الدنيا كلها سوى بمرضاه، الذين يعاودهم ليلا ونهارا، ويقضي ساعات طوالا إلى جوارهم، دون أن يسمح لطبيب امتياز واحد بالاقتراب منهم، أو التدخل في علاجهم..

العبارة الوحيدة، التي يرددها دوما، هي أن أطباء الامتياز مجرد ظلال بيضاء غير نافعة..

قول سخيف، يشف عن غرور غبي..

هذا ما أقوله عنه دوما..

أما الشيء الذي كنت أصر عليه باستمرار، فهو أنه رجل بلا قلب أو مشاعر، وأن صرامته الدائمة ليست إلا محاولة سخيفة لإخفاء أمر ما، يخجل أن يعرفه الآخرون عنه..

بالتأكيد..

ولقد عدت أخبر صديقتي برأيي هذا، ونحن في طريقنا إلى استقبال الطوارئ، الذي سنقضي فيه نوبة الليل معا، كما اعتدنا طوال فترة الامتياز...

وفي حجرة استقبال الطوارئ، رحت أشرح لهما خطة وضعتها، لإحراج الدكتور (محسن)، وكسر غروره وتعاليه، وإجباره على الاعتراف بوجودنا نحن أطباء وطبيبات الامتياز، و..

«هل تسمحن؟!»

قاطعتنا تلك العبارة القصيرة، التي نطقها رجل قصير القامة، خشن الملامح، في لهجة خافتة مهذبة، تتناقض بشدة، مع بنيانه المتين، ولحيته غير الحقيقة، فاعتدلنا في آن واحد، وسألته أنا:

- ماذا هناك؟!

أشار بيده، في شيء من الارتباك، وقال:

- والدتي مريضة.. معدتها تؤلمها منذ الغروب.. هل يمكنكن أن.. أعني هل تسمحن يا...

قاطعته قبل أن يكمل، وأنا أنهض من مقعدي، واتجه إليه بحماسة:

- بالتأكيد.. أين هي؟!

تبعتني (نها) و (سلوى) كالمعتاد، واتجه ثلاثتنا إلى حجرة الكشف، ولم يكد بصرنا يقع على أمه، التي تقف إلى جوار سرير الكشف الطبي صامتة، تمسك معدتها في ألم، حتى هتفنا في آن واحد:

- أم (على)؟!

ارتبك الرجل بشدة، في حين امتقع وجه الخالة أم (على) العجوز، وهي تحدق في وجوه ثلاثتنا، مغمغمة في خجل وارتباك:

- كيف حالكن يا بنات..

عبارتها القديمة، التي طالما سمعناها في طفولتنا، أثارت في نفوسنا حنينا شديدا، وأعادت إلى أذهاننا ذكريات أجمل أيام حياتنا، عندما كنا صغيرات، نسكن إلى جوار بعضنا، في منطقة (المعادي)، وكانت الخالة أم (على) قاسما مشتركا في حياتنا، عندما كانت تحضر لأسرنا البيض الطازج، والدجاج والبط وغيرها من الطيور، وتؤدي للكل أية خدمات معقولة، مقابل أجر بسيط.. كانت دوما باسمة الثغر، حنونا، دافئة المشاعر، ما إن نلمحها، نحن وأطفال الحي كله، حتى نهرع إليها بفرحة عارمة، ونحن نهتف باسمها، وكانت هي تستقبلنا دوما بابتسامة كبيرة، ودفء يكفي لإذابة ثلوج القطبين معا..

وكم أحببناها وتعلقنا بها في طفولتنا، وأصبحنا ننتظرها بكل اللهفة والحب..

ثم اختفت أم (على) فجأة.

دون مقدمات، لم تعد أم (على) تأتي إلى حينا، أو إلى أية أحياء أخرى.. ولقد انتظرناها طويلا، ثم لم نلبث أن بدأنا نبحث عنها، ونسأل عن أحوالها، فعلمنا من بعضهم أن ابنها (على) قد طلب منها أن تكف عن العمل، وخرج هو ليعول أسرته كلها وأشقاءه الأصغر سنا..

وكم افتقدنا أم (على) في شبابنا وصبانا حتى رأيناها الآن..

وبكل شوقنا ولهفتنا، أقبلنا عليها نغمرها بحبنا وقبلاتنا، فاحمر وجهها خجلا، وامتزج ألمها بتلك الابتسامة الحانية الدافئة، التي

افتقدناها طويلا..

وبكل حبنا، رحنا نفحص أم (على)، ونتعاون على إراحتها وتهدئتها، وتخفيف آلامها، وابنها يقف صامتا، يتطلع إلينا في تأثر واضح..

ولكن أم (على) كانت تحتاج إلى ما هو أكثر من عقار لتخفيف الألم..

وبكل الاهتمام، قلت لها:

- خالتي أم (على).. ستحتجزك هنا ليومين، حتى نجري لك كل الفحوص اللازمة.

ظهر على وجهها ذعر لم أفهمه، في حين اندفع ابنها يقول في ارتباك:..

- لا.. ليس هنا

قالت (نها) في دهشة:

- ولم لا.. ما ستجده هنا لن تجده في أي مستشفى آخر.. ثم إن الخالة أم (على) مثل والدتنا، وسنوليها كل رعايتنا واهتمامنا..

تبادلت أم (على) نظرة قلقة متوترة مع ابنها، الذي أومأ برأسه، وكأنما يعلن في صمت فهمه لما تعنيه وتنحنح في حرج، قائلا في شيء من الحزم:

- ليس هنا..

خيل إلى أنني قد فهمت مغزى كل هذا، فقلت في حزم:

- لن يكلفكما هذا قرشا واحدا..

قال الرجل في حرج:

- ليست مسألة نقود..

تابعت وكأنني لم أسمعه:

- سنتخذ كل الإجراءات اللازمة، وسندخل الخالة أم (علي) القسم المجاني، و..

قبل أن أتم عبارتي، ارتفع صوت جهوري صارم، يقول:

- هراء.

التفتنا جميعا بحركة واحدة، إلى مصدر الصوت، ووقع بصرنا على الدكتور (محسن)، الذي بدا عملاقا قويا صارما في تلك اللحظة، حتى إن (نها) و (سلوى) قد امتقعتا على نحو عجيب، في حين ارتبك الرجل القصير، واحتقن وجه أم (على) المسكينة، وتراجعت في شيء من الذعر جعلني أشفق عليها، وأهم بالاعتراض على قوله في عنف، لولا أن فوجئت به يكمل، في حنان عجيب، أدهش الكل بالتأكيد:

- هذه السيدة ستعالج في جناح خاص، وبالدرجة الممتازة أيضا..

احتقن وجه أم (على) أكثر، وارتبك ابنها بشدة، ولكن الدكتور (محسن) اتجه نحوهما، ثم أقدم على آخر شيء يمكننا تصوره..

لقد انحني يلتقط يدها، ثم يطبع عليها قبلة طويلة، جعلت وجهها يتضرج كله بحمرة عجيبة، قبل أن ينهض هو، ثم يحيط جسدها الضئيل بذراعه القوية، ويضمها إليه في حنان جارف، قبل أن يقول بصوت، لم أسمع أكثر أو أشد منه حبا وفخرا واعتزازا:

- إنها أمي..

اتسعت عيون ثلاثتنا في ذهول، ونحن نحدق فيه، في حين دفنت (أم على) رأسها في صدره، وسالت دموعها على وجهها الطيب الحنون، فضمها إليه أكثر، وربت عليها بحنان أذهلني، وأطلق في جسدي كله ارتجافة عجيبة، شملته حتى النخاع..

وبكل ذهولها، هتفت (نها):

- الخالة أم (على) هي أمك؟!

اتسعت ابتسامته في زهو وفخر، وهو مازال يضم أمه إليه بكل حنان الدنيا، ومد يده يربت على كتف القصير وهو يجيب:

- لي كل الفخر.. أما هذا، فهو (على)، شقيقي الأكبر، وأفضل أسطى ميكانيكي في (المعادي) كلها.

ثم التفت إلى شقيقه، وداعب لحيته نصف الثابتة، وهو يضيف بحب:.

- كفاحه وتضحيته هما اللذان صنعا مني ما أنا عليه الآن.

قالها، وطبع قبلة امتنان على جبين شقيقه (على)، قبل أن يعتدل، مستعيدا كل صرامته المألوفة، ومستطردا:

- هيا.. لا تضيعن الوقت.. أريد أفضل جناح في المستشفى كله.. على النيل مباشرة، وعلى نفقتي الخاصة.. وليبدأ الاستعداد لعمل الفحوص فورا..

وبكل حماس الدنيا، هتفت:

- بالتأكيد..

لحظتها، ألقيت كل خططي السابقة خلف ظهري..

ووضعت خطة جديدة..

ولقد نجحت خطتي الجديدة نجاحا باهرا، ولا يمكنكم أن تتصوروا مدى سعادتي وفخري بنجاحها، وأنا أسير الآن في (المعادي) متأبطة ذراع زوجي العظيم، الدكتور (محسن)، وفي يدي الأخرى ثمرة حبنا..

(على)..

حفيد أم (على)..

(تمت)

الحاج (شيحه)

75 - الحاج (شيحة)..

كلنا سمعنا الخبر، وقرأناه في كل الصحف، في ذلك الصباح..

الدولة قررت عدم السماح بأداء فريضة الحج، لمن أدوها في العام الماضي، حتى تتاح الفرصة للآخرين، ويخف الضغط في موسم الحج..

كلنا استقبلنا الأمر واستوعبناه، وأدركنا حكمته ومغزاه..

إلا الحاج (شيحه)..

والحاج (شيحه) هذا واحد من أبناء حارتنا، لا أحد يعرف وظيفته أو مهنته بالضبط، ولكنه يؤكد دوما أنه يزاول الأعمال الحرة، وإن لم يفصح قط عن طبيعة هذه الأعمال مما جعلنا نكتفي بحديث زوجته الحاجة (فتحية)، عن عمله كسمسار مقاولات، في بعض الأحياء الراقية..

ومنذ انتقال الحاج (شيحه) وزوجته للسكني في حارتنا، اعتدنا أن نراهما يؤديان فريضة الحج سنويا، وإحاطة سفرهما وعودتهما بمظاهر احتفالية خاصة، تروق كثيرا لأهل الحارة، وتثير فرحتهم.. وربما غيرتهم أيضا..

ومع عودتهما من الأراضي المقدسة، اعتدنا أيضا أن يسيل لعابنا، وتسيل معه تساؤلاتنا، عن نوعية الهدايا والهبات.

التي يوزعانها علينا جميعا كل عام، فبساط صلاة لهذا، وجلباب لذاك، وثوب مزركش لتلك.. وهكذا....

وعندما أعلنت الدولة تقييدها لعدد مرات الحج السنوية، امتقع وجه الحاج (شيحه)، واحتقن، واحمر وأصفر، ثم صاح بكل

غضبه:

- كلا.. هذا ظلم.. ظلم فادح....

كنا نقدر جميعا عشقه السنوي لأداء فريضة الحج، وإصراره الدائم عليها، لذا فقد رحنا نبذل جهدنا، لتهدئة مشاعره، وإقناعه بحكمة القرار، ورحت أنا أقول له في روية:

- فريضة الحج تكفيها مرة واحدة يا حاج (شيحه)، وهي تسقط عن المسلم، بعد هذه المرة.

لوح بذراعيه، هاتفا في حدة:

- مستحيل! لابد أن أذهب للحج.. لا يمكنني أن أضيع غنيمة كبيرة كهذه.

ربت على ظهره، محاولا تهدئته، وأنا أقول:

- الحج ليس الوسيلة الوحيدة ليغنم المرء ثواب الله (سبحانه وتعالى).. يمكنك أن تتبرع بمبلغ أداء فريضة هذا العام إلى أحد مستشفيات الأورام، أو أجهزة الغسيل الكلوي، أو حتى لأحد الشبان الراغبين في الزواج.. هذا حتما سيمنحك ثوابا أكبر..

تطلع إلى، كما لو كنت مجنونا، ثم هز رأسه في قوة، قائلا:

- أنت لا تفهم شيئا.. لا تفهم شيئا.

قالها، ونهض في حدة، واندفع يغادرنا في توتر بالغ وهو يلوح بذراعيه، ويهمهم بكلام غير مفهوم، فغمغم جارنا الأستاذ (فرحات):

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. الرجل عاجز عن استيعاب فكرة عدم السفر للحج هذا العام!

هززت رأسي، قائلا:

- لا بد أن يعتاد هذا.

أومأ جارنا الآخر، الأستاذ (ثروت) برأسه، وقال في هدوء:

- سيجد وسيلة

قلت في دهشة:

- أية وسيلة؟! إنه قانون..

ابتسم في رصانة وغموض، قائلا:

- الحاج (شيحه) سيجد وسيلة..

لم أفهم ما يعنيه، ولا سر ثقته العجيبة بالحاج (شيحه)،

حتى فوجئنا بالرجل يقبل علينا، بعد أسبوع واحد، وهو يلوح بجواز سفره في بشر وحبور، قائلا:

- لقد فعلتها.

سألته في حيرة:

- فعلت ماذا؟!

جذب الحاج (شيحه) مقعدا، وجلس إلى جواري، قائلا في ظفر فرح:

- حصلت على التأشيرة، وسأسافر لأداء فريضة الحج، هذا العام أيضا..

سألته بكل الدهشة:

- ولكن كيف؟! والقانون؟!

أشار الأستاذ (ثروت) بسبابته في وقار، قائلا:

- المال يفتح كل الأبواب..

هتفت بدهشة مستنكرة:

- المال؟!

ضحك الحاج (شيحه)، وعاد يلوح بجواز سفره، قائلا:

- نعم يا رجل.. المال.. لقد ابتعت تأشيرة خاصة.

هتفت باستنكار أكثر:

- لأداء الحج؟!

هز رأسه نفيا، ومال نحوي، قائلا في ظفر:

- بل للعمل في أثناء فترة الحج..

سألته في حيرة:

- ماذا تعني؟!

اعتدل، مجيبا في حماسية:

- إنها التأشيرة التي تحصل عليها كل الفئات المعاونة، في فترة الحج.. مثل السائقين، والحلاقين، والعاملين في المناسك والفنادق.

سألته في دهشة منفعلة:

- وكيف أمكنك الحصول على تأشيرة كهذه؟!

ضحك، وهو يشير إلى الأستاذ (ثروت)، قائلا:

- بالمال يا رجل.. بالمال!

هتفت في غضب مستنكر:

- من السفارة؟!

هز رأسه نفيا، وهو يقول:

- مستحيل! السفارة لن تتجاوز القانون أبدا..

لقد حصلت عليها من إحدى الشركات، التي تورِّد الفئات المعاونة، في موسم الحج..

ثم عاد يضحك في ظفر، ويلوح بجواز سفره، هاتفا:

- المهم أنني سأسافر مع الحاجة، هذا العام أيضا.

أدهشني أسلوب الرشوة والتحايل، لأداء فريضة مقدسة كهذه، إلا أنني آثرت الصمت، واكتفيت برفض القلب، حتى سافر الحاج (شيحه) مع الحاجة (فتحية) كعادتهما..

ومرت الأيام، ونسيت الأمر برمته، وانشغلت في أيام العيد، وما أعقبها من إعادة تنظيم وتدبير، و...

«هل سمعت أخبار الحاج (شيحة) وزوجته؟!»

فاجأني الأستاذ (فرحات) بالسؤال، وهو يقبل علينا في المقهى، فقلت في دهشة:

- عجبا.. كيف نسيت أمره هكذا تماما؟! صحيح.. ما أخبارهما، ولماذا لم يعودا من الحج حتى الآن؟!

مال الأستاذ (فرحات) نحوي، قائلا:

- لقد عادا، ولكن ليس إلى الحارة.

سألته في دهشة أكبر:

- إلى أين إذن؟!

التقط نفسا عميقا، قبل أن يجيب:

- إلى السجن.

مط الأستاذ (ثروت) شفتيه، دون أي تعليق، وكأنما لم يدهشه هذا، في حين كدت أنا أقفز من مقعدي، صارخا:

- السجن؟! لماذا؟! هل حاولا تهريب بضائع من الجمارك؟!

أجابني في سرعة:

- تهمتهما ليست التهريب.. إنها النشل.

اتسعت عيناي عن آخرهما، وكاد قلبي يتوقف، وأنا أهتف:

- النشل؟! مستحيل!

مط الأستاذ (ثروت) شفتيه مرة أخرى، والأستاذ (فرحات) يقول في حماسة عجيبة:

- إنها مهنتهما منذ زمن طويل.. النشل.. وإصرارهما على السفر للحج كل عام كان بسبب ما ينشلانه من الحجيج هنالك..

ردت في ذهول:

- النشل!

غمغم الأستاذ (ثروت) في ازدراء:

- كنت أعلم هذا منذ البداية..

ثم نهض، وانصرف مع الأستاذ (فرحات)، وهما يتحدثان عن الأمر، وتركاني على المقهى وحدي، ذاهلا مذعورا أراجع في أعماقي التاريخ كله..

تاريخ جارنا الحاج..

(شيحة).

(تمت)

القنبلة

76- القنبلة..

على الرغم من حالة التوتر الشديد، التي سادت مبنى مديرية الأمن، وأفصحت عن نفسها في وضوح، مع وقع الأقدام، التي تعدو في كل مكان، والهتافات العصبية غير الواضحة، التي تتناهى إلى مسامعي، من الممر الخارجي إلا أنني ظللت جالسا في مكتبي، أدخن سيجارتي في هدوء، وكأنما لا يعنيني الأمر كله، حتى اقتحم أحد الضباط الجدد مكتبي دون استئذان، هاتفا:

- سيادة اللواء يطلبك فورا أيها الرائد..

اعتدلت بنفس الهدوء المستفز، وسألته:

- ماذا هناك؟!

هتف بانفعال:

- يقولون: إن بعضهم دس قنبلة هنا..

قلت، وأنا أنهض من مقعدي في سرعة:

- قنبلة؟!

لم تمض دقيقة واحدة، على قولي هذا، حتى كنت أقف أمام مدير الأمن، الذي لوح بذراعيه كلهما، وهو يهتف في انفعال شديد:

- هل تصدق هذا أيها الرائد؟! هل تصدق أن أحدهم قد نجح في دس قنبلة زمنية هنا؟! في مديرية الأمن؟!

أشرت بيدي، قائلا في حزم:

- معذرة يا سيادة اللواء، ولكن كيف وصلتنا هذه المعلومة؟!

لوح بذراعه، واحتقن وجهه، وكأنما يعجز لسانه عن النطق، ثم لم يلبث أن ترك جسده يهوي على مقعده، قائلا:

- بلاغ من مجهول.. محادثة هاتفية، من هاتف عمومي في أحد الشوارع، أخبرنا بالأمر..

سألته في اهتمام:

- وهل صدقتم قوله؟!

مط شفتيه، ولوح بيده مرة أخرى، قائلا:

- لقد منحنا دليلا لا يقبل الشك.

سألته في لهفة:

- وما هو؟!

بدا صوته محبطا محنقا، وهو يجيب:

- أخبرنا أنا سنجد قنبلة أخرى هيكلية، أسفل دولاب الذخيرة، في حجرة السلاحليك.

ثم مال إلى الأمام، وقال في مرارة:

- ولقد عثرنا عليها، في الموضع الذي وصفه بالضبط.

هتفت بانفعال:

- مستحيل!

ضرب المدير سطح مكتبه بقبضته، قائلا:

- هذا يثبت وجود القنبلة الحقيقية.

قلت في سرعة:

- ويثبت أمرا آخر أيضا.

أطلت من عينيه نظرة متسائلة فملت نحوه، مستطردا في حزم:

- أن للرجل شريكا هنا، في مديرية الأمن..

ظهر الذعر على وجه المدير، ولكنني تابعت بمنتهى الصرامة:

- الوصول إلى حجرة السلاحليك ليس بالأمر السهل، وهو غير متاح إلا لبعض العاملين هنا، وكبار الضباط، وهذا يعني أن أحدهم هو الذي وضع القنبلة في الحجرة.

امتقع وجه المدير، وهو يقول:

- ضابط خائن! يا إلهي! إنها كارثة!

قلت مؤمنا على قوله:

- وأية كارثة! إنها مصيبة!

وصمت لحظة، قبل أن أضيف:

- ولكننا كنا نتوقعها..

شحب وجه المدير، وهو يقول:

- هذا صحيح.. منذ بدأت تلك الاضطرابات، عام ألفين وخمسة، وعديد من رجال الشرطة ينضمون للمتمردين يبدو أن الأمر يفلت من بين أصابعنا يا معاون المباحث.

قلت في حزم:

- ليس بعد.

وقبل أن ينطق حرفا آخر، سألته في سرعة:

- وهل أخبرنا ذلك المجهول، متى ستنفجر تلك القنبلة؟!

قلب المدير كفيه في يأس ومرارة، مغمغما:

- مطلقا!!

تراجعت بحركة حادة، هاتفا:

- ماذا ننتظر إذن؟!

أجاب في توتر:

- إننا نقوم بتفتيش المكان كله، و...

صحت في حدة:

- وماذا يا سيادة المدير؟! إننا لا نعلم متى ستنفجر تلك القنبلة.. وربما تنفجر الآن..

امتقع وجهه أكثر، وهو يسألني:

- ماذا تقترح يا معاون المباحث؟!

هتفت به في صرامة آمرة، على الرغم من فارق الرتب الكبير بيننا:

- لا بد من إخلاء مبنى المديرية فورا.

هتف مذعورا:

- ولكن هذا مستحيل! إنه يحتاج إلى قرار وزير..

التقطت سماعة الهاتف، وأنا أقول في حزم:

- الوزير سيقدر حتما طبيعة وحساسية الموقف.

ورحت أطلب رقما خاصا، وأنا أضيف:

- وسأتحمل أنا المسئولية كاملة، باعتباري معاون المباحث.

سألني في توتر:

- ماذا ستفعل بالضبط؟!

أجبته في حزم:

- سأقوم باستدعاء قوات مكافحة الإرهاب، وقسم التعامل مع المتفجرات، بينما تأمر أنت الجميع بمغادرة المبني فورا.

كانت خطتي متقنة تماما، فلقد ألقى مدير الأمن أوامره، عبر مكبرات الصوت، في المبنى كله، ولم تمض دقائق، حتى وصلت سيارة مكافحة المتفجرات، وهبط منها فريق من الرجال، بملابسهم السوداء وخوذاتهم القاتمة، واندفعوا ينتشرون في المبنى ويسيطرون عليه.

ولم تمض دقائق أخرى، حتى وصلت سيارة نصف نقل مغلقة، إلى الباب الخلفي لمبنى المديرية، وراح بعض الرجال ينقلون إليها كل ما يحويه المبنى من أسلحة وذخائر.

أما أنا، فقد عدت إلى مكتبي، ورحت أدخن سيجارتي في هدوء، حتى لمحت من النافذة تلك السيارة نصف النقل تبتعد، فابتسمت في استرخاء وتكاسل، وانتظرت حتى انطلق أزيز جهاز الاتصال اللاسلكي، فالتقطته، قائلا:

- كيف الحال؟!

أتاني صوت صارم حازم، يجيب:

- كل شيء تم وفقا للخطة.

- عظيم.

وبنفس الهدوء، نهضت أرتدي زيا مماثلا لزي رجال مكافحة المتفجرات، وخوذة داكنة تخفي ملامحي، ثم انحنيت ألتقط القنبلة من أسفل مكتبي، وأعدت ضبط توقيتها، قبل أن أغادر المبنى كله، في سيارة مكافحة المتفجرات..

ومن حسن الحظ أن أحدا لا يحاول عدّ أفراد فرق الأمن..

هذا ما جال بخاطري، ونحن نبتعد بالسيارة، والانفجار ينسف مبنى مديرية الأمن نسفا، ويعلن انتصارا جديدا لنا..

نحن المتمردين.

(تمت)

بالمصادفة ..

77- بالمصادفة..

يا له من يوم سعيد؟

هكذا قال (أنور) لنفسه، وهو يعقد رباط عنقه زاهي الألوان في الصباح، أمام تلك المرأة الكبيرة في حجرة نومه، ويطلق من بين شفتيه لحتا مرحا، يميز فترة ستينات القرن العشرين..

كان شديد الاهتمام بمظهره وأناقته هذا الصباح؛ لأنه سيلتقي اليوم بالمرأة التي وقع في غرامها، منذ نصف العام، أو أقل قليلا.. سكرتيرته (هند)..

صحيح أنه متزوج منذ خمس سنوات، وحياته مع زوجته هادئة مستقرة، على الرغم من أنهما لم ينجبا قط، إلا أنه ومنذ أول يوم رأي فيه (هند)، عندما التحقت بالعمل في الشركة، وقع في غرامها فورا.

كانت من ذلك الطراز المبهر من النساء.. أنيقة، جميلة، واثقة، ذات شخصية جذابة آسرة.. عيناها كانتا من ذلك النوع، الذي ما إن تتطلع إليه، حتى تغوص فيه، وتغرق في أعماقه حتى النخاع..

ولقد تطلع إلى عينيها، في أول يوم دلفت فيه إلى مكتبه.. ووقع في أسرهما..

وهو واثق من أنها قد أدركت هذا، منذ اللحظة الأولى، ورأى بنفسه تلك الابتسامة الخبيثة الواثقة، على طرف شفتيها الجميلتين..

ولكن هذا لم يفتَّ في عضده..

لقد قرر أن يبذل كل جهد ممكن لينالها..

مهما كان الثمن..

وكرجل، بدا له أن أقصر طريق إلى هذا هو أن يغمرها باهتمامه، وكرمه، وهداياه، في كل مناسبة ممكنة..

ومن ملفها بالشركة، عرف تاريخ مولدها، وعنوانها، ورقم هاتفها، و...

«إلى أين؟!»..

ألقت زوجته السؤال في اهتمام، فانتزعته بعنف من أفكاره، وجعلت جسده كله يرتجف ارتجافة سريعة، قبل أن يلتفت إليها، قائلا في سرعة وتوتر:

- ألم أخبركِ أمس؟!

دست كفيها في جيبي معطفها المنزلي، وهي تتطلع إليه، قائلة:

- آه.. اجتماع فرع الشركة في (أسوان).

ربت على رباط عنقه، والتقط سترته، وهو يقول:

- إنه اجتماع مهم جدا، وسيتحدد فيه مصير الشركة هناك، وحضوري أمر لا بديل عنه.

أومأت برأسها متفهمة، ومغمغمه:

- لقد أخبرتني هذا بالفعل..

تصور أنها ستكتفي بهذا القول، ولكنها استدركت في سرعة:

- هل ستسافرون بالقطار أم بالطائرة؟!

أجابها في سرعة أيضا:

- بالطائرة.. نائب مدير الشركة ينتظرني بتذكرتها في المطار.

- نظام جيد.

غمغم بدوره:

- بالتأكيد

ألقي نظرة حذرة عليها في المرآة، وأدرك من ابتسامتها أنها لا تشك فيما قاله، وعلى الرغم من هذا فقد لمح في ابتسامتها نفسها شيئا لم يرتح إليه..

على الإطلاق..

ولكن لا ينبغي أن يقلقه هذا..

لقد أعد لكل شيء عدته بمنتهى الدقة..

حتى رفاقه في العمل يتصورون أنه سيسافر بالطائرة إلى (أسوان) بالفعل..

(هند) وحدها تعلم أنه سيسافر ليقضي يومه هناك، في (الإسكندرية)..

هذا لأنها سترافقه في رحلته هذه..

إنها تنتظره في النادي، وسيلتقطها من هناك، وتحملهما سيارة استأجرها سرا، إلى (الإسكندرية) مباشرة..

وبالتحديد إلى المنتزه..

ومن المؤكد أنها ستكون رحلة من أجمل رحلات حياته كلها يوم كامل، بصحبة أجمل مخلوقة عرفها في حياته..

(هند)..

وهو يعلم أنه بهذا يخون زوجته..

يخونها مع سبق الإصرار والترصد..

ولكن ماذا في هذا؟!

كل الرجال يفعلونها..

كل الرجال يسعون لإقامة علاقات مع نساء أخريات بخلاف زوجاتهم..

وهو واحد من هؤلاء الرجال..

لهذا منحهم الله، من دون النساء، حق الزواج بمثنى، وثلاث، ورباع.

وما ملكت أيمانهم أيضا..

هذا ما أقنع به نفسه، وهو يودع زوجته، وينطلق كالطير، في تلك السيارة المستأجرة! ليلتقي بمحبوبته (هند)..

وياله من لقاء..

كانت كالبدر في تمامة، وهي تجلس إلى جواره، وتمنحه واحدة من ابتساماتها المتألقة الساحرة، قبل أن ينطلق بها، في طريقهما إلى (المنتزه) في (الإسكندرية)..

وطوال الطريق، تعانقت أصابع كفيهما، وهي تتحدث بحماسة طوال الوقت..

كان طموحها ضخما، إلى حد مدهش..

ولقد قرر أن يبيع قطعة الأرض، التي ورثها عن والده في (المنيا)، ليحقق لها كل طموحاتها، ويربح قلبها الدافئ، وجمالها الفتان..

سيبتاع لها شقة المهندسين، التي تحلم بها، وتلك السيارة الفاخرة، والحلي، وشاليه الساحل الشمالي، و...، و...

ولكن هل ستكفي أرضه، لشراء كل هذا؟!

كان الخاطر يزعجه، لذا فقد ألقاه خلف ظهره، وحاول أن ينساه، وهو يسبح في بحر الغرام، وأصابعه تعانق كفها في حب ولهفة..

ومع مدخل (الإسكندرية)، اكتسب الهواء رائحة لطيفة رائحة اليود، والملح..

والحب..

وفي ذهنه، راح يضع سيناريو ذلك اليوم، الذي حلم به طويلا..

سيزيل حاجز فارق العمر، بين سنه وسنها، وسيلهوان.. ويمرحان معًا، في حدائق المنتزه، ويتناولان طعامهما في فندقها الشهير..

لعبا، ولهوا، وجريا، وضحكا لساعات، وساعات..

ولم تكن (هند) أبدا أجمل مما كانت عليه، في ذلك اليوم.

كانت ساحرة..

ظل يرتب أحلامه وأمنياته، حتى بلغا المنتزه بالفعل وانطلق معها، كما لم يفعل في حياته كلها..

إلى أقصى حد..

وفي النهاية، ومع منتصف النهار، أطلقت ضحكة عابثة طويلة، قبل أن تقول:

- إنني أموت جوعا.

هتف في حماسة:

- وأنا أيضا.

اتجها بالسيارة المستأجرة إلى مطعم فاخر قريب، وبينما هو يوقف السيارة أمامه، أشارت هي في عبث إلى رجل وامرأة، يلهوان مثليهما، بالقرب من المطعم، وقالت في خبث:

- يبدو أن الكل يشتعل حبنا هنا.

طبع قبلة على كفها، وهو يغادر السيارة معها، وتشابكت أصابعهما مرة أخرى، وهما يتجهان إلى المطعم، ولكن الرجل والمرأة اندفعا نحوهما، وهما يطلقان ضحكات عابثة عالية، ثم ارتطمت المرأة به فجأة، و..

وانتفض جسده كله في عنف، وهو يحدق في وجهها، في حين اتسعت عيناها هي عن آخرهما، في ذعر بلا حدود، وانطلقت من حلقها شهقة رعب ذاهلة، وهي تصرخ:

- أنت؟!

وبكل ذهوله وذعره، صرخ:

- (كوثر)؟!

وعجزت ساقاه عن حمله من هول المفاجأة، فوجد نفسه يسقط عند قدمي (هند) وأقدام الرجل والمرأة العابثين..

فقد كانت تلك المرأة هي آخر شخص يتوقع رؤيته في (الإسكندرية).. كانت زوجته، التي تتوقع وجوده هناك..

في (أسوان)..

(تمت)

ورحلت ..

78- ورحلت..

فجأة، قررت حبيبتي الرحيل..

أو بمعنى أدق، أعلنت عنه..

فمنذ فترة، وأنا أشعر بما يعتمل في أعماقها، وبما تشتعل به نفسها..

صحيح أنها واظبت على لقاءاتنا، ولحظات حبنا، ولم تخلف موعدا من مواعيدنا قط..

ولكن كل هذا افتقر إلى حرارتها المعتادة، ولهفتها المحببة، وذلك الحب، الذي كان يطل من عينيها وكلماتها، فيرقص له قلبي، وينتعش به كياني، ويتجدد له شباب كل خلية في جسدي..

كل هذا اختفى، منذ فترة ما، قبل أن تعلن رغبتها في الرحيل..

حتى وهي تعلن هذا، كانت جميلة، رقيقة ناعمة حانية، إلى حد انفطر معه قلبي، وذاب له وجداني..

لقد تحملت مني ومن أجلي طويلا..

وكثيرا..

تحملت عصبيتي، وتعنتي، وثوراتي في أثناء مناقشاتنا، وإصراري الدائم على رأيي، ونوبات المرض التي تعاودني باستمرار..

تحملت كل هذا بصبر، دام عدة سنوات....

لأنها أحبتني..

كان حبها عظيما، رائعا، عميقا، على نحو لم أتخيل حتى وجوده، منذ وعت عيناي الدنيا..

وبكل ذرة في كياني، أحببتها..

بكل نبضة في قلبي عشقتها..

بكل نفس يردده صدري أدمنتها..

ولكنني لم أمنحها قط مثلما منحتني..

لم أمنحها الحب الكافي، أو الدفء المطلق، أو الشعور بالأمن والأمان، الذي تنشده كل أنثى..

لم أمنحها أبدا عُشر ما منحتني إياه..

كانت تتمنى أن يربطنا إطار شرعي دائم..

وكنت أعلم أنها ستصبح أعظم زوجة في الوجود..

أعظم حبيبة، وعشيقة، وأم.

ولكن أسبابا شتي حالت دون إتمام دون تحقيق حلمي وحلمها هذا..

ولقد بذلت قصارى جهدي؛ للتغلب على كل العقبات، وتجاوز كل المصاعب..

ولم يسمح لى القدر بهذا..

كنت أقاتل، وأقاتل، وأقاتل..

والأمور تزداد صعوبة وتعقيدا أكثر.. وأكثر.. وأكثر..

وصبرت حبيبتي على كل هذا..

ورحلت..

وصبرت..

وصبرت..

لم يكلّ حبها وحنانها وعشقها قط..

لم تتوقف لحظة عن منحى كل ما يمكنها، حتى ترى نظرة سعادة واحدة في عينيّ..

ومن المؤكد أنها لم تجد صدى لكل هذا في نفسي..

أو أنها قد تصورت هذا..

المهم أن حبها قد فتر فجأة.

لعلها ملَّت..

أو يئست..

أو غضبت..

المهم أنها لم تعد تحتمل الاستمرار..

ولم تفصح عن هذا قط، إلا عندما سألتها أنا لحظتها بكت، ودفنت رأسها في صدري، وأعلنتني أنها لم تعد تستطيع الاستمرار....

لم تعد قادرة على منحى حبها، بنفس القدر السابق..

لم يعد باستطاعتها أن تصبر..

أو تحتمل..

أو تنتظر..

لم يعد باستطاعتها أن تحيا على هذا النحو، الذي يخالف طبيعة كل أنثى، تبحث عن الأمان، والاستقرار، في كنف من

تحب..

وبقيت عيناي جافتين، على الرغم من الدموع الغزيرة، التي انهمرت في قلبي، وأنا استمع إليها، وأتطلع إلى وجهها، الذي عشقته بكل كياني، منذ أول لحظة وقع فيها بصري عليه..

وتركتها تفرغ كل ما لديها، بكلماتها، ودموعها..

ولأول مرة في حياتي، شعرت بعجز ومرارة بلا حدود..

فما منعني من زواجها ما زال قائما..

وحبها مازال يحتل وجودي كله...

كانت لحظات لا يمكن نسيانها قط..

ورحلت..

أكثر لحظات حياتي ألمًا، وعذابا، ومرارة..

فأنا لم أحبها فحسب، وإنما عشقتها، وذبت في هواها حتى النخاع..

ولكنني لم أستطع أن أقدم لها ما يعيدها إليّ..

ربما لأنني شعرت بأنها لم تعد تريدني كما كانت..

فقط كانت ترغب في الابتعاد والرحيل..

حبيبتي لم تعد تحتمل متاعبي أو تحتملني..

ورحلت..

رحلت حبيبتي الوحيدة، وتركتني خلفها غير قادر على النطق، وعيناي تدوران في كل مكان حولي..

كل شبر كان يذكرني بها..

كنت أراها في كل ركن..

أسمع ضحكاتها وكلماتها في كل مكان..

وجهها لا يفارق خيالي قط..

وقلبي لا يمكن أن ينساها أبدا..

أشم عطرها الرقيق في كل لحظة لا يمكنني أن أتصور الحياة بدونها..

كم أشعر بالحزن لغيابها..

كم أشعر بالوحدة دونها..

وكم أجاهد وأقاتل، بكل ما تبقى في كياني من قوة وإرادة وإصرار؛ حتى أتغلب على تلك الظروف العسيرة، التي حالت بيني وبينها...

ساعدني يارب على تجاوز المحنة.

ساعدني على احتمال فراقها، حتى يعود إلى حبها، أو ترحل.. روحي.

(تمت)

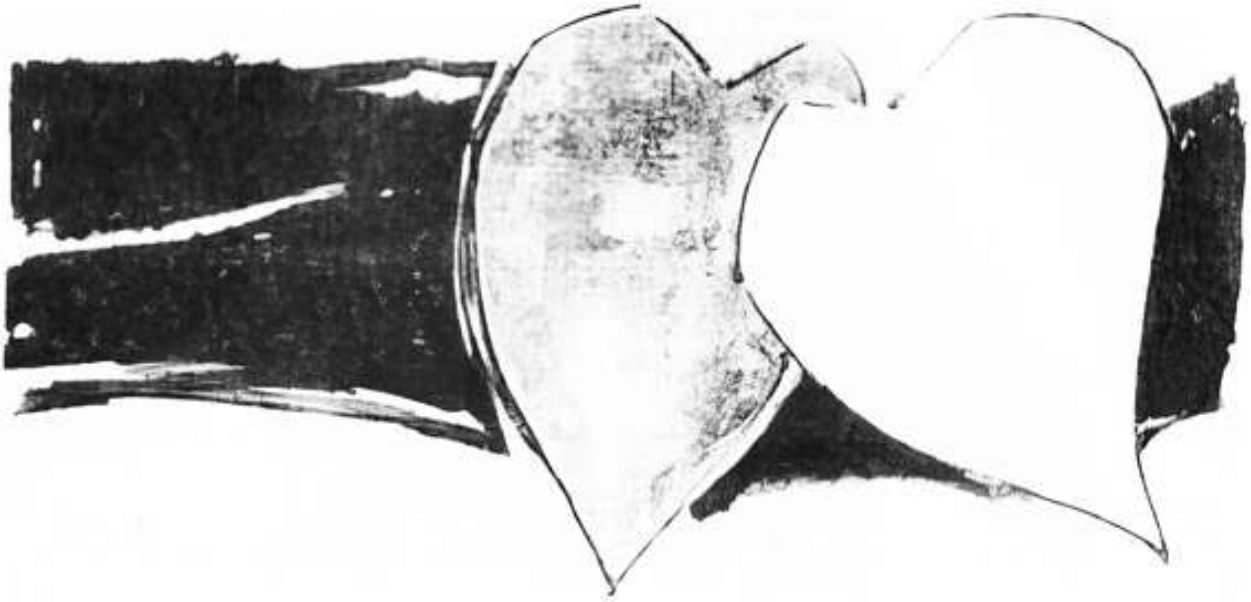

قلبى .. وقلبه ..

79- قلبي.. وقلبه..

«صباح الخير يا آنسة (مروة)..»

لم تكد (مروة) تسمع تلك العبارة الصباحية المعتادة، وهي تتجه نحو مدرج المحاضرات الرئيسي، حتى زفرت في شيء من التوتر، وغمغمت، دون أن تلتفت إلى صاحبها:

- صباح الخير يا أستاذ (أحمد).

ضحكت زميلتها (غادة)، ولكزتها بمرفقها خفية وهي تهمس في أذنها:

- أستاذ (أحمد)؟! إنك تتحدثين إليه بأسلوب رسمي جدا.

قالت في حدة هامسة:

- هو أيضا يتعامل معي بأسلوب رسمي جدا.. إنه الوحيد من زملاء الصف، الذي يخاطبني بلقب الآنسة (مروة) هذا.

همست (غادة):

- إنه يحترمك جدا في الواقع..

توقفت (مروة) بغتة، وارتفع صوتها دون أن تدري، وهي تلتفت إلى (غادة) هاتفة في استنكار:

- يحترمني؟!

التفت كل طلاب المدرج إليها في دهشة وتساؤل، واحمرّ وجه (غادة) خجلا، وهي تهمس في توتر:

- (مروة).. تمالكي أعصابك..

شعرت (مروة) بالحنق؛ لأن أعصابها قد أفلتت منها على هذا النحو السافر، وانعقد حاجباها في غضب حقيقي عندما رأت (أحمد) يتطلع إليها في قلق حائر، فغمغمت في توتر شديد:

- أريد أن ألطمه على وجهه.

قالتها، واتخذت مقعدها داخل المدرج، وحافظت على انعقادة حاجبيها الغاضبة، حتى انتهت المحاضرة، فاندفعت تسابق زملاءها للخروج، عندما فوجئت به أمامها، يسألها بكل قلق الدنيا:

- آنسة (مروة).. أأنت بخير؟!

وجدت نفسها تهتف في وجهه بحدة:

- اتركني وشأني، وسأكون بخير حال.

تراجع بدهشة مذعورة، وهو يحدق في وجهها بشيء من الارتياع، ضاعف من حنقها، فاندفعت مبتعدة عنه، وهي تهمهم بكلمات ساخطة، فلحقت بها زميلتها (غادة)، وهتفت لاهثة:

- لماذا فعلتِ ذلك؟! لقد أحرجتهِ أمام الجميع.

قالت (مروة) في حدة:

- إنه يستحق هذا.

هتفت بها (غادة):

- لماذا؟!

توقفت دفعة واحدة، وازداد انعقاد حاجبيها، وعقلها يبحث عن الجواب في أعماقها..

نعم.. لماذا؟!

لماذا تضيق باهتمام (أحمد) بها إلى هذا الحد؟!

لماذا تحنقها وتثير سخطها ملاحقته لها؟!

إنه شاب شديد التهذيب.. ما من شك في هذا..

شاب جاد، رصين، عاقل، هادئ، متزن..

وربما لهذا تضيق به..

إنه يبدو بالنسبة لها، أشبه بصورة من منتصف القرن العشرين، تقحم نفسها عنوة، في عالم القرن الحادي والعشرين..

لا يشبه أيا من زملائها الآخرين على الإطلاق..

- إن شخصيته سخيفة.

هتفت بالعبارة في حنق شديد، جعل (غادة) تتطلع إليها في دهشة، قائلة:

- إلى هذا الحد؟!

جلست على أحد مقاعد الفناء، وقالت في عصبية:

- إنه شاب مختلف.

ابتسمت (غادة)، وهي تجلس إلى جوارها، قائلة:

- (مروة).. ربما لا تميلين إلى (أحمد)، ولكن لا داعي للتعنت بشأنه.

لوحت (مروة) بيدها، قائلة في حنق:

- هل رأيت ما يرتديه؟! قميص أبيض وسروال أسود، تماما كأبطال أفلام الخمسينات.. حتى تصفيفة شعره تقليدية جدا..

إنه لا يستمع إلى الأغنيات الحديثة، ولا يشارك في حفلات الكلية، و..

قاطعتها (غادة) ضاحكة:

- أهذا سبب ضيقك منه؟!

هتفت، وقد أحنقتها ضحكة صديقتها أكثر:

- ألا تكفيك كل هذه الأسباب؟!

هزت (غادة) رأسها نفيا في بطء، وقالت وهي تنهض:

- لا.. لا تكفيني.

عقدت (مروة) ساعديها أمام صدرها، هاتفة:

- هذا شأنك.

تنهدت (غادة)، قائلة:

- بالتأكيد.

وصمتت لحظة، وكأنها تبحث عما تقول، قبل أن تندفع قائلة:

- الواقع أن كل ما يضايقك منه مجرد تفاهات.

صدمتها الكلمة، فغمغمت ذاهلة:

- تفاهات؟!

- نعم.

أجابتها (غادة) في حزم:

- تفاهات.. فموضة الثياب، وتصفيفة الشعر كلها أمور سخيفة، لا يبالي بها إلا فارغ العقل.

قالت (مروة) في حدة:

- الاهتمام بالمظهر ليس فراغ عقل.

أجابتها في حزم أكبر:

- بالتأكيد، عندما لا يكون هو الاهتمام الرئيسي.

حدقت فيها (مروة) لحظة، قبل أن تبتسم في خبث قائلة:

- آه.. فهمت..

سألتها (غادة) في عصبية:

- فهمت ماذا؟!

أجابتها (مروة) بلهجة هجومية:

- أنت تحبين (أحمد).

كانت تتوقع أن يصدم هجومها (غادة)، وأن تسارع هذه الأخيرة بإنكار الأمر واستنكاره، لذا فقد فاجأها أن اعتدلت (غادة)، ومسحت شعرها بيدها، في حركة عصبية، قبل أن تجيب في حزم:

- نعم.. أنا أحبه.

حدقت (مروة) فيها مرة أخرى، قبل أن تقول في لهجة حادة، حملت نبرة غيرة واضحة:

- ولم لا تخبرينه بهذا؟!

أجابتها (غادة) في أسى:

- لأنه يحبك أنتِ.

رددت (مروة)، وكأنما باغتها الأمر:

- يحبني أنا؟!

أجابتها (غادة)، بكل مرارة الدنيا، وهي تمسح شعرها بيدها مرة أخرى:

- وماذا كنت تظنين؟!

نطقتها، وانصرفت في صمت، تاركة (مروة) خلفها، وعقلها يموج بلجة من الأفكار..

(غادة) تحبه..

نعم.. هذا هو التفسير الوحيد لحماستها الشديدة له، واهتمامها البالغ به..

ولكنه لا يستحق..

من المؤكد أنه لا يستحق..

إنه منفصل عن زمنه..

هذا رأيها فيه، ولن يتغير أبدا

لم يمض وقت طويل، حتى طرحت الأمر كله عن رأسها، وأسرعت تندمج مع شلتها المعتادة، وتتبادل مع شبانها وفتياتها أحاديثهم التقليدية، عن الموضة، والأغنيات الجديدة، وأحدث السيارات ونغمات الهواتف المحمولة، ولم يشغلها الأمر في الأيام التالية أيضا..

كل ما لاحظته، هو أن (أحمد) لم يعد يقترب منها، أو يتحدث إليها، أو حتى يلقي عليها تحية الصباح كالمعتاد..

ولقد أراحها هذا كثيرا..

ومع مرور الوقت، لاحظت تقاربه مع (غادة) وكثرة حديثهما، وضحكاتهما، التي لم تلبث أن تحولت إلى همسات باسمة، في

فترات ما بين المحاضرات.. ولقد ظل (أحمد) كما هو.. رصينا، هادئا، وقورا..

ومع نهاية سنوات الكلية، تحولت علاقة (أحمد) و (غادة) إلى رباط رسمي وثيق، في حفل هادئ بسيط، سخرت منه (مروة) كثيرا، ووصفته بأنه أشبه بجلسة توقيع معاهدة ديبلوماسية..

ثم تفرقت بهم السبل.. أربع سنوات كاملة، بعد التخرج، لم تلتق خلالها (مروة) بزميلتها (غادة) أو خطيبها (أحمد) مرة واحدة.. ولم تحاول حتى معرفة أخبارهما..

وخلال تلك السنوات الأربع، التقت بـ (وائل)..

شاب وسيم، بالغ الأناقة دوما، يمتلك سيارة رياضية حمراء مبهرة، ويحمل دوما أغلى الهواتف المحمولة وأحدثها..

ومع (وائل) قضت (مروة) أحلى أيامها، وأفضل سنواتها، وأسعد لحظاتها..

إلا أنه لم يتقدم لخطبتها أبدا..

بل ولم يحاول حتى أن يفعل..

في البداية، كانت كرامتها تمنعها من مفاتحته بالأمر، إلا أن شعورها بمضي العمر، جعلها تتجاوز حاجز الكرامة هذا، وتسأله مباشرة:

- (وائل).. متى ستتقدم لخطبتي؟!

استدار إليها بعينية العابثتين المستهترتين، وهو يقول:

- خطبتك؟! من وضع في رأسك هذه الفكرة المضحكة؟!

صعقها جوابه، حتى إنها قاومت دموعها في صعوبة، وسيطرت على مشاعرها وصوتها بصعوبة، وهي تقول مستنكرة، متألمة:

- خطبتك لى فكرة مضحكة؟!

لوح بيده، قائلا في سخرية:

- لكِ أو لغيرك.. فكرة الخطبة والارتباط الأيدي في حد ذاتها فكرة مضحكة، وسخيفة أيضا.. الزواج نفسه نظام فاشل، يحرم الإنسان من حريته وانطلاقه، ويسجنه داخل أسوار عالية، من الالتزامات والمسئوليات، والمعوقات..

بدت لها مقاومة دموعها عسيرة، وهي تقول بصوت مبحوح، حاولت أن تحافظ فيه على بقايا كرامتها الجريحة:

- إنها سنّة الحياة.

هتف في سخرية مستنكرة:

- أية سنة، وأية حياة؟!

ثم مال نحوها، وبدت عيناه عابثتين مستهترتين كعهدهما، وهو يقول:

- الحياة نعيشها مرة واحدة؛ لنستمتع ونفرح ونمرح، وليس لنخنق أنفسنا بالزواج والارتباط..

وجدت نفسها تبذل جهدا عنيفا هذه المرة، لتغمغم في مرارة، وبصوت بلغ انخفاضه حد الهمس، خشية أن تتفجر معه مشاعرها ودموعها:

- لماذا كان ارتباطنا إذن؟!

تراجع هاتفا في حماسة:

- لنمرح، ونلعب، ونحب، ونستمتع..

ثم غمز بعينه، مضيفا في سخرية:

- وليس لنتزوج.

حاولت أن تعترض على منطقه المقلوب هذا..

حاولت أن تقول شيئا..

أي شيء..

ولكن دموعها، ونزيف كرامتها وعواطفها، وتلك الغصة المؤلمة في حلقها، كلها منعتها من النطق بحرف واحد.

فقط انسلخت من جواره، وأسرعت الخطي مبتعدة ودموعها، التي طالت حبستها، تتفجر لتغرق وجهها كله..

وفي منزلها بكت..

وبكت..

يالها من تجربة مريرة! تجربة مزقت مشاعرها، وجندلت كرامتها، وسحقت كبرياءها، بلا رحمة أو هوادة.

سنوات من عمرها أضاعتها مع تافه مستهتر، عديم القيم، لا يبالي بالعواطف أو يحترم المشاعر..

وبكت..

هي منحته حبها، وهو لم يمنحها سوى العذاب، والخزي، والهوان..

كل شيء في أعماقها تمزق في عنف، وتوتر، وضاع، وغرق في بئر من الضياع والمرارة..

كل شئ؟

ولأيام وأيام لم تستطع ابتلاع حزنها.. الأيام وأيام لم يندمل أبدا جرحها..

ثم فجأة، وجدت نفسها تتذكر (أحمد)..

تتذكره برجولته، ورصانته، ووقاره الهادئ، و...

وحبه..

كم تحتاج اليوم إلى قلب كقلبه..

إلى رجل مثله..

لقد كانت (غادة) على حق..

مثله فقط، يمكن أن يمنح الفتاه ذلك الشعور بأنوثتها..

ودون وعي منها، راح (أحمد) يحتل، في كل دقيقة تمضي، مساحة أكبر من عقلها..

وقلبها..

ومشاعرها..

ولم يمض يومان، حتى ضبطت نفسها تسترجع كل لحظة معه..

حديثه الهادي..

حبة الرصين..

مشاعره الغضة...

وتحية الصباح، التي كان يحرص على إلقائها عليها، والتي كانت تضجرها وتحنقها..

كم تمنت اليوم أن تسمعها منه..

كم تمنت أن تراه، ولو لحظة واحدة..

ولكن فجأة، اقتحمت ذاكرتها صورة، اتخلع لها قلبها..

صورة تلك المشاعر، التي ارتسمت على وجهه عندما صاحت فيه في الكلية..

وعادت تبكي..

وتبكي..

وتبكي..

وفي الصباح التالي، قررت أن تستعيد (أحمد)..

وبأي ثمن..

حتى ولو كان الثمن هو (غادة) نفسها..

إنه يحبها هي..

(غادة) اعترفت لها بهذا..

وستعترف به مرة أخرى..

إنها واثقة من هذا..

الرجل عندما يحب، ينسى كل شيء آخر ما عدا من يحبها..

وبكل حماستها، ارتدت أفضل ثيابها، وتأنقت، ووضعت زينتها، وأفضل عطورها، ثم ذهبت إليه مسلحة بفتنتها وإغراءاتها..

كانت تعلم أنه قد تعيَّن معيدًا في كليتها، وربما هذا هو الأمر الوحيد، الذي تعلمه عنه.. ولقد فوجئ (أحمد) بمرآها بحق..

فوجئ بها تدلف إلى حجرة مكتبه، ساحرة، فاتنة أكثر جمالا ألف مرة، مما كانت عليه في أيام الكلية..

ولقد قرأت هي الانبهار في عينيه، وامتقاعه وارتجافة أصابعه وهو يصافحها، وارتعادة صوته، وهو يدعوها للجلوس..

وأدركت أنها قد انتصرت.

صحيح أنه قد ظل رصينًا، هادئا، وقورا كعهدها به إلا أنها كانت واثقة من انتصارها الساحق، في معركة استعادته..

وكم أحبت وقاره، ورصانته، وهدوءه هذه المرة..

كم عشقت فيه كل هذا..

لقد بدا لها رجلا ناضجا، واثقا، قويا، على نحو داعب كل ذرة من كيانها وأنوثتها، بأسلوب لم تعهده في نفسها قط..

وفي طريق عودتها إلى منزلها، كان قلبها يرقص بين ضلوعها..

طربا..

من الواضح أنها تحبه منذ البداية..

بل تعشقه..

ربما لم تدرك هذا قديما، عندما كان ذهنها منشغلا بتفاهات، لم تعد تجذب أدنى اهتمام منها الآن، ولكنها نضجت..

وارتطمت بالحياة، وتحطمت على صخرة الواقع..

والآن، تراه بصورة مختلفة تماما، و...

قاطعها رنين جرس الباب، فخفق معه قلبها، واندفعت بتلقائية نحو الباب، وفتحته، و...

وتجمدت كل مشاعرها دفعة واحدة، وهي تحدق في تلك الفتاة، التي تقف أمامها..

(غادة)..

كانت تتطلع إليها بابتسامة هادئة، واثقة، وهي تقول:

- أهلا يا (مروة).. تصورت أنك قد نسيتنا.

اختنق صوتها في حلقها بضع لحظات، قبل أن تغمغم بصوت متحشرج:

- (غادة)؟! ما الذي..

قبل أن تتم عبارتها، أزاحتها (غادة) جانبا، وهي تدلف إلى المكان، قائلة:

- ألن تدعينني للدخول؟!

شعرت بتوتر لم يسبق له مثيل، يسري في كيانها كله، فاستدارت إلى حيث جلست (غادة)، وقالت في عصبية:

- ما سر هذه الزيارة المفاجئة، بعد كل هذه السنوات؟!

رفعت (غادة) أحد حاجبيها، وقالت:

- عجبا! إنه نفس السؤال، الذي جئت أسألك إياه.

غمغمت (مروة) في دهشة:

- نفس السؤال؟!

استدارت (غادة) بجسدها كله إليها، قائلة في صرامة:

- نعم يا (مروة) نفس السؤال..

ثم نهضت، مستطردة في حزم أكثر:

- (أحمد) أخبرني بكل شيء..

ارتجفت كل ذرة في كيان (مروة)، وهي تردد:

- (أحمد)؟!!

أومأت (غادة) برأسها إيجابا، وهي تقول:

- نعم يا (مروة).. (أحمد) الذي حاولتِ أن ترمي عليه شباكك اليوم بعد أن تخلى عنكِ (وائل).

في حالتها الطبيعية، كانت (مروة) ستثور، وتغضب، وتحتد، ولكن العجيب أنها، في هذه اللحظة، لم تنبس ببنت شفة، وهي تحدق في وجه (غادة)، التي تابعت:

- تصرف غير شريف يا (مروة).. وغير منطقي أيضا..

صحيح أن (أحمد) كان غارقا في حبك فيما مضى، ولم يكن يشعر حتى بوجودي، ولكن أنتِ أهديته إلىّ، بغرورك، وغطرستك، وسخافتك، وقصر نظرك.

انتزعت (مروة) نفسها من حالتها هذه، وهتفت في حدة:

- آه.. تعترفين إذن أنه حبيبي ابتسمت (غادة)، وهي تهز نفسها، قائلة:

- (أحمد) لم يكن أبدا حبيبك يا (مروة).. ربما كنتِ أنتِ حبيبته ذات يوم، ولكنه حبيبي أنا منذ الأزل..

توقفت، والتقطت نفسا عميقا، لتسيطر على مشاعرها، قبل أن تتابع:

- لقد أحبكِ أنتِ، وتمزق قلبي لهذا؛ لأني أحبه وأحبكِ.. وقررت أن أضحي بقلبي من أجلكما.. وكنتُ صادقة تماما في هذا، ولكنكِ كنتِ جافة قاسية وقحة مع (أحمد)، حتى إنني لم أحتمل ما يصيبه على يديكِ..

والتقطت نفسا عميقا آخر، ثم رفعت رأسها في اعتداد، مكملة:

وقررت أن أمنحه حبي.. وحياتي كلها.

قالت (مروة) في غضب:

- تقصدين أنكِ قررتِ سرقته مني..

هزت (غادة) رأسها نفيا، وقالت:

- لا أحد يسرق الحب يا (مروة).. الحب مثل زهرة جميلة يانعة.. إما أن ترويها بعواطفنا ومشاعرنا، أو تذبل وتموت، وينمحي عطرها من قلوبنا.

ثم مالت نحوها، متابعة في خفوت:

- أنت أهملت زهرة حبك يا (مروة)، ومحوت عطرها كله، أما أنا فقد رويتها بكل كياني، وكل عواطفي، ومشاعري، وحبي.. رويتها حتى أزهرت، وفاحت بعطر آخر، لا يمكن أن ينمحي منها أبدا..

عطر أقوى من كل عطر آخر في الوجود، وأبقى من كل زهور الأرض.

واعتدلت، وعيناها تتألقان، مستطردة في حزم:

- عطر دائم.. يربط بين قلبي.. وقلبه.. قلب (أحمد)

قالتها، واتجهت وحدها إلى الباب، وغادرت المنزل كله بمنتهى الحزم والحسم، تاركة (مروة) خلفها كزهرة ذابلة، فقدت كل عطرها..

زهرة أدركت، في رمقها الأخير أنها قد خسرت كل ما تمناه قلبها..

خسرت قلبه..

إلى الأبد..

(تمت)

80- أهداب..

اسمها جذب انتباهي، وخلب لبي، وأثار اهتمامي، منذ أول لحظة سمعته فيها أذناي..

وقبل حتى أن أراها..

(أهداب)..

اسم غير مألوف، لم أعرف أنثى قبلها تحمله قط..

اسم خيالي، رومانسي، رقيق، خب، يطلق لخيالك العنان فور سماعه، ويلهب مشاعرك، وأنت تردده في أعماقك..

ومنذ سمعت اسمها، وقبل حتى أن أعرف من هي، وجدت كل ذرة في كياني تتلهف لرؤيتها وتعرفها..

ولكن الظروف لم تتح لي هذا أيامها

كنا نعمل في شركة واحدة، ولكن في فرعين مختلفين، يفصلهما نصف العاصمة تقريبا، وكلانا يشغل المنصب نفسه، في الفرع الذي يعمل به، وساعات العمل لنا واحدة، مما جعل اللقاء شبه مستحيل!

لذا، فقد ألقيت الأمر كله خلف ظهري..

أو أنني قد حاولت هذا..

وبمنتهى الجدية..

لست أدري لماذا بدا هذا عسيرا؛ فأنا لم ألتق بها أبدا، ولم أسمع حتى صوتها، أو أعرف هيئتها..

كل ما عرفته هو اسمها...

ولكن ذلك الاسم الفريد صادف هوى غير طبيعي في نفسي، حتى لقد انشغلت به طوال الوقت، كما لو أنني أحب صاحبته، أو أعشقها منذ زمن طويل..

ومضت الأيام، واسم (أهداب) يداعب خيالي، ويعزف لحنا رقيقا في أعماقي..

بل، لقد رسمت لها صورة في أحلامي..

صورة جمعت كل جمال ورقة ونعومة الأنثى..

صورة تتفق مع رومانسية اسمها الساحر الجميل..

وفي أحلامي، رحت أقضي أجمل الأوقات، مع (أهداب) الساحرة، التي صنعها خيالي، في أبهى صورة أنثوية ممكنة.

زرنا كل مكان..

نعمنا بكل لحظة حب..

وكل لحظة عشق..

في أحلامي وحدها..

والعجيب أن عالم الأحلام هذا قد أنعشني، وملأ كياني كله، حتى لم أعد أشعر بذلك الفراغ العاطفي، الذي كنت أحيا فيه من قبل..

وفجأة، أتي ذلك اليوم..

كنت أجلس إلى مكتبي، منهما في مراجعة بعض الملفات المهمة، عندما ارتفع رنين الهاتف الخاص بي، فالتقطته ساعته بحركة آلية، قائلا:

- عبر العالم للسياحة.. من المتحدث؟!

تسلل إلى أذني، بكل رقة الدنيا، صوت أنثوي ساحر، يتساءل:

- هل يمكنني أن أتحدث إلى الأستاذ (أشرف)؟!

أقسم إنني لم أسمع، في حياتي كلها، صوتا أكثر رقة وعذوبة من هذا، حتى إن لساني قد عجز عن النطق مشدوها لبضع لحظات، قبل أن يتكرر ذلك الصوت الساحر، بلهجة حملت شيئا من الحذر والقلق:

- هل يمكنني هذا؟!

انتفض جسدي في نشوة، ووجدت نفسي أهتف في حماسية:

- أنا (أشرف).. من المتحدث؟!..

كاد قلبي يتوقف، من فرط الانفعال، وهي تجيب، بأرق أصوات الدنيا:

- (أهداب).

فوجئت بلساني يهتف:

- مستحيل!

رددت هي بدهشة

- مستحيل؟!

ارتبكت، وأنا أقول في سرعة: - معذرة.. ربما أخطأت التعبير فحسب، فأنا أحـ... أقصد أسمع عنك منذ زمن، ولكن..

لم أستطع إكمال عبارتي، وانحبس لساني في حلقي، وقلبي يخفق في عنف، حتى إن الصمت قد ساد خطوط الهاتف بضع لحظات، قبل أن تقول هي في قلق:

- أستاذ (أشرف).. أما زلت معي؟!

هتفت بحماسة عجيبة:

- بكل جوارحي.

سمعت على الطرف الآخر شهقة دهشة، ضاعفت من ارتباكي وتوتري، فغمغمت:

- أعني أنني رهن إشارتك.. ماذا تطلبين؟!

مضت لحظة من الصمت، بدت لي أشبه بدهر كامل، وخشيت معها أن يتوقف قلبي عن النبض، قبل أن تجيب هي برصانة رقيقة:

- هناك مشكلة عدم توافق بين فرعينا.

تحدثت معي لعشر دقائق، حول تلك المشكلة، التي وافقتها عليها، وأيدت رأيها فيها بشدة، ثم وعدتها بالتعاون معها، على أي وجه تراه، لتجاوز الموقف كله، ولكن الأهم من كل هذا، هو أنني حصلت منها على موعد..

موعد عمل، لمناقشة المشكلة، في مكتبها هي..

ولم يغمض لي جفن ليلتها، على الرغم من كل محاولاتي للنوم..

على الأقل لكى أحلم بها..

كالمعتاد...

ولكن يبدو أن انفعالي كان جارفا، إلى الحد الذي منعني من النوم، وإن لم يمنعني من أن أعيد رسم صورتها في ذهني، على نحو أجمل وأجمل..

وأجمل..

وقبل أن ينبلج الصبح، كانت قد تحولت إلى نجم باهر لحسن والجمال، وأنثى لم يجد الزمان بمثلها قط..

كان موعدنا في العاشرة، ولكنني كنت أمام المبنى في التاسعة إلا الربع..

ولن يمكنكم أن تتصوروا كم بدت لي الفترة المتبقية على موعدنا..

لقد مرت في بطء رهيب، حتى لقد شعرت وكأن الثانية قد أصبحت ساعة، والدقيقة شهرا، والساعة دهرا كاملا..

وفي العاشرة بالضبط، كنت داخل المكتب، أخبر سكرتيرتها باسمي، وبموعدي معها....

مع معبودتي..

معبودة خيالي.

وخلال الدقائق القليلة التي انقضت، ما بين دخول السكرتيرة إلى حجرتها وعودتها، كنت أستعيد صورة تلك الأنثى المذهلة، التي صنعها خيالي.

الزهرة ..

- تفضل يا أستاذ (أشرف)..

كل خلية في جسدي انتفضت انفعالا، عندما نطقت سكرتيرتها عبارتها تلك، وهي تشير بيدها إلى باب مكتبها..

مكتب (أهداب)..

وبكل صعوبة الدنيا، دفعت قدمي نحو مكتبها، ودخلته، و...

أهلا يا أستاذ (أشرف)..

مع الصوت الرقيق الوديع، الذي نطقت به عبارة الترحيب، انتفض قلبي بين ضلوعي بمنتهى العنف..

واتسعت عيناي عن آخرهما وهما تحدقان فيها، مع نهوضها من خلف مكتبها، واتجاهها نحوي مباشرة، مع ابتسامة كبيرة.

وتحطم شيء ضخم في أعماقي..

أو في قلبي...

وخيالي..

وأحلامي..

فـ (أهداب)، لم تكن تشبه (أهداب)..

(أهداب)، التي اتجهت نحوي، ومدت يدها لتصافحني، بابتسامة ترحاب كبيرة، لم تكن تشبه، من قريب أو بعيد، وبأي حال من الأحوال، (أهداب) الأخرى، التي صنعها خيالي، واستضافتها أحلامي طويلا..

لم تكن قبيحة، ولكنها كانت فتاة عادية..

عادية أكثر مما يمكن تصوره..

وبخاصة مع اسمها، وصوتها بالغ الرقة والعذوبة..

وأعترف أن هذا قد صدمني...

وبمنتهى العنف..

صدمني حتى إنني لم أشعر بيدها الممدودة إلى، وأنا أحدق في وجهها بشيء من الذعر، جعلها تتضرج بحمرة الخجل، وتغمغم في ارتباك:

- أستاذ (أشرف)!!

بلغ ارتباكي وحرجي عشرة أضعاف ما أصابها، عندما انتبهت إلى فداحة ما فعلت، وخلوه التام من أدني قواعد الذوق واللباقة، فرحت أعتذر بشدة عما بدر مني، وأؤكد أن الدهشة قد أصابتني فحسب؛ بسبب تشابهها المدهش مع إنسانة عرفتها قديما..

ولقد تقبلت هي اعتذاري برقة مدهشة، ولباقة تُحسد عليها، بل وسعت لتخفيف الموقف، قبل أن تتجاوزه بسرعة، لنبدأ في

مناقشة تلك المشكلة، التي اجتمعنا بشأنها.

ولكن إحساسي بتأنيب الضمير لم يفارقني قط..

صحيح أن صورتها لم تتفق قط، مع تلك التي صنعها لها خيالي، إلا أن هذا ليس خطأ ارتكبته، أو جريمة اقترفتها هي، حتى أحدق في وجهها بكل هذا الذعر.. ثم إنها مازالت رقيقة، على نحو يخلب اللب أيضا

ولقد انتهى اجتماعي بها بعد ساعة واحدة، واتفقنا على عقد اجتماع آخر في مكتبي، في بداية الأسبوع التالي، وغادرتها صامتا، ولكن الشعور بتأنيب الضمير لم يغادرني قط..

لقد لازمني في عناد وإصرار، حتى مساء اليوم، فرحت ألوم نفسي بشدة، وأعاتبها على ما أسأت به لرقتها وأدبها.

وأكثر ما حزنت له، هو أنني لم أحصل على رقم هاتف منزلها، أو هاتفها الشخصي المحمول، حتى أعتذر لها مرة أخرى، قبل أن أسمح لنفسي بالنوم..

والعجيب أنني- وعلى الرغم من كل ما أشعر به - نمت..

نمت وحلمت بها..

بـ (أهداب) التي صنعها خيالي.

(أهداب) المثالية، الساحرة، الخلابة، جميلة الجميلات..

وفي صباح اليوم التالي، وفور وصولي إلى مكتبي، اتصلت بها لأعتذر..

ولقد استقبلت صوتي وكلماتي بهدوء رقيق، وراحت تؤكد لي، للمرة الثانية، تقديرها للموقف، وعم ضيقها منه، ثم لم تلبث أن ضحكت، في عذوبة مدهشة، وهي تضيف بنفس الرقة:

- صدقني يا أستاذ (أشرف).. لقد اعتدت نسيان كل شيء فور انتهائه.

ارتحت كثيرا لضحكتها الصافية، التي أكدت لي أنها لا تحمل أية ضغينة تجاهي، فرحت أتحدث معها حول مشكلتنا المشتركة، وطال حديثنا، حتى فوجئت بسكرتيرتي تدلف إلى الحجرة، هامسة في قلق:

- هناك عميل مهم على الخط الآخر.. إنه يحاول الاتصال بهاتفك الشخصي منذ أكثر من ساعة، ولكنه مشغول باستمرار..

انتبهت عندئذ فقط إلى ما حدث، فاعتذرت ل (أهداب)، وأنهينا الاتصال، وإن تعمدت ترك نقطة مفتوحة للنقاش، تتيح لي الاتصال بها مرة أخرى.

وتعددت اتصالاتنا اليومية، وأنا استمتع كثيرا بصوتها الرقيق وحديثها العذب، وإن راح خيالي يمزجه دومًا بتلك الصورة الوهمية المثالية، التي صنعها لها، وكأنني لم أرها حقيقة بعد..

حتى في أحلامي، ظلت (أهداب) الوهمية حية، مفعمة بالجمال والحيوية والنشاط، وإن اكتسب صوتها رقة وعذوبة..

صوت (أهداب) الحقيقية..

فقط حتى تصبح الصورة مثالية تماما..

ثم التقيت بها في مكتبي، واجتمعنا لثلاث ساعات كاملة، قبل أن نتخذ قرارا مشتركا بأن نلتقي كل أسبوع، مرة في مكتبي وأخرى في مكتبها؛ لتذليل كل العقبات، وإيجاد صيغة للتعاون المشترك بيننا..

ولقد حافظنا على هذه اللقاءات، لمدة شهرين كاملين، قبل أن أنتبه فجأة إلى حقيقة مدهشة، لست أدري كيف لم أنتبه إليها من قبل..

لقد سقط الحاجز..

الحاجز الذي يفصل (أهداب) أحلامي، عن (أهداب) واقعي..

إنني لم أعد أحلم بمن صنعها خيالي، بل صارت ملكة واقعي هي نفسها إمبراطورة خيالي وأحلامي..

ملامحها ما زالت عادية، ولكنها أصبحت في أحلامي وواقعي، وأيامي، أجمل ملامح في الوجود كله..

رقتها، ونعومتها، وعذوبتها جعلتني أحبها..

أعشقها..

أذوب في هواها..

اجتماعاتنا الأسبوعية أصبحت أجمل وأسعد أيام حياتي..

بل أصبحت هي حياتي..

الحقيقية..

ولم أضع وقتا طويلا..

في أول اجتماع لنا، بعد أن أدركت حقيقة مشاعري، رحت أتطلع إلى وجهها في هيام وأضحك، جعل وجهها يتضرج بحمرة الخجل، ودفعها إلى تحاشي التقاء عينيها بعيني طوال الوقت، حتى انتهى الاجتماع، فسألتني سؤالها المعتاد، ونحن نفترق متصافحين:

- أين سنلتقي، في المرة القادمة؟!

أمسكت يدها الرقيقة بين أصابعي، وأنا أقول في خفوت:

- أتعشم أن يكون هذا في منزلكِ.

انتفضت يدها بين أصابعي، وهي تهتف:

- أستاذ (أشرف)!!

ملت نحوها، متسائلا:

- هل يمكنني أن ألتقي بوالدكِ؟!

هتفت مرة أخرى، وقد تضرج وجهها بحمرة قانية:

- أستاذ (أشرف)!!

حاولت أن تجذب يدها الرقيقة من بين أصابعي، ولكنني تشبثت بها، وأنا أميل نحوها أكثر، قائلا:

- آنسة (أهداب).. صدقيني.. لم يعد يطيب لي العيش، عندما أكون بعيدا عنكِ.

أشاحت بوجهها في خجل شديد، وشعرت بيدها ترتجف بين أصابعي، فاتسعت عيناي في ذعر، وانتقلت الارتجافة إلى قلبي، وأنا أسألها:

- أهناك شخص آخر؟!

هتفت بسرعة:

- مطلقًا.

سألتها في وجد:

- ما رأيك إذن؟!

صمتت بعض الوقت، وكأنما أعجز الخجل لسانها عن النطق، قبل أن تقول في خفوت بالغ الرقة:

- لست أدري.

همست في هيام:

- هل تفكرين في الأمر على الأقل؟!

أومأت برأسها إيجابا، في خجل شديد، وهي تجذب يدها من بين أصابعي في رقة، فأفلتتها، وتركتها تهرع مغادرة مكتبي..

وأدركت لحظتها كم أحبها..

لقد هرع قلبي خلفها، وراح يخفق، ويخفق، ويخفق، حتى عدت إلى منزلي، وأويت إلى فراشي، وكل ذرة في كياني تحلم بها..

بـ (أهداب)..

وتفجر في أعماقي سؤال، بدا لي وكان مصير حياتي كله يتوقف على جوابه..

ترى هل ستوافق؟!

هل ستقبلني زوجا لها؟!

لم يكن باستطاعتي حتى تخيل الجواب بالنفي، فأغلقت عيني في قوة، وأنا أدعو الله سبحانه وتعالى أن أفوز بها..

وعلى الرغم من توتري الشديد، بذلت قصارى جهدي، لأغوص في نوم عميق، لعلي أحلم بها، على الأقل حتى أتشبث بـ (أهداب)..

أهداب الأمل..

(تمت)

81- ليس كل مرة..

«والآن، ماذا ستفعل؟!»

نطق مساعدي السؤال، وأنا أراجع كل بيانات الكمبيوتر، في آلة الزمن الجديدة، التي اخترعتها، والتي اكتمل صنعها، وأصبحت جاهزة للعمل..

ومن كل ذرة في كياني، تصاعدت نشوة عجيبة..

الآن أصبح بإمكاني إثبات ما عجز عنه كل علماء الأرض، لما يقرب من قرن كامل من الزمان..

أصبح بإمكاني أن أثبت أن السفر عبر الزمن حقيقة..

تماما كما أكدت معادلات (أينشتين).

أخيرا توصلت إلى العامل المفقود، الذي أعجز كل من كان قبلي، عن تحويل النظرية إلى حقيقة..

واليوم.. اليوم فقط، أصبحت آلتي مستعدة للانطلاق..

عبر الزمن..

كل مخلوق هنا حذرني من الانطلاق بنفسي، في رحلة آلة الزمن الأولى، ولكنني كنت أعلم أن الدافع الرئيسي، وراء كل هذه التحذيرات، ليس هو الخوف على مصيري ومستقبلي، وإنما هي الغيرة، التي تشتعل بها قلوبهم. لأنني أنا من سيفوز بالغنيمة كلها، وربما أكبر شهرة حظي بها عالم، منذ مئات السنين..

لقد أعدت دراسة كل معادلة في فكرتي، وكل شريحة في آلتي، وتأكدت من أن كل شيء على ما يرام، وأن التجربة الأولى ستتكلل بالنجاح..

كل النجاح..

وهأنذا في معملي، داخل آلتي، ومساعدي يقف أمام الكمبيوتر في الخارج، مستعدا للقيام بأخر خطوة، يستلزمها الانطلاق عبر الزمن..

وكخطوة أخيرة، رحت أراجع التاريخ، الذي قررت السفر إليه..

الكل تقريبا توقع أن أنطلق، إلى المستقبل، ولكنني وجدت أن هذه الفكرة حمقاء تماما..

فالانطلاق إلى المستقبل يعني أن أختفي من هذه اللحظة لأعاود الظهور في المستقبل القريب، أو البعيد..

ولا أحد يدري ما الذي يمكن أن يحدث، ما بين اختفائي وعودتي؟!

ربما استغل بعضهم غيابي، ليسجل اختراعي العظيم باسمه، أو ينسب لنفسه فضل القفز، من مرحلة النظرية إلى التطبيق...

لذا، فقد استبعدت فكرة السفر إلى المستقبل تماما..

واخترت السفر إلى الماضي..

والماضي القريب أيضا..

اخترت السفر إلى شهر واحد، يسبق تاريخ التجربة..

أعلم أن الكل سيستنكر هذا وينكره، ويؤكد أنه من المستحيل أن أسافر إلى زمن، كنت متواجدا فيه بالفعل، باعتبار أن المادة الواحدة لا يمكن أن تتواجد مرتين في زمن واحد..

ولكن معادلاتي تؤكد العكس تماما..

ففي حالة سفر شخص ما إلى الماضي، إلى زمن تواجد فيه فعليا، لا يتم تدمير مادته، كما كانوا يتصورون في الماضي، وإنما يحدث ما أطلقت عليه اسم (الإحلال).

الشخص الموجود في زمنه الطبيعي سيظل كما هو، في نفس عمره وشخصيته وهيئته، وبكل ما يتناسب مع التطور الزمني الطبيعي له..

أما القادم من زمن آخر، فيحتل عقله..

فقط عقله..

أو بمعنى أدق، سيتحرك الشخص الزمني الطبيعي، بعقلية الآتي من زمن آخر..

هل أمكنكم استيعاب الفكرة؟!

أعلم أنه ليس بالأمر السهل، ولكن العلماء أمثالي يمكنهم فهمه، واستيعابه، والتعامل معه أيضا.. لأن عقولهم تقرر، وتنفذ أيضا..

المهم أنني اخترت السفر إلى شهر سابق؛ لأن هذا يساعد اكتشافي تماما...

فطوال الشهر الماضي، رحت أسجل، وبمنتهى الدقة، كل ما يحدث في المبنى، لكل الزملاء والرؤساء، وبخاصة الأمور غير المتوقعة، أو التي يستحيل معرفتها مصادفة..

وعندما أعود إلى تلك الشهر السابق، سأبدأ في إبلاغ الكل بما سيحدث لهم مسبقا، على نحو يدهشهم، ويبهرهم، ويثير حيرتهم وقلقهم، قبل أن أشرح لهم الأمر كله، وأخبرهم أن آلتي قد نجحت تماما، وأنني آت بالفعل من مستقبلهم.

لن يكون هناك تأثير، في الوجود كله، أقوى من هذا..

مرة أخرى امتلأت نفسي بالنشوة، وأنا أتخيل ما سيحدث، وكيف أنه لن يصبح أمامهم سوى الاستسلام لنجاحي، والاعتراف بعبقريتي، والخضوع لإنجازي الزمني العظيم.

وبكل تلك النشوة، التي تجري في عروقي أشرت إلى مساعدي، فالتقط نفسا عميقا، ثم ضغط الزر الأخير.

وانطلقت بي..

عبر الزمن.

كل شيء سار كما وصفته معادلاتي بالضبط..

آلتي نجحت في السفر عكسيا عبر الزمن، كما أكد (ألبرت أينشتين)، منذ ما يقرب من قرن من الزمان، ونقلتني إلى تاريخ شهر سابق بالضبط..

ولقد حدثت حالة (الإحلال)، التي توقعتها أيضا..

جسدي ظل على ما هو عليه، في ذلك التاريخ، في حين احتل عقلي المستقبلي ذلك الجسد تماما..

وأصبحت أعلم كل ما سيحدث، خلال الشهر القادم..

كل الأفعال، والأحداث.

وبكل التفاصيل.

ولكن هناك مشكلة سخيفة..

إنني، وعلى الرغم من وجود عقلي المستقبلي، أتحرك وأتصرف وأتحدث، تماما كما كنت أفعل من شهر سابق..

قوة هائلة، ولا يمكنني التحكم فيها، تضطرني للسير على الخط نفسه، كما لو كنت آلة، لا تملك من أمرها شيئا..

ومهما حاولت، كنت أقول ما قلته، وأفعل ما فعلته، وأعمل ما عملته من قبل..

وهذا يكاد يصيبني بالجنون..

وهأنذا أواصل صنع آلة الزمن، كما لو أنني لم أصنعها من قبل.

بل إنني أتوقف عند نفس العقبات والمشكلات، التي سبق لى حلها، قبل أن أبدأ رحلتي الزمنية هذه..

والعجيب أن عقلي يعرف الأجوبة الآن، ولكنه يبدو كما لو أنه قد انفصل عن كياني، أو أن كياني مضطر للسير على نفس خطى الأيام السابقة..

وهذا أوصلني إلى نظرية جديدة..

ربما كان السفر عبر الزمن ممكنا، ولكن تغيير ما حدث في الماضي مستحيل!

مستحيل.. مستحيل.. مستحيل!

كل شيء حدث سيحدث، مهما حاولت أو فعلت..

كل شيء..

«والآن، ماذا سنفعل؟!»

نطق مساعدي السؤال، وأنا أراجع كل بيانات الكمبيوتر، في آلة الزمن الجديدة، التي اخترعتها، والتي اكتمل صنعها، وأصبحت جاهزة للعمل..

يا إلهي! كيف لم أنتبه إلى هذه الكارثة في حينها..

إنني سأنطلق مرة أخرى، في تلك الرحلة عبر الزمن..

سأعود إلى شهر سابق، لأفعل نفس ما فعلته، وأقول نفس ما قلته، ثم ينتهي بي الأمر إلى ما انتهى إليه من قبل..

رحلة آلة الزمن إلى الماضي..

وتكرار الأمر..

تكراره إلى الأبد..

وعلى الرغم منى، ومن الرعب الهائل، الذي ملأ كل ذرة من كياني، بعد انتباهي إلى هذا المصير الرهيب البشع، وكخطوة أخيرة، رحت أراجع التاريخ، الذي قررت السفر إليه..

وأشرت إلى مساعدي، فالتقط نفسا عميقا، ثم ضغط الزر الأخير..

وانطلقت بي الآلة مرة أخرى..

عبر الزمن..

وبكل انفعالاتي، ودون أن تتجاوز الكلمات شفتي، صرخت:

- لا.. ليس كل مرة!

ولكن هذا لم يكن له أي تأثير أو أي معنى..
فالرحلة ستتواصل، والدائرة ستكتمل مرة تلو مرة..
إلى الأبد..

(تمت)

تصادم

82- وكلما شاءت..

منذ طفولتي، وأنا أعتبر نفسي ذكية، وأكثر حرصا وبراعة من زميلاتي بكثير، حتى إنهن كن يعتبرنني قائدتهن وزعيمتهن، في كل مضمار وكل مجال..

وعندما نضجت أنوثتي، وأعلنت عن نفسها، لم أسقط في فخ الحب الخادع، كما فعلت زميلاتي؛ بل كنت دوما واعية حذرة، أتعامل مع كل شاب بحزم وحسم، ولا أصدق تلك الكلمات الناعمة المعسولة، أو أسمح لها بالتسلل إلى قلبي أو مشاعري، أو تخدير أحاسيسي وعواطفي..

وعلي عكسهن جميعًا، لم أعش أية قصة حب أو ارتباط، بل حرصت دوما على التعامل مع كل الشباب بأسلوب واحد، حازم حاسم..

حتى (أحمد)..

كان شابا وسيما، رصينًا هادئا، يكبرنا بعامين دراسيين، ويبدي اهتماما ملحوظا بي منذ أول رحلة جامعية تشاركنا فيها معا.

وأعترف أن شخصيته قد جذبت انتباهي واهتمامي بالفعل، حتى إنني قضيت ليلة أو ليلتين أفكر فيه، وأتصوره زوجا مثاليا لي..

ولكنني لم أعلن له اهتمامي هذا أبدًا..

لقد صرت، علي العكس، اتجاهله وأتجنبه، حتى لا يتصور أنني غارقة في حبه، فيبدأ في التعامل معي بتعالٍ أو استهتار، كما فعل صديق زميلتي (فوزية) بعدما تأكد من حبها له..

ولم أكن مستعدة أبدا، للوقوع في الخطأ، الذي وقعت هي فيه...

لا ينبغي أبدا أن يطمئن أي شاب إلى حبي له..

هذه هي القاعدة، التي حرصت عليها دوما..

ولقد بذل (أحمد) جهدا مضنيا؛ ليتقرب إلى، وحاول ألف مرة أن ينفرد بي، ليبثني حبه وولعه..

وكنت أبتهج لوجودنا معا، وأستمتع في أعماقي بقربه، ولكنني لم أمنحه قط الفرصة للإفصاح عما بداخله..

طوال عامين كاملين، لم ينجح في الانفراد بي ولو مرة واحدة، في حديقة الكلية..

وخلال هذه الفترة، أدركت، أنني كنت على حق، في حذري الزائد هذا..

زميلتي (سلوى) انفصلت عن حبيبها..

و (إلهام) فوجئت بصديقها ينبذها، ويرتبط بصديقة عمرها (نوال)..

و (سوسن). رفض والدها خطيتها لزميلها (وائل)؛ لأنه - من وجهة نظره - غير قادر على الاضطلاع بأعباء الزواج.

كل ارتباطات الجامعة تفشل، أو على الأقل تنتهي على غير ما يرغب طرفاها..

لذا، كان من الحكمة ألا أستسلم لحب (أحمد)...

وقبل امتحانات عامه الأخير، قرر (أحمد) أن يواجهني، على الرغم مني، فاعترض طريقي ذات يوم، وسألني في وضوح وحزم، عما إذا كنت أوافق على الارتباط به، والزواج منه، بعد تخرجه من الكلية.

وأعترف أن مبادرته قد أربكتني بحق.

لقد وضعني أمام الأمر الواقع، وأصبح على اتخاذ قرار حازم وحاسم في هذا الشأن.

ولأنني حذرة، فقد طلبت منه مهلة للتفكير..

ولست أدري لماذا أحزنه هذا؟!

هل كان يتوقع مني موافقة فورية، بما تتضمنه من اعتراف بحبي له، طوال العامين السابقين؟!..

مستحيل!

ولقد وافق (أحمد) على منحى فرصة التفكير، وأخبرني في وضوح أنه سيعتبر قراري نهائيا، ولن يضايقني مرة أخرى طيلة عمره، لو جاء جوابي بالرفض... ولن أنسى أبدا ذلك الحزن المطل من عينيه، ومن نظرته الأخيرة المفعمة بالعتاب الصامت، وهو يفارقني يومها..

لحظتها خفق قلبي من أجله..

ولكنني أخمدت خفقاته هذه بمنتهى الحزم والصرامة.

واتخذت قراري..

وفي اليوم التالي، واجهت (أحمد)، بنفس الحزم الذي واجهني به، وأبلغته قراري مع تأكيد عدم استعدادي للتراجع عنه قط.

إنني أوافق على الزواج منه، بشرط واحد..

أن تكون العصمة بيدي..

ولقد انتفض جسده، واتسعت عيناه عن آخرهما، عندما ما قلته، وحدق في وجهي بضع لحظات في ارتياع مستنكر، قبل أن

يتمالك نفسه، ويشد قامته، معلنا رفضه التام لهذا الشرط المجحف..

وبسرعة، أعلنته برفضي الزواج منه، إلا بهذا الشرط..

ولثوانٍ، وقف كلانا صامتا، يتطلع إلى عيني الأخر مباشرة..

كانت نظرتي تحمل له كل العناد والإصرار، ونظرته تحمل كل الحب والعتاب والمرارة...

وكما كان رصينا كريما في حبه الطويل لي، كان كذلك في انصرافه عني..

لقد تمنى لي التوفيق في حياتي، مع أي شخص يوافق على شرطي هذا..

وانصرف..

تمنيت لحظتها لو أعدو خلفه، وأتعلق بعنقه، وأعتذر عن شرطي، وأعلن رغبتي في الزواج منه..

ولكن كان من المستحيل أن أفعل..

هذا أمر لن ينساه قط.

وسيذكره يوما، ليحطم أنفي، كما فعل زوج ابنة خالتي معها..

وأنا حذرة..

حذرة جدا...

ولقد، قررت أن أنسى (أحمد)، وأخرجه من قلبي..

لم يكن هذا وسهلا أو بسيطا، ولكنني بذلت كل جهدي، حتى لا أهرع إليه، وغادرت بلدتي كلها، بحجة السعي وراء إجازة طويلة،

حتى انتهت امتحاناته، وأصبح من غير المحتمل أن ألتقي به، ولو مصادفة..

ولكن العجيب أن هذا قد ترك في نفسي فراغا، لم أستطع ملأه أبدًا..

ربما لأنه أول حب في حياتي..

ربما..

المهم أن السنوات قد مرت، دون أن ألتقى بـ (أحمد)، وإن علمت أنه قد حمل على عقد عمل جيد، في واحدة من دول النفط، وسافر إليها منذ فترة قصيرة..

وتخرجت من الجامعة، دون أن أسمح لنفسي بالوقوع في ترك التجربة مرة أخرى أبدا..

عدد من زميلاتي خطبن لزملائهن وتزوجن.

بل وأنجبن..

أما أنا، فقد ظللت كما أنا..

جميلة..

مرغوبة..

وحذرة..

ولكنني بدأت أشعر بضياع عجيب، مع مرور الوقت..

كل زميلاتي وصديقاتي أصبحت لهن بيوت مستقرة، فيما عداي..

وكلهن أصبحن يخشين من نظرات أزواجهن إلىّ...

وابتعدن..

أو تباعدن..

وكان الحل الوحيد، للخروج من هذا الموقف السخيف، هو أن ألحق بهن..

وأتزوج..

ولكن بنفس الشرط، الذي أضاع مني (أحمد)..

لا يمكنني التنازل عن هذا الشرط أبدا..

فماذا لو فشل الزواج، وأردت أن أتحرر منه؟!

هل ستصبح حياتي تحت رحمة وإرادة من أتزوجه لمجرد أنه وحده صاحب الحق في الطلاق؟!

مستحيل! وألف مستحيل؟!

لن أتخلى عن حذري وحريتي أبدا..

وفي مقر عملي الجديد، التقيت بـ (وائل)..

شاب وسيم، أنيق، قوي البنية، جريء النظرات، ظل يتابعني ببصره لأسبوع كامل، قبل أن يطلب مني الزواج مباشرة....

ولقد أخبرته بشرطي..

وقَبِل..

لدهشتي العارمة، قَبِل شرطي، ووافق عليه، بل وتحمس له، وجاء لخطبتي في الأسبوع التالي، ليتم زواجنا بعد شهر واحد..

معظم الناس رأوا أنه زواج سريع اكثر من اللازم، إلا اني كنت مطمئنة تماما، ما دمت قد وضعت في عقد الزواج تلك العبارة الرائعة:

«ولها الحق في تطليق نفسها، وقتما شاءت..»

لم أكن ساذجة، كمعظم الناس، الذين يتصورون أن وجود العصمة في يد الزوجة يمنع زوجها من تطليقها، فأنا أعرف جيدا أن حق الرجل في تطليق زوجته لا يسقط أبدا، ولكن يصبح من حقها هي أيضا، بموجب العبارة السابقة، أن تطلق نفسها منه، وقتما شاءت..

ولقد بدأت حياتي مع (وائل) بثقة، صنعها إيماني بقدرتي على الخلاص من كل هذا، وقتما أشاء..

ومن حسن حظي أن فعلت هذا..

لقد كان (وائل) شخصا لا يطاق، والعيش معه أشبه بالعيش في قلب الجحيم..

إنه شخص تافه، سافل، مستهتر، لا يقيم لمشاعري وأحاسيسي أدنى اهتمام، أو يلتفت إليها ولو لمرة واحدة..

والأسوأ أنه بخيل إلى أقصى حد..

لا ينفق قرشا واحدا، إلا على أناقته وعطوره ورباطات عنقه، تاركا لى كل مصروفات البيت الأساسية..

ولقد احتملت هذا الوضع الشاذ لعدة أشهر، قبل أن أنفجر فيه، وأطالبه بلعب دور الرجل، الذي من الطبيعي أن يلعبه..

وهنا ظهرت أسوأ خصاله..

لقد ضربني..

ضربني ضربا مبرحا، بقسوة ووحشية رهيبتين، حتى حطم أنفي، وأصاب عيني اليمني بورم مخيف..

وهنا لم أحتمل.

وطلقته..

نعم.. استخدمت حقي في تطليقه وقتما أشاء..

وتصورت أن المشكلة قد انتهت، عند هذا الحد، وأنني قد استعدت حريتي وأمني، بسبب ذكائي وحذري، و..

ولكن فجأة، وصلني إخطار من محاميه، يبلغني بأن (وائل) قد أعادني إلى عصمته رسميا..

وكدت أصاب بالجنون، وأنا أهرع إلى محاميّ ثائرة، معترضة على ما حدث، باعتبار انني صاحبة العصمة..

وكانت صدمتي رهيبة، عندما واجهني المحامي بحقيقة مذهلة.

فوجود العصمة في يدي، لا يمنع (وائل) من اعادتي إلى عصمته، إذا ما تم طلاقنا، باعتبار أن هذا حقه الشرعي، خلال فترة العدة..

والقانون يمنحه وحده هذا الحق، دون حتى الرجوع إليّ، ما دمت قد طلقته طلقة. عادية، وليست بائنة..

وبقدر الغضب الذي أصابني، هداني عقلي إلى أن الحل..

مازال بيدي..

سأطلقه مرة أخرى..

وطلقة بائنة، حتى لا يمكنه إعادتي إلى عصمته دون إرادتي.. وهنا، فاجأني المحامي بما لم يمكنني احتماله قط.. فالعبارة التي شعرت معها بالاطمئنان والأمان، في عقد الزواج (وقتما شاءت)،

لم تكن تمنحني الحق في تطليقه سوى مرة واحدة، فإذا ما أعادني إلى عصمته، لا يحق لى تطليق نفسي منه مرة ثانية قط..

ولكي أحصل على هذا الحق، كان من الضروري - قانونا - أن تضاف كلمة أخرى إلى عقد زواجنا..

كلمة (وكلما شاءت)..

وهذا يعني أنني قد عدت زوجة لـ (وائل)، دون أدنى حق في تطليق نفسي منه مرة أخرى..

وهذا ما أنا عليه الآن بالفعل..

زوجة مع إيقاف التنفيذ

زوجة معلقة، ينشغل عنها زوجها بغزواته ونزواته، في حين تقضي هي كل وقتها في ساحات القضاء، للحصول على حكم بطلاقها منه..

وكل هذا بسبب كلمة واحدة، لم يدفعني حذري لإضافتها، في عقد الزواج..

كلمة واحدة، كنت سأصبح بعدها زوجة حرة، تستطيع تطليق زوجها وقتما شاءت.. وكلما شاءت.

(تمت)

1865

83- القرار..

«العالم أصبح فاسدا..»..

هتف بالعبارة في حنق ساخط، وهو يتحرك في عصبية، داخل حجرة مكتبه الضخمة، قبل أن يلوح بذراعه، مستطردا:

- العنف انتشر على نحو غير مسبوق، ورائحة الفساد تزكم الأنوف، وتكتم الأنفاس.. الدول الغنية تزداد ثراءً، والفقراء ينطحنون ويموتون جوعا ومرضا، ولا أحد يمد يد المساعدة لأحد..

كانت الحجرة خالية إلا منه، وعلى الرغم من هذا، فقد واصل الحديث، وكأنه يخطب في جمع كبير:

- كل الدول تعاني من فسق المترفين.. أصحاب الأموال والجاه والنفوذ أصبحوا فوق القانون.. لا أحد يصل إليهم، أو يعاقبهم على أفعالهم، وهذا يصيب باقي المجتمع بإحباط غاضب.. الثورة تتكون في أعماق الكل، ولا تنتظر سوى الشرارة التي تفجرها، والتي تحولها، في لحظة واحدة، إلى حمم بركانية ملتهبة، قادرة على ابتلاع كل شيء أمامها، والتهامه بلا رحمة أو هوادة..

انطلقت في أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة، كالحمم التي تحدث عنها منذ ثوان، قبل أن يعود إلى مقعده الكبير، ويلقى جسده عليه، متابعا في حدة:

- وعندئذ لن تصلح الجيوش، أو حتى وسائل الأمن والسيطرة، التي تحيط بها الحكومات أنفسها، وتستخدمها لتكميم أفواه شعوبها، وبث الرعب في نفوسها، وإجبارها على الطاعة

والخضوع.. لن يصلح كل هذا، إذا ما اشتعلت الأمور، في إيقاف نهر الغضب الثائر.. حكومات عديدة تصورت أن سياسة القمع والترهيب تضمن لها البقاء والاستمرار، وظلت على تصورها هذا، حتى سقطت وانهارت، وداستها الأقدام الغاضبة، أو علقتها الأيادي الثائرة، على حبال المشانق..

مط شفتيه، وعاوده ذلك الغضب الساخط، وهو يضيف:

- والحل؟! لا يوجد حل.. لا يوجد سوى حل واحد.. أن يفنى هذا العالم الفاسد كله، ليبدأ بداية جديدة، وقد تطهَّر من كل فساده وموبقاته..

نهض من مقعده بحركة حادة، واتجه نحو النافذة، وتطلع عبرها لحظة، قبل أن يطلق زفرة ملتهبة جديدة، قائلا:

- سيبقى البعض حتما.. الإنسان لم يخترع - على الرغم من جهوده المستمرة، في مجال الشر والتدمير - سلاحا واحدا، يمكنه إبادة الحياة تماما، من على وجه الأرض.. حتى تلك القنبلة فوق الأمينية الأخيرة، قالوا إنها ستفني ثمان وتسعين في المائة، من صور الحياة، على كوكب الأرض.. وليس مائة في المائة.. سيتبقى اثنان في المائة إذن، وأنا واثق من أن القدر سينتخب الأفضل عندئذ..

صمت بضع لحظات، وهو يتطلع إلى ساحة قصره الكبيرة، الممتدة على مدى البصر، قبل أن يتابع:

- هذا لأن الحياة لابد وأن تستمر.. خاصة وأن تلك القنبلة الجديدة قادرة على إفناء البشر والحيوان والطير فحسب، أما المباني، والمنشآت، والتكنولوجيا، وكذلك النبات بأنواعه، فكلها سيبقي... سيبقى في خدمة الاثنين في المائة..

تنهد هذه المرة، مضيفا:

- الحياة ستستمر، دون فساد وخراب ودمار.. لن يكون هناك مبرر للتناحر والتقاتل.. على الأقل لزمن قادم طويل..

زمن ستحمل فيه الأرض كل خيراتها، لعدد قليل من البشر..

لن تكون هناك حاجة لأجهزة شرطة، تسيطر وتتحكم، بأكثر مما تخدم وتحمي.. أجهزة تنافس عصابات اللصوص والبلطجية، بدلا من أن تجند جهودها للقضاء عليها، وتحجيمها، وتأمين المواطن العادي البسيط من شرورها وعنفها..

عاد يلوح بذراعه، في سخط عنيف، مكررا:

- عالم فاسد.. فاسد.. فاسد..

وصمت لحظة، أطل خلالها مقت مخيف من عينيه، وتقاطر على لسانه، وهو يضيف:

- عالم لا يستحق البقاء.

لم يكد يكمل عبارته، حتى سمع طرقات حذرة على باب حجرة مكتبه، فاعتدل في وقفة عسكرية صارمة، وهو يقول:

- ادخل.

دخل قائد القوات إلى حجرته، وأدي التحية العسكرية في قوة، قبل أن يسأل:

- هل اتخذت قرارك يا سيادة الرئيس؟!

انعقد حاجباه في صرامة، وهو يسأله:

- هل راجعت الخبراء، وتأكدت من أننا آمنون تماما من تأثيرها، في مخبئنا هذا؟!

أجابه قائد القوات في سرعة:

- بالتأكيد يا سيادة الرئيس.

التقط نفسا عميقا، ثم قال في حزم صارم آمر:

- اطلقها إذن.. اطلق القنبلة فوق الأمينية..

قالها، وتألقت عيناه في ظفر جنوني، على الرغم من أنه كان يشعر بالارتياح والثقة في أعماقه.

لقد اتخذ قراره بمنتهى الحزم والحسم، و...

والاقتناع..

(تمت)

1870

84- المحتلون..

«العاصمة سقطت..» ...

نطق ذلك الجالس على المقهى الصغير، في قلب (القاهرة) العبارة، بكل أسى وإحباط الدنيا، وهو يتابع في انبهار، امتزج بالكثير من المرارة والحسرة، تلك المشاهد الرهيبة، التي تنقل وقائع استيلاء المحتلين، على عاصمة دولة عربية عريقة، كانت يوما ما قِبلة الشرق، ومنارة العلم والفن..

وعلى الرغم من أنه يتابع الأحداث نفسها، في المقهى ذاته، إلا أن عبارة الرجل ولدت في أعماقه ألما مزعجا، لم يشعر بمثله أبدا، حتى عندما احتلت (إسرائيل) صحراء (سيناء) بأكملها، في عام 1967 م.

«هذا إيذان بسقوط العرب جميعا..»..

عبارة أخرى، نطقها زبون آخر، من زبائن المقهى، وأصابت قلبه هو في الصميم، وكأنها طعنة حادة، من خنجر مسموم..

أي قول هذا بالضبط؟!

ما الذي يتصوره القائل؟!

هل يفترض أن سقوط عاصمة عربية، قد يعني سقوط كيان عربي بأكمله؟

مستحيل!

مستحيل، وألف مستحيل!

صحيح أن أولئك المحتلين يتفوقون، في أسلحتهم وتكنولوجيتهم، ولكن الأحداث أثبتت أنهم لا يتفوقون برجالهم

أو مبادئهم..

والتاريخ علمنا أن القوة وحدها لا تكفي..

التتار والمغول امتلكوا القوة..

الإمبراطورية الرومانية كانت لها جيوش لا تقهر..

الفرس سيطروا يوما على نصف العالم..

(نابليون بونابرت) بهر (مصر) يوما بمدافعه..

السوفييت كانوا يوما إحدى قوتين عظميين..

ولكن كل هذا انهار..

كل هذا سقط..

وانمحي..

واندثر..

حتي نحن، خسرنا واندحرنا، عندما تخلينا عن قيمنا ومبادئنا..

خسرنا (الأندلس)، والحضارة..

والقوة..

«ما دامت تلك العاصمة قد سقطت، فلن تقوم لنا قائمة بعد الآن..»

خنقته العبارة، التي ألقاها زبون ثالث، في يأس غاضب، فهبّ من مقعده، ودفع حساب مشروباته في توتر..

وغادر المقهى كله....

وبكل مرارة الدنيا، راح يقطع شوارع (القاهرة)، في طريقه إلى الكورنيش..

كورنيش النيل..

ومع الأمتار التي قطعها، بدا له وكأن (القاهرة)، بل (مصر) كلها، قد تحولت إلى مقهى واحد كبير..

الكل يتابع سقوط تلك العاصمة العربية..

الكل يتحدث عن خيانة ما، أو صفقة ما..

والجميع يعانون المشاعر نفسها الغضب، والثورة، والمرارة، واليأس، والحسرة، والإحباط، وروح الانهزام، في أعمق الأعماق..

وهو واحد من الجميع..

وفي أعماقه تشتعل كل تلك المشاعر المؤلمة..

وفي تلك اللحظات، وهو يعبر آخر طريق يفصله عن الكورنيش، شعر وكأنه فجأة لم يعد يحتمل كل ما حوله..

لم يعد يحتمل الزحام، والفوضى، وأبواق السيارات، والسباب المنفلت من بين شفاه عديدة، لا تجد ما تعبر عما تجيش به صدورها، سوى هذا..

وبكل توتره وانفعاله، جرى عبر الشارع، وسط أفواج السيارات، التي لا تتوقف أبدا..

وطاردته صيحات غاضبة، وسيابات عصبية، وصرخات منفلتة..

ولكنه لم يبال..

كان كل هدفه أن يبلغ النيل..

وبأي ثمن..

وما إن أمسكت أصابعه سور الكورنيش، حتى التقط نفسا عميقا، وكأنما يحاول أن يؤكد لنفسه أنه قد وصل إلى هدفه..

إلى النيل..

كان يتمنى لو أن هذا النفس العميق قد حمل رائحة النيل والطبيعة، والعزة، والكرامة، والتاريخ..

ولكن الرائحة كانت تختلف للأسف..

كانت تحمل الإهمال، والفساد، والفوضى..

حتى النيل لم يسلم من استهتارنا بتاريخنا وثرواتنا..

حتى النيل..

«ترى من التالي؟!»..

سؤال ألقاه بائع حمص الشام، على أحد زبائنه، لمجرد أنه زبون أنيق الملبس، توحي ملامحه بالثقافة، وبمعرفة كل الأجوبة..

وبلغ السؤال مسامعه هو..

وتسلل إلى أعماقه..

إلى عقله..

إلى وجدانه كله..

وقبل أن يعثر على جواب شاف، كان الزبون الأنيق يجيب في ثقة، أن التالي هو الدولة العربية المجاورة، وبعدها كل الدول العربية، على نحو أو آخر..

وعاد الغضب يتصاعد في أعماقه، وهو يبتعد بسرعة عن المكان كله، حتى لا يسمع تعليق بائع حمص الشام، أو باقي الزبائن..

ربما كانوا على حق في تصوراتهم..

ولكنه لا يريد أن يسمع..

يريد فقط أن يتشبث بسور الكورنيش، وكأنه يتشبث بالنيل نفسه، معلنا أنه لن يتخلى عنه أبدا، حتى لو دارت الدائرة، وجاء المحتلون من أجله..

لو حدث هذا سيقاتلهم، حتى آخر نفس..

حتى آخر قطرة دم في جسده..

وآخر قطرة ماء في نهر النيل..

وفي أعماقه، تضاعف شعور الغضب أكثر وأكثر..

كم يكره المحتلين!!

كم يكره كل من يسعى لتدمير عروبته، ووطنه، وعقيدته!!

وكم يكره أكثر وأكثر روح اليأس، التي ملأت كل القلوب والأفئدة، مع سقوط تلك العاصمة العربية العريقة ولكن الأخبار نفسها تقول: إن الدولة كلها لم تسقط بعد..

مازالت هناك مقاومة..

وهو يدرك جيدا أن تلك المقاومة لن تنتهي أبدا..

ستبقى ما بقي المحتل..

التاريخ علمنا هذا..

علمنا أن صلابة الشعوب ومقاومتها تتضاعف، كلما بقي المحتل أكثر..

وأن المقاومة للمحتلين لا تموت أبدا..

سلوا شعب (فلسطين)، وسيثبت لكم أن هذا صحيح..

المهم أن تظل الهزيمة خارج أجسادنا..

المهم أن يحتلنا العدو، ولكنه يعجز عن احتلال إرادتنا، وعقيدتنا، وروح المقاومة والقتال في أعماقنا..

نعم.. هذا هو الاحتلال، الذي لا ينبغي أن نسمح له بالانتصار علينا أبدا..

وفي تلك اللحظة، ومع هذه الفكرة، التي تسللت من عقله، إلى كيانه كله، وجد هامته ترتفع، وشعر بالحماسية والفورة يسريان في عروقه، فشد قامته، وتطلع إلى النيل أمامه بنظرة جديدة..

لا.. لن تنهزم إرادته أبدا...

سيقاتل..

سيقاتل روح اليأس والهزيمة والإحباط..

سيقاوم الفساد والاستهتار والفوضى من حوله..

سيقاوم كل سمة سيئة تحتل مشاعره، وتفسد طريق تقدمه..

بهذا فقط، يمكنه أن يتصدى للمحتلين..

كل المحتلين..

ولم تكد تلك العقيدة تستقر في أعماقه، حتى عاد النيل يبدو جميلا شامخا، وكأنما يحمل معه عبق التاريخ..

وأمل المستقبل..

كله.

(تمت)

85- آخر الخط..

أخيرا، جاء ذلك اليوم، الذي تصور أنه لن يأتي أبدا..

اليوم الذي تنتهي فيه رحلته الطويلة..

الرحلة، التي بدأها منذ أربعين عاما كاملة..

رحلة الكفاح..

والصراع..

والشقاء..

والتعب..

يا إلهى! إنه يتذكر البداية، كما لو أنها قد حدثت أمس..

كان شابا، وسيما، طموحا، طيب القلب، حلو المعشر...

وفقيرا.. للغاية!

لقد نشأ في أسرة فقيرة، كثيرة الأبناء، قليلة الدخل، يعاني أفرادها شظف العيش، ويجدون بالكاد ما يكفي لقوتهم اليومي..

وعلى الرغم من هذا، فقد جاهد والده الفقير، ليمنحهم جميعا نعمة التعليم..

كان حلم حياته أن يرى أولاده أفضل منه، ينعمون بشهادات عالية، ووظائف مرموقة، ودخول تسمح لهم بالعيش، في مستوى آمن مطمئن..

ولأنه كان أول الأبناء، وأكثرهم ذكاء وطموحا، فقد اعتبره والده الأمل الأول له، ولم يدخر جهده، أو أمواله القليلة، ليدفعه دفعا، في طريق العلم والتعليم..

ولقد بذل هو قصارى جهده بحق، حتى لا تضيع تضحية والده، أو تذهب جهوده هباء..

وبتفوق ملحوظ، تجاوز المرحلة الابتدائية، ثم حصل على الشهادة الإعدادية بمجموع مبهر.. وفي نهاية المرحلة الثانوية، نُشرت صورته في الصحف، باعتباره واحدا من أوائل الطلاب، على مستوى الجمهورية كلها..

وكتطور طبيعي، كان ينبغي أن يلتحق بكلية عملية، من الكليات المتاحة للمتفوقين من أمثاله..

وهنا، حانت لحظة مواجهة الحقيقة..

صحيح أنه متفوق، وأنه الوحيد من بين أشقائه، الذي أمكنه الالتحاق بالمرحلة الثانوية العامة، وإنه يستحق بتفوقه، دخول أكبر كليات القمة..

ولكن العين بصيرة واليد قصيرة، كما يقولون..

ومهما بذل والده العامل البسيط من جهد، فلن يمكنه أبدا تحمّل نفقات الدراسة، في كليات القمة..

حتى مكافأة التفوق، لم تكن لتكفي أبدا؛ لأن المسئولين لم يدركوا بعد أن الزمن يتطور، والاقتصاد يتغير، والمكافأة التي كانت تكفى فيما مضى، لم تعد تساوي ثمن بضع وريقات، من أصغر مذكرة في الكلية اليوم...

وهكذا، وعلى الرغم من طموحه، كان لا بد له أن يرضى بكلية نظرية، ذات نفقات محدودة..

نفقات يمكن لوالده المكافح احتمالها..

وفي استسلام لقدره، التحق بكلية أدبية..

وحاول أن يطوع طموحة للتعامل معها، فراح يستذكر مقرراته في اهتمام وحزم، ويسعى للتفوق والتقدم في الكلية..

وعبر سنوات الدراسة الأربع، كان طموحه يربح المعركة دوما..

لقد تفوق..

وتفوق..

وتفوق..

وفي السنة النهائية، حصل على شهادته بتقدير ممتاز، يندر أن يحصل عليه أي طالب، في كلية مماثلة..

وكانت فرحة والده طاغية..

الحي كله، ظل يرقص حتى صباح اليوم التالي، احتفالا بنجاح ابنه وتفوقه، وحصوله على تقدير مرتفع، يمنحه حق التعيين كمعيد في الجامعة..

ومع الوقت، والترقي لم يلبث أن يصبح أستاذا جامعيا، يُشار إليه بالبنان، ويزهو به والده وأشقاؤه..

ولكن الحلم كان أجمل كثيرا من عالم الواقع..

ففي دهاليز الكلية، كانت هناك أمور تدور، لا علم له بها..

ولا قبل له بمواجهتها..

فلسبب ما، أمكن تطويع اللوائح للتوافق معه، لم توافق الكلية على تعيينه معيدا بها..

ربما لأنه من أصول اجتماعية متواضعة..

أو لأن ابن أحد الأساتذة بالكلية، كان يطمح إلى الوظيفة نفسها..

أو للسببين معا..

المهم أنه لم يصبح معيدا بالكلية..

لم يفز بالمنصب والوظيفة..

ولا بأية وظيفة أخرى..

كل ما حدث، هو أنه أصبح اسما إضافيا، في قائمة البطالة والعاطلين عن العمل..

انتهى من دراسته بتفوق، وفعل كل المطلوب منه، والآن لا يجد وظيفة واحدة، تقية عن السؤال، وتقيه وتقى أسرته من الجوع..

وكان يمكنه أن يحتمل كل هذا، لولا نظرة الحزن والأسى والإحباط، التي تطل دوما من عيني والده..

النظرة، التي جعلته يسعى للحصول على أي مصدر للدخل..

مهما كل شأنه..

وخلال عام كامل، تنّقل بين عدة وظائف، لا تحتاج أفضلها إلا لإجادة القراءة والكتابة، على أكثر تقدير..

وحصل على دخل للعيش..

وربما لإعالة الأسرة أيضا..

ولكن هذا لم يمح نظرة الإحباط والأسى، من عيني والده أبدا..

ولم يدر هو ماذا يفعل؟!

أو أين يذهب؟!

ثم جاء ذلك اليوم، الذي طلب فيه والده منه أن يلملم أوراقه، ثم اصطحبه معه إلى المصلحة، التي يعمل فيها، وقدمه إلى

رئيسه، الذي وقَّع بالموافقة على طلب وظيفة مُعد مسبقا..

وأصبح هو أخيرا موظفا رسميا، له راتب ثابت، يكفي بالكاد للعيش الحاف، وقليل من الملح..

وكان عليه أن يواصل عمله الخارجي، في النصف الثاني من اليوم ..

ويواصل..

ويواصل..

وبعد ستة أشهر فحسب، من توليه الوظيفة الرسمية، رحل والده عن الحياة في هدوء، وكأنما أسلمة الراية، وانتهى دوره في الحياة..

وبدأ هو مرحلة جديدة..

ورحلة طويلة..

رحلة استغرقت عمره كله..

والتهمت شبابة..

وطموحه..

وأحلامه..

الأربعين عاما كاملة..

وكعادته، أدى واجبه على خير وجه، ورعي أسرته، وأمه، وأشقاءه، وسعى لاستكمال تعليمهم..

ولتوظيفهم..

وتزويجهم أيضا..

وخلال الرحلة، نسي نفسه تماما..

نسى أحلامه، وطموحاته، وحتى مشاعره..

لم يرتبط أو يتزوج أبدا..

أو يشعر حتى بمرور الوقت..

حتى وصل إلى آخر الرحلة..

إلى آخر الخط..

فاليوم فقط، وصلته رسالة مسجلة مطبوعة، تحمل اسم المؤسسة، التي يعمل بها، مع كلمات قصيرة أدهشته جدا..

وأزعجته للغاية..

كلمات تنبئه بأنه قد وصل إلى آخر الخط، وبلغ السن القانونية..

سن الخروج إلى المعاش..

الآن فقط، انتهى مشوار العمر الطويل..

أو هكذا يتصور..

فقد وصل إلى السن القانونية للتقاعد، إلا أنه لم يبلغ سن نهاية الأحلام والطموحات بعد..

فمازال لديه الكثير مما يمكن أن يعطيه..

والكثير جدا..

أمة مازالت على قيد الحياة، وتحتاج إلى رعايته وعنايته..

وأشقاؤه وشقيقاته يطلبن معاونته واستشاراته دوما..

وأبناؤهم يذوبون عشقا له..

الرحلة لم تنته بعد إذن..

والقطار لم يصل إلى آخر محطاته..
وهذا يعني أنه سيكمل مشواره، بنفس الحب والعطاء والتفاني..
وسيواصل رحلته..
حتى آخر الخط..

(تمت)

86- المفتاح..

حبيبتي الغالية..

منذ دقائق قليلة، سلمني حارس العقار ذلك المظروف الذي تركتِه لي هذا الصباح، بعد انصرافي إلى عملي مباشرة..

المظروف، الذي يحوي المفتاح..

مفتاح شقتي..

وبالنسبة لنا، أنت وأنا، كان لهذا معنى خاص..

خاص جدا..

فمنذ التقينا، وتعارفنا، وربط الحب قلبك بقلبي، منحتك مفتاح شقتي، في سلسلة من الفضة، التي يذكرني نقاؤها دوما بنقاء قلبك الطاهر الدافئ الجميل، وما زلت أذكر، حتى لحظتنا هذه، ذلك الذعر المستنكر، المطلّ من عينيك، وأنت تحدقين في المفتاح، قبل أن يشتعل غضبك، وتثورين في وجهي؛ لأنني جرؤت على فعل هذا..

كنتِ لحظتها جريحة، غاضبة، مقهورة، تتصورين أن المفتاح الذي أعطيك إياه، يعني أنني أتصورك مجرد أنثي عابثة..

مستهترة..

متساهلة..

ولقد أدهشني هذا، وأصابني بذعر شديد في الواقع، فما جال ببالي أيامها، وما دفعني إلى منحك ذلك المفتاح، كان بعيدا كل البعد عما تصورته أنتِ تماما.

وهذا لأنك نسيت أمرا واحدا يا حبيبتي.

أنني لم أولد هنا..

ولم أنشأ في مناخ شرقي أيضا..

ويحكم مولدي ونشأتي، ووفقا لعادات المجتمع الذي ترعرعت فيه، يعتبر منح مفتاح شقتك لمن تحب، دليل الثقة، والحب، والتفاهم، والاستقرار العاطفي التام، الذي يلغى الحواجز بين الجانبين..

ويفتح باب كل منهما أمام الآخر..

وهذا ما قصدت أن أخبركِ إياه لحظتها..

وما جاهدت لأشرحه لك فيما بعد..

لم يكن الأمر يسيرا..

أو الاختلاف التربوي بيننا بسيطا..

ولكنك كنت تحبين..

وفهمتِ..

وتقبلتِ..

وسامحتِ..

وكحل وسط، وافقتِ على أن تأخذي مفتاح شقتي، على ألا نلتقي فيها وحدنا أبدا..

وقبلت أنا شرطك على الفور..

لأنني أحببتك من كل قلبي..

ولقد حافظنا معًا على القاعدة، وعلى طهارة ونظافة حبنا، الذي راح ينمو، ويترعرع، ويكبر في كل يوم..

ثم كنتِ أنت من خالف الشرط..

حدث هذا أثناء واحدة من رحلات عملي العديدة، التي أسافر فيها خارج الحدود، ولم أعلم به إلا عندما عدت، لأجد منزلي نظيفا مرتبا، وفوق المائدة هدية رقيقة مثلك، محاطة بورق ملون جميل، تعلن حبك لى، واشتياقك لعودتي..

ولا يمكنك أن تتصوري كم أسعدني هذا..

كم أعجبني، وأفرحني، ومسّ شغاف قلبي..

وفي لقائنا التالي، أخبرتك بمشاعري، تجاه قدومك إلى شقتي، حتى ولو لم أكن فيها، واعترفت أنت لي بأنك كنت شديدة الفضول لرؤيتها، ومعرفة تفاصيل المكان، الذي أحيا فيه..

وظل الموقف كما هو..

لا نلتقى أبدا في شقتي، على الرغم من أنك تحملين مفتاحها..

وأضيفت قاعدة رائعة جديدة..

ففي كل مرة أعود من رحلة سفر، كنت أجد هدية منك في انتظاري..

هدية بسيطة..

رقيقة..

جميلة..

تماما مثلما أنتِ..

وكم اختلج قلبي بنظرة السعادة، التي عبر عنها كيانك كله، عندما كشفتِ ذات يوم، أنني قد صنعت قطعة أثاث ذهبية ركنية خاصة؛ أحفظ فيه كل هداياك إليّ..

كان هذا بالنسبة لك، دليلا جديدا على الحب..

حبي لكِ..

وبعدها، أصبح تخيلكِ، وأنت تجولين في شقتي، هو الوسيلة الوحيدة لهزيمة شوقي إليك، في رحلات عملي الطويلة..

حتى بدأتِ تتغيرين..

وأعترف هنا أنني لم أشعر بذلك التغيير في البداية؛ فقد كنت ككل محب، أنانيا، مستمتعا، مبهورا بعلاقتي بمن أحب، حتى أغشي الحب بصري عما يصيبه..

كنت أقل كلاما، وأكثر عصبية، وأندر ابتساما..

ثم بدأت مرحلة العصبية..

المرحلة التي بدأت أنتبه خلالها إلى ما يحدث..

انتبهت.. ولكنني لم أفهم

ربما أيضا بسبب نشأتي الأجنبية..

فقد طالت قصة حبنا أكثر مما ينبغي، وكان من الضروري أن تنتقل إلى مرحلة جديدة...

مرحلة الارتباط الرسمي..

وأنتِ لم تحاولي الإفصاح عن سر توترك وعصبيتكِ.

كنت تتمنين أن أشعر بالأمر وحدي..

أن يقرأه قلبي..

وتدركه مشاعري..

وتتفق معه عواطفي..

ولكنني لم أفعل..

لم أفهم..

أو أحاول أن أفهم..

لقد تصورت أن حبنا خالدا..

أبديا..

دائما..

وهكذا خسرت..

استيقظت فجأة، لأجد أن حبكِ لي قدا انهزم، أمام ضغوط توترك، وغضبكِ..

ويأسكِ أيضا..

لحظتها فقط عرفت..

وفهمت..

ومع معرفتي وفهمي، حاولت أن أستردكِ..

أن استرجع حبكِ..

وحنانكِ..

ودفئكِ..

ولكن الوقت كان قد فات تماما كما يقولون..

فلسبب ما، لم يعد باستطاعتك العودة..

أو المسامحة..

أو الغفران..

لقد أصبحتِ رافضة لحبي تماما..

ولكل ما يرتبط به..

واليوم، أعلنتِ رغبتكِ في فصم كل علاقة ربطتنا معًا..

وأعدتِ لى المفتاح..

نفس ما يحدث، في المجتمع الذي نشأت منه..

وصدقيني يا حبيبتي، فعلى الرغم من حزني الشديد لما حدث..

إلا أنني لن أقاوم..

لن أقاتل لاستعادتك قط..

بل سأستلم تماما لرغبتك، كما يفعل أي إنسان متحضر، في كل بيئة محترمة...

إنها مشاعرك، وسأحترمها تماما..

فقط لي رجاء واحد..

لا تعيدي المفتاح..

احتفظي به دائما..

اعتبريه ذكري لحظات حينا الجميلة..

الطويلة..

العطرة..

احتفظي به يا حبيبتي، ولو في ركن مظلم، من أعماق أعماق خزانتكِ..

المهم أن يبقى معكِ..

هذا لأنه ليس مجرد مفتاح شقة أنيقة..

إنه مفتاح قلب..

قلبي أنا..

وهو لكِ..

وسيظل لكِ..

ولكِ وحدكِ..

إلى الأبد..

(تمت)

87- جبروت..

انتفخت أوداج (مبروك) بيك في زهو متغطرس، كعادته وهو يهبط من سيارته الفاخرة الكبيرة، التي يحمل ثمنها ستة أصفار دفعة واحدة، أمام ذلك المصنع الضخم، الذي يحمل اسمه الثلاثي على لافتة هائلة مضيئة، يمكن رؤيتها من مسافة كيلومترات، لتعلن للعالم أجمع أنه صاحبه، وأنه واحد من سلسلة مصانع، انتشرت في البلاد، من أقصاها إلى أقصاها، لتعلى من شأنه، وتعظم من قدره، لدي البلاد والعباد..

وكما يحدث في كل مرة، تدافع مدراء مصنعة لاستقباله ومصاحبته في موكب فخم أنيق، من باب المصنع، وحتى باب مكتبه، الذي يحتل وحده نصف طابق بأكمله.

ووفقا لأوامر المدراء والرؤساء، تراص عمال المصنع وموظفيه على الجانبين، يهللون ويصفقون، احتفالا بمقدم الكبير، الذي سار وسطهم في خيلاء طاووس يتقدمه كرشه الضخم، دون أن يلقى عليهم حتى نظرة ازدراء، وكأنما لا يشعر بوجودهم أو أهميتهم، ولم يشعر بها ولو لحظة واحدة في حياته..

وفي سباق مضحك، أسرع الكل يفتحون أمامه باب مكتبه، الذي دخله بنفس الزهو والتعالي؛ ليجلس على ذلك المقعد الكبير، الشبيه بعروش الملوك، والذي استورده خصيصا من الخارج، لينعم بالجلوس عليه، وعلى أشباهه، في كل مصنع من مصانعه العديدة..

وبعد أن استقر به المقام في عرشه، وتناول مشروبه الساخن، الذي يحمل اسم شركة أغذية عالمية شهيرة، بخلت إليه

سكرتيراته الحسناوات، يحملن المراسلات والخطابات، والقرارات التي أصدرها من قبل، والتي تحتاج إلى توقيعه الكريم؛ لتصبح واجبة التنفيذ..

وكعادته، راح (مبروك) بك يراجع كل ورقة وكل كلمة، ويفحص ويمحص كل طلب تقدم به عامل بسيط، لقرض أو علاوة، تساعده على مواجهة شظف العيش والحياة وفي صرامة غاضبة، جمع كل الطلبات والأوراق، واستدعى إليه كل مديرية ورؤساء أقسامه، وراح يلقي على مسامعهم تلك المحاضرة المعتادة الصارمة الغاضبة، حول بداياته، وكفاحه، وعصاميته، وكيف أنه قد تعب، وجاهد، وقاتل، حتى وصل إلى ما هو عليه، دون أن يطلب مساعدة، أو معاونة، أو يهدأ أو يستريح لحظة واحدة..

وفي النهاية، ختم محاضرته التقليدية بإعلان رفضه لكل طلبات المساعدة، مع سماحه بأن يعمل العمال والموظفين ضعف ساعات العمل، مقابل أجر إضافي، يساعدهم على العيش، ومواجهة صعوبات الحياة.

وكالمعتاد أيضا، أثنى المدراء والرؤساء على سماحته، وعطفه، وطيبة قلبه، التي ساعدت الفقراء والمساكين في مصانعه، على إيجاد سبيل للعيش، ثم وعدوه بالضغط عليهم؛ ليعملوا بثلاثة أضعاف طاقتهم، لو أنهم يرغبون في الاستمرار في العمل..

وإلا فالطرد هو نصيبهم منه، وبأسرع وسيلة ممكنة.. ومرة أخرى، انتفخت أوداج (مبروك) بك، وامتلأت نفسه بالزهو والخيلاء، وتصور أنه بالفعل المحسن الكبير، صاحب القلب النقي والعطاء اللامتناهي، وبدأ يعد أوراقه للذهاب إلى الحج، للمرة السابعة عشرة، حتى يرى الكل ايمانه وتقواه، ويدركون

طهارته وسماحته. وبينما تأخذ أوراقه طريقها، راح هو ينتقل، من مصنع إلى مصنع، ومن شركة إلى أخرى، في إمبراطوريته الضخمة، حتى انتهى النهار، والمراكب الضخمة تصاحبه أينما ذهب، فعاد إلى منزله، وجلس يتحدث بعض الوقت مع زوجته، عن طمع عماله وموظفيه، الذين لا يملأ عيونهم إلا التراب، على الرغم من تعامله الرقيق الرحيم معهم، استدعت إليه المسكينة مستسلمة، وهي تتمنى أن يرهقه الحديث، فيتوقف عن ملء نفسها بالضجر والملل..

ومن حسن حظها، أن الخدم أعدوا مائدة عشاء حافلة، أقبل عليها (مبروك) بك بنهم وشراهة، لا مثيل لهما، والتهم محتوياتها بلا رحمة أو شفقة، حتى بمعدته المسكينة، مما أخرسه تماما من الحديث، ودفع زوجته إلى التطلع إليه بدهشة قلقة، وقد بدا لها أن حجم كرشه قد تضاعف مرتين على الأقل، خلال تلك الليلة وحدها..

وانتهى العشاء، بزجاجة مياه غازية مثلجة، من الحجم العائلي، شربها (مبروك) بك وحده حتى الثمالة، وألقى جسده بعدها على أريكة فاخرة ضخمة، يشاهد محطات الأقمار الصناعية، على شاشة هائلة، ملتصقة بالجدار، حتى لتبدو أشبه بإطار أنيق لصورة متحركة..

وبقيت زوجته بعض الوقت، حتى صارت عاجزة عن إبقاء جفنيها في موضعهما، فأوت إلى فراشها، ونامت ملء جفنيها حتى الصباح...

أما (مبروك) بك نفسه، فقد واصل المشاهدة، حتى شعر فجأة باختناق عجيب، وهو يدخن سيجاره الهافاني الفاخر، وبتنميل

شديد في كفه اليسرى، ثم زاغت عيناه، وأطبق نقل هائل على صدره، منعه حتى من أي يصرخ مستنجدا، وانتفض جسده مع كرشه الضخم..

انتفاضة واحدة..

ثم هدأ كل شيء..

وفي الصباح التالي، عثرت عليه زوجته ميتًا بأزمة قلبية حادة، أمام التلفاز الكبير، والسيجار الهافاني مازال مشتعلا بين شفتيه..

أما نفسه، فالعجيب أنه لم يدرك أنه قد مات..

كل ما حدث هو أن الدنيا من حوله أصبحت أكثر حرارة، كما أن أجهزة التكييف قد توقفت عن العمل دفعة واحدة..

ثم وجد نفسه فجأة، أمام بوابة ضخمة، تصور أنها بوابة أحد مصانعه، فتفخ صدره، ونفش ريشه، وانتظر الموكب الذي سيصحبه إلى الداخل..

وانفتحت البوابة، وخرجت منها مواكب عديدة..

مواكب يطالبه أصحابها بكل ما حوله منهم، خلال حياته الحافلة..

وعندئذ فقط، أدرك (مبروك) بك الموقف..

وأدرك أنه مات..

وعرف طبيعة تلك البوابة الضخمة، التي ينبعث منها لفح اللهب..

والتي سيعتبرها مفلسا، بعد أن يأخذ منه كل ذي حق حقه...

والأدهى أن كل هذا سيحدث..

بلا موكب..

(تمت)

88- آسف..

حبيبتي..

هذا الخطاب الذي أرسله إليك الآن، تأخر كثيرا..

كثيرا جدا..

تأخر أكثر مما ينبغي..

وأكثر مما أمكنك الانتظار..

أو الاحتمال..

وأعترف أن هذا خطئي..

وخطأك أيضا..

فمنذ عرفتك، عهدتك دائما الطرف الأكثر احتمالا..

والأكثر حنانًا..

وحبا..

وعطاء..

ولقد عشقت هذا فيك، منذ اللحظة الأولى، إلا أنني، وعلى الرغم من هذا، لم أحترمه كما ينبغي..

ربما لأنني رجل..

وشرقي..

فالآن فقط، أدرك أن طبيعتنا الشرقية تسيء تربية الذكور..

وربما أكثر مما ينبغي..

لقد اعتدنا منذ مولدنا، أن نتعامل باعتبارنا الجنس الأرقى، والأفضل، وصاحب كل الحقوق، وأنكن الجنس الأدنى، والأقل..

والأضعف..

اعتدنا هذا؛ لأنه هكذا كانوا يربوننا، ويتعاملون معنا، منذ تفتحت عيوننا على الحياة والدنيا..

ومع مرور الوقت صدقنا الكذبة..

واعتنقناها..

وتشبثنا بها..

ولأننا تربينا على أن نزهو بذكورتنا، وليس برجولتنا، فقد اكتفينا بها، ولم نشعر بأية حاجة إلى العمل، والجهد، والكفاح، والسعي إلى التفوق في كل مجالات الحياة والدنيا..

ولكنكن تربيتن على العكس تماما..

الأنوثة كانت بالنسبة لكن هوانا، وضعفا، ودنوًا..

لذا فقد جاهدتن لإثبات وجودكن..

وقاتلتن..

وكافحتن..

ومع مرور الوقت، تفوقتن..

ليس في مجالات الدراسة والعلم فحسب، كما توضح نتائج الكليات والمدارس..

ولكن في معترك الحياة أيضا...

فوفقا للمعادلة الأساسية، يتفوق المكافح، ويضعف المتراخي..

أو كما قرأت قديما، في رواية (ويلز) الشهيرة (آلة الزمن)..

الجنس المقاتل يتفوق ويقوي مع الزمن، ليفترس الجنس المنعم في النهاية..

فكرة بدت لنا خيالية يوما..

ثم أصبحت حقيقة، في زمننا هذا..

والمؤسف أننا لم ندركها..

أو نفهمها..

أو نستوعبها....

فقط، فوجئنا بها..

تماما كما فوجئت أنا بما حدث..

فبلا مقدمات، وبعد سنوات من الحب والعشق، فوجئت بك تتراجعين..

وتغضبين..

وتنفرين..

حبك كله انقلب إلى حنق..

وسخط..

ورفض..

وبلا مقدمات أيضا، فوجئت بك تؤكدين أن شعورك نحوي، لم يعد أبدا كما كان..

لم يعد حبا..

أو حتى احتراما..

لقد احتملت طويلا أخطائي..
سخافاتي..
وأنانياتي..
احتملتها طويلا..
وكثيرا..
احتملتها بحب..
وصبر..
وأمل..
ومن الواضح أنكِ قد فقدتِ فجأة ذلك الأخير..
الأمل..
فقدته، وفقدت معه كل شيء..
وأي شيء..
وأعترف أن هذا قد صدمني في البداية..
صدمني، وهز حتى أعمق أعماقي..
هذا لأنني أحببتك بحق..
وبعمق..
وبأنانية أيضا..
أحبيتك كما لم أحب مخلوقا من قبل..
ولكن ليس كما ينبغي أن أحب ملاكًا مثلكِ..
ليس كما ينبغي أن أمنحكِ..

أو أعشقكِ..

أو أعطيكِ..

ولكنني، وعندما جلست أراجع الموقف كله، وعندما تنصلت من غرروي، وأنانيتي، وثقتي الزائدة بنفسي، وأجبرت عيني على رؤية حقيقتي، أدركت أنك على حق تماما، في موقفك الجديد هذا.

وأنني مخطئ في حقك..

وإلى أقصى حد..

لذا، فلم يعد هدفي الأول هو الإبقاء عليك، وعلى قربك وحبك..

لم يعد من حقي حتى أن أطالبكِ بهذا..

بل أصبح كل ما ينبغي على أن أفعله، هو أن أعتذر..

أن أركع على ركبتي أمامك، لأعترف بأخطائي، وأعلن أسفي..

لو أن هذا يمكن أن يعبر عما يدور في نفسي..

آسف يا حبيبتي؛ على أنني لم أقدّرك حق قدركِ..

آسف؛ لأنني لم أمنحكِ ما تستحقين..

لم أعطكِ ما تريدين..

أو أمنحكِ ما ترغبين..

آسف لأنني أضعت سنوات من عمركِ..

وحبكِ..

وعطائكِ..

وروعتكِ..

آسف ألف مرة..

بل ألف ألف مرة..

إنني حقا لا أستحق رائعة مثلك..

لا أستحق لحظة واحدة، من لحظاتك المدهشة..

ولست أحلم بعودتكِ..

أو حتى بمغفرتكِ..

كل ما أتمناه هو أن تسعدي في حياتكِ كلها..

بدوني..

وأن تتذكري دوما، أن آخر كلمة سمعتها مني هي آسف..

آسف يا حبيبة العمر كله..

آسف؛ لأنني ضحية موروثات ذكورية عريقة..

آسف..

آسف..

اسف..

حتى آخر العمر..

(تمت)

89- رنـــات..

«إش.. إش.. ده إيه الحلاوة دي.. »

انتفخت أوداج (فتحي)، عندما استقبله صديقه (حمزة) بهذه العبارة، في المقهى الذي اعتادا الجلوس علية، في الحي الشعبي الشهير، وأحاطت أصابعه بذلك الموبايل الفخم في زهو واضح، وهو يلقى جسده على المقعد المعدني، قائلا:

«آخر موديل.. فيه كاميرا »..

ضحك صديقه (فتحي)، وهو يقول:

«لطشته منين ده يا واد.. ده يجيله ييجي بألف جنيه »..

لوح (حمزة) بذراعه كلها مستنكرا، وهو يهتف

- «يا عم روح.. ده المستعمل بتاعه يعمل ألفين بالميت في السوق »...

انبهر (حمزة) بالرقم، الذي يساوي يوميته كعامل محارة، في مائة كاملة، ومال نحوه يسأله:

«واتحصلت عليه إزاي ده ياد .... »

هز (فتحي) كتفيه، وهو يقول بنفس الزهو، وظهره يلتصق بالمقعد في عنتظة:

- «زي الناس.. »

كان جوابا عاما، لا يعني شيئا بالتحديد، وعلى الرغم من هذا فقد اكتفى به (حمزة)، وتجاوز سؤاله كله، عندما أضاف (فتحي)، في

صوت قوي، يخالف تماما صوته الضعيف المستكين، الذي التصق به، بعد أسابيع طويلة من البطالة:

- « والليلة دي المشاريب على حسابي كمان.. »

كانت ليلة نادرة، دفع فيها (فتحي) حساب المشروبات الثلاثة من أصدقائه، بورقة من فئة العشرين جنيها، وتناول بعض شطائر اللحوم، وزجاجة من البيرة المثلجة، قبل أن يستعد للانصراف، فضحك صديقه (حمزة)، هو يودعه، قائلا:

- « ما إنت يا لطشه، يا ورثت ورث تقيل.. »

ولم يجب (فتحي) عبارته، أو يعلق عليها، وهو يتجه نحو البناية، التي يقيم في حجرة صغيرة على سطحها، والتي تسد تلك الحارة الصغيرة بعد ناصية المقهى.

كانت حجرته تعلو خمسة طوابق، صعدها وهو يترنح، من فرط الزهو والنشوة، وما إن دخل حجرته الصغيرة، حتى أغلق الباب خلفه، وأسند ظهره إليه، وتطلع إلى ذلك الموبايل الفاخر وذهنه يستعيد أحداث بداية الليلة:

كان يسير في ذلك الشارع المقفر المظلم، عندما لمح ذلك الشاب.. شاب في الخامسة عشرة من عمره على الأكثر، يرتدي ثيابا تشفّ عن الثراء والدعة، ويمسك ذلك الموبايل الأنيق..

كان من الواضح أنه قد ضلّ طريقه، لسبب أو لآخر؛ إذ لم يكن من المنطقي أبدا أن يتواجد شاب مثله، في منطقة كهذه..

وبالنسبة له، بدت هذه فرصة، ما بعدها فرصة...

وفي شراسة اكتسبها من حياته القاسية، استل مطواته، واندفع نحو ذلك الشاب، وصرخ في وجهه، يأمره بإعطائه ذلك

الموبايل، وكل ما يحمله من نقود أيضا..

وكما توقع تماما، أصيب الشاب بفزع رهيب، وأعطاه الموبايل، وعشرين جنيها كان يحملها، وتضرّع إليه أن يتركه لحاله بعدها..

وكان من الممكن بالفعل أن يتركه (فتحي)، بعد أن استولى على ساعته أيضا، إلا أن شيطانا ما في أعماقه دفعه إلى فكرة خسيسة مجنونة، لم يفق منها إلا وهو يسحب مطواته من قلب ذلك الشاب المسكين، الذي اتسعت عيناه عن آخرهما، في مزيج من الألم والرعب، وحاول منع ذلك النهر الدموي، الذي تفجر من صدره، وحملت عيناه نظرة اتهام، لم تلبث أن تحولت إلى لمحة بغض وكراهية، قبل أن يسقط عند قدمي (فتحي) جثة هامدة..

وبأقصى سرعته، انطلق (فتحي) يعدو مبتعدا، ويتنقل من شارع إلى آخر، حتى بدا له أنه قد ابتعد تماما عن مسرح جريمته، وأن أحدا لن يصل إليه، فتوقف، والتقط أنفاسه، وذهب للقاء (حمزة) في المقهى..

وعلى فراشه الرث، شبه المتهالك، أمسك الموبايل، وقلبه بين يدية، محاولا تخمين سعره الحقيقي، والمبلغ الذي سيحصل عليه، عندما يذهب لبيعه في سوق الحرامية، يوم الجمعة القادم.

ولأن الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، فقد غلبه النوم، وسقط الموبايل من يده على الفراش، وراح في سبات عميق، و....

وفجأة انطلق رنين الموبايل..

انطلق على نحو ارتجفت معه أوصاله كلها، ووثب لها جسده بأكمله، وانست به عيناه، وهو يحدق فيه في ذعر، قبل أن ينتبه

إلى الموقف، ويختطفه بحركة حادة، محاولا معرفة رقم المتصل..

إنهم أهل ذلك الشاب حتما، وقد أقلقتهم غيبته، ويحاولون الاطمئنان عليه عبر الموبايل

ولكن الشاشة كانت خالية، لا تحمل أية أرقام، والرنين يتصل..

ويتصل..

ويتصل بلا انقطاع..

وفي أعمق أعماقه، تصاعد توتر لا محدود، من ذلك الرنين المتصل، فقلب الموبايل مرة أخرى بين يديه، حتى عثر على زر إغلاقه، فضغطه بكل قوته، وعاد إلى نومه...

لم يدر كم استغرق في النوم هذه المرة، ولكنه استيقظ على نفس النحو المذعور، وعاد يحدق في الموبايل، المستقر إلى جواره على الفراش، ورنينه يتردد بصوت تضاعف علوه، مع صمت الليل..

ولثوان، حدق فيه بشيء من الذعر، فهو يتذكر جيدا أنه قد أغلفة تماما..

لم يوقف رنينه فحسب، ولكنه أغلقه..

أو ربما خيل إليه هذا..

لم تسعفه ذاكرته جيدا، فمال يتطلع مرة أخرى إلى الشاشة، التي لم تحمل أية أرقام كالمرة السابقة، ثم ضغط زر إغلاق الموبايل، ليتوقف الرنين على الفور..

وفي هذه المرة تساءل، لماذا ترك الشريحة في الموبايل؟!

وجودها هو سبب ذلك الرنين المزعج، الذي يثير رجفة عجيبة في أوصاله..

وفي عصبية، فتح الموبايل، والتقط منه الشريحة، واتجه نحو النافذة الصغيرة، المطلة على الشارع، وألقاها بكل قوته..

وعاد للنوم..

ولكن فجأة انطلق رنين الهاتف مرة أخرى..

انطلق بصوت أكثر اتصالا..

وأكثر ارتفاعا..

وهنا حدق فيه (فتحي) بمنتهى الرعب..

لقد انتزع الشريحة، وألقاها من نافذته، فكيف يمكن أن ينطلق الرنين..

وبأصابع مرتجفة، التقط الموبايل، وتطلع إلى شاشته، التي لم تحمل أية أرقام كالمعتاد، ثم استجمع شجاعته، وضغط زر الاتصال، وهو يضع الموبايل على أذنه...

ولوهلة، لم يسمع أية أصوات، ثم خيل إليه فجأة أنه يسمع صوتا باهتا مبحوحا، يأتي من بعيد، بهمهمة غير مفهومة.

صوت ذكره بشيء ما وأطلق قشعريرة باردة كالثلج في أوصاله أيضا..

وبحركة حادة، كمن لدغة عقرب، ألقي (فتحي) الموبايل بعيدا، وتراجع في فراشه، محاولا السيطرة على جسده، الذي راح يرتجف كريشة في مهب الريح..

وفي أعمق أعماق عقله، راح يسترجع كل ما سمعه من معلومات عن أجهزة الموبايل بكل أنواعها..

نعم.. لقد سمعهم يتحدثون عن موبايل بروحين.. موبايل يمكنك أن تضع فيه شريحتين، برقمين منفصلين.. هذا الموبايل من ذلك الطراز حتما، وهو ألقى إحدى الشريحتين، وظلت الثانية داخله..

نعم..

هذا ما حدث..

الفكرة جعلته يقفز ليلتقط الموبايل، ويعبث فيه مرة أخرى؛ بحثا عن تلك الشريحة الثانية..

وبينما يفعل هذا، انطلق رنين الموبايل بين أصابعه بغتة، حتى إنه أطلق صرخة رعب، وألقاه بعيدا عنه..

لم يدر ماذا حدث بالضبط، ولا كيف حدث هذا، ولكن الموبايل لم يكد يرتطم بالأرض، حتى توقف فجأة عن الرنين، وانبعث منه صوت ما..

صوت لم يبد مسموعا أو واضحا من موضعه؛ لذا فقد اقترب منه في حذر، وانحنى يلتقطه بأصابع مرتجفة، محاولا فهم ما يقوله ذلك الصوت..

كان صوتا عجيبا، يبدو وكأنه ينبعث من أعماق سحيقة، ويردد كلمة ما، اضطر (فتحي) إلى وضع الموبايل على أذنه ليسمعها..

وسمعها..

وانتفض جسده كله بمنتهى العنف..

فذلك الصوت، الذي يأتي من أعماق سحيقة، كان يردد كلمة واحدة..

« قاتل.. »

وبكل رعب الدنيا، انتزع (فتحي) بطارية الموبايل، وألقاها بكل قوته، لترتطم بالجدار، وترتد إلى منتصف الحجرة بعنف، ولكن جسده لم يتوقف عن الارتجاف..

تلك الليلة لا تريد أن تمضي أبدا، على الرغم من أنه، ولأول مرة في حياته، ينتظر شروق الشمس بفارغ الصبر..

فحجرته بلا كهرباء، وهو يعتمد دوما على أضواء الشارع لإنارتها؛ لأنه لا يملك ما يدفع به تكاليف استهلاك التيار الكهربائي..

ومنذ سنوات، اعتاد العيش في الظلام، وألفه..

إلا في هذه الليلة..

ويجسد لم تتوقف ارتجافته، عاد إلى الفراش، وجذب الغطاء نصف الممزق عليه، و...

وانطلق رنين الموبايل..

وهوى قلبه بين قدميه بمنتهى العنف..

مستحيل أن يحدث هذا!!

مستحيل!

ذلك الموبايل الملعون بلا بطارية وبلا شريحة..

ولكن رنينه ينطلق، ويدوى في الحجرة، وربما في المنطقة كلها..

وعلى الرغم من رعبه وهلعه، وثب يختطف ذلك الموبايل من أرضية حجرته، واندفع به نحو النافذة، وألقاه بكل ما يملك من

قوة..

ومن موقعه، رآه يهوي نحو الأرض، ورنينه يخفت..

ويخفت..

ويخفت..

وهنا فقط شعر (فتحي) بالارتياح.. وبالتهالك أيضا ذلك الأفعال العنيف أرهقه، وكاد يفقده صوابه..

وعلى الرغم من ربه وارتياعه، سقط رأسه ثقيلا على فراشه، وسقط جفناه متثاقلين، وانهار في نوم بلا قرار..

وانطلق رنين الموبايل مرة أخرى..

وفي هذه المرة، كاد قلبه يتوقف، وهو يثب بكل رعب الدنيا، ويحدق في الموبايل، المستقر إلى جواره مباشرة، ورنينه يتصل في إلحاح..

لا.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقة..

إنه كابوس..

كابوس راوده في نومه، بسبب ما فعله..

لقد ألقي الموبايل من النافذة بنفسه، ولا يمكن أن يعود إليه، إلا لو كان هذا كابوسا...

نعم.. إنه كابوس، والوسيلة الوحيدة لتجاوزه، هي أن يواجهه..

ومع تلك الفكرة الجديدة، امتدت أصابعه المرتجفة تمسك الموبايل، وتضغط زر الاتصال فيه، ثم ارتفعت به إلى أذنه..

وفي هذه المرة أيضا.. سمع الكلمة نفسها..

« قاتل »

وفي هذه المرة، ميزها جيدا..

إنه صوت ذلك الشاب الذي قتله في المساء..

وصوته لا يأتي من أعماق سحيقة..

بل من قبر..

قبر في أعمق أعماق الأرض..

وانهار كيان (فتحي) كله، وصرخ:

- « عايز منى إيه؟! »

وهنا انطلقت صرخة هادرة من الموبايل:

- « قاتل.. »

وفي هذه المرة كانت الصرخة واضحة قوية، وامتزجت بالصرخة الرهيبة، التي أطلقها (فتحي)، التي أيقظت جيرانه كلهم وعندما صعد الجيران إلى حجرته، كان المشهد بشعا، على الرغم من شروق الشمس..

لقد كان (فتحي) ملقى أرضا جثة هامدة، والدماء تنزف من أذنيه بغزارة، وأصابعه متشبثة بموبايل من طراز باهظ الثمن..

للغاية..

(تمت)

1912

90- ستة أسطر..

لست أدري ماذا أفعل

صديقتي العزيزة تركتني، وخاصمتني، وترفض التحدث إلى بكلمة واحدة...

كلمة واحدة، هي كل ما أنشده منها...

كلمة سماح..

وغفران..

ولن أحاول أن أتظاهر بالبراءة، أو أدعي حتى إنني كنت على حق، فأنا نفسي لم أعد واثقة من هذا بعد الآن..

لم أعد واثقة من أي شيء..

وفي كل صباح، وبعد أن أحاول عبثا الاتصال بها، أجلس صامتة في شرفة منزلي الصغير، وأسترجع سبب ذلك الخلاف والخصام.

وكم يدهشني ويؤلمني الآن، أن أدرك أن سر المشكلة كلها يكمن في ستة أسطر كتبتها في لحظة غضب..

ستة أسطر لا غير..

ولكي تفهموا الأمر، دعوني أبدأ من مرحلة مبكرة..

منذ عرفت صديقتي لأول مرة..

كانت تعمل في وظيفة جيدة، في شركة كبيرة، تعد مطمعًا لكل خريج جديد، عندما قدمت أنا طلبا للتعيين فيها..

الذي اعتدناه، في تلك الفترة، هو أن العاملين في الشركات الكبرى، يحاولون دوما وضع عقبات وعثرات في طريق أي متقدم جديد،

لشغل وظيفة شاغرة..

ربما لأنهم يخشون المنافسة، أو لأنهم يميلون إلى الاستئثار بكل الامتيازات، التي يمنحهم إياها العمل..

ولكن تلك الصديقة كانت تختلف..

فما أن اختبرتني، وأدركت أنني كفء للوظيفة، حتي آزرتني ووقفت إلى جواري، وكتبت بنفسها تقريرا رائعا، لتؤيد حصولي على الوظيفة، التي أحلم بها منذ فترة طويلة..

وحصلت بالفعل على الوظيفة..

وشعرت بامتنان شديد تجاهها، جعلني أرتبط بها لبعض الوقت، كما لو أنها شقيقة كبرى، وظلت هي تعاملني من هذا المنطلق..

وربما حتى أيام قليلة..

ودعوني أعترف هنا، أن تفوقي في وظيفتي الجديدة – واعتراف الكل بهذا - قد ولد في نفسي شعورا عجيبا، بدأ برغبة عارمة في التنافس معها، وإثبات أثني الأفضل، والأكثر براعة وذكاء..

ثم لم يلبث، مع استمرار نجاحها، وعلاقتها الحسنة بالجميع، أن تحول إلى غيرة غاضبة، وإحساس مرضي، بأنني أفضل منها بالفعل، ولكنهم لا يدركون..

ولأن مشاعري تجاهها قد اتخذت منحنى شديد الحساسية، أصبحت لا أحتمل أي نقد توجهه إلى، وأتصور دوما أنها تبادلني عداءً بعداء، على الرغم من أنها لم تُبدِ لمحة واحدة من هذا..

ولكن تبا لمشاعر الغضب، التي تدفعك دوما إلى إساءة تفسير كل موقف أو قول، يصدر عمن يغضبك..

فصديقتي، على الرغم من دماثة خلقها، شديدة الصرامة والحزم في العمل، وترفض الاستهتار والتهاون، أيا كانت أسبابهما، حتى إنها ذات يوم، فوجئت بأن المكتب قد تحول إلى نقطة لقاء، يجتمع فيها الكل، ليتسامروا ويتضاحكوا، دون الانتباه إلى ما يسببه هذا من خلل، في مسار العمل ككل..

لذا، وبكل صرامة، رفضت هي هذا، وطلبت من الكل إنهاء هذا العبث، ومنعتهم من الحضور إلى المكان، إلا بدواعي العمل..

وتصادف أن كنت مدعوة إلى ذلك الاجتماع، في نفس اليوم، الذي أصرت هي فيه على فضه، فتعاظم الأمر في نفسي.. وصوّر لى غضبي أن قرارها موجهة إلىّ شخصيا، وليس للمبدأ نفسه، فتضاعف غضبي منها وحنقي عليها ألف مرة..

وهكذا مضت الأيام والأحداث، وأنا أرصد كل حركة، وكل كلمة، وكل موقف، وأتعامل معها هي بالذات بحساسية فائقة، وروح عدوانية، ليس لها ما يبررها..

حتى جاءت الفرصة المناسبة، لتوجيه صفعة قاسية لها..

فلسبب ما، ثار خلاف عنيف، بينها وبين صاحب ومدير الشركة، وراح يتزايد بسرعة، لعنادها وعناده..

وهنا، تجمع كل الغضب والمقت في أعماقي، وأثمر عن نشرة صغيرة، طبعتها بنفسي، وعلقتها في لوحة الإعلانات بالشركة..

نشرة من ستة أسطر فحسب..

ستة أسطر، قلت فيها إنني ابنة الشركة البارة، وإنه لا كيان لى خارجها، وإنني لن أختلف معها أبدا، بعكس ما فعله الآخرون،

الجاحدون للجميل..

لم أكتب اسمها صراحة، إلا أن كل من قرأ المنشور، الذي حمل توقيعي، أدرك أنني أعنيها هي بالتحديد..

وكم كانت دهشتها عندئذ!

لقد بدت أشبه بالمصدومة، وهي تتساءل: لماذا فعلت هذا، على الرغم من أن الخلاف، بينها وبين المدير، لا يمسني شخصيا، بأي حال من الأحوال..

العديدون أيضا تساءلوا في حيرة عن الأمر نفسه، وآخرون رأوا أنني على حق، وانقسم موظفو الشركة، بين مؤيد لما فعلته، وغاضب منه..

وكان من الطبيعي أن يسألها البعض عن رأيها....

ولكنني كنت شديدة التحفز غضبي ومقتي أعمياني عن حقيقة واضحة، ألا وهي أنني أنا التي أطلقت الرصاصة الأولى..

ولكنني لم أكن أريد منها حتى حق الدفاع..

كل كلمة قالتها، ردا على رصاصتي الأولى، اعتبرتها أنا سبًا وقذفا في حقي، وفرصة لإشعال النيران أكثر، وأكثر.. وأكثر..

وأبدًا لم أحاول الاعتراف بأنني أشعلت معركة، وأن كل معركة تنطلق القذائف فيها في الاتجاهين، وليس في اتجاه الخصم فقط..

ومع مرور الوقت، راحت نقمتي تفصح عن نفسها أكثر، وتحول لوح إعلانات الشركة إلى ساحة قتال، اتهمتها فيها بانعدام المصداقية، وشككت في كل ما فعلته أو قالته، بل وحاولت أن

أظهرها أمام الآخرين بصورة حقيرة، لا تستحق سوى الازدراء والرفض..

وتماديت..

وتماديت..

وتماديت..

ثم قررت هي إنهاء معركتها معي، بأي ثمن كان..

وفي لوحة الإعلانات، ولأول مرة، كتبت هي مذكرة، تفسر فيها موقفها..

وأثارني هذا أكثر وأكثر، وعدت أهاجمها، قائلة: إن هجومها عليّ غير منطقي؛ لأن كل ما كتبته عنها كان ستة أسطر فحسب..

ولم تجب هي على قولي هذا.. وعن لسانها، وصلتني رسالة شفهية، تقول: إن العبرة ليست في عدد الأسطر أو كمياتها، فالسباب كلمة واحدة، ولكنها قد تؤذي مشاعر المرء بأكثر مما يفعل مقال كامل..

العبرة إذن بمن بدأ الحرب..

ولماذا؟!

كان هذا آخر ما وصلني منها، وآخر لقاء لي معها، قبل أن تنصلح الأحوال، بينها وبين المدير، ويعود كل شيء إلى مجراه..

وأعترف أن هذا قد أغضبني في البداية؛ لأنها ستستعيد مكانتها وستُفقدني المبرر القتالي الوحيد..

ثم إن ما يقلقني هو: كيف سألتقي بها بعد هذا؟!

كيف سنعمل في مكتب واحد، بعد أن أفصحت عن مقتي وكراهيتي وغضبي على هذا النحو؟!

إنها لن توجه إلى عتابا واحدا؛ لأنها لم تعتد أن تفعل، ولكنني واثقة من أن الصداقة لن تعود أبدا..

هذا لأن الصداقة ترتبط دوما بالاحترام..

وأظنني فقدت الاثنين في نظرها..

فماذا أفعل؟!

أخبروني بالله عليكم..

(تمت)

1919

91- قطرة حب..

(نادر) ما زال يحاول الاتصال...

يا للملل!

تصاعد ذلك الشعور بشدة، في أعماق (نرمين)، مع رنين هاتفها المحمول للمرة الثالثة، في نفس اليوم، وشاشته تحمل رقم هاتف (نادر)...

حبيبها السابق..

ذلك الحبيب، الذي كانت رنة هاتفه تدق في قلبها، وتتراقص معها خلاياها وعروقها في كل مرة تسمعها، والتي كانت تنتظرها بكل شوق ولهفة، منذ تفتح عينيها في الصباح، وحتى تغلقهما لتحلم به في المساء...

استعاد ذهنها تلك اللحظات القديمة، ففجرت في أعماقها حيرة عجيبة، لم تكف لتجيب اتصاله...

ولكنها عادت بذاكرتها إلى الوراء.. إلى أعوام قليلة مضت.. إلى ذلك اليوم، الذي التقت به فيه لأول مرة..

لا تستطيع أن تنكر، حتى في حالتها هذه، أنها قد انبهرت به منذ اللقاء الأول..

بل منذ اللحظة الأولى..

انبهرت بعقله، ورصانته، وحنانه..

وحتى بعيوبه..

وهي التي سعت لمعرفته..

وللاقتراب منه...

في البداية، كان شديد الحذر في ارتباطه بها..

ولكنها كانت تمثل أجمل ما حلم به، في أية امرأة في العالم..

جميلة..

ذكية..

محبة..

حنون ....

ومتفهمة..

ورويدا رويدا، وجد نفسه يفكر فيها وينتظر لقاءها بلهفة وشوق..

ومع حنانها ورقتها، وبساطتها المتناهية، سقط أخيرا في حبها، حتى النخاع...

ولقد شعرت هي بهذا..

شعرت بحبه، وإقباله، ولهفته..

وارتاح قلبها..

وفرح..

وانطلق..

كان كلاهما معطاء إلى حد انشغل فيه بإسعاد الآخر، وتقديم الأفضل له دوما..

وعاشت أسعد أيام حياتها..

وحياته..

كلاهما كانا وكأنهما يعيشان في شهر عسل دائم لا ينتهي أو تفتر حماسته أبدا..

وفي كل يوم، كان هو يغرق في حبها أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

وكان عطاؤه يتضاعف..

ويتضاعف..

ويتضاعف..

ولكن العجيب أنه لم يعد يسعدها..

فمع بداية علاقتهما.. كانت تشعر أنها تمنحه مثلما يمنحها، وتعطيه ربما أكثر مما يعطيها..

ولكن كفة ميزانه بدأت تثقل.

كان شديد السخاء والعطاء، حتى إنها لم تعد تستطيع منافسته..

أو حتى مواكبته..

وعلى الرغم من أنه لم يطالبها مرة واحدة برد ما يقدمه لها، إلا أنها بدأت تشعر بالتوتر، كما لو أنها مدينة، ولا تملك السداد...

كان المفترض أن يغمر حبها كل المشاعر الأخرى، فلا تشعر معه بتلك المنغصات..

إلا أن هذا لم يُحدث شيء ما في أعماقها، جعل توترها يغلب حبها، ويهزمه، ثم يسيطر عليه تماما..

وعندئذ، انقلبت مشاعرها بغتة..

لأول مرة، بدأت ترصد عيوبه ونواقصه، وتهمل مميزاته ومآثره..
بل، وربما راحت تضخّم عيوبه..
وتعظمها..
وتغضب منها...
ولأنها لم تعتد الشكوى، فقد راح الغضب يتراكم في أعماقها..
ويتراكم..
ويتراكم..
ومع تراكمه، كان من الطبيعي أن تتقلص مساحة الحب..
وتتناقص..
وتضمر..
المشكلة أن حبه هو كان يمر بالعكس تماما..
فلأنه لم يكن هناك ما ينازعه، نما الحب في أعماقه..
وتعاظم..
وتطور..
وأصبح حبا عظيما، تعجز عن وصفة الكلمات..
لم يعد يحبها فحسب، وإنما يعشقها، ولا يحيا أو يسعد إلا بوجودها في الحياة..
أما عطاؤه، فراح يتضاعف..
ويتضاعف..
ويتضاعف..

ولم يدرك أبدا أن هذا العطاء المتزايد، كان السبب الرئيسي في نفورها من حبه، ورغبتها في الابتعاد عنه..

وهكذا تحولا إلى نقيضين، يسيران في اتجاهين متضادين..

ولولا بقايا من صداقة، لانفصلت عنه منذ زمن طويل..

ولكنها حاولت البقاء والاستمرار..

والاحتمال..

إلا أن هذا كان يفوق طاقتها..

وكان من الطبيعي أن ينتبه هو إلى هذا..

انتبه إلى تباعدها، وتوترها، وعزوفها عن لقائه..

وارتبك..

الحب الكبير في أعماقه حاول التشبث بها، وروح العطاء التي خُلق بها، كانت تدفعه لمنحها حريتها.

وحاول أن يبلغها هذا...

وحاول..

وحاول..

وحاول..

ولكنها لم تعد تُجيب اتصالاته، أو تمنحه فرصة لتوضيح وجهة نظره، ورغبته في تحريرها..

وبكى قلبه بدموع من دم..

ثم قرر أن يوقف اتصالاته بها..

كان يؤمن تماما بالحكمة التي تقول: « لو أحببت شيئا امنحه حريته، فإما أن يعود إليك بإرادته، أو إنك لم تكن تملكه أبدا.. »

وذلك الاتصال، الذي أثار مللها، كان اتصاله الأخير..

ولكنها رفضت أن تجيب..

أو تستمع..

أو تفهم..

ولم يعد أمامه سوى أن ينسحب، في ألم ومرارة وحزن بلا حدود.. ولكنه لم يكرهها..

لم يكن من الممكن لكل الحب، الذي احتشد في كل ذرة من كيانه، أن يتحول ولو إلى لمحة واحدة من الكراهية..

ولم تدرك هي هذا..

فقط شعرت أنها قد تحررت منه، فانطلقت تحيا حياتها في لهفة، وكأنها تعوض ما ضاع منها في أيام حبه..

وكما يحدث دوما، كانت الانطلاقة في بدايتها جميلة..

ومنعشة..

وجذابة..

إلا أنه من الطبيعي ألا تدوم إلى الأبد..

فمع أول لحظة هدوء، وأول شخص بدا لها مناسبا، راح عقلها، دون وعي منها، يقارن..

يقارن عطاءه هو، بأنانية ذلك الشخص..

يقارن حنانه..

وحبه..

وإخلاصه..

وهنا فقط، انتبهت إلى ما أضاعته من يدها..

ومن حياتها..

هنا فقط تساءلت: لماذا نبذت حبه وعطاءه إلى هذا الحد؟!

لماذا؟!

لماذا؟!

إنه لم يعد يحاول الاتصال بها، إلا أن عطاءه لم يتوقف..

كان دائما هناك، وراء ستار ما..

مازال يمنحها رعايته..

وعنايته..

وحنانه..

ولكن ما يشغلها الآن هو: أما زال في قلبه متسع لها؟!

أما يفعله معها هو جزء من شهامته وكرم شخصيته فحسب؟!

أم إنه مازال يحمل لها شيئا ما؟!

وعلى الرغم من أنها لم تجرؤ على الاتصال به، ومحاولة إعادة المياه إلى مجاريها، إلا أنها تمنت لو يفعل هو هذا.

تمنت أن يتبقى لديه دافع واحد، لتجاوز كرامته وذاته، والقيام بالخطوة التي تتمناها..

دافع واحد، أو حتى قطرة.

قطرة حب..

واحدة.

(تمت)

1928

92- ندوة..

السيد /..... نتشرف بدعوة سيادتكم لحضور الندوة التي تقيمها.....

لم يصدق (وجدي) عينيه، وهو يطالع تلك الدعوة للمرة الثالثة، منذ وصلت إلى بريده هذا الصباح..

كانت أول مرة في حياته، يدعوه فيها أحدهم إلى ندوة ما، أية ندوة..

ولكن الاسم على المظروف صحيح، وكذلك العنوان.. لا يوجد خطأ إذن إنها دعوة موجهة إليه بالفعل..

ألقى نفسه على مقعد قريب، وراح يلهث فى انفعال، وذهنه يستعيد الموقف مرة ثانية، وثالثة، ورابعة.

منذ تخرج من كلية الآداب، وبدأ رحلة البحث عن لقمة العيش، وهو يحلم بأن يصبح كاتبا شهيرا مرموقا، وعلى الرغم من عشرات المقالات، التي أرسلها إلى كل صحف ومجلات (مصر)، ومئات القصص القصيرة، التي نسخ منها عدة نسخ، وأنفق نصف راتبه المحدود على إرسالها، إلا أنه لم يحظ سوى بنشر مقال واحد، في صفحة الرأي، في جريدة محدودة..

وعلى الرغم من هذا، فقد ابتاع عشر نسخ من تلك الجريدة، وأهداها إلى أمه وشقيقته، وجاره، وصديقه، وتمنى لو استطاع أن يهدي نسخة منها إلى كل زملاء العمل، إلا أنه اكتفى بأن ألصق الصفحة، التي نشر فيها اسمه على الجدار المجاور لمكتبة؛ ليطالعها كل من يأتي إليه..

ولفترة طويلة، كان يشعر بالفخر..

إلا أنه كان المقال الوحيد، ولم يحظ آخر بالفرصة نفسها قط، على الرغم من أن حماسه قد تضاعف، وأرسل بعدها ألف مقال، لكل الصحف والمجلات الأخرى..

ومع مرور الوقت، بدأ يشعر باليأس والإحباط، ويتخلى عن الفكرة كلها، ويغرق نفسه في عمله الروتيني البائس..

ثم فجأة، وصلته تلك الدعوة..

وأنعشت الأمل في صدره مرة أخرى..

إنها دعوة لحضور ندوة ثقافية، وهذا يعني أن المجتمع الثقافي قد اعترف به أخيرا..

شعر بنشوة عارمة مع الفكرة، وطالع الدعوة للمرة الأخيرة، وقرأ اسم الفندق المدون بها، ثم نهض يختار ثيابا ملائمة للندوة..

إنها ستقام في فندق من فندق خمسة النجوم، وهذا يعني أن عليه أن يرتدي أفضل ما لديه؛ لذا فقد أخرج حلة الأفراح والمناسبات الخاصة، وأرسلها إلى الكواء، وانتقى قميصا ناصع البياض، ورباط عنق زاهي الألوان، واقترض من زميله وصديق عمره ساعته الكبيرة الذهبية، وحلق ذقنه، وهذب شعره، واستخدم أفضل عطر لديه..

كانت الأيام الأخيرة من الشهر، ولم يتبق معه الكثير، إلا أنه لم يكن ليجازف بركوب حافلة عامة، حتى لا يتلف زيه، لذا فقد جازف وركب سيارة من سيارات الأجرة، تقاضى سائقها كل ما تبقى معه تقريبا؛ ليوصله أمام باب الفندق مباشرة..

ولكن مظاهر الاستقبال عوضته عن كل هذا..

كانت هناك فتاة جميلة، أعطته زهرة حمراء، لمجرد أنه يحمل دعوة رسمية، وقادته إلى صفوف متراصة من المقاعد، وأجلسته في منتصفها، ثم منحته ابتسامة عذبة، وغادرته لتستقبل الآخرين..

وعلى مقعده، جلس هو منتشيا (منتعظا)، يبحث عن أية إشارة إلى موضوع الندوة، وعيناه تفتشان عن أية وجوه شهيرة بين روادها، الذين راحوا يتوافدون واحدا بعد الآخر..

لم يكن هناك أي وجه مألوف بين الحضور، الذين تزايد عددهم، حتى بلغ المائتين تقريبا، مما بدأ يشعره بالتوتر والعصبية، خاصة وأن الوقت يمضي، دون أن تبدأ الندوة، ودون أن يعرف حتى ما هو موضوعها..

ثم وصلت كاميرات التليفزيون..

وعادت إليه النشوة..

المصورون انتشروا في القاعة، ووضعوا الكاميرات في عدة أماكن وتصور هو وجهه على شاشة التليفزيون، وانتشى أكثر وأكثر، وخاصة عندما ظهرت تلك المذيعة الشهيرة، ذات الوجه الجميل، وبدت عصبية أكثر مما ينبغي، وهو الذي اعتاد رؤيتها باسمة الثغر دوما على الشاشة..

وبسرعة، ظهر كاتب شهير، يعتبره مثله الأعلى، وهو في الوقت ذاته رئيس تحرير مجلة كبرى، أرسل إليها العديد من المقالات، التي لم تُنشر قط..

وتسارعت دقات قلبه، وهو يرى كاتبه المفضل عن قرب، وتمنى لو أمكنه أن يصافحه، أو يلتقط صورة إلى جواره..

وفور وصول الكاتب الشهير، بدأت الندوة، وأعلنت المذيعة الشهيرة، وقد استعادت ابتسامتها العذبة، وواجهت كاميرات التليفزيون..

عندئذ فقط علم هو موضوع الندوة..

وتبخرت نشوته....

وارتجف جسده بشدة..

فالندوة عن الكتاب الفاشلين، الذين يرسلون مقالاتهم إلى الصحف والمجلات، فلا تُنشر لضعف مستواها، أو ركاكة أسلوبها.. ولقد تمت دعوته، ليمثل هذه الفئة..

لهذا لم تبد الوجوه مألوفة..

فكل الحاضرين مثله..

فاشلون..

اتكمش في مقعده بشدة، وارتجفت كل خلية في جسده، وهو يحاول الاختباء من الكاميرات، التي تجوس خلال الوجوه طوال الوقت، والكاتب الكبير يتحدث..

ويتحدث..

ويتحدث..

ووسط حديث الكاتب الكبير، وعلى الرغم من عدسات التصوير، تسلل هو وسط المقاعد، حتى بلغ مدخل القاعة..

وخرج..

أول ما فعله، بعد أن غادر الندوة، هو أن حل رباط عنقه، وطواه بإهمال، ودسه في جيب سترته..

ثم ضحك..

ضحك من كل قلبه، وهو يسير على قدميه، ويداه في جيبي سراويله، متجها نحو موقف الحافلة العامة..

هذا كل ما تبقى له..

أن يعود..

وأن ينسى..

إلى الأبد.

(تمت)

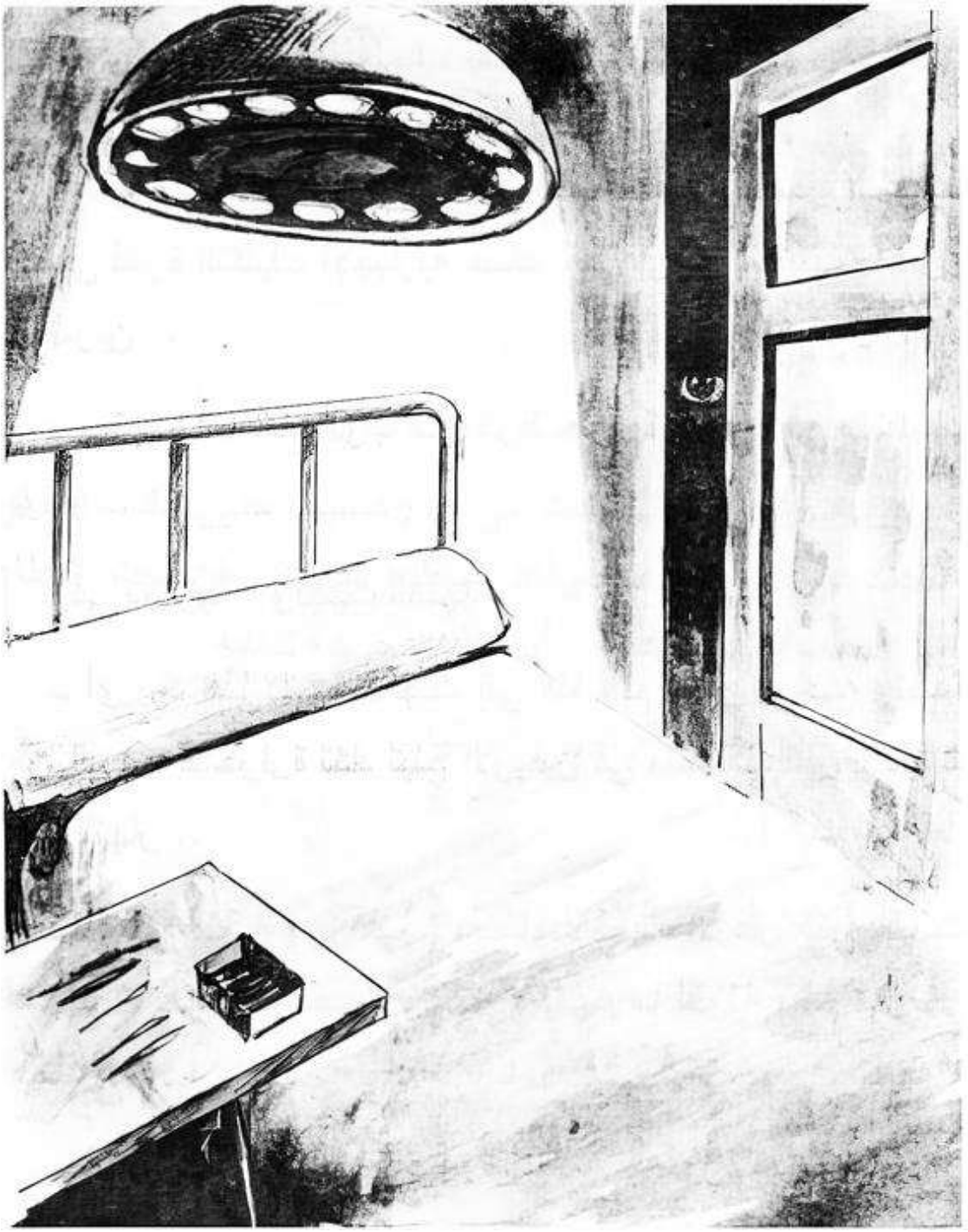

93- سعدية..

«حر الجبال ولا بردها..»

عبارة سمعتها لأول مرة، في قلب صعيد (مصر)، وأنا أقضي فترة التكليف الإجبارية هناك، في أوائل ثمانينيات القرن العشرين..

سمعتها وأنا أكاد أذوب من فرط حرارة الجو، في منتصف يوليو..

وفي سخرية، واجهت قائلها:

- أي برد هذا؟!.. منذ جئت إلى هنا، لم أشعر بلمحة واحدة من البرد، فالحرارة تكاد تبلغ الأربعين في منتصف الليل، ناهيك عن النهار..

تطلع إلى الشيخ (إبراهيم)، صاحب قطعة الأرض التي أقيمت عليها الوحدة الصحية، وكأنه لا يفهم ما أقوله، ثم قال في حماس:

- انتظر حتى يأتي الشتاء، وستنعكس الصورة تماما..

لم أستطع تصديق هذا أبدا، في مناخ تحديت أحد أصدقائي بشأنه يوما، فقمت بقلى بيضة طازجة، على سور الوحدة الصحية، بحرارة الشمس وحدها، في منتصف نهاره..

ثم جاء الشتاء..

ووجدت نفسي أرتجف..

وأرتجف..

وأرتجف..

درجات الحرارة انخفضت إلى حد رهيب، حتى كادت أناملي تتجمد في قلب الليل، ولم أعد أستطيع النهوض من تحت الغطاء إلا لأسباب بالغة الأهمية، أو لحالات حرجة للغاية..

وفي ذلك المناخ الرهيب، قابلتها

(سعدية)...

امرأة من فئة يقال لها (الحلبة)، تنتمي على الأرجح إلى قبائل الغجر، وتقوم مع قريناتها بخدمة أثرياء القرية، والقيام بأعمالهم الوضيعة، وعلى رأسها حلب الأبقار، في ساعات الفجر الأولى، وربما من هنا جاءت تسمية (الحلبة)..

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت منتصف الليل ببضع دقائق عندما سمعت دقات على باب سكنى الخاص، في الوحدة الصحية..

وعلى عكس ما اعتدته، كانت الدقات رقيقة هادئة، تحمل لمحة من خجل خاص، يمكنني إدراكه بحكم خبرتي..

وعلى الرغم من أنها كانت ليلة بالغة البرودة، لم أشعر بأدنى لمحة من البرد - على عكس المعتاد - وأنا أخرج من تحت الغطاء، وأقترب من الباب، متسائلا في همس، ربما ارتبط برقة الدقات:

- من بالباب؟

أتاني صوتها أشبه بغناء رخيم عذب، وهي تنطق اسمها:

- (سعدية)..

لم أكن قد سمعت الاسم من قبل قط، منذ بدأت العمل في الصعيد، ولكنني لم أكد أسمعها تنطقه بتلك الرقة، حتى انتابني

فضول شديد لرؤيتها، فأسرعت أفتح الباب، وأتطلع إليها في لهفة، تحت ضوء القمر..

ويا لجمال ما رأيت!!..

كانت فاتنة، بكل ما تحمله الكلمة من معان..

سمراء، رقيقة، هادئة الملامح، لها شفتان مكتنزتان، وعينان سوداوان واسعتان، تعلوهما رموش من أبدع ما رأيت، وترتدي ذلك الزى البدوي المزركش، الذي يميز فئة (الحلبة)..

لم أكن قد رأيتها من قبل قط، أو لمحت مثل هذا الجمال أو تصورت حتى إمكانية وجوده هناك؛ مما جعلني أحدق فيها بدهشة، أصابتها بخجل واضح، فخفضت عينيها، وهي تغمغم:

- عندى ألم في معدتي.

لم أدر ماذا فعلت بعدها بالتحديد، أو لست أذكر التفاصيل، إلا أنني حتما قمت بالكشف عليها، وشعرت بدفء جسدها الصغير، قبل أن أقول في اهتمام:

- هناك اشتباه في الإصابة بالتهاب الزائدة الدودية..

سألتني في رقة بالغة:

- وما هذه الزائدة؟!

أجبتها مبتسما:

- جزء من جسدنا، ما زال يصر على إيلامنا، في أوقات لا نتوقعها.

سألتني:

- وكيف نعالجه؟

التقطت ورقة من أوراق العيادة؛ لتحويلها إلى أحد المستشفيات في المدينة، وأنا أجيب:

- هذا يحتاج إلى عملية جراحية..

انتفض جسدها، وهي تقول في ارتياع:

- عملية جراحية؟!.. أتعني أنهم سيشقون بطني؟!

قلت، محاولا تهوين الأمر:

- إنه مجرد شق صغير، والعملية بسيطة، و.....

قاطعتني في صرامة:

- لا....

ونهضت ترتدي ملابسها في حزم، فقلت في قلق:

- ولكن العملية حتمية، و....

قاطعتني مرة أخرى، في صرامة أكثر:

- قلت: لا.

اقتربت منها، وقد هالني أن يتطور الأمر معها؛ لمجرد خوفها من إجراء جراحة بسيطة، وقلت:

- اسمعيني يا (سعدية).. حالتك شديدة، والعملية الجراحية ضرورية..

هزت رأسها في قوة، وقالت:

- نحن لا نجري أية عمليات جراحية..

- حتى البسيطة منها؟!

التفتت إلى بعينين مغرورقتين بالدموع، وهي تغمغم:

- أنت لا تدري ما ستفعله العملية الجراحية.

سألتها في خفوت:

- وماذا تتوقعين أن تفعله؟!

أجابتني، والدموع تنهمر من عينيها:

- ستقتلني.

هتفت مستنكرا:

- تقتلك؟!.. مستحيل يا (سعدية).. لم نسمع قط عن مريض قتلته عملية زائدة بسيطة..

تطلعت إلىّ، وقد غرقت عيناها الواسعتان في بحر من الدموع، وغمغمت قبل أن تعدو نحو باب الوحدة:

- ستسمع قريبا..

اختفت من أمامي، فهرعت خلفها، أهتف:

- (سعدية).. انتظري.. المفترض أن.....

في هذه المرة، كنت أنا من قاطعت نفسي، أو بمعنى أدق، بترت عبارتي، قبل أن تكتمل..

فقد اختفت (سعدية)..

اختفت بمعنى الكلمة..

لم أدر أين ذهبت بالضبط بهذه السرعة، فربما غابت وسط الأشجار المحيطة بالمكان، أو دارت حول الوحدة، أو تلاشى ثوبها الأسود وسط ظلام الليل..

المهم أنها قد اختفت..

ولما كان من العبث، والمستحيل أيضا، أن أعدو خلفها، دون أن أعلم أين ذهبت بالضبط، فلم أجد أمامي سوى الصعود إلى سكني..

والنوم..

والعجيب أنني نمت بعمق..

بعمق شديد للغاية..

نمت كما لم أنم منذ بدأت العمل هنا..

وفي اليوم التالى، بدأت إجازتي، فسافرت عائدا إلى بلدتي، وحاولت أن أنسى هناك كل شيء عن (سعدية)، وزائدتها الدودية..

وربما نسيت..

أو تناسيت..

المهم أنني قضيت إجازتي، وعدت بعدها إلى عملى في الصعيد، منتعشا، هادئا..

وما إن صدمنى تيار الهواء البارد، حتى استعدت كل شيء..

برد الجبال..

وكلامها..

وليلها الطويل..

و (سعدية)..

في أول ساعة لوصولي، أردت أن أسأل عن أحوالها، وعما أصاب زائدتها الدودية، ولكنني أحجمت عن هذا؛ لأنه من الخطر في ريف الصعيد، أن يسأل رجل عن امرأة..

أية امرأة..

وليومين أو ثلاثة، حاولت نسيانها، عبر الانهماك في العمل..

ولعلي أفلحت..

ولكن بعد منتصف ليل اليوم الرابع بدقائق قليلة، سمعت دقاتها الرقيقة، على باب سكني..

وبقفزة واحدة، أصبحت عند الباب وفتحته..

وكانت مفاجأة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن هناك أحد عند الباب..

فاجأني هذا ولا شك، فوقفت أحدق في الفراغ بمنتهى الدهشة، وأتساءل في حيرة، ترى هل سمعت دقاتها الرقيقة على الباب بالفعل، أم إنني تمنيت هذا فحسب؟!..

أمن الممكن أن أكون قد سمعت الدقات لرغبتي فيها؟!.

أمن المعقول هذا؟!..

مددت رأسي أتطلع يمينا ويسارا؛ بحثا عنها، ولكن المكان كان خاليا تماما، فعدت إلى فراشي، وأنا أهمس باسمها دون وعى، وما إن اندست تحت الغطاء، حتى سمعت دقاتها مرة أخرى..

وهذه المرة، سمعتها بمنتهى الوضوح.. وأخرى..

ووثبت نحو الباب..

وفتحته بحركة واحدة..

ورأيتها..

كانت تقف هناك، بسمارها، ورقتها، وعينيها الواسعتين..

وبكل رقتها، غمغمت:

- أشعر بألم في بطني.

قلت في حنان:

- كلانا يعلم ما يعنيه هذا..

تجاهلت قولي تماما، وهبطت إلى حيث حجرة الكشف الطبي..

وبلا وعي، وجدت نفسي أتابعها في انبهار، وهي تهبط على درجات السلم في رقة ونعومة، كما لو أنها ملاك جميل..

ولحقت بها إلى حجرة الكشف ودون أن أنتبه، أعدنا كل ما حدث في المرة السابقة..

وعندما نهضت، قلت في حزم:

- هذه المرة، أنا مصرّ على ذهابك إلى المستشفى.

سألتني في بساطة:

- ولماذا؟!

أجبتها بسرعة:

- تحتاجين إلى إجراء عملية جراحية..

قالت في حدة:

- لا.. نحن لا نجري عمليات جراحية.

قلت في ضيق:

- هل سنكرر الأمر؟!

اغرورقت عيناها بالدموع مرة أخرى، وغمغمت:

- إنك لا تعرف ما ستفعله بي العملية الجراحية.

قلت في حدة:

- لا داعي للكلام الفارغ.. هذا النوع من العمليات الجراحية البسيطة لا يمكن...

قاطعتني في استمرار، وكأنها لا تسمعني:

- ستقتلني.

رأيت عينيها الغارقتين في الدموع، فتجمدت الكلمات على شفتي، ولم أحاول قول أي شيء إضافي، في حين اندفعت هي نحو الباب..

واختفت..

تماما كما حدث في المرة السابقة، كما لو أننا نعيد المشهد السابق..

ولهذا لم يدهشني ألا أجدها في الخارج..

فقط عدت إلى فراشي..

ونمت..

وبمنتهى العمق..

كان توافقا مدهشا، لم أنتبه إليه، حتى في المرة الثانية..

فمنذ بدأت العمل في الصعيد، لم أقم بهذا العمق، إلا في الليالي التي تأتي فيها (سعدية)..

ولقد أتت سبع مرات متتالية..
وكل مرة، كانت الأمور تسير على النسق نفسه..
دقات رقيقة..
حوار..
قصير..
كشف طبي..
اقتراح بعملية جراحية..
رفض..
وهروب..
واختفاء..
كل مرة بنفس الترتيب..
ونفس الأحداث..
وربما نفس الحوار..
وبين كل مرة وأخرى، تختفي (سعدية) لأسبوع كامل..
على الأقل..
وفي كل مرة أشعر بقلق عارم عليها..
ولا أنام..
ثم تأتي....
وأراها..
وأنام بعمق..

بمنتهى منتهى العمق..

وبعد المرة السابعة، اختفت (سعدية) تماما..

مر أسبوع....

وثان..

وثالث..

ورابع..

ولم تظهر (سعدية) قط.

ولم يعد باستطاعتى الاحتمال، أو حتى مراعاة القواعد؛ لذا فقد استيقظت ذات صباح، وقد قررت أن أسأل عنها، مهما كان ما سيؤدي إليه هذا..

وفي لهفة هبطت إلى العيادة، وانتهزت أول فرصة، لأسأل عم (شعبان) تمرجي العيادة:

- هل تعرف حلبية اسمها سعدية؟!

بدت عليه علامات التفكير، قبل أن يجيب:

- الاسم شائع بينهم، أي (سعدية) منهن تقصد بالضبط؟!

أجبته في حذر:

- إنها امرأة شابة، في أواخر العشرينيات من العمر..

مط شفتيه، مغمغما:

- لا يمكنني تذكرها.. ولكن ربما تجيبك (فهيمة)..

و (فهيمة) هذه كانت خادمة الوحدة، تتواجد معظم الوقت..

وتقوم بكل العمل تقريبا..

ولكنها امرأة..

وستدرك حتما لهفتي..

وهذا خطير..

خطير للغاية..

لذا؛ كان لابد أن أضع خطة للسؤال عن (سعدية)..

في البداية، بدأت أسألها عن آخرين..

ثم أخريات..

طرحت عدة أسماء، زارت العيادة من قبل، ثم التقطت نفسا عميقة، وسألتها:

- و (سعدية).. كيف حالها؟!

التفتت إلى في دهشة، متسائلة:

- أي (سعدية)؟!

أشحت بوجهي؛ حتى تعجز عن قراءة انفعالاتي وأنا أجيب بصوت، خرج على الرغم مني مختنقا:

- (سعدية) الحلبية..

لم أسمع جوابها لدقيقة كاملة، فالتفت إليها لأجدها تحدق فيّ بمنتهى الدهشة، على نحو جعلني أسألها:

- ألا تعرفينها؟!

وهنا نفضت رأسها، قائلة:

- بل أعرفها، ولكنني أتساءل: كيف عرفتها أنت؟

قلت في توتر:

- أعرف أنها تعاني من التهاب في الزائدة الدودية..

- وهذا أيضا تعرفه؟!..

حاولت أن أتظاهر باللامبالاة، وأنا أقول:

- أي طبيب بسيط يمكنه معرفة هذا..

سألتني في دهشة:

- وهل عرفته من الطبيب السابق؟!

أغضبتني عبارتها، ولكنني تجاهلتها تماما، وأنا أسألها:

- المهم.. كيف حالها الآن؟!

تطلعت إلى لحظات في شيء من الاستنكار، قبل أن تقول:

- لقد أجرت عملية الزائدة الدودية.

هتفت:

- حقًا؟!

أكملت في حزم:

- وماتت.

وصعقني الجواب..

إلى أقصى حد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أستطع تصديق ما سمعته..

(سعدية) ماتت؟!..

وفي عملية إزالة زائدة دودية ملتهبة؟!..

أمعقول هذا؟!..

(سعدية) بكل جمالها ورقتها تموت؟!..

وبهذه البساطة؟!..

لا يمكنني أن أصف كيف هالني الأمر وأفزعني، ولا كيف شعرت بالحزن والمرارة...

(سعدية) الجميلة ماتت؛ لأنها أطاعتني..

لأنها فعلت ما نصحتها به..

وأجرت العملية الجراحية..

الخبر صدمني، ورجني من الأعماق، ومزق نياط قلبي تمزيقا بلا رحمة، حتى إنني لم أبال بنظرة (فهيمة) المستنكرة المندهشة..

ولا حتى بسؤالها:

- لماذا تأثرت إلى هذا الحد؟!

أجبتها في مرارة وأسى:

- ومن ذا الذي يتجاهل موت فاتنة مثلها؟!

هتفت بدهشة أكثر:

- فاتنة؟!

ثم نهضت، متسائلة:

- وكيف عرفت هذا؟!

أجبتها في حدة:

- لماذا يدهشك هذا؟!.. إنني أعرف (سعدية) جيدا؛ لأنني وقعت الكشف الطبي عليها..

هتفت بصوت مرتفع:

- كشف طبي!

وارتجف صوتها في شدة، وهي تضيف:

- هذا مستحيل!.. مستحيل تماما!

صحت بها في غضب:

- ولماذا مستحيل؟!.. ألست طبيبا؟!

أجابتني في توتر بالغ:

- بالتأكيد، ولكنك لم تكن هنا، عندما ماتت (سعدية) في العملية..

سألتها مندهشا:

- ماذا تعنين؟!

أجابت ذاهلة:

- (سعدية) ماتت منذ خمس سنوات.

صدمني الجواب بشدة، وهتفت بها:

- أي قول مختلّ هذا؟!.. (سعدية) التي أتحدث عنها كانت هنا منذ شهر ونصف الشهر فحسب.

هتفت:

- مستحيل!

قلت في إصرار:

- لقد فحصتها بنفسي..

بدت حائرة مرتبكة، وخائفة بعض الشيء، قبل أن تقول في عصبية:

- إذن، فنحن نتحدث عن (سعدية) مختلفة.

قالتها، واندفعت مغادرة السكن، وكأنها ترفض الحديث عن ذلك الأمر..

وبقيت وحدي أرتجف، من فرط الانفعال..

مستحيل!..

ما تقوله مستحيل!..

لا يمكن أن تكون (سعدية) التي ماتت، هي (سعدية) التي أعرفها، والتي فحصتها بنفسي..

لقد لمستها، وشعرت بجسدها ودفئها..

أويت إلى فراشي مضطربًا، وأنا أفكر فيما سمعته من (فهيمة)، وأحاول منطقته، و...

وفجأة، سمعت دقاتها..

لوهلة، خليل إلى أنه جزء من حلم ما، فأرهفت سمعي، لأسمع الدقات مرة ثانية..

نفس الدقات الهادئة، الرقيقة، الخجلى.

من المستحيل أن تكون هي...

من المستحيل تماما!..

وكالصاروخ، وثبت نحو الباب.. وفتحته..

وكانت هناك..

(سعدية)، بشحمها ولحمها، وسمرتها، وجمالها، وعينيها الواسعتين السوداوين.

وقبل أن أنبس ببنت شفة، همست:

- أشعر بألم في معدتي..

ثم وجدتنا هناك..

في حجرة الكشف الطبى..

وجدت نفسي أفحصها، وأتحسس موضع زائدتها الدودية في حرص أكثر، واهتمام أكبر..

وشعرت بلمستها..

وجسدها..

ودفئها..

إنها حقيقة..

حتما حقيقة..

ومرة أخرى، اقترحت عليها أن تجرى عملية الزائدة الدودية..

ومرة أخرى رفضت في إصرار..

وجرت..

واختفت..

السيناريو نفسه، كما يحدث في كل مرة...

وهنا أيضا عدت إلى فراشي..

ونمت بمنتهى العمق..

واستيقظت في الصباح الباكر جدا، في حالة من النشاط والحيوية، لم أعهد نفسي عليها من قبل، حتى إنني هبطت إلى عيادة الكشف الطبي، قبل أن يصل أي من العاملين فيها، وقبل أن ينصرف عم (حارس) الخفير الليلي رأيته يلملم أشياءه، وأنا أهبط على درجات السلم، فألقيت عليه التحية، وسألته:

كيف حالك يا عم (حارس)؟؟

أجابني في حماس:

- في خير حال يا دكتور.. نوم العافية.. أرى أنك نمت بعمق الليلة..

سألته مبتسما:

- كيف عرفت؟!

أجابني في سرعة:

- لم أر ضوء حجرتك قط طوال الليل.

توقفت؛ لأسأله في دهشة:

- أأنت هنا طوال الليل؟!

أجابني في حماس:

- بالطبع..

ملت نحوه، وضحكت، قائلا:

- يا لك من كاذب كبير!!.. كيف تدعي أنك هنا، ولم أرك قط؟!

أجابني في تلقائية صادقة:

- لأنك لم تستيقظ، منذ أويت إلى فراشك..

قرصت أذنه، قائلا:

- خطا أيها العجوز.. لقد هبطت لتوقيع الكشف الطبي على (سعدية) الحلبية، و...

قاطعتني نظرة الدهشة المستنكرة في عينيه، فتوقفت لأسأله:

- ألا تصدقني؟!

أجابني في سرعة:

- لا يمكنني تكذيبك يا دكتور، ولكنني أجهل معنى ما تقول..

فأنا لم أفارق مكاني بالفعل، طوال ليلة أمس، ولم أشاهد حلبية أو مغربية.. بل ولم أشاهدك تهبط إلى حجرة الكشف قط..

هتفت:

- عم (حارس)!

أجابني في حزم:

- صدقني يا دكتور.. هذا لم يحدث أبدا..

ملت نحوه في غضب، قائلا:

- وماذا لو أيدت (سعدية) قولى؟!

نظر إلى عيني مباشرة، وهو يقول:

- مستحيل يا دكتور!.. إنه مجرد حلم.. أو كابوس..

توقفت مغمغما:

- كابوس!!..

أجابني في حزم:

- نعم.. وخصوصا أنك رأيت فيه عفريت (سعدية).

هتفت:

- عفريت من؟!

أجابني بمنتهى الحزم

- عفريت (سعدية) الحلبية، التي ماتت في عملية زائدة دودية منذ خمس سنوات، وترفض مغادرة الوحدة الصحية، منذ ذلك الحين.. لست أول طبيب يراها..

وكانت هذه مفاجأة جديدة..

مذهلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل يمكنك أن تصدق أمرا كهذا، لو مررت به؟!..

مستحيل!

هذا بالضبط ما حدث معي...

صحيح لم أصدق ما قاله (حارس) قط..

أن الأمور كانت تتفق مع ما قاله، خاصة وأن (سعدية) تؤدي دورها نفسه في كل مرة..

ولكنها تختفي في النهاية..

كل مرة تختفي، بعد أن نصل إلى عبارة واحدة..

أن العملية ستقتلها..

لقد قضيت ذلك اليوم كله، وأنا أفكر فيما قاله عم (حارس)، حتى إنني لم أستطع القيام بواجبي اليومي، فصرفت كل الحالات غير العاجلة، وأحلت العاجلة إلى أقرب وحدة صحية، وأويت إلى فراشي مبكرا..

وتحت الغطاء والدفء، رحت أستعيد كل ما حدث..

أمن الممكن فعلا أن تكون (سعدية) مجرد شبح؟!..

شبح بكل هذا الجمال؟!..

إنني أسمع دقاتها الرقيقة على بابي، وصوتها الهادئ العذب وهي تصف حالتها..

ثم إنني فحصتها بنفسي..

لمستها...

شعرت بجسدها..

بدفئها..

وهذا لا يمكن أن يحدث مع شبح..

الأشباح لا ملمس لها..

لا يمكنني أن أتحسسها..

لا يمكن أن تكون دافئة..

ثم بدأ عقلى يستوعب الأمر، من زاوية مختلفة..

لماذا تصورت أنني قد فحصتها بالفعل؟!..

لماذا تصورت أنني قد فحصتها بالفعل؟!

لماذا لا يكون هذا مجرد حلم..

عم (حارس) يؤكد أنني لم أهبط إلى حجرة الكشف أمس..

ولم تكن (سعدية) هناك..

ربما كان هذا مجرد حلم إذن..

حلم واضح قوي، أحياه بكل مشاعري، حتى يخيل إلى أنه حقيقة واقعة..

لقد قرأت شيئا كهذا..

لماذا لا يكون هذا مجرد حلم..

قرأت عن أحلام تبدو أشبه بالواقع..

أحلام يشعر خلالها المرء، كما لو أنه يخوض تجربة حقيقية..

ربما كان هذا مجرد حلم..

ولكن لماذا ظهرت فيه (سعدية)؟!..

كيف علمت بوجودها؟!..

أو بحالتها؟!..

هذا لغز آخر..

لغز كبير..

ولكن النوم العميق للغاية، الذي يترادف مع الأمر في كل مرة، يرجح فكرة الحلم..

ويا له من حلم!..

حاولت أن أستعيد التفاصيل، ففوجئت بأن هناك دوما فجوات، أعجز عن تذكرها....

لحظات ضائعة، في كل مرة..

فهي تظهر عند الباب..

ثم تصبح داخل حجرة الكشف الطبي..

وهذا لا يتفق مع الواقع..

بل مع الحلم..

في عالم الأحلام فقط، لا تكون هناك أهمية لترتيب الأحداث، أو حتى لمنطقها.

نعم.. على الرغم من غرابته، فهو حلم..

حلم زارني فيه شبح (سعدية)..

الفكرة كانت مفزعة، إلا أنها دفعتني إلى النوم..

النوم العميق..

النوم، الذي استيقظت منه على صوت دقاتها الرقيقة..

وفي لحظة كنت أقف أمامها، وهي تقول عبارتها التقليدية:

- أشعر بألم في معدتي..

وفي اللحظة التالية، كنا في حجرة الكشف الطبي..

والعجيب أنني لم أكن أشعر بالخوف..

ولا بأدني ذرة منه..

كنت فقط أشعر بقلبي يهفو إليها..

ومرة أخرى، فحصتها، وشعرت بملمسها، وجسدها، ودفنها..

وكما يحدث دوما، تطلعت إليها، وكدت أخبرها أنها بحاجة إلى عملية جراحية..

ولكن فجأة، قفزت فكرة أخرى إلى رأسي..

ولوقت طويل نسبيا، تطلقت إلى (سعدية) في صمت، حتى سألتني هي بصوتها الرقيق:

- ألن تخبرني ماذا ينبغي أن أفعل؟!

قلت في خفوت:

- سنحاول معالجة الالتهاب..

حمل صوتها لهفة كبيرة، وهي تسألني:

- ألن يحتاج الأمر إلى عملية جراحية؟!

كنت أعلم أنها بحاجة إلى هذا، وعلى الرغم من ذلك، فقد أجيتها بنفس الخفوت:

- كلا.. سنستخدم علاجا طبيا فقط.

رأيت عينيها تتألقان، وهي تقول في شيء من السعادة:

- حقا؟!

قلت في هدوء عجيب:

- نعم يا (سعدية).. لا عمليات جراحية.

سمعتها تتنهد في ارتياح غامر، قبل أن تقول:

- لا يمكنك أن تتصور كم أرحتني..

غمغمت:

- تصورتُ هذا.

دارت حول نفسها كراقصة باليه رقيقة، وهي تقول في سعادة جمة:

- منذ خمس سنوات أشتاق إلى سماع هذا!

غمغمت:

- هذا ما يبدو..

دارت حول نفسها دورة أخيرة، ثم وقفت في وسط حجرة الكشف الطبي، وتطلعت إلى في امتنان شديد، وهي تقول:

- كيف يمكنني أن أشكرك؟!

غمغمت، وأنا أشعر بنعاس شديد، يسيطر على حياتي كله:

- إبقى هنا.

هزت رأسها في رقة، وقالت:

- لم يعد باستطاعتي هذا.

ثم مالت نحوي، حتى شعرت بأنفاسها العطرة، وهي تضيف:

- لقد حررتني.

العبارة عنت الكثير..

والكثير جدا..

وتضاعف شعوري بالنعاس..

تضاعف ألف مرة، وأنا أتابعها بعينين متثاقلتين، وهي تتجه كفراشة رقيقة نحو الباب، قائلة:

- ولن يمكنك أن تتصور كم أرحتني.

وخرجت من الباب...

وذابت وسط الظلام، و.....

واستيقظت في الصباح التالي، بعد نوم عميق..

عميق للغاية..

وكانت آخر مرة تظهر فيها (سعدية)..

وآخر مرة أراها فيها..

ولسنوات طويلة، حاولت كتمان هذه القصة بكل أحداثها في أعمق أعماقي

ولسبب ما، رأيت أن الوقت قد حان لأرويها..

ربما لأن الوقت قد حان لروايتها فحسب..

أو بسبب حلم..

حلم راودني، ورأيت فيه وجهها الأسمر..

وعينيها السوداوين الواسعتين..

عيني الحلبية..

(سعدية).

(تمت)

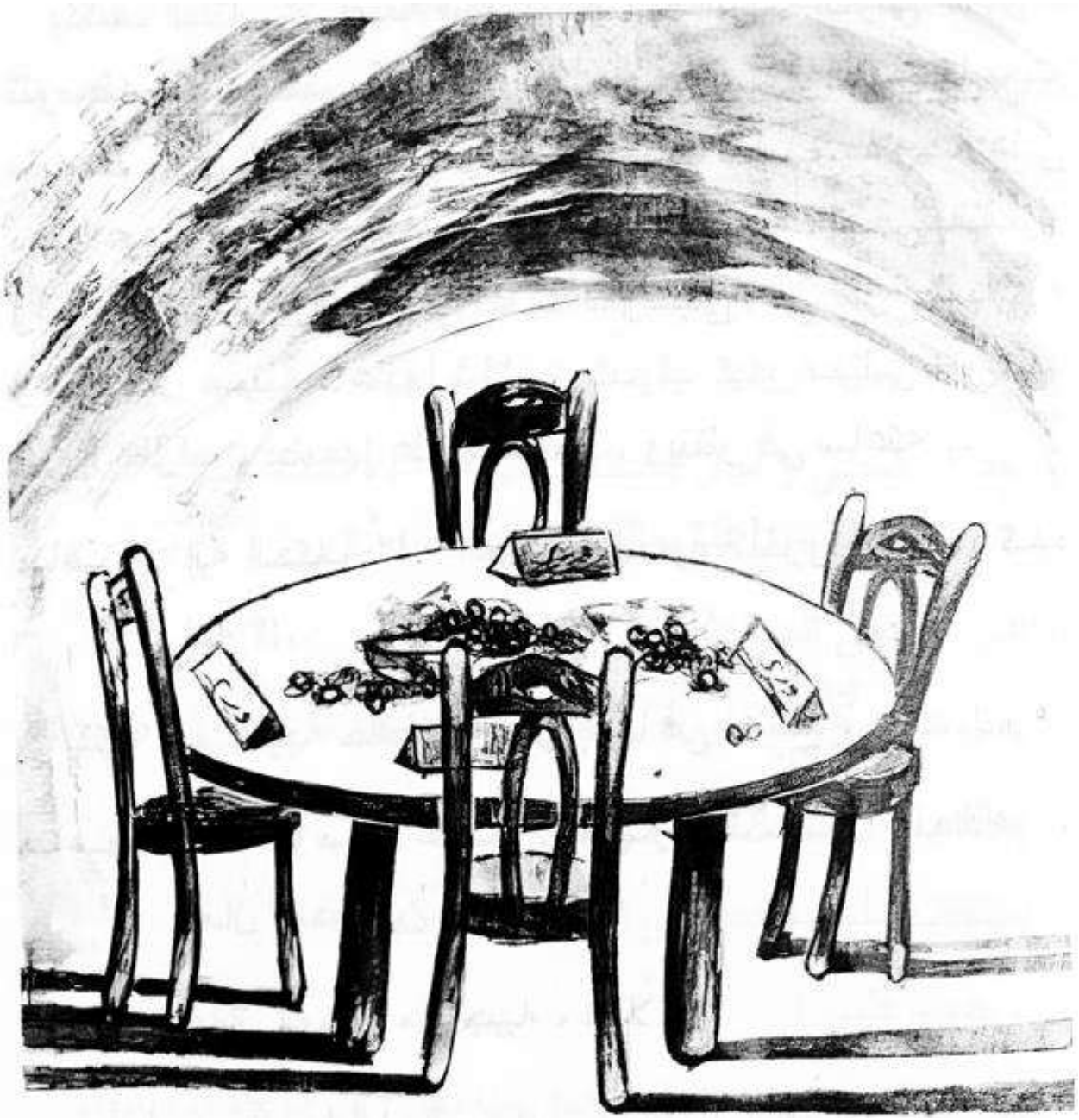

1961

94- جمعية الحرنكش.. (مسرح الشباب)..

الفصل الأول

المشهد الأول

يكشف الستار عن صالة منزل بسيط، به أنتريه منزلي عادي، تتوسطه منضدة خشبية، وفي الركن بوفيه، فوقه جهاز كاسيت متوسط، وهناك نافذة في مواجهة المشاهد تماما، مفتوحة على مصراعيها، والمسرح كله مضاء بأضواء مبهجة، توحي بالتفاؤل والمرح، وماهر يرقص على نغمات الموسيقى، في مرح شبابي وهو يحمل صينية، عليها شفشق شراب كبير ممتلئ، وعدد من الأكواب، يضعها على المنضدة، وينظر في ساعته..

ماهر:

إيه الحكاية؟!.. أعضاء الجمعية اتأخروا النهاردة كده ليه؟!..

يتجه نحو نتيجة حائط، وينظر إليها في اهتمام..

ماهر: لأ.. أنا مش غلطان.. النهارده الخميس.. معادهم.. أمال راحو فين.

يخرج جهاز موبايل من جيبه، قائلا:

- أديلهم رنة.. إيه ده؟.. وكمان ماعنديش رصيد.. أبقى افتكر بقى أشتري كارت أول الشهر.. ده لو فيه فلوس.

نسمع ضجيجا وضحكا شبابيًا، من خارج المسرح، قبل أن يرن جرس الباب، فيسرع ليفتحه، ويهتف:

ماهر: انتو فين يا غجر.. اتأخرتم ليه؟!

صلاح: الحرنكش.. كله م الحرنكش يا عم ماهر.

ماهر في جزع: اوعى تقوللي ماجبتوش يا سي صلاح.

سعد: ودي تيجي.. ده حتى القعدة من غيره ماتجوزش.

ماهر: أمال هو فين يا سعد.

سعد: فتحي وعمر طالعين بيه.. ده أحنا دخنا السبع دوخات، على مالقيناهولك.

ماهر: حتى الحرنكش؟!

يصل فتحي وعمر، والأول يحمل كيسا ورقيا، ويقول في ضجر:

- الحرنكش وصل.

يختطف ماهر الكيس في لهفة، قائلا:

- حبيب قلبي!

عمر: للدرجة دى؟! طب احمد ربنا بقى، إن أنا وفتحى لقيناه..

ماهر: وأكتر من كده كمان.. وهو جمعية الحرنكش ينفع تجتمع، من غير الحرنكش ياغجر؟!

يهتفون معا الجميع: حرنكش.. حرنكش.. إلى الأبد!

ماهر: وطي صوتك يا جدع منك له.. الجيران اشتكوا م الدوشة اللى بتعملوها.

صلاح: الله.. انت حتكتم نفسنا ولا إيه؟!.. يا عم ده يوم واحد في الأسبوع اللى بنجتمع فيه.. خلينا براحتنا بقى يا جدع..

ماهر: طب والجيران؟!

سعد: إنتو اللي بيتكم حيطانه ورق.. المرة اللى فاتت كنا سامعين جارتكم وهي بتحمى ابنها، وقاعدة تقوله: بس يامجرم.. اهمد شوية.. غرقتني..

ينظر إليه ماهر في دهشة:

ماهر: بس جارتنا مش مخلفة!

فتحي: آآه.. يبقى كانت بتكلم جوزها...

ماهر: جوزها مخبر في الداخلية، وكان نبطشى الخميس اللي فات.

عمر: يبقى بقى....

يقاطعه صلاح: ربنا أمر بالستر.

سعد: خلينا في الحرنكش.

يفرغ الكيس على المنضدة، ويبدعون في الأكل في نهم..

عمر: املوا بطنكم كويس.. الإسبوع الجاي مافيش حرنكش

ماهر (في فزع): ليه بقى؟!

فتحي: عشان خلاص.. بح.. الميزانية خرمت.

ماهر: مش حتكفي حتى الحرنكش؟!

صلاح: وانت فاكره رخيص.. ماعدش فيه حاجة رخيصة في الزمن ده.

عمر: لأ.. فيه.

سعد: إيه بقى؟!

عمر: إحنا.

ماهر: والله عندك حق.. أينا أهو.. خمس شباب زي الورد، اتخرجنا بشهادات عليا، ومش لاقيين وظيفة تلمنا.

فتحي: ماهو من خيبتنا.

صلاح: لأ، وانت الصادق.. من غلبنا.. لا ابونا وزير، ولا حتى غفير.. كلنا أهلنا على قد حالهم، ولحافهم ما بيكفيش حتى يغطى رجليهم..

سعد: طب وإنت مالك ومالنا بقى.. إنت مش اشتغلت النهارده؟!

ماهر: الله.. إنت اشتغلت يا صايع؟!.. وماتقوليناش.

صلاح: كلهم عارفين، ماعدا انت.

ماهر: واشمعنى أنا.

عمر: عشان قال لنا في السكة، وإحنا جايين عليك يا فالح.

المهم واحد مننا اشتغل أخيرا.. والله بشرة خير يا ولاد.. إلهي يارب نشتغل كلنا، ونفض جمعية البطالة دي بقي!

صلاح: يعني...

ماهر: شكلك كده مش مبسوط م الشغلانة الجديدة.

صلاح: أصلها مش مناسبة لدراستي.

عمر: ودراسة التاريخ دي حتشغلك إيه بقى، إن شاء الله؟!

سعد: أنا أخويا خريج علوم قسم جولوجيا، واشتغل موظف حسابات.

ماهر: وانت اشتغلت إيه يا صلاح؟

صلاح: هوم دليفرى.

يصمتون جميعا لحظات مصدومين.

سعد: أهي حاجة تاريخية برضه.

فتحي: المهم تطلع منها بقرشين كل شهر والسلام.. أنا مستعد أشتغل في الفاعل، بس أبطل آخد مصروف من أبويا.. ده كل يوم يسمعني كلمتين يسموا بدني.

عمر: أمال انا اعمل إيه؟!.. أبو خطيبتي إداني إنذار أخير.. يا أشتغل وأقدر افتح بيت، خلال ست شهور، يا حيرجع لى الدبل.

صلاح: أنا مريت بالموقف ده قبلك، بس كان حظي أحسن منك شوية.

عمر: إزاي؟

صلاح: لما خطبت، رحنا أنا وهي نشوف شقة.. المقاول الله يكرمه، شال عني الهم كله..

سعد: إداك شقة؟

صلاح: لأ.. اتجوزها هو!

فتحي: أنا عشان كده شايل موضوع الجواز ده من مخي خالص.. لما اخلص الماجستير، أبقى افكر فيه.

ماهر: ماجستير إيه يابني بس.. البلد دي مش بتاعة شهادات صحيح.. إنت صدقت دسوقي افندي وللا إيه؟!

صلاح: ثم إن فيه واحد حكيم قال: وراء كل عظيم امرأة.

عمر: وفيه واحد قال وراء كل امرأة عظيمة رجل.

سعد: ده واحد حكيم برضه؟

عمر: لأ.. واحد كمسري

فتحي: أديني باضيع فيه وقت، لحد ما الاقي شغل.

نسمع فجأة ضحكة (سنية) جارتهم، عابثة مرتفعة..

ماهر: دي سنية، مرات جارنا متولي المخبر.

عمر: هو جوزها نبطشى النهارده كمان؟!

ماهر: لأ.. هنا.

سعد: يا بخته.

صلاح: وانت مش ناوى تخطب بقى يا ماهر؟

ماهر: منين يا حسرة!

عمر: على الأقل عندك شقة.

ماهر: دي شقة أوضة وصالة، كنت عايش فيها مع أبويا وأمي - الله يرحمهم - بالتيلة.

فتحي: أنا لو منك، كنت بعت التيلة كمان.

سعد: طب ماتتجوز فيها، لحد ما تلاقي شقة أوسع.

ماهر: ومين حترضى؟!.. ولو لقيت اللي ترضي تسكن في حق، حاجيب مصاريف الجواز منين؟!

عمر: بالذمة دى دولة دي، اللى الشباب فيها يبقى طاقة معطلة ومكبوتة كده؟!

صلاح: ما هو كل ما نتكلم، يقولولنا زيادة السكان.. نتكتم.

سعد: ما لها زيادة السكان؟!.. ما الصين قدنا عشر مرات، ورغم كده بتستفيد من كل مخلوق.

ماهر: العيب في النظام يا باشا.

فتحي: تعرفوا أنا لو مسكت البلد دي كنت أخليها دولة عظمى.

سعد (ضاحكا): تصور بقى، لو تبقى الدولة كلها جمعية حرنكش؟!

عمر: وليه لأ؟!.. وكل واحد مننا يمسك له وزارة، بدل ما إحنا قاعدين عاطلين كده!

صلاح: وزارة مرة واحدة؟!

عمر: وفيها إيه؟! ماهو كل واحد بيبقى وزير.. افترض يا أخي إن جمعيتنا بقت الحزب، والوزرا لازم يطلعوا منها!

ماهر: ساعتها أمسك أنا وزير التموين، وأغرق البلد حرنكش!

فتحى: وأنا أمسك وزير داخلية!

سعد: إشمعني؟!

فتحي: عشان هو اللي طايح في البلد.. لا حد بيسأله بيعمل إيه، ولا ليه.

عمر: وانت بقى عايز تطيح؟!

فتحي: اسكت يا مواطن، لأعتقلك!

ماهر: من أولها كده؟!

عمر: وليه انا ابقى مواطن.. أنا راخر حأبقى وزير!

سعد: وزير إيه بقي إن شاء الله؟!

عمر: وزير المسخرة!

يضحكون..

ماهر: هو فيه وزارة للمسخرة؟!

عمر: أكيد.. افتح التليفزيون وأنت تعرف.

صلاح: وله انت وهو.. هات ورقة وقلم..

ماهر: إشمعنى؟

صلاح: حنقسم الوزارة!

يحضر ماهر ورقة وقلما، ويقول في حماس:

- يبقى انت بقى تمسك وزير تخطيط، وعمنا سعد، يبقى وزير أوقاف!

فتحى: يعني مالقيتش غير الأوقاف؟!

ماهر: أعمل له إيه؟!.. ما هو الوحيد اللي مربي دقنه فينا..

يمسك صلاح الورقة والقلم، ويبدأ ماهر في صب المشروب من الشفشق في الأكواب، وصلاح يكتب، قائلا:

- الاجتماع الأول لجمعية الحرنكش.

وهنا تنطلق ضحكة رقيعة أخرى، حاملة صوت سنية، فيقول ماهر لعمر في حزم:

- شوف شغلك يا وزير

ســـتار

المشهد الثاني

يكشف الستار عن منزل شعبي، والصالة بها طاقم كنب عربي، وكلها ملاصقة للجدار، ونافذة نصف مغلقة في المواجهة، يجلس إلى جوارها متولى المخبر، وهو يصغي في انتباه، ويدون أشياء في ورقة كبيرة، وإلى جواره جريدة مبسوطة، ونسمع صوت زوجته سنية، من خارج الكادر:

سنية: سي متولي.. يا سي متولي!

يشير هو بيده، وكأنه يدعوها إلى الصمت، دون أن يلتفت، فتدخل هي المسرح، في قميص نوم شعبي..

سنية: إيه يا سي متولي.. مش حتيجي تشوف شغلك؟!.

متولى: ما أنا باشوف شغلي أهو يا ولية.

سنية: الشغل جوه، مش هنا يا سبع البرومبة.

متولي: اسكتي يا سنية.. خليني أعرف اسمع كويس.

سنية: هو الشاب اللي جنبنا مشغل مزيكة وللا إيه؟

متولي: مزيكة إيه؟.. دول بيتكلموا عن وزارة، وتغيير.. كلام كبير.. كبير قوي يا ولية..

سنية في دلال: طب مش تيجي تشوف شغلك الأول، وبعدين تشوف الكلام الكبير ده.

متولي: هو فيه شغل أهم من كده يا ولية؟!

سنية: نعم.. نعم.. لأ ياسي متولي، لو الموضوع كده يبقى تروح نبطشيتك بقى.. وأنا حاتصرف..

متولي: قوليلي يا سنية.. مين بييجي عند الجدع جارنا

سنية: أهو شوية شبان من سنة كده؟

متولي: شبان شكلهم إيه كده؟

سنية في حذر: زي أي شبان.

متولى: أيوه.. شكلهم إيه يعني؟!.. قصيرين؟!.. طوال؟!.. بدقن؟!.. من غير دقن؟!

سنية: فيه واحد منهم بدقن.

متولي (يقفز من مكانه في حماس): أنا كنت متوقع كده.. تنظيم.. تنظيم محظور يا سنية!..

سنية (في حيرة): طب ويتحظر ليه؟!.. تحت أي كوبرى، ويصرف نفسه!

متولي: محظور يعني ممنوع يا ولية.. مش قانوني.

سنية: ولا فاهمة حاجة.

متولي: مش مهم يا ولية.. مش مهم.. قوليلي.. بيجيبوا حاجة معاهم؟!

سنية (تفكر بضع لحظات في اهتمام): هما كل مرة، بيبقوا شايلين كيس ورق، ومحرصين عليه قوي.

متولى (يقفز مرة أخرى في حماس): ذخيرة.. أسلحة وذخيرة.. مش بأقولك موضوع كبير يا سنية؟!

سنية: وده حلو وللا وحش؟!

متولي: ماشوفتيش معاهم ورق كده؟

سنية: مجلات يعني؟! أيوه شفت.. مرة واحد منهم كان شايل ظرف كبير..

متولى (يتحرك في المكان في حماس متزايد)... وكمان منشورات.. الله الله.. الموضوع كبر قوي!

سنية: وده برضه كويس وللا وحش؟

متولي: دي فيها مكافأة يا سنية..

سنية: ربنا يكافاك.

متولى: وترقية..

سنية: ربنا يرقيك.

متولي: وشريطة.

سنية: ربنا يشرطك.

متولى: المهم الموضوع يبقى مظبوط.

سنية: التشريط؟!

متولى: لأ.. البلاغ.. تعرفي عددهم قد إيه يا سنية؟

سنية: ييجي أربعة.. خمسة.

لأ.. ماينفعش كده يا ولية.. لازم المعلومات تبقى دقيقة.. أربعة وللا خمسة..

سنية: باينهم خمسة.

متولي: عظيم.. خمسة.. وبدقن.. وأسلحة.. ومنشورات..

وتشكيل وزارى.. كده يبقى فيها ترقية مية مية.

متولي (يسرع إلى الهاتف): جهزي نفسك يا ولية.. حتبقى مرات صول قد الدنيا.

سنية (في قلق): وحتاخد نبطشيات برضه؟

متولي (يمسك سماعة الهاتف في اهتمام): آلو.. المديرية؟ أيوه يا فندم.. أنا متولي سيادتك.. عايز أبلغ عن تنظيم لقلب نظام الحكم.

ســـتار

نهاية الفصل الأول

الفصل الثاني

المشهد الأول

يكشف الستار عن حجرة صغيرة، بها مكتب خشبي، ويقف فيها شرطى وقفة انتباه، ثم يدخل ضابطان، في ملابس مدنية، أحدهما يبدو متغطرسا، وهو (حسام)، والآخر أشبه بالمسطول (عماد)، ويجلسان عند المكتب..

حسام: هات المتهمين واحد واحد يا عسكري.

العسكري: تمام يا افندم.

يختفي لحظات، ويعود مع صلاح، الذي يبدو مذعورا.

حسام (في صرامة): اسمك وسنك ومهنتك؟

صلاح: اسمى صلاح، عندي خمسة وعشرين سنة.. وباشتغل هوم دليفري.

عماد: يعني إيه؟

صلاح: يعنى باوصل طلبات للمنازل.

يميل الضابط على زميله..

عماد: شايف ولاد الخبيثة.. كده يقدروا يدخلوا كل البيوت، ويعرفوا كل الأسرار..

سام: مين دلك على الشغلانة دى؟!

صلاح: الفقر

حسام: آه.. ده انت شيوعي بقى!

صلاح: لأ.. هوم دليفرى.

عماد: انت حتستعبط يا روح خالتك.

صلاح: أبدا والله.. لو بتسموها كده عندكم يبقى ماشي.

حسام: مكتوب في الورق ده إنك اللى بتخطط للتنظيم.

صلاح: تنظيم إيه يا باشا؟!

عماد: تنظيم الحرنكش.. وقلت لك ماتستعبطش.

صلاح: ده مش تنظيم سيادتك.. دي جمعية.

حسام: آه.. سجل الاعتراف ده بسرعة.. اعترف إنه عضو في جمعية سرية.

صلاح (في ذعر): سرية؟! لأ.. مش سرية ولا حاجة!

حسام: يعني دي جمعية رسمية، مشهرة في الشئون الاجتماعية، وعليها إشراف م الدولة؟

صلاح: لأ يا باشا.. دي حاجة كده على قدنا.

عماد: يبقى تنظيم سري يا روح خالتك.. وانت بقى وزير التخطيط فيه.

صلاح: لا تخطيط ولا حاجة يا باشا.. دا إحنا كنا بنهرج.

حسام: با سلام.. بتهرجوا بنظام وتخطيط وتشكيل وزاري جديد؟!.. دي خطة واضحة لقلب نظام الحكم.

صلاح: قلب إيه، ونظام حكم إيه يا باشا.. هو إحنا عارفين نقلب حياتنا، لما حنقلب نظام حكم؟!.. دا احنا بعيد عنك عواطلية.

عماد: شوف الكذاب.. مش لسه معترف إنك بتشتغل؟

صلاح: ودي شغلاية ياباشا؟!.. ده أنا خريج آداب قسم تاريخ.. أشتغل هوم دليفرى؟!

حسام: لأ طبعا، عشان كده غضبت وعملت تنظيم مناهض للحكم؟!

صلاح (في حيرة).. أنا مش فاهم حاجة!

عماد: خلاص يا حبيبي.. إحنا نفهمك.. يا عسكري!

العسكري: تمام يا فندم.

عماد: خده فهمه.. فهمه كويس قوى!

يمسكه العسكري من قفاه، ويجره خارج المسرح، وهو يقول في صرامة:

- انجر قدامي يا متهم.

حسام: وفهم الباقيين كمان.. ماتجيبهومش إلا لما يفهموا.

العسكري: تمام يافندم.

يخرج مع صلاح من المسرح، ونسمع صوت صفعات قوية من الخارج، مع صرخات صلاح وماهر، وسعد، وفتحي، وعمر، ثم يدخل العسكري، وهو يجر فتحي، الذي يضع يده على قفاه في ألم..

حسام: هه.. فهمته يا عسكري!

فتحى: فهمني وبس.. ده أنا قفايا يتقلى عليه بيض يا باشا!

عماد: اسمك وسنك ومهنتك؟

فتحي: اسمي فتحي.. خمسة وعشرين سنة.. ومهنتي عاطل.

حسام (في سخرية).. عاطل ليه يا روح أمك.. أنت مش وزير؟

فتحي: أنا وزير؟!

عماد: أيوه.. وزير داخلية

حسام: الورق اللى قدامنا بيقول كده بجي: ده لعب يا باشا.. مش جد.

عماد: لعبة اسمها جمعية الحرنكش.. مش كده؟

العفو يا باشا.. أنا أجي إيه جنب سيادتك، وسعادته و.. والبية العسكري..

فتحي: بالضبط يا باشا..

نام: قوللى يا فتحى.. الحرنكش ده بيرمز لإيه؟

فتحى: لإن مامعناش فلوس..

عماد: بطل استعباط لأقوم الطش لك.. وجاوب بأدب..

فتحي: أمرك يا باشا.

عماد: لما اخترتم الحرنكش رمز للتنظيم.. كان بيرمز لإيه؟

فتحي: مش فاهم.

حسام: لكن إحنا فاهمين.. الحرنكش لما يكبر يبقى طماطم.. والطماطم حمرا.. يعني رمز الشيوعية..

فتحى: والشيوعية دي معناها إيه؟!

عماد: إن مامعاكش فلوس.

فتحي: يبقى صح يا باشا.. إحنا كلنا عاطلين، وما حيلتناش اللضه.

حسام: ده الشكل الظاهري بس.. إنما أنا واثق إن الحرنكش ده رمز لحاجة تانية.

عماد: حاجة زي إيه؟

حسام: الحرنكش فاكهة شعبية، وده معناه إنهم ثورة شعبية حتطلع م الشعب.

عماد: كمان.. يا نهاركم إسود.. عايزين تقلبوا الشعب كله..

فتحى: شعب مين بس يا باشا؟!.. الحرنكش ده بالكتير يقلب المعدة.

حسام (يتحفز).. إيه المعدة دي.. بترمز لإيه؟!

فتحي (في دهشة).. بترمز لإيه؟!.. معدة يا باشا.. بطن.. كرش.. حتكون بترمز لإيه؟!

عماد: والله مانعرفش.. وزير التموين بقى يشرح لنا..

يا عسكري.. خد ده كمل تفهيمه، وهات لنا البيه اللي عامل فيها وزير تموين.

يمسكه العسكري من قفاه، ويجره خارج المسرح..

العسكري: انجر قدامي يابتاع الداخلية.. أنا حافهمك من هنا للوزارة!

عماد: ده باين عليه تنظيم كبير قوي.

حسام: وخطير قوي..

يدخل العسكري، وهو يجر ماهر..

حسام: إنت ماهر؟!

ماهر: أيوه يا باشا.. خمسة وعشرين سنة.. وعاطل عن العمل.

عماد: وحتقول لنا الحرنكش بيرمز لإيه؟

ماهر: سيادتك عايزه يرمز لإيه؟!

حسام: آه.. ده حيتعبنا معاه.

عماد: إنت ياله مش وزير التموين؟!

ماهر: أصل أنا اللي بأحضر العشا والمشروبات..

حسام: مشروبات.. وبتشربوا إيه بقى في اجتماعاتكم؟

ماهر: حاجات عادية يعني..

عماد: زى اللى بيبعتهالنا الحاج محمود.

حسام: يا نهاركم أسود.. بتشربوا حاجات من دي يا صيع؟!

ينقل ماهر نظره في دهشة بين الضابطين..

حسام: وبتعملوا إيه كمان إن شاء الله؟!

ماهر: أهو.. بنتكلم.. بنتفرج على فيلم.

حسام: فيلم إيه بالضبط؟

عماد: زي الأفلام اللى بيبعتهالنا الحاج محمود.

سام: يا نهاركم مش فايت.. أهو دي تهمة لواحدها.. عارف لو ظبطنا حاجات من دي عندكم، فيها قضية آداب يا كلاب.. تلاقيكم كمان بتدخنوا؟

عماد: دخان من اللى بيبعتهولنا الحاج محمود..

حسام: الله.. الله.. وأدى قضية مخدرات كمان.. كل ده ومش عايز تقول الحرنكش بيرمز لإيه؟!..

ماهر: طب وشرف سعادتك ما أنا فاهم حاجة!

عماد: كده.. طب خده فهمه تاني يا عسكري..

يسحبه العسكري في خشونة.

العسكري: انجر يا متهم.. انجر!

ماهر: طب بس ثانية واحدة.. أسأل البيه الضابط سؤال واحد.

حسام: هاته يا عسكري.. هه.. حتعترف؟

ماهر: لأ يا باشا.

عماد: أمال إيه؟!

ماهر: كنت عايز عنوان الحاج محمود.

حسام (في ثورة): خده فهمه يا عسكري.

يجره العسكري في عنف للخارج، ويختفي لحظات، ثم يعود مع عمر.

عماد: أهلا بوزير المسخرة.

عمر: هو فيه مسخرة أكتر م اللى إحنا فيها دي يا باشا؟!

حسام: احترم نفسك يا متهم.

عمر: حاضر با باشا.

عماد: اسمك عمر، وسنك خمسة وعشرين سنة، ومهنتك إيه؟!

عمر: عاطل يا باشا.

نام: جمعية الحرنكش دى بتجتمع ليه يا بتاع المسخرة؟

عمر: أهو.. بنرمي همنا على بعض يا باشا.

عماد: والهم ده بيترمي في تشكيل وزارة جديدة؟!

عمر: مسخرة يا باشا.. حنعمل إيه يعني؟!

حسام: العبوا أي حاجة.. كوتشينة مثلا..

عمر: لو كنا بنلعبها، كنتم مسكتونا بتهمة القمار..

عماد: العبوا شطرنج يا أخي.

عمر: ماينفعش.

حسام: ليه بقى؟

عمر: عايز تفكير.

حسام: وهو المطلوب.

عمر: مطلوب إيه بس يا باشا.. هو عاد فيه حد بيفكر في البلد دي.. شوف سيادتك القوانين نفسها، اللي بتطلع كل يوم، وللا القرارات الوزارية، وللا حتى نظام المرور.. حتلاقى مافيش حد بيفكر..

عماد: فكروا انتو يا أخي.

حسام: يعني عايز تقنعنا إن كل التنظيم ده من غير تفكير؟

عمر: تنظيم إيه يا باشا؟!

عماد: الحرنكش.. جمعية الحرنكش.

عمر: ودي تبقى تنظيم؟!.. دي حاجة عملناها من غلبنا.

سام: آه.. رجعنا لموضوع الشيوعية..

عمر: أنا سمعت الكلمة دي قبل كده، في فيلم كوميدي.

عماد: مش في روسيا يعني؟!

عمر: روسيا؟!.. وأنا إيه اللي يوديني روسيا؟!

حسام: أمال الأوامر بتجيلك هنا؟!

عمر (بمنتهى الحيرة).. الشهادة لله.. أنا مش فاهم أي حاجة!

عماد: خلاص يا روح خالتك.. نفهمك.. خده يا عسكري.

يسحبه العسكري في خشونة..

حسام: وبعدين بقى.. مش حنعرف نطلع منهم باعترافات صريحة وللا إيه؟

عماد: الحقيقة مش لاقى حاجة واضحة لحد دلوقتى.

يدخل هنا العسكري، وهو يجر سعد الملتحي..

حسام: آه.. وضحت الرؤية..

عماد: فهمت

حسام: اسمك وسنك ومهنتك يا متهم.

سعد: اسمي سعد.. ستة وعشرين سنة.. بدون عمل.

عماد: واضحة.

عماد: كلهم خمسة وعشرين سنة، وانت ستة وعشرينوكلهم قالوا إنهم عاطلين، وانت قلت بدون عمل.

سعد: وده معناه إيه يا باشا؟

حسام: إنك مختلف.

عماد: وزعيم التنظيم.

سعد (مذعورا): زعيم إيه، وتنظيم إيه بس يا باشا؟!

سام: ماتحاولش تلف وتدور يا متهم.. أنا فاكر ملامحك وحافظها صم.. إنت جماعات إسلامية متطرفة.

سعد: أنا؟!

عماد: ماتستعبطش يامتهم.. الموضوع واضح تماما.

سعد: مش ممكن يا باشا!

حسام: بص بقى.. ما هو يا تعترف بالذوق، يا حننزل عزق فيك، لما ناخد اعترافك.

سعد: أعترف بايه بس؟!

عماد: بإنك عضو في تنظيم إسلامي متطرف.

سعد: ماينفعش يا باشا!

حسام: لأ.. ينفع ياروح خالتك.. وماتحاولش تنكر.. التهمة لابساك لابساك.. وليك ملف عندنا كمان.

سعد: يا باشا بأقول لسعادتك مش ممكن!

عماد: بطل استعباط، وقول لنا اخترت لية الحرنكش رمز للتنظيم.

سعد: طب ممكن سعادتك بس تبص على اسمي في الملف؟

حسام: حافظه صم يا متطرف.

سعد: يا باشا شوف الاسم بس.

عماد: حنشوفه لما نكتبه في كشف المعتقلين، مع بقية المتطرفين الإسلاميين.

سعد (يصرخ): يا بيه شوف اسمي بالكامل.

حسام: حيكون إيه يعني؟!

سعد: اسمي سعد تادرس صليب.

الفصل الثاني

المشهد الثاني

يكشف الستار عن نفس المشهد الأول، لصالة منزل ماهر، مع فارق أن الإضاءة خافتة، ولا توجد موسيقى، والشباك الموجود في الواجهة مغلق، وعليه لوحا خشب متقاطعين مسمرانه حتى لا يفتح، والشباب الخمسة ملتفون حول الأنتريه في صمت مكتئب.

صلاح: إيه اللي جرالنا ده يا جماعة؟!

فتحى: والله ما أنا فاهم، لحد دلوقتى!

ماهر: طول عمرنا في حالنا، وماشيين جنب الحيط، ولا لينا في السياسة ولا دياولو!! عملوا فينا كده ليه؟!

عمر: الظاهر السياسة دى مافيش منها مفر.. مهما تهرب منها، وراك وراك!

سعد: ده حتى الحرنكش بقى سياسة!

تنطلق ضحكة سنية العابثة، من خارج المسرح، ونسمع صوتها:

سنية: يا راجل اتهد بقي.. هلكتني.

صلاح: جوزها نبطشي برضه؟!

عمر: مالناش دعوة ياعم.. لتطلع دي راخره سياسة، واحنا مش واخدين بالنا

فتحي: على رأيك.. ده.. ده اللي جرالنا م الحرنكش، ماجراش لعرابي م الإنجليز.

صلاح (في مرارة): أنا اترفدت من الوظيفة.. رضيت بالهم، والهم مارضيش بيا.. خافوا مني، لما الأمن مسكني.. وقالوا إني حابوظ سمعة المطعم.. يعني القرشين اللي كنت عاصر على نفسي لمونة واعيش بيهم، خلاص.. بحّ.

عمر: وأنا حمايا أصر يفسخ الخطوبة.. أول ماطلعت، لقيته مستنيني بالدبلة على باب المديرية.. مارضيش حتى يخليني أشوف خطيبتي.. قاللى إني ماليش مستقبل، وردّ سجون.. وإنه مش عايز يشوف وشي تاني.

فتحى: شوف الدنيا... أنا بقى منعوني من دخول الكلية.. ولغوا الماجستير بتاعي.. قال إيه.. الأمن اعترض باعتباري عنصر ضار غير مرغوب فيه.. بعد ماكنت طالب دراسات عليا، بقيت عنصر.

سعد: على الأقل بقيت حاجة.. أنا بقي مابقيتش أي حاجة.. عندي مشاكل فظيعة مع الكنيسة، بعد ما الأمن اتهمني إني رئيس تنظيم إسلامي متطرف.. حد يصدق.. سعد تادرس صليب، ليه ملف مع الجماعات الإسلامية!

ماهر: أنا بقى خلاص.. حابقى في الشارع.. والشقة اللي كانت لمّانا حترجع للمالك، اللى رفع عليا قضية طرد، بحجة إني باستخدم الشقة في اجتماعات سرية، وأغراض منافية للقانون.

صلاح: كل ده واحنا ماشيين جنب الحيط!

سعد: وكافيين خيرنا شرنا.

عمر: وحاطين لسانا في بقنا.

ضحكة عابثة أخرى من سنية..

فتحى: وآدي اللي طلعنا بيه..

يصمتون بضع لحظات، ثم ينتفض صلاح واقفا..

صلاح: وله انت وهو.. هاتوا ورقة وقلم.. ووطوا صوتكم.

عمر: حتكتب إيه؟

فتحي: أكيد محضر جمعية الحرنكش..

سعد: تانى؟!

في حزم:

ماهر: بس المرة دى بجد.

تخفت الأضواء تدريجيا، ويُضاء مصباح خلفي أحمر، تبدو الشخوص معه أشبه بسليويت صارم.

ســـــتار

النهـــــــاية

د. نبيل فاروق

95- وزارة العقل..

فجأة، انتبه حاكم الدولة إلى أن الشعب كله غاضب، ثائر ساخط على الحكومة، وعلى شهبندر التجار، وكبير الوزراء، وكل المسئولين (فيما عداه بالطبع)، فاستدعى إليه كبير ياورانه، وسأله في صرامة:

- إيه اللى بيحصل في البلد؟! الناس ثايرة ليه، بعد كل اللى عملته علشانهم؟! هو الناس دي إيه... مابتشكرش؟!

انحني كبير الياوران أمامه، حتى كاد رأسه يرتطم بالأرض، وأجابه دون أن يرفع عينيه إليه:

- القوانين يا حاكم الحكام.. القوانين.

لوح الحاكم بيده في حدة، هاتفا:

- مالها القوانين؟!

انخفض صوت كبير البياوران، وكأنه يثبت المزيد من الولاء، وهو يجيب:

- القوانين كتير، ومعقدة، ومالهاش حل.. الناس تعبت، وزهقت، وماحدش عارف يمشي أموره، غير بالرشوة أو بالتزوير..

بدا الحاكم ساخطا، وهو يقول:

- ليه بقى؟! إحنا مش بنعمل القوانين دى عشان نريحهم!!

تردد كبير الياوران بضع لحظات، ثم عاد ينحني، قائلا:

- الحقيقة جنابك إحنا بنعمل القوانين، عشان تريحنا إحنا.. يعنى لما يطلع قانون، وتحصل فيه مشكلة، بنطلع له قانون

تاني، بدل ما نحل المشكلة، أو ندور على سببها.. وساعتها بتطلع لنا مشكلة تانية، فنطلع لها قانون تالت، وهكذا.

بدا الحاكم مندهشا، وهو يقول:

- ما احنا بنعمل كده؛ عشان نسدّ الثغرات.

أجابه كبير الياوران:

- فعلا.. وكل ما نسد ثغرة، تطلع لنا واحدة تانية، فنسدها تطلع لنا تالتة.. وهكذا.

تساءل الحاكم في قلق:

- وده كويس وللا وحش؟!

هز كبير الياوران كتفيه، وأجاب:

- الغرض كويس، لكن النتيجة وحشة..

امتزج قلق الحاكم بدهشته، وهو يسأله:

- إزاي بقى؟!

شعر كبير الياوران ببعض الثقة، وهو يعتدل قليلا، ويقول:

- العملية اتعقدت واتشبكت قوي جنابك، وبقت جحيم على المواطن الشريف، والمحتال بس هو اللي عارف يعيش، واللى عارف بعدي من كل حاجز نعمله، ويلاقي لكل مشكلة ثغرة جديدة..

بدا الحاكم حائرا، وهو يتساءل:

- طب والحل؟!

أجاب كبير الياوران، في خبث حذر:

- بتوع المعارضة بيقولوا: نبسّط على القوانين، ونشدد العقوبة علي المخالفين..

هتف الحاكم مستنكرا:

- ده كلام برضة؟! حنسمع كلام المعارضة؟!

واصل كبير الياوران، بنفس الأسلوب:

- بيقولوا: إن في الحالة دى، الشريف يرتاح، والمحتال ياخد عقاب جامد.

قال الحاكم في صرامة:

- طب ورجالتنا.. برضه نعمل فيهم كده لما يغلطوا؟! إحنا مش قلنا في الاجتماع اللي فات: المسامح كريم، وفوتنالهم البلاوي اللي كانوا عاملينها.

تردد كبير الياوران، قبل أن يقول:

- ماهو بلاويهم مابتخلصش جنابك.

قال الحاكم في حدة:

- ولما نحاسب رجالتنا، يفضل لنا مين بقى؟!

بدا الارتياح على وجه كبير الياوران، وهو يقول:

- طبعا طبعا.. ثم مش معقول جنابك تنفذ كلام المعارضة، لتاخد في نفسها قلم، وتفتكر نفسها بتفهم، ومانعرفش نلمها بعد كده..

وافقه الحاكم بإيماءة من رأسه، وقال في اهتمام:

- بس برضه ماقولتليش حلّ..

صمت كبير الياوران بضع لحظات مفكرا، ثم هتف في حماس، وهو يلوح بيده:

- مبادرة.

تطلع إليه الحاكم، بنظرة حادة متسائلة، فتابع بنفس الحماس:

- مبادرة من جنابك، في خطبة تاريخية، تعلن فيها تطهير القوانين من التعقيدات، وتنضيفهام الشوائب، وتكسب بيها رضا وحب الشعب.

هتف الحاكم:

- طب ما أنا كسبانهم.. إنت متعرفش إن الشعب بيحبني وبيموت فيا وللا إيه؟! مابتسمعش الهتاف والتصفيق، لما أكون ماشي؟! مابتشفش اليفط؟!

كان كبير الياوران يتمنى أن يخبره بالحقيقة، وبأن الهتاف كله ينادى بسقوطه، ولكن الزجاج المصفح يحجب الأصوات عنه، واللافتات كلها من صنع منتفعي الحزب، وتقارير الأمن توهمه أن الناس يهتفون بحياته، إلا أنه كان يدرك أن حقيقة كهذه، كفيلة بطرده من قصر الحكم شر طردة، وعودته إلى الشارع الذي جاء منه، وعمره لم يعد يكفي لرحلة تسلق جديدة؛ لذا فقد عاد ينحني، مثل الرقم ثمانية، ويقول:

- دي حاجة ماتخفاش عن حد جنابك.. الشعب بيحبك ويموت في دباديبك أكيد، وبيهتف بحياتك الغالية ليل نهار، بس المبادرة دي حتزود الحب ده أكتر وأكتر، وحتحط جنابك في كتب التاريخ... في بلاد بره طبعا..

انتعظ الحاكم لقوله، وانتفخت أوداجه كالطاووس، وتخيل نفسه حاكما عالميا، فسار الخيلاء، حتى بلغ عرشه، وجلس عليه مرفوع الرأس، ثم أشار بيده، كما يفعل الملوك، وقال في عظمة:

- خلاص.. طلع بيان بكده.

أخرج كبير الياوران ورقة وقلما من جيبه في سرعة، وسأل في حماس:

- بايه بالظبط جنابك؟!

بدا الحاكم حائرا بضع لحظات، قبل أن تضيء عيناه فجأة ويقول:

- اسمع... أنا مش حاعمل مبادرة، أنا حاعمل وزارة.

غمغم كبير الباوران في حذر:

- وزارة إيه جنابك؟!

أجابه الحاكم في حماس:

- وزارة العقل.. حاتشي وزارة جديدة، أسميها وزارة العقل.. وزارة تدرس كل القوانين، وتنضفها من كل التعقيدات.. وزارة تخفف عن الناس، وتتعامل مع القوانين بالعقل..

هتف كبير الياوران:

- الله أكبر!.. أهو كده جنابك... حتى اسمها حلو.. وزارة العقل... أوريجينال خالص.

انتعظ الحاكم أكثر، وقال:

- يا للا.. طلع البيان.. وماتنساش تبلغ الجرايد والتليفزيون..

وأسرع كبير الياوران إلى مبنى الإذاعة، ليعلن بيان الحاكم، ومبادرته الجديدة..

وفي صباح اليوم التالي، حملت مانشيتات كل صحف الحكومة خبر المبادرة، التي وصفوها بأنها تاريخية، وبأن دول العالم كلها مبهورة بها، وتتحدث عنها، وبأن الحاكم هو معجزة الخالق في هذا العصر، وفي كل العصور التي سبقته طبعا، والعصور القادمة بكل تأكيد..

أما صحف المعارضة، فقد شككت في الأمر كله، وفي أن عصر الحاكم يمكن أن يتسم، ولو بلمحة من العقل، في ظل الفساد السائد، فما بالك بوزارة كاملة؟!!

ولكن الوزارة نشأت بالفعل.. وبأقصى سرعة انتقى الحاكم بنفسه مبنى ضخما، في وسط العاصمة، وعين وزيرا، وحمل المبنى اسم الوزارة، إلى جوار لافتات تهنئة الوزير الجديد، الذي تم استدعاؤه من المصيف على عجل، ووصل إلى المبني في موكب محدود، حتى لا يثير غضب الحاكم أما شيخ الجامع الكبير، الذي تعينه الحكومة، فقد خطب الجمعة؛ ليقول للناس: إنها وزارة مباركة، وإن من يرفضها سيدخل النار وله بئس الجحيم، وإن الدين يأمرنا بطاعة أولياء الأمور، والحاكم هو ولي أمرنا، وولي نعمنا، وخيرنا وبركتنا، وبابانا ومامتنا..

والتليفزيون مول حملة لإقناع الناس بالفكرة، من نقود الضرائب، وعبر سلسلة إعلانات غير مدفوعة الأجر، تتواصل بلا انقطاع، ليل نهار..

واستبشر الناس خيرا بالوزارة الجديدة، التي ستعيد العقل للحكومة، وستعمل على تنقية القانون من الشوائب، وإعادة

صياغته، على نحو يريح البلاد والعباد، وشعروا أن اسمها يحمل مضمونها، وأن الراحة قادمة ولاشك، وأصبح هذا محور أحاديثهم، في المقاهي والنوادي والنواصي، وفي ساعات الصفا والروقان؛ مما ساعد على خفض معدلات الإنجاب، في هذه الفترة..

وفي القصر الكبير، جلس الحاكم منشكحا، سعيدا بإنجازه العظيم، يفكر فيما سيقوله عنه التاريخ، وما ستصفه به الجغرافيا، وصورته في حساب المثلثات، حتى دخل عليه كبير الياوران، فسأله في لهفة:

- أخبار الوزارة الجديدة إيه؟!

أجابه كبير الياوران في حذر:

- لسه ما اشتغلتش جنابك

هتف في دهشة مستنكرة:

- ليه بقى؟!

أجابه الرجل، وهو يزن كلماته جيدا:

- الكادر الإداري جنابك.

تساءل الحاكم في ضجر:

- ماله راخر؟!

أجابه كبير الياوران، في تحفظ واضح:

- أصل الوزارة دي جنابك، هيا اللى حتعذل كل القوانين في البلد، ولو مامسكهاش ناس مظبوطة، حيعدلوا القوانين لحساب ناس معينين، ويمكن لحساب ناس ماتستحقش..

تراجع الحاكم في عرشه، وداعب ذقته بأصابعه، وهو يقول:

- معقولة برضة..

وهنا تابع كبير الياوران، وصوته أكثر ثقة:

- وكمان جنابك ممكن اللي يمسكها مايكونش مخلص، فيعدل القوانين على مزاج المعارضة مثلا..

انزعج الحاكم بشدة للفكرة، وبدا الانزعاج واضحا على ملامحه، فواصل كبير الياوران في حسم:

- عشان كده جنابك، لازم نظبطها بالشعرة..

سأله الحاكم في اهتمام:

- يبقى نختار حد كفاءة.

هز كبير الياوران رأسه في رصانة، وهو يقول:

- ولا مؤاخذة جنابك، الكفاءة هنا مالهاش معني.. الفلوس ممكن تغير النفوس، وبتوع المعارضة لسانهم حلو ويمكن يلعبوها صح.

سأله الحاكم في قلق:

- أمال نختار مين؟

أجابه في سرعة:

- حد نثق فيه طبقا جنابك.

ثم تراجع، مستدركا في حذر:

- عشان نبقى مطمنين..

درس الحاكم الأمر في ذهنه بضع لحظات، ثم لم يلبث أن هز رأسه، قائلا:

- عندك حق.. كده أضمن..

وهكذا صدر قانون جديد، بأن يقتصر التعيين في الوظائف الإدارية، للوزارة الجديدة، على أهل الثقة دون سواهم...

ومرة أخرى، اطمأن الحاكم، واستقر على عرشه، ولكن كبير الياوران لم يتركه في حاله، فدخل عليه ذات صباح، وهو قلق متوتر، فسأله الحاكم:

- خير يا كبير الياوران؟

هز الرجل رأسه، وقال:

- وزارة العقل جنابك..

هتف الحاكم في حنق:

- إحنا إية.. ماعدش عندنا غيرها؟

انكمش كبير الياوران، وهو يقول:

- ما احنا عايزين نشغلها ونخلص بقي جنابك.

صاح الحاكم في غضب

- طب مانشغلها..

أجابه منحنيًا في توقير..

- لسه الجهاز الإداري ما استقرش جنابك.

كاد الحاكم يقفز من عرشه، ويضربه بالشلوت، وهو يقول في غضب ثائر:

- ماخلاص.. قلنا نعين أهل الثقة وخلصونا.. هي سيرة... عينوهم

سأله كبير الياوران:

- من أنهى فئة؟!

خيل للحاكم أنه لم يفهم العبارة جيدا، وهو يسأل:

- يعنى إيه؟!

أجابة موضحا:

- يعني ولاد الأكابر، وللا ولاد البلد؟!

سأله الحاكم، وقد أثار السؤال اهتمامه:

- إيه الفرق؟!

ابتسم كبير الياوران، ابتسامة توحي بالحكمة، وهو يقول:

- فرق كبير قوي جنابك.. ولاد الأكابر عينهم مليانة ومبسوطين، إنما ولاد البلد عينهم فارغة، مايملاهاش غير التراب.

سأله الحاكم في قلق:

- وهو إحنا ماخدناش توكيل التراب؟

أجابه كبير الياوران في سرعة:

- طبعا أخدناه.. وهو حد يقدر ياخده مننا جنابك؟!

قال الحاكم في حدة:

- أمال إيه بقى؟! ما إحنا قلنا حنختار أهل الثقة..

أجابه كبير الياوران:

- لازم برضه نبعدهم عن الإغراء جنابك..

تنهد الحاكم، وعاد يداعب ذقنه، قائلا:

- عندك حق برضه..

انحني كبير الياوران في شدة، فارتطم رأسه بالأرض فعليا، وهو يقول:

- أوامر جنابك..

هز الحاكم رأسه، وهو يفكر في الأمر، ثم قال:

- خلاص.. نطلع قانون جديد، إن اللي يشتغل في الوزارة الجديدة، لازم يكون من ولاد الأكابر..

هتف كبير الياوران:

- يا سلام عالحكمة جنابك.. فورا يطلع القانون.

مال الحاكم إلى الأمام، يسأله في حدة:

- كده يبقى سدينا الثغرات؟!

رفع كبير الياوران يده، مجيبًا:

- أكيد جنابك.. أكيد..

وأسرع كبير الياوران لإصدار القانون الجديد، وتراجع الحاكم في عرشه، وحاول الاسترخاء عليه، لولا أن دخل عليه كبير الياوران مرة أخرى، وتردد طويلا، قبل أن يقول:

- الكادر جنابك..

هتف الحاكم في غضب:

- يادي الوزارة الجديدة، والكادر بتاعها؟

ارتبك كبير الياوران، وهو يقول:

- ما هو لسه فيه ثغرة جنابك..

قال الحاكم في سخط:

- إيه تاني؟!

أجابه الرجل:

- أصل لما بعتنا القانون الجديد لشئون الموظفين جنابك بعتوا يسألونا، ولاد أكابر زمان، وللا أكابر دلوقتي؟!

قال الحاكم في ملل، ما بعده ملل:

- وده إيه ده راخر؟!

التقط كبير الياوران نفسا عميقا، وأجاب:

- ولاد أكابر زمان كانوا ولا ناس، وأكابر أبا عن جد، وعندهم حسب ونسب، وأصل وفصل، وولاد أكابر دلوقتي عندهم فلوس..

اكتفي بالقول، فسأله الحاكم:

- وإيه كمان؟!

هز رأسه، مجيبا:

- وبس يا مولاي.

صاح به في حدة:

- يعنى إيه بس؟!

أجاب في سرعة

- يفي عندهم فلوس وبس جنابك.. مالهومش لا أصل ولا فصل بس مريشين عالآخر، وغرقانين في عز جنابك..

سأله الحاكم:

- شبعانين يعني؟! زي حالاتنا كده؟!

تردد كبير الياوران لحظة، ثم هز كتفيه، قائلا في حذر:

- يعني...

مط الحاكم شفتيه، وقال:

- والأصل والفصل حيعملوا إيه؟! اللى معاه فلوس، عمره مايفكر يسرق.

كان كبير الياوران يخالفه الرأي تماما، وخبرته تشير إلى العكس، إلا أنه لم يجرؤ على معارضته، ولم يشأ أن يفتح على نفسه وأحبابه طاقة جهنم، فهز رأسه، مغمغما:

- زي ماتشوف جنابك..

تراجع الحاكم في مقعده أكثر، وقال:

- يبقى نطلع قانون جديد.

أخرج كبير الياوران الورقة والقلم، وهو يقول:

- أمرك سيادتك

نهض الحاكم، وأشار بيده، كما كان يفعل ملوك زمان العظماء، وقال في حزم:

- طلع حالا قانون، إن بتوع الكادر الإداري، في الوزارة الجديدة، يكونوا من ولاد أكابر دلوقتى..

قال كبير الياوران في ارتياح:

- كده نبقى سدينا كل الثغرات جنابك.

زفر الحاكم، قائلا:

- ياريت!

ولكنه ظل حذرًا مترقبا، واتضح أنه على حق، فبعد يوم واحد، جاءه كبير الياوران، يقول في توتر:

- كارثة جنابك.. كارثة!

قفز الحاكم من عرشه، هاتفا:

- خير؟!

أجابه كبير الياوران في شحوب:

- رفعوا قضية عالوزارة..

هتف الحاكم مستنكرا، وغاضبا:

- الوزارة الجديدة؟! هي لسه اشتغلت؟!

واصل كبير الياوران في ارتباك:

- ولاد البلد رافعين قضية، قدام قاضي القضاة، في المحكمة الكبيرة، بيقولوا إن قوانين التعيين، في الوزارة الجديدة مش ديمقراطية..

صاح الحاكم في غضب:

- ديمقراطية؟! ولاد البلد بيتكلموا عن الديمقراطية؟! هما لولايا أنا، كانوا شافوا ديمقراطية، وللا حتى سمعوا عنها؟! أدى آخرتها.. خير تعمل، شر تلقى.. سكتناله دخل بحماره..

قال كبير الياوران، في ارتباك أكثر:

- المشكلة إن قاضي القضاة قال: إن عندهم حق.. وإن القانون مابيقولش كده.

احتقن وجه الحاكم، من شدة الغضب، وهو يقول:

- وبعدين بقى.. أنا مش قلتلك إن موضوع قاضي القضاة، والمحكمة الكبيرة ده، حيجيب لنا وش ووجع دماغ.. إحنا نطلع قانون يلغيهم، ونريح مخنا.

تنحنح كبير الياوران، وقال:

- ماينفعش جنابك.. الدول الكبيرة تقول علينا إيه؟!

أجابه في حدة:

- يقولوا اللي يقولوه..

تنحنح مرة أخرى، وقال في حذر:

- طب والمعونات، والعلاوات، والعمولات.

تراجع الحاكم، مغمغما:

- آه صحيح.. ابقي فكر لنا في طريقة، نغير بيها القانون، اللى بيقرفنا بيه قاضي القضاة ده، وللا اقلب لنا المحكمة الكبيرة بوتيكات.. ودلوقتى شوف لنا حل في المشكلة اللى إحنا فيها دي..

أشار كبير الياوران بسبابته، وقال:

- قانون.

هتف الحاكم محنقا:

- تاني؟!

أجابه في سرعة:

- قانون يقول: إن الوزارة الجديدة وزارة سيادة، وإن جنابك لك الحق تعين فيها اللي يعجبك... في الحالة دى ماحدش يقدر يعترض، وكل واحد يحط لسانه في بقه وينكتم.

بدت الفكرة جميلة، وراقت كثيرا للحاكم، ولكنه تساءل في اهتمام:

- وولاد البلد؟! ماهم حيفضلوا غضبانين..

هز كبير الياوران رأسه، مجيبا:

- نطلع قانون إن خمسة في المية من المعينين، في الوزارة الجديدة، يكونوا من ولاد البلد، وجنابك تعلن كده في خطبة تاريخية، وأهم مش حضروا.. نبقى نحطهم فراشين وللاسفرجية..

تنهد الحاكم، وقال:

- والله فكرة.. طلع القانون، وأنا حامضيه..

تردد كبير الياوران بضع لحظات، وتململ في وقفته، فاعتدل الحاكم، يسأله في غضب:

- فيه إيه تاني؟!

سأله الرجل، وكأنما ينتظر السؤال:

- قواعد تعيينهم تبقى إيه؟!

شعر الحاكم أن الوزارة الجديدة قد جلبت له وجع الرأس، فقال في حدة غاضبة:

- قواعد إيه ياجدع إنت؟! حط أي قواعد.. مش بتقول فراشين وسفرجية؟

أجابه كبير الياوران منكمشا:

- ماهم في المكان برضه جنابك، وممكن يسربوا القوانين، وللا يغيروا حاجة كده وللا كده.

لوح الحاكم بيده، وقال في غضب:

- خلاص.. طلع قانون إنه يبقوا برضو من أهل الثقة.

أومأ كبير الياوران برأسه، وتراجع إلى الخلف، قائلا:

- أوامر جنابك.

وقبل أن يغادر، استوقفه الحاكم، وقال في صرامة:

- المهم الثغرات.. ماتسيبوش ثغرات

أجابه كبير الياوران، بمنتهى الخنوع:

- اطمئن جنابك.

وصدر القانون الجديد..

ومضت الأيام، وصحف الحكومة، التي لا يقرأ الحاكم سواها، تشيد بالوزارة الجديدة، وبالمشروع العظيم، وبالحاكم العبقري، وتعيد وتزيد خطابه التاريخي، الذي ألقاه على الشعب بهذه المناسبة الكبيرة، وتؤكد أن العالم كله اهتم بالخطاب، وأن رئيس أكبر دولة أشاد به، على الرغم من تأكيد صحف المعارضة أن ذلك الرئيس الكبير لم يسمع عن الحاكم من الأساس..

أما تقارير الأمن، فجاءت تؤكد أن كل شيء على ما يرام، والوزارة الجديدة تحظى بحب وتأييد الشعب، الذي يهتف بحياة الحاكم

ليل نهار، وليس في الإمكان أبدع مما كان..

حتى المظاهرات، التي ملأت البلاد، من أقصاها إلى أقصاها، لم يأت ذكرها في نشرات الأخبار، ولم تشر إليها تقارير الأمن، أو ينشر عنها سطر واحد، في صحف الحكومة، ومع سعادة الحاكم، وزهوه بمشروعه العظيم، خطرت على باله فكرة عجيبة، لم تحدث منذ أيام أجداد أجداده..

أن يتنكر مع كبير الياوران، ويذهبا لتفقد الأحوال على الطبيعة، في الوزارة الجديدة..

وزارة العقل....

وبسرعة، أحضر كبير الياوران زيين، من أزياء ولاد البلد، ارتدي الحاكم أفخمهما، وارتدي هو الآخر، وخرجا متنكرين، في الصباح الباكر، إلى مبنى الوزارة، وكلهما شوق؛ لرؤية نتائج التجربة الجديدة

وهناك، شعر الحاكم بالانبهار، من فخامة المبني، وضخامته، واللافتة الكبيرة عليه، ولفت انتباهه أن لافتة الترحيب بالوزير ما زالت هناك، متألقة زاهية، تحمل الاسم بحروف كبيرة، فمال على أذن كبير الياوران، هامسا:

- ابقى فكرني نقيل الجدع ده، أول ما نرجع..

أومأ كبير الياوران برأسه موافقا، وهمس بدوره:

- أنا مجهز البديل، من قبل ما يتعين ده جنابك..

ابتسم الحاكم في ارتياح، مغمغما:

- عظيم.. عظيم..

لاحظ، وهو ينطق كلمته الأخيرة، طابور طويل من الناس، من أولاد البلد، يقف عند الوزارة، ويمتد لعشرات الأمتار، فهمس في سعادة كبيرة:

- شوف الهمة.. الوزارة مابقالهاش ست سبع تشهر، وشغالة نار..

غمغم كبير الياوران:

- البركة في توجيهات جنابك..

سارا إلى جوار الطابور، حتى يبلغا بدايته، وعندما وصلا إلى بوابة الوزارة، ارتطم بهما واحد من أولاد البلد، وهو يخرج ثائرا، ساخطا، غاضبا، فاستوقفه الحاكم، متسائلا:

- مالك.. فيه إيه؟! الوزارة شغلها غلط؟!

هتف الرجل في حدة:

- وهيا لسه اشتغلت؟!

اتسعت عينا الحاكم، وهو يسأله:

- وما اشتغلتش ليه؟!

صاح الرجل، وعيناه محمرتان، من شدة الانفعال:

- الكادر الإداري يا سيدي.. عشان يعينونا، عايزين عشرين طلب، وخمسين استمارة، وميت شهادة دراسية وإدارية، وشروط، وتعقيدات.. بناقصها.. ده شغل مجانين يابا!

ولم ينطق أحدهما بحرف واحد..

(تمت)

2006

2007

96- ٪99..

«الانتخابات جاية يا مولانا»

نطق الوزير العبارة في تردد حذر مضطرب، وهو ينحني انحناءته التقليدية، التي تجعله أشبه بالزاوية القائمة، أمام الوالي، الذي ألقى حبة عنب في فمه في تراخ متكاسل، وهو يسأله ساخرا:

« ومالك - متّاخد ليه يا وزير، ما هي كل مرة بتيجي... - عملت إيه يعني؟... »

تردد الوزير قليلا، قبل أن يقول في حذر أكثر:

« المرة دي مش زي كل مرة يا مولانا... »

رمقه الوالي بنظرة مستهجنة، وهو يلتقط حبة عنب أخرى، قائلا:

« اشمعنى... ما كل مرة بأرشح نفسي، وبنسيب تلاتة أربعة يعملوها، وتطلع النتيجة تسعة وتسعين في المية ونلفقلهم بعدها تهم، ونبعتهم معتقل المغول وخلاص، إيه اللى حيستجد المرة دي يعني؟... »

بلغ تردد الوزير وارتباكه حدا، جعل الوالي يصرخ فيه، وهو يلقى حبة العنب الثانية في حلقه:

« ما تنطق... »

حسم الوزير أمره، وقال في سرعة وخوف:

« السلطان جاي.... »

سمع الوالي العبارة، فتوقفت حبة العنب في حلقه، واحتقن وجهه المكتظ، وراح يسعل في شدة، فأسرع الوزير يضربه على ظهره، وهو يهتف بالحراس:

« مية بسرعة... عايزين سيدنا وتاج راسنا يروح فيها يا بقر...»

غمغم أحد الحراس بعبارة غير مسموعة، وهو يسرع مع الباقين في إحضار الماء الذي سقاه الوزير للوالى، وهو يواصل التربيت على ظهره، مهمهًا:

« صحة وعافية... »

نظر إليه الوالي في ارتياع، وسأله في صوت أشبه بالبكاء:

« بتقول مين جاي؟... »

أجابه الوزير في خفوت، وكأنه يخشى أن يفزعه:

« السلطان جنابك... »

بدت علامات الذعر على وجه الوالى لحظات، وفرت الدماء من وجهة المكتظ، وهو يقول في ذعر:

« وجاي يعمل إيه؟!... »

انحنى الوزير أمامه مرة أخرى دون داع، وهو يجيب في احترام:

« جاي يشرف على الانتخابات بنفسة يا مولاي »

رأي علامات الفزع على وجه الوالى، فمال نحوه، مكملا في صوت خافت:

« إظاهر حد ابن حرام، قاله إننا قال إيه، بنزور الانتخابات »

هتف الوالي مستنكرا:

« بنزورها؟!... إحنا؟!... »

تمتم ذلك الحارس بعبارة خافتة أخرى غير مفهومة، فصاح به الوالي في غضب:

« بتقول إيه يا حيوان... »

أجابه الحارس في سرعة وذعر:

« بادعى لجنابك يا مولانا... »

صاح فيه بعصبية:

« إبقي ادعى بصوت عالي يا جاموسة... »

ثم التفت إلى الوزير، مردفا في هلع:

« طب وحنعمل إيه؟... »

وبدا فجأة وكأنه قد تذكر شيئا ما، فهتف في حدة:

« وبعدين ده يبقي تدخل في شئون الولاية الداخلية، وده أمر ما نسمحش بيه »

مال عليه الوزير مرة أخرى، هامسًا:

« ماهو طول عمره بيتدخل ونسمح يا مولاي...»

أجابه الوالي في فزع، وبصوت هامس مماثل:

« ما هو المرة دى ما ينفعش يا وزير... ده احنا دافنينه سوا... هوه مين غير إللى بنعمله، جانجح برضه؟... »

تردد الوزير كثيرا، وبدا تردده واضحا في صوته، وهو يقول:

« والله يا مولاي... يعني الحقيقة... »

قاطعه الوالي في غضب:

« طب لما أنت فاهم كده ما تشوف لنا حل... مش أنت إللي ورطتنا في المصيبة دي؟ »

اتسعت عينا الوزير، وهتف في فزع:

« أنا يا مولاي؟... »

أجابه الوالى، وغضبه يتزايد:

« أيوه أنت... زمان كنا ممشينها تصويت... عايزين الوالي ولا مش عايزين، وكنا بنظبط أمورنا وتعدي، قعدت تقوللى إصلاح، ومنظرة، ونسكت بتوع الرفض، والقانون بتاعنا، وشيخ الولاية معانا، وأهي عكت على دماغنا كلنا... شوف لنا بقى حل... »

بدا الوزير حائرا مضطربا، وهو يحاول إيجاد حل لهذه المصيبة، وامتقع وجهه أمام الوالي، الذي يرمقه بنظرات غاضبة، فقال وكأنه يحدث نفسه، أو يختبر رد الفعل:

« ما هو السلطان حيجي ومعاه رجالته، وبتوع الدرك بتوعنا مالهومش عليهم كلمة، والوزرا كلهم في الأجازة، و... »

قاطعه الوالي في حدة:

« أجازة... أجازة إيه؟!... فين وزير الكرسي؟... »

انحنى الوزير كعادته، وهو يجيب:

« فضلة خيرك يا مولانا، بيملا حمام السباحة في قصره الجديد »

هتف الوالي مستنكرا:

« هو جاب قصر تاني؟!... ما عنده سبعة... »

قال الوزير، دون أن يعتدل:

« ده فضلة خيرك قصر صغير كده، عشان أحفاده يلعبوا فيه... حاجة ماتكملش خمسين ستين فدان... »

سأله الوالي في غضب:

« طب ووزير الدنانير... »

أجاب الوزير في سرعة:

« فضلة خيرك يا مولانا، بيشطب القرية السياحية الجديدة بتاعته، في الساحل الجنوبي... »

بدا الوالي أكثر غضبا، وهو يقول:

« هو الجدع ده ما بيشبعش قرى سياحية؟!... ده كل سنة أسمع إنه بيشطب قرية جديدة... »

كاد رأس الوزير يرتطم بالأرض، من فرط الانحناء، وهو يقول:

« فضلة خيرك بقى يا مولاي... »

رمقه الوالي بنظرة غضب، وسأله في حدة:

« وأنت بقي عملت إيه، من فضلة خيري دي؟... »

زاد الوزير من انحنائه، وهو يجيب:

« أبدا يا مولاي... ده أنا عالحديدة... »

أطلق الوالي ضحكة عصبية ساخرة، قبل أن يقول:

« قصدك على حديد الولاية كله... أنت نسيت وللا عايزني أفكرك... ده أنت حتى يتبيع حديد للواد ليشع، في الولاية إللى لطشها دي، وأرخص من هنا كمان..»

في هذه المرة كانت انحناءة الوزير كبيرة، حتى إن رأسه ارتطم بالأرض فعليا، وهو يقول:

« فضلة خيرك والله يا مولانا... »

زفر الوالي في حنق، ولوح بيده قائلا:

« ما علينا... نبقى نتحاسب بعدين المهم دلوقتى شوف لنا حل، في المصيبة التقيلة دي... حنعمل إيه لما ييجى السلطان ورجالته؟!... حنعديها إزاي؟... »

حاول الوزير أن يعتصر ذهنه؛ بحثا عن مخرج، ولكن الورطة كانت كبيرة بالفعل؛ فلقد اعتادوا دوما لعبة تزوير الانتخابات، ولقد برع هو فيها، واستخدم عساكر الدرك لإرهاب الناس أيامها، وأضاف اسماء الموتى والمهاجرين، حتى لم يعد يدري كيف يمكن أن تدار انتخابات حقيقية!!...

ثم إنه من المستحيل أن تدار انتخابات حقيقية، وتحت إشراف سلطاني، إلا لو كان الغرض منها هو عزل الوالي الحالي، الذي ظل في الولاية، منذ كان هو طفلا صغيرا، وحتى صار وزيرا..

كيف يمكن تجاوز الكارثة إذن؟!...

كيف؟!...

« وجدتها...»

هتف الوزير بالكلمة في حماس شديد، تهلل معه وجهه كله..

فانعقد حاجبا الوالى، وهو يقول:

« طب قول يا سي ارشميدس... »

أجابه الوزير في حماس:

« جنابك السلطان عمره ما جه هنا، مش كده؟... »

اعتدل الوالي يسمعه، ويجاريه قائلا في اهتمام:

« كده... »

أكمل الوزير بنفس الحماس:

« وما يعرفش شكل الولاية إيه؟... »

هز الوالي رأسه، وقال في اهتمام:

« وحيعرفه منين؟!.. ده حتى التصوير لسه ما اخترعوهوش.. »

ضرب الوزير كفه براحته الأخرى، هاتفا بكل الحماس:

« يبقى خلاص... تاهت ولقيناها... »

بدأ صوت الوالى يحمل بعض عصبيته، وهو يقول:

« هي إيه دى يا أبو العريف؟... »

أجابه الوزير، وابتسامته العريضة تشف عن سعادته بما توصل إليه:

« الانتخابات حتتعمل في ميعادها، وكل حاجة حتمشي قانوني، وبمنتهى النزاهة والشفافية والحيادية... »

اتسعت عينا الوالي في ذعر، ووثب من مقعد السلطة، يمسك برقبة الوزير صارخا في ثورة:

« نعم يا روح أمك... كل اللعبة دي عشان تطيرني؟؟!! »

اختنق صوت الوزير، وهو يحاول تخليص رقبته من قبضة الوالي، صارخا:

« اصبر بس واسمعني للأخر يا مولاي... »

صرخ فيه الوالي:

« طب انطق... اتكلم... »

بدأ الوزير حشرجات الموت، وهو يقول، في صوت محتقن كوجهه:

« أنطق إزاي بس، وإيد جنابك العظيمة عاصرة رقبتي كده... »

انتبه الوالي إلى أنه ما زال يخنقه، فأفلت رقبته، قائلا في غضب:

« أدينا سبناها... اتنيل انطق بقى »

سعل الوزير عدة مرات، ليتخلص من أثر قبضة الوالى، ثم قال في صوت متحشرج مرهق:

مادام السلطان ما يعرفش الولاية... نبني ولاية تانية... »

هتف به الوالي، مندهشا ومستنكرا:

« نعم؟!... أنت حتستعبط؟... »

أشار الوزير بيده؛ محاولا تهدئته، وهو يقول:

« إحنا نطلع بره الصحرا، وعندنا الصحرا كبيرة، وعلى قفا من يشيل، وعمرنا ما استفدنا بيها، ونروح نبني مدينة كبيرة، منظر بس يعني، كده زى حاجات السنيما... السلطان يعدي وسطها، يتهيأله إنها تمام التمام، ونقوله بقى إن دواعي الأمن تستلزم خط سير، ونمشيه في الحتت إللى حنبنيها بحق وحقيق.. »

تابعه الوالى، وهو يهز رأسه، قائلا:

« لحد كده معقول... وفي إيدينا.. »

أكمل الوزير، وقد بدأ يرتاح لمباركة الوالي:

« وكل إللي في البلد العيرة دى، يبقوا من رجالتنا، لابسين زى المواطنين العاديين، ويقفوا طوابير على مقار اللجان الانتخابية، وكل شيء تمام، قدام السلطان ورجالته، على أكمل وجه، ونزاهة وحيادية وشفافية، ومافيش أي تدخل أمني في العملية الانتخابية، وتطلع النتيجة قدامهم، وللا حتى نخليهم يفرزوها بنفسهم، وتسعة وتسعين في المية جنابك، وتمام التمام، ويا دار مادخلك شرّ..

حدق فيه السلطان مبهورا، قبل أن يهتف:

« يا بن الجنية!.. ده فكرة ما تخطرش على بال الشياطين نفسهم.. »

انحنى الوزير بابتسامة عريضة، وزاوية قائمة، وهو يقول:

« فضلة خيرك يا مولاي... »

عاد حاجبا الوالي ينعقدان، وهو يقول:

« بس فيه حاجة فاتتك يا برم... »

اعتدل الوزير في حركة حادة كالمصعوق، وهو يتساءل في ذعر:

« إيه يا مولاي؟!.. »

أجابه الوالى في صرامة:

« الانتخابات النزيهة دى، مش حيبقي فيها منافسين؟!... أو حتى منافس واحد قوي يعني... حاجة كده تخزي العين؟ »

أشار الوزير بكفيه، قائلا، مع ابتسامة:

« برضة من رجالتنا يا جنابك »

ثم التفت إلى ذلك الحارس، الذي يغمغم باستمرار، وقال في صرامة:

« تعال ياله... »

أسرع إليه الحارس مهرولا، فسأله في امتعاض:

« اسمك إيه؟... »

بلع الحارس المسكين ريقه في صعوبة، وهو يجيب:

« فقران سعادتك »

زمجر الوالى، قائلا في حدة:

« يا بنى بيسألك عن اسمك، مش عن حالتك... »

حاول الحارس أن يبلع ريقه مرة أخرى، ولكنه لم يجد ريقا ليبلعه، وهو يجيب في صوت مبحوح:

« اسمي فقران سعادتك... »

أشاح الوالي برأسه، وهو يقول في اشمئزاز:

« جتك نيلة، عليك وعلى اسمك »

قال الوزير مهدئا::

« ما هو من الشعب يا مولاي »

تمتم الوالي بنفس الاشمئزاز:

« عشان كده... »

التفت الوزير إلى الحارس، يسأله ثانية:

« اسمك بالكامل إيه؟... »

أجاب الحارس، وهو يكاد يفقد الوعي، من شدة الخوف:

« فقران عدمان فطسان سعادتك »

ثم انخفض صوته، وهو يستطرد في ضراعة:

« هو أنا عملت حاجة سعادتك؟!.. »

أجابه الوزير في صرامة:

« أنت حترشح نفسك قدام الوالي.. »

امتقع وجه الحارس المسكين، وكاد يسقط فاقد الوعي، وهو يهتف بعينين بلغتا أقصى اتساعهما من شدة الرعب:

« أنا سعادتك؟!... طب والله العظيم ماحصل... والخاتمة الشريفة، والمسيح الحي، والإنجيل، والتوراة، ماحصلش، ولا أستجرى يحصل... أنا أحط مقامي بمقام جزمة مولانا؟!.. أنا... »

زمجر الوالى، وهو يصرخ فيه في غضب:

« افهم يا حمار... أنت مش حترشح نفسك بجد... ده كله كده وكده... حركات وتمثيل يعني يا بجم... »

ظل وجه الحارس على امتقاعه، وهو ينقل بصره بينهما في حيرة مذعورة، قبل أن يحك رأسه متمتها، في صوت أشبه بالحشرجة:

« مش فاهم جنابك... »

أجابه الوزير في صرامة، وهو يبعد أنفه عنه في اشمئزاز:

« حافهمك يا حمار.. إف.. أنت ما بتستحماش يا زفت أنت؟.. »

قال الحارس في خنوع ذليل:

« الميه غليت قوي سعادتك... »

قال الوزير في حدة:

« طب غور... حأخليهم يصرفولك كوز وصفيحة مية طس نفسك بيها وانضف، عشان شكلك يمشي مع الدور..»

مال نحوه الوالي، مشجعا:

« وحنصرف لك مليون دينار، زي الفرمان العالي ما بيقول.. »

اتسعت عينا الحارس ذهوة، وغمغم في انبهار غير مصدق:

« وده يطلع عطية كام شهر كده جنابك... »

قال الوزير في تعال:

« تقدر تقول كده مرتب عيلتك وإللى جابوك، أنت والحتة بتاعتكم كلها، من يوم ما اتولدتم، لغاية مصاريف الدفنة والصوان تقريبا.. »

هجم الحارس على يد الوزير، يريد تقبيلها، فدفعه الوزير بعيدا عنه، وهو يشير إلى الوالى، قائلا في حدة:

« بوس إيد ولي النعم يا حمار.. »

أبعد الوالي يده في خوف واشمئزاز، هاتفا:

« لأ... غور.. غور.. »

أسرع الحارس يجرى، قبل أن يتراجعا في قرارهما، ومال الوزير على الوالى، قائلا بابتسامة خبيثة:

« إيه رأي جنابك بقى؟... »

أومأ الوالي برأسه في رضا، وقال بابتسامة عريضة:

« شغل شياطين... لازم أديلك مكافأة على كده يا وزير قوللى.. هو مرتبك وصل كام بالبدلات؟... »

انحنى الوزير تلك الانحناءة قائمة الزاوية، وهو يجيب:

« ستة مليون دينار عمى في الشهر جنابك... وشوية فكة كده.. ييجي قد هم تقريبا.. بس إيه رأي جنابك في النظام؟.. »

لم يكن بحاجة فعليا لمعرفة الجواب، إذ كانت ابتسامة الوالي خير دليل على سعادته بتلك الفكرة الجهنمية، لذا فاعتبارا من صباح اليوم التالي، تم اختيار بقعة منعزلة من الصحراء، وشرع وزير الديار في بناء تلك المدينة الوهمية البديلة، مستعينا بخبير في الخدع البصرية، وأستاذ في خيال الظل، واعتمد الوالي ميزانية مفتوحة، فجرى العمل على قدم وساق حتى تم إكمال المدينة قبل أسبوع واحد من وصول السلطان، وبدأ مهندسو ديكورات القصر في رشها بالتراب، حتى تبدو قديمة، وعلقوا في شوارعها دعايات لانتخاب الوالى، وبعض دعايات المنافسه (فقران عدمان فطسان)، في ثوبه الجديد..

وجاء موعد الانتخابات، ووصل السلطان مع موكبه ورجاله للإشراف عليها، وذهب الوزير مع الوالي لاستقبالهم عند مدخل المدينة الوهمية، وكان استقبالا حافلا، تكلف ثلاثة ملايين دينار دفعة واحدة، حتى إن السلطان قال مستاءً:

« كان لازمتها إيه المصاريف دي كلها يا والي؟!.. مش الشعب كان أولى بيها... »

أشار الوالي إلى جنوده، المتنكرين في هيئة مواطنين، وقال:« الشعب ما هو قدامك زي الفل أهوه يا فخامتك... واكل شارب، لابس جديد في جديد، والعطايا مغرقة الكل، ومافيش حد

محتاج... طب ده فيه ناس ماكانتش عايزة تاخد عطية الشهر ده، عشان مش عارفة تعمل بيها إيه... »

انبهر السلطان بما سمعه، وبما عليه الناس في الشوارع، من نظافة ونظام، فقال وهو يربت على ظهر الوالي في رضا:

« ده أحسن من السلطنة نفسها. إيه الحلاوة دي.. إحنا حنستعين بيك بقى؛ لتحسين أحوال السلطنة كلها.. »

انتعظ الوالي للعبارات الجميلة، وحاول أن يخفي ابتسامته، ويتظاهر بالتواضع، وهو ينحنى انحناءة تنافس انحناءة الوزير له، قائلا:

« من بعض ما عندكم يا فخامتك..... »

هز السلطان رأسه في حيرة، وقال:

« العجيبة يا أخي إن فيه ناس كتير بتشتكي إنك بتزور الانتخابات، ومابتحترمش حقوق الإنسان، وسايب الولاية فساد في فساد، وغيرها وغيرها... أتت إيه مابتقراش جرايد المعارضة؟... »

هتف الوالي في حماس مستنكر:

« معارضة إيه يا فخامتك... هنا ماعندناش معارضة... ثم أنا باقرا الجرايد كلها كل يوم الصبح... أخبار السلطنة... والولاية. والأمن العمومي... كلها فخامتك. »

« إيه ده؟!... مابتقراش اليوم الأسود... ولا دستور يا أسياد.. ولا صوت الولاية... دي كلها صحف معارضة..»

هتف الوالي:

« دي صحف صفرا وخضرا وحمرا فخامتك، وكلها كذب في كذب... طب أدى فخامتك جيت على سهوة أهوه... ده شعب غضبان ده؟... »

أدار السلطان عينيه في العسكر، المتنكرين في هيئة مواطنين، وفي نظافتهم ووجوهم المنتفخة من العزّ، وهزّ رأسه قائلا:

« الحقيقة لأ... »

أشار الوالي إلى لافتة ضخمة، تحمل صورة فقران عدمان فطسان، مع دعايته الانتخابية، وقال:

« طب شوف فخامتك الديموقراطية... أهو ده المنافس بتاعي يافطته أكبر تلات مرات من يافطتي... ديموقراطية دي بقي وللا لأ؟.. »

هز السلطان رأسه متعجبا، وغمغم:

« حقيقي... عداك العيب يا وإلى... »

ثم سأله في اهتمام:

« صرفتولة المليون دينار بتوع الدعاية... »

أجابه الوزير في سرعة:

« لآخر فلس فخامتك... »

ابتسم السلطان في ارباح، وربت على كرشه الضخم، قائلا:

« عظيم.. عظيم »

سار موكب السلطان، يضم الوالى والوزير؛ لتفقد اللجان الانتخابية، الموزعة في المدينة العشوائية، ووفقا لأوامر الوزير المشددة، كانت بعض اللجان تهتف للوالى، وبعضها الآخر

يهتف لفقران، وكلما مر الموكب على إحدى اللجان التي تهتف لفقران، كان الوالي يبتسم، على عكس المنتظر والطبيعي، ويهز رأسه، قائلا للسلطان:

« ديموقراطية بقي فخامتك... »

ثم وصل الموكب إلى اللجنة، التي سيدلي فيها فقران بصوته، وكان يقف هناك بنفسه، وفقا للتعليمات، وزملاؤه من رجال الحرس من حوله يهتفون بحياته، وهم يرتدون زي المواطنين وزملاؤهم الذين احتفظوا بثياب الحراس، يقفون في حياد تام دون أية تدخلات، فأعجب الموقف السلطان، وطلب مقابلة فقران بنفسه، وعندما هرع إليه الأخير، كان من الصعب جدا أن تتعرفه؛ فقد حلق لحيته، وارتدي ثيابا نظيفة، تفوح منها رائحة العطر، وبدا أكثر ثقة بنفسه، وهو ينحني لتقبيل يد السلطان، قائلا:

« شرفت فخامتك الولاية ونورتها... »

ربت عليه السلطان في رضا، وسأله:

« كل حاجة ماشية تمام يا فقران... »

شعر الوزير بالضيق؛ لأن فقران انحنى أكثر منه، وهو يجيب:

« بعطف فخامتكم يا مولانا... »

ربت عليه السلطان مرة أخرى، وبدا أكثر ارتياحا، وهو بسأله:

« صرفت المليون دينار بتوع الدعاية... »

تردد فقران لحظات، ثم عاد ينحني، مجيبا:

« مضيت عليهم فخامتك »

عقد السلطان حاجبيه، وهو يسأله في صرامة:

« مضيت عليهم وللا قبضتهم؟... »

تردد فقران مرة أخرى، ورمقه الوزير بنظرة نارية، في حين لوح الوالي بسبابت متوعدا، من خلف ظهر السلطان، فأسرع يجيب:

« مضيت عالمليون فخامتك، وخصموا منهم الضرايب والمستقطعات، والذي منه...

سأله السلطان، في صرامة أكثر:

« يعني قبضت كام؟... »

أجابه في سرعة:

« مية خمسة وسبعين فلس سعادتك.. »

امتقع وجه الوالى، وانكمش في مكانه، في حين أسرع الوزير يقول مضطربا:

« الباقي قرر يستثمره في مصانع الحديد والصلب بتاعتنا فخامتك.. »

التفت السلطان إلى الوزير، يسأله في صرامة غاضبة:

« هو إحنا عندنا مصانع حديد وصلب؟... »

أجابه الوزير في سرعة:

« طبقا فخامتك... دي شركة مساهمة كبيرة.. »

سأله السلطان في اهتمام:

« ومين مساهم فيها؟!... الشعب؟... »

أجاب الوزير في حماس مصطنع:

« طبعا فخامتك... مرات الوالي، وأولاده، ومراتى وولادي، وإخواتي وعمامي وخالاتي وولادهم طبعا، ومرات وزير الرز، ومرات وزير ال... »

قاطعة السلطان في غضب:

« كلهم مراتات وقرايب وزرا ومسئولين... »

أجابه الوالى في سرعة مضطربة:

« ماهو كلهم من الشعب فخامتك... »

رمقه السلطان بنظرة صارمة، وهز رأسه، قائلا:

« حنبقى نشوف الموضوع ده... بعد ما تطلع نتيجة الانتخابات... هو الفرز حيبتدي إمتى؟... »

أجابه الوالي في توتر:

« فخامتك إللي تحدد إمتى.... إحنا مالناش دعوة بالفرز خالص... رجالة فخامت يقوموا بكل حاجة... آه... عشان ضمان النزاهة والشفافية... »

هز السلطان رأسه، وقال صارما:

« لما نشوف... »

تلك الكلمة الأخيرة، جعلت كل سنتيمتر من جسد الوالي يرتجف، من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه، من لحظة سمعها، وحتى عاد مع الوزير إلى قصره، في انتظار نتيجة الفرز، وعلى عكسه تماما، بدا الوزير هادئا، منهمكا في تناول ثمرات الفاكهة في شراهة، حتى هتف هو به:

« يعني قاعد ولا على بالك!!... »

ابتسم الوزير، وواصل تناول الثمرات، وهو يقول:

« الحقيقة أنا مش عارف جنابك متوتر كده ليه؟!... أمال لو ماكناش مرتبين كل حاجة بالشعرة... »

قال الوالي في عصبية:

« آه... ما أنت ما يهمكش حاجة... طالع واكل نازل واكل ولو كسبت أديك وزيري، ولو خسرت حتبقى وزير سي زفت فقران ده... مش فارقة يعني.. »

شعر الوزير بتوتره الشديد، فتوقف عن الاكل ليقول مهدئًا:

« تخسر؟!... تخسر إزاي بس جنابك... أنت إيه، كدبت الكدبة وصدقتها وللا إيه... دول رجالتنا، وقلبهم علينا.. »

ظل الوالي على توتره، وهو يفرك كفيه في عصبية، قائلا:

« أصلك ما سمعتش السلطان قاللى إيه، قبل ما يمشي »

انتقل قلقة وتوتره إلى الوزير، الذي سأله:

« قالك إيه جنابك؟ »

مال الوالي نحوه، وكأنه سيخبره سرا عويصا، وهمس بكل توتر الدنيا:

« قاللي إنه ما يعتقدش النتيجة المرة دي حتكون تسعة وتسعين في المية، زي كل مرة... »

همس الوزير بدوره، دون مبرر واضح، وبأنفاس مبهورة للغاية:

« هوه قالك كده؟!.. »

أوما الوالي برأسه إيجابا، في توتر شديد، فاعتدل الوزير متراجعا، يفكر فيما قاله السلطان، ثم لم يلبث أن هتف في حماس:

« آه.... فهمت...

سأله الوالى في لهفة:

« فهمت إيه؟!... قوللي.. »

عاد الوزير يميل نحوه، وهو يبتسم، قائلا:

« أصل فخامته شاف وسمع اللجان، إللى بتهتف لفقران ده، وصدق إن ده بصحيح، فقال: لما فيه كتير بتهتف له كده، يبقوا أكيد مش هينتخبوا جنابك.. س

تراجع الوالي بدوره، مغمغما:

« تفتكر كده؟... »

هتف الوزير في حماس:

« أكيد جنابك »

بدت لمحة من الشمال، على وجه الوالي، فتابع الوزير في ثقة:

« كلهم رجالتنا، وكلهم عايشين من خيرك جنابك، وكلهم واخدين أوامرهم مني يبقى مش حينتخبوك ليه... جنابك إطمن التسعة وتسعين في المية في جيبنا الصغير خالص... »

هز الوالى رأسه، وقال في قلق:

« طب مش كنا خليناها خمسة وتسعين وللا تسعين؟!... عشان حتى تبقى مبلوعة.. »

هز الوزير رأسه نفيا في حزم، وقال:

« بقى تبقي جنابك ناجح بتسعة وتسعين في المية المرة إلى فاتت، وتقل المرة دى طب فخامة السلطان يقول إيه؟!..... شعبية جنابك بتقل!... »

تراجع الوالي مفكرا، ثم أومأ برأسه، قائلا:

« عندك حق يا وزير... »

مع قوله دخل السلطان بادي الدهشة، وهو يضرب كفا بكف قائلا:

« أنا مش مصدق إللى بيحصل في الولاية دي!!... ماتعرفش تفهم ناسها أبدا، مهما حاولت... »

التفت إليه الاثنان في لهفة، وعقد الخوف لسان الوالى، في حين تساءل الوزير في اهتمام شديد القلق:

« خير فخامتك؟ »

جلس السلطان بينهما، وهو يقول في دهشة منفعلة:

« إنتوا مش سمعتوا بودانكم الهتافات، وشفتم الطوابير؟ »

غمغم الوزير في حذر:

« حصل فخامتك »

ضرب السلطان كفا بكف مرة أخرى، وقال:

« رغم كل ده النتيجة تطلع كام؟... »

سأله الوالي بصوت متحشرج:

« كام فخامتك؟!.. »

ضرب السلطان كفا بكذ، للمرة الثالثة، قبل أن يجيب بكل الدهشة

« تسعة وتسعين في المية »

تنفس الوالي الصعداء، على نحو ملحوظ، وابتسم الوزير ابتسامة عريضة، وهو يقول:

« القلب وما يريد بقي فخامتك.. »

قال السلطان في دهشة:

« يعني انتو شايفين إن ده منطقي... »

أجابه الوالي، الذي استعاد ثقته بنفسه:

« فخامتك شفت بنفسك... كل شيء تم بحيادية وشفافية ونزاهة... وده رأي الشعب، والديموقراطية إننا نحترم قراره... »

هتف السلطان، ودهشته تتضاعف:

« بس تسعة وتسعين في المية؟... »

قال الوزير في ثقة:

« وليه لأ فخامتك... الشعب حر، يختار الوالي بتاعه براحته، ومن غير أي ضغط... »

هز السلطان رأسه، وهو ينقل بصره بينهما في دهشة، قبل أن يقول:

« حقيقي... أنا ماشفتش في السلطنة كلها روح ديموقراطية زي دي »

انحنى الوالي والوزير انحناءة تنافسية، وهما يقولان في آن واحد:

« فضلة خيرك فخامتك... »

وعندما اعتدلا، فوجئا بفقران يدخل القاعة، فهتف الوزير مستنكرا:

« ده بيعمل إيه هنا ده؟... »

ابتسم فقران في ثقة، في حين رمقهما السلطان بنظرة حائرة، وهو يقول:

ثم أشار إلى فقران، مضيفا:

« أقدم لكم الوالي الجديد... »

وفي نفس اللحظة، التي سقط فيها الاثنان مصعوقين، انحنى فقران، حتى ضرب رأسه الأرض، وهو يقول للسلطان، في خضوع وخشوع شديدين:

« من عطفك وفضلة خيرك يا مولانا... »

(تمت)

97- شروق..

انحدرت دمعة ساخنة، من عيني (سلمى)، وهي تقف عند سور كوبرى قصر النيل، في تلك الساعة المتأخرة، بعد منتصف الليل..

الكثيرون حذروها من الخروج في هذا الوقت المتأخر، في مثل هذه الظروف، التي انخفضت فيها القبضة الأمنية، وصارت الجريمة عنوانا يوميا معتادا في الصحف..

ولكنها لم تهتم كثيرا..

فكيف يمكن أن يخشى إنسان الموت ، وهو ذاهب إليه بالفعل بقدميه؟

الحياة بالنسبة إليها انتهت، منذ لفظ حبيبها (عاصم) أنفاسه الأخيرة بين ذراعيها، إثر إصابة مباشرة في صدره، من أحد بلطجية المرحلة..

لقد كان الوحيد، الذي منحته قلبها، وشعرت معه بالأمن والأمان والراحة والاستقرار..

كانا يخططان لحفل خطبتهما، عندما حدث ما حدث يومها أصابتها صدمة عنيفة، فقدت معها الوعي لثلاثة أيام ثم أفاقت على الحقيقة المخيفة..

لم يعد هناك (عاصم)...

لم يعد هناك أمن..

أو أمان..

لقد نشأت يتيمة، في كنف عمها، الذي لم يرعها كما كان ينبغي أن يفعل..

وهكذا نشأت، تفتقر إلى أهم احتياجات أية أنثى..

الأمان..

حتى ظهر (عاصم) في حياتها..

كان حنونا، طيب القلب، رقيق المشاعر..

عرفته وعرفها..

وفهمته وفهمها..

وأحبته وأحبها..

عندئذ فقط أشرق الأمل في حياتها..

عندئذ فقط، أحبت الحياة..

أحبتها معه..

وبه..

كل من عرفها قال إنهما توءمان، على الرغم من أنهما يختلفان جسديا، في كل ناحية من النواحي..

هي قصيرة، ضئيلة نحيلة، وهو طويل قوي مفتول العضلات..

ولكنهما كانا بالفعل تو ءمين..

كانا يفكران في الأمور نفسها، وبالأسلوب نفسه..

رؤيتهما لكل شيء كانت متطابقة، إلى حد أثار دهشتهما معا، في أيامهما الأولى، قبل أن يعتادا هذا، بل ويتمازحان بشأنه طوال الوقت...

ربما لهذا لم يكونا يفترقان أبدا تقريبا..

فقط في ساعات النوم..

كانا توءمين في الحياة...

وهو رحل عن الحياة...

فلماذا تبقى هي؟....

لماذا؟..!

أمسكت سور الكوبرى، والتقطت نفسا عميقا، وهي تتطلع إلى مياه النيل، التي هي حتما باردة، في هذا الوقت من الليل..

استجمعت شجاعتها، وعادت بجسدها إلى الخلف، وهي تمسك بالسور؛

لكي تدفع جسدها عبره، و...

لماذا؟..!

انتفض جسدها مع السؤال، الذي انبعث من خلفها، مع اليد القوية التي أمسكت كتفها، واستدارت إلى صاحبها في ذعر عنيف، وقد اتسعت عيناها عن آخرهما، وحقت في ضابط الشرطة، الذي يمسك كتفها، والذي - وعلى الرغم من الموقف شديد التعقيد - منحها ابتسامة هادئة، وهو يواصل:

- لماذا تفكر شابة مثلك في هذا؟!..

مضت لحظة من الصمت، وهي تحدق فيه بنفس الذعر، قبل أن تجذب كتفها من بين أصابع يده، هاتفه بكل العصبية والتوتر:

- وما شأنك أنت؟!

بدت لها ملامحه شديدة الطيبة، على عكس ما يتردد عن رجال الشرطة، وهو يقول:

- ربما هو ليس من شأني بالفعل... وربما أنت على حق، ولكن دعينا نسأل نفسينا معا: لماذا قادني القدر إلى هنا، في هذه اللحظة بالذات؟!

هتفت بكل العصبية:

- لا شأن للقدر في هذا.

قال بنفس الهدوء والطيبة:

- فلنعتبر الأمر مصادفة إذن.

أشاحت بوجهها عنه، وعادت تمسك سور الكوبرى، قائلة في حدة:

- امض في طريقك... لا يوجد قانون يمنع الناس من الوقوف على الكوبرى، في أية ساعة..

صمت لحظة، ثم قال:

- في هذه الأيام، لا يوجد قانون أساسا..

التفتت إليه في دهشة، وهي تقول في توتر:

- ولماذا خرجت بزيك الرسمى إذن، ما دمت تعلم هذا؟..!

اتسعت ابتسامته، هو يهز رأسه نفيا، قائلا:

- لست أدري... صدقيني... لست أدري.

صمت لحظة، ثم استطرد:

- ربما أتيت لمحاولة إقناعك بخطأ ما تريدين الإقدام عليه..

عادت تشيح بوجهها، قائلة في عصبية:

- أنت لا تعلم ما أريد الإقدام عليه.

قررت أن تفعل ما أتت من أجله في سرعة، قبل أن يستطيع منعها، فقبضت على سور الكوبرى في قوة...

« منذ ثلاثة أيام فحسب، أتيت إلى هنا؛ لأفعل ما توشكين على فعله»

أدهشتها كلماته كثيرا..

وأدهشها أكثر ذلك الحزن البالغ، الذي قالها به، فعادت تلتفت إليه متسائلة في توتر:

- أنت؟!

أومأ برأسه إيجابا، والتمعت في عينيه دمعة، وهو يومئ برأسه إيجابا،

ويقول في صوت مختنق:

- كانت هناك لحظة، تصرت فيها أن الحياة قد انتهت، ولم يعد لدي أي أمل فيها....

غمغمت:

- الحياة لا تساوي شيئا..

حاول أن يبتسم ابتسامة حزينة، وهو يقول:

- هذا ما تصورته أنا أيضا؛ عندما سيطر الشيطان على ذهني، مستغلا حزني الشديد، وحاول دفعي لإغضاب الله سبحانه وتعالى، وإنهاء حياتي بيدي..

غمغمت في اضطراب:

- حزنك الشديد؟..! لماذا؟!

صمت لحظات، مقاومة غصة في حلقه، ومحاولا السيطرة على تلك الدمعة العنيدة في عينيه، قبل أن يقول، بنفس الصوت المختنق:

- كيف يكون شعورك، لو فقدت كل من لك في الحياة بضربة واحدة؟!

كادت تنهار أمامه، وهي تجيب في مرارة:

- صدقني... لقد اختبرت هذا الشعور.

تابع بكل المرارة::

- كنت في عملي، وأحاول حماية أناس مثلك، عندما هاجم بعض المجرمين منزلي، في أول ساعات الانفلات الأمني، و....

منعته غصة حلقة من الاستمرار، فازدرد لعابه؛ محاولا السيطرة عليها، فهتفت هي تستحثه على المواصلة:

- وماذا؟!

لوح بذراعه، مجيبا، وقد تضاعف اختناق صوته:

- قتلوهم.

سألته في خوف:

- قتلوا من؟!

كاد يبكي، وهو يجيب:

- كلهم... زوجتي، وابنتي، وابني... وحتى أمي..

هوى قلبها بين قدميها، وهي تقول ملتاعة:

يا ربي!!...يا ربي...!!

رأت تلك الدمعة تنتصر، وتنحدر على وجهه، وهو يقول:

- عدت لأجدهم جميعا قتلى... ذبحوهم بلا رحمة. حتى الصغيرة ذات العامين، لم تثر في نفوسهم المريضة ذرة من الشفقة.

انحدرت الدموع من عينيها، وهي تقول منتحبة:

- ولكن هذا فظيع... فظيع..

وافقها بإيماءة من رأسه، ومسح الدمعة المتمردة عن وجهه، وهو يقول:

لهذا حاولت أن أفعل ما تحاولين فعله..

بكت وهي تقول:

- يدهشني في الواقع أنك لم تفعل.

التقط نفسا عميقا؛ للسيطرة على مشاعره، وعاد يبتسم تلك الابتسامة الحزينة الطيبة، وهو يقول:

- ربما ألهمني الله سبحانه وتعالى ألا أفعل، حتى أكون هنا اليوم..

بكت في حرارة، وهي تقول:

- ولكنك فقدت كل من تحب..

مرة أخرى وافقها بإيماءة من رأسه، مجيبا:

- ولكنني لم أفقد إيماني بالله سبحانه وتعالى.

قالت منهارة:

- وماذا بقي لك في الحياة؟!

أجاب في سرعة:

- الامل..

مع كلمته، سقط أول ضوء من الشروق على وجهها، فانتفض جسدها، وشعرت بانقلاب عجيب في مشاعرها، وهو يواصل:

- هناك مقولة لحكيم قديم، تقول: « ما دمت حيا فلتحيا، فمع كل شروق، هناك أمل جديد..

تطلعت شادرة إلى أضواء الشروق، من حيث تشرق الشمس، وهي تغمغم:

- مع كل شروق أمل جديد..

ربت على كتفها في حنان، وهو يقول:

- مهما بلغ ظلام الليل، فالشمس تشرق في نهايته حتما..

كانت الشمس تشرق بالفعل أمام عينيها، من خلف النيل العظيم..

فتطلعت إليها، وقلبها يخفق في قوة، وعقلها يردد العبارة...

« مهما بلغ ظلام الليل، فالشمس تشرق في نهايته حتما »

ويا لها من حكمة..

الآن فقط، ومع شروق الشمس، ذهب ظلام اليأس في نفسها...

بل وأفزعتها فكرة أنها كانت ستقدم على الانتحار..

تطلعت إلى الشمس بضع لحظات، ثم التفتت إليه...

ولكنه لم يعد هناك..

كان في نهاية الكوبرى يساعد امرأة مسنة بسيطة على عبور الشارع، وعلى وجهه نفس الابتسامة الهادئة الطيبة، على الغم

من المأساة التي عاشها...

وفي صمت، ابتعدت عن سور الكوبرى، وراحت تسير نحو نهايته..

نعم... هناك دوما أمل يشرق، مهما ساد الظلام...

حتما..

(تمت القصص القصيرة بالكامل)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

2040

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1-حرف الألف..

2-النهاية..

3- المخلوق..

4- المسئول..

5- الجزاء..

6- الولد..

7- السقوط..

8- الحلم..

9- القشة..

10- الوحش..

11- الثمن..

12- احتلال..

13- الوداع..

14- الثأر..

15- من الذاكرة..

16- الضعيف..

17- أصغر مسرحية في الكون..

18- الخلود..

19- البطل..

20- القانون..

21- القوة..

22- الانتظار..

23- لعبة كبار..

24- عملية نشل..

25 – الشبح..

26- طارق..

27- تصادم..

28- إلى الأمام..

29- الوجه الآخر..

30- جنـــون..

31- كلام أطفال..

32- العبقري..

33- الدخان..

34- انتقام.

35- السر..

36- رفقـًا بهم..

37- الخوف..

38- محطة فضائية..

39- أعرف ماذا فعلت..

40- لعبة العمر..

41- العقاب..

42- السيطرة..

43- العلاج..

44- الوسيم..

45- صديقتها..

46- العودة..

47- بدون عمل..

48- الأوتوبيس..

49-المجانين..

50- ريان يا فجـل..

51- الزائـــر..

52- مذكرات شخص..

53- لدواعي الأمن..

54- لو علمتم الغيب..

55- بالدم..

56- الزهرة..

57- قانون البقاء..

58- رسالة..

59- سبحان الله..

60- خرزة زرقاء..

61- الظلال..

62- اللص..

63- الكواكب الأخرى..

64- كمبيوتر..

65- التماس..

66- أبيض وأسود..

67- قطرة حب..

68- دليل..

69- بشرة بيضاء..

70- سنة واحدة..

71- اختـلاف..

72- دموع الإنترنت..

73- اللحن المفقود..

74- أم على..

75 - الحاج (شيحة)..

76- القنبلة..

77- بالمصادفة..

78- ورحلت..

79- قلبي.. وقلبه..

80- أهداب..

81- ليس كل مرة..

82- وكلما شاءت..

83- القرار..

84- المحتلون..

85- آخر الخط..

86- المفتاح..

87- جبروت..

88- آسف..

89- رنـــات..

90- ستة أسطر..

91- قطرة حب..

92- ندوة..

93- سعدية..

94- جمعية الحرنكش.. (مسرح الشباب)..

95- وزارة العقل..

96- ٪99..

97- شروق..

فهرس المحتويات:

الملاحظات

[←1]

(*) يتداول اهل الريف في معظم قرى (مصر) هذه المقولة، بأن الشبح يفارق المكان، لو أطلق أحدهم النار على قلبه، وتصاعدت في المكان رائحة بارود.

[←2]

(*) ريان يا فجل: مصطلح يستخدمه العامة في (مصر)، للدلالة على سخافة أو تفاهة أي عمل.

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠ قصص الأعداد

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

النبوءة

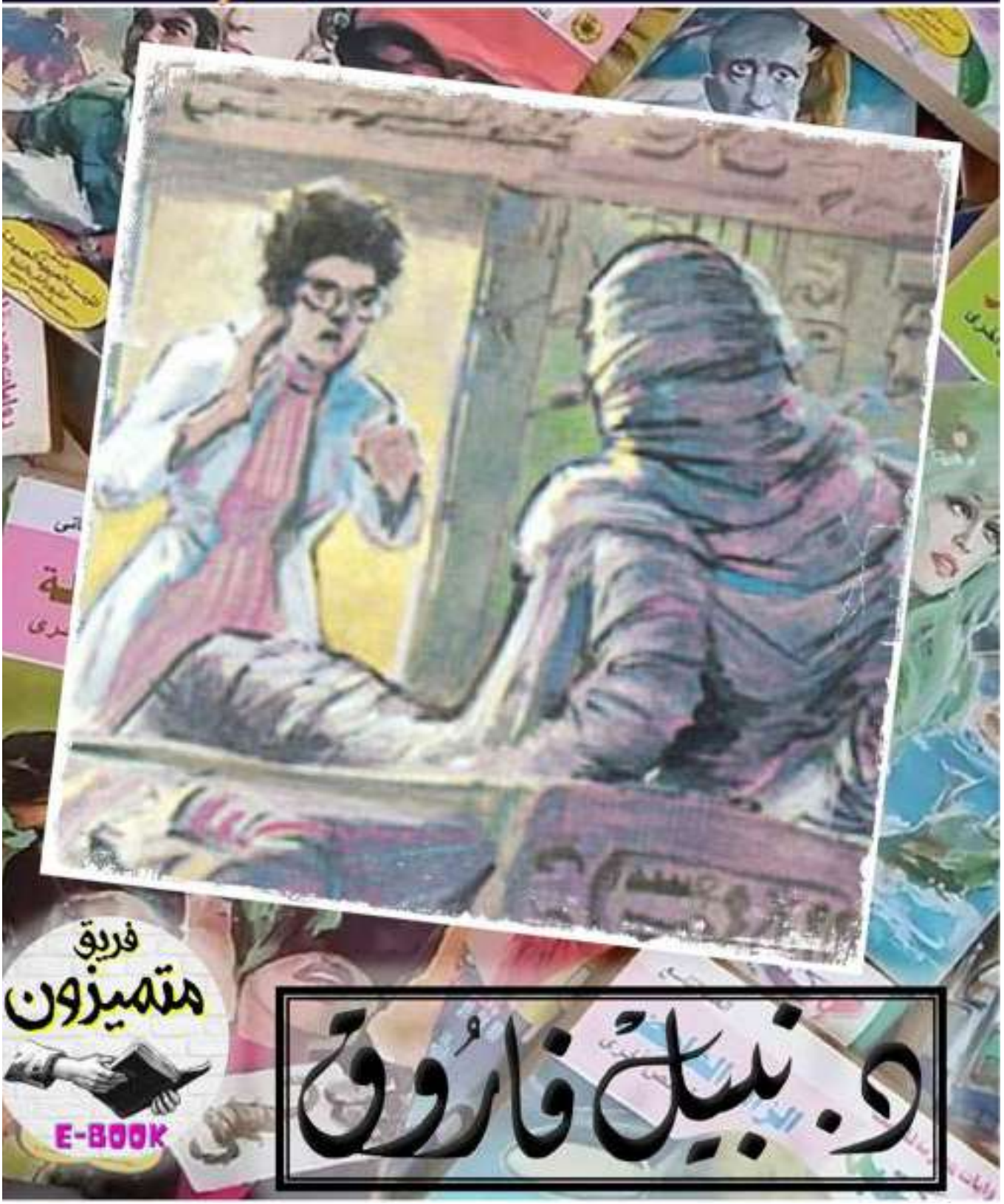

د. نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

2052

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

(قصص العدد)

النبـــوءة

1- اللعــنة..

امتدت الصحراء شاسعة، مترامية الأطراف إلى ما لا نهاية،، امام ذلك النسر القوي، الذي فرد جناحيه العظيمين، وراح يحلق فوق تباب الرمال في عظمة وشموخ حتي التقطت عيناه صورة ذلك الجسد المتهالك، الملقي وسط الصحراء القاحلة، فانقض عليه، ممنيًا نفسه بوجبة شهية، لولا أن ندت من ذلك الجسد حركة ضعيفة واهنة، جعلته يتراجع، ويطوي جناحيه بعيدا، وعيناه تتابعان حركة ذلك الجسد، في انتظار أن تخمد أنفاسه، فينقض عليه، ويفترسه بلا رحمة، مشبعا نداء الجوع في غريزته الصماء..

وتحركت عينا ذلك الجسد المسجى، والتقتا بعينى النسر لحظة، وهما تحملان تعبيرا جامدا متهالكا، انهكته وأثخنته جراح لا حصر لها..

وانطلقت أفكاره بعيدا..

إلى حيث بدأت تلك الأحداث، التي القت به في هذا الموقف اليائس..

إلى البداية..

☆ ☆ ☆

توقفت سيارة من نوع (الجيب)، تتبعها سيارتان من طراز نصف النقل، في تلك المنطقة القفرة من صحراء (مصر) الغربية وهبط منها الدكتور (رشاد مندور) عالم الآثار المصرية، وهو يقول لزميله الدكتور (سالم محمود):

- هنا برز أعظم كشوف الربع الأخير من القرن العشرين يا صديقى.

هبط الدكتور سالم) خلفه، وتبعته زميلتهما الدكتورة (وفاء عبد الفتاح)، وهي تتطلع إلى جدار ضخم، برز من حفرة في رمال الصحراء، وهو يحمل تلك النقوش الهيروغليفية، التي تشير إلى كونه مدخلا لمقبرة فرعونية جديدة، وغمغمت في انبهار:

- الباب سليم، وهذا يعني أن المقبرة لم تفتح من قبل.

هتف الدكتور ارشاد) في حماس:

- إنها حالة نادرة اخرى، بعد مقبرة توت عنخ آمون)، ولكن هذه تختلف.. إنها أعظم حتما.

سأله الدكتور (سالم) في تشكك:

- كيف يمكنك ان تقول هذا؟

هتف الدكتور (رشاد):

- سترى بنفسك.

وجذبه من كفه نحو باب المقبرة الحجري، وتبعتهما الدكتورة (وفاء)، وهي تقول في حذر العلماء:

- لاحظ أن كشوف مقبرة (توت عنخ آمون)، ما زالت تبهر العالم حتى الآن..

لوح (رشاد) بكفه، هاتفًا:

- هراء.. مقبرتنا هذه ستحطم الدنيا.

ثم أشار إلى نقش مميز في منتصف الباب، مستطردا في حماس:

- انظر حالة فريدة في نوعها.. ثلاث خراطيش ملكية ([1]) دفعة واحدة.. هل رأيتها مثل هذا من قبل؟..

هل ورد ذكره في أي مرجع من مراجع علم الآثار؟

ثبت الدكتور (سالم) منظاره الطبي فوق أنفه، وهو يحدق في الخراطيش الملكية الثلاث، مغمغمًا في انبهار:

- لا.. لم يحدث ذلك قط في الواقع.

وهتفت الدكتورة (وفاء):

- إنه أمر شديد الغرابة حقا، فوجود ثلاث خراطيش ملكية يعني وجود ثلاث مومياوات ملكية في هذه المقبرة، ولم يحدث أبدا أن وضع قدماء المصريين ثلاثة من موتاهم في مقبرة واحدة، خشية أن تقلق الأرواح بعضها البعض عند البعث، أو أن تختلط الأحشاء عندما تعود الروح إلى الجسد، بحسب معتقداتهم. ([2])

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي (رشاد)، وهو يقول:

- وهنا تكمن روعة الكشف.

وشمله الحماس، فراح يلوح بكفيه، مستطردا:

- كشفنا لهذه المقبرة الفريدة في نوعها، وفي مكانها، سيهدم كل نظريات العصور الفرعونية رأسا على عقب، ومن المدهش أن يتم كشف هذه المقبرة بالمصادفة البحتة، خلال عملية بحث عن البترول الخام.. اليس معجزة؟

أجابته الدكتورة (وفاء):

- بلى.. وهو أمر مثير للحيرة حقا، فتلك المقبرة توجد في منطقة نائية، بعيدة عن كل جبانات العصور الفرعونية، حتى أنني أكاد

أجزم بكونها منفردة، ثم إنه ما من اثر لوجود حياة حولها، فلماذا يختار قدماء المصريين منطقة منعزلة كهذه، لدفن ثلاثة من ملوكهم في مقبرة واحدة؟

اشار الدكتور (رشاد) إلى الباب الحجري للمقبرة، هاتفا في حماس:

- سنجد الجواب خلف طن الأحجار هذا.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة، وهو يستطرد:

- الآن.

ارتفع حاجبا الدكتور (سالم) في دهشة في حين هتفت الدكتورة (وفاء):

- كيف؟.. من المفروض أن ننتظر قدوم لجنة خاصة، وبعض الخبراء، و....

قاطعها وهو يلوح بكفه:

- هراء.. إنها كشفنا نحن، ونحن سنشبع فضولنا منها أولا.

ثم أشار للرجال الذين يمئلون السيارتين نصف النقل، قائلا في حماس:

- هيا با رجال افتحوا الباب.

هبط الرجال من السيارتين، وراحوا يعملون على رفع الباب الحجري الضخم، في تعاون تام، بحيث صارت أكفهم كلها ترفعه في آن واحد، في حين غمغم الدكتور (سالم) في اعتراض متخاذل، لم ينجح في إخفاء رنة اللهفة والفضول في صوته:

- أظن هذا غير قانوني.

اجابة الدكتور (رشاد)، وهو يراقب عملية رفع الباب الحجري في لهفة:

- عظمة الكشف ستدارى كل الأخطاء.

رفع الرجال الباب الحجري في تلك اللحظة، فتصاعد من المقبرة الملكية، التي ظلت مغلقة طيلة آلاف الأعوام، رائحة رهيبة، اختلطت بعبق عطري عجيب، جعل الدكتورة (وفاء) تطلق شهقة قوية، وهي تهتف:

- رباه!! إنني لم أشتم مثل هذه تبدو اشبه بـ.. بـ..

قاطعها الدكتور (سالم) في رهبه:

- برائحة الموت.

التفتت إليه في حدة ودهشة، إلا أنها لم تلبث أن تمتمت في خوف مبهم:

- صدقت.

هتف الدكتور (رشاد)، وهو يناول كلا منهما مصباحا يدويا:

- خذا.. هيا بنا.. لا وقت لتلك المناقشات البوهيمية، هناك كشف تاريخي ينتظرنا.

تقدم الثلاثة نحو المقبرة في رهبة، وخطا الدكتور (رشاد) داخلها، وهو يقول في انفعال:

- لقد تلاشت الرائحة تقريبا..

غمغمت الدكتورة (وفاء) في توتر:

- لست أظنها ستفارق أنفى ابدا..

تجاهل الدكتور ارشاد) قولها، وهو يدير مصباحه اليدوي في المكان، مغمغما في ضيق:

- عجبا، لا توجد أية اوان او حلى ذهبية، في حين تؤكد كل الشواهد أن باب المقبرة لم يفتح من قبل.

تمتم الدكتور (سالم):

- ربما لم يضعوا معهم حليا ذهبية، أو..

قاطعه الدكتور (رشاد في حنق:

- محال.. كل الملوك توضع كنوز هم بعهم في مقابر هم هتفت الدكتورة (وفاء) في هذه اللحظة: انظرا!!

أدار الاثنان ضوء مصباحيهما نحو ضوء مصباحها، وهتف:

الدكتور ارشاد) في حماس هائل:

- ثلاثة توابيت با للروعة!.. كنت أعلم أننا سنجد هنا كشفا فريدا..

رفع الدكتور (سالم) ضوء مصباحه إلى حائط المقبرة، الملاصق لرؤوس التوابيت الثلاثة، وهو يقول:

- هناك رسالة أيضا.

هتف به الدكتور (رشاد):

- دعني أقرأها.

وراحت عيناه تجريان على النقوش الهيروغليفية، وهو يقول مترجما إياها إلى العربية في يسر اكتسبه من طول خبرته:

- «في هذا اليوم الكئيب بعد تمام العام الأول من هبوط آلهة النار على أرضنا، وبعد انتشار لعنتهم بين شعبنا، قضي أبناء

الفرعون الأعظم نحبهم، ولهم غفران آلهة الشمس، ولقد ولدوا معا في يوم واحد، وماتوا معا في بوم واحد، وبعد خمسة آلاف عام سيدنس قبرهم ثلاثة من البشر، ولدوا في يوم واحد، وستحل عليهم اللعنة، ويموتون في يوم واحد، ولكن احدهم سينقذ العالم من لعنة الهة النار قبل موته... انتهى الدكتور (رشاد) من ترجمة النبوءة، وران على المقبرة صمت تام، قطعه صوت الدكتور (سالم)، وهو يقول في عصبية:

- هراء.

اجابته الدكتورة (وفاء) في شحوب:

- ولكن تلك النبوءة تحمل جزءا من الحقيقة، كنا نتندر به دوما، وانت تدركه جيدا.

لوح بكفه قائلا في حدة:

- ولو.. لن تنجح قوة في الأرض في دفعي إلى الإيمان بلعنة الفراعنة هذه، فلا وجود لعالم آثار ناجح، يؤمن بتلك الخرافة..

هتفت به في عصبية:

- أتؤمن حقا بكونها مجرد خرافة؟

تهتم الدكتور ارشاد) في توتر:

- ربما هي مجرد مصادفة.

هتفت مستنكرة:

- مصادفة أنت تعلم أن عمر هذه المقبرة خمسة آلاف عام بالضبط، وهذا واضح من اسلوب بنائها ونقوشها، ثم هناك تلك المصادفة المخيفة..

وارتجف صوتها، وهي تستطرد:

- نحن الثلاثة من مواليد الثاني والعشرين من فبراير.. عام ألف، وتسعمائة، وستة، واربعين.. اي اننا – بالمصادفة البحتة - قد ولدنا في يوم واحد.

وازدادت ارتجافة صوتها في شدة، وهي تردف في صوت أقرب إلى البكاء:

- ولقد أصابتنا اللعنة معًا.. لعنة الفراعنة..

☆ ☆ ☆

2 - الحلم..

كانت تلك الليلة كئيبة حقا، وقد اجتمع العمال حول كومة من الأعشاب المشتعلة، واجتمع علماء الآثار الثلاثة حول كومة أقل حجما، وساد سكون عجيب، اشترك مع المقبرة المفتوحة، على قيد أمتار، في صنع مشهد مخيف، قطعه الدكتور (رشاد) وهو يقول في ضيق:

- حسنا يا دكتورة (وفاء)، إنني أعترف بأنه من عجائب الأمور أن يجتمع ثلاثة من علماء الآثار، يتفق تاريخ مولدهم تماما، ويفتحون مقبرة تحمل نبوءة بمثل هذا المعنى، ولكن الأمر في رأيي لا يتعدى كونه مصادفة بالغة التعقيد..

هزت راسها نفيا في عناد، وهي تقول:

- لن يمكنك إقناعي بهذا أبدا، فالمصادفات لا تبلغ مثل هذا الحد.

اندفع الدكتور (رشاد) يقول في حنق:

- اسمعي يا دكتورة (وفاء)، سأكرر لكِ ما سبق أن قلته: لا وجود لعالم آثار ناجح، يصدق لعنة الفراعنة هذه.

التفتت إليه تقول في حزم:

- حقا؟!.. أخبرني إذن لماذا وضعت هذه المقبرة في مكان منعزل كهذا، يخلو من أية مقابر مجاورة، ومن اية آثار للحياة؟.. لماذا تم وضع ثلاث مومياوات في قبر واحد؟ لماذا خلت المقبرة من أية حلى او أوان ذهبية؟.. أين ذهبت احشاء المومياوات، التي يتم حفظها إلى جوارها عادة في أوان خاصة؟.. هل تجد الجواب

على كل هذا؟.. لن تجده بالطبع.. اسمع رأيي أنا إذن.. إنني أرى أن كل هذه الأمور عجيبة، لا تجتمع ابدا في ظروف عادية، ولست من هواة تصديق المصادفات الشديدة التعقيد كهذه، ولو أنك تصر على العناد فهذا شأنك، أما أنا فسأصدق هذه النبوءة، حتى ولو حرمني هذا - في رايك - من صفة (العالم الناجح).

ران الصمت لحظة، ثم لوح (سالم) (بكفه)، قائلا:

- حتى ولو صدقنا النبوءة، لا يوجد ما يخيف، فلا أحد يدري متى تتحقق، ومتى نموت.

قالت في حزم:

- هذا يتوقف على نوع اللعنة..

قاطع الدكتور (رشاد) حديثهما في صرامة:

- كفي.. حديثكما هذا يصيبني بالاكتئاب..

ثم نهض مستطردا في توتر:

- ثم إنه من الضروري أن ناوى إلى فراشنا، فمهمتنا غدا شاقة و..

قالها، واتجه إلى خيمته في حزم، فتمتم الدكتور (سالم)، وهو ينهض بدوره:

- نعم.. أمامنا غدا عمل شاق.. فسنفحص المومياوات الثلاث.

وتبع الدكتور (رشاد)، وابتعتهما الخيمة معا، فنهضت (وفاء) بدورها، واتجهت إلى خيمتها في صمت، ولم تكد تلجها، حتى ألقت جسدها فوق فراشها الصغير، مغمغمة:

- ولكن من منا سينقذ العالم من اللعنة؟.. من؟

والعجيب أنها - وعلى الرغم من توترها - سقطت في نوم عميق..

وفي نفس اللحظة، كان الدكتور (سالم) يتقلب في فراشه، وهو يفكر في أمر تلك اللعنة، التي انتظرتهم خمسة آلاف عام، فهو - ولأول مرة - يميل إلى تصديق نبوءة من نبوءات قدماء المصريين، ربما لأنها تنطبق على حالتهم على نحو لا يتطرق إليه الشك..

صحيح أنه يحاول التظاهر بالعكس، ولكنه يدرك جيدا أن الدكتور (رشاد) بفهمه، ويفهم محاولاته لإخفاء خوفه وتوتره..

وإلى جواره، شعر بحركة الدكتور (رشاد)، وتقلبه في فراشه، فلم يذق هذا الأخير النوم ايضا..

إنه أيضا يصدق النبوءة، ولكنه يخشى الاعتراف بذلك، حتى لا يجرح كرامته العلمية، أو يخدش خبرته المعهودة.. إن تطابق النبوءة الرهيب مع الواقع يثير رجفة في أوصاله، ورعشة في عروقه، حتى ليكاد يغادر الفراش، ويهرع إلى اقرب سيارة، فيستقلها، وينطلق هاربا.. ولكن فضوله العلمي بمنعه..

وكذلك عقله.. لقد فتح مع زميليه المقبرة بالفعل، ولو أن اللعنة تقصدهم، فقد أصابتهم وانتهى الأمر..

المهم أن يعرف لماذا؟.. وماذا؟..

لماذا تصيبهم، وما هي اللعنة نفسها؟..

وعند تلك النقطة طافت صورة الدكتورة (وفاء) بذهنه..

ترى هل نجحت في النوم، ام انها مثله تعاني من ارق رهيب؟..

ولم يدرك لحظتها أن (وفاء) كانت غارقة في نوم عميق..

ذلك النوم الذي تنبت فيه الأحلام..

والكوابيس..

لقد رأت فيما يرى النائم - نفسها تنجه وحدها إلى المقبرة، وتلجها في خوف، وسط ظلام دامس، ثم رأت ضوءا أخضر يغمر المكان، وارتجف قلبها في رعب هائل، عندما رأت أغطية التوابيت الثلاثة ترتفع، وتنهض منها تلك المومياوات الهائلة....

وانطلقت تعدو في رعب، والمومياوات الثلاث تطاردها في شراسة، وبيد كل منها منجل من نار، تحش به رءوس كل من يصادفها الشر..

وهي تجري وسط الصحراء..

ثم فجأة تلحق بها مومياء، وترفع منجلها الملتهب لتحش رأسها..

وتصرخ هي، ثم تمد يدها لتنزع تلك اللفائف الكتانية، التي تحيط براس المومياء.. يا للهول!!..

يا له من وجه اسود بشع رهيب، مشوه إلى درجة مرعبة للغاية..

ولم تحتمل بشاعة وجه المومياء..

وهوى المنجل المشتمل على عنقها، و...

واستيقظت فزعة..

استيقظت وهي تطلق شهقة قوية، وتمسك عنقها وكأنها تحميه من منجل النار..

ثم وجدت نفسها في خيمتها، وسط سكون هائل، وارتجف جسدها عندما سمعت حارس المكان يسألها من خلف الخيمة في قلق:

- أهنالك شيء ما يا سيدتي؟

تمالكت روعها، وهتفت به:

- لا.. لا شيء.. إنه مجرد حلم مزعج فحسب.

وتحسست عنقها في توتر، ثم زفرت في ارتياح، وعادت تلقى جسدها على الفراش..

ما زال عنقها في موضعه..

إنه مجرد حلم..

مجرد كابوس، صنعه توترها الشديد..

وفي هذه المرة عجزت عن العودة إلى النوم، فاكتفت بالاستلقاء في فراشها، وعقلها يستعيد كل الأحداث مرات ومرات، حتى بدا لها الليل كدهر بلا نهاية، إلى أن اشرقت الشمس.. ولم يكد ضوء الشمس يغمر المكان، حتى غادرت فراشها وخيمتها، وادهشها أن وجدت زميليها قد استيقظا، وراحا يتبادلان حديثا خافتا، على نحو أشبه بالهمس، فاقتربت منهما تقول:

- فيم تتهامسان؟!

اعتدلا وكأنما فاجأهما وجودها، وغمغم الدكتور (رشاد):

- لا شيء.. لا شيء.

اتخذت مجلسها إلى جوارهما، وابتسمت ابتسامة شاحبة، وهي تقول:

- كنتما تتحدثان عن النبوءة.. اليس كذلك؟

تبادلا نظرة مستسلمة، ثم غمغم الدكتور (سالم):

- بلى.

وقبل أن يمنحها فرصة إلقاء سؤال آخر، استطرد:

- لقد استيقظ العمال سنتناول أقداح الشاي، ثم نفتح التوابيت لفحص المومياوات.. هيا..

تناول الثلاثة أقداح الشاي في صمت، ثم نهض الدكتور (رشاد)، قائلا:

- هيا ننتهي من هذا العمل السخيف.

وبناء على اوامره، راح كل العمال يعملون على إزالة الرمال من حول المقبرة، في حين انتقي هو ثلاثة، وطلب منهم فتح التوابيت، وراح هو والدكتور (سالم) والدكتورة (وفاء) يفحصون جدران المقبرة..

وبينما انهمك الثلاثة في الفحص، راح العمال الثلاثة يخرجون المومياوات في حرص..

وفجأة سقطت إحدى المومياوات ارضا، وانحلت اللفائف عن وجهها، فالتفت العلماء الثلاثة إلى حيث سقطت المومياء، وصرخ الدكتور (رشاد):

- حذار أيها الأغبياء.. إنها..

بتر عبارته، وهو يحدق في وجه المومياء المكشوف في ذهول، شاركه إياه الدكتور (سالم)، في حين تراجعت (وفاء) في رعب، حتي التصقت بحائط المقبرة، وانطلقت من حنجرتها صرخة هلع هائلة، قبل أن تسقط فاقدة الوعي..

لقد كان وجه المومياء مشوها اسود اللون، بشع الخلقة..

تماما كما رأته في حلمها...

☆ ☆ ☆

3- الســر..

كانت ترتجف في شدة، وهي تهتف:

- اللعنة!.. لعنة الفراعنة..

أمسك الدكتور سالم) كتفيها، وراح يهزها في قوة، هاتفا:

- استيقظى با (وفاء).. لا توجد لعنات.. اهدئى..

فتحت عينيها، وتطلعت إليه في رعب، وهي تهتف:

- اللعنة!! هل رأيت الوجه؟. إنه مشوه!! بشع!!

اجابها في ضيق:

- هذا صحيح، ولكن في مثل مهنتنا ينبغي أن نتوقع مثل هذه الأشياء.

هتفت:

- ولكنني رايته.. رايته من قبل..

عقد حاجبيه، وهو يسألها في توتر:

- أين؟.. أين رأيته من قبل؟

- في كابوس.. كابوس أصابني ليلة امس.

غمغم الدكتور (رشاد)، في مزيج من الدهشة والاستنكار والحنق:

- في كابوس؟!

وزفر في ضيق، قبل أن يستطرد:

- اسمعي يا دكتورة (وفاء).. إنكِ متأثرة للغاية بتلك النبوءة، ومن الواضح انك تفتقرين إلى القدر الكافي من النوم.. سنتركك في خيمتك الآن، وحاولي أن تستسلمي للنوم، فسيفيدك هذا كثيرا..

سألته في توتر:

- والمومياوات؟!

أجابها في ضيق:

- سنفحصها انا والدكتور (سالم)، بعد أن ينتهي العمال الثلاثة من إعدادها.

تركها وانصرف مع الدكتور (سالم)، في حين راح جسدها يواصل ارتجافته، وهي تحاول تذكر أين رأت ذلك الوجه البشع من قبل؟ وكيف؟..

لقد رأته مرسوما في مجلة.. مجلة علمية على وجه التحديد.. أو وصفه شخص ما من قبل..

برقت الفكرة فجأة في راسها، فقفزت من فراشها وجذبت إليها حقيبتها، وراحت تقلب محتوياتها في لهفة، حتى عثرت على مجلة أمريكية متخصصة في علم الآثار، راحت تقلب محتوياتها في سرعة، حتى توقفت عند صفحة شحب وجهها وهي تتطلع فيها إلى رسم تخيلى، يحمل نفس الوجه الأسود المشوه الرهيب..

وراحت تقرأ المقال في لهفة..

كان عبارة عن ترجمة الواحدة من عدة برديات قديمة، كانت تحملها واحدة من السفن المسافرة من (مصر) إلى (بريطانيا)، في أثناء الحرب العالمية الأولى، فأغرقتها سفينة المانية، ولم يتم

العثور على البرديات، المحفوظة داخل صندوق مغلق، معه، إلا منذ عدد قليل من السنوات..

وكانت الترجمة تصف لعنة أصابت الأرض، حملتها بعض الآلهة القادمة من السماء، وراحت تنتشر انتشار النار في الهشيم، حتى نجح قدماء المصريين في وقف انتشارها بمعجزة وإلى جوار الترجمة، ذلك الرسم، الذي ابتدعه خيال فنان، لوجه رجل مصاب باللعنة، طبقا لما جاء في البردية..

وفجأة أضيء عقل الدكتورة (وفاء) بالحل..

لقد عرفت السر..

سر اللعنة...

☆ ☆ ☆

هز الدكتور (رشاد) رأسه في اسي، وهو يقول لزميله (سالم):

- مسكينة هي (وفاء).. لقد تأثرت كثيرا بتلك النبوءة. هز (سالم) راسه بدوره، وقال:

- هل رأيت ما أصابها، عندما رأت وجه تلك المومياء؟.. كانت كمن رأى شبحا اسطوريا، أو قبل أن يتم عبارته، اقتحمت (وفاء) الخيمة، هاتفة:

- وجدتها.. وجدتها..

سألها الاثنان في دهشة:

- ماذا وجدت؟

لوحت بالمجلة في وجهيهما، مستطردة في انفعال:

- وجدت السر اللعنة..!

حدق الدكتور (سالم) في وجهها بدهشة، في حين هتف (رشاد):

- ماذا تعنين؟

وضعت امامهما رسم الوجه المشوه، وهي تقول:

- انظر.. هذه ترجمة لبردية قديمة، إنها تشرح كل شيء.. فقط علينا أن نقرا ما بين السطور..

ثم أزاحت المجلة، مستطردة في انفعال:

- من الواضح أن قدماء المصريين تلقوا زيارة من كائنات فضائية، هبطت على متن سفن فضاء ذات نيران صاروخية، اطلقوا هم عليهم اسم آلهة النار، ولقد نقلت إليهم هذه الكائنات نوعا نادرا من الفيروسات، لا شبيه له على وجه الأرض، نشر طاعونا رهيبا، يفتك بالآلاف، وهو ما أطلق عليه القدماء اسم اللعنة ولقد نجحوا بسبب أو آخر في إيقاف انتشار المرض، وإن لم يقضوا عليه تماما.

هتف الدكتور (سالم) في شحوب:

- هل تعنين؟..

قاطعته في انفعال:

- بلا ادنى شك.. هذه المومياوات الثلاث مصابة بطاعون الفضاء الرهيب، ومن الممكن أن يكون هذا الطاعون قادرا على العيش في أجساد ضحاياه لآلاف السنين، أي أنه ما يزال يحمل قدرته على الفتك.

هتف (سالم):

- إذن فتلك الرائحة التي شممناها عند فتح المقبرة هي..

قاطعته مجيبة:

- هي نوع من موانع انتشار المرض.

غمغم الدكتور (رشاد) في تردد:

- ولكن هذا الاستنتاج يبدو أقرب إلى واحدة من روايات الخيال العلمي، منه إلى استنتاج علمى محض.

هتفت به (وفاء):

- الخيال هو الطريق إلى الحقيقة.

غمغم مشككا:

- ولكن هذه الـ...

قاطعته في حزم:

- دعك من شكوكك الآن، المهم أن نمنع اي مخلوق من لمس هذه المومياوات.

اتسعت عينا الدكتور (سالم)، وهو يقول:

- ولكن العمال الثلاثة يعملون بها منذ ساعات..

صاحت به:

- امنعهم من الاختلاط بالآخرين إذن.. أسرع.

توقف لحظة مترددا، ثم اندفع خارج الخيمة، فعاد (رشاد) بهز رأسه، مغمغما:

- لا.. لن يقنعني هذا..

اجابته (وفاء) في حزم:

- إنه يقنعني أنا....

هز رأسه مرة أخرى، دون أن ينبس ببنت شفة، ولكن أعماقه كانت تمتلىء بشعور واحد..

الخوف..

☆ ☆ ☆

توقف (سالم) عند باب المقبرة في تردد، وراح يلهث من فرط الانفعال، وهو يتطلع إلى العمال الثلاثة، الذين انتهوا تقريبا من إعداد المومياوات، وسألهم محاولا السيطرة على نبراته ولهجته:

- هل عاونكم احد في عملكم هذا؟ اجابه احدهم في بساطة:

- لا.. إننا نعمل وحدنا..

تردد لحظة، ثم سألهم، محاولا أن يبدو طبيعيا:

- هل تناولتم المصل الواقي؟

رفعوا رءوسهم إليه في دهشة، وفي خوف مبهم، وغمغم أحدهم:

- أى مصل واق؟

تظاهر بالدهشة، وهو يسألهم:

- الم تتناولوه؟

هزوا روسهم في حيرة وقلق، وغمغم آخر:

- لم يطلب منا أحد أن نفعل، حتى عندما كنا نستخرج مومياوات في عمليات سابقة.

أومأ براسه بلا معنى، وقال:

- إنه إجراء جديد، ولهذا نسيه رئيس العمال. لا بأس.. على أية حال لن يمكنكم الاختلاط بالآخرين، قبل تطعيمكم، ومن الواضح انهم قد نسوا المصل في (القاهرة).. ستنتظروننا هنا، حتى نعود إليكم به..

سأله احدهم في توتر:

- ولِم لا نصحبكم إلى (القاهرة)، ونتناوله هناك؟

اسرع يقول في حدة:

- لا.

ثم عاد يحاول السيطرة على صوته، وهو يستطرد:

- القوانين تحظر ذلك ورسم على شفتيه ابتسامة، مردفا: - سنترك لكم الكثير من المؤن، وستحصلون على أجر مضاعف، لقاء هذا الخطأ منا..

أثلج الحديث عن الأجر صدور العمال الثلاثة، فقال اكبرهم مبتسما:

- لا بأس يا سيدي.. إنه أمر بسيط.. سننتظر..

تنهد في ارتياح، واسرع بغادر المكان، بعد أن اكد للعمال الثلاثة ضرورة عدم الاختلاط بالآخرين مطلقا، وعاد إلى خيمة رفيقيه، مغمغما:

- لقد أتممت تلك المهمة البغيضة.

غمغمت (وفاء) في أسى:

- يا للمساكين!

زمجر (رشاد)، وهو يقول:

- استنتاجك لم تثبت صحته بعد..

جلس (سالم) يراجع أوراق العمال الثلاثة، وهو يقول في اسف:

- كم أتمنى أن تنفيه الأيام، و....

شهق فجأة قبل أن يتم عبارته، فسالته (وفاء) في توتر:

- ماذا هناك؟

اجابها في انفعال:

- اسمعى: إن تاريخ ميلاد العامل الأول هو الثالث من سبتمبر، عام الف وتسعمائة وخمسة واربعين، وتاريخ ميلاد الثاني هو ايضا الثالث من سبتمبر، عام الف وتسعمائة وتسعة وثلاثين، اما تاريخ ميلاد الثالث فهو الثالث من سبتمبر، عام الف وتسعمائة وخمسين..

صاح (رشاد):

- يا إلهي!!.. هل تعنى..؟

قاطعه في ارتياح:

- نعم.. إنهم هم الذين ستصيبهم اللعنة لا نحن.. الذين دنسوا المقبرة بفتح التوابيت، وهم الذين لمسوا المومياوات الملوثة.. لقد نجونا.. لقد نجونا..

ولكن قلب الدكتورة (وفاء) لم يشعر بالارتياح لهذا..

لم يشعر به أبدا..

☆ ☆ ☆

4 - الخطر...

شعرت (وفاء) بموجة من تأنيب الضمير تغمرها، وهي ترقد في خيمتها في تلك الليلة، بعد أن رحلت قافلة البحث بعيدا عن المقبرة، تاركة العمال الثلاثة المنكوبين فيها، وراح عقلها يحاول هضم فكرة نجاتها من اللعنة، دون أن يقتنع عقلها الباطن بهذا..

وعندما طال ارقها، غادرت فراشها وخيمتها، واتجهت إلى حيث يجلس خفير المعسكر، الذي لم يكد يلمحها حتى هبّ واقفا، فقالت في هدوء:

- اجلس.. إنما أتيت أشاركك قدحا من الشاي.

هتف في حماس:

- على الرحب والسعة..

راح يعد لها قدح الشاي في سرعة، وهو يسألها:

- هل سنعود إلى المقبرة يا سيدتي؟

اجابته في ضيق:

- بالطبع.

سألها في تردد:

- وهل سنعيد زملاءنا الثلاثة؟

رفعت عينيها إليه في دهشة، قبل أن تساله:

لماذا تلقي هذا السؤال؟

اجابها مترددا:

- يقول العمال إن زملاءهم الثلاثة قد أصابهم مرض خطير، من تلك المومياوات الملعونة، وان القافلة قد أسرعت بالرحيل بعيدا عن المقبرة لهذا السبب، وتركتهم ايضا هناك للسبب ذاته.

لم تجد في نفسها ميلا للإجابة، فلاذت بالصمت لحظات، ثم سألته بغتة:

- اخبرني يا رجل، ما تاريخ مولدك، المدوّن في أوراقك؟

اجابها في دهشة:

- إنه الثالث من سبتمبر عام ألف وتسعمائة واثنين وثلاثين با سيدتي.. لماذا تسالين؟

- أكل العاملين هنا من مواليد الثالث من سبتمبر هذا؟

اجابها في حيرة:

- كلا بالطبع، ولكن أوراقهم الرسمية تحمل هذا التاريخ..

هتفت في حدة:

- لماذا؟

هز كتفيه، مجيبا:

- لأنهم جميعا لم تكن لهم شهادات ميلاد رسمية؛ لذا فقد تقدموا بطلب تسنين، عندما ارادوا الحصول على أوراق رسمية للعمل معكم، وتم تسنينهم (*[3]) جميعا في جلسة الثالث من سبتمبر، وعندما يتم تسنينهم، يمنحهم الطبيب المسئول تاريخ ميلاد يوافق التسنين، مع العام المقترح لأعمارهم، وهكذا ستجدين الجميع يحملون تاريخ الثالث من سبتمبر، وهو تاريخ جلسة التسنين هذا هو القانون ([4]) •

اتسعت عيناها في ذعر، ثم قفزت نجاة، وانطلقت تعدو نحو واحدة من السيارتين نصف النقل، وراجعت بعض محتوياتها في المنة، وبخاصة صندوقان صغيران، وأسرعت تحتل مقعد القيادة، فهتف بها الحارس في جزع:

- إلى أين يا سيدتي؟

صاحت به وهي تنطلق بالسيارة:

- سأعود إلى المقبرة.. من الضروري ان افعل.

وعندما انطلقت بالسيارة وسط الظلام، كانت قد ادركت صحة جزء هام من النبوءة..

وعرفت من سينقذ العالم...

☆ ☆ ☆

استيقظ الدكتور ارشاد) في ذعر، على يد الحارس، وهى تهزه في توتر، وهتف به في حنق:

- ماذا هناك؟ ماذا حدث؟

أجابه الحارس في تلق: - لقد رحلت الدكتورة (وفاء) خيل للدكتور ارشاد) أنه لم يستوعب العبارة جيدا، فقال وهو يعتدل جالسا على فراشه:

- من؟

اجابه الحارس:

- الدكتورة (وفاء).. لقد رحلت.

اتسعت عينا (رشاد) في ذهول، وهو يهتف:

- رحلت؟ إلى أين؟

أجابه الحارس:

- إلى المقبرة.. قالت إنها عائدة إلى المقبرة.

قفز ارشاد) من فراشه، وصاح في ذعر:

. عادت إلى المقبرة؟! اللعنة!.. ولماذا أقدمت على هذه الحماقة؟.

أسرع الحارس يقم عليه ما دار بينه وبين الدكتورة (وفاء) من حوار، فامتقع وجه (رشاد) وغمغم ملتاعا:

- يا إلهي!! إذن فلم يكن العمال الثلاثة هم المقصودين وإنما نحن!

- تردد الحارس لحظة، ثم قال: - لقد حملت الدكتورة معها بعض الأشياء سأله في توتر:

- مثل ماذا؟

اجابه الحارس وهو يخشى العقاب:

- لقد حملت معها صندوقين من الديناميت، وخمسين جالونا من البنزين..

اتسعت عينا (رشاد) في ذعر، وأدرك ما تنوي (وفاء) فعله، فهتف بالرجل في هلع:

- أسرع يا رجل.. ايقظ الجميع، وسأوقظ انا الدكتور (سالم)، وعلينا أن نهرع جميعا إليها.

والتفت إلى (سالم) يوقظه، مستطردا في مرارة:

- المهم أن نصل في الوقت المناسب.

☆ ☆ ☆

كانت بشائر الفجر قد لاحت، عندما وصلت (وفاء) إلى المقبرة، فأوقفت سيارتها، وقفزت منها، وحملت صندوقا من صندوقي الديناميت في صعوبة، واندفعت نحو المقبرة، ولم تكد تلجها، ومصباحها يضيء لها الطريق، حتى أطلقت شهقة رعب، وتراجعت في حدة، فسقطت منها أصابع الديناميت ارضا..

لقد رأت العمال الثلاثة جثثا هامدة، وكل منهم يتشبث بالآخر، كما لو أنهم قد عانوا من عذاب رهيب، قبل أن يلقوا حتفهم..

وكانت وجوههم سوداء مشوهة بشعة وتراجعت مغمضة في ارتياع:

- إنه طاعون رهيب.. رهيب..

زادها ذلك إصرارا على إتمام مهمتها، فأسرعت عائدة إلى السيارة، وحملت صندوق الديناميت الآخر، وعادت تضعه وسط المقبرة، ثم راحت تمد فتيله الطويل قرابة العشرين مترا، إلى حيث توقف سيارتها، ثم راحت تنقل جالونات البنزين في صبر، وترصها داخل المقبرة، متحاشية بقدر الإمكان رؤية وجوه العمال المشوهة، وبعدها اسرعت عائدة إلى حيث يبدا الفتيل المفجر، وفجأة تذكرت نقطة هامة...

إنها لا تحمل ثقابا لإشعال الفتيل..

هذه هي نقطة الضعف الوحيدة في خطتها....

☆ ☆ ☆

- احترس يا (رشاد).. إنك ستقتلنا..

قالها الدكتور (سالم) في ذعر، عندما وجد زميله منطلقا بالسيارة (الجيب) بأقصى سرعتها، وسط الصحراء، فأجابه (رشاد) في

توتر:

المهم أن نلحق بـ (وفاء) قبل فوات الأوان.

هتف (سالم) في حدة:

- مجنونة هي هذه المرأة!! كيف تقدم على هذا دون استشارتنا؟!

أجابه (رشاد)، وهو ينطلق بأقصى سرعة، والسيارة التي تحمل العمال تحاول اللحاق به:

- لقد أدركت أننا المقصودون بالنبوءة، ويبدو أنها خشيت أن يلقي العمال الثلاثة حتفهم، ثم تبقى المقبرة مفتوحة، كبؤرة لانتشار الطاعون الرهيب، بواسطة عابر سبيل، أو حتى جرذ من جرذان الصحراء، فقررت نسفها تماما..

هنف (سالم):

- إنها مجنونة.. إنها حتما كذلك..

ثم عاد يصيح في رعب:

- خفف من سرعتك يا رجل.

عض (رشاد) على نواجذه، وهو يقول في حنق:

- إنها تسبقنا بساعة كاملة، ولابد من محاولة تعويض هذا الفارق، فلقد ظل ذلك الحارس الغبي مترددا لساعة كاملة، قبل أن يوقظني ويخبرني بما نملك، ولو ايقظني في لحظتها لكنت..

قاطعه (سالم) في عصبية:

- إنه القدر..

ران الصمت لحظة، قبل أن يغمغم (رشاد) في عصبية مماثلة:

- نعم.. إنه قدرنا..

واضاف في صرامة:

- ونحن نحاول تغييره.

وزاد من ضغطه على دواسة الوقود..

☆ ☆ ☆

شعرت (وفاء) بحنق شديد، وهي ترى خطتها كلها تفشل، بسبب عود ثقاب تافه، فاندفعت نحو السيارة، وتحول حنقها إلى سخط هائل، عندما كشفت عدم وجود قداحة السيارة الإليكترونية، فراحت تبحث في كل مكان فيها في جنون، وهي تهتف:

- لن يفسد كل شيء بسبب تافه كهذا.. مستحيل!!

وفجأة، وعلى نحو أشبه بالمعجزة، عثرت على علبة ثقاب ملقاة اسفل مقعد السائق، فاختطفتها في لهفة، وهي تهتف في انفعال:

- ستكون معجزة حقا لو كان بها ثقاب..

ارتجف قلبها عندما فتحت العلبة ووجدت داخلها عود ثقاب واحدا، وغمغمت في توتر:

- أنت الأمل الوحيد.. ارجوك.

انحنت نحو الفتيل واشعلت عود الثقاب في حذر، ثم دفعته نحو طرفه..

واشتعل الفتيل، وتراجعت هي هاتفة:

- لقد نجحت

وفجأة قفز إلى ذهنها خاطر مخيف..

ماذا لو لم تحترق المومياوات واجساد العمال عن آخرها؟

شعرت بحنق؛ لأنها لم تسكب البنزين على الأجساد، ثم لم تلبث أن عقدت حاجبيها في إصرار، وهي تقول:

- لم يفت الوقت بعد..

انطلقت تعدو في سباق مع الفتيل المشتعل، ولم تكد تبلغ المقبرة، حتى راحت تفتح عبوات البنزين، وتسكب محتوياتها فوق المومياوات وجثث العمال في سرعة، ثم انطلقت عائدة، وهي تقول:

- في هذه الحالة أضمن احتراقها، و....

ودوي الانفجار في قوة، وشعرت (وفاء) بضغط هائل في ظهرها، ووجدت جسدها يطير في عنف، ويرتطم بحافة السيارة في قوة، ثم يسقط ارضا، على بعد أمتار منها...

واشتعلت النيران في المقبرة كلها..

☆ ☆ ☆

لم يكد دوى الانفجار يبلغ مسامع (رشاد)، حتى امتقع وجهه، وصاح في رعب:

- يا إلهي!.. (وفاء)..

واندفع بسيارته على نحو مخيف، وصرح به (سالم):

- احترس تلك التبة.. إنك ست.....

وقبل أن يتم عبارته، كانت (الجيب) ترتطم بتبة رملية قصيرة، ثم تقفز في الهواء وكأنها حيوان كانجارو نشط، ثم تنقلب مرتين، وتستقر على قمتها..

وأوقف سائق سيارة العمال سبارته، وانطلق الجميع يعدون نحو الجيب المقلوبة، وعندما بلغوها كان الدكتور (رشاد) قد لقي مصرعه محطم الصدر اسفلها، في حين راح الدكتور سالم) يهتف في لوعة، وانفاسه تضطرب في شدة:

- أنقذوا الدكتورة (وفاء).. لا تتركوها.. أنقذوها..

أسرع العمال يحملونه إلى سيارتهم، وينطلقون نحو المقبرة، وهو يردد بصوت يزداد خفوتا في سرعة:

- أنقذوها. أنقذوها..

ثم لم يعد ينطق بحرف واحد.. فلقد أسلم الروح....

☆ ☆ ☆

استعادت (وفاء) وعيها بعد لحظات من الانفجار، وشعرت وكأن جسدها قد تمزق إلى آلاف القطع، والقت نظرة ارتياح على المقبرة المشتعلة، وهي تغمغم:

- إنها اللعنة.. النبوءة..

رأت نسرا ينقض عليها من السماء، فاستجمعت قواها لتصنع حركة مفاجئة، جعلت النسر يبتعد، ويقبع على مقربة منها، منتظرا لحظة أن تلفظ انفاسها الأخيرة، ليجعل منها وليمته..

وتحركت عيناها، والتقتا بعين النسر لحظة، وهما تحملان تعبيرا جامدا متهالكا، أنهكته وأثخنته جراح لا حصر لها..

وانطلقت أفكارها بعيدا، إلى حيث بدأت الأحداث، ثم انتعش الأمل في قلبها بغتة، عندما لاحت لها سحابة غبار تقترب.

إنهما زميلاها حتما..

لقد جاءا لإنقاذها.. وعلى الرغم من الضعف الشديد، الذي يزحف إلى جسدها في سرعة، راح الأمل ينتعش في قلبها رويدا رويدا، مع اقتراب سحابة الغبار..

ثم تذكرت النبوءة..

وخبا الأمل..

ووصلت سيارة العمال..

وصلت بعد نصف الساعة فقط..

ولم يلتهم النسر فريسته..

ولكن..

عندما أقفلت السيارة عائدة إلى (القاهرة)، كانت تحمل داخلها تأكيدا لنبوءة الفراعنة..

ثلاث جثث هامدة، لثلاثة علماء ولدوا في يوم واحد..

وأصابتهم اللعنة....

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- اللعــنة..

2 - الحلم..

3- الســر..

4 - الخطر...

فهرس المحتويات:

الملاحظات

[←1]

(*) في النقوش الهيروغليفية توضع أسماء الملوك دوما في شكل بيضاوى خاص، اصطلح علماء الآثار على إطلاق اسم الخرطوشة الملكية عليه.

[←2]

(*) حقيقة علمية

[←3]

(*) التسنين: هو تعرف عمر الشخص، من طريق نمو أسنانه وأحجامها، وتوزيعها، وهو أمر يجيده كل الأطباء الشرعيين، وكذلك كل الجراحين، وهو اسلوب يستخدم لتحديد عمر أي شخص، لا يملك شهادة ميلاد رسمية.

[←4]

(*) حقيقة.

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

ضد مجهول

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

قصة العدد

ضد مجهول

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

(قصص العدد)

ضد مجهــول

1- الجريمـــــــة..

انتابتني موجة حنق شديد، وانا أهبّ من فراشي منزعجا، على صوت طرقات عنيفة، على باب ذلك المنزل الصغير، الذي يتوسط حقول قرية من قرى محافظة المنوفية)، وشعرت بسخط هائل لصوت خفير القرية الأجش، وهو يقرن طرقاته بصباع مرتفع مزعج، يردد فيه اسمى، في السادسة من صباح الجمعة، واندفعت نحو الباب، وفتحته في عنف، وانا أهتف به محتدا:

- ماذا هناك؟

تراجع الخفير، وهو يؤدي تحية عسكرية، بدت لي سخيفة، بلا أدني معنى، مع إجابته:

- البك المأمور كلفني إحضارك يا سيدى.

سألته في ضيق:

- ماذا هناك.. سرقة مواشى أخرى؟!

عقد الخفير حاجبيه الكثين، وهو يجيب في لهجة من يعلن خبرا رهيبا:

- بل جريمة قتل.

رددت خلفه في دهشة:

- قتل؟!..

بدا لى ذلك عجيبا حقا، فعلى الرغم من أنني أعمل في هذه القرية، كوكيل نيابة، منذ تخرجي من كلية الحقوق، وعلى الرغم من كثرة المشاكل والقضايا فيها، إلا أنها لم تتعد كلها مشاجرات

ومشاحنات، أو سرقة بعض المواشي على اكثر تقدير، حتى أنها بدت لي قرية عادية، لم أتوقع أن التقى فيها بجريمة قتل أبدا..

والعجيب أن الأمر قد شحذ همتي في شدة، وكأنما سئمت نفسي التحقيق في الجرائم العادية، وبدأت تميل إلى القليل من الإثارة وتحفيز العقل، وأنت تجد هذين العاملين - عادة - في جرائم القتل..

القتل وحده..

وعندما ارتديت ملابسي، وصحبت الخفير إلى مسرح الجريمة، كنت أعلم أنها ليست جريمة تقليدية، ولكنني لم اتصور حقيقتها أبدا..

إنها لم تكن جريمة غير تقليدية فحسب...

وإنما مذهلة..

مذهلة بحق.

☆ ☆ ☆

لم أحتمل النظر طويلا إلى جثة القتيل، التي استقرت في ساحة كبيرة، تطل عليها واجهات ثلاثة من منازل القرية، ذات الطابقين، وقد تهشم رأس القتيل تماما بحجر ضخم، احتاج رفعه إلى اثنين من جنود الشرطة الأقوياء، بعد معاينة المكان..

وعلى الرغم من بشاعة المشهد، بذلت أقصى جهدي لأبدو متماسكا، وأنا التفت إلى المأمور، وأسأله: - الديك معلومات عن القتيل؟ أومأ برأسه إيجابا، وقال:

- اسمه (حجاج يوسف)، كاتب الوحدة الصحية بالقرية، وهو شخص بغيض، شره للمال، لا يمت للشرف والأمانة بأدنى صلة،

وكثيرا ما تشاحن مع أبناء القرية وقدم بعضهم شكاوى عديدة ضده إلى الجهات المسئولة، وأجريت له عدة تحقيقات، ولكنه لم يدان في أي منها، نظرا لخبثه الشديد، وذكائه في التحايل على القوانين، وإثبات عدم تورطه في أي امر.

هززت راسي مغمغما:

- هي جريمة انتقام إذن.

مط شفتيه مغمغما:

- هذا ما يبدو للوهلة الأولى، فمن المحتمل أنه قد أساء إلى شخص ما، وان هذا الشخص قد يئس من أن يعاقبه المسئولون، فاقتص منه بنفسه.

قلت في اهتمام:

- هذا يقلل من حجم دائرة الاشتباه إذن.

رفع عينية إلى منزل يواجه الجثة تماما، وقال في حزم:

- ربما كانت لدينا فرصة لحصر الاشتباه في شخص واحد..

سألته في دهشة:

- ماذا تعني؟

أشار إلى نافذة مفتوحة في الطابق الأرضي من المنزل المواجه، وهو يقول في حزم:

ربما كان لدينا شاهد عيان، فالخفير (حسان) يؤكد أنها كانت مفتوحة منذ البداية.

التفت إلى النافذة بدوري، وقلت في حماس:

- نعم أعتقد ذلك.

ثم اتجهت نحو المنزل، مستطردا في قوة:

- ومن السهل التأكد من هذا.

طرقت باب المنزل في قوة، ولم تمض ثوان معدودة، حتى فتح الباب، وظهر على عتبته رجل في أواخر الأربعينيات من عمره، بدا شديد الصرامة، وهو يسألني:

- ماذا هناك؟

كنت أعلم أن سنوات عمري، التي لم تتجاوز بعد ربع القرن، قد تجعلني أبدو ضئيلا أمامه، فقلت في صرامة، محاولا السيطرة على الموقف:

- أنا (حازم إبراهيم)، وكيل نيابة الناحية، و....

قاطعني في حزم:

- اعلم ذلك.

عقدت حاجبى، قائلا:

- هل تعلم ايضا سبب وجودي هنا؟.

- أومأ برأسه إيجابا في بطء، وهو يقول:

- نعم.. أعلم.

تطلعت إليه لحظة في صمت وتحد، قبل ان اساله:

- كيف علمت بحدوث جريمة القتل؟

اجابني في برود:

- سمعت الخفير (حسان) يصرخ معلنا ذلك.

سألته في حدة مباغتة:

- وهل نظرت إلى الجثة؟

أجابني في هدوء:

- الجميع فعلوا.

قلت في عنف:

- بمن فيهم انت؟

تطلع إلى وجهي بنفس البرود، وهو يقول:

- بالتأكيد.

راودني شعور قوى بانه لهذا الرجل يدا في جريمة القتل، فسألته في لهجة أقرب إلى الهجوم:

- هناك نافذة مفتوحة في منزلك، تطل على الساحة التي حدثت فيها الجريمة، فمن يقطن الحجرة التي بها هذه النافذة؟

تردد لحظة، ثم أجابني في حزم:

- ابنى (علوان).

قلت في صلابة:

- إذن فقد رأى ابنك (علوان) الجريمة؟

تردد لحظة أخرى، ثم قال:

- ربما.

سألته في حدة:

- ماذا تعني بـ (ربما)!!.. آرأى الجريمة أم لا؟

هز الرجل كتفيه في لا مبالاة، وهو يقول:

- اسأله.

هتفت وقد اغاظني أسلوبه:

- سأفعل.

امسك المأمور ذراعي، وهو يقول في لهجة نصوح:

- للشيخ (مراد) ابن واحد، هو (علوان)، و...

رق صوته، وهو يتابع في خفوت:

- وهو مُقعد.

سألته في دهشة:

- وما الذي يعنيه ذلك.. حتى المُقعد يمكنه أن يرى جريمة قتل، ما لم يكن اعمى.

قال الشيخ (مراد) في حزم:

- لا.. (علوان) ليس أعمى.

ثم أفسح الطريق بغتة، مستطردا:

- تعال يمكنك رؤيته.

أدهشني اسلوبه حقا، ولكن هذا لم يمنعني من أن أتجه أنا والأمور إلى حجرة (علوان)، ولم اكد ألجها حتى انتابني شعور شديد بالشفقة، تجاه ذلك الشاب الشديد النحول، الذي يجلس صامتا فوق مقعد متحرك، وقد بدت عظام وجنتيه بارزة، وبدت عيناه جاحظتين في شدة، على نحو يجعلك تميل إلى اعتقاده ابله او معتوها، لولا تلك الالتماعة في عينيه، عندما رفعهما ليرمقنا بنظرة حذرة متخوفة، عند دخولنا إلى حجرته، حتى لقد بدا لى أشبه بذئب جريح، فاجأه الصيادون على حين غرة..

وأسرع الشيخ (مراد) نحو ابنه، وربت على كتفيه، وهو يقول في لهجة تجمع بين الشفقة والقلق:

- اهدأ يا ولدي.. اهدا.. إنهما صديقان اهدأ..

راح (علوان) يرمقني والمأمور بنظرات حذرة قلقة، ثم لم يلبث أن هدأ نسبيا، واسترخي في مقعده المتحرك، فاز دردت لعابى،

في محاولة لتهدئة انفعالى، والتفتت إلى النافذة المفتوحة، التي كان من الواضح انها تطل على ساحة الجريمة في وضوح، ثم عدت أستدير إلى (علوان)، واسأله:

- هل رأيت ما حدث يا (علوان)؟

ظل الشاب يتطلع إلى بعينية البارزتين الحادتين، دون أن تبدو عليه أدني بادرة، تشير إلى فهمه لسؤالى، مما جعلني اسأل والده في حيرة:

- أهو أصم؟

اومأ برأسه ايجابا، وقال:

- إنه أصم أبكم منذ مولده.. ولكنه يقرا حركات الشفاه جيدا.

سألته في حيرة:

- أتعني انه يفهمني؟

أومأ برأسه إيجابا، دون أن ينبس ببنت شفة، فسألته مرة أخرى في دهشة:

- لماذا لا يجيب إذن؟

هز كتفيه، قائلا:

- لأنه لا يريد ذلك.

هتفت في مزيج من الدهشة والاستنكار:

- لا يريد ذلك؟!

ثم التفت إلى (علوان)، اهتف به في غضب:

- ارأيت الجريمة أم لا؟.. أجب.

بدا الغضب في العينين البارزتين لحظة، فأسرع الشيخ (مراد) يقول في قلق:

- اهدأ يا ولدي.. إنه لا يقصد بك شرا اهدأ.

حاولت ان اسيطر على أعصابى، وأنا أساله مرة أخرى:

- اسمع يا (علوان).. لست أريد بك شرا حقا، ولكنني احاول حل غموض جريمة قتل، والقتل شيء بغيض يا فتى، والوسيلة الوحيدة لعقاب مرتكب تلك الجريمة هي أن نجد دليلا يدينه، أو شاهد إثبات ضده، وفي هذه الجريمة بالذات، انت شاهد الإثبات الوحيد، وينبغي أن تخبرني، ارأيت الحادث أم لا؟

ظل (علوان) صامتا لحظات، ثم لم يلبث أن هز رأسه نفيا في بطء، وعيناه البارزتان تحدقان في وجهي في اهتمام.

وأطلق الشيخ (مراد) تنهيدة ارتياح قوية..

تلك التنهيدة جعلتني أشعر بغتة بقلق مزدوج، وبعثت في عروقي شكا قويًا..

لماذا الارتياح؟..

(علوان) يكذب ولا شك..

والشيخ (مراد) يعلم هذا..

ما معنى هذا الأمر؟

لماذا يكذب (علوان)؟

ولماذا يشعر الشيخ (مراد) بالارتياح؛ لأن ابنه قد كذب؟

ما تفسير هذا؟.. فجأة، قطع أفكارى صوت أحد رجال الشرطة، وهو يطلّ برأسه من النافذة المفتوحة، ويقول للمأمور:

- سيدى هناك أمر هام.

نهض المأمور من مقعده، واتجه إليه على الفور، ومال بأذنه نحوه، وراح الجندي يهمس له بكلمات لم اسمعها وبغتة، أدرت وجهي نحو (علوان)، ورأيت ما كنت اتوقعه..

كان يحدق في المأمور والجندي في اهتمام شديد، وكانت عيناه تبدوان أكثر بروزا والتماعا..

كان من الواضح أنه يقرأ حركات شفتي الجندي، وأنه قد علم ما ينقله للمأمور، قبل أن يلتفت إلى هذا الأخير، ويقول في حزم:

- يبدو أن (علوان) ليس شاهد الإثبات الوحيد في القضية، كما كنا نظن.

ثم القي نظرة صارمة على (علوان) ووالده، قبل أن يستطرد في شيء من الحزم والشماتة:

- هناك شاهد آخر، هو الحاج (مندور)، جارك با شيخ (مراد)، ولديه شهادة بأنه قد شاهد القاتل..

وازدادت لهجته حزما وصرامة، وهو يستطرد:

- شاهدك انت يا شيخ (مراد) •..

☆ ☆ ☆

2- الشــاهد..

كان القلق يبدو واضحا على وجه الحاج (مندور)، وهو ينقل بصره بيني وبين المأمور، ووجه الشيخ (مراد) الصارم، وبدت لمحة خوف في ملامحه، وهو يتطلع إلى وجه هذا الأخير، جعلتني أقول لأحد رجال الشرطة:

- خذ الشيخ (مراد) بعيدا.

صحب الجندي الشيخ (مراد) بعيدا عن الساحة، حيث انهمك رجال المعمل الجنائي في فحص المكان والحجر (أداة الجريمة)، بعد رفع الجثة، وسألت أنا الحاج (مندور):

- ماذا لديك؟

القى الرجل نظرة خوف أخرى على الشيخ (مراد)، دون ان ينبس ببنت شفة، فصحت به في عصبية:

- هل تخشاه إلى هذا الحد؟

تردد لحظة، وهو يختلس النظر إلى حيث يقف الشيخ (مراد)، ثم همس في خوف واضح:

- القرية كلها تخشاه.

ثم استطرد في توتر، وهو يلوح بيده في انفعال:

- إنه منزل ملعون.. لقد كان والده يؤاخي الجن، حتى أنه كان يمتلك القدرة على دفع الحصى لتناطح بعضها البعض، و....

عقد المأمور حاجبيه، وهو يقاطعه في صرامة:

- صه يا رجل، لسنا هنا لنستمع إلى ترهات حول أمور الشعوذة، إنها جريمة قتل، ونحن نريد الحقائق.. الحقائق فحسب.

تردد الحاج (مندور) لحظة أخرى، وهو يختلس النظر إلى الشيخ (مراد) مرة أخرى، قبل أن يهمس في خوف:

- لقد رأيته.

سألته في عصبية:

- رأيت من؟!.. أريد إجابات واضحة..

هتف كمن قرر أن يلقى العبء كله عن ظهره:

- رأيت الشيخ (مراد) أمام الجثة.. جثة (حجاج).

وعلى الرغم من الوضوح الظاهري للشهادة، إلا أنها كانت تحتاج إلى تأكيد، جعلني اسأله مرة أخرى في عصبية:

- رأيته يقتله؟!

اجابني في سرعة:

- لا.. رأيته ينحنى فوق الجثة، بعد الحادث مباشرة.

قال المأمور في اهتمام:

- صف لنا ما رأيته بالضبط.

أجابه في استسلام:

- كنت أستعد لمغادرة منزلي، والذهاب إلى حقلي، عندما سمعت صوت ارتطام مكتوم، أعقبته شهقة ألم، وصوت ارتطام جسد بالأرض، فأسرعت إلى النافذة،..

وحاولت أن أنظر إلى الساحة، ولكن نافذة حجرتي لم تكن تطل عليها كلها، فذهبت إلى نافذة أخرى، ورأيت الشيخ (مراد) ينحنى على جثة (حجاج)، والقلق بملأ وجهه وملامحه، ثم رايته يستدير إلى منزله في توتر شديد، وينطلق إليه، ويغلق بابه خلفه في سرعة.

سألته انا في لهفة:

- وماذا فعلت حينذاك؟

اجابني في توتر:

عدت إلى دارى، واغلقت بابى خلفى.

هتفت محنقا:

- ولماذا لم تبلغ العمدة، أو المأمور؟

اختلس نظرة خائفة أخرى إلى حيث يقف الشيخ (مراد)، وقال:

- لقد شعرت بالخوف.

قال المأمور في صرامة:

- حسنا يا رجل.. فلتحتفظ بخوفك لو أردت، ولكن قل لنا: هل تتهم الشيخ (مراد) بارتكاب الجريمة؟

تراجع الرجل هاتفا في ذعر:

- لا.. أنا لم أتهمه.. لقد اخبرتكما بما رأيته فحسب.

أسرعت انا اسأله:

- حسنا.. قل لي إذن: هل تجد مبررا لدى الشيخ (مراد)، لقتل (حجاج)

تردد مرة أخرى، ثم قال:

- الواقع أنه هناك سبب غير مؤكد، فلقد سمعت أمس (حجاج)، وهو يتشاجر مع الشيخ (مراد).

سألته في اهتمام:

- وماذا كان موضوع الشجار؟

قال مترددا:

- أظنه كان حول محل بقالة صغير، أراد الشيخ (مراد) افتتاحه في منزله، وحاول (حجاج) أن يتقاضى منه رشوة، مقابل

الترخيص الصحي، حيث إن (حجاج) هو المسئول عن منح هذا الترخيص، لكل من يفتتح متجرا يختص بالأغذية في القرية، فهو المراقب الصحي للقرية، إلى جوار كونه كاتب الوحدة.

قلت في دهشة:

- ايستحق هذا الأمر أن يقتله الشيخ (مراد)؟

هز كتفيه، قائلا:

- لست أدري.

ثم اختلس النظر مرة أخرى إلى حيث يقف الشيخ مراد، مردنا:

- ولكنه رجل عجيب يخيف على أية حال جال بخاطري فجأة سؤال، أسرعت اطرحه قائلا:

- قل لي: هل كانت هذه النافذة مفتوحة، عندما وقع الحادث؟

قلت هذا وانا أشير إلى نافذة حجرة (علوان)، فالقى عليها الحاج (مندور) نظرة سريعة، قبل أن يجيب في حسم:

- نعم.. كانت مفتوحة.

سألته:

- وهل كان (علوان) يجلس هناك؟

قال بسرعة:

- إنه دائما هناك.

قال المأمور بنفاد صبر واضح:

- لقد بات الأمر شديد الوضوح با (حازم) بك..

مُر بإلقاء القبض على الشيخ (مراد)، و....

تقاطعه أحد رجال المعمل الجنائي، في لهجة تحمل الكثير من الحيرة:

- قبل أن تتهم أحدا، عليك أن تجد تفسيرا لكيفية وقوع الجريمة.

التفت إليه المأمور، قائلا في حدة:

- ماذا تعني؟

اشار الرجل إلى الحجر الضخم، الذي ارتكبت به الجريمة، وهو يقول:

- اعني أن هذه الحجر الملوث بالدماء، والذي تؤكدون انكم قد رفعتموه عن رأس القتيل، يبلغ وزنه تسعين كيلوجراما تقريبا، وما من مخلوق بشري عادي يمكنه أن يحمله، ويضرب به رأس القتيل.

شحب وجه الحاج (مندور)، وتراجع في رعب، وهو يهتف:

- الجن.. ما من مخلوق بشرى؟!.. إذن فهم الجن قتلوا (حجاج).

وراح يشير إلى الشيخ (مراد)، وهو يتراجع في ذعر، هاتفا:

- انت كوالدك، تستعين بالجن.. انت دفعتهم لقتل (حجاج).. أنت القاتل..

عقد الشيخ (مراد) حاجبيه، وهو يهتف في حنق:

- كفى جنونا يا رجل.. أى جن هذا.. أنت مخبول ولا شك.

تراجع الحاج (مندور) اكثر، وهو يصرخ:

- انت القاتل.. انت القاتل..

ثم اندفع يعدو إلى منزله، ويغلق بابه خلفه في قوة، في نفس الوقت الذي ارتفعت فيه شهقة غاضبة، جعلت الجميع يلتفتون إلى

نافذة حجرة (علوان)، حيث جلس هذا الأخير يتطلع إلى الجميع بعينية البارزتين اللامعتين، والغضب يملا كل خلجة من خلجاته، فأسرع الشيخ (مراد) يهتف به:

- لا تهتم بقوله با ولدي.. إنه رجل مخبول..

هتف المأمور في حنق:

- لست أدري من المخبول هنا يا رجل؟

ثم التفت إلىّ هاتفا:

- هيا يا (حازم) بك.. أنهِ الأمر، ومُر بإلقاء القبض على الشيخ (مراد).

قلت مترددا:

- ليس الأمر بالسهولة التي تتصورها يا سيادة المأمور، فلابد على حد قول رجل المعمل الجنائي - أن نجد تفسيرا لكيفية ارتكاب الجريمة.

هتف ساخطا:

- أى تفسير؟.. إنه أمر واضح للغاية لقد حمل الحجر، وضرب به (حجاج)، و...

قاطعته في حزم:

- حمل حجرا يزن تسعين كيلوجراما؟!

قال في غضب:

- وماذا في هذا.. ربما هو رجل قوى.

قال رجل المعمل الجنائي:

- الأمر يحتاج إلى ما هو أكثر من القوة في الواقع، إلا إذا كان من عادة الشيخ (مراد) أن يرتدي قفازين.

التفت إليه المأمور في دهشة، وسألته أنا في حيرة:

- وما شان القفازين؟

لوح بكفه، قائلا:

- لأن هذا الحجر، بعد فحصه بدقة متناهية، لا يحوى بصمة إصبع واحدة.

هتف المأمور:

- ماذا؟..

وقلت انا في توتر:

- ولكن هذا مستحيل!!.. فليس من عادة أهل القرى ارتداء القفازات، ولابد لمن يحمل الحجر من أن يترك بصماته عليه، و....

قاطعتني صرخة انطلقت من الطابق العلوي لمنزل الحاج (مندور)، وتحمل صوته وهو يهتف في رعب هائل:

- لا.. ليس انا.. ليس أنا..

ولم تكد عيوننا ترتفع إلى نافذة الطابق الثاني، حتى اخترقها جسد الحاج (مندور) في قوة، كما لو أن يدا ذات قوة هائلة قد دفعته عبرها، وسقط بظهره من هذا الارتفاع، وهو يطلق صرخة لم أسمع أشد منها رعبا في حياتي كلها، انتهت بارتطامه بالأرض في عنف، ارتجفت له الدماء في عروقنا، وتسمرنا جميعا في أماكننا لحظة، قبل أن يهتف المأمور في جنوده:

- أسرعوا إلى الطابق العلوي.. وامسكوا القاتل على الفور.

أما أنا، فقد اسرعت نحو جسد الحاج (مندور)، الملقي ارضا وانحنيت أفحصه في جزع، وهالتني نظرة الرعب التي تملا عينيه، وهو يحدق في وجهي، قبل أن يمسك كفى الممتدة نحوه في قوة، ويهتف بفم امتلأ بالدماء:

- الجن.. الجن..

ثم أسلم الروح..

☆ ☆ ☆

3- الجــن..

«هـــــــــراء..».

قالها المأمور في عصبية بالغة، وهو يشعل سيجارته، ويجلس خلف مكتبه بنقطة الشرطة، قبل أن يلقى قداحته فوق المكتب في حدة، وينفث دخان السيجارة في قوة، مستطردا:

- لن أصدق امر الجن هذا ابدا..

قلت في توتر ممائل، وانا اجلس على المقعد المقابل لمكتبه:

- اوجد لى تفسير آخر إذن لكل ما حدث.. لقد سقط الحاج (مندور) من الطابق الثاني لمنزله، واسرع رجالك إلى هناك بعد لحظات من سقوطه، ولكنهم لم يجدوا بالمنزل سوى ابنته الصغيرة، وكانت تجلس في الطابق السفلى، ولم يكن هناك أي مخلوق في الطابق العلوي..

صمت لحظة، ثم استدركت:

- أى مخلوق بشري بالطبع.

لوح الأمور بكنه في عصبية، وهو يقول:

- ربما انزلق الرجل، واصطدم بالنافذة، و.....

قاطعته في حزم:

- أنت تعلم أن هذا التفسير لا يتفق أبدا مع الأحداث، فلقد سمعنا جميعا الرجل يصرخ، قبل وقوعه بلحظات، وهذا يعني انه كان يواجه شخصا ا، أو شيئا ما، ثم إنه ارتطم بالنافذة بظهره، واندفع بعيدا عنها بما لا يقل عن الأمتار الثلاثة، وكأنما تلقى لكمة من

قوة هائلة، وقبل أن لفظ أنفاسه الأخيرة كرر كلمة واحدة.. (الجن)..

بدا المأمور اكثر عصبية، وهو ينفث دخان سيجارته، قائلا:

- ليس من السهل أن اومن بوجود الجن.

قلت مستنكرا:

- ولكن إيمانك بوجود الجن جزء من إيمانك بدينك، فلقد أكد الله (سبحانه وتعالى) وجودهم اكثر من مرة، في القرآن الكريم، ولقد استعان بهم النبي (سليمان)، وسخرهم، و...

قاطعني محتدًا:

- هل ستذكر ذلك في تقريرك الرسمي؟

صدمني سؤاله لحظة، قبل أن أهز رأسى، مغمغما:

- لست ادري.

قال في توتر شديد:

- كان الأجدى أن تلقي القبض على الشيخ (مراد).

قلت:

- وماذا عن الحجر الخالي من البصمات؟

قال في حدة:

- ربما دفعه بواسطة عتلة، من فوق سطح منزل أو...

قاطعته:

- مستحيل!! فلقد اصيب (حجاج) على بعد ثلاثة أمتار من منزل الشيخ (مراد)، و.....

بترت عبارتى بغتة، وعقدت حاجبى، مغمغما في توتر:

- ولكن توقفت مرة أخرى، فسألني المأمور في قلق:

- ولكن ماذا؟

ترددت لحظة، ثم قلت:

- لست أدري.. إنه شعور داخلى فحسب، فأنا واثق من أن (علوان) قد رأى الجريمة، ولكنه يرفض الاعتراف بذلك لسبب ما.

قال في اهتمام:

- هذا يؤكد اتهام الشيخ (مراد) إذن، فلا ريب انه هو مرتكب الجريمة، وأن ابنه (علوان) قد رأى ما حدث، ولهذا يدعي عدم رؤية الجريمة، حتى لا يدين والده، هذا هو التفسير الوحيد..

قلت في شدة:

- ولكنه لا يفسر عدم وجود بصمات على الحجر، ولا كيفية حمل الشيخ (مراد) لحجر يزن تسعين كيلوجراما أو أكثر.

احتقن وجه المأمور لحظة، ثم قال في حدة:

- أما زلت تصر على أن الجن هم الذين حملوا الحجر، وضربوا به راس (حجاج).

تنهدت في عمق، وأنا أقول:

- لست أصرّ على شيء.

ثم أضفت في اهتمام:

- ولكنني أحتاج إلى مزيد من التحريات..

دفع مجموعة أوراق فوق مكتبه في حنق، وهو يقول:

- ها هي ذي. كلها لم تُفِد شيئا..

نهضت واقفا، وانا اقول:

- ربما تفشل التحريات الرسمية دوما..

سألني في قلق:

- وماذا تنوي أن تفعل؟

اجبته، وانا اتجه نحو الباب:

- سأجرى بعض التحريات، بصلة ودية.

- حذار إذن.

وانخفض صوته وهو يشيح بوجهه، مستطردا:

- حذار من الجن.

استقبلني العمدة في حرارة شديدة كالمعتاد، وقادني إلى حجرة الضيافة، وهو يهتف بعبارات الترحاب، ولم يكد يستقر بنا المقام، وتتراص أمامنا أقداح الشاي، حتى سألته في اهتمام:

- لقد سمعت بأمر حادث (حجاج) بالطبع يا عمدة.. اليس كذلك؟

قفز الحذر إلى ملامحه وصوته على الفور، وهو يقول:

- بالطبع، فالقرى صغيرة، والأخبار تنتشر فيها بسرعة.

سألته محاولا منح صوتى اكبر قدر ممكن من الهدوء:

- هل تعتقد أن (حجاج) كان يستحق القتل؟

تردد لحظة، قبل أن يقول في حذر:

- كان الجميع هنا يبغضونه..

سألته بغتة:

- وماذا عن الشيخ (مراد)؟

تراجع في حدة، عندما ناجاه السؤال، واجابني متوترا:

- ماذا عنه؟

سألته في اهتمام:

- لماذا يخشاه الجميع؟

بدا لحظة أنه سيجيب السؤال، ولكنه لم يلبث أن استعاد حذره، وهو يقول:

- لا ريب أن لديهم أسبابهم.

ضايقتني إجابته الملتوية، فقلت:

- هل له علاقة بالجن حقا؟

تردد لحظة، ثم أجاب:

- لقد كان والده كذلك.. وهناك أمور يرثها الأبناء حتما.

عقدت حاجبي في صرامة، وأنا أقول:

- لم لا تجيبني في صراحة يا عمدة؟

خفض عينيه، متحاشيا النظر إلى وجهي، وهو يقول:

- لأنني أجهل الإجابات يا سيادة الوكيل.

قلت في غضب:

- بل تعلمها يا عمدة، ولكنك تخشي التصريح بها.

تنهد في مرارة، وهو يقول:

- لم أعتد التصريح بما لا اثق فيه.

نهضت محتدا، وأنا أقول:

- سأبحث عن الأجوبة في مكان آخر.

نهض مرتبكا، وهو يقول:

- لماذا؟.. سأخبرك بكل ما لدي..

قلت في صرامة: - حسنا.. هات ما لديك.

جلست معه مرة أخرى، وهو يطلق من أعماق قلبه زفرة قوية، قبل أن يقول:

- لا أحد يمكنه أن يجزم بما إذا كان الشيخ (مراد) متصلا بالجن أم لا، ولكن والده كان كذلك، وعندما تزوج الشيخ (مراد)، أنجب أبنه (علوان) هذا بعد سبعة أشهر فقط، ولقد ولد ضعيفا، مصابا بعيب خلقي في ساقية، منعه من الحركة طيلة عمره، وبعاهتى فقدان السمع والكلام، ولقد لقيت زوجة الشيخ (مراد) مصرعها على نحو غامض، عندما سقطت من سطح منزله، ولقد أصيب (علوان) ايامها بنوبة عصبية، وكان بعد في السادسة من عمره، ومن يومها صار الشيخ (مراد) يتحاشى اهل القرية، وقبع في منزله مع ابنه، وراح الناس يتحدثون عن اتصاله بالجان مثل والده.

سألت العمدة في اهتمام شديد:

- وهل حدث أن تورط من قبل في حادثة قتل؟

هز الرجل رأسه نفيا، وهو يقول:

- لا هذه أول مرة.

غادرت منزل العمدة وانا أشد حيرة من ذي قبل..

كل التحريات تقودني إلى نقطة مخيفة..

إلى عالم يخشاه كل بشرى..

عالم المجهول..

عالم الجن.

ورحت أتساءل، وانا اسير على غير هدى...

ورحت أفكر..

هل ارتكب الشيخ (مراد) الجريمة بمعاونة الجن بالفعل؟

أهذا ممكن؟!

وماذا لو أنه قد فعل حقا؟!

هل يمكن اتهامه بالقتل..

هل يمكن العثور على دليل إدانته؟..

لقد علمنى عملى كوكيل نيابة، أن الشكوك وحدها لا تكفي لإدانة شخص ما، أو حتى لمحاكمته.. لابد من دليل..

دليل مادى

فجأة، أفقت من شرودى لأجد نفسي أمام منزل الشيخ (مراد)..

لقد قادتني قدماي إليه دون أن أدرى..

وشعرت بقلق خفي، عندما وجدت نفسي في ساحة الجريمة، وأمام منزل رجل يشاع أنه على اتصال بعالم الجن، وكدت أعدو مبتعدا، لولا أن تناهى إلى مسامعى صوت يخرج من منزل الشيخ (مراد)، لرجل يقول في لهجة تحمل نبرات التهديد:

- إنني أعلم كل شيء، ولقد رأيت ما حدث..

جذبتني العبارة في شدة، وايقظت كل فضول أعماقى، فنسيت كل شيء عن الجن والأشباح، واصول اللياقة. واقتربت من باب منزل الشيخ (مراد)، استمع إلى صوت هذا الأخير، وهو يقول:

- لن يمكنك أن تثبت شيئا يا (صالح)...

اجابة (صالح) هذا في سخرية:

- ومن يحتاج إلى الإثبات.. يكفي أن اخبر الجميع بما تحاول إخفاءه منذ زمن طويل.. يكفي أن يعلموا السبب الحقيقي لوفاة زوجتك. صرح به الشيخ (مراد) في حدة:

- كفى يا رجل.. كفى.. اصمت..

ارتفع صوت (صالح)، وهو يقول:

- لا سيرتفع صوتى أكثر سأخبر الجميع، ما لم تنقدني المبلغ الذي طلبته.

صاح به الشيخ (مراد):

- حذار أن تفعل يا (صالح).. حذار أن تخبر أهل القرية بحرف واحد وإلا...

قاطعه (صالح) متحديا:

- والا ماذا؟

انتبهت حواسى كلها في شدة، وأنا أتمنى أن أسمع الشيخ (مراد) يهدده بالقتل، إلا أننى - وبدلا من ذلك – سمعت (صالح) يصرخ بغتة:

- لا.. لا...

كان صوته يحمل رعبا هائلا، جمد الدماء في عروقى، وهو يستطرد:

- لا.. لست أريد النقود.. لا تفعل بي هذا.. لا.. لا.....

وأعقب هذا صرخة رهيبة، جمعت اطنانا من الألم والرعب واليأس..

صرخة إنسان أصابه رعب هائل....

إنسان يحتضر..

ولست أدري كيف واتتني الشجاعة بعدها، ولا كيف اندفعت نحو باب منزل الشيخ (مراد)، واقتحمته في قوة؟..

كل ما أذكره هو أنني قد تجمدت في مكاني فور ذلك وتسمرت عيناى امام مشهد مذهل..

لقد كان (صالح) هذا رجلا ضخما، يزن ما يزيد على المائة كيلوجرام..

وكان هناك قائم حديدى في ردهة المنزل، مثبَّت بالحائط، ويخترق ظهر (صالح)، لينفذ من قلبه، وقد جحظت عينا هذا الأخير، وخبا فيهما بريق الحياة..

وكان هذا القائم الحديدي على ارتفاع مترين ونصف متر من ارض الردهة..

ومرة أخرى قفزت إلى ذهني كلمة واحدة..

الجن..

☆ ☆ ☆

4- المستحيل!!..

حدق المأمور في جثة (صالح)، المعلقة بالقائم المعدني، على ارتفاع مترين ونصف متر من الأرض، وهو يقول في ذهول:

- مستحيل!.. كيف فعلها هذا الشيخ اللعين.. كيف حمل هذا البغل إلى ذلك الارتفاع، و....

بتر عبارته، ثم التفت إلى الشيخ (مراد)، يهتف به:

- كيف فعلتها بالله عليك؟

خفض الشيخ (مراد) عينيه، دون أن ينبس ببنت شفة، فهتف المأمور في عصبية زائدة:

- كيف فعلتها؟

قلت محاولا تهدئته، على الرغم من الانفعال الشديد، الذي يملأ جسدي والذي لم يفارقني منذ رأيت الجثة المعلقة:

- اهدأ.. أنا شاهدت با حدث هذه المرة..

حدق في وجهي، وهو يهتف:

- شاهدت الجن؟

زفرت قائلا:

- من حسن الحظ أنني لم أفعل.

ثم أضفت:

- ولكنني اقتحمت الباب فور سماع صرخة الرعب الهائلة، التي انطلقت من حنجرة (صالح) قبيل مصرعه، وعندما فعلت، كان الشيخ (مراد) يقف في منتصف الردهة، وكان (علوان) أمام باب

حنجرته، فوق مقعده المتحرك، ولم يكن هناك بشرى آخر في المنزل.

تراجع المأمور، وهو يحدق في وجهي في ذهول، ثم غمغم مرة أخرى:

- مستحيل!!

وأدار وجهه ليحدق في وجه الشيخ (مراد) مكررا:

- مستحيل!!

ثم هتف وهو يلوح بكنه ساخطا:

- سيتهموننا بالجنون، لو ذكرنا هذا في تقريرنا.. لن يمكنني أن اتهم رجلا - بصفة رسمية - بتسخير الجن للقتل.

أثرت إلى جثة (مصالح)، مغمغما:

- الديك تفسير آخر؟

القي نظرة على الجثة بدوره، ثم لوح بكفه، قائلا في حدة: -

- لا.

ثم استدرك في عصبية:

- ولكن هذا لا يعني أن اتهم الجن في تقريرى.

قال الشيخ (مراد) بغتة:

- لا أحد هنا يتصل بالجن.

التفت إليه الأمور في حدة، وصاح به، وهو يشير إلى جثة (صالح):

- من فعل هذا إذن؟

تجمدت ملامح الشيخ (مراد) لحظة، ثم عاد يخفض عينيه، مغمغمًا:

- انا فعلتها.

صاح به المأمور:

- كيف؟.. هل حملت رجلا يزن ما يزيد على المائة كيلوجرام، ورفعته مترين ونصفا عن الأرض، ثم غرسته في ذلك القائم المعدني؟.. هراء!.. ما من مخلوق بشري يمكنه

هذا.

اجابه الشيخ (مراد) في صلابة أدهشتني:

- اقول لك انا فعلت هذا.

ندت من (علوان) همهمة أليمة، جعلتني التفت إليه في حركة سريعة:

وشاهدت الدموع في عينيه..

دموع مريرة، دفعتني إلى أن أقول:

- لا بأس يا شيخ (مراد).. سنقتنع بأنك أنت فعلت هذا..

بدا الارتياح على وجهه، وسألني في لهجة خالية من اية انفعالات:

- هل ستلقون القبض على؟

اجبته في هدوء:

- ليس بعد.

حدق الأمور في وجهي، وهتف مستنكرا:

- ماذا تعني؟

.. إننا سنلقي القبض عليه حتما.

قلت في صرامة:

- إنه قراري أنا.

واشرت إلى (علوان)، مستطردا:

- سيبقى في منزله لرعاية ابنه، وسنقيم عليه حراسة، لحين إثبات التهمة.

هتف المأمور في دهشة:

- إثبات ماذا؟!.. إنك أنت الشاهد.

أجبته:

- شهادتي لا قيمة لها، ما لم أثبت أنه هو الذي قتل (صالح).

صاح المأمور، وهو يلوح بكفه محنقا:

- هراء أنت تعلم انه سيدان، إن عاجلا أو آجلا، إنك تشفق على ابنه فحسب.

ولوح بذراعيه في الهواء بقوة، مستطردا:

- من يؤكد لك أن ابنه مقعد بحق؟.. ربما هي خدعة دنيئة اخرى.

مال الشيخ (مراد) نحو ابنه، ورفع طرف جلباب (علوان)، وهو يشير إلى ساقي هذا الأخير، قائلا:

- هل تبدو لك ساقاه قادرتين على الحركة؟

كان الجواب واضحا تماما، فقد كانت ساقا (علوان) هزيلتين، على نحو لم أعهده في مخلوق بشري ابدا، حتى لقد بدتا اشبه

بعصبين رفيعتين، وكأنها لا تحتويان على اية عضلات، وبدت قدماه كمطرحتين في عظام يابسة، جعلت المأمور يشيح بوجهه، قائلا في حدة:

- حسنا، فليبق لرعاية ابنه، ولكنني سأترك ثلاثة رجال لحراسته.

وعاد يلتفت إلى الشيخ (مراد)، مستطردا في غضب ثائر:

- ولكنك ستدان لعملك هذا يا رجل، وستكلل حياتك الغامضة في هذه القرية بعار لا مثيل له، ولن ينقذك من هذا المصير الأسود سوى الموت هل تفهم؟.. الموت وحده وغادرنا جميعا المكان، مع الأمور الثائر، وفي قلب كل منا مزيج من الحيرة.. والخوف..

☆ ☆ ☆

كانت احلامي أقرب إلى الكوابيس في تلك الليلة.. رأيت نفسي اعدو في طرقات القرية، وقد خلت من كل سكانها، وبدت أشبه بمقابر خاوية مخيفة ثم ظهر الشيخ (مراد)..

وظهر جنى رهيب مخيف..

وصرخ الشيخ (مراد) باسمي، وهو يشير إلىّ..

وانقض علىّ الجني..

وانتزعني من الأرض.

وصرخت..

صرخت بكل الرعب في أعماقى..

واقترنت صرختى بطرقات عنيفة وبصوت أجش يهتف باسمي.. وفجأة.. استيقظت

وتلاشي الحلم كله، فيما عدا الطرقات والهتاف وشعرت بتوتر بالغ، وانا أغادر فراشي، وافتح باب المنزل، لأهتف في وجه الخفير:

- ماذا هناك؟

أجابني بصوته الاجش، واسلوبه الفظ، الخالي من اللياقة:

- البك المأمور كلفني إحضارك.

سألته في قلق:

- آهي جريمة قتل أخرى؟

أجابني في بساطة:

- بل حالة وفاة.

ثم أضاف:

- لقد توفي الشيخ (مراد).. توفي في فراشه، منذ نصف الساعة.

☆ ☆ ☆

5- الإرث...

كان وجهه هادئا للغاية..

وكان مستسلما للموت في بساطة عجيبة وغمغم المأمور، وهو يتطلع إلى وجهه:

- من الواضح أنه قد مات خلال نومه.

تمتمت، وانا اتطلع بدوري إلى وجه الشيخ (مراد):

- وبلا ادنى ألم.

سألني المأمور:

- هل ستصرح بدفن الجثة؟

تنهدت وأنا أجيب:

- ليس قبل أن يفحصها الطبيب الشرعي.

أومأ برأسه موافقا، ثم قال في ارتياح واضح:

- اظن ذلك يضع نهاية لكل تلك الأحداث المخيفة.

غمغمت:

- تقريبا.

وأدرت بصرى إلى حيث يجلس (علوان) فوق مقعده المتحرك، وقد بللت الدموع وجهه، واشتركت مع صمته الإجباري في صنع لوحة مأساوية رهيبة، دفعتني إلى أن أغمغم في إشفاق:

- ترى من سيرعى ذلك المسكين؟

القي المأمور نظرة على (علوان)، وغمغم:

- من يدري.. ربما يرعاه الجن.

غمغمت في ضيق:

- هذه الأمور لا تحتمل السخرية.

لم نتناقش انا وهو هذا الأمر مرة أخرى، طوال طريق العودة، حتى قال هو، وهو يودعني عند منزلى:

- هناك قضية سرقة مواش أخرى، متى تنوي التحقيق فيها؟

اجبته شاردا:

- ريما غدا..

دلفت إلى منزلي، الذي بدا لي هذه المرة خاويا للغاية، والقيت جسدي المنهك فوق فراشي الصغير، وحاولت أن ادفع النوم إلى عيني، إلا أن عقلى راح - على الرغم منى - يسترجع كل أحداث تلك القضية العجيبة..

مصرع (حجاج)...

الحجر الضخم..

مقتل الحاج (مندور)...

الجن..

جثة (صالح) المعلقة الشيخ (مراد).. (علوان)..

وفجأة، وجدت نفسي اعتدل جالسا، وانا اهتف:

- ولكن كيف؟!.. كيف يفهم لغة الشفاه، وقد وُلد اصم ابكم؟

دارت الأحداث كلها في ذهني، على نحو مختلف، ووجدت نفسي أهتف:

- يا إلهى!!..

وقفزت من فراشي، واختطفت مجلة كنت اطالعها منذ اسبوع، ورحت اقلب صفحاتها في لهفة، حتى عثرت على موضوع علمي طريف، لم أولهِ الكثير من الاهتمام في حينه، ورحت أقراه في لهفة بالغة، قبل أن أهتف مرة اخرى:

- يا إلهي!!

وبأقصى سرعة، رحت أرتدي ثيابى، وانطلقت اعدو نحو منزل الشيخ (مراد)، ولقد شعر الشرطي الذي تركناه لحراسة المنزل بالدهشة، عندما رآني اعود إليه بعد أقل من ساعة، وأهتف به:

- هل وصل الطبيب الشرعي؟

أجابني في دهشة:

- نعم يا سيدى ولقد وصل منذ قليل، وسيبدأ عمله على الفور.

هتفت في جزع:

- يا إلهي!!

واقتحمت المنزل في عنف، وركضت حتى حجرة (علوان)، ولم أكد اقتحمها، حتى اتسعت عيناي في رعب وتوتر بالغين..

كان المشهد رهيبا حقا..

كان الطبيب الشرعي المسكين ملتصقا بالحائط في رعب، وقد غاصت الدماء من وجهه، فصار شاحبا، ينافس وجوه الموتى الذين اعتاد التعامل معهم، وعيناه معلقتان بجثة الشيخ (مراد).

وكانت الجثة تسبح في الهواء..

نعم..

كانت تسبح كأنها في منطقة انعدام وزن..

وعلى قيد خطوات، عند ذلك الباب الذي يصل بين حجرة الشيخ (مراد)، وحجرة ابنه (علوان)، كان هذا الأخير يجلس فوق مقعده المتحرك، وقد تركزت عيناه البارزتان على الجثة المعلقة، وزاد بريقها حتى بدتا اشبه بمصباحين متقدين لامعين.

ولم يكد الطبيب الشرعي يراني، حتى هتف في هلع ورعب:

- هذا سحر مبين، أو فعل من أفعال الجان.

قلت وانا أحدّق في انبهار تام:

- بل هي قوة العقل يا رجل..

غمغم في ذهول:

- العقل؟!

تجاهلت دهشته، وانا التفت إلى (علوان)، قائلا في اشفاق:

- اهدا يا (علوان).. اهدا.. لقد أدركت كل شيء.. ادركته فجأة.. لم يكن والدك هو الذي ورث قدرة ابيه.. بل كنت انت.. انت نلت الإرث كله.. إنه ليس اتصالا بالجان كما تصورت عقول أهل القرية، محدودة الثقافة.. بل هي قوة العقل.. قدرته على تحريك الأشياء عن بعد.. تلك القوة التي يطلق عليها علماء ما فوق الطبيعيات اسم (السيكو كينيزيس).. لقد كان جدك يملكها، ولكنه لم يحسن استغلالها، بل أهدرها في بعض العبث، ودفع الحمى لمناطحة بعضه البعض، أما أنت فقد كان ضعفك الجسدي دافعا لك لتنميتها، والقفز بها إلى درجة هائلة، اثارت خوف والدك وقلقه، وخاصة بعد أن قتلت امك دون قصد، عندما اغضبتك، وانت بعد في السادسة من عمرك.. لقد عزلك أبوك الناس بعدها،

خشية أن ينتبهوا إلى قدرتك المذهلة، ويتهموك بالاتصال بالجن بدورك.. ولقد حرصت بدورك على كتمان السر، لأنك كنت تحب اباك وحبك هذا له، هو الذي دفعك إلى قتل (حجاج)، عندما راح يحاول ابتزاز والدك، فلقد دفعت الحجر الضخم بقوة عقلك، وجعلته يطير، ويهوي على راس (حجاج)، ويقتله..

وادرك والدك ما حدث، عندما اسرع بفحص الجثة، وعاد يطلب منك عدم ذكر ما حدث.. ولكن الحاج (مندور) رأى والدك يفحص جثة (حجاج)، وتصور انه هو الذي قتله، وأغضبك أن بدلى بشهادة تدين والدك في هذا الشأن، فاستخدمت قوة عقلك لترفعه عن الأرض، وتلقى به من علٍ..

ولان المسكين كان يؤمن بالجن، فلقد تصور ان والدك قد ارسل جنيا ليعاقبه على شهادته ضده..

كنت أستطرد في الكلام في سرعة، والدموع تتكون في عينى (علوان) في بطء، وجسد والده السابح في الهواء يهبط تدريجيا نحو الفراشي، والطبيب الشرعي ما يزال ملتصقا بالحائط في رعب، فرحت أتابع:

- ثم جاء (صالح)، محاولا ابتزاز والدك بدوره، إذ يبدو أنه قد رآك تستخدم قواك المذهلة يوما، فما كان منك إلا أن رفعته بقوة عقلك، وغرست جسده الضخم في القائم المعدني..

التمعت عينا (علوان) بالدموع، وكان جسد والده يلامس الفراش، وانا أتابع في أسى:

- ثم جاء دور والدك، بعد أن هدده المأمور بالعار والفضيحة، واخبره ان الموت وحده ينقذه منهما.. لقد كنت تحب والدك يا

(علوان)، ولهذا قتلته انهمرت الدموع من عين (علوان) في مرارة، واستقر جسد والده تماما فوق الفراش، وأنا أضيف:

- قتلته حتى لا يتعرض للفضيحة والعار.. أوقفت نبضات قلبه بقواك العقلية..

راح (علوان) يبكي في حرارة، وهو يتطلع إلى جثة والده، المسجاة فوق الفراش، فغمغم الطبيب الشرعي ذاهلا:

- إذن فهو فعل كل هذا..

غمغمت، وانا أتطلع إلى (علوان) مشفقا:

- نعم.. هو فعل كل هذا.. لقد اثبت أن قوة العقل تتفوق على قوة الجسد.. لقد ادركت أنه يمتلك عقلا نادرا، عندما أدهشني كيف أنه يستطيع قراءة حركات الشفاه، وهو لم بسمع صوت بشري من قبل!

غمغم الطبيب الشرعي في خوف:

- إنه قاتل إذن.. وينبغي أن يُسجن.. وينبغي أن....

فجأة، رفع (علوان) عينيه إلينا، وبرزت عيناه على نحو مخيف، وهو يصرخ...

وكانت صرخته هائلة..

وارتفع جسدي في الهواء في قوة وصرخت بدوري في رعب:

- لا با (علوان).. لا..

ثم ارتطم جسدي بالحائط..

وسقطت فاقد الوعي..

او فاقد الحياة...

☆ ☆ ☆

6- النــهاية..

كان وجه المأمور هو اول ما طالعني، عندما استعدت وعين في الوحدة الصحية للقرية، ولم اكد اراه حتى غمغمت في ضعف:

- (علوان).. إنه..

قاطعني في خفوت:

- لقد انتهى الأمر.

سألته في جزع، وأنا اشعر بصداع شديد يكتنف رأسى:

- ماذا حدث؟

اجابني في ضيق:

- الطبيب الشرعي لقي مصرعه.. ارتطمت رأسه بالأرض، ومات على الفور..

هتفت في مرارة:

- و (علوان)؟

أجابني في اقتضاب:

- مات.

اتسعت عيناي في ذهول، وانا اقول:

- مات؟!.. كيف؟

اجابني وهو يشيح بوجهه، ويغلق عينيه، وكأنما بخشى حتى تذكّر الأمر:

- انفجرت رأسه.. كان مشهدا رهيبا..

غمغمت ذاهلا:

- انفجرت رأسه؟

وهززت راسي في قوة، وكأنني أمنع عقلى من تخيل المشهد، وغمغمت:

- هذا ينهي كل شيء.

سألني المأمور في توتر:

- كان هو.. اليس كذلك؟

- تمتمت:

- بلى.

زفر في قوة، وسألني:

- كيف ستذكر ذلك في تقريرك؟

قلت وانا أسترخي مرة اخرى في فراشي:

- لن اذكر شيئا..

قال في حيرة:

- كيف ستبرر كل تلك الجرائم إذن؟

أجبته في خفوت:

- لن يصدق مخلوق واحد الحقيقة، لو أنني ذكرتها في تقريرى؛ لذا فليس أمامي سوى استخدام تلك العبارة التي يبغضها كل وكيل نيابة شاب.

سألني في اهتمام:

- اية عبارة؟

سرح ذهني مع استعادة تفاصيل الأمر كله منذ البداية، قبل أن أجيبه في حزم:

- العبارة التقليدية:

«ولقد قيدت كل هذه الحوادث ضد مجهول»

ابتسم وهو يقول:

- نعم.. هذا أفضل.

واسترخي في مقعده، مستطردا:

- إنها فعلا تناسب هذا القول..

وتنهد مردفا:

- ضد مجهول..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- الجريمـــــــة..

2- الشـــــاهد..

3- الجـــــن..

4- المستحيل!!..

5- الإرث...

6- النـــــهاية..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد البديل

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

قصة العدد
البديل

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000
(قصص العدد)

البديـــــــــل

1- النســـــخة..

«إنها مهزلة.. فضيحة ومهزلة معا!..»

صرخ (أكرم رشوان)، الملياردير المعروف، بتلك الكلمات في غضب مادر، وهو يضرب سطح مكتبه بقبضته، ويواجه رؤساء الأكاديمية الطبية الخاصة، التي يمتلكها، والتي شيدها بكفاحه وإصراره، منذ بدايات القرن الحادي والعشرين، قبل أن يستطرد:

- كيف أمتلك أكبر إمبراطورية طبية، في الشرق الأوسط كله، وأعجز عن علاج كبد متليف؟.. كيف؟.. إنني لم أبخل عليكم أبدا بأحدث الأجهزة الطبية الإليكترونية، حتى أنكم تستطيعون الآن إجراء أعقد العمليات الجراحية، دون الاستعانة بمساعدين.. هل كنتم تفعلون هذا في الماضي؟ هل كان بإمكان الواحد منكم إجراء عملية نقل قلب بمفرده كما تفعلون الآن؟

غمغم أحد الأطباء في ضيق:

- لا.. كان هذا مستحيلا في القرن العشرين، أما الآن فنحن نفعلها، ولكن العالم كله يفعلها..

صرخ (أكرم):

- ماذا تعني؟.. اتعني انني لم اضف جديدا؟

زفر طبيب آخر في ضيق، وهو يقول:

- ليس هذا ما نقصده، وإنما نقصد أن الطب يتطور في العالم كله، وعلى الرغم من ذلك، فمشكلة كبدك مشكلة عويصة معقدة بالفعل، ليس لصعوبة استبدال كبد اخري به، فبنوك الأعضاء تنتشر الآن في العالم اجمع، وشراء كبد سليمة لن يتكلف اكثر من

مليون ونصف مليون من الجنيهات، ولكن المشكلة الحقيقية هي في فصيلة دمك..

هتف (أكرم) محنقا::

- وماذا عنها؟

قال الطبيب:

- إنها فصيلة دم شديدة الندرة، حتى اننا لم نجد كبدا واحدة، في كل بنوك الأعضاء، يصلح للزرع في جسدك، دون أن يتعرض للفظ شديد من خلاياك.

صرخ في حنق:

- الا توجد وسيلة إذن؟

اقتربت منه طبيبة شابة، وربتت على كتفه في حنان، وهي تقول:

- اهدأ يا (أكرم).. يوجد حل حتما..

صرخ في وجهها، وهو يبعد كفها عن كتفه في قسوة:

- كفى تزلفا.. إنني أكره أسلوبك الحنون هذا.. أبغضه.

بدت الصدمة على وجهها، وتراجعت كالمصعوقة، وهي تحدق في وجهه في رعب،

هاتفة:

- تبغضه؟!

اجابها في غلظة:

- نعم.. أبغضه.. أبغضه كما أبغض اسلوبك الناعم هذا، وأحب أن أخبرك أن حبك لي هذا أمر سخيف، فلم أُخلق للحب..

اتسعت عيناها في ذهول، وهي تردد:

- حبي لك؟!

صرخ:

- نعم.. اتريدين وضوحا اكثر؟

هتفت في مرارة:

- أنت رجل بلا قلب..

واندفعت تغادر الحجرة، وعيون الأطباء تتبعها في إشفاق..

كانوا يعلمون انها غارقة في حبه بالفعل.. وانه لا يشعر بها قط..

ولم يكن (اكرم رشوان) أبدا بالرجل الذي بحب..

لقد وهب قلبه لهدف واحد..

المال..

وفي ثورة، تابع هو، وكان ما فعله معها لا يستحق التوقف لحظة:

- اريد حلا.. لا تتركوني هكذا..

تبادل الأطباء نظرات يائسة، قبل أن يغمغم احدهم في تردد:

- في الواقع، ربما كان الحل الوحيد هو...

قاطعة (اكرم) في لهفة:..

- هو ماذا؟

تردد الطبيب لحظة أخرى، ثم أجاب:

- الاستنساخ

عقد (أكرم) حاجبيه، وهو يقول في حدة:

- ماذا؟

اجابه الطبيب في سرعة:

- التزاوج اللاجنسى با سيدى.. تلك التجارب التي ينكب عليها العلم، منذ الربع الأخير من القرن العشرين الماضي، والتي بلغنا نحن فيها شأوا جيدا، مع بدايات القرن الحادي والعشرين..

جلس (أكرم) خلف مكتبه، وبدا الاهتمام الشديد على وجهه، وهو يلوح بكفه، قائلا:

- زدني بالله عليك، فلست طبيبا مثلكم؛ لأفهم كل هذا..

تنهد الطبيب في ارتياح، وقال:

- حسنا سأشرح لك الأمر بالتفصيل يا سيد (اكرم).. إننا سنحصل على خلية واحدة من خلاياك، ونعمل على تنميتها بوسائل صناعية، وباستخدام هرمونات النمو الفائقة القوة، التي تم ابتكارها عام الف وتسعمائة وتسعة وتسعين، في ظروف صناعية ملائمة، و...

قاطعه (اكرم) بنفاد صبر:

- وماذا؟

. تراجع الطبيب وكأنما بوغت بالمقاطعة، وعقد حاجبيه في ضيق، وهو يجيب:

- باختصار، سننمي خلية من خلاياك، لنحصل على نسخة ثانية منك..

عقد (أكرم) حاجبيه في شدة، وهو يقول:

- نسخة؟!

اسرع الطبيب يكمل:

- وهذه النسخة ستكون صورة طبق الأصل منك، في هيئتك، وحجمك، وملامحك، وحتى في بصماتك وفصيلة دمك النادرة.

بدا (اكرم) يستوعب الأمر، وهو يقول في اهتمام:

- وفصيلة دمى النادرة أيضا؟!.. هذا رائع اتعنى أننا نستطيع في تلك الحالة أن نحصل على كبد ملائمة؟

ابتسم الطبيب، وهو يقول:

- تماما، وستتميز هذه الكبد عن غيرها في كونها من نفس صفاتك بالضبط، لأنه في الواقع جزء منك انت، ولن يلفظه الجسم مطلقا.

تألقت عينا (اكرم)، وهو يهتف:

- رائع.. رائع.. إنها وسيلة مثالية تماما..

ثم استطرد في شغف:

- وكم سيحتاج هذا؟

اجابه الطبيب في حماس:

- عام واحد، يمكنك أن تحيا خلاله باستخدام كبد صناعية مؤقتة، وسيتكلف الأمر حوالي عشرة ملايين جنيه، و...

هتف (اكرم):

- النقود لا تهمني.. إنني اشترى حياتى.

تردد الطبيب لحظات، ثم قال:

- هناك مشكلة أخرى

سأله (أكرم) في جزع

- ما هي؟!

أجابه الطبيب في خفوت:

- اثنان فقط يمكنهما تخليق ذلك البديل الدكتور (رشيد)، و... والدكتورة (سعاد).

ارتفع حاجبا (اكرم)، وهو يهتف في استنكار:

- (سعاد)؟!.. تلك المأفونة؟!

أجابه الطبيب:

- إنها الوحيدة المتخصصة في الإنتاج الوراثي الفائق، والتزاوج اللاجنسى، إلى جوار تخصصها كجراحة قلب. عاد (أكرم) يكرر في استخفاف:

- تلك السخيفة!

لم يجبه أحد هذه المرة، فعقد حاجبيه مفكرا بعض الوقت، ثم قال في حزم:

- حسنا اتركوا لي هذه المهمة..

غادر الأطباء حجرته، فيها ضغط هو زر الاتصال بينه وبين سكرتيرته، وهو يقول:

- ابعثي في طلب الدكتورة (سعاد).. اريدها في حجرتى على الفور..

لم تمض دقائق، حتى كانت الدكتورة (سعاد) تدلف إلى حجرته، والحنق يحفر بصماته على وجهها الجميل،

إلا أن (اكرم) استقبلها بابتسامة حنون، وهو يقول:

- يا عزيزتي (سعاد).. تقدمي، لا ريب أنكِ مستاءة مني كثيرا.

قالت في سخط، وهي تجلس على المقعد المقابل لمكتبه:

- وماذا تنتظر مني، بعد أن أهنتني أمام الجميع؟

أطلق تنهيدة قوية، وهو يقول:

- حتى انتِ لا تقدرين موقفى..

شعر قلبها بلوعة من أجله، حتى أنها لم تنتبه إلى تمثيله الواضح، وهو يستطرد:

- كنت أتصور أن حبنا سيجعلك تقدرين..

خفق قلبها في عنف، وهي تقول:

- حبنا؟!

رفع عينيه إليها، واستجلب كل مهاراته التمثيلية، وهو يقول:

- الم تفهمى بعد؟!.. الم تدركي أنني أحبك؟ ارتفع حاجباها في حنان، وهبت من مقعدها، هاتفة:

- (أكرم).. احقا ما اسمع؟!

نهض بدوره، واحتضن كفها في راحته، وهو يتطلع إلى عينيها، قائلا:

- لقد حاولت أن أخفى ذلك في قلبي.. حاولت أن أدفعكِ لكراهيتي، حتى لا تحزني لموتي المحتم، بعد أن يعجز كبدي عن العمل..

اغرورقت عيناها بالدموع، وهي تقول:

- لا يا (اكرم).. كان ينبغي أن تخبرني.. بإذن الله سنجد وسيلة لعلاج كبدك حتما..

رباه!! لابد من وسيلة...

تظاهر بالحزن والأسى، وهو يقول:

- فصيلة دمى النادرة تحول دون ذلك يا حبيبتي.. آه لو كان هناك شخص يملك نفس الفصيلة.. بديل، يملك نفس صفاتى.

تجمدت الدموع في عينيها، وهي تقول:

- بديل؟!

ثم لم تلبث أن هتفت في حماس:

- نعم.. هذا هو الحل يا حبيبى.. البديل.. سنخلق منك بديلا، ونحصل على ذلك الكبد البديل..

هتف وكأنه يسمع ذلك لأول مرة:

- كيف؟!

راحت تشرح له في حماس فكرة التزاوج اللاجنسى، وتؤكد له أنها ليست وسيلة جديدة، وان العلماء يجرونها بنجاح على اللافقاريات، منذ ثمانينيات القرن العشرين ([1])، وهو يتظاهر بالدهشة، حتى انتهت من حديثها، فغمغم في يأس:

- ولكن من يمكنه أن يصنع ذلك البديل، الذي تتوقف عليه حياتي؟

هتفت في حماس:

- انا!

واضافت وهي تمسك يديه في قوة:

- انا يمكنني أن أفعل أي شيء من أجلك.. من أجل أن يحيا حبنا..

تطلع إلى عينيها مباشرة، وهو يهتف:

- أحقا يا (سعاد)؟!.. اهناك أمل في أن احيا؟ وفي أن يحيا حبنا؟

هتفت في حرارة وحب:

- سأبذل قصارى جهدي لتحيا يا حبيبي.. سأصنع بمشيئة الله، ذلك البديل سأصنعه اجلك أنت..

وفي اعماقه، ابتسم (أكرم) في ظفر..

سيحصل على البديل..

وسيحيا...

☆ ☆ ☆

2- لا..

حدق (اكرم رشوان) مشدوها، في ذلك الحوض الزجاجي المرتفع، واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يتطلع في ذهول إلى بديله..

إلى نسخة طبق الأصل منه. كائن بشري كامل، يماثله طولا وعرضا وحجما..

بديل تام له..

نفس الهيئة..

نفس الملامح..

نفس القسمات.

وابتسمت (سعاد) في حنان، وهي تقول:

- بديلك مستعد يا حبيبى..

هتف (اكرم):

- ولكن هذا مذهل.. رائع.. إنه نسخة طبق الأصل منى بالفعل، ولكن كيف أصبح يماثلني سنا وحجما، خلال عام واحد، وانا الذي احتجت إلى خمسة وأربعين عاما، لأبلغ ما بلغته..

ربتت على كتفه في حب، وهي تقول:

- إنه العلم، وهرمونات النمو الفائقة يا عزيزي.. إنه البديل الكامل، الذي يحلم به العلم منذ سنوات، والذي كانت تكلفة إنتاجه الباهظة تحول دون اكتمال تجاربه، في ظل الأزمات الاقتصادية

الطاحنة، التي تجتاح العالم منذ الربع الأخير من القرن العشرين هتف في لهفة:

- ومتى يمكنني أن أحصل على كبده؟ قالت مبتسمة:

- اسبوع واحد على الأكثر.

هتف:

- ولماذا لا احصل عليه الآن؟

تنهدت، وقالت:

. من اجل التطور العلمي يا عزيزى..

عقد حاجبيه، وهو يقول مستنكرا:

- أي تطور علمى هذا؟

أشارت إلى الحوض الزجاجي، حيث يسبح البديل في هدوء وسط سائل أشبه بالسائل الجنيني، الذي يتكون في رحم الأم، وهي تقول في حماس:

- الا تدرك ما حدث؟.. أنت امام معجزة طبية حقيقية.. أمام أول بديل بشرى متكامل، ينشأ من تزاوج لا جنسي.. إنه أعظم كشف في قرننا الحادي والعشرين، ومثل هذا الكشف، لا ينبغي إهداره من أجل كبد واحدة..

هتف محنقا:

- ماذا تعنين؟!.. الن أحصل على كبده؟

داعبت خصلات شعره الناعمة، وهي تقول في حنان وحماس:

- ستحصل عليه بالطبع يا عزيزى، ولكننا في البداية سنتم تجاربنا على هذا البديل المعجزة.. اتعلم اننا نلقنه لغتنا، عبر

وسائل صناعية، منذ بدأنا تخليقه، وانه سيحصل فور إيقاظنا له على صوتك، وعلى بعض من ذاكرتك.. إننا نحب أن ندرس ذلك أولا، قبل أن تنتزع كبده.

كان يتمنى أن يرفض هذا العبث في حزم، وأن يأمرها بانتزاع كبد البديل على الفور، إلا أنه كان قد أدرك، خلال عام كامل، تظاهر طواله بالوقوع في حبها، انها من ذلك النوع العنيد، المستعد لتدمير العملية كلها في لحظة، لو انه حاول إجبارها على اتخاذ أية خطوة تخالف عقيدتها، لذا فقد قرر الصبر والاحتمال، وهو يقول:

- ومتي ينتهى ذلك؟

أجابته باسمة:

- بعد أسبوع واحد فقط يا حبيبي..

غمغم ساخطا:

- أسرعي بالله عليكِ، فاستخدام الكبد الصناعية يرهقني للغاية -

داعبت خصلات شعره مرة اخرى، وهي تغمغم:

- اطمئن يا حبيبى..

أجبر نفسه على الابتسام في وجهها، قبل أن يغادر معملها محنقا..

لقد خلقت له البديل..

خلقت من خلية واحدة من خلاياه كائنا كاملا، سيكون السبب في إنقاذ حياته، وإنقاذ كبده التالفة هكذا يؤكد انها عالمة عبقرية، ولكنه يبغضها..

يبغضها كما لم يبغض مخلوقا من قبل..

ربما لأنه اضطر لعام كامل ان يتظاهر بحبها..

او لأنها تفوقه علما وذكاءً..

او للسببين معا..

المهم انه يكرهها..

وفي اعماقه، قرر أن يفصلها من مؤسسته العلاجية، فور نجاح عملية انتقال الكبد..

سيفصلها بلا رحمة.

☆ ☆ ☆

كانت لحظة رائعة في حياة (سعاد)، تلك التي استيقظ فيها البديل..

كانت لحظة تحمل لها كل الفخر والظفر..

لحظة انتصارها..

وفي شغف شديد، راحت تتطلع إلى عيني البديل، اللتين هما نسخة طبق الأصل من عيني (أكرم)، وملأت بصرها بملامحه الوسيمة، التي تنطبق تمام الانطباق على ملامح حبيبها، قبل أن يغمغم البديل بصوت (اكرم):

- أين أنا؟

غمغمت وقلبها يختلج انفعالا:

- مرحبا بك في عالمنا..

تهتم في دهشة:

- عالمكم؟

حاول أن ينهض، إلا أن عضلاته كانت واهنة للغاية، فساعدته هي على النهوض، وهي تقول في حنان:

- سترهقك الحركة في البداية فحسب، وبعدها ستساعدك العقاقير، التي احقنك بها، على أن تصبح طبيعيا -

تطلع إلى وجهها لحظات، قبل أن يتمتم في إرهاق:

- إنني أذكركِ.

هتفت في حماس:

- بالتأكيد، فأنت تحمل جزءا من ذاكرته..

راح يتفرس في ملامحها لحظات، قبل أن يقول في حيرة:

- أنت طبيبة.. نعم.. اسمك (سعاد).

هتفت في سعادة:

- هذا صحيح. اكمل..

بدا وكأنه يعتصر ذهنه في عنف، وهو يقول:

- وأنا (أكرم).. نعم.. اسمي (أكرم).. (أكرم رشوان).. يا إلهي!!.. كم يؤلمني ان أتذكر.. قالت في حماس:

- لا تبذل جهدا.. إنك تحمل الكثير من ذاكرة أصلك، وستستعيد تلك الذكريات الموروثة تلقائيا.. فقط استرح، ولا تبذل جهدا..

حدق في وجهها لحظة، ثم ارتسم شيء اشبه بالذعر في ملامحه، وهو يقول:

- لا أنا لست (أكرم).

توترت أعصابها، وهي تسأله في خفوت:

- من أنت إذن؟

اجابها في حزن:

- انا بديل.. مجرد بديل له..

هتفت في دهشة:

- كيف عرفت؟

هز راسه في حيرة، مغمغما:

- لست أدرى لقد عرفت بغتة، وكأنما كان هذا مختزنا في بقعة ما من ذاكرتي

تطلعت إليه في إشفاق، ثم ربتت على كتفه في حنان، قائلة:

- لا تجعل هذا يقلقك.

ارتفع من خلفها صوت يهتف في انبهار:

- هل استيقظ؟

ادارت عينيها إلى مصدر الصوت، وخيل إليها انها تشاهد صورة في مرآة، للجالس أمامها، فقد كان (اكرم) وبديله متطابقين أشد التطابق، حتى أن البديل قد عقد حاجبيه، وراح يتطلع إلى (اكرم) في دهشة، في حين أجابت (سعاد) في سعادة:

- نعم يا حبيبي.. لقد استيقظ، وهو يتحدث بلسانك، ويملك بعضا من ذاكرتك، كما توقعنا..

اقترب (اكرم) من بديله، وراح الاثنان يتطلع بعضهما إلى البعض لحظات في صمت، قبل أن يغمغم (اكرم):

- مذهل.

ثم التفت إلى (سعاد)، هاتفا:

- إنه نسخة طبق الأصل مني.

اجابة البديل في خفوت:

- انت ايضا نسخة طبق الأصل منى

حدق (اكرم) في وجه بديله لحظة، ثم لم يلبث أن أطلق ضحكة مجلجلة، وهو يهتف:

- رائع يا (سعاد). رائع.. إنني واثق الآن من الشفاء لقد تحدثت مع الدكتور طارق)، وهو مستعد لنقل كيد هذا البديل لي، فور انتهائك من..

قاطعه البديل فجأة، وهو يقول في حزم:

- لا..

التفت إليه (اكرم) في دهشة، وحدق في وجهه لحظة مستنكرا، قبل أن يقول في حدة غاضبة:

- ماذا تعني بـ (لا)؟

اجابه البديل في صرامة:

- اعني أنك لن تحصل على كبدي أبدا..

ثم أضاف في لهجة كالفولاذ:

- ابدا..

☆ ☆ ☆

3- صـراع..

انعقد حاجبا (اكرم) في شدة، وهو يتطلع إلى محامي مؤسسته، هاتفا في غضب مستنكر:

- ماذا تعني بأنني لا أستطيع الحصول على كبده؟!.. إنه هو نفسه جزء مني، وملك لي.

هز المحامي راسه نفيا، وتطلع في دهشة لم تفارقه بعد، إلى ذلك البديل، الذي جلس في ركن حجرة مكتب (اكرم) والصرامة والعناد يملآن ملامحه، وحوله حارسان من حرس المؤسسة، ثم قال:

- صحيح أنه جزء منك يا سيد (اكرم)، كما تؤكد الدكتورة (سعاد)، وكما يؤكد ذلك التطابق المذهل بينكما، إلا أن وجوده في الحياة يمنحه كل حقوق الكائن البشري الحي، بما في ذلك أنه ليس ملكا لأحد، وأنه الوحيد الذي يملك حق التبرع بأعضائه، ولا يمكن إجباره على هذا.

صاح (أكرم) محنقا:

- ولكننا خلقناه من أجل هذا..

قال المحامي:

- هذا لا يمنحك الحق في استخدام جسده كما تشاء، فهذا الأمر، - على غرابته - يشبه إنجابك لطفل ما... إنك تنجبه بنفسك، وتمنحه جزءا من ذاتك، وعلى الرغم من هذا فأنت لا تملك حق انتزاع عضو من أعضائه..

بدا الغضب على وجه (اكرم)، وهو يقول:

- كان ينبغي أن أعلم ذلك منذ البداية، بدلا من أن أنتظر عاما كاملا، وانفق ما يزيد على العشرين مليونا من الجنيهات.

هز المحامي راسه مرة أخرى، وغمغم:

- معذرة يا سيد (اكرم)، ولكن حتى هذا لا يمنحك حق استغلال جسد بديلك.

لوح (اكرم) بذراعيه في سخط، هاتفا:

- اللعنة!

ثم التفت إلى بديله قائلا في حدة:

- اسمع يا هذا.. إنني سأحصل على كبدك سواء شئت ام ابيت..

قال البديل في حزم:

- لن تحصل عليه بالقوة أبدا..

انتزع (أكرم) دفتر شيكاته من مكتبه في حدة، وهو يقول:

- سأشتريه إذن كم تطلب مقابلا له؟

اجابه في صرامة:

- قلبك..

احتقن وجه (أكرم)، وهو يهتف:

- أيها اللعين.. إنك ستعطيني كبدك؛ لأنني أحتاج إليه لأحبا..

.

. هتف البديل:

- ولم لا أحيا انا؟

- لأنني تسببت في وجودك.

- هذا لا يمنحك الحق في قتلى..

- ولكنني تسببت في وجودك من أجل كبدك..

- وانا لن امنحك حياتي..

التفت (اكرم) إلى (سعاد)، صائحا في حنق:

- ارأيتِ ما الذي فعلته تجاربك العلمية السخيفة؟!..

كان يمكنني أن أحصل على كبده، وهو غارق في غيبوبته، ولكنكِ أصررتِ على إيقاظه، حتى نتصارع معا هكذا..

غمغمت في توتر والم:

- لم أدر أن هذا سيحدث..

هتف به البديل في صرامة:

- لا تتحدث إليها هكذا.. إنها سيدة رائعة..

صرخ فيه (أكرم):

- اخرس أنت.

ثم التفت إلى (سعاد)، مستطردا في حدة:

- خلقي بديلا آخر.. إنني أحتاج إلى كبد.

تدخل طبيبة المعالج، قائلا:

- ولكن هذا غير صالح عمليا با سيد (اكرم)، فكبدك لن يحتمل عاما آخر، بواسطة الكبد الصناعية، فلقد ساءت حالتها جدا..

احتقن وجه (أكرم) في شدة، والتفت إلى بديله، قائلا في حدة:

- إذن فلم تعد هناك وسيلة سواك. قال البديل في حزم:

- وانا ارفض التضحية بحياتي من اجلك.

صرخ فيه (اكرم):

- من تظن نفسك.. إنك مجرد بديل.. إنك لا شيء..

بتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه، وكأنما قد انتبه إلى امر غاب عنه طويلا، وهو يهتف:

- هذا صحيح. إنك لا شيء..

غمغمت (سعاد) في حيرة:

- ماذا تعني؟

لوح بذراعيه في قوة، وهو يهتف:

- كيف لم ننتبه إلى ذلك.. إنه فعلا لا شيء.. إنه حتى لم يولد - قانونيا - وليس له وجود.. أي أن قتله لا يمثل جريمة ما، فالمرء لا يعاقب لقتله شيئا غير موجود..

عقد مستشاره القانوني حاجبيه، وهو يقول في توتر:

- ماذا تعني؟

هتف به في انفعال:

- اعني أن هذا الشيء لا وجود له رسميا، وسأستغل هذا لانتزاع كبده من بطنه، على الرغم منه...

انعقد حاجبا البديل في شدة، في حين هتف المستشار القانوني:

- ولكنها جريمة قتل.

صرخ (اكرم)، وقد فقد السيطرة على أعصابه تماما:

- فليكن سأحصل على كبد ذلك البديل، مهما كان الثمن.. لقد احتملت كثيرا، لأحصل عليه إنني لن انفق عشرين مليونا من

الجنيهات مقابل لا شيء يكفي أنني احتملت حب تلك المأفونة طيلة عام كامل..

شحب وجه (سعاد) في شدة، وهي تقول في ارتياع:

- (أكرم) ماذا تقول؟

التفت إليها صارخا:

- أقول إنكِ بغيضة.. أبغض امرأة رايتها في حياتي كلها، وإنني قد احتملت سخافاتك طوال عام كامل، من أجل هذه الكبد.

هتفت منهارة:

- إذن فأنت لم تحبني أبدا!!

أطلق ضحكة عصبية، وهو يهتف:

- أحبكِ؟!.. وهل صدقت أن يحبك مخلوق ايتها الملعونة؟!.. إنكِ أسخف امرأة في الوجود.. إنك....

صرخت به:

- كفى.. كفى..

وفجأة هبّ البديل واقفا، وهو يهتف:

- نعم كفى.

وبغتة، هوى بقبضته على فك أحد الحارسين المحيطين به، وهوى بقبضته الأخرى على معدة الآخر، ثم اندفع نحو الباب، فصاح (أكرم):

- لا تسمحوا له بالفرار.. اقبضوا عليه..

ولكنه نجح في فتح الباب، وانطلق بعدو بأقصى ما يملك من قوة..

وانطلق حراس الأكاديمية كلهم خلفه، وأطلق أحدهم عليه رصاصتان، فصرخ (أكرم):

- لا.. لا تقتلوه..

كانت الدهشة تملأ نفوس الحراس حقا، وهم يشاهدون نسختين متطابقتين تمام التطابق من رئيسهم.. إحداهما تأمر بالإمساك بالأخرى..

وراح البديل يعدو نحو جراج سيارات الأكاديمية، وذاكرته التي ورثها عن (أكرم) ترشده إلى هدفه، وهو يلهث في الم، من جرح اصاب ساقه وقفز داخل سيارة (اكرم) الخاصة، وأدار محركها، وانطلق بها، فصرخ (أكرم)،، وهو يراقبه من مكتبه في أعلى:

- أوقفوه.

واثر النداء، لم يجد احد الحراس امامه سوى أن يصوب مسدسه إلى البديل، وان يطلق النار..

ورأى الجميع البديل ينثني في ألم، فوق عجلة القيادة، ثم يعتدل مرة أخرى، ويزيد من سرعة سيارته، حتى يحطم بوابة الأكاديمية، وينطلق مبتعدا...

وصرخ (اكرم) في يأس:

- لقد هرب اللعنة!! لقد هرب..

في حين غمغم طبيبه الخاص ذاهلا:

- كيف أمكنه أن يقود السيارة؟

غمغمت (سعاد) في مرارة:

- إنه يملك الكثير من ذاكرة رئيسنا..

ثم أضافت في بغضاء:

- رئيسنا القذر..

تناهت الكلمة إلى مسامع (اكرم)، فالتفت إليها صارخا؛

- اخرجي من هنا.. لا اريد رؤية وجهك مرة أخرى.. اخرجي.

. غادرت الحجرة، وهي ترمبه بنظرة كراهية عنيفة، فمال نحوه طبيبه، قائلا:

- لا ينبغي أن تعادها هكذا، فربما...

صرخ فيه مقاطعا:

- فلتذهب إلى الجحيم.. لقد احتملتها طويلا.

ثم التفت إلى رئيس حراسه، قائلا:

. اطلق كل رجالك خلف ذلك البديل با رجل.. اريده مهما كان الثمن.. هل تفهمني؟

وبرقت عيناه في وحشية، وهو يكرر:

- مهما كان الثمن..

☆ ☆ ☆

4- الثــمن..

كان الليل قد انتصف تقريبا، و (اكرم) ما زال يجلس في مكتبه، في الطابق العلوي من أكاديميته الطبية الحديثة، والحنق لم يفارقه بعد..

.. كان مستعدا لدفع نصف عمره، مقابل استعادة ذلك البديل..

كان هذا هو امله الوحيد في الحياة..

وفي استبدال كبده المريضة..

وبينما استغرقته الأفكار، سمع طرقات هادئة على باب حجرته، فقال في حدة:

- ادخل..

أدهشه كثيرا أن يري (سعاد)، وهي تدلف إلى حجرته، فغمغم في قسوة:

- ماذا تريدين؟

تقدمت نحوه في صمت، وجلست على المقعد المقابل لمكتبه، فردد في غلظة:

- سألتكِ ماذا تريدين؟

از دردت لعابها، وهي تقول:

- اريد معاونتك.

. أدهشته كلمتها، فقال:

- معاونتي؟!.. انت؟

قالت في حزم:

- نعم.. أنا الوحيدة التي تملك معاونتك الآن..

صاح فيها محنقا:

حتى ذلك التزاوج اللاجنسى لم يعد صالحا لإنقاذي هل سمعت ما قاله طبيبي؟.. إن كبدي لن تحتمل عاما آخر هكذا، حتى يمكنك إنتاج بديل ثان.

قالت في حدة:

- ومن قال إنني سأنتج بديلا كاملا؟

ثم خفت صوتها، وهي تستطرد:

- إنني أستطيع أن أنتج لك كبدا سليمة..

حدق فيها في دهشة، وهتف في انفعال:

- حقا؟

اومأت برأسها إيجابا، وهي تقول:

- نعم.. ولن يستغرق هذا اكثر من شهر..

هتف في دهشة:

- ولماذا لم تلجئي إلى ذلك منذ البداية؟

قالت في هدوء:

- لم يكن ذلك التطور قد ادخل على علم التزاوج اللاجنسى بعد، عندما بدأت تجربتي السابقة؛ لأنتج لك البديل الكامل.

تهللت اساريره لحظة، ثم لم يلبث أن شعر بشك عنيف يعصف به، فسألها في حذر:

- ولكن لماذا تفعلين هذا؟

وهتف مستدركا:

- لا تقولي إن الحب هو السبب..

هزت راسها نفيا، وهي تقول في ازدراء:

- ليس الحب بالطبع، فأنت رجل لا قلب له، ولن تحب ابدا.

ثم أضافت في حزم:

- إنه المال

تراجع في مقعده، وشبك اصابع كفيه أمام وجهه، وهو يقول:

- المال؟!.. نعم.. إنني أفهم هذه اللغة.. كم تريدين؟

اجابته في برود:

عشرة ملايين. بخلاف التكلفة الفعلية..

عقد حاجبيه في غضبا، وهو يقول:

- أيتها الجشعة..

ثم أضاف:

- حسنا.. سأدفع لكِ ما تريدين..

قالت في غموض:

- سنوقع عقدا بذلك..

. قال في حدة:

- فليكن.

فتحت حقيبتها الصغيرة، وأخرجت قلما مذهبا، وابتسمت ابتسامة كبيرة، وهي تقول:

- ها هو ذا توقيعى.

وفجأة، قفزت من سن قلمها ذرة صغيرة، التصقت بعنقه، فهتف في ألم:

- ما هذا؟

رأى عينيها تبر قان على نحو ارعبه، وهي تقول:

- لا تقلق.. سيزول الألم في سرعة، فهذا مجرد مخدر..

دارت به الدنيا، وحاول أن يتشبث بحافة مكتبه، وهو يغمغم:

- مخدر لماذا؟!..

قالت في غموض:

- بسبب الحب هذه المرة يا (اكرم).. الحب الذي تجهله.

غمغم في دهشة:

- الحب؟!

ثم أظلمت الدنيا كلها في وجهه، وسقط فاقد الوعي...

☆ ☆ ☆

عندما استعاد (اكرم) وعيه، حدث هذا في سرعة، وبدت له المشاهد من حوله مهتزة لحظات، ثم لم تلبث أن اعتدلت ليميز مصباحا ضخما فوق رأسه، و (سعاد) في زي الجراحة، ترتدي

قفاز بها الجراحيين، وتعد المساعد الطبى الإليكتروني، فغمغم في توتر:

- أين انا؟

التفتت إليه (سعاد) في هدوء، وقالت وهي تكمل ارتداء قفازها الطبي:

- انت هنا با (اكرم)، في غرفة جراحات القلب..

غمغم في قلق:

- وماذا افعل هنا؟

اشارت إلى المنضدة الجراحية المجاورة، وهي تقول:

- إنه يحتاج إليك.

حاول أن يستدير بجسده كله إلى حيث تشير، إلا أنه كشف كونه مقيدا إلى مائدة الجراحة في إحكام، فأدار عينيه إلى حيث اشارت، وادهشه آن يرى بديله ممددا على منضدة الجراحة المجاورة، وقد راح في نوم صناعي عميق، فقال:

- ماذا يحدث هنا؟

تنهدت وهي تقول:

- بديلك هذا يختلف عنك كثيرا با (اكرم).. إنه شهم.. وهو يحبني.. يحبني بحق.. أتعلم أين ذهب بعد أن فرّ منكم؟.. لقد ذهب إلى شقتي مباشرة.. كان هناك جزء من ذاكرتك في عقله، أنبأه بموضع شقتى وهناك علمت أنه يحبني حبا لم أحلم به من قبل..

وصمتت لحظة، ثم قالت:

- ويحتاج إلىّ..

ثم أمسكت محقنا، وكشفت ذراع (أكرم)، ودست ابرة الحقن في عروقه، ودفعت في العروق سائلا كثيفا، فهتف (أكرم):

- ما هذا؟.. ماذا ستفعلين بي؟

أجابته في برود:

- إنه مخدر طويل المفعول.

هتف في ذعر:

- لماذا؟!

أشارت مرة أخرى إلى المنضدة المجاورة، حيث يرقد البديل، وأجابت:

لقد أصابه رجالك في قلبه، وهو يحتضر، والوسيلة الوحيدة لإنقاذه هي عملية نقل قلب سليم إليه، بدلا من قلبه التالف، وانت تعلم فصيلة دمكما النادرة، وإمكانية أن أقوم بالعملية وحدى، بمساعدة المعاون الإليكتروني.

ادرك (اكرم) ما تعنيه، وصرخ:

- لا.. ليس قلبي.. أريد أن أحيا.. من اجل الأكاديمية.

اجابته في صرامة:

- إنك لا تستخدم قلبك أبدا با (اكرم)، ولا حاجة لك به، وليطمئن قلبك بشأن الأكاديمية، فأنت وهو متطابقان تماما، وسيحمل اسمك وقلبك، بالإضافة إلى كبد سليمة، وسيحصل على الأكاديمية ايضا..

صرخ متوسلا:

- لا يا (سعاد).. ارجوكِ.

قالت في صرامة:

- إنه يحبني با (اكرم)، وليس لديّ بديل..

راح يصرخ متوسلا، ومتضرعا، ولكن المخدر القوى تسلل إلى رأسه في سرعة، فتراخت أطرافه، وفقد وعيه، وهو يعلم أنه لن يستيقظ من غيبوبته هذه المرة..

لن يستيقظ ابدا...

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- النســــــخة..

2- لا..

3- صـــــــراع..

4- الثـــــــمن..

فهرس المحتويات:

الملاحظات

[←1]

(*) حقيقة علمية.

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

بدوية

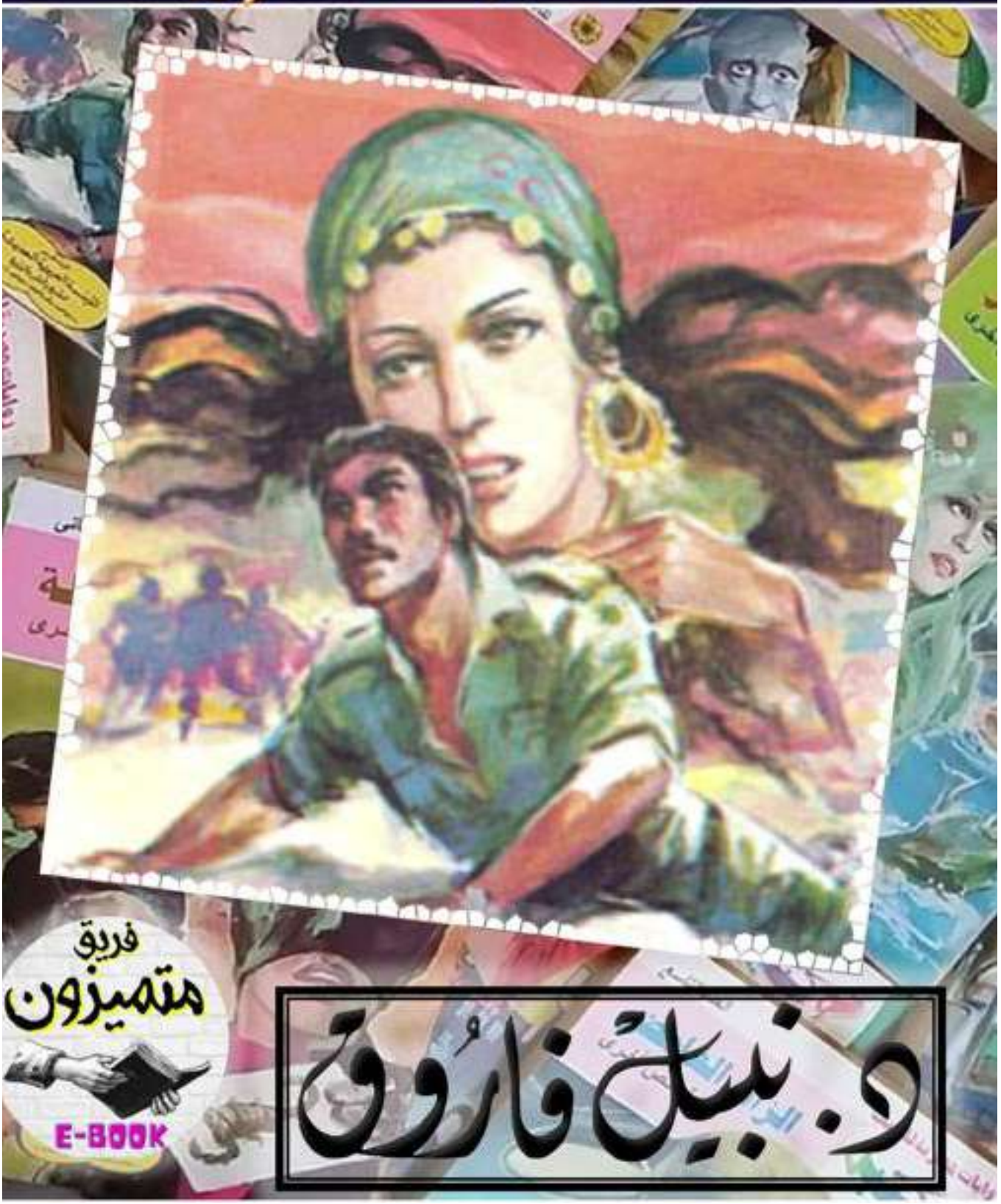

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

2206

كوكتيل 2000
(قصص العدد)

بـــــــدويـــة

1- لقاء هناك..

عبرت طائرة إسرائيلية سماء صحراء (سيناء)، في ذلك اليوم المشئوم، من الأسبوع الأول من يونيو عام الف وتسعمائة وسبعة وستين، وراح طاقمها يمسح رمال الصحراء بعيونه، بحثا عن ضحية جديدة من شباب مصر)، الذين لقوا حتفهم وسط رمال صحرائهم، في اكبر مذبحة عرفها التاريخ، منذ مذابح التتار..

ولم ترصد عيون طاقم الطائرة سوى عشرات أو مئات الجثث، التي خمدت حركتها، والتي ترتدي كلها زيّ الجيش المصرى.

وابتعدت الطائرة، وطاقمها يسخر من تلك الهزيمة النكراء، التي كبدها للجيش المصري، في حرب خاطفة سريعة مباغتة.

ولم تكد الطائرة الإسرائيلية، ذات النجمة السداسية تبتعد، حتى نهضت إحدى الجثث، وراح صاحبها ينفض رمال الصحراء عن زيه العسكري، الذي يحمل على كتفيه رتبة ملازم ثان، وهو يقول في مرارة:

- أيها الأوغاد.. ستدفعون الثمن يومًا.. ثمن دماء رفاقي.

حمد الله (سبحانه وتعالى) في أعماقه، على أنه قد نجا هذه المرة أيضا، ثم حمل سلاحه، وراح يواصل طريقه نحو القناة، والمرارة تملأ نفسه..

الانسحاب..

آخر كلمة كان يتوقعها، منذ أعلن الرئيس عن حشد القوات على الجبهة..

هو والجيش كله صدقوا انها نزهة، قد تنتهي في (تل أبيب)، بقليل من الجهد وكثير من البساطة..

ثم جاءت المذبحة..

وجات النكبة..

انحدرت دمعة ساخنة على خده، وهو يجر قدميه جرا فوق الرمال، التي اصطبغت بدماء الشهداء..

وتساءل بدوره: أسينجو، ام تسيل دماؤه لتختلط بدماء رفاقه وقادته..

إنه الوحيد الذي بقي على قيد الحياة، بعد أن أبادت الطائرات الإسرائيلية كتيبته كلها

كل قادته وجنوده..

إنه يجهل حتى لماذا بقي هو بالذات؟..

لا ريب أنه قدره..

وعمره..

بلغ مع مسيرته الطويلة تلا رمليا قصيرا، فجلس إلى جواره يستريح من عناء السير، ويجفف شيئا من عرقه الغزير، إلا أن أذنه التقطت هديرا يقترب، فأسرع يصعد التل

وهاله ما رأى..

كانت هناك كتيبة كاملة من الدبابات الإسرائيلية تتجه نحوه مباشرة، ولم يكن هناك مكان واحد يختبئ فيه..

وأدرك أن الموت قد صار حليفه هذه المرة..

وأنه لن ينجو..

وفي حزم رجل لم يعد لديه بديل عن الموت، جذب (فاضل) إبرة مدفعه الرشاش، واستعد لمواجهة كتيبة الدبابات كلها..

وفجأة سمع من خلفه همسا يقول:

- هل جننت؟

التفت في حدة إلى مصدر الصوت، وكاد يدير فوهة مدفعه إليه، ويطلق النار، إلا أن يده تجمدت على الزناد، واتسعت عيناه في ذهول، وهو يحدق في صاحب الصوت..

أو في صاحبته على وجه الدقة..

لقد رأى أمامه حورية من حوريات الجنة..

فاتنة بكفي سحرها لتنسى الحرب بكل أهوالها، حتى وانت تواجه كتيبة دبابات كاملة، بمدفع آلى واحد..

كانت تقف في مواجهته فتاة خمرية اللون، لها شعر أسود ناعم طويل، ينسدل على كتفيها، من تحت منديل رأس مزركش، ويتطاير في رقة ونعومة حتى بلغ منتصف ظهرها، وعيناها الواسعتان تبدوان كبيرتين من ذهب أسود لامع، تظلله رموش

طويلة ساحرة، اما شفتاها فهما قطعة من نعيم الجنة، وسحر الشرق وفاكهة البساتين..

باختصار كانت ساحرة..

وقبل أن ينبس (فاضل) بحرف واحد، أمسكت أصابعها الرقيقة الدافئة بمعصية، وهي تقول في حزم:

- لا فرصة لك في النجاة.. قذيفة مدفع واحد ستحولك إلى أشلاء..

تمتم مذهولا مشدوها، بذلك السحر الذي يسيل من عينيها:

- من أنت؟

جذبته إليها، قائلة في حزم:

- لا وقت لهذا الآن.. سأخبرك فيما بعد.. المهم أن نبتعد.

سألها مشدوها:

- إلى اين؟

اجابته وهما يبتعدان عن التل الرملي:

- إلى حيث النجاة.

تبعها في صمت، وقد نسي بالفعل كل ما يتعلق بالحرب والدماء..

لم يكن يتصور أبدا أن هذا ممكن..

لم يكن ليصدق حتى أن يفعل مخلوق عاقل هذا..

لقد تبعها كالمأخوذ، مفتونا بذلك الفيض من السحر، الذي يسيل منها، وهو يملأ عينيه بفتنتها، حتى توقفا، فالتفتت إليه قائلة:

- لن يعثروا عليك هنا.

سألها في شرود:.

- من هم؟

.

قالت في حدة:

- الإسرائيليون.. هل نسيتهم؟!

تطلع إليها في دهشة..

لقد نسيهم بالفعل..

نسي الحرب كلها أمام سحرها وسألها مفتونا: ماذا فعلتِ؟

أجابته في جدية:

- لقد سلكنا دربا يجهلونه، وتجهلونه أنتم ايضا.. إنها دروب لا يعرفها سوى البدو من أمثالنا..

البدو؟!..

بدت له الكلمة عجيبة مبهمة في البداية، ثم انتبه فجأة إلى أن تلك الفاتنة، التي تقف أمامه، ترتدي ثياب البدو المزركشة بالفعل، فغمغم مبهوتا:

- أأنتِ بدوية؟

أطلقت ضحكة قصيرة، وهي تقول:

- الم تلحظ ذلك إلا الآن؟

قال في خفوت:

- سحرك يخفي كل شيء آخر..

تضرج وجهها بحمرة خجل خفيفة، وهي تغمغم:

- حتى الحرب؟

أجابها في حماس:

- حتى الجحيم نفسه.

تضاعفت حمرة الخجل في وجنتيها، وتمتمت في خفوت شديد:

- لا وقت لهذا

ثم استعادت لهجتها الحازمة، وهي تضيف:

- ينبغي أن نعيدك إلى الضفة الغربية أولا.

- قال في صدق؛

- اريد ان ابقى معكِ.

تهتمت وكأنها تأسف لقولها:

- أنت تعلم أن هذا مستحيل.

ثم أمسكت معصمه مرة أخرى، وهي تقول:

- هيا.. ينبغي أن تذهب..

قادته عبر دروب خفية إلى حافة القناة، وأشارت إلى الضفة الأخرى، وهي تسأله في خفوت:

- أيمكنك أن تسبح؟

ملا عينيه بجمالها وفتنتها، قبل أن يقول:

- تعالى معى.

جذبت يدها من يده، وهي تقول:

- أذهب.. هيا..

وابتعدت عنه في سرعة، فهتف بها:

- انتظرى.

صاحت ودموعها تترقرق في عينيها:

- اذهب.. اذهب قبل أن يفوت الوقت..

هتف في مرارة:

- أخبريني اسمك على الأقل.. انا اسمي (فاضل).. (فاضل جمال الدين).

بدت دموعها واضحة هذه المرة، وهي تلتمع تحت أشعة الشمس، مع ارتجافة شفتيها، وهي تقول:

- اسمى (زاهية).

صاح بها:

- (زاهية) ماذا..؟

ابتسمت ابتسامة حزينة، وهي تقول:

- (زاهية) فحسب.

قبل أن يضيف حرقا واحدا، كانت قد توارت خلف تلّ قريب..

وعاد (فاضل) إلى موطنه سابحا..

عاد بعد أن ترك قلبه هناك..

في (سيناء)...

☆ ☆ ☆

2- الغــموض..

رقد (فاضل) على فراشه، في ذلك المستشفى العسكري، الذي تم نقله إليه، بعد أن بلغ ضفة القناة الغربية سباحة، وهو يحمل قدمين متورمتين، وجسدا أثخنته الجراح، ونفس أمدتها الهزيمة بجرعة لا نهائية من المرارة واليأس..

ولكن قلبه كان يحمل شعلة من نار محببة..

نار الحب..

إنه لم ينس وجه (زاهية) أبدا..

لم ينس حسنها وفتنتها وسحرها..

إنه حتى في هذه اللحظة، وهو يعالج من آثار النكسة، لا يذكر سواها..

هل أحبها حقا؟!..

هل يمكن أن يولد الحب في قلب الجحيم؟...

هل يمكن أن ينبت الزهر في صحراء الدم؟..

حاول أن يناقش الأمر بعقله، وأن يقنع نفسه بأنه لم يحبها حقا، وأن شعوره نحوها لا يتجاوز العرفان بالجميل، بعد إنقاذها حياته، والافتتان بسحرها الأخاذ، الذي برز له فجأة، في خضم الصراع..

ولكن لا..

إنه يدرك جيدا معنى تلك الخفقات في قلبه..

صحيح أنه لا يمتلك تفسيرا عقلانيا وحيدا، لتلك الرابطة السريعة، التي نشأت بين قلبه وقلبها، ولكنه يعلم جيدا انه قد احبها..

إنه لم يكن أبدا من المهتمين بعلاقاته مع الجنس الآخر..

ولم يكن ابدا من أولئك الذين تخفق قلوبهم في سهولة، لكل فاتنة ساحرة..

ولكنه هذه المرة احب...

أحب بعمق..

قطع سيل افكاره دخول رجلين في ملابس عسكرية إلى حجرته، وقال أحدهما، وهو يتطلع إليه، وشفتاه تحملان ابتسامة رسمية:

- صباح الخير أيها الملازم.

حاول أن يعتدل، وهو ينقل بصره بين الرتب الكبيرة، المثبتة على كتفي الرجلين، قائلا في احترام:

- صباح الخير يا سيدي.. يؤسفني أنني..

قاطعه اكبرهما رتبة:

- لا داعي للنهوض ابق كما أنت.

ثم جذب مقعدا، وجلس إلى جوار فراشة، في حين بقي الآخر واقفا، يتطلع إليه في اهتمام، وسأله الجالس، الذي يحمل رتبة عميد:

- في أية وحدة كنت تعمل؟

أخبره برقم وحدته، واسمه كاملا، وآخر موقع للوحدة، والعميد يومئ برأسه موافقا، وكأنما يعلن على نحو غير مباشر، أن تلك

المعلومات تتوافق مع المعلومات المتوافرة لديه، ثم مال نحوه يسأله في اهتمام:

- قل لى يا (فاضل):.. لقد كان موقع كتيبتك منخفضا، وكنتم محاصرين في كل الاتجاهات تقريبا، ولقد أبيدت الكتيبة تماما، فكيف أمكنك وحدك أن تتجاوز هذا الحصار، وأن تصل إلى هنا سالما؟

ازدرد (فاضل) لعابه، وهو يستعيد ذكرى بما حدث، وأجاب:

- هي ساعدتني على هذا..

عقد العقيد الواقف أمام الفراش حاجبيه، وهو يتطلع إليه، في حين رفعهما العميد الجالس، وهو يقول في دهشة:

- هي!

أومأ (فاضل) براسه إيجابا، وهو يقول:

- نعم.. إنها بدوية من بدو (سيناء).. لقد أرشدتني إلى دروب خفية، أمكننا تجاوز الحصار عبرها، حتى بلغنا القناة!

تبادل العميد والعقيد نظرات بدت غامضة بالنسبة لـ (فاضل)، قبل أن يسأله العميد في اهتمام بالغ:

- وما اسم تلك البدوية؟

اجابه (فاضل) في سرعة، وبصوت يحمل كل مودته وحبه لها:

- (زاهية).

عاد العميد والعقيد يتبادلان تلك النظرة الغامضة، ثم ارتسمت على شفتي العقيد ابتسامة هادئة، وهو يقول:

- حمدا لله على سلامتك أيها الملازم.. هيا.. استعدّ للعودة إلى الصفوف سريعا.

نهض العميد، وهم الاثنان بالانصراف، الا أن (فاضل) نهض ليجلس على طرف فراشه، وهو يقول في لهفة:

- سيدى.

التفت إليه الأثنان، وسأله العقيد في هدوء:

- ماذا تريد أيها الملازم؟

سأله (فاضل) في لهجة بدت أقرب إلى الضراعة:

- هل تعرفها؟

رفع العقيد حاجبيه، وهو يقول:

- اعرف من؟!

بدا صوته أكثر خفوتا وضراعة، وهو يهمس:

- البدوية.

مضت لحظة من الصمت والجمود، كأنما مشاعر الجميع قد تحولت بفتة إلى ما يشبه صورة فوتوغرافية باردة، قبل أن ترتسم على شفتي العقيد ابتسامة باهتة، وهو يقول:

- واني لي أن أعرفها؟ إنها مجرد...

صمت لحظة، ثم اكتست ابتسامته بشيء من الغموض و هو يضيف:

- بدوية.

لم ينبس (فاضل) بحرف إضافي واحد، وهو يتابع العميد والعقيد ببصره، وهما يغادران حجرته، ويغلقان بابها خلفهما، ولكنه أدرك بعقله وقلبه ومشاعره، أن الأمر يحمل علامة ضخمة كبيرة..

علامة غموض..

☆ ☆ ☆

3- المستحيل..

ومع كل يوم يمضي، كانت لهفته لرؤيتها تشتد، وشوقه اليها يشتعل ..

عام كامل مضى على تلك الأحداث..

عام بدا لـ (فاضل) أشبه بدهر كامل..

إنه لم ينس أبدا (زاهية)، طوال ذلك العام..

لم ينس عينيها السوداوين الواسعتين، ولا ذلك السحر الفاتن في شفتيها، ولا تورد وجنتيها خجلا..

لم ينس لمحة واحدة من لمحاتها..

ومع كل يوم يمضي، كانت لهفته لرؤيتها تشتد، وشوقه اليها يشتعل..

ومن اجلها.. طلب أن يعمل على الخط الأمامي للجبهة..

لم تعد القناة خطا يفصل بين (مصر) وكرامتها في رأيه فحسب، وإنما صارت مانعا يحول بينه وبين نبض قلبه، الذي تركه خلفه في (سيناء).

ولم يعد خط (بارليف) خطا دفاعيا إسرائيليا فحسب، وإنما هو حاجز يمنعه من الوصول إليها..

وفي كل لياليه، كان (فاضل) يجلس على حافة القناة، وعيناه تتعلقان بالشاطئ الآخر لها..

حيث (زاهية)..

وبعين الخيال، كان يراها في كل ليلة، وهي تبتسم، وحمرة الخجل ترتفع إلى وجنتيها، والتماعة دمع تضيء عينيها..

تماما كما رآها آخر مرة..

وفي تلك الليلة، كانت كتيبته كلها تنتظر عودة بعض الرجال، الذين عبروا إلى الضفة الشرقية سرا، في إطار حرب الاستنزاف، لتدمير أحد مخازن العدو الرئيسية للذخيرة..

وكان وحده يحسد من ذهبوا إلى هناك..

لم يكن يحسدهم؛ لأنهم ذهبوا يقاتلون من أجل وطنهم، ولكن لأنهم ذهبوا إلى حيث هي..

إلى حيث (زاهية)..

ثم دوى الانفجار..

انفجار رهيب، اهتزت له المنطقة كلها..

وخفقت قلوب الرجال..

لقد انفجر مخزن الذخيرة المنشود.

لقد نجح الأبطال في مهمتهم..

وهنا قفز سؤال إلى كل الرءوس..

هل نجوا؟

هل نجا الرجال، بعد إتمام مهمتهم؟

لم يكد السؤال يملا الأذهان، حتى أتي الجواب على الفور، على هيئة زورق مطاطي، يعبر القناة في سرعة، وعلى متنه الأبطال الخمسة كلهم..

وتهللت الأسارير..

لقد نجحوا، ونجوا..

نسفوا المخزن، دون أن يخسروا رجلا واحدا..

وأسرعت الكتيبة كلها تستقبل الأبطال، وتمنحهم التهنئة والمودة والدفء..

والتقى (فاضل) بالأبطال الخمسة، وسألهم في لهفة:

- هل نجحت العملية تماما؟

هتف أحدهم في سعادة وحماس:

- نعم.. نجحت إلى أقصى حد..

وتنهد آخر، وهو يضيف:

- حمدا لله.. كدنا نفشل في الخطوة الأخيرة: عندما انتبه الإسرائيليون إلى وجودنا.

وهنا اضاف ثالث في ارتياح:

- لولاها.

لم يكد الثالث ينطق تلك الكلمة، حتى ارتجف جسد (فاضل) في شدة، وخفق قلبه خفقة لم يخفق مثلها منذ عام كامل، وهو يهتف:

- لولاها؟!

أومأ الأول براسه إيجابا، وهو يقول:

- نعم.. كدنا نفشل لولا ملاك حارس، هبط إلينا من. السماء، في صورة يدوية فاتنة، هي أجمل من وقعت عليه عيني من النساء، في عمري كله..

عاد جسد (فاضل) ينتفض، وخيل إليه انه يعجز عن النطق والوقوف، فترك جسده يستقر على طرف فراش قريب، والرجل يستطرد في حماس:

- لقد انتبه الإسرائيليون إلى وجودنا، وحاولوا منعنا من نسف مخزن ذخيرتهم، ولكنها ظهرت فجأة، وأرشدتنا إلى وسيلة الفرار، عبر دروب لم اكن ادرك وجودها من قبل، ولم ينتبه الإسرائيليون إلينا بالفعل، حتى بلغنا شاطئ القناة وقد تولت هي مهمة ضغط زر التفجير في المخزن هل رأيت ما هو أروع من هذا.. هي التي نسفته..

بذل (فاضل) مجهودًا خرافيًا، لتخرج الكلمات من بين شفتيه متحشرجة، تموج بالانفعال، وهو يغمغم:

- وأين.. أين ذهبت؟

أجابه الرجل في ثقة:

- لا ريب أنها قد عادت أدراجها، فهي تعلم من الطرق ما يجعلها تعبر بين أصابع جندي إسرائيلي حذر، دون أن ينتبه حتى إلى وجودها.

وتنهد مضيفًا:

- إنها رائعة.. لن أنسى اسمها أبدًا.

قفزت الكلمة من بين شفتي (فاضل) بغتة:

- (زاهية)..

تطلع إليه الرجال الخمسة في دهشة، وهتف أحدهم:

- هل تعرفها يا سيدي؟

لم ينطق (فاضل) سوى بكلمة واحدة:

- أعرفها؟!

أراد أن يخبرهم أنه ما من مخلوق في الكون كله يعرفها سواه..

إنه لا يعرفها فحسب..

إنه يحبها..

يعشقها..

يذوب في سحر شفتيها..

في بحر عينيها..

لم يقل حرفًا واحدًا من كل هذا..

فقد تطلع إليهم في صمت، وقال:

- نعم.. أعرفها.

لم يسأله أحدهم المزيد..

لقد تصوروا أنه يعلم عنها ما لا يجوز الإفصاح عنه..

أسلوبه أوحى إليهم أنها أحد أسرار (مصر) العسكرية..

ولقد تعلموا كيف يصونون تلك الأسرار..

وكيف يحفظونها..

وران الصمت طويلًا على المكان، ثم كان صوت (فاضل) هو أول من حطمه، وهو يقول:

- متى تقومون بعمليتكم التالية؟

هز قائدهم كتفيه، قائلًا:

- عندما ترد أوامر جديدة يا سيدي.

أومأ (فاضل) برأسه متفهمًا، وغمغم:

- نعم.. عندما ترد أوامر جديدة.

غادر المكان شاردًا، واجمًا، وقلبه يخفق في عنف..

- إذن فهي هناك..

على بعد كيلو مترات منه..

يا لشوقه إليها!!..

يا للهفته للقياها!..

اتجه إلى خيمته، وألقى جسده على فراشه، وهو يتساءل: كم هو صغير هذا العالم!..

لقد وجدها بعد عام كامل من الفراق..

ولكن الأمر لم يختلف كثيرًا..

مازال هناك مانعان يحولان بينه وبينها..

ولكنه وجدها..

ومن المستحيل أن يفقدها مرة ثانية!..

هذا هو المستحيل حقًا..

وفي حزم، نهض من فراشه، واتجه إلى حجرة قائد الكتيبة، وأدى التحية العسكرية، ثم قال في صوت رجل اتخذ قرارًا نهائيًا، وحسم أمره بلا تردد:

- سيدي.. أريد مشاركة الرجال في عبورهم القادم، إلى الضفة الشرقية.

وكان له ما أراد..

☆ ☆ ☆

4- المعركة..

لم يكن الأمر سهلًا..

لقد انتظر (فاضل) طويلًا..

انتظر شهرًا كاملًا، وهو يكاد يلتهب شوقًا.. ولهفته للعبور تتضاعف يومًا بعد يوم، حتى بلغت ذروتها، في ذلك اليوم الذي وصلت فيه الأوامر الجديدة...

كانت أوامر محددة، تتطلب من الرجال العبور إلى الضفة الشرقية، تحت الستار من ظلام دامس، في ليلة يغيب فيها القمر، والتسلل إلى مخزن الذخيرة الثاني، ونسفه..

نفس الخطة الأولى تقريبًا، مع اختلاف التفاصيل..

وراح قلب (فاضل) يخفق في قوة، وهو يطلى وجهه بلون أسود، وينضم إلى الرجال الخمسة، في طريقهم لعبور القناة..

كانت في عيون الجميع عملية انتحارية عنيفة، تهدف إلى القتل والنسف والتدمير..

وفي عينيه هو كانت رحلة حب..

رحلة يجتاز به العوائق والحواجز والموانع، ويذهب به إليها..

إلى (زاهية)..

إلى البدوية التي عشقها..

إلى مالكة قلبه..

وعبر الزورق المطاطي الأسود القناة في بطء وحذر، وفارقه راكبوه الستة، ليتسللوا عبر ثغرات خاصة في خط (بارليف) إلى

قلب (سيناء)، حيث يقبع الهدف في انتظارهم..

ولم يكد قدماه يلمسان أرض (سيناء)، حتى خفق قلبه في قوة وعنف..

وحب..

وتسلل مع رفاقه إلى حيث الهدف، وأشار أحد الرجال إلى مبنى كبير، تخفيه بعض التلال الرملية عن العيون، وقال هامسًا:

- ها هو ذا الهدف.. إنه واحد من أكبر أربعة مخازن ذخيرة وضعها هؤلاء الأوغاد على أرضنا، ليقتلونا بها.

ابتسم آخر، وهو يقول في حزم:

- ما هي إلا ساعات، ويصبح أثرًا بعد عين..

أضاف ثالث:

- وليدفع الأوغاد الثمن..

كان (فاضل) يستمع إلى كل هذا شاردًا..

صحيح أنه مستعد لبذل حياته من أجل (مصر)..

ولكنه آتى هنا من أجلها هي..

من أجل البدوية الفاتنة..

كان قلبه ينتفض بين ضلوعه، وهو يدعو الله (سبحانه وتعالى) أن ييسر له رؤيتها والتطلع إلى وجهها الساحر الجميل..

حتى وهو يتسلل مع رفاقه إلى الهدف، كان يحلم برؤيتها..

ثم لم يلبث الحلم أن ذاب مع حماسه، عندما صار أمام الهدف..

وبدأت العملية..

في خفة وسرعة، انقض مع رفاقه على حراس المخزن، وتخلصوا منهم في صمت ومهارة، ثم انقسموا إلى فريقين..

فريق راح يزرع القنابل حول الهدف، والفريق الآخر يؤمن ظهره..

وفجأة أضيئت الأنوار الكاشفة، وارتفع صوت يقول بعربية ركيكة:

- استسلموا وألقوا أسلحتكم.. لقد انكشف أمركم.

وأعقبت الكلمات رصاصات قاتلة، انهمرت على الرجال الستة، فلقى اثنان منهما مصرعهما على الفور، وهتف (فاضل) في الباقين:

- احتموا وقاتلوا.

- احتمى الأربعة بأجساد بعض الحراس، وراحوا يتبادلون إطلاق النيران مع الحراس في بأس، حتى هتف أحدهم:

- لابد أن نبتعد عن هنا في سرعة، وإلا فلن تكون هناك فائدة للقتال.. سينفجر المخزن بعد قليل، وسنلقى حتفنا معهم.

أدار (فاضل) عينيه في المكان، يبحث عن مخرج من هذا المأزق، ثم لم يلبث أن أشار إلى تل رملي قريب، وهو يقول:

- لو أمكننا بلوغ هذا التل، فسنحتمي به حتى نبلغ الزورق.

هتف أحد الرجال:

- بلوغه يبدو لي مستحيلًا.. فلكي نصل إليه، يتحتم علينا أن نعدو مائة متر في العراء، تحت مظلة من رصاصات هؤلاء الأوغاد.

صاح (فاضل) في حزم:

- والبقاء هنا معناه الاستسلام للموت.. لا.. إنني أفضل المحاولة.

قفز الجميع من أماكنهم بغتة، وانطلقوا يركضون عبر الأمتار المائة العارية، والرصاص ينهمر عليهم كالمطر..

وسقط واحد..

وسقط آخر على بعد أمتار قليلة من التل..

ثم أصيب رفيق (فاضل) الأخير في ساقه؛ فسقط أرضًا، وهو يهتف به:

- انطلق أنت يا سيادة الملازم.

توقف (فاضل)، وقال وهو يعود أدراجه:

- لا.. سنذهب معًا.

حمل زميله، على الرغم من الرصاصات المنهمرة، وراح يدفع جسده معه نحو التل، في حين ارتفع من خلفه ذلك الصوت، الذي يقول بالعربية الركيكة:

- لم تعد هناك فائدة من الفرار.. لقد عثرنا على زورقكم، ودمرناه.

هبطت العبارة على قلبه كالصاعقة، إلا أنه لم يتوقف، وواصل سيره حتى بلغ التل، والعرق يغمر وجهه، ويغمر وجه رفيقه،

الذي تمتم في ضعف:

- اتركني يا سيادة الملازم.. حملي يعوقك.

أجابه في حسم من لا يقبل لقراره نقاشًا.

- لا.

تمتم الرجل، وهو يبذل جهدًا رهيبًا، ليلفظ الحروف والكلمات:

- لا فائدة.. حاول أن تستمع لمنطق العقل يا سيدي.. وجودنا معًا يعني موت كلينا حتمًا، أما تركك لي، فقد يعني نجاتك، أي أنني ميت في الحالتين، ولا فارق عندي، أتركتني أم حملتني.

أجابه في صرامة:

- قلت لك كلا.

ثم زفر في توتر، وأضاف:

- ربما كان ذلك العبري الوغد كاذبًا.. إنه يعلم بالتأكيد إننا قد أتينا في زورق.. وربما كانت عبارته لتحطيم قوانا المعنوية فحسب.

هتف الرجل في إعياء تام:

- اذهب يا سيادة الملازم.. أرجوك.

لم يجادله (فاضل) هذه المرة..

كان يعلم أن الرجل على حق، وأن البقاء يعني الموت..

ولكنه لم يكن يستطيع أن يترك رفيقه..

طبيعته كانت تمنعه من أن يفعل..

لقد كان من ذلك النوع النادر، الذي يفضل الموت مع رفيقه، على الحياة وحده..

وعندما كرر زميله مطلبه، وهو مشرف على فقدان وعيه، أجابه في حزم شديد، وهو يعد مدفعه الآلي لقتال يائس بلا أمل:

- لا يا (مدحت).. لن أذهب وحدي..

وفجأة أتى صوت من خلفه، يقول:

- ربما يمكنكما أن تذهبا معًا.

انتفض جسده في شدة، عندما مست الكلمات شغاف قلبه، وهي تحمل ذلك الصوت الهادئ الواثق الرقيق، فاستدار جسده كله في سرعة وحدة إلى مصدر الصوت..

ووجد نفسه أمامها.

أمام (زاهية)..

☆ ☆ ☆

5- اللقاء الثاني..

لم ينبس ببنت شفة، وهو يتطلع إليها..

لم تبدر منه حركة ولو ضئيلة..

لقد تجمد تمامًا، حتى ليخيل للناظر أنه و(زاهية) قد استحالا تمثالين من الرخام، لولا شعرها الناعم الطويل، الذي تتلاعب به النسمات الرقيقة..

تمامًا كما رآها آخر مرة..

خمرية فاتنة ساحرة، يتطاير شعرها الفاحم في نعومة، حتى منتصف ظهرها، وتتطلع إليه بعينين سوداوين ساحرتين، كليل بلا نجوم، وتكاد شفتاها تنطقان اسمه في نغم موسيقى حالم..

لحظتها نسى دقة موقفه..

نسي الدنيا كلها..

وبكل الحب الذي اختزنه قلبه، طيلة عام كامل، همس:

- (زاهية).

خيل إليه أن حمرة الخجل قد تصاعدت إلى وجنتيها، وهي تقول:

- هيا.. لا وقت للانتظار.

هتف في حب:

- لقد انتظرتكِ عامًا كاملًا.

قالت في حنان:

- لم يكن شوقك كشوقي.

تهللت أساريره، وهو يهتف:

- (زاهية).. أتعنين...

قاطعته ووجهها يتورد حياء:

- نعم.. لست أدري كيف حدث هذا، ولكن سهم الحب الذي أصابك قد نفذ في قلبينا معًا، في آن واحد.

كاد قلبه يرقص طربًا، وهو يهتف:

- رباه!! ما أسعدها من كلمات!!

ابتسمت في حب، وهي تقول:

- هيا.. لا تضع الوقت.

تقدم نحوها في لهفة، وهو يتمنى أن يحتويها بين ذراعيه، ولكنها تراجعت جافلة، وقالت:

- لا.. لا تلمسني.

توقف مبهوتًا، وهو يسألها:

- لماذا؟

أطرقت بوجهها أرضًا، وغمغمت:

- ليس هذا بيدي.

ثم عادت ترفع عينيها إليه، مستطردة:

- والآن هيا.. هيا.. الإسرائيليون يقتربون.

تطلع إلى ساعته، قائلًا:

- سينفجر مخزن ذخيرتهم بعد دقيقة واحدة.. إننا نستخدم قنابل زمنية هذه المرة.

ابتسمت في حنان، وهي تقول:

- هذا أفضل بالتأكيد.

ملأ عينيه بحسنها الآسر، وهو يقول:

- (زاهية).. أريد أن أبقى إلى جوارك.

تمتمت:

- لم يحن الوقت بعد.

ثم أشارت إلى (مدحت)، الفاقد الوعي، وأضافت:

- ولا تنس أنك مسئول عن حياته أيضًا.

تطلع إليها في أسف، في نفس اللحظة التي دوى فيها انفجار المخزن..

لماذا يفعل به القدر هذا؟..

لماذا جمعهما، ليفرقهما في الوقت ذاته؟..

وفي حب وشوق ولهفة وحزن، راح يتطلع إليها..

لم يدر لحظتها سر تلك الحيرة التي شعر بها، وهو ينظر إلى حسنها..

كان هناك شيء ما يبدو عجيبًا في هيئتها..

دائمًا هناك غموض حولها..

غموض عجيب..

وفي استسلام، حمل زميله (مدحت)، وتطلع إليها، فقالت:

- اتبعني.

تبعها في صمت، وهي تعبر به دروبًا خفية كعادتها، وخيل إليه أنها تسبح في الهواء، من شدة رقتها، حتى بلغت به وبزميله الشاطئ، وأشارت إلى الضفة الأخرى، قائلة:

ستسبح هذه المرة أيضًا.. الاختلاف الوحيد هو أنك ستحمل رفيقك على كتفيك.

امتلأت عيناه بالحزن، وهو يقول في أسى:

- هل سنفترق هنا؟

غمغمت:

- لا فكاك من هذا.

ثم اغرورقت عيناها بالدموع مرة أخرى، مستطردة:

- صدقني.. لقد أتيت من أجلك.

اغرورقت عيناه بالدموع بدوره، ثم مد يده يصافحها..

- وأجفلت هي مرة أخرى..

فعلت هذه المرة بعد أن لامس أصابعها..

وأدهشه ما حدث في شدة..

إنه لم يشعر بملامسته لأصابعها، وإنما شعر ببرودة شديدة تكتنف أصابعه..

وقبل أن يفكر فيما يعنيه هذا، هتفت به:

- هيا.. أذهب.

قفز في مياه القناة، وراح يسبح حاملًا (مدحت) على كتفيه، حتى بلغ الشاطئ الآخر، واستقبله رجال كتيبته بعشرات الأسئلة، حول

الانفجار، ومصير الغائبين، ولكنه لم يجب، بل أدار عينيه في لهفة إلى الشاطئ الآخر، حيث ترك (زاهية)، ولكن البدوية كانت قد اختفت..

ولم يعد قلبه إلى موضعه بعد..

☆ ☆ ☆

6- السر..

ارتفع رنين جرس الباب، في منزل الملازم (توفيق)، أحد رجال المخابرات الحربية، فأسرع يجيب الطارق، وهو يتساءل عن ذلك الزائر الذي اختار تلك الساعة المبكرة من الصباح، ليطرق بابه، ولم يكد يفتح الباب، حتى انعقد حاجباه في دهشة، وهو يهتف:

- (فاضل)؟؟.. ما الذي أتى بك في مثل هذا الوقت؟..

كان (فاضل) يبدو شديد التوتر، قليل العناية بهيئته، وهو يعبر باب منزل (توفيق)، قائلًا في لهجة رجل تعذب طويلًا:

- (توفيق).. إنني أحتاج إلى مساعدتك.. أرجوك.

سأله (توفيق) في قلق، وهو يقوده إلى الداخل:

- لماذا يا (فاضل)؟.. هل فعلت شيئًا؟

ألقى (فاضل) جسده على أقرب مقعد صادفه، وهو يجيب:

- نعم.. لقد فعلت.

سأله (توفيق) في حذر وتوتر:

- ماذا فعلت؟

شعر بارتياح بالغ، وزال عنه كل توتره، عندما أجابه (فاضل) في ألم:

- أحببت.

أطلق (توفيق) ضحكة عالية، وربت على كتف صديقه، قائلًا:

- أهذا ما جعلك تغدو زري الهيئة إلى هذا الحد؟

مال (فاضل) نحوه، وتشبثت بكفه، قائلًا:

- اسمع يا (توفيق).. أنت وحدك يمكنك أن تعاونني في العثور عليها.. أنت وحدك.

ضحك (توفيق)، وهو يربت على كتف صديقه، قائلًا:

- يبدو أنك قد أخطأت فهم طبيعة عملي يا صديقي، فأنا رجل مخابرات حربية، ولست خاطبة.

قال (فاضل) في توسل:

- أرجوك يا (توفيق).

شعر (توفيق) بقلق حقيقي إزاء موقف صديق عمره، فجلس إلى جواره، يسأله في رفق:

- حسنا يا (فاضل).. ماذا تريد؟

سأله (فاضل) على نحو مباشر مفاجئ:

- ماذا تعرف عن (زاهية)؟

اتسعت عينا (توفيق) في دهشة، وهو يردد:

- (زاهية)؟!

قال (فاضل)، وكأنما نفذ صبره:

- نعم يا (توفيق).. (زاهية).. تلك البدوية من بدو (سيناء).. ماذا تعرف عنها؟

تطلع (توفيق) إلى صديقه لحظات في صمت ثم نهض من مقعده، وأشعل واحدة من سجائره، وهو يقول مشيحًا بوجهه:

- من أخبرك أنني أملك سجلًا لبدو (سيناء).

جذبه (فاضل) من ذراعه في حدة، وأجبره على التطلع إليه، وهو يقول في عصبية:

- اسمع يا (توفيق).. إنني لم أسافر طيلة الليل، من (الإسماعيلية) إلى هنا، لنلعب معًا لعبة التواري والخداع هذه.. أنا أعلم أنكم تعرفون (زاهية) في المخابرات الحربية.. لقد قرأت ذلك في عيني عقيد من رجال المخابرات، أتى لزيارتي في المستشفى، عندما عدت من (سيناء) أيام النكسة.. لقد أدركت من ابتسامته وأسلوبه أنكم تعرفونها.. ولكنني حاولت خداع نفسي، وإقناعها بالعكس طيلة عام كامل.

سأله (توفيق) في خفوت:

- وماذا حدث الآن؟

صاح (فاضل) في لهجة أقرب إلى الانهيار:

- أريد أن أعرف.. أريد أن أفهم.

انخفض صوته بغتة، وبدا أقرب إلى البكاء، وهو يضيف:

- أرجوك.

نفث (توفيق) دخان سيجارته في عصبيه واضحة، وغمغم:

- إنك تطالبني بكشف أحد أسرارنا يا (فاضل).

ثم زفر في قوة، واستطرد:

- ولكن لا بأس.. سأخبرك.

وتطلع إلى عيني (فاضل) مباشرة، وقال:

- (زاهية) كانت تعمل لحسابنا من منتصف الستينات، وقبل حرب يونيو.

حدق (فاضل) في عينيه لحظات، ثم تهالك على مقعده، ودفن وجهه بين كفيه، متمتمًا في لهجة حملت نبرة ارتياح:

- حمدًا الله.. حمدًا لله.. كنت واثقًا من هذا.

نفث (توفيق) دخان سيجارته، وهو يتابع حديثه:

- كانت واحدة من أشجع فتيات (مصر)، وكانت تعشق وطنها عشقًا لا مثيل له، وتتميز بخبرة مدهشة في معرفة دروب وخفايا الصحراء.

وصمت لحظة، ثم أضاف كالحالم:

- وكانت فاتنة.

ورفع (فاضل) عينيه إليه، وقال في حب وحنان:

- بل ساحرة يا (توفيق).. لقد سحرتني وملكت شغاف قلبي.. لقد أحببتها منذ النظرة الأولى، وصارحتني هي نفسها بأنها قد أحبتني بدورها، وأنها ما جاءت إلا من أجلي أمس.

حدق (توفيق) في وجهه بذهول، وهو يهتف:

- أمس؟؟

ارتسمت على شفتي (فاضل) ابتسامة حانية، وهو يقول:

- نعم يا (توفيق).. لقد رأيتها أمس، وقد أنقذت حياتي للمرة الثانية، و...

قاطعه (توفيق):

- ولكن هذا مستحيل يا (فاضل)!!

قال (فاضل) في مرح متوتر:

- لماذا؟.. إن (زاهية) تظهر دومًا عندما تحتاج إليها، و...

قاطعه (توفيق)، وهو يحدق في وجهه كالمأخوذ:

- ولكن من المستحيل أن تأتي إليك أمس يا (فاضل)؛ لأنهما لم تعد تنتمي إلى عالمنا كله.. لقد لقيت (زاهية) مصرعها يا (فاضل).. ومنذ شهر كامل.

☆ ☆ ☆

7- من أجلها..

من غير المنصف أن نصف ذلك الانطباع، الذي ملأ وجه (فاضل) بأنه الذهول، فالذهول يعتبر مرتبه أقل مما أصابه، عندما سمع تلك العبارة من رفيقه..

لقد ظل يحدق فيه دقيقة كاملة، وعيناه تكادان تقفزان من محجريهما، قبل أن يهتف في صوت مختنق دامع آسف حزين مكلوم:

- ماتت؟!

وفجأة انفجرت كل مشاعره، وهو يصرخ:

- مستحيل يا (توفيق).. إنك ما زلت تخدعني.. مستحيل أن تكون (زاهية) قد ماتت منذ شهر، وهي التي أنقذت حياتي أمس.

ارتبك (توفيق)، وهو يتطلع إلى (فاضل) مشفقًا، وغمغم:

- صدقني يا (فاضل).. لقد لقيت (زاهية) مصرعها منذ شهر كامل، مع انفجار مخزن الذخيرة الأول.. لقد أنقذت رجال فرقتك الخمسة، وحاولت أن تنقذ نفسها.. ولكن فتيل القنابل انطفأ، فعادت أدراجها لتشعله، و...

صرخ (فاضل):

- لا.. مستحيل!.. أنت كاذب.

ازداد ارتباك (توفيق)، وبدا يتساءل جديًا عما إذا كان عقل صديقه قد أصابه مس من الجنون، وهو يتمتم في صوت كالهمس:

- صدقني يا (فاضل)، (زاهية) ماتت، ومن المستحيل أن تكون قد شاهدتها أمس، إلا إذا كنت قد شاهدت...

صمت لحظة، وأزداد همسه خفوتًا، وهو يضيف:

- شبحًا.

شبح؟!

دوت الكلمة في رأس (فاضل) كالقنبلة..

(زاهية) شبح؟!..

تلك الحورية من حوريات الجنة مجرد شبح؟!!

مستحيل!!..

اهتزت كلمة مستحيل في أعماقه، وراحت عدة مواقف وصور تتواتر في ذهنه..

مطلبها ألا يحاول لمسها..

تلك البرودة القاسية الشديدة، التي أصابت أطرافه عندما حاول أن يفعل..

كلمتها عندما قالت: إنها قد أتت من أجله..

ثم فجأة امتلأ ذهنه بصورة واحدة..

بمشهد واحد، أثار حيرته عندما رآها..

مشهد (زاهية)، وهي تقف أمامه..

الآن فقط تذكر لماذا بدا له مشهدها غريبًا أمس؟

الآن فقط أدرك الحقيقية..

لقد كان شعرها الفاحم الناعم الغزير يتطاير حقًا..

ولكن عكس اتجاه الرياح..

وهذا لا يحدث مع البشر..

وتجمع حزنه وأسفه كله في دمعة كبيرة، اغرورقت بها عيناه، ثم انحدرت على وجنته، وسقطت بين قدميه أرضًا..

وفي إشفاق ربت (توفيق) على كتفه، مغمغمًا:

- معذرة.. لقد..

قاطعه في خفوت:

- لا عليك.. كان ينبغي أن أدرك هذا.

تنهد (توفيق)، وسأله:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

شرد ببصره لحظات، واسترجع جمال (زاهية) وفتنتها، ثم غمغم:

- سأذهب إليها.

خفق قلب (توفيق)، وهو يسأله في دهشة:

- تذهب إليها؟.. أين؟

أشار (فاضل) إشارة مبهمة، وهو يقول:

- هناك.

وقبل أن يسأله (توفيق) عما يعنيه، كان قد غادر منزله في سرعة..

☆ ☆ ☆

وقبل أن يمضي العام التالي، علم (توفيق) بخبر استشهاد (فاضل)، في واحدة من المهمات الانتحارية، التي أشتهر بأدائها في فرقته..

يومها غمغم (توفيق) في حزن:

- لقد ذهب إليها..

ولم يدرك لحظتها كم كان صادقًا في عبارته هذه..

لم يدرك هذا إلا بعد أربع سنوات كاملة..

في حرب أكتوبر عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين..

أيامها كان وحده يفهم معنى تلك القصص، التي رددها العديدون من رجال الجيش في أثناء المعركة، كما لو كانت أسطورة..

أسطورة رجل وامرأة يظهران فجأة في ساحة المعركة عندما تتأزم الأمور، ويساعدان الجنود المصريين فقط..

وتكررت تلك القصص، وصارت تتداول بين الجنود، ورفعت أرواحهم المعنوية.. الملازم (توفيق) وحده كان يعلم أن الرجل ما هو إلا ضابط مصري شهيد، يحمل اسم (فاضل جمال الدين)..

وأن المرأة الفاتنة الساحرة كانت (زاهية)..

وأنها بدوية..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- اللعـــــنـة..

2 - الحلم..

3- الســـــر..

4 - الخطر...

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

لعنة البحر

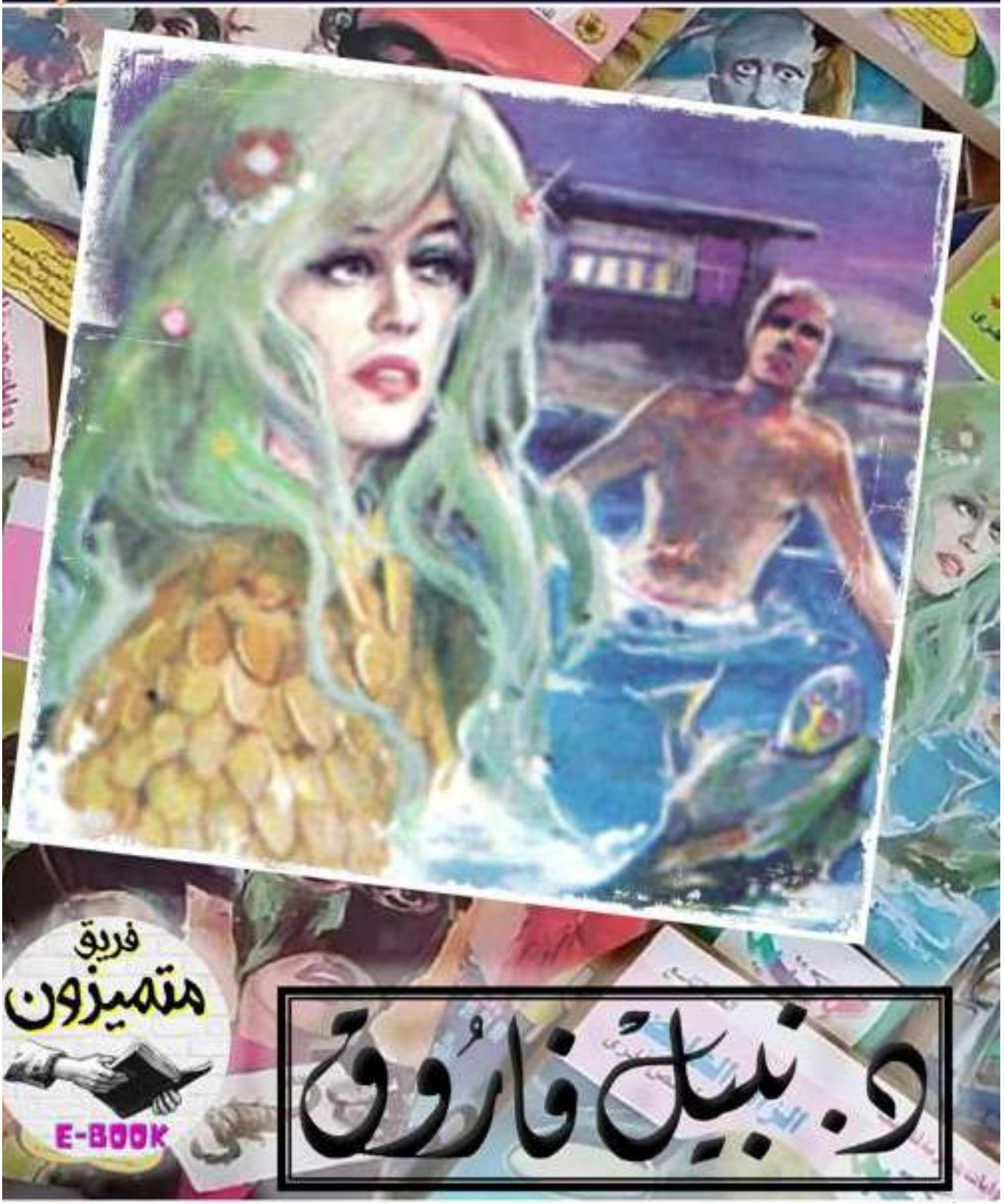

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

2256

كوكتيل 2000
(قصص العدد)

لعنة البـــحر

1- رحـــــــلة..

شعرت ببهجة شديدة، وأنا أقطع الكيلومترات الباقية بسيارتي، وسط جبال الرمال الصفراء، متجهًا إلى شاطئ البحر في مصيف (بلطيم)، تلبيه لدعوة مفتوحة، وجهها لي صديق عمري، وزميل دراستي (حسن)، لقضاء بضعة أيام معه، في كوخ يمتلكه على الشاطئ، بالقرب من فنار (بلطيم)، ويطلق عليه، كعادة سكان هذه المنطقة اسم (العشة)، ويقضي فيه الصيف كله تقريبًا وحده، ويعتبره المحفز الأول لأفكاره وأشعاره، منذ صار أديبًا شاعرًا، يشار إليه بالبنان..

والعجيب أن دراستنا -(حسن) وأنا- لم تكن تنتمي إلى الدراسات الأدبية على الإطلاق، فكلانا خريج كلية العلوم، وإن اختلف تخصصانا، فأنا متخصص في علم الحيوان، وهو في علم طبقات الأرض (الجيولوجيا)، ولكن (حسن) كان يمتلك دومًا ذلك الحس الأدبي، وتلك الموهبة الخلاقة، التي جعلته يعمل محررًا هاويًا في واحدة من أشهر الصحف المصرية، قبل حتى أن يتخرج من الكلية.. ثم لم يلبث أن التحق بها محررًا محترفًا بعد التخرج، وانطلق عبر صفحاتها يصنع مجده الأدبي، حتى صار واحدًا من أشهر أدباء وشعراء (مصر)..

ومن بعيد لاح لي الكوخ المنعزل، أو العشة المصنوع نصفها السفلي من الطوب والأحجار، والمغطى نصفها العلوي بجدران وسقف من البوص، كمعظم العشش الأخرى..

ولقد كانت عشة (حسن) هذه منعزلة بحق، فعلى امتداد نصف الكيلومتر على جانبي الشاطئ، لم تكن تجاورها أية عشش أخرى، فقد شيدها هو في لسان رملي خاص يخترق جزءًا من

البحر، بحيث يستحيل بناء عشش أخرى في محاذاتها.. ولعله تعمد ذلك ليحظى بالعزلة والهدوء، اللذين يعشقهما، واللذين دفعاه إلى القدوم إلى هنا، قبل أن ينتصف شهر يونيو، ويبدأ موسم المصيف الفعلي.. بحيث أصبح أشبه بمن يقيم في كوخ في منتصف صحراء، فهو في عزلة، في مصيف خالٍ تقريبًا..

وعندما أوقفت سيارتي إلى جوار عشة (حسن)، بدا لي المكان رهيبًا حقًا، فباستثناء الفنار الفخم، الذي يظهر من خلف جبل رملي قريب، والأمواج التي تضرب الشاطئ على نحو رتيب، بدت لي المنطقة مهجورة ساكنة تمامًا، حتى أنني لم أجرؤ على دق نفير سيارتي لإعلان وصولي، خشية أن أحطم تلك الصورة المهيبة للمكان، وفضلت أن أغادر السيارة، وأتجه إلى باب العشة الخشبي، وأدقه في هدوء..

ومضت لحظات من الصمت التام، قبل أن يتعالى وقع أقدام (حسن)، ويفتح الباب:

وهالني مرآه..

هالني بحق..

لم يكن هو نفسه (حسن) الذي أعرفه، المفعم بالحيوية والنشاط والقوة..

كان حتمًا رجلًا آخر..

شاحبًا، نحيلًا، زائغ البصر، مرتجف الشفاه..

وبدلًا من أن نتبادل التحية التقليدية، أو نتعانق في لهفة، شأن صديقين لم يلتقيا طيلة شهر كامل، وجدت نفسي أهتف ملتاعًا:

- (حسن)؟!.. ماذا أصابك؟

تطلع إلى بتلك النظرات الزائغة، قبل أن يتمتم:

- (فتحي)؟!

الجزاء..

قالها في لهجة رجل بوغت بما لم يكن يتوقعه أو يريده، أو بأسلوب من فوجئ بقدوم ضيف ثقيل في لحظة راحة واستجمام مما أصابني بغير قليل من الحرج والارتباك، لولا قلقي عليه، وأنا أقول في جزع:

- قل لي ماذا حدث؟

رأيت ابتسامة شاحبة باهتة ترتسم على شفتيه، كان من الواضح أنه قد استجمع كل ما تبقى له من قوة وجهد، ليرسمها على نحو مناسب، وهو يغمغم بحروف لم ينجح في إخفاء ارتجافها:

- ومن أنبأك بحدوث شيء؟

دلفت إلى الداخل، وأنا أشير إلى وجهه، قائلًا:

- أنت.. وجهك يحمل أهوالًا.

رسم نفس الابتسامة على شفتيه، وهو يقول:

- أنت تبالغ كعادتك.. لقد كنت مريضًا بعض الوقت فحسب.

كان من الواضح أنه يكذب.. وأنه يخفي عني أمرًا ما..

وأنه لم يفعل هذا قط، طيلة عمر صداقتنا الطويلة..

وفي حيرة تطلعت إليه..

لماذا يكذب؟..

لماذا يعمد -لأول مرة- إلى إخفاء شيء ما عني؟..

إنه لم يخف عني أبدًا، حتى حقائق مشاعره وخباياها.. حتى اللحظات التي خفق لها قلبه..

واللحظات التي استسلم فيها لخفقاته..

لم يخف عني -بحكم صداقتنا- أمرًا واحدًا طيلة عمرينا.

فماذا حدث؟!..

كان من الواضح أنه يعاني توترًا شديدًا، فقد راح ينقر مسند مقعده بأصابعه في عصبية، وهو يتطلع عبر النافذة المفتوحة إلى البحر، ونظراته تحمل الكثير من القلق والترقب والخوف، مما دفعني إلى سؤاله:

- كيف حال العمل؟

التفت إلى، يسألني في شرود:

- أي عمل؟

غمغمت:

- قرض الشعر.

حدق في وجهي لحظات، وكأنما لم يفهم ما أعنيه، ثم عاد يدير عينيه إلى البحر، ويتطلع إليه بنفس التوتر والخوف، وهو يغمغم

في لهجة بدت لي مريرة:

- الشعر؟!..

أدرت عيني بدوري، أتطلع إلى البحر في حيرة، ولم أدر أبدًا ما الذي يمكن أن يثيره ذلك البساط المائي الجميل في النفس، سوى النشوة والانتعاش؟!..

كيف يمكن لمشهد الأمواج الناعمة الرقيقة، وهي ترتطم بالشاطئ في رفق، ثم تنسحب عنه في حياء، أن يثير في النفس التوتر والخوف؟!..

ولكن مهلًا..

تلك النظرة في عيني (حسن) لم تكن تحمل التوتر والخوف فحسب.. لقد كانت مزيجًا عجيبًا من اللهفة والخوف، والترقب والقلق..

كانت نظرة إنسان ينتظر شيئًا يرهبه ويحبه في آن واحد.. تمامًا كمدمن المخدرات، عندما ينتظر المخدر في لهفة، وهو يخشاه في نفسه من إرادة وقوة..

وللحظة، راودتني فكرة أن يكون (حسن) مدمنًا، إلا أنني لم ألبث أن استبعدتها في نفس اللحظة..

وتضاعف فضولي، ولم أعد أحتمل السكوت، أو أطيق صبرًا على الغموض وقررت أن أتعامل مع (حسن) بذلك الأسلوب، الذي نتعامل به طيلة عمرنا، فملت نحوه، وسألته على نحو مباشر:

- حسنًا.. ماذا في البحر؟

أدهشني رد فعله كثيرًا.

بل أذهلني..

لقد انتفض وارتجف، وشحب، وامتقع، كما لو أنني قد أخبرته أن موعد مصرعه قد حان، وأنه سيقضي نحبه بأشد طرق الأرض عذابًا وإيلامًا، وهتف مرتعدًا منكمشًا مذعورًا:

- البحر؟!.. لا يوجد شيء في البحر.. لا شيء على الإطلاق.. من وضع في رأسك هذه الفكرة؟

تنهدت وقد أدركت عدم جدوى المصارحة، مع حالة (حسن) العجيبة، وشعرت لحظات بالندم لقدومي، ثم لم ألبث أن أبدلت هذا الشعور بشعور آخر بالارتياح؛ لأنني قد وصلت إلى صديقي في الوقت المناسب، قبل أن يصيبه ذلك الشيء في البحر بالجنون..

ولكن ما هذا الشيء؟

ألح هذا السؤال في ذهني، قبل أن يقول (حسن):

- لا ريب أنك تحتاج إلى الراحة، بعد رحلة السفر الطويلة، من (القاهرة) إلى (بلطيم).. سأعد لك قدحًا من الشاي، وعشاء بسيطًا.

أومأت برأسي موافقًا في خفوت، وتركته يذهب لإعداد ما عرض، وأنا أدير وجهي إلى البحر في حيرة..

ما الذي يخفيه ذلك السطح الهادئ المتموج؟..

أية لعنة تحملها هذه الأمواج؟..

ولم أتصور لحظتها أن رحلتي هذه ستبدل مسار عمري وحياتي كله..

وإلى الأبد..

☆ ☆ ☆

2- البحر..

لست أدرى كيف نمت بكل هذا العمق في تلك الليلة!!

لقد كانت حيرتي وحدها كافية لإيقاظي طيلة الليل، ولم أكن مرهقًا إلى ذلك الحد، ولكنني لم أكد أضع رأسي على الفراش، حتى رحت في نوم ثقيل عميق، يفوق حتى عمق نومي العادي، في أشد أيامي إرهاقًا..

وعندما استيقظت، لم يكن (حسن) في العشة..

لقد بحثت عنه طويلًا، وليست العشة بالضخامة التي تكفي لأن يختفي دون أن أعثر عليه..

ولم أدر أين ذهب (حسن)، ولقد شعرت في الواقع بالقلق إزاء اختفائه، وزاد من توتري ذلك الصداع، الذي يكتنف رأسي، والذي لم يفارقني منذ استيقاظي، فتوجهت إلى المطبخ؛ لإعداد قدح من الشاي، وبعد أن وضعت إبريق الشاي فوق الموقد المشتعل، وراح ماؤه يغلي، كشفت فجأة أنني أجهل أين يضع (حسن) الشاي.. فرحت أبحث عنه، ولكنني لم أعثر على ذرة واحدة منه، على الرغم من معرفتي بكم استهلاك (حسن) له، وراودتني فكرة أنه قد يحتفظ به في حجرة نومه، فذهبت إلى هناك، وفتحت صوانه، و...

وبُهِتّ..

كان الصوان منظمًا للغاية، كعادته (حسن)، ولكن أحد أرففه قد أُخلى تمامًا، ليحتله تمثال رائع مبهر، لشعب مرجانية من الذهب الخالص، تزينها قطع صغيرة من الماس والياقوت والزمرد، لم يكد الضوء يسقط عليها، حتى راحت تتألق على نحو رائع مثير..

ووقفت أمام التمثال مبهورًا، مشدوهًا، دون أن أجرؤ حتى على لمسه..

لقد كان تحفة رائعة الجمال، صنعتها أصابع فنان ماهر، لملك عظيم، أو مليونير سخي، فلم يكن ثمن مثل هذه التحفة الرائعة ليقل عن مليون جنيه دفعة واحدة..

وفجأة أرتفع صوت غاضب من خلفي، يقول:

- ماذا تفعل هنا؟

استدرت إلى مصدر الصوت في حدة، ووقع بصري على (حسن)، الذي بدا بسحنته المقلوبة في تلك اللحظة أشبه بذئب غاضب، انتزع أحدهم فريسته..

وقبل أن أنبس بحرف واحد، اندفع (حسن) يتجاوزني، وأغلق صوانه في إحكام، وهو يقول في غلظة:

- لست أحب العبث بأشيائي.

تمتمت مرتبكًا:

- لقد كنت أبحث عن..

قاطعني ثائرًا:

- ابحث في مكان آخر، وليس في حجرتي.

تمتمت:

- معذرة.

لم يكن مثل هذا الموقف قد حدث بيننا أبدًا؛ لذا فقد بلغ ارتباكي وتوتري مبلغهما، وأنا أغادر حجرته، التي أغلقها بمفتاحها في إحكام، وقبض أصابعه على المفتاح في قوة..

لحظتها فقط لاحظت جسده المبتل، وشعره الملتصق بجبينه، فغمغمت محاولًا الابتعاد عما حدث:

- أكنت تسبح؟

أجابني في غلظة لم أعتدها منه أبدًا:

- ليس هذا من شأنك.

صدمني الجواب، فحدقت في وجهه لحظة، ثم انسحبت إلى الشرفة، وجلست صامتًا مبهوتًا، أحدق في البحر، الذي يملك وحده سر الغموض المحيط بالمكان، إلا أن (حسن) لم يلبث أن لحق بي، وغمغم في أسف:

- معذرة.. لقد كنت متوترًا فحسب.

قلت في خفوت، وأنا أتحاشى أن تلتقي عينانا:

- لا عليك.

غلفنا الصمت لحظات، تفاديت خلالها بدء الحديث، حتى أشار هو إلى البحر، وقال في لهجة أشبه بالوله:

- أليس رائعًا؟!

أدهشني جدًا انفعاله، الذي يختلف جذريًا عن انفعال أمس، فتطلعت إلى وجهه في حيرة، وأنا أساله:

- ما هذا؟

أجابني وكأنه أمر بديهي:

- البحر؟

ثم عاد يتطلع إلى البحر في هيام عاشق، مستطردًا:

- إنه أروع شيء في الوجود، وخزانة لأعظم أسرار الدنيا.. صدقني.. إننا لم نسبر غوره بعد، ولم نكشف كل خباياه، على الرغم من آلاف الكشوف، التي تنتمي إليه.

كانت فرصة سانحة لكشف السر، ولم أشأ إضاعتها، فقلت في حذر:

- هل كشفت فيه جديدًا؟

ارتسمت على شفتيه ابتسامه حالمة، وهو يقول:

- بل كشفت جنته.

وفجأة تبدلت ملامحه، واكتست بالحزن، وهو يستطرد:

- وجحيمه.

لم أفهم المعنى جيدًا، فسألته في فضول:

- ما معنى أن تكشف الجنة، والجحيم في آن واحد؟

شرد ببصره لحظات، وهو يتطلع إلى نقطة مجهولة في البحر، قبل أن يبتسم في مرارة، ويقول في خفوت:

- إنما هو تعبير شعراء.

كنت أعلم أنه مازال يخفي عني الكثير، وأنه لم يفصح بعد عن كل ما لديه، ولم أطق المزيد من الانتظار، فسألته:

- ألهذا الكشف علاقة بتمثال المرجان الذهبي؟

بقي صامتًا، جامدًا لحظات، قبل أن يقول في اقتضاب:

- إلى حد ما.

فجأة قفز إلى ذهني سؤال، لم يلبث أن وجد طريقه إلى لساني في اللحظة ذاتها، فقلت:

- ولكن أين كنت تسبح؟؟

أجابني في بساطة:

- في البحر.

قلت في حيرة:

- ولكنني لم أرك.. لقد بحثت عنك في العشة، ووقفت أتطلع إلى البحر طوال خمس دقائق كاملة، ولم تكن هناك.

أجابني في هدوء:

- لم تكن لتراني، فقد كنت تحت.. تحت سطح الماء..

سألته:

- لماذا؟

صمت طويلًا، وهو يتطلع إلى البحر، وشحب وجهه قليلًا، قبل أن يجيب في خفوت:

- لست أدري.

ثم اعتدل بغتة، وسألني:

- هل تناولت قدحًا من الشاي عند استيقاظك؟

قلت في ضيق:

- لم أجد الشاي.

ابتسم قائلًا:

- ربما لأنك لم تبحث جيدًا.. سأعد أنا لك قدح الشاي، الذي تحب تناوله كل صباح.

ذهب لإعداد الشاي، وتركني في الشرفة حائرًا، أتطلع إلى البحر، وأتساءل عن سر تلك التغيرات، التي تصيب (حسن)، وعن ارتباطها بالبحر، وأبحث عن تفسير لغموض أسلوبه وكلماته..

وفجأة، التقطت عيناي شيئًا ما على الرمل..

أثرًا صغيرًا، انطبع بالقرب من الأمواج، التي كادت تطمسه تقريبًا..

وبسرعة غادرت الشرفة، وانحنيت أتطلع إلى الأثر.. لقد كان بقايا أثر قدم ضفدع بشري، بتلك الأطراف الحادة، المتصل بعضها ببعض بوصلات قوسية صغيرة، أشبه بقدم ضفدع..

ودون أن أطيل النظر، عدت إلى الشرفة، واتخذت مجلسي كالسابق، حتى عاد (حسن) بقدح الشاي، فسألته متظاهرًا باللامبالاة:

- ألا يبدو لك هذا المكان مناسبًا لرياضة الغوص؟

هز كتفيه، قائلًا:

- ليس تمامًا.

قلت وأنا أرتشف رشفة من قدح الشاي:

- لو أنني خبير سياحي، لأحضرت العشرات من الضفادع البشرية هنا.

قال في بساطة:

- سيدهش مرآهم السكان كثيرًا.

كان هذا ما أرمي إليه بالضبط، لأساله:

- ألا يرون الضفادع البشرية هنا أبدًا؟

هز رأسه نفيًا، وقال:

- هذا الشاطئ رملي تمامًا، وهواة الغوص يفضلون الشواطئ الصخرية.

سألته في اهتمام:

- وماذا عنك؟.. إنك تهوى الغوص.. ألم يرك السكان أبدًا في حذاء غوص؟

هز رأسه نفيًا مرة أخرى، وقال:

- مطلقًا، فلست أرتديه أبدًا.. إنني حتى لا أملك واحدًا، بل أحب السباحة هكذا.

ملأني التوتر مرة أخرى، ورحت أبحث عن تفسير آخر لأثر قدم الضفدع البشري على رمال الشاطئ..

صحيح أنني لم أر الأثر كاملًا، ولكنني واثق من طبيعته تمامًا..

إنه حتمًا أثر لقدم ضفدع بشري..

وفجأة جال بخاطري احتمال مخيف..

ماذا لو أنها آثار أقدام بعض مهربي المخدرات، الذين يتسللون إلى شواطئنا تحت الماء؟..

وجذب الاحتمال احتمالًا آخر..

هل يعمل (حسن) في مجال تهريب المخدرات؟..

ولم أجد الجواب هذه المرة أيضًا..

وتضاعفت حيرتي..

☆ ☆ ☆

3- الأعماق..

في هذه الليلة أيضًا نمت نومًا عميقًا للغاية..

لست أدري ما الذي أصابني هنا؟.. إنني أقضي نهاري كله في مراقبه (حسن)، وهو يغوص في مياه البحر كل ثلاث أو أربع ساعات، وأعصر عقلي بحثًا عن تفسير مقنع لكل ما يحيط به من غموض..

لتوتره ولهفته وقلقه وحيرته..

وفي هذا الصباح أيضًا شعرت بصداع شديد، ولكن (حسن) كان في العشة، يجلس في شرفتها متطلعًا إلى البحر بتلك النظرة الغامضة، وشعره المبتل يؤكد أنه قد عاد منه على التو، فجلست أمامه، وقلت في هدوء:

- صباح الخير يا (حسن).

أجابني دون أن يدير عينيه عن البحر:

- صباح الخير.

سألته مشيرًا إلى شعره المبتل:

- قل لي: أتسبح طيلة الوقت؟

أجاب في اقتضاب:

- تقريبًا.

كان هناك سر يربطه بالبحر، ويدفعه إلى السباحة والغوص لأطول فترة ممكنة بالتأكيد..

- ولقد عقدت العزم على كشف هذا السر..

مهما كان الثمن..

وفي ذلك اليوم، وفي إطار الخطة التي وضعتها، لم ألق عليه أية أسئلة..

بل لم أبد أدنى اهتمام به، وتظاهرت بالانهماك في إصلاح عطب وهمي في سيارتي، حتى ذهب هو إلى البحر مرة أخرى، في الثانية ظهرًا.

وعندئذ أسرعت إلى حجرته..

كنت واثقًا من أن صوانه يحوي سرًا آخر، بخلاف ذلك التمثال المبهر؛ لذا فقد فتشت ثيابه، التي تركها خلفه، عندما ذهب يسبح، حتى عثرت على مفتاح الصوان، وعلى الرغم مما ينطوي عليه هذا العمل من خسة، إلا أنني فتحت الصوان بلا تردد، وتطلعت في دهشة إلى سمكة صغيرة من الفضة، مطعمة بعينين من العقيق، وقشور من البلاتين، وقد استقرت إلى جوار تمثال الشعب المرجانية الذهبي، وتساءلت متى أحضر (حسن) تلك التحفة الجديدة، ثم لم ألبث أن قفزت بذهني إلى استنتاج عجيب..

لم لا يكون (حسن) قد كشف كنزًا؟..

كان هذا يفسر تكتمه الشديد، وتوتره، فللمال شهوته وبريقه..

ويفسر أيضًا سباحته وغوصه لفترات طويلة، فلا ريب أنه يبحث عن المزيد من التحف الثمينة، والكنوز التي لا تقدر بمال..

نعم..

هذا هو الاستنتاج الصحيح..

لقد كشف (حسن) كنزًا..

ارتاحت نفسي لهذا الاستنتاج، على الرغم من أنه لم يفسر لي شحوبه وذبوله، ولا تلك النظرة التي تحمل آلاف المعاني، والتي يتطلع بها دومًا إلى البحر..

ولكنه كان تفسيرًا كافيًا ليصمت شيطان القلق في أعماقي.. إنه دارس لعلم طبقات الأرض، على الرغم من عدم اشتغاله به، ولا ريب أنه قد عثر بواسطته على كنز ما، ولكنه يحب الاحتفاظ به لنفسه..

وفجأة، انهدمت نظريتي رأسًا على عقب.. انهدمت عندما وقع بصري على سمكة محنطة..

لم تكن من الذهب أو البلاتين، وإنما كانت سمكة محنطة تحنيطًا بسيطًا، كالذي يقوم به بعض باعة البحر الأحمر، عندما يجففون الأسماك، ويطلونها بطلاء يحفظ أنسجتها من التلف، ثم يصنعون منها عدة أشياء منزلية طريفة..

ولكن بالنسبة لرجل درس علم الحيوان، كانت السمكة مذهلة بحق..

لم تكن واحدة من الأسماك التي درستها في عمري كله، ولا حتى التي يألفها أي شخص عادي.

لقد كانت تشبه السمكة في كل شيء، إلا بالنسبة لزعانفها الجانبية، التي تحورت إلى ما يشبه ذراعي ضفدعة.

ذات أصابع خمس، وأغشية رقيقة تربط بينها..

لقد كانت حلقة من حلقات سلسلة التطور، التي تحدث عنها (داروين)..

وبينما رحت أدير السمكة لتأمل جوانبها في انبهار، راح عقلي يضع تفسيرًا جديدًا..

إنه لم يعثر على كنز مادي فحسب، وإنما على كشف علمي هائل..

هذا ما يؤكده وجود السمكة..

ولكن مهلًا..

ينبغي أن أعيد كل شيء إلى ما كان عليه، فلقد حان موعد عودة (حسن) من البحر..

أسرعت أرتب كل شيء كما كان، وعندما أعدت السمكة إلى موضعها، انزلق منديل صغير من موضعه خلفها، وسقطت من خلفه قنينة عجيبة الشكل، تحوي سائلًا أخضر اللون..

وفي دهشة، تناولت القنينة، ورحت أتأمل محتوياتها في حيرة..

كان ذلك السائل يبدو للوهلة الأولى رائقًا شفافًا، إلا أنك لا تلبث أن تنتبه إلى وجود ذرات صغيرة تسبح داخله بلا توقف، حتى لو وضعته ثابتًا.

وكان ملمس القنينة يبعث في النفس شعورًا عجيبًا..

وبلا وعي، وبدافع من فضول بلغ ذروته، أزحت غطاء القنينة، ورفعتها إلى أنفي، لأشم رائحة ذلك السائل الأخضر العجيب، الذي أضيف إلى الصورة، ليجعل من الأمر كله لغزًا محيرًا غامضًا.

وفي حذر، لمست السائل بطرف لساني.. ولما بدا لي مذاقه حلوًا، ارتشفت منه رشفة صغيرة، ثم أعدت الغطاء والقنينة إلى موضعهما، وأنا أتساءل عن كنه هذا السائل..

وعدت إلى الشرفة، متوقعًا عودة (حسن)، ولكن المكان بدا لي خاليًا تمامًا، حتى البحر، لم يكن به أثر (حسن)..

وانتظرت هذه المرة..

ومضت الدقائق كالدهور، وأنا أبحث بعيني عن (حسن).

ثم ظهر (حسن) فجأة على السطح، وراح يسبح نحو الشاطئ، ثم اتجه إلى العشة، وقال:

- كيف حالك يا (فتحي)؟.. هل تشعر بالملل هنا؟

لوحت بكفى، وأنا أقول مبتسمًا:

- مطلقًا.

تطلع إلى طويلًا، وكأنما يحاول سبر أغواري، قبل أن يسألني في هدوء:

- ماذا تحب أن تتناول في العشاء؟

قلت متظاهرًا باللامبالاة:

- سمك مشوي. لو أن هذا متيسر.

أجابني في حدة مفاجئة:

- لا.. لا أسماك.

سألته في دهشة:

- لماذا؟.. لقد كنت تعشق الأسماك المشوية فيما مضى.

أجابني في صرامة:

- ليس الآن.

ثم أشاح بوجهه إلى البحر، مستطردًا في حزم:

- من حق الأسماك أن تحيا.

كان منطقًا يثير الدهشة، حتى أنني قلت معترضًا:

- ولكن الله (سبحانه وتعالى) منحنا حق صيد البحر، و...

قاطعني في حدة حاسمة:

- قلت لا أسماك.

لوحت بكفي، وأنا أنوي موافقته تأدبًا، ولكن فجأة حدث أمر عجيب..

فجأة شعرت وكأن الحجرة كلها قد خلت من الهواء..

وأنني أختنق..

وعلى الفور قفز ذهني إلى ذلك السائل الأخضر العجيب.

واحتقن وجهي بزرقة مخيفة، وسقطت على ركبتي أرضًا، وأنا أرفع كفي إلى (حسن)، هاتفًا في ضراعة:

- أنقذني.. إنني أموت.. إنني أختنق..

ثم لم أعد أشعر بشيء..

☆ ☆ ☆

4- في ضوء القمر..

لم أدر ما الذي أصابني، ولا كم من الوقت لبثت فاقد الوعي، ولكنني عندما استعدت إدراكي، كنت راقدًا على أريكة صغيرة، في ردهة العشة، وكان (حسن) يقف أمام نافذتها الضخمة، متطلعًا إلى البحر، وقد ترك العشة كلها مظلمة، إلا من ضوء القمر المكتمل بدرًا، والذي غمر الردهة بضوئه الفضي الساحر.. وعلى ضوء القمر، رأيت وجهًا جديدًا لـ(حسن)..

كان يقف صامتًا ساكنًا، وقد عقد كفيه خلف ظهره، وبدت ملامحه شديدة الصرامة والقوة، وعيناه تحملان غضبًا مكتومًا.

وعلى الرغم من شحوبه، بدا لي الليلة رهيبًا مخيفًا، ولم أكد أصدر صوتًا ينبئ عن استعادتي الوعي، حتى أدار عينيه إلى، وقال في غضب وصرامة:

- ألم أطلب منك عدم العبث بأشيائي؟

قلت في ارتباك:

- صدقني.. أنا لم..

قاطعني بصوت كالهدير:

- كاذب..

ثم اندفع نحوي، وجذبني من ياقة سترتي، مستطردًا في ثورة:

- أنت لا تدرك بأي شيء تعبث.. ولن تفهم أبدًا ماذا تواجه.. اترك كل شيء.. لا تدس أنفك فيما لا يعنيك.

ودفعني في عنف، ليعيدني إلى الأريكة، دون أن أنبس ببنت شفة، وبدت لي عيناه مخيفتين، وهو يقول في صرامة وحزم:

- ارحل.

هتفت مشدوهًا.

- أرحل؟!.. هل تطردني يا (حسن)؟

أشاح بوجهه عني، وهو يقول:

- هذا أفضل.. ارحل من هنا، قبل أن...

صمت وهلة، ثم أضاف في مرارة:

- قبل أن تفعل مثلي.

سألته مبهوتًا:

- وماذا فعلت أنت؟

لم يجب..

فقط راح يتطلع إلى قرص القمر المكتمل طويلًا، قبل أن يلتفت إلي، قائلًا في حزم، وبلهجة لا تقبل نقاشًا:

- سأعد لك قدحًا من الشاي.

لم يترك لي فرصة المناقشة أو الاعتراض، بل اتجه على الفور إلى المطبخ ليعد الشاي.

وفي صمت وحذر، غادرت الأريكة، وتسللت على أطراف أصابعي، أختلس النظر إليه، وهو يعد الشاي، وقد خامرتني فكرة مخيفة..

وكانت شكوكي هذه المرة في محلها..

لقد انتهى (حسن) من إعداد الشاي، ثم أضاف إليه قطرات من سائل وردي..

هذا إذن هو سر النوم العميق، الذي أسقط فيه كل ليلة..

إنه يخدرني..

إنه يبعدني عن أمر ما..

وبسرعة، عدت إلى الأريكة، واستلقيت فوقها، حتى عاد يحمل قدح الشاي، وقدمه إليّ قائلًا في حزم:

- اشرب.

حملت القدح، ونهضت من الأريكة، قائلًا:

- الأفضل أن أتناوله في حجرتي، فما زال رأسي يدور.

غمغم وهو يتطلع إلى القمر:

- هذا أفضل.

ذهبت بالقدح إلى حجرتي، ثم أسرعت أفرغه عبر نافذتها فوق الرمال، واستلقيت على فراشي، وأسبلت عيني متظاهرًا بالنوم، وإن راح عقلي يلقي عشرات الأسئلة..

ما سر كل هذا؟..

ما طبيعة ذلك السائل الأخضر العجيب، وما الذي فعله بي؟..

من أين حصل (حسن)على هذه التحف النادرة؟..

لماذا يتطلع دومًا إلى البحر؟..

انتزعني من أفكاري صوت باب حجرتي يفتح، وشعرت بـ(حسن) يدلف إليها، ويتوقف لحظات عند طرف فراشي..

كان من الواضح أنه يتأكد من نومي، قبل أن يبدأ ذلك العمل الذي يخدرني من أجله يوميًا..

وفي هدوء، غادر (حسن) حجرتي، وأغلق بابها خلفه، فقفزت من الفراش، وحمدت الله (سبحانه وتعالى)؛ لأن النصف العلوي من جدران العشة مصنوع من البوص، مما يؤهلني لرؤية ما يفعله (حسن) في حجرته، دون أن يشعر هو بي..

وعبر أعواد البوص، رأيت (حسن) يقف أمام صوانه الخاص، ويتناول منه تلك القنينة العجيبة، ليجرع منها بعض السائل الأخضر، ثم يتنزع ثيابه كلها، إلا من ثوب بحر صغير..

ثم غادر (حسن) العشة، وسار على رمال الشاطئ في بطء، وعيناه متعلقتان بالأمواج التي ترتطم بالشاطئ..

وعلى ضوء القمر، شاهدته يقف على الشاطئ صامتًا، يتطلع إلى البحر كتمثال من الملح..

ثم فجأة، خيل إليّ أن سطح الماء يتوتر في بقعة ما قريبة من (حسن)، ثم لم يلبث هذا الخيال أن تحول إلى حقيقة، وبرز شيء ما من تحت الماء..

واتسعت عيناي في ذهول..

لقد كانت معجزة..

أو هي لعنة..

لعنة البحر..

☆ ☆ ☆

5- السحر..

لم أصدق عيناي في البداية، بل خيل إليّ أنني أحلم، أو أن أحلام صباي وشبابي كلها تجمعت في صورة رائعة مذهلة..

لقد كان ذلك الشيء، الذي خرج من الماء امرأة..

نعم.. امرأة هي أروع وأجمل ما رأيت في عمري كله.. بل أروع حتى مما وصف الشعراء المرأة..

كانت كتلة من الفتنة والسحر..

قوام متناسق بديع التكوين، هو آية في الجمال والفتنة..

ووجه حورية من حوريات الجنة، بفم أشهى من فاكهة طازجة، نبتت قبل موسمها، وبعينين هما كل سحر البحر وغموضه، فيهما مطلع القمر وشروق الشمس، وشعر أخضر ناعم ينسدل على كتفين لهما استدارة ساحرة..

كل شيء فيها كان ساحرًا، فاتنًا، طاغيًا..

كانت امرأة أروع من كل نساء الأرض..

وبين أصابع كفيها، لمحت على ضوء القمر ذلك الغشاء الرقيق، الذي يشبه زحفات العوم عند بعض الطيور، وعندما نقلت بصري إلى قدميها، رأيت قدمًا أشبه بحذاء ضفدع بشري..

وكانت فاتنة البحر هذه ترتدي ثوبًا يلتصق بجسدها، من عنقها إلى ركبتيها، ويلتمع ببريق ذهب خالص..

وكان (حسن) يتجه إليها كالمأخوذ..

وفي نعومة مذهلة، رفعت الفاتنة كفيها إلى (حسن)، فالتقطها في راحتيه في لهفة وحب، وراح الاثنان يتطلع أحدهما إلى الآخر لحظات في هيام، ثم ارتسمت على الشفتين الطازجتين ابتسامة، وتشابكت الكفان، واتجه (حسن) مع الفاتنة إلى البحر، وغاصا..

ظللت أحدق في الشاطئ كالمأخوذ، والوقت يمضي بطيئًا ثقيلًا، حتى انتفض جسدي بغتة، كما لو أنني أفيق من غيبوبة..

بل من نشوة عارمة..

الآن فهمت..

الآن ازددت حيرة..

فهمت لماذا كان (حسن) يعمد إلى تخديري في كل ليلة..

فهمت سر اللهفة والترقب في عينيه..

فهمت سر تطلعه الدائم إلى البحر..

وازددت حيرة بشأن قدرته على البقاء تحت الماء طويلًا..

كيف لم انتبه إلى هذا في حينه؟!

لقد قضى، في اليوم التالي لوصولي، خمس دقائق كاملة تحت الماء.. ومن يمكنه أن يحبس أنفاسه كل هذا الوقت؟!..

ثم لماذا يختلط الترقب واللهفة في عينيه بالتوتر والقلق والخوف؟..

وما سر تلك الساحرة؟..

عشرات التساؤلات ملأت رأسي، حتى بعد أن رأيت ما رأيت..

بل إن ما رأيته هو السر في تزايد الأسئلة وتزاحمها..

وفي شرفة العشة، اتخذت مقعدًا يخفيه سور الشرفة عن الأنظار، ورحت أنتظر..

ومع شروق الشمس، صعد الاثنان من تحت الماء.. ورأيت الفاتنة أكثر وضوحًا في ضوء الشمس..

كانت أكثر من رائعة..

كانت فتنة تمشي على قدمين، وسحرًا ينبض بعروق الحياة..

وملأ كل منهما عينيه بصورة الآخر، ثم ابتسمت فاتنة البحر، وجذبت يدها من أصابع (حسن) في رفق، وعادت إلى الماء..

في تلك اللحظة بدا (حسن) أشبه برجل تفارقه حياته، وهو يتابعها ببصره في حزن ومرارة، حتى اختفت تحت سطح الماء..

والواقع أنني أيضًا شعرت بالمرارة والحزن..

لقد حسدت (حسن) لحظتها..

حسدته؛ لأنه استطاع أن يمضي الكثير من الوقت مع ملكه السحر نفسها..

وتمنيت لحظتها لو أقترب منها..

لو أتطلع إلى عينيها الساحرتين!!.

لو ألتهم شفتيها!!.

وجلست في مقعدي صامتًا، حتى بلغ (حسن) الشرفة، فتسمر مشدوهًا، وتطلع إليّ مأخوذًا..

وفي خفوت، تمتمتُ:

- لقد رأيت كل شيء.

ظل يحدق في وجهي لحظات، فأضفت:

- وفهمت كل شيء.

أطرق بوجهه أرضًا، وغمغم في مرارة:

- كنت أعلم أن هذا سيحدث، إن عاجلًا أو آجلًا.

غمغمت في خفوت، وكان كلينا يخشى رفع صوته، حتى لا يسيء إلى الموقف:

- لماذا لم تخبرني؟

هز رأسه، وقال:

- كان من المستحيل أن يصدقني أحد.. حتى أنت.

قلت مؤمنًا:

- صدقت.. الأمر أعجب من أن أصدقه، على الرغم من رؤيتي له بنفسي.

تنهد في عمق، وقال:

- حسنًا.. سأخبرك بالسر.

ورفع عينيه إليّ، وهو يستطرد مستسلمًا:

- بالسر كله..

☆ ☆ ☆

6- الســر..

كان يتطلع إلى البحر بنفس النظرة، التي تحمل مختلف الأحاسيس والمشاعر، وهو يقول:

- الأمر يبدو أشبه بالأساطير، حتى أنني أنا نفسي أعجز أحيانًا عن تصديقه، ويبدو لي كأنه حلم طويل عميق، لم أستيقظ منه بعد.. لقد بدا الأمر منذ أسبوعين فحسب، في ليلة غاب فيها القمر تمامًا، وبدا الليل عميقًا صامتًا رهيبًا.. وفي مثل تلك الليالي، يحلو لي الجلوس على الشاطئ في الظلام، تاركًا الأمواج تعبث بقدمي وتداعبها.. وبينما أسترخي جسدي مع الليل والبحر، ورتابة الأمواج، وراحت قصائد الشعر تولد في خيالي، تناهى إلى مسامعي فجأة تأوه أنثوي مكتوم..

صمت لحظة، وشرد ببصره مغمغمًا:

- ورأيتها.

صمت لحظة أخرى، وكأنما هذه الكلمة وحدها قد أرهقته، بكل ما حملته إليه من مشاعر وذكريات ومعان، قبل أن يتابع:

- كانت جريحة، ألقى بها الموج إلى الشاطئ، وكانت ضعيفة، واهنة، فاتنة، حتى أنني لم أتمالك نفسي أمام سحرها، فأسرعت أحملها إلى عشتي، وأنا أتصور أنها واحدة من راكبات السفن، سقطت في البحر، وحملتها الأمواج إلى الشاطئ.

تنهد في عمق، مع استعادته للذكرى، واستطرد:

- وفي العشة فوجئت بالزعانف بين أصابع يديها، وبقدميها الشبيهتين بقدمي ضفدع بشري، وشعرها الأخضر الناعم..

ولكنني داويت جراحها، محاولًا تجاهل كل هذا، لولا أن احتقن وجهها فجأة في زرقة، وأشارت إلى البحر في هلع.. ولم أكن أحتاج إلى الكثير من الذكاء، لأدرك ما الذي تعنيه.. لقد كانت مخلوقًا بحريًا، وليست واحدة من البشر مثلنا.. وكانت تحتاج إلى الماء، أو تختنق.. وبسرعة حملتها إلى البحر، وبسرعة أيضًا استعادت قوتها ووعيها، وابتسمت أجمل ابتسامة رأيتها في حياتي، وهي تقول في رقة بالغة:

- أشكرك.

هتفت في دهشة:

- أهي تتحدث لغتنا العربية؟

هز رأسه نفيًا، وقال:

- هذا ما تصورته لحظتها، لولا أن انتبهت إلى أنها لم تفتح شفتيها، وأنني لم أسمع تلك الكلمة بأذني، وإنما بعقلي.. لقد كانت تستخدم أسلوب التخاطر العقلي، وتجيده في مهاره، ولقد علمتني أياه في يوم واحد.

تنهد مرة أخرى، وقال:

- وأحببتها.

لم أنبس ببنت شفة، عندما صمت طويلًا بعد هذه الكلمة، وتركته يسترجع لحظات سعادته وحبه، قبل أن يتابع:

- لم أعد أطيق صبرًا على حبها، وصارحتها بالأمر، ولكنها واجهتني بحقيقة محزنة، ألا وهي أن أحدنا لا يستطيع العيش في عالم الآخر، فهي برمائية، وأنا بري.. هي تحيا في الماء، وأنا على الأرض.. وآلمني ذلك للغاية، وأهدتني هي ذلك التمثال

للشعاب المرجانية، محاولة للتسرية عني، إلا أنني لم أشعر بالارتياح، ولم يهدأ بالي، حتى صارحتها يومًا بأنني مستعد للزواج منها، مهما كانت التضحيات..

شرد بصره، وهو يتابع:

- وغابت ثلاثة أيام كاملة، ثم عادت تحمل إلى قنينة الدواء العجيبة، التي عبثت أنت بها، وأخبرتني أنه من المستحيل تحويل البرمائية إلى برية، ولكن هناك عقار كشفه أحد علمائهم، يمكنه تحويل البري إلى برمائي، وأخبرتني أنه إذا ما كنت أريد البقاء معها حقًا، فلابد لي من المخاطرة بالتحول إلى واحد من بني قومها.

صمت لحظات، ثم استطرد في مرارة:

- ورحت أتناول العقار في انتظام، وفي كل مرة أتناوله، تزداد قدرتي على البقاء تحت الماء، ونحن نلهو ونلعب ونمرح معًا.. وهي تحضر لي الهدية تلو الأخرى، من تحف مملكة البحار، التي يحكمها والدها، حتى أمكنني أن أقضي الليلة ست ساعات معها تحت الماء، ويقول علماؤها إن هذا يؤهلني للزواج منها.

غمغمت:

- متى؟

طال صمته هذه المرة، قبل أن يقول في همس:

- الليلة.

هتفت في مزيج من الدهشة والجزع والاستنكار:

- الليلة؟!

أومأ برأسه إيجابًا، فهتفت به:

- ولكنك لا تدرك أبعاد ما تفعل يا (حسن).. إن هذا يعني انسلاخك تمامًا عن مجتمعك الأرضي، وعن كل من عرفتهم وما عرفته.. أرأيت ماذا حدث لي، عندما تناولت جرعة من العقار الأخضر.. لقد كنت أختنق، وهذا دليل على أننا لا نصلح لمعيشتهم.. لم نخلق لذلك.

قال في خفوت:

- لقد أصابني ما أصابك في المرة الأولى، ولهذا علمت ما حدث لك على الفور، ولكنني لم ألبث أن اعتدت تناول العقار، وتعلمت أنه من الضروري أن أغوص في مياه البحر بعد تناوله مباشرة، في الشهور الأولى على الأقل، وإلا فسأختنق.. تمامًا كسمكة أخرجتها من الماء.. وتمامًا مثلما حدث لك.. ثم إنك لم تر عالمها.. إنهم قوم متحضرون كثيرًا.. وهم أفضل منا بآلاف المرات، فهم يتعايشون في أمن وسلام، ويجندون كل علومهم للخير وحده، حتى أنهم يخشون كشف أمرهم لنا، حتى لا ننقل كل رذائلنا إليهم.. صحيح أنني أشعر بالخوف والقلق لمفارقة عالمي، ولكنني أفعل هذا من أجلها.

قلت في توتر:

- هذا لا يعني أن تذهب معها.. دعها هي تأتي إليك تطلع إلى عيني مباشرة، وقال:

- هل رأيتها؟

أجبته بالإيجاب، فابتسم ابتسامة باهتة، وقال:

- ماذا كنت ستفعل، لو كنت مكاني؟

أصابني السؤال بحيرة طويلة، قبل أن أجيب:

- كنت سأذهب معها، ولو إلى الجحيم.

ربت على كتفي، مغمغمًا:

- الآن عدنا نفكر بعقل واحد..

وفي المساء، لم يدس لي (حسن) المخدر في قدح الشاي.. لقد تركني أنتظرها إلى جواره، على شاطئ البحر.. وأتت هي..

ومن قريب، رأيتها سحرًا وفتنة، جمالًا يفوق أهل الأرض جميعًا..

والعجيب إنها لم تخف لوجودي، ولم تجفل أو تتراجع.. فقط منحتني ابتسامة عذبة، وتطلعت إلى (حسن)، الذي احتوى كفها في راحته، وأشار إليّ قائلًا:

- هذا (فتحي).. صديقي.

أقسم إنه لم يفتح شفتيه، ولم ينطق الجملة..

- ولكنني سمعتها..

وابتسمت فاتنة البحر ابتسامة أكثر عذوبة، وهي تقول، دون أن تفتح شفتيها:

- كل أصدقاء (حسن) أصدقائي.

التفتّ إلى (حسن)، وتطلع كلانا إلى الآخر في صمت، ثم امتدت أيدينا تتصافح في قوة، وترقرقت الدموع في عيني، وأنا أقول:

- لا تغب طويلًا.. سأنتظرك.

قال:

- سنزورك معًا.. هنا.

وأضافت الفاتنة بعقلها:

- وربما أحضرت شقيقتي التوءم.

هتفت مبهورًا:

- حقًا؟!

بدا لي قولها بمثابة وعد، وهي تمسك كف (حسن)، الذي لوح لي بكفه الأخرى، قائلًا:

- الوداع يا صديقي.. الوداع..

وبين أمواج البحر، رأيتهما يختفيان، حتى غابا عن الأنظار، فانحدرت دمعة على وجهي، وتمتمت:

- وداعًا يا (حسن)..

وعندما عدت إلى شرفة العشة، كنت أشعر أنني لم أفقد (حسن) تمامًا، وأننا سنلتقي كثيرًا فيما بعد..

ولقد قضيت ليلتي كلها في الشرفة، حتى أشرقت الشمس.

وفجأة، اتخذت قراري، واتجهت إلى حجرة نوم (حسن) وفتحت دولابه، وأخرجت قنينة السائل الأخضر، وارتشفت منها رشفة كبيرة، ثم رحت أخلع ملابسي..

لقد قال إنه من الضروري أن يغوص المرء بعدها مباشرة..

وفي لهفة، رحت أعدو فوق رمال الشاطئ نحو البحر..

إنني أسير في نفس الخطوات، التي سار فيها (حسن)..

لقد أصابتني اللعنة مثله..

لعنة البحر..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- رحـــــــلة..

2- البحر..

3- الأعماق..

4- في ضوء القمر..

5- السحر..

6- الســــــر..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

المندوب

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

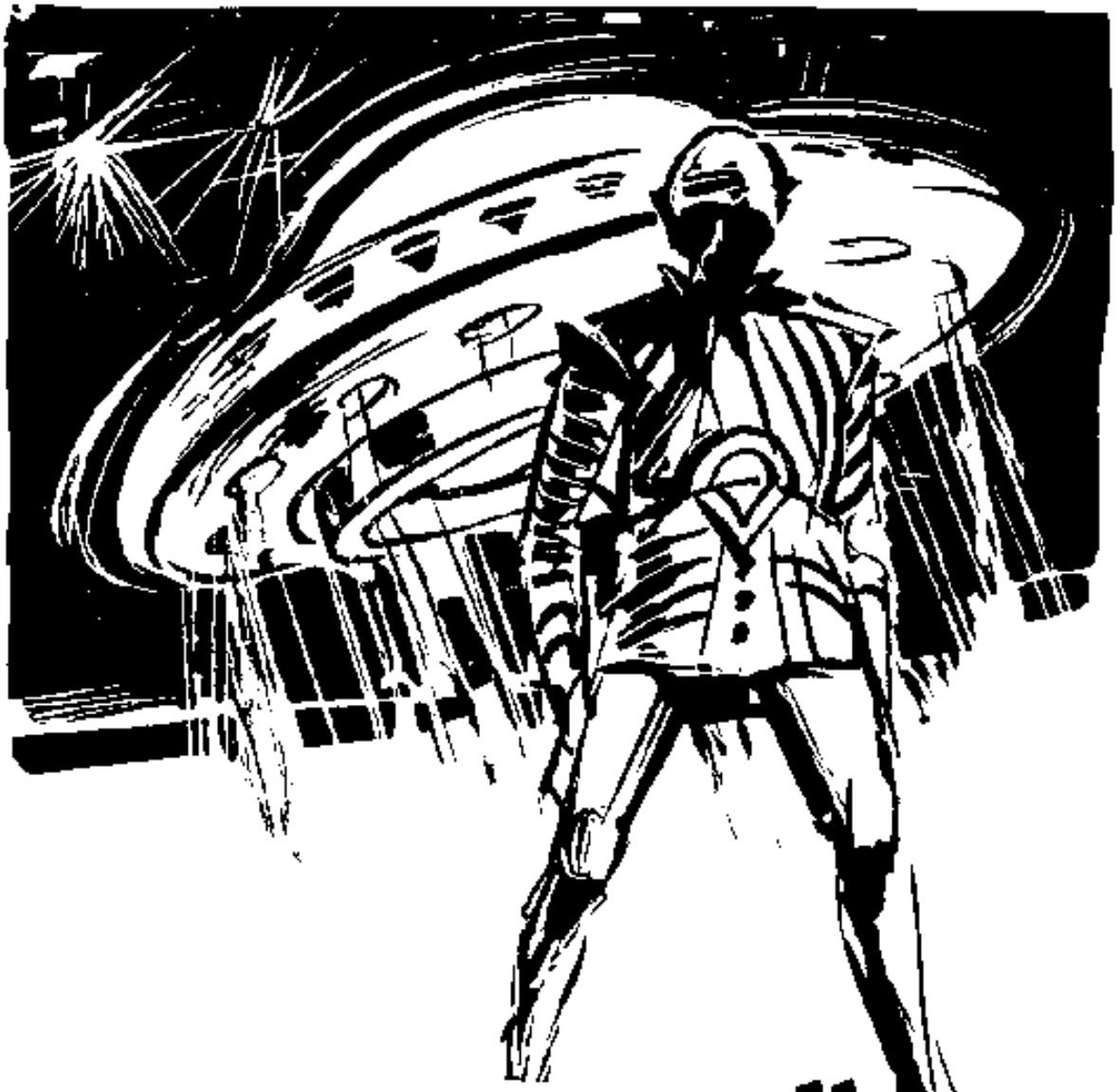

المندوب

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000
(قصص العدد)

المنـــــــــدوب

1- حـــــــلم..

ظلام دامس أحاط بكل شيء..

ظلام رهيب مخيف..

بلا ضوء..

بلا نجوم..

وصمت تام..

ومن بعيد لاحظ نقطة ضوء تقترب..

وراح حجم نقطة الضوء يكبر.. ويكبر..

وهي تقترب.. وتقترب..

وبدت واضحة على هيئة جسم اسطواني انسيابي، يعبر الظلام في صمت، قبل أن يستقر وسطه ساكنًا..

وهبط من ذلك الجسم الاسطواني مخلوق شبه بشري لا يختلف عن البشر إلا في لون جسده الأخضر الباهت، وعينيه الحمراوين، ورأسه الأصلع..

وهبط إلى جواره مخلوق آخر..

مخلوق بشري..

إنه هو..

(مجدي)..

نعم.. هو.. هو هب (مجدي) من نومه جزعًا، عند تلك النقطة بالذات، وتلاشى حلمه دفعة واحدة، وراح هو يتطلع في توتر إلى حجرته الأنيقة البسيطة الأثاث، قبل أن يزفر في شدة، ويدس أصابعه وسط خصلات شعره الأسود الناعم، وهو يقول في ضيق:

- يا إلهي!.. الكابوس نفسه.

نهض من فراشه، والتقط علبه سجائره، وأشعل سيجاره، راح ينفث دخانها في عمق، وهو يقف أمام نافذة حجرته، متطلعًا إلى السماء ذات النجوم، التي بدت – في تلك الليلة – في أبهى صورها، مع غياب القمر، وخلو السماء من الغيوم، مما ساعد على تألق النجوم في لوحة رائعة..

ومضت لحظات و(مجدي) يتطلع إلى النجوم في صمت، قبل أن يهز رأسه، متمتمًا:

- يا له من حلم!

قالها وألقى سيجارته إلى طرف الحجرة في حنق، ثم لم يلبث أن أسرع إليها، وداسها بقدمه، وزفر مرة أخرى، قبل أن يلقي نظرة على ساعته، التي أشارت عقاربها إلى الرابعة صباحًا، فابتسم في ضيق، وهو يقول:

- لست أظنني سأنعم بالنوم الآن، فموعدي مع ذلك العالم في السابعة والنصف.

اتجه إلى مطبخ منزله الصغير، وراح يعد لنفسه قدحًا من القهوة، وقد نسى كل شيء تقريبًا عن هذا الحلم العجيب..

كان يعيش في هذا المنزل الصغير وحده منذ عشر سنوات..

منذ وفاة والديه..

ومنذ بدأ دراسته للصحافة..

واليوم يعمل في صحيفة يومية ذات صيت ذائع، وقد بدأ اسمه يلمع في عالم الصحافة العلمية، بعد تحقيقه الأخير عن آثار الأطباق الطائرة في صعيد (مصر)..

ابتسم وهو يتذكر ذلك التحقيق، الذي نجح في أن يجعل منه قنبلة الصحافة العلمية في حينه، وأن يدفع رئيس التحرير إلى تعيينه في تلك الصحيفة اليومية بلا تردد، بعد ثلاثة أعوام قضاها كصحفي تحت التمرين..

واليوم سيحصل على سبق صحفي جديد..

سيكون أول من ينجح في الحصول على حديث علمي متكامل، مع الدكتور (رأفت مختار)، حول ابتكاره الجديد، عن الجاذبية المضادة.

وانتعشت نفسه مع قدح القهوة، ونشوة ذلك النصر الصحفي المرتقب، حتى أنه راح يرتدي ثيابه في مرح، مطلقًا من بين شفتيه صفيرًا منغومًا، ثم راح يراجع بعض المعلومات الخاصة بالجاذبية الأرضية، والأبحاث المتعلقة بالجاذبية المضادة، حتى بلغت الساعة تمام السابعة، فهبط يستقل سيارته، وينطلق بها إلى المركز القومي للبحوث، حيث ينتظره الدكتور (رأفت)..

ولقد استقبله الدكتور (رأفت) بابتسامة واسعة، ومصافحة حارة، وهو يقول:

- في موعدك تمامًا يا أستاذ (مجدي).. هذا عظيم، إنني أحب كثيرًا التعامل مع من يحرصون على الالتزام بمواعيدهم، فهذا يعني دومًا أنهم أهل للثقة.

ابتسم (مجدي)، وهو يقول:

- شكرًا لك يا سيدي.

استطرد الدكتور (رأفت) على الفور، وكأنما يرفض إضاعة لحظة واحدة:

ابتكاري الجديد سيمثل طفرة في أبحاث الجاذبية المضادة يا أستاذ (مجدي)، ولست أشك في أنهم سيمنحونني جائزة (نوبل) من أجله.. فأنت تعلم بالطبع أن الجاذبية الأرضية هي الشيء، أو القوة، التي تجذب كل المخلوقات والأشياء إلى سطح كوكبنا (الأرضي).. أما الجاذبية المضادة فهي تلك القوة العكسية، التي تدفعنا دفعًا، بعيدًا عن سطح الأرض، ولقد ظلت هذه القوة

العكسية، التي أطلق عليها العلماء أسم (الجاذبية المضادة)، حلمًا منذ أوائل القرن العشرين.. مما تمثله من قوة دافعة مذهلة، لكل الأجرام التي نرغب في دفعها إلى خارج مجالنا الجوي، بحيث يمكنها وحدها، ودون وقود، دفع أي صاروخ إلى خارج مجال الأرض، بسرعة مذهلة، وقوة دفع كافية لمنحه ملايين الأميال من الانطلاق في الفراغ الفضائي، مما يوفر مليارات الجنيهات في أبحاث الفضاء، و...

بتر حديثه دفعه واحدة، ثم مال نحو (مجدي) يسأله في قلق:

- هل يمكنك متابعة هذا؟

أومأ (مجدي) برأسه في هدوء، وقال:

- بالتأكيد.

تراجع الدكتور (رأفت)، مغمغمًا:

- عظيم.

ثم اندفع يتابع حديثه السابق:

- ولقد أجرى العلماء مئات الأبحاث، منذ الحرب العالمية الأولى، كمحاولة للتوصل إلى تلك الجاذبية المضادة، وخاصة بعد أن كتب (هـ. ج. ويلز) كاتب الخيال العلمي الشهير، روايته الأشهر (أول بشر على القمر)، التي اعتمد فيها على الجاذبية المضادة، لقذف كرة فضائية براكبيها إلى القمر، ولكن أبحاث كل هؤلاء العلماء لم تنجح في دفع الفكرة إلى الأمام كثيرًا، حتى توصلت أنا إلى هذه المعادلة.

واعتدل في زهو واضح، وأمسك قلمًا يخط به معادلة رياضية شديدة التعقيد على ورقة أمامه، وتوقف قبل أن يتمها، قائلًا في

حماس:

- أي عالم في علوم الجاذبية سيتوقف طويلًا أمام هذه المعادلة، قبل أن يضيف إليها..

قاطعه (مجدي) في هدوء، وبلهجة أقرب إلى الضجر:

- مكعب سرعة الضوء مضروبًا في الجذر التربيعي لعجلة الجاذبية الأرضية.

حدق الدكتور (رأفت) في وجهه بذهول تام، قبل أن يتمتم:

- كيف عرفت؟

بدا السؤال بالنسبة لـ(مجدي) عجيبًا، فتردد لحظة، قبل أن يقول:

- أنسيت أنني محرر علمي، وأنني أجمع عادة الكثير من المعلومات عن...؟

قاطعه الدكتور (رأفت) في حدة:

- مستحيل!!

حدق (مجدي) في وجهه هذه المرة، قبل أن يغمغم:

- لماذا؟.. إنها مجرد..

ضرب الدكتور (رأفت) سطح مكتبه براحته في قوة، وهو يكرر:

- قلت لك مستحيل!

ثم أشار إلى المعادلة بأصابع مرتجفة من شدة الأنفعال، وهو يستطرد في حدة:

- هذه المعادلة بالذات لا يمكنك إكمالها أبدًا؛ لأن أحدًا لم يستخدم مكعب سرعة الضوء من قبل أبدًا؛ ولأن...

صمت لحظة، ليزدرد لعابه من شدة الانفعال، قبل أن يستطرد وجسده كله يرتجف:

- ولأن هذه المعادلة هي ابتكاري الجديد، ومن المستحيل أن يعلمها سواي؛ لأنني حتى لم أدونها في أية أوراق، ولا يمكنك أن تحصل عليها من عقلي، ما لم...

بتر عبارته بغتة، وتراجع في مقعده، وهو يعقد حاجبيه، ويقول في حدة:

- ما لم تكن قارئًا للأفكار...

ولم ينبس (مجدي) ببنت شفة..

ولكن ذلك التفسير بدا له مخيفًا..

مخيفًا بحق..

☆ ☆ ☆

2- حـــيرة..

«(مجدي).. إنني أتحدث إليك!..»

انتفض جسد (مجدي)، عندما بلغت هذه العبارة مسامعه، وأدار عينيه إلى صاحبتها في دهشة عجيبة، وهو يغمغم في توتر:

- عفوًا.. ماذا قلت؟

ابتسمت زميلته الصحفية (رانيا)، وجلست على المقعد المجاور له، وهي تقول:

- لقد كنت أتحدث إليك فحسب، ولكن يبدو أن ذهنك كان شاردًا في مكان بعيد.

تنهد وهو يقول:

- إنني لم أنم جيدًا هذه الليلة.

ضحكت وهي تقول:

- دعك من هذا التفسير؛ فالجميع يعلمون هنا أنك رجل اللا نوم، وأنك من تلك الفئة النادرة، التي يمكنها أن تقضي أسبوعًا كاملًا بلا نوم، عندما يرتفع رنين ناقوس العمل.

ابتسم ابتسامة باهتة، وهو يقول:

- ربما كان هذا هو السبب، فناقوس العمل معطل منذ أيام.

لم تبتسم لدعابته، وإنما مالت نحوه، وسألته في حنان:

- ماذا بك حقًا؟.. إنك تبدو شديد القلق!

لاذ الصمت لحظات، وتساءل بينه وبين نفسه عما إذا كان من الحكمة أن يقص عليها ما حدث، وبدا له أن قوة كبيرة تدفعه

لإخفاء الأمر، إلا أنه قاومها وهو يقول لـ(فريدة):

- أنت على حق.. هناك أمر يقلقني في شدة.

سألته في اهتمام:

- ما هو؟

تردد لحظة أخرى، ثم اندفع يروي لها ما حدث مع العالم (رأفت مختار) بكل تفاصيله، منذ راوده ذلك الحلم العجيب، وحتى مغادرته المركز القومي للبحوث، ولم يكد ينتهي من قصته، حتى هتفت هي في حماس:

- أمر عجيب حقًا!!..

لوح بكفه، قائلًا:

- إنني أتساءل: كيف أمكنني إكمال معادلة لا توجد إلا في ذهن صاحبها.

قالت في حماس:

- ربما كنت تمتلك موهبة قراءة الأفكار حقًا.

تطلع إليها لحظات في حيرة، ثم هز رأسه، متمتمًا:

- لا.. لست أظن هذا.

سألته:

- لماذا؟

قال في حسم:

- لأن شيئًا من هذا لم يحدث لي من قبل.

قالت في اهتمام:

- لعل هذه هي البداية.

ابتسم ابتسامة باهتة، وقال:

- لا.. لا يبدو لي تفسير قراءة الأفكار هذا منطقيًا.

هتف زميلهما (عاطف)، في هذه اللحظة، في مرح:

- من يتحدث عن قراءة الأفكار؟

وجذب مقعدًا لينضم إليهما، وهو يتابع ضاحكًا:

- سيصير هذا تخصصي عما قريب.

سألته (فريدة) مبتسمة في حيرة:

- تخصصك؟.. ماذا تعني؟

أجابها وهو يغالب ضحكة:

- لقد كلفني رئيس القسم إجراء حديث خاص مع (روحانة).

ولسبب ما، بدا الاسم مألوفًا لأذني (مجدي)، مما جعله يسأله:

- من (روحانة) هذه؟

ضحك (عاطف)، وهو يقول:

- ألم تسمع عن (روحانة)؟.. يا لك من متخلف!! (روحانة) هذه يا رجل هي أكثر الدجالات شهرة في (مصر).

تمتمت (فريدة) في دهشة:

- دجالة؟!

أومأ (عاطف) برأسه إيجابًا، وتابع في مرح:

- إنها عجوز تقيم بالقرب من مدينة (بنها)، في منزل منعزل، وسط حدائق برتقال تملكها هي، ويقولون إنها تمتلك قدرات

خرافية، فهي تستطيع شفاء بعض أنواع الحمى، ويمكنها رفع منضدة كاملة دون أن تمسها، وتقرأ الأفكار والطالع، و...

قاطعته (فريدة) مستنكرة:

- ولماذا لم يلق رجال الشرطة القبض عليه؟

قلب (عاطف) كفيه، قائلًا:

- لأنها لا تتقاضى أية نقود من زبائنها، ولأنها لا تدعو مخلوقًا لزيارتها، مما ينفي عنها تهمتي النصب أو الاحتيال.

عقد (مجدي) حاجبيه، وهو يتمتم:

- ربما يعني هذا أنها تمتلك هذه القدرات بحق.

أطلق (عاطف) ضحكة عالية مجلجلة، ونهض قائلًا:

- في هذه الحالة يمكنني أنا أيضًا أن أدعي كوني الرجل الطائر.

غمغم (مجدي):

- متخلف.

قهقه (عاطف) ضاحكًا مرة أخرى، وهو يلوح بيده، قائلًا:

- فلنؤجل هذا الحديث إلى الغد، بعد أن أكشف أمر هذه الدجالة.

وانصرف وضحكاته تتبعه، فالتفتت (فريدة) إلى (مجدي)، تسأله:

- ما رأيك في هذا الأمر؟

هز (مجدي) كتفيه، قائلًا:

- من الصعب إبداء الرأي، في مثل هذه الأمور، فلقد امتلأت الساحة بآلاف الدجالين، حتى بات من العسير تعرف من يمتلك موهبة فوق طبيعية حقيقية.. ثم أن المصريين لا يؤمنون كثيرًا

بوجود القوى فوق النفسية، على الرغم من تهافتهم على أولئك الدجالين.

سألته في شغف:

- وماذا عن قدرتك أنت؟

ابتسم قائلًا:

- هل جعلتِ منها قدرة خارقة؟

أتاه صوت الدكتور (رأفت) يقول في انفعال:

- من يدري؟

رفع مع (فريدة) عيونهما إلى مصدر الصوت، حيث بدا لهما الدكتور (رأفت) بقامته الطويلة، مع رجل أصلع قصير القامة، راح يحدق (مجدي) في اهتمام، في حين صافحه (رأفت)، وهو يشير إلى الأصلع، قائلًا:

- زميلي الدكتور (ألبير)، من المهتمين بدراسة القوى فوق النفسية، وفوق الطبيعية.

صافح (مجدي) الدكتور (ألبير)، الذي قال وهو يتأمله في اهتمام:

- أنت إذن قارئ الأفكار؟

قال (مجدي) في ضيق:

- إنها مجرد مصادفة يا سيدي.

قالت (فريدة) في حماس:

- من يدري؟

جلس الدكتور (ألبير)، وهو يتطلع إلى ملامح (مجدي) في اهتمام زائد، ويسأله في هدوء:

- ولماذا ترفض الفكرة؟

أجابه (مجدي) في حزم:

- لأنه ليست لي سوابق في هذا المجال.

ابتسم الدكتور (ألبير)، وهو يقول:

- سوابق؟!.. وهل تتصور أن أحدًا يولد، وهو يعلم أنه يمتلك قدرات عقلية خارقة؟!.. على العكس.. إن أشهر أصحاب تلك القدرات الخارقة كشفوا قوتهم بالمصادفة البحتة، ومن خلال حادث عادي، أو موقف صغير، مثلما فعلت أنت مع الدكتور (رأفت).

قال (مجدي) في ضيق:

- وبم يفيد هذا؟

أجابه الدكتور(ألبير) في حماس:

- يفيد الكثير.. صدقني.. ليس من الحكمة أن تبخل بموهبتك هذه على العلم.

عقد (مجدي) حاجبيه، وهو يقول في حدة:

- ماذا تعني؟

أجابه في حماس:

- أعني أنه من الضروري أن يتم دراسة الظاهرة، وأن...

قاطعه (مجدي) في حدة:

- لا.

كان صوته مرتفعًا أكثر مما ينبغي، مما جذب انتباه باقي زملائه في القسم، فعاد يخفض من صوته، مستطردًا في عصبية:

- لن أسمح لكم أن تتعاملوا معي كحيوان تجارب.

رفع الدكتور (ألبير) حاجبيه في دهشة، وهو يهتف مستنكرًا:

- حيوان تجارب؟!

أما الدكتور (رأفت)، فقد أسرع يقول:

- اسمع يا أستاذ (مجدي)، لن يكون الأمر أبدًا كما تتصور.. إنك ستؤدي خدمة للعلم، وللعالم أجمع.. ثم إنك ستصبح المصري المعروف علميًا في هذا المجال، و...

قاطعته (فريدة) في حماس:

- ولم لا؟

أدار (مجدي) عينيه إليها مستنكرًا، ولكنها أضافت بنفس الحماس:

- سيعاونك هذا على كشف قدرات لم تتصور وجودها في نفسك يا (مجدي)، وسيمنحك فرصة إعداد تحقيق صحفي علمي جديد.

بدا له رأيها منطقيًا مقنعًا، ولكن شيئًا ما في نفسه كان يقاوم في شدة فكرة الفحص هذه، فراح يقاوم ذلك الشيء بعقله، وهو يغمغم في تخاذل:

- ولكن قد...

شعر الدكتور (ألبير) بتخاذله، فأسرع يقول:

- يمكننا أن نبدأ تجاربنا على الفور.

هتفت (فريدة):

- فكرة رائعة.

قال (مجدي) في حدة:

- لا.. ليس اليوم.

نهضت (فريدة) قائلة:

- ولم لا؟.. هيا بنا.. ستكون تجربة رائعة.

راح ذلك الجزء الرافض من عقله يعتصره في شدة، محاولًا منعه من الاستسلام لذلك الفحص، إلا أن فضوله الشديد جعله يقاوم.. ويقاوم، حتى نهض قائلًا في حزم:

- فليكن.. هيا بنا.

وبدأت التجربة.

☆ ☆ ☆

3- تجربة..

انعقد حاجبا الدكتور (ألبير) في شدة، وهو يتطلع إلى رسام القلب الكهربي، هاتفًا:

- مستحيل!!.. خمسمائة دقة في الدقيقة الواحدة.. هذا مستحيل حقًا!!.. إن قلب هذا الصحفي ينبض بقوة خرافية!!

سألته (فريدة) في انفعال جارف:

- لماذا؟.. كم يبلغ النبض في الشخص العادي؟

هز رأسه في حيرة بالغة، وهو يقول:

- إنه لا يتجاوز المائة دقة في الأحوال العادية، أو المائة والعشرين على الأكثر.

هتفت:

- يا إلهي!!

وبدا الدكتور (رأفت) أكثر انفعالًا منهما، وهو يقول:

- كنت أعلم هذا.. كنت أعلم أنه من المحتم أن يمتلك (مجدي) قوة عقلية خارقة، وإلا ما نجح أبدًا في معرفة المعادلة.

أشار (ألبير) إلى رسام المخ الكهربي، وهو يقول في حماس:

- هذه المؤشرات تؤكد أنه لا يمتلك قوة عقلية خارقة فحسب، بل قوة جسمانية خارقة كذلك.. لقد رأيتما نبضات قلبه الرهيبة، وتلك الإشارات المخية الفائقة، التي لا تصدر عن الشخص العادي، إلا في مواجهة أشق وأخطر الأزمات.. إنها تصدر عن مخه هو في حالة استرخاء تام.

سأله (رأفت) في حيرة:

- ولكن لماذا فشل في كل التجارب الأخرى.. إنه لم ينجح في تخمين رقم أو لون ورقة واحدة من أوراق اللعب، ولم ينجح حتى في تحريك إبرة صغيرة بقواه العقلية الفائقة.

هز (ألبير) رأسه وقال:

- ربما لم يثق بعد في قدرته على أداء هذا.

سألته (فريدة) في فضول:

- هل الثقة ضرورية إلى هذا الحد؟

أجابها في حسم:

- بالتأكيد، قبل أن يدفعها الفضول إلى إلقاء سؤالها التالي، سمع الجميع (مجدي) يقول في عصبية:

- كفى.

قالها وهو ينتزع الأسلاك المتصلة بجسده ورأسه في ضيق، فهرع إليه (ألبير)، هاتفًا:

- لا.. أرجوك.. انتظر قليلًا.. إن أبحاثنا تكاد أن...

قاطعه (مجدي) في حدة:

- قلت كفى.

راح يرتدي ملابسه في توتر ملحوظ، فتبادل الدكتور (ألبير) نظرة قلقة مع الدكتور (رأفت) قبل أن يقول الأخير:

- لا بأس يا أستاذ (مجدي).. سنكمل التجربة غدًا.

انصرف (مجدي) في خطوات واسعة سريعة، وراحت (فريدة) تعدو إلى جواره، وهي تقول في حماس لاهث:

- لقد تأكدنا على الأقل أنك تمتلك قوة خارقة.

قال في حدة:

- دعينا لا نتحدث عن هذا الأمر.

كان فضولها يشتعل في أعماقها في شدة، ولكن حبها لـ(مجدي) جعلها تكتم كل لهفتها في صدرها، وتسأله:

- هل ستذهب إلى المنزل مباشرة؟

قال في توتر:

- ألديك هدف آخر؟

قالت محاولة تلطيف الموقف:

- لقد تركت حقيبتي في المكتب.

تطلع إليها في شك، فابتسمت مغمغمة:

- والواقع أنني في أشد اللهفة لمعرفة ما فعله (عاطف) مع (روحانة) هذه.

شاركها فضولها هذه المرة، وإن لم يعلن عن هذا، بل اكتفى بأن قاد سيارته إلى مبنى الصحيفة، حيث اندفعت (فريدة) داخل القسم، هاتفة:

- هل عاد (عاطف)؟

اتسعت عيناها وعينا (مجدي) في دهشة، عندما وقع بصراهما على وجه (عاطف) الشاحب، وهو ينكمش خلف مكتبه، فهتف به (مجدي):

- ماذا حدث؟

رفع إليه (عاطف) عينين زائغتين، وهو يقول:

- أمر رهيب.

أسرعت إليه (فريدة)، تسأله في لهفة:

- ماذا حدث؟

حدق في وجهها لحظة، ثم لوح بكفيه، قائلًا:

- لقد ذهبت إلى تلك العجوز.. كنت أتصور أنني بصدد كشف دجالة مشعوذة، إلا أنها أرعبتني، وبثت في نفسي كل عوامل الرهبة والفزع.

جلس (مجدي) إلى جواره، يسأله في قلق:

- كيف فعلت ذلك؟

ازداد شحوب (عاطف)، وكأنما تعيد إليه الذكرى الكثير من الفزع، وأجاب:

- لقد تعرفتني فور رؤيتي، وأنبأتني باسمي، وسني، ومهنتي.. فلما أنكرت ذلك، أشارت بيدها إلى، فوجدت نفسي أرتفع عن الأرض.. ورحت أهتف بها، متوسلًا، ومعلنًا اعتذاري، فابتسمت، وأنزلتني أرضًا دون أن تلمسني، ثم طلبت مني ألا أكتب شيئًا عنها؛ لأنها ستذهب عما قريب.

ردد (مجدي) في دهشته:

- تذهب؟!.. إلى أين؟

هز (عاطف) رأسه نفيًا في شحوب، وقال:

- من يدري؟.. إنها لم تخبرني.

تمتمت (فريدة) في خفوت، يحمل الكثير من الرهبة:

- ربما تعني أنها ستموت.

قال (مجدي) في حزم:

- لا أحد في الكون كله يدعي معرفة ذلك.

ثم أشعل سيجارته في عصبية، مستطردًا:

- إنها تعني أمرًا آخر.

سألته في حيرة:

- وما هو في رأيك؟

شرد ببصره مع أنفاس سيجارته، وهو يردد:

- من يدري يا (فريدة)؟.. من يدري؟

ولكن ذلك الشيء الغامض، الكامن في عقله، كان يوحي بالعكس.. كان يبعث في نفسه شعورًا مبهمًا بأنه يعلم..

يعلم الكثير..

☆ ☆ ☆

اخترقت تلك البقعة الضوئية الظلام، وراحت تقترب وتقترب، حتى اتضح شكلها الأسطواني، وهي تهبط على الأرض..

وغادرها ذلك المخلوق شبه البشري، برأسه الأصلع، وبشرته الخضراء الباهتة، وعينيه الحمراوين، وهبط معه هذه المرة مخلوق يشبهه..

وبلهجة وصوت ولغة عجيبة، قال المخلوق:

- هيا.. اذهب.

وفجأة تبدلت ملامح ذلك المخلوق الأخضر الثاني، والأول يكمل:

- اذهب يا (مجدي).

صرخ (مجدي):

- لا.. لا..

وهب من نومه فزعًا، وهو يلهث في شدة..

وبكل الذعر في أعماقه قفز من فراشه، واندفع نحو مرآة حجرته، واطمأن إلى أنه ما يزال يحمل ملامحه، فزفر في قوة، هاتفًا:

- حمدًا لله.

وتهالك فوق أقرب المقاعد إليه، ودفع أصابعه في شعره الأسود الناعم كعادته، وهو يستطرد:

- حمدًا لله.

بحث عن علبه سجائره في عصبيه شديدة، والتقط منها سيجارة، أشعلها في حدة، ونفث دخانها في قوة، ثم نهض يتطلع إلى النجوم..

لماذا؟..

لماذا هذا الحلم البشع بالذات؟..

لماذا الآن؟..

السؤال الوحيد الذي يعرف جوابه هو: لماذا هذه الملامح؟..

إنها نفس الملامح التي وصفها رجال الصعيد له، في تحقيقه عن الأطباق الطائرة..

نفس البشرة الخضراء، والرأس الأصلع، والعيون الحمراء..

لقد وصف له بعضهم هذه الملامح بمنتهى الدقة، حتى أنه رسم لها صورة في ذاكرته وخياله..

وراح يحلم بها..

تنهد في عمق، وذهنه يقفز به إلى سؤال آخر..

كيف عرف بقية المعادلة؟.

العجيب أنه، عندما نطق الجزء الباقي من المعادلة، كان يشعر أنها معادلة قديمة، يعرفها منذ زمن، ولم يتصور أبدًا أنها معادلة جديدة إلى هذا الحد..

ما الذي يعنيه كل هذا؟.

تطلع مرة أخرى إلى النجوم، وصرخت كل خلية من خلاياه هذه المرة..

ما الذي يعنيه كل هذا؟

ولكن النجوم بقيت على صمتها.

وما من جواب..

☆ ☆ ☆

4- الحقيقة..

«هل أنت مستعد للتجربة حقًا هذه المرة؟..»

ألقى عليه الدكتور (ألبير) هذا السؤال في اهتمام، وهو يتفرس في ملامحه بمنتهى الدقة، فأجابه (مجدي) في حزم:

- نعم.. مستعد تمامًا.

انحنت (فريدة) على أذنه، تسأله في حنان:

- أأنت واثق يا (مجدي)؟

أجابها بابتسامة شاحبة باهتة:

- نعم يا عزيزتي.. واثق.

تراجعت وهي تتأمله في قلق، في حين وضع الدكتور (ألبير) أمامه دائرة حلزونية من معدن لامع، تحوي عدة ثقوب، مصنوعة بحيث تعبرها أضواء مصباح قوي خلفها، وقال الدكتور (ألبير):

- اليوم ستتعرض لنوع من التنويم المغناطيسي، بحيث يمكننا إزالة التوتر من نفسك، وحثك على استخدام قدراتك حتى أقصى حد.

تمتم (مجدي):

- لا بأس.. لا بأس.

أشار الدكتور (ألبير) إلى (فريدة)، قائلًا:

- ابتعدي قليلًا.

ثم سأل (مجدي) في انفعال:

- أمستعد أنت؟

أجابه (مجدي) في خفوت:

- نعم.. مستعد.

ضغط الدكتور (ألبير) زرًا في طرف الدائرة، فراحت تدور بطء ورتابة، والضوء ينعكس من خلال ثقوبها على وجه (مجدي)، والدكتور (ألبير) يقول في صوت خافت عميق:

- أنت الآن تشعر بنعاس شديد.. جفناك ثقيلان، و...

كانت (فريدة) تتابع هذا، لولا أن سمعت من خلفها صوتًا يقول في حنق واضح:

- هذا الشاب مخادع.

التفتت في دهشة إلى مصدر الصوت، وأدهشها أكثر أن صاحبه كان الدكتور (رأفت)، الذي تابع في حنق زائد:

- مخادع كبير.

سألته في مزيج من الدهشة والحيرة:

- لماذا يا دكتور (رأفت)؟.. لماذا تقول هذا؟

أجابها في توتر:

- لأن تاريخه كله زائف.. لست أدري ماذا يخفي.. ولكنه كذب في حياته كلها.. لقد بحثت عن أصله وحياته، ولكنني لم أجد مخلوقًا واحدًا عرف والديه، اللذين يدعى أنهما لقيا حتفهما منذ عشر سنوات.. لقد أقام في هذه الشقة وحده منذ البداية، وكل شهاداته زائفة، فيما عدا شهادة بكالوريوس الإعلام، و...

قاطعه صوت الدكتور (ألبير)، وهو يقول في توتر:

- حاول.. حاول أن تستسلم.

سأله الدكتور (رأفت) في خشونة:

- ماذا حدث؟

أجابه الدكتور (ألبير) في حيرة:

- إنه لا يستجيب أبدًا.. لا يخضع للتنويم المغناطيسي.

عقد الدكتور (رأفت) حاجبيه، وهو يغمغم:

- مستحيل!!

وفي تلك اللحظة كانت الأضواء تتعاقب على وجه (مجدي) في سرعة..

وكان عقله يعمل كالصاروخ..

نفس الحلم يعاوده الآن..

الاسطوانة الهابطة على الأرض..

الوجوه الخضراء الصلعاء..

العيون الحمراء..

عشرات الأسئلة تنطلق في ذهنه..

عشرات الأجوبة..

وهتف الدكتور (رأفت):

- ربما إنك..

أكمل صوت حازم عبارته:

- لم تستخدم السرعة المطلوبة.

حدق الجميع في وجه (مجدي) في دهشة، وهتف (رأفت) في ذهول:

- كيف علمت أنني سأنطق هذه العبارة بالذات؟

نهض (مجدي) في حزم، وهو يقول:

- عقلك أنبأني بهذا.

صاح (ألبير):

- إذن أنت تقرأ الأفكار!

لم يجب (مجدي) هذه المرة.

فقط ألقى نظرة باردة على (ألبير) ثم اتجه إلى الخارج، فهتف (ألبير) في انفعال:

- انتظر.. التجربة لم تكتمل.

أدار (مجدي) عينيه في هدوء إلى جهاز التنويم المغناطيسي، فارتفع الجهاز عن مكانه على نحو أثار ذهول الجميع، ثم ارتطم بالحائط، وسقط محطمًا..

فالتصقت (فريدة) بالحائط، وهي تردد في ذهول يختلط بخوف مبهم:

- (مجدي)؟!

أما (رأفت) و(ألبير)، فلم ينطق أيهما بحرف واحد، و(مجدي) يغادر المكان في هدوء، إلى أن انتزعت (فريدة) نفسها من

ذهولها، واندفعت خلف (مجدي) وهي تهتف باسمه مرات عديدة، ولحقت به وهو يهمّ بركوب سيارته، فهتفت:

- (مجدي).. إلى أين؟

تطلع إليها في هدوء، وقال:

- إليها.

هتفت:

- إلى من؟

قال في حزم:

- إلى (روحانة).

وقفت مكانها ذاهلة، وهي تردد:

- (روحانة)؟!

ورأته ينطلق بالسيارة مبتعدًا، فصرخت:

- لا يا (مجدي).. انتظر.

كان هناك شعور قوي في أعماقها، يؤكد لها أنها لحظة الوداع..

وأنها لن تراه بعد ذلك أبدًا..

وحتى هو، كان يعلم ذلك..

لقد استيقظ عقله..

لقد أدرك الحقيقة كلها..

الآن فقط علم لماذا بدت له معادلة الجاذبية المضادة مألوفة..

لقد كان يعلمها من قبل..

يعرفها كمعادلة قديمة بالنسبة إليه..

وبالنسبة إلى قومه..

وراح عقله يسترجع القصة كلها، وهو في طريقه إلى (بنها)..

وعندما عبر بوابة منزل (روحانة)، كان قد أدرك الحقيقة كلها..

وكان -إلى حد ما- يشعر بحزن جارف عميق..

ودخل إلى منزل (روحانة)..

وإلى حجرتها..

ووقف صامتًا..

وابتسمت (روحانة) وهي تتطلع إليه، وقالت في هدوء:

- أخيرًا أتيت.

رأى ملامحها البشرية تهتز، كما لو أنها صورة منعكسة على سطح ماء متموج، ورأى البشرة الخضراء تبدو واضحة عليها، وشعرها يختفي، لتبدو من أسفله رأس أصلع، وعيناها تكتسيان بذلك اللون الأحمر..

وبحركة تلقائية، رفع أصابعه، ليمررها في شعره الأسود كالمعتاد، ولكن أصابعه لامست رأسًا أصلع..

وفي استسلام تام، أعاد أصابعه إلى جواره..

لقد تذكر كل شيء..

تذكر حقيقته..

أدرك أنه ليس بشريًا..

إنه مخلوق من كوكب آخر..

تمامًا مثل (روحانة)..

مجرد مندوب لدراسة مخلوقات الأرض، مثل آلاف المندوبين من بني قومه، الذين يجوبون قارات الأرض، ويحملون هويات زائفة، وملامح تشبه ملامح الأرضيين..

وفي استسلام، استمع إلى (روحانة)، وهي تقول:

- كنت أعلم أنك ستأتي.. صحيح أنك كنت تتصور نفسك مخلوقًا أرضيًا، وتحيا مثلهم، بعد أن وضع علماؤنا هذه الفكرة في رأسك.. وباستخدام قدرتنا الخاصة على التشكل بملامح مخلوقات أي وسط نتعايش معه، ولكنني كنت أعلم أنك ستسترد ذاكرتك.. فقد حانت اللحظة المناسبة، بعد أن انتهت فترة عملي على الأرض، وحانت لحظة عودتي إلى كوكبنا.

وزفرت في اشتياق، وهي تستطرد:

- كم أتوق للعودة إليه!!

واقتربت منه، ووضعت يدها على كتفه، وهي تتطلع إلى بشرته الخضراء، وعينيه الحمراوين، قائلة:

- منذ هذه اللحظة، أنت مندوبنا في (مصر).. حظًا سعيدًا أيها الزميل.

حملت كرة شفافة متوسطة الحجم، وفتحت باب حجرتها، فبدا له ذلك الشكل الأسطواني، الذي يستقر في حديقتها، والذي اتجهت هي إليه، ودخلته، فارتفع بها كبقعة ضوء تشق الظلمة، وتغيب في الظلمات..

وفي هدوء، راحت ملامحه البشرية الجديدة تتشكل، بعد أن أدرك من هو..

وفي هذه المرة حمل ملامح عجوز أشيب، تشف كل قسماته عن الطيبة والروحانية.. ولم يكد يستقر على ذلك المقعد القديم، الذي احتلته (روحانة) طويلًا، حتى سمع جلبة تأتي من خارج الحجرة،

ورأى (فريدة) تندفع إلى الداخل، وتحدق فيه طويلًا في دهشة، قبل أن تقول في عصبية:

- أين (روحانة)؟

أجابها في هدوء:

- لقد ذهبت، وأنا هنا بدلًا منها يا آنسة (فريدة).

هتفت في دهشة:

- هل تعرفني أيها الشيخ؟

أجابها بابتسامة حزينة:

- بالتأكيد يا بنيتي.

ترقرق الدمع في عينيها، وهي تقول:

- أخبرني إذن أين (مجدي)؟.. أين الشاب الذي أحب؟.. أخبرني.. أرجوك.

خفض عينيه، مغمغمًا في مرارة:

- لقد ذهب يا بنيتي.. ذهب ولن يعود.

اتسعت عيناها في رعب، وهي تهتف:

- ذهب؟

شعر بنظراتها تخترق جسده في شك ولوعة، فبقي صامتًا، مخفضًا عينيه خشية أن تلتقيان بعينيها، وطال صمتهما، حتى سمعها تقول في صلابة:

- أخبره أنني سأنتظره.

وفتحت الباب وهي تضيف في حزم:

- سأنتظره إلى الأبد.

وعندما أغلقت الباب خلفها، وانطلقت بسيارتها مبتعدة، كان قلبه يبكي بدموع من دم..

ولكنه كان يعلم أنها ستنتظر بالفعل إلى الأبد..

وبلا أمل..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- حـــــــلم..

2- حـــــــيرة..

3- تجربة..

4- الحقيقة..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

سرّ القصر

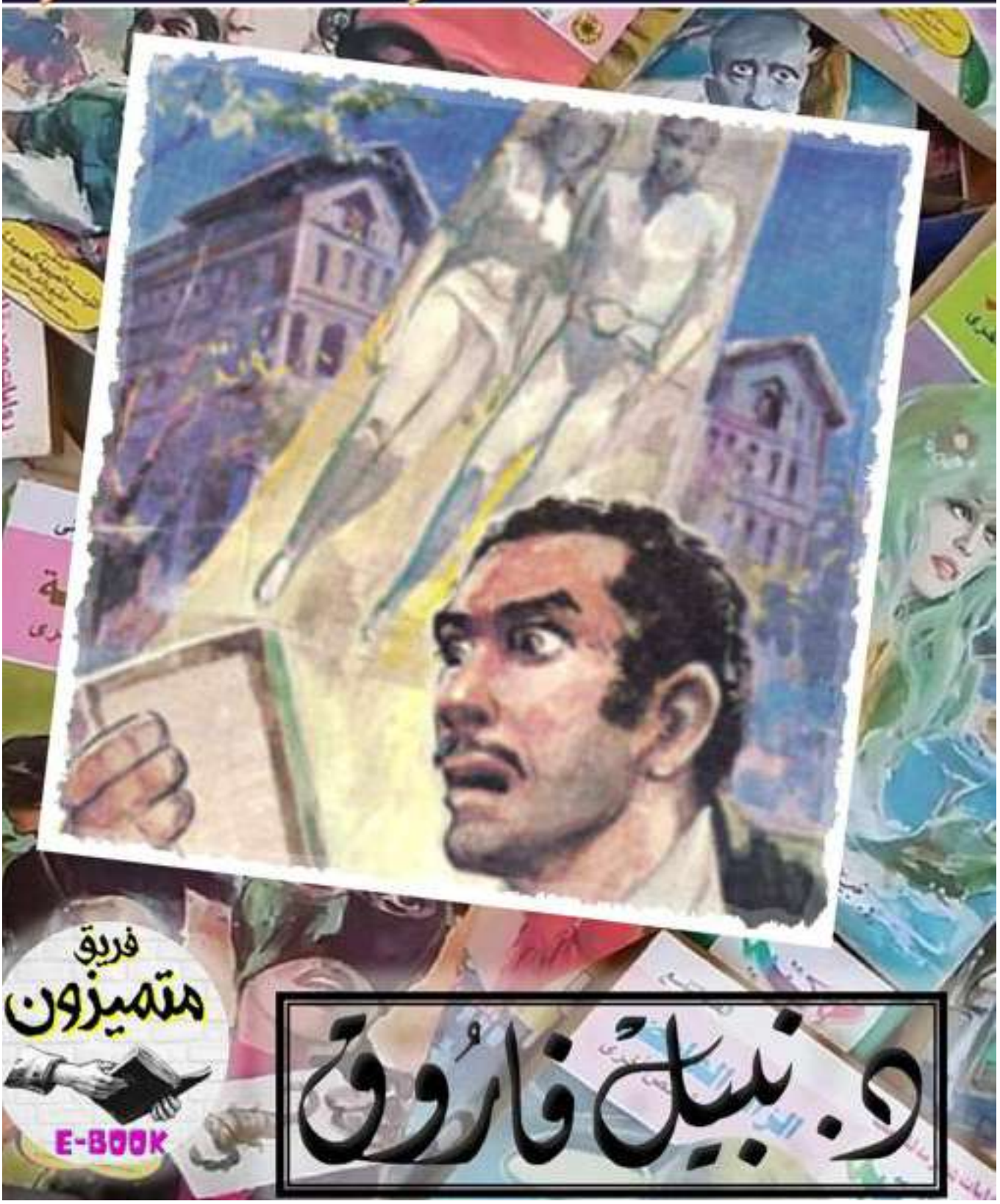

د. نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

سر القصر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

قصص العدد

سرّ القــصر

سـرّ القـصر..

إلى ذلك القصر، الذي أثار حيرتي وتساؤلاتي طيلة عامين كاملين، في (دندرة)، وأنا أجلس في شرفته المطلَّة عل نيل (قنا)، ورائحة الشاي المختلط بأوراق النعناع تملأ أنفي وصدري، وتلك الأرقام المحفورة على واجهته تملأ بصري.. وعقلي.. إلى قصر الدندراوي..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

1- العــودة..

«ملازم أول مهندس (فتحي الدندراوي).. وسام الشرف من الطبقة الأولى..»

استرجع عقل (فتحي) العبارة، وارتفعت يده تتحسس ذلك الوسام الأنيق، المثبت على صدر حلته العسكرية، وسرعة القطار تنخفض تدريجيًا، في سبيل التوقف في محطة (قنا)..

وعلى شفتي (فتحي)، ارتسمت ابتسامة حزينة..

ها هو ذا يعود إلى (قنا)، مسقط رأسه، بعد سبع سنوات كاملة، لم تطأ فيها قدماه أرض بلدته لحظة واحدة..

لقد فارق قريته (دندرة)، التي تقع على بعد كيلو متر واحد من (قنا)، بعد حصوله على شهادة الثانوية العامة مباشرة، وانتقل للعيش في كنف عمه في (القاهرة)، طيلة أعوام دراسته الجامعية، في كلية الهندسة..

وبعدها التحق لمدة عام بالكلية الفنية العسكرية..

ونشبت حرب أكتوبر، عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين..

والتحق (فتحي) بكتيبة المهندسين العسكريين، على خط الجبهة..

وأقام كباري العبور..

والجسور..

والمنشآت..

ثم كانت الإصابة..

توقف القطار تمامًا، في محطة قنا، وتلاشت تلك الابتسامة الحزينة من شفتي (فتحي)، مع تلاشي ذكرياته، وحلت محلها علامات القلق، وهو يتطلع إلى رصيف المحطة من نافذة القطار، بحثًا عن (أمين)، خادم أسرته الكهل، الذي كان مقررًا أن ينتظره..

ووقع بصره على (أمين)، وتسلل الارتياح إلى نفسه، وهو يلوح له في حماس..

أسرع إليه (أمين)، وهو يدفع أمامه ذلك المقعد المتحرك، الذي ألقى في نفس (فتحي) شيئًا من الكآبة، خاصة عندما راح (أمين) يعاونه على الانتقال من مقعد القطار إلى المقعد المتحرك، وهو يقول في إشفاق واضح:

- حمدًا لله على سلامتك يا بطل.. القرية كلها تنتظرك.. لقد علمنا بأمر الوسام.. رحم الله والدك.. كان سيفخر بك كثيرًا..

غمغم بكلمات مبهمة، لم يدرك هو نفسه معناها، ثم لاذ بعدها بالصمت، وخفض بصره متفاديًا نظرات الإشفاق والتعاطف، التي اتجهت كلها إليه، و(أمين) يدفعه بالمقعد المتحرك إلى خارج المحطة..

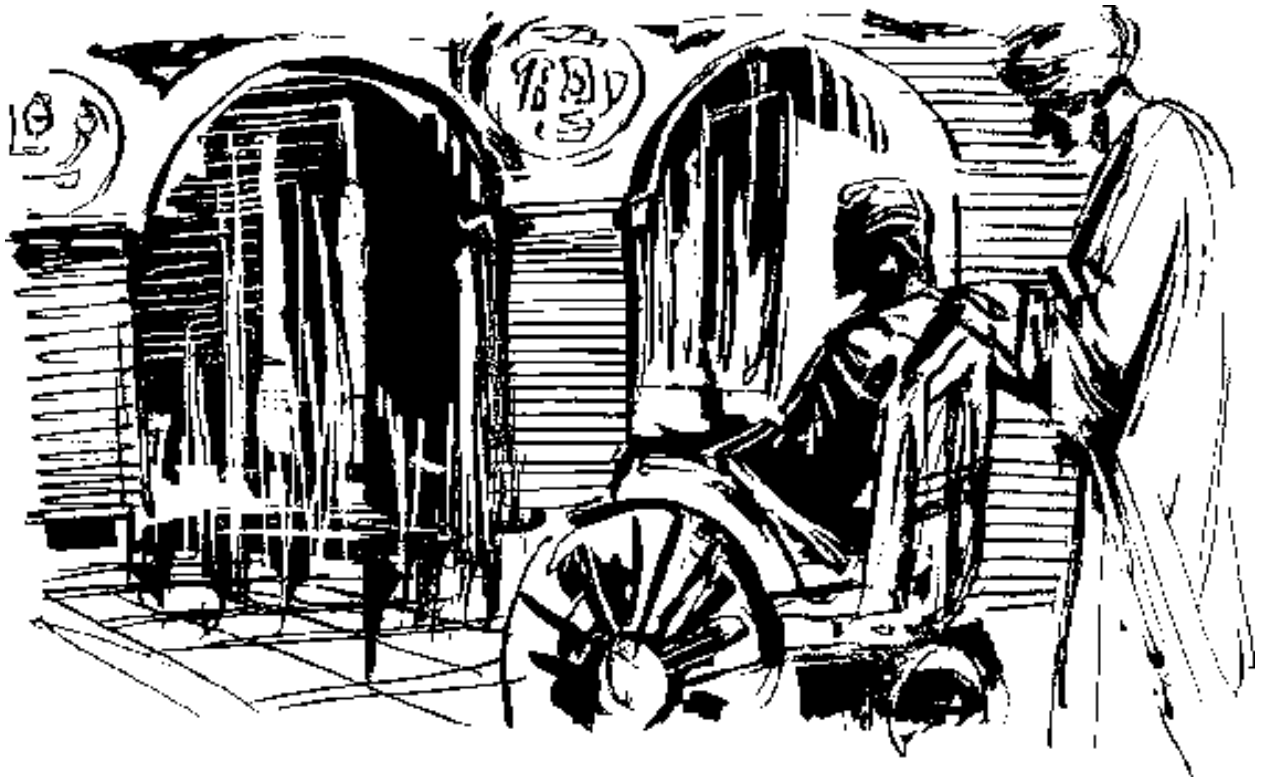

وفي السيارة التي تنقله من المحطة إلى قصر والده الشهير، الذي يطل على النيل في (دندرة)، راحت ذكرياته تسبح إلى الماضي..

كان يشرف على إقامة أحد الجسور..

ثم ظهرت تلك الطائرة الإسرائيلية..

ولم يتوقف هو أو أحد العاملين عن إقامة الجسر، على الرغم من النيران والقذائف والانفجارات..

ودوى الانفجار على مقربة منه..

وطار جسده بعيدًا..

وتصاعد الألم في عموده الفقري..

و...

«لقد وصلنا..»

قالها (أمين) في بطء وخفوت، مقتحمًا ذكريات (فتحي) مرة أخرى، فرفع هذا الأخير عينيه، وتطلع في شرود إلى قصر والده..

كان قصرًا من القصور القديمة، التي بنيت في أوائل القرن العشرين، من طابقين، تحيط بهما حديقة ضخمة، وتمتد من الطابق السفلي شرفة كبيرة، تطل على النيل..

وفي أجزاء متفرقة من القصر، كانت هناك دوائر محفورة، كتبت عليها أرقام غير ذات معنى..

ولأول مرة في حياته، بدت له هذه الأرقام غامضة مبهمة.. ولأول مرة في عمره، تجذب اهتمامه إلى هذا الحد..

وبينما كان (أمين) ينقله من السيارة إلى المقعد المتحرك، وجد نفسه يسأله في اهتمام بالغ:

- ما معنى هذه الأرقام يا(أمين)؟

هز الكهل كتفيه، وابتسم ابتسامة باهتة، وهو يقول:

- الله (سبحانه وتعالى) وحده أعلم يا سيدي.. إنها مجرد أرقام.

قال (فتحي) في اهتمام:

- لابد أنها تعني شيئًا ما، وإلا فما المبرر لحفرها على جدران القصر هكذا؟..

عاد (أمين) يهز كتفيه مرة أخرى، وقال:

- من يدري؟

ثم ابتسم مرة أخرى تلك الابتسامة الباهتة، وقال وهو يدفع المقعد المتحرك إلى داخل القصر:

- ولكن لماذا الاهتمام بتلك الأرقام الآن؟.. إنها هنا من قبل حتى أن تولد، وكنت تراها طيلة عمرك!

صمت (فتحي) لحظات، وهو يتساءل عن سر اهتمامه الحقيقي بهذه الأرقام، ثم لم يلبث أن هز كتفيه، وقال في مرارة:

- ربما لم يعد لدي ما اهتم به سواها.

تطلع إليه (أمين) في إشفاق، ولم ينبس ببنت شفة، حتى بلغ به حجرته، وعاونه على الانتقال من المقعد المتحرك إلى فراشه، وتمتم:

- أظنك تحتاج إلى قليل من الراحة، قبل أن تتناول طعامك يا سيدي.

شرد بصر (فتحي)، وهو يغمغم في ألم:

- الراحة وتناول الطعام.. نعم.. أظن لم يعد لي سواهما.

ثم أدار عينيه إلى (أمين)، وسأله:

- قل لي يا (أمين): هل كنت تعتني بالقصر جيدًا؟

أجابه (أمين) في حماس:

- بالتأكيد يا سيد (فتحي).. منذ وفاة والدتك (رحمها الله)، وأنا أعتني جيدًا بكل ركن في القصر، وبعد وفاة والدك (رحمه الله)، منذ عدة شهور، وأنا أضاعف من عنايتي به؛ ليصلح لاستقبالك عند عودتك.

تنهد (فتحي) في أسف، وقال:

- يا لوالدي المسكين!!.. مات وحيدًا، بلا زوجة إلى جواره، أو لد يحمله إلى قبره..

قال (أمين) في خفوت مشفق:

- لم يكن ذلك بإرادتك يا سيدي.. لقد لفظ والدك أنفاسه الأخيرة، أنت تشيد الجسور على الجبهة، والحرب مشتعلة إلى ذروتها، ثم حدثت إصابتك، وقضيت عدة أشهر بالمستشفى، وأنت ولده الوحيد، و...

قاطعه (فتحي)، وكأنما يرغب في الفرار من تلك الذكرى:

- وماذا عن مكتبه، ومكتبته؟

أجابه (أمين):

- كل شيء على ما يرام..

أومأ (فتحي) برأسه في ارتياح، وقال:

- هذا عظيم، فأظنني سأقضي كل وقتي في القراءة.. أو مشاهدة التلفاز.

ربت (أمين) على كتفه، وقال:

- من يدري يا سيدي؟.. من يدري؟

ثم أضاف، في محاولة لتبديل محور الحديث:

- بالمناسبة يا سيدي.. سيحضر بعض كبار القرية للترحيب بعودتك هذ المساء.

لم يكن (فتحي) يرغب حقًا في الاندماج مع مجتمع قريته بهذه السرعة، إلا أن طبيعة الكرم، التي رضعها مع لبن أمه، جعلته يقول في حماس:

- على الرحب والسعة.

وبنفس الروح استقبلهم في المساء..

بابتسامة واسعة على شفتيه، وترحاب وحرارة شديدين..

واستقبلوه هم استقبال الأبطال..

ودار الحديث، واتصل، ودارت أكواب الشاي والشراب، دون أن يشير أحدهم مجرد إشارة إلى إصابة (فتحي)..

ولكن عيونهم أشارت..

عيناه شعرتا بإشفاقهم وتعاطفهم..

ثم انتقل الحديث إلى ذكرى والده الراحل، وقال العمدة، وهو يهز رأسه في أسف:

- كان والدك (رحمه الله) عظيمًا، ورجلًا ذا كرامات.. وكنا نتسابق جميعًا لتقبيل يده.

ردد (فتحي) في دهشة:

- كرامات؟!

اندفع شيخ البلد، يقول في حماس:

- بالتأكيد.. كان والدك من أولياء الله الصالحين.. ألم تقرأ تلك الأرقام، على جدران القصر وواجهته؟

أثار السؤال اهتمام (فتحي) وانتباهه في شدة، فاعتدل يسأل شيخ البلد:

- وما الذي تعنيه هذه الأرقام؟

أجابه شيخ البلد في حماس:

- إنها أرقام الملائكة.

ردد (فتحي)، في دهشة أشد:

- أرقام ماذا؟

قال شيخ البلد وبنفس الحماس:

- أرقام الملائكة، فلقد حفرها والدك (رحمه الله) على واجهة القصر، بعد أن زارته الملائكة.

تمتم (فتحي) في حيرة:

- لست أفهم شيئًا.

أجابه شيخ البلد، وقد دفعه الحماس إلى التلويح بذراعيه كليهما:

- إنها ليلة لا ينساها أحد، عندما هبط الضوء من السماء، على هذا القصر، وبعدها حفر والدك الأرقام، و...

قاطعه (فتحي) باهتمام بالغ:

- ماذا تعني بأن الضوء قد هبط من السماء؟.. أهو نيزك مثلًا؟.. أم طبق طائر؟

حدق شيخ البلد في وجهه بدهشة، وقال:

- طبق ماذا؟!

سأله (فتحي) في انفعال:

- دعك من هذا، وصِف لي شكل هذا الضوء الهابط من السماء.. أيشبه طبقًا مقلوبًا، أم أنه جسم اسطواني، أم...

قاطعه شيخ البلد في دهشة:

- طبق ماذا؟ وجسم ماذا؟.. إنه مجرد ضوء فحسب.. شعاع من الضوء، اتصل ما بين السماء والقصر، ثم اختفى.

بدت خيبة الأمل واضحة في صوت (فتحي)، وهو يقول:

- آه.. مجرد ضوء.

تدخل العمدة، قائلًا، في حماس يفوق حماس شيخ البلد:

- إنه ضوء الملائكة، فلقد كانت الملائكة تهبط لزيارة والدك.

ابتسم (فتحي) في سخرية، ولم يعلق بحرف واحد..

وسرعان ما ابتعد الحديث عن هذه النقطة..

وسرعان ما انتهت الزيارة، وغادر الجميع القصر، فيما عدا (فتحي) و(أمين)، وسأل الأخير الأول، وهو يدفع مقعده أمامه:

- ما رأيك؟

هز (فتحي) رأسه، وقال:

- إنهم قوم أخيار، يحملون في صدورهم قلوبًا نقية طيبة.

ثم ابتسم متهكمًا، وهو يضيف:

- وعلى أكتافهم رؤوس خاوية.

سأله (أمين) في دهشة:

- ماذا تعني يا سيدي؟

لوح (فتحي) بكفه، وهو يقول في استخفاف:

- ألم تسمع حديثهم عن كرامات أبي، وعن الملائكة الذين يهبطون على قصرنا؟!.. إن أبي لم يكن نبيًا أو رسولًا، فكيف تهبط عليه الملائكة؟

عقد (أمين) حاجبيه، وهو يقول:

- ولكن هؤلاء القوم على حق يا سيدي.. لقد هبطت الملائكة على والدك (رحمه الله).

قال (فتحي) في صرامة:

- (أمين).. لست أخالك تنساق وراء تلك الخزعبلات، و...

قاطعه (أمين) في انفعال:

- ولكنني لا أشك في هذا قط يا سيدي، فلدي دليل لا يقبل الشك.

هتف (فتحي) في استهجان:

- أي دليل هذا؟.. هل رأيتهم بنفسك؟

توقف (أمين) عن دفع المقعد، وبدا من ارتجافة صوته أن كيانه كله يرتعد من فرط الرهبة والانفعال، وهو يقول:

- هذا هو الدليل يا سيدي.. لقد رأيتهم بنفسي.. رأيت الملائكة التي هبطت من السماء..

☆ ☆ ☆

2- البحـث..

ضخمة هي مكتبة والده..

هذا ما انتبه إليه (فتحي)، في الصباح التالي، وهو يجلس على مقعده المتحرك، وسط تلك الحجرة الواسعة، التي اختفت جدرانها بأرفف الكتب حتى سقفها..

وأدهشه أن يلحظ هذا لأول مرة..

لقد قضى حداثته كلها في هذا القصر، وكان يعلم أن والده يقضى جل وقته في حجرة مكتبه، ولكنه لم يهتم بزيارة هذه الحجرات أبدًا، وحتى في المرات القليلة، التي دلف إليها فيها، لم تثر عشرات الآلاف من الكتب اهتمامه أو انتباهه أبدًا.

ربما لأن اهتماماته –حينذاك– كانت تختلف..

كانت كلها تشف عن حيوية جسده وقوته..

أما الآن، فالأمر يختلف..

يختلف كثيرًا..

وراحت عيناه تدوران في أرجاء المكتبة، تلتهم مئات وآلاف الكتب، بحثًا عما يجذب انتباهه منها..

وفجأة وقع بصره على ذلك اللوح الأنيق، الذي يتوسط المكتبة، والذي نقشت عليه نفس الأرقام، المحفورة على واجهة القصر..

لماذا هذه الأرقام بالذات؟..

ما الذي تعنيه؟..

لماذا يمنحها والده كل هذا الاهتمام والتبجيل؟..

في هذه المرة لم يستطع منع عقله من الغوص في هذا الأمر حتى النخاع..

وقفزت ذاكرته إلى حديث العمدة وشيخ البلد عن كرامات والده المزعومة، وإصرارهما على زيارة الملائكة له، وتأييد (أمين) لقولهما، بل وتأكيد لرؤيته تلك الملائكة رأي العين، في حجرة مكتب والده..

وبكل السخرية في أعماقه، غمغم:

- جهلة أغبياء.

ولكن تلك الأرقام راحت تجذبه إليها مرة أخرى، في إصرار..

وبدا له الأمر كله مكتنفًا بغموض شديد..

واستهواه هذا الغموض..

ربما لأنه ينتزعه بعض الوقت من إحساسه بالعجز..

أو يمنحه هدفًا ما..

وشاركته مهنته كمهندس هذا الاهتمام..

إنها أرقام..

لعبة كل مهندس..

مرة أخرى راح يتطلع إلى الأرقام، وهو يدرس علاقاتها بعضها ببعض في لهفة واهتمام..

حاول أن يجد عاملًا مشتركًا بينها..

ولكن هيهات..

كانت سبعة أرقام متباينة تمامًا..

أحدهم رقم فردي، والآخر يتكون من خانتين فحسب، وثلاثة من ثلاث خانات، والباقيان من أربع خانات..

ولم يبد له هذا مفيدًا، أو مجديًا..

وفي حنق ولّده العجز، أشاح بوجهه عن لوح الأرقام، وراح يتطلع مرة أخرى إلى الكتب، ذات الأعداد الهائلة، والمرتبة على نحو شديد التنظيم، و...

وفجأة برقت فكرة ما في رأسه..

ماذا لو أنها أرقام كتب؟..

نعم.. إنها كذلك حتمًا..

تملكه حماس مفاجئ، جعله يهتف:

- (أمين).. تعال إلى هنا.

هرع إليه (أمين)، سائلًا:

- ماذا تطلب يا سيدي؟

سأله (فتحي) في اهتمام بالغ، أثار دهشته:

- قل لي: من أين يبدأ ترتيب هذه المكتبة؟

وقف (أمين) حائرًا بعض الوقت، ثم لوح بكفه، قائلًا:

- لست أدري يا سيدي.. لم يدر هذا بخلدي قط، ولكنني أظنها تبدأ من عند هذه النافذة القبلية.

تطلع (فتحي) في اهتمام، إلى حيث أشار (أمين)، ثم قال:

- فليكن.. أحضر لي الكتب، التي تحمل نفس هذه الأرقام.

بدت الحيرة أشد وضوحًا، على وجه (أمين)، إلا أنه أطاع الأمر، وراح يعد الكتب، وينتزع منها ما يتوافق رقمه مع أحد الأرقام المتراصة في اللوح، حتى اجتمعت الكتب السبعة بين يدي (فتحي)..

وتضاعفت حيرته..

وأصابته خيبة أمل قوية..

لم تكن الكتب السبعة تشير إلى أمر ما...

أو حتى ذات سمة مشتركة..

كانت منها أربع روايات، لبعض كبار الكتاب المعاصرين..

وكتاب في الفقه الإسلامي..

وآخر حول تحضير الأرواح..

والأخير عن الكيمياء..

وفي خفوت، سأله (أمين):

- عم تبحث؟

أجابه (فتحي) في حنق، وهو يشير إلى ذلك اللوح، الذي يضم الأرقام:

- أبحث عما تعنيه تلك الأرقام اللعينة.

سأله في هدوء:

- لماذا؟

أصاب السؤال قلب الحيرة في نفس (فتحي)..

نعم.. لماذا؟..

ما الذي يقلقه بشأن هذه الأرقام؟..

وهتف في توتر:

- ذلك الغموض، الذي يحيط بها، يضايقني.

ابتسم (أمين) ابتسامة حانية، وهو يقول:

- ربما لا تعني شيئًا.

أجابه (فتحي) في صرامة:

- مستحيل!

انطلقت الكلمة من بين شفتيه كرصاصة، أعقبتها لحظات من الصمت، قبل أن يستطرد في حزم:

- أنت تعرف والدي مثلما أعرفه أنا تمامًا يا (أمين)، وهو لم يكن أبدًا من ذلك النوع، الذي يمنح أمرًا ما كل هذا الاهتمام، إلى حد إحاطته بإطار خاص في حجرة مكتبه، ونقشه على واجهة قصره، دون أن يعني هذا الأمر شيئًا.

جلس (أمين) أمامه، وقال بنفس الهدوء:

- لماذا ترفض إذن كونها أرقام بعض الملائكة؟

أجابه في حدة:

- لأن الملائكة هم رسل الله (سبحانه وتعالى)، وليسوا مجرد أرقام، ولا يتم إرسالهم إلا للرسل والأنبياء، بخلاف الجن، الذين..

بتر عبارته بغتة، وهتف:

- جن؟!.. نعم.. ربما كان الأمر يتعلق بـ...

قاطعه (أمين) هذه المرة في حدة:

- لا..

تطلع إليه في دهشة، وسأله:

- ولماذا ترفض هذا التفسير، بكل الحزم والحدة؟.. ما الفارق في رأيك؟.. إنك توافق على احتمال هبوط الملائكة.. أليس كذلك؟

أجابه (أمين) في حزم:

- لو أنك رأيتهم مثلي، لاتخذت موقفًا أكثر حزمًا يا سيدي.. من المستحيل أن يكون كل هذا الصفاء للجن.. مستحيل!

ران الصمت تمامًا على الحجرة، و(فتحي) يتطلع إلى (أمين) في حيرة، قبل أن يسأله في خفوت:

- هل رأيتهم حقًا يا (أمين)؟

- أومأ (أمين) برأسه إيجابًا، وبدت الرهبة في ملامحه وصوته، وهو يقول في صوت أقرب إلى الهمس:

- أكثر من مرة يا سيدي.. كان والدك (رحمه الله) يغلق على نفسه باب مكتبه، وبعدها بساعه أو يزيد، يهبط عمود الضوء من السماء على القصر، ويختفي، ثم يعود ليصعد من القصر إلى السماء، ويخرج والدك من حجرته منتشيًا تملأ ابتسامة الارتياح وجهه، وكان في كل مرة يبدو أكثر نضارة وشبابًا، حتى أنني لم أستطع مقاومة فضولي، فاختبأت ذات مرة في الشرفة المطلة على النيل، وانتظرت حتى هبط عمود الضوء على القصر، واختلست النظر عبر النافذة إلى هذه الحجرة.

ارتجف صوته في شدة، وبدا وكأنه يستعيد ذكرى تبعث في نفسه رهبة شديدة، وهو يتابع:

- ورأيتهما.. رأيت ملاكين وسط هالة من النور المبهر، وقد انضم إليهما والدك، داخل كرة الضوء، وبدا وكأنه يتحدث إليهما.

شحب وجهه من شدة الانفعال، وشرد بصره، وهو يستطرد:

- كانا ذكرًا وأنثى، هما أجمل من رأيت في عمري كله.. ثيابها بيضاء، تبدو وكأنها تشع الضوء والدفء.. و...

بدا من الواضح أن انفعاله قد بلغ ذروته في هذه اللحظة، حتى أن صوته قد اختنق في حلقه، وراح يلوح بكفه بلا صوت، فربت (فتحي) على ظهره، وقال في هدوء وإشفاق:

- لا عليك يا (أمين).. إنني أصدقك.

ازدرد (أمين) لعابه في صعوبة، وأومأ برأسه متمتمًا:

- شكرًا لك يا سيدي.. شكرًا لك.

وأسرع يغادر حجرة المكتب، وكأنما لم يعد يحتمل ما تبعثه في نفسه من ذكريات ومخاوف، وترك (فتحي) خلفه في حيرة، يتساءل:

- ما الذي يعنيه كل هذا؟.. ما الذي كان يفعله والدي في هذه الحجرة؟

هز رأسه في توتر، وهو يغمغم:

- أي غموض يحيط بهذا القصر؟!

أعياه التفكير في الأمر، فاسترخى في مقعده المتحرك، وهو يقول:

- أراهن أن كل هذا الأمر مجرد خيالات وأوهام، من يصدق أن عمودًا من الضوء يهبط من السماء، عبر هذا السقف، و...؟

تجمدت أطرافه دفعة واحدة، وتجمدت عيناه، وهما تحدقان في سقف الحجرة المرتفع..

فهناك.. قرب منتصف السقف تقريبًا، كانت هناك دائرة محترقة..

دائرة تشبه مقطعًا في عمود من الضوء..

☆ ☆ ☆

3- الحـيرة..

هناك شيء ما حتمًا..

لا يوجد دخان دون نار..

لقد رأى نصف سكان القرية –تقريبًا– عمود الضوء..

ورأى (أمين) ما وصفهما بالملائكة..

فما الذي يعنيه كل هذا؟..

لم يعد عقل (فتحي) يحمل سوى تلك التساؤلات، طيلة الأيام التالية، وهو يدرس الأرقام مرات ومرات، ويحاول إيجاد علاقة منطقية واحدة بين بعضها البعض، أو بينها وبين الكتب السبعة، حتى أصابه اليأس والحنق، بعد ثلاثة أسابيع كاملة، فصرخ ذات مرة في ثورة:

- هراء.. مجرد هراء.

ولكن بصره وقع في اللحظة ذاتها على اللوح الذي يحوي الأرقام، والذي بدا أمام عينيه شامخًا صلبًا، وكأنه يتحداه، فدفع مقعده المتحرك نحوه، ورفع قبضته في مواجهته، وهو يلوح بها، هاتفًا:

- فلتذهب إلى الجحيم.. إنني لن أشغل نفسي بأمرك بعد هذه اللحظة، فما أنت إلا جماد.. جسد بلا روح.. هل تسمعني؟.. إنك..

بتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه في ارتياع..

إنه يتحدث إلى لوح!.

لوح معدني جامد!

كيف بلغ هذه المرحلة؟..

هل أصابه الأمر بالجنون، حتى صار يتحدث إلى جسد بلا روح؟.

الروح!!..

نعم..

اندفع بمقعده المتحرك نحو الكتب السبعة، وانتزع من بينها ذلك الكتاب، الذي يتحدث عن تحضير الأرواح، وهتف:

- تحضير أرواح!.. نعم.. هذا هو التفسير المنطقي.. لقد كان والدي يعمل بتحضير الأرواح، وما رآه (أمين) ليس سوى روحين.. روح رجل وروح امرأة، و...

لم يستطع إتمام عبارته..

لقد واجهه اعتراض قوي..

عمود الضوء الهابط من السماء..

إنه لا يتفق مع عملية تحضير الأرواح..

مرة أخرى عاوده الحنق، بشأن هذه الأرقام..

ومرة أخرى أدار مقعده إلى اللوح، ودفعه إلى مقربة منه، ولوح بقبضته أمامه، وهتف في غضب:

هل تسعى لإصابتي بالجنون؟.. هل ترغب في..؟

قاطعه صوت (أمين) من خلفه، يقول في جزع:

- سيدي.. هل تتحدث إلى اللوح؟

انتزعه صوت (أمين) من ثورته، فأدار مقعده ليواجهه، وقال في حدة:

- إنني أبغضه.. أبغضه وأبغض كل ما يحمله من أرقام.

اتجه إليه (أمين)، وربت على كتفه في حنان، قائلًا:

- لا تقلق نفسك بشأنه إذن.. حاول أن تنسى كل ما يتعلق به وبأرقامه.

أمسك (فتحي) جانبي رأسه بكفيه، وهو يهتف في عصبية:

- لقد حاولت.. حاولت وعجزت.. تلك الأرقام اللعينة تلح على عقلي، حتى في نومي وأحلامي.. لا يمكنني التخلص منها أبدًا.

ثم التفت بوسطه إلى اللوح، مستطردًا:

- لست أدري لماذا وضع أبي (رحمه الله) هذا اللوح اللعين هنا؟

انعقد حاجبا (أمين) في شدة، وهو يغمغم:

- لماذا وضعه؟.. عجبا!.. كيف لم أنتبه إلى هذا من قبل؟

استدار إليه (فتحي) مرة أخرى، وسأله في اهتمام:

- كيف لم تنتبه إلى ماذا؟

أشار (أمين) إلى اللوح المعدني، وهو يقول في رهبة:

- إلى هذا اللوح..

سأله (فتحي) في عصبية:

- وما الذي لم تنتبه إليه في هذا اللوح؟.. أفصح.

بدا (أمين) شاردًا، منبهرًا، وهو يتطلع إلى اللوح، قائلًا:

- إنني لم أشتر هذا اللوح، ولم أصنع مثله.

فاض الكيل بـ (فتحي)، فهتف في ثورة:

- أفصح يا رجل.. أفصح.

ازدرد (أمين) لعابه، وقال متوترًا:

- الواقع أن كل شيء في هذا القصر كان يمر عبري، بصفتي المسئول عن نظافته ونظامه يا سيدي، وعلى الرغم من ذلك، فلست أذكر أن والدك (رحمه الله) قد كلفني شراء هذا اللوح، أو صناعته، أو حتى عاد به إلى القصر يومًا.

تمتم (فتحي) في ضجر:

- ربما لم تنتبه إلى عودته به.

هز (أمين) رأسه نفيًا في عنف، وهو يقول في حزم:

- مطلقًا.. إن والدك (رحمه الله) لم يعد مرة واحدة إلى هذا القصر، دون أن أكون في استقباله، وأنا أؤكد لك بكل الثقة، أن هذا اللوح لم يأت إلى القصر أبدًا.

بدا الانفعال على وجه (فتحي)، وهو يقول:

- وكيف لم تنتبه إلى ذلك من قبل؟

هز (أمين) كتفيه، وقلب كفيه، في حيرة:

- إنني لم أعتد على تنظيف حجرة المكتب يا سيدي.. والدتك (رحمها الله) وحدها سمح لها والدك بذلك، فقد كانت تلك الحجرة بالنسبة إليه مقدسة، لا يسمح لمخلوق بدخولها سوى فيما ندر.

ازدرد (فتحي) لعابه، وقال:

- من أين أتى هذا اللوح إذن؟

هز (أمين) رأسه في حيرة، وهو يغمغم في رهبة:

- لست أدري.. ربما..

لم يتم عبارته، ولكن (فتحي) أدرك ما يعنيه..

- ولقد شعر بالرهبة أيضًا..

وفي حدة، استدار يتطلع إلى اللوح المعدني السميك، وكل الأرقام المتراصة داخله، وهو يتمتم:

- من أين أتيت؟.. لماذا؟

دارت عيناه في تلك النقوش، التي تزين اللوح المعدني، وكأنما يبحث فيها عن حل هذه الألغاز والأسرار والغموض، التي تحيط به، منذ وصل إلى القصر..

وفجأة ضاقت عيناه، وبدتا وكأنهما ستقفزان من محجريهما، لتلتصقا باللوح..

وعندما ارتفعت سبابته تشير إليه، كانت ترتجف في شدة، مثلما ارتجف صوته، وهو يقول:

- انتزع هذا الإطار يا (أمين).

هتف (أمين) في دهشة:

- أنتزعه؟!

أجابه (فتحي) في حدة وصرامة:

- نعم.. انتزعه وأحضره إلى هنا.. هيا.

وعلى الرغم من دهشته وحيرته، انتزع (أمين) اللوح، وحمله في حرص إلى (فتحي)، الذي أمسكه في انفعال، وراح يتأمل نقوشه عن قرب، وهو يقول في حماس:

- تمامًا مثلما رأيت.. إنها ليست نقوشًا عادية.

سأله (أمين) في انفعال:

- ما هي إذن؟

أجابه (فتحي)، وهو يتحسس النقوش في لهفة:

- إنها أرقام.. أرقام لاتينية قديمة تعتمد على الخطوط المتقابلة والمتجاورة، فرقم واحد عبارة عن خط رأسي، ورقم أثنين عبارة

عن خطين، ورقم خمسة هو خطان مائلان، يلتقيان في أسفلهما، أما رقم عشرة فهو عبارة عن خطين متقاطعين.

تطلع (أمين) إلى النقوش في حيرة، متمتمًا:

- لم أتصور أبدًا أنها كذلك.

قال (فتحي) وقد تملكه الانفعال:

- بل هي كذلك.. انظر هذا هو رقم واحد.

قالها وهو يضغط النقش الممثل لرقم واحد باللاتينية في رفق، إلا أنه لم يلبث أن أبعد يده في حركة حادة عنيفة، كادت تدفع مقعده المتحرك كله إلى الخلف، وهو يحدق في اللوح كالمصعوق..

وهتف (أمين):

- ماذا حدث؟.

لم يجب (فتحي) لنصف دقيقة كاملة، وهو يحدق في اللوح، مما جعل (أمين) يمد أصابعه إليه، مكررًا سؤاله في جزع:

- ماذا حدث؟.

ولكن (فتحي) أزاح يده في حدة، هاتفًا:

- لا.

تراجع (أمين) مذعورًا، وراح ينقل بصره في ارتياع، بين وجه (فتحي) واللوح، وأدهشه أن تشبث هذا الأخير باللوح في شدة، وهو يقول:

- اتركني وحدي يا(أمين).. أرجوك.. اتركني وحدي.

سأله (أمين) في قلق:

- سيدي.. هل..؟

قاطعه (فتحي) في حدة:

- قلت لك اتركني وحدي.

تراجع (أمين) في حيرة، ثم لم يلبث أن تمتم مستسلمًا:

- سمعًا وطاعة يا سيدي.. سمعًا وطاعة.

وغادر الحجرة حائرًا قلقًا متوترًا..

وترك (فتحي) وحده..

وراح (فتحي) يحدق في اللوح في انفعال شديد، وهو يتشبث به في قوة..

لقد أدرك الآن سر هذا اللوح..

أدركه عندما ضغط الرقم (واحد) في رفق، فهبط الرقم مع ضغطته، داخل اللوح..

يا للغرابة!!..

الآن فقط بدت له تلك الأرقام بسيطة واضحة..

ومفهومة..

إنها مجرد شفرة..

شفرة أرقام بسيطة..

ودفع مقعده المتحرك نحو مكتب والده الراحل، ووضع اللوح فوقه، وهو يقول في انفعال:

- ترى ما الذي تعنيه هذه الرسالة؟.. لمن تذهب؟.. وماذا تجدي؟

نفض عنه كل هذه التساؤلات، وراح يضغط الأرقام على اللوح، مكونًا المجموعات الرقمية التي تتوسط اللوح، بنفس الترتيب والتتابع..

والأرقام تغوص مع لمساته داخل اللوح، في يسر ونعومه..

ومع آخر رقم، ارتجف جسده في انبهار..

وتراجع في حركة حادة..

ولكن شيئًا لم يحدث..

لقد بقى اللوح ثابتًا ساكنًا، فوق سطح المكتب، وبقيت الحجرة صامتة، خاوية، كئيبة، إلا من أنفاس (فتحي)، التي تضاعفت حدتها مع الانفعال..

ومرت الدقائق بطيئة ثقيلة..

ولم يحدث شيء..

وبكل الغضب والإحباط في أعماقه، ضرب (فتحي) سطح المكتب، هاتفًا:

- اللعنة..

وابتعد بمقعده عن المكتب في عنف، وراح يفرك كفيه في عصبية..

محاولة أخرى فاشلة..

محاولة سخيفة، لم يدر لماذا دارت بخلده؟..

أخفى وجهه بكفيه، وبدا وكأنه سينفجر باكيًا، وهو يقول:

- لماذا تفعل بي كل هذا يا أبي؟.. لماذا تتركني للحيرة والضياع؟.

سالت الدموع من عينيه في صمت، وسالت معها حيرته، حول السر في اهتمامه البالغ بأمر هذه الأرقام..

وتساءل: لماذا لم تشغل عقله هكذا، إبان دراسته الثانوية؟..

لماذا لم ينتبه أيامها إلى ما يحيط بأبيه من توقير واحترام؟..

لقد شعر أيامها، ولكنه لم يول الأمر اهتمامًا..

كان –أيامها– مراهقًا، مفعمًا بالحيوية، لا يتوقف لمناقشة أو تفسير أي أمر، مهما بدا غريبًا أو عجيبًا..

ثم إنه كان يعتبر احترام أهل القرية لوالده أمرًا طبيعيًا..

أليس سليل أكبر عائلات محافظة (قنا) كلها..

ومع يأسه وإحباطه، تسلل النوم إلى عينيه، وكأنما يحتمي به من تلك المرارة، التي تملأ نفسه وعقله..

ونام..

وفي بطء، تحرك اللوح المعدني، فوق سطح المكتب، كما لو أن يدًا خفيه تهزه في رفق..

ثم ارتفع عن سطح المكتب عدة سنتيمترات، وسبح في هواء الحجرة، واتجه في نعومة إلى أرضيتها، ثم استقر ساكنًا، أسفل تلك الدائرة المحترقة في السقف تمامًا..

وفي نفس اللحظة، كان قلب (أمين) يخفق في عنف، وكانت عيناه تشارك عيون أهل القرية جميعًا، في تطلعهم إلى السماء، حيث هبط عمود من الضوء..

وحيث عادت المعجزة للظهور.

☆ ☆ ☆

4- لقــاء..

في حلمه، استرجع (فتحي) أحداث إصابته..

الطائرات الإسرائيلية تنقض..

القنبلة تنفجر..

هذه المرة تنفجر بلا صوت..

وبضوء مبهر..

مبهر للغاية..

ضوء ملأ كيانه كله..

كان وكأن الشمس قد أشرقت أمام وجهه تمامًا..

وتسلل الضوء عبر جفنيه المغلقين..

وفجأة استيقظ من نومه..

وتلاشى حلمه..

ولكن الضوء المبهر بقي..

ارتعد عندما شعر به أمامه، وفتح جفنيه في بطء وصعوبة..

وبهره الضوء تمامًا في البداية..

ثم اتضحت الصورة..

وخفق قلبه في عنف..

كانت أمامه دائرة من الضوء، استقر داخلها شاب وفتاة، هما أبدع ما خلق الخالق عز وجل..

جمالهما يفوق كل وصف وتصور..

ثيابها البيضاء اللامعة تختلط بهالة الضوء المحيطة بهما، فتزيدهما بهاء وإبهارًا..

وبكل الرهبة والانبهار، تطلع إليهما (فتحي)..

والعجيب أن ذرة واحدة من الخوف لم تجد طريقًا إلى دخيلته..

ابتسامتهما محت منه أي شعور سلبي..

وفي انبهار ونشوة كاملين، وجد نفسه يسأل همسًا:

- من أنتما؟!.. ومن أين جئتما؟

أتاه الجواب من بين شفتي الأنثى عذبًا رخيمًا، كموسيقى رائعة، تعزفها قيثارات الملائكة:

- نحن صديقا والدك (رحمه الله).. ولقد استجبنا لندائك، وأتينا إليك من كوكبنا البعيد..

ردد في دهشة:

- من كوكبكما.. أتعنين أنكما..

أجابه الذكر بنفس الصوت الموسيقي العذب:

- نعم.. إننا من مخلوقات الله (سبحانه وتعالى)، ومن كوكب يبعد عن كوكبك ما يقرب من ألف سنة ضوئية بحساباتكم.

هتف ذاهلًا:

- ألف سنة ضوئية؟!.. هذا مستحيل.. لو أن حديثك هذا صحيحًا، لكان من المستحيل أن تصل إلى هنا إلا بعد...

قاطعه في هدوء:

- إننا نستخدم وسائل لم تتوصلوا إليها بعد، ولن تفعلوا إلا بعد آلاف السنين بإذن الله (سبحانه وتعالى).

ازدرد لعابه، الذي بدا شديد الجفاف، قبل أن يسأل:

- ولكن كيف؟.. كيف ولماذا بلغتما الأرض؟.. ولماذا والدي بالذات؟

تطلع المخلوقان إلى بعضهما البعض، وابتسما، ثم أجابت الأنثى:

- حدث ذلك بالصدفة المحضة، فنحن مستكشفان نرتاد الفضاء لاستكشاف الكواكب المأهولة، ونتنقل عبر الفضاء بواسطة شعاعنا النقال الخاص، الذي ينطلق بسرعة تفوق سرعة الضوء لديكم مائة ألف مرة.

هتف معترضًا:

- مستحيل.. إن سرعة الضوء هي أقصى سرعة..

تذكر فجأة أنهما من مجرة أخرى، فاستطرد في خفوت:

- توصلنا إليها هنا.

ابتسم المخلوقان في نعومة، وتابعت الأنثى:

- وذات يوم من أيامنا، أردنا أن نستكشف كوكبًا جديدًا، ونقلنا الشعاع النقال إلى هنا.. إلى كوكبكم (الأرض).. وجاء هبوطنا في تلك الحجرة بالذات، وأمام والدك، الذي أصابه مزيج من الرعب والذهول، لولا أن سارعنا بتهدئته، واستطعنا استيعاب لغتكم في لحظات، بواسطة ناقل الأفكار الأثيري..

واتسعت ابتسامتها، وهي تضيف:

- وبدأت صداقتنا مع والدك.

حدق (فتحي) فيهما مبهوتًا، غير مصدق ما تراه عيناه، وما تسمعه أذناه..

إذن فهي ليست الملائكة..

إنها مخلوقات من كوكب آخر..

اتصال يحلم به كل عالم على وجه الأرض..

اتصال بين مخلوقات عاقلة متطورة، من مجرتين مختلفتين..

وفي لهفة سأل:

- وماذا عن اللوح؟

ابتسم الذكر، وأجاب:

- إننا نمتلك القدرة على زيارتكم وقتما نشاء، وكان من الضروري أن نمنح والدك وسيلة اتصال، حتى يمكننا الاستجابة إليه عند الضرورة، فصنعنا له هذا اللوح، وعلمناه أرقام الاتصال بوسيلة بسيطة تناسب تطور حضارة كوكبك.

هتف في دهشة:

- ولكن كيف تبلغكم الإشارات، وأنتم على بعد ألف سنة ضوئية كما قلتما؟

أجابه الذكر في هدوء عجيب، وبابتسامة عذبة رقيقة:

- لا تقلق نفسك بهذا الأمر.. إن علومنا تفوق علومكم بأجيال كاملة، وسيصعب عليك استيعاب الأمر كثيرًا.

تراخى في مقعده، متمتمًا:

- يا إلهي!!.. هذا هو سر الأرقام إذن.. هذا هو سر القصر.

ثم اعتدل مرة أخرى، مستطردًا:

- ولكن لماذا نقش أبي الأرقام على واجهة القصر؟

أجابته الأنثى:

- كان قد وعدنا بكتمان السر، ولكنه –كأي أب– كان يتمنى لو حظي ابنه بنفس الفرصة، لذا فقد نقش الأرقام، وترك لك أمر البحث عنها ودراستها.

استمع إليها (فتحي) مشدوهًا، ثم هز رأسه، قائلًا:

- يا للعجب!!.. إنني لم أعر هذه الأرقام اهتمامًا طيلة عمري، ولولا إصابتي وعجزي ما فعلت.

ثم أضاف في حماس:

- ولكنني كشفت سر القصر، وسنلتقي كثيرًا، و..

قاطعته الأنثى في أسف:

- أخشى أن هذا سيصبح مستحيلًا.

سألها في جزع:

- لماذا؟

أجابه الذكر هذه المرة:

- بسبب حادث مؤسف، فلقد انتقل فريق استكشاف فضائي آخر إلى أحد كواكب مجموعة شمسية بعيدة، لاستكشافه ودراسته، ولكن سكان ذلك الكوكب كانوا متخلفين بشدة، لذا فقد هاجموا الفريق، وقتلوه شر قتله، وهنا أصدرت إدارة الاستكشاف الفضائي في كوكبنا قانونًا جديدًا، يحظر التعامل المباشر، مع أية كواكب تنخفض حضارتها عن حضارتنا بألفي درجة على الأقل، وكوكبك يقل في حضارته عنا بسبعة آلاف درجة.

بدا الحزن على وجهه وصوته، وهو يقول:

- يا للأسف!! إذن فهذه الزيارة..

قاطعته الأنثى في حزن:

- زيارة وداع..

وتبادلت نظرة غامضة مع الذكر، الذي أضاف:

- ونحن نحمل لك هدية الوداع، أمتنانًا منا لذكرى والدك الراحل، واعترافًا بصداقتنا واحترامنا له.

ردد (فتحي) في حيرة:

- هدية الوداع.

ابتسم المخلوقان، ورفعت الأنثى يدها نحوه بكرة من البلور المضيء، وتسلل من الكرة شعاع أبيض مبهر، أحاط بجسد (فتحي)..

وشعر (فتحي) بخلاياه كلها تتقافز في نشاط وحيوية بالغين، فهتف.

الزهرة ..

- ما هذا الشيء؟

أجابه الذكر:

- هدية الوداع.

وقالت الأنثى في حزن:

- وداعًا أيها الأرضي.

رأى جسديهما يتلاشيان وسط حزمة الضوء، وهما يلوحان له بكفيهما وداعًا، فهتف:

- لا.. ليس الآن.. انتظرا قليلًا..

تلاشى جسداهما تمامًا، وراحت حزمة الضوء ترتفع إلى السقف، فقفز من مقعده هاتفًا:

- لا.. انتظرا.. انتظرا..

ولكن حزمة الضوء تلاشت في تلك الدائرة المحترقة في السقف، وتلاشى معها الضوء المبهر من الحجرة..

وفي حزن عارم، تمتم (فتحي):

- لقد رحلا.

خفض وجهه إلى ذلك اللوح، المستقر في نفس النقطة التي فارقاها منذ لحظات، وانحنى يحمله، ويتحسس لوحه المعدني، وأرقامه الناعمة، وهو يكرر في أسف:

- لقد رحلا..

انحدرت من عينه دمعة، مسحها بكفه في سرعة، ثم حمل اللوح إلى موضعه الأول، وثبته في إحكام، وهو يقول:

- ستبقى هنا إلى الأبد..

وتنهد في عمق، مستطردًا:

- من يدري؟

تنهد مرة أخرى، ثم اتجه إلى باب الحجرة، وفتحه..

ووقع بصره على (أمين)، مع عدد من كبار القرية، في الردهة المواجهة لباب حجرة المكتب..

ووقع بصر (أمين) وكبار القرية عليه..

واتسعت عيونهم في ذهول..

وتراجعوا مبهوتين مبهورين..

وهتف العمدة:

- لقد انتقلت كرامات الأب إلى الابن.

وهتف شيخ البلد مشدوهًا.

- إنها معجزة.

في تلك اللحظة فقط انتبه (فتحي) إلى ما يذهلهم إلى هذا الحد..

إنه لم يكن يجلس على مقعده المتحرك..

كان يسير على قدميه نعم..

على قدميه..

لقد شفي..

شفيت إصابته..

وخفق قلبه في عنف..

هذه إذن هي هدية الوداع..

وداعهما..

واقترب منه كبار القرية في رهبة، وعيونهم تتطلع إلى ساقيه، وإلى وقفته التي تشف عن القوة والحيوية..

وانحنى العمدة يلتقط كفه، ويلثمها بقبله حارة..

وكذلك فعل الآخرون..

ولم يشعر (فتحي) بما حدث، إلا في النهاية..

عندما أفاق من شروده..

ولقد رفع كفيه، ومسح بهما وجهه، وهو يردد:

- الحمد لله (سبحانه وتعالى).. الحمد لله..

ومنذ ذلك اليوم، لم يفارق (فتحي الدندراوي) قصر عائلته أبدًا..

ولم يتوقف يومًا واحدًا عن إرسال رسالة الاستدعاء، إلى أصدقائه في الفضاء البعيد..

كان يعلم أن قانونهم يحظر عليهم التعامل مع كوكبه..

ولكن القوانين يمكن أن تتغير وتتبدل..

والصداقة يمكن أن تعود..

هذه الفكرة ملأت نفسه دائمًا، وهو يجلس في الشرفة المطلة على النيل، ويتطلع إلى السماء بنجومها اللانهائية..

وفي أعماقه كانت هناك عبارة واحدة، تتردد دومًا..

هل سيلتقي بهما مرة أخرى في حياته؟

ربما لا يلتقيان أبدًا، وربما يلتقي بهما فجأة، دون موعد..

من يدري؟..

ربما..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

سرّ القصر..

1- العودة..

2- البحث..

3- الحيرة..

4- لقاء..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

تحقيق

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

الضعيف

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

قصص العدد

تحقـيق

1- فكـرة جـديدة..

«آنسة (سامية)..»

ارتطمت العبارة بأذنيها، وهي تتسلل على أطراف أصابعها، محاولة بلوغ حجرة التحرير، دون أن يشعر رئيس التحرير بقدومها، فتسمرت في مكانها لحظة، وزفرت في استسلام، ثم التفتت بجسمها كله إلى رئيس التحرير، وهي تبذل أقصى جهدها؛ لترسم على شفتيها ابتسامة عذبة، وهي تقول:

- صباح الخير يا أستاذ (حامد).. لم أتوقع وجودك في هذه الساعة المبكرة.

عقد رئيس التحرير حاجبيه في غضب، وهو يقول في حدة:

- مبكرة؟!.. إنها الحادية عشرة يا آنسة (سامية)، وما من صحفي نشط يصل إلى المجلة التي يعمل بها، في مثل هذه الساعة.

حافظت على ابتسامتها في صعوبة، وهي تقول في مرح مفتعل:

- وماذا عن الصحفي الكسول؟

رمقها بنظرة صارمة، تلاشت لها ابتسامتها، وهو يقول:

- أظنك خير من يجيب عن هذا السؤال، فلم يمر بمكتبي تحقيق واحد يحمل توقيعك، منذ شهرين كاملين.

حاولت أن تستعيد ابتسامتها، وهي تلوح بسبابتها أمام وجهها، قائلة:

- العبرة ليست بكثرة الموضوعات والتحقيقات، وإنما بجودتها، و...

قاطعها بصوت هادر:

- عظيم.. إنك تستعيرين كلماتي على نحو رائع، ولكن ما رأيك في أن يكون العمل هنا بالإنتاج، بدلًا من الحصول على راتب شهري دون عمل؟

ازدردت لعابها، وهي تقول:

- لست أظن هذا النظام يصلح لي.

بدا الغضب واضحًا في ملامحه، فاستدركت في سرعة:

- ثم إنني أستعد لفكرة جديدة.

كانت استدراكتها ناجحة، فلقد اندفع الفضول إلى رأس رئيس التحرير، مزيحًا كل الغضب أمامه، وهو يسألها في اهتمام:

- أية فكرة؟

باغتها السؤال، فارتبكت وهي تجيب:

- كنت أفضل الاحتفاظ بها سرًا، و...

قاطعتها صيحته الغاضبة:

- سرًا؟!

تضاعف ارتباكها، واختلط بشيء من الضيق في أعماقها، عندما وقع بصرها على وجه زميلها (أيمن)، من خلف كتف رئيس التحرير، وهو يبتسم، وكأنما يروق له ارتباكها، فاعتدلت في حزم، وهي تقول:

- الواقع أنه تحقيق مع شخصية عادية.

بدت الدهشة على وجهي رئيس التحرير و(أيمن)، وهتف الأول في حيرة:

- شخصية عادية؟!.. ماذا يعني هذا؟

أجابته في حماس مباغت:

- إنها فكرة جديدة للغاية.. إننا لن نجري تحقيقًا حول أحد الشخصيات الشهيرة في المجتمع، ولا حول سياسي كبير، وإنما سنجري التحقيق حول شخصية عادية للغاية، يتم اختيارها عشوائيًا من دليل الهاتف، وسنسعى للالتقاء بهذه الشخصية، والبحث عن هموم ومشاكل المواطن العادي.

بدا من ارتفاع حاجبي رئيس التحرير أن الفكرة قد راقت له بالفعل، مما دفع (سامية) إلى أن تستطرد بمزيد من الحماس:

- تصور يا سيدي ما ستفعله سلسلة تحقيقات كهذه في المجتمع، عندما يحلم كل شخص فيه بأن يكون هو تلك الشخصية العادية، التي تلتقي بها الصحافة.. إنها فكرة جديدة بكل المقاييس يا سيدي.

ازداد ارتفاع حاجبي رئيس التحرير، وراح يومئ برأسه في اهتمام وإعجاب، ثم لم يلبث الشك أن تسلل إلى نفسه وملامحه، وهو يقول:

- أخبريني بكل أمانة.. هل كانت هذه الفكرة معدة مسبقًا، أم أنها وليدة اللحظة؟

لم يكد يتم عبارته، حتى تراجع (أيمن) خطوتين إلى الخلف، وهتف:

- آنسة (سامية).. كيف حالك؟.. لقد درست فكرتك أمس، ووجدتها رائعة.

التفت إليه رئيس التحرير في دهشة، فاستطرد (أيمن) مفتعلًا الحماس:

- هل أخبرتك الآنسة (سامية) بفكرة ذلك التحقيق يا سيدي؟.. إنها فكرة رائعة.. سنلتقي بمواطن عادي عشوائيًا، و...

قاطعه رئيس التحرير في صرامة:

- لقد أخبرتني الآن.. ولكن متى أخبرتك أنت؟

أجابه (أيمن) في بساطة:

- أمس الأول يا سيدي.

- انعقد حاجبا رئيس التحرير مرة أخرى، وهو يقول في حدة:

- كيف هذا؟.. كيف يعلم محرر في المجلة فكرة تحقيق جديد، قبل أن يعلمه رئيس التحرير نفسه؟

- ارتبكت (سامية)، في حين أجابه (أيمن) في سرعة وتلقائية:

- لقد كانت تطلب تعاوني يا سيدي.

سأله في دهشة:

- تعاونك؟!.. لماذا؟

أجابه مبتسمًا:

- من الخطر أن تذهب فتاة وحيدة إلى عنوان اختارته عشوائيًا من دليل الهاتف.

مط رئيس التحرير شفتيه، وهو يهز رأسه موافقًا قائلًا:

- هذا صحيح!

ثم التفت إلى (سامية)، التي بدا الضيق على ملامحها، وقال في حماس:

- هيا إذن.. ما الداعي للانتظار؟

واندفع إلى داخل مكتبه، والتقط دليل الهاتف، وفتحه عشوائيًا، وهو يقول:

- سنبدأ هنا.. بآخر اسم في الصفحة اليسرى.

هبط بسبابته إلى الصفحة اليسرى، وقرأ:

- المهندس (سليمان صابر).. اسم مناسب لصاحب التحقيق الأول.. وها هو ذا العنوان.

التقط ورقة بيضاء، وخط عليها العنوان في سرعة وحماس، وناوله إلى (أيمن) مستطردًا:

- هيا.. إنني في غاية الشوق لرؤية التحقيق الأول.

تناول (أيمن) العنوان، وابتسم وهو يقول:

- ستراه قريبًا يا سيدي.

والتفت إلى (سامية)، مستطردًا بابتسامة ضاحكة:

- أليس كذلك؟

قطبت حاجبيها، وهي تقول في حنق:

- من يدري؟

نعم.. من يدري؟

☆ ☆ ☆

انطلقت سيارة (أيمن) الصغيرة تصعد ذلك الطريق المواجه لقلعة (صلاح الدين الأيوبي)، في طريقها إلى المقطم، حيث يعيش المهندس (سليمان)، وابتسم (أيمن) داخلها، وهو يختلس النظر إلى (سامية)، قائلًا:

- ألن نتبادل كلمة واحدة؟

مطت شفتيها، وهي تغوص أكثر في مقعدها، وتضرب أرضية السيارة بكعب حذائها الرفيع في غضب، فاتسعت ابتسامته، وهو يقول:

- ما الذي يغضبك هكذا؟

قالت في حدة:

- لقد سرقت فكرتي.

رفع حاجبيه هاتفًا:

- فكرتك؟!

ثم انفجر ضاحكًا، قبل أن يستطرد:

- هل صدقت نفسك؟.. إنها فكرة عشوائية، على الرغم من نجاحها، ولقد حاولت تأييد كذبتك، أمام رئيس التحرير، وأسئلته هي التي قادتنا إلى هذا الوضع.

هتفت محنقة:

- هذا لا يمنع أنك سرقت فكرتي.

قال في بساطة:

- وهل يمنع زواجي منك؟

تخضب وجهها بحمرة الخجل، وهي تقول:

- هل ستعود إلى هذا الحديث؟

هز كتفيه، قائلًا:

- ولم لا؟.. إنني أحبك منذ زمن، وما زلت أتمنى الزواج منك.

اعتدلت في مقعدها، وغمغمت:

- ولكنني لا أرغب في الزواج.

- لماذا؟

- ما زلت أصغر من أن أفعل.

- إنك في الرابعة والعشرين.

- هل يعني ذلك أنني قد أصبحت عجوزًا؟

- ليس بعد، ولكنني أخشى أن يفاجئك هذا، قبل أن تتخذي قرارك بالزواج.

- ربما.. هذا لا يمنعك من أن تتزوج بأخرى.

- لا بأس.. ألديك شقيقة توءم؟

التفتت تتطلع إلى ابتسامته المرحة، وتسللت ابتسامة إلى وجهها المخضب بحمرة الخجل، وهي تغمغم:

- هل تميل دومًا إلى المرح؟

ابتسم في حنان، وهو يجيب:

- في حضرتك فقط.

خيل إليها لحظة أن قلبها سيذوب مع ابتسامته وحنانه، إلا أنها لم تلبث أن انتزعت نفسها من بحر المشاعر هذا، وهي تنحنح قائلة:

- ألم نصل بعد؟

لم يبد عليه أدنى ضيق لفرارها من حديث الزواج، وكأنما اعتاد هذا، وأجاب في هدوء:

- لقد اقتربنا، فمن سوء حظنا أن أول شخص يقع عليه اختيار رئيس التحرير، يقيم في منطقة شبة منعزلة، على قمة جبل (المقطم)..

قاد السيارة في صمت لدقيقتين، حتى عبر المنطقة المأهولة بالسكان، ثم أشار إلى فيلا صغيرة، تستقر وحدها فوق قمة المقطم، بعيدة عن المناطق السكانية الأخرى، وقال:

- ها هي ذي الفيلا.

تمتمت وهو يوقف سيارته إلى جوار الفيلا:

- أتعشم أن نجد ذلك المهندس هنا.

أجابها وهو يغادر السيارة:

- إنه هنا.. ها هو ذا يدفع شيئًا، داخل (جراج) سيارته.

اتجه في خطوات واسعة إلى حيث المهندس (سليمان)، وتبعته (سامية) في خطوات أقرب إلى العدو، حتى صارا خلف المهندس تمامًا، فقال (أيمن):

- أأنت المهندس (سليمان صابر) ؟

اعتدل الرجل بغتة، وكأنما فاجأه الصوت، واستدار إليهما في حركة حادة عنيفة، واصطدمت نظراته الصارمة القاسية بعيونهما..

وفجأة سرت في جسد (سامية) قشعريرة باردة مخيفة..

وانطلقت من حلقها شهقة..

شهقة رعب..

☆ ☆ ☆

2- صورة..

لم تكد تلك الشهقة تنطلق من حلق (سامية)، حتى تحفزت كل عضلة من عضلات جسد (أيمن)، وتأهبت للذود عن محبوبته، إلا أن كل هذا لم يلبث أن ضاع وسط دهشته، وهو يتطلع إلى وجه المهندس (سليمان)..

لقد كان الرجل يبدو محتدًا، غاضبًا، إلا أنه –وبخلاف هذا– لم يكن يحمل أي شيء يدفع صحفية متمرسة مثل (سامية)، لإطلاق شهقة رعب كهذه..

وفي حيرة؛ التفت إلى (سامية)، يسألها:

- ماذا هناك؟

بدا له وجهها شاحبًا، غائمًا، يموج بالرعب والفزع، وهي تتطلع إلى وجه المهندس (سليمان)، وتمتم في اضطراب:

- لقد خيل إليّ لحظة أنه.. أنه..

تلعثمت، واختفت الكلمات في حلقها، فسألها (أيمن) في قلق:

- أنه ماذا؟

وهنا قال المهندس (سليمان) في حدة:

- من أنتما؟ وماذا تريدان؟

بقيت (سامية) صامتة، تتطلع إليه في خوف واضح، في حين ازدرد (أيمن) لعابه، وأجابه:

- إننا صحفيان من مجلة (. . . . . .) ، ولقد اخترناك عشوائيًا، من دليل الهاتف، لنجري معك تحقيقًا، حول هموم ومتاعب

المواطن العادي، و...

قاطعه (سليمان) في خشونة:

- ليس لدي وقت لمثل هذا الهراء.

ازدردت (سامية) لعابها بدورها، وكأنما تحاول استرداد جأشها، وقالت:

- إنه ليس مجرد هراء يا سيد (سليمان).. إنه نوع جديد من التحقيقات، و...

قاطعها على نحو أكثر خشونة:

- ابحثا من غيري، فلدي الكثير من العمل.

تطلعت إليه في حيرة، فلم يكن من المألوف لديها أن يرفض أي شخص إجراء حوار صحفي، تنشره مجلة معروفة..

وفي اهتمام، راحت تدرس ملامحه..

كان حليق الوجه، في منتصف الأربعينات من العمر، له شعر أسود ناعم فاحم، وفودان وخطهما الشيب..

ولدهشتها بدا لها وسيمًا على نحو ما، حتى أنها تساءلت في أعماقها عما أصابها بالرعب منه هكذا..

وفي إصرار، قالت:

- لن نضيع وقتك كثيرًا يا أستاذ (سليمان).. إنك تقيم هنا في (المقطم)، ولا ريب أن لديك بعض المشكلات، حتى ولو تعلق ذلك بالمياه والإنارة، و...

لوح بكفه في حدة، وهو يقول:

- لا.. لا مشكلات.

أشار (أيمن) إلى الصندوق الخشبي، الذي كان (سليمان) يدفعه أمامه، وقال:

- وماذا عن هذا الصندوق؟.. ألا يمثل دفعه داخل (الجراج) مشكلة؟!

انقلبت سحنة (سليمان) بغتة، وبدا أشبه بوحش شرس، وهو يقول في حدة:

- دعك من هذا الصندوق.

ثم استدار يضغط دائرة حمراء صغيرة، في زاوية الصندوق، مستطردًا في غلظة:

- إنه جهاز منزلي خاص.

خيل إليهما أن الصندوق قد تألق بضوء فيروزي خافت، لجزء من الثانية، إثر ضغطة (سليمان) على الدائرة الحمراء، قبل أن يخبو تألقه بأسرع مما ظهر..

وبحركة غريزية صحفية، اختطفت (سامية) آلة التصوير الصغيرة من جيبها..

والتمع المصباح الضوئي في وجه (سليمان)، وهو يلتفت إليها..

وفي ثورة عارمة، صرخ (سليمان):

- ماذا فعلت؟

تراجعت (سامية) في رعب، وهي تقول:

- لقد التقطت صورتك فحسب.

اندفعت قبضة (سليمان) تحيط بمعصمها بغتة، وبدت عيناه مخيفتين رهيبتين، وهو يضغط بأصابع من فولاذ، قائلًا في

صوت مرعب:

- من سمح لك بهذا؟

ارتجف (أيمن) لمرأى ذلك الرعب الهائل، المختلط بألم شديد، والذي ارتسم على وجه (سامية)، و(سليمان) يضغط معصمها..

واندفع (أيمن) يقول في حدة، وهو يمسك معصم (سليمان) بدوره:

- لا عليك يا رجل.. إنها مجرد صورة.

التفت إليه (سليمان) في حركة حادة، وبدا وكأنه يقيس قوة خصمه، قبل أن ينقض عليه، مما جعل (أيمن) يتراجع في حركة غريزية، مغمغمًا:

- إلا إذا كنت تخشى شيئًا.

توقف المشهد كله لحظات، كصورة ضوئية ثابتة، قبل أن تتراخى أصابع قبضة (سليمان)، من حول معصم (سامية)، وهو يقول في بطء:

- لا.. لست أخشى شيئًا.

ثم أضاف في حدة:

- والآن انصرفا.

كانت (سامية) تبدو وكأنها تتطلع إلى شبح، حتى أن (أيمن) قد شعر بالعطف عليها، فجذبها من يدها، قائلًا:

- هيا يا (سامية).. من الواضح أن المهندس (سليمان) لا يرغب في التعاون مطلقًا.

بدت له وكأنما التصقت عيناها بوجه (سليمان)، وقد استحالت إلى تمثال من الرخام البارد، فهتف بها في حدة:

- (سامية).. هيا بنا.

انتفضت وكأنها تستيقظ من نوم عميق، وقالت في اضطراب، وهي تشيح بوجهها عن (سليمان):

- نعم.. هيا بنا.

بدت وكأنها تعدو نحو السيارة، هاربة من شيء ما، ولم يكد (أيمن) ينطلق بالسيارة، حتى قالت في توتر ملحوظ:

- ليس بشريًا.

التفت إليها (أيمن) في دهشة، وهو يقول:

- ماذا تقولين؟

صاحت في حدة:

- أقول إن هذا الشخص ليس بشريًا.

سألها في مزيد من الدهشة والقلق:

- (سامية).. ماذا أصابك يا حبيبتي؟

صرخت في عصبية أقرب إلى الجنون:

- لا تخاطبني بلقب (حبيبتي) هذا.. أنت لم تشعر بما شعرت أنا به.

عقد حاجبيه، وأوقف سيارته إلى جانب الطريق، وهو يقول:

- وما الذي شعرت به؟

رفعت معصمها أمام عينيه، هاتفة في انهيار:

- هذا.

واتسعت عيناه في ذهول...

لقد كانت على معصمها آثار أصابع خمس..

محترقة..

☆ ☆ ☆

3- الشيء..

رفع طبيب المجلة عدسته الكبيرة، وهز رأسه في حيرة، وهو يغمغم:

- مستحيل يا آنسة (سامية)!!. مستحيل تمامًا!

قالت (سامية) في عصبية:

- ما هو هذا المستحيل؟.. لقد رويت لك كل ما حدث، ولقد شاهد (أيمن) كل لحظة منه.

هز الطبيب رأسه في إصرار، وهو يقول:

- ولو.. لا يمكنك خداع طبيب في هذا الشأن.. ما من بشري، مهما بلغت قوته، يمكنه أن يترك مثل هذه الآثار، في معصم بشري آخر.

وأشار إلى آثار الأصابع الخمسة المحترقة، وهو يستطرد:

- إن هذا الذي أمامي عبارة عن خمس حروق من الدرجة الثانية، حدثت بفعل شيء ملتهب.

قالت (سامية) في حدة:

- ليس شيئًا أيها الطبيب.. إنه شخص مثلي ومثلك.

هز رأسه في عناد، قائلًا في حزم:

- مستحيل!! مستحيل!! مستحيل!

بد الغضب على وجه (أيمن)، وهو يقول:

- ولكنني رأيت ما حدث.

رفع الطبيب سبابته أمام وجهه، وقال:

- رأيت رجلًا يمسك معصم زميلتك، ولكن قد يكون هذا الرجل مرتديًا قفازًا خاصًا مثلًا، لوثته بعض الأحماض المركزة، أو...

قاطعته (سامية):

- لم يكن يرتدي أي قفازات.. بل على العكس، كانت يده باردة كالثلج.

حدق الطبيب في وجهها لحظة، ثم ابتسم قائلًا:

- إذن فقد صنعت أصابعه الباردة كالثلج، تلك الآثار المحترقة.. أليس كذلك؟

زفرت في سخط، وهي تقول:

- لا فائدة.. إنك لن تصدقني أبدًا.

ابتسم الطبيب في دهاء، وهو يقول:

- وهل المفروض أن أفعل، وأن أحتسبها إصابة عمل؟

صاحت في غضب:

- وهل تتصور أن كل ما أسعى إليه هو أن أحتسبها إصابة عمل؟

قال الطبيب في صرامة:

- لست أظن شيئًا.. سنحيط هذه الحروق بالضمادات اللازمة، ونمنحك المضاد الحيوي الملائم، وينتهي كل شيء..

غمغمت في حنق:

- يا لها من رعاية طيبة!

لم تفه بحرف واحد، حتى انتهى الطبيب من تضميد حروقها، وأعطاها تذكرة طبية بالأدوية المطلوبة، وغادرت عيادة الجريدة في غضب، فابتسم (أيمن) مشفقًا، وهو يقول:

- لا عليك.. إنها قصة أغرب من أن يصدقها شخص لم يرها بعينيه.

التفتت إليه بغتة، تسأله:

- ما رأيك أنت؟

سألها في دهشة:

- فيما فعله الطبيب؟

قالت في حزم:

- لا.. في الموقف كله.

تردد لحظة، ثم قال:

- الواقع أن الموقف كله مثير للحيرة.

قالت في اندفاع:

- بل هو أمر خارق للطبيعة.

وأضافت وهي تلوح بيدها في حزم:

- هذا المهندس (سليمان) ليس بشريًا.

ضحك في ارتباك، وهو يقول:

- ما هو إذن؟.. جني؟

هزت كتفيها قائلة:

- ربما.

تطلع إليها لحظة، وقال:

- (سامية).. إنك تقلقيني.

بدا وكأنها لم تسمعه، وهي تقول في حماس:

- لابد أن نعود إلى (المقطم).. لدي عشرات الأسئلة، التي ينبغي أن يجيب عنها ذلك المهندس.

ربت على كتفها، وقال محاولًا تهدئتها:

- إنه لن يجيب أية أسئلة.

هتفت في عصبية:

- سيفسر لي ما فعله بمعصمي على الأقل.

ربت على كتفها في حنان مرة أخرى، وقال:

- لا بأس يا (سامية).. سنذهب إليه صباح الغد، فلقد هبط الظلام الآن، وأنت تحتاجين إلى الراحة.

وبذل جهده ليبتسم، وهو يستطرد:

- أظن أن أفضل ما نفعله الآن هو أن أوصلك إلى منزلك.

مطت شفتيها في حنق، وتمتمت:

- فليكن.

ثم استطردت في حدة:

- ولكننا سنذهب إليه في (المقطم)، فور استيقاظنا غدًا.

ابتسم مغمغمًا:

- أعدك بهذا.

قادها في رفق إلى سيارته، وانطلق بها إلى منزلها، دون أن يتبادلا حرفًا واحدًا، حتى توقف أمام المنزل، وقال في خفوت، وكأنه يخشى تمزيق أستار الصمت السائدة بينهما:

- لقد وصلنا.

كانت تغوص في مقعدها، كعادتها كلما جلست إلى جواره في سيارته، فاعتدلت في جلستها، وتمتمت:

- حسنًا.

ثم انتزعت شريط التصوير من آلة التصوير الخاصة بها، وناولته إياه، قائلة:

حاول أن تظهر الصورة، التي التقطناها له هذا الصباح، في أقرب فرصة.

التقط الشريط السلبي، وألقاه في جيب سترته، وهو يبتسم قائلًا:

- سأفعل.. اطمئني.

ابتسمت ابتسامة شاحبة، وغادرت السيارة في بطء، فهتف بها:

- (سامية).

التفتت إليه متسائلة، فأضاف مبتسمًا:

- أحبك.

تخضب وجهها بحمرة الخجل، وهي تغمغم:

- يا لك من عابث!

ولوحت له بكفها، ثم اتجهت نحو المنزل في خطوات واسعة، فابتسم متمتمًا:

- ويا لك من فاتنة!

لم يكد يدير محرك سيارته، حتى انقطع التيار الكهربي عن المنطقة كلها بغتة، وانطلقت شهقة رعب من (سامية)، جعلته يقفز خارج السيارة، ويعدو إليها كالصاروخ..

ووسط الظلام الدامس، عثر عليها ترتجف في رعب، فهتف بها:

- ماذا حدث؟

غمغمت وهي تمسك معصمها في قوة:

- لقد انقطع التيار بغتة.

قال في إشفاق:

- يبدو أن أعصابك مضطربة في شدة، فهذا أمر شائع الحدوث، ولا يستحق كل هذا الرعب.

غمغمت متوترة:

- هذا لو أن الأمر يقتصر على الظلام.

سألها في قلق بالغ:

- ماذا هناك أيضًا.

رفعت يدها أمام وجهه، فاتسعت عيناه في دهشة بالغة، وخفق قلبه في قوة..

فعلى الرغم من الأربطة والضمادات، كانت آثار الأصابع الخمسة واضحة...

ولامعة كنيران مشتعلة..

نيران أوقدها ذلك الشيء..

☆ ☆ ☆

4- زائر الليل..

ابتسمت أم (سامية) في وجه ابنتها، وهي تسألها في لهجة روتينية، مفعمة بالحنان والحب:

- هل كان يومك جيدًا؟

أجابتها (سامية) في عصبية:

- كان مرهقًا.

قالت الأم مشفقة:

- تذكري أنك أنت اخترت مهنة الصحافة.

زفرت (سامية) في حنق، وغمغمت:

- من سوء حظي.

ثم اتجهت نحو حجرتها، مضيفة:

- لن أتناول العشاء الليلة.. سآوي إلى فراشها على الفور، فأنا أحتاج إلى نوم عميق.

أغلقت باب حجرتها خلفها، وألقت جسدها على فراشها، دون أن تبدل ثوبها، وراحت تسترجع أحداث ذلك اليوم العصيب..

لقد بدأ رعبها مع التفاته ذلك المهندس إليها..

لوهلة لم يبد لها بشريًا..

لقد رأت أمامها وجهًا أحمر اللون، وعينين كجمرتين ملتهبتين مرعبتين..

وتلاشى ذلك المشهد بغتة، وعاد الرجل يبدو لها عاديًا..

ثم هناك آثار أصابعه المحترقة، التي تتألق في الظلام..

لقد كادت تفقد وعيها رعبًا، عندما رأت آثار أصابعه تتألق، ولم يجد (أيمن) تفسيرًا لذلك، ولكن المشهد العجيب زاده إصرارًا على أن يتوجها إلى المهندس (سليمان) في الصباح الباكر..

راحت تستعيد الأحداث مرات ومرات، والنوم يتسلل إلى جفنيها في بطء..

وفجأة اختفت الجدران من حولها..

ووجدت نفسها في صحراء جرداء واسعة، لا نهاية لها..

أرضها من حصى أحمر اللون..

السماء في نهايتها تتألق كنيران مشتعلة..

وراحت (سامية) تدير عينيها فيما حولها في رعب، وهي تهتف:

-أين أنا؟.. ما الذي أتى بي إلى هنا؟

وفجأة التقت عيناها بوجه مخيف..

رهيب..

مرعب..

نفس الوجه الأحمر، ونفس العينين المشتعلتين..

وتراجعت في ارتياع، وذلك الشيء المخيف يمد أصابعه ذات الأظفار الملتهبة إليها، ويقول في غضب صارم رهيب:

- أين الصورة؟

أجابته وهي ترتجف رعبًا:

- ليست معي.. أقسم لك إنها ليست معي.

اشتعلت عيناه غضبًا، وهو يصرخ:

- أين الصورة؟

ثم دفع أحد أظفاره في كتفها اليسرى، وخيل إليها أن خنجرًا من اللهب قد أصاب ذلك الموضع، فأطلقت صرخة مدوية..

وراحت تصرخ..

وتصرخ..

وتناهى إلى مسامعها صوت يهتف:

- استيقظي يا ابنتي.. استيقظي.

وفجأة تلاشت الصحراء الملتهبة، وعادت جدران الحجرة تحيط بها، وبدا لها وجها أمها وأبيها، وهما ينحنيان نحوها، والأب يقول في قلق بالغ:

- ماذا حدث يا ابنتي؟.. ماذا حدث؟

تلفتت حولها في رعب، حتى اطمأنت إلى أنها حقًا داخل حجرتها، فأجهشت بالبكاء، وراحت تهتف بين ذراعي أمها:

- إنه كابوس يا أماه.. كابوس بشع.

ضمتها أمها إلى صدرها في حنان وإشفاق، ثم لم تلبث أن أبعدتها في دهشة، هاتفة في جزع:

- ماذا أصاب كتفك يا بنيتي؟

لحظتها فقط شعرت (سامية) بذلك الألم في كتفها، في نفس الموضع الذي غرس فيه ذلك الشيء أحد أظفاره المشتعلة..

وعندما كشفت عن كتفها، كانت تنتظرها مفاجأة مرعبة..

لقد كانت هناك بقعة من الدم تلوث كتفها وقميصها..

وكان هناك أثر لجرح صغير محترق..

جرح أحدثه أظفر صغير مشتعل..

☆ ☆ ☆

لم ير (أيمن) في حياته كلها (سامية) شاحبة وممتقعة، مثلما رآها في صباح اليوم التالي، في مبنى المجلة..

لقد التقيا هناك في الثامنة والنصف صباحًا، ولم يكد بصره يقع عليها حتى هتف:

- يا إلهي!.. ماذا أصابك؟

هزت رأسها، وزفرت في توتر، وهي تقول:

- لن تصدقني أبدًا.

ابتسم مغمغمًا في إشفاق:

- يمكنني أن أحاول.

زفرت مرة أخرى، وقالت:

- لقد زارني ذلك الشيء في نومي.

عقد حاجبيه، يسألها في حيرة:

- أي شيء.

لوحت بكفها، مغمغمة في توتر:

- الشيء الذي يحمل اسم (سليمان صابر).

سألها في اهتمام:

- أتعنين أنك قد حلمت به؟

هزت رأسها نفيًا، وهي تقول في رعب:

- لا.. لم يكن حلمًا، إلا لو كانت الأحلام تسبب الحروق والجروح.

وراحت تروي له ما رأته كله، وهو يستمع إليها في دهشة بالغة، ثم لم يلبث أن قطب حاجبيه، وقال في توتر:

- هل سألك عن الصورة؟

سألته في قلق:

- أما زلت تحتفظ بالنسخة السلبية؟

قال في حزم:

- بكل تأكيد.

ثم شرد ببصره لحظات، قبل أن يضيف:

- أظننا نحتاج إلى إجراء بعض التحريات أولًا، قبل أن نلتقي بذلك المهندس مرة أخرى يا (سامية).

سألته في قلق:

- مثل ماذا؟

أجاب في لهجة حاسمة:

- سأخبرك ونحن في الطريق إليه، أما الآن فسأعطي النسخة السلبية لـ (حسام)، لتحميضها وإظهارها وطبعها، حتى نعود إليه.. هيا بنا.

سألته في توتر، وهو يقودها إلى الخارج:

- إلى أين؟

أجابها في حزم:

- سنتأكد أولًا مما إذا كان هناك وجود حقيقي للمهندس (سليمان صابر) أم..

صمت لحظة، ثم أضاف في صرامة:

- أم أن كل هذا مجرد وهم.

☆ ☆ ☆

«ها هو ذا..»

نطقها موظف السجل المدني في ارتياح، وهو ينتزع ورقة تحمل صورة المهندس (سليمان)، وكل البيانات المتعلقة به، فالتقطت (سامية) الورقة في لهفة، وهتفت:

- مستحيل!!..

سألها (أيمن) في اهتمام:

- هل هناك صورة مختلفة؟

قالت في توتر:

- على العكس.. إنها صورته، ولكن هناك شيء يختلف.

- أي شيء؟

- انظر إلى هذه الصورة.. إن ملامح صاحبها تشي بالوداعة والرقة وطيبة القلب، حتى أنه يبدو شخصًا آخر تمامًا، بخلاف ذلك الشرس العدواني، الذي التقينا به هناك.

تطلع إلى هذه الصورة لحظات، ثم غمغم:

- هذا صحيح.

ثم نهض قائلًا:

- هيا بنا.

تبعته وهي تسأله:

- إلى أين.

قادها إلى سيارته، وانطلق بها، وهو يقول:

- سنذهب إلى حيث يعمل المهندس (سليمان)..

وأضاف في حزم:

- إن رحلة البحث لم تنته بعد..

☆ ☆ ☆

بدا الغضب على وجه مدير المكتب، الذي يعمل به (سليمان)، وسأل (أيمن) في حنق:

- أتسألني عن (سليمان صابر).. أأنت أحد أقاربه؟

أجابه (أيمن) في هدوء:

- هذ صحيح، ونحن نبحث عنه.

لوح الرجل بذراعيه في سخط، وهو يهتف:

- أخبرانا عندما تعثران عليه إذن، فلقد ترك العمل منذ يومين، دون أن يعتذر، أو يبلغنا بسر غيابه، وها هو ذا اليوم الثالث يبدأ، دون أن نعلم عنه شيئًا.

عقد (أيمن) حاجبيه، وهو يقول:

- هكذا؟

صاح به الرجل محنقًا:

- نعم.. هكذا.

لم يسأله (أيمن) شيئًا آخر، وإنما قال لـ (سامية)، وهما ينطلقان بسيارته إلى مبنى المجلة.

- يبدو أن (سليمان صابر) هذا يخفي سرًا رهيبًا.

تمتمت في رهبة:

- ومخيفًا.

تطلع إليها لحظة، ثم عاد يعتدل مراقبًا الطريق، وهو يسألها:

- أتتوقعين أن تقودنا الصورة إلى شيء ما؟

غمغمت:

- بالتأكيد.

- مثل ماذا؟

- لست أدري.

- أهو شيء ما يخفيه في هيئته؟

- أو هو هيئته نفسها.

اكتفيا بهذا القدر من الحديث، حتى بلغا مبنى المجلة، فأسرعا يستقلان المصعد إلى حيث حجرة التصوير، واستقبلهما (حسام) خارجها، وهو يقول:

- ما الذي جذب اهتمامكما بشأن هذه الصورة؟.. إنها صورة عادية للغاية، وسخيفة أيضًا.

سألته (سامية):

- ألم يبد لك وجه الرجل فيها مثيرًا للاهتمام؟

تطلع إليها (حسام) في دهشة، وهو يقول:

- وجه الرجل؟!.. أي رجل؟

ثم التقط الصورة، ووضعها أمام أعينهما، مستطردًا:

- إنها مجرد صورة لـ (جراج) خال.

حدق الاثنان في الصورة في ذهول..

لقد كانت الصورة لـ (جراج) فيلا (سليمان صابر) بالفعل..

ولكنها لم تكن تضم (سليمان) أو الصندوق..

كانت صورة خالية..

خالية تمامًا..

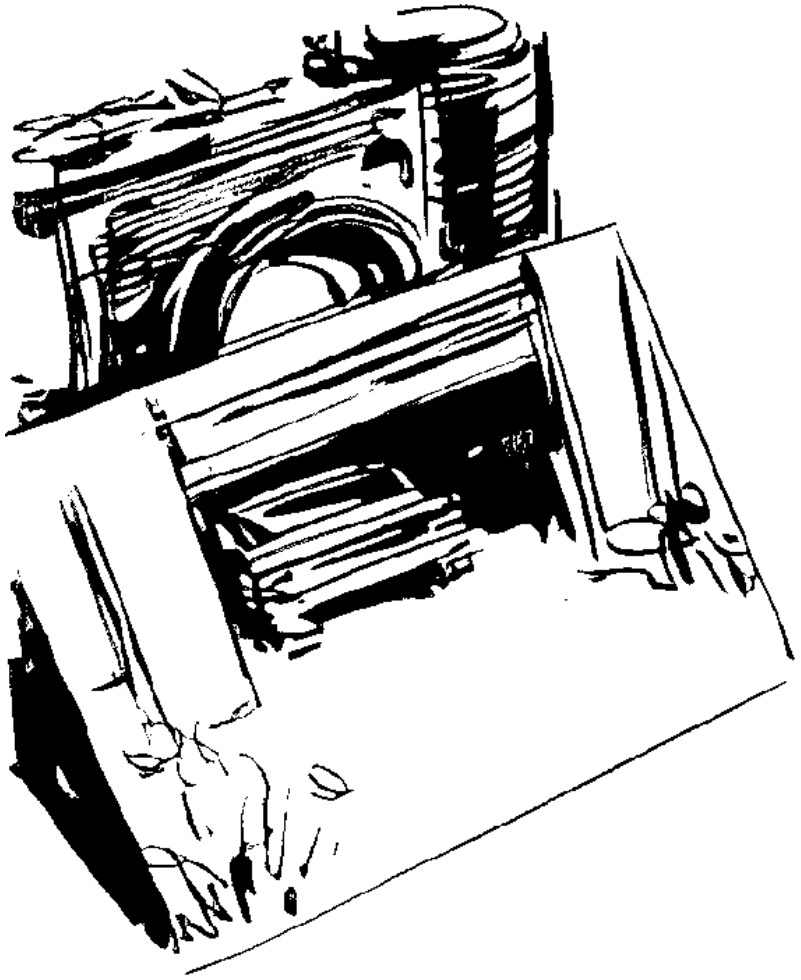

☆ ☆ ☆

5- تسلُّل..

غاصت (سامية) في مقعد السيارة، المجاور لمقعد القيادة، وانكمشت كثيرًا، وهي تراقب الطريق الصاعد إلى (المقطم)، وقد مالت الشمس إلى الغروب، ولاذت هي بالصمت التام، إلى أن سألها (أيمن) في خفوت:

- هل تشعرين بالخوف؟

تمتمت:

- إلى حد ما.

ثم التفتت إليه تسأله.

- وماذا عنك؟

ابتسم ابتسامة باهتة، وهو يجيب:

- أشعر بالخوف عليك فحسب.

ران عليهما الصمت لحظات، ثم قالت هي في صوت خفيض:

- هل تعلم ما الذي سأفعله، لو انتهى هذا الأمر على ما يرام؟

أجابها في هدوء:

- ستتزوجينني.

عقدت حاجبيها، وهي تقول في حدة:

- لست أجد في نفسي الرغبة في المزاح.

تمتم في رقة:

- لا بأس.. أردت تلطيف الجو قليلًا فحسب.

شعرت بتأنيب الضمير، فقالت:

- معذرة.. يبدو أنني متوترة بحق.

أوقف سيارته على بعد أمتار قليلة، والتفت يسألها:

- هل نطرق الباب؟

قالت في توتر، وهي تغادر السيارة:

- لا.. سننفذ خطتنا.

التقط مصباحًا ضوئيًا، وتبعها على أطراف أصابعه، هامسًا:

- أتعلمين أننا سنرتكب مخالفة قانونية هكذا؟

همست:

- أعلم، ولكن الوسيلة الوحيدة لمعرفة طبيعة ذلك الصندوق العجيب، الذي لا تلتقطه الصورة الضوئية هو وصاحبه، هي اقتحام ذلك (الجراج) خلسة.

راحا يدوران حول (الجراج)، حتى كشفا وجود نافذة جانبية، عالجها (أيمن) بعض الوقت، حتى استجاب رتاجها، وانفتحت على مصرعيها، فهمس:

- هيا.. سأذهب أنا أولًا.

قفز عبر النافذة إلى داخل (الجراج)، وهمس بها:

- اتبعيني.

دفعت جسدها الضئيل عبر النافذة بدورها، وهمست في خوف:

- لم لا تضيء المصباح؟.. ذلك الظلام الدامس يملأ قلبي بالرعب.

أضاء مصباحه اليدوي، وراح يدير ضوءه في المكان، حتى وقع على ذلك الصندوق الكبير، فهتفت (سامية):

- ها هو ذا.

أخرجت آلة التصوير في سرعة، وراحت تلتقط عدة صور للصندوق، من جميع الاتجاهات، ثم قالت:

- ترى أي شيء يحتويه هذا الصندوق؟

اتجه نحو الصندوق، وهو يقول:

- دعينا نرى بأنفسنا.

راحا يفحصان الصندوق طويلًا، ثم هتفت (سامية) في حيرة ودهشة:

- عجبًا!!.. إنه يبدو لي أشبه بكتلة مصمتة من الخشب، بلا فتحات أو أقفال، فيما عدا تلك الدائرة الحمراء في زاويته.

وقفا يتطلعان إلى الصندوق في حيرة، ثم ألقى (أيمن) بقعة الضوء على ركن آخر من أركان (الجراج)، وقال:

- هناك صندوق آخر.

اتجها إلى ذلك الصندوق الآخر، الذي بدا مستطيلًا قصيرًا، يختلف في مادته وهيئته كثيرًا عن الصندوق الأول، وغمغمت (سامية):

- هذا الصندوق له غطاء واضح على الأقل.

انحنى (أيمن)، وفحص الغطاء، وقال:

- ولا توجد أقفال.

ثم رفع غطاء الصندوق، وألقى ضوء مصباحه داخله..

وتراجعت (سامية) في رعب..

وأطلقت صرخة قوية..

لقد كان الصندوق يحوي جثة رجل..

جثة المهندس (سليمان صابر)..

☆ ☆ ☆

تراجع (أيمن) بدوره في ذعر، وأمسك كتفي (سامية) في قوة، وهو يهتف:

- كفى يا (سامية).. كفى.

كانت أعصاب المسكينة قد انهارت تمامًا، فراحت تطلق صرخات مخيفة عالية، مما اضطر (أيمن) إلى أن يهوى على وجهها بصفعة قوية، ارتج لها كيانها كله، قبل أن تحدق في وجهه في ذهول، ثم تنفجر باكية بين ذراعيه..

وفي حنان شديد، راح (أيمن) يربت على كتفيها، وهو يقول:

- رويدك يا حبيبتي.. رويدك.. سينتهي كل شيء على ما يرام بإذن الله.. سينتهي كل شيء على ما يرام.

انتحبت في شدة، وهي تقول:

- هل رأيته يا (أيمن).. إنه قتيل.. قتيل!!

انبعث من خلفهما صوت بارد كالثلج.. يقول:

- بل هو في سبات عميق فحسب.

التفتا إلى مصدر الصوت في ذعر، في نفس اللحظة التي أضيئت فيها أنوار (الجراج)..

وأطلقت (سامية) شهقة ذعر أخرى..

لقد كان يقف أمامها شخص، أو شيء، هو صورة طبق الأصل من المهندس (سليمان صابر)، الذي يرقد داخل الصندوق، فيما عدا أن ذلك الواقف كان يملك عينين كجمر مشتعل..

مضت لحظات من صمت مشوب برعب وذهول وخوف، قبل أن يحيط (أيمن) كتفي (سامية) بذراعه، ويقول لذلك الواقف في حدة:

- من أنت إذن؟.. إنك لست المهندس (سليمان).

وتمتمت (سامية) في رعب:

- بل ما أنت؟

حدجهما ذلك الشيء بنظرة نارية مخيفة، قبل أن يقول في صوت رهيب مخيف، بدا وكأنه يأتي من أعماق الجحيم:

- لقد أتيتما في لحظة غير مناسبة.. كان ينبغي أن تؤجلا حضوركما يومين فقط.

سأله (أيمن) في حيرة:

- وما الذي كان يفترض حدوثه لو فعلنا؟

أشار الشيء إلى صدره، والتمعت عيناه ببريق مخيف، وهو يقول بصوته الرهيب:

- كان كوكب الأرض سيصبح ملكنا.

ردد (أيمن) و(سامية) في آن واحد:

- ملككم؟!

ثم هتف (أيمن) مستطردًا:

- ومن أنتم؟

كشر ذلك الشيء عن أنيابه، وهو يقول:

- لا داعي لأن تعرف.. إنك لن تفهم أبدًا.. لن يفهم أحدكما.

ثم رفع يده، التي استحالت إلى يد حمراء معروقة، تبرز منها نفس الأصابع المشتعلة، التي رأتها (سامية) في حلمها، واستطرد في شراسة:

- يكفي أن تموتا، لتنتهي المشكلة كلها.

وأطلقت (سامية) صرخة رعب هائلة، عندما رأت تلك الأصابع المشتعلة تنقض عليها..

ومعها الموت..

☆ ☆ ☆

6- المواجهة..

لم تتصور (سامية) أبدًا أن (أيمن) يمكنه أن يقاتل..

والواقع أنه هو أيضًا لم يتصور في نفسه هذه المقدرة..

ولكن يبدو أن الحب شيء رائع بالفعل..

لقد رأى (أيمن) ذلك الشيء ينقض على الفتاة التي تحتل قلبه، فاندفع بلا تفكير يدفعها بعيدًا عن المخالب المشتعلة، وهو يهتف:

- ابتعدي يا (سامية).

وألقتها دفعته بعيدًا، ولكن المخالب هوت على كتفه و، فمزقت سترته وقميصه ولحمه..

وسالت الدماء الدافئة على كتفيه، وذلك الشيء يقول:

- إذن فأنت ترغب في أن تكون أول ضحايانا من البشر.. فليكن.

وانقض عليه مرة أخرى، وحاول (أيمن) أن يقفز مبتعدًا، ولكن المخالب المشتعلة خمشت صدره هذه المرة، ومزقت ثيابه، وأدمته..

وتراجع الشيء قائلًا:

- ما رأيك؟.. أنت أم الفتاة؟

أجابه (أيمن) في حدة:

- لن تمس شعرة واحدة من رأسها، وأنا على قيد الحياة.

حدجه ذلك الشيء بنظرة نارية، وهو يقول:

- عجيب أمركم يا بني البشر، ما زلتم تدهشونني بعواطفكم هذه.

ثم أخرج من جيبه كرة مضيئة، وقال:

- وهذا يدفعني إلى إنهاء القتال بسرعة أكبر.

قفز (أيمن) جانبًا هذه المرة، في نفس اللحظة التي انطلقت فيها من الكرة حزمة من أشعة حمراء، أصابت نفس الموضع، الذي كان يقف فيه (أيمن)، فقال الشيء في برود:

- لن تفلت إلى الأبد.

وهنا قفزت (سامية)، وركلت الكرة من يد الشيء، هاتفة:

- هذا لو بقي سلاحك في قبضتك.

سقطت الكرة، وتدحرجت إلى ركن (الجراج)، والتفت الشيء إلى (سامية)، وهو يقول في غضب:

- لقد حكمت على نفسك بالإعدام أيتها البشرية.

وقبل أن تقفز مبتعدة، قفزت يده تقبض على معصمها في قوة، فصرخت في رعب:

- أنقذني يا (أيمن).

- اندفع (أيمن) نحو ذلك الكيان، وتعلق برقبته، هاتفًا:

- اتركها أيها الحقير.

ولكن الشيء دفع مرفقه إلى الخلف، وغاص به في معدة (أيمن)، الذي شعر وكأن مطرقة هائلة من الصلب قد أصابت معدته، ودفعته إلى الخلف في قوة، والشيء يلتفت إلى (سامية) مرة أخرى، ويرفع كفه الثانية، ويفرد أصابعها ذات المخالب المشتعلة عن آخرها، قائلًا:

- أتعلمين ما سأفعله بك أيتها الأرضية؟.. سأدفع يدي في صدرك، وأنتزع قلبك، وأحتفظ به كذكرى أول بشرى يلقي حتفه على أيدينا هنا.

صرخت (سامية):

- النجدة يا (أيمن)!! النجدة!!

ولم يشعر (أيمن) بالعجز في حياته كلها، مثلما شعر به في تلك اللحظة، وهو يواجه ذلك الموقف..

ولكن لا..

لقد وقع بصره على الكرة العجيبة، الملقاة في ركن الحجرة، فاندفع إليها، والتقطها في راحته، ثم صوبها نحو الشيء..

وتملكته الحيرة..

ما الذي ينبغي أن يفعله لإطلاق الأشعة منها؟.

إنها لا تحوي أية أزرار أو أجزاء..

فقط كرة مستديرة من قطعة واحدة..

وشاهد يد الشيء ترتفع..

والمخالب تزداد اشتعالًا..

و (سامية) تصرخ طالبة النجدة..

ثم هوت يد الوحش على صدر (سامية)..

وصرخ هو:

- لا.. لا..

ومع صرخته اعتصرت قبضته الكرة..

وانطلق ذلك الشعاع الأحمر..

وأصاب هدفه..

وتراجع ذلك الشيء، متخليًا عن (سامية)، وهو يطلق صرخة مدوية رهيبة، لم يسمع بشري مثلها من قبل.. واستدار الشيء يتطلع إلى (أيمن) في غضب هائل، ثم اتجه نحو الصندوق المصمت، وهو ينتحب.. أو يطلق صوتًا أشبه بالنحيب..

وفي دهشة بالغة، تطلع إليه (أيمن) و(سامية)، وهو يلصق جسده بالصندوق، ويهتف:

- لقد فشلت العملية..

وفجأة ومض جسد الشيء في قوة، وتألق (الجراج) كله بوميض أحمر مخيف، وصرخت (سامية):

- انظر إليه.

اتسعت عينا (أيمن) عن آخرهما، عندما رأى الشيء يفقد هيئته البشرية، وسط ذلك الوميض الأحمر، ويتحول إلى مسخ يشبه ذلك الذي رأته (سامية) في كابوسها..

ثم اختفى كل شيء بغتة..

وعاد الظلام يسود (الجراج)..

وهتفت (سامية)، وهي تلهث:

- (أيمن).. ماذا حدث؟

أجابها في توتر، وهو يشاركها اللهاث، من فرط التعب والانفعال والألم:

لست أدري.. ربما استهلك كل الطاقة.

اتجه يتحسس طريقه إلى حيث مفتاح الإضاءة، وأضاء مصباح (الجراج)، وهو يقول في حيرة:

- لقد كان المصباح مطفأ.. من أين كان يأتي ذلك الضوء إذن؟

زفرت في توتر، وألقت جسدها أرضًا، وهي تغمغم:

- ليس هذا هو الشيء الوحيد، الذي يحتاج إلى تفسير.

ثم أطلقت ضحكة عصبية، مستطردة:

- هل تصدق أن كل هذا قد بدأ بفكرة إجراء تحقيق مع شخص عادي؟

غمغم مشدوهًا، وهو يحدق في البقعة التي اختفى فيها الصندوق والشيء:

- شخص عادي؟!.. يا إلهي!

سألته في توتر:

- أي شيء كان هذا في رأيك؟.. مخلوق من كوكب آخر، أم عفريت من الجن؟

هز رأسه مغمغمًا:

- من يدري؟.. كلاهما قد يرغب في احتلال الأرض.

أومأت برأسها موافقة، ثم أشارت إلى حيث يرقد جسد (سليمان)، وتمتمت:

- أتظنه سيستيقظ؟

هز كتفيه، قائلًا:

- من يدري؟.. لم يعد هذا يهمني كثيرًا.

ثم أضاف وهو يعاونها على النهوض:

- المهم الآن هو أن نرحل من هنا.

غمغمت:

- صدقت.

غادرا (الجراج) من بابه هذه المرة، وألقت (سامية) نظرة أخيرة على الفيلا، قبل أن تدلف إلى السيارة، قائلة:

- أتظن أحدًا يصدق قصتنا؟

ابتسم قائلًا:

- لا.. ولا رئيس التحرير نفسه.

ثم انطلق بالسيارة، مستطردًا:

ولكنني على استعداد لإقناعه، لو قبلت الزواج مني.

ضحكت في مرح، وهي تقول:

- أما زلت تصر على الحديث عن هذا الأمر؟

هز كتفيه مرة أخرى، قائلًا:

- ولم لا؟

ابتسمت قائلة:

- لدى وسيلة مضمونة لمنعك من التحدث عنه.

سألها في اهتمام:

- ما هي؟

تخضب وجهها بحمرة الخجل، وهي تغمغم:

- سأقبل الزواج منك.

صرخ في سعادة:

- مستحيل!!..

وعندما كانت السيارة تبتعد بهما، وقد انتهت مغامرتهما المذهلة على هذا النحو، كان الجسد الراقد في الصندوق الآخر يفتح عينيه، ثم ينهض في بطء، ويغادر الصندوق، ثم يغلقه في إحكام، ويعتدل في وقفته، ثم تشتعل عيناه كجمرتين ملتهبتين، وهو يقول عبر جهاز مستطيل صغير.

لقد فشل (آراك 600) في أداء مهمته، وتلاشى مع محرك الانتقال.. وسأحل أنا (آراك 700) محله.. في انتظار محرك انتقال آخر لبدء الغزو..

واتجه في هدوء نحو الفيلا..

فيلا (سليمان صابر)..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- فكرة جديدة..

2- صورة..

3- الشيء..

4- زائر الليل..

5- تسلُّل..

6- المواجهة..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الزائر الغامض

د. نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

2458

كوكتيل 2000

قصص العدد

الزائر الغـامض

1- زيــارة..

تنهد الدكتور (حامد شوقي) في ارتياح، وهو يلتقط بأصابعه كرة سوداء صغيرة، ذات سطح شديد اللمعان، وابتسم وهو يرفعها أمام وجهه، قائلًا لزميله الدكتور (أشرف).

- هل يمكنك أن تصدق هذا؟

التقط زميله الدكتور (أشرف) تلك الكرة اللامعة في حرص بالغ، وبدا شديد الانبهار، وهو يقول:

- إنه نصر علمي بكل المقاييس.

قال (حامد) في سعادة.

- وبأقل تكلفة.

ثم مد يده إلى سطح المكتب، على ارتفاع نصف المتر تقريبًا، وترك الكرة..

وعلى الرغم من معرفة (أشرف)، وإدراكه لما سيحدث، إلا أنه لم يتمالك نفسه من أن يطلق شهقة قصيرة، عندما بقيت الكرة معلقة في الهواء، وكأنها تتحدى قوانين الجاذبية الأرضية..

بل لقد كانت تتحداه بالفعل، فهذه الكرة السوداء اللامعة، كانت هي أول صورة أرضية معروفة لمضادات الجاذبية الأرضية..

وبكل انبهاره، قال (أشرف):

- من كان يتصور هذا؟.. من كان يصدق أن تحرز (مصر) ذلك النصر العلمي، الذي يعد حلمًا من أحلام العلماء، منذ نبتت فكرة السفر إلى الفضاء في العقول..

تطلع (حامد) إلى الكرة، التي راحت تدور حول نفسها في بطء، وتعكس أضواء المعمل في شكل رائع، وبدا شاردًا لحظات، ثم قال:

- أتعلم ما الذي يمكن أن يفعله هذا الكشف العلمي يا (أشرف)؟.. إنه سيفتح أمامنا مجالات هائلة، وآفاقًا واسعة في علم السفر إلى الفضاء.. تصور مكوكًا فضائيًا يتم صنعه بهذه المادة، بحيث يمكنه عبور الغلاف الجوي بأقل طاقة ممكنة.. بل تخيل صواريخ هائلة، تحمل مستعمرات كاملة، وتعبر مجال الأرض في يسر، لتبني مدنًا فضائية، و...

قاطعه الدكتور (أشرف) مبهورًا:

- أمر رائع.. رائع بحق!

ثم سأله في لهفة:

- متى تنوي إعلان ذلك الكشف الرائع؟

صمت (حامد) لحظات مفكرًا، ثم قال:

- أظن أن أفضل مناسبة لذلك هي مؤتمر أبحاث الفضاء، الذي سيقام في الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أسبوعين.

هتف (أشرف):

- ستكون قنبلة المؤتمر.

ثم انخفض صوته، وهو يسأله:

- قل لي: هل أخبرت مدير المركز بكشفك هذا؟

ابتسم (حامد)، وهز رأسه، قائلًا:

- لا أحد يعلم بأمر هذه الأبحاث سواي أنا وأنت، منذ بدايتها.

سأله في دهشة:

- ألهذا طالبتني بكتمان السر تمامًا؟..

أومأ (حامد) برأسه إيجابًا، فعاد (أشرف) يسأله في حيرة:

- ولكن كيف كنت تحصل على المواد اللازمة؟

ضحك (حامد)، وقال:

- أوهمتهم بأنني أقوم بأبحاث حول مادة تمنع صدأ المعادن إلى الأبد.

هتف (أشرف):

- فقط؟!

ثم انفجر ضاحكًا، وهو يستطرد:

- يا لك من مخادع!

ابتسم (حامد) ابتسامة شاردة، وقال:

- دعك من هذا الآن، وأخبرني.

وعاد يلتقط الكرة اللامعة بين أصابعه في حذر، مستطردًا:

- ما الذي يخفيه لنا هذا الكشف في المستقبل؟

وبدا الجواب غامضًا.

ومثيرًا..

☆ ☆ ☆

استوقف رجل الأمن، عند بوابه المركز القومي للبحوث، ذلك الشاب النحيل، الذي بدا حائرًا متوترًا، وهو يتقدم نحو البوابة، وسأله في حزم:

- إلى أين يا سيدي؟

تطلع إليه الشاب لحظات في صمت أشبه بالحيرة، قبل أن يلتقط أنفاسه في صوت مسموع، ويعتدل قائلًا:

- أريد مقابلة الدكتور (حامد شوقي).

نطقها الشاب بلهجة مهذبة للغاية، إلا أن شيئًا ما في لغته أو أسلوبه لم يرق لحارس الأمن، الذي رمقه بنظرة شك طويلة، وهو يفحصه كله ببصره في ريبة..

كانت ملامح الشاب تبدو عادية، مع قليل من الشحوب، وملابسه تبدو جديدة للغاية، كما لو أنه قد ابتاعها على التو..

حتى حذاؤه كان لامعًا أنيقًا مصقولًا، لا يحمل سطحه ذرة واحدة من الأتربة، التي تتطاير في العاصمة عادة..

وبكل شكه وريبته، قال حارس الأمن:

- ألديك موعد سابق معه؟

أجابه الشاب في سرعة:

- لدي تصريح خاص بمقابلته.

قالها وأخرج ورقة صغيرة، ناولها إلى حارس الأمن، الذي عقد حاجبيه في قلق لم يدر مصدره، وهو يتطلع إليها.. كانت تصريحًا بمقابلة الدكتور (حامد شوقي)، داخل مركز البحوث، والتصريح يحمل توقيع وزير البحث العلمي في وضوح..

ولكن حارس الأمن لم يشعر بارتياح..

ملمس الورقة لم يرق له..

وكذلك نظافتها البالغة..

وفي حزم، قال حارس الأمن:

- معذرة يا سيدي، ولكننا سنتصل أولًا بمكتب السيد وزير البحث العلمي، و...

لم يكن بحاجة إلى إتمام عبارته، فقد ارتسم الذعر على وجه الشاب، وبدا شديد التوتر والعصبية، وهتف في حدة:

- لا تحاول تعطيل مهمتي.. سأقابل الدكتور (حامد)، سواء شئت أم أبيت.

عقد الحارس حاجبيه في حزم وقال:

- معذرة يا سيدي ولكن نظام الأمن هنا يحتم أن..

قبل أن يتم عبارته، هوى الشاب على فكه بلكمه قوية، لا تتناسب مع جسده النحيل، ثم قفز يعبر البوابة، ويندفع إلى الداخل، في حين سقط حارس الأمن أرضًا، ثم اعتدل صارخًا:

- أوقفوه.. أوقفوا هذا الشاب.

حاول البعض اعتراض طريق الشاب، إلا أنه راوغ معترضيه في مهارة، وانطلق يعبر ممرات مركز البحوث، متجهًا نحو معمل الدكتور (حامد)، وكأنه يعرف طريقه جيدًا، وهو يهتف:

- ابتعدوا.. لا تجبروني على مقاتلتكم.

ولكن رجال الأمن طاردوه في إصرار، وصاح به أحدهم وهو يخرج من مسدسه:

- قف وإلا أطلقنا النار.

استدار إليه الشاب في سرعة، وأخرج من جيبه شيئًا يشبه كرة من الثلج الأبيض، ألقاه نحو رجال الأمن، فانفجرت بصوت مكتوم، وتصاعدت منها أبخره كثيفة، فصاح أحدهم:

- أطلقوا النار.

قالها وأطلق رصاصتين من مسدسه عبر سحب الدخان، وتناهى إلى مسامع الجميع صوت آهة ألم خافتة، فصرخ رئيس الأمن:

- لا.. لا تطلقوا النار.. قد نصيب أحد علماء المركز.

بلغ دوي الرصاصتين معمل الدكتور (حامد) فالتفت إلى الباب، وهو يقول في قلق:

- ماذا يحدث؟

أجابه (أشرف)، وهو لا يقل عنه قلقًا:

- لست أدري!.. إنها أول مرة يحدث فيها هذا هنا.

اتجها نحو الباب؛ لاستطلاع الأمر، و..

وفجأة اقتحم الشاب الحجرة، وهو يمسك صدره في ألم، والدماء تنزف منه في غزارة، وبدت عيناه زائغتين، مما أصاب (أشرف) بالذعر، فهتف:

- ما هذا؟.. من أنت؟

ولكن الشاب تجاهله تمامًا، واتجه مترنحًا إلى الدكتور (حامد)، وتشبثت به، هاتفًا في وهن:

- دمر تلك الكرة السوداء اللعينة.. لا تذهب إلى المؤتمر الأمريكي.. صدقني هذا أفضل للجميع.

اتسعت عينا الدكتور (حامد) في ذهول، وسأله:

- ولكن كيف؟.. كيف علمت بكل هذا؟.. إننا..

قبل أن يتم عبارته اقتحم رجال الأمن المعمل، وصاح أحدهم:

- ألقوا القبض عليه..

استدار إليهم الشاب في سرعة، على الرغم من إصابته، وأسرعت يده نحو جيب قميصه، ولكن أحد رجال الأمن صرخ:

- احترسوا.. سيلقي قنبلة أخرى.

وبسرعة أطلق رجل أمن رصاصة نحو الشاب..

وأمام أعين الجميع، جحظت عينا الشاب في ألم، ثم سقط جثة هامدة..

وساد الصمت التام المكان..

ووحده راح الدكتور (حامد) يحدق في جثة الشاب في ذهول، حتى أسرع إليه الدكتور (أشرف)، وسأله:

- أأنت بخير؟

بدا وكأن الدكتور (حامد) لم يسمع السؤال أبدًا، فقد ردد في ذهول تام:

- كيف عرف؟.. كيف عرف؟..

وبقي السؤال بلا جواب..

☆ ☆ ☆

2- الغمــوض..

هز (أشرف) رأسه، وهو يلقي صحيفة الصباح جانبًا، ويقول:

- أرأيت ما كتبته الصحف عن الحادث؟.. سطرين فحسب في صفحة الحوادث:

«مجهول يقتحم مركز البحوث، ويلقي مصرعه برصاص رجال الأمن».. أي سخف هذا؟.

لم يبد له أن (حامد) قد سمع حرفًا واحدًا من حديثه، فأمسك كتفه، قائلًا:

- ماذا بك؟

التفت إليه (حامد) عاقدًا حاجبيه، ولوح بكفه قائلًا في توتر:

- هل تسألني؟.. ألم يقلقك كل هذا الغموض؟.. ألم تثر كلمات الشاب حيرتك؟

عقد (أشرف) حاجبيه بدوره، وتمتم:

- بل أثارت رعبي، ولكنني أحاول تجاهل الأمر.

لوح (حامد) بكفيه مرة أخرى، وقال في عصبية:

- كيف له أن يعلم بأمر الكرة المضاد للجاذبية؟.. بل كيف عرف بأمر رغبتي في عرض الكشف في المؤتمر الأمريكي، ولم أكن قد اتخذت هذا القرار إلا قبيل لحظات؟

تنهد (أشرف)، وقال:

- ليتني أعلم.

بدا (حامد) شديد التوتر، وهو يقول:

- ولماذا وصف الكرة بأنها لعينة؟.. وما الذي يقصده بأن تدميرها أفضل للجميع؟

ضرب سطح المنضدة بقبضته في غضب، مستطردًا:

- لماذا لقى مصرعه، وترك لنا كل هذا الغموض؟

اختطف الصحيفة في حدة، وألقى نظرة على الخبر القصير، ثم ألقاها مرة أخرة في عنف، وسأل (أشرف):

- إلى أين نقلوا جثته؟

أجابه (أشرف):

- إلى مشرحة (زينهم)، فلابد من تشريح جثته، طبقًا للقانون.

التقط (حامد) سترته، واتجه إلى الباب، فهتف به (أشرف) قلقًا:

- إلى أين؟

أجابه في حزم:

- إلى مشرحة (زينهم).

ثم التفت إليه، مستطردًا في توتر:

- أريد أن أعرف أكثر.

وأغلق الباب خلفه في عنف..

☆ ☆ ☆

«نعم.. أنا المسئولة عن فحص جثة الشاب المجهول»

تطلع الدكتور (حامد) في دهشة إلى الشابة الفاتنة، التي تقف أمامه في هدوء، بعد أن نطقت عبارتها، وهتف مستنكرًا:

- أنتِ؟

قالت في صرامة، وهي تخلع معطفها الأبيض، ليبدو من تحته ثوبها الأنيق البسيط:

- ماذا في هذا؟

راقبها وهي تتجه إلى ما خلف مكتبها، وتتخذ مجلسها مرفوعة الرأس في اعتداد، وقال:

- أأنت طبيبة شرعية؟

قالت في تحد:

- هل يحظر القانون هذا؟

جلس وهو ينظر إلى جمالها في حيرة، وغمغم:

- لا، ولكنني أظنها مهنة شاقة، لا تصلح للنساء، و..

مالت نحوه بغتة، وقاطعته في حزم:

- لست أظننا هنا لمناقشة هذا.. أخبرني أولًا: لماذا طلبت مقابلتي؟

عجز عن الجواب لحظات، أمام فتنتها، ثم لم يلبث أن تنحنح؛ ليستعيد رصانته، وهو يقول:

- أريد معرفة نتائج تشريح الشاب، وفحص أشيائه.

صمتت لحظة، ثم قالت:

- ستجد كل هذا في التقرير الرسمي، الذي سأرسله للنيابة.

قال في لهجة، أدهشه أن بدت ضارعة:

- لا.. أرجوك.. سيصيبني الجنون، ما لم أعرف ما توصلتِ إليه.

رمقته بنظرة شك قصيرة، قبل أن تسأله:

- هل يهمك الأمر إلى هذا الحد؟

لوح بكفه، قائلًا:

- ماذا كنت أنت ستفعلين، لو هاجمك شخصي غامض في معملك، وتحدث إليك بعبارات مذهلة، وكأنه يقرأ أفكارك ثم لقى مصرعه، قبل أن يفسر شيئًا من هذا؟

ظلت تتطلع إليه لحظات في صمت، ثم قالت في بطء:

- كنت سأجن حتمًا.

اعتدلت في جلستها، وسألته:

- قل لي: هل سبق لك أن التقيت بهذا الشاب قبلًا؟

قال في ضيق:

- قلت لك إنني لم أره إلا عند اقتحامه معملي.

أومأت برأسها متفهمة، ثم نهضت من خلف مكتبها، واتجهت إلى خزانة مغلقة في ركن الحجرة، وهي تقول:

- أثبت الفحص أنه ذكر عادي، في أواخر العشرينات من عمره، أصابته رصاصة مباشرة في المخ، كانت سببًا في وفاته، وأصابته قبلها رصاصة في عظمة القص، في منتصف صدره، مرت على بعد سنتيمتر واحد من الشريان الأورطي.

أخرجت مفتاحها، وفتحت الخزانة، والتقطت من داخلها عدة أكياس، نقلتها إلى سطح مكتبها، وهي تتابع:

- كل هذا أمر بسيط ومعتاد، حتى نصل إلى مرحلة فحص الثياب والمتعلقات.

التقطت قميص الشاب من أحد الأكياس، ووضعته أمام (حامد)، متابعة:

- قل لي: كيف يبدو لك هذا القميص؟

فحص القميص في حذر، وقال:

- إنه مجرد قميص عادي، ولكنه جديد على الأرجح، أو...

قاطعته في حزم:

- هراء.

بدت له مقاطعتها استفزازية، فرفع عينيه إليها في حدة، إلا أنها تابعت دون أن تلتفت إليه:

- أنظر إلى هذا.. إنه ثقب الرصاصة، التي اخترقت القميص، قبل أن تخترق صدر الشاب.. في المعتاد تكون أطراف القماش محترقة، ومتهتكة، وتلوث الدماء موضع الرصاصة، ولكنك لن تجد كل هذا هنا، فثقب الرصاصة مستدير نظيف، لا أثر فيه للاحتراق أو التهتك، ولا توجد عليه نقطة واحدة من الدماء.

أمسك القميص نفسه مرة أخرى، وراح يفحصه في دهشة، وهي تستطرد:

- القماش نفسه من نوع عجيب، فهو شديد النعومة والصلابة في آن واحد، وخيوطه قوية متماسكة على نحو عجيب.

مالت نحوه بغتة، وهي تضيف في حسم:

- واسمعها كلمة من سيدة.. لا يوجد مثيل لهذا القماش في العالم كله.

بهرته العبارة، فتطلع إليها مشدوهًا، وغمغم:

- سيدتي.. إنني..

قاطعته وهي تجلس على مقعدها:

- اسمي (ألفت).. الدكتورة (ألفت كمال).

قال في حيرة:

- وما الذي يعنيه هذا يا دكتورة (ألفت)؟

رفعت سبابتها أمام وجهها، فقالت:

- انتظر.. لم يحن وقت الاستنتاج بعد.

التقطت كيسًا آخر، وأخرجت منه ورقتين، ناولتهما له، قائلة:

- هذه البطاقة، التي كان يحملها الشاب، وهي تحمل اسم (فريد أحمد طاهر)، وهي تبدو طبيعية، ولكنها ليست كذلك، فهي والورقة الأخرى من نوع لم أره في حياتي كلها من قبل، ولقد استشرت زميلًا يختص بدراسة أنواع الورق، فأكد لي أنه لم يشهد مثل هذا الورق قط.. والورقة الأخرى مثيرة للحيرة أكثر، فهي تحمل توقيع السيد وزير البحث العلمي، والتوقيع سليم تمامًا، ولكن الوزير لم يضع توقيعه على الورقة أبدًا.

سألها في دهشة:

- ما معنى هذا اللغز؟

قالت في اهتمام:

- لقد نقل أحدهم صورة من توقيع الوزير على الورقة، باستخدام أسلوب أشبه بالتصوير.

واسترخت في مقعدها، وهي تضيف:

- أسلوب غير معروف.

عقد (حامد) حاجبيه، وهو يتطلع إليها مليًا، قبل أن يسألها:

- دكتورة (ألفت).. ما الذي تحاولين الإشارة إليه؟

ابتسمت قائلة:

- لا شيء بعد.. قلت لك إن وقت الاستنتاج لم يحن بعد.

سألها في توتر:

- أهناك شيء آخر؟

أجابته وهي تلتقط كيسًا ثالثًا:

- بالتأكيد.

التقطت حذاء الشاب اللامع المصقول من الكيس الثالث، ورفعته أمام (حامد)، وهي تقول:

- هذا الحذاء وحده معجزة، يدفع صانعو الأحذية نصف عمرهم، لمنع إنتاج مثله.

قال في حذر:

- ألأنه شديد النعومة واللمعان؟

ابتسمت قائلة:

- بل من المستحيل ألا يصبح كذلك، فالحذاء من مادة مقاومة للاحتكاك، يستحيل خدشها أو تآكلها، إلا باستخدام قاطع من الماس، وطلاؤه من مادة عجيبة، تطرد ذرات الغبار، بوساطة مجال كهرومغناطيسي محدود، و...

- ما كل هذا؟

استندت براحتيها إلى سطح المكتب، وقالت:

- كل هذا عبارة عن خيوط تقود إلى استنتاج واحد يا دكتور (حامد).

سألها في لهفة:

- ما هو؟

جلست باعتدال على مقعدها وتطلعت إليه لحظة، ثم قالت في حزم:

- هو أن هذا الشاب ليس شابًا أرضيًا.. إنه من خارج عالمنا.. رجل من كوكب آخر..

☆ ☆ ☆

3- الزائر الآخر..

مضت لحظات طويلة من الصمت، و(حامد) يحدق في وجه (ألفت)، قبل أن يبتسم ابتسامة مضطربة، ويقول:

- دكتورة (ألفت).. هل تداومين على قراءة روايات الخيال العلمي؟

أومأت برأسها إيجابًا في رصانة، وهي تقول:

- هذا صحيح، ولكنه أمر لا علاقة باستنتاجي، فهو استنتاج علمي محض.

ردد مستنكرًا:

- علمي محض؟!

ثم هتف في حنق:

- أي علم في هذا؟.. إنه استنتاج خيالي محض.. استنتاج يستند إلى تفاهات.

هزت كتفيها، غير مبالية بثورته، وهي تقول:

- هذه التفاهات تعجز معاملكم، في مركز البحوث، عن إنتاج مثلها يا دكتور (حامد)، ولا توجد دراسة واحدة تؤكد توصل دولة أخرى إليها.

ومالت إلى الأمام، تضيف في لهجة ذات مغزى:

- في كوكب الأرض.

على الرغم منه بدأ يقتنع بمنطقها، إلا أن خوفه من صحة هذا الاستنتاج جعله يقول في عناد:

- ولماذا يهبط مخلوق من كوكب آخر، ليقابلني أنا بالذات؟

قالت في هدوء:

- ربما لأنك توصلت إلى كشف هام، يهم أبناء كوكب آخر، أو يمثل خطرًا عليهم.

عقد حاجبيه، وهو يسترجع كلمات الشاب قبل مصرعه، وتسلل خوف مبهم إلى قلبه، وهو يتمتم:

- لا.. لا.. مستحيل!

ثم التفت إليها، يستطرد في حدة:

- هناك نقطة ضعف شديدة، في استنتاجك هذا.

سألته في اهتمام:

- ما هي؟

قال في عصبية:

- التركيب التشريحي للشاب.. لقد قلت بنفسك أنه تركيب عادي.

ابتسمت قائلة:

- وماذا في هذا؟.. أمن المحتم أن يختلف التركيب التشريحي لسكان الكواكب الأخرى عن تركيبنا؟.

وتحولت ابتسامتها إلى ضحكة، وهي تتابع:

- من منا صاحب الخيال الواسع إذن؟

صمت لحظات، وهو ينظر إليها، ثم لوح بذراعه كلها، هاتفًا:

- لا.. لن يمكنني أن أصدق هذا.

فتحت فمها لتنطق شيئًا ما، إلا أن كل شيء احتبس في حلقها، مع اتساع عينيها في انبهار، وهي تتطلع إلى ذلك الشاب البالغ الوسامة، الذي عبر باب حجرة مكتبها، في هذه اللحظة..

كان وسيمًا بحق، أشبه بنجوم السينما العالمية، تشع عيناه ذكاء وقوة، وتبدو قامته الممشوقة كقامة أبطال الرياضة..

وعندما تحدث بلغ صوته قلبها مباشرة، وهو يقول:

- أأنت الدكتورة (ألفت)؟

التفت (حامد) إلى مصدر الصوت، وتطلع إلى الشاب في اهتمام بالغ:

- وعلى عكس (ألفت)، لم يهتم (حامد) كثيرًا بوسامة الشاب وأناقته وإنما حدق في ملابسه الجديدة الأنيقة، وحذائه اللامع المصقول، ثم لم يلبث أن سأله في حدة:

- من أنت؟

تجاهله الشاب تمامًا، وهو يتطلع إلى الدكتورة (ألفت)، التي همست مبهورة:

- نعم.. أنا الدكتورة (ألفت).

ابتسم الشاب ابتسامة هادئة، بدت لها أكثر ابتسامات العالم جمالًا وجاذبية، حتى أنها بادلته الابتسام دون وعي، في حين اتجه إليه (حامد)، وكرر سؤاله، في لهجة أكثر حدة:

- سألتك من أنت؟

التفت إليه الشاب في هدوء، وأجابه:

- أنا (سمير طاهر)، شقيق (فريد).

قال (حامد) في حدة:

- كنت أعلم هذا.

أما (ألفت)، فقد نهضت من خلف مكتبها، واتجهت إلى الشاب، تسأله:

- أأنت شقيقه حقًا؟

لم يجب الشاب عن سؤالها، وإنما تطلع بعينيه العسليتين الصافيتين إلى عينيها مباشرة، وقال:

- دكتورة (ألفت).. كم يسعدني أن ألتقي بك وجهًا لوجه.. إنني شديد الإعجاب بك منذ.. منذ..

لم يكمل هذه العبارة، بل لاذ بالصمت بغتة، فسألته هي في فضول:

- منذ ماذا؟

ابتسم قائلًا:

- منذ زمن طويل.. طويل للغاية.

شعرت بحيرة شديدة لجوابه، إلا أن حيرتها لم تلبث أن دفعتها إلى إطلاق ضحكة مرتبكة، هي تقول:

- ولكنني لست عجوزًا إلى هذا الحد.

قطع (حامد) هذا الحديث، عندما أمسك ياقة (سمير) في عنف، وهو يقول في حدة شديدة:

- قل لي يا فتى: من أين أتيت بهذه الثياب؟

استدار إليه (سمير) في بطء، وتطلع إليه لحظات في صمت، قبل أن يقول:

- لماذا؟.. هل ترغب في شراء مثلها؟

وبحركة حادة مباغتة، اختطف (حامد) قدح ماء، من سطح مكتب (ألفت)، وألقاه على قميص (سمير) في عنف، هاتفًا:

- لا.. أرغب في اختبارها فحسب.

وأمام أعين الجميع، وارتطمت المياه بقميص (سمير)، ثم انزلقت عنه في حدة، انسكبت على الأرض، دون أن تترك أثر للبلل، على القميص، فهتف (حامد)، وهو يلتفت إلى (ألفت):

- هل رأيت؟.. ها هو ذا مخلوق فضائي آخر.

قال (سمير) في صرامة:

- أي هراء هذا؟

أما (ألفت) فقد تراجعت خطوة إلى الخلف، وتطلعت مرة أخرى إلى (سمير)..

لم يبد لها أبدًا كمخلوق من خارج الأرض..

أنه –على العكس– يشبه تمامًا فتى أحلامها، الذي رسمه لها خيالها، منذ كانت فتاة مراهقة، في المرحلة الثانوية..

وفي حيرة، سألته:

- من أنت حقًا؟

عاد يتطلع إليها، وقال في هدوء:

- أنا مخلوق من كوكب الأرض.. صدقيني.

كان يتحدث في صدق تام، حتى أنها صدقته على الفور، ولاذت بالصمت التام، في حين قال (حامد) في حدة:

- ما تفسير كل هذا إذن يا رجل الأرض؟.. كيف حصلت أنت وشقيقك على كل هذه الأشياء؟.. وكيف أدرك شقيقك ما يدور في ذهني، قبل أن أبوح به لأحد؟

نقل (سمير) بصره إليه، وقال في حزم:

- أأنت الدكتور (حامد شوقي)؟

أجابه (حامد) في عصبية:

- نعم.. هو أنا.

استدار إليه (سمير) بجسده كله، وقال:

- إنني أحمل إليك رسالة.

قال (حامد):

- أية رسالة؟

في حزم أجابه (سمير):

- نفس الرسالة التي عجز (فريد) عن إبلاغك بها.. لقد توصلت صباح أمس إلى كشف علمي خطير.. أليس كذلك؟

حدق (حامد) في وجه (سمير) في دهشة، ثم عقد حاجبيه، قائلًا في حزم وصرامة:

- ليس هذا من شأنك.

قال (سمير) في لهجة قوية، وكأنما لا يعنيه اعتراض (حامد):

- لقد توصلت صباح أمس بمعاونة زميلك الدكتور (أشرف مراد)، إلى صنع أول مادة مضادة للجاذبية، وصنعتما النموذج الأول منها على هيئة كرة سوداء مصقولة، شديد اللمعان، وأنت تنوي عرض الكشف في مؤتمر أبحاث الفضاء، في الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أسبوعين تقريبًا.

هتف (حامد) في ذهول:

- كيف تعلمون كل هذا؟

مرة أخرى تجاهله (سمير) تمامًا، وقال في صرامة:

- دمر تلك الكرة السوداء اللعينة يا دكتور (حامد).. دمرها قبل فوات الأوان.

حدق (حامد) و(ألفت) في وجه (سمير) في دهشة، وهتف (حامد):

- ماذا تعني؟

واصل (سمير)، وكأنه لم يسمعه:

- لا تعرضها أبدًا في المؤتمر الأمريكي.. لن يمكنك أن تتصور ما سيفعله بها الأمريكيون.. إنهم شعب يسعى دومًا للقوة

والسيطرة، ولن يكتفوا بالاستخدام السلمي لـ(الأنتيجرافيوم)، بل سيحولونه إلى وسيلة رهيبة للدمار، و..

قاطعه (حامد) في دهشة:

- (أنتيجرافيوم)؟!

ثم أمسك سترة (سمير) في عنف، مستطردًا:

- كيف علمت هذا الاسم؟.. إنني حتى لم أخبر به (أشرف).. بل لم أنطق به أبدًا.. لقد دار في ذهني فقط، و...

اتسعت عيناه في شدة، وبتر عبارته ليهتف:

- الآن فهمت.. إنك أنت وشقيقك المزعوم هذا من عالم آخر بالفعل.. إنكما..

استوقفه (سمير) في صرامة:

- كفى يا رجل.. لست مستعدًا لخوض هذا الجدل السخيف.. إن مهمتي هنا محدودة، فإما أن تدمر كرة (الأنتيجرافيوم)، أو..

بدت لهجته مخيفة، وهو يضيف:

- أو أقتلك.

☆ ☆ ☆

من أين؟..

انتفض جسد (ألفت)، عندما سمعت (سمير) ينطق كلمته الأخيرة، وتراجعت في حدة، هاتفة في استنكار:

- تقتله؟!

التفت إليها (سمير)، وقال في صرامة:

- لا تسيئي فهمي يا سيدتي.. لست قاتلًا، ولا حتى أميل إلى القتل، ولكن الأمر أخطر مما يمكنك تصوره.. إنه مستقبل العالم كله.. مستقبل الحضارة والتقدم.

صاح به (حامد):

- ومن أنت حتى تدّعي العلم بما ستفعله مادتي في العالم والحضارة؟.. من أدراك أنها لن تكون بابًا لمزيد من الحضارة والتقدم؟

هتف به (سمير):

- ستكون كذلك في البداية فحسب، ثم..

صرخ به:

- لا شأن لك بما سيحدث بعد هذا.

اتجه إليه (سمير) في صرامة، وقال:

- اسمع يا دكتور (حامد).. كان المفروض أن يتم (فريد) المهمة بنفسه، ولم يكن من الممكن أن آتي أنا، ما لم يلق هو مصرعه؛ لهذا أجهل الكثير عن كل شيء هنا، ولكن هذا لن يمنعني من إتمام المهمة، حتى ولو كلفني هذا حياتي.

تراجع (حامد) في حدة، وهتف:

- لقد فهمت.. إذن فأنت جاسوس.. جاسوس علمي.

واندفع فجأة خارج المكتب، صائحًا:

- امسكوه.. امسكوا الجاسوس.

التفت (سمير) إلى (ألفت) في حركة عنيفة، خفق لها قلبها، ثم اندفع يغادر مكتبها..

ومن الخارج تناهت إلى مسامعها جلبة وضجة، تمتزج بصيحات الدكتور (حامد):

- امسكوه.. اقتلوه.

شعرت بساقيها ترتجفان، فتركت جسدها يهوى على مقعدها خلف مكتبها، وراح قلبها ينبض في عنف، وهي تمتم:

- لا.. لا تقتلوه.

خيل إليها أنها قد غرقت حتى أذنيها، في حب ذلك الشاب الغامض، الذي لم تره إلا منذ لحظات..

بل لقد خيل إليها أنها تراه طيلة عمرها، وتذوب في حبه منذ صباها..

إنه صورة طبق الأصل من فارسها..

فارس الأحلام..

لم يكن لديها تفسير منطقي لذلك الشعور الجارف المفاجئ، ولكنها لم تحاول مقاومته..

لقد تركت قلبها يخفق في استسلام..

وانتفض جسدها، عندما دوى طلق ناري في الخارج..

وانكمشت في مقعدها في هلع، وهي تغمغم:

- اجعله ينجو يا إلهي.. اجعله ينجو.

مضت دقائق قبل أن يدلف (حامد) إلى حجرتها، وهو يقول محنقًا:

- لقد نجح في الفرار.

تنهدت في ارتياح، في حين استدرك هو:

- ولكنهم أصابوه برصاصة.

شحب وجهها، وهي تتمتم:

- أصابوه؟!

أجاب:

- نعم.. لقد ترك خلفه قطرات من دمه.

ثم التفت إليها مستطردًا في حزم:

- ومنها سنجد حل اللغز.. لغز كل هذا الغموض..

☆ ☆ ☆

مط الدكتور (أشرف) شفتيه، وهو يقول للدكتور (حامد) في حيرة:

- مجرد عينة دم عادية، من فصيلة (أ) سالبة.

ردد (حامد) في دهشة:

- عينة عادية؟

سأله (أشرف) بابتسامة مترددة:

- ماذا كنت تنتظر؟.. فصيلة دم نادرة؟

قال محنقًا:

- بل فصيلة لا وجود لها على كوكب الأرض.

مال (أشرف) إلى الأمام، وهو يتطلع إليه في دهشة، ثم تراجع يسأله:

- ما معنى هذا يا (حامد)؟

وبلا تردد، روى له (حامد) كل ما حدث بينه وبين (ألفت)، واستمع إليه (أشرف) في دهشة بالغة، ثم هز رأسه في حيرة، مغمغمًا:

- يا إلهي!.. على الرغم من غرابة استنتاج الدكتورة (ألفت)، إلا أنه يبدو لي منطقيًا إلى حد ما.

قال (حامد) في حنق:

- العجيب أنه يبدو لي كذلك أيضًا.

والتفت إليه مستطردًا في انفعال شديد:

- هذا الأمر يطوي في أعماقه سرًا عجيبًا مخيفًا؟ فعندما اقتحم الشاب الأول معملي، وقال ما قاله، تصورت أنه يوجد جهاز تصنت هنا، ينقل ما يدور بيننا إلى جهة تجسس أجنبية، ينتمي إليها الشاب.. ولكن بعد أن أخبرني الثاني بالاسم الذي اقترحه ذهني للمادة المضادة للجاذبية، أصابني الذهول، فلم أكن قد بحت به لمخلوق واحد، ولا حتى كتبته على ورقة، أو رددته بيني وبين نفسي..

لقد كان مجرد فكرة، فكيف توصل إليه؟

غمغم (أشرف):

- لست أدري.

ثم اعتدل مضيفًا في حسم:

- ولكن الأمر كله يحتاج إلى إجراء حازم فوري.

سأله في قلق:

- ما هو؟

أجابه (أشرف)، وهو يتجه إلى الهاتف:

- حمايتك.

وأضاف وهو يدير قرص الهاتف:

- وبأي ثمن.

☆ ☆ ☆

لم تكن ليلة عادية بالنسبة لـ(ألفت)..

لقد ظلت تتقلب في فراشها في أرق، حتى أدركت أنها لن تنعم بطعم النوم هذه الليلة، فاستلقت على ظهرها صامتة، وراحت تحدق في سقف الحجرة في شرود..

وسبح ذهنها إلى (سمير)..

كيف خلب لبها بهذه السرعة؟..

كيف غرقت في حبه على هذا النحو، وهي لا تعلم شيئًا عنه؟..

أهو الحب من أول نظرة؟..

لا.. إنها لم تؤمن أبدًا بمثل هذا الحب..

ولكنها الآن غارقة فيه حتى النخاع..

راحت تسترجع كل ما حدث، واستوقفها أمر لم يلفت انتباهها كثيرًا في وقته..

صحيح أن (سمير) يتحدث العربية، وبلهجة مصرية، ولكن لكنته بها شيء غامض غريب..

شيء يصعب عليها إدراكه، ولكنها تشعر به..

ثم إن منشأه ما زال غامضًا بالنسبة إليها..

أهو مخلوق أرضي بالفعل، كما قال؟..

أم أنه زائر فضائي؟..

وما سر كل هذا الغموض..

نهضت من فراشها، وارتدت روبًا منزليًا، واتجهت إلى مطبخها، لتعد لنفسها قدحًا من الشاي، ولكنها لم تكد تضيء المطبخ، حتى تراجعت وهي تطلق شهقة ذعر ودهشة..

لقد وجدته أمامها..

(سمير) بنفسه كان يجلس على مقعد مجاور لصيدلية طوارئ صغيرة، في ركن المطبخ، مرتديًا منظارًا عجيب الشكل، ومنهمكًا في تضميد جرح بذراعه..

وبكل دهشتها هتفت:

- أنت؟!

التفت إليها في بطء، ورفع منظاره عن عينيه، وهو يقول:

- نعم.. هو أنا.. معذرة.. لم أجد مكانًا ألجأ إليه سوى هذا.

هتفت:

- أأنت مصاب؟

أجابها في هدوء:

- إصابة بسيطة، فالرصاصة عبرت الذراع، دون أن تحطم عظامها، أو تستقر داخلها.

أسرعت إليه، تعاونه في تضميد جراحه، واستسلم هو إليها تمامًا، حتى انتهت من عملها، فاعتدلت تتطلع إليه في حيرة، وسألته:

- لم كان هذا المنظار العجيب؟

ابتسم ابتسامة باهتة، وهو يقول:

- للرؤية في الظلام.

جذبت مقعدًا آخر، وجلست أمامه مباشرة، تتطلع إلى عينيه العسليتين في صمت، حتى قال هو:

- لم أنجح أبدًا في الوصول إلى الدكتور (حامد).. لقد أحاطوه بحراسة بالغة.

سألته في اهتمام:

- لماذا تصر على تدمير اختراعه هذا؟

أشاح بوجهه مغمغمًا:

- من أجل البشرية.

سألته بعد برهة من الصمت:

- أما زلت تصر على إحاطة نفسك بكل هذا الغموض؟

التفت إليها، وقال في صوت خفيض:

- إنني مكره.. صدقيني.. من الضروري أن أبلغ الدكتور (حامد) الليلة، وأحاول إقناعه بتدمير كشفه هذا، وإلا ضاع كل شيء.

سألته بكل فضولها وحيرتها:

- لماذا؟

ازدرد لعابه، وقال:

- قلت لك إنه مستقبل البشرية كلها يتوقف على تدمير هذا الكشف، وعدم وصوله لعلماء (أمريكا).

بقيت صامتة، تتطلع إليه لحظات، ثم قالت:

- اسمع يا (سمير).. الأسلوب الغامض الذي تتبعه، لا يساعد أبدًا على أن يتفهم أي شخص موقفك، فما بالك بعالم توصل إلى كشف هائل، سيقلب كل الموازين العلمية رأسًا على عقب، ثم تأتي أنت وتطالبه بتدمير هذا الكشف، وكتمانه، وحرمان نفسه من نصر علمي رائع، سيخلد اسمه في التاريخ، دون أن تشرح له حتى لماذا عليه أن يفعل هذا؟

بدت الحيرة في عينيه، وغمغم:

- لست أدري.. لم يكن المفروض أن أفعل أنا هذا.

سألته في لهفة:

- ماذا تعني يا (سمير)؟.. أخبرني بكل ما لديك.

تردد لحظة، ثم أجاب:

- المفروض أن (فريد) هو المسئول عن هذه المهمة، وهو الذي درس كل التفاصيل، وكل المعلومات، ولكن مصرعه أربك كل شيء، وكان على أن أخاطر بالانتقال إلى هنا، ومحاولة إتمام المهمة، وإلا ضاع الأمل الأخير.

سألته:

- لماذا يا (سمير)؟.. من أين أتيت أنت؟.. ومن أين أتى (فريد)؟..

- أهو شقيقك حقًا؟!.. أمن الممكن أن..

قاطعها بإشارة من يده، وهو يقول:

- رويدك يا دكتورة (ألفت).. لا يمكنني استيعاب كل هذه التساؤلات دفعة واحدة.

قالت في حرج:

- يبدو أنني ثرثارة للغاية.

أجابها في سرعة:

- مطلقًا.. كل الدراسات عنك أثبتت أن قليلة الكلام، وأنك عبقرية في أبحاثك عن مشتقات الدم والبصمات الجينية، و...

قاطعته في دهشة:

- الدراسات؟!.. أية دراسات يا (سمير)؟.. ثم ما تلك الأبحاث التي تتحدث عنها؟ إنني لم أجر أية أبحاث بعد.

تطلع إليها في انزعاج، ثم تنهد قائلًا:

- قلت لك إنني لست مؤهلًا لتلك المهمة.. حسنًا.. سأروي لك القصة كلها.

وأطلعها على السر بالفعل..

☆ ☆ ☆

4- الســرّ..

ألقى ضابط الشرطة المكلف بحراسة منزل (حامد شوقي)، نظرة طويلة على (ألفت)، التي وقفت أمامه مرتبكة، داخل معطف مضاد للمطر، وقد ضاعف التوتر من إحساسها ببرودة الجو، وسألها في شك، يصبغ عادة أسئلة رجال الشرطة:

- ولماذا ترغبين في مقابلة الدكتور (حامد)، في مثل هذا الوقت المتأخر؟

أجابته في ضيق:

- إنه أمر خاص بالعمل، لا يحتمل التأخير، ولقد اتصلت بالدكتور (حامد)، وهو مستعد لاستقبالي، و...

قاطعها في حزم:

- أعلم هذا.

ثم أضاف بنفس لهجة الشك.

- هل تعلمين أنه غير متزوج؟

قالت في حنق:

- لا.. لم أكن أعلم هذا.

أومأ برأسه بلا معنى، وهو يمط شفتيه، ثم قال:

- حسنًا.. اصعدي إليه.

أسرعت تستقل المصعد إلى شقة الدكتور (حامد)، الذي استقبلها في لهفة واضحة، وأسرع يغلق باب الشقة خلفها، وهو يسألها:

- هل تعلمين أين هو حقًا؟

أومأت برأسها إيجابًا، وبدت له شاحبه إلى حد ما، وهي تقول:

- هو الذي أرسلني إليك.

حدق في وجهها، وهو يقول في دهشة:

- هو أرسلك؟!.. ماذا تعنين؟

أشارت إليه، قائلة:

- أجلس يا دكتور (حامد)، فما ستسمعه مني سيجعلك عاجزًا عن الوقوف حتمًا.

كان قولها يكفي لأن يترك نفسه يسقط على مقعد قريب، وهو يقول في شحوب:

- إلى هذا الحد؟

خلعت معطفها، وبدت قلقة، وكأنما تبحث عن بداية مناسبة لحديثها، قبل أن تقول بغتة:

- لقد أقنعني (سمير) بفكرته.

ردد في دهشة وحيرة:

- أقنعك؟!

فركت كفيها في توتر، وهي تسير في الردهة، قائلة:

- كانت هناك أكثر من نقطة غامضة، تثير حيرتي بشأنه، مثل لهجته العجيبة، وثيابه، ومعرفته لما يستحيل أن يعرفه الشخص العادي، إلا أنه فسر لي كل هذا.

جف حلقه، وهو يسألها:

- أهو من كوكب آخر؟

هزت رأسها نفيًا، وابتسمت في اضطراب، وهي تقول:

- لا.. صحيح أن هذا الحل سيبدو أقرب إلى عقولنا، بعد كل ما قرأناه من روايات الخيال العلمي، إلا أن الحقيقة أكثر غرابة.

توقفت بغتة، واستدارت إليه تستطرد في سرعة، وكأنما تخشى أن تفارقها شجاعتها، لو صمتت أكثر من هذا.

- إنه من المستقبل.

بدا الجواب مذهلًا، بالنسبة لـ(حامد)، الذي اتسعت عيناه ذهولًا، وراحت شفتاه تنفرجان وتنطبقان، كما لو أنه يقول شيئًا، أو يعجز عن قول شيء ما، فتابعت (ألفت) في توتر:

- لقد أتى من عصر يفوقنا بقرن واحد من الزمان، حيث بلغت العلوم شأنًا لا يمكننا تخيله الآن، مع سرعة تطور الأبحاث والتكنولوجيا، وقبل أن يأتي بشهر واحد، انفجرت في العالم أول قنبلة مضادة، وهي عبارة عن قنبلة من تلك المادة المضادة للجاذبية، تتفاعل مع كل ذرة طبيعية على الأرض، ولقد كان انفجارها مروعًا، قضى على ثلاثة أرباع سكان العالم، وحطم كل حضارات الأرض تقريبًا.

ردد (حامد):

- يا للهول!.. أهي شديدة التدمير إلى هذا الحد؟

نظرت إليه، وقالت:

- هذه القنبلة هي تطوير مباشر للمادة التي اخترعتها أنت.. (الأنتيجرافيوم).

اتسعت عيناه في ارتياع، مرددًا:

- يا إلهي!

واصلت في توتر:

- لهذا قرر (سمير) و(فريد) أن يقوما بمحاولة يائسة؛ لمنع هذه الكارثة المروعة للأرض والحضارة، وكانت لديهما آخر آلة زمن في العالم، بعد أن دمر الانفجار كل الآلات الأخرى، ولم يكن أيهما يجيد استعمالها على نحو تام، إلا أنهما قررا أن يخاطر أحدهما بالعودة إلى زمننا، ومحاولة منع إنتاج (الأنتيجرافيوم)، لعل ذلك يمنع كارثة المستقبل.. وعاد (فريد) إلى زمننا، بعد أن صنع من أقمشة عصره ثيابًا تشبه ثياب عصرنا، وارتدى حذاء يشبه أحذيتنا، وتزود ببطاقة وتصريح دخول، صنعهما له جهاز الناسخ الآلي، كما يسمونه في عصرهم، وأتى إلى هنا، وحاول مقابلتك ولكنه لقى مصرعه..

التقطت أنفاسها، و(حامد) ينظر إليها في ذهول، ثم تابعت:

- وعادت آلة الزمن إلى (سمير)، وأدرك من عودتها خالية أن أخيه قد لقي مصرعه، فانتقل بالآلة إلى هنا، وهو يعلم أنها مخاطرة شديدة، فالآلة لن تحتمل رحلة ثالثة، ولن تبقى في عصرنا إلا ساعات محدودة، وسترحل بعد ساعتين عائدة إلى عصره، حيث ستنسف نفسها بنفسها.

ازدردت لعابها، وصمتت لحظة، ثم أضافت:

- كان الزمن أمامه محدودًا، عليه في خلاله أن يقنعك بتدمير الاختراع، ولكنه أصيب، وعجز عن الوصول إليك، والمهلة أمامه تتناقص.

سألها (حامد) بغتة:

- ولكن ما علاقة هذ بلهجته؟

أجابته في عصبية:

- اللهجات تتبدل مع الزمن.. أليس كذلك؟

غمغم وهو يتراجع في مقعده:

- هذا صحيح.

ازدردت لعابها مرة أخرى، وعادت تقول:

- لهذا كان (فريد) يعلم كل شيء عن كرتك اللامعة، وعن المؤتمر الأمريكي؛ لأن هذا بالنسبة إليه مجرد تاريخ، حتى ولو كان بالنسبة إليك لم يحدث بعد.. إنها فكرة معقدة، ولكن (ألبرت أينشتين) أشار إليها في نظرية النسبية، أليس كذلك؟

غمغم:

- هذا صحيح.. لقد قال إن الزمن نسبي، وإننا نحن نسير فيه، إلى الأمام، ويمكننا أن نسير فيه إلى الخلف، لو امتلكنا الطاقة اللازمة لهذا.

قالت في خفوت:

- نعم.. لقد قرأت هذه النظرية.

ثم تابعت بسرعة:

- ولنفس هذا السبب كان (سمير) يعرف اسم (الأنتيجرافيوم)، قبل أن تذكره أنت لأحد.

ران عليهما صمت تام، بعد عبارتها الأخيرة، ثم رفع (حامد) رأسها إليها، وقال:

- ولكن ما الدليل على هذا؟

قبل أن تجيبه، هب من مقعده، مستطردًا:

- من أدراك وأدراني أن كل هذا ليس مجرد خدعة من جهاز مخابرات معاد، أو شبكة تجسس علمية، أو...

قاطعته في حزم:

- أيبدو لك الأمر كذلك؟

صمت لحظات في حيرة، ثم قال في حدة:

- لا.

راح يسير في توتر في الردهة كليث حبيس، وهو يقول:

- ولكنك لا تدركين ما يعنيه هذا.. لو لم أعلن أنا عن كشفي لـ(الأنتيجرافيوم)، فسيتوصل إليه عالم آخر، من أية دولة أخرى، فلقد كنت أستند إلى نظريات علمية معروفة، ولم أصنع معجزات.. والتاريخ لا يمكن تغييره.. كل ما سيحدث هو أنني سأخسر السبق.

قالت في بطء:

- وهل ستربح حين يُدمر العالم كله؟

كان من الواضح أن صراعًا هائلًا يدور في أعماقه، ما بين رغبته في إعلان كشفه العلمي المذهل، وخوفه من نتائج هذا الكشف، ثم لم يلبث أن انهار على مقعده، وقال:

- لا يمكنني أن أخاطر بتسليم (الأنتيجرافيوم) إلى أي مخلوق.

هزت رأسها قائلة:

- وهو لا يطلب الحصول عليه، بل يسألك تدميره فحسب.

خفض عينيه لحظات، ثم رفعها إليها، قائلًا في حزم:

- سأفعل.

ثم أضاف في حماس:

- من أجل أحفادي، وأحفاد أحفادي سأفعل.

ابتسمت في ارتياح، وقالت:

- أحسنت.

واتجهت في سرعة نحو الباب، فسألها متوترًا:

- هل سترحلين بهذه السرعة؟

تطلعت إلى ساعتها، وقالت:

- الوقت يمضي بسرعة، ولابد من بلوغ آلة الزمن، فوق قمة المقطم، قبل مضي ساعة ونصف الساعة فقط.

تردد لحظة، ثم قال مستسلمًا:

- اذهبي إذن.

فتحت الباب، والتفتت إليه تقول:

- دكتور (حامد).. لقد وعدت.

أومأ برأسه قائلًا:

- اطمئني.

أغلقت الباب خلفها، وأسرعت إليه..

إلى الرجل الذي امتلك قلبها..

عبر الزمن..

☆ ☆ ☆

لم تتبادل (ألفت) كلمة واحدة مع (سمير)، وهي تنطلق معه في سيارتها، إلى قمة المقطم..

كانت تخشى أن تفتح شفتيها، حتى لا تنفجر باكية..

وسالت دموعها في حرارة لفراقه..

إنه سيرحل عنها..

سيرحل إلى عصر يتقدم عصرها بقرن كامل من الزمان..

وهي تنقله بنفسها وبسيارتها إلى آلة الفراق..

وفي تردد، سألها (سمير):

- هل تثقين في كلمة (حامد)؟

قالت محاولة كبت دموعها:

- اطمئن.

ران عليهما الصمت لحظات أخرى، ثم تسللت أصابع (سمير) تداعب شعرها الأسود الناعم، وهو يقول في همس حالم:

- الأمر يشبه الحلم بالنسبة لي.. لم أتصور أبدًا أنني سألتقي بك، وأنا الذي يذوب في هواك منذ..

بتر عبارته مرة أخرى، فسألته:

- منذ ماذا؟.. لا يوجد ما يمنعك من الإفصاح هذه المرة.. أليس كذلك؟

ابتسم قائلًا:

- هذا صحيح.

صمت لحظة، ثم التفت إليها قائلًا:

- منذ طفولتي.

صدمتها العبارة، فهتفت مستنكرة:

- طفولتك؟!.. إنني لست..

قاطعها في رقة:

- كنت أعلم أن هذا لن يروق لك، ولكنها الحقيقة، فأنت في عصري نابغة من نوابغ التاريخ، نقرأ عن حياتك في انبهار.

سألته في فضول:

- هل تعرف كل تفاصيل حياتي؟

قال في حزم:

- لن أخبرك بحرف واحد منها، فلقد تعلمنا منذ حداثتنا أنه محظور تمامًا التدخل في التاريخ، فلا أحد يعلم عواقب هذا.

ثم شرد ببصره متمتمًا:

- حتى في مهمتنا هذه، ما زلنا نجهل ما إذا كان باستطاعتنا تغيير التاريخ أم لا.

سألته:

- وكيف ستعرف؟

هز كتفيه، وأجاب:

- سأعرف تلقائيًا، عندما أعود إلى زمني، فلو نجحت مهمتنا، فلن يكون هناك خراب أو دمار، أما لو...

لم يستطع إتمام عبارته، فأسرعت (ألفت) تقول:

- سنبلغ قمة المقطم بعد قليل.. اطمئن، مازالت أمامك نصف الساعة، قبل أن ترحل آلة الزمن.

ترقرقت دمعة في عينيها، وهي تستطرد في تردد:

- أمن الضروري أن ترحل؟

تطلع إليها بعينين حزينتين، وقال:

- لست أدري.

قالت في أسى:

- ماذا يمكن أن يحدث لو...؟

فجأة، وبلا مقدمات، اعتصر الألم جانبها، فأطلقت صرخة جعلته يهتف في هلع:

- ماذا حدث؟

ضغطت كامح سيارتها في قوة، وهي تقول في ألم:

- آلام الكلى يا (سمير).. إنني أعانيها منذ.. منذ..

أمسكها في جزع، قائلًا:

- لا تتحدثي.. أخبريني: أي دواء تتناولين، في مثل هذه الحالة؟

هتفت وآلامها تتضاعف، إلى حد لم تبلغه أبدًا من قبل:

- لست أحمل الدواء.. الآلام رهيبة هذه المرة.. لابد أنها برودة الجو.. أو...

أطلقت صرخة أخرى، ثم تراخى جسدها فجأة بين ذراعيه، فصاح:

- (ألفت).. ماذا أصابك؟

أدرك من العرق المتصبب على جبينها أنها فقدت الوعي من شدة الألم، وتطلع إلى ساعتها في قلق..

الوقت يمضي بسرعة، وسترحل آلة الزمن..

و(ألفت) تحتاج إلى عناية؛ لينقلها إلى أقرب مركز إسعاف..

عليه أن يختار، وأن يقرر.

وبسرعة..

وبلا تردد، اتخذ قراره، وأزاحها عن عجلة القيادة، وأدار المحرك..

وانطلق..

☆ ☆ ☆

فتحت (ألفت) عينيها في المستشفى، وابتسمت في تهالك، عندما رأت أمامها (سمير)، وغمغمت:

- ماذا حدث؟.. هل أصابتني غيبوبة؟

ربت على كفها في حنان، وهو يقول:

- أنت الآن بخير.

حملت نبراته كل ما يزخر به قلبه من حب لها، فابتسمت في سعادة وحب، ثم لم يلبث بصرها أن وقع على عقربي الساعة الصغيرة، المعلقة على الحائط، فاتسعت عيناها في رعب، وهبت من فراشها هاتفة:

- يا إلهي!.. موعدك.

أمسك كتفيها في رفق، وابتسم في حب، وهو يقول:

- لقد رحلت آلة الزمن.. لا تقلقي نفسك بهذا.

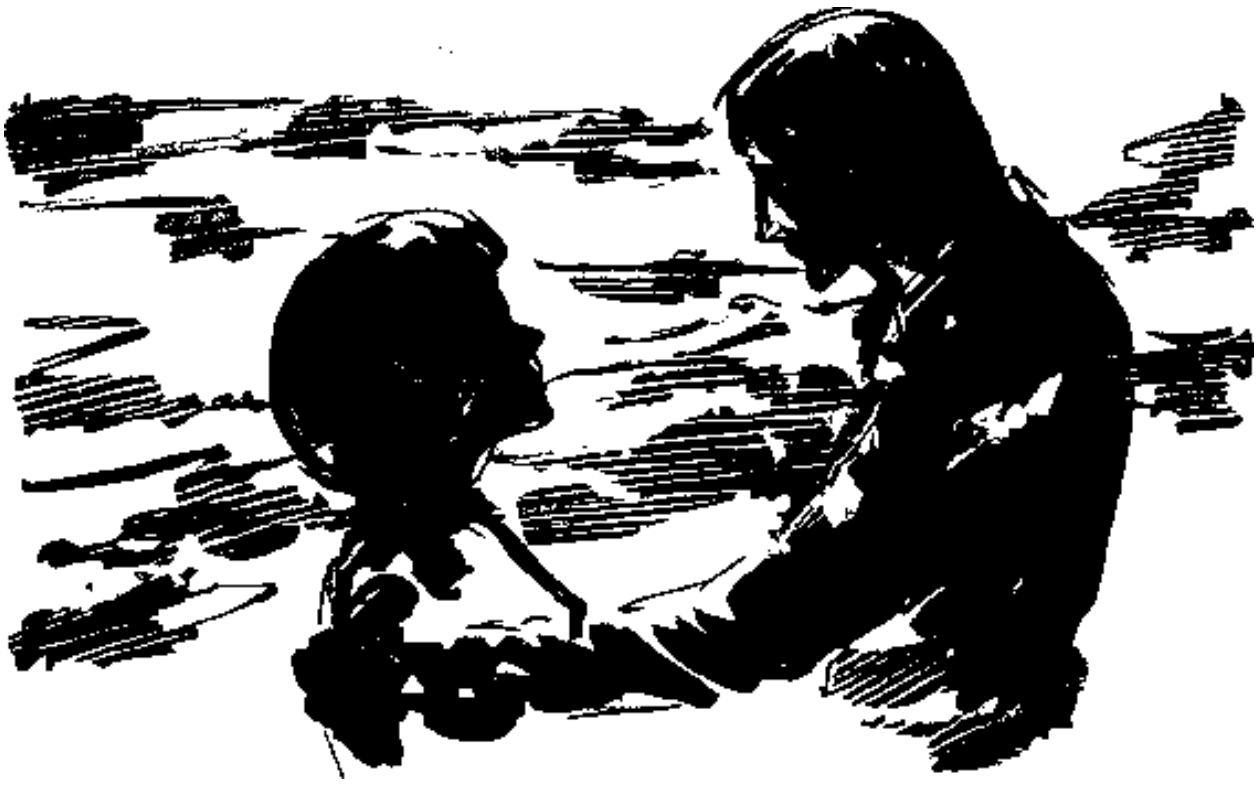

شعرت بتأنيب الضمير، وهي تقول:

- أنا المسئولة.. لقد حرمتك من الرجوع إلى زمنك.

مس شفتيها بأنامله، ليوقفها عن الحديث، وهو يقول:

- بل منحتني عالمًا من الحب.. عالمك أنت يا (ألفت).. صحيح إنني لن أعلم أبدًا ما إذا كنت قد نجحت في مهمتي أم لا، ولكنني سأترك الجواب للزمن، وسأبقى في عالمك، ما دام الحب يربط قلبينا معًا..

ترقرقت عيناها، بدموع السعادة، وهي تهتف:

- (سمير).. إنني.. إنني..

قال في حب:

- أعلم.. أنا أيضًا أحبك.. إنه قدري: أن أحيا في عصر يسبق مولدي بأكثر من نصف قرن.

ثم ابتسم مستطردًا:

- ولكن هذا يبدو طريفًا.. أليس كذلك؟

ومرة أخرى في التاريخ، هزم الحب كل الحواجز..

حتى حاجز الزمن..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- زيــارة..

2- الغمــوض..

3- الزائر الآخر..

4- الســرّ..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الفارس

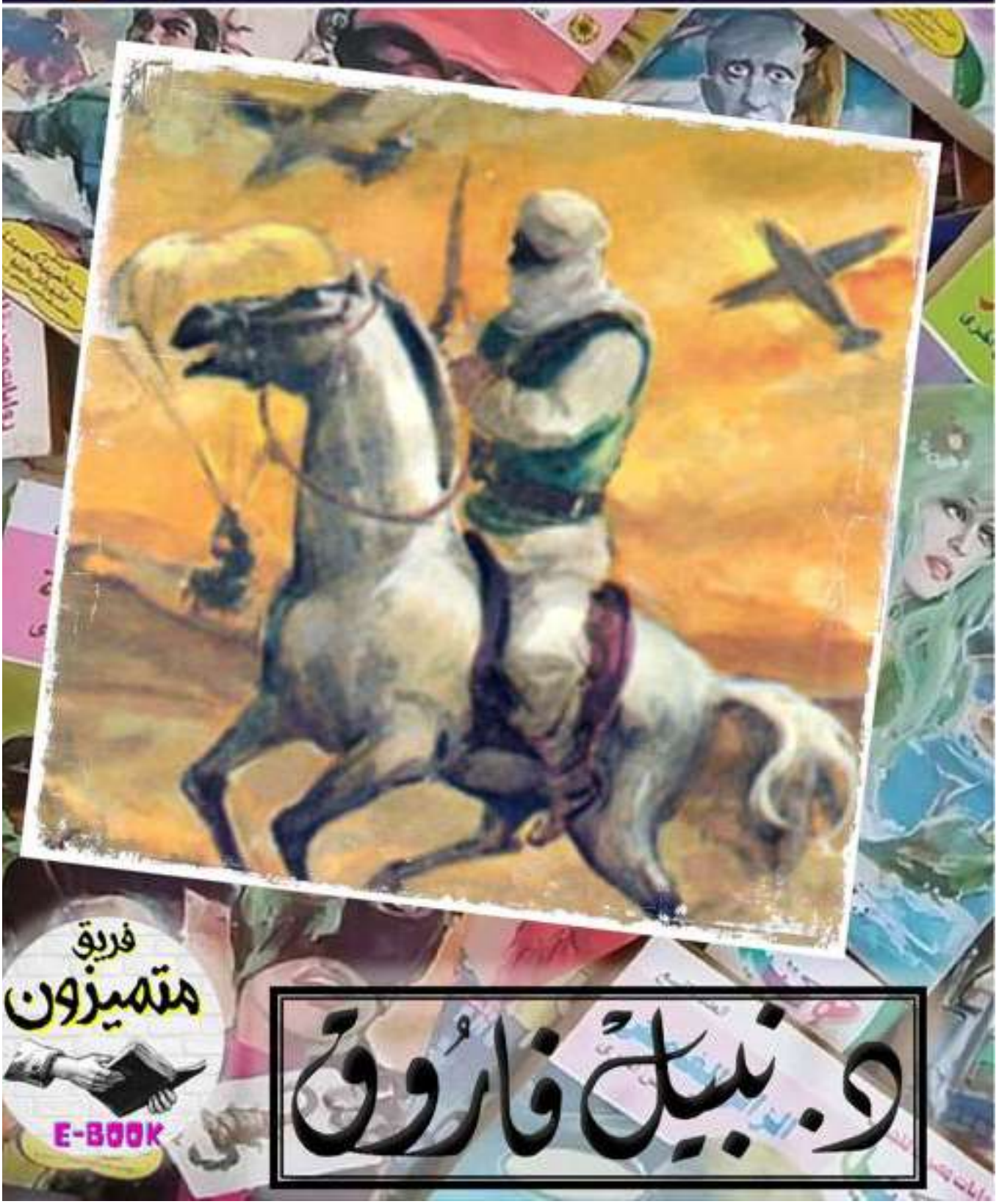

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

قصة العدد
الفارس

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000
قصص العدد
الفـــارس

1- المعركة..

الصحراء..

اسم قد يعني الخوف والرهبة..

قد يعني الضياع والعطش والدمار..

أو الموت..

الصحراء التي تمتد أمام ناظرها إلى ما لا نهاية، صفراء في لون الذهب.. ملتهبة كشمس الصيف.. صامتة كالقبر..

هكذا بدأ المشهد..

وهنا تبدأ القصة..

صحراء ممتدة إلى ما لا نهاية..

ثم يظهر هو عند الأفق..

الفارس..

فارس بدوي، يمتطي جوادًا من جياد العرب الأصيلة، ويحمل بندقية عريقة، وينطلق عبر الصحراء، قاطعًا صمتها.. ممزقًا سكونها.. مثيرًا رمالها..

وكان يحيط رأسه ونصف وجهه السفلي بلثام بدائي، وكأنما يقي أنفاسه وصدره الرمال، أو يحيط نفسه بهالة غريزية من الغموض، أحاطت بأجداده منذ زمن طويل..

كان عربيًا..

لا يهم من أي بلد كان..

إنه عربي..

عربي فحسب..

وهذا يكفيه..

وفي حزم، جذب هذا البدوي العربي عنان جواده، وصاح به يدعوه إلى التوقف في قلب الصحراء، فاستجاب له الجواد الأصيل، وتباطأ حتى توقف تمامًا، وراح يضرب رمال الصحراء بقوائمه في رفق، في حين مسح راكبه فيضًا من العرق، تسلل من خلف عمامته، ليغرق جبهته، ثم رفع رأسه إلى السماء، يلقي نظرة سريعة على قرص الشمس، الذي توسط كبدها، وغمغم:

- لقد قطعنا شوطًا طويلًا هذه المرة.. فلقد غادرنا الواحة قبيل شروق الشمس.

قالها بصيغة الجمع، وكأنما يعتبر جواده رفيقًا له في رحلته، ثم التقط زمزمية بدائية من الجلد، ونزع سدادتها، ورفعها إلى فمه ليروي ظمأه، ثم هبط عن صهوة جوادة، وملأ يديه بالماء، وأدناهما من فم الجواد، الذي راح يلتقط الماء بلسانه في لهفة، فابتسم البدوي ابتسامة مشفقة، أخفاها لثامه، وهو يغمغم:

- ارتو يا رفيقي، فما زال أمامنا طريق طويل، قبل أن نبلغ واحة الأعمام.

ربت على عنق الجواد مشجعًا، وأمسك بطرف سرجه، وهم بالوثب على متنه، عندما تناهي إلى أذنيه ذلك الأزيز..

أزيز الطائرات المتصارعة المتقاتلة..

ورفع البدوي عينيه إلى السماء..

وانعقد حاجباه في ضيق، عندما وقع بصره على ذلك المشهد، الذي تكرر أمامه أكثر من مرة، منذ بدأت تلك الحرب..

الحرب العالمية الثانية..

مشهد قتال الطائرات..

وامتلأت نفسه بالحنق والسخط..

لماذا يتقاتلان فوق أرضه، وفي سمائه؟!..

لماذا يتخذان من وطنه ساحة لمعركتهما؟!..

ألا يكفيهما أن فريقًا منهما يستعمر أرضه ووطنه منذ زمن؟..

ترك غضبه ومقته يتصارعان في أعماقه، وهو يتابع القتال المحتدم بين السحب..

كانت هناك طائرات فضية، وأخرى سوداء داكنة، والفريقان يتحاوران، ويتناوران في مهارة واضحة..

المرأة مشكلة .. صنعها الرجل

ثم انبعث خيط من الدخان، من ذيل إحدى الطائرات الفضية، وراحت تهوى نحو الصحراء..

وانقبض قلبه..

ستسقط الطائرة في صحرائه...

في مملكته..

تابع سقوط الطائرة ببصره، وقد تحول خيط الدخان في مؤخرتها إلى لسان من اللهب، امتزج بسحابة سوداء، والطائرة تقترب بسرعة كبيرة من الأرض..

ثم انفصل جسم من وسط الطائرة، وارتفع عاليًا، قبل أن يتحول إلى مظلة كبيرة، تحمل مقعدًا، يستقر فوقه جسد بشري..

وارتطمت الطائرة بالرمال في قوة..

وانفجرت..

وفي لهفة، لم يدر لها سببًا، تركز بصر البدوي على المقعد ذي المظلة، الذي يبدو أن صاحبه لم ينجح في إطلاق مظلته في الوقت المناسب، فقد انفتحت المظلة على مسافة قريبة من الأرض، حتى أنها لم تكف لتأمين هبوط آمن، وإن نجحت إلى حد ما في تخفيف صدمة السقوط، ولكن..

ارتطم المقعد وراكبه بالأرض في عنف، وسقطت فوقهما المظلة، وغطتهما تمامًا..

وقبل أن يفكر البدوي، أو يبحث الأمر في ذهنه، وجد نفسه يقفز فوق صهوة جواده، ويهتف:

- هيا.. هيا إلى هناك.

أطاعه الجواد بنفس الحماس واللهفة، فانطلق كالصاروخ، نحو الهدف الذي يقوده إليه فارسه، وراح ينهب الأرض نحو المظلة المستكينة على رمال الصحراء..

ومن بعيد بدا حطام الطائرة المشتعلة، وميز البدوي على جانبها رسمًا لصليب معقوف لم يدر معناه أو مغزاه.. بل لقد تجاهله تمامًا، وهو يندفع نحو المظلة، ولم يكد يبلغها حتى أوقف جواده، ووثب من فوقه، وراح يجذب المظلة في سرعة وإصرار..

ووقع بصره على الرجل الذي يرقد أسفلها، فوق مقعد جلدي وثير..

كان من الواضح أنه أجنبي..

ذلك الشعر الأشقر الذهبي، الذي يلتمع مع أشعة الشمس، ويتألق مع رمال الصحراء، والبشرة الوردية، التي لم يهزم شحوب الموقف شيئًا كثيرًا من توردها..

ثم هذه العيون الزرقاء..

زوج من الأعين الزرقاء يتطلع إليه في شيء من الضراعة يمتزج بخوف غامض، على الرغم من وجود مسدس في غمده، حول وسط الأجنبي، وبالقرب من أصابع يده اليمنى..

ولكن اليد نفسها كانت تدمي في شدة، وتبدو يابسة، خالية من الحياة، ومن أثر السقوط، ويبدو أن هذا هو السبب الوحيد، الذي منع الأجنبي من إطلاق نيران مسدسه على البدوي.

ومضت لحظة من الصمت..

بل لحظات التقت فيها العيون العربية السوداء، بالعيون الزرقاء، قبل أن تنفرج شفتا الأجنبي في صعوبة، ليقول في وهن:

- أنقذني أيها العربي.. أنقذني.

انعقد حاجبا البدوي الكثين، فوق عينيه السوداوين، وهو يقول في شيء من الدهشة:

- هل تتحدث العربية؟

تأوه الأجنبي في ألم، وهو يجيب:

- إنهم يعلموننا بعض العربية، في قيادة الرايخ، لنفيد بها إذا ما سقطنا في أرض عربية، و...

منعته آهة ألم من إكمال حديثه، فسأله البدوي في صرامة:

- لماذا تتقاتلون في سمائي؟

أمسك الأجنبي جرح ذراعه، وهو يقول في مزيج من الألم والضعف:

- لسنا نحن من يحتل أرضك يا رجل.. إنهم هم.. أعدائي وأعداؤك..

ساعدني.. ساعدني حتى نطردهم من وطنك.

قال البدوي في حزم:

- لتحتلوه أنتم.. أليس كذلك؟

كان ينتظر جوابًا من الأجنبي، إلا أن عيني هذا الأخير قد اتسعتا في ذعر، وهو يتطلع إلى نقطة بعيدة، خلف ظهر البدوي، الذي استدار بدوره يتطلع إلى النقطة نفسها، فوقع بصره على ثلاث سيارات عسكرية، من نوع (الجيب)، تندفع نحو موقعه، وكل منها تحمل ثلاثة من الجنود، الذين يحتلون أرضه، وسمع الأجنبي الجريح يقول في ارتياع:

- لقد أتوا من أجلي.. إنهم ينشدونني.

ثم تشبث بذراع الفارس، مستطردًا:

- أنقذني أيها العربي.. أنقذني.

استثارت العبارة تلك النخوة في أعماق كل العرب..

استثارت روح الفروسية في نفسه..

أشعلت جذوة شهامته وحماسه، فانعقد حاجباه في حزم وصرامة، وهو يقول للأجنبي:

- اطمئن.. سأحميك.

ثم انتزع خنجرة من نطاقه، وانحنى يمزق به الحزام الجلدي السميك، الذي يربط الأجنبي إلى مقعده، وأعاد الخنجر إلى نطاقه، وحمل الأجنبي؛ ليضعه على ظهر جواده، راقدًا على بطنه، وبعدها انتزع بندقيته من سرج الجواد، وجذب إبرتها في حزم، فهتف به الأجنبي في تهالك وفزع:

- ماذا ستفعل؟

أجابه البدوي في حزم، وهو يتطلع إلى سيارات (الجيب) الثلاث، التي تقترب في سرعة:

- قلت لك اطمئن.. سأحميك.. ولن يظفروا بك أبدًا.

هتف الأجنبي:

- أتظن أنك ستفعل هذا ببندقية واحدة وجواد؟

صاح به البدوي:

- اصمت.

وفي أعماقه ارتفعت رايه طال شوقه لخفقاتها طويلًا..

راية المعركة..

☆ ☆ ☆

2- الهروب..

اتضحت الصورة لعيني البدوي، مع صول سيارات (الجيب) الثلاث..

كان يواجه تسعة من الذين يحتلون أرضه، بوجوههم الحمراء الباردة، وكل ثلاثة منهم داخل سيارة، يجلس فيها ضابط واحد مع جنديين، أحدهما يقود السيارة، والآخر يقف في المقعد الخلفي، أمام مدفع رشاش مثبت بقائمين رأسيين إلى جانب السيارة..

وتوقفت السيارة الثلاث أمام البدوي، وقال ضابط بدين، يحتل المقعد المجاور للسائق، في السيارة الوسطى:

- أحسنت بأسرك هذا الألماني أيها العربي.. إنه عدو لنا.. ولكم بالطبع.. هيا.. أعطنا إياه.. إنه يخصنا.

كانت لحظة المواجهة..

أول لحظة يواجه فيها أعداءه وجهًا لوجه، منذ هبط جنودهم على سواحل بلاده، في زمن جده..

لحظة الصدام المباشر..

وفي حزم الدنيا كلها، أجاب البدوي:

- لا.. هذا الألماني يخصني أنا.

حدق الضابط البدين في وجه البدوي في دهشة، وخيل إليه أنه لم يفهم كلماته جيدًا؛ لأن معرفته بالعربية لم تكن كافية، أو أن حرارة الشمس قد أربكت عقله وتفكيره، فرفع قبعته العسكرية،

وأخرج منديله ليجفف جبهته، ويمسح شعره الأحمر الملتهب كنيران غاضبة، ثم قال:

- يبدو أنك لا تدرك الموقف جيدًا أيها البدوي.. هذا الرجل ألماني، ينتمي إلى الرايخ الثالث، قائد دول المحور، التي تتحارب معنا نحن الحلفاء، منذ عام ألف وتسعمائة وتسعة وثلاثين، و...

قاطعه البدوي في صرامة:

- لقد استجار بي هذا الرجل، أيًا، كانت جنسيته أو عقيدته، وتقاليدنا تحتم أن أجيره، مهما كان الثمن.

مرة أخرى خيل للضابط البدين أنه لم يفهم المعنى، فحدق في وجه البدوي في دهشة، قبل أن يهتف في حنق غاضب:

- هل تمزح أيها العربي، أم أن حرارة الشمس قد أصابت عقلك بمس من الجنون؟.. إنها حرب..، وهذا الألماني واحد ممن أمطروا شعبنا بالقنابل، ولقد أسقطناه اليوم، وهو أسيرنا، ولن..

قاطعه البدوي مرة أخرى:

- بل هو ضيفي، ولن ينتزعه أي مخلوق مني، إلا على جثتي.

هتف الضابط في حدة:

- على جثتك؟!

ثم انعقد حاجباه في صرامة، وهو يستطرد:

- فليكن أيها العربي.

ورفع ذراعه هاتفًا بلغته:

- اقتلوه.

رأى العربي فوهات المدافع الرشاشة الثلاثة ترتفع في وجهه..

وهو لا يحمل سوى بندقيته..

وخنجره..

وقلبه العربي..

☆ ☆ ☆

حتى الحروب علم..

علم له قواعده وأصوله..

علم يدرس كل ظروف الحرب؛ ليضع النتائج..

يدرس ساحة المعركة، وطبيعة الأرض، وقوة الجيشين المتصارعين، و...

كل القواعد..

إلا واحدة..

واحدة نسيها واضعو هذا العلم؛ لأنهم –للأسف– ليسوا من أبناء العرب..

قاعدة تتعلق بقدرات البشر وإحساسهم بالكرامة..

وبقدرة الله (سبحانه وتعالى)..

القدرة التي لا تعلوها قدرة..

قدرة خالق الكون ومحركه..

وبهذه القاعدة المنسية، اختلفت الصورة..

في كل الظروف الطبيعية لم يكن من الممكن أن ينجو البدوي، وهو يحمل بندقية بدائية وخنجرًا، في مواجهة ثلاث من سيارات (الجيب)، وتسعة من جنود الأعداء، وثلاثة مدافع رشاشة..

ولكننا قلنا إن الصورة قد اختلفت..

لقد تحرك البدوي الملثم بأسرع مما تحرك أعداؤه، ورفع بندقيته في سرعة البرق، وأطلق منها رصاصتين، اخترقت إحداهما جمجمة أحد الجنود الثلاثة، الذين يقفون خلف المدافع الرشاشة، واخترقت الثانية صدر آخر..

وقبل أن يطلق الثالث رصاصات مدفعه الرشاش، كان العربي قد وثب على صهوة جواده، وهتف به:

- انطلق.

لم يفر مبتعدًا عن خصومه، كما قد يتوقع الجميع، وإنما انطلق بجواده نحوهم، وجذب عنان الجواد في حزم، ولكزه بكعبيه في بطنه، فأطلق الجواد صهيلًا قويًا، وقفز بقوائمه الأربع وبراكبيه، فوق السيارة الوسطى، فأطلق ضابطها البدين شهقة دهشة وذعر، ورفع ذراعه اليمنى فوق رأسه، وهو ينحني في خوف..

الضعيف

وهبط الجواد الأصيل خلف السيارة، وأطلق الألماني الجريح صرخة ألم، عندما ارتج جسده في قوة، مع هبوط الجواد، ثم فقد وعيه، مع انطلاقه الجواد بين رمال الصحراء..

واعتدل الضابط البدين، وهو يصرخ في الجندي المقاتل الوحيد، الذي بقي حيًا خلف مدفعه الآلي:

- اقتله.. اقتله قبل أن يبتعد.

ارتبك الجندي، وقفز إلى الجانب الآخر من السيارة، وأدار مدفعه الرشاش إلى الخلف، وراح يطلق النار خلف البدوي، ولكن جواد هذا الأخير كان قد ابتعد إلى حد كاف، فهتف الضابط البدين في سخط:

- اللعنة!

اعتبر الجندي هذا السباب أمرًا من قائد بالتوقف عن إطلاق النار، فأوقف سيل النيران، في حين استطرد الضابط البدين في حدة:

- يا للعار!!.. كيف فعل بنا بدوي متخلف كل هذا؟

هتف ضابط شاب، له شارب ضخم، يملأ وجهه كله تقريبًا:

- لقد باغتنا وخدعنا يا كابتن (سميث)، فلم نكن نتوقع رد فعله السريع هذا، ولا اتجاه فراره، أو...

قاطعه البدين (سميث) في حنق:

- أصبت يا (رالف).. حديثك هذا يثير مزيدًا من سخطي.. كيف تقول بكل هذه البساطة.. إن بدويًا همجيًا قد خدع ثلاثة من ضباط إمبراطوريتنا العظمي؟!.. إننا لن نسمح بهذا أبدًا.

ارتبك (رالف)، وهو يقول:

- ولكنني تصورت أن هذا أفضل مصطلح يا كابتن (سميث)، وإلا فكيف يمكنك أن تصف ما فعله بجندي سيارتك، وجندي سيارة (ألفريد)؟

قالها وهو يشير إلى السيارة الثالثة، التي يجلس فيها ضابط متين البنيان، حاد الملامح والنظرات، علق في سرعة:

- هذا لا يعني أنه قد هزمنا يا (رالف).

ازداد ارتباك (رالف)، وهو يغمغم:

- بالتأكيد، ولكن..

قاطعه كابتن (سميث) في صوت هادر، وهو يوجه حديثه إلى الضابط الآخر:

- بالطبع يا (ألفريد).. لا يمكن أن يهزمنا عربي.

ثم أشار إلى حيث اختفى البدوي، وأضاف في حزم غاضب:

- هيا.. أديروا السيارات، وسنطارد هذا البدوي.. وسنستعيد أسيرنا.

استدارت السيارات الثلاث..

وبدأت المطاردة..

☆ ☆ ☆

لم يصدق الألماني الجريح نفسه، عندما استعاد وعيه، فوجد نفسه يرقد حيًا على رمال الصحراء، وفوقه مظلة بدائية تظلل رأسه، صنعها له البدوي من سرج جواده، وبندقيته المثبت كعبها في الرمال..

وتحسس الألماني بيسراه تلك الضمادة المحكمة، التي أحاط بها العربي جرح ذراعه، والتي هي جزء من عمامة البدوي، ثم أدار عينيه يبحث عن العربي..

كان جواد البدوي يقف على مقربة منه، ينفخ الهواء من منخريه، ويضرب الرمال بقائمته اليسرى في رفق، في حين وقف العربي على قيد خطوات منه، وهو يوليه ظهره، ويضم كفيه إلى منطقة التقاء صدره ببطنه، ويحني رأسه في خشوع وصمت عجيبين..

وقال الألماني في ضعف:

- حلقي يلتهب.. أريد جرعة ماء.

خيل إليه أن العربي لم يسمعه، على الرغم من أنه كان يقف قريبًا منه، فرفع صوته، مكررًا:

- أريد جرعة ماء.

امتلأت نفسه برهبة غامضة، عندما رأى العربي يجثو على ركبتيه، ثم يسجد حتى تمس جبهته رمال الصحراء..

وارتجف قلب الألماني، ولاذ بالصمت، وهو يراقب العربي في خشوع عجيب، ملأ نفسه كلها، والعربي يكرر سجوده، ثم يجلس على ركبتيه صامتًا، وشفتاه تتمتمان بهمس شديد الخفوت، قبل أن يدير وجهه يمينًا، وكأنما ينظر إلى كتفه اليمنى، ثم يعود ليديره يسارًا، وبعدها ينهض ليحمل زمزميته، ويتجه بها إلى الألماني، قائلًا في هدوء بالغ:

- خذ.. اشرب..

سأله الألماني في دهشة:

- ما هذا؟

أجابه العربي، وهو يجلس على الرمال إلى جواره:

- الماء.. ألم تطلب جرعة منه؟

أومأ الألماني برأسه إيجابًا، واختطف الزمزمية، وراح يروي عطشه من مائها في لهفة، ثم أعادها إلى العربي، وهو يقول:

- أشكرك.

قال البدوي في بساطة لا تخلو من شيء من الحزم:

- الماء لله، وليس لي.

سأله الألماني في اهتمام:

- ماذا كنت تفعل؟

أجاب في اقتضاب:

- أصلي.

سأله:

- للشمس.

كان اللثام يخفي نصف وجه البدوي، إلا أن الألماني رأى ابتسامة ساخرة تملأ العينين السوداوين، والبدوي يجيب:

- هل تصلون أنتم للشمس؟

غمغم الألماني في حرج:

- لا ولكنني تصورت أن..

قاطعه البدوي، وهو يجيب في خشوع:

- كنت أصلي لله (سبحانه وتعالى)، خالق الكون كله.

سأله الألماني:

- أتقصد الرب، الذي نعبده نحن؟

أجاب البدوي:

- هناك إله واحد للجميع.

أراد الألماني أن يلقي عليه سؤالًا آخر، ولكن البدوي أوقفه بإشارة من يده، ورفع رأسه، وكأنه يرهف سمعه لأمر ما، ثم لم يلبث أن نهض في سرعة، وقال في حزم:

- هيا.. سنواصل رحلتنا.

قال الألماني في دهشة:

- ولكنني متعب، و...

لم يمهله العربي، وإنما انتزع سرج الجواد، وراح يربطه على ظهر جواده في إحكام، ثم حمل الألماني، وألقاه على متن الجواد، وانتزع بندقيته من الرمال، ووثب على صهوة الجواد بدوره، فقال الألماني في ألم:

- ماذا حدث؟.. لماذا تسرع هكذا؟

جذب البدوي عنان جواده، وهو يقول:

- لقد وصلوا.

لم يكد يتم عبارته، حتى رأى الألماني سيارات (الجيب) الثلاث، وهي تظهر من خلف مرتفع رملي قريب، وتتجه إلى موقعهما في سرعة، وفي نفس اللحظة انطلق الجواد..

وبدأت المطاردة..

☆ ☆ ☆

3- مطاردة..

ترى أيهما أكثر سرعة، على رمال الصحراء.. السيارة، أم الجواد؟..

لا ريب أن هذا هو السؤال، الذي دار بذهنك، مع بدء المطاردة..

وهو نفس السؤال، الذي دار بخلد الألماني، وملأ حواسه كلها، إلى الحد الذي أنساه آلام جراحه، على الرغم من سرعة الجواد وارتجاجاته..

كانت حياته كلها تتوقف على جواب هذا السؤال..

وعلى سرعة جواد البدوي..

هذا ما تصوره هو..

أما راكبو السيارات، فقد بدا لهم أن النصر آت لا ريب فيه وسياراتهم تقترب من الجواد في سرعة، فهتف كابتن (سميث)، وقد احتقن وجهه المكتظ كله، بفعل الحرارة والانفعال:

- لقد أوقعنا به.. زيدوا من سرعتكم.. هيا.. أريد رأس ذلك العربي الأحمق على طبق من صفيح صدئ.

ضرب (ألفريد) ظهر سائق سيارته براحة يده في حدة، وهو يهتف.

- انطلق خلفه يا (أندرو).. سأمنحك إجازة طويلة، لو لحقت به.

ضاعف ذكر الإجازة من حماس (أندرو)، وقفزت إلى ذهنه صورة خطيبته الحسناء، التي لم يلتق بها منذ عام كامل، فضغط دواسة الوقود بكل قوته، وانطلق خلف جواد البدوي..

وهتف الألماني في يأس:

- سيلحقون بنا.. لا فائدة.

لم يعلق البدوي بحرف واحد، وإنما ظل ينطلق بجواده بأقصى سرعة، وعيناه تجوبان الصحراء في اهتمام وترقب..

وفجأة انحرف بجواده يمينًا، فهتف (ألفريد)، وهو يطلق ضحكة تمتزج فيها السخرية بالشيء الكثير من العصبية:

- لا فائدة من مناورتك الفاشلة أيها العربي.. الصحراء كلها صحراء.. ستجد الرمال أينما ذهبت.. رمال بلا نهاية.

بلغت العبارة مسامع البدوي، ولكنه لم يتوقف، بل واصل انطلاقته بجواده، وكأنما احتشدت حواسه كلها لهذه الانطلاقة..

واقتربت السيارة من الجواد أكثر وأكثر..

وراحت المسافة بينهما تتناقص..

ومن مسافة بعيدة نوعًا، رأى (سميث) و(رالف) ما يحدث، فهتف (سميث) في انفعال شامت:

لقد لحق به (ألفريد).. سيمزق هذا العربي تمزيقًا.

أما (رالف)، فلم ينبس ببنت شفة..

كان هناك قلق خفي يملأ نفسه..

أو هو شعور سابق للأحداث..

كل هذا لم يشعر به (ألفريد)، الذي طغى شعور الظفر على كل مشاعره الأخرى، فقفز من مقعده إلى المقعد الخلفي، حيث المدفع الرشاش المثبت هناك، وصرخ في السائق:

الحق به يا (أندرو).. الحق به.. أريد أن أرى الهزيمة في عينيه، قبل أن أمطره برصاصتي.

واقتربت السيارة كثيرًا من الجواد، و..

وفجأة انحرف البدوي بجواده يسارًا، في انحرافه حادة، مال لها الجواد الأصيل في عنف، قبل أن ينطلق في طريقه مرة أخرى، فصرخ (ألفريد):

انحرف خلفه يا (أندرو).. انطلـ..

قالها و(أندرو) يدير سيارته بالفعل، ثم بتر العبارة، وقد اتسعت عيناه في رعب هائل..

لقد وجد أمامه فجأة جرف رهيب..

منخفض رملي حاد، يبلغ ارتفاع حافته، حيث تنطلق السيارة، مائة متر على الأقل..

وكان (أندرو) ينحرف بالسيارة في عنف..

والسيارة تنزلق على رمال الصحراء..

وإطارات السيارة تتجاوز حافة الجرف الصحراوي، وتدور في الهواء..

وأطلق (ألفريد) صرخة رعب هائلة، امتزجت بشهقة ذعر وذهول من حلق (أندرو)..

وفقدت السيارة توازنها..

وهوت..

هوت من حالق، وارتطمت بالرمال في عنف..

وانكتمت الصرخات..

ودون أن يلتفت خلفه، واصل البدوي طريقه، وجواده ينهب الأرض نهبًا، في حين راح الألماني يسأله في انفعال:

- ماذا فعلت بهم؟.. كيف فعلتها؟.. كيف؟

ولم يجب البدوي...

أما (سميث) و(رالف)، فقد أوقفا سيارتيهما عند حانة الجرف، وصرخ (سميث) في ارتياع، وهو يغادر سيارته:

- ماذا فعل ذلك البدوي الأحمق؟.. ماذا فعل؟

دار رأسه، وهو يتطلع من أعلى الجرف إلى السيارة، التي غاص جزء منها في قلب الرمال، مع رأس (ألفريد)، وإلى جوارها استلقى سائقها، وسط بركة من الدماء، راحت الصحراء تمتصها في بطء..

وفي مرارة، وبوجه أحاله الشحوب إلى ما يشبه الصحراء، قال (رالف):

- لقد خدعه العربي.. قاده إلى حافة رملية، تنشأ عادة من عوامل التعرية الجوية، ولا يعرفها إلا أبناء الصحراء.

رفع (سميث) رأسه في حدة، وهو يقول:

- أبناء الصحراء؟!

ثم انعقد حاجباه في شدة، وهو يصرخ:

حسنا يا (رالف).. سندفن أبناء الصحراء هؤلاء في قلب الصحراء.

وعلى الرغم من بدانته، قفز إلى سيارته في خفة، واستطرد في عناد:

- هيا.. سنواصل المطاردة.

وأطاع الجميع الأمر..

☆ ☆ ☆

ابتعد البدوي بجواده لمسافة مناسبة، ثم خفف سرعة الجواد، وربت عليه في حنان وألفة، ورفع عينيه يديرهما في الصحراء من حوله، فتمتم الألماني في ألم وضعف:

- يبدو أن جرحي ينزف مرة أخرى.

ألقى البدوي نظرة سريعة على الضمادات الملوثة بالدماء، وقال:

- هذا صحيح.

وأوقف الجواد، ثم هبط عنه، وحمل الألماني، وأرقده على الرمال، فتأوه هذا الأخير، وقال:

مازالت الرمال ساخنة.

أجابه البدوي في حزم واقتضاب.

- احتملها.

ثم راح يحل الضمادات في صمت، والألماني يتأمله في حيرة لا تخلو من إعجاب وإكبار، قبل أن يسأله:

- كيف قدتهم إلى هذا الفخ المحكم؟

أجابه البدوي، وهو يضمد الجرح مرة أخرى:

- الصحراء ليست كلها صحراء، كما قال ذلك الرجل.

هتف الألماني في دهشة:

- هل تفهم لغته؟

عقد البدوي حاجبيه، وأجاب في ضيق:

- بالطبع.. إنهم يحتلون وطني منذ أكثر من نصف القرن.

حدق فيه الألماني لحظات في دهشة، ثم أزاح دهشته جانبًا، أمام فضوله الجارف، وهو يسأل البدوي:

- حسنا.. ما الذي تعنيه بأن الصحراء ليست كلها صحراء؟

أجابه البدوي في اقتضاب:

- للصحراء لغة نفهمها نحن.

سأله في لهفة:

- أية لغة؟

لم يجب البدوي هذه المرة..

إنه يعرف لغة أعدائه، ليتقي شرهم، كما أمره دينه ورسوله، ولكنه لن يكشف لغته هو لأجنبي أبدًا..

حتى ولو كان هذا الأجنبي عدوًا لعدوه..

لن يكشفها لأحد قط..

وكرر الألماني في إلحاح:

- ما لغة الصحراء هذه؟

أجابه هذه المرة في اقتضاب حازم:

- لن تفهمها.

ثم حمله، بعد أن انتهى من تضميد جراحه، وأعاده إلى ظهر الجواد، فتخلى الألماني عن سؤاله، وقال:

- أخبرني إذن، إلى أين سنذهب هذه المرة؟

أجابه البدوي، وهو يعتلي صهوة جواده:

- إننا نحتاج إلى الماء.

وفي لغة الصحراء، كان هذا يعني جوابًا واضحًا..

واتجاها واحدًا.

☆ ☆ ☆

«إلى أقرب واحة..».

قالها (رالف) في اهتمام، وهو يشير إلى بقعة خضراء، تتوسط خريطة كبيرة صفراء، فردها (سميث) على مقدمة سيارته، فسأله هذا الأخير:

- أأنت واثق من أنه سيتخذ هذه الوجهة بالذات.

أجابه (رالف):

- بالتأكيد؛ فهو وجواده والألماني سيحتاجون إلى الماء حتمًا، شأن أي مسافر في الصحراء، ولا يوجد ماء في هذه المنطقة،

سوى في تلك الواحة.

ثم تنحنح، وأضاف:

- ونحن أيضًا نحتاج إلى الماء، فقد تطول المطاردة، و...

قاطعه (سميث) في حدة:

- لن تطول.

ثم قفز إلى سيارته، آمرًا في انفعال:

- هيا.. سنذهب إلى هذه الواحة.

وأضاف في حنق واضح:

- وسنروى نخيلها بدماء هذا العربي.

وتواصلت المطاردة..

☆ ☆ ☆

لم تختلف الواحة كثيرًا عن صورتها على الخريطة.. بقعة خضراء، وسط مساحة هائلة صفراء..

ومع اقتراب السيارتين من الواحة، راحت تلك البقعة الخضراء تتحول إلى جنة صغيرة، من النخيل والأغصان الوراقة، وسط صحراء قاحلة..

واقتحمت السيارتان تلك الجنة بكل صفاقة وهمجية، وخرج سكان الواحة من خيامهم، يتطلعون في قلق إلى سيارتي (الجيب)، وأصر (سميث) على مضاعفة هذا القلق، وهو يأمر الجندي الواقف خلف المدفع الآلي، في سيارة (رالف)، قائلًا:

- استعد يا رجل، وأطلق النار بلا تردد، على أول من يرفض التعاون معنا هنا.

قالها بالعربية في تحد واضح، وهو يدير عينيه في وجوه سكان الواحة في صرامة وحزم، ولكن شيخًا عربيًا وقورًا اقترب منه، بلحيته المهيبة، وشعره الأشيب المسترسل، وقال في هدوء، وكأنما لا يعنيه أمر المدفع الرشاش، المصوب إلى صدره:

- لا داعي لكل هذا أيها الضابط.. إننا نعلم لماذا أنتم هنا، ولدينا الجواب.

كان هذا القول مباغتًا لكابتن (سميث)، الذي توقع الكثير من المكابرة والعناد، كما يحدث في كل مرة، يحدث فيها احتكاك مباشر، بينه وبين العرب، فحدق في وجه الشيخ لحظة في دهشة، لم تلبث أن استحالت إلى غضب، جعله يقول في حدة:

- اسمع أيها الشيخ..

ولكن الشيخ واصل حديثه بنفس الهدوء، وكأنما لا تعنيه حدة (سميث) أبدًا:

- لقد أتى من تبحثون عنه إلى هنا، وتزود بالماء والمؤن، ثم رحل مع ضيفه الألماني.

هتف (سميث)، وقد عاودته دهشته بصورة أعظم هذه المرة:

- حضر ورحل؟!

ومرة أخرى تحولت دهشته إلى نوبة غضب، وهو يقول:

- اسمعني أيها الشيخ.. لو أنك تخدعني فسوف.. هذه المرة قاطعته طلقة رصاص..

رصاصة انطلقت من مرتفع رملي بعيد، ولكن الهواء حمل دويها إلى آذان الجميع في الواحة..

والتفت الكل إلى حيث انطلقت الرصاصة..

وارتفعت عيون الأجانب في دهشة..

فهناك.. فوق مرتفع بعيد، جلس البدوي فوق جواده، وأمامه الألماني، منبطحًا على ظهر الجواد، وفي يد البدوي بندقيته، يرفعها عاليًا، بعد أن أطلق منها هذه الرصاصة..

وصرخ (رالف) في دهشة:

- إنه هو؟!

أما (سميث) فقد استشاط غضبًا، وهو يصرخ:

- يا للصفاقة!!.. يا للتحدي.

ثم صاح:

- انطلقوا خلفه.. أريده بأي ثمن..

وفي نفس اللحظة التي انطلقت فيها السيارتان، أدار البدوي عنان جواده، وانطلق مرة أخرى وسط الصحراء، متحديًا الغموض..

ومواجهًا الموت..

☆ ☆ ☆

4- العاصفة..

كل ما يحدث كان يدهش الألماني ويثيره، ويقفز بانفعالاته إلى الذروة، على الرغم من ألمه وضعفه المتزايد، اللذين غلبهما فضوله، وهو يسأل البدوي:

- لماذا فعلت هذا؟.. لقد أرشدتهم إلى موضعنا، وكان يمكننا أن نفر منهم تمامًا هذه المرة.

أجابه البدوي في حزم:

لم يكن ذلك البدين ليتورع عن ذبح كل سكان الواحة، ليرشدوه إلى حيث اتجهنا، ولم يكن أحدهم ليخبره، حتى لو فنوا على بكرة أبيهم.

هتف الألماني في دهشة:

- إلى هذا الحد؟!

لم يجب البدوي..

بدا له الجواب ساذجًا تافهًا، لا يستحق حتى أن ينطقه..

من الواضح أن هذا الألماني يجهل الكثير عن طبيعة العرب..

عن الشهامة، والنخوة، والشجاعة، والكرامة..

يجهل كل شيء عن عظمة كل ما هو عربي..

ولم يكرر الألماني سؤاله..

كان قد فهم الشيء الكثير عن طبيعة هذا البدوي..

واحترمه أكثر..

وصمت الألماني، وابتلع آلامه وضعفه، والبدوي ينطلق بالجواد نحو مرتفعات صخرية ضخمة وواسعة الانتشار..

ثم ظهرت السيارتان من خلف تل بعيد، وراحتا تحثان السير نحو الجواد..

هنا فقط عاد إلى الألماني توتره، وقال:

- لقد ظهروا مرة أخرى.

انتظر أن يسمع جوابًا أو تعليقًا من البدوي، إلا أن هذا الأخير لم ينبس بحرف واحد، فراقب الألماني اقتراب السيارات مرة أخرى، وقال في قلق:

- بهذه السرعة سيلحقون بنا حتمًا.

في هذه المرة أجابه البدوي.

- ليس إذا بلغنا الممر أولًا.

هتف الألماني، وقد انتعشت هذه العبارة الأمل في نفسه:

- أهو ممر بين تلك الجبال هناك؟.. أهو أضيق من أن تعبره سيارة؟

جاء جواب البدوي مخيبًا لأمله، وهو يقول:

- بل هو يكفي لمرور سيارتين متجاورتين.

قال الألماني في يأس:

- لماذا تظننا سننجو لو بلغناه قبلهم إذن؟

أجابه في هدوء:

- الرمال ترتطم بقوائم الجواد في قوة.

سأله الألماني في دهشة:

- وما الذي يعنيه هذا؟

صمت البدوي لحظة، ثم أجاب في حزم:

- يعني الكثير.. هذه هي لغة الصحراء.. لغتنا.

قالها وقد بلغ الممر، فاندفع بجواده يعبره في مهارة، والجواد الأصيل يتجاوز بعض الصخور، ويقفز فوق البعض الآخر، وقد تزايدت سرعة الرياح، وراحت حبيبات الرمال الصغيرة ترتطم بوجه الألماني، الذي هتف:

- هذه الرمال مؤلمة.

أجابه البدوي في اقتضاب:

- ألمها هو أملنا الوحيد.

كانا قد بلغا نهاية الممر عند هذه اللحظة، وفوجئ الألماني بالبدوي يوقف جواده، ويهبط عن صهوته، ثم يبدأ في حمله هو لإنزاله، فهتف:

- ماذا تفعل أيها العربي؟.. هل جننت؟!.. إنهم يبعدون عنا مسيرة عشر دقائق فحسب، وتوقفنا يعني أن تنكمش المسافة بيننا وبينهم أكثر، و...

قاطعه البدوي في حزم:

- لن يمكنهم عبور الممر بعد خمس دقائق من الآن.

نطقها وهو ينزل الألماني، ويرقده أرضًا، ثم يحل سرج جواده، ويعمل في سرعة؛ ليصنع منه شيئًا أشبه بخيمة متينة، تصد عنه وعن الألماني الرمال المتطايرة، التي تضاعفت سرعتها وقوتها

كثيرًا، في حين التصق الجواد بجدار الجبل، راح يطلق صهيلًا خافتًا متصلًا..

وتمتم الألماني في توتر:

- إنها عاصفة.. أليس كذلك؟

أجابه البدوي:

- بلى.

بعدها ساد الصمت بينهما تمامًا، وراح الألماني يراقب الممر، الذي تفجرت داخله عاصفة جنونية من الرمال، حجبت الرؤية تمامًا..

إنها لغة الصحراء..

لغة الحياة..

والموت..

☆ ☆ ☆

ارتبك سائق سيارة كابتن (سميث) كثيرًا، وهو يقترب من الممر، وراحت أصابعه ترتجف حول عجلة القيادة، ثم لم يلبث أن ضغط كامح السيارة، وأوقفها على بعد أمتار من مدخل الممر، فصاح به (سميث) في غضب:

- لماذا توقفت؟

أجابه السائق في توتر، وهو يشير إلى عاصفة الرمال، داخل الممر:

لا يمكنني القيادة هناك يا سيدي.. ستدفننا الرمال تحتها أحياء.

وأسرع (رالف) يتدخل، قائلًا:

- هذا صحيح يا كابتن.. إنها عاصفة عتيدة، ومن الأفضل أن نتوقف.

تردد (سميث) لحظات، ثم قال في حدة:

- ولكن هذا البدوي سيفر.

قال (رالف):

- لست أظن هذا يا سيدي.. لا ريب أنه سيتوقف أيضًا، فالعاصفة أعتى من أن يواصل سيره وسطها.

حسم هذا القول الكثير من تردد (سميث)، إلا أنه هتف غاضبًا:

اللعنة على هذ الطقس!! إنها صحراء مجنونة كقاطنيها.. لقد نشأت هذه العاصفة القذرة فجأة.. وبلا مقدمات.

تمتم (رالف):

- إنها طبيعة الصحراء يا سيدي.

ثم تنحنح مستطردًا:

- أظنني سأنتقل إلى سيارتك يا سيدي، فهي الوحيدة ذات غطاء واق، والرمال ترتطم بي على نحو مؤلم.

مط (سميث) شفتيه، وغمغم:

- فليكن.. انتقل إلى هنا.

ووسط العاصفة جلس الجميع ينتظرون انتهاء غضبة الطقس..

وبدء جولة جديدة من المطاردة..

☆ ☆ ☆

كان الموقف رهيبًا، والعاصفة تتزايد في عنف، وتبعث في قلب الألماني الكثير من الخوف والتوتر، في حين بدا البدوي هادئًا، ساكنًا، وكأنما ينتظر فقط انتهاء العاصفة؛ ليواصل طريقه، فسأله الألماني:

- يبدو أنك قد اعتدت هذا.. أليس كذلك؟

أتاه الجواب مقتضبًا:

- بالطبع.

ازدرد الألماني لعابه في توتر، وقال:

- شاقة هي حياتكم أيها العرب.

لم يجبه البدوي هذه المرة، ولكن الألماني كان يحتاج إلى مواصلة الحديث؛ ليزيل به بعضًا من رهبة الموقف، فعاد يقول:

- لو نجونا من هنا لن أنسى لك هذا الجميل أبدًا أيها العربي، ولو قدر لـ(ألمانيا) أن تجتاح هذه الدولة، وتطرد منها البريطانيين، فسأعمل على أن يكون لك شأن فيها.

عقد البدوي حاجبيه، وهو يقول:

- لو حدث هذا، فحاول ألا تلتقي بي أبدًا، وإلا فسيكون الموت نصيبك.

هتف الألماني في دهشة:

- الموت؟!

أجابه البدوي في حزم:

- عندئذ ستكون أحد من يحتلون بلادي، والموت هو الجزاء الوحيد لك.

قال الألماني، محاولًا تلطيف الموقف:

- ولكنني عدو لأعدائك.

قال البدوي في بغض واضح:

- كل استعمار له حجة، ينفذ منها إلينا.

شعر الألماني بدهشة شديدة هذه المرة، وتطلع إلى البدوي في حيرة، ثم سأله.

- لماذا تفعل كل هذا من أجلي إذن، ما دمت تبغضني إلى هذا الحد؟

أجابه البدوي في حسم:

- لقد طلبت حمايتي، وتقاليدي تجبرني على الدفاع عنك، ما دمت قد فعلت.

هتف الألماني في دهشة:

- حتى لو كنت عدوك.

قال البدوي:

- حتى لو كنت قاتل أبي وأمي.

حدق فيه الألماني في دهشة بالغة هذه المرة..

كان يستمع إلى منطق لم يتعامل به قط..

بل لم يقرأ عنه..

ولم يسمع به..

ونبض قلبه بإعجاب جارف بغتة، فهتف من أعماقه، وبكل إخلاص:

كم أتمنى لو كنت عربيًا!!

رمقه البدوي بنظرة جانبيه، دون أن يجيب، فاستطرد الألماني في حرارة:

- أريد أن أصبح عربيًا.

خيل إليه أن البدوي قد ابتسم، من تحت لثامه، في سخرية، ثم أشاح بوجهه في صمت..

وانقطع حبل الحديث..

تمامًا..

☆ ☆ ☆

كانت ليلة ليلاء، عصفت فيها الرياح، وعربدت، وحملت أطنانًا من الرمال، وألقتها في كل مكان، مغيرة تضاريس الصحراء في بساطة وسرعة، كما يحدث في كل العواصف..

وانكمش البريطانيون الخمسة داخل السيارتين.. (سميث) و(رالف) في سيارة مغطاة، والجنود الثلاثة الآخرون في سيارة عارية..

ومضى الليل بطيئًا.. طويلًا..

ثم أشرقت الشمس أخيرًا في الأفق..

وهدأت الرياح بغتة..

وساد السكون..

سكون رهيب مثير، قطعه (سميث)، وهو يهتف:

- اللعنة!.

نهض ينفض الرمال عن ثيابه العسكرية، وألقى نظرة على السيارة الأخرى، حيث الجنود الثلاثة، الذين بدوا شديدي التهالك، وهم ينفضون كميات هائلة من الرمل، ثم التفت إلى (رالف)، الذي يحتل مقعد قيادة سيارته، قال محنقًا:

- لم أتصور أن ينتهي هذا الأمر السخيف أبدًا!

قال (رالف)، وما زالت حروف كلماته تحمل آثار ليلته العصيبة:

- هكذا عواصف الصحراء.. تنشأ فجأة.. وتنتهي فجأة، و...

قاطعه صهيل جواد، يأتي من الطرف الآخر للممر، فأدار عينيه إلى هناك، وأدار الجميع عيونهم معه..

كان جواد البدوي هناك، يضرب الأرض بقوائمه، وإلى جواره ارتفعت يد، بدا وكأنها تبرز من قلب الرمال، ثم برز البدوي، وهو يحمل الألماني من أسفل السرج، ويحمل بندقيته باليد الأخرى..

كان على بعد أمتار قليلة من السيارتين؛ لذا فقد صرخ (سميث)، وقد انتابه حماس جارف:

- ها هو ذا.. انقضوا عليه.

وعلى الفور زأرت محركات السيارتين، وانطلقت سيارة الجنود الثلاثة، يقودها جندي، وخلفها سيارة (سميث)، يقودها (رالف)..

وفي مؤخرة سيارة الجنود، كان أحد الجنود الثلاثة يعد المدفع الرشاش للإطلاق..

واتسعت عيون الألماني في ذعر..

هذه المرة لا أمل في النجاة..

لا أمل قط..

☆ ☆ ☆

5- الرمال..

في كل شعوب العالم، وفي كل لغات الدنيا، وكل تراث معروف، ستجد قولًا مأثورًا، أو مثلًا شعبيًا، يشير إلى معنى اتفق عليه الجميع..

«الحياة مع الخطر تصنع أفضل أنواع الرجال..».

وهذا صحيح..

كان ينبغي أن ترى ما حدث هناك، في ذلك الممر الصغير، في قلب الصحراء، لتؤمن تمامًا بهذا المبدأ..

لقد نشأ البدوي وترعرع في قلب الصحراء، بكل مخاطرها وصعابها..

وألفها..

امتزج بها..

صارت رمالها مهدًا وفراشًا له..

عرفته وعرفها..

فهمته وفهمها..

وفي هذه اللحظة هناك، عندما انقضت عليه سيارتا (الجيب)، كان يدرك جيدًا ما ينبغي له أن يفعله..

وفي سرعة، فعله..

رفع بندقيته إلى أعلى، وأطلق رصاصتين على قمة الممر..

وارتفع ذلك الهدير..

هدير يعرفه كل بدوي..

ويخشاه..

ورفع البريطانيون رؤوسهم إلى أعلى..

ورأوا صخورًا صغيرة ترتجف في أعلى الممر، ثم تنفصل عن أماكنها، وتهوى فوق الرؤوس، مع أطنان من الرمال..

وصرخ (سميث) في هلع:

- تراجع يا (رالف).. تراجع..

قفزت يد (رالف) في توتر إلى عصا السرعة، ووضعتها في موضع العودة إلى الخلف، وضغطت قدمه دواسة الوقود..

وسقطت فوقه الرمال..

وارتفع صراخ الجنود الثلاثة، على بعد أمتار داخل الممر..

ولكن (رالف) تراجع بالسيارة..

لقد نجح ونجا، ولكن جنوده الثلاثة دفنوا أحياء تحت الرمال..

رمال الصحراء..

واتسعت عينا (سميث) في رعب وذهول، والرمال مازالت تنهمر، ثم هتف بكل التوتر الكامن في نفسه:

- اللعنة!!

كان (رالف) ينفض الرمال عن ثيابه في عصبية، عندما أجابه:

- هذا العربي داهية يا سيدي.. داهية رهيب.

هتف (سميث):

- بل هو ثعلب.. ثعلب ماكر..

ران عليهما الصمت، بعد عبارة (سميث)، ثم قال (رالف) في تردد:

- يبدو أننا سنضطر للاعتراف بالهزيمة، و...

صرخ (سميث):

- اصمت.

ثم انتزع خريطة الصحراء، راح يفردها في عصبية بالغة، وهو يقول:

- نعترف بالهزيمة أمام عربي؟!.. هل أصابك الجنون يا (رالف)؟.. إنني سأقتنص هذا الثعلب العربي المغرور، حتى ولو تصور أنه قد أفلت منا.

فرد الخريطة أمام وجهه، وتابع في انفعال:

- هذا الحاجز الجبلي يمتد لثلاثة كيلومترات فحسب، وكان يمكننا أن ندور حوله منذ البداية، ولكن هذا البدوي الخبيث قادنا كالنعاج نحو هذا الممر، وكأنما يتعمد إيقاعنا في الفخ.

تمتم (رالف) في تردد:

- يبدو هذا.

طوى (سميث) الخريطة في حزم، وهو يقول:

- حسنا.. سندور حول الجبل، وسنواصل المطاردة وحدنا –أنا وأنت– حتى نصرع ذلك البدوي، ونستعيد الأسير الألماني.. هيا.. ستقود أنت.. انطلق.

تنهد (رالف) في استسلام، وأدار محرك السيارة، وانطلق مرة أخرى..

كان يعلم أنها الجولة الأخيرة..

جولة مع البدوي..

ومع الصحراء..

☆ ☆ ☆

حاول الألماني أن يبتسم في وهن، وهو يقول للبدوي:

- رائع أنت أيها العربي.. لقد قدت هؤلاء البريطانيين إلى الفخ بكل مهارة، وأوقعت بهم، و...

قاطعه البدوي:

- هم قادوا أنفسهم إليه.

تهالك جفنا الألماني، وراح جسده يرتجف ارتجافة منتظمة، لا تتوافق مع ارتجاجات الجواد، وهو يحاول المحافظة على ابتسامته، متمتمًا:

- هل التواضع أيضًا من سمات العرب؟

تطلع إليه البدوي لحظات في صمت، ثم تحسس جبهته المبللة بالعرق، وقال:

- أنت مصاب بالحمى.

تمتم الألماني:

- يبدو أنها النهاية.. لقد تلوث جرحي، وفقدت الكثير من الدماء.

قال البدوي في قلق:

- تماسك.. سنبلغ واحة أخرى بعد قليل، وهناك سيداويك شيخها بعقاقيرنا، و...

قاطعه الألماني:

- لا يا رجل.. إنها النهاية.. إنني أشعر بهذا..

ثم أمسك كفه، مستطردًا:

- هيا.. اتركني لهم.. اتركني لهؤلاء البريطانيين.. سيوقفون مطاردتك حينذاك.

أوقف البدوي جواده، وهو يقول في لهجة رجل لا يقبل النقاش:

- محال.

هبط عن الجواد، وأنزل الألماني، واتجه نحو صخرتين متعانقتين، في قلب الصحراء، وأرقده بينهما، ثم حمل سرجه، وصنع له به مظلة، راح ينثر فوقها الرمال، ليحجبها عن الأنظار، ويغطي ساقي الألماني بالرمال، والألماني يتمتم، وهو يرتجف من الحمى:

- لا فائدة.

تجاهله البدوي تمامًا، وهو يتنزع نطاقه، ويبلله بالماء، ثم يضعه على جبهة الألماني، ويمد يده له بزمزميته، قائلًا:

- اشرب.. الماء يخفف الحمى.

شرب الألماني الماء دون حماس، ثم قال:

- هل تخشى الاعتراف بالهزيمة أيها البدوي؟.. لقد خسرنا السابق؛ بسببي أنا، وسيبلغ البريطانيون موقعنا حتمًا.

قال البدوي في عمق:

- الله (سبحانه وتعالى) يمنح النصر لمن يشاء.

ابتسم الألماني في شحوب، وهو يغمغم:

- بإصراركم أيها العرب.

اعتدل البدوي بغتة، وأرهف سمعه لحظات، ثم قال في حزم:

- ابق هنا.

تمتم الألماني:

- اطمئن.. إنني أعجز حتى عن تحريك سبابتي.

واندفع البدوي نحو جواده، ووثب على صهوته، في نفس اللحظة التي ظهرت فيها سيارة (الجيب) البريطانية، وصرخ (سميث) داخلها:

- ها هو ذا.. الحق به يا (رالف).. سنقتله هذه لمرة.

انتزع مسدسه، وصوبه إلى البدوي، الذي ينطلق بجواده، فهتف (رالف)، وهو ينطلق بالسيارة نحوه:

- ولكن أين الألماني؟

صاح به (سميث):

- دعك من الألماني الآن، فليذهب إلى الجحيم.. سنظفر بالبدوي أولًا، ثم نبحث عنه.

قال كلماته، وراح يفرغ رصاص مسدسه خلف البدوي، الذي أدار عنان جواده يمنة ويسرة في مهارة، متفاديًا طلقات النيران، ثم انطلق نحو بقعة مستوية، وهو يحث جواده على الانطلاق نحوها في إصرار..

وفجأة ضغط (رالف) كامح السيارة، فاندفع جسد (سميث) البدين ليرتطم بزجاجها، قبل أن يهتف في ثورة:

- ماذا فعلت أيها التعس؟.. لماذا توقفت الآن؟

أجابه (رالف) في توتر:

- أشعر أن هذا العربي يقودنا إلى فخ آخر.

صرخ (سميث):

- أيها الجبان الرعديد.. إنك لا تستحق شرف نيل رتبة ضابط، في جيش الإمبراطورية العظمى.

قال (رالف) في عصبية:

- سيدي.. لا يحق لك أن...

بغتة دفعه (سميث) في غلظة خارج السيارة، هاتفًا:

- فيما بعد أيها الغبي.. إنك تضيع فرصة نادرة.

سقط (رالف) على الرمال، خارج السيارة، وعندما اعتدل، كان (سميث) يحتل مقعد القيادة، ويهتف:

- انتظرني هنا.. سأعود إليك برأس هذا العربي.

وانطلق بالسيارة خلف جواد البدوي، و(رالف) يصرخ خلفه:

- انتظر يا سيدي.. انتظر.. إنه الأقوى في هذه الساحة.. لسنا نعرف الصحراء كما يعرفها.

ولكن (سميث) تجاهله..

- أو أنه لم يسمعه..

كانت كل حواسه تتجه نحو البدوي..

لقد أصبحت قضية ثأر شخصي..

أما البدوي، فقد واصل عدوه بجواده نحو البقعة المستوية، ثم انحرف يمينًا بغتة، وعاد مرة أخرى إلى اليسار، ووثب بجواده فوق شيء ما، ثم عاد ينطلق، فأطلق (سميث) ضحكة ساخرة عصبية عالية، وهو يهتف:

- لن يفيدك هذا أيها العربي.. سأسقطك هذه المرة، رفع مسدسه، وصوبه نحو رأس البدوي في إحكام، وأضاف:

- كما كنت أسقط وحوش الغابات في (كينيا).. رصاصة واحدة في الرأس، و...

وفجأة فقدت السيارة توازنها، وارتجت في قوة، ثم بدت وكأنها تنزلق فوق أرض زلقة، قبل أن يتوقف محركها دفعة واحدة..

وصرخ (سميث) في سخط، وهو يحاول إدارة محرك السيارة مرة أخرى:

- اللعنة!.. ماذا أصاب هذه السيارة اللعينة؟

تعلقت عيناه بغتة بالبدوي، الذي أوقف جواده على بعد أمتار، وراح يتطلع إليه في صمت، بوجهه الذي يخفي اللثام نصفه، وعينيه السوداويين الحازمتين..

وسرت رجفة مبهمة في جسد (سميث) البدين..

لماذا توقف البدوي عن العدو؟..

لماذا لم يستغل الفرصة؛ ليبتعد أكثر، وأكثر؟

ثم انخفض بصرة فجأة..

انخفض دون أن يخفض هو وجهه..

عندئذ فقط أدرك (سميث) ما يحدث..

كانت مقدمة سيارته تغوص..

تغوص في بحر من الرمال الناعمة..

في فخ جديد، قاده إليه ذلك البدوي..

واتسعت عينا (سميث) في رعب، وراح يتلفت حوله في يأس..

كان (رالف) بعيدًا..

والبدوي قريب..

والسيارة تغوص في بحر الرمال الناعمة في سرعة..

وصرخ (سميث):

- ما الذي فعلته بي، أيها العربي الحقير؟

لم ينبس البدوي ببنت شفة..

لم يحرك ساكنًا..

بقي فوق جواده جامدًا، ممسكًا بندقيته في سكون وحزم، كما لو كان تمثالًا للصمود والقوة..

وواصل (سميث) صراخه، والسيارة تختفي في بحر الرمال:

- هل ستتركني هكذا، أيها العربي الوقح؟.. هيا.. أخرجني.. هيا.

بدأ جسده البدين يغوص في الرمال الناعمة، بعد أن اختفت السيارة تمامًا، فتولاه رعب هائل، وهو يهتف:

- قلت لك اخرجني أيها العربي.. اخرجني أو أقتلك.

رفع مسدسه نحو العربي، وصرخ:

- قلت سأقتلك.

كان جسده يغوص في سرعة، حتى بلغت الرمال عنقه، فانتابه فزع جنوني، وهو يصرخ:

- أيها العربي الحقير.. أيها البدوي الماكر.

كل هذا دون أن تتحرك عضلة واحدة في وجه البدوي أو جسده..

وكل هذا و(رالف) يعدو بكل قوته نحو بحر الرمال الناعمة، في محاولة لإنقاذ رئيسه..

ولكنه وصل متأخرًا..

لقد بلغ المكان ولم يعد هناك أثر لجسد (سميث) البدين..

لقى المحتل الغاضب مصرعه، في قلب الصحراء..

وفي هذه اللحظة فقط تحرك البدوي..

أدار فوهة بندقيته، وصوبها نحو (رالف)، الذي هتف وهو يلقي مسدسه أرضًا:

- لا.. إنني أستسلم.

كان قد أدرك الآن أن هذه ليست ساحته..

وأن البدوي هو السيد هنا..

في قلب الصحراء..

وفي استسلام تام، سار أمام جواد البدوي، رافعًا ذراعيه فوق رأسه، حتى بلغا الموقع، الذي ترك فيه البدوي الألماني الجريح، فألقى (رالف) نظرة على الألماني، وقال في توتر:

- أتصدق أن كل هذا قد حدث بسببك؟

تمتم الألماني بابتسامة شديدة الشحوب:

- إنني فخور بهذا.

هز (رالف) رأسه في توتر، ثم التفت إلى البدوي، وقال:

- والآن ماذا ستفعل بي؟.. هل ستقتلني؟

التقط البدوي زمزمية مياه، وألقاها إلى (رالف)، وهو يقول في حزم:

اتبع غروب الشمس، وستبلغ واحة صغيرة بعد مسيرة ساعتين، وهناك يمكنك تدبير أمر عودتك.

هتف (رالف) في دهشة:

- ألا تخشى أن أعود للانتقام منك؟

أجابه البدوي في حزم رهيب:

- اذهب.

التقت عينا البدوي بعيني (رالف) لحظات، ثم خفض هذا الأخير عينيه، متمتمًا:

- سأذهب.

راقبه البدوي في صمت تام، وهو يبتعد، حتى اختفى خلف تل رملي بعيد، في اتجاه الغرب، وهنا قال الألماني في وهن:

- لست أفهم!

التفت إليه البدوي، وسأله:

- ما الذي تريد فهمه؟

قال الألماني، وقد صار وجهه شاحبًا كرمال الصحراء:

- لقد تركت البدين يلقى مصرعه، في قلب بحر الرمال الناعمة، دون أن تمد له يد العون، ثم تركت ذا الشارب الضخم يرحل، دون أن تمسه بسوء!!

رفع البدوي عينيه، يتطلع إلى السماء وهو يجيب:

- لقد استسلم ذو الشارب، وكان أعزل من السلاح، وليس من شيمنا أن نقتل العزل، أما البدين، فقد ظل يحمل سلاحه حتى النهاية.

صمت لحظة، ثم أضاف:

- ثم إنه لم يطلب عونًا.

سأله الألماني في دهشة:

- أكنت ستنقذه لو فعل؟

أجابه البدوي في حزم:

- بالتأكيد.

ابتسم الألماني ابتسامة شاحبة، وهو يقول:

- إنكم حقا أفضل الفرسان، أيها العرب.

وازدرد لعابه في صعوبة، وأضاف:

- أتتصور أنك قد فعلت كل هذا، دون أن تعرف حتى اسمي؟

قال البدوي في خفوت:

- وهل للأسماء قيمة، في مثل هذه المواقف؟

قال في وهن:

- صدقت.. إنني لم أر حتى وجهك.. ولكن هذا لا يهم.. لم يعد يهم.

ثم زاغ بصره، وهو يستطرد في وهن بالغ:

- أريد أن أصبح عربيًا مثلك.. ساعدني كي أصـ...

امتدت كلمته على هيئة شهقة خافتة، تراخى بعدها جسده كله، وخبا بريق الحياة في عينيه، فانحنى البدوي يسبلهما في خشوع، ثم اعتدل قائلًا:

- هيهات يا رجل.. العربي يولد عربيًا.

لاذ بعدها بالصمت تمامًا، حتى انتهى من مواراة جثة الألماني الثرى، ثم وثب على صهوة جواده، وبقي صامتًا، يتطلع إلى غروب الشمس، وعيناه تتألقان ببريق جديد..

لقد قاتل أعداءه، في مواجهة صريحة لأول مرة..

وانتصر..

ولقد استعذب هذا النوع من القتال..

ولن يتوقف عنه..

لن يتوقف حتى ينزح المحتلون عن أرضه..

لقد استيقظت في أعماقه روح الفارس..

فارس هذه الصحراء..

وفي حماس، جذب البدوي عنان جواده، وسمع صهيل الجواد القوي، وهو يضرب قائمتيه الأماميتين في الهواء، وبعدها انطلق به في قلب مملكته..

في قلب الصحراء..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- المعركة..

2- الهروب..

3- مطاردة..

4- العاصفة..

5- الرمال..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد
الفئران

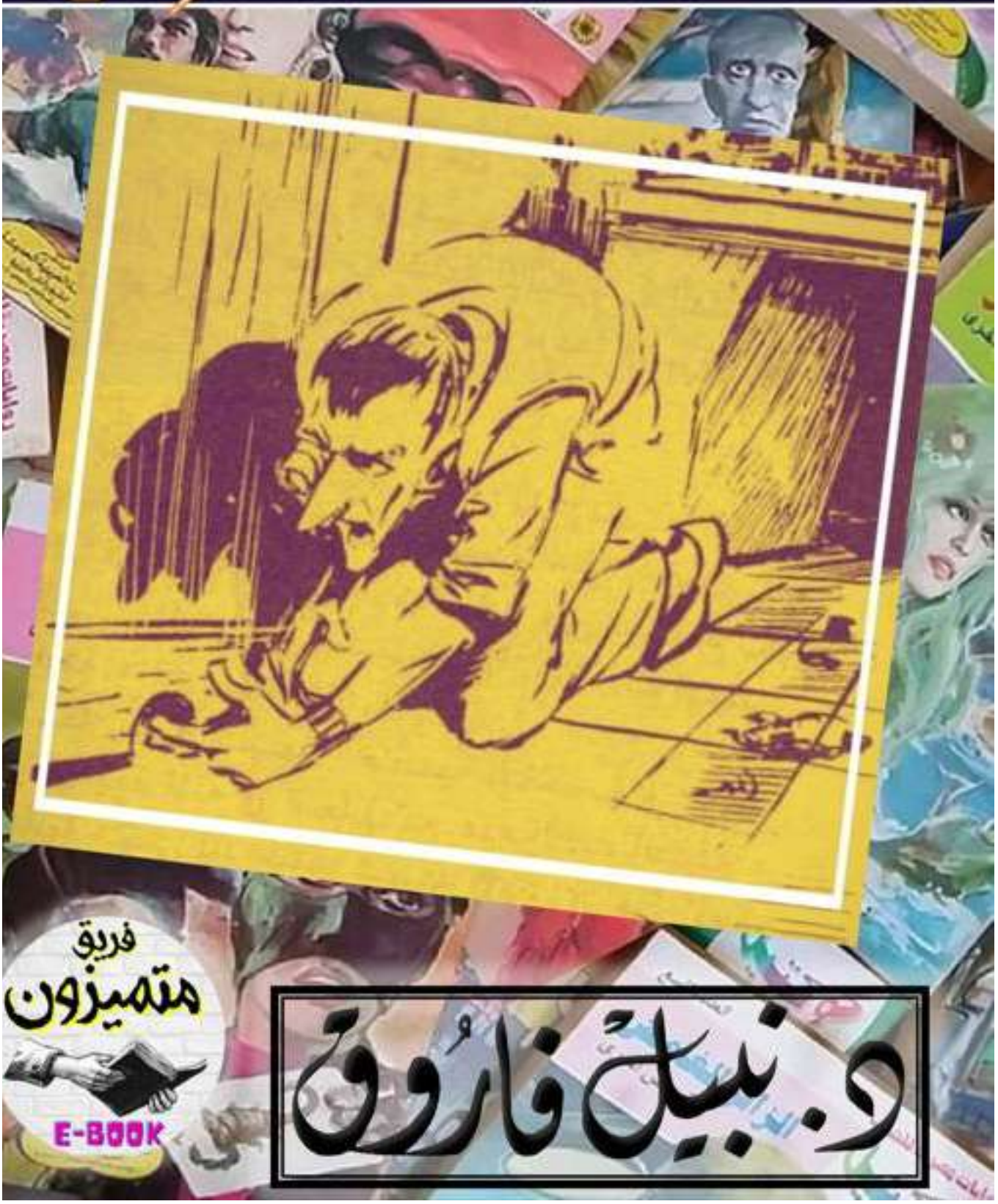

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

الفئران
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000
قصص العدد
الفـئران

1- عبث..

«يبدو أن لدينا فأرًا هنا..»

انزعج (رفقي) في شدة، عندما نطقت زوجته هذه العبارة، وتخلى عن الساعة الإلكترونية الدقيقة، التي ينهمك في إصلاحها، والتفت إليها مرددًا في مزيج من الدهشة والاستنكار:

- فأر؟!

لم يكن يزعجه شيء، بقدر ما تزعجه الفئران، فهو لا يشعر بالاشمئزاز منها فحسب، وإنما يخشى عبثها بآلاته الدقيقة أيضًا، التي يتركها عادة على سطح مكتبه، حتى ينتهي من إصلاح أو تصميم واحدة من الآلات الإليكترونية بالغة الدقة، التي يعشقها..

كان يحمل شهادة هندسية متخصصة في الإليكترونيات، وكان يجد لذته في التعامل مع هذه الآلات الدقيقة، والتفوق عليها، حتى لقد بلغت شهرته الآفاق في هذا المجال، وراح الجميع يلجئون إليه، لإصلاح موجه آلي، أو جهاز تحكم صغير.. أو خلافهما..

واتخذ (رفقي) لنفسه حجرة منعزلة، من حجرات الفيلا القديمة، التي يسكنها منذ كان طفلًا، وجعل منها معملًا خاصًا له، يحظر دخولها إلا على زوجته، التي تقوم بتنظيفها مرة واحدة كل أسبوع، وهي تحرص على عدم الاقتراب من مكتبه الخاص، حيث يضع آلاته..

ولهذا كان من المزعج للغاية أن تخبره زوجته بوجود فأر في معمله الخاص، ولهذا أيضًا وجد نفسه يسألها في عصبية:

- وكيف علمت بوجود هذا الفأر؟

أشارت زوجته إلى الركن السفلي لباب المعمل، وهي تقول:

- لقد قرض جزءًا من الباب.

تطلع إلى حيث تشير، ولاحظ تلك الفجوة الصغيرة، التي بدت له شديدة الانتظام، على نحو مثير للدهشة، فعقد حاجبيه، مكررًا:

- فأر؟!

ثم نهض من خلف مكتبه، وانحنى عند ركن الباب، يفحص الفجوة في اهتمام أكثر..

كانت منتظمة بالفعل، على هيئة نصف دائرة، ذات حواف سوداء ناعمة، جعلته يغمغم للمرة الثالثة:

- فأر؟!

ثم استطرد في توتر:

- ناوليني العدسة الكبيرة.

التقطت زوجته العدسة، من بين أدواته في حرص، وناولته إياها، ووضعها هو على عينيه وعاد يفحص الفجوة في قلق..

- نعم.. إنها شديدة الانتظام، حتى ليستحيل أن يصنعها حيوان بدائي كالفأر، ثم إن أطرافها محترقة، و...

توقفت أفكاره عند هذه النقطة، ونهض يعيد العدسة إلى موضعها، ويقول لزوجته في صرامة:

- اتركيني وحدي الآن.

تطلعت إليه في دهشة، وقالت معترضة:

- المعمل يحتاج إلى تنظيف جيد.. ألست ترى أن بقايا الشطائر، التي تلقيها حولك في إهمال، هي التي جلبت هذا الفأر؟

دفعها أمامه، وهو يقول في عصبية:

- ربما، ولكنني أريد أن أبقى وحدي الآن.

صاحت ساخطة:

- حسنًا.. ابحث إذن عمن ينظف وكرك هذا.

انصرفت محنقة، في حين أغلق هو الباب خلفها في إحكام، ثم أسرع إلى مكتبه، وفتح درجًا سريًا فيه، ولم يكد يلقى نظرة على محتوياته، حتى تنهد في ارتياح، وقال:

- حمدا لله.. إنها هنا.

أعاد الدرج إلى موضعه، والتقط سماعة الهاتف، وضغط أزرار رقم خاص، وانتظر حتى أتاه صوت محدثه من الطرف الآخر، فقال:

- صباح الخير يا (سمير).. هناك أمر عجيب يحدث هنا.

هتف (سمير) عبر أسلاك الهاتف:

- هل سرقوا اختراعك؟

أجابه (رفقي) في توتر:

- لا، ولكنني أظنهم يحاولون.

قال (سمير) في سرعة:

- سآتي إليك على الفور.

أنهى المحادثة في سرعة، وأدرك (رفقي) أنه سيستقل سيارته، ويهرع إليه على الفور، فأعاد هاتفه إلى موضعه في بطء، وسبح عقله في ذكريات قريبة..

كان عشقه للإليكترونيات الدقيقة، ودراسته لها، قد امتزجا في عقله المتفوق، وأنجبا اختراعًا جديدًا..

ساعة إليكترونية حديثة، لا تحتاج إلى أية طاقة محركة، وإنما تستمد طاقتها من نبض معصم من يرتديها..

ولقد تسرع بعرض الفكرة على بعض أقرانه، في لحظة غلبه فيها الزهو بنفسه، فنقلها أحدهم إلى وكيل إحدى شركات الساعات العالمية، وراح هذا الوكيل يلح عليه لشراء اختراعه، ولكنه رفض رفضًا باتًا، معلنًا أنه لن يهب اختراعه هذا إلا لوطنه فقط..

ومنذ ذلك الحين، يراود الخوف من محاولة هذه الشركة الأجنبية بسرقة اختراعه..

ومنذ ذلك الحين أيضًا، يخفي الساعة في الدرج السري، المختفي في مكتبه، حتى ينتهي من صنعها، ويعلن كشفه على الملأ..

تحسس موضع الدرج السري مرة أخرى، وكأنما يطمئن على وجود الساعة، ثم التفت إلى الفجوة المنتظمة في ركن الباب السفلي، وغمغم:

- ترى ما الذي يحاولونه بالضبط؟

شرد بأفكاره لحظات، حتى سمع طرقًا على الباب الآخر للحجرة، الذي يقوده إلى الحديقة، فأسرع يفتحه قائلًا:

- صباح الخير يا (سمير).. كنت أعلم أن ستصل على الفور.

صافحه (سمير) في لهفة، ثم سأله:

- ما الذي أثار شكوكك؟.. ما الذي فعلوه هذه المرة؟

أشار (رفقي) إلى الفجوة، قائلًا:

- هذا ما فعلوه.

عقد (سمير) حاجبيه، وهو يتطلع إلى الفجوة، وقال في دهشة تحمل رنة قلق:

- ما معنى هذا؟

ناوله (رفقي) عدسته، وهو يقول في عصبية:

- افحصها يا (سمير).

تناول (سمير) العدسة، وانحنى يفحص الفجوة المنتظمة في اهتمام بالغ، ثم اعتدل قائلًا:

- ما الذي تظنهم يحاولونه؟

أجابه (رفقي) في حدة:

- سرقة الاختراع بالتأكيد.

نهض (سمير) قائلًا:

- بوساطة هذه الفجوة؟!

هز (رفقي) كتفيه، وقال:

- من يدري أية وسيلة سيتبعون؟

لم يبد الاقتناع على وجه (سمير)، الذي راح ينقل عينيه بين بابي الحجرة، قبل أن يقول:

- يبدو أنه علينا أن نبحث عن تفسير آخر يا (رفقي).

قال (رفقي) في عصبية:

- ولماذا؟

أشار (سمير) إلى الباب المؤدي إلى الحديقة، وقال:

- لأنه ليس من المنطقي أن يتجاهل أي مقتحم هذا الباب، الذي لا يقود إلا إلى حديقة صغيرة، يمكنه أن يختفي فيها، وهو يؤدي عمله، دون أن يشعر به أحد، ويخاطر بدخول الفيلا، وعبور ردهتها كلها، للوصول إلى الباب الآخر.

كان التفسير منطقيًا للغاية، حتى أن (رفقي) قد شعر بالارتباك، فغمغم:

- من تظنه فعل هذا إذن؟

تطلع (سمير) إلى الفجوة في حيرة، وهز رأسه، قائلًا:

- لست أدري.. ربما..

قاطعه (رفقي) في عصبية وتوتر:

- لا تقل لي إنها الفئران، كما تقول زوجتي.

اتسعت عينا (سمير) في ارتياع مباغت، وهتف:

- الفئران؟!.. يا إلهي!!

ارتفع حاجبا (رفقي) في دهشة، لم تلبث أن انقلبت إلى قلق عارم، وهو يسأل صديقه:

- ما الذي أثار ذعرك إلى هذ الحد؟

هتف به (سمير):

- ألم تقرأ صحف الصباح؟

تضاعف قلق (رفقي)، وهو يجيب:

- لا.. لم أفعل بعد.. لماذا؟

ازدرد (سمير) لعابه، وكأنما يحاول التغلب على انفعاله، وقال:

- هناك خبر صغير، يتحدث عن عالم أمريكي، يجري أبحاثًا مشتركة مع أحد علمائنا، في المركز القومي للبحوث، حول تنمية ذكاء الفئران، وتدريبها على القيام بأعمال خاصة، تفيد الجهات العسكرية.

سأله (رفقي) في حيرة:

- وما الذي يعنيه هذا؟

تابع (سمير)، وكأنه لم يسمع تعليق صديقه:

- وقد نجح العالمان في تنمية ذكاء الفئران إلى درجة كبيرة، ودرباها على استخدام أسلحة ليزر صغيرة، والتسلل إلى مركز الأعداء ومخازن ذخيرتهم، و...

قاطعه (رفقي) في توتر وقلة صبر:

- وما صلة هذا بموقفنا؟

ازدرد (سمير) لعابه في صعوبة، وقال:

- باختصار صارت هذه الفئران أشبه بكتيبة انتحارية صغيرة، و...

لم يطق (رفقي) صبرًا، وهتف:

- وماذا؟

تطلع إليه (سمير) في قلق واضح، وأجاب:

- ومع غروب شمس أمس، حدث ما لم يتوقعه أحد.

وارتجف صوته، وهو يستطرد:

- هربت الفئران.

عندئذ أدرك (رفقي) ما يعنيه صديق عمره..

- وارتجف..

☆ ☆ ☆

2- الحرب..

«مستحيل!!»

ردد (رفقي) هذه الكلمة في أعماقه ألف مرة، وهو يتطلع إلى الفجوة المنتظمة، بعد انصراف (سمير)..

ولم ينجح عقله في الاقتناع بالأمر أبدًا..

مستحيل أن يكون هذا المتسلل مجرد فأر!!..

مستحيل!!..

دار الأمر في ذهنه عشرات المرات، ثم التقط عدسته في عصبية، وانحنى يفحص الفجوة مرة أخرة..

فجوة منتظمة، محترقة الأطراف..

ما الذي يمكنه أن يصنع مثل هذه الفجوة؟..

قفز الجواب إلى ذهنه، وارتجف له قلبه..

نعم.. إنها أشعة الليزر..

فئران مزودة بمدافع ليزر صغيرة..

حاول أن يتخيل الفئران، وهي تحمل أسلحتها الصغيرة، وتطلقها على الباب، إلا أن المشهد بدا له أشبه برسم هزلي، من رسوم (والت ديزني) فهز رأسه ينفضه عنه، وعاد يكرر:

- مستحيل!

إلا أن الفكرة –على الرغم من غرابتها– لم تفارق ذهنه، بل راحت تلح عليه في إصرار عجيب، جعله يتمتم في خفوت، وكأنما يتحدث إلى نفسه:

- ولماذا تسلل هذه الفئران إلى معملي؟.. ما الذي تبحث عنه؟

طافت بذهنه صورة العدد والأدوات الإليكترونية الدقيقة، التي يمتلكها في معمله، وقفزت إلى ذهنه فكرة مخيفة، جعلته يغمغم:

- أمن الممكن أن...؟

لم يستطع إتمام جملته..

كانت الفكرة مخيفة وخيالية للغاية..

ربما كانت هذه الفئران الذكية تسعى لصنع سلاح إليكتروني قوي..

سلاح يمنحها القدرة على الدفاع عن أنفسها ضد البشر، أو...

أو السيطرة عليهم..

وراح عقله يرسم صورة منطقية لهذه الفكرة العجيبة، ويتصور هذه الفئران، وهي تنتج جيلًا من الفئران المتطورة، القادرة على التسلل إلى المفاعلات النووية، ومراكز الذخيرة، وتفجيرها، أو تهديد العالم بذلك..

إنها حرب جديدة..

حرب بين البشر والفئران..

ارتاع من مجرد الفكرة، وعاد يحدق في الفجوة برعب، ثم لم يلبث أن استدار إلى مكتبه، وراح يفتح أدراجه في قلق، ويفحص ما لديه من أدوات، وهوى قلبه بين ضلوعه..

لقد تحققت مخاوفه..

لقد اختفت دائرة من دوائر السيليكون الدقيقة..

لقد سرقت الفئران أول قطعة، في السلاح الجديد..

أغلق أدراج مكتبه، وراح قلبه ينبض في عنف..

لماذا وقع اختيارهم عليه؟..

لماذا انتقوه من بين بني البشر؟..

هل يعلمون أنه يحتفظ بمثل هذه الأشياء؟..

هل يدركون مهارته في التعامل مع الإليكترونيات الدقيقة؟..

أم هو القدر..؟

القدر الذي قادهم إليه بالذات؛ لأنه خير من يواجههم، وينقذ العالم من خطتهم الجهنمية..

نعم.. سيواجههم..

سيشعل الحرب بينه وبينهم..

وبكل ما ملأ نفسه من الحماس، اندفع إلى حيث زوجته، وسألها في انفعال:

- كيف تصطادون الفئران؟

حدقت في وجهه بدهشة، وخيل إليها أنه قد أصيب بالجنون، إلا أنها آثرت اتقاء ثورته، التي تنتابه عندما تعارضه، وهو يمر بحالة غضب أو حماس، فأجابت في حذر:

- ضع مصيدة فئران.

سألها في اهتمام:

- وما مصيدة الفئران هذه؟

ضحكت قائلة:

- عجبًا!!.. كل هذه العبقرية، وتجهل ما هي مصيدة الفئران؟.. إنها عبارة عن قفص من الأسلاك، له باب يتحرك في اتجاه واحد، توضع داخله قطعة من الجبن؛ لجذب الفئران، وعندما يدخل الفأر إلى المصيدة، يغلق بابها خلفه، فيصبح حبيسًا داخلها.

عقد حاجبيه يفكر في هذه الوسيلة، التي بدت له بدائية للغاية، ثم هز رأسه، قائلًا:

- لا.. ليست بالوسيلة المناسبة.

قالت في ضجر:

- ضع لها بعض السم في قطعة لحم صغيرة إذن.

أجابها في جدية:

- لن يخدعهم هذا.

أطلقت ضحكة عالية، وقالت:

- لماذا؟.. أهي فئران ذكية إلى هذا الحد؟

كاد يشرح لها الأمر، ويؤكد لها أن الفئران التي يواجهها ذكية بالفعل، إلا أنه لم يلبث أن تراجع عن هذا، لثقته بأنها لن تستوعب الأمر، واكتفى بأن تمتم:

- ربما كانت كذلك بالفعل.

قالت ساخرة:

- لا تعاملها كفئران إذن.

لم ينتبه إلى رنة السخرية في صوتها، وإنما أومأ برأسه قائلًا:

- أنت على حق.

أدهشها أن أسرع ينصرف، بعد هذا القول، فتابعته ببصرها في حيرة، قبل أن تهز رأسها في أسف، قائلة:

- يا لحظي في الزواج!

أما هو، فقد اتجه على الفور إلى معمله، وأغلقه خلفه في إحكام، ودفع صندوقًا صغيرًا نحو الفجوة؛ ليسدها تمامًا، قبل أن يبدأ عمله..

وانهمك في عمل بالغ الدقة..

كان يصنع جهازًا إليكترونيًا خاصًا، انتهى من صنعه في ساعة كاملة، ثم راح يثبت جزئيه في نقطتين متقابلتين عبر المعمل، حتى انتهى من عمله، فاعتدل يتأمل نتيجته في ارتياح، وقال:

- سأتعامل معها كما ينبغي.

فرك كفيه مزهوًا بعمله، وهو يزيح الصندوق الصغير جانبًا، كاشفًا الفجوة، ثم يغادر معمله..

لقد صنع السلاح المناسب لهم..

عندما يعبر هؤلاء الفئران الفجوة في المرة القادمة، لسرقة أداة إليكترونية أخرى من معمله، سيقطعون بأجسادهم خيطًا غير مرئي من الأشعة دون الحمراء..

وعندئذ يعمل جهازه..

سينطلق جهاز إنذار خاص، ويسقط حاجز أمام الفجوة..

وسيسجن الفئران في معمله..

ابتسم في سعادة لبراعة فكرته، وقضى ما تبقى من يومه في لهفة لقدوم الليل، وبدء حربه الخاصة..

وخيل إليه أن الدقائق تمضي كالساعات، والساعات تسير كالدهور..

ولكن لكل شيء نهاية..

أقبل الليل، ومد أستاره على الدنيا كلها، وأخلدت معظم مخلوقات الله (عز وجل) إلى النوم، فيما عدا القليلين منهم..

ومن هؤلاء القليلين كان (رفقي)..

والفئران..

وبالنسبة لـ(رفقي) مضى الليل بطيئًا، دون أن يغمض له جفن..

ثم انطلق الإنذار فجأة..

ومع انطلاقته، انتفض جسد (رفقي) في شدة، وهبت زوجته من نومها مذعورة، وتشبثت به في ذعر، هاتفة:

- ماذا يحدث؟

أزاح يدها في انفعال، وهو يقول:

- لا شيء.. عودي إلى النوم.. إنها تجربة صغيرة، كنت أجريها في معملي.

تمتمت في دهشة:

- تجربة؟!

أجابها وهو يرتدي خفيه في سرعة:

- نعم.. تجربة.. هيا.. عودي إلى النوم.

ارتفع حاجباها في دهشة، وهي تراقبه يهرع خارج الحجرة، ثم لم تلبث أن غمغمت في أسى:

- ما أسوأ حظي في الزواج!

وعادت تغرق في نوم عميق..

وفي نفس الوقت، كان (رفقي) قد بلغ معمله، واللهفة تملأ جسده، ولكن فجأة تلاشت كل هذه اللهفة، عندما بلغ باب المعمل..

تلاشت ليحل محلها الخوف، الممتزج بالكثير من القلق..

كيف سيواجه هذه الفئران..

هل نسى أنها تحمل مدافع ليزر صغيرة، نجحت في صنع فجوة في باب معمله؟..

ماذا لو أنها أطلقت هذه المدافع عليه؟..

أقلقه هذا الخاطر لحظات، تسمر خلالها أمام باب معمله، ثم لم يلبث فضوله أن هزم قلقه، فقال في توتر:

- لن تقتلني تلك المدافع الصغيرة حتمًا.

تشبث بالفكرة، وتحرك بسرعة، خشية أن يعاوده خوفه، ففتح باب المعمل، ودلف إليه في خفة، ثم أغلق الباب خلفه في إحكام، وأضاء الأنوار..

وتحت الأضواء القوية، بدا له المعمل خاليًا..

خاليًا تمامًا..

وامتلأت نفسه بالدهشة..

لقد انطلق الإنذار بالفعل، وهذا يعني أن جسمًا ما قد عبر خيط الأشعة دون الحمراء، وأغلقت الفجوة خلفه..

فأين هذا الجسم؟..

أين الفئران؟..

درات عيناه في أرجاء المعمل كله، ثم توقفت عند مكتبه، وصوان الأدوات الصغير المجاور له..

هذا هو المكان الوحيد الصالح للاختباء..

اتجه بسرعة نحو مكتبه، وراح يفحص أدراجه في حذر..

ولكن الأدراج كلها كانت خالية..

وتضاعفت حيرة (رفقي)..

كيف انطلق الإنذار إذن؟..

كيف عمل، دون أن يخترق شيء ما خيط الأشعة دون الحمراء؟..

وفجأة وقع بصره على خزانة الأدوات الصغيرة، وبالتحديد على تلك الفرجة الضئيلة، بينها وبين زاوية الحائط..

كانت مسافة صغيرة بالنسبة لقط، لكنها كبيرة بالنسبة لفأر..

وبالذات لو كان فأرًا ذكيًا.

نعم.. إنها أصلح مكان للاختفاء..

مكث يتطلع إلى المسافة المظلمة في حذر، ثم لم يلبث أن حسم أمره، وقرر فحصها..

وفي حزم، أزاح مكتبه جانبًا، ثم ركع على ركبتيه، وانحنى ينظر في الفرجة المظلمة..

وانتفض جسده..

كانت هذه العيون الصغيرة تحدق فيه وسط الظلام..

ثم تألق جسم بالغ الصغر..

وانطلق خيط من الأشعة..

وأظلمت الدنيا أمام (رفقي) تمامًا..

وهوى..

☆ ☆ ☆

3- من؟!

«لقد عثرت عليه في هذا الوضع..»

تسللت هذه العبارة، بصوت زوجته إلى أذنيه، مخترقة حاجزًا من الصداع والألم، جعله يغمغم:

- أين أنا؟

عاودته ذاكرته في بطء، وهو يفتح عينيه، والمشهد يبدو أمامه مهتزًا مشوشًا، ثم يتضح تدريجيًا، ويبدو فيه وجه صديقه (سمير)، وهو ينحني نحوه في قلق، ومن خلفه وجه زوجته، التي تقول في لهفة:

- لقد استعاد وعيه.

أمسك (سمير) كتفيه، وسأله في اضطراب:

- ماذا حدث يا (رفقي)؟

أجابه وهو يقاوم ذلك الرنين المؤلم، الذي يعصف برأسه:

- لقد أطلقوا عليّ أشعة الليزر.

عقدت زوجته حاجبيها في دهشة، في حين سأله (سمير) في حيرة:

- أشعة الليزر؟!.. من هؤلاء؟

أجاب ممسكًا رأسه من الألم:

- الفئران.

اتسعت عينا (سمير) في دهشة، وتراجعت زوجة (رفقي) في حدة، وراحت تحدق في وجه زوجها، كما لو كانت تنظر إلى

مجنون، و(رفقي) يستطرد في توتر:

- انظر.. لقد أصابتني الأشعة في منتصف جبهتي تمامًا.. هل ترى الثقب الذي تركته فيها؟

التقى حاجبا (سمير)، وهو يقول:

- لا توجد ثقوب.

ثم التفت إلى زوجة (رفقي)، وأضاف:

- سيدتي.. أظن زوجك يحتاج إلى قدح من القهوة المركزة.

تطلعت إليه الزوجة في صمت، ثم أسرعت تغادر المكان، وكأنها ترحب بابتعادها عن وكر الجنون هذا، في حين عاون (سمير) صديقه على النهوض، وأجلسه على مقعده الخاص، وهو يسأله:

- أخبرني الآن، ماذا حدث بالضبط؟

أجابه (رفقي)، وآلام رأسه تتلاشى في بطء:

- هل تذكر فئران مركز البحوث؟.. تلك الفئران الهاربة.. إنها هنا.

تراجع (سمير)، هاتفًا في دهشة:

- هنا؟!

أومأ (رفقي) برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم.. هنا.. إنها تحاول سرقة بعض معداتي الإليكترونية؛ لصنع سلاح جديد، يمنحها المزيد من القوة، و...

قاطعه (سمير):

- (رفقي).. ماذا بك؟.. يبدو أنك قد أرهقت نفسك في العمل.

صاح (رفقي) في عصبية:

- أتظنني قد أصبت بالجنون؟

أجابه (سمير):

- لا يا (رفقي).. بالتأكيد لا.. وإنما تبذل جهدًا زائد في عملك، و...

قاطعه (رفقي) في حدة:

- لا يا صديقي.. لست واهمًا أو مجنونًا.. انظر هناك.. لقد وضعت خلية كهروضوئية هنا، لضبط من يتسلل عبر الفجوة.. انظر إليها.. لقد حطمها هؤلاء الفئران، بعد أن أفقدوني الوعي، وأراهنك أنهم قد سرقوا شيئًا آخر.

فتح أدراج مكتبه في عصبية، وراح يفحص أشياءه، ثم صاح:

- أرأيت؟ لقد سرقوا واحدة من شاشات الكوارتز البالغة الدقة.. أرأيت؟

شعر (سمير) بقلق حقيقي تجاه صديقه، فنهض يربت على كتفيه، ويغمغم مشفقًا:

- لا بأس يا (رفقي).. أنا أصدقك.

صرخ (رفقي):

- بل أنت تتصور أنني مجنون.

سمع (سمير) ارتجافة قدح القهوة، في يد الزوجة، التي عادت إلى المعمل في هذه اللحظة، ولكنها لم تحاول تجاوز بابه، فأسرع يلتقط منها قدح القهوة، وهو يقول:

- شكرًا يا سيدتي.

همست الزوجة في ارتياع، وهي تتطلع إلى زوجها:

- أخبرني يا أستاذ (سمير)، ولا تحاول إخفاء الأمر عني.. هل أصيب بالجنون؟

حاول (سمير) أن يبتسم، أو يدفع بعض الثقة في صوته، وهو يقول:

- لا يا سيدتي.. أؤكد لك أن هذا لم يحدث.

ولكن صوته خلا من تلك النبرة الواثقة، التي عجزت عن تجاوز قلقه وشكوكه، فجاءت أشبه بإقرار تام بالأمر، فاتسعت عينا الزوجة هلعًا، وهتفت:

- هل أتصل بمستشفى الأمراض الـ....

قاطعتها صرخة (رفقي) الغاضبة:

- أي مستشفى أيتها المأفونة؟.. اذهبي إلى حجرتك.. هيا.

ركضت الزوجة مبتعدة عن المعمل في ذعر، في حين تنحنح (سمير) في حرج، وقال وهو يضع قدح القهوة أمام صديقه:

- اغفر لي تدخلي في شئونك الشخصية يا صديقي، ولكنني أظنك تسيء معاملة زوجتك كثيرًا، في حين أنها كانت شديدة الذعر والقلق، عندما عثرت عليك فاقد الوعي هنا، ومن الواضح أنها تحمل لك الكثير من الحب، و...

قاطعه (رفقي):

- دعك من مشاكلي العائلية الآن، وأخبرني: ألا توجد أية ثقوب في جبهتي حقًا؟

تطلع إليه (سمير) في دهشة، وأجاب:

- لا توجد أية ثقوب بالتأكيد يا (رفقي)، ولكن لماذا تتصور وجودها؟

تراجع (رفقي) في مقعده متوترًا، والتقط قدح القهوة، وأفرغه كله في جوفه دفعة واحدة، ثم سعل وتنحنح، وسأل صديقه، وقد استعاد شيئًا من هدوئه:

- قل لي يا (سمير): لماذا تظنني فقدت الوعي هنا؟

هز (سمير) رأسه في حيرة، وقال:

- أتمنى أن أعلم.

مال (رفقي) نحوه، وقال:

- اسمعني جيدًا إذن، وحاول أن تبعد عن عقلك فكرة إصابتي بالجنون، وستجد أنني على حق، على الرغم من غرابة الأمر.

راح يقص كل ما دار بخاطره، وكل ما حدث، على مسامع صديقه، الذي استمع إليه في دهشة، وكثير من الشك وعدم التصديق، حتى انتهى (رفقي) إلى لحظة انطلاق الأشعة نحوه، وفقدانه الوعي، فهتف (سمير) في دهشة:

- هل رأيت تلك الفئران بالفعل؟

أجابه (رفقي) في حماس:

- رأيت عيونها الصغيرة، وهي تتألق في الظلام، قبل أن تطلق أشعتها نحوي.

تراجع (سمير) في دهشة، وراح يهز رأسه في حيرة، ثم قال:

- ولكنها لم تطلق عليك أشعة الليزر بالتأكيد، فرأسك لا يحمل أية آثار للإصابة بها.

قال (رفقي):

- إنه نوع آخر من الأشعة إذن، فمن المحتمل أن هذين العالمين في مركز البحوث يخفيان نوع الأشعة الحقيقي، أو أنهما مضطران لإخفائه، لأسباب عسكرية، ولكنني شعرت بآلام مبرحة في رأسي، عندما أصابتني هذه الأشعة.

زوى (سمير) ما بين حاجبيه، وقال:

- هذا عجيب!!

ثم نهض مستطردًا:

الأمر يحتاج إلى بحث جاد يا صديقي.. وعلى أية حال، سأحاول أنا من ناحيتي دراسة الأمر، وسؤال عالمَيْ مركز البحوث عن حقيقة هذه الفئران.

سأله (رفقي) في لهفة:

- أتظنهما سيخبرانك بالحقيقة؟

هز (سمير) كتفيه، وقال:

- لا بأس من المحاولة.

انصرف (سمير)، والشك يمتزج في أعماقه بالحيرة، في حين بقي (رفقي) يتطلع إلى معمله، ويغمغم:

- نعم.. لا بأس من المحاولة.

تذكر موقفه مع زوجته، فغادر معمله، وبحث عنها في الفيلا، حتى عثر عليها تبكي في حجرة نومها، ولم تكد تراه حتى انكمشت على نفسها في خوف وذعر، فابتسم محاولًا تخفيف توترها،

وجلس إلى جوارها على طرف الفراش، وأحاط كتفها بذراعه، وهمس:

- أنا أعتذر.. لقد كنت سخيفًا معك بالفعل.

تطلعت إليه في دهشة؛ فلم يسبق له أن جاهر قط بالاعتذار، منذ خطبتهما وزواجهما، فمسحت دموعها بأناملها، وتمتمت:

- إنني حزينة من أجلك.

أدرك ما تعنيه، وأنها لن تفهم ما يحدث، فأجبر نفسه على الابتسام في مرح زائف، وهو يقول:

- أتقصدين قصة الفئران؟!.. إنه حلم يا عزيزتي.. حلم سخيف، أو هو كابوس هاجمني، وأنا فاقد الوعي، وعند استعادتي وعيي، خيل إليّ أنه حقيقي.. أنت تعلمين تشوش الذهن، عندما يستعيد المرء وعيه.

سألته في دهشة:

- ولكن لماذا فقدت الوعي؟

أجابها في سرعة:

- انزلقت وأنا أفحص المكتب، فارتطم رأسي بخزانة الأدوات الصغيرة.. هذا كل شيء.

تطلعت إليه لحظات في شك، ثم تنهدت قائلة:

- كل هذا من أجل الفئران؟!

ابتسم مرغمًا، وقال:

- وماذا أفعل؟.. إنه نوع سخيف من الفئران، لا تخدعه المصائد العادية.

قالت في خفوت:

- استخدم الدقيق إذن.

سألها في دهشة:

- أي دقيق؟

ابتسمت وهي تجيب:

- إنها وسيلة قديمة، كانت تستخدمها جدتي؛ لمعرفة أوكار الفئران، والقضاء عليها في جحورها.

اعتدل في اهتمام شديد، وسألها:

- كيف؟

أجابته، وقد أسعدها اهتمامه بحديثها:

- كانت جدتي تنثر بعض الدقيق في أرضية المطبخ، لتنطبع فوقه آثار أقدام الفئران، فتعلم جدتي من أين جاءت، وإلى أين تذهب، و...

قفز من مكانه، مقاطعًا إياها بهتاف مدو:

- نعم.. هو ذا.

تراجعت في دهشة وخوف، وهي تقول:

- ماذا حدث؟

انحنى يقبل وجنتيها في حرارة، وهو يهتف:

- لقد ساعدتِني كثيرًا يا عزيزتي.. شكرًا لكِ.. شكرًا لك.

وانطلق يعدو عائدًا إلى معمله، واتسعت عيناها هي في دهشة، ثم انحدرت دمعة حزن من عينيها، وهي تغمغم:

- يا لحظي!!

وفي معمله، بحث (رفقي) في أدراج المكتب في لهفة، ثم انتزع بخاخة صغيرة ورفعها أمام عينيه، وقال في انفعال.

- أخيرًا سيمكنني استغلال هذه الهدية.

وفي حماس، راح ينثر السائل الخفيف غير المرئي، على أرضية المعمل، وهو يتراجع في حذر..

كان هذا السائل من نوع خاص، لا يمكن رؤيته إلا بوساطة منظار خاص، وكان المفروض أن يستخدمه لرش أجزاء بالغة الدقة، تمثل بعض الدوائر الخاصة، بحيث يمكنه وحده تعرفها باستخدام المنظار، وقت اللزوم..

وعندما بلغ باب المعمل، ابتسم (رفقي) في ارتياح، وقال:

- هكذا سأعلم من أين تأتون أيتها الفئران.

قضى يومه هذا مرحًا، بعد أن انتهى من وضع هذا الفخ المبتكر، وشعرت زوجته بالدهشة، لاهتمامه البالغ بها طيلة الوقت، ولكن هذا أسعدها كثيرًا، فتلاشت معه دهشتها، واكتفت بالاستمتاع بوقتها معه..

ومع مقدم الليل، انتهت لحظات الاستمتاع، فقد عاد (رفقي) عصبيًا متوترًا، مما جعلها تقول في ضجر:

- حسنًا.. أظنني سآوي إلى فراشي مبكرًا الليلة.

غادرته إلى حجرة نومها، في حين شعر هو بتوتره يتزايد، وراح يدور حول نفسه في عصبية، ويتجه نحو معمله، ثم يتراجع، حتى هتف فجأة:

- لن يضيرني أن ألقى نظرة.

وضع المنظار الخاص فوق عينيه، واتجه في حزم إلى معمله، وفتح بابه..

وخفق قلبه في عنف..

كان من الواضح أن كائنات دقيقة قد خطت فوق السائل، و...

وفجأة ارتفع رنين الهاتف..

وانتفض جسده في عنف، مع الرنين المباغت، وهتف في حنق:

- اللعنة!.. يا له من وقت غير مناسب على الإطلاق..

راودته فكرة تجاهل رنين الهاتف، إلا أنه خشي أن يكون المتحدث هو صديقه (سمير)، حاملًا معلومات جديدة، فأسرع يلتقط الهاتف، قائلًا:

- من المتحدث؟

كان تخمينه صحيحًا، وأتاه صوت صديقه (سمير)، يقول:

- إنه أنا يا (رفقي)، لن تصدق ما علمته من مركز البحوث.

سأله في فضول شديد:

- ما الذي علمته؟

كانت المفاجأة التي يحملها (سمير) مذهلة بحق، انتفض لها عقل (رفقي) وسط جمجمته، عندما قال (سمير):

- لقد عادت الفئران.

اتسعت عينا (رفقي)، وهو يهتف:

- عادت؟!

أجابه (سمير):

- نعم.. لقد انتحلت شخصية صحفي، والتقيت بعالمَيْ مركز البحوث، وسألتهما عن مصير الفئران الهاربة، فأخبراني أنها عادت إلى أقفاصها بعد ساعات من فرارها، ولكن الصحفي الذي نشر خبر الفرار، لم يجد أن خبر العودة يحمل نفس الإثارة، فتجاهل نشره.

لم يكن (رفقي) يستمع إلى التفاصيل، بل كان عقله كبركان يغلي..

كيف عادت الفئران؟..

ما الذي يحاربه في منزله إذن؟..

ما الذي..؟

توقفت أفكاره بغتة، واتسعت عيناه في ذهول، من خلف المنظار الخاص، وهو يحدق في تلك الآثار الضئيلة، التي تركتها أقدام الكائنات الصغيرة، والتي تمتد إلى خارج المعمل..

فعلى الرغم من صغر الآثار الشديد، أمكنه تمييزها بوضوح..

كانت آثار أقدام..

أقدام بشرية..

☆ ☆ ☆

4- النجدة!!..

ارتفع صوت (سمير)، عبر أسلاك الهاتف، يقول:

- هل تسمعني يا (رفقي)؟.. هل تسمعني؟

قالها في انزعاج كامل، بعد أن مضت دقيقة كاملة، لم يسمع خلالها صوت صديقه، وانتزع (رفقي) نفسه من ذهوله، وهو يتمتم:

- نعم يا (سمير).. أسمعك.. ولقد فهمت.. فهمت كل شيء.

قال (سمير):

- لا تجعل هذا يقلقك يا صديقي، إنه بعض إرهاق العمل، و...

قاطعه (رفقي):

- بالتأكيد يا صديقي.. بالتأكيد.

وأعاد سماعة الهاتف إلى موضعها، وعيناه مركزتان على آثار الأقدام البشرية البالغة الدقة، التي تعبر الممر الطويل، الذي يقود إلى معمله..

وفي آلية كاملة، راح (رفقي) يتعقب آثار الأقدام، عابرًا ردهة الفيلا، ومتجهًا إلى سلمها الخارجي، الذي يقوده إلى سطحها..

وعلى السطح، كانت آثار الأقدام تتجه نحو حجرة قديمة مهجورة، كانت والدته تستخدمها في حياتها لتخزين بعض المواد التموينية، فتبع (رفقي) الآثار، وفتح باب الحجرة القديمة، التي تهدم الجزء الأكبر من سقفها، و...

واتسعت عيناه في دهشة...

فهناك، في ركن الحجرة، كان يستقر هذا الشيء..

شيء أشبه بطبق مقلوب، لا يزيد قطره على نصف المتر، في حين تتألق أعلاه كرة مضيئة، وتبدو فيه ثقوب دقيقة، يشع منها الضوء..

وفي انبهار كامل، انحنى (رفقي) يفحص هذا الشيء..

كان أشبه بطبق طائر، من تلك الأطباق التي يتحدثون عنها، ويصفونها بأنها أجسام مجهولة الهوية، تأتي من كواكب أخرى..

ولكن أهي صغيرة الحجم إلى هذا الحد؟..

وفجأة برزت أمامه تلك العيون الصغيرة..

وتراجع (رفقي) في ذعر..

واتسعت عيناه في ذهول..

كانت أمامه ثلاثة مخلوقات صغيرة، تشبه البشر في تكوينها، فيما عدا أن حجم الرأس إلى الجسد كان أكبر من نسبة حجم رأس البشر إلى أجسادهم، وكانت العيون واسعة كبيرة..

وفيما عدا أن هذه المخلوقات كانت في حجم الفئران..

مخلوقات صغيرة للغاية، يتناسب حجمها مع حجم طبقها الطائر..

ورفع أحد هذه المخلوقات بندقيته نحو (رفقي)، الذي تراجع هاتفًا في ذعر:

- لا.. ليس مرة ثانية.

كان يتوقع أن تنطلق الأشعة نحوه، ولكن المخلوق الثاني أمسك يد رفيقه، وتحدث إليه بلغة عجيبة، فخفض بندقيته في طاعة، مما جعل (رفقي) يتنهد قائلًا:

- آه.. شكرًا لك.

أدهشه أن أجابه المخلوق الصغير، بلغة عربية سليمة:

- إننا لم نقصد أبدًا الإساءة إليك.

هتف في دهشة:

- هل تتحدث العربية؟

أجابه المخلوق بصوته الخافت:

- إننا نتحدث سبعًا من لغات كوكبك، فنحن نراقبكم منذ زمن طويل، ونقوم برحلات دورية إلى هنا، ولكن مركبتنا أصيبت بعطب هذه المرة، واضطررنا للهبوط بها على سطح منزلك، وكان هذا من حسن حظنا في الواقع، فلقد وجدنا لديك كل ما نحتاج إليه لإصلاح مركبتنا، ولكن..

سأله (رفقي) في اهتمام:

- ولكن ماذا؟

تنهد المخلوق، وقال:

- يبدو أننا لا نمتلك الخبرة الكافية، فكلنا رجال فضاء، وليس بيننا فني واحد، ولو لم ننجح في إصلاح مركبتنا، قبل شروق شمس الغد، فلن يمكننا اللحاق بالسفينة الأم أبدًا.

تأمل (رفقي) الطبق الطائر الصغير، وسأل في اهتمام:

- هل يمكنني المحاولة؟

تطلع الثلاثة بعضهم إلى البعض في دهشة، ثم غمغم الأول، الذي بدا وكأنه أكبرهم رتبة:

- هذه الأجهزة متطورة للغاية عن عالمكم، ولكن..

صمت لحظات، وكأنه يدرس الأمر في عقله، ثم هز كتفيه، قائلًا:

- ولم لا.. إنك خبير بالأجهزة الدقيقة، وليس لدينا ما نفقده.

تهللت أسارير (رفقي)، وهتف:

- شكرًا لك.. شكرًا لك.

اندفع إلى معمله كالصاروخ، وعاد منه يحمل مصباحًا ضوئيًا كبيرًا، وكل أدواته الدقيقة..

وطوال خمس ساعات كاملة، راحت أصابعه الخبيرة توصل بعض الأسلاك البالغة الدقة، وتضيف بلورة طاقة هنا، وتبدل أخرى هناك، وتختبر ثالثة بينهما..

ومع نسمات الفجر الأولى، كان قد انتهى من عمله..

ونجح..

وهتف المخلوق الفضائي في سعادة:

- أنت عبقري أيها الأرضي.. عبقري بحق.

ثم أخرج من الطبق الطائر درعًا، ناوله إلى (رفقي)، مستطردًا:

- كنا نتمنى أن نهدي إليك هدية عظيمة، ولكنني لا أمتلك هنا سوى هذا الدرع، الذي يحمل شعار كوكبنا، وأنا أهديه إليك، رمزا للصداقة بيننا.

التقط (رفقي) الدرع بسبابته وإبهامه، وابتسم قائلًا:

- يكفيني وصفك إياي بأنني عبقري.

ابتسم له المخلوق، وقال:

- هذه حقيقتك.. معذرة أيها الأرضي.. سنضطر لمفارقتك الآن، حتى يمكننا اللحاق بسفينتنا الأم.

سأله (رفقي) في لهفة:

- هل ستعودون؟

هز المخلوق رأسه، وقال:

- من يدري؟ ربما.

لوح لهم (رفقي) بكفه، وهم يستقلون مركبتهم، وتراجع والمركبة تنطلق، عبر الجزء المهدم من السقف، وتبتعد بسرعة خرافية، وغمغم:

- إلى اللقاء.

ثم ابتسم مستطردًا:

- أيها الفئران.

* * *

«استيقظ يا (رفقي)..»

فتح (رفقي) عينيه، على صوت زوجته، وتطلع إليها في حيرة، قائلًا:

- ماذا هناك؟

ابتسمت قائلة:

- يخيل إليّ أنه كابوس، فقد كنت تردد عبارة واحدة في نومك.

سألها في دهشة:

- أية عبارة؟

قلدت صوته وهي تبتسم، قائلة:

- إلى اللقاء أيها الفئران.. إلى اللقاء أيها الفئران.

حدق في وجهها بدهشة وأسف..

إذن فكل هذا مجرد حلم!!..

حلم صنعه عقله الباطن، لمواجهة هذا الفأر الذي تسلل إلى معمله!!..

شعر بأسف حقيقي؛ لأن كل هذا لم يحدث بالفعل، وآلمه ذلك الصداع، الذي يكتنف رأسه، فجلس على فراشه، وقال لزوجته في ضيق:

- حسنًا.. لا داعي للسخرية من مجرد حلم.. أريد فنجانًا من القهوة.

انحنت أمامه في مرح، وهي تقول:

- كما يأمر مولاي.

سألها وهي تغادر الحجرة إلى المطبخ.

- أين أقراص معالجة الصداع؟

أجابته في مرح:

- إلى جوار الفراش كالمعتاد يا ملك الصداع.

مد يده يلتقط واحدًا من أقراص الصداع، ثم تجمدت أصابعه، وهو يحدق في ذلك الشيء، الذي يستقر إلى جوار شريط الأقراص..

كان درعًا صغيرًا، يحمل شعارًا لا ينتمي إلى كوكبنا..

شعار الفئران..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- عبث..

2- الحرب..

3- من؟!

4- النجدة!!..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الجنى

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

الجنّى

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000
قصص العدد
الجـني

1- مراهـنة..

كانت ليلة صافية، خلت السماء فيها من الغيوم تمامًا، وتوسطها بدر مكتمل الاستدارة، كقرص من فضة لامع، أضاء المدينة الصغيرة بضوئه الحاني، وألقى ظلًا طويلًا لفيلا قديمة مهجورة، عندما اقترب منها عدد من الصبية في حذر، وتتطلعوا إليها في خوف، وهم يلتفون حول أحدهم، الذي بدا أكثرهم تماسكًا، ووجهه الصغير يحمل إمارات الصرامة والعناد، وقال له أحد رفاقه:

- أما زلت تصرّ يا (وائل)؟

أومأ (وائل)، ذو السنوات التسع، برأسه إيجابًا في حزم، قبل أن يجيب:

- نعم.. سأدخل الفيلا، على الرغم من كل الشائعات، التي تتردَّد حولها.

تمتم أحد الصبية في سخرية، تمتزج بشيء من الخوف والرهبة:

- أراهن أنه سيعدو مذعورًا، عندما يصبح أمام باب الفيلا.

هتف به (وائل) في غضب:

- أراهنك على دراجتك الجديدة.

ثم اعتدل في اعتداد، وأزاح رفاقه، وسار بخطوات سريعة نحو الفيلا، وهو يقول في صرامة:

- ولن أسمح لك بركوبها، عندما تصبح ملكي.

قطع المسافة، من موضع الصبية إلى سور الفيلا، في خطوات سريعة، ثم توقف لحظة أمام البوابة المعدنية، وازدرد لعابه،

وهو يُلقي نظرة جديدة على الفيلا، والظلال الممتدة منها، على ضوء القمر..

كان يعرف جيدًا كل الشائعات، التي تردّد حول تلك الفيلا، كما يعرفها كل سكان مدينته، ويخشى المكان، كما يخشاه الجميع..

فمنذ عشر سنوات –حسبما سمع– كان يقيم في هذه الفيلا رجل غريب الأطوار، يقضي كل وقته داخل الفيلا، ولا يغادرها إلا فيما ندر، مستقلًا سيارته العتيقة الطراز، فينطلق إلى جهة ما، ويقضي فيها نهاره كله، ثم يعود مع منتصف الليل تقريبًا، حاملًا عدة صناديق، لا يدري أحد ما تحويه، أو ما الهدف منها..

ولم يكن ذلك الرجل اجتماعيًا، بحيث يُمكن سؤاله عن طبيعة عمله، وإنما كان صارمًا، عنيدًا، يرفض الاختلاط بالآخرين، أو حتى استقبالهم، كما كان يحيط حياته كلها بإطار من الغموض، أثار فضول أهل المدينة الصغيرة كلهم، حتى لقد حاول بعضهم استنطاق ذلك الخادم الكهل، الذي يأتي لتنظيف الفيلا كل أسبوع، ولكن حتى ذلك الخادم كان يجهل كل شيء عن مخدومه، إذ كان هذا الأخير يقضي وقته كله داخل قبو الفيلا، دون أن يسمح لخادمه بدخوله، أو حتى تنظيفه..

ثم فجأة، اختفى الرجل..

اختفى تمامًا، دون أن يترك خلفه أدنى أثر..

والعجيب أن أحدًا لم ينتبه إلى اختفائه، إلا عندما حضر خادمه، فلم يعثر له على أثر داخل الفيلا، على الرغم من وجود سيارته العتيقة خارجها..

وأبلغ الخادم الشرطة، التي قامت بتفتيش الفيلا كلها، وكذلك القبو، الذي كان لدهشة الجميع – خاليًا، إلا من مقعد قديم

متهالك، وبعض أوعية زجاجية محطمة..

ولعام كامل، أجرت الشرطة تحرياتها، ووزّعت نشرة بأوصاف الرجل، ولكن دون جدوى..

لقد اختفى تمامًا..

وبسرعة أطلق أهل المدينة شائعة، تقول: إن الرجل كان أحد المتعاملين مع الجن، ثم خالف أوامرهم، فسحبوه إلى عالمهم تحت الأرض..

ولاقت الشائعة –بالرغم من غرابتها– قبولًا عجيبًا، واستقبلها أهل المدينة كما لو كانت حقيقة لا تقبل الشك، فلم يقترب أحدهم من الفيلا، وتركوها مهجورة على هذا النحو..

ثم حدث ما جعل الشائعة تتحوَل إلى حقيقة..

فذات يوم، فكر أحد اللصوص في الاستيلاء على محتويات الفيلا، أو البحث عن ثروة الرجل، المخفاة في مكان ما منها، فتسلَل إليها تحت جنح الظلام، ثم...

ثم أصيب بالجنون..

نعم..

لقد سمعه جيران الفيلا يُطلق صرخات رعب هائلة، ويطلب النجدة، فاتصلوا بالشرطة، التي هرعت إلى المكان، وألقت القبض على اللص، الذي ظلّ يطلق صراخ رعب، وهو يردّد:

- الجني.. الجني.

ومنذ ذلك الحين، لم يجرؤ حتى اللصوص على دخول الفيلا..

عشر سنوات كاملة، لم تطأ فيها قدم مخلوق واحد هذه الفيلا..

انتفض (وائل) فجأة، عندما بلغ بتفكيره هذه النقطة، وشعر بقلبه ينبض في قوة، ويكاد يثب من بين ضلوعه، وراودته فكرة التراجع والفرار، إلا أن خشي أن يفقد زعامته وسط الصبية الآخرين، الذين اعتادوا أن يتركوا له زمام قيادتهم، اعترافًا منهم بأنه أكثرهم ذكاء وشجاعة..

وشعر بالندم؛ لأنه أعلن في لحظة زهو، استعداده لدخول (فيلا الجني) كما يُطلق عليها أهل المدينة..

ولكن ما الفائدة؟..

لقد ضاع وقت الندم..

لابد أن يدخل الفيلا..

أو يفقد زعامته..

ولم يتردّد (وائل) طويلًا، فهو لن يتنازل عن زعامته وتفوّقه أبدًا، مهما كان الثمن..

وفي حسم دفع بوّابة الفيلا، وعبر حديقتها القصيرة، ثم دفه بابها الكبير، الذي لم يغلقه أحد، منذ إلقاء القبض على اللص، وسمع ذلك الصرير المخيف، الذي أطلقته مفاصل الباب، وهو يتحرك مفتوحًا، فارتعد قلبه الصغير وسط ضلوعه، ووقف يتطلع إلى الظلام داخل الفيلا في خوف..

كان الموقف رهيبًا بحق..

كان ضوء القمر يتسلل عبر الباب المفتوح، ويسقط على قطع الأثاث القديمة، فامتد منها ظلال طويلة داكنة، تنكسر عند الحائط المقابل، وتمتزج بظلام الفيلا من الداخل..

وبأصابع مرتجفة، أشعل (وائل) مصباحه الضوئي الصغير..

وخطا داخل الفيلا..

وفي الخارج ارتجف رفاقه، وامتلأت قلوبهم بالرعب، لمجرد رؤيته يدلف إلى الفيلا، وغمغم أحدهم في هلع:

- يا إلهي!.. لم أكن لأفعل ما فعله (وائل) هذا، ولو منحوني كل قطع الحلوى، في العالم كله.

ارتجف صوت صبي بدين، وهو يقول:

- من الواضح أن (وائل) شجاع بحق.

انبعث صوت عصبي حاد، يقول:

- المهم أن يعود.

التفتت العيون كلها إلى صاحب الصوت الحاد، ثم ابتسم البدين في خبث، وقال:

- من المؤكد أن شجاعة (وائل) قد أحنقتك يا (هيثم)، فأنت تسعى لزعامة (الشلة) منذ زمن.

قال (هيثم) في عصبية:

- إنني أستحقها.

اتسعت ابتسامة البدين، وحملت مزيدًا من الخبث، وهو يقول:

- ألم أقل لك؟

احتقن وجه (هيثم) في غضب، وهتف:

- هل تعلم أنني أستطيع كسر أنفك و..

قاطعه البدين:

- نعم.. أعلم هذا.

ثم أشار إلى الفيلا، مستطردًا في تحد:

- ولكن هل يمكنك دخول الفيلا، مثلما فعل (وائل)؟

نقل (هيثم) عينيه إلى الفيلا، وارتجف مع مشهدها الرهيب، تحت ضوء القمر، ثم أشاح بوجهه في خوف، قائلًا في عصبية:

- لا.. لا يمكنني هذا.

كان سماع هذه العبارة، التي تحمل اعترافًا ضمنيًا بزعامة (وائل)، كفيل بتفجير كل سعادة هذا الأخير وزهوه، لولا أنه كان في هذه اللحظة يرتجف بحق، وهو يسير عبر ممرات الفيلا، ورأسه يحمل تساؤلات لا حصر لها..

كيف يبدو هذا الجني؟..

أهو مخلوق بشع الخلقة، يبرز من رأسه قرنان حادان، أم يشبه البشر، كما يقول والده؟..

أهو طيب أم شرير؟..

هل يحمله إلى قاع الأرض، أم يكتفي بإخافته فحسب؟..

ثم ما الذي فعله مع اللص، قبل مولده هو بعام كامل؟..

فجأة تجمَدت كل الأسئلة والأفكار في عقله، وهو يحدق في تلك الظاهرة العجيبة، التي وقع عليها ضوء مصباحه بغتة.

كان هناك حائل نصف شفاف يقف بينه وبين الحائط المقابل..

وهوى قلبه بين ضلوعه، عندما بدا له ذلك الحائل أشبه بجسد بشري من زجاج، يتحرك كما لو أن الروح تموج في نفسه..

وبحركة غريزية، رفع (وائل) ضوء مصباحه إلى أعلى ذلك الجسد نصف الشفّاف، ثم انتفض جسده كله في قوة، عندما وقع ضوء المصباح على الوجه..

وجه الجني.

☆ ☆ ☆

2- المسّ..

بدأ القلق يرسم خطوطه العميقة على وجه الصبية الصغار، وهم يتطلّعون إلى الفيلا، التي بدت لهم أكثر رهبة وإفزاعًا، مع مرور الوقت، وارتجف صوت أحدهم، وهو يقول:

- هل نبلغ الشرطة؟

وعلى الرغم من أن زميله البدين كان أكثر قلقًا، إلا أنه غمغم:

- لا.. ليس بعد.

هتف (هيثم) بعصبية كعادته:

- ماذا تعني بـ (ليس بعد) يا (تامر)؟.. لقد مضت الساعة، منذ دخل (وائل) إلى الفيلا، وهذه فترة زمنية طويلة، قد تعني أنه فقد وعيه من شدة الرعب، أو أصيب بضرر ما.

قال (تامر) في حدة:

- (وائل) لن يفقد وعيه من شدة الرعب، مهما حدث، فهو أشجعنا.

همس صبي آخر، والخوف يملأ نفسه:

- وماذا لو أنه التقى بالجنيّ، فحمله هذا الأخير إلى أعماق الأرض، كما فعل مع صاحب الفيلا، منذ عشر سنوات؟

هوى ذلك الاحتمال على رءوسهم كصاعقة قوية، ألجمت ألسنتهم، وحبست الكلمات في حلوقهم، فراحوا يتطلّعون إلى بعضهم البعض في قلق وخوف، وكل منهم يحاول أن يستنكر في أعماقه هذا الاحتمال، في حين استسلمت عقولهم له، واستكانت لما قد يعنيه..

ثم اتسعت عينا (تامر) فجأة، وهتف في فرح:

- لا.. لم يحدث شيء من هذا.. لقد عاد (وائل).

التفتت العيون كلها إلى الفيلا في دهشة، وتركزت على (وائل)، الذي غادر باب الفيلا في هدوء شديد، وعبر الحديقة بخطوات عادية، قبل أن يتجاوز بوابة الفيلا، ويتجه نحو رفاقه في صمت..

والعجيب أنهم قد استقبلوه في صمت مماثل، لفهم جميعًا دقيقة كاملة، قبل أن يكسره (تامر) البدين، وهو يسأل (وائل) في تردد:

- ماذا حدث هناك؟

التفت إليه (وائل) في صمت، وبدا وكأنه يراه لأول مرة، قبل أن يقول في هدوء، وبابتسامة بدت للجميع شديد الغموض:

- لا شيء.. لم يحدث شيء.

تبادل الجميع نظرات الدهشة والحيرة، ثم غمغم (هيثم):

- ألم تلتق بالجنيّ؟

هزّ (وائل) رأسه نفيًا، وهو يقول في حزم:

- لا يوجد جنيّ هناك.

ثم أضاف في لهجة آمرة.

- هيا.. سنعود إلى منازلنا.

ساروا جميعًا خلفه في صمت، ثم قال (تامر) في تردد:

- كلنا نعترف بشجاعتك وزعامتك لـ (الشلة) يا (وائل)، ولقد ربحت الرهان.

التفت إليه (وائل)، وسأله في شرود:

- أي رهان؟

قال (تامر) في دهشة:

- الرهان يا (وائل).. دراجة (كريم).. المفروض أن..

قاطعه (وائل):

- آه.. دراجة (كريم).. دعك من هذا، فالمراهنات أمر يحرّمه الدين.

غمغم (تامر):

- بالطبع.

ثم تطلع إلى (وائل) في حيرة..

لماذا يبدو له صديقه مختلفًا؟..

لماذا لا يبدو كما عرفه دائمًا؟..

كان من الممكن أن تمتد تساؤلاته إلى ما لا نهاية، لولا أن بلغ الركب منزل (وائل)، فقال هذا الأخير في حسم:

- طاب مساءكم يا رفاق.

ودلف إلى منزله في سرعة، دون أن يلقي نظرة واحدة على وجوه رفاقه، الذين توقّفوا يتطلّعون إليه مبهوتين، قبل أن يغمغم (كريم):

- ماذا أصابه؟

قال (تامر) في حيرة:

- إنه يبدو مختلفًا.. أليس كذلك؟

أجاب (هيثم) في سخط:

- بلى.. إنه الغرور يا رفاق.

لم يناقش أحدهم رأيه، أو يتصدى له هذه المرة، وإنما تابع الجميع مسيرتهم في صمت، وفي أعماقهم جميعًا يدوي سؤال واحد..

ماذا أصابه؟..

أما (وائل)، فقد صعد إلى منزله في صمت، ولم تكد والدته تستقبله عند باب شقته، حتى قالت معاتبة ومؤنبة:

- لقد تأخرت عن موعد العشاء يا (وائل).

أجابها في اقتضاب أدهشتها:

- أعتذر عن هذا.

لم تعتد منه أبدًا ذلك الاستسلام السريع، أو الاعتذار دون سرد كل مبرراته وأسبابه، مما جعلها تتطلَّع إليه في حيرة تمتزج بالقلق، وهي تسأله:

- هل أعدّ لك طعام العشاء؟

أدهشها مرة أخرى، وهو يقول في اقتضاب:

- كلا.. شكرًا لك.

تابعته ببصرها في مزيد من القلق والحيرة، وهو يتجه إلى حجرة مكتب والده، وغمغمت:

- ماذا أصابه؟

والتقطت أذناه غمغمتها، ولكنه لم يتوقف، وإنما دقّ باب حجرة مكتب والده في رصانة، وانتظر حتى سمع والده يدعوه إلى

الدخول، فدلف إلى حجرة المكتب، وأغلق الباب خلفه في هدوء، ثم جلس على المقعد المقابل لمكتب والده، الذي ابتسم قائلًا:

- مساء الخير يا (وائل).. هل انتهيت من نزهتك مع أصدقائك؟

أجابه (وائل):

- نعم يا أبي.

مال والده إلى الأمام، وهو يسأله:

- هل أنفقت نقودك كلها؟

هز (وائل) رأسه نفيًا، وهو يجيب:

- لا يا أبي، ما زلت أملك نقودًا كثيرة.. شكرًا لك.

تراجع والده في حيرة، وهو يتطلع إليه، فلم يكن من عادة (وائل) أن يجلس معه في حجرة مكتبه، دون أن تكون له مطالب ما، إلا أنه لم يحاول سؤاله عما لديه، وإنما تظاهر بالانهماك في القراءة، تاركًا لابنه حرية اختيار الوقت المناسب، للإفصاح عما لديه، حتى سأله (وائل) في اهتمام:

- أبي.. ألديك هنا كتاب حديث، عن أجهزة (الترانزستور)؟

أدهش السؤال والده بالفعل، إلا أنه لم يبد دهشته هذه، وإنما أغلق الكتاب الذي يطالعه في هدوء، وخلع منظاره الطبي، وهو يقول:

- عندي بالطبع عدة كتب عن (الترانزستور)، بحكم تخصصي، ولكن هذه الإليكترونيات أصبحت قديمة، والعالم كله يستخدم الآن دوائر السيلكون المطبوعة و..

سأله (وائل) مقاطعًا:

- ألديك كتاب عن دوائر السليكون هذه؟

ملأت الحيرة نفس الأب، وهو يقول:

- بالطبع.

ثم استدار بسرعة:

- ولكنه كتاب ضخم، باللغة الانجليزية و...

قاطعه (وائل) مرة أخرى؟

- هل يمكنني استعارته؟

تطلع إليه والده في دهشة، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه، قائلًا:

- وهل يمكنك قراءة كتاب متخصّص كهذا، بلغة أجنبية؟

أسرع (وائل) يجيب:

- إنني أستعيره من أجل والد أحد أصدقائي.

لسبب ما شعر الأب أن ابنه ليس صادقًا، في قوله هذا، إلا أنه لم يشأ الإفصاح عن هذا، وإنما نهض يحضر الكتاب، ويناوله لابنه، وهو يسأله:

- وكم من الوقت يحتاج إليه؟

التقط (وائل) الكتاب في لهفة تثير الدهشة، وهو يجيب:

- يوم واحد يا أبي.. يوم واحد.

وحمل الكتاب إلى الباب في سرعة، ثم توقف وهو يفتح الباب، والتفت إلى والده، وقال بابتسامة عريضة:

- شكرًا يا أبي.. شكرًا لك.

بقي الأب جامدًا في مكانه، بعد أن أغلق (وائل) باب الحجرة وانصرف، ثم غمغم في قلق، وهو يعيد منظاره إلى عينيه:

- ماذا أصابه؟

وعربد في أعماقه قلق خفي، جعله يتصور أن هذا الذي حصل منه على الكتاب، ليس (وائل) الذي يعرفه..

إنه يختلف..

يختلف كثيرًا..

☆ ☆ ☆

لم تفارق الفكرة رأس الأب، وهو يتقلب في فراشه، في هذه الليلة، مهاجمه كوابيس مقلقة، حتى شعر بيد تمسك كتفه، فانتفض مستيقظًا، وهو يهتف:

- ماذا هناك؟

طالعه وجه زوجته، يجمل طنًا من القلق، وهي توقظه قائلة:

- استيقظ يا (نبيه).. إنني أكاد أموت فزعًا.

هب جالسًا على طرف فراشه، وهو يقول متوترًا:

- لماذا؟ ماذا حدث؟

أجابته مرتجفة:

- (وائل) يا (نبيه).. (وائل) لم ينم في فراشه هذه الليلة.

هتف في ذعر:

- لم ينم في فراشه؟!.. أين هو إذن؟.. كم الساعة الآن؟

أجابته ودموعها تنهمر على وجنتيها:

- لست أدري أين هو، والساعة تخطت الخامسة والنصف صباحًا.

هتف:

- يا إلهي!

وقفز من فراشه، وأسرع يرتدي ثيابه في لهفه، وهو يقول:

- أين ذهب؟.. ما الذي أصابه؟.. إنها أول مرة يفعل فيها هذا؟

بكت الأم في حرارة، وهي تقول:

- إنه لا يبدو لي طبيعيًا، منذ عاد هذه الليلة.

انتهى زوجها من ارتداء ثيابه في سرعة، وقال وهو يسرع نحو الباب:

- سأبلغ الشرطة.. أخشى أن..

احتبست الكلمات في حلقه، عندما رأى باب الشقة يُفتح في هدوء، ويدلف منه (وائل)، ثم يغلق الباب خلفه، وهو يتطلع إليهما بعينين خاويتين، فاندفعت أمه نحوه، واحتوته في صدرها، وهي تهتف:

- (وائل).. أين كنت يا بني؟.. أين ذهبت؟

أما والده، فقد قال في عصبية غاضبة:

- كيف غادرت المنزل، في منتصف الليل؟

أجابه (وائل) في خفوت:

- كان المفتاح بالباب، فأخذته و...

قاطعه والده في حدة:

- لماذا؟

لم يحر (وائل) جوابًا، إنما لاذ بالصمت، وملامحه لا تشف عن شيء، مما أثار قلق وحيرة والديه، اللذين تبادلا نظرة منزعجة، قبل أن تقفز إلى ذهن الوالد فكرة عجيبة، جعلته يسأل ابنه في حزم:

- أين الكتاب؟

رفع (وائل) عينيه إليه، وسأله في براءة:

- أي كتاب؟

قال الوالد في حدة:

- الكتاب الخاص بدوائر السيلكون.. أين هو؟

صمت (وائل) لحظة، ثم أجاب:

- لقد أعطيته لصديق.. أقصد لوالد صديق.

سأله والده في غضب:

- أين.

أجابه ابنه الوحيد في اقتضاب:

- منذ قليل.

ثم اتجه نجو حجرته، مستطردًا:

- معذرة.. إنني أحتاج إلى النوم بشدة.

ودلف إلى حجرته، وأغلق بابها خلفه، تاركًا والديه يتطلع كل منها إلى الآخر في ذعر وذهول، وقد بدا لهما أن ابنهما الوحيد قد أصابه مسّ.. مسّ من الجن.

☆ ☆ ☆

3- الحيرة..

لم ينجح المهندس (نبيه)، طوال ذلك النهار، في أداء عمله بالتركيز اللازم؛ لأن عقله لم يتوقف لحظة عن التفكير فيما أصاب ابنه الوحيد..

هل فقد الصبي عقله، أم أصابه انهيار عصبي حاد؟..

يئس في النهاية من العثور على جواب شاف، أو القيام بعمله على نحو جيد، فترك ما بيده، وتراجع في مقعده، مطلقًا تنهيدة قوية، جعلت زميله (دسوقي) يلتفت إليه، ويسأله مبتسمًا:

- هل أصابك الملل؟

هزّ (نبيه) رأسه نفيًا، وقال:

- لا.. إنما هو بعض التوتر.

نظر صديقه إلى ساعة معصمه، وقال:

- يمكنك الانصراف، والاسترخاء بعض الوقت في منزلك، فالساعة الآن الثانية والنصف، ولن يعترض المدير لو أنك..

قاطعه دخول زميل ثالث لهما، وهو يهتف بالمرح المشهور به:

- كيف حال الجميع؟

ثم التفت إلى (نبيه)، دون أن ينتظر جوابًا من الآخرين، مستطردًا:

- عجبًا!!.. (نبيه) هنا؟. كنت أظنك في إجازة يا رجل.

سأله (نبيه) في ضجر:

- ولماذا راودك هذا الظن العجيب؟

أجابه زميله في حيرة:

- بسبب الكمية الكبيرة من دوائر السيلكون، التي ابتاعها ابنك من متجر أخي هذا الصباح.

انتفض جسد (نبيه) في قوة، وحدق في وجه زميله، الذي تابع بنفس الحيرة:

- لقد تصورت أنك ستقضي النهار كله في ترتيبها وتصنيفها حتمًا.

تراجع الرجل في ذعر، عندما فوجئ بـ(نبيه) يقفز من خلف مكتبه، ويمسك ذراعه، قائلًا في حدة:

- هل تمزح، أم تتحدث جادًا يا رجل؟

توقف جميع من المكتب عن العمل، وتطلعوا في دهشة إلى (نبيه)، وزميله يجيبه في خوف:

- أقسم لك إنني جاد.. لماذا أمزح في مثل هذا الأمر؟

سأله (نبيه) في شراسة، زادت من دهشة الجميع:

- وكم بلغ ثمن كل دوائر السيلكون، التي ابتاعها (وائل)؟

أجابه في ذعر:

- ما يقرب من سبعمائة جنيه.. لقد تصورت أن..

لم يتم عبارته؛ لأن (نبيه) تخلى عنه، واندفع يعدو خارج المكان تاركًا رفاقه خلفه، وقد ألجمهم الذهول، فلاذوا بصمت تام، قطعه الرجل هاتفًا:

- لماذا فعل بي هذا؟.. هل أصابه الجنون؟

لم يجبه أحد..

ولم يكن هناك جواب..

أما (نبيه)، فقد غادر الشركة كالصاروخ، وقفز داخل سيارته، وانطلق بها في سرعة، وعقله يغلي كبركان ثائر.

لماذا ابتاع (وائل) دوائر السيلكون، بكل هذا المبلغ؟..

ومن أين حصل على المبلغ نفسه؟..

أوقف سيارته أمام متجر الإليكترونيات، وقفز منها، وسأل صاحب المتجر في توتر:

- صباح الخير يا (فريد).. هل ابتاع منك (وائل) دوائر سيلكون هذا الصباح؟

أجابه (فريد)، وهو في حيرة من توتره:

- نعم.. لقد ابتاع حوالي..

قاطعه (نبيه):

- وهل نقدك ثمنها؟

أجابه في تردد:

- بالطبع.. سبعمائة وستة وثلاثون جنيهًا.. ألم ترسله أنت في طلب هذه الدوائر؟

مادت الأرض بـ (نبيه)، حتى لقد خيل إليه أنه سيهوى أرضًا، وارتسمت في عقله علامة استفهام ضخمة، وهو يستند إلى سيارته..

لماذا يحدث هذا؟..

لماذا؟..

ثم اعتدل بغتة، وسأل (فريد):

- كيف طلب (وائل) هذه الدوائر؟.. أعني هل طلبها شفاهة، أم أنه كانت مدونة في ورقة مثلًا؟

أجابه (فريد) في حيرة:

- كانت كلها مدونة في ورقة..

ثم التفت ملتقطًا ورقة مطوية، وناولها إلى (نبيه)، مستطردًا:

- ها هي ذي.

اختطف (نبيه) الورقة اختطافًا، ولم يكد يطالعها حتى اتسعت عيناه في ذهول..

كل الدوائر المطلوبة كانت منتقاة بدقة بالغة..

كلها منتقاة، كما أن خبيرًا بالإليكترونيات قد وضع اللائحة، وهو يخطط لصنع آلة رهيبة..

آلة مجهولة..

وبأصابع مرتجفة، وقلب ينبض كمضخة مائية عنيفة، دسّ (نبيه) الورقة في جيبه، وغمغم:

- شكرًا يا (فريد).. شكرًا.

وألقى نفسه داخل سيارته، وهو يترنح كالسكير، وانطلق بها إلى منزله، وقد تحول عقله إلى ورقة بيضاء، خالية من أية أفكار، حتى أوقف السيارة أمام منزله، وصعد إليه في بطء، وألقى نفسه فوق أول مقعد صادفه، وهو يسأل زوجته في صوت أجش مبحوح:

- أين (وائل)؟

أجابته والقلق يعصف بنفسها:

- في حجرته.. لماذا تسأل؟

سألها:

- متى عاد؟

اقتربت منه، وجلست على المقعد المجاور له، ووضعت يدها على كفه، وهي تسأله:

- ماذا حدث يا (نبيه)؟

فوجئت به يسحب كفه في حدة، وهو يكرر في خشونة:

- متى عاد؟

تراجعت في خوف، وهي تجيب:

- منذ ساعتين.. لماذا؟

هب من مقعده فجأة، واتجه إلى حجرة ابنه، ودفع بابها في عنف، ورمق ابنه بنظرة نارية، جعلت (وائل) ينهض من فراشه، ويقف أمامه في صمت، فسأله في صرامة:

- لماذا ابتعت دوائر السيلكون؟

أجابه (وائل) في هدوء:

- لقد طلب مني أحدهم أن ابتاعها من أجله.

سأله في ثورة:

- ومن أين جئت بثمنها؟

أجابه بنفس الهدوء:

- هو أعطاني الثمن.

صرخ (نبيه):

- ومن هو هذا؟

لاذ (وائل) بالصمت لحظات، ثم أشاح بوجهه، قائلًا في خفوت:

- صديق.

أمسك والده ذراعيه في غضب، وهو يصرخ به:

- ما اسم هذا الصديق؟.. ما اسمه؟

لم ينبس (وائل) بحرف واحد، وإنما أطبق شفتيه في قوة، زادت من ثورة أبيه، فراخ يصرخ:

- أخبرني من هو؟.. من هو؟

تدخلت الأم في هلع، وأمسكت ابنها هاتفة:

- اتركه يا (نبيه).. اتركه.

أفلته الأب، وتراجع في حدة، في حين ضمّت الأم ابنها إلى صدرها، وراحت تربّت على ظهره في حنان مشفق، على الرغم من ملامحه الجامدة، التي زادت من قلق الأب، فخفض صوته، وهو يحاول أن ينتهج منهجًا جديدًا، وقال:

- (وائل).. هل تعرف ما الذي يمكن أن تصنعه هذه الدوائر مجتمعة؟

مضت لحظة من الصمت، قبل أن يقول (وائل):

- لا.

قالها في هدوء شديد، وعلى نحو أوحى لـ(نبيه) بصدقه، فتراجع في حيرة، وتطلع إلى ابنه في قلق، في حين ربتت الأم على رأس ابنها، وقالت في حنان:

- اذهب إلى فراشك يا (وائل).. لاريب أنك تحتاج إلى نوم طويل، بعد ساعات النوم القليلة، التي لم ترح جسدك الصغير.. أليس كذلك؟

أومأ برأسه إيجابًا، واتجه إلى فراشه دون صوت، ولم يكد يضع رأسه على وسادته، حتى أغلق عينيه، وبدا وكأنما راح في سبات عميق، فاتجهت الأم إلى (نبيه)، وهمست في قلق:

- اتركه ينعم ببعض النوم.. أرجوك.

زفر زوجها زفرة قوية، ثم أومأ برأسه إيجابًا، وتبعها إلى الخارج، وأغلقا الباب خلفهما في حرص..

وهنا فتح (وائل) عينيه عن آخرهما، وبدا شديد الحيوية والنشاط، على الرغم من ساعات النوم القليلة، وقفز من الفراش، وأزاح أحد كتبه جانبًا، ثم تناول من خلفه علبه متوسطة الحجم، فتحها في حرص، ثم ابتسم في ارتياح، وهو يلقي نظرة على دوائر السليكون الدقيقة داخلها..

واتسعت ابتسامته في ارتياح..

وظفر..

☆ ☆ ☆

بكت أم (وائل) في مرارة، وهي تجلس إلى جوار زوجها، في ردهة المنزل، وراحت تقول في حزن:

- ماذا أصاب ابننا يا (نبيه)؟.. ماذا أصاب عقله؟.. هل أصابح معتوهًا؟

- هل جن؟

ربت زوجها على كتفها، وهو يقول في أسى:

- اطمئني يا عزيزتي.. اطمئني..

تركت لدموعها العنان، وهي تقول:

- كيف اطمئن يا (نبيه)؟.. كيف اطمئن وابني الوحيد يعاني من اختلال عقلي و...

صاح يقاطعها في صرامة:

- لا.. لا تقولي هذا.

ثم أضاف في حزم:

- (وائل) صبي ذكي، وعقله يفوق عمره، كما يقول كل أساتذته، وربما يعاني من إرهاق نفسي أو عصبي، ولكنه أبدًا لم يفقد عقله.

وهبّ من مقعده، مستطردًا في حدة:

- أبدًا.

لم يكد ينطق كلمته الأخيرة، حتى ارتفع رنين جرس الباب بغتة، فانتفض جسده وجسد زوجته، وتبادلا نظرة فزعة، قبل أن يعقد هو حاجبيه، ويقول في توتر:

- ماذا أصابنا؟.. إنه جرس الباب فحسب.

قالها واتجه نحو الباب، وفتحه في عنف غير مقصود، جعل الصبي الواقف أمام الباب يتراجع في ذعر، قبل أن يسأله (نبيه):

- ماذا تريد يا (تامر)؟

أربك هذا الأسلوب (تامر)، فغمغم متلعثمًا:

- معذرة يا أستاذ (نبيه).. إنني.. إنني..

أدرك (نبيه) مدى ما سببه للصبي من فزاع، فربّت على رأسه وقال:

- أكنت تريد زيارة (وائل)؟

ازدرد الصبي البدين لعابه، وأومأ برأسه إيجابًا، فقال (نبيه):

- يؤسفني أنه نائم يا (تامر)، فهو ليس كما ينبغي، منذ عاد مساء أمس.

اتسعت عينا (تامر) في ذعر، وهو يقول:

- يا إلهي!.. كنت أخشى هذا، ما كان له أن يدخل تلك الـ..

بتر عبارته بغتة، عندما أدرك أنه قد تجاوز ما ينبغي له قوله، إلا أن ما نطق به لم يكن يسمح له بالتراجع، خاصة وقد أمسك (نبيه) ذراعه في عنف، وسأله:

- ما كان له أن يدخل ماذا؟

تطلع إليه (تامر) في خوف، ثم أدار بصره في المكان في قلق، ليطمئن إلى عدم وجود (وائل)، ثم همس:

- سأخبرك يا سيدي.. سأخبرك كل ما حدث.

وألقى كل ما لديه..

☆ ☆ ☆

4- لماذا؟..

استقبل الشيخ (حسن) ابنه المهندس (نبيه) في ترحاب، ارتسمت على وجهه المهيب ابتسامة أبوية حانية، وهو يضم ابنه إلى صدره قائلًا:

- أهلًا يا (نبيه).. مرحبًا يا ولدي.

شعر وهو يضم جسد ابنه إلى صدره، أن هذا الجسد يرتجف، وأن نبضات قلبه سريعة وجلة؛ فاختلج قلبه بدوره، وهو يبعد ابنه عن صدره بامتداد ذراعه، ويتطلع في قلق إلى عينيه ووجهه، اللذين يحملان كل علامات الاضطراب والحزن، ثم سأله:

- هل زوجتك بخير يا ولدي؟.. كيف حال (وائل)؟

خفض الابن عينيه، وكأنما يعجز عن التطلع إلى عيني والده، وهو يجيب:

- زوجتي بخير يا أبي.. إنما جئت لاستشارتك بشأن (وائل).

سأله الشيخ في جزع:

- ماذا أصابه؟

تنهَد (نبيه)، وهو يجيب في مرارة:

- ليتني أعلم يا أبي.. ليتني أعلم.

عاد الأب يتطلع إلى عيني ابنه في قلق، ثم سأله:

- ماذا حدث يا ولدي؟.. أخبرني بالله عليك، فقد أشعلت قلبي خوفًا وقلقًا.

رفع (نبيه) عينيه إلى والده بغتة، وسأله:

- قل لي يا أبي: هل يمكن أن يتصل الإنس بالجن؟

تراجع الشيخ في دهشة، وتطلع إلى ولده في ذعر، وقد انقبض قلبه؛ لارتباط هذا السؤال بالحديث عن حفيده، وهتف:

- لماذا تسأل يا ولدي؟

كرر (نبيه) سؤاله، في لهجة امتزجت اللهفة فيها بالرجاء، مما جعل الشيخ يقاوم جزعه وقلقه، وهو يجيب:

- من المؤكد أن اتصال الإنس بالجن ممكن يا ولدي، ومرجعنا في هذا جنيّ (سليمان)، الذي عرض عليه إحضار عرش (بلقيس)، وجماعة الجن، التي استمعت إلى القرآن الكريم، يتلوه البشر، فآمنوا به، كما أن زواج الإنس بالجن محرّم، ولو لم يكن الاتصال بينهما ممكنًا، لما كانت هناك حاجة لمثل هذا التحريم.

بدا من شحوب وجه (نبيه)، أنه كان يتمنى لو جاء الجواب على العكس مما سمعه، فمال والده نحوه، وسأله مرة أخرى في قلق:

- ألهذا السؤال صلة بـ(وائل)؟

أخفى (نبيه) وجهه بين كفيه، وكأنما يحاول منع الدموع من الانهمار من عينيه، وهو يقول:

- نعم يا أبي.. له صلة مباشرة للأسف.

لم يطق الشيخ صبرًا، بعد هذه العبارة الأخيرة، فأمسك كتفي ابنه في قوة، وسأله وجسده النحيل كله يهتز، انفعالًا:

- ماذا أصاب (وائل)؟.. ماذا أصاب حفيدي؟

عجز (نبيه) أخيرًا عن منع دموعه، فتركها تنزلق على وجنتيه، وهو يجيب:

- سأخبرك ماذا حدث يا أبي.. سأخبرك كل شيء.

وراح يروي ما حدث..

☆ ☆ ☆

لم يكد قرص القمر الفضي يرتفع في السماء، حتى أزاح (وائل) كتابه، والتقط من خلفه تلك العلبة متوسِطة الحجم، التي تحوي دوائر السيلكون المطبوعة، وتسلل مغادرًا المنزل، ثم سار بخطوات واسعة نحو الفيلا..

فيلا الجنّي..

كان يقطع طريقه إليها في خطوات ثابتة، شأن أي شخص يدرك هدفه جيدًا، ويحمل العلبة في يده بعناية وحرص بالغين، وملامحه جامدة، لا تحمل أية انفعالات..

وفجأة سمع صوتًا يهتف به:

- (وائل).. انتظر.

لم يتوقَف (وائل)، وإنما واصل طريقه في حزم، وكأنما لم يسمع شيئًا، إلا رفاقه لحقوا به عدوًا، واستوقفه (تامر)، وهو يلهث قائلًا:

- ماذا حدث يا (وائل)؟.. لماذا تتجاهلنا؟

تطلع إليهم (وائل) في هدوء، وابتسم ابتسامة بدت شديدة الافتعال، هو يقول:

- مساء الخير يا رفاق.. كيف حالكم؟

سألوه في قلق:

- كيف حالك أنت؟

هز كتفيه في لا مبالاة، وهو يقول:

- في خير حال بالطبع.

أشار (هيثم) إلى العلبة، التي يحملها (وائل)، سأله في شك:

- ما هذا؟.. لعبة جديدة؟

ابتسم (وائل) في سخرية، وهو يقول:

- لا.. ليست لعبة جديدة، أو حتى قديمة.

مدّ (هيثم) يده نحو العلبة، وهو يسأل في فضول:

- ما هي إذن؟

جاء رد فعل (وائل) عنيفًا..

أكثر عنفًا مما يتوقعه أي مخلوق..

لقد أبعد العلبة عن يد (هيثم) في عنف، ودفع هذا الأخير في صدره، هاتفًا:

- إياك.

تراجع (هيثم) في ذعر، وتراجع رفاقه كلهم في دهشة، وحدق الجميع في وجه (وائل) في حيرة، قبل أن يهتف (هيثم) في غضب:

- كيف تجرؤ على دفعي هكذا؟

استعاد (وائل) هدوءه، وهو يقول:

- لم أكن أقصد هذا.

شجع أسلوبه الهادئ (هيثم) على التمادي، فمدّ يده مرة أخرى نحو العلبة، وهو يقول:

- سأنتزعها منك بالقوة، وأعرف محتوياتها، و....

تجمُدت يده في طريقها، مع تلك النظرة الشرسة المخيفة، التي أطلت من عيني (وائل)، وهو يقول بصوت رهيب:

- ستندم لو حاولت يا (هيثم).

تراجع الجميع في رعب حقيقي هذه المرة، حين أمسك (وائل) العلبة بمزيد من الحرص والتشبث، وهو يضيف:

- ليس لدي ما يكفي من الوقت، للحديث معكم يا رفاق.. أراكم فيما بعد.

ظلوا صامتين، حتى ابتعد عنهم بضعة أمتار، ثم امتلأت نفس (هيثم) بالغضب، فتقدم بضع خطوات، ولوح بقبضته، هاتفًا:

- لقد أصابك الغرور.. إنك لم تعد تصلح للزعامة.

لوّح (وائل) بيده في لا مبالاة، دون أن يلتفت إليه، وقال:

- فليكن.. إنني أتنازل عنها لك.

تهللت أسارير (هيثم)، وهتف في فرح:

- حقًا.

ثم التفت إلى رفاقه هاتفًا:

- هل سمعتم يا رفاق؟.. إنني الزعيم.. الزعيم الجديد.

لم يكد يتم عبارته، حتى اتسعت عيناه في دهشة، وهو يتطلع إلى شخص يراقبهم خلسه، من منحنى قريب..

وكان هذا الشخص هو الأم..

أم (وائل)..

☆ ☆ ☆

استمع الشيخ (حسن) إلى كل كلمة نطق بها ابنه، وجسده يرتجف انفعالًا، وعيناه تتسعان في ذعر ودهشة، حتى انتهى (نبيه) من روايته، وراح يجفف دموعه، فشبك الشيخ أصابع كفيه، وراح يفكر في عمق، إلى أن سأله ابنه:

- أهو جن حقًا يا أبي؟

تطلع إليه الشيخ لحظات في حيرة وصمت، قبل أن يقول:

- إقرار هذا أمر بالغ الصعوبة يا ولدي، فالأحداث هنا ليست تقليدية أو طبيعية، فلو قلنا إن (وائل) قد أصابه مس من الجن، فلماذا رفض المراهنة على دراجة زميله قائلًا: إن هذا أمر حرمه الدين؟.. علمًا بأن الذين يسعون لمس البشر من الجن الأشرار، وليسوا من الأخيار.. ولكن..

قالها ولاذ بالصمت لحظات، مما جعل ابنه يهتف في لهفة:

- ولكن ماذا يا أبي؟

لوَح الشيخ بكفه، مجيبًا:

- الجن يا ولدي هم قوم مثلنا، لهم عالمهم، وتقاليدهم، ومجتمعهم، ومادام فيهم الأشرار والأخيار، والمؤمنون والكفار، فمن الممكن أن يكون بينهم جهلة وعلماء.. ومن المحتمل أن أحد علماء الجن يستخدم ولدك؛ لتحقيق مأرب ما.

سأله في قلق:

- مثل ماذا؟

هز الشيخ رأسه في حيرة، وقال:

- المفروض أن ألقى أنا عليك هذا السؤال، فالدين يأمرنا بسؤال أهل الذكر، عندما يواجهنا ما لا نعلم.. أنت خبير بتلك الدوائر،

التي ابتاعها ابنك، فما الذي يمكن صنعه بها؟

عقد (نبيه) حاجبيه في تفكير، وقال:

- أي شيء يا أبي.. هذا يتوقف على الغرض من صنع هذا الشيء

وراح يدرس الأمر في عقله بضع لحظات، قبل أن يستطرد:

- ولكنه شيء شرير حتمًا.. شيء جهنمي..

☆ ☆ ☆

بلغ قلق الأم ذروته، عندما شاهدت ما فعله ابنها برفاقه، وهي تراقبه من ناصية الشارع القريب..

لقد رأته يتسلل من المنزل، حاملًا تلك العلبة، ولكنها لم تحاول منعه، وإنما تبعته خلسه، على أمل أن تعرف أين سيذهب بها، ولماذا؟..

وعندما شاهدت ما دار بينه وبين رفاقه هوى قلبها بين قدميها..

إنها لم تعهد ابنها بمثل هذه الشراسة..

لم تعهده صبيًا يتنازل عن زعامته لرفاقه بهذه البساطة..

لقد أصابه أمر ما حتمًا..

أمر جلل..

وبكل الوجل في أعماقها راحت تتبعه، دون أن ينتبه إليها، ولكنه لم يكد يبلغ هدفه، حتى كادت تسقط مغشيًا عليها.

لقد رأته يدخل إلى الفيلا في ثبات..

تلك الفيلا التي يخشى سكان المدينة مجرد المرور إلى جوارها..

رأته يعبر الحديقة في خطوات هادئة، ويدفع باب الفيلا الكبير، الذي يصدر ذلك الصرير المفزع، ثم يغيب داخل ظلام الفيلا..

وكان هذا أكثر مما تحمل..

لقد أدركت ما أصاب ابنها، ومن وراء ما حدث..

إنه الجني..

جنيّ الفيلا..

☆ ☆ ☆

5- لقاء في الظلام..

«ابننا هناك؟!..»

نطقها (نبيه) في ذعر شديد، وهو يحدق في وجه زوجته، التي أغرقت دموعها وجنتيها، وتعلقت به صائحة:

- افعل شيئًا يا (نبيه).. لا تترك ابننا في عالم الجن هذا.. افعل شيئًا أرجوك.. أتوسل إليك.

هب الشيخ (حسن) من مقعده، وهو يقول:

- نعم يا ولدي.. من الضروري أن نفعل شيئًا.

أجابه (نبيه) في حزم:

- بالتأكيد يا أبي.

ثم أمسك يد زوجته، مستطردًا:

- هيا بنا.. سنذهب لإنقاذ ابننا.

لم ينطق كلمة واحدة بعدها، وهو ينطلق بسيارته إلى الفيلا، وعقله كله يفكر فيما ينتظره هناك..

هل سيواجه جنيًا؟..

أم يواجه ابنه؟..

هذا لو أن ذلك، الذي يقيم في منزله منذ أمس، هو حقًا ابنه..

ارتجف مع هذا الخاطر العجيب، وراح قلبه ينتفض في توتر، خاصة عندما لاحت له الفيلا المظلمة، التي يضفي عليها ضوء القمر رهبة عجيبة..

وأوقف (نبيه) سيارته إلى جوار الفيلا، ثم ضغط يد زوجته، محاولًا بث بعض الطمأنينة في نفسها، وهو يقول:

- انتظري هنا.

ثم غادر السيارة، واتجه نحو بوابة الفيلا..

لم يدر في الواقع كيف جرؤ ابنه على دخول الفيلا، التي يرتجف هو رعبًا، وهو يقترب منها..

ومرة أخرى عاد ذلك الخاطر المخيف يهز كيانه..

هذا لو أنه ابنه..

جعله هذا الخاطر يستجمع شجاعته، ويدفع بوابة الفيلا، ثم يعبر حديقتها في خطوات سريعة، وكأنما يخشى التراجع في موقفه، حتى بلغ الباب الكبير، الذي تركه ابنه مفتوحًا..

وعبر (نبيه) الباب المفتوح، ثم توقف يتطلع إلى قطع الأثاث القديمة، التي امتدت منها الظلال المخيفة، وازدرد لعابه في توتر، قبل أن يتحرَك داخل الفيلا في حذر..

لم يشأ استخدام مصباحًا يدويًا، خشية أن ينتبه ابنه إلى وجوده، مما جعله يتحسس طريقه وسط الظلام، محاولًا دفع عينيه إلى الرؤية، على الضوء الخافت، الذي تسمح له النوافذ بالتسلل إلى الداخل..

وفجأة سمع صوت ابنه..

سمعه يأتي من قبو الفيلا..

كان يبدو وكأنه يتحدث إلى شخص ما..

أو شيء ما..

وبسرعة اتخذ (نبيه) طريقه إلى القبو، وهبط في درجات سلمه القديم في حذر، وصوت ابنه يبدو أكثر وضوحًا، حتى لاح له ظل ابنه، وقد انحنى يعمل في شيء ما، تحت ضوء القمر، الذي ينفذ عبر نافذة القبو المكسورة، ويتحدث إلى شخص ما..

والتصق (نبيه) بالحائط، محاولًا رؤية ما يفعله ابنه، أو مع من يتحدث..

ومع اعتياد عينيه الضوء الخافت، تبيَن له ان ابنه يضيف دوائر السيلكون إلى جهاز ما، مسترشدًا بتعليمات تأتيه من شخص قريب..

ولكن هذا الشخص لم يكن هناك..

كان القبو خاليًا، إلا من (وائل)، وعلى الرغم من هذا كان هناك صوت هادئ، يرشده إلى كيفية وضع الدوائر، وإيصالها بالأسلاك..

وفتح (نبيه) عينيه عن آخرهما، محاولًا البحث عن صاحب الصوت، وبدأ جسده يرتجف، وهو يعجز عن رؤية أي شيء آخر، بخلاف ابنه، والجهاز الذي يعمل فيه، ومقعد قديم، و...

وفجأة انتفض جسده انتفاضة عنيفة، شملته من قمة رأسه، وحتى أخمص قدميه، وكتم بالكاد شهقة قوية، كادت تنطلق من أعماق صدره..

لقد رآه..

رأى ذلك الظل نصف الشفاف، الذي يسير عبر القبو في هدوء..

ظل بشري، أو شبه بشري، أشبه بزجاج شفاف حي، يسير قاطعًا القبو جيئة وذهابًا، وهو يشرح لابنه ما ينبغي عليه فعله..

إنه الجنيّ..

جنيّ الفيلا..

وقبل أن يمكنه استيعاب الموقف، وجد نفسه يصرخ:

- (وائل)؟

التفت إليه (وائل) وذلك الظل نصف الشفاف، في آن واحد، وحدقا في وجهه في دهشة..

كانت لذلك الظل ملامح بشرية..

أو شبه بشرية..

وهتف (وائل):

- أبي.

وهنا استدار الظل نصف الشفاف، واندفع نحو حائط القبو..

ثم اخترقه..

لم يحطمه، أو يهدم منه حجرًا واحدًا..

لقد اخترقه في نعومة مذهلة، كما لو كان شعاعًا من الضوء، يعبر لوحًا من زجاج نقي شفاف..

واختفى خلفه..

وهنا اتسعت عينا (نبيه) في ذهول تام..

الآن فقط تأكد من طبيعة هذا الظل..

إنه جنيّ..

جنيّ حتمًا..

☆ ☆ ☆

ارتسمت ابتسامة ترحاب كبيرة، على وجه مأمور قسم الشرطة، وهو ينهض لاستقبال الشيخ (حسن) في حرارة، ويصافحه قائلًا:

- مرحبًا بك هنا يا شيخ (حسن).. كم تسعدني زيارتك لنا.

كان الشيخ (حسن) شخصية معروفة، في تلك المدينة الصغيرة، والكل يحمل له الاحترام والتوقير، الذين استحقهما الشيخ بهيبته ووقاره، وعلمه الغزير؛ لذا فقد أحسن مأمور القسم وفادته، وأجلسه إلى جواره، وهو يسأله في اهتمام:

- هل من خدمة يمكنني تقديمها لك يا شيخ (حسن)؟

تنحنح الشيخ (حسن)، وقال:

- الواقع أنها خدمة عجيبة.

سألها المأمور باهتمام أكثر:

- وما نوعها؟

تردَد الشيخ (حسن) لحظة، ثم قال:

- أريد منك أن تقتحم (فيلا الجنّ)، على رأس قوة من رجالك.

تراجع المأمور برأسه في دهشة، وعقد حاجبيه، وهو يتطلع إلى الشيخ (حسن) في تساؤل، قبل أن يسأله في حذر:

- لماذا يا شيخ (حسن)؟

تنحنح الشيخ (حسن)، وهو يقول:

- الواقع أنه..

توقف لحظة، وهو يتساءل عما ينبغي قوله، ثم أضاف في سرعة وحسم:

- لقد اختطف أحدهم حفيدي (وائل)، ويحتفظ به في هذه الفيلا، مستغلًا خوف أهل المدينة من دخولها، و..

هتف المأمور في غضب:

- اختطفه؟!

ثم هبّ من مقعده، وهو يستطرد في صرامة:

اطمئن يا شيخ (حسن).. لن يمسّ مخلوق حفيدك بسوء، وأنا مأمور هذا القسم.

واختطف قبعته الرسمية، ووضعها على رأسه، وهو يستطرد:

- سنقتحم الآن (فيلا الجنيّ)، وننقذ حفيدك، حتى لو حاربنا كل شياطين الإنس والجن..

واندفع يعدّ حملة الهجوم على الفيلا..

فيلا الجنيّ..

☆ ☆ ☆

مضت لحظات من الصمت، و(نبيه) وابنه (وائل) يتبادلان نظرات صامتة ثقيلة، قبل أن يغمغم (وائل):

- أبي؟

حلت الكلمة عقدة لسان (نبيه)، فهتف بكل توتره:

- ماذا تفعل هنا يا (وائل)؟

أجابه (وائل) في خفوت:

- أساعد صديقًا يا أبي.

سأله والده في ذهول:

- أي صديق؟

أشار الصبي إلى الحائط، في الموضع الذي اخترقه الظل نصف الشفاف، وهو يقول:

- هذا.

أدار (نبيه) بصره إلى ذلك الموضع في الحائط، واستعاد ذهنه ذلك المشهد المخيف، قبل أن يعود إلى ولده، هاتفًا:

- أي صديق هذا يا (وائل)؟.. أتصادق جنيًا؟.. مخلوقًا من عالم آخر، لا تدري أيريد بك خيرًا أم شرًا؟

قال (وائل) في حزم:

- إنه ليس جنيًا.

صاح والده:

- ومن أدراك؟

أجابه في عناد:

- أنا أعلم هذا.

صرخ (نبيه):

- خطأ يا (وائل).. ما تفعله خطأ.. هل تدري أي جهاز هذا، الذي يدفعك ذلك الجني لصنعه؟.. هل تعلم الغرض منه؟

أجابه (وائل) في سرعة:

- نعم.. إنه جهاز ارتجاج خاص، كاف لصنع فجوة بين الأ...

بتر عبارته بغتة، وكأنما انتبه إلى أنه يبوح بأكثر مما ينبغي له البوح به، فأطبق شفتيه بسرعة، ولكنه رأى عيني والده تتسعان في هلع..

جهاز ارتجاج خاص؟!..

إذن فهذا ما يسعى إليه الجنيّ..

إنه يسعى لصنع فجوة بين العالمين..

عالم الإنس وعالم الجن..

يسعى لفتح ثغرة، تتيح له السيطرة على عالمنا..

أو على عالمه..

وبكل الخوف والذعر، أدار (نبيه) عينيه إلى ذلك الجهاز، وقال:

ينبغي تحطيم هذا الجهاز يا (وائل).. لابد أن نحطمه، قبل فوات الأوان.

تراجع (وائل) بحركة حادة، وحمى الجهاز بجسده، وهو يقول:

- لا يا أبي.. لقد انتهى صنع الجهاز، وبقي الضغط على زرّ واحد فيه، ولابد من ضغط هذا الزر.

صاح الأب:

- لا يا (وائل).. حذار أن تفعل.. إنك بهذا تنهي عالمك.. تحطمه.

صاح (وائل) في ثورة، لم يتوقعها الأب أبدًا:

- لا يا أبي.. لن أسمح لك.. لا شأن لهذا الجهاز بعالمنا.

تراجع (نبيه) في ذهول، وقد هاله ما أصاب أبنه..

لقد مسّه الجنيّ حتمًا..

ليس هذا ابنه..

ولكن لماذا يدافع عن هذا الجهاز العجيب، بكل هذه الشراسة؟..

لماذا؟..

ومرة أخرى، امتلأت نفسه بضرورة تدمير هذا الجهاز، فصرخ:

- لابد من تدميره..

وفجأة عبر ذلك الظل نصف الشفاف الحائط مرة أخرى، وحال بينه وبين الجهاز، وهو يرفع يديه أمام وجهه، صائحًا:

- لا.. لا تدمره.

تراجع (نبيه) في ذعر، وهو يحدق في ذلك الظل شبه البشري، ويشاهد ابنه من خلفه، يحمي الجهاز بجسده، كما لو كان يتطلع إليه عبر نافذة زجاجية، والظل يقول في حدة:

- هذا الجهاز هو الأمل الأخير.. انتظر.. سأشرح لك كل شيء.

وفجأة ارتفعت أبواق سيارات الشرطة، التي أحاطت بالفيلا، وسمع الجميع وقع الأقدام، التي تقتحم المكان، فهتف (نبيه) في ظفر:

- لم تعد هناك فائدة.. لقد خسرت أيها الجني.. خسرت معركتك.

بدا الألم على ملامح الظل نصف الشفافة، في حين هتف (وائل):

- لا.. مستحيل.

ثم استدار بسرعة، وضغط زر الجهاز..

وفجأة شعر (نبيه) بأطنان من الألم على أذنيه، وهو يصرخ:

- لا يا (وائل).. لا.

ثم مادت به الأرض، وسقط..

سقط فاقد الوعي، تحت قدمي الظل نصف الشفاف، الذي راح يتحول في بطء إلى جسم مادي ملموس..

لقد عبر الفجوة..

الفجوة بين عالمين..

☆ ☆ ☆

5- العودة..

لم تكد الثغرة بين العالمين تتكون، حتى اندفع منها آلاف من الجن، أشباه البشر، وهم يحملون في أيديهم أسلحة عجيبة، وراحوا يطلقون نيرانهم نحو رجال الشرطة، الذين سقطوا صرعى، أمام تلك الطلقات المرعبة، في حين تحول الظل نصف الشفاف إلى جسد مادي واضح، التفت إلى (وائل) بابتسامة شيطانية، وهو يقول في صوت عميق، بدا وكأنه قادم من أعماق قبر قديم:

- لقد انتهت مهمتك أيها الإنسي.

ثم أبرز يده ذات المخالب، وأمسك بها عنق (وائل)، و...

«لا.. ليس (وائل)..»

أطلق (نبيه) هذه الصرخة، وهو يهب من فراشه، ثم اتسعت عيناه في دهشة، وهو يديرهما فيما حوله، ومن حوله..

كان يرقد فوق سرير طبي، داخل حجرة نظيفة، من حجرات المستشفى العام، وأمامه عدد من الوجوه المألوفة، يتطلع إليه في قلق..

كان هناك وجه زوجته، وابنه، ووالده، وطبيب المستشفى، وشخص آخر، بدا له مألوفًا..

وهتف (نبيه)، وهو يخفي وجهه بكفه، ويعيد رأسه في بطء إلى الوسادة:

- يا إلهي!.. حمدًا لله.. كان هذا مجرَد كابوس.

ربتت زوجته على كفه، وهي تقول في حنان:

- لقد انتهى كل شيء يا (نبيه).. حمدًا لله.

وغمغم والده في ارتياح:

انتهى على خير ما يرام.

تذكر (نبيه) ما حدث بغتة، فهتف مرة أخرى:

- أين (وائل)؟

اقترب منه ابنه، وهو يجيب في رصانة:

- أنا هنا يا أبي.. حمدًا لله على سلامتك.

أمسك (نبيه) وجه ابنه براحتيه، وهو يقول:

حمدًا لله على سلامتك يا (وائل).. حمدًا لله على سلامتك أنت.

أتاه صوت رصين يقول:

- ابنك هذا صبي رائع يا سيد (نبيه)، ولك أن تفخر به.

أدار (نبيه) عينيه إلى مصدر الصوت، وبدا له صاحبه مألوفًا، وإن لم يذكر أين رأى هذه الملامح من قبل..

ثم تذكرها بغتة..

إنها ملامحه..

ملامح الجني..

وهب (نبيه) من فراشه، وهو يهتف:

- أنت؟!

وضع الرجل يده على كتفه في رفق، وهو يقول:

- اهدأ يا سيد (نبيه).. اهدأ.. سأشرح لك كل شيء.

لم يستطع (نبيه) منع ذلك التوتر العنيف، الذي سرى في عروقه كلها، وهو يقول في عصبية:

- ماذا ستشرح؟

جلس الرجل على طرف فراشه، وهو يقول:

- دعنا نتعارف أولًا.. اسمي هو (عارف).. (عارف سلماوي).. هل يذكرك هذا الاسم بشيء ما؟

أجابه في دهشة:

- إنه اسم صاحب الفيلا، ولكن.. ألم تختف منذ عشرة سنوات؟

ابتسم (عارف)، وقال:

- هذه هي القصة يا سيد (نبيه).. أو أن هذه هي البداية.

ثم اعتدل، مستطردًا:

- من المؤكد أن أحدًا لم يكن يحبني في هذه المدينة، لأنني كنت أصر دائمًا على العمل في عزلة، فمنذ ورثت عن والدي ثروة ضخمة، تقدر بالملايين، وابتعت هذه الفيلا هنا، قررت أن أبذل أقصى جهدي لتحقيق حلم راودني منذ زمن، فأنا مثلك يا سيد (نبيه).. خبير في الإليكترونيات، ولكنني إلى جوار هذا، دارس لعلم الفيزياء، وأحلم منذ زمن طويل بإيجاد وسيلة للانتقال بين الأبعاد المختلفة، التي أرشدنا إليها (ألبرت أينشتين)، في نظريته النسبية الشهيرة، ومن أجل تحقيق هذا الحلم رحت أعمل ليل نهار، وأبتاع كل ما يمكنه معاونتي من أجهزة، كنت أحملها إلى قبو الفيلا في صناديق مغلقة، وأعمل عليها داخل القبو، الذي منعت أي مخلوق من دخوله، حتى ذلك الخادم الكهل، الذي ينظف الفيلا كل أسبوع.. ثم جاء ذلك اليوم، الذي اكتمل فيه

جهازي، وتملكتني سعادة كبيرة أنستني كل عوامل الحذر، فقررت تجربة الجهاز على الفور.

صمت لحظة، وهو يسبح بأفكاره بعيدًا، وكأنما يستعيد ذكرى تلك الدقائق، قبل أن يستطرد:

- ونجحت التجربة نجاحًا محدودًا، إذ أن الجهاز لم ينقلني إلى بُعد آخر، وإنما ألقى بي في برزخ بين بعدين، بحيث لم أعد أنتمي إلى بعدنا هذا، أو أي بُعد آخر.

تنهَد، ثم تابع:

وأدركت عندئذ أن الجهاز يحتاج إلى بعض التعديل، ولكنني لم أكد أحاول لمسه، حتى هالني ما وضعت نفسي فيه.. إنني لم أعد قادرًا على لمس الجهاز، الذي انتقل من بعدنا هذا إلى بعد ثالث، كان يمكنني وحدي رؤيته، في ذلك البرزخ بين البعدين.. وهكذا أصبحت كالشبح، يمكنني اختراق الحوائط والجدران وقتما أشاء، ولكنني أعجز عن لمس الجهاز الوحيد، الذي يمكنني بواسطته العودة إلى عالمي.

صمت لحظات، وكأنما يترك لـ(نبيه) فرصة استيعاب هذه الفكرة العجيبة، ثم عاد يروي في هدوء:

- ولقد حاولت مغادرة الفيلا، ولكنني فوجئت بأن عالمي قد صار محصورًا ما بين جدرانها، فكلما حاولت الخروج منها أصبح الفراغ كحائط صلب شفاف، أعجز دومًا عن اختراقه، ولست أملك حتى الآن تفسيرًا لهذا، ولا لعدم غوص جسدي في أرض الفيلا، ما دمت أخترق جدرانها بهذه البساطة، ولكن لعل التفسيرين ينتميان إلى فكرة واحدة.. المهم أنني كشفت كوني سجينًا داخل ذلك البرزخ، وداخل جدران الفيلا، وللأسف لم

أكشف هذا إلا بعد انصراف رجال الشرطة، الذين فتشوا الفيلا بحثًا عني، والذين أخفيت نفسي عنهم، خشية تدخلهم في عملي، وهكذا أصبحت وحيدًا، أنتظر دخول أي مخلوق إلى الفيلا، حتى يعاونني على العودة إلى عالمنا.

وابتسم في أسف، وهو يستطرد:

- وذات ليلة تسلل لص إلى الفيلا، سعيًا وراء بعض الغنائم والأسلاب، وتعجلت بالظهور أمامه، ومطالبته بمساعدتي، ولكن رؤيته لجسدي نصف الشفاف أصابته برعب هائل، فراح يصرخ، ويصفني بأني جني، حتى انطلق يعدو خارج الفيلا، فاستقبله رجال الشرطة، وألقوا القبض عليه، وهو يواصل صراخه، الذي يخفي صوتي، وأنا أحاول الاستنجاد بهم..

تنهَد مرة أخرى، قبل أن يتابع:

- وقضيت عشر سنوات في هذا المنفى المزدوج، دون أن يجرؤ مخلوق واحد على الدخول إلى الفيلا، بعد انتشار شائعة الجني، حتى جاء (وائل).

قالها والتفت إلى (وائل) بابتسامة امتنان، تضرج لها وجه الصبي خجلًا، قبل أن يتابع (عارف):

- والواقع أنني أعترف بشجاعة ابنك وذكائه، اللذين يفوقان عمره بالتأكيد، فلم يصرخ عند رؤيتي، وإنما راح يتطلع إليّ في ذهول، وأسرعت أنا أقسم له بأنني لست جنيًا، ثم شرحت له قصتي كلها.. ولقد أدهشني استيعابه لها، وقناعته بها، فطلبت منه مساعدتي على العودة إلى عالمنا، وسألته أن يحتفظ بهذا سرًا، خشية أن يمنعه الآخرون من معاونتي، أو يتدخلوا لإفساد أملي الأخير، فأبقى منفيًا حتى آخر عمري..

منح (وائل) نظرة امتنان أخرى، قبل أن يستطرد:

- ولقد فعل (وائل) كل ما طلبته منه، فأحضر لي كتابًا حديثًا عن دوائر السيلكون، لتعديل جهازي، الذي صنعته من قبل من الترانزستور، وراح يصنع الجهاز مسترشدًا بتعليماتي، وأرشدته أنا إلى ثروتي، التي أخفيتها قبل تجربة الجهاز، وراح يبتاع منها دوائر السيلكون المطلوبة، وقطع الجهاز، حتى صنع الجهاز في يوم واحد، وبعدها كان عليه أن يعيدني إلى عالمي، عندما وصلت أنت يا سيد (نبيه).

غمغم (نبيه):

- أنا أعلم الباقي.

ثم سأل (عارف):

- ولكن لماذا لم ينقلني جهازك إلى بعد آخر، عندما أعادك إلى عالمنا؟.. ولماذا فقدت وعيي وحدي، دون أن يحدث هذا لـ (وائل)؟

ابتسم (عارف)، وقال:

- ومن قال إن هذا لم يحدث؟

حدق فيه (نبيه) في ذهول، فاتسعت ابتسامة (عارف)، وقال:

- المهم أنك قد عدت إلينا أنت و(وائل).. وأنني أصبحت جزءًا من عالمي مرة أخرى، بعد عشر سنوات كاملة.

هتف (نبيه):

- لا.. أخبرني كيف أعدتنا إلى عالمنا، وما الذي حدث؟ و...

قاطعه الشيخ (حسن) في حنان:

- ليس الآن يا ولدي.. لقد قال الأطباء أنك تحتاج إلى الراحة، فأخلد إليها الآن.

غمغم (نبيه):

- أريد أن أعرف.

ابتسم (عارف)، وقال:

- ستعرف كل شيء يا سيد (نبيه)، فنحن نشترك في تخصص واحد.. أليس كذلك؟

تطلَع إليه (نبيه) في حيرة، إلا أنه لم يلق سؤالًا جديدًا، وإنما استرخى على فراشه في صمت، في اللحظة التي دلف فيها (تامر) البدين إلى الحجرة، وتنحنح قائلًا:

- (وائل).. إحم.. إنني أعتذر، بالنيابة عن (الشلة)، ونريدك أن تعود إلى الزعامة، و...

قاطعه (وائل) في رزانة:

- ليس الآن يا (تامر)، فسأبقى إلى جوار أبي بعض الوقت.

ابتسم (نبيه) في حنان، وهو يتطلع إلى ابنه..

لقد أدرك الآن فقط لماذا بدا له مختلفًا..

لقد نضج الصبي، قبل الأوان..

نضج عندما تحدى الخوف..

وتحدى الأسطورة..

أسطورة الجني.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- مراهـنة..

2- المسّ..

3- الحيرة..

4- لماذا؟..

5- لقاء في الظلام..

5- العودة..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

العنقاء

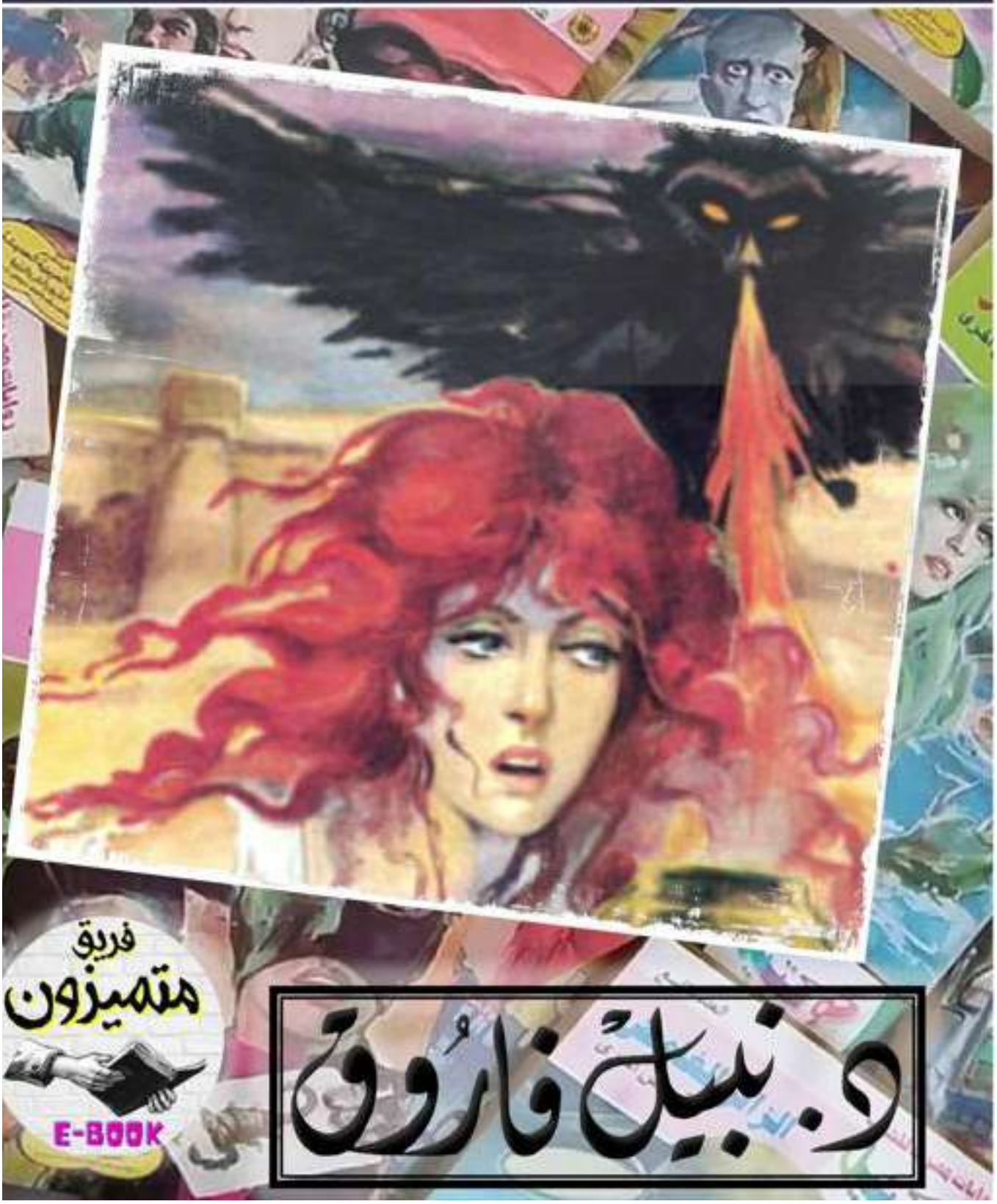

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

الزائر الغامض
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000
قصص العدد
العنقـــاء

1- التـائه..

لم تشهد الصحراء الغربية المصرية يومًا قائظًا، شديد الحرارة، مثل ذلك اليوم من أيام صيف 1947م، إذ التهبت الشمس في كبد السماء، كقرص من نار، أشعلت رمال الصحراء الصفراء، فجعلتها أشبه بجمر ملتهب، وتصاعدت منها أمواج الهواء الساخن، تتراقص أمام الأعين، فتتموج معها كل الصور والمشاهد، وتتراقص رقصة رهيبة، تعرف باسم رقصة اللهب.

في هذا الطقس الرهيب راح زنجي نحيل يدفع قدميه دفعًا إلى الأمام، والعرق يغمر وجهه وصدره، ويتساقط على الرمال، فتلتهمه في شراهة، ثم تتطلع للمزيد، والزنجي يلقى بصره على امتداده، دون أن يرى أمامه سوى تلال لا نهاية لها من الرمال، تمتد حتى الأفق من كل اتجاه، فيغمغم في يأس:

- لا فائدة.. لا فائدة.. إنها اللعنة!

انعكست أشعة الشمس على جبهته، فمد يده يمسح عرقه، ثم رفع زمزميته الصغيرة إلى شفتيه، وحاول أن يلتقط من أعماقها قطرة ماء واحدة، إلا أن الزمزمية الساخنة أعلنت فراغها بفيض من الهواء الحار، جعله يشيح بفمه عنها، ثم يلقيها بامتداد ذراعه، متمتمًا:

- أعلم أنه ما من فائدة.

خيل إليه –في تلك اللحظة– أنه يلمح من بعيد أجسامًا تتحرك نحوه، فتوقف في توتر، وقال لنفسه:

- أهو سراب، أم هو الأمل؟

بدا له مشهد تلك الأجسام متراقصًا، مع الحرارة المنبعثة من الرمال، فغمغم في قلق:

- أظنه سراب، أو...

تناهى إلى مسامعه صوت محركات سيارات (الجيب)، فهتف:

- بل هو حقيقة.. الأذن لا تسمع سرابًا، إنها النجدة.. قافلة النجدة.

بعث الخاطر في ذهنه قوة، جعلته يعدو نحو السيارات، ملوحًا بذراعيه، وهاتفًا:

- النجدة!! أنا هنا.. النجدة!!

رأى السيارات تتوقف، ثم تنحرف باتجاهه، فصاح:

- لقد رأوني.. لقد نجوت.. نجوت بعد كل هذا الرعب والعذاب.. نجوت.

خيل إليه أن جسده قد اكتفى من التعب بكل هذا، بعد أن لاح الأمل في الأفق، فمادت به الأرض، وأظلمت السماء في وجهه، و...

وسقط فاقد الوعي..

☆ ☆ ☆

لم يدر الزنجي كم بقي فاقد الوعي، ولكنه –عندما استعاد وعيه– كان يرقد على فراش بدائي، داخل خيمة كبيرة، وكان هناك رجل يقف مرتديًا سروالًا قصيرًا، وقميصًا من القطن، ينفث دخان سيجارة قصيرة، فاعتدل الزنجي، وقال:

- أين أنا؟

التفت إليه الرجل، وقال في هدوء:

- اطمئن يا فتى.. لقد أنقذناك.. من الواضح أنك قد قطعت مسافة كبيرة على قدميك العاريتين، فقد التهب باطن القدمين على نحو رهيب، وتسلخت ساقاك.

انتبه الزنجي في هذه اللحظة فقط إلى الضمادات، التي تحيط بساقيه وقدميه، في حين استطرد الرجل:

- أأنت أحد أفراد بعثة علماء الآثار المصرية البريطانية؟

بدا الحزن على وجه الزنجي، وقال:

- نعم.. أنا آخر أفراد البعثة، وإن لم أكن أبدًا أحد علمائها.

جلس الرجل على طرف فراشه، وسأله في اهتمام:

- من أنت إذن؟

أجابه الزنجي:

- أنا (عثمان)، خادم (خالد) بك، عالم الآثار المصري، وأحد أفراد البعثة.

سأله الرجل:

- لماذا تقول أنك آخر أفراد البعثة يا (عثمان)؟.. هل لقي الجميع مصرعهم؟

أومأ (عثمان) برأسه إيجابًا، وقال:

- تقريبًا.

سأله الرجل:

- ماذا تعني بـ (تقريبًا)؟

بدت عينا (عثمان) الحزينتين كبحيرة من الألم، وهو يجيب:

- أعني أنك لن تجد جثة واحدة.. لقد ذهب الجميع.

سأله الرجل في اهتمام:

- أتعني أنك قد قمت بدفنهم جميعًا؟

هز (عثمان) رأسه نفيًا، وقال في ألم:

- لم يكن هناك جثث لأدفنها.. لقد ذهب الجميع هكذا.. دون أجساد.

تراجع الرجل في دهشة، وسأله:

- ما الذي تعنيه يا (عثمان)؟

ازدرد (عثمان) لعابه، وقال:

- إنها قصة طويلة يا سيدي..

قال الرجل في اهتمام:

- قصها عليّ إذن.

تنهد (عثمان)، وقال:

- لست أظنك تصدق حرفًا واحدًا منها يا سيدي، فلولا ما رأيته منها بعيني، ما صدقت من يرويها على مسامعي، ولو أقسم بأرواح آبائه وأجداده إلى سيدنا (آدم) عليه السلام.

سأله الرجل:

- أهي عجيبة إلى هذا الحد؟

ارتجف (عثمان)، وهو يقول:

- بل رهيبة.

سحب الرجل نفسًا عميقًا من سيجارته، وهو يتطلع إلى (عثمان) في شك، ثم لم يلبث أن نفث الدخان في قوة، قبل أن يقول:

- اسمع يا (عثمان).. إننا بعثة إنقاذ، مهمتنا هي البحث عن بعثة الآثار، وإنقاذ من بقي حيًا منها، لذا أريد منك أن تخبرني بكل لما لديك، مهما بدا لك عجيبًا أو مخيفًا.

أومأ (عثمان) برأسه أيجابًا، وقال:

- سأقصها على مسامعك يا سيدي، ولكن حاول أن تستمع إليّ جيدًا، فلست أظنني بقادر على إعادة أي جزء منها، مهما كانت الأسباب.

اعتدل الرجل، وقال:

- هيا.. كلي آذان صاغية.

التقط (عثمان) نفسًا عميقًا..

وأخذ يروي..

☆ ☆ ☆

2- المقبرة..

ما زلت أذكر ذلك اليوم المشئوم، الذي بدأت فيه هذه الأحداث الرهيبة..

كان السابع من يوليو، حيث بلغت حرارة الطقس حدًا لا يطاق، وعمال البعثة الخمسة منهمكون في حفر رمال الصحراء، في تلك البقعة المقفرة، على بعد أربعة كيلو مترات في قلب الصحراء، غربي (وادي الملوك)..

وكانت البعثة تضم ثلاثة فقط من علماء الآثار، بالإضافة إلى العمال الخمسة، وأنا، وبين هؤلاء العلماء الثلاثة مصري واحد، هو سيدي (خالد)، الذي درس علم المصريات، ونافس فيه زميليه البريطانيين..

بل فاقهما بذكائه ومصريته..

في ذلك اليوم جلس البريطانيين (سمبسون) و(بيل)، مع سيدي (خالد) في خيمته، ورحت أنا أعد لهما أكواب الشاي المعتادة، وأنا أسمع (سمبسون) يقول في ضجر، بلغته الإنجليزية، التي اتقنتها، بحكم عملي الطويل معهم:

- لا يا (خالد).. أنا أخالفك الرأي تمامًا، في احتمال وجود مقبرة فرعونية هنا، فكل مقابر الجانب الغربي تجتمع في (وادي الملوك)، أو حوله.

هز سيدي (خالد) رأسه في عناد، اكتسبه من والده –رحمه الله– وقال في حزم:

- وماذا عن تلك البردية، التي عثرت عليها في مقبرة (خان – حر)؟.. أليست دليلًا قاطعًا على وجود مقبرة ذات طابع خاص هنا؟

لوح (بيل) بيده معترضًا، وهو يقول:

- ولكننا حفرنا نصف المنطقة تقريبًا، دون أن نعثر على حجر أثري واحد.

أجابه (خالد) في ثقة:

- سنعثر عليه إن عاجلًا أو آجلًا.. لا تنسى أن (كارتر) لم يعثر على مقبرة (توت – عنخ – آمون)، إلا بعد سنوات من البحث مط (سمبسون) شفته السفلى، وقال:

- لن أحتمل بضعة أيام أخرى، في هذا الجحيم.

لم يكد يتم عبارته، حتى هتف أحد العمال، وهو يعدو نحو الخيمة:

- سيدي (خالد).. سيدي (خالد).. لقد عثرنا على المدخل اتسعت عينا (خالد) في لهفة، وهتف بالإنجليزية، مترجمًا النداء لرفيقيه:

- يبدو أننا بلغنا الهدف.

اندفع الثلاثة خارج الخيمة، وقد نسوا أمر الشاي، الذي انتهيت من إعداده تقريبًا، فأحطت وعاء الشاي بمنشفة سميكة، حتى لا تنخفض درجة حرارته بسرعة، ثم لحقت بهم عند الحفرة، وهناك وقع بصري على جزء من باب حجري سميك، ظهر جزء كبير منه مع رفع الرمال، وبدا على ذلك الجزء الظاهر رسم يشبه وجه وعنق طائر ضخم، ينفث النيران من حلقه، وقد

انفرد جناحاه عن آخرهما، على نحو مهيب مخيف، جعل (سمبسون) يُطلق صفيرًا عاليًا، ويهتف:

- يا إلهي!.. يبدو أنها مقبرة غير تقليدية بالفعل.

حث (خالد) العمال الخمسة على رفع باقي الرمال، ثم التفت إلى رفيقيه، يقول:

- إنني لم أر مثل هذا الشعار أبدًا من قبل، فهو ليس شعارًا ملكيًا معروفًا، ولا حتى يشبه شعارات كبار الكهنة.

قال (بيل) في شغف:

- ربما كانت مقبرة من مقابر الأسر القديمة.

هز (خالد) رأسه، وقال:

- لا.. لست أظن هذا..

بدا لي أن الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا، قبل كشف مدخل المقبرة تمامًا، فعدت إلى الخيمة، وأحضرت مظلة كبيرة، وثلاثة مقاعد للسادة، ومنضدة صغيرة، ووضعت كل هذا أمام الحفرة، ثم رحت أصب لهم الشاي، في الوقت الذي كان (بيل) يكمل فيه حديثًا، لم أسمع بداياته، وهو يقول في إصرار:

- لا يا (خالد).. إنها ليست مقبرة ملكية حتمًا، فلا توجد بها أية علامات تشير إلى هذا، ثم إن بها أمرًا عجيبًا، يثير حيرتي.

سأله (خالد) في اهتمام:

- ما هو؟

اعتدل يرتشف الشاي في بطء، ويجيب:

- إن مدخلها لا يحمل رسم مفتاح الحياة، كما يحدث عادة في المقابر الفرعونية القديمة، على الرغم من أن إيمان المصريين القدماء بالبعث أمر بالغ الأهمية، وهم يضعون رسم مفتاح الحياة على مقابرهم؛ ليساعدوا روح الميت على العودة إلى الحياة، وليعلنوا لآلهتهم رغبتهم في هذا.

ابتسم (سمبسون) وقال:

- ربما لا يرغبون في عودة الحياة، إلى ساكن هذه المقبرة.

انعقد حاجبا سيدي (خالد) في اهتمام، وبدا أكثر الجميع وسامة، وهو ينتزع قبعته عن رأسه، ويداعب شعره الأسود الفاحم الغزير بأصابعه، قائلًا:

- ربما.

أتاه في هذه اللحظة أحد العمال، يقول في صوت يحمل رنة خوف:

- لقد انتهينا من كشف المدخل يا سيدي، ولكن الرجال يشعرون بالخوف.

سأله (خالد) في دهشة:

- ولماذا يشعرون به؟

أشار العامل إلى موضع المقبرة، قائلًا:

- انظر بنفسك.

نهض العلماء الثلاثة لرؤية المدخل، ودفعني الفضول إلى أن أتبعهم بدوري، ولم أكد ألقي أول نظرة على المدخل، حتى وجدت نفسي ارتجف بدوري..

كان الرسم على المدخل رهيبًا بحق، إذ كان ذلك الطائر الضخم، الذي يفرد جناحيه، وينفث اللهب يقف فوق عشرات البشر، ويغرز فيهم مخالبه، فتسيل منهم الدماء، وتلوح على وجوههم أبشع آيات الرعب والفزع والألم، في حين أطلّت من عيني الطائر نظرة وحشية مخيفة، جعلتني أتمتم:

- رحماك يا إلهي!

التفت إلي سيدي (خالد)، ورمقني بنظرة صارمة، ثم عاد يتطلع إلى الرسم الرهيب، وقال في هدوء:

- لا بأس.. إنه مجرد رسم.

قال (سمبسون) في رهبة:

- ولكن ماذا يوجد داخل تلك المقبرة اللعينة، مما يستوجب وضع مثل هذا الرسم البشع على مدخلها؟

هز (خالد) كتفيه، وقال:

- من يدري؟.. ربما تحوي أنفس كنوز الدنيا، والرسم البشع مجرد وسيلة لإرهاب اللصوص.

ثم قال للرجال في حسم:

- هيا يا رجال.. سنرفع هذا الباب.

بدا التردد على وجه الرجال، فأضاف مبتسمًا:

- وسأمنح كل منكم جنيهًا إضافيًا، بالإضافة إلى مكافأة الكشف عن المقبرة.

هزم الطمع بعض الخوف في أعماق الرجال، فعادوا إلى العمل، وتكاتفوا لرفع الباب الحجرة الثقيل، إلا أن الباب بدا وكأنه جبل

هائل، يعجز أضعاف أضعافهم عن مجرد زحزحته، حتى لهث الرجال وتهالكوا، دون أن يتحرك الباب قيد أنملة، وهنا قال (بيل):

- يبدو أننا سنضطر لنسفه.

هتف به (خالد):

- هل جننت؟

ثم التفت إلى الرجال، وقال:

- استريحوا قليلًا يا رجال، وبعدها ستصنع ثغرة في ركن الباب، تقودنا إلى الداخل.

لم يكن من اللائق أن أبقى طيلة الوقت في الموقع، لذا فقد استأذنت سيدي (خالد) في العودة إلى الخيمة، لإعداد طعام الغداء، فسمح لي بذلك، وطلب مني صنع كمية إضافية للعمال الخمسة، الذين سيحتاجون حتمًا إلى المزيد من الغذاء، بعد كل ما بذلوه من جهد..

ولساعتين كاملتين، انهمكت في إعداد الطعام، حتى أنني لم أشعر بما يحدث في الخارج، ولم أكد أنتهي من عملي، حتى ذهبت لأخبر سيدي ورفيقيه بأن الغداء جاهز، وهناك وجدت العمال في اللحظات الأخيرة من فتح الثغرة، في الركن الأيسر السفلي من الباب الحجري الضخم..

وبضربة معول، انفتحت الثغرة..

بل قل انفتحت أبواب الجحيم..

لقد هبت من الثغرة موجة حارة لافحة، بدت وكأنها نيران جاءت من الجحيم نفسه، فصرخ العمال، وتراجعوا مذعورين،

وامتزجت صرختهم بصرخة رهيبة، تجمدت لها الدماء في عروقي..

صرخة انبعثت من داخل المقبرة..

صرخة طائر شيطاني..

وبعدها ساد سكون رهيب..

سكون بدا وكأنه يشمل الصحراء كلها، حتى لقد سكنت الرياح، وتوقفت الأنفاس، وهبط على الجميع وجوم مخيف، قطعه سيدي (خالد)، وهو يقول:

- يبدو أن الهواء داخل المقبرة كان فاسدًا، أو مضغوطًا، فاندفع إلى الخارج مع فتح الثغرة و...

ولا شك أنه أدرك على الفور عقم تلك التفسيرات، فلم يتم حديثه، وإنما تنحنح وقال:

- حسنًا.. حان موعد فحص المقبرة من الداخل.

تراجع العمال في رهبة، خشية أن يختار سيدي أحدهم لهذه المهمة، في حين ازدرد (بيل) لعابه، وغمغم في توتر:

- فحصها؟

شد (خالد) قامته، وقال:

- نعم.. سأفحصها أنا.

كانت مبادرته جريئة حقًا، مما ملأ قلبي بالخوف، فأمسكت يده قائلًا:

- سآتي معك يا سيدي.

هتف بي مبتسمًا:

- لماذا؟.. إنني لن أعبر المحيط.. إنها مجرد مقبرة.

حمل مصباحه في حماس، واتجه إلى الثغرة، وانحنى ليزحف عبرها إلى داخل المقبرة، حتى اختفى عن أنظارنا، فاحتبست الأنفاس كلها في رهبة، وتعلقت العيون كلها بالثغرة، ومضت الدقائق بطيئة ثقيلة، حتى لقد خلتها ساعات طوالًا، مما أفقدني أعصابي في النهاية، فقلت:

- سألحق بسيدي.

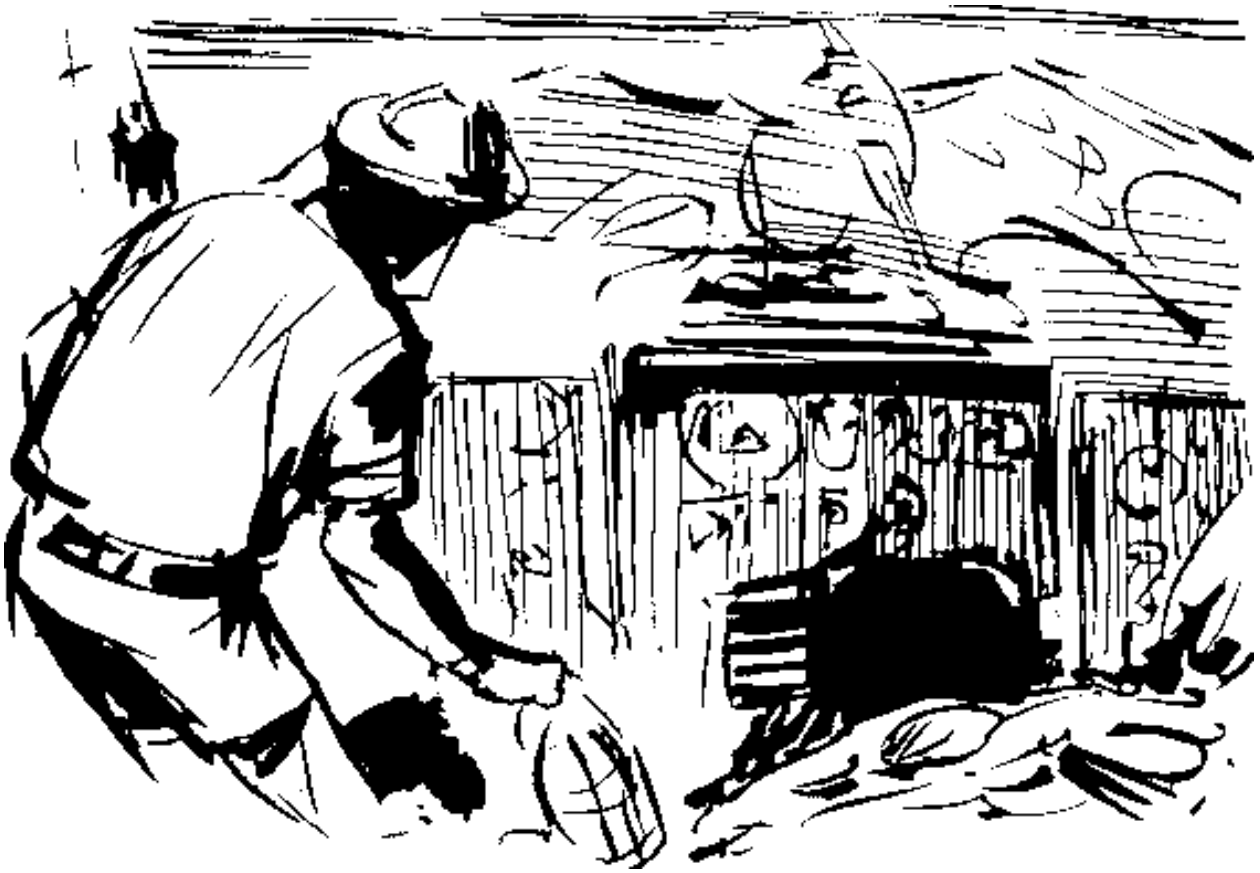

أمسك (سمبسون) ذراعي في قوة، وقال:

- لقد طلب منك أن تبقى.

هتفت متوترًا.

- ولكنني أجهل ما يصيبه هناك، أليس من المحتمل أن...

قاطعني (بيل)، وهو يهتف:

- ها هو ذا.

أدرت عيني إلى الثغرة، ورأيت سيدي يزحف خارجها شاحب الوجه زائغ العينين، ولم يكد ينهض واقفًا على قدميه، حتى هتف به (سمبسون):

- ماذا وجدت؟

رفع سيدي عينيه إليه، ومضت لحظات لم ينبس فيها ببنت شفة، قبل أن يقول في شحوب:

- إنه أمر عجيب.. عجيب بحق.

سأله (بيل) في قلق:

- أهي مقبرة ملكية؟

التفت إليه سيدي، وقال:

- بل هي مجرد حجرة صغيرة، تمتلئ جدرانها كلها بالنقوش، ولا يوجد داخلها سوى قنينة نحاسية كبيرة.

سأله (سمبسون) في لهفة:

- وما الذي تحويه تلك القنينة؟

مضت لحظة من صمت عجيب، بدا فيها سيدي أكثر شحوبًا من أية مرة سابقة، في عمره كله، وهو يقول:

- رماد.. مجرد رماد.

وكان الجواب عجيبًا..

ومخيفًا.

☆ ☆ ☆

3- اللعنة..

لم يدخل أي مخلوق آخر إلى المقبرة، بعد خروج سيدي (خالد) منها، بل اكتفى (سمبسون) بوضع عاملين أمامها لحراستها، في حين عاد هو وسيدي و(بيل) إلى الخيمة الرئيسية، حيث أعددت لهم طعام الغداء، فجلسوا يتناولونه صامتين، يظللهم شعور غامض بالرهبة والقلق، إلى أن قال (بيل):

- ألم تجد حقًا سوى ذلك الرماد يا (خالد)؟

أومأ (خالد) برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم.. المقبرة كلها لا تحوي سوى تلك القنينة النحاسية، بما تحويه من رماد، ولكن المنقوش على جدرانها هو المهم.

اعتدل (سمبسون)، وسأله:

- وما هو المنقوش على الجدران؟

التقط (خالد) نفسًا عميقًا، وزفره في بطء، ثم قال:

- (العنقاء).

سأله (بيل):

- ماذا؟

أجابه (خالد):

- النقوش تقول إن هذه مقبرة (العنقاء).

هتف (سمبسون) مستنكرًا:

- (العنقاء)؟!.. أي هراء هذا يا (خالد).. كلنا نعلم أن (العنقاء) طائر خرافي، لا وجود له في الواقع، وإنما هو مجرد أسطورة.

قال (خالد) في إصرار:

- وماذا تقول هذه الأسطورة يا رجل؟.. إنها تقول إن (العنقاء) طائر جهنمي، متوحش، ينفث النيران من حلقه، ثم لا يموت إلا بالنيران نفسها، وبعد موته يتحول إلى رماد، ويمكنه بوسيلة لم تذكرها الأسطورة، أن ينهض مرة أخرى من رماده، ويعود إلى الحياة.

حاول (بيل) أن يبتسم، وهو يقول:

- رائع.. إنه طائر يناسب طبيعة قدماء المصريين، الذين يؤمنون ببعث الروح في الجسد بعد الموت.

قال (سمبسون) في غلظة:

- ليس هذا وقت المرح يا (بيل).

مط (بيل) شفتيه، ولاذ بالصمت في ضيق، في حين التفت (سمبسون) إلى (خالد)، وقال:

- إذن فأنت تظن أن ذلك الرماد، ما هو إلا رماد (العنقاء).

هز (خالد) كتفيه، وقال:

- ولم لا؟

عقد (سمبسون) حاجبيه الكثين في غضب، وهو يقول:

- سأخبرك أنا لِمَ لا.. لأنني لا أؤمن بالأساطير والخرافات يا سيد (خالد).. لا أؤمن بالـ(غول) ولا (العنقاء)، ولا الساحرات، ولا كل تلك الخزعبلات الأخرى.. هل فهمت لِمَ لا؟

تنهد (خالد)، وقال:

- هذا شأنك.

ثم أشار إلى خارج الخيمة، وهو يستطرد:

- ولكن النقوش لا تكتفي بالتحدث عن (العنقاء) فحسب.

سأله (بيل) في اهتمام:

- ماذا تقول أيضًا؟

أجابه (خالد) في حسم:

- وتقول إنه هناك لعنة، ستحل على من يفتح مقبرة (العنقاء).

شحب وجه (بيل)، وهتف:

- لعنة؟!.. أي نوع من اللعنات؟

هتف (سمبسون) في غلظة:

- لست أؤمن بهذا أيضًا.

ثم نهض مستطردًا في صرامة:

- اسمع يا (خالد).. سنحسم أمر هذه المقبرة غدًا، مع مشرق الشمس، وبعدها ستعلم أن كل هذا مجرد هراء.

قالها وغادر الخيمة في خطوات سريعة غاضبة، وساد الصمت داخل الخيمة لحظات، حتى تنحنحت أنا، وسألت سيدي:

- معذرة يا سيدي.. هل تحب تناول الشاي الآن؟

هز رأسه نفيًا، وهو يبتسم ابتسامته الرقيقة، قائلًا:

- لا يا (عثمان).. شكرًا لك.

وهنا نهض (بيل) بدوره، قائلًا:

- أنا أيضًا لا أرغب في شرب الشاي هذه الليلة.. سأذهب إلى خيمتي وأراجع بعض كتبي، ثم أخلد إلى النوم.

غمغم سيدي (خالد):

- لا بأس.

بقي جالسًا إلى المائدة بعض الوقت، بعد انصراف (بيل)، وبدا من شروده أنه غارق في تفكير عميق، فاحترمت صمته، وبقيت صامتًا بدوري، حتى نهض من مكانه، والتقط أحد كتبه، وراح يطالعه في اهتمام بالغ..

ورفعت أنا الأطباق عن المائدة، وانغمست في تنظيفها، وإعداد فراش سيدي (خالد)، حتى توارت الشمس في الأفق، وبدأ الظلام ينتشر في المكان، فوضع سيدي كتابه، وفرك عينيه في إرهاق، وهنا سألته في شغف:

- سيدي.. هل تؤمن بلعنة الفراعنة؟

ابتسم في رقة، وشرد ببصره لحظات، ثم التفت إليّ مجيبًا:

- لا يا (عثمان).. لست أؤمن بها أبدًا.

أراحني هذا الجواب بالفعل، وأزاح عن كاهلي حملًا ثقيلًا، فابتسمت في ارتياح، وعاونت سيدي على خلع حذائه الكبير، ولم أكد أنتهي من ذلك، حتى اندفع أحد حارسي المقبرة إلى الخيمة، وهو يقول في هلع:

- سيدي.. سيدي.. لقد حدث أمر رهيب.. رهيب يا سيدي.

هب إليه (خالد)، وسأله في قلق:

- ماذا حدث يا رجل؟

لهث العامل في انفعال، وخفض عينيه أرضًا، وهو يقول:

- لقد لعب الشيطان برأسينا.. أنا ورفيقي.

سأله (خالد):

- ماذا تعني؟

أجابه العامل في أسف:

- تصورنا أن المقبرة تمتلئ بالكنوز والذهب، وأنك تدعي خلوها من كل هذا، حتى تصرف أنظارنا عنها.

هتف (خالد):

- يا إلهي!.. وماذا فعلتما؟

أجاب العامل:

- لعب الشيطان برأسينا، وأقنعني زميلي بالتسلل إلى المقبرة، والحصول على بعض الذهب لنفسينا، وأكد لي أن أحدًا لن ينتبه إلى ما سنفعله.. ولقد أقنعني، فتسللنا إلى المقبرة.

أمسك (خالد) ذراع الرجل في قوة، وهو يهتف به في انفعال:

- وماذا حدث هناك؟

كاد العامل يبكي، وهو يقول:

- لم نجد شيئًا داخل المقبرة، سوى تلك القنينة النحاسية الكبيرة، وما بها من رماد، فأصابني الحنق، واتهمت صديقي بالغباء والجهل، وقلت له إنني سأخبرك بما حدث، وحاول منعي بالقوة، فتشاجرنا، و... و...

هتف به (خالد):

- وماذا؟

بكى العامل بالفعل، وهو يقول:

- وقتلته.

اتسعت عينا (خالد)، وهتفت أنا مذعورًا:

- قتلته أيها التعس؟

قال العامل في انهيار:

- لم أكن أقصد هذا.. لقد دفعته في قوة، فارتطم بالعامود الحجري، الذي يحمل القنينة النحاسية، وسقط صريًعا، وانقلبت القنينة ورمادها فوقه، و...

قاطعه (خالد) هلعًا:

- انقلبت.

ثم أسرع يرتدي حذاءه الطويل، مستطردًا:

- هيا يا رجل.. سنذهب لنرى ماذا حدث.. هيا.. ربما لم يمت زميلك كما تتصور.

أسرعنا مع العامل إلى المقبرة، التي بدت أكثر إثارة للخوف والرهبة، على ضوء القمر، ولكن سيدي (خالد) لم يتردد في الزحف داخلها، فلحقت به على الفور، ولم أكد أدخل إلى المقبرة، التي بدت أصغر مما كنت أتصور، حتى هبط رعب غامض في قلبي..

رعب لم أدر له سببًا، فقد كانت مجرد حجرة مربعة صغيرة، ازدانت كل جدرانها بالرسوم والنقوش، يتوسطها عمود صخري صغير، سقطت أسفله قنينة نحاسية نصف الكروية، فوق كمية من الرماد..

ولم يكن هناك أثر للعامل القتيل..

وفي ذهول هتف العامل الآخر:

- ولكنني تركته هنا.

أدار (خالد) المصباح داخل المقبرة الصغير في بطء، ثم قال:

- من الواضح أنه لم يمت.. ربما فقد وعيه لبضع لحظات، ثم استعاده فزحف خارج المقبرة، وعاد إلى خيمة العمال.

تنهد العامل في ارتياح، وقال:

- حمدًا لله.. لم أكن لأسامح نفسي أبدًا، لو كان قد مات.

انحنى (خالد) يرفع القنينة النحاسية، وهو يقول:

- ولكنكما تسببتما في سقوط القنينة و...

بتر عبارته بغتة، وهو يصوب ضوء مصباحه على كومة الرماد الصغيرة، المستقرة أسفل القنينة، وسمعته يقول في دهشة:

- عجبًا!..

سألته في اهتمام:

- ماذا حدث يا سيدي؟

أجابني في تردد:

- هذا الرماد..

- ألقيت نظرة على الرماد، وعدت أسأله:

- ماذا عنه يا سيدي؟

تردد لحظة أخرى، ثم أجاب في حسم:

- إنه ليس نفس الرماد، الذي كان داخل القنينة يا (عثمان).. ليس نفس الرماد حتمًا.

وهوى قلبي بين ضلوعي..

☆ ☆ ☆

4- امرأة..

لم يكن من المعتاد أبدًا أن يتناول سيدي (خالد) الشاي، بعد غروب الشمس، إلا أنه تناول في تلك الليلة كوبين منه، أعددتهما له في التاسعة مساءً، وهو يجلس أمام الخيمة، غارقًا في تفكير عميق، ومتطلعًا إلى القمر..

وفي خفوت، اتجهت إليه أسأله:

- ما الذي يدعوك إلى القول بأن هذا الرماد يختلف يا سيدي؟.. الرماد كله يتشابه.

هز رأسه نفيًا، وقال:

- لا يا (عثمان).. الرماد الذي رأيته في الصباح، داخل القنينة النحاسية، لم يكن أبدًا رمادًا عاديًا.

سألته في حيرة:

- ماذا كان إذن؟

صمت لحظات، وكأنما يبحث عن اللفظ المناسب، قبل أن يقول:

- عندما سقط ضوء مصباحي على ذلك الرماد، في الصباح، بدا لي الرماد وكأنما هو نار متوهجة، أو جمر ملتهب، تتراقص فوقه ألسنة اللهب، حتى لقد أدنيت يدي منه في حذر، خشية أن تلفحني نيرانه، أما الرماد الذي وجدناه منذ ساعة، على أرضية المقبرة، فهو مجرد رماد عادي.

انقبض قلبي لذلك الوصف، وتمنيت في أعماقي لو رحلنا عن هذا المكان، وتركنا تلك المقبرة اللعينة، إلا أنني لم أجرؤ على

الإفصاح برأيي هذا لسيدي (خالد)، وآثرت الصمت، الذي لم يمنع قلبي من الارتجاف بين ضلوعي، حتى أشرقت شمس الصباح..

وكعادته، كان سيدي (خالد) أول من استيقظ، وغادر خيمته نشيطًا حليقًا، ينافس الصباح بهاءً وإشراقًا، ثم تبعه (سمبسون)، الذي بادره قائلًا:

- صباح الخير يا (خالد).. أما زلت تفكر في عنقائك؟

ابتسم (خالد) ابتسامة هادئة، ثم قص عليه كل ما كان من أمر حارسي المقبرة أمس، فانعقد حاجبا (سمبسون) في غضب، وقال:

- ما كان لك أن تتجاوز الأمر بهذه البساطة يا (خالد).. كان ينبغي أن تعاقبهما بكل الحزم والصرامة.

قال (خالد) في هدوء:

- لا تنس يا سيد (سمبسون) أن بعثتنا تضم خمسة عمال فحسب، ومعاقبة عاملين منهما تعني إغضاب أربعين في المائة من فريق العمل.

مط (سمبسون) شفتيه في امتعاض واعتراض، إلا أنه لم يعلن مشاعره هذه على نحو صريح، وإنما جلس مع (خالد) و(بيل)، يتناول قهوة الصباح، ولم يكد آخرهم ينتهي من قهوته، حتى لمحت ذلك العامل، الذي قادنا إلى المقبرة مساء أمس، وهو يقترب مرتبكًا، شاحب الوجه، فلقت نظر سيدي (خالد) إليه، فاستدعاه وسأله:

- ماذا بك؟

أجابه العامل، في اضطراب واضح:

- (عويس) اختفى.

سأله (خالد):

- من (عويس) هذا؟

ثم تذكر أن (عويس) هو الحارس الثاني، الذي أصيب أمس داخل المقبرة، ولم نعثر عليه بعدها، فتجاوز سؤاله في سرعة، وأكمل:

- أين اختفى؟

هز العامل رأسه في توتر، وقال:

- لا أحد يدري.. لقد تصورنا أمس أنه قد استعاد وعيه، وعاد إلى خيمته، ولكن زميليه في الخيمة يؤكدان أنه لم يعد إليها، ثم إننا لم نعثر له على أثر.

عقد (خالد) حاجبيه، وهو يقول:

- ربما خشي العقاب، بعد أن استعاد وعيه، ففر من هنا.

قال العامل:

- إلى أين يفر يا سيدي.. إننا في قلب الصحراء؟

أجابه (سمبسون) في خشونة:

- ربما عاد إلى (وادي الملوك).. إنه يعرف الطريق حتمًا.

لم يبد أن هذا التفسير قد أقنع العامل، إلا أنه غمغم:

- ربما.

وابتعد عن الخيمة يجر ساقيه جرًا، فالتفت (بيل) إلى (سمبسون)، وسأله:

- أتعتقد أنه قد فر حقًا.

أجابه (سمبسون) في خشونة:

- ألديك تفسير آخر؟

هز (بيل) كتفيه، وقال:

- لا.. لا أعتقد هذا.

نهض (خالد) عند هذه النقطة، وأزاح أستار الخيمة، وهو يقول:

- فليكن.. إننا لن نضيع اليوم في مناقشة أمر (عامل) هارب، فعلينا أن نفحص المقبرة، و...

بتر عبارته بشهقة قوية، جعلتنا نقفز جميعًا من أماكننا، ونهتف:

- ماذا حدث؟

أشار بسبابته إلى تلال الرمال البعيدة، قائلًا:

- انظروا.. هناك.

انتقلت أبصارنا جميعًا إلى حيث أشار، وبدا لنا جسد بشري يترنح فوق الرمال، محاولًا الوصول إلى معسكرنا، ولم نكد نتبين طبيعة هذا الجسد، حتى كان (خالد) يهتف:

- إنها امرأة.

أسرع إلى سيارة (الجيب)، وقفز داخلها، فلحقت به مع (بيل)، وهو يدير محركها، وقال (بيل) في حيرة:

- ما الذي جاء بها إلى هنا؟

انطلق (خالد) بالسيارة، وهو يقول:

- من يدري؟

رأيت من بعيد جسد تلك المرأة، وهي تتوقف متطلعة إلينا، ثم ترفع يدها ملوحة، وتسقط أرضًا بلا حراك، فزاد (خالد) من سرعة السيارة، التي أثارت خلفها عاصفة من الرمال، وهو يقول:

- يا إلهي!.. ما الذي أتى بها إلى هنا حقًا؟

بلغنا موضع المرأة في دقيقتين فحسب، وأوقف (خالد) سيارته إلى جوارها، ثم قفز من السيارة، وهبط يفحص المرأة، ولم يكد يدير وجهها إليه، حتى هتف (بيل):

- يا رب السموات!!

أما أنا، فقد انفغر فاهي في ذهول وانبهار، وأنا أتطلع إليها..

- لم تكن مجرد امرأة..

كانت أروع كائن حي وقعت عليه عيناي، منذ مولدي..

امرأة فاتنة، بكل ما يمكن أن تحمله الكلمة من معان، لها وجه لم أر أجمل منه، ولا أكثر سحرًا من ملاحته، تزينه شفتان كثمرة ناضجة من ثمار الجنة، ويكلله تاج منهمر من شعر أحمر ناري براق، عكس بهاءه على بشرتها الوردية، فامتزجا في لوحة من أعظم لوحات الخالق (عز وجل).

وكانت فاقدة الوعي، ترتدي جلبابًا قديمًا متهالكًا، تناقض بشدة مع بشرتها وجمالها، وأوحى إلينا بأنها قد لاقت الأمرين، حتى بلغت موضعنا هذا، ولم تكن هناك قطرة عرق واحدة على جسدها، مما يجزم بأنها لم تتناول قطرة واحدة من الماء منذ زمن طويل..

وعلى الرغم من أنني لم أر سيدي (خالد) يبدي اهتماما زائدًا بامرأة قط، إلا أنه بدا لي –في هذه اللحظة– مبهورًا، مأخوذًا، مسحورًا بتلك الفتنة الطاغية، التي ترقد أمامه، فوق رمال الصحراء، حتى أنه بقي لحظات يتطلع إليها مشدوهًا، قبل أن ينحني ليحملها بين ذراعيه، ويقول في حسم:

- إنها تحتاج إلى رعاية طبية عاجلة.

أرقدها في رفق على المقعد الخلفي للسيارة، وانطلقنا عائدين بها إلى المعسكر، ولم تكد أبصار العمال والسيد (سمبسون) تقع عليها، حتى انتقل انبهارنا إليهم، وبخاصة إلى السيد (سمبسون)، الذي هتف متخليًا عن وقاره:

- رباه!!.. هل تنجب الصحراء كل هذا الجمال؟

حملناها إلى خيمة سيدي (خالد)، ورحنا نرطب شفتيها بالماء، ونبلل وجهها بمنشفة معطرة، حتى ندت من بين شفتيها

الفاتنتين تأوهات خافتة، فتحت بعدها عينيها، وتطلعت إلى وجوهنا في خوف، قبل أن تهتف في وهن:

- من أنتم؟.. أين أنا؟

أسرع (بيل) يجيبها:

- إننا بعثة آثار (أنجلو- مصرية)، وأنا (بيل)، وزميلي هذا (سمبسون)، ونحن بريطانيان.. أما هذا فهو مصري، يدعى (خالد).

اعتدلت جالسة، وهي تقول في ارتياح:

- إذن فقد نجوت.. حمدًا لله.

بدت لي لهجتها، وهي تقول عبارتها الأخيرة، مختلفة عن سؤالها الأول، الذي بدا إنجليزيًا خالصًا، ولكن هذا لم يلبث أن بدا لي طبيعيًا، عندما سألها (سمبسون):

- أبريطانية أنت؟

فهزت رأسها، مجيبة:

- لا.. بل أمريكية.

سألها (خالد) في اهتمام:

- وكيف وصلت إلى هنا؟

روت لنا قصة مقتضبة، علمنا منها أنها سائحة أمريكية، أتت من بلادها لزيارة (وادي الملوك)، ومشاهدة الآثار المصرية القديمة، ثم اختطفها أحد البدو، وحملها إلى مخيم قبيلته، ثم أنهت قصتها بفيض من الحزن، وهي تقول:

- لقد نجحت في الفرار منهم بمعجزة، ثم انتابني الرعب، وأنا أعبر صحراء لا نهاية لها، ونال مني التعب والخوف منالهما، حتى أنني لم أكد ألمح سيارتكم، حتى سقطت فاقدة الوعي، من شدة الانفعال واللهفة.

ربت سيدي (خالد) على كتفها في رفق، وقال في لهجة تفيض حنانًا:

- لقد عانيت الكثير، وأظنك الآن بحاجة إلى الاغتسال، وتناول وجبة دسمة، ثم النوم لفترة طويلة.. سنذهب نحن لإنهاء عملنا، وسيعد لك (عثمان) كل ما تحتاجينه.

تطلعت إليه لحظات في صمت، كما لو أنها تقرأ عينيه، وتسبر أغواره، ثم لم تلبث أن أزاحت خصلة ناعمة طويلة من شعرها الناري، وهي تبتسم قائلة:

- أشكرك يا سيد (خالد).. أشكرك كثيرًا.

منحها ابتسامة رقيقة، ثم غادر الخيمة مع رفيقيه، وبقيت أنا لأعد لها بعض الماء الساخن، ووجبة دسمة، ثم أحضرت لها جلبابًا نظيفًا، وتركتها بالخيمة، ولحقت بسيدي، الذي زحف مع زميله إلى داخل المقبرة، وراح ثلاثتهم ينقلون النقوش عن الجدران، ويترجمونها، وعندما لحقت بهم إلى داخل المقبرة، كان (سمبسون) يشير إلى أحد النقوش، قائلًا:

- هراء.. كل هذا مجرد هراء.. لن أصدق أبدًا وجود مثل هذا الطائر الخرافي.. حتى الرماد يبدو لي أشبه برماد عشرات السجائر.

قال (خالد) في حسم:

- إنه ليس نفس الرماد.

هتف (سمبسون) في حدة:

- أين ذهب الرماد الآخر إذن، ومن أين جاء هذا الرماد؟

قدمت لهم أكواب الشاي، وانسحبت خارجًا، وتركتهم يناقشون هذا الأمر، الذي لا أفهم الكثير من تفاصيله، ولحقت بالعمال الأربعة، الذين دارت بينهم مناقشة حامية أخرى، حول اختفاء زميلهم الخامس، ولقد بدت لي تلك المناقشة سخيفة، حتى سمعت أحدهم يقول، في صوت امتزجت ارتجافته برنة خوف:

- صدقوني.. هذه المقبرة ملعونة.. لقد رأيت بنفسي ذلك الطائر الرهيب، عندما خرج منها ليلة أمس.

الفتت إليه غاضبًا، وصحت في وجهه:

- ويلك يا رجل! أتحاول إفساد البعثة بأكاذيبك هذه، التي تبث الرعب في قلوب زملائك؟

تراجع الرجل في خوف، وقال مذعورًا:

- ولكن هذا ما حدث.. أقسم لك إني رأيت الطائر الملعون.

أمسكت كتفه في قوة، وأنا أقول:

- صف لي ما رأيت.

راح يلوح بيديه في سرعة وخوف، وهو يقول:

- لقد وجدت المقبرة خالية، بلا حراسة، فاتجهت إليها، بحثًا عن زميلينا، اللذين كلفتموهما حراستها، ولم أكد أقترب منها حتى سمعت داخلها صوت خفقات أجنحة طائر ضخم، أعقبته صرخة طائر، كتمتها جدران المقبرة، فتراجعت في رعب، وهنا

رأيت لسانًا من اللهب، يخرج من تلك الثغرة، أسفل المدخل، ثم لم يلبث أن تحول إلى طائر ضخم، في حجم رجل بالغ، يمسك بمخالبه شيئًا ما، وقبل أن أصرخ، انطلق الطائر مبتعدًا، كلسان من نار، فعدت مهرولًا إلى خيمتي، ولم أفارقها حتى مطلع الشمس.

لم يكن من السهل أن يبتكر ذلك العامل البسيط قصة كهذه، يعجز عنها خيال رجل مثقف، لذا فقد كانت لكلماته مصداقية عجيبة، تركت أثرها في عيون زملائه الثلاثة، الذين تراجعوا في رعب، وقال أحدهم مرتجفًا.

- نريد أن نرحل.

لم أحر جوابًا، وأنا أشاهد ذلك الرعب الهائل، الذي ملك قلوبهم، فتمتمت مستسلمًا:

- سأعرض الأمر على سيدي (خالد).

عدت إلى المقبرة، وشرحت الأمر لسيدي (خالد) وزميليه، فصحباني إلى حيث العمال الأربعة، واستمعوا بأنفسهم إلى القصة مرة ثانية، ثم هز (خالد) رأسه في هدوء، وقال:

- دعونا نفترض أن القصة الحقيقية.. ما الذي يمكن أن يخيفنا إذن؟ لقد غادر الطائر المخيف مقبرته، ورحل، ولم تعد هناك مشكلة.

قال أحد العمال في خوف:

- وماذا لو عاد؟

أجابه (سمبسون) في خشونة:

- لن يعود.

تطلع العمال الأربعة إليه في رهبة، فلقد كان حديثه الدائم بالإنجليزية، ينسيهم أنه يجيد العربية مع (بيل)، وأنهما يستطيعان فهمهما جيدًا، ولقد أردف (سمبسون) بصرامته المعهودة:

- أما أنا، فلن أسمح بترديد تلك الخرافات هنا.. هل سمعتم؟

أومأوا برؤوسهم في استسلام، فأضاف:

- هيا.. سنعود إلى العمل.

عادوا يحفرون الرمال، ويرفعونها عن باقي المقبرة، وهم يقدمون رجلًا، ويؤخرون أخرى، في حين التفت (بيل) إلى (خالد) وسأله:

- هل تبدو لك قصته حقيقة؟

أجابه (خالد) في هدوء:

- هل يبدو لك خياله من النوع القادر على ابتكارها؟

كادا يناقشان هذا الأمر، لولا أن قاطعهما (سمبسون)، وهو يقول انبهار واضح:

- رباه!.. هل تشرق الشمس مرتين في يوم واحد؟

التفتا جميعًا إلى حيث أشار، وانطلقت من حناجرنا شهقة واحدة.. فهناك، أمام خيمة سيدي (خالد)، كانت تقف الشمس الثانية.. كانت المرأة واقفة هناك، وقد تركت شعرها الأحمر الناري ينسدل على كتفيها، فوق الجلباب الأبيض النظيف، الذي استبدلته بذلك الرث، الذي كانت ترتديه من قبل، وبدت أشد ما يكون بهاء وحسنًا:

ودون أن ندري أسرعنا جميعًا إليها، وسألها (بيل) في لهفة:

- هل نمت جيدًا؟

أدهشنا أن هزت رأسها نفيًا، وهي تقول:

- لا.. لم أنم جيدًا، بسبب ذلك الطائر.

بُهتنا لجوابها، وشملنا صمت رهيب، قطعه (خالد)، وهو يسألها في قلق:

- أي طائر؟

رفعت يديها إلى أعلى، وقالت:

- ذلك الذي ظل يخفق بجناحيه فوق خيمتك طوال الوقت.

لم تكد تنطقها، حتى قفزت كلمة واحدة إلى أذهاننا جميعًا..

(العنقاء)..

☆ ☆ ☆

5- أيام الخوف..

اجتمع الرجال الثلاثة مع المرأة، التي علمنا أن اسمها هو (لورا)، في خيمة سيدي (خالد)، ورحت أنا أعد طعام الغداء كالمعتاد، وعندما حملته إلى الخيمة، كانت (لورا) تقول لـ(سمبسون) في عصبية:

- ما معني هذا السؤال السخيف، الذي ألقيته على مسامعي سبع مرات، حتى هذه اللحظة، يا مستر (سمبسون)؟.. بالطبع أنا واثقة من سماع صوت ضربات أجنحة الطائر.

عقد (سمبسون) حاجبيه الكثين، وهو يقول:

- لو أنني أستطيع إلقائه على مسامعك ألف مرة في كل دقيقة، لفعلت يا سيدتي، فجوابك هذا قد يقلب معتقداتي رأسًا على عقب.

هتفت به:

- ولكنني سئمته.

رفع (خالد) يده في حسم، وقال:

- حسنًا يا (لورا).. لن يسألك أحدنا السؤال نفسه مرة أخرى، بل لن نتحدث حتى في الأمر أمامك.

قال (سمبسون) في حدة:

- ولكن..

قاطعه (خالد) قبل أن يواصل حديثه:

- قلت إننا لم نفعل.

ظهر الغضب على وجه (سمبسون)، إلا أنه لم يعارض موقف (خالد)، وإنما جلس يتناول غذائه في صمت، في حين تبادل زميلاه الحديث مع (لورا) في أثناء ذلك..

كان حديثها عذبًا، جذابًا، ولقد لاحظت أنها تولى بعض الاهتمام لسيدي (خالد)، الذي كان أكثر الثلاثة وسامة، كما كان حديثه إليها دائمًا مغلقًا بحنان جم، ينبع من قلبه، ومن طبيعته الشرقية الأصيلة..

ولم يكد ينتهي تناول الطعام، حتى نهض (سمبسون)، وقال في حدة:

- سأعود إلى العمل.

ثم اندفع مغادرًا الحجرة، فهمست (لورا):

- زميلكما هذا شديد العصبية.. أليس كذلك؟

أجابها (خالد) مبتسمًا:

- ولكنه طيب القلب.

ارتسمت على شفتيها أكثر ابتسامات الأرض عذوبه، وهي تقول لـ (خالد):

- ليس وحده.

ارتبك لابتسامتها، فنهض من مقعده بدوره، وغمغم:

- وأظنه على حق، فمن الضروري أن نواصل عملنا.. هل نذهب يا (بيل)؟

ابتسم (بيل)، وهو يسترخى في مقعده، وقال:

- لا.. سأبقى بعض الوقت.

رمقه (خالد) بنظرة ضيق، حملت شيئًا من الغيرة، ثم حمل مصباحه، وغادر الخيمة، دون أن ينبس ببنت شفة، وهنا التفت (بيل) إلى (لورا)، وقال بلهجة ذات مغزى خاص:

- لدي زجاجة من خمر معتّق في خيمتي، ما رأيك لو حملناها مع كأسين إلى تبة بعيدة، واحتسيناها معًا، تحت ضوء القمر؟

ابتسمت (لورا) وقالت:

- لم يحن الوقت لهذا بعد.

سألها في شغف:

- ومتى يحين؟

ضحكت قائلة:

- هذا يتوقف على الظروف.

نهض ليلحق بـ(خالد)، وهو يلوح بيده، قائلًا:

- أخبريني، عندما يحين الوقت.

أجابته في مرح:

- سأفعل.

ولم يكد يغادر الخيمة بدوره، حتى التفتت إلي وقالت:

- معذرة يا (عثمان).. أريد النوم بعض الوقت.

اعتذرت لها، وغادرت الخيمة على الفور، وتركتها تنعم بنوم عميق، وقضيت أنا جل وقتي في خدمة سيدي وزميليه، وسط مناقشاتهم التي لا تنتهي، حول المقبرة والنقوش، ثم أشار سيدي إلى ضرورة إيجاد ترتيب جديد للنوم، بعد انضمام (لورا) إلينا، فاقترح (بيل) نقل العمال الأربعة إلى خيمة واحدة، ومنح

الخيمة الثانية لـ(لورا)، ولكن سيدي (خالد) طلب أن تبقى (لورا) في خيمته، بعد أن ألفتها، على أن ينتقل هو إلى خيمة العمال الثانية..

وهذا ما كان..

وفي تلك الليلة أوى الجميع إلى فراشهم بعد ارتفاع القمر إلى السماء، ولم يبق سوى (عويضة) لحراسة المكان، في حين ساد صمت تام وهدوء، نسبي..

وفجأة تبدد هذا السكون، مع صرخة رهيبة..

صرخة طائر هائل، مصحوبة بخفقان أجنحة ضخمة..

الجميع هذه المرة سمعوا الصرخة وخفقات الأجنحة، فهب كل منهم من مرقده، واندفعنا جميعًا خارج خيامنا، وقد أمسك (سمبسون) و(بيل) مسدسيهما، وهتف سيدي (خالد):

- من أين أتى الصوت؟

وبخلاف سؤاله، لم يكن هناك صوت آخر يتردد في المكان..

لقد انطلقت الصرخة وتلاشت، مخلفة سكونًا أكثر رهبة، وأكثر إثارة للخوف..

وأدار الجميع عيونهم في المكان في توتر، ثم هتف (خالد):

- (لورا).. أين (لورا)؟

لم يكد هتافه يتلاشى، حتى ظهرت (لورا) أمام خيمتها، وهي ترتجف، وهمست:

- (خالد).. إنني خائفة يا (خالد).

اتجه إليها (خالد).. ووقف أمامها قائلًا:

- اطمئني.

ولكنها ألقت رأسها على صدره بحركة مباغتة، وأحاطته بذراعيها مكررة:

- إنني خائفة.. خائفة جدًا.

ظهر الحرج على وجه سيدي، وتعلقت به كل الأنظار، ورأيت أنا شياطين الغيرة تطل واضحة، من عين (سمبسون) و(بيل)،

وتوجست من ذلك خيفة، ولكن أحد العمال بدد هذا الجو المتوتر بغتة، عندما هتف:

- أين (عويضة)؟

انتبهنا جميعًا -في هذه اللحظة فقط- إلى اختفاء الحارس، فأزاح (خالد) ذراعي (لورا) من حول وسطه في رفق، واندفع إلى حيث كان (عويضة) يجلس، ولم يكد يبلغ موضعه، حتى انطلقت من صدره شهقة، وتراجع إلى الخلف في حدة، وكان في هذا ما يكفي لنهرع كلنا إليه، وعندما بلغنا موضعه، ورأيناه ما رآه، كادت تلك الشهقة تنطلق من حناجرنا جميعًا..

فهناك.. كانت بندقية (عويضة) تستقر على الأرض، وإلى جوارها جلباب هذا الأخير، وفوق الجلباب كومة..

كومة من الرماد..

☆ ☆ ☆

لم يشهد معسكرنا رعبًا، كالذي شهده تلك الليلة، ونحن نبحث عن (عويضة) في كل مكان، دون جدوى، وبعدها جلس الرجال الثلاثة مع (لورا)، في خيمة سيدي (خالد)، التي تركها للمرأة، وبدأ (خالد) الحديث بقوله:

- أظن هذا يتفق ما كل ما قرأناه، على المقبرة.. إنني أذكره بالحرف الواحد:

«عندما تفيض الروح عبر الرماد، يستيقظ طائر النار من رماده، ويبدأ العذاب من النار إلى النار.. في كل يوم عذاب جديد، ورماد جديد..»

هتفت (لورا):

- لا تكمل يا (خالد).. أرجوك.. هذا يفزعني.

ربت على كتفها في حنان، فالتقطت كفه بأناملها، وضغطتها في حب واضح، أعاد نظرة الغيرة إلى عيني (سمبسون) و(بيل)، قبل أن يسحب (خالد) كفه من بين أصابعها، ويتنحنح في حرج، مكملًا:

- دعونا نفسر هذا أيها السادة.. واسمحوا لي بوضع تفسير خاص، يتفق مع الأحداث، فالأساطير القديمة تحدثت عن (العنقاء)، ذلك الطائر الناري الخرافي، الذي ينبت من رماده، ولكنها لم تذكر أبدًا كيف يستيقظ طائر النار من رماده، فقد يضع أمامنا هذا تفسيرًا واضحًا، ألا وهو أن (العنقاء) تحتاج إلى روح تُهدر أمامها، لتنهض من رمادها.

هتفت (لورا):

- (خالد).. هذا رهيب!! رهيب!!

منحها ابتسامة حانية، ثم عاد يواصل في صلابة:

- وفي الليلة السابقة تحقق الشرط، عندما قتل العامل زميله داخل المقبرة، وسقط رماد (العنقاء) فوق جثته.. عندئذ عبرت روحه رمادها، فنهضت من رقادها الطويل، فالتهمته، ثم حولته إلى رماد بدوره، وهذا يفسر اختفاء رمادها، ووجود ذلك الرماد بدلًا منه.

سأله (بيل) في توتر:

- وأين ذهبت ثيابه؟

التفت إليه (خالد) وأضاف:

- أنسيت قول العامل الآخر، في أن ذلك الطائر، الذي خرج من المقبرة، كان يحمل في مخلبيه شيئًا ما؟.. لا ريب أن (العنقاء) قد حملت ثياب العامل، وهي تظنها طعامًا، يكفي لإشباعها، بعد قرون من النوم، ولكنها لم تلبث أن أدركت عدم جدواها، فتخلصت منها، وبدأت تبحث عن غذائها الحقيقي.

صمت لحظة، ثم أضاف في حزم:

- البشر.

أطلقت (لورا) شهقة رعب، وغمغم (سمبسون):

- يا إلهي!

أما (بيل)، فقد اندفع يقول:

- أتعني أن ذلك الرماد، الذي عثرنا عليه الليلة هو....؟

قاطعه (خالد):

- نعم يا (بيل).. إنه كل ما تبقى من جسد (عويضة).. هذا هو ما تقول الكلمات داخل المقبرة: «في كل يوم عذاب جديد، ورماد جديد».. هذا يعني أن (العنقاء) تحتاج إلى ضحية جديدة في كل يوم.. ربما لتبقى هي حية، وهذه الضحية تتحول بدورها إلى رماد.. وهكذا.

ران صمت رهيب داخل الخيمة، بعد أن انتهى (خالد) من كلماته الأخيرة، ثم قطع (سمبسون) هذا الصمت، وهو يقول في غلظة:

- هراء.

ثم انتزع مسدسه من جرابه، وأضاف في حدة:

- فلتأتِ هذه (العنقاء) إلى هنا، حتى لو كانت أضخم من (الرخ) نفسه، ولكنها لن تمنعني من استكمال فحص هذه المقبرة، وتسجيل عثورنا عليها، وأقسم لو ظهرت في معسكرنا مرة أخرى، لأضعنها في قفص من الخشب، لأسخر منها كل صباح ومساء.

قالها واندفع مغادرًا المكان كعادته، ولم يشيعه أحدنا بحرف واحد، إذ كنا نعلم جميعًا أن أمامنا أيامًا لن ننساها.

أيامًا من الرعب.

☆ ☆ ☆

6- ليلة الرعب..

مضى اليوم الثاني عسيرًا على كل الأطراف، فقد رفض العمال الثلاثة الباقون العمل، وحاول سيدي (خالد) وزميلاه إقناعهم بمختلف الوسائل، إلى أن هدد (سمبسون) بإطلاق النار على من يحاول الفرار منهم، فرفع أحدهم بندقيته في وجه الإنجليزي، وكادت تحدث مجزرة، لولا أن تدخل (خالد) في الأمر، وأعاد الهدوء إلى الموقف بكلماته الرصينة، وأسلوبه الهادئ، عاونه على هذا حب العمال له، ودماثة خلقه المعهودة..

وعاد العمال إلى العمل، في جو من التوتر، لم أشهد له مثيلًا من قبل، وليت الأمر اقتصر على هذا، فقد انضمت (لورا) إلى فريق الرجال، وراحت تغمر (خالد) بابتسامتها وعطفها، ولمساتها الحانية، مما ملأ قلبيْ زميليه بالغيرة والحقد، اللذين دفعا (سمبسون) إلى أن يهتف فجأة:

- كفى.. إننا في موقع عمل، ولسنا في ملهى ليلي.

عقد (خالد) حاجبيه في غضب، وهو يقول:

- ماذا تعني بقولك هذا؟

لوح (سمبسون) بذراعه كلها، هاتفًا:

- لست أريد تلك المرأة العابثة هنا، فلتقبع في خيمتها.

هب (خالد) في صرامة، وهو يقول:

- لست أسمح لك بأن تصفها بالمرأة العابثة.

صاح (سمبسون).

- سأنعتها بما يحلو لي أيها المصري.

ضم (خالد) قبضته، وهو يقول في غضب:

- سأمنعك بالقوة.

اشتبكا فجأة في مشاجرة بالقبضات العارية، فاندفعت أنا و(بيل) نحاول منعهما، و(سمبسون) يواصل صراخه.

- لا أريدها هنا.

أسرعت (لورا) إلى (خالد)، وتحسست في ذعر خيط الدم، الذي سال من طرف شفتيه، وهتفت:

- (خالد).. أنت مصاب.

مسح خيط الدم بأصابعه، وهو يقول:

- إنها إصابة بسيطة.

تجاهلت (سمبسون) و(بيل) تمامًا، وهي تتحسس وجهه في حنان، قائلة:

- لا.. إنها تحتاج إلى عناية طبية.. هيا.. سنعود إلى الخيمة لإسعافك.

حاول أن يعترض، إلا أنه لم يملك سوى الاستسلام إزاء إصرارها، فسار معها إلى الخيمة، في حين زمجر (سمبسون) قائلًا:

- هذه المرأة هي اللعنة الحقيقية للمكان.. ستحطم بعثتنا كلها.

لم أشأ الاستماع إلى المزيد، فأسرعت أغادر المكان، متجهًا إلى خيمة سيدي، وقبل أن ألجها، سمعت (خالد) يقول في حنان:

- (لورا).. صحيح أنني لم ألتق بك إلا منذ يومين، إلا أنني أشعر وكأننا يعرف بعضنا البعض من سنوات.

رأيتها ترفع وجهها إليه، وتهمس في حب:

- بل قل منذ قرون.

وضع كفيه على كتفيها، وهو يقول:

- (لورا).. أنا أحبك.

ابتهج قلبي، عندما أجابته:

- وأنا أيضًا أحبك (خالد).. أحبك أكثر مما تتصور.

لمحته يدني شفتيه من شفتيها، وكدت أبتعد خجلًا، إلا أنها أبعدت شفتيها عن وجهه في حركة حادة، وهي تقول:

- لا يا (خالد).. لا..

تراجع في دهشة، ثم سألها في حنان:

- معذرة.. نسيت أن تقاليدنا تمنعني من هذا، قبل زواجنا.. لقد أسكرتني فتنتك، فنسيت هذا.

ثم أضاف، وهو يضم كفها إلى صدره:

- أتقبلين الزواج مني يا (لورا)؟

قاومت دموعها في شدة، وهي تقول:

- ليس الآن يا (خالد).. ليس الآن.

سألها وقد صدمه جوابها:

- لماذا يا (لورا)؟

أشاحت بوجهها عنه، وأخفته بين راحتيها، وبدا صوتها منتحبًا، وهي تقول:

- انصرف يا (خالد).. انصرف أرجوك.. انصرف قبل أن أبكي.

نهض حائرًا، وغادر الخيمة في حزن، ولم يكد يلتقي بي خارجها، حتى سألني:

- هل استمعت إلى حديثنا؟

شحب وجهي، وارتجفت أطرافي، وأنا أقول:

- لم أكن أقصد هذا يا سيدي.. أقسم لك أن...

لم يبال باعتذاري، وإنما سألني في حيرة:

- لماذا رفضت زواجي منها؟

ترددت لحظة، ثم أجبته:

- لنفس السبب، الذي رفضت من أجله قبلتك يا سيدي، فصحيح أن عقيدتنا تمنعك من تقبيل امرأة غير زوجتك، ولكن تقاليدها الأمريكية لا تحمل المنطق نفسه، لذا فهناك تفسير آخر لما فعلت.

سألني في لهفة:

- ما هو؟

أجبته في سرعة هذه المرة:

- أنها متزوجة بالفعل يا سيدي.

اتسعت عيناه في هلع، وانقلبت ملامحه على نحو خفيف، جعلني أندم على نطقي الكلمة، ثم لم يلبث أن غمغم في مرارة:

- متزوجة؟!

حاولت أن أخفف عنه وقع الصدمة، إلا أنه رفع كفه في وجهي، قائلًا في حزن:

- اتركني يا (عثمان).. ارتكني وحدي.

وقفت في مكاني نادمًا حزينًا، أراقبه يرحل إلى خيمته، ويختفي داخلها..

ولقد قضى نهاره كله لا يفارق خيمته..

وهي أيضًا لم تفارق خيمتها.

وكان من الواضح أن كل منهما يعاني عذابًا لا قبل له به، حتى أنهما لم يتناولا طعام الغداء مع البريطانيَيْن، اللذَيْن تناولاه في صمت، ثم انزوى كل منهما داخل حجرته، وبقي العمال يتهامسون في حذر وتوتر، مما أقلقني، فقررت أن أراقبهم بكل الحذر والتحفز، خشية إقدامهم على عمل أحمق، يفسد كل شيء...

ومع حلول الليل، خيم على المكان خوف مبهم، حتى أن أحدًا لم يقبل القيام بدور الحراسة، فانتزع (سمبسون) مسدسه، وقال في غضب:

- حسنًا أيها الجبناء.. سأحرس أنا المكان هذه الليلة، وسأثبت لكم ضعف عقولكم.

بدا الضيق على وجه (خالد)، فقال في هدوء:

- سنتبادل الحراسة معًا و...

قاطعه (سمبسون) في حدة:

- قلت إنني سأحرس المكان وحدي.

خشي (خالد) أن يشعل الموقف بينه وبين (سمبسون) مرة أخرى، فقال في ضيق:

- كما يحلو لك.

وعاد إلى خيمته، فلحقت به لأعد له فراشه، ولم تمض ساعات، حتى رحنا معًا في سبات عميق..

وفجأة انطلقت تلك الصيحة الرهيبة..

صرخة طائر، تمتزج بخفقان أجنحة ضخمة..

وقفزت من فراشي، وكذلك فعل سيدي (خالد)، وهتف في خوف، وهو يندفع خارج الخيمة:

- (لورا)..

ولكننا لم نكد نغادر الليلة، حتى أدركنا على الفور من كان ضحية (العنقاء) هذه الليلة..

كان (سمبسون)..

ثيابه كانت ملقاة أرضًا وكذلك سلاحه، وفوقهما كومة الرماد، التي بقيت منه..

وأطلقت (لورا) صرخة فزع، في حين هتف أحد العمال الثلاثة في رعب:

- سنرحل.. سنرحل.

اندفع مع زميليه نحو السيارة، التي أتت بنا جميعًا إلى هذا الموقع، فصاح بهم (خالد):

- اهدأوا.. لا داعي للفزع.

ولكن أحدًا منهم لم يستمع إليه، بل قفز ثلاثتهم داخل السيارة، وأدار أحدهم محركها، و(بيل) يصرخ:

- امنعهم يا (خالد).. إنهم سيرحلون بكل المؤن وجهاز اللاسلكي.

ثم رفع مسدسه نحو السيارة، وراح يطلق رصاصاته في ثورة..

وأطلق أحد العمال الثلاثة صرخة ألم، عندما اخترقت رصاصة (بيل) مؤخره رأسه، وسقط جثة هامدة، في حين انطلق العاملان الآخران بالسيارة، و(خالد) يهتف بـ(بيل):

- لا تطلق النار.. لقد أصبت خزان الوقود.

لم يكد يتم عبارته حتى دوى الانفجار..

انفجر خزان وقود السيارة، وانفجرت معه السيارة كلها، لتطيح بجهاز اللاسلكي، والمؤن، وكل شيء..

وأطلقت (لورا) صرخة رعب هائلة، عندما رأت النيران تندلع من السيارة، وتعلقت بعنق (خالد)، فربت عليها في رفق، وهو يقول في مرارة:

- لقد أضعت كل شيء يا (بيل).. كل شيء.

صاح به (بيل):

- ماذا كنت تنتظر مني أن أفعل؟.. أن أتركهم يرحلون بكل شيء.

هتف (خالد) في مرارة:

- وما الفارق؟

ثم التفت إلى (لورا)، وهاله ذلك الشحوب الهائل، الذي انتابها، فسألها في جزع:

- هل أصابك شيء؟

كانت تلهث في أعياء، وهي تجيبه:

- لا.. لا شيء.

بدت لي كمن لم يتناول طعامًا منذ شهر كامل، فغمغمت:

- أظن السيدة بحاجة إلى الراحة.

نطقتها بالعربية، وعلى الرغم من هذا فقد أومأت (لورا) برأسه إيجابًا، وكأنها فهمت ما أقول، وقالت:

- سأعود إلى خيمتي.

اتجهت إلى خيمتها مترنحة، وغابت داخلها، فغمغم (خالد):

- يا لها من ليلة!

كاد (بيل) يبكي، وهو يقول:

- لقد فقدنا فيها (سمبسون)، والعمال، والسيارة، وكل شيء.

قال (خالد) في حزم:

لا تقلق.. ستصل قافلة أخرى إلى هنا بعد غد، عندما يفتقدون تلك الإشارات اللاسلكية، التي اعتدنا إرسالها كل صباح، ولدينا من المؤن في خيمتي ما يضمن لنا البقاء، حتى ذلك الحين.

تمتم (بيل):

- أتعشم هذا.

ران علينا الصمت لحظات، ثم قال (بيل):

سأذهب إلى خيمتي، فلقد التهمت (العنقاء) في هذه الليلة من الضحايا ما يكفيها.

اتجه إلى خيمته بخطوات بطيئة، فقلت لسيدي:

- يمكنك الذهاب إلى خيمتك يا سيدي، فسأتولى أنا الحراسة.

هز رأسه نفيًا، وقال:

- لن يحتاج الأمر إلى حراسة يا (عثمان)، فكما قال (بيل): لقد التهمت (العنقاء) ما يكفيها هذه الليلة.

عدنا معًا إلى الخيمة، واستلقى كل منا في فراشه، وخيل إليّ أن سيدي لن ينعم بالنوم، بعد كل هذا، ولكن يبدو أن ما بذله من جهد وانفعالات كان يفوق قدرته على الاحتمال، إذ لم يلبث أن غرق في سبات عميق، في حين عجزت أنا عن النوم، فخرجت من الخيمة، وجلست أتطلع إلى القمر والنجوم، وسط ظلام ساد المكان، بعد أن انطفأت نيران المعسكر..

وفجأة لمحتها..

كانت (لورا) تسلل من خيمتها إلى الخيمة المجاورة..

خيمة (بيل).

☆ ☆ ☆

7- الرماد..

شعرت بضيق بالغ، عندما رأيت (لورا) تسلل إلى خيمة (بيل)، وأحزنني أن تقابل حب سيدي بهذا الجحود، فتسللت بدوري إلى الخيمة، وسمعتها تقول في دلال:

- هل يدهشك قدومي إلى خيمتك؟

أجابها (بيل) في حماس:

- بل يسعدني هذا كثيرًا يا فاتنتي.

أطلقت ضحكة عابثة، وقالت:

- سمعتك تقول إن لديك زجاجة من النبيذ المعتق.. أما زلت تحتفظ بها؟

هتف في حماس:

- هي رهن إشارتك يا أميرتي.

قالت في دلال:

- هيا بنا إذن.. سنحملها مع كأسين إلى تل قريب، ونحتسيها في ضوء القمر.

سمعته يهتف:

- سمعًا وطاعة يا مولاتي.

غص حلقي في مرارة، واختبأت خلف الخيمة، وشاهدتهما يغادرانها حاملَيْن زجاجة الخمر والكأسين، وشعر (لورا) الناري يتراقص خلفها، مع هبات الرياح الهادئة، حتى اختفيا خلف تل قريب، فلحقت بهما على أطراف أصابعي، ورأيت (بيل) يملأ أحد

الكأسين، ويقدمها إلى (لورا)، التي بدت شديدة الشحوب، على نحو عجيب، إلا أنها التقطت الكأس من يده، ووضعتها جانبًا، وهي تقول:

- دعني أسكرك أنا أولًا.

ثم أحاطت عنقه بذراعيها، وانحنت تلصق شفتيه بشفتيها..

وفجأة وجدت جسد (بيل) يرتجف، ثم ارتسمت في عينيه نظرة رعب هائلة، وحاول أن يدفع (لورا) بعيدًا عنه، إلا أنها ألصقت شفتيها بشفتيه في قوة أكثر..

وأمام عيني الذاهلتين، المذعورتين، استحال جسد (بيل) إلى لسان من اللهب..

لهب أزرق عجيب، التهم جسده كله في لحظة واحدة، وأحاله إلى كومة من الرماد، استقرت فوق ثيابه، التي سقطت أرضًا، سليمة، وكأنما لا تحرق تلك النيران سوى الأجساد الحية فحسب..

وتجمدت صرخة، رعب في حلقي، وأنا أحدق في وجه (لورا)، التي تلاشى شحوبها، وعاد إليها تورد وجهها، وكأنما تمتص حيويتها من أرواح الآخرين..

وفجأة رفعت (لورا) رأسها إلى أعلى، وهزت ذراعيها كجناحي طائر، وهي تطلق تلك الصرخة الرهيبة..

والعجيب أن حركة ذراعيها الخفيفة أصدرت صوتًا أشبه بخفقان أجنحة طائر ضخم، مما أطلق تلك الصرخة الحبيسة في حلقي، فانطلقت من بين شفتي هائلة مدوية، تموج بالرعب والفزع والخوف..

وأدارت (لورا) عينيها إليّ في غضب، وبدا لي شعرها الأحمر كسيل من الحمم، يسيل من البركان المتقد في عينيها، فلم أحتمل أكثر من هذا، ووجدت نفسي أعدو في رعب لا مثيل له، مبتعدًا عن التل، والمعسكر كله..

ولم أدر كم ظللت أركض مبتعدًا، وأنا أصرخ في رعب، ولكنني انتبهت فجأة إلى أن الشمس قد أشرقت، وإلى أن حرارتها تلهب جسدي، فتوقفت عن الجري، وتلفت حولي في رعب، ثم لم ألبث أن هويت فاقد الوعي..

☆ ☆ ☆

لم أدر كم مر بي من وقت، منذ فقدت الوعي، ولكنه كان وقتًا طويلًا للغاية بالتأكيد، إذ استعدت وعيي لأجد الظلام محيطًا بي، والقمر يرتفع إلى كبد السماء..

وهنا انتبهت إلى ما غاب عن ذهني، مع خوفي وفراري..

لقد تركت سيدي وحده هناك..

معها..

مع (العنقاء)..

يا إلهي!... من يصدق أن كل تلك الفتنة، تحمل كل هذا الشر؟

بدا لي أنني خائن حقير، انطلق ينجو بنفسه فور شعوره بالخطر، تاركًا سيده وولى نعمته مع شيطانة خرافية، ستسعى حتمًا لسلبه الروح، حتى تستعيد حيويتها وتحيا..

وتغلب هذا الخاطر على خوفي، فعدت أدراجي مسرعًا إلى المعسكر، ورحت أحث الخطا حتى أبلغه، قبل أن تلتهم (العنقاء) سيدي (خالد)، ولكنني لم أكد أبلغ المعسكر، حتى وجدتها بين ذراعيه، يتطلع إلى وجهها في شفقة، ويسألها:

- ماذا أصابك يا حبيبتي؟.. الشحوب يكاد يقتلك.. ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟

رأيتها تتطلع إلى عينيه في حب بالغ، وهي تقول:

- اتركني يا (خالد).. اتركني وارحل.. أرجوك..

مسح شعرها الناري بكفه في حنان، وقال:

- كيف تطلبين مني هذا يا حبيبتي؟.. كيف تطلبين من رجل أن ينتزع قلبه، ويتركه في قلب الصحراء، ثم يرحل دونه؟

أشاحت بوجهها عنه، وهي تقول:

- أرجوك يا (خالد).. ارحل قبل فوات الأوان.

أمسك ذقنها في حنان، وأدار وجهها إليه، وقال:

- معذرة يا حبيبتي.. سأخالف مطلبك هذه المرة، وسأخالف حتى نداء عقلي، وأترك العنان لعواطفي.

لم أدر لم ظللت ساكنًا، وأنا أراقب هذا، ولكنني لم أكد ألمحه يقترب بشفتيه من شفتيها، حتى قفزت واقفًا، وهممت بالصراخ محذرًا، لولا أن أشاحت (لورا) بوجهها عنه، وقالت في ألم:

- لا يا (خالد).. لا تقبلني.. أرجوك.

أدهشني موقفها، وهي التي تحتاج إلى هذه القبلة أشد الاحتياج؛ لتحيا، ووجدت نفسي أجلس في بطء، وأعاود الاختفاء في مكمني، وهي تتملص من ذراعيه وتقف مترنحة، ثم تقول:

- إنك لا تعرف من أنا يا (خالد).

أجابها في حب.

- كل ما أعرفه هو أنك (لورا)، وأنني أحبك.

هتفت في مرارة:

- لست (لورا).. لست حتى ككل من عرفتهم من بشر.. حاول أن تفهمني.

ولأول مرة منذ رأيناها، انهمرت الدموع من عينيها..

وعندئذ فقط أدركت لماذا لم تبك من قبل..

ولماذا طلبت من (خالد) يومًا مغادرتها، قبل أن تبكي..

لم تكن تلك الدموع، المنهمرة من عينيها دموعًا عادية..

كانت قطرات من اللهب، تساقطت من عينيها، واشتعلت بين قدميها..

وكان المشهد رهيبًا، حتى أن (خالد) حدق فيه في ذهول، ثم رفع عينيه إلى وجه (لورا)، التي قالت مع دموعها:

- هل رأيت هذا؟.. هل أدركت من أنا؟.. نعم يا (خالد).. إنني لست (لورا).. لم أحمل هذا الاسم من قبل، وإن حملت مئات الأسماء، عبر عشرات القرون والأجيال.. إنني حتى لم أعد أدري كم مرة تقمصت فيها هيئة البشر.. إنني أنا من تطلق عليها اسم (العنقاء) يا (خالد).

اتسعت عيناه ذهولًا، ولكنه لم ينبس ببنت شفة، وهي تتابع:

- كل ما استنتجه عني صحيح، فلقد بقي رمادي داخل تلك المقبرة، منذ ثلاثين قرنًا، عندما هزمني (خان – حر)، وصنع لي تلك المقبرة، لأبقى فيها حتى نهاية الزمان لولا أن عثرتم عليها وكان من الممكن، على الرغم من هذا أن يبقى رمادي ساكنًا، إلا أن مصرع العامل أيقظ الشر الكامن في رمادي، فعدت إلى الحياة، على هيئة طائر، وحملت معي جلباب العامل الصريع، ومزقته

بعض الشيء، ليبدو باليًا قديمًا، ثم عدت به إليكم، فأنقذتموني، وصدقتم قصتي.. وكنت أتمنى أن أبقى معكم، ولكنها اللعنة.

تمتم لأول مرة، في صوت متحشرج مختنق:

- أية لعنة؟

أجابته ودموعها النارية ما زالت تتساقط من عينيها:

- إن حياتي ترتبط بانتزاع حياة الآخرين.. لا شأن لي بأرواحهم بالطبع، فلا سيطرة لمخلوق عليها، ولكنني أمتص كل قطرة ماء في أجسادهم، فلا يبقي من الأجساد سوى كومة رماد، هي كل ما يمكن أن يبقى من أي كائن حتى، لو انتزعت منه كل ما به من ماء، ولابد لي من انتزاع ماء جسم كامل في كل ليلة، وإلا قضيت نحبي.. هذه هي لعنتي.

رأيته يتطلع إليها في إشفاق أدهشني، وهي تتابع:

- ولكن انفعالات الليلة الماضية أفقدني الكثير من الماء، وخاصة عندما اشتعلت العربة، فالنيران هي أعدى أعدائي، حيث تنتزع ماء جسدي كله في لحظات، مما اضطرني إلى قتل (سمبسون) و(بيل) معًا، لأحصل على قدرٍ كافٍ من الماء.

والتفتت إليه في حزن، وهي تقول:

- والليلة لم يبق سوانا.. أنت وأنا.. وهذا يعني أن أحدنا فقط سيحيا، أما الآخر فلابد أن يموت.

وانهمرت الدموع من عينيها أكثر، وهي ترنو إليه بكل حبها، قائلة:

- ولقد اخترت أن تحيا أنت.

نهض من مكانه، واتجه إليها في حزم، وهي تضيف:

- لقد أحببتك يا (خالد).. عبر كل القرون التي عشتها لم أحب سواك، ومن أجلك سأفعل ما لم أفعله من قبل أبدًا.. في كل الأجيال.. سأهبك حياتي يا (خالد):

- أمسك (خالد) كتفيها في حنان، على الرغم من كل ما رآه وسمعه، وقال في حب أدهشتني:

- (حبيبتي).. لو أن حياتك رهن بحياتي، فأنا أمنحك إياها عن طيب خاطر.

دفعته عنها، وتراجعت هاتفة:

- لا يا (خالد).. لا.. اتركني أرحل هذه المرة، فحياتي كتلة من العذاب، يهددها الموت في كل ليلة، والراحة الوحيدة التي أجدها هي عندما أعود إلى الرماد.

خيل إليّ أن النيران المتساقطة من عينيها قد صنعت حول قدميها دائرة من اللهب، راحت تصعد إلى جسدها، وهي تقول:

- وداعًا يا (خالد).. وداعًا يا من أحببت، عبر كل القرون.

هتف بها (خالد).

- لا يا (لورا).. انتظري.. سنجد الحل حتمًا..

ولكنها تحولت فجأة إلى لسان من اللهب، أضاء المكان كله لحظات، ثم خبا بغتة، وترك مكانه كومة من الرماد..

وكان رمادًا يختلف بالفعل، فهو رمادها..

رماد ناري كالجمر..

رماد (العنقاء).

☆ ☆ ☆

8- الختام..

نفث قائد بعثة الإنقاذ دخان سيجارته العاشرة، وهو يتطلع إلى (عثمان) في صمت، بعد أن انتهى هذا الأخير من روايته، ثم سأله في بطء:

- أأنت واثق من أن قصتك هذه ليست وليدة الإصابة بضربة شمس يا فتى؟

غمغم (عثمان):

- هل تبدو لك كذلك؟

هز الرجل كتفيه، ومط شفتيه، قائلًا:

- إنها متقنة على أية حال.

ثم سحب نفسًا جديدًا من سيجارته، وسأله:

- ماذا فعل (خالد) بعد أن عادت (العنقاء) إلى الرماد؟

أجابه (عثمان) في حزن:

- لم أر لحظتها مخلوقًا أكثر حزنًا وأسى منه، عندما هبطت إليه، ولقد حمل رمادها في حرص، وعاد به إلى المقبرة، فأودعه القنينة النحاسية، ورفعها فوق العمود الحجري، ثم طلب مني معاونته في إخفاء المقبرة تحت الرمال مرة أخرى..

سأله الرجل في اهتمام:

- وهل فعلت؟

أومأ (عثمان) برأسه إيجابًا، وقال:

- ما كنت لأرفض لسيدي مطلبًا.

مط الرجل شفتيه مرة أخرى، وقال:

- يا للخسارة!

وهنا تابع (عثمان) في أسف:

- لقد عملنا طيلة النهار، حتى أخفيناها تحت الرمال، ثم قمنا بحل الخيام، وحملت أنا خيمة واحدة على ظهري، في حين ألقينا الباقين بعيدًا، خشية أن يتعرف أحد موضع المقبرة منها، وبعدها أخرج سيدي تلك البردية، التي عرف منها موضع المقبرة، وأحرقها وهو يبكي، ثم أخذنا نسير، في محاولة للعودة إلى (وادي الملوك)، ولكن يبدو أننا ضللنا الطريق.

سأله الرجل في اهتمام:

- وأين سيدك؟.. ماذا أصابه؟

أجابه (عثمان):

- لم يتناول طعامًا، طوال اليومين اللذين قطعناهما سيرًا، حتى سقط متهالكًا، فنصبت الخيمة، وأرقدته تحتها، وتركت معه زمزميتين ممتلئتين، وحملت أنا ثالثة، وانطلقت باحثًا عن النجدة.

سأله الرجل في اهتمام:

- ومتى فعلت هذا؟

أجابه (عثمان):

- قبل عثوركم على بساعة واحدة.

أومأ الرجل برأسه، وقال:

- هذا حسن.. لقد أرسلت الرجال لتفتيش المنطقة، وسيعثرون على سيدك حتمًا.

ارتفع في تلك اللحظة أزيز جهاز اللاسلكي، فاستدار الرجل إليه، واستمع إلى محدثه لحظات، عبر المسماع الصغير، ثم التفت إلى (عثمان)، قائلًا:

- لقد عثروا على سيدك، وهو بخير، وسيسعفونه على الفور.

تهللت أسارير (عثمان)، وأغمض عينيه قائلًا:

- حمدًا لله.. حمدًا لله.

ثم عاد يرفع عينيه إلى الرجل، قائلًا:

- معذرة يا سيدي، كنت أتمنى لو أنك احتفظت بكل ما سمعته مني سرًا، فلن يغفر لي سيدي أن قصصت عليك القصة.

تطلع إليه الرجل، وهو ينفث دخان سيجارته، ثم ابتسم ابتسامة باهتة، وقال:

- اطمئن يا (عثمان)، فلن أخبر مخلوقًا واحدًا بهذه القصة، حتى لا يتهمونني بالجنون، ولتبقى (العنقاء) أسطورة.

ثم هز كتفيه، وشرد ببصره مستطردًا:

مجرد أسطورة.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- التـائه..

2- المقبرة..

3- اللعنة..

4- امرأة..

5- أيام الخوف..

6- ليلة الرعب..

7- الرماد..

8- الختام..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

لعبة الجواسيس كاملة

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

الزائر الغامض
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000
لعبة الجواسيس

1- تحذير..

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، على العاصمة الفرنسية (باريس)، عندما عبرت على مقربة من برج (إيفل) العملاق سيارة حمراء، فرنسية الصنع، بسرعة كبيرة، جعلتها تعبر منطقة البرج في ثوان معدودة، ثم تواصل طريقها منحرفة بنفس سرعتها، مما جعل إطاراتها تطلق صريرًا مخيفًا، تلاشى بسرعة في سكون الفجر، قبل أن يخفف قائد السيارة من سرعتها، ويجتاز بها طريقًا جانبيًا، إلى مبنى عتيق الطراز، من طابقين، أوقف السيارة أمام بابه، وغادرها بملامح حادة، وأنف معقوق، التقى في أعلاه حاجبان كثان، على نحو بدا وكأنه جزء من قسمات الرجل الطبيعية، أو تعويض عن رأسه الأصلع، الذي يحاول عبثًا إخفاءه بخصلات طويلة من الشعر، بدت أشبه بأغصان جافة، فوق صحراء جرداء لامعة..

وفي توتر ملحوظ، دق الرجل باب المنزل بقبضته، وهو يغمغم بكلمات غير مسموعة، ثم راح يفرك كفيه داخل القفازين في عصبية، حتى فتح الباب رجل ضخم الجثة، يوحي تورم عينيه بأن الطرقات قد أيقظته من نوم عميق، وسأل قائد السيارة في غلظة:

- ماذا هناك؟

أزاحه قائد السيارة عن طريقه، وهو يسرع إلى الداخل، قائلًا:

- هل استيقظ (كاهان)؟

قال الضخم بلهجته الغليظة:

- ليس بعد.. إنها لم تبلغ السادسة، و..

قاطعه قائد السيارة في حزم:

- أيقظه إذن.

عقد الضخم حاجبيه، وقال:

- لن يروق له ذلك، فهو يكره أن...

قاطعه قائد السيارة في غضب:

- فليتقدم بشكوى إلى الرؤساء لو أراد، المهم أن يستيقظ الآن، فأنا أحمل إليه رسالة هامة وعاجلة، من (تل أبيب) مباشرة.

بدا الاهتمام على وجه الضخم، وقال في سرعة:

- سأوقظه.

واندفع يصعد في درجات السلم إلى الطابق الثاني، في حين اتجه الأصلع إلى بار صغير، يحتل جانبًا من الطابق السفلي، والتقط منه زجاجة من الخمر، وكأسا من البلور، وصب قليلًا من الخمر في الكأس، ثم جرعه دفعة واحدة، على نحو جعل وجهه يحتقن بالدماء، في نفس اللحظة التي ارتفع فيها من خلفه صوت صارم، يقول:

- منذ متى تهوى احتساء الخمر في الفجر يا (إيزاك)؟

التفت الأصلع في حركة حادة إلى مصدر الصوت، ودفع بصره على رجل نحيف، يرتدي معطفًا منزليًا، ويمتلك أنفًا أطول مما ينبغي، ملامح صارمة، فسعل الأصلع في توتر، وقال:

- نادرًا ما أفعل هذا يا (كاهان)، ولكنه الانفعال.

ظل (كاهان) يتطلع إليه بنظرة حادة، وهو يهبط السلم، ثم لم يلبث أن اتخذ مقعدًا وثيرًا، في مواجهة (إيزاك)، الذي قال

محاولًا إخفاء ارتباكه:

- كيف استيقظت بهذه السرعة؟

قال (كاهان) في صرامة:

- لقد أيقظتني طرقاتك العنيفة على الباب.

لوح (إيزاك) بكفه، وقال:

- لقد أمروني بضرورة إبلاغك على الفور.

عقد (كاهان) حاجبيه في غضب، وقال:

- ولماذا لم يتصلوا بي مباشرة؟

أجابه (إيزاك) في ضجر:

- يشكّون في أن هاتفك مراقب.

ثم أضاف في سرعة، قبل أن يلقي عليه (كاهان) سؤالًا آخر، أو يعترض على نقطة ثانية.

- إنهم يحذروننا من أن المصريين قد أرسلوا خلفنا واحدًا من أخطر رجالهم.

تطلع إليه (كاهان) لحظة في شك، ثم سأله في بطء:

- ولماذا يفعلون هذا؟.. أقصد المصريين.. لماذا يرسلون أحد أخطر رجالهم؟

أجابه (إيزاك) في انفعال:

- لقد تدخلنا كثيرًا في أعمالهم، في الفترة الأخيرة، ويبدو أنهم وجدوا أن (باريس) لا يمكن أن تتسع لنا معًا، فقرروا إبعادنا عنها.

قال (كاهان) في صرامة:

- إنها لا تتسع للفريقين بالطبع.

ثم ابتسم في شراسة، مستطردًا:

- والفريق الأقوى سيبقى في الساحة.

تلاشت ابتسامته بأسرع مما وُلدت، وهو يسأل (إيزاك) في اهتمام بالغ:

- وما اسم ذلك المصري، القادم لتصفيتنا، والذي يعتبره المصريون واحدًا من أخطر رجالهم؟

تنهد (إيزاك)، وقال:

- هذه هي المشكلة.

هتف (كاهان) في حدة:

- أية مشكلة؟.. إننا نعلم أنه قادم.. أليس كذلك؟

أومأ (إيزاك) برأسه إيجابيًا، وقال:

- ليس هذا فحسب.. إننا نعلم أيضًا أنه سيصل إلى (باريس) على طائرة (مصر للطيران)، التي ستهبط في مطار (أورلي)، في الثامنة.. أي بعد ساعتين فحسب، ولكننا لا نعرف اسمه.

صاح (كاهان) في غضب:

- أي عبث هذا؟.. إن لنا عميلًا في جهاز الأمن المصري.. أليس كذلك؟

ازدرد (إيزاك) لعابه، وقال:

- إحم.. الواقع أنه لم يعد لدينا عميل هناك.

هب (كاهان) من مقعده، هاتفًا:

- ماذا تعني؟

بدا التوتر أكثر على وجه (إيزاك)، وهو يقول:

- لقد كشف المصريون أمره، منذ عدة ساعات، وألقوا القبض عليه، بعد أن أرسل جزءًا من رسالته الأخيرة، وقبل أن يكمل إرسال الاسم، الذي يسافر به رجل المخابرات المصري.

تراجع (كاهان) كالمصعوق، وهو يقول:

- كشفوا أمره؟!

تهاوى على مقعده صامتًا، زائغ البصر لحظات، ثم لم تلبث ملامحه أن استعادت صرامتها المعهودة، وهو يرفع عينيه إلى (إيزاك)، قائلًا في اهتمام مباغت:

- تقول: إنه لم يكمل إرسال الاسم، وهذا يعني أنه قد أرسل جزءًا من الاسم، فما هذا الجزء؟

تنحنح (إيزاك) في حرج، وغمغم:

- إنه حرف واحد في الواقع.

هتف (كاهان) مستنكرًا:

- حرف واحد؟!

ثم سيطر على أعصابه مرة أخرى في سرعة، وهو يستطرد:

- حسنًا.. حسنًا.. ما هذا الحرف؟

أجابه (إيزاك) في سرعة:

- حرف الراء.. الاسم الذي ينتحله رجل المخابرات المصري، يبدأ بحرف الراء.

ردد (كاهان) في حزم:

- حرف الراء.. هذا أفضل، فلو انتحل اسمًا يبدأ بحرف الميم، لعجزنا عن تعرفه، إذ أن نصف المصريين يحملون أسماء تبدأ بحرف الميم.

ثم اعتدل صائحًا:

- (إليعازر).

برز الضخم فجأة، كما لو كان يقف عند الباب، وقال بصوته الغليظ:

- في خدمتك يا سيدي.

أشار إليه (كاهان) في صرامة، وهو يقول بلهجة آمرة:

- اذهب على الفور إلى مطار (أورلي)، وانتظر الطائرة القادمة من (القاهرة)، في الثامنة، واحصل على قائمة بأسماء القادمين على متنها، وأرسل رجالك خلف كل مصري منهم، يحمل اسمًا يبدأ بحرف الراء.. هل تفهم؟

أومأ (إليعازر) برأسه إيجابًا، وقال في غلظة:

- أفهم يا سيدي.

وغادر المكان بنفس السرعة، التي جاء بها، في حين التفت (كاهان) إلى (إيزاك)، وقال في شراسة عجيبة:

- سترى الآن يا رجل.. سترى أن فريقنا هو الذي سيربح اللعبة في النهاية، وافتر ثغرة عن ابتسامة وحشية، قبل أن يضيف:

- لعبة الجواسيس.

☆ ☆ ☆

2- حرف الراء..

استرخت (ريم) في مقعدها الوثير، داخل طائرة (مصر للطيران)، التي اقتربت من (باريس)، والتي هبطت تحت مستوى السحب، التي ظلت تسبح فوقها طويلًا، وتنهدت في ارتياح، وقد أعاد إليها مشهد الأرض ذلك الشعور بالأمان، الذي يفارقها دائمًا في كل رحلاتها الطائرة، كلما أصبح المشهد الوحيد الذي تراه، من نافذة الطائرة، هو السحب الممتدة إلى ما لا نهاية، وكادت تسبل جفنيها في تراخ، لولا أن تنحنح الجالس إلى جوارها، وقال في حرج:

- معذرة.. ولكن هل يعني انخفاضنا عن مستوى السحب، أننا اقتربنا من (باريس)؟

التفتت تتطلع إلى جارها لأول مرة، منذ استقلت الطائرة، ولقد بدا لها مرتبكًا، متوترًا، فسألته في هدوء:

- أهي أول مرة؟

قال في حيرة:

- أول مرة ماذا؟

ابتسمت لسذاجته، وقالت:

- أول مرة تسافر فيها إلى (باريس).

التقط نفسًا عميقًا، وقال:

- بل أول مرة استقل فيها طائرة.

هتفت:

- حقًا!!

ثم لم تلبث أن انتبهت إلى أن هذا أمر طبيعي، بالنسبة لعدد كبير من المصريين، الذين لم يرتبطوا أبدًا بأحد عقود العمل الخارجية، فأسرعت تضيف في حرج:

- لن تلبث أن تعتاد ذلك.

غمغم على نحو يوحي بأن حديثها لم يضايقه:

- أتعشم ذلك.

ارتفع في تلك اللحظة صوت مضيفة الطائرة، تعلن وصول الطائرة إلى مطار (أورلي)، وتهنئ المسافرين على سلامة الوصول، طالبة منهم ربط أحزمتهم، والامتناع عن التدخين، فأمسك جار (ريم) حزام مقعده، وحاول أن يربطه في ارتباك، فابتسمت (ريم) مشفقة، وقالت:

- اضغط ذلك الطرف، وادخله في فجوة الطرف الآخر.

أطاع توجيهاتها في عصبية، ثم زفر في قوة، وقال:

- شكرًا.

تمتمت:

- لا عليك.

أغلق عينيه في قوة، وكأنما يخشى مواجهة لحظة هبوط الطائرة، راحت (ريم) تتأمله في اهتمام..

كان متوسط الطول، يميل إلى البدانة بعض الشيء، طفولي الملامح، أكرت الشعر، يوحي مظهره العام بانتمائه إلى واحدة من الطبقات الكادحة، على الرغم من الحلة الفاخرة التي يرتديها،

ورباط العنق الحريري الأنيق، الذي فشل في عقده على نحو مناسب، فبدأ أشبه بحبل يحيط بعنقه، ويتدلى من عقدة كبيرة.

وامتلأ نفسها بالخجل بغتة، لأنه فتح عينيه، وابتسم لها ابتسامة هادئة بسيطة، عندما وجدها تتأمله، فأسرعت تقول:

- ألا زلت تشعر بالخوف؟

أجابها مبتسمًا:

- إلى حد ما.

ثم سألها في اهتمام:

- هل سبق لك السفر إلى (باريس)؟

أجابته:

- نعم.. فأنا أعمل في شركة (مصرية – فرنسية)، وعملي يحتم السفر إلى (باريس) ثلاث مرات في العام على الأقل.

اعتدل وهو يسألها في لهفة:

- أيعني هذا أنك تتحدثين الفرنسية؟

ابتسمت وهو تقول:

- هذا صحيح.

تهللت أساريره، وقال:

- يا لحظي الحسن.. يمكنك معاونتي في الدائرة الجمركية إذن:

ضحكت قائلة:

- نعم.. يمكنني هذا.

تنهد في ارتياح، وعاد يسترخى في مقعده، قائلًا:

- كانت أمي علي حق.

قالت في دهشة:

- أمك.

أجابها في حماس:

- نعم.. لقد أكدت لي أن الله (سبحانه وتعالى) سيضع أولاد الحلال في طريقي، ما دمت أطيعها وأحسن معاملتها.

ابتسمت قائلة:

- لا ريب أنها على حق.

ثم حلت حزام مقعدها، وأضافت:

- هيا.. لقد هبطت الطائرة.

هتف في دهشة:

- حقًا؟؟ يا إلهي!.. لم أشعر بهبوطها.. هذا الطيار رائع بحق.

حاول حل حزام مقعده في عصبية، فانحنت هي تحله، وهي تقوم:

- ينبغي أن تعتاد هذا العمل البسيط، لو كنت تنوي السفر بالطائرة مرة أخرى.

نهض يحمل حقيبته الصغيرة، وهو يقول:

- هذا يتوقف على هذه الرحلة.

سألته في فضول، وهما يهبطان في سلم الطائرة:

- ما عملك بالضبط؟

أجابها في بساطة:

- تاجر أدوات تجميل.. لست رجل أعمال ثري، كما قد يتبادر إلى ذهنك، بل مجرد تاجر صغير، ورثت متجرًا في (الموسكي)، ولدي طموح كبير، في تحويله إلى شركة كبيرة لأدوات التجميل، وهذا الطموح هو الذي أتى بي إلى (باريس).

سألته في دهشة:

- وهل تنوي شراء أدوات تجميل من (باريس)؟

تهللت أسايره بابتسامة طفولية، وهو يقول:

- أليست فكرة رائعة؟

هتفت:

- بل فكرة حمقاء.

توقف مبهوتًا، على نحو أصابها بالحرج، فقالت مرتبكة:

- لم أقصد هذا الواقع، ولكن..

سألها في اهتمام قلق:

- ولكن لماذا تقولين إنها فكرة حمقاء؟

ارتبكت أكثر، وهي تقول:

- لم أقصد المعنى الحرفي، وإنما...

قاطعها مرة أخرى في لهفة.

- أعلم.. أعلم.. المهم هو لماذا بدت لك الفكرة غير مناسبة؟

أجابته في خجل:

- لأنني لا أبتاع أدوات التجميل الخاصة بي من هنا، فهي غالية الثمن في متاجر (باريس).. أغلى بكثير من أسعارها في مصر.

بدت خيبة الأمل على وجهه، وهو يقول:

- حقًا؟!

شعرت بالأسف، لأنها حطمت أحلامه وطموحه على هذا النحو، وحاولت التخفيف من وقع الصدمة على نفسه، فقالت:

- هذا رأيي كمستهلكة، ولكن ربما كانت هناك قواعد أخرى، بالنسبة للتعاملات التجارية، فقد سمعت من بعض أقاربي أنهم يمنحون تسهيلات جيدة للمستوردين، ولتصدير المنتجات الفرنسية، و...

بدت لها محاولتها سخيفة، كما بدا لو أن خيبة أمله تمنعه من الاستماع إليها، فقالت في أسف:

- معذرة.. لم أقصد تحطيم طموحك على هذا النحو.

تمتم في خفوت:

- لا عليك.

لاذ بالصمت التام بعدها، مما زاد من شعورها بالندم، حتى بلغا الدائرة الجمركية، فوضع حقيبته الصغيرة أمام مفتش الجمارك الفرنسي، الذي سأله بالفرنسية عما يحمله، ولكنه راح يحدق في وجهه في حيرة، محاولا فهم ما يقول المفتش، وهنا وجدت (ريم) أنها فرصتها لإصلاح الأمور، وهمت بترجمة حديث المفتش، لولا أن ارتفع من خلفها صوت هادئ، يقول بالعربية:

- إنه يسألك عما لديك.

التفت إليه التاجر في دهشة، ثم هتف:

- آه.. شكرًا لك.. إنني أحاول فهم ما يقول منذ فترة..

والتفت (ريم) بدورها إلى صاحب الصوت، ثم خفق قلبها في قوة..

كانت أمام أكثر الرجال وسامة في حياتها كلها..

طويل القامة نسبيًا، وسيم الملامح، أنيق الملبس، ناعم الشعر، أسوده..

وكان يبدو كنجم من نجوم السينما الفرنسية، بمعطف المطر الأنيق، الذي يبدو من خلفه رباط العنق الداكن، وحقيبته السوداء، ذات الإطار المعدني المذهب..

وفي انبهار، راحت تتطلع إليه، والتاجر يستطرد مرتبكًا:

- هل يمكنك أن تخبره أنني لا أحمل شيئًا، وأن هذه الحقيبة الصغيرة هي كل ما أملك؟

ترجم الوسيم هذا الحديث لمفتشي الجمارك، الذي أصر على تفتيش الحقيبة، فقال التاجر في انفعال:

- فليكن.. إنني لا أخفي شيئًا..

وفتح أقفال الحقيبة في عصبية، ولم يكد يرفعها، حتى سقطت منه الحقيبة أرضًا، وتناثرت محتوياتها القليلة أمام الجميع، وارتبك التاجر أكثر، فراح يجمع فرشاة أسنانه، وآلة الحلاقة، وملابسه القليلة في سرعة، في حين ابتسم الوسيم، واتجه بحديثه إلى (ريم)، قائلًا:

- يبدو أنها أولى رحلاته خارج البلاد.

كان صوته عذبًا قويًا، زاد من وسامته ورجولته، فأجابته مبهورة:

- هذا صحيح.

مد يده يصافحها، وهو يقول:

- اسمي (رءوف).. (رءوف ذهني).. مصري.

صافحته وهي تقول:

- وأنا (ريم عبد القادر).. مصرية أيضًا.

سألها وهو يتأمل ملامحها الفاتنة:

- أهي رحلة عمل، أم زيارة سياحية؟

ابتسمت قائلة:

- بل رحلة عمل.

ابتسم بدوره، قائلًا:

- كان ينبغي أن أتوقع ذلك، فليس من الممتع زيارة (باريس) في الشتاء.

سطع فجأة ضوء مصباح تصوير على وجهها، فالتفتا في حركة واحدة إلى مصدره، ووقعت عيونهما على شاب في أوائل الثلاثينات، يبتسم في مرح، قائلًا:

معذرة.. لم أستطع مقاومة هذا المشهد النادر.. الوسامة والفتنة جنبًا إلى جنب.

قال (رءوف) في خشونة:

- ليس من حقك أن تلتقط صورتنا، دون استئذاننا.

انحنى الشاب على نحو مسرحي، وهو يقول:

- إنني أعتذر.

ثم اعتدل مستطردًا بنفس المرح السابق:

- ولكنني لست آسفًا على التقاط مثل هذه الصورة.

هم (رءوف) بالاعتراض مرة أخرى، ولكن الشاب أسرع يخرج من جيبه بطاقة أنيقة، قدمها لهما، قائلًا:

- إنني مصري مثلكما، وهذا يمنحني بعض الحق في الغربة.. وبالمناسبة، اسمي هو (رفعت سعيد)، وأنا أفضل مصور فوتوجرافي، في الشرق الأوسط كله.. أو هكذا أظن نفسي على الأقل.

لم يبدد هذا من غضب (رءوف) وخشيت (ريم) أن يتحول الأمر إلى مشاجرة، ولكن صوت التاجر ارتفع من خلفها هاتفًا:

- يا للمصادفة!.. كلنا إذن نحمل حرف الراء، في بداية أسمائنا.

التفتت إليه (ريم) في دهشة، قائلة:

- كلنا؟!

ابتسم مشيرًا إلى صدره، وهو يقول:

- نعم، فاسمي (رشدي).. (رشدي كامل).

ران الصمت عليهم لحظات، وكل منهم يتطلع إلى وجوه الآخرين، ثم قطعت (ريم) حبل الصمت، وهي تقول:

- مصادفة طريفة بالفعل.

ولكن صوتها لم يكن يحمل شيئًا من المرح، بل كان جادًا، حاسمًا، و.. وغامضًا.

☆ ☆ ☆

3- البحث..

انعقد حاجبا (كاهان) في شدة، وهو يطالع الورقة، التي قدمها إليه (إليعازر)، ثم قال في اهتمام بالغ:

- أهم ثلاثة فقط يحملون أسماء تبدأ بحرف الراء؟

أجابه (إليعازر) في اقتضاب فظ:

- نعم يا سيدي.

سأله (كاهان) بصرامته المعهودة:

- وهل أرسلت رجالك خلفهم؟

أومأ (إليعازر) برأسه إيجابًا، فعاد (كاهان) يسأله:

- وماذا فعلوا، عند خروجهم من المطار؟

اجابه (إليعازر):

- رجل الأعمال (رءوف ذهني) ذهب إلى فندق (ريتز)، ويقيم هناك في الغرفة رقم (606) والمصور (رفعت سعيد) استقل سيارة أجرة، إلى أحد الأحياء التجارية، وصعد إلى شقة يملك مفتاحها، وبسؤال مالكتها، وجدنا أنه يستأجر تلك الشقة على نحو دائم، على الرغم من أنه لا يأتي إليها إلا مرة أو مرتين في العام، أما تاجر أدوات التجميل (رشدي كامل)، فقد عاونته راكبة مصرية على العثور على فندق رخيص، ثم تركته هناك وانصرفت..

عاد (كاهان) يتطلع إلى الورقة باهتمام أشد، ثم قال في حزم:

- استمر في مراقبتهم يا (إليعازر)، وأبلغني بأي شيء يثير شكوكك في تصرفاتهم، مهما بدا لك تافهًا.. هل تفهم؟

أجابه (إليعازر) بصوته الغليظ:

- فهمت يا سيدي.

ثم انصرف بسرعة كعادته، والتفت (كاهان) إلى (إيزاك)، الذي قال في قلق:

- ترى منْ من هؤلاء الثلاثة بغيتنا؟

نهض (كاهان) من مقعده، وهو يقول:

- لا تتعجل الأمور.

ثم صب لنفسه كأسًا من الخمر، مستطردًا بابتسامة مقيتة:

- إننا نحكم قبضتنا على الأمر الآن، ولن نلبث أن نكشف القناع عن وجه رجل المخابرات المصري هذا.

سأله (إيزاك):

- وماذا لو عجزنا عن ذلك؟

اتسعت ابتسامة (كاهان)، وبدت أشبه بابتسامة نمر مفترس، وهو يقول:

- قلت لك اطمئن، ففي هذه الحالة لدي خطة بديلة..

ثم برزت أنيابه، وهو يستطرد:

- خطة أكثر حسمًا..

☆ ☆ ☆

استيقظت (ريم) من نومها في الواحدة ظهرًا، وتثاءبت في تكاسل وهي تنظر إلى ساعتها، ثم تذكرت تلك المهمة العسيرة، التي كلفها إياها رؤساؤها، فنفضت عنها كل الكسل وبقايا النعاس، ونهضت من فراشها تغتسل، ثم ارتدت ثوبًا أنيقًا، جعلها تبدو أشبه بممثلة سينمائية، مما جعلها تشعر بالأسف، وهي ترتدي فوقه معطفا للمطر، فتنهدت قائلة لنفسها:

- لا بأس.. فلننه المهمة أولًا، ثم نسعى خلف الأناقة والجمال فيما بعد.

غادرت فندقها، الذي يحتل ناصية كبيرة، من نواصي (الشانزليزيه)، وعبرت الطريق في خطوات سريعة، حتى بلغت مقهى يحمل لافتة عربية، تشير إلى جنسيه مالكه، وبحثت بين موائد المقهى عن شيء ما يعنيها، ثم مطت شفتيها في أسف، فارتفع من خلفها صوت مصري يقول:

- أتبحثين عن شخص ما؟

التفتت إلى صاحب الصوت وهتفت بدهشة:

- الأستاذ (رءوف)؟!.. يا لها من مصادفة!!

ابتسم (رءوف)، وهو يصافحها قائلًا:

- يبدو أنه يوم المصادفات الطريفة.

تمتمت في خفوت:

- هذا صحيح.

ثم عادت تتلفت حولها، فكرر سؤاله.

- أتبحثين عن شخص ما؟

أجابته في هدوء:

- نعم.. إنني أنتظر شخصًا ما.

سألها في حذر.

- أحبيب هو؟

ضحكت قائلة.

- بل زميل.. زميل عمل.

سألها في شك:

- وهل اعتدت لقاء زملاء العمل في المقاهي؟

بدا الضيق على وجهها، وهي تقول:

- هل تقترح مكانًا آخر؟

أجابها في سرعة:

- مكان العمل مثلًا.

لم تجب على الفور، وإنما صمتت بضع لحظات، قبل أن تجيب:

- هناك أسباب تمنع هذا.

تأملها لحظة أخرى في صمت، ثم أجاب:

- بالطبع.. اعذريني لتدخلي في شئونك.

استعادت ابتسامتها في سرعة، وهي تقول:

- لا عليك.

لم تكد تنطق عبارتها، حتى سطح مصباح التصوير في وجهها، كما حدث في الصباح، فالتفتت إلى مصدره، وهتفت في حدة:

- أهو أنت مرة أخرى؟

وانعقد حاجبا (رءوف) في غضب، وهو يتطلع إلى (رفعت)، الذي هتف في مرح:

- إنني سعيد الحظ حتمًا، حتى ألتقي بكما معًا، مرتين في يوم واحد.

قالت (ريم) في ضيق:

- إنها مجرد مصادفة.

أما (رءوف)، فقال في حدة:

- حذار أن تلتقط لي صورة أخرى، دون استئذان، وإلا حطمت رأسك.

أمسك (رفعت) رأسه في تهالك مصطنع، وهو يهتف:

- يا إلهي!!.. أتريد تحطيم رأسي المسكين؟

صاح به (رءوف) في غضب:

- كفى وإلا..

أسرعت (ريم) تتدخل، خشية اشتعال الموقف، وسألت (رفعت):

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

هز (رفعت) كتفيه، وقال:

- مجرد مصادفة كما تقولين، فلقد كنت أبحث عن أماكن تجمع العرب، في قلب (باريس)، وأنت تعلمين أن مقاهي (الشانزليزيه) هي أفضل مكان لما أبحث عنه.

رمقه (رءوف) بنظرة شك، وهو يقول:

- فقط؟

تطلع إليه (رفعت) في برود، وهو يجيب:

- ألديك سبب أفضل؟

شعرت (ريم) بالضجر، من هذه المشاحنات الطفولية، التي تنشب بين هؤلاء الكبار، وتنهدت في ارتياح، عندما لمحت زميلها يوقف سيارته أمام المقهى، وهتفت:

- وذا زميلي قد وصل.. معذرة.

تابعها (رءوف) و(رفعت) ببصرهما، وهي تبتعد، وانتقل نظرها في تلقائية إلى ذلك الشاب الوسيم، الذي صافحته في حرارة، قبل أن يتخذا مائدة جانبية من موائد المقهى، وينهمكا في حديث مباشر، ثم هز (رفعت) رأسه، قائلًا:

- إنني أحسده في الواقع:

رمقه (رءوف) بنظرة نارية، قبل أن يقول:

- وأنا أحذرك من التدخل في أموري مرة أخرى.

ابتسم (رفعت) في استهتار، وقال:

- ومن يرغب في ذلك؟

ثم ابتعد في لا مبالاة، وسرعان ما اختفى وسط زحام (الشانزليزيه)، فعقد (رءوف) حاجبية، وغمغم:

- أهي مصادفة حقًا أيها المصور؟

ثم اتجه إلى هاتف عمومي على بعد خطوات، وأدار رقمًا ما، وما أن تلقي صوت محدثه، حتى قال بصوت خافت:

- مساء الخير يا (عوني).. نعم.. إنه أنا.. اسمعني جيدًا.. هناك شاب وصل معي على نفس الطائرة، ويدعى (رفعت سعيد).. نعم. أخشى أن يفسد العملية كلها.. ابحث عنه، وحاول إزاحته من الطريق بأي ثمن.

أنهى المحادثة عند هذا القدر، ثم التفت لينصرف، لولا أن وقع بصره على ذلك الشاب، الذي التقت به (ريم).

وانعقد حاجباه في دهشة..

لقد كان هناك شيء يبرز داخل سترة الشاب نصف المفتوحة..

وكان هذا الشيء قبضة..

قبضة مسدس كبير..

☆ ☆ ☆

ارتشف (كاهان) رشفة من كأسه في بطء، وهو يسأل (إليعازر) في اهتمام:

- وماذا فعل ذلك المصور، بعد انصرافه من المقهى؟

أجابه (إليعازر):

لقد اتجه مباشرة إلى (قوس النصر)، واستقل سيارة (ستروين) زرقاء، كانت تنتظره هناك، وانطلق رجالنا خلفها، ولكنها راوغتهم في مهارة، ونجحت في الإفلات منهم، في قلب المدينة.

عقد (كاهان) حاجبيه في ضيق، وهو يقول:

- وكيف تنجح في ذلك؟

أجابه (إيزاك) في توتر:

- لأنها سيارة محترفين.

التفت إليه (كاهان)، قائلًا في عصبية:

- ماذا تقصد بهذا؟

أجابه في حدة:

- أتريد دليلًا أقوى من هذا يا رجل؟.. إننا نبحث عن محترف، بين ثلاثة رجال، ثم نلتقي بأحدهم، وهو يأتي أفعالًا غامضة، وعندما نتبعه يستقل سيارة، تنجح في الفرار منا بمهارة.. ألا يعني لك هذا أنه الرجل الذي نبحث عنه؟

صمت (كاهان) لحظات مفكرًا، ثم قال:

- أظنك على حق.

ثم التفت إلى (إليعازر)، وقال في حزم:

- فليكن.. إننا لن نخسر شيئًا.. مر رجالك بقتل ذلك المصور.. فمن يدري؟

وهز كتفيه، مستطردًا:

- ربما.

☆ ☆ ☆

ابتسم (رفعت) في هدوء، وهو يصافح ذلك الرجل، الذي التقى به في شقة صغيرة، على مشارف العاصمة الفرنسية، وقال الرجل في جدية واهتمام:

- كيف حال مهمتك؟

أجابه (رفعت)، وهو يضع آلة التصوير إلى جواره:

- كل شيء على ما يرام، وأظنني سأبلغ الهدف قريبًا.

مال الرجل نحوه، وهو يقول:

- احترس جيدًا يا رجل، فمهمتك لن تكون سهلة أبدًا.

أومأ (رفعت) برأسه، قائلًا:

- أعلم ذلك.

ثم أضاف في لهجة تشف عن إصراره:

- ولكنني سأتمها بإذن الله.

ابتسم الرجل في ارتياح، وقال:

- وفقك الله يا صديقي.

ثم نهضا يتصافحان، وقال (رفعت):

- أظن أنه من الأفضل ألا نلتقي مرة أخرى، حتى أتم مهمتي.

أجابه الرجل:

- هذا صحيح، ولكن أخبرني.. أين يمكننا أن نجدك؟

هز (رفعت) كتفيه، وقال:

- في (الشانزليزيه).. سأعود إليه الآن، وأتواجد فيه كلما وجدت وقتًا لذلك، ففكرة التحقيق الصحفي عن التجمعات العربية في مقاهيه فكرة جيدة، وتمثل تغطية مناسبة للمهمة الأساسية.

ربت الرجل على كتفه قائلًا:

- لا بأس يا (رفعت)؛ ولكن احترس.

ابتسم (رفعت)، قائلًا:

- سأفعل يا سيدي.. اطمئن.

وانصرف عائدًا إلى (الشانزليزيه)..

حيث ينتظره القدر..

☆ ☆ ☆

4- القاتل..

ارتشف الشاب الجالس مع (ريم) رشفة من قدح القهوة، وهو يتطلع إلى هذه الأخيرة، قائلًا:

- أعلم مهمتك بالغة الحساسية والخطورة، ولكنك أصلح من يقوم بها.

تنهدت قائلة:

- ولكنني أشعر بخوف شديد في أعماقي.

وافقها بايماءة من رأسه، وقال:

- هذا أمر طبيعي، في مثل هذه الظروف، فالمهمة ليست بهذه البسيطة.

ثم مال نحوها، مستطردًا:

- ولكننا سنقف إلى جوارك في كل خطوة.

لوحت بكفها، قائلة:

- ماذا تعني بأنكم ستقفون إلى جواري؟.. أنت تعلم مثلي أن الخطة تقتضي قيامي بالمهمة وحدي.

أجابها في هدوء:

- هذا صحيح، لأنك آخر شخص يمكن أن تحيط به الشبهات، ولكننا نراقبك خفية، وسنتدخل إذا ما تأزمت الأمور.

سألته في قلق:

- ولكنك قلت من قبل إنهم يعرفونكم جميعًا.

ابتسم قائلًا:

- ذلك الذي يراقبك ليس أحدنا.

سألته في فضول:

- من هو إذن؟

اتسعت ابتسامته، وهو يجيب:

- ستعلمين قريبًا..

عقدت حاجبيها في ضيق، وهي تقول:

- إنني أكره هذا الغموض.

هز كتفيه، وقال:

- ربما، ولكن هذا أفضل لحمايتك.

قالت في غضب:

- لا بأس، ما دمتم ترون هذا.

تلاشى غضبها فجأة، وهي تتطلع إلى نقطة بعيدة، فسألها الشاب:

- ماذا حدث؟

لوحت بكفها، قائلة:

- إنه يوم المصادفات بالفعل.. هل ترى ذلك الذي يحاول عبثًا التحدث مع شرطي المرور.. إنه راكب جاء معي على نفس الطائرة.

ألقى نظرة سريعة على النقطة التي تشير إليها، وابتسم ابتسامة باهتة، عندما وقع بصره على (رشدي)، الذي يقف أمام شرطي المرور، ملوحًا بكفيه في سرعة، وكأنما يحاول استخدام لغة

الإشارة مع الشرطي، الذي بدا بدوره ضجرًا ملولًا، يحاول إقناع (رشدي) بتركه، ونهض الشاب، قائلًا:

- سأنصرف الآن، ولنلتق مرة أخرى في نفس الموعد، بعد غد.

غمغمت:

- فليكن.

ثم نهض تعبر الطريق، حتى بلغت موضع (رشدي) وشرطي المرور، وقالت:

- ألم تتعلم الفرنسية بعد؟

التفت إليها (رشدي) في دهشة، ثم تهللت أسايره، وهو يهتف:

- (ريم)؟!.. يا لحظي الحسن!.. أرجوك أخبري هذا الشرطي أنني أبحث عن واحدة من سيارات الأجرة.

ضحكت وهي تسأله:

- وما شأن الشرطي بهذا؟

سألها في دهشة:

- ما شأنه؟!.. أليس شرطي مرور؟

ضحكت مرة أخرى، واعتذرت للشرطي بالفرنسية، فلوح لها الشرطي بذراعيه، ورجاها أن تصحب (رشدي) معها بعيدًا، فأمسكت ذراع (رشدي)، وقالت:

- تعال.. سأدعوك لاحتساء قدح من القهوة العربية.

هتف في سعادة:

- حقًا؟!

لم تتمالك نفسها من الابتسامة، مع أسلوبه التلقائي البسيط، وسألته في مودة:

- هل التقيت بتجار مواد التجميل؟

مط شفتيه في أسف، قائلًا:

- نعم، ولكن يبدو أنك على حق.

سألته في اهتمام:

- أهي مشكلة أسعار؟

أجابها في تعاسة:

- بل مشكلة كمية.. إنهم مستعدون لمنحي كل التسهيلات اللازمة، بشرط أن يكون حجم تعاملي السنوي معهم مليون فرنك على الأقل، وهذا يفوق رأسمالي كثيرًا جدًا.

غمغمت متعاطفة:

- يا للأسف!.. وماذا ستفعل الآن؟

أجابها في بساطة:

- سأبحث عن شيء آخر، يصلح للبيع في (مصر).

ضحكت قائلة:

- ألا تستسلم أبدًا؟

قال في بساطة:

- ولماذا أفعل؟

راودها بعض الإعجاب تجاهه، ووجدت نفسها تقول:

- كم تروق لي شخصيتك يا (رشدي)؟

هتف في سعادة:

- حقًا؟

أطلقت ضحكة عذبة، وقالت:

- هل لاحظت أنك تردد هذه الكلمة كثيرًا جدًا؟

هتف دون وعي:

- حقًا!

ثم اشتركا في ضحكة طويلة، قطعها صوت (رفعت)، وهو يقول:

- أهي نكتة طريفة إلى هذا الحد؟

التفتا إليه في حركة واحدة وابتسمت (ريم) وهي تقول:

- أهلًا يا (رفعت).. لقد تصورت أنك قد انصرفت مع (رءوف).

أجابها في مرح:

- لا.. لقد انهمكت في تصوير بعض المقاهي الأخرى فحسب.

أشارت إلى (رشدي) قائلة:

- هل تذكر..

قاطعها بسرعة:

- (رشدي كامل).. نعم.. أذكره.

ابتسم (رشدي) وهو يقول:

- أنا أيضًا أذكرك.. أنت المصور الصحفي.. أليس كذلك؟

في نفس اللحظة التي دار فيها بينهم هذا الحديث، كان هناك رجل نحيل، يجلس في إحدى الشرفات المطلة على (الشانزليزيه)، ويحمل بيده جهاز اتصال لا سلكي، ومنظارًا مقربًا،

ولم يكد يلمح (رفعت)، حتى ضغط زر الاتصال بالجهاز، وقال بصوت خشن أجش:

- لقد عاد المصور.

أتاه الجواب مقتضبًا، صارمًا، حازمًا:

- اقتله.

ابتسم النحيل في جذل، وقال:

- سأفعل.

ثم وضع جهاز الاتصال والمنظار على مائدة قريبة، والتقط بندقية ذات منظار، رفعها إلى كتفه، وألصق عينه بمنظارها، وهو يقول:

- إنه آخر أيامك في هذه الحياة أيها المصري.

ولم تكد صورة (رفعت) تتوسط منظاره، حتى أضاف:

- الوداع.

وضغط ا لزناد..

☆ ☆ ☆

5- الشك..

أشار (رشدي) إلى آلة التصوير، التي يعلقها (رفعت) على كتفه، وبدا شديد الاهتمام، وهو يسأله:

- قل لي يا سيد (رفعت): هل تعرف الكثير عن آلات التصوير هذه؟

ابتسم (رفعت)، وهو يقول:

- بالطبع.. إنه عملي.

مد (رشدي) يده نحو آلة التصوير بحركة سريعة، وهو يقول:

- هل يمكنك أن تعلمني ما تعرفه إذن، أو..

كانت حركته أسرع مما ينبغي، فاندفع نصفه العلوي إلى الأمام، قبل أن تخطو قدمه خطوة واحدة، مما أفقده توازنه، فسقط مرتطمًا بـ(رفعت)، وهو يهتف:

- آه.. معذرة..

ولكنه جذب (رفعت) معه في سقطته، و...

وانطلقت الرصاصة القاتلة..

وصرخ قاتل (الموساد) في غضب:

- يا للحظ السيء.

قالها، لأن تلك السقطة المفاجئة أطاشت رصاصته، وجعلتها تتجاوز (رفعت)، وتصيب أحد الأقداح فوق المائدة المجاورة..

تفجر القدح كالقنبلة، وتناثرت محتوياته على وجوه وأجساد المحيطين به، فأدارت (ريم) رأسها في سرعة إلى مصدر

الرصاصة، واتسعت عينتاها في شدة، عندما وقع بصرها على القاتل الممسك ببندقيته، وهتفت:

- يا إلهي!

أما (رفعت)، فقد أدرك الأمر منذ النظرة الأولى، فهب واقفًا، واندفع نحو (ريم)، التي هتفت:

- إنها.. إنها..

قاطعها وهو يجذبها إلى داخل المقهى:

- محاولة قتل.. نعم.. هذا واضح.

أدارت عينيها في سرعة إلى (رشدي)، الذي يحاول النهوض في ارتباك، وصاحت:

- (رشدي).. إنه هناك.

أجابها في حزم:

- اطمئني.. إنهم لا يقصدونه.

لم يقنعها قوله، وظلت تتطلع في قلق إلى (رشدي)، الذي نجح في الوقوف، واندفع بدوره داخل المقهى، هاتفًا:

- ماذا حدث؟.. ماذا حدث؟

ربت (رفعت) على كتفه مهدئًا، وهو يقول:

- إنني أدين لك بحياتي يا رجل، فلولا عثرتك هذه، لفجرت هذه الرصاصة رأسي، بدلًا من ذلك القدح، وهذا ما يؤكده مسارها.

حدق (رشدي) في وجهه بذهول، وهوي يردد:

- رأسك؟!

ثم هتف في ذعر:

- ماذا يحدث هنا؟

كان الهرج يسود المقهى، من جراء تلك الرصاصة المفاجئة، فقال (رفعت):

- لا عليك يا رجل.. لا تحاول فهم كل يدور حولك.. إنك هنا في (باريس)، ولست في (القاهرة).

ثم اندفع نحو بوابة المقهى، مستطردًا في حزم:

- وأظن هذا يحتم ضرورة العمل بسرعة أكبر.

هتفت به (ريم):

- احترس، قد يكون ذلك القاتل منتظرًا، أو..

قاطعها ملوحًا بيده:

- لا.. لا أعتقد هذا.. إنه لن ينتحر لقتلي.

اختفى بسرعة بين المارة، فهتف (رشدي):

- أخبريني بالله عليك، ماذا يحدث؟

تطلعت إلى ملامحه الطفولية المذعورة، ووجدت نفسها تبتسم في حنان، على الرغم من الموقف، وتقول:

- اطمئن يا (رشدي).. لن يصيبك أي ضرر.

لوح بذراعه في يأس، وهو يقول:

- لن يصيبني أي ضرر؟!.. كيف تفسيرين كل ما يحدث إذن؟.. لقد فشلت في عقد صفقة أدوات التجميل، التي جئت خصيصًا

من أجلها، ولم أكد أفكر في عقد أدوات تصوير، حتى انطلقت رصاصة قاتلة نحونا، فماذا تريدين أسوأ من هذا؟

ابتسمت قائلة:

- أن تصيبك الرصاصة.. هذا هو أسوأ ما يمكن أن يحدث.

تطلع إلى وجهها في سعادة، هاتفًا:

- حقًا؟!.. هل يهمك أمري إلى هذا الحد؟

تضرج وجهها بحمرة الخجل، وهي تشيح بوجهها، قائلة:

- إننا غريبان هنا.. أليس كذلك؟

أجابها في سرعة:

- بلى.

ثم أضاف في خفوت:

- ولكنني سأجلس في هذا المقهى كل ليلة، وسيسعدني كثيرًا أن التقي بك، ولو لحظات.

أدهشتها كلماته، ولكنها أصابت جزءًا من أعماقها في الوقت نفسه، وهو يرفع صوته مستطردًا:

- معذرة.. ينبغي أن أنصرف الآن، فسأحاول عقد صفقة أقمشة.. إلى اللقاء.

تابعته ببصرها وهو ينصرف بخطوات سريعة، وارتسمت على شفتيها ابتسامة حانية رقيقة، وهي تتساءل في أعماق نفسها عن سر إعجابها به..

أهي بساطته المتناهية؟..

أم هي طيبته الواضحة؟..

واعترفت لنفسها بأنها تميل إليه، وتجد السعادة في لقائه، ثم لم يلبث ذهنها أن أعاد إليها ذكرى مهمتها المعقدة، وتذكرت محاولة القتل، فانعقد حاجباها في صرامة، وهي تقول:

- دعنا من العواطف الآن، ولنعد إلى العمل.

والتقطت الهاتف الداخلي للمقهى، وضغطت أرقامه في حسم.. وعادت تواصل مهمتها..

☆ ☆ ☆

دق (كاهان) سطح مكتبه بقبضته في عنف وغضب، وهو يهتف في ثورة:

- فشلت؟!.. ماذا أصابكم؟.. هل صرتم مجرد هواة؟.. كيف تفشل في قتل رجل واحد؟

عقد القاتل حاجبيه في ضيق، وهو يجيب في توتر:

- إنها أول مرة يحدث فيها هذا يا مستر (كاهان).. إنني لم أفشل في أية مهمة من قبل، ورصاصتي لم تخطئ رأسًا قط، ولكن ذلك الممتلئ تعثر فجأة، و...

عاد (كاهان) يصرب سطح مكتبه بقبضته، صارخًا:

- لا أريد أية أعذار.. أريد رجل المخابرات المصري هذا بأي ثمن.

ارتشف (إيزاك) الرشفة الأخيرة من كأسه، قبل أن يقول في عصبية:

- هذا لو أن ذلك المصور هو من نبحث عنه.

التفت إليه (كاهان) في حركة حادة، فأشار (إيزاك) بطرف كأسه إلى (إليعازر)، قائلًا:

- أخبره ما لديك.

أدار (كاهان) عينيه إلى (إليعازر) في صرامة، فأسرع هذا الأخير يقول:

- لقد تبع أحد رجالنا (رءوف ذهني)، بعد انصرافه من الملهى، وعلى الرغم من أن رجلنا محترف، إلا أن (رءوف) هذا قد كشف أمر مطاردته له، فراوغه في مهارة مدهشة، ونجح في الإفلات من المراقبة، وسط شوارع (باريس)، وعلى الرغم من هذا، فهو لم يعد إلى فندقه بعد.

عقد (كاهان) حاجبيه في شدة، وهو يقول:

- وما الذي يعنيه هذا؟

صب (إيزاك) لنفسه كأسًا أخرى، وهو يقول:

- يعني بكل بساطة أن (رءوف) هذا ليس مجرد رجل أعمال عادي.

وألقى محتويات الكأس في حلقه دفعة واحدة، ثم سعل مع احتقان وجهه، قبل أن يضيف في حزم:

- إنه محترف.

ران الصمت على المكان لحظات، قبل أن يكرر (كاهان) في شراسة:

- محترف؟!

ثم اتجه إلى مقعده الوثير، وألقى جسده فوقه، وراح يفكر في عمق، وقد انعقد حاجباه على نحو مخيف، ثم قال في حدة:

- هل يتعمدون إرباكنا؟

أجابه القاتل في برود:

- يمكننا قتله أيضًا.

أدار (كاهان) عينيه إليه في صمت غاضب، وظل على هذا الوضع نصف دقيقة كاملة، قبل أن يقول في حنق:

- يا له من اقتراح؟!

قال (إيزاك) في صرامة:

- ولكن يبدو أنه أفضل ما لدينا، فقتل كليهما أفضل من المخاطرة بقتل الشخص الخطأ.

قال (كاهان) في حدة:

- وماذا عن الثالث، (رشدي كامل) هذا؟

هز (إيزاك) كتفيه، قائلًا:

- إنه لا يبدو لي رجل مخابرات أبدًا.

قال (كاهان) في صرامة:

- فليكن.. لن أخاطر بتركه على قيد الحياة.

ثم التفت إلى قاتله المحترف، وأضاف في حزم:

- اقتلهم جميعًا.

تألقت عينا القاتل المحترف في جذل شرس، وهو يقول:

- كما تأمر يا سيدي.

وغادر المكان في خطوات ثقيلة قوية، جعلت (إيزاك) يتابعه في صمت، قبل أن يقول في لهجة أقرب إلى السخرية:

- يا له من وحش بشري!!

نهض (كاهان) من مقعده، واتجه إلى السلم، الذي يقود إلى الطابق الثاني، حيث حجرة نومه، وهو يقول في صرامة:

- عملنا يحتاج دائمًا إلى تلك الوحوش البشرية.

تمتم (إيزاك) في لهجة غامضة:

- حقًّا؟!

رمقه (كاهان) بنظرة صارمة، ثم بدأ يصعد في درجات السلم، قائلًا في لهجة آمرة:

- إنني أحتاج إلى قسط من النوم، ولا أريد أن يزعجني أحد.

اعتدل (إليعازر) في وقفة عسكرية، وهو يقول:

- كما تأمر يا سيدي.

صعد (كاهان) إلى الطابق الثاني، وهو يغمغم في عصبية:

- لا أحد يقدر خطورة الأمر.

ودفع باب حجرة نومه في حدة، ثم مد يده ليشعل الضوء، و...

وفجأة لمح تلك الهراوة المتجهة إلى رأسه في الظلام..

وفتح شفتيه ليهتف بشيء ما..

ولكن الهراوة سبقته، و..

وسقط فاقد الوعي..

☆ ☆ ☆

6- هجوم مضاد..

نهض مدير الشركة المصرية الفرنسية، يستقبل (ريم) بابتسامة عريضة، وصافحها في حرارة، وهو يقول بالفرنسية في ترحاب:

- مرحبًا بك في (باريس) يا آنسة (ريم).

صافحته (ريم) بدورها، وهي تقول:

- أشكرك يا سيدي، وأرجو أن تكون مهتمي ناجحة هذه المرة.

جلس محتفظًا بابتسامته، وهو يقول:

- ستكون كذلك بالتأكيد.. صحيح أنها أول مرة نلتقي فيها وجهًا لوجه، ولكن لدي شعور بأنك تصلحين لهذا العمل تمامًا.

أومأت برأسها شاكرة، ثم جلست على المقعد المقابل لمكتبه، وسألته على نحو مباشر مباغت:

- ما المطلوب مني عمله بالضبط؟

كان من الواضح أن أسلوبها قد فاجأه، فلقد تراجع بحركة حادة، وهو يتطلع إليها في دهشة، ثم لم يلبث أن ابتسم، وهو يعود للميل نحوها، قائلًا:

- هل تتعجلين بدء العمل إلى هذا الحد؟

أجابته في هدوء، لم يخل من الصرامة:

- لقد سافرت من (القاهرة) إلى (باريس)، وأنا أجهل طبيعة مهمتي، ولن أحتمل البقاء هنا طويلًا، دون معرفة المطلوب مني بالضبط.

ابتسم وهو يومئ برأسه، قائلًا:

- أنت على حق.

واقترب بوجهه منها، قائلًا في لهجة تشف عن خطورة الأمر:

- سأخبرك.. سأخبرك بالمطلوب منك بالضبط.

واستمعت إليه في اهتمام بالغ..

وبدأت تشعر بصعوبة مهمتها..

وخطورتها..

☆ ☆ ☆

أوقف (رءوف ذهني) سيارته، في موقف السيارات الخاص بفندق (ريتز)، وغادرها في هدوء، حاملًا حقيبة أنيقة صغيرة، وشفتاه تحملان ابتسامة ظافرة واضحة، جعلت عامل الموقف يتجه إليه في سرعة، ويهتف بابتسامة واسعة:

- هل ربحت صفقة جيدة يا سيدي؟

اتسعت ابتسامة (رءوف)، وهو يربت على الحقيبة، قائلًا:

- إلى حد ما.

تهللت أسارير العامل، عندما نقده (رءوف) بقشيشًا كبيرًا، وراح يهتف خلفه.

- تهانئي يا سيدي.. تهانئي.

استقل (رءوف) مصعد الفندق الفاخر إلى الطابق السابع من الفندق، حيث جناحه الأنيق، وتمتم لنفسه، وهو يفتح باب الجناح:

- أظنها أفضل صفقات هذا العام.

دلف إلى الجناح المظلم في هدوء، وأغلق بابه خلفه، دون أن يشعل الأضواء، ثم ألقى حقيبته فوق الفراش الوثير، الذي تسلل إليه ضوء القمر، عبر النافذة، وألقى فوقه خيوطًا فضية رفيعة، وخلع سترته في هدوء، و...

وفجأة لمح ذلك البريق الخافت، عند طرف ستارة النافذة..

وفجأة أيضًا أدرك طبيعته..

وفي لحظة واحدة، انطلقت تلك الرصاصة الصامتة، من فوهة المسدس مزود بكاتم للصوت، وانحنى (رءوف)..

ومن المؤكد أنه قد انحنى في الوقت المناسب تمامًا، فقد سمع أزيز الرصاصة، وهي تعبر فوق رأسه، قبل أن ينقض على مصدرها بكل قوته..

وأمسكت يده معصم صاحب المسدس، ورفع ذراعه إلى أعلى، وهو يجذبه إليه في شدة، هاتفًا:

- هيا يا رجل.. اخرج وواجهني.

هوت قبضة القاتل على معدته، وهو يهتف في شراسة:

- فليكن، ولكنك ستندم على المواجهة.

احتمل (رءوف) آلام اللكمة، وضرب يد القاتل بحافة النافذة، ليجبره على إفلات مسدسه، ثم كال له لكمة عنيفة في فكه، ألقته أرضًا، وهو يقول:

- أتظن الندم سيكون من نصيبي حقًا؟

سقط القاتل على ظهره، ثم هب واقفًا على قدميه، وهو يهتف:

- بالتأكيد.

ثم اندفع نحو (رءوف) صارخًا:

- إنك لن تربح أبدًا.

تفادى (رءوف) انقضاضة القاتل في قفزة جانبية رشيقة، ثم هوى رأسه بلكمة قوية، ألقت الرجل أرضًا، ولكنها لم تفقده وعيه، فعاد يعتدل في حركة حادة، جعلت يده تلتقط مسدسه الساقط إلى جوار النافذة، فهب واقفًا، ورفع فوهته نحو رأس (رءوف)، صارخًا:

- مت أيها المصري.. مت.

وانطلقت الرصاصة..

☆ ☆ ☆

انتفض (كاهان) في حدة، عندما استعاد وعيه دفعة واحدة، وهب جالسًا على أرضيه حجرته، هاتفًا:

- اللعنة!

اتسعت عيناه في ذهول، وهو يحدق في حجرته، التي انقلبت رأسًا على عقب، وأفرغت أدراجها عن آخرها، واحتبست الكلمات في حلقه لحظات، قبل أن يصرخ:

- (إليعازر) سمع وقع أقدام رجلين، يصعدان السلم في سرعة وعجل، ثم اقتحم حجرته (إليعازر) و(إيزاك)، اللذان حدقا في الحجرة في ذهول مماثل لذهوله، قبل أن يهتف (إيزاك) في استنكار:

- يا للشيطان!.. ماذا حدث؟

قفز (كاهان) واقفًا على قدميه، وهو يهتف:

- لقد اقتحم أحدهم حجرتي.

ثم اندفع نحو أحد الأدراج، وراح يفحص محتوياته في عصبية، و(إيزاك) يقول في ذهول:

- اقتحم حجرتك، ولكن كيف؟

صرخ (كاهان):

- هل تسألني؟

ثم ألقى الدرج أرضًا في غضب، مستطردًا:

- لقد اختفت أوراق بالغة الخطورة.

تراجع (إيزاك) هاتفًا في شحوب:

- يا للشيطان!

في حين عقد (إليعازر) حاجبيه في صمت وتوتر، وهو يقول:

- سيدي.. هذه البطاقة.

صاح به (كاهان) في حدة.

- أية بطاقة؟

مد (إليعازر) يده في تردد، وانتزع بطاقة مثبتة في ياقة المعطف المنزلي لـ(كاهان)، واتسعت عيناه في جزع، وهو يهتف:

- اللعنة!

اختطف منه (كاهان) البطاقة، واتسعت عيناه في ذهول وغضب، وهو يقرأ العبارة المطبوعة فوقها في أناقة، قبل أن يلقيها أرضًا، صارخًا:

- فليذهب هؤلاء المصريون إلى الجحيم.

ودون أن يتحرك (إيزاك) من مكانه، التقطت عيناه تلك العبارة المطبوعة فوق البطاقة، والتي تقول:

- مع تحيات المخابرات العامة المصرية.

وانعقد حاجباه في غضب..

☆ ☆ ☆

حمل (رشدي كامل) حقيبته تحت إبطه، وهو يسير في خطوات متثاقلة، مقتربًا من فندقه الرخيص، في شارع جانبي من شوارع باريس، وأخذ يطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا، للحن مصري شعبي قديم، يعكس طبيعته المصرية، ومنشأه في حي (الموسكي)، ثم لم يلبث أن تثاءب مغمغمًا:

- يبدو أنني أحتاج إلى نوم عميق.

لم ينتبه، وهو يسير بهذا التراخي، إلى رجل ضخم الجثة، يتبعه منذ غادر الشارع الرئيسي، على الرغم من أن الضوء الآتي من خلفه، كان يلقي ظل الرجل إلى جوار ظله مباشرة..

ثم توقف (رشدي) بغتة، وانحنى يتطلع إلى رباط حذائه، قبل أن يهتف، في لهجة تجمع ما بين السخط والضجر:

- يا لرباط الحذاء اللعين!.. لماذا يصر على الإفلات دائمًا، عندما أكون مجهدًا، إلى الحد الذي يمنعني من الانحناء؛ لإعادة ربطه.

زفر في ضيق؛ ومال ليستند بظهره إلى الحائط، ثم لم يلبث أن اعتدل في حدة، هاتفًا:

- يا إلهي.. كدت أؤذي.. نفسي.

ابتعد قليلًا عن صندوق معدني صغير، ثم عاد يستند إلى الحائط، وانحنى يعقد رباط حذائه في إحكام، وهو يقول:

- حاول ألا تفلت مرة أخرى أيها اللعين.

توقفت أمامه، في نفس اللحظة، قدمان كبيرتان، فتطلع إليهما وهو منحن، ثم رفع رأسه يتطلع إلى وجه صاحبهما، الذي بدا ضخمًا شرسًا، برأسه الأصلع وملامحه الغليظة، فاعتدل (رشدي)، وقال بابتسامة مرتبكة:

- معذرة.. كنت أعقد رباط حذائي فحسب، و..

اتسعت عيناه، عندما استل الرجل فجأة خنجرًا ضخمًا، وهتف (رشدي):

- ماذا تفعل؟

وبلا رحمة، هوى الضخم بخنجره على صدر (رشدي)..

وانطلقت صرخة مخيفة في الشارع الضيق..

صرخة رجل يحتضر..

☆ ☆ ☆

7- ليلة الدم..

ارتجف جسد (كاهان)، مع رنين الهاتف المجاور له، في ردهة الفيلا، التي يقيم فيها في (باريس)، وأسرعت يده تلتقط السماعة، وهو يقول في حذر:

- المكتب الثقافي الإسر..

بتر عبارته دفعة واحدة، وارتجفت شفتاه في توتر، جذب انتباه (إيزاك)، الذي ارتشف رشفة من كأسه، وهو يراقبه في إمعان، وكاد يقسم بمعرفته المتحدث، على الطرف الآخر للخط، عندما سمع (كاهان) يقول في ارتباك:

- نعم.. أنا هو يا سيدي.

مضت لحظات طويلة، استمع خلالها (كاهان) إلى الهاتف في صمت، قبل أن يجفف عرقه بأصابعه، ويقول:

- الواقع يا سيدي أننا نجهل من هو بالضبط، و..

كانت مقاطعة المتحدث له واضحة، عندما أصغى مرة أخرى في اهتمام، قبل أن يتمتم:

- بالطبع يا سيدي.. بالطبع.. لقد أصدرت أوامري بذلك.

ثم تراجعت رأسه بحركة حادة، أوحت بأن الطرف الآخر قد أنهى المحادثة في عنف، وأعاد (كاهان) السماعة إلى موضعها، وهو يقول في سخط:

- اللعنة!

سأله (إيزاك) في هدوء ظاهري، حاول أن يخفي به شماتته:

- أهي (تل أبيب)؟

أجابه (كاهان) في حدة:

- بل (القدس).

رفع (إيزاك) حاجبيه في دهشة، وهو يقول:

- ولكن ماذا يريدون؟

هب (كاهان) من مقعده، وهو في سخط غاضب:

- إنهم المصريون الأوغاد.. لقد أرسل رجلهم برقية شامتة، إلى القيادة العامة في (القدس)، يخبرهم فيها باستيلائه على أوراقنا.

رفع (إيزاك) حاجبًا واحدًا، وهو يقول في دهشة:

- هكذا.

ثم انعقد حاجباه، وهو يضيف:

- يبدو أن ذلك المصري أخطر مما نتصور.

قال (كاهان) في سخط:

- ولكنه لن يغادر (باريس) حيًا.

وتطلع إلى ساعته، قبل أن يضيف في حزم، لا يخلو من رنة ساخطة:

- لو سارت الخطة على ما يرام، فسيعني هذا أن المصريين الثلاثة قد لقوا حتفهم الآن.

وبدا أشبه بالشيطان نفسه، وهو يضيف:

- وأن هذه العبة الهزلية قد انتهت.

☆ ☆ ☆

لم تشعر (ريم)، في حياتها كلها، بالقلق والتوتر، مثلما شعرت بهما في هذه الليلة، وهي تجلس وحيدة، في حجرتها بالفندق.

كانت تعلم أن مهمتها ليست باليسيرة، بل أنها أخطر مهمة أسندت إليها، حتى هذه اللحظة، ولكن هذا لم يكن مبعث قلقها الحقيقي، وإنما كان هذا القلق غامضًا، ينبعث من أعماقها، ويتصاعد إلى رأسها، دون أن يحمل معه هويته أو أسبابه..

وفجأة قفزت صورة (رشدي) إلى ذهنها..

صورته كلها، بملامحه الطفولية الطيبة، وابتسامته البسيطة الوادعة، وتلقائيته المحببة..

ووجدت نفسها – فجأة – ترغب في رؤيته..

ودون أن تضيع لحظة واحدة في التفكير، نهضت ترتدي ثيابها، وغادرت حجرتها، واستقلت واحدة من سيارات الأجرة، لتقلها إلى الفندق الصغير الذي يسكن فيه..

وعندما بلغت الفندق، كانت عقارب الساعة تشير إلى دقيقتين بعد الحادية عشر، مما جعلها تتردد لحظة، قبل أن تسأل موظف الاستقبال:

- هل عاد السيد (رشدي) إلى حجرته؟

ألقى الموظف نظرة سريعة على لوحة المفاتيح خلفه، ثم هز رأسه نفيًا، وقال:

- لا يا مدموازيل.. لم يصل بعد.

ترددت مرة أخرى، ثم أشارت إلى ردهة الفندق، قائلة:

- هل يمكنني انتظاره؟

أجابها في بساطة:

- بالطبع.

اتجهت إلى أحد مقاعد الردهة، وسألت نفسها وهي تجلس فوقه، عما إذا كان سلوكها يليق بفتاة مصرية أم لا؟

وفجأة، وقبل أن يأتيها عقلها بالجواب، انطلقت تلك الصرخة الرهيبة..

صرخة رجل يحتضر، وهو يعاني آلامًا رهيبة..

ودون أن تدري، وجدت نفسها تهتف باسم (رشدي)، ثم تعدو مغادرة الفندق، إلى حيث انطلقت الصرخة..

ووقع بصرها عليه..

تجمدت مشاعرها كلها، عندما رأت (رشدي) هناك..

وهتفت في لوعة، تمتزج بحنان جارف:

- (رشدي)؟!

كان يلتصق بالحائط، جاحظ العينين، يرتجف في رعب هائل، وهو يحدق في جثة رجل، استندت إلى الحائط، وهي ترتجف ارتجافة بلا حياة، ويدها تمسك خنجرًا، التصق بصندوق الكهرباء الرئيسي للحي..

وبكل لهفتها وجزعها، اندفعت (ريم) نحو (رشدي)، وهتفت به:

- ماذا حدث؟

التفت إليها في رعب، وارتجفت الكلمات على شفتيه، وهو يجيبها:

- لقد حاول قتلي.. ذلك الرجل حاول طعني بخنجره.. لماذا حاول فعل هذا؟.. لماذا يحاولون قتلي في (باريس)؟

ربتت على كتفه في حنان، وهي تقول:

- اهدأ يا (رشدي).. اهدأ.

ولكنه أشار للرجل، وهو يستطرد في فزع، محاولًا شرح موقفه لرواد الفندق، اللذين التفوا حوله في ذعر ودهشة، ينقلون بصرهم بينه وبين جثة الرجل:

- لقد حاول طعني بالخنجر، ولكن خنجره أصاب صندوق الكهرباء، فصعقه التيار.

ربتت (ريم) على كتفه مرة أخرى، متمتمة:

- هذا من حسن حظك.. لقد نجوت من موت محقق.. هيا.. سنعود إلى الفندق.

عادت به إلى الفندق، وهو ما يزال يرتجف، وأسرع موظفو الفندق يبلغون الشرطة، و(رشدي) يسأل (ريم) في هلع:

- ولكن لماذا يحاولون قتلي؟.. ماذا فعلت؟

قالت في خفوت:

- إنك لم تفعل شيئًا، ولكن يبدو أن أحدهم يظن غير هذا.

ثم تطلعت إلى عينيه مباشرة، مستطردة:

- اسمعني جيدًا يا (رشدي).. هل تعلم ما أفضل ما تفعله الآن؟

تطلع إليها متسائلًا، فأكملت في حزم:

- أن ترحل.. ارحل يا (رشدي).. ارحل قبل فوات الأوان.

وكانت عبارتها صارمة حازمة..

ومخلصة..

☆ ☆ ☆

انطلقت رصاصة رجل (الموساد) نحو (رءوف) تمامًا، ولكن (رءوف) انحنى في اللحظة المناسبة.

وسمع الرصاصة، وهي تعبر فوق رأسه، ثم اندفع نحو الرجل، وهو يهتف:

- أخطأت الهدف للمرة الثانية أيها الوغد.

وكال للرجل لكمة كالقنبلة في فكه، مستطردًا:

- وليست لديك فرصة ثالثة...

زلزلت اللكمة كيان الرجل، ولكنه سقط دون أن يتخلى عن مسدسه، الذي حاول أن يرفعه مرة ثانية في وجه (رءوف)، وهو يقول في غضب:

- من قال هذا أيها المصري؟

ركل (رءوف) المسدس من يده، وهو يقول:

- أنا أقولها أيها الوغد.

ثم تراجعت قدمه في سرعة وقوة ومهارة، لتركل فك الرجل في عنف، وهو يضيف:

- ألديك مانع؟

سقط الرجل فاقد الوعي، فاعتدل (رءوف)، وعدل من ثيابه، وهو يغمغم:

- لم أكن أتوقع أن تبلغ الأمور هذا الحد.

واتجه في هدوء إلى الهاتف، فالتقط سماعته، وضغط أزراره برقم خاص، وانتظر حتى سمع صوت محدثه، فقال:

- إنه أنا يا (عوني).. اسمعني جيدًا.. لقد حاول أحدهم قتلي.. نعم.. هنا في حجرتي بالفندق.. لا.. لست أعرفه.. قل لي أولًا: ماذا حدث بشأن ذلك المصور؟

قبل أن يسمع جواب (عوني)، أتاه صوت من خلفه، يقول في غضب خانق:

- لا داعي لمعرفة الجواب يا رجل، فلن يسألك إياه أحد في الجحيم.

ألقى (رءوف) سماعة الهاتف من يده، واستدار في حركة حادة إلى مصدر الصوت، ووقع بصره على رجل (الموساد)، الذي استعاد وعيه بسرعة عجيبة، واستعاد معه مسدسه، ووقف يصوبه إلى (رءوف)، وضوء القمر يتسلل عبر النافذة خلفه، ليصنع مع مسدسه مشهدًا مخيفًا..

ولكن (رءوف) تحرك بسرعة..

أسرع مما توقع رجل (الموساد) بكثير..

لقد اندفع بغتة نحو الرجل، وقفز إلى أعلى، وأطلق صرخة قتالية قوية، وهو يضرب الرجل بقدمه في صدره، بكل ما يملك من قوة..

وتراجع جسد رجل (الموساد) في عنف..

وارتطم بالنافذة..

وحطم زجاجها، و..

وسقط..

وجلجلت صرخة الرجل، وهو يهوى من الطابق السادس، من فندق (ريتز)..

وخسر (الموساد) رجلًا ثانيًا، في تلك الليلة..

ليلة الدم..

☆ ☆ ☆

عاد (رفعت) إلى شقته، في وقت متأخر من تلك الليلة، ولم يكد يدخلها، حتى ألقى آلة التصوير على أول مقعد صادفه، وهتف لنفسه في إرهاق:

- يا له من يوم!

وتثاءب في صوت مرتفع، ثم اتجه إلى حجرة النوم، فأخرج منامته من الحقيبة، وهو يطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا، متجهًا إلى الحمام..

وقبل أن يبلغ الحمام، ارتفع رنين الهاتف..

وفي أية ظروف أخرى، كان (رفعت) سيتجاهل الهاتف تمامًا، حتى يغتسل أولًا، ولكنه في هذه الظروف، خشي أن تكون المحادثة هامة، وتختص بمهمته الحساسة في (باريس)، فزفر مغمغمًا:

- دائمًا في الوقت غير المناسب.

واتجه نحو الهاتف، ومد يده نحو سماعته، و.. ودوى انفجار في الحي..

انفجار كان مصدره شقة (رفعت)..

وهاتفه بالذات.

☆ ☆ ☆

8- الجميع..

«ما الذي يحدث هنا يا (ريم)؟»

نطقها (رشدي) في لهجة تجمع ما بين الضراعة والخوف والضيق، وهو يتطلع إلى وجه (ريم)، قبل أن يضيف في مرارة:

- لماذا تطلبين مني الرحيل؟

أطرقت برأسها بعض الوقت، ثم زفرت في حرارة، وتطلعت إليه في صمت، جعله يكرر:

- لماذا يا (ريم)؟

تمتمت:

- حتى أنقذك من خطر تجهله.

ارتفع حاجباه في ذعر، وهو يقول:

- خطر أجهله؟!.. أي خطر هذا يا (ريم)؟

فركت أصابعها في توتر، وحاولت الفرار من نظراته المباشرة، وهي تقول:

- لن يمكنني أن أشرح لك الأمر يا (رشدي)، ولكن يكفي أن تعلم أنني لست في (باريس)، بغرض عمل تقليدي، كما سبق أن أخبرتك.

حدق في وجهها بدهشة، وهو يقول:

- ماذا تقصدين؟

فرت من نظراته أكثر، وهي تجيب:

- إنني هنا في مهمة خاصة، ويمكنك أن تقول: إنها مهمة سرية.

ردد في لهجة أقرب إلى الذهول:

- سرية؟!

ثم خفض صوته كثيرًا، وهو يسألها:

- لحساب من؟

بدا لحظة أنها ستجيبه، إلا أنها لم تلبث أن أطبقت شفتيها، وبدا التردد على وجهها، مما جعله يقول في خفوت:

- هل أخطأت بسؤالي؟

ترددت لحظة أخرى، ثم أجابته في همس:

- إنها مهمة لحساب الحكومة المصرية.

واعتدلت مضيفة في سرعة:

- ولا يمكنني التصريح بأكثر من هذا.

تطلع إليها لحظة في صمت، وعيناه تنطقان بالكثير، قبل أن يقول في حزم:

- لن أرحل.

قالت في ضيق:

- (رشدي).. أرجوك.

كرر في حزم أكثر:

- قلت لن أرحل.. سأبقى إلى جوارك، حتى تنتهي مرحلة الخطر.

هتفت في صوت خافت:

- خطأ يا (رشدي).. ألم تفهم بعد ما أريد قوله؟.. إنني أعتقد اعتقادًا قويًا، أن تعرضك للقتل يعود إلى ظهورنا معًا، أمام أولئك

الذين أتيت للعمل ضدهم.

قال في إصرار:

- هذا يزيد من ضرورة بقائي إلى جوارك.

خفق قلبها في قوة مع كلماته، وشعرت بعاطفة تتسلل إلى قلبها تجاهه..

كم هو رائع..

إنها تميل إليه حقًا..

تميل إليه كثيرًا..

بل إنها تتمنى حقًا بقاءه إلى جوارها، في هذه الظروف العصبية..

وبكل العاطفة في أعماقها، قالت:

- (رشدي).. إنني..

قاطعها في حسم:

- لا تقولي شيئًا.. إنني سأبقى.

لم تقل شيئًا بالفعل، ولكن قلبها ابتسم في سعادة..

إنها، وعلى الرغم من كل ما يحدث، تتمنى أن يبقى (رشدي) إلى جوارها..

وليحدث ما يحدث..

☆ ☆ ☆

وقف مفتش البوليس الفرنسي (مارتان)، يتطلع إلى ذلك الدمار، الذي أصاب شقة (رفعت)، وانقلبت شفتاه في امتعاض، وهو يقول:

- يا للهول!.. إننا لم نشاهد هذا الأسلوب، منذ زمن عصابات (مارسيليا).

والتفت إلى شاب فرنسي، انهمك في فحص بقايا الهاتف، وسأله:

- إنه هاتف ملغوم.. أليس كذلك؟

أومأ الشاب برأسه إيجابًا، واستخدم يديه لتوضيح الموقف، وهو يقول:

- نفس الأسلوب القديم.. قنبلة متصلة بمعد الحرارة، بحيث تتفجر فور رفع سماعة الهاتف.

هز (مارتان) رأسه متفهمًا، وأدار رأسه إلى الناحية الأخرى، يسأل:

- كان المفروض أن يقتلك هذا، أليس كذلك؟

أجابه (رفعت) في ضيق، وهو مستسلم لرجل الإسعاف، الذي يضمد جرح جبهته وكفه:

- بلى.. كان يمكن أن تقتلني القنبلة، ولكنني أخبرتك أنني تعثرت في طرف سجادة الحجرة، وسقطت مرتطمًا بالمائدة، قبل أن أرفع سماعة الهاتف، فسقطت المائدة مع الهاتف، الذي سقطت عنه سماعته، فحدث الانفجار، ولولا أن سطح المائدة كان بيني وبين الهاتف، لقتلني ذلك الانفجار حتمًا.

مط (مارتان) شفتيه، وقال:

- لقد نجوت بمعجزة إذن.

غمغم (رفعت):

- يمكنك أن تقول هذا.

ضم (مارتان) شفتيه في قوة، وهو يعيد التطلع إلى الشقة، ثم التفت إلى (رفعت) بحركة حادة، وسأله:

- ولكن لماذا يحاول أحدهم قتلك؟

هز (رفعت) كتفيه، وقال:

- وكيف لي أن أعرف؟

عقد (مارتان) حاجبيه في غضب، وقال:

- اسمع أيها المصري.. صحيح أنني هادئ الطباع، ولكنني أكره من يحاولون خداعي، وخاصة لو أنهم ليسوا من الفرنسيين.. إنك تتحدث الفرنسية في طلاقة، وتستأجر شقة على نحو دائم في (باريس)، وهذا يحتاج إلى الكثير من المال، ثم يأتي أحدهم ويحاول قتلك، فكيف تفسر كل هذا؟

مط (رفعت) شفتيه، وهز كتفيه مرة أخرى، وهو يقول:

- ربما كان الجواب الوحيد هو أنني ثري.

سأله (مارتان) في عدوانية:

- ماذا تعني؟

أجابه في هدوء:

- إنني أحب عاصمتكم (باريس)، ولدي من المال ما يكفي لاستئجار شقة فيها، وزيارتها مرة أو مرتين في العام، وربما حاول أحدهم التخلص مني، ليرث ثروتي في (القاهرة).

لم يرق هذا التفسير لـ (مارتان)، الذي عقد حاجبيه، وهو يتطلع إلى (رفعت) في صمت وصرامة، قبل أن يقول:

- فليكن يا مسيو (رفعت).. سأتقبل تفسيرك هذا؛ لأنه ليس لدي تفسير آخر، ولكنني أريد منك أن تعلم، أن الفرنسيين ليسوا بالغباء الذي تتصوره، وأنني سأفرض عليك رقابة شديدة، طوال اليوم تقريبًا، حتى تنتهي إقامتك لدينا هذه المرة.. هل تفهمني؟

أجابه (رفعت) في برود:

- نعم، وإن كنت أرفض هذا الأسلوب.

قال (مارتان) في صرامة:

- افعل ما يحلو لك، ولكن..

قبل أن يتم عبارته، قاطعه أحد رجاله، قائلًا:

- رسالة عاجلة من الإدارة يا سيدي.

قالها، وهو يمد يده إليه بجهاز اللاسلكي، فالتقطه منه (مارتان) في ضيق، وقال:

- هنا المفتش (مارتان).

وضع الجهاز على أذنه، ليستمع إلى محدثه وحده، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يستمع إليه، ثم لم يلبث أن قال في حزم:

- حسنًا.. سأصل على الفور.

وأنهى الاتصال، وقال لـ(رفعت) في صرامة، وهو يعيد جهاز اللاسلكي إلى الرجل:

- يبدو أنها ليلة المصريين.

لم يسأله (رفعت) عما يعنيه، وإنما تركته ينصرف مع رجاله، بعد أن استكملوا تحقيقهم معه، ورفعوا ما شاء لهم من بصمات وأدله، ثم اتجه إلى حجرة نومه، والتقط سماعة الهاتف الصغير

المجاور للفراش، والذي أزال منه الخبراء قنبلة أخرى، وضغط أزراره في سرعة، وانتظر حتى سمع صوت محدثه، فقال:

إنه أنا.. (رفعت).. استمع إليّ دون مقاطعة، فمن المحتمل أن يكون هاتفي مراقبًا.. لقد تعرضت لمحاولة قتل، وهذا يعني أن الصراع قد اتخذ خطًا جديدًا، وأنه من الضروري أن تنتهي العملية بأقصى سرعة.. وداعًا.

أنهى الاتصال، دون أن ينتظر جوابًا من الطرف الآخر، وارتسمت على وجهه صرامة مخيفة، وهو يقول لنفسه في حزم:

- نعم.. من الضروري أن تنتهي العملية بأقصى سرعة.

وصمت لحظة، قبل أن يستطرد:

وأقصى قوة..

☆ ☆ ☆

اتسعت عينا (كاهان) في ذهول، وهو يتلقى تقريرًا هاتفيًا من رجاله، بما حدث عبر هذه الليلة، وترك سماعة الهاتف تسقط من يده، وهو يردد:

- فشلوا.. الجميع فشلوا في مهماتهم.

مط (إيزاك) شفتيه في ازدراء، وارتشف رشفة من كأسه، قبل أن يقول في لهجة توحي بالاحتقار:

- كنت أتوقع هذا.

التفت إليه (كاهان) في حدة، وانعقد حاجباه في غضب شديد، وهو يقول:

- ما الذي تعنيه بأنك كنت تتوقع هذا؟.. لقد استخدمنا أفضل رجالنا في هذه العملية، وخططنا كل شيء، كما يحدث في كل مرة، و..

قاطعه (إيزاك):

- هذا بالضبط ما أعنيه.. أن كل شيء يحدث كما في كل مرة.. هذا هو سبب فشلك يا (كاهان).

قال (كاهان) في حدة:

- إنني لم أفشل من قبل.

ابتسم (إيزاك) في سخرية، وهو يقول:

- لكل شيء بداية يا عزيزي (كاهان)، كما أنك قد أصبحت عتيق الطراز، وترفض الاعتراف بأن كل شيء يتطور ويتحسن، حتى أعمال المخابرات.

تضاعف غضب (كاهان)، وهو يقول في عصبية:

- ماذا تقترح إذن أيها الذكي؟

ارتشف (إيزاك) رشفة أخرى من كأسه، وقال:

- أقترح أولًا أن تترك لي قيادة هذه العملية.

اتسعت عينا (كاهان)، وخيل لـ (إليعازر) أنه سينفجر في وجه (إيزاك)، أو يطلق عليه النار، ولكنه فوجئ به يقول في حدة:

- فليكن يا (إيزاك).. إنني أترك لك قيادة العملية كلها.. أرنا ما ستفعله.

ابتسم (إيزاك)، وقال:

- سأفعل الكثير.

قال (كاهان) في سخرية غاضبة:

- بالوسائل الحديثة.

لوح (إيزاك) بأصابعه، وهو يقول:

- مزيج من القديم والحديث.

ثم التفت إلى (إليعازر)، وقال في حزم:

- أبرق إلى رجالنا في (القاهرة)، واطلب منهم جمع أكبر قدر من التحريات، عن الرجال الثلاثة، واطلب منهم إرسال ما يحصلون عليه بأقصى سرعة.

تطلع (إليعازر) في قلق إلى (كاهان)، الذي هتف به في عصبية:

- نفذ ما أمرك به.. هيا.

أسرع (إليعازر) يغادر الحجرة؛ لتنفيذ أمر (إيزاك)، الذي برقت عيناه في ظفر، وهو يجرع ما تبقى من كأسه دفعة واحدة، و(كاهان) يقول في حدة:

- فلنرَ ما ستفعله أيها العبقري.

ابتسم (إيزاك) في زهو وغرور، وهو يقول:

- سترى يا عزيزي (كاهان).. سترى كيف يلعب (إيزاك) لعبة الجواسيس.

وبرقت عيناه في شدة، وهو يضيف:

- وكيف ينتصر؟

وعربدت ضحكة شيطانية في عينيه..

ضحكة مخيفة.

☆ ☆ ☆

9- التحريات..

دس المفتش (مارتان) كفيه في جيبي سرواله الواسع، ومط شفتيه كالمعتاد، وهو يتطلع إلى (رءوف ذهني)، قائلًا في لهجة تبدو هادئة، ولكنها تخفي خلفها ثورة داخلية عارمة:

- إذن فقد فوجئت بلص في جناحك، فتشاجرت معه، وحاول قتلك، ودافعت عن نفسك، ودفعته، فسقط من الطابق السادس.. أليس هذا ما قلته بالضبط؟

أجابه (رءوف) في هدوء مثير:

- بالضبط أيها المفتش.. إنها حالة دفاع عن النفس.

ردد (مارتان) في غضب:

- نعم.. دفاع عن النفس.

ثم استطرد في حدة:

- كم مرة سمعت عن رجل دافع عن نفسه، بإلقاء من يهدده من الطابق السادس؟

أجابه (رءوف) في برود:

- اذكر لي اسم المراجع المطلوبة، وسأخبرك بالجواب صباح الغد.

رمقه (مارتان) بنظرة غاضبة صارمة، ثم قال:

- هل تعلم من أين أتيت يا مسيو (رءوف)؟.. لقد قضيت ليلة مرهقة، بأكثر مما تتصور.. ليلة حدثت فيها ثلاث محاولات

لقتل ثلاثة من المصريين، الأول يدعى (رفعت)، والثاني (رشدي)، وأنت الثالث يا مسيو (رءوف).

عقد (رءوف) حاجبيه في شدة، عندما سمع اسمي (رفعت) و(رشدي)، في حين مال (مارتان) نحوه، وسأله في دهاء:

- هل تعرف الاثنين الآخرين يا مسيو (رءوف)؟

أجابه (رءوف) في برود:

- ربما.

اعتدل (مارتان)، وظهر الغضب على وجهه، وهو يقول:

- دعني أنا أمنحك الجواب يا مسيو (رءوف).. نعم.. إنك تعرفهما، فقد تحريت أمركم، مع وقوع الحوادث الثلاثة في ليلة واحدة، فأنا من طراز عتيق يا مسيو (رءوف)، لا يؤمن بالمصادفات، أو يقتنع بوجودها، وهذا ما دفعني لمراجعة أوراق ثلاثتكم.. وقد جاءت النتيجة طريفة للغاية.. لقد وصلتم جميعًا على متن نفس الطائرة.

قال (رءوف) ببروده المثير:

- حقًا.

أجابه (مارتان) في حدة:

- نعم يا مسيو (رءوف).. هذا ما أسفرت عنه تحرياتي الأولية، ومن المؤكد أن التحريات التالية ستحمل أكثر وأكثر..

قال (رءوف)، في لهجة تحمل الكثير من الضجر:

- فليكن.

كان هذا الأسلوب الاستفزازي يزيد من غضب (مارتان)، وثورته، ولكنه بذل أقصى جهده؛ للسيطرة على أعصابه، وهو يميل نحو (رءوف)، قائلًا:

- اسمع يا مسيو (رءوف).. كلانا يعلم أن موقفك سليم قانونيًا، وكلانا يعلم أيضًا أنه هناك ما تخفيه، حتى يظل كذلك، ولكنني لست مبتدئًا في عملي، فما يحدث الليلة ليس طبيعيًا، ولو ربطناه بقدوم ثلاثتكم، في طائرة واحدة، فسيعني هذا أنها لعبة.

ومال أكثر، وهو يتفرس في ملامح (رءوف)، مستطردًا:

- لعبة مخابرات.

ابتسم (رءوف) في سخرية، وقال:

- يا للذكاء!

تراجع (مارتان) في حدة، لرد الفعل الذي لم يكن يتوقعه، وقال:

- هكذا!.. فليكن إذن يا مسيو (رءوف).. لقد أقمست أن أفهم كل ما يحدث، وأن أكشف القناع عما تفعلونه هنا، ولن يهدأ لي بال، حتى أضعكم جميعًا خلف القضبان.. هل تفهم؟

ظل (رءوف) محتفظًا بابتسامته الساخرة، وهو يقول:

- أفهم.

هتف (مارتان):

- هيا بنا يا رجال.

واندفع يغادر الحجرة في عصبية، وتبعه رجاله في سرعة، تاركين (رءوف) وحده، ولم يكد هو يجد نفسه كذلك، حتى تلاشت ابتسامته الساخرة، وانعقد حاجباه في توتر، وهو يقول في نفسه:

- من الواضح أن الأمور قد تعقدت كثيرًا.

وشرد ببصره، مستطردًا:

- وأنه من الضروري أن تنتهي العملية.. وبسرعة..

☆ ☆ ☆

أشرقت الشمس في الصباح التالي، وعبر ضوءها تلك النافذة الشرقية، في فيلا (كاهان)، ليسقط على وجه (إيزاك)، الذي تطلع إلى الشمس في تراخ، ثم مد يده يدعك جفنيه في إرهاق، وعاد يلتقط بهما قلمًا أنيقًا، ويواصل وضع بعض الخطوط، فوق ورقة كبيرة، ازدحمت بالأسماء والأرقام والخطوط..

وارتفعت دقات هادئة على باب الحجرة، فوضع (إيزاك) قلمه، وعاد يدعك جفنيه، قائلًا:

- ادخل.

دلف (إليعازر) إلى الحجرة، وهو يحمل قدح القهوة، وضعه أمام (إيزاك)، وهو يقول في صوت خافت، وكأنه يخشى تحطيم السكون المخيم على الحجرة:

- القهوة التي طلبتها يا سيدي.

التقط (إيزاك) قدح القهوة، وارتشف منه رشفة سريعة، ثم أعاده إلى موضعه، وهو يسأل (إليعازر):

- هل أوى (كاهان) إلى فراشة؟

أجابه (إليعازر):

- إنه يغط في نوم عميق.

رفع (إيزاك) حاجبيه في دهشة، وهو يقول:

- عجبًا!!.. لم أتصور أبدًا أنه سيستطيع النوم.

قال (إليعازر):

- لقد قضى ليلة مرهقة.

وصمت لحظة، ثم أضاف:

- ثم إنه يتعاطى أقراصًا منومة.

ابتسم (إيزاك) قائلًا:

- هكذا!

ثم أشار إلى (إليعازر)، مستطردًا:

- اجلس يا (إليعازر).. أريد التحدث إليك.

أطاعه (إليعازر)، وهو يغمغم:

- لقد أرسلت إلى رجالنا في (القاهرة)، أطلب منهم تحري أمر الرجال الثلاثة، ولكنهم لم يرسلوا ردودهم بعد.

قال (إيزاك):

- دعك من هذا.. إنني أريد رأيك.

هتف (إليعازر) في دهشة:

- رأيي أنا؟!

أومأ (إيزاك) برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم يا (إليعازر).. إننا سنلعب معًا لعبة شهيرة، تحمل اسم: ماذا تفعل، لو كنت مكاني.

بدت الحيرة على وجه (إليعازر)، فتابع (إيزاك):

- سنفترض أننا نحن رجال المخابرات المصرية، ونريد أن ترسل أحد رجالنا، لتصفية مكتب (الموساد) في (باريس)، فكيف نختار هذا الرجل، وبأية هيئة نرسله؟

ظلت الحيرة تكسو وجه (إليعازر)، فاعتدل (إيزاك)، وأخذ يشرح فكرته، قائلًا:

- إننا نعلم أن أحد الرجال الثلاثة رجل مخابرات بالغ الخطورة، ولقد اختبرنا أسلوب الثلاثة، أو على الأقل ما يحاولون إظهاره، وبقي أن نسأل أنفسنا، من منهم يمكن أن يكون رجل المخابرات المنشود؟

قال (إليعازر) في حماس:

- كلهم.

ابتسم (إيزاك)، وقال:

- هذا مستحيل كما تعلم.. إنه أحدهم فحسب، ولكن دعنا نضع قواعد التخفي، التي ينبغي أن يتبعها عميل سري كهذا.. المفروض أن يخفي شخصيته الحقيقية بالطبع، وأن يحيط نفسه بالتغطية المناسبة، بحيث لا يلفت انتباهنا، و..

بتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه، وهو يهتف:

- يا للشيطان!.. إنه هو بالطبع.

واجتاح الانفعال صوته وجسده، وهو يستطرد:

- لقد عرفته.. عرفت رجل المخابرات المطلوب يا (إليعازر).

انتقلت عدوى الانفعال إلى (إليعازر)، الذي هب من مقعده، هاتفًا:

- من هو يا سيدي.. أخبرني، وسيلقى مصرعه بعد ساعة واحدة.

برقت عينا (إيزاك)، وهو يقول:

- لا يا (إيزاك).. لن نقتله.. أريد أن ألقن (كاهان) العتيق هذا درسًا، في كيفية أداء اللعبة.. إننا سنلقي القبض على رجل المخابرات المصري يا (إليعازر).. وسنحضره إلى هنا.. على قيد الحياة.

وانطلقت من حلقه ضحكة ظافرة..

☆ ☆ ☆

على الرغم من دقة موقفها، وصعوبة مهمتها، كانت (ريم) تشعر بارتياح بالغ، عندما استيقظت هذا الصباح، حتى أن ابتسامتها تألقت على وجهها، وهي تغادر فراشها، وتغتسل، تبدأ في ارتداء ثيابها..

وفي هذه المرة راحت تنتقي ثوبها في عناية..

وبعد نصف ساعة من التردد، اختارت ثوبًا أزرق، له حزام أبيض كبير، بدا رائعًا على جسدها الجميل، وتصفيفة شعرها الأنيقة، وابتسمت في سعادة، وهي تتطلع إلى نفسها في المرآة، ثم اتجهت إلى الهاتف المجاور لفراشها في مرح، وطلبت رقمًا قصيرًا، لحجرة أخرى في نفس الفندق، ولم يكد الرنين يبدأ، حتى التقط صاحب الحجرة الأخرى سماعة هاتفة، وقال في لهفة:

- صباح الخير، أنا (رشدي).

تضرج وجهها بحمرة الخجل، وكأنها تقف أمامه مباشرة، وقالت:

- هل استيقظت؟

أجابها في لهفة:

- إنني أنتظر استيقاظك أنت بفارغ الصبر.

أسعدتها عبارته، وسألته في حياء:

- ما رأيك في هذا الفندق؟.. أهو أفضل من فندقك السابق؟

أجابها في هيام:

- إنه أعظم فندق في العالم كله، ما دمت تقيمين فيه.

عاد وجهها يتضرج بحمر الخجل، وهي تقول:

- هذا يسعدني.

أدهشها أنها تتعامل معه بهذا الأسلوب، وكأنها مراهقة صغيرة، ينبض قلبها، بالحب لأول مرة، وهي التي اعتادت مواجهة المخاطر والصعاب، و..

وانتزعت نفسها من هذا الاستنكار الداخلي، لتضيف:

- هل ستهبط لتناول طعام الإفطار؟

أجابها في لهفة:

- نعم.. سنلتقي في قاعة الطعام بعد خمس دقائق.. أتوافقين؟

قالت في خفوت:

- بالطبع.

نطقتها وقلبها ينبض في قوة، ثم أسرعت تلقي نظرة أخرى على ثوبها في المرآة، وغادرت حجرتها في لهفة حقيقية للقاء (رشدي)..

إنها تحبه ولا شك..

تحب طيبته وبساطته وحنانه..

تحب فيه كل ما تمنته في فارس أحلامها، منذ كانت صبية صغيرة.. وعندما استقلت المصعد، كانت تشعر أنها قد رجعت بالفعل مجرد صبية صغيرة..

ولم يكد المصعد يصل إلى الطابق الأرضي، حتى غادرته في لهفة، وأدارت عينيها في المكان، بحثًا عن (رشدي)..

ورأته..

رأته يبتسم في سعادة، ويتجه إليها في لهفة..

وفجأة اعترض طريقه رجل ضخم..

ولم تخطئ عيناها المشهد...

لقد رأت ذلك المسدس، الذي دسه الضخم في معدة (رشدي)، وهو يقول شيئًا ما، جعل وجه (رشدي) يحتقن في شدة، وهو يتطلع إليها في قلق:

- وتحركت (ريم) في سرعة نحو (رشدي) والرجل الضخم، وانعقد حاجباها في غضب صارم، ولكن (رشدي) هتف بها في توتر:

- لا يا (ريم).

والتفت إليها الضخم في عدوانية وشراسة، فأضاف (رشدي):

- لا تقتربي يا (ريم).. إنه يطلب مني الانصراف معه فحسب.

قالت (ريم) في صرامة:

- لن يمكنه أن يؤذيك هنا يا (رشدي).

ضغط الضخم فوهة مسدسه في معدة (رشدي)، وهو يقول في وحشية:

- هل تراهنين؟

هتفت:

- إذن فأنت تتحدث العربية.

تمتم (رشدي) في توتر:

- كيف تتصورين أنني فهمت عبارته إذن؟

قالت في حدة:

- على أي الأحوال، لن أسمح له باختطافك أمام عيني هكذا.

تلفت (رشدي) حوله في قلق، ثم خفض صوته، وهو يقول:

- أرجوك يا (ريم).. تدخلك سيؤدي إلى كارثة.. إنني أعلم ما سأفعله.. أرجوك.. إنه سيطلق النار على الأبرياء دون تردد.. صدقيني.. أنا أعرف هذا الطراز جيدًا.

ترددت لحظة، وقالت في حدة:

- لا يمكنني يا (رشدي).

ولكنها شعرت فجأة بإبرة محقن تغوص في ذراعها، مع صوت يقول بالفرنسية من خلفها:

- ألا يمكنكن طاعة الأوامر أبدًا أيتها النساء؟

أرادت أن تصرخ، ولكن الأرض مادت بها، وأظلمت الدنيا أمام عنينيها، وسقطت فاقدة الوعي، في الوقت الذي هتف فيه الرجل المتحدث بالفرنسية:

- أسرعوا في طلب طبيب... لقد فقدت السيدة وعيها.

ثم أمسك ذراع (رشدي)، ودفعه أمامه، قائلًا في صرامة:

- هيا بنا.

ألقى (رشدي) نظرة قلقة على (ريم)، التي التف حولها رواد الفندق وموظفوه، يحاولون إسعافها، وسأل الرجل المتحدث بالعربية، والرجلان يدفعانه نحو سيارتهما، المتوقفة أمام الفندق:

- ماذا فعلتما بها؟

أجابه الرجل في صرامة:

- اطمئن.. إنه مخدر قوي فحسب.

تنهد في ارتياح، وتركهما يضعانه داخل السيارة، ثم ينتقل الفرنسي لقيادتها، في حين جلس الناطق بالعربية إلى جواره، وألصق فوهة مسدسه بجانبه، قائلًا:

- لم أكن أتوقع استسلامك بهذه البساطة.

سأله (رشدي) في قلق واضح:

- ماذا كنت تتوقع؟

أجابه الرجل بالفرنسية، فهز (رشدي) رأسه، وقال:

- معذرة.. لست أفهم الفرنسية.

ابتسم الرجل في سخرية، وقال بالعربية:

- لا داعي للتظاهر بهذا يا رجل.. لقد كشفنا أمرك.. كشفناه يا رجل المخابرات المصرية.

ولم يعترض (رشدي)..

لم يعترض أبدًا.

☆ ☆ ☆

10- الدليل..

انطلق (رءوف) بالسيارة الأنيقة، التي استأجرها، فور وصوله إلى (باريس)، وتطلع في اهتمام إلى مرآة السيارة، وهو يغمغم لنفسه:

- من الواضح أنني مراقب، فتلك السيارة لم تتوقف عن مطاردتي، منذ غادرت فندقي.

واصل سيره عبر الطريق الرئيسي في هدوء، حتى اقترب من تقاطع طرق كبير، فانحرف بالسيارة يسارًا، وهو يقول:

- حسنًا.. فلنثبت لهؤلاء الأوغاد أننا أكثر مهارة منهم.

وفجأة انحرف يمينًا، وتجاوز الطريق في سرعة، وسمع أكثر من نفير احتجاج ينطلق خلفه، ولكنه تجاهل كل هذا، ودلف إلى طريق جانبي ضيق، ومرق عبره في سرعة، ثم انحرف يسارًا مرة أخرى، وعاد إلى طريق رئيسي آخر، فابتسم في ثقة وسخرية، وهو يتطلع إلى مرآة السيارة، قائلًا:

- هكذا أفلتنا من المطاردة.

وأوقف سيارته على جانب الطريق، وغادرها في سرعة، وأسرع نحو طريق جانبي آخر، وعبره في خطوات أقرب إلى العدو، قبل أن يتجاوزه إلى طريق آخر، رفع يده يستوقف فيه واحدة من سيارات الأجرة، وقفز داخلها، وهو يلقي العنوان المنشود لسائقها بالفرنسية، واسترخى داخلها، وهو يبتسم ساخرًا، متمتمًا:

- أراهن أنني أفلت من المراقبة تمامًا.

بدا هادئًا واثقًا، وهو يسترخى في الأريكة الخلفية للسيارة في صمت وسكون، حتى بلغت سيارة الأجرة العنوان المطلوب، فغادرها (رءوف)، ودخل بناية ضخمة، حمله مصعدها إلى الطابق العاشر، حيث استقبله في أحد شققه رجل متين البنيان، أكرت الشعر، ابتسم وهو يصافحه في حرارة، قائلًا:

- مرحبًا يا (رءوف).. لم أتوقع وصولك في الموعد المحدود.

صافحه (رءوف)، وابتسم بدوره، وهو يقول:

- لم يكن ذلك سهلًا يا (عوني).

خلع معطفه، وألقاه على أول مقعد صادفه، ثم اتجه في خطوات سريعة إلى النافذة، وتوارى خلف ستارتها، وهو يزيحها جانبًا في حرص، ويلقي نظرة على الطريق، فسأله (عوني) في قلق:

- هل طاردك أحدهم؟

أجابه (رءوف):

- اطمئن.. لقد أفلت منهم.

سأله (عوني):

- وهل أنت واثق من أنهم لم يتبعوك إلى هنا؟

أجابه في حزم، وهو يعيد الستارة إلى موضعها:

- تمام الثقة.

تنهد (عوني) في ارتياح، وأشار إليه الجلوس، قائلًا:

- في (القاهرة) يشعرون بالقلق، بسبب محاولة القتل هذه.

هز (رءوف) كتفيه في لامبالاة، وقال:

- دعك من هذا، وأخبرني.. هل يمكن إنهاء العملية الليلة؟

عقد (عوني) حاجبيه، وقال:

- لماذا؟.. أبسبب محاولة القتل؟

أومأ (رءوف) برأسه إيجابًا، وقال:

- محاولة القتل في حد ذاتها، تعني أن بعضهم كشف أمرنا، ويرغب في إزاحتنا عن الطريق، ولكن هذا لا يقلقني، فهو أحد صور التنافس في عالمنا، ولكن أحد مفتشي الشرطة هنا يحاول البحث عن دليل، يؤكد تورطي في عمل غير مشروع، وأظن السيارة التي طاردتني كانت تتبع له، وهذا يعرض عمليتنا لمخاطر لا داعي لوجودها، وأفضل وسيلة لتفادي هذه المخاطر، هي أن ننهي العملية بأسرع ما يمكن.

احتفظ (عوني) بحاجبيه المعقودين، وهو يفكر في عمق، ثم لم يلبث أن هز رأسه، وقال في حسم:

- لا يمكنني إجابة هذا السؤال، قبل استشارة (القاهرة).

أشار (رءوف) إلى الهاتف، قائلًا:

- استشرهم إذن.

تطلع إليه (عوني) لحظة في تردد، ثم قال:

- ولم لا؟

واتجه إلى الهاتف، والتقط سماعته، وقال وهو يضغط أزراره:

- هذا سيدهش الآخرين، وسيثير ارتباكهم.

ابتسم (رءوف)، وقال:

- لن يدهشني هذا.

مط (عوني) شفتيه، وارتسمت على وجهه علامات القلق، ولكنه لم يلبث أن اعتدل، وقال في احترام:

- صباح الخير يا سيدي.. أنا (عوني).

استمع إلى محدثه في اهتمام، قبل أن يقول:

- لا.. لم يحدث أي أمر آخر.. (رءوف) بخير، وهو يجلس هنا أمامي.

ومال إلى الأمام، وخفض صوته، وهو يستطرد:

- إنه يطلب إتمام العملية الليلة.. نعم.. لديه مبرراته بالطبع.

نقل إلى محدثه كل المبررات، التي ساقها إليه (رءوف)، وأضاف إليها رأيه الشخصي، ثم استمع إلى محدثه في اهتمام بالغ، وأخيرًا ابتسم، قائلًا:

- شكرًا يا سيدي.. هذا قرار حكيم بالتأكيد.

وأنهى الاتصال، ثم التفت إلى (رءوف)، وضم قبضته، ورفع إبهامه، وهو يبتسم قائلًا:

- ابتهج يا رجل.. لقد وافقت (القاهرة)، على إتمام العملية الليلة.

ابتسم (رءوف) ابتسامة واثقة، وهو يقول:

- كنت أعلم أنهم سيوافقون.

ونهض من مقعده في حماس، فسأله (عوني):

- إلى أين؟

أجابه في ثقة هادئة:

- إلى العمل يا رجل.. إلى اللقاء.

وغادر المكان في سرعة، جعلت (عوني) يبتسم ويغمغم:

- يا له من رجل!

ثم عاد إلى عمله، وهو يعلم أن (رءوف) سيواجه الليلة مخاطر عظيمة..

وضخمة..

☆ ☆ ☆

التقط (رفعت) صورة واضحة، لذلك الشخص، الذي يراقبه منذ الصباح، وابتسم لنفسه قائلًا:

- عظيم.. كل شيء يسير على ما يرام.

ثم أطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا كالمعتاد، وهو يستقل سيارته، عائدًا إلى شقته، ولم يكد يبلغها حتى لمح (مارتان) أمام البناية، يستند إلى سيارته، والغضب يملأ ملامحه في وضوح، فلم يكن من (رفعت) إلا أن أوقف سيارته إلى جواره، وقال في هدوء:

- صباح الخير أيها المفتش.

لم يجب (مارتان) التحية على الفور، وإنما تطلع إلى (رفعت) في غضب، قبل أن يقول في عصبية واضحة:

- أهنئك يا مسيو (رفعت).

غادر (رفعت) سيارته، وهو يقول مبتسمًا:

- على ماذا؟

أجابه في حدة:

- على نجاحك في الإفلات من المراقبة.

رفع (رفعت) حاجبيه، في دهشة مصطنعة، وهو يقول:

- مراقبة؟!.. أكانت هناك مراقبة حقًا؟

تجاهل (مارتان) تلك النبرة الساخرة، في وصوت (رفعت)، وسأله:

- أين تعلمت الإفلات من المطاردات يا مسيو (رفعت)؟

أجابه (رفعت) في رصانة ساخرة:

- الأمر يعود إلى كثرة الديون، و..

قاطعه (مارتان) في حدة:

- فليكن.

ابتسم (رفعت)، وهو يقول:

- أنت الذي يسأل.

قال (مارتان) في حدة:

- لقد سئمت أسلوبكم هذا، الذي يؤكد ظنوني بشأن وجود أمر مريب، وأؤكد لك أنني سألقي القبض عليكم جميعًا، عندما أضع يدي على الدليل، و..

قاطعه (رفعت):

- معذرة أيها المفتش، هل سنمضي اليوم كله في الاستماع لنصائحك ومحاضراتك.. أعني أن لدي الكثير من الأعمال، و..

هتف (مارتان) بكلمته التقليدية:

- فليكن.

ثم اندفع نحو سيارته، مستطردًا:

- من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا.

وأدار محرك سيارته، لينطلق بها في عصبية واضحة، مما جعل (رفعت) يعقد حاجبيه، مرددًا في توتر:

- هذا لو كان هناك ما يدعو إلى الضحك أيها المفتش.

وصعد إلى شقته، وهو يشعر أن الليلة ستحمل الكثير من القلق.. ومن الخطر..

☆ ☆ ☆

فتحت (ريم) عينيها في صعوبة، وتطلعت لحظات إلى تلك الوجوه المحيطة بها، قبل أن يستعيد ذهنها تفاصيل المواقف كلها، فاتسعت عيناها في ذعر، وهتفت:

- (رشدي).. أين (رشدي)؟

امتدت يد طبيب تربت على كتفها، وصاحبها يقول بالفرنسية:

- اهدئي يا بنيتي.. اهدئي.. كل شيء على ما يرام.

صاحت به بفرنسية مماثلة:

- أين (رشدي)؟

سألها في حيرة:

- من (رشدي) هذا؟

هتفت:

- الشاب الذي كان بصحبتي.. عندما..

لم تجد ما تتم بها عبارتها، فلم يكن ذلك الجزء من ذاكرتها، الخاص بفقدانها الوعي، قد استيقظ تمامًا بعد، مما جعلها تكرر في مرارة:

- أين هو؟

- ربت الطبيب على كتفها مرة أخرى، وقال:

- لم يكن هناك أحد بصحبتك يا بنيتي، عندما سقطت.

قالت في حدة:

- ولكنني واثقة.

أومأ برأسه متفهمًا، وقال:

- هذا من تأثير العقار.

سألته في دهشة:

- أي عقار؟

أجابها في وضوح، وهو يتطلع إليها بنظرة عتاب:

- العقار المخدر، الذي أدى إلى فقدانك الوعي.. إنه عقار قوي، يسبب لمتعاطيه فقدان الشعور بالزمان والمكان، ويفسد ذاكرته ومشاعره، و..

مط شفتيه، وهو يرمقها بنظرة خاصة، مستطردًا:

- وفي النهاية يدمر متعاطيه تمامًا.

حدقت في وجهه لحظات في دهشة وحيرة، ثم هتفت في غضب:

- إنك تتحدث كما لو كنت مدمنة مخدرات.

أشاح بوجه عنها، وهو يقول:

- تحليل الدم أثبت وجود نسبة كبيرة من عقار مخدر قوي، وهذا لا يعني سوى..

قاطعته في توتر:

- أريد إجراء محادثة هاتفية.

ابتسم قائلًا:

- لا داعي للقلق.. إننا لم نبلغ الشرطة، ولن..

قاطعته مرة أخرى في حدة:

- أرجوك.. أريد إجراء محادثة هاتفية.

أشار إلى الهاتف المجاور لفراشها، قائلًا:

- ومن يمنعك؟

التقطت سماعة الهاتف، وضغطت أزراره في سرعة، في حين انصرف الطبيب بصحبة الممرضة، وهو يقول لهذه الأخيرة:

- ستبقى تحت المراقبة لست ساعات أخرى، وبعدها يمكنها الانصراف.. بعد سداد رسوم المستشفى بالطبع.

لم تسمع (ريم) هذا، ولم تنتبه إليه، وهي تتحدث عبر الهاتف، قائلة:

- أنا (ريم).. لا.. لست أتحدث من الفندق، بل من المستشفى.. سأشرح لك كل شيء فيما بعد.. المهم.. هل تذكر ذلك الشاب، صاحب الوجه الطفولي، الذي كان يجادل شرطي المرور، في (الشانزليزيه)؟.. لقد اختطفوه.. نعم.. اختطفوه.. إنهم يتصورون أنه يعمل لحسابكم بالتأكيد.. لابد من إنقاذه.. لابد.

كان قلبها يرتجف بين ضلوعها، وهي تهتف بالعبارة، وعقلها يلقي على مشاعرها سؤالًا واحدًا لا يتغير..

أين (رشدي).. الآن؟..

أين؟..

☆ ☆ ☆

تألقت عينا (إيزاك) ببريق ظافر، وهو يتطلع إلى (رشدي)، الذي جلس على مقعده مرتجفًا متوترًا، يدير عينيه في المكان في خوف واضح، في حين عقد (كاهان) حاجبيه، وهو يتطلع إلى (رشدي) بدوره، قبل أن يلتفت إلى (إيزاك)، قائلًا:

- إنه لا يبدو لي أبدًا كرجل مخابرات بالغ الخطورة.

نفث (إيزاك) دخان سيجارته، وهو يقول:

- إنه يحسن تمثيل دوره فحسب.

ثم التفت إلى (رشدي)، قائلًا:

- أليس كذلك يا رجل؟

تطلع إليه (رشدي) في حيرة، وارتجفت الكلمات على شفتيه، وهو يقول:

- معذرة يا سيدي.. إنني أجهل الفرنسية.

ابتسم (إيزاك) في سخرية، وقال:

- أما زلت تصر على التظاهر بالغباء؟

ثم أردف بالعربية:

- فليكن.. هل تفهم هذه اللعبة؟

ازدرد (رشدي) لعابه في وضوح، وهو يقول:

- نعم يا سيدي.. أفهمها.

التقط (إيزاك) نفسًا عميقًا من سيجارته، ونفثه في عمق، قبل أن يلتفت إلى (رشدي)، قائلًا في ثقة:

- اسمح لي أولًا بتهنئتك يا رجل، فلقد نجحت في خداعنا طويلًا، حتى تصورنا أنك بالفعل مجرد تاجر خردوات بسيط، يسعى لعقد صفقة مربحة في (باريس).

غمغم (رشدي) مرتبكًا:

- ولكنني كذلك بالفعل يا سيدي.

لوح (إيزاك) بيده، وقال:

- قلت لك لا داعي لمواصلة الخداع.. لقد كشفت أمرك تمامًا.. إنك بالفعل شديد البراعة، ولكنك لن تخدع رجلًا مثلي.. أنا أعلم أنك رجل المخابرات المصري، وأنك تفهم اللعبة جيدًا، بدليل إنقاذك لـ (رفعت) في (الشانزليزيه).

غمغم (رشدي):

- لقد تعثرت، و..

قاطعه (إيزاك):

- هذا ما أردته أن يبدو للآخرين، ولكن الواقع أنك تظاهرت بهذا، لتدفعه بعيدًا عن مرمى طلقة القناص.

قال (رشدي)، في لهجة أقرب إلى البكاء:

- وكيف لي أن أعلم، أن أحدهم ينوي إطلاق النار عليه؟

تجاهل (إيزاك) هذا الاعتراض تمامًا، وقال:

- ثم خدعت رجلنا، الذي حاول قتلك، وجعلته يطعن صندوق الكهرباء بدلًا منك.

بدا (رشدي) أقرب إلى الانهيار، وهو يقول:

- كانت مجرد مصادفة.

قهقه (إيزاك) ضاحكًا، وهو يقول:

- حقًا؟!

ارتفع في تلك اللحظة رنين الهاتف، فالتقط (إليعازر) سماعته، وقال بصوته الأجش الغليظ:

- هنا المكتب الثقافي الإس....

وبتر عبارته، ليستطرد في لهفة:

- نعم يا (داوود).. إننا ننتظرك بفارغ الصبر.

والتفت إلى (إيزاك)، قائلًا:

- إنهم رجالنا في (القاهرة).. لقد حصلوا على المعلومات اللازمة.

قال (إيزاك) في انفعال:

- مرهم بإرسالها بـ (الفاكس) على الفور.

ثم رمق (رشدي) بنظرة ساخرة، قبل أن يستطرد:

- وليبدءوا بمعلوماتهم عن (رشدي كامل).

ازدرد (رشدي) لعابه في وضوح مرة أخرى، وبدا شديد التوتر، وهو يتطلع إلى جهاز (الفاكس)، الذي ضغط (إليعازر) أزراره، وجلس ينتظر الجواب..

وفي بطء، خرجت ورقة كبيرة من (الفاكس)، التقطها (إيزاك) في لهفة، وألقى نظرة سريعة على محتوياتها، قبل أن ينعقد حاجباه في شدة، ويختطف سماعة الهاتف من يد (إليعازر)، قائلًا في انفعال:

- أأنت واثق من هذه المعلومات يا (داوود)؟

بدا التوتر على ملامحه أكثر، وهو يستمع إلى الجواب، مما دفع (كاهان) إلى سؤاله:

- ماذا هناك؟

أزاح (إيزاك) السماعة عن أذنه، وقال في انفعال واضح:

- مفاجأة.. مفاجأة مذهلة.

وكان على حق.

☆ ☆ ☆

11- المفاجأة..

لم يكد (رءوف) يوقف سيارته أمام فندق (ريتز)، حتى ظهر أمامه المفتش (مارتان)، وهو يقول:

- مرحبًا يا مسيو (رءوف).. كيف حال سيارتك الأنيقة؟

أجابه (رءوف) في برود، وهو يغادر السيارة، ويسلم مفاتيحها إلى عامل الفندق:

- لم لا تطرق الأمر مباشرة أيها المفتش؟

كان (مارتان) يتوقع هذا الأسلوب الهجومي، لذا فقد احتفظ بهدوء أعصابه، وهو يقول:

- فليكن يا مسيو (رءوف).. هلا أخبرتني، لماذا هربت من المراقبة هذا الصباح؟

أجابه (رءوف) في لامبالاة، وهو يتجه إلى بهو الفندق:

- إنني أكره كوني مراقبًا، ثم إنك لا تملك الحق في مراقبتي، فأنا المجني عليه لا الجاني، وسأتقدم بشكوى إلى رؤسائك.

قال (مارتان)، وهو يتبعه إلى المصعد:

- تقدم بالشكوى التي تحلو لك يا مسيو (رءوف)، فأنا أؤدي واجبي، أما كونك المجني عليه أو الجاني، فهذا ما ستثبته التحريات.

التفت إليه (رءوف) بحركة حادة، وقال في صرامة:

- اسمع أيها المفتش.. إنني رجل أعمال، وأنا هنا لعقد صفقات خاصة، تتجاوز أقلها مرتبك في قرن كامل، وتتبعك الدائم لي يثير

أعصابي، وقد يتسبب في خسارة صفقاتي، مما سيمنحني الحق في مقاضاتك.

سأله (مارتان) في اهتمام:

- وما نوع هذه الصفقات؟

تطلع إليه (رءوف) في برود، وقال:

- مخدرات.. أيروق لك هذا الجواب؟

أجابه (مارتان) في برود مماثل؟

- كثيرًا.

ثم استدار، ولوح بكفه، مستطردًا:

- ولكن لا تجعل المراقبة تقلقك كثيرًا، فهي ستستمر، حتى آخر لحظة لك هنا.

ابتسم (رءوف) في سخرية، وهو يقول لنفسه:

- لن يطول هذا كثيرًا.

واستقل المصعد في هدوء، وعقله يرتب الأمور، وبضع حساباته للضربة الكبرى، في منتصف الليل..

الضربة الأخيرة..

☆ ☆ ☆

ارتفع حاجبا ممرضة المستشفى في دهشة، وهي تحدق في (ريم)، التي ارتدت ثيابها، واستعدت للخروج، وهتفت بها:

- خطأ يا مدموازيل.. غير مسموح لك بالانصراف، قبل الثالثة.

أزاحتها (ريم) عن طريقها، وهي تقول في صرامة:

- اضبطي ساعتك إذن، فلن أبقى لحظة واحدة بعد الآن.

جرت الممرضة خلفها، في ممرات المستشفى، هاتفة:

- إنك ستتسببين في إيذائي، فالطبيب لن يسمح بهذا.

لوحت (ريم) بكفها، هاتفة:

- فليذهب إلى الجحيم.

توقفت الممرضة في يأس، وهي تهتف:

- وماذا عن رسوم المستشفى؟

ظهر شاب في نهاية الممر، يقول في هدوء:

- لقد تم سدادها، وها هو ذا الإيصال..

هتفت (ريم)، وهي تسرع نحو الشاب:

- (علاء).. حمدًا لله أنك أتيت.. أخبرني.. هل توصلتم إلى شيء، بخصوص (رشدي)؟

أجابها في هدوء، وهو يسير إلى جوارها، في خطىً سريعة، إلى خارج المستشفى:

- ليس بعد، ولكنني أظنه بخير.

سألته في حدة:

- ولماذا تظن هذا؟.. أنسيت أنهم حاولوا قتله من قبل؟

مط شفتيه، وقال:

- لست أدرى لماذا حاولوا، ولكن الأمور ليست كما تتصورين على الأقل.

سألته في توتر:

- ماذا تعني؟

ابتسم وهو يجيب:

- أعني أن كل شيء يسير على ما يرام، بالنسبة لخطتنا.

صاحت:

- على الرغم من كل هذا؟

أجابها في هدوء:

- نعم.. إنهم لم يشكوا في أمرك على الأقل، وهذا أهم ما في الأمر.

قالت في غضب:

- لم يشكوا في أمري؟!.. كيف تفسر ما حدث لـ (رشدي) إذن؟

هز كتفيه، قائلًا:

- مجرد خطأ.

صاحت مستنكرة:

- خطأ؟!

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم.. مجرد خطأ.

وعلى الرغم من ثقتها به، وبكل ما ينتمي إليه، فقد شعرت مع كلماته بالقلق..

القلق الشديد..

☆ ☆ ☆

سرت انتفاضة عجيبة في جسد (كاهان)، وهو يسأل (إيزاك) في قلق:

- أية مفاجأة هذه؟

أجابه (إيزاك) بالفرنسية في عصبية:

- هذه الأوراق تقول.. إن ذلك الرجل تاجر خردوات في (الموسكي) بالفعل.

غمغم (كاهان)، في لهجة خلت تقريبًا من أي انفعال:

- حقًّا؟!

لوح (إيزاك) بالأوراق، وهو يهتف في عصبية:

- هناك خطأ حتمًا.. أنا واثق بأن هذا الرجل هو من نبحث عنه.

أجابه (إليعازر) في تردد:

- لا توجد أخطاء يا سيدي.. (داوود) شديد الدقة والحرص، في مثل هذه الأمور.

صاح (إيزاك):

- لقد أوقع به المصريون إذن وهم الذين أجبروه، على إرسال مثل هذا التقرير، لتغطية رجلهم.

أجابه (كاهان):

- مستحيل، فلو أن هذا ما حدث، لأرسل (داوود) الكلمة المتفق عليها، في بداية التقرير، والتي تشير إلى ما حدث، وإلى أنه يرسل تقريره مرغمًا، أو تحت التهديد.

صاح (إيزاك) في حدة:

- ربما أجبروه على عدم إرسالها.

قال (كاهان) في صرامة:

- هذا مستحيل أيضًا، فهي كلمة عادية للغاية، لا يمكن لسوانا ملاحظتها، أو فهم مغزاها.

بدا الغضب والحنق على وجه (إيزاك)، والتفت في عصبية إلى (رشدي)، الذي أطلت الحيرة من عينيه، وهو ينقل بصره بين وجوه الجميع في قلق، فهتف به (إيزاك) بالفرنسية:

- لقد نجح رفاقك في تغطيتك.. أليس كذلك؟

ارتجفت الكلمات مرة أخرى، على شفتي (رشدي)، وهو يقول:

- أرجوك يا سيدي.. لست أفهم حرفًا واحدًا من حديثك.. أقسم لك.

قال (كاهان) في صرامة:

- أرأيت في حياتك رجل مخابرات مصري، يرتجف رعبًا على هذا النحو؟ هيا يا (إيزاك).. اعترف بخطئك.

صاح (إيزاك):

- مستحيل!

ثم عاد يلوح بالأوراق، هاتفًا:

- هذا التقرير يؤكد أن (رشدي كامل) تاجر خردوات بسيط، بحي (الموسكي)، ولكن من يؤكد أن الجالس أمامنا هو نفسه (رشدي كامل)؟

أجابه (إليعازر):

- هذا يا سيدي.

التفت إليه (كاهان) و(إيزاك)، فاستطرد، وهو يلتقط ورقة أخرى من جهاز (الفاكس):

- هذه الصورة وصلت عبر (الفاكس)، وأنتما تناقشان أمر هذا الرجل.

ورفع أمامهما الورقة، التي تحمل صورة واضحة لـ (رشدي كامل)، الذي يجلس أمامهما.

وامتقع وجه (إيزاك)، وهو يتطلع إلى الصورة، في حين ابتسم (كاهان) في شماتة، وهو يقول:

- لم يعد هناك شك.. إنها صورته.

بقي (إيزاك) صامتًا ممتقعًا لحظات، ثم اندفع نحو الهاتف، واختطف سماعته من (إليعازر)، وهو يقول:

- اسمعني يا (داوود).. هل تأكدت من هذه المعلومات؟.. هل تحدثت مع التجار الآخرين في (الموسكي)؟.. هل..؟

بتر عبارته، وهو يستمع إلى (داوود) في انتباه كامل، قبل أن يعيد السماعة إلى (إليعازر) في حدة، قائلًا:

- لا بأس.. اطلب منه إرسال باقي التقارير.

ثم التفت إلى (كاهان)، مستطردًا في توتر:

- الجميع يعرفونه في (الموسكي)، فهو ابن تاجر أدوات تجميل، توفى منذ عام واحد، وهو وريثه الوحيد، ولقد تسلم المتجر، ويحاول إدارته على نحو جيد، منذ وفاة والده.

حاول (كاهان) عبثًا إخفاء ابتسامته الشامتة، وهو يقول:

- لا بأس.. إنه مجرد خطأ.

رمقه (إيزاك) بنظرة غاضبة محنقة، وهو يقول:

- كنت أتصور المصريين أكثر ذكاء.

أجابه (كاهان):

- إنهم كذلك حتمًا، ما دمنا لم نتوصل بعد إلى عميلهم.

أطفأ (إيزاك) سيجارته في عصبية، وهو يقول:

- سنتوصل إليه حتمًا.

ثم استل مسدسه من جيب سترته، وألصقه بصدغ (رشدي)، الذي اتسعت عيناه في ذعر، و(كاهان) يقول:

- ماذا ستفعل؟

أجابه (إيزاك)، بكل ما يملأ نفسه من غضب وحنق:

- كنت أظن هذا واضحًا، فهذا السخيف يعرف أكثر مما ينبغي، وسأفعل أنا معه ما ينبغي.

وجذب إبرة المسدس، مستطردًا في صرامة:

- سأقتله.

وانقبضت كل عضلة في جسد (رشدي)..

وابتسم ملك الموت..

☆ ☆ ☆

12- جاسوس برغم أنفه..

توقفت سيارة فرنسية الصنع، أمام فندق (ريتز)، وفي داخلها بدت (ريم) في أبهى صورها، وإن تعارض ذلك التوتر البادي على وجهها، مع ثوبها الأزرق الرقيق، وهي تقول للشاب الذي يقود السيارة، في شيء من العصبية:

- لست أدري كيف يمكنني مواصلة عملي بصورة طبيعية، ونحن لم نعثر بعد على أدنى أثر لـ (رشدي).

قال الشاب، محاولًا تهدئتها:

- اطمئني يا (ريم).. لقد أكدت لك أن اختطاف (رشدي) مجرد خطأ، ولن يلبث مختطفوه أن يدركوا أنهم ظفروا بالرجل الخطأ، وأنه مجرد شخص عادي، لا صلة له بأعمالنا.

هتفت في حدة:

- وماذا تظنهم يفعلون به، عندما يكشفون هذا؟.. إنهم لن يسمحوا به بالخروج حيًا، بعد أن عرف عنهم كل ما عرف.

عقد حاجبيه، وهو يسألها في حذر:

- ماذا تظنينهم يفعلون به؟

لوحت بكفها، قائلة:

- يقتلونه طبعًا.

نطقتها في لهجة أقرب إلى البكاء، مما جعله يصمت بعض الوقت، ويتطلع إليها مشفقًا، قبل أن يسألها في خفوت:

- (ريم).. أتحبين (رشدي) هذا؟

ترقرت الدموع في عينيها، وهي تومئ برأسها إيجابًا، فعض الشاب شفته السفلى، وهو يغمغم:

- كنت أخشى هذا.

التفتت إليه، تسأله في دهشة:

- تخشاه؟!.. ولماذا تخشى هذا يا (علاء)؟

تنهد وهو يبتسم في مرارة، وقال:

- لقد فاز بما لم أنجح أنا في الفوز به.

ارتفع حاجباها في دهشة، وهي تقول في ارتباك:

- (علاء).. هل..

استوقفها بإشارة من يده، وقال:

- تظاهري بأنني لم أقل شيئًا.

ثم أضاف في حزم، وهو يشير إلى صدره:

- وأعدك أنني سأبذل أقصى جهدي، للبحث عن (رشدي)، وإعادته لك سليمًا معافى.

غمغمت في ارتباك أكثر:

- (علاء).. إنني..

قاطعها مرة أخرى، قائلًا:

- لن نناقش هذا الآن يا (ريم).. غير مسموح لنا بمناقشة الأمور الشخصية في أثناء العمل.

تنهدت قائلة:

- العمل؟!.. أتظنني أستطيع القيام بعملي الليلة؟

أجابها في حسم:

- ينبغي أن تبذلي أقصى جهدك لذلك، فلقد أصبحنا قاب قوسين او أدنى من النصر، ولن نفسد العملية كلها الآن.. هيا.. حاولي السيطرة على أعصابك، وممارسة حياتك على نحو طبيعي، لا يلفت الانتباه.

تمتمت:

- سأحاول.

ابتسم مشجعًا، ثم هبط من السيارة، ليفتح بابها، وعاونها على مغادرتها، وهو يقول:

- تبدين فاتنة الليلة.

غمغمت:

- أشكرك.

تركها تمضي إلى داخل الفندق، ثم أطلق زفرة من أعماق قلبه، وهو يقول:

- هنيئًا لك يا (رشدي)، ويدهشني أن تقع فاتنة مثلها في حب ساذج مثلك..

تذكر اختطاف (رشدي) فأعقب قوله بالتقاء حاجبيه، وهو يستطرد:

- ولكن المهم أولًا أن نعثر عليك يا رجل.. وعلى قيد الحياة.

كان هذا هو نفس الأمل، الذي يملأ أعماق (ريم)، وهي تعبر صالة فندق (ريتز)، في طريقها إلى ملهاه الليلي، قبل أن تسمع ذلك الصوت المألوف يهتف:

- آنسة (ريم).. يا لحظي الحسن!

التفتت إلى صاحب الصوت، وقالت:

- أستاذ (رءوف).. كيف حالك؟.. يا لها من مصادفة!

ابتسم (رءوف) تلك الابتسامة الجذابة، التي تزيد من وسامته، وهو يصافحها، وينحني ليلثم أطراف أناملها، قبل أن يعتدل قائلًا:

- ليست مصادفة تمامًا، فأنا أقيم هنا.

كانت تعلم هذا، وعلى الرغم من ذلك، فقد قالت شاردة:

- حقًا؟!

سألها في اهتمام:

- وماذا عنك؟.. ماذا تفعلين هنا؟

أشارت إشارة مبهمة، وهي تقول:

- لدي موعد هنا.

سألها مبتسمًا:

- موعد عمل، أم..؟

هتفت في سرعة:

- إنه موعد عمل بالطبع.

اتسعت ابتسامته، وهو يقول:

- على أية حال، يسعدني أن التقيت بك الآن، فأنا في طريقي لعقد أفضل صفقات عمري، وسأعتبر لقاءنا هذا فالًا حسنًا.

قالت، وهي تشعر بالضجر:

- أتمنى هذا، وأتمنى أن..

سطح مصباح التصوير ليبتر عبارتها، والتفت (رءوف) في غضب إلى (رفعت)، الذي لوح بآلة التصوير، قائلًا:

- يبدو أنها أصبحت عادة..

هتف (رءوف) في غضب:

- عادة قبيحة.

هز (رفعت) كتفيه، وهو يقول في سخرية:

- لكل وجهة نظره.

اندفع (رءوف) نحوه، هاتفًا:

- أيها الحقير.

هوت قبضته على فك (رفعت)، بكل ما يملأ نفسه من غضب، ولكن (رفعت) تفادى الضربة في رشاقة، ولكم (رءوف) في معدته، قائلًا:

- مهلًا يا رجل.. ليست هذه هي الوسيلة.

انثنى حسد (رءوف)، ثم اعتدل في سرعة، ودار على قدمه اليمنى في مرونة مدهشة، وركل (رفعت) في وجهه، وهو يقول:

- ما رأيك في هذه؟

توترت (ريم) في شدة، واندفع رجال أمن الفندق يمسكون المتقاتلين، ويمنعون اشتباكهما، وهتف مسؤول أمن الفندق:

- ليس هنا أيها السيدان.. لن نسمح بهذا هنا.

ابتسم (رفعت) في سخرية، وهو يقول لـ (رءوف):

- ما رأيك في اختيار ساحة نزال أخرى؟

عدل (رءوف) ثيابه، وقال في صرامة:

- ليس الليلة.

ورمق (رفعت) بنظرة نارية، مستطردًا:

- ربما فيما بعد.

واندفع مغادرًا الفندق، و(رفعت) يردد من خلفه:

- من يدري؟.. ربنا التقينا أقرب مما تتصور.

أما (ريم)، فقد غادرت ردهة الفندق في خطوات سريعة، ودلفت إلى الملهى الليلي، وهي تنظر إلى ساعتها في قلق، ثم لم تلبث أن أدارت عينيها في المكان، حتى لمحت مدير الشركة الفرنسية، الذي نهض لاستقبالها، وهو يبتسم ابتسامة هادئة، فاتجهت إليه تصافحه في حرارة، وهي تقول بالفرنسية:

- معذرة.. لقد التقيت بصديق قديم، في ردهة الفندق، وهذا سبب تأخيري.

قال مبتسمًا:

- لا عليك.

جذب مقعدها، ودعاها للجلوس، ثم جلس أمامها، وهو يقول:

- هل درست العرض جيدًا؟

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت:

- إنه عرض جيد.. المهم أن نناقش التفاصيل.

بدأ يشرح كل ما لديه في اهتمام بالغ، في حين عجزت عن التركيز فيما يقول، وعقلها شارد بعيدًا..

مع الرجل الذي تحب..

مع (رشدي)..

وكانت تلقي على نفسها سؤالًا واحدًا..

أهو على قيد الحياة؟..

أم..

أم ماذا؟..

☆ ☆ ☆

كانت فوهة المسدس ملتصقة تمامًا بجبهة (رشدي)، وعلامات الغضب والسخط تملأ ملامح (إيزاك) في وضوح، وسبابة هذا الأخير في طريقها لاعتصار زناد المسدس، وكل عضلة في جسد (رشدي) منقبضة متوترة، عندما قال (كاهان) في حزم:

- حذار أن تفعل.

التفت إليه (إيزاك) في حدة، وقال في عصبية:

- ماذا تعني؟.. هذا الرجل يعلم الكثير عنا، ومن المحتم أن أقتله.

قال (كاهان) في صرامة:

- لا.

ثم نهض من مقعده، واتجه إلى حيث (رشدي)، وأبعد فوهة مسدس (إيزاك) عن جبهته، وهو يقول:

- لقد سمحت لك بتجربة أسلوبك، ولم يسفر هذا عن نتائج حسنة، ولهذا سأستعيد قيادة العملية، وستسير الأمور بأسلوبي

أنا.

خفض (إيزاك) مسدسه، وهو يقول في حدة:

- وما الذي يقوله أسلوبك هذا، بشأن تاجر الخردة المصري هذا؟

أجابه (كاهان) في انفعال:

- يقول: إنني أستطيع الاستفادة منه، بدلًا من قتله.

كان (رشدي) ينقل بصره بينهما في حيرة وتوتر، وهما يتبادلان هذا الحديث بالفرنسية، ثم مال (كاهان) نحوه، وسأله بالعربية:

- قل لي يا (رشدي): هل تعرف (رءوف ذهني)، و(رفعت سعيد)؟

أجابه (رشدي) في توتر:

- نعم.. إنهما مصريان، وصلا معي على نفس الطائرة.

قال (كاهان):

- عظيم.. ما معلوماتك عنهما؟

هز (رشدي) كتفيه، وقال:

- لست أعلم الكثير عنهما.. كل ما أعلمه هو أن أحدهما رجل أعمال، والثاني مصور صحفي.

سأله (كاهان).

- وهل هذا حقيقي؟

ارتبك (رشدي)، وهو يقول:

- لست أدري.. هذا ما أخبراني به.

لوح (كاهان) بيده، قائلًا:

- حاول إذن أن تتأكد مما قالاه.

سأله (رشدي) في حيرة:

- كيف؟

أجابه (كاهان) في صرامة مباغتة:

- بأن تزداد التصاقًا بهما، وتنقل إلينا كل ما تعلمه عنهما.. هل تفهم؟

اتسعت عينا (رشدي)، وهو يهتف في ارتياع:

- جاسوس؟!.. أتريد مني أن أصبح جاسوسًا؟

هتف (كاهان):

- لك مطلق الحرية في هذا، فإما أن تصبح جاسوسًا لحسابنا، أو.. انتزع مسدسه في حركة سريعة، وألصقه بجبهة (رشدي)، وهو يضيف في خشونة:

- أو واحدًا من قتلانا.

اتسعت عينا (رشدي) في رعب، و(كاهان) يسأله:

- ماذا تختار يا مسيو (رشدي)؟.. هيا.. أبلغني قرارك على الفور، فلست أتميز بفضيلة الصبر للأسف.

خفض (رشدي) رأسه في مرارة، وهو يقول:

- وما الذي يمكنني قوله؟

وبدا صوته أقرب إلى البكاء، وهو يضيف:

- إنني أوافق.

وتألقت عينا (كاهان) في ظفر، في حين لم ينبس (رشدي) ببنت شفة..

لقد صار جاسوسًا..

جاسوسًا برغم أنفه.

☆ ☆ ☆

13- منتصف الليل..

عبرت سيارة (رءوف ذهني) ذلك الشارع الواسع، خلف متحف اللوفر، ثم انحرفت يمينًا، وقطعت أحد الشوارع الضيقة بسرعة كبيرة، قبل أن تنحرف يسارًا، وتتوقف على بعد عدة أمتار، من مبنى السفارة الإسرائيلية، وزميله (عوني)، الجالس إلى جواره، يقول في قلق:

- ألم يكن هناك مكان أفضل من هذا؟.. أنت تعلم أن كل العرب، المقيمين هنا في (باريس)، يبغضون ذلك المبنى، وكل من يقترب منه.

قال (رءوف) في لا مبالاة:

- لست أنا من اختار الموعد.

ألقى (عوني) نظرة أخرى على المبنى، وتمتم في توتر بالغ:

- لست أعترض على الموعد، لكن على المكان.

تطلع (رءوف) إلى ساعته، وقال في هدوء:

- لا تقلق نفسك بهذا.. عقارب الساعة تقترب من منتصف الليل في سرعة، وسينتهي كل شيء بعد قليل.

نظر إليه (عوني)، وهز رأسه قائلًا:

- أنت تمتلك أعصابًا في برودة الثلج.

نفث (رءوف) دخان سيجارته، وقال:

- مهنتنا تحتاج إلى مثل هذه الأعصاب.

لوح (عوني) بكفه، وقال:

- ولكن ليس كل من يمتهنها يمتاز بهذا.

قالها وألقى نظرة على ساعته، بدوره، وخيل إليه أن عقاربها، على عكس ساعة (رءوف)، تسير في بطء شديد، حتى ليبدو أن تلك الدقائق الخمس، التي تفصله عن منتصف الليل، ستستغرق دهرًا كاملًا، قبل أن تمضي..

وراح عقرب الثواني يقطع المسافات في بطء مثير أمام عينيه، و(رءوف) يدخن سيجارته في هدوء شديد، يزيد من عصبية (عوني) وتوتره..

ثم التقى عقربا الساعة، عند أعلى أرقامها، ووجد (عوني) نفسه يهتف:

- أخيرًا.

ابتسم (رءوف) ابتسامة ساخرة، وهو يرمق (عوني) بنظرة جانبية، فهتف هذا الأخير في عصبية:

- الموعد في منتصف الليل تمامًا.. أليس كذلك؟

أجابه (رءوف):

- نعم.. ولقد وصلوا في موعدهم.

قالها وهو يشير إلى مصباحي سيارة، سطعا عند المنحنى المواجه، ثم خبيا، وعادا يسطعان مرة أخرى، فأجاب الإشارة بحركة مماثلة في مصباحي سيارته، رأى بعدها السيارة تتجه إليهما، فسأل (عوني):

- هل أحضرت كل شيء؟

أشار (عوني) إلى حقيبة كبيرة، تستقر في المقعد الخلفي، وقال:

- كل شيء على ما يرام.

اقتربت السيارة الأخرى، وتوقفت إلى جوار سيارتهما تمامًا، ثم هبط منها رجل طويل القامة، ألقى نظرة باردة على (عوني) و(رءوف)، قبل أن يقول:

- مسيو (رءوف ذهني).. أليس كذلك؟

أجابه (رءوف) في برود:

- ظننتك تحفظ وجهي عن ظهر قلب.

لم يبد الطويل أي اهتمام بملاحظة (رءوف)، بل التفت إلى السيارة، وأشار إلى رجل نحيل داخلها، فغادر الرجل السيارة بدوره، وهو يحمل حقيبة أخرى كبيرة، فتح باب السيارة الخلفي، ودفعها فوق الأريكة، ثم التقط الحقيبة الأخرى بدلًا منها، وعاد بها إلى سيارته، والطويل يقول لـ (رءوف):

- أظنها أفضل صفقات عمرك.

قال (رءوف)، وهو يبذل أقصى جهده، ليخفي ذلك الانفعال الصارخ في أعماقه:

- إنها كذلك بالفعل.

أما (عوني)، فلم ينجح في كبت مشاعره، وهتف:

- إنها أفضل صفقات عمرنا حقًا، والرؤساء في (القاهرة) سوف..

سطعت الأضواء في وجوه الجميع فجأة، وارتفع صوت المفتش (مارتان)، وهو يقول في صرامة:

- فليستسلم الجميع دون مقاومة.. إننا نحاصر المكان.

صرخ (عوني) في ارتياع:

- ما هذا؟

أما النحيل، فقد قفز خلف عجلة قيادة سيارته، وأدار محركها في سرعة، صارخًا في الطويل:

- إنه فخ.. أسرع يا (بن جوريون).. أسرع..

تراجع الطويل في ذعر، وامتدت يده تخرج مسدسه، و(رءوف) يهتف في غضب:

- اللعنة!.. إنه فخ بالفعل.

أخرج الطويل مسدسه، وأطلق منه بضع رصاصات، نحو المصابيح الساطعة في وجهه، والتي تغشى بصره، وحطم أحد المصابيح بالفعل، ولكن رصاصات الشرطة انهمرت عليه كالمطر، واخترقت رأسه وصدره، فأطلق صرخة ألم هائلة، قبل أن يسقط جثة هامدة، في حين اندفع النحيل بالسيارة، محاولًا الفرار، ولكن سيارة من سيارات الشرطة الفرنسية اعترضت طريقه، وتبادل أفرادها معه إطلاق النار، فأردوه قتيلًا في لحظة واحدة..

وصرخ (عوني) في انهيار:

- لقد انتهينا.

ولكن (رءوف) اختطف الحقيبة الأخرى، وهو يخرج مسدسه، ويقفز خارج السيارة، هاتفًا:

- ليس بعد.

تبعه (عوني) في ارتياع، في نفس اللحظة التي أضيئت فيها كل الأنوار، المثبتة في أسوار مبنى السفارة الإسرائيلية، وانحرفا في طريق جانبي، وراحا يعدوان بكل قوتهما، و(رءوف) يهتف:

- أرأيت لماذا اختاروا ذلك الموقع يا رجل؟.. السفارة الإسرائيلية تتوقع دائمًا أي هجوم، من قبل العرب، أية دولة، ولهذا تحيط سفارتها بجهاز أمني متحفز، سيتدخل حتمًا، إذا ما دار قتال أمام أسوار السفارة، لأي سبب كان.. أأدركت الآن لماذا اختاروا هذا المكان؟

هتف به (عوني)، وهو يرتجف رعبًا:

- المهم أن نبتعد عن هنا بقدر الإمكان، وأن..

بتر عبارته بغتة، عندما رأى تلك السيارة الصغيرة، التي اندفعت نحوهما، من المنحنى المقابل، وتراجع هاتفًا:

- إنه فخ آخر.

قفز (رءوف) جانبًا، متفاديًا السيارة الصغيرة، التي واصلت طريقها في سرعة، وصدمت (عوني) صدمة جانبية، ألقت به على قارعة الطريق، ثم دارت حول نفسها في مهارة مدهشة، وانطلقت مرة أخرى نحو (رءوف)، و(عوني) يصرخ:

- لقد كسر ساقي.. ذلك اللعين كسر ساقي.

أما (رءوف)، فقد انتزع مسدسه، وصوبه نحو السيارة في انفعال، ولكن السيارة انحرفت في سرعة كبيرة، وبمناورة ممتازة، تشف عن براعة سائقها وحنكته، ثم مالت نحو (رءوف) على نحو مربك، وضربت حقيبته في قوة، فانكسر رتاجها، وتناثرت محتوياتها وسط الطريق، قبل أن تواصل السيارة اندفاعها، وتضربه ضربة متوسطة، كانت تكفي لدفعه نحو الحائط، حيث ارتطم به في قوة، ثم سقط على وجهه فاقد الوعي..

وفي هدوء، توقفت السيارة الصغيرة، وهبط سائقها متجهًا نحو تلك الأكياس الصغيرة، ذات المسحوق الأبيض الناعم، التي تناثرت من الحقيبة، وانحنى يجمع بعضها في هدوء مثير، على الرغم من صوت سيارات الشرطة، الذي يقترب في سرعة، وبعدها عاد إلى السيارة، وانطلق بها مبتعدًا..

وفي نفس اللحظة، التي اختفت فيها سيارته في أول منحنى، ظهرت سيارة الشرطة، من المنحنى المقابل، وضغط سائقها فراملها في قوة، عندما رأى مشهد (عوني) المصاب، و(رءوف) الملقى على وجهه، وأكياس المخدر ملقاة متناثرة فوق الطريق، وقفز المفتش (مارتان) من سيارته، هاتفًا:

- يا إلهي!.. لقد سقطا.

وتنهد في ارتياح، مستطردًا:

- كنت أعلم أنه هناك أمر ما خلف هؤلاء المصريين.. كنت أعلم هذا.

وابتسم في ظفر..

☆ ☆ ☆

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا، إلا بضع دقائق، عندما رأت (ريم) (رشدي) يعبر باب الفندق، والإرهاق يبدو على كل خلية من خلاياه، فاندفعت نحوه غير مصدقه، وهي تهتف في حرارة:

- (رشدي)!.. حمدًا لله.. حمدًا لله على سلامتك.. كدت أشك في رؤيتك ثانية، على قيد الحياة.

تمنت لو تعلقت بعنقه، وتركت نفسها بين ذراعيه، ولكنها اكتفت بمصافحته في حرارة، وهو يهتف بدوره:

- ولا أنا يا (ريم).. ولا أنا تصورت أنني سأحيا مرة ثانية.

ثم أمسك كتفيها، وتطلع إليها لحظة، قبل أن يستطرد:

- ولكن لماذا أنت هنا؟.. لماذا لم تذهبي إلى فراشك بعد؟

ترقرق الدمع في عينيها، وهي تقول:

- كنت أنتظرك.

ارتفع حاجباه في دهشة، ثم التقيا في حنان، وهو يقول:

- تنتظرينني أنا؟

انحدرت دمعة فرح من عينيها، وهي تقول:

- لم أفقد الأمل أبدًا، في عودتك سالمًا.

غمرته سعادة الدنيا كلها، مع كل هذا الحب، الذي تتحدث به، فتطلع إلى عينيها غير مصدق، وهتف مخلصًا:

- يا إلهي!.. لو أنني أعلم أن محنتي ستفجر عواطفك الحقيقية، على هذا النحو، لطلبت من أولئك الأوغاد اختطافي منذ زمن.

سألته في حرارة:

- ولكن لماذا اختطفوك؟ وماذا فعلوا بك؟ ومن هم بالضبط؟

تلفت حوله في قلق، قبل أن يجيبها:

- كانوا يظنوني شخصًا آخر.

هتفت في دهشة:

- فقط.

تلفت حوله مرة أخرى في انزعاج، قبل أن يهمس:

- أرجوك يا (ريم).. لا داعي للتحدث عنهم هنا.

عقدت حاجبيها، وهي تتطلع إليه لحظة، ثم قالت:

- ماذا فعلوا بك يا (رشدي)؟

قال في توتر:

- ليس هنا يا (ريم).. ليس هنا.

أمسكت يده، وهي تقول في صرامة:

- ماذا فعلوا بك؟

ارتبك في شدة، وهو يهمس:

- طلبوا مني أن أعمل لحسابهم.

تراجعت هاتفة:

- ماذا؟.

ثم عادت تمسك يده، وتتطلع إلى عينيه مباشرة، وهي تقول:

- اسمع يا (رشدي).. يبدو أننا لن ننعم بنوم هادئ الليلة، فلن أتركك حتى تقص عليّ ما حدث.. كل ما حدث.

لم يعترض هذه المرة، وراح يقص عليها كل شيء..

وبكل التفاصيل..

☆ ☆ ☆

أطلقت إطارات سيارة (إيزاك) صريرًا عاليًا، وهي تتوقف أمام تلك الفيلا الصغيرة، التي يقيم فيها (كاهان)، في قلب (باريس)، والتي تحمل لافتتها اسم (المركز الثقافي الإسرائيلي)، وقفز (إيزاك) من السيارة، يدق باب الفيلا في قوة وعصبية، حتى فتح (إليعازر) الباب، وقال بصوته الخشن الغليظ:

- هل من أوامر جديدة من القيادة؟

دفعه (إيزاك) جانبًا، وهو يعبر الباب، قائلًا في انفعال:

- أيقظ (كاهان).. الأمر هام للغاية.

ظهر (كاهان) عند الطابق الثاني، وهو يهبط في درجات السلم، قائلًا في حنق:

- لقد أيقظتني طرقاتك العنيفة.. ماذا تحمل هذه المرة؟

لوح (إيزاك) بالصحيفة، التي يمسك بها في يده، وهو يقول:

- أقرأت هذا؟.. إنه ملحق خاص، أصدرته صحيفة (لوموند)، عن ضبط شبكة مخدرات دولية، في منتصف الليل.

رفع (كاهان) حاجبيه في دهشة، وهو يقول:

- منتصف الليل؟!.. وكيف أمكنهم إصدار مثل هذا الملحق الخاص، في هذا الوقت القصير؟.. إنها لم تتجاوز الخامسة صباحًا بعد!!

هتف (إيزاك):

- ليس هذا هو المهم، فالمفاجأة تأتي مع التفاصيل.. الصحيفة تقول إن الشبكة تضم اثنين من موظفي السفارة الإسرائيلية، ومصريين.

صاح (كاهان) في ارتياع:

- حقًا؟!.

أضاف (إيزاك) في عصبية:

- وأحد هذين المصريين هو (رءوف ذهني).

تفجر الذهول من وجه (كاهان)، وهو يهتف في غضب:

- (رءوف ذهني)؟!.. هل كان (رءوف ذهني) أحد المتعاملين معنا، في مجال تهريب المخدرات إلى (مصر)؟!.. لماذا لم يخبرنا أحد إذن؟.. لماذا تركونا نراقبه، ونحيطه بشكوكنا.. بل نحاول قتله، دون أن يبلغونا بأمره؟

قال (إيزاك)، وهو يصب لنفسه كأسًا من الخمر في عصبية:

- ربما لأننا لم نبلغهم بشكوكنا حوله، أو حتى بمراقبتنا له.. لقد رحنا ضحية عدم التنسيق في العمل يا رجل.

وجرع جرعة من كأسه، قبل أن يضيف:

- وليس هذا أيضًا هو أخطر ما في الأمر، فإلقاء القبض على (رءوف) يوصلنا إلى تحديد شخصية الجاسوس المصري، على نحو أكثر بساطة، ولكن الأهم هو أن نتحرك في سرعة، فلن يلبث الرأي العام أن ينقلب على المصريين والإسرائيليين، وتصبح حركتنا أكثر صعوبة.

أجابه (كاهان)، وهو يصعد مرة أخرى إلى الطابق الثاني:

- لن يحدث هذا.. سأرتدي ثيابي، وأذهب على الفور إلى السفارة، وهناك يمكننا تنسيق العمل، مع ملحقنا العسكري.. لا تقلق.. سيسير كل شيء على ما يرام.

هتف به (إيزاك):

- وماذا عن الجاسوس؟.. ماذا عن (رفعت سعيد)؟

لوح (كاهان) بكفه، قائلًا:

- تول أمره، مع (إليعازر).. لا أريد منه أن يشهد غروب الشمس في (باريس).. هيا يا رجل.. إن العملية لصالحنا هذه المرة.

برقت عينا (إيزاك)، وهو يقول:

- نعم.. سننهي العملية لصالحنا هذه المرة.

وبإشارة من يده، أخرج (إليعازر) مسدسه، وجذب مشطه، واستعد لجولة ثانية من القتال..

ومن اللعبة..

☆ ☆ ☆

استمعت (ريم) إلى (رشدي) في اهتمام بالغ، دون أن تقاطعه مرة واحدة، ثم بدت على وجهها علامات التفكير العميق، وهي تقول:

- إذن فقد طلبوا منك مراقبة (رفعت) و(رءوف).

أومأ (رشدي) برأسه إيجابًا، وقال في أسف:

- هذا صحيح.. ولست أدري كيف يمكنني فعل هذا؟

تطلعت إليه لحظة في إشفاق، وقالت:

- ليس أمامك سوى طاعة ما يأمرونك به.

هتف في ارتياع واستنكار:

- ماذا تقولين يا (ريم).. أتريدين مني أن أصبح جاسوسًا؟

أمسكت يده، وهي تقول:

- ليس أمامك سوى هذا، وإلا فسيقتلونك بلا رحمة، ولست محترفًا لتواجه أوغادًا مثلهم.. أما (رءوف) و(رفعت)، فإما أن يكونا محترفين، وفي هذه الحالة لن تعرف عنهما الكثير، وسيمكنهما في الوقت ذاته التصدي لخصومهما، وإما ألا يكونا كذلك، وهنا لن يضيرهما أن تنقل أسرارهما إلى هؤلاء الأوغاد.

صمت لحظات، وهو يدرس منطقها، قبل أن يتمتم:

- ربما كنت على حق، ولكن..

قاطعته في حزم:

- لا يوجد حل سوى هذا.

خفض عينيه، قائلًا في استسلام:

- أنت على حق.

تنهدت في شفقة، وهي تتراجع، وتلقي عليه نظرة طويلة، قبل أن تقول:

- كان ينبغي أن تغادر (باريس)، قبل أن تواجه كل هذا.

قال في إصرار:

- ما كنت لأتركك وحدك.

ابتسمت في حنان، وهي تقول:

- من يدري يا (رشدي)؟.. مهمتي أنا أيضًا تقترب من نهايتها، وربما غادرنا (باريس) معًا، في القريب العاجل.

أمسك يدها في عاطفة، وهو يقول:

- نعم.. من يدري؟

☆ ☆ ☆

أزاح (إيزاك) منظاره المقرب عن عينيه، وهو يقول لـ (إليعازر):

- ها هو ذا.. مازال يواصل انتحاله لشخصية المصور الصحفي، ويلتقط الصور للمفتش الفرنسي، الذي ألقى القبض على (رءوف).

جذب (إليعازر) مشط مسدسه، وهو يقول:

- يمكننا اصطياده أثناء انصرافه.

أعاد (إيزاك) منظاره إلى عينيه، وهو يقول:

- بالطبع.. تري ماذا يقول للمفتش (مارتان) الآن؟

غمغم (إليعازر) بصوته الخشن:

- لن يمكنك سماعهما، من هذه المسافة.

قال (إيزاك)، وهو يراقب (رفعت) في اهتمام:

- إنني أستطيع قراءة حركات الشفاه.. لقد تلقيت تدريبًا مكثفًا على هذا.

كان يرى (رفعت) عبر منظاره، وهو يتحدث مع المفتش (مارتان) بابتسامة كبيرة، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يستوعب فحوى الحديث، قبل أن يهتف:

- يا للشيطان؟

سأله (إليعازر) في اهتمام:

- ماذا هناك؟

واصل (إيزاك) مراقبته لحديث (رفعت) و(مارتان) لحظات أخرى، قبل أن يجيب في عصبية:

- مفاجأة يا (إليعازر).

ثم أزاح المنظار ثانية عن عينيه، وهو يلتفت إلى (إليعازر) مستطردًا:

- مفاجأة مذهلة.

وكان على حق.

☆ ☆ ☆

14- سقوط..

تصاعد غضب (كاهان) تدريجيًا، وهو يقود سيارته، متجهًا إلى السفارة الإسرائيلية..

كان يشعر في أعماقه بحنق بالغ، لأن أحدًا من رجال السفارة، لم يبلغه بحقيقة (رءوف ذهني)، وتعاملاته معهم، على الرغم من أنه هو بالذات صاحب فكرة ترويج المخدرات داخل (مصر)، ومعاونة المنحرفين من أبنائها، وتشجيعهم على الإتجار في تلك السموم القاتلة، لإفساد الجيل القادم كله..

هو صاحب فكرة الحرب الطويلة مع المصريين..

صحيح أنه بقي في الظل، ولم يحصل حتى على صفة ديبلوماسية، داخل الأراضي الفرنسية، ولكن هذا كان الأفضل، في مجال عمله، الذي يعتمد – أكثر ما يعتمد – على الغموض والسرية..

ولكن كيف يتجاهلون هكذا؟..

لماذا لا يحاولون التنسيق بين عملهم وعمله؟

أهي محاولة لانتزاع سبق النصر منه؟..

أم هي وسيلة جديدة؛ لإبعاده عن الساحة؟..

زاد من سرعة سيارته في غضب، ثم لم يلبث أن انتبه إلى تجاوزه السرعة المقررة داخل العاصمة، فضغط فرامل السيارة، ليخفض من سرعتها، ولكنه رأى ذلك الشرطي، راكب الدراجة البخارية، يشير إليه بالتوقف، فغمغم في سخط:

- لم يكن ينقصني سوى إضاعة الوقت هذه.

استجاب لإشارة الشرطي، وتوقف إلى جانب الطريق، ولكنه فوجئ بسيارة شرطة تتوقف خلفه، وأخرى إلى جواره، ثم يهبط منهما عدد من رجال الشرطة، يحاصرون سيارته، وكأنهم يمنعونه من محاولة الفرار، فقال في عصبية:

- لست أظن مخالفة سير بسيطة، تحتاج إلى كل هذا.

غمغم أحد رجال الشرطة في سخرية:

- مخالفة سير؟! أرني جواز السفر الخاص بك.

أخرج (كاهان) جواز سفره وناوله للشرطي قائلًا:

- أليس من المناسب أن تطلب الاطلاع على رخصة القيادة.

أخذ الرجل يفحص الجواز في اهتمام، في حين قال زميله بنفس السخرية:

- وما حاجتنا إلى رخصة القيادة؟

انتبه (كاهان)، في هذه اللحظة فقط، إلى أن الأمر يتجاوز بالفعل مجرد مخالفة سير بسيطة، وخاصة عندما قال الشرطي الأول في اهتمام:

- من حسن الحظ أنه لا يحمل جوازًا دبلوماسيًا، وإلا تعقدت الأمور كثيرًا.

سأله (كاهان) في توتر:

- ماذا هناك؟

أجابه الشرطي في هدوء:

- ستعلم كل شيء بعد قليل يا سيدي.. والآن هل يمكنك معاونتنا، بفتح حقيبة سيارتك الخلفية.

سأله (كاهان) في حدة:

- ولماذا أفعل؟

أجابه الشرطي الآخر في برود:

- لأننا نطلب منك هذا.

أدرك (كاهان) عدم جدوى المجادلة والاعتراض، فانصاع للأمر، وغادر سيارته، وفتح حقيبتها الخلفية، ولم يكد يفعل حتى جحظت عيناه في ذهول، وهو يحدق في تلك الأكياس الصغيرة، المملوءة بالمسحوق الأبيض، والمستقرة في قاع الحقيبة، في حين ابتسم مفتش الشرطة الأول، وهو يقول ظافرًا:

- كان البلاغ محقًا.

صاح (كاهان):

- لست أعلم شيئًا عن هذه المخدرات.. إنها مدسوسة.

قال المفتش الثاني بنفس السخرية:

- حقًا؟!.. وكيف علمت أنها مخدرات؟

وأحاط معصمي (كاهان) بالأغلال، وهو يضيف:

- هل تسللت إلى حقيبتك، في جنح الظلام إذن؟

صاح (كاهان)، وهو يقاوم قيوده:

- إنها مؤامرة.. مؤامرة حقيرة.

دفعة المفتش الأول نحو سيارة الشرطة، وهو يقول:

- لا تحاول الإنكار يا رجل.. كل الأدلة تدينك بلا أدنى شك، ولقد أبلغنا مجهول أنك زعيم تلك الشبكة، التي تعمل على ترويج

المخدرات، بين (مصر) و(إسرائيل)، وأننا سنجد بعض هذه المخدرات في حقيبة سيارتك.

صرخ في مرارة:

- إنها مؤامرة.. مؤامرة من المصريين.

دفعه المفتش الثاني داخل سيارة الشرطة، وهو يقول ساخرًا:

- لقد نجحوا في مؤامرتهم إذن. نجحوا تمامًا.

☆ ☆ ☆

اندفع (إيزاك) و(إليعازر) داخل الفيلا الصغيرة، والأول يهتف في انفعال:

- مفاجأة يا (كاهان).. مفاجأة مذهلة.

تلفت (إليعازر) حوله، قبل أن يقول بصوته الخشن:

- إنه ليس هنا.. لم يعد بعد.. كنت أعلم هذا، عندما لم نجد سيارته في الخارج.

هتف (إيزاك):

- يا للخسارة!.. إنني أحترق شوقًا ولهفة، لإبلاغه ما كشفناه، عن ذلك المصري.

قال (إليعازر)، وهو يهز رأسه في توتر:

- لن يصدق هذا أبدًا.

ارتفع في تلك اللحظة رنين الهاتف، فأسرع (إيزاك) يلتقط سماعته، ويقول في انفعال واضح:

- هنا المركز الثقافي الإسرائيـ....

بتر عبارته، ليهتف:

- صباح الخير يا سيادة السفير.. إنه أنا.. (إيزاك بن يهوه).. لم نجد (كاهان) هنا، و..

بتر عبارته مرة أخرى، واتسعت عيناه في دهشة عارمة، وهو يهتف:

- ماذا؟

اقترب منه (إليعازر)، يسأله في توتر:

- ماذا حدث؟.

لم يجب (إيزاك)، الذي اتسعت عيناه أكثر وأكثر، وهو يستمع إلى السفير الإسرائيلي في (باريس)، عبر أسلاك الهاتف، قبل أن ينهي المحادثة في ذهول عنيف، جعل (إليعازر) يسأله في توتر أكثر:

- ماذا حدث؟

التفت إليه، قائلًا بنفس الذهول:

- لقد ألقوا القبض على (كاهان).

تراجع (إليعازر) كالمصعوق، هاتفًا:

- ماذا؟

ثم سأل في ارتياع:

- من ألقى القبض عليه؟.. المصريون؟!

أجابه (إيزاك) ذاهلًا:

- بل الفرنسيون.. الشرطة الفرنسية ألقت القبض عليه، بتهمة الإتجار في المخدرات، وعثروا في سيارته على كيلو جرامين من الهيروين النقي.

هتف (إليعازر):

- ماذا؟.. إنها مؤامرة حتمًا.. إنهم المصريون.

أجابه (إيزاك) في مرارة:

- ما من شك في هذا، فلقد أرسل عميلهم هنا رسالة (فاكس) إلى القيادة في (تل أبيب)، يبلغهم فيها أمر سقوط (كاهان)، وتحيات المخابرات المصرية أيضًا.

ومرة أخرى، هتف (إليعازر):

- ماذا؟!

تحرك (إيزاك) في المكان، في غضب عارم، وهو يقول:

- إنه يُعلن سخريته منا، ومعرفته رقم هاتفنا السري في (تل أبيب)، في الوقت ذاته، ولقد أبلغني السفير الآن أنهم غاضبون جدًا هناك في (تل أبيب)، وأنهم يمهلوننا يومًا واحدًا، لكشف أمر هذا العميل، وتصفيته، وإلا تمت إعادتنا إلى الوطن، ومحاكمتنا هناك.

ارتجف (إليعازر)، وهو يقول في غلظة أكثر:

- لابد أن نجده إذن.

لوح (إيزاك) بكفه، هاتفًا:

- كيف؟.. لقد أصبحت أجهل حتى من هو.. (رشدي) تاجر أدوات تجميل في (الموسكي) بالفعل، و(رءوف) تاجر مخدرات،

تم إلقاء القبض عليه، و(رفعت) ليس مصورًا صحفيًا، كما أثبت تقرير رجالنا في (القاهرة)، ولكنه أيضًا ليس رجل المخابرات المنشود، فلقد رأيته بنفسي يقول للمفتش (مارتان) إنه ضابط من ضباط إدارة مكافحة المخدرات. وأنه كان يتعقب (رءوف)، بأوامر من قادته، وبالتعاون مع السلطات الفرنسية، وأنه التقط له عدة صور تكفي لإدانته، إلى جوار ضبطه متلبسًا.. فمن العميل المصري إذن؟

غمغم (إليعازر) في توتر:

- لست أدري.

ضرب (إيزاك) راحته بقبضته، وقال في حنق:

- هناك خطأ ما حتمًا.. إما أن رجلنا السابق في (القاهرة)، قد أخطأ الحرف الأول للاسم، أو أن موعد الطائرة كان مختلفًا، أو..

بتر عبارته فجأة، واتسعت عيناه عن آخرهما، قبل أن يهتف:

- يا للشيطان!!

ثم أمسك ذراع (إليعازر) في شدة، مستطردًا:

- نحن الذين أخطأنا الفهم منذ البداية.. رجلنا لم يقل: إن المصريين قد أرسلوا أفضل رجالهم، وإنما أفضل عملائهم، وهناك فارق كبير بين الحالتين.

سأله (إليعازر) في اهتمام:

- أي فارق؟

هتف (إيزاك) في حماس:

- فارق ضخم يا رجل.. الفارق بين نجاحنا وفشلنا.. هذا الفارق هو الذي أرشدني إلى معرفة العميل المنشود يا رجل.. لقد عرفت خصمنا.. عرفته تمامًا..

وتفجر الظفر مع حروف كلماته..

☆ ☆ ☆

- (رءوف ذهني) تاجر مخدرات؟!.. لا يمكنني تصديق هذا أبدًا!.

هتف (رشدي) بالعبارة، وهو يلوح بكفيه في دهشة، فهزت (ريم) رأسها، وقالت:

- أنا أيضًا لم أصدق هذا، عندما قرأت ملحق (لوموند) في الصباح، ولكن (رفعت) زارني، وقص على القصة كلها.

سألها في دهشة:

- (رفعت) زارك؟!.. متى؟

أجابته مبتسمة:

- في الصباح الباكر، ولكن لماذا تبدو غاضبًا هكذا.. هل تغار؟

ابتسم قائلًا:

- بالطبع.

ثم عاد يسألها:

- ولكن لماذا زارك (رفعت) في الصباح؟

أجابته في اهتمام:

- جاء ليعترف أنه ضابط مكافحة مخدرات مصري، وأنه كان يطارد (رءوف) طيلة الوقت.

رفع حاجبيه، هاتفًا في دهشة:

- ضابط مكافحة مخدرات؟!.. أليس مصورًا صحفيًا؟

هزت رأسها نفيًا، وقالت:

- كان ينتحل هذه الصفة فحسب، حتى يمكنه مراقبة (رءوف) وتتبعه، وتلك المرات التي التقط فيها صوره، كانت وسيلة لتبرير وجوده فحسب.

سألها (رشدي) في ضيق:

- ولماذا يأتي في الصباح الباكر، ليعترف لك بهذا؟

ابتسمت قائلة:

- أتعدني ألا تغار؟

قال في ضيق:

- لا يمكنني أن أعدك بهذا.

أطلقت ضحكة مرحة صغيرة، قبل أن تقول:

- حسنًا.. لقد أتى لخطبتي.

هتف مستنكرًا:

- خطبتك؟!.. (رفعت سعيد) أراد خطبتك؟

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت:

- اسمه ليس (رفعت سعيد)، بل (خالد منصور)، لقد اعترف لي بهذا، بعد انتهاء مهمته، وطلب يدي، و..

قال في عصبية:

- وماذا؟

ابتسمت في حنان، قائلة:

- ولكنني رفضت.

تهللت أساريره، وهو يهتف في سعادة:

- رفضت؟.. أرفضت حقًا يا (ريم)؟

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت بابتسامة خجلى:

- نعم يا (رشدي).. رفضت عرض (رفعت).. أقصد (خالد)، وأخبرته أنني لا أستطيع الموافقة على الارتباط به؛ لأنني أحب شخصًا آخر.

ارتفع حاجباه في حنان، وهو يقول:

- حقًا يا (ريم)؟.. أأخبرته هذا حقًا؟

تضرج وجهها بحمرة الخجل، وأشاحت به، وهي تقول محاولة إبدال الموضوع:

- قل لي: هل نستأجر سيارة، بدلًا من التعلق بالمواصلات؟

قال مبتسمًا، وقد أدرك محاولتها للفرار:

- لا يمكنني هذا.

قالت في مرح:

- اطمئن.. لن يكلفك هذا الكثير.

هز رأسه، قائلًا:

- ليست مشكلة اقتصادية كما تظنين.. إنها مشكلة عملية.

سألته:

- ماذا تعني؟

أجابها بنفس الابتسامة البسيطة:

- إنني أجهل القيادة.

سألته في دهشة:

- قيادة ماذا؟

أجاب ضاحكًا:

- قيادة السيارات.

تطلعت إليه لحظة في دهشة، قبل أن تنفجر ضاحكة، وهي تقول:

- بالطبع.. لماذا أدهشني ذلك؟.. لقد تصورت لحظة أن الجميع يجيدون قيادة السيارات، على الرغم من أن عدد من يجيدون هذا في (مصر)، يقل بعشرات المرات عمن يجهلونه.

قال مبتسمًا:

- سأنضم إلى واحدة من مدارس تعلم قيادة السيارات، عند عودتنا إلى (القاهرة)، و..

بتر عبارته بغتة، عندما توقفت أمامهما سيارة كبيرة، قفز منها (إيزاك) و(إليعازر)، اللذان صوبا مسدسيهما إلى (ريم)، ثم جذبها (إليعازر) من يدها في خشونة، وهو يقول:

- تعالي.

اندفع (رشدي) نحوه، هاتفًا:

- ماذا تفعل؟

الصق (إيزاك) مسدسه بجانبه، وهو يقول في صرامة، باللغة العربية:

- لا تتدخل يا (رشدي).. إننا نريدها هي فحسب.

وهتفت (ريم):

- لا تتدخل يا (رشدي).. أرجوك.

ولكن (رشدي) قال في عناد:

- لن تذهب (ريم) إلى أي مكان بدوني.

دفعه (إيزاك) بدوره داخل السيارة، وهو يقول في غلظة:

- فليكن.. أنت الجاني على نفسك.

انطلقت بهم السيارة، و(إيزاك) يصوب مسدسه إلى (ريم) و(رشدي)، وهذا الأخير يقول في توتر:

- ما الذي تريدونه من (ريم) بالضبط؟

أجابه (إيزاك) في صرامة:

- لا شأن لك بهذا.

وقالت (ريم):

- هل أرسلكما مسيو (جيرار)؟

ابتسم (إيزاك) في سخرية، وقال:

- لا داعي لهذا التحايل يا آنستي.. لقد كشفنا أمرك، ولن تجدي محاولات الخداع هذه.

عاد (رشدي) يقول في عناد:

- ما الذي تريدونه منها؟

أجابه (إيزاك) في لهجة ظافرة شامتة:

- اطمئن يا رجل.. ستعرف بعد قليل، وربما تندم على معرفتك هذه.. تندم كثيرًا.

وأطلق ضحكة ساخرة مخيفة.

☆ ☆ ☆

15- اختطاف..

انهمك مدير المخابرات العامة المصرية، في دراسة بعض التقارير العاجلة، التي وصلته في الصباح الباكر، عندما سمع طرقات هادئة على باب مكتبه، فقال دون أن يرفع عينيه عن الأرواق:

- ادخل.

دلف إلى مكتبه ضابط شاب، رفع المدير عينيه إليه، وقال:

- ماذا هناك يا (شهدي)؟

أجابه (شهدي):

- لقد اختطف (إيزاك) و(إليعازر) عميلنا في (باريس).

ابتسم مدير المخابرات، وقال:

- لا تجعل هذا يقلقك، فكل فرد من أفراد جهازنا، يجيد تمامًا رعاية نفسه، ثم إن عميلنا هذه المرة يختلف.

أومأ (شهدي) برأسه موافقًا، وقال:

- الدليل على هذا هو سقوط (كاهان) في الفخ.. إنهم مصابون بالجنون في (تل أبيب)، إذ أن واضع خططهم الأول سيسجن لعشر سنوات على الأقل، بتهمة الإتجار في المخدرات، وهي تهمة مدنية، لا يمكن الإفراج عن مرتكبها، قبل انتهاء مدة سجنه، كما يحدث عادة، في قضايا التجسس.

قال المدير في زهو:

- لا تنس سرقة أوراق المركز الثقافي، الذي أصابهم بجنون آخر.

ثم أضاف بابتسامة كبيرة:

- كل شيء على ما يرام بالفعل، ولا تقلق بشأن عميلنا.. لا تقلق أبدًا.

☆ ☆ ☆

التقى حاجبا (ريم) في صرامة، وهي تجلس في ردهة فيلا المركز الثقافي الإسرائيلي، ومسدس (إليعازر) مصوب إلى رأسها، وإلى رأس (رشدي)، الذي يجلس متوترًا، على المقعد المواجه لها، عبر الردهة، في حين ارتشف (إيزاك) رشفة من كأسه، وهو يقول في ثقة:

- لم تعد هناك فائدة من الإنكار يا آنسة (ريم).. إنني الآن أعرف كل شيء عنك، وأعلم بكل ثقة، أنك عميل المخابرات المصرية، الذي نبحث عنه.

قالت في حدة:

- ثقتك بنفسك ليست في محلها، يا رجل، فلست أنتمي إلى المخابرات المصرية، ولا أعلم شيئًا عنها.

أطلق ضحكة ساخرة، وقال:

- قلت لك ألا فائدة من الإنكار.

وهنا قال (رشدي) في عصبية:

- لماذا لا تتحدثان بالعربية، حتى يمكنني فهم حديثكما؟

ابتسم (إيزاك)، وقال:

- لا بأس يا تاجر (الموسكي).. لن يضيرنا هذا.

ثم لوح بكفه، مستطردًا بالعربية:

- صديقتك هذه تظن نفسها أذكى نساء الأرض، ولكننا كشفنا أمرها، وعلمنا أنها تعمل لحساب المخابرات المصرية.

هتف (رشدي) في دهشة:

- المخابرات المصرية؟!

قالت (ريم) في صرامة:

- لا تصدق حرفًا واحدًا من هذا.

ولكنه تابع بنفس الدهشة، وكأنه لم يسمع اعتراضها:

- ألهذا قلت: إنك هنا في مهمة سرية، لحساب الحكومة المصرية؟

برقت عينا (إيزاك) في ظفر، في حين هتفت (ريم) في غضب:

- لماذا قلت هذا؟

أطلق (إيزاك) ضحكة ظافرة عالية، وهو يقول:

- أرأيت؟.. لقد كنت على حق تمامًا.

أما (رشدي)، فقد شحب وجهه، وغمغم في ارتباك:

- يا إلهي!.. ماذا قلت؟

قال (إيزاك)، وهو يلوح بكفه:

- لقد كشفت الحقيقة يا رجل، وأفسدت على المخابرات المصرية جولتها الأخيرة..

قالت (ريم) في حدة:

- إنه لا يفهم شيئًا..

ضحك (إيزاك) في سخرية، وقال:

- بالطبع يا عزيزتي، ولكن دعيني أهنئ المخابرات المصرية على اختيارها لك، فلم نتوقع أبدًا أن يكون عميلهم الأول امرأة، ومع رسالة عميلنا السابق، تركزت أفكارنا كلها حول البحث عن رجل، يبدأ أسمه بحرف (الراء)، دون أن يخطر ببالنا أنك أنت من نبحث عنه، على الرغم من أن اسمك يبدأ أيضًا بحرف (الراء).

قالت في حدة:

- لا تتماد في خداع نفسك يا رجل.. قلت لك إنني لست ذلك العميل، الذي تبحثون عنه.

قال (إليعازر) ساخرًا:

- ولكن رفيقك كشف الأمر دون أن يدري يا فتاتي، وأنت أخطأت تمامًا، عندما بحت له بهذا السر، فهذا يتعارض تمامًا مع ضرورات الأمن، في عالم المخابرات.

صاحت في عصبية:

- ولكنني لست أعمل في المخابرات.

ابتسم في سخرية، وهو يقول:

- ما معنى كونك تؤدين مهمة سرية، لحساب الحكومة المصرية إذن؟

قالت متوترة:

- إنني بالفعل أقوم بمهمة سرية، لحساب الحكومة المصرية، ولكنها ليست لحساب المخابرات العامة، بل لحساب مباحث الأموال.

عقد (إيزاك) حاجبيه، وقال في دهشة:

- ماذا؟

أجابته في عصبية:

- هذه هي الحقيقة.. إنني أعمل في شركة مصرية فرنسية، من شركات الاستثمار الجديدة، ولقد كشفت مباحث الأموال عن وجود مؤامرة اقتصادية، بين مدير الشركة الفرنسي، مسيو (جيرار)، ومديرها المصري، لاختلاس جزء كبير من أرباح الشركة، وتحويلها إلى هنا، لخداع مصلحة الضرائب المصرية، وكان المختلسون على درجة عالية من الخبرة والمهارة، بحيث درسوا الأمر جيدًا، وجمعوا معلومات كبيرة، عن كل رجل يعمل في مباحث الأموال، حتى تفشل أية محاولة للتسلل داخل الشركة، وكشف التلاعب من مصادره الرئيسية، وهنا انتقاني رجال المباحث المالية، واتفقوا معي على مجاراة المسئولين في الشركة المصرية الفرنسية، واستدراجهم إلى محاولة عقد صفقة معي، بصفتي المدير المالي للشركة، تزيد من أرباحهم السرية، مقابل

نسبة كبيرة، أحصل عليها.. ولهذا سافرت إلى هنا، واتصلت بمسيو (جيرار)، الذي عرض على القيام بالعمل، والمفروض أن ألتقي به في المساء، وأسجل كل ما يدور بيني وبينه من حوار، حتى يتم إلقاء القبض عليه متلبسًا، فيعترف بأسماء شركائه.

صمتت لحظة، اتجهت خلالها كل الأنظار إليها في دهشة وصمت، فازدردت لعابها، وتابعت في توتر:

- كنت أعلم أنها ليست بالمهمة السهلة، وأن (جيرار) ورجاله لن يترددوا في قتلي، وتمزيقي إربًا، إذا ما انكشفت لهم لعبتي، وكان عليّ أن أخفي الأمر على الجميع، وأن أواصل العمل في سرية، حتى تسقط الشبكة كلها.

حدق (إيزاك) في وجهها لحظات في دهشة بالغة، ثم قال في عصبية:

- لست أصدق حرفًا واحدًا من هذا.

صاحت (ريم).

- ولكنها الحقيقة.

صاح في ثورة:

- مستحيل!

ولوح بسبابته في وجهها، وهو يستطرد في عصبية بالغة:

- كذب.. كل كلمة نطقت بها مجرد كذب، والواقع خير دليل على هذا.. إنكم أربعة أفراد فحسب، وصلتم على متن الطائرة المنشودة، وتبدأ أسماؤكم بحرف (الراء)، ولم يصل على متنها سواكم، ممن يحملون جوازات سفر مصرية، ولقد تأكدنا من أن الثلاثة الآخرين ليسوا من نبحث عنهم، ولم يبق سواك.

قال (رشدي) في توتر:

- ولماذا تبحثون عمن يحمل جواز سفر مصري؟.. أليس من المحتمل أن يكون الشخص المنشود قد حضر بجواز سفر زائف، بجنسية إيرانية مثلًا، أو بريطانية، أو..

قاطعة صائحًا:

- مستحيل!

وانتفض جسده في انفعال جارف، وهو يقول:

- إنكما تحاولان خداعي.. كل كلمة نطقت بها هذه المصرية كاذبة.

قالت (ريم) في حدة:

- اتصل إذن بالضابط (علاء)، في السفارة المصرية، وسيخبرك الحقيقة.

صاح (إيزاك):

- أنت تعلمين أنه لن يفعل أبدًا.

لوحت بكفيها، هاتفة:

- ماذا تقترح إذن؟

انعقد حاجباه على نحو مخيف، وهو يقول:

- ليس أمامي سوى حل واحد.

سألته في عصبية:

- ما هو؟

أجابها في شراسة:

- أن أقضي على كل التوتر والقلق في أعماقي، وعلى الحيرة والشكوك، وكل هذا بثمن بخس.

ولوح بسبابته، مستطردًا:

- برصاصتين فحسب.

رفع (إليعازر) مسدسه على الفور، ليصوبه إلى رأس (ريم)، وهو ينظر إلى (إيزاك)، في انتظار إشارته، في حين هتفت (ريم):

- إنك مخطئ.. أقسم لك إنك كذلك.

ولكن (إليعازر) سأل (إيزاك) بصوته الخشن الجاف:

- هل أقتلها؟

قبل أن يجيبه (إيزاك)، ارتفع صوت صارم، يقول بفرنسية سليمة:

- سيكون هذا أكبر خطأ ترتكبه، في حياتك كلها..

وكانت مفاجأة مدهشة..

بل مذهلة.

☆ ☆ ☆

16- المفاجأة الأخيرة..

اتسعت عينا (إيزاك) في ذهول، شاركه إياه (إليعازر) و(ريم)، وهم يحدقون في وجه (رشدي)، الذي نهض مبتسمًا في ثقة عجيبة، بدا وكأنها تبدل الكثير من ملامحه الطفولية، فصاحت (ريم):

- (رشدي)!.. أتتحدث الفرنسية؟

وهنا صرخ (إيزاك):

- إنه هو.. اقتله يا (إليعازر).

أدار (إليعازر) فوهة مسدسه نحو (رشدي) في سرعة، ولكن (رشدي) انحنى في مرونة مدهشة، لا تتفق مع ميل جسده للسمنة، وتفادى الرصاصة القاتلة، التي انطلقت من مسدس (إليعازر)، ثم انقض بغتة على هذا الأخير، وركل المسدس من يده في قوة، وأطاح به إلى ركن الحجرة، ثم هوى على فك (إليعازر) بلكمة ساحقة، تراجع لها هذا الأخير في قوة، وحاول أن يتماسك، ولكن (رشدي) كال له لكمتين أخريين سريعتين، في معدته وأنفه، جحظت لهما عينا (إليعازر)، وسقط فاقد الوعي، و(ريم) تهتف ذاهلة:

- (رشدي)؟!.. كيف فعلت هذا؟!

اندفع (إيزاك)، محاولًا بلوغ مسدس (إليعازر)، الملقى في ركن الحجرة، ولكن (رشدي) بلغه بسرعة أكبر، وجذبه من ياقة قميصه إلى الخلف، وهو يقول بالفرنسية:

- لن تنجح أيها الوغد.

وهوى على فك (إيزاك) بلكمة كالقنبلة، مستطردًا:

- لقد خسرت اللعبة كلها.

سقط (إيزاك) أرضًا، واتجه (رشدي) في هدوء إلى ستائر الردهة، فجذب حبالها في قوة، و(ريم) تهتف:

- (رشدي).. لقد خدعتني..

أجابها مبتسمًا، وهو يلوي ذراعي (إيزاك) خلف ظهره، ويقيد معصميه بحبل الستائر:

- معذرة يا عزيزتي.. كنت مضطرًا، فهكذا تحتم اللعبة.

انهار (إيزاك)، وهو يقول:

- إذن فهو أنت.

أومأ (رشدي) برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم أيها الوغد.. هو أنا طيلة الوقت.

هتفت (ريم) في دهشة:

- أنت ماذا؟

انتهى من تقييد (إيزاك)، وانتقل لفعل المثل مع (إليعازر)، وهو يجيبها في هدوء:

- أنا ضابط المخابرات المصري يا عزيزتي.

صاحت في ذهول:

- أنت؟!.. أنت رجل مخابرات؟

راح يقيد (إليعازر)، وهو يقول:

- نعم يا عزيزتي (ريم).. أنا واحد من رجال مخابرات (مصر).. واحد ممن لا يترددون لحظة، في التضحية بأنفسهم، من أجل (مصر).

قال (إيزاك) في انهيار:

- لقد خدعتنا.

هز (رشدي) كتفيه، وهو ينهض مبتسمًا، بعد أن انتهى من تقييد (إليعازر)، وقال:

- ليس هذا فحسب يا رجل.. اعتراف بالحقيقة كلها.. لقد هزمتكم ونجحت في تصفية مكتبكم هنا.. أليس كذلك.

هتفت (ريم):

- ولكن ماذا عن ارتباكك الدائم، وادعائك الجهل بالفرنسية؟

أجابها في هدوء:

- كان هذا جزءًا من التغطية المطلوبة للشخصية يا عزيزتي، وكان من الضروري أن أخفي حقيقة شخصيتي عن الجميع، حتى عنك شخصيًا.

ثم استدرك في سرعة، وهو يلوح بسبابته:

- وهذا لحمايتك، وليس لضعف ثقتي بك، فمعرفتك لهذا السر قد تؤذيك أو تربكك، أو تؤدي إلى وقوعك في أيدي هؤلاء الأوغاد.

قالت غاضبة:

- أهذا هو السبب الحقيقي؟

رفع يده إلى قلبه، وهو يبتسم قائلًا:

- أقسم إنه كذلك.

قال (إيزاك)، وهو يكاد يبكي قهرًا:

- إذن فقد تعمدت إنقاذ (رفعت)، وقتل رجلنا.

أجابه (رشدي):

- بالتأكيد، فلقد لمحت انعكاس الأضواء، على عدسة منظار قاتلكم المحترف، فتظاهرت بالسقوط، عندما لاحظت أن بندقيته مصوبة إلى (رفعت)، ودفعت هذا الأخير، بعيدًا عن مرمى النيران.. أما رجلكم الغبي، الذي حاول قتلي، وأنا في طريقي إلى الفندق، فلقد رأيت ظله في وضوح، وهو يسير خلفي، وتعمدت الوقوف عند صندوق الكهرباء المكشوف، حتى هاجمني، فلكمته في معدته، وقفزت جانبًا، وتركت خنجره يضرب الأسلاك المكشوفة، التي صعقته على الفور.

قالت (ريم) في دهشة:

- ولكنك كنت إلى جواره، ترتجف في هلع.

ابتسم قائلا:

- كنت أحتاج إلى تبرير قوي لتغلبي عليه، وإلى شهود على موقفي.

وغمز بعينه، مستطردًا:

- كنت ممثلًا بارعًا.. أليس كذلك؟

عقدت حاجبيها في شدة، وهي تقول في غضب:

- بالتأكيد.. كنت ممثلًا بارعًا طيلة الوقت.

رفع حاجبيه، هاتفًا:

- لا.. ليس طيلة الوقت.

قالت في حدة:

- ومن يصدقك؟

أجابها في حنان:

- أنت.

خفق قلبها، وهي تتطلع إليه، وتسأله في خفوت ودلال:

- أراهن أن اسمك الحقيقي ليس (رشدي).. أليس كذلك؟

لوح بكفه، قائلًا:

- تخسرين الرهان يا عزيزتي.. (رشدي كامل) هو اسمي الحقيقي.

قال (إيزاك) في مرارة، وهو يبكي بدموع حقيقية:

- ولكن كيف أبلغنا رجلنا في (القاهرة) أنك تمتلك متجرًا في (الموسكي) بالفعل؟

ابتسم (رشدي)، وقال:

- هذا هو أفضل جزء في الخطة، فلقد ورثت متجر أدوات التجميل حقًا.

هتفت (ريم) في دهشة:

- أنت؟!.. ومنذ متى يمتلك رجال المخابرات متاجر أدوات تجميل؟

أطلق ضحكة صافية، وهو يقول:

- يبدو أن فكرتك عن رجال المخابرات عجيبة يا (ريم).. إنك تتصورينهم مخلوقات فضائية، نبتت في بيئة أخرى، غير بيئتنا المصرية، التي نحيا فيها جميعًا.. إننا مواطنون عاديون يا عزيزتي، وكل منا نشأ في بيت مصري صميم، ولقد نشأت أنا في بيت مستقر، يحكمه والدي رحمه الله، تاجر أدوات التجميل بـ (الموسكي)، ولقد توفى والدي منذ عام واحد، ولما كنت وريثه الوحيد، فقد تسلمت المتجر من بعده، وحاولت إدارته على

نحو جيد، كما كان يفعل أبي، ولكن ذلك تعارض كثيرًا مع عملي بالمخابرات، الذي لم يكن يعلم به أحد، حتى والدي نفسه، فطلبت إحالتي للتقاعد، وهذه العملية كانت بمثابة مكافأة نهاية خدمة.

اتسعت عينا (إليعازر)، وهو يهتف في ذهول:

- مكافأة نهاية خدمة؟!

ابتسم (رشدي)، قائلًا:

- نعم أيها الوغد، ولكن القاعدة كانت معكوسة هذه المرة، فأنا الذي منحت المكافأة لإدارة المخابرات المصرية، واقترحت القيام بهذه العملية، كهدية تقاعد، أهديها إلى (مصر)، في نهاية خدمتي الرسمية في الجهاز.

دار رأس (إيزاك)، وهو يهتف:

- مستحيل!.. مستحيل!

ثم سقط فاقد الوعي، من فرط الانفعال..

لقد خسر اللعبة..

خسرها تمامًا..

☆ ☆ ☆

«على ركاب طائرة (مصر للطيران)، التي تغادر (باريس) بعد نصف ساعة، التوجه إلى الدائرة الجمركية ودائرة الجوازات؛ لإنهاء إجراءات المغادرة.»

انطلقت (ريم) تعدو، عبر صالة مطار (أورلي) في (باريس)، استجابة للنداء الثالث والأخير، واستقبلها (رشدي) عند الدائرة

الجمركية، وسألها في اهتمام:

- كيف حال عمليتك؟

أجابته لاهثة:

- كل شيء تم على ما يرام.. لقد استقبلني مسيو (جيرار) عند برج (إيفل)، حسب اتفاقنا، ولم يكد يمنحني حقيبة النقود، وتعليمات العمل القذر، حتى أطبق عليه رجال الشرطة الفرنسية، مع مندوبنا الرائد (علاء)، وألقوا القبض عليه، وعلى عصابته كلها، في خلال ساعة واحدة، وفي نفس الوقت، كان الآخرون في (مصر)، يلقون القبض على المدير المصري وأعوانه.

ابتسم قائلًا:

- عظيم.. لقد قمت بمهمة ممتازة.

قالت وهي ترمقه بنظرة إعجاب:

- لن أبلغ أبدًا عظمة مهمتك.

هتف في سعادة وبساطة:

- حقًا؟!

أطلقت ضحكة عالية، وقالت:

- كم تدهشني شخصيتك، وتخلب لبي يا (رشدي).. إنك إنسان بسيط للغاية، ورقيق المشاعر، وعلى الرغم من هذا فأنت أقوى وأفضل رجل مخابرات عرفته.

ابتسم قائلًا:

- وهل يتعارض هذا وذاك؟

ضحكت قائلة:

- كنت أظنهما يتعارضان فيما قبل.

قال في بساطة رائعة:

- ولكنني لم أعد رجل مخابرات يا عزيزتي.. لقد انتهى عملي في المخابرات، بنجاح هذه المهمة، وأصبحت مجرد تاجر أدوات تجميل بسيط.

قالت في سعادة:

- بل أنت أروع مخلوق عرفته، في حياتي كلها.

هتف بكلمته المعهودة:

- حقًا؟!

ثم انفجرا ضاحكين في مرح، قبل أن تسأله في اهتمام:

- قل لي: ماذا أصاب (إليعازر) و(إيزاك)؟

هز كتفيه، قائلًا:

- لم يعد أمرهما يعنيني.

بدت خيبة الأمل على وجهها، حينما لم يشبع فضولها، فأضاف مبتسمًا:

- لقد تم استدعاؤهما إلى (تل أبيب)، وأظنهما يلعنان الآن ذلك اليوم، الذي التقيا فيه بي.

ضحكت في زهو، وهي تقول:

- من حقهما أن يفعلا.

اكتست ملامحه بالجدية، وهو يقول:

- دعينا ننتقل الآن إلى المرحلة الأكثر أهمية.

سألته في اهتمام:

- وما هي؟

قال:

- إننا لم نناقش هذا الأمر على نحو صريح ومباشر من قبل، ولكن دعينا نفعل الآن.. هل تتزوجينني يا (ريم).

هتفت:

- أتزوجك؟!

قال في قلق:

- نعم.. إنني أتمنى لو تقبلينني زوجًا.. صحيح أنني لم أعد أعمل في المخابرات، وأنني الآن مجرد تاجر بسيط، ولكني أعد أن أبذل أقصى جهدي لـ...

قاطعته بإشارة من يدها، وابتسمت قائلة:

- ماذا أصابك؟.. أنسيت أنني أحببت التاجر البسيط، قبل أن ألتقي برجل المخابرات؟.

هتف في سعادة:

- (ريم).. أيعني هذا؟

قاطعته وسعادتها تفوق سعادته:

- ألم تفهم بعد يا رجل المخابرات السابق؟

ثم مالت نحوه، هامسة:

- إنني أحبك.

وعندما حلقت بهما الطائرة، عائدة إلى (القاهرة)، كان قلباهما يحلقان أعلى وأسرع منها، فقد ربحا اللعبة حتى النخاع..

لعبة الحب..

ولعبة الجواسيس.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- تحذير..

2- حرف الراء..

3- البحث..

4- القاتل..

5- الشك..

6- هجوم مضاد..

7- ليلة الدم..

8- الجميع..

9- التحريات..

10- الدليل..

11- المفاجأة..

12- جاسوس برغم أنفه..

13- منتصف الليل..

14- سقوط..

15- اختطاف..

16- المفاجأة الأخيرة..

الفهرس:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

جزيرة القدر

د. نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

..سلسلة كوكتيل 2000

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

قصص العدد

جـزيرة القـدر

1- أمنـية..

ضجَّت قاعة المؤتمرات الكبرى في (نيويورك) بالتصفيق والهتاف، عندما انتهت الدكتورة (وفاء) من إلقاء بحثها الأخير، حول نظم الكمبيوتر والمعلومات، والذي أضاف منهجًا جديدًا، إلى مناهج البحث المعروفة، في عالم الكمبيوتر، وتضرَّج وجه الدكتورة (وفاء) بحمرة الخجل، وهي تبتسم في سعادة، وتقاوم في صعوبة دموع الفرح، من الإفلات من عينيها الجميلتين، أمام هذا النجاح الرائع، التي لم تحلم بمثله قط، ونهضت من مقعدها خلف المنصة في بطء، وجسدها يرتجف ارتجافة ظفر لذيذة، وأزاحت في رقة خصلة ناعمة، من شعرها الأسود الجميل، قبل أن تهبط في درجات السلم القصير، لتلتقي بعلماء الكمبيوتر من كل الجنسيات، الذين يملأون قاعة المؤتمرات..

وفي حماس منقطع النظير، هتف بها عالم كمبيوتر فرنسي، وهو يصافحها في حرارة:

- رائع يا سيدتي.. رائع.. لقد حققت نصرًا عظيمًا في عالمنا.

وابتسم عالم أمريكي ابتسامة واسعة، وهو يقول:

- باستخدام معادلاتك الجديدة، لن يكون هناك كمبيوتر مغلق.. كل البرامج أصبحت مفتوحة.

كانت ترغب في رد تهنئتهم بعبارات رقيقة، ولكنها شعرت أنها ستنفجر باكية في سعادة، لو فتحت شفتيها لتنطق حرفًا واحدًا، فاكتفت بهز رأسها في امتنان، وهي تغالب دموعها، وسمعت عالمًا أمريكيًا، آخر، يقول في حماس:

- أراهن أنك ستصبحين مليونيرة، بعد عام واحد على الأكثر، فكل الشركات الأمريكية والأوربية ستتهافت لشراء برنامجك الجديد.

قاطعه صوت يتحدث الأمريكية، بلكنة شرقية واضحة:

- أظنها ستفضل منح الامتياز لأبناء وطنها.

بدت لها نبرة الصوت مألوفة، فالتفتت إلى صاحبها، وهتفت:

- (فتحي)؟!.. (فتحي قرمان) ؟!.. ماذا تفعل هنا؟

صافحها الشاب الطويل النحيل، وهو يبتسم قائلًا:

- قرأت عن حضورك مؤتمر الكمبيوتر التاسع، فقررت الحضور لرؤيتك.

هتفت:

- وهل أتيت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لرؤيتي فحسب؟

أطلق ضحكة مرحة، وقال:

- من الواضح أنك لا تعلمين شيئًا عن أخباري.

قالت في بساطة:

- هذا صحيح، فنحن لم نلتق مرة واحدة، منذ تخرّجنا.

تطلع إلى ملامحها الجميلة، وهو يبتسم:

- هذا صحيح، ولكنك لم تتغيري كثيرًا يا (وفاء).. ما زلتِ فاتنة وذكية.

تضرج وجهها بحمرة الخجل، وغمغمت في حياء:

- لابد أنني قد تغيرت بعض الشيء.. إنني في الثانية والثلاثين.

أطلق ضحكة مرحة أخرى، وقال:

- يا إلهي!.. يلوح لي أنك المرأة الوحيدة في العالم، التي تذكر سنها بهذه البساطة يا (وفاء).

هزت كتفيها، قائلة:

- ولماذا أخفيه؟؟

ضحك قائلًا:

- دعينا نلق هذا السؤال على نساء الدنيا.

ضحكت ضحكة قصيرة لدعاباته، ثم تأملته في اهتمام.

إنه لم يختلف كثيرًا، عما كان عليه في أيام الجامعة.. فقط هذان الفودان، اللذان وخطهما الشيب بعض الشيء، وتلك الحلة الأنيقة الفاخرة، ورباط العنق الحريري..

وفي بساطة سألته:

- أحقًا أتيت إلى هنا لرؤيتي فحسب؟

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- هذا صحيح، ولكنني لم آت من (القاهرة) كما تتصورين، فأنا أقيم هنا منذ عشر سنوات.

هتفت في دهشة:

- هنا في (أمريكا)؟!

ابتسم، وأشار بسبابته، قائلًا:

- وفي (نيويورك) بالذات.

تطلعت مرة أخرى إلى ثيابه الفاخرة، وقالت:

- أراك قد حققت بعض النجاح هنا ضحك وقال:

- بل الكثير منه يا عزيزتي.

ومال نحوها، مستطردًا في همس مرح:

- لقد أصبحت مليونيرًا.

رفعت حاجبيها، هاتفة:

- حقًا؟!

هز كتفيه، وقال:

- لقد فعلت مثلك، واستثمرت علوم الكمبيوتر، التي درسناها معًا، ولكنني فعلت هذا بأسلوب مختلف، والآن أمتلك واحدة من أضخم شركات الكمبيوتر في (نيويورك).

تهللت أساريرها، وهتفت في حماس:

- رائع يا (فتحي)... كنت دائمًا تحلم بهذا.

تأمل ملامحها لحظة، قبل أن يقول:

- وبأشياء أخرى أيضًا.

تظاهرت بعدم فهم ما يلمح إليه، ولكن وجهها حمل آثار ذلك الحياء، الذي ملأ نفسها، فابتسم (فتحي) في شيء من الثقة والارتياح، واعتدل وهو يقول:

- والآن ما رأيك في بيع برنامجك لشركتي؟

ترددت لحظة، قبل أن تقول:

- أهي شركة مصرية أم أمريكية؟

لوح بكفه، قائلًا بالأمريكية:

- (وفاء).. إنني أحمل جنسية أمريكية الآن.

مطت شفتيها، وقالت:

- كنت أفضل بيعها لشركة مصرية.

ابتسم وهو يقول:

- دعك من هذه الأفكار المثالية، فلم تعد تصلح سوى لأفلام السينما الرديئة.

ثم أضاف في سرعة، قبل أن يعطيها فرصة التفكير في عبارته:

- ولكن دعينا نؤجل ذلك الآن.. إنني أدعوك لتناول طعام الغداء معي.

وتوقف ليسألها في اهتمام:

- أم أن هذا سيغضب زوجك؟

أجابته في خجل:

- إنني لم أتزوج بعد.

هتف في لهجة، حملت نبرة فرح:

- حقًا؟!

ثم انتبه إلى سخافة قوله، فتنحنح وأضاف:

- أعني هل أصيب الرجال بالعمي؟

ابتسمت في خجل، وهي تقول:

- كنت أريد الحصول على شهادة الدكتوراه أولًا.

أمسك كتفيها، وتطلع إلى عينيها، وهو يقول:

- ليس الآن يا (وفاء).. سأستمع إلى قصة حياتك كلها، على مائدة الغذاء..

هيا بنا.

لم تدر لماذا صحبته، متجاهلة الحفل الختامي للمؤتمر؟..

ربما هو الفضول، الذي ملأ نفسها، لمعرفة كيف يحيا، بعد أن أصبح مليونيرًا أمريكيًا..

نعم.. هو الفضول..

لقد استقلت معه سيارته الفاخرة، التي لم تر مثيلًا لها، في حياتها كلها، وبهرتها أناقتها واتساعها، وكل ما تحويه من أجهزة صوتية، وأدوات للراحة، وتلفاز، ومبرد خاص، وخلافها..

وعندما بلغا منزله.. أو بالأحرى قصره، كان انبهارنا قد بلغ ذروته..

إنه قصر كقصور الأساطير، بأبراجه الأنيقة، وشرفاته الواسعة، المطلة على المحيط، وأثاثه الذي لم تحلم بمثله قط..

وبكل الانبهار في أعماقها، هتفت به:

- يا إلهي!.. هل تمتلك كل هذا حقًا يا (فتحي)؟

ابتسم قائلًا:

- إنني أربح الكثير.

دعاها لتناول الطعام في واحدة من شرفات القصر، وبهرها ذلك العدد من الخدم، الذين يقدمون الطعام، ويحرصون على راحة سيدهم وراحتها، وشعرت بجسدها يسترخى، في ذلك المقعد الوثير، وبأحلامها تنطلق بعيدًا..

كم تنميت أن تحيا في مكان كهذا..

حدائق وأناقة وثراء وفخامة..

إنها أمنية عمرها..

وفي تراخ ونشوة، تطلعت إلى المحيط الممتد أمامها، وهي تسترجع أحلام صباها، وسمعت (فتحي) يقول:

- والآن، ما قولك بشأن صفقتنا؟

الفتت إليه، مغمغمة في هيام:

- صفقتنا؟!

ابتسم قائلًا:

- نعم.. موضوع برنامجك الجديد.

أيقظها الحديث من نشوتها، فاعتدلت قائلة:

- امنحني بعض الوقت للتفكير يا (فتحي).

قال في حماس:

- التفكير في ماذا؟.. لقد ابتكرت برنامجًا رائعًا، وستسعى كل الشركات للحصول عليه، وما دمت ستمنحينه لإحداها حتمًا، إن عاجلًا أو آجلًا، فلم لا تكون شركتي، خاصة وأنني سأمنحك ثمنًا يفوق ما سيمنحك إياه الآخرون؟

قالت في تردد:

- ولماذا لا أمنحه لشركة مصرية؟

عقد حاجبيه، ومال نحوها، قائلًا:

- اسمعي.. سأمنحك مليوني دولار، مقابل برنامجك.

اتسعت عيناها في ذهول، وهي تهتف:

- كم؟!

ابتسم في ثقة، وهو يقول:

- لن يعرض عليك مخلوق واحد، حتى الحكومة المصرية نفسها، نصف هذا المبلغ.

تطلعت إليه لحظات مشدوهة، وقد أذهلها المبلغ، الذي لم تحلم يومًا بامتلاك عُشره، وارتجفت الكلمات على شفتيها، وهمت بقول شيء ما..

ولكن تلك الطائرة قطعت أفكارها..

طائرة أنيقة، لامعة، عبرت فوق القصر مباشرة، ودارت دورة واسعة، ثم انقضت على الحديقة الخلفية للقصر، وهبطت فوق مهبط طائرات طويل، يرتسم في أناقة وسط الحديقة الغنَّاء..

وهتفت (وفاء):

- هل تهبط الطائرة هنا؟

تراجع (فتحي)، وابتسم في زهو، وهو يقول:

- بالطبع.. إنني أمتلكها.

صاحت مبهورة:

- تمتلك طائرة خاصة؟!

ضحك في سعادة، وهو يقول:

- بالطبع.. إنها أبسط شيء، يمكن أن يمتلكه مليونير هنا.. إنها طائرة ذات أربعة مقاعد..

تطلعت إلى الطائرة في انبهار، وهي تقول:

- كم أتمنى ركوب طائرة مثلها.

رفع حاجبيه، قائلًا:

- تتمنين؟!

ثم نهض من مقعده، واستطرد مبتسمًا:

- ولم لا نحول الحلم إلى حقيقة؟

هتفت:

- ماذا تعني؟

أجابها ملوحًا بكفه:

- أعني أنني أدعوك لتحقيق أمنيتك، والقيام برحلة على متن طائرتي الخاصة.

لم تصدق أذنيها...

- إنها ستحقق أمنية من أمنيات حياتها..

ولكن من يدري، ما الذي يخفيه القدر، خلف هذه الأمنية؟..

من يدري؟..

☆ ☆ ☆

2- الرحلة..

هبط قائد طائرة (فتحي) الخاصة، من كابينة القيادة الصغيرة، وشد قامته المديدة، وكتفيه العريضين، وربت على جسم الطائرة في رفق وحنان، وداعب مروحتها اليسرى، وكأنه يطمئن على سلامتها، قبل أن يسمع صوت (فتحي) من خلفه، وهو يهتف:

- استعد للإقلاع يا فتى.

التفت قائد الطائرة إلى (فتحي)، وانعقد حاجباه قليلًا، وهو يتفحص (وفاء) في حيرة، قبل أن تقترب منه مع (فتحي)، الذي أشار إليه، وهو يقول لها:

- أقدم لك (صبري).. الطيار الخاص لي.

رفعت حاجبيها، هاتفة.

- (صبري).. أأنت مصري؟

أجابها (صبري).. في اقتضاب:

- لي كل الفخر.

أما (فتحي)، فقال في زهو:

- نعم... إنه مصري.. لقد كان طيارًا مدنيًا، في شركة (مصر للطيران)، ولكنني أقنعته بالاستقالة، والعمل لحسابي.. أليس كذلك يا (صبري)؟

ردد (صبري) بنفس الاقتضاب:

- بلى يا سيد (فتحي).

شعرت (وفاء) بنبرة عجيبة في صوت (صبري)، وكأنما لا يروق له العمل لحساب (فتحي)، فتطلعت في حيرة إلى ملامح (صبري) الجامدة، في حين قال له (فتحي):

- أتعشم أن يكون لديك وقود كاف، فالدكتورة (وفاء) ترغب في القيام برحلة في طائرتك.

أجابه (صبري):

- لدينا وقود كاف، ووقود احتياطي كذلك، ولكن النشرة الجوية أعلنت عن قرب وقوع عاصفة، و..

قاطعه (فتحي) في صرامة:

- سنعود قبل العاصفة.

بدت ملامح (صبري) جامدة بعض الشيء، ولكن (وفاء) قرأت الضيق في عينيه، فغمغمت:

- لا بأس.. يمكننا أن نؤجل هذا، و..

قاطعها (فتحي) في حزم:

- بل سنذهب الآن.

وعاونها على الصعود إلى الطائرة، وهو يضيف:

- هيا يا (صبري).

صعد (صبري) إلى كابينة القيادة دون مناقشة، وانتظر حتى استقر (فتحي) و(وفاء) في مقعديهما، ثم أدار محرك الطائرة، وانطلق بها فوق ممر الإقلاع..

وحلقت الطائرة..

حلقت في نعومة وبساطة، تؤكدان براعة (صبري) وخبرته، فقالت (وفاء) في إعجاب:

- لديك طيار رائع.

ابتسم (فتحي) في زهو، وقال:

- إنني أحسن اختيار من يعملون لحسابي.

لم يرق ذلك الأسلوب المغرور لـ(وفاء)، فأشاحت بوجهها، وتطلعت من النافذة إلى قصر (فتحي)، الذي راح يبتعد ويبتعد في سرعة، ثم لم تلبث (نيويورك) كلها أن اختفت خلف المحيط، فتمتمت (وفاء):

- لقد ابتعدنا كثيرًا.

أجابها (فتحي) في ثقة:

- لا تجعلي هذا يقلقك.. (صبري) أفضل طيار في (نيويورك) كلها.

تمتم (صبري)، الذي لا يفصله عنهما سوى حاجز قصير:

- ما دمت تؤمن بهذا يا سيد (فتحي)، فأنا أقترح أن نبدأ رحلة العودة؛ إذ أن السحب الداكنة تتكاثف في الأفق، وأظن العاصفة في طريقها إلينا.

قال (فتحي) في صرامة:

- سنقضي وقت طويل، قبل أن تصل إلينا.

أجابه (صبري) في ضيق:

- العواصف خادعة.. كل الطيارين ورجال البحر يعرفون هذا.

قال (فتحي) في خشونة:

- أنا أيضًا أعرفه، وآمرك بالاستمرار في الطيران.

استمعت (وفاء) إلى تلك المحادثة في قلق، وامتد بصرها يخترق زجاج الطائرة الأمامي، ويتطلع في خوف إلى السحب الداكنة، التي حجبت الأفق تقريبًا، وقالت:

- أظن أنه من الأفضل أن نعود، وأن..

قبل أن تتم عبارتها، سطح البرق فجأة في السماء، ثم انهمرت الأمطار الغزيرة، وكأن صنابير السماء قد انفتحت كلها في آن واحد.

وفي لحظات قصيرة، كانت السحب الداكنة تغطي السماء كلها، والأمطار تنهال على جسم الطائرة، وترتطم به في ضربات متتالية متلاحقة، أشبه بطلقات مدفع رشاش قوي، والبرق يلمع في السماء، ويضيء المكان على نحو مخيف، فقال (فتحي) في توتر:

- نعم.. أظن أنه من الأفضل أن نعود.. عد بنا يا (صبري).

استدار (صبري) بالطائرة، وهو يراقب عداداتها في قلق، وزاد من سرعتها، في طريقه إلى (نيويورك)، وسط عاصفة عاتية.

وبدأ قلب (وفاء) يخفق في توتر:

هذا الطقس المحيط بها، كان يملأ نفسها بالخوف..

بل الرعب..

وهي تتمنى الآن العودة إلى قصر (فتحي)..

أو حتى إلى أي مكان يابس..

أو..

قطعت أفكارها تلك الصاعقة..

صاعقة شقت طريقها بين السحب الداكنة، وانقضت على الطائرة..

وارتجت الطائرة في عنف، واختل توازنها، وانطلقت صرخة (وفاء) داخلها مدوية، وهي تدور حول نفسها في سرعة..

وامتقع وجه (فتحي)، وتجمدت الكلمات في حلقه، واتسعت عيناه في رعب، في حين عقد (صبري) حاجبيه في شدة، وراح يبذل أقصى جهده وخبرته ليستعيد سيطرته على الطائرة، ومنعها من السقوط في المحيط..

ومضت دقائق أشبه بدهر كامل، والطائرة تهوى، وتدور حول نفسها، و(وفاء) تصرخ، وتصرخ، وتصرخ..

ثم استعاد (صبري) سيطرته على الطائرة..

كان من الواضح أنه قد بذل مجهودًا خرافيًا، حتى اتزنت الطائرة الصغيرة، وراحت تقاوم العاصفة مرة أخرى، في شيء من الثبات، فقد تصبب عرق غزير على وجه الطيار، وتصاعد صوت أنفاسه كثيرًا، وهتف به (فتحي):

- هل نجونا؟

أجابه (صبري) في قلق واضح:

- لست أدري.. لقد استعدنا سيطرتنا على الطائرة فحسب.

سألته (وفاء) في هلع:

- ألا يكفي هذا؟

هز رأسه نفيًا، وقال:

- لقد أفسدت الصاعقة التوازن الكهربي للطائرة، وأحدثت خللًا بالبوصلة، كما أن جهاز الاتصال اللاسلكي لم يعد صالحًا للعمل.

سألته، وهي تكاد تفقد وعيها رعبًا:

- وما الذي يعينه هذا؟

أجابها وكأنما يحنقه السؤال:

- يعني أننا لا ندري أين ينبغي أن نتجه، حتى نعود إلى (نيويورك)، وأن أمامنا نصف الساعة فقط، قبل أن ينفد وقودنا، وتهوي الطائرة..

ثم انعقد حاجباه أكثر، وهو يضيف:

- ويبتلعنا المحيط.

وهوى قلب (وفاء) بين ضلوعها..

☆ ☆ ☆

مضت نصف الساعة بأسرع مما تصور الجميع، ولم تظهر (نيويورك) حتى في الأفق، وانهارت أعصاب (وفاء) تمامًا، وهي تتصور غرق الطائرة بها في قلب المحيط، في حين راح (فتحي) يصرخ في عصبية وارتياع:

- أين (نيويورك).. أين هي يا (صبري)؟.. ما الذي فعلته بنا؟

كان (صبري) يقاتل للانطلاق وسط العاصفة، وهو يجيب في حدة:

- لست أدري أين نتجه بالضبط.. أخشى أننا نتوغل منذ نصف الساعة، في قلب المحيط، بدلًا من أن نعود إلى (نيويورك).

صرخ (فتحي):

- نفعل ماذا؟.. إذن فقد قتلتنا أيها الفاشل.. قتلتنا أيها الحقير.

صاح به (صبري) في صرامة:

- اصمت أيها الجبان السخيف.. لن أحتمل غطرستك لحظة واحدة بعد الآن.

صرخ به (فتحي):

- ماذا تقول؟!.. إنني أنا الذي ينقدك أجرك.

هتف (صبري) في غضب:

- فلتذهب أنت وأجرك إلى الجحيم.. لقد سئمت كل هذا.

وفجأة أصدر محرك الطائرة قرقعة مخيفة، ثم صمت تمامًا، فأضاف (صبري) في توتر:

- أظنك ستذهب إلى الجحيم، بأسرع مما تتصور.

شحب وجه (فتحي) في شدة، حتى كاد يحاكي وجوه الموتى، وتشبث بمقعده في رعب هائل، في حين هتفت (وفاء) في ارتياع:

- أيعني هذا أننا.. أننا سنسقط؟

أجابها، وهو يمسك عجلة القيادة في قوة:

- بل يعني أن الذي يجيد السباحة فقط، هو الذي سينجو من هذا الموقف.. لو كان حظه أفضل من إله الحظ نفسه.

بكى (فتحي) في انهيار، وهو يقول:

- لست أعرف السباحة.

تطلعت إليه (وفاء) في هلع، ثم رفعت بصرها إلى نافذة الطائرة، حيث أظلمت السماء، ولم يتوقف انهمار الأمطار منها، وانهار في قلبها كل أمل في الخلاص والنجاة..

و(صبري) أيضًا شعر باليأس..

إنه –كطيار محترف– يدرك تمامًا استحالة النجاة، من مثل هذا الموقف..

طائرة خالية من الوقود، وسط عاصفة عاتية، وأمطار غزيرة، و.. وفجأة انعقد حاجباه، واتسعت عيناه عن آخرهما في ذهول..

مستحيل أن يكون هذا الذي أمامه حقيقة!

مستحيل!

إنه يهذي ولا شك!..

وفي ذهول ردد:

- مستحيل.

سألته (وفاء):

- ماذا حدث؟

أشار أمامه، قائلًا:

- أترين هذا؟

انتزعت نفسها من مقعدها، ومالت إلى الأمام، تتطلع إلى حيث يشير، ثم اتسعت عيناها في ذهول..

كان أمامها، وعلى بعد كيلو مترين تقريبًا، صفان من الأضواء المتوازية، يظهران وسط الظلام، ويمتدان إلى مسافة مناسبة..

وفي دهشة، سألت (وفاء):

- ما هذا؟

أيقن أنها ترى ما رآه، فأجابها والحيرة تقطر مع حروف كلماته:

- إنه مهبط طائرات.

أنعشت العبارة الأمل، في نفس (فتحي)، فهتف:

- مهبط طائرات؟!.. هل يمكنك بلوغه يا (صبري)؟.. هل يمكنك هذا؟

تشبث (صبري) بعجلة القيادة، وهو يقول:

- نعم.. يمكنني قيادة الطائرة، وكأنها طائرة شراعية بلا محرك، وأظننا نستطيع بلوغ ذلك المهبط بإذن الله (سبحانه وتعالى).

ترك (فتحي) مقعده، وصاح به:

- ماذا تنتظر أيها الغبي؟.. هيا.. اتجه إليه.. هيا.

كظم (صبري) غيظه وغضبه، وركز مشاعره كلها في بلوغ ذلك المهبط العجيب، الذي لاح على نحو أشبه بالمعجزة، وسط المحيط، وهو يسأل نفسه عن سر وجوده..

وانزلقت الطائرة، وسط الرياح والأمطار، متجهة إلى ذلك المهبط..

ثم اتضحت ملامح الجزيرة الصغيرة تدريجيًا..

جزيرة محدودة، يمتد وسطها ذلك المهبط الجوي العجيب..

وهبطت الطائرة وسط صفي الأضواء، واصطدمت إطارتها بالأرض غير المهددة في عنف، وانكسر إطارها المحمول، فانحنت في شدة، واصطدم جناحها بالأرض، فتحطم في قوة واحتك باطن الطائرة بأرض الجزيرة، في صرير مزعج مخيف، اختلط بصراخ (وفاء)، وشهقات (فتحي)..

ثم توقفت الطائرة..

ولثوان ساد داخلها سكون وصمت رهيبين، يوحيان بأن ركابها الثلاثة قد لقوا حتفهم مع السقوط، قبل أن يرتفع صوت (وفاء)، وهي تقول في عصبية:

- هل نجونا؟

أجابها صوت (صبري):

- أظن ذلك.

وهنا انطلق صوت (فتحي)، وهو يقهقه ضاحكًا، ويهتف:

- نجونا.. لقد نجونا.

كان يضحك على نحو هستيري، ولكن (صبري) تجاهله تمامًا، وهو يغادر الطائرة، قائلًا:

- ترى كيف يوجد مهبط مثالي كهذا، وسط جزيرة صغيرة كهذه؟

اتجه نحو أحد المصابيح، الممتدة على جانبي الطائرة، ورفعه يفحصه، قبل أن يقول في دهشة بالغة:

- عجبًا!.. إنه أبسط مصباح رأيته في حياتي.. كرة من الزجاج، بداخلها شمعة بدائية.. يا له من مهبط طائرات عجيب!

لحقت به (وفاء)، وهي تسأله:

- ولكن كيف أتى إلى هنا؟

هز رأسه نفيًا، وقال:

- بل قولي من صنعه؟ ولماذا؟

انتفض جسد (وفاء) في ذعر، عندما انبعث من خلفها صوت يقول:

- أنا.

كان الصوت هادئًا للغاية، وعلى الرغم من هذا فقد التفتت مع (صبري) إلى مصدره في سرعة، ووقع بصرهما على شيخ أصلع، له ملامح أشبه برهبان التبت، ويرتدي ثوبًا مماثلًا لثيابهم، ولقد انحنى أمامهما في احترام، وهو يستطرد بالعربية:

- أنا صنعت هذا، وكنت أنتظركم.

ردد (صبري) في دهشة:

- تنتظرنا؟!

أجابه الشيخ في احترام وهدوء:

- نعم.. أنتظر قدوم طائرتكم، مع رفيقكم الثالث، الذي لم يغادرها بعد.

ثم الفتت إلى الطائرة، مستطردًا:

- المليونير (فتحي قرمان).

وسطع البرق في نفس اللحظة، ليكمل الصورة..

صورة الخوف..

والغموض..

☆ ☆ ☆

3- الشيخ..

اتسعت عينا (فتحي)، وسقط فكه السفلي في ذهول، وهو يحدق في وجه الشيخ الأصلع، قبل أن يهتف به في عصبية:

- ماذا تقول أيها المأفون؟.. إنني لم أرك في حياتي قط، ولم ألتق بك أبدًا، فكيف تدعى معرفتك أياي؟!

ظلت ابتسامة الشيخ تزين وجهه، وهو يقول في هدوء:

- أنا أيضًا لم ألتق بك يا سيدي، ولم أر أحدكم أبدًا، ولكنني أعرفكم تمامًا، وكنت أعلم أنكم ستأتون الليلة، وأعددت كل شيء لاستقبالكم.

تطلعت (وفاء) إلى وجه الشيخ في دهشة وحيرة، في حين سأله (صبري) في توتر:

- أأنت ساحر يا رجل؟

هز الشيخ رأسه، وقال بابتسامته الهادئة:

- بل أنا مجرد حارس يا سيد (صبري).. حارس الجزيرة.

رفع (صبري) حاجبيه في دهشة، وقال:

- أتعرف اسمي؟

انحنى الشيخ أمامه، وهو يقول:

- إنني أعرف الكثير يا سيدي.

ثم أشار إلى كوخ قريب، بدا في صعوبة وسط الظلام، وهو يقول:

- والآن هلا تبعتموني إلى كوخي المتواضع؟

تبعه الثلاثة في حيرة وحذر إلى الكوخ، وهناك أضاء الشيخ مصباحه، وأشار إلى مائدة خشبية قديمة، اصطفت فوقها ثلاثة أطباق من الحساء، مازالت الأبخرة تتصاعد منها، وقال:

- كنت أخشى أن يبرد الحساء.

تبادل الثلاثة نظرات الدهشة، ولكن رائحة الحساء الشهي دغدغت الجوع الكامن في أمعائهم، والذي أوجدته الإثارة وأنجبه التوتر، فاتجهوا إلى المائدة، واصطفوا حولها، وارتشفت (وفاء) رشفة من الحساء، قبل أن تقول في دهشة:

- إنه ساخن بالفعل.

وعقد (صبري) حاجبيه، قائلًا:

- وهناك ثلاثة أطباق.

أما (فتحي)، فقد تذوق الحساء في حذر، ثم قال:

- لا بأس به على الإطلاق.

وبعدها راح يحتسيه في نهم، وكذلك فعل (صبري) و(وفاء)، في حين جلس الشيخ القرفصاء، فوق أريكة خشبية قريبة، وراح يتابعهم بابتسامته الهادئة، حتى انتهوا من تناول الحساء كله، فقال الشيخ:

- لقد أعددت لكم ثلاثة أسرة.. اثنان في الحجرة الشرقية، وواحد للدكتورة (وفاء)، في الحجرة الغربية.

تبادل الثلاثة نظرات الدهشة مرة أخرى، وسألت (وفاء) الشيخ:

- هل كنت تعلم أننا رجلان وامرأة؟

أجابها في هدوء:

- بالطبع.

سأله (فتحي) في حدة:

- كيف تعرف كل هذا؟

أجابه بهدوئه المثير:

- إنه تاريخ الجزيرة، وأنا أحفظه عن ظهر قلب يا سيدي.

ردد (فتحي) في دهشة:

- تاريخ؟

سطع البرق مرة أخرى، وألقى ضوءه على وجه الشيخ، فارتجفت (وفاء) في رهبة، وقالت في انفعال:

- متى تنتهي هذه العاصفة اللعينة؟

أتاها الجواب على لسان الشيخ في هدوء، وهو يقول:

- في السابعة إلا الربع يا بنيتي... ستتوقف فجأة، كما بدأت.

كان هذا الجواب مذهلًا بحق، ودفع الثلاثة إلى التطلع لساعات معاصمهم، قبل أن يقول (صبري):

- إنها السادسة وخمس وعشرون دقيقة الآن.

وهنا هتف (فتحي) في توتر:

- كل هذا لا يعنيني.. أريد العودة إلى (نيويورك)، وبأقصى سرعة

أطرق الشيخ برأسه، وقال في لهجة ملؤها الأسف:

- من المؤسف أن هذا لن يحدث.

عقد (فتحي) حاجبيه، وهو يهتف بالشيخ:

- ماذا؟.. وما الذي يدعوك إلى هذا القول أيها المخرّف؟

رفع الشيخ وجهه إليه، وأجاب:

- قدرك يقول هذا يا سيد (فتحي).

هتف (فتحي) مستنكرًا:

- قدري؟!

ثم تراجع بمقعده، وأضاف في حدة:

- آه.. الآن فقط فهمت اللعبة.

تطلع إليه الشيخ في صمت، في حين رددت (وفاء):

- اللعبة؟!

صاح (فتحي) في غضب:

- نعم.. اللعبة القذرة.

والتفت في سرعة إلى (صبري)، مستطردًا:

- لعبتك.

قفز الغضب إلى وجه (صبري)، وهو يهتف:

- أنا؟!

قفز (فتحي) من مقعده، وراح يصرخ، وهو يلوح بسبابته في وجه (صبري):

- لعبتك.. لعبتك الحقيرة السخيفة.. إنك تحاول إبعادي عن (نيويورك)؛ لتفسد صفقتي الأخيرة هناك.. كم دفع لك منافسي (دالتون)، من أجل هذا؟

هب (صبري) من مقعده، وهو يقول في غضب:

- اسمع يا سيد (فتحي).. لقد احتملت سخافاتك كثيرًا، طوال عام كامل، ولكنك تجاوزت حدودك حقًا هذه المرة، ولن أسمح لك بهذا، وليذهب عملك وقصرك كله إلى الجحيم.

صرخ (فتحي):

- لا.. لن تخدعني بغضبك المصطنع هذا.. إنني أفهم كل شيء.. رحلة بالطائرة، ثم تتظاهر بتلف البوصلة، وتقودنا إلى هذه الجزيرة الصغيرة، التي يملكها (دالتون) حتمًا، حيث يستقبلنا ذلك الشيخ المهرج، ويحاول خداعنا، بالمعلومات التي منحه إياها (دالتون) مسبقًا، ليقنعني أنني لن أعود أبدًا إلى (نيويورك)، فأستسلم لهذا، ويربح (دالتون) الصفقة، وبعدها تنكشف الحقيقة، و..

قاطعه (صبري) في غضب:

- وهل نسيت أنك أنت من اقترحت فكرة رحلة الطيران هذه؟

لوح (فتحي) بكفه، هاتفًا:

- اقترحتها من أجل الدكتورة (وفاء).

ثم التفت إلى (وفاء)، وتابع:

- آه.. لقد فهمت الآن.. أنت أيضًا تعملين لحساب (دالتون) اللعين.

انعقد حاجباها في غضب، وصاحت به:

- اضبط لسانك يا (فتحي)، ولا تنسَ أنك أنت الذي سعى لمقابلتي.

صرخ (فتحي):

- وماذا في ذلك؟.. لا ريب أن (دالتون) علم بأمر توجهي لحضور مؤتمر الكمبيوتر، وجمع الكثير من المعلومات عن المؤتمر، حتى عرف بزمالتي لك في الكلية، وبعدها وضع خطته.

صاحت به (وفاء) في غضب:

- أنت رجل مريض.

أما (صبري)، فأمسك بكتفيه في عنف، وقال:

- وماذا عن الصاعقة، التي أصابت الطائرة؟.. أهي من صنع (دالتون) أيضًا؟

زاغت نظرات (فتحي)، وهو يقول:

- مجرد مصادفة.. كنت ستبتكر حجة أخرى، لو لم تسقط الصاعقة على الطائرة.

قال (صبري) في غضب:

- صدقت الدكتورة (وفاء).. أنت رجل مريض.

صرخ (فتحي)، وهو يحرك ذراعيه في عنف:

- بل أنا رجل ذكي، كشفت خدعتكم، على الرغم من براعتها، وكشفت أمركم، و..

قاطعته (وفاء) في حزم:

- ولكنك نسيت نقطة واحدة أيها الذكي.. إنها السابعة إلا الربع تمامًا الآن.

ثم أشارت عبر النافذة، مستطردة:

ولقد توقفت العاصفة..

☆ ☆ ☆

لم يكن من العجيب، بعد كل هذا، أن أحدهم لم يذق للنوم طعمًا، في هذه الليلة، بل أن أحدهم لم يأو إلى فراشه، وإنما ظلوا حول مائدة الطعام، لا يتبادلون كلمة واحدة، حتى تطلع (صبري) إلى ساعته، وغمغم:

- إنها منتصف الليل تمامًا.

- تلفتت (وفاء) حولها، وقالت:

- أين الشيخ؟.. أين ذهب؟

أجابها (صبري) في خفوت:

- لقد انصرف بعد توقف العاصفة، ولست أدري أين ذهب.

سألته (وفاء):

- ألديك تفسير لكل هذا؟

هز رأسه نفيًا، وقال:

- لا.. لست أفهم حتى ما يحدث هنا.. كيف عرف هذا الشيخ كل ما يعرف؟ وما الذي يقصده بأن هذا قدرنا؟

قالت في حيرة وتوتر:

- كل شيء هنا يبدو عجيبًا، ومخيفًا، ولا يوجد لدينا أي تفسير.

رفع (فتحي) عينيه، وقال في مرارة:

- أنا لدي تفسير.

سألته في لهفة:

- ما هو؟

بدت عيناه حمراوين كالدم، زائغتين في ارتياع، وهو يجيبها:

- التفسير الوحيد لكل هذا، هو أننا لم نعد على قيد الحياة.

وخفض عينيه مرة أخرى، مستطردًا:

- لقد متنا.

هتف (صبري) في استهجان:

- متنا؟!.. أي قول أحمق هذا؟

هز (فتحي) رأسه، وقال:

- لو أنك تمعنت في هذا القول، لوجدته أعقل مما تتصور.. ألن تسمع عن (البرزخ)؟.. تلك الرحلة التي تمر بها الروح، ما بين الحياة والموت.. لقد متنا جميعًا في حادث الطائرة، ونحن الآن في (البرزخ)، نستعد لمغادرة الحياة التي نعرفها.

سرت ارتجافة في جسد (وفاء)، مع هذا التصور، في حين انعقد حاجبا (صبري) في شدة، وهو يحدق في وجه (فتحي)، قبل أن يقول في استنكار:

- كلا.. إنه تصور سخيف.

رفع (فتحي) رأسه إليه في مرارة، وهو يقول:

- حاول أن..

قاطعه (صبري) في حدة:

- لن أحاول شيئًا، ولن تقنعني نظريتك أبدًا، إننا نجلس هنا، في كوخ حقير، فوق جزيرة صغيرة في قلب المحيط، وأنا أشعر بالبرد والقلق والتوتر، وكل هذه عوامل دنيوية بشرية، يشعر بها الجسد، ولا تشعر بها الروح.. إننا أحياء يا سيد (فتحي).. ربما كان الغموض يحيط بنا، ولكننا أحياء.. هل تفهم؟

ثم هب من مقعده، واتجه إلى النافذة، وراح يتطلع عبرها إلى الطائرة المحطمة على الشاطئ، قبل أن يضيف في عصبية:

- وكل ما يمكنني فعله، هو أن أبذل أقصى جهدي، لنغادر هذه الجزيرة الغامضة، ونعود إلى (نيويورك)، وإذا ما كتب لنا هذا،

فسيكون أول ما أفعله هو أن أتقدم إليك باستقالة، وأستقل أول طائرة، عائدًا إلى (القاهرة).

غمغمت (وفاء):

- حسنًا تفعل.

رفع (فتحي) عينيه إليه، وقال في لهجة أقرب إلى البكاء:

- ومن قال إنك ستجد الوقت لهذا.

قال (صبري) في صرامة:

- المهم أن نحاول.

هز (فتحي) رأسه نفيًا، وقال:

- خطأ يا رجل.. يبدو أنك قد نسيت ما قاله ذلك الشيخ، الذي يعرف كل شيء.. إننا لن نعود إلى (نيويورك) أبدًا.

وانحدرت من عينيه دمعة قهر ومرارة، قبل أن يستطرد:

- إنه قدرنا..

☆ ☆ ☆

4- الجزيرة..

لم تدر الدكتورة (وفاء) متى وكيف استسلمت للنوم، بعد كل هذه الأحداث، ولكنها استيقظت في الصباح التالي، لتجد نفسها راقدة في ذلك الفراش البدائي، الذي صنعه لها الشيخ، فنهضت منه، وهي تشعر بالإرهاق والتعب، وكأنها لم تذق طعم النوم قط، وتثاءبت وهي تغمغم:

- كان (صبري) على حق.. إننا على قيد الحياة.

ارتدت ثوبها، وغادرت الكوخ، ولاحظت الشمس المشرقة، والسماء الصافية، التي خلت من أدنى أثر لعاصفة البارحة، ثم تطلعت إلى الشاطئ، ووقع بصرها على (صبري)، الذي وقف إلى جوار الطائرة عاري الصدر، حافي القدمين، يفحص جناحها المكسور وإطارها المحطم، فاتجهت إليه في خطوات متمهلة، وقالت:

- صباح الخير.

ألقى نظرة سريعة عليها، ثم عاد إلى فحص الطائرة، متمتمًا:

- صباح الخير يا سيدتي.

سألته في اهتمام:

- أهناك أمل في إصلاحها؟

أجاب في اقتضاب:

- كل شيء يمكن إصلاحه.

واعتدل مستطردًا في حنق:

- لو كانت هناك الأدوات اللازمة.

شعرت بالأسف لهذا الموقف، ولكنها تجاهلت هذا الشعور، أو حاولت ذلك، وهي تدير عينيها في الجزيرة، قائلة:

- أظن أسوأ ما يمكن أن يحدث، هو أن نضطر للبقاء في هذه الجزيرة طويلًا.

أجابها، وهو يحاول دفع الإطار المحطم جانبًا:

- بل أسوأ ما يمكن أن يحدث، هو أن أحيا أنا و(فتحي) في مكان محدود كهذا.

ابتسمت قائلة:

- أتبغضه إلى هذا الحد؟

عقد حاجبيه، وهو يجيب:

- بل أبغض هذا الوضع، الذي تسبب هو في وجودي فيه.

سألته:

- أتقصد وجودنا هنا؟

هز رأسه نفيًا، وقال:

- بل استقالتي من شركة الطيران، وعملي لحسابه.

تطلعت إليه لحظات، وقالت:

- لا تنس أنك فعلت هذا بمحض إرادتك.

مط شفتيه، وقال:

- وهذا ما يزيد من إحساسي بالمرارة.

لمحت الشيخ يأتي من بعيد، حاملًا صندوقًا متوسط الحجم، فقالت:

- ها هو ذا شيخنا الغامض.

اعتدل يتطلع إلى الشيخ، الذي اقترب منهما في بطء، ثم وضع الصندوق أمام (صبري)، قائلًا:

- هل هي ذي الأدوات كلها.

حدق (صبري) و(وفاء) في وجهه بذهول، قبل أن يسأله الأول في حدة:

- أية أدوات؟

أجابه في هدوء:

- الأدوات اللازمة لإصلاح الطائرة.

حدق (صبري) في وجهه مرة أخرى في ذهول، ثم انحنى يفحص الصندوق ومحتوياته، قبل أن يعتدل قائلًا في توتر:

- كل ما أحتاجه بالفعل، دون قطعة واحدة زائدة.

لم تتمالك (وفاء) نفسها، فسألت الشيخ في دهشة:

- هل تعرف شيئًا عن إصلاح الطائرات؟

هز الشيخ رأسه نفيًا، وحمل وجهه ابتسامته الهادئة، وهو يجيب:

- مطلقًا يا سيدتي.. إنني حتى لم أشاهد طائرة واحدة في عمري كله.

كادت تسأله كيف عرف المطلوب، لإصلاح الطائرة، ولكن (صبري) سبقها بسؤاله، قائلًا:

- كيف أتيت إلى هنا إذن؟

أجابه في هدوء:

- إننا أسرة عريقة، نتوارث حراسة الجزيرة المقدسة، وكل منا يصل إليها بزورق من صنع الأسرة، في نفس يوم وفاة الحارس السابق له.

برقت عينا (صبري)، وأمسك كتفي الشيخ في قوة، هاتفًا:

- إذن فأنتم تمتلكون وسيلة اتصال بالعالم الخارجي.. أين هي يا رجل؟.. أخبرني بالله عليك.

أزاح الشيخ يديه في رفق، وهو يقول:

- إننا لا نمتلك أية وسيلة للاتصال يا ولدي، ولكن كل منا يعرف موعد وفاة سابقه بالتحديد.

هتف به في حدة:

- كيف؟

أجابه الشيخ في بساطة:

- إنه تاريخ.. أعني إنه القدر.

زفر (صبري) في توتر، ولوح بذراعه، قائلًا:

- لن أحاول الفهم.. لقد يئست.

وعاد يفحص الطائرة في اهتمام، في حين التفتت (وفاء) إلى الشيخ، وسألته في اهتمام بالغ:

- كيف تعرف كل هذا؟

هز رأسه في وقار، وقال:

- لا يمكنني أن أخبرك يا سيدتي.

سألته في انفعال:

- ولماذا لا يمكنك هذا؟

أجابها في هدوء:

- لأنه من المحظور التدخل في التاريخ.

تراجعت في حدة، هاتفة:

- التاريخ؟!

قفز إلى ذهنها فجأة خاطر خرافي أفزعها، فحدقت في وجه الشيخ في تردد، وهمت بإلقاء سؤال ما عليه، لولا أن ارتفع صوت (فتحي)، وهو يهتف:

- أين طعام الإفطار؟.. إنني جائع.. أين ذلك الشيخ المأفون؟

توقعت (وفاء) أن يغضب الشيخ، إلا أنه ظل محتفظًا بابتسامته، وهو يقول:

- معذرة يا سيدتي.. سأعد طعام الإفطار على الفور.

استدار لينصرف، ولكنها أمسكت ذراعه في حزم، واستوقفته لتسأله:

- أخبرني أيها الشيخ.. ما اسمك؟

انحنى أمامها، وأجاب:

- خادمك المتواضع (فانج) يا سيدتي.

سألته في توتر:

- كيف تتحدث العربية يا (فانج)؟

أجابها بابتسامته، التي أصبحت تثير أعصابها:

- لقد تعلمتها لاستقبالكم يا سيدتي.

كان هذا الجواب يفزعها، فألقت عليه ذلك السؤال، الذي يجثم على صدرها:

- أأنت من المستقبل؟

ارتفع حاجبا الشيخ في دهشة، ثم عاد يبتسم قائلًا:

- من المستقبل؟!.. كلا بالطبع يا سيدتي.. لست من المستقبل.. من أوحى إليك بهذا الخاطر العجيب؟

صاح (فتحي) في تلك اللحظة:

- الطعام.

وهنا انحنى (فانج) أمامها مرة أخرى، وقال:

- معذرة يا سيدتي.. إنني مضطر للانصراف.

تطلعت إليه في حيرة وهو ينصرف، وسمعت من خلفها صوتًا ساخرًا، يقول:

- من المستقبل؟!.. يا لها من فكرة!

التفتت في حدة إلى (صبري)، وقالت:

- ألديك تفسير آخر؟

هز كتفيه، وقال:

- ربما كان مجرد قارئ للغيب.

قالت في حدة:

- ربما.. ولكن هذا أيضًا خاطر عجيب.

أجابها، وهو يستخدم الأدوات، التي أحضرها (فانج)، لإصلاح الإطار:

- فليكن.. لا هذا ولا ذاك يعنياني.. كل ما يهمني الآن هو أن هذه الأدوات ستساعدني –بإذن الله– على إصلاح الطائرة، خلال يوم واحد على الأرجح، وبعدها يمكننا مغادرة هذه الجزيرة اللعينة.

سألته:

- وماذا عن الوقود؟

أجابها، وهو منهمك في إصلاح الإطار:

- لدينا وقود احتياطي، يكفي لساعتين من طيران.

سألته في دهشة:

- لماذا لم تستخدمه إذن، عندما نفد وقود الطائرة؟

التفت إليها في سخرية، قائلًا:

- وكيف كنت تقترحين وضعه في خزان الوقود، ونحن نطير؟

عقدت حاجبيها في غضب، وأجابت:

- عادة ما يكون هناك مدخلًا لخزان البنزين داخل الطائرة أيها الذكي.

رأت الدهشة على وجهه، وعرفت أن كلامها كان خطأً، ولكنها أشاحت بوجهها في كبرياء، واتجهت نحو الكوخ، وأحنقها أن هتف خلفها في سخرية:

- لا تنسى استدعائي، عندما ينتهي إعداد طعام الإفطار يا خبيرة الكمبيوتر.

وأعقب هذه بقهقهة عالية، جعلتها تهتف محنقة:

- أيها الوغد.

وواصلت طريقها إلى الكوخ، وهناك وجدت (فتحي) يقول لـ(فانج) في خبث:

- حسنًا.. فلنجعلها ثلاثة ملايين.. ما رأيك؟

هز الشيخ رأسه نفيًا، وهو يبتسم قائلًا:

- أؤكد لك يا سيد (فتحي)، أنني لا أمتلك أية وسيلة، سرية أو علنية، لمغادرة الجزيرة، فكل منا يحطم زورقه فور وصوله.

تدخلت (وفاء)، قائلة:

- لا داعي لخسارة الملايين يا (فتحي).. (صبري) يحاول إصلاح الطائرة.

هتف في لهفة:

- حقًا؟!.. أتظنين أنه سينجح؟

أجابه (فانج) في بساطة:

- نعم.. سينتهي من إصلاحها مع غروب شمس اليوم.

تطلعت إليه (وفاء) في دهشة، وقالت:

- ولكنه يتوقع العمل ليوم كامل.

أجابها الشيخ:

- هذا صحيح، ولكنه سيجد أن الجناح قد انفصل ولم ينكسر، وسيوفر الكثير من الوقت.

نقل (فتحي) بصره بينهما في حيرة، ثم قال في عصبية:

- المهم هل سيمكننا مغادرة الجزيرة؟

تطلعت (وفاء) إلى (فانج)، تنتظر منه الجواب، ولكنه ظل صامتًا مبتسمًا، في حين وصل (صبري)، وهو يقول:

- هل أعددتم طعام الإفطار؟

نهض (فانج) قائلًا:

- سيكون جاهزًا بعد دقائق.

هتف (صبري):

- عظيم.

ثم التقط منشفة قديمة، ومسح بها يديه في حماس، جعل (وفاء) تسأله:

- ما أخبار إصلاح الطائرة؟

أجابها بسرعة:

- عظيمة.. كنت أتصور أن الجناح مكسور، ولكنه انفصل فحسب، وهذا يعني أن الإصلاح سيستغرق وقتًا أقل مما كنت أتوقع.

حدق (فتحي) في وجهه بدهشة، ثم هتف:

- يا لهذا الشيخ العجيب!

سأله (صبري):

- ماذا حدث منه؟

أجابته (وفاء):

- لقد أخبرنا منذ لحظات بما أخبرتنا أنت به الآن.

ارتفع حاجباه في دهشة، وهو يقول:

- حقًا؟!

ثم انعقد الحاجبان، وهو يستطرد:

- هذا الشيخ يخفي سرًا غامضًا.

تمتمت (وفاء):

- ومخيفًا.

تنهد (فتحي)، وقال في خوف:

- الأمر يبدو كما لو أن هذه الجزيرة هي أرض القدر نفسه.

قال (صبري):

- يا لها من فكرة!

ولكن العبارة أصابت عقل (وفاء) في الصميم..

نعم.. إنها الجزيرة التي يتصورها..

جزيرة القدر.

☆ ☆ ☆

5- كهف الأسرار..

انتهى (صبري) من إصلاح الطائرة، مع مغيب الشمس، وتنهد في ارتياح، وهو يقول:

- لقد أصلحنا البطة العجوز.

هتف به (فتحي) في لهفة:

- أيمكننا الرحيل إذن؟!.. هيا بنا.. هيا.

أجابه (صبري) في خشونة:

- مهلًا يا رجل.. إننا لن نغادر هذه الجزيرة قبل الصباح.

صاح به (فتحي):

- لماذا؟.. لماذا تنتظر حتى الصباح؟.. إنني لم أعد أحتمل البقاء هنا لحظة واحدة، بعد إصلاح الطائرة.

قال (صبري) في صرامة:

- ولن أسمح لك بتحطيم آخر أمل لنا، بغرورك وعنادك وسخافتك وجبنك.. لقد أصلحنا الطائرة بالفعل، ولكن البوصلة وجهاز الإرسال ما زالا محطمين، ولن أخاطر بطيران ليلي دونهما.. هل تفهم؟

انكمش (فتحي) في مكانه، ثم لم يلبث أن هتف في حدة:

- فليكن، ولكن فور وصولنا إلى (نيويورك)، اعتبر نفسك مفصولًا.

قال (صبري) في غضب:

- ما رأيك في تقديم استقالتي من هذه اللحظة؟

صاح به (فتحي):

- أنت مسئول عن إعادتي إلى (نيويورك).

وهنا تدخلت (وفاء)، صائحة:

- كفى.. إنكما تتشاجران كصبيين صغيرين.

رمقها (صبري) بنظرة غاضبة، ثم أشاح بوجهه عنها، في حين قال (فتحي) في عصبية:

- أنت على حق.

واندفع عائدًا إلى الكوخ، مغمغمًا في غضب:

- أين ذلك الشيخ اللعين؟.. متى سيعد طعام العشاء؟

مط (صبري) شفتيه في ازدراء، وهو يتابعه ببصره، قبل أن يقول:

- إنه يتصور نفسه في فندق ذي خمسة نجوم.

ابتسمت (وفاء)، قائلة:

- هذا شأن كل المليونيرات.. يتصورون أن الدنيا قد خُلقت من أجلهم.

رمق (فتحي) بنظرة احتقار أخرى، قبل أن يستطرد:

- القبور مليئة بأولئك، الذين ظنوا أن الحياة لن تسير بدونهم.

تطلعت إليه لحظات في صمت، وقالت:

- من الواضح أنك مثقف.

أجابها في ضيق:

- أنسيت أنني طيار مدني؟

هزت رأسها نفيًا، وقالت في حنان:

- لا.. لم أنس.

تطلع لحظات إلى الشمس الغارقة في الأفق، ثم جلس على الرمال، يراقب الأمواج الهادئة، التي تضرب الشاطئ في تتابع ورتابة، ووقفت هي تتطلع إليه في إعجاب، ثم جلست إلى جواره، وسألته:

- ما أول ما ستفعله في (القاهرة)، بعد نجاتنا من هنا بإذن الله؟

تنهد في عمق، وأجاب:

- سأتقدم بطلب، لعودتي للعمل في شركة (مصر للطيران).

قالت في اهتمام:

- يمكنني أن أعاونك في هذا، فشقيقي أحد مديري الشركة.

هتف بها:

- حقًا؟!

أومأت برأسها أيجابًا، وهي تبتسم ابتسامة رقيقة جذابة، تطلع هو إليها طويلًا، قبل أن يقول:

- أتعلمين أن لك أجمل ابتسامة في الدنيا كلها؟

تخضب وجهها بحمرة الخجل، وخفضت عينيها في حياء، وهي تتمتم:

- شكرًا.

خفق قلبه لأول مرة، وهو يتأمل جمالها الفتان، ثم سألها:

- أخبريني يا دكتورة (وفاء). لماذا لم تتزوجي حتى الآن؟

هزت كتفيها، وقالت:

- لم أجد الشخص المناسب.

تطلع إليها لحظات في صمت، ثم عاد يتطلع إلى الشفق المظلم..

وران عليهما الصمت طويلًا..

طويلًا جدًا..

وعندما قطعت (وفاء) حبل الصمت، كان الظلام قد ساد المكان، وهي تقول:

- إنني أشعر بالبرد.

ود لو ضمها إلى صدره، ومنحها الدفء والحب والحنان، إلا أنه قاوم رغبته هذه، وقال:

- عودي إلى الكوخ إذن، وحاولي النوم مبكرًا، فسنرحل مع الفجر.

بقيت جالسة إلى جواره دقيقة في صمت، ثم نهضت قائلة:

- أنت على حق.

وانصرفت عائدة إلى الكوخ، تاركة إياه على الشاطئ، يتطلع إلى الظلام، ويستمع إلى صوت الأمواج، وهي تتكسر على الرمال والصخور..

ولم يدر كم بقي هذا الوضع..

لقد سبحت به الذاكرة بعيدًا، وراح يسترجع كل تفاصيل حياته السابقة، من دراسته، وعمله بشركة الطيران، واستقالته، والتحاقه بالعمل لدى (فتحي)، و..

وفجأة لمح (فانج)..

لمحه يسير بهدوئه المعهود، متجهًا نحو مرتفع صخري قريب..

وفجأة راودته رغبة عارمة في مراقبة (فانج)..

رغبة وضعت نفسها على الفور موضع التنفيذ، فانتزع نفسه من مكانه، وأسرع على أطراف أصابعه خلف الشيخ، الذي واصل سيره في هدوء، حتى بلغ حائطًا صخريًا أملس، عند قاعدة المرتفع، فتوقف أمامه، ومد يده يلصقها بزاويته العليا..

واتسعت عينا (صبري) في دهشة..

لقد رأى الحائط الصخري ينزاح جانبًا، وتنبعث من خلفه أضواء قوية، غاص فيها الشيخ، قبل أن يعود الحائط الصخري إلى موضعه، ويغلق خلفه، ويعود الظلام والسكون إلى المكان..

وفي دهشة، هتف (صبري)، وهو يسرع نحو الحائط الصخري:

- ما هذا؟.. افتح يا (سمسم)!!

بلغ الحائط الصخري، وراح يفحصه في حيرة..

كان جدارًا من الصخر الأملس، من المستحيل أن يتصور مخلوق واحد أنه من صنع البشر، أو أنه قادر على الحركة..

وفي اهتمام، فحص (صبري) الزاوية العليا للحائط الصخري، ولكنه لم يجد فيها شيئًا يميزها عن باقي الحائط، فتراجع متمتمًا في حيرة:

- ما الذي يحدث هنا؟

لم يكن يدرك ما يحدث بالفعل، ولكنه كان واثقًا من أنه شيء يحمل حل لغز الجزيرة..

جزيرة القدر..

☆ ☆ ☆

تقلبت (وفاء) في فراشها كالمحمومة، وهي تفكر في لغز الجزيرة الغامضة، التي ساقها القدر إليها..

لماذا جاءت إلى هنا؟

هل ستعود؟..

كيف يمكنها أن تحيا مرة أخرى، دون أن تعرف حل هذا اللغز؟

قلّب عقلها الأمر على كل وجوهه، وحاولت أن تجد تفسيرًا لذلك اللغز الغامض، إلا أن عقلها عجز تمامًا عن هذا..

وفجأة شعرت بحركة مريبة أمام باب حجرتها، فانتفضت في ذعر، وهبت جالسة على طرف الفراش، وخفق قلبها في خوف، عندما لمحت تلك اليد، التي أزاحت ستارة الباب، قبل أن تسمع صوت (صبري)، وهو يقول:

- دكتورة (وفاء).. أأنت مستيقظة؟

ازدردت لعابها، وتنهدت في ارتياح، وقالت:

- نعم يا (صبري).. ماذا حدث؟

دلف إلى حجرتها، وهو يقول في انفعال:

- لقد تتبعت الشيخ.

لم تسأله لماذا فعل، وإنما سألته في لهفة:

- وماذا وجدت؟

لوح بكفه، قائلًا:

- أشياء غامضة ومثيرة.

سألته في اهتمام:

- مثل ماذا؟

ارتفع من عند باب الحجرة صوت (فتحي)، في هذه اللحظة، وهو يقول:

- يا للصفاقة!.. كيف جرؤتما على اللقاء سرًا؟

التفت إليه (صبري)، وقال في صرامة:

- كف عن هذه السخافات، واستمع إلى ما كشفته.

نسى (فتحي) على الفور أمر الصفاقة واللقاءات السرية، وقال في قلق:

- ما الذي كشفته؟

أجاب (صبري):

- هناك كهف سري، على هذه الجزيرة، ومن المؤكد أن يخفي سر كل هذه الألغاز.

سألته (وفاء):

- وأين هذا الكهف؟

قص عليهما ما حدث بالتفصيل، وأشار إلى الوسيلة، التي فتح بها (فانج) الحائط الصخري، وكيف عجز هو عن العثور عليها، فقالت (وفاء) في حماس:

- إنه قفل حراري، يلتقط حرارة اليد، ويحولها إلى طاقة كهربية، لفتح الباب السري.

أطلق (فتحي) من بين شفتيه صفيرًا، وقال:

- هذا الصيني يمتلك أجهزة متطورة للغاية، وهو يخفي جهاز اتصال حتمًا.

تجاهلته (وفاء)، وهي تسأل (صبري):

- أنت تعرف موضع ذلك الجدار الصخري.. أليس كذلك؟

أجابها في حماس:

- بلى.. أتحبين الذهاب إلى هناك؟

هتف (فتحي):

- بالطبع.. سنذهب جميعًا.. هيا بنا.

غادر ثلاثتهم الكوخ، واتجهوا نحو المرتفع الصخري، حيث يوجد الحائط الأملس، ولكن (فتحي) قال فجأة في يأس:

- لقد تأخرنا.. ها هو ذا الصيني.

التفت (صبري) و(وفاء) إلى حيث يشير (فتحي)، وقال (صبري) في غيظ:

- لقد غادر اللعين كهفه السري.

ثم اندفع نحو (فانج)، مستطردًا:

- ولكنه سيعود إليه.

فوجئ (فانج) بـ(صبري) ينقض عليه، فتراجع في دهشة قائلًا:

- ماذا هناك يا سيد (صبري)؟

أحاط (صبري) عنق (فانج) بذراعه في عنف، وقال في صرامة:

- ما رأيك في العودة إلى كهفك السري يا سيد (فانج)؟

تحشرج صوت (فانج)، وهو يقول:

- أي كهف سري يا سيد (صبري)؟

وصل (فتحي) و(وفاء) في هذه اللحظة، وقال (فتحي) في عصبية:

- لا داعي للإنكار أيها الشيخ الأحمق.. لقد راقبناك، وعرفنا كل شيء.

لم يحاول (فانج) الإنكار، بعد هذه العبارة، وقال:

- من الخطأ أن تذهبوا إلى هناك.. إنكم ستفسدون كل شيء لو فعلتم.

شدد (صبري) من ضغط ذراعه على عنق (فانج)، وهو يقول:

- ولكننا نصر.

أما (وفاء)، فسألت (فانج) في انفعال:

- هيا يا (فانج)، لماذا ترفض أن تقودنا إلى هناك؟

أجابها بصوت مختنق:

- لأن هذا خطأ.

قالت في توتر:

- دعنا نحن نحدد الخطأ والصواب يا (فانج).

هز رأسه في نفي، قائلًا:

- ليس من حقي أن أفعل.

وهنا دفعه (صبري) أمامه في عنف، وهو يقول:

- سنجبرك إذن.

دفعه أمامه إلى الجدار الصخري الأملس، وقال في خشونة:

- افتحه.

قال (فانج) في إصرار:

- لا يمكنني أن أفعل.

ولكن (صبري) أمسك معصمه في عنف، وحمله في قوة، وألصق راحته، بالزاوية العلوية للحائط الصخري..

وفي بطء، انزاح الحائط الصخري، وغمر الضوء وجوه الجميع.. وللحظات، غشي الضوء أبصار الثلاثة، ثم فتحوا عيونهم..

واتسعت العيون عن آخرها..

كان ما يرونه أمامهم مذهلًا..

مذهلًا بحق..

☆ ☆ ☆

6- القدر..

حتى في أكثر الاحتمالات غرابة وخيالية، لم يتصور (صبري) أو (فتحي) أو (وفاء) أن يجدوا شيئًا كهذا، في جزيرة نائية مجهولة، في قلب المحيط..

لقد كانت أمامهم قاعة هائلة، اكتظت بعدد كبير من أجهزة الكمبيوتر، وعشرات الأجهزة الإلكترونية والشاشات الأخرى..

وفي انبهار، هتفت (وفاء):

- ما هذا؟.. عالم (ديزني)؟!

وفي غمرة ذهوله، تخلى (صبري) عن عنق (فانج)، وتقدم إلى القاعة، وراح يدير عينيه فيها مبهورًا مشدوهًا، وسمع (فتحي) يهتف:

- يا إلهي!.. إنها قاعة كمبيوتر كاملة.. إنها تساوي مليار دولار على الأقل.

وهتفت (وفاء):

- ولكنها ليست أجهزة حديثة.. إن عمرها يعود إلى أوائل السبعينات.

قال (فانج) في هدوء آسف:

- بل إن عمرها مليونا عام على الأقل.

التفتوا إليه في دهشة، وهتف (فتحي) مستنكرًا:

- مليونا عام؟!.. أأنت مخبول يا رجل؟.. من كان يمكنه صنع شيء كهذا، منذ مليوني عام؟.. أو حتى منذ خمسين عامًا

فحسب.

أجابه (فانج):

- لقد صنعها (كيرو أوهايو)، ونقلها إلى هنا بنفسه.

حدقت (وفاء) في وجهه، وقالت:

- أنت مجنون بالفعل.. لقد تُوفي (كيرو أوهايو)، منذ عشرة أعوام فحسب، وترك خلفه أعظم مصانع أجهزة الكمبيوتر في العالم، فكيف بنى هذه القاعة المبهرة، منذ مليوني عام؟

تنهد (فانج)، وقال:

- لا بأس.. ما دمتم قد كشفتم الأمر، فلن يضير أن تعلموا كل شيء.. (كيرو أوهايو)، الذي تتحدثين عنه، هو السابع على هذه الأرض، أما من صنع هذا الشيء، فهو الخامس.

بدت عبارته أشبه بلغز غامض، جعل الجميع يحدقون في وجهه في دهشة، قبل أن تقول الدكتورة (وفاء) بصوت مرتجف:

- ماذا تعني بهذا القول العجيب يا (فانج)؟

تنهد (فانج) مرة أخرى، وقال:

أنا واثق من أن ما سأخبركم به سيصعقكم، وسيبدو لكم أشبه بحلم مجنون، ولكنه الحقيقة، على الرغم من كل غرابته واستحالته..

ولكي تفهموا ما سأقول، ينبغي أن أنقل إليكم أولًا تلك النظرية، التي توصل إليها (كيرو أوهايو) الخامس، منذ مليوني عام تقريبًا.

غمغم (فتحي):

- هذا الشيخ مخرف مخبول.

ولكن (فانج) تابع، وكأنما لم يسمع ما قاله (فتحي):

- منذ حداثته، كانت نظرية (أينشتين) تشغل عقل (كيرو أوهايو) الخامس، وخاصة ذلك الجزء منها، الخاص بالزمن والكون، ففيه يقول (أينشتين) إن الزمن والكون لا نهائيين، ولكنهما محدودان، ومعادلات (أينشتين) تثبت هذا، ولكن دون دليل فعلي.

قال (فتحي) في حدة:

- أرأيتما كذب هذا الرجل؟.. ألم أقل لكما إنه مجنون؟ كلنا نعلم أنه لم يكن هناك أي (أينشتين)، منذ مليوني عام.

قال (صبري) في صرامة:

- اصمت يا (فتحي).

أطبق (فتحي) شفتيه في غضب، في حين واصل (فانج) حديثه:

- النقطة الرئيسية، التي حيرت (كيرو أوهايو)، هي كيف يكون الزمن لا نهائيًا، ولكنه محدود!.. ثم فجأة توصل إلى الحل.. الوسيلة الوحيدة، التي يكون الزمن فيها لا نهائيًا، ولكنه محدود، هو أن يكون دائريًا، فمحيط الدائرة لانهائي، حيث أن السائر على محيطها لن يجد بداية أو نهاية أبدًا، ولكنه في الوقت نفسه محدود، بدليل قدرتنا على قياسه، من نقطة إلى أخرى.

والتقط أنفاسه، قبل أن يسأل في اهتمام:

- ولكن كيف يثبت (كيرو أوهايو) نظريته؟!

سألته (وفاء) في اهتمام تام:

- كيف؟!

أجابها (فانج):

- لقد تفتق ذهنه عن نظرية مدهشة، تقول إن الأحداث كلها، بما فيها مولد وموت الأشخاص والأشياء، كلها تمضي في ذلك الزمن الدائري، بدئًا من نقطة محدودة، وحتى تبلغ هذه الأشياء نقطة النهاية، ثم تتبعها البداية مرة أخرى.. وهذه النظرية تعني أن كل شيء يتكرر مرة ثانية، وثالثة، ورابعة.. إلخ.. كل الأشخاص تظهر مرة أخرى، وتحيا بنفس النمط والأسلوب، وتؤدي نفس الأفعال والأشياء، وتنتهي نفس النهاية، في نفس التوقيت.. تمامًا كفيلم سينمائي، يعاد عرضه مرة أخرى بعد مرة بعد مرة، وكأننا أوصلنا نهايته ببدايته، وتركناه يمضي بلا نهاية.

هتف (فتحي):

- فكرة مجنونة.

رمقه (صبري) بنظرة صارمة، في حين تابع (فانج):

- وليثبت نظريته هذه، اختار (كيرو) هذه الجزيرة النائية المهجورة، ووضع عليها كل هذه الأجهزة، التي تقتصر مهمتها على تسجيل كل ما يحدث في العالم، وعلى الجزيرة بالذات، ثم التأكد منه في جيل ثان، ودورة زمنية أخرى..

وصمت لحظات، ليلتقط أنفاسه، ويجفف بعض العرق عن جبينه، قبل أن يستطرد:

- وبعد عشر سنوات من وضع الأجهزة على الجزيرة، مات (كيرو) بأزمة قلبية، وترك أجهزته تعمل، بعد أن اختار أسرتي لحراستها وصيانتها ورعايتها، على مر الزمن.. ومضت السنوات والسنوات، وانتهت دورة زمنية، وبدأت الأحداث تكرارها السادس، وراحت أسرتي تسجل ما يحدث لحظة بلحظة، على

سطح الجزيرة، وتوارثنا حراسة الجزيرة، وصيانة الأجهزة، حتى انتهى الجيل السادس، وبدأ الجيل السابع.. ومع بدايته، بدأت مرحلة التحقق من نظرية (كيرو)..

قال (صبري) في اهتمام:

- وهل جاء (كيرو أوهايو) السادس، في نفس الموعد، الذي وصل فيه (كيرو أوهايو) الخامس؟

أومأ (فانج) برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم.. في نفس اللحظة بالضبط.. جاء حاملًا أجهزته وأدواته، واستقبلته نسختي السادسة كما سبق أن استقبل نسختي الخامسة نسخته، في الدورة الزمنية السابقة، ولكن سعادة (كيرو أوهايو) السادس كانت عظيمة، فقد جاء ليثبت نظريته، فوجدها وقد أثبتت بالفعل، وأعدم الأجهزة القديمة، ورحل.

وهنا هتفت (وفاء) فجأة:

- لحظة يا (فانج).. كيف عرف (كيرو أوهايو) أنه السادس أو الخامس بالتحديد؟

أجابها (فانج):

- لم نعرف هذا إلا مع بداية الزمنية السابعة، فقد لاحظنا أن رقم (خمسة) كانت له دلالة محدودة، في الدورة التي صنع فيها (كيرو أوهايو) الأجهزة الأولى، ثم أصبح الرقم (ستة) هو المفضل في الدورة التالية، وبعده الرقم (سبعة) في هذه الدورة.

سألته في حيرة:

- وماذا يعني هذا؟

أجابها في هدوء:

- ألم تنتبهي إلى أن الرقم (سبعة) هو كل شيء، في هذه الدورة الزمنية؟.. ألوان الطيف السبعة، أيام الأسبوع سبعة، فقرات العنق سبعة، السموات.. الأرض.. كل شيء تقريبًا.

ارتسمت الدهشة على وجهها، وقالت:

- وكيف كانت الألوان في الدورة السابقة؟.. أكانت ستة ألوان طيف فحسب؟

ابتسم وهو يجيبها:

- هذا أمر عسير الشرح يا سيدتي.

قال (صبري):

- وهل جئنا نحن في الدورة السابعة؟

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- بالطبع.. أنتم البشر الوحيدون، الذين وطئوا أرض الجزيرة بأقدامهم، بخلاف أسرتي، والسيد العظيم (كيرو أوهايو)، وكنا ننتظر وصولكم في الدورة السابعة، لتتأكد نظرية (كيرو) أكثر.

سألته (وفاء):

- وهل وصل (كيرو) السابع؟

ابتسم مجيبًا:

- نعم.. وكان لي شرف استقباله هذه المرة.

سألته في حيرة:

- لماذا لم يعلن على العالم نجاح كشفه إذن؟

أجابها في احترام:

- قال إنه سيترك هذا لنسخته القادمة، في الدورة الثامنة، فلقد بدأ المشروع في الدورة الخامسة، وكانت الدور السادسة مرحلة تسجيل، أما السابعة، فهي مرحلة تأكيد للنظرية، وفي الثامنة يحين موعد الكشف عن النظرية.

هتف (فتحي):

- يا إلهي!.. إنها تكون بذلك أطول نظرية، في تاريخ الكون.

قال (فانج) في حزن:

- ولكنكم تعرضون تجربة مليوني عام للفشل.

كاد (صبري) يسأله عما يعنيه، ولكن (وفاء) اندفعت تسأله في اهتمام:

- قل لي يا (فانج).. ماذا سيكون قدرنا؟

خفض (فانج) عينيه، دون أن يجيب، فسألته في إصرار:

- هل سننجو من هنا؟

تنهد (فانج) في عمق، وقال:

- إنكم ستغادرون الجزيرة عند الفجر.

سأله (فتحي) في لهفة:

- وماذا بعد؟

تطلع إليه (فانج) لحظات في صمت، ثم قال:

- وستصادفكم عاصفة أخرى، فتسقط طائرتكم، بعد ساعتين من إقلاعها، و..

صاحت به (وفاء):

- وماذا؟

أجابها في حزن، وبصوت جمد الدماء في عروق الجميع:

- وتموتون.. جميعًا.

وانهار الأمل في القلوب..

☆ ☆ ☆

7- التحدي..

قضت (وفاء) ساعة كاملة تبكي في حجرتها دون انقطاع..

إذن فهذه هي النهاية..

أن تلقي مصرعها غرقًا، بعد يومين فحسب، من إعلانها بحث عمرها كله..

لماذا؟..

لماذا يكون هذا قدرها؟

وشعرت في هذه اللحظة باحتياج شديد إلى (صبري)..

تمنت لو قضت بين ذراعيه الساعات الباقية من عمرها..

ولكن أين هو؟..

أين (صبري)؟..

غادرت حجرتها بحثًا عنه، وهي تجفف دموعها، فوجدت (فتحي) يجلس إلى المائدة الخشبية، في الردهة الصغيرة كالمصعوق، يحدق في النافذة المفتوحة في صمت وخواء، فاقتربت منه تسأله:

- أين (صبري)؟

فوجئت به يقول:

- لن أرحل.

خيل إليها أنها لم تسمع قوله جيدًا، فسألته:

- ماذا تقول؟

فوجئت به ينفجر في وجهها، صائحًا:

- قلت: إنني لن أرحل.. أأنت صماء؟.. ألا تسمعين؟.. قلت: إنني لن أرحل.. لن أرحل.. لن أرحل....

سألته مبهوتة:

- ولكن لماذا؟

صرخ في وجهها:

- لأفسد هذا القدر.. لأنقذ نفسي من موت محتوم.

ثم هب من مقعده، وراح يلوح بذراعيه، هاتفًا:

- سأبقى هنا.. ربما عبرت طائرة، أو سفينة.. سأشعل نارًا دائمة في الليل، حتى يأتي من ينقذني.

قالت في توتر:

- ولكنك سترحل معنا حتمًا، ولن يمكنك الفرار من هذا، لو أنه حقًّا قدرك.

هتف في حدة:

- من قال هذا؟.. إنني سأبقى، وسأتحدى ما قاله الشيخ.. هذه هي الوسيلة الوحيدة لتحطيم القدر.

قالت في صرامة:

- القدر لا يمكن تحطيمه.

وغادرت الكوخ غاضبة، وتطلعت ببصرها إلى (صبري)، الذي انهمك في تثبيت جذعي أشجار إلى جانبي الطائرة، فاتجهت إليه، قائلة:

- ماذا تفعل؟

أجابها في حسم:

- أحصن الطائرة ضد الغرق.

سألته في قلق:

- هل سترحل عند الفجر؟

أجابها:

- كلنا سنرحل، وسنعود إلى (نيويورك) سالمين بإذن الله.

أمسكت كفه، وهي تقول:

- ولم لا نتحدى التاريخ؟

التفت إليها يسألها:

- ماذا تعنين؟

أجابته، في لهجة أقرب إلى الضراعة:

- دعنا نشارك (فتحي) فكرته، فلا نرحل من هنا، وبذلك نفسد التسلسل كله.

قال في حزم:

- بل سنرحل.. وفي موعدنا تمامًا.

صاحت به:

- هل تصر على قتلنا جميعًا؟

أجابها في حدة:

- ومن قال إن نبوءة ذلك الشيخ ستتحقق؟

قالت بصوت مرتفع:

- كل ما قاله من قبل تحقق.. أنسيت هذا؟

صاح:

- لأننا لم نحاول مقاومته.

سمع الشيخ صوتهما، فاقترب منهما، ووقف يستمع إليهما في صمت، في حين جاء (فتحي) على صوت شجارهما، وقال في عصبية:

- عدم رحيلنا هو الوسيلة المثلى لمقاومته.

أجابه (صبري) في حزم:

- بل رحيلنا هو الوسيلة لذلك.

لوح (فتحي) بذراعيه في عصبية، وهو يهتف:

- إنك مجنون.. عنادك هذا سيقتلنا جميعًا.

صاح (صبري):

- بل الخوف هو الذي سيحطمكم... ألم تلاحظوا ما لاحظته أنا، في قصة (فانج) هذه؟.. إن الزمن لا يسير على وتيرة واحدة أبدًا، والأحداث لا تتكرر على نحو نمطي ثابت، كما تتصورون، وإلا فكيف تجاوز (كيرو) الخامس هذه الوتيرة، ووضع أجهزته في هذه الجزيرة؟.. وكيف جاء (كيرو) السادس ليجد الأجهزة هنا، في حين لم تكن هناك أجهزة، عندما جاء (كيرو) الخامس؟

برقت عينا (وفاء)، وهتفت:

- يا إلهي!.. أنت على حق يا (صبري).. لقد حدث اختلال في الدورة الزمنية بالفعل.

أشار (صبري) إلى صدره، وقال:

- نحن أيضًا صنعنا اختلالًا آخر، في الدورة الزمنية، ويمكنكما سؤال (فانج)، الذي سيؤكد لكما أن أشباهنا في الدورة السادسة، لم يكشفوا سر الجزيرة.. أليس كذلك يا (فانج)؟

أومأ (فانج) برأسه إيجابًا، وقال:

- هذا صحيح.

صاح (صبري):

- إذن فقد اختلت الدورة الزمنية، ولم تتحقق نظرية (كيرو)، بنسبة مائة في المائة، وهذا يعني أنه من الممكن أن ننجو.

صرخ (فتحي):

- قل ما يحلو لك، ولكنني لن أرحل من هنا.

أشار (صبري) إلى الأفق، وهو يقول في صرامة:

- اسمع يا (فتحي).. ستشرق الشمس بعد لحظات، وسأقلع بهذه الطائرة، سواء شئت أن تستقلها معي ومع (وفاء)، أم أبيت.

عقد (فتحي) ذراعيه أمام صدره، وقال في عناد:

- سأبقى.

وهنا قال (فانج) في هدوء:

- أخشى أنه لن يمكنك هذا يا سيد (فتحي).

قال (فتحي) في عدوانية:

- أتحداك أن تحاول منعي أيها الصيني.

وفجأة هوى (صبري) على فك (فتحي) بلكمة كالقنبلة، وهو يقول:

- سأمنعك أنا.

تلقى (فتحي) اللكمة، وارتج كيانه كله، ثم سقط كالحجر فاقد الوعي، فانحنى (صبري) يحمله، وهو يقول:

- هيا يا (وفاء).. سنرحل.

سألته في انفعال:

- لماذا فعلت به هذا؟

أجابها وهو يضع (فتحي) على مقعده داخل الطائرة، ويربط وسطه بحزام المقعد:

- إنني أفعل هذا لصالحه، فهذه الجزيرة بعيدة عن خطوط الطيران والملاحة، ولست أملك بوصلة لتحديد موقعها فيما بعد، ولو تركناه هنا فسينتهي إلى الأبد، كفأر ضل طريقه، وسط صحراء شاسعة، مترامية الأطراف.

لم يعلق (فانج) بكلمة واحدة، في حين ترددت (وفاء) لحظة، ثم أسرعت تستقل الطائرة، وتربط حزام مقعدها حول وسطها، وتبعها (صبري)، وجلس على مقعد القيادة، وقال لـ(فانج):

- الوداع أيها الشيخ.. سنثبت برحلتنا هذه أنه ما من بشري يملك معرفة الغيب، أو تحديد القدر.

قال (فانج) في هدوء:

- وداعًا.. ومن يدري؟ ربما كنتم بهذا تتبعون قدركم، دون أن تدروا.

أدار (صبري) محرك الطائرة، وانطلق بها فوق أرض الجزيرة، وخفق قلب (وفاء) في قوة، عندما اقتربت الطائرة من الشاطئ بسرعة، و..

وارتفعت في الهواء..

وبدأت رحلة العودة..

أو رحلة النهاية..

☆ ☆ ☆

تأوه (فتحي) في ألم، وهو يستعيد وعيه، وتمتم في احتجاج وسخط:

- ما هذا الصداع العنيف؟.. أين أنا؟

ثم اتسعت عيناه عن آخرهما، عندما أدرك أين هو، وصاح:

- ماذا فعلت أيها الأحمق؟.. لماذا اصطحبتني في رحلتك؟.. أنت مفصول.. مفصول.

أجابه (صبري) في غضب صارم:

- اصمت يا رجل.. لقد غادرنا الجزيرة بإقلاع ناجح، ونحن نحلق الآن فوق المحيط، في طريقنا إلى (نيويورك)، والجو صحو كما ترى، وسنبلغ المدينة بعد نصف الساعة على الأكثر.

اتسعت عينا (فتحي)، وهو يهتف:

- حقًا؟!

ثم عاد يهتف في عصبية:

- ولكن كيف تثق باتجاهك؟

أجابته (وفاء)، محاول تهدئته أعصابه:

- إنه يتجه إلى الغرب، ويستدل بحركة الشمس، وموضع شروقها.

صمت لحظة، ثم عاد يهتف في ذعر:

- ولكننا لن ننجو.. هكذا يقول قدرنا.

أجابه (صبري) في حدة:

- بل هكذا يقول جهاز (كيرو)، وليس قدرنا.. إننا سننجو بإذن الله، وسيكون هذا قدرنا.

ولكن (فتحي) صاح في ذعر:

- كيف تفسر هذا إذن؟

كان يشير إلى الشمال، عبر نافذة الطائرة المجاورة لـ(وفاء)، التي التفتت إلى حيث يشير بدورها، ثم أطلقت شهقة فزع..

فهناك؛ في الأفق، كانت السحب الداكنة تقترب منهم في سرعة.. ولم ينطق (صبري) بحرف واحد..

لقد عقد حاجبيه في صرامة، وواصل انطلاقه نحو الغرب في إصرار، في حين راح (فتحي) يصرخ:

- أرأيت ما فعلت بنا.. لقد قدتنا إلى حتفنا.. إننا سنلقي مصرعنا جميعًا.

صاح به (صبري):

- اصمت يا رجل.

ظل (فتحي) يصرخ:

- اصمت؟!.. أهذا ما تطالبني به؟.. أن أموت في صمت؟.. أهذا ما دفعتنا إليه؟

صرخ به (صبري):

- قلت لك اصمت.

ولكن العاصفة بلغتهم بسرعة مدهشة، فأظلمت السماء، وانهمرت الأمطار، والتمعت الصواعق وسط السحب الداكنة..

وانكمشت (وفاء) في مقعدها، وأطل الرعب من عينيها، دون أن تنبس ببنت شفة..

إنها النهاية..

تمامًا مثلما قال حارس الجزيرة..

جزيرة القدر..

إنها لحظاتها الأخيرة، كما وصفها (فانج) تمامًا..

لقد قال إنهم سيسقطون، بعد ساعتي طيران، وها هي ذي ساعة الطائرة تشير إلى دقيقتين فحسب، قبل إتمام ساعتي طيران..

وارتجف جسدها في رعب، وهي تحدق في الساعة، في حين سيطر (صبري) على الطائرة في صعوبة، وواصل (فتحي) صراخه:

- أنت قتلتنا.. أنت حطمت حياتي.. أنت المسئول.

وفجأة أصدر المحرك فرقعة مخيفة، وهتف (صبري):

- يا إلهي.. إنه المحرك!

ومالت مقدمة الطائرة إلى أسفل، وسقطت كالرصاصة نحو المحيط..

وصرخ (فتحي):

- لا.. لا أريد أن أموت... لا.

أما (وفاء)، فقد تجمدت كل مشاعرها، وهي تحدق في عقرب الثواني بالساعة..

بقيت خمس ثوان..

أربع..

ثلاث..

اثنتان..

واحدة..

وارتطمت الطائرة في عنف بسطح المحيط..

وأظلمت الدنيا أمام عيني (وفاء)..

وانتهى كل شيء.

☆ ☆ ☆

8- الختام..

«استيقظي يا (وفاء).. استيقظي»

تسلل ذلك النداء، عبر حواسها المنهارة، وأيقظ مشاعرها النائمة، فتمتمت في صعوبة:

- أين أنا؟

ثم لم يلبث عقلها أن هتف داخلها:

- أأنا على قيد الحياة؟

ثم فتحت عينيها دفعة واحدة، وحدقت في وجه (صبري)، الذي ابتسم هاتفًا:

- حمدًا لله.. لقد استعدت وعيك.

كانت ترقد على سرير صغير فيما يشبه مركزًا طبيًا يتبع لمنشأة عسكرية، فهتفت به في حرارة:

- (صبري)؟!.. أنحن على قيد الحياة؟

أومأ برأسه إيجابًا، وقال في سعادة:

- نعم يا (وفاء).. كلنا على قيد الحياة.. لقد سقطت بنا الطائرة في المحيط، ولكن جذوع الأشجار، المثبتة على جانبيها أنقذتنا من الغرق، وجعلت الطائرة تطفو بنا على السطح، حتى لمحتنا بارجة حربية أمريكية، فانتشلتنا، ونجونا.

أغمضت عينيها، وهي تهتف في حرارة:

- حمدًا لله.. حمدًا لله.

أتاها صوت (فتحي) من خلفها، يقول:

- لقد هزمْنا جزيرة القدر.

التفتت إليه مبتسمة، وهي تقول:

- بل هي جزيرة (كيرو أوهايو)، و(صبري) وحده تحداها، وهزمها، وأنقذ حياتنا.

مط (فتحي) شفتيه، وهو يقول:

- لهذا سأعيده إلى عمله، وأضاعف راتبه، وأجعل منه طيارنا الخاص.

قال (صبري) في برود:

- كلا أشكرك.. لقد قررت العودة إلى عملي بـ(القاهرة).

هز كتفيه، قائلًا:

- كما يحلو لك.

ثم ابتسم لـ(وفاء)، مستطردًا:

- أما أنا وأنت يا فاتنتي، فسنبدأ حياتنا من جديد.

قالت في تردد:

- معذرة يا (فتحي)، ولكن لو أنك تتحدث عن برنامجي، فقد قررت منحه إلى الشركات المصرية بأي أجر معقول.

مط شفتيه مرة أخرى، وقال:

- قرار غير عملي بالمرة، ولكن هذا لم يكن ما أعنيه.

وابتسم ملوحًا بكفه، وقائلًا:

- إنني أتحدث عن زواجنا.. أنا وأنت.. ستعيشين معي في القصر، ويكون لك كل ما حلمت به وتمنيته.. أفخر الثياب، أندر الحلي

والمجوهرات وأثمنها.. سيارة مدهشة. طائرة خاصة، فيلات في كل أنحاء الأرض.. كل أحلامك يا (وفاء).. كلها.

شردت ببصرها في هيام، وهي تقول:

- إنني أحلم بكل هذا بالفعل يا (فتحي):

ثم تلاشت نظرة الهيام من عينيها، وهي تستطرد في حزم:

- ولكنني أحلم منذ صباي أيضًا بحلم أعظم.

والتفتت إلى (صبري)، مستطردة:

- أحلم برجل.. رجل بمعنى الكلمة.

ثم تضرجت بشرتها بحمرة الخجل، التي زادتها فتنة وجمالًا، وهي تخفض عينيها في حياء، قائلة:

- هذا لو أنه يقبلني زوجة.

هتف (صبري) في سعادة، وهو يحتضن يدها براحتيه:

- يا إلهي!.. إنني لم أجرؤ على طلب هذا يا (وفاء).. إنني أسعد مخلوق في هذه الدنيا.

مط (فتحي) شفتيه، وقال في ازدراء:

- قرار آخر غير عملي.

ونهض يغادر المكان في حنق، في حين تطلع (صبري) إلى (وفاء) في سعادة، وهو يقول:

- (وفاء).. حبيبتي.. لست أصدق نفسي.. لقد حققت انتصارين في يوم واحد.. هزمت نظرية (كيرو أوهايو)، وفزت بك.

داعبت أنفه بسبابتها، وهي تقول:

- وماذا في هذا.. ألم تتعلم درسًا من جزيرة القدر؟

ومالت نحوه، هامسة في حب:

- إنه قدرنا.

وسرى الحب بين جسديهما، وقلبيهما..

إنه حبهما..

وقدرهما.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- أمنـــــية..

2- الرحلة..

3- الشيخ..

4- الجزيرة..

5- كهف الأسرار..

6- القدر..

7- التحدي..

8- الختام..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الكذاب

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

3026

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

..سلسلة كوكتيل 2000

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

قصص العدد

3030

الكــذاب

1- ألف قصـة..

لم تكد طائرة (مصر للطيران) تُقلع من مطار (هيثرو) بـ(لندن)، في طريقها إلى (القاهرة)، حتى تنفست (صفاء) الصعداء، وراحت تقطع ممر الطائرة الطويل، وهي ترسم على شفتيها ابتسامة تقليدية هادئة، سائلة ركاب الطائرة عما يطلبونه، قبل أن تذهب إلى مطبخ الطائرة، لإعداد مشروبات الرحلة..

كانت تلقي أسئلتها على نحو تقليدي، اعتادته في كل رحلة، وإن شعرت في ذلك اليوم بضجر شديد، وهي تمارس عملها المعتاد، الذي لم يتغير كثيرًا، طوال عامين قضتهما في الوظيفة نفسها، حتى لم تعد تحتمل الاستمرار..

ثم فجأة التقت عيناها بعينيه..

بل بابتسامته الساحرة..

كانت تنحني لتلقي عليه سؤالها المعتاد، عندما تعلقت عيناها فجأة بأجمل ابتسامة رأتها، طوال سنوات عملها..

وعندما رفعت عينيها إليه، كشفت أن ابتسامته ليست سوى النذر اليسير، من وسامته المفرطة، وأناقته الشديدة..

وطوال ربع دقيقة، لم تنبس (صفاء) ببنت شفة، وهي تتطلع إليه في انبهار، عندما سألها في مرح واضح:

- ألن تلقي عليّ سؤالك الشهير؟

ايقظتها عبارته من انبهارها، فارتبكت وهي تقول:

- معذرة.. هل ترغب في..

قاطعتها بنفس المرح:

- قدح من الشاي، بقليل من السكر، ودون حلوى.

لاحظ ارتباكها الشديد، فأطلق ضحكة قصيرة، وهو يقول:

- إنني أقدر ضجرك من هذا العمل.

قالت بسرعة:

- لم أقصد أن..

قاطعها بإشارة من يده، وهو يميل نحوها، ويغمز بعينه، هامسًا:

- إنني أفهم، فنحن أصحاب مهنة واحدة.

اعتدلت هاتفة في دهشة:

- حقًا؟!

ابتسم وهو يلوح بكفه، قائلًا:

- إلى حد كبير، فأنا أمتلك مطعمًا صغيرًا في (الإسكندرية).

بادلته الابتسام، وهي تقول:

- إنها مهنة مشابهة بالفعل، ولكن عملنا هنا يمتد إلى محاولة منح كل وسائل الراحة والطمأنينة للركاب.

أومأ برأسه، وهو يبتسم قائلًا في تفهم:

- يمكنني إدراك هذا جيدًا.

اكتفت بهذا القدر من محادثته، وواصلت عملها، الذي لم يستغرق طويلًا هذه المرة، نظرًا لقلة الركاب في هذه الرحلة، حتى بلغت مطبخ الطائرة، وهناك استقبلتها زميلتها (سميرة) بابتسامة واسعة، وهي تغمز بعينيها، قائلة:

- هنيئًا لك.

سألتها في دهشة:

- على ماذا؟

مالت (سميرة) نحوها، وهمست:

- لقد رأيتك تتحدثين مع هذا الشاب.

قالت (صفاء) في ضيق:

- بل كان هو يتحدث إليّ، وهي ليست أول مرة يحادثني فيها أحد ركاب الطائرة، فقد اعتدنا هذا.

قالت (سميرة) بابتسامة مرحة:

- ولكن هذا أكثرهم وسامة.

هزت (صفاء) كتفيها، دون أن تبدي اهتماما بالأمر، وحاولت الانهماك في إعداد المشروبات، التي طلبها الركاب، ولكن (سميرة) سألتها في اهتمام:

- ماذا كان يقول لك؟

أجابتها وهي تواصل عملها:

- كان يخبرني أننا أبناء مهنة شبه واحدة، وأنه يمتلك مطعمًا في (الإسكندرية).

عادت (سميرة) تغمز بعينيها، قائلة:

- إذن فهو ثري.

هتفت (صفاء):

- هذا لا يعنيني.

ضحكت (سميرة)، وهي تلوح بكفها، قائلة:

- حسنًا.. حسنًا.. لا داعي لكل هذا الغضب.. هيا.. سأعتذر عن فضولي بأسلوب عملي، وسأقدم أنا المشروبات للركاب.

لم تكن (صفاء) ترغب في هذا حقًا، ولكنها خشيت أن تتصور (سميرة) أنها تريد التحدث إلى ذلك الوسيم ثانية، فقالت:

- لا بأس.. افعلي.. إنني أحتاج بالفعل إلى شيء من الراحة.

جلست على أحد مقاعد المطبخ الصغير، وتركت زميلتها تدفع عربة المشروبات إلى الممر، وهي تشعر بشيء من الضيق..

وفي أعماقها، اعترفت بأنها كانت ترغب حقًا في الحديث مرة أخرى مع ذلك الشاب..

لم تدر أكان، هذا بسبب وسامته المتناهية، التي لم تشاهد مثيلًا لها من قبل، إلا على شاشات السينما، أم بسبب مرحه وخفة ظله..

ظلت تلقى على نفسها هذا السؤال، حتى عادت (سميرة)، واللهفة تملأ كل خلجة من خلجاتها، وأسرعت تغلق الباب خلفها، على نحو يوحي بأنها على وشك إلقاء سر ما، مما جعل (صفاء) تسألها:

- ماذا هناك؟

التفتت (سميرة) إليها، هاتفة:

- إنه وسيم للغاية بالفعل.

شعرت بالضيق لعبارة زميلتها، واعترفت لنفسها أنها تشعر بشيء من الغيرة، إلا أن (سميرة) استطردت في سرعة:

- ولقد سألني عنك.

وجدت نفسها تهتف في لهفة:

- حقًا؟!

شعرت بالخجل للهفتها، ولكن (سميرة) واصلت، دون أن يبدو عليها الانتباه لهذا:

- كنت أقدم له قدح الشاي، عندما سألني عنك، وعن سبب عدم تقديمك الشاي له بنفسك.

سألتها (صفاء):

- وبم أجبتيه؟

لوحت (سميرة) بكفها، وقالت ضاحكة:

- أخبرته أنك تشعرين ببعض التعب، وليتك رأيت جزعه حينذاك.

شعرت بالسعادة في أعماقها، وارتسمت على شفتيها ابتسامة كبيرة، دون أن تنبس ببنت شفة، في حين تابعت (سميرة) مبتسمة:

- أراد رؤيتك، والاطمئنان عليك، ولكنني أخبرته أنها مجرد وعكة بسيطة، ستتعافين منها سريعًا، فأرسل تحياته إليك.

ثم مالت نحوها، مستطردة في خبث:

- أيسعدك هذا؟

ضربتها (صفاء) على ظهرها في رفق، وهي تقول في حياء:

- يا لك من فضولية!

أطلقت (سميرة) ضحكة مرحة، ثم قالت:

- إنه وسيم بالفعل، ولكنه يمتلك أسوأ صفة في البشر.

سألتها (صفاء) في قلق:

- ما هي؟

أجابته (سميرة):

- الكذب.. إنه كذاب كبير.

لم يرق لـ(صفاء) أن تصف (سميرة) ذلك الوسيم بهذه الصفة، فقالت في ضيق:

- لم قلت هذا؟

أجابتها (سميرة):

- لأنه كذلك بالفعل.. لقد أخبرك أنه يمتلك مطعمًا في (الإسكندرية)، ولكنني سمعته يقول لجاره بالإنجليزية إنه تاجر تحف في وسط (القاهرة).

هتفت (صفاء) في دهشة:

- تاجر تحف.

أشارت (سميرة) إلى أذنها، قائلة:

- سمعته يقول هذا بنفسي.

ترددت (صفاء)، وهي تقول:

- ربما كان يقصد شخصًا آخر.

أجابتها (سميرة) في إصرار:

- بل كان يقصد نفسه.. لقد سمعت الحديث جيدًا.

شعرت (صفاء) بالحيرة، وتساءلت عن السبب في هذا التعارض، ثم لم تلبث أن هتفت في ارتياح وثقة:

- نعم.. وماذا في هذا؟.. لقد قال: إنه يمتلك مطعمًا في (الإسكندرية)، ولم يقل: إنه يعمل فيه.. إنه يمتلك المطعم، ولكنه يعمل كتاجر تحف في (القاهرة).. لا يوجد أي تعارض بين هذا وذلك.

هزت (سميرة) كتفيها، وهي تقول:

- ربما.

ثم لم تلبث أن نسيت أمر ذلك الوسيم تمامًا، وانهمكت في الحديث حول أمور أخرى، تخص زميلاتها، والعمل بالشركة على نحو عام، ولكن (صفاء) لم تنجح في الاندماج معها هذه المرة، إذ كان ذهنها مشغولًا طيلة الوقت بذلك الشاب، الذي تجهل عنه حتى اسمه..

لم تدر لماذا انشغلت به إلى هذا الحد؟

إنها تعمل في الشركة منذ عامين، التقت خلالهما بالمئات من المسافرين، وبعشرات من نجوم السينما والشخصيات المرموقة، وكانت تؤدي عملها دائمًا في رصانة وهدوء، وترسم ابتسامتها العذبة على شفتيها، دون أن تبهرها شخصية المسافر، أو يروعها منصبه..

لماذا اهتمت بهذا الشاب إذن؟..

شيء ما في أعماقها كان يجيبها بأن هذا الشاب يختلف..

حتمًا يختلف..

إنها لا تدري سر هذا الاختلاف، ولكنها واثقة من أن وسامته ليست السبب الحقيقي، وإن كانت تفوق وسامة كل من رأتهم من قبل، ولكنها ليست بتلك السطحية، التي تجعل وسامة شاب هي السبب في اهتمامها به، من دون شخصيته وأسلوبه..

هناك شيء ما يجذبها إليه بالتأكيد..

شعرت فجأة برغبة قوية في رؤيته، فلم تحاول مقاومة هذه الرغبة، ونهضت قائلة:

- سأذهب لاستعادة الأكواب الفارغة.

ضحكت (سميرة) في خبث، وهي تقول:

- أهذا هو السبب الحقيقي؟

لم تبال كثيرًا بسخرية (سميرة) هذه المرة، واكتفت بهز كتفيها في لا مبالاة، وهي تخرج إلى الممر، دافعة أمامها العربة الفارغة..

ثم التقى حاجباها في توتر.

لم يكن الشاب يجلس في مقعده..

لقد غادر مكانه، وانتقل للجلوس إلى جوار حسناء بريطانية، تحمل حقيبة أدوات التصوير الخاصة بها، وأخذ يناقشها في حماس، بشأن أدوات التصوير، وهو يحمل آلة التصوير التي تملكها الفتاة، ويثبت بها عدسة طويلة، متغيرة البعد..

وشعرت (صفاء) بالضيق..

بل الغيرة..

لقد اعترفت لنفسها هذه المرة أنها تشعر بالغيرة، وهي تراه جالسًا إلى جوار تلك الحسناء البريطانية، التي تتطلع إليه في انبهار واضح، وتبتسم في سعادة غامرة..

كان من الواضح أن وسامته ومرحه قد جذبا الحسناء البريطانية أيضًا، وإن بدا من الواضح أيضًا أن اهتمامه بآلة التصوير يفوق اهتمامه بها، وهو يضع الآلة على عينيه، ويتطلع بالعدسة الكبيرة في اهتمام بالغ إلى رجل قوي الملامح، عريض المنكبين، كث الحاجبين، يجلس عند نهاية الممر، مسترخيًا في مقعده..

وانتقل بصر (صفاء)، على نحو غريزي، إلى ذلك الرجل، الذي يراقبه الشاب بعدسة آلة التصوير المقربة، وأدهشها ذلك التناقض الشديد، بين الشاب والرجل، فبقدر وسامة الأول، كان

الثاني غليظ الملامح، صارم القسمات، وكان يبدو مستغرقًا في نوم عميق، غير منتبه إلى مراقبة الشاب له..

وفي حيرة سألت نفسها عن سر تلك المراقبة، إلا أنها لم تلبث أن أقنعت نفسها بأن الشاب إنما يختبر العدسة، وأيد قولها موقفه، عندما رفع عينيه عن آلة التصوير، وأعادها إلى البريطانية، قائلًا بالإنجليزية:

- عدسة رائعة يا سيدتي، والتغير بين بعديها مناسب للغاية، ولكن حدقتها المتوسطة الاتساع تجعلها أكثر صلاحية للهواة، منها إلى المحترفين.

سألته البريطانية بابتسامة واسعة:

- يبدو أنك تفهم الكثير عن العدسات.. أليس كذلك؟

أجابها في ثقة شديدة:

- بلى.. إنها مهنتي.

سمعت (صفاء) البريطانية تسأله في اهتمام:

- مهنتك؟!.. أأنت مهندس بصريات؟

أجابها بلا تردد:

- بل مصور.. مصور محترف.

جاء الجواب بمثابة صدمة لـ(صفاء)، التي أدركت –في تلك اللحظة– أن (سميرة) كانت على حق..

هذا الشاب كذاب..

كذاب كبير..

واصلت طريقها وهي تشعر بالضيق، لأن الشاب لم يرقَ بوسامته إلى ذلك المستوى، الذي لا تقبل هي بأقل منه، في الشاب الذي تتطلع إلى الارتباط به، ولكنها لم تكد تعبر بالقرب منه، حتى هتف بها:

- (صفاء).. كيف حالك الآن؟

لاحظت ضيق البريطانية، وهو ينهض لتحيتها في حرارة، وأسعدها أن تجاهل هو هذا الضيق تمامًا، بل تجاهل البريطانية نفسها، وهو يتبع (صفاء) إلى حيث مقعده، مستطردًا:

- لقد قلقت بشأنك كثيرًا، عندما أخبرتني زميلتك بوعكتك.

غمغمت في ارتياح:

- كانت وعكة بسيطة، ولقد انتهت بحمد الله.

قال في حماس:

- حمدًا لله على سلامتك.

استقر في مقعده، وواصلت هي عملها، وقلبها يختلج في سعادة..

لقد ترك البريطانية من أجلها..

ترك كل شيء عندما رآها..

أثلج هذا قلبها كثيرًا، وشعرت بسعادة غامرة، وهي تواصل جمع الأقداح الفارغة، ثم قفلت عائدة بحملها، والتقت عيناها بابتسامته الساحرة مرة أخرى، في طريق عودتها، فارتبكت، وتخضب وجهها بحمرة الخجل، وتجاوزته في سرعة، ولم تكد تبلغ المطبخ، حتى سألتها (سميرة) في فضول:

- ماذا قال لك؟

أجابتها (صفاء)، وهي تتحاشى النظر إليها:

- لم يقل شيئًا.. سألني فقط عن تلك الوعكة الكاذبة.

ضحكت (سميرة)، قائلة:

- ألم تشعري بالامتنان لكذبتي عندئذ؟

لم تجب (صفاء)، وإن شعرت أن قول (سميرة) سليم تمامًا، فقد شعرت بالامتنان لها ولكذبتها بالفعل، عندما شاهدت تلك اللهفة الواضحة، في عيني الشاب..

لقد أسعدتها لهفته عليها سعادة غامرة..

أسعدتها بأكثر مما تصورت..

وفي حماس قالت (سميرة):

- لقد وقع في هواكِ.. فلتقطع ذراعي، لو لم يكن الأمر كذلك.

أرادت أن تهتف مؤيدة قولها، ولكن خجلها جعلها تشيح بوجهها، قائلة:

- أنت تبالغين كثيرًا.

هتفت (سميرة):

- هل تراهنين؟

ثم فتحت باب المطبخ قليلًا، وهي تردف في حماس:

- أراهن أنه ينتظر قدومك.

ألقت نظرة فضولية، عبر فرجة الباب، ثم غمغمت في قلق:

- ما هذا بالضبط؟

انتقل قلقها إلى (صفاء)، وهي تقول:

- ما هو هذا؟

مالت بدورها تختلس النظر إلى الممر، عبر فرجة الباب، ثم لم تلبث أن شعرت بالدهشة الحقيقية تسري في عروقها..

لم يكن الشاب ينتظر عودتها، كما تصورت (سميرة)، ولكن ذلك الرجل الغليظ الملامح، الذي يجلس في نهاية الممر، كان قد تخلى عن تظاهره بالنوم، وراح يراقب الشاب خلسة، في اهتمام بالغ..

وفي جانب سترة الرجل، رأت (صفاء) شيئًا جعلها ترتجف..

رأت مقبضًا..

مقبض مسدس.

☆ ☆ ☆

2- الخطر..

«مسدس؟!..»

هتف قائد الطائرة بالكلمة في دهشة، قبل أن يضيف في توتر:

- مستحيل يا (صفاء)!.. أنت تعلمين أنهم يفحصون هذا جيدًا، عند ركوب الطائرة، فكل راكب يمر عبر بوابة خاصة، ينطلق منها جرس إنذار قوي، لو أن هذا الراكب يحمل أية أسلحة، أو حتى مواد معدنية أخرى.

أجابته (صفاء)، في توتر مماثل:

- أعلم هذا، ولكنني رأيت مقبض مسدس، خلف سترة ذلك الراكب.

تبادل قائد الطائرة نظرة قلقة مع مساعديه، ثم سألها:

- هل أبلغت (عبد الحميد)؟

هزت رأسها نفيًا، وهي تجيب:

- لا.. لقد فضلت إبلاغك أولًا، قبل إبلاغ مسئول الأمن.

قال في حزم:

- أبلغني مسئول الأمن إذن.. أبلغني (عبد الحميد).

أجابته في توتر:

- فليكن.

غادرت كابينة القيادة، وعبرت ممر الركاب، متجاوزه ذلك الراكب المنشود، وهتف بها الوسيم في مرح:

- كيف حالك يا (صفاء)؟.. أيسير كل شيء على ما يرام؟

أجابته مبتسمة في شحوب:

- نعم.. شكرًا لك.

واتجهت إلى آخر مقعد في الممر، حيث يجلس رجل ضخم الجثة، وهمست له في ارتباك:

- هناك راكب يحمل مسدسًا يا أستاذ (عبد الحميد).

انعقد حاجبا الرجل، وانقبضت عضلاته كلها، وهو يقول:

مسدس؟!.. وأين هذا الراكب؟

أشارت إلى الرجل، فنهض (عبد الحميد) من مقعده، واتجه إليه على الفور، وانحنى يتحدث إليه بضع لحظات، نهض بعدها الرجل، وتبع (عبد الحميد) إلى الحجرة صغيرة في نهاية الطائرة، أغلقها (عبد الحميد) خلفهما، و(صفاء) تتابعهما في توتر، حتى سمعت الوسيم يهتف بها:

- آنسة (صفاء).. لحظة لو سمحت.

ذهبت إلى حيث يجلس، وسألته:

- ماذا تطلب يا أستاذ..

أجابها في سرعة:

- (حاتم).. (حاتم بكري).. أخبريني.. ماذا وراء ذلك الرجل؟

لم تشأ إثارة الذعر داخل الطائرة، فقالت:

- إنه مجرد إجراء أمني بسيط.

سألها في اهتمام شديد:

- بسبب ماذا؟

وجدت نفسها تسأله فجأة:

- إنك تعرف هذا الرجل.. أليس كذلك؟

لم تكد تنطق الجملة حتى شعرت بالندم، وتمنت لو أنها لم تشر أبدًا إلى هذا الأمر، ولكن سبق السيف العزل.. لقد تلقى (حاتم) الجملة في دهشة، وهتف:

- أعرفه؟!.. من أعطاك هذه الفكرة؟

ارتبكت وهي تجيب:

- لم أقصد هذا بالضبط، ولكنني رأيته يراقبك في اهتمام، وتصورت أنكما..

قاطعها هاتفًا:

- يراقبني؟!

مرة أخرى تمنت لو أنها لم تنطق بالعبارة، وقررت في أعماق نفسها كتمان ملاحظتها، عن مراقبته هو للرجل، ولكنه سألها في اهتمام أكثر:

- ولماذا يراقبني؟

أجابته في اضطراب:

- لست أدري.. لقد أبلغت الأمن فحسب.

لم تكد تتم عبارتها، حتى ظهر (عبد الحميد)، وأمامه الرجل، وتجاوز الرجل (صفاء) و(حاتم) في هدوء، دون أن تبدو عليه أية بادرة، تشير إلى معرفته للأخير، في حين قال (عبد الحميد) لـ(صفاء) في صوت عادي:

- إنه غير مسلح.

هتفت في دهشة:

- ولكنني..

بترت كلمتها على الفور، دون أن تضيف حرفًا واحدًا، وأدهشها أن يخبرها (عبد الحميد) بمثل هذا الأمر أمام (حاتم)، مخالفًا قواعد الأمن بالشركة، في حين قال (حاتم) في اهتمام بلغ ذروته:

- غير مسلح؟!

لوح (عبد الحميد) بكفه، وهو يمط شفتيه في لا مبالاة، قائلًا:

- لا تشغل نفسك بهذا الأمر يا سيدي.. لقد فحصته بنفسي، وقمت بتفتيشه على أكمل وجه.. اطمئن.

تضاعفت دهشة (صفاء)، وقررت أن تبلغ إدارة الأمن عن هذه التجاوزات الصريحة، عند هبوط الطائرة في (القاهرة)، في حين

عاد (عبد الحميد) إلى مقعده في هدوء، وبدا (حاتم) قلقًا، إلى الحد الذي جعلها تقول في خفوت:

- قال لك: اطمئن.

رفع عينيه إليها لحظة، ثم قال في جدية شديدة:

- أيمكنني التحدث إليك لحظة؟

قالت في حذر:

- قل ما يحلو لك.

أجاب في صرامة:

- وحدنا.

ارتبكت في شدة، وتلفتت حولها في قلق، فكرر في حزم:

- من الضروري أن أفعل.

تطلعت إليه لحظة في حيرة، ثم قالت:

- فليكن.

نهض يتبعها إلى حجرة الآمن، في نهاية الطائرة، ولم يكد يغلق بابها خلفهما، حتى واجهها بجدية بالغة، وهو يقول:

- كنت على حق يا (صفاء).. هذا الرجل يعرفني.

لم تنبس ببنت شفة، حتى استطرد:

- بل ويمكنك القول إنه هنا من أجلي.

أطلقت شهقة دهشة، قبل أن تهتف في خفوت:

- من أجلك أنت؟!

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم يا (صفاء).. هذا الرجل لص محترف، وأنا تاجر مجوهرات معروف، وأحمل في حقيبتي الصغيرة عددًا من قطع الماس، يبلغ ثمنها مليون دولار على الأقل، وأنا واثق أنه هنا لسرقتها.

تطلعت إليه لحظة في دهشة بالغة، ثم هتفت فجأة:

- أظن هذا يكفي.

سألها في دهشة:

- ما هذا؟

صاحت في عصبية:

- أنت كذاب.. أكبر كذاب عرفته في حياتي كلها.. لقد أخبرتني أولًا أنك تمتلك مطعمًا في (الإسكندرية)، ثم سمعتك (سميرة) تقول لجارك أنك تاجر تحف في (القاهرة)، وسمعتك أنا تدعي أمام البريطانية الحسناء أنك مصور محترف، والآن تخبرني أنك تاجر مجوهرات.. ماذا تنوي أن تمتهن بعد قليل؟.. هل ستصبح شيخًا من (الأزهر الشريف)، أمام كاردينالًا من (روما).

قال في توتر:

- (صفاء) صدقيني.. إنني..

قاطعته في حدة:

- لا.. لن أصدقك.

ثم انعقد حاجباها في شدة، وهي تضيف:

- إلا إذا..

سألها في لهفة:

- إلا إذا ماذا؟

أجابته في حزم:

- إلا إذا رأيت تلك الماسات المزعومة.

بدت الدهشة على وجهه، والتقى حاجباه في شدة، وهو يقول:

- (صفاء).. إنك بهذا الموقف..

قاطعته مرة أخرى في صرامة:

- الماسات أولًا.

كان من الواضح أنها لن تتراجع أبدًا عن إصرارها، مما جعله يطلق زفرة حارة، من أعمق أعماق قلبه، ثم يلقى ذراعيه إلى جواره، قائلًا:

- حسنًا يا (صفاء).. سأعترف.. لا توجد أية ماسات.

أصابها الجواب بصدمة، على الرغم من أنها كانت تتوقعه إلى حد كبير، فمطت شفتيها، هاتفة في غضب:

- كنت أعلم هذا.. كنت أعلم أنك أكبر كذاب في الدنيا، وأنه لا توجد أية ماسات.

قال محتجًا:

- هذا لا يعني أنني شخص سيئ.

هتفت في سخط:

- ما الذي يعنيه إذن؟

قال في توتر بالغ:

- أرجوك يا (صفاء).. صدقيني.. هناك بعض المهن، التي يتحتم على صاحبها أن ينتحل بعض الشخصيات الأخرى، ولكن هذا لا

يعني أبدًا أنه شخص سيئ.

هتفت:

- بعض المهن؟!.. هل ستنتحل مهنة أخرى؟

تطلع إلى عينيها مباشرة، وهو يقول:

- لا يا (صفاء).. لن انتحل مهنة أخرى، ولكنني سأخبرك عن مهنتي الحقيقية، على الرغم من أنه ليس من المفروض أن أفعل.

قالت في حنق:

- وما مهنتك الحقيقية؟.. نصّاب؟

أجابها في صرامة:

- بل ضابط يا (صفاء).. ضابط مخابرات.

حدقت في وجهه بذهول، وهي تردد:

- أنت؟!.. أنت ضابط مخابرات؟

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم يا (صفاء).. هذه هي الحقيقة، وأقسم على هذا.. أنا المقدم (أشرف صادق)، من المخابرات العامة المصرية، أما ذلك الرجل، فهو جاسوس دولي رهيب، وأنا أراقبه منذ شهر كامل، ولكن يبدو أنه قد أدرك هذا، وكشف حقيقة شخصيتي، وهذا يعني أن رجاله ينتظرون الآن في مطار (القاهرة)، وسيطلقون النار عليّ، فور خروجي من المطار.

هتفت في ارتياع:

- يا إلهي!

تابع في حزم:

- ولا يمكنني إلقاء القبض عليه داخل الطائرة، خشية أن يكون لديه شريك، يمكن أن يؤذي الركاب، لو حاولنا إلقاء القبض على الجاسوس.

سألته في خوف:

- ماذا يمكننا أن نفعل إذن؟

قال في صرامة:

- لا يوجد سوى حل واحد.

سألته في هلع:

- ما هو؟

أجاب وهو يتطلع إلى عينيها مباشرة:

- تأخير هبوط الطائرة في مطار (القاهرة).

اتسعت عيناها في دهشة، قبل أن تقول:

- ولكن هذا مستحيل.. هناك جدول للمواعيد، و..

قاطعها في حزم:

- لا يوجد حل آخر.

صمتت لحظات في توتر بالغ، ثم قالت:

على أية حال، لست أملك تنفيذ، أو حتى مناقشة هذا الأمر.. كل ما أملكه هو أن أصحبك إلى كابينة القيادة، لتقابل قائد الطائرة، وهو وحده يمكنه اتخاذ قرار في هذا الشأن.

قرنت قولها بالفعل، وصحبته إلى كابينة القيادة، حيث استمع إليه قائد الطائرة في دهشة، قبل أن يقول في حزم:

- مستحيل!.. لا يمكننا هذا أبدًا.

أجابه (أشرف):

- ولكن حياتي تتوقف على هذا الأمر أيها القائد، و..

قاطعه قائد الطائرة في صرامة تامة:

- مستحيل.. قلت لك مستحيل، ولن أناقش هذا الأمر قط.

فركت (صفاء) كفيها في عصبية، وهي تتساءل عما يمكن أن يفعله (أشرف)، حيال هذا الرفض، الذي يعرض حياته ومهمته للخطر..

ولكن (أشرف) أجاب تساؤلاتها في سرعة..

أجاب بأغرب جواب يمكن أن تتوقعه..

لقد قال لقائد الطائرة في هدوء شديد:

- إنك لم تترك لي الخيار إذن.

وبحركة سريعة، انتزع من طيات ثيابه مسدسًا، صوبه إلى قائد الطائرة، مستطردًا في صرامة مخيفة:

- ولم يعد أمامي سوى هذا.

وارتجفت (صفاء) في ذعر..

☆ ☆ ☆

3- الجاسوس..

اتسعت عينا (صفاء) في ذعر، وهي تحدق في المسدس، الذي يمسك به (أشرف)، وهتفت في ارتياع:

- ماذا تفعل؟

أجابها في هدوء، وهو يصوب مسدسه إلى رأس القائد:

- إنني أختطف الطائرة.

هتف مساعد الطيار، في مزيج من الدهشة والاستنكار:

- تختطفها؟!

وأطلقت (صفاء) شهقة أخرى، في حين زوى قائد الطائرة ما بين حاجبيه، وهو يقول:

- كيف أمكنك ركوب الطائرة، وأنت تحمل هذا المسدس؟

أجابه الشاب في انفعال:

- إنه مصنوع بالكامل من البلاستيك.. أحدث صيحة للأسلحة الخفيفة، المصنوعة خصيصًا بحيث لا تكشفها بوابات الأمن في المطارات، حتى رصاصاته من طراز خاص، من البلاستيك المقاوم لدرجات الحرارة المرتفعة.

مط قائد الطائرة شفتيه في ازدراء، وهو يقول:

- لعن الله المال، الذي يدفع إحدى الشركات إلى إنتاج مثل هذه الأشياء.

قال الشاب ساخرًا:

- دعك من هذه الفلسفة، واستدر بالطائرة.. ستعود إلى مطار (هيثرو).

أجابه الطيار في حزم:

- مستحيل.

وهتفت (صفاء):

- ألا تدرك ما تفعله؟!.. اختطاف الطائرات جريمة دولية.

أجابها في هدوء عجيب:

- بل أنتم الذين لا تدركون ما تفعلونه.. إنكم تطلبون مني التضحية بحياتي، من أجل الالتزام بجدول مواعيد سخيف.

قال الطيار:

- ليس لدي ما يثبت أن حياتك معرضة للخطر، بهبوطنا في (القاهرة).

أجابه الشاب:

وأنا لم أحاول إثبات هذا، وأنا أمرتك بالعودة إلى (لندن).

قال الطيار في لهجة شبة ساخرة:

- وهل ستطلق على النار، لو لم أفعل؟

أجابه الشاب في صرامة:

- لن أتردد في هذا، لو أنك اضطررتني إليه.

قال الطيار:

- ومن سيقود الطائرة؟

بدت لهجة الشاب تكتسب شيئًا من العصبية والتوتر، وهو يقول:

- فلتذهب الطائرة كلها إلى الجحيم، مادام هبوطها في (القاهرة) يعني موتي.

لم تصدق (صفاء) أذنيها..

إنه مستعد لقتل الجميع، دفاعًا عن حياته..

أم أنه يهدد بذلك فحسب...

إنها لم تعد تستطيع التفرقة، بين الحقائق والأكاذيب في أقواله..

لم تعد تثق به..

أو بأي شيء..

لم تعد تدري حتى ماذا ينبغي أن تفعل..

أو هي –على وجه الدقة– لم تكن تملك ما تفعله..

ومع اضطرابها، سمعت الطيار يقول:

- هل تعلم خطورة إطلاق النار داخل طائرة؟

أجاب الشاب في عصبية:

- نعم.. أعلم.. طلقة واحدة طائشة قد تثقب جسم الطائرة، فيختل توازن الضغط داخلها، فيندفع الجميع خارجها، بقوة شفط هائلة، وقد ينقسم جسم الطائرة إلى نصفين، ولكن من أدراك أن رصاصاتي ستطيش.. تكفيني رصاصة واحدة، أنسف بها جمجمتك.

قال الطيارة في صرامة:

- المهم أن تجد الوقت لتفعل، فقوانين الأمن هنا تمنع أي شخص، مهما بلغ منصبه، من التواجد داخل كابينة القيادة، لأكثر من عشر دقائق، ولقد شارفت تجاوز هذه الدقائق العشر، وبعدها ستجد (عبد الحميد) هنا، وسيتحول المكان إلى ساحة قتال.

قال الشاب في حزم:

- يمكنني أن أغادر المكان.

ثم أضاف، وهو ينقل فوهة مسدسه إلى رأس (صفاء):

- ولكنني سأقتل هذه الفتاة بلا تردد، لو لم تعد إلى (هيثرو).

ارتجف جسد (صفاء)، واتسعت عيناها في هلع، وخفق قلبها في قوة، وكادت تسقط فاقدة الوعي، ولكنها فوجئت بالشاب يغمز بعينه، وكأنه يعلنها عن عدم جدية ما يقول، ويطالبها بمعاونته..

ولكن ذلك لم يبدد عصبيتها وتوترها..

الموقف كله كان يثير مشاعرها إلى أقصى حد، وخاصة عندما قال الطيار في حزم:

- لا يمكننا العودة إلى مطار (هيثرو)، حتى لو أردنا هذا، فالوقود المتبقي لنا لن يكفي للعودة.. يمكننا فقط أن نهبط في أية دولة أخرى.

قال مساعد الطيار:

ما رأيك في الهبوط في مطار (الإسكندرية)؟

قال الشاب في حدة:

- لا تحاول خداعي.

وجذب إليه (صفاء)، وهو يهتف:

- قلت إنني سأقتل الفتاة.

وعلى الرغم من معرفتها أنه يفتعل هذا، وجدت نفسها تطلق صرخة رعب مكتومة، وهو يلصق فوهة مسدسه بصدغها، في حين قال الطيار في غضب:

- اقترح أنت مطارًا آخر في طريقنا.

صمت الشاب لحظة مفكرًا، ثم قال في حزم:

- (مالطة).. اهبط في (مالطة).

قال الطيار في حدة:

حسنًا.. سنهبط في (مالطة)، ولكنني أحذرك للمرة الثانية.. ستثير شكوك (عبد الحميد)، لو لم تغادر الكابينة الآن.

قال الشاب، وهو يجذب (صفاء) معه:

- سأغادرها، ولكن ينبغي أن تعلم أنني لا أحتمل الخداع، وأن هذا المسدس ليس السلاح الوحيد الذي أحمله.

قالها وانتزع من حزامه قنبلة مستطيلة، وهو يستطرد:

- هي أيضًا مصنوعة من البلاستيك، وسأنسف بها الطائرة كلها، إذا ما حاولت خداعي.

ارتجفت (صفاء) في رعب أكثر، ولكنها لم تنبس ببنت شفة، حتى غادر الشاب معها كابينة القيادة، فهمست في هلع:

- إنك لا تقصد هذا بالفعل.

ابتسم وهو يقول:

- بالطبع لا.

ولكنه أضاف في صرامة:

- ولكن من حقي أن أدافع عن حياتي.

لم تناقش الفكرة معه، ولكنها اقتنعت بها في أعماقها..

من حقه بالطبع أن يدافع عن حياته..

لقد أخبرها بما ينتظره، وأخبر به الطيار، وطلب منها معاونته على إنجاح مهمته..

ولكن الطيار رفض في تعنت..

ومن حقه –والحال هكذا– أن يدافع عن حياته بأية وسيلة..

وبكل وسيلة ممكنة..

لم يمنع هذا جسدها من الارتجاف، وهي تسير أمامه في ممر الركاب، حتى بعد أن أعاد هو مسدسه وقنبلته إلى حزامه، وألقت نظرة حذرة على (عبد الحميد)، ولكنها وجدته غارقًا في مقعده، مستغرقًا في نوم عميق، فشعرت بالحنق من هذا التراخي، الذي يتعامل به الرجل، على الرغم من أن مهنته هي الدفاع عن الطائرة، وملاحظة أية أفعال مريبة لأي من الركاب، فكيف يستغرق في النوم، ويترك الأمور تسير على هذا النحو..

وماذا لو أن (أشرف) مختطف طائرات بالفعل؟

لم يكد ذلك الخاطر يجول بذهنها، حتى ارتجفت في هلع..

ماذا لو أنه كذلك؟..

إنه أكبر كذاب عرفته، فلماذا تصدق قصته الآن؟

ولماذا لم يختطف الطائرة، وهو داخل كابينة القيادة؟..

وجدت في نفسها ميلًا لتصديق قصته، ورأت (سميرة) تلوح لها في خبث، أمام المطبخ، فأرغمت شفتيها على ابتسامة شاحبة، وسمعت الشاب من خلفها يهمس في مرح:

- إنها تتصورنا حبيبين.. أليس كذلك؟

غمغمت:

- إنها تبالغ دائمًا في كل الأمور.

قال في همس:

- ولماذا تبالغ؟.. أليست الحقيقة؟

ارتجف جسدها في قوة أكبر، وهي تستقبل كلمته..

- الحقيقة؟!..

أمن الممكن حقًا أن يقع هو، بوسامته وجرأته، في حبها هي؟..

هل يمكنها أن تصبح زوجة رجل مخابرات؟..

يا للإثارة والغموض..

إنها ستتباهى بهذا بالفعل..

ستزهو به في كل مكان..

وفي كل مجتمع..

قطع انطلاقة أفكارها، وهو يهمس:

- (صفاء).. صحيح أننا نمر بمتاعب جسيمة، ولكن صدقيني.. سينتهي كل هذا بسلام، فور وصولنا إلى (مالطة)، وعندئذ سيمكنني الإفصاح لك عن مشاعري بكل صدق ووضوح، والتقدم لطلب يدك، و..

قاطعته صيحة هادرة، قبل أن يبلغ مقعده، انطلقت من خلفه كالقنبلة، وصاحبها يقول في صرامة شديدة:

- (صادق).

لم تدر (صفاء) من (صادق) هذا، ولكنها فوجئت بـ(أشرف) يلتفت في حركة حادة عنيفة إلى حيث وقف الرجل الغليظ الملامح، الذي أطلق الصيحة، وفوجئت أيضًا بـ(عبد الحميد) يستيقظ فجأة، ويمتلئ جسده بقدر هائل من النشاط والحيوية، وهو يغادر مقعده، ويندفع نحو الشاب، مستغلًا التفاتته نحو الرجل..

وأطلقت (صفاء) صرخة..

صرخة أثارت هرج وذعر ركاب الطائرة، وجعلت الشاب يستدير في سرعة إلى (عبد الحميد)، ثم ينتزع مسدسه في لمح البصر، ويطلق منه رصاصة مباشره عليه.

أطلقها بلا تردد أو تفكير، ورأتها (صفاء) تخترق صدر (عبد الحميد)، على قيد سنتيمترات من موضع القلب، ورأت الدماء تتفجر من صدر (عبد الحميد)، وهو يسقط على وجهه، فأطلقت صرخة أخرى، شاركتها إياها راكبات الطائرة، في حين عاد الشاب يلتفت في سرعة وشراسة إلى الرجل الغليظ الملامح، ويصوب إليه مسدسه، وهو يجذب (صفاء) إليه في قوة وخشونة، ليصنع منها درعًا بشريًا له..

وأطلقت (صفاء) صرخة رعب، في حين هتف غليظ الملامح في توتر:

- اهدأ.. اهدأ يا (صادق).. لن يمسسك أحد.

هتفت (صفاء) في ارتياع:

- (صادق)؟!.. من أنت بالضبط؟.. (حاتم)، أم (أشرف)، أم (صادق)؟

ضغط الشاب عنقها بساعده في قوة، وهو يقول في شراسة:

- اصمتي.

ارتجفت في رعب، وأطلقت (سميرة) شهقة فزع، في حين قال غليظ الملامح في توتر:

- إنه (صادق).. (صادق برهان).. وهو شاب طموح وشرير.. دفعه ذلك المزيج المخيف، من الشر والطموح، إلى التعاون مع أعداء وطنه، وخيانة هذا الوطن، مقابل بضع مئات من الدولارات، لا تساوي أبدًا ما فعله.

اتسعت عينا (صفاء)، وهي تهتف في هلع:

- جاسوس؟!.. أهو جاسوس؟

شدد ضغط ساعده على عنقها أكثر، حتى كادت تختنق، وهو يهتف في شراسة غاضبة:

- قلت: اصمتي.

وقال غليظ الملامح:

- نعم.. إنه جاسوس.. بل واحد من أخطر الجواسيس، وأكثرهم ذكاء وشراسة، على الرغم من مظهره الوسيم الهادئ، وطبيعته المرحة، ونحن نراقبه منذ عام كامل، ونجحنا أخيرًا في دفعة لزيارة (القاهرة)، بعد خمس سنوات كاملة، قضاها في (أوروبا)، محاولًا تجنيد أكبر عدد من شبابنا، للعمل لصالح العدو.. وكان يستغل حاجة الشباب المسافر إلى (أوروبا) للعمل، ليرمي شباكه

حولهم.. ولقد أعددنا خطتنا للإيقاع به، وإلقاء القبض عليه، فور هبوط الطائرة في مطار(القاهرة)، ولكن يبدو أنه أدرك ما ننوي فعله به.

قال الشاب في حدة:

- هذا صحيح.. لقد لمحتك أكثر من مرة، تحوم حولي في (لندن) و(روما) و(باريس)، ووجودك على متن نفس الطائرة، التي أسافر عليها إلى (القاهرة)، بعد خمس سنوات كاملة، فجر شكوكي، التي حسمتها هذه المضيفة الغبية، عندما أبلغتني أنك تراقبني.

هتفت (صفاء) في مرارة:

- إذن فأنا السبب في كل هذا.

صاح أحد الركاب في هلع:

- نعم.. أنت المسئولة.. أنت الـ..

صرخ الشاب:

- اصمت.. اصمتوا جميعًا.

لاذ الركاب جميعهم بالصمت في رعب، وانكمشوا في مقاعدهم، في حين قال غليظ الملامح في صرامة:

- كل ما تفعله لن يفيدك بشيء يا (صادق).. لقد انكشف أمرك، ولم تعد هناك وسيلة للفرار.

هتف الشاب:

- هل تظن هذا؟.. أنت مخطئ إذن يا رجل.. لن أسلمكم عنقي بهذه البساطة.. لقد أجبرت الطيار على تحويل مسار الطائرة إلى (مالطة)، وهناك يمكنهم محاكمتي بتهمة اختطاف طائرة،

وسأرسل في طلب محامي الخاص من (لندن)، وأطلب حق اللجوء السياسي رسميًا.. وربما أدانني القضاة هناك، وصدر حكم بسجني لعام أو عامين، ولكن هذا سيكون أفضل بكثير من حكم الإعدام، الذي يصدره ضدي قضاة المحكمة العسكرية بـ(لقاهرة) حتمًا.

انعقد حاجبا الرجل الغليظ الملامح، وهو يقول:

- إنك لن تفلت من العقاب أبدًا.

هتف الشاب:

- سنرى.. سنرى من يربح هذه اللعبة.. لقد انكشف الأوراق كلها، ولن يضيرني أن..

بتر عبارته بغتة، عندما شعر بذلك الجسد الثقيل يتعلق به..

لقد زحف (عبد الحميد)، حتى بلغه، وحاول الإمساك به، على الرغم من إصابته، وكل ما فقده من دماء..

ولكن الشاب تحرك في سرعة، فدفع (صفاء) جانبًا، وهوى بالمسدس على عنق (عبد الحميد) في عنف، ولكن (عبد الحميد) تشبث بالمسدس، وانتزعه من قبضة الشاب، وهو يسقط أرضًا، واندفع غليظ الملامح، محاولًا الانقضاض على الشاب، وسط صرخات الهلع والفزع، ولكنه ارتطم بـ(صفاء)، التي دفعها الشاب في وجهه، ولم يكد يزيحها جانبًا، وهي تطلق بدورها صرخات الرعب، حتى فوجئ بالشاب وقد انتزع قنبلته البلاستيكية من حزامه، وصرخ:

حذار أن تحاول.. سأنسف الطائرة كلها لو فعلت.

انطلقت صرخات الركاب مرة أخرى، وتوقف غليظ الملامح في مكانه، وهو يهتف:

- لا.. لا تفعل.

نهضت (صفاء) من سقطتها، وهي تشعر بمرارة هائلة..

أهذا هو الشاب، الذي تصورته زوجًا لها؟..

أهذا هو الراكب الوحيد، في حياتها كلها، الذي استجابت لعباراته الجميلة، وكلماته الهامسة؟..

كيف انخدعت إلى هذا الحد؟!..

كيف صدقت أكبر كذاب عرفته؟..

تطلعت في اشمئزاز عجيب إلى ملامحه الوسيمة، التي اكتست في هذه اللحظة بشراسة عنيفة، وهو يقول:

- سأنتزع فتيل القنبلة، لو حاولتم إلقاء القبض على مرة أخرى.

لوح غليظ الملامح بكفيه، هاتفًا:

- لن نحاول.. اهدأ.. لن تفعل.

انكمش الركاب في مقاعدهم أكثر، وتضاعف رعبهم وهلعهم، في حين نهضت (صفاء) واقفة، وهي تقول في مرارة:

- لقد خدعتني.

أجابها الشاب في شراسة:

- لم يكن ذلك عسيرًا.

تضاعفت المرارة في أعماقها لعبارته، في حين قال غليظ الملامح:

- إنه محترف في هذا المجال، فوسامته وخفة ظله، وأسلوبه في الإقناع، كانت كلها وسائل بارعة، استغلها للإيقاع بعدد من الضحايا.

قالت (صفاء) في ألم وهي تتحسس رقبتها:

- أيها الحقير.

صاح بها الشاب في غضب:

- اصمتي، وإلا قطعت لسانك هذا.

ثم أدار عينيه إلى الغليظ الملامح، مستطردًا في عصبية:

- وأنت.. أبعد يدك عن سترتك.

رفع الرجل ذراعيه، وقال:

- كنت سألتقط سيجارة فحسب.. إنني لست مسلحًا.

قال الشاب في عصبية:

- أعلم هذا.. سمعت ذلك الضخم يخبر تلك الغبية بهذا الأمر.

قال الرجل:

- هل يمكنني تدخين سيجارة واحدة إذن؟

تردد الشاب لحظة، ثم قال في حدة:

- دعني أرَ يدك طيلة الوقت، والتقط تلك السيجارة بأبطأ حركة ممكنة.

مد الرجل يده داخل سترته في بطء، وهو يقول:

- اطمئن.. سأطيع أوامرك تمامًا، و..

وفجأة انتزع الغليظ الملامح من تحت سترته مسدسًا، وصاح بـ(صفاء):

- ابتعدي.

رفع الشاب فتيل القنبلة إلى أسنانه في سرعة، صارخًا:

- أيها الـ..

ولكنه لم يكمل عبارته..

لقد أطلق غليظ الملامح ست رصاصات نحوه، في لحظة واحدة..

واخترقت رصاصاته كلها جسد الشاب ورأسه..

وانتزعته من مكانه..

نعم.. لقد انتزعته رصاصات المسدس من مكانه، وسط صرخات رعب هائلة، ودفعته عبر الجزء المتبقي من الممر في عنف، ليسقط تحت قدمي (سميرة) جثة هامدة، تفجرت منها ينابيع الدم..

وأطلقت (سميرة) صرخة رعب طويلة..

أطلقتها وهي تحدق في الوجه الوسيم، الذي فقدت عيناه بريق الحياة، واتسعتا في دهشة ألم، في حين تعلقت بأسنانه حلقة صغيرة..

وكانت هذه الحلقة هي الفتيل..

فتيل القنبلة.

لقد وجد الوقت الكافي لينتزع الفتيل بأسنانه، قبل أن يلقى مصرعه..

ونقلت (سميرة) عينيها، من وجه الشاب إلى قبضته..

ورأت القنبلة تنفلت من يده، وتتدحرج إلى جواره..

وصرخت (سميرة)..

- القنبلة.

تفجرت موجة من صرخات الهلع والفزع والرعب والارتياع، داخل الطائرة، في حين همس (عبد الحميد)، وهو يقاوم غيبوبة عميقة، كادت تستولى عليه:

- المرحاض.. المرحاض..

وسمعته (صفاء)..

سمعته وفهمت ما يعنيه..

وبسرعة، اندفعت (صفاء) نحو جثة الشاب، وانحنت تلتقط القنبلة، ثم اندفعت بها نحو دورة المياه، وألقتها داخل المرحاض، ثم ضغطت زر التفريغ المجاور له..

وانفتحت كوة التفريغ الخاصة..

وسقطت القنبلة..

سقطت تسبح في الهواء لحظات، والطائرة تبتعد عنها في سرعة..

ثم دوى الانفجار..

وانتهى الخطر..

☆ ☆ ☆

4- النجاة..

لوح مدير الأمن بمطار (القاهرة) بذراعيه، وهو يهتف في ارتياح:

- كانت (صفاء) عظيمة بالفعل.. أنا أعلم منذ زمن أنها فتاة رائعة.. ستحصل على ترقية قريبة حتمًا.

تضرج وجه (صفاء) بحمرة الخجل، وقال غليظ الملامح، الذي قدم نفسه باسم المقدم (عاطف شوقي):

- وكذلك (عبد الحميد).. لقد كان رائعًا في أدائه، فلقد طلب تفتيشي في حجرة الأمن، عندما أبلغته الآنسة (صفاء) عن رؤيتها للمسدس في جيبي، وفي حجرة الأمن أريته مسدسي المصنوع من البلاستيك، وقدمت له هويتي، وشرحت له مهمتي، فتظاهر بعدم تقديره لإجراءات الأمن، وشرح للآنسة (صفاء)، أمام ذلك الجاسوس، أنني غير مسلح، مما ساعدني على مباغته، وكذلك تظاهر بالنوم، عندما خرج الشاب من كابينه القيادة، ليمكنه مباغتته.. إنه رجل أمن عظيم بالفعل.

غمغمت (صفاء) في ندم:

- وأنا ظلمته كثيرًا.. حمدًا لله أن إصابته ليست بالغة الخطورة، وأنه سيشفى بإذن الله..

ابتسم المقدم (عاطف)، وقال:

- هذا يثبت نجاح عمله.

أما (سميرة)، فهتفت:

- كنت أعلم أن ذلك الشاب كذاب.. كنت أعلم هذا.

لوح (عاطف) بكفه، قائلًا:

- ولكن زميلتك صدقته.

قالت (صفاء) في حرج:

- لقد أقنعني بهذا، خاصة وأن ملامحك كانت توحي بـ..

لم تكمل عبارتها؛ لأنها شعرت أن العبارة تفتقر إلى كثير من اللياقة، في حين هتف (عاطف) في دهشة:

- ملامحي؟!.. وما شأن ملامحي بقصة كهذه؟

ضحكت (سميرة)، وقالت:

- لم تكن ملامحك وحدها هي السبب.

لم يفهم (عاطف) ما تعنيه، ولكن تضرج وجه (صفاء) بحمرة الخجل أنبأه بالأمر، فابتسم وقال:

- هذا يعلمكما درسًا جديدًا.

قالت (صفاء) بسرعة:

- أعرفه.

ثم أردفت في ضيق:

- ليس كل ما يلمع ذهبًا، ولا كل وسيم على حق فيما يقول، بل ربما كان الأكثر جمالًا هو الأكثر فتكًا، كما يحدث في عالم الحيوان والبنات.

وشرد بصرها، وهي تستطرد:

- تعلمت أن المظهر هو الكذاب الحقيقي.

وابتسمت مضيفة في حزم:

- أكبر كذاب.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- ألف قصـــــة..

2- الخطر..

3- الجاسوس..

4- النجاة..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

نداء الأعماق

د. نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

..سلسلة كوكتيل 2000

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

3083

كوكتيل 2000

قصص العدد

نداء الأعمــاق

1- النـداء..

ارتسمت ابتسامة حماسية كبيرة، على وجه المهندس (ياسر)، وهو يشير بيده إلى المنطقة الصخرية الجرداء المطلة على البحر، التي يقف فيها، وهو يقول لصديقه (أكرم) في فخر:

- ها هي ذي منطقة صيدنا الجديدة.

بدا مزيج من خيبة الأمل والرهبة، على وجه (أكرم) وهو يقول في تردد:

- ولكنها منطقة مخيفة، فهل يمكن أن تخاطر الأسماك بالمجيء إلى هنا؟!

أطلق (ياسر) ضحكة عالية، وقال:

- بالطبع.. هذه أفضل منطقة، تأتي إليها الأسماك.

قالها وبدأ في إعداد قصبة الصيد، وهو يستطرد:

- ستختار الأسماك هذه المنطقة بالذات، وهي تتصور أن أحدًا لن يزعجها، ولهذا أسعدني كشف هذا المكان، الذي يبعد أربعة كيلو مترات فحسب، عن قاعدة (رأس التين) البحرية، وهنا سيمكننا تحطيم الرقم القياسي في الصيد.

لم يفهم (أكرم) سر حماس صديقه، ولكنه اكتفى بحمل قصبة الصيد الصغيرة، التي أحضرها معه، وألقى خيطها في الماء، منتظرًا سقوط إحدى الأسماك المارة في خطافه، في حين بدت قصبه (ياسر) أكثر تعقيدًا وأكبر حجمًا، وهو يضيف إليها آلة صيد خاصة، ويعلق في خطافها لعبة معدنية صغيرة، تشبه

سمكة متألقة، قبل أن يلقى الخيط إلى أبعد مسافة ممكنة، ويجلس فوق صخرة قريبة، قائلًا في حماس:

- سترى أننا سنملأ سيارتنا بالأسماك، قبل مغيب الشمس.

لم يعلق (أكرم) ولكنه ركز انتباهه كله على قصبة صيده، وانتظر.. وطال الانتظار..

طال أكثر مما ينبغي، حتى أن الشمس قد توسطت كبد السماء، قبل أن ينجح أحدهما في صيد سمكة واحدة، مما أصاب (أكرم) بضجر لا حدود له، جعله يرفع خيط قصبته من الماء، وهو يقول:

- سأكتفي بهذا القدر.

التقى حاجبا (ياسر) في ضيق، وهو يقول:

- عجبًا!!.. ماذا أصاب هذه الأسماك؟.. لقد كنا نصطاد الكثير منها، في مناطق عادية للغاية.

ألقى (أكرم) نظرة أخرى على المنطقة، التي فقدت الكثير من رهبتها، مع سطوع الشمس، وقال:

- قلت لك إن الأسماك تخاف القدوم إلى هنا.

ألقى (ياسر) قصبته جانبًا، وهو يقول:

- كلام فارغ.

ثم نهض إلى سيارته، والتقط من داخلها جهازًا صغيرًا، يشبه أجهزة التسجيل الشخصية، وهو يتابع في حماس:

- ربما كانت هناك عوامل بحرية، تبعد الأسماك عن هنا.

وحمل الجهاز إلى حيث يجلس صديقه، مستطردًا:

- وسنكشف هذا على الفور.

سأله صديقه في شغف، وهو ينظر إلى الجهاز:

- ما هذا؟.. جهاز تسجيل؟..

أجابه (ياسر):

- بل هو جهاز خاص، صنعته ليشبه أحد أجهزة غواصاتنا، ومهمته هي التقاط ذبذبة الأجسام المتحركة، تحت سطح الماء.

سأله (أكرم) في دهشة:

- وفيم يفيدنا هذا؟

أجابه (ياسر) في حدة:

- سنعلم على الأقل إذا ما كانت هناك أسماك في المنطقة أم لا.

وضع الجهاز فوق صخرة قريبة من البحر، واخرج منه ميكروفونًا حساسًا، أدلاه بوساطة سلك متصل بالجهاز في البحر، ثم ضبط أحد أزرار الجهاز، وقال:

- هكذا نقاتل تلك الأسماك اللعينة بالطرق العلمية.

تطلع (أكرم) إلى الجهاز في اهتمام، وهو يسأله:

- وماذا سيفعل الجهاز بالضبط؟

أجابه (ياسر) في ترقب:

- ستسمع الذبذبة التي يطلقها، عندما يلتقط حركة سرب أسماك، أو..

بتر عبارته، عندما انطلق أزيز منتظم من الجهاز، وهتف في حماس:

- أرأيت؟.. ها هو ذا..

بتر عبارته مرة أخرى في حركة حادة، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يصغى إلى الأزيز في اهتمام شديد، جعل (أكرم) يسأله:

- أهو سرب ضخم إلى هذا الحد؟

أشار إليه (ياسر) في صرامة، طالبًا منه الصمت، ثم واصل الإصغاء إلى الأزيز في انتباه كامل..

وحاول (أكرم) الإصغاء إلى الأزيز المنتظم بنفس الاهتمام والانتباه، إلا أنه لم يفهم سر ذلك القلق، المرتسم على وجه (ياسر)..

كل ما لاحظه هو أن الذبذبة منتظمة للغاية، وأنها عبارة عن مقطع واحد، يتكرر على نحو ثابت رتيب، مع لحظة صمت بين كل تكرار وآخر..

ومضت دقيقة كاملة، و(ياسر) يستمع إلى الذبذبة في اهتمام، قبل أن يقول في صوت يشف عن خطورة الأمر:

- يا إلهي!..

ارتجف (أكرم) للطريقة التي نطق بها (ياسر) الكلمة، وسأله في توتر:

- ما هذا بالضبط؟

جذب (ياسر) الميكرفون من الماء، وحمل الجهاز في توتر شديد، ووضعه في سيارته، ثم أخذ يلملم أدوات الصيد في عصبية، دون أن يجيب سؤال (أكرم)، الذي هتف مرة أخرى، وهو يحمل قصبة صيده بدوره:

- ماذا وجدت؟

قفز (ياسر) خلف عجلة قيادة سيارته، وهو يقول:

- الأمر بالغ الخطورة يا (أكرم).

قال (أكرم) في اضطراب، والسيارة تنطلق، مبتعدة عن المنطقة المقفرة:

- ما هو هذا الأمر بالضبط؟

أجابه (ياسر) في توتر:

- هذه الذبذبة لا تخص سربًا من الأسماك، بل هي أكثر انتظامًا وتكرارًا.

سأله (أكرم) في خوف:

- ما هي إذن؟

صمت (ياسر) لحظة، انعقد خلالها حاجباه في شدة، وهو يقول:

- نداء.. نداء من جسم ما، يرقد في الأعماق.

واكتسب صوته صرامة رهيبة، مع استطرادته:

- نداء استغاثة..

☆ ☆ ☆

تطلع قائد قاعدة (رأس التين) البحرية، إلى المهندس (ياسر)، طويلًا في صمت صارم، قبل أن يقول في صوت حازم قوي:

- لماذا لم تلتقط أجهزة القاعدة نداء الاستغاثة هذا أيها المقدم؟

كان (ياسر) مهندسًا أول لإحدى الغواصات البحرية في القاعدة، وواحدًا من أكثر مهندسي القوات البحرية استقامة وإخلاصًا، وعلى الرغم من ذلك فقد كان البلاغ، الذي تقدم به للقيادة عجيبًا، مثيرًا للقلق والتوتر، لذا فقد ألقى عليه قائد القاعدة السؤال السابق، الذي أجابه (ياسر) في انفعال واضح:

- لست أدري لماذا لم تستقبل أجهزة القاعدة تلك الذبذبة يا سيدي، ولكن جهازي استقبلها في وضوح، ولدي شاهد مدني على هذا.

قال القائد في خشونة:

- لا شأن للمدنيين بعملنا.

وانبرى رئيس سلاح الإشارة، يسأل (ياسر):

- ألا يحتمل أن تكون الذبذبة مجرد حركة منتظمة لسرب من الأسماك؟

هز (ياسر) رأسه نفيًا في حزم، وقال:

- لا يا سيدي، هذا غير محتمل على الإطلاق، فالذبذبة الناشئة عن حركة سرب الأسماك، لا تكون أبدًا منتظمة إلى هذا الحد.

ثم أضاف في تصميم شديد:

- إنه نداء استغاثة يا سيدي.. نداء يطلقه جسم ما في الأعماق.. لا يمكنني أن أخطئ هذا النداء أبدًا، على الرغم من أنه يختلف كثيرًا عن نداء الاستغاثة العالمي، أو حتى عن ذلك الذي نستخدمه.. لقد سمعت هذه النداءات مئات المرات، عبر كل المناورات البحرية، التي شاركت فيها.

سأله قائد القاعدة:

- وما الذي يعنيه هذا النداء أيها المقدم، لو أنه لا يخص غواصاتنا؟

بدا التوتر على وجه (ياسر)، وهو يجيب:

- ربما يخص غواصة معادية.

فجر جوابه تلك القنبلة، الرابضة في أعماق الجميع، منذ بداية الاستجواب، فالتقت كل العيون بنظرة ملؤها القلق والتوتر، قبل أن يقول القائد في حدة:

- وكيف تصل غواصة معادية إلى هنا، دون أن نشعر بهذا؟

لوح (ياسر) بكفه، قائلًا في انفعال:

- ربما استخدمت استراتيجية جديدة، أو اتخذت مسارًا شديد التعقيد، لتفادي أجهزة السونار، وسفن الحراسة، ودوريات السواحل.. المهم أنها بلغت سواحلنا، أيًا كانت الوسيلة، التي استخدمتها لهذا.

وهمس قائد دوريات السواحل، في أذن القائد:

- لا يمكننا إهمال هذا الاحتمال.

أومأ القائد برأسه إيجابًا، وقال بصوت سمعه الجميع:

- لا يمكننا إهمال هذا الاحتمال بالطبع، ولهذا أصدرت أوامري، فور سماعي بالأمر، إلى رجال الضفادع البشرية، بفحص المنطقة كلها، وتصوير كل ما يثير الشبهات، كما أمرت ثلاثا من مدمراتنا وستة من زوارق الطوربيدات، بالتواجد في المكان، وعمل دوريات دائمة به، حتى يتم حسم الأمر.

تنفس (ياسر) الصعداء، وقال:

- هذا عظيم يا سيدي.. عظيم.

لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع رنين الهاتف الخاص للقائد، فالتقطه هذا الأخير، ووضعه على أذنيه، واستمع إلى محدثه في اهتمام واضح، قبل أن يقول في خفوت:

- هذا أفضل.. كنت أتوقع ذلك.

وأعاد سماعة الهاتف إلى موضعها، وهو يتطلع إلى (ياسر)، قائلًا في حزم:

- لقد تم فحص كل شبر بالمنطقة.

سأله (ياسر) في لهفة:

- وما الذي عثروا عليه؟

ضاقت المسافة بين حاجبي القائد، وهو يقوم في صرامة:

- لم يعثروا على شيء أيها المقدم.. لم يعثروا على أدنى أثر لأي شيء..

وكانت مفاجأة لـ(ياسر)..

مفاجأة حقيقية..

☆ ☆ ☆

2- الحيرة..

لو أن القوات البحرية قد فحصت المنطقة شبرًا شبرًا، فمن المؤكد أن (ياسر) قد فحص بدوره كل التقارير الواردة، عن هذا الأمر، حرفًا حرفًا..

لقد قضى ليلته كلها، من غروب الشمس، وحتى مطلع الفجر، يدرس كل نتائج البحث، من تقارير وصور وإشارات مسجلة للسونار، حتى شعر بإرهاق عصبي وجسدي شديد، جعله ينهار على مقعده، مع شروق الشمس، فتطلع إليه زميله المهندس (حسن) في إشفاق، وهو يقول:

- ألم تقتنع بعد، بأنها كانت إشارة كاذبة؟

هز (ياسر) رأسه، وهو يقول في عناد:

تقارير الدنيا كلها لن تنجح في إقناعي بهذا.

أشار (حسن) إلى التقارير والصور، وهو يقول:

- ولكنك راجعت كل شيء بنفسك.. دوريات الحراسة لم تعثر على شيء ورجال الضفادع البشرية التقطوا عشرات الصور للأعماق، وكلها لا تحوي سوى الصخور، والشعب المرجانية والأسماك، والسونار لم يلتقط أية حركة مريبة، وحتى أجهزة كشف ذبذبات الأعماق، لم تلتقط أية إشارات غامضة.

هتف (ياسر)، وهو يلوح بكفه:

- ولكنني سمعت تلك الذبذبة بنفسي.

تنهد (حسن) في أسف، وقال:

- هكذا أنت دائمًا.. عنيد وصعب المراس.. إنك تفسد حياتك كلها بأسلوبك هذا.. أنسيت كيف فسخت خطبتك مرتين، بسبب عنادك هذا؟

قال (ياسر) في ضيق:

- لم يكن هذا بسبب العناد، وإنما لأن الفتاتين لم يمكنهما فهمي في المرتين.

هتف (حسن):

- لأن شخصيتك عسيرة الفهم بالفعل.. إنك تريد العيش كما لو كنت تقيم في المدينة الفاضلة.. تصر على التعامل مع كل الأمور في استقامة وحزم.

صاح (ياسر) في غضب:

- وهل أصبح ذلك أمرًا عسيرًا على الفهم في هذه الأيام؟

أجابه (حسن) في حدة:

- لقد أصبح كذلك بالطبع، فالمجتمع لم يعد مباشرًا، كما كان في الماضي.. الانفتاح وصراع المادة أفسدا كل شيء.. لم تعد الشهامة والأخلاق هي معيار الرجولة الحقيقي، بل صار المال هو الفيصل في كل الأمور..

صاح (ياسر):

- خطأ.. أكبر خطأ.. لو ساد هذا المعيار حياتنا فسنخسر كل شيء.. سنخسر حاضرنا ومستقبلنا، وحضارتنا وقيمنا.

هتف (حسن):

- لقد خسرنا كل هذا بالفعل.

صرخ (ياسر):

- مستحيل!

هز (حسن) رأسه في أسف، وقال:

- ربما لم نبلغ هذا الحد المؤسف بعد، ولكننا لم نعد نحيا أيضًا في عصر الفرسان.. عد إلى رشدك وواقعك يا صديقي، ولا تبنِ أحلامك كلها في عالم الخيال.

بدا التوتر البالغ على وجه (ياسر)، وهو يقول:

- لن أحتمل العالم من حولي، لو لم أفكر بهذا الأسلوب.

تنهد (حسن)، وقال:

- أنت وشأنك.

قالها وانصرف، تاركًا (ياسر) وحده، يسترجع بعض أحداث حياته الماضية..

لقد اضطر إلى فسخ خطبته مرتين بالفعل..

وفي المرتين كانت المادة هي السبب..

صحيح أنه ضابط بالقوات البحرية، يمتلك شقة وسيارة، منحته إياهما مهنته، بمقدم بسيط، وأقساط معقولة، ولكن هذا لا يعني أنه ثري، فقد نشأ يتيمًا، في أسرة عادية، والأقساط تبتلع الجزء الأكبر من راتبه...

ومتطلبات خطيبتيه كانت أكبر كثيرًا من قدراته..

لم تهتم إحداهما بأخلاقه أو مهنته، بل تركز اهتمامهما على إمكانياته المادية فحسب..

وهذه الإمكانيات محدودة للغاية..

كما أن خلافهما كان يمتد إلى أسلوبه في التعايش مع الآخرين..

كان مهذبًا، بسيطًا، لا يميل إلى اغتصاب حقوق الآخرين، أو الاستهتار بها، في حين رأت خطيبتاه أن هذه الصفات تعني أنه إنسان تافه متخاذل، لا يصلح لاقتحام مصاعب الحياة، ومشاكلها..

وكان لابد من فسخ الخطبة في الحالتين..

مع خلاف جوهري كهذا، يمسّ طبيعته الشخصية، وأسلوبه في التعامل مع العالم من حوله، كان الانفصال حتميًا..

زفر في حرارة، وهو يُغلق عينيه في عمق..

إنه يتمنى بالفعل أن يحيا في مدينة فاضلة..

في (يوتوبيا)..

الجميع يعرفون أحلامه هذه..

وكلهم يسخرون منها..

ولكنه لا يبالي بسخريتهم هذه..

إنها أحلامه..

وهذا شأنه..

منذ حداثته وهو يحلم بتلك المدينة الفاضلة، حيث يسود السلام والهدوء والأمان، وتكون الثقة هي وثيقة التعامل بين الجميع، وسمو الأخلاق هو الفيصل في كل الأمور..

مدينة الصدق والعدل والسعادة..

«إنك تحتاج إلى النوم يا سيادة المقدم..»..

انتزعته العبارة من خواطره، ووجد صعوبة في فتح جفنيه، ليتطلع إلى جندي المراسلة الخاص به، قبل أن يعتدل قائلًا:

- أنت على حق يا (محمد).. سأعود إلى منزلي، فقد قضيت الليل كله ساهرًا.

ونهض مستطردًا في اهتمام:

- ألديك فكرة عما قرره القائد، بشأن تلك المنطقة؟

أجابه الجندي، وهو يعاونه على ارتداء سترته:

- لقد أصدر أوامره باستمرار عمل الدوريات، لثلاث أيام أخرى، قبل أن تتوقف عمليات البحث.

تنهد (ياسر) في ارتياح، وغمغم:

- هذا أفضل.

ألقى نظرة أخرى على تلك الصور، التي التقطها رجال الضفادع البشرية لأعماق المنطقة، ثم جمعها ليضعها في جيبه، مغمغمًا:

- لن يضير لو ألقيت عليها نظرة أخرى.

ابتسم الجندي مشفقًا، وهو يعلم أن (ياسر) قد فحص هذه الصور عشر مرات من قبل على الأقل..

ولكن هذه طبيعته..

إنه شديد المراس، لا يتنازل عن آرائه وقراراته في سهولة..

ولقد كان من المستحيل –تقريبًا– أن يتراجع (ياسر) عن رأيه، في هذه القضية بالذات..

لقد سمع النداء بنفسه..

هذا ما ملأ ذهنه، وهو يقود سيارته، عائدًا إلى منزله..

إنه واثق من وجود أمر ما..

هناك حتمًا ما أرسل هذا النداء..

وهذه الاستغاثة..

لم يتوقف عن التفكير في الأمر، حتى بلغ منزله، فأوقف سيارته أمامه، ورأى صاحب المتجر الصغير يرمقه بنظرة غاضبة محنقة، وكأن توقف السيارة أمام متجره يغلق في وجهه أبواب الرزق، فعاد يقود السيارة لمتر آخر، متفاديًا مدخل المتجر، وغادرها إلى شقته، في الطابق الثاني، حيث يقيم وحده، وهناك ارتدى منامته، والتقط واحدة من روايات الخيال العلمي، التي تملأ مكتبته، وراح يقرأها في صمت، طلبًا للنوم..

ولكن ذهنه عاد يسترجع تفاصيل الصور والتقارير، وكأنما لم تعد لديه من أفكار سوى هذه..

وفجأة راوده شعور عجيب..

هناك شيء ما، في الصور والتقارير..

شيء انتبه إليه عقله الباطن، وإن لم تلاحظه عيناه، أو ينتبه إليه عقله الواعي..

أزاح الرواية جانبًا، وحاول أن يتذكر ذلك الشيء، ولكنه عجز تمامًا عن هذا، فنهض يلتقط الصور مرة أخرى من جيبه، ويعيد فحصها في اهتمام أكثر..

وفجأة توقف عند صورة خاصة..

صورة بدت له وكأنها تحمل شيئًا عجيبًا..

ولثوان، تطلع إلى الصورة، قبل أن يهتف فجأة بكيانه كله:

- بالتأكيد.. هذا هو.

كان قد شاهد تلك الصور عشر مرات من قبل، ولكنها أول مرة ينتبه فيها إلى هذا الشيء.

ففي كل الصور، كانت تظهر في الأعماق كتل من الصخور، نمت فوقها بعض الأعشاب البحرية والطحالب، وتسبح إلى جوارها

بعض الأسماك الصغيرة..

فيما عدا هذه الصخرة الضخمة..

كانت صخرة من كتلة واحدة، تحتل منطقة كبيرة من الأعماق، دون أن ينمو فوقها عشب واحد، أو تقترب منها سمكة واحدة..

لم تكن تلتصق بسطحها حتى بعض الطحالب الصغيرة، أو ينبت أسفلها عشب مرجاني واحد..

وبرقت عينا (ياسر) في ظفر..

ها هو ذا الدليل، الذي يبحث عنه..

وبكل حماس، قفز إلى سماعة الهاتف، فالتقطها، وأدار رقم هاتف زميله (حسن)، ولم يكد يسمع صوته، حتى صاح في نصر واضح:

- أخيرًا وجدتها.. وجدتها يا (حسن).

سأله (حسن) ضاحكًا، عبر أسلاك الهاتف:

- ما هذه التي وجدتها يا (أرشميدس)؟

هتف به:

- الخدعة يا (حسن).. الخدعة التي أخفت عنا الأمر.. لقد كشفتها.

صاح (حسن) بكل دهشته:

- الخدعة؟!.. أية خدعة؟

أجابها (ياسر) في حماس:

الخدعة التي لجأ إليها الأعداء، لإخفاء غواصتهم المعادية عن رجالنا.. لقد عثرت عليها في الصور، و..

وفجأة انتبه إلى تلك الحركة الخافتة خلفه..

واستدار في سرعة..

ولكن تلك الوخزة أصابت عنقه..

وأحاط به ذلك الضباب الكثيف بسرعة مذهلة، و..

وسقط..

سقط في غيبوبة عميقة..

غيبوبة سيطرت على عقله كله في لحظة واحدة، بحيث لم يذكر منها سوى أنه حاول التشبث بمنضدة الهاتف، فسقط فوقها، و..

وتلاشى إحساسه بكل شيء..

☆ ☆ ☆

«(ياسر).. استيقظ يا (ياسر)..»

تسللت الكلمة إلى عقله في نعومة، ففتح عينيه في بطء، وطالعه وجه (حسن)، وهو ينحني نحوه في قلق، فتمتم:

- (حسن).. حمدًا لله.

نهض في صعوبة، معتمدًا على يد (حسن)، وأدهشه أنه يرقد في فراشه، وإلى جواره رواية الخيال العلمي، التي كان يطالعها، فهتف:

- من جاء بي إلى هنا؟.. لقد كنت أتحدث إليك هاتفيًا، عندما باغتني شخص ما من الخلف، ووخزني بشيء ما في عنقي،

ففقدت الوعي، وارتطمت بالهاتف، و..

بتر عبارته في دهشة، وهو يحدق في الهاتف، الملقى فوق الفراش، متصلًا بوصلته المجاورة له، فهتف (ياسر) مرة أخرى:

- من أتى بالهاتف هنا؟.. لقد كنت أتحدث معك من الردهة، و..

قاطعه (حسن) هذه المرة، وهو يقول في إشفاق:

- (ياسر).. أنت مرهق للغاية.

حدق (ياسر) في وجهه لحظة، ثم ردد في حيرة:

- مرهق؟!

لم يعِ عقله الموقف لحظات، ثم لم يلبث أن هتف محنقًا:

- ماذا تعني بقولك هذا.. إنني مستيقظ تمامًا، وفي كامل قواي العقلية والذهنية، ولقد اتصلت بك، لأخبرك عن ذلك الكشف، الذي عثرت عليه، في الصور التي التقطها رجال الضفادع البشرية..

وتلفت حوله هاتفًا:

- أين الصور؟.. لقد سرقوها.. أراهن أنهم سرقوها.

التقط (حسن) الصور في هدوء، من فوق المنضدة المجاورة للفراش، وهو يقول في تعاطف:

- ها هي ذي الصور يا (ياسر).

اختطف (ياسر) الصور من يده في لهفة، وقلبها بين أصابعه في سرعة، ثم التقط من بينها صورة الصخرة الكبيرة، وناولها لـ (حسن)، هاتفًا:

- انظر.. انظر جيدًا إلى تلك الصورة.. هل رأيت في حياتك كلها صخرة بهذا الحجم، لم تنبت فوقها حزمة واحدة من الأعشاب البحرية، أو تتخذ سمكة واحدة من فجواتها مسكنًا.. هل رأيت هذا قط؟

تطلع (حسن) إلى الصورة لحظات، ثم أعادها إلى (ياسر)، قائلًا:

- أنت مرهق بالفعل يا (ياسر).

صاح به (ياسر) في حنق:

- ماذا تعني؟

اختطف الصورة من يده، وتطلع إليها في حدة، ثم اتسعت عيناه في ذهول..

- لم تكن هذه حتمًا هي نفس الصورة، التي رآها قبل أن يفقد وعيه.. صحيح أنها ملتقطة بنفس الزاوية، لنفس الصخرة الكبيرة، ولكن في هذه الصورة، التي يمسكها بين أصابعه، كانت الطحالب تغطي الجزء الأكبر من الصخرة، والأعشاب البحرية تنبت أسفلها في غزارة، وسرب من الأسماك الحمراء الصغيرة يسبح أمامها..

وطوح (ياسر) الصورة جانبًا، وهو يصرخ:

- إنها نفس الصورة.. لقد استبدلوها حتمًا بأخرى..

زفر (حسن) في إشفاق، وربت على كتف (ياسر)، قائلًا:

- كفى يا (ياسر).. من الواضح أن كل هذا مجرد حلم.

هتف (ياسر) مستنكرًا:

- حلم؟!

أجابه (حسن) في حزم:

- نعم يا (ياسر).. لقد قضيت ليلتك ساهرًا، تفكر في هذا الأمر، وتطالع الصور والتقارير عشرات المرات، وعندما عدت إلى هنا، أويت إلى فراشك، وحاولت أن تقرأ رواية من روايات الخيال العلمي، كعادتك قبل النوم، ولكنك استغرقت في النوم، دون أن تدري، وحلمت بكل هذا.

صاح (ياسر):

- لم يكن هذا حلمًا.. بل كان حقيقة.

أجاب (حسن):

- هذا ما صوره عقلك الباطن، الذي دفعك إلى السير في أثناء نومك، وأخذ الصور، والهاتف، والاتصال بي، وكأنك قد توصلت إلى الحل، الذي لم تفلح في التوصل إليه في يقظتك.

هتف (ياسر) معترضًا:

- مستحيل!.. هذا رأيك الشخصي، أما أنا، فلست أتصور أبدًا أن أسير في أثناء نومي، وأفعل كل هذا، لمجرد رغبتي في إثبات صدق روايتي.. إنني لم أسر أثناء نومي قط، فلماذا أفعل هذا الآن؟

أجابه (حسن) في تعاطف:

- ربما لأنك لم تتعرض لكل هذه الضغوط من قبل..

عقد (ياسر) حاجبيه، وهو يقول في عناد:

- لا يوجد دليل واحد على هذا.

تراجع (حسن)، وهو يقول:

- ومن أدراك؟

تطلع إليه (ياسر) في دهشة، متمتمًا:

- ماذا تعني؟

سأله (حسن) في صوت جاف:

- إنني لم أفتح باب شقتك، فكيف تظنني دخلت إليها؟.. من فتح لي الباب في رأيك؟

سأله (ياسر) في حذر وتوتر:

- من فعلها؟

مال (حسن) نحوه، وقال في حزم:

- أنت يا (ياسر).. أنت فتحت لي الباب بنفسك.

وكانت مفاجأة جديدة لـ(ياسر)..

مفاجأة أكثر قسوة.

☆ ☆ ☆

3- الدليل..

قضى (ياسر) ساعة كاملة، بعد انصراف (حسن)، وهو عاجز عن فهم ما حدث..

وفي مرارة، راح يسترجع تفاصيل ذلك الحديث، الذي دار بينه وبين (حسن)، عندما أخبره هذا الأخير عن سيره وهو نائم..

لقد سأله –عندئذ– في ذهول:

- أنا؟!.. أنا فتحت لك الباب بنفسي؟!

أومأ (حسن) برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم يا (ياسر).. أنت فعلت.. لقد هرعت إلى هنا، والرعب يملأ كل ذرة من كياني، إثر محادثتك الهاتفية المبتورة، وعندما وصلت إلى هنا رحت أطرق الباب في قوة، وفوجئت بك تفتح الباب، وأنت نصف نائم، ثم تسير أمامي إلى حجرة نومك، وتدس جسدك تحت أغطية الفراش، ثم تذهب في نوم عميق.

ردد (ياسر) مرة أخرى في ذهول:

- أنا؟.. أنا فعلت هذا؟

راح يردد لنفسه هذه العبارة، حتى بعد انصراف (حسن)، وامتلأت نفسه بقدر هائل من الحيرة، نبش كل خلية من خلاياه، وهو يعيد التطلع إلى الصور مرات ومرات..

أكل هذا مجرد حلم حقًا؟..

أمن الممكن أن يكون كذلك؟..

وقف للمرة العاشرة أمام المرآة، يبحث دون جدوى عن أثر لتلك الوخزة، التي أصابته في عنقه، وأفقدته الوعي، ثم لم يلبث أن تمتم، بلهجة أقرب إلى الانهيار:

- إذن فهو حلم.. يا إلهي!..

ألقى نفسه فوق فراشه، وهو يشعر بدوار شديد، من فرط التوتر والانفعال، وفتح عينيه على اتساعهما في مرارة، وهو يتطلع إلى مكتبته الصغيرة، المجاورة للفراش، في شرود وحيرة..

وفجأة انتبه إلى أمر ما..

لم تكن الروايات في مكتبته مصفوفة، على نفس النحو الذي يصفّها هو به.

نهض في حركة حادة، يفحص الروايات في اهتمام..

نعم.. هناك من عبث بهذه الروايات حتمًا..

هناك من طالعها، ثم أعادها إلى المكتبة، دون أن ينتبه إلى أنه هو يستخدم نظامًا خاصًا لترتيبها، اعتمادًا على أسماء المؤلفين، وأحجام الكتب..

لقد انتقلت رواية من الطرف إلى المنتصف، وأخرى من الجانب الأيمن إلى الأيسر، وثالثة من..

ولكن من أدراه أن غريبًا فعل هذا..

لم لا يكون هو الذي أعاد ترتيب الكتب، في سيره في أثناء نومه، كما فتح الباب لـ(حسن)..

ومرة أخرى دار رأسه في حيرة وتوتر..

إنه لم يعد يمتلك المقدرة على تمييز الحقائق من الخيال..

لم يعد يدرك ما حدث في الواقع، وما رآه في أحلامه..

وفي مرارة، وجد نفسه يبتسم..

أليس هذا ما كان يسعى إليه؟..

أن يحيا في عالم من الخيال..

ها هو ذا قد سقط، على الرغم منه، في عالم الخيال..

شعر بغصة في حلقه، منعته من النوم، فنهض يرتدي ثيابه، وقرر أن يخرج ليسير قليلًا على كورنيش البحر، عسى أن ينتزع منه هذا بعض توتره وانفعاله..

إنه واثق من أنه لم يكن يحلم..

ولكنه يحتاج إلى دليل على هذا..

دليل يؤكد له هو، قبل أن يؤكد للآخرين، أن ما رآه لم يكن حلمًا..

هبط ليستقل سيارته، ورأى صاحب المتجر ينظر إليه في ضيق وغيظ، لم يحتملهما هذه المرة، فهتف به:

- إنني أضع سيارتي بعيدًا هذه المرة.. أليس كذلك؟

رمقه الرجل بنظرة نارية، وهو يقول:

- لا شأن لي بسيارتك يا سيادة المقدم، ضعها حيثما يحلو لك، ولكن حافظ على احترام المكان، الذي تقطنه.

توقف (ياسر)، وتطلع ‘إليه في دهشة، وهو يقول:

- احترام المكان؟!.. وهل أسأت يومًا إلى هذا الاحترام؟

أجابه الرجل في حنق:

- بالتأكيد.. ولا تحاول الإنكار.. لقد رأيت بنفسي تلك الأجنبية الشقراء، وهي تغادر شقتك، منذ ساعة واحدة..

اتسعت عينا (ياسر) عن آخرهما..

- أجنبية شقراء..

ومنذ ساعة واحدة..

وخفق قلبه وسط ضلوعه في قوة..

إذن فقد كان هناك شخص في منزله بالفعل..

شخص أفقده الوعي، وأعاده إلى فراشه، ودفعه –بوسيلة ما– إلى النهوض نصف نائم، وفتح الباب لـ(حسن)..

شخص عبث برواياته، وأبدل الصورة..

هذا هو الدليل..

الدليل الذي يحتاج إليه..

وفي انفعال جارف، وسعادة هائلة، أمسك كتفي صاحب المتجر، وهتف:

- أشكرك يا رجل.. أشكرك كثيرًا.

اتسعت عينا الرجل في دهشة، وهو ينظر في وجه (ياسر)، الذي عاد يصعد إلى شقته، ثم يهبط منها مرة أخرى، حاملًا أسطوانة أكسجين، وزعنفتي أقدام، وضعها في حقيبة سيارته، وهتف بالرجل مرة أخرى:

- لن أنسى جميلك هذا أبدًا.

وعادت عينا الرجل تتسعان في دهشة، و(ياسر) يبتعد بسيارته، ثم لوح بكفه حول رأسه، قائلًا:

- لقد أصيب ذلك المهندس البحري بالجنون.. أصيب به حتمًا.

أما (ياسر)، فقد استعاد ثقته بنفسه كاملة، وهو ينطلق بسيارته غربًا..

كان يعلم جيدًا أن هذا الدليل لا يكفي لإقناع رؤسائه، ولكنه كان كافيًا لإقناعه هو، ودفعه إلى اتخاذ قرار حاسم في هذا الشأن..

سيخوض المعركة وحده..

وسيثبت أنه على حق..

مهما كان الثمن..

انطلق بسيارته، حتى بلغ قاعدة (رأس التين) البحرية، ودار حولها، ليواصل انطلاقه لأربعة كيلو مترات أخرى، قبل أن يتوقف في تلك المنطقة المقفرة..

وفي حماس، تطلع إلى الأمواج الهادئة، التي تضرب الصخور في نعومة، وقال:

- ارتجفي أيتها الأعماق.. لقد وصل (ياسر).

نطقها بكل ما ينبض في عروقه من قوة وحماس، وخيل إليه أن الأعماق قد ارتجفت بالفعل، وأن الأمواج قد صارت أكثر قوة، تضرب الصخور في عنف، فانثنى يخلع ثيابه، ويرتدي أسطوانة الأكسجين، وزعنفتي الأقدام، ثم يغوص في مياه البحر..

عالم آخر ساحر، انتقل إليه في لحظات..

عالم فريد، لا يعرفه إلا من اعتاد الغوص..

واعتاد الأعماق..

وفي خفة تنافس الأسماك، راح (ياسر) يسبح تحت الماء، باحثًا عن تلك الصخرة..

وفي هذه المرة، لاحظ شيئًا عجيبًا بالفعل..

لم تكن هناك أسماك في الأعماق..

كل الأسماك بدت وكأنها قد فرت لسبب ما، وتركت المنطقة كلها خالية، وكأنها تخشى الاقتراب منها..

لهذا لم ينجح في اصطياد سمكة واحدة، عندما جاء إلى هذه المنطقة، في الصباح السابق..

تضاعف حماسه، وتضاعفت ثقته في وجود أمر مريب، مع كل ما يلاحظه من اختلافات بيئية بالمنطقة، وأخذ يبحث عن الصخرة المنشودة في اهتمام بالغ.

وأخيرًا لمحها..

بدت من بعيد، كتلة صخرية واحدة ضخمة، نبتت فوقها بعض الطحالب، والأعشاب البحرية الأخرى، فسبح نحوها في اهتمام، حتى بلغها، ثم مد يده يلتقط بعض الأعشاب..

وابتسم في ظفر..

لقد صح ما توقعه، فلم تكن الأعشاب كائنات بحرية حقيقية، بل كانت مجرد نباتات وأعشاب صناعية، تم وضعها هنا للتمويه..

وملمس الصخرة نفسها لا يشبه ملمس الصخور الحقيقية..

كانت مصنوعة من مادة أشبه بالبلاستيك، أو باللدائن الصناعية، تجمع بين الليونة والصلابة، في مزيج عجيب، لم يألف مثله من قبل..

وفي أعماقه انطلقت صيحة ظفر قوية..

ها هو ذا أقوى دليل، يمكنه الحصول عليه..

ها هو ذا..

توقفت أفكاره فجأة، وهو يحدق في ذلك الشيء الضخم، الذي خرج من خلف الصخرة..

لقد كان ذلك الشيء وحشًا..

وحشًا أسطوريًا هائلًا..

☆ ☆ ☆

اتسعت عينا (ياسر)، في رعب وذهول، وهو يحدق في ذلك الوحش البحري الرهيب، الذي خرج من خلف الصخرة كثعبان هائل، له عينان في لون الدم، وأنياب كسارية مركب صيد..

وسبح (ياسر) بكل قوته متراجعًا، والوحش يتموج في بطء، متجهًا إليه مباشرة..

وكان من الواضح أنه يستطيع افتراسه بحركة واحدة..

ولم يكن من الممكن أبدًا أن يواجهه (ياسر)؛ لذا فقد استدار في سرعة، وراح يضرب بقدميه وذراعيه، محاولًا الابتعاد بأقصى سرعة..

وخُيل إليه أنه قد قطع نصف البحر، في دهر كامل، قبل أن يستدير ليلقى نظرة مذعورة خلفه، بحثًا عن ذلك الوحش..

ولكن الوحش لم يكن هناك..

بل لم يكن هناك أدنى أثر لوجوده..

كانت الصخرة قابعة في مكانها، وفوقها تلك الأعشاب والطحالب الصناعية، والماء من حولها هادئ ساكن، لا أثر فيه لوحش أو خلافه..

وتوقف (ياسر) تحت الماء في دهشة..

- هذا ليس حلمًا حتمًا..

إنه لم يعد يؤمن حتى بعالم الأحلام هذا..

لقد رأى هذا الوحش..

لم يكن واهمًا..

تردد لحظة، ثم عاد يسبح مرة أخرى نحو الصخرة، ولكن في حذر أكثر هذه المرة..

ولكن فجأة ظهر الوحش إلى جواره..

لم يشعر بقدومه قط..

بل ولم يشعر حتى بحركته في الماء..

كان ما حدث هو أن وجده أمامه بغتة، كما لو كان قد برز من العدم..

ورأى الأسنان الهائلة على مقربة منه..

والفك الشبيه بكهف واسع عميق..

والعينين الحمراوين بلون الدم..

ومع الارتجافة الهائلة، التي سرت في جسده كله، انطلق (ياسر) يسبح بكل قواه، محاولًا الفرار من الأنياب القاتلة..

وفي هذه المرة لم يتوقف..

ولم يلتفت خلفه..

في هذه المرة راح يسبح بكل قوته، ويحرك ساقيه كمروحه هائلة، وهو ينطلق نحو الشاطئ..

وعندما بلغ منطقة ضحلة، خلع حذائي الغوص، وانطلق يعدو والمياه تبلغ وسطه، حتى بلغ الشاطئ الصخري، فقفز فوق الصخور، وانطلق يعدو إلى حيث سيارته، ثم توقف عندها يلهث في قوة، ويلقى نظرة هلع على البحر..

ولكن الوحش لم يكن هناك..

كان كل شيء ساكنًا، هادئًا كالمعتاد..

وارتدى (ياسر) ثيابه في اضطراب كامل، ثم قفز داخل سيارته، وانطلق بها بأقصى سرعة، عائدًا إلى منزله..

لم يصدق أنه نجا من ذلك الوحش الرهيب..

من أنيابه القاتلة، و..

ولكن كيف؟..

وجد نفسه يضغط فرامل سيارته فجأة، ليوقف السيارة على نحو مباغت عنيف، وهي تنطلق في طريق الكورنيش..

ومن خلفه سمع صرير إطارات السيارات، والأبواق الغاضبة لهذا التوقف المفاجئ، فلوح بيده معتذرًا، وتجاهل عبارات السخط والسباب، التي انهالت على أذنيه، وهو يتجه بسيارته في بطء إلى جانب الطريق، ويوقفها..

كان عقله يلتهب بسؤال واحد..

كيف نجا من ذلك الوحش؟..

إنه يعلم تمامًا أن سرعة سباحته تحت الماء، لن تفوق حتمًا سرعة كائن بحري من نفس حجمه، مهما بلغت مهارته هو في هذا المضمار..

فكيف بوحش هائل الحجم، كذلك الذي رآه في الأعماق؟..

لقد كان ذلك الوحش قادرًا على افتراسه في لحظة واحدة، فلماذا تركه يهرب؟..

بدا له ذلك الأمر عجيبًا، منافيًا للمنطق الطبيعي، فعقد حاجبيه مفكرًا فيه بعمق، قبل أن يهتف:

- آه.. هذا هو التفسير المنطقي.

تفجر داخله حماس ظافر جديد، وهو يستطرد متحدثًا إلى نفسه:

- هذا بالضبط ما يحدث في روايات الخيال العلمي.. صورة هولوجرافية مجسمة.. نعم.. ذلك الوحش لم يكن سوى صورة هولوجرافية ثلاثية الأبعاد، أطلقها هؤلاء الذين يختفون خلف الصخرة، لإرهابي وإبعادي عنهم.. هذا هو التفسير المنطقي الوحيد بالفعل، لهذا كان الوحش يظهر فجأة، دون أن يهتز الماء من حوله، ولهذا أيضًا لم يحاول افتراسي، لأنه لم يكن يستطيع افتراسي أبدًا.. إنه مجرد صورة.. صورة هولوجرافية.

أسعده توصله إلى ذلك، فأدار محرك سيارته مرة أخرى، وفكر في العودة إلى المنطقة المقفرة، والغوص مرة أخرى إلى الأعماق، لتحدي ذلك الوحش، ولكنه رأى الشمس تميل إلى الغروب، فغمغم:

- فليكن.. سنلتقي مرة أخرى، مع أول أضواء الفجر.

قالها وانطلق بسيارته، عائدًا إلى منزله، وهو يشعر بسعادة ظافرة، تموج في أعماقه، وتدفع مزيدًا من دماء الحماس في عروقه، حتى بلغ المنزل، فأوقف سيارته على مسافة كبيرة من المتجر، وغادرها ملوحًا بكفه لصاحب المتجر في مرح، ولكن الرجل أشاح بوجهه عنه، وهو يبسمل ويحوقل، فتجاهله (ياسر) تمامًا، وصعد إلى شقته في حماس، وفتح بابها وهو يطلق من بين شفتيه صفيرًا مرحًا، ومد يده ليضيء الردهة، و..

وتراجع فجأة كالمصعوق.. واتسعت عيناه عن آخرهما.. فعلى ضوء الردهة، رآها أمامه..

رأى تلك الأجنبية الشقراء الشاحبة، وسمعها تقول في هدوء شديد:

- مساء الخير أيها المقدم (ياسر).

وكانت المفاجأة الثالثة.

☆ ☆ ☆

4- الخيال..

مضت دقيقة كاملة من الصمت، و(ياسر) يحدّق في وجه الشقراء في ذهول، قبل أن يهتف:

- ولكن.. ولكنك مصرية.

قالت الشقراء في هدوء:

- لا أيها المقدم.. لست مصرية.

لوح بكفه، هاتفًا:

- لن يمكنك خداعي.. أنت مصرية.. لن أخطئ لغتك ولهجتك قط.

هزت كتفيها، قائلة في هدوء:

- كما يحلو لك.

قال في حدة، وهو يشير إلى الباب:

- كيف دخلت إلى هنا؟

ألقت نظرة لا مبالية على الباب، وأجابت:

- الأبواب لا تقف حائلًا بيننا وبين ما نريد.

قال في صرامة:

- بالطبع.. كل اللصوص والجواسيس يمكنهم عبور الأبواب في سهولة.. لقد كنتِ أنتِ التي تسللتِ إلى هنا، في المرة السابقة، وأبدلتِ الصورة، بعد إفقادي وعيي.. أليس كذلك؟

أجابته في بساطة أدهشته:

- بلى.. هذا صحيح.

هتف:

- إذن فأنت تعترفين.

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت:

- لا يمكنني الكذب.

حدق في وجهها مرة أخرى في دهشة، قبل أن يقول:

- لا يمكنك ماذا؟

أجابته في هدوء مدهش:

- لا يمكنني الكذب، أو الخيانة، أو الغدر.. قومي كلهم لا يمكنهم هذا، فنحن نحيا في عالمنا وفق قانون خاص، يحكم العلاقة بين الجميع، في إطار من الصدق والإخلاص والعدل وحسن الجوار.. هذا هو عالمنا.

ردد (ياسر) مبهورًا:

- عالمكم؟!

كانت وكأنها تطرح أمامه نفس الصورة، التي تراود أحلامه منذ صباه..

صورة (يوتوبيا)، المدينة الفاضلة، التي تمنى دائمًا العيش فيها..

مدينة الصدق والسلام والأمان والعدل..

ولكن لا..

«مستحيل أن يكون هذا حقيقيًا..»

هتف بالعبارة في وجه الشقراء، التي ابتسمت قائلة:

- لو أنك تتحدث عن هذا العالم، الذي تحيا فيه، فأنت على حق.. من المستحيل أن يوجد مجتمع كهذا في عالمك، أما في عالمنا فالأمر يختلف.. إننا مجتمع مغلق محدود، لا وجود فيه لأية تعاملات مالية، فكل شخص يحصل على ما يريد، وقتما يريد، مما لا يدع مجالًا للأطماع أو الطموحات الشريرة.. وعندنا لا توجد صراعات، أو حروب.. بل يوجد مجتمع واحد، يحيا في سلام دائم، ويحكمه مجلس العلماء والحكماء، في عدل مطلق، وبديموقراطية لا حدود لها، يحترم فيها كل شخص حقوق الآخرين، ولا يستطيع فيها أحد الحكّام إيذاء أضعف المحكومين، لو أن هذا يتجاوز القانون والدين والدستور.

استمع إليها (ياسر) لحظات كالحالم، ثم لم يلبث عقله أن نفض كل هذا، وهو يهتف:

- أي قول عجيب هذا؟.. تتحدثين كما لو أنكم لا تعيشون على سطح الأرض.

أجابته في هدوء:

- هذا صحيح.. إننا لا نحيا على سطح الأرض.

ابتسم في سخرية، وقال:

- لا تقولي: إنكم من كوكب آخر، فلقد سئمت هذا، في روايات الخيال العلمي.

هزت رأسها نفيًا، وقالت:

- لا أيها المقدم (ياسر).. لسنا نحيا في كوكب آخر.. إننا ننتمي إلى كوكب الأرض.. وربما قبل أن ينتمي شعبك إليه، ولكننا لا نحيا على سطحه.

سألها في تردد وشك:

- أين تعيشون إذن؟

أشارت بيدها إشارة مبهمة، وهي تقول:

- هناك.. في الأعماق.

ردد مبهورًا:

- في الأعماق؟!

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت:

- نعم.. إننا نحيا هناك، في الأعماق السحيقة.. هناك تستقر مدينتنا العظيمة، منذ عشرات القرون، تحت قبة زجاجية هائلة، تنمو داخلها حضارتنا وتتطور، دون أن نتدخل في شئون العالم الخارجي، أو نسمح له بالتدخل في شئوننا.

تهدج صوته، وتلاحقت أنفاسه، وهو يسألها:

- ومن أنتم بالضبط؟

أجابته في هدوء، وإن حمل صوتها رنة فخر واضحة:

- إننا أهل القارة المفقودة.

تراجع هاتفًا في انبهار:

- (أتلاتنس)؟!

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت:

- نعم.. نحن أهل (أتلاتنس)، التي تبذلون أقصى جهدكم للعثور عليها.

اتسعت عيناه في انبهار كامل، وهو يقول:

- إذن فقد كان (أفلاطون) على حق.. (أتلاتنس) حقيقة.

أجابته:

- لم يذكر (أفلاطون) الحقيقة كلها، لأنه لم يكن يعلم سوى النذر اليسير منها، مما نقله عن قدماء المصريين.. لقد كنا قارة عظيمة بالفعل.. بين (إفريقيا) والأمريكتين، وكنا نعلم أن قارتنا تتعرض لعوامل جيولوجية رهيبة، ستؤدي حتمًا إلى كارثة، تغرق القارة كلها في أعماق المحيط، فدأب علماؤنا على دراسة الأمر،

ووضع بعض الحلول المنطقية له، ونادى بعضهم بالحل الأسهل، ألا وهو الهجرة إلى قارات أخرى، قبل غرق قارتنا العظيمة، ولكن البعض الآخر رفض الهجرة تمامًا، ورفض فكرة التخلي عن حضارتنا، التي كانت تفوق –آنذاك– حضارة الأرض كلها، ومن هنا جاءت فكرة القبة، قبة زجاجية هائلة، من زجاج خاص، يقاوم عوامل الضغط بعشرة أضعاف قدرة الفولاذ، وبدأ العلماء في وضع وسائل التعايش في قاع المحيط، فصنعوا أجهزة توليد الأكسجين من مياه البحر، ومزارع الأسماك، والأعشاب البحرية.. بل وصنعوا بديلًا صناعيًا للشمس، يمنح أطفالنا ما يحتاجون إليه من فيتامين (دال)، الذي تكونه أشعة الشمس في الأجسام، ويمنح مزارعنا ما تحتاج إليه من ضوء، للقيام بعمليات التمثيل الضوئي، التي لا غني عنها لنمو أي نبات..

صمتت لحظة، لتراقب أثر الانفعال الشديد على وجهه، قبل أن تتابع في صوت هادئ خافت، بدا له وكأنه شرح تسجيلي لمشاهد يرسمها خياله:

وحدثت الكارثة، وغرقت (أتلاتنس) في قاع المحيط، ولكن القبة الزجاجية القوية كانت تحميها تمامًا، فغاصت إلى الأعماق في هدوء، واستقرت على عمق لم يبلغه بشري حتى الآن، لتحيا قرونًا أخرى في عزلتها الاختيارية، بعيدًا عن المجتمع الأرضي، بكل صراعاته وحروبه.. وطوال هذه القرون، دأب حكامنا على إرسال بعثات منتظمة إلى السطح، لدراسة تطور سكان الأرض، والتغير في لغاتهم ولهجاتهم، والمدى الذي تبلغه علومهم، بحيث نفيد من أي تطور يبلغونه، دون أن نتدخل في صراعاتهم، أو نؤذيهم، حفاظًا على روح السلام والعدل في أعماقنا.

صمتت لحظة واحدة، قبل أن تضيف:

- وهذه الذبذبات، التي التقطها جهازك صباح أمس، كانت تخص إحدى بعثاتنا، الخاصة بدراسة تطور الشعوب العربية.

قال في خفوت:

- كانت نداء استغاثة.

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت:

- هذا صحيح، فلقد تسبب حادث غير متوقع في وقوع غواصتنا في مأزق، بحيث انحشرت بين الصخور، ولم تستطيع العودة، بعد أن التقطتنا من تلك المنطقة، التي اخترناها لبعدها عن العمران، واخترتها أنت بالمصادفة للصيد، ولاختبارك جهازك الجديد.

سألها في اهتمام:

- ولماذا التقط جهازي وحده هذا النداء؟.. لماذا لم تلتقطه أجهزة القاعدة؟

أجابته بنفس الهدوء:

- لأننا لا نستخدم أسلوبًا تقليديًا، وإنما نستخدم ترددات خاصة، المفروض أن يلتقطها قسم الطوارئ بمدينتنا، فيرسل غواصة إنقاذ خاصة، لإخراجنا من ورطتنا، ولكن جهازك كان مصابًا بخلل في شدة التردد، جعله يلتقط النداء الخاص، وجعلك تثير تلك الزوبعة، التي أحاطتنا بالمدمرات ودوريات الحراسة، وجعلت رجال الضفادع البشرية يحومون حولنا، مما اضطرنا إلى إحاطة الغواصة بذلك الغلاف الخداعي، الشبيه بالصخور، ولكنك كشفت هذا أيضًا، مما اضطرنا إلى إبدال الصورة، وإضافة الأعشاب الصناعية إلى الصخور.

سألها في توتر:

- وكيف علمتم أنني كشفت هذا؟

أجابته:

- لم نعلم أنك كشفته، وإنما قدرنا أنك ستفعل حتمًا، فلدينا بعض العيون في كل مكان، من أبناء شعبنا، الذين يتعايشون مع معظم المجتمعات الأرضية، كما لو كانوا جزءًا منها، ولقد أخبرنا أحدهم أنك شديد الاهتمام بالأمر، وأنك تفحص الصور أكثر من مرة، بل وأنك قد حملتها معك إلى منزلك، وكان من الضروري أن نتخذ احتياطنا.

سألها وانفعاله يتصاعد:

- وكيف جعلتموني أسير أثناء نومي؟

أجابت بوجه جامد الملامح، وصوت بالغ الهدوء:

- ذلك العقار، الذي حقنتك به في عنقك، يلغي إرادتك تمامًا، ويجعلك تطيع كل ما آمرك به، ولقد دفعتك إلى فتح الباب لـ(حسن)، وأنت نصف نائم، حتى يجد هو في ذلك تفسيرًا، لكل ما تخبره به بعدها.

تراجع مغمغمًا:

- يا للدهاء!

قالت في لهجة أقرب إلى الخجل والاعتذار:

- كنا نحافظ على سرية وجودنا، ونحمي حضارتنا ومجتمعنا فحسب.

صمت لحظات، وهو يتطلع إليها في شك، ثم قال في حزم:

- لست أصدق حرفًا واحدًا مما قلت.

تنهدت قائلة:

- لا يمكنني إجبارك على التصديق.

اندفع يقول في حدة:

- هناك ثغرة ضخمة في قصتك، لم تنتبهي إليها.. إنك تدعين أنكم أصحاب حضارة بالغة القدم، تواصل تقدمها منذ عشرات القرون، فكيف تقفون عاجزين أمام انحشار غواصتكم بين الصخور، في حين أن أي مهندس غواصات مبتدئ يستطيع إخراجكم من هذا.

أجابته على الفور:

- هذه هي المشكلة.

وبدا صوتها أكثر عمقًا، وهي تضيف:

- لقد فقدنا مهندس غواصتنا.

سألها.

- كيف؟

أجابت في لهجة يغلب عليها الحزن:

- مات.. توفى فجأة، بعد وصلنا إلى هنا.. أزمة قلبية عادية، لم تكن في الحسبان.. ومع وفاته أصابنا الارتباك، وحاولنا أن نرسو بالغواصة هنا، فانحشرنا بين الصخور، ولا يوجد بيننا من يمكنه إخراجها من هذا المأزق، ثم أن تلك الزوبعة التي أثرتها أنت بشأننا، منعتنا من إرسال نداء استغاثة آخر، خشية أن تلتقطه الدوريات المحيطة بنا، فينكشف سرنا، كما أننا لم نعد نمتلك

الأكسجين الكافي، للبقاء تحت سطح الماء، إلا ليوم واحد، وبعدها سنضطر لمغادرة الغواصة، والصعود إلى السطح، والاستسلام إلى قواتكم البحرية، فينكشف أمرنا، ويضيع كل شيء.

قال متوترًا:

- ولكنك كشفت الأمر لي بالفعل.

أطرقت بوجهها أرضًا، وقالت:

- كان هذا آخر حل في جعبتنا.

ردد في ريبه:

- آخر حل!

رفعت وجهها إليه، وقالت:

- نعم أيها المقدم (ياسر).. إننا نعرض عليك الانضمام إلينا.

هتف في دهشة بالغة:

- الانضمام إليكم؟!

أجابته في حسم:

- نعم أيها المهندس.. إننا نعرض عليك أن نحيا في ذلك العالم، الذي تحلم به منذ زمن طويل.. في المدينة الفاضلة، حيث لا كذب، ولا خيانة، ولا قتل، ولا سرقة.. المدينة التي تحيا بالصدق، والعدل، والسلام، والأمان.. لقد قرأت مذكراتك هنا، وعلمت أن هذا هو حلم حياتك، ولقد نقلت هذا إلى قبطان الغواصة، واتخذنا جميعًا هذا القرار.. إننا سنمنحك مالم نمنحه

لأرضي آخر، منذ عشرات القرون.. سنمنحك فرصة تحقيق حلمك، والانضمام إلينا.

خفق قلبه في قوة..

إنه حلم حياته بالفعل..

حلم أصبح من الممكن أن يتحول إلى حقيقة..

لم يعد يفصله عن هذا سوى كلمة..

كلمة واحدة..

ولكن ما الثمن؟..

ما ثمن تحويل هذا الحلم إلى حقيقة؟..

ما الذي يريدونه منه بالضبط؟..

سألها في توتر بلغ ذروته:

- وما المقابل؟

أجابته:

- إننا نحتاج إليك.

غمغم:

- كشخص؟

أجابته في حسم:

- بل كمهندس غواصات.. إننا نحتاج إلى خبرتك، لإخراج غواصتنا من هذا المأزق، مقابل منحك فرصة العيش معنا في مدينتنا، وتحقيق حلم حياتك.

ران الصمت عليهما لحظات، وهو يفكر في هذا العرض..

إذن فهذا الثمن..

ثمن الحلم..

وسألها في اهتمام:

- وماذا بعد خروج غواصتكم من هذا المأزق؟.. ستلتقطكم دوريات الحراسة البحرية حتمًا، عندما تتحرك الغواصة، وسيلقون القبض عليكم، أو ينسفون غواصتكم.

قالت مبتسمة:

- اطمئن.. غواصتنا تمتلك القدرة على الانطلاق بسرعات مذهلة، لا يمكنكم تصورها هنا.

قال:

- وعلى الرغم من هذا، فهي تعجز عن الخروج من بعض الصخور!

هزت كتفيها، قائلة:

- هذا أمر مختلف، فالمشكلة هنا هي الخروج من المأزق، دون الكشف عن وجودنا.

غمغم:

- فهمت.

تركته لصمته بعض الوقت، قبل أن تسأله:

- ما قولك؟

رفع عينيه إليها، وقال:

- ومتى يمكنني البدء؟

تهللت أساريرها، وهي تقول:

- أيعني هذا موافقة ضمنية؟

أجاب في حسم:

- قلت متى يمكنني البدء؟

تنهدت في ارتياح، وهي تقول:

- بعد ساعة واحدة.. سأنتظرك في المنطقة نفسها، ونذهب معًا إلى الغواصة.

قال في حزم:

- اتفقنا.

وكان هذا أخطر القرارات التي اتخذها في حياته..

أخطرها على الإطلاق.

☆ ☆ ☆

5- الأعماق..

كانت عقارب الساعة تشير إلى مرور ساعة كاملة بالضبط، عندما ظهرت سيارة (ياسر)، عند المنطقة المقفرة، وهي تسير مطفأة الأنوار، حتى لا تثير انتباه دوريات السواحل، وتوقفت على مقربة من الشقراء، التي استقبلت (ياسر) في حرارة، وهي تقول، في لهجة تحمل نبرة ارتياح واضحة:

- كنت أعلم أنك ستأتي.

ابتسم ابتسامة هادئة واثقة، وهو يقول:

- لقد وعدت.

أخرج من سيارته حقيبة صغيرة، مستطردًا:

- أحضرت بعض الثياب، وعددًا من روايات الخيال العلمي الجديدة.

تمتمت:

- سنحضر لك أي عدد تشاء منها.

سألها وهو يدير عينيه حوله:

- لماذا لا ترتدين حلة الغوص؟.. لقد أحضرت أدواتي الخاصة معي، ولكنني أشعر بالقلق، وأتساءل عن الوسيلة، التي سيمكننا بها بلوغ الغواصة في الظلام، فأي ضوء تحت الماء سيثير انتباه دوريات الشواطئ، و..

قاطعته في هدوء:

- لا داع لكل هذا.

قادته في بساطة إلى الشاطئ الصخري، وأشارت إلى جسم صغير، يستقر بين الصخور، قائلة:

لقد أحضرت غواصة شخصية صغيرة، تتسع لكلينا.

ألقى نظرة اهتمام على الغواصة الصغيرة، قبل أن تدعوه إلى ركوبها، فاستقر على أحد مقعديها، ووضع حقيبته خلفه، في حين استقرت هي على المقعد الآخر، خلف عجلة قيادة صغيرة، وأغلقت القبة الزجاجية فوق رأسيهما، ثم أدارت محرك الغواصة الصغيرة، واتجهت بها إلى البحر، لتغوص في صمت وهدوء..

ومع ذلك الظلام، الذي أحاط بهما في الأعماق، قال:

- أحذرك مرة أخرى من أية أضواء.

قالت مبتسمة:

- اطمئن.

قالتها وضغطت على زر صغير، فسرى ضوء أحمر باهت في القبة الزجاجية، قبل أن تتضح صورة الأعماق تمامًا، أمام عيني (ياسر)، الذي قال:

- إنها أشعة تحت الحمراء، للرؤية في الظلام.. أليس كذلك؟

ابتسمت قائلة:

- إنها هي..

ران عليهما الصمت لحظات، والغواصة الصغيرة تسبح في الأعماق، التي بدت أمام عيني (ياسر) حمراء باهتة، حتى ظهرت الصخرة الضخمة، من بعيد، فغمغم (ياسر):

- لقد وصلنا.

ابتسمت الشقراء، دون أن تضيف شيئًا، واقتربت الغواصة أكثر وأكثر من الصخرة الصناعية الكبيرة، حتى أصبحت على قيد أمتار منها، فضغطت الفتاة زرًا آخر، انزاحت إثره الصخرة، لتكشف عن غواصة أشبه بسيجار ضخم، لها قبة زجاجية سميكة، اتجهت إليها الفتاة بالغواصة الصغيرة، وهي تقول:

- يبدو أنني أميل إليك.

التفت إليها (ياسر) في دهشة، وقد باغته قولها، الذي لا يتناسب أبدًا مع الموقف، ووجد نفسه يقول في لهفة:

- تميلين إلى؟!.. أنت؟

أومأت برأسها إيجابًا، وهي تقول في بساطة:

- نعم.. إنك من الطراز الذي أفضله تمامًا، فأنت ذكي، مثقف، صادق، وبسيط.. أنت حلم حياتي بالفعل.

هتف مبهورًا:

- يا إلهي!.. كيف قلت هذا؟

أجابته في بساطة:

- إنني أشعر به، فلماذا لا أقوله؟

أجاب وهو يلاحظ تلك القاعة، التي تسبح إليها الغواصة الصغيرة:

- إنه قول منطقي، ولكنه ليس واقعيًا، فلقد اعتدنا أن تكتم النساء مشاعرهن.

ابتسمت قائلة:

هذا يحدث في مجتمعك فحسب، أما عندنا فكل شيء يتم في بساطة تامة.. حتى التصريح بالمشاعر.

وألقت نظرة سريعة عليه، وهي تستقر بالغواصة وسط القاعة المغمورة بالمياه، مستطردة:

- ولو أنك تمتلك المشاعر نفسها نحوي، فسنكون زوجين سعيدين في (أتلاتنس).

تطلع إليها مبهورًا بصراحتها المطلقة..

وبفتنتها الطاغية..

كانت أول مرة ينتبه فيها إلى كل هذا السحر، الكامن في ملامحها.. إنها –بالفعل– أجمل فتاة رآها في حياته كلها..

أجمل حتى من نجمات السينما، اللاتي نلن شهرة واسعة لجمالهن..

وخفق قلبه في انفعال..

أمن الممكن أن تقع مثلها من حبه بالفعل؟..

ألقى على نفسه السؤال، دون أن يبحث –جديًا– عن الجواب، فقد لفت انتباهه أمر آخر؛ إذ انخفض منسوب المياه في سرعة، داخل القاعة، حتى أصبحت الغواصة الصغيرة مستقرة داخل قاعة خالية، ثم انفتح باب في نهاية القاعة، تقدم منه شخص هادئ وقور رصين، يرتدي ثوبًا أصفر اللون، من قطعة واحدة، ويحمل على كتفيه خطوطًا ذهبية اللون، تشير حتمًا إلى رتبته، إذ وقفت الفتاة أمامه في احترام بالغ، بعد مغادرتها الغواصة مع (ياسر)، وقالت:

- تمت المهمة أيها القائد.

أومأ الرجل برأسه إيجابًا، والتفت إلى (ياسر)، ونطق عبارة ما، بلغة لم يفهم منها هذا الأخير حرفًا واحدًا، فأسرعت الفتاة تترجمها قائلة:

- إنه يرحب بك، على متن غواصتنا.

سألها (ياسر) في دهشة:

- ألا تتحدثون العربية جميعًا؟

هزت رأسها نفيًا، وقالت:

- أنا وثلاثة من الرفاق فحسب نتحدث العربية، وباللهجة المصرية، فنحن طاقم المتابعة الأرضي، أما الباقون فهم لقيادة الغواصة فحسب، وعملهم لا يحتاج إلى معرفة لغات أخرى.

انتهت من حديثها ثم راحت تعيده إلى القائد بلغتهم، وهو يستمع إليها في اهتمام، ثم تحدث معا بعض الوقت، فالتفتت إلى (ياسر)، قائلة:

- القائد يسأل عما إذا كنت مستعدًا للمعاونة.

أجابها (ياسر):

- أخبريه أنني مستعد لبدء العمل على الفور.

ترجمت الفتاة العبارة إلى القائد، فتحرك جانبًا، ودعا (ياسر) للسير معه، ليغادر الجميع القاعة، ويسيرون في ممر واسع طويل، مال (ياسر) خلاله على أذن الفتاة، وسألها:

- ما اسمك؟.. أتتصورين أنني لم أعرفه، حتى هذه اللحظة:

ابتسمت قائلة:

- (روزيانا).. إنه اسم غريب بالنسبة للعرب، ولكنه يعني في لغتنا (زهرة البحار).

ابتسم قائلًا:

- إنه يناسبك تمامًا.

بدا من الواضح أن عبارته قد أبهجتها، وإن لم يثر هذا اهتمامه كثيرًا، إذ بلغ معها ومع القائد حجرة الآلات، التي تشبه إلى حد كبير حجرة التحكم، في الغواصات المصرية، وقالت (روزيانا):

- هل يمكنك التعامل مع أجهزتنا؟

ألقى (ياسر) نظرة طويلة على الأجهزة، ثم قال في ثقة:

- بالطبع.

اتجه إلى أجهزة الاتزان، وأضاء شاشة أشبه بشاشات الكمبيوتر، ارتسمت عليها صورة الغواصة، في موضعها الحالي، وراح يدرس موقفها، ويجري حساباته بشأنها، ثم تراجع يلقي نظرة طويلة على شاشة الجهاز، قبل أن يقول:

- أريد معاونة.

أجابته (روزيانا):

- كلنا رهن إشارتك.

قال في هدوء:

- أريد معرفة أسماء هذه الأجهزة ووظائفها، كما أريد من يترجم أوامري إلى طاقم القيادة.

نقلت رغبته إلى القائد، فأشار إليها بمعاونته على الفور، وهنا راحت تترجم له كل ما يراه على الأجهزة، من عبارات بلغة بلادها، وهو يستمع إليها في اهتمام، قبل أن يسألها:

- أين الجهاز الذي استخدمتموه، لنقل نداء الاستغاثة إذن؟

أشارت إلى جهاز صغير، قائلة:

- ها هو ذا.

تطلع إليه في اهتمام، ثم ابتسم قائلًا:

- لست أظنكم تحتاجون إليه بعد الآن.

ثم انهمك في التعامل مع الأجهزة الأخرى، ونقل أوامره إلى طاقم القيادة..

وكان بارعًا في عمله بالفعل..

لقد استغرق ما يقرب من الساعة، في إلقاء أوامره للطاقم، بتفريغ أحد خزانات المياه، وملء خزان آخر، وتشغيل أحد المحركات، ثم إيقافه، وتشغيل محرك آخر، وهكذا..

وفي كل مرة كان يعيد ضبط اتزان الغواصة، في مهارة منقطعة النظير..

وتابع قبطان الغواصة عمله في اهتمام وإعجاب، وأدرك أنه أمام مهندس غواصات لا يشق له غبار، وأن دولته ستربح الكثير من عمله هذا..

وأخيرًا بدأت الغواصة تتحرك في بطء..

وفي نعومة مدهشة، أخذت تخرج من سجنها بين الصخور..

ولم تمض ربع ساعة أخرى، حتى كان الجميع يهتفون تحية لـ(ياسر)..

لقد نجح..

نجح وأخرج الغواصة من مأزقها..

وفي حرارة، هتف القبطان بعبارة، ترجمتها (روزيانا)، هاتفة في سعادة جمة:

- أنت رائع.. هذا رأي الجميع.. إننا ندين لك بنجاتنا من هذا المأزق.

ابتسم (ياسر)، وهو يقول:

- ولكنني لم أنته من عملي بعد.

سألته في لهفة:

- ماذا تبقى؟

مد يده يضغط زر جهاز الإشارة، وهو يقول في حزم:

- هذا.

تراجع الجميع في دهشة، وهتفت (روزيانا) في ذعر:

- ماذا فعلت؟

أجابها في هدوء:

- لا شيء يا عزيزتي (روزيانا).. فقط أطلقت نداء الاستغاثة مرة أخرى.

صاح القبطان بعبارة ما، وهتفت (روزيانا):

- ولكن لماذا؟.. لماذا فعلت هذا؟

اندفعت محاولة إيقاف الإشارة، ولكن (ياسر) دفعها بعيدًا عن الجهاز، وهو يهتف في صرامة شديدة:

- حذار أن يوقفه أحدكم.

أشار القبطان إلى رجاله، وهو يلقي إليهم أمرًا ما بلغته الغريبة، وحاول بعضهم القفز نحو الجهاز، وإيقاف إشارته، ولكن الجميع فوجئوا بـ(ياسر) يتراجع في حركة حادة، ثم يخرج من جيبه مسدسًا، من طراز سريع الطلقات، ويصوبه إليهم، وهو يهتف في لهجة آمرة حازمة، لا تقبل النقاش:

- لقد حذرتكم.

تراجع الجميع في دهشة أقرب إلى الذهول، وهم يحدقون في مسدسه، في حين هتفت (روزيانا) في ارتياع:

- ماذا تفعل يا (ياسر)؟

أجاب في حزم:

- إنني ألقى القبض عليكم جميعًا يا عزيزتي (روزيانا)، ويمكنك ترجمة هذه العبارة إلى قبطانك، بأية لغة تشائين.

- ولكن لماذا؟.. لماذا تلقي القبض علينا؟

فرد قامته في ثقة واعتداد، وجذب إبرة مسدسه، تحفزًا لأي هجوم مفاجئ، وهو يقول في حزم وصرامة:

- لأن خدعتكم لم تنطل عليّ يا عزيزي (روزيانا)، أو أيًا كان اسمك.. لقد أدركت أن قصتك كلها زائفة كاذبة، وأنكم لا تنتمون إلى (أتلاتنس)، ولم تنتموا إليها أبدًا..

وكانت المفاجأة الرابعة..

- ولكنها لم تكن من نصيبه هو هذه المرة..

بل كانت من نصيب أهل (أتلاتنس)..

لو أنهم كذلك بالفعل.

☆ ☆ ☆

6- المفاجأة الأخيرة..

ران الصمت لحظات داخل الغواصة، والجميع يحدقون في وجه (ياسر)، وعلى رأسهم (روزيانا)، التي بدت أقرب إلى البكاء، وهي تقول:

- لماذا يا (ياسر)؟.. لماذا؟

ابتسم في زهو، وهو يقول:

- لأن الحلم كان أجمل من أن يتحقق.. صحيح أنني أحلم دائمًا بالعيش في عالم مثالي، ولكنني لست بالغباء الذي تصورتموه؛ لأصدق وجود مثل هذا العالم في الواقع، كما حاولتم إيهامي.

ثم لوح بالمسدس في وجه (روزيانا)، مستطردًا:

- هيا.. ترجمي كل حرف أنطق به إلى الجميع، فلست أريدهم أن يفقدوا حرفًا واحدًا منه.

بدت كلماتها مغموسة بالدموع، وهي تترجم حديثه إلى القبطان ورجاله، الذين عقدوا حواجبهم في توتر، وهو يتطلعون إلى (ياسر)، الذي تابع في فخر:

- كانت مشاعري ترغب حقًا في تصديق الأمر، ولكن عقلي بحث أمورًا أخرى، كان من الممكن أن تغيب عن قلبي.. لقد تذكرت ذلك العبث، في ترتيب روايات الخيال العلمي، التي أحتفظ بها، ففهمت كل شيء.. فهمت أنكم لستم من أبناء (أتلاتنس)، تلك القارة الأسطورية المفقودة، وأن قصتكم لا تحوي سوى نقطة واحدة حقيقية، وهي الخاصة بمقتل مهندس غواصتكم الأول، وأنتم تتجسسون على سواحلنا.

صمت لحظات، ليمنع (روزيانا) فرصة ترجمة ذلك الجزء من حديثه، ثم واصل قائلًا:

- من الواضح أنكم تنتمون إلى دولة أخرى، وأظنها الاتحاد السوفيتي، فأنا أجهل اللغة التي تتحدثون بها، وأنكم كنتم تتجسسون على سواحلنا، عندما وقعتم في هذا المأزق، وأردتم إرسال نداء استغاثة إلى سفينة من سفنكم، أو إلى غواصة أخرى، عندما التقطت أنا الإشارة مصادفة، فوضعتكم في مأزق أكبر.. ولكن كان لكم جواسيسكم، الذين نقلوا إليكم اهتمامي الشديد بالأمر، وربما أحلامي الخاصة بالعيش في عالم مثالي، فوضعتم هذه الخطة المقعدة، وخاصة عندما عرفتم من تفتيش شقتي أنني أهوى روايات الخيال العلمي، فتصورتم أن وضع خطتكم في قالب شبيه بروايات الخيال العلمي، سيجعلني أقتنع بها تمامًا، وأستخدم خبراتي لإنقاذكم من ورطتكم، فتنجحون في الفرار، بعد نجاحكم في التجسس على دولتي.

غمغمت (روزيانا):

- ألم يقنعك كل ما رأيت؟.. عقار فقدان الإرادة، والصخرة الزائفة، و..

قاطعها ساخرًا:

- كلها وسائل علمية متطورة، تمامًا مثل الصورة الهولوجرافية للوحش، ولكنها ليست معجزات، فكلها أشياء يمكن لدولة كبرى إنتاجها في سهولة.

ألقى عليه القبطان سؤالًا رصينًا، ترجمته (روزيانا)، قائلة:

- من سيتلقى الإشارة؟

ابتسم (ياسر)، قائلًا:

- نصف القوات البحرية على الأقل، من سوء حظكم، فلقد اتصلت بالقيادة، بعد انصراف عزيزتي (روزيانا)، وأخبرتهم بما حدث، ومن حسن الحظ أنهم صدقوني هذه المرة، فطلبت منهم مراقبة المنطقة، التي استقبلتني فيها (روزيانا)، بأجهزة الرؤية الليلية أيضًا، فنحن نمتلك بعضها، ولا ريب أنهم شاهدوني أستقل تلك الغواصة الصغيرة معها، فانتظروا إشارتي؛ لبدء الهجوم الشامل.

ترجمت (روزيانا) الجواب للقبطان، وهي تكاد تبكي، فهز القبطان رأسه في روية، ثم رفع عينيه إلى (ياسر) في صرامة، وأشار إلى (روزيانا) لتترجم حديثه كلمة بكلمة، وهو يقول:

- من المؤسف أن تفكر بهذا الأسلوب أيها المقدم، فربما كان يناسب عالمك، ولكنه لا يناسب أبدًا عالمنا.

هتف (ياسر)، عند هذه النقطة.

- أما زلتم تصرون على مواصلة الخداع؟

ولكن القبطان تابع، متجاهلًا مقاطعته تمامًا:

- إننا لن نخسر سوى سرية وجودنا هنا، على عكس ما تتصور، فقواتكم البحرية كلها لن يمكنها إيقافنا، عندما نبدأ رحلة العودة، ولكننا كنا نتمنى أن نضمك إلى عالمنا، فيتحقق حلم حياتك، ونفيد نحن بخبراتك.

قال (ياسر) في عصبية:

- لن يمكنك مواصلة خداعي مرة أخرى.

ترجمت (روزيانا) العبارة للقبطان، فهز رأسه في أسف، في حين التفتت هي إلى (ياسر)، وقالت والدموع تغرق عينيها:

- لماذا يا (ياسر)؟.. لماذا؟.. لقد أحببتك، على الرغم من الدقائق القليلة، التي قضيناها معًا، وتصورت أن زواجنا سيكون ناجحًا، وفريدًا من نوعه، فلماذا خنتني؟

بدا الاضطراب على هيئة (ياسر) وصوته، وهو يقول:

- لا.. لا تحاولي إقناعي بهذا.. لن يمكنك خداعي مرة أخرى.

بكت في حرارة، وهي تقول:

- يا للخسارة!.. يا للخسارة!

وهنا لمح (ياسر) تلك الفقاعة، التي تسبح في الهواء، متجهة إليه، فالتفت إليها في حركة سريعة، ولكنها انقضت عليه بغتة، وهو يهتف:

- ما هذا الشيء العجيب؟

فوجئ بالفقاعة تبتلعه، كما لو كانت فقاعة صابون ضخمة، ولكنها لم تكد تحتويه داخل جدرانها الكروية، حتى أصبحت صلبة كالفولاذ، شفافة كالزجاج، فاطلق رصاصة على جدراها، صارخًا:

- ابعدوا هذا الشيء عني.

ارتطمت الرصاصة بالجدار، فاحتواها داخل فقاعة أصغر، أوقفت سرعتها تمامًا، قبل أن تنفصل الفقاعة الصغرى، وداخلها الرصاصة، وتسقط تحت قدمي (ياسر)، و(روزيانا) تقول في مرارة، والدموع تغرق وجهها:

- لا تحاول يا (ياسر).. هذه الفقاعة مصنوعة من مادة عجيبة، لن يمكنكم ابتكارها، قبل مائتي عام على الأقل.. يا للخسارة يا (ياسر)!.. يا للخسارة!

ترك مسدسه يسقط من يده، وهو يقول في ارتياع:

- لا.. لا تقولي إنكم من (أتلاتنس) بالفعل.

قالت في ألم:

- وبم يفيد القول الآن؟.. لقد أفسدت كل شيء.. صدقني يا (ياسر).. إنني أذوق الألم لأول مرة في حياتي كلها.

أدرك لحظتها فقط هول ما فعل.

لقد أتى إليه حلم حياته على طبق من فضة، مرصعًا بالماس والزمرد، بين يدي حورية من حوريات الجنة، فحطمه بالشكوك والريبة والتردد..

الآن فقط أدرك تلك المأساة، التي وضع نفسه فيها..

وبكل اللوعة في أعماقه، هتف:

- لا.. لا يا (روزيانا).. لقد أخطأت، ولكنني كنت أتصور أنني على حق.. صدقيني.. كنت أحاول حماية وطني فحسب.

ألقت نظرة على شاشة الراصد، التي تنقل صور المدمرات والغواصات المصرية، التي أحاطت بالمكان، وقالت في مرارة:

- لم تعد هناك فائدة.. لقد خنت يا (ياسر).. خنت وخدعت وتحايلت، وكلها صفات لا تصلح لعالمنا.

وعادت دموعها تنهمر، وهي تقول:

- الوداع يا (ياسر).. الوداع يا أول من أحببت في عمري كله.

هتف محاولًا التشبث بالجدار الزلق:

- لا يا (روزيانا).. لا يمكن أن نفترق هكذا.. لا يمكن ألا أراك مرة ثانية.

تطلعت إليه بعينيها الدامعتين، وهي تقول:

- من يدري يا (ياسر)؟.. من يدرى؟.. ربما سمعت يومًا نداء استغاثة آخر.. من يدري؟

لم تكد تتم عبارتها، حتى أشار القبطان إلى الفقاعة، فارتفعت عن الأرض قليلًا، ثم اندفعت في سرعة عبر الممر الطويل، إلى قاعة الغوص، و(ياسر) يصرخ:

- لا يا (روزيانا).. لا...

ولكن الفقاعة اندفعت به خارج الغواصة..

وأمام عينيه توهجت الغواصة بوهج وردي خافت، ثم انطلقت بغتة بسرعة مذهلة، كما لو كانت سهمًا من نور وردي، يشق الأعماق، ويختفي وسط المياه الممتدة إلى ما لا نهاية، و(ياسر) يصرخ:

- لا.. لا تذهبي.. لا..

ثم أظلم كل شيء أمامه بغتة..

لم يدر ماذا حدث بالضبط، ولكنه وجد نفسه يسبح على سطح الماء بكل قوته، مقاومًا الأمواج والغرق، دون الفقاعة، ومن فوقه صوت يهتف:

- تشبث بطوق النجاة يا (ياسر).. تشبث به.

وجد الطوق الأبيض في متناول يده، فتشبث به في قوة، وترك زملاءه ينتشلونه من الماء، ويرفعونه إلى سطح زورق طوربيد صغير، وسمع صوت صديقه (حسن) يقول:

- حمدًا لله على سلامتك يا (ياسر).. ماذا حدث لتلك الغواصة المعادية؟.. وما خيط الضوء هذا، الذي عبر الأعماق؟

غمغم وهو يشعر بمرارة هائلة في أعماقه:

- لست أدري يا (حسن).. لست أدري.

كان قد قرر في أعماقه ألا يبوح أبدًا بما حدث..

إنه سيحتفظ بالسر لنفسه..

سيحتفظ به إلى الأبد..

وبعد مرور عام كامل على هذه الأحداث، لم يكن قد تنازل عن قراره هذا قط، وكان البعض قد اعتاد رؤيته جالسًا، في تلك المنطقة المقفرة، غرب قاعدة (رأس التين) البحرية، مدليًا خيط قصبة الصيد في المياه، وواضعًا إلى جواره جهازًا يشبه جهاز التسجيل، وقد تدلى منه ميكرفون صغير داخل الماء..

وقلائل هم الذين كانوا يعلمون، أن المهندس (ياسر) لم يعد يهتم كثيرًا بالأسماك، على الرغم من الأعداد الكبيرة منها، التي تلتقطها سنارته..

وما من مخلوق في الدنيا كلها، كان يعلم أن اهتمامه الرئيسي ينصب على ذلك الجهاز الصغير، والميكرفون الغائص في الأعماق، وأن ذهنه لم يعد يحمل سوى صورة (روزيانا)، وحلم المدينة الفاضلة، وهو يجلس في كل إجازاته وأوقات فراغه هناك، على أمل التقاط نداء واحد..

نداء الأعماق.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- النـــــداء..

2- الحيرة..

3- الدليل..

4- الخيال..

5- الأعماق..

6- المفاجأة الأخيرة..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

التجربة الرهيبة

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

..سلسلة كوكتيل 2000

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

قصص العدد

التجربة الرهيبة

1- في قلب الليل..

بدت تلك الفيلا المنعزلة، على مشارف (حلوان)، أشبه بقصر غامض مهجور، وهي تقف وحدها، بحديقتها المقفرة، وسط مساحة خاوية شاسعة، لم تمتد إليها يد العمران بعد، ولولا تلك الأضواء، المنبعثة من نوافذ الطابق الأرضي بها، لما جرؤ مخلوق واحد على الاقتراب منها، خشية أن تكون وكرًا للجن والأشباح..

ولولا ما أحاط بالفيلا، من مظاهر العزاء، في الأيام الأربعين الماضية، لما انتبه أحد إلى وفاة المهندس (ضياء)، زوج ابنة الحاج (رشدي)، صاحب الفيلا..

أما في داخل الفيلا نفسها، فقد كان الحاج وزوجته باديا القلق والانزعاج، عندما راحت ابنتهما (نورا) تجمع ثيابها، في حقيبتها الكبيرة، مصرة على العودة إلى منزلها في (القاهرة)، بعد انقضاء أيام العزاء، لتجتر هناك ذكريات زواجها القصير، الذي لم يكمل عامًا واحدًا من العمر، قبل أن يلقي (ضياء) مصرعه، في حادث سير..

وفي قلق، قال الحاج (رشدي):

- لا يوجد ما يضطرك للعودة الآن يا (نورا).. لقد غربت الشمس، والليلة باردة، ويمكنك البقاء حتى الصباح، حتى يرافقك الدكتور (خالد)، ابن عمتك على الأقل، و..

قاطعته بذلك الحزم، الذي اشتهرت به منذ حداثتها:

- إنها لم تتجاوز الثامنة مساءً بعد يا أبي، ولدي سيارتي الصغيرة، ويمكنني حمل الحقيبة إليها، وسأجد نفسي في منزلي، بعد ساعة واحدة.

هتفت أمها في انزعاج:

- أتحملين الحقيبة بنفسك.. لا يا (نورا).. لا تفعلي هذا.. إنك تحملين جنينًا لم يكتمل بعد.

قالت (نورا)، وهي تغلق حقيبتها في حسم:

- إنني حامل في شهري السابع يا أماه، ويمكنني أن أنجبه الآن.. أليس كذلك؟

قال والدها، محاولًا إثناءها عن الرحيل، في هذا الوقت:

- ولماذا تفعلين؟.. هيا يا ابنتي.. اتركي الحقيبة، و..

قاطعته في انفعال:

- سأرحل الآن يا أبي.

ثم انهمرت الدموع من عينيها، وهي تستطرد:

- كل شيء هنا أصبح يذكرني برحيل (ضياء).. كل مكان يعيد إلى مشهد من أتوا للتعزية، في ثيابهم السوداء، وحزنهم المفتعل.. صدقني يا أبي إنني أحتاج إلى العودة إلى منزلي.. سأصاب بانهيار عصبي، لو بقيت هنا أكثر من هذا.

أدرك الرجل بحكمته، وخبرته الطويلة بالحياة، أن ابنته على وشك الإصابة بهذا الانهيار العصبي بالفعل، فربت على كتفها في حنان، وقال:

- فليكن يا (نورا).. عودي إلى منزلك يا صغيرتي، لو أن هذا ما تريدين بالفعل.

بكت أمها في قلق، عندما حمل الأب حقيبة ابنته، ونقلها إلى سيارتها الصغيرة، وهو يقول في حنان:

- انتبهي للطريق أثناء القيادة، واتصلي بنا فور وصولك، لنطمئن على سلامتك.

طبعت على وجنته قبلة، وهي تقول:

- سأفعل.

احتضنتها أمها، وهي تبكي في حرارة، وغمرت وجهها بالقبلات، وهي تكرر:

- اتصلي فور وصولك يا (نورا).. لا تقلقينا عليك طويلًا يا بنيتي.

كررت (نورا)، وهي تنتزع نفسها في رفق، من ذراعي أمها، وتسرع بالدخول إلى سيارتها:

- سأفعل يا أماه.. صدقيني، سأفعل.

لوحت بكفيها لوالديها، وانطلقت بسيارتها الصغيرة، وحملها المتكور أمامها يكاد يعوق صلتها بعجلة القيادة..

لم تكن تحتمل حقًا البقاء في فيلا والديها..

تلك الفيلا التي التقت فيها بزوجها الراحل (ضياء)، لأول مرة..

الفيلا التي شهدت حبهما، عندما كان مهندسًا مشرفًا على تنسيق ديكوراتها..

نفس الفيلا التي حوت جثمانه، بعد مصرعه في حادث سيارة، وهو يسرع لرؤيتها، بعد عودته من رحلة عمل قصيرة، قضت هي فترتها في الفيلا، تحت رعاية أمها، التي أبت أن تتركها وحدها، وهي تحمل جنينها الأول..

وكم تشعر بالحزن الآن، لأن هذا الطفل سيولد يتيمًا..

استغرقتها الذكريات، وهي تنطلق بسيارتها في شرود، حتى أنها -ودون أن تدري- دخلت طريقًا فرعيًا غير مأهول، بدلًا من أن تواصل سيرها، في الطريق الرئيسي..

وفجأة انتبهت إلى هذا..

انتبهت إليه بسبب الظلام الدامس، الذي يحيط بها من كل صوب، والذي لا يكاد يبدد مصباحا سيارتها شريطًا ضيقًا منه..

وفي حركة مباغتة أوقفت سيارتها، وشعرت بألم في معدتها، عندما ارتطمت بعجلة القيادة، ثم اعتدلت تتلفت حولها في قلق، مغمغة:

- أين وضعت نفسي بالضبط؟

كان من الواضح أنها قد قطعت شوطًا طويلًا، في هذا الطريق؛ إذ أن الظلام كان يمتد حولها إلى آفاق البصر، مما بعث في نفسها الخوف، وجعلها تغمغم في توتر وقلق:

- ليتني أطعت أبي، وبقيت حتى الصباح.

كانت وحدها تعرف السبب الحقيقي، الذي دفعها للعودة في المساء..

إنه (خالد)..

ابن عمتها الدكتور (خالد)..

كان (ضياء) يشعر بالغيرة منه في حياته؛ لأنه كان المرشح للزواج منها، قبل أن تلتقي بـ (ضياء)..

وفي عمر زواجهما القصير، حرصت أشد الحرص، على ألا تلتقي بـ (خالد)، إلا في أضيق الحدود..

ومنذ وفاة (ضياء)، وهي تلتقي به يوميًا، على الرغم منها..

أنه لم يتركها لحظة واحدة، في الأسبوع الأول للوفاة، وحرص على زيارتها كل صباح -بعد هذا- للاطمئنان على شئونها وحالتها النفسية والصحية..

وهي تعلم أنه سيصر على مرافقتها إلى منزلها، لو أنها رحلت في وجوده..

ولهذا تعمدت الرحيل في المساء، بعد انصرافه بساعات..

وفي عمق، أطلقت زفرة حارة، وقالت:

- لا مناص من العودة.. لقد أضعت وقتًا طويلًا هنا..

كانت تهم بالعودة، عندما راودتها فكرة جديدة..

لم لا تواصل سيرها، حتى تبلغ منطقة التقاء هذا الطريق الفرعي، بالطريق الرئيسي؟..

إنها تذكر أنهم يقيمون هذا الطريق كوصلة جانبية، تعود لتلتقي مرة أخرى بطريق (المعادي) الرئيسي، ولقد قطعت شوطًا طويلًا فيه، وستبلغ نهايته حتمًا، بعد وقت قصير..

استعاذت بالله (سبحانه وتعالى)، وواصلت سيرها، عبر الطريق نصف الممهد، وهي توليه انتباهها في شدة، و..

وفجأة توقفت السيارة..

لم تدر لماذا حدث هذا، ولكن المحرك توقف عن العمل بغتة، وخفتت أضواء السيارة كثيرًا، حتى أصبحت مجرد بصيص شاحب أصفر، فهتفت في توتر شديد:

- هذا ما كان ينقصني.

حاولت إدارة المحرك عدة مرات، ولكنه في كل مرة كان يبدو أشبه بالميت، دون أدنى استجابة، في حين تغير لون بصيص الضوء، المنبعث من مصباح السيارة، فبدا برتقاليًا ويميل إلى الحمرة، مما صبغ الحصى القريبة بلون مخيف، ضاعف من شعور (نورا)، بالقلق والتوتر، فهتفت محنقة:

- أنا أستحق كل هذا.. كان ينبغي أن أبقى، والصباح رباح..

انتبهت فجأة إلى الضوء الشاحب، الذي يقترب من بعيد، فانتعش الأمل في قلبها، وهي تقول:

- سيارة! حمدًا لله.. هناك سيارة تقترب.

فتحت باب سيارتها، ووقفت تلوح يكفيها، للمصباحين الباهتين، اللذين يقتربان في سرعة كبيرة، و..

وفجأة بدا ذلك الشيء؟..

واتسعت عيون (نورا) في رعب وذهول..

إنه لم يكن سيارة كما تصورت، بل كان طبقًا..

طبقًا طائرًا..

☆ ☆ ☆

حلم..

من المؤكد أنه حلم..

هذا ما رددته (نورا) لنفسها، وهي تحدق ذاهلة في تلك الجسم الاسطواني المفلطح، الذي تعلوه قبة نصف كروية ضخمة، والذي توقف في الهواء، على بعد أمتار منها، صابغًا المنطقة كلها

بضوء باهت عجيب، يتأرجح ما بين البرتقالي والأخضر، وكأنما يراقبها في اهتمام.

وفي حلقها احتبست صرخة رعب، أطلت من عينيها واضحة، وهي تحاول الفرار، ولكن قدميها تسمرتا في الأرض، وعقلها يرتجف ذعرًا ودهشة وحيرة..

أهو طبق طائر حقًا؟!..

واحد من تلك الأطباق الطائرة، التي تأتي من الفضاء البعيد، والتي قرأت عنها أكثر من مرة..

إنها لم تؤمن أبدًا بوجود مثل هذه الأشياء..

لم تصدق لحظة واحدة أنه توجد في الكون مخلوقات عاقلة أخرى، يمكنها أن تجوب الفضاء، وتصنع الأطباق والسفن الطائرة..

ولكن ها هي ذي أمام أحد الأطباق الطائرة..

لو أنها لا تحلم..

ولثوان تجمد المشهد تمامًا، حتى بدا كصورة فوتوغرافية، يحيط بها إطار من سواد الليل والصمت والقلق والخوف..

وفجأة انبعث ذلك الشعاع من الطبق الطائر..

شعاع بنفسجي، أحاط بجسدها فجأة، وبعث فيه قشعريرة باردة، انتفض لها في عنف، قبل أن تتصارع خلاياها كلها، وتقاتل للخروج من هذا الجسد..

والعجيب أن هذا ما شعرت به بالضبط..

شعرت أن خلاياها تقفز خارج جسدها، في نفس الوقت الذي تحول فيه ذلك الضوء البنفسجي، المحيط بها، إلى ظلام تام، قفز عبره جسدها، كما لو كانت تعبر أنبوبًا مظلمًا عميقًا وطويلًا، و..

وانتهى كل هذا فجأة..

مرة أخرى شعرت وكأن خلاياها تتراص إلى جوار بعضها البعض، لتعيد صنع جسدها، والظلام يتبدد من حولها، ليعود ذلك الضوء البنفسجي، مع فارق واحد..

أنها لم تعد تقف إلى جوار سيارتها..

لقد أصبحت في الداخل..

داخل الطبق الطائر.

☆ ☆ ☆

2- الميلاد..

«مبارك..»

نطق الطبيب هذه الكلمة في ارتياح، وامتزجت حروفها ببكاء الوليد، الذي يستقبل العالم لأول مرة، وسالت دموع التعب والسعادة من عيني (نورا)، وهي تسأله:

- طفل أم طفلة؟

أجابها مبتسمًا:

- طفل ذكر قوي، يزن ثلاثة كيلو جرامات ومائتي جرام بالتمام والكمال.

سألته في تهالك:

- أهو بخير؟

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- حاليًا نعم.. لقد تصورت لدقائق أننا قد فقدناه، والعياذ بالله، فقد أصابه اختناق رحمي، كاد يودي به، ولكنه لم يلبث أن عاد للتنفس، بعد ست دقائق كاملة.

ثم حك رأسه مستطردًا:

والواقع أنها فترة أطول مما ينبغي، حتى لقد تصورنا أنه لن يفعلها أبدًا، ولكن..

عاد يبتسم، ويلوح بكفيه، مستطردًا:

- رحمة الله (سبحانه وتعالى) تسع كل شيء.

اشتاقت لضم ابنها إلى صدرها..

ابن (ضياء)..

الأمل الذي عاش يحلم به، ثم مات دون أن يراه..

ولكن الأطباء منعوها في رفق من هذا، حتى انتهت الممرضات من تنظيف الصغير، ووضعه داخل ثيابه الجديدة، التي تختلف كثيرًا عن ذلك السائل الناعم الرقيق، الذي كان يحيط به في رحم أمه، ثم لم تلبث (نورا) أن التقطته بين ذراعيها، وطبعت قبلة على جبينه، وهي ترقد في حجرتها الخاصة بالمستشفى، وابتسم والدها ابتسامة حانية مشفقة، وهو يربت على كتفها، قائلًا:

- مبارك يا بنيتي.. أي اسم ستطلقينه عليه؟

أجابت في سرعة:

- (تامر).. (تامر ضياء).. لقد اختار (ضياء) الاسم بنفسه، قبل أن.. أن.. تلعثمت، مع الجزء الأخير من العبارة، وترقرقت عيناها بالدموع، فأسرع والدها يخرجها من الموقف، قائلًا:

- جميل اسم (تامر) هذا.. أليس كذلك؟

أجابت أمها في حنان:

- بالتأكيد.

أما ابن عمتها، الدكتور (خالد)، فقد ابتسم ابتسامة هادئة، وهو يقول:

- إنه اسم رائع.

تحاشت النظر إلى (خالد)، واحتوت صغيرها في حنان ورفق، وتصاعد بكاؤه تدريجيًا، فغمغمت:

- يبدو أنه جائع.

تحسست أمها رأس الصغير، قائلة:

- ينبغي إرضاعه من اللحظة الأولى.

اختلست النظر إلى (خالد) في حرج، فقال بسرعة:

- سأضطر لمغادرتكم الآن فلدي بعض الأعمال، في القسم الذي أعمل به، ويمكنكم الاتصال بي هناك، لو احتجتم لأي شيء.

غادر المكان على الفور، وانتظرت (نورا) لحظة، ثم ألقمت وليدها ثديها، وتركته يمتص منه غذاءه في نهم، في حين قال والدها في هدوء:

- مهذب للغاية (خالد) هذا.

قالت الأم مؤيدة، وهي ترمق ابنتها الوحيدة بنظرة جانبية:

- وهو ناجح في عمله، ويعد واحدًا من الأطباء المرموقين، في جراحات المخ والأعصاب، على الرغم من صغر سنه.

أدركت (نورا) ما يرميان إليه، ولكنها تجاهلت الأمر تمامًا، وتركتهما يعدان مآثر (خالد)، دون أن تشاركهما الحديث، وانتظرت حتى شبع طفلها تمامًا، واستسلم للنوم، فقالت:

- كم من الأيام سأبقى هنا؟

أجابها والدها:

- هذه الليلة فحسب، وبعدها سننتقل إلى الفيلا.

قالت في قلق:

- أريد الذهاب إلى منزلي مباشرة.

قالت والدتها معترضة:

- وما الفارق؟.. إننا سنرعاك في الفيلا، و..

قاطعتها في توتر:

- فلنذهب إلى منزلي إذن، ما دام لا يوجد فارق.

تبادل والدها ووالدتها نظرة حائرة قلقة، ثم تنهدت الأم، قائلة:

- فليكن يا (نورا).. سنصحبك إلى منزلك، ما دام هذا يريحك..

قضى الأب معهما بعض الوقت، ثم نهض قائلًا:

- حسنًا يا (نورا).. سأنصرف الآن، وستبقى أمك معك حتى الصباح.

غمغمت (نورا):

- يمكنك أن تصحب أمي أيضًا.. إنني بخير.

ابتسم قائلًا:

- كلا.. ستبقى أمك لرعايتك الليلة.

وهتفت الأم:

- لن أتركك وحدك أبدًا.

ولم تمض نصف الساعة، بعد انصراف الأب، حتى كانت الأم والأبنة قد لحقتا بالوليد، وغرقتا في نوم عميق..

ومضت الليلة هادئة عادية، إلا من أمر واحد، لم ينتبه إليه أحد تقريبًا..

شعاع من الضوء البنفسجي، هبط من بين السحب، واستقر في حجرة (نورا)..

وقد حدث هذا الأمر مرتين.

☆ ☆ ☆

3- لعبة..

انطلقت ضحكة الطفلة الصغيرة (مروة)، ابنة الشقيق الأصغر للحاج (رشدي)، وهي تعدو عبر حديقة الفيلا، التي اكتست ببعض الحشائش القصيرة، وهتفت تنادي الطفل الصغير، الذي تجاوز عامه الأول ببضعة شهور، وراح يسير خلفها متعثرًا:

- أسرع يا (تامر).. أسرع.. سأمنحك بعض الحلوى، لو أمسكتني.

تبعها (تامر) ضاحكًا في براءة، وعبر معها الباب الخلفي للفيلا، إلى حجرة مكتب جده، التي عبرتها (مروة) جريًا، وهي تقول:

- هيا.. أمسك بي.

كان يتبعها في سعادة، عندما جذبت الخزانة المفتوحة انتباهه..

كانت خزانة حديدية ضخمة، أفرغها الجد من محتوياتها منذ قليل، وترك بابها مفتوحًا، ريثما يرحب بشقيقه الأصغر..

وفي فضول وشغف، اقترب (تامر) من الخزانة، وأمسك بابها، وراح يتطلع داخلها في اهتمام، فعادت (مروة) تقول في ضجر:

- هيا يا (تامر).. حاول أن تمسكني.

تجاهلها الصغير، وهو يصعد إلى الخزانة، المستقرة على أرض الغرفة، ثم يجلس داخلها، ويعبث في محتوياتها القليلة الباقية، فهتفت غاضبة:

- (تامر).. لن أمنحك الحلوى.

بدا وكأنه لا يهتم بحديثها مطلقًا، فعقدت ساعديها الصغيرين أمام صدرها، وقالت محنقة:

- حسنًا.. أنا غاضبة..

وغادرت الحجرة في غضب، في حين واصل هو لعبه، واستغرقه هذا الأمر تمامًا، حتى أنه لم يشعر بقدوم الخادمة، التي لم تنتبه إلى وجوده بدورها، فأقدمت على عمل رهيب..

أغلقت باب الخزانة..

وغرق الصغير فجأة في ظلام دامس رهيب..

ولكن العجيب أنه لم يشعر بالخوف..

فقط أسند ظهره لجدار الخزانة، وجلس ينتظر..

وبكل هدوء..

☆ ☆ ☆

«أين (تامر) يا (مروة)؟..»

سألت (نورا) الصغيرة في قلق، عندما انتبهت فجأة إلى أنها تلعب وحدها، داخل حجرة الضيوف، فواصلت (مروة) لعبها، وهي تجيب:

- أنا غاضبة منه، فقد رفض اللعب معي.

سألتها (نورا) في قلق أكثر:

- وأين هو الآن؟

أجابتها الصغيرة بهزة من كتفيها، وهي تقول:

- لست أدري.

هتفت (نورا) في ذعر:

- لست تدرين؟!.. أين ابني؟

أسرعت تعدو كالمجنونة، في أرجاء الفيلا، وفي تهتف باسم ابنها، أسرعت إليها أمها منزعجة، وهي تسألها:

- ماذا حدث؟.. أين (تامر)؟

انهمرت الدموع من عيني (نورا)، وهي تقول:

- لم أجده في أي مكان.. لقد ضاع ولدي.

حاول الأب تهدئتها، وهو يقول:

- سنجده بإذن الله يا بنيتي.. اطمئني.. لا يمكن أن يذهب بعيدًا.

راح الجميع يبحثون عن الطفل، في الفيلا كلها، ثم قال شقيق الوالد في توتر:

- لا يوجد أدنى أثر له.. أخشى أن..

صرخت (نورا):

- أن ماذا؟.. ماذا يمكن أن يحدث؟

ثم استدارت إلى (مروة)، صارخة:

- أين (تامر) يا (مروة)؟

بكت الصغيرة في خوف، وهي تقول:

- لست أدري.. لقد كنا نلعب معًا، عندما تركني، وراح يعبث بالخزانة الكبيرة.

اتسعت عينا الأب في ذعر، وهو يهتف:

- الخزانة.. أية خزانة؟

أجابته (مروة) باكية:

- خزانتك يا عماه.. تركني وراح يلعب داخلها.

صرخت (نورا) في ذعر، وهوت الأم على أقرب مقعد إليها، في حين اندفع الوالد وشقيقه إلى حجرة المكتب، والأب يهتف:

- منذ متى حدث هذا؟

أجابته (مروة)، وهي تنتحب:

- قبل برامج الأطفال بقليل.

هتف مذعورًا:

- أي منذ ساعة كاملة؟!.. رباه!.. الخزانة محكمة الإغلاق، ولن تكفيه كمية الهواء داخلها.

هوي قلب (نورا) بين قدميها، وهي تهتف:

- اختنق؟!.. ابني اختنق.

انفجرت باكية فجأة، وسرت في جسد الوالد قشعريرة باردة، وهو يدير قفل الخزانة بأصابع مرتجفة، وخفق قلبه في عنف، عندما بدأ يفتح باب الخزانة..

وتجمد الجميع..

كانوا يتوقعون رؤية الطفل جثة هامدة، وقد اختنق من جراء نقص الأكسجين بالخزانة، ولكن بدلًا من هذا، وجدوه هادئًا، مبتسمًا، يجلس داخل الخزانة، ويتطلع إليهم في سعادة وبراءة..

واندفعت (نورا) تختطف ابنها، وتعتصره في صدرها، وهي تهتف:

- ابني حمدًا لله.. حمدًا لله.

أما الوالد، فقد حدق في الصغير ذاهلًا..

كان واثقًا من أن أي مخلوق بشري، لا يمكنه احتمال البقاء داخل الخزانة لساعة كاملة، دون قناع أكسجين خاص..

ولكن (تامر) فعل..

فعل ما لا يمكن أن يفعله بشري..

وفي ذهول وخفوت، راح الوالد يردد.

- هذا الطفل غير عادي.. غير عادي بالتأكيد.

ولكن أحدًا لم يسمعه..

لحسن الحظ..

☆ ☆ ☆

4- في الأعماق..

استرخت (نورا) على مقعدها الصغير في النادي، أمام حوض السباحة، تراقب طفلها الصغير بابتسامة حانية، وهو يعدو مع الأطفال الآخرين حول الحوض، ويطلق صيحات المرح والسعادة، ومع اللعب واللهو، وسرحت بأفكارها مع ذكريات الماضي، وتمنت لو أن زوجها (ضياء) كان معها الآن، يراقب ابنه، الذي كان يحلم بإنجابه، والذي يحمل اسمه الآن، و..

«صباح الخير يا (نورا)..»

انتزعها صوت (خالد) من ذكرياتها، فانتفضت، والتفتت إليه بحركة حادة، جعلته يغمغم في حرج:

- هل أفزعتك؟

أطلقت ضحكة مرتبكة، وقالت:

- كنت شاردة فحسب.

بقي واقفًا أمامها، متطلعًا إليها، وكأنما يخشى الجلوس معها، وشعرت هي بالحرج من موقفه، فقالت:

- تفضل يا (خالد).

بدا وكأنها قد أزاحت عن كاهله حملًا ثقيلًا بعبارتها، إذ ارتسم الارتياح على وجهه، وجلس على المقعد المقابل لها في هدوء، وهو يسألها في حنان:

- كيف حالك يا (نورا)؟

غمغمت:

- بخير حال والحمد لله.

سألها:

- وكيف حال (تامر)؟

صمتت لحظات، وهي تتطلع إلى (تامر)، الذي انشغل بمراقبة بعض الصبية، وهم يلقون حصاة صغيرة، في قلب حوض السباحة، ثم أجابت:

- إنه طفل عادي، باستثناء عدم قدرته على الكلام حتى الآن، على الرغم من بلوغه سن الثالثة.

أجابها في حنان:

- لا تجعلي هذا يقلقك.. لقد أجرينا له اختبارًا للسمع، وثبت أنه سليم صحيًا، وعدم قدرته على الكلام أمر مؤقت، بدليل قدرته على الصراخ، و..

سألته مقاطعة في اهتمام:

- ألا يمكننا إجراء فحوص أخرى؟

أجابها في بساطة:

- بالطبع.. يمكننا إجراء رسم مقطعي للمخ، للتأكد من سلامة مركز الكلام، في الفص الأيسر للمخ، ما دام الأمر يقلقك إلى هذا الحد.

بدت أكثر ارتياحًا لهذا الاقتراح، وهي تقول:

- نعم.. يمكننا إجراء هذا.

شملهما الصمت، لحظات، بعد هذه العبارة، وتطلع هو خلال هذه اللحظات إليها، وهي تتحاشى النظر إليه، ثم قال فجأة:

- أيضايقك وجودي يا (نورا)؟

سألته في حرج:

- لماذا تقول هذا؟

أجابها في ضيق:

- إنك تتحاشين النظر إلى، كما لو أنك تبغضينني.. لماذا يا (نورا)؟.. لماذا؟.. إنني لم أحاول الإساءة إليك أبدًا، ولم أقف في طريق سعادتك قط، حتى عندما اخترت الزواج من (ضياء) -رحمه الله- وكنت أول من جاء لتهنئتكما بعد الزواج، ولم أغضب، أو أفعل ما يمكن أن يغضبك مني إلى هذا الحد.

كان صادقًا في كل ما نطق به، حتى أنها شعرت بالحرج، وبتأنيب الضمير، وغمغمت وهي تبحث عن كلمات مناسبة لإجابته:

- لست غاضبة منك يا (خالد).. صدقني.. المشكلة هي أن..

قاطعها فجأة صراخ بعض النساء، وحالة من الهرج، جعلتها تقفز من مقعدها، صائحة:

- (تامر)..

تطلعت إلى حيث كان، ولكنها لم تجده، ورأت البعض يسرعون نحو الجزء العميق من حوض السباحة، أسفل لوح القفز المرتفع، وبعض الصبية يهتفون:

- إنه (تامر).. لقد سقطت الحصاة في الجزء العميق من الحوض، فقفز خلفها ليحضرها..

صرخت مرة أخرى في رعب:

- (تامر).. (تامر).

كان ذلك الجزء من حوض السباحة، شديد العمق، حتى أن قراره كان يبدو مظلمًا، ومن العسير تبين الطفل داخله.. ولقد قفز مدربو السباحة إلى الأعماق، في محاولة لإنقاذ الصغير، في حين راح البعض الآخر يقول:

- لن يمكنه احتمال الضغط.. العمق هنا يبلغ ستة أمتار.

انهارت (نورا)، وراحت تصرخ:

- ابني (تامر).. (تامر).

التفت بعض النساء حولها، ورحن يهدئن من انفعالاتها، في حين التقى حاجبا (خالد) في شدة، وهو يحدق في الأعماق المظلمة..

مستحيل!..

مستحيل أن يبقى الطفل على قيد الحياة، في هذا العمق!..

لن يحتمل الضغط على أذنيه ورأسه..

ولن يحتمل البقاء لفترة طويلة دون هواء..

وفي أعماقه شعر بالحزن والمرارة..

مسكينة (نورا)..

لن تحتمل صدمة أخرى بفقد ابنها، بعد أن فقدت زوجها..

مسكينة هي!..

وصعد أحد المدربين إلى سطح الحوض..

وتعلقت به عيون الجميع..

ولكن يديه كانتا خاليتين، وعيناه تحملان يأس الدنيا كلها، وهو يهز رأسه نفيًا..

وتفجرت الدموع في العيون..

وانهارت (نورا)..

وظهر المدرب الثاني، وهو يحمل نفس اليأس والأسف والحزن..

ثم كانت المفاجأة..

مفاجأة مذهلة، اتسعت لها عيون الجميع، وخفقت قلوبهم، وتجمدت مشاعرهم..

قد برز (تامر) على السطح..

برز مبتسمًا، سعيدًا، ظافرًا، وهو يحمل الحصاة في يده، ويلوح بها للصبية..

ولثوان، ران صمت رهيب على المكان..

ثم تفجرت الهتافات، واندفع الجميع نحو الحوض، وعلى رأسهم (نورا)، التي بدت كالصاروخ، وهي تقفز نحو الحوض، هاتفة:

- (تامر).. ابني.. ابني.

حمل أحد المدربين (تامر)، إلى حيث تقف أمه، وتركها تحتويه في صدرها، وهو يقول في حيرة شديدة:

- انها معجزة!.. ما فعله هذا الصغير يعد مستحيلًا بالفعل!

لم تبال (نورا) بما يردده ذلك الجمع من رواد النادي، الذي التف حولها..

لقد نجا ابنها..

وهذا كل ما يعنيها..

واقترب (خالد) منها، وربت على رأس (تامر)، الذي ابتسم له في هدوء، فبادله (خالد) الابتسام، وهو يقول لـ(نورا) في قلق:

- أظن أنه من الضروري أن نفحص (تامر).

ضمت ابنها إلى صدرها في قوة، وهي تقول:

- لماذا؟

قال محاولًا تهدئة انفعالها:

- لنطمئن عليه فقط.. إنه مجرد فحص عادي، فقد هبط إلى عمق كبير، وأخشى أن تكون أذناه قد تعرضتا لأية أضرار.

ترددت، وهي تضم ابنها إلى صدرها، فكرر في لهجة تدعو إلى الثقة:

- صدقيني.. إنه مجرد فحص بسيط وروتيني.. هل توافقين؟

كانت تشعر بالخوف على ابنها، ولكنها أدركت صحة ما يقول (خالد)، فأومأت برأسها، وغمغمت:

- أوافق.. أوافق يا (خالد).

وضمت الصغير إلى صدرها أكثر وأكثر..

☆ ☆ ☆

تضاعف قلق (نورا) وتوترها، وهي تقف خارج حجرة الرسم المقطعي للمخ، وبدت شديدة العصبية، وهي تسأل (خالد):

- هل سيستغرق هذا وقتًا طويلًا؟

أجابها (خالد) مهدئًا:

- لم يتبق الكثير.. وهي فرصة لفحص مركز الكلام، في الفص الأيسر من مخه.. اطمئني.

قالت والدموع تترقرق في عينيها:

- لقد أرهقوه كثيرًا، وهو لم يتعد الثالثة من العمر بعد.

كان يعلم أنه من الطبيعي أن تشعر بكل هذا القلق، على طفلها الوحيد، ولكنه كان يحاول تهدئتها، وهو يقول في رفق حنون:

- لم يرهقوه كما تتصورين.. لقد فحصه طبيب الأنف والأذن والحنجرة فحسب، وتأكد من سلامة طبلة أذنه، والآن يفحصون مخه، برسام المخ المقطعي، وهذا ليس فحصًا مؤلمًا.

قالت وهي تفرك كفيها في شدة:

- ولكنني أشعر بالقلق.

ربت على كتفها، قائلًا:

- هذا أمر طبيعي.

انتفض جسدها مع لمسته..

لم تكن تحتمل أبدا أن يلمسها شخص آخر، بخلاف (ضياء)..

حتى لو كانت هذه اللمسة تلقائية بريئة..

وحتى لو كان هذا الشخص هو (خالد)..

وعلى الرغم من هذا، فقد اعترفت في أعماقها -لأول مرة- أنها تعتبر (خالد) شخصًا مختلفًا، عن كل من عرفتهم..

هو وحده تشعر نحوه بارتياح خاص..

ارتياح عجيب، يجعلها تخجل من نفسها في بعض الأحيان، وتشعر في أحيان أخرى أنها تخون (ضياء)..

تخون حبه..

وأحلامه..

لم تكن قد اعترفت نفسيًا بعد، بأن (ضياء) لم يعد ينتمي إلى عالمها..

لم يمكنها هذا قط..

وفجأة شعرت بتأنيب الضمير..

كيف تفكر في مثل هذا الأمر، وابنها يرقد داخل حجرة الفحص؟

كيف تنساه، وتذكر نفسها فحسب؟..

كاد تأنيب الضمير يفجر تلك الدموع، الحبيسة في مقلتيها، عندما اندفع أحد الأطباء خارج حجرة الفحص، وقال لـ (خالد).. في توتر بالغ:

- دكتور (خالد).. إننا نحتاج إليك.

هوى قلبها بين ضلوعها، واحتبست صرخة ذعر في أعماقها، في حين سأل (خالد) الطبيب في لهفة:

- ماذا هناك؟

ارتجف صوت الطبيب، وهو يقول:

- أمر عجيب يا دكتور (خالد).. أعجب شيء رأيته في حياتي كلها.

وتوقف قلب (نورا) عن النبض.

☆ ☆ ☆

5- ذلك الشيء..

عدل الدكتور (فائق)، رئيس قسم جراحات المخ والأعصاب، منظاره، وهو يطالع رسوم المخ المقطعية، قبل أن يهز رأسه، قائلًا في حيرة:

- مدهش!

ثم التفت إلى (خالد)، مستطردًا:

- أغرب شيء شاهدته في حياتي بالفعل.

التقط منه (خالد) الرسوم، وراح يفحصها للمرة العاشرة، في حين ضمت (نورا) (تامر) إليها، وهي تسأل في عصبية:

- هل يمكنكما شرح الأمر؟

التفت إليها الدكتور (فائق)، وخلع منظاره، ليضعه على سطح مكتبه، ثم ألقى نظرة طويلة على (تامر)، ومنحه ابتسامة هادئة، قبل أن يجيبها:

- مخ ابنك يحمل شيئًا عجيبًا يا سيدتي.

سألته في هلع، وهي تضم (تامر) إليها أكثر:

- أهو مرض ما؟

هز رأسه نفيًا، وأجاب:

- كلا.. إنها بؤرة نشطة.

سألت في خوف:

- ماذا تعني؟

أجابها (خالد) هذه المرة، وهو يشير إلى الرسوم:

- هذا الشيء ليس خلايا بشرية عادية، أو حتى مريضة يا (نورا).. إنه جسم غريب، تم زرعه بوسيلة ما في مخ (تامر)، بالقرب من مركز التنفس، وهذا الشيء يبث إشارات نشطة للغاية، تؤثر بشكل ما على مخ (تامر)، وربما كانت السبب في عدم تكلّمه حتى الآن، ولكننا لا نستطيع الجزم بهذا، قبل إجراء المزيد من التجارب والفحوص، و..

هتفت مستنكرة:

- التجارب والفحوص؟!.. ماذا تظنون ابني بالضبط؟.. فأر تجارب؟!

أجابها الدكتور (فائق) في هدوء وحسم:

- كلا يا سيدتي.. لسنا نظنه فأر تجارب، وإلا لكان مخه بين أيدينا الآن، ندرس فيه هذه الظاهرة بكل هدوء واهتمام، دون أن يفكر شخص واحد في الاعتراض، فيما عدا (جمعية الرفق بالحيوان) بالطبع.. وإنما نحن ننظر إلى ابنك باعتباره بشريًا، له كل الأهمية، ومن حقه أن يحظى بكل الرعاية والاهتمام والعناية، ولهذا السبب وحده نحاول إجراء المزيد من التجارب والفحوص، لنتيقن من أن هذا الشيء لن يؤذي ابنك، بوجوده داخل مخه، ولو على المدى البعيد، ولندرك ماهية هذا الشيء أيضًا، فنحن نجهل ما هو، وما الذي وضعه في مخ الطفل.. أهو جزء من أداة جراحية، تسللت إلى مخه، في أثناء الولادة، واستقر هناك، أم هو ورم من نوع جديد، له نشاط إشعاعي.. صدقيني يا سيدتي.. إننا سنجرى هذه التجارب والفحوص لمصلحة ابنك، وليس العكس.

صمتت (نورا) لحظات، وهي تتطلع إليه في ذعر، ورددت بصوت مختنق:

- لن أسمح لكم بإجراء أية تجارب عليه.

تدخل (خالد)، قائلًا:

- (نورا).. هذا لمصلحة (تامر)، ولولا ذلك لما..

قاطعته، وهي تهب من مقعدها، وتحتضن (تامر) في شدة، وكأنها تحاول حمايته من عدو خفي:

- لا.. لن أسمح لكم بهذا.. لن أسمح لكم بإجراء تجاربكم عليه، كما فعل الآخرون.

حدق (خالد) والدكتور (فائق) في وجهها بدهشة، وغمغم (خالد):

- أي آخرين يا (نورا)؟

زاغت نظراتها، وهي تقول في توتر:

- الآخرون.. أولئك الـ.. الـ..

اتسعت عيناها فجأة في ذعر، وأفلتت الصغير، وهي تصرخ:

- لا.. لا.. لا تفعلوا هذا بطفلي.. لا.

تبادل (خالد) والدكتور (فائق) نظرات دهشة بالغة، في حين تطلع (تامر) إلى أمه في قلق وحيرة، وهي تردد:

- أرجوكم.. اتركوا طفلي.. اتركوه.

اتجه إليها (خالد)، وأمسك كتفيها في رفق، وهو يقول:

- اهدئي يا (نورا).. اهدئي.. لا أحد يرغب في الإساءة إلى طفلك.

صرخت وهي تدفعه بعيدًا عنها:

- لا.. ابتعدوا عني.. لا تفعلوا بي هذا.. لا.

ثم أمسكت جانبي رأسها بكفيها، صارخة.

وهوت بين ذراعي (خالد).

وفقدت الوعي..

☆ ☆ ☆

أجسام بالغة الطول أحاطت بها..

عيون ضخمة مستديرة..

نظرات ثابتة حادة..

أذرع نحيلة، تنتهي بأربع أصابع، امتدت نحوها، لتنتزع منها طفلها..

(تامر) يتشبث بها في رعب، وهي تصرخ..

- لا.. لا.. اتركوا ابني.. اتركوه..

ثم استعادت وعيها..

استعادته بغتة، وحدقت في الوجوه المحيطة بها، والتي يطل منها القلق البالغ، وميزت بينها وجهي (خالد) والدكتور (فائق)، فهتفت مذعورة:

- (تامر).. أين (تامر)؟

أجابها (خالد) في سرعة:

- (تامر).. بخير.. ها هو ذا.

أطل عليها وجه (تامر)، بعينين حزينتين، يخلوان من الدمع، وهو يتطلع إليها في لهفة وقلق، فاعتدلت جالسة، واحتضنته في سعادة وحنان، وهي تسأله:

- (تامر).. أأنت بخير؟.. أأنت بخير يا (تامر)؟

دفن الصغير جسده في صدرها، وسألها (خالد) مشفقًا:

- أجيبيني أنت يا (نورا): أأنت بخير؟

أمسكت رأسها، ومررت أصابعها عبر خصلات شعرها الطويلة، وهي تقول في إرهاق:

- نعم.. إنني بخير.. فقط تلك الكوابيس اللعينة..

تبادل نظرة سريعة مع الدكتور (فائق)، ثم جلس على طرف فراشها، وسألها في حنان:

- أية كوابيس يا (نورا)؟.. أخبريني.

تنهدت في توتر، وهزت رأسها، قائلة:

- إنها كوابيس بشعة، أبشع من أن أرغب في روايتها.

اقترب بوجهه منها، وسألها في خفوت:

- أهي حقًا مجرد كوابيس يا (نورا)؟

انتفضت، وحدقت في وجهه بفزع، ثم سألته:

- ماذا تعني؟

ربت على كتفها في حنان، مغمغمًا:

- لا شيء يا (نورا).. لست أعني شيئًا.

في هذه المرة لم ينتفض جسدها للمسته.

لم تدر لماذا، ولكنها لم تفعل..

ربما لأنها كانت تحتاج، في هذه اللحظات، إلى شخص يحمل إليها الشعور بالحب والأمان..

شخص تثق به، وترتاح إلى قربه..

ولكن فجأة استعاد ذهنها تلك المشاهد الرهيبة..

الأجسام الطويلة، ذات البشرة الأرجوانية الباهتة، والعيون الضخمة الثابتة المستديرة، ذات النظرات الحادة، والذراع النحيلة، ذات الأصابع الأربعة، و..

وانتفض جسدها مرة أخرى في عنف، وهي تحدق في وجه (خالد) في ذعر، فأبعدت يده عن كتفها بحركة حادة، وهو يقول في ارتباك شديد:

- معذرة.. لم أكن أقصد.

ولكنها تشبثت به، وهتفت مذعورة:

- لا تدعهم يأخذون (تامر) يا (خالد).. امنعهم.. أرجوك.

سألها في قلق:

- من هم يا (نورا)؟.. من أولئك الذين ينبغي أن أمنعهم من هذا؟

فتحت فمها لتجيب، ثم تجمدت الكلمات في حلقها..

حقًا.. من هؤلاء؟!..

ما تلك المخلوقات، التي تراها في كوابيسها؟..

وماذا عن سؤال (خالد)؟..

أهي مجرد كوابيس حقا؟!..

شملتها الحيرة طويلًا، فشرد بصرها، ولاذت بالصمت، وضمت صغيرها إلى صدرها أكثر وأكثر، فسألها (خالد)، والقلق في أعماقه يتصاعد:

- من هم يا (نورا)؟.. من هم؟

نقلت بصرها بينه وبين الدكتور (فائق)، ثم دفنت وجهها في كفيها، وهي تقول باكية:

- لست أدري.. لست أذكر شيئًا.

عقد الدكتور (فائق) حاجبيه، وهو يتطلع إليها في اهتمام، ثم لم يلبث أن سألها في هدوء:

- لماذا تشعرين بالخوف يا سيدتي؟

انتفض جسدها، وهي تجيب:

- الخوف؟!.. لماذا تظن هذا يا دكتور (فائق)؟

هز رأسه في هدوء، وقال:

- ليس مجرد ظن يا سيدتي.. إنه يقين.. كل خلية من خلجاتك تؤكد أنك تعانين من خوف مبهم، يطل من أعماقك لسبب ما، ربما كنت أنت نفسك تجهلينه.

بدت شاردة بضع لحظات، ثم أجابت:

- ربما كان هذا صحيحًا، فأنا أرتجف من داخلي، وأرى أمامي دائمًا صورة مخلوقات عجيبة مخيفة، لست أذكر متى رأيتها، وأين؟!

سألها (خالد) في اهتمام:

- أيبدو لك الأمر كما لو أنه توجد في عقلك منطقة مظلمة، تجهلين ماذا يدور فيها بالضبط؟

هتفت في دهشة:

- كأنك تصف شعوري تمامًا.

اعتدل في قلق واضح، وهو يغمغم:

- هذا ما توقعته.

سأله الدكتور (فائق):

- ما الذي توقعته بالضبط؟

- أجابه (خالد)، وهو يشير إلى (تامر):

- هذا الطفل تعرض لتجربة ما.. تجربة رهيبة، أجراها بعضهم لغرض خفي.. و(نورا) رأت التجربة، أو علمت بها، ولكن أصحاب التجربة أمكنهم محو هذا من ذاكرتها تمامًا، بوسيلة قد نعلمها أو نجهلها، والأسلوب الوحيد لمعرفة هذا، هو إنعاش ذاكرتها، وإضاءة ذلك الجزء المظلم منها، لنعلم ما حدث بالضبط..

رددت (نورا) في هلع:

- تجربة رهيبة؟!.. (تامر) تعرض لتجربة رهيبة؟!.. يا إلهي!.. لماذا يفعلون به هذا؟

رمقها الدكتور (فائق) بنظرة جانبية، قبل أن يقول له (خالد):

- رواية عجيبة يا (خالد)، تبدو لي أشبه بأفلام الخيال العلمي الأمريكية، على الرغم من توافقها مع الأحداث.. ولكن دعنا نفترض أنها حقيقة، وأن عقل السيدة (نورا) يحوي منطقة مظلمة، أغشى أحدهم ذاكرتها فيها، ومحا منها تفاصيل تلك

التجربة، التي تفترض حدوثها، فكيف يمكننا أن نضيء هذا الجزء المظلم، ونخرج ما تختزنه فيه؟

اعتدل (خالد)، وهو يقول:

- هناك وسيلة علمية واحدة، يمكنها التوصل إلى هذا في سرعة.

سأله في اهتمام:

- ما هي؟

تطلع (خالد) إلى (نورا)، وهو يجيب:

- التنويم.. التنويم المغناطيسي.

وارتجف قلب (نورا) في قوة.

☆ ☆ ☆

6- الحاجز..

تطلع الدكتور (صديق)، الطبيب النفسي الشهير، إلى عيني (نورا)، وهو يقول في صوت هادئ عميق:

- لا تقلقي.. حاولي تحرير رأسك من كل الأفكار والمخاوف، وتطلعي إلى عيني مباشرة.

بدت لها عيناه عميقتين، ثاقبتين، وهي تتطلع إليهما، وتغمغم:

- (تامر).. أين (تامر)؟

أجابها في عمق:

- (تامر) يقف خلفي، مع الدكتور (خالد).. حرري رأسك من قلقك عليه، وركزي تفكيرك كله في عيني.

راحت عيناه تزدادان عمقًا، وهي تغوص داخلهما في بطء، وصوته يبلغ رأسها من بعيد:

- دعي كل عضلاتك تسترخي.. استسلمي للنوم..

تثاقل جفناها، وتساقطا في إرهاق، وخيل إليها أنها تغوص في أعماق بئر سحيقة، وصوته يأتي من بعيد:

- عودي بذاكرتك إلى الخلف.. إلى ذلك اليوم الذي بدأت فيه التجربة.. وببطء.

تفككت أوصالها مرة أخرى، واندفعت خلاياها عبر أنبوب مظلم رهيب..

«عودي إلى التجربة..»

تردد الصوت في أعماقها، مع صدى مزدوج، وبدت العينان أمامها ضخمة، واسعة، مستديرة، ثابتة، و..

وصرخت فجأة:

- لا.. لا..

تطلع إليها (تامر) في قلق، وهي تلوح بيديها صارخة:

- ابتعدوا عني.. لا تفعلوا بي هذا.. لا.

بدا القلق في وجه الدكتور (صديق) وصوته، وهو يقول:

- اهدئي.. لا يوجد ما يخيف.

صرخت في رعب أكثر:

- لا.. اتركوني.. اتركوني.

راحت تشهق في قوة وعنف، وكأنها تجاهد لالتقاط أنفاسها، فهتف (خالد):

- ماذا أصابها؟

أجابه الدكتور (صديق) في ارتباك واضطراب:

- لست أدري.. يبدو أننا أصبنا نقطة محصنة من عقلها.

تصاعدت شهقاتها، واتسعت عيناها في رعب، وتراجع (تامر) مذعورًا، في حين هتف (خالد):

- لا تتركها هكذا يا (صديق).. دعها تستيقظ يا رجل.. أسرع.

- اضطرب (صديق)، وهو يرفع سبابته وإبهامه أمام عيني (نورا)، هاتفًا:

- استيقظي.. هيا.. عودي إلى الواقع.

ولكن شهقاتها ازدادت حدة، وكانت عيناها تجحظان، وهي تمسك عنقها بكفيها، وكأن أحدًا يخنقها بلا رحمة، فصاح (خالد):

- هيا يا (نورا).. استيقظي.. استيقظي.

ولكن هيهات..

لقد تسللت زرقة مخيفة إلى وجهها، وخفتت شهقاتها، كما لو أنها ستسلم الروح بعد قليل، وصرخ (خالد) في يأس:

- لا يا (نورا).. قاومي.. قاومي.

تجمدت نظراتها، وانخفض معدل تنفسها بغتة، و..

وفجأة ظهر (تامر)..

عبر الطفل بين الطبيبين بغتة، وأمسك كفي أمه في قوة، وهو يتطلع إليها بنظرة عجيبة..

وفجأة أيضًا، هدأ كل شيء..

اختفت الزرقة، وهدأت (نورا)، وعاد إليها تنفسها الطبيعي، وتطلعت إلى ابنها بنظرة عجيبة، تحمل شيئًا من الدهشة والخوف، في حين ارتسمت على شفتيه الصغيرتين ابتسامة فرح، فجرت الدهشة في عيني (خالد) و(صديق)، قبل أن يهتف هذا الأخير:

- كيف فعلتها أيها الصغير؟

تنهد (خالد)، وقال:

- هذا ما نسعى لتنويم أمه من أجله.. أن نعرف كيف يفعلها هذا الصغير.

حملت (نورا) ابنها، وتطلعت إليه في حيرة وقلق، قبل أن تضمه إلى صدرها في قوة، فسألها (خالد):

- ماذا حدث؟

تطلعت إليه في خوف، قبل أن تجيب:

- شيء رهيب.. لقد أحاطوا بي، وكادوا يخنقونني، لولا أن..

بترت عبارتها بغتة، وهي تتطلع إلى (تامر) في حيرة، فسألها (صديق) في شغف:

- لولا ماذا؟

تطلعت إليه في حيرة، وهي تقول:

- لولا أن ظهر (تامر) فجأة.

ضمته إلى صدرها أكثر، وتابعت بكلمات تتقاطر منها الحيرة:

- ومع ظهوره تراجع الجميع، وانحنوا له في تبجيل، فأشار هو إليهم في عظمة وصرامة، وأمسك يدي، وقادني بينهم، دون أن يجرؤ أحدهم على اعتراضي، حتى خرجنا.

سألها الدكتور (صديق)، وفكه يتدلى في ذهول:

- خرجتما من ماذا؟

أجابته في سرعة:

- من الـ..

بترت عبارتها بغتة، وارتسمت حيرة شديدة في عينيها، قبل أن تقول:

- لست أدري.. لقد نسيت كل شيء بغتة.

حدق الدكتور (صديق) في وجهها مرة أخرى في ذهول، ثم تراجع في مقعده، والتفت إلى الدكتور (خالد) بنظرة حائرة، جعلت هذا الأخير يقول في رفق، وهو يعاون (نورا) على مغادرة مقعدها:

- حسنًا يا (نورا).. لقد انتهى كل شيء على أية حال.. هل يمكنك الانتظار خارجًا مع (تامر)، حتى أتبادل مع الدكتور (صديق) حديثًا قصيرًا.

تطلعت إليه بعينين حائرتين، خائفتين، قلقتين، ثم أومأت برأسها متمتمة:

- سننتظرك.

منحها ابتسامة مشجعة، قبل أن تغادر الحجرة، ثم التفت إلى الدكتور (صديق)، يسأله في جدية:

- ما رأيك؟

هز (صديق) رأسه في شدة، قائلًا:

- إنها مجنونة.

هتف (خالد) في دهشة:

- مجنونة؟!.. أي قول هذا يا رجل.. إنني أسألك عن رأيك العلمي.

لوح بذراعه، هاتفًا:

ألم تسمع ما قالته؟.. إنها امرأة مصابة بالهوس!.. خيالها خصب للغاية، ولكنه يفتقر إلى المنطقية.

قال (خالد) في صرامة:

- لو أن الفكرة التي تدور في رأسي صحيحة، فهي إنسانة واقعية للغاية، وقصتها منطقية تمامًا.

حدق (صديق) في وجهه بدهشة، وقال:

- أية فكرة هذه، التي تجعل هذا التخريف واقعيًا ومنطقيًا؟!

تنهد (خالد)، وهو يتطلع إليه لحظة في صمت، ثم قال:

- هذه القضية يختفي خلفها قوم من كوكب آخر.

هتف (صديق):

- ماذا؟.. هل انتقلت العدوى إليك؟.. أخشى أن تخبرني ان هذه السيدة قد تم اختطافها في طبق طائر، و..

قاطعه (خالد) في صرامة:

- هذا ما أقصده بالضبط.

عاد (صديق) يحدق في وجهه، قبل أن يهتف مستنكرًا:

- أهذا هو الرأي العلمي، الذي تتحدث عنه؟

أجابه في حزم:

- بالتأكيد.. كل الشواهد والظواهر تقود إلى هذا الافتراض، على الرغم من غرابته، ومن عدم تصديقك له، فهناك ذلك الجسم الغامض، الذي يستقر في عقل (تامر)، والذي لم نر مثيلًا له من قبل، وقدرة هذا الطفل على احتمال البقاء دون تنفس لفترات طويلة، وما حدث اليوم لـ (نورا).. ورد فعل (تامر).. ألا يكفيك كل هذا، و..

قال (صديق) معترضًا:

- لسنا نعرف طبيعة ذلك الجسم بعد، وربما كان مجرد أداة جراحية مفقودة، كما يفترض الدكتور (فائق)، والبقاء دون تنفس هذا أمر وارد، يفعله فقراء الهنود كل يوم، في أسواق (نيودلهي).. أما بالنسبة لما حدث اليوم، فليس هذا هو التفسير الوحيد له.

سأله (خالد) في حدة:

- ألديك تفسير منطقي آخر؟

هتف (صديق):

- بالتأكيد.. ربما اختلق عقلها الباطن هذه القصة كلها، وعندما أمسك ابنها كفيها، تلقي مخها هذا الأمر، وحوره في عقلها الباطن إلى هذا المشهد العجيب، الذي يسيطر فيه ابنها على الموقف، وينقذها من بين أيديهم.

سأله (خالد) في غضب:

- وهل يفتعل عقلها الباطن عملية اختناقها؟

أجابه في حزم:

- العقل الباطن يمكنه أن يفعل أكثر من هذا.

تطلع كل منهما إلى الآخر في صمت، ثم تنهد (خالد)، وقال:

- لا بأس.. ما دام هذا هو رأيك، ولكن.. هل يمكننا إعادة التجربة مع احتياطات أمن مثلًا؟

هز (صديق) رأسه نفيًا، وقال:

- ليس قبل علاج نفسي طويل لها.

أومأ (خالد) برأسه متفهمًا، وقال:

- لا بأس.. أشكر لك تعاونك على أية حال.

غادر الحجرة إلى الممر الخارجي، وأجبر شفتيه على رسم ابتسامة، وهو يتطلع إلى (نورا) و(تامر)، فنهضت (نورا) تسأله في قلق:

- ماذا قال؟

هز كتفيه، قائلًا:

- لم يتوصل إلى شيء محدود بعد.

كانت تعلم أنه يخفي شيئًا ما، ولكنها لم تحاول سؤاله عما يخفيه وكأنها تخشى معرفة ما لديه، فخفضت وجهها أرضًا، وغمغمت:

-هكذا؟!

شعر بالضيق لموقفه، وحاول أن يبدل الحديث، فسألها:

- هل ستعودين إلى منزلك؟

أومأت برأسها إيجابًا، فأضاف:

- لقد حضرنا إلى هنا بسيارتي، فهل تسمحين لي بتوصيلك هذه المرة إلى منزلك.

أدهشها أنها لم ترفض هذه المرة..

كانت تحتاج إلى وجوده..

وفي بساطة أدهشته، تركته يوصلها مع (تامر) إلى منزلها..

وفي الطريق سألها في حذر:

- أما زلت ترفضين إجراء الاختبارات لـ (تامر)؟

أجابته في حزم:

- كفاه اختبارات.

صمت لحظة، ثم قال:

- ولكن هناك أمر حتمي، ليس من الحكمة رفضه.

سألته:

- ما هو؟

أجابها في خفوت:

- ذلك الشيء في رأسه.

قالت متوترة:

- ماذا عنه.

أجاب في حسم:

- لابد من إخراجه.

هتفت مستنكرة:

- بعملية جراحية؟!

سألها حازمًا:

- ألديك وسيلة أخرى؟!

ضمت (تامر) إليها في خوف، وقالت:

- لا، ولكنني لا أقبل تعريضه لهذه المخاطرة.

قال في حزم:

- لست أظنك تملكين الخيار يا (نورا)، فبقاء هذا الشيء في رأسه، قد يعرضه لأكبر خطر ممكن.

سألته مرتجفة:

- أي خطر هذا؟

أجاب في صرامة، لم يدر كيف وجد الشجاعة لاستخدامها:

- الموت يا (نورا).

وهوى قلبها بين ضلوعها من جديد.

☆ ☆ ☆

7- العملية..

«عملية جراحية لـ (تامر)؟!»

نطقها الحاج (رشدي) في جزع شديد، وضربت زوجته صدرها براحتها، هاتفة في ذعر:

- عملية جراحية في المخ؟!.. ماذا تقول يا (خالد)؟.. كيف تفعل هذا بـ (تامر)؟

أجابهما (خالد) في حزم:

- إنني أسعى لصالحه يا زوجة خالي.. لقد أخبرتكما بحالة (تامر) بالضبط، وبخطورة وجود جسم غريب داخل جمجمته، وعند مركز التنفس بالذات، فالطفل سينمو، ويكبر، ويزداد حجم مخه، في حين سيبقي ذلك الجسم محافظًا على حجمه، وبالتالي سينغرس تدريجيًا في خلايا المخ، مما قد يسبب الوفاة لـ (تامر)، أو يتسبب في إصابته بعجز تام.

صاحت الأم:

- لا تنطقها يا (خالد).. استعذ بالله يا ولدي، وبعدًا للشر عن (تامر).

أجاب بلهجة أشد حزمًا:

- ليس هذا رأيي يا زوجة خالي.. إنه رأى العلم.

لوحت بكفها، هاتفة:

- وما الذي يعرفه العلم؟

أجابها الحاج (رشدي):

- الكثير يا عزيزتي.. الكثير.

وزفر محاولًا تبديد توتره، قبل أن يسأل (خالد):

- أأنت واثق من ضرورة إجراء الجراحة يا ولدي؟

أجابه (خالد):

-إنها حتمية يا خالي.

نقل الأب بصره إلى (نورا)، التي انزوت جانبًا، وهي تضم صغيرها إلى صدرها في قوة، وسألها:

- ما رأيك يا بنيتي؟

أجابته في عصبية:

- لن أترك (تامر) لهم.

هز (خالد) رأسه، وقال في ضيق:

- لقد شرحت لك الأمر يا (نورا).

قالت في حدة:

- أحتاج إلى رأي طبيب آخر.

فجرت عبارتها في أعماقه ضيقًا بلا حدود، فقال وهو يشيح بوجهه عنها:

- هذا من حقك.

قالت في عصبية:

- لن أترككم تعبثون بمخ ابني، إلا للضرورة القصوى.

أجابها في ضيق:

- لسنا نعبث بمخ أحد يا (نورا).. لم تعد جراحات المخ كالسابق، فكل شيء يتم تحديده قبل الإجراء الفعلي للعملية الجراحية.. صور المخ، ورسوم الأشعة المقطعية، والاختبارات الأخرى، بحيث تصبح العملية في حد ذاتها مجرد خطوة في برنامج كبير، ولست أبالغ لو قلت إنها ليست أصعب الخطوات.

قالت في عناد:

- ولو.. أحتاج إلى رأي طبيب آخر.

زفر في توتر، وقال:

- حسنًا.. هل تقترحين طبيبًا بذاته؟

أجابته في حزم:

-نعم.

سألها:

- من هو؟

أدهشه الجواب وأثار ارتياحه في الوقت ذاته، عندما قالت:

- الدكتور (فائق).

وأدرك أن العملية ستجري لـ (تامر)، بإذن الله..

☆ ☆ ☆

كان يومًا لا مثيل له، في حياة (نورا)..

يوم لم تشعر بمثل قلقه ورعبه، في عمرها كله..

يوم إجراء العملية الجراحية لـ (تامر)..

كانت تجلس مع والديها، خارج حجرة العمليات الجراحية، التي تم نقل (تامر) إليها منذ لحظات، تفرك كفيها في عصبية وقلق بالغين، ووالدتها تبكي في حرارة، في حين راح والدها يصلي، ويدعو الله (سبحانه وتعالى) أن تتم العملية بنجاح..

وفي الداخل وقف الدكتور (فائق) و(خالد)، وحولهما عدد من الأطباء المعاونين وفتيات التمريض..

وكان كل شيء محسوبًا بمنتهى الدقة، كما قال (خالد)..

موضع الجسم الغريب..

المكان المناسب لفتح الجمجمة..

الأدوات الأفضل..

كل شيء..

وفي هدوء واثق، تطلع الدكتور (فائق) إلى الشاشة أمامه، وهو يقول:

- ستنجح بإذن الله ورعايته يا رجال.

قالها وتناول أدواته، وبدأ يثقب جمجمة (تامر) ثقبًا دقيقًا، في موضع تم اختياره في عناية بالغة وفائقة، ولعمق مدروس، ثم التقط أدواته، وبدأ يدخلها عبر الثقب الدقيق، وهو يقول:

- لقد تقدمت جراحات المخ بالفعل، فاليوم نكتفي بفتحة بقطر نصف السنتيمتر، وبمعاونة رسام المخ المقطعي، بحيث ندرك جيدًا ما نفعله، دون الحاجة إلى نزع نصف جمجمة المريض.

لم يجب أحدهم، أو يعلق بحرف واحد على حديثه، وهم يتابعون أصابعه الماهرة في اهتمام بالغ، فأضاف وهو يحرك أدواته في حنكة:

- ها نحن أولاء نقترب من ذلك الجسم الغريب، وسنلتقطه في بساطة، و..

وفجأة بدأ جسم (تامر) يرتجف في قوة، فسحب الدكتور (فائق) أدواته في سرعة، وتطلع إليه في دهشة، ثم رمق طبيب التخدير بنظرة غاضبة، ولكن هذا الأخير قال في ارتباك:

- إنه مخدر بالفعل، وأجهزتي تقول هذا.

بدت الدهشة على وجه الدكتور (فائق)، وعاد يدخل أدواته مرة أخرى، ولم يكد يلمس ذلك الجسم الغريب، حتى عاد جسد (تامر) يرتجف في عنف، وانطلق رسام المخ الكهربي، المتصل برأسه، يرسم خطوطًا ومنحنيات عنيفة، فهتف (خالد):

- توقف يا دكتور (فائق).. أخرج الأدوات.

ولكن الدكتور (فائق) واصل عمله في عناد، فتضاعفت قوة ارتجاف جسد (تامر)، وبدأت ظاهرة أخرى عجيبة، ومخيفة.

لقد اهتزت كل الأدوات الموجودة في حجرة العمليات، وراحت ترتجف في شدة، ثم تساقطت خزانة أدوات ضخمة، وأطلقت دويًا هائلًا، جعل (خالد) يصرخ في انفعال:

- كفى يا دكتور (فائق).. كفى..

وهنا فقط سحب الدكتور (فائق) أدواته بحركة حادة، وتراجع في دهشة وتوتر بالغين..

وفي الخارج صك الدوي مسامع (نورا) ووالديها، فاندفعت نحو حجرة العمليات الجراحية صارخة:

- ولدي.. (تامر).. (تامر).

منعها والدها من اقتحام الحجرة، وهو يهتف بها:

- لا يا ابنتي.. لا تفعلي هذا.. ستعرضين حياة ابنك للخطر لو فعلت.

تراجعت خوفًا على حياة ابنها، وجسدها كله يرتجف في قوة، وانهمرت الدموع من عينيها غزيرة، وشاركتها أمها البكاء، في حين راح الأب يتلو بعض آيات القرآن الكريم في صوت خافت..

وفي الداخل هدأ كل شيء بغتة، عندما انتزع الدكتور (فائق) أدواته من مخ (تامر)، وتراجع مذعورًا..

توقف ارتجاف الأدوات..

وتوقف جسد (تامر)..

وران صمت رهيب على المكان..

صمت دام ثواني معدودة، بدأت أشبه بدهر كامل، قبل أن يقول (خالد) في ذهول:

- إنهم يمنعوننا من انتزاعه.

همهم طبيب آخر في دهشة:

- من هؤلاء؟

وهز الدكتور (فائق) رأسه، وهو يقول:

- ما أعجب هذا!

ثم استدار وهو يشير إلى الممرضة، لتجفف بعض العرق البارد، الذي سال على جبينه:

- إننا نواجه شيئًا مجهولًا بالفعل.

تمتمت إحدى الممرضات في ذعر:

- أهو زلزال، ذلك الذي أصاب المكان؟

أشار الدكتور (فائق) إلى رأس (تامر)، وقال في توتر:

- نعم.. زلزال نشأ من هنا.

حدق الجميع في رأس (تامر) في حيرة ودهشة، في حين غمغم (خالد) في انفعال:

- (سيكوكينيزيس)..

سألت الممرضة:

- وما هو هذا الـ(سيكوكينيزيس)؟

قال (خالد):

- (سيكوكينيزيس): هي كلمة تتكون من مقطعين.. (سيكو): وتعني شيء نفسي، و(كينيزيس)، وتعني الحركة.. والكلمة في مجملها تعني تحريك الأشياء بالتأثير العقلي، أو النفسي، ودون لمسها بالأيدي، وهذه القوة واحدة من القوى المعروفة، في علم ما فوق الطبيعيات والنفسيات، وهناك حالات مسجلة، لبعض من يمتلكونها بالفعل.

أومأ الدكتور (فائق) برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم.. ويبدوا أننا قد أطلقنا ماردًا من عقاله، في عقل هذا الصغير.

وفجأة هتف طبيب التخدير في ذعر:

- يا إلهي!.. الصغير.. إنه..

سأله (خالد) في ذعر:

- ماذا أصابه؟

شحب وجه الطبيب في شدة، وهو يردد في هلع:

- لقد.. لقد..

وانهار مستطردًا:

- لقد مات.

واتسعت عينا (خالد) في ارتياع.

☆ ☆ ☆

8- المارد..

انهمرت دموع (نورا) كالسيل، وراحت تنوح على نحو يمزق القلوب، وهي تقول في حزن عارم رهيب:

- كنت أعلم أن هذا سيحدث.. كنت أشعر به.

شاركتها أمها البكاء الحار، في حين راح والدها يتلو آيات قرآنية في صوت خافت، لا تكاد تتبين منه سوى اختلاجة شفتيه، وبدا (خالد) شديد الارتباك، وهو يقول:

- إنه ليس خطأ أحد.. صدقيني يا (نورا).. كان كل شيء يسير على ما يرام.. عندما حدث هذا.

لم يبد أنها سمعته، وهي تردد بحزنها الشديد:

- ما كان ينبغي أن أوافق على هذا.. ما كان ينبغي أبدًا.

تدخل الدكتور (فائق)، قائلًا:

- على العكس يا سيدتي.. لقد فعلنا ما تحتم علينا فعله، والأمور لم تبلغ هذا الحد من السوء.

صاحت به:

- لم تبلغ ماذا؟.. وما الحد الذي كنت تتوقع لها أن تبلغه؟

أشار إلى ابنها، الراقد على الفراش المجاور لها، وهو يقول في حزم:

- أن يلقى مصرعه فعليًا.

شهقت أمها، وهتفت بسرعة من وسط دموعها، وهي تنحني على الصغير الساكن، وتحتضنه في لهفة:

- بعدًا للشر.

أما (نورا)، فقالت في عدوانية:

- وهل نجا من هذا؟.. ها هو ذا يرقد أمامك، في غيبوبة كاملة.

أجابها الدكتور (فائق):

- سيتجاوزها يا سيدتي.. سيتجاوزها بإذن الله (سبحانه وتعالى).. صدقيني، وخذيها كلمة من خبير، فلقد شاهدت عشرات الحالات المشابهة من قبل، وغيبوبتهم هذه لا تتجاوز الأيام الثلاثة، وبعدها يستعيدون وعيهم وصحتهم كاملين.

ثم زفر في قوة، وهز رأسه، قبل أن يستطرد:

- ولكنني لن أنسى أبدًا ذلك الموقف الرهيب، في حجرة العمليات الجراحية، عندما أعلن طبيب التخدير أن (تامر) قد توقف عن التنفس تمامًا.. لحظتها تصورنا جميعًا أنه قد لقي مصرعه، لولا أن رسام المخ الكهربي، وجهاز قياس نبضات القلب، كانا يعلنان في وضوح أنه على قيد الحياة.

غمغم الحاج (رشدي):

- ربما كان طبيب التخدير يفتقر إلى الخبرة اللازمة.

هز الدكتور (فائق) رأسه نفيًا، وقال:

- على العكس.. إنه واحد من أكبر وأبرع أطباء التخدير هنا، ولكن (تامر) ليس طفلًا عاديًا، فهو يمتلك مقدرة عجيبة على كتمان أنفاسه لفترة طويلة للغاية، وربما كان هذا بسبب تلك الشيء، الملتصق بمركز تنفسه، والذي عجزنا تمامًا عن انتزاعه!

التقى حاجبا الجد، وهو يستعيد ذكرى ذلك اليوم، الذي عثر فيه على (تامر) هادئًا مبتسمًا، داخل الخزانة الحديدية، وتمتم:

- بالتأكيد.

وهنا قال (خالد) في اهتمام:

- لا تنس قدرته على احتمال الضغط يا سيدي، فقد غاص إلى عمق ستة أمتار، دون أن يعاني جسده من أي إصابات واضحة.

أومأ الدكتور (فائق) برأسه إيجابًا، وقال:

- هذا صحيح.

صمت لحظة، بدا خلالها شاردًا مفكرًا في عمق، قبل أن يضيف:

- من المؤكد أن هذه الحالة تحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة، و..

قاطعته (نورا) هاتفة:

- بحث ودراسة؟!.. لا يا سيدي الطبيب.. اسمح لي.. لن يكون ابني أبدًا فأر تجارب، للبحث والدراسة، مهما كانت الأسباب.. هذا لو استعاد وعيه وصحته، كما تدعون.

قال الدكتور (فائق)، محاولًا تهدئتها:

- صدقيني يا سيدتي.. لن يمضي يوم أو يومان، إلا و..

بتر عبارته بغتة، وحدق في فراش (تامر) في دهشة بالغة، جعلت الجميع يلتفتون إلى حيث ينظر، مع صيحة الجدة الفرحة:

- (تامر).. حمدًا لله على سلامتك يا ولدي.

كان الموقف يدعو للدهشة بالفعل، فعلى الرغم من الأربطة والضمادات، التي تحيط برأسه حتى جبهته، إلا أن (تامر) بدا في أوج صحته وعافيته، قبل مرور ساعة واحدة على خروجه من حجرة العمليات الجراحية، وهو يجلس في فراشه، ويبتسم في

وجوه الجميع ابتسامة بريئة سعيدة، جعلت (نورا) تنقض عليه، وتحتويه في صدرها، وهي تهتف:

- (تامر).. ولدي.. حمدًا لله.. حمدا لله.

تنهد (خالد) في ارتياح، وسالت دمعة حارة من عيني الحاج (رشدي) في حين بقي الدكتور (فائق) يتطلع إلى الطفل في دهشة، قبل أن يغمغم:

- مدهش.. كان المفترض أن..

قاطعه (خالد):

- لقد اتفقنا على أن (تامر) ليس طفلًا طبيعيًا يا سيدي.. أليس كذلك؟ تطلع إليه الدكتور (فائق)، وبقيت شفتاه منفرجتين، وكأنه سيواصل حديثه، ثم لم يلبث أن تمتم:

- بالتأكيد.. بالتأكيد.

ثم عقد حاجبيه، وراح يتابع الأسرة الصغيرة، وهي تحيط بالصغير، وتغمره بحبها وحنانها وقبلاتها، حتى أشار (تامر) إلى فمه، وهو يواجه أمه، فالتفتت هي إلى الدكتور (فائق) تسأله في لهفة:

- إنه يشعر بالعطش.. أيمكنه أن يشرب الآن؟

أجابها في حماس عجيب:

- بالطبع.

ثم التقط زجاجة المياه، وصب بعضًا منها في كوب صغير، هم بالتقدم به نحو (تامر)، إلا أنه توقف بغتة، وبدا وكأن فكرة ما قد طرأت على رأسه، قبل أن يبتسم لـ (تامر)، قائلًا:

- هل تريد كوب الماء هذا حقًا يا (تامر)؟

تطلع إليه الجميع في دهشة، وقالت (نورا) في عصبية:

- لو لم يكن يريده لما طلبه.

تجاهلها الدكتور (فائق) تمامًا، وهو يقول:

- هل تريده يا (تامر)؟

أومأ الصغير برأسه إيجابًا، وبلل شفتيه بلسانه، وكأنما يعلن عطشه، واحتياجه إلى الماء، فابتسم الدكتور (فائق) في هدوء، وهو يقول:

- خذه إذن يا (تامر).

نهضت (نورا)، قائلة في حدة:

- دكتور (فائق).. لست أفهم ما الذي..

قاطعها بإشارة صارمة حازمة، قبل أن يكرر:

- خذه يا (تامر)، لو أنك تريده حقًا..

ارتسمت الحيرة أكثر على الوجوه، وبدا (تامر) هادئًا، يتطلع إلى الدكتور (فائق) في براءة وبساطة، ثم لم يلبث أن رفع يده، وفتح أصابعه، وكأنه يهم بالتقاط كوب الماء، من بين أصابع الدكتور (فائق)، الذي يقف على بعد ثلاثة أمتار منه..

وفجأة، ارتجف الكوب بين أصابع الدكتور (فائق)، الذي شارك الكوب ارتجافته، قبل أن يفتح أصابعه عن آخرها بغتة، فهتف (خالد):

- الكوب سيـ..

انحبست الكلمة في حلقه، واتسعت عيناه مع عيون الجميع، في ذهول شديد، وشهقت الجدة، وهي تتراجع إلى الخلف، عندما راح الكوب يسبح في الهواء في بطء، متجهًا نحو (تامر)، الذي بدا هادئًا واثقًا، ينتظر الكوب، حتى بلغ يده، فأطبق عليه أصابعه الصغيرة، ورفعه إلى شفتيه، وراح يشرب في بساطة..

وتألقت عينا الدكتور (فائق) في ظفر، في حين هتف (خالد) في انفعال:

- ولكنه.. ولكنه..

أجاب الدكتور (فائق)، في لهجة منتشية:

- (سيكوكينيزيس).. تحريك الأشياء عن بعد.. ألم أقل لك إننا قد، أطلقنا المارد، من قمقمه في عقل الطفل؟!

هتف الحاج (رشدي) في انبهار:

- أي قمقم وأي مارد؟.. عم تتحدثان بالله عليكما؟

ابتسم الدكتور (فائق) في ارتياح، وقال:

- سأشرح لك الأمر يا حاج.. سأشرحه لكم جميعًا، ولكن ينبغي أن تعلموا أنكم تشاهدون الآن ظاهرة جديدة.

وتألقت عيناه، وهو يستطرد:

- ظاهرة خارقة..

☆ ☆ ☆

«لا يا دكتور (فائق).. لست أوافق على هذا قط..»

قالها (خالد) في حدة شديدة، وهو يواجه الدكتور (فائق)، الذي تطلع إليه في هدوء شديد، من خلف مكتبة الضخم، وقال:

- خطأ يا (خالد).. خطأ.. لابد أن توافق على هذا، فالطفل حقًا ظاهرة خارقة، ولابد من أن تبلغ الصحافة.. إنه خبر يهم المجتمع كله.

هتف (خالد):

- مستحيل يا سيدي!.. إنه مجرد طفل، قد لا يدرك حتى أنه يختلف عن الآخرين، وليس من المناسب له نفسيًا، أن يحيط به رجال الصحافة، والباحثون، وكل من يهمه الأمر.. (نورا) نفسها لن تحتمل هذا.

ابتسم الدكتور (فائق) في خبث، وقال:

- وانت تخشى إغضابها، أليس كذلك؟

قال (خالد) في غضب:

- ليس هذا هو السبب يا سيدي، وإنما (تامر) نفسه هو من أقلق بشأنه.. لقد تعرض ذلك المسكين لتجربة رهيبة، أجرتها عليه مخلوقات فضائية لسبب مجهول، وربما..

قاطعة الدكتور (فائق) مستهجنًا:

- مخلوقات فضائية؟!.. لا تقل لي إنك تصدق فكرة الأطباق الطائرة هذه.. لسنا في (شيكاغو) أو (نيويورك)، حتى تهبط الأطباق الطائرة، وتختطف أحدنا، لتجري عليه تجاربها.

قال (خالد) في حدة:

- ومن قال إن الأطباق الطائرة تنتقي (أمريكا) دون غيرها؟.. ألم يهبط طبق طائر ذات مرة في (الكويت) نفسها، منذ سنوات قلائل؟.. لماذا نفترض دائمًا أن هذا يحدث للآخرين فقط.

لوح الدكتور (فائق) بكفه، وهو يبتسم قائلًا:

- حسنًا.. لا تغضب هكذا.. كنت أداعبك فحسب.

هتف (خالد) في دهشة:

- تداعبني؟!

لوح الدكتور (فائق) بكفه، وهو يقول في نشوة عجيبة:

- بالتأكيد.. دعك من هذا الآن، وحاول أن تتصور معي ذلك الكم الهائل من المعلومات، الذي يمكننا الحصول عليه، لو توصلنا فقط إلى وسيلة مناسبة، لاستخراج كل ما يختزنه عقل هذا الطفل.. إنه معجزة.. معجزة طبية وعلمية، على أي مقياس.. أرأيت كيف استعاد وعيه بتلك السرعة المذهلة؟!.. أرأيت حتى كيف تعافي من آثار الجراحة تمامًا، في ثلاثة أيام فحسب؟!..

صدقني يا (خالد).. هذا الطفل فرصة نادرة، لا يمكن أن تتوافر للعالم، أكثر من مرة واحدة.

قال (خالد) في حدة:

- وهو بالنسبة لـ (نورا) طفلها الوحيد، من زوج راحل، لن يتكرر أكثر من مرة واحدة.

واندفع مغادرًا المكتب في حنق، تاركًا الدكتور (فائق)، الذي هز رأسه، مغمغمًا:

- خطأ.

ونهض من خلف مكتبه، وراح يسير في حجرة مكتبه جيئة وذهابًا، وهو يفكر في عمق، ويحدث نفسه، قائلًا:

- هناك وسيلة ما حتمًا.. هناك وسيلة لاستخراج ما يختزنه عقل الطفل، ومعرفة ما يخفيه من أسرار.. توجد وسيلة حتمًا..

فجأة، ارتسمت صورة ما في رأسه، فتألقت عيناه في شدة، وبرقتا في ظفر، وهو يقول:

- لقد توصلت إليها.. توصلت إلى الوسيلة.

ورقص قلبه طربًا، وهو يندفع خارج مكتبه، ويعدو عبر الممر الطويل بالمستشفى إلى حجرة الصغير..

حجرة (تامر)..

☆ ☆ ☆

تضاعف توتر (خالد)، وهو يقف في ممر المستشفى، خارج حجرة (تامر)، وبدا شديد العصبية، على الرغم من وجود (نورا)، التي سألته في قلق:

- ماذا بك؟!

تطلع من نافذة الممر إلى السماء المظلمة، ذات النجوم اللامعة، وظل صامتًا لحظات قبل أن يقول في ضيق متوتر:

- لماذا أراد الدكتور (فائق) أن يلتقي بـ (تامر) وحده؟

قالت في دهشة:

- هل تسألني؟!.. المفروض أنك أنت الطبيب، وأنت الذي يعلم لماذا يلتقي الطبيب بمريضه وحدهما!

غمغم محنقًا:

- بالتأكيد.

كان يشعر بالقلق، منذ دخل الدكتور (فائق) إلى حجرة (تامر) وطلب من الجميع الخروج، ليبقى فيها معه وحده، فقد أدرك أن الدكتور (فائق) سيبذل أقصى جهده، لاستخراج المعلومات من

(تامر)، وهذا يثير أعصابه، ويورثه توترًا لا مثيل له، ولكنه لم يشأ نقل قلقة وتوتره إلى (نورا)، فابتعد عن الحديث في هذا الأمر، وقال:

- كيف أقنعت والديك بالعودة إلى منزلها؟

هزت كتفيها، قائلة:

- كانا مرهقين للغاية، بعد ثلاثة أيام هنا، ولقد وعدتهما أن يقضي (تامر) فترة النقاهة في فيلتهما، بعد خروجه من هنا، وطلبت منهما إعداد حجرته في الفيلا لهذا.

تمتم شاردًا:

- فكرة جيدة.

لم تنجح محاولته في انتزاع ذلك القلق من نفسه، ولا في إخماد ذلك السؤال، الذي ظل يصرخ في أعماقه..

ما الذي يفعله الدكتور (فائق) مع (تامر)؟..

وفي حجرة (تامر)، كان الدكتور (فائق) يجلس في مواجهة الطفل، ويتطلع إليه في اهتمام بالغ، وهو يقول:

- أعلم أنك تختزن السر كله في عقلك الصغير يا (تامر)، حتى لو كنت أنت نفسك تجهل هذا.. ولكن هناك وسيلة لاستخراج هذه المعلومات من ذهنك يا صغيري.. وسيلة أوصلتني إليها أنت بنفسك.

تطلع إليه (تامر) في صمت، وبراءة الأطفال تطل من عينيه، فتابع الرجل:

- هل تذكر كيف أيقظت أمك، عندما فشل الدكتور (صديق) في هذا؟.. لقد أمسكت كفيها، فانساب إلى عقلها سيل من الصور

والمعلومات، انتزعها من سباتها الصناعي.

ثم تراجع مستطردًا في نشوة:

- وهذا ما سنفعله اليوم.

ابتسم (تامر) ابتسامة طفولية مرحة، فبادله الرجل ابتسامته، وقال:

- لعبة طريفة.. أليس كذلك؟

ظلت ابتسامة (تامر) ثابتة دون تغيير، فمد الدكتور (فائق) كفيه إليه، قائلًا في لهفة واضحة:

- هيا.. فلنبدأ هذه اللعبة.

تطلع (تامر) إلى الكفين في لا مبالاة، فكرر الرجل في قلق:

- هيا يا (تامر).

وفي هدوء مد (تامر) كفيه، وأمسك كفي الدكتور (فائق)، فقال هذا الأخير في انفعال:

- هيا يا (تامر).. هيا.

ثم انتفض جسده بغتة، وسرت فيه قشعريرة باردة، عندما انخفضت درجة حرارة الطفل فجأة، حتى صارت أصابعه أشبه بقضبان من الثلج، تلسع يد الدكتور (فائق)، الذي هتف مبهورًا:

- مدهش.. ها هي ذي ظاهرة جديدة.. إنك قادر على التحكم في درجة حرارة جسمك، و..

بتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه في شدة.

لقد بدأ سيل المعلومات..

وفي شدة.

☆ ☆ ☆

جزيرة القدر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

9- وجهًا لوجه..

كوكب بعيد، في غياهب الكون السحيق، تشغل المياه تسعة أعشار سطحه، وتشرق فوقه شمسان، تغربان معًا، كل ستة أيام. بزمن الأرض. لتفسحا المجال لستة أقمار مختلفة الأحجام، تضيء سماءه في ليله الذي يستغرق الفترة نفسها..

من هذا الكوكب أتى أولئك، الذين غرسوا ذلك الشيء في عقل الطفل..

جاءوا من أجل حضارتهم..

ومن أجل مستقبلهم..

إنهم ثلاثة فحسب، هم أخر سلالة عظيمة، حكمت ذلك الكوكب، وصنعت في أعماق مياهه حضارة راقية هائلة، فاقت حضارة الألف عام الأخيرة من عمر الأرض، بثلاث مرات على الأقل.

ثم جاء ذلك الوباء الرهيب..

وباء بدأ كمرض غامض، وفيروس منيع، أصاب بعض أهل الكوكب، فأسرع العلماء هناك يدرسونه، ويفحصونه، ويبحثون عن وسائل للوقاية منه، ولعلاج مضاعفاته، وإيقاف انتشاره..

ولكن المرض كان الأقوى..

والأسرع..

وفي عشرة أعوام فحسب، وعلى الرغم من نجاح علماء الكوكب في التوصل لعدة عقاقير، يمكننا إيقاف تدهور المصابين

والمرضى، وتخفيف الأعراض، ربح المرض المعركة، وأفنى سكان الكوكب كلهم..

فيما عدا هؤلاء الثلاثة..

ثلاثة من العلماء، أمكنهم النجاة من العدوى، وقرروا بذل أقصى جهدهم؛ للنجاة، ولإبقاء هذه الحضارة، حتى بعد فناء شعبهم..

وفي عقولهم نبتت فكرة عجيبة..

ومثيرة..

فكرة أن يبحثوا عن شعب جديد، يواصل الحياة والحضارة على سطح كوكبهم، ويعمر كل هذه المنشآت العملاقة، والتكنولوجيا المتطورة هناك، بدلًا من أن تلتهمها أسنان الزمن، التي لا ترحم ولا تبقى ولا تذر..

وفي رحلة طويلة، راح العلماء الثلاثة يبحثون عن كوكب مأهول، يسكنه قوم عقلاء، يمكنهم أن يكونوا بذرة لحياة جديدة، على كوكب المياه.

وكانت هناك كواكب شتى، ولكن أحدها لم يكن يناسب العلماء الثلاثة، من حيث تركيب مخلوقاته، أو تكوينهم الحيوي، الذي لا يصلح تعديله، ليناسب الحياة على كوكبهم المهجور، أو قدرتهم على مقاومة ذلك الفيروس العنيد..

وأخيرًا عثر العلماء الثلاثة على كوكب الأرض..

وعلى مخلوقات صالحة لإجراء التجربة..

التجربة الرهيبة..

وكان (تامر) هو أول نموذج ناجح..

ربما لأن الظروف ساعدت على هذا..

لقد تم تعديل تركيبة الحيوي، وهو بعد جنين في رحم أمه..

إنه السيد المنتظر، والحاكم الجديد..

إنه (آدم) ذلك الكوكب، الذي ينتظر حياة جديدة..

بذلك التعديل في وظائفه، سيمكنه أن يحيا في الأعماق، دون أن يحتاج إلى التنفس، سوى مرة واحدة يوميًا..

سيمكنه أن يغوص إلى أعماق سحيقة..

وأن يتحكم في الأشياء بعقله وحده..

كل ما يحتاجه هو (حواء) أخرى، من كوكب الأرض، تخضع للتجربة ذاتها..

وعندئذ يبدأ العصر الجديد، في كوكب المياه..

وتزدهر الحضارة مرة أخرى..

الحضارة الجديدة..

كل هذا السيل من المعلومات انساب من عقل (تامر)، إلى عقل الدكتور (فائق)..

لا أحد يدري كيف عرف (تامر) نفسه كل هذه المعلومات..

ربما كانت مختزنة داخل ذلك الشيء، المزروع في مخه، كتاريخ محفور، يساعد على معرفة طبيعة الكوكب الذي سيقطنه، والذي سيبدأ فيه حضارته الجديدة..

سؤال واحد بقي دون جواب، في عقل الدكتور (فائق)..

كيف سيذهب (تامر) إلى ذلك الكوكب.. ومتى؟!..

وبكل اللهفة والفضول العلمي في أعماقه، نقل الدكتور (فائق) السؤال من عقله إلى لسانه، هاتفًا:

- وكيف سترحل إلى هناك يا (تامر)؟.. ومتى؟..

وفجأة عاد إلى عالم الواقع، وانحبست الأسئلة في صدره وحلقه وعينيه..

وأمامه، تجسم شكل شبه بشري، من شعاع بنفسجي، عبر نافذة حجرة (تامر)، واستقر في منتصف المكان تمامًا..

وترك (تامر) كفي الدكتور (فائق)، وهو يلتفت إلى تلك المخلوق، الطويل القامة، صاحب الرأس الضخم والعينين الكبيرتين الثابتتين، والنظرات الحادة، والبشرة الأرجوانية الباهتة.

واتسعت عينا الدكتور (فائق) في ذهول ورعب، في حين تطلع (تامر) إلى المخلوق في هدوء، ودون خوف أو توتر، ورفع المخلوق يده الطويلة النحيلة، ذات الأصابع الأربعة، وهو يصوب إلى الدكتور (فائق) جسمًا مثلثًا، يمسك به من قاعدته..

وتراجع الدكتور (فائق)، وهو يلوح بكفيه، هاتفًا:

- لن أكشف السر.. لن أتفوه بحرف واحد.

ولكن الأصابع الأربعة ضغطت قاعدة المثلث في حزم، فانطلق من قمته شعاع أزرق رفيع، أصاب هدفه بدقة مدهشة..

وكان هذا الهدف هو الدكتور (فائق)، خبير جراحة المخ والأعصاب..

سابقًا..

☆ ☆ ☆

وقفت (نورا) إلى جوار (خالد)، عند نافذة الممر، وتطلعت بدورها إلى السماء بنجومها اللامعة، وهمست:

- أشكرك.

التفت إليها (خالد)، يسألها في حيرة:

- ماذا؟

أجابته في شيء من الخجل:

- أشكرك على كل ما فعلته من أجلي، ومن أجل (تامر).

تطلع إليها في دهشة، قبل أن يقول في خفوت:

- لم أفعل إلا ما يمليه على واجبي، وما كان سيفعله (ضياء) -رحمه الله- لو أنه في نفس موضعي.

قالت وهي تتحاشى النظر إليه:

- هذا يؤكد نبلك وشهامتك.

بدا له حديثها مثيرًا للدهشة بالفعل هذه المرة، وهو الذي لم يعتد منها سوى الجمود والجفاء، فغمغم:

- (نورا).. ما الذي يعنيه هذا؟

أجابته في حياء:

- يمكنك اعتباره اعتذارًا عن الأيام السابقة.

تهللت أساريره، وهو يقول:

- (نورا).. أتعنين هذا حقًا؟

أومأت برأسها إيجابًا في خجل، وغمغمت:

- بالتأكيد.

هتف في سعادة:

- يا إلهي!.. لست أصدق نفسي يا (نورا).. كم كنت أحلم بمثل هذه اللحظة؟.. لم أتصور أبدًا أنها ستأتي.

تخضب وجهها بحمرة الخجل، وهي تقول:

- لم يكن ذلك سهلًا يا (خالد)، ولن يكون كذلك، فـ(ضياء) كان يمثل جزءًا كبيرًا من حياتي، ومن..

بترت عبارتها بغتة، وهي تحدق في السماء، وارتسمت على وجهها علامات رعب هائل، فهتف بها:

- ماذا حدث يا (نورا)؟.. ماذا حدث؟

ولكنها لم تستطع إجابته، وهي تحدق في رعب في ذلك الضوء البنفسجي الاسطواني، الذي هبط من السماء، وعبر نافذة حجرة (تامر)..

لقد أدرك عقلها الباطن طبيعة تلك الضوء..

وحطم الستار الحديدي، الذي يحيط بذاكرتها..

وفجأة.. في لحظة واحدة، استعاد عقلها ذكرى تلك الليلة الرهيبة..

ليلة الطبق الطائر..

☆ ☆ ☆

أحاط الشعاع البنفسجي بجسدها، وشعرت أن خلاياها تقفز من جسدها، عبر أنبوب مظلم عميق طويل، ثم تعود لتتراص إلى جوار بعضها البعض، والظلام يتبدد من حولها، ليعود ذلك الضوء البنفسجي، مع فارق واحد..

أنها لم تعد تقف إلى جوار سيارتها..

لقد أصبحت في الداخل..

داخل الطبق الطائر..

إنها تقف داخل اسطوانة زجاجية شفافة، وسط قاعة كبيرة، ينيرها ضوء أزرق باهت، وحولها مياه رائقة، ذات لون جميل، تتألق فوقها أضواء غامضة مجهولة..

وهي شبه مشلولة، ترى كل ما حولها، ولكنها عاجزة عن الحركة، لا يمكنها حتى تحريك سبابتها..

ثم فجأة، ظهرت تلك المخلوقات الثلاثة..

وامتلأت نفسها بالرعب..

حاولت أن تصرخ، أو تبكي، ولكنها كانت مجمدة تمامًا، لا يمكنها نطق حرف واحد، حتى عندما التف الثلاثة حولها، وراحوا يفحصونها بعيونهم الكبيرة الثابتة المستديرة، ويتأملون بطنها المتكورة باهتمام بالغ..

وفجأة اختفت الاسطوانة الزجاجية الشفافة من حولها، وشعرت بجسدها يرتفع في الهواء، ثم يتخذ وضعًا أفقيًا، ويرقد فوق شيء أشبه بمنضدة جراحية، التف حولها الثلاثة، وراحوا يتحسسون بطنها بأصابعهم الطويلة النحيلة، ووجدت نفسها تقول في خوف:

- ماذا ستفعلون بي؟

لا يجب أحدهم، أو يبدي حتى اهتمامًا بسؤالها، بل ضغط أقربهم إليها شيئًا ما في المنضدة، فبرز من جانبها لوح أسود، ارتفع لمسافة متر تقريبا، ثم مال فجأة متخذًا وضعًا أفقيًا، فوق بطنها تمامًا، ومرر المخلوق راحته فوقه، وأبعدها في هدوء، فتألق اللوح، واخذ لونًا فيروزيًا باهتًا، في نفس الوقت الذي تموج فيه جزء من جدار القاعة، وظهرت فوقه صورة كبيرة لجنين، يسبح في رحم أمه، فغمغمت (نورا) في دهشة:

- أهذا طفلي؟

لم يجب أحدهم سؤالها، في هذه المرة أيضًا، وراحوا يتطلعون إلى الصورة الكبيرة في اهتمام، ثم مرر أحدهم أصابعه الأربعة على اللوح، فبرزت من جانبه أداه حادة رفيعة، مالت لتلتقط جسمًا صغيرًا، من فجوة في إطار اللوح، ثم عادت تتوجه إلى بطن (نورا)، التي هتفت:

- ماذا تفعلون؟

شعرت بالأداة الحادة تلمس بطنها، وتضغطها في رفق، ثم لم تعد تشعر بها على الإطلاق، على الرغم من أنها بدت على الحائط، في الصورة الكبيرة، وهي تغوص داخل رحمها، فهتفت:

- كيف أمكنكم إدخالها في بطني، دون ألم؟

وككل مرة، تجاهلها الثلاثة تمامًا، ورأت هي الأداة على الشاشة الهلامية، وهي تتجه إلى رأس الجنين، فقالت في توتر:

- ما هذا؟.. إنكم ستؤذون ابني.

ولكن الأداة اخترقت رأس الطفل في بساطة، وراحت تزرع ذلك الجسم الصغير في مخه، فصرخت (نورا)، بكل ما يملأ أعماقها من خوف وذعر ولوعة وهلع:

- لا.. لا.. ليس طفلي.. لا..

☆ ☆ ☆

«ليس (تامر)..»

كررت (نورا) الصرخة، في مقر المستشفى، وهي تندفع نحو حجرة (تامر)، و(خالد) يسألها في دهشة، وهو يلحق بها:

- ماذا هناك يا (نورا)؟.. ماذا حدث؟

حاولت فتح باب الحجرة في ذعر، ولكنه كان موصدًا من الداخل، فصرخت:

- (تامر) يا (خالد).. (تامر) في خطر.

لم يكن يدرك طبيعة هذا الخطر بالضبط، ولكن صراخها جعله يندفع نحو باب الحجرة، هاتفًا:

- ابتعدي.

أفسحت له الطريق، فضرب الباب بكتفه القوي، وحطم رتاجه، واندفع معها إلى الداخل، و..

وشهقت (نورا) في رعب، وهي تحدق في ذلك المخلوق، الذي يهم بالتقاط ابنها، في حين تراجع (خالد) في ذهول، وهو ينقل

بصره بين (تامر)، والمخلوق، والدكتور (فائق)، الذي تجمد داخل غلاف أزرق بارد سميك..

وصرخت (نورا) مرة أخرى:

- لا.. ليس (تامر).

ولكن المخلوق رفع المثلث نحوها..

وضغط قاعدته.

☆ ☆ ☆

10- الهروب..

نظريًا لم يكن من السهل أبدًا أن يتخلى (خالد) عن ذهوله، وهو يواجه ذلك المخلوق، الذي لا يمكن أن يتخيل المرء رؤيته، إلا في أفلام وروايات الخيال العلمي والخرافي..

ولكن -الحب كما يقولون- يفعل المعجزات..

ومن أجل الحب..

ومن أجل نفسه أيضًا، انتزع (خالد) نفسه من هذا الذهول، عندما رأي المخلوق يصوب المثلث إلى (نورا)، بعد أن أدرك بذكائه، أن مصيرها لن يختلف عن مصير الدكتور (فائق)..

وبحركة عنيفة سريعة، أودعها كل حبه وغضبه ورغبته في الحياة، دفع (خالد) (نورا) جانبًا، وركل المثلث في يد ذلك المخلوق، ثم هوي على فكه بلكمة عنيفة..

وسقط المخلوق أرضًا، ثم اعتدل في حركة عنيفة مدهشة، إذ به كلوح من الخشب السميك، مثبت في قاعدته، سقطت قمته، ثم ارتفعت دفعة واحدة، دون أن ينثني سنتيمتر واحد منه..

وكان المشهد عجيبًا ومخيفًا في آن واحد، حتى أن (خالد) تراجع في دهشة وخوف، في حين أطلقت (نورا) شهقة أخرى، ثم قفزت تختطف ابنها، وتضمه إلى صدرها، هاتفة:

- اهرب يا (خالد).. اهرب.

لم يكن (خالد) من أولئك الذين يميلون للفرار، أمام أي خصم كان، إلا أنه قرر التخلي عن هذه الفكرة أمام هذا المخلوق العجيب، فانطلق مع (نورا) خارج الحجرة، وهي تحمل (تامر)،

الذي بدا هادئًا مستسلمًا، وكأنما الأمر لا يعنيه، في حين انطلقت خلفهم خيوط الأشعة الزرقاء، فهتف (خالد):

- لابد أن نبتعد عن هذا المكان قدر الإمكان.

هبطا في درجات السلم في عنف، وانطلقا يعدوان على نحو أثار دهشة وخوف نزلاء المستشفى وأطبائها، حتى بلغا ساحة انتظار السيارات، فخلع (خالد) معطفه الطبي، وهتف بـ (نورا):

- هيا إلى سيارتي إنها الأقوى.

لم تحاول مناقشته، وهي تتجه معه إلى سيارته التي فتح بابها، وقفز خلف عجلة قيادتها، وساعدها على الدخول، ثم أدار المحرك، و...

وتوقف فجأة..

توقف ليسأل نفسه في دهشة:

- لماذا نفر؟

هتفت به (نورا):

- لننقذ (تامر).. لنبتعد عن هنا بقدر الإمكان.

قال في حزم:

- لماذا؟

حدقت في وجهه بدهشة، قبل أن تهتف في حدة:

- لأن ذلك الشيء يطاردنا.

واجهها قائلًا:

- هذا ما أرفضه.. إنه لن يطاردنا علانية هكذا.. أنسيت السمة الشهيرة، لكل حوادث الأطباق الطائرة؟!.. إنهم لا يظهرون في المجتمعات أبدًا، ولا يمكنهم مواجهة الـ..

قاطعه سقوط خيط الأشعة الأزرق الرفيع على مؤخرة سيارته، التي ارتجت في قوة، وانتشر على حقيبتها الخلفية شيء أشبه بجليد أزرق سميك، في حين هتفت (نورا) في ذعر، وهي تشير إلى نافذة حجرة (تامر)، في الطابق الثاني:

- انظر.

رفع (خالد) عينيه إلى حيث تشير، وكاد يطلق شهقة دهشة بدوره، عندما رأى ذلك المخلوق في وضوح، وهو يقف في نافذة الحجرة، ويصوب إليهم ذلك المثلث مرة أخرى، فأسرع يضغط دواسة الوقود بسيارته، وهو يقول في حزم:

- إنني أعتذر.. لن يحاولوا إخفاء أمرهم هذه المرة.

وانطلق بأقصى سرعة تسمح بها السيارة، مجتازًا ساحة انتظار السيارات، وبوابة المستشفى، ثم انحرف بحركة حادة عنيفة، ليتخذ الطريق الرئيسي، الذي يقود إلى (حلوان)..

ومن خلف السيارة، سقط ذلك الشعاع البنفسجي مرة أخرى في حجرة (تامر)، وتلاشى داخله هذا المخلوق، قبل أن يختفي الشعاع، ويتألق ضوء أزرق باهت في الفضاء..

ولم يتوقف (خالد) ليرى هذا..

كان ينطلق بأقصى سرعته، متجاوزًا كل قواعد المرور، ومستغلًا الخلو النسبي للطريق، في هذه الساعة المتأخرة من الليل، والتي

تجاوزت منتصف الليل بساعة ونصف تقريبًا، وقال وهو يتخذ الطريق المؤدي إلى فيلا الحاج (رشدي):

- من الواضح أنهم يريدون (تامر) في شدة، حتى يخاطروا بالإعلان عن وجودهم، على هذه الصورة.

ضمت (نورا) ابنها إلى صدرها في قوة، وقالت في هلع:

- لن نتركه لهم أبدًا.

أجابها في حزم:

- بالطبع.

كان يتمنى لو يزيد في سرعة السيارة، التي بلغت بالفعل سرعتها القصوى، وراح محركها يطلق صرخات احتجاج عنيفة، على بلوغه هذه السرعة، التي لم يبلغها من قبل، حتى عندما كان جديدًا قويًا، ولكن (خالد) انحرف بسيارته في قوة، متخذًا ذلك الطريق الفرعي القصير، الذي يقود إلى هذه الفيلا، وهو يقول:

- يبدو أننا ربحنا السباق حتى الآن، أو أن..

قبل أن يتم عبارته، أطلق محرك السيارة حشرجة عنيفة مباغتة، ثم ارتج في قوة وعنف، وتوقف تمامًا، تاركًا السيارة تنزلق بالقصور الذاتي، وأضواؤها تخفت في شدة، حتى توقفت بعد عدة أمتار، فانهارت (نورا)، هاتفة:

- لقد لحقوا بنا.

نطقتها في يأس شديد، وهي تتطلع إلى الطبق الطائر، الذي بدا واضحًا، وهو يتجه نحوهما، فألقي (خالد) نظرة بدوره على الطبق، وخفق قلبه في عصبية وتوتر، قبل أن يقول في حدة:

- لو أنهم يريدون السيارة فليأخذوها.

وقفز خارجًا من السيارة، وعاون (نورا) على مغادرتها، وهي تحمل (تامر)، وسألها:

- هل يمكنك العدو، حتى نبلغ الفيلا؟

أجابته في حسم:

- يمكنني الجري فوق الأشواك من أجل (تامر).

أمسك يدها، قائلا:

- هيا بنا إذن.

انطلقا يعدوان، بكل ما يمتلكان من سرعة، و(تامر) مستسلم بين ذراعي أمه، يراقب في هدوء وفضول ذلك الطبق الطائر، الذي تبعهما في بطء عجيب، وكأنه يدرس ردود أفعالهما، حتى لاحت الفيلا من بعيد، فهتفت (نورا)، وهي تلهث في شدة:

- لقد وصلنا.

وهنا فقط تجاوزهما الطبق الطائر، ثم هبط أمامهما، في تلك المسافة المتبقية، بينهما وبين الفيلا..

وصرخت (نورا) في انهيار:

- أفسح الطريق.. أفسح الطريق بالله عليك.

ولكن (خالد) جنبها في قوة، وهو يقول في انفعال:

- لا تستسلمي لليأس.. هيا.. سندور من حوله.

وقبل أن يفعل، كان ذلك الشعاع البنفسجي ينبعث من الطبق الطائر، ويسقط على الأرض، بينها وبينه، ثم يبرز منه ذلك المخلوق المخيف، وهو يصوب إليهم مثلثه الرهيب..

وصاح (خالد)، وهو ينفصل عن (نورا):

- أسرعي يا (نورا).. أسرعي بـ (تامر) إلى الفيلا.

قالها وهو ينقض على ذلك المخلوق؛ ليفسح لها طريق الفرار، ولكن المخلوق بادره بالهجوم هذه المرة، وضربه بالمثلث في وجهه، فألقاه بعيدًا في عنف، وشعر (خالد) وكان مطرقة هوت على وجهه، ولكنه قاوم ليقاتل المخلوق مرة أخرى، وهو يصرخ:

- أسرعي يا (نورا).

ولكنه رأى حاجزًا أرجوانيًا يتكون أمام (نورا)، التي تراجعت في ذعر، وصرخت في ارتياع كامل:

- (خالد).. النجدة.

شعر بعجزه الكامل هذه المرة، وهو يواجه ذلك المخلوق، على بعد أمتار قليلة منها، ولكنه انقض عليه مرة أخرى في بسالة، استقبلها المخلوق في برود تام، ولكمه مرة أخرى في فكه بمنتهى القوة، وألقاه أرضًا، على بعد مترين كاملين منه، في نفس اللحظة التي بدأ فيها ذلك الحاجز الأرجواني يحيط بـ (نورا)، التي تصرخ في رعب:

- النجدة يا (خالد).. النجدة..

تمني لحظتها لو ينتزع قلبه من صدره، ويحوله إلى قنبلة، ينسف بها هذا الحاجز، الذي يحيط بها، ولكن قلبه هذا خفق في قوة، وكاد يتوقف بين ضلوعه، عندما رأى المخلوق يصوب إليه مثلثه القاتل، ويهم بضغط قاعدته، وإطلاق أشعته عليه، وهو ملقى أرضًا، في هذا الوضع العسير، الذي لا يمكنه معه تفادي الإصابة بالسرعة الكافية..

عندئذ أدرك مصيره..

وأدرك أنه هالك هذه المرة..

هالك لا محالة.

☆ ☆ ☆

11- الخطر..

انطلق دوي الرصاصة فجأة..

كانت الأحداث تسير، من سيء الى أسوأ، عندما تدخلت تلك الرصاصة بغتة، لتقلب الأمور رأسًا على عقب..

وأمام عيني (خالد)، ارتطمت الرصاصة بالمخلوق، الذي يصوب إليه المثلث الرهيب، فسقط كلوح من الخشب، وارتطم بالأرض في دوي مكتوم، في نفس اللحظة التي انطلق فيها صوت الحاج (رشدي)، من جهة الفيلا، وهو يمسك بندقيته القديمة، التي تتصاعد الأبخرة من فوهتها، ويهتف ملوحًا بيده اليسرى:

- أسرعا.. هيا.

قفز (خالد) واقفًا على قدميه، واندفع نحو (نورا)، وانتزعها من تلك المنطقة، قبل أن يحيط بها الحاجز تمامًا، وجذبها في قوة، وهو يعدو معها نحو الفيلا.

ومن خلفهما هب ذلك المخلوق منتصبًا مرة أخرى، بنفس الحركة الثابتة المخيفة، وكأنما لم تخدش منه الرصاصة خلية واحدة، واستدار إليهما في بطء، ولكنه لم يحاول تصويب مثلثه هذه المرة..

وفي هلع واضح، استقبلهما الحاج (رشدي)، وأحاط ابنته بيسراه، وهو يدفعها معه إلى الفيلا، هاتفًا:

- لن يصدقني أحد.. إنهم من الجن.. من الجن حتمًا.

تجاوزوا الحديقة الصغيرة المقفرة، وعبروا باب الفيلا، لتستقبلهم أم (نورا) في لهفة جزعة، وفي ترتجف كعصفور مبتل،

وتقول:

- ما هذا الشيء؟ لماذا يطاردكما؟

أجابتها (نورا):

- إنهم يريدون (تامر).

شهقت الأم، وهتفت:

- يريدونه؟!.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من شر ما خلق.

وحاولت أن تلتقط الصغير، ولكنه تشبث بأمه، واستكان على صدرها، وهو يراقب الموقف بنفس الهدوء والبراءة، في حين وقف (خالد) إلى جوار الحاج (رشدي) عند نافذة الفيلا، يتطلعان إلى الطبق الطائر، الذي يقف في الهواء، ويتألق بذلك الضوء الباهت العجيب، الذي يتأرجح ما بين البرتقالي والأخضر، وسأل (خالد) الحاج في توتر:

- أتظن الفيلا تمنعهم من مهاجمتنا؟

أجابه الحاج (رشدي) في حزم:

- كلا.

ثم جذب ابرة بندقيته، وهو يستطرد:

- ولكني سأدافع عن ابنتي وحفيدي الوحيد، لآخر قطرة من دمي.

قال (خالد):

- هذا موقفنا جميعًا.

أما الأم، فراحت تقول لابنتها في انفعال:

- لقد رأينا ذلك الشيء، وأصابنا الرعب والفزع، وقررنا ألا نغادر الفيلا أبدًا، ثم لمحكما والدك، وأدرك أن تلك الشيء يطاردكما، فقفز يلتقط بندقيته، واندفع إلى الخارج بلا تردد.

كررت (نورا)، في لهجة أقرب إلى البكاء:

- إنهم يريدون (تامر).

قال (خالد) في حزم:

- اطمئني.. لن يأخذوه أبدًا بإذن الله.

وصمت لحظة، ثم استدرك:

- وأنا على قيد الحياة.

ران عليهم جميعًا صمت عجيب، بعد عبارة (خالد) الأخيرة، وراحوا يراقبون ذلك الطبق الطائر في قلق، وهو ثابت في مكانه على نحو مخيف، وألوانه تتبدل في تتابع رتيب، من الأحمر إلى البرتقالي، فالأخضر، فالأزرق، ثم يتألق كله بضوء بنفسجي هادئ، يستقر لفترة محدودة، ثم تبدأ الدورة اللونية من جديد..

وفجأة ارتفع الطبق الطائر عن الأرض..

ومع ذلك الارتفاع المباغت، انتفض الأربعة في عنف، وهتف (خالد):

- سيبدأون الهجوم.

لم يعلق أحدهم على عبارته، وإنما ضمت (نورا) (تامر) إلى صدرها في قوة، وتشبث الحاج (رشدي) ببندقيته، وأمسكت زوجته ذراع ابنتها في توتر..

وواصل الطبق ارتفاعه في بطء، ثم اعتلى الفيلا، وتوقف فوقها، على ارتفاع ثلاثة أمتار فحسب من سقفها..

وهنا فقط بدت ضخامته واضحة..

كان قطره يغطي الفيلا كلها تمامًا، وتتجاوزها أطرافه، وهو يدور حول نفسيه دورة بطيئة، وألوانه تتبدل بنفس النمط المخيف..

ثم أصبحت الدورة أسرع، وأسرع.. وأسرع..

وامتزجت الألوان ببعضها البعض، فلم يعد يبدو منها سوى اللون البرتقالي، الذي لم يلبث أن استحال إلى الأبيض، وعندئذ راحت الفيلا ترتج في قوة، فصاحت والدة (نورا):

- سيهدمون الفيلا على رؤوسنا.

اتسعت عيونهم في رعب، وبدأت آذانهم تلتقط طنينًا رهيبًا، ولكن (خالد) هتفت في حدة:

- لن يفعلوا هذا.. إنهم يحاولون المحافظة على (تامر).

صرخت (نورا):

- لن يأخذوه أبدًا، حتى لو مزقونا إربًا.

تضاعف الطنين، وبدأ يؤذي آذانهم، وأطلقت الأم صرخات متوالية عنيفة، تحمل كل رعبها وألمها، في حين ترنحت (نورا) في ألم، دون أن تجرؤ على سد أذنيها بكفيها، حتى لا تترك (تامر)، الذي بدا وكأنه الوحيد، الذي لا يتأثر قط بذلك الطنين الرهيب، وهتف (خالد) في ألم:

- هؤلاء الأوغاد إنهم يحاولون قتلنا بالموجات الصوتية الفائقة.

ثم هتف فجأة:

- اصرخوا.. أصرخوا بكل قوتكم.

أطاعوه على نحو غريزي، دون مناقشة، وراحوا يطلقون صرخات قوية عنيفة، رددتها جدران الفيلا، فبدا الأمر كله أشبه بلوحة تحمل صورة أضخم مأساة في التاريخ وعلى الرغم من هذا، فقد أشعرتهم تلك الصرخات بالارتياح، وخففت الضغط عن أذانهم، وهتفت (نورا):

- إنني أتحسن بالفعل.

وفجأة توقف الطنين..

توقف على نحو مباغت حقًا، حتى أن أجسادهم شعرت بالبرودة بغتة، مع تلك القشعريرة العجيبة، التي سرت فيها، مقترنة بالسكون والصمت التامين، اللذين خيما على المكان دفعة واحدة..

ولثوان، لم ينطق أي منهم بحرف واحد، مما زاد من وقع الصمت والسكون، وهم يتبادلون نظرات قلقة حائرة، قبل أن يهمس الحاج (رشدي) في خفوت، وكأنه يخشى تبديد الصمت السائد:

- ماذا حدث؟

أجابه (خالد) في قلق واضح:

- يبدو أنهم يخططون لهجوم جديد.

لم يكد يتم عبارته، حتى اخترق ذلك الشعاع البنفسجي زجاج النافذة، وانبعث منه ذلك المخلوق، في منتصف الحجرة، وهو يصوب مثلثه الجهنمي إلى الحاج (رشدي)..

وصرخت (نورا):

- احترس يا أبي.

قفز الحاج (رشدي) جانبًا، وعلى الرغم من سنوات عمره، التي تجاوزت الستين، فقد بدت قفزته شديدة القوة والمرونة، وتجاوزه الشعاع الأزرق الرفيع، في حين رفع هو بندقيته نحو المخلوق، وضغط زنادها..

وانطلقت الرصاصة.

وكما حدث في المرة السابقة، أصابت الرصاصة المخلوق، فسقط على ظهره كلوح من الخشب، ثم اعتدل واقفًا مرة أخرى، في نفس اللحظة التي انهار فيها باب الفيلا، وظهر خلفه مخلوق ثان، أطلق نحو الحاج (رشدي) شعاعًا أرجوانيًا، من كرة يحملها في يده، فأصاب الشعاع بندقية الوالد، وحولها في لحظة واحدة إلى كومة من الرماد..

وصرخ الحاج (رشدي):

- اهربوا.. اهربوا بسرعة.

اندفعت نحوه زوجته، هاتفة:

- تعال معنا يا حاج.

ولكن المخلوق الآخر ألقي نحوهما حلقة مستديرة، أشبه بطوق ألعاب قديم، فالتفت حولهما الحلقة، وأحاطتهما بجدار شبه زجاجي، سجنهما داخله، فصاحت الأم بابنتها في جزع:

- اهربي يا (نورا).. أنقذي (تامر).

صاحت (نورا):

- أبي.. أمي.

ولكن (خالد) منعها من العدو نحوهما، وهو يجذبها من يدها في قوة، هاتفًا:

- سيكونان بخير بإذن الله.. المهم أن ننقذ (تامر).

جرت معه نحو السلم الخشبي، الذي يقود إلى الطابق العلوي، وما أن اعتليا بضع درجات منه، حتى أصابه ذلك الشعاع الأرجواني، فتلاشي تحت أقدامهما، وتحول إلى رماد، وسقطا أرضًا، و(نورا) تحتضن (تامر) في قوة..

وفي بطء مخيف مثير، اتجه المخلوقان نحو (خالد) و(نورا) وراحت هذه الأخيرة تصرخ:

- اتركوا ولدي.. اتركوه.

ومع صرخاتها هب (خالد) للذود عنها، ولكن المخلوق الثاني رماه بحلقة أخرى مستديرة، أحاطت به لتسجنه داخل أسطوانة شبه زجاجية، في حين اتجه المخلوق الآخر نحو (نورا)، وصوب إليها سلاحه المثلث، وهي تعتصر ابنها في صدرها، وتصرخ:

- لا تقتربوا مني.. اتركوا ابني.. اتركوه.

استدار المخلوق الثاني إليها، وحدق في عينيها بعينيه المستديرتين الثابتتين المخيفتين، فامتلأت نفسها بالرعب، وتردد في أعماقها صوت عجيب، لم يسمعه بشري من قبل.

صوت يأمرها بالاستجابة لبرنامج سابق، تم زرعه في عقلها، عندما كانت داخل الطبق الطائر..

صوت يأمرها بتسليم (تامر) لتلك المخلوقات، عندما تحين اللحظة المناسبة..

وكانت هذه هي اللحظة المناسبة، التي وقع عليها اختيار آخر سكان كوكب المياه..

وقاومت (نورا) في شدة، ولكن قوة مجهولة كانت تجبرها على فتح ذراعيها، والتخلي عن ابنها، الذي ابتعد عنها في بطء، فأشار المخلوق الثاني إلى زميله، الذي يصوب إليها مثلثه، وأدركت هي طبيعة هذه الإشارة على الفور.

لقد انتهت مهمتها، ولم تعد هناك فائدة منها للتجربة..

وعليها الآن أن تبعد عن الساحة..

وأن تموت..

وفي رعب هائل، رأت المخلوق يصوب إليها مثلثه، ويضغط قاعدته، صرخت وهي تبكي في انهيار:

- لا ترحل يا (تامر).. لا تتركني.

وانطلق الشعاع الأزرق الرفيع.

☆ ☆ ☆

12- النهاية..

كان المخلوق يصوب أشعة مثلثه نحو (نورا) تمامًا، من مسافة قريبة للغاية، وبدقة مدهشة، وعلى الرغم من هذا قد حدث أمر عجيب.

لقد أخطأها!!..

لم يصب الشعاع الأزرق (نورا)، بل انحرف عنها، وأصاب الحائط خلفها، فنشر فيه ذلك الجليد المخيف..

وفي حركة حادة، التفت المخلوق إلى (تامر)، الذي يحدجه بنظرة قوية صارمة، لا تتناسب قط مع حجمه الصغير، ولا مع سنوات عمره الثلاث..

وتفجرت الدهشة في عيون وعقول الجميع، عندما تراجع المخلوق أمام (تامر)، في حركة توحي بالخوف، ثم رفع مثلثه نحوه، وكأنما يحاول حماية نفسه منه..

وتطلع (تامر) إلى المثلث بنظرة حادة، فقفز المثلث من يد المخلوق، وارتطم بالجدار في عنف شديد، ثم سقط أرضًا، وتوهج بوهج برتقالي، ثم تلاشي تمامًا..

واستدار المخلوق الأخر نحو (تامر)، وصوب إليه حلقة من حلقاته، وألقاها حوله..

وأحاطت الحلقة بـ (تامر) بالفعل، ولكن الاسطوانة لم تتكون حوله؛ فقد انفجرت الحلقة بدوي مكتوم، عندما ألقى عليها (تامر) نظرة غاضبة..

وتراجع المخلوقان في خوف، أمام دهشة الجميع، وجلست (نورا)، وهي تتطلع إلى ابنها في ذهول، وهو يلتفت إلى المخلوقين، ويشير إلى أحدهما بيده، فيرتفع المخلوق من الأرض، ويرتطم بالحائط، ثم يسقط أرضًا.

وهنا انقض المخلوقان على (تامر) في شراسة، واستخدم كل منهما قواه العقلية، فارتفعت بعض أدوات الحجرة، واندفعت نحو (تامر).

وبدا الأمر أشبه بعاصفة عاتية، هبت داخل ردهة المنزل، عندما أجبر (تامر) تلك الأدوات على التوقف في الهواء، والاندفاع مرة أخرى نحو المخلوقين..

وراح كل شيء يتطاير في الردهة، كما لو أنها في قلب إعصار رهيب، تطاير معه شعر (تامر) في عنف، وهو يقف ثابتًا، صارم النظرات، على نحو مخيف عجيب، يثير الرهبة في القلوب..

وأخيرًا أعلن المخلوقان ضعفهما واستسلامهما..

أعلناه عندما تخليا عن القتال، وبدا كأنهما يبحثان عن وسيلة للفرار من المكان و(تامر) يطاردهما في بطء وصرامة وحزم، مستخدمًا تلك القوة العجيبة، التي يمتلكها عقله، والقادرة على تحريك الأشياء دون لمسها، لقذفهما بكل ما يتحرك في المكان.

وغادر المخلوقان الفيلا، واندفعا نحو الطبق الطائر، الذي التقطهما بشعاعين متعاقبين، ثم ارتفع استعدادًا للإقلاع..

ولكن عينا (تامر) تألقتا في شدة، وهما تتابعان الطبق الطائر، الذي راح يرتج في قوة، وهو يرتفع وينخفض، ثم تألق بضوء برتقالي عنيف، لم يلبث أن تحول إلى الأحمر القاني، ثم..

انفجر..

انفجر على نحو عجيب، أشبه بكرة من الدم، تتفجر في فيلم صامت، ينقله مجهر هائل..

ودون أدنى صوت، تناثرت شظايا الطبق الطائر، وهي تتألق في شدة، قبل أن تتلاشى بدورها، وتختفي إلى الأبد..

وعاد الظلام والسكون يخيمان على كل شيء..

وفي هدوء، اختفت تلك النظرة الصارمة من عيني (تامر)، وحلت محلها براءة الطفولة، وهو يعود إلى الفيلا، ويبتسم لجده وجدته، اللذين تحررا من سجنهما، فور انفجار الطبق الطائر، وراحا يحدقان في حفيدهما في صمت ذاهل، ثم تجاوزهما إلى حيث يقف (خالد)، الذي تحرر بدوره، وأمسك كفه بأصابعه الصغيرة، وهو يمنحه ابتسامة سعيدة فرحة، فربت (خالد) على رأسه في حنان، وهو يغمغم في خفوت:

- نعم يا صغيري.. لقد انتهى كل شيء.. انتهي بخير والحمد لله.

وهنا التفت (تامر) إلى أمه، واتجه إليها، ثم تحسس شعرها بكفه في حنان وحب، وابتسم في وجهها ابتسامة واسعة، وانفرجت شفتاه لأول مرة في حياته، وهو يقول:

- ماما.

تفجر حنانها كله مع كلمته، فاحتوته في صدرها، وانهمرت دموعها تغسل وجهه وشعره، وهي تهتف:

- (تامر).. حمدًا لله على سلامتك يا ولدي.. حمدًا لله.

اندفعت أمها نحوها، وغمرت الصغير بقبلاتها ودموعها، في حين انهمرت دموع الحاج (رشدي) في صمت، وهو يتلو آيات القران

الكريم، ويحمد الله (سبحانه وتعالى) على ما انتهت إليه الأمور..

أما (خالد)، فقد ربت على كتف (نورا) في حنان، وقال:

- حمدًا لله على سلامتك وسلامة (تامر) يا (نورا).. حمدًا لله.. أتعلمين ما الذي يعنيه نطقه لكلمة (ماما) هذه؟

تطلعت إليه في تساؤل، ودموعها تغرق عينيها، فتابع في حب حنون:

- إنه يعني أن ذلك الجسم، الذي غرسوه في عقله، قد استنفد طاقته، ولم يعد له أدنى تأثير عليه، ويمكننا انتزاعه دون أضرار.

غمغمت:

- حقًا؟!

أومأ برأسه إيجابًا، وضم (تامر) إليه، قائلًا:

- نعم يا (نورا).. لقد انتهى كل شيء على خير، بحمد الله وفضله وسننتزع ذلك الشيء من عقل (تامر)، وسيعود طفلًا طبيعيًا.

سألته في خفوت:

- أتظن هذا ممكنًا؟

أجابها في حنان:

- كل شيء ممكن يا (نورا)، ولن أتخلى عنك أبدًا، ولا عن (تامر)، حتى تعود الأمور إلى مجراها، وننسي جميعًا ما حدث.

تركت رأسها يستقر على كتفه، وغمرها ذلك الشعور بالحب والحنان والدفء والأمان، وهي تضم (تامر) إلى صدرها، وتحلم بذلك اليوم، الذي ينسون فيه جميعًا هذه التجربة..

التجربة الرهيبة.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- في قلب الليل..

2- الميلاد..

3- لعبة..

4- في الأعماق..

5- ذلك الشيء..

6- الحاجز..

7- العملية..

8- المارد..

9- وجهًا لوجه..

10- الهروب..

11- الخطر..

12- النهاية..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الزهرة الماسية

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

قصص العدد

الزهـرة الماســية

1- هـدى..

«البريد يا آنسة (هدى)..»

تلقت (هدى) هذا النداء، عبر جهاز الاتصال الداخلي، المثبت فوق مكتبها، فأسرعت تضغط زره، وهي تجيب رئيس مجلس إدارة الشركة، قائلة:

- على الفور يا سيدي.

نهضت من خلف مكتبها الصغير، في حجرة السكرتارية، الملحقة بمكتب رئيس مجلس الإدارة، وعدلت ثوبها، ثم التقطت ملف البريد، وطرقت باب مكتب الرئيس، قبل أن تدلف إلى حجرته، وتبتسم قائلة:

- البريد يا سيدي.

رفع رئيس مجلس الإدارة عينيه إليها، وقال في رصانة، محاولًا إخفاء إعجابه بجمالها وقوامها المتناسق:

- هل وصل القرار الوزاري، الذي أبلغونا به؟

هزت رأسها نفيًا، وهي تضع ملف البريد أمامه، قائلة:

- ليس بعد يا سيدي، ولكن لدينا عدة شكاوى اليوم.

قال في ضجر، وهو يطالع الأوراق، ويذيلها بتوقيعه وملاحظاته:

- الشكاوى لا تنتهي أبدًا.. كل شخص يتصور نفسه المظلوم الأول في الكون.

وافقته بعبارات تقليدية، وتركته يطالع البريد، وهي تدير عينيها في حجرته الواسعة، التي تعد أفضل الحجرات تأثيثًا، في الشركة

كلها..

كانت الحجرة تتكون من مكتبه الكبير، ومكتبة ضخمة، تحتل حائطًا بأكمله تقريبًا، وطاقم أنيق من مقاعد الجلوس، بالإضافة إلى تلفاز كبير، وثلاجة مكتب أنيقة، وبساط بني بالغ الجودة..

ولكن (هدى) لاحظت أمرًا أثار انتباهها كثيرًا؛ في المكتبة الضخمة؛ فقد كانت عدة أرفف في ركنها قد أخليت من الكتب، التي تراصت على الأرض إلى جوارها في غير انتظام، مما أثار دهشة (هدى)، وجعلها تشير إليها قائلة في استنكار:

- من فعل هذا؟

توقف رئيس مجلس الإدارة عن توقيع ومطالعة بريده، وهو يرفع رأسه إليها، قائلًا في شيء من التوتر:

- من فعل ماذا؟

أشارت إلى الأرفف الخالية، وهي تقول في ارتباك:

- معذرة يا (حسن) بك، ولكن هذه الأرفف الخالية أثارت دهشتي؛ فلقد تركتها مرتبة أمس، و..

قاطعها في صرامة، لا تخلو من العصبية:

- أنا فعلت هذا.

قالت في دهشة:

-أنت؟

هتف في عصبية:

- نعم.. أنا فعلتها.. ما شأنك أنت بهذا.

تخضب وجهها بحمرة الخجل، وارتبكت في شدة، وهي تقول:

- معذرة يا سيدي.. لم أقصد هذا.. إنني..

لم تستطع إكمال عبارتها، من فرط ارتباكها، فتحركت نحو المكتبة، مستطردة:

- سأعيد ترتيب الكتب.

قال في حدة أفزعتها:

- آنسة (هدى)..

استدارت إليه في شيء من الذعر، فأضاف في توتر شديد:

- اتركيها كما هي.

لم تفهم السر في هذا، ولكنها تراجعت إلى موقعها، وهي تقول:

- كما تأمر يا سيد (حسن).. كما تأمر.

لاحظت أن هذا الأمر أصابه بعصبية شديدة، فقد بدأ يوقع الأوراق دون أن يقرأ محتواها، ثم لم يلبث أن قال:

- هيا انصرفي.

أسرعت تغادر الحجرة، متفادية ثورته، وهي تتساءل في دهشة عن سر كل هذا الغضب والتوتر، من أجل بعض الكتب، ولكنها لم تكد تجلس خلف مكتبها، حتى تحول تساؤلها هذا إلى بركان من الشك والفضول..

لماذا أفرغ رئيس مجلس الإدارة الأرفف من الكتب؟..

لم تجد جوابًا لسؤالها، فهزت كتفيها لتنفضه عن رأسها، وعادت تزاول عملها في توتر، وعقلها يعجز عن نسيان الأمر..

وفجأة سمعت ذلك الصوت الأجش، وهو يقول:

- أيمكنني مقابلة (حسن) بك؟

رفعت رأسها إلى صاحب الصوت، ووقع بصرها على شاب وسيم، أنيق الملبس، يتطلع إليها بابتسامة ودود، وإلى جواره أخر يناقضه في كل شيء، فهو غليظ الملامح، حاد النظرات، تحمل نظرته عدوانية عجيبة، في حين تحمل يده حقيبة كبيرة وشيئًا مفلطحًا كبيرًا مستطيلًا يخفيه داخل لفافة من أوراق الصحف..

ولثوان لم تنطق (هدى) بحرف واحد، وهي تنقل بصرها بين الشابين، حتى قال الوسيم بابتسامته اللطيفة:

- هل يمكنني مقابلته؟

أيقظها تكرار السؤال من شرودها، فقالت في سرعة:

- أهناك موعد سابق؟

هز الشاب رأسه، وهو يقول:

- لا.. لا يوجد موعد سابق.

قالت في آلية:

- في هذه الحالة لن يمكنني أن..

قاطعها الشاب في صرامة مفاجئة:

- ولكنه سيستقبلني بالتأكيد.

تطلعت إليه في دهشة، وهي تقول:

- لماذا؟.. أأنت أحد أقاربه؟

ابتسم وهو يقول:

- أخبريه فقط أن (حاتم) هنا.

أطاعته دون إصرار، وضغطت زر الاتصال، بينها وبين رئيس مجلس الإدارة، وقالت:

- معذرة يا (حسن) بك، ولكن هناك شاب يطلب مقابلتك.. اسمه (حاتم)، و..

قاطعها الرئيس في لهفة واضحة:

- دعيه يدخل على الفور.

أدهشتها تلك اللهفة الشديدة في صوته، والتي يختفي داخلها شيء من التوتر والقلق، ولكنها أجابت:

- كما تأمر يا سيدي.

ثم رفعت رأسها إلى الشاب، مستطردة:

- (حسن) بك ينتظرك في مكتبه.

ابتسم الشاب في ثقة، وهو يقول:

- ألم أقل لك؟

ودخل إلى حجرة الرئيس، وخلفه ذلك الغليظ، الذي رمقها بنظرة لم ترق لها، قبل أن يغلق الباب خلفه، فقالت لنفسها في حيرة:

- تري من (حاتم) هذا؟

قررت أن تنفض الأمر كله عن رأسها، وأن تعود إلى عملها، ولكنها فوجئت بصوت الرئيس، عبر جهاز الاتصال، وهو يقول في حزم متوتر:

- لا تسمحي لأي مخلوق بالدخول يا آنسة (هدى)، مهما كانت الأسباب.

قالت في حيرة:

- كما تأمر يا (حسن) بك.

ولكن فضولها ودهشتها تضاعفا، مع كل تلك الإجراءات المعقدة، وقفزا بغتة إلى ذروتهما، مع صوت الدقات المكتومة، التي تسللت إلى مسامعها، من حجرة الرئيس، والتي استمرت بضع دقائق، ثم توقفت..

ومضت عشر دقائق أخرى، بعد توقف الأصوات، ثم غادر (حاتم) ورفيقه حجرة الرئيس، وقد اتسعت ابتسامة (حاتم)، وامتلأت بقدر أكبر من الظفر والثقة، في حين لم يعد رفيقه يحمل سوى الحقيبة، التي بدا من طريقة حمله لها أنها صارت خاوية خفيفة، ورمقها الغليظ بنظرة أخرى لم ترق لها، وهو يغادر حجرتها مع (حاتم)، الذي لوح لها بأصابعه في خفة وأناقة، وهو يقول:

- إلى اللقاء يا آنسة (هدى).

أجابت تحيته بهزة خفيفة من رأسها، ثم غلبها الفضول، فاتجهت إلى حجرة الرئيس، وطرقت بابها طرقة واحدة، ثم دفعته وولجت الحجرة دون أن تنتظر الجواب..

وفي حركة حادة عنيفة، التفت إليها الرئيس، هاتفًا:

- ما هذا؟.. كيف تجرئين على دخول مكتبي دون استئذان؟

أجابته وفضولها يغلب ارتباكها:

- معذرة.. لقد دققت الباب، وتصورت أن..

صاح مقاطعًا في عصبية:

- لا تدخلي حتى أدعوك.

لم تغضب لصيحته هذه المرة، فقد انشغل عقلها مع عينيها، في التطلع إلى أرفف المكتبة، وقد عادت إليها كل الكتب، ولكن دون نظام.

وعندئذ أدركت (هدى) أن هذه الأرفف تخفي سرًا.

سرًا رهيبًا.

☆ ☆ ☆

2- السر..

بدت (هدى) شديدة الأناقة والجمال، في الصباح التالي، وهي تدخل مقر الشركة، وتلقي التحية على زميلاتها وزملائها، الذين بادلوها التحية في مرح، وسألتها إحدى زميلاتها، وهي تشير إلى دبوس أنيق من الماس، يزين صدرها، على هيئة زهرة بسيطة:

- ألا تظهرين مرة واحدة، بدون تلك الزهرة الماسية يا (هدى)؟

ابتسمت (هدى)، قائلة:

- إنني أتفاءل بها.

كانت هذه الزهرة الماسية بالفعل، هي أفضل ما يميزها، فهي لم تأت يومًا واحدًا إلى الشركة، طوال سنوات عملها فيها، دون أن تزين بها صدرها، حتى أن بعض زميلاتها أطلقن عليها نفسها اسم (الزهرة الماسية)، ورحن يداعبنها به طيلة الوقت..

وفي ذلك اليوم لم تلتفت (هدى) كثيرًا إلى زميلاتها ودعاباتهن، فقد حضرت مبكرًا، في هذا اليوم بالذات، لتبحث عن السر..

سر مكتبة رئيس مجلس الإدارة..

ولم تكد (هدى) تبلغ حجرتها الصغيرة، الملحقة بحجرة الرئيس، حتى أغلقت الباب خلفها في إحكام، ثم أسرعت إلى حجرة المدير، وفتحت بابها في لهفة، وهي تتطلع إلى المكتبة، ثم لم تلبث أن اندفعت نحوها، وراحت تفحص تلك الأرفف، التي كانت خالية في اليوم السابق، في اهتمام بالغ وسرعة كبيرة..

كان شكل المكتبة الخارجي يبدو عاديًا، لا يدعو للشك، أو يثير الانتباه، ولكنها لاحظت أن الكتب الموضوعة في هذا الرف،

تبدو وكأنها تحتل مساحة أكبر من باقي الكتب، فمدت يدها في اهتمام، تلتقط واحدًا من هذه الكتب، عندما سمعت صوت الرئيس من خلفها، وهو يقول في حدة وصرامة:

- ماذا تفعلين؟

انتفض جسدها كله في عنف، وقفز الكتاب من يدها، واستقر بين قدميها على الأرض، وهي تلتفت في ذعر إلى رئيس مجلس الإدارة، الذي يرمقها بنظرة عدائية شرسة غاضبة، وحاولت أن تتماسك، وهي تهتف:

- (حسن) بك!.. لقد أفزعتني.

كرر سؤاله في غضب وصرامة:

- ماذا تفعلين؟

ارتبكت أكثر وأكثر، وهي تقول:

- لا شيء يا (حسن) بك.. لم تكن الكتب موضوعة بنظام جيد، فأردت إعادة ترتيبها قبل حضورك.. هذا كل شيء.

رمقها بنظرة شك شديدة، وهو يتطلع إليها في صمت، قبل أن يقول:

- لا تدخلي مكتبي دون استئذان.

هزت رأسها في قوة، معلنة استسلامها لتعليماته، وأسرعت تغادر حجرته إلى حجرتها، في حين ظل هو معقود الحاجبين، يتطلع إلى الباب الموصل بين حجرتيهما، ثم جلس خلف مكتبه، وتطلع لحظة إلى المكتبة، وبعدها التقط سماعة الهاتف، وضغط أزراره في بطء، وانتظر حتى سمع صوت (حاتم)، فقال في توتر بالغ:

- يبدو أن أحدهم قد كشف أمرنا يا (حاتم)، وأصبح من المحتم أن نتخذ اجراءً وقائيًا سريعًا.

وازداد انعقاد حاجبيه، وهو يضيف:

- وحاسمًا.

☆ ☆ ☆

لم يتوقف جسد (هدى) عن الارتجاف، وهي تقف أمام نافذة حجرتها، في الطابق الرابع، متطلعة إلى الطريق في شرود..

لقد أصبحت واثقة، دون أدنى شك، من أن هذه المكتبة تخفي سرًا ما يثير أعصاب رئيسها إلى هذا الحد..

ولكن أي سر هذا؟..

ولماذا يقلق رئيس مجلس الإدارة هكذا؟..

اشتعل فضولها الأنثوي أكثر وأكثر، وراح يلتهم عقلها بلا رحمة، حتى سمعت صوت رئيسها يقول:

- آنسة (هدى)..

انتزعها صوته من شرودها وأفكارها، فاندفعت إلى جهاز الاتصال، هاتفة:

- تحت أمرك يا سيدي.

انتفض جسدها، عندما وجدته يقف أمامها، وتراجعت عن مكتبها، قائلة في توتر:

- (حسن) بك.. أنت هنا؟

أخافتها نظراته الحادة، قبل أن يبتسم قائلًا:

- هل يضايقك هذا؟

هزت رأسها في قوة، قائلة:

- مطلقًا.

صمت لحظات أخرى، ثم قال في هدوء عجيب:

- ما رأيك في عمل إضافي؟

كانت بالنسبة إليه عقبة في طريق الملايين، التي حلم بامتلاكها.. الملايين التي أقنعته بمشاركة (حاتم) و(رأفت) عملهما القذر..

بدا العرض أشبه برشوة صريحة، ولكن فضولها دفعها للتظاهر بالقبول، وهي تقول في سرعة:

- لا بأس.. أين؟

ابتسم قائلًا:

- هنا.

رددت خلفه في دهشة:

- هنا؟

أجاب في هدوء:

- نعم.. هنا.. هناك عمل يحتاج منا إلى البقاء، بعد ساعات العمل المعتادة، وسأمنحك مكافأة ضخمة لو قبلت، و..

قاطعته في سرعة:

- إنني أقبل.

اتسعت ابتسامته، وهو يقول:

- عظيم.

وعاد إلى حجرته في هدوء، تاركًا إياها في لجة من الانفعالات والدهشة والتساؤل، غارقة وسط بحر من الفضول والشك..

بحر بلا قرار.

☆ ☆ ☆

أشارت عقارب الساعة إلى العاشرة مساءً دون أن يغادر رئيس مجلس الإدارة مكتبه، أو يكلفها أية أعمال، حتى تحول الفضول والشك في أعماقها إلى ملل وضجر لا حدود لهما، فنهضت تتطلع من النافذة إلى المدينة الغارقة في صمت وسكون، فرضهما الطقس الشديد البرودة في الخارج، وتمتمت:

- كم أتوق إلى قدح من الشاي.

تنهدت في عمق، ثم اتجهت إلى باب حجرتها، وهي تتابع:

- لو أن عم (علي) ترك أدواته في حجرته، فسأمنحه مكافأة كبيرة في الصباح.

غادرت حجرتها إلى الممر الخارجي، وأدهشها أن وجدت المكان كله خاليًا ساكنًا، فغمغمت في شك:

- أين ذهب الجميع؟.. هل يعمل رئيس مجلس الإدارة وحده هذا المساء؟

بحثت في كل المكاتب عن أحد من الزملاء، ولكنها وجدتها خالية تمامًا، فتسلل الشك إلى نفسها، وهي تقول:

- لماذا طلب مني الحضور، في هذه الساعة المتأخرة إذن؟

تحول شكها إلى مزيج من الخوف والقلق، عندما تناهى إلى مسامعها وقع أقدام تقترب من ممر جانبي، فتراجعت في ذعر، والتصقت بالحائط، ولكن وقع الأقدام واصل اقترابه وتقدمه،

فاندفعت عائدة إلى حجرتها، ولم تكد تدخلها حتى أطلقت شهقة ذعر ودهشة، عندما وجدت (حاتم) داخلها، يتطلع إليها بابتسامة ساخرة، فهتفت:

- أستاذ (حاتم)؟!.. كيف وصلت إلى هنا؟

أجابها في برود ساخر:

- لدي وسائلي.

كانت نظراته تحمل شيئًا مخيفًا، جعلها تتراجع أكثر وأكثر..

وفجأة أمسكت يد قوية كتفها من الخلف، فأطلقت صرخة فزع قصيرة، وهي تلتفت إلى صاحبها، ولم تكد ترى وجهه، حتى أطلقت صرخة أكثر قوة..

كان صاحب الملامح الغليظة، الذي يرافق (حاتم) دائمًا، ولقد سألها هذا الأخير بابتسامته الساخرة:

- هل أفزعك (رأفت)؟

أرادت أن تنفي هذا، ولكنها وجدت نفسها تجيب في صوت مرتجف:

- نعم.

أطلق (حاتم) ضحكة ساخرة، وقال:

- إنه يستحق العقاب إذن.

ثم مال نحوها، وداعب شعرها الأسود الناعم بسبابته، وهو يسألها:

- ماذا وجدت في المكتبة؟

هوى قلبها بين قدميها، وهي تقول في ذعر:

- المكتبة؟!.. وما شأني أنا بالمكتبة؟

أطلقت شهقة رعب، عندما جذبها من شعرها بغتة، وهو يكرر في صرامة:

- ماذا وجدت؟!

هتفت:

- لم أجد شيئًا.. أقسم لك.

ارتسم الغضب على وجهه، وأمسك زهرتها الماسية، وهو يقول:

- أنيق جدًا هذا الدبوس الماسي.. أليس كذلك؟

رأت رئيسها يعبر ذلك الباب، الذي يصل مكتبها بمكتبه، فهتفت به مستنجدة:

- أستاذ (حسن).. النجدة!

ولكن الرجل تجاهلها تمامًا، وهو يسأل (حاتم):

- هل تعلم شيئًا؟

أجابه (حاتم) في ضيق:

- إنها ترفض الاعتراف حتى الآن.

أشار رئيسها بكفه، قائلًا:

- دعنا نتخلص منها إذن، فلم يعد أمامنا سوى هذا.

صاحت (هدى) في رعب:

- تتخلصون مني؟!.. ولكن لماذا يا (حسن) بك؟.. إنني لم أفعل شيئًا.

ألقى (حسن) عليها نظرة متوترة، ثم قال لـ (حاتم) في عصبية:

- هيا.. فلننته من هذا الأمر في سرعة.

ثم عاد إلى حجرته، وأغلق بابها خلفه في إحكام، فأشار (حاتم) إلى (رأفت)، قائلًا:

- هيا.. ألم تسمع ما قاله الرجل؟

حملها (رأفت) كطفل صغير، وهو يحيط ذراعيها بساعديه في قوة، فصرخت:

- لا.. لا.. اتركوني.

ولكن (حاتم) فتح نافذة حجرتها، وهو يقول ساخرًا:

- الوداع يا آنسة (هدى).. تسعدني معرفتك، على الرغم من قصرها.

أطلقت صرخة رعب أخرى، وقاتلت بكل قوتها للحفاظ على حياتها، ولكن (رأفت) كان قويًا للغاية، وهو يحملها إلى النافذة، ثم يلقيها خارجها في هدوء..

من الطابق الرابع..

☆ ☆ ☆

3- المجهول..

«وقيد الحادث ضد مجهول..»

قالها (حاتم) وأطلق ضحكة ساخرة عالية، وهو يرفع كأسه في وجهي (رأفت) و(حسن)، مستطردًا في سخرية:

- نخب هذا المجهول، الذي خلصنا من هذه الفضولية.

رفع (رأفت) كأسه، يضربه بكأس (حاتم)، في حين عقد (حسن) حاجبيه، وبدا الضيق على وجهه، فسأله (حاتم) في سخرية:

- ألا يروق لك هذ النخب؟

قال (حسن) في حدة:

- لا يروق لي الأمر كله.. لقد ارتكبتما جريمة قتل، فما الذي يستحق الاحتفال في هذا؟

رفع (حاتم) حاجبيه في سخرية، وهو يقول:

- ارتكبنا؟!.. تقصدنا جميعًا بالتأكيد، فأنت شريك متضامن في هذه الجريمة.

أشاح (حسن) بوجهه، قائلًا:

- فليكن.. ما زال الأمر إذن لا يستحق الاحتفال.

قهقه (حاتم) ضاحكًا، وقال:

- يا للمشاعر الرقيقة.

ثم مال نحوه، مستطردًا في جدية:

ولكن في نظري أنا يستحق الأمر الاحتفال.. بل يستحق حفلًا كبيرًا، فلقد تخلصنا من تلك الفضولية، ولم نتعرض لأي عقاب،

وأمكننا إقناع الجميع بانتحارها، بسبب قصة حب فاشلة، وحافظنا على سرنا في الوقت ذاته، فما الذي تطلبه أكثر من هذا؟

لوح (حسن) بكفه، قائلًا في حدة:

- لا شيء.

ثم هب واقفًا، وهو يقول:

- سأنصرف.. أريد العودة إلى منزلي مبكرًا.

قال (حاتم) ساخرًا:

- لماذا؟.. إنك أرمل حسبما نعرف.

صاح محتدًا:

- أريد الرحيل فحسب.. أنا حر في اتخاذ مثل هذا القرار.. أليس كذلك؟

واندفع مغادرًا المكان، وصفق الباب خلفه في عنف، فانعقد حاجبا (حاتم) في غضب وصرامة، وهو يقول:

- أعصابه المرتجفة هذه لا تروق لي.

ارتشف (رأفت) كأسه في هدوء، وهو يقول بصوته الأجش:

- اطمئن.. إنه متورط مثلنا تمامًا.

- قلب (حاتم) شفتيه في ازدراء، وهو يقول:

- كم أكره الضعفاء أمثاله.. إنني أحلم بخنقه بيدي، ولكننا نحتاج إلى وجوده على قيد الحياة للأسف.

ابتسم (رأفت) ابتسامة باهتة، وهو يقول:

- إنها أفضل صفقة عقدناها، فلن تكشف الشرطة مخزننا الجديد هذا قط.

صمت (حاتم) لحظات، ثم قال:

- ربما كان هذا صحيحًا، ولكنني لا أشعر بالارتياح، عندما نتعامل مع شخص غير محترف، وجشع في الوقت نفسه.

توقف (رأفت) عن ارتشاف كأسه، وسأله في اهتمام:

- أتخشى أن يسرقنا؟

أجابه (حاتم) في صرامة:

- لن يجرؤ.

ثم تطلع إلى الباب، الذي غادره (حسن) منذ قليل، وأضاف في شراسة:

- ولو فعل فسأقتله.. بلا رحمة.

☆ ☆ ☆

شعر (حسن) بثقل يجثم على صدره، وهو يقود سيارته عائدًا إلى منزله، في هذه الليلة، وزفر من أعماق صدره في حدة وضيق..

لم يكن باستطاعته أبدًا أن يتكيف مع ما حدث..

صحيح أنه شريك في الجريمة، ولكنه ليس محترفًا، ولم يكن يرغب أبدًا في أن تصل الأمور إلى هذا الحد..

لولا فضول (هدى)..

راح يلعن الفضول الأنثوي، الذي جعلها تدس أنفها فيما لا يعنيها، وتضطرهم للتخلص منها..

ولكنه وافق على هذا..

وافق على قتلها..

كانت بالنسبة إليه عقبة في طريق الملايين، التي حلم بامتلاكها..

الملايين التي أقنعته بمشاركة (حاتم) و(رأفت) عملهما القذر..

لقد أبلغاه أنه سيحصل على عشرة في المائة من قيمة المخدر المخبأ في خزانه بمكتبه، بعيدًا عن أعين رجال الشرطة ومكافحة المخدرات..

وكانت فكرتهما عبقرية، وتبدو مأمونة للغاية..

وهما توليا كل مراحل التنفيذ..

كل ما فعله هو أن أزاح الكتب، من أرفف المكتبة، ثم جاءا، وصنعا ذلك المخزن السري، في خلفية المكتبة، وأعادا الأرفف إلى موضعها. ولم يعد من الممكن أن يكشف مخلوق واحد سر هذا المخزن الجديد، ولا أن يشك في أن مكتب رئيس مجلس إدارة الشركة يخفي شيئًا كهذا..

لولا فضول (هدى)..

فضولها الذي حول الأمر، من مجرد إخفاء مخدرات، إلى جريمة قتل، مع سبق الإصرار والترصد..

ولكن من يمكنه إثبات التهمة عليه؟

لقد أقنعها بالبقاء في الشركة، بعد انصراف الجميع، وتظاهر هو نفسه بالانصراف، أمام أعين الجميع، بعد أن تسلل من الباب الخلفي لمكتبه، ثم عاد سرًا من الباب نفسه، بعد موعد الانصراف بساعة واحدة، دون أن يشعر به حارس المبنى، في حين بقيت (هدى) في مكتبها، وهي تظنه داخل مكتبه، دون أن تنتبه إلى انصرافه وعودته..

ثم جاء (حاتم) و(رأفت)، من الباب الخلفي أيضًا..

وكان ما كان..

زفر مرة أخرى في عصبية وتوتر، وانتبه إلى أنه قد اقترب من منزله، فخفض سرعة سيارته، وانحرف بها نحو الإفريز، و..

وفجأة انتفض جسده كله في رعب.

وفقد السيطرة على عجلة القيادة..

وانحرفت السيارة في عنف، لترتطم بالإفريز في قوة، ثم تقفز فوقه، وتصطدم بجدار منزله..

وعلى الرغم من الحادث، ومن ارتطام عجلة القيادة بصدره، إلا أنه لم يوقف محرك السيارة، ولم يشعر بالألم، بل ظل يحدق في الطريق ذاهلًا..

لقد رآها..

من المؤكد أنه رآها..

كانت تسير عند ناصية الشارع، وهو يقترب من منزله..

ولقد رمقته بنظرة لن ينساها أبدًا..

نظرة غاضبة، تفيض مقتًا وكراهية..

وبكل الرعب في أعماقه، راح جسده ينتفض، وهو يحدق في الناصية الخالية في ذهول، حتى اندفع بواب العمارة إليه، هاتفًا:

- (حسن) بك.. رباه!.. ماذا حدث يا بك؟

انتفض وهو يلتفت إليه، ويحدق في وجهه لحظة، وكأنه يراه لأول مرة، ثم سأله في عصبية بالغة:

- من هذه المرأة؟

توقف البواب في دهشة، يسأله:

- أية امرأة؟

سأله في حدة:

- تلك التي غادرت البناية توًا.

بدت الحيرة على وجه البواب، وهو يقول:

- لست أدرى يا (حسن) بك.. لم أكن هنا، و..

صرخ فيه (حسن):

ما الذي تعنيه بأنك لم تكن هنا.. عملك هو أن تبقى، وأن تحرس المكان طيلة الوقت.

قال البواب في توتر:

- ولكنني بشر يا (حسن) بك، ولدي احتياجاتي.

صرخ فيه:

- كلنا بشر، وكلنا..

بتر عبارته بغتة، وعاد الرعب يملأ نفسه في عنف، وهو يصرخ في أعماقه..

نعم.. كلنا بشر، ولكن ماذا عنها؟

أهي بشر أيضًا؟..

مستحيل أن تكون كذلك.. لقد تعرف جثتها في المشرحة، وحضر جنازتها بنفسه، ورآهم يضعون جسدها في مقبرة أسرتها.

من تلك التي يراها الآن إذن؟..

إنها شبح.

نعم.. شبحها..

ارتجف جسده للفكرة، واخترق صوت البواب أذنيه، وهو يسأله:

- أأنت بخير يا (حسن) بك؟

التفت إليه في ارتياع، وغمغم شاحبًا:

- لا.. لست بخير.

عاونه البواب على الخروج من السيارة، ثم دفعها بيديه إلى جوار الإفريز، وسأله في حذر:

- هل أستدعي طبيبًا؟

هز (حسن) رأسه نفيًا، وقال:

- كلا.. لست أحتاج إلى طبيب.. إنه بعض الإرهاق فحسب.

رافقه البواب حتى المصعد، وسأله:

- هل أصعد معك؟

لوح (حسن) بكفه، قائلًا:

- كلا.. يمكنني الصعود وحدي.

استقل المصعد، وصعد به إلى منزله، وصورتها لا تنمحي من رأسه قط.

لقد رآها..

مستحيل أن يكون هذا وهمًا!!..

الوهم لا يأتي قويًا بهذه الصورة..

ولا واضحًا على هذا النحو..

ولكن ماذا لو أنه رأى أخرى تشبهها، وصور له عقله القلق أنها هي؟!..

راقه هذا التفسير، وراح يقويه في أعماقه..

نعم.. إنها امرأة أخرى..

كل ما في الأمر هو أنه كان منهمكًا في التفكير فيها، عندما وقع بصره على هذه المرأة، فصور له خياله إنها (هدى)..

هذا هو المنطق الصحيح..

لقد ماتت (هدى).

والموتى لا يعودون..

وقر هذا في نفسه، وعاد الارتياح يتسلل إليه، وهو يغادر المصعد، ويتجه إلى شقته، ففتح بابها، ودلف إلى ردهتها، وأضاء مصابيح الردهة وهو يطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا، محاولًا السيطرة على أعصابه، واتجه مباشرة إلى حجرة نومه، و..

وانتفض جسده في رعب أكثر، جعله يتراجع كالمصعوق، ويلتصق بالحائط في ذعر لا مثيل له..

فهناك، فوق فراشه، وفي منتصفه مباشرة، كانت تستقر زهرة صغيرة، انعكست فوقها أضواء الحجرة، فتألقت بضوء خلاب..

ولم تكن مجرد زهرة عادية..

كانت زهرة رآها كثيرًا، طوال فترة عمله بالشركة.

إنها نفس الزهرة، التي كانت ترتديها (هدى)، دائمًا..

الزهرة الماسية..

☆ ☆ ☆

4- الشبح..

التقى حاجبا (حاتم) في شدة، حتى كادا يمتزجان، وهو يمسك تلك الزهرة الماسية، ويتطلع إليها في دهشة وحيرة وتوتر، قبل أن يقول في حنق:

- ما الذي يعنيه هذا بالضبط؟

لم يكن جسد (حسن) قد توقف عن الارتجاف بعد، وهو يهتف:

- لقد عادت.. عادت من قبرها لتنتقم مني.

قال (رأفت) في خشونة:

- الموتى لا يعودون.

لوح (حسن) بكفه في عنف، وهو يهتف:

- كيف تفسر هذا إذن؟.. كيف وصلت تلك الزهرة الماسية إلى فراشي؟

لم يكن لديهما تفسير لهذا، فاكتفى (رأفت) بتكرار عبارته:

- الموتى لا يعودون أبدًا.

أما (حاتم)، فقال في عصبية:

- هناك شخص ما يعبث بنا.

هتف (حسن):

- شخص مثل من؟.. لقد كانت وحدها تعرف سرنا، ولم يرنا أحد، عندما ألقينا بها من النافذة، وإلا شهد ضدنا، فمن هذا الذي يعبث بنا؟!

قال (حاتم) في حدة:

شخص يريد ابتزازنا، أو أحد أقاربها.

قال (حسن) في انهيار:

- أي أقارب.. أنسيت أن جنازتها كلها لم تضم سوى زملائها في الشركة؟.. إننا لم نر سوى خالها الكهل، وعمتها العجوز.. أيهما في رأيك يمكنه التسلل إلى شقتي، ووضع هذه الزهرة الماسية فوقه؟

صاح (حاتم):

- أي شخص؟

كان يشعر في أعماقه أيضًا بالتوتر والعصبية، وبشيء من الخوف، جعله يردد في حزم:

- لست أومن بالأشباح والعفاريت.

قالها وكأنه يحاول إقناع نفسه بها، فردد (رأفت):

- وأنا كذلك.

صاح (حسن):

- أما أنا فأومن بالأشباح، والعفاريت، والأرواح، وكل خرافات الدنيا، فقد رأيتها بنفسي هذه الليلة.

هز (حاتم) رأسه في قوة، وهو يقول:

- لست أصدق هذا.

قال (حسن) في عصبية بالغة:

- صدقه أو لا تصدقه.. لقد رأيتها بنفسي.. صحيح أنني حاولت إقناع عقلي بأن هذا مجرد وهم، ولكنني أيقنت من أنني رأيتها بالفعل، عندما وجدت هذه الزهرة الماسية على فراشي.

قال (حاتم) في حدة:

- شخص ما يعبث بنا.. يمكنني أن أقسم على هذا.

ثم التفت إلى (رأفت)، وقال في صرامة:

- اذهب في الصباح إلى المستشفى، وأحضر لي نسخة من شهادة وفاتها، وحاول أن تعرف من تسلم متعلقاتها.

أومأ (رأفت) برأسه إيجابًا، في حين قال (حسن) في توتر:

- وبم يفيدنا هذا؟

أجابه (حاتم):

- ستؤكد لنا شهادة الوفاة مصرعها، وسنعلم من حصل على الزهرة الماسية، ومن يعبث بنا الآن.

قال (حسن) في حدة:

- وماذا عن تلك التي رأيتها؟

أجابه في عصبية:

- وهم.. مجرد وهم، ولن أومن بالعكس أبدًا.

لم يعد (حسن) يشعر بالرغبة في مجادلته، بعد كل عناده وإصراره ولكنه في أعماقه ظل يشعر أنه لا يقاتل بشرًا..

بل شبحًا..

شبحها..

☆ ☆ ☆

من المؤكد أن (حسن) لم ينعم بنوم جيد، في هذه الليلة، فقد بدا شديد الإرهاق، وهو ذاهب إلى مكتبه، في الصباح التالي،

حتى أن سكرتيرته الجديدة سألته في قلق:

- أأنت بخير يا (حسن) بك؟

لوح بكفه في عصبية، دون أن يجيب، ودخل إلى حجرته في حدة، وصفق بابها خلفه في قوة، ثم ألقى جسده على ذلك المقعد الوثير خلف مكتبه، وأطلق من أعماق صدره زفرة قوية عنيفة..

إنه لم يحظ بالنوم حقًا..

ظل طيلة الوقت يتخيل أن شبحها سيظهر فجأة في حجرته..

تصورها ترمقه بنفسي النظرة المفعمة بالبغض والكراهية والحقد، وهي تقف على قيد خطوة واحدة من فراشه، ثم تنحني نحوه حتى تكاد تلامس وجهه، وتقول بصوت عميق، وكأنه يأتي من أعماق قبرها:

-أنت قتلتني.

انتفض في عنف، عندما بلغ بخياله هذه النقطة، وراح يتلفت حوله في رعب، وكأنه يخشى أن يبرز الشبح إلى جواره بغتة، ثم جرى بصره فوق مكتبة..

وتجمد في رعب حقيقي..

كان هناك مسدس صغير، يستقر على سطح مكتبه، فوق عدد من الأوراق والمستندات..

مسدس لم ينتبه إليه إلا في هذه اللحظة..

وكان هذا المسدس مسدسه الشخصي..

نفس المسدس الذي يحتفظ به في حجرة نومه..

وفي رعب، راحت عشرات الأسئلة تدور في رأسه..

كيف أتى المسدس إلى هنا؟..

من أحضره؟..

ولماذا؟..

لم يجد في نفسه جوابًا سوى هذا الشبح..

شبحها الذي يطارده، ويسعى للانتقام منه.

ولكن لماذا أحضر الشبح هذا المسدس؟..

هل يحاول دفعه للانتحار؟..

ارتجف أكثر وأكثر مع هذا الخاطر، وظل يتطلع إلى المسدس في رعب، وهو يخشى مجرد لمسه، ثم لم يلبث أن استجمع البقية الباقية من شجاعته، ومد يده إلى المسدس في حذر، وقبل أن تبلغه أصابعه، ارتفع رنين الهاتف بغتة، فتراجع في ذعر، وأطلق شهقة فزع، وراح قلبه يخفق في عنف، ثم التقط سماعة الهاتف، وقال بصوت مختنق:

- من المتحدث؟

أتاه صوت (حاتم). وهو يقول في توتر:

- إنه أنا.. أخبرني.. أما تزال تلك الزهرة الماسية بحوزتك؟

أجابه (حسن):

- لقد تركتها بالمنزل.. كيف كنت تريد مني حملها؟

ثم سأله في لهفة:

- هل علمت من أخذها من المستشفى؟

أجابه (حاتم) في عصبية:

- هناك من يعبث بنا حتمًا.

سأله (حسن):

- هل عرفت من هو؟

صمت (حاتم) لحظة، بدت أشبه بدهر كامل، بالنسبة لـ (حسن) قبل أن يجيب في توتر:

- الزهرة الماسية ما تزال بالمستشفى.

ارتجف جسد (حسن)، وهو يهتف:

- ماذا؟!

صرخ الرعب في أعماقه..

كيف ما تزال بالمستشفى، وقد تركها بالمنزل هذا الصباح؟

كيف؟!..

أتاه صوت (حاتم)، عبر الهاتف، وهو يتابع متوترًا:

- لم يتسلم أحد متعلقات (هدى) حتى الآن، وشهادة وفاتها واضحة وصريحة.. كسر في الجمجمة، وهبوط حاد في الدورة الدموية، مع تمزق بالنخاع الشوكي..

لقد قرأت شهادة الوفاة، ورأيت الزهرة الماسية بنفسي.

لم يجب (حسن)..

فقط ترك سماعة الهاتف تسقط من يده، وهو يحدق في المسدس ذاهلًا..

الآن فقط لم يعد لديه شك..

إن شبحها يطارده..

ومن المؤكد أنه يحاول دفعه إلى الانتحار..

وفي آلية، امتدت يده إلى المسدس، والتقطه، ورفعه نحو رأسه، و..

وأفاق فجأة..

أفاق من رعبه وذهوله، فأبعد المسدس عن رأسه في ذعر، وحدق فيه لحظة، ثم أسرع بفتح درج مكتبه، ويلقيه داخله، ثم أغلقه في قوة، وجلس يلهث في توتر وانفعال..

لا.. لا يمكن أن ينتحر..

لن يموت قبل أن يجمع كل الملايين، التي فعل من أجلها هذا..

لن يقتل نفسه، قبل أن يحصد ثمار مخاطرته.

لقد جازف بمنصبه، وماضيه كله، مقابل أن يحقق ذلك الثراء، الذي يحلم به منذ شبابه..

صحيح أنه رئيس مجلس إدارة شركة مرموقة، ولكن راتبه، الذي يحسده عليه الكثيرون، لا يكفي لتحقيق طموحاته التي بلا حدود..

إنه يحلم بسيارة فارهة، يفوق ثمنها راتبه في خمس سنوات، وفيلا أنيقة، في أرقى أحياء (القاهرة)، وأخرى على شاطئ البحر في (الإسكندرية)، وثالثة في أوروبا، ورصيد ضخم في البنوك، ورحلات فاخرة حول العالم...

كل هذا لن يحققه راتبه، بل ستحققه تلك المخدرات، المخزونة خلف تلك المكتبة الضخمة، التي تحتل حائطًا بأكمله في حجرته..

ولكن هل سيتركه الشبح، حتى يحقق كل هذا؟..

هل سيتخلى عن انتقامه؟!

شعر برأسه يدور، وبالدنيا تظلم أمام عينيه، ولكنه تماسك..

لم يكن يرغب أبدًا في العودة إلى منزله..

البقاء في الشركة كان بالنسبة إليه أفضل كثيرًا..

لذا فعليه أن يحتمل..

وأن يبقى..

☆ ☆ ☆

«كيف تفسر هذا؟..»

سأل (رأفت) هذا السؤال، وهو يرتشف الخمر في بطء، ففرك (حاتم) كفيه، وهو يقول في توتر:

- هناك من يعبث بنا.. شخص ما يعلم ما فعلناه، ويحاول إثارة أعصابنا، قبل أن يسعى لابتزازنا.. هذا هو التفسير الوحيد.

ابتسم (رأفت) ابتسامة ساخرة، وقال:

- ربما كان هناك تفسير آخر.

التفت إليه (حاتم) في حركة حادة، وسأله:

- أي تفسير هذا؟

ارتشف (رأفت) رشفة من كأسه في هدوء، وقال:

- ربما افتعل (حسن) كل هذا.

عقد (حاتم) حاجبيه، وهو يسأله:

- ولماذا يفعل ذلك؟

هز كتفيه، قائلًا:

- ربما كانت لديه أسبابه.

جلس (حاتم) أمام (رأفت)، وسأله في عصبية:

- أتظنه يسعى لخداعنا؟

هز (رأفت) كتفيه مرة أخرى، وقال:

- ربما.

ارتسم الغضب على وجه (حاتم)، وقال في حدة:

- سأقتله، لو كان هذا صحيحًا.

وقبض أصابعه، مستطردًا في توتر بالغ:

- أقسم أن أفعل.

☆ ☆ ☆

أعلنت عقارب الساعة تمام الثالثة، موعد انصراف العاملين بالشركة، وبدأ التوتر يتسلل إلى قلب (حسن).

إنه لا يرغب حقًا في الانصراف..

البقاء في الشركة يشغله بالعمل على الأقل، فلا يفكر في (هدى) وشبحها ومشكلاتها..

تنهد في عمق، وغمغم:

- ولكن الانصراف أمر حتمي.

نهض من خلف مكتبه، وهم بالانصراف، لولا أن ارتفع رنين الهاتف في اللحظة نفسها، فالتقط سماعته، وقال:

- من المتحدث؟

أتاه صوت أنثوي ساخر، يقول:

- إنه أنا.

كانت أقوى انتفاضة سرت في جسده منذ مولده..

كل خلية من خلاياه انتفضت، وارتجفت، وصرخت..

كل ذرة في جسده شهقت في رعب..

إنه صوتها..

صوت (هدى)..

وفي رعب هائل هتف:

- من أنت؟

أجابته بنفس اللهجة الساخرة:

- ألا تعرفتي حقا؟!

ارتجف أكثر وأكثر..

ولكن لماذا تتصل به هاتفيًا؟ ...

البشر وحدهم يفعلون هذا.

وسألها مرتجفًا:

- ماذا تريدين؟

أجابته:

- أردت أن أشكرك على هديتك.

ردد في خوف:

- هديتي؟!

أجابت ساخرة:

- نعم.. هديتك الثمينة.. لقد حصلت عليها بنفسي، من تلك الخزانة السرية، خلف مكتبتك.

صرخ في رعب:

- ماذا؟

ألقى سماعة الهاتف، واندفع نحو المكتبة كالمجنون، وراح يلقي الكتب عن الأرفف في ذعر، ثم لم تلبث الدماء أن تجمدت في عروقه..

كانت الخزانة السرية خالية تمامًا..

إلا من شيء واحد..

زهرة ماسية صغيرة..

وانهار (حسن)، فوق أقرب المقاعد إليه، ومن سماعة الهاتف، التي لم تستقر في موضعها الصحيح، انبعثت ضحكة ساخرة، جعلته ينتفض، ثم يقفز إلى مكتبه، ويلتقط السماعة صارخًا:

- ابتعدي.. ابتعدي عني.

ثم أغلق السماعة في عنف، وجسمه كله ينتفض في قوة، وقلبه ينبض في جنون..؟

ماذا سيفعل الآن؟..

كل أحلامه ضاعت..

تحطمت..

هيروين نقي، بعشرة ملايين دولار اختفى..

ضاع..

تبخر..

وفي يأس وانهيار، ضغط زر الاتصال، بينه وبين سكرتيرته، وقال:

- آنسة (سهير).. يمكنك الانصراف، سأبقى بعض الوقت.

قالت عبر جهاز الاتصال:

- لو أنك تحتاج إليّ فيمكنني أن أبقى يا سيدي، و..

قاطعها في حدة:

- قلت انصرفي.. هيا.

غمغمت في دهشة:

- حسنًا يا سيدي.. سأنصرف.

أنهى الاتصال في عصبية، ثم التقط سماعة الهاتف، وضغط أزراره في توتر ولم يكد يسمع صوت (حاتم)، حتى قال:

- (حاتم).. أحضر إلى مكتبي الآن..

سأله (حاتم) في قلق:

- ماذا حدث؟.. أرأيت الشبح مرة أخرى؟

أجابه في اضطراب:

- بل رأيت الزهرة.. الزهرة الماسية.

سأله (حاتم) في حذر:

- وأين رأيتها هذه المرة؟.. على سطح مكتبك؟!

ازدرد لعابه في توتر، قبل أن يجيب:

- بل في الخزانة.. الخزانة السرية.

صرخ (حاتم):

- ماذا؟!

وقفز من مقعده، هاتفًا:

- انتظرني.. سأحضر على الفور.

قال (حسن) في انهيار:

- لا تدخل من الباب الأمامي.

صاح (حاتم):

- أعلم.. أعلم.. سأدخل من الباب الخلفي.

وأنهى المحادثة في عنف، فسأله (رأفت):

- ماذا يقول هذه المرة؟

أجابه (حاتم) في انفعال شديد:

- يقول: إنه وجد الزهرة الماسية في خزانتنا.

هتف (رأفت) مذعورًا:

- في خزانتنا؟!

ثم التقى حاجباه، وهو يستطرد في غضب:

- إذن فهذا هو السر.

سأله (حاتم):

- أي سر؟

أجابه في حدة:

- السر الذي من أجله اخترع (حسن) هذه القصة كلها..

اتسعت عيني (حاتم)، وقد أدرك ما يعنيه (رأفت)، وهتف:

- فهمت.. إذن فقد اخترع القصة كلها ليسرق الهيروين.

وزمجر في وحشية، مستطردًا:

- يا للجشع.

ثم هب مردفًا:

- هيا بنا.. سنزور هذا الوغد في مكتبه.

سأله (رأفت)، وهو يتبعه:

- ماذا ستفعل، لو كنت على حق؟

أخرج (حاتم) مسدسه، وجذب مشطه في قوة، وهو يجيب:

- سأقتله.

وبدا أشبه بوحش مفترس، وهو يستطرد:

- سأقتله بلا رحمة.

☆ ☆ ☆

5- واختلفوا..

تفجرت حمم الغضب في جسد (حاتم)، وهو يحدق في الخزانة الخاوية، قبل أن يلتفت إلى (حسن)، ويصرخ في وجهه:

- هل تتوقع مني أن أصدق هذا؟

سأله (حسن) في دهشة متوترة:

- تصدق ماذا؟

لوح بذراعه، هاتفًا:

- هل تتوقع مني أن أصدق هذه القصة السخيفة، عن الأشباح والأرواح التي تتصل بالبشر هاتفيًا، وتسرق كنزًا من الهيروين الخام النقي، يبلغ ثمنه عشرة ملايين دولار؟.. أتظنني غبيًا إلى هذا الحد؟

صاح (حسن):

- ولكن هذا ما حدث.

أطلق (حاتم) ضحكة عصبية ساخرة، وقال:

- يا للسخافة!.. كان ينبغي أن تبتكر قصة أكثر واقعية يا رجل.

هتف (حسن):

- إنني لم أبتكر شيئًا.. لقد اتصل بي شبح هذه الـ..

انقض عليه (حاتم) فجأة، وأمسكه من ياقة سترته، في عنف، وهو يقول في غضب صارم:

- اسمعني جيدًا يا رجل.. لو أنك تتصور أن قصتك السخيفة هذه ستقنع طفلًا صغيرًا، فأنت مخطئ حتمًا.. وحتى لو

صدقتك أنا، فلن يصدقك الآخرون.

قال (حسن) في خوف ودهشة:

- الآخرون؟!

أجابه (حاتم) في حدة:

- بالطبع يا رجل.. هل تصورت أنني صاحب هذه الملايين؟!.. أظننت أنني أمتلك وحدي ما قيمته عشرة ملايين دولار من الهيروين؟!.. كلا يا رجل.. لست قويًا وثريًا إلى هذا الحد.. إنني مجرد منفذ للّعبة، أما الممولون، فهم مجموعة من علية القوم، يمتلكون القوة والسطوة والمال، ولن يروق لهم أبدًا أن تسرق منهم عشرة ملايين دولار، بسبب قصة سخيفة كهذه.

هتف (حسن) في ذعر:

- أسرق منهم؟!.. ولكنني لست لصًا.. إنني..

قاطعه (رأفت) ساخرًا:

- مجرد محتال.. أليس كذلك؟

صاح (حسن):

- أقسم لكما أن هذا ما حدث.. إنني لم أسرق شيئًا، ولم..

هوي (حاتم) على فكه بلكمة قوية مباغتة، جعلته يصرخ في ألم، قبل أن يهتف في ذعر ودهشة:

- هل جننت؟

جاوبه (حاتم) بلكمة أكثر عنفًا، ألقته أرضًا، وحطمت واحدة من أسنانه الأمامية، فصرخ:

- ماذا تفعل بي؟

لوح (حاتم) بقبضته، هاتفًا في شراسة:

- سأظل ألكمك على هذا النحو طوال الليل، حتى تعترف.

صاح (حسن):

- أعترف بماذا؟.. إنني لم أفعل شيئًا.

أشار (حاتم) إلى (رأفت) في غضب، فتقدم هذا الأخير نحو (حسن)، وهو يبتسم ابتسامة جذلة، وركله ركلة عنيفة في معدته، فصرخ (حسن)، وهو يقول:

- لا يمكنك أن تفعل بي هذا.. إنني رئيس مجلس إدارة محترم..

ابتسم (حاتم) في سخرية عصبية، وهو يقول:

- حقًا؟!.. كل ما أعرفه عنك هو أنك مجرد شخص جشع حقير، يخزن المخدرات في مكتبه، مقابل نسبة من ثمنها، ثم تمتلئ نفسه بعدها بالطمع، فيسرقها كلها، ويخترع قصة خيالية سخيفة، ليبرر بها هذا.

لوح (حسن) بكفه، قائلًا:

- غير صحيح.. أقسم لك أن هذا غير صحيح.

ركله (رأفت) ركلة أكثر قوة في معدته، فصرخ مرة ثانية، وأمسك معدته بذراعيه، وهو يضم ركبتيه إليها، فقال (حاتم) في حدة:

- هيا.. اعترف.

لهث (حسن)، وهو يقول:

- حسنًا.. سأعترف.

تنهد (حاتم) قائلًا:

- هذا أفضل.

نهض (حسن) في بطء، واستند إلى حافة مكتبه، وهو يلهث قائلًا:

- لقد سرقت المخدرات، وأخفيتها في مكان آخر.

تألقت عينا (رأفت)، وهو يقول في ظفر:

- كنت أعلم هذا.. كنت واثقًا منه.

أما (حاتم)، فسأله في عصبية:

- وأين هي الآن؟

ألقي (حسن) جسده على مقعده الوثير خلف مكتبه، وهو يقول:

- في خزانة خاصة.. لقد نقلتها إليها هذا الصباح، وها هو ذا مفتاح الخزانة.

قالها وهو يفتح درج مكتبه، ويلتقط منه مسدسه، ثم رفعه فجأة في وجهي الرجلين، وهو يهتف في عصبية:

- حذار أن يتحرك أحدكما، أو أطلق النار عليه بلا تردد.

تراجع (حاتم) في حركة حادة، وانعقد حاجبا (رأفت) في شدة، في حين واصل (حسن) في عصبية، وهو يصوب مسدسه إليهما، ويلوح به غاضبًا:

- لقد أسأتما معاملتي، ويمكنني أن أقتلكما لهذا السبب.

لوح (حاتم) بذراعيه، قائلًا:

- اهدأ يا سيد (حسن).. اهدأ.. إننا لم نفعل هذا بإرادتنا.. كنا مضطرين.. إنها أوامر الرؤساء.

صاح بهما:

- ولكنني كنت على حق.. لم أسرق هذه المخدرات اللعينة.. ألم تريا تلك الزهرة الماسية، داخل الخزانة؟

قال (حاتم) في سرعة:

- لقد رأيناها بالطبع، ونحن نصدق كل ما قلته.. كل كلمة منه.

صرخ (حسن):

- كاذب.. إنكما لم تصدقا حرفًا واحدًا، وكنتما على استعداد لقتلي بلا رحمة.. إنكما تستحقان أن أقتلكما ككلبين ضالين.

هتف (حاتم):

- لا.. لا تفعل.. إنك رئيس مجلس إدارة محترم، ولن تقتل شخصين هكذا، بلا مبرر منطقي.

ثم اتجه إلى النافذة، مستطردًا:

- أضف إلى هذا أنهم ينتظروننا في أسفل، وصوت الرصاصة سيجذبهم إلى هنا، و..

تابعه (حسن) ببصره، ولم ينتبه إلى خدعته، حتى سمعه يهتف:

-هيا يا (رأفت).

استدار (حسن) في سرعة إلى (رأفت)، ورآه ينقض عليه في عنف، وملامحه ترسم أبشع صور الوحشية والشراسة، فصرخ به:

- ابتعد.

وبحركة غريزية، ضغطت سبابته زناد المسدس..

وانطلقت الرصاصة..

وأصابت الهدف..

واتسعت عينا (رأفت) في ألم ودهشة، ثم هوي جثة هامدة، أمام مكتب (حسن)، الذي صاح مذعورًا:

- لم أقصد هذا.. لم أقصد قتله.

ولكن (حاتم) انقض عليه، وركل المسدس من يده في عنف، ثم لكمه في فكه، هاتفًا:

- لقد قتلته أيها الوغد.

سقط المسدس من يد (حسن)، وهتف في رعب:

- لم أقصد قتله.. أقسم لك.

لكمه (حاتم) مرة أخرى، ثم جذبه من ياقته في عنف، ودفعه نحو النافذة، صائحًا:

- إنك تستحق القتل.

صرخ (حسن) في رعب، عندما حاول (حاتم) دفعه من النافذة، وتشبث بحافتها في استماته، وهو يهتف:

- لا.. لا تفعل بي هذا.

واصل (حاتم) الإمساك، به مرة أخرى، ولكن (حسن) دفعه بكل قوته، صارخًا:

- قلت لك: ابتعد عني.

كانت الدفعة قوية بالفعل، حتى أن (حاتم) ارتطم بحافة النافذة، وشعر بجسده يميل خارجها في سرعة، فصرخ:

- لا.. أنقذني.

وحاول التشبث بحافة النافذة، إلا أن أصابعه أفلتتها، فهوي من الطابق الرابع، وهو يطلق صرخة رعب هائلة، قبل أن يرتطم بالأرض في عنف، ويصمت تمامًا..

وتراجع (حسن) في هلع..

لقد قتلهما.

قتل الرجلين..

وفجأة انفتح باب مكتبه في عنف..

وانتفض جسده..

انتفض مرتين.. مرة عندما انفتح الباب، والمرة الثانية عندما رأى من فتحه..

كانت قوة من رجال الشرطة، مكونة من ضابط وثلاثة جنود، اقتحموا المكان في عنف، وصوبوا أسلحتهم إليه، فرفع ذراعيه هاتفًا:

- إنني لم أفعل شيئًا.

نقل الضابط بصره بين جثة (رأفت) والنافذة المفتوحة، وهو يقول في صرامة شديدة:

- لم تفعل شيئًا؟!.. وما الذي كنت تزمع فعله أكثر من هذا.

هتف (حسن) في ارتياع:

- كنت أدافع عن نفسي، عندما هاجماني.. إنهما لصان.. لصان حاولًا سرقتي وقتلي.. ولقد عذباني كثيرًا.. انظر إلى اللكمات في وجهي وبطني، و..

قاطعه الضابط:

- وماذا عن المخدرات؟

شحب وجهه في شدة، في حين قال الضابط بصوت حازم:

- المخدرات التي تخفيها هنا..

أشار (حسن) إلى الخزانة السرية المفتوحة، هاتفًا:

- لست أخفي شيئًا.. ها هي ذي الخزانة فارغة.

عقد الضابط حاجبيه، وهو يتطلع إلى الخزانة في شك، ثم اتجه إليها، وفحصها في اهتمام، قبل أن يقول:

- خزانة سرية؟!.. أمر مثير للاهتمام بالفعل.. ماذا تفعل خزانة سرية في مكتبك.

أجابه في لهجة بدت أشبه بالضراعة:

- لم أكن أعلم عنها شيئًا.. إنها ملكهما..

ثم استدرك في سرعة:

- ولكنها خالية كما ترى.. لا أثر فيها لأية مخدرات.

قال الضابط، وهو يرمقه بنظرة صارمة:

- ومن قال أننا نبحث عن المخدرات فيها؟.. إننا نعلم موقعها بالضبط، فقد أبلغتنا سيدة مجهولة عنها، ومن الواضح أنها كانت على حق.

شحب وجه (حسن) في شدة، وهو يقول:

- سيدة مجهولة.

أجابه الضابط:

- نعم!.. سيدة اتصلت بنا هاتفيًا، وأبلغتنا بأمر صفقة المخدرات هذه، وباحتمال نشوب صراع بينك وبين شريكيك بسببها، وأخبرتنا بمكانها أيضًا.

ثم اتجه إلى الثلاجة الأنيقة، في ركن الحجرة، وأزاحها بحركة حادة، وأشار إلى حقيبة تستقر خلفها، وهو يقول:

- ومن الواضح أنها كانت على حق.

حدق (حسن) في الحقيبة ذاهلًا، ثم انهار على أقرب المقاعد إليه، وقد أدرك أنه خسر.

خسر اللعبة كلها.

☆ ☆ ☆

6- السقوط..

لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا..

لقد انهار (حسن) بك تمامًا، وأدلى باعتراف تفصيلي، وهو يرتجف مع كل حرف منه، وكرره في أثناء محاكمته، وهو يبكي، ويطالب القاضي بتوقيع أقصى عقوبة عليه، لإنقاذه من العذاب الذي يشعر به.

ولم يمض شهر واحد، حتى صدر الحكم بسجن (حسن) بك لمدة خمسة وعشرين عامًا، مع الأشغال الشاقة المؤبدة..

وعندما حان أول موعد الزيارة، فوجئ (حسن) بنداء اسمه، ضمن أسماء المسجونين، الذين سينتقلون إلى عنبر الزيارات..

وسأل (حسن) نفسه ألف مرة، وهو يسير وراء حارسه، نحو عنبر الزيارات، عن زائره، وراح يضرب أخماسًا في أسداس، حتى بلغ العنبر..

وهناك هوى قلبه بين قدميه، واتسعت عيناه في رعب هائل، وتخاذلت قدماه، حتى كاد يسقط مغشيًا عليه..

كانت هي زائرته..

هي بابتسامتها الساخرة، وزهرتها الماسية، التي تزين صدرها..

وفي ذهول ورعب، هتف:

- أنتِ؟!.

أجابته في برود:

- نعم.. أنا.

هتف ذاهلًا:

- ولكنهم أخبروني بوجودك، وهذا يعني أنهم يرونك، والأشباح لا..

قاطعته ساخرة:

- من قال إنني شبح؟

قال مرتعدًا:

- لقد رأيت جثتك بنفسي، و..

مالت نحو القضبان، التي تفصلها عنه، وهي تسأله:

- من تظنني؟

أجاب مضطربًا:

- أ..أ.. أنت (هدى).. سكرتيرتي السابقة.

أطلقت ضحكة ساخرة، وطوحت رأسها للوراء، قبل أن تواجهه بنظرة مباشرة، قائلة في مزيج من السخرية والشماتة:

- كلا.. لست (هدى).

سقط فكه السفلي في ذهول، وهو يردد:

- لستِ (هدى)؟!

أجابته في برود:

- نعم.. لست (هدى).. أنا شقيقتها التوأم (هالة).. صحيح أنك لم تلتق بي من قبل، ولكنني واثقة من أنها أول مرة تعرف فيها هذا.. فلم تكن (هدى) تتحدث عني كثيرًا، وإن كنا نتحدث

هاتفيًا باستمرار، فأنا أعمل كصانعة مجوهرات، وأحيا منذ خمس سنوات في (باريس).

ظل يحدق فيها ذاهلًا، وهي تتابع:

- وفي آخر مرة تحدثت فيها إلى (هدى)، في مكتبها بالشركة، أخبرتني بشكوكها، وبأمر المكتبة، وما فعلتموه بها، ثم اتصل بي خالي، في اليوم التالي مباشرة، وأبلغني بانتحارها..

والتقى حاجباها في غضب، وهي تستطرد:

- أدركت على الفور أنها لم تنتحر، بل قُتلت بسبب شكوكها هذه، ولقد حاولت اللحاق بجنازتها، ولكنني لم أستطع، بسبب زحام السفر، في هذا الموسم، فوصلت إلى (القاهرة) في اليوم التالي، وبكيت طويلًا أمام قبرها.

وتنهدت في عمق، قبل أن تضيف:

- ثم قررت الانتقام.

لم ينبس ببنت شفة، وهو يستمع إليها تكمل:

- كان يمكنني إبلاغ الشرطة مباشرة، ولكنني خشيت أمرين، أولهما أن تكون قد أفرغت الخزانة السرية من محتوياتها، والثاني أن يفلت شريكاك، فلم أكن أعرف سواك، وسوى أن أحدهما يُدعي (حاتم)، كما أخبرتني (هدى).

شعر بجسده كله يرتجف، وهي تقول:

- وعندئذ كان لابد لي من وضع خطة مناسبة، فتسللت إلى منزلك، ولا تسألني كيف نجحت في دخول شقتك، ولا كيف عرفت عنوانها، فالحياة في (باريس).. تمنح المرء بعض الخبرات والمهارات، خاصة عندما يمتلك أصابع ماهرة خبيرة، كأصابع

صانعة مجوهرات.. المهم أنني دخلت شقتك، وسرقت مسدسك، ثم وضعت زهرة ماسية على فراشك، وأنا واثقة من أن هذا سيثير أعصابك، ويجعلك شديد التوتر، وخاصة بعد أن تعمدت السير أمامك، عند وصولك بالسيارة، لتتصور أنني شبح (هدى).

صمتت لحظة، وهو يحدق في وجهها، قبل أن تقول في سخرية:

- وبالمناسبة.. لم تكن سرقة المسدس ضمن خطتي، ولكنني عثرت عليه، فألهمني هذا باستغلاله.

ثم اعتدلت مستطردة:

- المهم أنني تسللت إلى مكتبك فجر اليوم التالي، من الباب الخلفي، الذي يحتاج إلى حارس خاص، ووضعت المسدس على مكتبك، ثم بحثت عن الخزانة السرية، وفتحتها بنفس المهارة، وأخذت منها المخدر، ووضعته في حقيبة خلف الثلاجة.. وانتظرت.

تنهدت مرة أخرى، وتابعت:

- كنت أجهل شريكيك، كما سبق أن أخبرتك، ولكنني اعتمدت على تحطيم أعصابك تدريجيًا، بحيث تصل إلى الذروة، عندما اتصل بك، وأخبرك أنني سرقت المخدرات.. ولقد حدث ما توقعته تمامًا، فأسرعت أنت تتصل بشريكيك، الذين حضرا في ذعر وغضب، ودارت بينك وبينهما معركة، استخدمت فيها مسدسك، كما قدرت أنا تمامًا، فقتلت أحدهما به، ثم تجاوزت أحلامي، وقتلت الثاني أيضًا..

فرفعت سبابتها وإبهامها، قبل أن تضيف:

- وهنا وصل رجال الشرطة، الذين اتصلت بهم، لتقع أنت في قبضة العدالة.

وابتسمت ابتسامة ساخرة، وهي تقول:

- ما رأيك في خطتي؟!

ردد وهو يكاد يبكي أمامها:

- مستحيل!

قالت وهي تعدل هندامها، استعدادًا للانصراف:

- لا يوجد مستحيل!.. إنه قصاص عادل كما ترى، ولكنه كلفني ثمن زهرتين ماسيتين، ومن حسن الحظ أنني التي صنعت الزهرة الماسية الأولى، التي تميزت بها (هدى)، ولم يكن من العسير أن أصنع زهرتين أخريين.

ثم غمزت بعينها، مستطردة:

- وأصدقك القول، كانتا من الماس الصناعي.

وعندما تنهدت للمرة الثالثة، كانت تنهيدتها تحمل الكثير من الارتياح، الذي بدا واضحًا في صوتها، وهي تقول:

- معذرة يا (حسن) بك.. سأضطر للانصراف، ولست أظننا سنلتقي مرة أخرى، فعندما تخرج من هنا، تكون قد بلغت السابعة والسبعين من عمرك، ولا يروق لي كثيرًا الرجال، في مثل هذا العمر..

تعلقت عيناه بدبوسها الماسي، وهي تلوح بيدها قائلة في سخرية:

- الوداع يا (حسن).. تمتع بأيامك هنا، وحاول أن تتذكر دائمًا الزهرة التي حطمتك، وألقت بك خلف القضبان.

وانصرفت في ثقة واعتداد، وهو يتابعها ببصره في انهيار كامل..

نعم.. لن ينسى أبدًا.

لن ينسى الزهرة التي هزمته..

الزهرة الماسية.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- هـــدى..

2- السر..

3- المجهول..

4- الشبح..

5- واختلفوا..

6- السقوط..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الحجرة

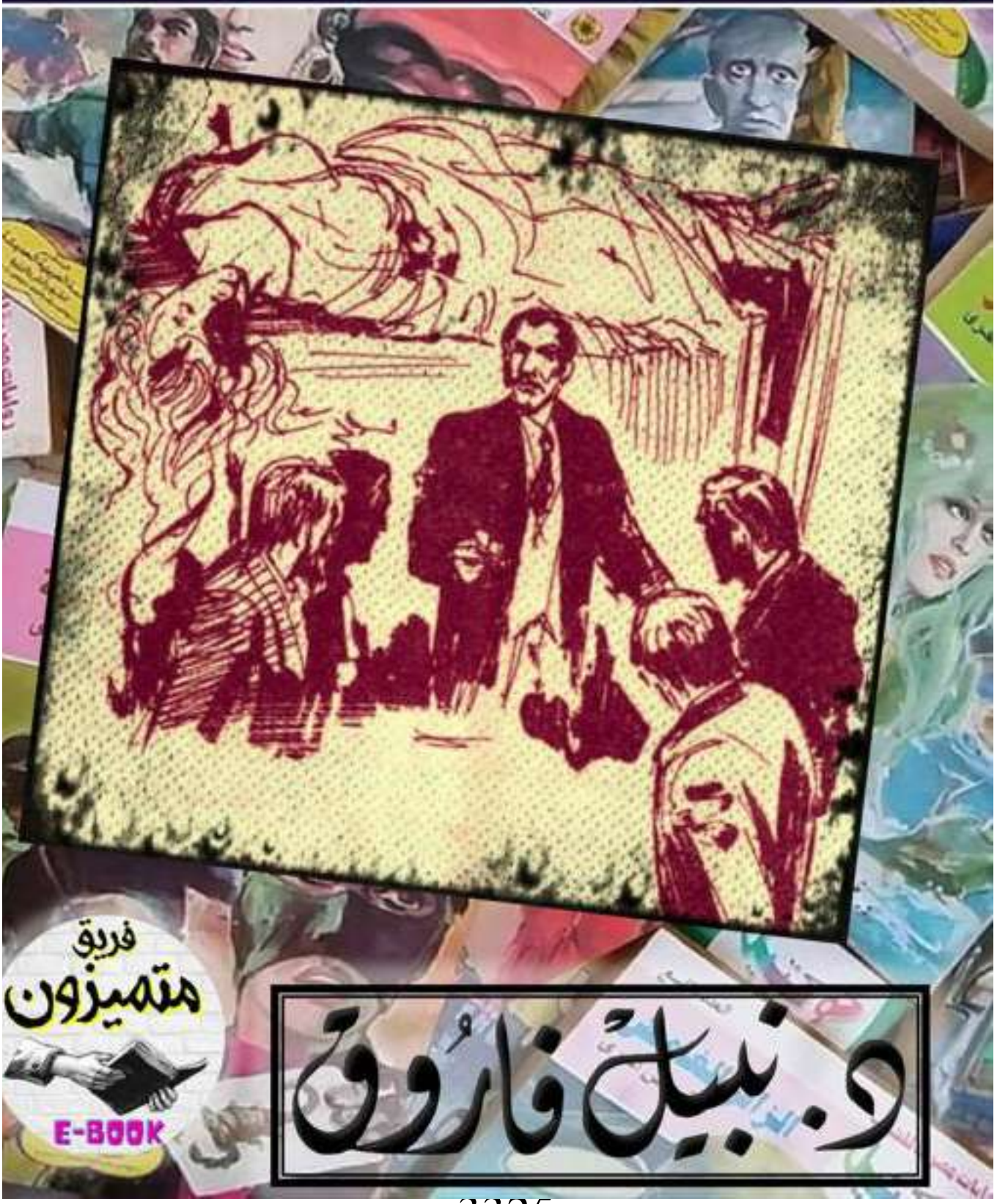

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

الحجرة
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

قصص العدد

الحجرة

1- دعــوة..

عبرت سيارة فارهة ذلك الشارع المقفر، الممتد وسط رمال الصحراء، في نهاية المنطقة المأهولة من (مدينة نصر)، واتجهت بسرعة كبيرة نسبيًا نحو منزل من طابقين، يبدو عجيبًا مثيرًا للدهشة، بشكله الأنيق وحديقته الصغيرة، التي أينعت فيها مختلف الورود والأزهار، وسط الرمال، والمنطقة التي تستعد للانضمام إلى المدينة والعمران، بعد أن وصلها التيار الكهربي حديثًا..

وعندما بلغت السيارة ذلك المنزل، الشبيه بفيلا صغيرة، اتخذت مكانها وسط ثلاث سيارات أخرى، لا تقل عنها حجمًا وفخامةً، وغادرها سائقها في توتر ملحوظ، وعدل رباط عنقه في عصبية، وهو يقول:

- ألم يجد (فائق) مكانًا يدعونا إليه، أفضل من هذا؟

زفر محاولًا التغلب على عصبيته وتوتره، وتطلع إلى الفيلا الصغيرة، وإلى بابها المفتوح، والضوء الساطع في نوافذها، وراودته فكرة العودة من حيث أتي، مع تلك الرهبة التي ملأت نفسه، ولكن ذهنه لم يلبث أن استرجع كلمات (فائق):

- لابد أن تأتي يا (وصفي)... سيكون الآخرون جميعًا هناك... صدقني الأمر بالغ الأهمية. إنه يتعلق بالحادث.

قالها وأنهى الاتصال، دون أن يمنحه فرصة سؤاله عما يعنيه..

وكان لابد أن يأتي..

إنه يعرف (فائق)، كما يعرفه الآخرون، وهذا ليس بالأحمق أو المتهور، أو الرجل الذي يجشم الآخرين المشاق، دون سبب قوي بالغ الأهمية..

ثم إنه يخشى أن تحيط به الشبهات، لو لم يأتِ..

من المحتمل أن (فائق) يدعوهم جميعًا إلى الفيلا، التي لقيت فيها (منيرة) مصرعها، حتى يرى من منهم سيخشى العودة إلى مسرح الجريمة..

ربما كان هذا هو السبب..

التقط نفسًا عميقًا، واتجه إلى الباب المفتوح، وأدهشته تلك الظلمة في مدخل الفيلا، على الرغم من الضوء الساطع من الحجرات الأخرى، ولكنه ضغط جرس الباب، وانتظر لحظات، حتى سمع صوتًا يقول:

- أهو أنت يا (فائق)؟!

انتفض جسده بلا مبرر، مع سماع الصوت، وتطلع إلى وجه الرجل، الذي أطل من الباب المفتوح، وقال بصوت مبحوح:

- (سمير)؟!.. أهو أنت؟!

أفسح له (سمير) الطريق، وهو يقول:

- نعم.. هو أنا.. لست أدري أين ذهب (فائق).. لقد حضرنا ووجدنا الباب مفتوحًا كما ترى، ولم نجد (فائق).

قال (وصفي) في عصبية، وهو يجتاز الباب:

- ماذا تعني بأنكم لم تجدوه؟

هز (سمير) كتفيه، وقال في بساطة:

- هذا ما حدث.. لعله هنا في الجوار.

قال (وصفي) في حدة:

- أية جوار؟!

ابتسم (سمير)، وقال:

- أنت تعرف (فائق).. لا يمكنك أبدًا استنتاج ما يدور بذهنه.

قالها وهو يقوده إلى حجرة جانبية، جلس داخلها (حليم) و(خيرت)، اللذان نهضا لمصافحة (وصفي)، وملامحهما تعكس توترًا مماثلًا، فصافحهما (وصفي) بسرعة، وقال:

- إذن فلست المدعوّ الوحيد الليلة.

قال (حليم):

- من الواضح أن (فائق) دعانا نحن الأربعة بالذات، وهذا يعني أنك الأخير.

تمتم (خيرت):

- بل ما زلنا في انتظار وصول (فائق).

هز (وصفي) رأسه، محاولًا التظاهر بفهم وتقدير الأمر، واتخذ لنفسه مجلسًا يواجه زميليه، ويجاور (سمير)، وألقى نظرة طويلة على الحجرة، ذات الجدران الرمادية، الخالية من النوافذ، والتي بدت له أشبه بسجن كئيب، جعله يقول في حدة:

- لماذا اخترتم هذه الحجرة بالذات، ما دام (فائق) ليس هنا.. لست أذكر أنني رأيتها من قبل.

أجابه (سمير):

- إنها الحجرة الوحيدة الصالحة للجلوس، فضوء الردهة تالف، والحجرات الأخرى مغلقة.

لم يجد (وصفي) ما يقول، فتمتم:

- يا للسخافة!

مضت لحظات لم ينبس أحدهم فيها بحرف واحد، فران على الحجرة صمت رهيب، زاد من ثقل ورهبة الموقف، حتى قطعه (حليم)، قائلًا:

- هل يعلم أحدكم لماذا دعانا (فائق) إلى هنا؟

مضت لحظة أخرى من الصمت، قبل أن يقول (خيرت):

- في محادثته الهاتفية قال لي: إنه يدعونا بشأن الحادث.. من المؤكد أنه يقصد قضية مقتل زوجته (منيرة).

قال (سمير) في تعاطف واضح:

- لقد عانى (فائق) الكثير، منذ مصرع (منيرة)، فلقد اتهمه رجال الشرطة بقتلها، ولم ينقذه من هذا سوى وجوده في مكتبه بالشركة، مع أحد العملاء القدامى، في الوقت الذي قُتلت فيه.

غمغم (وصفي):

- كلنا نعلم هذا.

اعتدل (حليم) وقال:

- ولكن من قتلها إذن؟

أجابه (خيرت):

- ربما كان لصًا، حاول سرقة الفيلا، ولما فاجأته (منيرة)، أطلق النار عليها، ثم لاذ بالفرار.

هز (سمير) كتفيه، وقال:

- من يدري؟.. ربما.

عاد الصمت يخيم على الحجرة مرة أخرى، والجميع يديرون عيونهم فيها بقلق، ثم قال (خيرت) في حدة:

- هل سنبقى هنا إلى الأبد؟.. أين (فائق) هذا؟

انتفض جسده فجأة، عندما سمع صوتًا هادئًا رخيمًا يقول:

- هأنذا.

التفتت إليه أعين الجميع في حركة حادة، وهو يقف عند باب الحجرة، وقال (حليم) في حدة:

- ما هذا الأسلوب؟

أدار (فائق) عينيه إليه في بطء، وقال في برود عجيب:

- أيُ أسلوب؟

لم يجب (حليم)، ولم ينبس أي من الحاضرين بحرف واحد، فتطلع إليهم (فائق) بنفس البطء المخيف المثير، وهو يتقدم داخل الحجرة، قائلًا:

- إذن فكلكم هنا.

لم يرتح أحدهم لأسلوبه، وهو ينطق العبارة، التي بدت لهم أشبه بضحكة ساخرة متشفية، أطلقت قلقهم من عقاله، وفجرت خوفهم في أعماقهم، وبدا هذا واضحًا في صوت (سمير)، وهو يقول:

- (فائق).. قلقنا كثيرًا بشأنك، عندما حضرنا ولم نجدك.

تألقت عينا (فائق) على نحو مخيف، وهو يتخذ مقعدًا قريبًا من مدخل الحجرة، ويقول في بطء:

- حقًا؟!

تبادلوا نظرات قلقة متوترة، قبل أن يقول (وصفي) في عصبية:

- حسن.. لماذا دعوتنا إلى هنا؟

أجابه (فائق) بسرعة، وكأنه كان ينتظر السؤال:

- من أجل الحادث.

قال (حليم):

- أي حادث؟

مضت لحظة من الصمت، قبل أن يجيب (فائق) في صرامة:

- حادث (منيرة).. هل نسيتموه بهذه السرعة؟

تبادلوا نظرات أكثر قلقًا، وقال (خيرت):

- لا يا (فائق).. لا يمكننا أن ننسى الحادث، فـ(منيرة) لم تكن زوجتك فحسب، بل كانت صاحبة ومديرة الشركة، التي نعمل بها كلنا، ومصرعها المباغت هذا كان مربكًا لعملنا كله، وأنت تعلم مثلنا أن اعتيادنا العمل بدونها سيحتاج إلى وقت طويل.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة لم ترق لأي منهم، وهو يسترخي في مقعده، ويقول:

- عظيم.. هل يعلم أحدكم إذن كيف لقيت (منيرة) مصرعها؟

أجابه (وصفي) في عصبية:

- بالطبع يا (فائق).. الشرطة قالت إن لصًا تسلل إلى..

قاطعة (فائق) في صرامة:

- لست أقصد هذا.

سأله (حليم):

- ماذا تقصد إذن؟

ازداد (فائق) استرخاءً في مقعده، وهو يقول:

- أقصد الحقيقة.. حقيقة مصرع (منيرة).

تبادلوا نظرة أقرب ما يكون إلى الهلع هذه المرة، قبل أن يقول (خيرت):

- (فائق).. إننا لا نفهمك.

ابتسم (فائق) تلك الابتسامة، التي لا تروق لأحد، وقال:

- ستفهمني يا رجل.. ستفهمونني جميعًا.

ثم اعتدل في مقعده بغتة، وهو يضيف في صرامة:

- (منيرة) لم يقتلها لص.. بل قتلها شخص تعرفونه.

وأطلّ من عينيه غضب هائل، وهو يضيف:

- شخص يجلس هنا، بيننا.

ومع آخر حروف الكلمة، ضرب مسند المقعد في عنف، فهوي حاجز معدني فجأة، ليغلق باب الحجرة تمامًا، بدويٍ هائل مخيف..

وهوت القلوب بين الأقدام..

☆ ☆ ☆

2- القفص..

هب الجميع من مقاعدهم، فور سقوط الحاجز المعدني، وصاح (وصفي) بعصبية فائقة:

- أي عبث هذا، ما الذي تفعله أيها المجنون؟

التقى حاجبا (فائق) على نحو مخيف، وهو يقول:

- اجلسوا..

صاح به (حليم):

- لن نجلس.. إنك لم تعد طبيعيًا.. دعنا نخرج من هنا.

قالها وتحرك في حدة نحو الحاجز المعدني، الذي احتل موقع الباب، ولكن (فائق) انتزع من جيبه فجأة مسدسًا، صوبه إلى الجميع، وهو يهتف في صرامة مخيفة غاضبة:

- قلت اجلسوا.

تراجع (حليم) كالمصعوق، وأطلق (سمير) شهقة قوية، في حين سقط (وصفي) على مقعده شاحب الوجه، وهتف (خيرت) بصوت مختنق:

- ما هذا يا (فائق)؟

صاح (فائق) مكررًا:

- قلت: اجلسوا.

أسرع الجميع يطيعونه، وقد بدا لهم أشبه برجل مجنون، فقد السيطرة على عقله وتفكيره، ولوح (سمير) بيده، قائلًا:

- اهدأ يا (فائق).. اهدأ.. لقد جلسنا جميعًا.. لا داعي لهذا المسدس.

أجاب (فائق):

- بل هناك داع ضخم له يا عزيزي، فكما أخبرتكم من قبل.. قاتل (منيرة).. هو أحدكم.

سأله (خيرت) في توتر:

- من أين جئت بهذه الفكرة السخيفة؟

برقت عينا (فائق)، وهو يقول:

- من (منيرة) نفسها.

اتسعت عيونهم في دهشة، وهو يستطرد:

- قبل مصرعها بثلاث ساعات، تحدثت إليّ هاتفيًا في الشركة، وأخبرتني أن شكوكها كانت في محلها، وأن مراجعتها لبعض المستندات القديمة، أثبتت لها أن أحد مديري الشركة مختلس كبير، يسرق الكثير من أموال الشركة، منذ ما يقرب من عامين، وللأسف لم أسألها عن هذا الشخص، بل كنت مشغولًا مع أحد العملاء، فأخبرتها أنني سأعود إلى المنزل مبكرًا؛ لمناقشتها في هذا الأمر. وأخبرتني هي أنها لن تحتمل الانتظار، وستواجه المختلس مباشرة.

التقط نفسًا عميقًا، وكأنه يحاول السيطرة على حزنه وتوتره، ثم قال في مرارة:

- لم أهتم كثيرًا بقولها، على الرغم من خطورته، ولست أدري لماذا..؟! وقضيت ثلاث ساعات أخرى في الشركة، ثم عدت إلى المنزل، لأجدها جثة هامدة.

ورفع عينيه إليهم فجأة، مضيفًا في حدة:

- وأستطيع الآن أن أتخيل ما حدث.. لقد تحركت (منيرة) بسرعة وتهور كعادتها، فاتصلت بالمختلس، وأخبرته أنها كشفت أمره، فأسرع إليها، وحاول منعها من إبلاغ الشرطة بشأنه، ولكنها رفضت بعنادها الشهير، وقالت: إنها ستحطمه، وتلقي به في السجن، فلم يكن منه إلا أن أطلق النار عليها، وسرق المستندات التي تدينه، وفر قبل عودتي.

ازدرد (حليم) لعابه في صعوبة، وقال:

- مستحيل أن يفعل أحدنا هذا يا (فائق).. أنت تعرفنا جميعًا، و..

قاطعه (فائق) في صرامة:

- أحدكم قتلها.

زفر (خيرت) في حدة، وقال:

- اسمع يا (فائق).. لو أن لديك شكوكًا في هذا الشأن فأبلغ الشرطة، ودعنا نخرج من هنا.

قال (فائق) في حدة:

- ومن قال إنني لم أفعل؟.. لقد أبلغت الشرطة بالفعل، ولكنهم لم يجدوا دليلًا واحدًا يشير إلى الفاعل، فلم يكن أمامهم سوى حفظ التحقيق في الأمر، ولكنني لن أسمح بهذا.. لقد لقيت (منيرة) مصرعها على يد أحدكم، ولن أدعه يفلت من العقاب أبدًا.

قال (سمير) في توتر:

- إنها مجرد شكوك يا (فائق).

أجابه في حزم:

- فليكن.. اعتبرني مجنونًا سخيفًا، ولكن أحدنا لن يغادر هذه الحجرة، قبل أن يعترف القاتل بجريمته.

حل (حليم) رباط عنقه، وقال بصوت مختنق:

- لا.. أرجوك.. سألقي مصرعي حتمًا، لو بقيت هنا طويلا..

إنني مصاب بحالة (كلوستروفوبيا).

ابتسم (فائق) في سخرية، وهو يقول:

- فوبيا الخوف الأماكن المغلقة؟ ستنهار سريعًا إذن يا عزيزي (حليم)، فالحجرة لن تبقي على حالها طويلًا، بل ستبدأ في الانكماش بعد قليل.

شحب وجه (حليم)، وهو يقول في هلع:

- الانكماش؟!.. ماذا تعني؟

لوح (فائق) بماسورة مسدسه في وجوه الجميع، وقال بلهجة أقرب إلى الشماتة:

- ربما لاحظتم جميعًا أن هذه الحجرة جديدة، ولم يكن لها وجود من قبل.

تمتم (خيرت):

- هذا صحيح.

تابع (فائق):

- لقد صنعت هذه الحجرة منذ أسبوعين فقط، وهي عبارة عن قفص كبير من الصلب، تتحرك جدرانه على قضبان فولاذية سميكة، بوساطة مكابس هيدروليكية ضخمة وبطيئة، ولها

مدخل واحد، هو ذلك الباب، الذي دخلتم منه جميعًا، بعد أن اضطررتم لهذا، مع كونها الحجرة الواحدة المضاءة، والتي يمكن الجلوس فيها، في الفيلا كلها.. والآن أصبحنا جميعًا داخل حجرة مغلقة.. قفص من الصلب، يحوي كمية محدودة من الهواء، وستبدأ جدرانه في الاتجاه نحو بعضها البعض، بعد خمس دقائق فحسب، لتنطبق على أجسادنا، وتسحقها سحقًا، في أقل من ساعة.

صرخ (خيرت):

- مستحيل!!

وازداد شحوب وجه (حليم) في شدة، في حين صاح (وصفي) في عصبية مفرطة:

- أنت مجنون.. مجنون حتمًا.

ولوح (سمير) بذراعيه، قائلًا:

- لماذا تفعل بنا هذا يا (فائق)؟

عادت عينا (فائق) تبرقان في شدة، وهو يقول:

- الوسيلة الوحيدة لمنع حدوث هذا، هي الضغط على زر خفي داخل الحجرة، يوقف حركة الجدران، ويفتح الباب.

صاح به (حليم)، وهو ينتزع رباط عنقه، ويلقيه أرضًا في عنف:

- اضغط ذلك الزر إذن.. اضغطه أرجوك.. سأختنق هنا.

قال (فائق) في صرامة:

- فليعترف القاتل أولًا.

هتف (سمير):

- يا له من أسلوب سخيف ومطلب أسخف!.. إنك تحاول قتلنا جميعًا، ثم تطالب القاتل بالاعتراف، لتقتله وحده.. إذن فموقف القاتل واحد في الحالتين، فلماذا يعترف؟

اعتدل (فائق) بحركة حادة، وقال:

- لن أقتله.. فليعترف ولن أقتله.

قال (وصفي) ثائرًا:

- أتتوقع منه أن يصدق هذا؟

قال (فائق):

- أقسم أنني لن أقتله.. فليصدق هذا أولا يصدقه، ولكنني لا أرغب في قتله؛ بقدر ما أرغب في معرفته.. فليعترف ولن يتجاوز اعترافه جدران هذه الحجرة.

مع نهاية عبارته، سمع الجميع قرقعة عنيفة، تصدر تحت أقدامهم، فقفز (خيرت) من مكانه، وهتف:

- ما هذا؟

أجابه (فائق):

- الجدران بدأت حركتها.

ارتجفت قلوبهم بين ضلوعهم، وهم يحدقون في ركن الحجرة..

كانت حركة الجدران بطيئة للغاية، ولكنها ملحوظة، مع بعض التدقيق في النظر، فصاح (حليم) بانهيار:

- إنك تقتلني.

وصرخ (خيرت):

- بل يقتلنا جميعًا.

ردد (فائق) في صرامة:

- فليعترف القاتل أولًا، وينجو الجميع.

لوح (وصفي) بذراعه في حدة، وقال:

- لن يعترف القاتل أبدًا، وسندفع جميعًا حياتنا ثمنًا لحماقتك وجريمته.

قال (فائق) في صرامة:

- لو أنه عاقل فسيعترف.. عدم اعترافه يعني مصرعنا جميعًا، وهو بيننا، أما اعترافه فسيمنحه فرصة نادرة للنجاة، ما دمت أقسمت أنني لن أقتله لو فعل.

تبادل الجميع نظرة قلقة، وكل منهم يتمنى لو يعترف الآخر بالجريمة، وتنتهي تلك الأزمة العجيبة المخيفة.. ثم هتف (حليم)، وهو يمسك صدره:

- افتح الباب يا (فائق).. أرجوك.. إنني أموت.

قال (فائق) في حزم مخيف:

- قاوم يا عزيزي (حليم).. قاوم.. لن تأخذني بك رحمة أو شفقة.. اعترف لو أنك القاتل، وسينتهي كل شيء.

كان يتحدث بأسلوب مخيف، وكأنه وحش كاسر، لم يعد في أعماقه مكان لذرة رحمة أو شفقة، والجدران تقترب من بعضها البعض في بطء، والرعب يتضاعف في نفوس الجميع أكثر وأكثر.

وفجأة صرخ (حليم):

- لا.. لا.. اتركني أخرج من هنا.. اتركني.

قالها واندفع نحو الجدار المعدني المجاور له، وراح يضربه بقبضتيه في عنف، و(فائق) يراقبه في برود عجيب، جعل (خيرت) يهتف:

- هل جننت يا (فائق)؟.. أتركه يخرج.. إنه ليس القاتل..

لم يجب (فائق) بحرف واحد، وإنما بدا شديد البرود واللامبالاة، وهو يراقب (حليم) في قسوة مخيفة، فاندفع (وصفي) نحوه، صارخًا:

- أنت مجنون!

ولكن (فائق) أدار فوهة مسدسه إليه، وقال في صرامة:

- قف مكانك، وإلا قتلتك بلا رحمة.

صاح (وصفي):

- لن تقتلني.. إنك تخيفنا فحسب.

قال (فائق) في برود:

- هل تراهن؟

صاح به (سمير):

- نعم.. أنا أراهنك.. أراهنك على أن هذا المسدس خالٍ من الرصاصات تمامًا.

أجابه (فائق) بطريقة عملية مخيفة..

لقد أطلق رصاصة من مسدسه على المقعد الذي غادره (وصفي) منذ لحظات، فاخترقت ظهره بصوت مكتوم، وتركت فيه ثقبًا واضحًا، فتراجع (وصفي) في هلع، وهو يردد:

- يا إلهي!

وابتسم (فائق) في قسوة، قائلًا:

- ما رأيك يا (سمير)؟.. لقد خسرت الرهان.. أليس كذلك؟

كان الجميع يعلمون أن (سمير) هو الأقرب إلى نفس (فائق) وقلبه، وأن صداقتهما معروفة شهيرة، لذا فقد أدار (خيرت) عينيه إلى (سمير)، وقال مشيرًا إلى (حليم)، الذي راح يلتقط أنفاسه في صعوبة:

-أقنعه بترك (حليم) يا (سمير).

قال (فائق) في صرامة:

- مستحيل!.. فليعترف القاتل أولًا.

هتف (وصفي):

- فليكن يا (فائق).. اعتبرني أنا القاتل، وأخرجنا جميعًا من هنا.

ابتسم (فائق) في سخرية، وقال:

- هذا لا يكفي يا صديقي.. لابد وأن تقنعني أولًا.

سأله في عصبية:

- ماذا تعني؟

أجابه صارمًا:

- أعني أن القاتل وحده يعرف ما الذي كشفته (منيرة) قبيل مصرعها، في المستندات المسروقة، ويعرف كيف قتل (منيرة)، وهرب دون أن يكشف رجال الشرطة أمره.

بدت الحيرة على وجه (وصفي) لحظات، ثم قال:

- حسن.. أخرجنا أولًا، وسأشرح لك كل شيء.

هتف (فائق) في حدة:

- الاعتراف الكامل أولًا.

وهنا صاح (حليم) فجأة:

- حسن.. أنا القاتل.. أنا قتلت زوجتك، وسرقت المستندات، والنقود، والمصاغ، وكل شيء.. فقط أخرجني من هنا.. أرجوك.

كان يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة، على نحو يثير الشفقة في أشد القلوب قساوة، ولكن (فائق) قال في صرامة:

- خطأ.. محاولة فاشلة يا رجل.. القاتل لم يسرق سوي المستندات.. لا نقود أو مصاغ.

صرخ (حليم) في انهيار:

- أيها القاتل.. أنت تقتلني الآن.. تقتلني بلا رحمة.

ثم أمسك صدره فجأة، وصرخ:

- لقد قتلتني.

ثم هوى فجأة على الأرض، وصاح (وصفي):

- إسعاف.. إنه يحتاج إلى إسعاف عاجل.

اندفع (سمير) نحو (حليم)، وانحني يفحصه بسرعة، ثم اعتدل وقال في توتر شديد:

- لقد مات.

وانتفض جسد (خيرت) في عنف.

☆ ☆ ☆

الولـد..

3- لحظات الرعب..

لثوانٍ لم ينبس أي من الحاضرين ببنت شفة، وهم ينقلون أبصارهم في هلع وارتياع، ما بين جثة (حليم)، وتلك التعبير البارد الصارم القاسي، الذي ارتسم على وجه (فائق)، ثم هتف (وصفي):

- الآن أصبحت أنت القاتل يا (فائق).

ردد (فائق) في برود:

- حقًا!

انهار (خيرت) أمام ذلك البرود المخيف، وهوى فوق مقعده، وهو يهتف:

- يا للمسكين!.. يا للمسكين... يا لسوء حظه!

جلس (سمير) بدوره، وهو يردد:

- من يدري أينا أسوأ حظًا.. نحن أم هو.

لوح (فائق) بمسدسه، قائلًا في هدوء:

- لو لم يعترف القاتل، فسيصبح هو الأسعد حظًا بالتأكيد.. من الواضح أن قلبه لم يحتمل الخوف، فلقى مصرعه في لحظة واحدة، على عكس ما سيحدث لنا، عندما تنطبق هذه الجدران على بعضها البعض، وتسحق أجسادنا كرقائق هشة، من البطاطس المقلية، بين مطرقة وسندان.

سيرت في جسد (وصفي) قشعريرة، وهو يتخيل جسده، والجدران تسحقه سحقًا، وتطلع في رعب إلى الجدران، التي

تواصل اقترابها، من بعضها البعض، وقال في حدة تمتزج بالكثير من الخوف:

- أخرجنا من هنا يا (فائق).. أخرجنا ولن يشير أحدنا قط إلى مصرع (حليم).. سنقول إن أزمة قلبية باغتته، في أثناء سهرة نقضيها معًا، فسقط قبل أن تتمكن من إسعافه.. صدقني.

قال (فائق) في صرامة:

- الاعتراف أولًا.

هتف (خيرت) في حدة:

- ومن أدراك أنه ليس (حليم)؟.. ألا يحتمل أنه هو القاتل، وأن خوفه من كشف أمره امتزج بعقدة الأماكن المغلقة، التي يعانيها، فسقط صريعًا.. هذا هو التفسير الوحيد لموته، فلم أسمع في حياتي كلها عن رجل قتله خوفه من الأماكن المغلقة.

تدخل (وصفي)، قائلًا:

- هذا صحيح.. خوفه من افتضاح أمره قتله.

أطلق (فائق) ضحكة ساخرة عالية، تردد صداها في الحجرة المغلقة، التي تزداد ضيقًا باستمرار، قبل أن يقول:

- يا لها من لعبة طريفة!.. أحدكم يلقي مصرعه، فيتهمه الجميع بأنه القاتل، ليفوزوا بأرواحهم..

قال (سمير):

- ولم لا يكون هذا حقيقيًا؟.. أليس أحد مديري الشركة؟!

قال (فائق) في برود:

- بلى.. ولكنه ليس القاتل.

صاح به (خيرت):

- ومن أدراك؟

أطلت صرامة هائلة من عيني (فائق)، وهو يقول:

- لأنني أعلم من هو القاتل الحقيقي.

ران على الحجرة الصغيرة صمت رهيب، والجميع يحدقون في وجه (فائق)، قبل أن يغمغم (وصفي) في توتر بالغ:

- تعرفه؟!

ثم هتف في عصبيته المعهودة:

- لماذا تلعب هذه اللعبة السخيفة إذن؟

أجابه (فائق)، وعيناه تتألقان في شدة:

- لأنني أريد سماع اعترافه بأذني.

صاح (خيرت):

- لماذا؟.. أهي مجرد رغبة سادية؟!

هز (فائق) كتفيه في لامبالاة، وقال:

- ربما.

ألقي (وصفي) نظرة أخرى على الجدران المقتربة، ثم قال في عصبية شديدة:

- ولكنك مجنون.. مجنون بحق.. ما هذا الذي تفعله بنا؟.. هناك قانون وشرطة، وقضاء.. ليس من حقك أن تلعب دور القاضي والجلاد.

ابتسم (فائق) قائلا:

- بل ألعب دور المخرج يا رجل.. مخرج واحد من أخطر أفلام الرعب، في عالم الواقع.. أول وأخر فيلم رعب حقيقي نشاهده.

شحب وجه (وصفي)، وتلفت في هلع إلى (خيرت) و(سمير)، فقال الأول في توتر، وهو يحاول التظاهر بالهدوء والحكمة:

- اسمع يا (فائق).. سنصل حتمًا إلى اتفاق يرضي الجميع.. ستوقف هذه الجدران، ونذهب معًا إلى أقرب قسم شرطة، و...

قاطعه (فائق) في خشونة:

- هراء.

ثم أضاف في صرامة:

- القاتل وحده يمكنه إنهاء هذا الموقف، باعتراف واحد صريح.

تعالت قرقعة أخرى، في اللحظة نفسها، وانتفض جسد (خيرت) في هلع، عندما شاهد جدارًا يحطم مسند مقعد قريب منه، وهو يزيحه أمامه في بطء، وهتف:

- لماذا يا (فائق)؟.. لماذا؟.. اذهب بنا إلى أقرب قسم شرطة، وأخبرهم بشكوكك كلها، واترك للقانون مهمة إلقاء القبض على القاتل، ما دمت تعلم من هو..

استرخى (فائق) في مقعده مرة أخرى، وهو يقول:

- قلت لك: إنني فعلت.. أخبرت الشرطة بشكوكي.. وباسم القاتل أيضًا، ولكن كان من المستحيل أن يلقي رجال الشرطة القبض على القاتل، دون دليل واحد يدينه.. أنا نفسي رجوتهم ألا يفعلوا، فإلقاء القبض عليه دون أدلة لن يدينه، بل سينبهه إلى دقة موقفه، ويجعله يتخذ المزيد من الحذر، فيضيع دم (منيرة) إلى الأبد.

صاح (وصفي):

- إذن فأنت تهدر دماءنا كلنا، حتى لا يضيع دم زوجتك.

قال (فائق) في حدة:

- هذا حقي.

هب (سمير) من مقعده، وقال في غضب:

- لا يا (فائق).. ليس حقك.

هتف (فائق) في استنكار:

- أنت؟!.. أنت يا (سمير) تقول هذا؟!.. إنني أعتبرك دائمًا أخلص أصدقائي.

لوح (سمير) بكفه، وهو يقول:

- أنا أيضًا كنت أعتبرك كذلك يا (فائق).

اتسعت عينا (فائق)، وهو يقول في دهشة:

- كنت؟!

هتف (سمير):

- نعم يا (فائق).. كنت.. فالآن لم أعد أعتبرك كذلك.. إنك لست صديقًا لأحد، ولا يمكنك أن تكون صديقًا لشخص عادي.. لقد فقدت صوابك، وصرت مجرد رجل عنيد، يسعى لثأر مجنون وسخيف.

صاح (فائق):

- إنني أثأر لـ(منيرة).

هتف (سمير):

- هذا لا يمنحك الحق فيما تفعله بنا.

أسرع (وصفي) يقول:

- هذا صحيح.

تجاهله (فائق) تمامًا، وهو يقول لـ(سمير) في حدة:

- من قال هذا؟.. إنك أكثر من يعرف علاقتي بـ(منيرة).. أكثر من يعرف كم كنت أحبها، وكم كانت حياتنا سعيدة هانئة.. صحيح أن الجميع تصوروا أنني تزوجتها بسبب أموالها وثرائها، ولكن الحقيقة تختلف عن هذا كثيرًا.. لقد تزوجتها لأنني أحببتها.. أحببتها من كل قلبي.. كانت لي دائما نعم الزوجة والصديقة والرفيقة.. بل الأم الحنون أيضًا.. لن يمكنني تعويضها أبدًا يا (سمير).

وأطل من عينيه غضب هائل، وهو يضيف:

- ولن ينجو قاتلها بفعلته أبدًا.. هل سمعت؟.. أبدًا.

قال (سمير) في حدة مماثلة:

- فليكن يا (فائق).. اقتله لو أنك تعرفه.. أو سلمه إلى الشرطة، لو أردت ألا تلوث يديك بدمه، ولكن اترك الآخرين.. ألا يكفيك أنك قتلت (حليم)؟.. ألا يكفيك دمه الذي أهدرته، وأنت تعلم -كما قلت- إنه ليس القاتل؟

هتف (فائق):

- كان هذا قدره.

صاح به (سمير):

- بل هو عنادك.

لوح (فائق) بذراعيه، هاتفًا:

- فليعترف القاتل الحقيقي إذن، وينتهي كل شيء.

قال (سمير):

- أخبرنا من هو، وسنجبره على الاعتراف.

التفت (فائق) إلى (خيرت) و(وصفي)، ونقل بصره بين وجهيهما في توتر، وهو يقول:

- لا.. لابد أن يعترف بنفسه.

عقد (سمير) حاجبيه، وقال:

- في هذه الحالة لن أبقى هنا لحظة واحدة.

ثم تحرك نحو (فائق)، قائلًا في صرامة:

- أعطني هذا المسدس يا (فائق)، ودعنا نخرج من هنا.

صوب إليه (فائق) المسدس، وقال في صرامة:

- لا تقترب يا (سمير).. ابق مكانك.

واصل (سمير) اقترابه، وهو يقول في حزم:

- قلت أعطني المسدس.

تطلع (خيرت) و(وصفي) إلى (سمير) في أمل، وتمنى (وصفي) لو أن (سمير) نجح في انتزاع المسدس، ولكن (فائق) قال في شراسة مباغتة:

- لقد حذرتك.

ودوى صوت الرصاصة في الحجرة..

وجحظت عينا (سمير).

ثم هوي جثة هامدة.

☆ ☆ ☆

4- اعتراف..

أطلق (وصفي) شهقة عنيفة، مع سقوط (سمير)، وتراجع في حركة حادة إلى الخلف، فالتصق بالجدار، إلا أنه لم يكد يشعر ببرودته وحركته، حتى ارتد عنه ككرة من المطاط، وهتف في ارتياع:

- لقد قتلته.. قتلت (سمير).. أعز أصدقائك.

قال (فائق) في قسوة:

- هو تسبب في هذا.

هتف (خيرت):

- هكذا؟!.. بكل بساطة؟!.. أتقتل صديق عمرك، وتقول: إنه هو الذي تسبب في هذا؟

قال (فائق) في قسوة:

- هذا ما حدث.. والقاتل هو المسؤول عن كل هذا، فلو اعترف لانتهى كل شيء.

ترك (وصفي) جسده يسقط على مقعده، وأخفى وجهه بكفيه، وهو يقول في مرارة:

- لا فائدة.. لا فائدة.

ثم رفع عينيه المذعورتين، وتطلع إلى الجدران، التي ابتلعت في اقترابها نصف الحجرة تقريبًا، وهتف بغتة:

- لقد عرفت.

سأله (خيرت) في دهشة متوترة:

- عرفت ماذا؟

صاح (وصفي)، موجهًا حديثه إلى (فائق):

- عرفت من هو القاتل.

سأله (فائق) في هدوء:

- من هو؟

التفت (وصفي) بحركة حادة إلى (خيرت)، وصاح:

- هو.. (خيرت) هو القاتل.

تراجع (خيرت) كالمصعوق، هاتفًا:

- أنا؟!

صاح (وصفي):

- نعم.. أنت القاتل.. لم يعد هناك سوانا.. أنت وأنا، وأنا أعلم أنني لست القاتل، فلم يبق إذن سواك.

هتف (خيرت) في غضب:

- أنا أيضًا أعلم أنني لست القاتل، فلم لا يكون أنت.

استرخى (فائق) في مقعده أكثر وأكثر، وبدا وكأنه يستمتع بهذا الشجار، وهو يقول:

- هيا.. هل سيعترف أحدكما؟

قال (وصفي) في توتر:

- هيا يا (خيرت).. اعترف.. اعترف ودعنا نغادر هذا المكان اللعين، قبل أن تسحقنا هذه الجدران..

هم (خيرت) بالاعتراض، عندما صدرت قرقعة أخرى مخيفة، ووقع بصره على أحد الجدران المتحركة، وهو يسحق جانب أحد المقاعد، فهتف في ارتياع:

- فليكن.

التقى حاجبا (فائق)، وهو يعتدل، وينظر إليه في اهتمام، في حين استطرد هو في عصبية، وهو يلقي نظرة محنقة على (وصفي):

- سأعترف.. أنا القاتل.

ردد (فائق) في بطء:

- أنت!

أومأ (خيرت) برأسه في حدة، وقال:

- نعم.. أنا.. أنا الذي اختلس أموال الشركة، وزوجتك توصلت إلى هذا، وهددتني بإبلاغ الشرطة، فأسرعت بسيارتي إلى هنا. وحاولت إقناعها بالتنازل عن هذا، وعندما رفضت أطلقت عليها النار، وهربت قبل عودتك، بعد أن سرقت المستندات.

هتف (وصفي) في ذهول:

- إذن فهو أنت حقًا؟!.. يا إلهي.

أما (فائق)، فقال في بطء مثير:

- لقد اعترفت.

قال (خيرت) في عصبية شديدة:

- نعم.. اعترفت.. هيا.. أخرجنا من هنا.

سأله (فائق):

- وأين هذه المستندات؟!

- أجابه بسرعة:

- مزقتها.. أحرقتها.. لم يعد لها وجود.. والآن هيا.. لقد حصلت على الاعتراف الذي تنشده.. أخرجنا من هنا إذن.

ضغط (فائق) زرًا في مسند مقعده، وهو يقول:

- نعم.. لقد حصلت على الاعتراف.

تطلع (وصفي) و(خيرت) في لهفة إلى الحاجز المعدني، الذي يسد الباب، وكل منهما يتصور أنه سيرتفع، ويفتح الطريق، بعد أن ضغط (فائق) هذا الزر، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، فهتف (وصفي) في حدة:

- لماذا لم تفتح الباب، وتوقف الجدران؟

نهض (فائق) واقفًا، وهو يقول:

- هذا الزر لا يفعل ذلك، وإنما يوقف التسجيل.

ازدرد (خيرت) لعابه في صعوبة، وهو يقول:

- أي تسجيل؟

أجابه في صرامة، وهو يصوب مسدسه إليه:

- لقد سجلت كل لحظة، منذ دخولنا إلى هذه الحجرة، وحتى لحظة الضغط على الزر.. سجلت كل ما حدث بالصوت والصورة.. والآن حانت لحظة الثأر.

جذب إبرة مسدسه، فصرخ (خيرت):

- ولكن.. ولكنك وعدت.

قال (فائق) في لهجة مخيفة:

- لست أعد القتلة.

لوح (خيرت) بيده، صائحًا:

- إنك لم تفهمني.. لقد قلت كل هذا من أجل..

قاطعه دوي الرصاصة، فارتج جسده، واتسعت بقعة حمراء على صدره، قبل أن يهوى فوق مقعده..

وهتف (وصفي) في شبه انهيار:

- لقد قتلته.

أجابه (فائق)، وهو يلقي مسدسه جانبًا:

- كان يستحق هذا.

صاح (وصفي):

- لن نتناقش هذا الآن.. أخرجنا من ذلك الفخ القاتل أولًا، ثم قل ما يحلو لك.

كان يقولها، وهو يتحرك نحو الباب المعدني، إلا أن قدميه تسمرتا في مكانهما، وانتفض جسده في قوة، واتسعت عيناه في هلع ورعب وارتياع، وهو يحدق في ذلك الشخص الذي نهض، والتقط المسدس، ثم صوبه إليه في هدوء وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، وهو يقول:

- ليس بهذه السرعة.

كاد يسقط مصعوقًا، وهو يحدق في وجه الذي نطق هذه الكلمات..

في وجه (سمير).

☆ ☆ ☆

5- الخدعة..

خفق قلب (وصفي) في قوة، وهو يقول في ارتياع:

- ما معنى هذا؟.. ما معنى كل هذا؟

كاد يقفز من مكانه مذعورًا، عندما رأى (حليم) ينهض بدوره، ويقول:

- معناه أننا لم نمت يا رجل.. ألم تفهم بعد؟

جف حلق (وصفي) تمامًا، وهو يقول:

- ك... كيف؟

أطلق (فائق) زفرة قوية، ثم اتجه إلى مقعد (حليم)، وألقى جسده فوقه، وأسبل جفنيه، في حين أجاب (سمير):

- (فائق) هو الذي أعد كل هذه الخطة، ليبدو في صورة الشخص القاسي، الشرس، الذي أصابه الجنون، ويمكنه فعل أي شيء كان، للحصول على اعتراف يدين قاتل زوجته.. (حليم) لم يصب أبدًا بعقدة الأماكن المغلقة، بل تظاهر بهذا، وبالموت، وأنا تظاهرت بالتشاجر مع (فائق)، وأطلق علي هو رصاصة زائفة، تحوي صبغيات حمراء، شبيهة بالدم، بعد أن وضع الرصاصات في مسدسه بترتيب خاص، بحيث كانت الرصاصة الأولى، التي أطلقها على المقعد حقيقية، وتليها أخرى زائفة لي، ثم رصاصات حقيقية فيما بعد.

هتف (حليم):

- حقيقية؟!. إذن فقد قتل (خيرت)... يا الهي!.. إننا لم نتفق على هذا.

أطلق (سمير) ضحكة ساخرة، بدت عجيبة في مثل هذا الموقف، وهو يقول:

- إنه لم يقتل (خيرت) وحده يا رجل.. لقد قتلك أيضًا.

قال (حليم) في حيرة:

- أنا أيضًا؟!.. كيف؟!

أدار (سمير) فوهة مسدسه نحوه، وقال:

- هكذا.

قرن قوله بضغطه على زناد المسدس، وتفجرت الدماء في صدر (حليم) أيضًا، فهوي صامتًا، وشهق (وصفي) في رعب، في حين هب (فائق) واقفًا، وهو يقول:

- ماذا فعلت أيها الأحمق؟.. لقد قتلته.

عاد (سمير) يصوب إليه المسدس بسرعة، وهو يقول:

- بل أنت الأحمق يا (فائق).. كان ينبغي أن تبلغ الشرطة بما تنوي فعله، فهذه التسجيلات تحتاج إلى إذن من النيابة، حتى تصبح دليلًا رسمًيا.. أما الآن فهي ستكفي فقط لتثبت أنك رجل مجنون، وأنك قتلت الجميع، قبل أن تنتحر.

قال (فائق) في انزعاج:

- أنتحر؟!

أومأ (سمير) برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم يا صديقي.. تنتحر.. سأطلق النار عليك وعلى (وصفي) الآن، ثم أغادر الحجرة، عن طريق الزر الخفي، الذي أخبرتني بمكانه، ونحن نتفق على أداء هذه الخدعة، وأعيد تشغيل

الجدران، حتى تسحقكم جميعًا، ويبقى شريط الفيديو، الذي يسجل كل ما فعلت، والذي سيقنع الشرطة بجنونك.

قال (فائق):

- وماذا عنك؟

أجابه (سمير):

- هناك مقعد ينتظرني، في طائرة الخطوط الأمريكية، التي تغادر المطار بعد ثلاث ساعات إلى (نيويورك)، وبصحبتي حقيبة أنيقة، تحوي نصف مليون دولار، هي كل ما اختلسته من شركة زوجتك اللعينة، طوال عامين.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة قاسية، وهو يستطرد:

- غباؤك هو الذي سيعاونني على الفرار.

قال (فائق) في مقت:

- إذن فأنت الذي قتل (منيرة).

قال (سمير) في حدة:

- كانت غبية.. كشفت أمر الاختلاسات بالمصادفة البحتة، وكان يمكنها السكوت، بعد أن وعدتها بإعادة المبلغ والاستقالة من الشركة، ولكنها كانت تغار من صداقتي لك، ووجدت أمامها فرصة لتحطيمي.

كرر (فائق) في غضب:

- أنت يا (سمير).. أنت قتلت (منيرة).

قال (سمير) في توتر:

- اطمئن.. ستلحق بها بعد قليل.

قالها وضغط زناد المسدس مرتين متتاليتين، وظهرت بقعتا دم على صدر (فائق)، الذي اتسعت عيناه وصاح:

- أنت يا (سمير)؟!

ثم هوي مرتطمًا بالحائط، وسقط على وجهه..

وأدار (سمير) فوهة مسدسه نحو (وصفي)، الذي لوح بذراعيه صارخًا:

- إنني لم أر شيئًا.. أقسم أنني لن أخبر أحدا بما حدث.. هيا.. الحق بطائرتك، وأخرجني من هنا.. قيدني في المقعد لو أردت، أو حتى احبسني في دورة المياه، ولكن اتركني حيًا.. أرجوك.

هز (سمير) رأسه نفيًا، وقال:

- للأسف.. لا يمكنني هذا أبدًا يا (وصفي).. وجود واحد منكم على قيد الحياة يفسد كل شيء.. الوداع.

وضغط زناد المسدس، وشعر (وصفي) بشيء يرتطم بصدره، فصرخ في رعب:

- لا..لا..

ولكن ذلك الشيء لم يكن مؤلمًا كما تصور..

لقد تفجر على صدره، ولوث قميصه الأبيض بشيء يشبه الدماء الباهتة، ولكن دون أدنى ألم..

وفي ذهول، هتف (وصفي):

- هذه ليست رصاصة.

كرر (سمير) في ارتياع:

- ليست ماذا؟

أجابه (فائق)، وهو ينهض في بطء:

- ليست رصاصة.. هل أصابك ضعف السمع؟

تراجع (سمير) في ذهول، وهو ينقل بصره من (فائق) إلى (خيرت) و(حليم)، اللذين نهضا بدوريهما، وراح الجميع يتطلعون إليه في صرامة، و(وصفي) يهتف:

- إذن فأحدكم لم يمت؟!.. أي عبث هذا؟.. ماذا تفعلون بي؟

وقال (سمير) في انهيار:

- كانت خدعة.. كل هذا كان خدعة!

أومأ (فائق) برأسه إيجابًا، وقال في مرارة:

- نعم يا (سمير).. لقد كانت خدعة مزدوجة.. لقد أخبرتني (منيرة) قبل مصرعها أنك أنت المختلس، ولكنني لم أشأ تصديقها، تصورت أنها تقول هذا بسبب غيرتها الدائمة من صداقتنا.. ثم لقيت مصرعها.. والواقع أنني أخبرت الشرطة بما حدث، ولكن اختفاء المستندات، وعدم وجود دليل إدانة واحد، جعل من الحماقة إلقاء القبض عليك؛ لذا فقد اقترح ضابط الشرطة فكرة التلاعب بك، لدفعك إلى الاعتراف بجريمتك، والباقي من إعدادي أنا.. كنت تتصور أنك تخدعنا جميعًا، في حين كنا جميعا نخدعك.

ثم التقى حاجباه، وهو يستطرد:

- أما بالنسبة للتسجيلات، فهي حقيقية يا (سمير).. ولكنها قانونية تمامًا، وتمت منذ البداية بإذن من النيابة.

ومط شفتيه، مردفًا في مرارة:

- لم أصدق أبدًا أن يفعل بي أصدق أصدقائي هذا يا (سمير).

انهار (سمير) على مقعده، ودفن وجهه بين كفيه، و(وصفي) يهتف:

- إذن فأنا الوحيد الذي لم يعلم ما يحدث، وأنت تعد المؤامرة تلو الأخرى، تارة مع (سمير) و(حليم)، وتارة مع (حليم) و(خيرت)، ولا أحد يخبرني بشيء.

قال (فائق):

- كان من الضروري أن يبقى أحدنا طبيعيًا يا صديقي.. أليس كذلك؟

نظر (وصفي) إلى الجدران، التي تواصل اقترابها، وقال:

- لا بأس.. لا بأس.. لنخرج من هنا أولًا، ونناقش كل هذا فيما بعد.

اتجه (فائق) إلى (سمير)، وقال في صرامة:

- هيا.. سيصل رجال الشرطة بعد لحظات.

قالها وضغط زرًا خفيًا بالحائط، فارتفع الحاجز المعدني، وأسرع (وصفي) يقفز خارج الحجرة، وتبعه (حليم) و(خيرت) في خطوات سريعة، في حين قال (فائق) مرة أخرى:

- هيا يا (سمير).. لم يعد هناك سوى السجن والفضيحة.

نهض (سمير) من مقعده في بطء، وغمغم:

- نعم.. السجن والفضيحة.

ثم دفع (فائق) بكل قوته فجأة خارج الحجرة، صائحًا:

بل هناك حل آخر.

ووثب يضرب مسند المقعد بكل قوته، فهوى الحاجز مرة أخرى، وواصلت الجدران اقترابها من بعضها البعض، وصاح (وصفي) في الخارج:

- أوقف الجدران يا (فائق).. أوقفها.

قال (فائق) في توتر:

- لا يوجد وسيلة لإيقافها من الخارج.. الزر الوحيد الذي يفعل هذا بالداخل.

صاح به (خيرت):

- افعل شيئًا.. افصل التيار الكهربي، أو انسف باب الحجرة.. افعل شيئًا.

ولكن (فائق) بقي صامتًا، جامدًا، والقرقعة المكتومة، التي تأتي من داخل الحجرة، توحي بأن الجدران تسحق المقاعد سحقًا، وتكاد تنطبق على بعضها البعض..

ثم ميز الجميع صرخة مكتومة، انتفضت لها أجسادهم، في نفس اللحظة التي وصل فيها رجال الشرطة..

ولم يجد رجال الشرطة سوى جدارين متلاصقين من الصلب، يحتاج فصلها إلى ونشين عملاقين..

ولم تعد هناك حجرة إضافية بالفيلا..

وإلى الأبد.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- دعـــــــوة..

2- القفص..

3- لحظات الرعب..

4- اعتراف..

5- الخدعة..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

المعمة

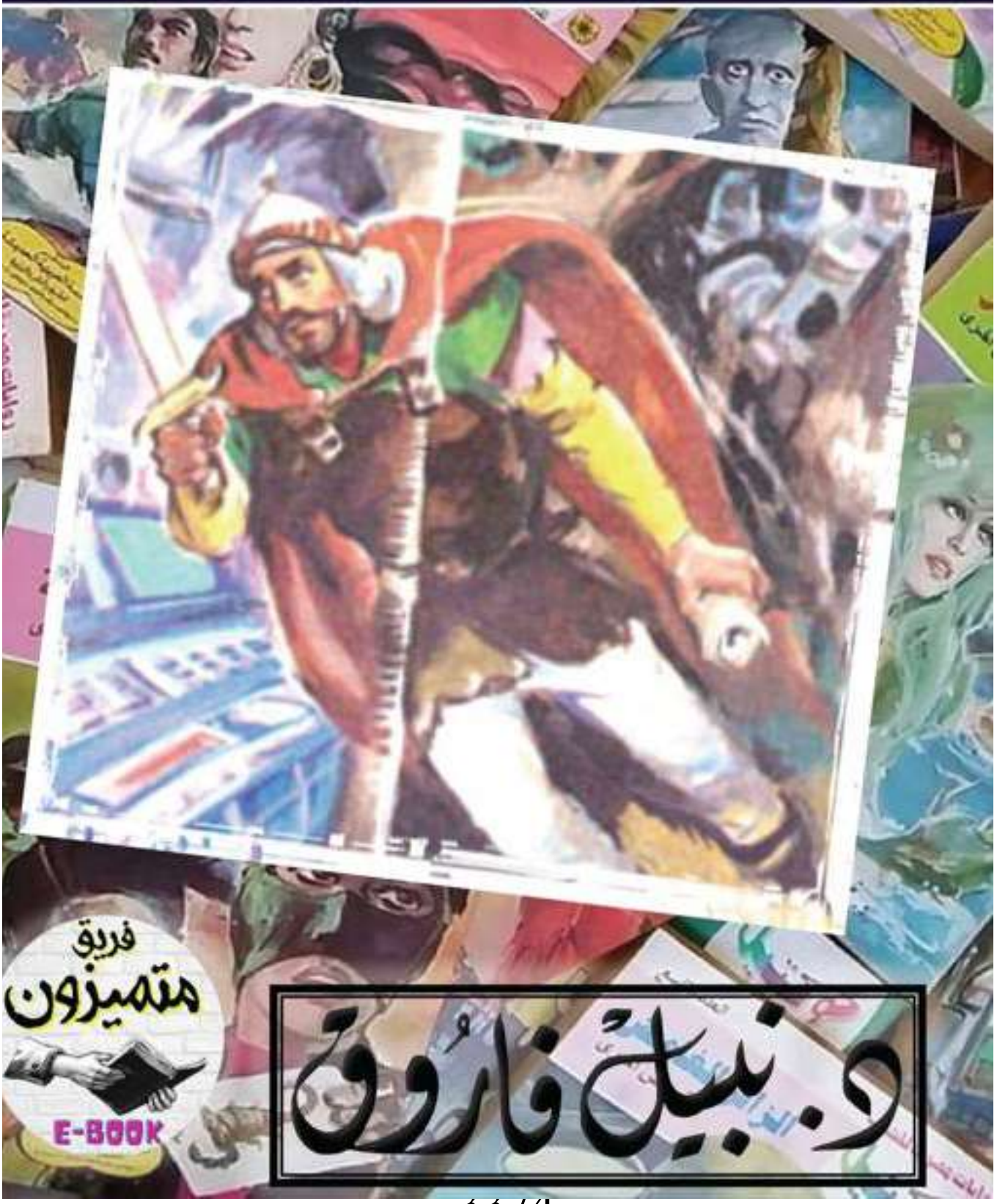

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

الحجـــرة
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000
قصص العدد

المهــمة

1- الرسالة..

"أين الفارس (فخر الدين)؟.. السلطان يطلبه على الفور..".

تردد ذلك النداء في معسكر الفرسان، وتنقل من فارس إلى آخر، حتى بلغ مسامع (فخر الدين)، فهب لتلبية النداء، وقطع المعسكر كله في خطوات سريعة قوية، وهو يمسك مقبض سيفه المستقر في غمده، وكأنه يعلن استعداده للموت في سبيل قائده، وقضيته، ورأسه يرتفع في اعتداد شديد كعادته، حتى بلغ خيمة السلطان، فأزاح أستارها في حذر، وهو يتنحنح؛ ليعلن عن قدومه، قبل أن يقول بصوته الواثق الحازم القوي:

- (فخر الدين) في خدمتك يا مولاي.

كان السلطان (صلاح الدين الأيوبي) منكبًا على دراسة خريطة بدائية، رسمها بعض رجاله على رقعة من الجلد، وحوله عدد من قادته ورجاله، إلا أنه رفع عينيه عن كل هذا، والتفت إلى (فخر الدين)، وقال بصوته الهادئ القوي:

- ادخل يا (فخر الدين).

تقدم (فخر الدين) إلى حيث يقف قائده، الذي وضع يده على كتفه، وقال في لهجة تشف عن خطورة الأمر:

- أحتاج إليك في مهمة بالغة الأهمية والخطورة يا ولدي.

شدد (فخر الدين) قبضته على مقبض سيفه، وهو يقول:

- روحي فداء مولاي.

ربت (صلاح الدين) على كتف فارسه، وقال:

- بل روحك فداء دينك ووطنك يا ولدي..

والتفت في حسم إلى الخريطة البدائية، واستطرد بسرعة:

- أنت تعلم أننا على وشك الدخول في معركة فاصلة حاسمة مع الأعداء، بعد أن وحدوا صفوفهم، وأصبحت قيادة جيوشهم كلها تحت قيادة (ريتشارد قلب الأسد)، ولكننا لا ندري بعد، أي منطقة تصلح للقتال معهم، ولا أية منطقة اختاروها لذلك، وبعض المستشارين هنا يقترحون منطقة (حطين)، في حين يقترح البعض الآخر (طبرية)، ولكن الأمر يحتاج إلى حسم تام، وإلى تحديد لا يقبل الشك.. أهي (حطين) أم (طبرية).

ثم التفت مرة أخرى إلى (فخر الدين)، مستطردًا:

- وهذه هي مهمتك.

اعتدل (فخر الدين)، ونصب هامته في اعتداد، قائلًا:

- أنا لها يا مولاي.

التقط (صلاح الدين) رسالة ملفوفة في إحكام، ومختومة بخاتم السلطان، وناولها إلى (فخر الدين)، قائلًا:

- ستذهب بهذه الرسالة إلى (مصر)، وتسلمها إلى شقيقي، فلديه معلومات بالغة الأهمية، نحتاج إليها في شدة، حتى تصبح حربنا ناجحة، وننهي ذلك القتال، الذي بدأ أيام أجدادنا، وعانى فيه شعبنا الويلات..

وتنهد في أسى، قبل أن يتابع:

- ستسلم هذه الرسالة إلى شقيقي، وسيسلمك هو رسالة أخرى، تحوي كل ما نحتاج إليه من معلومات وأسرار.

والتقى حاجباه، وهو يستطرد في حزم:

- وهذه المهمة ليست بسيطة يا (فخر الدين)؛ فالأعداء مستعدون لدفع نصف حياتهم، مقابل معرفة ما لدينا، وسيبذلون أقصى طاقاتهم للحصول على الرسالة، ومنعها من الوصول إلينا، وسيحاولون التخلص منك، أو الإيقاع بك وخداعك، وعليك أنت أن تبذل روحك نفسها، لو اقتضى الأمر، حتى تصل الرسالة إلينا، ولا تقع في أيديهم.

قال (فخر الدين) في حزم:

- اطمئن يا مولاي..

ربت (صلاح الدين) على كتفه، وقال وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة:

- انطلق على بركة الله يا ولدي.. وقم بمهمتك على أكمل وجه.

وضع (فخر الدين) الرسالة في حزامه، وهو يقول:

- سأفعل ما بوسعي يا مولاي.

قال (صلاح الدين):

- وتذكر دائمًا: إذا ما تعقدت الأمور، فإنه من الأفضل تدمير الرسالة، على وقوعها في أيديهم.

أومأ (فخر الدين) برأسه في حزم، ثم قال:

- إلى اللقاء بإذن الله يا مولاي.

غمغم (صلاح الدين):

- بإذن الله يا ولدي.

واستدار (فخر الدين)، واتجه إلى الخارج في حزم، ولم يكن يزيح أستار الخيمة، حتى ناداه (صلاح الدين) مرة أخرى، وقال:

- بروحك يا (فخر الدين).

أجابه (فخر الدين) في حزم:

- بروحي يا مولاي.

وبدأ مهمته.

☆ ☆ ☆

اعتدل (ريتشارد قلب الأسد) بقامته المشوقة، وجسده القوي، فوق ذلك المقعد الخشبي الشبيه بالعرش، والذي يحتل موقعًا بارزًا في خيمته الضخمة، وهو يستمع إلى أحد جواسيسه، الذي يقول في حماس:

- وهكذا غادر (فخر الدين) المعسكر إلى (مصر) برسالة إلى شقيق (صلاح الدين).. وسيعود حاملًا الرسالة الأخرى، وأرى أن نهاجمه ونقتله، قبل أن يصل بالرسالة إلى مصر يا مولاي.

عقد ريتشارد حاجبية مفكرًا بعض الوقت، ثم هز رأسه نفيًا، وقال:

- خطأ يا رجل.. لسنا نحتاج إلى منع وصول رسالة (صلاح الدين) إلى شقيقه، بقدر ما نحتاج إلى معرفة فحوى رسالة شقيقه إليه، وما تحويه من معلومات عنا.. الفضول ينهشني في شدة، لمعرفة تلك المعلومات، التي لا تتوافر لرجل مثل (صلاح الدين)، في ساحة المعركة، وتتوافر لشقيقه في (القاهرة)، ويحتاجها هو إلى هذا الحد.

قال مستشاره، الذي يقف إلى جوار العرش:

- ربما كانت معلومات من بلادنا يا مولاي، تصف عتادنا وجيوشنا، التي وصلت إلى هنا، لتدعيم قوتنا، قبل الحرب

الفاصلة.. هذا هو التفسير المنطقي الوحيد، فربما حمل جاسوس هذه المعلومات من (أوروبا) إلى (الإسكندرية)، وأرسل (صلاح الدين) فارسه هذا لإحضارها.

التقى حاجبا (ريتشارد) في شدة، وهو يقول:

في هذه الحالة يكون الأمر بالغ الخطورة بالفعل.

ونهض عن عرشه، فتراجع الجميع في هيبة، وهم ينحنون، وهبط هو إلى أرض الخيمة، وراح يتحرك لحظات في صمت، وهو يداعب لحيته الكثة بأصابعه، ثم لم يلبث أن توقف، وقال في حزم:

- أريد هذه الرسالة.. أريدها بعد خروج فارس (صلاح الدين) من (القاهرة)، وقبل عودته إلى هنا.. أريد معرفة ما تحويه بالضبط، ومنع وصولها إلى (صلاح الدين) في الوقت ذاته.

ثم ضرب سطح منضدة قريبة بقبضته في غضب، صارخًا:

- أريد هذه الرسالة.

انتفض الحاضرون في خوف، وانحنى مستشاره، وهو يقول:

- كما تأمر يا مولاي.. كما تأمر.

وبدأت مهمة ثانية..

☆ ☆ ☆

2- الصاعقة..

تألق البرق في السماء، وانهمرت الأمطار في شدة، في تلك الليلة، و(فخر الدين) يعبر أسوار (القاهرة)، وينطلق على متن جواده، وسط العاصفة والظلام، حاملًا الرسال التي تحوي كل الأسرار والمعلومات، التي يطلبها (صلاح الدين الأيوبي)..

كانت رحلته إلى (القاهرة) قد انتهت في سلام، وسلم الرسالة إلى شقيق (صلاح الدين)، الذي طالعها في اهتمام، ثم سلمه رسالة أخرى، مختومة بخاتم السلطنة، وأوصاه بضرورة الحفاظ عليها، والعمل على توصيلها إلى السلطان، في أسرع وقت ممكن، ومهما كانت العقبات..

وكان هذا هو الجزء الأصعب من المهمة، والأكثر خطورة في رأيه..

ولكن (فخر الدين) كان فارسًا صنديدًا، لا يرتجف قلبه أمام الصعاب، ولا يتراجع أبدا أمام المخاطر..

كان فارسًا بمعنى الكلمة..

وعلى الرغم من الرياح والأمطار، والبرق والعواصف والظلام، انطلق (فخر الدين) على ظهر جواده، وكيانه كله لا يحمل سوي هدف واحد..

المهمة..

ولكن فجأة ظهر هؤلاء الفرسان..

خمسة فرسان أشداء، اعترضوا طريقه بجيادهم وسيوفهم، وهم يرتدون الثياب العربية، فجذب عنان جواده، وخفف من سرعته،

وهو يقول في غضب:

- أفسحوا الطريق يا أخوة العرب.

ولكن أحدهم قال بلكنته الأجنبية الواضحة، في صرامة شديدة:

- نريد الرسالة.

عندئذ فهم (فخر الدين) الأمر كله، فقفزت قبضته إلى مقبض سيفه، وهو يقول:

- أية رسالة؟

صاح به الفارس الصليبي في خشونة:

- أعطنا رسالة (صلاح الدين)، أو نمزقك شر ممزق.

التقى حاجبا (فخر الدين)، وهو يقول:

- إذن، فأنت لم تترك لي الخيار أيها الأجنبي.

شهر الرجل سيفه في وجه (فخر الدين)، والتف الآخرون حوله بسيوفهم، وهو يقول في غلظة مخيفة:

- هذا صحيح أيها العربي.

استل (فخر الدين) سيفه بحركة سريعة صارمة، وهو يهتف:

- لقد اخترت إذن.

والتقت السيوف..

كان صليلها مخيفًا، متصلًا، كاد يعلو -في بعض الضربات- على هزيم الرعد، و(فخر الدين) يقاتل الفرسان الخمسة في بسالة وقوة وإصرار..

ولكن ماذا يفعل فارس منفرد، أمام خمسة من أقوى الفرسان؟!..

وقفزت إلى ذهن (فخر الدين) كلمة واحدة، وهو يتراجع مقاتلًا.. الرسالة..

لابد من تدمير الرسالة، لو لم يكن النصر مضمونًا، في هذا القتال..

وبكل الحزم، غاص سيفه في قلب أحد الفرسان الخمسة، ثم خرج ليضرب ذراع فارس ثان، قبل أن يلكز (فخر الدين) بطن جواده بكعبية، ثم ينطلق وسط الفرسان، مبتعدًا عن ساحة القتال..

لم يكن يبغض في حياته كلها أشد من الفرار، إلا أن طبيعة الأمر كانت تحتم عليه هذا.. فالقتال غير متكافئ، ولو قتله هؤلاء الأعداء ستقع الرسالة في أيديهم، وتفشل مهمته..

ولقد وعد قائده وسلطانه..

وعده ألا تقع الرسالة في أيدي الأعداء..

مهما كان الثمن.

وفي غضب، صاح قائد الفرسان:

- خلفه يا رجال.. اقتلوه.. خذوا منه الرسالة.

وبدأت مطاردة رهيبة..

كان (فخر الدين) ينطلق بكل قوته، وجواده ينهب الأرض نهبًا، وخلفه أربعة من الفرسان، على جياد قوية، تمتزج رغبتهم في النصر بغضبهم لمصرع زميلهم.. فيفجر المزيج في أعماقهم

إصرارًا رهيبًا، على الفوز بالرسالة، وتمزيق (فخر الدين) شر ممزق..

وعلى الرغم من قوة جواد (فخر الدين)، إلا أن الفرسان الأربعة لم يلبثوا أن لحقو به، وانقضوا عليه بسيوفهم مرة أخرى، وضرب قائدهم حزام سرج الجواد، وهو يصرخ:

- ستموت أيها العربي.. ستموت حتمًا.

أصابت الضربة بطن الجواد، ومزقت الحزام، ففقد (فخر الدين) توازنه، وسقط من فوق الجواد، وقائد الفرسان يصرخ:

- ها هو ذا بين أيدينا.. اقتلوه.. اقتلوه بلا رحمة.

هب (فخر الدين) واقفًا على قدميه، وألقى نظرة سريعة على جواده، الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة.. ثم أمسك الرسالة التي يخفيها في طيات ثيابه، بكل قوته، وأمسك سيفه باليد الأخرى، وانطلق يعدو، وخلفه الفرسان الأربعة على جيادهم، وقائدهم يهتف في ظفر:

- لقد وقع في أيدينا.

كان من الصعب –بل من المستحيل– أن ينجح (فخر الدين) في الفرار على قدميه –مهما بلغت سرعته– من الجياد الأربعة، ولكن كل ذرة في أعماقه كانت تشعر بالألم والمرارة، وهو يجد نفسه عاجزًا، حتى عن تمزيق وتدمير الرسالة..

لو توقف لحظة واحدة فسيلحقون به، ويحصلون عليها..

ولو واصل العدو أيضًا فسيلحقون به..

ويحصلون على الرسالة.. وفي حزم اتخذ قراره..

وبانحرافة مباغتة، اتجه إلى جذع شجرة كبيرة، وأخرج الرسالة من جيبه وصاح وهو يرفع سيفه، ليهوي به عليها:

- لن تحصلوا عليها أبدًا..

وفجأة.. وقبل أن يهوي سيفه، هوت الصاعقة..

التمعت السماء ببريق قوي رهيب، وهوت صاعقة هائلة على الشجرة..

وعلى (فخر الدين) مباشرة..

وأمام أعين الفرسان الأربعة، تألق (فخر الدين) كشمس صغيرة، وأحاطت بجسده هالة كبيرة، احتوته في لحظة واحدة، ثم

انكمشت في سرعة مذهلة، و...

وتلاشى معها (فخر الدين)..

وفي ذهول، توقف الفرسان الأربعة، وغمغم قائدهم مشدوهًا:

- لقد.. لقد اختفي.

ولم يجبه أحد رجاله..

لقد شملهم الذهول..

الذهول التام..

☆ ☆ ☆

لم يكن هناك أي ألم..

كل ما شعر به (فخر الدين) مجرد دغدغة خفيفة، سرت في كل خلية من خلاياه، عندما أحاطت به تلك الهالة الكبيرة، ثم اعتصرته في لحظة واحدة، وعبرت جسده، لتستقر في أعماقه..

ثم انتفض (فخر الدين)..

انتفض وهو يحدق في تلك الأضواء المبهرة، التي ظهرت أمامه فجأة، في نفس الموضع، الذي كان يقف فيه الفرسان الأربعة، والذين اختفوا بدورهم من أمامه، وتلاشوا، وكأنه لم يكن لهم وجود من قبل أبدًا..

ولم يكن وحده يشعر بالدهشة..

كان هناك أربعة أشخاص يشاركونه دهشته، داخل كابينة زجاجية كبيرة، تحميهم من المطر المنهمر، وتحمي أجهزتهم التكنولوجية، التي اعتمدوا عليها في إجراء تجربتهم العجيبة..

كانوا ثلاثة من الرجال وامرأة واحدة، هي أول من قطع الصمت والذهول، وهي تنهض من مقعدها، وتشير إلى (فخر الدين)، قائلة:

- من هذا؟.. ومن أين أتى؟

رآها (فخر الدين) تشير إليه، فشدد قبضته على الرسالة، وأمسك مقبض سيفه بقبضته الأخرى، وكيانه كله ينتفض في حيرة وتوتر ورهبة، وهو يدير عينيه في تلك الأجسام المعدنية، التي تنبعث من منتصفها أضواء مبهرة، تفوق أكثر الأضواء التي يعرفها سطوعًا، باستثناء ضوء الشمس..

ومن بعيد، لاحت له أضواء أخرى متناثرة، وكأن النجوم هبطت إلى الأرض، وتراصت فوق الجبال..

ولم يفهم (فخر الدين) من أين أتى كل هذا؟

لم يفهم حتى ماذا حدث؟

كل ما كان يفهمه ويدركه، في هذه اللحظة، هو أن الرسالة ما تزال في يده، وأن المهمة لم تفشل بعد..

وقبل أن يفكر فيما حدث، أو يسمح لعقله بالحيرة والذهول، انطلق (فخر الدين) يعدو مبتعدًا، وأحد الرجال الثلاثة يغادر الكابينة الزجاجية، ويهتف به:

- أنت.. انتظر..

ولكن (فخر الدين) لم يتوقف، وإنما راح يبتعد وهو يركض بكل قوته، وعقله يكاد ينفجر من شدة الحيرة والتوتر، ويتساءل في ذهول:

- ماذا حدث؟.. أين أنا؟

ولم يكن يدرك، أو يمكن أن يدرك أبدًا حقيقة ذلك الأمر، الذي يفوق حتى إدراك من ولدوا بعده بثمانية قرون كاملة..

أو بمعنى أدق، أولئك الذين يحيون ويعيشون في ذلك القرن، الذي قفز إليه فجأة عبر فجوة زمنية..

القرن العشرين..

☆ ☆ ☆

سطع البرق في السماء، وعبر الضوء نافذة حجرة مكتب (خيري الجمال)، صاحب ومدير واحدة من شركات الاستيراد والتصدير الكبرى، وسقط على وجه سكرتيرته (فاطمة)، التي بدت شاحبة كالموتى، وهي تجلس بين أربعة من العمالقة الأشداء، غلاظ الملامح والقلوب، وتتطلع في ذعر واضح إلى (خيري) نفسه، الذي التقط نفسًا عميقًا من سيجاره، ونفثه في سقف الحجرة، قبل أن يخفض عينيه إليها، ويقول في صرامة:

- إذن فأنت تعرفين كل شيء.

ازداد وجهها شحوبًا، وانكمشت في مقعدها أكثر وأكثر، وهي تقول بصوت مختنق مبحوح، يرتجف كل حرف فيه على شفتيها المرتعدتين:

- لم أقصد هذا يا (خيري) بك.. لم أقصده بالتأكيد.. كل هذا حدث بالمصادفة.

ابتسم في سخرية وحشية، وهو يقول:

- بالمصادفة؟!.. يا لها من مصادفة عجيبة، تلك التي جعلتك تعرفين أسرارنا، وتسرقين بعض الوثائق، التي تكفي لإدانتي، وإعدامي على أقل تقدير، وتحتفظين بها في مكان مجهول.

ثم مال نحوها، وأضاف في غضب، وهو يضرب بيده مظروفًا على سطح مكتبه:

- بل تجرئين على تهديدي بها.

لوحت بكفيها، وهي تقول في ارتياع بالغ:

- ولقد استعدت أنت كل الأوراق والوثائق، وتعلم جيدًا أنني تورطت مثلكم. في هذا العمل القذر، ولن يمكنني إبلاغ الشرطة.. أطلق سراحي إذن، و...

قاطعها بصوت هادر:

- خطأ.

حاولت أن تنكمش مرة أخرى في مقعدها، ولكن جسدها الضئيل كان قد انكمش في المقعد، حتى كاد ينطبق عليه، ولم يعد هناك مجال لانكماش آخر، وهو يتابع بصوته المخيف:

- أين العقاب إذن؟.. لقد جرؤت يومًا على تحدي (خيري الجمال).. فهل يمر هذا دون عقاب؟

اتسعت عيناها في هلع، وهو ينفث دخان سيجاره، قبل أن يستطرد:

- يبدو أنك لا تدركين كيف كونت سمعتي.. إنني أحارب في عالمين، لا يعرف أيهما الرحمة.. عالم المال والأعمال الرسمي المعروف، وعالمنا السر، الذي ننتمي إليه.. وفي العالمين اعتاد الجميع أن من يجرؤ على إغضابي ينال عادة عقابًا قاسيًا ورادعًا.. لا يردعه وحده فحسب، وإنما يكفي لترتعد فرائص كل من تسول له نفسه الاقتراب مني.

ثم مال نحوها، وابتسم ابتسامة مخيفة، مع مواصلته:

- وهذا ما سأفعله بك يا عزيزي.

ارتجفت شفتاها، وتجمد جسدها كله، كما لو كانت داخل ثلاجة كبيرة، وهو يعتدل، ويشير إلى أحد الرجال الأربعة، الذي يحيطون بها، ويقول في صرامة:

- هيا.. انه هذا العمل.

انتقلت ابتسامته الرهيبة إلى شفتي الرجل، الذي مال نحوها، وهو يحل رباط عنقه، ثم استعد ليحيط به عنقها، و...

وفجأة انطفأت أنوار الحجرة، وانقطع التيار الكهربي..

ولم تدر (فاطمة) ماذا أصابها عندئذ!

لقد دبت في جسدها قوة مباغتة، وكأنما جاء انقطاع التيار لينقذها من براثن (خيري) ورجاله، فانزلقت بحركة رشيقة سريعة، ساعدها عليها جسدها الضئيل، وانفلتت من بين ذراعي الرجل الضخم، قبل أن يحيط عنقها برباط عنقه، و(خيري) يهتف في عصبية:

- أشعلوا المصابيح الإضافية.. أو حتى قداحاتكم.. إنني أكره الظلام.

وبحركة سريعة، وثبت (فاطمة) نحو المكتب، وشحذت ذاكرتها؛ لتحدد موضع المظروف بالضبط، وسط الظلام الدامس، ومدت يدها تلتقطه، والرجل يهتف:

- لقد هربت الفتاة.

صاح (خيري):

- هربت؟!.. ماذا تعني بالضبط؟

وهنا سطع البرق مرة أخرى في السماء..

وعلى ضوء البرق، وقع بصرها على المظروف، ووقع بصر الرجال عليها، وصاح (خيري):

- ها هي ذي.. اقبضوا عليها.

وبحركة آلية، اختطفت (فاطمة) مظروف الوثائق المنتفخ وقفزت مبتعدة عن قبضات الرجال الأربعة، الذين عادوا يتخبطون في الظلام الدامس، و(خيري) يهتف بهم:

- ماذا أصابكم؟، هل ستسمحون لها بخداعكم هكذا؟

ولكن (فاطمة) كانت قد بلغت باب الحجرة، فدفعته بجسدها، وانطلقت تعدو بكل قوتها، و(خيري) يصرخ خلفها:

- الحقوا بها.. اقتلوها..

وانطلق الرجال الأربعة خلفها..

وعلى الرغم من الظلام الدامس، راحت (فاطمة) تعدو هابطة سلم البناية، ووقع أقدام الرجال الأربعة يطاردها، حتى بلغت المدخل، فصاحت بحارس الأمن هناك:

- أسرع.. إنهم يريدونك بأعلى.

تحرك الرجل على نحو غريزي، واندفع نحو السلم، في حين اندفعت هي عبر المدخل، وواصلت عدوها خارج المبنى، وسط المنطقة المقفرة المهجورة، التي تحيط به..

وصاح أحد الرجال الأربعة خلفها:

- توقفي، أو أطلق النار.

ولكنها لم تتوقف..

كانت تعلم أن توقفها أو استمرارها يحملان النهاية نفسها؛ لذا فقد واصلت عدوها، حتى بلغت سيارتها الصغيرة، فقفزت داخلها، وأدارت محركها، وهي تقول مرتعدة:

- هيا أيتها الصغيرة.. لا تخذلي صاحبتك هذه المرة.. انطلقي بكل قوتك.. هيا.

لم يستجب لها المحرك العتيق في البداية، واقترب منها الرجال الأربعة أكثر وأكثر..

ثم استجاب المحرك..

وفي اللحظة الأخيرة، وقبل أن يبلغها الرجال الأربعة، انطلقت بها السيارة الصغيرة، وعبرت شريطًا غير ممهد من الأرض، قبل أن تثب إلى الطريق الأسفلتي، وقائد الرجال الأربعة يصيح:

- أحضروا (المرسيدس).. سنطارد هذه اللعينة.

أما هي، فقد انطلقت مبتعدة، بأقصى سرعة يسمح بها محرك السيارة الصغيرة، وهي تقول مرتجفة:

- أنقذني يا ربي.. أنقذني..

كانت تندفع بالسيارة، وقلبها يخفق بشدة، عندما اندفع أمامها شبح عبر الطريق، وتوقف فجأة أمام أضواء السيارة المبهرة..

وصاحت (فاطمة) في ارتياع:

- ابتعد.. ابتعد بالله عليك.

ولكن مع السرعة التي تنطلق بها، والتوتر الشديد في أعماقها، لم يكن هناك مفر من الاصطدام بذلك الشبح..

أو بمعنى أدق بـ (فخر الدين)..

الفارس (فخر الدين)..

☆ ☆ ☆

3- الماضي والحاضر..

تعلقت عينا الدكتور (سليم فهمي)، أستاذ علوم الطقس والمناخ، بقاعدة الشجرة الكبيرة، وهو يحك رأسه بسبابته في حيرة، غير مبال بالأمطار التي تنهمر عليه، ثم لم يلبث أن رفع عينيه إلى أعلى، متطلعا إلى السماء، التي تلتمع بالبرق، كل لحظة وأخرى، وتنهد في عمق، في نفس اللحظة التي لحقته فيها زميلته الدكتورة (إلهام)، وهي تقول:

- ستصاب بنوبة برد، لو لم تعد إلى كابينة الاختبارات.

لم يبد أنه قد فهم ما تقول، وهو يشير إلى جذع الشجرة، قائلًا:

- هل رأيت ما حدث؟.. لقد برز ذلك الشخص من الفراغ.. هل رأيت ماذا كان يرتدي؟

أجابته في توتر:

- ربما هو مجرد ممثل هزلي، في فرقة مسرحية شعبية، أو...

قاطعها هاتفًا:

- ممثل هزلي؟!.. أهذا ما تقوله عالمة محترمة مثلك؟

عقدت حاجبيها، وتنحنحت، قبل أن تغمغم في حذر:

- ألديك تفسير آخر؟

هتف في حماس:

- بالطبع.

ثم استدرك، وهو يرمقها بنظرة جانبية.

- ولكنه لن يروق لك.

لوحت بسبابتها في وجهه، وقالت:

- اسمع.. لو عدت إلى أفكارك الخيالية هذه، فسوف.

قاطعها في حماس:

- ألديك أنت تفسير آخر؟.. لقد كنا نجري تجربة جديدة، حول ذلك الجهاز الحربي، الذي يختزن الصواعق، ويمكنه استخدامها مرة أخرى، كسلاح حربي، وعندما بدأت التجربة، واجتذبنا أول صاعقة إلى جذع تلك الشجرة، رأينا جميعًا تلك الهالة العجيبة، التي لم نر لها مثيلًا في علم الأرصاد كله، وبعدها ظهر ذلك الفارس القديم فجأة من الفراغ.. أَلِكُلِ هذا تفسير آخر، بخلاف ذلك الذي وضعته أنا؟!

ثم مال نحوها، وأضاف:

- لقد صنعت تجربتنا فجوة زمنية، والتقطت فارسًا من العصور القديمة.

تطلعت إليه لحظة، بنظرة تحمل شيئًا من الذعر، ثم لم تلبث أن هزت رأسها في عنف، هاتفة:

- لا يمكنني تصديق هذا.. إنه غير علمي.

ابتسم قائلًا:

- من قال هذا؟.. إنه الزمن، الذي تحدث عنه (أينشتين)، وأكد بمعادلاته أنه من الممكن التحرك عبره أمامًا وخلفًا.. كل ما في الأمر أننا نحن أول من يثبت هذا.

قالت في حدة:

- إننا لم نثبته بعد.. كل هذا مجرد تخمين واستنتاج.

اعتدل ومسح شعره، الذي التصق بجبهته، من شدة المطر، وقال:

- هناك وسيلة واحدة لإثبات هذا.

تطلعت إليه متسائلة، فأضاف في حزم:

- أن نعثر عليه.. على فارس العصور القديمة.

وحملت نظرتها هذه المرة ذعرًا أكثر..

☆ ☆ ☆

كل شيء حول (فخر الدين) كان يثير حيرته وتوتره ودهشته..

الأضواء التي تأتي من بعيد..

تلك المادة السوداء الصلبة، التي تغطي الأرض، في خطوط عريضة، تمتد طويلًا..

كل شيء..

ولكن كل هذا لم يمنعه من إتمام مهمته..

لقد واصل عدوه، في الاتجاه الذي انتخبه عقله، بحثًا عن جواد، يتم به المهمة، التي كلفه إياها السلطان (صلاح الدين)، والتي قد تعتمد عليها نتيجة المعركة القادمة الشاملة..

وفجأة رأي أمامه ذلك الوحش، الذي ينبعث من عينيه ضوء ساطع رهيب.

وكان الوحش يتحرك بسرعة مخيفة في اتجاهه..

ولم يكن من الممكن أن يتراجع..

وفي حزم صارم، توقف (فخر الدين) في منتصف الطريق، يواجه ذلك الوحش بكل البسالة والجرأة، واستل سيفه، و...

وصرخت (فاطمة)، وهي تضغط فرامل السيارة بكل قوتها، ولكن الإطارات انزلقت فوق الطريق الأسفلتي، الذي غمرته مياه الأمطار، ففقدت السيطرة على السيارة، التي انحرفت في حدة، قبل أن تبلغ (فخر الدين)، وتجاوزت الطريق الأسفلتي، وقفزت فوق الرمال المحيطة به، ثم مالت في شدة، وانقلبت على جانبها في عنف، وراحت تزحف فوق الرمال، على هذا الوضع لحظات، قبل أن تتوقف تمامًا..

وتجمد (فخر الدين) في مكانه لحظة، وقد استحالت حيرته إلى دهشة بالغة..

ذلك الوحش، ذو العينين الساطعتين، لم يكن سوي صندوق من المعدن، ينطلق فوق إطارات من مادة عجيبة..

وفي حذر، تطلع (فخر الدين) إلى السيارة المقلوبة، وإطاراتها التي تدور في الهواء، وتساءل في أعماقه:

- أهو سلاح حربي جديد.. صنعه الصليبيون؟!

استنكر عقله الفكرة في بدايتها، فهو في (مصر) الآن، وليس بالقرب من بيت المقدس، حيث تشتد قوتهم، وبدا له أنه من المحتم وجود تفسير آخر لما يحدث، فاقترب من السيارة في خطوات حذرة، وسيفه متحفز في قبضته، ورأي عبر زجاجها الخلفي جسدًا ضئيلًا، يقاوم في شدة، ليغادرها، فاقترب أكثر، وتطلع داخل السيارة في حيرة..

ووقع بصر (فاطمة) عليه فانتفضت في البداية، متصورة أنه أحد رجال (خيري)، ثم لم تلبث أن شعرت بالدهشة، بسبب هذا الزي الذي يرتديه، إلا أن كل مشاعرها هذه تراجعت بسرعة، أمام شعورها بالخوف، وهي تهتف به:

- أنت.. لا تقف متطلعا إليّ هكذا.. هيا.. عاوني على الخروج من هنا.

بدت على ملامحه الحيرة أكثر، ولكنه اعتدل، وقفز فوق السيارة، ومد يده عبر زجاجها المفتوح، وانتظر حتى أمسكت يدها بيده، ثم جذبها عبر النافذة إلى الخارج..

وامتلأت نفسها بالدهشة..

إنه قوي، مفتول العضلات، جذبها في بساطة، كما لو كانت طفلة صغيرة..

وهو أيضًا وسيم، بلحيته القصيرة، وشاربه الرفيع..

ولكن لماذا يتطلع إليها بهذه الحيرة؟..

وما هذا الزي الذي يرتديه؟

وفي توتر، نفضت ثوبها، وقالت:

- شكرًا لك.. من حسن حظي أن وجدتك.

ثم تذكرت فجأة أن وجوده هو سبب ما أصابها، فصاحت محنقة:

- لماذا وقفت في منتصف الطريق؟.. هل نسيت قواعد المرور كلها؟

وفوجئت به يسألها:

- من أين أنت؟!

أدهشتها لغته العربية الفصحى، والأسلوب الذي نطق به سؤاله، فقالت في عصبية:

- ماذا تعني؟!.. إنني مصرية بالطبع.. ولكن ماذا عنك؟.. أأنت سعودي؟ أم خليجي؟ أم..؟

قاطعها في توتر:

- عجبًا!.. كيف تكونين مصرية، ولست أفهم حديثك جيدًا؟.. بأية لغة تتحدثين بالله عليك؟

قالت في دهشة:

- بالعربية.

هتف محنقًا:

- أية عربية؟.. أنا مصري أبا عن جد، ولكن لغتك هذه عجيبة، حتى أنني بالكاد أفهمك.. إنها مزيج من الفارسية والتركية والعربية، و..

قاطعته مستنكرة:

- أنت مصري؟!.. هل تحاول إقناعي بهذا؟

أشار إلى صدره في حزم، قائلًا:

- بالطبع.. أنا مصري، وأفخر بهذا.

تأملت وجهه وثيابه، والسيف الذي يمسك به، ثم قالت ساخرة:

- من أي عصر أنت إذن أيها المصري؟ أمن عصر (محمد علي)، أم (صلاح الدين الأيوبي)؟

التقى حاجباه في توتر شديد، وهو يقول:

- من (محمد علي) هذا؟.. ولماذا أشرت إلى عصر السلطان (صلاح الدين الأيوبي) باعتباره عصرًا مضى.. هل أصاب السلطان مكروه؟

حدقت في وجهه بذهول هذه المرة، وهي تغمغم:

- أصابه ماذا؟.. ألم تستذكر كتب التاريخ جيدًا؟!.. (صلاح الدين) هذا..

قاطعها فجأة ضوء ساطع، أتى عبر الطريق، فالتفتت إليه في ذعر، وتطلع إليه (فخر الدين) أيضًا، وهو يقول في توتر:

- صندوق ساطع آخر.

أدركت على الفور أنهم رجال (خيري)، فصاحت به في ارتياع:

- أنقذني.. أرجوك.. إنهم هنا لقتلي.

التقى حاجباه، وهو يتطلع إليها في دهشة، قائلًا:

- قتلك أنت؟!.. هذا مستحيل!.. ما من رجل يقتل امرأة، حتى ولو..

صاحت به مقاطعة:

- إنهم سيقتلونني.. أنقذني.. أرجوك.

فجرت صيحتها روح الفارس في أعماقه، فاعتدل في حزم، ورفع سيفه قائلًا:

- اطمئني يا فتاة.. لن يمس أحد ركاب هذا الصندوق الساطع شعرة واحدة منك، إلا على جثتي..

ألقت نظرة ملتاعة على السيارة، التي تقترب في سرعة، وهتفت:

- بسيف؟!.. هل تنوي مواجهة أربعة رجال، بسيف واحد.. إنهم يحملون المسدسات.

سألها في حيرة:

- الـ.. ماذا؟!

ضمت قبضتها، ورفعت سبابتها وإبهامها، وهي تقول في عصبية:

- المسدسات.. بانج.. بانج.. تلك الأسلحة الصغيرة، التي تحوي الرصاصات، وتقتل بتصويبها من بعيد.. ألا تعرفها.. إنهم سيقتلونك قبل أن تبلغ موضعهم بعشرة أمتار على الأقل.

لم يفهم ما الذي تعنيه، إلا أن توتره تضاعف، وهو يقول:

- تقصدين شيئا مثل (المنجنيق).

هتفت في حدة:

- تمامًا، ولكنه أكثر خطورة، فهو صغير الحجم، يمكن الإمساك به في قبضة اليد، ورصاصاته قاتلة بلا رحمة.. هل تذكرت الآن؟

قالتها والسيارة تتوقف على قيد أمتار منهما، فأضافت في انهيار:

- وعلى أية حال، لم تعد هناك فائدة.. أية فائدة.

وفي نفس اللحظة غادر الرجال الأربعة السيارة، وصوب كبيرهم مسدسه إليها، قائلًا في سخرية:

- إذن فهي نهاية الطريق يا (فاطمة).

ولكن (فخر الدين) أزاح (فاطمة) عن مسار الرصاصة، ودفعها خلفه ليحميها بجسده، وهو يشهر سيفه في وجه الرجل، قائلًا في صرامة:

- إنها تحت حمايتي، ولابد من مبارزتي، لو أردت استعادتها.

ابتسم الرجال الأربعة في سخرية، وقال الذي يصوب مسدسه:

- ما هذا بالضبط؟.. مهرج سقط من كتاب التاريخ؟!.. أين عثرت على هذا الشيء يا (فاطمة)؟

بدا له صوت (فخر الدين) حازمًا صارمًا، وهو يقول:

- ما قولك؟.. هل تبارزني؟

تطلع إليه الرجل في استهتار ساخر، ثم جذب إبرة مسدسه، وقال:

- فليكن يا خريج مستشفى الأمراض العقلية.. هيا.. سيبارز كل منا بسلاحه.

وصوب مسدسه إلى (فخر الدين). الذي يبعد أربعة أمتار فحسب، و...

وأطلق النار.

☆ ☆ ☆

4- صراع العصور..

«..انظر ما الذي عثرنا عليه..»

التفت الدكتور (سليم) إلى مساعده، الذي يهرع إليه، والدهشة تملأ صوته وملامحه، وتطلع في اهتمام إلى ذلك الشيء الذي يحمله في يده، في حين قالت (إلهام)، وهي تلتقط ذلك الشيء من يد المساعد في لهفة:

- ما هذا بالضبط؟

ثم اتسعت عيناها في دهشة، وهي تحدق فيما بدا لها أشبه ببقايا مسدس قديم، تآكل معظمه بفعل الزمن والصدأ، وهتفت:

- أين عثرتم عليه؟

أجابها الرجل في انفعال:

- عند قاعدة الشجرة.. لقد أردنا فحص التوصيلات والأسلاك، والبحث عن أية مواد غريبة، قد يكون لها تأثير سلبي على أجهزتنا، فعثرنا عليه..

التقط الدكتور (سليم) بقايا المسدس الصدئ من يد (إلهام)، وفحصه في عناية، قبل أن يقول:

- صحيح أنني لست عالم آثار، ولكن شكل هذا المسدس يوحي بأنه مدفون عند قاعدة الشجرة، منذ خمسة قرون على الأقل.

ابتسمت (إلهام)، وقالت ساخرة:

- عجبًا!.. كنت أظن المسدسات اختراع حديث، يعود إلى ما بعد هذا بكثير.

هز كتفيه، وقال:

- من يدري؟.. لم يعد للزمن قيمة، عند جذع الشجرة.

والتفت إلى الشجرة الكبيرة، مضيفًا في خفوت:

- لقد فتحنا فجوة عبر الزمن، والله (سبحانه وتعالى) وحده يعلم، ما الذي يمكن أن يأتي عبرها..

ولم تجد هي ما تقول..

☆ ☆ ☆

انتفض جسد (فاطمة) في ارتياع، عندما انطلقت الرصاصة، ثم اتسعت عيناها في ذهول شديد، على الرغم من أنها رأت بعينيها ما حدث، في الثانية التي سبقت انطلاقها..

لقد تحرك (فخر الدين) فجأة، ووثب إلى الأمام، وضرب يد الرجل بسيفه، فأصاب أصابعه، وبترها مع المسدس الذي تمسك به، والذي انطلقت منه الرصاصة في الهواء، وأصابت صخرة قريبة..

وصرخ الرجل في ألم ورعب، وتراجع رجاله الثلاثة في حركة غريزية، أملاها الخوف وعامل المفاجأة، في حين قفز (فخر الدين) إلى الخلف بدوره، وجذب (فاطمة) من يدها، وهتف:

- هيا بنا.

لم يكن قد استوعب تمامًا ما أصابه، ولم يكن قد أدرك طبيعة العصر، الذي انتقل إليه عبر الزمن، ولكنه رأى الرصاصة تصيب الصخرة الصغيرة، وتهشمها إلى نصفين، وفهم قوة تلك الأسلحة الصغيرة..

وأدرك ضرورة الفرار..

وفي استسلام تام، تركته (فاطمة) يجذبها، وهو يعدو معها نحو منطقة قريبة، تحوي عددًا من المساكن الحديثة، التي لم ينته تشييدها بعد، في حين كان الرجل المصاب يصرخ:

- الحقوا بهما.. اقتلوهما.. لقد بتر يدي.. إنني أحتاج إلى إسعاف عاجل.. النجدة..

ومع صرخته، استيقظ زملاؤه الثلاثة من ذهولهم وخوفهم، واستل كل منهم مسدسه، وراحوا يطلقون النار على (فخر الدين) و(فاطمة)، اللذين ابتلعهما الظلام وسط العاصفة والمطر..

ووصل (فخر الدين) و(فاطمة) إلى المساكن الحديثة، وتطلع هو إليها في رهبة، وهو يقول:

- متي بنوا هذه القلاع؟.. لم أشاهدها عند قدومي.

تطلعت إليه في دهشة شديدة، وغمغمت:

- القلاع؟!

ولكنه جذبها مرة أخرى، وهو يقول:

- دعينا من هذا الآن.. فلنختبئ من حاملي أسلحة النيران هؤلاء، ثم نناقش هذا فيما بعد.

لهثت قائلة:

- لم أعد أستطيع.. قلبي يكاد يتمزق من المجهود، و...

شهقت عندما حملها فجأة بين ذراعيه، وهتفت:

- ماذا تفعل؟

أجابها في حزم، وهو يتجه نحو أقرب البنايات إليه:

- لقد أصابك التعب.. أليس كذلك؟

همت بالاعتراض، ثم لم تلبث أن استكانت له تمامًا، وتركته يحملها كطفلة صغيرة، وهو يصعد في درجات السلالم الحديثة،

إلى الطابق العلوي من البناية..

كان قوي البنية، حازمًا، صارمًا، من طراز لم تلتق بمثله قط من قبل..

وكان فارسًا..

فارسًا بمعنى الكلمة..

وعلى الرغم من الظروف التي يمران بها، خفق قلبها بين ضلوعها، وهو يفرد حرملته على أرض الطابق العلوي، ويرقدها فوقها في رفق، قائلًا:

- استريحي هنا، حتى ينتهي كل شيء.

غمغمت، وقد اعتراها الخجل منه لأول مرة:

- أشكرك.

اطمئن إلى رقودها في ارتياح، ثم وقف يستل سيفه مرة أخرى، فقالت في قلق:

- ماذا تفعل؟

أجابها في حزم:

- ربما يصل إليك أحدهم.

خفق قلبها مرة أخرى، وهي تقول في خفوت:

- هل تحاول حمايتي؟

أجاب في قوة:

- بالتأكيد.

رقص قلبها طربًا لعبارته، وخيل إليها أنها أميرة من عصر الفرسان، التقت بفارس أحلامها، الذي يحميها من اللصوص والأشرار..

إنها تحلم دائمًا بالعيش في زمن الفرسان..

تحلم فحسب..

وعلى ضوء البرق، الذي دام لجزء من الثانية، تأملت ملامحه الوسيمة، قبل أن تهمس في نشوة وخفوت.

- من أين أتيت؟

أجاب وهو يراقب الباب في حذر:

- من جيش السلطان المظفر (صلاح الدين الأيوبي).. هناك مهمة بالغة الخطورة، أقوم بها من أجل..

بتر عبارته بغتة، وقال في صرامة:

- مجرد مهمة، لا شأن لأحد بها.

بدا لها حديثة أشبه بهذيان مجنون، إلا أنه لم يبد لها أبدًا أشبه بالمجانين، فسألته:

- وما اسمك؟

أجاب بسرعة:

- (فخر الدين الأيوبي).. أنا قريب للسلطان.

تنهدت وقالت:

- فليكن.. لن أناقشك فيما تقول، ولكن لماذا تخليت عن مهمتك، وسعيت لإنقاذي؟

أجاب في صرامة:

- أنت امرأة.. وما من فارس يتخلى عن امرأة استنجدت به.

دغدغت العبارة حواسها مرة أخرى، فارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة، وقالت:

- بالطبع.. ما من فارس يفعل هذا.

رأته يتحسس الجدران في حيرة، فسألته:

- ما الذي يقلقك؟

أجاب متوترًا:

- كل شيء يبدو لي عجيبًا، منذ أصابتني الصاعقة، عند جذع الشجرة الكبيرة.. الطرق، والأضواء، وتلك المادة العجيبة، التي شيدوا منها هذه القلاع.

قالت في دهشة:

- مادة عجيبة؟!.. إنها الإسمنت.

ردد في حيرة:

- إسمنت؟!.. أهي مادة جديدة، اخترعها (الدمشقي)؟

جلست هاتفية:

- (الدمشقي)؟!.. نعم.. لقد رأيت الفيلم.. أليس هو الذي اخترع المادة، التي أحرقت الأبراج.

حدق في وجهها بدهشة بالغة، وهو يقول:

- الفيلم؟!.. ما الذي يعنيه هذا؟

تنهدت وهي تربت على كفه، قائلة:

- لا عليك.. إنها مجرد مصطلحات عجيبة.

لم تكن ترغب في مناقشته طويلًا، على الرغم من غرابة ما يقول، فاكتفت بالاسترخاء فوق حرملته، وأغلقت عينيها، وهي تحلم مرة أخرى بالعيش في زمن الفرسان، حتى سألها:

- لماذا يطاردك هؤلاء الرجال، ويسعون لقتلك؟

قالت في توتر، عاودها مع سؤاله:

- إنني أحمل دليل إدانة زعيمهم.

التفت إليها متسائلًا، فاستطردت:

- إنني أعمل كسكرتيرة في مكتب (خيري الجمال).

سألها في حيرة:

- وما الذي تعنيه كلمة (سكرتيرة)؟.. ومن هو (خيري الجمال) هذا؟..

تنهدت قائلة:

- إنه تاجر كبير، وكنت أنا مساعدته، ثم كشفت فيما بعد أنه واحد من كبار تجار المخدرات.

سألها:

- وما هي هذه المخدرات؟

أجابته:

- هي مواد سامة، تذهب بالعقول، وتفسد الأجساد، والقانون يمنع الإتجار فيها، وتعاطيها، أو حتى حملها..

ثم تنهدت مستطردة:

- المهم أنني كشفت هذا الأمر بعد فوات الأوان، وبعد أن ورطني (خيري) في عملية تسليم مخدرات، دون أن أدري، والتقط لي في أثناء ذلك بعض الصور، والتسجيلات، التي تكفي لإدانتي، وإلقائي في السجن لربع قرن من الزمان.

هز رأسه، وهو يغمغم:

- كل هذا يبدو لي عجيبًا، ولست أستوعب معظمه.

ولكنها تابعت، كما لو أنها لم تسمع تعقيبه:

- وحاول (خيري) دفعي إلى مشاركتهم جريمتهم، بعد تورطي في الأمر، على الرغم مني، إلا أنني رفضت هذا بشدة.. وسرقت بعض الأوراق والمستندات، التي تدينه، وأردت إبلاغ الشرطة، ولكنه أرسل رجاله خلفي، فألقوا القبض على، واستعادوا الوثائق، وكادوا يقتلونني في مكتبه، لولا أن نجحت في الفرار، واستعدت الوثائق مرة أخرى.. وها هي ذي.

قالتها وأخرجت المظروف المنتفخ من جيب ثوبها، ولوحت به في وجه (فخر الدين)، الذي تطلع إلى المظروف في دهشة، ومد يده ليمسكه، في نفس اللحظة التي صدرت فيها قرقعة واضحة، في الطابق السفلي للبناية، فاعتدل ليشهر سيفه في حزم وتحفز، وهو يقول:

- لقد وصلوا.

كان رجال (خيري) الثلاثة قد بلغوا البناية بالفعل، بعد وصول سيارة الإسعاف، التي نقلت زميلهم للمستشفى، في محاولة لإعادة أصابعه المبتورة، والغضب يملأ نفوسهم لما أصابه، وقال أحدهم لزميله، وهو يصعد في درجات السلم بحذر:

- احترسوا من سيف هذا المهرج.. لقد رأيتم كيف يستخدمه.. اقتلوه قبل أن يشهره في وجوهنا.

واصل الثلاثة صعودهم، حتى بلغوا الطابق العلوي، فتقدم أحدهم إليه، وهو يقول:

- لو لم نعثر عليه، سنواصل بحثنا في البنايات المجاورة، و...

وفجأة، وقبل أن يتم عبارته، ظهر (فخر الدين) أمامه، وهو يهتف:

- الموت للمجرمين.

وغاص سيفه في قلب الرجل، الذي أطلق شهقة قوية، وجحظت عيناه في شدة، وسقط مسدسه بين قدميه، قبل أن ينتزع (فخر الدين) سيفه من صدره، ثم هوي فوق درجات السلم، وزميلاه يصرخان:

- ها هو ذا.

وانطلقت رصاصات مسدسيهما نحو فتحة الباب، في نفس اللحظة التي اختفى فيها (فخر الدين) بالداخل، ولكنهما واصلا إطلاق النار بعض الوقت، قبل أن يلتفت أحدهما إلى زميله الصريع، ويهتف في هلع:

- لقد قتل (توفيق).. ذلك المهرج الوغد طعنه بسيفه.

هتف الثاني، وهو يندفع نحو الطابق العلوي:

- سأقتله.

أمسك به زميله، وهو يقول في حزم:

- كلا يا رجل.. لا تحاول.. إنه يستخدم السيف بمهارة حقيقية، وسيقتلك فور دخولك.. كلا.. هذا ليس صحيحًا..

ثم أشار إلى صدره، مستطردًا:

- عندي خطة أفضل.

سأله زميله:

- ما هي؟

أجابه في حماس:

- اذهب وأحضر وعاء البنزين الاحتياطي من السيارة، وصندوق زجاجات المياه الغازية الفارغ، وبعض قطع القماش.

برقت عينا الرجل، وهو يقول:

- ستصنع قنابل المولوتوف.. أليس كذلك؟

أجابه زميله:

- نعم يا رجل.. بعض البنزين في زجاجة المياه الغازية، قطعة من القماش في فوهتها، وعود ثقاب.. تصبح لديك قنبلة.. هيا.. أحضر هذه الأشياء بسرعة، وسأمنعهما برصاصاتي من مغادرة المكان.

وارتسمت الشراسة في ملامحه، وهو يضيف:

- سنشويهما حيين.

وامتزجت شراشته بابتسامة..

ابتسامة وحشية..

☆ ☆ ☆

5- النيران..

امتدت أضواء مصباحي سيارة الدكتور (سليم) تشق ظلام المنطقة، وتتحدى الأمطار والرياح، وهو يقول لزميلته (إلهام) في حماس:

- سنعثر عليه بإذن الله، فقد اتخذ هذا الطريق، ولن يبتعد كثيرًا بالتأكيد.

سألته متبرمة:

- ولماذا بالتأكيد؟

أجاب في سرعة:

- ضعي نفسك في موضعه.. كنت في عصرك، ثم وجدت نفسك فجأة في زمن آخر، يفوقه بعدة مئات من السنين، فهل تتحركين بسرعة، أم يثير كل شيء حيرتك ودهشتك، فتتقدمين خطوة خطوة؟

هزت كتفيها، قائلة:

- لست أدري، فأنا أنتمي إلى زمن واحد مسكين.

رمقها بنظرة جانبية، وهو يقول:

- وعُدت مرة أخرى للسخرية!

هتفت محنقة:

- لا يمكنني هضم فكرتك هذه.

قال مبتسمًا:

- تناولي عقارًا مهضمًا.

هتفت به:

- هل تمزح؟

قال ضاحكًا:

- أحاول التخفيف من توترك بعض الشيء.

رأيا سيارة الإسعاف تقترب منهما، وهي تطلق بوقها المميز، ثم تتجاوزهما بسرعة، فقطب هو حاجبيه، وقال:

- هذا لا يروق لي.

سألته في تردُد:

- لماذا؟.. ربما هو حادث سير عادي.

غمغم:

- ربما.

أشارت هي إلى سيارة (فاطمة) المقلوبة، وقالت:

- أرأيت!.. إنه حادث سير.

ألقى نظرة على السيارة بدوره، وواصل طريقه..

ولكن شيئًا ما في أعماقه كان يشعر بقلق..

قلق مبهم عجيب..

☆ ☆ ☆

ارتجفت (فاطمة) رعبًا، عندما سمعت ما ردده الرجل، وهتفت وهي تتشبث بـ (فخر الدين) في ارتياع، وتلتقط المسدس الذي سقط من يد الرجل بيدها الأخرى:

- هل سمعت ما قاله؟.. إنه سيشوينا أحياء.

لم يبد الخوف عليه، وهو يسألها في اهتمام:

- ما هذا (المولوتوف)، الذي تحدث عنه؟

أجابته مرتعدة:

- إنه كما سمعت تمامًا.. زجاجة تمتلئ بالبنزين، وتغلق فوهتها بقطعة من القماش، مبللة بالبنزين أيًضا، وعند إشعال قطعة القماش يشتعل البنزين، وتنفجر الزجاجة، وتنتشر منها النيران على مساحة واسعة.

قال في جدية:

- إذن فهذا البنزين مادة تشتعل.

هتفت:

- نعم.. هو كذلك.. وقنبلة (مولوتوف) واحدة تنفجر هنا، تكفي لإشعال النيران في المبنى كله.. هل فهمت؟

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم.. لقد فهمت.

ثم عاونها على النهوض، مستطردًا:

- لم أكن أحب أن أضايقك، ولكنني أحتاج إلى هذه الحرملة.

تركته يستعيد حرملته، ويتجه إلى النافذة، ويتطلع منها إلى أسفل، وسألته:

- ماذا تفعل؟

أجابها في هدوء:

- أبحث عن وسيلة لتفادي حفل الشواء هذا.

ثم التفت إليها، وأحاط وسطها بطرف الحرملة، مستطردًا:

- عفوًا.

سألته في قلق شديد:

- ماذا تفعل؟

أجاب في حزم:

- سأعاونك على الهبوط إلى النافذة السفلى.

صاحت في هلع:

- ماذا؟.. هل تتصور أنني..

بترت عبارتها بشهقة جادة، عندما حملها بغتة وأجلسها على طرف النافذة قائلًا:

- هل تفضلين الشواء؟

ارتجفت وهي تجلس على هذا الارتفاع، وقالت:

- سأسقط يا (فخر الدين).

قال في حزم:

- لا تقلقي.. سأعاونك بقدر استطاعتي.

دفعها في رفق، حتى تدلت من النافذة، وهو يمسك طرف الحرملة الآخر في قوة، وقال:

- ستهبطين في بطء، وعندما تبلغين إطار النافذة السفلى، تشبثي به، وادفعي جسدك داخل الطابق أسفلنا، وهناك ستجدين الأمان.

شعرت فجأة بالأمان، مع كلماته الواثقة الهادئة، على الرغم من دقة الموقف، وتركته يدليها في بطء، نحو النافذة السفلى، فدفعت قدميها عبرها، وتأرجحت، ثم أفلت هو الحرملة، فاندفعت داخل الحجرة، التي تحوي النافذة، وسقطت على أرضها.

كانت تشعر بالألم من وقع الارتطام، ولكنها كتمت شهقة الألم في أعماقها، خشية أن يسمعها الرجل، الذي يقف خارج المكان، في ذاك الطابق بالذات، وسمعته يقول لزميله:

- عظيم.. ها هي ذي أولى قنابل (المولوتوف) معدة للعمل.. قل وداعًا للمهرج وصاحبته.

ارتجفت في قوة، وهي تتخيل (فخر الدين) في الطابق العلوي، وقنبلة (المولوتوف) تنفجر بالقرب منه، والوقود المشتعل يمسك بثيابه، وجسده، و...

وأغلقت عينيها في ارتياع، غير قادرة على تصوُر الفكرة.. وفي نفس اللحظة دوي الانفجار..

انفجار قنبلة (المولوتوف)..

☆ ☆ ☆

بلغ الانفجار مسامع الدكتور (سليم)، في نفس اللحظة التي استدار فيها عائدًا، بعد أن يئس من العثور على الفارس، الذي اجتاز أمام عينيه فجوة الزمن، فانتفض جسده وهو يهتف:

- ما هذا؟

أدارت (إلهام) عينيها إلى تلك البنايات الحديثة، التي اندلعت النيران من طابق إحداها العلوي، وقالت:

- ربما انفجرت اسطوانة غاز أو...

قاطعها الدكتور (سليم):

- ولكنها مبانٍ غير مأهولة بعد.

هزت رأسها، قائلة:

- لست أدري.. ولكن ما شأننا بهذا.

قال وهو يتجه في حزم نحو المباني الحديثة:

- شيء ما في أعماقي يقول إن لهذا شأنًا بنا.

قالت في حدة:

- أهو استنتاج سخيف آخر؟

قال في صرامة:

- نعم.. هو كذلك.

وانطلق نحو موقع الانفجار..

☆ ☆ ☆

دوي الانفجار في الطابق العلوي..

وفي قلب (فاطمة).

لقد تصورت أن الانفجار قد أطاح بـ (فخر الدين).

بالفارس..

ولكنها شعرت فجأة بتلك الحركة خارج النافذة، فاندفعت إليها، وتطلعت إلى أعلى، ثم شهقت في شدة..

كانت النيران تندلع من نافذة الطابق العلوي، والأمطار تخترقها في مشهد عجيب، ولكن (فخر الدين) يتدلى من إطار النافذة، ويهتف بها.

- ابتعدي.

ابتعدت عن النافذة بحركة غريزية، ورأته يهوي أمامها من أعلى، ثم يتشبث بإطار نافذتها في حركة سريعة قوية، فاندفعت مرة أخرى نحو النافذة لتعاونه على الصعود، وهي تهتف:

- لقد نجوت.. حمدًا لله يا (فخر الدين).. لقد نجوت.

استجمع قوته، وصعد إلى إطار النافذة، ثم وثب داخل الحجرة، وهو يقول:

- الأمور تسير على وجه أعنف مما اعتدته بكثير..

ثم نفض ثيابه، وعاد يستل سيفه من غمده، مستطردًا:

- يبدو لي وكأنني في زمن آخر.

هتفت به في حرارة:

- أنت كذلك يا (فخر الدين).. أنت فارس في زمن يفتقر إلى الفرسان.

جاء من خلفها صوت غاضب شرس، يقول:

- وسيرحل إلى عالم آخر يا (فاطمة).

التفتت بسرعة إلى مصدر الصوت، وأطلقت صرخة ذعر مكتومة، عندما رأت رجلي (خيري) أمامها، وكلاهما يحمل مسدسه..

ومع صرختها انطلق (فخر الدين)..

انطلق يضرب مسدس أحد الرجلين بسيفه، ثم يطعنه هاتفًا:

- ومن يدري أينا سيرحل إلى العالم الآخر يا فتى؟

ولكن الرجل الآخر تراجع في حركة حادة، وأطلق رصاص مسدسه على سيف (فخر الدين)..

وتحطم السيف..

تحطم وسقط من يد (فخر الدين)، الذي لم يعد يقبض سوى على مقبض السيف فحسب، وهو كل ما تبقى منه..

وألقى الرجل نظرة على زميله، الذي جندله سيف (فخر الدين)، في آخر قتال له، ثم أمسك مسدسه بقبضتيه، وهو يصوبه إلى (فخر الدين)، هاتفًا في غضب:

- لقد خضت قتالك الأخير أيها المهرج، والآن وداعًا..

ودوت الرصاصة القاتلة..

☆ ☆ ☆

فجأة تذكرت (فاطمة) أنها تحمل مسدسًا..

تذكرت هذا، وهي ترى آخر رجال (خيري)، مصوبًا مسدسه إلى (فخر الدين)، الذي فقد سيفه.

وفي جزء من الثانية، ودون أن تدري كيف فعلت هذا، انتزعت (فاطمة) المسدس من جيبها، وأطلقته..

ودوت الرصاصة القاتلة..

دوت من مسدسها، قبل أن يضغط الرجل زناد مسدسه وانطلقت الرصاصة لتخترق رأسه، في منتصف جبهته تمامًا، فاتسعت عيناه لحظة، ثم هوي جثة هامدة، عند قدمي (فخر الدين)، الذي قال في توتر:

- هذه الأشياء الصغيرة تقتل في عنف.

أعادت المسدس إلى جيبها، وهي تقول مرتجفة:

- لم يكن أمامي سوى هذا.. كان سيقتلك.

أحاط كتفها بذراعه، وقال:

- نعم.. لم يكن أمامك سوى هذا.

وقادها في رفق إلى الخارج، وهي ترتجف من فرط الانفعال، وهبطا معًا في درجات السلم، حتى بلغا قاعدة المبنى، وغادراه في سرعة.

وفجأة سطعت الأضواء في وجهيهما، مع صوت الدكتور (سليم)، وهو يهتف في انفعال:

- ها هو ذا.

تحفز (فخر الدين) للدفاع عن (فاطمة)، التي أمسكت المسدس داخل جيبها في توتر، لولا أن قال الدكتور (سليم) في حماس:

- رويدك يا فتى.. اهدأ.. إننا هنا لمساعدتك.. صدقني.

نقل (فخر الدين) عينيه، بين وجهي الدكتور (سليم) و(إلهام)، قبل أن يقول في حذر:

- من أنتما؟

أجابه الدكتور (سليم):

- إننا بعض الذين رأيتهم، عند عبورك فجوة الزمن إلى عصرنا.. هل تذكر هذا؟

هتفت (فاطمة) في ذهول:

- فجوة الزمن؟!.. إذن فأنت بالفعل من عصر آخر.

ارتبك (فخر الدين)، وهو يقول:

- لست.. لست أفهم شيئًا.

قال الدكتور (سليم):

- سأشرح لك كل شيء يا فتى.. ثق بي.. أرجوك.

انتفض (فخر الدين)، وقال:

- ولماذا أثق بك؟.. من أدراني أن كل هذا ليس سوى خدعة، صنعها رجال (ريتشارد قلب الأسد) في إحكام، لإقناعي بكشف ما لدي، والحصول على الرسالة؟

أجابته (فاطمة) في حرارة:

- أنا يا (فخر الدين).

التفت إليها في دهشة، وقال:

- أنت؟!

أجابته بسرعة:

- نعم يا (فخر الدين).. صدقني، لو أنك تثق بي، وبإخلاصي في معاونتك.. صدقني يا (فخر الدين)، وامنح ثقتك لهما.

تردد (فخر الدين) لحظات، وهو يمسك الرسالة داخل ثيابه في قوة، ثم قال:

- حسنٌ.. سأمنحكما ثقتي.. من المؤكد أن لديكما تفسيرًا لكل هذا.

ابتسم الدكتور (سليم) في ارتياح، وقال:

- صدقني يا فتى.. لن تندم أبدًا.. والآن هيا بنا، فلنبتعد عن هذا المكان، قبل وصول رجال الشرطة والإطفاء.. هيا بنا.

وبعد لحظات انطلقت بهم السيارة، عائدة إلى حيث الفجوة.. فجوة الزمن.

☆ ☆ ☆

6- معـًا..

تصارع الحزن مع السعادة في أعماق (فاطمة)، وهي تراقب (فخر الدين)، الذي يستمع إلى الدكتور (سليم) في اهتمام شديد، داخل الكابينة الزجاجية..

الحزن لأن (فخر الدين) لا ينتمي بالفعل إلى عالمها..

والسعادة لأنها عثرت أخيرًا على الفارس..

الفارس الذي تحلم به منذ صباها..

ولم يستوعب (فخر الدين) شيئًا من حديث الدكتور (سليم)، سوى أنه الآن في زمن أخر، لا ينتمي في الواقع إلى زمنه، فقال بعد انتهاء الحديث:

- ولكن ماذا عن المهمة؟.. إنني أحمل رسالة شديدة الأهمية والخطورة، لابد أن تصل إلى السلطان، قبل المعركة الفاصلة.

سألته الدكتورة (إلهام):

- وما فحوى هذه الرسالة؟

هز رأسه نفيًا، وقال:

- لست أدري.. ليس من حقي الاطلاع عليها، ولكنني وعدت السلطان ببذل حياتي نفسها، لو اقتضى الأمر، لتصل الرسالة إليه، حتى يمكنه تحديد موقع المعركة الفاصلة، ومعرفة أين يمكن أن ينتصر.. في (حطين) أم (طبرية).

أجابته (فاطمة):

- كتب التاريخ تقول: إنه حارب في (حطين)، وانتصر.

لوح بذراعه، هاتفًا:

- هذا لو وصلته الرسالة.

قالت في لهجة أقرب إلى الضراعة:

- لقد حارب (صلاح الدين)، وانتصر، ولم تعد لمهمتك أهمية.

هتف في صرامة:

- لقد وعدت.

اعتدال الدكتور (سليم) في مقعده، وقال:

- إذن فأنت تريد العودة إلى عصرك.. أليس كذلك؟

التفت إليه (فخر الدين)، قائلًا:

- نعم.. لو أن هذا ممكن.

ابتسم الدكتور (سليم)، وقال:

- أعتقد أن هذا ممكن.

خفق قلب (فاطمة) في هلع، في حين هتفت الدكتورة (إلهام):

- أي قول هذا يا دكتور (سليم)؟.. أتظننا اخترعنا آلة الزمن، بسبب حادث عرضي كهذا؟

أجابها في هدوء، وهو يشير إلى السماء، التي تلتمع بالبرق:

- الظروف لم تتغير بعد.. وما تزال تلك العاصفة النادرة، ذات التأثير المغناطيسي مستمرة، وأظننا نستطيع فتح فجوة الزمن مرة أخرى، لو كررنا التجربة، قبل انتهاء العاصفة.

لوحت بذراعها، هاتفة:

- لا شيء يؤكد هذا.

هز كتفيه، قائلًا:

- ولا شيء ينفيه.

أما (فخر الدين)، فأمسك يده، قائلًا في حزم:

- لو أن العودة ممكنة، فأعدني إذن إلى زمني.. هناك مهمة تحتاج إلى إتمامها.

نهض من مقعده، قائلًا في حزم:

- فليكن يا فتى.. سنعيد التجربة، ونعمل على إعادتك إلى زمنك.

وهوي قلب (فاطمة) بين ضلوعها..

☆ ☆ ☆

«كل شيء معد لتكرار التجربة..».

قالها مساعدا الدكتور (سليم)، وهما يعدان أجهزتهما، ويراجعان كل الحسابات، التي ارتسمت على شاشة الكمبيوتر، فتشبثت (فاطمة) بـ(فخر الدين)، وقالت في ضراعة:

- ابق يا (فخر الدين).. أرجوك.

تطلع إليها في أسى، وقال:

- لا يمكنك أن تتصوري كم أتمنى البقاء إلى جوارك للأبد.. ولكن لابد من إكمال المهمة.

صاحت به:

- لم تعد هناك أهمية لمهمتك.. ألا تفهم هذا؟

أتى من خلفها صوت الدكتورة (إلهام)، تقول:

- خطأ يا (فاطمة)، لقد ناقشت أنا والدكتور (سليم) هذه النقطة بالذات، ووجدنا أنه من المحتم أن يعود (فخر الدين)، إلى زمنه، ويسعى لإتمام مهمته، وإلا فمن يدري.. ربما تغير تاريخ العالم كله.

صاحت (فاطمة) في حنق:

- لست أصدق هذا.

تحسس (فخر الدين) شعرها في حنان، وقال:

- الوداع يا (فاطمة).. الوداع يا ابنة الزمن القادم.

تفجرت الدموع من عينيها، وهي تهتف:

- لا ترحل.. أرجوك.

ولكنه ربت على خدها لحظة، ثم أبعد يدها عن ذراعه في رفق، وألقى عليها نظرة أخيرة، ثم اتجه في حزم وحسم إلى خارج الكابينة الزجاجية، ووقف عند جذع الشجرة، والدكتور (سليم) يقول:

- استعدوا لتكرار التجربة.

سالت الدموع من عينيها غزيرة، وهي تتطلع إليه، وقد وقف عند جذع الشجرة صامتًا، جامدًا، ممشوق القوام، ينتظر سقوط صاعقة أخرى، وسألت الدكتورة (إلهام)، التي تقف إلى جوارها:

- هل سيعود بالفعل؟

أجابتها في خفوت:

- أتعشم هذا.. لو نجحت التجربة فسيعود إلى نفس اللحظة، التي قفز فيها إلى زمننا.

وفجأة انتزعت (فاطمة) من جيبها تلك المظروف المنتفخ، الذي يحوي كل الأوراق والوثائق، التي تدين (خيري الجمال)، وناولتها إلى الدكتورة (إلهام)، وهي تقول بكلمات سريعة:

- سلمي هذا المظروف إلى النائب العام.

قالت (إلهام) في دهشة:

- ماذا تعنين؟

ولكن (فاطمة) لم تشرح ما لديها..

لقد انطلقت فجأة خارج الكابينة الزجاجية، في نفس اللحظة التي صاح فيها الدكتور (سليم):

- ابدأ التجربة.

وضغط المساعدان الأزرار، و(فاطمة) تعدو نحو جذع الشجرة الكبيرة..

وقفز الدكتور (سليم) من مقعده في هلع..

واتسعت عينا الدكتورة (إلهام) في ارتياع..

وصرخ (فخر الدين):

- لا يا (فاطمة).. ابتعدي.

ولكن (فاطمة) ألقت نفسها بين ذراعيه، وهي تهتف:

- سنرحل معًا.

وفي نفس اللحظة هوت الصاعقة..

وتألقت الهالة حول جسديهما.

ثم تلاشت..

وتلاشى كل شيء معها..

وصرخت الدكتورة (إلهام):

- لقد تبخرا تنهد الدكتور (سليم)، وقال:

- بل عادا إلى زمن (فخر الدين).

صاحت به:

- ما دليلك على نجاح عودتهما؟

ابتسم وهو يشير إلى بقايا المسدس الصدئ، قائلًا:

- هذا.

وفهمت على الفور ما يعنيه..

☆ ☆ ☆

تطلع فرسان (ريتشارد قلب الأسد) الأربعة في ذهول إلى جذع الشجرة، حيث تلاشت الهالة اللامعة، واختفى معها (فخر الدين)، وهتف بهم قائدهم في صرامة:

- ما لكم تفغرون أفواهكم هكذا؟.. لقد أحرقته الصاعقة.. هذا كل شيء.

ولكن فجأة عادت الهالة تتألق مرة أخرى، وبرز وسطها (فخر الدين) و(فاطمة)، فصهلت الخيول، وتراجعت، وصاح قائد الفرسان ذاهلًا.

- أي عبث شيطاني هذا؟

واستل الفرسان سيوفهم مرة أخرى، والقائد يصيح بهم:

- اقتلوهما.. اقتلوا هذا الشيطان ورفيقته.

وانقض الفرسان الأربعة على (فخر الدين) الأعزل و(فاطمة) الضئيلة الجسد..

وانتزعت (فاطمة) المسدس من جيبها..

وأطلقت النار..

وسقط أحد الفرسان الأربعة صريعًا برصاصتها، وصهلت الخيول مرة أخرى، وصرخ أحد الفرسان:

- إنها ساحرة.

ومع قوله، أطلقت (فاطمة) رصاصة أخرى، أطاحت بفارس ثان، فجذب الفارسان الباقيان عناني جواديهما، وانطلقا فارين في

هلع، وقد وقر في قلبيهما أنهما يواجهان ساحرة، تسبغ حمايتها على (فخر الدين)..

واندفع (فخر الدين) يمسك عناني الجوادين، اللذين لقي صاحباهما مصرعهما، قبل أن يبادرا بالفرار، ثم التفت إلى (فاطمة)، هاتفًا:

- ماذا فعلت أيتها الحمقاء؟.. لقد فقدت عصرك إلى الأبد.. ستندمين أشد الندم.

قالت في سعادة:

- لن أندم أبدًا.. لقد عدت إلى زمن الفرسان، الذي أحلم به منذ صباي، بصحبة فارس مغوار، لا مثيل له في كل العصور.. مَن مِن نساء الأرض أسعد حظًا مني؟

ابتسم في حنان، والتقط المسدس من يدها، وهو يقول:

- ولكنهم لا يستخدمون أسلحة النار هذه في عصرنا.

واتجه في هدوء إلى جذع الشجرة، ودفن المسدس عنده، ثم توجه إلى أحد الفارسين المقتولين، وسحب سيفه، ثم اعتدل وقال:

- الآن أكمل المهمة.

وحملها ليضعها على متن جوادها، وهي تغمغم في سعادة:

- لست أجيد ركوب الخيل.

ابتسم وهو يثب على متن الجواد الآخر، قائلًا:

- سرعان ما ستتعلمين.

تبادلا ابتسامة رائعة، قبل أن ينطلق الجوادان، ويواصل الفارس مهمته..

وبنجاح..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- الرسالة..

2- الصاعقة..

3- الماضي والحاضر..

4- صراع العصور..

5- النيران..

6- معـــــًا..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الشر

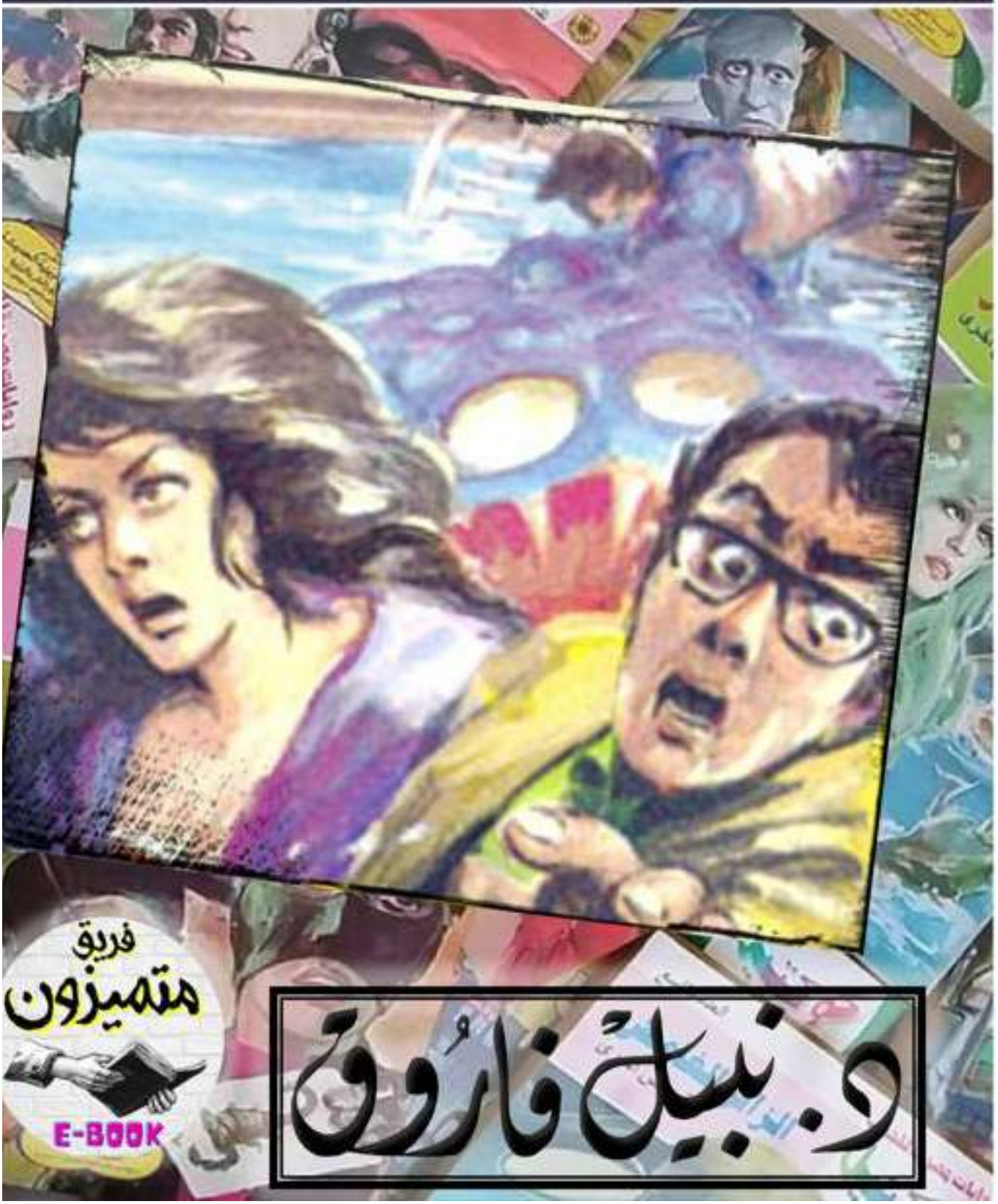

د. نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

الشيء
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

قصص العدد

الشــيء

1- نجـم هـوى..

أطلق رئيس العمال زفرة قوية، وهو يمسح العرق الغزير على جبينه، وألقى نظرة مرهقة على عماله، الذين انتهوا من عملهم، وراح كل منهم يغتسل، ويرتدي ثياب، استعدادًا للرحيل، ثم تطلع إلى قرص الشمس، الذي يميل إلى المغيب، قبل أن يلتفت إلى الدكتور (علي)، ويقول في تعب واضح:

- انتهينا يا دكتور (علي).. ها هو ذا حوض السباحة قد انتهى، بكل ما طلبته، من أضواء سفلية، وتدرج بطيء في العمق.. امنحه ليلة واحدة، أو ليلتين على الأكثر، ثم يمكنك أن تملأه بالماء.

هتفت (أحلام)، زوجة الدكتور (علي) في سعادة:

- حقًا.. يا لسعادتي.. أخيرًا تحقق حلمنا يا (علي)، وسيكون لنا حوض سباحة خاص.

ابتسم الدكتور (علي) في رصانة، وسأل رئيس العمال:

- أأنت واثق من هذا؟!.. أعني ألا نصبر قليلًا.. أسبوعًا أو أسبوعين، حتى تجف مواد البناء تمامًا؟

ابتسم رئيس العمال في إرهاق، وقال:

- كلا.. لا داعي لكل هذا.. مواد البناء الحديثة تجف بأسرع مما تتصور، ولقد استخدمنا مادة عازلة قوية.

بدا الارتياح على وجه الدكتور (علي)، وهو يقول:

- عظيم.. كم تبقى لك؟

تركتهما (أحلام) يناقشان التفاصيل الحسابية، وراحت تلقي نظرة أخرى على حوض السباحة، وقلبها يخفق في سعادة..

كان هذا حلمها منذ طفولتها..

أن تمتلك حوض سباحة خاصًا.

حوضًا يمكنها أن تسبح فيه، وقتما يحلو لها، دون أن تراقبها أعين الفضوليين، أو تفترسها نظرات الراغبين..

كم تمنت هذا..

وبتنهيدة تحمل كل سعادتها وارتياحها، راحت تدير عينيها فيما حولها.

في حديقة تلك الفيلا، التي امتلكتها مع زوجها (علي) أخيرًا، في (كنج مريوط)، على بعد عدة كيلومترات من (الإسكندرية)، مدينتهما، التي ولدا وعاشا فيها طيلة عمريهما..

والتقيا فيها أيضًا..

وغزل الحب خيوطه بين قلبيهما.

تنهدت مرة أخرى، ثم استدارت إلى حيث يقف (علي)، الذي انتهى من دفع أجر العمال، ثم التفت إليها بدوره، وابتسم برصانته المعهودة، وهو يقول:

- أخيرًا يا حبيبتي.

رددت خلفه في سعادة:

- أخيرًا يا (علي).

ابتسم العمال، وانصرفوا وهم يلقون عليهما نظرة أخيرة، وبدأ قرص الشمس يختفي في الأفق، فغمغمت (أحلام):

- ما رأيك في قضاء الليلة هنا؟

أطلق ضحكة قصيرة، وقال:

- كنت أتمنى هذا، ولكن التيار الكهربي سيتم توصيله صباح الغد، ولست أحب أن نقضي ليلتنا في ظلام دامس.

بدت عليها خيبة الأمل لحظة، ثم لم تلبث أن تمتمت:

- فليكن.. هيا بنا إذن، فلقد غربت الشمس بالفعل، وسيصبح المكان مخيفًا بعد نصف ساعة على الأكثر.

ربت على وجنتها في حنان، وتشابكت أصابعهما، وهما يتجهان إلى سيارتهما الأنيقة، وأسرع هو يفتح لها باب السيارة الأيمن، وهو يقول في رصانة:

- تفضلي يا أميرتي.

ضحكت وهي تدلف إلى السيارة، قائلة:

- يا لك من مغازل يا (علي)!.. كيف يمكنك أن تتحدث بهذه الرصانة، وأنت تلقي عبارات جميلة كهذه؟

ابتسم وهو يتجه إلى الجانب الآخر للسيارة، واتخذ مقعد القيادة، وهو يقول:

- ربما هي طبيعة شخصية.

مالت نحوه، وداعبت شعره بأناملها، قائلة:

- بالتأكيد.. لماذا وقعت في حبك إذن؟

كانت تشعر نحوه بحب جارف، بعد ثلاث سنوات من الزواج، على الرغم من أن الله سبحانه وتعالى لم ينعم عليهما بالإنجاب قط، دون سبب واضح، فقد أكد الأطباء أن كليهما لا يعاني من أية أمراض أو أسباب، تعوق عملية الإنجاب..

هي إرادة الله (عز وجل) إذن..

ولقد رضخا لمشيئته في استسلام..

ودون منغصات..

صحيح أن كلًا منهما يشتاق أحيانًا إلى الإنجاب، ولكن أحدهما لم يصرح للآخر قط بهذا الشعور..

كانا مثالًا للحب الحقيقي..

تنهدت (أحلام)، وهي تسترجع هذا، وارتسمت على شفتيها ابتسامة حالمة، عندما أدار (علي) محرك السيارة، وسمعته يقول:

- ما رأيك في تناول العشاء في مطعم فاخر، احتفالًا بحوض السباحة الجديد؟

صفقت بكفيها في جذل طفولي، وهي تقول:

- هل تسألني؟!.. إنني أوافق بالطبع دون تردد.. من يضيع فرصة لتناول العشاء في مطعم فاخر، مع أكثر رجال (الإسكندرية) وسامة؟!

ضحك قائلًا:

- حذار من إصابتي بالغرور، فقد يؤدي هذا إلى..

قاطعته فجأة في حرارة:

- (علي).. انظر.

أدار عينيه في حركة تلقائية سريعة، إلى حيث تشير، ولمح خيطًا مضيئًا في وسط السماء، بدا وكأنه يتجه إلى الأرض، وسمع (أحلام) تستطرد في فرح حماسي:

- نجم ذو ذيل.

ضحك مرة أخرى، وهو يقول:

- إنك تستخدمين نفس المصطلح الذي يستخدمه العامة.. إنه مجرد نيزك صغير، يحترق في الغلاف الجوي للأرض.

ضربت كتفه بأصابعها في رفق، وهي تقول:

- بل هو شهاب أيها المثقف، ولن يطلق عليه اسم نيزك، إلا لو وصل بالفعل إلى الأرض.

ضحك قائلًا:

- أنت تعرفين إذن.

هزت كتفيها في دلال، وقالت وهو ينطلق بالسيارة:

- نعم.. ولكنني أحب استخدام اللفظ العامي.

ثم ابتسمت في خبث، مستطردة:

- وهؤلاء العامة يقولون إنه فأل حسن.

ومالت تطبع قبلة على وجنته، قبل أن تستطرد:

- ما رأيك أنت؟

مالت عيناه جانبًا، وهو يبتسم برصانته المعهودة، التي لم تخف سعادته وحبه، وذلك الحنان الجارف، المطل من عينيه، وهو يقول:

- رأيي في ماذا؟.. في الفأل الحسن، أم في تلك القبلة؟!

ضحكت في سعادة، قائلة:

- في الفأل الحسن بالطبع.. أنا أعرف رأيك الآخر.

تضاحكا في مرح، وهما يبتعدان عن الفيلا، دون أن ينتبها إلى أن ذلك الشهاب لم يحترق عن آخره، وإنما تحول، بعد اختراقه للغلاف الجوي، إلى نيزك صغير مستدير، هوى نحو فيلتهما مباشرة..

بل في قلب حوض السباحة الجديد..

وبصوت مكتوم، ارتطم النيزك الصغير بقاع حوض السباحة الفارغ، ثم تدحرج فوق قاعة المنحدر، حتى ارتطم بجداره، في أعمق بقعة فيه، حيث يبلغ العمق ثلاثة أمتار..

ثم فجأة، حدثت ظاهرة عجيبة..

ظاهرة لم يشر إليها أي عالم فلكي، في التاريخ كله..

لقد بدأ النيزك الصغير في الذوبان..

بل في السيولة..

وفي بطء، فقد النيزك قوامه الصلب، وتحول إلى جسم مطاطي شبه سائل..

ثم تسلق جدار حوض السباحة..

أو بمعنى أدق، انتشر فوقه..

وفجأة أيضًا اشتعلت كل أضواء الفيلا..

اشتعلت كلها، قبل أن يصل إليها التيار الكهربي رسميًا..

ثم هدأ كل شيء، وانتهى..

أو بدأ..

☆ ☆ ☆

2- الكابوس..

صفقت (أحلام) بكفيها في سعادة، دون أن تحاول إخفاء فرحتها، والمياه تندفع من مخارج خاصة، في أعلى جدران حوض الصباح، لتغمره وتملأه تمامًا، وهتفت وهي تلتفت إلى زوجها، الذي بدا هادئًا، يراقب المياه في استمتاع:

- (فريد).. ما رأيك في تجربة الحوض؟

ابتسم قائلًا:

- إنني أرتدي ثوب السباحة بالفعل.

سألته في تردد:

- هل يمكنني ارتداء ثوب السباحة أيضًا؟

أجابها ملوحًا بكفه:

- بالطبع.. لماذا صنعنا كل هذا إذن؟.. لقد اخترنا فيلا نائية، لا تحيط بها أية فيلات أو منازل، وزرعنا سورًا من الأشجار، ثم حفرنا في منتصفه حوض السباحة، حتى لا يراك أي مخلوق سواي، وأنت تسبحين، فلماذا نضيع كل ما فعلناه إذن.. هيا؟.. أسرعي بارتداء ثوب السباحة، وسنختبر حوض سباحتنا الجديد على الفور.

ابتسمت في فرح، ومالت تطبع قبلة أخرى على وجنته، هاتفة:

- أحبك.

ثم أسرعت إلى الداخل، وهو يتابعها ببصره في حنان..

كان يعلم كم تعشق السباحة، بحكم نشأتها في مدينة ساحلية مثل (الإسكندرية)، ولكن طبيعتها وتقاليدها كانت تمنعها من ارتداء ثوب السباحة على شاطئ عام..

وفي كل مرة يذهبان فيها إلى الشاطئ، كان يلمح تلك النظرة البائسة في عينيها، وهي تتطلع إلى الماء والسابحات..

ولهذا ابتاع هذه الفيلا، وحفر في منتصفها حوض السباحة..

لم تمض دقائق، حتى رآها عائدة ترتدي زي السباحة، والسعادة تملأ وجهها في وضوح، وهتفت به:

-هيا.. سأسبقك إلى الجانب الآخر.

قالتها ووثبت إلى الحوض، قبل حتى أن يمتلئ، تمامًا بالماء، فضحك قائلًا:

- إلى هذا الحد؟!

ثم وثب خلفها..

كانت تسبح في مهارة، حتى أنها سبقته بالفعل إلى الجانب الآخر، ثم هتفت:

- هل تجيد الغوص؟

قال في حماس:

- أنسيت أنني أيضًا من مواليد (الإسكندرية)؟

تسلقت سلم الحوض واختطفت من فوق المنضدة الصغيرة قطعة معدنية، وهي تقول:

- حسنٌ.. التقط هذه إذن.

وألقت القطعة المعدنية في وسط الحوض، ثم وثبت خلفها..

وغاص الاثنان في مرح، والتقطت هي القطعة أولًا، وصعدت تهتف في مرح:

- ربحت.

قال محتجًا في مرح:

- لقد ألقيتها حيث تريدين.. ألقيها في منطقة أخرى، وسنرى من منا يربح هذه المرة.

قالت ضاحكة:

- فليكن.. سألقيها في أعمق منطقة.

وقذفت القطعة المعدنية نحو نهاية الحوض..

وغاص الاثنان خلفها..

وفي هذه المرة، كان (علي) هو الأسرع..

لقد بلغ القطعة المعدنية أولًا، ومد يده ليلتقطها، و..

وفجأة، انتفض جسده في عنف، واتسعت عيناه في ذعر..

لقد رأى جزءًا من جدار الحوض يتموج، ثم ينفصل، ويتشكل في السرعة مذهلة، على هيئة لم ير أبشع منها في حياته كلها..

على هيئة فم رهيب، تبرز منه أنياب حادة مخيفة..

وتراجع (علي)، وهو يطلق صرخة..

نعم.. صرخة بدت لزوجته واضحة مسموعة، على الرغم من وجودهما تحت الماء.

ومع صرخته، ابتلع كمية كبيرة من المياه، وراح يضرب بذراعيه فيما حوله، محاولًا الابتعاد عن تلك الأنياب الحادة، و..

وفجأة، شعر بشيء يطبق على ذراعه..

وهوى قلبه بين قدميه..

وابتلع كمية أخرى من ماء حوض السباحة.

ثم أظلمت الدنيا حوله..

أظلمت تمامًا، و..

وانتهى كل شيء..

☆ ☆ ☆

«(علي).. (علي) هل أنت بخير؟..»

تسللت تلك العبارة إلى أذنيه في خفوت، وراحت تتعالى في بطء، ممتزجة بصوت آخر، يقول:

- اطمئني يا سيدتي.. إنه بخير.

فتح عينيه في بطء، وهو يتمتم:

- (أحلام).

رأي زوجته تقبل عليه في لهفة، وتتحسس شعره ووجهه، وهي تقول:

- حمدًا لله على سلامتك يا (علي).. حمدًا لله.

سألها بصوت مضطرب، متوتر:

- ما ذلك الشيء في القاع؟.. كيف نجوت؟

بدا صوتها باكيًا، وهي تحتضن رأسه، وتضمه إليها، هاتفة:

- حمدًا لله على سلامتك.

كان جسدها جافًا، ولكنها كانت ترتدي ثوب السباحة، أسفل معطف استحمام طويل، وشعرها مرتبك مبتل، وكان هناك رجل وقور إلى جوارها، يتطلع إليه قائلًا:

- لقد نجوت بأعجوبة.. كدت تغرق في قاع الحوض، وابتلعت كمية كبيرة من الماء، أساءت كثيرًا إلى رئتيك، ولكنك ستنجو بإذن الله.

سأله (علي) في توتر:

- من أنت؟

أجابه الرجل بابتسامة باهتة:

- أنا الدكتور (محمود إمام).. ولقد استدعتني زوجتك هاتفيًا، من عيادتي الخاصة في (كنج مريوط)، فور نجاحها في إنقاذك من الغرق، فهرعت إلى هنا على الفور، وأمكننا إسعافك، ولكنك ستحتاج إلى علاج لبعض الوقت، و...

قاطعه (علي) في صوت ملتاع:

- وماذا عن الوحش؟.. هل قتلتماه؟

انعقد حاجبا الطبيب، وتراجع في دهشة، وهو يلقي نظرة متسائلة على (أحلام)، التي بدت عليها دهشة مماثلة وهي تسأل زوجها في اضطراب:

- الوحش؟!.. أي وحش هذا؟

أجابها في عصبية:

- ذلك الوحش الرهيب.. لقد كاد يفترسني، لولا أن..

قاطعته وهي تربت عليه، في جزع وحنان:

- لم يكن هناك وحوش يا (علي).. كل ما في الأمر أنك كدت تغرق، و...

صاح في حدة:

- بل كان هناك وحش.. وحش له أنياب حادة كبيرة.

التفتت (أحلام) إلى الطبيب في هلع، فغمغم وهو يخرج قارورة صغيرة من حقيبته الطبية:

- يبدو أنك تحتاج إلى بعض الراحة.

هتف (علي):

- لماذا لا تصدقاني؟!.. افحصا الحوض، وستجدان ذلك الوحش في أعماقه.

سألته (أحلام)، في لهجة أقرب إلى الضراعة:

- ومن أين يأتي ذلك الوحش؟.. ألم نملأ الحوض معًا، وكان خاليًا تمامًا أمام أعيننا؟!

بدت الحيرة عليه، وهو يتمتم:

- بلى.. ولكن الوحش..

كشف الطبيب ذراعه، وغرس إبرة المحقن في وريده، ودفع العقار المهدئ فيه، وهو يقول:

- ستذهب كل الوحوش.. إنه مجرد كابوس.

قال (علي) في توتر:

- ليس كابوسًا.. لقد رأيته بنفسي.

ربتت (أحلام) على كتفه، وهي تقول:

- اهدأ يا (علي).. أرجوك.. اهدأ.

شعر بالتوتر مع لمساتها، إلا أن صوتها الحنون نجح في إزالة توتره، واشترك مع العقار المهدئ في دفع النوم إلى جفونه، وهو يتمتم:

- ولكن هناك وحشًا.

ثم راح في نوم عميق..

وفي جزع، سألت (أحلام) الطبيب:

- ماذا أصابه؟.. إنه يهذي.. أليس كذلك؟

أجابها الطبيب، وهو يجمع أدواته، ويستعد للانصراف:

- بلى.. وهذا أمر طبيعي.. لا تجعلي هذا يقلقك.. فقط أحضري هذا الدواء، وليتناوله بانتظام، ولكن من الضروري أن نحصل على صورة بأشعة (رونتجن) لصدره ورئتيه.

غمغمت:

- بإذن الله..

راقبت الطبيب وهو ينصرف بسيارته، ثم تطلعت إلى حوض السباحة، الذي انعكست عليه أضواء الغروب، في مشهد بديع، وعادت لتضع بعض الأغطية على جسد زوجها، وانحنت تطبع قبلة على جبينه، وهي تتمتم:

- حمدًا لله على سلامتك.. لست أدري كيف يمكنني العيش دونك.

اعتدلت تتطلع إليه لحظات، ثم اتجهت إلى حوض السباحة، وأشعلت أضواء الحديقة المحيطة به، ثم وقفت على حافته، تتطلع في صمت إلى قاعه..

ولأول مرة، بدا لها القاع غامضًا مخيفًا، وهو غارق في ظلمته، حتى أنها أسرعت تضيء مصابيحه السفلية، التي تنتشر في جدرانه، بمحاذاة القاع، ثم عادت تتطلع إلى حوض السباحة، الذي بدا كبركة من الفضة الشفافة، مع تلك الأضواء، التي كشفت قاعه تمامًا.

وعلى الرغم من كل أحلامها السابقة، ومع نقاء القاع وهدوئه، كان قلبها يشعر بالكثير من القلق..

ومن الخوف..

كل الخوف..

☆ ☆ ☆

3- اللص..

كانت عقارب الساعة تشير إلى منتصف الليل، عندما اقترب اللصان من سور الفيلا الخارجي، وهمس أحدهما لزميله:

- احترس.. فقد يكون أصحاب الفيلا مستيقظين يا (رجب).

أجابه (رجب) في استهتار:

- ألم تر ذلك الظلام في الداخل؟

قال زميله في توتر:

- مصابيح الحديقة مضاءة.

هز (رجب) كتفيه في استهتار، وقال:

- دع عنك هذا الخوف يا (فهيم).. إنه لا يصلح لمهنتنا.

قالها وتسلق سور الفيلا، ثم وثب منه إلى الحديقة، وتبعه (فهيم) في خفة، وتسلل الاثنان في صمت عبر الحديقة، حتى بلغا حوض السباحة، وهمس (فهيم):

- لا يوجد أحد هنا.

ابتسم (رجب) في ثقة، وقال:

- ألم أقل لك؟

اقتربا أكثر من الفيلا، ثم أشار (رجب) إلى الطابق العلوي منها، وهو يقول:

- احترس كثيرًا، فمن الواضح أن الطابق العلوي لم يكتمل بعد..

ستجدهما في الطابق الأرضي.. يجب أن نحدد موقع حجرة نومهما أولًا، قبل أن نبدأ عملنا.

دارا حول الفيلا في حذر، ثم قال (فهيم):

- من الواضح أن هذه هي حجرة النوم.

غمغم (رجب):

- عظيم.. دعنا نفرغ الباقي إذن..

تحركا نحو المدخل الزجاجي للطابق الأرضي، عندما خيل إليهما أنهما يسمعان صوت حركة عجيبة، عند حوض السباحة، فتجمد (فهيم) في مكانه، وقال في هلع:

- ما هذا بالضبط؟

أجابه (رجب) في صرامة:

- هل سترتجف هكذا، كلما سمعت حفيف أوراق الأشجار، أو صوت ضفدعة صغيرة، تقفز إلى الماء؟

تطلع (فهيم) في خوف إلى حوض السباحة، وهو يتمتم:

- لم يكن هذا صوت ضفدعة، تقفز إلى الماء.

قال (رجب) في سخرية:

- صوت ماذا إذن؟.. سمكة قرش.

انتفض جسد (فهيم) فجأة، وهو يهتف:

- انظر.. هناك.

قفز (رجب) يغطي فم زميله بكفه، وهو يقول في حدة وخفوت:

- ماذا دهاك يا رجل؟.. ستوقظ النائمين بالداخل.

ارتجف صوت (فهيم)، وهو يقول:

- هناك شيء يتحرك، عند حافة الحوض.

استدار (رجب) يتطلع إلى الحوض لحظة، ثم قال في عصبية:

- لا يوجد شيء.. لا تجعل الخوف يرسم لك صورًا عجيبة.

قال (فهيم) في خوف وعناد وإصرار:

- ولكنني رأيت شيئًا يتحرَّك.. أقسم لك..

زفر (رجب) في ضجر، وقال:

- حسنًا.. سأثبت لك أنه لا يوجد أي شيء.

ثم اتجه في حزم إلى حافة الحوض، واستدار يواجه (فهيم)، وهو يقلب كفيه، قائلًا في سخرية خافتة:

- هل رأيت؟.. كل شيء على ما يرام، و...

ولكن فجأة، تحركت تلك القطعة من حافة الحوض، التي كان يقف فوقها (رجب)..

تحركت في سرعة، كما لو كانت بساطًا يسحب من تحت قدميه..

وفقد (رجب) توازنه..

لوح بذراعيه لحظة في الهواء، محاولًا الحفاظ على توازنه، ولكنه سقط..

سقط في حوض السباحة..

وللحظة، تجمد (فهيم) في مكانه، واتسعت عيناه في هلع، إلا أنه لم يلبث أن اندفع نحو حوض السباحة، وهو يهتف بصوت خافت:

- (رجب).. أين أنت؟

شعر بالارتياح، عندما رأي (رجب) يسبح في الحوض، وهو يقول في عصبية:

- يبدو أنني فقدت توازني.. هيا.. لا تقف جامدًا هكذا يا رجل.. مد يدك، وساعدني على الصعود من هنا، قبل أن يستيقظ أصحاب الفيلا، على صوت سقوطي في الحوض.

مد (فهيم) يده إليه في سرعة، وراح (رجب) يسبح نحوه في صمت، ثم مد يده ليلتقط يد (فهيم)، و...

وفجأة، أطلق (رجب) شهقة قوية..

أطلقها قبل أن يجذبه شيء ما في عنف، إلى ما تحت الماء..

واتسعت عينا (فهيم) في رعب..

اتسعتا وهو يهتف:

- (رجب).. أين أنت؟

وفجأة، أضيئت الأنوار كلها..

أنوار الفيلا، والحديقة، وتلك الأضواء، في قاع حوض السباحة..

وشهق (فهيم) في رعب لا مثيل له..

شهق، وهو يحدق في مشهد رهيب، رآه يحدث تحت سطح الماء..

أما (أحلام)، فقد استيقظت فجأة، فوق ذلك المقعد، الذي وضعته إلى جوار فراش زوجها، عندما أضيئت الأنوار كلها دفعة واحدة، وهتفت في هلع:

- ماذا حدث؟!..

في البداية، تصورت أنها غفت دون أن تدري، وانقطع التيار الكهربي بعض الوقت، ثم عاد بغتة، إلا أنها لم تلبث أن انتبهت إلى تلك الشهقة في الحديقة، فارتجفت وهي تهتف:

- (علي).. يوجد شخص ما في الحديقة.

لم تكد تنطقها حتى انتفضت كل خلية من خلاياها في هلع، مع صرخة الرعب الرهيبة، التي انطلقت في الخارج..

ومع الصرخة، هب (علي) جالسًا، وهو يهتف:

- ماذا هناك؟

كانت (أحلام) تنتفض في ذعر لا مثيل له، وهي تهتف:

- في الخارج.. هناك في الخارج.

لم يكن قد تخلص من تأثير العقار المهدئ بعد، ولكنه اندفع نحو النافذة، وفتحها على مصراعيها، ثم اتسعت عيناه في

دهشة، وهو يحدق في (فهيم)، الذي انطلق يعدو بكل قوته نحو سور الفيلا، وهو يطلق صرخات هلع ورعب..

ثم انتبه إلى حوض السباحة..

كانت كل أضواء القاع مضاءة، وتوجد حركة ما على سطحه..

ومن خلفه، هتفت (أحلام):

- ماذا يحدث يا (علي)؟!.. ماذا يحدث؟!

أشار بسبابته إلى حوض السباحة، وهم يقول شيء ما، ولكن الكلمات تجمدت في حلقه، ولم تنجح في تجاوز شفتيه..

وفجأة، انطفأت الأضواء كلها..

وصرخت (أحلام) في ذعر، وهي تتعلق به، هاتفة:

- التيار الكهربي انقطع مرة أخرى.

تطلع إليها (علي) في دهشة، على ضوء القمر، ثم اتجه نحو زر الإضاءة، وضغطه، و...

واشتعلت الأضواء..

وطوال دقيقة كاملة ظل كل منهما يحدق في وجه الآخر في هلع، ثم ألقت (أحلام) بنفسها بين ذراعي زوجها، وهي تهتف:

- ماذا يحدث يا (علي)؟.. ماذا يحدث؟

لم يجب سؤالها، ولكنه غمغم في خفوت، وهو يضمها إليه في قوة:

- كل شيء على ما يرام يا حبيبتي.. لقد انتهت المشكلة.. كل شيء على ما يرام.

انكمشت بين ذراعيه، وهي تنتفض في قوة، في حين تطلع هو مرة أخرى إلى حوض السباحة، وقلبه يخفق في صدره..

بل يرتعد..

وبشدة..

☆ ☆ ☆

من الواضح أن النهار يختلف كثيرًا عن الليل، فلم تكد الشمس تشرق، حتى شعر (علي) و(أحلام) بالكثير من الراحة، وخاصة مع وصول سيارة الشرطة، التي حملت ضابط المباحث (مدحت)، الذي صافح (علي)، وهو يسأله في اهتمام.

- ماذا حدث في الفيلا ليلة أمس يا دكتور (علي)؟

أشار إليه الدكتور (علي) بالجلوس، وهو يقول:

- محاولة سرقة على الأرجح، ولكننا لا ندري ماذا حدث بالضبط؟.. لقد استيقظنا على صرخات رعب، ورأينا رجلًا يعدو نحو سور الفيلا، وكانت الأنوار كلها مضاءة، ثم انطفأت فجأة.

سأله (مدحت):

- أتعني أن التيار الكهربي قد انقطع؟

أجابته (أحلام) في توتر ملحوظ:

- بل العكس هو الصحيح.. لقد أضيئت الأنوار وانطفأت، دون أن يكون لهذا أية صلة بالتيار الكهربي.

انعقد حاجبا (مدحت)، وهو يتطلع إليها في دهشة، مغمغمًا:

- حقًا؟!

كان من الواضح أنه يعتبر عبارتها حمقاء سخيفة؛ لذا فقد قالت في حدة:

- نعم.. لقد تصورنا في البداية أن التيار الكهربي قد انقطع، ولكننا فوجئنا بأن هذا لم يحدث، بل كانت المصابيح كلها تعمل بكفاءة تامة، وكشفنا لدهشتنا أن الأنوار أضيئت كلها، على الرغم من أن مفاتيح الإضاءة كلها كانت تشير إلى وضع الإغلاق.

لم يبد عليه أنه قد استوعب حديثها جيدًا، فقد بدا هادئًا لامباليًا، وهو يقول في بساطة:

- آه.. لقد فهمت.

ثم اعتدل ليسأل الدكتور (علي) في اهتمام:

- وهذا الذي رأيتماه يعدو نحو الأسوار.. أكان يعدو إلى الداخل أم إلى الخارج؟

أجابه الدكتور (علي) في دهشة:

- إلى الخارج بالطبع.. كيف يمكننا رؤيته، لو أنه يعدو إلى الداخل؟

تطلع (مدحت) إلى سور الأشجار، الذي يحيط بحوض السباحة، وقال:

- إنني أتساءل في الواقع، كيف يمكنكما رؤيته يعدو إلى الخارج، مع وجود هذه الأشجار؟

قالت (أحلام) في عصبية:

- لقد كان يعدو نحوها، وهذا يكفي.

هز رأسه في بطء، وقال:

- آه.. بالطبع.

ثم سأل الدكتور (علي):

- وهل سرق شيئًا؟!

هز الدكتور (علي) رأسه نفيًا، وقال:

- مطلقًا.. كل شيء على ما يرام.

بدا الضيق في عيني (مدحت)، وفي شفتيه الممطوطتين، وهو يقول:

- لماذا أبلغتما الشرطة إذن؟!

قالت (أحلام) في حدة:

- وما الذي ينبغي أن يفعله المرء، عندما يقتحم أحدهم منزله عنوة؟

أجابها (مدحت) في هدوء:

- يبلغ الشرطة على الفور، وليس بعد ست ساعات كاملة.

قال (علي) متوترًا:

- كنا مرتبكين، ولم نتخذ القرار إلا مع الفجر.

ردد (مدحت) بنفس البساطة:

- آه.. فهمت.

ثم نهض قائلا:

- سنبذل قصارى جهدنا بالطبع، لضبط ذلك المتسلل، ولكنني في الواقع أحب أن أقدم إليك نصيحة يا دكتور (علي).

سأله (علي) في حيرة:

- أية نصيحة؟!

مال (مدحت) نحوه، وقال بابتسامة هادئة:

- استأجر رجلًا لحراسة الفيلا.

ثم صافحه، وهو يستطرد:

- إلى لقاء أفضل بإذن الله.

واستدار يهم بالانصراف، ثم توقفت لحظة، والتفت إليهما، مضيفًا:

- واتصل بفني كهرباء جيد، لمعالجة ذلك الخلل.

قالها وعاد إلى سيارة الشرطة، التي غادرت الفيلا على الفور، فقالت (أحلام) في حدة:

- إنه سخيف.

صمت (علي) لحظاته، ثم قال في خفوت:

- ولكنه على حق إلى حد كبير.

قالت في حدة:

- على حق؟!

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم.. لابد أن نستأجر رجلًا لحراسة الفيلا، وأن نستدعي أحد الفنيين، لفحص شبكة الكهرباء بالفيلا.

أرادت أن تعترض، إلا أنها لاذت بالصمت لحظات، قبل أن تغمغم:

- كما ترى يا حبيبي.

ربت على كتفها في حنان، ثم تثاءب قائلًا:

- أعتقد أنني بحاجة إلى الكثير من النوم، فأنا أقف على قدمي في صعوبة.

وافقته بإيماءة من رأسها، وهي تقول:

-هيا.. أذهب لتنام، وسأعد لك بعض الحساء الساخن، عندما تستيقظ.

اتجه إلى حجرة النوم، في الطابق الأرضي، وألقى جسده على الفراش، وجالت بخاطره لحظات صورة حوض السباحة، فتنهد في عمق، وأغلق جفنيه..

ثم استغرق في نوم عميق..

أما (أحلام)، فقد ألقت عليه نظرة حانية، ثم مدت أصابعها في حذر، وداعبت شعره في حنان، وهي تهمس:

- نم يا حبيبي.. نومًا هنيئًا.

تنهدت بدورها، وجلست على المقعد المجاور للنافذة، وتطلعت بضع لحظات إلى حوض السباحة، وقاومت رغبتها في السباحة لحظات، ثم لم تلبث أن غمغمت:

- لماذا أقمنا الحوض إذن؟

نهضت ترتدي ثوب السباحة، واتجهت إلى الحوض، ووثبت إلى الماء في رشاقة، ثم غاصت فيه، وعادت تضرب الماء بقدميها، لتصعد إلى السطح..

وأنعشها الماء البارد، فنفضت الماء عن شعرها في استمتاع، والتقطت نفسًا عميقًا من الهواء على السطح، وهي تغلق عينيها في قوة، ثم فتحتهما، و...

واتسعت عيناها في رعب..

وارتجف جسدها كله..

ثم انطلقت من حلقها صرخة..

صرخة رعب هائلة.

☆ ☆ ☆

4- الخوف..

عقد النقيب (مدحت) حاجبيه في شدة، وهو يراقب رجاله، الذين يعملون في همة، حول حوض السباحة، ثم التفت إلى (علي)، الذي بدا شديد التوتر، وهو يحيط كتف (أحلام) بذراعه، ويربت عليه في حنان، في حين أخذت هي ترتجف في شدة، وكأنها تعاني بردًا قارسًا، وقد ضمت ركبتيها إلى صدرها، وانكمشت فوق مقعدها، في معطف الاستحمام، والدموع تترقرق في عينيها، وتمنحهما لمعانًا عجيبًا، جعل النقيب (مدحت) يتجه إليها، ويقول بصوته الهادئ، الذي يحمل دائما مسحة من البساطة واللامبالاة:

- اهدئي يا سيدتي.. سينتهي كل شيء على ما يرام بإذن الله.

بدت شديدة العصبية، وهي تقول:

- من السهل أن تقول هذا، ما دمت لم تمر بما مررت به أنا.

قال في هدوء:

- أعلم أن المفاجأة كانت عنيفة، ولكن الأمر ليس خطيرًا إلى هذا الحد.

صاح به الدكتور (علي):

- ماذا تقول أيها الضابط؟!.. ألا تعلم ما واجهته زوجتي؟

أجابه (مدحت):

- بل أعلم.. لقد روت لي كل شيء.. كانت تسبح، عندما برزت تلك الجمجمة أمامها فجأة.

غطت (أحلام) وجهها بكفيها، وراحت تنتحب، وهي تقول:

- كان أمرًا بشعًا فظيعًا.. لقد فوجئت بتلك الجمجمة البشرية أمامي، ثم تبعتها العظام الأخرى.. شيء فظيع.. فظيع.

وهتف الدكتور (علي):

- أريد تفسيرًا لكل هذا.. أي تفسير منطقي.

هز (مدحت) كتفيه، وألقي نظرة أخرى على رجاله، الذين انهمكوا في انتشال العظام من حوض السباحة، وقال:

- التفسير واضح وبسيط.. هناك من يحاول إخافتكما، ودفعكما إلى الفرار من هنا بأي ثمن.

تطلعت إليه (أحلام) مستنكرة، في حين هتف (علي):

- وما علاقة هذا بذاك؟

أجابه (مدحت) في بساطة:

- العلاقة أوضح مما ينبغي يا دكتور (علي).. في البداية أرسلوا شخصًا يطلق صرخات رهيبة، وهو يعدو في الحديقة، ثم ألقوا بعض العظام البشرية في حوض السباحة، و...

قاطعته (أحلام) في حدة:

- هذه العظام لم تكن هناك، عندما قفزت إلى الحوض.

ابتسم في بساطة، وقال:

- تقصدين أنك لم تلمحيها.

قالت في صلابة وعناد:

- بل لم تكن هناك.. كانت المياه رائقة وشفافة للغاية، والقاع يبدو واضحًا تحت أشعة الشمس، ولو كانت هناك عظمة واحدة صغيرة، لرأيتها على الفور.

صمت لحظة، ثم قال:

- ربما ألقاها بعضهم، بعد نزولك إلى الحوض.

قالت في حدة:

- مستحيل!

لوح بسبابته في بساطة، وهو يقول؟

- لا يوجد مستحيل.. أخبريني أولًا: كيف تنزلين إلى الحوض؟.. هل تقفزين، أم تهبطين في درجات السلم في هدوء؟

أجابته في دهشة:

- بل أقفز.. لماذا تسأل؟

ابتسم وهو يبتعد إلى ركن الفيلا، قائلًا:

- لأنني لو كنت شخصًا غريبًا، يرغب في إثارة الذعر والفزع هنا، وأحمل كمية من العظام البشرية، لانتظرت حتى تقفزي إلى الماء، ثم..

قالها وانطلق يعدو إلى حافة الحوض، وتظاهر بإلقاء شيء ما فيه، وهو يستطرد في حماس:

- ثم أنطلق إلى الحوض، وألقى العظام.

وعاد جريًا إلى الحافة، واختفي خلفها، مضيفًا:

- وأعود إلى مخبئي، قبل صعودك إلى السطح، وكشفك أمر العظام.

بدا لها التفسير منطقيًا إلى حد كبير، ولكنها قالت في عناد:

- لو أن أحدهم فعل هذا لسمعت وقع قدميه.

هز رأسه نفيًا، وقال:

- كلا.. إنه ببساطة سيسير حافي القدمين، أو يرتدي حذاء رياضيًا من الكاوتشوك، لا يصدر صوتًا.

ران الصمت لحظة، ثم قال (علي)، وهو يعدل وضع منظاره الطبي فوق أنفه:

- تفسير منطقي.

ثم استدرك في سرعة:

- ولكن من يفعل هذا؟.. ولماذا؟

أجابه (مدحت):

- شخص يرغب في شراء الفيلا مثلًا.

سألته (أحلام):

- مثل من؟

هز كتفيه، قائلًا:

- من يدري؟

ساد الصمت مرة أخرى، وكل منهم يفكر في الأمر، حتى قطع أحد رجال الشرطة حبل الصمت، وهو يقول:

- انتشلنا كل العظام يا سيدي الضابط.

التفت إلية (مدحت)، قائلًا:

- أأنت واثق؟

أجابه الشرطي:

- يمكنك التأكد بنفسك يا سيدي.

اتجه (مدحت) إلى حوض السباحة، وهو يقول في حزم:

- هذا ما سأفعله بالفعل.

وقف على حافة الحوض، وتطلع إلى القاع في اهتمام؛ ليتأكد من أن رجاله قد أدوا واجبهم على أكمل وجه..

وفجأة، انعقد حاجباه في شدة..

لقد خيل إليه أن قطعة من أرضية الحوض قد انفصلت عنه، وتحركت بضعة سنتيمترات، ثم التصقت بالجدار..

ولكنه كذب عينيه..

مستحيل أن يحدث هذا..

مستحيل تمامًا..

إنه خداع بصري حتمًا، بسبب انكسار الضوء، وتموجات الماء الخفيفة، و...

طرح الأمر عن ذهنه بسرعة، وعاد يلتفت إلى (علي) و(أحلام)، وسأل (علي)، في محاولة لإبعاد المشهد عن تفكيره:

- ما الذي يعنيه لقب (دكتور) هذا؟.. أأنت طبيب؟

هز الدكتور (علي) رأسه نفيًا، وأجاب:

- بل يعني أنني حاصل على درجة الدكتوراه في تخصصي.

سأله (مدحت):

- أي تخصص؟

أجابه في شيء من الفخر:

- أنا أحد أساتذة قسم البيولوجيا، في كلية العلوم، بجامعة (الإسكندرية).

رفع (مدحت) أحد حاجبيه وقال:

- علم البيولوجي هذا.. دعني أتذكر، إنه علم الأحياء على ما أظن..

قال (علي):

- نعم، البيولوجيا: علم الأحياء، وينقسم إلى علم النبات، وعلم الحيوان، ويتضمن كل من القسمين علوم الخلية، والأنسجة، والتشريح، والمورفولوجيا، والفسيولوجيا، وعلم الأجنة، وعلم البيئة، وعلم الوراثة والتطور، وعلم الحفريات، وعلم التصنيف، وهناك علوم بيولوجية خاصة، مثل علم الميكروبيولوجيا والبيولوجيا البحرية وبيولوجيا الفضاء.

ابتسم (مدحت) وقال:

- عظيم.

لم تكن عبارته تعبر عما يشعر به في الواقع، وإنما كانت مجرد كلمة، ينهي بها هذا الحديث، لينتقل إلى نقطة أخرى، قائلًا:

- على أية حال، سأجري كل التحريات اللازمة، حول هذا الأمر، وسأرسل العظام إلى الطبيب الشرعي مباشرة، وما زلت أكرر ضرورة استئجار حارس خاص، واستدعاء فني لفحص التوصيلات الكهربية.

أضافت (أحلام) في توتر:

- وتفريغ حوض السباحة.

قال (مدحت) مبتسمًا:

- هل نجحوا في إخافتك؟

قالت في عصبية:

- أتتصور أنني سأسبح مرة أخرى، في نفس المياه، التي سبحت فيها عظام بشرية؟

قال في هدوء:

- كلًا بالطبع.

ثم شد قامته، مستطردًا:

- إلى اللقاء.. سأبلغكما بالنتائج أولًا فأول بإذن الله.

وانصرف مع رجاله، الذين يحملون العظام في حرص واهتمام، ولم تكد سيارة الشرطة تغادر الفيلا، حتى غمغم (علي):

- أتعلمين.. إنه على حق.. لابد من استئجار حارس للفيلا.

ثم اتجه إلى الهاتف، وطلب رقم شركة أمن خاصة، فسألته هي:

- هل أقنعك تفسيره؟

هز كتفيه، وقال:

- إنه منطقي إلى حد كبير.

قالت في عناد:

- ولكنه لا يفسر الأضواء، التي اشتعلت بلا مبرر.

رفع رأسه، قائلًا:

- هذا يعني ضرورة استدعاء فني لفحصها.

ثم التفت في اهتمام إلى الهاتف، وقال:

- شركة الأمن الوطنية.. صباح الخير.. أريد التعاقد معكم لإرسال حراسة إلى فيلتي، في (كنج مريوط).

تركته يتحدث إلى المسئولين في شركة الأمن، وتطلعت في قلق إلى حوض السباحة..

وفجأة، كشفت أن هذا الحوض لم يعد حلم حياتها كما كان..

لقد أصبحت تخشاه..

تخشاه كثيرًا..

☆ ☆ ☆

«إنه أمر عجيب بالفعل!!..»

اعتدل النقيب (مدحت) في اهتمام، عندما سمع الطبيب الشرعي ينطق هذه العبارة، والتفت إليه يسأله:

- ما العجيب في الأمر؟

لوح الطبيب الشرعي بيده، وهو يقول:

- إنه هيكل عظمي كامل، لا تنقصه عظمة واحدة.. حتى العظيمات الصغيرة.. كلها موجودة.

أجابه (مدحت):

- بالتأكيد، فالشخص الذي يريد إثارة فزع الدكتور (علي) وزوجته، لابد أن يستعين بهيكل عظمي كامل..

هز الطبيب الشرعي كتفيه، وقال:

- يمكنه أن يكتفي ببعض العظام، فالجمجمة وحدها يمكن أن تحدث الأثر المنشود.

ابتسم (مدحت) ابتسامة باهتة، خلت من أي انفعال، وهو يقول:

- ربما هو شخص يميل إلى الإتقان.

مط الطبيب الشرعي شفتيه، وقال وهو يلتقط الجمجمة لفحصها:

- من النادر أن نرى في (مصر) مجرمًا من هذا الطراز.

فحص الجمجمة بنظرة سريعة، قبل أن يعتدل، ويقول في آليه:

- إنها جمجمة رجل، في أواخر الثلاثينات.

سأله (مدحت):

- كيف تعرف هذا؟

أشار الطبيب الشرعي إلى الفك، وقال:

- من الأسنان، وبعض العلامات الأخرى في عظام الجمجمة، وفي معظم أو كل العظام الأخرى تقريبا.. هذه مثلًا عظمة الذراع ولو نظرت جيدًا إلى..

بتر الرجال عبارته بغتة، وانعقد حاجباه، وهو يحدق في العظمة، في مزيج من الدهشة والاهتمام، مما جعل (مدحت) يعتدل في لهفة، ويسأله:

- ماذا تري؟

ظل الرجل صامتًا لحظة، وهو يتطلع إلى عظمة الذراع، قبل أن يشير إلى أعلاها، قائلًا:

- هذه الثقوب.

ألقي (مدحت) نظرة على الثقوب العديدة، التي بدت واضحة على قمة العظمة، في نقطة التمفصل، وقال:

- أليست طبيعية؟

أجابه الطبيب الشرعي في حزم:

- مطلقًا.

ثم التقط عدسة مكبرة ضخمة، من الرف المجاور له، وأزال الغبار عنها بأصابعه، وأخذ يفحص بها تلك الثقوب، قبل أن يتابع في حيرة:

- إنها منتظمة أكثر مما ينبغي، وحوافها ذائبة، أو محفورة بدقة مدهشة.

هتف (مدحت):

- هذا يثبت نظريتي.. هذه العظام تخص أحد طلاب كلية الطب.

هز الطبيب الشرعي رأسه نفيًا، وقال وهو يواصل فحص العظمة، في اهتمام يفوق الحد:

- كلًا.. لا يمكن لأي شخص عادي أن يحدث مثل هذه الثقوب.

بدت الحيرة على وجه (مدحت)، وهو يسأل:

- ما الذي أحدثها إذن؟

التقى حاجبا الطبيب الشرعي في شدة، وبدا وكأنه لم يسمعه، وهو يقول:

- عجبًا!.. هل من الممكن أن...

فوجئ به (مدحت) يهب فجأة من مقعده، وهو يحمل العظمة، ثم يلتقط مطرقة ثقيلة، ويضع العظمة على منضدة التشريح الرخامية، فسأله في قلق:

- ماذا حدث؟

أجابه الطبيب الشرعي، وهو يرفع المطرقة في حزم:

- هذه العظمة أخف مما ينبغي.

سأله (مدحت):

- وما الذي يعنيه هذا؟

ولم يجب الرجل..

لقد هوى بالمطرقة على العظمة، وهشم قمتها في عنف، ثم حملها في لهفة، وفحص داخلها، قبل أن يهتف:

- هذا ما توقعته تمامًا.

سأله (مدحت)، وقد التهمه الفضول تمامًا:

- ماذا هناك؟

قال الطبيب الشرعي، في حماس عجيب:

- أمر لم أره في حياتي كلها من قبل، ولم يسجله أي مرجع طبي معروف.

وقلب العظمة، ليرى (مدحت) داخلها في وضوح، وهو يستطرد:

- هذه العظام خالية من أي أثر لنخاعها الداخلي.. خالية تمامًا.

وكانت مفاجأة لـ (مدحت)..

مفاجأة مذهلة.

☆ ☆ ☆

5- فكرة..

على الرغم من كل الجهد الذي بذلته (أحلام)، وكل محاولاتها للسيطرة على أعصابها، إلا أنها بدت متوترة للغاية، وفي تراقب فني الكهرباء، الذي انتهى من فحص كل أسلاك الفيلا، قبل أن يهز رأسه، قائلًا:

- لا يوجد أي شيء غير طبيعي.. كل التوصيلات على خير ما يرام.

سأله (علي) في دهشة:

- أأنت واثق من هذا؟.. كيف أضيئت الأنوار وانطفأت وحدها إذن؟

هز الرجل رأسه مرة أخرى في حيرة، وقال:

- لست أدري.. لقد فحصت كل شيء، ولا يوجد خلل واحد.

ولم تدر (أحلام) لماذا سرت في جسدها هذه القشعريرة، عندما سمعته ينطق ما نطقه..

لقد كانت تتوقع هذا..

لم تشك لحظة واحدة في أن كل شيء يعمل بكفاءة تامة..

فيما عدا حوض السباحة..

كان هناك شيء ما في ذلك الحوض..

شيء مجهول، يبعث في جسدها قشعريرة عجيبة، كلما تطلعت إلى الحوض، الذي ظلت تحلم به طيلة عمرها..

ولكنها لم تخبر (علي) بما تشعر به..

تركته يقود فني الكهرباء إلى خارج الفيلا، ثم يعود إليها، قائلًا:

- عجبًا.. لم أكن أتوقع هذا قط.

شعرت بالتوتر لعبارته، وقالت في محاولة لإبعاد الأمر عن ذهنها:

- متى يصل الحارس الخاص؟

أجابها وهو يلقي نظرة على ساعته:

- المفروض أن يصل بين لحظة وأخرى.

هزت رأسها متفهمة، قبل أن تسأله:

- هل أفرغت حوض السباحة؟

ربت على كتفها، وهو يقول:

- نعم.. هل تريدين رؤيته؟

لم تكن ترغب -في الواقع- في هذا الأمر، ولكنها قررت التغلب على ذلك الخوف المبهم، الذي تشعر به تجاه حوض السباحة، فنهضت من مقعدها قائلة:

- نعم.. دعنا نرى.

تأبطت ذراعه، واتجها في خطوات بطيئة نحو حوض السباحة، وهو يقول بابتسامة زائفة، حاول بها إعادة الطمأنينة إلى نفسها:

- لم أكن أعلم أن حوض السباحة يستغرق كل هذا الوقت لإفراغه.

غمغمت:

- إنه يحتاج إلى ضعفه ليمتلئ.

بدأت ساقاها في الارتجاف، عندما اقتربا من الحوض، ولكنها قاومت هذا الشعور، وواصلت سيرها، حتى أصبحا على حافة الحوض، الذي بدا أكثر عمقًا وهو فارغ، وقال (علي)، وهو يشير إلى قاعة:

- هل رأيت.. كل شيء على ما يرام.

كان القاع يبدو بالفعل منتظمًا نظيفًا، ولكن شيئًا ما في أعماقها جعلها تشعر بالرهبة، وهي تتطلع إليه، فرفعت عينيها، قائلة:

- عظيم.

أتت كلمتها مرتجفة، على الرغم منها، فتطلع إليها في إشفاق، ثم ربت على كتفيها في حنان، وغمغم:

- اطمئني يا (أحلام).. أنا إلى جوارك، وسينتهي كل شيء على خير ما يرام بإذن الله، ولن...

بتر عبارته بغتة، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يحدق في الركن البعيد العميق، من حوض السباحة..

كان ذلك الركن ينبض..

صحيح أنها كانت نبضات خافتة، ولكنه لمحها في وضوح..

وفي توتر، سألته (أحلام):

- ماذا هناك؟

كادت تدير رأسها إلى حيث ينظر، ولكنه أسرع يرسم على شفتيه ابتسامة باهتة شاحبة، ويعدل من وضع منظاره فوق أنفه، وهو يقول:

- لا شيء.. أشعر ببعض الإرهاق فحسب.

غمغمت مشفقة:

- إنه تأثير العقار المهدئ.. إنك لم تحصل على قدر كاف من النوم، منذ حقنك به الدكتور (محمود إمام).

سعل مداريًا انفعاله، وهو يقول:

- كما أنني لم أتناول ذلك الدواء، الذي وصفه لرئتي.

لم يكن يتم عبارته، حتى سمع الاثنان بوق سيارة، من مدخل الفيلا، فأدارا عيونهما نحوه، ورأيا سيارة تدلف إلى الحديقة، وهي تحمل على جانبها شعار شركة الأمن الوطنية، فقال (علي) في ارتياح:

- لقد وصل حارسنا الخاص.

تنهدت هي مغمغمة:

- أخيرًا.

واتجها معا لاستقبال سيارة الشركة، وقدم إليهما سائقها شابًا نحيل الجسد، يرتدي ثياب الشركة، الشبيهة بزي رجال الشرطة، مع اختلاف لونها، وهو يقول:

- (أحمد) هو الحارس الخاص، الذي اختارته الشركة، ليعمل على حراسة الفيلا ليلًا، وفي الصباح سيأتي (طاهر)، الحارس النهاري، وسيعمل كل منهما اثنتي عشرة ساعة، من الثامنة إلى الثامنة.

صافحهما (علي)، وهو يقول:

- عظيم، هل تحمل سلاحًا يا (أحمد)؟

أومأ الشاب برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم.. إنه مسدس مرخص، تمنحه الشركة لرجالها عادة.

ثم ألقى نظرة سريعة على حوض السباحة من بعيد، وسأل:

- هل تعانيان من بعض الفضوليين، الذين يتسللون إلى حوض السباحة؟

أجابه الدكتور (علي):

- يمكنك أن تقول هذا، ومهمتك هي منع كل أسباب التوتر والخوف هنا.

ارتسمت على شفتي (أحمد) ابتسامة كبيرة، وهو يقول:

- اطمئن يا سيدي.. اطمئني يا سيدتي.. ما دمت هنا، فستكون لياليكما هادئة بإذن الله.

رمقته (أحلام) بنظرة جانبية، دون أي تعليق، ولكنها في أعماقها. كانت تعتقد أنه مخطئ..

مخطئ تمامًا..

☆ ☆ ☆

بدت لهفة شديدة على وجه (مدحت)، وهو يسأل الطبيب الشرعي، الذي يدير العظمة بين يديه في انبهار:

- لماذا يبدو لك هذا الأمر عجيبًا؟.. أليس من الممكن أن تخلو العظام القديمة من النخاع؟

هز الطبيب الشرعي رأسه نفيًا، وقال:

- كلَّا.. الأمر على العكس تمامًا، فالعظام لا تخلو من النخاع أبدًا، حتى أنك لو فحصت المومياوات المصرية القديمة، لوجدت في عظامها كمية لا بأس بها، من نخاع العظام، تستطيع معه معرفة فصيلة دم صاحب المومياء، بعد خمسين قرنًا من موته.

ثم رفع العظام بيده، مستطردًا في حماس:

- أما هذه العظام، فهي تخلو من أي أثر للنخاع.

بدت الحيرة على وجه (مدحت)، وقال:

- إنها عظام قديمة، من المحتمل أن أحدهم أفرغها من النخاع، أو...

قاطعه الطبيب الشرعي:

- دعني أصحح لك معلوماتك أولًا، فهذه العظام ليست قديمة كما تتصور، بل هي عظام حديثة، لم يمض يوم واحد، على انتزاعها من جسد حي، فهي كما تراها بيضاء ناصعة متماسكة، لم يتغير لونها، أو تصاب بالبلى، ولكن العجيب فيها هو أنها خالية تمامًا من أي أثر للعضلات أو الشحوم، أو حتى الأربطة، كما لو أنك أغرقت جثة صاحبها في سائل خاص، أذاب كل ما علق بها، وتسلل عبر تلك الثقوب الدقيقة المنتظمة، ليذيب نخاعها تمامًا، ويتركها هكذا، نظيفة خالية.

قال (مدحت):

- ربما هذا هو ما حدث بالفعل.. لقد أذاب بعضهم ما علق بالعظام، في نوع من الحامض مثلًا، أو...

قاطعه الطبيب الشرعي مرة أخرى في حسم:

- مستحيل!

ثم عاد يشير إلى العظام، وهو يقول مبهورًا:

- إننا أمام ظاهرة جديدة وعجيبة أيها النقيب.. ظاهرة ربما حملت في مراجع الطب الشرعي اسمي.

وتهللت أساريره، وهو يستطرد في حماس:

- هل تدرك ما يعنيه هذا؟.. سأصبح واحدًا من مشاهير الطب الشرعي.

نهض (مدحت)، وهو يقول:

- كلًا يا سيد.. لست أدرك هذا.. كل ما أدركه، بحكم عملي وانتمائي، وهو أن فيلا الدكتور (علي) تواجه خطرًا مجهولًا.

وشد قامته، قبل أن يضيف في حزم:

- ورهيبًا..

☆ ☆ ☆

«فيم شرودك؟..»

ألقت (أحلام) السؤال على زوجها في صوت خافت ولهجة حنون، وهي تضع يدها في رفق على كتفه، في محاولة لانتزاعه من شروده الطويل، وهو يتطلع إلى حوض السباحة، عبر الباب الزجاجي الكبير الحجرة المعيشة بالفيلا، والذي يطل على الحديقة، فأدار (علي) عينيه إليها في بطء، وتطلع إليها لحظات أخرى في شرود، وكأنه لا يراها، ثم رسم على وجهه ابتسامة باهتة، وهو يقول:

- أهلًا يا (أحلام).. كيف حالك الآن؟

جذبت مقعدًا، وجلست إلى جواره، وهي تقول مشفقة:

- كيف حالك أنت؟.. إنك لم تتحرك منذ أكثر من ساعة، ولم تكف عن التطلع إلى الحوض.. ما الذي يقلقك؟

صمت لحظات، وهو يتطلع إليها بعينين مترددتين، من خلف منظاره الطبي، ثم سألها بغتة:

- (أحلام).. كنت تحلمين منذ صباك بحوض السباحة الخاص هذا. فهل تعرفين شيئًا عن أحلامي أنا؟

وضعت يدها على كتفه، وهمست:

- بالطبع.. إنك تحلم بتحقيق شهرة واسعة، في علم البيولوجيا.

غاص في مقعده، وهو يسألها:

- وكيف يتحقق هذا؟

هزت كتفيها، وأجابت:

- بكشف جديد، أو نظرية جديدة.. أو أي شيء يضيف طفرة إلى علم البيولوجيا.

ثم داعبت شعره في حنان، مستطردة في همس:

- ولكن لماذا داعبك حلمك الآن؟

اعتدل بغتة، على نحو أدهشها وأربكها، وقال في صوت عميق ولهجة حاسمة:

- لأنني على وشك تحقيقه.

هتفت في دهشة حقيقية:

- ماذا تعني؟!

عدل وضع منظاره في انفعال، وهو يقول:

هل تذكرين دراستك في كلية العلوم يا (أحلام)؟.. في قسم البيولوجيا بالذات؟

همست في شيء من الدلال:

- بالطبع.. كنت طالبة نصف فاشلة، وكنت أنت الأستاذ النابه، الذي أراد معاونة تلميذته على النجاح، فإذا به يتزوجها، و...

قاطعها بسرعة ولهفة:

- لا.. ليس هذا ما أقصده، بل أقصد ما تعلمته هناك، عن فصائل ورتب المخلوقات الحية، عن الأنواع الجديدة من الكائنات، التي يتم كشف وجودها كل يوم وكل ساعة.. كلها -كما تعلمين- مجرد تحورات بيئية، أو كيميائية، لبعض الكائنات الموجودة بالفعل، ومن النادر للغاية أن يتوصل عالم بيولوجي إلى كشف وجود كائن فريد، لا مثيل له.. أليس كذلك؟

غمغمت في حيرة.

- هذا صحيح.

تألقت عيناه من خلف منظاره، وهو يقول:

- أنا سأصبح بإذن الله واحدًا من العلماء، الذين كشفوا وجود كائن جديد، لا مثيل له بين كائنات الأرض كلها.

انعقد حاجباها في شدة، وهي تتطلع إليه في مزيج عجيب من الدهشة والقلق، قبل أن تسأله في توتر:

- ماذا هناك بالضبط يا (علي)؟

تنهد في عمق، وعاد يسترخي على مقعده، وهو يقول:

- لم أحسم الأمر بعد، ولكنني أعتقد أننا بصدد كشف علمي بيولوجي بالغ الأهمية، وبالغ الخطورة.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة حالمة، وهو يستطرد:

- كشف قد يمنحني جائزة (نوبل) في العلوم.

كان يتفجر حماسًا، حتى أنها لم تشأ تحطيم سعادته، في ظل هذه الظروف، فانحنت تطبع قبلة باردة على أذنه، وهي تهمس:

- هذا عظيم يا حبيبي.. عظيم جدًا..

اتسعت ابتسامته مع عبارتها، واسترخى في مقعده منتشيًا، وراح يتطلع في هيام شديد إلى حوض السباحة، مما أثار دهشتها وحيرتها..

ماذا هناك؟

ما الذي يجذبه إلى الحوض بهذا الاهتمام؟..

جالت بخاطرها عدة أفكار جنونية، إلا أنها طرحتها جانبًا في سرعة، ونهضت قائلة:

- أعتقد أن موعد النوم قد حان.

نهض معها في هدوء، وألقى نظرة أخيرة على حوض السباحة، ثم ربت على ظهرها، قائلًا:

- اذهبي أنت للنوم يا حبيبتي، أما أنا، فسأقضي بعض الوقت في المكتبة.. أريد مطالعة بعض المراجع.

أدهشها موقفه هذا، وهو الذي يقدس مواعيده دائمًا، ولكنها لم تشأ معارضته، بل سألته في استسلام:

- هل أعد لك قدحًا من الشاي؟

ابتسم في سعادة عجيبة، وهو يقول:

- كلًا يا حبيبتي.. اذهبي أنت للنوم، وسأقرأ أنا بعض الوقت، ثم ألحق بك.

افترقا في حجرة المعيشة، وأغلقت هي الباب الزجاجي الكبير، المطل على الحديقة، ثم اتجهت إلى حجرة نومها في صمت، في حين دلف هو إلى حجرة مكتبه، وأغلق بابها خلفه والتقط أحد مراجعه العديدة، وراح يقرؤه في نهم كامل..

وفي الخارج، تطلع (أحمد) في هدوء إلى الفيلا، وهو يسير في حديقتها، متفقدًا السور، وابتسم وهو يتمتم:

- من الواضح أنهما زوجان جديدان، في شهر العسل.. يبدو أنني محظوظ بهذا العمل، ففرصة حدوث المتاعب تكاد تكون معدومة.

سار الهوينى عبر الحديقة، وتفقد المكان في عناية واهتمام، ثم اتجه إلى حوض السباحة، الذي تحيط به الأشجار القصيرة، وأعمدة الإنارة الأنيقة، وتنهد قائلا:

- هناك من حققوا كل ما يحلم به المرء، في هذه الدنيا.

دس كفيه في جيبي سرواله، ووقف على حافة الحوض الفارغ يتطلع إليه مبتسمًا، وهو يحلم بامتلاك مثله يومًا..

وفجأة انتبه إلى تلك الحركة..

حركة سريعة، بدأت وانتهت في ثانية واحدة، في جزء من أرضية الحوض..

وعقد (أحمد) حاجبيه في دهشة، وأخرج يديه من جيبي سرواله، وتحسس بهما جراب مسدسه في حركة غريزية، وهو يغمغم في توتر:

- ما هذا؟.. أهو مجرد خداع بصري، أم أن تلك الأرضية قد تحركت بالفعل؟!

وقف جامدًا، يتطلع إلى البقعة نفسها..

كان كل شيء يبدو عاديًا، هادئًا، صامتًا..

فيما عدا أمرًا واحدًا..

كان ضوء المصابيح المحيطة بالحوض ينعكس على قاعه الفارغ في كل مكان..

إلا بقعة واحدة..

نفس البقعة التي رآها تتحرك منذ قليل..

صحيح أنها تشبه تمامًا أرضية الحوض، ولكن الضوء لا ينعكس فوقها قط..

ثم بغتة، بدأت تلك البقعة تتحرك..

وشهق (أحمد)..

ومع شهقته توقفت تلك البقعة، وعادت جامدة ثابتة، كما لو كانت قطعة من أرضية حوض السباحة..

وتمتم (أحمد) في توتر بالغ:

- مستحيل!.. هذا مستحيل!

تحسس مسدسه مرة أخرى، وألقى نظرة على الفيلا، ولمح ضوء حجرة المكتب المضاء، وراودته لحظة فكرة إبلاغ الدكتور (علي) بما يحدث، إلا أنه سرعان ما لفظ الفكرة؛ لأنها قد تزعزع صورته، وموقعه كحارس لأمن الفيلا..

وقرر أن يفحص الأمر بنفسه..

وفي حذر، تعلق بسلم الحوض، وهبط إلى بداية القاع، في الجزء الأقل عمقًا من الحوض، ووقف لحظة يتطلع إلى تلك البقعة،

التي لا تختلف قط عن القاع، ثم أمسك مسدسه في جرابه، واتجه إليها في خطوات بطيئة متوجسة..

ولكن تلك البقعة ظلت جامدة ساكنة..

واقترب (أحمد) أكثر وأكثر، حتى صار قيد سنتيمترات منها.

وهنا فقط بدت له واضحة..

لم تكن بالفعل قطعة من أرضية الحوض، وإنما كانت جسمًا هلاميًا كبيرًا، شبه مستدير، يبلغ نصف قطره الأكبر مترًا كاملًا على الأقل، وهو يرتفع سنتيمترين عن قاع الحوض، وينتشر فوقه متخذًا نفس لونه وهيئته..

وفي حيرة، تمتم (أحمد):

- ما هذا بالضبط؟

استجمع شجاعته، وتحسس ذلك الجسم بقدمه، فبدا له رخوًا إلى حد ما، أشبه بقطعة من المطاط الساكن، فالتقط نفسًا عميقًا، وقال:

- يا لهؤلاء الأغنياء!!.. أراهن أنها مجرد لعبة، أو سدادة للحوض..

إنهم ينفقون أموالهم في نزوات سخيفة بلا هدف أو معنى.

ركل الجسم بقدمه مرة ثانية، ثم شعر بالاطمئنان، وتراخت أصابعه حول مقبض مسدسه، واستدار لينصرف..

وفجأة، عكس الضوء القادم من خلفه ظلًا مخيفًا إلى جواره.. ظل جسم ينهض من أرضية الحمام، وينتصب قائمًا خلفه..

وبسرعة وذعر، استل (أحمد) مسدسه، واستدار يواجه ذلك الشيء..

ثم اتسعت عيناه في رعب..

رعب هائل..

وبكل الخوف والرعب والذعر في أعماقه، أطلق (أحمد) رصاصات مسدسه نحو ذلك الشيء الرهيب، وهو يصرخ:

- لا.. لا.. اتركني.

ثم قفز المسدس من يده في عنف، وارتطم بأرضية الحوض في رنين مزعج، تردد صداه عبر جدران الحوض الفارغ، وانطلقت صرخة أخرى من (أحمد):

- لا.. ابتعد.. ابتعد...

وبعدها توقف صوته تمامًا، وتألقت كل الأضواء..

تألقت بشدة.

☆ ☆ ☆

6- الجائزة..

لا أحد يمكنه أن يصف ذلك الرعب، الذي تفجر في جسد (أحلام)، عندما سمعت تلك الصرخات، التي أطلقها (أحمد)، والتي امتزجت بدوي رصاصاته..

لقد سرت في جسدها كله قشعريرة هائلة، كادت من فرط عنفها تنتزع قلبها من صدرها انتزاعًا..

ثم أصابها ما يشبه الشلل..

لقد تجمدت في فراشها، كما لو أن ساقيها قد عجزتا عن حملها، حتى سمعت صوت المسدس، وهو يرتطم بأرضية الحوض..

عندئذ فقط قفزت من فراشها صارخة، وراحت تهتف باسم زوجها:

- (علي).. (علي).. أين أنت؟!

أما (علي)، فقد انتفض جسده كله مع الصرخة الأولى، وانطلق يعدو إلى الخارج مع الثانية، وسمع صوت ارتطام المسدس بقاع الحوض، وهو يتجاوز الباب الزجاجي الكبير لحجرة المعيشة، فجرى بكل قوته نحو حوض السباحة..

ولكن فجأة، وقبل أن يبلغه، انطفأت كل الأضواء دفعة واحدة.. وسمع صرخة أخرى.

كانت الصرخة هذه المرة من حجرة (أحلام)، التي اندفعت نحو النافذة، وفتحتها صارخة:

- (علي).. أين أنت؟

هتف بها، وهو يلوح بذراعيه:

- أنا هنا.. اطمئني.

صاحت منهارة:

- وأين الحارس؟.. أين هو؟

تلفت حوله في توتر، وهو يجيب:

- لست أدري.. ربما..

لم يتم عبارته، ولكنها فهمت على الفور ما يعنيه، وصاحت في هلع:

- أهو الذي؟!.. رباه!.. أهو يا (علي)..؟

لم يجب (علي)، وإنما سار بخطوات واسعة سريعة نحو حوض السباحة، وانحنى يتطلع داخله..

كان كل شيء هادئًا ساكنًا، فيما عدا المسدس الملقي في منتصف الحوض..

وفي لهفة وانفعال، أدار (علي) عينيه في قاع الحوض وجدرانه...

ثم توقف بصره بغتة..

توقف عند تلك البقعة، التي بدت منتفخة أكثر من اللازم، وملتصقة بالجدار المقابل له تمامًا من الحوض..

وتألقت عيناه في شدة..

لقد كان على حق..

نظريته كلها كانت صحيحة، على الرغم من غرابتها..

ومن خلفه، صرخت (أحلام) مرة أخرى:

- أهو الحارس يا (علي)؟

استدار إليها، وأجاب بلهجة خالية من أية انفعالات:

- نعم.. هو يا (أحلام).

أطلقت صرخة ذعر، واختفت من النافذة، في حين بدا هو متوترًا منفعلًا، وهو يلتفت بسرعة إلى تلك البقعة المنتفخة، والتي بدت وكأنها تتموج في بطء، وتتفلطح تدريجيًا، لتنتحل مرة أخرى لون وهيئة جدار الحوض..

وراقب هو تلك الحركة في شغف عجيب، حتى شعر بـ (أحلام) خلفه، وهي تهتف:

- إنه أمر رهيب مخيف. الشرطة وحدها يمكنها أن..

استدار إليها في حركة سريعة للغاية، وأمسك ذراعيها في قوة، وهو يهتف في انفعال عجيب للغاية:

- لا.. لا يا (أحلام).. لا شأن للشرطة بما يحدث هنا.

حدقت في وجهه بدهشة بالغة، وشعرت لأول مرة في حياتها بالخوف منه، وهي تقول:

- ماذا تقول يا (علي)؟.. من إذن صاحب الشأن؟

قال في حدة:

- نحن وحدنا أصحاب الشأن.

تملصت من ذراعيه، وهي تهتف:

- كيف هذا؟.. أين الحارس.. ماذا أصابه؟

عدل منظاره في عصبية، وأجابها:

- لقد اختفى.. ربما أخافه شيء ما، أو هرب، أو...

قاطعته مرتجفة في هلع:

- بل مات يا (علي).. لقي مصرعه.. أليس كذلك؟

بدا عليه التوتر، وهو يغمغم:

- لا يوجد دليل على هذا.

صاحت في وجهه، لأول مرة منذ زواجهما:

- ولكنك تعرف أنه مات.. أنت تعلم شيئًا، وترفض إخباري به.. أليس كذلك؟.. أليس كذلك يا (علي)؟

أمسك ذراعيها مرة أخرى، وتطلع إلى عينيها مباشرة، وهو يقول:

- اهدئي يا (أحلام).. اهدئي.. الأمر ليس بالخطورة التي تتصورينها.

تملصت منه مرة أخرى، وتراجعت في عنف، هاتفة:

- أريد أن أغادر هذه الفيلا الملعونة.. أريد أن أعود إلى (الإسكندرية).

حاول أن يقترب منها، وهو يقول:

- كيف يا حبيبتي.. إنه حلم حياتنا.. أنسيت؟!.. الفيلا وحوض السباحة الخاص.. ألم نحلم بهما منذ زواجنا؟؟

صرخت:

- لم أعد أحلم بشيء.. أريد العودة إلى (الإسكندرية).. إلى شقتنا القديمة.

اقترب منها أكثر، واحتواها بين ذراعيه في حنان، وهو يقول:

- ولكن هنا حلمنا يا (أحلام).. هنا تحقق حلمك، وهنا سيتحقق حلمي.. صدقيني يا حبيبتي.. من هنا سأصبح عالمًا بيولوجيًا شهيرًا.. فقط اهدئي، ولا تقحمي الشرطة في حياتنا.

بكت في مرارة، وهي تقول:

- سبق السيف العذل يا (علي).. لقد أبلغت الشرطة بالفعل.

ولم تكد تتم عبارتها، حتى تناهى إلى مسامعه صوت بوق سيارة الشرطة، التي تقترب..

وتقترب..

وتقترب..

☆ ☆ ☆

انحنى (مدحت) في بطء، يلتقط المسدس، الملقي في منتصف قاع الحوض، في حرص شديد، ثم ألقاه داخل كيس من النايلون، وتطلع إليه في حيرة، قبل أن يهز رأسه، ويتسلق سلم الحوض إلى الخارج، وسأل الدكتور (علي):

- ما الذي حدث بالضبط؟

اختلس الدكتور (علي) نظرة على جدار الحوض المقابل، قبل أن يجيب:

- ذهبت زوجتي للنوم، وقضيت أنا بعض الوقت في حجرة مكتبي، لمطالعة بعض المراجع العلمية، ثم سمعنا صراخ الحارس، ودوى صوت رصاصات مسدس، فهرعت أنا إلى هنا على الفور، ورأيت المسدس ملقى في منتصف الحوض، ولا يوجد أي شيء آخر.

التفت (مدحت) إلى (أحلام)، وسألها:

- هل يمكنك إضافة أي شيء يا سيدتي؟

هزت رأسها نفيًا في البداية، ثم استدركت في سرعة:

- نعم.. هناك شيء بالغ الأهمية.

انعقد حاجبا (علي) في توتر، قبل أن تضيف هي في سرعة:

- لقد اشتعلت الأضواء كلها مرة أخرى بلا مبرر.

تراخى حاجبا الدكتور (علي) في ارتياح، ولكن (مدحت) انتبه إلى هذا، دون أن يبدي اهتمامًا حقيقيًا، وقال:

- ومتى حدث هذا؟

أجابته (أحلام):

- بعد الصرخة الثانية مباشرة.

بدت علامات التفكير على وجه (مدحت) لحظات، قبل أن يقول:

- هذا يؤيد نظريتي إلى حد ما، فالشخص الذي يسعى لإفزاعكما يلجأ إلى تلك الحيلة؛ لجذب انتباهكما بعيدًا، حتى يتمكن من الفرار، أو يُخفي ما يفعله.

همت (أحلام) بالاعتراض، ولكن (علي) قال في سرعة:

- بالطبع.. هذا تفسير منطقي تمامًا.

لم يرق لها أسلوبه هذا، فعقدت حاجبيها، وأشاحت بوجهها في حنق..

ولاحظ (مدحت) هذا أيضًا.

ولكنه -وللمرة الثانية- أخفى اهتمامه بالأمر، وقال في هدوء:

- حسن.. سنفحص المسدس، ونبحث عن ذلك الحارس، فربما دفعه الفزع إلى الفرار.

استدار لينصرف، عندما توقف بغتة، وتطلع إلى قاع حوض السباحة، قائلًا:

- ما هذا؟

هوي قلب الدكتور (علي) بين قدميه، وهو يقول:

- ماذا.. ماذا هناك؟

أشار (مدحت) إلى القاع، قائلًا:

- هذه.. أليست هذه بعض بقع الدم؟

شعر الدكتور (علي) بالارتياح، عندما أشار (مدحت) إلى نقطة أخرى، تبعد عن جدار حوض السباحة المقابل، ثم لم يلبث ارتياحه هذا أن تحول إلى اهتمام شديد، وهو ينظر إلى البقع، التي يشير إليها (مدحت)، قبل أن يقول:

- أعتقد هذا.

ثم أسرع إلى السلم، وهبط إلى قاع حوض السباحة، وانحنى يفحص البقع في اهتمام بالغ، ولحق به (مدحت)، وهو يسأله:

- آهي بقع من الدم البشري؟

أجابه الدكتور (علي)، في صوت يحمل نبرة عجيبة، أدهشت (مدحت):

- كلًا.. إنها ليست دماء بشرية.

كان صوته يحمل من البهجة أكثر مما يحمل من الهدوء، فتطلع إليه (مدحت) في حيرة، ثم مد سبابته، يحاول لمس البقع، وهو

يقول:

- ما هي إذن؟

أمسك الدكتور (علي) يده بحركة سريعة عنيفة، جعلت (ملحت) يلتفت إليه في دهشة شديدة واستنكار غاضب، ولكن الدكتور (علي) أسرع يخرج منديله، ويرسم على شفتيه ابتسامة، وهو يقول:

- لا داعي لتلويث يدك.

ومسح بمنديله بقعة كاملة من تلك البقع، وهو يقول:

- انظر.. إنه بعض الطلاء.

تطلع (مدحت) إلى البقعة، التي لوثت منديل الدكتور (علي)، بلون أخضر فسفوري، ثم تلفت حوله في هدوء، وقال:

- عجبًا... لا يوجد حولنا شيء واحد، له هذا اللون، فمن أين أتى الطلاء؟

قال الدكتور (علي)، وهو يعيد المنديل إلى جيبه، ويطويه في حرص:

- ربما هو إهمال من عمال البناء.

قال (مدحت) في هدوء:

- ربما.

ثم أخرج من جيبه كيسًا صغيرًا من النايلون، وهو يستطرد:

- الطبيب الشرعي وحده يمكنه حسم هذ الأمر.

بدا التوتر على وجه الدكتور (علي)، عند ذكر الطبيب الشرعي، ولكنه كتم هذا في أعماقه، وقال وهو يراقب (مدحت)، الذي

استخدم مديته لكشط البقع، ووضعها في الكيس:

- بالطبع.

حمل (مدحت) عينة البقع، وغادر الحوض الفارغ مع الدكتور (علي)، وقال وهو يصافحه في هدوء:

- سنبذل قصارى جهدنا هذه المرة.. اطمئنا.

ولم يكد يغادر الفيلا، حتى هتفت (أحلام) في عصبية:

- لست أفهم أبدًا ما تفعله يا (علي).

أشار إليها بالصمت، وهو يقول:

- اصمتي يا حبيبتي.. إنني أحمي فرصة العمر.

هتفت في حدة:

- أية فرصة عمر هذه؟!

تألقت عيناه في لهفة، وهو يقول:

- الكشف.. الكشف الذي سيقفز بي إلى القمة.

امتلأت نفسها بدهشة عارمة، وهي تتطلع إليه، قبل أن تقول في جزع:

- ماذا أصابك يا (علي)؟!.. عن أي كشف تتحدث؟

برقت عيناه أكثر وأكثر، وهو يقول:

- سترين.

ثم اتجه إلى صندوق الإضاءة، وأضاء كل المصابيح، الموازية لقاع حوض السباحة، وأمسك يد (أحلام)، وقادها إلى حافة الحوض، ثم أشار إلى الجدار المقابل، قائلًا في انفعال شديد:

- ها هو ذا.

تطلعت إلى حيث يريد، ثم انعقد حاجباها في شدة، واتسعت عيناها عن آخرهما..

لقد رأته، لأول مرة..

رأت ذلك الشيء.

☆ ☆ ☆

غادر (مدحت) فيلا الدكتور (علي)، وهو أشد توترًا، مما كان وهو في طريقه إليها..

لقد لاحظ الكثير هذه المرة..

لاحظ أن الدكتور (علي) وزوجته يخفيان أمرًا ما..

أمرًا مريبًا..

وراح عقله يلقي عليه عشرات الأسئلة..

ما الذي يخفيانه؟!..

ما السر الذي سبب توتر علاقتهما، بعد ما لمسه من تقاربهما وحبهما بالأمس فقط؟!..

ولماذا حاول الدكتور (علي) منعه من لمس تلك البقع؟!..

لم يستطع إيجاد أجوبة شافية لتساؤلاته، وشعر بتوتر شديد في أعماقه، فقال لسائق سيارة الشرطة في حزم:

- اذهب بنا إلى منزل الدكتور (حسن).

قال السائق في دهشة:

- الطبيب الشرعي؟!

أجابه (مدحت) في حدة:

- نعم.. الطبيب الشرعي.. هل نعرف طبيبًا آخر، يُعرف باسم الدكتور (حسن)؟

أدرك السائق توتره، ولكنه قال في تردد:

- إنها الثانية والربع صباحًا يا سيادة النقيب، و..

قاطعه (مدحت) في حدة:

- أطع الأوامر أيها الجندي.

اعتدل السائق في حركة سريعة، وقال:

- كما تأمر يا سيدي.

حاول (مدحت) أن يسترخى مرة أخرى في مقعده، إلا أنه عجز عن هذا تمامًا، وراح يفرك كفيه في عصبية، ثم لم يلبث أن قال في توتر:

- إنهما يخفيان شيئًا.

قال السائق في حيرة:

- ماذا يا سيدي؟

أجابه (مدحت)، في خشونة لم يعتدها السائق منه قط:

- ليس هذا من شأنك.

لزم السائق الصمت تمامًا، حتى بلغ منزل الدكتور (حسن)، فقفز (مدحت) من السيارة، وصعد في درجات السلم عدوًا، حتى بلغ شقة الدكتور (حسن)، وضغط زر الجرس طويلًا، ثم وقف ينقل قدميه في توتر، حتى سمع صوت زوجة الطبيب الشرعي من الداخل، وهي تقول في خوف وقلق:

- من الطارق؟

أجابها بسرعة:

- اطمئني يا سيدتي.. أنا النقيب (مدحت).. أريد الدكتور (حسن) لأمر هام.

مضت لحظات من الصمت، ثم فتح الدكتور (حسن) الباب، وهو يرتدي معطفه المنزلي، وقال في حدة:

- (مدحت).. هل تعرف كم الساعة الآن؟!

أجابه (مدحت):

- نعم.. أعرف كم الساعة الآن، ولكن الأمر الذي أتيت من أجله عاجل وهام.

قال الدكتور (حسن) في عصبية:

- لا توجد قضية عاجلة إلى هذا الحد.

قال (مدحت)، وهو يميل نحوه قليلًا:

- إنها ليست قضية، ولكنه ذلك الكشف، الذي تتوقع أن يسجل اسمك في مراجع الطب الشرعي.. لقد عثرت على المادة العجيبة.

بدا الاهتمام على وجه الدكتور (حسن)، وهو يهتف:

- حقًا؟!

ثم تراجع بسرعة، ليفسح الطريق أمام (مدحت)، وهو يستطرد في لهفة:

- تفضل يا (مدحت).. تفضل حتى أرتدي ثيابي، ونذهب معًا إلى معملي.

ابتسم (مدحت) في ارتياح، واعتدل وهو يقول:

- ارتد ثيابك على مهل يا دكتور (حسن)، وسأنتظرك في سيارة الشرطة أمام البناية.

وعندما هبط في درجات السلم، كان يشعر أنه يقترب من الحقيقة إلى حد ما، وكان من الواضح أن الدكتور (حسن) أشد لهفة منه لمعرفة الحقيقة، فقد لحق به بعد دقائق معدودة، وجلس إلى جواره في سيارة الشرطة، التي انطلقت مباشرة إلى معامل الطب الشرعي، والدكتور (حسن) يسأله في لهفة:

- أين هي؟!.. أين تلك المادة؟!

التقط (مدحت) الكيس الصغير من جيبه في حرص، وهو يقول:

- ها هي ذي.

ولكنه لم يكد يخرج الكيس من جيبه، حتى اتسعت عيون الجميع في ذهول..

(مدحت)، والدكتور (حسن).. وحتى السائق..

لقد كانت الظاهرة التي أمامهم مذهلة..

مذهلة بحق.

☆ ☆ ☆

7- كل الغموض..

تراجعت (أحلام) في ذعر وفزع، وهي تحدق في ذلك الشيء، الذي التصق بجدار حوض السباحة، وراح ينبض في بطء، وقد بدا أشبه بقبة رأسية، لها انبعاج واضح، على الرغم من أنها تتخذ نفس لون وهيئة جدار الحوض..

وهتفت (أحلام) - ما هذا؟.. ما هذا الشيء؟

أجابها (علي) في انفعال، وهو يحتضنها في قوة:

- هذا الشيء هو مستقبلنا يا (أحلام).. الكشف الذي سيقفز باسمي إلى القمة.. الكائن الذي لم يتوصل إليه عالِم من قبل.

ارتجفت وهي تسأله:

- ومن أين أتى؟!

هز رأسه في بطء، قائلًا:

- لست أدري.. ولكنه معجزة في عالم الأحياء البيولوجية.. إنه كما ترين، كائن حي، يمتلك قدرة مدهشة، على التشكل في هيئة أي جسم يلتصق به، ويمكنه أن يطلق طاقة هائلة عند اللزوم، تكفي لإضاءة أنوار الفيلا كلها، دون تيار كهربي، عندما ينفعل، أو يتناول طعامه.

انتفض جسمها في هلع، وحدقت في ذلك الشيء في ذعر، وهي تقول:

- إذن فهذا هو..

ارتجفت الكلمات على شفتيها، فعجزت عن إتمام عبارتها، في حين هتف هو في حماس:

- هذا هو فألنا الحسن.. نجاحنا يا (أحلام).

هتفت مستنكرة:

- نجاحنا؟!

ثم دفعته عنها، مستطردة في حدة وعصبية:

- أي نجاح وأي فأل حسن يا (علي).. هذا الشيء قاتل.. قاتل وآكل للحوم البشر، ولابد من تدميره.

أجابها محاولًا تهدئتها:

- وكذلك الأسود والنمور والتماسيح يا حبيبتي.. كلها قاتلة، وآكلة للحوم البشر.. ولكن أحدًا لم يطالب بإعدامها وتدميرها.. إنه مجرد كائن جديد يا (أحلام).. كائن أتي من مكان مجهول.. ربما من الفضاء، أو من عماق الأرض، ولكنه كائن جديد، وفرصة نادرة لدراسته ومراقبته، ثم إعلان وجوده، وتحقيق ذروة النجاح، وقمة الشهرة.. إنه أول كائن حي، لا ينتمي إلى أية فصيلة معروفة يا (أحلام).. ألا تدركين عظمة هذا الكشف؟

بكت وهي تقول:

- كل ما أدركه هو أن هذا الشيء التهم شابًا بريئًا بلا ذنب جناه.

احتواها بين ذراعيه، وهو يقول:

- هذا الشاب كان يمكن أن يلقي مصرعه بأية وسيلة أخرى.. بحادث سيارة مثلًا.. وهذه ليست مسئوليتنا.. إننا لم نكن نملك إنقاذه أو حمايته.. وكل ما لدينا الآن هو أن نجيد استغلال الفرصة، وتحقق كسبًا ضخمًا من هذا الكشف العظيم.

استكانت بين ذراعيه، وراحت تبكي في مرارة، وهو يربت عليها، مغمغمًا:

- هذا أفضل ما نفعله يا حبيبتي.. سندفع تعويضًا كبيرًا لأسرة الشاب، وسنحتفظ بسرنا هذا لشهر واحد.. شهر أراقبه خلاله ليلًا ونهارًا، وأكتب تقريرًا وافيًا عن خصاله، وتكوينه الظاهري، وأسلوب تعايشه مع البيئة، ثم أقدمه للعالم كله، وأحقق الشهرة، التي أحلم بها منذ زمن طويل.. أعدك بأن كل شيء سيسير على ما يرام يا (أحلام).. صدقيني.. إنها فرصة عمرنا.

ذابت دموعها مع كلماتها، وهي تقول:

- ولكن هذا الشيء خطير للغاية يا (علي).

ربت على شعرها، وهو يقول:

- خطير عندما نجهل وجوده يا حبيبتي.. أما عندما نعرفه، فسنراقبه، ونحكم تصرفاته وأسلوبه.

رفعت عينيها الدامعتين إليه، وقالت:

- وكيف ستطعمه؟!

عقد حاجبيه في شدة، وانتبه إلى أنه لم يفكر في هذه النقطة قط، إلا أنه لم يلبث أن أجاب في حزم:

- إنه يتناول اللحم النيئ.. ومن السهل أن نبتاع له كمية منه يوميًا.

ثم أراح رأسها على كتفه مرة أخرى، وبرقت عيناه في ظفر، وهو يتطلع إلى ذلك الشيء، الذي واصل نبضاته في هدوء، وكرر:

- صدقيني يا (أحلام).. سيسير كل شيء على ما يرام.. على خير ما يرام.

☆ ☆ ☆

لم يكد (مدحت) يخرج الكيس الصغير من جيبه، حتى تفجر الذهول في عيون الجميع، أمام ظاهرة عجيبة مدهشة..

لقد تألقت تلك المادة داخل الكيس، وأضاءت كمصباح أخضر قوي، فأطلق الدكتور (حسن) شهقة قوية، في حين ألقى (مدحت) الكيس جانبه بحركة غريزية، وضغط السائق فرامل السيارة بكل قوته، وهو يهتف:

-لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.

توقفت السيارة على نحو مباغت، فاندفع (مدحت) والدكتور (حسن) إلى الأمام في عنف، وسقط الكيس بالمادة أرضًا، فهتف الدكتور (حسن) في جزع:

- احترس يا رجل.

ارتجف صوت السائق، وهو يقول في ارتباك:

- معذرة يا دكتور (حسن).. لم أكن أقصد هذا، ولكن..

قاطعه (مدحت):

- لا بأس.. لا بأس.. نحن نفهم موقفك.. هيا.. أكمل طريقك إلى معمل الطب الشرعي.

عاد السائق يقود السيارة في توتر، وهو يختلس النظر إلى المرآة الداخلية، بين لحظة وأخرى، في حين التقط الدكتور (حسن) الكيس في حذر، وهو يقول مبهورًا:

- يا لها من مادة؟.. كيف تتألق على هذا النحو؟

هز (مدحت) رأسه، وقال في مزيج من الدهشة والحيرة:

- لست أدري.. إنها لم تكن تتألق، عندما كشطتها من أرضية حوض السباحة.

ردد الدكتور (حسن):

- كشطتها؟!.. أراهن أنه توجد قصة رهيبة، وراء هذه المادة.

قالها (مدحت)، وهو يتطلع إلى المادة:

- بالطبع.

ثم راح يروي القصة كلها للطبيب الشرعي، الذي استمع إليه في قال (مدحت) في اهتمام بالغ، والانفعال يتبدل على ملامحه في سرعة، حتى انتهى (مدحت) من روايته، فقال الدكتور (حسن) في حماس:

- رباه!.. وكأنني أستمع إلى رواية من روايات الخيال العلمي.

عقد (مدحت) حاجبيه، ومط شفتيه، وهو يقول:

- لا داعي لهذا السخف يا دكتور (حسن).. إنني لم أشعر يومًا بأدنى اهتمام، أمام تلك النوعية من الروايات الهزلية، التي تعتمد على المبالغات، التي يكسونها بثوب علمي سخيف.

ابتسم الدكتور (حسن)، وقال:

-أنت حر في رأيك يا (مدحت)، ولكنني على عكسك.. أميل كثيرًا إلى روايات الخيال العلمي، وأعتبرها أهم خطوة، في طريق التنبؤ العلمي، ومستقبل البشر.

بدت ابتسامة ساخرة على شفتي (مدحت)، لم تلبث أن تلاشت في سرعة، وهو يقول في جدية:

- حسن.. كل منا حر في رأيه، ولكننا الآن لسنا أمام رواية من روايات الخيال العلمي، بل أمام حقيقة واقعة، تبحث عن تفسير علمي ومنطقي.

ابتسم الدكتور (حسن)، وتطلع إلى الكيس في يده، وهو يقول:

- كثيرًا ما يكون التفسير العلمي أشبه بالخيال.

قال (مدحت) في اهتمام:

-المهم أن يكون تفسيرًا صحيحًا.

اعتدل الدكتور (حسن) فجأة، وبدا شديد الاهتمام بالكيس الصغير، فسأله (مدحت) في قلق:

- ماذا هناك؟

أجابه الدكتور (حسن):

- البريق الأخضر يخف تدريجيًا، ولست أدري لماذا؟

قبل أن يجيبه (مدحت) بأي تعليق، توقفت السيارة، وقال السائق في صوت مضطرب..

- لقد وصلنا.

أبدل (مدحت) العبارة في أعماقه، وقال:

- شكرًا لك.. هيا بنا يا دكتور (حسن).. سنكمل حديثنا في الداخل، ونحن نفحص هذه المادة العجيبة.

غادرا السيارة والسائق يتابعهما في قلق، ويزدرد لعابه في صعوبة، ثم لم يلبث أن تنهد في ارتياح، عندما أغلقا الباب خلفهما، وهو يبسمل ويحوقل في أعماقه، ويشكر الله (سبحانه وتعالي)، على نجاته من ذلك الشيطان المتألق داخل الكيس الصغير..

أما الدكتور (حسن)، فلم يكد يدلف إلى معمله، حتى هرع إلى مجهره، وفتح الكيس الصغير في عناية، وهو يقول:

- لقد فقدت تألقها تمامًا.

سأله (مدحت) في قلق:

- المهم هل يمكن فحصها؟

أجابه وهو يلتقط بعض المادة بقضيب زجاجي رفيع، ويفردها فوق شريحة من شرائح المجهر بعناية:

- بالتأكيد.. أي شيء يمكن فحصه.

أضاف إلى الشريحة قطرتين من محلول ملحي خفيف، ثم وضعها تحت عدسة المجهر، وهو يستطرد في لهفة:

- ما الذي تتوقعه من تلك المادة؟

هز (مدحت) كتفيه، وقال:

- إنها ليست مجرد طلاء، على أية حال.

الصق الدكتور (حسن) عينه بالعدسة في اهتمام، وراح يراقب تلك المادة، ثم لم يلبث أن هتف في انفعال جارف:

- مستحيل!

قفز (مدحت) من مقعده، يسأله في توتر ولهفة:

- هل وجدت شيئًا؟

رفع الدكتور (حسن) عينيه إليه، وبدا شديد الانفعال، وهو يقول:

- بل وجدت قنبلة.. قنبلة علمية على كل المستويات.

واختلج قلب (مدحت) بين ضلوعه..

اختلج في عنف..

☆ ☆ ☆

«مستحيل!...».

هتفت (أحلام) بالكلمة في ذهول، وهي تلصق عينيها بعدسة مجهر زوجها، وتتطلع إلى تلك المادة العجيبة، فقال (علي) في حماس، والفرحة تتقافز مع كلماته ونظراته:

- ألم أقل لك إنه أكبر كشوف العصر؟!.. إنني لم أكن أحلم بهذا.. لقد تصورت في البداية أنها مجرد فضلات، أو نواتج إخراج طبيعية من ذلك الكائن، ولكنها كانت أعظم بكثير.. إنها مادة حيوية، تموج بالحركة والنشاط.. نهر من الخلايا الحية، لم أر مثله من قبل.

رفعت (أحلام) عينيها عن المجهر، وهي تقول مبهورة:

- إنها سائل الحياة، بالنسبة لذلك الشيء.. الدم الذي يجري في عروقه.. لو كانت له عروق.

قفز (علي) إلى المجهر، وهو يقول:

- بل هي أكثر من هذا بكثير.. إنها تحوي خمسة أشكال مختلفة من الخلايا على الأقل، ومن المحتم أن لكل منها وظيفة خاصة، تختلف عن وظائف الخلايا الأخرى.. هل لاحظت هذه الخلايا الكروية.. إنها -على الأرجح- بديل كرات الدم الحمراء لدينا، ولكنها خضراء اللون.. أما تلك الكتل المكعبة، فحركتها تشير إلى أنها أجهزة الدفاع للجسم، تمامًا مثل كرات الدم البيضاء لدينا..

أما الأشكال العصوية، والمفلطحة، وغير المنتظمة، فلست أدري وظيفتها بالضبط.

ثم رفع عينه، مستطردًا في حماس:

- ولكننا سنتوصل إلى هذا، بالبحث والدراسة.

وفرك كفيه في سعادة، وهو يضيف:

- ستكون قنبلة يا (أحلام).. قنبلة علمية.

راقبته في قلق، وتراجعت لتجلس على مقعد قريب، وهي تقول:

-(علي).. إنني أشعر بالقلق.. بل بالذعر.

توقف، والتفت إليها، قائلًا في قلق حقيقي:

- لماذا يا حبيبتي؟

أجابته بصوت أقرب إلى البكاء:

- أشعر وكأننا نرتكب جريمة.

هتف في استنكار:

- جريمة؟!.. أي قول هذا يا (أحلام)؟!.. إننا علماء، ولسنا رجال عصابات.

ترقرقت الدموع في عينيها، وهي تقول:

- ولكننا نخفي جريمة.

اقترب منها، ووضع يده على كتفها في حنان، وهو يقول:

- جريمة؟!.. يا له من مصطلح مخيف!... ما حدث ليس جريمة يا حبيبتي، ولا يمكن أبدًا تسميته بهذه الصفة.. سلي أي محام

كبير، وسيؤكد لك أن ما حدث هو مجرد حادث عادي.. إلا لو وجهنا إلى النمر تهمة القتل العمد، إذا ما التهم بشريًا.

بكت بالفعل، وهي تقول:

- ولكن هذا الشيء، الذي نحتفظ به في حوض السباحة، ليس نمرًا.. إنه وحش مفترس.. أنت نفسك وصفته بهذا، عندما رأيته في الأعماق، وكدت تغرق بسببه.

انعقد حاجباه فجأة، وهو يقول:

- هذا صحيح.. كيف لم أنتبه إلى ذلك الأمر.

سألته في دهشة:

- أي أمر؟!

بدا شديد الحماس والانفعال، وهو يقول:

- لقد كان بإمكان ذلك الكائن أن يلتهمني في الأعماق.. بل ويلتهمنا معًا.. فلماذا لم يفعل؟

أحنقها خروجه عن الموضوع بهذه الطريقة، فقالت في عصبية:

- (علي).. ماذا دهاك؟!.. إننا نتحدث عن خطورة هذا الشيء.

رفع سبابته أمام وجهه، وهو يقول:

- وأنا لم أبتعد كثيرًا عن هذه النقطة يا عزيزتي.. لقد هاجم ذلك الكائن الحارس، والتهمه، على الرغم من صراخه، ومن إطلاقه النار عليه، كما التهم وبلا رحمة لصًا حاول سرقة الفيلا، وأثار رعب زميله بشدة، ودون أن يبالي بالفريسة وموقفها في الحالتين، فلماذا لم يهاجمني أنا أو يلتهمني، على الرغم من أنني كنت قيد متر واحد منه؟!

وجدت نفسها تبحث النقطة ذاتها، ثم تقول في حيرة:

- ربما لأنني كنت هناك.

قال في اهتمام:

- اللص أيضًا كان له زميل.

أجابت في سرعة:

- ولكن هذا الزميل لم يسقط في الماء، ولم يره ذلك الشيء.

هتف (علي) في حماس:

- بالضبط!..

ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه، مستطردًا:

- ولكن لا.. هذا لا يبدو منطقيًا تمامًا.. لماذا خاف في البداية؟.. هناك تفسير آخر حتما!

قالت في اهتمام، أنساها خوفها وتوترها:

- أنت قلتها.. خاف في البداية.. إنه لم يكن يدرك قوة خصومه وطبيعتهم بعد؛ لذا فقد تراجع لدى رؤيتي، ولكنه انتبه بعدها إلى أننا أضعف مما كان يتصور كثيرًا.. وربما أدرك هذا من خلال ما أصابك داخل الحوض.. عندما فقدت وعيك..

صفق (علي) بكفيه في جذل، وهتف:

- بالضبط.. هذا صحيح مائة في المائة.. أنت عبقرية يا حبيبتي.

وانحنى يطبع قبلة على وجنتها، ثم استطرد في حماس:

- هيا.. هيا لنلقي نظرة على كائننا الجديد. الذي سيمنحنا الشهرة والنجاح.

اضطربت وهو يدعوها إلى هذا، إلا أنها لم تشأ إفساد فرحته وسعادته، فتحاملت على نفسها، ونهضت تصحبه إلى هناك، ولكنها لم تكد تتجاوز الباب الزجاجي الكبير لحجرة المعيشة، حتى تثاقلت قدماها، وعجزت عن المضي، فجذبها (علي) في رفق، وهو يقول بابتسامة مشجعة:

- ليس هناك ما يخيف.. صدقيني.. لقد زال الخطر؛ لأننا ندرك طبيعة ما نواجهه.. صدقيني يا حبيبتي.

شجعتها كلماته بعض الشيء، ولكنها بذلت جهدًا شديدًا لتتبعه وراح قلبها يخفق في قوة، كلما اقتربا من حوض السباحة، ثم لم تلبث أن توقفت، وقالت في توتر:

- لا.. لست أستطيع.

أحاطها (علي) بذراعيه في حنان، وهو يقول:

- لا تسمحي للأمر بأن يتحول إلى عقدة نفسية.. هيا.. قاومي هذا الخوف المبهم في أعماقك، وواجهي مخاوفك، كما يقول العلم، وستجدين أنها لا تعني أكثر من وهم كبير.

استخدمت كل إرادتها، ودفعت قدميها إلى الأمام دفعًا، حتى بلغا حافة الحوض، فعقد الدكتور (علي) حاجبيه، وهو يقول، وقد انتقل توترها إليه:

- أين ذهب ذلك الكائن؟

انتفض جسدها في هلع، وهي تقول:

- هل.. هل غادر الحوض؟

التصقت به في رعب، وأخذ هو يتلفت حوله في توتر، ثم هتف فجأة:

-ها هو ذا.

وثبت من مكانها مذعورة، عندما أضاف:

- إنه أسفلنا تمامًا.

نظرت تحت قدميها في هلع، فضحك (علي) في عصبية، وقال:

- ليس هذا ما أقصده.. إنه ملتصق بالجدار أسفلنا فحسب.

انتقل معها إلى الجانب الآخر من الحوض، وتطلعا معًا إلى ذلك الشيء، الذي التصق بجدار حوض السباحة، الملاصق للقاع، وبدا أشبه بقبة كبيرة، فغمغمت (أحلام) في خوف واضح:

- يبدو أنه سيتسلق الجدار.

هز (علي) رأسه نفيًا، وقال:

- لا أعتقد هذا.. إنه ينتقل من مكان إلى آخر فحسب.

سألته:

- ولماذا يبدو منتفخًا واضحًا هذه المرة؟

قال في حيرة:

- لست أدري.. إنه لم يتخل عن حذره بالتأكيد.. ربما وصلنا نحن في لحظة ذات معنى خاص، أو...

قبل أن يتم عبارته، انتفض الكائن في قوة، فصرخت (أحلام):

- ما هذا؟.. هل سيهاجمنا؟

أجابها (علي) في انفعال:

- كلًا.. ولكن حدسي صدق.. لقد وصلنا في لحظة خاصة.

اتسعت عيناها، وهي تراقب ذلك الشيء في ذعر، وهو ينتفض مرة ثانية، وثالثة، ورابعة..

ثم فجأة، توقف تمامًا، و..

ومع الخطوة التالية، أفرغت (أحلام) كل انفعالاتها في صرخة..

صرخة هائلة..

لقد كان ما حدث بشعًا.

بشعًا للغاية.

☆ ☆ ☆

8- مرحلة النضج..

فرك الدكتور (حسن) عينيه، في الخامسة والنصف صباحًا، وتثاءب في قوة، ثم سأل (مدحت):

- هل تشعر بالإرهاق؟

أجابه (مدحت):

- للغاية.. ولكنني أنتظر نتائج تحليل تلك المادة بفارغ الصبر.

أومأ الدكتور (حسن) برأسه متفهمًا، وقال:

- لن تفوقني لهفة واهتمامًا.

فرك عينيه مرة أخرى، ثم نهض قائلًا:

- ما رأيك في قدح من الشاي؟

ترك (مدحت) جفنيه يتهاويان، وهو يتمتم:

- فكرة رائعة، ولكنني لست أرى وعاء الشاي هنا.

ابتسم الدكتور (حسن)، وهو يقول:

- سنبتكر واحدًا.

التقط قارورة كبيرة، وملأها بالماء، ثم وضعها فوق موقد المعمل، ولمحه (مدحت)، من بين جفنيه نصف المغلقين، فابتسم مغمغمًا:

- فكرة طريفة.. ولكن أأنت واثق من أنه معقم؟

ضحك الدكتور (حسن)، وقال:

- لا يمكنني الجزم بهذا.

هز (مدحت) كتفيه، وعاد يسبل جفنيه، قائلًا:

- المهم أن نتناول الشاي، حتى ولو أخذت ماءه من مستنقع.

عاد الدكتور (حسن) يجلس خلف مجهرة، وهو يقول:

- إنه أنظف من المستنقع بالتأكيد.

ألصق عينيه بعدسة المجهر العينية، وراح يتابع حركة الخلايا النشطة، في عينة المادة، ويُسجل ملاحظاته، في حين أسلم (مدحت) نفسه لنسائم النوم، التي داعبته في رفق..

وفجأة، انتبه الدكتور (حسن) إلى ذلك البريق الأخضر، الذي بدأ يعود إلى عينة المادة، داخل الكيس الصغير، فرفع عينية من المجهر، وهتف:

- انظر يا (مدحت).

هب (مدحت) من مقعده كالملدوغ، وحدق في المادة في دهشة، قبل أن يهتف في مزيج من اللهفة والتوتر:

- هل فعلتها مرة ثانية؟

صاح الدكتور (حسن):

- فهمت.. لقد أشعلت الموقد إلى جوارها.. إنها الحرارة، التي تدفعها إلى التألق هكذا.. نفس ما حدث، عندما وضعتها في جيبك، واكتسبت حرارة جسدك، التي تزايدت مع توترك وقلقك؛ بفضل الديناميكية الفائقة للدم، في مثل هذه الظروف.

راحا يراقبان المادة، التي تزداد تألقًا في كل لحظة، ثم قال الدكتور (حسن) مبهورًا:

- هل يتزايد حجمها بالفعل، أم أنني واهم؟

قال (مدحت) في انفعال:

- بل يتزايد حجمها، وبسرعة كبيرة.. انظر إلى الكيس.. إنه يكاد يتمزق مع تضخمها المستمر.

التقط الدكتور (حسن) قلمه في سرعة، وراح يكتب في أوراقه، وهو يردد ما يكتبه في صوت مسموعة:

- للحرارة تأثير إيجابي واضح، على عينة المادة.. إنها تجعلها تتألق، وتدفعها إلى النمو على نحو عجيب، وربما...

قاطعه صوت تمزق الكيس، فأدار عينيه إليه في دهشة، ثم اتسعت عيناه في شدة، وهو يهتف بأنفاس مبهورة:

- رباه!.. يا للبشاعة!

تراجع (مدحت) أيضًا في دهشة وخوف، أمام ما حدث، فقد تضاعفت سرعة نمو المادة مرات ومرات، وراح حجمها يتضخم بسرعة مذهلة.

كانت تتحول إلى نسخة طبق الأصل من الشيء الذي أتت منه..

وصاح الدكتور (حسن):

- هذا مستحيل!.. مستحيل!

أما (مدحت)، فقد وثب نحو الموقد، ليغلقه بحركة سريعة، ولكن ذلك الشيء استدار نحوه بحركة حادة، ثم برز منه جزء أشبه بذراع، لطمت (مدحت) بكل قوتها، وألقته بعيدًا، وسط أنابيب الاختبار التي تحطمت بدوي كبير، وامتزجت محتوياتها أرضًا، وتصاعدت منها أدخنة كثيفة، فهتف الدكتور (حسن):

- اهرب يا (مدحت).. غادر المكان قبل أن تشتعل تلك المواد.

ولكن (مدحت) اندفع مرة أخرى متفاديًا ذلك الشيء، وحاول إغلاق الموقد للمرة الثانية إلا أنه تلقى لطمة أشد قوة، ألقته وسط مزيج من السوائل، فشعر بآلام في ظهرة وتصاعدت إلى أنفه رائحة نفاذة قوية، جعلته يسعل في شدة..

ومع سعاله، أغمض عينيه..

ثم فتحهما..

واتسعت العينان عن آخرهما..

لقد كان ذلك الشيء يهاجمه...

وبكل شراسة..

☆ ☆ ☆

انتفضت (أحلام) في فراشها، وانهمرت الدموع من عينيها غزيرة، على الرغم من محاولتها المستميتة للنوم، والتي باءت بالفشل التام، حتى أنها نهضت جالسة، على طرف الفراش، وهي تلهث في شدة، من فرط التوتر والانفعال.

لم يمكنها أبدًا أن تنسى ذلك المشهد، الذي رأته في حوض السباحة..

مشهد ذلك الشيء، وهو يلفظ ما تبقى من طعامه..

الهيكل العظمي للحارس المسكين..

كان مشهدًا بشعًا بحق.

الجمجمة والعظام وثبت من داخله، وارتطمت بالقاع، وتدحرجت فوقه، وهي تمتزج ببعضها البعض، وتتخبط في الجدار..

وراحت هي تصرخ وتصرخ، حتى وضع (علي) يده على فمها، ورجاها أن تسكت..

وعندئذ انهارت..

انهارت تمامًا..

لقد ظلت تبكي وتنتحب، حتى حملها (علي) إلى فراشها، وأرقدها فوقه في حنان، ورقد إلى جوارها، يمسح شعرها في رفق..

وعندما هدأت دموعها، تصور أنها استغرقت في النوم، فنهض في حذر، وأسدل الغطاء على جسدها الرقيق، ثم غادر الحجرة على أطراف أصابعه..

ولم تدر لماذا لم تطلب منه البقاء!

ربما لأنها كانت تحتاج إلى بعض الوقت مع نفسها..

ربما..

نهضت من فراشها، واتجهت إلى النافذة، لتستنشق بعض الهواء النقي، ولكنها لم تكد تفتح مصراعي النافذة، حتى أنتابها خوف عجيب، وراحت تبحث بعينيها عن (علي) في لهفة، قبل أن تغمغم في توتر بالغ:

- لا.. ليس (علي)..

ارتدت معطفها المنزلي، وانطلقت تعدو خارج الفيلا، نحو حوض السباحة، وقد هزمت لهفتها على زوجها خوفها من تلك الشي الرهيب..

ثم توقفت بغتة..

توقفت، وسرت في جسدها قشعريرة قوية، عندما وقع بصرها على (علي)..

كان واقفًا في الحديقة، خلف الأشجار القصيرة، وبيده جاروف كبير.

وفي خطوات متعثرة متوترة، اتجهت إليه، وتفادت المرور إلى جوار الحوض، حتى بلغته، فالتفت إليها في توتر، وحاول أن يعدل منظاره الطبي، إلا أن يديه كانتا متسختين، فاكتفى بدفعه بطرف سبابته في حذر، و(أحلام) تسأله:

- ماذا تفعل هنا؟

ألقى الجاروف خلف ظهره، وحاول أن يبتسم، وهو يقول:

- أهلا يا (أحلام).. هل حظيت ببعض النوم؟

سألته مرة أخرى، في لهجة حملت الكثير من الحزم هذه المرة:

- ماذا تفعل يا (علي)؟

اضطرب وهو يغمغم:

- كان من الضروري أن أتخلص من هذه الأشياء.

سألته من جزع:

- أية أشياء؟

ازدرد لعابه في توتر، وقال:

-أعني العظام.. بقايا العظام.

اتسعت عيناها في ذعر، وهتفت:

- هل دفنت العظام؟!.. هل دفنت بقايا الحارس المسكين؟

قال في ارتباك:

- لم يكن من الممكن أبدًا أن أترك تلك العظام هناك.. كانت ستثير التساؤلات والقلق، لو جاء ذلك الضابط، أو...

صرخت بكل عصبيتها:

- أهذا كل ما يقلقك؟.. أن يفسد الضابط عملك.

ارتبك أكثر، وكاد منظاره يسقط عن أنفه، وهو يقول:

- بالطبع يا (أحلام).. ألم نناقش هذا الأمر من قبل؟

توترت أعصابها، وارتبكت، ولم تعد تدري ماذا تفعل، أو كيف تفكر، فانفجرت باكية بغتة، وصاحت في لهجة أقرب إلى الانهيار:

- ألن ينتهي هذا الأمر؟!.. ألن ينتهي أبدًا؟!

تطلع إليها في إشفاق وحنان، ثم اتجه إليها في خطوات مترددة، واحتواها بين ذراعيه، وهو يبذل قصارى جهده، حتى لا يلوث معطفها المنزلي بكفيه، وقال في حنان واضح:

- من الواضح أنك لا تحتملين الموقف.

بكت على صدره، وهي تقول:

- لم أستطع يا (علي).. صدقني.. لقد حاولت، ولكن الأمر يفوق احتمالي.

تمتم مشفقًا:

-أنا أقدر هذا.

كان حنونًا متفهمًا، حتى أنها شعرت بالارتياح، وهي تسند رأسها على صدره، فقالت في لهفة أقرب إلى التوسل والضراعة:

- تخل عن هذا الأمر يا (علي).. دعنا نعد إلى (الإسكندرية)، وننسى كل شيء.

كانت تتوقع منه تجاوبًا، إلا أنها فوجئت به يقول في حزم:

- مستحيل!

أبعدت رأسها عن صدره في حدة، وهتفت:

- لماذا يا (علي)؟!.. انني أكاد أموت رعبًا وقلقًا هنا.

قال في توسل، وهو يمسك ذراعيها مرة أخرى:

- أرجوك يا (أحلام).. أرجوك.. إنها فرصة نادرة، لا يمكن تعويضها.. فرصة فريدة ووحيدة، لتحقيق حلم حياتي كلها.. أريد أن أتشبث بها، لأنه من المستحيل الحصول على مثلها مرة أخرى.. إننا لم نفعل شيئًا، ولم ترتكب أي جرم.. لقد خاطرت بالهبوط إلى الحوض، وجمع تلك العظام، لأنني أؤمن بأنه من الضروري أن تدفن بقايا الفتى المسكين.. إننا لم نقتله.. لم نكن ندرك حتى أن هذا سيحدث له.. وسنبذل قصارى جهدنا، لمنع حدوث هذا مرة أخرى، لأي كائن كان.. أرجوك يا (أحلام).. اتوسل إليك.. لقد بذلت كل ما بوسعي لتحقيق حلمك، فلا تتخلي عن حلمي.. أرجوك.

ارتجفت شفتاها، وهي تستمع إليه، وانهمرت الدموع من عينيها غزيرة، وعادت تلقي رأسها على صدره، وهي تقول:

- لا يمكنني الوقوف ضد حلم حياتك يا (علي)، ولكن صدقني.. لم يعد باستطاعتي الاحتمال.. لقد حاولت، وفشلت.. أقسم لك.

أومأ برأسه متفهمًا، وقال:

- أعلم هذا يا حبيبتي.. الموقف يفوق احتمالك بالفعل.. ولكنني وجدت الحل.

رفعت رأسها عن صدره، وهتفت:

- حقًا يا (علي)؟

طبع قبلة على جبينها، وهو يتمتم في إخلاص:

- حقًا يا حبيبتي.

ثم عاد يضمها إلى صدره، مستطردًا في حزم:

- ستعودين إلى (الإسكندرية).

انتفضت بين ذراعيه، وهتفت:

- مستحيل!!.. مستحيل يا (علي)! لن أتركك وحدك هنا.

قال وهو يعيدها إليه في حنان.

- هذا هو الحل الوحيد يا حبيبتي.

وبطرف عينه، ألقي نظرة على حوض السباحة، ثم ضمها إليه في شدة، وأضاف هامسًا في أذنها مباشرة:

- صدقيني.. إنه الحل الوحيد.

☆ ☆ ☆

لم يشعر النقيب (مدحت)، في حياته كلها، بالرعب والذهول، مثلما شعر بهما في هذه اللحظة، وذلك الشيء الهلامي البشع ينقض عليه، وسط سحابة كثيفة من الدخان، ولكنه وثب من مكانه بغتة، وتفادي تلك الانقضاضة، وابتعد إلى ركن الحجرة الآخر، والدكتور (حسن) يهتف به:

- الموقد.. الموقد يا (مدحت).

وفي نفس اللحظة فتح سائق سيارة الشرطة باب المعمل، وهو يهتف:

- ماذا حدث؟.. لقد سمعت جلبة في...

قبل أن يتم عبارته، اتسعت عيناه في رعب هائل، وهو يحدق في ذلك الشيء، الذي اتخذ شكل سحب الدخان، واستدار إليه..

ولكن الدكتور (حسن) وثب إلى الأمام، ودفع الجندي جانبًا، ثم ضرب الموقد الصغير بيده في قوة..

وارتطم الموقد بذلك الشيء..

واندلعت النيران..

لقد اشتعل ذلك الشيء القادم من الفضاء، كما لو كان قطعة من القطن، مبللة بوقود طائرات سريع الاشتعال..

والتصق (مدحت) بالجدار في رعب، وأسرع السائق يعدو هاربًا، وهو يطلق صرخات رعب عجيبة، في حين وقف الدكتور (حسن) بباب المعمل متوترًا، ساخطًا، وهو يرى ذلك الشيء يحترق أمامه..

أما الكائن الهلامي نفسه، فقد انتفض مرات ومرات، مع وهج النيران، ثم سقط وسط المعمل والأدوات المحطمة، وراح جسده ينكمش بسرعة، وتنكمش معه النيران المشتعلة، حتى صار أشبه بقطعة من الجمر.

وامتلأ المعمل بدخان كثيف، جعل (مدحت) والدكتور (حسن) يسعلان في شدة، وعلى الرغم من هذا اختطف (مدحت) وعاء من الألياف الزجاجية، وألقاه فوق ما تبقى من ذلك الشيء، ثم انتزع اسطوانة الإطفاء، وراح يغمر بها قطع المعمل، التي امتدت

إليها النيران، حتى أطفأها تمامًا، وألقى الاسطوانة جانبًا، ثم جذب الدكتور (حسن) من يده إلى الخارج، والتصق الاثنان بالجدار يلهثان، و(مدحت) يقول في اضطراب كامل:

- وأنا الذي كنت أفكر في إطفاء الموقد.

تمتم الدكتور (حسن) في مرارة:

- أما أنا، ففقدت فرصة العمر.

تطلع إليه (مدحت) في دهشة، وقال:

- أأنت نادم؟

تنهد الدكتور (حسن)، وقلب كفيه، قائلًا:

- ماذا تريد مني أن أقول؟

اعتدل (مدحت)، وقال:

- لست أريد أن تقول شيئًا.. كل ما أريده منك هو أن تضع ما تبقى من ذلك الشيء في وعاء محكم للغاية، ثم تحتفظ به داخل مبرد، أو في خزانة محكمة.

لوح الدكتور (حسن) بيده، وهو يقول:

- هذا الشيء غير أرضي.. إنه كائن لا شبيه له، في كل الفصائل والرتب المعروفة.. خذها كلمة مني.

زفر (مدحت)، وقال:

- لست بحاجة إلى كلمة منك.. لقد رأيت كل شيء بنفسي، ولولا ذلك ما صدقت حرفًا واحدًا منه.

ثم اعتدل، واستطرد وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- إذن فشيء شبيه بهذا كان في حوض السباحة، وهو الذي التهم الحارس المسكين، وكذلك الـ..

بتر عبارته بغتة، وانعقد حاجباه في شدة، فسأله الدكتور (حسن) في لهفة:

- ماذا هناك؟.. ألديك فكرة ما؟

وبدلًا من أن يجيب (مدحت) سؤاله، التفت إليه يسأله في اهتمام:

- قل لي يا دكتور (حسن): هل تعتقد أن هذا الشيء، الذي هاجمنا الآن، هو نفسه الذي يحتل حوض سباحة الدكتور (علي)؟

هز الدكتور (حسن) رأسه نفيًا، وقال:

- كلًا بالتأكيد.. تلك المادة ليست سوى جزء من الشيء الأصلي، الذي ما يزال هناك.

هتف (مدحت) في انفعال:

- هذا ما توقعته.

ثم انطلق يعدو خارجًا، فهتف به الدكتور (حسن):

- إلى أين؟ ولكن (مدحت) لم يجب..

إنه حتى لم يسمع سؤال الدكتور (حسن)..

لقد كانت هناك مهمة أخرى تشغله..

مهمة بالغة الخطورة.

إنه حتى لم يهتم، عندما لم يجد سائق سيارة الشرطة، وإنما قفز إلى السيارة، وأدار محركها، وانطلق بها، في وجه الشمس، التي

بدأت تشرق في بطء، وتمنح الشفق ذلك المزيج الرائع المبهر من ألوان الشروق..

ولم تمض دقائق عشر، حتى كان داخل قسم الشرطة، يسأل الضابط النوبتجي في انفعال:

- مَنْ مِنَ اللصوص هنا يعمل مع زميل، ويبلغ السابعة والثلاثين أو التاسعة والثلاثين تقريبًا؟

سأله الضابط في دهشة:

- لماذا؟.. هل تعرض أحد معارفك لحادث سطو بالإكراه؟

أجابه (مدحت):

- بل أريد اسم أحد (الهجامة)، الذين يسطون على المنازل والفيلات.

عقد الضابط حاجبيه مفكرًا، وهو يقول:

- هجام يعمل مع زميل، وفي أواخر الثلاثينات.. دعني أفكر.. نعم.. هناك (رجب).. إنه في الثامنة والثلاثين، ولقد اعتاد العمل مع زوج شقيقته (فهيم).. ولكن (فهيم) هذا في الثالثة والأربعين.

سأله (مدحت) في لهفة:

- وما عنوان (فهيم)؟

بدت الحيرة على وجه الضابط، وهو يقول:

- (فهيم) أم (رجب)؟

صاح (مدحت) في عصبية:

- بل (فهيم).. أريد عنوان (فهيم).

لم يرق أسلوبه للضابط النوبتجي، خاصة وأنه استخدمه أمام شاويش القسم، إلا أنه منحه عنوان (فهيم)، وارتفع حاجباه في دهشة، عندما حصل (مدحت) على العنوان، ثم انطلق يعدو في لهفة، وسأل الضابط النوبتجي الشاويش:

- ماذا أصابه؟.. لم أره قط هكذا.. إنه مشهور بالهدوء الشديد.

غمغم الشاويش في لامبالاة:

- هذا شأنه.

مط الضابط النوبتجي شفتيه، وقال:

- نعم.. إنه شأنه.

وعاد يزاول عمله في ضيق، دون أن يدري أن (مدحت) سيواجه، خلال الساعات القليلة القادمة موقفًا خطيرًا..

بل أخطر موقف في حياته كلها..

وأكثرها هولًا.

☆ ☆ ☆

9- الأهوال..

هتف عامل معمل الطب الشرعي في دهشة بالغة، وهو ينقل بصره من مكان إلى مكان، ويضرب كفًا بكف، أمام الفوضى، التي شملت كل شيء:

- ماذا حدث هنا يا دكتور (حسن).. هل انفجرت قنبلة؟

أجابه الدكتور (حسن) في أسى، وهو يدفع بقايا ذلك الشيء المحترق، داخل وعاء زجاجي سميك:

- بل حدث ما هو أسوأ من انفجار قنبلة يا (مأمون).. لقد انفتحت أبواب الجحيم على مصراعيها.

سقط فك (مأمون) السفلي في بلاهة، وهو يقول:

- أبواب ماذا؟

تنهد الدكتور (حسن)، وهو يقول:

- لا عليك يا (مأمون).. لا تشغل بالك بهذا.. أحضر أدوات النظافة فحسب، وحاول إزالة هذه الفوضى.

ضرب الرجل كفًا بكف مرة أخرى، وانصرف لإحضار أدوات النظافة، وهو يتمتم:

- ماذا أصابهم؟.. إنها قنبلة بالتأكيد.. ولكن كيف لم نسمع الانفجار!

أما الدكتور (حسن)، فقد أغلق الوعاء الزجاجي، وتطلع في حسرة إلى ذلك الجسم الصغير، الشبيه بقطعة من الفحم الأسود، والذي تبقى من ذلك الكائن بعد احتراقه، وهز رأسه في مرارة، وهو يقول:

- ضاعت فرصة العمر.. كنت سأصبح أشهر أطباء الطب الشرعي في (مصر)، وربما في العالم أجمع، لو لم يحدث ما حدث.. يا للخسارة!.. لو أنني أمتلك عينة أخرى من تلك المادة..

التقى حاجباه فجأة، وبدت عليه علامات التفكير العميق وهو يغمغم:

- ولم لا؟!

صمت لحظات مفكرًا، ثم نهض، واتجه إلى النافذة، ووقف يتطلع منها إلى الطريق في شرود، قبل أن يحدث نفسه، مغمغمًا:

- نعم.. الشيء الأصلي ما يزال هناك.. في حوض سباحة فيلا الدكتور (علي).. والدكتور (علي) نفسه يمتلك عينة من تلك المادة.. لقد مسحها بمنديله عمدًا.

عاد إلى الصمت لحظات أخرى، ثم أضاف في حزم:

- نعم.. ولم لا؟!

ولم تكد الفكرة تستقر في ذهنه، حتى اندفع إلى الخارج، واتجه مباشرة الى سيارته، التي أحضرها له (مأمون)، وهتف به هذا الأخير.

- إلى أين يا دكتور (حسن)؟.. ألن تبلغ عن القنبلة؟

لكنه لم يتلق جوابًا، فقد قفز الدكتور (حسن) إلى سيارته، وانطلق بها مباشرة إلى هناك..

إلى فيلا الدكتور (علي).

☆ ☆ ☆

هرع (السيد) مذعورًا إلى باب منزله، مع تلك الطرقات العنيفة، التي أيقظته من نومه، في السابعة والنصف صباحًا، وهتف في توتر شديد:

- من الطارق؟!.. من يأتي في هذه الساعة المبكرة؟

لم يكد يفتح الباب، حتى شحب وجهه، وهوى قلبه بين قدميه، وهو يقول بصوت مرتجف:

- حضرة الضابط (مدحت)؟!.. أهلًا يا (مدحت) بك.. ماذا تريد؟.. أعني ما الذي...

قاطعه (مدحت) في صرامة:

- أين (فهيم)؟

ارتبك (السيد)، وقال:

- (فهيم) ليس هنا.. إنه..

دفعه (مدحت) جانبًا، قبل أن يتم عبارته، واندفع داخل المنزل، واتجه مباشرة إلى حجرة (فهيم)، وجرى (السيد) خلفه، وهو يقول:

- أقسم لك إنه ليس هنا.

استدار إليه (مدحت) في حركة حادة، وأمسكه من سترة النوم، وجذبه إليه في عنف، وهو يقول:

- أين هو إذن؟.. أجب.

ازدرد (السيد) لعابه في صعوبة، ومسح بيده عرقه، وقال في اضطراب:

- لست أدري ماذا أصابه!.. لقد أصيب برعب هائل، منذ عاد أول أمس إلى هنا.. بل بالجنون، وظل يصرخ ويهذي، ويتحدث عن أمر رهيب، أصاب (رجب)، ثم غادر المنزل، ولم يعد منذ ذلك الحين.

نظر إليه (مدحت) نظرة خاوية وهو يعيد ما قاله في عقله، ثم صاح به في لهجة صارمة:

- وأين يمكن أن أجده؟

هتف (السيد):

- إنه لم يخبرني.. أقسم لك.

ثم استدرك في سرعة وتوتر:

- و... ولكن.

هزه (مدحت) في عنف، وهو يقول:

- ولكن ماذا؟!..

مسح (السيد) عرقه مرة أخرى، وحاول السيطرة على توتره واضطرابه، وهو يجيب بكلمات مرتجفة:

- لقد اعتاد الاختباء في منطقة المقابر.. هناك مقبرة فاخرة لها ساحة مناسبات، وهو يختبئ عادة في الساحة.. ساحة (الباشا).

ثم هتف في خوف:

- إنه مجرد رأي.

رمقه (مدحت) بنظرة صارمة مخيفة، ثم قال:

- سنري.

ودفعه جانبًا في عنف، وعاد بخطوات سريعة إلى سيارته وانطلق بها نحو المقابر..

كان الضباب ينتشر في غزارة، ويحيط كل شيء بغلالة غامضة مخيفة، جعلت المقابر تبدو أشبه بمشهد من أحد أفلام الرعب، عندما أوقف (مدحت) سيارته أمامها، وغادرها في حذر، ثم تحرك في همة عبر شواهد القبور، متجهًا إلى استراحة (الباشا)..

ومن بين سحب الضباب، بدت الاستراحة واضحة..

كانت أشبه بمبنى أنيق من طابق واحد، تحيط به أربع نوافذ، يبدو الضوء من إحداها واضحًا..

وبلا تردد، اتجه (مدحت) إلى باب الاستراحة، وضربه بقدمه، ثم قفز إلى الداخل، قائلًا في صرامة:

- أهلًا يا (فهيم).

انتفض (فهيم) في قوة، وارتطم بموقد الشاي الصغير، فسقط وعاء الشاي أرضًا، وانسكب الماء الساخن، و(فهيم) يصرخ:

- لا.. لا.. لم أفعل شيئًا.

وفجأة، استل من حزامه مسدسًا، وأطلق نيرانه نحو (مدحت)..

ووثب (مدحت) جانبًا، وسمع الرصاصة ترتطم بالباب، ورأي (فهيم) يعدو نحو النافذة، ويقفز منها إلى الخارج، ويعدو وسط المقابر والضباب..

وقفز (مدحت) واقفًا على قدميه، واستل مسدسه بدوره، ووثب من النافذة، وانطلق يعدو خلف (فهيم)..

وكانت مطاردة عجيبة..

مطاردة بين شواهد القبور، سحب الضباب، المنتشرة في كل مكان..

وصاح (مدحت) في صرامة:

- توقف يا (فهيم)، وإلا واجهت تهمة مقاومة السلطات.

صرخ (فهيم):

- لم أفعل شيئًا.. لم أفعل شيئًا.

كان (مدحت) قد اقترب منه كثيرًا، ولكنه توقف فجأة، وأطلق رصاصة في الهواء.

واضطرب (فهيم)..

اضطرب في شدة، حتى أنه ارتبك، واصطدم بشاهد أحد القبور، ثم استدار في عصبية شديدة، وصوب مسدسه إلى (مدحت)، وهو يقول في عصبية شديدة:

- لا تجبرني على هذا.

ولكن (مدحت) بلغة بقفزة واحدة، وركل المسدس من يده بضربة قدم رشيقة، فشهق (فهيم)، وتراجع صارخًا:

- ماذا تريد مني؟.. لم أفعل شيئًا.

وعلى الرغم من قوله، فقد طوح قبضته في وجه (مدحت)، الذي تفادى اللكمة، ثم لكمه بكل قوته في معدته، وأعقب هذه اللكمة بأخرى في فكه..

وسقط (فهيم)..

وقبل أن يفكر حتى في النهوض، كان (مدحت) فوقه، يلوي ذراعه خلف ظهره، وهو يقول في صرامة:

- بل فعلت الكثير يا رجل.. شروع في سرقة فيلا، ومحاولة قتل ضابط مباحث، ومحاولة فرار.. ما الذي تريده بعد كل هذا؟

فوجئ به (مدحت) يبكي في انهيار شديد، ويضرب الأرض بجبهته في عنف، فنهض وجذبه في قوة، ليجبره على الوقوف، وهو يستطرد:

- ولكنني أستطيع التنازل عن كل هذه التهم، بشرط واحد.

تمتم (فهيم) في انهيار:

- أي شرط.

أجابه (مدحت) في حزم، وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة:

- ماذا حدث في الفيلا هناك؟!.. كيف لقي (رجب) مصرعه؟

ارتجف جسد (فهيم)، واتسعت عيناه في رعب هائل، وكأنه يستعيد ذكرى ما حدث هناك، وراح يقول في ارتياع:

- أمر رهيب.. مفزع.. لم يمكنني نسيانه قط.

سأله (مدحت) في اهتمام أكثر:

- صف لي ما حدث بالضبط.

ارتجفت الكلمات على شفتي (فهيم) في شدة، وهو يقول:

- كان (رجب) يقف على حافة حوض السباحة، عندما خيل إلي أن الأرض قد انسحبت فجأة من تحت قدميه، وألقته في مياه الحوض، وعندما أسرعت إليه، كان يسبح عائدًا إلى الحافة، ولكن فجأة، جذبه شيء ما إلى الأعماق، ثم أضيئت تلك الأنوار في قاع الحوض، و.. و..

تضاعف ذعرة وارتجافه، عند هذه النقطة، فقال (مدحت) يستحثه في لهفة:

- وماذا يا رجل؟.. وماذا؟

راح (فهيم) ينتفض كفرخ مبتل، وهو يقول:

- وعلى أضواء القاع، رأيت أبشع مشهد في حياتي كلها.. كان هناك فكان.. فقط فكان بلا جسد.. لهما أحد وأكبر أسنان رأيتها، في عمري كله.. ولقد انطبق الفكان عليه، فراح يقاومهما في استماتة، ولكنهما التهما جسده كله.. بل أحاطا به تمامًا، واحتوياه داخلهما..

اتسعت عيناه في هلع لا مثيل له، وهو يستطرد:

- لقد رأيت جسده يقاتل ويقاوم، داخل ذلك الشيء الهلامي البشع، الذي التهمه بلا رحمة، حتى خمدت حركته تمامًا، وعندئذ، التصق ذلك الكائن بجدار الحوض، ولم أعد أستطع تمييز أحدهما عن الآخر.

ثم انهار (فهيم) تمامًا، وهو يستطرد:

- هذا كل ما حدث.. أقسم لك.. أقسم لك.

دفعه (مدحت) جانبًا، وقد انتقل كل الخوف والفزع والقلق إليه..

لقد أيقن الآن فقط من حقيقة تلك الشكوك العجيبة، التي راودته طويلًا..

أيقن أنه يواجه كيانًا بشعًا..

يواجه ما لا مثيل له في عالمه..

بل في الدنيا كلها..

☆ ☆ ☆

ترقرت الدموع في عيني (أحلام)، وهي تحمل حقيبتها، والتفتت إلى زوجها، لتقول من بين دموعها:

- قدماي تعجزان عن المضي يا (علي).. إنهما لا تقويان على حملي بعيدًا عنك.. كيف أتركك وحدك هنا، مع هذا الشيء، وأعود إلى (الإسكندرية)؟

أحاط كتفها بذراعه في حنان، وهو يقول:

- صدقيني يا حبيبتي.. هذا أفضل للجميع، فبرحيلك يمكنني العمل هنا، دون أن أخشى عليك، من التوتر الزائد، والانفعال الدائم.

بكت في حرارة، وهي تقول:

- وماذا عني أنا؟.. كيف يهدأ لي بال في (الإسكندرية)، وأنا أعلم أنك تواجه هذا الشيء المفترس هنا؟

أجابها وهو يطبع قبلة حانية على وجنتها:

- سأتصل بك هاتفيًا كل ساعة، ثم إن خطر ذلك الكائن قد زال تقريبًا، بعد أن أدركنا ماهيته، وما يحتاج إليه.. كل المطلوب هو أن أحرص على تغذيته، وأراقبه طوال الوقت، وينتهي كل شيء.

تضاعفت دموعها، وهي تقول:

- ما زلت لا أشعر بالارتياح.

ربت عليها في حرارة، وهو يقول:

- اطمئني يا حبيبتي.. سيسير كل شيء على ما يرام بإذن الله.. المهم أن تسرعي بالذهاب الآن، قبل أن يصل الحارس الصباحي.. هيا.

بكت بين ذراعيه طويلًا، وهو يقودها في رفق إلى سيارتهما..

لم تكن تحتمل بالفعل فكرة فراقه، في ظل هذه الظروف..

لم تكن تدري كيف تحتمل الابتعاد عنه، وهو يواجه ذلك الشيء، الذي تجهل مدى خطورته وقدراته..

وأمام السيارة مباشرة، تشبثت به، هامسة:

- أرجوك يا (علي).. دعني أبقى.

طبع على وجنتها قبلة حانية أخرى، وقال:

- أرجوك أنت يا (أحلام).. ارحلي.. دعيني أشعر بالارتياح تجاهك.

قالت في ضراعة:

- أرجوك.. دعني أبقى، وسأمكث في حجرتي، وأكتفي بمراقبتك من الـ..

قبل أن تتم عبارتها، تجاوزت سيارة الدكتور (حسن) مدخل الفيلا، واتجهت نحوهما مباشرة، فبترت عبارتها، وتطلعت إلى السيارة في قلق، شاركها فيه زوجها، الذي غمغم متوترًا:

- من هذا بالضبط؟

واصلت السيارة طريقها عبر الحديقة، حتى بلغت موضعهما، وتوقفت خلف سيارتهما، وهبط منها الدكتور (حسن)، وهو يقول:

- الدكتور (علي).. أليس كذلك؟

قال (علي) في حذر:

- نعم.. أنا هو.. هل من خدمة، يمكنني تقديمها إليك؟

مد الدكتور (حسن) يده ليصافحهما، وهو يقول:

- معذرة لقدومي في هذا الوقت المبكر، ولكنني كنت واثقًا من أنكما ستكونان مستيقظين.. أنا الدكتور (حسن).. الطبيب الشرعي المسؤول هنا.

تبادل (علي) نظرة قلقة مع زوجته، قبل أن يصافح الدكتور (حسن)، ويسأله في شيء من الحذر والقلق:

- وما الذي يريده طبيب شرعي منا؟

كان الدكتور (حسن) قد قطع الطريق كله، من معمل الطب الشرعي إلى الفيلا، وهو يفكر في الوسيلة، التي يمكنه معها مناقشة الدكتور (علي) في أمر ذلك الشيء، دون أن يثير قلقه أو نفوره، وبأكثر الطرق لباقة، إلا أنه وجد نفسه يندفع فجأة، قائلًا:

- أريد عينة من تلك المادة.

انعقد حاجبا (علي) في شدة، وسرت قشعريرة باردة في جسد (أحلام)، فالتصقت بزوجها، الذي قال في توتر:

- أي مادة؟

قال الدكتور (حسن) في لهفة:

- الدم.. الدم الأخضر.. المادة التي يموج بها جسد ذلك الشيء، القابع في حوض سباحتكم.

شهقت (أحلام) في دهشة، في حين انتفض جسد الدكتور (علي)، واتسعت عيناه في شدة، وهو يحدق في وجه الدكتور (حسن)، الذي لوح بكفيه في انفعال، وهو يقول في حماس:

- لا تقلقا.. إنني أعرف كل شيء.. لقد قمت بتحليل تلك العينة التي أحضرها الضابط (مدحت)، وكانت دهشتي عظيمة.. إنها أكثر المواد الحيوية التي رأيتها في حياتي كلها نشاطًا.. هل لاحظت عدد الخلايا فيها.. أراهن أنك قضيت ليلتك تفحصها.. إنها مزيج من سائل حيوي كالدم، وخلايا نمو.

ردد الدكتور (علي) في دهشة:

- نمو؟!

أجابه الدكتور (حسن) في حماس جارف:

- نعم الخلايا الأخرى في المسئولة عن نمو ذلك الشيء.. إنه يتولد ذاتيًا، بوساطة تلك المادة.. لقد تركناها قليلًا إلى جوار موقد مشتعل، ولن تصدق ما حدث.. لقد تمددت ونمت، وصنعت مخلوقًا كاملًا في دقائق معدودة.. إنه أعظم كشوف العصر يا رجل هذا الكائن قد يجعلني أعظم طبيب شرعي في العالم أجمع.. هل تفهم.. سأحصل على جائزة (نوبل) نفسها.

انتفض جسد (علي) في عنف أكثر هذه المرة..

لقد طرق الدكتور (حسن) المنطقة المحرمة، دون أن يدري..

ضرب الشيء الوحيد، الذي لن يحتمل (علي) المساس به..

حلمه..

حلم حياته..

وشعرت (أحلام) بالذعر..

والتفتت تتطلع إلى زوجها في هلع، وتحاول تهدئته بعبارة ما.

ولكن ما تخشاه حدث..

حدث قبل أن تنطق حرفًا واحدًا..

لقد انعقد حاجبا (علي) في شدة، حتى كادا يمتزجان، وبدا صوته عنيفًا أجش قاسيًا، وهو يقول للدكتور (حسن) في شراسة:

- وما شأن الطب الشرعي بكشف كهذا؟.. إنك تتحدث عن علم تجهله يا رجل.. علم قد تقضى حياتك كلها في دراسته، دون أن تصل إلى نصف ما أعلمه أنا عنه.

انتقلت شراسته إلى الدكتور (حسن)، وهو يقول:

- بل أتحدث عن عينة دم جديدة.. عينة لسائل حيوي، لا مثيل له على الكوكب كله، والأطباء الشرعيون هم خبراء التعامل مع الدم.

صاح (علي):

- هراء.. هذا الكشف بيولوجي بحت، ولن أسمح لك بمجرد الاقتراب منه.

التقى حاجبا الدكتور (حسن) بدوره، وهو يقول في تحد:

- حاول أن تمنعني.

هتفت (أحلام) في قلق، محاولة تهدئة الموقف.

- رويدكما.. إنكما تتحدثان عن أمر سابق لأوانه.

ولكن أحدهما لم يسمع حتى عبارتها، فقد قال الدكتور (علي) في شراسة:

- سأمنعك بالتأكيد.. بل إنني أمنعك حتى من التواجد هنا.. هذه الفيلا ملكية خاصة، وليس من حقك دخولها دون إذن.

أطلق الدكتور (حسن) ضحكة عصبية، وقال:

- أهذا ما تظنه؟!.. هل نسيت أن أملاكك الخاصة هذه قد شهدت جريمتي قتل، ومن حقي كطبيب شرعي، أن أفحص مسرح الجريمة.

دفعه الدكتور (علي) في خشونة، وهو يقول:

- اذهب وأحضر إذنًا بذلك إذن، ولكن حاول إقناع وكيل النيابة بحدوث جريمتي القتل المزعومتين.. إنها مجرد حادثتين عرضيتين.

ولكن الدكتور (حسن) رد دفعته بضربة قوية، أسقطته أرضًا، وهو يعدو نحو حوض السباحة، هاتفًا:

- فليكن.. ولكنك لن تمنعني أبدًا، من فحص ذلك الشيء.

صرخت (أحلام) في هلع، وحاولت أن توقف زوجها، ولكنه هبّ واقفًا على قدميه، وهتف بغضب هادر:

- على جثتي.

وانطلق يعدو خلف الدكتور (حسن)، ووثب يحيط وسطه بذراعيه، مستطردًا في حدة:

- إنك تتجاوز حدودك.

دفعة الدكتور (حسن) بقدمية في عنف، وهو يقول:

- كفى يا رجل.. لا تقف في طريق موكب العلم.

ولكن الدكتور (علي) تشبث به في استماتة، وهو يقول:

- بل لا تقف أنت في طريق حلمي الوحيد.

تملص منه الدكتور (حسن)، وعاد يعدو نحو حوض السباحة، هاتفًا:

- النجاح ليس حكرًا على أحد.

جرت (أحلام) خلفهما، وهي تطلق صرخات ملتاعة، وراحت تهتف، بكل ما يملأ قلبها، من توتر وانفعال:

- كفى.. كفى ماذا دهاكما؟.. ماذا تفعلان؟

ولكن الرجلين كانا قد فقدا صوابهما بحق، ولحق أحدها بالآخر، واشتبكا في قتال بالأيدي، أشبه بقتال صبية الشوارع، والدكتور (علي) يصرخ:

- إنه حلم حياتي.. لن تنتزعه مني أبدًا.

هتف الدكتور (حسن):

- هذا الشيء ليس ملكًا لك.. إنه ملكٌ للعالم.

صاح (علي):

- ولكنه في فيلتي أنا.

صرخ (حسن):

- هذا لا يمنحك الحق في احتكاره.

تشبث كل منهما بالآخر، وراحا يركلان ويضربان بعضهما البعض، بلكمات وضربات عشوائية، و(أحلام) تصرخ:

- كفى بالله عليكما.. كفى.

وفجأة، انزلقت قدم الدكتور (حسن)، على حافة الحوض، فتشبث بالدكتور (علي)، وجذبه معه في سقطته، و...

وسقط الاثنان داخل حوض السباحة الفارغ..

ومن حسن حظهما أنهما سقطا بالقرب من أقل نقاطه عمقًا، والتي لا يتجاوز عمقها مترًا واحدًا، ولكن السقطة كانت عنيفة، آلمتهما بشدة، وصرخت (أحلام)، وهي تعدو نحوهما:

- لا.. ليس في الحوض.

تدحرجا مع قتالهما، نحو الجزء العميق من الحوض، ثم توقفا في منتصف الطريق، ونهض الدكتور (حسن)، وهو يقول في غضب:

- لن تحتكر هذا الشيء وحدك.. القانون لا يمنحك هذا الحق.

نهض الدكتور (علي) بدوره، وهو يقول:

- وأنت لن تحصل عليه، ما دام في صدري نفس يتردد.

- هم الدكتور (حسن) بالتعقيب، ولكن..

فجأة، انفصل جزء من جدار الحوض، على قيد مترين منهما، وتحول فجأة إلى فكين كبيرين، لهما أبشع أسنان رأياها في حياتهما كلها، وهو ينقض عليهما، فأطلقت (أحلام) صرخة رعب لا مثيل لها..

كان هذا هو الكائن الغامض.

وكانا هما وجبته..

وجبته الآدمية..

☆ ☆ ☆

10 النيران..

أسرع عامل محطة البنزين إلى سيارة الشرطة، وابتسم وهو يقول في حرارة:

- صباح الخير يا (مدحت) بك.. لماذا تقود السيارة بنفسك اليوم؟

هتف به (مدحت) في انفعال:

- ألديك زجاجات فارغة؟

رفع الرجل حاجبيه في دهشة، وقال:

- زجاجات فارغة؟!.. لماذا؟

صاح (مدحت) في حدة:

- ألديك زجاجات فارغة أم لا؟

ارتبك الرجل أمام هذا الأسلوب، وهو الذي يعهد (مدحت) هادئًا باسم الثغر دائمًا، وتراجع وهو يشير بيده، قائلًا:

- بالتأكيد يا (مدحت) بك.. هناك زجاجتان، أو ثلاث..

صاح به (مدحت):

- أحضرها كلها.

أسرع الرجل يحضر الزجاجات الثلاث، فقال (مدحت) بلهجة آمرة، وهو يمزق منشفة بالية، ويصنع منها عدة شرائط طويلة:

- املأها بالبنزين.

أطاعه الرجل، وهو يتطلع إليه في دهشة بالغة، وناوله الزجاجات الثلاث، الممتلئة بالبنزين، فدس (مدحت) الشرائط، في فوهة

كل منها، بعد أن بللها بالبنزين، فسأله الرجل في قلق:

- ماذا تصنع بالضبط يا (مدحت) بك؟

أجابه (مدحت) في سرعة:

- قنابل (مولوتوف).

تراجع الرجل في هلع، وهو يقول:

- قنابل ماذا؟

ولكنه لم يحصل على جواب هذه المرة..

لقد انطلق (مدحت) بالسيارة على الفور، دون أن ينقده حتى ثمن البنزين..

وضرب الرجل كفًا بكف، وهو يهز رأسه قائلًا:

-لا حول ولا قوة إلا بالله.. ماذا أصابه؟

أما (مدحت) نفسه، فكان يموج بانفعالات شتي، في هذه اللحظة بالذات، وهو ينطلق نحو فيلا الدكتور (علي)..

لقد أصبح واثقًا من وجود شيء ما هناك، أشبه بذلك الذي هاجمه، في معمل الطب الشرعي..

لقد رآه بنفسه هناك..

رآه في حوض السباحة، ولكنه لم ينتبه إلى ما رأي..

صحيح أنه ليس عالمًا، ولم يهتم في حياته كلها بالعلوم، ولكنه يدرك أن هذا الشيء قاتل شرس، يمتلك قدرة مذهلة على التكاثر بلا حدود..

ولا بد من القضاء عليه..

والوسيلة الوحيدة، التي يعرفها (مدحت)، والتي اختبرها بنفسه، للقضاء على ذلك الشيء هي النار..

ولهذا صنع قنابل (مولوتوف)..

ولكن المهم أن يصل في الوقت المناسب، للقضاء على ذلك الشيء، قبل أن يتمادى، ويلتهم الدكتور (علي) نفسه، أو زوجته (أحلام)..

وأصبح هذا هدفه الوحيد..

أن يصل إلى ذلك الشيء..

وفي الوقت المناسب..

☆ ☆ ☆

اتسعت عينا الدكتور (حسن) في ارتياع، وهو يتطلع إلى الفكين البشعين، اللذين ينقضان عليه بلا جسد، ولكن الدكتور (علي) جذبه في قوة، وهو يهتف:

-رباه!! أسرع يا رجل.. إنه جائع.

انتزعته جذبة الدكتور (علي) من ذهوله، فأسرع يعدو معه، نحو سلم الحوض، في حين أخذت (أحلام) تصرخ:

- أسرع يا (علي).. أسرع.

توقف ذلك الشيء لحظة، عندما أدرك أنه ليس بمقدوره أن يلحق بهما، ثم لم يلبث أن ذاب فجأة، وعاد يتخذ شكل جدار الحوض، ويلتصق به في قوة..

أما هما، فقد بلغا السلم، وتسلقاه في سرعة، دفعهما إليها الخوف، حتى بلغا قمته، وقفزا خارج الحوض، فأسرعت (أحلام)

تحتضن زوجها، وهي تصرخ:

- لا تبق وحدك يا (علي).. لا تبق إلى جوار ذلك الشيء أبدًا.

أحاطها (علي) بذراعيه، وهو يلهث في انفعال، وراح يربت على ظهرها مهدئًا، في حين ألقى الدكتور (حسن) جسده على أقرب مقعد إليه، وهو يردد:

- حمدًا لله.. حمدا لله.. لقد نجونا بأعجوبة.

بكت (أحلام) في حرارة، على كتف زوجها، لتفرغ انفعالها الجارف، وتطلع إليها الدكتور (حسن) لحظة مشفقًا، ثم ربت على كتف الدكتور (علي)، مغمغمًا:

- لقد أنقذت حياتي، وأنا أدين لك بالشكر.

وصمت لحظة، ثم استدرك:

- وبالاعتذار أيضًا.

غمغم الدكتور (علي):

- هذا الشيء ملكي وحدي.

أومأ الدكتور (حسن) برأسه متفهمًا، وقال:

- لا بأس.. ولكن لو احتجت إلى معاونة أو مشورة، فلا تنس أنني رهن إشارتك.

ثم ابتسم ابتسامة شاحبة، وقال:

- ويمكن أن يقتسم اثنان جائزة (نوبل).. أليس كذلك؟

بادله الدكتور (علي) ابتسامته بابتسامة باهتة، دون أن يجيب، فربت الدكتور (حسن) على كتفه مرة أخرى، ونهض قائلًا:

- أظن أن أفضل ما أفعله الآن هو أن أنصرف.

لم يحاول أحدهما منعه، وهو يتجه إلى سيارته، ولكنهما تابعاه ببصرهما، وأرخت (أحلام) رأسها على صدر زوجها، وهي تراقب الطبيب، الذي اقترب من سيارته، وحاول الدوران حول الشجرة الصغيرة، التي تعترض طريقه إليها، و...

وفجأة، اعتدلت (أحلام)، ورفعت رأسها عن صدر (علي)، واتسعت عيناها في هلع..

ثم صرخت بغتة:

- توقف يا دكتور (حسن).

توقف الرجل دفعة واحدة، والتفت إليها، يسألها في قلق:

- ماذا هناك يا سيدتي؟

وسألها (علي) أيضًا.

- ماذا حدث يا (أحلام)؟

أشارت إلى الشجرة الصغيرة بسبابة مرتجفة، وهي تقول:

- تلك الشجرة هناك.

التفت الدكتور (حسن) في حيرة إلى الشجرة، ثم عاد يستدير إليها، ويسألها:

- ماذا عنها يا سيدتي؟

انتقلت الارتجافة إلى صوتها، وهي تجيب:

- إنها لم تكن هناك.. لا توجد أشجار في ذلك المكان.

لم تكد تتم عبارتها، حتى اهتزت الشجرة الصغيرة، وتموجت، ثم تحولت إلى فكين هائلين، بأسنان كبيرة رهيبة..

وصرخ (علي):

- احترس يا رجل.

وثب الدكتور (حسن) بعيدًا في هلع، وحدق في الفكين المخيفين، اللذين يتجهان نحوه، وردد:

- مستحيل!.. مستحيل!

قفز الدكتور (علي) واقفًا على قدميه، وصاح:

- اهرب يا رجل.. اهرب.. لا تقف جامدًا هكذا.

استدار الدكتور (حسن)، وانطلق يعدو بكل قوته، ولكنه ارتطم بسيارته، ففقد توازنه، وسقط متدحرجًا على الأرض..

واتجه إليه الفكان الرهبان، و(أحلام) تردد في رعب هائل:

- لقد خرج.. لقد غادر الحوض.

أما الدكتور (علي)، فقد انتزع أحد المقاعد، وانطلق يعدو نحو ذلك الشيء، الذي يهم بالتهام الدكتور (حسن)..

وصرخت (أحلام)، وجسدها كله ينتفض رعبًا:

- لا يا (علي).. لا تذهب إليه.

ولكن (علي) واصل طريقه، وهوى على الفكين بالمعقد، بكل ما يملك من قوة..

وتوقف الفكان لحظة، ثم تحولا إلى كتلة هلامية، أحاطت بالمقعد كله، فأسرع (علي) يعاون (حسين) على النهوض، وهو يقول:

- سينشغل بهذا لحظات.. دعنا نحسن استغلالها، للابتعاد عن هنا.

ولكن ذلك الشيء انتفض فجأة، ولفظ المقعد في عنف، ثم تكور حول نفسه، وعاد يهتز بشدة، فصرخت (أحلام):

- ابتعد عنه يا (علي).. ابتعد.

ولكن (علي) لم يسمعها.

وكذلك الدكتور (حسن)..

كانا مبهورين تمامًا، بذلك التحول، الذي طرأ في هذه المرة، على ذلك الشيء..

إنه لم يتخذ شكلًا نمطيًا..

لقد تحور تحورًا تامًا..

وكان هذا التحور مدهشًا..

بل مذهلًا..

لقد اتخذ ذلك الشيء، وبسرعة عجيبة، وأمام العيون الذاهلة، شكل أقرب ما يكون إلى..

إلى البشر..

وحتى في هذا، لم يكن ذلك الشيء عاديًا..

لقد اتخذ هيئة بشرية، تجمع ما بين الدكتور (حسن) والدكتور (علي)..

كان نصفه طوليًا، صورة طبق الأصل من الدكتور (علي)، بملامحه، وهيئته، وثيابه، والنصف الثاني نسخة مماثلة من الدكتور (حسن)..

وتراجع الرجلان في ارتياع..

أما (أحلام)، فقد انحبست الصرخات في أعماقها، واختنقت خلف حاجز الرعب والذهول، الذي حجب نفسها، فراحت تحدق في ذلك المشهد الرهيب، وكل خلية من خلاياها ترتجف وتنتفض..

وتقدم ذلك الشيء نحو خصميه..

وفي هذه المرة، كان الدكتور (حسن) هو أول من هزم ذهوله، وصاح وهو يدفع الدكتور (علي) بعيدًا.

ولكن الشيء بلغهما بسرعة.

بأسرع كثيرًا مما توقعا..

وقبل أن يبتعدا هاربين، لطم ذلك الشيء الدكتور (علي) بقوة، انتزعت الرجل من مكانه، وألقت به على قيد ثلاثة أمتار فاقد الوعي، ثم استدار إلى الدكتور (حسن)، الذي تراجع صارخًا:

- لا.. لا.. لا تقتلني.

وحاول أن يتراجع أكثر، ولكن ظهره ارتطم بسيارة الدكتور (علي)، فشهق في رعب..

وتقدم منه الشيء..

وبصورة لا مثيل لها، راح منتصف ذلك الشكل شبه البشري يتموج، ويتحول، إلى فكين رهيبين، وأسنان مخيفة.

وانتفض قلب (أحلام) في ارتياع..

وهوى قلب الدكتور (حسن) بين قدميه..

وانهارت مشاعره.

و..

وهنا اقتحم (مدحت) المكان..

اقتحمه بسيارة الشرطة، وعبر حديقته بسرعة كبيرة، قبل أن يضغط فرامل سيارته في عنف، ويقفز خارجها، وهو يحمل زجاجات البنزين الثلاث، ويهتف بصوت يموج بالانفعال:

- كفى أيها الشيء.. كفاك ضحايا.

ألقي زجاجتين أرضًا، ثم أشعل قداحة، وألهب بها ذلك الشريط القماش في فوهة الزجاجة الثالثة، وهو يستطرد:

- خذها هدية مني.

التفت إليه ذلك الشيء في بطء، وصاحت (أحلام):

- اهرب يا دكتور (حسن).. اهرب.

ولكن الشيء استدار بسرعة إلى الدكتور (حسن)، ولطمه لطمة قوية أخرى، ألقته فوق السيارة، فتدحرج فوق مقدمتها، وسقط خلفها فاقد الوعي..

وهنا صرخ (مدحت):

- خذها مني.

وألقى الزجاجة المشتعلة..

قنبلة (المولوتوف)..

وانتفض جسد (أحلام) في هلع..

لقد تحرك الشيء في سرعة، والتقط الزجاجة، بيده المتحورة إلى هيئة بشرية، وألقاها نحو (مدحت)..

واتسعت عينا (مدحت) في هلع..

وانطلق محاولًا الابتعاد..

ولكن الزجاجة سقطت أمامه، على قيد ثلاثة أمتار من سيارته.

وتراجع (مدحت) بقفزة واحدة..

ولكن الزجاجة انفجرت..

ومع انفجارها، شعر (مدحت) بجسده يطير في الهواء..

ثم يسقط..

وكان السقوط مريعًا..

لقد سقط من ارتفاع ثلاثة أمتار، داخل حوض السباحة الفارغ..

وارتطم ظهر (مدحت) بقاع الحوض في عنف..

ودارت الدنيا أمام عينيه..

ثم أظلمت..

أما (أحلام)، فقد شملها رعب هائل، من قمة رأسها، وحتى أخمص قدميها.

لقد أصبحت وحيدة.

وحيدة وسط ثلاثة رجال فاقدي الوعي، في مواجهة ذلك الشيء القاتل، الآتي من غياهب الفضاء..

وفي بطء، التفت ذلك الشيء إليها، وتطلع إلى وجهها بنظرة خاوية، من مسافة عشرة أمتار، ثم استدار في بطء، ويمم وجهه شطر زوجها الملقى أرضًا..

واتسعت عينا (أحلام) في رعب، وهتفت بصوت مختنق:

- لا.. ليس (علي).

ولكن ذلك الشيء سار ببطء نحو (علي)، وراح يتحور تدريجيًا إلى الفكين الرهيبين، وقد أدرك أخيرًا أنه يواجه خصومًا أقل قوة منه بكثير..

وارتجف جسد (أحلام) في عنف.

ارتجف كما لم يرتجف من قبل..

لم يكن باستطاعتها أبدًا تخيل زوجها ضحية لذلك الشيء..

ضحية لا يتبقى منها سوى كومة من عظام نظيفة، خالية من كل شيء، حتى النخاع..

ولكن الشيء كان يقترب من (علي)..

ويقترب..

ويقترب..

وهنا انتصر الحب..

حب (أحلام) الجارف لزوجها هزم رعبها من ذلك الشيء، وبث في نفسها قوة وتصميمًا، لا مثيل لهما..

وبكل قوتها، انطلقت (أحلام) تعدو نحو زجاجتي البنزين، اللتين ألقاهما (مدحت) خلفه، والتقطت إحداهما، ثم جرت نحو سيارة (علي)، وقفزت داخلها، وأدارت محركها وانطلقت بها نحو ذلك الشيء، صارخة:

- لن تحصل على زوجي أبدًا.

كان ذلك الشيء قد أصبح على قيد متر واحد من زوجها، واتسع الفكان يهمان بالتهامه بالفعل، عندما سمع صوت السيارة من

خلفه، فاستدار يواجهها، و...

وصدمته (أحلام).

صدمته بمقدمة السيارة، ودفعته أمامها بسرعة كبيرة، وهي تصرخ:

- لن تحصل عليه..

سارت السيارة عدة أمتار، وهي تدفع ذلك الشيء أمامها، حتى ارتطمت بواحدة من الأشجار الصغيرة، المحيطة بحوض السباحة، وتوقفت..

وفي بطء، راح ذلك الشيء يذوب، ويتحور، محاولًا التخلص من ذلك الموقف، والسيارة تلصقه تقريبًا بالشجرة..

وكاد ينجح في التملص:

لولا (أحلام)..

لقد قفزت خارج السيارة، وهي تحمل زجاجة البنزين، وقداحة زوجها.

وبسرعة، أشعلت النار في شريط القماش، كما رأت (مدحت) يفعل، ثم ألقت الزجاجة نحو الكائن، هاتفة:

- هيا.. خذها مني أنا..

وانفجرت قنبلة (المولوتوف)..

انفجرت هذه المرة في ذلك الشيء تمامًا..

وقفزت (أحلام) جانبًا، والنيران تشتعل في كل شيء في السيارة، والشجرة الصغيرة..

وفي ذلك الشيء..

وفي عنف، راح ذلك الشيء ينتفض وينتفض، ثم لم يلبث أن استكان، وراح ينكمش، وينكمش، حتى لم تتبق منه سوى جمرة صغيرة ملتهبة.

وهنا..

هنا فقط، انفجرت (أحلام) باكية..

وانهارت..

انهارت تمامًا..

☆ ☆ ☆

11- الختام..

ارتكن النقيب (مدحت) إلى سيارة الشرطة، وهو يشعر بآلام شديدة في ظهره، لم تمنعه من الابتسام في ارتياح، وهو يتابع (أحلام) والدكتور (علي)، وهما يحملان حقائبهما، ويتجهان إليه، في حين تمتم الدكتور (حسن) في أسى:

- فقدنا فرصة العمر.

قال (مدحت):

- بل قل: نجونا يا رجل.. كنا سنفقد العمر نفسه، بسبب فرصة العمر هذه.

تنهد الدكتور (حسن)، وقال:

- أنت على حق.

اعتدل (مدحت)، وقال وهو يمد يده، ليلتقط حقيبة (أحلام):

- أهنئك يا سيدتي.. لقد كنت أشجعنا، وأنقذت حياتنا جميعًا.

أراحت رأسها على صدر زوجها، وهي تقول:

- لم أكن لأسمح لذلك الشيء أبدًا بقتل (علي).

ابتسم الدكتور (حسن)، وقال:

- أنت محظوظ بزوجتك يا دكتور (علي).

ضم (علي) (أحلام) إليه، وقال:

- كلنا محظوظون يا دكتور (حسن).. لست أدري كيف كنا نفكر في الحفاظ على ذلك الشيء.. لقد خدعنا طموحنا العلمي، وصور لنا أننا سنربح ببقائه.. يا إلهي.. لا يمكنني أن أتصور ما

كان يمكن أن يقاسيه العالم، لو أن ذلك الشيء نجح في التوالد والتكاثر، وملأ الأرض بكائنات على شاكلته.. يا للهول... إنني أرتجف من مجرد الفكرة.

تمتم الدكتور (حسن):

- ولكن كان ينبغي أن ندرسه على الأقل.

قالت (أحلام) مستنكرة:

- وما الفائدة؟

أجابها في سرعة:

- حتى يمكننا مواجهته، لو ظهر مرة أخرى.

ارتجف جسدها، لمجرد عودة مثل ذلك الشيء، وضمها (علي) إليه أكثر، وهو يقول:

- أتعشم ألا يحدث هذا قط.

وضع (مدحت) حقائبهما في سيارة الشرطة، وهو يقول:

- من أين تظنان أنه جاء؟

تبادل الدكتور (علي) والدكتور (حسن) نظرة متفاهمة، وأجاب الأول، وهو يشير بسباته إلى أعلى:

- من الفضاء الخارجي على الأرجح.. ربما داخل قطعة من نيزك، أو ما شابهه.. فالنيازك كما تعرفون، هي بقايا كواكب انفجرت وتحطمت، كما تقول نظريات علماء الفضاء، وربما يمتلك ذلك الشيء القدرة على التحوصل، مثل بعض الكائنات البدائية، وتحطم كوكبه في أثناء تحوصله.. والحويصلات تقاوم العوامل الخارجية بقوة، ويمكنها أن تحتمل الحرارة المرتفعة، في أثناء

عبور النيزك للغلاف الجوي، وعند هبوطه تخلص من حوصلته، وبدأ يبحث عن طعامه، في بيئة تختلف كثيرًا، عن البيئة التي نشأ فيها.

هتف الدكتور (حسن):

- يا له من تفسير متقن!.. كيف توصلت إليه يا رجل؟

هز الدكتور (علي) كتفيه، وقال:

- إنه عملي.

سأل (مدحت) (أحلام)، وهم يركبون سيارة الشرطة:

- هل ستغادران الفيلا طويلًا؟

أومأت برأسها إيجابًا، وغمغمت:

- بالتأكيد.. لن أنسى ما حدث هنا بسهولة.

سألها والسيارة تنطلق بالجميع، إلى موقف سيارات (الإسكندرية):

- وماذا عن حوض السباحة؟

لوحت بكفها في عنف، قائلة:

- لم أعد أريده.. سنردمه فور عودتنا إلى الفيلا.

ربت الدكتور (علي) على كتفها مهنئًا، وهو يقول:

- سيمضي وقت طويل، قبل أن يزول تأثير ما حدث.

وافقه (مدحت) بإيماءة من رأسه، في حين التقط الدكتور (حسن) نفسًا عميقًا، وقال:

- بالتأكيد.

ران عليهم الصمت، حتى بلغت سيارة الشرطة موقف سيارات الأجرة، العائدة إلى (الإسكندرية)، وغادرها الدكتور (علي) و(أحلام)، والتفت الدكتور (علي) إلى (مدحت) يسأله:

- هل ستقدم تقريرًا بما حدث؟

هز (مدحت) رأسه نفيًا، وقال وهو يرسم على شفتيه ابتسامة هادئة:

- لن يصدقني أحد.. وربما يتهمونني بالجنون.

أومأ الدكتور (علي) برأسه، وغمغم:

- هذا ما توقعته.

تبادلوا التحية جميعًا، وابتعدت سيارة الشرطة، وداخلها الدكتور (حسن) و(مدحت)، وغمغم الثاني في أسف:

- من المؤسف أن يتم ردم حوض سباحة جميل كهذا.

وافقه الدكتور (حسن)، وهو يقول:

- بالتأكيد.. فمن الممتع أن تمتلك حوض سباحة، وخاصة في يوم حار كهذا.

وكان اليوم حارًا بالفعل..

والشمس تشرق في كبد السماء، وتتسلل أشعتها عبر الباب الزجاجي الضخم، لحجرة المعيشة في فيلا الدكتور (علي)، لتبعث الدفء والحرارة في المكان، وبخاصة في ذلك المنديل، الذي نسيه الدكتور (علي) فوق المنضدة، وهو يحوي عينة من تلك المادة الفسفورية الخضراء..

ومع الدفء والحرارة راحت هذه المادة تتألق..

ثم أخذت تنمو..

وتنمو..

وتنمو..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- نجم هوى..

2- الكابوس..

3- اللص..

4- الخوف..

5- فكرة..

6- الجائزة..

7- كل الغموض..

8- مرحلة النضج..

9- الأهوال..

10 النيران..

11- الختام..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد
البعد الخامس

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000
قصص العدد

البعد الخـامس

1- الكابــوس..

فجأة، وجد (جمال) نفسه في هذا المكان..

قاعة واسعة كبيرة، بلا نوافذ أو جدران، ولها أرضية من مادة عجيبة، تنعكس عليها أضواء حمراء رهيبة مخيفة..

وارتجفت أطرافه كلها في خوف وقلق..

ما الذي أتى به إلى هنا؟!

وكيف؟!..

حاول عقله أن يبحث عن الجواب..

وحاول..

وحاول..

ولكن الأمور من حوله، راحت تزداد غموضًا ورهبة، حتى أنه اضطرب بشدة، وراح يلقي على نفسه عشرات الأسئلة، التي بدت - بالنسبة له - مرتبكة متوترة، تعكس حالة عدم التركيز، التي تملأ ذهنه وتحاصره..

وفي محاولة منه لاستعادة صفاء ذهنه، حاول (جمال) أن يسترجع كل المعلومات الخاصة به، وأن يرتبها ويستوعبها جيدًا..

اسمه (جمال سليمان)، صحفي بالقسم العلمي بجريدة (الأهرام)، في الثلاثين من عمر، ويقيم وحده مع أمه، في منزلهما القديم في (مصر الجديدة)، و..

وفجأة، تردد صوت مخيف، داخل القاعة الواسعة، يقول:

- (جمال سليمان).. أنت متهم بالخيانة العظمي.

انتفض جسده كله في عنف، وسرت فيه قشعريرة باردة، وهو يتلفت حوله في عصبية، محاولًا البحث عن مصدر الصوت، ويقول:

- الخيانة العظمى؟!.. يا لها من تهمة!.. وما الذي فعلته لأستحق اتهامًا كهذا؟!

أجابه الصوت الجهوري الصارم المخيف:

- لقد عاونت الأعداء، على بلوغ هدفهم.

قال في دهشة:

- الأعداء؟!.. أي أعداء؟.. ما الذي تعنيه بالضبط؟

صاح الصوت في غلظة:

- لقد انتهت المحاكمة، لا مجال للجدال.. انهض وواجه مصيرك أيها الصحفي.

اتسعت عينا (جمال) في رعب، والجدران من حوله تتموج وتهتز بشكل مخيف، ثم راحت أجساد شبه بشرية تنفصل عنها، وكأنها فقاعات صابون، تنفصل عن سطح رغوي غزير، واتجهت هذه الأجساد إليه، لتحيط به على نحو جعله يتنفس في صعوبة، والصوت يتابع:

- لقد درست المحكمة حالتك، وراجعت كل الوثائق وشهادات الشهود، ثم قررت الحكم بـ..

قاطعه فجأة رنين متصل، فتوقفت كل الأجساد شبه البشرية، وصرخ (جمال):

- ما هذا بالضبط؟

سمع من بعيد صوتًا يهتف:

- (جمال).. (جمال)..

وارتفع ذلك الصوت المخيف، يقول:

- لقد صدر الحكم ضدك بـ..

وهنا شعر (جمال) بأحد الأجساد شبه البشرية خلفه، وبيد تمتد لتربت على كتفه، فصرخ:

- لا.. لا..

ومع صرخته، تلاشى كل ما حوله، وغمر الضوء وجهه، وارتفعت صيحة فزعة:

- ما ذا أصابك.. ماذا هناك؟

هبّ (جمال) جالسًا على فراشه، وحدق لحظة في وجه أمه المذعورة، ثم تنفس الصعداء، ومرر أصابعه في خصلات شعره المتناثرة، وحاول أن يبتسم في عصبية، وهو يقول:

- معذرة يا أمي.. يبدو أنه كابوس آخر.

تطلعت إليه أمه مشفقة، وقالت:

- لقد نصحتك أكثر من مرة، بالكف عن تناول الأطعمة الدسمة، في وجبة العشاء.

تثاءب في توتر، ومد يده يوقف رنين المنبه المجاور للفراش، وهو يقول:

- يبدو أنك على حق في هذا يا أماه.

قالت بنفس اللهجة، التي كانت تستخدمها معه في طفولته:

- بل أنا حتمًا على حق.. هذا أمر معروف للجميع.

ابتسم وهو يغادر فراشه، مغمغمًا:

- بالطبع.. بالطبع..

انتقت له طاقمًا من الثياب النظيفة، وهي تقول:

- لقد أعددت لك طعام الإفطار، حتى لا تتأخر عن عملك.

ضحك وقال:

- لا تقلقي نفسك بعملي إلى هذا الحد، إنني مجرد صحفي في القسم العلمي.

قالت في حزم:

- ونحن في عصر العلم، والصحفي العلمي هو أفضل صحفي، في الدول المتحضرة.

قال وهو يصفف شعره في عناية:

- تسعدني ثقتك بي يا أمي، ولكن الواقع هنا يختلف، فالصحفي السياسي وحده هو الذي يشار إليه بالبنان في عالم الصحافة، أما الصحفي العلمي أو الأدبي، فهو مجرد وسيلة لملء باقي صفحات الجريدة، التي لا يصح أن تمتلئ عن آخرها بالأخبار السياسية.

قالت في إصرار:

- هناك صحافة علمية متخصصة الآن، وربما تجد مستقبلك فيها.

انحنى يطبع قبلة على وجنتها، وهو يقول:

- إنني أجد مستقبلي في حبك وحنانك يا أعظم أمهات الدنيا.

أزال ذلك الحوار التقليدي البسيط كل التوتر، الذي تركه الكابوس في نفسه، فتناول طعامه مبتهجًا، وتبادل بعض الدعابات مع أمه، ثم ارتدى ثيابه، واستقل السيارة (السيات) الصغيرة، التي ورثها عن والده الراحل، وانطلق بها إلى مبنى الجريدة، ولم يكد يدخل مكتبه، الذي يشاركه فيه أربعة من الزملاء، حتى هتف في مرح:

- صباح الخير يا رفاق الكفاح.. هل بدأ رئيس التحرير في تكديركم، أم أنه لم يصل بعد؟

تبادلوا معه تحية مقتضبة، ثم قالت زميلته (محاسن):

- هذا الأستاذ ينتظرك منذ نصف الساعة.

انتبه (جمال)، في هذه اللحظة فقط، إلى ذلك الرجل الشاحب الوجه، الأشيب الفودين، الأشعث الشعر، الذي يرتدي منظارًا طبيًا عجيب الشكل، تنعكس أضواء الحجرة فوقه ببريق عجيب، مختلف الألوان، وتبدو الحلة التي يرتديها وكأنه لم يخلعها منذ يومين على الأقل، في حين تشف لحيته نصف النامية على أنه لا يولي مظهره أدنى قدر من العناية والاهتمام.

وعندما أشارت (محاسن) إلى الرجل، الذي يجلس صامتًا على مقعد خشبي صغير، مجاور لمكتب (جمال)، اعتدل بحركة حادة، وخلع منظاره الطبي، ووضعه على سطح مكتب (جمال)، وهو يتطلع إلى هذا الأخير بلهفة شديدة، ثم لم يلبث أن هبّ إليه هاتفًا:

- أستاذ (جمال).. حمدًا لله.. من حسن حظي أنك وصلت في الوقت المناسب.

تطلع إليه الجميع في دهشة، وخاصة (جمال)، الذي صافحه قائلًا في ارتباك:

- أنا في خدمتك يا سيدي.. ما الذي تطلبه مني بالضبط؟

قال الرجل في توتر شديد:

- أريد أن أتحدث إليك.

ثم ألقي نظرة على زملاء مكتب (جمال)، قبل أن يستطرد:

- وحدنا.

ارتبك (جمال)، وتبادل زملاؤه نظرة صامتة، قبل أن تنهض (محاسن)، قائلة:

- فليكن.. هيا يا رفاق.. سأدعوكم لتناول بعض المشروبات..

غادروا المكان على الفور، ومالت (محاسن) على أذن (جمال)، وهمست قبل أن تتصرف:

- خذ حذرك.. مظهر هذا الرجل لا يوحي أبدًا بالثقة.

وافقها (جمال) بإيماءة من رأسه، دون أن ينبس ببنت شفة، وتركها تغادر الحجرة، ثم جلس خلف مكتبه، وقال في ارتباك حائر:

- أنا رهن إشارتك يا سيدي.. ماذا لديك؟

داعب الرجل منظاره، الموضوع على سطح مكتب (جمال)، في عصبية واضحة، وهو يجيب بصوت شديد التوتر:

- أنا أتابع كل ما تكتبه، منذ زمن طويل، وأعتقد أنك الصحفي العلمي الجاد الوحيد، في الوقت الحالي.

تطلع إليه (جمال) لحظة في حيرة، ثم قال في ارتباك:

- أشكرك.. ولكنني لا أعتقد أن هذا كل ما أتيت من أجله.

قال الرجل بسرعة:

- بالطبع.. لقد أتيت لما هو أكثر خطورة.

ثم مال نحوه، وأضاف في عصبية شديدة:

- إنني أحاول منع حدوث كارثة.

ازدرد (جمال) لعابه، وقال:

- أتقصد الكوارث الطبيعية؟.. زلزال آخر مثلًا؟!

لوح الرجل بكفه في حدة، وهو يقول:

- بل أخطر.. أخطر بكثير.

ثم عقد حاجبيه، مضيفًا:

- ربما لا يوحي لك مظهري بالثقة، وقد تظنني معتوهًا أو مجنونًا، ولكنني لست كذلك.. أنا (عامر مراد).. أستاذ الفيزياء بجامعة (القاهرة).

حدق (جمال) في وجهه بذهول، قبل أن يهتف:

- نعم.. هذا حقيقي.. أنا أعرفك.

الآن فقط، عرف لماذا بدا له الرجل مألوفًا، عندما وقع بصره عليه للوهلة الأولى..

إنه يعرفه جيدًا..

أو بمعنى أدق: يتابع أخباره بمنتهى الاهتمام..

وفي حماس، هتف (جمال):

- إنك أشهر من نار على علم يا دكتور (عامر).. ما من رجل علمي، أو حتى مهتم بالعلوم، يمكن أن يجهلك، أو يجهل أبحاثك العظيمة في (الفيزياء)، التي رشحتك يومًا لنيل جائزة (نوبل).

ثم تراجع متابعًا في حيرة:

- ولكن ما الذي فعل بك هذا؟ لقد شاهدتك آخر مرة في مناقشة رسالة الدكتوراه، التي تقدم بها أحد تلامذتك، وكنت أنيقًا كعادتك، و...

قاطعة الدكتور (عامر) في توتر:

- لا وقت لهذا.. سأشرح لك كل شيء فيما بعد، لو لم يظفروا بي قبلها..

قال (جمال) في دهشة - يظفروا بك؟!.. ماذا تعني يا دكتور (عامر)؟.. من هؤلاء بالضبط؟

ازدرد الرجل لعابه في توتر، وقال:

- اسمعني جيدًا.. ما دمت تتابع أخباري، فلا شك أنك تعلم شيئًا عن أبحاثي الأخيرة.

قال (جمال) في حماس:

- بالتأكيد.. استخدام الترددات الصوتية متناهية القصر، لإجراء الاتصالات الفضائية الفائقة البعد، والتحكم في مسار الأقمار الصناعية.

قال الدكتور (عامر) في انفعال:

- بالضبط.. هذا ما كنت أسعى إليه، ولم أتصور لحظتها أن نتائج أبحاثي ستنحرف بالغرض منها إلى هذا الحد، الذي أضطر فيه للاختباء طيلة يومين كاملين، خشية أن يقتلني هؤلاء.

سأله (جمال) في توتر:

- من هؤلاء يا دكتور (عامر)؟.. أخبرني.

بدا الرجل مضطربًا مرتبكًا في شدة، وهو يقول كأنه لم يسمع سؤال (جمال):

- لم أكن أقصد هذا.. صدقني.. أنا رجل مسالم بطبعي، أكره العنف والقتل والتدمير، وأكاد أصاب بالجنون، كلما تصورت أنني المسؤول عما حدث..

سأله (جمال)، وانفعاله يتصاعد بسرعة:

- وما الذي حدث بالضبط؟

لوح الدكتور (عامر) بكفه لحظة، وكأنه عاجز عن الكلام، قبل أن يقول بصوت متحشرج مختنق:

- تلك الفجوة.

تراجع (جمال)، وهو يسأله في حيرة:

- أية فجوة؟

فتح الدكتور (عامر) فمه، وبدا وكأنه سيلقي الجواب، عندما انتفض جسده بغتة، وتحركت يده بحركة عصبية عنيفة، فارتطمت بمنظاره، الذي سقط بين قدمي (جمال)..

واتسعت عينا الدكتور (عامر) في رعب هائل، وهو يحدق في نقطة ما من جدار الحجرة، على نحو جعل (جمال) يلتفت إليها في سرعة، و...

وتجمدت أطرافه كلها دفعة واحدة.

لقد كان يشاهد بعينيه كابوسًا..

كابوسًا حقيقيًا.

☆ ☆ ☆

2- الظل..

ارتشفت (محاسن) رشفة من قدح الشاي الساخن، الذي تمسكه بكفيها، وهي تقول في حماس:

- أراهن أن هذا الرجل يحمل قصة مدهشة.

أجابها أحد زملائها ساخرًا:

- بالتأكيد.. قصة هروبه من مستشفى الأمراض العقلية.

عقدت حاجبيها، وهي تقول في حدة:

- لو أنه كذلك، لما اختار (جمال) بالذات لمقابلته، فـ (جمال) ليس صحفيًا عاديًا.

ابتسم الزملاء في خبث، وغمغم أحدهم بابتسامة ماكرة:

- حقًا؟!

هتفت في صرامة:

- نعم.. وليس للسبب الذي يدور في عقولكم المريضة.. إنه ليس صحفيًا عاديًا؛ لأنه صحفي متخصص، يكتب في باب العلوم فحسب، ولن يقرأ مقالاته سوى أصحاب الرأي والفكر، والـ..

قبل أن تتم عبارتها، انفجرت بغتة تلك الصرخة..

صرخة مدوية رهيبة، امتزج الرعب فيها بالفزع والهلع والألم، وهي تهوي مع صاحبها من حالق، في تناغم متناقص سريع..

ثم بدأ صوت الارتطام واضحًا..

وبقفزة واحدة، بلغت (محاسن) النافذة المجاورة، وأطلت منها إلى ساحة المبنى، ثم شهقت في شدة..

كان ذلك الرجل، الذي التقى بـ (جمال) مسجى أرضًا، في منتصف الساحة، وحوله بركة من الدماء، وعدد من رجال الأمن والمارة يهرعون نحوه في ذعر..

وتراجعت (محاسن)، هاتفة:

- يا إلهي!!.. (جمال).

وانطلقت تعدو بأقصى سرعة، عائدة إلى المكتب، وخلفها عدد من زملائها، واقتحم الجميع المكتب في لهفة، ثم وقفوا يحدقون في المشهد أمامهم..

كانت نافذة الحجرة مكسورة، وبعض قطع من زجاجها ملقى أرضًا، في حين جلس (جمال) خلف مكتبه، شاحب الوجه، جاحظ العينين، ترتجف أطرافه في شدة، وهو يقبض على حافة مكتبه في استماتة، وكأنه يخشى أن ينتزعه أحد منه:

وفي لهفة، اندفعت نحوه، هاتفية:

- (جمال).. (جمال).. ماذا حدث؟

حدق في وجهها لحظات ذاهلًا، ثم أشار إلى الجدار المقابل، وقال بحروف مرتجفة، وصوت متحشرج مختنق:

- ذلك الظل.

كانت تتوقع أن يشير إلى النافذة المكسورة، وليس إلى الجدار، فقالت في حيرة:

- أي ظل؟

ارتجفت شفتاه لحظة، وبدا وكأنه عاجز عن النطق، يمر بحالة من الرعب الهائل، قبل أن يدير عينيه فجأة إلى النافذة المحطمة، ويهتف:

- أين الدكتور (عامر)؟

قالت متوترة:

- أتقصد ذلك الرجل الـ....

قاطعها في حدة مباغتة:

- أين هو؟

تراجعت قائلة في سرعة.

- لقد سقط.. انتحر.

اتسعت عيناه في هلع شديد، وهتف:

- قتله ذلك الـ...

ويتر عبارته بغتة، ثم تلفت حوله في ارتياع شديد، جعل أحد زملائه يقول:

- رويدك يا (جمال).. لقد انتهى الأمر.. اهدأ.

ولكنه ظل يتلفت حوله هلعًا، وكأنه يتوقع رؤية شبح في الحجرة، فمالت (محاسن) نحوه، وقالت في قلق متعاطف:

- ماذا أصابك يا (جمال)؟

حدق في وجهها مرة أخرى في ارتياع، فخفق قلبها في عنف، قلقًا وخوفًا عليه، في حين قال أحد زملائه في إشفاق:

- أظنك تحتاج إلى العودة إلى منزلك يا (جمال)؛ فمن الواضح أن الحادث أصاب أعصابك في الصميم.

شق طبيب المبنى طريقة بين الصفوف، وقال في حزم:

- لست أظنهم يسمحون له بهذا.. إنه شاهد الحادث الوحيد، وسيحتاج رجال الأمن إلى استجوابه حتمًا.

ثم صفق بكفيه، مستطردًا في حزم:

- هيا أيها السادة.. أخلوا الحجرة.. هذا الشاب يحتاج إلى الهواء النقي.

تراجع الجميع في تثاقل، في حين أخرج الطبيب من حقيبته محقنًا، جذب إليه سائلًا رائقًا من قنينة صغيرة، وهو يستطرد:

- وإلى شيء من الهدوء.

وكشف ذراع (جمال)، الذي سأله في ذعر:

- ما هذا بالضبط؟

أجابه بابتسامة مشجعة:

- اطمئن.. إنه عقار مهدئ فحسب.

وغرز إبرة المحقن في عروقه، ودفع فيها السائل الرائق، فسألته (محاسن)، التي لم تغادر الحجرة مع زملائها:

- هل سينام؟

أجابها الطبيب في هدوء:

- هذا يتوقف على درجة تكيفه مع العقاقير المهدئة.

وسحب المحقن، وهو يقول:

- هيا يا بطل.. ارقد قليلًا، وسينتهي كل شيء بسلام.

وغادر الحجرة بدوره، وترك (جمال) مع (محاسن)، التي سألته في لهفة تفوح برائحة القلق:

- ماذا حدث بالضبط؟

تطلع إليها (جمال) لحظة، ثم هز رأسه في عنف، وأخفى وجهه بين كفيه، قائلًا:

- لن يصدقني أحد.

هتفت بسرعة:

- أنا أصدقك.

رفع عينين محمرتين إليها، وهو يقول:

- حقًا؟!.

ثم عاد يهز رأسه، مستطردًا:

- لا.. لا.. مستحيل!.. لا أحد يمكنه أن يصدق هذا.

سألته في لهفة أكثر، وقلق أكبر:

- لماذا يا (جمال)؟.. ما الذي حدث بالضبط؟

حدق في وجهها لحظة، ثم قال:

- الكابوس.. نفس الكابوس الذي هاجمني صباح اليوم.. لقد رأيته يتحول إلى حقيقة واقعة.. كان الدكتور (عامر) يتحدث إليّ، عندما رأيت ظلًا ينفصل عن الحائط، ويتجه إليه.. ظلًا شبه بشري، شديد الشفافية والليونة، بدا وكأنه نبت من الجدار بلا مقدمات.. وكان من الواضح أن الدكتور (عامر) يعرف هذا الظل.. أو يدرك معني تواجده هنا؛ فقد قفز من مقعده، وحاول الفرار منه، وهو يطلق صرخات رعب هائلة، إلا أن ذلك الظل حاصره، ودفعه نحو النافذة، ثم.. ثم..

سألته والدهشة تملأ كيانها كله، وتفيض في عروقها وصوتها:

- ثم ماذا؟

ارتجف صوته بشدة، وهو يجيب:

- ثم راح ذلك الظل يتجسد، حتى بدا أشبه بجسم بشري متشح بالسواد من قمة رأسه، وحتى أخمص قدميه، ويحمل على ظهره جسمًا معدنيًا، يشبه اسطوانات الأكسجين، التي يحملها الغواصون، و...

ازدرد لعابه في صعوبة، قبل أن يستطرد:

- وانقض ذلك الجسم على الدكتور (عامر)، ودفعه بكل قوته، فارتطم بالنافذة الزجاجية، وحطمها، و... و...

لم يكن باستطاعته إكمال عبارته، مع شدة ارتجافته، فقالت (محاسن) في اضطراب:

- اهدأ يا (جمال).. اهدأ..

قال في توتر شديد:

- أنت لا تصدقين هذا.. أليس كذلك؟

ترددت لحظة، قبل أن تقول:

- أنت مقتنع أنك رأيت ذلك الـ... الظل.. أليس كذلك؟

لوح بكفيه، هاتفًا:

- بالطبع.. لقد رأيته وهو يخترق الحائط، ويتجسد، ثم يعود للاختفاء، ويعبر الحائط، و...

قاطعته في إشفاق:

- إنها أول مرة ترى فيها رجلًا ينتحر.. أليس كذلك؟

حدق في وجهها لحظة، وقال:

- ماذا تعنين؟

هزت كتفيها، قائلة:

- أعني أن هذا يسبب صدمة قوية، مما يدفع العقل إلى محاولة العثور على بديل، أو...

صاح في وجهها بحدة:

- أي هراء هذا؟.. هل تعتقدين أنني تخيلت كل هذا؟

قالت بسرعة:

- أنا واثقة من أنك تؤمن بكل حرف نطقت به، ولكن الوقائع كلها تشير إلى أن الرجل قد انتحر، و...

قاطعها صوت صارم هذه المرة، يقول:

- أخطأت يا آنسة.. هذا الرجل لم ينتحر.

التفتت في دهشة إلى مصدر الصوت، مع (جمال)، ووقع بصرهما على رجل عريض الفك والمنكبين، يرتدي حلة عادية، ورباط عنق زاهي الألوان، ويتابع في حزم:

- ومن خلال خبرة تقدر بعشر سنوات، في مجال البحث الجنائي، أكاد أجزم بأننا أمام حالة قتل لا انتحار، ولن يستغرق حل غموضها وقتًا طويلًا، لأنه ليس أمامنا سوي متهم واحد.

وأشار بسبابته إلى (جمال)، مستطردًا في صرامة:

- أنت يا أستاذ (جمال).

وهوي قلب (محاسن) بين قدميها.

☆ ☆ ☆

3- الاتهام..

لوهلة، لم يفهم (جمال) الموقف بالضبط..

وفجأة، انفجر كل الغضب الكامن في أعماقه..

وفي ثورة مباغتة، صاح في وجه ذلك القادم:

- من أنت بالضبط؟.. وما هذا القول السخيف؟

لم تبد ذرة واحدة من الغضب، في وجه ذلك القادم، وهو يجيب في برود:

- أنا العقيد (محمد عبد المنعم).. من المباحث الجنائية، قسم جرائم القتل، وهذا القول لا ينطوي على لمحة واحدة من السخافة، بل هو استنباط منطقي بحت.

ثم أشار إلى النافذة، مستطردًا:

- فالمنتحر لن يقفز عبر نافذة مغلقة، فيحطمها في عنف، لمجرد أن يلقي نفسه خارجها.. لماذا لا يفتحها بكل بساطة، ثم يقفز عبرها؟

قالت (محاسن) في اندفاع:

- ربما خشي أن يمنعه أحد من الانتحار.

حاول (جمال) أن يعترض، إلا أنها لكزته في ذراعه، فلاذ بالصمت، وأشاح بوجهه، في حين ابتسم العقيد (محمد) في سخرية، وقال:

- فكرة ذكية يا آنسة، ولكنها لن تنقذ صديقك، فما زال في جعبتي الكثير.

عقدت ساعديها أمام صدرها، وقالت في عناد:

- مثل ماذا؟

لوح بكفه، قائلًا:

- السقوط نفسه.. عندي عشرة شهود على الأقل، يؤكدون أن الرجل سقط بظهره، ووضع الجثة يؤكد هذا، فكيف يفعلها وحده؟.. المنطقي أن أحدهم دفعه في قوة، وأسقطه.

ثم التفت إلى (جمال)، واستطرد في صرامة:

- ولم يكن معه في الحجرة سواك يا أستاذ (جمال).

قال (جمال) في حدة:

- بل كان هناك آخر.

رفع (محمد) حاجبه، وقال:

- من؟!.. الجميع أكدوا أن أحدًا لم يدخل هذه الحجرة، منذ غادرها زملاؤك.

قال (جمال) في عصبية:

- هذا لأنه لم يدخل عبر الباب، وإنما..

لكزته (محاسن) مرة أخرى في عنف، لتمنعه من الاستطراد، ولم يغب هذا عن عيني العقيد (محمد)، الذي ابتسم في مكر، قائلا:

- من أين أتى إذن؟.. هل دخل عبر الحائط؟!

صاح (جمال):

- نعم.. عبر الحائط.

لكزته (محاسن) مرة ثالثة، في نفس اللحظة التي عقد فيها (محمد) حاجبيه، وقال في حدة:

- آه.. هل ستلجأ إلى ادعاء الجنون؟

قالت (محاسن) في ضيق:

- هذا ما كنت أخشاه.

أما (جمال)، فأجاب في عصبية شديدة:

- لا.. لن أدعي الجنون، وكل ما أقوله حقيقي، وحدث بالفعل.. لقد اخترق شيء ما الجدار، وهاجم الدكتور (عامر)، و...

قاطعته تلك النظرة العجيبة، التي يحدجه بها العقيد (محمد)، والتي تحمل مزيجًا من الدهشة والاستنكار والغضب، مع تلك الكلمة التي هتف بها وكأنه يبصقها:

- شيء؟!

ارتبك (جمال)، واحتبست الكلمات في حلقه، وهتفت (محاسن):

- إنه لم يقصد هذا.

ولكن (محمد) عقد حاجبيه في غضب صارم، وهو يقول:

- يقصد أو لا يقصد.. إنني ألقي القبض عليه.

وازداد صوته غضبًا وصرامة، وهو يضيف:

- رسميًا..

☆ ☆ ☆

تثاءب (جمال) بملء فيه، وهو يجلس داخل حجرة الاستجواب الصغيرة، في قسم الشرطة، أمام العقيد (محمد)، الذي فرد

قدميه على مقعد أمامه، وأشعل سيجارته العاشرة، وهو يقول:

- اسمع يا هذا.. لن يصدق مخلوق واحد قصتك السخيفة هذه.. كلنا نعلم أن قصص الأشباح والعفاريت ما هي إلا أوهام وخرافات، يرددها المسنون من أهل الريف، والمتخلفات من سكان المدن، ولكن القضاة والمحامين ورجال الشرطة، لا يملكون إزاءها سوى السخرية.

تثاءب (جمال) مرة أخرى، وهو يقول:

- فليكن.. ولكنها القصة الحقيقية الوحيدة.

ضرب (محمد) سطح المنضدة الصغيرة، التي تفصله عن (جمال)، بقبضته في عنف، وهو يقول في غضب:

- كف عن هذا التثاؤب، وعن التظاهر بالعته والجنون.

قال (جمال) في تهالك:

- قلت لك ألف مرة: لست أتظاهر بأي شيء، ثم إنني لا أستطيع الكف عن التثاؤب، لأن طبيب المؤسسة حقنني بعقار مهدئ.

هب (محمد) واقفًا، وهو يقول:

- حسن أيها الصحفي الذكي.. تثاءب كما يحلو لك، ولكنك لن تنعم بنوم هادئ إلا في زنزانتك، بعد أن يدينك القضاء.

واندفع يغادر الحجرة في غضب، وصفق الباب خلفه في عنف، فمط (جمال) شفتيه، وتمتم:

- لقد كانت (محاسن) على حق.. من العسير أن يصدقني أحد.

وتثاءب قبل أن يستطرد:

- حتى أنا أكاد لا أصدق نفسي.

تثاقل جفناه، وبدأت الصور تهتز أمامه، وهو يقاوم بشدة رغبته في النوم..

وفجأة، اتسعت عيناه عن آخرهما..

لقد لمح ذلك الشيء في ركن حجرة الاستجواب..

ذلك الظل..

في البداية، خُيل إليه أنه جزء من الصورة المهتزة، ثم لم يلبث أن انتبه إلى ذلك الكيان الشفاف، الذي انفصل عن الجدار، واتجه نحوه..

وقفز (جمال) من مقعده، وتراجع صارخًا:

- لا.. لا.. ابتعد.

ولكن ذلك الظل اقترب منه، واخترق المنضدة في يسر مذهل، وكأنها غير موجودة، ثم حاصره في ركن الحجرة..

وفي رعب، التصق (جمال) بالجدار، وراح يصرخ:

- ماذا تريد مني؟.. ابتعد.. ابتعد.

وفي بطء، راح ذلك الظل يتجسد، ويتخذ المظهر البشري، وقد اتشح كله بالسواد، واختفى موضع العينين منه خلف منظار داكن، و...

وكان يصوب إلى (جمال) مسدسًا..

مجرد مسدس عادي، حدق فيه (جمال) في ذهول، وهو يقول:

- هل.. هل ستقتلني؟

ثم قفز جانبًا بحركة غريزية، في نفس اللحظة التي انطلقت فيها الرصاصة، وسمعها ترتطم بالجدار خلفه، فانقض على مهاجمة،

وهو يصرخ:

- لماذا تريد قتلي؟

وبحركة عنيفة، لطم ذلك الشخص على وجهه، وأدهشه أن ارتد خصمه بحركة طبيعية، وكأنه مجرد بشري عادي ولكن هذا شجعه على أن يلكمه مرة أخرى..

وفي هذه المرة، أصابت اللكمة المنظار الداكن..

وأطاحت به..

وتجمد (جمال) في مكانه..

لقد رأى خلف المنظار زوجًا من الأعين البشرية، تحدقان فيه بمقت وغضب..

ثم انحنى ذلك الشخص، ليلتقط المنظار الداكن..

ولم يحاول (جمال) منعه..

لم يدر لماذا وقف ساكنًا جامدًا هكذا، وهو يحدق في الشخص الغامض، الذي التقط المنظار، ووضعه على عينيه، وعاد يصوب إليه المسدس، و...

وهنا فتح العقيد (محمد) باب الحجرة، وهتف في دهشة.

- ما هذا بالضبط؟

استدار إليه ذلك الشخص في حركة حادة، ثم ضغط شيئًا ما في حزامه، وراح جسده يتلاشى، ويتحول إلى ظل شفاف..

واتسعت عينا (محمد) في ذهول، وهو يتابع ذلك الظل شبه البشري، الذي اتجه في هدوء إلى الجدار، ثم غاص فيه، واختفى تمامًا.

ولثوان، ران على الحجرة الصغيرة صمت رهيب، ثم صرخ (محمد)، وهو يندفع خارجها:

- ما الذي يحدث هنا؟

كان يتوقع رؤية ذلك الظل في الخارج، ولكنه رأى الممر خاليًا، إلا من جنود الحراسة، فأمسك أحدهم في عنف، وصرخ في وجهه:

- أين ذلك الشيء؟!

حدق الجندي في وجهه لحظة، قبل أن يقول في حيرة وارتباك:

- أي شيء؟!

كاد (محمد) يخبره في البداية، ثم لم يلبث أن أدرك عدم جدوى هذا، فقال في حدة:

- لا عليك.. لا تقلق نفسك بهذا.

ثم عاد إلى حجرة الاستجواب، وأغلقها خلفه، ووقف يتطلع إلى (جمال) لحظة في حيرة، قبل أن يتمتم:

- لقد سمعت الرصاصة.. وهذا ما أتى بي إلى هنا.

غمغم (جمال):

- كم يسعدني أنك فعلت.

أشار (محمد) إلى الجدار، وبدا متوترًا مرتبكًا، وهو يقول:

- أهو.. أهو نفس الشيء.

أومأ (جمال) برأسه إيجابًا، دون أن ينبس ببنت شفة، فزفر (محمد) في حرارة، وجذب مقعده، وألقى بنفسه فوقه، وقال:

- لست أصدق هذا.. لو أقسمت لي ألف مرة أن هذا قد حدث، لما صدقتك أبدًا، لولا أن رأيت ذلك الشيء بنفسي.

سأله (جمال) في لهفة:

- وما الذي رأيته بالضبط؟

هز (محمد) كتفيه، وقال:

- غواص.. أو رجل يشبه الغواصين.. أو.. أي شيء يشبه رجلًا يرتدي زي الغواصين.

وابتسم في ارتباك، مستطردًا:

- هذا أفضل ما يمكنني أن أصفه به.

جلس (جمال) بدوره، وقال:

- المهم من هو أو ما هو بالضبط؟

رفع (محمد) سبابته، وهو يقول:

- ولماذا قتل الدكتور (عامر مراد)؟

قال (جمال) في سرعة:

- أنا أعرف جواب هذا الجزء الأخير.

اعتدل (محمد) في اهتمام، قائلًا:

- حقًا؟!

أجابه (جمال):

- أعتقد هذا.. لقد قتل هذا الشيء الدكتور (عامر)، ليمنعه من كشف سر وجوده.

أشعل (محمد) سيجارته، وهو يسأله:

- أليس لديك تفسير أفضل؟

قال (جمال)، في لهجة تحمل شيئًا من الحماس:

- بلى.. لقد كان الدكتور (عامر) يجري تجاربه، حول الترددات الصوتية المتناهية القصر، الخاصة بالاتصالات الفضائية، عندما تسبب ذلك في إحضار ذلك الشيء.

بدت الحيرة على وجه (محمد)، وهو يقول:

- وكيف أحضره؟

لوح (جمال) بكفيه وهو يقول:

- ربما عبر فجوة فضائية، أو بأسلوب الانتقال الآني، أو...

أوقفه (محمد) بإشارة من يده، وقال:

- مهلًا.. مهلًا.. لست أفهم شيئًا من كل هذا، فدراستي كانت في مجملها أدبية بحتة، ويصعب على فهم هذه المصطلحات العلمية، ولكنني أثق بأنك تفهم الكثير، ولكن..

واعتدل في مقعده، مستطردًا:

- ولكنك تحتاج إلى معاونة قوية، لكشف حقيقة الأمر.

وأشار إلى صدره مضيفًا في حزم:

- وأنا سأمنحك المعاونة اللازمة.

مد (جمال) يده يصافحه، وهو يقول في سعادة:

- سيادة العقيد.. إنني أعتذر عن كل ما...

ولكن ملامح (محمد) انقلبت فجأة، وارتسم عليها غضب شديد، وهو ينتزع مسدسه، ويصوبه إلى (جمال)، صائحًا:

- أيها الوغد.

وقبل أن يفهم (جمال) ما يحدث، أو يلقي سؤالًا واحدًا، ضغط (محمد) الزناد، و...

وأطلق النار.

☆ ☆ ☆

4- في كل مكان..

انتفض جسد (جمال) في عنف، عندما أطلق العقيد (محمد) مسدسه نحوه، ثم اتسعت عيناه في دهشة، عندما مرت الرصاصة بجواره، وارتطمت بجدار الحجرة، ورأى (محمد) ينقض عليه في شراسة، فتراجع هاتفًا:

- ما... ماذا فعلت؟

ولكن (محمد) أزاحه جانبًا في عنف، وهو يواصل انقضاضته على الجدار، هاتفًا:

- كنت تتجسس علينا.. أليس كذلك؟

استدار (جمال) في سرعة، وعادت عيناه تتسعان في شدة، حتى كادتا تجحظان هذه المرة..

لقد كان (محمد) يتصارع مع ذلك الظل..

كان يلكمه في عنف وقوة، دون أن يبدي الظل الشفاف حراكًا، وقبضة (محمد) تعبره وتتجاوزه، كما لو كان يلكم الهواء..

وفي غضب، صرخ العقيد (محمد):

- ما أنت بالضبط؟.. أي عبث شيطاني أنجبك؟

قالها ووقف يلهث، وهو يضم قبضته، ويواجه ذلك الظل شبه البشري، الذي بقي صامتًا ساكنًا، وكأنما الأمر لا يعنيه..

ثم أقدم على خطوة عجيبة..

عجيبة ومخيفة في آن واحد..

لقد تحرك نحو (محمد)، و..

واخترقه..

وأمام عيني (جمال) الذاهلتين المذعورتين، غاص ذلك الظل في جسد (محمد)، الذي اتسعت عيناه في ارتياع، وارتجف بشدة، قبل أن يعبره الظل، ويواصل طريقه نحو الحائط، ثم يختفي فيه، كما لو أنه قد امتزج به..

وفي اللحظة نفسها، اقتحم ضابط شرطة الحجرة، وهو يشهر مسدسه، هاتفًا:

- ماذا يحدث هنا؟

ثم انقض على (جمال)، ودفعه أمامه في عنف، حتى ألصقه بالجدار، وألصق فوهة مسدسه بصدغه، وهو يستطرد في قسوة:

- ماذا فعلت؟

هتف (جمال):

- لم أفعل شيئًا.

قال الضابط في حدة:

- لا تسخر مني.. لقد سمعت صوت طلقين ناريين.

ارتجف جسد العقيد (محمد)، في هذه اللحظة، وهتف:

- اتركه يا (حسين).. أنا أطلقت الرصاصتين.

استدار إليه الضابط في دهشة، وقال:

- أنت يا سيدي؟!

لوح (محمد) بكفه، وقال:

- نعم.. نعم.. إنه خطأ غير مقصود.. اتركنا وحدنا.

تطلع إليه الضابط لحظة في حيرة، ثم ألقى نظرة متشككة على (جمال)، وقال:

- كما تأمر يا سيدي.

وغادر الحجرة، وأغلق بابها خلفه، فقال (محمد) في توتر:

- أمر لا يصدقه عقل.

انتزع (جمال) نفسه من توتره، وقال:

- هذا الشيء كان يستمع إلينا.

تلفت (محمد) حوله، وهو يقول في عصبية:

- ربما يواصل فعل هذا.

ثم عقد حاجبيه في صرامة، مستطردًا:

- اسمع يا (جمال).. إنني لم أعد أتهمك بمحاولة قتل الدكتور (عامر) بالطبع، ولكن أعتقد أننا نحتاج إلى تحرك سريع، للإيقاع بالقاتل الحقيقي.

ارتجف (جمال)، وهو يقول:

- أتقصد ذلك الشيء؟!

أومأ برأسه إيجابًا، وقال في حزم:

- نعم.. أقصد ذلك الخطر..، أو..

وصمت لحظة، ثم أضاف في صرامة:

- أو تلك الكارثة.

☆ ☆ ☆

بكت أم (جمال) في حرارة، وهي تندب ابنها، الذي ألقت الشرطة القبض عليه، وربتت (محاسن) على كتفها مشفقة، وهي تقول:

- اطمئني يا سيدتي.. لن يصاب (جمال) بسوء بإذن الله.. لقد استشرت محامي الجريدة، وأكد لي أنه لا يوجد دليل واحد على أن (جمال) فعل هذا، وهو لم يفعله حقًا.

قالت الأم في مرارة:

- محامي الجريدة لا يكفي.. سأوكل أفضل محام في المدينة كلها.

ربتت (محاسن) على كتفها مرة أخرى، وقالت:

- بالتأكيد.. سنفعل بالتأكيد.

لم تكد تتم عبارتها، حتى ارتفع رنين الهاتف، فالتقطت سماعته بحركة آلية، وسمعت (جمال) يقول:

- أماه.. أنا (جمال).. اطمئني.. أنا بخير.. لقد أطلقوا سراحي، و...

قاطعته في لهفة:

- أنا (محاسن) يا (جمال).. كيف حالك؟.. ماذا فعلت؟

اختطفت الأم منها السماعة، وهتفت:

- (جمال).. ابني.. ماذا أصابك؟.. ماذا فعلوا بك؟

ألصقت (محاسن) أذنها بسماعة الهاتف، وسمعته يقول:

- اطمئني يا أمي.. كل شيء على ما يرام.. لقد تأكدوا من أنني لست قاتلًا، وأنا الآن مطلق السراح، ولكن أمامي عمل عاجل، لا بد لي من القيام به أولا، قبل عودتي للمنزل، ولقد اتصلت بك لتطمئني بشأني.

سألته الأم غير مصدقة:

- أي عمل هذا، الذي يمنعك من العودة إلى المنزل؟

أجابها بسرعة:

- التحقيق الخاص بالرجل الذي لقي مصرعه.. إنها خبطة صحفية لا يمكنني التنازل عنها..

سأنتهي منها، وأعود على الفور بإذن الله.

قالت (محاسن) للأم في لهفة:

- سليه أين سيبدأ التحقيق.. سليه بسرعة، قبل أن ينهي المحادثة.

وفي آلية قالت الأم:

- أين سيبدأ التحقيق يا (جمال)؟

أجابها (جمال):

- في المعمل الخاص بالدكتور (عامر)، في كلية العلوم.

أنهى المحادثة بعد عبارتين سريعتين، لتهدئة أمه، ولم تكد الأم تعيد سماعة الهاتف إلى موضعها، حتى سألت في شك وقلق:

- أتعتقدين أنه يقول الحقيقة؟

ولما لم تسمع جوابًا، التفتت إلى حيث تقف (محاسن)، وقالت:

- أتعتقدين هذا يا (محاسن)؟

ثم ارتفع حاجباها، وهي تدير عينيها في المكان بدهشة، مرددة:

- (محاسن)؟!

ولكن المكان كان خاليًا..

بلا (محاسن)..

☆ ☆ ☆

استقبل الدكتور (مجيد) العقيد (محمد) و(جمال) في مكتبه، في كلية العلوم بجامعة (القاهرة)، وتطلع إلى ساعته، قائلًا:

- معذرة.. لقد أتيتما وأنا أستعد للانصراف، فالساعة تجاوزت الثانية ظهرًا، وأنا في طريقي لـ...

قاطعه (محمد) في شيء من الغلظة:

- يؤسفنا هذا، ولكن الأمر عاجل، وغير قابل للتأجيل.

تنهد الدكتور (مجيد)، وألقي نظرة أخرى على ساعته، ثم قال:

- فليكن.. ما المطلوب مني بالضبط؟

أجابه (محمد):

- أنت زميل الدكتور (عامر).. أليس كذلك؟

أومأ الرجل برأسه في أسى، وقال:

- نعم.. إننا زميلان منذ التحقنا بالكلية، ولكن (رحمه الله)، كان كتلة من العبقرية الفذة، التي تحتاج إلى معاملة خاصة.. الحقيقة أنني لم أصدق بعد أنه انتحر، فالشخص المفعم بالحماس مثله، يندر أن..

قاطعه (جمال) في لهفة:

- ألديك فكرة عن طبيعة الأبحاث، التي كان يجريها؟

توقف الدكتور (مجيد) لحظات، ثم قال:

- بالطبع.

ثم استدرك بسرعة:

- ولكنها مجرد فكرة عامة، دون تفاصيل دقيقة.

أشعل (محمد) سيجارته، وهو يقول:

- سيسعدنا أن تشرح لنا هذه الفكرة العامة.

مط شفتيه، وهو يغمغم:

- إنك تطلب أمرًا عسيرًا للغاية.

ولكنه اعتدل، واستطرد في اهتمام:

- بشكل مبسط.. أنت تعلم أن الاتصالات الفضائية ليست بالأمر الهين أو البسيط، وخاصة إذا ما أردت إجراء الاتصال مع كوكب يبعد عنا سنة ضوئية مثلًا، مع العلم أن السنة الضوئية هي مقياس المسافة التي يقطعها الضوء في سنة..

ففي هذه الحالة يحتاج إتمام الاتصال إلى ما يزيد على العامين.

قال (جمال):

- هذا أمر طبيعي، فأسرع وسيلة اتصال لن تتجاوز سرعة الضوء.

نقل (محمد) بصره بينهما، دون أن يستوعب الكثير، وقال في ضجر:

- حسنٌ.. وماذا بعد؟

تابع الدكتور (مجيد):

- ولكن الدكتور (عامر) كانت لديه نظرية خاصة، تقول: إنه من الممكن اختصار زمن الاتصال، في مثل هذه الحالة، إلى أقل من الربع، بحيث يمكنك إرسال رسالة إلى كوكب يبعد عنا سنة ضوئية كاملة، واستقبال الرد، في زمن قدره خمسة أشهر فحسب.

عقد (جمال) حاجبيه، وهو يقول:

- وكيف يمكن أن يتم هذا؟

لاحظ الدكتور (مجيد) أن (جمال) أكثر استيعابًا للأمر، فالتفت إليه بجسده كله، وقال:

- عن طريق ذبذبة خاصة، لم يتم استحداثها من قبل.. ذبذبة تصنع ما أطلق عليه الدكتور (عامر) -رحمه الله- اسم (الفجوة الفضائية الزمنية).. أو (فجوة الزمكان).

رفع (محمد) رأسه في امتعاض، وقال:

- (الزمكان)؟!.. أي مصطلح هذا؟

زفر الدكتور (مجيد) في ضجر، فأجاب (جمال):

- إنه مصطلح علمي، يشير إلى حدوث تغيرات متوازية، في الزمان والمكان، في آن واحد.

ثم التفت إلى الدكتور (مجيد)، وهو يستطرد:

- ومن الواضح أن تجارب الدكتور (عامر) قد نجحت، على الرغم من صعوبتها، وأمكنه التوصل إلى تلك الذبذبة النادرة الفريدة.

قال الدكتور (مجيد) في حماس:

- هذا صحيح، فلقد أخبرني بهذا، منذ خمسة أيام تقريبًا، وقال: إنه يتوقع الحصول على جائزة (نوبل)، بسبب هذا الكشف العلمي الفريد، و...

بتر عبارته بغتة، ليسأل (جمال) في شك:

ولكن كيف عرفت هذا؟.. لقد احتفظ الدكتور (عامر) بكل معادلات ونتائج أبحاثه سرًا، فلم يشاركه إياها سوى معاونه (أشرف)، وهو لن يفشي السر قط.

قال (محمد) في خشونة، وهو ينفث دخان سيجارته:

- لم يعد هناك داع لإفشاء السر.. لقد تسببت أبحاثه في إحضار ذلك الشيء، الذي أزاحه من عالمنا نهائيًا.

انعقد حاجبا الدكتور (مجيد) في شدة، وهو يقول:

- ما الذي يعنيه قولك هذا؟

أشار (محمد) إلى (جمال) في عصبية، وهو يقول:

- سله.. إنه الخبير العلمي في الفريق.

استدار الدكتور (مجيد) إلى (جمال) بنظرة متسائلة، وهم هذا الأخير بتفسير الموقف، عندما حدث فجأة أمر قلب الأمور كلها رأسًا على عقب..

لقد ترددت في المكان كله صرخة رهيبة، امتزجت بوقع أقدام أنثوية، تعدو في الممر بكل قوتها..

وانتفض (جمال) في مقعده، عندما ميز في تلك الصرخة صوتًا مألوفًا..

صوت زميلة مكتبه..

(محاسن)..

☆ ☆ ☆

لم تكد (محاسن) تسمع حديث (جمال) لأمه عبر الهاتف، حتى حملت حقيبتها، واندفعت تغادر المنزل، وقفزت في أول سيارة أجرة استجابت لها، وهتفت بسائقها:

- جامعة (القاهرة).. كلية العلوم.

ومع انطلاق السيارة، ابتسمت في خبث، قائلة:

- إذن فهي فرصة العمر يا (جمال).. يا لك من داهية!.. ولكنني لا أقل دهاءً عنك، وسأظفر بها قبلك.

راحت ترتب أفكارها، وتحاول استرجاع كل ما لديها من معلومات، عن الدكتور (عامر مراد)، وعلوم الفيزياء، حتى سمعت السائق يقول:

- وصلنا يا آنسة.

نقدته أجرته، وقفزت خارج السيارة، وتحركت في سرعة إلى مبنى كلية العلوم، وسألت أول من التقت به:

- أين أجد معمل الدكتور (عامر مراد)؟.

أشار إليها الرجل، قائلًا:

- في الطابق الثاني.

ثم استطرد في فضول:

- ولكن الرجل لقي مصرعه هذا الصباح.. انتحر.

أجابته بسرعة:

- وأنا صحفية، ووجودي هنا مرتبط بتغطية الخبر.

قالتها وهي تهرع إلى معمل الدكتور (عامر)، فهتف الرجل خلفها:

- صحفية؟!.. ستذكرين اسمي إذن.. لقد أرشدتك إلى المعمل.. أنا...

لم تسمع الاسم، وهي تلوح هاتفة:

- بالتأكيد.. بالتأكيد.

ولمحت سيارة (جمال) (السيات) الصغيرة في ساحة انتظار السيارات، فعقدت حاجبيها، مغمغمةً لنفسها:

- ذلك السخيف وصل قبلي.. هذه ميزة امتلاك سيارة خاصة.

ولكنها لم تكد تصعد إلى الطابق الثاني، حتى رأت (جمال) و(محمد)، وهما يدخلان إلى حجرة الدكتور (مجيد)، فقالت لنفسها في دهشة:

- عجبًا له، كيف يتحرك الاثنان معا؟.. هل أصبح (جمال) مرشدًا للشرطة؟

إلا أنها لم تلبث أن طرحت كل هذه الأفكار جانبًا، وهي تبتسم في خبث، وتستطرد:

- ولكنهما ارتكبا غلطة العمر، فبلجوئهما إلى القنوات الرسمية، سيضيعان لحظات ثمينة، يمكنني استغلالها للظفر بالسبق الصحفي.

وتسللت في خفة إلى تلك الحجرة، التي تحمل اسم الدكتور (عامر)، وهمت لحظة بطرق الباب، ثم هزت كتفيها، متمتمة:

- أظنه لن يعود إلى الحياة غاضبًا؛ ولو أنني تسللت إلى معمله دون إذنه.

ودفعت الباب في حذر، وانسلت في خفة إلى المكان..

لم يكن هذا معمله، كما كانت تتوقع، بل كانت حجرة مكتب صغيرة، بها مكتب ومكتبة صغيرة، وفي جدارها الخلفي باب آخر نصف مفتوح، يقود إلى المعمل..

وعلى أطراف أصابعها، تقدمت (محاسن) من باب المعمل نصف المفتوح، وهمت بعبوره..

وفجأة، تناهى إلى مسامعها حديث خافت، يبدو وكأنه من طرف واحد..

طرف يجيب أسئلة غير مسموعة..

واتسعت عينا (محاسن) في ارتياع..

لقد كان الحديث خطيرًا.

بل بالغ الخطورة، حتى أنها أقدمت على أكبر غلطة في حياتها..

أطلقت شهقة قوية..

ومع شهقتها، حدثت جلبة في المعمل، ثم اقترب وقع أقدام سريعة من بابه..

وفي ذعر هائل، جذبت (محاسن) باب المعمل، وأغلقته، ولكن يدًا قوية راحت تجذبه من الطرف الآخر، فصرخت هي:

- النجدة.. النجدة.. أنقذوني.

كانت ترتجف خوفًا وهلعًا، ولا تدري ماذا تفعل، ولا أحد يستجيب لندائها، ولكنها لمحت فجأة مفتاح الباب، في ثقبه الخاص أمامها، فأسرعت تديره، وأغلقت الباب في إحكام، ثم جذبت المفتاح، وألقته بعيدًا، وتراجعت تلقي جسدها على أقرب مقعد إليها، وهي تلهث في توتر وانفعال جارفين..

وتوقفت الجلبة في المعمل، وساد هدوء عجيب، جعلها تحبس أنفاسها، وتتطلع إلى الباب في ترقب وارتياع..

ثم أطلقت شهقة رعب هائلة..

لقد رأت أمامها ذلك الظل الشفاف، وهو يخترق الباب المغلق، ويعبره في نعومة، ثم يتجه إليها في خطوات سريعة..

وصرخت (محاسن)..

صرخت بكل الرعب المتفجر في أعماقها، وانطلقت تعدو في الممر الخارجي بكل قوتها، وهي تصرخ، وتصرخ، وتصرخ..

وفي نهاية الممر، وجدت حجرة مفتوحة، فقفزت داخلها، وأغلقت الباب خلفها في قوة..

ولكن ذلك الظل شبه البشري اخترق الحائط مرة أخرى، ووقف أمامها، وراح يتجسد في بطء، والتمع في قبضته نصل خنجر حاد..

وصرخت (محاسن) أكثر، وأكثر، و...

وهوى الخنجر القاتل.

☆ ☆ ☆

بدويـــة

5- قاتل من عالم آخر..

لم يكد (جمال) يسمع صرخة (محاسن)، حتى وثب من مقعده، وانطلق يعدو خارج الحجرة، في الممر الطويل، الذي يحوي حجرات أعضاء هيئة التدريس، وهو يهتف:

- أين هي؟.. أين ذهبت؟

أجابه أحد العمال في اضطراب:

- هناك.. في حجرة الملفات.. لقد كانت تجري كما لو أن الشيطان نفسه يعدو خلفها.

قال (محمد)، وهو ينزع مسدسه، ويعدو خلف (جمال).

- ربما هذا ما حدث بالفعل.

فغر العامل فاه في ذهول، وهو لا يفهم شيئًا مما يحدث حوله، في حين بلغ (جمال) حجرة الملفات، وراح يجذب مقبضها في قوة، وهو يصيح:

- إنها بالداخل.. الباب مغلق.. لقد سجنها.

غمغم العامل.

- كلَّا.. إنها وحدها.

لم يكد ينطق العبارة، حتى انطلقت داخل الحجرة صرخة مروعة، وكان أحدهم يهم بذبحها، فصرخ (جمال).

- إنه بالداخل معها.. إنه بالداخل.

دفعه (محمد) جانبًا وهو يهتف..

- هذا يحتاج إلى إجراء خاص.

وصوب مسدسه إلى رتاج الباب..

وأطلق النار..

وبدفعة قوية من كتفه، سقط الرتاج، وانفتح الباب على مصراعيه، وتجمدت الدماء في عروق (جمال) وهو يهتف:

- رباه!.. (محاسن).

كانت ساقطة في وسط الحجرة، وصدرها وبطنها ملوثان ببقعتين كبيرتين من الدماء، فاندفع (جمال) نحوها، وحملها هاتفًا:

- الإسعاف.. اطلبوا سيارة إسعاف بسرعة.. إنها تفقد الكثير من الدماء.

أما (محمد)، فراح يدير عينيه حوله في عصبية، وهو يقول:

- هذا الوغد هنا.. أقسم إنه حولنا، في مكان ما.

وفي إعياء وتهالك، فتحت (محاسن) عينيها، وغمغمت:

- الشبح.. إنه.. إنه..

مسح (جمال) العرق المتصبب على جبينها، وهو يقول متعاطفًا:

- اهدئي يا عزيزتي.. لا تبذلي جهدًا.

ولكنها أزاحت أصابعه في صعوبة، وقالت:

- المستشار.. هد... هد...

ثم انهارت فاقدة الوعي، فكرر (جمال) صراخه:

- الإسعاف بسرعة.. أسرعوا بالله عليكم.

وصاح العقيد (محمد) في غضب:

- اكشف وجهك أيها الحقير.. قاتل كرجل ولو لمرة واحدة في حياتك كلها.

ولكن صيحاته، التي رددتها جدران الكلية طويلًا، لم تلق صدي قط..

وضاعت في الفراغ..

الفراغ القاتل..

☆ ☆ ☆

كانت عقارب الساعة تشير إلى الخامسة مساءً، عندما أشعل العقيد (محمد) سيجارته، وهو يقف في قاعة الانتظار بالمستشفى، ونفث دخانها في توتر شديد، وهو يقول:

- الأطباء يقولون: إنها ستنجو بإذن الله.

قال (جمال) في مرارة:

- لو أصابها مكروه، لن أسامح نفسي قط.

نفض (محمد) رماد سيجارته في عصبية، وهو يقول:

- لماذا؟.. إنك لم تفعل شيئًا.. هي التي أتت بقدميها إلى هناك.

زمجر (جمال)، وقال:

- كانت تسعى وراء ذلك السبق الصحفي، الذي أخبرت به أمي.

قال (محمد) في حدة:

- إنه خطؤها.

تقدمت منه ممرضة القسم، في هذه اللحظة، وقالت:

- التدخين ممنوع هنا.

مط شفتيه في حنق، وأطفأ سيجارته، مغمغمًا:

- إنهم يضطهدون المدخنين في كل مكان الآن.

قال (جمال):

- التدخين عادة ضارة، و...

قاطعة في حدة، وهو يلوح بذراعه:

- لست أرغب في سماع محاضرة عن أضرار التدخين.

ثم تحرك مغادرًا قاعة الانتظار، مستطردًا:

- ابق أنت في انتظار صديقتك، وسأواصل أنا عملي.

سأله (جمال) في اهتمام:

- ماذا ستفعل؟

توقف وهو يجيب:

- لن أخبرك.

ثم أشار بسبابته حوله، مستطردًا:

- الحوائط لها آذان كما تعلم.

وغادر المكان مسرعًا، فزفرت الممرضة مغمغمة:

- إنه شديد العصبية.

أجابها (جمال):

- ولكنه يؤدي واجبه جيدًا.

وصمت لحظة، ثم أضاف في حسم:

- وهذا يكفي.

أما (محمد)، فقد غادر المستشفى، وهو يشعر بتوتر بالغ، وقاد سيارته مبتعدًا، وهو يقول لنفسه:

- من يصدق أن هذا يحدث؟.. أنا أطارد شبحًا؟!.. كيف يمكنني تسجيل هذا في محضر رسمي؟!

هز رأسه في حنق، وعاد يستطرد:

- لو أنك هنا أيها الشبح الوغد، تتجسس على أقوالي وأفعالي، فلتعلم أنني لن أفصح عن وجهتي قط.

ثم ابتسم في عصبية، مردفًا:

- ويمكنك بالطبع أن تصحبني إلى هناك، دون أن أراك.

كان هذا ما يثير القدر الأعظم من سخطه بالفعل..

عجزه عن تحديد موقع خصمه..

أو خطوته التالية..

أو حتى طبيعته..

إنه لم ير منه سوى ظل هلامي شفاف، يشبه في تكوينه هيئة البشر..

تمامًا كما يحدث في أفلام الخيال العلمي، التي يبغضها كل البغض..

فجوات فضائية، ومخلوقات عجيبة، وأسلحة تطلق أشعة، و...

ولكن هذا المخلوق يختلف..

إنه لا يستخدم تلك الأسلحة العجيبة، التي تظهر في أفلام الخيال العلمي ورواياته.

فقط يستخدم المسدسات والخناجر..

وربما العصي والهراوات في المرة القادمة..

إنه كائن من كوكب الحواري والأزقة..

كائن متشرد مشاغب.

والأسخف أنه يجهل كيف وصل هذا الكائن إلى الأرض؟.. ولماذا؟..

لماذا يقتل ويبيد كل من يدرك حقيقة وجوده، على هذا النحو البشع، دون شفقة أو رحمة؟!..

ثم ما الذي يعنيه ذلك القول، الذي حاولت تلك الصحفية إبلاغهم إياه، قبل أن تفقد وعيها؟

من ذلك المستشار الذي أشارت إليه؟..

وما صلته بما يحدث؟..

أرهقته الأسئلة، وأثقلت ذهنه، حتى أصابه الضجر، فتمتم في توتر:

- فليكن.. ربما عثرنا على كل الأجوبة هناك.

قاد سيارته بعدها في صمت، حتى بلغ منطقة هادئة، في مدينة المهندسين، أوقف السيارة فيها، وهبط منها ليتجه إلى مبني بعينه، وأبرز بطاقته لرجل شرطة يقف أمامه، وهو يقول:

- هل أعددتم كل شيء.

أدى الجندي التحية العسكرية، وهو يقول:

- نعم يا سيدي، ونحن في انتظار سيادتك، للقيام بالمهمة.

أومأ (محمد) برأسه، دون هدف محدود، ودلف إلى المبنى، وصعد إلى الطابق الثالث منه، حيث يقف ضابط شرطة آخر، مع موظف مدني، وأدى الضابط التحية العسكرية بدوره، وهو يقول:

- هل نبدأ يا سيادة العقيد؟

أشار (محمد) بيده، قائلًا:

- أفعل.

أشار الضابط بدوره إلى الموظف المدني، ففتح دفتره، وراح يدون بصوت مسموع:

إنه في يوم (.....)، وبموافقة السيد مدير النيابة (.....)، تم فتح شقة الدكتور (عامر محمد مراد)، الذي انتحر بتاريخ (....)، وذلك لتفتيشها، والبحث فيها عن أية أدلة أو قرائن أو...

واصل الرجل تلاوة الأمر الرسمي، في حضور بواب البناية، و(محمد) يستمع إليه في ضجر، حتى انتهى، فأخرج الضابط من حرز رسمي سلسلة المفاتيح، التي تم العثور عليها في ثياب الدكتور (عامر)، وفتح الباب، و... وشهق الجميع في دهشة، في حين انعقد حاجبا العقيد (محمد)، دون أن ينبس ببنت شفة، وهو يحدق في الشقة، التي انقلبت محتوياتها رأسًا على عقب، والتي اندفع إليها الضابط، وهو يقول في غضب:

- أحدهم سبقنا إلى هنا.

غمغم (محمد) في عصبية:

- كنت أتوقع هذا إلى حد كبير.

التفت إليه الضابط في دهشة، وهو يقول:

- لماذا؟

قال (محمد) في حدة:

- لديّ أسبابي.

ثم أضاف في صرامة:

- ولكننا سنتجاهل كل ما أمامنا، وسنعيد قلب هذه الأشياء رأسًا على عقب. فربما نسي من سبقنا شيئًا، أو أهمل العثور على دليل بالغ الأهمية. هيا.. سنبدأ عملنا.

وسبق رجاله إلى العمل..

وبمنتهي الحماس..

أو الغضب..

☆ ☆ ☆

انحنى طبيب المستشفى يفحص نبض (محاسن)، بعد أن استقرت في فراشها، وهو يقول:

- لقد نجت بأعجوبة.. لقد أصابتها طعنة في صدرها، على بعد سنتيمترات من البطين الأيسر، وأخرى في معدتها تمامًا، وفقدت لترًا كاملًا من الدم، ولكن كل شيء الآن على ما يرام والحمد لله.

تنهدت الممرضة، وقالت:

- حمدًا لله.. صديقها كاد يقتل نفسه حزنًا عليها في الخارج.

تلفت الطبيب حوله، وقال:

- وأين ذهب الآن؟

هزت كتفيها، قائلة:

- لست أدري.. لقد اختفى فجأة، بعد نجاح العملية.

ابتسم الطبيب في خبث، وهو يلملم أدواته، قائلًا:

- هكذا الصحفيون ورجال الفن.. عواطفهم تنسكب بسرعة الصاروخ، وتنحسر بسرعة البرق.

شاركته الممرضة ضحكة ساخرة، ثم تبعته إلى الخارج، وهي تسأله:

- وماذا عنها؟.. هل أحقنها بعقار مسكن، قبل أن تستعيد وعيها؟

أجابها في آلية:

- نعم، وهي تحتاج إلى نصف لتر من الجلوكوز، ومثله من الـ...

تلاشي صوتهما وهما يبتعدان عن الحجرة، بعد أن أغلقت الممرضة الباب خلفها، وران على الحجرة صمت ثقيل، إلا من ذبذبة آلات رسم القلب والأكسجين، التي راحت تتردد في رتابة، وتضفي على الحجرة جوًا رهيبًا..

وفجأة، انفصل عن الجدار ظل نصف شفاف، توقف لحظات في فراغ الحجرة، ثم تقدم في هدوء إلى فراش (محاسن)، ووقف إلى جواره، وراح يتجسد في بطء، حتى أصبح في هيئة بشرية واضحة، بذاك الزي الأسود، والمنظار العجيب، والجهاز الشبيه بإسطوانات الأكسجين خلف ظهره..

ثم استل خنجرًا ماضيًا، ورفعه في هدوء، ثم هوي به؛ ليطعن تلك الراقدة أمامه.

يطعنها في مقتل.

☆ ☆ ☆

6- أول الخيط..

مط (محمد) شفتيه في غضب، وطوح الكتاب الذي يمسك به، على مرمى يده، وهو يقول في حنق:

- مهمة فاشلة.. لم نعثر على ذرة من الرمال، تفيد سير القضية.

أجابه الضابط في ارتباك:

- لقد بذلنا قصارى جهدنا يا سيادة العقيد، ولكن من الواضح أن ذلك الذي..

قاطعه (محمد) في سخط:

- الذي سبقنا.. أليس كذلك؟.. بالتأكيد.. ذلك الوغد الذي سبقنا حصل على كل شيء، ولم يترك لنا سوى كومة من الكتب العلمية، التي لا أفهم منها حرفًا واحدًا، وأثاث مبعثر في كل مكان.

غمغم الضابط:

- على الأقل، كان يعرف ما يبحث عنه.

زوي العقيد (محمد) ما بين حاجبيه في شدة، وهو يقول:

- نعم.. كان يعرف ما يبحث عنه.

ثم ركل سلة المهملات المجاورة لمكتب الدكتور (عامر)، وهو يستطرد:

- يعرفه جيدًا.

سقطت السلة، وتبعثرت محتوياتها، فتطلع إليها (محمد) في اهتمام بالغ، ثم انحنى يلتقط ورقة معتصرة من بينها، وهو يتمتم:

- تُري هل..

فض الورقة في سرعة، وراح يقرأ محتواها في اهتمام بالغ..

كانت مجرد مسودة، أو صفحة من مذكرات يومية، اعتاد الدكتور (عامر) تدوينها، ولكنه أخطأ كتابة جزء منها، فانتزعها وألقاها في سلة المهملات، وأعاد تدوينها على الأرجح..

وفي هذه المسودة، كان هناك الكثير..

الكثير جدًا..

وبرقت عينا العقيد (محمد)، وهو يدس الورقة في جيبه، قائلًا:

- كفي يا رجال.. لقد حصلنا على ما يكفينا.

وارتسمت على طرف شفتيه ابتسامة ظافرة، وهو يستطرد:

- وعرفنا من هو خصمنا بالضبط.

☆ ☆ ☆

كان خنجر ذلك القاتل، في طريقه إلى قلب (محاسن) مباشرة، عندما برز (جمال) فجأة، من خلف ساتر في ركن الحجرة، وهو يقول:

- كنت واثقًا من أنك ستفعلها.

استدار القاتل بسرعة إلى (جمال)، وبدا مظهره مخيفًا، في زيه الحالك السواد، الذي يخفي جسده كله، وذلك المنظار المخيف، الذي يعكس أضواء الحجرة كلها..

ولكن (جمال) لم يسمح لذلك الشيء بإثارة خوفه وذعره مرة أخرى..

لقد انقض عليه بكل قوته وسرعته، قبل أن يمنحه الفرصة للتحرك والتفكير..

ولم يكن الأمر بالخطورة التي تصورها..

قبضته هوت على فك القاتل، كما تهوى على فك أي بشري عادي، وألقته أرضًا، ثم وثب نحوه، وركله في معدته، وهو يقول:

- عجبًا!.. لماذا تبدو بشريًا إلى هذا الحد؟

حاول القاتل أن ينهض، ولكن (جمال) ركله مرة أخرى في فكه، مستطردًا:

- إنك حتى لم تعد تخيفني.

وفي تلك اللحظة، فتحت الممرضة الباب، وصرخت في ارتياع:

- ما هذا؟.. ماذا يحدث هنا؟!

التفت إليها (جمال)، وقال:

- لا تتدخلي.. ابتعدي بسرعة.

وعندما عاد يستدير إلى ذلك القاتل، كان قد بدأ يتلاشى تدريجيًا، فصاح في ذعر:

- لا.. لا تفعلها.

وانقض عليه، ليلكمه مرة ثانية، ولكن قبضته عبرت جسد القاتل، كما لو كان مجرد صورة هولوجرافية، فتراجع (جمال) في توتر، وهو يقول:

- سحقًا لهذا.. لقد بلغ ما يبتغي.

وفي مرارة وعجز، راقب ذلك القاتل فوق الطبيعي، وهو ينهض واقفًا، وجسده يكتسب شفافية أكثر وأكثر، في حين جحظت

عينا الممرضة، وشهقت هاتفة:

- ع.. عفريت.

ثم هوت فاقدة الوعي..

أما ذلك الظل القاتل، فقد اتجه نحو (جمال)، في حركة توحي بالغضب، وتراجع (جمال) قائلًا في عصبية:

- هذا قتال غير متكافئ.. إنك تمتلك قدرات فوق طبيعية.

ولكن الظل اخترق فراش (محاسن)، وجسدها، وعبرهما إلى حيث يقف (جمال)، الذي لكمة مرة، وثانية، وثالثة، واخترقته قبضته في المرات الثلاث، دون أن يهتز له جفن..

ثم فجأة، توقف (جمال)، واعتدل قائلًا:

- مهلًا.. أنت أيضًا عاجز عن إيذائي.

توقف الظل بحركة حادة، كما لو أن القول قد باغته، فتابع (جمال) في حماس:

- بالطبع.. كيف لم أنتبه إلى هذا؟ إنك لا تستطيع لمسي إلا عندما أستطيع أنا أيضًا لمسك.. هذا واضح.. إننا نتساوى في هذا الأمر.

مكث الظل ساكنًا لحظة، ثم تزايدت شفافيته، حتى تلاشى تمامًا، فهتف (جمال)، وهو يتلفت حوله:

- أين ستذهب؟ لقد انكشف أمرك.. ماذا ستفعل الآن؟

ولكن شيئًا حوله لم يحدث..

لقد ساد صمت رهيب، مخيف، جعل قلبه يخفق في عنف..

كان واثقًا من أن ذلك الشيء لم يبتعد..

إنه هنا، في مكان ما..

يراقب..

يستمع..

يترقب..

يتحفز..

وفي لحظة ما، سينقض..

وسيقتل..

ولم يكن أمام (جمال) سوى أن يتلفت حوله طوال الوقت..

وينتبه..

ويتحفز بدوره..

ولكن فجأة، ظهر الطبيب المعالج، واتسعت عيناه في دهشة، وهو ينقل بصره ما بين الممرضة الفاقدة الوعي، و(جمال) الذي يدير عينية فيما حوله في عصبية، فهتف:

- ما هذا بالضبط؟.. من أنت؟

اندفع (جمال) نحوه، وقال:

- أريد نقل هذه المريضة من هنا.. وجودها في هذا المكان يعرضها لخطر بالغ.

صاح به الطبيب في توتر:

- أي خطر.. إننا نوليها عناية فائقة.

ثم أزاحه جانبًا، واتجه نحو (محاسن)، وفحصها في سرعة، ثم استطرد:

- ها هي ذي، في خير حال.. ستستعيد وعيها بعد ساعة على الأكثر، و...

بتر الطبيب عبارته فجأة، واتسعت عيناه في ذعر وذهول، ثم تراجع في حركة عنيفة، كما لو أن صاعقة قد أصابته، لقد رأي ظلًا بشريًا يتجسد أمامه، وهو يمسك خنجرًا، ويغرسه في جسد (محاسن)..

في موضع القلب تمامًا..

ولم يكن الخنجر مغروسًا في قلبها بالفعل.

فقط، كان يعبر جسدها، كظل غير عادي، والظل الممسك به يتجسد في بطء..

وصرخ (جمال).

- لا.. إنه يقتلها..

واندفع نحوه، وحاول أن يضربه، أو بلكمه، أو يزيحه جانبًا..

ولكن الظل تراجع في بطء، وتخلى عن خنجره، وتركه في موضعه، في جسد (محاسن)..

وهوي قلب (جمال) بين قدميه..

لقد تحرك الظل وخنجره، في اتجاهين متعارضين تمامًا..

الظل تلاشى في سرعة، والخنجر تجسد بنفس السرعة..

وشهقت (محاسن) في قوة، عندما تحول الخنجر إلى كيان مادي، وهو مغروس حتى مقبضه في قلبها..

شهقت شهقة أخيرة، ثم استكان جسدها كله..

وانهار (جمال)، وهو يصرخ:

- لقد قتلها.. ذلك الشيء اللعين... قتلها.

وخيل إليه لحظتها أن جدران الحجرة تردد ضحكة ساخرة، ظافرة، شامتة..

ضحكة ظل قاتل..

☆ ☆ ☆

ألقى العقيد (محمد) سيجارته جانبًا، وهو يدلف إلى حجرة ضابط مباحث القسم، الذي يتبعه المستشفى، وقال:

- أين هو؟

أشار الضابط إلى حجرة جانبية، وهو يقول:

- لن يمكنك أن تصدق.. إنه نائم، تحت حراسة ثلاثة من الجنود كما أمرت.

قال (محمد):

- من الطبيعي أن يسقط نائمًا، فهناك عقار مهدئ يسرى في عروقه منذ الصباح، دون أن يجد الفرصة لحظة واحدة للراحة.

هز الضابط رأسه في حيرة، وقال:

- ولو.. كيف يمكنه أن يستغرق في النوم، بعد أن ارتكب فعلته الرهيبة هذه؟!.. لقد قتل فتاة مريضة، فاقدة الوعي..

أشعل (محمد) سيجارة أخرى، وهو يقول:

- لا يوجد دليل واحد على أنه هو القاتل.

أجاب الضابط في شيء من التوتر:

- هذا ما يقوله هو.. بل إنه يحاول ادعاء الجنون، ويقص قصة ساذجة، يستحيل أن يصدقها أي شخص عاقل.

نفث (محمد) دخان السيجارة، وهو يقول:

- قصة عن شبح يظهر ويختفي.. أليس كذلك؟

حدق الضابط في وجهه بدهشة، وهتف:

- تمامًا.. هل سبق أن أخبرك بها.

هز (محمد) كتفيه، وقال:

- يمكنك أن تقول: إنني مررت بظروف مشابهة.

عاد الضابط يحدق في وجهه بدهشة، وهو يقول:

- سيادة العقيد.. هل تعني بالفعل ما تقول؟

لوح (محمد) بكفه، وقال:

- دعك مما أقوله أنا، وأخبرني.. ماذا يقول شهود الحادث؟

مط الضابط شفتيه، وقال:

- إنهم مجانين أيضًا.. الممرضة تقول: إنها رأت عفريتًا في الحجرة، والطبيب يؤيد أقوال هذا الصحفي المخبول.

قال (محمد) في حزم:

- هذا يعني أنك لا تمتلك الحق في احتجاز الصحفي، ما دامت أقوال الشهود تؤكد أنه ليس القاتل.

هتف الضابط في عصبية:

- ومن نتهم إذن؟.. العفريت؟!

أجابه (محمد) في صرامة:

- اتهم من يحلو لك، ولكن لا تجعل وكيل النيابة يسخر منك، وأنت تقدم له شخصًا أجمع الشهود على تبرئته، لمجرد أنك

عجزت عن الإيقاع بالقاتل الحقيقي.

ثم دفع باب الحجرة المجاورة، وقال:

- هيا.. استكمل إجراءات إطلاق سراحه، حتى أتبادل حديثًا سريعًا معه.

وأشار لجنود الحراسة الثلاثة، فغادروا الحجرة، وتركوه وحده مع (جمال)، الذي استغرق في نوم عميق، فوق فراش متهالك، في ركن الحجرة، فتطلع (محمد) إلى ساعته، وغمغم:

- لقد حصل على ساعتين من النوم العميق، وهذا يكفيه.

ثم جلس على طرف الفراش، ودفع (جمال) في رفق، قائلًا:

- هيا استيقظ يا (جمال).. ليس أمامنا وقت لنضيعه.

وعلى الرغم من هدوء وبساطة الحركة، إلا أن (جمال) قفز من الفراش مذعورًا، وهو يهتف:

- لا.. لا.. ابتعد.

هتف به (محمد):

- رويدك يا فتى.. إنه أنا.. هل أصابك كابوس آخر؟

حدق (جمال) في وجهه لحظة، ثم جلس إلى جواره، على طرف الفراش، ولهث في شدة، كما لو أنه يعدو منذ ساعة كاملة، وقال:

- الكوابيس لم تعد تنقطع عن زيارتي قط، كلما أغمضت عيني.. تصور.. لقد رأيت ذلك الظل في كابوس، وهو يقتل (محاسن)، و...

يتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه في هلع، وهو يهتف:

- ولكن هذا ليس كابوسًا.. إنه حقيقة.. لقد قتل (محاسن).. أليس كذلك؟.. قتلها كأي وغد جبان.

وترقرقت عيناه بالدموع، ولكن (محمد) قال في سرعة، لينتزعه من حالة الانهيار، قبل أن يبلغها:

- لقد عرفنا طبيعته على الأقل.

التفت إليه (جمال)، هاتفًا:

- حقًا؟!.. أهو مخلوق فضائي كما توقعنا؟

هز (محمد) رأسه نفيًا، وقال:

- لا.. لا أعتقد هذا.

ثم ناوله الورقة، التي عثر عليها في سلة مهملات الدكتور (عامر)، مستطردًا:

- لقد عثرت على هذه، وأعتقد أنك أقدر على فهمها مني.

التقط (جمال) الورقة، وراح يقرأ ما بها بصوت مسموع، ولهفة حقيقية:

- الثامن من أغسطس.. أتممنا اليوم، أنا و(أشرف)، أول تجربة للذبذبة الجديدة، ولكن النتيجة لم تكن كما توقعنا.. صحيح أن الفجوة (الزمكانية) قد حدثت، ولكن ليس في غياهب الفضاء، بل في الـ...

توقف عن القراءة وقال:

- هناك جزء ممزق وضائع.

قال (محمد) في اهتمام:

- اقرأ الجزء الآخر.

واصل (جمال) القراءة، قائلًا:

- ويبدو أن (أينشتين) لم يكن مخطئًا، عندما تحدث عن الأبعاد الأخرى، فتجربتنا تثبت هذا، و..

كان هذا آخر ما تحويه الورقة، فعقد (جمال) حاجبيه، وهو يقول:

- أهذا كل شيء؟

قال (محمد) في عصبية:

- ألا يكفيك لتفهم الموقف كله؟

أعاد (جمال) قراءة الورقة، وقال:

- إنها تعني أن هذا المخلوق الذي نواجهه، ليس كائنًا فضائيًا.

هتف (محمد) في حماس:

- لقد خمنت هذا.

غمغم (جمال):

- وربما يعني أنه كائن من بُعد آخر.

مال (محمد) برأسه إلى الأمام، وهو يقول في دهشة حائرة:

- من ماذا؟!

تنحنح (جمال)، وقال:

- من بُعد آخر.. سأحاول شرح الأمر بشكل مبسط.. أنت تعلم أن كل شيء في العالم له ثلاثة أبعاد رئيسية.. الطول، والعرض، والارتفاع.. وعندما وضع (أينشتين) نظرياته، أضاف إليها البُعد الرابع، وهو الزمن، وأشار إلى وجود بُعد خامس، يختلف منظور الأشياء فيه عن عالمنا، ذي الأبعاد الأربعة، و...

كانت تلك النظرة الحائرة العصبية التي تطل من عين (محمد)، تكفي لأن يبتر (جمال) حديثه، ويقول في سرعة:

- باختصار.. هناك عوالم حولنا، لا يمكننا رؤيتها، أو الشعور بها، ولها قواعد وقوانين طبيعية، تختلف تمامًا عن قوانين عالمنا.

قال (محمد) في لهجة تحمل شيئًا من الاستنكار:

- وهذا الشيء جاء من هناك؟!

أومأ (جمال) برأسه، وقال:

- هذا ما يبدو.

صمت (محمد) لحظات، ثم قال في حزم:

- هل تعلم أين يمكننا الحصول على كل الأجوبة؟

ونهض في حماس، مضيفًا:

- عند ذلك المساعد.. (أشرف).

هتف (جمال):

- بالطبع.. لقد شارك الدكتور (عامر) كل تجاربه، وهو يعرف الكثير بالتأكيد.. كيف لم أنتبه إلى هذا؟

قال (محمد):

- أنا انتبهت إليه، وحصلت على عنوان (أشرف) هذا، وسنذهب إليه على الفور.

تطلع (جمال) إلى ساعته، وقال:

- ولكنها العاشرة والنصف مساء الآن.

قال (محمد) في صرامة:

- الواجب لا توقيت له.. هيا.

غادرا قسم الشرطة معًا، وضابط المباحث يتابعهما في سخط غاضب، وأشار (محمد) إلى سيارة (جمال) الصغيرة، وهو يقول:

- اترك سيارتك هنا، وستذهب بسيارتي، و...

قاطعة فجأة أحد رجال الشرطة، وهو يسرع نحوهما، قائلًا:

- سيادة العقيد.. هناك اتصال عاجل.

سأله (محمد):

- من؟!

ارتبك الجندي لحظة، ثم قال:

- سيادة اللواء مدير الأمن.

انعقد حاجبا (محمد) في غضب، وغمغم في حدة:

- إنه ضابط المباحث.. لقد تقدم بشكوى عاجلة.. يا له من سخيف!

ثم استدار إلى (جمال)، قائلًا:

- اسمع.. إنه يحاول منعي من الإفراج عنك.. أنا أعرف هذه الأساليب.. ولكننا لن نمنحه الفرصة لهذا.. غادر المكان على الفور، واتجه أنت إلى منزل (أشرف)، وسألحق بك بعد أن انتهي من هذه المشكلة.. أسرع، ولا تضيع الوقت.. ها هو ذا العنوان.

أسرع (جمال) بالفعل إلى سيارته، وضابط المباحث يراقبه من نافذة حجرته في غضب، وانطلق بها مبتعدًا، في حين شد العقيد (محمد) قامته، وقال في حزم:

- أهلًا بالمعارك.

وعاد إلى قسم الشرطة..

أما (جمال)، فقد استرشد بالعنوان، واتجه مباشرة إلى منزل (أشرف)، وعندما أوقف السيارة أمام المنزل، لاحظ أن الأضواء كلها مطفأة، فتمتم:

- يبدو أنني سأضطر إلى إيقاظ (أشرف) هذا من نومه.

صعد إلى شقة هذا الأخير، وتردد لحظة، قبل أن يضغط جرس الباب، ومضت لحظات من الصمت، ثم أضيئت الأنوار، وانفتح الباب، وظهر (أشرف) على عتبته، وهو يقول في حنق:

- من يأتي في مثل هذه الساعة؟

غمغم (جمال) في حرج:

- أنه أنا.. لقد..

وفجأة، بتر عبارته، وهو يحدق في عيني (أشرف) في دهشة وذعر..

وفي اللحظة التالية، هوت ضربة قوية على رأسه، قبل أن يفيق من ذهوله، فترتح جسده في عنف، ثم استقبل الضربة الثانية، و...

وسقط فاقد الوعي.

☆ ☆ ☆

7- المواجهة..

انعقد حاجبا مدير الأمن، وهو يستقبل العقيد (محمد) في مكتبه، قائلًا في صرامة:

- ماذا تفعل بالضبط يا حضرة الضابط؟.. كيف أتلقى من ضابط مباحث شكوى بأنك تحاول إنقاذ متهم في جريمة قتل؟.. ألا تعرف ما يعنيه هذا، بالنسبة لوظيفتك ومستقبلك؟!

شد (محمد) قامته، وهو يقول في حزم:

- إنني لم أخالف القانون يا سيدي.

قال مدير الأمن:

- ولكنك خالفت كل القواعد والأعراف، المعمول بها في عالمنا، عندما تجاوزت إرادة زميلك، وأفرجت عن ذلك الصحفي.

قال (محمد):

- ولكنني لم أخالف القانون.

رمقه مدير الأمن بنظرة غاضبة، تحمل شيئًا من الدهشة، ثم قال في صرامة:

- (محمد).. لماذا فعلت هذا؟

صمت (محمد) بضع لحظات، ثم قال في حزم:

- كانت لدي أسبابي..

سأله في غضب:

- وما هي أسبابك؟

عاد إلى صمته قليلًا، قبل أن يجيب:

- لا يمكنني الإفصاح عنها في الوقت الحالي.

تضاعف الغضب في عيني مدير الأمن وملامحه، وهو يتبادل نظرة قاسية صارمة مع (محمد)، ثم قال في حدة:

- اسمع يا (محمد).. لو أنك شخص آخر، غير العقيد (محمد عبد المنعم) الذي أعرفه، والذي يتفانى طيلة عمره في عمله وأداء واجبه، لاتخذت معك إجراءات عنيفة وصارمة.. ولكنني حتى غير مستعد لهذا، في الوقت الحالي، فنحن مشغولون بتأمين المؤتمر الاقتصادي المصري الألماني، وهذا يستنزف كل جهودنا.. هيا.. اذهب الآن، وسنناقش هذا فيما بعد..

اعتدل (محمد) في وقفته، وقال:

- أشكرك يا سيدي.

وغادر مكتب مدير الأمن، ومبنى المديرية كله، وانطلق بسيارته إلى منزل (أشرف)، وهو يغمغم في حنق:

- إذن فهذا أسلوب تعاملك يا حضرة ضابط المباحث.. أقسم أن تدفع الثمن غاليًا، عندما أفرغ من هذا الأمر.

كان يقود سيارته بسرعة كبيرة نسبيًا، مستغلًا خلو الطرقات، في هذه الساعة المتأخرة، حتى بلغ منزل (أشرف)، فصعد إليه في سرعة، ولم يكد يبلغ الشقة حتى هتف:

- تبًا لهذا!!

كانت الشقة مفتوحة، وخالية من أي إنسان، ومحتوياتها مبعثرة في جميع أرجائها..

وفي عصبية، هتف (محمد):

- أما من نهاية لكل هذا؟.. ما الذي فعلوه بهذا الشاب أيضًا؟.. ثم أين (جمال)؟

وماذا أصابه؟

ولم تكن هناك أجوبة.

أية أجوبة..

☆ ☆ ☆

استعاد (جمال) وعيه في بطء، وبدأت عيناه في تمييز ما حوله في صعوبة..

كان يرقد على أريكة واسعة، مقيد المعصمين والقدمين، وسط قاعة أشبه بمعمل اختبارات كامل، يقف في منتصفها رجل..

بل شاب هادئ وسيم..

إنه (أشرف)..

مساعد الدكتور (عامر)..

وهتف (جمال) في توتر:

- إذن فهو أنت؟!

مط (أشرف) شفتيه، وقال في برود:

- نعم.. هو أنا.

ثم لوح بكفه، مستطردًا:

- ولكنني لم أتصور أنك ستتعرفني بهذه السرعة.. لقد قرأت هذا في عينيك، وكان من الضروري أن أتحرك بسرعة.

قال (جمال) في حنق:

- لهذا هاجمتني، وأفقدتني الوعي؟

هز كتفيه، قائلًا:

- لم يكن هناك حل آخر.. كشفك الأمر يفسد كل شيء.

أجابه (جمال) في عصبية:

- كان من المستحيل أن أنسى عينيك.. صحيح أنني رأيتهما مرة واحدة فقط، وللحظات معدودة، عندما سقط المنظار في حجرة الاستجواب بالقسم، ولكنهما انحفرا في ذاكرتي، وأصبح نسيانهما مستحيلًا.

قال (أشرف) في برود:

- أعتقد أنك ستندم على هذا.

أدرك (جمال) ما يعنيه هذا، ولكن فضوله الصحفي هزم خوفه، وجعله يسأل:

- ولكن كيف تفعل هذا؟

ابتسم (أشرف) في سخرية، وهو يقول:

- لن يمكنك فهم هذا.

استفزت العبارة (جمال)، فقال:

- الأمر يتم بمساعدة تلك الفجوة، بيننا وبين البُعد الخامس.. أليس كذلك؟

انعقد حاجبا (أشرف) في شدة، ثم لم يلبث أن رفعهما، وعاد يخفضهما، قبل أن يقول في شيء من العصبية:

- يبدو أن الدكتور (عامر) أخبرك بالكثير، قبل أن ألقيه من نافذة حجرتك.

قال (جمال) في سرعة:

- أكثر مما تتصور.

لم يكد ينطقها، حتى شعر بالندم، وخاصة مع تلك النظرة الغاضبة، المفعمة بالتوتر والمقت، التي أطلت من عيني (أشرف)، قبل أن يقول:

- هكذا؟!

وتراجع خطوتين، ليجلس فوق مقعد صغير، وهو يتابع:

- الحقيقة أنه لم يكن يتوقع هذا.. كانت كل الأبحاث التي تجريها تتحرك في اتجاه واحد محدود، ألا وهو الاتصالات الفضائية بعيدة المدى، وعندما نجح في تكوين وبث تلك الذبذبة الخاصة، التي توصل إليها، كانت المفاجأة مذهلة.

قال (جمال):

- فجوة البُعد الخامس.

ابتسم (أشرف)، وقال:

- بل البُعد الخامس نفسه.. المدى الذي يمكن أن تتحرك فيه المادة، وهي في حالة أشبه بالطاقة.. الطاقة المادية، أو مادة اللا مادة.. كشف جديد مذهل، لم يخطر ببال أعظم عباقرة الفيزياء في الدنيا.. العالم الخفي، المحيط بالعالم الذي نحيا فيه، ويتخلله، ويتغلغل في أعماقه..

وتوقف ليلتقط نفسًا عميقًا، قبل أن يتابع:

- ولم يصدق الدكتور (عامر) نفسه.. لقد توصل إلى كشف القرن.. إلى الذبذبة الكافية لتغيير وجه العالم أجمع بضربة واحدة.

وبرقت عيناه، وهو يستطرد:

- إلى أعظم سلاح حربي في التاريخ.

قال (جمال):

- مستحيل!.. الدكتور (عامر) كان رجلًا محبًا للسلام، ويكره الحروب والقتل والدمار.

رفع (أشرف) سبابته أمام وجهه، وقال:

- وهذا أكبر عيوبه.. كان يتصور أن نتائج الأبحاث لابد أن تقتصر على الأغراض السلمية، على الرغم من أن الأغراض الحربية هي وحدها التي تحقق المجد والثراء.. سلاح حربي جديد واحد، يكفي لتحويل مبتكره من شحاذ إلى ملياردير، في غمضة عين.

قال (جمال) في ازدراء:

- ألهذا فعلت ما فعلت؟!

لوح بكفه، وقال:

- يمكنك أن تقول: إنني الرابح الوحيد في اللعبة كلها، ومنذ البداية؛ فالدول العظمى تتابع دائمًا الموهوبين والعباقرة، من أبناء الدول الأخرى، وعندما لاحظ المسئولون في أكبر دولة، أن الدكتور (عامر) يتقدم بأبحاثه إلى مدى بعيد، قرروا التجسس على أبحاثه، ومتابعتها أولًا فأولا.. ولم يكن من الممكن أن يحدث هذا، إلا عن طريق شخص وثيق الصلة به، وبأبحاثه ودراساته.

قال (جمال):

- وأفضل شخص في هذا المضمار، هو أنت.. أليس كذلك؟

ابتسم قائلًا:

- بالطبع.. من أفضل من المساعد الوحيد للدكتور (عامر)..

لقد جندوني للعمل معهم، مقابل راتب ضخم، وكان هذا يكفيني، حتى توصل الدكتور (عامر) إلى ذلك الكشف المذهل.. عندئذ أدركت أنني أمام فرصة العمر، فإما أن أحسن استغلالها، أو أصبح أغبى رجل على وجه الأرض.

قال (جمال) في سخرية:

- وهكذا أصبحت أكثر رجال العالم شرًا.

هز (أشرف) كتفيه، وقال:

- هذا يتوقف على الزاوية التي تنتظر منها إلى الأمور.. ولكن من موقعي أنا، وجدت أمامي فجوة مدهشة، للعبور إلى عالم القوة.. فبواسطة زي خاص، صنعه أيضًا الدكتور (عامر)، يمكنني استخدام جهاز الذبذبة الخاصة، للعبور من الحالة المادية إلى حالة شبه الطاقة.. فتنهار أمامي كل الموانع والعقبات.. أجتاز أكثر الحواجز قوة، وأشدها متانة، كما يخترق خنجر حاد جدارًا من الماء.. ويمكنني أن أختفي تمامًا، أو أتجسد، أو أضع نفسي في أية درجة بين الحالتين.. إنها قوة خرافية، ونشوة لا يشعر بها إلا من اختبرها وذاقها.

ثم انقلبت سحنته، وهو يستطرد:

- ولكن كانت أمامي عقبة واحدة، للانفراد بهذه القوة.. الدكتور (عامر) نفسه.

قال (جمال):

- ولهذا قتلته.

هز كتفيه، قائلًا:

- لم يكن هناك حل بديل.. لقد أجريت اتصالًا مع هؤلاء المسئولين، في الدولة العظمى، وأبلغتهم ما لدي، وعرضوا على مليارًا من الدولارات؛ ليحصلوا على المعادلات والاختراع، ولكنني رفضت، وشرحت لهم أن أحدًا غيري لن يتمتع بهذه القوة قط، وخاصة بعد أن دمرت كل المعادلات، ونتائج الأبحاث، وقتلت الدكتور (عامر).

وبرقت عيناه على نحو جنوني، وهو يضيف:

- أنا صاحب القوة المطلقة.. أنا (سوبرمان) العصر الحديث، والكل يطلب خدماتي، ويدفع الملايين مقابلها.

أدرك (جمال) أن هذه القوة قد أصابت الشاب بالغرور، وبشيء من الجنون، فقال محاولًا إنقاذ نفسه من براثنه:

- فاتك أمر بالغ الأهمية.. إنني لم آت إلى منزلك سرًا.. العقيد (محمد) أيضًا يعرف أنني هنا، و...

قاطعته ضحكة عالية ساخرة، أطلقها (أشرف)، قبل أن يقول:

- لا تعتمد كثيرًا على هذا، فلسنا في منزلي.. لقد أفقدتك الوعي، ونقلتك إلى هذه الفيلا المنعزلة، التي ابتعتها بثمن أول عملية سأقوم بها، عبر البُعد الخامس.. أما منزلي، فقد قلبت محتوياته، وبعثرتها، بحيث سيتصور زميل كفاحك أنني وأنت قد تعرضنا لهجوم مدمر، وسيكون من السهل بعدها تبرير مصرعك.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة مخيفة، وهو يستدرك:

- أو بمعنى أدق.. اختفائك التام.

سأله (جمال) في توتر:

- ماذا تعني؟!

أجابه وهو يشير إلى دولاب جانبي:

- أعني أنك ستتذوق قوة العبور إلى البُعد الخامس.. ولكن لمرة واحدة وأخيرة.

ونهض يفتح الدولاب، الذي بدا داخله ذلك الزي الأسود المخيف، فجذب منه الشيء الشبيه بأسطوانات الغوص، وهو يقول:

- هذا هو جهاز الانتقال.. جذبة صغيرة لتلك الذراع الدقيقة، ويغوص جسدك في البُعد الخامس، أو يعود منه.. ولكن ماذا لو ذهب دون أن يعود؟

سرت قشعريرة باردة في جسد (جمال)، وقد أدرك ما يعنيه (أشرف)، الذي تابع، وهو يلوح بيده اليسرى في الهواء، ويحمل جهاز الانتقال باليمني، متوجهًا به إليه:

- سيتبعثر جسدك في الفراغ، ويبقي إلى الأبد ضائعًا، لا هو بالمادة، ولا بالطاقة.. إنه أبشع ضياع في الكون، لأنك ستشعر، وتتألم، وتخاف، ولكن دون أن تملك وسيلة للعودة.

ووضع الجهاز إلى جوار (جمال)، مضيفًا في شراسة عجيبة:

- هيا.. قل وداعًا لهذا العالم..

ولكن (جمال) لم يكن مستعدًا للموت..

ولا للاستسلام..

وبكل ما يملأ عروقه من خوف، وغضب، ورغبة في البقاء، دفع قدميه في صدر (أشرف)، وهو يهتف:

- لا.. ليس الآن.

كانت الضربة من القوة، حتى أنها ألقت (أشرف) بعيدًا، ولكنه كان من الصلابة، بحيث استعاد سيطرته على نفسه في سرعة، وصاح في غضب:

- أيها الحقير.. لن تفلت مني أبدًا.

واختطف خنجره، وهوي به على (جمال)، الذي تراجع بسرعة، ورفع قدميه في حركة آلية غريزية ليصد الهجوم..

وكان هذا من حسن حظه..

لقد أصاب الخنجر قيود قدميه، فمزقها، مع جزء من سرواله، وجرح كاحله، فصاح (أشرف) في غضب، وهو ينقض عليه مرة أخرى:

- لن يواتيك الحظ إلى الأبد.

ولكن (جمال) انطلق يعدو من أمامه هذه المرة، واتجه مباشرة نحو النافذة نصف المفتوحة، ووثب يرتطم بها، ويحطمها، ويقفز عبرها، و...

وكانت المفاجأة!!..

إنه لم يكن داخل الطابق الأرضي، كما كان يتوقع، وإنما في الطابق العلوي..

ومن ارتفاع أربعة أمتار، سقط (جمال)، وارتطم بالأرض، وتدحرج. فوقها في عنف، ثم هب واقفًا على قدميه، وانطلق يعدو مبتعدًا، بكل ما يملك من قوة، متجاهلًا كل الخدوش والسحجات والكدمات، التي ملأت جسده، ومن خلفه (أشرف) يصرخ:

- لن تذهب بعيدًا.. سأظفر بك حتمًا..

وكان (أشرف) يعلم أنه على حق، فمع رجل يتنقل بين الأبعاد.. أين يمكنك أن تختبئ؟!

ودون أن يغرق في هذه الفكرة، ظل (جمال) يعدو ويعدو، وهو يجهل حتى إلى أين تقوده قدماه، حتى لاح له الطريق الأسفلتي من بعيد، وبلغه بسرعة، ورأى السيارات تقطعه جيئة وذهابًا، فصرخ مستنجدًا.

- النجدة.. النجدة..

ومن بين السيارات المنطلقة بأقصى سرعتها، توقفت إلى جواره سيارة صغيرة، حدق فيه صاحبها بدهشة، قبل أن يهتف:

- من فعل بك هذا؟

أجابه (جمال) في سرعة:

- بعض اللصوص هاجموني، وقيدوني، وحاولوا قتلي، ولكنني هربت منهم.. أنا صحفي في جريدة (الأهرام).. أنقذني.. أرجوك.

عاونه صاحب السيارة بسرعة على الركوب، وانطلق بها مبتعدًا، وهو يقول:

- من الواضح أن الصحافة هي مهنة المتاعب، ولكننا نكن لها كل الاحترام.. اكتب هذا عن لساني، في التحقيق الذي ستصف فيه ما حدث لك.

قال (جمال):

- بالطبع.. اذكر لي اسمك وعنوانك، وأعطني صورتك.

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي الرجل، وهو يقول:

- وهل ستذكر أنني أنقذتك؟

قال في ضجر:

- بالتأكيد، وسأسبق اسمك بلقب (البطل).

ظل الحديث يدور على هذا المنوال، حتى قال (جمال) في توتر:

- قل لي: أليس من الأفضل أن تحل قيودي أولًا؟

أوقف الرجل السيارة على جانب الطريق على الفور، وهو يقول:

- بالطبع.. كيف نسيت هذا؟

وحل قيود (جمال)، ثم سأله مبتسمًا:

- والآن، أين ستذهب بالضبط؟

وكان هذا هو السؤال ذاته، الذي طرحه (جمال) على نفسه، منذ دقائق معدودة..

أين يذهب بالضبط؟!..

ودون وعي، وجد نفسه يجيب:

- إلى الجريدة.

انطلق الرجل بالسيارة، حتى توقف في شارع (الجلاء)، أمام مبنى (الأهرام)، وقال:

- لا تنس ذكر الاسم كاملًا.

لوح له (جمال) بكفه، هاتفًا:

- بالطبع.. بالطبع.

وأسرع يدلف إلى المبنى، واستقل المصعد إلى مكتبه، ولم يكد حارس المكتب يراه، حتى هتف في دهشة:

- أستاذ (جمال)؟!.. ما الذي أتى بك في هذه الساعة؟!.. إنها الثانية صباحًا تقريبًا؟!.. ثم من فعل بك هذا؟

لوح (جمال) بكفه، قائلًا:

- أعفني من أسئلتك يا (مصطفى).. أرجوك..

ودخل إلى حجرة المكتب، وألقى جسده فوق مقعده، وهو يغمغم:

- لقد نالني ما يكفيني.

اعتمد بمرفقية على سطح المكتب، وأسند وجهه على راحتيه، واعتدل بجسده كله، و..

وارتطمت قدمه بجسم صغير..

وانحنى (جمال) يلتقط ذلك الجسم الصغير، ويتطلع إليه في دهشة..

كان ذلك النظارات الطبية، التي كان يرتديها الدكتور (عامر)، عندما أتي لزيارته..

وفي حيرة، تمتم (جمال):

- عجبًا!.. كيف نسيها الجميع هنا؟

ورفعه ليلقي نظرة عليها، قبل أن يضعه في درج مكتبه، ولكن لم تكد عدستا المنظار تقعان في مستوى نظره، حتى أطلق صيحة دهشة قوية..

لقد كان ما يراه، عبر عدستي المنظار مذهلًا..

مذهلًا بحق.

☆ ☆ ☆

8- العالم الآخر..

نفث (محمد) دخان سيجارته في عصبية، وهو يجلس في حجرته بقسم الشرطة، ويقول لأحد زملائه في توتر:

- ما من أدنى أثر.. الشقة مفتوحة، ومحتوياتها مبعثرة، ولا يوجد أدنى أثر لصاحبها، أو للصحفي.

سأله زميله:

- لماذا تبدو شديد الاهتمام بأمر هذا الصحفي؟.. نصفنا هنا يؤكد أنه قاتل الدكتور (عامر)، فكيف خانتك فراستك الشهيرة هذه المرة؟

أجابه (محمد) في حدة:

- إنه ليس القاتل، والأمر لا يحتاج إلى الفراسة.

سأله زميله في حيرة:

- لماذا تبدو واثقًا هكذا؟

أجابه في عنف:

- لأنني رأيت بنفسي.

تطلع إليه زميله في تساؤل، وقال:

- رأيت ماذا؟

صمت (محمد) طويلًا، وهو معقود الحاجبين، شارد البصر، قبل أن يقول:

- رأيت ما يكفي.

هم زميله بإلقاء سؤال آخر، عندما ارتفع فجأة رنين الهاتف، فانقض عليه العقيد (محمد)، وانتزع سماعته في لهفة، وهو يقول:

- هنا العقيد (محمد عبد المنعم).. من المتحدث؟

وكاد يقفز من مقعده، عندما أتاه صوت (جمال)، قائلًا:

- إنه أنا.. (جمال).

هتف (محمد):

- أين أنت؟.. إنني أبحث عنك منذ ذهبت إلى شقة (أشرف) هذا.

أجابه (جمال) في سرعة:

- (أشرف) هو القاتل.. لقد حاول خداعك ببعثرة محتويات شقته.. إنه القاتل الذي يتنقل في البُعد الخامس للمادة.

ثم استطرد في لهفة:

- ولكن هناك أمر آخر بالغ الخطورة، ينبغي أن تعرفه.. لقي عثرت في مكتبي هنا على منظار الدكتور (عامر)، وهو ليس منظارًا عاديًا.. إنني لم أكد أضعه على عيني، حتى رأيت أمامي عالمًا آخر.. هذا المنظار يفتح أمامك باب البُعد الخامس.. إنه الوسيلة الوحيدة لرؤية ذلك القاتل عندما يختفي.

سأله (محمد):

- ومن أين تتحدث؟

أتاه صوته، قائلًا:

- من مكتبي بالجريدة.. إنني أحتفظ بالمنظار هنا، في درج مغلق.. حاول أن تأتي، وسأريك عبره ما يذهلك.

قال (محمد) في حماس:

- هل تعتقد أنه سيساعدنا في الإيقاع بالقاتل؟

هتف (جمال):

- بالتأكيد.. و(أشرف) يجهل أننا نمتلكه، مما يمنحنا فرصة نادرة، في التعامل معه، وال...

بتر عبارته فجأة، ليهتف في ارتياع:

- ها هو ذا.. رباه.

ثم صدرت جلبة عنيفة، ونقلت السماعة صرخات رعب، جعلت (محمد) يهتف:

- (جمال).. ماذا حدث.. ماذا حدث يا (جمال)؟!.

ثم ألقى سماعة الهاتف، واختطف مسدسه، وانطلق يعدو مغادرًا الحجرة، وزميله يقول في دهشة وقلق:

- ماذا حدث بالضبط؟!

ولكن (محمد) لم يجب.

لم يكن لديه الوقت لهذا..

لقد غادر القسم كالصاروخ، وانطلق يعدو عبر الشارع، محاولًا بلوغ مبنى الجريد، قبل أن يصاب (جمال) بمكروه..

ولكن أنفاسه راحت تتردد في صعوبة، وصدره يعلو ويهبط في سرعة، حتى صرخ في غضب:

- اللعنة على هذه السجائر.. لقد أفقدتني لياقتي تمامًا.

كان يلهث في شدة، قبل أن يقطع العشرين مترًا، التي تفصل مكتبه عن مبنى الجريدة، ولم يكد يبلغ بابها، حتى ارتفعت صرخة عالية، ترددت في هواء المنطقة.

وصرخ (محمد):

- لا.. ليس (جمال)!!

ولم يستطع انتظار المصعد، فراح يصعد في درجات السلم عدوًا، حتى بلغ الطابق الرابع، وقد تقطعت أنفاسه تمامًا، وانتفض جسده في ارتياع، عندما رأى حارس الطابق جثة هامدة في الممر، ولكنه دفع نفسه دفعًا، بكل ما تبقى في صدره من أنفاس تتردد، حتى بلغ حجرة (جمال)، فدفع بابها، وهو يهتف:

- (جمال).. أين أنت؟

وهوى قلبه بين قدميه..

لقد رأى (جمال) ملقى في منتصف الحجرة، وسط بركة من الدماء، فاندفع نحوه، وهتف:

- مستحيل!.. مستحيل أن يكون قد فعلها معك.

رفعة بسرعة، وخفق قلبه في مرارة، عندما رأى عينيه الجامدتين، الخاليتين من بريق الحياة، فصرخ:

- لقد فعلها.. فعلها ذلك الوغد..

ورددت جدران الجريدة كلها صرخاته، وكأنها تشاركه حزنه ومرارته..

أو تؤبن أحد أبنائها..

الصحفي (جمال سليمان).

سابقًا..

☆ ☆ ☆

أشرقت الشمس بعد بضع ساعات، وصعدت في بطء إلى السماء، وتسللت بعض خيوط أشعتها عبر نافذة حجرة مكتب العقيد (محمد)، لتسقط على وجهه الصامت الساكن الحزين، وعينية الشاردتين المفعمتين بالمرارة، واللتين لم تتحركا قيد أنملة، ما يزيد على الساعة، حتى دلف أحد زملائه إلى الحجرة، وقال في إشفاق:

- (محمد).. إنك تقتل نفسك هكذا..

زفر (محمد)، دون أن ينبس ببنت شفة، فتابع زميله:

- الأمر لا يستحق كل هذا.. إنه ليس أول صديق تفقده.. هل نسيت (نادر)؟

صمت (محمد) بعض الوقت، ثم قال:

- هناك قاتل مطلق السراح.

نطقها في صرامة مخيفة، تمتزج بشيء من المقت، جعل زميله يحدق في وجهه لحظة بدهشة بالغة، ثم يتنحنح متمتمًا:

- إنه ليس أول القتلة، الذين يرتكبون جريمتهم، وينجحون في الفرار، ولكننا في المعتاد نوقع بهم، بعد فترات طالت أم قصرت، و...

قاطعه (محمد) بنفس الصرامة الغاضبة:

- إلا هذا..

تطلع إليه زميله لحظات في دهشة وحيرة، ثم قال:

- كل قاتل، مهما بلغ من الدقة والحنكة والذكاء، لا بد له من الوقوع في خطأ، ولو صغير، وعندئذ..

هب (محمد) من مقعده بغتة، وهو يقاطعه للمرة الثانية، قائلًا:

- هذا القاتل بالذات لا يمكنكم الإمساك به.. إنه يتحرك حيث لا تمسك به أيديكم قط.

حاول زميله أن يبتسم في ارتباك، وهو يقول:

- لماذا؟!.. أهو شبح عفريت؟

أجابه (محمد) في غلظة:

- مزيج من هذا وذاك.

ارتبك زميله أكثر وأكثر، وأخرج علبة سجائره، وقدم إليه سيجارة، قائلًا:

- ما رأيك في تدخين سيجارة أمريكية الصنع، ومناقشة هذا الأمر في هدوء؟

هتف (محمد) في حدة:

- كلا..

ثم استطرد في عصبية:

- لقد أقسمت ألا أمس سيجارة قط، ما بقي لي من العمر، ولست أدري كيف مارست هذه الحماقة لعدة سنوات.

واندفع يغادر المكان كله، وقفز في سيارته، وانطلق بها مبتعدًا، وهو يقاوم رغبة عارمة في البكاء، يغص بها حلقه، وقطع شوارع (القاهرة) كلها تقريبًا، حتى وصل إلى منطقة (الأهرامات)، فأوقف سيارته، وصرخ بكل الغضب الكامن في أعماقه:

- لماذا؟

ودفن وجهة بين كفيه، مستطردًا:

- لماذا يموت بريئان، من أجل شيطان قذر كهذا؟.. لماذا؟

قالها ولاذ بالصمت طويلًا، وهو يصدر صوتًا أشبه بالنحيب، يفصح عن مكنون صدره، ثم لم يلبث أن دس يده في جيبه، وأخرج منظارًا طبيًا عادي المظهر، تطلع اليه في أسى، وهو يقول:

- لقد تركه.. ترك المنظار الذي عثرت عليه يا (جمال).. ربما لأنه يجهل وجوده بين يديك.. أو لأنه قدره.. أو قدري.

رفع المنظار، ووضعه فوق عينيه، ثم انعقد حاجباه في شدة..

لقد اختفى المشهد الطبيعي الذي أمامه، وحل محله مشهد آخر، له نفس التفاصيل، ولكن بألوان وظلال عجيبة.

كان يبدو أشبه بمشهد ملون، اختلت تفاصيله، وامتزجت ألوانه على نحو عجيب..

الأهرامات الثلاثة صارت زرقاء اللون، والسماء برتقالية، والرمال خضراء، والناس الذين يتحركون في كل مكان أصبحوا مجرد ظلال حمراء داكنة...

وبسرعة، رفع (محمد) المنظار عن عينيه، وهو يغمغم:

- إذن فهذه هي الوسيلة الوحيدة لرؤيتك، أيها القاتل الوغد..

ولكن أين يمكن العثور عليك.. في أية بقعة من العالم.. ربما كنت هنا الآن، تراقبني وأنا أفحص المنظار.. كلًا.. هذا مستحيل.. كنت سأراك عبر المنظار نفسه، لو كنت هنا.. لست

أدري كيف، ولكن (جمال) رحمه الله قال هذا، وهو يفهم ما يقول.. هو وحده كان يفهم هذه الأمور المعقدة.

أعادت إليه ذكرى (جمال) مشاعر الحزن والأسى، فقال في مرارة:

- لن تذهب تضحيتك سدى يا (جمال).. أقسم أن أنتقم لك، ولكل من أساء إليهم هذا القاتل الحقير.. ولكن أين أجده؟.. أين أجد ذلك الحقير؟

وراح يعتصر ذهنه، ويسترجع كل التفاصيل والأحداث، في محاولة للعثور على طرف خيط، يقوده إلى (أشرف)..

وفجأة، برقت عيناه في لهفة، واعتدل في جلسته، وهتف:

- نعم.. هذا هو طرف الخيط، بل الخيط نفسه.. لقد عرفت أين أجد ذلك الوغد؟

وأدار محرك السيارة، وانطلق بها كالصاروخ، وقلبه يخفق في عنف، ويستعد للجولة القادمة مع شيطان البُعد الخامس..

الجولة الأخيرة.

☆ ☆ ☆

9- في سبيل الواجب..

احتشد جيش من الصحفيين، أمام إحدى قاعات فندق من فنادق النجوم الخمسة، حملت لافتة بعنوان: «المؤتمر الاقتصادي المصري الألماني»، وبدا من الواضح أن الجميع ينتظرون المؤتمر الصحفي، الذي سينعقد بعد الجلسة الختامية للمؤتمر الاقتصادي، والذي سيلقى فيه المستشار الألماني (هيلموت كول) بيانًا حول نتائج المؤتمر، ويصاحبه في هذا رئيس الوزراء المصري..

ونشط رجال الأمن حول المكان، لحماية رئيس الوزراء والمستشار الألماني، ومراقبة كل من يقترب من قاعة المؤتمر الصحفي، أو يحوم حولها..

ووسط كل هذا، مال أحد الصحفيين على زميله، وقال:

- يبدو أننا من سعداء الحظ، الذين سمحوا لهم بالاقتراب.

ابتسم زميله، وقال:

- ليس للحظ أي شأن هنا.. أنت تعلم أننا هنا بدعوات خاصة، وبعد تحريات واسعة، واستجوابات لا حصر لها.

قال الأول في حماس:

- هذا أمر طبيعي.. إنه مؤتمر بالغ الأهمية، ويقولون إن نتائجه ستؤثر إما إيجابًا أو سلبًا، في المسار الاقتصادي لـ (مصر).

سأله زميله:

- هل تعتقد أن المستشار الألماني سيلقى بيانًا لصالحنا؟

لوح بكفه، وقال:

- كل الدلائل تشير إلى هذا؟

ابتسم زميله، وقال في ارتياح:

- عظيم.. سيثير هذا حفيظة عدد كبير من الدول، التي ليس من مصلحتها أن نجتاز أزمتنا الاقتصادية.

ضحك الأول، وقال:

- بالتأكيد، فهذا يبعدنا عن قبضتها، ويجعل منا قوة لا يستهان بها، في منطقة الشرق الأوسط كلها.. إنهم مستعدون لفعل أي شيء في العالم، لمنعنا من بلوغ هذا.

هم زميله بقول شيء ما، إلا أنه توقف بغتة، وعقد حاجبيه، قائلًا:

- عجبًا... هذا الرجل يبدو لي مألوفًا، على الرغم من مظهره.

التفت الأول إلى حيث يتطلع زميله، ووقع بصره على رجل متين البنيان، عريض الفك والمنكبين، يرتدي حلة عادية، ولكنها في حالة مزرية، ورباط عنق لم يبلغ نقطة انعقاده، وقد نمت لحيته، وزاغ بصره، على نحو جعله يبدو مريبًا، فاستدارت إليه عيون الجميع، وخاصة رجال الأمن، الذي أحاطوا به، وراحوا يرمقونه في شك، وأيديهم متحفزة، على مسدساتهم..

أما الصحفي، فقال في دهشة:

- رباه.. أنا أعرفه بالفعل.. إنه ضابط مباحث.. لقد رأيته في مبنى الجريدة، صباح أمس، بعد انتحار ذلك العالم الفيزيائي.

هتف الثاني في دهشة:

- آه.. عرفته.. إنه العقيد (محمد عبد المنعم).. ولكن لماذا يبدو في هذه الهيئة؟

ومع قوله هذا، كان رجال الأمن قد حاصروا (محمد)، واحتك به أحدهم، قائلًا في خشونة:

- ماذا تريد من هذا المكان؟

أجابه (محمد) في صرامة، وهو يبرز بطاقته:

- أنا العقيد (محمد عبد المنعم).. من المباحث الجنائية.

قرأ رجال الأمن بطاقته أكثر من مرة، وفحصوها، ومحصوها، ثم أعادوها إليه، وقال أحدهم:

- معذرة يا سيادة العقيد، ولكنك تعرف إجراءات الأمن هنا.

غمغم (محمد):

- نعم.. أعرفها.

ثم أزاحهم عن طريقه، وأخرج من جيبه منظار الدكتور (عامر)، وارتداه..

ومرة أخرى، بدت له الصورة عجيبة..

كل شيء اصطبغ بدرجات اللون الوردي، فيما عدا البشر، الذين صاروا مجرد ظلال حمراء داكنة..

ولم يرفع رجال الأمن أعينهم عن (محمد).

صحيح أنهم تأكدوا من شخصيته، ولكن هيئته ونظراته، جعلتهم يتابعونه في شك حذر..

ثم ظهر المستشار الألماني، ورئيس الوزراء..

وتأهب كل رجال الأمن..

وكذلك (محمد)..

كان قد جمع كل ما لديه، ليصل إلى هنا..

الكلمات التي نطقت بها (محاسن) عند إصابتها..

وحديثه مع مدير الأمن..

وغريزته الخاصة، التي تمت عبر عشرين عامًا من الخبرة..

لقد استنتج أن هذا المكان، هو الهدف القادم لرجل البُعد الخامس..

استنتج هذا، فهرع إلى المكان على الفور..

كان كل أمله -في هذه اللحظة- أن يظفر بالقاتل..

ومهما كان الثمن..

هكذا هو، منذ التحق بخدمة الشرطة..

يلبي نداء الواجب، دون التفكير في العواقب..

فقط الواجب..

وفي اهتمام وانتباه كاملين، راح يدير عينيه فيما حوله، بحثًا عن القاتل..

لم يكن يدري حتى كيف سيراه..

ولا كيف سيتعرفه.

كل ما كان يثق به، هو أنه سيعرف كل شيء، فور رؤيته..

وتوترت أعصابه مع الترقب والانتظار..

والتهبت في شدة..

وخلف منصة المؤتمر الرئيسية، كان المستشار الألماني يلقي كلمته، وإلى جواره رئيس الوزراء المصري، ولكن (محمد) لم يكن

يستطيع تميز الوجوه..

إنه يرى فقط ظلالًا حمراء داكنة، وسط أرضية وردية باهتة..

ولكن فجأة، اخترق الصورة ظل أزرق..

ظل رجل يرتدي ثيابًا أشبه بالغواصين، ويتقدم نحو المنصة، التي يجلس خلفها المستشار الألماني..

وتحفزت كل عضلة في جسد (محمد)، وتلاحقت أنفاسه بشدة، ثم خلع المنظار في سرعة، فوجد كل شيء أمامه عاديًا، ولا وجود لصاحب الظل الأزرق، فأعاد المنظار إلى عينيه، ورأى صاحب الظل مرة أخرى..

رآه يخترق كل ما يعترض طريقه..

الظلال الحمراء الداكنة..

والظلال الوردية..

كل شيء..

وكان (محمد) يعلم ما سيحدث بعد قليل..

سيتجسد القاتل فجأة، أمام أعين الجميع، وعلى بعد سنتيمترات من المستشار الألماني، وفي غمرة الدهشة والذهول والمفاجأة، يطعن المستشار، أو يطلق عليه النار، ثم يعود للاختفاء، ويتلاشى في البُعد الخامس، قبل أن يضيع أثر المفاجأة، أو يطلق أحد رجال الأمن رصاصة واحدة..

وعبر المنظار الخاص، أدرك (محمد) أنه على حق..

لقد تحرك الظل الأزرق، حتى صار خلف المستشار الألماني تمامًا، ثم بدأ لونه يتحول تدريجيًا إلى البنفسجي الهادئ..

ولم ينتظر (محمد) إتمام التحول..

لقد انتزع مسدسه فجأة، ودفع من حوله جانبًا، ثم انطلق يعدو نحو المنصة..

وتراجع بعض الصحفيين في ذعر، وصرخ البعض الآخر، وانتزع رجال الأمن مسدساتهم بدورهم، وهم يلومون أنفسهم؛ لأنهم لم يتخذوا الإجراء المناسب في الوقت المناسب، ما دام الشك قد راودهم بشأنه منذ البداية..

وواصل القاتل تجسده..

وانطلقت شهقات العديدين، وهم يشاهدون الظل الشفاف خلف المستشار الألماني، وهو يتحول إلى جسد بشري، في نفس الوقت الذي يعدو فيه (محمد) نحو المنصة، وهو يصوب مسدسه إلى حيث يجلس المستشار، ورجال الأمن ينطلقون خلفه، ومسدساتهم مصوبة إليه..

وأطلق رجال الأمن رصاصاتهم، وشعر (محمد) برصاصة تخترق ذراعه، وأخرى تغوص في ساقه، وثالثة تؤلم ظهره..

ولكنه لم يتوقف..

وفي حزم، صوب هو أيضًا مسدسه..

وكان (أشرف) يرفع مسدسه، ويهم بإطلاق النار على المستشار في ظهره مباشرة..

وأطلق (محمد) رصاصته..

وأطلق رجال الأمن رصاصات أخرى..

وأصابت كل الرصاصات أهدافها..

رصاصات رجال الأمن استقرت في كتفي (محمد) وساقيه ومعدته..

ورصاصته اخترقت جبهة (أشرف)، من منتصفها بالضبط..

وسقط الاثنان في آن واحد..

(أشرف) و(محمد)..

وتعلقت أنظار الجميع بالأول في ذهول، عندما أسقطته رصاصة الثاني، قبل أن يطلق رصاصته هو على قلب المستشار الألماني..

تعلقت به الأنظار؛ بسبب تلك الظاهرة المذهلة، التي واكبت مصرعه.. لقد وثب جسده إلى الخلف، وارتطم بالجدار، ثم تلاشي نصفه العلوي بسرعة مذهلة، وغاص في قلب الجدار، في حين بقي نصفه السفلي متجسدًا لحظات، خفقت خلالها كل القلوب في ذهول للمشهد الرهيب..

مشهد رجل، نصفه في عالمنا، ونصفه الآخر في البُعد الخامس..

ثم تلاشي نصفه المنظور تدريجيًا، حتى اختفى تمامًا..

وعندئذ..

عندئذ فقط، استدارت الأعين كلها إلى (محمد)، وهتف هاتف..

- إنه ليس قاتلًا، لقد كان ينقذ المستشار الألماني.

وصاح آخر:

- ماذا تنتظرون؟!.. استدعوا سيارة إسعاف.

وقال ثالث:

- إنه بطل.. كيف يفعل به رجال الأمن هذا؟

وسمع (محمد) كل هذه العبارات، وهو ينزف من جروحه دماء الحياة، حتى آخر قطرة..

سمعها، ولم يبال بها كثيرًا..

إنه لم يكن ينتظر عبارات الإعجاب والثناء، عندما أطلق النار على القاتل..

لقد كان يفعل نفس ما يفعله، منذ التحق بالشرطة..

كان يؤدي واجبه..

وفي سبيل هذا الواجب، كان عليه أن يطارد القاتل، ويظفر به، مهما كان الثمن، وحيثما كان القاتل..

حتى ولو كان في آخر الدنيا..

أو حتى في بُعد آخر..

بُعد خامس..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- الكابــوس..

2- الظل..

3- الاتهام..

4- في كل مكان..

5- قاتل من عالم آخر..

6- أول الخيط..

7- المواجهة..

8- العالم الآخر..

9- في سبيل الواجب..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

قصرات العكش

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

قصص العدد

قطرات العطش

1- همسة من الماضي..

استغرق (إسماعيل) في النوم، حتى ساعة متأخرة كعادته، واستيقظ مع دقات الساعة الثانية ظهرًا، فتثائب في فراشه، ومرر أصابعه في شعره بتكاسل واضح، قبل أن يمد يده إلى علبة سجائره، المجاورة للفراش، فيلتقط منها سيجارة، ويشعلها بعينين نصف مغمضتين، ثم ينفث دخانها في عمق، قبل حتى أن ينهض..

وفي خمول، راح يسترجع ذكريات سهرة البارحة..

وارتسمت على شفتيه ابتسامة عابثة جذلة، وهو يغمغم:

- يا لها من ليلة!

لم تكن السهرة تختلف عن غيرها من السهرات، التي اعتاد قضاءها خارج شقته الصغيرة، التي صنع منها مسكنًا، ومرسمًا، ومقهى، وصالة عرض سينمائي، ولكنه كان -كعادته- يهوى الاستمتاع بكل لحظة في حياته، ويبغض الاستكانة وحياة الهدوء والاستقرار..

ولهذا السبب بالذات تزوج مرتين..

وفشل في زيجتيه..

إنه يكره تلك القيود، التي يفرضها الزواج على حياة فنان مثله..

يكره المطالب والمسؤوليات والهموم..

وهو يبذل كل ما بوسعه للفرار منها..

هكذا هو..

طائر طليق، بلا رابط أو مانع..

منذ حداثته وهو يهوى هذا النمط من الحياة، ويقاتل في سبيل الظفر به..

إنه لا يدري حتى لماذا تورط في الزواج؟!..

لماذا جال بخاطره يومًا أن يصنع لنفسه أسرة، فيها زوجة وأبناء، لهم مطالب وهموم ومسؤوليات؟!..

لقد كان مجنونًا حتمًا، عندما فعلها..

هكذا يقول لنفسه، كلما تذكر أسرته، التي انعزل عنها، وتركها تواجه وحدها مسؤوليات الحياة بعيدًا عنه..

وحتى زواجه الثاني، لم يكن موفقًا..

صحيح إنه اختار زوجة من طراز خاص، لا تفرض عليه أي هموم أو مسؤوليات أو التزامات..

ولكنها زوجة..

وهذا وحده يكفي ليملأ نفسه بالملل..

وفي هدوء، راح (إسماعيل) يجتر ذكرياته القريبة، وتلك الابتسامة العابثة تبدو وكأنها محفورة على وجهه وشفتيه، و...

وفجأة، ارتفع رنين الهاتف..

لم يكن ذلك أمرًا غير عادي؛ فقد اعتاد استقبال عشرات المكالمات الهاتفية في اليوم الواحد، قبل أن يترك لجهاز الرد الآلي مهمة استقبال العشرات الأخرى، ولكنه لم يدر لماذا اختطف السماعة في لهفة هذه المرة، وقال:

- من المتحدث؟

ونقلت إليه أسلاك الهاتف صوتًا رقيقًا، أشبه بالهمس، يقول..

- انا (روحية) يا (إسماعيل).

ولسبب ما، سرت في جسده قشعريرة قوية، لدى سماعه الاسم، على الرغم من أنه لا يذكر قط، أنه قد التقى في الآونة الأخيرة، أو حتى منذ انتقاله من (الإسماعيلية) إلى (القاهرة)، بأية امرأة تحمل اسم (روحية)، فتساءل:

- (روحية) من؟

أجابه الصوت الهامس الرقيق..

- (روحية عبد الغني).

وفي هذه المرة، كانت القشعريرة باردة كالثلج..

وكان القلب يخفق في عنفًا..

(روحية عبد الغني) ؟!..

يا لها من ذكريات!...

ذكريات ربع قرن مضى..

ذكريات الصبا والشباب..

وفي لحظة واحدة، وقبل أن ينطق بكلمة واحدة، كانت ذكرياته تنطلق بعيدًا:

بعيدًا جدًا..

☆ ☆ ☆

«(إسماعيل).. ماذا تريد مني بالضبط؟».

ألقت (روحية) هذه العبارة على مسامعه، وهما يسيران جنبًا إلى جنب، وأصابعه تحتضن أصابعها، وتبثها ولهه وغرامه، أمام شاطئ القناة، في لحظة الغروب، فالتفت إليها في ضيق، وقال:

- لماذا تفسدين هذه اللحظة الجميلة؟

وقالت في إصرار:

- أريد أن أعرف حقيقة صلتك بي.

شعر لحظتها بالضجر والملل، ولكنه أجاب بسرعة:

- أنا أحبك.

سألته على الفور:

- وماذا بعد؟

أدهشه السؤال، وأثار حيرته، فغمغم وهو يتطلع إلى وجهها الجميل، وملامحها الرقيقة الفاتنة:

- لا يوجد بعد.. أنا أحبك، وهذا يكفيني.

تملصت بأصابعها الصغيرة من أصابعه، وقالت في غضب:

- كلا.. هذا لا يكفي.

سألها في حيرة:

- ماذا تريدين إذن؟

ترددت لحظة، ثم مالت عليه، قائلة:

- المفروض أن تتقدم لخطبتي.

حدق في وجهها لحظة بدهشة، وكأنه لم يفهم ما تعنيه، ثم انفجر فجأة ضاحكًا، فهتفت هي في غضب:

- ما المضحك في هذا؟

قال، دون أن يتوقف عن الضحك:

- المضحك في هذا أنك في السادسة عشرة من عمرك، وأنا ما زلت طالبًا في كلية الفنون الجميلة.

قالت في حدة:

- وماذا في هذا؟.. ابنة عمي في مثل عمري، وقد تقدم لخطبتها شاب في السنة النهائية بكلية الطب، وهما خطيبان الآن.

قال بسرعة:

- بل قولي: هما أحمقان.. لماذا يقيد الإنسان نفسه بأمر كهذا، وهو في ريعان الصبا.

هتفت محنقة:

- لأن كل منهما يحب الآخر.

هز كتفيه، وقال في لا مبالاة:

- وماذا في هذا؟.. أنت وأنا نحب بعضنا أيضًا، ولكن هذا ليس مبررًا للخطبة.

صاحت غاضبة:

- هكذا؟!.. هذا هو رأيك إذن؟

أومأ برأسه، وهو يقول مصطنعًا الوقار:

- هذا رأي كل إنسان عاقل.

انعقد حاجباها الجميلان، وهي تقول:

احتفظ برأيك لنفسك إذن، واكتف بحبك.

صاح بها، وهي تبتعد غاضبة:

- هل سنلتقي غدًا؟

صرخت في ثورة:

- لن نلتقي أبدًا.. هل تفهم؟.. أبدًا..

☆ ☆ ☆

«(إسماعيل)، هل تسمعني؟.. هل تسمعني يا (إسماعيل)؟..»

انتزعه صوتها من ذكرياته البعيدة، فهب جالسًا على فراشه، وهتف بها في لهفة حقيقية:

- من أين تتحدثين يا (روحية)؟

أجابته في هدوء عجيب:

- من (السويس).

قال في سعادة، أدهشه أنها نابعة من أعماق قلبه:

- لقد أوحشتني كثيرًا.. إننا لم نلتق منذ عشرين عامًا.

أجابته في بساطة:

- بل تسعة عشر عامًا وستة أشهر وثلاثة أيام.

وخفق قلبه في لهفة وسعادة..

إذن فهي لم تنس هذا قط..

لم تنس حبها وسعادتها..

لم تنس حتى لحظة فراقهما..

وأدهشه أن رقص قلبه طربًا!

لماذا يشعر بكل هذه السعادة في أعماقه، وهو يسمع صوتها؟!.

أما يزال حبها باقيًا في قلبه؟!..

أما زال عشقها كامنًا في ثنايا عقله؟!..

أتاه الجواب على الفور بالإيجاب..

أتاه من عقله، وقلبه، وكيانه، ووجدانه..

بالتأكيد ما زال يحبها..

ولم يحب سواها..

لقد خدع نفسه، عندما أوهمها بأنه نسيها..

كيف يمكن هذا؟..

كيف يمكن للمرء أن ينسى نفسه، وروحه، وكيانه؟!..

لقد كانت (روحية) بالنسبة إليه، هي كل هذا..

هي نفسه..

وروحه..

وكيانه..

كان يذوب مع ابتسامتها، ويركع أمام ضحكتها، وينهار مع دموعها..

ولكن هل كانت هي أيضًا تحبه؟!..

إنه لم ينس سعادتها بقربه، ولا فرحتها بلقائه، ولا..

ولا طعنتها له..

لقد انتقمت منه شر انتقام، عندما رفض التقدم لخطبتها..

لم تقتله، أو تضربه، أو تسبه..

كل ما فعلته، هو أن قبلت خطبة شخص آخر..

ولم يكن بالشخص العادي..

بل كان أقرب الناس إليه..

أقربهم على الاطلاق..

☆ ☆ ☆

استوقفها غاضبًا، وهي في طريقها للمدرسة، وقال في حدة:

- لماذا فعلت هذه؟

ابتسمت ابتسامة تجمع ما بين الظفر والسخرية، وهي تقول:

- فعلت ماذا؟

قال في غضب:

- لماذا وافقت على هذه الخطبة؟

تطلعت إلى دبلة الخطوبة الذهبية، التي تزين إصبعها، وقالت في دلال خبيث:

- إنه شخص يحبني، ويرغب في الارتباط بي رسميًا، فلماذا أرفضه؟

قال في حدة:

- كان المفروض أن ترفضي هذا الشخص بالذات.

هزت كتفيها في استهتار:

- ولماذا؟

هتف:

- لأنه أخي.

أطلقت ضحكة عابثة، وقالت:

- وما المانع؟

ثم استطردت في لهجة استفزازية:

- لقد كان أكثر شجاعة منك، وأكثر وضوحًا. أحبني، فتقدم لخطبتي.. هكذا.. بكل بساطة.

قال في مرارة:

- أنت دفعته لحبك.. أتظنين أنني لم ألمح حركاتك ولمزاتك؟

أجابته في حنق:

- ولماذا لاحظت هذا بالذات؟.. كنت أظنك عديم الملاحظة.

صاح بها:

- ما الذي تعنينه بهذا؟

هزت كتفيها مرة أخرى في استهتار، وقالت:

- فسرها كما يحلو لك.

وغادرت المكان في دلال واثق مزهو، وتركته خلفها يغلي.. وبشدة..

☆ ☆ ☆

هتف فجأة:

- كان أخي يا (روحية).

نقلت إليه أسلاك الهاتف حيرتها، وهي تقول:

- أخوك من؟!

أجابها في حدة:

- أخي (محمود) - رحمه الله - لقد استخدمته لإذلالي.. خدعتِنا معًا.. هو وأنا.

صمتت طويلًا، ثم قالت:

- أما زلت تذكر هذا؟

قال في عصبية:

- وكيف أنساه؟!.. لقد جرحت قلبين دون رحمة.

عادت إلى صمتها لحظات أخرى طويلة، حتى أنه قال:

- أما زلت تستمعين؟

أجابته في اقتضاب رصين:

- نعم.

ثم أضافت في سرعة:

- وأنا أعترف بخطئي هذا.. لقد كنت مجرمة ومستهترة، عندما فكرت في إثارة غيرتك، عن طريق قبول خطبة أخيك (رحمه الله).

أدهشه قولها هذا، وهي التي لم تعترف بخطأ في حياتها قط، فارتبك وغمغم:

- كنا مراهقين حينذاك.

قالت في هدوء:

- ولكن (محمود) كان أكبر سنًا، وأكثر عقلًا ورصانة، ولهذا حدث ما حدث.

سألها في حيرة:

- وما الذي حدث؟

صمتت لحظات، ثم قالت:

- سأخبرك ماذا حدث يا (إسماعيل).. سأخبرك بالسر الذي أخفيه في صدري، أكثر من عشرين عامًا.

وتحدثت إليه طويلا..

☆ ☆ ☆

2- أخي..

كانا يجلسان في ذلك (الكازينو)، على شاطئ القناة، عندما سألها (محمود) فجأة، ودون مقدمات:

- منذ متى وأنت تحبين (إسماعيل)؟!

ارتبكت في شدة، واضطربت وهي تقول:

- من وضع هذه الفكرة السخيفة في رأسك؟

ابتسم (محمود) في هدوء حزين، وهو يجيبها:

- رأسي نفسه.

ثم مال نحوها، مستطردًا في أسى:

- إنني لست غبيًا يا (روحية).. ولست غرًا ساذجًا أيضًا.. لقد لاحظت نظراتك إلى (إسماعيل)، ونظراته إليك، ولست أحتاج إلى عبقرية (أينشتين)، لأدرك أن كلًا منكما يحب الآخر.

خفضت عينيها في استسلام أشبه بالاعتراف، فتراجع هو في مقعده، وتابع:

- كل ما أريد أن أعرفه هو: متى بدأ هذا الحب.. قبل أم بعد خطبتنا؟!

أجابته في خجل:

- قبلها بكثير.

بدا عليه الضيق، وهو يقول:

- لماذا قبلت خطبتي إذن؟.. بل لماذا ألقيت شباكك حولي، حتى وقعت في حبك؟

ترقرقت في عينيها لمعة كبيرة، وهي تقول:

- أردت إثارة غيرته.

هتف مستنكرًا.

- فقط؟!

ثم خفض عينيه، واستغرق في التفكير لحظات، قبل أن يقول في أسى:

- لقد وضعتِنا جميعًا في وضع لا نحسد عليه يا (روحية)، ولكن لدي وسيلة لحل هذه المشكلة.

سألته في لهفة:

- كيف؟

أجاب في حزم:

- سنفسخ خطبتنا.

ترددت لحظة، ثم سألته:

- أتظن هذا يكفي؟

أجابها بسرعة:

- كلًا.. ولكن هناك إجراء آخر.

وخفض عينيه لحظة، ثم عاد يرفعهما إليها، قائلًا:

- سأغادر (الإسماعيلية) نهائيًا.. سأحيا في (القاهرة).

شحب وجهها، وهي تقول:

- إلى هذا الحد؟؟ هل اضطرك موقفي إلى...

قاطعها قبل أن تكمل:

- لا.. لا تضعي هذه الفكرة في رأسك أبدًا.. إنها فكرة قديمة، تلح في ذهني منذ زمن، ولكن هذا الموقف ساعدني على حسم أمري بشأنها.

قالت مرتبكة:

- هل تريد الهجرة إلى (القاهرة)؟

ابتسم وقال في حزن:

- لن أجد فرصتي الحقيقية سوى هناك.. أنا أكتب المسرحيات كما تعلمين، ولن أجد مجالًا لنشرها وانتشارها إلا في (القاهرة).

وربت على يدها في حنان، مضيفًا:

- الوداع يا (روحية).. لن أنساك.. لن أنساك أبدًا.

☆ ☆ ☆

اغرورقت عينا (إسماعيل) بالدموع، وهو يقول:

- إذن فقد كنت -دون أن أدري- أحد أسباب رحيل (محمود) (رحمه الله) إلى هنا.. يا لسخرية القدر!

قالت في خفوت:

- ولماذا تشعر بالأسى لهذا؟.. لقد أصبح واحدًا من أشهر وأعظم كتاب المسرح في (القاهرة)..

قال بصوت أقرب إلى البكاء:

- ومات فيها، أيضًا؟

أجابته في خشوع أدهشه:

- إنه قدره.. وما تدري نفس بأي أرض تموت.

ألقى دهشته جانبًا في سرعة، وقال:

- أتعلمين أنه لم يخبرني بحديثكما هذا قط؟

غمغمت:

- أعلم هذا.

تابع وكأنه لم يسمعها:

- لقد فسخ خطبتكما، وقال: إنكما غير متوافقين، ثم رحل إلى (القاهرة)، وعاش فيها طيلة عمره، دون أن يكشف السر.

قالت في خفوت:

- كان رجلًا عظيمًا.

أجابها في حماس:

- إنه مثلي الأعلى.. لقد عشقت رجولته وشهامته وفكره منذ حداثتي، وهمت بها في صباي، واتبعتها في شبابي.

قالت:

- ولكنك -وعلى الرغم من هذا- لم تكتسب الكثير منه.. لقد كان هو رب أسرة هادئة مستقرة.

قال في أسى:

- وأنا حاولت أن أصبح كذلك.

قالت في سرعة:

- وفشلت.

تنهد، وقال:

- لم أحتمل الزواج.

أجابته:

- بل لم تحب زوجتيك بالقدر الكافي.

صمت بضع لحظات، ليهضم عبارتها، قبل أن يقول:

- ربما كان هذا صحيحًا.

وران عليهما الصمت لحظات أخرى طويلة، قطعتها هي قائلة:

- كنت أتصور أننا سنعود لبعضنا، فور فسخ خطبتي، ولكن هذا لم يحدث.

قال:

- كان ينبغي ألا تتوقعي هذا.

سألته:

- لماذا؟

مال إلى الصمت لحظة أخرى، ثم قال:

- لأن الأمر كان مستحيلًا.. مستحيلًا بالفعل.

وعاد بذاكرته إلى الوراء..

☆ ☆ ☆

ابتسمت (روحية) في دلال، وألقت ضفيرتها السوداء الطويلة أمام صدرها، وراحت تداعبها بأصابعها، وهي تقول:

- كانت هذه النهاية متوقعة.

سألها (إسماعيل) في خشونة:

- أية نهاية؟

تجاهلت خشونته، وهي تقول:

- نهاية علاقتي بأخيك (محمود).. كلانا لم يكن يصلح للآخر، ومن الطبيعي أن يتم فسخ خطبتنا.

تمتم في عصبية:

- كنت أتوقع هذا منذ البداية.

ضحكت في ثقة، وقالت:

- بل قل، كنت تتمناه.

صاح بها غاضبًا:

- ماذا تقولين يا (روحية)؟!.. كيف أتمنى أن يحطَّم قلب أخي هكذا؟

قالت في حدة:

- لا تخدع نفسك، لمجرد أنك تخشى الاعتراف بغيرتك من شقيقك.. نعم.. كنت تتمنى أن يتم فسخ خطبتنا، حتى أعود إليك.. قلها ولا تخف.. اعترف بالحقيقة.

صرخ:

- هذه ليست حقيقة.. أنت تعرفين كم أحب (محمود).

قالت في عناد:

- وأنت تعرف كم تحبني.

صمت لحظات، وهو يتطلع إليها في توتر، ثم أشاح بوجهه، قائلًا:

- كان هذا فيما مضى.

هتفت متحدية:

- هل تراهن؟.. إنك ما زلت تحبني، حتى هذه اللحظة.. كل شيء فيك يشف عن هذا.. نظراتك.. همساتك.. حتى محاولات الفرار من نظراتي المباشرة.. أنا أفهمك جيدًا يا (إسماعيل)، ولا أحد يفهمك مثلي.

صاح في مرارة:

- فليكن.. سأعترف أنني أحبك.. أي فارق يصنعه هذا؟

تألقت عيناها في ظفر، وهي تقول:

- فارق ضخم.. على الأقل، نستطيع أن نواصل قصة حبنا.

هتف بسرعة واستنكار:

- مستحيل!

انعقد حاجباها في غضب، وقالت:

- لماذا مستحيل؟

بدا الارتباك والحيرة على وجهه لحظات، ثم قال:

- لأن (محمود) يحبك.

قالت في حدة:

- تقصد كان يحبني.

أجاب في مرارة:

- بل يحبك.. مازال يحبك.. لقد قرأت هذا في عينيه.. في ارتجافة شقتيه، وهو يخبرني بفسخ خطبتكما، في دمعة حزن، لمحتها تتسلل من خلف أسوار عينيه، عندما تصور أن أحدًا منا لا يراقبها.. إنه يحبك يا (روحية).

صمتت لحظات مبهوتة، ثم قالت:

- ليس هذا ذنبي.

ابتسم في سخرية حزينة، وهو يقول:

- ذنب من إذن؟!

بدأت ثقتها في نفسها تهتز، وتوترت كثيرًا، وهي تقول:

- اسمع يا (إسماعيل).. لا داعي لأن نغرق أنفسنا في عقدة ذنب لا تنتهي، ولا طائل منها.. دعنا نواجه الأمور بواقعية وعقلانية.. أنت تحبني وأنا أحبك، فلماذا نفترق؟؟

قال في حزم:

- لأن أخي لن يحتمل أن نلتقي.

صاحت في عصبية:

- ألا يمكنك اتخاذ قرار واحد في حياتك كلها، دون التفكير في أخيك؟

أجابها في عناد:

- كلَّا.. لا يمكنني هذا.

ثم استطرد في حزم:

- ثم إنني لن أبقى هنا.. سأرحل إلى (القاهرة).

اتسعت عيناها لحظة في ارتياع، ثم لم يلبث حاجباها أن انعقدا في شدة، وهي تقول:

- تمامًا مثل أخيك.. أنت لم تعد تمتلك شخصية مستقلة.. لقد صرت مجرد ظل له.. أنت مجرد ظل.. هل تفهم؟.. مجرد ظل.

تجاهل صيحاتها الغاضبة، وهو يقول:

- الوداع يا (روحية).. أظن أننا لن نلتقي مرة أخرى..

صرخت ثائرة:

- ومن يرغب في رؤيتك.. هيا.. ارحل.. ارحل ولا تعد أبدًا.. لا أريد أن أراك، حتى آخر لحظة في حياتي.. لا أريد أن أراك.

وانفجرت باكية في مرارة، ولكنه لم يتوقف..

لقد واصل ابتعاده، ورحل..

رحل إلى (القاهرة)..

☆ ☆ ☆

المرأة مشكلة .. صنعها الرجل

تنهدت (روحية) في عمق، وقالت:

- تخليت عني يا (إسماعيل).. تركتني في (الإسماعيلية)، وذهبت لتحيا إلى جوار شقيقك في (القاهرة).

شاركها تنهيدتها، وقال:

- لم تكن أيامًا هينة يا (روحية).. كانت فترة كفاح مريرة.. عانيت فيها الكثير، وتعذبت أكثر، حتى أمكنني أن أشق طريقي في عالم النجاح هنا.

قالت في هدوء:

- من المؤكد أن (محمود) ساعدك كثيرًا.

أجاب وهو يبتسم في شرود:

- بالتأكيد.. ولكن ليس على النحو الذي تتصورينه.. لقد كان يكره الوساطات والمحسوبيات، ولكن كفاحه وحماسه، أشعلا في نفسي جذوة النشاط والحماس، فانطلقت أصنع نفسي بنفسي، متحديًا كل الصعاب، ومتجاوزًا كل العقبات.

قالت في بساطة:

- وأنت الآن واحد من المشاهير.

غمغم:

- لم يكن ذلك سهلًا.

ثم سألها في فضول:

- ولكن ماذا عنك يا (روحية)؟.. ماذا فعلت بعد رحيلي؟

صمتت لحظة، ثم أجابت:

- تعذبت كثيرًا.. وبكيت أكثر.. كان قلبي يكاد يزحف لرؤيتك، ولكن كرامتي تجبره على أن يشيح بوجهه عنك.. ثم جاءت لحظة، انهار فيها كل شيء في أعماقي، وقررت الانتحار.

هتف مستنكرًا:

- الانتحار؟!.. أنت تفكرين في الانتحار يا (روحية)؟

قالت:

- نعم.. وكان هذا أيضًا بسببك، ولقد انتحرت بالفعل.

- حقًا؟!

أجابته على الفور:

- نعم.. ولكنه كان انتحارًا من نوع آخر.

وصمتت لحظة، قبل أن تستطرد:

- تزوجت.

وخفق قلبه في قوة..

☆ ☆ ☆

3- الزواج مرة أخرى..

«(إسماعيل) تزوج؟!..».

هتفت (روحية) بالعبارة في ذهول، وتركت جسدها يسقط فوق أقرب مقعد إليها، وتجمعت في عينيها دمعة كبيرة، وهي تردد:

- كيف؟.. إنه يكره الزواج والارتباط.. كيف فعلها؟!

مصمصت أمها شفتيها، وقالت:

- كما يفعلها كل الرجال.. ألم أقل لك ألف مرة؟!.. كل الرجال يتزوجون، مهما أكدوا عدم عزمهم على هذا؟.. الأمر يتوقف فقط على اللحظة، التي يلتقون فيها بالمرأة الذكية، التي تنجح في الإيقاع بهم، واقتناصهم في مصيدة الزواج.

انحدرت الدمعة الكبيرة على وجه (روحية)، وتجمعت أخرى أكبر حجمًا في قلبها..

كانت تشعر أن زواجه قد طعنها في الصميم..

في أعماق كرامتها..

إذن فقد كسر قاعدة حياته.

ولكن مع أخرى..

لم تكن تتصور أو تتوقع هذا أبدًا..

صحيح أنها لم تلتق به منذ عامين، عندما رحل إلى (القاهرة)، ورفض العودة مرة أخرى إلى مسقط رأسه، ولكنها ظلت تحتفظ بحبه في قلبها..

وكانت تظن أنه يبادلها ذلك الشعور..

وحتى مع يقينها بأنه يرفض فكرة الزواج، لم تكن تشعر بالحزن أو الإحباط..

يكفيها أنه لن يكون لسواها..

ولكنه فعلها..

«من تزوج؟..»

فوجئت بنفسها تلقي السؤال، وقبل أن تستنكره، سمعت أمها تجيب:

- زميلة له، في كلية الفنون الجميلة.. يبدو أنه حب قديم.

وعادت تمصمص شفتيها، مستطردة:

? فتاة ذكية، أوقعته في فخها، و...

صاحت (روحية) في عصبية:

- لماذا تتحدثين عن الزواج دائمًا هكذا؟!.. إنه ليس فخًا أو مصيدة، تصنعها المرأة لتوقع بها رجلًا في شباكها.. إنه علاقة عظيمة، تقوم على المودة والرحمة.. تتويج لحب جميل بين طرفين، ليسكن كل منهما إلى الآخر.

قالت الأم ساخرة:

- لم نسمع هذا في شبابنا.. كل ما عرفناه عن الزواج هو أنه ستر للفتاة، ووقاية لها من الخطأ.

صاحت (روحية) في مرارة:

- فكرة سخيفة ومتخلفة.. لماذا لا ترجعون إلى ما يقوله الدين عنه؟

قالت أمها في صرامة:

- ولماذا لا ترجعين أنت إلى ما تقوله كل الأديان، بشأن معاملة الأبوين؟

خفضت (روحية) عينيها، وقالت:

- أنا آسفة.. لم أكن أقصد هذا.

تنهدت الأم، وقالت:

- أعلم أنك حزينة، لأن هذا النذل خدعك وأهملك.. ولكنك جميلة الجميلات، في (الإسماعيلية) كلها، وألف من يتمنى الزواج منك.

قالت في دهشة:

- الزواج؟!

هتفت أمها:

- نعم.. الزواج.. الزواج ممن هو أفضل منه ألف مرة.. هل نسيت كيف بذل الدكتور (حسين) جهده لإقناعك بالزواج منه والمهندس (عاصم).. والأستاذ (علوان) المحامي، و...

قاطعتها (روحية):

- كفى يا أمي.. أرجوك.

ولكن الأم تابعت:

- الدكتور (حسين) بالذات، ما زال يلح في الأمر.. ما رأيك؟!.. هل أبلغه بموافقتك؟!

صمتت (روحية) طويلًا، وعقلها يمتزج بمشاعرها، ويصرخ..

- نعم.. ولم لا؟..

(إسماعيل) لم يعد لها..

و(حسين) يطلبها في إلحاح..

إنها معادلة متوازنة..

ومنطقية..

ولم تستغرق أكثر من لحظات لحسم أمرها..

كانت تشعر أن زواجها سيكون طعنة عكسية، ترد بها الكيل لـ (إسماعيل)..

طعنة تسترد بها كرامتها الذبيحة..

وفي حزم، أجابت:

- نعم يا أمي.. أخبريه أنني موافقة.

وتم الزواج..

☆ ☆ ☆

تنهد (إسماعيل) في عمق، وهو يستعيد ذكريات زواجه الأول، وقال:

- كلانا تسرع كثيرًا يا (روحية).. أنا تزوجت امرأة لا تفهمني، وأنت تزوجت رجلًا لا يمكن أن يفهمك.

قالت في هدوء عجيب:

- إنه نصيبنا.. كل منا نال ما هو مقدر له.

قال في أسف:

- ولكنني لم أستطع التعايش قط مع (ثريا).. طبيعتنا يتعارض بعضها مع البعض تمامًا..

صحيح أنها امرأة طيبة القلب، مخلصة، ولكنها أبدًا لم تفهمني.

قالت (روحية):

- ربما أنت من لم يفهمها.

كاد يعترض في البداية، إلا أن عقله درس الأمر إلى حد ما، وقال في النهاية:

- نعم.. ربما.

ثم أضاف بسرعة:

- ولكننا انفصلنا في النهاية، على الرغم من إنجابنا طفل وطفلة.. لم يمكننا الاستمرار معًا، على الرغم من وجودهما.

خيل إليه أنه يرى ابتسامتها عبر الهاتف، وهي تقول:

- من العسير أن تجد من يحتمل طبيعتك البرية.

ثم تابعت في صوت يحمل رنة أسى:

- أنا أيضًا أسأت التعامل مع زوجي.. كنت أتعامل معه بشخصية مزدوجة، كما لو أنني مصابة بانفصام نفسي.. كثيرًا ما أحاول منحه الحب والحنان والرعاية اللازمة، من الزوجة لزوجها، ولكنني ما إن أبدأ في التعامل معه، حتى يراودني شعور بأنه السبب في فراقنا، فأغضب في أعماقي، وأصنع معه فيها معركة ضخمة، يدفع هو ثمنها في عالم الواقع، دون أن يدري سببًا لعصبيتي وعنفي وتوتري.. حتى عندما يغمرني بحبه وحنانه وهداياه، كنت أقابل كل هذا بالازدراء، أو السخرية، أو العنف..

سألها في حذر:

- وماذا عنكما الآن؟

طال صمتها هذه المرة، حتى كاد يتجاوز الدقيقة الكاملة، قبل أن تقول:

- إنه لم يعد هنا.

سألها في اهتمام:

- ماذا تعنين؟.. هل انفصلتما؟

جاء صوتها حزينًا، وهي تقول:

- كان انفصالًا من طرف واحد.. لقد مات.

فاجأه القول، فصمت لحظة بدوره، ثم غمغم:

- يؤسفني سماع هذا.

قالت بسرعة مدهشة:

- الموت حقيقة لا جدال فيها، على رؤوس العباد.

صمت كلاهما هذه المرة، بعد عبارتها، ثم قطع هو حبل الصمت، وهو يقول:

- لقد تزوجت مرة ثانية، ولكنني أيضًا لم أشعر بالارتياح.

سألته:

- هل كانت تشبه (ثريا)؟

مط شفتيه، وقال:

- بل تختلف عنها تمام الاختلاف، في كل الأمور، قلبًا وقالبًا، ولكنني لست أدري، لماذا لم أحتمل الحياة معها أيضًا.

قالت (روحية):

- طبيعتك لا تميل إلى هذا.

طال صمتهما بعد عبارتها..

وطال..

وطال..

كان من الواضح أن كلًا منهما يستعيد ذكريات ومشاعر، طمرتها السنون، وأخمدتها الأيام..

ولكن (إسماعيل) لم يكن يستعيد ذكرياته معها فحسب..

بل كان يستعيد حياته كلها..

لم يدر ما الذي فعلته فيه محادثتها الهاتفية بالتحديد، ولكنه فجأة، شعر وكأن حياته كلها كانت خاوية، فارغة، لا تعني شيئًا له، أو للآخرين..

حياته معها فقط، هي التي تستحق الذكر..

وذكرياته معها وحدها، تستحق التسجيل والاسترجاع..

فجأة، شعر أنه لن يستطيع العيش دونها..

لن يصبح للحياة طعم، لو رحلت ثانية..

إن محادثتها الهاتفية هي قطرات الحب، التي هبطت على صحراء حياته، فأنبتت فيها مرة أخرى بذور الحنان والسعادة..

هي قطرات العشق، التي روت خواءه وأنعشته..

☆ ☆ ☆

وبكل اللهفة في أعماقه، هتف:

- (روحية).. هل تتزوجينني؟

جاوبه صمت مطبق منها، فتابع في انفعال:

- لقد أضعنا الكثير من العمر يا حبيبتي، فدعينا لا تفقد ما تبقى منه.. لا ترددي.. لا تخافي، إنها حياتنا يا (روحية)، وسنحياها كما كان ينبغي أن نفعل من ربع قرن..

مرة أخرى جاوبه صمتها، ووجد عينيه تمتلآن بالدموع، وهو يتابع:

- أجيبي يا حبيبتي.. لا تصمتي هكذا.. إنني أحتاج إليك.. صدقيني.. إنني أشعر وكأنني كنت أنتظر محادثتك هذه، منذ عشرين عامًا يا (روحية).. هل تسمعينني؟

أتاه صوتها رصينًا هادئًا، وهو تقول:

- (إسماعيل).. إنك لم تسألني، لماذا اتصلت بك، بعد كل هذه السنوات..

قال في لهفة:

- إنه الحنين يا (روحية).. أليس كذلك؟.. الحب القديم يا حبيبتي.

قالت بعد لحظة من الصمت:

- بل هي محاولة لتطهير النفس يا (إسماعيل).

بهت للعبارة، وغمغم في دهشة:

- تطهير ماذا؟!

أجابته في لهجة تحمل شيئًا من الحزم:

- تطهير النفس يا (إسماعيل).. لقد أخبرتك في البداية أنني أتحدث إليك من (السويس).. إنني أنتظر الباخرة، التي ستقلني مع عدد من الحجاج إلى (المملكة العربية السعودية)، لأداء

فريضة الحج.. إنني أشعر بالندم يا (إسماعيل).. أشعر أنني المسؤولة عن موت زوجي المسكين، بكل الجفاء والبرود والمقت الذي عاملته به.. أنا المسؤولة عن كل الحزن، الذي ملأ قلبه، وناء به حمله، حتى سقط صريعًا.. وأنت تحمل جزءًا من المسؤولية معي يا (إسماعيل).. إنني لا أتهمك.. صدقني.. لقد غفرت لك، ولكل من أساء إلي في حياتي كلها..

وكان على أن أبلغك هذا بنفسي، حتى أشعر بالتطهر والارتياح.. إلى اللقاء يا (إسماعيل).. بل وداعًا.. وداعًا إلى الأبد.

لم يقاطعها بحرف واحد، وهي تلقي عباراتها الأخيرة، وتجمدت كل مشاعره في أعماقه، وهو يستمع إليها، حتى أنهت المحادثة، وتردد في أذنه صوت الهاتف الرتيب..

ولثوان، ظل يستمع إلى الهاتف في صمت ذاهل، ثم لم يلبث أن أعاد السماعة إلى موضعها في بطء، وعيناه تحدقان فيها في شرود..

وفجأة، شعر أن حياته صارت أكثر خواء، مما كانت عليه من قبل..

لقد فقدت كل ما تحمله من أهداف ومعانٍ..

قطرات الحب، التي منحته إياها (روحية)، عبر أسلاك الهاتف، لم ترو قلبه قط..

لقد زادته عطشًا..

بل حولته إلى صحراء جرداء..

صحراء قاحلة موحشة مخيفة..

وفي بطء، عاد (إسماعيل) إلى فراشه، ورقد فوقه صامتًا، وترك ذكرياته تنطلق بعيدًا، ويمتزج بعضها بالبعض، ثم تتهاوى في فراغ رهيب..

فراغ بلا قرار..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- همسة من الماضي..

2- أخي..

3- الزواج مرة أخرى..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

عملية صقر [كاملة]

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

عملية صقر
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000
عملية صقر

إهداء..

إلى كل الدماء الطاهرة، التي روت زهرة النصر، على رمال (سيناء)..

إلى الأم الكبرى..

إلى (مصر)..

د. نبيل فاروق.

☆ ☆ ☆

الفصل الأول

الخميس: 27 من سبتمبر 1973م، الأول من رمضان 1393هـ: السابعة والنصف صباحًا

☆ ☆ ☆

شرد جندي الصاعقة (حسن عبد العليم) ببصره وأفكاره، وهو يجلس على الضفة الغربية لقناة (السويس)، منهمكًا في تنظيف مدفعه الرشاش، كعادته كل صباح، ومتأملًا في حنق لم تمحه أو تخففه الأيام، ذلك الحصن الدفاعي الحصين، الذي يطل عليه من الضفة الشرقية، والمعروف باسم (خط بارليف)..

كانت نظراته تفيض بالكراهية والضيق، وهو يتمنى من أعماقه لو تجاهل الأوامر الصادرة إليه، وقفز في مياه القناة، ليسبح إلى الضفة الأخرى، ويواجه ذلك الحصن، ويحطمه..

وأغلق عينيه، وهو يتخيل نفسه واحدًا من أبطال الأساطير، يطير عبر القناة، ويمزق (خط بارليف) بيديه العاريتين، وارتسمت على شفتيه ابتسامة حالمة، لم تلبث أن تلاشت، عندما فتح عينيه مرة أخرى، وطالعه العلم الإسرائيلي، بنجمته السداسية الزرقاء، وهو يرفرف فوق الحصن في شماتة وتحد، والتقى حاجباه في مقت، فأشاح بوجهه عن العلم، وعاد يفرغ انفعالاته في تنظيف مدفعه، حتى سمع أحد زملائه يميل نحوه، هامسًا:

- هناك رتبة وصلت إلى المعسكر.

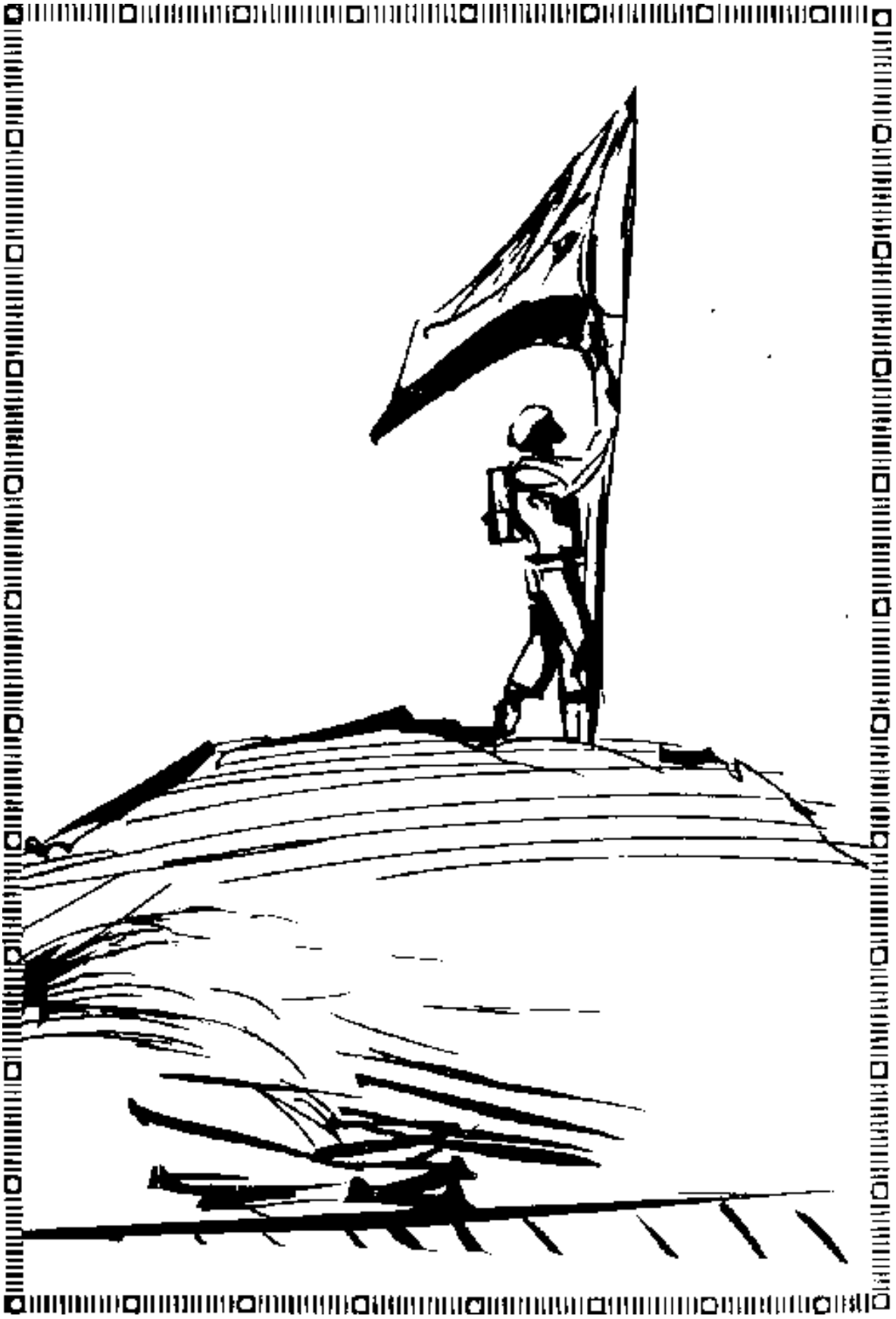

رفع عينيه في تكاسل، يتأمل السيارة (الجيب) المغطاة، التي عبرت بوابة المعسكر، واتجهت نحو مكتب القائد مباشرة، ثم هز كتفيه في سخط ولا مبالاة، وعاد ينهمك في تنظيف مدفعه..

كان يعلم أن الجنود يتبادلون مصطلح (رتبة) هذا، عندما يتحدثون عن أي ضابط، أكبر من الرائد، إلا أنه لم يحاول حتى أن يسأل نفسه عن سبب وجود ضابط كبير في معسكرهم، الذي نادرًا ما يحظى بمثل هذه الزيارة، بل اهتم بالتطلع إلى مدفعه الذي صار يبرق كالفضة، تحت أشعة الشمس، ونهض يحمله في عناية، وهو يتجه إلى خيمته، التي تضمه مع خمسة من زملائه، وهو ينفض الرمال عن زيه العسكري، الذي يمتزج صفاره بخضاره، شأن أزياء فرقة الصاعقة، التي ينتمي إليها، ولكنه لم يكد يبلغ الخيمة، حتى وجد جاويش الفرقة يهرول نحوه، قائلًا:

- القائد يطلبك في مكتبه يا (حسن).

مط شفتيه في ضيق وتكاسل، وسار في تراخ نحو مكتب قائد المعسكر، وسمح له جندي الحراسة بالدخول على الفور، مما أشعره بأن شيئًا غير مألوف يحدث في المعسكر، ولكنه ألقى هذه الفكرة خلفه، وهو يدلف إلى المكتب، ويرفع يده إلى رأسه، وهو يدق كعبيه بالتحية العسكرية الرسمية، قائلًا:

- الجندي (حسن عبد العليم) في خدمتك يا سيد...

توقفت العبارة في حلقه، الذي غص بها في عنف، مع اتساع عيني (حسن) عن آخرهما، وهما يكاد أن يقفزا من محجريهما، و(حسن) يحدق في الجالسين داخل حجرة مكتب القائد..

كان هناك شاب طويل القامة، عريض المنكبين، يحمل رتبة (نقيب)، ويرتدي الزي المميز لرجال الصاعقة، وآخر متوسط الطول، له شارب كث عريض، يحمل رتبة ملازم أول، وثالث

نحيل ضئيل الجسم، إلى درجة مثيرة للانتباه، يحمل رتبة ملازم ثان..

ولم يكن أحد هؤلاء سبب انفعال (حسن)..

ولا حتى قائده المقدم (إبراهيم حماد)..

بل كان الرجل الخامس، هو سر كل ما أصابه..

كان رجلًا مألوفًا، رأي (حسن) وجهه أكثر من مرة في الصحف، يحمل رتبة لم يحلم أبدًا برؤيتها وجهًا لوجه، مما جعله ينفض عن نفسه دهشته بسرعة، ويؤدي التحية العسكرية في عنف، وكعباه يرتطمان ببعضهما البعض بدوي هائل، أمام الرجل الخامس...

وكان هذا الخامس هو الوزير..

وزير الحربية المصري بنفسه.. ([1])

☆ ☆ ☆

تأمل وزير الحربية بعينية الفاحصتين (حسن) في هدوء، وقال بذلك الصوت الحاسم، الذي يعتاده من في مثل منصبه:

- استرح يا (حسن).

كان هذا الأمر مناسبًا للموقف تماما، فقد كادت عضلات (حسن) تتمزق، من شدة التوتر والانقباض، في وقفته العسكرية المشدودة، وأرخاها جندي الصاعقة بعض الشيء، والوزير يتابع في اهتمام:

- أنت إذن (حسن عبد العليم).. تقاريرك تقول: إنك شجاع ومقاتل شرس، لا يعرف الخوف طريقه إلى قلبه، ولا يهاب الموت.. وهذا أيضًا ما قاله عنك رؤساؤك يا (حسن)، بالإضافة

إلى أنك شاركت في عدد من العمليات الناجحة، في حرب الاستنزاف، وعبرت إلى الشرق أكثر من مرة، وكنت عضوًا فعالًا، في عملية تدمير مخزن الذخيرة الرئيسي للإسرائيليين، في الشهر الماضي.

تساءل (حسن) في دهشة عن السبب، الذي يدعو وزير الحربية بنفسه إلى الحضور للمعسكر، وقول هذا، وتصور لحظة أنهم سيمنحونه وسامًا، أو ترقية استثنائية، إلا أن كل هذا لم يكن مبررًا كافيًا، لذا فقد أبعد هذا عن تفكيره، واكتفى بالإصغاء إلى الوزير، الذي قدمه له الشاب العريض المنكبين، وهو يتابع:

- هذا هو قائدك الجديد يا (حسن).. النقيب (خالد فهمي) ... ستطيعه حتى الموت.. هل تفهم؟

أومأ (حسن) برأسه إيجابًا، دون أن ينبس ببنت شفة، والحيرة تتعاظم في أعماله أكثر وأكثر، في حين واصل الوزير، وهو يشير إلى صاحب الشارب الكث:

- وهذا الملازم أول (عمرو حشاد)، صاحب أشهر عملية انتحارية، في أثناء محاولة العدو الفاشلة، لاحتلال جزيرة (شوان).

- ثم وضع يده على كتف الشاب النحيل الضئيل، واستطرد في لهجة تحمل شيئًا من حنان الأبوة، أكثر مما تحمل من الحزم:

- وهذا الملازم ثان (محمد الحلوجي).. أكثر من يصلح للمهمة.

زوي (حسن) ما بين عينيه، وهو يتساءل في حيرة عن طبيعة تلك المهمة، التي أشار إليها الوزير، ولكن ذهنه لم يتصور أكثر من كونها عملية جديدة، من عمليات حرب الاستنزاف؛ ولذا فقد أدهشه تمامًا قول الوزير الحازم:

- أمامك عشر دقائق فحسب، للاستعداد التام وحزم أمتعتك الضرورية (حسن)، فسترحل على الفور.

ضرب (حسن) كعبيه ببعضهما البعض في قوة، ورفع يده بتحية عسكرية شديدة، وقال بصوت جهوري، حاول أن يجعله جديرًا بالوزير نفسه:

- في خدمتك يا سيادة الوزير.

ودار على عقبيه دورة مثالية، وعاد إلى خيمته، وراح يحزم أمتعته، وقد امتلكته حاسة المحترف، فأطبق شفتيه، ولم يجب سؤال أقرب أصدقائه، عما حدث في مكتب القائد.

وكانت هذه طبيعته..

☆ ☆ ☆

تجاوزت سيارة الوزير حدود محافظة (السويس)، دون موكب رسمي أو حراسة متميزة، وتجاهلت الطريق الأسفلتي الممهد، لتشق طريقها عبر رمال الصحراء، ولكن الرجال الأربعة، الذين اعتادوا تلك الأمور، التي تبدو لغيرهم غير مألوفة، ظلوا صامتين، يراقب بعضهم البعض في حذر، ويحاول كل منهم أن يستشف ما يدور في عقول الآخرين، حتى قطعت السيارة شوطًا طويلًا في قلب الصحراء، بحيث لم يعد أحدهم يرى سوى الرمال الصفراء الساخنة، تحيط بالسيارة من كل جانب، فهمس الملازم (محمد):

- من المؤكد أنها واحدة من أخطر عمليات حرب الاستنزاف؛ فليس من السهل أن يباشر وزير الحربية بنفسه مهمة خاصة.

وافقة الجميع بإيماءة من رؤوسهم، وهمس النقيب (خالد):

- لو أردتم رأيي، فالحرب على الأبواب.

ظهر الشك على وجوههم، وقال الملازم أول (عمرو):

- لن أشغل عقلي بالتفكير في هذا الأمر، ولكنني لا أشك لحظة.. واحدة، في أننا بصدد أخطر مهمة انتحارية في حياتنا كلها.

شعر (حسن) ببعض الضيق، وهو يشيح بوجهه عنهم، فتقارب الرتب بين الضباط الثلاثة كان يسمح لهم بتبادل الحديث في بساطة، أما هو فمجرد جندي، عليه أن يطبق شفتيه، ويلزم الصمت، ويحمد الله (سبحانه وتعالي) على وجود ذلك الحاجز الزجاجي السميك، الذي يفصلهم عن المقعدين الأماميين للسيارة، حيث يجلس الوزير وسائقه، ولكن الدهشة لم تلبث أن وجدت طريقها إلى نفسه، عندما وضع الملازم (محمد) يده على كتفه، وسأله في بساطة:

- ما رأيك أنت يا (حسن)؟

التفت إليه (حسن) في دهشة، ووجد ثلاثتهم يتطلعون إليه في اهتمام، وكأنهم نسوا أو تناسوا الرتب تمامًا، وأصبح رأيه يهمهم كثيرًا، فشعر ببعض الحرج، وتنحنح مغمغمًا في ارتباك:

- إنني أتمنى يا سيدي لو أن سيادة النقيب (خالد) على حق.

شرد الأربعة بأفكارهم، بعد عبارة (حسن)، وغمغم (عمرو)، وهو يتنهد في عمق:

- الحرب.. يا له من أمل!

كاد الحديث يمتد ويتشعب بينهم، لولا أن توقفت السيارة فجأة، وسمعوا وزير الحربية يقول بلهجة آمرة:

- هيا يا رجال.. لقد وصلنا.

قفزوا من السيارة، واصطفوا تبعًا لرتبهم، وعقد وزير الحربية كفيه خلف ظهره وهو يسير أمامهم في بطء، ويتأملهم في إمعان، ثم أشار إلى مبنى قريب من طابقين، يكاد يختفي بلونه الأصفر وسط رمال الصحراء، وقال:

- هنا ستتلقون الدرس الأول.

ثم أدار ظهره لهم، وسار نحو المبنى، فتبعوه في صمت، وكل منهم يسأل نفسه في حيرة.

اي درس هذا؟

ولم يتأخر الجواب..

☆ ☆ ☆

كانت القاعة التي انتقلوا إليها داخل المبنى، صغيرة، تشبه الفصول الدراسية البسيطة، وجلس الرجال الأربعة على مقاعد عادية، في مواجهة منضدة طويلة، جلس خلفها الوزير، إلى جوار رجل صارم الملامح، يحمل على كتفيه رتبة لواء، قدمه الوزير إليهم، قائلًا:

- اللواء (حسين قدري).. قائد العمليات الخاصة.

همهموا بكلمات غير مفهومة، والتقى حاجبا اللواء (حسين) في صرامة، وكأنما لا يروق له هذا الأسلوب، الذي يتجاوز التقاليد العسكرية، في حين تابع الوزير:

- من المؤكد أنكم تشعرون بدهشة حقيقية، لأتني أباشر هذه المهمة بنفسي، ولكن الواقع أنها مهمة بالغة الحساسية والخطورة، ولقد أمر الرئيس (السادات) بضرورة إحاطتها بأكبر

قدر ممكن من السرية، إذ أن نجاحها وفشلها قد يتوقف عليهما نجاح وفشل الحرب القادمة.

كانت أول إشارة من الوزير للحرب القادمة، فخفقت قلوب الرجال الأربعة، وانتبهت حواسهم كلها في لهفة وحماس، والوزير يستطرد:

- لهذا تم اختياركم بدقة بالغة، وبناء على عدد من الشروط والمواصفات، أهمها خبراتكم في العمل على أرض (سيناء)، وإجادتكم العبرية، وملامحكم التي تجمع ما بين الملامح الشرقية، مع لمحة غربية، تجعلكم أشبه باليهود الشرقيين.

لم ينبس أحدهم ببنت شفة، وهم يستمعون في انتباه تام، فاعتدل الوزير، وأشار إلى اللواء (حسين)، مستطردًا:

- قائد العمليات الخاصة سيشرح لكم الأمر بالتفصيل.

اعتدل اللواء (حسين) في مجلسه، والتقط نفسًا عميقًا، زاد ملامحه حدة وصرامة، وهو يشير بيده إشارة مبهمة، انطفأت إثرها أضواء القاعة، وتألق ضوء في مؤخرتها، لتسقط صورة ضوئية على شاشة بيضاء، نهض اللواء (حسين) يشير إليها، قائلًا:

- هذا الذي ترونه أمامكم هو الحصن الإسرائيلي، المقام على الضفة الشرقية لقناة (السويس)، والمعروف باسم (خط بارليف)، وهو - بحسب ادعاء الإسرائيليين - تم صنعه بطريقة تؤهله لتحمل هجوم بالقنابل الذرية، ولكن الحقيقة أنهم غير واثقين من مناعته هذه، بدليل أنهم يستخدمون محطة الإنذار (عاين).

تبدلت الصورة، لتظهر صورة أخرى لبرج معدني ضخم، يعلوه رادار كبير، وعند قاعدته مبنيان، وعلى جانبية مصطبتان، تقف فوق كل منهما دبابة، وكل دبابة تصوب مدفعها إلى عكس اتجاه مدفع الدبابة الأخرى، وهناك مبنى آخر مستقل، ويحيط بالمنطقة كلها سور ضخم من الأسلاك الشائكة، له مدخل واحد، يقف على حراسته جنديان مسلحان..

وبكل جديته وصرامته، قال اللواء (حسين):

- هذه هي المحطة (عاين)، وهي أحدث إنتاج للتكنولوجيا الأمريكية، ويطلقون عليها اسم محطات الإنذار المبكر، ولا يوجد منها حاليًا سوى هذه النسخة، التي يختبرها الأمريكيون - حسبما يبدو - في الجيش الإسرائيلي، وهذه المحطة يمكنها رصد تحركات جيشنا أو طائراتنا، منذ خروجها من مطاراتها، وإرسال

إنذار خاص إلى وسائل المقاومة والدفاع، للتصدي لأي هجوم منا.. مما يجعلها حجر عثرة، في طريق قيامنا بأي هجوم مفاجئ.. أو بمعني أدق.. هي أحد موانع قيام الحرب الشاملة.

بدا الحنق في وجه وعيون الرجال الأربعة، وهم يتطلعون إلى صورة المحطة، واللواء (حسين) يتابع:

- وما ترونه في الصورة ليس المحطة نفسها، فالمعدات الفعلية تختفي هناك، تحت الأرض، على عمق لا يعلمه أحد منا، وهذه المعدات هي الخطر الفعلي.. إنها عين الصقر، بالنسبة للقيادة الإسرائيلية.

ثم اعتدل، وأدار عينيه إليهم، مستطردًا في حزم:

- ومهمتكم يا رجال هي الوصول إلى قلب المحطة، وتدميرها.

خفقت قلوبهم مرة أخرى في عنف، وتردد سؤال في أعماقهم، منعوه في صعوبة من القفز إلى شفاههم، في حين أضاف قائد العمليات الخاصة، في لهجة بدت وكأنها اعتذار:

- والمشكلة لا تكمن في تدمير المحطة فحسب، وإنما في الموعد المحدود للقيام بالعملية.. فلابد من نسف المحطة في وضح النهار.. وبالتحديد في الواحدة ظهرًا، من يوم السبت، السادس من أكتوبر.

انطلق من بين شفتي الملازم (محمد) صفير طويل، ثم انتبه فجأة إلى أن هذا يخالف القواعد العسكرية تمامًا، فتضرج وجهه خجلًا، وارتبك في شدة، وهو يضم شفتيه في قوة، إلا أن قائد العمليات تجاهل الأمر تمامًا، وقال:

- الأمر يبدو الآن مستحيلًا، ولكن خبراؤنا درسوه جيدًا، وتوصلوا إلى خطة، تجعل الأمر ممكنًا، إلى حد ما.

وهنا تدخل وزير الحربية، وقال:

- هذا لا يعني أنها مهمة بسيطة.. بل أصارحكم القول إن هذه العملية، هي أخطر عملية تقومون بها، في حياتكم كلها، والخبراء يقولون إن نسبة نجاحكم لا تتجاوز الخمسة في المائة، ولكن هذا النجاح قد يعني النصر لنا، في معركتنا الحاسمة.. من منكم يرغب في التراجع، فليصرح الآن.

أجاب النقيب (خالد) في حسم:

- لا أحد.

وافقه الباقون بإيماءة من رؤوسهم، والحزم يملأ ملامحهم، فتبادل الوزير نظرة ارتياح مع قائد العمليات الخاصة، ثم عاد يواجه الرجال الأربعة، قائلًا بابتسامة واثقة:

- بالمناسبة يا رجال.. ستحمل هذه العملية اسمًا كوديًا خاصًا.. اسم (صقر).. (عملية الصقر).

وخفقت القلوب مرة أخرى.

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

الإثنين: الأول من أكتوبر لعام 1973م، الخامس من رمضان 1393هـ: الثانية عشرة والنصف ظهرًا.

☆ ☆ ☆

انعكست أشعة الشمس على رمال الصحراء، فزادت من حرارة الجو، في ذلك الوقت من اليوم، وازداد جفاف شفاه الرجال الأربعة، وهم ينطلقون في سيارة عسكرية من طراز (جيب)، تحمل على جانبها نجمة سداسية إسرائيلية، وكل منهم يرتدي ذلك الزي الزيتوني اللون، المميز للجيش الصهيوني، والصمت يجمع بينهم، بسبب الشفاه الجافة الملتصقة، والأجواف الملتهبة من شدة الحر والعطش. وذلك التوتر الذي يختفي في أعماقهم، ولا ينعكس على ملامحهم وتصرفاتهم..

وتعلقت أبصار الرجال الأربعة بالمبني ذي البرج المرتفع، وبالرادار الذي يتحرك فوقه بإيقاع منتظم، وهم يقتربون منه بسرعة، قبل أن يوقف صاحب الشارب الكث السيارة، أمام ثلاثة جنود يحملون المدافع الرشاشة، ويرتدون الزي المميز للشرطة العسكرية الإسرائيلية، ثم يقدم إليهم بطاقة صغيرة، داخل غلاف من البلاستيك، وهو يقول في عبرية سليمة:

- الرائد (إلياهو بن عسار)، من إدارة التفتيش المركزية.

ثم تناول الجندي ورقة تشبه الأوراق الرسمية، فحصها الجندي في عناية، وهو ينقل بصره بين الصورة الواضحة، في البطاقة العسكرية، ووجه قائد السيارة، قبل أن يسأله في صرامة، على الرغم من فارق الرتب الواضح:

- كلمة السر.

أجابه ذو الشارب الكث:

- شالوم.

وهنا خفض الجندي موقعه الآلي، وأدى التحية العسكرية، وهو يقول في احترام:

- في خدمتك أيها الرائد (إلياهو بن عسار).

هبط صاحب الشارب الكث من السيارة في هدوء، وتبعه الرجال الثلاثة، بعد أن عبرت السيارة أبواب المعسكر، وامتدت أيديهم إلى أسلحتهم، ولكنها تسمرت في الهواء، عندما ارتفع صوت صارم يقول:

- خطأ.

اعتدل الرجال الأربعة في وقفة عسكرية ثابت، وكذلك فعل جنود الحراسة الثلاثة، في حين تقدم من الجميع رجل يحمل رتبة لواء، وهو يقول في حدة:

- من الممكن أن يكلفكم هذا حياتكم، ويتسبب في فشل الخطة كلها.

لم يكن هذا الرجل سوى اللواء (حسين قدري)، قائد العمليات الخاصة، والذي يشرف بنفسه على التدريبات، التي تتم في الصحراء الغربية المصرية، عند نموذج خاص، يشبه تمامًا الجزء الخارجي من المحطة الإسرائيلية (عاين)، ولقد سأله (عمرو حشاد) صاحب الشارب الكث:

- فيم أخطأنا هذه المرة يا سيدي؟

أجابه اللواء (حسين) في صرامة:

- لقد هبط الرجال دون حمل أسلحتهم، كما أنك تقود السيارة بنفسك، وهذا لا يتفق مع تصرفات الإسرائيليين.. وخطأ كهذا يكفي لكشف أمركم جميعًا.. لابد لكم من نسيان مصريتكم، والتعامل كما يفعل هؤلاء الصهاينة تمامًا.. إنكم تتدربون في منطقة تشبه مسرح العملية تمامًا.. حتى في الكثبان الرملية المحيطة بها، وكلكم تتحدثون العبرية بطلاقة، ولكن هذه الأمور الصغيرة تصنع فارقًا ضخمًا.. المفروض أن يجلس (عمرو) في المقعد الأمامي، بصفته الأكبر رتبة، ويقود (حسن) السيارة، ويجلس (خالد) و(محمد) في المقعد الخلفي، وعند وصولكم إلى المحطة يبرز (حسن) أوراق (عمرو) للجندي، وعند الهبوط من السيارة يهبط الجنود أولًا، وهم يحملون أسلحتهم، ثم يهبط الضابط في النهاية.. هل فهمتم؟

أجابه (خالد):

- تمامًا يا سيدي.. اطمئن.

رفع (محمد) يده، معلنًا رغبته في الحديث، فأشار إليه قائد العمليات، قائلًا:

- ماذا لديك؟

سأله (محمد):

عفوًا يا سيدي، ولكن ساعة الصفر توافق أحد أيام السبت، كما أنها في الوقت نفسه عيد الغفران (كيبور) بالنسبة اليهود، فهل من الطبيعي أن تخرج دورية إسرائيلية للقيام بتفتيش روتيني، في ذلك اليوم، على الرغم من أن الديانة اليهودية لا تحبذ العمل في يوم السبت؟

مط اللواء (حسين) شفتيه، وقال:

- ملاحظة ذكية يا (محمد).. صحيح أن اليهود لا يشعرون بالارتياح، عندما يعملون في أيام السبت، ولكن القيادة العسكرية لديهم تستثني الإجراءات العسكرية من هذا، فهي أخطر من أن تؤجل.

ثم شد قامته، وقال في حزم قيادي:

- والآن هيا يا رجال.. ستجري تجربة أخرى للعملية منذ البداية.. وأرجو ألا تكون هناك أخطاء هذه المرة، فساعة الصفر تقترب.. تقترب في سرعة..

☆ ☆ ☆

مرة أخرى شعر (حسن) بالقلق والدهشة، عندما حان موعد النوم، ووجد نفسه يشارك الضباط الثلاثة حجرة نوم واحدة..

أشياء كثيرة تغيرت، منذ انتقل إلى هنا..

أشياء لم يتصور حدوثها أبدًا في حياته..

إنه يحيا مع الضباط الثلاثة في ألفة وبساطة، وروح المودة تسود بينهم، مع سقوط قيود فارق الرتب، وكأن الجميع يشعرون في قرارة أنفسهم أنهم في طريقهم لأداء مهمة بالغة الخطورة، قد تكون فيها نهايتهم، فلا داعي لإفساد لحظاتهم الأخيرة بقواعد روتينية وقوانين جامدة..

كان النقيب (خالد) رصينًا هادئًا، يبدو وكأنه دائم الانشغال والتفكير، ولا يبتسم إلا نادرًا، وللحظات قصيرة، أما الملازم أول (عمرو)، فهو مرح بطبعه، كثير السخرية، وبالذات عندما تزداد المتاعب والمخاطر، والملازم (محمد) بسيط للغاية، ويعد نموذجًا مثاليًا لتسعين في المائة من المصريين.. يتحرك،

ويتحدث، ويأكل، ويشرب في تلقائية وبساطة، ويجيد الدعابة وإلقاء الفكاهات، حتى في أحلك اللحظات والمواقف.

ابتسم (حسن)، عندما وصل بتفكيره إلى هذه النقطة، وتنهد وهو يقول في بساطة أدهشته شخصيًا:

- أظن (خالد) محقًا.. الحرب ولا ريب على الأبواب.

سأله (عمرو) في بساطة، وهو يشعل سيجارته:

- لماذا تقول هذا؟

اعتدل وهو يحرك كفيه حركات غير ذات معنى، قائلًا:

- ما داموا يولون تحطيم محطة الإنذار المبكر كل هذه الأهمية، ويصرون على ضربها في موعد محدود، فلا شك أن قواتنا تعد العدة لضرب (خط بارليف)، أو مهاجمته بشكل أو بآخر.. ولابد في هذه الحالة من نسف المحطة في الموعد المطلوب.

قال (خالد)، وهو يومئ بسبابته:

- هذا صحيح، واهتمام وزير الحربية بالأمر، بناء على أوامر الرئيس (السادات)، يؤكد قولك هذا.. بل يمكنني الجزم بأن الحرب الشاملة ستبدأ بعد ساعة واحدة على الأكثر، من نسف المحطة.

سيطر الوجوم على جو الغرفة، مع ذلك الصوت الثقيل، الذي ران عليها، حتى قطعه (محمد) بهدوء مدهش:

- فلنأمل هذا.. إننا نقاتل في حرب الاستنزاف منذ أربع سنوات، دون أن تلوح رياح الحرب.

غمغم (عمرو):

- لا تتعجل يا رجل.. لكل شيء أوانه.

عاد الصمت يلفهما بغلافه، حتى قال (محمد):

- ماذا كنت تعمل، قبل التحاقك بالجيش يا (حسن)؟

أجاب (حسن) في اختصار:

- مهندس زراعي.

هتف (محمد):

- حقًا.. يا لها من مفاجأة!.. وماذا عنك يا سيادة النقيب.

تنهد (خالد)، وقال:

- هذه مهنتي؛ فأنا ضابط محترف، تخرجت في الكلية الحربية.

وقال (عمرو) في سرعة:

- هذا ينطبق عليّ أيضًا.

واعتدل (خالد) يسأل (محمد):

- وماذا عنك أنت؟

ابتسم (محمد)، وقال في هدوء:

- كنت راقصًا.

حدق الجميع في وجهه بدهشة، وقال (عمرو):

- كنت ماذا؟!

أجابه (محمد) في بساطة:

- كنت راقص باليه، وكثيرًا ما مارست عملي، على خشبة الأوبرا، و...

قاطعه (حسن)، وهو يهتف في استنكار:

- راقص باليه؟!

ثم شعر بخطأ هذا عسكريًا، فتراجع في ارتباك:

- معذرة يا سيادة الملازم، ولكن..

قاطعه (محمد) بابتسامة هادئة:

- لا عليك.. لست أخجل من مهنتي، فأنا أحبها، وكنت أتمنى مزاولتها الآن، لولا التحاقي بالجيش كضابط احتياط، عقب حرب يونيو، عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين.

شعر (حسن) ببعض السخرية والاستهجان في أعماقه، وتساءل عن السبب، الذي يدعو الجيش إلى الاستعانة براقص باليه، في مهمة انتحارية كهذه، ولكنه لم يلبث أن هز كتفيه، وكأنما الأمر لا يعنيه، ورأى (خالد) يستلقي على فراشه، ويقول وكأنه يحاول الابتعاد عن الموضوع:

- ما رأيكم يا رفاق.. هل أجدنا تنفيذ المهمة التدريبية هذه المرة؟

تثاءب (حسن) عمدًا، وقال متناومًا:

- بالطبع.. لم تكن هناك أخطاء في المرة الأخيرة، ولكن المهم هو التنفيذ الفعلي.

مد (عمرو) يده، وأطفأ المصباح الذي يعلو فراشه، وهو يتثاءب بدوره، قائلًا:

- نعم المهم هو التنفيذ الفعلي.

سأل (حسن)، وهو يعدل الوسادة تحت رأسه:

- أهناك تجارب أخرى غدًا؟

ولكنه لم يتلق جوابًا، فهز كتفيه كعادته، وهمس لنفسه في سخرية:

- راقص باليه؟!..

ثم لم يلبث أن لحق برفاقه، وغاص الجميع في سبات طويل..

أو عميق..

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث

الأربعاء: الثالث من أكتوبر لعام 1973م، السابع من رمضان 1393هـ: الحادية عشرة والنصف قبل منتصف الليل.

☆ ☆ ☆

ارتفع صوت الهليكوبتر الحربية المصرية، وهي تشق طريقها في الظلام، عبر قناة السويس، إلى الضفة الشرقية، حتى أن الملازم (عمرو) تساءل في توتر، وهو يقبض على مدفعه في قوة، كيف لا يشعر الإسرائيليون بالهليكوبتر، وهي تخترق حاجزهم الدفاعي على هذا النحو؟.. إلا أنه لم يلبث أن تذكر أن المصريين يدرسون دائمًا خطوط الطيران السرية، وينتقونها في عناية، مع أنسب الأوقات لعبور القناة، بأقل قدر من الخطر..

كان يشعر في أعماقه بتوتر شديد، على الرغم من أنها ليست المرة الأولى التي يعبر فيها القناة إلى أرض (سيناء) في مهمة انتحارية..

وفي سرعة، راح عقله يسترجع آخر حديث لهم، مع اللواء (حسين قدري)..

كانت المرة الأولى، التي يتخلى فيها الرجل عن صرامته، ويتحدث إليهم بحنان واضح، وهو يراجع معهم الخطة، وينصحهم بضرورة توخي الحذر، منذ لحظة هبوطهم في الأرض المصرية المحتلة، في منتصف ليل الثالث من أكتوبر، وحتى يمكنهم بلوغ هدفهم (بإذن الله)، ظهر السادس من أكتوبر..

وبعدها حضر وزير الحربية، وصافحهم يدًا بيد، ونقل إليهم تحية الرئيس (أنور السادات)، وتمنى لهم النجاح، مؤكدًا مرة أخرى أهمية العملية وخطورتها..

ثم صعد الجميع إلى (الهليكوبتر).

وبدأت المهمة..

سرت في جسده قشعريرة باردة، عندما بلغ هذه النقطة من تفكيره، ورفع رأسه يراقب وجوه زملائه..

كانت وجوههم جامدة، لا تشف عن التوتر الشديد في أعماقهم، وهم يعلمون أنهم قد عبروا الحدود الآمنة بالفعل، وأصبحوا ينتظرون الموت في كل لحظة، داخل الأرض المحتلة، وكلهم يحبسون أنفاسهم، مع انطلاق الهليكوبتر في خط متعرج، تمت دراسته مسبقًا، مستترة دومًا بالتباب الرملية، والكثبان المرتفعة، ومبتعدة بقدر الإمكان عن نقاط الحراسة والرادار، متجهة نحو هدفها.

وحاول (عمرو) إزالة بعض هذا التوتر، فغمغم مبتسمًا:

- يبدو أننا سنواجه أخيرًا عملية حقيقية يا رفاق.

حجب هدير الهليكوبتر الجزء الأكبر من عبارته، وتلاشي الباقي وسط التوتر، الذي يخيم على الجميع، حتى خُيل إليه أن أحدًا لم يسمعه، لولا أن قال (خالد)، بعد فترة طويلة من الصمت:

- نعم يا (عمرو).. سنواجه هذه المرة عملية حقيقية.. الثمن الوحيد للخطأ فيها هو الموت.

ران الصمت مرة أخرى على المكان، إلا من صوت محركات الهليكوبتر، دون أن يعلق أحدهم على العبارة، ثم قطع (خالد) هذا الصمت، وهو يقول:

- إننا نقترب من نقطة الهبوط يا رفاق.. تذكروا منذ هذه اللحظة أنكم ترتدون الثياب العسكرية الإسرائيلية، وتحملون أسلحة تماثل تلك التي يحملها الإسرائيليون، وعليكم منذ لحظة الهبوط أن تنسوا تمامًا لغتكم العربية، فالحديث سيكون طوال الوقت بالعبرية.. المفروض طبقًا للخطة أن نهبط في منتصف الليل تمامًا، وبعد ساعة من الهبوط، وفي تمام الواحدة، سيصل (حمدان)، وهو واحد من بدو (سيناء)، يعمل لحساب المخابرات المصرية مع ابنته، وسيحضر لنا سيارة (جيب) عسكرية إسرائيلية، وبعض الأوراق اللازمة، لدخول محطة الإنذار المبكر.

قال (عمرو)، والقلق يملأ نفسه:

- كل هذا نحفظه عن ظهر قلب، ولكن الشيء الذي يقلقني حقيقة، هو أننا سنهبط في (سيناء)، مع اللحظات الأولى لليوم الرابع من أكتوبر، في حين المفروض أن ننفذ الخطة في ظهر

السادس من أكتوبر، ويومان فترة طويلة في مواجهة الخطر، واحتمالات الخطأ فيهما كبيرة، مما قد يتسبب في فشل المهمة كلها.

تنهد (خالد)، وقال:

- هذا صحيح، ولكنهم رأوا ضرورة وجودنا الآن، حتى يمكننا التآلف مع المكان، وحتى لا تضيع فرصة عبور حرجة كهذه، فالغيوم تخفى القمر الليلة، وتحجب ضوءه، ثم إن..

قاطعه فجأة أزيز متصل تزامن مع سطوع مصباح أحمر فوق رأسه، فاعتدل في مجلسه، وقال في انفعال:

- سنؤجل مناقشة هذه النقطة لما بعد، فقد حانت لحظة الهبوط.

نهض كل منهم، وثبت حقيبته فوق ظهره، وحمل مدفعه الآلي، وراجع حزام خوذته، وقال (خالد):

- ستهبط الهليكوبتر إلى ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف المتر، وسنقفز منها بترتيب الرتب.. الرتبة الأعلى أولًا..

فتح باب الهليكوبتر الخلفي، وألقى نظرة على الظلام الممتد إلى ما لا نهاية، وملأ صدره بنفس عميق، ثم قرأ الشهادتين في أعماقه، و...

وقفز..

وارتعد جسد (عمرو) لجزء من الثانية، عندما شاهد (خالد) يقفز من الهليكوبتر، ثم لم يلبث أن شد قامته، وقفز بدوره.. كان الهواء باردًا كالثلج، وهو يرتطم بوجهه، وخيل إليه أنه يهبط في بئر بلا قرار، ثم لم يلبث أن تبين الرمال الداكنة، على بصيص

من ضوء القمر، فضم ركبتيه إلى صدره، واحتضن سلاحه في قوة، وغاص برأسه بين كتفيه، كما تعلم في تدريبات الصاعقة، ولم تكد قدماه تلمسان الأرض، حتى تكور على نفسه، وترك جسده يتدحرج على الرمال، ثم هب واقفًا على قدميه..

وانتفض جسده كله في قوة..

كان يشاهد (محمد)، الذي يستعد للقفز بدوره، وخلفه (حسن)..

ولكن ليس هذا سبب تلك الانتفاضة..

إنما كان سببها يأتي من خلف تبة قريبة، على هيئة هليكوبتر..

هليكوبتر إسرائيلية، ظهرت فجأة، لتعترض طريق الهليكوبتر المصرية..

وطريق العملية كلها..

☆ ☆ ☆

كانت مفاجأة مزدوجة..

لقد فوجئ قائد الهليكوبتر المصرية ورجال الصاعقة الأربعة بالهليكوبتر الإسرائيلية، في نفس الوقت الذي بوغت فيها الطيار الإسرائيلي بهم.

وفي مبادرة سريعة، ضغط الطيار المصري زر إطلاق مدفعي طائرته، وهو يهتف بـ(محمد) و(حسن):

- اقفزا.. هيا.. بسرعة..

انطلقت رصاصات مدفعية نحو الهليكوبتر الإسرائيلية، التي ارتفعت بسرعة، لتفادي الطلقات، ثم دارت حول نفسها، في

محاولة للهجوم على قرينتها المصرية، في نفس اللحظة التي قفز فيها (محمد) من الهليكوبتر.

وشاهد (حسن) الهليكوبتر، والطيار المصري يصيح به:

- اقفز يا رجل.. اقفز قبل فوات الأوان..

ولكن (حسن) رفع مدفعه، وأطلق رصاصاته نحو الهليكوبتر الإسرائيلية، في نفس اللحظة التي انطلقت فيها رصاصات مدفعيها نحو الهليكوبتر المصرية..

وصرخ الطيار مرة أخرى:

- اقفز يا رجل.. لن تفسد المهمة بعنادك.

ثم مال بالهليكوبتر بغتة، ففقد (حسن) توازنه، ووجد نفسه يهوى من الهليكوبتر نحو الرمال، فكور جسده في سرعة، ليتفادى صدمة الهبوط، في حين دار الطيار المصري بطائرته دورة طويلة، والإسرائيلي يطارده في إصرار، ويطلق نحوه رصاصات مدفعية في سخاء.

وانطلق (خالد) و(عمرو) يعدوان نحو الهليكوبتر الإسرائيلية، ويطلقان عليها نيران مدفعيهما، فشعر قائدها أنه يواجه هجوما يفوق قدراته، مما دفعه إلى الاستدارة، والانطلاق مبتعدًا، فهتف (حسن):

- لقد هرب.

ولكن الهليكوبتر المصرية انطلقت خلف الإسرائيلية، فاستطرد في حيرة:

- ولكن.. لماذا يطارده؟.. إنه مصاب، والدخان يتصاعد من خزان وقوده.

قال (محمد)، وقد أدرك مغزى ما يحدث أمامه:

- طيارنا يخشى أن يفر الإسرائيلي، ويبلغ رؤساءه بما رآه؛ لذا فهو يطارده لإسقاطه.

وكان على حق في هذا..

لقد طارد الطيار المصري نظيره الإسرائيلي في إصرار، خشية إفساد الخطة، ولكنه فشل في إطلاق نيران مدفعية نحوه، بسبب عطب أصاب خط الذخيرة، فعض شفتيه في غيظ، وهتف محنقًا:

- ذلك الوغد سيفسد كل شيء.

لم يكن يدرك طبيعة المهمة بالتحديد، ولكنه يعلم أنها بالغة الأهمية والخطورة، وليس من الهين المخاطرة بفشلها؛ لذا فقد عقد حاجبيه في صرامة، وقال:

- فليكن.. لن نتنازل عن النصر هذه المرة.

وزاد من سرعة الهليكوبتر، على نحو جعل (عمرو) يهتف في دهشة.

- ماذا يفعل بالضبط؟

ارتجف قلب (خالد) في صدره، وهو يقول:

- أخشى أن..

لم يستطع إكمال عبارته، وهو يراقب تلك المناورة بقلق..

وصح ما توقعه تمامًا..

لقد انقض الطيار المصري على الهليكوبتر الإسرائيلية في اصرار مخيف، وبسرعة بالغة الخطورة، حتى أن قائدها الإسرائيلي هتف

في ذعر:

- ما هذا؟.. إنه مجنون!

وارتطمت الهليكوبتر المصرية بالإسرائيلية، في سماء (سيناء)..

ودوى الانفجار.

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع

الخميس: الرابع من أكتوبر لعام 1973م، الثامن من رمضان 1393هـ: الواحدة بعد منتصف الليل.

☆ ☆ ☆

غرق الرجال الأربعة في صمت ثقيل مهيب، وهم يجلسون على رمال (سيناء)، يمتزج التوتر في أعماقهم بالكثير من الحزن والأسى والمرارة، دون أن يجرؤ أحدهم على شرح مشاعره وانفعالاته للآخرين.

كان مشهد انفجار الهليكوبتر عالقًا في أذهانهم، يعتصر قلوبهم، ويمزق صدورهم في قسوة..

ثم حطم (خالد) حاجز الصمت في حزم، وهو ينظر إلى ساعته، قائلًا:

- لم يصل (حمدان) في موعده.

قال (عمرو):

- إنها الواحدة تمامًا، وربما يأتي في أية لحظة الآن.

لم يكد يتم عبارته، حتى تألقت أضواء مصباحي سيارة، تقترب من موقعهم في سرعة، فاعتدل الأربعة، وقال (حسن):

- ها هو ذا.

ولكن (خالد) عقد حاجبيه، وقال في توتر:

- مهلًا.. إنه ينطلق بسرعة أكبر من المعتاد، ثم أنه يستخدم الضوء المرتفع، على عكس المتفق عليه.

غمغم (حسن) في توتر:

- وما الذي يعنيه هذا؟

أجابه (خالد) في توتر مماثل:

- ربما يعني أن هذا ليس (حمدان).

سأل (عمرو):

- وكيف السبيل إلى التأكد من هذا؟

أتاه الجواب على لسان (محمد)، الذي نهض قائلًا في بساطة:

- هناك وسيلة لهذا.

التقت عيون الثلاثة عند جسده النحيل الضئيل في تساؤل، فتابع:

- سألتقي وحدي بالسيارة القادمة، ولو كانت السيارة المطلوبة، سأقول لقائدها كلمة السر، وينتهي كل شيء، أما لو لم تكن كذلك، فسأدعي أنني جندي ضل طريقه.

قال (خالد) في توتر:

- أيمكنك أداء هذا حقًا؟

ابتسم (محمد)، وهو يقول في بساطة:

- ولم لا؟!.. إنه أبسط جزء في العملية كلها.

قالها والتقط مدفعه الآلي، ثم اتجه في خطوات سريعة إلى ما خلف التبة، معترضًا طريق السيارة القادمة، فغمغم (حسن):

- من يصدق هذا؟

التقت إليه (عمرو) بحركة حادة، وقال:

- يصدق ماذا؟

أشار (حسن) إلى (محمد)، وقال:

- إنه مجرد راقص باليه، وعلى الرغم من...

بتر عبارته بغتة، أمام نظرات (عمرو) و(خالد) الصارمة الغاضبة، وتمتم في حرج:

- لم أقصد شيئًا سيئًا.

لم يعلق أحدهما على عبارته، مما زاد من حرجه وتوتره، فتمتم محاولًا تحسين موقفه:

- إنه شجاع بحق.

مط (عمرو) شفتيه في ضيق، وأشاح (خالد) بوجهه، فهتف (حسن) في عصبية:

- فليكن.. إنني أعتذر.

لم يجب أحدهما هذه المرة أيضًا، فقد انشغلا بمراقبة (محمد)، الذي بلغته السيارة، وتوقفت إلى جواره تمامًا.

ولقد بهر ضوء السيارة عيني (محمد) في البداية، فأغلقهما، ورفع مدفعه بيد واحدة، طالبًا من (الجيب) التوقف، ولم تكد تفعل حتى وجد نفسه يرتبك ويتلعثم، ويقول بالعبرية، التي يجيدها نفس إجادته للعربية:

- معذرة يا سيدي.. لقد ضللت طريقي في الصحراء، و...

قاطعه صوت حازم:

- عجبا!.. كنت أظنك تحمل لقب (صقر).

فتح عينيه في سرعة، ورفع وجهه إلى مصدر الصوت، وتفجرت الدهشة في أعماقه بشدة..

لم يكن قائد السيارة هو البدوي (حمدان)..

بل كان فتاة..

فتاة باهرة الحسن..

☆ ☆ ☆

اتسعت عينا (محمد) في دهشة كبيرة، وهو يتطلع إلى صاحبة الصوت الأنثوي الرقيق، الذي لا يخلو من الصرامة والحزم..

كانت هادئة، جادة، تمتلك ذلك السحر الشرقي الأخاذ، بعينيها السوداوين الواسعتين، ووجهها الأسمر الرقيق، وشعرها الحريري الأسود، الذي ينسدل على جانبي وجهها كليل بلا نجوم..

وتسمرت عينا (محمد) على وجه الفتاة، حتى كررت في حزم:

- أخبرني.. هل تحمل لقب (صقر)؟

اعتدل متخليًا عن انبهاره، وأجاب:

- نعم.. أنا واحد من الصقور الأربعة.

تنهدت في ارتياح، وتلاشى حزمها وصرامتها دفعة واحدة، وهي تمد يدها إليه بالتحية، قائلة في ود:

- حمدًا لله على وصولكم سالمين.. أين الباقون؟

صافحها في سعادة، وهو يشير لرفاقه بالقدوم، ثم قفز داخل السيارة، واتخذ المقعد المجاور لها، ووصل زملاؤه في سرعة، ليحتلوا مقاعد السيارة الباقية بدورهم، وسألها (خالد) في حذر:

- من أنت؟.. وأين الشيخ (حمدان)؟

أجابته وهي تدير محرك السيارة، وتنطلق بها عائدة:

- أنا (راوية).. ابنة الشيخ (حمدان)، وأعلم كل شيء عن مهمتكم.

عاد يسألها، وقد اصطبغت لهجته بالصرامة هذه المرة:

- أين (حمدان)؟

ارتفع حاجبا (عمرو) في دهشة، وهو يتطلع إلى وجه (راوية)، التي تقود السيارة في مهارة وتركيز؛ فقد خُيل إليه، على ضوء القمر الخافت أن خيطًا من الدمع يسيل من عينيها الجميلتين، وينزلق على خدها الأسمر اللامع، و(خالد) يكرر في قسوة عصبية هذه المرة:

- أين هو يا (راوية)؟

اختنق صوت الفتاة، وغص بدموعها، وهي تقول:

- مات.

حدق الجميع فيها بدهشة، وهتف (حسن):

- هل كشف الإسرائيليون أمره؟

هزت رأسها نفيًا، وأفلت من بين شفتيها نحيب باك، أسرعت تكتمه في صدرها، وهي تقول:

- كلا.. لقد مات ميتة طبيعية.. أصابته نوبة قلبية منذ ساعتين، فلقى ربه مبتسمًا، منشرح الصدر، وهو يؤكد أن مهمتكم تعني حتمًا قرب اندلاع الحرب الشاملة، وقرب تحررنا من الاستعمار الإسرائيلي..

مسحت دمعة انحدرت من عينيها، قبل أن تتابع:

- منذ غروب الشمس، وهو يتعامل وكأننا تحررنا بالفعل، ويتحرك في حيوية ونشاط عجيبين، وكأن عمره قد انخفض عشرون عامًا فجأة، ثم..

صمتت فجأة، مركزة انتباهها على الطريق، ثم استطردت:

- سقط فجأة، وهو يعد السيارة لاستقبالكم.. تمامًا كشمعة أطفأتها الرياح.

تمتم (خالد) في خفوت:

- البقاء لله، فلندع له بالرحمة.

ابتسمت (راوية) ابتسامة حزينة، وقالت:

- لم أشأ إضاعة الوقت في بكاء وعويل.. تركت هذه المهمة لأمي وأختي، وقررت أن خير ما أقوم به هو أن أتم ما بدأه، وأخرج لاستقبالكم.. هذا يجعله يرقد في قبره بارتياح.

سألها (خالد):

- وهل أخبرك بكل شيء؟

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت:

- تقريبًا.. لقد كان - رحمه الله - كتومًا للغاية، ولكنه كان يعتبرني دائمًا كاتمة أسراره.

سألها في لهفة واهتمام:

- هل أعطاك الأوراق إذن؟

أخرجت من طيات ثوبها أوراق مطوية في عناية، وناولتها له، قائلة:

- ها هي ذي.. كان يحرص عليها كروحه، ولكنها لم تذهب معها.

التقط الأوراق في لهفة، وفردها ليطالعها في اهتمام، على ضوء مصباحه اليدوي، ثم دسها في جيب سترته، قائلا:

- الأختام مزورة بدقة مدهشة.

قالت في هدوء حاسم:

- إنها حقيقية.

هتف (عمرو) في دهشة:

- حقيقية؟!.. وكيف حصل والدك على أختام حقيقية؟

أجابت في بساطة:

- دفع رشوة للضابط الإداري المسؤول.

قال (حسن) مشدوهًا:

- رشوة؟!.. أيوجد مرتشون لديهم؟

أجابت في اقتضاب:

- نعم.. (السفرديم).

ثم شعرت أن إجابتها ليست واضحة أو كافية، فتابعت:

- الإسرائيليون هم المسؤولون عن عدم الانتماء الموجود في نفوس بعض ضباطهم وجنودهم. فعلى الرغم من أن (إسرائيل) تحارب بشدة تعصب بعض الشعوب ضدها، إلا أنها في داخلها دولة عنصرية متعصبة، وقيامها وحده خير دليل على هذا.. إنهم يقسمون اليهود إلى فئتين.. (أشكنزيم) و(سفرديم).. الأولى هي اليهود الغربيين، الذين يتمتعون بكل الامتيازات، ويحصلون عادة على أرفع وأعلى المناصب، أما الثانية فهي اليهود الشرقيون، الذين يعاملون باعتبارهم الطبقة الأدنى، على الرغم من أن

الفئتين تحملان الجنسية الإسرائيلية، فيشعر (السفرديم) بالحنق والاضطهاد، ويقل انتماؤهم، فيسهل اجتذابهم وتجنيدهم..

سألها (حسن) فجأة بقلق:

- أليس من الخطر أن ننطلق على أرض العدو بسيارة لها مثل هذه المصابيح القوية؟

أجابته في هدوء:

- العدو لا يمكنه مراقبة كل شبر من أرض (سيناء) أيها الصقر، وما تزال هناك بقاع كثيرة يجهلها، ونحفظها نحن عن ظهر قلب.

قالتها وهي تدور بالسيارة حول تل قريب، ثم ضغطت فرامل السيارة فجأة بكل قوة، هاتفة:

- يا إلهي!

فهناك، على بعد أمتار قليلة منهم، كانت مصابيح عدد من السيارات تقترب في سرعة، فهتف (خالد):

- إنها دورية إسرائيلية.

وأضاف (عمرو) في توتر بالغ:

- إنهم يتجهون نحونا مباشرة، ولقد رأونا حتمًا.

ازدرد (حسن) لعابه في توتر مماثل، وقال:

- رأوا مصابيح سيارتنا على الأقل.

وهنا هتف (محمد) فجأة، في لهجة آمرة، لا تتناسب مع كون رتبته أقل من (عمرو) و(خالد):

- غادروا السيارة فورًا، واختبئوا عند هذا التل القريب.

قال (خالد) في حدة:

- ماذا تقول أيها الملازم؟

أجابه (محمد) في هدوء وبساطة:

- ألم تسمع ما قاله (حسن) يا سيادة النقيب؟.. لقد رأوا مصابيح السيارة فحسب، ولن يمكنهم تخمين عدد ركابها.. أسرعوا بمغادرتها إذن، وسأبقى وحدي، فليس من المنطقي أن نعرض أنفسنا جميعًا للخطر، ومهمتنا لم تبدأ بعد.

قال (خالد) في حدة:

- ولم لا أبقى أنا؟

أجابه بنفس البساطة:

- لأنك قائد العملية، والملازم أول (عمرو) هو أفضل من يجيد العبرية، وهو الذي سيلعب دور الضابط الإسرائيلي، عندما تحين ساعة الصفر، و(راوية) فتاة.

قال (حسن) في حزم:

- وماذا عني؟

قال (محمد):

- لا تضيع الوقت في النقاش.. إنهم يقتربون.

كان حديثه منطقيًا، مما جعل (خالد) يقفز من السيارة، ويعاون (راوية) على مغادرتها، في حين ربت (عمرو) على كتف (محمد)، وقال:

- وفقك الله.

وأسرع الثلاثة يعدون نحو التل القريب، في حين جلس (حسن) على مقعده، وجذب إبرة مدفعه الآلي في حزم، فقال (محمد):

- الحق بهم بسرعة، قبل فوات الأوان.

أجابه (حسن) في حزم:

- اثنان أفضل من واحد يا سيادة الملازم.

قال (محمد) وهو يراقب السيارتين القادمتين في قلق:

- ارحل يا رجل.. هذا أمر.

كرر (حسن) في عناد:

- اثنان أفضل من واحد يا سيادة الملازم، ويمكنك محاكمتي عسكريًا عند عودتنا.

تنهد (محمد)، وتطلع إلى السيارتين، اللتين صارتا قاب قوسين أو أدنى من سيارتهما، فغمغم:

- لا بأس.. فليفعل الله (سبحانه وتعالى) ما يشاء.

توقفت السيارتان إلى جوار سيارته، وهو يتظاهر بفحص محركها، وهبط منهما ستة من الجنود الإسرائيليين، صوب خمسة منهم مدافعهم الآلية نحو (محمد) و(حسن)، في حين تقدم منهما السادس، وقال:

- من أنتما، وماذا تفعلان هنا؟

أجابه (محمد) في هدوء، وبعبرية سليمة:

- لقد ضللنا طريقنا، والمحرك يرفض العمل، و...

قاطعه الرجل، الذي تبدو القسوة وكأنها جزء من ملامحه، وأشار إلى (حسن)، قائلا:

- أنت.. تعال هنا.

غادر (حسن) السيارة، وهو يحمل مدفعه في حزم، ووقف أمام الملازم الإسرائيلي الضخم الجثة، غليظ العنق، وقال:

- ماذا تريد أيها الملازم؟

التقى حاجبا الرجل، وهو يميل بأذنه في حركة عجيبة، قائلًا:

- ماذا قلت أيها الجندي؟.. هيا.. كرر عبارتك، فلغتك العبرية لا تروق لي.

ازدرد (حسن) لعابه، وقال:

- إنني مهاجر عراقي، وصلت إلى (إسرائيل) حديثًا، ولم تتح لي بعد فرصة إجادة العبرية.

تراجع الضخم، وبرقت عيناه على نحو عجيب، وهو يقول:

- هكذا؟!.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، لم ترق لهما، وهو يستطرد:

- لقد فقدنا واحدة من طائرات الهليكوبتر.. هل لمحتما شيئًا غير عادي الليلة؟

أجابه (محمد) في بساطة:

- مطلقًا.. إننا نسير منذ ساعتين، ولم..

قاطعته فجأة ضحكة ساخرة عالية، أطلقها الملازم الإسرائيلي الضخم الجثة، على نحو بغيض مستفز، قبل أن يلتفت إليهما، ويقول:

- لعبة طريفة، ولكنها فاشلة.

وأشار بسبابته إلى (حسن) مستطردًا:

- المهاجرون الجدد لا يعملون في الخطوط الأمامية أيها الفاشل

ثم انتزع مسدسه فجأة، وصوبه إليهما، مستطردًا في شراسة:

- أم أقول: أيها الجاسوس المصري.

وفي حركة غريزية، دفعه إليها حب البقاء، رفع (حسن) فوهة مدفعه الآلي، وأطلق النار على الملازم الإسرائيلي الضخم الجثة..

واشتعل الموقف.

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس

الخميس: الرابع من أكتوبر لعام 1973م، الثامن من رمضان 1393هـ: الثانية والنصف صباحًا

☆ ☆ ☆

مزقت رصاصات (حسن) جسد الملازم الإسرائيلي، ودفعته إلى الخلف في عنف، ليرتطم بثلاثة من رجاله، في حين تراجع الرجلان الباقيان في حركة حادة، وارتفعت فوهتا مدفعيهما، مع فوهة مدفع (محمد)، الذي تحرك في سرعة مدهشة، وأطلق رصاصات مدفعه بدوره على الإسرائيليين..

وفوجئ الإسرائيليون بالرصاصات تنهال عليهم كالمطر، و(خالد) و(عمرو) و(راوية) يندفعون من خلف التل، وهم يطلقون عليهم رصاصات مدافعهم الآلية أيضًا..

وانعكس الأمر..

سقط الإسرائيليون في الكمين، بدلًا من أن يسقط فيه المصريون..

وانتهى القتال في لحظات قصار، أدهشت الجميع..

ولقى الإسرائيليون الستة مصرعهم، قبل أن يتخذوا خطوة واحدة، في حين وقف (حسن) مشدوهًا، يتطلع إلى الموقف في ذهول، فهزه (محمد) من كتفيه، قائلًا:

- ماذا أصابك يا رجل؟

ردد (حسن):

- لا شيء.

ثم التفت إليه، متابعًا:

- وهذا هو ما يذهلني.. لقد قتلنا ستة من الإسرائيليين، دون أن أصاب برصاصة واحدة.

ربت (خالد) على كتفه، قائلًا:

- كانت مبادرتك مباغتة لهم، وتدخلنا قلب موازينهم، وأربكهم، فلم ينتبهوا حتى سقطوا جثثًا هامدة.

هز (حسن) رأسه في قوة، مرددًا:

- غير معقول!

جذبه (عمرو) نحو السيارة، وهو يقول:

- فليكن.. سنناقش هذه المعجزة فيما بعد.. المهم أن نبتعد عن هنا بأقصى سرعة، قبل أن يرسل الإسرائيليون دورية أخرى..

نفض (حسن) عن نفسه دهشته، وقفز مع الآخرين داخل السيارة التي انطلقت بها (راوية) عبر الصحراء، وهي تقول:

- هناك أمر ما يثير أعصاب الإسرائيليين الليلة، فقد أبدلوا مسار دورياتهم، وكأنهم يتوقعون حدوث أمر ما.

سأل (عمرو) في قلق:

- أمن المحتمل أن فكرة العملية قد تسربت؟

هز (خالد) رأسه في حزم، قائلًا:

- مستحيل!

قال (حسن) قلقًا:

- ولم لا؟.. ألم تسمع عن قوة ومهارة المخابرات الإسرائيلية.

قال (خالد):

- دعاية.. مجرد دعاية يا صديقي.. الإسرائيليون يجيدون هذا إجادة تامة، فهم يبالغون في قوتهم، ويحيطون أنفسهم بعدد من الروايات والأساطير، بحيث ينحفر في أعماق الجميع أنهم بالفعل قوة لا تقهر، وفرسان لا يشق لهم غبار.. ولكنهم في الواقع مجرد رجال عاديين، لا يمكنهم أبدًا اختراق أسوار السرية، لو أننا نحرص عليها بالفعل.

لم يحاول أحدهم مجادلته، أو مناقشته فيما ذهب إليه، وإن بدا لهم حديثه إنشائيًا، أكثر منه عمليًا، وقالت (راوية) في خفوت:

- استعدوا.. لقد وصلنا تقريبًا.

ثم دارت حول تبة أخرى، فبدأ أمامهم منزل واسع من طابق واحد، يجاوره بئر، وزوج من النخيل، وسيارة قديمة، وقالت (راوية)، وهي تتجه بسيارتها إلى المنزل:

- من هنا تبدأ رحلتكم الحقيقية أيها السادة.. ومن هنا تكون الخطوة الأولى في (عملية صقر).

☆ ☆ ☆

استيقظ النقيب (خالد) في العاشرة صباحًا، بعد نوم عميق، دام ست ساعات كاملة، فنهض من فراشه، وجلس على طرفه يتثاءب، ويفرد ذراعيه عن آخرهما، ثم تأمل الحجرة الصغيرة، التي تتسع بالكاد لفراشه الصغير، ومنضدة تستوعب دورقًا فخاريًا، يمتلئ بالماء العذب النظيف..

وهز (خالد) رأسه، وكأنه ينفض عن نفسه الكسل والنعاس، ثم غادر الحجرة، ليكشف أنه آخر من استيقظ من النوم، فقد كان الجميع يجلسون حول المائدة، ويتحدثون في هدوء، وكأنهم يقضون فترة استرخاء، لا جزءًا من مهمة انتحارية بالغة الخطورة. وكانوا يرتدون مثله ثيابًا بدوية، جعلته يبتسم قائلًا:

- صباح الخير يا إخوة العرب.

ردوا تحيته في بساطة، ونهضت والدة (راوية) تستقبله، مع شقيقتها (هادية)، وقالت (راوية):

- لا ريب أنك بحاجة إلى الاغتسال يا سيادة النقيب.. سأحضر لك بعض الماء من البئر، و...

قاطعها (محمد) بصوته الهادئ، وهو يقول:

- انتظري.. سأحضر أنا الماء من البئر.

قالها وهو يلتقط الدلو الضخم، ويتجه إلى باب المنزل، وتابعته هي ببصرها في إشفاق، وهي تتأمل جسده النحيل، ثم قالت في خفوت:

- شهم هو ذلك الفتى.. على الرغم من جسده النحيل ورقته البالغة، حتى ليدهشني أن أراه في زي رجال الصاعقة.

قال (حسن) في ضيق، وكأنما يحنقه أن تصف (راوية) أحد رجال الصاعقة بالرقة:

- مجرد مظهر خداع.. إنه يمتلك شجاعة الأسد، وصلابة الفولاذ.

قالها في ثقة شديدة، واعتداد بالغ، على الرغم من أنه لم ير (محمد) قط في أثناء العمل، ولكنه أراد أن يثبت لها أن اختيار قادة الجيش لرجالهم صائب دومًا، حتى ولو بدا الأمر مخالفًا لهذا..

وافقته (راوية) بإيماءه من رأسها، وابتسمت..

وكانت أول مرة تبتسم فيها، فبدا وجهها الأسمر جذابًا فاتنًا، بهر عيون الرجال الثلاثة، فتمتم (حسن) دون وعي:

- يا للروعة!

رمقه (خالد) بنظرة صارمة، وتضرج وجه (راوية) بحمرة الخجل، وأسرعت تقول، وكأنها تبدل الحديث:

- أما زلتم تصرون على الصيام، على الرغم من مهمتكم؟

مسح (خالد) شفتيه بسبابته، وقال:

- إننا نزداد صلابة، كلما أطعنا الله (سبحانه وتعالى)، وأدينا فرائضه.

فتح (عمرو) شفتيه، لينطق عبارة ما، إلا أن الكلمات احتبست في حلقه، والتقى حاجباه في شدة، مع صوت السيارة التي تقترب، والذي بدا فجأة في وضوح، في حين هبت (راوية) من مقعدها،

واندفعت نحو النّافذة، ثم أطلقت شهقة قوية، وهي تضرب صدرها بكفها، هاتفة في ارتياع:

- الإسرائيليون.

لم تكد تنطقها حتى وثب (عمرو) من مقعده، واختطف مدفعه الآلي، وصاح (حسن) في جزع:

- (محمد) بالخارج.

التقط (خالد) مدفعه الآلي بدوره، وهو يقول في حزم:

- يبدو أننا سنضطر لمخالفة الأوامر، والاشتباك معهم يا رجال.

أمسكت (راوية) يده، وهي تقول:

- قف.. إنهم أكثر من عشرة رجال، وتتبعهم سيارة نصف مصفحة.

أجابها في صرامة:

- و(محمد) بين أيديهم في الخارج، ولن نسمح بضياعه منا هكذا.

قالت في عصبية:

- وهل تسمحون بضياع (مصر) كلها؟

هزته عبارتها من الأعماق، وجعلته يسترجع توازنه، ويدرك أنه قائد.. والقائد لا ينساق أبدًا خلف عواطفه..

لقد أسند إليهم الوطن مهمة بالغة الدقة والخطورة، وطالبهم ببذل أرواحهم من أجل نجاحها، وليس من حقه التنازل عنها، من أجل فرد واحد، قد يلقي مصرعه، حتى مع تدخلهم..

وانتزعته (راوية) من أفكاره مرة أخرى، وهي تقول:

- أسرعوا.. من هنا.

هتف (حسن):

- و(محمد)؟!

صاح به (خالد):

- اطع الأمر أيها جندي...

قادتهم إلى حجرة داخلية، وتعاونوا معها لرفع حجر ضخم من أرضيتها، فظهرت أسفله حجرة سرية كبيرة، قالت (راوية)، وهي تشير إليها:

- لن يمكنهم كشف وجودكم داخلها.. مهما فعلوا.

أسرعوا داخل الحجرة السرية، وأعادت في الحجر فوقها، بمعاونة أمها وشقيقتها (هادية)، ثم ألقت جسدها فوق أريكة قريبة، وهي تملأ ذهنها كله بصورة (محمد)، وتلهث هاتفة:

- ساعده يا إلهي... ساعده..

☆ ☆ ☆

كانت مفاجأة عنيفة للملازم (محمد)، عندما ظهرت أمامه السيارة الإسرائيلية، وخلفها السيارة الأخرى نصف المصفحة، وانتفضت عروقه في أعماقه، إلا أنه واصل رفع المياه في هدوء، دون أن يتطلع إلى الإسرائيليين، حتى شعر بلكزة عنيفة في ظهره، وسمع صوتًا أجشًا غليظًا، يقول بالعبرية:

- التفت إليّ أيها البدوي الحقير.. لا تتظاهر بتجاهلنا.

استدار (محمد) في هدوء، يخفي به ذلك الانفعال، الذي تعصف به أعماقه، ليواجه ملازمًا إسرائيليًا ضخمًا، يلوك في فمه قطعة

من اللبان، وتبدو أسنانه القذرة من خلال ابتسامته الساخرة، وهو يتأمل (محمد)، قائلًا بلغة عربية ركيكة:

- عجبًا!!.. إنها أول مرة أرى فيها رجل بدوي أبيض البشرة.. قل لي يا فتى.. ألا تعمل إلا في الليل؟

أجابه (محمد) في هدوء:

- لا حيلة لي في لون بشرتي أيها الإسرائيلي.

فجأة هوى الإسرائيلي على وجهه بصفعة قوية، ترنح لها جسده الضئيل، وهو يصرخ:

- عندما تتحدث إلى أحد ضباط جيش الدفاع، لا تخاطبه بقولك: (أيها الإسرائيلي).. بل قل: (يا سيادة الملازم المحترم).. هل تفهم؟

تطلع إليه (محمد) بغضب شديد، وتمالك نفسه في صعوبة، حتى لا يهوى على وجهه بصفعة مماثلة، في حين تلفت الإسرائيلي حوله، وهو يقول:

- أين (حمدان)؟

أجابه (محمد) بصوت مختنق:

- لقد مات.

التفت إليه الرجل في وحشية، وقال:

- هل تلعب لعبة سخيفة، أم تتظاهر بالذكاء؟

أجابه (محمد) في ضيق:

- لا هذا ولا ذاك.. لقد مات أمس بالفعل، ويمكنك أن تسأل كل من حضر جنازته.

مال الإسرائيلي نحوه، قائلًا:

- فليكن.. ربما كان هذا أفضل له.. ولكن من أنت بالضبط؟

أجابة (محمد) في ثبات:

- ابن شقيقه (محمد).

اعتدل الإسرائيلي بحركة حادة، وهتف:

- ابن من؟!.. أخطأت يا فتى.. لم يكن لـ(حمدان) أشقاء.. أخبرني من أنت، أو أقطع لسانك، وأطعمه لكلاب السجن الحربي.

صاح أحد الإسرائيليين في هذه اللحظة، وهو يبرز من خلف المنزل:

- توجد هنا واحدة من سيارات الجيب المفقودة.

لم يكد الإسرائيلي ينطق هذه العبارة، حتى أدرك (محمد) أنه سقط، ولم تعد أمامه فرصة للنجاة، فدفع العباءة البدوية جانبًا، واستل من حزامه خنجرًا ماضيًا، ثم وثب في رشاقة مدهشة، ليحيط عنق الملازم بذراعه، ويضع نصل الخنجر على عنقه، هاتفًا:

- فليكن يا رجل.. خذ الحقيقة، ما دمت تريدها.. إنني مقاتل مصري، احتل منزل (حمدان) بالقوة، منذ مساء أمس.

ارتجف قلب (راوية)، إزاء هذا المشهد، وفهمت على الفور ما يرمي إليه (محمد)، بقوله: إنه يحتل المنزل بالقوة..

إنه يبرئها وأمها وشقيقتها، من تهمة التعاون معه..

يا له من شهم!

ولكن الشهامة وحدها لم تكن تكفي، في مثل هذا الموقف..

لقد كان فارق القوة بينه وبين الملازم الإسرائيلي ضخمًا، حتى أن هذا الأخير، انتزعه من فوق ظهره بسهولة، وكال له لكمة كالقنبلة، وهو يهتف:

- طريف منك أن اعترفت.

وارتفعت فوهات المدافع الآلية نحو (محمد)، ولكن الإسرائيلي هتف:

- أريده حيًا..

وهنا انقض الرجال العشرة على (محمد)..

وهزمت الكثرة الشجاعة..

وسقط (محمد)..

سقط في قبضة العدو..

☆ ☆ ☆

الفصل السادس

الخميس: الثامن من رمضان 1393هـ: الرابع من أكتوبر 1973م، الحادية عشرة والنصف صباحًا.

☆ ☆ ☆

ركل (حسن) قطع الأثاث المقلوبة، في غيظ وحنق، وشعر برغبة ملحة في البكاء، كتمها في أعماقه بصعوبة، مفضلًا اجترار حزنه وسخطه، مع صمته المعبر، في حين لم يتمالك (عمرو) نفسه. فراح يهتف في مرارة ثائرة:

- كيف؟.. كيف تركناهم يأسرونه بهذه البساطة؟!.. كان ينبغي أن نقاتلهم.. أن نريهم من نحن، وكيف نواجه أوغادًا مثلهم.

بكت أم (راوية) حسرة، وهي تقول:

- وماذا كان بيدك لتفعله يا ولدي؟.. لقد هاجموه كالكلاب المسعورة، وضربوه بوحشية، حتى فقد الوعي، ثم اقتحموا المنزل، وراحوا يسبوننا ويضربوننا، وقلبوا كل قطعة أثاث، بحثًا عن أعوان له، ومن حسن الحظ أنهم لم يعثروا على الحجرة السرية، التي كنتم تختبئون فيها تحت الأرض.

صاح (عمرو):

- نعم.. التي كنا نختبئ فيها كالفئران، ونترك هؤلاء الأوغاد يقتنصون زميلنا، دون أن نبذل أقل جهد لحمايته والذود عنه.

قال (خالد) في هدوء حازم:

- كان هذا حتميًا.

التفت إليه (عمرو)، صائحًا في سخط:

- أية حتمية؟.. حتمية الجبن والخسة والنذالة، و..

قاطعته صيحة هادرة صارمة من (خالد):

- كفى..

بتر عبارته، وأطبق شفتيه دفعة واحدة، وقد انتبه إلى أنه يخاطب قائده، في حين استطرد (خالد) في حزم قيادي واضح:

- ما فعلناه كان حتميًا، دون أدنى شك.. وهو ليس جبنًا أو خسة أو نذالة.. لقد كنا في موقف يحتاج إلى الحكمة والروية.. كانت كتيبة إسرائيلية مسلحة، مع سيارة مصفحة، ومن العسير جدًا أن نقاتلهم وحدنا.. ثم أنك نسيت المهمة الرئيسية، التي من أجلها أتينا إلى هنا.. إننا هنا من أجل (مصر) كلها أيها الملازم، ومن الخطأ، كل الخطأ، أن نضحي بـ (مصر) كلها، لأن عواطفنا تتجه إلى الدفاع عن فرد واحد.. أيًا كان هذا الفرد.. هل تفهم؟

صمت (عمرو) لحظات، وهو ينظر إلى (خالد)، ثم خفض عينيه، متمتمًا:

- نعم يا سيدي، أفهم.

كان حديث (خالد) منطقيًا للغاية، إلا أنه لم ينجح في منع تلك الغصة، التي اختنق بها (حسن)، وهو يقول:

- ولكننا أصبحنا ثلاثة.

هتفت (راوية) في حماس:

- أنا رابعتكم.

ألقي (خالد) عليها نظرة قصيرة، ثم أشاح بوجهه، قائلًا:

- الخطة معدة بحيث يمكن لثلاثة تنفيذها، في حالة الضرورة.

قالت (راوية) في عناد:

- ولماذا لا أصحبكم أنا؟

هتفت أختها (هادية):

- وأنا أيضًا.

قال (خالد) في حزم:

- القتال ليس للفتيات.

بدا الارتياح على وجه الأم، في حين قالت (راوية):

- من قال هذا؟.. لقد رأيت مجندة إسرائيلية بنفسي.

سألها في هدوء:

- وهل كانت تقاتل؟

قالت في صلابة:

- كانت مع الجنود.

اعتدل (خالد)، وتطلع إليها طويلًا هذه المرة، قبل أن يقول:

- لست أنكر وجود مجندات إسرائيليات، ولكنهن لسن مقاتلات، إلا في أفلام السينما والنشرات الدعائية، أما في الواقع، فهن لا يعملن إلا في الوظائف الإدارية، كالسكرتارية والأرشيف.

قالت في حدة:

- من قال هذا؟

أجابها في شيء من الضجر:

- شرائعهم اليهودية تمنع المرأة من القتال.

هتفت (هادية):

- ومن قال: إن الإسرائيليين يلتزمون بشرائعهم اليهودية؟

لم يبد عليه الارتياح كثيرًا، وهم يجذبونه إلى هذه المناقشة، ولكنه أجاب:

- من المحتم أن يفعلوا.. فعلى الرغم من أننا نعتبرهم ألد أعدائنا، إلا أنه من الضروري أن ندرك ونفهم مدى إصرارهم على الالتزام بشرائعهم، إذ أن هذا الأمر هو كيانهم كله.. ثم، ما الذي يدفعهم إلى الهجرة من بلاد استقروا فيها طويلًا، إلى (إسرائيل)؟؟ أليس هو ذلك النداء الديني الذي يزعمونه، بأنها أرض الميعاد؟.. إن الصهيونية كلها قائمة على التمسك بالشرائع، والتخلي عنها يعني انهيار (إسرائيل) كلها.

سأله (حسن) في اهتمام:

- لماذا توحي (إسرائيل) في دعاياتها إذن، بأن نساءها يقاتلن.

أجابه وقد بلغ ضجره مبلغه:

- للإيحاء بضعف الجيوش العربية يا رجل.. إنها تعلن أنها تقاتلنا بنسائها.. فأي عار هذا!

اعتدل (حسن) في صرامة، وقال في حدة:

- بنسائها؟!.. والله إننا لقادرون على الفتك بأقوى رجالها.

تدخل (عمرو) فجأة، ليدير دفة الحوار بعيدًا، وهو يقول:

- دعونا من كل هذا.. المهم الآن هو (محمد).. ماذا سيفعلون به في رأيكم؟

قالت أم (راوية) في حسرة وأسي:

- قلبي يتمزق من مجرد الفكرة.. إنهم أوغاد وقساة القلوب.. سيعذبونه حتمًا، حتى يمكنهم انتزاع أية معلومات منه.

هتف (حسن) في قلق:

- أيمكن أن يخبرهم بالخطة؟!

لم يكن ينطقها حتى شعر بالندم والخجل، فاستدرك بسرعة في خفوت:

- أعني هل يحتمل تعذيبهم طويلًا؟

تنهد (خالد)، وشرد ببصره لحظة، قبل أن يغمغم:

- من يدري يا رجل؟.. من يدري؟

وسرت العبارة في رؤوسهم كالنار في الهشيم، وظلت تتردد في أعماقهم، على الرغم من ذلك الصمت الرهيب، الذي خيم بغتة على المكان..

من بدري؟..

☆ ☆ ☆

«هالو.. هشو مييع أتا؟..».

ترددت تلك العبارة العبرية، في أذن الملازم (محمد)، وهو يستعيد وعيه في بطء، وعلى الرغم من إتقانه التام للغة العبرية، إلا أن عقله استغرق عدة ثوان، حتى أمكنه ترجمة العبارة إلى العربية في ذهنه، ليفهم أنها تعني: «هالو.. أسامع أنت؟»

كان من الواضح أن ذهنه لم يستعد صفاءه بعد، ولكنه فتح جفنيه قليلًا، وراح يستجمع قواه، ليستوعب ويدرك ما حوله..

كان ملقى في ركن زنزانة صغيرة رطبة، غرقت أرضيتها في ماء آسن، يرتفع خمسة سنتيمترات، وأضيء سقفها بمصابيح قوية حارة، ينفذ ضوءها وحرارتها إلى عينيه، حتى ولو أغلق جفنيه في قوة..

وكانت شفته السفلى مقطوعة متورمة، وهناك آلام عديدة، تنتشر في جسده..

ثم ميز وجه ذلك الإسرائيلي الضخم، الذي ينحني فوقه، ويكرر بالعبرية:

- هل تسمعني؟

أومأ (محمد) برأسه في بطء، وهو يحاول استجماع شتات ذهنه، والسيطرة على أفكاره، وبدأت عيناه تميزان ما حوله تدريجيًا، والإسرائيلي يقول في خشونة:

- من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

كان (محمد) يفهم كل حرف، نطقه الرجل بالعبرية، ولكنه تمتم في ضعف:

- لست أفهم ما تقول.. تحدث العربية، من فضلك.

شعر بيد قوية تجذبه من شعره، ثم هوت على وجهه النحيل صفعة عنيفة، مع صوت صارخ غاضب شرس، يقول بلغة عربية ركيكة:

- من أنت أيها الحقير؟

تمتم (محمد):

- جندى مصري، انفصلت عن زملائي، وضللت طريقي في الصحراء.

سأله الإسرائيلي:

- منذ متى؟

لوح (محمد) بيده في ضعف، وقال:

- ثلاثة أو أربعة أيام، أو..

قبل أن يتم عبارته، انهالت عليه الصفعات واللكمات والركلات كالمطر، في قسوة ووحشية، ثم هتف الإسرائيلي:

- أيها الكاذب الحقير.. أتحاول إقناعي بأنك ضال في الصحراء، من أكثر من يومين، دون أن تلفح الشمس وجهك، أو يصاب جلدك بالتشققات والتسلخات؟!.. ألا تعرف من أنا أيها الغبي؟!

كان (محمد) قد قرأ اسم الإسرائيلي في وضوح، على البطاقة المعلقة بجيب زيه العسكري، وقرأ العبارة المدونة أسفلها «جان موديعين»، والتي تعني «شعبة المخابرات»، إلا أنه تظاهر بالسذاجة والغباء، وهو يقول:

- كلا.. لست أعرف من أنت.

صرخ الإسرائيلي في وجهه:

- أنا الذي يفوق قادتك كلهم حنكة وذكاء أيها الغبي.. أنا الرجل الذي لا يمكن خداعه أبدًا.. إنك تحاول أن تبدو ذكيًا، ولكنك لن تخدعني قط.. لقد فقدنا أمس طائرة هليكوبتر ودورية كاملة، ونحن نعلم أنكم هنا لمهمة ما، وأنت ستخبرني الباقي..

تحسس (محمد) شفته المقطوعة في حذر، ثم قال:

- لست أعلم شيئًا.. إنني مجرد جندي تائه، و...

عادت الصفعات واللكمات والركلات تهوي على وجهه وجسده، دون أن يطلق صيحة ألم واحدة..

كانت المرة الأولى، التي يقع فيها في الأسر، على الرغم من عدد المرات الكبير، الذي عبر فيه قناة السويس، وقاتل في قلب (سيناء)، طوال حرب الاستنزاف..

ولكنه احتمل التعذيب في صلابة فولاذية، وعزم لا يلين..

وسمع (محمد) صوتًا يقول في هدوء:

- كفى..

تصور في البداية أنه أحد الضباط، إلا أنه فوجئ بطبيب إسرائيلي، في معطفه الأبيض، يتقدم منه، ليفحصه في اهتمام بالغ..

ويا للسخرية!..

إن الإسرائيليين يصرون دائمًا على وجود طبيب، أثناء عمليات الاستجواب..

ليس خوفًا على حياة الأسير..

ولكن حرصًا على المعلومات..

كانوا يخشون فقدان المعلومات، لو لقي الأسير مصرعه، قبل أن ينتهي استجوابه، مع أساليبهم الوحشية، وعنفهم الزائد..

والعجيب أن هذا الطبيب الإسرائيلي ظل صامتًا هادئًا، يراقب كل ما يفعله الإسرائيلي، دون أن يطرف له جفن، حتى عندما تورم جفنا (محمد)، وتحطم أنفه، وانتفخ وجهه.. لم يتحرك إلا عندما حانت لحظة الفحص الروتيني، فتقدم يقيس نبض (محمد)، ويفحص ضغطه وعظامه، ثم قال في هدوء:

- يمكنه احتمال المزيد.

وعاد في بساطه إلى ركن الزنزانة، وانقض الإسرائيلي مرة أخرى على (محمد).

وعادت الصفعات والرحلات واللكمات..

ولم تتغير أقوال (محمد)..

ثم توقفت الضربات.

توقفت بعد ثلاث ساعات متواصلة، وانهار (محمد)، ولم يستطع الوقوف على قدميه..

وهنا دخل أحد الضباط إلى الزنزانة، وألقى نظرة باردة عليه، ثم قال:

- أحضروه.. الرجل يريد رؤيته بنفسه.

شعر (محمد) بذراعين قويتين تحملانه، وتغادران به الزنزانة الرطبة، فأيقن أنه بسبيله لملاقاة وسيلة تعذيب فائقة جديدة، في زنزانة أخرى، إلا أنه فوجئ بحارسيه يحملانه إلى ممر نظيف طويل، انتهى بحجرة مغلقة، أوقفاه أمامها، وهو يعجز عن حفظ توازنه، ثم دق أحدهما الباب في رفق، ودفعه قائلًا بالعبرية:

- الأسير يا سيدي.

كان هناك رجلان يوليانه ظهرهما، وهما يفحصان خريطة كبيرة لـ (سيناء)، ولقد أشار أحدهما إشارة صامتة، دون أن يلتفت، فدفع الحارسان (محمد) داخل الحجرة، التي بدت كبيرة نظيفة،

جيدة الإضاءة والتهوية، وأجلساه فوق مقعد وثير، ثم وقفا حوله في حزم، مشدودي القامة..

وفي بطء، التفت إليه أحد الرجلين..

واتسعت عينا (محمد) في دهشة بالغة..

لقد كان أمامه وجه، لا يمكن أن يخطئه مصري واحد، في تلك الآونة..

وجه أصلع حليق، تغطي عينه اليسرى عصابة سوداء مميزة..

وجه الوزير..

وزير الدفاع الإسرائيلي نفسه.

☆ ☆ ☆

الفصل السابع

الخميس: الثامن من رمضان 1393هـ - الرابع من أكتوبر 1973م: الثالثة عصرًا.

☆ ☆ ☆

«هنا..».

نطق اللواء (حسين قدري)، قائد العمليات الخاصة، هذه الكلمة، وهو يشير بسبابته إلى نقطة محدودة، على خريطة كبيرة لـ(سيناء)، فعقد وزير الحربية المصري حاجبيه، وهو يقول في قلق واضح:

- هذا يعني أنهم أصبحوا ثلاثة فحسب، وهذا يزيد الأمر تعقيدًا.

التفت إليه اللواء (حسين)، وهو يقول:

- ما زالت العملية ممكنة يا سيدي الوزير، حتى بعد موت (حمدان) المفاجئ، ووقوع (محمد) في الأسر.. لقد وضعنا حساباتنا كلها، بافتراض أن أحدهم سيلقى مصرعه، قبل بدء العملية.

هز الوزير رأسه، وقال والقلق يعصف بنفسه:

- هذه العملية بالغة الخطورة أيها اللواء.. وبالغة الأهمية أيضًا، ولست أدري لماذا أصر الخبراء على ضرورة هبوط الرجال في (سيناء)، قبل موعد العملية بستين ساعة كاملة؟.. هذا يضاعف الخطورة حتمًا.

قال اللواء (حسين):

- إنها ليست عملية عادية، من عمليات حرب الاستنزاف يا سيدي الوزير.. إننا ننفذ عملية خاصة، تحتاج إلى خداع الإسرائيليين حتمًا، ولابد من تواجد الرجال في قلب الهدف، لفترة تكفي لتكيفهم مع الظروف المحيطة، واحتوائهم لطبيعة الخطر، قبل تنفيذ المهمة المطلوبة.

لوح الوزير بذراعه، وقال:

- فليكن.. إنه عملهم.

ثم عقد كفيه خلف ظهره، ورفع رأسه إلى الخريطة، مستطردًا في قلق واضح:

- كل ما نملكه الآن هو الانتظار والدعاء..

وانعقد حاجباه، وهو يضيف في عصبية:

- والقلق..

☆ ☆ ☆

احتاج الصقور الثلاثة إلى ساعتين كاملتين، لاستيعاب أمر فقدانهم لزميلهم، ولدراسة وتنفيذ الخطة البديلة، التي تفترض انخفاض عددهم إلى ثلاثة، ثم اعتدل النقيب (خالد)، وقال:

- المشكلة الحقيقية هي أن (ثلاثة) هو أقل عدد يكفي لتنفيذ الخطة، ولا يمكننا المخاطرة بفقد رجل آخر.

غمغم (حسن) في مرارة:

- إذن فقد تم اعتبار الملازم (محمد) مفقودًا رسميًا.

تطلَّع إليه (خالد) و(عمرو) لحظة، ثم تبادلا نظرة سريعة، وقال (خالد) في حزم، متجاهلًا العبارة تمامًا:

- في حالتنا هذه سنلغي دور المراقب الخارجي، وسيقود (حسن) السيارة، ويجلس (عمرو) إلى جواره، وأجلس أنا وحدي في المقعد الخلفي.

قال (حسن) معترضًا:

- ولكن دور المراقب شديد الأهمية.. إنه ورقة الأمان عند الفرار.

قال (خالد):

- ليس أمامنا سوى هذا.

اعتدل (عمرو)، وقال:

دعك الآن من تأمين الفرار، ولنناقش أولًا عملية الدخول إلى المحطة (عاين).. هل نسيتما أن الإسرائيليين استعادوا (الجيب)، ولم تعد لدينا سيارة؟.. كيف نصل إلى المحطة إذن؟.. سيرًا على الأقدام؟!

تدخلت (راوية) لأول مرة، قائلة في انفعال:

- السيارة ليست مشكلة.

التفت (عمرو) إليها، وقال في سخرية:

- هكذا؟!.. رائع.. من أين يمكننا شراء سيارة (جيب) إسرائيلية، تحمل شعار جيش الدفاع؟

انعقد حاجباها في غضب، وهي تقول:

- بل سنسرقها.

التفت إليها الجميع في دهشة هذه المرة، وقال (حسن) في استنكار:

- نسرقها؟!.. أي قول هذا؟.. إنها ليست دجاجة، أو حقيبة صغيرة.. إنها سيارة حربية، لا يمكن وجودها إلا داخل المعسكرات.

قالت في سرعة:

- أو في دوريات الصحراء.

انعقد حاجبا (عمرو)، وهو يسألها:

- ماذا تقصدين بالضبط؟

أجابت في حماس:

- هناك دوريات صباحية ومسائية، تجوب (سيناء) طوال الوقت، وكل دورية عبارة عن سيارة جيب واحدة، بها ضابط وثلاثة جنود، وكثيرًا ما تتوقف الدوريات الليلية في واحة قريبة، لتناول بعض الأطعمة والمشروبات.. سنستغل توقف واحدة من تلك الدوريات مساء اليوم، ونسرق سيارة الدورية.. ما رأيكم؟

تبادلوا نظرة صامتة، ثم قال (خالد) بهدوئه الحازم:

- لا بأس.

تهللت أسارير (راوية)، في حين التفت هو إلى رفيقيه، وقال:

- ما رأيكما؟.. سنحاول الحصول على (جيب) أخرى الليلة.

اكتفي (حسن) بالصمت، متصورًا أنه ليس من حقه مجرد إبداء الرأي، في وجود ضابطين، أما (عمرو)، فعقد حاجبيه، وداعب شاربه الكث لحظة، قبل أن يقول:

- يمكننا أن نحاول على الأقل.

وكان هذا إقرارًا للخطة..

☆ ☆ ☆

تفجر بركان من الدهشة والقلق، في نفس الملازم (محمد)، وهو يحدق في وجه وزير الدفاع الإسرائيلي، الذي ظل صامتًا، هادئًا، يتطلع إليه بعينه الواحدة الحادة كصقر أعور..

وقفزت عشرات الأسئلة، إلى رأس (محمد)..

هل انكشف أمرهم؟

هل فشلت العملية؟..

ولماذا يهتم وزير الدفاع الإسرائيلي نفسه، بأسر جندي مصري؟..

وأين رفاقه الثلاثة؟..

هل نجحوا في الفرار، أم سقطوا أيضًا في قبضة العدو؟

أما وزير الدفاع الإسرائيلي، فقد انحني نحوه، وسأله في هدوء شديد، وبلغة عربية فصحي:

- ما اسمك؟

أجابه (محمد) في سرعة:

- (محمد عبد الله).. جندي في القوات الخاصة المصرية.

اعتدل وزير الدفاع، وبدا مستريحًا للإجابة، في حين قال الضابط الآخر:

- لا تقلق نفسك بشأن هذا الأسير يا جنرال.. إنك هنا لتهنئة الرجال بقرب عيد الغفران (كيبور)، فدعك من الأسرى ومشاكلهم..

ألقى عليه الوزير نظرة صامتة، ثم قال بالعبرية:

- الأمر مريب يا رجل.. لقد انفجرت طائرتنا بعد اصطدام مباشر مع هليكوبتر مصرية، لم تكن تحمل جنديًا واحدًا، باستثناء قائدها.. فما الذي أتى بها إلى هنا.. في عمق (سيناء)؟ وأين ذهب من كانت تحملهم؟

أشار الرجل إلى (محمد)، وهو يقول:

- ها هو ذا أحدهم، وسنتصيدهم حتمًا، واحدًا بعد الآخر.. إنها عملية عادية، من تلك العمليات، التي يطلق عليها المصريون اسم (حرب الاستنزاف)، وسنسيطر عليها بسرعة.

هز وزير الدفاع رأسه نفيًا، وقال:

- المصريون لم يبلغوا، في حرب استنزافهم، هذا العمق قط، ثم لماذا عادوا فجأة إلى لعبة الاستنزاف هذه، بعد أن توقفوا عنها طويلًا؟.. كلا يا رجل.. أخشى أن يكون الأمر أكبر من هذا بكثير.

قال الضابط في اهتمام:

- أتشير إلى مناوراتهم، واستدعائهم لقوات الاحتياط يا جنرال؟

صمت وزير الدفاع الإسرائيلي لحظات، ثم هز رأسه نفيًا، وقال:

- كلا.. إنها ليست أول مرة يفعلونها هذا العام.. لقد أجروا مناورات حية، واستدعوا كل الاحتياط مرتين، خلال هذا العام، وفي كل مرة كنا نسارع نحن باستدعاء احتياطنا، مما يؤثر بالسلب على اقتصادنا، ويجشمنا ملايين الدولارات دون طائل.

وعلى الرغم من آلامه وجراحه وكدماته، كاد (محمد) يطلق زفرة ارتياح قوية، عندما أدرك أن الإسرائيليين يثقون تمامًا في عدم قدرة المصريين على خوض حرب، يؤمن هو بأنها على قيد خطوة واحدة الآن..

ثم استدار إليه وزير الدفاع بغتة، وقال:

- في أية كتيبة أنت؟

هم (محمد) بإجابة السؤال تلقائيًا، إلا أن عقله أطلق فجأة إنذارًا قويًا..

لقد نطقها الوزير الإسرائيلي بالعبرية..

والمفروض أنه يجهل هذه اللغة..

وبسرعة، وتراجع (محمد)، وقال:

- معذرة.. لست أفهم شيئًا.

ولكن عين الوزير الثاقبة لاحظت ما حدث..

لاحظت إقدامه، وتردده، وتراجعه، على الرغم من أن كل هذا حدث في جزء من الثانية..

وانعقد حاجبا الوزير، ورمق (محمد) بنظرة نارية، وهو يقول:

- أنت تكذب.

ودون أن ينتظر جوابًا من (محمد)، التفت إلى الضابط، وقال في حزم:

- استجوبوه مرة أخرى يا (ليومي).. انزعوا أظفاره، ولنر إلى متى سيحتمل، قبل أن يدلي بالحقيقة.

واكتسب صوته صرامة، وهو يستطرد:

- كل الحقيقة.

☆ ☆ ☆

كان الألم شديدًا، عنيفًا، قويًا، يكفي لانتزاع الأسرار من بين شفتي تمثال من الحجر، حتى أن (محمد) لم يستطع كتمان صرخته هذه المرة، وهم ينتزعون إظفر سبابته اليسرى بلا رحمة، بآلة تشبه نازعة المسامير البدائية (الكماشة)..

وسالت الدماء من موضع الظفر المخلوع غزيرة قوية، وعض (محمد) شفته السفلى في قوة وقهر، حتى كاد يدميها، وهو يكتم رغبة عارمة في البكاء، في حين ارتفع صوت الضابط الإسرائيلي الصارم، وهو يقول:

- اعترف.. من أنت، وماذا تفعل هنا؟

ارتجفت الكلمات على شفتيه، وهو يقول:

- صدقني.. أنا جندي مصري عادي.. واسمي (محمد عبد الله).

هوى الضابط على وجهه بصفعة قوية، وهو يصرخ:

- كاذب.. أريد الحقيقة.. الحقيقة.

ثم استدار إلى جندي التعذيب، وصاح:

- انتزع ظفرًا آخر.

انقض عليه الجندي في شراسة، وأمسك وسطاه في قوة، وجذب أظفره في وحشية، دارت معها عينا (محمد) في محجريهما، من شدة الألم، والضابط يسأله في قسوة:

- أجب.. من أنت؟.. لماذا أنت هنا؟.. أين زملاء مهمتك؟

أطلق (محمد) صرخة مدوية، وهم ينتزعون ظفرًا آخر، من يده اليسرى..

كان جسده نحيلًا ضعيفًا بالفعل، على الرغم من كل ما احتمله، حتى أن رأسه تهاوى على صدره، فتراجع الضابط، قائلًا في توتر:

- هل مات؟!..

أسرع الطبيب المراقب إلى (محمد)، وفحصه في اهتمام وعناية، ثم تراجع قائلًا في لا مبالاة:

- لقد انهار فحسب.. يمكنكم مواصلة عملكم.

أمسك جندي التعذيب ببنصر (محمد) الأيسر، وهم بنزع ظفره، عندما هتف (محمد) فجأة:

- كلا.. كلا.. أريد مقابلة وزيركم.

صاح به الضابط في غضب:

- وزيرنا؟!.. من تظن نفسك يا هذا؟

أسرع ضابط آخر يقول:

- أرسله إلى الجنرال مباشرة.. هذه أوامره.

انعقد حاجبا الضابط في غضب، وكأنما لم يرق له أن ينتزع منه أحد فريسته، ولكنه لوح بيده في سخط، وهو يقول:

- فليكن.. اذهبوا به إليه..

أسرع زبانية الجحيم يحملون (محمد) إلى حجرة قائدهم، حيث يجلس وزير الدفاع الإسرائيلي، الذي سأله في لهجة هادئة، حاول أن يخفي ما بها من اهتمام، خلف قناع زائف من اللامبالاة:

- ألديك جديد، أم أنك ستضيع وقتي فحسب؟

سقط رأس (محمد) على صدره، وهو يقول في صوت لاهث:

- سأعترف.. سأعترف بكل شيء.. لم أعد أحتمل.. أنا ملازم في الجيش المصري.

تبادل الضابط مع وزير الدفاع نظرة ملهوفة، قبل أن يقول (محمد) في انهيار:

- أعطوني جرعة ماء، وسأخبركم بكل شيء.. كل شيء.

وأتى الماء بسرعة..

وتكلم الملازم (محمد).

☆ ☆ ☆

الفصل الثامن

الخميس: الثامن من رمضان 1393هـ - الرابع من اكتوبر 1973م: السادسة والنصف مساءً.

☆ ☆ ☆

اختفى الصقور الثلاثة خلف تبة رملية، تواجه تلك الواحة الصغيرة في قلب (سيناء)، ورحوا يراقبون الإسرائيليين، الذين شيدوا إحدى مستعمراتهم حولها، وأنشئوا فيها مقهى صغير، ومطعمًا بدائيًا؛ لخدمة الدوريات، التي تجوب (سيناء) ليلًا ونهارًا، وألقى (خالد) نظرة على ساعته، وهو يقول في خفوت:

- لو سارت الأمور على النمط نفسه، الذي تسير عليه منذ ساعتين، فهذا يعني أننا سنري (جيب) إسرائيلية بعد قليل.

كانوا يرتدون ثياب البدو، ويحملون مدافعهم الآلية، وبدا (حسن) قلقًا، وهو يقول:

- إننا هنا على بعد ثلاثين مترًا، من النقطة التي يتوقفون عندها، والمكان منبسط للغاية، فكيف ننجح في الوصول إليهم، دون أن يلمحونا؟

أجابه (عمرو) في سخرية:

- لهذا انتظرنا حلول الليل أيها الذكي.

كان (حسن) يعلم أنه ليس من المفروض أن يناقش ضابطًا، إلا أنه لم يملك أمر نفسه، وهو يقول في حدة:

- ونحن ترتدي ثيابًا بيضاء، تكاد تشع ضوءًا، من شدة نظافتها.

قال (عمرو) في غضب:

- كيف تتحدث إليّ بهذا الأسلوب أيها الجندي؟

انعقد حاجبا (خالد)، وهو يقول في صرامة:

- كفي.. لن ندخل في مشاجرة سخيفة الآن.

ثم أشار بعيدًا، وهو يستطرد:

- لقد وصلت (الجيب).

التفتا إلى حيث يشير، وبدت لهما مصابيح (الجيب)، وهي تقترب من المستعمرة الصغيرة، فانحبست أنفاسهم، وهمس (حسن) في انفعال:

- هل نهاجمها الآن؟

هز (خالد) رأسه نفيًا، وقال:

- كلا.. سننتظر حتى تقف، ويدخل الضابط والجنود، لتناول طعامهم.

غمغم (عمرو) في سخط:

- لا يروق لي هذا الأسلوب.

أجابه (خالد) في حزم:

- تذكر أنها ليست مهمتنا الرئيسية، بل مهمة فرعية؛ لاستكمال الاستعدادات، وليس من الحكمة أن نحولها إلى معركة، قد نخسر فيها فردًا آخر.

أومأ (عمرو) برأسه متفهمًا، وغمغم:

- أنت على حق.

ران عليهم الصمت تمامًا، حتى تجاوزتهم (الجيب)، وتوقفت بالفعل أمام بناء صغير، في بداية المستعمرة، وغادرها الضابط وجنديان، في حين هبط منها الجندي الثالث، ليقف بمدفعه أمام (الجيب)، فغمغم (حسن):

- لقد تركوا أحدهم للحراسة.

قال (خالد) في ضيق:

- هذا يزيد الأمر تعقيدًا.

هز (حسن) كتفيه، وقال في حزم:

- ليس إلى هذا الحد.

سأله (خالد):

- كيف يمكنك أن تصل إلى (الجيب) إذن، عبر ثلاثين مترًا من الرمال المنبسطة؟

راقب (حسن) الجندي لحظة، ثم نهض فجأة، قائلًا:

- هكذا؟

وقبل أن ينتبه (خالد) و(عمرو) لما يقصده، كان قد اختطف مدفعه. ووثب خلف التبة الرملية، وانطلق يعدو بأقصى سرعة نحو السيارة، والجندي الذي يوليه ظهره، متطلعًا إلى المطعم الصغير..

وهتف (عمرو) بصوت خافت متوتر:

- ماذا يفعل هذا المجنون؟

لم ينبس (خالد) ببنت شفة، وهو يتطلع إلى المشهد بأنفاس مبهورة، و(حسن) يعدو نحو الجندي، و...

وفجأة، استدار الجندي إلى (حسن)، وارتفع حاجباه لحظة في دهشة، ثم اختطف مدفعه...

وكانت المواجهة..

☆ ☆ ☆

صب (جاكوب ليومي) قائد جناح المخابرات في (سيناء)، كأسين من الخمر، قدم إحداهما إلى وزير الدفاع الإسرائيلي، الذي رفع كفه، قائلًا في هدوء:

- لا يا (ليومي).. ليس أثناء العمل.

أعاد (ليومي) الكأس إلى المنضدة، وارتشف رشفة من كأسه، وهو يقول:

- هل تعتقد أنه يقول الحقيقة يا سيدي الجنرال؟

أومأ الوزير برأسه إيجابا، وقال:

- نعم.. لقد كان الشاب منهارًا تمامًا، واعترف بأنه ضابط مصري، وهذا اعتراف بالغ الخطورة، فثمنه كضابط يختلف كثيرًا عن ثمنه كجندي، ثم إنه ضعيف البنية، على نحو واضح، ومن الطبيعي ألا يحتمل وسائلنا الخاصة.

قال (ليومي):

- أقصد بالنسبة لباقي القصة.

صمت الوزير الإسرائيلي لحظة، ثم قال:

- إنها تبدو منطقية إلى حد كبير، فقد نسف المصريون مخزنًا من مخازن ذخيرتنا بالفعل، منذ يومين، وهذا الضابط يقول: إنه ضمن الفريق، الذي نفذ هذه المهمة، وأنه ضل طريقه بعدها،

والهليكوبتر المصرية، التي ارتطمت بطائرتنا، كانت قادمة لانتشاله.

قال (ليومي) في ارتياح:

- إذن فهو صادق في روايته.

رفع الوزير سبابته أمام وجهه، وقال:

- ليس بالضرورة.

ثم عاد إلى جلسته الهادئة، مستطردًا:

- لا يمكنك الثقة بالمصريين.. صحيح أن روايته منطقية، ولكن خبرتي تؤكد لي أن هذا الشاب يخفي شيئًا.

ابتسم (ليومي)، وقال:

- أخالفك الرأي يا جنرال.. المصريون أبسط كثيرًا مما تتصور.. بل إنهم بلهاء إلى حد كبير.. تصور أنهم نشروا إعلانًا، في أكبر صحفهم القومية، يدعو الضباط إلى تقديم طلبات الحج لهذا العام، دون أن يدركوا أن مخابراتنا ستفهم من هذا الإعلان، أنهم ليسوا على استعداد لخوض حرب قريبة.. أرأيت سذاجة تفوق هذا؟

رد الوزير ابتسامته بأخرى، وهو يقول في هدوء:

- إنهم ليسوا بمثل خبرتنا، في هذه الأمور.

ونهض مستطردًا:

- وهم لا يتعلمون قط.

سأله (ليومي)، وقد أدرك نيته للانصراف:

- ماذا سنفعل بالأسير المصري يا جنرال؟.. هل نواصل استجوابه؟

صمت الوزير لحظة، ثم هز رأسه نفيًا، وهو يقول:

- كلا.. يكفي أن نرسله إلى معسكر الأسرى.. لست أحب تعكير صفو الجميع، حتى ينتهي عيد (كيبور).

ابتسم (ليومي)، وقال:

- بالمناسبة يا جنرال.. كل عام وأنت بخير.. أشعر أن العيد سيكون رائعًا ومختلفًا هذا العام.

ولم يدرك لحظتها كم كان على حق.

عيد (كيبور) سيأتي بالفعل مختلفًا هذا العام...

مختلفًا إلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

لم يدر جندي الصاعقة (حسن)، كيف فعل ما فعل، في تلك الليلة..

لقد رأى الجندي الإسرائيلي يصوب إليه مدفعه الآلي، ويهم بإطلاق النار عليه، من مسافة ثلاثة أمتار، وأدرك أنه ليس من المفروض أن يتردد دوي رصاصات في المكان، في ظل هذه الظروف..

وهنا عمل عقله بسرعة مدهشة..

ونفذ جسده الأمر بسرعة أكبر..

لقد وثب فجأة، عبر الأمتار الثلاثة، وهوى على فك الجندي الإسرائيلي بكعب مدفعه، قبل أن يضغط هذا الأخير زناد مدفعه

الآلي، ويطلق رصاصة واحدة..

وارتطم الإسرائيلي بالسيارة (الجيب) في عنف، ثم سقط أمامها فاقد الوعي، ومدفعه إلى جواره...

وفي لحظات، كان (عمرو) يحتل مقعد قيادة (الجيب)، و(خالد) إلى جواره، في حين قفز (حسن) إلى المقعد الخلفي، وسأله (عمرو)، وهو يعود بالسيارة إلى الخلف:

- كيف فعلت هذا؟

أجابه (حسن)، وهو يلهث:

- لست أدري.

انطلق (عمرو) بالسيارة، متفاديًا جسد الجندي الإسرائيلي، ورأى في مرآتها الضابط والجنديين، وهم يهرعون خارج المطعم الصغير، قبل أن يدور بالسيارة خلف التبة الرملية، ويطلق لها العنان، وهو يهتف:

- انتهت مشكلة السيارة يا رفاق.

قال (خالد) بهدوئه المعتاد، وحزمه الواضح:

- بل قل إننا حصلنا على السيارة، ولكن مشكلتها لم تنته بعد.

قال (عمرو) مستنكرًا:

- أية مشكلة!!.. الحصول عليها كان أكبر مشكلة.

أجابه (خالد):

- بل المشكلة الحقيقية هي كيفية الاحتفاظ بها، وإخفائها، حتى يحين موعد العملية.

قال (حسن) بسرعة:

- يمكننا أن نخفيها عند منزل (راوية).

هز (خالد) رأسه نفيًا، وقال:

- إنه أول مكان سيتعرض لتفتيشهم، إذا ما ربطوا بين (الجيب)، ووجود (محمد) في (سيناء).

قال (عمرو) في حماس:

- لن يمكنهم هذا أبدًا، فلقد كنا نرتدي ثياب البدو عندما سرقناها، وسيؤكد الجندي الإسرائيلي هذا عندما يستعيد وعيه.

قال (خالد) في حزم:

- لا يمكنك الجزم بهذا، ولا يمكنني المخاطرة بإفساد العملية، من أجل خطأ كهذا.

قال (حسن) ببساطته وحماسه:

- فلنسأل (راوية).. هي سترشدنا حتمًا إلى كيفية إخفائها.. إنها أكثر خبرة منا بطبيعة (سيناء)، بحكم منشأها.

كانت الفكرة معقولة للغاية، فقال (عمرو)، وهو يستدير بالسيارة إلى اليمين:

- هل من اعتراض؟؟ لا يوجد.. إذن الموافقة جماعية.. سننطلق إلى دار المرحوم (حمدان).

انطلقت بهم (الجيب)، تشق رمال الصحراء، حتى بلغت دار (حمدان)، وهناك استقبلتهم أم (راوية) في لهفة، وهي تسأل:

- هل صادفتكم متاعب؟

أجابها (حسن)، في صوت يحمل رنة زهو واضحة:

- كلا تقريبًا.. لقد نفذنا العملية بنجاح.

وسألها (عمرو) في اهتمام:

- هل تعرفين وسيلة لإخفاء (الجيب) هنا، أو في مكان آخر، بحيث يمكننا استعادتها، عندما تحين اللحظة المناسبة؟

عقدت المرأة حاجبيها لحظات، في تفكير عميق، ثم أجابت:

- (راوية) وحدها يمكنها إفادتكم، في هذا الأمر؛ فوالدها - رحمه الله - كان يعلمها كل شيء، ويعتبرها ذراعه اليمنى، فنحن لم ننجب ذكورًا كما تعلمون.

سألها (خالد):

- وأين هي (راوية)؟

ترددت المرأة لحظات، ثم قالت في ارتباك:

- هناك جندي إسرائيلي، من جنود السجن الحربي، كان يعمل لحساب زوجي، وقد حضر منذ قليل، وقال إنهم سينقلون الملازم (محمد)، إلى معسكر الأسرى الشرقي.

هتف (حسن) في سعادة:

- الملازم (محمد)؟!.. أهو حي؟.. حمدًا لله.

أما (خالد)، فقد سألها في توتر:

- وما شأن (راوية) بهذا؟

ارتبكت المرأة أكثر، وهي تقول:

- إنها مجنونة.. لقد ذهبت لملاقاة سيارة نقل الأسرى، في الطريق الذي يربط ما بين السجن الحربي ومعسكر الأسرى، وقالت إنها ستحاول إنقاذه.

هتف (عمرو) مستنكرًا:

- إنقاذ من؟

وصاح (حسن) في هلع:

- هل ذهبت وحدها؟

ترقرقت الدموع في عيني المرأة، وقالت:

- نعم.. وحدها.. ومعها مدفع آلي وقنبلة يدوية واحدة.

اتسعت عيون الجميع في دهشة وذعر، وأدركوا أن (راوية) هذه مجنونة..

مجنونة بحق..

☆ ☆ ☆

شعر الملازم (محمد) بآلام مبرحة، في أنحاء متفرقة من جسده، وهو يحاول التشبث بذلك المقعد الخشبي، الذي يجلس فوقه، داخل سيارة كبيرة، مخصصة لنقل الأسرى، في محاولة لتخفيف أثر الارتجاج العنيف، الناشئ من انطلاق السيارة بسرعة كبيرة، فوق رمال (سيناء)، وتطلع في صمت إلى الجنود الإسرائيليين الأربعة، الذين يصوبون إليه فوهات مدافعهم الآلية في تحفز، كما لو كان مجرمًا بالغ الخطورة، أو رئيس كتيبة مقاومة فلسطينية..

كان هناك اثنان يجلسان في مواجهته، والآخران على جانبيه، مما جعله يبتسم في تهالك، وهو يلقى نظرة على السيارة (الجيب) التي تتبع سيارة نقل الأسرى، وعلى متنها ثلاثة جنود، يحملون أيضًا المدافع الآلية..

وفجأة، وجد نفسه يطلق ضحكة..

ضحكة قصيرة ساخرة، جعلت الجنود الأربعة يتطلعون إليه في دهشة، قبل أن يقول أحدهم بلغة عربية واضحة:

- ما الذي يضحكك؟.. هل يسعدك أن تنتقل إلى معسكر الأسرى؟

أجابه (محمد)، وهو يتحسس أنفه المتورم:

- بل يدهشني أن يقوم على حراستي سبعة جنود مسلحين، بخلاف ضابط وسائقين.

قال الجندي في غرور:

- ستكون فرقة إعدامك مكونة من العدد نفسه أيها المصري.

لم تثر كلمة الإعدام أي شيء في نفسه، فتطلع إلى الجندي في هدوء، وسأله:

- أنت أيضًا مصري.. أليس كذلك؟.. لهجتك تشف عن أصلك؟

أجابه الجندي الإسرائيلي في استعلاء:

- كلا.. أنا إسرائيلي، شاء سوء حظي أن أولد وأقضي فترة الطفولة، على أرض (مصر)، قبل أن تهاجر أسرتي إلى هنا.

سأله (محمد):

- وهل تظن وجودك هنا من حسن الحظ؟

قبل أن يجيب الجندي، عقد جندي آخر حاجبيه، وقال بالعبرية في صرامة:

- لا تتحدث مع الأسير بالعربية.. هذا يخالف الأوامر.

ارتبك الجندي الأول، وغمغم:

- نعم.. بالتأكيد.

قالها وتراجع بظهره إلى الخلف..

وفي نفس اللحظة، دوى الانفجار..

قنبلة انفجرت في (الجيب) الإسرائيلية، وجندلت من فيها في لحظة واحدة..

وفي ثورة، صرخ الجندي، وهو يرفع مدفعه في وجه (محمد):

- كمين.. لقد أوقعتنا في كمين.

ودوت الرصاصات في المكان كله.

☆ ☆ ☆

الفصل التاسع

الخميس: الثامن من رمضان 1393هـ - الرابع من أكتوبر 1973م: العاشرة والنصف مساءً.

☆ ☆ ☆

توقفت الدورية الإسرائيلية أمام منزل (حمدان)، وهبط منها ذلك الملازم الإسرائيلي الضخم الجثة، وركل باب المنزل بقدمه في غلظة، وهو يهتف:

- ماذا تخفين هذه المرة أيتها البدوية؟

انتفضت أم (راوية) وشقيقتها (هادية)، وهتفت الأخيرة في حدة:

- ما هكذا تقتحم الديار يا رجل؟

صاح بها في قسوة:

- اخرسي يا فتاة، وإلا انتزعت لسانك من حلقك؛ لأعلمك كيف تخاطبين ضابطًا من جيش الدفاع.

ثم استدار إلى أمها، مستطردًا في حدة:

- أين السيارة (الجيب)؟

قالت مرتجفة:

- أية (جيب)؟!

استل مسدسه في حركة سريعة، وألصقه بجبهتها، وهو يقول:

- (الجيب) التي سُرِقت هذا المساء، من أمام مستعمرة (شلوشة).. لقد تتبعنا آثارها إلى هنا.

قالت الأم مضطربة:

- لست أدري عم تتحدث.. لقد جاء ثلاثة رجال إلى هنا، في سيارة (جيب)، وتناولوا بعض الماء، ثم انصرفوا.. وكانوا يرتدون ثيابًا عسكرية، كثيابكم.

صرخ في وجهها:

- تكذبين يا امرأة.

ثم جذب إبرة مسدسه، وهو يستطرد في حدة:

- أريد الحقيقة، أو أنسف رأسك برصاص مسدسي.

قالت وقلبها يخفق في قوة، مع ملمس الفوهة المعدنية الباردة على جبينها:

- هذه هي الحقيقة كلها.

انعقد حاجباه في غضب هادر، حتى صار مخيفًا، وهو يقول:

- هكذا؟!

ثم التفت إلى (هادية)، وقال بصوت هادر مخيف:

- وأنت؟.. هل ستعترفين بالحقيقة، أم تحذين حذوها؟

قالت (هادية) في تصميم:

- ما ذكرته أمي هو الحقيقة الكاملة، حتى ولو لم ترق لك.

ازداد انعقاد حاجبيه، حتى بدا أشبه بشيطان رجيم، وهو يقول:

- فليكن.. لقد حذرتكما.

وارتجف قلباهما..

ارتجفا في عنف..

☆ ☆ ☆

رأي (محمد) فوهة المدفع أمام عينيه مباشرة، فانحنى بحركة غريزية، وصم دوي الرصاصات أذنيه، وهي تعبر فوق رأسه، وامتزج بدوي رصاصات مدفع آلي آخر، أتى من فوق التبة القريبة، وانهالت النيران على كابينة قيادة سيارة نقل الأسرى..

وكانت فرصة نادرة..

فرصة استغلها (محمد) جيدًا، فدفع قدمه في وجه الجندي أمامه، ثم مال جانبًا، ليتفادى ضربة الجندي الثاني، ولكم الثالث بيمناه في قوة، ثم اندفع يثب خارج السيارة..

وقفز الجنود الأربعة خلفه، في اللحظة التي سمع فيها صوتًا يهتف:

- (محمد).. من هنا.

أدهشه الصوت، فور معرفته لصاحبته، ولكنه أسرع إلى مصدره، ورصاصات الإسرائيليين تدوي خلفه.

وظهرت (راوية) من خلف التبة..

ظهرت تمطر الإسرائيليين الأربعة برصاصات مدفعها، في نفس الوقت الذي ظهر فيه الضابط الإسرائيلي، الذي نجا من الهجوم على كابينة القيادة، وهو يهتف بجنوده:

- لا تسمحوا لهم باستعادة الأسير.

منح هذا النداء الجنود الأربعة قوة إضافية، فألقوا بنيرانهم نحو (راوية) في شراسة، إلا أن (محمد) نجح في الوصول إليها، ووثب يحتمي بالتبة من رصاصاتهم، وهو يهتف:

- أين الرفاق؟

أجابته في توتر:

- لقد أتيت وحدي.

اتسعت عيناه في دهشة وذعر، وهو يهتف:

- وحدك؟

ثم انتزع المدفع الآلي منها، قائلًا:

- فليكن.. لا مجال للتراجع الآن.. اتركي لي هذا.. أنا أجيد استخدامه أكثر.

وهب يتبادل مع الإسرائيليين الأربعة النيران..

ولكن الإسرائيليين كانوا مقاتلين بارعين..

وأذكياء..

لقد تحركوا في خمس محاور، وخططوا لمحاصرة (محمد) و(راوية)، بعد أن أدركوا أنهم يقاتلون فردين لا أكثر، وبسلاح واحد..

وأدرك (محمد) هدفهم، فقال:

- لابد لنا من الابتعاد بسرعة، وإلا فسيحاصروننا خلال دقائق.

عضت شفتها السفلى في مرارة، وهي تقول:

- الابتعاد ليس ممكنًا، فلو صعدنا التبة الأخرى، سنصبح هدفًا سهلًا، في ضوء القمر، خاصة وأن الليلة صافية، والسماء بلا غيوم تقريبًا.

شعر بتوتر شديد مع إجابتها، التي تعني أنه ما من فائدة..

سيكمل الإسرائيليون حصارهم، حتى يوقعوا بهما..

ولكن حتى هذه الفكرة، لم تدفعه إلى الاستسلام..

لقد برز من خلف التبة مرة أخرى، وأطلق رصاصاته..

وفي هذه المرة أصاب أحدهم..

وسقط الإسرائيلي صريعًا، ولكن زملاءه واصلوا التفافهم وحصارهم، فغمغت (راوية):

- لا فائدة.. لقد حاولت، وفشلت.

قال (محمد) في حزم:

- لم تنته المعركة بعد.

وفجأة، ومع آخر حروف عبارته، ظهرت أضواء سيارة أخرى، قادمة من بعيد، فهتف الضابط الإسرائيلي في ارتياح:

- ها هي ذي سيارة الدورية.. ستوقع بهما حتمًا.

ولكن السيارة الأخرى لم تكد تقترب، حتى وثب منها الصقور الثلاثة، وارتفعت فوهات مدافعهم الآلية في وجه الإسرائيليين..

وهوت الرصاصات كالمطر..

وفي هذه المرة، ومع المفاجأة غير المتوقعة، حصدت نيران المصريين أرواح الإسرائيليين، وأرسلتهم إلى غياهب الجحيم، قبل أن يهتف (حسن) في حرارة:

- سيادة الملازم (محمد).. أين أنت؟

هتف (محمد) في سعادة، عندما ميز صوته:

- إنهم الرفاق.. حمدًا الله.. لقد التقينا ثانية.

أسرع يعدو إليهم، من خلف التبة، وخلفه (راوية)، وتعانق الصقور الأربعة في حماس ولهفة وحرارة، وقال (حسن) في انفعال جارف، وغضب واضح:

- ماذا فعل بك هؤلاء الحقراء؟!.. إنك محطم تمامًا.

أجابه (محمد) في سعادة:

- ربما حطموا جسدي، ولكن معنوياتي مازالت مرتفعة يا رجل.

سأله (خالد) في اهتمام:

- وهل أخبرتهم بشيء؟

أجابه مبتسمًا:

- بالطبع.. احتملت حتى آخر مدى، ثم أخبرتهم القصة الأخرى، التي لقنونا إياها في مركز التدريب، وأضفت إليها أن الهليكوبتر المصرية، التي عثروا عليها محطمة، إلى جوار طائرتهم، كانت في طريقها لانتشالي.

بدأ الارتياح على وجه (خالد)، وهو يقول:

- عظيم.. كنت أخشى أن..

لم يتم عبارته، ولكن (حسن) قال في حماس:

- مستحيل!.. سيادة الملازم (محمد) صلب كالفولاذ.

ضحك (عمرو) وقال:

- على الرغم من أنه راقص باليه.

حدقت (راوية) في وجه (محمد) في هلع، وهي تهتف مستنكرة:

- راقص باليه؟!.. أي مزاح هذا؟

استدار إليها (محمد)، وقال في بساطة:

- إنه ليس مزاحًا.. أنا بالفعل راقص باليه.

اتسعت عيناها في ارتياع، ثم أشاحت بوجهها، وقالت في حدة:

- فليكن.. هذا شأنهم في الجيش المصري.. المهم أنكم نجحتم في الحصول على (الجيب) كما أرى.

أجابها (عمرو):

- نعم.. ولكننا لسنا ندري أين نخفيها، حتى يحين موعد العملية؟

قال (محمد) في اهتمام:

- بالمناسبة.. لقد استجوبني وزير الدفاع الإسرائيلي بنفسه.

تفجرت الكلمة كالقنبلة، واتسعت عيونهم في ذهول، قبل أن يسأله (خالد)، في توتر واضح.

- ماذا تقول يا رجل؟.. وزير الدفاع الإسرائيلي هنا.. في (سيناء)؟!

أجابه (محمد):

- نعم.. أتى لتهنئة الجنود بعيد (كيبور)، الذي سيحين بعد يومين، ثم استغل الفرصة لاستجوابي.

قال (عمرو) في قلق:

- أو أنهم يعرفون شيئًا ما عن العملية.

انعقد حاجبا (خالد)، وقال:

- لابد من الاتصال بـ (القاهرة) على الفور.. من الضروري أن يكونوا على علم بهذه التطورات.

قالت (راوية) في سرعة:

- لدينا جهاز إرسال قوي في المخبأ السري.. هل يجيد أحدكم استخدامه؟

أجابها (حسن) بسرعة:

- كلنا.. هذا جزء من تدريباتنا.

ثم ارتسم الهلع على وجهه، وهو يهتف:

- سيادة الملازم.. ماذا أصابك؟!

التفت الجميع إلى حيث ينظر، ورأوا الملازم (محمد) يترنح في شدة، ثم يهوي، فاندفع (حسن) يلتقطه بين ذراعيه، وهتفت (راوية):

- ماذا حدث؟!

أجابها (خالد) في إشفاق:

- لقد فقد الوعي.. مسكين.. لقد عانى الكثير بحق.

ثم اعتدل قائلًا:

- هيا.. سنحمله إلى (الجيب)، وننطلق على الفور إلى منزلك يا (راوية).. لابد أن تصل هذه المعلومات إلى (القاهرة) الليلة.

ولم تمض دقائق، حتى انطلقت (الجيب) فوق رمال (سيناء)، وراحت تشق طريقها على الأرض المصرية المحتلة، حتى بدا منزل (حمدان) من بعيد، فقالت (راوية):

- فور وصولنا، سأرشدكم إلى مخبأ جهاز الإرسال، و...

بترت عبارتها بغتة، عندما لاحظت تلك الأدخنة، التي تتصاعد من المنزل، وهتفت في جزع:

- ماذا حدث؟

زاد (عمرو) من سرعة السيارة، حتى بلغ المنزل، فوثبت منها (راوية)، واندفعت إلى الداخل، وهي تصرخ:

- أمي.. (هادية).. أين أنتما؟!

هتف (خالد)، في اللحظة نفسها:

- أسرعا.. لا ينبغي أن نتركها وحدها، في هذه اللحظة.

وغادر مع (عمرو) السيارة، وأسرعا إليها، في حين بقي (حسن) مع (محمد) الفاقد الوعي داخل السيارة..

وفجأة، سمع (حسن) صرخة مدوية، تنطلق من داخل منزل (حمدان)..

وسرت في جسده قشعريرة باردة..

لقد فهم على الفور سر تلك الصرخة الملتاع، التي أطلقتها (راوية)..

وكان يعلم أنها قد شاهدت مشهدًا مروعًا..

مروعًا بحق.

☆ ☆ ☆

الفصل العاشر

الجمعة: التاسع من رمضان 1393هـ - الخامس من أكتوبر 1973م: التاسعة والربع صباحًا.

☆ ☆ ☆

شعر الملازم (محمد) بسائل لزج ينسكب في فمه، فأشاح بوجهه مقاومًا، وهو يتمتم:

- لا.. أنا صائم.

ولكن السائل سال إلى حلقه، ووجد نفسه يبتلعه مرغمًا، ففتح عينيه في صعوبة، وحدق في وجه العجوز، التي تسند رأسه إلى ركبتيها، وتسقية ذلك المشروب المر المذاق، وغمغم:

- من أنت؟.. أين أنا؟

أتاه من خلفه صوت (خالد)، وهو يقول:

- أنت هنا، في منزل (عواد)، خال (راوية).. وهذه جدتها (آمنة).

تطلع إليه (محمد) في حيرة، واعتدل جالسًا، وأدار عينيه في البيت البدوي البسيط، الذي يحيط به، قبل أن يقول في حيرة:

- ومن أتى بي إلى هنا؟.. ولماذا؟

ربتت العجوز عليه برفق، وهي تقول في حنان:

- اشرب يا ولدي.. هذا سيقويك، ويساعد جروحك على أن تلتئم.

أشار إليها (خالد) بالصمت، وهو يجيب سؤال (محمد)، قائلًا:

- كلنا أتينا إلى هنا.. لم يعد منزل (حمدان) آمنا.

سأله (محمد)، وهو يستعيد نشاطه في بطء:

- لماذا؟.. ماذا حدث؟

صمت (خالد) لحظة، ثم قال في آسي:

- لقد قتلوا أم (راوية) وشقيقتها (هادية).

هتف (محمد) في انزعاج:

- الإسرائيليون؟!

أومأ (خالد) برأسه إيجابًا، وقال:

- قتلهما الأوغاد، وعثروا على جهاز اللاسلكي. وهم يبحثون عن (راوية) الآن، وعنّا بالتبعية.

كان (محمد) يشعر بصداع شديد، والعجوز تلح في حنان:

- اشرب يا ولدي.. سيفيدك هذا.. صدقني.

تناوله منها لإرضائها، وارتشف رشفة منه في صعوبة، وهو يغمغم:

- ما هذا بالضبط يا أماه؟

أجابته في عاطفة رقيقة، تفيض بالأمومة:

- دواء لأوجاعك يا ولدي.

كان المشروب مرًا للغاية، فابتسم (محمد) وقال:

- أي طبيب وصفه؟

بدا عليها الاستنكار، وهي تقول:

- وما حاجتنا للأطباء.. البدو يداوون أنفسهم منذ الأزل، بما يحيط بهم من نباتات وأعشاب.

قال محاولًا تهدئتها:

- بالطبع يا أماه.. إنه دواء رائع.

وارتشف رشفة أخرى منه، ثم أعاده إليها، فقالت حانية:

- بالشفاء والعافية.

ابتسم لها، ثم التفت إلى (خالد)، وسأله:

- وكيف حال (راوية) الآن؟

هز (خالد) رأسه لحظة في صمت، وقال في إعجاب واضح:

- إنها فتاة عظيمة.

ثم استطرد بسرعة، وقد اكتسب صوته رنة حازمة خاصة:

- لقد تعقدت الأمور، ولست أدري ماذا سنفعل، حتى تحين لحظة الصفر.

أجابه صوت بدوي أجش:

- تبقون هنا على الرحب والسعة.

استدار (محمد) يتطلع إلى (عواد)، خال (راوية)، الذي بدا له متين البنيان، على الرغم من نحوله، في حين التفت إليه (خالد)، وقال:

- ليس لدينا مانع في هذا الشأن، ولكن ألا تعتقد أن الإسرائيليين سيقومون بحملة واسعة للتفتيش، والبحث عنا، بعد أن استعدنا (محمد) منهم؟

مط (عواد) شفتيه في ازدراء، وهو يقول:

- يا لهؤلاء الأوغاد.. إنهم سيفعلون حتمًا، ولكن هذا سينطبق على كل نقطة يقطنها البدو في (سيناء)، فما الفارق بين وجودكم هنا، أو في أي مكان آخر؟!.. إننا هنا سنفديكم بأرواحنا، لو حاولوا المساس بكم.

وضع (خالد) يده على كتفه، وقال:

- أهل للقول يا (عواد)، ولكن المهمة التي أتينا من أجلها، لها الأولوية المطلقة، وينبغي أن نعمل على إنجاحها بأية وسيلة.

سأله (عواد):

- وما الوسيلة التي تقترحها؟!

أجابه بسرعة، وكأنما أعد الجواب مسبقًا:

- منطقة غير مأهولة.

لم يستوعب (محمد) في البداية ما يعنيه (خالد)، ولكن (عواد) فهم على الفور، فعقد حاجبيه الكثين، وقال:

- هذه مخاطرة كبيرة، فكلمة غير مأهولة هنا تعني أنها بالغة الخطورة، ولا تصلح لحياة البشر.

أجابه (خالد):

- ولهذا السبب بالذات لن يجول بخاطر الإسرائيليين أننا نختبئ فيها.

هتف (محمد):

- فكرة رائعة.

وقالت العجوز في سرعة، تتناقض كثيرًا مع هيكلها شبه المتداعي:

- ما رأيكم في العب الشرقي؟

قال (عواد) في انزعاج:

- لا.. لا يمكنهم أن يذهبوا هناك يا أماه.

سأله (محمد) في اهتمام:

- وما هذا العب الشرقي بالضبط؟

أجابه (عواد):

- إنه مصطلح نستخدمه منذ طفولتنا، لوصف أطلال قديمة، خلف التل الشرقي.. وهي منطقة مخيفة، تسبح فوق بحر من الرمال الناعمة، وتنتشر فيها الثعابين والعقارب، على نحو شديد الخطورة.

قالت العجوز في حيوية:

- والإسرائيليون لا يذهبون إلى هناك قط.

تبادل (محمد) و(خالد) نظرة سريعة، اتخذا خلالها قرارهما، وقال (خالد) في حزم:

- فليكن يا (عواد).. سنذهب إلى العب الشرقي.

لم يكد يتم عبارته، حتى اندفع (حسن) داخل الخيمة، وقال في توتر شديد:

- دورية إسرائيلية تقترب من هنا.

اعتدل (خالد) بسرعة، وهب (محمد) واقفًا، وهو يقول:

- أين سلاحي؟

ولكن (عواد) قال في حزم:

- لا تشتبكوا معهم.. اتركوهم لنا، وأسرعوا أنتم إلى العب الشرقي.. هناك ستحجبكم عنهم الصحراء، حتى تحين ساعة الصفر.

سأله (خالد):

- ومن يقودنا إليها؟

أجابه في حزم وسرعة:

- (راوية).. إنها تعرفها منذ طفولتها.

أسرع (محمد) و(خالد) يغادران المنزل، وقفزا مع (عمرو) و(حسن) داخل سيارة (الجيب) الإسرائيلية، وجميعهم يرتدون الثياب البدوية، وقال (عواد) لابنة شقيقته (راوية)، التي احتلت مقعد القيادة:

- قوديهم عبر الدروب الجنوبية، ودوري حول بئر (سليمان).

أومأت برأسها إيجابًا، وانطلقت بالسيارة على الفور، في حين وقف (عواد) وأولاده أمام منزلهم، ينتظرون الدورية الإسرائيلية..

ولكن الأمور لم تكن تسير على النسق الذي يرغبون فيه..

ففي واحدة من سيارات الدورية الإسرائيلية الثلاث، كان أحد الإسرائيليين يضع على عينية منظاره المقرب، وهو يهتف في لهفة:

- ها هي ذي.. السيارة المسروقة يقودها بعض البدو.

صاح قائد الدورية:

- انطلقوا خلفهم يا رجال.. سنستعيد سيارتنا على جثثهم..

وبدأت مطاردة جديدة، في قلب (سيناء)..

☆ ☆ ☆

أمسك قائد العمليات الخاصة ذقنه بسبابته وإبهامه، وهو يطالع خريطة ضخمة لصحراء (سيناء)، موضوعة فوق منضدة كبيرة، وأشار أحد معاونيه إلى نقطة فوقها، وهو يقول:

- إنهم هنا الآن.. في منزل (عواد)..

قال قائد العمليات في اهتمام:

- متى تلقيتم الاتصال؟

أجابه مساعده:

- منذ ساعة واحدة.. اتصل بنا رجلنا (صالح)، عبر جهاز الإرسال السري، الذي يخفيه أسفل منزله..

صمت قائد العمليات بعض الوقت، قبل أن يغمغم:

- أكاد أشعر بالندم، على أننا أرسلناهم مبكرًا هكذا.

قال أحد مساعديه، مشيرًا إلى نقطة أخرى على الخريطة:

- ولكنهم على مقربة من الهدف بالفعل، ويمكنهم الاختباء في أي مكان، حتى تحين اللحظة المطلوبة.

مط شفتيه، قائلًا:

- لست أعتقد هذا.. لقد اشتعل فتيل الشك، في أعماق الإسرائيليين، ولديهم الآن أكثر من مبرر لرفع حالة الطوارئ في قلب (سيناء).. الهليكوبتر التي انفجرت، والسيارة (الجيب) المسروقة، وفرار (محمد).. لو أنني في موضعهم، لأقسمت أنه هناك أمر ما يدبر في الجوار.

قال مساعده:

- حتى هذا الاحتمال لم يكن بعيدًا يا سيدي، عندما خططنا للعملية.. صحيح أنهم سيدركون حتمية وجود شيء ما، ولكن تفكيرهم سينحصر في عمليات حرب الاستنزاف المحدودة، ولن يقفز أبدًا إلى أنها عملية تمهيدية، لهجوم شامل وشيك.

أومأ القائد برأسه إيجابًا، وقال:

- أتعشم هذا.

ثم اعتدل، مستطردًا:

- ولكننا سنرسل آخر التطورات إلى السيد رئيس الجمهورية، ووزير الحربية، طبقًا للتعليمات، وسننتظر أوامرهما بشأن استمرار العملية.

وصمت لحظة، ثم أضاف في أسف:

- أو إلغائها..

☆ ☆ ☆

«إنهم يتبعوننا..»

نطقتها (راوية) في صمود عجيب، وهي تنطلق بالسيارة، نحو الأطلال الشرقية، فقال (عمرو) في حزم:

- دعيني أقود السيارة، فأنت تقودينها بسرعة بطيئة، ستجعلنا نصل إلى ذلك العب الشرقي بعدهم.

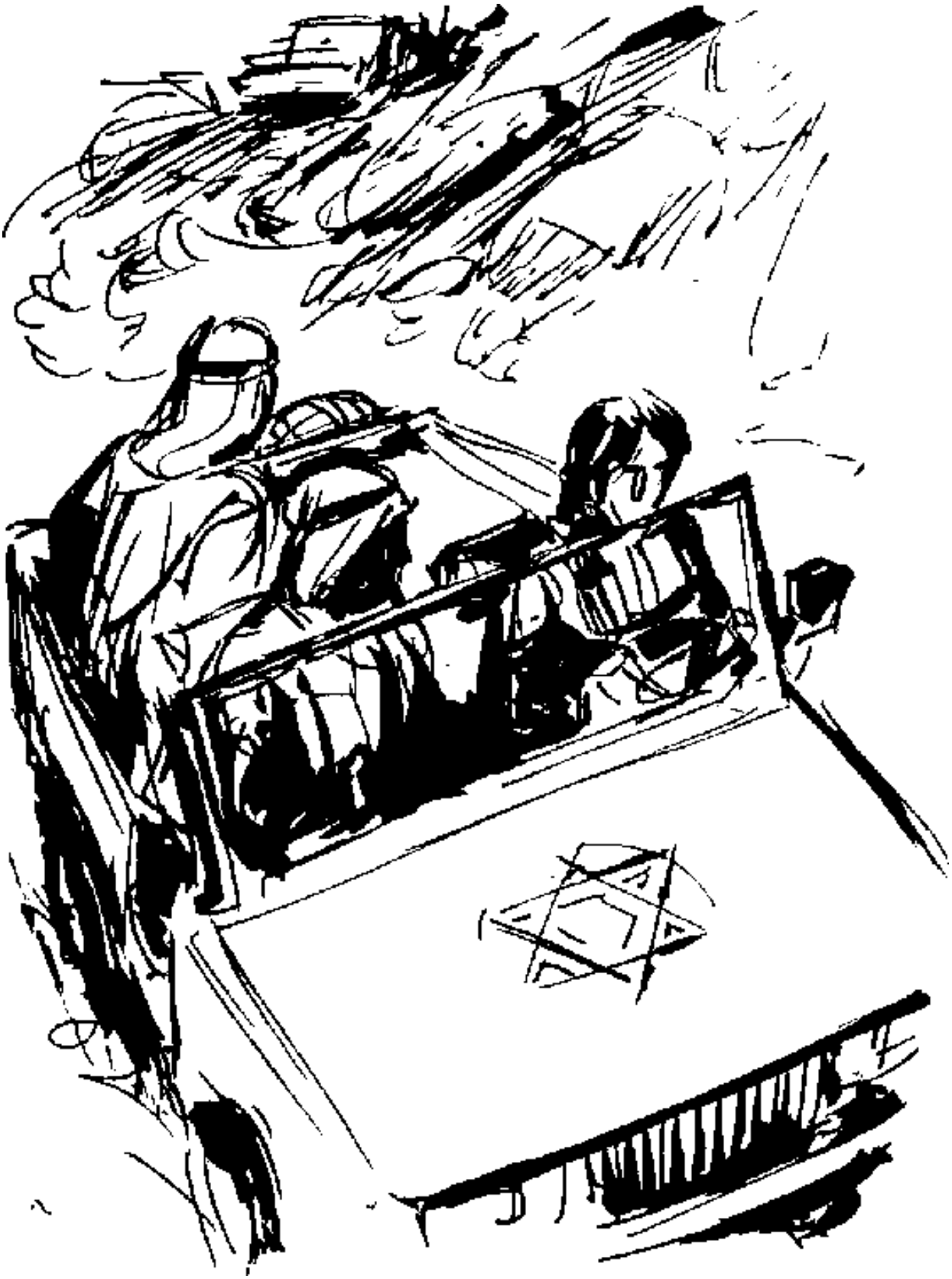

أجابته في صرامة عنيفة، لا تتفق مع أنوثتها:

- ولو قدتها أنت بسرعة كبيرة، لن نصل أبدًا.

انعقد حاجباه في غضب، وهو يهتف:

- كيف تتحدثين إلى هكذا؟.. ما من امرأة تتحدث إليّ بهذا الأسلوب؟

لم يكد يتم عبارته، حتى تناهى إلى مسامعهم دوي رصاصات من بعيد، وهتف (حسن):

- رباه.. الشيخ (عواد) وأولاده اشتبكوا مع الدورية.

ضغطت (راوية) فرامل السيارة بحركة آلية، والتفتت مع الجميع إلى حيث منزل خالها (عواد)، ورأوا الرجل وأبناءه، وقد أخرجوا أسلحتهم من مخابئها، وراحوا يتبادلون النيران مع الدورية الإسرائيلية، فهتف (محمد):

- لن يمكنهم التصدي لهم.. الإسرائيليون يفوقونهم عددًا وخبرة.

وقال (حسن) في انفعال:

- لابد أن نعود لمعاونتهم.

ترقرقت الدموع في عينيها، وهي تقول:

- لا أظن هذا ممكنًا، فمهمتكم الأساسية لها الأولوية، مهما كان الثمن.

قال (عمرو) في أسى:

- ولكنني أرغب في العودة.. لن نتخلى عنهم.

وهتف (حسن):

- ما رأيك أيها القائد؟

استدارت العيون كلها إلى (خالد)، الذي صار بحكم موقعه صاحب القرار في هذا الموقف..

القرار الوحيد.

☆ ☆ ☆

كانت الدورية الإسرائيلية تضم أكثر من خمسة عشر رجلًا، كلهم يحملون المدافع الآلية، والقنابل..

والشيخ (عواد) له ستة أبناء، ويمتلك أربعة مدافع آلية وعدة مسدسات، وقنبلة يدوية واحدة..

ولكنه اتخذ قراره بلا تردد..

كان يعلم أن هؤلاء الصقور المصريين الأربعة، قد أتوا من أجل تنفيذ مهمة بالغة السرية والخطورة..

وكانت غريزته تؤكد له أن هذه المهمة ترتبط - بشكل أو بآخر- باللحظة التي طال انتظاره لها..

لحظة اندلاع الحرب الشاملة..

ولهذا صاح في أولاده الستة بكل حزم وحسم:

- الإسرائيليون يطاردونهم.. دعونا نعترض طريقهم يا أبنائي.

وقفز إلى بقعة من الأرض، وراح يحفرها في همة، ثم أخرج منها صندوقًا يحوي أسلحته، فوزعها على أولاده الستة، واختص نفسه بالقنبلة مع مسدسين، وهو يهتف في تفاني منقطع النظير:

- هيا يا أبنائي.. من أجل (مصر)..

وكانت مفاجأة حقيقية للدورية الإسرائيلية..

لقد كانت تطارد الهاربين في الشرق، فأتاها الهجوم من الشمال..

وبقنبلته الوحيدة، نسف (عواد) سيارة القيادة، ثم راح يطلق نيران مسدسه على من تبقى من ركابها، في حين أفرغ أولاده الستة

رصاصات مدافعهم الآلية في وجوه وصدور رجال الدورية..

ولكن الإسرائيليين لم يكونوا أقل إتقانًا وقوة..

لقد بادلوا النيران بالنيران، وأمطروا (عواد) وأولاده رصاصات من مدافعهم أيضًا، ثم أضافوا إليها قنابلهم اليدوية، وخبراتهم القتالية، و...

ومالت الكفة إليهم.

لقد استشهد ثلاثة من أبناء (عواد) في الهجوم الأول، وأصيب الرابع إصابة بالغة، مع الدقيقة الثانية، وأصابته هو نفسه رصاصة في كتفه، وثانية في ساقه، ولكنه لم يتوقف لحظة عن إطلاق النار، بعد أن رأى بنفسه سبعة من الإسرائيليين يلقون مصرعهم أمامه..

وفجأة، عادت كفة الميزان تميل إليه..

لقد ظهرت سيارة المصريين، وهي تندفع إلى ساحة المعركة، وعلى متنها هؤلاء العمالقة، الذين اشتركوا في القتال بغتة..

وأصبح الإسرائيليون الباقون بين المطرقة والسندان، والنيران تأتيهم من الشرق والشمال..

ولكنهم لم يتراجعوا..

لقد قاتلوا..

وقاتلوا في شراسة..

وسقط (عواد) شهيدًا، ولحق به واحد آخر من أبنائه، في حين راح الإسرائيليون يلقون قنابلهم اليدوية نحو سيارة الصقور، الذين يجيبون بالمثل..

ودوت الانفجارات في كل مكان، و(عمرو) يهتف:

- رباه!.. يبدو أننا فتحنا أبواب الجحيم يا رفاق.

صاح (محمد):

- نعم.. وسنرسل كل هؤلاء الإسرائيليين إليه.

لم يكد يتم عبارته، حتى سقطت قنبلة يدوية إسرائيلية تحت قدمه، فصرخ (حسن):

- احترس يا سيادة الملازم.

وقبل أن يتحرك أحدهم، كان (حسن) يختطف القنبلة، ويلقي بها بكل قوته نحو أقرب سيارة للإسرائيليين..

ولكن حركته هذه، جعلت جسده كله مكشوفًا لنيرانهم..

ولم يكن هناك بد مما حدث..

لقد شعر بالرصاصات كأعمدة نارية تخترق صدره، وعنقه، وذراعيه، واتسعت عيناه في ألم، مع دوي انفجار القنبلة، التي أطاحت بسيارة الإسرائيليين، وبكل من تبقى منهم..

واصطبغت الدنيا كلها بلون أحمر، أمام عيني (حسن)، وهو يتهاوى في أرضية السيارة، واستقبله (محمد) بين ذراعيه، وهو يهتف:

- (حسن).. تماسك يا (حسن).

ولكن (حسن) كان يشعر بآلام مبرحة، في كل خلية من خلاياه، مما جعله يتمتم:

- سأحاول يا سيادة الملازم.. سأحاول.

قفزت (راوية) من مقعدها وهي تهتف:

- إنه يحتاج إلى إسعاف عاجل.

ابتسم (حسن) في صعوبة، وغمغم:

- هل هزمناهم؟

أجابه (عمرو) في انفعال:

- نعم يا بطل.. أنت وضعت اللمسة الأخيرة للمعركة.

ارتجفت ابتسامته، وهو يقول:

- عظيم.. أخبروا أمي بهذا.

هتف (خالد):

- ستخبرها بنفسك بإذن الله يا (حسن).

تطلع إليه (حسن)، وحاول أن يبتسم، و..

وانتهى كل شيء في لحظة واحدة..

وسالت الدماء الطاهرة على رمال (سيناء).

☆ ☆ ☆

الفصل الحادي عشر

الجمعة: التاسع من رمضان 1393هـ - الخامس من أكتوبر 1973م: الثانية والنصف بعد الظهر.

☆ ☆ ☆

ضم (عمرو) ركبتيه إلى صدره، وهو يستند بظهره إلى جدار الأطلال القديمة، في العب الشرقي، وقاوم في صعوبة تلك الرغبة في البكاء، التي تتصارع في صدره، وتندفع إلى عينيه في شراسة، ولاذ بالصمت التام، حتى شعر بـ (خالد) يجلس إلى جواره، وهو يقول في خفوت:

- الأمر لا يحتمل هذا.. إنها ليست المرة الأولى، التي تفقد فيها زميلًا.

أومأ (عمرو) برأسه موافقًا، وهم بقول شيء ما، ولكن منعته تلك الغصة في حلقه، فاكتفى بفتح شفتيه وإغلاقهما، مع همهمة غير ذات معنى، فربت (خالد) على كتفه، وقال:

- الحقيقة أنني أشاركك مشاعرك هذه، فلقد أحببنا جميعًا (حسن) (رحمه الله)، ولكن هكذا الحياة.. لقد خرجنا في مهمة محدودة، نعلم جيدًا مدى ما يحيط بها من مخاطر، كما ندرك أهميتها للوطن.. وفي مثل هذه المهام، يحمل المرء عادة روحه على كفه، ويفعل كل من يشاركونه المثل.. هذا أمر مألوف في عالمنا.

نجح (عمرو) أخيرًا في التحدث، فغمغم في صعوبة:

- أعلم هذا، ولكنني عاجز عن الاحتمال لأول مرة في حياتي.. لقد كنت فظًا في معاملته، على الرغم من احترامي له، وإعجابي به.. كم أتمنى لو أمكنني أن أعتذر له الآن، على كل ما فعلته به.

قال (خالد)، وهو يسند ظهره بدوره إلى الجدار:

- إنك لم تفعل ما يستحق الاعتذار، ولكن عقولنا تجسم لنا الكثير من الأمور العادية، في لحظات الحزن والفرح.

وشرد ببصره لحظات، قبل أن يستطرد:

- ثم من يدري.. ربما التقينا به بعد ساعات.

كان المعنى الذي يقصده واضحًا، ولكنه أثار دهشة (عمرو)، فالتفت إليه متسائلًا، وهم بالتعليق على عبارته، لولا أن ظهرت (راوية) فجأة، وهي تقول:

- ماذا سنفعل بشأن العملية؟

سألها (خالد):

- ماذا تقصدين؟

أجابته بلهجة جامدة جافة، تحمل شيئًا من الخشونة:

- أقصد كيف ستواصلون المهمة، بعد أن فقدنا (حسن)؟

أجابها في لهجة جافة، مشابهة للهجتها:

- سبق أن أخبرتك أنه هناك عدد من الخطط البديلة.. سنلغي دور المراقب الخارجي، فيقود (محمد) السيارة، ويجلس (عمرو) إلى جواره، وأبقي أنا في المقعد الخلفي.. إنها خطة تعتمد على وجود ثلاثة أفراد بدلًا من أربعة.

قالت في غلظة:

- ولماذا لا يكونون أربعة؟

أجاب في صرامة:

- فكرة اشتراكك في العملية مرفوضة تمامًا.

قالت في شراسة عجيبة:

- لماذا؟.. سأرتدي زي سكرتيرة عسكرية إسرائيلية، ثم إنني أجيد العبرية، و...

قاطعها في حزم:

- مستحيل!

أطل من عينيها غضب شديد، وهي تقول:

- اسمع يا هذا.. لقد فقدت سبعة من أفراد عائلتي في ساعات معدودة، من أجل هذه العملية، ومن حقي أن أشارك فيها، فإما أن أنجح فلا يذهب موت عائلتي هباءً أو أفشل فألحق بهم.

قال (خالد) في إصرار:

- هذه الروح وحدها تكفي لرفض مطلبك تمامًا.. إننا بصدد عملية دقيقة، بالغة الأهمية والخطورة، ومن الخطر، كل الخطر، خوضها بهدف الثأر الشخصي..

صاحت في حدة:

- سأذهب على الرغم منكم.. لن أبقى هنا وحدي.

انعقد حاجباه في صرامة مخيفة، وهو يقول:

- لو أنك تصرين على إفساد العملية، فهذا يعني أنه لم يعد أمامي سوى حل واحد.

ورفع فوهة مسدسه نحوها، مستطردًا في عنف:

- أن أقتلك.

هتف به (محمد):

- ماذا تقول؟

واحتقن وجه (راوية)، وهي تهتف:

- إنه يحاول إخافتي.

أجابها (خالد):

- كلًا.. إنني أقصد كل حرف نطقت به.. هذه العملية لا تحتمل العناد والمكابرة، وفشلها قد يهدر أرواح المئات، وربما الآلاف، من طيارينا ومقاتلينا.. وربما يتسبب في خسارتنا لأول مواجهة عادلة، بيننا وبين الإسرائيليين، ولن أضحي بها مهما كان الثمن، وسأقتل كل من يحاول اعتراض طريق نجاحها، حتى ولو بحسن نية.

كان يتحدث في غضب صارم، حتى أن الخوف سرى في عروقها بالفعل، فحدقت في وجهه لحظة، ثم هبت من مكانها، وانطلقت تعدو مبتعدة، واختفت خلف تبة قريبة، وران صمت تام على الأطلال، قبل أن يغمغم (محمد):

- لقد كنت شديد القسوة معها.

أجاب (خالد) في حزم:

- لم يكن هناك مفر من هذا.

أشار (عمرو) بكفه، وهو يقول:

- ترى إلى أين ذهبت؟

أجابه (خالد) في هدوء:

- ستختفي بعض الوقت.

سأله:

- لماذا؟

تبادل (خالد) نظرة سريعة مع (محمد)، ثم قال في اقتضاب:

- لتبكي..

رفع (عمرو) حاجبيه، وهو يقول في دهشة:

- تبكي؟!

كانت تبدو له قوية صلبة، حتى أنه لم يتصورها تبكي أبدًا..

وفي هذه اللحظة فقط، وهو ينطق كلمته المندهشة، شعر (عمرو) أنها أنثي..

وأنثى فاتنة أيضًا..

وفجأة أيضًا، خفق قلبه من أجلها..

لم يدر لماذا حدث هذا؟..

ولا كيف؟..

بل إنه لم يحاول حتى سؤال نفسه.

فقط نهض في بطء، وهو يقول:

- إنها تحتاج إذن إلى من يشد من أزرها.

واتجه في خطوات سريعة إلى التبة، ولم يكد يتجاوزها، حتى رآها هناك، تستند إلى صخرة كبيرة، وتدفن وجهها في ركبتيها المضمومتين، لتنهمر بينهما دموعها..

وشعر نحوها بحنان جارف، جعله يتجه إليها، ويهمس:

- هل تبكين؟

جفلت لصوته، ورفعت إليه عينيها الدامعتين في دهشة وانزعاج، ثم أسرعت تجفف دموعها، وهي تقول في عصبية:

- لماذا أتيت؟

ابتسم في رقة لم تعهدها منه، وهو يقول:

- شعرت أنك بحاجة إلى صديق.

قالها وهو يجلس إلى جوارها، فتطلعت إليه في دهشة، ثم ابتعدت قليلًا عنه، وهي تغمغم:

- صديق؟!.

ابتسم قائلًا:

- أيراودك الشك في هذا؟

تطلعت إليه لحظة في حيرة، ثم أشاحت بوجهها، مغمغمة:

- لم أعد أدري أي شيء يراودني بالضبط!

تأملها لحظات، ثم قال في خفوت:

- أتعلمين أنك فاتنة؟

التفتت إليه بدهشة بالغة، ورأى حاجبيها ينعقدان في شدة، فارتبك مغمغمًا:

- إنها ليست إهانة في عالمكم.. أليس كذلك؟

ولكنها انتزعت من حزامها خنجرًا بغتة، وانقضت عليه، و...

وكانت طعنة نجلاء..

☆ ☆ ☆

عقد (جاكوب ليومي)، قائد جناح المخابرات الإسرائيلية في (سيناء)، حاجبيه، وهو يراجع كل التقارير، التي وردت إليه، عن أحداث اليوم والبارحة، ثم نهض، وصب لنفسه كأسًا من الخمر، وهو يغمغم في عصبية:

- اللعنة!

وتوقف أمام خريطة كبيرة لـ(سيناء)، وفحصها ببصره أكثر من مرة، ثم واصل وكأنه يتحدث إلى شخص آخر:

- ما تفسير كل هذا؟.. هليكوبتر مصرية تضحي بنفسها، للإيقاع بأخرى إسرائيلية، ثم نلقي القبض على ملازم (مصري) في (سيناء)، وبعد استجوابه يخاطر البدو بمهاجمة سيارة الأسرى لإنقاذه، وبعدها تتم سرقة سيارة (جيب) تابعة للجيش، وتختفي دورية كاملة في الصحراء.. مرة أخرى اللعنة.. ماذا يحدث بالضبط؟

ارتشف رشفة من كأسه، وعاد يتطلع إلى الخريطة، قبل أن يقول في حنق:

- هذا الفتي المصري خدعنا.. إنه لم يتفوه حتى بنصف الحقيقة.

ثم ألقى محتويات الكأس جانبًا، وهو يستطرد:

- فليقطع ذراعي إن لم تكن هناك عملية مصرية كبرى في الأفق.

واختطف سماعة الهاتف، وقال في توتر:

- صلني بوحدة البحث والمراقبة على الفور.

وانتظر لحظات، حتى سمع صوت محدثه، على الجانب الآخر، فقال:

- شالوم يا (بن جازار).. أنا (ليومي).. (جاكوب ليومي).. اسمعني جيدًا.. أريد ثلاث طائرات هليكوبتر صغيرة، من طائرات المراقبة.. نعم.. إنها عملية بحث.. قطط مصرية تسللت إلى هنا.. بالتأكيد، وأريدها على الفور..

وأنهى المحادثة، وهو يقول لنفسه في صرامة:

- اذهبوا حيثما يحلو لكم الآن أيّها المصريون.. سنكون لكم بالمرصاد.

وصب كأسًا أخرى:

☆ ☆ ☆

رأي (عمرو) (راوية) تستل خنجرها، وتنقض عليه في سرعة، فقفز جانبًا في خفة، كما تعلم في تدريبات قوات الصاعقة، ودار حول نفسه ليقبض على معصمها، ولكن يده توقفت في الهواء بغتة، وهو يحدق في خنجرها، الذي انغرس في رأس ثعبان كبير، وهتف:

- ما هذا؟

انتزعت الخنجر من رأس الثعبان، وهي تقول:

- كان يهم بغرز أنيابه في عنقك.

هتف:

- إذن فأنت أنقذت حياتي.

رمقته بنظرة جانبية، وهي تقول:

- هل أحنقك هذا؟

قال في دهشة:

- على العكس.. إنني أدين لك بالشكر.. لماذا تصورت أن هذا سيحنقني؟

قالت في ترقب:

- لأنني فتاة.

قلب كفيه، قائلًا:

- وما الفارق؟!

سألته بسرعة:

- لماذا إذن ترفضون انضمامي إليكم في عمليتكم؟

بهت للسؤال، ثم لم يلبث أن أجاب:

- (خالد) هو القائد المسؤول في هذا الشأن.

سألته في اهتمام عجيب:

- ولكن ما رأيك أنت؟!

صمت لحظات، وهو يتطلع إليها، ثم همس في حنان:

- أخشى أن تصابي بسوء.

مرة أخرى حدقت في وجهه بدهشة..

ولكنها فهمت..

لقد قرأت مشاعره، في نظرته وابتسامته، وتضرج وجهها بحمرة الخجل، وارتبكت وهي تنهض قائلة:

- هيا بنا.. سنعود إلى الآخرين.

وأسرعت الخطا، وكأنها تفر منه، ولكنه استوقفها قائلًا:

- (راوية).. أريد أن..

خفق قلبها في عنف، عندما بتر عبارته، وقالت دون أن تواجهه:

- ماذا تريد؟

صمت لحظات، وهو يبحث عن كلمات مناسبة..

كانت المرة الأولى، التي يقف فيها في مثل هذا الموقف العاطفي، حتى أنه لم يجد ما يقول.

فقط صمت طويلًا..

وهي أيضًا صمتت..

وخفق قلبه في قوة..

وارتجف قلبها في انفعال..

ولثوان، لم يحرك أيهما ساكنًا، حتى بدوا أشبه بتمثالين من الملح، أو بجزء من الأطلال القديمة المحيطة بهما..

ثم انتزع (عمرو) نفسه من ارتباكه، وقال:

- (راوية).. لو كتب لنا العودة من هذه العملية، على قيد الحياة، فهل تقبلين أن...

قبل أن يتم عبارته، ارتفع فجأة أزيز الهليكوبتر في السماء..

هليكوبتر إسرائيلية، من الطائرات الثلاث، التي خرجت للبحث عنهم..

وكان هذا يعني أن المطاردة قد بدأت..

المطاردة الإسرائيلية.

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني عشر

الجمعة: التاسع من رمضان 1393هـ - الخامس من أكتوبر 1973م، الثالثة والنصف بعد الظهر.

☆ ☆ ☆

دار (بن جازار) بطائرته الهليكوبتر الحربية الإسرائيلية دورة كاملة، فوق منزل الشيخ (عواد)، قبل أن يلتقط جهاز الاتصال، ويقول في دهشة مستنكرة:

- المشهد يبدو وكأنه مذبحة كاملة يا (جاكوب).. أكثر من خمس عشرة جثة تفترش الرمال، وسط بحيرات من الدم.. يا للشيطان... ما الذي فعله ذلك البدوي بالضبط؟!

أتاه صوت (جاكوب ليومي)، رجل المخابرات الإسرائيلي، وهو يقول في توتر:

- هل يمكنك تمييز أزياء القتلى؟.. هل من بينهم جنود يرتدون الزي العسكري المصري؟!

هز (بن جازار) رأسه، وهو يقول:

- لا يمكنني الجزم من هنا يا رجل.. سأهبط لتفقد الأمر جيدًا.

دار مع الطائرتين التابعتين له دورة أخرى، حول منزل الشيخ (عواد)، قبل أن تهبط الطائرات الثلاث إلى جوار المنزل، وغادرها (بن جازار) ورجاله، الذين اتجهوا في حذر إلى المكان، وأداروا عيونهم فيه، قبل أن يهتف أحدهم:

- هؤلاء البدو الأوغاد قتلوا كل رجالنا.. اللعنة عليهم جميعًا.

وعلى الرغم من بركة الدماء، التي تسبح فيها جثث القتلى، والمشهد الذي لا يدع مجالًا للشك في أن الجميع قد لقوا مصرعهم، فقد رفع الجندي فوهة مدفعه الآلي، وأطلق رصاصاته في غضب على جثث البدو، وهو يصرخ:

- أيها الأوغاد.

مط (بن جازار) شفتيه، دون أن يعترض، وانتظر حتى توقف دوي الرصاصات، وتشوهت جثث القتلى تمامًا، ثم رفع يده، قائلًا:

- فتشوا هذا المنزل، وأشعلوا فيه النيران، وألقوا جثث هؤلاء البدو في قلب النيران، واحملوا جثث قتلانا.. هيا.

اندفع الرجال في شراسة إلى المنزل، وراحوا يقلبونه رأسًا على عقب، حتى اكتشفوا كمية من الأسلحة والذخائر، فقال في حدة:

- يبدو أنهم كانوا يعدون لحرب طويلة.

هز زميله رأسه، وقال:

- لا يمكنك فهم هؤلاء البدو أبدًا.. في لحظة يبدون غاية في الوداعة والاستكانة، وعندما تبدأ في الاطمئنان إليهم، يباغتونك بإطلاق النار على رأسك مباشرة.

قال الأول، وهو يحمل الأسلحة إلى الخارج:

- أفضل ما فيهم هو أنهم لا يطلقون النار على ظهرك قط.

هز الثاني كتفيه، وقال:

- وما الفارق؟.. إنك تلقى مصرعك في الحالتين.

جمعوا كل الأسلحة والذخائر، ونقلوها إلى طائراتهم الثلاث، مع جثث قتلاهم، ثم ألقى (بن جازار) نظرة طويلة على المنزل، وراجع عمليات التفتيش، قبل أن يشد قامته، ويقول في صرامة:

- أشعلوا النيران في المنزل.

بدأ رجاله في إلقاء جثث البدو داخل المنزل، تمهيدًا لإشعال النيران في كل شيء، في حين راح هو يدور ببصره في المكان، مغمغمًا:

- ولكن المفروض أننا نبحث عن بعض الجنود المصريين.

أجابه معاونه:

- هناك العديد من القتلى، في زي البدو، وربما كان بعضهم من الجنود المصريين، الذين تنكروا في هذا الزي.

مط (بن جازار) شفتيه، وغمغم:

- ربما.

ثم توقف بصره عند أطلال العب الشرقي، قبل أن يستطرد:

- ولكن لو لم يكونوا كذلك، فلا يوجد سوى مكان واحد، يمكن للجنود المصريين أن يختبئوا فيه منا.

وأشار إلى الأطلال، مستطردًا:

- هناك.

ودون أن يدري، كانت سبابته تشير إلى موقع الصقور..

وبدقة مدهشة..

☆ ☆ ☆

لم يكد (عمرو) يلمح الهليكوبتر الإسرائيلية تعبر الأطلال القديمة، حتى دفع (راوية) جانبًا، وهو يهتف:

- اختبئي.

التصقت (راوية) بالجدار، وراحت تلهث في انفعال، دون أن تجرؤ على النظر إلى أعلى، وأزيز الهليكوبتر يكاد يصم أذنيها، في حين انبطح (عمرو) ارضًا، وكتم أنفاسه تقريبًا، وهو يلتصق بجدار متهدم قديم..

وعبرت الهليكوبتر الإسرائيلية الأطلال في سرعة، وتبعتها طائرتان أخريان، لم يحاول ركابها مجرد إلقاء نظرة على الأطلال، التي بدت لهم مقفرة للغاية، واتجهت الطائرات الثلاث مباشرة إلى منزل (عواد)، فاعتدل (عمرو) هاتفًا:

- إنهم يبحثون عنا.

قالت متوترة:

- أو أن القتال الذي دار، بين عائلة خالي ورجالهم، قد بلغهم على نحو ما.

قال في انفعال:

- ربما.. تعالي.. لنعود إلى الرفاق.

نطقها وهو يمسك يدها، ويجذبها خلفه في سرعة..

وارتجف جسدها كله..

صحيح أن الموقف كله لم يكن يتناسب مع هذا، ولكن قلبها خفق في عنف، وهي تتطلع إلى (عمرو) من الخلف، وتتساءل: هل أحبها حقًا؟!..

ولكن كيف يقع في حبها، في هذا الزمن القصير؟..

راودتها نفسها على أن تسأله، ولكن الحياء والخجل منعاها، ثم لم تلبث مشاعرها أن انقلبت بغتة رأسًا على عقب..

كيف تفكر في أمر كهذا، ولم يمض بعد يوم كامل، على مصرع عائلتها بأكملها؟!

أولًا، مات أبوها، ثم أمها.. أختها.. خالها.. أبناء خالها.. جدتها..

وحتى (حسن) المسكين..

كيف ترتكب مثل هذا الجرم؟

سيطر عليها شعور قاس بالندم وتأنيب الضمير، جعلها تنتزع يدها من راحة (عمرو) في حدة، فالتفت إليها في دهشة، وقال:

- ماذا حدث؟

قبل أن تبحث عن جواب لسؤاله، اندفع (محمد) نحوهما بغتة، وهو يقول:

- أأنتما بخير؟

تضرج وجهها بحمرة الخجل، وكأنما ضبطهما (محمد) في فعل فاضح، وأشاحت بوجهها في حياء، في حين أجابه (عمرو) في سرعة وانفعال:

- نعم.. نحن بخير.. من الواضح أن الإسرائيليين يبحثون عنا.

قال (محمد) في توتر:

- ومن الواضح أيضًا أنهم لم يلمحونا، فقد واصلوا سيرهم بنفس السرعة.

ظهر (خالد) في هذه اللحظة أيضًا، وقال:

- أعتقد أن قدومهم إلى هنا أمر محتمل، ومن الضروري أن نعمل على إخفاء السيارة.

أسرعوا جميعًا إلى حيث تركوا السيارة، وقفز (عمرو) إلى مقعد القيادة، وأدار محركها، وهو يتجه بها إلى منطقة متهدمة، تخفيها تقريبًا عن الأنظار، ثم قفز منها، وهو يقول:

- هذا يكفي، لو أنهم سيكتفون باستطلاعات جوية.

بلغت مسامعهم أصوات الطلقات النارية، فانعقد حاجبا (خالد) وهو يتمتم:

- ما الذي يطلقون عليه النار هناك؟

هزت (راوية) رأسها في حيرة، وغمغمت:

- لست أدري.. لقد كان الجميع قتلى، عندما غادرنا المكان.

ثم انتابتها نوبة عصبية مباغتة، وهي تصرخ في وجوههم:

- وكان المفروض أن ندفنهم، لا أن نتركهم هكذا، لتنهش ذئاب الصحراء جثثهم.

كانت تفرغ انفعالاتها، وعواطفها، وشعورها العنيف بتأنيب الضمير، في تلك الثورة، التي انتهت بانفجارها باكية، فالتفت (عمرو) إلى (خالد)، وقال في حدة:

- إنها على حق.. كان المفروض أن ندفن الجميع، كما فعلنا مع جثة (حسن)، ولست أدري بعد سر إصرارك على تركهم في العراء على هذا النحو.

أجابه (خالد) في صرامة:

- لو أنك طرحت عواطفك جانبًا، وحاولت أن تفكر بعقلك فحسب، لأدركت السبب على الفور.

أساء (عمرو) فهم العبارة، وخيل إليه أن (خالد) يلمح إلى عواطفه تجاه (راوية)، ولم ينتبه إلى أن تلك العواطف مازالت وليدة، ولم تتجاوز أعماقه هو، فاندفع نحو (خالد) في حدة، وهو يقول:

- ماذا تقصد؟.. هه.. ما الذي تعنيه بقولك هذا؟

وهوى بقبضته بغتة على وجه (خالد)، الذي فوجئ باللكمة، فسقط أرضًا وسط الأطلال، وصاح به غاضبًا:

- هل جننت أيها الملازم؟

صاح (عمرو) في عصبية:

- نعم.. ويمكنك أن تحاكمني عسكريًا عند عودتنا، والآن قم لتواجهني في شجاعة، لو أنك رجل بحق.

قفز (خالد) وأقفًا على قدميه، ولوح بقبضتيه، قائلًا:

- فليكن.. هيا أيها الملازم.. أنت تحتاج إلى من يلقنك درسًا.

صاح (محمد) مستنكرًا:

- ما الذي تفعلانه؟.. هل فقدتما عقليكما؟

ولكن (عمرو) انقض على (خالد) مرة ثانية، وحاول أن يلكمه في معدته، إلا أن (خالد) دار حول نفسه في سرعة، وركله في صدره في قوة، فتراجع في عنف، وصرخت (راوية):

- كفى.. كفى.

وفي نفس الوقت، أحاط (محمد) وسط (عمرو) بذراعيه، وهو يقول:

- لقد أتينا إلى هنا لنقاتل الإسرائيليين، لا لنتقاتل معًا.

أعادت صيحته إليهما صوابهما، فخفض (خالد) قبضتيه، وهو يتمتم في ضيق:

- أنت على حق.

أما (عمرو)، فهتف في عصبية:

- ولكنه يدعي أن عواطفي خدعتني.. أية عواطف تلك التي يشير إليها؟!

جلس (خالد) على صخرة كبيرة، وهو يقول:

- أنت مصري يا (عمرو)، والمصريون، بل العرب جميعًا، لديهم حساسية خاصة تجاه الموت، وضرورة دفن الموتى، والعدو يعرف عنا هذه الصفة، كما نعرف عنه اهتمامه الشديد بدفن موتاه في الأرض التي عاشوا عليها.. ولقد فكرت في الأمر كقائد ومسؤول عن نجاح هذه العملية، وليس كشخص عاطفي.. لقد قدرت أن ترك الجثث دون دفنها، سيوحي للعدو بأنه قتال بين جانبين، قتل كل منهما الآخر، دون أن يتبقى أحياء لدفن الجثث، وهذا سيوقف مطاردته لنا إلى حد ما، أما لو قمنا بدفنها، فسيعرف العدو على الفور أننا هنا، وسيزداد إصراره على نبش المنطقة للعثور علينا. وهذا يتعارض مع المهمة الرئيسية، التي تنتظر منا (مصر) كلها أن نجازف بأرواحنا وعواطفنا من أجل نجاحها.

سألته (راوية):

- لماذا دفنت جثة (حسن) إذن؟

أجابها في حزن:

- لأنه جندي مصري، وملامحه لا توحي بأنه بدوي، وسيعلمون حتمًا أنه ليس إسرائيليًا، على الرغم من الزي العسكري الإسرائيلي الذي يرتديه.

تم رفع عينيه إليهم، مستطردًا في مرارة:

- صدقوني يا رفاق.. أنا أيضًا أشعر وأتألم مثلكم، ولكنني مسؤول عن نجاح (عملية صقر)، ومن واجبي أن أسعى لهذا، حتى لو اضطررت للضغط على أعصابي، وقتل مشاعري كلها.

قالها في تأثر شديد، فلاذوا جميعًا بالصمت، وهم (محمد) بقول شيء ما، عندما ارتفع فجأة أزير طائرات الهليكوبتر الإسرائيلية، فهتف (خالد):

- اختبئوا.

كانوا يتوقعون مرور الطائرات فوقهم، ولكنهم فوجئوا بالأزيز يشير إلى هبوط الطائرات بالقرب من الأطلال، وتناهى إلى مسامعهم صوت (بن جازار)، وهو يقول لرجاله:

- فتشوا المكان جيدًا.

هتف (عمرو):

- رباه!.. إنهم يعتزمون تفتيش المكان على أقدامهم.

قال (محمد) في توتر:

- سيكشفون وجودنا حتمًا، ووجود السيارة.

شعر (خالد) بالكثير من التوتر والمرارة في أعماقه، وتطلع في قلق إلى السيارة، التي اختفت إلى حد كبير بين الأطلال، ولكن ليس على نحو يمنع كشف أمرها، مع تفتيش ميداني. وانتابه شيء من الحنق في أعماقه، وهو يتمتم:

- لن يفسدوا خطتنا مرة أخرى.

وقبل أن يدرك أحدهم ما يعنيه، رأوه يقفز فجأة من مكانه، وهو يحمل مدفعه الآلي، ويتجه نحو السيارة، فقال (عمرو) في حدة، على الرغم من انخفاض صوته:

- ماذا سيفعل بالضبط؟

كان (خالد) يدفع السيارة بكتفه، محاولًا إخفاءها أكثر وأكثر، فتمتم (محمد)، وهو يهم بالذهاب إليه ومعاونته:

- إنه يحتاج إلى مساعدة.

ولكن (راوية) أمسكت به في قوة، وهي تقول:

- انتظر.. لقد ظهر بعض الإسرائيليين هناك، وسيرونك لو غادرت مكانك هذا.

تراجع (محمد) في سرعة، وألقي نظرة قلقة على (خالد)، الذي انتبه إلى مقدم الإسرائيليين، فأسرع يختفي خلف الجدار..

وسيطرت على (محمد) موجة عارمة من القلق..

كان يتابع حركة الجنود الإسرائيليين الثلاثة، الذين يفتشون ذلك الجزء من الأطلال، وأدرك على الفور أنهم يتجهون إلى حيث اختفى (خالد) والسيارة مباشرة، وسمع أحدهم يقول لزميليه:

- هل تظنان أنه من الممكن أن يختفي آدمي، في هذا المكان القذر؟

أجابه أحدهما في حزم:

- تذكر ما لقنونا إياه يا رجل.. العدو يختفي دائمًا حيث لا يمكنك أن تتوقع وجوده.

ضحك الجندي، وقال:

- وهل المفروض ألا أتوقع وجوده هنا؟.. تبًا لك يا رجل.. إنها منطقة صحراوية جرداء، ولا يوجد بها مكان للاختباء سوى هذا، ولو أنني في موضعهم، ما اخترت الاختباء فيه قط.

وفجأة، صرخ الجندي الثالث، وهو يشير إلى الجدار، الذي يختبئ عنده (خالد):

- ما هذا بالضبط؟

ثم ارتفعت صرخة ألم، أعقبها دوي نيران مدافع الإسرائيليين الثلاثة، الذين أصابت رصاصاتهم الهدف..

وبكل دقة.

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث عشر

الجمعة: التاسع من رمضان 1393هـ - الخامس من أكتوبر 1973م: الخامسة عصرًا.

☆ ☆ ☆

نهض، اللواء (حسين قدري)، المسؤول الأول عن (عملية صقر)، لاستقبال وزير الحربية في مكتبه، وقال في لهجة عسكرية رسمية:

- مرحبًا يا سيادة الوزير.. اعذرني لأنني لم أستقبلك رسميًا، كما تقتضي التعليمات، فلم أكن أتوقع هذه الزيارة المفاجئة قط.

صافحه وزير الحربية، وهو يقول:

- دعك من الرسميات أيها اللواء، وأخبرني: كيف تسير العملية؟

اصطحبه اللواء (حسين) إلى منضدة كبيرة، تحمل خريطة مجسمة لمسرح العملية، وقال وهو يشير إلى نقطة بعيدة:

- آخر ما لدينا من أخبار يقول: إن الإسرائيليين قد شنوا هجومًا عنيفًا على منزل الشيخ (عواد)، وقتلوه مع كل أبنائه وأمه، ولقد خسرنا أحد الصقور.

عقد الوزير حاجبيه، وسأله في ضيق:

- من منهم؟

- أجابه اللواء (حسين):

- الجندي (حسن عبد العليم).. لقد استشهد في هذا القتال، ولكن الباقين نجحوا في الفرار، ومعهم سيارة (جيب)، وهم يختبئون الآن، في انتظار التنفيذ.

قال الوزير، وصوّته يحمل توترًا واضحًا:

- ألا يهدد هذا العملية بالفشل؟

هز اللواء (حسين) رأسه نفيًا، وقال:

- كلا يا سيدي، فلقد وضعنا خطتنا بكل إحكام، وافترضنا فيها أننا سنخسر أحد الأفراد، قبل بدء التنفيذ الفعلي، وهناك خطة بديلة، تحتاج إلى ثلاثة أفراد فحسب، وهي ما سيقوم الرجال بتنفيذها على الفور.

تنهد الوزير، وبدا المزيد من التوتر على وجهه، وهو يقول:

- الواقع أنني أشعر بالقلق أيها اللواء، وكثيرًا ما أعاتب نفسي، على أننا أرسلناهم إلى أرض المعركة مبكرًا.

قلب اللواء (حسين) كفه، وهو يقول:

- لم يكن أمامنا سوى أن نفعل هذا يا سيدي، فتقارير الأرصاد، وتطورات القمر المستمرة، لم تكن تمنحنا سوى فرصة واحدة للعبور بهم بواسطة الهليكوبتر، إلى منطقة الإنزال في (سيناء)، وبعدها كانت السماء ستخلو من الغيوم، ويكبر حجم القمر، ويتعذر علينا نقلهم إلى مسرح العمليات تمامًا.

تنهد الوزير مرة أخرى، وقال:

- قدر الله، وما شاء فعل.

ثم رفع عينيه، إلى اللواء (حسين)، مستطردًا:

- هذه العملية بالغة الأهمية والخطورة أيها اللواء، والرئيس يتابعها شخصيًا.

ارتسمت على شفتي اللواء (حسين) ابتسامة واثقة، وقال:

- اطمئن يا سيادة الوزير، سيؤدي رجالنا المهمة بإذن الله.. وبكل نجاح.

وعلى الرغم من صوته وابتسامته، اللتين لا تفتقران إلى الثقة، كان هناك قلق رهيب يكاد يعصف بنفسه من الداخل..

قلق بلا حدود..

☆ ☆ ☆

انتفض جسد (بن جازار)، عندما تناهى إلى مسامعه دوي الرصاصات، وصاح برجاله:

- أسرعوا لنجدة زملائكم.

اندفع الجميع بأسلحتهم إلى حيث رفاقهم، وتبعهم (بن جازار) في توتر، ولكنه لم يكد يبلغ المكان، حتى هتف:

- ماذا حدث؟

كان اثنان من الجنود يحملان زميلهما الثالث، في حين سالت على الجدار بقعة كبيرة من الدماء، وأجابه أحد الجنديين:

- إنها الثعابين.. ثلاثة أو أربعة منها في آن واحد.. لقد لدغ أحد الثعابين (إفرام)، وشاهدنا ثعبانين آخرين على الجدار، فأطلقنا النار عليهما، وقتلنا ذلك الذي لدغ زميلنا، ولكن الرابع أفلت منا.

وهتف الجندي الثاني:

- إنه يحتاج إلى مصلٍ واقٍ على الفور.

أشار (بن جازار) بيده، هاتفًا:

- احملوه بسرعة إلى الهليكوبتر.

سأله أحد الرجال، وهو يشير إلى المكان:

- هل نواصل التفتيش؟

صاح به:

- هنا!! إنه وكر للثعابين والعقارب يا رجل.. أي مجنون هذا، الذي يفكر في الاختباء فيه؟!

انطلقوا مسرعين لنجدة زميلهم المصاب، ولم تمض دقيقة واحدة، حتى كانت طائرات الهليكوبتر الإسرائيلية الثلاث تبتعد، فهتف (عمرو):

- نجونا يا رفاق.

أسرع الثلاثة نحو (خالد)، الذي تنفس الصعداء، وهو يقول:

- حمدًا لله.. تصورت لحظة أنهم لمحوني، وأن رصاصاتهم هذه تنطلق نحوي.

ربت (عمرو) على كتفه في حرارة، وهو يقول:

- اطمئن يا رجل.. ما كنا لنسمح لهم أن يمسوك بسوء.

ابتسم (خالد)، وهو يتطلع إليه، قائلًا:

- أعلم هذا.. أعلم أنه هناك رجال يحمون ظهري.

التقت عينا كل منهما بعيني الآخر لحظة، ثم تعانقا بغتة، و(عمرو) يقول:

- اغفر لي ما فعلته معك.

ربت (خالد) على كتفه في حرارة، وهو يقول:

- لا عتاب بين الأصدقاء.

كان الموقف مؤثرًا، حتى أن الدموع ترقرقت في عيني (راوية)، وكادت تفلت من عيني (محمد)، فقال بسرعة، ليغير طبيعة الموقف:

- هل تعتقدون أنهم سيعودون مرة أخرى؟

هز (خالد) رأسه نفيًا، وقال:

- لا.. لست أعتقد هذا.

ثم جلس فوق صخرة قريبة، مستطردًا:

- والآن دعونا نراجع خطة العملية.

سألته (راوية):

- أما زلت تصر على عدم مشاركتي لكم؟

تطلع إليها لحظة، ثم قال مشفقًا:

- (راوية).. هذه العملية بالغة الخطورة.

قالت في سرعة:

- أعلم هذا.

التقط نفسًا عميقًا، وقال:

- هل تعلمين ما الذي يمكن أن نواجهه هناك؟.. إننا سنقتحم محطة إنذار مبكر، لا نعلم عنها إلا تركيباتها الخارجية، ولكننا نجهل تمامًا ما الذي يمكن أن يواجهنا داخلها، ومن المحتمل أن نلقي جميعًا مصرعنا هناك.

قالت في إصرار:

- هذا لا يهمني.

أجابها في صرامة:

- ولكنه يهمني أنا.. أنا المسؤول عن نجاح أو فشل العملية.

ترقرقت الدموع في عينيها مرة أخرى، وهي تقول:

- وهل تعتقد أنك تسعى لصالحي، عندما تبقي على حياتي؟.. خطأ يا سيادة النقيب.. لقد خسرت في يومين فحسب عائلتي

كلها، وأصبحت وحيدة هنا، في أرض محتلة.. هل تدرك ما الذي يمكن أن تواجهه فتاة وحيدة، في مثل هذه الظروف؟

انفرجت شفتاه، وبدا لحظة وكأنه سيقول شيئًا ما، إلا أنه لم يلبث أن أطبق شفتيه مرة أخرى، ولاذ بالصمت، وهي تتابع في مرارة:

- إنني أحتمي بكم.. ألا تفهمون هذا؟.. لم يعد لي سواكم، وأنتم تحتاجون إليّ، حتى تكتمل خطتكم.. لقد فقدتم (حسن)، وسأحل محله.

قال بصوت خافت، فقد الكثير من صرامته:

- هناك خطة بديلة، تحتاج إلى ثلاثة أفراد فحسب، وسنعمل على تنفيذها.. سنلغي دور المراقب الخارجي، ونهبط جميعًا إلى المحطة.

قال (محمد) بغتة:

- ولماذا لا تنضم (راوية) إلينا؟

التفت إليه (خالد) في صرامة، ولكنه تابع دون أن يتوقف:

- إنها تستطيع انتحال شخصية سكرتيرة عسكرية بالفعل، وفي هذه الحالة لن نحتاج إلى الخطة البديلة، وسنقوم بتنفيذ الخطة الأصلية.. ستبقى أنت في السيارة، لمراقبة الحراس وطاقم الأمن، في حين أهبط أنا و(عمرو) وهي إلى المحطة.. هذا يبدو لي مثاليًا.

قال (خالد) في حزم:

- ولكنها لا تمتلك الزي أو الأوراق اللازمة.

هتفت (راوية):

- من قال هذا.. لقد استخرج لي والدي بطاقة عسكرية سليمة باسم (بولينا ياكوف)، وأنا أخفي زي سكرتيرة عسكرية في مخبأ سري، في منزلنا.

تطلع إليها (عمرو) في دهشة، ثم ضحك قائلًا:

- هل كنت تتوقعين هذا؟

قالت في حماس:

- بل كنت أحلم بحدوثه.

ثم التفتت إلى (خالد)، مستطردة في لهجة أقرب إلى الرجاء:

- والآن ما رأيك؟

قبل أن يفتح شفتيه ليجيب، قال (عمرو):

- أنا أوافق على انضمامها إلينا.

وأضاف (محمد):

- وأنا أرى أن هذا ضروري.

صمت (خالد) لحظات، وبدت على وجهه دلائل التفكير العميق، ثم تطلع إلى (راوية)، وقال:

- أعتقد أن أفضل مكان يمكننا أن نقضي فيه ليلتنا، هو منزلكم يا (راوية)؟ فلن يفكر الإسرائيليون في العودة إليه مرة أخرى، كما أنك ستحضرين أوراقك وزيك العسكري من هناك.

تهللت أساريرها، وهي تهتف:

- هل يعني هذا أنك قد وافقت؟

وثب نحوها بغتة، ودفعها جانبًا، وهو يقول:

- احترسي.

ثم استل خنجره، وهو يضغط بحذائه الثقيل على عنق ثعبان ضخم، قبل أن يفصل عنقه بضربة سريعة من خنجره، ثم حمله وهو يقول:

- من حسن حظنا أن أتى هذا الثعبان إلينا.

كان الجميع يتطلعون إليه في دهشة، ثم هتفت (راوية):

- من حسن حظنا؟!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة، وهو يقول:

- إننا لن نقضي اليوم كله بلا غذاء.. أليس كذلك؟

☆ ☆ ☆

مالت الشمس المغيب، على أرض (سيناء)، معلنة نهاية يوم آخر من الاحتلال الإسرائيلي، وراقب (جاكوب ليومي) احتضارها في بطء، قبل أن يتمتم في شيء من الحنق الممزوج بالغضب:

- إذن فأنتم لم تعثروا عليهم.

ابتسم (بن جازار)، وهو يصب لنفسه كأسًا من الخمر، ورفعها إلى شفتيه ليتذوقها، وهو يقول:

- أتمنى لو علمت سر عصبيتك هذه يا (جاكوب).. إنها أول مرة تتعامل فيها مع موقف ما، بكل هذه الحساسية!.. ماذا أصابك يا رجل؟

زفر (جاكوب) في توتر، وقال:

- الموقف كله لا يروق لي هذه المرة، وأشعر أن المصريين يدبرون أمرًا خطيرًا، يفوق كل عملياتهم السابقة.

ضحك (بن جازار)، وهو يقول:

- تشعر؟!.. آه لو سمعك مدير المخابرات أو وزير الدفاع، وأنت تنطق هذه الكلمة!.. إنك ضابط مخابرات يا رجل، ورجال المخابرات لا يتحركون وفقًا لمشاعرهم، بل يتبعون الحقائق المجردة وحدها.. ماذا دهاك؟.. هل تحتاج مني إلى أن أعلمك هذا؟

التفت إليه (جاكوب)، وقال في حدة:

- قل لي يا رجل: هل يبدو لك الأمر عاديًا أو مألوفًا؟ هليكوبتر مصرية خالية، تصطدم عمدًا بواحدة من طائراتنا، وضابط مصري نلقي القبض عليه هنا، ثم يفلت بهجوم انتحاري عجيب، وبعدها يقاتل أحد شيوخ البدو مع أبنائه رجالنا، في سابقة ليس لها مثيل.. ألا يعني هذا أنه هناك خطر ما على الأبواب؟

قال (بن جازار) في سخرية:

- وما الخطر الذي تتوقعه؟.. أن يقتحم المصريون خط (بارليف)؟؟

عقد (جاكوب) حاجبيه، وهو يقول:

- أنت تعلم أن هذا مستحيل!.. إنني أفكر في عملية استنزافية أخرى.

هتف (بن جازار):

- اطمئن يا رجل.. نحن بعيدون تمامًا عن خطوط حرب الاستنزاف هذه، ثم إن المصريين لا يضربون كثيرًا، والأهم من هذا.. هل توحي لك تقارير المخابرات باحتمال حدوث شيء ما؟

هز (جاكوب) رأسه نفيًا، وهو يقول:

- مطلقًا.. إنها كلها - على العكس - تؤكد أن كل شيء هادئ تمامًا، وأنه من غير المتوقع أن تخطر فكرة الحرب على أذهان المصريين، قبل عشرة أعوام على الأقل.

صب (بن جازار) كأسين من الخمر هذه المرة، وهو يهتف:

- عظيم.. ما الداعي إلى القلق إذن؟

وناول أحد الكأسين إلى (جاكوب)، مستطردًا:

- خد يا رجل.. دعنا نحصل على قدر من الراحة، وعلى بعض الخمر الجيد.

التقط (جاكوب) الكأس، وهو يقول في شرود:

- ألا ترى أنه من الضروري أن أرسل تقريرًا بكل مخاوفي إلى الرؤساء؟

هتف (بن جازار):

- في هذا الوقت بالذات؟!.. ستكون أسخف حركة قمت بها في حياتك كلها يا رجل؛ فلن يروق لهم أبدًا أن تزعجهم في عيد الغفران (كيبور).. هيا يا رجل.. ارتشف كأسك، ودعنا نحلم باحتفالات العيد غدًا.. هيا.

غمغم (جاكوب):

- أنت على حق.

ثم جرع كأسه دفعة واحدة..

وحتى الثمالة.

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع عشر

السبت: العاشر من رمضان 1393هـ - السادس من أكتوبر 1973م: الخامسة والنصف صباحًا.

☆ ☆ ☆

اجتاز رئيس الجمهورية باب مركز قيادة المعركة، مرتديًا زيه العسكري، وحاملًا على كتفيه رتبة القائد الأعلى للقوات المسلحة، ونهض جميع القادة وكبار الضباط لاستقباله، وقد ارتسم الأمل والحماس على وجوههم، فصافحهم الرئيس واحدًا فواحدًا، وسألهم في اهتمام:

- هل كل شيء على ما يرام؟

أجابوه في ثقة:

- اطمئن يا سيادة الرئيس.

وتبادلوا معه حديثًا قصيرًا، قبل أن يتفرقوا، ويحتل كل منهم موقعه، في غرفة العمليات المركزية، وخلع الرئيس غطاء رأسه العسكري، ووضعه أمامه على المائدة، وهو يشعل غليونه، ويسأل وزير الحربية:

- كيف الحال في (سوريا)؟

أجابه وزير الحربية في هدوء:

- كل شيء يسير وفقًا للخطة يا سيادة الرئيس، وهناك تنسيق تام بيننا وبينهم، وسيتم الهجوم الشامل في موعده بإذن الله.

أومأ الرئيس برأسه متفهمًا، وهو ينفث دخان غليونه، ويغمغم:

- عظيم.. عظيم.

ثم سأل في اهتمام شديد:

- وما أخبار (عملية صقر)؟

أجابه الوزير:

- كن مطمئنًا يا سيادة الرئيس.. سينفذ رجالنا مهمتهم، حتى ولو اضطروا لمقاتلة نصف الجيش الإسرائيلي.

أومأ الرئيس مرة أخرى، وقال:

- لقد قرأت تقاريرهم الشخصية، وهم بالفعل من طراز ممتاز، ولكن النتائج ستختلف كثيرًا لو فشلوا.

قال الوزير:

- لن يفشلوا بإذن الله يا سيادة الرئيس.

سأله الرئيس:

- وأين ينبغي أن يكونوا، في هذه اللحظة؟

ألقى الوزير نظرة على ساعته، وقال:

- إنهم لم يبدءوا تحركاتهم بعد، ولكن في تمام الحادية عشرة سيكونون في هذه البقعة بإذن الله.

قالها وهو يشير إلى نقطة محدودة على الخريطة الكبيرة، التي ترسم مسرح العمليات كله..

وبكل ثقة..

☆ ☆ ☆

«كل شيء يشبه التدريبات تمامًا يا رفاق..»

نطق النقيب (خالد) هذه العبارة، وهو مستلق على الرمال، فوق تبة تبعد كيلومترًا واحدًا عن المحطة (عاين)، ومنظاره المقرب فوق عينيه، يدرس به أرض المعركة، ثم لم يلبث أن ناوله للملازم أول (عمرو)، مستطردًا:

- لقد صنع رجالنا نموذجًا مطابقًا للغاية.

وضع (عمرو) المنظار على عينيه، وتطلع إلى المحطة، وإلى برج الإرسال المرتفع، والدبابتين، والمباني الثلاثة الصغيرة، وسور الأسلاك الشائكة، وجنود الأمن والحراسة، قبل أن يتمتم:

- نعم.. لقد صنعوه بدقة بالغة، حتى أنني أشعر وكأنني كنت هنا من قبل.

نهض الاثنان في حزم، ونفضا الرمال عن ثيابهما العسكرية الإسرائيلية، ثم ألقى (خالد) نظرة على ساعته، وقال:

- فلنبدأ على بركة الله.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة بالضبط، وكان الجميع يقفون في نفس النقطة، التي أشار إليها الوزير، ولقد احتل كل منهم موقعه داخل السيارة (الجيب)، فجلس (محمد) خلف عجلة قيادتها، وإلى جواره (عمرو)، وخلفهما (خالد) و(راوية)، وتمتم (خالد)، في صوت لم ينجح في إخفاء نبرة الانفعال فيه:

- هيا.

قرأ (محمد) بعض الآيات القرآنية في أعماقه، وتحركت لها شفتاه، ثم أدار محرك السيارة، وانطلق متجاوزًا التبة الرملية، في طريقه إلى المحطة.

وران على السيارة صمت تام، لا يقطعه سوي هدير محركها الخشن..

وسبح (خالد) مع أفكاره، وهو يتذكر زوجته الشابة، التي لم يمض بعد عام كامل على زواجه منها، والتي تنتظر مولودهما الأول، خلال أسابيع قليلة، وتساءل في نفسه: هل سيمكنه رؤيتها مرة أخرى؟.. وهل من المقدر له أن يرى ابنه أو ابنته منها..

أما (عمرو)، فقد سبحت أفكاره بعيدًا، وتركزت كلها حول (راوية).. عندما أسندوا إليه العملية، لم يكن يفكر كثيرًا في خروجه منها حيًا، أو عدم خروجه على الإطلاق، أما الآن، فهو يتمنى لو نجحت العملية، ونجا هو و(راوية)، حتى يتزوجها، وينعم بقربها ما بقي لهما من عمر..

(محمد) وحده كان يفكر في (حسن)..

كان يشعر بالحزن؛ لأن القدر لم يمهله، حتى يشارك في العملية، التي امتلأت نفسه بالحماس من أجلها..

وفجأة، انتزعهم من أفكارهم أزيز مخيف، خفقت له قلوبهم في صدورهم..

أزير مروحة هليكوبتر عسكرية إسرائيلية، برزت بغتة من خلف تل قريب، واتجهت نحوهم مباشرة..

وهتفت (راوية):

- لقد رأونا.. ماذا نفعل؟!

أجابها (خالد) في حزم:

- لا شيء.. واصلوا طريقكم وكأن شيئًا لم يحدث، ولوحوا بأيديكم لقائد الطائرة، وارسموا ابتسامة كبيرة على وجوهكم، وسيظن أنكم بعض رفاقه، في الجيش الإسرائيلي.

فعلوا ما أشار به (خالد) بالضبط، ولكن الطيار الإسرائيلي راح يحوم فوقهم في شك، وهو يراجع جدول التحركات لديه، ثم لم يلبث أن تبعهم في حذر، وكأنه يرغب في التيقن من وجهتهم..

وفي توتر، قال (عمرو):

- هذا الوغد يتبعنا في إصرار.

أجابه (خالد) في حسم:

- لا تلتفت إليه.. واصل طريقك نحو المحطة يا (محمد)، ولا تبد أي تردد.

أطاعه (محمد)، وواصل انطلاقته على نحو يوحي بالثقة، والهليكوبتر تتبعهم عن قرب، حتى بلغوا بوابة المحطة، فأشار إليهم أحد الجنديين، اللذين يقفان لحراستها، وتوقف (محمد) أمامه مباشرة، فألقى الجندي نظرة على الطائرة، ثم أشار إلى لافتة تجاوره، كتب عليها «شيتَح سَجور»، وهي كلمة عبرية، تعني أنها منطقة محرمة، فقال (عمرو) في صرامة، وبلغة عبرية سليمة:

- حملة تفتيش.. وكلمة السر (شالوم).

عقد الجندي حاجبيه، وسأل:

- هل تحملون أمرًا بهذا؟

أشار (عمرو) إلى (محمد)، وهو يقول:

- أنا الرائد (إلياهو بن عسار).. مراقب عسكري، والمفروض أن أقوم بمراجعة وسائل الأمن في المحطة اليوم.. ألم تصلكم الأوامر بعد؟

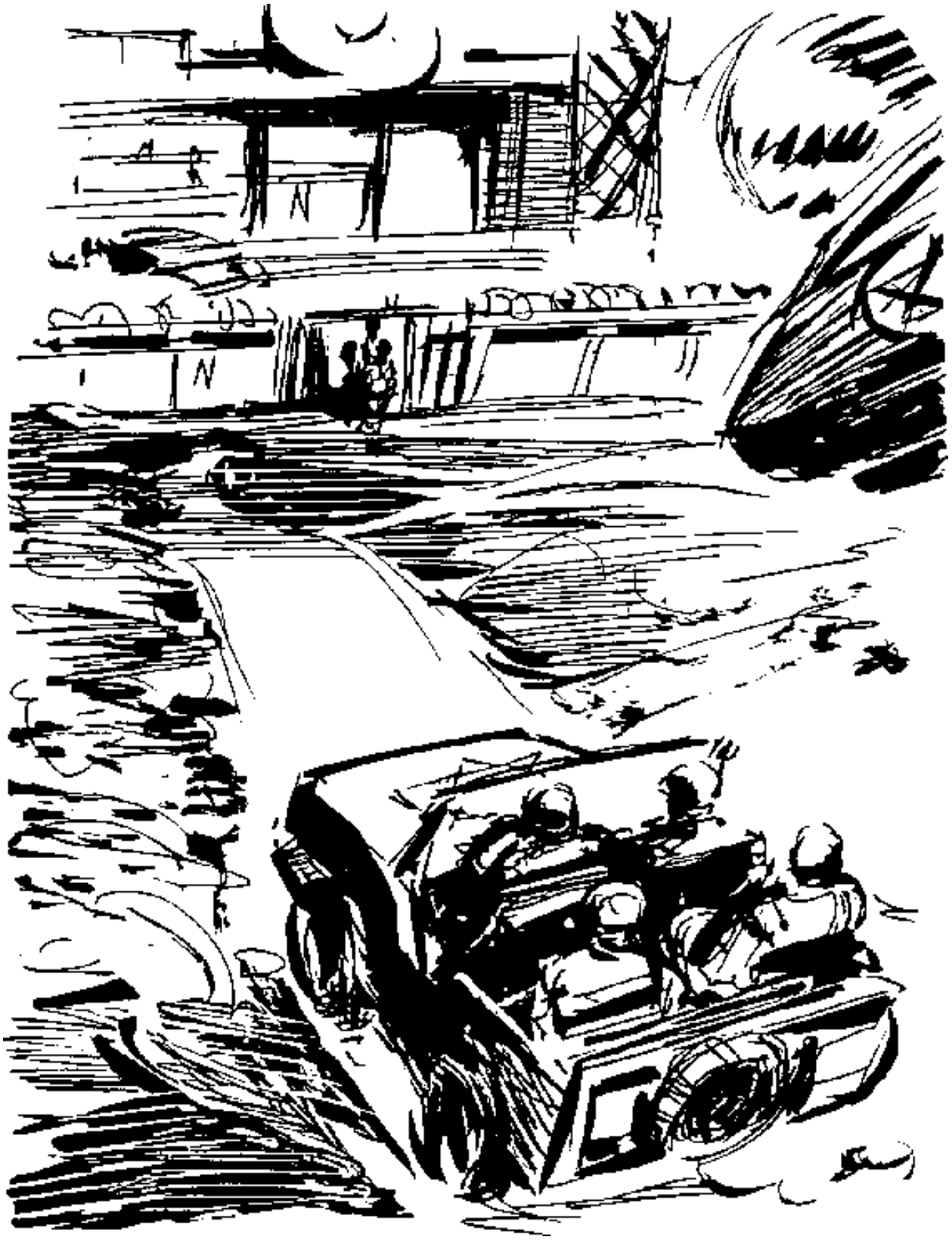

قالها و(محمد) يخرج كل الأوراق، التي تركها الشيخ (حمدان)، ويقدمها إلى الجندي، الذي راجعها في اهتمام، وهو يغمغم:

- لا.. ليس بعد.

كانت الأوراق تضم الهويات العسكرية للجميع (عمرو)، و(خالد)، و(راوية)، و(محمد)، ولقد أعادها لهم الجندي، وهو يسأل:

- هل الهليكوبتر تتبعكم؟

أجابه (عمرو) دون تردد:

- نعم.. ولكنها ستنصرف فور دخولنا.. إنه نوع من الحراسة والتأمين فحسب.

ولم يكد الجندي يبدأ في فتح البوابة، حتى استدار (عمرو) إلى الهليكوبتر، ولوح لقائدها بيده، ثم اعتدل وقال في حزم:

- هيا.

شاهد قائد الهليكوبتر البوابة تنفتح، والسيارة تعبرها في هدوء، فاستدار في ارتياح، وابتعد ليكمل جولته التفتيشية مطمئنًا..

وكانت ضربة قدرية مزدوجة وغير محسوبة، فوجود الهليكوبتر طمأن جندي الحراسة، وسماح الجندي لهم بالدخول أراح قائد الهليكوبتر..

وعندما توقفت السيارة في ساحة المحطة، غمغمت (راوية) في انفعال:

- هل رأيتم ما حدث؟.. من الواضح أن الله (سبحانه وتعالى) يؤيدنا في مهمتنا.

غمغم (محمد):

- الله (سبحانه وتعالى) يؤيد بنصره كل من يقاتلون في سبيل الحق.

أومأ (عمرو) برأسه موافقًا، في حين أدار (خالد) عينيه في المكان بسرعة، وتوقف بصره عند المبنى المستقل، الذي يتكون من طابق واحد، ويحمل لافتة صغيرة كتب عليها: "مِشترا تسفَيت" وتعني (الشرطة العسكرية)، وغمغم:

- هناك أربعة من جنود الشرطة العسكرية.

أجابه (عمرو)، وهو يغادر السيارة:

- أضف إلى هذا الجنديين، اللذين يحرسان البوابة، وذلك الذي يقف عند المصعد، وطاقمي الدبابتين، يكون المجموع خمسة عشر رجلًا.. هل يمكنك أن تواجه كل هذا العدد وحدك؟

قال (خالد) في صرامة:

- تحرك وفقًا للخطة، ولا تقلق نفسك بشأني.

هز (عمرو) كتفيه، وأشار إلى (محمد) و(راوية)، قائلًا:

- اصحباني.

بقي (خالد) في السيارة، في حين اتجه الثلاثة إلى باب صغير، يتوسط المبنيين، عند قاعدة برج المراقبة، وأشار (عمرو) إلى حارسه، قائلًا:

- خذنا إلى قائدك.

وبدأت (راوية) تشعر بالتوتر، والمصعد يهبط بهم إلى عمق ستة أمتار تحت سطح الأرض، وتحول توترها هذا إلى عصبية

شديدة، عندما فتح باب المصعد في الطابق السفلي، وبدا أمامهم ممر طويل، يبلغ العشرين مترًا تقريبًا، توزعت على جانبية ثمان حجرات مغلقة، وتألقت في سقفه الأضواء على نحو جيد..

وقادهم جندي المصعد إلى الحجرة الأخيرة، التي تحمل لافتة باسم قائد المحطة (بنيامين جولهي)، وطرق بابها في احترام، ثم ولجها في خفة، وغاب داخلها لحظات، ثم خرج يقول:

- سيقابلك القائد على الفور يا سيدي..

أشار (عمرو) إلى (محمد) و(راوية)، وقال في صرامة عسكرية:

- انتظراني هنا.

ودلف إلى الحجرة في سرعة، وأغلق بابها خلفه..

وداخل الحجرة، نهض قائد المحطة يستقبله، وهو يسأله:

- ترى ما سر هذا التفتيش المفاجئ أيها الرائد.

هز (عمرو) رأسه نفيًا، وقال بابتسامة باهتة:

- الواقع أنه ليس لدي أدنى فكرة يا سيدي.. إنني أتلقى الأوامر، وأسعى لتنفيذها فحسب، و...

دق قائد المحطة سطح مكتبه بغتة في غضب، وهو يصيح:

- كفي..

توقف (عمرو) على الفور، وتساءل في قلق عن سر غضب وعصبية قائد المحطة، ثم لم يلبث قلقه هذا أن تحول إلى توتر شديد، عندما رمقه القائد بنظرة صارمة، وهو يقول:

- كف عن هذه المهاترات السخيفة، وأخبرني بالحقيقة.

ثم ضربه سطح مكتبه بقبضته مرة أخرى، صارخًا:

- أريد الحقيقة.

ازدرد (عمرو) لعابه في صعوبة، وهو يقول:

- أية حقيقة يا سيدي؟

لوح الضابط بذراعه كلها، وهو يقول في حدة:

- حقيقة ما يسعى إليه هؤلاء الأوغاد، في إدارة التفتيش المركزية.. هل فقدوا ثقتهم بقدرتي على إدارة المكان، أم أنهم يبحثون عن مبرر للإطاحة بي؟!.. إنها المرة الثالثة التي يجرون فيها التفتيش على محطتي هذه.. ألم يجدوا سوى عيد الغفران، لإتخامي بتفتيش جديد، ليس له ما يبرره؟!

تنفس (عمرو) الصعداء، وتظاهر بالتعاطف مع قائد المحطة، وهو يهز كتفيه، قائلًا:

- أنت تعرف تعنتهم هناك يا سيدي.. أنا أيضًا أكره أن أعمل في عيد (كيبور)، ولكنها الأوامر.

مط القائد شفتيه في غضب صارم، ثم ألقى جسده الضخم على مقعده، ولوح بذراعه كلها مرة أخرى، وهو يقول:

- فليكن.. لو أنك تصر على العمل في يوم العيد، فهذا شأنك.. المحطة كلها أمامك.. أد عملك كما يحلو لك، ولكنني لن أغادر مكتبي قط.

حاول (عمرو) أن يمنع الابتسامة من التألق على شفتيه، وهو يقول:

- كما تأمر يا سيدي.

وأدى التحية العسكرية الإسرائيلية، ثم غادر الحجرة، وقال لزميليه:

- هيا.. سنبدأ عملية التفتيش.

أما قائد المحطة، فقد عقد حاجبيه في غضب، وهو يغمغم:

- (جاكوب) اللعين.. أراهن أنه خلف هذا.

ثم التقط سماعة الهاتف الداخلي، وضغط اثنين من أزراره، قبل أن يقول:

- أنا (جوهلي) يا (بانيل).. اتصل بذلك الوغد (جاكوب).. نعم.. (جاكوب ليومي)، وقل له: إنني سأنتقم منه لما فعله، ولو أنه أرسل فريق تفتيش آخر، في أحد أيام الأعياد، فسأذهب إليه، وأطلق النار على رأسه مباشرة.. انقل إليه الرسالة كما أبلغتك إياها بالضبط.. هل تفهم؟

وأنهى الاتصال في حدة، وأشعل سيجارته، وراح ينفث دخانها في غضب..

☆ ☆ ☆

ارتفع حاجبا (جاكوب ليومي) في دهشة، عندما استقبل الرسالة، وغمغم في حيرة:

- فريق تفتيش آخر؟!.. أي فريق تفتيش هذا؟

عقد حاجبيه في شدة، في محاولة لتذكر أي شيء يتعلق بهذا القول، ثم نهض إلى مكتبه، وراجع جداول الأعمال، التي وصلته مؤخرًا، وقال لنفسه:

- ماذا أصاب (جوهلي) المخبول هذا؟!.. أي فريق تفتيش ذلك، الذي يختار يوم العيد بالذات، ليتحمل مشقة التفتيش على محطة في قلب الصحراء؟!

دارت الفكرة كلها في ذهنه، وكان يلقي الحديث كله خلف ظهره، عندما برزت في رأسه بغتة عدة أحداث، بدءًا من الهليكوبتر المصرية، التي تحطمت في قلب (سيناء)، وحتى معركة عائلة (عواد) مع فريق التفتيش، و...

وفجأة، قفز (جاكوب) من مكانه، وهو يصرخ:

- المصريون.

ثم انقض على هاتفه، وضغط أزراره في سرعة، وهتف:

- أريد طائرة هليكوبتر على الفور.. لا يهمني أي طيار تحضره لقيادتها.. أحضر الهليكوبتر وسأقودها بنفسي.. المهم أن تصلني في أسرع وقت ممكن، وأرسل إشارة عاجلة إلى المحطة (عاين)، وقل لهم:

- إن فريق التفتيش لديهم زائف.. هل تفهم؟.. زائف.

وانتهى الاتصال في عنف، وقفز يرتدي زيه العسكري، ثم ألقى نظرة على ساعة يده، وهتف:

- كل ما أرجوه هو أن أصل في الوقت المناسب.

كانت عقارب ساعته تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا، ولكن المشكلة هي أنه لا يعلم ما هو الوقت المناسب..

لا يعلم أي شيء عنه..

☆ ☆ ☆

قالت (راوية) في شيء من التوتر، وهي تتوقف مع (عمرو) و(محمد)، أمام حجرة الاتصالات:

- أظن أنه من المفروض أن تنسف هذه الحجرة بالذات.

أجابها (عمرو):

- لو أننا استطعنا الوصول إلى الكابلات الرئيسية ونسفها، لن تكون هناك أية أهمية للمحطة كلها، بما في ذلك حجرة الاتصالات.

تمتم (محمد):

- السؤال إذن هو: أين الكابلات الرئيسية؟

دفع (عمرو) باب حجرة الاتصالات، وهو يقول:

- دعنا نلق عليهم السؤال مباشرة.

ولم يكد الجنود الأربعة في حجرة الاتصالات يلمحونه، حتى هبوا واقفين، وأدوا التحية العسكرية في احترام، فأشار إليهم (عمرو)، قائلا:

- عودوا إلى عملكم.. إنه تفتيش روتيني.

عاد كل منهم إلى عمله، وتظاهر هو بمراجعة التقارير، وهو يقول:

- لقد اضطررت لتوقيع الجزاءات على بعض زملائكم، في الحجرات الأخرى، وأرجو ألا أضطر إلى هذا هنا.

ازدرد الجنود لعابهم في صعوبة، وغمغم أحدهم:

- إننا نؤدي عملنا يا سيدي.

أشار إليه (عمرو)، وهو يقول في صرامة:

- لماذا لا ترتدي رتبتك؟

ارتبك الجندي، وهو يغمغم:

- معذرة يا سيدي.. إنه عيد الغفران، ولم تكن نتوقع هذا التفتيش في الواقع، و...

قاطعه (عمرو) في صرامة:

- ينبغي أن تتوقع التفتيش في أية لحظة يا رجل.

تمتم الجندي منكمشًا:

- بالطبع يا سيدي.. بالطبع.

مط (عمرو) شفتيه، وكأن هذا لا يرضيه، وأشار إلى الجدران، قائلًا في امتعاض:

- مازال هناك قصور في الإجراءات الأمنية، فوجود الكابلات الرئيسية خلف الجدران، يجعلها معرضة لارتفاع درجات الحرارة.

اعتدل جندي آخر، وقال:

- ولكن الكابلات الرئيسية ليست خلف الجدار يا سيدي.. إنها تمر عبر فتحة التهوية الرئيسية، تحسبًا لهذا بالتحديد.

برقت عينا (عمرو)، وهو يردد:

- تمر عبر فتحة التهوية الرئيسية؟!.. أتقصد تلك الموجودة في أقصى شمال المحطة؟!

هز الجندي رأسه نفيًا، وقال:

- بل تمر بحجرة القائد مباشرة يا سيدي.

تبادل (محمد) و(راوية) نظرة سريعة، شفت عما يعتمل في أعماق كل منهما من انفعالات، في حين اعتدل (عمرو) في ارتياح واضح، وهو يغمغم:

- آه.. هذا صحيح.. كيف نسيت موقعها؟

لم يكد يتم عبارته، حتى أصدر جهاز الاتصال أزيزًا خافتًا، ثم بدأت طابعة الورق في العمل، لتنقل رسالة خاصة إلى القاعدة، وفي حركة غريزية، أدار (محمد) عينيه إلى الورقة، وقرأ فوقها رسالة تقول:

«من القيادة العامة إلى المحطة (عاين).. تحذير.. فريق التفتيش الموجود لديكم زائف.. نكرر.. فريق التفتيش زائف..»

ولم ينتظر (محمد) حتى يقرأ التوقيع على الرسالة، فقد رأي عيني الجندي الذي استقبلها تتسعان في هلع، فهوي على مؤخرة عنقه بغتة بضربة عنيفة، ثم وثب يركل الثاني في فكه، وهتف الثالث في ذهول:

- ماذا تفعل أيها العريف؟

أما الرابع فقد انتزع مسدسه بسرعة، وهو يهتف:

- خيانة.

ولكن (عمرو) ركل المسدس من يده، ثم هوى على فكه بلكمة كالقنبلة، جعلته يرتطم بأجهزة اللاسلكي، ثم يسقط أرضًا، في نفس اللحظة التي انتزعت فيها (راوية) مسدسها، وصوبته إلى الجندي الأخير، ولكن (عمرو) هتف بها:

- لا تطلقي النار.

ومع آخر حروف كلماته، غاصت قبضة (محمد) في معدة الجندي، ثم تراجعت وقفزت تحطم فكه، فهوى إلى جوار زملائه، وهتفت (راوية):

- لماذا فعلت هذا؟

انتزع (محمد) الرسالة من الطابعة، ووضعها أمامها، قائلًا:

- لقد كشفوا أمرنا.

شحب وجهها في شدة، في حين هتف (عمرو):

- رباه!.. هذا يعني أنه من الضروري أن نتحرك في سرعة.

قال (محمد):

- لابد من الوصول إلى حجرة القائد، ومنها إلى ممر التهوية الرئيسي، حتى يمكننا نسف الكابلات، وتعطيل عمل المحطة في الوقت المناسب.

انحنى (عمرو) يقيد الجنود الأربعة، وهو يغمغم:

- ينبغي أن نتحرك في سرعة.

وسألت (راوية) (محمد):

- لماذا منعتني من إطلاق النار؟

أجابها متوترًا:

- لو انطلقت رصاصة واحدة، سيدرك الجميع هنا أننا نهاجم المحطة، ولن يمكننا الصمود أمام قتال مباشر.. إنهم يفوقوننا عددًا وعدة بكثير.

أومأت برأسها متفهمة، وهي تغمغم:

- كان ينبغي أن أفهم هذا.

انتزع (عمرو) ساعة يده، وهو يقول:

- هيا نعد القنبلة الآن، فقد لا نجد الوقت لإعدادها، عندما نصل إلى الكابلات.

حل (محمد) حزام سرواله، وجذب خيطًا في طرفه، فانقسم إلى نصفين، وبرزت من داخله كتلة سميكة، بطول الحزام كله، أشبه بالعجين، ولها لون رمادي داكن، وراح (محمد) يعجنها في سرعة، حتى أصبحت أشبه بكرة من الطين، وناوله (عمرو) ساعته، وهو يقول:

- اضبط التوقيت على الواحدة بالضبط.

ألقى (محمد) نظرة على ساعة يده، التي أشارت عقاربها إلى الثانية عشرة والثلث، ثم التقط ساعة (عمرو)، وضبطها على التوقيت المطلوب، ثم غرس طرفي حزامها الصغير في كتلة العجين، وقال:

- المفجر جاهز للعمل.

تطلعت (راوية) إلى ما فعلاه في دهشة، وهتفت:

- أهذا هو المفجر؟

أجابها (عمرو):

- بل هي القنبلة نفسها.. متفجرات بلاستيكية، وجهاز تفجير على هيئة ساعة يد.. إنها فكرة بسيطة للغاية، وكل ما تبقى أمامنا هو أن نبلغ حجرة القائد، و...

قبل أن يتم عبارته، اقتحم القائد الحجرة بغتة، وهو يهتف:

- هل ستقضون يوم العيد كله في...

لم يكمل عبارته، وهو يحدق في جنود الاتصالات، الذين قيدهم (عمرو) و(محمد) في إحكام، وفي المتفجرات التي يحملها (محمد)، فرفع (عمرو) مدفعه في وجهه، وقال في صرامة:

- لا تحمل علامات الدهشة هذه طويلًا.. نعم.. نحن مصريون.

انعقد حاجبا القائد في غضب، وتجاهل المدفع المصوب إليه تمامًا، وهو ينتزع مسدسه، صائحًا:

- اللعنة!

ولم يعد أمام (عمرو) اختيار آخر..

لقد ضغط زناد مدفعة الآلي، وأطلق النار، و...

وانفتحت أبواب الجحيم.

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس عشر

السبت: العاشر من رمضان 1393هـ - السادس من أكتوبر 1973م: الثانية عشرة والثلث ظهرًا.

☆ ☆ ☆

تطلع (خالد) إلى ساعته، وأسند مدفعه الآلي إلى المقعد الخلفي في السيارة (الجيب)، ثم وثب منها، وهو يسأل أحد رجال الشرطة العسكرية الأربعة في عبرية سليمة:

- لقد سئمت الانتظار هنا.. ألا يوجد مكان، يمكن للمرء أن يجد فيه شرابًا منعشًا، وسقف يستظل به؟

ابتسم الرجل، وقال:

- يمكننا أن نمنحك كليهما بصفة ودية.

لوح (خالد) بذراعيه، وهو يهتف:

- عظيم.

ثم استند إلى إحدى الدبابتين، وتظاهر بعقد رباط حذائه، مستطردًا:

- ثانية واحدة.. سأعقد هذا الرباط اللعين، وألحق بكم على الفور.

وفي خفة مدهشة، ودون أن ينتبه إليه أحدهم، ألصق أسفل جنزير الدبابة قنبلة زمنية موقوتة، ذات قاعدة مغناطيسية، ثم اعتدل، ورسم على وجهه ابتسامة واسعة، وهو يقول:

- والآن.. هيا بنا.

توقف أمام مبنى الشرطة العسكرية، ولاحظ طاقمي الدبابتين، المكون من ثمانية أفراد، أربعة لكل دبابة، يتسامر داخل المبنى، في حين دخل أحد رجال الشرطة العسكرية، وعاد وهو يحمل علبة من البيرة المثلجة، ناولها لـ (خالد)، وهو يقول:

- لو أردت رأيي يا رجل، فرؤساؤك غاية في السخافة.. من يقوم بعمل تفتيش رسمي كهذا، في يوم العيد؟!

هز (خالد) كتفيه، وتظاهر بأنه يرتشف رشفة من العلبة، وهو يقول:

- ماذا نفعل؟!.. إننا مجرد جنود بسطاء.

ضحك آخر، وقال:

- قل لي يا رجل: ألا تراودك نفسك أحيانًا، على إطلاق النار عليهم؟

أجابه (خالد) في سرعة:

- إنها تراودني على هذا دائمًا.

ضحك رجال الشرطة العسكرية الأربعة، ولوح أحدهم بكفه، وهو يقول:

- ومتى ينتهي ذلك الضابط من التفتيش؟.. هل سيقضى النهار كله بالأسفل؟

تمتم (خالد):

- ومن يدري؟

ثم لوح بيده، واستطرد:

- ولكنني سأعود إلى السيارة على أية حال، فهو صلب وصارم للغاية، ولو عاد ووجدني أتسامر معكم، سيوقع عليّ أشد الجزاء.

بدا الأسف على وجوههم، وقال أحدهم:

- قلوبنا معك.

اتجه في تراخ متعمد نحو الدبابة الثانية، وألصق ظهره بها، وهو يتظاهر بارتشاف البيرة المثلجة مرة أخرى، ثم أخرج من جيبه القنبلة المغناطيسية الثانية، و...

"ماذا تفعل عندك؟.." هوت العبارة على أذنه بغتة، فاعتدل بسرعة، وأخفى القنبلة خلف ظهره، وتطلع إلى أحد أفراد طاقم الدبابة، الذي رمقه بنظرة قاسية، وهو يستطرد:

- محظور على أي شخص الاقتراب من الدبابتين.. هل تفهم؟

لوح (خالد) بعلبة البيرة، وقال:

- نعم.. أفهم.. معذرة.. لم أنتبه إلى هذا.

وأعاد القنبلة إلى جيبه في سرعة، وهو يعود إلى السيارة (الجيب)، ولم يكد يحتل مقعده فيها، حتى أمسك مدفعه الآلي في قوة، وكأنه يستمد منه بعض الثقة، وأفرغ علبة البيرة تحت قدميه، وهو يلقي نظرة على ساعته، التي أشارت عقاربها إلى الواحدة إلا الثلث، وتساءل في أعماقه:

ترى كيف تسير الأمور مع رفاقه في الأسفل..

ولم يكن من الممكن أن يستنتج الجواب..

لم يكن من الممكن أبدًا..

☆ ☆ ☆

اخترقت الرصاصات جسد قائد المحطة الإسرائيلي، وانتزعته من مكانه، ودفعته عبر الممر كله، ليرتطم بباب الحجرة المقابلة في عنف، ويحطمه، ثم يسقط داخلها جثة هامدة..

وقفز جنود الحجرة المقابلة في فزع، والتقطوا أسلحتهم، فصاح (عمرو)، وهو يفتح نيران مدفعه في وجوههم:

- القنبلة يا (محمد).

لم يكن هناك مجال للمناقشة أو الجدال أو الاعتراض، لذا فقد مرق (محمد) إلى جواره، وانحرف يمينًا، ليبلغ حجرة القائد في نهاية الممر، في نفس اللحظة التي انفتحت فيها الأبواب كلها، وبرز أكثر من عشرين جنديًا إسرائيليًا، أطلق بعضهم النار نحوه..

وشعر (محمد) بألم رهيب في فخذه، ومرقت رصاصة على قيد سنتيمتر واحد من أذنه اليسرى، ولكنه لم يتوقف، وإنما اقتحم حجرة القائد، والرصاصات ترتطم ببابها، وقذف جسده النحيل داخلها، في نفس اللحظة التي سمع فيها (عمرو) يهتف به:

- أغلق الباب خلفك، ولا تفكر إلا في نجاح المهمة.. المهمة وحدها يا رجل.. (مصر) كلها أمانة في عنقك.

وأغلق (محمد) الباب خلفه في إحكام، في حين وثب (عمرو) خارج الحجرة، وراح يطلق النيران على الإسرائيليين في بسالة مذهلة، وهو يصيح بـ (راوية):

- ابحثي عن وسيلة للفرار.

ولكنها اندفعت لتقف إلى جواره، بعد أن اختطفت مدفعا آليًا، يخص أحد جنود حجرة الاتصالات، وأطلقت نيرانه نحو الأعداء في سخاء، هاتفة:

- سنبقي معًا، أو نرحل معًا.

وعلى الرغم من دقة وخطورة وحرج الموقف، فهم (عمرو) الرسالة..

رسالة الحب، الذي أعلنته (راوية) في وضوح..

ويبدو أن ذلك الحب قد منحهما قوة رهيبة، يعجز عن استيعابها العقل، فقد وقفا جنبًا إلى جنب، وظهراهما لحجرة القائد، يطلقان النار عبر ممر طويل محدود، على فرقة كاملة من الإسرائيليين، والرصاصات تتناثر حولهما، دون أن يهتز لهما جفن..

أما (محمد)، فقد أدار عينيه في الحجرة بسرعة، بحثًا عن الطريق إلى ممر التهوية الرئيسي، وهو يغمغم:

- أين أنت؟!.. أفصح عن نفسك بالله عليك، فالوقت يمضي في سرعة.

ثم رفع عينيه إلى أعلى، وهتف:

- آه.. ها هو ذا.

جذب مقعدًا في سرعة، ووثب فوقه، ثم رفع ذراعيه، يزيح مربعًا كبيرًا من مكانه، ووضع المتفجرات في قميصه، ثم وثب في خفة، اكتسبها مع رقصات البالية، ليتشبث بحاجز المربع، ويدفع جسده إلى أعلى..

كان الآن داخل ممر ضيق، يمتد ثلاثة أمتار إلى الأمام، ثم يلتقي بآخر رأسي، يعلم الله (سبحانه وتعالى) وحده، إلى أين يمتد بالضبط..

وساعده جسده الضئيل النحيل على الزحف عبر الممر الأفقي، ولم يكد يبلغ الممر الرئيسي، حتى رأى الكابلات الرئيسية أمامه، فهتف في حرارة:

- حمدًا لله.

وبسرعة، أخرج المتفجرات من قميصه، وثبتها في الكابلات بقوة، وتأكد من أن المؤقت يعمل بكفاءة، قبل أن يلقي نظرة على ساعة يده، التي أشارت عقاربها إلى الواحدة إلا الثلث..

وفي تلك اللحظة بالذات، كانت إحدى الرصاصات قد اخترقت معدة (عمرو)، ولكنه واصل إطلاق النيران في استماتة، وسمع (راوية) إلى جواره، تطلق صرخة ألم، وشاهد الدماء تنبثق من جرح في عنقها، وآخر في كتفها، فصاح بها:

- تماسكي يا (راوية).. لقد قضينا على نصفهم على الأقل.

ولكنها أطلقت شهقة مخيفة، واتسعت عيناها في شدة، وأغرقت الدماء صدرها فجأة، وهي تهمس في ألم:

- الوداع يا (عمرو).. الوداع.

رآها تسقط أمامه جثة هامدة، فصرخ بكل غضب الدنيا في أعماقه:

- (راوية).

ثم انتزع قنبلة من حزامه، وألقاها بأقصى قوته، نحو نهاية الممر، صارخًا:

- أيها الأوغاد.

وقبل أن تبلغ القنبلة هدفها، اخترقت الرصاصات صدره وعنقه، فهوى إلى جوار (راوية)، ودفع أصابعه في مبادرة أخيرة، ليقبض على أصابعها، و...

ودوى الانفجار..

وانتفض جسد (محمد) في عنق، مع دوي الانفجار، وهتفت في ارتياع:

- رباه!.. (عمرو) و(راوية).

كان في طريقه للعودة، لمؤازرة زميليه، بعد أن وضع القنبلة في موضعها، ولكن هذا الانفجار جعله يتسمر في مكانه، ثم لم يلبث أن سمع وقع أقدام، وصوت يهتف:

- إنه هناك.. سيحاول بلوغ الكابلات الرئيسية.

ثم أعقبه دوي رصاصات، اخترقت السقف في مواضع شتى، فتراجع (محمد) في سرعة إلى الممر الرأسي، وألقي نظرة على نهايته العلوية، فتبين له أنه يرتفع لمترين، ثم يلتقي به ممر أفقي آخر، فدفع ظهره في جدار النفق الرأسي، وألصق قدميه بالجدار المقابل، وراح يدفع جسده إلى أعلى..

كان هذا يحتاج منه إلى قوة كبيرة، ومرونة لا بأس بها، وخاصة مع إصابة فخذه، وأظفاره المنتزعة في أثناء تعذيبه، ولكنه استنفر كل إرادته وقوته، وراح يصعد في بطء نسبي، وهو يسمع صوت الإسرائيليين أسفله، وهم يحاولون عبور الممر الأفقي، ثم سمع صوت أحدهم تحته مباشرة، يهتف:

- ها هو ذا.

ودفع (محمد) جسده دفعة أخيرة، فوثب داخل الممر الأفقي العلوي، في نفس اللحظة التي أطلق فيها الإسرائيلي رصاص مدفعه الآلي..

ونجا (محمد) بأعجوبة، في اللحظة الأخيرة، ورأى الممر الثاني يمتد لثلاثة أمتار أخرى، ثم ينتهي بممر رأسي ثان، يتسلل إليه ضوء الصباح، فأدرك أنه يقوده إلى الخارج، وألقي نظرة سريعة على ساعته، ووجد أن عقاربها تشير إلى الواحدة إلا اثنتي عشرة دقيقة، وكان هذا يعني أن (خالد) يشعر بتوتر شديد في الخارج، فهو يعلم أنه من المفروض أن يصعد رفاقه إليه في الواحدة إلا الربع، حتى يمكنهم الانصراف، قبل انفجار القنبلة..

وكان على حق في تصوره هذا، فقد تطلع (خالد) إلى ساعته في عصبية، وأدار عينيه إلى مدخل المصعد، الذي يقود إلى أسفل، وتمتم متوترًا:

- تري ماذا حدث؟! لقد تجاوزوا المواعيد المحدودة.

أمسك مدفعه الآلي في تحفز، وراح ينقل بصره في توتر شديد للغاية، ما بين ساعته والباب..

وفجأة، فتح أحدهم باب المصعد، وشعر (خالد) بشيء من الارتياح، إلا أنه لم يلبث أن توتر في عنف، عندما رأي جندي المصعد يندفع خارجًا، وهو يصرخ:

- خيانة.. خيانة.. إنهم يهاجمون المحطة.

ولم يضع (خالد) ثانية واحدة بعدها..

ولا حتى جزءًا من الثانية..

لقد رفع مدفعه على الفور، وأطلق نيرانه نحو رجال الشرطة العسكرية الأربعة، الذين أخذتهم المفاجأة، فسقطوا جثثًا هامدة، قبل أن يستوعبوا الموقف تمامًا، ولكن (خالد) لم ينتظر سقوطهم..

لقد وثب ليحتمي بالسيارة، ويتفادى رصاصات جندي الحراسة، ثم أطلق رصاصاته على الجنديين، وصرعهما في الحال، وبعدها استدار يواجه الجندي المتبقي، والجنود الثمانية، الذين يمثلون طاقم الدبابتين.

كانوا يندفعون نحو دبابتيهم، والجندي يقوم بتغطيتهم، ولكن (خالد) قفز من مكانه في جرأة مدهشة، وأطلق النيران كالسيل..

وسقط ثلاثة من طاقمي الدبابتين على الفور، وشعر (خالد) برصاصة تخترق ساقه اليمنى، ولكنه واصل إطلاق النار، وأسقط الجندي، وشخصًا آخر من طاقمي الدبابتين، في حين نجح الباقون في الوصول إلى أماكنهم.. أحدهم في دبابة، والثلاثة الآخرون في الدبابة الثانية..

وتحركت الدبابتان في حزم، وراح مدفعاهما يتجهان نحو (خالد)، فوثب إلى السيارة، وهتف:

- هيا.. دعونا نعبث معًا بعض الوقت.

أدار محرك السيارة، وانطلق بها في سرعة، في نفس اللحظة التي انطلق فيها أحد المدفعين، وانفجرت قنبلة على مسافة مترين

من السيارة، التي وثبت إلى الأمام، وتردد صوت ارتطام الشظايا بها على نحو مخيف..

وكان في استطاعة (خالد) أن ينطلق بالسيارة هاربًا، ولكنه كان يخشى أن يفعل هذا، فيتخلى عن رفاقه، إذا ما كانوا قد نجحوا في مهمتهم، وصعدوا إلى أعلى..

وفي ساعته، كانت العقارب تشير إلى الواحدة إلا أربع دقائق فحسب، عندما رأى (محمد) يقفز خارج فتحة التهوية الرئيسية، ويندفع نحوه، فصاح به:

- أسرع يا رجل.. أسرع.

انفجرت قنبلة أخرى، كادت تقلب السيارة على جانبها، ولكنه سيطر عليها في قوة، حتى وثب (محمد) داخل السيارة، فسأله:

- أين (عمرو) و(راوية)؟

أجابه (محمد) لاهثًا:

- لقد استشهدا.

صاح به:

- وماذا عن القنبلة؟

أجاب (محمد):

- ستنفجر في موعدها بإذن الله.

لم يكد (خالد) يسمع هذا الجواب، حتى أدار عجلة القيادة في حدة، وانطلق بالسيارة نحو البوابة..

ومن خلفهما دوي انفجاران متعاقبان، ولكن السيارة اخترقت البوابة، واندفعت فوق رمال الصحراء، و(خالد) يهتف:

- أأنت واثق من أنك قد أديت المهمة على أكمل وجه؟

تطلع (محمد) إلى ساعته، قبل أن يجيب:

- ثوان وتتأكد من هذا.. لقد أخفيت المتفجرات جيدًا.

كان (خالد) ينطلق بالسيارة بأقصى سرعتها، في اتجاه الغرب، عندما صك مسامعهما صوت انفجار مكتوم، فتنهد (محمد) في ارتياح، وغمغم:

- الآن لم يعد وجود المحطة (عاين) يعني الكثير.

لم يكد يتم عبارته، حتى ظهرت هليكوبتر حربية إسرائيلية بغتة في السماء، واندفعت نحوهما في شراسة واضحة، فصاح (محمد) في (خالد):

- أسرع يا رجل.. أسرع.

وعلى الرغم من آلام ساقه اليمنى المصابة، اندفع (خالد) بالسيارة فوق رمال (سيناء)، وصاح (جاكوب ليومي)، الذي يقود الهليكوبتر بنفسه:

- اللعنة!.. من الواضح أنني قد وصلت بعد فوات الأوان، ولكن هذين المصريين لن ينجحا في الفرار مني قط.

وضغط زر المدفع الآلي، فانهمرت الرصاصات على السيارة كالمطر، وهتف (خالد):

- هذا الوغد يمكنه اصطيادنا بكل سهولة.

اختطف (محمد) المدفع الآلي، وهو يهتف:

- دعنا نجعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة له.

وأطلق رصاصاته نحو الهليكوبتر في غزارة، ولكن (جاكوب) انخفض بها في سرعة، متجاوزًا الرصاصات، وهو يقول ساخرًا:

- حاول أيها المصري.. حاول.. ولكنك لن تهزم ضابط مخابرات إسرائيلي قط.

ثم أطلق رصاصات مدفع الهليكوبتر مرة أخرى..

وفي هذه المرة، أطلق (خالد) صرخة ألم عنيفة، وانحرفت السيارة في حدة، فصاح (محمد):

- احترس يا رجل.

ولكن السيارة ارتطمت بالرمال، وانقلبت رأسًا على عقب، وأثارت حولها عاصفة عنيفة، أخفتها عن أنظار (جاكوب)، الذي اقترب بالهليكوبتر، وانخفض بها، قائلًا:

- من الواضح أنني أصبتهما، وعندما تنقشع الرمال، سأري بنفسي أنني..

وبتر عبارته، عندما برز (محمد) بغتة من وسط عاصفة الرمال، والدماء تسيل من جرح في جبهته، واندفع نحو الهليكوبتر، ثم ألقي نحوها شيئًا ما..

ولم ينتبه (جاكوب) إلى طبيعة ذلك الشيء، حتى سقط إلى جوار مقعده، فاتسعت عيناه، وصرخ:

- قنبلة.

وبحركة غريزية، جذب ذراع القيادة نحوه، فارتفعت الهليكوبتر في حدة، و...

ودوي انفجارها عنيفًا..

وقبل أن يتلاشى دوى الانفجار، اندفع (محمد) نحو السيارة، وانتزع من أسفلها جسد (خالد)، وهو يقول:

- تماسك يا صديقي.. سأبذل ما بوسعي لإنقاذك.

كانت الدماء تغرق وجه (خالد) وصدره، وتتناثر من بين شفتيه الشاحبتين، وهو يشير بيده مغمغمًا بصوت مختنق:

- اتجه إلى الغرب مباشرة.. سيلتقطونك من هناك.

قال (محمد) في دهشة:

- الغرب؟!.. هذا يقودني مباشرة إلى خط (بارليف).

تمتم (خالد).

- أعلم هذا.

ثم أطلق شهقة مكتومة، تفجرت بعدها الدماء من فمه، قبل أن يسلم الروح..

واغرورقت عينا (محمد) بالدموع، وهو يدفن جثة آخر زملائه، ثم حمل المدفع الآلي، وبدأ تحركه نحو الغرب..

ثم كان ذلك الانفجار..

انفجار عنيف، على مسافة عشرة أمتار خلفه، جعله يندفع إلى الأمام، ويسقط على وجهه، فوق رمال (سيناء)..

وعندما استدار، ليلقي نظرة خلفه، كاد قلبه يتوقف من شدة المفاجأة..

لقد فقدت إحدى الدبابتين جنزيرها، عندما انفجرت فيه القنبلة المغناطيسية، التي وضعها (خالد)، ولكن الثانية خرجت تسعي للثأر..

وها هي ذي تندفع نحو (محمد)، عبر صحراء (سيناء)..

وقفز (محمد) واقفًا على قدميه، وانطلق يعدو فوق الرمال، ولكن قنبلة أخرى انفجرت خلفه، على مسافة ستة أمتار فحسب، فألقته إلى الأمام في عنف، وسقط على وجهه مرة ثانية..

وفي صعوبة، وعلى الرغم من الآلام والشظايا الصغيرة، التي تملأ ظهره وذراعيه، نهض (محمد)، وعاد يعدو..

وفي هذه المرة تبعته الدبابة فحسب، دون أن تطلق عليه نيرانها، وكأنها تدخر ذخيرتها للحظة المناسبة..

لحظة القضاء عليه نهائيًا..

ولم يدر (محمد) كم استغرقت هذه المطاردة بالضبط..

لقد بدا له الأمر كدهر كامل، وهو يسير فوق الرمال المحرقة، والشمس تلهب جراحه، وجسده كله مغطى بالدماء..

ولكنه أخيرًا لم يعد يحتمل..

لقد تهاوت قدماه، وسقط جسده كله أرضًا..

وهنا تقدمت الدبابة الإسرائيلية، ورآها تتوقف على مدى يصلح لتحريك مدفعها، الذي انخفض في بطء، حتى أصبح مصوبًا إليه مباشرة..

ولهث (محمد) من فرط التعب والانفعال والتوتر، وقد أدرك أن الإسرائيليين قرروا نسفه بقنبلة مباشرة، فأغلق عينيه، وتمتم:

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله.

لم يكد ينطقها حتى علا صوت هدير عنيف يصك الآذان في السماء، ثم دوي انفجار عنيف، شعر به (محمد) على قيد أمتار منه. ففتح عينيه في دهشة، ورأى الدبابة الإسرائيلية محطمة، ومدفعها محترق أرضًا، وسرب من المقاتلات المصرية الذي كان يعبر فوق رأسه مباشرة..

كانت عقارب ساعته تشير إلى تمام الثانية بعد الظهر، من يوم السادس من أكتوبر، عام 1973، وانتفضت كل قطرة دم في عروقه، في فخر وسعادة وحماس، ففي تلك اللحظة بالذات، وعلى طول (قناة السويس)، كانت المقاتلات المصرية تعبر ذلك الخط، الذي وقف في مواجهتها لست سنوات كاملة..

خط (بارليف)..

وخط الهزيمة..

لحظتها فقط ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتي (محمد)، وترك جسده يسترخي على رمال (سيناء)، وقد أدرك أن العملية قد انتهت بنجاح تام..

(عملية صقر).

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

سلسلة كوكتيل 2000..

إهداء..

الفصل الأول..

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

في ذلك الحين كان وزير الدفاع يُعرف باسم (وزير الحربية).

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

ضيف النجوم

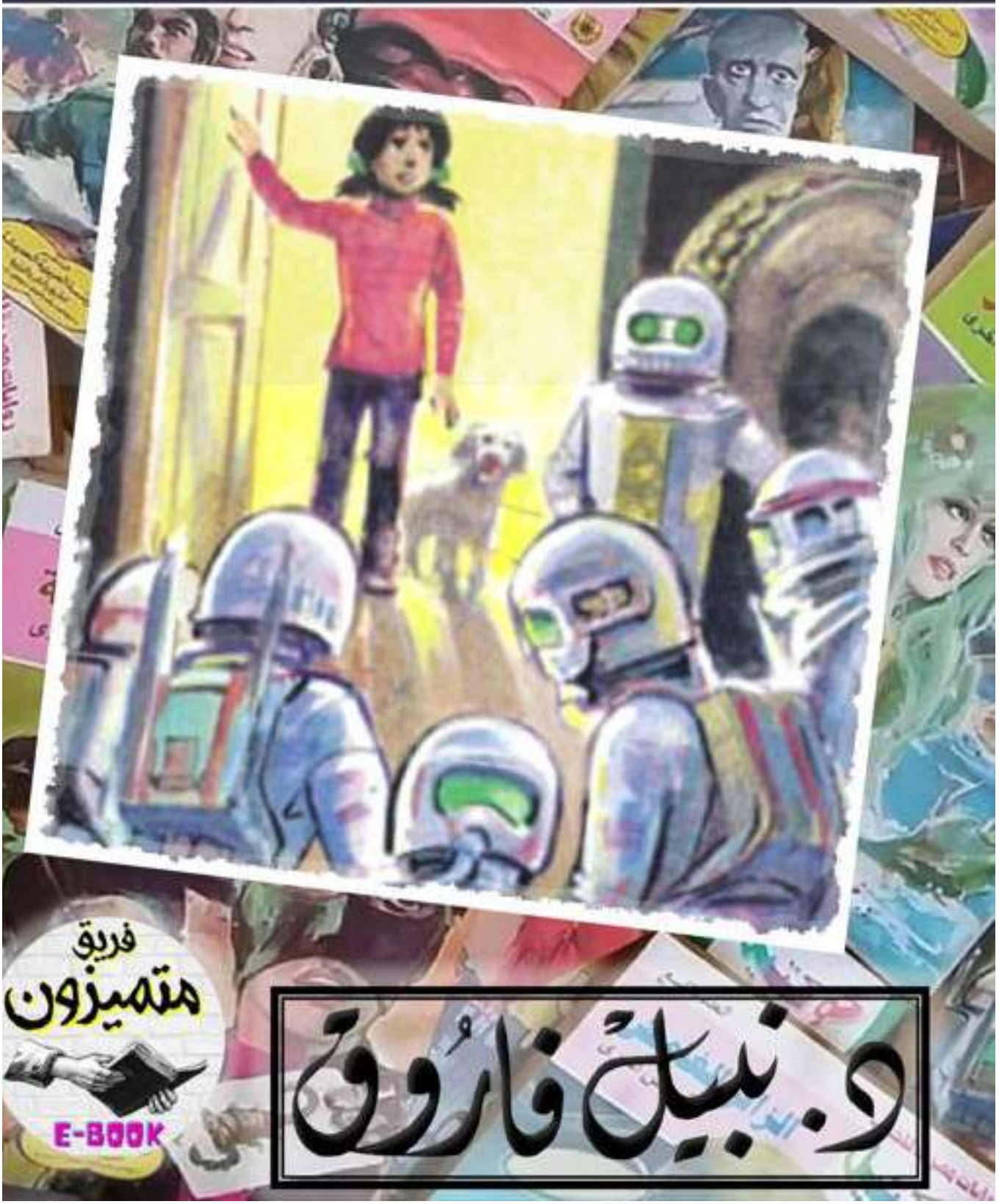

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

..سلسلة كوكتيل 2000

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

ضيف
النجوم
الناشر
الأسرة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

ضيف النجـوم

1- منزل جديد..

الخميس، الثامن والعشرون من يونيو..

صديقي العزيز/ محمد..

بعد التحية..

أرسل إليك خطابي الأول من المزرعة الجديدة، في صحراء (مصر) الغربية.. بعد أن انتقلت للعيش فيها اليوم فقط، أنا وابنتي الوحيدة (هبة)، فور أن تسلمناها رسميًا من هيئة المجتمعات الزراعية الجديدة واستصلاح الأراضي.. وأنت تعلم يا صديقي العزيز كم عانينا الأمرين للحصول على هذا المكان، منذ قرأنا معًا ذلك الإعلان، الذي نشرته جريدة (الأهرام) منذ ما يقرب من عام كامل، والذي أعلنت فيه الدولة، أنها ستمنح كل خريج، من خريجي كليات الزراعة، أرضًا جديدة لاستصلاحها، في الصحراء الغربية وصحراء (سيناء).. يومها تقدمنا -أنت وأنا- بكل حماس الشباب، الذي يجري في عروقنا، بطلبين للحصول على الأرض الصحراوية..

ثم بدأت رحلة العذاب..

عشرات الطلبات والتمغات، والتوقيعات، وقائمة طويلة من الشهادات والأوراق المطلوبة، ثم الذهاب يوميًا إلى الهيئة، ومتابعة ما تم إنجازه، حتى أنني ما زلت أذكر دعابتك الساخرة العصبية أيامها، عندما قلت: إنهم -تقريبًا- يختبرون قوة احتمال المتقدمين، فمن لا يسقط حتى النهاية، يستحق النفي إلى الصحراء..

وبالمناسبة، لقد تذكرت كلمة النفي هذه، عندما وصلت إلى هنا..

أنت تعلم أنني كنت أقيم في شقق مفروشة، منذ أن توفيت زوجتي الحبيبة (رحمها الله) وتركت لي ابنتنا (هبة)، وكانت -حينذاك- في الثالثة من عمرها. وعندما حصلت على الموافقات اللازمة لاستلام قطعة الأرض الصحراوية، أنهيت عقد آخر شقة مفروشة كنت أقيم فيها، وأنفقت جزءًا كبيرًا من مدخراتي، لشراء سيارة (جيب)، تصلح للعمل في هذا المكان الصحراوي، ثم ابتعت بعض المواد التموينية، وحملت (هبة) مع كلبها الصغير (ميكي)، وانطلقت على الفور إلى هنا، ولم أكد أصل إلى المكان، بعد أن ضللت طريقي ثلاث مرات، حتى أصابتني صدمة، وشعرت بأنني في المنفى بالفعل.

صحيح أن المكان عبارة عن مائة فدان، يتوسطها منزل من طابق واحد، أطلقوا عليه في الهيئة اسم (الفيلا) زورًا وبهتانا، وهناك مبنى أخر، المفروض أن يستخدم كمخزن للغلال فيما بعد، وبئر قديمة، وطلمبة مياه، ولكن لا تدع هذه الأشياء ترسم في خيالك صورة وردية، فكل ما ستراه من حولك، فيما عدا هذا، هو الصحراء..

فقط الصحراء، وكأن العالم كله قد خلا من سكانه، ولم يعد هناك سواك..

وربما لاح لك من بعيد جدًا منزل آخر، ولكن أحدًا لم يقطن المنطقة بعد، وربما ينتظر الباقون حتى بداية الشتاء القادم، عندما يتحسن الطقس، وتنخفض درجة الحرارة، ثم يلقون بأنفسهم هنا، وربما كانوا على حق، فدرجة الحرارة هنا لا

تحتمل، ولكنني مضطر للحضور في هذا الموعد كما تعلم، حتى يمكنني تحديد ما إذا كنت سأنجح في البقاء، وفي استصلاح تلك الصحراء أم لا، قبل موعد بدء الدراسة، وإلا خسرت (هبة) عامًا من عمرها بلا مبرر.

والواقع يا صديقي العزيز أنني كنت أتوقع أن تعترض (هبة) بالذات على قدومنا إلى هنا، وأن تحزن وتبتئس، وكان هذا يقلقني بشدة، ولكنها -وهذا العجيب- سعيدة للغاية بالمنزل الجديد، وبالمساحات الشاسعة من حوله، وهي تجري وتلهو مع (ميكي) على الرغم من أن الشمس على وشك الغروب، وسأضطر إلى إقناعها بالنوم، حتى يمكننا توفير وقود المولد الكهربي، الذي أحضرته معي، فهنا يا صديقي، وحتى ينتهي العمل في محطة توليد الكهرباء الجديدة، لابد أن تعتمد على إمكاناتك الشخصية، لتحيا كآدمي عادي..

وأخيرًا، لك تحياتي من قلب الصحراء، وأتمنى أن تنتهي من أوراقك في القريب العاجل، لتصبح جاري في المنطقة، وسلامي وتحياتي للجميع، وسأحاول إرسال هذا الخطاب في أول فرصة، أذهب فيها إلى (مديرية التحرير).

صديقك

(خالد)

☆ ☆ ☆

تنهد (خالد) في عمق، وهو ينهي خطابه، وطواه في عناية، ووضعه داخل مظروف أبيض، خط عليه عنوان صديقه، ثم وضعه فوق مكتبه، ونهض ينادي ابنته، هاتفًا:

- (هبة).. حان موعد تناول العشاء.

لم تسمعه الصغيرة للوهلة الأولى، وهي تعدو مع كلبها نحو البئر القديمة. فابتسم في حنان، ووقف يتأملها على ضوء الغروب، وقد بدت الشمس من خلفها كقرص أحمر كبير، التهم الأفق قضمة كبيرة منه، وراح يبتلعه في بطء، وهو يحجب بعضه بسحب داكنة..

وعلى الرغم من عدم ارتياحه لقضاء الليل في الصحراء، بدا له المشهد رائعًا، يبعث في النفس نشوة خاصة، ويسحر القلب على نحو عجيب..

وفي صعوبة، انتزع نفسه من انبهاره ونشوته، وهتف مرة أخرى:

- (هبة).. الشمس تغرب.

التفتت إليه الصغيرة، وهتفت متبرمة:

- ما زال هناك بعض الوقت.. أريد أن ألعب مع (ميكي).

ابتسم وهو يقول:

- ستلعبين معه كثيرًا، حتى يصيبك الملل منه، في الأيام القادمة، فلن تجدي وسيلة تسلية أخرى..

مطت شفتيها في غضب، ولوحت بذراعيها الصغيرتين، ولكنها أطاعته، وعادت إلى المنزل، وخلفها (ميكي) بقامته التي تكاد تبلغ ارتفاعها، وفتح (خالد) ذراعيه عن آخرهما لاستقبال ابنته، واستعد ليطبع قبلة حانية على وجنتها، و...

وفجأة، توقف (ميكي) على نحو عجيب، وانتصبت أذناه في حدة، وراح يزمجر في خفوت، فالتفتت إليه (هبة)، وقالت:

- لا تفعل هذا يا (ميكي).. أنت تخيفني.

ولكن (ميكي) استدار يتطلع إلى البئر القديمة في توتر، وأطلق زمجرة أخرى خافتة، فهتفت (هبة) بوالدها:

- أبي.. قل له ألا يفعل هذا!

تطلع (خالد) في حيرة إلى البئر، وتساءل: هل يشعر (ميكي) بوجود حيوان ما هناك، أم...

لم يجد ما يتم به تساؤله، فمحا الأمر من ذهنه بسرعة، وقال للكلب:

- (ميكي).. تعال هنا.

ولكن الكلب بدا وكأنه لم يسعمه، وهو يستدير بجسمه كله لمواجهة البئر، ثم راح ينبح في عصبية، فصاح (خالد):

- قلت لك: تعال هنا.

توقف الكلب، وتسمر في موضعه، وتحرك ذيله في عصبية واضحة، ثم اندفع يعدو فجأة نحو البئر، وهو ينبح في قوة،

جعلت الصغيرة تتعلق بوالدها، هاتفة:

- أبي.. أبي.. ماذا أصاب (ميكي).

إلا أن (خالد) لم ينبس ببنت شفة..

لقد تابع في دهشة بالغة ما يفعله (ميكي)، الذي وثب يعتلي السور الدائري الصغير، المحيط بفوهة البئر، وتطلع إلى الماء، وأخذ ينبح في قوة، وهو يهز ذيله في توتر..

وفي رفق دفع (خالد) ابنته داخل المنزل، وهو يغمغم في حيرة:

- سأذهب لإحضاره.

اختفت الصغيرة داخل المنزل، وأسرعت تتطلع عبر النافذة إلى والدها، وهو يتجه إلى البئر، ويقول في توتر:

- عد إلى المنزل يا (ميكي).. أيًا كان ما تراه عندك، فحاول أن تتجاهله، إنه مجرد...

وانتفض جسده في عنف، قبل أن يتم عبارته، وهو يحدق في وجه الكلب في دهشة كبيرة..

كانت الشمس قد اختفت تمامًا في الأفق، وتركت خلفها ألوان الشفق الجميلة، ولكن أيًا منها لم يكن يصلح لصياغة وجه الكلب بذلك الضوء الأخضر الباهت، الذي بدا واضحًا للغاية، في الإضاءة الخافتة..

كان يبدو وكأنه ينبعث من مصدر إضاءة آخر، في قلب البئر..

مصدر يثير أعصاب الكلب، ويدفعه إلى النباح على هذا النحو..

ولثوان، تجمد (خالد) في موضعه، ولم تطاوعه قدماه على قطع متر إضافي، في اتجاه البئر..

ثم فجأة، أطلق (ميكي) عواء مفزعًا، وتراجع إلى الخلف في حدة وعنف، فسقط من فوق سور البئر، وراح يعوى في ألم رهيب..

عندئذ فقط، انتزع (خالد) نفسه من دهشته، واندفع نحو الكلب، هاتفًا:

- ماذا أصابك؟

انحنى يفحص الكلب في سرعة، وآلمه أن يجد كسرًا واضحًا في قائمته الأمامية اليسرى، فغمغم مشفقًا:

- يبدو أنك تحتاج إلى إسعاف سريع يا (ميكي).

ثم عادت إلى ذهنه بغتة صورة ذلك الضوء الأخضر الباهت، الذي انعكس من البئر على وجه الكلب، فأدار عينيه في قلق متوتر إلى البئر، ثم نهض يقترب منه في حذر، وانحنى يلقي نظرة على قاعه..

ولكن كل شيء هناك كان طبيعيًا للغاية..

البئر ساكنة مظلمة، تنبعث منها رائحة رطبة واضحة..

وعلى الرغم من عدم اقتناعه، تمتم (خالد):

- إنه انعكاس ضوء الشمس على الجدران.

وانحنى يحمل الكلب، ويعود به إلى المنزل..

المنزل الجديد..

☆ ☆ ☆

كان كل شيء هادئًا رتيبًا، في محطة الدفاع الجوي في (بني سويف)، وجلس الملازم (حسين) مسترخيًا، في جحرة الرادار، يحتسي كوبًا من الشاي، ويتطلع بين الحين والحين إلى الشاشة

التي تعكس ما يراقبه الرادار، وما يدور في سماء (مصر)، في تلك البقعة، وغمغم أحد الجنود في ضجر:

- ألا تشعر بالملل هنا يا سيادة الملازم؟

ارتشف الملازم (حسين) رشفة من الشاي، ثم هز كتفيه، قائلًا:

- هذا أمر طبيعي في أوقات السلم، ولكن الذين عملوا هنا أيام حرب 1973م، أكدوا أنهم كانوا يحلمون بدقائق من الراحة.

قال الجندي في ملل واضح:

- هل ينبغي أن نشعل حربًا أخرى أذن، لنقضي على هذا الملل؟

ضحك الملازم (حسين)، وقال:

- هكذا الحال في الجيش دائمًا.. إما أن تشكو من كثرة العمل، أو من عدمه، وفي الحالتين لن تتوقف الشكوى قط، ولن...

بتر عبارته بغتة، واعتدل في حركة عنيفة، جعلت بعض الشاي الساخن يتناثر على سترته وبنطاله، إلا أنه لم يشعر بحرارته، وهو يحدق في الشاشة هاتفًا:

- ما هذا؟

وثب الجندي من مقعده، وحدق في شاشة الرادار بدوره، وهو يسأل في ارتباك شديد:

- ماذا هناك يا سيادة الملازم؟

أشار الملازم (حسين) إلى نقطة تتحرك على شاشة الرادار، وقال في توتر:

- إنه جسم صغير، يأتي من الجنوب الشرقي، على ارتفاع كبير، ولكنه يتحرك بسرعة مدهشة، تفوق أسرع الطائرات التي نعرفها.

سأله الجندي في توتر، وهو يتابع النقطة، التي بلغت منتصف الشاشة تقريبًا.

- ربما كانت طائرة تجسس..

هز الملازم (حسين) رأسه نفيًا، وهو يقول:

- حتى طائرات التجسس لا يمكنها أن تبلغ هذه السرعة.. انظر.. لقد دخل ذلك الجسم مجال الرادار، ويكاد يتجاوزه، في أقل من نصف الدقيقة، وهذا يحتاج إلى سرعة مذهلة، تبلغ عشرة أضعاف سرعة الصوت على الأقل.

لم يكن الجندي يفهم بالضبط ما يعنيه هذا، ولم يسمع في حياته قط عن سرعة الصوت، ولكن الانفعال الذي نطق به الملازم (حسين) عبارته الأخيرة، جعله يهتف منزعجًا:

- إلى هذا الحد؟!

ومع آخر حروف كلماته، تجاوزت تلك النقطة شاشة الرادار، وواصلت طريقها نحو الشمال الغربي، فهتف الملازم (حسين) في دهشة:

- رباه.. لقد خرجت من المجال في سرعة رهيبة.

ثم هز رأسه في قوة، وكأنه يحاول أن ينفض عنه الدهشة، قبل أن يستطرد:

- هذا مستحيل!

حدق الجندي لحظات في الشاشة، ثم اعتدل، وسأل في حذر:

- سيادة الملازم.. ماذا ينبغي أن نفعل؟

سأله (حسين) في شيء من العصبية:

- ماذا تعني؟

أشار الجندي إلى الشاشة، وغمغم:

- هل.. هل ستقدم تقريرًا عن هذا؟

هتف (حسين):

- بالطبع.. إنه عملنا.. صحيح أننا لا ندرك طبيعة ذلك الجسم العجيب، الذي يمكنه أن ينطلق بهذه السرعة المدهشة، ولكن واجبنا يحتم علينا إبلاغ الرؤساء، فمن يدري؟ ربما كان سلاحًا جديدًا، أطلقته إحدى الدول الكبرى.

ثم التقط سماعة الهاتف، وهو يستطرد في حزم:

- تذكر هذا دائمًا يا فتى.. ليس من حقنا أبدًا أن نقرر أهمية أو عدم أهمية الأمر.. كل ما علينا هو أن نؤدي واجبنا.. واجبنا فحسب.

تمتم الجندي:

- بالطبع يا سيادة الملازم.. بالطبع.

وهنا أدار الملازم (حسين) قرص الهاتف..

وأبلغ الرؤساء..

☆ ☆ ☆

انتهى (خالد) من تضميد ساق (ميكي)، ومسحت (هبة) دموعها في حزن، وهي تسأل في قلق:

- هل سيشفى يا أبي؟

مسح (خالد) على شعرها الأملس الناعم، وابتسم وهو يغمغم:

- بإذن الله يا حبيبتي.. بإذن الله.

نهض (ميكي) في بطء، ورفع ساقه المصابة، وراح يتقافز بقوائمه الثلاث، فقالت له (هبة) في فزع:

- لا يا (ميكي).. المفروض أن تنام.

ربت والدها على كتفها، وقال:

- اتركي (ميكي) لحاله.. الكلاب تعرف كيف تعتني بنفسها، أما أنت فأنا أعتني بك.. هيا.. سنذهب إلى الفراش؛ فنحن مجهدان من طول السفر، ونحتاج إلى الراحة، كما أن مولد الكهرباء لن يعمل طوال الوقت.. أليس كذلك؟

قالها وحملها في حنان، فلوحت بيدها لكلبها، هاتفة:

- إلى اللقاء يا (ميكي).. طابت ليلتك.

ثم سألت والدها في اهتمام:

- لماذا لم يكن لدينا مولد كهرباء في (القاهرة)؟

أرقدها في فراشها، وهو يقول:

- لأن محطات توليد الكهرباء كانت تقوم بعمله، وترسل إلينا كل ما نحتاج إليه من كهرباء.

سألته وهو يرقد إلى جوارها:

- ولماذا لا تفعل هذا هنا؟

ضحك قائلًا:

- اسأليها.

ثم ضمها إليه، واستطرد وهو يتثاءب في إرهاق:

- والآن هيا.. لم أعد أستطيع مقاومة النوم.

كانا مجهدين للغاية، حتى أنه لم تمض دقائق معدودة، إلا وكان كلاهما غارقًا في نوم عميق، فاستلقي (ميكي) أرضًا بدوره، وأغلق عينيه، و...

وفجأة، اعتدل الكلب في حركة حادة، وعادت أذناه تنتصبان في تحفز، ثم أطلق زمجرة خافتة، وكأنه يخشى إيقاظ النائمين..

والواقع أنه لو نبح حتى بكل قوته، لما أمكنه إيقاظهما، فقد كانا ينامان في عمق شديد، من فرط التعب والإرهاق..

ولم يستطع الكلب النوم، بل اعتدل واقفًا، معتمدًا على قوائمه الثلاث، على الرغم من قائمته المكسورة، وتحرك ذيله في عصبية واضحة، ثم اتجه إلى النافذة، وراح يتطلع عبرها إلى الصحراء المظلمة في توتر، قبل أن يتجه إلى الباب، ويدفعه بجسده في قوة، حتى انفتح، فتقافز على قوائمه الثلاث السليمة، وأدار رأسه وسط الظلام، وكأنه يبحث عن شيء ما، ثم استدار يتطلع إلى نقطة ما، فوق سطح المنزل، وقد تضاعف توتره، وتزايدت عصبيته في شدة، وراح يزمجر وينبح..

ثم تراجع (ميكي) مذعورًا، عندما انبعث ضوء قوي مباغت، من جسم ما، على ارتفاع ثلاثة أمتار من سطح المنزل..

كان الضوء يسطع بشدة، حتى بدا وكأنه شمس صغيرة، وتراجع (ميكي) في هلع، وراح ينبح، وينبح، وتسلل نباحه إلى أذني (هبة)، فتمتمت دون أن تفتح عينيها:

- توقف عن النباح يا (ميكي).. أريد أن أنام.

كان الضوء يغمر الحجرة، التي تنام فيها مع والدها، ولكن حتى هذا لم يفلح في إيقاظهما، ونبح (ميكي) مرتين إضافيتين، ثم أطلق عواء مذعورًا، وبعدها ران الصمت تمامًا على المكان، وخبا الضوء الساطع، وعادت الصحراء إلى طبيعتها في الليل، هادئة، ومظلمة..

ومخيفة.

☆ ☆ ☆

2- اختفاء غامض..

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت السادسة صباحًا بعد، عندما دلفت سيارة من سيارات الجيش، تحمل شعار القوات الجوية، إلى مبنى الدفاع، في شارع (الخليفة المأمون) في (القاهرة)، وأدى حارسا المدخل التحية العسكرية في احترام، حتى تجاوزتهما السيارة، ثم همس أحدهما لزميله:

- ماذا حدث؟.. لقد وصل كل قادة القوات الجوية تقريبًا!!.. هل اندلعت الحرب؟

أجابه زميله:

- لو أن هذا ما حدث لعرفنا على الفور، ثم إنها لن تكون حربًا جوية فحسب.. من الواضح أنه هناك أمر ما، يستحق هذا الاجتماع الطارئ، في السادسة صباحًا، ثم إنه لا يخص القوات الجوية فحسب، فقد حضر كل قادة الدفاع الجوي أيضًا.

مطّ الأول شفتيه في حيرة، وهو يغمغم:

- تري ما الأمر بالضبط؟

هز زميله رأسه، وهو يجيب:

- لن يمكننا أن نستنتج هذا أبدًا.

ثم أدار عينية إلى الطابق، الذي يحوي حجرة وزير الدفاع في المبني، قبل أن يغمغم مستطردًا:

- ولكنه بالتأكيد أمر خطير.. خطير للغاية.

لم يكن كلاهما يدرك أنه في هذه اللحظة بالذات، كان كل قادة الدفاع الجوي والقوات الجوية يجلسون حول مائدة

الاجتماعات، ووزير الدفاع يشير بعصاه إلى خريطة كبيرة، وهو يقول في اهتمام بالغ:

- لقد تم رصد هذا الجسم الغريب في سبع مراكز دفاع جوي ورادار، في الليلة الماضية، منذ غروب الشمس، وحتى منتصف الليل، والمراكز التي تم رصده عبرها هي بالترتيب: مركز (حلايب) ومركز (أسوان)، والرادار الموجود خارج (ادفو)، ومركز الدفاع الجوي في (قنا)، ثم مركز (أسيوط)، ومركز (بني سويف)، وأخيرًا مركز الدفاع الجوي الرئيسي للعاصمة.. وهذا يعني أن الجسم يتحرك في اتجاه الشمال الغربي، والسرعة التي سجلتها كل أجهزة الرصد تثير القلق، فهي تفوق السرعة المعروفة، لكل الطائرات وأحدث الأجهزة، التي اخترعتها الدول الكبرى مؤخرًا. كما أن تقارير المخابرات، التي أطالعها منذ الواحدة والنصف صباحًا، تنفي وجود سلاح كهذا، ثم إنه لم ترد أية بلاغات، عن سقوط نيزك ما، أو ارتطام أي جسم غريب في المنطقة كلها.. أضيف إلى هذا، أن كل أجهزة الرصد، ومراكز الدفاع الجوي، المنتشرة على سواحلنا، وحتى على الحدود المصرية الليبية، لم تسجل رؤيتها لهذا الجسم قط، مما يعني أنه لم يتجاوز الحدود، ولم يكمل سيره.. لقد توقف في مكان ما في الصحراء الغربية.

ورسم بعصاه دائرة وهمية على الخريطة، تضم (مديرية التحرير)، و(كوم حمادة)، ومنطقة وادي (النطرون)، وهو يستطرد:

- هنا تقريبًا.

سأله أحد قادة القوات الجوية:

- إنها مساحة شاسعة، كيف يمكن فحصها كلها؟

أجابه وزير الدفاع:

- سنضع خطة للاستطلاع الجوي، يتم خلالها تقسيم المنطقة إلى أربعة أجزاء، ثم تمسح قواتنا الجوية المكان كله بأجزائه الأربعة، في وقت واحد.

قال أحد القادة:

- هذا يحتاج إلى ثلاثين طائرة على الأقل.

وأضاف قائد آخر:

- نصفها من المروحيات.

أشار وزير الدفاع بعصاه مرة أخرى، وهو يقول:

- سنستخدم نصف سلاحنا الجوي، لو لزم الأمر، حتى نكشف ما يحدث على أرضنا.

ثم انعقد حاجباه في حزم، وهو يستطرد:

- إنه أمر بالغ الخطورة أيها السادة، فالدراسات الأولية مخيفة للغاية.

سأله أحد قادة الدفاع الجوي في قلق:

- هل لنا أن نعرف ما الذي توصلت إليه الدراسات؟

أجابه وزير الدفاع في لهجة خاصة، تشف عن إحساسه بمدى أهمية وخطورة الأمر:

- الدراسات تؤكد أننا نواجه محاولة من جهات معادية، للسيطرة على المجال الجوي المصري، وهذا يعني أيها السادة أننا -لو صح هذا القول- قد نخضع -فيما بعد- لما هو أكثر خطورة من هذا.

ودارت عيناه في وجوههم جميعًا، قبل أن يضيف في حزم:

- للاحتلال.. ستحتلنا قوة تفوقنا إلى حد كبير في درجة التسليح.

قال قوله هذا، فاتسعت العيون كلها لحظات، قبل أن تحتقن الوجوه في شدة..

لقد أدركوا الآن أن الخطر كبير..

كبير للغاية..

☆ ☆ ☆

«(ميكي).. (ميكي).. أين أنت؟..».

هب (خالد) من نومه فزعًا، على صوت ذلك الهتاف، الذي يحمل صوت ابنته، وألقي نظرة سريعة على ساعة يده، التي أشارت عقاربها إلى السادسة صباحًا، وغمغم وهو يرتدي خفًا منزليًا، ويسرع إلى باب المنزل:

- يبدو أن إحساس (هبة) بالفراغ يدفعها للعب مع (ميكي)، فور استيقاظها.

أدهشه أن يرى ابنته وحدها في الخارج، والدموع تغرق عينيها، فسألها في قلق:

- ماذا حدث؟.. أين (ميكي)؟

انهمرت دموعها في غزارة، وهي تقول:

- لست أجده.. لقد استيقظت فلم أجده بالمنزل، ورأيت الباب مفتوحًا، فتصورت أنه يلهو وحده بالخارج، ولكنني لم أعثر له على أثر.

ربت (خالد) على كتف ابنته في حنان، وهو يدير عينيه فيما حوله، ويقول:

- اطمئني.. إنه لن يذهب بعيدًا.. لا يوجد مكان يمكنه الذهاب إليه. سيعود حتمًا بعد قليل.

قالت باكية:

- ولكنه كان يستجيب دائمًا لندائي.

لوح بكفه، وحاول أن يبتسم، وهو يقول:

- ربما كان أبعد من أن يسمعه.

ثم عاد يربت على كتفها في حنان مشفق، مستطردًا:

- اطمئني.. كل الكلاب تعود إلى أصحابها، إنها حاسة خاصة لديهم.

تطلعت إليه في حزن، وهي تسأله:

- أأنت واثق من هذا؟

أشار بسبابته في حركة مسرحية، وهو يقول:

- تمام الثقة.

ثم انحنى يحملها، وهو يضيف:

- ولكن دعينا نتناول طعام الإفطار أولًا، ثم تنتظر عودته.

حاول أن يداعبها ويمازحها، وهما يتناولان طعام الإفطار، إلا أنها ظلت حزينة شاردة الذهن، تتطلع كل حين وآخر إلى النافذة، وكأنها تنتظر عودة (ميكي) في أية لحظة..

وكان هذا يؤلم (خالد) أيضًا، فهو يعلم أنها شديدة التعلق بكلبها، وخاصة بعد قدومهما إلى ذلك المكان المنعزل، الذي لم يعد لها فيه صديق سواه..

ولكنه أقنع نفسه بأن (ميكي) سيعود حتمًا، ونقل هذا إلى ابنته، وهو يقول:

- لا تقلقي نفسك كثيرًا بشأن (ميكي).. لا يوجد ما يمنعه من العودة.. ثم إنه يحبك، ولا يمكنه أن يتركك وحدك.

أجابته والدموع تسيل على وجنتيها:

- أمي أيضًا كانت تحبني، ولكنها تركتني ورحلت.

تطلع إليها لحظة في عطف وشفقة، واسترجع شيئًا من ذكرياته مع أمها، التي تزوجها فور تخرجهما من كلية الزراعة، وبدأت الدموع تترقرق في مقلتيه أيضًا، وهو يتمتم:

- أمك لم ترحل بإرادتها يا (هبة).. لقد اضطرت لذلك.

مسحت الصغيرة دموعها، وهي تتطلع عبر النافذة، قائلة:

- ربما اضطر (ميكي) أيضًا إلى الرحيل.

انعقد حاجباه في شدة، عندما سمع عبارتها، وقفز إلى ذهنه بغتة مشهد وهمي للكلب، وهو يغادر المنزل، ويتجه إلى البئر القديمة، ويثب إلى حاجزها الصغير، ولكن قائمته المصابة تخل بتوازنه، فيهوى إلى الداخل هذه المرة، و..

والتفت في هلع إلى البئر، وحدق فيه لحظة، عبر النافذة المفتوحة، قبل أن ينهض قائلًا:

- هيا يا صغيرتي.. سأريك كيف يجلبون الماء من البئر.

تبعته، وهي تسأله في لهفة:

- هل ستعلمني كيف أحضره بنفسي؟

أجابها وهو يسرع الخطا نحو البئر:

- بالتأكيد يا صغيرتي.. بالتأكيد..

تردد لحظة، وهو يقف أمام البئر، ثم انحنى في حذر، وألقى نظرة متوترة على قاعه، وهو يتوقع رؤية جثة طافية هناك..

ولكنه كان مخطئًا..

لم يكن هناك أي شيء في قاع البئر..

فقط مياه نظيفة، تعكس صورة السماء الزرقاء، ويتحرك سطحها في هدوء، مع تساقط قطرات الندى من جدران البئر..

وتنهد (خالد) في ارتياح، وهو يغمغم:

- حمدًا لله.. إنه ليس هنا.

سألته ابنته في حيرة:

- من تقصد يا أبي؟

ربت على كتفها، وهو يقول:

- لا شيء يا صغيرتي.. لا شيء.

وهم بالابتعاد عن البئر، عندما لمح بغتة ذلك الشيء..

جسم ما، تحرك حركة خفيفة تحت الماء، ولكنها كانت كافية ليتوتر السطح، وتتراقص مياهه على نحو غير طبيعي، جعل (خالد) يحدق فيه لحظات، ويتمتم في توتر:

- أمن الممكن أن..

بتر عبارته بسرعة، وارتجف وهو يتصور جثة الكلب تحت السطح، ثم اعتدل وقال لابنته:

- سأهبط لفحص الماء.

سألته في براءة:

- هل يوجد سلم هنا؟

أشار إلى الحبل الغليظ، الملتف حول القائم الخشبي، الذي كان يستخدم لتدلية الدلو القديم، وقال:

- سأستخدم هذا الحبل.

سألته في حماس:

- هل يمكنني أن أصحبك؟

ضحك، وهو يمسح على شعرها، قائلًا:

- ومن سينقذني إذن، إذا ما احتجت إلى معاونة؟

هتفت بسرعة:

- أنا.. أنا الابنة الجميلة، التي ستنقذ والدها.

ضحك مرة أخرى، وهو يقول:

- نعم.. أنت كذلك.

وأدار الرافعة الخشبية، حتى تدلى الحبل إلى قرب القاع، ثم أمسكه في قوة، وتخطى حاجز البئر، وهو يقول:

- انتظريني هنا، ولا تحاولي النظر إلى أسفل.. هل تفهمين؟

أجابته في بساطة:

- نعم.. أفهم. لن أنظر إلى أسفل.

أمسك الحبل في قوة، وألصق قدميه بجدار البئر، وراح ينخفض في بطء، وقلبه يخفق في عنف..

ماذا لو عثر بالفعل على جثة (ميكي)، في قاع البئر؟..

كيف يواجه ابنته حينئذ؟..

كيف يمكنه حمايتها من الانهيار حزنًا؟!..

ظلت هذه الأفكار تراوده، وهو يقترب من سطح الماء في قاع البئر رويدًا رويدًا، حتى أصبح على ارتفاع نصف المتر منه، وغاصت قدماه في الماء بالفعل، وسمع ابنته تهتف:

- هل عثرت على شيء ما يا أبي؟

دفع قدميه في الماء، بحثًا عن أي جسم صلب، وهو يقول:

- لا.. ليس بعد.

كان من الواضح أن الكلب لم يسقط في البئر، فالجثة لا يمكنها أن تغوص إلى أعمق من هذا..

عبث بقدميه في الماء مرة أخرى، وهو يقول:

- لا يوجد أي شيء هنا.

لم يكد ينطقها حتى ارتطم جسده بشيء ما..

شيء في صلابة المعدن، ولكنه ابتعد عن قدمه في حركة سريعة مقصودة، وكأنه جسم حي..

وجفل (خالد) في عنف، مع حركة ذلك الشيء، وأفلتت يده الحبل، فهوى في البئر، وعلى الرغم من حرارة الجو في الخارج، كانت مياه البئر باردة، وهو يغوص فيها، وذراعاه تضربانها في قوة، في محاولة للارتفاع إلى السطح، بعد أن اتضح له أن مياه البئر أعمق مما كان يتوقع..

وفجأة، رأي أمامه ذلك الشيء..

مجرد زوج من الأعين يحدق فيه، ويشع بريقًا أخضر مخيفًا..

وشهق (خالد) في قوة، عندما برز أمامه ذلك الشيء، مع شهقته، ابتلع كمية من مياه البئر الباردة، واختنق صدره في شدة،

وتهالكت أطرافه، ثم أظلم عقله تمامًا..

في أعماق البئر..

☆ ☆ ☆

انطلقت المروحيات الثلاث، تستكشف تلك المنطقة من الصحراء الغربية، وضغط قائد الفريق الصغير زر جهاز الإرسال اللاسلكي، وهو يقول:

- من (نسر - 1) إلى القاعدة.. تم فحص المنطقة كلها، ولا يوجد أثر لأي جسم غريب.

أتاه الرد من القاعدة، يقول:

- فليكن يا (نسر - 1).. قم بدورة أخرى، ثم عد مباشرة إلى القاعدة.

أجابه قائد فريق البحث:

- علم، وجاري التنفيذ.

وانطلق بطائرته يجوب المنطقة للمرة الثالثة، وهو يسأل زميليه، عبر جهاز الاتصال، على موجة البث الداخلية:

- هل يرى أحدكما شيئًا؟

أجابه الأول:

- كلا.. كل شيء يبدو لي على ما يرام.

وقال الثاني في ضجر:

- إننا لم نر منذ أقلعنا، سوى الرمال الصفراء، وتلك البيوت الصغيرة، في المنطقة التابعة لهيئة الاستصلاح الزراعي.

ضحك القائد، وقال:

- هل يمكنك أن تتخيل أن هناك بشر يمكنهم العيش في مثل هذا المكان؟

أجابه الأول:

- للضرورة أحكام يا صديقي.. من يدري؟.. ربما اضط...

بتر عبارته بغتة، وهو يهتف:

- رباه!.. هناك.

سرى توتر مباغت في جسدي زميليه، وسأله القائد في لهفة:

- ماذا هناك؟

أجابه بسرعة:

- هناك.. عند الساعة الرابعة.. إنه في لون رمال الصحراء تمامًا، ولكن أشعة الشمس انعكست منذ لحظات على جزء منه.

تحرك الثلاثة في آلية، نحو البقعة التي أشار إليها، وانعقد حاجبا القائد، وهو يقول في دهشة:

- هذا صحيح.. لقد رأيته.. إنه أشبه بقبة قديمة.. عجبًا!.. كيف لم ننتبه إليه من قبل؟!

اقتربوا أكثر من ذلك الجسم، الذي بدا كقبة كبيرة، يبلغ نصف قطر قاعدتها حوالي خمسة أمتار، وتلتصق رمال كثيفة بسطحها، فيما عدا بقعة واحدة، هي تلك التي انعكست عليها أشعة الشمس..

وفي توتر ملحوظ، التقط القائد مسماع جهاز اللاسلكي، وهتف:

- من (نسر - 1) إلى القاعدة.. لقد عثرنا على شيء ما.

أجابه مراقب القاعدة في لهفة:

- شيء مثل ماذا؟

قال القائد:

- جسم أشبه بقبة كبيرة.. لست أدري ما هو بالضبط، ولكنه لا يشبه أي شيء أعرفه.

مضت لحظات من الصمت، ثم قال مراقب القاعدة:

- هل يمكنكم الاقتراب منه يا (نسر - 1)؟

أجابه القائد:

- نحن نحلق على ارتفاع سبعة أمتار منه بالفعل، وندور حوله طوال الوقت، ولكننا لا نلمح فيه أية مداخل أو نوافذ، باستثناء بقعة صغيرة، من مادة أشبه بالزجاج، ويبدو أنها نافذة مراقبة.

سأله مراقب القاعدة:

- وهل يمكنكم الاقتراب من تلك البقعة، أو النظر عبرها؟

أجابه القائد في حزم:

- سنبذل قصارى جهدنا.

وأكملت الطائرات الثلاث دورتها الأخيرة، ثم حلقت في الهواء، وأوقفتها مراوحها الأفقية على مسافة قريبة من تلك البقعة نصف الشفافة، وقال القائد، وهو يتطلع إليها في اهتمام:

- إنها بالفعل أشبه بالنافذة، ولكنها لا تشف عما خلفها.. ولكن مهلًا.. يبدو أنه هناك شيء ما يتحرك خلفها.. يا إلهي!.. إنها تنفتح في بطء.. وحجمها يتسع بشدة.. ترى ما الذي يحدث داخل هذا الشيء بالضبط.. سأحاول أن أقترب أكثر.

هتف به صوت المراقب، عبر أجهزة الاتصال.

- لا تقترب أكثر يا (نسر - 1).. هذا يكفي.. عد إلى القاعدة على الفور.

أجابه القائد في توتر:

- ولكن هناك شيء ما يخرج من تلك النافذة.. رباه!.. إنه...

وتوقف البث بغتة، على نحو جعل مراقبي القاعدة يعقد حاجبيه في توتر شديد، وهو يقول:

- من القاعدة إلى (نسر - 1).. ماذا حدث عندك؟.. أجب.. من القاعدة إلى (نسر - 1).. نريد تقريرًا فوريًا عن موقف فريقك.

ردد مراقب القاعدة النداء عشرات المرات، ولكن فريق (نسر - 1) لم يستجب..

لقد اختفى الفريق كله..

اختفى تمامًا.

☆ ☆ ☆

3- حالة طوارئ..

ظلام دامس يغلف كل شيء، وتسبح فيه عيون خضراء لامعة، أحاطت كلها بابنته (هبة)، التي صرخت تستنجد به:

- أبي.. أبي.

حاول أن يمد يده إليها، ولكن راحته كانت ثقيلة، وكأن عظامه تحولت إلى كتلة من الصلب، وعندما أراد أن يصرخ، اختنقت الكلمات في حلقه، فراح يحدق مذعورًا في تلك العيون الخضراء.

التي تجذب ابنته بعيدًا، وهي تهتف:

- أبي.. أبي.

وفجأة، أصبح صوتها مسموعًا في وضوح، وتردد داخل رأسه واضحًا، وشعر معه بيد (هبة) الصغيرة تهزه، واشتم رائحة الدموع الممتزجة بصوتها، ففتح عينيه يحدق في وجهها بدهشة، قبل أن يهتف:

- (هبة)؟!.. أين أنا؟

أطلقت الصغيرة لدموعها العنان، وهي تعانقه في حرارة، وتهتف:

- لقد عدت إلي يا أبي.. لم ترحل مثل أمي.. كم شعرت بالخوف، عندما تركتني وحدي هنا.

أدار عينيه في دهشة، وهو يتطلع إلى حجرة نومه، التي تحيط به، ثم سألها في حيرة بالغة:

- كيف أتيت إلى هنا.. ألم أسقط في قاع البئر؟

رآها ترمقه بنظرة دهشة، وهي تقول:

- تسقط في قاع البئر؟!.. ألم يكن هذا حلمًا؟

سألها في توتر:

- ولماذا تصورت أنه حلم؟

بدت الحيرة على وجهها لحظات، ثم لم تلبث أن هزت رأسها الصغير، وقالت:

- إنه حلم بالتأكيد.. لقد حلمت أنك هبطت في هذه البئر، ثم سمعتك تسقط فيه، فرحت أصرخ مذعورة، حتى فقدت الوعي..

سألها بسرعة:

- وماذا حدث بعد أن فقدت الوعي؟

هزت كتفيها، وقالت في بساطة:

- استيقظت من النوم، وعرفت انه حلم، عندما وجدت نفسي نائمة في فراشي إلى جوارك؛ ولكنني شعرت بالخوف، عندما حاولت إيقاظك؛ لأقص عليك حلمي ولم أفلح..

التقى حاجباه، وهو يتطلع إلى ابنته في توتر بالغ..

إنه يعلم أن ما رأته لم يكن حلمًا..

من المستحيل أن يحلم هو وهي بالواقعة نفسها..

ثم إن ما شعر به كان أقوى من الأحلام..

صحيح أن جسده وملابسه جافان، ولكنه واثق من أنه قد سقط في مياه البئر الباردة بالفعل، ورأى تلك الأعين الخضراء المخيفة..

وفي حزم، غادر فراشه، ووقف يتطلع إلى البئر عبر النافذة، ويفحص الطريق الرملي، الذي يوصله بالمنزل..

لم تكن هناك أية علامات، تشير إلى حركة جسم ما، فيما عدا آثار قدميه وقدمي ابنته، عندما ذهبا إلى البئر، و...

وازداد انعقاد حاجبيه في شدة، مع سؤال وثب إلى ذهنه بغتة..

لماذا تبدو آثار أقدامهما فردية، في اتجاه واحد؟

تحرك بسرعة ليغادر المنزل، وانحنى يفحص الآثار في اهتمام، قبل أن يعتدل، مغمغمًا:

- كنت على حق.

كانت الرمال تحمل آثار قدميه وقدمي ابنته في وضوح، وهي تتجه من المنزل إلى البئر، ولكن لم يكن هناك أدني آثر لهما، يشير إلى عودتهما منه..

وهذا يعني أنهما لم يعودا على نحو طبيعي..

لقد أعادهما شيء ما إلى المنزل..

شيء لم يطأ رمال الصحراء قط..

شيء يرقد في قاع البئر..

وتطلع لحظات إلى البئر في توتر بالغ، ثم تمتم في خفوت:

- ما أنت بالضبط؟

سألته (هبة) في حيرة:

- إلى من تتحدث يا أبي؟

مسح بيده على شعرها، وهو يقول في شرود:

- إنني أفكر فحسب يا صغيرتي.

عندما أجابها بهذا القول، كان غارقًا في التفكير بالفعل، وكانت الفكرة الوحيدة التي تملأ رأسه هي: هل يبقى في هذا المنزل، على الرغم من كل ما يحدث، أم يعود بابنته إلى (القاهرة)؟..

ولكن كيف يعود إلى (القاهرة)، بعد أن باع كل ما يمتلكه، وأنفق معظم مدخراته، لشراء هذا المكان؟..

وفي هذه اللحظة، امتلأت نفسه بشعور سخيف..

شعور بالضياع..

الضياع التام..

☆ ☆ ☆

بدا الموقف شديد التوتر في قيادات القوات الجوية، واجتمع كبار القادة في غرفة العمليات، وراحوا يفحصون خريطة مجسمة لمنطقة الصحراء الغربية، وأشار قائد القوات الجوية إلى نقطة ما، وهو يقول:

- هنا اختفى فريق (نسر - 1).. ثلاث مروحيات مقاتلة، من أحدث طراز، اختفت تمامًا، دون أن تترك أدنى أثر.. لا حطام، لا

بقع زيتية، ولا حتى شظايا صغيرة.

قال أحد اللواءات في توتر:

- وتلك الرسالة التي تلقتها منهم أجهزة المراقبة، قبل اختفائهم مباشرة تثير الكثير من الحيرة والقلق.. بل ولن أخجل من القول: بأنها تملأ نفسي بخوف مبهم.

أجابه لواء آخر:

- ليس هذا شعورك وحدك.. لقد قرأت الرسالة أكثر من عشر مرات، وبدا لي الأمر وكأنه واحد من أفلام الخيال العلمي، التي طالما سخرنا منها.

سأله قائد القوات:

- ماذا تعني بالضبط؟

لوح اللواء بذراعه كلها، وهو يقول:

- كنت أعتقد أن هذا يبدو واضحًا.. جسم غريب يظهر في السماء، ويتحرك بسرعة تفوق أكبر السرعات المعروفة في عالم الطيران، وقبة عجيبة تظهر في الصحراء الغربية، وعندما تقترب منها المروحيات لفحصها، تختفي بغتة.. ألا يبدو التفسير منطقيًا واضحًا، على الرغم من غرابته يا سادة؟!.

ودار بعينيه في وجوه الحاضرين جميعًا، قبل أن يهتف:

- الأطباق الطائرة.

وعلى الرغم من أن الجميع كانوا يتوقعون هذا القول، إلا أن الدهشة ملأت وجوههم، وهم يهتفون في استنكار:

- الأطباق الطائرة؟!.. أي قول هذا يا رجل؟.. أطباق طائرة هنا في (مصر)؟

أجابهم اللواء في إصرار:

- نعم.. أطباق طائرة هنا في (مصر).. ما الذي يمنع هذا؟.. لقد شوهدت الأطباق الطائرة في معظم بلدان العالم، وحتى في دولة (الكويت)، ونحن نعلم -بحكم عملنا- أن بعض هذه المشاهدات حقيقية، وليس لها أي تفسير آخر، ولقد قرأنا جميعًا، منذ عدة أعوام، التقرير السري، الذي وضعته المخابرات المركزية الأمريكية، حول ظاهرة الأجسام الطائرة المجهولة الهوية، والذي أكدت فيه وجودها، بما لا يدع مجالًا للشك، فما الذي يمنع وجودها في (مصر) إذن؟

ران الصمت على المكان بضع لحظات، تبادل فيها الجميع نظرات قلقة، قبل أن يقطع قائد القوات الجوية حبل الصمت، قائلًا في حزم:

- فليكن.. سنضع هذا الاحتمال في الاعتبار، ولكنني ما زلت أميل إلى احتمال أن يكون هذا مجرد سلاح جديد، قرر البعض استغلال صحرائنا الغربية لتجربته.

ثم شد قامته، مستطردًا:

- ولكن هذه ليست المشكلة الفعلية.

سأله أحد الضباط:

- وما المشكلة الفعلية إذن؟

صمت القائد لحظات، التقط خلالها نفسًا عميقًا، ومط شفتيه، قبل أن يقول في توتر:

- لقد فحصنا المنطقة كلها، التي اختفت فيها طائرات الهليكوبتر الثلاث، وكما اختفت الطائرات، فإننا لم نعثر أيضًا على أدني آثر لذلك الشيء الذي تحدثوا عنه قبيل اختفائهم.. لقد اختفت تلك القبة تمامًا، وكأنها لم تكن هناك أبدًا.

سأله أحد الرجال:

- وما الذي يمكننا أن نفعله الآن؟

تنهد القائد، وقال:

- من حسن الحظ أن المنطقة كلها شبه خالية، ولا تضم سوي بعض المنازل، في منطقة استصلاح الأراضي الجديدة، ولقد أكدت لنا اتصالاتنا، أنه لا يوجد سوى القليل منها مأهولًا، والباقي لم تتم أعماله بعد؛ لذا فقد قررت الاستعانة بسلاح المشاة، للبحث في المنطقة كلها.

هتف أحد الرجال:

- سلاح المشاة؟!.. كيف يحدث هذا؟.. المعتاد هو أن المشاة هم الذين يطلبون معاونة الطيران.

أجابه القائد في حزم:

- لسنا هنا بصدد التنافس بين وحدات الجيش المختلفة.. هذه القبة، لو أن لها وجودًا حقيقيًا، تجيد التمويه وإخفاء نفسها، تحت ساتر من الرمال، وهذا يمكنه أن يخدع الطائرات المحلقة في السماء، ولكنه لن يخدع المشاة قط.. هل فهمت؟

أومأ الرجل برأسه إيجابًا، وإن لم تشف ملامحه عن الاقتناع، فالتفت القائد إلى اللواء، صاحب فكرة الأطباق الطائرة، وقال:

- لو صحت فكرتك، فسيعني هذا أننا أمام موقف خطير.. بل وخطير للغاية.. إننا يا سادة لن نكون في حالة حرب مع خصم من عالمنا، بل سنواجه غزاة من عالم آخر.. غزاة من وراء النجوم.

قالها، فعاد الصمت يغلف القاعة كلها، ولكنه لم يكن صمتًا عاديًا هذه المرة، بل كان صمتًا مغموسًا في الكثير من الرهبة..

أو من الرعب..

☆ ☆ ☆

لم تكد الشمس تميل إلى الغروب، حتى امتلأت نفس (خالد) بالتوتر والقلق، وراح يتطلع إلى الأفق في خوف، وكأنما يتوقع أن يتحول قرص الشمس بغتة إلى زوج من الأعين الخضراء، وينقض عليه كوحش كاسر..

ومن خلفه، راحت ابنته (هبة) تردد في حزن:

- (ميكي) لم يعد بعد يا أبي.. أين ذهب؟.. لماذا اختفى؟

ربت عليها في حنان، قبل أن يبدأ في تشغيل المولد الكهربي، وهو يجيب:

- سيعود يا صغيرتي.. سيعود بإذن الله.

قالها بلهجة لم تنجح حتى في إقناعه هو، ولكنه لم يجد ما يقوله سواها؛ فهو يشعر بحيرة تفوق حيرتها، كلما فكر في أمر اختفاء الكلب..

لقد فحص المنطقة المحيطة بالمنزل كلها، ولكنه لم يعثر سوي على آثار حديثة له، بأطرافه الثلاثة، تبدأ من باب المنزل، وتمتد الثلاثة أمتار، ثم تنقطع بغتة، وكأنما طار الكلب في الهواء، أو...

أو سحبه شيء ما إلى أعلى..

وارتجف جسده مع الاحتمال الثاني، ورفع عينيه إلى السماء، وكأنه يتوقع رؤية ذلك الشيء فوقه، ثم عاد يخفضهما إلى حيث تقف (هبة)، وحاول أن يبتسم، وهو يقول:

- والآن ينبغي لصغيرتي الجميلة أن تتناول طعام العشاء، ثم تخلد إلى النوم.. أليس كذلك؟

قالت باحتجاج متخاذل:

- ولكن (ميكي) لم يعد بعد.

انحنى يحملها، ويضمها إلى صدره في حنان، وهو يقول:

- سيعود يا صغيرتي.. صدقيني.. سيعود بإذن الله.

سألته في اهتمام:

- هل تعدني يا أبي؟

لم يكن بإمكانه أن يلقي مثل هذا الوعد، ولكنه غمغم:

- أعدك يا صغيرتي.

طبعت قبلة على خده، وهي تقول:

- أشكرك يا أبي.. أشكرك كثيرًا.

كان التوتر يملأ نفسه بحق في هذه الليلة، وعلى الرغم من هذا، فلم يكد يتناول طعام العشاء، حتى بدأ رأسه يتثاقل، فقال لابنته:

- سأوقف المولد الكهربي، ولنذهب إلى الفراش.

قالت محتجة:

- ولكنني أخشى النوم في الظلام.

قال، وهو يحملها إلى الفراش:

- سنوقد شمعة كبيرة، داخل قدح من الماء، ونضعها في حجرة النوم.. هل يروق لك هذا؟

طبعت قبلة أخرى على خده، وهي تقول:

- أنا أحبك كثيرًا يا أبي.

كان المفروض أن يروي لها قصة (سندريلا) للمرة الألف، على ضوء الشمعة المتراقص، ولكنه لم يكد يبلغ تلك المرحلة، التي فقدت فيها (سندريلا) حذاءها، حتى راح في سبات عميق، فهتفت (هبة) محتجة:

- وماذا بعد.. ماذا بعد أن فقدت الحذاء؟

ولكن (خالد) لم يسمعها، وهو غارق مع أحلامه، فمطت شفتيها الصغيرتين، وعقدت ذراعيها أمام صدرها، وهي تقول:

- سأخاصمك لأنك لم ترو لي الجزء الطريف، عندما كانت جميع الفتيات يقسن حذاء (سندريلا)؛ ليتزوجن الأمير.

كانت تحفظ القصة عن ظهر قلب، ولكنها لا تمل سماعها على لسان والدها، ثم إنها لم تشعر بالرغبة في النوم، وكانت تحتاج إلى من يؤنس وحدتها، فظلت جالسة على الفراش طويلًا، قبل أن تغمغم في ضيق:

- أين أنت يا (ميكي)؟! لماذا تركتني وحدي؟

زفرت مرتين في تذمر، ثم قضت بعض الوقت في مراقبة ذبالة الشمعة المتراقصة، إلا أنها لم تلبث أن قالت في ضجر:

- لماذا لا يأتيني النوم؟

تراجعت بظهرها لتنام، عندما لاحظت بغتة، عبر النافذة، أن الضوء قد انبعث في المخزن، فاعتدلت بحركة سريعة، وهتفت:

- أبي.. يبدو أنك لم توقف عمل المولد.

لم يجب (خالد)؛ لأنه لم يسمع حرفًا واحدًا من هتافها، مع نومه العميق، ولكنها غادرت الفراش، وأسرعت إلى النافذة، تتطلع منها إلى المخزن، الذي أطلقت نوافذه كلها ضوءًا أبيض، وخيل

إليها أن جسمًا صغيرًا قد اندفع نحو الباب، وعبره في لمحة خاطفة، فهتفت في سعادة:

- (ميكي).. هل عدت؟!

قالتها وأسرعت تفتح باب المنزل، وجرت نحو المخزن، وهي تنادي على كلبها الغائب، ولكنها لم تكد تصل إلى هناك، حتى توقفت أمام الباب نصف المفتوح، وبدا لها ذلك الضوء الأبيض جميلًا، باعثًا على الارتياح، والتقطت أذناها أصواتًا مختلفة من الداخل، أشبه بصوت مجموعة من القطط، تلهو معًا، أو تعبث ببعض بكرات الخيط الطويلة، فابتسمت (هبة)، وغمغمت:

- إذن فانت تلعب بالداخل أيها الكلب الشقي.

ودفعت الباب في رفق، ثم دلفت إلى المخزن، ولم تكد تفعل، حتى اتسعت عيناها في دهشة، وذابت الابتسامة على شفتيها..

إنه لم يكن كلبها (ميكي)، ذلك الذي يلهو داخل المخزن، بل كان ما تراه أمامها شيئًا عجيبًا، يتجاوز كل توقعاتها..

بل يتجاوز الحدود نفسها..

حدود العقل.

☆ ☆ ☆

4- الغموض يتزايد..

استيقظ (خالد) في الصباح التالي، وهو يشعر بارتياح بالغ، بعد النوم العميق الذي غرق فيه، منذ مساء اليوم السابق، وتطلع إلى ساعة يده، التي أشارت عقاربها إلى السادسة والربع، ثم استدار يلقي نظرة حانية على ابنته، التي توسدت راحتها، وراحت في سبات عميق، ومد يده يداعب أنفها، وهو يقول:

- استيقظي يا أميرتي.. لقد أشرقت الشمس.

همهمت (هبة) بعبارة غير مفهومة، وأزاحت يده عن أنفها، وهي تقول:

- أرجوك يا أبي.. اتركني أنام بعض الوقت.. أنا متعبة.

ابتسم وهو يداعبها مرة ثانية، قائلًا:

- هيا.. لقد حان موعد الإفطار، ثم إنك تنامين منذ مساء أمس، ومن الخطأ أن ينام الأطفال لفترة أطول من المعتاد.

قالت محتجة:

- ولكنني لم أنم إلا مع شروق الشمس.

هتف في دهشة:

- شروق الشمس؟!.. ولماذا ظللت مستيقظة كل هذ الوقت؟

غمغمت في تراخ:

- كنت ألعب مع أصدقائي.

التقى حاجباه، وهو يردد:

- أي أصدقاء؟

فتحت عينيها في صعوبة، ورفعت رأسها عن الوسادة قليلًا، وهي تشير بيديها، قائلة:

- هل تعرف الأقزام السبعة، الذين رأيناهم في السينما، في فيلم الرسوم المتحركة (سنو وايت).. لقد جاءوا لزيارتي مساء أمس.

ارتجف قلبه في صدره، وهو يسألها:

- أهو حلم آخر؟

هزت رأسها نفيًا، وهي تقول:

- كلا.. لم يكن حلمًا.. لقد جاءوا بعد نومك مباشرة.. أنا رأيتهم في المخزن، عندما اشتعلت أضواؤه..

رفع حاجبيه في دهشة، والتفت بحركة حادة إلى النافذة، ليحدق في المخزن، ثم التفت إليها، وحاول أن يسيطر على أعصابه، وهو يمسك كتفيها، ويسألها:

- اصدقيني القول يا (هبة).. ما الذي حدث بالفعل؟

دعكت عينيها، وجلست على الفراش في إرهاق، وهي تجيب:

- لقد رأيت الأضواء تنبعث من المخزن، وظننت أن (ميكي) هناك، فذهبت إليه، ولكنه لم يكن هو الذي أشعل الأضواء، وإنما هؤلاء الأقزام السبعة.

سألها في توتر:

- هل تستطيعين أن تصفيهم لي؟

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت:

- نعم.. إنهم مثلي، وليسو مثلك.

سألها:

- ماذا تعنين؟

أشارت بيدها، مجيبة:

- أعني أن لهم نفس طولي، ولكنهم أكثر نحولًا مني.. يبدو أنهم لا يشربون اللبن في الصباح.

قال في توتر:

- بالتأكيد.. بالتأكيد.. هيا.. أكملي.. هل يرتدون نفس ثياب الأقزام السبعة في الفيلم.

هزت رأسها نفيًا، وهي تقول:

- كلا.. إنهم يرتدون ثيابًا فضية اللون، ويضعون أشياء مستديرة داكنة على رؤوسهم، لم تسمح لي برؤية وجوههم، ويحملون على ظهورهم حقائب ثقيلة، تخرج منها أنابيب قصيرة، تنتهي عند طرف هذه الأشياء، التي يضعونها على رؤوسهم.

اتسعت عيناه في هلع، وهو يستمع إليها، فقد كانت تصف في بساطة، وبكل براءة الطفولة، رواد فضاء صغار الحجم، احتلوا مخزنه طوال الليل..

وفي هلع، سألها:

- وهل لعبت معهم؟

هتفت في سعادة:

- بالطبع.. إنهم ظرفاء للغاية.. لقد داعبوني، وتحدثوا معي، وأهدوني لعبة جميلة، لم أر مثلها قط، و...

أشار إليها لتصمت، بعد أن عجز عقله عن استيعاب كل هذا، وهتف بها وقد تضاعف توتره:

- هل تحدثوا معك؟

أجابته:

- نعم، وقالوا إنهم يحبونني، ويتمنون لو أرحل معهم إلى وطنهم.

سألها مذعورًا:

- وهل يتحدثون العربية؟!

تطلعت إليه في حيرة، وهي تسأل:

- وما العربية؟

قال في توتر شديد:

- أعني هل يتحدثون كما نتحدث نحن؟

عقدت حاجبيها الصغيرين، وهي تقول:

- لست أذكر.. إنني لم أرهم يتحدثون، فلم يخلعوا تلك الكرات المستديرة عن رؤوسهم قط، وأعتقد أنهم...

بترت عبارتها بغتة، وامتلأت ملامحها الصغيرة بالحيرة، فسألها والدها، وهو يستحثها على المواصلة:

- تعتقدين أنهم ماذا؟

أجابته في حيرة:

- أعتقد أنني لم أسمع أصواتهم قط، ولكنني واثقة من أنهم قد تحدثوا إلي.

ثم تهللت أساريرها، وهي تستطرد:

- أتعلم يا أبي.. لقد وعدوني بأنهم سيعيدون (ميكي).. لقد أخذوه ليعالجوه، بسبب إصابة ساقه.. كما أنهم استعادوا الشخص

الآخر، الذي تركوه في البئر، منذ آخر زيارة لهم.

سرت في جسده قشعريرة باردة كالثلج، وهو يسألها:

- في البئر؟!

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت:

- نعم.. إنه لا يشبههم، وإنما يشبه صندوق قمامة صغير من الصفيح، له قدمان ويدان صغيرتان، ورأس أشبه بالكرة، تتوسطه عينان مضيئتان خضراوان، ويصدر صوتًا عجيبًا، عندما يسير.

وضحكت قبل أن تستطرد:

- لقد ضحكت طويلًا عند رؤيته، وضحكوا هم أيضًا لضحكاتي، وأخبروني أن لديهم الكثير من الأشياء مثله في وطنهم، وعندما أذهب لزيارتهم، سيهدونني واحدًا منها، و...

قاطعها، وهو يهب من فراشه:

- ارتدي ملابسك.. سنرحل من هنا على الفور.

وقفز يلتقط الحقائب، ويلقي فيها الملابس والأشياء عشوائيًا، فهتفت به محتجة:

- ولكنهم سيأتون للعب معي الليلة.

صاح بها:

- لهذا بالذات ينبغي أن نرحل الآن.

صاحت:

- أبي.

ولكنه لم يناقشها هذه المرة، كما اعتاد في كل خلاف بينهما..

لقد تأكد الأن من أن هذا المكان يحمل تحت رماله الصفراء سرًا غامضًا مخيفًا، لم يعد يكتفي بإثارة رهبته فحسب، وإنما يسعي لاختطاف ابنته أيضًا، وحملها إلى عالم آخر..

وهو لن ينتظر حتى ينتزعوا منه ابنته..

لن ينتظر هذا أبدًا.

ولم ينته تمامًا من وضع كل الأشياء في الحقائب، وإنما اكتفى بما وضعه، وجذبها من يدها، واندفع نحو الباب، وهي تهتف به:

- الهدية.. أريد أن آخذ الهدية معي.

تجاهل هتافها تمامًا، وفتح الباب في عنف، و...

«إلى أين؟!..».

انتفض في عنف، وتراجع للخلف مذعورًا، عندما وقع بصره على ذلك الشخص الفاره القوام، المتين البنيان، الذي وقف بالباب في زي مموه، كتلك الأزياء التي يرتديها رجال الجيش، ويحمل في يده مدفعًا آليًا، وهتفت (هبة):

- لقد أفزعتني يا عماه.

ابتسم الرجل، الذي يحمل رتبة نقيب، وهو يقول:

- معذرة أيتها الصغيرة، أنا لم أقصد هذا.. كنت أهم بطرق الباب، عندما فتحه والدك بغتة..

ثم أدار عينيه إلى (خالد)، وسأله:

- ولكن لماذا كنت تسرع هكذا؟

تنحنح (خالد)، وقال مرتبكًا:

- لدي موعد في (مديرية التحرير)، ولقد تأخرت و...

قاطعة الضابط في حسم:

- ألغ الموعد.. لن يمكنك الذهاب.

شحب وجه (خالد)، وهو يسأله:

- لماذا؟.. ماذا حدث؟

رمقه الضابط بنظرة طويلة، قبل أن يقول في هدوء حازم:

- إجراءات أمن.

سأله (خالد) في حذر:

- بسبب ماذا؟

هز الضابط كتفيه، وقال:

- أنا نفسي أجهل السبب، ولكن الأوامر لدينا تحتم منع دخول أو خروج أي مخلوق من المنطقة، طوال الثمان والأربعين ساعة القادمة.

هوى قلب (خالد) بين ضلوعه، وهو يقول:

- ولكن هذا مستحيل!

عاد الضابط يرمقه بنظرة طويلة، ثم سأله:

- لماذا مستحيل!؟

أجابه في حدة:

- لقد نفدت المؤن، ونحتاج إلى وقود لإدارة المولد الكهربي، و...

قاطعه الضابط في هدوء:

اكتب قائمة بكل ما تحتاج إليه، وسنزودك به خلال ساعات، ودون مقابل.

بدا اليأس على وجه (خالد)، وحاول أن يبحث عن مخرج آخر، ولكن الضابط سأله بغتة:

- قل لي: هل رأيت شيئًا غريبًا في المنطقة، في اليومين الماضيين؟

انتفض جسده في عنف، وهو يهتف:

- مطلقًا.. لم أر أي شيء غريب.. لماذا تسأل؟

ولكن (هبة) أسرعت تقول في حماس:

- أنا رأيت الأقزام السبعة.

جفت الدماء في عروق (خالد)، وشحب وجهه بشدة، وتطلّع إلى الضابط في ارتياع، ولكن هذا الأخير سأل الصغيرة في اهتمام:

- أي أقزام سبعة؟

لوحت بيدها الصغيرة، وهي تقول:

- الأقزام السبعة، الذين نامت (سنو وايت) في منزلهم.. ألم تر الفيلم؟

ابتسم الضابط، وأجاب:

- بالطبع.. لقد شاهدته عندما كنت في مثل عمرك.

قالت في سعادة:

- لقد زاروني بالأمس في المخزن، ولعبنا معًا.

قال الضابط مبتسمًا:

- في أي مخزن زاروك يا صغيرتي؟

أسرع (خالد) يقول، وهو يطلق ضحكة مرتبكة:

- خيال الأطفال واسع للغاية.

أومأ الضابط برأسه، وهو يقول:

- هذا أمر طبيعي.. لقد كنا مثلهم في طفولتنا.

احتجت (هبة)، قائلة:

-إنه ليس خيالًا.. لقد لعبت مع الأقزام أمس في المخزن، ووعدوني بإعادة (ميكي)، بعد علاج ساقه المكسورة.

عقد الضابط حاجبيه، وهو يتطلع إلى (خالد)، متسائلًا:

- (ميكي)؟!

- أجاب (خالد)، وتوتره يتضاعف مع مضي الوقت:

- إنه كلبها.. لقد فقدناه هنا، ومنذ ذلك الحين تشعر بوحدة شديدة، فالمكان مقفر كما ترى، وأعتقد أن هذا هو السبب، في كل ما يراودها من أحلام، حول الأصدقاء الوهميين والأقزام.

صاحت (هبة) في غضب:

- لم يكن حلمًا.. لم يكن حلمًا.. لقد أعطوني هدية أيضًا.

ابتسم (خالد) في اضطراب، وربت على رأسها، قائلًا:

- بالطبع.. بالطبع.

وغمز بعينه للضابط، الذي ابتسم مؤيدًا، ثم تلاشت ابتسامته، وهو يقول:

- فليكن.. لو أنك رأيت أو شعرت بأي شيء غير طبيعي، حاول أن تبلغنا على الفور.

لوح (خالد) بكفيه، وقال:

- كيف؟!.. لا يوجد هاتف هنا، أو...

قاطعه الضابط، وهو يناوله جهاز لاسلكي صغيرًا:

- استخدم هذا.. إنه مضبوط على موجة الاتصال بنا.. كل ما عليك هو أن تضغط الزر، وتذكر رقم قطعة الأرض التي تمتلكها، ثم تخبرنا ما لديك.. هل يمكنك فعل هذا؟

أومأ (خالد) برأسه، قائلًا:

- بالتأكيد.

وراحت شفتاه ترتجفان في توتر بالغ، وهو يتابع انصراف الضابط وجنوده، في واحدة من سيارات الجيش، ثم أغلق الباب في سرعة، واستند بظهره إليه لاهثًا، وهو يتمتم:

- ماذا أفعل؟.. ماذا أفعل؟

انتبه بغتة إلى أن (هبة) ليست إلى جواره، فهتف في هلع:

- (هبة).. أين أنت؟!

أتاه صوتها من داخل حجرة النوم، وهي تقول في غضب:

- أنا هنا، ولن أتحدث إليك.

اتجه إليها في حجرة النوم، ورآها جالسة على طرف الفراش، وقد زوت ما بين حاجبيها الصغيرين، ومطت شفتيها، وعقدت ذراعيها، معلنة غضبها، فجلس إلى جوارها، وأحاطها بذراعه كلها، وهو يقول في حنان:

- أأنت غاضبة مني؟

هتفت:

- نعم.. سأخاصمك طوال عمري كله؛ لأنك كذبت على الضابط.. ما رأيته لم يكن حلمًا أو خيالًا، وأنت تعرف هذا.

ربت عليها حانيًا، وهو يقول:

- حبيبتي الصغيرة.. أنت الآن في الخامسة من عمرك فحسب، وفي هذه السن يصعب على الطفل التفرقة ما بين الأحداث الحقيقية، والأحلام التي يراها في نومه، و...

قاطعته غاضبة:

- ليس حلمًا.. ليس حلمًا.

ثم قفزت من الفراش، ووضعت قبضتيها الصغيرتين في وسطها، وهي تستطرد:

- ثم إن الأحلام لن تمنحني هدية.. أليس كذلك؟

تذكر أمر الهدية، في تلك اللحظة فقط، فتطلُع إلى ابنته في مزيج من القلق والحذر، وهو يتمتم:

- الهدية؟!..

هتفت به:

- نعم.. لقد أهدوني هذه.

وأسرعت إلى دولاب ملابسها، والتقطت منه علبة متوسطة الحجم، وفتحتها قائلة:

- انظر كم هي جميلة.

ولم يكد بصر(خالد) يقع على ذلك الشيء، الذي برز من العلبة، حتى اتسعت عيناه في دهشة..

بل في ذهول..

ذهول تام..

☆ ☆ ☆

«هذا الرجل يكذب، أو يخفي شيئًا ما..».

ألقي الضابط هذه العبارة في حزم واثق، في مواجهة رئيسه، الذي عقد حاجبيه في اهتمام، وهو يقول:

- ولماذا كونت هذه الفكرة؟

أجابه الضابط:

- كان يهرع إلى الخارج حاملًا حقيبتين كبيرتين، لم يحكم اغلاقهما جيدًا، مما يوحي بأنه يتحرك على عجل، وفي توتر شديد، وعلى الرغم من هذا فقد ادعى أنه على موعد في (مديرية التحرير)، ثم لم يهتم حتى بإلغاء الموعد، عندما أخبرته بأمر حصار المنطقة، بل ولم يطلب تلك المؤن والوقود، اللذين أشار إلى نفادهما، مما يوحي بأنه كان كاذبًا في هذا الحديث.

أومأ رئيسه برأسه متفهمًا، وهو يقول:

- إنه أمر يبعث على الشك بحق.

قال الضابط:

- ليس هذا فقط يا سيدي، ولكن اضطرابه الشديد أيضًا، عندما سألته عما إذا كان قد رأى أمرًا غريبًا، ثم حديث ابنته عن الأقزام السبعة.

هز رئيسه رأسه، وهو يقول:

- هذا الحديث طبيعي للغاية، بالنسبة لطفلة في مثل عمرها.. لقد شاهدت هذا الفيلم منذ عدة سنوات مع ابنتي، وظلت تتحدث عن الأقزام لعام كامل.

قال الضابط، وهو يشير بسبابته:

- ولكن والدها توتر في شدة، عندما بدأت تتحدث عن هؤلاء الأقزام، وحاول منعها من الاستمرار بأي شكل.

صمت رئيسه لحظات، وهو يزن الموقف في رأسه، ثم قال:

- إذن فأنت تعتقد أن هذا الشخص قد رأى شيئًا، يتعلق بالجسم الغريب، الذي نبحث عنه.

هتف الضابط:

- بل وربما أجري اتصالًا ما معه يا سيدي.

صمت رئيسه لحظات أخرى، ثم قال:

- هذا الأمر يحتاج إلى تحريات أكبر.. سنراقب هذا الرجل ومنزله سرًا، حتى نلتقط ما يؤيد قولك، قبل أن نلقي القبض عليه.

سأله الضابط:

- ولماذا لا نذهب لاستجوابه، على نحو مباشر؟

لوح رئيسه بكفه، وهو يقول:

- لنفس السبب الذي رفضوا من أجله إخلاء المنطقة، وفضلوا محاصرتها.. إننا مازلنا نجهل طبيعة الخصم الذي نواجهه يا رجل، وربما كان بشري الهيئة، أو كانت لديه قدرة على انتحال هيئات أخرى.. صحيح أن هذا الكلام يبدو أقرب إلى الخيال، ولكنه يتناسب مع الموقف كله، بغرابته وغموضه.. إنهم يخططون لكل شيء يا رجل، وليس علينا سوى الالتزام بالأوامر، والـ...

قاطعه بغتة أزيز جهاز اتصال الطوارئ الخاص، فالتقطه في سرعة ولهفة، وهو يقول:

- هنا القيادة.. من يتحدث؟

أتاه صوت أحد ضباطه، يجيب:

- من الفرقة التاسعة إلى القيادة.. لقد عثرنا على شيء سيثير دهشتكم للغاية.

هتف به الرئيس:

- هل وجدتم تلك القبة؟!

أجابه الرجل والانفعال يغمر صوته:

- بل عثرنا على ما هو أغرب يا سيدي.

وصمت لحظة قبل أن يجيب:

- عثرنا على المروحيات الثلاث المفقودة، وفي موضع لا يمكن أن تخطئه عين.

واتسعت عينا الرئيس في دهشة بالغة.

☆ ☆ ☆

5- الحيرة..

اتسعت عينا (خالد) عن آخرهما، في ذهول تام، وهو يحدق في العلبة التي تحملها ابنته، والتي برزت منها كرة حمراء، ينبعث منها ضوء باهت..

ولم يكن شكل الكرة، أو لونها، أو حتى الضوء المنبعث منها، السبب المباشر لدهشته وذهوله..

وإنما كان موضعها..

لقد فتحت (هبة) العلبة، فوثبت منها الكرة، وتعلقت في الهواء، وكأنما لا تربطها أية علاقة بالجاذبية الأرضية..

وهتفت (هبة) في سعادة، وهي تمد يدها نحو الكرة:

- هل رأيت جمالها يا أبي؟

صاح (خالد):

- لا.. لا تلمسيها..

ولكنها دفعتها بيدها في رفق، وهي تقول:

- لماذا؟.. إنها طريفة للغاية.

ومع دفعتها الرقيقة، سبحت الكرة في الهواء في بطء، وتحركت في نعومة أنيقة، وكأنها داخل مركبة فضائية، تجاوزت حدود الجاذبية، وغرقت في منطقة انعدام الوزن..

وتابع (خالد) حركة الكرة في ذهول، في حين جرت خلفها (هبة)، وهي تقول ضاحكة في سعادة:

- إنها تطير يا أبي.. كرتي تطير.

ودفعتها بأصابعها مرة أخرى، نحو الجدار، ولكنها لم تكد تبلغه، ودون أن ترتطم به، حتى دارت حول نفسها، وسبحت في الاتجاه الآخر، و(خالد) يتابع مسارها المتقن، وقد هوى قلبه تمامًا بين قدميه..

الآن لم تعد هناك ذرة واحدة من الشك..

هناك قوة مجهولة تعبث بهذا المكان..

قوة تستهدفه، أو تستهدف ابنته..

وفي عصبية متوترة، هتف:

- هيا.. سنغادر هذا المكان.. هيا..

تطلعت إليه في دهشة، وقالت:

- ولكن الضابط قال: إنه لا يمكننا أن نرحل.

هتف في عصبية:

- فليطلقوا علينا النار إذن.

قالت متوترة:

- وماذا عن (ميكي)؟.. هل نرحل ونتركه وحده؟

أجابها وهو يحمل الحقيبتين:

-(ميكي) ذهب ولن يعود.

صرخت (هبة):

- لا.. لا تقل هذا يا أبي.. (ميكي) سيعود.. لقد وعدوني.

صاح في عصبية:

- قلت لك: لن يعود.. لن يعود.. هم الذين سيعودون إلى هنا.. ألا تدركين ما الذي يسعون إليه؟ إنهم يبحثون عن عينات من كوكبنا.. عينات من المياه، والتربة، والرمال، والحيوانات.. بل والبشر أيضًا.. إنهم يريدون اختطافك.. ألم تفهمي هذا؟

ترقرقت الدموع في عينيها، وهي تقول في أسى، لا يتناسب قط مع طفولتها وبراءة نفسها:

- إنهم لا يريدون اختطافي يا أبي.. بل يلعبون معي فحسب.

صاح بها:

- خطأ.. خطأ.. إنهم يخططون لسرقتك مني، وحملك إلى كوكبهم، ولن أسمح بحدوث هذا قط.. هل تفهمين؟.. لن أسمح به أبدًا..

انهمرت دموعها على وجنتيها، وهي تقول:

- لا يا أبي.. أنت تخدعني.. لو أنهم أرادوا اختطافي، فلماذا لم يفعلوا هذا أمس وأنت نائم؟.. لماذا اكتفوا باللعب معي؟

صدمته تساؤلاتها البريئة، التي ارتطمت بحاجز المنطق في عقله، فأيقظت فيه رؤية جديدة، لم ينتبه إليها من قبل..

لو أنهم أرادوا اختطافها، فلماذا لم يقدموا على هذا بالفعل؟

إنه لن يستطيع حتى منعهم لو حاولوا..

لقد رأى بنفسه ما يثبت أنهم أكثر قوة وتقدمًا، وأنه لا قبل له بالتصدي لهم قط..

وسقطت الحقيبتان من قبضته، بعد أن انكشفت لبصيرته الحقيقة، وعاد ذلك الشعور الرهيب بالعجز والوحدة والحيرة يحيط به، وانتقل إلى لسانه، الذي ردد في خفوت:

- ماذا يريدون منا إذن؟.. ماذا يريدون؟

وبقي سؤاله أشبه بتلك الكرة المضيئة، معلقًا في سماء الحجرة.. وبلا جواب..

☆ ☆ ☆

تحول ذلك الجزء من الصحراء الغربية فجأة، إلى ترسانة كاملة من الأسلحة، حتى بدا أشبه بساحة قتال، تستعد فيها فرقة من الجيش، لشن هجوم شامل على العدو، فقد استقرت طائرات الهليكوبتر الحربية الثلاث على الرمال، وحولها فرقة من المشاة، تتخللها عدة سيارات مصفحة ومجنزرة، وأربع دبابات حديثة، بمدافعها المتحفزة، وحلقت فوقها سبع طائرات هليكوبتر أخرى، هبطت من بينها واحدة، تضم قائد القوات الجوية، وقائد الدفاع الجوي، وثلاثة من كبار الضباط، ولقد غادروها جميعًا فور هبوطها، وقبل حتى أن تتلاشى أو تهدأ عاصفة الرمال، التي أثارتها مراوحها، وسأل قائد القوات الجوية رئيس فرقة البحث في اهتمام:

- كيف حال الطائرات الثلاث؟

أجابه الرجل، وهو يؤدي التحية العسكرية:

- في حالة ممتازة للغاية يا سيدي.. بل ويمكنني أن أقول بكل ثقة، إنها في حالة أفضل مما كانت عليه، عندما أقلعت من قاعدتها.

سأله القائد في دهشة:

- وكيف هذا؟

أجابه الرجل:

- لقد تم غسلها وتنظيفها وتشحيمها، وزودت بالوقود ملء خزاناتها، ولمع بعضهم واجهات العدادات، ونفض الرمال عن المقاعد.. باختصار.. إنها تبدو كالجديدة.

سأله القائد في شك:

- وهل تأكدتم من أنها الطائرات نفسها؟

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم يا سيدي.. لقد راجعنا أرقام المحركات، وأرقام الأجسام الخارجية، وكلها مطابقة.

هز القائد رأسه في حيرة، قبل أن يسأل في لهفة:

- والطيارون.. ماذا عنهم؟

أجابه الرجل على الفور:

- كلهم في خير حال، والأطباء يفحصونهم الآن في تلك الخيمة هناك.

اتجه القادة مباشرة إلى الخيمة، واستقبلهم فريق الأطباء والطيارون الثلاثة، وسأل قائد الدفاع الجوي في قلق:

- كيف حال الرجال؟

أجابه كبير الأطباء:

- في خير حال، إلى حد يثير الدهشة، كما لو أن فريقًا من أمهر الأطباء قد اعتنى بهم عناية بالغة، حتى أن الرائد (صفوت) كان يعاني ارتفاعًا طفيفًا في ضغط الدم، وهو الآن في صحة جيدة للغاية، وضغط دمه مثالي، والنقيب (ميشيل) كان يخضع

للعلاج، بشأن التهاب مزمن في الأذن الخارجية، ولكنه شفي منه تمامًا، ولكن أكثر الحالات غرابة، في حالة النقيب (عبد الله).

سأله القائد في اهتمام:

- وماذا عنه؟

هز كبير الأطباء رأسه في حيرة، وقال:

- لقد أصيب قبل إقلاعه أمس بجرح في ذراعه اليمنى، فضمده له زميل، وأخبره بضرورة ذهابه إلى العيادة الطبية لخياطة الجرح، فور عودته من المهمة.

تبادل القادة نظرة حائرة، ثم سأل أحد الضباط الكبار:

- حسن، وما العجيب في هذا؟

تنهد كبير الأطباء، وقال:

- هذا الجرح لم يعد له وجود.

هتف الجميع في آن واحد:

- ماذا؟

أشار كبير الأطباء إلى ذراع النقيب (عبد الله)، وهو يقول:

- لقد التأم الجرح تمامًا، ولم يعد ظاهرًا منه سوى ندبة خفيفة، وهذا لا يحدث إلا بعد أسبوع من العلاج الجيد على الأقل..

عاد القادة يتبادلون نظرة حائرة، ثم اتجه قائد الطيران إلى الطيارين الثلاثة، وقال:

- حمدًا لله على سلامتكم يا رجال.. أخبرونا.. ما الذي حدث لكم بالضبط؟

هزوا رؤوسهم في حيرة تامة، وأجاب الرائد (صفوت):

- المشكلة أننا لا نذكر هذا قط يا سيدي.. آخر ما تبقى في ذاكرتنا هو أننا شاهدنا قبة كبيرة، تختفي وسط الرمال، فاتجهنا إليها. وبعدها تلاشت ذاكرتنا تمامًا، حتى وجدنا أنفسنا داخل طائراتنا، وسط الصحراء، وحولنا رجال المشاة.

انتقل القائد ببصره إلى النقيب (ميشيل) والنقيب (عبد الله)، وسألهما:

- أهذا ما تذكر انه أيضًا؟

أجاباه بمزيج من الحيرة والقلق:

- نعم.. هذا كل ما نذكره.

صمت القائد لحظات، وهم يحاولون استيعاب الموقف كله، ثم قال قائد القوات الجوية في حزم:

- فليكن.. انقلوا الطيارين الثلاثة إلى مستشفى القوات الجوية في (العباسية)، ليتم عمل الفحوص اللازمة لهم، وسنرسل ثلاثة طيارين آخرين لإعادة الطائرات، ليتم فحصها في القاعدة بوساطة الخبراء، وفي الوقت نفسه سنواصل عملية البحث في المنطقة.

قال أحد الضباط الكبار، وهو يفرد خريطة للمنطقة:

- لو أردت رأيي يا سيدي القائد، فالسر كله يكمن في هذه المنطقة بالذات.

قالها وهو يشير إلى دائرة صغيرة، تحيط بموقع إحدى مزارع استصلاح الأراضي الجديدة..

وكانت هذه المزرعة تخص (خالد)..

(خالد) بالذات..

☆ ☆ ☆

جلس (خالد) مبهورًا مأخوذًا، يتابع ابنته، التي راحت تلهو بالكرة العجيبة في مرح وسعادة، وهو يتساءل: ما الذي ينبغي عليه أن يفعله؟.

لقد كانت هذه المزرعة هي أمله الوحيد في الحياة، ومن أجلها بذل أقصى طاقته، وقاتل بكل إصراره وعناده، وأنفق كل ما أدخره في حياته، وها هو ذا الآن يتمنى لو تركها وهرب..

ولكن، هل يجدي الفرار؟

هل يمكنه أن يحل المشكلة؟!..

إنه يخشى هؤلاء الغرباء، الذين لم يقع بصره عليهم قط..

الغرباء الذين تركوا شخصًا آليًا في البئر، واختطفوا (ميكي)، وشاهدتهم ابنته..

ومن العجيب أنهم لم يحاولوا الإساءة إليها، بل اكتفوا باللهو معها، ومنحوها هذه الهدية العجيبة، بدلًا من اختطافها مثلما فعلوا مع (ميكي)..

وفجأة، قفز إلى ذهنه خاطر مخيف، جعل جسده يرتجف في قوة، من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه..

ماذا لو أنهم قد فعلوا شيئًا ما بابنته، دون أن تدري؟!..

ربما زرعوا في جسدها شيئًا ما، أو عرضوها لتجربة عجيبة، أو...

انتفض جسده مرة أخرى، وهو يحدق في الكرة الطائرة، وهتف في أعماقه:

- أو أن هذه الهدية العجيبة تفعل هذا.

ولم يكد هذا الخاطر يستقر في ذهنه، حتى هتف بغتة:

- كفي!

قفزت (هبة) من مكانها مذعورة، وسألته في خوف:

- ماذا حدث يا أبي؟

أشار إلى الكرة، وهو يقول في حدة:

- كفي عبثًا بهذا الشيء.. إننا نجهل حتى ما هو.

قالت في حيرة:

- إنها كرة.

صاح في عصبية:

- إنها ليست مجرد كرة.. هيا.. أطيعي الأمر، وأعيدي تلك الكرة العجيبة إلى علبتها.

مطت شفتيها في اعتراض، وقالت:

- سوف أخاصمك طويلًا.

ثم اتجهت إلى العلبة، وفتحتها، فنهض هو ليلتقط الكرة، ويعيدها إلى العلبة، ولكنه فوجئ بابنته تقول في بساطة:

- عودي إلى العلبة.

وتسمر في مكانه مذعورًا، عندما سبحت الكرة نحو العلبة مباشرة، وكأنها تطيع الأمر، واستقرت داخلها في هدوء، فأغلقتها (هبة)، وهي تقول:

- عندما تشتري لعبة لنفسك، سأمنعك أنا أيضًا من اللهو بها.

لم تكد تتم عبارتها، حتى ارتقعت طرقات قوية على باب المنزل، فوثب (خالد) من مكانه في هلع، وهو يهتف:

- من بالباب؟

أتاه صوت الضابط، الذي التقى به في الصباح، وهو يقول:

- أنا الضابط المسؤول عن المنطقة.

راح قلب (خالد) يخفق في عنف، وهو يفتح الباب، واستقبله وجه الضابط الباسم، وهو يسأله:

- كيف حالك؟.. لقد نسيت أن تعطيني قائمة الطلبات.

قال (خالد) في ارتباك:

- أية طلبات؟

اتسعت ابتسامة الضابط، وضاقت عيناه في خبث، وهو يقول:

- عجبًا؟!.. كيف تنسى المؤن والوقود؟

هتف (خالد):

- آه.. إنني لم أنسها، ولكنني لم أدر كيف أبلغكم بما أريد.

أشار الضابط بيده إلى الداخل، وهو يقول:

- لديك جهاز اللاسلكي.

ارتبك (خالد) مرة أخرى، وهو يقول:

- الواقع أنني لم أعتد وجوده هنا.

أومأ الضابط برأسه، وكأنه يتفق معه، ثم سأله بغتة:

- أين ابنتك الصغيرة؟

سرت قشعريرة في جسد (خالد)، وهو يقول في اضطراب:

- ما الذي تريده منها؟

لم ترق له ابتسامة الضابط، وهو يقول:

- وما المشكلة في أن ألتقي بها؟.. إنها طفلة ذكية، وكنت أرغب في أن ألقي عليها التحية فحسب.

فكر (خالد) في أن يدعي أن ابنته نائمة، ولكنه فوجئ بها إلى جواره، تبتسم في براءة، وتقول للضابط:

- كيف حالك يا عماه؟

ابتسم لها الضابط، وهو يقول:

- كيف حالك يا صغيرتي، وكيف حال أقزامك السبعة؟

أسرع (خالد) يقول:

- إنه مجرد خيال جامح، و...

قاطعته الصغيرة في حدة:

- أبي.. قلت لك: إنه ليس خيالًا.

أمسك الضابط كفها الصغيرة، وتجاوز والدها، وهو يقودها إلى الداخل، قائلًا:

- بالطبع يا صغيرتي.. أنا أعلم أنه ليس خيالًا، وأنا هنا لأتحدث معك بشأنه.. أخبريني.. كيف التقيت بهم؟.. ماذا كانوا يرتدون؟ وبأية لغة يتحدثون..

هتف (خالد) في حدة:

- اترك الصغيرة وشأنها.. إنها لا تفهم ما تتحدث عنه.. كل ما في الأمر أنها فقدت كلبها (ميكي) بعد إصابته، وشعورها بالوحدة آلمها كثيرًا، فراحت تصنع لنفسها عالمًا آخر، من الأقزام والأطفال، الذين تراهم في أفلام الرسوم المتحركة.

قالت (هبة) في حماس:

- ولكن (ميكي) سيعود.. لقد وعدوني بإرجاعه، بعد علاج ساقه المصابة.

قال (خالد) في عصبية:

- هل ستبني فكرتك على أقوال طفلة في الخامسة من عمرها؟

التفت إليه الضابط، وسأله في خبث:

- فكرتي عن ماذا؟

لوح (خالد) بذراعه كلها في توتر، وهو يقول:

- الفكرة التي تلقي من أجلها كل هذه الأسئلة.

انتقل الخبث إلى ابتسامة الضابط، وهو يقول:

- إنه مجرد حديث ودي مع الصغيرة، لماذا تصورته أي شيء آخر خلاف هذا؟

ارتج على (خالد)، فحدق في وجه الضابط في صمت، في حين عاد هذا الأخير يلتفت إلى (هبة)، ويسألها:

- هل قالوا إنهم سيعالجون (ميكي)؟

أجابته في بساطة:

- نعم.. وسيعيدونه إلي.

هتف (خالد) في عصبية:

- كلام أطفال.. مجرد كلام أطفال.. لقد سقط الكلب، وانكسرت ساقه، ثم ابتلعته حفرة ما في الصحراء، ولقي مصرعه فيها.. هذا أمر واضح.. إنه...

قبل أن يتم عبارته، صك مسامعهم صوت نباح قوي، يأتي من بعيد، فهتفت (هبة) في سعادة:

- (ميكي).. لقد عاد.

وأسرعت إلى الباب، فتبعها الضابط في لهفة، وخرج خلفهما (خالد)، وارتفع حاجباه عاليًا، حتى كادا يمتزجان بأطراف شعر رأسه، وهو يحدق في ذلك المشهد، الذي بدا له عجيبًا..

عجيبًا للغاية.

☆ ☆ ☆

6- العودة..

كانت الفدادين المائة، التي تكونت منها مزرعة (خالد)، تمتد أمام عينية لمسافة طويلة، وتنتهي بحاجز من الأسلاك العادية، ومن عند هذا الحاجز برز (ميكي)، وهو يعدو بكل قوته، متجهًا إلى المنزل..

ولم يصدق (خالد) عينيه..

لقد كان الكلب يعدو في قوة ونشاط، وكأن ساقه لم تكسر قط، في حين اندفعت (هبة) نحوه، صائحة في فرحة عارمة:

- لقد صدقوا في وعدهم.. لقد أعادوا إليّ (ميكي).

التقت بالكلب على مسافة عشرة أمتار من المنزل، فراح يدور حولها في سعادة، وينبح في فرح، فالتفت الضابط إلى (خالد) وقال:

- لا يبدو لي أبدًا ككلب مصاب.

غمغم (خالد) والدهشة تملأ وجهه، وتطل في وضوح مع نبرات صوته المضطربة:

- ولكنه كان كذلك بالفعل.

التفت إليه الضابط، وسأله في صرامة:

- أأنت واثق من أنك لم تخف عنا شيئًا؟

هتف (خالد) في عصبية شديدة:

- اسمع أيها الضابط.. أنا مواطن مدني، وليس من حقك أن تستجوبني.. لا شأن للجيش بي على الإطلاق.

أطلت الصرامة من عيني الضابط، وهو يقول:

- ادخر كلامك هذا لموقف يستحقه.

ثم أشار إلى رجاله، مستطردًا بلهجة آمرة:

- خذوا الكلب.

صاحت (هبة):

- لا.. لا تأخذوا (ميكي).

ولكن الجنود انقضوا على الكلب، وألقوا فوقه شبكة سميكة، تستخدم لتمويه السيارة في أثناء المناورات، فزمجر (ميكي)، ونبح، وراح يضرب الشبكة بمخالبه، ويعضها بأنيابه، و(هبة) تصرخ:

- اتركوا (ميكي).. لا تفعلوا به هذا.

وقال (خالد) للضابط في غضب:

- ليس هذا من حقكم أيضًا.

ابتسم الضابط في سخرية، وهو يقول:

- حقا؟

كان رجاله قد حملوا الكلب إلى السيارة، فقفز هو إلى المقعد المجاور للسائق، و(هبة) تصرخ فيه:

- أنا لا أحبك.. أنا أكرهك.. اترك (ميكي) وإلا ضربتك.

وتطلع هو إليها في هدوء، ثم رفع عينيه إلى (خالد)، وقال في صرامة:

- سأعود إليها.

وبإشارة من يده، انطلقت السيارة مبتعدة، ونباح (ميكي) يتواصل داخلها، فألقت (هبة) نفسها بين ذراعي أبيها، وهي تبكي هاتفة:

- لماذا أخذوه يا أبي؟!.. لماذا أخذوا (ميكي)؟

ربت والدها عليها مشفقًا، وضمها إليه في حنان، وهو يتابع ببصره السيارة، وهي تبتعد وتبتعد، حتى اختفت في قلب الصحراء..

وامتلأت نفسه بالخوف..

لم يكن حملهم للكلب هو سبب مخاوفه، وإنما كانت تلك الجملة الأخيرة، التي نطق بها الضابط قبيل انصرافه..

سيعود من أجل ابنته..

سيعود في المرة القادمة ليأخذها، كما أخذ (ميكي)..

وجمح به الخيال، فتصور الجنود ينقضون على ابنته الصغيرة، ويلقون شبكتهم فوقها، ثم يسحبونها أرضًا، ويضعونها فوق سيارتهم، كما فعلوا مع الكلب..

رآها بعين الخيال، ترقد فوق منضدة تشريح، والعلماء يغرسون مشارطهم في جسدها الصغير، ليبحثوا عما تركه الغرباء داخلها..

سيحولونها إلى فأر تجارب..

مجرد عينة للفحص..

وجعلته هذه التصورات يضم ابنته إلى صدره في قوة، ويهمس بصوت مبحوح، خرج على الرغم منه أشبه بالفحيح:

- ينبغي أن نرحل من هنا.. من الضروري أن نبتعد عن هذا المكان..

كان قد اتخذ قراره، ولن يتراجع عنه أبدًا..

أبدا..

☆ ☆ ☆

«هذا أغرب شيء رأيته، في حياتي كلها!!».

نطق كبير الأطباء بهذه العبارة، بعد أن انتهى من فحص (ميكي)، بمعاونة أحد كبار الأطباء البيطريين، وامتلأ صوته بالدهشة والحيرة، وهو يستطرد، أمام قائد القوات الجوية:

- الفحوص وصور الأشعة أثبتت أن الكلب كان مصابًا بكسر في ساقه بالفعل، ولكن هذا الكسر تمت معالجته بوسيلة لا مثيل لها في المراجع الحديثة.. لقد أدخلوا في ساقه إبرة دقيقة، ووضعوا العظام في موضعها الصحيح يدويًا، ثم حقنوا مادة عجيبة، ألصقت الطرفين المكسورين ببعضهما، وأعادتهما إلى ما كانا عليه، بحيث استطاع الكلب أن يتحرك، واستعاد نشاطه كله.

قال القائد في توتر:

- من الواضح أنهم يفوقوننا كثيرًا من تقدمهم العلمي، وهذا يثير في نفسي المزيد من الخوف.

سأله كبير الأطباء:

- لماذا، ما داموا لم يتسببوا في إيذاء أي مخلوق؟

أجابه القائد في سرعة:

- حتى هذه اللحظة، ولكن من يدري ما الذي يخططون له فيما بعد.. ربما كان هذا مجرد خدعة؛ لاكتساب ثقتنا، أو امتصاص شكوكنا، وبعدها ينقضون علينا بلا رحمة، ونحن نجهل كل شيء عنهم..

اعتدل الضابط في وقفته العسكرية، وهو يقول:

أعتقد أن الصغيرة يمكنها أن تمدنا ببعض المعلومات.

سأله قائد القوات الجوية:

- أية صغيرة؟

أجابه الضابط:

- صاحبة هذا الكلب.. إنها طفلة في الخامسة من عمرها، وتقول إنها قابلت الغرباء، وتحدثت إليهم، و...

هب القائد من خلف مكتبة، وهو يهتف:

- ولماذا لم تحضرها إلينا؟

ارتبك الضابط، وهو يقول:

- إنها طفلة صغيرة، ولقد فكرت في أنه من الأفضل أن نتأكد أولًا من صحة قصتها، بعد فحص الكلب، و..

قاطعة القائد في غضب:

- ماذا تقول يا رجل؟.. هذه الطفلة هي سبيلنا الوحيد، لجمع شيء من المعلومات، عن الخطر الذي نواجهه، ونحن نجهل كل شيء عنه.. هيا أيها الضابط.. اذهب وأحضر لنا تلك الطفلة على الفور.. هل تفهم؟!.. أريد هذه الطفلة.

ودق سطح مكتبه بقبضته في عنف، وهو يستطرد:

- أريدها بأي ثمن..

☆ ☆ ☆

كانت الشمس قد بدأت رحلتها نحو الغروب، عندما همست (هبة) لوالدها في خوف، وهي تتسلل معه إلى سيارته في (الجيب)، التي أخفاها خلف المخزن:

- لماذا نفعل هذا يا أبي؟

أجابها في توتر:

- لابد لنا من الهروب من هنا، قبل أن يعود ذلك الضابط لاصطحابك.

سألته:

- ولماذا يفعل هذا؟

أجابها والمرارة تعتصر قلبه:

- إنهم يريدون أن يجروا تجاربهم عليك.. لن يعنيهم أنك طفلة، أو أنك ابنتي.. كل ما سيسعون إليه هو الحصول على الحقائق.. هذا كل ما يهمهم.

بلغا السيارة في تلك اللحظة، فسألته وهو يضعها داخلها:

- ولكن ذلك الضابط يبدو ظريفًا.. أليس كذلك؟

قال في حدة، على الرغم من صوته الخافت:

- كلهم يبدون كذلك، حتى تبرز مخالبهم.

تطلعت إليه في حيرة، وغمغمت:

- لست أفهم شيئًا.

احتل مقعد القيادة، وأدار المحرك، وهو يقول:

- عندما تكبرين، ستفهمين كل شيء.

انطلق بالسيارة في حذر، مستترًا بالمخزن، ومستغلًا ذلك الظل الطويل، الذي صنعه مع أشعة الشمس، مع قرب الغروب، وراح قلبه يدق في قوة، وهو يتمنى ألا يشعروا بفراره..

كان قد اتخذ قراره هذا في حزم، بعد أن أدرك أنهم سيعودون، إن عاجلًا أو آجًلا، ليسلبوه ابنته الصغيرة، أحب مخلوق إلى قلبه، بعد رحيل زوجته..

وابنته (هبة) هي حياته كلها، وأمله، وروحه، وأحلامه..

كل ما يفعله في حياته من أجلها..

حتى هذه المزرعة، كان ينوي استصلاحها من أجلها، حتى تحمل اسمها يومًا، وتمنحها عائدًا مجزيًا، يكفل لها حياة كريمة..

وعندما يفر من المكان، ويترك كل حقائبه وأشياءه خلفه، فإنما يفعل هذا أيضًا من أجلها..

«انتظر يا أبي..».

هتفت بها (هبة) في ذعر، جعله يضغط الفرامل في حركة غريزية، وهو يهتف بها:

- ماذا.. ماذا حدث؟

صاحت في اسي:

- نسيت الهدية هناك.

تملكه الغيظ، وهو يقول في حدة:

- لن نأخذ هذه الهدية اللعينة معنا.

لوحت بذراعيها، قائلة:

- ولكنني أحبها، وأريدها معي.

أمسك كتفيها الضئيلتين، وتطلع إلى وجهها مباشرة، وهو يبذل قصارى جهده للسيطرة على أعصابه الثائرة، وقال:

- اسمعيني يا (هبة).. اسمعيني جيدًا.. لا يمكننا أبدًا أن نأخذ هذه الهدية معنا؛ لأننا لا نعلم ماهيتها.. من يدري؟.. أليس من المحتمل أن تكون جهاز تعقب مثلًا، أو أنها تصدر نوعًا من الإشعاعات الضارة؟

قالت باكية:

- لست أفهم شيئًا، ولكنني أريد لعبتي.

تنهد، وقال:

- من الطبيعي ألا يمكنك فهم ما أقول يا صغيرتي، ولكن كل ما أطلبه منك هو الثقة.. امنحيني ثقتك يا (هبة)، وتأكدي من أن أباك لن يفعل قط إلا ما هو في صالحك.. هل تثقين بأبيك يا (هبة)؟

أومأت برأسها إيجابًا، والدموع تغرق وجهها، فربت على خدها في حنان، وهو يكمل:

- يومًا ما ستعلمين أنني فعلت هذا من أجلك، وأنني ضحيت بكل شيء عن طيب خاطر لأنقذك من الخطر.

سالت دموعها في صمت، فاعتدل، وانطلق بالسيارة مرة أخرى مبتعدًا، وهو لا يدري إذا ما كان يتجه نحو أمل جديد، في أن يحيا مع ابنته في سلام وأمان، أم أنه ينطلق -دون أن يدري- نحو النهاية.

نهايتهما..

☆ ☆ ☆

أوقف الضابط سيارته أمام منزل (خالد)، وقفز منها في لهفة، وهو يهتف برجاله:

- حاصروا المنزل، ولا تسمحوا لأحد بالخروج دون إذن.

وطرق الباب في رفق في البداية، ولكن طرقاته لم تلبث أن تحولت إلى العنف والعصبية، عندما لم يجد أية استجابة من الداخل، حتى هتف أخيرًا:

- اكسروا هذا الباب.

ضرب اثنان منهما الباب بكتيفيهما، حتى تهاوي، ثم اندفع الجميع إلى المنزل، وقال الضابط في توتر:

- فتشوا المكان كله.. ابحثوا عن أي أثر يمكن أن يرشدنا إليهما.

بدأت عملية تفتيش سريعة للمكان، وعاد أحد الرجال من الخارج، قائلًا:

- لقد اختفت السيارة، وآثار إطاراتها تشير إلى أنها انطلقت نحو الشرق.

هتف الضابط في حنق، وهو يلوح بذراعه:

- لقد هرب الرجل.. أنا المخطئ.. كان المفروض أن أصطحب الفتاة معي على الفور.

ارتطمت يده في أثناء حركتها بصندوق صغير، فسقط أرضًا، وانفتح في عنف..

وتراجع الجميع في دهشة وذعر..

لقد وثبت تلك الكرة الحمراء بغتة، وتعلقت في الهواء، وراحت تشع ذلك الضوء الباهت..

ولثوان، لم ينطق شخص واحد بحرف، ثم اخترق صوت الضابط جدار الصمت بغتة، وهو يهتف:

- كنت أعلم هذا.

ثم صرخ برجاله:

- أريد هذا الرجل.. سنطارده عبر الصحراء كلها، لو استلزم الأمر.

اندفع الجميع نحو سيارتيهما، ودفع هو الكرة في حذر إلى داخل الصندوق، ثم حمله في حرص، وانضم إليهم، وهتف:

- هيا..

وانطلقت السيارتان تطاردان (خالد) وابنته، والشمس تغوص في الأفق، لتتم رحلة الغروب، ولتغرق الصحراء في ظلامها الدامس المخيف..

وفي سيارتهما، قالت (هبة)، وهي تلتصق بوالدها في خوف:

- كل شيء مظلم.. أنا أخشى الظلام.

أجابها وهو يزيد من سرعته، بأقصى ما يمكن أن تحتمله السيارة:

- لا تخشي شيئًا وأنا إلى جوارك يا صغيرتي.. كل شيء يسير على ما يرام، صدقيني.. نحن نبتعد عن الخطر.

قالت مرتجفة:

- ولماذا لا تضيء أنوار السيارة؟

قال في آسي:

- لو فعلت هذا سيكشفون موقعنا على الفور، وهذا ما أخشاه.

قالت، وهي تلتصق به أكثر وأكثر:

- ولكن الظلام مخيف، ونحن نطلق دون أن نرى ما أمامنا.

غمغم:

- اطمئني.. إنه نفس الطريق، الذي أتينا منه.

لم يكن واثقًا تمامًا مما يقول، ولكنه حاول أن يبث فيها شيئًا من الارتياح..

ولم تشعر الصغيرة بهذا الارتياح، إلا أنها لاذت بالصمت التام، والتصقت به في خوف، وراحت تتطلع أمامها مرتاعة، محاولة اختراق حجب الظلام، الذي بدأت حدته تتزايد أكثر وأكثر، كلما مضي وقت أطول على غروب الشمس..

وفجأة، سقط الضوء على السيارة من الخلف، فانتفض جسد (خالد) في ذعر، واستدار يتطلع إلى مصدر الضوء، وأمكنه أن يميز سيارتين عسكريتين، تندفعان نحوه بأقصى سرعتهما، فصاح في ابنته:

- تشبثي بي جيدًا.

وضغط دواسة الوقود بكل قوته، فانطلقت السيارة تشق طريقها وسط الصحراء المظلمة، ووضع الضابط على فمه مكبرًا صوتيًا، وهو يهتف:

- توقف يا سيد (خالد)، ولا تخش شيئًا.. إننا لن نفعل بابنتك ما يمكن أن يؤذيها.. صدقتي.. سنطرح عليها بضع الأسئلة فحسب.

لم يزد هذا القول (خالد) إلا إصرارًا، فاندفع بسيارته في سرعة أكبر، جعلت الضابط يغمغم في حنق:

- هذا الغبي ينطلق بسرعة بالغة، وسيارته لن تحتمل كل هذا العنف.

كانت سيارة (خالد) ترتج في عنف شديد بالفعل، و(هبة) تتقافز داخلها، وهي تهتف مذعورة:

- توفق يا أبي.. توقف أرجوك.. هذا يؤلمني.

كان قلبه يتمزق مع هتافاتها، ولكنه يخشى في الوقت نفسه أن يخفف من سرعته، وإلا لحقت به السيارتان العسكريتان، وانتزعوها منه بالقوة..

ولكن فجأة، ارتطم الإطار الأيمن الأمامي بتبة عالية من الرمال، فانحرفت السيارة إلى اليسار في عنف، ووثبت على نحو مخيف، فضم (خالد) ابنته إليه في قوة، وهو يصرخ:

- تشبثي بي.. تشبثي جيدًا.

ولكن السيارة انقلبت بغتة في عنف، وتدحرجت على نحو مخيف، ثم توقفت على جانبها الأيمن، وإطاراتها مازالت تدور في الهواء..

وفي ذعر، وعلى الرغم من الدماء التي تغمر وجهه، صرخ (خالد):

- (هبة).. (هبة).

ولكن ابنته كانت ملقاة أمامه على الرمال، وقد سالت الدماء من أنفها وفمها، وبدا من الواضح أنها قد رحلت إلى حيث زوجته.. أمها..

☆ ☆ ☆

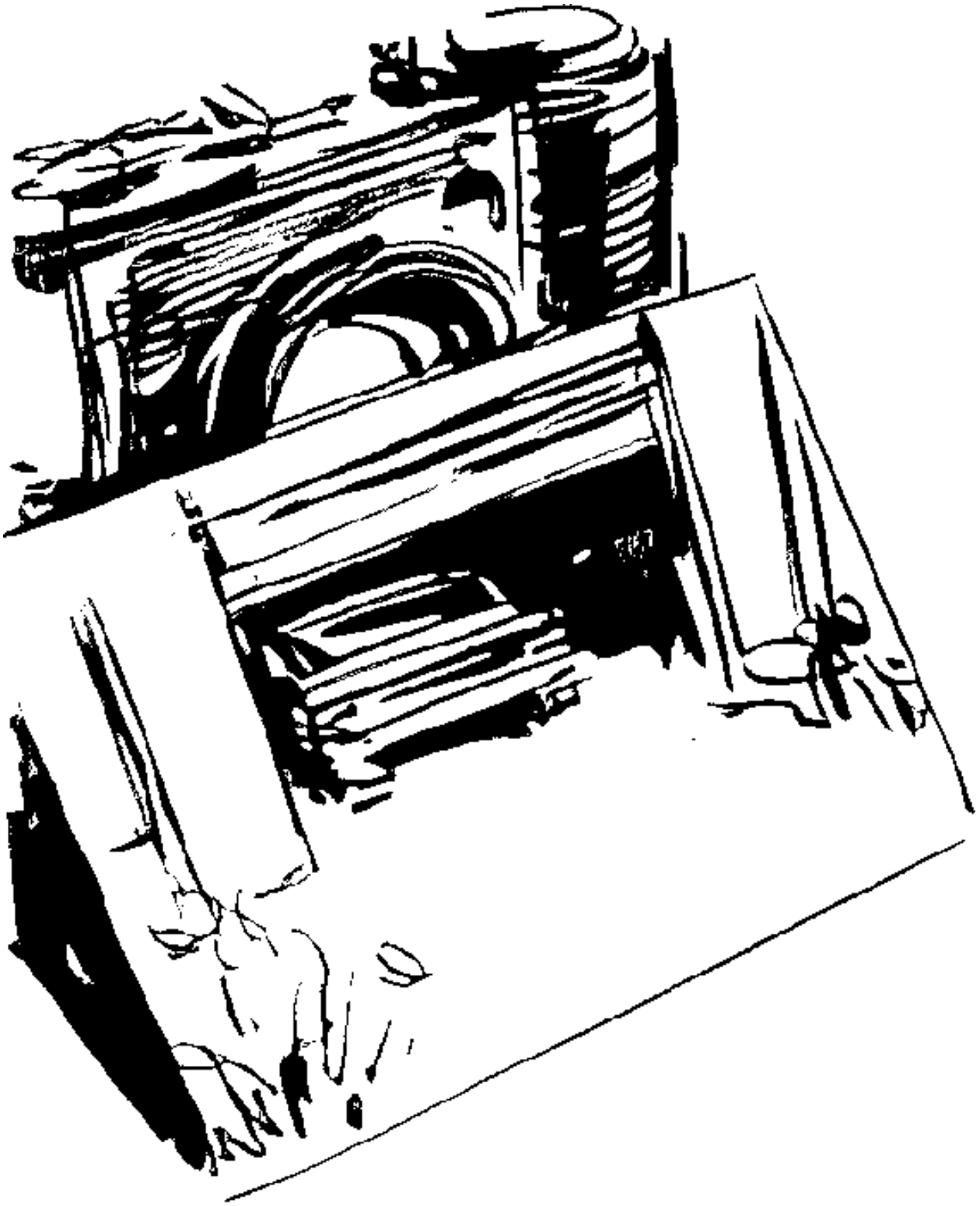

7- هبة..

«هبة.. قولي شيئًا يا (هبة)..».

أخذ (خالد) يصرخ في انهيار، وهو يضم جسد ابنته إلى صدره، والدماء النازفة من أنفها وفمها تغرق وجهه، حتى بلغته السيارتان العسكريتان، وقفز الضابط إليه، وهو يهتف في ارتياع:

- ماذا فعلت أيها التعس؟

وحاول أن يفحص الصغيرة، ولكن (خالد) تشبث بابنته في قوة، وأخذ يصرخ في ثورة:

- اتركوها.. اتركوا ابنتي.

صرخ الضابط في وجهه:

- دعنا نفحصها يا رجل.. ربما كان أمامها أمل في النجاة.

الكلمة الأخيرة وحدها جعلت (خالد) يتركها، ويتابعها ببصره في ذهول شارد، وهم يضعونها فوق الرمال، والضابط يلصق أذنه بصدرها في قوة، ثم سمعه يهتف:

- إنها مازالت حية، ولكن قلبها ينبض في ضعف شديد.. استدعوا طائرة هليكوبتر على الفور؛ لنقلها إلى المستشفى.. أسرعوا بالله عليكم.. إنها تحتضر تقريبًا.

قال (خالد) في انهيار:

- وأنتم تريدونها حية بالتأكيد، حتى يمكنكم الحصول على المعلومات.

رفع الضابط عينيه إليه في غضب، وهو يقول:

- المعلومات؟!.. فلتذهب المعلومات إلى الجحيم يا رجل.. ماذا تتصورنا بالضبط؟!.. وحوش بلا قلوب تنبض؟!.. كل ما يهمنا الآن هو أن تنجو ابنتك.. هل تفهمني؟.. إنني أب لطفلة في مثل عمرها، ألا تدرك ما يعنيه هذا؟

سالت الدموع من عيني (خالد) في مرارة، وهو يقول:

- أنقذها إذن.. أرجوك.. أنقذ حياتها.. إنها أملي الوحيد في الحياة.. دعني أقبل يديك.

قالها، وهو يندفع نحو يدي الضابط بالفعل، فنهره هذا الأخير في حدة، هاتفًا:

- تماسك يا رجل.. إننا نبذل قصارى جهدنا.

لم يكد يتم عبارته، حتى عاد إليه أحد جنوده، وقال:

- لقد اتصلنا بالمروحية، وستصل في غضون ربع الساعة من الآن.

سعلت (هبة) في تلك اللحظة، وتناثرت الدماء من فهما وأنفها مع السعال، فهتف (خالد):

- قل لهم أن يسرعوا.. أرجوك.

ولكن جسد (هبة) الصغير راح ينتفض في عنف، ثم يسترخى، ويعود لينتفض، فغمغم الضابط في حزن، وهو يقاوم دموعه:

- لست أعتقد أنهم سينجحون في إنقاذها، مهما أسرعوا.. أنا آسف يا سيد (خالد)، ولكن من الواضح أن...

قبل أن يتم عبارته، سطع ضوء مبهر بغتة فوق رؤوسهم، وغمرهم تمامًا، وأغشى أبصارهم، فهتف الضابط:

- ما هذا بالضبط؟

كان هناك جسم مستدير، أشبه بكرة ضخمة، معلق في الهواء، على ارتفاع عشرة أمتار، وينبعث منه ذلك الضوء الأبيض المبهر..

وبحركة غريزية، مدفوعة بعامل الخوف والرهبة، رفع الجنود أسلحتهم، وراحوا يطلقون النار على الكرة، التي لم يبد عليها أدني اهتمام بما يفعلون، كما لو أن هذه الرصاصات لم تنجح حتى في خدشها..

وهتف الضابط في توتر:

- ماذا يريدون؟

أجابه (خالد) في خوف:

- لست أدري.. ولكنهم لن يغامروا بكشف موقعهم بلا مبرر.

لم يكد يتم قوله، حتى انطلق من أسفل الكرة شعاع وردي، على هيئة أنبوب شفاف، انزلق عبرة جسم أسطواني صغير، أشبه بشخص آلي بدائي، يطابق ما وصفته (هبة)..

قدمان صغيران، وذراعان صغيران، ورأس به عينان خضراوان..

وكان هذا الشخص الآلي ينزل متجهًا نحو (هبة)، فصرخ والدها:

- لا.. ليس (هبة).

حاول أن يندفع نحو ابنته، ولكنه ارتطم بالشعاع الوردي، الذي بدا له أشد صلابة من الفولاذ، على الرغم من رقته وشفافيته، فراح يدق عليه بقبضتيه في عنف، ويصرخ:

- اترك (هبة).. اترك (هبة) أيها الوغد.

ولكن الآلي توقف أمام الصغيرة تمامًا، ثم ارتفع من رأسه شيء يشبه هوائي اللاسلكي، ولكنه انحنى، واتجه نحو رأس (هبة) مباشرة.

وفجأة، فقد الأنبوب الوردي شفافيته، وأخفى الآلي وجسد (هبة) تمامًا..

وهنا أصيب (خالد) بالجنون، وراح يضرب الأنبوب بقدميه وقبضتيه، وهو يصرخ:

- اتركوها.. اتركوا ابنتي.

أمسك به الضابط في قوة، ليبعده عن الأنبوب، وهو يهتف:

- حذار يا رجل، ربما كان ما تفعله ضارًا بابنتك.

قاومه (خالد) في شراسة، وهو يقول:

- اتركني.. قلت لك اتركني.

ومع آخر حروف هتافه، اختفى الأنبوب بغتة، ولم يعد هناك أثر للشخص الآلي، فاتسعت عيون الجميع في ذهول، وغمغم الضابط:

- أين ذهب؟

امتزجت غمغمته بصليل مكتوم، جعله يلتفت في دهشة إلى سيارته، وارتفع حاجباه إلى أعلى، عندما رأى الكرة الحمراء تغادر صندوقها، وتسبح في الهواء في بطء، متجهة نحو (هبة)، حيث توقفت فوق رأسها تمامًا، ثم راحت تتألق وتتألق، قبل أن تبتعد عنها، وتفقد بريقها كله دفعة واحدة، ثم تسقط على الرمال كالحجر.

وهنا بدأ ضوء الجسم المستدير يخفت، وبدا وكأنه يرتفع أكثر وأكثر، فهتف الضابط:

- إنه يهرب مرة أخرى.

نظر إليه أحد الجنود في دهشة، وغمغم:

- يهرب؟!.. وممن يهرب يا سيادة الضابط؟

وقبل أن يجيبه الضابط، أو حتى يفكر في البحث عن جواب، حلقت مقاتلتان من طراز (ف- 16) فوق الجسم المستدير، فصاح الضابط:

- لقد التقطته أجهزة الرادار.. سيهاجمونه حتمًا.

ولكن ذلك الجسم المستدير انطلق إلى أعلى بغتة، بصوت أشبه بالفرقعة المكتومة، وبسرعة مذهلة، أثارت عاصفة من الرمال..

ثم انطلقت المقاتلتان خلفه، واختفى الجميع في السماء..

وبينما العيون كلها تتطلع مبهورة إلى حيث اختفى الجسم المستدير، كان (خالد) يضم جسد ابنته إلى صدره، وهو يبكي في حرارة، متمتمًا:

- ماذا فعلوا بك يا صغيرتي؟.. ماذا فعلوا بك يا قرة عيني؟

اقترب منه الضابط في عطف مشفق، ووضع يده في رفق على كتفه، وهو يهمس في صوت حزين:

- لا ترهقها يا رجل.. دعها تسترح.

انهمرت دموع (خالد) في غزارة، تغرق وجه ابنته، قبل أن يرقدها على الرمال في رفق، ثم يستدير إلى الضابط، هاتفًا:

- أنت المسؤول.. كلكم مسؤولون عما أصابها، ولو أصابها مكروه، ستدفعون الثمن جميعًا.

أجابه الضابط في حدة:

- أي قول أحمق هذا يا رجل؟.. لقد كنا نؤدي واجبنا، ولكن إصرارك على عدم التعاون معنا، هو الذي تسبب في كل هذا، ولو أنك أبلغتنا ما لديك منذ البداية، لاختلف الموقف تمامًا.

صرخ (خالد)، وهو يندفع نحوه:

- بل أنتم المسؤولون.. أنتم الذين...

وقبل أن يكمل عبارته، أتاه صوت خافت يقول:

- أبي.

تسمر في مكانه، ثم استدار يتطلع في دهشة إلى ابنته، قبل أن يصرخ في سعادة غامرة:

- (هبة).. أنت بخير يا صغيرتي.. حمدًا لله.. حمدًا لله.

واندفع نحو صغيرته، التي ابتسمت في براءة، واحتواها بين ذراعيه في فرحة هائلة، وهو يشعر أن كل الدنيا لم تعد تعنيه، فهي الآن بين ذراعيه..

وخلف ظهره، كانت هناك ظاهرة عجيبة، لم ينتبه إليها..

كان هناك فريق عسكري كامل من فرق البحث المحترفة، تنهمر من عيونهم الدموع..

الدموع الحارة..

☆ ☆ ☆

«من (القرش المقاتل) إلى القاعدة.. نحن خلف الهدف، وسنطارده على ارتفاع كبير.. إنه يتجاوز السحب الآن، هل يمكننا التعامل معه؟..».

«من القاعدة إلى (القرش المقاتل).. اكتف بالمطاردة فحسب، ولا تتعامل مع الهدف الآن، إلا لو حاول هو التعامل معك..».

«من (القرش المقاتل) إلى القاعدة.. نحن نخترق السحب خلف الهدف، و... رباه!... ما هذا بالضبط؟..».

أثارت تلك الصيحة الأخيرة موجة عنيفة من القلق والتوتر، في قاعدة المراقبة، فتبادل الجميع نظرة سريعة، قبل أن يختطف القائد مسماع جهاز الاتصال، ويهتف:

- ماذا حدث أيها (القرش المقاتل)؟.. ماذا وجدتما؟

مضت لحظة من الصمت، بدت للجميع أشبه بدهر كامل، وكادت قلوبهم تتوقف، قبل أن يأتيهم رد الطيار، وهو يقول في ذهول:

- إنه شيء لا يمكن وصفه.. شيء هائل رهيب.. لقد كنت أتصور أن هذا الجسم ضخم للغاية، فنصف قطره يكاد يبلغ خمسة أو ستة أمتار، ولكنه يبدو ككرة تنس طاولة صغيرة، أمام هذا الشيء.

قال القائد في توتر:

- صف لنا ما تراه جيدًا أيها (القرش المقاتل).

أجابه الطيار مبهورًا:

- إنه شيء لا يمكنك أن ترى مثيلًا له قط.. ليست مجرد سفينة فضاء، ولكن مدينة كاملة تسبح بأعلى.. شيء في حجم الهرم

الأكبر ثلاث مرات على الأقل، وقد دخل إليه ذلك الجسم المستدير، عبر ممر طويل مضاء.. يا إلهي!.. كيف لم تلتقط أجهزتنا شيئًا بهذا الحجم؟! أراهن على أن لديهم أجهزة مدهشة، للشوشرة على الرادارات.

هتف به القائد:

- هل يمكنك أن تلتقط صورته؟.. هل يمكنك هذا؟

أجابه الطيار:

- ولكنه يتحرك.. لقد بدأ يدور حول نفسه، و...

قاطعه فجأة دوي عجيب، امتزج بفرقعة مكتومة، فصاح القائد قلقًا:

- ماذا حدث يا رجل؟.. هل أصابك مكروه؟

أتاه صوت الطيار مفعمًا بالذهول، وهو يجيب:

- كلًا، ولكن تلك المدينة الطائرة انطلقت بسرعة مذهلة، واختفت في غياهب الفضاء في لمح البصر.. إنه شيء عجيب.. شيء لا يصدق.

عاد القائد يتبادل نظرة متوترة مع الرجال، في قاعدة المراقبة، ثم قال:

- من القاعدة إلى (القرش المقاتل).. عد على الفور.. لقد انتهت المهمة.. أكرر.. عد على الفور.

وعندما أنهى الاتصال، كان وجهه يحمل تعبيرًا عجيبًا، وتطل من عينيه نظرة لم يشاهدها رجاله من قبل.

نظرة تحمل تساؤلًا واحدًا..

هل انتهت المهمة بالفعل؛ أم أن كل هذا مجرد بداية؟

هل اكتفى هؤلاء الغرباء بما حصلوا عليه من الأرض، أم أنهم يخططون لعودة ثانية؟!.

وهل ستكون نقطة هبوطهم، في تلك المرة القادمة، هي (مصر) أيضًا؟..

كل هذه الأسئلة وغيرها دارت في ذهنه، ولكنها لم تجد جوابًا.. أي جواب..

☆ ☆ ☆

الخميس، الأول من أغسطس..

صديقي العزيز/ محمد..

بعد التحية، هذا رابع خطاب أرسله إليك، منذ وصولي إلى هنا، وهي فرصة طيبة لأن أرسله فور الانتهاء منه؛ لأنني أكتبه لك في (مديرية التحرير)، التي نقوم بزيارة لها أنا و(هبة)، لشراء بعض المستلزمات المطلوبة لمزرعتنا، وكم أتمنى أن تنتهي من أوراقك، حتى تلحق بنا، وتصبح جارنا هنا..

و(هبة) بخير والحمد لله، وهي تشكرك كثيرًا على اللعبة التي أرسلتها، وتتمنى رؤيتك في القريب العاجل هنا..

هل تعلم يا صديقي العزيز أن فكرتي عن المسئولين في الجيش كانت سيئة للغاية، ولكنني الآن أحمل إليهم الكثير من الاحترام والحب والتقدير، بعد العناية الفائقة، التي أحاطوني بها أنا و(هبة)، في أثناء تواجدنا معهم..

لقد كنت أتصور أنهم سيستجوبون (هبة) في حزم وصرامة، ولكنهم كانوا في غاية اللطف والرقة معها، حتى أنها أحبتهم

كثيرًا، وقصت عليهم كل ما لديها، وسجلته لهم على شرائط (فيديو)، بالصوت والصورة، ثم أعطوها الكثير من الهدايا واللعب، واعتذروا لنا عن أية متاعب يمكن أن يكونوا قد تسببوا لنا فيها، وأهدوني سيارة (جيب) جديدة، من إنتاج المصانع الحربية..

أما عن شفاء (هبة) العجيب، الذي رويته لك في خطابي الثاني، فمازال يثير حيرتهم حتى الآن، إذ أنهم لم يعثروا في جسدها على أية إصابات، كما لو أن قوة مجهولة قد شفتها تمامًا، أما عن تلك الكرة، فبعد أن فقدت بريقها، أصبحت مجرد قطعة من البلاستيك، أو من مادة شبيهة به، ولكنهم احتفظوا بها، ولم يعيدوها إلينا..

وليست هذه هي وحدها الأخبار العجيبة يا صديقي العزيز، بل هناك خبر أكثر غرابة، فقد قمت بحرث الأرض، ونثرت فيها البذور، ثم رويتها بمياه البئر، فهل تعلم ماذا حدث؟!

لقد فوجئت بها تنمو، وتخرج براعم قوية، قبل مرور أسبوع واحد..

هل تصدق هذا؟

هل يمكن أن تتصوره؟..

هل قرأته في أي كتاب في حياتك كلها؟

والعجيب أن هذا لا يحدث في المنطقة كلها، ولكن في أرضي وحدها، وحتى حدودها بالضبط..

هل تعتقد أن الغرباء هم المسؤولون عن هذا أيضًا؟

أنا أعتقد هذا يا صديقي؟

بل أؤمن به أشد الإيمان.

لقد شاهدنا أيامًا عصيبة هنا، ولكن كل شيء انتهى في سلام، ومن حسن الحظ أن الأطفال لا يحتفظون بالكثير من الذكريات طويلًا..

صحيح أن (هبة) تتحدث في بعض الأحيان عن الأقزام السبعة، وتتذكر هديتهم، ولكنها سرعان ما تنسى هذا، وتنهمك في اللعب مع (ميكي)، الذي أصبح أكثر قوة ونشاطًا عن ذي قبل.

اما أنا، فلن أنسى أبدًا هؤلاء الضيوف، الذين قدموا من الفضاء..

ولا تجعل كلمة الضيوف هذه تدهشك، فأنا مقتنع تمامًا بأنهم ما جاءوا من أجل الشر، ففارق التقدم المدهش بيننا وبينهم، كان يسمح لهم بتدميرنا تمامًا لو أرادوا، قبل أن نجد الفرصة حتى لاستيعاب ما يفعلونه..

صدقني يا صديقي العزيز.. لقد راجعت كل ما فعلوه أكثر من مرة، في ليالي المزرعة الطويلة، وتوصلت في النهاية إلى حقيقة واحدة..

هذا الضيف الذي أتى إلينا، من وراء النجوم، لم يفعل كل ما فعل، إلا لأنه جاء من أجل هدف واحد..

السلام..

السلام وحده..

صديقك

(خالد)

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- منزل جديد..

2- اختفاء غامض..

3- حالة طوارئ..

4- الغموض يتزايد..

5- الحيرة..

6- العودة..

7- هبة..

الفهرس:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

البعث

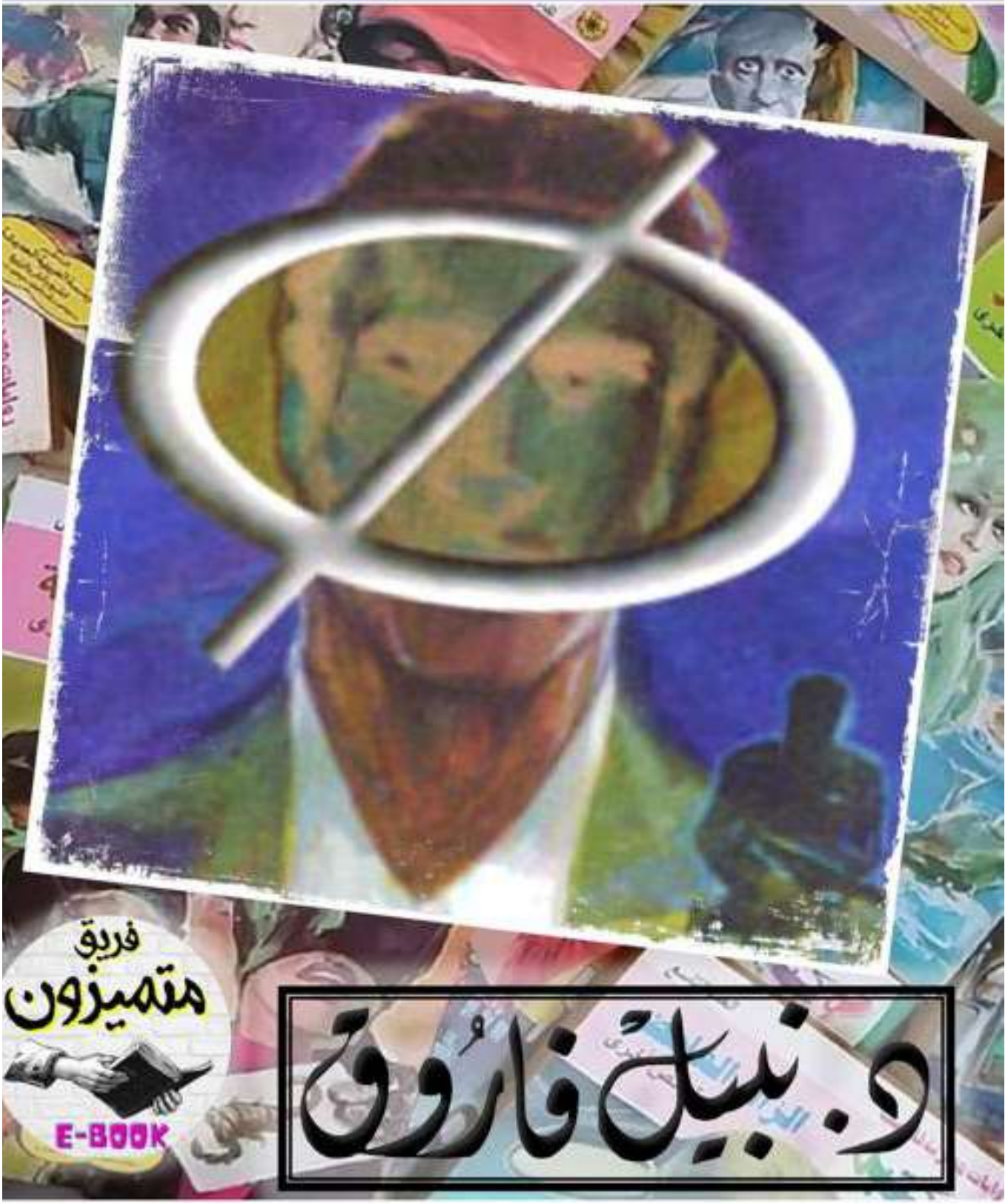

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب
قصة العدد
البعث
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000

البعـــــــث

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..
إلى الحضارة..
إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

هذه القصة لم تحدث من قبل..
أو ربما حدثت..
أو أن بعضها حدث، وبعضها لم يحدث..
ضعها من عقلك حسبما يتراءي لك..
ولكن المهم أنها تحمل توقيع الوطن..
توقيع (مصر)..

نبيل فاروق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- البداية..

الخامس من أكتوبر.. عام 1973م..
التاسع من رمضان.. عام 1393 ه..
كل شيء هادئ، في قلب (سيناء)، في تلك الساعة المتأخرة من الليل..
الرمال والتباب بدت ساكنة، مع النسيم الهادئ العليل، وانتظمت حباتها، إلا من آثار الزواحف والحشرات الصغيرة، التي نشطت مع المناخ المعتدل، وراحت تزحف في كل الاتجاهات، بحثًا عن غذائها، بعضها من البعض، ومن بقايا نباتات عشوائية صغيرة، تناثرت على مساحات واسعة، وفي قلب الصحراء، حتى لا تكاد تلحظ وجودها..
حتى الجنود الإسرائيليون، في خط (بارليف) وحوله، هبط عليهم شيء من الكسل والخمول، فجلسوا يتسامرون، ويطلقون سحب الدخان من سجائرهم المشتعلة، دون أن يبالوا بالمصريين، الذين يقبعون على الشاطئ الغربي للقناة، وكأنما وقر في قلوبهم أن وجودهم على شاطئها الشرقي صار أمرًا نهائيًا سرمديًا، وأن المصريين لم يعودوا قادرين على القتال، أو على شن أي حرب شاملة حاسمة..
وبعيدًا عن كل هذا.
أو بمعنى أدق: فوق كل هذا..
وعلى ارتفاع كيلومترين تقريبًا، بعيدًا عن كل مجالات الرادار المعروفة، حلقت طائرة حربية مصرية، من ذلك الطراز، المعد لنقل الجنود ورجال المظلات، متجاوزة منطقة البحيرات، وبداخلها عدد من رجال الصاعقة المصريين،

جلسوا بكامل عتادهم ومعداتهم، على نحو يوحي بأنهم في طريقهم إلي مهمة خاصة، من تلك المهام التي تم تدريبهم للقيام بها، وآذانهم كلها تصغى في اهتمام وانتباه شديدين لقائدهم، وهو يراجع معهم تفاصيل المهمة للمرة الأخيرة، قائلًا:

- غدًا تبدأ معركة التحرير.. تلك المعركة التي انتظرتموها طويلًا، وتدربتم من أجلها كثيرًا.. المعركة التي ستسترد بها (مصر) عزتها وكرامتها بإذن الله، وترد الصاع صاعين للإسرائيليين، الذين باغتونا بهجومهم منذ ست سنوات، في الخامس من يونيو عام 1967م، ونجحوا في احتلال (سيناء)، وتكبيدنا هزيمة فادحة.. غدًا تحين لحظة الثأر يا رجال.. ستشن قواتنا هجومها الشامل على الجيوش الإسرائيلية، في سبيل تحرير (سيناء)، واستعادة الكرامة العربية.. ولابد أن نعترف جميعًا بأن الجيش الإسرائيلي ليس ضعيفًا أو ساذجًا، وقادته ليسوا بالأغبياء، وأنهم، ما إن يتلقوا الضربة الأولى، حتى يبدءوا تحركهم بأقصى سرعة، ويدفعوا قواتهم وجيوشهم الاحتياطية إلى الجبهة، لقلب ميزان المعركة لصالحهم.

واعتدل يلتقط نفسًا عميقًا، ملأ صدره القوي، قبل أن يضيف بلهجة حماسية حاسمة:

- وهنا يحين دوركم أيها الرجال.

انتشت نفوسهم بالكلمة، واشتعلت الدماء في عروقهم للعبارة، وهتف بعضهم في حماس منقطع النظير:

- كلنا فداء للوطن.

واحد منهم فقط لم ينبس ببنت شفة..

والعجيب أنه كان أكثرهم حزنًا وحماسًا وانتماء..

كان يشعر - كعهده دائمًا - أن الكلمات، مهما بلغت بلاغتها، لن يمكنها أبدًا أن تعبر عما يجيش به صدره..

لا أحد يمكنه أن يشعر بما يعنيه له اسم (مصر).
(مصر) الأم..
والوطن..
والحياة..
كانوا جميعًا في ذروة الحماس، ولكنه وحده كان يعتلي هذه الذروة..
هذا لأنه لم يكن أبدًا شخصًا عاديًا..
إنه، ودائمًا، من طراز خاص..
خاص للغاية..
طراز اعتاد كتمان كل مشاعره في أعماقه، مؤمنًا بأن الفعل وحده هو مقياس جودة وصلابة الرجال..
صامت هو، في معظم الوقت..
كتوم دائمًا..
نادرًا ما يتبادل الحديث مع رفاقه، وإن لم يخل ثغره قط من ابتسامة هادئة بسيطة، جذبت إليه قلوب الجميع، واكتسبت حبهم وثقتهم واحترامهم..
«مهمتكم هي قطع خطوط مواصلات العدو وإمداداته..»
نطق القائد هذه العبارة في حزم، فأرهف الجميع آذانهم، وضاعفوا انتباههم، وهو يشير بعصاه الرفيعة إلى نموذج مجسم لـ (سيناء)، استقر عند أقدامهم، على أرضية الطائرة، مستطردًا:
- عندما يهاجم جيشنا خط (بارليف)، سيحاول العدو تعزيز قواته وتواجده هناك، وسيدفع طابورًا من الدبابات نحو الخطوط الأمامية، وطبقًا للمعلومات التي أمدنا بها جهاز المخابرات، سيعتمد العدو على أحدث طراز من الدبابات، وهذا الطراز يفوق أحدث ما لدينا من مدرعات، ثلاث مرات على الأقل، ومواجهته على نحو مباشر ستكون عسيرة، وخصوصًا في

الساعات الأولى للقتال، وقبل أن يكتمل عبور قواتنا ومدرعاتنا إلى الضفة الشرقية.
ثم اعتدل، مضيفًا في حسم:
- باختصار.. نجاح ذلك الطابور من الدبَّابات الحديثة، في الوصول إلى الخطوط الأمامية، قبل أن نستعد لمواجهته، قد يقلب الأمور كلها رأسًا على عقب، ولهذا فمن الضروري أن ننجح في إيقاف تقدّمه، وأن تكبده أفدح خسائر ممكنة..
وأدار عينيه في وجوههم، قبل أن يتابع:
- نجاحكم في مهمتكم العسيرة، قد يتوقف عليه مصير الحرب كلها، لذا فمن المحتم أن تنجحوا.. مهما كان الثمن..
مهما كان الثمن..
اخترقت العبارة كيانه، واستقرت ملتهبة في وجدانه..
ولم يكن يحتاج إلى المزيد..
طوال الفترة التي تلقى فيها تدريباته، لم يكن يحتاج إلى أكثر من هذا..
حتى في العمليات التي شارك فيها، في أثناء حرب الاستنزاف، كان يثبت أنه سريع الفهم والاستيعاب، جمّ النشاط والحماس، يكفيه أن يسمع الكلمة السحرية، حتى ينطلق كالليث، ويقاتل كالفهد، ويبذل أقصى طاقاته للفوز والنصر..
كلمة (مصر)..
كل من عمل تحت إمرته انبهر بأدائه..
كلهم أجمعوا على أنه - منفردًا - قادر على القيام بعمل فرقة انتحارية كاملة، لو اقتضى الأمر.
ولقد أثبت هذا في مرات عديدة..
ومازال مستعدًا لإثباته..
«اشتعل المصباح الأحمر يا رجال..»

نطقها القائد في اهتمام مشوب بالتوتر، وهو يشير إلى مصباح أحمر مضاء، في سقف الطائرة، قبل أن يستطرد:

- لقد وصلنا إلى النقطة المنشودة.. ستقفزون جميعًا، عندما يضاء المصباح الأخضر، وانتبهوا جيدًا، لن يتم فتح المظلات قبل أن نصل إلى عد ألف ومائة ، حتى لا ترصدكم رادارات العدو.. المفروض أن هبوطكم هنا محاط بسرية تامة.. حافظوا على وجودكم، حتى تحين اللحظة المناسبة.. لا تتورَّطوا في أية اشتباكات جانبية، قبل ظهور طابور الدبابات، وتذكروا دائما أن مهمتكم محدودة وواضحة.. امنعوا وصول تلك الدبابات إلى الخطوط الأمامية بأي ثمن.. هل تفهمون؟ بأي ثمن. اشتعل المصباح الأخضر في تلك اللحظة، فهتف القائد:

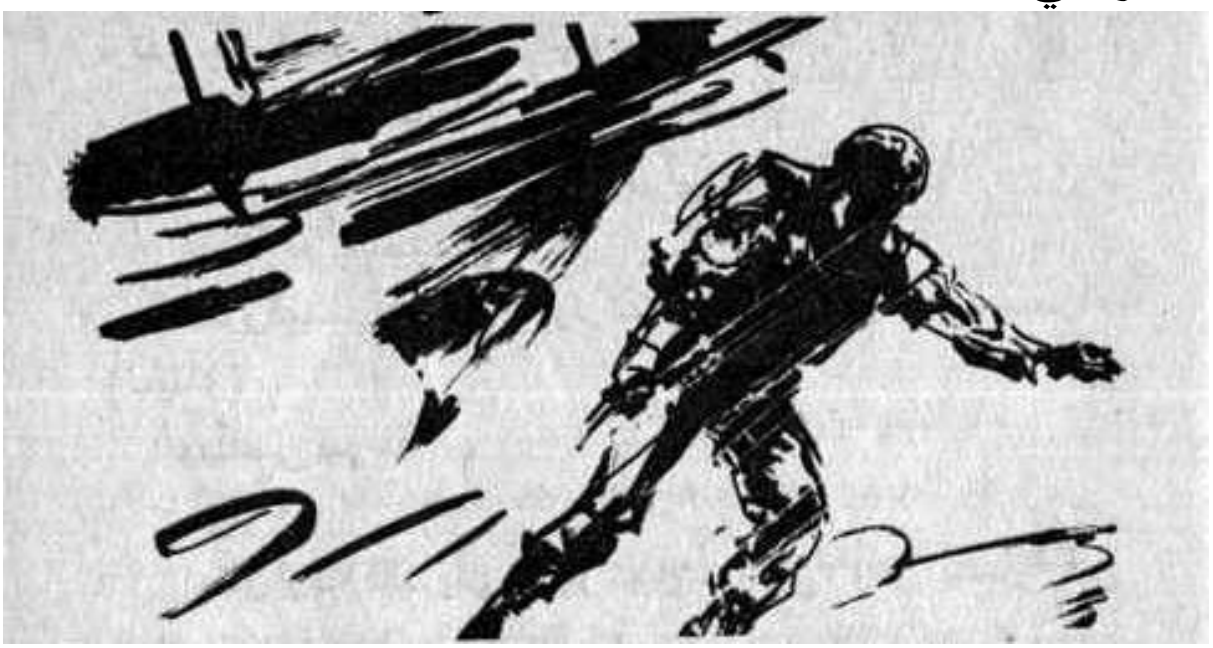

- حانت اللحظة يا رجال.. هيَّا.. على بركة الله.

وبلا تردد، وثب رجال الصاعقة من الطائرة، واحدًا بعد الآخر، وعلى رأسهم قائدهم..

وفي أعماق ذلك الصامت، راح العدّ يجري في سرعة..

ألف وواحد.. ألف واثنان.. ألف وثلاثة..

كـان جسـده يـهبط بسـرعة مدهشـة، مـع عجلـة الجاذبيـة الأرضـية، والصـحراء تتضـح تـدريجيًا، مـع اقترابـه بـهذه السرعة من الأرض، ورفاقه يبدون من حوله أشبه بطيور صغيرة، حانت لحظة عودتها إلى العش، ورأي بعضهم يفتح مظلته، وهو يواصل العد..

ألف وثمانية وتسعون.. ألف وتسعة وتسعون.. ألف ومائة..

كانت الأرض قد اقتربت كثيرًا.. ومظلات كل من سبقوه ترتفع أمام عينيه، وظروف الهبوط مواتية للغاية، و...

ولكن كانت هناك نقطة ضعف واحدة..

لقد جذب حبل مظلته، كما يفعل في كل مرة، ولكن..

المظلة لم تستجب..

لقد رفضت أن تنفتح، وتركت جسده يهوى نحو صحراء (سيناء)..

وبأقصى سرعة..

☆☆☆

احتقن وجه قائد لواء السيارات الإسرائيلي، وهو يصرخ في وجه سائقه غاضبًا:

- ماذا تعني بقولك السخيف هذا؟.. كيف ضللت طريقك وسط الصحراء؟ أهي المرة الأولى، التي تقود فيها سيارتي، في قلب (سيناء)؟!

ارتبك السائق، وهو يقول:

- لست أدري ماذا حدث هذه المرة يا سيدي؟!.. لقد تلفت البوصلة، وهذه التلال هناك كانت تعطي ظلالا عنيفة، و..

قاطعه القائد في ثورة:

- لا أريد أية مبررات.. أنت سائق فاشل.. هذا هو المبرّر الوحيد.. هل يمكنك أن تخبرني، كيف أبرّر فشلك هذا أمام القيادة؟!.. كيف أشرح لهم أننا كنا في طريقنا إلى الغرب، فوجدنا أنفسنا في الشرق؟!.. خمس سيارات تحت قيادتي، وأكثر من ثلاثين جنديًا يضلّون طريقهم في قلب الصحراء، ويخسرون مواقعهم المحدودة، بسبب غباء سائق.. ماذا أفعل بحق الشيطان؟.. هل يكفي أن تنطبق السماء على رأسك، و...

بتر عبارته بغتة، وهو يحدّق في السماء، قبل أن يهتف في انفعال:

- يا للشيطان!

رفع الجميع عيونهم إلى السماء، مع هتافه، وأبصروا في آن واحد تلك النقاط التي توزعت فيها على نحو عشوائي، والتي راح بعضها يتحوَّل إلى كرات أكبر حجمًا، في حين صاح القائد، وهو يلتقط مسدسه بحركة غريزية:

- فليقطع ذراعي إن لم يكن هذا فريقًا من المظليين المصريين.

وانتفض جسده من فرط الانفعال، وهو يربّت على ظهر سائقه في قوة، مستطردًا:

- مرحى يا رجل.. يبدو أن حاستك السادسة هي التي قادتك إلى هذا الخطأ الليلة.. ويالها من مفارقة! ربما تتلقى وسامًا بسبب خطأ سخيف.

ولوَّح بيده لرجاله، هاتفًا:

- هيا.. أطفئوا أنوار سياراتكم، وأخفوها في أي مكان، ثم انتشروا في المنطقة، وانتظروا إشارتى، لنحصد هؤلاء المصريين حصدًا.

قالها، وقهقه ضاحكًا في جذل ظافر، مستطردًا:

- لقد اختاروا هذه البقعة لهبوطهم، في عبقرية نادرة، لأنهم يعلمون أنها ستكون خالية من الدوريات تمامًا الليلة، مع حركة الانتقالات الدورية، بمناسبة عيد (كيبور)..
ثم ربَّت على ظهر سائقه مرة أخرى في عنف، مضيفًا:
- ولكن الخطأ الذي ارتكبته أفسد خطتهم يا رجل.. كم أشعر بالسخرية، كلما تخيلت وجوه رجال مخابراتهم، الذين أرهقوا أنفسهم في جمع المعلومات وتحديد نقطة الهبوط، ثم نفاجئهم نحن بسحق رجال مظلاتهم سحقًا.
والتقط نفسًا عميقًا، وهو يشير للرجال، قائلًا في حزم:
- هيا.. أعدوا أسلحتكم.. إنهم لا يتوقعون وجودنا.. سنستفيد بعامل المفاجأة إلى أقصى حد.. وبالمناسبة..
وتألقت عيناه، وشفتاه تحملان ابتسامة كبيرة جذلة، مع استطرادته:
- لا أريد أحياء.
وعاد يقهقه ضاحكًا..

☆☆☆

كانت مفاجأة حقيقية له ألا تنفتح مظلته..
لقد اختبرها ثلاث مرات متتالية على الأرض، كما تقتضي التعليمات، قبل أن تقلع الطائرة، وفي كل مرة كانت تعمل بشكل طبيعي..
ولكن ما فائدة التفكير فيما حدث؟!..
المهم الآن هو ما سيحدث..
الأرض تقترب بسرعة كبيرة، وكلما أصبحت أكثر قربًا، تفقد المظلة أهميتها وفاعليتها، حتى لو انفتحت..

وبتقدير جزافي سريع، أمامه خمس ثوان فحسب لحسم الموقف..
وإلا..
وفي سرعة وحزم، حلَّ حزام مظلته، وانتزعها من كتفيه، وفحص قفلها الخاص..
وعرف السبب من اللحظة الأولى..
لقد انعقد جزء من ذلك الخيط، الذي يفتح المظلة، مع سلسلة القفل، فأعاق عملية الجذب الطبيعية..
وفي حسم شديد، وسرعة مدهشة، وثبات أعصاب يحسد عليه، راح يحلّ العقدة، ويفصل الخيط عن السلسلة..
والأرض تقترب أكثر وأكثر.
وعندما انتهى من عمله، كان قد تجاوز بالفعل الحد الآمن لفتح المظلة، وبدت له الأرض أقرب مما يتصوَّر..
ثم إنه قد ابتعد كثيرًا عن ذلك الموقع، الذي هبط فيه رفاقه، مع تحكمهم البارع في اتجاهات الهبوط..
- ولكن ما من سبيل آخر.

كان المفروض أن يعيد المظلة إلى كتفيه، حتى لا ينتزعها ضغط الهواء منه، عندما تنفتح، ولكن الوقت لم يكن يكفي لفعل هذا..

وهكذا تشبَّث بحزامي المظلة، بكل ما يملك من قوة، وأحاطهما بساعده الأيسر، الذي برزت عضلاته على نحو عجيب، ثم جذب الخيط..
وانفتحت المظلة هذه المرة..
ومع عنف الهواء، كادت تنتزع ساعده من جسده، وتفلت منه تمامًا، لولا أن استنفر كل ذرة من قوته، وتشبث بالحزامين بقبضته اليمني أيضًا..
إلا أن قصر المسافة، لم يسمح للمظلة بالعمل كما ينبغي..

صحيح أن سرعة الهبوط انخفضت كثيرًا، ولكن الصحراء مازالت تقترب في سرعة، و..
وارتطم جسده بالرمال في عنف..
كانت الصدمة أكبر مما توقع، حتى أن كل عظمة في جسده صرخت ألمًا، وهو يتدحرج فوق الرمال، ويحيط به قماش المظلة..
ومن بعيد، تناهى إلى مسامعه صوت يصرخ بالعبرية:
- الآن يا رجل.
ثم ارتفع دوي رصاصات من خلف التل، ممتزجًا بصوت قائد مجموعته، وهو يصرخ:
- إنه فخ.. قاتلوا بكل قوتكم.. إنه فخ..
وتعالى دوي الرصاصات بشدة، حتى بدا له وكأنه يدوي في أعماقه، وحاول النهوض، وهو يتشبَّث بمدفعه الآلي بكل قوته..
ولكن فجأة، أظلم كل شيء من حوله، و...
وفقد الوعي..
على رمال (سيناء)..

☆☆☆

2- الرمال..

السادس من أكتوبر.. عام 1973م..
العاشر من رمضان.. عام 1393ه..
توسَّطت الشمس كبد السماء، وألقت أشعتها الحارة فوق الرمال، التي تصاعدت حرارتها تدريجيًا، وانطبعت فوقها آثار ضئيلة، لعقرب أسود صغير ، راح يتحرك فوقها في بطء، وذيله القائم فوقه يهتز في شيء من التوتر، في رحلة بحثه عن فريسة، يشبع بها جوعه، بعد أن انتصف النهار أو كاد.
ودون اهتمام خاص، تسلق العقرب جسد ذلك الراقد على الرمال، الذي سكنت حركته تقريبًا، إلا من أنفاس شبة منتظمة، يعلو بها صدره ويهبط في رفق..
وعبر العقرب ذلك الجسد في بطء، وكأنما يعبر صخرة عادية، من تلك الصخور التي تتناثر أحيانًا هنا وهناك، في قلب الصحراء، حتى بلغ عنقه، فتسلَّل عبره إلى وجهه وأنفه، و...
واستيقظ الشاب بغتة.
استعاد وعيه في نفس اللحظة، التي عبر فيها العقرب أنفه..
وفي تلك اللحظة، كان أي تصرف عنيف، وأية حركة مباغتة، أمر كاف ليتوتر العقرب، ويشعر بالخطر، و..
ويلسع خصمه..
وهنا تجلّت قوة أعصاب الشاب وشجاعته..
كان قد استعاد وعيه على الفور، ومازال ذهنه يعاني بعض التشوش والارتباك، وعلى الرغم من هذا، فلم يكد يلمح العقرب الأسود، حتى تجمد في مكانه تمامًا، وحبس أنفاسه كلها، وحرص

أشدّ الحرص على ألا تصدر منه أدنى حركة، تكفي لإثارة ذلك الكائن الضئيل القاتل..
لذا فقد واصل العقرب رحلته في هدوء، وقفز من الأنف إلى العين اليسرى، ثم الأذن، وبعدها عاد إلى رمال الصحراء..
وعندئذ فقط، اعتدل هو في سرعة، وانتزع خنجره من غمده، عازمًا على قتل العقرب، ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة.. فنظر إلى العقرب في توتر، ثم تركه يذهب إلى حال سبيله.
إنه يرقد على رمال (سيناء) ، فاقد الوعي منذ فترة ليست بالقصيرة؛ لأن الشمس توسطت السماء أو كادت، وحرارة جسده أكثر ارتفاعًا..
وبسرعة، وبدون مزيد من التفكير، نهض يجمع مظلته، ودفنها في رمال الصحراء، ثم حمل أسلحته كلها، ومدفعه الآلى، وتأكد من صلاحية جهاز اللاسلكي الذي يحمله، قبل أن يتوجَّه ببصره وتفكيره إلى التبة القريبة..
لم يكن جسده قد تخلّص من آلام الرضوض والكدمات بعد، إلا أن ذاكرته راحت تستعيد كل ما سمعه أمس، قبل أن يفقد وعيه تمامًا، فتوترت أعصابه، وأسرع الخطا نحو قمة التبة، و...
وانعقد حاجباه في توتر وانفعال عنيفين..
ولقد كان المشهد بشعًا بحق..
كل رفاقه صرعى برصاصات العدو الغادرة، على رمال (سيناء)، التي امتزجت بدمائهم الطاهرة.
كلهم بلا استثناء..
حتى القائد، تلقى أكثر من تسع رصاصات، في صدره وبطنه ورأسه..
ويا للبشاعة!..

أي شخص في موضعه، كان سيشيح بوجهه على الأقل، حتى يتجنب المشهد الرهيب..

ولكنه لم يفعل..

لقد ظل يتطلّع إلى الجثث الممتزجة بالدماء، وكأنما يصرّ على أن يملأ عينيه وكيانه كله بهم، حتى لا ينسى ما أصابهم قط..

نعم.. كان يصرّ على ألا ينسى..
سيذكر هذا إلى الأبد..

يـذكر أن جنـود العـدو قتلـوا كـل رفاقـه، دون أن يحـاولوا أسرهم، لم يجشموا أنفسهم حتى مشقة دفن جثثهم..

لقد تركوها نهبًا للذئاب والطيور الجارحة، دون رحمة أو اهتمام..

وفي أعماقه، نمت دمعة كبيرة، ولكنها أبدًا لم تجد سبيلها إلى عينيه..
لا وقت لديه للدموع..
إن عليه أن يحفر حفرة كبيرة..
مقبرة جماعية، تكفي لدفن الجميع..
وبكل الهمة والألم، راح يحفر.. ويحفر.. ويحفر..
وعندما أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة وأربعين دقيقة بالضـبط، كـان قـد انتـهى مـن مـهمته، ووارى رفاقـه كلـهم التراب..
وعندئذ..
عنـدئذ فقـط، ضـغط زر جـهاز الاتصـال، لينقـل الخبـر إلـى (القاهرة)..

ولكن فجأة، تراجع في قراره..
كلًا.
لن يبلغ (القاهرة)..
لن يتسبَّب في إرباك خطة الحرب كلها..
لقد هبطت فرقته هنا، وبذلت دماءها على رمال (سيناء) الغالية، من أجل تحقيق هدف واحد..
منع وصول طابور الدبَّابات الحديثة إلى الخطوط الأمامية للعدو..
مهما كان الثمن..
وانعقد حاجباه في عزم وصرامة، مع تلك الفكرة الجنونية، التي ملأت رأسه، واشتعلت في كيانه، وجرت في عروقه مجرى الدم.
سيواجه وحده طابور الدبَّابات، وسيبذل قصارى جهده؛ لمنعه من الوصول إلى الصفوف الأمامية للعدو..
وبأي ثمن..

☆☆☆

انعقد حاجبا القائد العسكري الإسرائيلي لجبهة (سيناء)، وهو يراجع تقارير المراقبة الدورية، قبل أن يرفع عينيه إلى قائد لواء السيارات، قائلًا في غضب وحدة:
- أكثر ما يخنقني هو أنك تشعر بالفخر لما فعلت.
ارتسمت الدهشة على وجه قائد الدورية، وهو يقول:
- أليس من المفروض أن أفعل.. لقد قضى رجالي على فرقة كاملة من المظليين المصريين، دون أن نفقد سوى أربعة رجال..
ما النصر إذن، لو لم يكن هذا؟
صاح قائده في وجهه:
- أما زلت تذكر ما تعلمته من الدراسات العسكرية يا رجل؟!.

ألم يخبرك أحد عن أهمية وضرورة الحصول على أسرى أحياء، من قوات العدو؟

انتفض قائد الدورية في حدة، وهو يقول:

- أي أسرى؟!.. إنك تتحدَّث بهذه الغطرسة لأنك تجلس خلف مكتبك.. من الواضح أنك لا تعرف كيف يقاتل هؤلاء الرجال.. لقد أعددنا لهم فخًا محكمًا، وباغتناهم بفتح النيران عليهم، دون سابق إنذار، وعلى الرغم من هذا فقد قاتلوا كالوحوش.. ياللشيطان!.. لن أنسى ذلك المشهد ما حييت.. كانت الدماء تنزف من كل جزء في أجسادهم، وسبَّاباتهم مازالت تضغط أزندة مدافعهم، وأيديهم تمتلك القوة الكافية، لإلقاء قنابلهم علينا.. لقد كان جحيمًا رهيبًا، حتى أنني تصوَّرت أننا نحن الذين وقعوا في الفخ، ولست أدري حتى هذه اللحظة، كيف أبدناهم عن آخرهم، دون أن نخسر أكثر من هؤلاء الرجال الأربعة!

دق قائده سطح مكتبه بقبضته، صارخًا:

- راجع أقوالك يا رجل.. الدنيا كلها تعرف أن الجيش الإسرائيلي هو أقوى جيش في العالم..

أطلق الرجل ضحكة عصبية ساخرة، وهو يقول:

- رويدك يا سيِّدي.. أنا ضابط في ذلك الجيش، ولست واحدًا من هؤلاء السذج، الذين توجهون إليهم أبواق دعاياتكم.. أنا أعرف الحقيقة كلها، وأشاهد بنفسي ما يحدث، داخل صفوف الجيش القوي العظيم..

لوَّح قائده بيده في وجهه، صائحًا:

- لو أنك تفهم شيئًا، لما قتلت المظليين المصريين كلهم..

ألم تسأل نفسك: لماذا اختاروا هذه البقعة للهبوط، على الرغم من أنه لا توجد حولها أية أهداف عسكرية مناسبة لهم؟!

بدت الحيرة على وجه قائد الدورية، وتمتم مرتبكًا:
- ربما أنهم..
لم يجد ما يكمل به عبارته، فانعقد حديثه في حلقه، وتضاعفت معالم الحيرة في وجهه، فتابع رئيسه في حدة أكثر:
- ألم تسأل نفسك: لماذا أرسل المصريون فرقة مظلات كاملة هذه المرة.. ألم تحاول فحص معداتهم وأسلحتهم؟!..
ألم تنتبه إلى أن تسليحهم يفوق التسليح التقليدي المعتاد، في المهمات البسيطة؟!..
ثم تحوَّل صياحه إلى صراخ، وهو يختم حديثه:
- ألم يدر بخلدك لحظة أن العملية تفوق المعتاد؟!.. ألم تتساءل لحظة واحدة: ما الهدف هذه المرة؟!
قال قائد الدورية في حذر:
- وماذا يمكن أن يكون هدفهم؟
صرخ قائده:
- هل تسألني؟؟
ثم استدار يشير إلى خريطة (سيناء)، مستطردًا:
- ها هو ذا هدفهم.
ارتفع حاجبا قائد الدورية في دهشة واستنكار، قبل أن يهتف:
- مستحيل!.. لن يخطر ببال المصريين أبدًا أن...
قبل أن يتم عبارته، اقتحم أحد مساعدي القائد العسكري الحجرة، وانتفضت كل ذرة في كيانه، وهو يصرخ:
- سيّدي القائد.. المصريون عبروا قناة (السويس)، ويقتحمون الآن خط (بارليف).
وهنا شهق قائد الدورية شهقة عنيفة، كادت تنتزع روحه من جسده.

لقد كانت المفاجأة مدهشة..
بل مذهلة..
مذهلة تمامًا..

☆☆☆

شقّ سماء (سيناء) صوت كهزيم الرعد، عندما عبرتها الطائرات المصرية المقاتلة دفعة واحدة، وفي توقيت متناسق، إلى حد يدعو للدهشة والإعجاب، وراحت تصلي (خط بارليف) الأسطوري نيرانها، وتلهبة بقذائفها، في نفس اللحظة التي دوت فيها المدافع المصرية على الجانب الغربي لقناة (السويس)، وانفجرت قنابلها في تحصينات العدو ومخازنه، وفي خط (بارليف)، لتجبر الإسرائيليين على الانزواء داخلها، في حين انطلق الجنود المصريون البواسل يعبرون قناة (السويس)، أقوي مانع مائي في التاريخ، وحناجرهم تطلق أعظم هتاف في الكون كله..
الله أكبر..
الله (سبحانه وتعالى) أكبر وأقوى من المعتدين..
ومن الدنيا كلها..
وكما توقع الخبراء تمامًا، لم يكد العدو يستوعب ما حدث، ويفيق من صدمته الأولى، حتى أطلق الإشارة لطابور الدبابات الحديث، الذي انطلق من مكمنه على الفور، في طريقه إلى الخطوط الأمامية، للتصدّي للهجوم المصري العنيف..
وفوق تبة صحراوية طبيعية، رقد هو بكامل تسليحه، وبعشرات القنابل اليدوية التي يحملها، والتي استعار

معظمها من جثث رفاقه قبل دفنهم، يراقب الطريق بمنظاره المقرب، في انتظار ظهور الدبَّابات في أية لحظة..
وفـي أعماقـه، راح يتمنـى أن تكـون المخـابرات المصـرية محقة في تقديرها، وفيما لديها من معلومات، تشير إلى أن طابور الدبابات الحديثة سيتخذ هذا الدرب بالتحديد، في ظروف الطوارئ..
وما زال يذكر ذلك اليوم، الذي شرح لهم فيه قائده (رحمه الله) هذه الخطة..
يومها سأل القائد في حيرة:
- مادامت مخابراتنا قد نجحت في تحديد موقع الطابور بهذه الدقة يا سيّدي، فلم لا يتم قصفه بواسطة الطيران؟!
ابتسم القائد يومئذ، وهو يقول:
- سؤال جيد، وكنت أتوقعه منك بالذات.. نعم.. لماذا لا يتم قصف الطابور مباشرة بالطائرات، بدلا من المخاطرة بإرسال فريق خاص لأداء المهمة؟!.. الجواب هو أن هذه الدبابات الحـديثة مزودة بوحـدة صـواريخ دفـاع جـوي مـن طـراز خاص، يتم توجيهها بوساطة الكمبيوتر وأشعة الليزر، كما أن بها رادارات خاصة، يمكنها رصد الطائرات، من مسافة ثلاثين كيلو مترًا، وإطلاق الصواريخ الدفاعية نحوها، قبل سبع ثوان.. إنها أحدث المخترعات والمبتكرات الأمريكية، التي تحظى بها (إسرائيل)، بصفتها الطفل المدلّل لأمريكا، ورجالنا لم يتدربَّوا على التعامل معها بعد.
سأله في اهتمام:
- أهذا يعني أننا لو نجحنا في نسف وحدة صواريخ الدفاع الجوي، تكون المهمة قد نجحت؟.. أعني أننا بذلك نكون قد

أزحنا العقبة، وأصبح بإمكان طائراتنا قصفها، وتدمير الطابور كله.
أومأ القائد برأسه إيجابًا، وهو يقول:
- هذا صحيح نظريًا، ولكن الإسرائيليين يخفون تلك الوحدة بين طابور الدبابات، في هيئة تماثل الدبَّابات نفسها، ويبدلون موقعها في كل مرة، بحيث تستحيل معرفته، أو تحديد موقع الوحدة، لذا فليس أمامنا سوى أن نهاجم الطابور كله.

«من القيادة إلى (اعتراض-3).. حدد موقعك، ومدى استعدادك للتصدي لطابور النمل، ومنعه من بلوغ علبة السكر..».
انبعث ذلك النداء فجأة من جهاز اللاسلكي، الذي أخذه من جثة القائد، فأسرع يلتقطه، وضغط زر الاتصال فيه، وهو يجيب:
- من (اعتراض-3) إلى القيادة.. أنا في الموقع (صفر)، وما زلت في انتظار طابور النمل.
مرَّت فترة من الصمت، قبل أن يأتيه صوت حذر، يقول:
- من القيادة إلى (اعتراض-3).. حدِّد شخصيتك وموقعك.
أجابه في حزم:
- أنا (صاعقة 144)، أتحدَّث من الموقع (صفر).
مضت فترة صمت أخرى، قبل أن يسأله صوت صارم متشكك:
- لماذا تجيب النداء يا (صاعقة 144)؟!.. أين قائدك، وما موقف الفرقة؟!
أجابه على الفور، في صوت يحمل رنة حزن ومرارة:
- الجميع أبيدوا في كمين مباغت.. القائد، والرفاق.. كل الزملاء.. الجميع لقوا مصرعهم.

هتف صاحب الصوت في ارتياع:
- ماذا تعني يا (صاعقة 144)؟!.. ألم يعد هناك سواك؟
أجابه في حزم:
- نعم.. لم يعد هناك سواي، ولكن المهمة ستتم بإذن الله.
صاح صاحب الصوت:
- ستتم؟!.. لم يعد هناك وجود للمهمة يا رجل.. لماذا لم تبلغنا من قبل؟
أجابه في لهجة أشد حزمًا وعنادًا:
- المهمة ستتم بإذن الله.
هتف صاحب الصوت:
- هل جننت يا هذا؟.. كان المفروض أن...
أبعد الجهاز عن أذنه بحركة سريعة، قبل أن يكمل مندوب القيادة عبارته، ووضع منظاره المقرب على عينيه مرة أخرى، ثم عاد يهتف عبر جهاز الاتصال:
- لقد وصل طابور النمل.. أنا مستعد لأداء المهمة.
هتف الصوت ذاهلًا:
- مستعد لماذا..؟
ولكن الشاب أنهى الاتصال بضغطة زر حازمة، وعلق الجهاز في حزامه، ثم ثبت خوذته فوق رأسه، وجذب إبرة مدفعه الآلي، ورقد يراقب طابور الدبَّابات الحديثة، وهو يقترب..
ويقترب..
ويقترب..

☆☆☆

3- حرب رجل واحد..

وقف قائد القوات الخاصة المصرية، وسط زملائه من قادة القوات، حول مائدة العمليات الحربية، يتابعون مع وزير الحربية (آنذاك)، ورئيس الجمهورية، تطورات القتال، فوق نموذج ضخم مجسَّم لساحة المعركة، وسحب الرئيس نفسًا من غليونه بضع لحظات، قبل أن يسأل الوزير وهو ينفث دخانه:

- ما موقف الأولاد هناك، في قلب (سيناء)؟

أجابه الوزير بسرعة:

- كلهم في مواقعهم يا سيادة الرئيس.. اطمئن.. إنهم يعرفون كيف يؤدون واجبهم.

أومأ الرئيس برأسه، مغمغمًا:

- أعلم هذا.. أعلم هذا.

ثم أشار بطرف الغليون إلى قائد القوات الخاصة، مستطردًا:

- إننا نعتمد اعتمادًا كبيرًا على رجالك.

شدّ القائد قامته، وهو يجيب في ثقة:

- اطمئن يا سيادة الرئيس.. رجالى تلقوا تدريبات خاصة ستجعلهم يبهرون الإسرائيليين، عندما تحين لحظة المواجهة معهم، وعندما...

قاطعه ظهور أحد رجاله، وهو يؤدي التحية العسكرية في احترام، ويمد يده إليه بإشارة عاجلة، فالتقطها قائلا:

- معذرة يا سيادة الرئيس.. يبدو أنها رسالة عاجلة من الرجال.

وألقي نظرة على الورقة، ثم ارتفع حاجباه في دهشة بالغة، كانت تكفي، في ظل هذه الظروف، ليعقد الرئيس حاجبيه في توتر،

ويهتف بالوزير:
- ماذا هناك يا رجل؟
رفع قائد القوات الخاصة عينية إليهما في ارتياع، قائلًا:
- فرقتي الخاصة (اعتراض-3)، تمت إبادتها بالكامل، في قلب (سيناء).
نفث الرئيس دخان سيجارته، وسعل في قوة، في حين قال الوزير:
- ماذا تقول؟!.. أليست هذه هي الفرقة المسؤولة عن منع طابور الدبَّابات الحديثة من الوصول إلى الخطوط الأمامية للعدو؟
أومأ قائد القوات الخاصة برأسه، قائلًا:
- إنها هي.
تبادل الرئيس والوزير نظرة شديدة التوتر، فاستدرك قائد القوات الخاصة بسرعة:
- لقد تبقى منها رجل واحد.. اسمه الكودى (صاعقة-144)، ولقد وصل بالفعل إلى الموقع (صفر).
وقال الوزير في حدة:
- وما الذي يمكن أن يفعله رجل واحد؟
نفث الرئيس دخان غليونه في عمق، قبل أن يقول:
- لا أحد يدري.. في الحروب، رجل واحد قد يصنع فارقًا ضخمًا..
ران عليهم الصمت لحظات، بعد عبارة الرئيس، ثم قطعه قائد القوات الخاصة، وهو يقول:
- دعونا نمنحه الفرصة إذن.. إنه هناك، وكما يقول سيادة الرئيس: لا أحد يدري ما الذي يمكن أن يحدث في الحروب..
ثم إنه ليس أمامنا سوى هذا، أليس كذلك؟
تبادل الرئيس نظرة أخرى مع الوزير، ثم قال:

- هـذا يتعـارض مـع خططنـا تمـامًا، ولكـن الحـرب انـدلعت بالفعل، ولم يعد التراجع ممكنًا.. هيا.. دعونا نكمل الطريق، وعلى بركة الله.
وكان هذا فصل الختام..

☆☆☆

ظهر طابور الدبَّابات الحديث، من خلف تل الرمال البعيد، وراح يتقدّم في بطء، متخذًا نفس المسار، الذي حددته المخابرات من قبل..
ثلاثون دبَّابة تتحرك في تشكيل ثنائي، وتفصل كل دبَّابة عـن الأخـرى مسـافة ثلاثـة أمتـار، عبـر مسـار متعـرج، جعـل المشهد كله أشبه بثعبان آلي هائل، يشق طريقه عبر صحراء (سيناء)..
وفي تلك اللحظة فقط، بدأ هو يشعر بالقلق..
- كـيف يمكنــه أن يتصــدّى وحــده لكــل هــذه الـدبابات، مـع تسليحها الحديث؟..
كيف يمكنه أن يراوغها، في وضح النهار، وأشعة الشمس تغمر المكان كله، وتكشف مسيرة نملة على آفاق البصر؟!..
أخذ يبذل قصارى جهده لدراسة الأمر كله، وتقليب الأمور فــي ذهنــه، محــاولًا إيجــاد حــل منطقـي للمـوقف، ويـراجع أسلحته، و...
وفجأة، تكونت الخطة كلها في رأسه..
هكذا، كطلقة رصاص، أصابت تلافيف مخه، ففجَّرت فيها كل قدرات التخطيط والتدبير والإبداع..
ودون أن يضيع ثانية واحدة، انطلق يعدو بأقصى سرعته، مستترًا بالمرتفعات الرملية، ومتخذًا نفس المسار، المفترض أن يتخذه

طابور الدبَّابات..
وعندما بلغ منعطفًا خاصًا، قفز إلى الجانب الآخر للمرتفع، وراح يحفر الرمال في سرعة مدهشة:
كان يعتمد اعتمادًا كاملًا على ثقل الدبابات، الذي يجبرها على السير بسرعات بطيئة نسبيًا، وهو يصنع مكمنًا وسط الرمال، ثم يخفي جسده داخله، ويضع سترته فوقه، ويدفن نفسه تقريبًا، ثم يجلس لينتظر، وكيانه كله مشبع بالحماس والحزم..
ولم تمض دقائق معدودة، بعد أن أخفي نفسه وسط الرمال، حتى رأي، عبر فرجة صغيرة، طابور الدبابات يتجه نحوه..
ودون مبرر منطقى، كتم أنفاسه تمامًا، وهو يتابع طابور الدبَّابات، الذي عبر أمامه في بطء، في تشكيل مزدوج، بحيث تستطيع كل دبَّابة مراقبة زميلتها طوال الوقت، من خلال مراقب يبرز نصفه من فتحة الدبَّابة العلوية..
وانتظر حتى عبر آخر زوج من الدبَّابات، ثم وثب من قلب الرمال، وألقى واحدة من قنابلة اليدوية بأقصى قوته، نحو الجانب الأيمن للطابور..
وانفجرت القنبلة وسط الرمال..
ومع انفجارها، التفتت العيون جميعها إلى موضعها، وتوتر المراقبون، وهم يبحثون عن مصدرها.
وفي تلك اللحظة، التي التفتت فيها كل العيون إلى اليمين، وثب هو فوق جنزير آخر دبَّابة إلى اليسار، ومنه إلى برجها، وأحاط عنق مراقبها بساعده الأيسر، ثم انتزعه من مكانه بقوة فولاذية، وهو يغمد خنجره في قلبه، قبل أن يلقيه بعيدًا، ويقفز داخل الدبَّابة..
وكانت مفاجأة لطاقم الدبابة الإسرائيلي، شلّت حركتهم لحظة، كانت كافية ليطلق هو رصاصاته، ويعمل خنجره فيهم،

بكل ما اكتسبة من قوة ومهارة، وكل ما تلقاه من تدريبات مكثفة مدروسة..
ولم تمض ثوان معدودة، حتى كانت له السيطرة الكاملة على تلك الدبَّابة..
ولكن وسط جيش من الدبَّابات المعادية..
لم يكن قد تعامل من قبل مع دبَّابات مماثلة، إلا أنه وزملاؤه الـــراحلون تلقـــوا تـــدريبًا محـــدودًا علـــى قيـــادة الـــدبَّابات المصرية، قبل بدء المهمة..
ولم تكن الاختلافات كبيرة بين النوعين..

يكفي أن يضغط هذه الدراسة، ويدفع هذا الذراع، ويجذب تلك الرافعة، وستنطلق الدبَّابة في مسارها..

وكانت المفاجأة الثانية للإسرائيليين، عندما اندفع بدبَّابته وسط الدبابات الأخرى، وراح يرتطم بها، ويضربها في تهور عنيف،

وعقله يستعيد معلوماته السابقة عن الدبَّابات، التي تؤكد له أن مدفع الدبابة يفقد فاعليته مع الأهداف القريبة.
وتشتَّت طابور الدبابات واضطرب، مع ذلك الهجوم المباغت الجنوني، وخاصة عندما امتزجت الدبَّابات بعضها بالبعض، وصار من العسير تحديد الدبَّابة المارقة، وسط الارتباك الحادث، فهتف قائد الطابور في غضب:
- استعيدوا التشكيل، وحاصروا الدبَّابة التي سيطر عليها العدو، واحموا وحدة الدفاع الجوي.
تلقى جهاز اللاسلكي، في الدبَّابة التي سيطر عليها، ذلك الهتاف بالعبرية، فترجمه عقله المدرَّب بسرعة إلى العربية، وأدرك أن الإسرائيليين سيبذلون جهدهم لحماية وحدة الدفاع الجوي الصاروخية التي تحمي وجودهم، وأنه بمراقبة ما سيفعلونه، سيمكنه تحديد موقعها بالضبط..
ولكن السؤال هو: كيف يمكنه الوصول إليها بعد تحديدها؟!..
وبسرعة، راح عقله يعد الخطة الجديدة، وهو يراقب تحركات الدبَّابات، عبر النافذة المستعرضة الصغيرة داخل دبَّابته..
ودون أن يبعد عينيه عن النافذة، أخذ يبدل ثيابة العسكرية بزي أحد أفراد الطاقم، حتى حدد موقع وحدة الدفاع الجوي الصاروخي، وهنا فتح باب برج الدبابة، ووثب خارجه، وهو يصرخ بالعبرية:
- لن تهزمنا أيها المصري.. لن تنجح أبدًا.
قالها، وأردف قوله بإطلاق رصاصات المدفع الآلى داخل الدبابة، قبل أن يقفز منها إلى الأرض، هاتفًا بالعبرية:
- إنه هنا.. المصري هنا.

التفت الجميع إلى الدبَّابة التي غادرها على الفور، وانطلق وابل من النيران نحوها، ولكن القائد الإسرائيلي انتبه إلى الخدعة، فصاح عبر أجهزة اللاسلكى:
- لا تجعلوه يخدعكم.. إنه أحد جنود العدو.. اقتلوه.. اقتلوه بسرعة.
كان يعدو بأقصى سرعته نحو وحدة الدفاع الجوي، عندما تناثرت الرصاصات من حوله كالمطر، وشعر برصاصة تخترق ظهره، وأخرى تغوص في فخذه، وثالثة تعبر لحم ذراعه اليسرى، وتخرج مع خنجر من الألم، من جانبها الآخر..
ولكنه لم يتوقف لحظة واحدة..
إرادته الفولاذية تجاهلت كل جراحه وآلامه، وجعلته يواصل طريقه، ويقفز فوق الدبَّابة التي تخفي وحدة الدفاع الجوي الصاروخي، وقائد الدبَّابات يصرخ:
- اغلقوا برج الوحدة.. لا تسمحوا له بالدخول..
قفز أحد أفراد طاقم وحدة الدفاع الجوي الصاروخي، محاولا إغلاق البرج من الداخل، إلا أن جندي الصاعقة المصري كان الأسبق إلى البرج، ففتحه في قوة وعنف، ودفع فوهة مدفعه الآلي عبره، هاتفا:
- كان ينبغي أن تغلقه من البداية يا رجل.
أصابته رصاصة رابعة في كتفه الأيسر، وحطمت عظمة الكتف، وهو يطلق نيران مدفعة الآلي على طاقم الوحدة الإسرائيلي، ومزقت خامسة جزءًا من لحم عنقه، وهو يثب داخل الوحدة، ويغلق باب البرج خلفه في إحكام..
كان غارقًا في دمائه، ويغوص في بركة دم إسرائيلية، وحوله جثث أربعة من القتلى، ولكنه تغاضى عن كل هذا، وهو

يعيد ضبط جهاز اللاسلكي على موجة القيادة، ويهتف:
- من (صاعقة-144) إلى القيادة.. أنا في الموقع (صفر+٢).. تمت السيطرة على وحدة الدفاع.. أرسلوا النسور للقضاء على طابور النمل.
جاء هتافه في نفس اللحظة، التي صرخ فيها قائد الطابور الإسرائيلي في ثورة:
- أيها الأغبياء.. إنه فرد واحد.. كيف سمحتم له بهذا.. لقد احتل وحدة الدفاع الصاروخي.. تراجعوا على الفور.. اتخذوا مسار الطوارئ بسرعة.
وعلى الرغم من غضبهم وحنقهم، استدار رجال الطابور بدبَّاتهم، وانطلقوا يبتعدون عن مسارهم الأصلي..
وكان هذا كفيلا بإفساد العملية كلها..
إفساها تمامًا..

☆☆☆

تلقى قائد القوات الخاصة رسالة الشاب بدهشة عارمة، وهتف في حماس:
- اسمعوا هذا.. لقد سيطر وحده على الموقف، وعلى وحدة الدفاع الصاروخي.
ارتفع حاجبا الرئيس في دهشة، وعض بأسنانه على غليونه، في حين هتف الوزير:
- مستحيل!.. رجل واحد فعل هذا!
أجابة قائد القوات الخاصة في انبهار:
- لقد قالها سيادة الرئيس.. رجل واحد يمكنه أن يصنع فارقًا.. لست أدري كيف فعلها، ولكنه يؤكد سيطرته على وحدة

الـــدفاع الصــاروخية، ويطــالبنا بإرســال الطــائرات القصف الطابور كله.
قال الوزير في توتر:
-هذا يبدو أقرب إلى الفخ.. ربما سيطر الإسرائيليون على الشـــاب، ويجبرونـــه علـــى إرســـال هـــذه الرســـائل، حتـــى يستدرجوا طائرتنا، وينسفونها بصواريخهم.
أجاب قائد القوات الخاصة في حزم:
- رجالي يفضلون الموت، على القيام بعمل واحد، من شأنه تعريض أمن وطنهم للخطر.
قال الوزير في إصرار:
- مازال الأمر يبدو لي أشبه بالفخ.
نفث الرئيس دخان غليونه، وأشار بعصاه، قائلًا:
- لن نخسر شيئًا على أية حال.
التفت إليه الجميع، فتابع في رصانة حاسمة:
- لـو أن رسـالة هذا الشـاب صـحيحة، فـهذا يعنـي أنـه بـذل الكثـير، فـي سـبيل تحقـيق مـا فعلـه، ومـن الخسـارة، كـل الخسارة، أن يضيع عمله المدهش هذا هباء.. دعونا نفترض أنـــه صـــادق، وترســـل ثـــلاث مقـــاتلات فحســـب لمواجـــهة الطابور.. سنربح الكثير لو أننا نجحنا في تدميره، قبل أن يقلب دفة الأمور على الجبهة، ولن نخسر لو كان الأمر مجرد خـــدعة، ســـوي طـــائرة أو طـــائرتين، وهـــذا مقـــابل عـــادل لمخاطرة كهذه، قد تساعدنا على أن نربح معركتنا كلها.
ران الصمت على المكان لحظة، قبل أن يقول الوزير في حزم:
- أنا أتفق مع سيادة الرئيس.
أجابه قائد القوات الخاصة بسرعة:
- وأنا كذلك.

وهنا التقط الرئيس نفسًا عميقًا، وأومأ برأسه مرتين، قبل أن يقول:
- على بركة الله.. أرسلوا الطائرات..
وكان له ما أراد..

☆☆☆

«من القيادة إلى (صاعقة-144).. حدد موقع الطابور، وابتعد عن المكان، قبل أن تتم تصفيته..»
جاءه النداء عبر جهاز اللاسلكي في دبَّابته، فأجابه في حزم:
- لا يمكنني الابتعاد.. الطابور يتخذ مسارًا مختلفًا، لم يكن ضمن الخطة.. إنني أطارده في إصرار.. لن يمكنني الابتعاد..
إنني الآن في الموقع (صفر+ 3.2 ش).. أرسلوا الطائرات بسرعة.
هتف به مندوب القيادة:
- الطائرات في طريقها إليك.. ابتعد بسرعة.. سيشتعل الجحيم بعد دقائق، ولكن يمكنهم تمييزك وسط الدبابات الأخري.
أجابه بسرعة:
دعك من عملية تمييزي هذه.. لو سمحت لهم بالابتعاد سأدخل في مجال الإصابة، وسيمكنهم نسفي تمامًا، ثم اتخاذ مسار غير معروف.. من الضروري أن أطاردهم على هذا النحو.. هذا يثير حنقهم وغضبهم، ولكنهم لا يتصوَّرون أنني سأطالبكم بقصفهم وأنا بينهم.. دعونا نستغل هذه الثغرة، ونباغتهم بهجوم شامل ساحق.. إنهم ينحرفون الآن إلى الموقع (صفر -9.6 ق)..

عاد مندوب القيادة يقول في إلحاح:
- إننا ننقل إرشاداتك إلى الطائرات.. حاول أن تتصل بقائد السرب الصغير مباشرة.. سنعطيك رقم موجته، ولكن ابتعد بالله عليك، قبل أن يتم قصف الطابور.
وهنا صرخ في غضب:
- لقد غيروا مسارهم مرة أخرى، ويتجهون إلى الموقع (صفر + 7 ش).. إنهم يحاولون الفرار، يا رجل.. لابد من تواجدي بينهم.. من الواضح أن هذا يزعجهم بشدة، فقد بدأوا الالتفاف حولي، في محاولة لتطويقي ومنعي من الحركة، تمهيدًا لنسفي.. هيا يارجل.. استحث تلك الطائرات.. دعها تقصف الجميع.. هيا يا رجل.. لا تخاطر بمصير جيش كامل من أجل رجل واحد، أرسلهم بسرعة.. هيا.
نقل إليه جهاز اللاسلكي صوت تنهيدة عميقة، أعقبه صوت مندوب القيادة، وهو يقول:
- فليكن الله (سبحانه وتعالى) معك يا رجل.. الوداع.
انتهى الاتصال، وأسرع هو ينتقل إلى موجة الطائرات، هاتفًا:
- من (صاعقة-144) إى قائد النسور: هل تسمعني؟
أتاه صوت قائد السرب الصغير، يقول:
- أسمعك يا (صاعقة-144).. نحن في طريقنا إلى هناك.
في نفس اللحظة، التي تلقى فيها هذا النداء، كان القائد الطابور الإسرائيلي يهتف في غضب:
- مادام هذا المجنون مصرّ على تعقبنا، فدعونا نذيقه ما نجيد يا رجال.. سنشويه شيًا داخل وحدة الدفاع الصاروخي، التي أحكم سيطرته عليها..

وبناء على أوامره، برز بعض الجنود خارج دبَّاباتهم، وألقوا قنابل النابالم على الوحدة، فانفجرت تشعل النيران في جنزيرها، وفيما حولها..

حدث هذا وهو يفقد سيطرته على وعيه تدريجيًا، مع إصاباته المتعدّدة، والدماء الغزيرة التي فقدها..

وعلى الرغم من كل هذا، فقد انتشى جسده، مع صوت الطائرات المصرية، التي انقضت على الطابور، وصرخ:

- هيَّا.. اضربوا يا رجال.. اقصفوا هؤلاء الأوغاد.

ومن حوله، دوت الانفجارات عنيفة، ممتزجة بصراخ الإسرائيليين، ففتح باب برج الدبَّابة، ودفع جسده خارجها، ووثب وسط النيران، وتدحرج..

ودوى انفجار أكثر عنفًا، على مقربة منه، فطار معه جسده لخمسة أمتار على الأقل، وانغرست فيه عشرات الشظايا الملتهبة، و...

وانتهى كل شيء في لحظات..

حتى هو.

☆☆☆

4- الفتى..

أشارت عقارب الساعة إلى الخامسة والنصف، من مساء اليوم الأوَّل للحرب، التي اندلعت منذ ثلاث ساعات ونصف الساعة فحسب، وتعالى أزيز هليوكوبتر حربية مصرية، تنطلق على ارتفاع منخفض، فوق صحراء (سيناء)، وبداخلها رجلان، بخلاف قائدها، الذي بدا شديد التوتر والاهتمام، وهو يقول:

- الشمس توشك على الغروب، ونحن نتوغَّل أكثر وأكثر، في مناطق ما زال يسيطر عليها العدو.

أجابه أحد الرجلين في حزم:

- واصل طريقك يا رجل.. إنها أوامر الرئيس نفسه.. لا رجوع إلا بعد أن نستعيد جثة ذلك الفتى بأي ثمن.

كان يبدو أكبر سنًا من صاحبه، بذلك الشيب الذي خطط فوديه، ولكن العجيب حقًا، في تلك الساعات الأولى من الحرب ومع التوتر الشديد على الجبهة، أن كليهما لم يكن يرتدي زيًا عسكريًا، وإنما كان كل منهما يرتدي حلة أنيقة، ورباط عنق متناسقًا، كما لو أنهما رجلا أعمال، في طريقهما لعقد صفقة خاصة..

وربما كان هذا بالذات ما يستفز قائد الهليوكوبتر العسكرية، وما جعله يقول في شيء من الحنق والاستنكار:

- أتعني أننا نقوم بهذه المجازفة لاستعادة جثة؟!.. أي قول هذا؟.. لقد مررنا في طريقنا بمئات الجثث، تفترش رمال (سيناء)، فما الذي يميز هذه الجثة بالذات.

أجابه الرجل في صرامة:

- ليس هذا من شأنك.. نفذ الأوامر فحسب.

كـان مـن الواضـح أنـه يمتلـك سـلطة مـا، تجبـر الطيـار علـى طاعته، فقد ابتلع لسانه في سخط، وانطلق بالهليوكوبتر نحو البقعة، التي تم تحديدها له من قبل، والتي تقع – نظريًا - في منطقة سيطرة العدو..

وفي خفوت، غمغم الأصغر سنًا:

- سـيادة المقـدَّم.. هـل تعتقـد حـقًا أن الأمـر يسـتحق المخاطرة؟

صمت الرجل لحظة، قبل أن يجيب في صرامة:

- مادامت هذه أوامر سيادة الرئيس، فالأمر يستحق حتمًا.

وعاد إلى صمته لحظات أخرى، قبل أن يضيف:

- لقد أدى هذا الفتى لوطنه خدمة لا تقدَّر بثمن، وليس أقل من أن نستعيد جثته.

سأله الشاب:

- لمـاذا؟!.. لقـد راجعـت ملفـه بنفسـي.. إنـه يتـيم الأبـوين.. ماتت أمه وهي تلده، وكان أوَّل الأبناء، أي أنه بلا أخوة أو أخوات، ثم مات والده بعد خمس سنوات، دون أن يتزوَّج بأخرى، وتولى خاله تربيته، وظل أعزب لم يتزوَّج، حتى التحق الفتى بالقوات الخاصة، ولقد مات ذلك الخال منذ أربعـة أشـهر، ولـم يعد للفتـى أي أقـارب علـى قيـد الحيـاة..

باختصـار.. إنـه وحيـد تمـامًا فـي هـذا العـالم، فمـن يـهتم باستعادة جثته؟

أجابه الرجل في حزم:

- (مصر).

انبـهر الشـاب بـالجواب، وتـراجع فـي مقعـده بحركـة حـادة، وغرق مع الآخرين في صمت ثقيل، ساد المكان كله، إلا من

صـوت مروحـة الـهليوكوبتر، إلا أنـه لـم يلبـث أن اعتـدل، وهمس:
- سيادة المقدّم (رفعت).
التفت إليه المقدّم (رفعت)، فأضاف:
- إنني أعتذر.
تطـلَّع إليـه (رفعـت) لحظـة فـي صـمت، ثـم اعتـدل، مجـيبًا بلهجته الحازمة دومًا:
- لا عليك يا (سمير).
قالها وترك الصمت يستعيد سيطرته مرة أخرى، حتى مال الطيار بالمروحية، قائلًا:
- وصلنا إلى الهدف.
ومع قوله، لاح طابور الدبابات المحطم، وقد تناثرت تمامًا على رمال سيناء، في مشهد مهيب، بدأ أشبه بلوحة رائعة، تحمل اسم (اندحار أسطورة الجيش الذي لا يقهر).. وخفق قلـب (سـمير) فـي رهبـة، عنـدما هبطـت الـهليوكوبتر وسـط الحطام والدمار، ووجد نفسه يهتف في حماس:
- الله أكبر.. لقد كبدناهم خسائر فادحة بالفعل.
ابتسم (رفعت) في شيء من السخرية، وهو يغمغم:
- هل انتبهت لهذا الآن فحسب؟
أشار (سمير) بيده، هاتفًا:
- هل سنعثر عليه، وسط كل هذا؟
أجابه (رفعت) بحزمه المعهود، وهو يقفز خارج المروحية:
- سنبذل قصارى جهدنا.
هتف الطيَّار بشيء من الحدة:
- المهم أن تسرعا، فالشمس بدأت تغوص في الأفق، ولست أدري متى يأتي الإسرائيليون.. إنهم يستغلون فترة الليل دائمًا، لاستعادة

جثث قتلاهم..
قال (رفعت)، وهو يبتعد:
- لا تقلق نفسك بهذا الشأن يا رجل.. لن يأتي الإسرائيليون قبل ساعتين على الأقل.
هتف الطَّيار:
- وكيف يمكنك أن تجزم بهذه الثقة؟
أجابه في صرامة:
- لأن ما أعرفه عن الإسرائيليين يفوق ما درسته أنت عنهم بعشر مرات على الأقل.
انعقد حاجبا الطيَّار، وهو يقول في حدة:
- من يظن نفسه؟
ابتسم (سمير)، وربَّت على كتفه، وهو يغادر المروحية، قائلًا:
- إنه واحد من أفضل من عرفت في عالم المخابرات يا رجل، وصدقني ما ليس من السهل أن تلتقي في حياتك كلها بواحد مثله.
هتف الطيار:
- من المخابرات؟!.. آه.. ألهذا يتصوَّر أنه فوق الجميع؟
ابتسم (سمير) مرة ثانية، وهو يبتعد عن المروحية دون تعليق، وانضمّ إلى (رفعت)، الذي أشار إلى الدبابات المحطمة، قائلًا:
- ابحث عن وحدة الدفاع الصاروخي.. لقد أرسل آخر رسائله من داخلها، قبل أن يقصفها رجالنا.. أعتقد أننا سنجد جثته داخلها، أو بالقرب منها على الأقل.
انطلقا يفحصان الحطام في اهتمام بالغ، والطيار يتطلّع إلى ساعته في توتر وقلق، حتى هتف (سمير):
- ها هي ذي.. لقد عثرت على وحدة الدفاع الصاروخي.

أسرع إليه (رفعت)، وألقي نظرة على الوحدة، التي احترقت عـــن آخرهـــا، وتحطـــم جزء منـــها، بفعـل أحـد الصـواريخ المصرية، وقال:
- يا للبشاعة!.. لو أنه ظل داخلها، فسيكون من المستحيل أن نستعيد منه ما يكفي لملء فنجان من الشاي.
قال (سمير):
- لقد قصفها رجالنا، فانفجرت كل صواريخها داخلها.. إنها محطمة تمامًا، على عكس الدبابات الأخرى.
قال (رفعت) في صرامة، لم يكن لها ما يبررها:
- هذا أمر طبيعي.
ثم قفز فوق الوحدة، وألقي نظرة داخلها بمصباحه اليدوي، قبل أن يقول:
- عندي هنا كومة من الأشلاء المحترقة.. سيحتاج الأمر إلى ملقط، لاستخرج بقايا ذلك الفتى المسكين.
ودون أن يبالي بحلته الأنيقة، وثب داخل الوحدة، وراح يفحص البقايا والأشلاء في اهتمام بالغ، والطيار يهتف من بعيد:
- الشمس غربت بالفعل.
تجاهلـه (رفعـت) تمـامًا، وهـو يواصـل فحـص تلـك الأشـلاء الآدمية، التي تناثرت في كل مكان، واحترقت على نحو بشع، وامتزجت بالكثير من الدماء، ثم قال في توتر:
- إنه ليس هنا؟
قال (سمير) في دهشة:
- وكيف أمكنك الجزم؟
أجابه وهو يقفز خارج الوحدة:
- هذه الأشلاء تخص ثلاث جثث، ولقد عثرت بينهما على ثـلاث سـلاسل، تحمـل بيـانات أصـحابها وكلـهم مـن جنـود العدو،

وهذا يعني أنه ليس هنا.
ثم راح يدير عينيه في المكان، مع ضوء مصباحه اليدوي، والطيَّار يقول في عصبية:
- ضـــوء مصـباحك هـذا يمكـن رؤيتـه مـن مسـافة عشـرة كيلومترات .. هل تتعمد قتلنا أم ماذا؟
ولكن (رفعت) تجاهله مرة أخرى، وهو يهتف:
- انظر يا (سمير).. هناك.
قالها، وانطلق يعدو، دون أن ينتظر رد فعل صاحبه، حتى بلغ ذلك الموضع، الذي سقط فيه الشاب، وانحنى يجذب السلسلة المعلقة برقبته، وألقى نظرة على البيانات المدونة عليها، على ضوء مصباحه، قبل أن يهتف في حماس:
- إنه هو.. إنه هو يا (سمير).
أجابه (سمير) في انفعال:
- عظيم.. لقد عثرنا عليه بأسرع مما كنا نتوقع.. هيَّا نحمله إلى الهليوكوبتر، ونغادر هذا المكان، قبل أن يصاب الطيَّار بانهيار عصبي.
أسرع (رفعت) يدفع كفيه تحت إبطي الشاب، وهو يقول:
- انظر إلى الدماء التي تغطي جسده.. لقد أصيب الفتى بشدة، ولكنه واصل مهمته، على الرغم من هذا.. هل رأيت شجاعة تفوق شجاعته.. يا للخسارة!.. كم كنت أتمنى أن أشدّ على يده.
حمل (سمير) ساقي الشاب، وهو يتمتم:
- أعتقد أنني أشاركك أمنيتك هذه يا سيادة المقدّم، فلو...
انتفض جسده بغتة، عندما ندت من الجسد المثخن بالجراح حركـــة انقباضـية محـدودة، وسـعل مـرة واحـدة، وصـرخ (رفعت):

- مستحيل!.. إنه حي.. يا للمعجزة!.. إنه حي.. كل هذه الإصابات لم تنجح في قتله.. إنها معجزة بحق.
ثم انطلق يعدو نحو الهليوكوبتر، حاملًا جسد الشاب، و(سمير) يعاونه في آلية، واستقبلهما الطيَّار بصيحة استنكار، وهو ينظر إلى الزي الممزق، فوق جسد الشاب:
- إسرائيلي؟!.. هل فعلنا كل هذا، لنستعيد جثة جندي إسرائيلي؟!
صاح به (رفعت) في صرامة، وهو يضع الشاب داخل الهليوكوبتر.
- ها يا رجل.. انطلق بأقصى سرعة، وعد بنا إلى (القاهرة).. ربما كنا سعداء الحظ، واستطعنا إنقاذ حياته.. هيا.
اتسعت عينا الطيَّار في ذهول، وهو يهتف:
- إنقاذ حياته؟!.. هل تعني أن...
قاطعه (رفعت)، بكل ما يموج في صدره من انفعالات:
- نعم يا رجل.. إنه حي.. أسرع بالله عليك.. أسرع.
ولم تمض دقيقة واحدة، حتى كانت الهليوكوبتر تنطلق عائدة إلى (القاهرة)، وهي تحمل الدليل..
الدليل على قدرة الخالق (عز وجل)..

☆☆☆

«أنا أوافقك أيها المقدم.. إنها معجزة...»..
قالها كبير الجراحين، في المستشفى العسكري في (المعادي)، وهو ينتزع قفازي الجراحة المطاطيين من يديه، قبل أن يستطرد، والدهشة لم تفارقه بعد:
- لقد أخرجنا من جسده ثلاث رصاصات، وأكثر من دستتين من الشظايا، وكان قد فقد نصف دمائه تقريبًا، وعلى الرغم من هذا

فقد ساعدته بنيته القوية، وإرادة الله (سبحانه وتعالى) على البقاء حيًا.. إنها أغرب حالة شاهدتها في حياتي كلها.

أوما (رفعت) برأسه موافقًا، وهو يغمغم:

- هذا صحيح.. لقد كتب له الله (سبحانه وتعالى) البقاء، وأنا واثق بأن هذا كان لحكمة لا يعلمها سواه.
سأله الطبيب، وهو يغسل يديه:
- أهناك من يهتم ببقائه على قيد الحياة؟.. أعني هل له زوجة أو أبناء مثلًا؟؟
هزَّ (رفعت) رأسه نفيًا، وهو يجيب:
- بل ليس له أي أقارب على الإطلاق..
رفع الطبيب حاجبيه في دهشة، وهو ينتقل إلى ما خلف مكتبه، ويشعل سيجارته، قائلًا:
- عجبًا... لله (سبحانه وتعالى) في خلقه شئون.. عشرات الآباء والأزواج يموتون بسبب رصاصة أو شظية واحدة، وذلك الفتى يحيا، على الرغم من كل إصاباته، دون أن يكون هناك من يهتم بأمره.. سبحان الله.
صمت (رفعت) لحظة، ثم سأله:
- متى سيستعيد لياقته في رأيك؟
حدَّق الطبيب في وجهه لحظة بدهشة، قبل أن يقول:
- لياقته؟!.. بل قل: متى يستعيد وعيه يا رجل؟.. من الواضح أنك لا تدرك حقيقة الموقف جيدًا.. صحيح أن هذا الشاب لم يمت، ولكن هذا لا يعني أنه سيعود كما كان.
انعقد حاجبا (رفعت) في شدة، وهو يقول:
- ماذا تعني؟
نفث الطبيب دخان سيجارته، قبل أن يجيب:
- لقد كانت إصاباته بالغة، وفقد الكثير من دمائه، وقضى ما يقرب من الثلاث ساعات دون علاج، كما أن قوة الانفجار أصابت مخه بارتجاج عنيف، مع قصور في الأكسجين، و...
قاطعه (رفعت)، في شيء من الضيق:

- لست أفهم الكثير من النواحي الطبية.. دعنا نقفز إلى النتائج مباشرة، دون المرور بالتفاصيل.
ابتسم الطبيب، وهو يقول:
- آه.. كدت أنسى طبيعتك المتبرمة.. فليكن يا (رفعت) بك..
النتيجة النهائية هي أن هذا الشاب سيصاب بتلف ما، في خلايا المخ.. لا يمكننا تحديد هذا بشكل قاطع الآن، فلا توجد وسيلة علمية متاحة لهذا ولكنه لن يعود قط إلى ما كان عليه.
بدا الضيق على وجه (رفعت)، وهو يسأل:
- وما نوع هذا التلف بالتحديد؟.. هل سيصاب بنوع من الشلل مثلًا؟
هزّ الطبيب كتفيه، وهو ينفث دخان سيجارته مرة أخرى، مجيبًا:
- ربّما.. أو ربما يصاب بضعف في السمع، أو البصر، أو عدم توافق في حركة الأطراف، وربما يفقد ذاكرته، أو قدرته على التركيز.. لا أحد يدري.
لوَّح (رفعت) بيده، ليطرد سحب الدخان، قبل أن يقول في حدة:
- هذه السجائر ستقتلك يومًا.
حدَّق الطبيب فيه بدهشة، قبل أن يبتسم مرتبكًا، ويغمغم:
- عجبًا... المفروض أنني الطبيب هنا، وأنني المسؤول عن تحذير الناس من أضرار التدخين، ولكنك تعكس الأمور كالمعتاد.
ثم أطفأ السيجارة، وهو يسحقها بسبَّابته وإبهامه في المنفضة، مستطردًا:
- المهم أن أحدًا لا يمكنه التنبؤ مسبقًا بما سيكون عليه الشاب، عندما يستعيد وعيه.
سأله (رفعت):
- ومتى يفعل؟

عاد الطبيب يهز كتفيه، مجيبًا:
-لا أحد يدري أيضًا.. إصاباته تركت أثرًا عنيفًا في جسده وعقله.. ربما يعود إلى وعيه بعد يوم، أو أسبوع.. أو حتى عشر سنوات.. هذا أمر نجهله تمامًا.

بُهت (رفعت) للجواب، وهتف مستنكرًا:
- عشر سنوات؟!.. أمن الممكن أن يسقط شخص ما في غيبوبة عميقة، لعشر سنوات متصلة؟!
أشار إليه الطبيب، قائلًا:
- توجد حالات مسجلة، في الولايات المتحدة الأمريكية، ظلت إثنى عشر عامًا بهذه الصورة، وهم يبقون عليها بوسائل تنفس وتنظيم قلب صناعية، ويداومون على تليين مفاصلها وعضلاتها، في أثناء فترة الغيبوبة، عبر برنامج علاج طبيعي مدروس، بحيث يمكنها استعادة لياقتها، خلال فترة قصيرة، إذا ما استعادت وعيها، ولا تصاب بالتيبس الكامل، من جراء الرقاد لفترات طويلة.. صحيح أن الشاب يمكنه التنفس بصورة طبيعية، وقلبيه على ما يرام إلى حد كبير، ولكنه سيحتاج بالطبع إلى برنامج للعلاج الطبيعي، حتى يستعيد وعيه، بعد فترة لا يعلمها إلا الله (سبحانه وتعالى).
صمت (رفعت) لحظات في أسى، ثم هز رأسه، مغمغمًا:
- يا للخسارة!.. ليس من السهل أن تجد شابًا كهذا.. لقد أدى واجبه ببسالة مدهشة، وإرادة فولاذية لا تنصهر، وعندما حانت اللحظة، التي يتراجع عندها أشجع الرجال، وقف هو كالطود، وقاتل كالأسود، واتخذ قرارًا نادرًا بالتضحية بحياته، في سبيل وطنه.. إنه طراز نادر بالفعل، يؤسفني أن تخسره (مصر).

تطلّع إليه الطبيب لحظات، وقد انتقل بكلماته إلى منطقة تأثر وانفعال كبيرة، ثم همس، وكأنه يخشى أن يفسد صوته رهبة الموقف كله:

- ربما لم تخسره بعد.. من يدري؟

التفت إليه (رفعت) في حركة حادة، وظل يحدّق في وجهه لحظات في صمت، قبل أن ينعقد حاجباه، ويقول في حزم:

- نعم.. من يدري؟..

وفي تلك اللحظة.

في تلك اللحظة بالذات، تكونت الفكرة في رأسه..

ويالها من فكرة..

☆☆☆

«فكرة مجنونة للغاية يا (رفعت)..»

هتف زميله المقدّم (نسيم) بالعبارة، وهو يلوّح بيده في حدة، قبل أن يستطرد:

- كدت أنفجر غيظًا، وأنا أسمعك تشرحها للسيد المدير!..

كيف تقرّر تجنيد شخص فاقد الوعي، في صفوف المخابرات العام؟!.. إنها سابقة عجيبة للغاية، وغير مفهومة.

أجابه (رفعت) في هدوء:

- ولكن المدير تفهم الموقف، واستوعبه على نحو جيد.. إننا لن نخسر شيئًا، إذا ما قررنا ضمّ هذا الشاب لصفوفنا، فكل ما فعلته هو أن حصلت على موافقة مبدئية فحسب، ولا أحد يمكنه أن يلزمنا بقبوله أو رفضه، إذا ما فكرنا في التراجع.. كل ما في الأمر هو أننا سننتظر ما ستسفر عنه الأمور، فلو استعاد ذلك الشاب وعيه وكفاءته، سيكون من الخسارة، كل الخسارة، ألا ينضم مثله إلينا، أما لو لم يعد إلى ما كان عليه، فسنتولاه برعايتنا، كما لو كان أحد رجالنا، الذين يصابون في أثناء العمل.

قال (نسيم) في عصبية:
- لو أن الأمر اقتصر على هذا، لما وجدت مني استهجانًا أو معارضة، ولكنك تمضي بالأمور إلى حد يثير الحنق.. لقد أوردت اسم الشاب، ضمن قائمة شهداء الحرب، وأغلقت بهذا سجله في عالم الأحياء، ثم إنك أخفيت اسمه عن الأطباء والعاملين بالمستشفى العسكرى، وكأنك تتعمد تحويله إلى شخص غامض.. رجل خفي.. معامل فاي..
انعقد حاجبا (رفعت)، عند سماعه الكلمة الأخيرة، وسأل في دهشة:
- ما معنى (فاي) هذه؟
لوَّح (نسيم) بسبَّابته، وهو يجيب:
- (فاي).. ذلك الرمز المعروف، في الرياضة الحديثة، والذي يشير إلى القيمة الخالية.. مجرَّد قيمة خالية.. إنها لا تساوي حتى صفرًا؛ لأن الصفر قيمة محدودة في عالم الرياضيات.. ألم تسمع عن (فاي) من قبل يا رجل.. ذلك الرمز الذي يمثل شبه دائرة يقطعها خط مستقيم رأسي.. ألم تر هذا الرمز من قبل قط؟
صمت (رفعت) تمامًا، وهو يفكر في عمق، قبل أن يردّد في خفوت:
- (فاي).. القيمة الخالية.. نعم.. هذا يناسب الأمر تمامًا.
تطلّع إليه (نسيم) في دهشة، قائلًا:
- يناسب أي أمر؟
أجابه (رفعت) في حماس، وهو يلتقط ملفًا من فوق مكتبه:
- لقد حللت مشكلة عويصة يا رجل.. كنت أفكر في الاسم الكودي، الذي يناسب العميل الجديد، عندما يستعيد وعيه، وينضم إلى صفوفنا، وهأنتذا تلقيه عن لسانك، دون أن

تدري.. نعم.. أي لقب يناسب شخصًا يعتبره العالم كله في عداد الأموات.. شخص يحمل هوية جديدة، ويمتلك حياة جديدة.. أهنئك يا رجل.. لقد ألهمتني الحل..

حدَّق فيه (نسيم) مرة أخرى في دهشة، وهو يلتقط قلمه، ويرسم به شكلًا بيضاويًا يقطعه خط رأسي مستقيم، على الملف الخاص بالشاب..

رمز القيمة الخالية (فاي)..

وكانت هذه هي البداية..

البداية الحقيقية.

☆☆☆

5- البعث..

السابع من أبريل، عام 1974م..
تسلَّم الدكتور (عاطف) عمله للمرة الأولى، في قسم الرعاية المركزة، في مستشفى المعادي العسكري، وهو يحمل على كتفيه رتبة ملازم أوَّل، فور عودته من الجبهة، ومنذ لحظاته الأولى، جمع الملفات الطبية لكل مرضى القسم، وراح يراجعها في اهتمام، ليكون فكرة مناسبة عن المرضى الذين يضمهم القسم، قبل أن يتعامل معهم مباشرة.
كان كل شيء، بالنسبة إليه، يسير على ما يرام، حتى وقع في يده ذلك الملف.
مجرَّد ملف عادي المظهر، مثل كل الملفات السابقة، ولكنه مكتظ على نحو عجيب، بعشرات التقارير، والفحوص، والاستشارات، كما لو أن صاحبه يلقي رعاية خاصة للغاية، بوساطة عدد من أكبر أطباء المستشفى، وأكثرهم خبرة وتخصصًا، في مختلف المجالات الطبية، وفروع التحاليل والفحوص والمعامل..
والمفروض، طبقًا للملف، أن ذلك المريض فاقد الوعي، منذ السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م، وعلى الرغم من هذا فقد أجريت له ثلاث عمليات جراحية كبرى.. واحدة لإخراج بعض الرصاص والشظايا من جسده، والثانية لتصفية تجمع دموي بين خلايا المخ والجمجمة، والثالثة جراحة تجميلية، لتغيير بعض ملامحه، التي مزقها انفجار ما..
وليس هذا كل ما في الأمر..

إنهم يخضعونهلكل الفحوص اللازمة والضرورية، وغير الضرورية، أسبوعيًا، ويقوم طاقم خاص بعمل علاج طبيعي منتظم له، في أثناء غيبوبته؛ للحفاظ على نشاط عضلاته وقدرتها على الحركة والاستجابة..

ثم إنه يرقد فوق فراش خاص، تم استيراده خصيصًا من أجله، ليتموَّج بصفة منتظمة، على وسادة هوائية، منعًا لإصابته بقرح فراش أو التهابات مزمنة..

وفي دهشة كاملة، هتف الدكتور (عاطف):

- هناك خطأ ما حتمًا.

وألقى الملفات كلها على مكتبه، وحمل هذا الملف بالذات، وهو يندفع نحو الممرضة الأولى للقسم، قائلًا:

- ما هذا بالضبط؟

التفتت إليه في هدوء، تسأله:

- ماذا هناك؟

لوَّح بالملف في وجهها، قائلًا في شيء من العصبية:

- هل قرأت هذا الملف مرة واحدة؟!.. ألديك تبرير منطقي لما يفعلونه لهذا المريض بالذات؟!.. إن ميزانية الإنفاق عليه، تعادل تقريبًا ميزانية القسم كله.. من هو بالضبط، حتى يحظى بكل هذا؟!.. ابن أحد المسؤولين، أم وزير حربية سابق؟!

استقبلت ثورته بهدوء عجيب، وكأنها اعتادت هذا الموقف، من كل طبيب جديد، وأجابت في بساطة:

- ليست لدي أي أجوبة.

صاح في حنق:

- ما الذي يعنيه هذا الجواب السخيف؟.. لقد قضى ذلك المريض في غيبوبته ما يزيد على خمسة أشهر.. كيف تجهلين كل شيء عنه، طوال هذه الفترة؟!

واصلت حفاظها على أعصابها، وهي تجيب:
- لست وحدي من يجهل كل شيء عنه.. لو أنك انتبهت إلى الملف جيدًا، للاحظت أنه لا يحمل أي اسم.. فقط رقم (144) وهذا الرقم لا يعني أي شيء على الإطلاق، بالنسبة لنظم المستشفى، ثم إنه غير مسموح على الإطلاق بوجود أي زائرين، سوى شخص واحد، ممشوق القامة، صارم الأسلوب والملامح، أشيب الفودين، يزوره بصفة منتظمة إلى حد ما، بصحبة مدير المستشفي نفسه لدقائق معدودة، ثم ينصرف دون أن يتحدَّث إلى أحد، حتى أننا لا نعرف صوته.
ذابت ثورته في أعماق دهشته، وهو يعيد التطلع إلى الملف، وانتبه لأوَّل مرة إلى الرقم الصغير على غلافه، ورقم الهاتف المدون تحته، فسألها في حيرة:
- وماذا عن رقم الهاتف؟
أجابته بسرعة وهدوء:
- إننا لم تستخدمه قط، منذ أتوا به إلى هنا.. ولكن الأوامر تحتّم الاتصال بالرقم فورًا، إذا استعاد ذلك المريض وعيه، أو جزءًا منه، في أية لحظة من الليل أو النهار.
بهره الغموض المحيط بالموقف كله، ففغر فاه لحظات، وهو يحدّق في الملف، قبل أن يهز رأسه، مغمغمًا:
- عجبًا!!
ثم رفع عينية إلى الممرضة، وسألها في صوت خافت، وقد تلاشت ثورته تمامًا:
- وأين هذا المريض الغامض؟
أشارت بيدها إلى حجرة مغلقة، في نهاية الممر، مجيبة:
- هناك.

اتجه في آلية إلى تلك الحجرة، وفتحها في شيء من الحذر، وكأنه يتوقع أن يقفز شبح في وجهه فجأة، ولم يكد يلقي نظرة على الشاب، الراقد فوق الفراش المتموج، وقد أحاطت به أحد أجهزة الفحص والمراقبة، في تلك الفترة،
حتى ارتفع حاجباه في دهشة، وهتف:
- إنه شاب صغير.
أجابته الممرضة في خفوت، وهي تتطلَّع إلى الشاب في شيء من العطف والحنان والحسرة:
- نعم.. ووسيم أيضًا.. إنني أقوم برعايته في فترة عملي، وأحلق لحيته باستمرار، وأعاون طاقم العلاج الطبيعي، و...
لاحظت فجأة أن الطبيب ينظر إليها في دهشة، فارتبكت وتنحنحت، مكملة:
- إنني أقوم بعملي..
ظلَّ الطبيب يتطلَّع إليها لحظة في صمت، قبل أن يبتسم، قائلًا في خبث:
- حقًّا؟!

تضرج وجهها بحمرة الخجل، وارتبكت أكثر، ولكنه أشاح بوجهه عنها، مكملًا بسرعة:
- إنه يستحق الشفقة بالفعل.
ودلف إلى الحجرة في صمت، وراح يدير عينيه في كل ما تحويه، قبل أن يهز رأسه، مغمغمًا:
- يبدو أنني لم أحسن تقدير الموقف.. إنهم لا ينفقون عليه ما يساوي ميزانية القسم كله فحسب.. إنهم ينفقون عليه ثلاثة أضعاف هذا المبلغ على الأقل.
اقتربت منه الممرضة، وهي تقول في خفوت:

- لا ريب أنهم يرون أنه يستحق هذا.. ثم إن كل هذه الأجهزة ستصبح ملكًا للقسم، عندما يستعيد وعيه.
أومأ برأسه بلا معنى، قبل أن يتمتم:
- هذا لو استعاد وعيه..
انفرجت شفتا الممرضة، لتنطق بشيء ما، عندما التقطت أذناها فجأة تأوهات خافتة للغاية، فتجمَّد جسدها كله، ثم استدارت في حدة إلى الشاب، وأطلقت شهقة عنيفة، وهي تهتف:
- رباه!.. انظر يا دكتور.
التفت الدكتور (عاطف) بسرعة، إلى حيث تنظر، ثم ارتد في عنف، كمن أصابته صاعقة..
كل هذا لأن الشاب فتح عينيه، وتطلّع إليهما بنظرة خاوية، وتحرَّكت شفتاه في بطء، وكأنه يحاول نطق شيء ما، ولم يخرج منهما سوى همهمة خافتة غير مفهومة، إلا أنها كانت كافية لجذب نظرات الطبيب والممرضة في سرعة، وتقفز إلى رأسهما فكرة.. فكرة واحدة مشتركة..

☆☆☆

لم يكن ذلك الصباح عاديًا أبدًا، بالنسبة للمقدم (رفعت).
لقد تلقى عشرات التقارير والمعلومات، من عدد من العملاء السريين، وراح يطالعها كلها بكل الاهتمام، قبل أن يدمجها في تقرير واحد، تتم دراسته في أثناء الاجتماع اليومي..
ولقد انهمك في هذا العمل حتى النخاع، ولم يفارق مكتبه لحظة واحدة، منذ الخامسة والنصف صباحًا، و...
وفجأة، ارتفع رنين هاتفه الخاص..
والعجيب أنه، وهو المدرَّب على مواجهة الخطر، والمعتاد على خوض أصعب المواقف والمعارك، وتجاوز أعقد

الظروف، انتفض في عنف، مع الرنين المباغت، وقفز تقريبًا من مقعده، قبل أن يختطف السمَّاعة، ويقول في حدة:
- من المتحدث؟
أتاه صوت الدكتور (عاطف)، وهو يقول في توتر مرتبك:
- لقد استعاد وعيه.
من الممكن أن يعتبر البعض أن هذه العبارة مبهمة إلى حد كبير، ولكن (رفعت) فهمها على الفور، ووثب واقفًا، وهو يجيب في حزم:
- سأحضر على الفور.
لم يدر بعدها كيف ارتدي سترته، ولا كيف قاد سيارته بهذه السرعة، من (حدائق القبة) إلى (المعادي)، ولكنه وجد نفسه أخيرًا داخل حجرة الشاب، الذي لم يختلف كثيرًا عما كان عليه في غيبوبته، باستثناء ما كانت عليه عيناه، اللتان راحتا تنتقلان من وجه (رفعت) إلى وجه أخصائي المخ والأعصاب، الذي يقول في ارتياح واضح:
- عظيم.. لم أكن أتوقع أن يستعيد وعيه أبدًا.. لقد فعلها أخيرًا.. حمدًا لله.
أطلّ شيء من خيبة الأمل، من صوت (رفعت)، وهو يقول:
- أهذا ما تطلقون عليه استعادة الوعي؟!.. إنه أشبه بجثة أوصلوها بتيار كهربي، لتحرك عينيها فقط.
ابتسم الطبيب، وهو يقول:
- إنها البداية فحسب.. لا تنس أنه رقد فاقدًا للوعي لفترة طويلة، وليس من السهل أن يستعيد المخ قدراته، وسيطرته على الجسد، بعد فترة كمون طويلة كهذه.
سأله (رفعت) في اهتمام:
- أتعني أنه سيفعل، مع مرور الوقت؟

أجابه الطبيب في حماس:
- بالطبع.. سيتحسَّن هذا الشاب تدريجيًا، ويستعيد قدراته البشرية خطوة فخطوة، مع مداومة العلاج، والمواظبة على جلسات العلاج الطبيعي.. صدقني.. لن تمضي ستة أشهر، حتى يستعيد قدرته على المشي والكلام.
هتف (رفعت):
- المشي والكلام؟!.. أهذا أقصى ما يمكن أن يصل إليه؟!
صمت الطبيب لحظة، ثم مط شفتيه، قائلًا:
- نحن لم نعرف بعد أي أثر تركته الإصابة في مخه، ولكن كل ما تستطيع معاونته فيه، هو أن نعيد إليه قدرته على المشي والكلام، أما ماعدا هذا، فهو يتوقف على عاملين.
سأله (رفعت) في اهتمام بالغ:
- وما هما؟
أشار الطبيب بسبَّابته ووسطاه، قائلًا:
- الزمن، وإرادة الشفاء في أعماقه.
أومأ (رفعت) برأسه متفهمًا، ثم أطلّت من شفتيه لمحة ابتسام، وهو يجيب في حسم:
- يمكننا إذن أن ننتظر.
وفي أعماقه، عاد الأمل ينتعش..
وبشدة..

☆☆☆

«كيف حاله الآن؟!..»
ألقى المقدّم (نسيم) السؤال على زميله (رفعت)، داخل حجرة مكتب هذا الأخير، الذي ابتسم ابتسامة باهتة، وهو يجيب:
- أفضل من ذي قبل.. إنه يتناول طعامه بنفسه، ويمكنه السير عبرِ الممر جيئة وذهابًا، دون أن يستند إلى أحد.

مطّ (نسيم) شفتيه، وعقد حاجبيه، وهو يقول:
- أيبدو لك هذا كافيًا، بالنسبة لشخص يتم تجنيده؟!
صمت (رفعت) لحظات، ثم أجاب في جدية:
- الشاب سيتحسن يا (نسيم).. لقد أكد لى الأطباء هذا.. بل إنه تجاوز بالفعل كل توقعاتهم؛ فالفحوص كلها تشير إلى أن إصابة مخه لم تفقده أيًا من توافقاته العصبية، أو حواسه المباشرة، وربما حدثت معجزة جديدة، وتجاوز الأزمة كلها دون خسائر.

غمغم (نسيم) في سخط:
- هذا ما سيتضح مع الزمن.
أشار (رفعت) بسبَّابته، قائلًا:
- بالضبط.. حل المشكلة كلها يكمن في الزمن.. امنحه ما يكفي من الوقت، وأنا واثق من أننا لن نندم أبدًا.. صدقني يا (نسيم).. أهم وأخطر ما في الأمر، هو أن تجد شخصًا يصلح للعمل معنا، ويضيف إلينا الجديد، وقد تقضي عمرك كله، وأنت تبحث عن مثل هذا الشخص فلا تجده.. ماذا يضيرنا إذن لو انفقنا جزءًا من العمر، لنفوز بشخص، نعلم جيدًا أنه يمتلك كل الصفات المنشودة، ولا يعوزه إلا الوقت.. فقط الوقت؟!
صمت (نسيم) لحظات، وكأنه يستوعب الموقف كله، ثم قال:
- أنت على حق.. لقد كنت متسرعًا ومخطئًا.
ابتسم (رفعت)، قائلًا:
- أتدري؟.. هذا أعظم ما فيك يا صديقي.. تمتلك قلب الأسد، وعناء الدنيا كلها، ولكنك تحمل وسط هذا شجاعة كافية

للتراجع، إذا ما تبين لك خطأ رأيك.. إنها صفة نادرة الوجود بحق.
مطَّ (نسيم) شفتيه، ولوَّح بكفه، قائلًا:
- لا تضخم الأمور.
ثم تنهَّد، مستطردًا:
- وعلى أية حال، يبدو أنني لن أعرف نتيجة هذا العمل.
سأله (رفعت) في قلق:
- ما الذي تعنيه؟!
هزَّ كتفيه، وابتسم ابتسامة باهتة، وهو يقول:
- لقد أصبحت رئيس مكتبنا في (نيويورك).
هتف (رفعت):
- ألف مبروك يا رجل.. هذا يعني أنك ستواجه الأمريكيين هذه المرة.
ثم أمسك كتفيه في قوة، وتطلّع إلى عينيه مباشرة، مستطردًا:
- دعهم يعترفون بكفاءتنا يا رجل.
ابتسم (نسيم)، قائلًا:
- سأبذل قصارى جهدي، وعليك أن تفعل المثل هنا.. وأنا واثق من أنك ستنجح مع ذلك الشاب.. المهم أن تبلغني، ما الذي تأثر فيه، بعد إصابة مخه؟
تنهَّد (رفعت)، وهو يقول:
- المهم أن أعرف أولًا يا رجل.. وأن يجيب الزمن على هذا السؤال.
المهم أن يجيب الزمن السؤال..
ما الذي فقده الشاب؟!..
ما هو؟!..

☆☆☆

وقف (رفعت) صامتًا، في ركن حديقة المستشفي، المطلّ على النيل، يراقب الشاب، الذي يجول وحده في الحديقة، وانعقد حاجباه في شدة، عندما داعب الشاب طفلة صغيرة، ثم حملها في هدوء، وطبع على وجنتها قبلة حانية، قبل أن يعيدها إلى أمها، وهو يمنحها ابتسامة عذبة هادئة..

«لقد تحسن كثيرًا.. »

انبعثت العبارة من خلفه، فاستدار (رفعت) إلى صاحبتها، الممرضة الأولى لقسم العناية المركزة، وحاول أن يبتسم، وهو يجيب:

- هذا يبدو واضحًا.

ابتسمت ابتسامة كبيرة، عوضت ابتسامته الباهتة، وهي تقول:

- إنه صاحب إرادة فولاذية بحق.. لقد حقق في ثلاثة أشهر، ما يعجز عن تحقيقه مريض مشابه في عام كامل.. هل رأيت كيف يسير ويتحرك.. لقد استعاد توافقه العصبي كله تقريبًا.

سألها (رفعت) في اهتمام:
- لماذا لم يتحدَّث حتى الآن إذن؟.. هل أصيب مركز الكلام في مخه مثلًا؟
ضحكت قائلة:
- هذا غير وارد، فمركز الكلام في الجانب الأيسر من المخ، وإصابته تركزت كلها في الجانب الأيمن الخلفي..
تطلَّع طويلًا إلى الشاب، قبل أن يكرّر:
- لماذا لا يتكلم إذن؟
قالت لي إهتمام:
- يبدو لي أن هذا جزء من شخصيته، أو...
صمتت بغتة، مما استثار انتباهه، فالتفت إليها يسألها:
- أو ماذا؟
أجابته بعد فترة من التردّد:
- أو أنه يشعر بالحيرة..
أطلَّ التساؤل من عينيه، فأكملت بسرعة:
- عندما يكون وحده، أو يتصوَّر أنه كذلك، يتمتع ببعض الكلمات غير المفهومة، أو غير المترابطة، ويتأمل كل ما حوله بنظرة حائرة.. ألم تنتبه إلى النظرة التي يحدجك بها، كلما أتيت لزيارته؟!.. إنه ينتظر زياراتك باهتمام بالغ، وتمتلئ عيناه بالتساؤلات، وهو يتطلَّع إليك.. أكاد أقسم إنه يخفي شيئًا ما في أعماقه، أو...
كانت تستدير نحو الحديقة، وهي تواصل حديثها، عندما بترتها بغتة، وشهقت على نحو جعل (رفعت) يستدير بدوره، و...
وكانت مفاجأة..

لقد وجد نفسه يتطلّع مباشرة إلى عيني الشاب، الذي يقف على مسافة متر واحد منه، وينظر إليه باهتمام شديد..
ثم انفرجت شفتا الشاب..
انفرجتا في بطء، وهو يسأل بكلمات متعثرة:
- من.. من أنا؟!
وكان للسؤال وقع كالصاعقة، ولكنه حمل في طياته جوابًا واضحًا..
الآن فقط، عرف (رفعت) ما الذي فقده الشاب..
عرفه في وضوح .

☆☆☆

«ذاكرته...».
نطق (رفعت) الكلمة في حزم، أمام مدير المخابرات، الذي ارتفع حاجباه في شدة، ثم عادا ينخفضان، وهو يقول:
- إذن فقد فقد ذاكرته تمامًا؟!.. يالها من مصادفة!.. ألا يذكر أي شيء عن ماضيه؟
هزَّ (رفعت) رأسه نفيًا، وهو يقول:
- مطلقًا.. عقله صار صفحة بيضاء، لم يمسها الحبر، إلا منذ استعادة الوعي.. من هنا فقط تبدأ ذاكرته، أما كل ما سبق هذا، فقد تلاشى تمامًا، وكأنما لم يكن له وجود من قبل.
صمت المدير لحظات، وهو يتطلّع إليه، ثم تراجع في مقعده، قائلًا:
- مازالت الفرصة أمامك يا (رفعت).. لو أردت أن تتراجع، فلن يلومك أحد قط.
أجابه (رفعت) في سرعة:
- مستحيل!.. فقدان الشاب لذاكرته أمر مؤسف بالتأكيد، لو نظرنا إليه من الناحية الإنسانية أو الاجتماعية، أما من

الناحيــة العمليــة، فـهو يتفـق تمـامًا مـع خطتـي الأوليـة، بـل ويساعدها كثيرًا.. لقد فقد الشاب ذكرياته وماضيه، ولكنه لن يفقد قوته وإرادته وعزمه، وذلك الانتماء الذي يتدفق في عروقه، ويجري فيها مجرى الدم.. ولقد انتهى ماضيه بالفعل، منذ أوردنا اسمه في قائمة شهداء حرب أكتوبر، ويمكننا أن نقول إنه ولد فقط عندما استعاد وعيه.. ولد باسم جديد، وهوية جديدة.

سأله المدير مبتسمًا:

- وأي اسم ستمنحه إياه؟

انعقد حاجبا (رفعت) في شدة، وهو يقول:

- من الناحية الرسمية، وطبقًا لما سيدوَّن في السجلات، سنمنحه ليس اسمًا واحدًا، وإنما عدة أسماء، تتيح له حرية الحركــة وســرعة التخفـي، أمـا هنـا، فلـن يحمـل سـوى اسـم واحد.

سأله المدير، وهو يعتدل في لهتمام:

- أي اسم؟

صــمت (رفعــت) لنصــف دقيقــة كاملــة هـذه المـرة، قبـل أن يجيب في حزم:

نفس الاسم المرسوم على ملفه..

وامتزج حزمة بنبرة صارمة، وهو يستطرد:

- اسم (فاي).

وأعلن القدر مولد رجل جديد.

رجل من طراز خاص..

خاص جدًا.

☆☆☆

6- الفتى فاي..

الخامس والعشرون من يناير 1975م..
أضيء مصباح أحمر، في سقف طائرة نقل الجنود، وهي تحلّق على ارتفاع شاهق، فارتفع صوت صارم يقول:
- استعد للقفز.
نهض الراكب الوحيد في الطائرة، وهو يحكم حقيبة مظلته خلف ظهره، ووقف أمام الباب المفتوح، وهو يلتقط أنفاسه في بطء، ليملأ صدره كله بالهواء، في ذلك الارتفاع، الذي يختلف فيه الضغط الجوي تمامًا، عن مثيله على سطح الأرض ، وتعلَّق بصره بالمصباح الأخضر، الذي أضيء بدوره، وصاحب الصوت يهتف:
- اقفز..
قبل حتى أن تكتمل الكلمة، كان الشاب قد قفز بالفعل، وراح جسده يهوي في السماء، مخترقًا السحب الكثيفة، ومتجاوزًا إياها، ليتجه نحو الأرض، التي بدت له بعيدة صغيرة، من ذلك الارتفاع الكبير..
وداخله، راحت متوالية عددية تتردد بسرعة:
- ألف وواحد.. ألف واثنان.. ألف وثلاثة.. ألف و...
فجأة، تفجرَّ شيء ما في عقله.
إنها ليست أوَّل مرة، يمرّ فيها بمثل هذا الموقف..
لقد فعلها من قبل..
وعلى النحو نفسه..
ولكن متى؟!..
متى وأين؟!..

كاد التساؤل يستغرقه تمامًا، ولكنه نفضه بسرعة عن رأسه، وأكمل:
- ألف وعشرون.. ألف وواحد وعشرون..
بذل جهدًا ليطرد تلك الذكريات المشوشة، التي تهاجم عقله في إصرار، وواصل العدّ، حتى بلغ الحد المطلوب، فجذب خيط المظلة، التي انفتحت على الفور، وصنعت شكلًا أشبه بقبة ضخمة، في قلب السماء..
وفي مهارة، راحت يداه تجذبان حزامي المظلة، في تناسق مدروس، لتتجه بحملها إلى نقطة الهبوط، التي تم تحديدها مسبقًا..
مبنى من عشرين طابقًا، في أحد الأحياء الراقية في حي (الجيزة)، هبط هو فوقه في براعه، ولم يكد يلمس سطحه، حتى جذب المظلة بكل قوته، وترك جسده ينثني في مرونة، وهو يجمع قماشها العريض، ويدفعه داخل حقيبتها، ثم يعتدل، ويتلفت حوله في حذر، ليتأكد من أنه وحده على السطح..
وعند حاجز السطح، انحنى يعدّ الأدوار أسفله، ليحدّد نوافذ الطابق السابع عشر، ثم ثبت خطافًا قويًا في إحدى المواسير القوية، وألقى حبلًا قصيرًا، وتعلق به، وأخذ يهبط في سرعة، مستندًا بساقية إلى حائط المبني، حتى بلغ أحد نوافذ الطابق السابع عشر، فأطل بنظره عبرها في حذر، وتأكد من أن أحدًا لا يلمحه، وأخرج من جيبه قاطع زجاج ماسيًا، واقتطع به قطعة من زجاج النافذة، امتدَّت يده عبرها تزيح الرتاج، ثم وثب داخل المكان..
وفجأة، برز أحد الحرَّاس عند الباب، وهتف:
- ما هذا؟
كانت يده تسرع نحو مسدسه، ولكن الشاب وثب في براعة وخفة، وركل الحارس في وجهه، ثم هبط على قدميه

ليلكمه في أنفه وفمه، فتراجع الحارس في عنف، وتفجرت الدماء من أنفه، ومن ركن شفتيه، ولكنه عاد ينقض مرة أخرى، فقفز الشاب ثانية، ودار جسده كله حول نفسه في سرعة مدهشة، قبل أن تضرب قدمه صدر الحارس، وتلقيه مرة أخرى إلى الخلف، ليرتطم في الجدار، ويسقط على وجهه..

ومع سقوطه، برز حارسان آخران، استل كل منهما مسدسه بالفعل، ولكن الشاب جذب مسدسه بسرعة تفوقت عليهما، وأطلق النار:

- ولكن صوت إطلاق النار كان عجيبًا..

و كان يختلف تمامًا عن دوي الرصاصات المعروف، وحتى عن صوت رصاصة تخرج من كاتم للصوت..

كان أشبه بسعال مكتوم..

حتى الدماء التي تفجَّرت في رأس أحد الحارسين، وصدر الثاني، لم تكن حمراء قانية ككل الدماء.

بل كانت وردية باهتة، ذات ملمس أكثر لزوجة..

ولكن الأكثر غرابة، هو أن أحد الحارسين لم يسقط أرضًا..

فقط ارتسم الحنق على وجهيهما، عندما أصابتهما تلك الرصاصات العجيبة، في حين أضيء المكان كله، وارتفع فيه صوت المقدم (رفعت)، وهو يقول:

- لا بأس.. يمكننا اعتبار هذه التجربة ناجحة.. وبلا خسائر.

نهض الحارس الأوَّل، وهو يمسح الدماء الحقيقية عن أنفه وفمه، قائلًا في سخط:

- ماذا تسمى هذا إذن؟

أجابه (رفعت) في صرامة:

- ضرورات المهنة.

تبادل الحراس الثلاثة نظرة سريعة، ثم زفر أحدهم، وهو يتقدّم ليصافح الشاب، قائلًا:
- أهنئك.. أنت تجيد إطلاق النار بحق، وسرعة التقاطك لمسدسك تثير الإعجاب.
تمتم الشاب:
- أشكرك.
غادر الحراس الثلاثة المكان، وبقي (رفعت) وحده مع الشاب، الذي سأله:
- ما الذي ينبغي أن أفعله، لأسمع عبارة: «رائع.. عملية ناجحة تمامًا..»؟
صمت (رفعت) لحظات، ثم أجاب في حزم:
- أن تخوض عملية حقيقية.
سأله الشاب:
- وما الفارق؟!.. إننا نتعامل مع كل تدريب، وكأنه عملية حقيقية.
تطلّع إليه (رفعت) لحظات أخرى في صمت، ثم أشار إلى رأس الشاب، قائلًا:
- الفارق يكمن هنا.
ثم خفض سبَّابته، ليشير إلى صدره، مستطردًا:
- وهنا.
نظر إليه الشاب في تساؤل، فأوضح بنفس اللهجة الحازمة:
- صحيح أننا نتعامل مع كل تدريب وكأنه عملية حقيقية، ولكنك تعلم في أعماقك أنه مجرَّد تدريب، وقلبك لا يشعر بالخوف من المواجهة الحقيقية، وهذا لا يبرز قدراتك الحقيقية.
صمت الشاب لحظات في حيرة، قبل أن يقول:
- ولكنني أشعر دائمًا أنها ليست المرة الأولى.. أشعر أنني فعلت هذا من قبل.. حتما فعلته.

قاوم (رفعت) ابتسامته، ووأدها في مهدها، وهو يقول في اقتضاب:
- ربّما.
تطلَّع إليه الشاب طويلًا، وكأنما يحاول الغوص في أعماقه، واستخراج ما يخفيه فيها من معلومات وأسرار، قبل أن يسأل في بطء:
- أنت تعرف من أنا.. أليس كذلك؟
أجابه (رفعت) في هدوء:
- ما الذي تبحث عنه بالضبط يا (فاي)؟
قال الشاب في صرامة:
- واسمي ليس (فاي) بالتأكيد.
سأله (رفعت):
- ولم لا؟!
أجابه متوترًا:
- إيقاع الاسم نفسه لا يروق لي.. إنني مصري.. هذا ما أثق به تمامًا، حتى ولو فقدت ذاكرتي كلها.. لهجتي نفسها تؤكد هذا، هذا الاسم (فاى) لا يبدو مصريًا أبدًا.
قال (رفعت)، في شيء من الحذر:
- ربما كان فرعونيًا.
هزَّ الشاب رأسه نفيًا في قوة، وهو يشير إلى الرسم على صدره، قائلًا:
-بل هو رمز رياضي.. ها هو ذا.. إنني أحمله على صدري.. شكل بيضاوي يقطعه خط مستقيم رأسي.. لقد بحثت في القواميس الموجودة بالمكتبة، حتى عرفته.. إنه ليس اسمى.. إنه الرمز الذي يشير إلى القيمة الخالية، ولكن ما هو اسمي الحقيقي؟!

مضت لحظة من الصمت، قبل أن يقول (رفعت):
- وبم تفيدك معرفته؟
أجابه الشاب:
- أن أشعر بهويتي.
أشار إليه (رفعت)، قائلًا:
- هويتك مصرية.. أنت قلت هذا بنفسك.
صاح الشاب:
- هذا صحيح، ولكن من أنا؟!.. من صاحب هذا الجسد؟.. ما اسم صاحب الوجه الذي أحمله؟!.. من حقي أن أعرف.. من حقي أن أفهم.
لأذ (رفعت) بالصمت تمامًا، حتى أفرغ الشاب ثورته، ثم أجابه في حسم:
- نعم.. من حقك أن تعرف، وأن تفهم.
انتبهت كل حواس الشاب، وتعلّق بصره بشفتي (رفعت) في لهفة، قبل أن يستدرك هذا الأخير في سرعة:
- ولكن السؤال هو: فيم يفيدك هذا؟
قال الشاب في دهشة:
- في أن أعرف من كنت على الأقل.
قال (رفعت) في صرامة:
- وماذا لو أنك كنت لصًا أو قاتلًا محترفًا؟!
ارتد الشاب كالمصعوق، ولكن (رفعت) واصل في عنف:
- ماذا لو أنني أنقذتك من حكم الإعدام مثلًا، أو أنك كنت أحد جواسيس العدو، وأمكننا تجنيدك، أو...
قاطعه الشاب في عنف:
- مستحيل!..
ثم أشار إلى صدره، مستطردًا في صرامة:

- صحيح أنني فقدت ذاكرتي، ولكنني لم أفقد قط ذلك الانتماء في أعماقي.. لم أفقد تلك الارتجافة، التي تسري في عروقي، كلما سمعت اسم (مصر).. مازال كياني كله على أتم الاستعداد لتلبية ندائها، في أية لحظة، ومهما كان الثمن، و...

ارتج شيء ما في أعماقه، مع الجزء الأخير من العبارة..

مهما كان الثمن..

متى سمعها من قبل؟!..

من ردَّدها على مسامعه؟!..

أي أثر تركته في أعماقه؟!..

كان من الممكن أن يغرق في تساؤلاته طويلا، إلا أنه أزاحها جانبًا في سرعة، وهو يكمل، بعد وهلة من الصمت:

- والشخص الذي يحمل هذه المشاعر تجاه وطنه، لا يمكن أبدًا أن يصبح لصًا أو قاتلًا، ومن المستحيل أن يخون وطنه، مهما كانت المغريات.

ترك (رفعت) ابتسامته تطفو على شفتيه، وهو يقول:

- هذا ما أردت أن أسمعه منك.

ثم تقدَّم نحوه، ووضع يده على كتفه، مستطردًا:

- لقد كنت على حق، في كل ما قلته.. مثلك يستحيل أن يخطئ في حق نفسه، أو في حق وطنه.. أنت لم تكن أبدًا لصًا أو قاتلًا أو جاسوسًا.. بل على العكس تمامًا.. لقد كنت بطلًا.. كنت واحدًا من أعظم الأبطال، الذين بذلوا أنفسهم في سبيل الوطن.. كنت بطلًا تفخر به بلاده.

انتشى الشاب بالكلمات، وتضاعفت اللهفة في نفسه، و(رفعت) يتابع:

- إنك لم تتردد لحظة واحدة في التضحية بحياتك نفسها، من أجل (مصر)..
انتفضت عروق الشاب، عندما سمع الكلمة السحرية، التي ينهار لها وجدانه، وراح قلبه ينبض في عنف، مع كلمات (رفعت)، ونبرته الحماسية:
- ولم تتخل عنك (مصر)، بعد كل ما فعلته من أجلها.. لقد استعادتك من بين جثث الموتى، وبذلت جهدها وأموالها، لتمنحك الرعاية والحماية، وتتجاوز بك حافة الخطر.. الله (سبحانه وتعالى) كتب لك البقاء، وأطال في عمرك لحكمة لا يعلمها إلا هو (سبحانه).. لقد حصلت على فرصة نادرة يا فتى.. انمحت كل ذاكرتك السابقة، وبدأت حياة جديدة، وكأنك تبعث بعد الموت.. وسبحان الله الذي يحيي ويميت..
الله (عز وجل) شاء لك أن تبدأ من جديد، فلماذا تنبش ماضيك؟!.. دعه خلف ظهرك.. لا تبحث عنه.. خض حياتك الجديدة بروح واعدة.. خضها باسمك الجديد، وهويتك الجديدة.. خضها بلا تساؤلات أو منغصات، من أجل نفسك.
ثم اقترب منه في شدة، مضيفًا بلهجة تموج بالحماس والانفعال:
- ومن أجل (مصر).
انتفض الشاب كله هذه المرة، وهو يقول، في حماس منقطع النظير:
- كلي فداها.
ثم شدَّ قامته، مستطردًا:
- صحيح أنني مازلت أجهل الحكمة من هذا، ولكنني أعدك بأنني، ومنذ هذه اللحظة، سألقي حياتي السابقة كلها خلف ظهري، ولن

أحاول قط معرفة ما كنت عليه، وسأحمل حتى آخر لحظة في عمري اسمًا واحدًا.
وأشار إلى صدره، مضيفًا في حزم وحسم:
- اسم (فاى).
وانتفض جسده في حماس أكثر..

☆☆☆

«احترس يا (رفعت)..»..
نطق مدير المخابرات هذه العبارة الموجزة في حزام، وهو يلوّح بسبّابته في وجه (رفعت)، مستطردًا:
- تـــذكر القاعـدة الرئيسـية فـي عملنـا.. «لا تقـع فـي حـب العميل..».. تعامل معه دائمًا بدون مشاعر أو عواطف، وإلا فقد تنحاز له، حتى عندما يقع في أخطاء جسيمة، فتهدّد بهذا أمنه، وأمن الوطن كله.
صمت (رفعت) لحظات، ثم قال في حزم:
- اطمئن يا سيّدي.. ليس أنا من يفعل هذا.
تراجع المدير في مقعده، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه، وهو يقول:
- هذا يحدث دائمًا دون أن تشعر يا (رفعت).. إنك تؤمن تمامًا بالمبدأ، ولكن العميل يجتذب إعجابك يومًا فيومًا، فلا تنتبه إلا وأنت مغرم به، بحيث تبدو لك كل أفعاله صحيحة، مهما انطوت على خطأ.
عاد (رفعت) إلى صمته لحظات أخرى، ثم قال:
- الواقع أن هذا الشاب بالذات أثار إعجابي واهتمامي، منذ اللحظة الأولى يا سيّدى، من قبل حتى أن يستعيد وعيه، وهذا كان السبب الرئيسي، في إصراري على تجنيده بين صفوفنا، ولكن هذا الإعجاب يتخذ معي اتجاهًا آخر، بخلاف ما يثير قلقكم.. إنني

أريد أن أصنع من هذا الشاب تحفة نادرة، في عالم المخابرات، ولهذا فأنا لا أتغاضى عن أية أخطاء يرتكبها، مهما كانت بسيطة..
وشرد ببصره، وهو يضيف:
- بل وربما أقسو عليه في بعض الأحيان، على الرغم من إعجابي به، ولكنني أتعامل معه كما يتعامل الأب مع ابنه، الذي يتمنى رؤيته في أرفع مكانة في الدنيا كلها.. صدقني يا سيّدي.. هذه العملية تهمني.. تهمني أكثر مما تتصوَّرون.
كان تهدج صوته الواضح، وهو يشرح الأمر، يشير إلى عكس ما يحاول إقناع المدير به تمامًا..
ولقد أدرك المدير هذا بالفعل.
ولكن من حسن الحظ أن القواعد في عالم المخابرات ليست صارمة إلى حد الجمود..
إنها تسبح فوق بحر من المرونة والحكمة، مما يؤثر على صانع القرار فيها، ويجعله أكثر قدرة على التعامل مع الأحداث والمتغيرات..
ومن هذا المنطلق، أومأ المدير برأسه، ثم قال:
- فليكن يا (رفعت).. سأسمح لك بإكمال المهمة حتى النهاية.
تألقت عينا (رفعت)، على الرغم من الجهد الخارق، الذي بذله للسيطرة على انفعاله، ولكن المدير تنهد، وهو يضيف:
- على الرغم من أن الظروف ستتعارض مع هذا.
سأله (رفعت)، وقد مال انفعاله كله إلى جانب القلق:
- أية ظروف؟
أجابه المدير بابتسامة هادئة:
- لقد انتهت فترة عمل (نسيم) في مكتب (نيويورك)، وسيعود إلى القاهرة، ليتسلَّم عمله في الجهاز.. خمن من سيحل

محله هناك.
ارتفع حاجبا (رفعت)، وهو يقول:
- هل تقصد سيادتك أنني...؟
قبل أن يتم تساؤله، أومأ المدير برأسه إيجابًا، وقال:
- نعم يا (رفعت).. أنت المدير الجديد لمكتبنا في (نيويورك).. هيَّا أعد حقائبك، واستعد للسفر خلال ثلاثة أيام، فـ(نسيم) ينتظرك على أحرّ من الجمر، لتتسلَّم العمل، ويعود هو إلى الوطن.
صمت (رفعت) لحظات في شرود، فابتسم المدير، قائلًا:
- وستحتاج إلى مساعد بالطبع، ولقد رشحت لك النقيب (حسن عبد الله).
انعقد حاجبا (رفعت)، وهو يقول:
- (حسن عبد الله)؟!.. من هو؟.. لم أسمع به من قبل!
قال المدير، وهو يمدّ يده إليه بصورة ضوئية:
- ربما لا تعرف اسمه، ولكنك بالتأكيد تعرف هيئته.. ها هي ذي صورته.
ولم يكد (رفعت) يلقي نظرة على صاحب الصورة، حتى ارتفع حاجباه في دهشة، في حين أكمل المدير في جدية حاسمة:
- إنه يحتاج إلى التدريب على التعامل في أرض أجنبية.. أليس كذلك؟
ولم ينطق (رفعت) بكلمة واحدة، وإن شعر في أعماقه بامتنان كبير، فالصورة التي أعطاه إياها المدير، والتي تحمل اسم النقيب (حسن عبد الله)، كانت في الواقع صورة الشاب.
صورة (فاي).

☆☆☆

7- الإرهاب..

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي (نسيم)، وهو يستقبل صديقه (رفعت)، ويصافحه في حرارة، مربتا على كتفه، قائلًا:

- مرحى يا رجل.. لا يمكنك أن تتصوَّر كم اشتقت إليك.

أجابه (رفعت) بابتسامة هادئة، ولهجة تحمل شوقًا حقيقيًا:

- شعور متبادل يا صديقي.

أدار (نسيم) عينيه إلى الشاب، وارتفع حاجباه في دهشة، وهو يهتف:

- أهذا هو...؟!

جاء صوت (رفعت) محملًا بنبرة فخر واعتزاز، وهو يجيب:

- نعم.. إنه هو.

تطلّع (نسيم) إلى الشاب لحظة في صمت ودهشة، ثم لم يلبث أن ابتسم، وهو يصافحه، قائلًا:

- مرحبًا بك بين صفوفنا يا فتى.

فوجئ بـ(رفعت) يقول في حزم صارم:

- ليس بعد.

انعقد حاجبا الشاب في ضيق، في حين قال (نسيم) في دهشة:

- ماذا تعني؟!.. لقد حضر معك بصفة رسمية.. أليس كذلك؟

رفع (رفعت) سبَّابته، مجيبًا:

- تحت الاختبار فحسب.

واصل (نسيم) التطلّع إليه في دهشة، لفترة من الوقت، قبل أن يبتسم، قائلًا:

- آه.. بالطبع.

ثم التفت إلى الشاب، مستطردًا:

- مرحبًا بك على أي حال.
وغمز بعينه، مضيفًا:
- تحت الاختبار.
ابتسم الشاب ابتسامة باهتة، وهو يقول:
- أشكرك يا سيّدي.
شملهم صمت قصير بلا مبرّر، قبل أن يقول (رفعت):
- متى تعود إلى الوطن يا (نسيم)؟
هزَّ (نسيم) كتفيه، قائلًا:
- فور انتهائي من حزم حقائبي يا صديقي.. إنني أكاد أموت شوقًا للعودة إلى (مصر).
ثم هزَّ رأسه، وابتسم مستطردًا:
- عجيبة هي (مصر) هذه.. تحنقك أوجه القصور فيها، ويغضبك الإهمال في بعض أماكنها، ولكنك ما إن تبتعد عنها، حتى تكشف أن قلبك ينبض باسمها، وأنك تذوب شوقًا للعودة إليها.
أجاب الشاب في سرعة:
- لأنها (مصر).
نطقها وكأن هذا وحده سببًا كاف لعشقها والشوق إليها..
وفي لحظة صمت تالية، تطلَّع إليه (رفعت) و(نسيم) في صمت، قبل أن يقول الأوَّل:
- ماذا فعلت برجال الـ(سي. آى. إيه) ؟.. هل جعلتهم يقسمون إننا الأفضل؟
ضحك (نسيم)، قائلًا:
- من الواضح أن فكرتك عن العمل هنا وردية للغاية يا رجل.. إننا نقضي معظم وقتنا في جمع المعلومات، وتنسيقها، وإرسالها بالشفرة إلى (القاهرة)، ثم ننتظر

أوامرهم، ونعمل على تنفيذها.. إننا لم نحتك بالمخابرات الأمريكية مباشرة سوى مرتين، وفيما عدا هذا، كنا نقضي الكثير من الوقت في مشاهدة (التليفزيون)، و...

كان ينطق عبارته الأخيرة، وهو يشير إلى (التليفزيون)، الذي انقطع إرساله فجأة، وظهر وجه مذيعته الشهيرة، وهى تقول:

- سيّداتي سادتي.. تقطع برامجنا المعتادة، لنذيع عليكم هذا الخبر الهام.. احتل عدد من الإرهابيين أحد المتاجر الكبرى في قلب (نيويورك)، واحتجزوا عددًا من الرهائن، من بينهم زوجة وزير التجارة الفرنسي، والممثلة العالمية (ريتا براون) والسفير المصري، و..

لم يسمع (رفعت) باقي الخبر، وهو يهتف:

- رباه!.. سفيرنا في قبضتهم.

أشار إليه (نسيم) بالصمت، قائلًا:

- مهلًا يا رجل.. دعنا نتابع الحدث كله.

واصلت المذيعة سرد أسماء بعض الرهائن، قبل أن تتابع:

- ولقد حاصرت قوات الشرطة المبنى، ولكن الإرهابيين طلبوا فدية قدرها خمسة ملايين دولار، وطائرة هليوكوبتر كبيرة، تنقلهم إلى جهة لم يتم تحديدها بعد، وهدّدوا بقتل أحد الرهائن كل ساعتين، ما لم تتم الاستجابة لمطالبهم، ومازال رجال الشرطة يتفاوضون معهم للإفراج عن الرهائن، و..

استمرت المذيعة في إعلان الخبر، في حين غمغم الشاب:

- إنهم يحتجزون مصريًا.

أجابه (نسيم):

- ليس مصريًا عاديًا.. إنه سفيرنا نفسه.

قال الشاب في حزم:

- لايهم منصبه!
هتف (نسيم) في دهشة:
- ماذا تقول؟
انتبه (رفعت) إلى الشاب، وهو يجيب:
- أقول إن مهنته لا تهم.. المهم أنه مصرى.. أي مصري، ولا يمكننا أن نسمح لهم بتهديد مصري قط..
تألقت عينا (رفعت)، وهو يستمع إلى هذه الكلمات، في حين التفت إليه (نسيم)، وقال في دهشة حقيقية، وهو يشير إلى الشاب:
- قل لي: أيعني حقًا ما يقول؟
ابتسم (رفعت)، قائلا:
- (فاي) قليل الحديث، ولكنه يعني دائمًا كل حرف ينطق به.
ثم وضع يده على ذراع الشاب، قائلًا في حزم:
- أعتقد أن الفرصة جاءتك يا (فاي).
التفت إليه الشاب في حركة حادة، وسأل بصوت يلتهب حماسًا وانفعالًا:
- هل تعتقد هذا حقًا؟
أومأ (رفعت) برأسه إيجابًا، وهو يقول:
- نعم.. لن ننتظر الأوامر هذه المرة.. سأتحمل المسؤولية كاملة، وأسند إليك هذه المهمة.
هتف (نسيم) مستنكرًا:
- هل جننت يا رجل؟.. إنه شاب واحد، وحديث العهد بالعمل، و...
لم يلتفت (رفعت) للقول، وكأنه لم يسمعه، وهو يمسك ذراع الشاب في قوة، قائلًا:
- افعلها يا فتى.. انقذ هؤلاء الرهائن، وعلى رأسهم السفير المصرى.. افعلها من أجلي.. من أجل (مصر).

انتفض جسد الشاب كله، وهو يقول:
- أشكرك يا سيّدي.. أشكرك كثيرًا..
وأخرج مسدسه، وجذب مشطه، وتركه يرتد في عنف، بذلك الصوت المعدني، قبل أن يضيف في حزم:
- متى نبدأ؟
أشار (رفعت) بسبَّابته، وتألقت عيناه، وهو يهبط بها في حزم:
وكانت هذه إشارة البدء..

☆☆☆

اكتظت تلك المنطقة من (نيويورك) على نحو بشع، في تلك اللحظات، واحتشد حولها جيش من رجال الشرطة، والإطفاء والحرس الوطني، ورجال الصحافة، والإعلام، والمارة، والمتطفلين، حتى لم يعد هناك موطئ لقدم، وتعلَّقت أبصار الجميع بذلك المتجر، المكون من خمسة طوابق، والذي أغلقت بوابته الزجاجية السميكة، المضادة للرصاص، وظهر خلفها اثنان من الإرهابيين، يحملان مدفعين آليين ضخمين، في حين بدا زميلان لهما واضحين، فوق سطح المبنى، بمدفعيهما الكبيرين، ومعهما ثلاثة من الرهائن، في حالة يرثى لها، وبرز زعيم الإرهابيين من نافذة بالطابق الخامس، وهو يصيح في صرامة:
- بقيت ساعة واحدة، ونرسل إليكم الضحية الأولى.. وأرجو أن تدركوا جيدًا أننا لا نمزح، وأن ما نقوله ليس مجرَّد تهديدات جوفاء.. ساعة فقط، فإما أن تصل الهيوكوبتر مع النقود، أو تثبت لكم صحة ما نقول.
عقد ضابط المباحث الفيدرالية الأمريكي (مارش) حاجبيه في غضب، عندما سمع هذا القول، وغمغم محنق:
- يا للوغد!

ثم التفت إلى أحد مساعديه، واستطرد في حدة:
- ماذا يفعلون هناك في القيادة؟.. الوقت يمضي في سرعة، وهم لا يحركون ساكنًا.. أين ردود الأفعال المنتظرة؟
أجابه مساعده، في توتر مماثل:
- لست أدري ما يفعلونه بالضبط.. يقولون إنه من الضروري أن يجمعوا أكبر قدر من المعلومات أولًا، قبل اتخاذ أية خطوة تالية.. ثم إنهم يفضلون الانتظار حتى آخر وقت ممكن.
هتف (مارش) في حنق:
- آخر وقت ممكن؟!.. كيف يفكر هؤلاء الحمقى بالضبط؟!.. الأمر لا يحتمل الانتظار والتروي.. إما أن يستجيبوا لمطالب هؤلاء الأوغاد، أو يقاتلوهم مباشرة.. فليرسلوا الهليوكوبتر والنقود، أو فرقة مسلحة لاقتحام المكان، وإنقاذ هؤلاء الرهائن.
هزَّ مساعده رأسه، وهو يقول:
لو أنني في موضعهم، لما كان القرار سهلًا بالنسبة لي على الإطلاق، فالصحافة لن ترحمهم لو دفعوا الفدية بهذه البساطة، وسيتهمهم الرأي العام بأنهم تقاعسوا عن أداء واجبهم، وبأنهم بهذا يفتحون الباب أمام أية عمليات إرهابية أخرى، بعد أن سمحوا لهؤلاء الإرهابيين بتحقيق أهدافهم، ولو أنهم أرسلوا فرقة لاقتحام المكان، ستكون هناك خسائر حتمًا في الأرواح، بين صفوف الفرقة، وبين الرهائن أنفسهم، وفي هذه الحالة أيضًا لن يرحمهم أحد.
لوح (مارش) بيده، قائلًا:
- وماذا عن هؤلاء الرهائن؟.. من يرحمهم؟
تنهَّد مساعده في أسف، مغمغمًا:
- من يدري؟!

فـي نفـس اللحظـة التـي نطـق فيـها عبارتـه، كـان (رفعـت) يخفض منظاره المقرب عن عينيه، في نافذة مبنى يواجه المبنى التجاري مباشرة، ويقول في اهتمام:
- تسعة أشخاص.
غمغم (نسيم)، وهو يواصل المراقبة:

- هذا ما أحصيته أيضًا.. اثنان في المدخل، ومثلهما فوق السطح، والزعيم وثلاثة في الطابق الخامس، وواحد يفتش الطوابق الأخرى طوال الوقت.
ثم التفت إلى الشاب، الذي يعد مسدسه، وقد ارتدى تلك الحلة السوداء، التي تحمل على الجانب الأيسر من صدرها الرمز (فاي)، واستطرد في قلق:
- هل سيمكنك مواجهة كل هؤلاء بمسدس وخنجر؟!
أجابـه (رفعـت) فـي ثقـة، وهـو ينـاول الشـاب جـهاز اتصـال لاسلكيًا صغيرًا:
- إنه يستطيع سحقهم وهو أعزل.
عقد (نسيم) حاجبيه، وهو يقول:
- المبالغة لن تكون في صالحه.
قال الشاب في هدوء، لا يخلو من الحزم:
- بالتأكيد.
ثم أشار إلى ورقة أمامه، مستطردًا:
- أأنتمـا واثقـان مـن أن أفضـل نقطـة لاقتحـام المكـان هـي فتحات التهوية، في الطابق الثالث؟!
أجابه (نسيم) في سرعة:
- بدون أدنى شك.. هذا المتجر هو متجري المفضل، منذ تسـلَّمت عملـي هنـا. وبحكـم العـادة، كنـت أدرس مـداخله ومخارجـه،

كلمـا أتـيت إليـه، ولقـد لاحظـت ذات مـرة أن فتحات التهوية العلوية فيه مناسبة لمرور شخص متوسط المقاييس، وأنها تتصل بفتحات التهوية للمبنى الذي يقع خلفـه مباشـرة، لأنـه يـخّص المـالك نفسـه، وأعتقـد أن الفيدراليين الأمريكيين سيكشفون هذا بعد فوات الأوان.

سأله (فاي)، وهو يدسّ المسدس في حزامه:

- ولماذا الطابق الثالث بالتحديد؟

أجابه (رفعت) هذه المرة:

- لان الإرهابيين يحتلون بالفعل الطابقين الأول والخامس، وسنراقب نحن ذلك الذي يفتش الطوابق الثلاث الأخرى، ونتصل بـك لاسلكيًا، لنحـدد لـك اللحظـة المناسبة لـدخول الطابق الثالث، عندما يكون هو في أحد الطابقين، الرابع أو الثاني.

وأضاف (نسيم):

- ثم إن الطابق الثالث يحوي الأثاثات المنزلية والأدوات الكهربائية، وكلها أشياء كبيرة، يمكن الاختباء خلفها وقت اللزوم.

غمغم الشاب:

- هل تقومون بدراسة الموقف بهذه الدقة دائمًا؟

ابتسم (نسيم) في سخرية، وهو يقول:

- بهذه الدقة؟!.. إنك لم تر بعد الدراسات الدقيقة يا فتى..

مـا نفعلـه الآن ينـدرج تحـت اسـم (الدراسـات الميـدانية المباشرة).

وألقى (رفعت) نظرة على ساعة يده، وهو يراقب الشاب، الذي ارتدى معطفًا ليخفي حلته السوداء، ثم قال:

- هيا يا فتى.. الوقت يمضي في سرعة.

دسَّ الشاب جهاز اللاسلكي في جيبه، قائلًا في حزم:

- اطمئن.

وإتجه في خطوات حاسمة نحو الباب، ولكن (رفعت) قال في صوت خافت:
- (فاي).
كاد لسانه يخونه، وينطق الاسم الحقيقي للشاب، ولكنه سيطر عليه في اللحظة الأخيرة، ونطق اسمه الجديد، فالتفت إليه الشاب بعينين متسائلتين، وتقدَّم هو نحوه، وأمسك كتفيه في قوة، وتطلَّع إلى عينيه مباشرة، قائلًا:
- أريدك أن تنجح.
صمت الشاب لحظة، قبل أن يجيب:
- سأبذل قصارى جهدي.
ثم استدار، وغادر المكان كله..
ولثوان، ظل (رفعت) صامتًا جامدًا، يتطلع إلى الباب، الذي غادره الشاب على الفور، حتى انتزعه صوت (نسيم) من شروده، وهو يقول:
- «لا تقع في حب العميل».
استدار إليه (رفعت) في بطء، دون تعليق، فاستطرد في حزم:
- هذا خطأ كبير في عالمنا.. إنك تميل إلى هذا الشاب أكثر مما ينبغي.
كان يتوقع إنكارًا أو استهجانًا من (رفعت)، إلا أنه فوجئ به يجيب، في شيء من الحزن:
- هذا صحيح.
تطلَّع إليه (نسيم) في دهشة، وهمَّ بقول شيء ما، ولكن (رفعت) استوقفه بإشارة من يده، قائلًا:
- ولن نناقش هذا الأمر الآن.
ثم ضغط زر (التليفزيون)، مستطردًا:

- منذ هذه اللحظة، لن يشغل فكرنا سوى هذا الموقف.. سنتابع التغطية التليفزيونية أولًا فأولًا، ونراقب الموقف من هنا، ونبقى على اتصال بالشاب.
ووضع منظاره المقرب على عينيه، مضيفًا في حسم واضح:
- وهذا كل شيء.
ولم يعلّق (نسيم) بحرف واحد هذه المرة..
فقط وضع منظاره المقرّب على عينيه بدوره، و...
وواصل المراقبة.

☆☆☆

لم يكن الوصول إلى المبنى الخلفي عسيرًا، بعد أن تركزت الأبصار والجهود كلها على المبنى التجاري الأمامي، حتى أن الشاب وجد نفسه في سرعة، داخل قبو المبنى، عند فتحة التهوية الرئيسية، قبل مرور دقائق عشر، فرفع جهاز الاتصال اللاسلكي إلى شفتيه، وقال:
- هنا (فاي).. أنا الآن عند النقطة (1).
أتاه صوت (رفعت)، وهو يقول في حماس:
- عظيم.. لا تضع ثانية واحدة يافتى.. تقدَّم على الفور.
قال الشاب بسرعة:
- أنا في طريقي.
ثم خلع معطفه، وعلَّقه فوق ماسورة قريبة، ثم انحنى يخلع ذاك الشباك المعدني الثقيل، الذي يسدّ فتحة التهوية الرئيسية، وانزلق داخلها، وراح يزحف داخل ممراتها في سرعة ومهارة، حتى بلغ نهاية الممر، حيث ارتفع ممر رأسى، بارتفاع طوابق المبنى التجاري الخمس، لتتفرَّع منه مداخل الطوابق..

وكانت جدران ذلك الممر من المعدن المصقول، على نحو يجعل تسلّقه شبه مستحيل، فقال الشاب عبر جهاز الاتصال:
- أمامى المدخل الرأسي للتهوية، وأنا في النقطة (صفر-3)..
دوت الكلمة في رأسه بغتة..
البقعة (صفر-3)..
يومًا ما ردَّد عبارة مشابهة..
متى؟!..
وأين؟!..
قبل أن يسترسل في أفكاره، سمع صوت (رفعت)، عبر جهاز الاتصال، وهو يقول:
- ماذا تنتظر مني يا فتى.. واصل طريقك.. لقد خسرنا نصف الساعة حتى الآن، ولم يعد أمامنا سوى النصف الآخر.
كاد يخبره بصعوبة الموقف، إلا أن شيئًا ما في أعماقه رفض الاعتراف بهذا، فأجابه في حزم حاسم:
- أنا في طريقي إلى الموقع (صفر)، بإذن الله.
قالها ووضع جهاز الاتصال في حزامه، ثم ألصق ظهره بجدار الممر الرأسي، ودفع قدمية في الجدار المقابل، و..
وبدأ يتسلَّق بهذا الأسلوب المرهق..

ولم تكن عملية سهلة أبدًا..

لقد أنَّ عموده الفقري ألمًا، وصرخت عضلات ساقيه، وراح يلهث في شدة، قبل أن يتجاوز حتى الممر الخاص بالطابق الثاني.
وهنا تجلَّت إرادته الفولاذية...
كان يمكنه أن يتوقف لالتقاط أنفاسه، في الطابق الثاني، إلا أنه خشي أن يسترخي جسده، فلا يعود قادرًا على المضي في ذلك الأمر الشاق مرة ثانية..
ثم إنه كان يخشى فقدان الوقت..
ولهذا لم يتوقف..
كان العرق يغمر وجهه، والألم يسري في جسده كله، ولكنه لم يتوقف لحظة واحدة..

لقد واصل طريقه بإرادة مذهلة، حتى بلغ الفتحة المحدودة، التي تقود إلى نظام التهوية في الطابق الثالث، فدار بجسده في بطء ليدلف إليها، و...

وفجأة، انزلقت قدماه من الجدار المقابل، وفقد جسده توازنه، و...

وهوى.

هوى من ارتفاع ثلاثة طوابق.

☆☆☆

شفَّت كل خلجة من خلجات (رفعت) عن ذلك القلق العنيف، الذي يعتمل في أعماقه، وهو يلقي نظرة على ساعته، ثم يعاود التطلُّع إلى المبنى التجاري، عبر منظاره المقرّب، فقال (نسيم):

- أما زلت تشعر بالقلق؟

أجابه (رفعت) في توتر:

- الوقت يمضي في سرعة، ولم يعد باقيًا على الموعد سوى عشر دقائق، والفتى لم يظهر بعد.

سأله (نسيم) للمرة الخامسة:

- هل تعتقد أنه قادر على مواجهة الجميع هناك؟

أومأ (رفعت) برأسه إيجابًا، وهو يقول:

- الفتى تلَّقى تدريبات معقدة للغاية يا (نسيم)، ثم إنه مقاتل صاعقة سابق، أثبت مهارة مذهلة في حرب أكتوبر، عندما أوقف وحده طابور دبَّابات حديث.

غمغم (نسيم):

- وهل سينسف نفسه مع هؤلاء الإرهابيين أيضًا؟

رفع (رفعت) المنظار المقرّب عن عينيه، قائلا في ضيق:

- لا تسخر من الموقف.

تنهَّد (نسيم)، وقال:

- صدقني يا رجل.. لست أسخر من الموقف أبدًا، فأنا رجل مخابرات مثلك، ويمكنني تقدير مدى خطورة الأمر، ولكنني أشك في قدرة شاب منفرد، على مواجهة تسعة من الإرهابيين دفعة واحدة.

صمت (رفعت) لحظات، ثم قال في حزم:

- إنه محترف.
قال (نسيم):
- وماذا عنهم؟
هزَّ (رفعت) كتفيه، قائلًا:
- مجرَّد طغمة من الأوغاد، الذين يتصوَّرون أن مجرد حمل السلاح يجعلهم أكثر قوة من الآخرين.
سأله (نسيم):
- وهل تعتقد أن هذا يمنحه مزية كبيرة؟
أومأ (رفعت) برأسه إيجابًا، وهو يقول:
- بالطبع.. لا يمكن أبدًا أن تقارن، بين محترف وهاو، مهما بلغ عنف ذلك الهاوي وشراسته.
تنهَّد (نسيم) مرة أخرى، قبل أن يتمتم:
- ربما كنت على حق.
ومع آخر حروف كلماته، نقل (التليفزيون) صوت الضابط (مارش)، وهو يقول لزعيم الإرهابيين، عبر مكبر صوتي:
- المسؤولون وافقوا على تلبية مطالبكم، ولكن المهلة التي منحتمونا إياها قصيرة للغاية.. نحتاج إلى ساعة أخرى لتدبير المبلغ.
أتاه صوت زعيم الإرهابيين، وهو يقول:
- لا بأس.. سنمنحكم ساعة أخري.
هتف (نسيم) في دهشة:
- ماذا أصاب ذلك الوغد؟.. هل أصبح فجأة رقيق القلب؟!
ولكن زعيم الإرهابيين جذب أحد الرهائن إليه، وهو يكمل في شراسة ساخرة:
- ولكننا سنترك لكم خلال هذه الساعة ما تذكرونا به.

وبلا ذرة واحدة من التردّد أو الشفقة، أطلق النار على رأس رهينته، ثم ألقاه خارج النافذة...

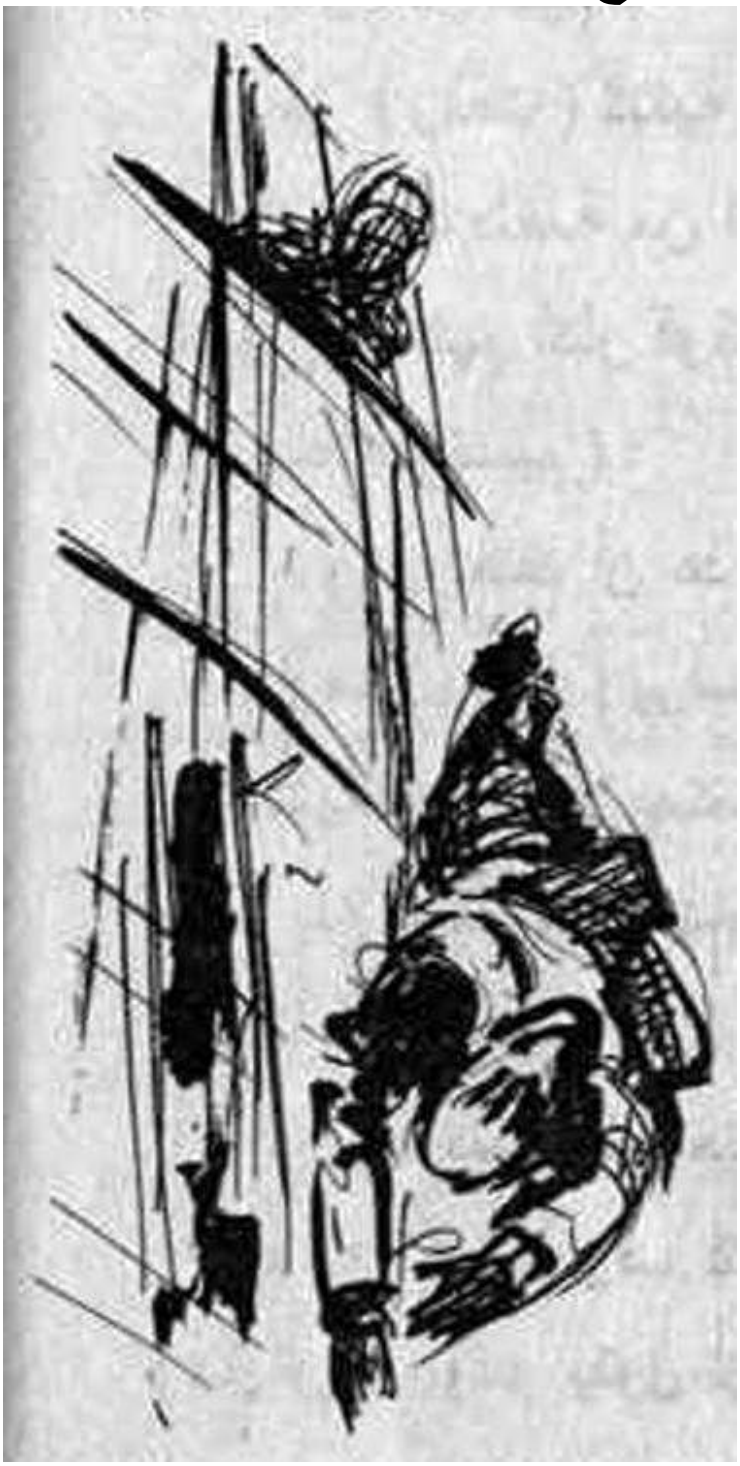

وانتفض جسدا (رفعت) و(نسيم)، مع بشاعة المشهد، ونقل التلـــيفزيون صـــراخ الجمـاهير وذعـرهم، والجثـة تسـقط محطمة الرأس من الطابق الخامس، لترتطم بالأرض في عنف، والضابط (مارش) يصرخ:

- لماذا؟.. لماذا؟

أجابه زعيم الإرهابيين بضحكة ساخرة عالية، قائلًا:
- إنها بطاقتنا يا رجل، وأراهن على أنها ستجبركم على عدم مد المهلة دقيقة واحدة إضافية، فبعد ساعة بالتحديد، وبدون دقيقة إضافية، سأنسف مخ هذا الرجل.
قالها، وهو يجذب إليه أحد الرهائن..
وانعقد حاجبا (نسيم) في شدة، في حين تمتم (رفعت) في غضب:
- يا للوغد!
فقد كانت الضحية المنتظرة هذه المرة هي السفير.
السفير المصري..
وهتف (نسيم):
- كم أتمنى أن ينسف فتاك رأس هذا الوعد، عندما يصل إليه.
أجابه (رفعت)، وهو ينظر إلى ساعته:
- المهم أن يصل إليه أولًا.. إنني أشعر بقلق شديد من أجله..
لماذا لم يظهر أو يتصل حتى الآن؟!
ثم أمسك جهاز الاتصال، مستطردًا:
- سأتصل به أنا.
وقبل أن تضغط بسبَّابته زر الاتصال، ظهرت مذيعة التليفزيون على الشاشة، وهي تقول في انفعال:
- سيّداتي سادتي.. وصلتنا الآن معلومات مدهشة، حول هؤلاء الإرهابيين.. لقد تبين لنا أن زعيمهم هو (بيتر سوان)، رجل المخابرات الأمريكية المنشق، وأن رفاقه من المحترفين، الذين أنجبتهم حرب (فيتنام)، وليسوا مجرَّد إرهابيين عاديين.. أكرّر: إنهم محترفون.. محترفون.
تبادل (رفعت) و (نسيم) نظرة تفيض بالهلع، عندما كرَّرت المذيعة كلمتها الأخيرة، وهتف (نسيم) في حنق:

- هذا عيب الدراسات الميدانية المباشرة، التي لا تستند على قاعدة من المعلومات الموثقة.
أما (رفعت)، فضغط زر الاتصال، هاتفًا:
- لابد من تحذير (فاي).. لن يمكنه أبدًا مواجهة تسعة من المحترفين.
وهتف عبر الجهاز:
- (فاي).. (فاي).. هل تسمعني؟
كرَّر النداء ثلاث مرات متتالية، فلم يجيبه سوي الصمت المطبق..
صمت يجعلك تتساءل: ماذا حدث بالضبط؟..
ماذا أصاب الشاب؟..
ولكن سؤالك يظل ضائعًا، عبر موجات اللاسلكي بلا هدف..
وبلا جواب..

☆☆☆

عندما يواجه المرء خطرًا مباغتًا، تنطلق كل طاقات جسده دفعة واحدة، وتأتي ردود أفعاله غريزية سريعة، ينسقها المخ بأسلوب عجيب، عجز عن تفسيره علماء المخ ووظائف الأعضاء، حتى هذه اللحظة..
وفي اللحظة التي انزلق فيها جسد الشاب، وبدأ يهوى في الفراغ، من ارتفاع ثلاثة طوابق، اندفعت يداه إلى الأمام في حركة غريزية، وتشبثتا بحافة الممر الأفقي، الذي يقود إلى نظام تهوية الطابق الثالث بالكامل..
وبكل قوته، وغريزة البقاء في أعماقه، تيبَّست أصابعه فوق الحافة، وحمت جسده كله من السقوط المروع، وهو يرتطم بجدار الممر الرأسي في عنف..

ومع قوة الارتطام، قفز جهاز اللاسلكي من حزامه، واصطدم بالجدار، ثم سقط من هذا الارتفاع، وضرب قاع الممر بدوي عنيف، خيل للشاب أنه تردَّد في المبنى كله، وانتقل صداه إلى الشوارع المجاورة، قبل أن يتلاشى، ويضيع في تلك الممرات المتشابكة، التي بدت وكأنها بلا نهاية..

ولثوان، ظلّ الشاب معلقًا بالحافة، وهو يلهث في شدة، ثم اندفعت الدماء في عروقه، لتنقبض عضلاته، ويرفع جسده إلى أعلى..

وفي الظروف المعتادة، كان هذا عملا عاديًا، أما الآن، فقد شعر وكأن جسده أصبح يزن أضعاف أضعاف ما كان عليه، حتى صار كتلة من الفولاذ، تحتاج إلى ونش هائل لرفعها..

ولكنه نجح..

أخيرًا نجح..

واسترخي جسده يلهث لحظات، قبل أن يلقي نظرة متوترة على ساعة يده، التي أشارت عقاربها إلى بقاء خمس دقائق فحسب، من المهلة الممنوحة..

وكان هذا يعني أنه فشل في إنقاذ الضحية الأولى..

امتلأت نفسه بالحنق والمرارة، ولكن هذا لم يمنعه من النهوض، والتحرك في سرعة، داخل ممر التهوية، قبل أن يكمل حتى التقاط أنفاسه، وهو يعدو تقريبًا، على يديه وركبتيه، عبر الممر، حتى بلغ ساحة البيع، في الطابق الثالث..

ولدقيقة أو يزيد، راح يراقب المكان، عبر الفتحات الضيقة في سقفه، التي تتم عبرها عملية تنقية الهواء، من خلال ممرات التهوية..

كان يشعر بالضيق؛ لأنه فقد جهاز الاتصال، إلا أن هذا لم يفت من عضده، فقد اتخذ قراره بالقيام بالمهمة وحده، مادامت الظروف تضطره إلى هذا..

وحده..
نعم.. لقد فعلها حتمًا من قبل..
يومًا ما، خاض عملية خطيرة وحده..
شيء ما في أعماقه يذكر هذا..
ولكن لا وقت الآن لاستعادة الذكريات، والنبش في مقبرة الماضي..
هناك مهمة، لابد أن يبذل قصارى جهده للنجاح فيها..
وبأي ثمن..
فالنجاح هذه المرة، يعني مولده من جديد.
إنه مرحلة بعث، ينهض فيها من ماضيه، وينطلق في حاضره ومستقبله..
وعلى الرغم من فقدانه لجهاز اللاسلكي، ويقينه من أنه يؤدي المهمة منفردًا، دون توجيه خارجي، أزاح أحد مربعات التهوية من السقف، وثبَّت الحبل الذي يحمله على كتفه، ثم وثب إلى قاعة البيع في الطابق الثالث، و...
"يا للشيطان!.."
انطلقت الصيحة من مسافة ثلاثة أمتار منه، فاستدار نحوها في سرعة، ورأى فوهة مدفع آلى مصوَّبة نحوه، وخلفها أحد الإرهابيين، وقد امتلأت ملامحه بتوتر عنيف، وقفزت سبَّابته إلى زناد مدفعه..
ولكن الشاب قفز قفزة قوية مرنة، لا يمكن وصفها إلا بأنها مذهلة؛ فقد عبر بها الأمتار الثلاثة، التي تفصله عن الإرهابي، وجسده يدور كله حول نفسه، ثم يركل المدفع الآلي في يده، قبل أن تعتصر سبَّابته الزناد..
وعندما هبط على قدميه، كان الإرهابي ينقض عليه في غضب، هاتفًا:

- إذن فقد بدأ أوغاد الشرطة تحركاتهم.
هوى الإرهابي على فكه بلكمة قوية، ألقته إلى الخلف في عنف، فارتطم بكومة من الوسائد المطاطية، جعلته يرتد سريعًا، واستغل هو ارتدادته هذه، ليلكم الإرهابي بكل قوته في معدته..
وعندما انثنى الرجل من أثر اللكمة، عاجله بضربة أخرى كالقنبلة، على مؤخرة عنقه، ثم استقبل ذقنه بركلة عنيفة من ركبته، تحطم لها أنف الإرهابي، الذي أطلق صوتًا أشبه بالخوار، وحاول أن ينهض، ملقيًا سبابًا ساخطًا، كتمه الشاب بلكمة أخيرة، امتزج صوت ارتطامها بفك الإرهابي بصوت أسنان تتحطم، قبل أن يسقط الرجل فاقد الوعي تمامًا..
وفي سرعة، جذب الشاب الإرهابي بعيدًا، وانتزع حبل إحدى الستائر، وراح يقيده في إحكام، ثم ألقاه داخل أحد الدواليب، وأحكم إغلاقه، ووقف يدرس الموقف..
كان أمامه طريقان للوصول إلى الطابق الخامس، حيث يحتفظون بالرهائن، إما أن يصعد إليه، عبر السلم أو المصعد، أو يهبط إليه من السطح.
ولكل من الطريقين متاعبه ومخاطره.
فالصعود يجعله يواجه أربعة من الإرهابيين مباشرة، مع وجود الرهائن، بكل ما يحمله هذا من مخاطر، والهبوط من السطح يحتاج أولًا إلى الوصول للسطح، الذي يقف فوقه إثنان من الإرهابيين مع بعض الرهائن، والسيطرة على الموقف هناك، بما يحمله من مخاطر أيضًا..
ولكن الوقت يمضي، وعليه أن يحسم موقفه..
وبأقصى سرعة..

☆☆☆

«مراقب الأدوار لم يظهر، منذ خمس دقائق..»..

نطق (رفعت) هذه العبارة في اهتمام بالغ، وهو يراقب المبنى التجاري بمنظاره المقرّب، فسأله (نسيم):
- وما الذي يعنيه هذا في رأيك؟
أجابه في شيء من الحماس:
- أن (فاي) نجح في الوصول إلى هذه النقطة، وتخلَّص من مراقب الأدوار بشكل ما.
صمت (نسيم) لحظة، وهو يزن الأمر في رأسه، قبل أن يسأل:
- لماذا لم يعد يستجيب لنداءاتنا اللاسلكية إذن؟

أجاب (رفعت)، وهو يواصل المراقبة في اهتمام:
- ربما أصيب جهاز اللاسلكي معه بعطب ما.
هزَّ (نسيم) كتفيه، قائلًا:
- ربَّما.
ثم عاد يستطرد:
- ولكن كل شيء في المبنى يسير على الوتيرة نفسها، باستثناء غياب مراقب الأدوار، ومن الواضح أن الأمريكيين سيستجيبون لمطالب الإرهابيين، فلست أرى ما يشير إلى العكس.. لا توجد فرق هجوم، أو برامج حصار.. لقد أبعدوا حتى القناصة، من أسطح المباني المجاورة، بناءً على أوامر هؤلاء الأوغاد.
صمت (رفعت) طويلًا، قبل أن يقول:
- أنا واثق من أن (فاي) هناك، في مكان ما، ولكنني لست أدري أين ستتجه ضربته القادمة؛ فقد كان من المفروض أن نرشده نحن إلى نقطة الهجوم المثالية، بناء على مراقبتنا من هنا.
ألقى (نسيم) نظرة إجمالية على المكان، ثم غمغم:

- بـــالنظر إلـــى أنـــها عمليتـــه الأولـــى، أعتقـد أنـــه ســيهاجم الموجودين في الطابق الخامس مباشرة؛ فالوقت يمضي معه في سرعة، ثم إن أية معركة على السطح ستثير جلبة محســـوسة، تكفـــي لتفجـــير المـــوقف تمـــامًا، فـــي الطـــابق الخامس.

رفع (رفعت) المنظار المقرب عن عينيه، وهو يسأله:

- وماذا كان من الممكن أن تفعل، لو أنك في مكانه؟

أشار (نسيم) بسبَّابته، قائلًا:

- كنـــت ســـأهاجم الإرهـــابيين علـــى الســـطح أولًا، وبأسـلوب مبـــاغت ســـري، يحسـم المـوقف فـي لحظـات، دون أن يثـير الآخرين.

صمت (رفعت) طويلًا هذه المرة، ثم هزَّ رأسه، وقال في حزم:

- فلنركز على مراقبة السطح إذن.

كان بقوله هذا يراهن بسمعته نفسها على ورقة واحدة..

ورقة تحمل الرمز (فاي)..

☆☆☆

ألقى أحد الإرهابيين على السطح نظرة على ساعته، وهو يقول ساخرًا:

- (بيتر) لم يطق صبرًا، ونسف جمجمة الرهينة الأولى، قبل الموعـد المحـدود بعشـر دقـائق كاملـة.. تـرى متـى يـذبح الثانية؟

انتفض الرهائن الثلاثة أمامه في ذعر، وكانوا امرأتين وفتاة صـغيرة، فـي الثالثـة عشـرة من عمرهـا، راحـت تبكـي فـى ارتياع، فجذبها الإرهابي الثاني من شعرها الأشقر الطويل في قسوة، وهو يقول:

- مـا رأيـك فـي هـذه الصـغيرة؟.. دعنـا نلـق بـها مـن السـطح مباشرة، عندما يحين الموعد.
صرخت الفتاة في ذعر وألم، فقهقه الأوَّل ضاحكًا، وقال:
- فكرة رائعة.. سيروق لي أن أسمع صراخها، وهى تهوى في الفضـاء، قبـل أن تـرتطم بـالأرض، وتتـهشَّم كـل عظمـة فـي جسدها.
بكت الفتاة أكثر وأكثر، فقالت إحدى المرأتين في حنق:
- هل تشعران باللذة لما تفعلانه؟.. هل تجدان متعتكما في إذلال هذه المسكينة؟
صرخ أحدهما في وجهها:
- اصمتي يا امرأة، وإلا انتزعت فروة رأسك، كما كان الهنود الحمر يفعلون قديمًا.
تراجعت المرأة في ارتياع، في حين قهقه هو في مرح، مستطردًا:
- حاول أن تتخيَّل شكلها، بدون هذا الشعر الأشقر.
قالها وانطلق يضحك، ويضرب الأرض بقدميه كالأطفال، حتى انبعث صوت صارم، من جهاز اللاسلكي الذي يحمله، قائلًا:
- ماذا يحدث عندكما؟
ارتبك الرجل، وأعاد قدميه إلى موضع الوقوف، وتلاشت ضحكته، في حين أجاب زميله عبر الجهاز ساخرًا:
- اطمئن يا (بيتر).. (هوز) كان يمرح قليلًا...
أجابة (بيتر سوان) في صرامة:
- مره بالتوقف عن هذه السخافات.. عبث الأطفال هذا قد يفسـد خطتنـا كلـها.. مـا المـوقف عنـدكما؟.. هـل تريـان أيـة قناصة في الجوار؟

قال الرجل، وهو يدير عينيه فيما حوله:
- مطلقًا.. من الواضح أنهم استجابوا لمطالبنا حتى الآن، فالمنطقة نظيفة تمامًا.
أجابه (سوان)، في شيء من الشراسة:
- ولكن الهليوكوبتر والنقود لم يصلا بعد أيها الغبي.
ثم أنهى الاتصال، وهو يشعل سيجارته، وينفث دخانها في عصبية، جعلت أحد رجاله يقول:
- هل تسير الأمور على ما يرام يا مستر (سوان)؟
أجابه (سوان)، وهو ينفث دخان سيجارته:
- ستظل تسير على ما يرام، مادمت تثبت لهم دائمًا أن تهديداتك ليست جوفاء.
قالت الممثلة (ريتا) في حنق:
- وهل وسيلتك إلى هذا هي إراقة الدماء؟
رمقها بنظرة صارمة، قبل أن يجيب:
- ألا تروق لكِ وسائلنا؟
ثم وثب فجأة، يجذبها من شعرها في قسوة، ويهوى على وجهها بصفعة عنيفة، صارخًا:
- ألا تروق لكِ؟
صرخت في ذعر، وصاحت في ألم:
- ماذا تفعل أيها المجنون؟
صفعها مرة أخرى في غضب، صارخًا:
- إياكِ أن تصفيني بالجنون.. هل سمعتِ؟.. إياكِ؟
اندفع السفير المصري، محاولًا الدفاع عنها، وهو يقول في حدة:
- لا تصفع أبدًا امرأة.
التفت إليه (سوان) في غضب هائل، ودفع (ريتا) جانبًا في غلظة، وهو يقول له في شراسة:

- ماذا تقول يا رجل؟.. ما الذي تنصحني به؟
شدَّ السفير المصري قامته في اعتداد وشموخ، وهو يجيب:
- ليس من الرجولة أن تصفع امرأة.
مال (سوان) نحوه في حدة، قائلًا:
- حقًّا؟!
ثم جذبه من سترته في عنف، وألصق فوهة مسدسه بعنقه، وهو يصرخ في وجهه:
- هل يمكنك تكرار نصيحتك الآن؟.. هل لديك الشجاعة لتفعل؟!.. هل ترى كيف ابتلعت الموقف بسرعة، عندما شعرت بالفوهة الباردة تلتصق بعنقك؟
أجابة السفير في شجاعة صارمة:
- الشيء الوحيد الذي ابتلعته هو سخافاتك، أما ما أراه أمامي، فهو مجرَّد إرهابي يعانى عقدة نفسية، تجعله يتصوَّر أنه سيصبح أعظم رجل في العالم، عندما يمسك سلاحًا.
احتقن وجه (سوان) في شدة، وهو يقول:
- إذن فأنت ترغب في الانتحار.
أجابة السفير بسرعة:
- بل أؤمن بأنه مادام الموت ضرورة لا فرار منها، فمن العار أن يموت المرء جبانًا.
حدَّق (سوان) في وجهه لحظة، ثم تراجع قائلًا في سخرية:
- عظيم.. أنت لست مجرَّد سفير لدولة من دول العالم الثالث.. أنت فيلسوف أيضًا.
ثم صرخ فجأة:

- ولكنني سأشعر بمتعة رائعة، عندما تحين لحظة قتلك.

واندفع نحو النافذة، صارخًا:
- أنتم أيها الأوغاد بأسفل.. لقد اتخذت قراري باختصار المهلة إلى نصف الساعة فقط، بدلًا من ساعة كاملة.
قالها، واستدار ينظر إلى السفير المصرى فى سخرية وشماتة؛ دون أن يدرى أن قوله هذا لم يترك ل(فاي) سوى ثلاث عشرة دقيقة..
فقط..

☆☆☆

ألقى الإرهابي العنيف فوق السطح، نظرة طويلة على ساعته، قبل أن يقول للفتاة الصغيرة ساخرًا، وهو يعبث بخنجره:
- استعدّي يا صغيرتي.. سأذبحك بعد أقل من ربع الساعة.
أمسكت المسكينة رقبتها في ارتياع، وهي تبكي في حرقة، هاتفة:
- لا تذبحني.. أرجوك.. أرجوك.. لا أريد أن أموت.. أرجوك.
قهقه ضاحكًا، وهو يستمتع بتوسلاتها ودموعها، فقالت السيدة في توتر:

-لا تخافي يا صغيرة.. إنه يرهبك فحسب.
التفت إليها الرجل في غضب، هاتفًا:
-أرهبها فحسب.. يبدو أنك لا تحسنين فهم الأمور أيتها الحقيرة.
وجذبها من شعرها في حدة، جعلتها تطلق صرخة ألم مذعورة، وهو يرفع خنجره نحو رأسها، مستطردًا:
- ولهذا تستحقين درسًا قاسيًا.
صرخت المرأة في رعب، وأطلت من عيني الإرهابي نظرة قاسية متشفية، وهو يهم بانتزاع فروة رأسها، و...
وفجأة وثب (فاي) عبر فتحة المصعد العلوية، وألقى خنجره في براعة، ليغرسه في قلب ذلك الإرهابي الحقير، الذي أطلق شهقة ألم ودهشة، وسقط خنجره من يده، في نفس اللحظة التي استدار فيها زميله نحو الشاب، في سرعة تليق بالمحترفين، وهو يهتف:
- يا للشيطان!
وبسرعة، استلّ (فاي) مسدسه، ولكن ذلك المحترف رفع فوهة مدفعه الآلي نحوه بسرعة أكبر، و...
وكانت مواجهة بالغة السرعة والعنف..
مواجهة المحترفين.

☆☆☆

لم يكن الشاب يدرك، أو يتصوَّر، أن خصمه محترف إلى هذا الحد، فقد فوجئ به يصّوب إليه فوهة مدفعه الآلي في سرعة مذهلة، قبل حتى أن يرفع هو مسدسه في وجهه..

وبدا له أنه خسر المواجهة هذه المرة..

ولكن فجأة، انثنى الإرهابي إلى الخلف، وجحظت عيناه في شدة، ثم سقط منه مدفعة الآلي، وبرزت بقعة دموية في جبهته من الأمام، وهو يترنح، قبل أن يسقط على وجهه جثة هامدة..

ولثوان معدودة، حدَّق الشاب في جثة الإرهابي في دهشة، دون أن يفهم ما حدث..

ولم يكن وحده الذي يشعر بهذا..

فعلى سطح مبنى قريب، ارتفع حاجبا الضابط (مارش) في دهشة عارمة، وهتف:

- من أين أتي هذا الشخص؟!.. ما الذي يحدث بالضبط؟

ثم التقط جهاز اللاسلكي الخاص به، وهتف عبره:

- أخبروني ماذا يحدث هنا؟!.. ما الذي تفعلونه بالضبط؟

ولم يكد يتلقَّى الجواب، حتى اتسعت عيناه في دهشة بالغة، والتفت إلى مساعده، قائلًا:

- إنهم لم يفعلوا شيئًا حتى الآن.

ثم عاد يحدّق في السطح المقابل، مستطردًا:

- ماذا يحدث هناك إذن؟

أما في تلك الشقة، التي تواجه المتجر بالضبط، فقد خفض (رفعت) بندقيته، المزوَّدة بمنظار مقرب قوي وكاتم صوت، و(نسيم) يهتف به:

- إصابة رائعة يا رجل.. أنا نفسي لم يكن بإمكاني أن أفعل ما هو أفضل.. كيف توقَّعت أن الشاب سيختار السطح؟
أجابه (رفعت) في انفعال:
- كنت أعلم أن (فاي) أكثر ذكاء مما يتوقعون جميعًا.
وأعاد منظاره المقرب إلى عينيه، مستطردًا:
- المهم ألا يضيع لحظة واحدة، فقد أعلن عن وجوده، وأخشى أن يقوم أحد حمقى (التليفزيون) الأمريكي بتصوير ما يحدث، فتصل الصورة مباشرة إلى الإرهابيين، عبر أي جهاز (تليفزيون) بالمبنى.
نطقها في نفس اللحظة، التي تحرَّك فيها الشاب في سرعة، وثبت طرف الحبل الذي يحمله في بروز واضح في السطح والسيدة تهتف به في سعادة:
- لقد أنقذت حياتنا.. أشكرك.. أشكرك كثيرًا.
أرادت أن تطبع قبلة امتنان على وجنته، إلا أنه ازاحها في رفق، قائلًا:
- فيما بعد يا سيّدتي.. فيما بعد.
وأطل من السطح، ليقيس المسافة بعينيه، ما بين الحافة ونوافذ الطابق الخامس، ثم أمسك طرف الحبل، في المسافة التي قدرها مسبقًا، وأشار للسيدتين والفتاة، قائلًا في حزم:
- تراجعن.
قالها، ووثب من السطح، على نحو جعل الفتاة تطلق شهقة ارتياع، والمرأتين تصرخان في هلع..
ولكنه أثبت براعته ودقته، على نحو مدهش..
لقد جاءت قفزته متقنة ومدروسة إلى حد مذهل، فلم يكد الحبل يرتطم بحافة السطح، حتى جذب جسده إلى الداخل في

عنـــف، جعلـــه يظـــهر أمـــام نافـذة الطـابق الخـامس، ويقتحمها على نحو مباغت قوي..
وعلى الرغم من أن الرجال الأربعة هناك، كانوا محترفين بحـــق، إلا أن ذلـــك الاقتحـــام المـدهش المفـاجئ أصـــابهم بصدمة عنيفة، سمحت للشاب بالقفز أرضًا، والتدحرج في مهارة، وإطلاق النار على رأس أحدهم، و على صدر الثاني، قبـل أن يثـب واقـفًا علـى قـدميه، ويطلـق رصـاصة ثالثـة، اخترقت عنق الثالث.. ولكن (بيتر سوان) لم يكن بالرجل السهل..
لقـد كـان أوَّل مـن اسـتوعب المـوقف، وقـفز خـارج نطـاق المفاجأة، فأطلق الرصاص مرتين، محاولًا إصابة الشاب، إلا أن الحركـــة السـريعة لـهذا الأخـير أفسـدت محاولتـه فـي المرتين، فما كان منه إلا أن جذب إليه (ريتا) من شعرها في عنـف وقسـوة، وألصـق مسـدسه بعنقـها، فـي نفـس اللحظـة التي استدار إليه الشاب فيها، وهو يصّوب نحوه مسدسه، فصرخ (بيتر) في عصبية عنيفة:
- حركة إضافية، وأنسف رأسها الجميل بلا تردّد.
تـوقف الشـاب، مصـوبًا إليـه المسـدس فـي حـذر، فـي حـين هتف السفير:
- اتحتمي بامرأة أيها الحقير.
صاح به (بيتر) في حدة:
- اخرس يا رجل، وإلا أخذتك بدلًا منها.
تقدَّم نحوه السفير، قائلًا:
- فليكن.. أنا أوافق.. خذني بدلًا منها.
صرخ (بيتر):
- لا أريد بطولات زائفة.. تراجع وإلا قتلتكما معًا.
بدا الغضب على وجه السفير، وصرخت (ريتا):

- لا تستفزوه.. لا تحاولوا استفزازه.. تذكروا أنني في قبضته.
انعقد حاجبا الشاب في صرامة، وهو يقول في اقتضاب:
- اتركها.
أطلق (بيتر) ضحكة عصبية ساخرة، قبل أن يقول:
- أتركها؟!.. يا له من قول ساذج سخيف!.. اترك أنت مسدسك يا فتى، وإلا علمتك كيف تنسف رءوس السخيفات أمثالها.
لم يتحَّرك الشاب قط، أو يختفى انعقاد حاجبيه الغامض، ولكنه لاحظ تألقًا غير طبيعي في عيني (بيتر سوان)، وهو ينظر إلى نقطة ما خلفه...
إلى حيث المصعد..
ثم فجأة، فهم معنى هذا التألق، فانحني في سرعة، واستدار يطلق النار نحو المصعد..
أو نحو ذلك الإرهابي، الذي ترك موقعه عند باب المتجر، وصعد ليستطلع سبب دوي الرصاصات في الطابق الخامس..
ولكن الرصاصة لم تصب الرجل في مقتل..
لقد اخترقت ذراعه فحسب..
وعندما أطلق الشاب رصاصته الثانية، التي اخترقت رأس الرجل مباشرة، دفع (بيتر) (ريتا) بعيدًا، وأطلق النار بدوره على الشاب..
ولشدة انفعاله وتوتره، لم تصب رصاصته هدفها بالضبط، وإنما اخترقت كتف الشاب، الذي استدار في سرعة، على الرغم من إصابته، وصوَّب مسدسه إلى (بيتر)..
ولكن الرجل كان قد استعاد وضعه الدفاعي بسرعة..

لقد أحاط عنق السفير بساعده هذه المرة، وهو يصرخ في الشاب:
- حاول.. حاول أن تضغط الزناد، وسأقتله أمام عينيك بلا تردّد.
نهض الشاب في بطء، وصوَّب مسدسه إلى رأس (بيتر) في إحكام، وهو يقول بالعربية:
- هل يمكنك المخاطرة يا سيادة السفير؟
اتسعت عينا السفير في دهشة، وهو يهتف:
- أأنت مصرى؟!
وصاح (بيتر) في عصبية:
- بأية لغة تتحدثان؟
تجاهله الشاب تمامًا، وهو يقول للسفير:
- سأعدّ حتى ثلاثة، ثم تزيح رأسك بسرعة إلى اليسار.. هل يمكنك هذا؟
أجابه السفير، والدهشة لم تفارقه بعد:
- بالتأكد.
قال الشاب في هدوء:
- واحد.. اثنان..
وصرخ (بيتر)، وهو يجذب إبرة مسدسه في عصبية:
- تحدَّثا بالأمريكية، أو...
قبل أن يتم كلماته، قال الشاب في حزم:
- ثلاثة..
ولم يكد ينطقها، حتى أزاح السفير رأسه بسرعة إلى اليسار، ليكشف رأس (بيتر)، وضغط الشاب زناد مسدسه، و...
وكانت الإصابة محكمة تمامًا..
وجحظت عينا (بيتر سوان) في شدة، وسقط مسدسه من يده، وأفلت عنق السفير، وهو يتراجع بثقب بين عينيه، حتى ارتطم بالنافذة المحطمة، وهوى من ارتفاع خمسة طوابق.

ومع لحظة سقوطه، صرخ الضابط (مارش) في انفعال:

- اقتحموا المكان.

ولم يعد هناك سوى إرهابى واحد، استسلم على الفور، بعد أن أدرك أن رفاقه كلهم انتهوا، مما جعل عملية الاقتحام سالمة تمامًا، وعندما وصل رجال الشرطة الأمريكيون إلى الطابق الخامس، كان الرهائن كلهم بخير، وخاصة السفير المصري، الذي حمل وجهه ابتسامة فخر عريضة، جعلت الضابط (مارش) يسأله في حيرة:

- قل لي يا سيادة السفير: ما الذي يملأ نفسك بالسعادة إلى هذا الحد؟

أجابه السفير في هدوء:

- لقد أنقذتمونا.. أليس كذلك؟

تطلَّع إليه (مارش) لحظات في شك، ثم أشار إلى رسم كبير على الجدار، لشكل بيضاوي، يقطعه خط رأسي، وسأله:

- وماذا عن هذا الرمز؟.. ما الذي يعنيه؟

هزَّ السفير كتفيه، وهو يجيب:

- ومن أدراني؟

قالها، وابتسامته تتسع، وتمتلئ بمزيد من الفخر والاعتزاز، فهو لن ينسى أبدًا تلك الكلمات، التي سمعها من الشاب، قبل أن يختفي

تمامًا من المكان:
- مع تحيات (مصر)، والمخابرات المصرية يا سيادة السفير.
لحظتها شعر أنه من الطبيعي أن يسري الفخر في عروقه..
يكفي أنه سفيرها..
سفير (مصر)..

☆☆☆

«لقد فعلتها يا رجل.. فعلتها.. ياللروعة!.. لم أكن أتوقع هذا أو أتخيله قط..»

هتف (نسيم) بالعبارة في سعادة بالغة، في حين ألقي (رفعت) جسده على أقرب مقعد إليه، ولهث وكأنه يعاني انفعالًا شديدًا، وهو يجيب:

- نعم.. لقد فعلها.. حمدًا لله.. حمدًا لله.

كان قد انتزع منذ لحظات، تلك الرصاصة التي انغرست في كتف الشاب، وضمَّد جرحه في مهارة، تعلَّمها في أثناء مواجهاته السابقة، فرفع عينيه إليه، وابتسم قائلًا:

- وأنت أيضًا فعلتها يا فتى.. لقد اجتزت ذلك الخيط الفاصل، ما بين الهاوي والمحترف.

نهض الشاب في بطء، قائلًا:

- كانت هناك أخطاء.

أجابه (نسيم) في سرعة:

- جلَّ من لا يخطئ.. لا يوجد عمل متكامل قط.. المهم ألا تؤدي الأخطاء إلى الفشل..

ثم ابتسم، وربَّت على ظهر الشاب، مستطردًا:

- ولكنني أعترف أنك موهوب في هذا المجال.. لقد أحسن (رفعت) الاختيار حقًا، وأراهنك على أنه يشعر الآن بالفخر.. أليس كذلك يا (رفعت)؟

وتطلَّع إلى زميله، الذي دفن رأسه بين كفيه، ولاذ بالصمت تمامًا، على نحو جعله يكرر:

- أليس كذلك؟

ظلَّ (رفعت) جامدًا في هذا الوضع الدقيقة أو يزيد، قبل أن يرفع وجهه إليهما، ويقول بصوت حمل طنًا من التأثر، الذي فاضت به عيناه:

- بلى.

بدا لحظة أنه سيكمل عبارته، إلا أنه لم يلبث وضمّ شفتيه في قوة، وكأنما يخشى أن يغلبه التأثر، فران على المكان صمت طويل، بعد أن غلب تأثره، قائلًا:

- لقد أثبت (فاي) قدراته، واستعداده لخوض المعارك بمفرده.

تطلَّع إليه الشاب لحظات في صمت، قبل أن يقول في خفوت، وبلهجة أشبه بالتساؤل:

- إنها ليست المرة الأولى، التي أفعل فيها هذا.

غاص كل منهما في عيني الآخر لحظات، ثم أجاب (رفعت):

- نعم.. إنها ليست المرة الأولى.

ثم التقط نفسًا عميقًا، واعتدل على مقعده، قبل أن يضيف:

- لهذا ينبغي أن تستعد.

سأله الشاب في إهتمام:

- أستعد لماذا؟

شرد (رفعت) لحظة أخرى، ثم أجاب في حزم:

للعودة إلى (مصر).

وكانت مفاجأة عنيفة بالفعل..

☆☆☆

عقد رئيس الشرطة حاجبيه، وهو يهتف في وجه الضابط (مارش) مستنكرًا:

- مصري؟!.. هل فقدت عقلك يا رجل، أم أنك تعاني نوبة هذيان؟!.. مستحيل أن يكون الشخص الذي فعل هذا

مصريًا!.. مستحيل!.. مستحيل!
زفر (مارش) في توتر، وهو يقول:
- ولكن كل شيء يؤكد هذا يا سيدي.. الشهود قالوا: إنه تحدَّث مع السفير المصرى بلغة لا يعرفونها، أصابت السفير نفسه بالدهشة، ثم إن أحد الشهود من أصل إيراني، ويمكنه تعرف اللغة العربية بسهولة.
قال رئيس الشرطة في حدة:
- لماذا ينكر السفير نفسه هذا إذن؟
أجابه (مارش) في ضيق:
- من الطبيعي أن يفعل هذا، فهو رجل ديبلوماسي، ويعرف جيدًا أن أي إجراء، يقوم به مواطنه، على أرض أمريكية، دون الرجوع إلى السلطات، يعد أمرًا غير قانوني، ولا يمكنه الاعتراف به قط.
قال رئيس الشرطة في حنق:
- ونحن لا نستطيع إجباره على تغيير أقواله هذه.
لم يجد (مارش) ما يقوله، فقلب كفيه مستسلمًا، مما جعل رئيسه يقول:
- في هذه الحالة أنصحك بنسيان الأمر كله.. المهم أنه تم القبض على أحد الإرهابيين، والقضاء على الباقين، ولن يضيرنا أبدًا أن ينسب هذا إلينا.. أليس كذلك؟
أومأ (مارش) برأسه، مغمغمًا:
- بلى.. لن يضيرنا هذا.
ولكن عقله لم يستطع أن يهدأ أبدًا، وهو يبحث عن تفسير لتلك العلامة، التي زينت الحائط في المبنى التجاري..
علامة (فاي)..

☆☆☆

"لماذا فعلت هذا؟.."
قالها (رفعت) للشاب، في شيء من الحنق، وهما يقفان مع (نسيم)، في مطار (نيويورك)، فسأله الشاب في حيرة:
- فعلت ماذا؟..
قال (رفعت) في صرامة غاضبة:
- لماذا تركت علامتك على الجدار؟
صمت الشاب لحظات، قبل أن يهزّ كتفيه، قائلًا:
- لست أدري.. أردت أن أتركها هناك فحسب.
أجابه (رفعت) في حدة:
- بل أردت أن تزهو بانتصارك.. أردت أن تعلن للعالم كله أنك صاحب الفضل في هزيمة الأشرار.. أليس كذلك؟
تمتم الشاب في حرج:
- ليس بالضبط، ولكن..
قاطعه (رفعت) في عصبية:
- هناك أمر آخر ينبغي أن تتعلمه، في عالم المخابرات يا فتى.. إننا نعمل دائمًا في الخفاء، والعمليات الوحيدة التي تعلن عن نفسها في عالمنا، هي العمليات الفاشلة، أو التي مضى عليها ردح من الزمن، أما العمليات الناجحة، فتبقى عادة طي الكتمان.. ولا مجال للزهو قط في عالمنا.. إما أن
تعمل من أجل الوطن، دون انتظار لشهرة أو أوسمة، أو لا تعمل إطلاقًا.. هل تفهم؟
تطلَّع الشاب إلى عينيه لحظات، ثم أجاب:
- نعم.. أفهم.
لم ينبس (نسيم) بحرف واحد، طوال حديث زميله، فقد كان يدرك جيدًا أن السبب الرئيسي لعصبيته، هو أنه يؤدي واجبه، على حساب مشاعره وانفعالاته..

إنه يميل كثيرًا للشاب، ويعتبره بمثابة ابن له، ويتمنى لو أبقاه دومًا إلى جواره، إلا أن واجبه يحتم عليه إعادته للوطن، حتى يصبح أحد رجال العمليات الخاصة..

وهذا الصراع يمزقه في شدة..

والعجيب أن مشاعر (رفعت) تبدَّلت في سرعة، من العصبية والغضب إلى شيء من الحنان، وهو يمسك ذراع الشاب، قائلًا:

- عندما نفترق الآن، لا تتصوَّر أبدا أنني أتخلى عنك، فلقد انتهى دوري معك، والمفروض أن تنتقل إلى مرحلة جديدة من التدريبات.. مرحلة لا يصلح لها سوى (نسيم).. أي (قلب الأسد)، كما نطلق عليه.. وعلى يديه ستتلقى عشرات المعارف والمعلومات الضرورية، في عالم المخابرات..

استمع إليه جيدًا، وأطع كل أوامره.

ارتفع في هذه اللحظة النداء الأخير، الذي يدعو ركاب طائرة (مصر للطيران)، المتجهة إلى (القاهرة)، للتوجه إلى الطائرة، فألقي (رفعت) نظرة أخيرة على الشاب، وقال:

- هيّا.. اذهب مع (نسيم).. إنها تنتظرك وتحتاج إليك.

قال الشاب في حيرة:

- من هي؟

أجابه في تأثر شديد:

- (مصر) يا (فاي).. (مصر) تنتظر خدماتك.

انتفضت عروق الشاب، وهو يقول:

- رقبتي فداء لها.

تصافح الثلاثة في حرارة، وبقي الشاب لحظات، متطلعًا إلى عينى (رفعت) في صمت، حتى قال له هذا الأخير في عصبية:

- هيا.. اذهب.. الطائرة لن تنتظرك.

وعنـدما ارتفعت الطـائرة، عائـدة إلـى الـوطن، وعلـى متنـها (نسيم) والشاب، كان (رفعت) يدرك أنها ربما تكون آخر مرة يراه فيها، طبقًا لنظم عالم المخابرات، ولكنه واثق من أن هذا الشاب سيضيف الكثير والكثير إلى هذا العالم الغامض..

وفي صمت، وربما لأوّل مرة في حياته، ترك (رفعت) تأثره يغلبه، وسمح لدموعه أن تسيل في بطء على وجهه، وهو يتابع الطائرة، التي غابت وسط السحب، تاركة خلفها خيطًا من الدخان، بدا وكأنه يرسم مع السحب شكلًا لرمز مألوف..

رمز القيمة الخالية..

(فاي).

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

-

الفهرس:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- البداية..

2- الرمال..

3- حرب رجل واحد..

4- الفتى..

5- البعث..

6- الفتى فاي..

7- الإرهاب..

المحترفون..

الاقتحام..

البداية الجديدة..

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الصدمة

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

..سلسلة كوكتيل 2000

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

الصَّدمة
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000
الصــدمة

1- صاعقة..

هطلت الأمطار في شدة، في تلك الليلة، وانهمرت كالسيول، فوق سيارة الدكتور (فريد)، وهو ينطلق بها عائدًا إلى ذلك المستشفى القروي الصغير، على مشارف مدينة (قنا)، بعد أن انتهى منذ قليل، من إسعاف شيخ مريض، داهمته نوبة الربو وسط العاصفة، فأرسل أبناءه وأحفاده لانتزاع (فريد) من فراشه في المستشفى، في الواحدة والنصف صباحًا؛ لعلاجه من ذلك الضيق، الذي يمزق صدره، ويجثم على أنفاسه..

وعلى الرغم من الحركة الدائبة لمساحتي الزجاج الأماميتين، إلا أن الرؤية بدت متعذرة إلى حد كبيرة، مع الظلام التام، الذي يسود ذلك الطريق الفرعي الضيق، والغزارة التي تنهمر بها الأمطار، وتعجز معه المساحتان عن أداء عملهما بالكامل، وخاصة مع سيارة من طراز قديم، كتلك التي يمتلكها الدكتور (فريد)، الذي امتلأت نفسه بمزيج من الحنق والغضب، جعله يردد في عصبية:

- نوبة ربو في طقس كهذا!.. لماذا لا تصيبهم تلك النوبات في أوقات جميلة مشرقة؟!.. لماذا تعود الممرضة إلى منزلها، في الخامسة مساء كل يوم، وأبقى أنا لأقيم في ذلك المستشفى الحقير؟!.. لماذا؟.. لماذا؟..

قالها، وهو يضربه مقود السيارة براحته، ويميل إلى الأمام في شدة، حتى يكاد يلتصق بالزجاج الأمامي، في محاولة لرؤية الطريق، مع استطرادته:

- حتى النساء لا يحلو لهن أن يضعن أطفالهن إلا بعد منتصف الليل.. وبالذات في الليالي العاصفة الممطرة.. الكل يختار الوقت الذي يناسبه، فيما عدا أنا.. أنا وحدي المطلوب مني أن أخضع لما يناسب الجميع.. أنا وحدي.

كان يشعر بالسخط، لاضطراره للخروج، في قلب العاصفة، على الرغم من إيمانه الشديد بضرورة تأدية واجبة، وتلبية نداء المرضى، في أية ساعة من الليل والنهار، وفي أية ظروف أو أحوال، و..

وفجأة، توقفت المساحتان عن العمل، وتجمدتا في منتصف الزجاج الأمامي، الذي غمرته الأمطار تمامًا، فحجبت الرؤية عن عين الدكتور (فريد)، الذي هتف في سخط:

- لا.. ليس الآن.

كان من المستحيل أن يواصل طريقه على هذا النحو، لذا فقد مال بالسيارة جانبًا، وأوقفها عند ما بدا له أنه جانب الطريق، وجلس داخلها يزفر في غضب ساخط، ويقول:

- كنت أعلم هذا.. كنت أعلم أن ليلة بهذا الشكل لا تمضي بسهولة.. كنت أعلم هذا.

وصمت لحظات، محاولًا هضم ثورته، وامتصاص غضبه، ثم رفع سترته فوق رأسه، وغادر السيارة، تحت الأمطار الغزيرة، في محاولة لإصلاح المساحتين..

وعندما فعل، انتبه إلى أن سيارته قد تجاوزت جانب الطريق بمترين أو يزيد، وأنها تلتصق تقريبًا بأحد الأبراج المعدنية، التي تحمل أسلاك الضغط الكهربي العالي، لتغذية مدن وقرى الصعيد، فتمتم بسخط أكبر:

لن يصلح السير في هذا الطقس، بدون المساحتين.. يا لها من ليلة!

كان صوت قطرات المطر الكبيرة، وهي ترتطم بسترته، التي وضعها فوق رأسه، يثير عصبيته أكثر وأكثر، وخاصة أن المساحتين أصرتا على جمودهما، ورفضتا الانصياع لمحاولات إصلاحهما في عناد، حتى أنه صرخ في النهاية:

- لماذا؟.. لماذا أنا بالذات؟..

ومع نهاية صرخته، أضاء البرق المكان كله، ودوت فرقعة عنيفة، ورأى الدكتور (فريد) صاعقة هائلة تضرب أحد أبراج الضغط العالي من بعيد، وتجري في الأسلاك ببريق مخيف، وكأنها تتجه نحو هدف واحد..

نحوه مباشرة..

☆ ☆ ☆

ران الصمت التام على تلك الشركة الشهيرة للمقاولات والبناء، عند أطراف مدينة (قنا)، وراح البرق يسطع في السماء، ليعبر

ضوؤه نوافذها الكبيرة، ويضيء حجراتها بشدة لثانية أو أقل، ثم ينحسر لتغرق في ظلام تام، في تلك الساعات الأولى من الصباح..

ومع سطوع البرق، بدا جسد بشري، في أحد الأركان، يتحرك في توتر شديد، داخل ردهات الشركة، وهو يحمل مصباحًا يدويًا صغيرًا، ويتجه مباشرة نحو حجرة المدير العام، ثم يتوقف أمام دولاب الملفات الخاص، وينحني ليفحص قاعدته في اهتمام بالغ..

كانت القاعدة تحوي نقشًا بسيطًا، بدا وكأنه حلية فنية، في تصميم الدولاب، إلا أن الرجل عالجها على نحو خاص، فدارت حول نفسها، مما سمح له بجذب درج سري في القاعدة، يرقد داخله ملف خاص، اختطفه الرجل في لهفة، وراح يطالع الأوراق القليلة داخله في توتر شديد، وهو يغمغم:

- آه.. كنت أعلم هذا.

انهمك بضع دقائق في مطالعة الأوراق، على ضوء مصباحه اليدوي الصغير، والبرق يسطع من النافذة الكبيرة خلفه، و...

وفجأة، اعترض طريق الضوء ظل كبير، انضم إليه في سرعة ظل آخر، فانتفض جسد الرجل، وقفز تقريبًا، وهو يدور حول نفسه، ليواجه صاحبي الظلين، في نفس اللحظة التي أضاء فيها أحدهما الحجرة، وهو يقول:

- ما الذي تفعله هنا يا (كريم)؟

احتضن الرجل الملف في شدة، وهو يتراجع في ارتياع، هاتفًا:

- ماذا تريدان مني؟

أجابه المدير العام في غضب شرس:

- بل ماذا تريد أنت منا؟.. ما الذي جعلك تتسلل إلى مكتبي في الثالثة صباحًا، في مثل هذا الطقس؟.. هل كنت تتصور أننا سنقبع في بيوتنا، ونتركك تفعل هذا؟

تراجع (كريم) أكثر، ولوح بيده في عصبية، قائلًا:

- أنتما تتجاوزان القانون.. كنت أعلم هذا منذ فترة، ولكنني لم أكن أملك الدليل.. إنكما تستخدمان مواد بناء غير صالحة، وتقدمان الرشاوي والهدايا، ليتجاوز ضعاف النفوس عن سرقاتكما، ولكن المدارس التي تبنيانها ستنهار على رءوس الأطفال المساكين، ولا يمكنني أن أسمح بهذا.

تقدم المدير نحوه، وخلفه مساعده، والأخير يقول:

- تسمح لنا؟!.. هل تظن أنه باستطاعتك أن تفعل؟

صاح (كريم):

- إن معي الدليل الآن.. هذا الملف يحوي كل الأرقام الحقيقية.. سأبلغ الشرطة بكل تجاوزاتكما.. لن أسمح بحدوث هذا قط.. إنها جريمة قتل، مع سبق الإصرار والترصد.

أخرج مساعد المدير يده من جيبه، وهي تحمل مدية كبيرة، فرد نصلها بحركة عنيفة، وهو يقول:

- حسنٌ، ما دمنا قد تحدثنا عن القتل..

لم يكن بحاجة لإتمام قوله، فقد أطل المعنى من عينيه، اللتين برقتا في وحشية عجيبة، وهو يتقدم نحو (كريم)، الذي صرخ:

- هل بلغ بكما الأمر هذا الحد؟

ثم وثب جانبًا، وفتح باب الحجرة، في نفس اللحظة التي انقض فيها المساعد عليه، وطعنه بالمدية في شراسة..

وانغرس نصل المدية في كتف (كريم)، إلا أن هذا لم يمنعه من العدو خارج الحجرة، والدماء تنزف من جرحه في غزارة، فصاح المدير:

- أسرع خلفه يا (فوزي).. لو بقي حيًا سيقضي علينا جميعًا.

زمجر (فوزي) في وحشية، كما لو كان ثورًا هائجًا، وانطلق يعدو خلق (كريم)، والدماء تقطر من نصل مديته الحاد..

أما (كريم)، فقد قطع الممر الطويل بقفزتين واسعتين، وجسده كله ينتفض هلعًا، ثم وثب داخل المصعد، وضغط زر الهبوط بأصابع مرتجفة، وهو يحدق في ارتياع في وجه (فوزي)، الذي يعدو نحوه، من نهاية الممر..

وكان سباقًا بين باب المصاعد وقدمي (فوزي)..

وللوهلة الأولى، بدا أن (فوزي) سيربح هذا السباق، وستكون جائزته الكبرى هي روح (كريم)، والملف السري الذي يحمله.

ولكن باب المصعد أكمل رحلته، قبل ثانية واحدة من وصول (فوزي)، وبدأت عملية الهبوط..

ومع وقع أقدام (فوزي)، وهو يقفز درجات السلم قفزًا، في محاولة للحاق بالمصعد، راح قلب (كريم) يخفق في عنف..

إنهما لن يتركاه حيًا..

لا يمكنهما أن يفعلا..

الملف الذي بين يديه، يثبت أنهما ارتكبا عدة جرائم، قد يؤدي كشفها إلى سجنهما لفترة طويلة، ومصادرة كل أموالهما..

ومن المؤكد أنهما لن يسمحا بحدوث هذا أبدًا..

وفي غمرة توتره، راح يدير عينيه في المصعد، بحثًا عن مخبأ، يمكنه أن يخفي فيه تلك الوثائق، التي تدينهما..

وفجأة، لمح ذلك الطرف المنزوع، من جدار المصعد..

وبدون أن يمنح نفسه مهلة للتفكير، جذب (كريم) الجدار الخشبي الرقيق، وانتزع الوثائق من الملف، ودسها في الفراغ الناشئ، ثم أعاد الجدار إلى موضعه، وضغطه بكل قوته، حتى لا يشي بما يخفيه خلفه، واحتفظ معه بغلاف الملف..

وعندما بلغ المصعد الطابق الأرضي، وانفتح بابه، انطلق (كريم) يعدو بكل قوته، ليغادر المبني كله، قبل أن يصل (فوزي) إليه..

كان كل هدفه أن يبلغ سيارته، التي تركها على مسافة مائتي متر، حتى تساعده على الفرار من المكان كله، قبل أن يقع في قبضتي (فوزي) ومديره (شعبان)، ويلقى مصرعه غدرًا وانتقامًا..

ولكن (فوزي) كان أكثر قوة وعنفوانًا..

وعبر الشارع الخالي، وتحت الأمطار الغزيرة، راح (فوزي) يطارد (كريم)، الذي تجاوز المنطقة المأهولة بالسكان بالفعل،

وتجاوزها إلى الحقول المحيطة بالمدينة، حيث أخفى سيارته، و...

ولكن (فوزي) لحق به..

لم يدر كيف فعل هذا، ولكنه وجد بيده تمسك كتفه فجأة، وسمع صوته الأجش يقول في شراسة:

- هل تصورت أنك ستهرب مني؟

قالها، وهو يهوى بمديته على صدره، فشعر (كريم) بألم بين ضلوعه، وخفق قلبه في عنف، ودفع (فوزي) بكل قوته، صارخًا:

-لا.. لا تقتلني.

كان واثقًا من أن الطعنة لم تبلغ قلبه، وإلا للقى مصرعه على الفور، ولكنه كان يشعر بآلام مبرحة، وهو يحاول العدو مرة أخرى نحو سيارته، وقد سيطرت على ذهنه فكرة واحدة..

لا بد وأن يبلغ المسؤولين بجرائمهما..

لا بد..

وفي سخرية، تركه (فوزي) يبتعد مترنحًا، وهو يعلم أن إصابته لن تذهب به بعيدًا، ووقف يراقبه، وهو يمد مديته إلى الأمام، ويترك لمياه الأمطار مهمة إزالة الدماء عنها، حتى لحق به المدير، وهو يلهث، قائلًا:

- لماذا تركته؟

أجابه في هدوء مخيف:

- اطمئن يا (شعبان) بك.. لن يذهب بعيدًا.

وكان محقًا في قوله هذا، فلقد تخاذلت قدما (كريم)، ولم تعودا قادرتين على حمله، قبل أن يبلغ سيارته بعدة أمتار، فسقط على وجهه، وسط الطين والماء، وحاول أن يزحف نحو السيارة، وتلك الفكرة لا تفارق ذهنه قط..

من الضروري أن يدفعا ثمن جريمتهما.

لا يمكن أن يفلتا..

لم تكن الفكرة مستقرة في ذهنه فحسب، وإنما تحولت إلى رغبة عارمة، ملأت كيانه كله، وسيطرت على كل خلية من خلاياه، وكل قطرة دم في جسده، حتى أنه لم يعد يهتم بكونه مقبلًا على الموت، بقدر اهتمامه بأن يدفع (شعبان) و(فوزي) ثمن كل ما اقترفاه من جرائم..

وفي عصبية، صرخ (شعبان):

- لا تتركه يا (فوزي).. اقتله.. اقتله الآن.

فرد (فوزي) مديته مرة أخرى، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يقول في وحشية عجيبة:

- كما تأمر يا سيادة المدير.

قالها، وتقدم نحو (فوزي)، و...

وفجأة، هوت تلك الصاعقة، على برج الضغط العالي القريب، ودوى صوت فرقعة رهيبة في المكان، وانقطع سلك من أسلاك البرج، وهوى علي البقعة التي سقط فيها (كريم) بالتحديد..

وكان مشهدًا رهيبًا بحق..

لقد سرى ضوء قوي في السلك، وانتفض جسد (كريم) في عنف شديد، وقفز من مكانه على نحو مخيف، في حين انطلق الضوء

عبر الأسلاك، حتى آفاق البصر..

ولم تمض ثانية أو ثانيتين، حتى تلاشي كل هذا، واسترخي جسد (كريم) وسط بركة من المياه، وقد فقد كل أثر للحياة..

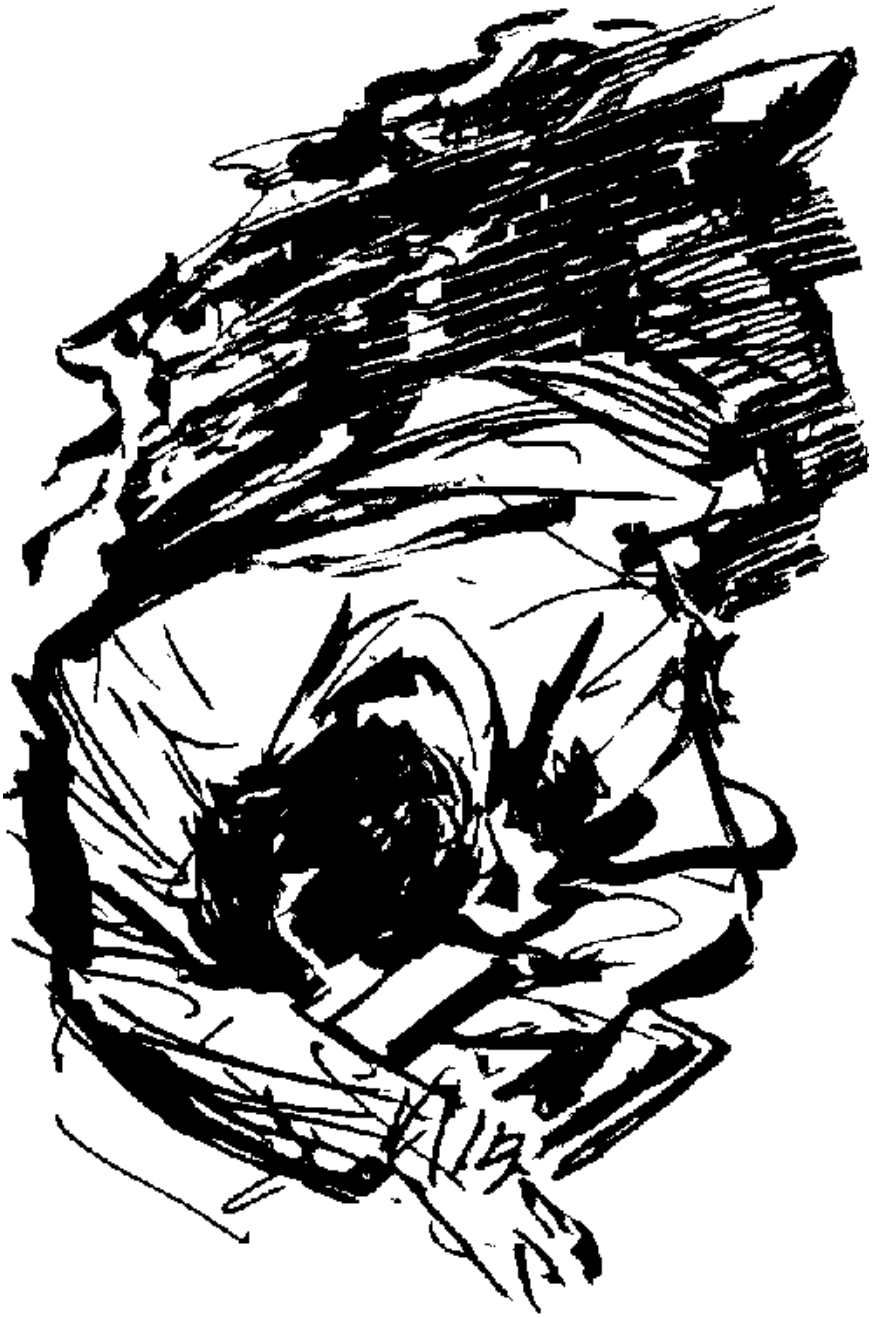

ولثوان، ظل (شعبان) و(فوزي) صامتين، يحدقان في جثة (كريم)، قبل أن يهتف الأول:

- الملف.. أحضر الملف.

أسرع (فوزي) نحو الجثة.

وانتزع منها غلاف الملف، قبل أن يهتف في دهشة تمتزج بالسخط:

- الملف خال.. لقد اختفت كل الأوراق.

صرخ (شعبان):

- اختفت؟!.. أين.

تلفت (فوزي) حوله، وهو يهتف:

- لست أدري.. لقد كنت أراقبه طوال الوقت.. لست أدري حقًا أين هي.

صاح (شعبان) في ثورة:

- لا تقل لي هذا.. ابحث عنها.. ابذل قصارى جهدك للبحث عنها.. أنت تعلم أن فيها حياتنا.. ابحث وإلا انتهى أمرنا تمامًا.

ولم يضع (فوزي) لحظة واحدة..

لقد انهمك في البحث عن الوثائق المفقودة، دون أن يبدي أدنى اهتمام بتلك الجثة المسجاة على قيد نصف المتر منه، وقد انفتحت عيناها عن آخرهما، وخلتا من ذلك البريق المعهود..

بريق الحياة..

☆ ☆ ☆

"هل تسمعني؟!.. استيقظ يا رجل.. استيقظ..".."

تردد النداء في أذنيه خافتًا، وخُيل إليه أنه قد استعاد وعيه بالفعل، إلا أنه ظل راقدًا في مكانه، صامتًا وساكنًا كالموتى، في حين التقطت أذناه الصوت نفسه، وصاحبه يستطرد:

- إنها أعجب واقعة سمعتها في حياتي كلها.. تصور يا دكتور (عادل) مع عنف العاصفة أمس، لم تسقط على الأبراج سوي صاعقة واحدة، وعلى الرغم من هذا فقد أصابت رجلين في آن واحد.

ارتفع صوت آخر، يهتف في دهشة:

- رجلان في آن واحد؟!.. وكيف يمكنكما الجزم بهذا؟

أجاب الصوت الأول:

- هذا هو التفسير المنطقي الوحيد.. سقوط الصاعة وانتشارها لا يستغرق أكثر من ثانيتين على الأكثر، وعندنا اثنان أصابتهما الصاعقة الوحيدة، التي مرت على الأبراج أمس.. ألديك تفسير آخر، سوى أنها أصابتهما في آن واحد؟

قال صاحب الصوت الثاني في حيرة:

- يا لها من مصادفة عجيبة!

أجابه صاحب الصوت الأول:

- أعتقد أنها لا تحدث سوي واحد في كل مليار على الأقل.. بل والمصادقة الأكثر إثارة للدهشة، هي أن أحدهما ظل على قيد الحياة، بعد أن أصابته صاعقة، قفزت بدقات قلبه إلى الحد الأقصى.

قال صاحب الصوت الثاني في رهبة:

- في رأيي أنها معجزة، على أي مقياس طبي.

لحظتها شعر بشيء من الإرهاق؛ لأنه يستمع إليهما بهذه السلبية، فبذل قصارى جهده ليتنحنح، إلا أن هذا المجهود لم

يسفر إلا عن نوبة سعال محدودة، جعلت الطبيبين يلتفتان إليه في لهفة، وهتف الدكتور (منعم):

- هل استعدت وعيك؟

أراد أن ينطق بشيء ما، إلا أن لسانه عجز عن هذا في البداية، ففتح عينيه في بطء، وحدق في وجهي الرجلين، اللذين تهللت أساريرهما في ارتياح، وربت أحدهما على كتفه، قائلًا:

- إنها لمعجزة أن تستعيد وعيك بهذه السرعة.. هل استعدت قدرتك على التفكير، أم أن ذهنك لا يزال مشوشًا؟

بذل طاقة أكبر هذه المرة، ونجح في أن يغمغم:

- ليس تمامًا.

أدهشه ذلك الصوت، الذي خرج من بين شفتيه، فقد بدا له مختلفًا عن صوته الذي يعرفه، ولكنه عزى هذا الحالة الضعف التي يشعر بها، والتي لاحظها الطبيبان، فهمس أحدهما متعاطفًا:

- لا بأس.. لا تبذل جهدًا كبيرًا.. ستستعيد كل شيء تدريجيًا.

قاوم ليقول:

- لا توجد مشكلة.. أنا أذكر كل شيء.. صحيح أنني لا أذكر أمر هذه الصاعقة، ولكنني أعرف جيدًا من أنا.. أنا (كريم عبد الرحمن).. مدير حسابات شركة الأمل للمقاولات.

تبادل الطبيبان نظرة ملؤها الدهشة، قبل أن يحدقا في وجهه طويلًا، ثم ينتقل بصراهما إلى الاسم المدون على تذكرته الطبية..

اسم الدكتور (فريد خالد) زميلهما القديم.

☆ ☆ ☆

2- الازدواج..

من هو بالضبط؟!..

طرح عقله السؤال على نفسه، بعد ثانية واحدة من نطقه لاسم (كريم)..

لقد نطق الاسم، وهو واثق تمامًا مما يقول..

كان لحظتها (كريم عبد الرحمن)..

لم يكن لديه أدنى شك..

ولكنه لم يكد ينطق الاسم، حتى أدرك فجأة أنه ليس اسمه..

اسمه الحقيقي هو الدكتور (فريد)..

الدكتور (فريد خالد)..

وفي دهشة، هتف:

- مهلًا.. يبدو أنني أخطأت.

تبادل الطبيبان نظرة أخرى، تفيض بمزيد من الدهشة، ثم جلس الدكتور (منعم) على طرف فراشه، ومال نحوه، يسأله في رفق:

- أخطأت؟!.. وفيم أخطأت؟

أجابه متوترًا:

- اسمي ليس (كريم).. أنا (فريد)..

وفجأة، داهمه ذلك الشعور بالحيرة..

أهو (فريد) حقًا؟!..

لماذا يشعر إذن بأنه (كريم).. أيضًا؟!

أي شعور عجيب هذا؟!

إنه شخصان في جسد واحد..

شخصان لا يتصارعان في أعماقه، بل يتعايشان في تناغم عجيب..

وفي حيرة، رفع عينية إلى الدكتور (منعم)، وغمغم:

- أنا (فريد).. أليس كذلك؟

تطلع إليه الدكتور (منعم) لحظات في صمت، ثم ابتسم ابتسامة حائرة، وهو يجيب:

- بالتأكيد.. أنت (فريد).. أنت زميلي (فريد خالد).

انتقلت الحيرة من ابتسامة الدكتور (منعم) إلى رأسه هو، وعاد ذلك السؤال يثب إلى عقله..

من أنا حقا؟!..

(فريد) أم (كريم)؟!..

وفي لهفة، سأل:

- هل يمكنني استعارة مرآة؟!.. أريد أن أنظر إلى وجهي.

تبادل الطبيبان نظرة أخرى، قبل أن يقول الدكتور (عادل) في حماس:

- بالطبع.. يمكنك هذا.

وأسرع إلى الحمام الملحق بالحجرة، وانتزع مرآة الحائط الصغيرة، وعاد بها إليه، وهو يقول لاهثًا، وكأنما بذل جهدًا عنيفًا:

- ها هي ذي.

حدق في المرآة لحظات، قبل أن يغمغم:

- نعم.. أنا (فريد).

تطلع إليه الدكتور (منعم) لحظات في صمت، ثم سأله:

- ما الذي يربكك بالضبط؟

تنهد (فريد)، وهو يجيب:

لست أدري.. شعور عجيب في أعماقي.. أشعر وكأنني أعاني من ازدواج في الشخصية.. وكأن شخصًا آخر يسكن جسدي.. أنا في لحظة (فريد) الذي أعرفه، وفي اللحظة الأخرى شخص آخر، لم أسمع به في حياتي من قبل قط.. شخص اسمه (كريم عبد الرحمن).. ولكن الأعجب أن هذا الشخص ليس مجرد اسم.. إنه

مجموعة من الذكريات، مضطربة إلى حد ما، وحائرة كثيرًا، ولكنها في لحظة ما يترابط بعضها مع البعض، فيخيل إليّ أنني هو.

أومأ الدكتور (منعم) برأسه متفهمًا، وقال للدكتور (عادل):

- ألم أقل لك إنها معجزة؟

نقل (فريد) نظره بينهما، وهو يقول في توتر:

- أية معجزة؟.. أنني ظللت على قيد الحياة؟!

ابتسم الدكتور (منعم)، وهو يقول:

- يبدو أن الأمر لن يقتصر على هذا.. هل تعلم.. أمس أصابتك صاعقة قوية، في أثناء العاصفة، وألقت بك عشرة أمتار، إلى الجانب الآخر من الطريق، ولقد حدث الشيء نفسه مع رجل آخر، في نفس اللحظة، ولكن الصاعقة التي أصابته لم تكتف بإلقائه بعيدًا، بل لقد قتلته على الفور.

سأله (فريد) في توتر أكثر:

- وما المعجزة في هذا؟

صمت الدكتور (منعم)، وهو يهز رأسه، في حين اندفع الدكتور (عادل)، يقول:

- المعجزة هي أن هذا الآخر، الذي لقي مصرعه إثر الصاعقة، هو (كريم).. (كريم عبد الرحمن)، مدير حسابات شركة الأمل للمقاولات.

وكانت صدمة لـ (فريد)..

صدمة عنيفة..

☆ ☆ ☆

«ماذا تعني بأنك لم تعثر على الوثائق بعد؟!..»

هتف (شعبان) بالعبارة في عصبية غاضبة، ولكن مساعده (فوزي) استقبل ثورته بهدوء مستفز، وهو يجيب:

- لم أعثر على أدنى أثر لها.. هكذا ببساطة.. بحثت طويًلا ولم أجدها.. ما الذي يعنيه هذا في رأيك؟!

ضرب المدير سطح مكتبه بقبضته، وهو يقول في غضب:

- هل تسخر مني يا رجل؟!.. ألا تدرك أن هذه الوثائق تديننا معًا؟

أجابه مساعده بنفس الهدوء المستفز:

- أدرك هذا جيدًا، ولكنني لا أرتجف خوفًا مثلك.

تراجع المدير، قائلًا في دهشة:

- لا ترتجف مثلي؟

أجابه الرجل، في شيء من الشراسة:

- بالتأكيد.. إنني أزن الأمور بعقلي، لا بعواطفي ومخاوفي.. لقد حصل (كريم) على الملف أمس فقط، ونحن أطبقنا عليه، قبل حتى أن يقرأه جيدًا، ولم تكن لديه الفرصة لتصويره، أو نقل بياناته إلى أي شخص آخر، ثم لقي مصرعه أمام أعيننا، بعد مطاردة محدودة، وبعدها اختفت الوثائق.. أي خطر في هذا إذن؟!.. لو أننا نعجز عن العثور على الوثائق، فسيعجز أي شخص غيرنا عن نفس الشيء.. أليس كذلك؟

تراجع المدير في مقعده، وحاول أن يزن الأمر في رأسه، وهو يتمتم:

- ولكن ماذا لو عثر عليها شخص آخر بمحض الصدفة؟

ابتسم (فوزي) في سخرية، قائلًا:

- أية صدفة هذه؟!.. ثم أنه حتى يعثر عليها شخص ما بمحض الصدفة، نكون قد اتخذنا من الإجراءات ما يجعلها لا تساوي قيمة الورق المكتوبة عليه.

اعتدل المدير في توتر، وهو يسأله:

- أية إجراءات؟

انفرجت شفتا (فوزي)، وهم بقول شيء ما، لولا أن قاطعه صوت سكرتيرة المدير، عبر جهاز الاتصال الداخلي، وهي تقول:

- الرائد (عبد الله)، من المباحث الجنائية، يطلب مقابلتك يا سيادة المدير.

ارتجف جسد (شعبان) وصوته، وهو يقول:

- من الـ... المباحث الـ.. الـ..

أزاحه (فوزي) في صرامة، وهو يجيب السكرتيرة في هدوء:

- دعيه يتفضل بالدخول.

ثم التفت إلى المدير، واستطرد في حدة:

- تماسك يا رجل.. لا شيء يمكن أن يدينك.. إنه مجرد استجواب روتيني.. مدير حساباتنا لقي مصرعه، ومن الضروري أن يأخذوا أقوالنا.

أومأ (شعبان) برأسه في توتر، مغمغمًا:

- سأبذل قصارى جهدي.. سأبذل قصارى جهدي.

دخل الرائد (عبد الله) إلى الحجرة في هدوء شديد، ولكن نظراته بدت أشبه بأشعة (رونتجن)، التي تخترق الأجساد، وتغوص في الأعماق، حتى أن (شعبان) ارتجف على الرغم منه، وهو يصافحه قائلًا:

- مرحبًا بك يا سيادة الرائد.. ترى ما سر هذه الزيارة؟

أسرع (فوزي) يقول مبتسمًا:

- لا يوجد سر يا (شعبان) بك.. إنه أمر طبيعي أن يزورنا حضرة الضابط (عبد الله)، للتحقيق في مقتل (كريم)، رحمه الله.

صافح (عبد الله) (شعبان) طويلًا، وتطلع إلى عينيه مباشرة بنظراته النافذة، حتى كاد الرجل ينهار أمامه، قبل أن يدير عينيه إلى (فوزي)، ويقول في هدوء:

- من الواضح أنك رجل ذكي يا أستاذ (فوزي).

شعر (فوزي) بقلق مبهم للعبارة، وهو يصافحه، قائلًا:

- أشكرك يا (عبد الله) باشا، ولكنني لا أعتبر نفسي كذلك.

رمقه الرائد (عبد الله) بنظرة طويلة، قبل أن يقول:

- ولكن استنتاجك جاء مطابقًا للحقيقة.. أنا هنا بالفعل للتحقيق في حادث مصرع (كريم عبد الرحمن)، مدير حسابات الشركة.

سأله (شعبان) في توتر ملحوظ:

- وما شأننا نحن بمصرعه؟

رمقه (عبد الله) بنظرة أخرى فاحصة، قبل أن يجيب:

- لكم شأن بالتأكيد، فالقتيل كان مديرًا لحسابات شركتكم، ولقد لقي مصرعه على بعد مائتي متر منها، وفي ليلة يدهشني أن وجد سببًا للخروج من منزله فيها.. ألا يثير كل هذا شيئًا من التساؤل لديكم؟

أجابه (فوزي) في سرعة:

- بالطبع.. لقد أدهشنا هذا كثيرًا، وكان (شعبان) بك يسألني منذ قليل، عن السبب الذي دفع (كريم) للخروج من منزله، في طقس رديء كهذا، ولكننا لم نجد جوابًا.

صمت الرائد (عبد الله) لحظات، وهو ينقل بصره بينهما، قبل أن يقول:

- ما الذي يدفع أي شخص لقتل رجل مثل (كريم) في رأيكما؟

ارتبك (شعبان)، وهو يبحث عن جواب، في حين قال (فوزي) في هدوء:

- السرقة.. أعتقد أن سبب الجريمة هو السرقة.

هز الرائد (عبد الله) كتفيه، وهو يقول:

- ربما كان هذا صحيحًا، فقد اختفت حافظة القتيل، ولكن العجيب أن القاتل المجهول، الذي ارتكب جريمة قتل، في طقس رديء كهذا، وسرق حافظة القتيل، تجاهل تمامًا الخاتم الذهبي الكبير في إصبعه، والذي يفوق ثمنه كل ما تحويه الحافظة.

ابتسم (فوزي)، وهو يقول:

- قاتل غبي.

قال (عبد الله) في سرعة:

- أو متسرع.

ثم استدرك، وهو يرمقهما بنظرة جديدة:

- أعني أنه كان يؤدي عمله في سرعة، ليثبت وقوع السرقة فحسب.

ارتجفت أصابع (شعبان) في شدة، في حين حافظ (فوزي) على هدوئه، وهو يقول:

- أتعني أن الشخص الذي ارتكب الجريمة، حاول أن يجعل الأمر أشبه بالسرقة لهدف ما؟

ابتسم (عبد الله) في غموض، وهو يقول:

- يبدو أن الأمر يحتاج إلى تصحيح بسيط، فسبب وفاة (كريم)، الذي حدده الطب الشرعي، هو الصاعقة التي أصابت جسده، وهذا لا يمنع من أن إصاباته كان من الممكن أن تؤدي إلى وفاته، لو أمهلته الصاعقة بعض الوقت.

قال (شعبان) مرتجفًا:

- هل خرج تقرير الطب الشرعي بهذه السرعة؟

ورفع (فوزي) حاجبيه، في دهشة مصطنعة، وهو يضيف:

- كنت أظن أن الطب الشرعي يستغرق وقتًا أطول، في مثل هذه الأمور.

قال الرائد (عبد الله) في برود:

- مخطئ أنت في ظنك هذا.

لم يكد ينطقها، حتى ارتفع رنين الهاتف الخاص، على مكتب المدير، الذي التقط سماعته، وهو يقول في توتر:

- من المتحدث؟

وارتفع حاجباه في دهشة، وهو يناول السماعة إلى الرائد (عبد الله)، قائلًا:

- إنها مكالمة لك.. كيف عرفوا أنك هنا؟

التقط الرائد (عبد الله) سماعة الهاتف، وهو يقول:

- لنا أساليبنا.

ووضع السماعة على أذنيه، وهو يعلن شخصيته، ثم صمت بضع لحظات، ليستمع إلى محدثه، قبل أن يرتفع حاجباه في دهشة، ويهتف:

- (كريم)؟!.. ماذا؟!.. أأنت واثق من هذا؟

تفجر مزيج من الدهشة والقلق في أعماق (شعبان) و(فوزي) وتطلعا إليه في توتر شديد، وهو يعاود الصمت، ويستمع في اهتمام، ثم يضيف:

- نعم.. سأحضر على الفور.

ثم أنهى الاتصال، والتفت إلى الرجلين، وهو يبتسم ابتسامة غامضة، ويقول:

- يبدو أن الاستجواب لن يقتصر عليكما، وأنه سيمتد إلى آخر شخص يمكنكما توقعه.. إلى (كريم).. (كريم عبد الرحمن) نفسه..

وكانت صدمة مروعة للرجلين..

☆ ☆ ☆

انعقد حاجبا الرائد (عبد الله) في شدة، وهو يستمع إلى الدكتور (منعم)، حتى انتهى هذا الأخير من روايته، وهو يلهث في انفعال، فتنهد (عبد الله)، وقال:

- شيء لا يصدقه عقل.

هتف الدكتور (منعم) في حماس:

- ولكنها الحقيقة، على الرغم من غرابتها، ومن أنك لن تعثر على مثيل لها في أي مرجع علمي..

أشار إليه الرائد (عبد الله)، وهو يقول:

- هل تحاول إقناعي بأن روح (كريم) قد انتقلت بوسيلة ما إلى جسد الدكتور (فريد)، لمجرد أن صاعقة أصابتهما في آن واحد.

هتف الدكتور (عادل):

- محال أن يدعي أحد هذا أيها الرائد.. الروح سر من أسرار الخالق (عز وجل)، وما من طاقة في الكون يمكنها نقلها من جسد إلى آخر.. إننا نتحدث عن الأفكار والذكريات.

واندفع الدكتور (منعم) يكمل في حماس:

- بالضبط.. لقد أصابت الصاعقة الرجلين في آن واحد، وعبر واحد من أسلاك الضغط الكهربي الشديد، وفي اللحظة التي أصابتهما فيها، كان (كريم) هذا يحتضر، ومن المؤكد أن لحظة الاحتضار تختلف عن غيرها من لحظات حياة الإنسان، ففيها تتركز أفكاره عند نقطة واحدة، وهي في المعتاد أهم نقطة في حياته.. إنها فكرة تفوقت في عقله على رهبة الموت، فسيطرت على كيانه كله، وهذه الفكرة هي التي انطلقت، عبر طاقة الصاعقة، من عقل (كريم)، إلى عقل الدكتور (فريد).

صمت الرائد (عبد الله) بضع لحظات، وهو يحاول استيعاب الموقف، ثم لم يلبث أن هز رأسه، مكررًا عبارته السابقة:

- شيء لا يصدقه عقل.

ثم رفع عينيه إلى الطبيبين، مستطردًا:

- وهل يمكنني مقابلة الدكتور (فريد) هذا؟

أجابه الدكتور (منعم):

- بالتأكيد.. ولقد اتصلت بكم، لأنني كنت أرغب في أن تتم هذه المقابلة في أسرع وقت، خشية أن تتلاشى تلك الذكريات من رأس (فريد)، قبل أن تحصلوا منه على بغيتكم..

سأله الرائد (عبد الله):

- وما الذي تتوقع أن أحصل عليه منه؟

أجابه الدكتور (عادل) بسرعة:

- على اسم قاتل (كريم) على الأقل.

ازداد انعقاد حاجبي الرائد (عبد الله)، وهو يقول:

- أتظن هذا ممكنًا؟

هز الدكتور (عادل) كتفيه، وقال:

- يمكنك أن تحكم بنفسك.

ولم تمض دقائق معدودة، حتى كان الرائد (عبد الله) يقف أمام الدكتور (فريد)، الذي بدا شديد التوتر والاضطراب، وهو يقول:

- لماذا أردت مقابلتي أيها الرائد؟.. هل أصبحت الإصابة بصاعقة عشوائية جريمة في نظر القانون.

ابتسم (عبد الله)، وهو يقول:

- إنك لست متهمًا يا دكتور (فريد).. بل يمكننا اعتبارك شاهدًا.

قال (فريد) في عصبية:

- شاهد على أي شيء.. إنني لم أر شيئًا قط.

قال (عبد الله)، في شيء من الحزم:

- ولكنك تعرف ما أصاب (كريم عبد الرحمن).

لم يكد (فريد) يسمع الاسم، حتى تراجع في حدة، وشعر بألم في كتفه، ثم في صدره، ووجد نفسه يهتف:

- لا.. لا تقتلني.

ارتسمت الدهشة على وجه (عبد الله)، وهو يقول:

- من هذا الذي تناشده ألا يقتلك يا دكتور (فريد)؟

دخلت الممرضة في هذه اللحظة، وهي تحمل الدواء، وقالت:

- موعد الدواء يا دكتور (فريد).

وقفز (فريد) إلى الخلف مذعورًا، وهو يهتف:

- لا.. لن تحصلا على الملف.

قالت في دهشة:

- أي ملف؟!

أما الرائد (عبد الله)، فقد أشار إليها في صرامة، قائلا:

- اتركي الدواء هنا، وانصرفي.. هيا.

ثم التفت إلى (فريد)، يسأله في انفعال:

- أي ملف يا دكتور (فريد)؟!.. من يحاول قتلك؟

ارتسمت الحيرة على وجه (فريد)، وهو يشير فيما حوله في شرود، قائلا:

- لست أدري.. كان هناك رجلان، يحاولان انتزاع الملف منه.. أحدهما طعنه في كتفه.. ثم في صدره.. إنه يموت.. ثم.. ثم..

وقفز من مكانه فجأة، صارخًا:

- آه.. الصاعقة.

ثم انتفض في عنف، ودارت عيناه فيما حوله في حيرة، وهو يغمغم:

- ماذا؟ ... ماذا حدث؟

حدقت الممرضة فيه بدهشة بالغة، في حين ربت (عبد الله) على كتفه، قائلًا:

- اهدأ.. اهدأ يا دكتور (فريد).. كل شيء على ما يرام.. اهدأ.

تطلع إليه (فريد) بعينين زائغتين مرهقتين، وهو يقول:

- ما... ماذا حدث؟

لم تنتظر الممرضة لتسمع باقي الحديث، وإنما أسرعت تغادر الحجرة، وهرعت إلى أقرب هاتف، وأدارت قرصه في توتر شديد، ولم تكد تسمع صوت محدثها، حتى همست في انفعال، وهي تتلفت حولها:

- (فوزي).. يبدو أن ما أخبرتني به حقيقي.. ذلك الطبيب المصاب يعرف كل ما حدث.. لقد رآك تقتل (كريم).. لابد أن تتخلص منه، قبل أن يدلي بشهادته رسميًا.. لابد.

أجابها (فوزي) بهدوئه المستفز:

- لا تقلقي يا زوجتي العزيزة.. كل شيء سيسير على ما يرام.

وأنهى الاتصال، وهو يلتفت إلى (شعبان)، ويستطرد في صرامة وحشية:

- سأقتل ذلك الطبيب.

وانعقد حاجباه على نحو مخيف، وهو يستطرد:

- الليلة.

والتمعت مديته في قبضته.

☆ ☆ ☆

3- البديل..

«حاول أن تتذكر يا دكتور (فريد).. حاول..»

قالها الرائد (عبد الله) في توتر شديد، وهو يلوح بسبابته في وجه (فريد)، فهتف الدكتور (منعم):

- ليس بهذا الأسلوب أيها الرائد.. إنك تتجاوز حدود التعامل مع المصاب.

زفر (عبد الله) في حدة، وقال في عصبية:

- أنت قلت إنه من الضروري أن نحصل على ما لديه بسرعة، قبل أن ينساه.

قال الدكتور (منعم) في صرامة:

- ولكنه لن يحتمل هذا الاستجواب العنيف.. إنك تستجوبه منذ أكثر من أربع ساعات، والساعة الآن التاسعة مساء، وهو يحتاج حتمًا إلى الراحة، بعد ما أصابه.

هتف به الرائد (عبد الله):

- وهل تعتقد أن ما أفعله سهل أو بسيط؟!.. لو أنني أخبرت رؤسائي أنني قضيت يومي أستجوب شخصًا، حلت في رأسه ذكريات شخص آخر، لاتهموني بالحماقة أو الجنون.. ثم هل تعتقد أن أية محكمة في العالم، يمكنها أن تأخذ بأقوال شخص مثله، اعتمادًا على هذه النظرية؟.. هراء.. إنهم سيطلبون إحالته إلى مستشفى الأمراض العقلية، للتيقن من عدم وجود خلل بدماغه، بعدما أصابه.

انعقد حاجبا (فريد)، وهو يقول في غضب:

- لماذا ترهقني باستجواباتك إذن؟

أجابه (عبد الله) في عصبية:

- أريد طرف خيط.. أي طرف خيط، يمكن أن يقودني إلى سر مقتل (كريم).. إنك تحدثت عن شخص، أو شخصين حاولا قتله، وعن ملف ما.. وحديثك هذا يتوافق مع شكوكي.. إنني أعتقد أن (كريم) حصل على دليل يدين صاحب شركة المقاولات، التي يعمل بها، وأن هذا الأخير استأجر شخصًا ليقتله، وهذا الشخص طعنه بالفعل، وكاد يقتله، لولا أن سبقته إليه الصاعقة.

قال الدكتور (منعم) في صرامة:

- كفي أيها الرائد.. لن أسمح لك بإرهاقه أكثر من هذا.

أجابه (عبد الله) في حدة:

- حاول أن تفهم أيها الطبيب.. هذا الرجل يحمل مفتاح حل لغز جريمة كبيرة، وأنا أقاتل لانتزاع هذا المفتاح منه.. إنها المعركة التقليدية بين القانون والجريمة، وفوزي فيها لن..

هتف (فريد) فجأة:

- (فوزي).. لا يا (فوزي).. لا تقتلني.. لا.

التفت إليه (عبد الله) في حركة حادة، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يقول:

- (فوزي)؟!

بدا الشرود في عيني (فريد)، وهو يلوح بيده، هاتفًا:

- لا تجعله يقتلني يا (شعبان) بك.. أرجوك.

وهنا صاح (عبد الله) في حماس:

-(شعبان) و(فوزي).. كنت أتوقع هذا.. كنت أتوقعه.

انتفض (فريد) فجأة، وحدق في وجهه بدهشة، قبل أن يسأله:

- كنت تتوقع ماذا؟

أمسك (عبد الله) كتفيه في انفعال، هاتفًا:

- رائع يا رجل.. لقد كشفت الحقيقة، و...

بتر عبارته بغتة، وصمت وهلة، ثم استطرد بشيء من الضيق، وقد فتر حماسه بغتة:

- ولكن بلا دليل.

ألقى الدكتور (منعم) نظرة قلقة على (فريد)، الذي تصبب عرقًا، ثم قال في حدة:

- كفى أيها الرائد.. كفى.. لقد تجاوزت حدودك بشدة هذه المرة.. ألم تر ما أصاب الدكتور (فريد)؟.. إنه يكاد يفقد وعيه.. لن يحتمل كل هذا يا رجل.

تطلع الرائد (عبد الله) إلى الدكتور (فريد) لحظة، ثم تنهد قائلًا:

- فليكن.. ستؤجل باقي الاستجواب للغد.

ونهض ليغادر الحجرة، ثم توقف، واستدار ينظر إلى (فريد)، مستطردًا:

- نم ملء جفنيك يا رجل.. أريدك منتعشًا غدًا، فسيطول حديثنا كثيرًا.

رقد (فريد) على فراشه بالفعل، وراقب الجميع وهم يغادرون حجرته، وذهنه يحمل فكرة عجيبة، تسيطر على رأسه في

إلحاح..

في إلحاح شديد..

☆ ☆ ☆

أشارت عقارب الساعة إلى تمام منتصف الليل، في نفس اللحظة التي تسلل فيها (فوزي) إلى المستشفى، واستقبلته زوجته، وهي تهمس في توتر:

- أسرع يا رجل.. إنه موعد عشاء الأطباء.. حاول أن تتم مهمتك وتغادر المكان خلال ربع الساعة فحسب.

أجابها وهو يمسك مديته في قوة:

- لست أحتاج لأكثر من دقائق خمس.

مطت شفتيها، وهي تحث الخطا معه، عبر الممر الطويل، مغمغمة في سخط:

- المفروض أن يعيد (شعبان) بك النظر، في النسبة التي تتقاضاها من هذا العمل.. إنك تقوم بكل الأعمال الخطيرة، وهو يستولي على المبلغ الأكبر.

أجابها في صرامة:

- بدونه لن نحصل على شيء.

كررت في حدة:

- ولكنك تتحمل الخطر وحدك.

ابتسم في سخرية، قائلًا:

- أتظنين هذا.. إنه منهار أكثر من الجميع.. مثله لم يخلق لمثل هذه الأعمال.. إنه يجيد عقد الصفقات الكبيرة فحسب، أما

حماية هذه الصفقات، فهي مسؤوليتي أنا.

قالت متوترة:

- مقابل عشرين في المائة فحسب.

أجابها غاضبًا:

- وماذا في هذا؟.. هل نسيت أنني لم أكن سوى عامل صغير، في مصنع (نجع حمادي)، وأنه هو الذي عينني في مكتبه، ومنحني كل هذا؟

قالت ساخرة:

- لا تقل لي إنك تدين له بالولاء.

أجابها محتدًا:

- لست أدين بالولاء لأحد.. إنني فقط أحافظ على الدجاجة، التي تمنحنا البيض الذهبي.. هل فهمتِ يا امرأة؟

مطت شفتيها محنقة، وغمغمت:

- هذا شائك.

كانا قد بلغا حجرة الدكتور (فريد)، فدفعت الباب في حذر، وألقت نظرة على الفراش، قبل أن تهمس:

- هيا.. وبسرعة.

انعقد حاجباه، واستل مديته، قائلًا في صرامة شرسة:

- بأقصى سرعة.

وتحرك على أطراف أصابعه، حتى بلغ الفراش، وقال:

- الوداع يا (فريد) بك.

وهوى بمديته مرة، ومرة، ومرة...

ثم اعتدل، وحدق في الجسم الذي اخترقته مديته، وهو يهتف:

- ما هذا؟

لم يكد ينطقها، حتى سمع شهقة زوجته من خلفه، ممتزجة بصوت الرائد (عبد الله)، وهو يهتف:

- رباه!.. هذا ما كنت أخشاه.

ولم يضع (فوزي) لحظة واحدة..

لقد اندفع بكل قوته نحو النافذة، واقتحم زجاجها، وهو يثب منها إلى حديقة المستشفى، وخلفه الرائد (عبد الله) يصرخ:

- قف يا رجل.. قف وإلا أطلقت النار.

ولكن (فوزي) لم يتوقف لحظة واحدة..

لقد ظل يعدو بأقصى سرعة، حتى تجاوز الحديقة، وعبر الشارع، واختفى وسط البنايات المقابلة، تاركًا زوجته خلفه، وهي تصرخ:

- لست أعرف شيئًا.. أنا لم أفعل أي شيء.. لقد أجبرني على هذا.

أمسك الرائد (عبد الله) كتفيها، وهو يهزها في قوة، صائحًا:

- أجبرك أيتها الحقيرة؟.. أجبرك على الإساءة لذلك الزي الذي ترتدينه؟!..

لقد شاركت في جريمة قتل.. هل تفهمين؟.. في جريمة قتل.

كان الأطباء والممرضات يندفعون من كل صوب، لمعرفة سر هذه الجلبة، فهتف بهم (عبد الله) في انزعاج شديد:

- اتصلوا بالدكتور (منعم) والدكتور (عادل).. حاولوا إسعاف هذا المسكين.. أسرعوا بالله عليكم.

ثم اندفع نحو الفراش، وأزاح الغطاء، و...

واتسعت عيناه في دهشة بالغة..

لقد كان الفراش خاليًا، إلا من وسادتين، تم وضعهما بطول الفراش، حتى يوحيا بوجود شخص نائم فوقه..

وكانت آثار طعنات مدية (فوزي) واضحة عليهما..

وفي دهشة، التفت (عبد الله) إلى العاملين والأطباء، هاتفًا:

- أين هو؟!.. أين الدكتور (فريد).. أين ذهب؟!

أطلت دهشة مماثلة من عيونهم، وران على المكان صمت تام، شفّ في وضوح على أن أحدًا لا يملك جوابًا..

أي جواب..

☆ ☆ ☆

لم يدر الدكتور (فريد) كيف نجح في التسلل إلى هذا المكان!!..

لم يدر حتى كيف نهض من فراشه، وتسلل خارج المستشفى، وقطع الطريق حتى مبنى شركة الأمل للمقاولات!!..

كانت هناك قوة عجيبة تدفعه لفعل ما فعل.

عامل غريب يتحكم في أفكاره وتصرفاته، ويجبره على القدوم إلى هذا المكان لهدف ما..

وعامل آخر يصيبه برهبة منه..

ولكن الأكثر إثارة للدهشة هو أنه لم يأت إلى مبنى الشركة من قبل قط، وعلى الرغم من هذا فقد كان يعرف مداخلها، وأبوابها الخلفية، وموضع النافذة المكسورة في الطابق الأرضي، والتي تسلل منها إلى الداخل..

كان يعرف كل التفاصيل، وكأنه قضى نصف حياته في هذا المكان.

وهناك سبب ما، يدفعه إلى حجرة مدير الشركة بالتحديد..

وداخل الحجرة، وقف حائرًا، يدير بصره في المكان، ثم اتجه مباشرة إلى دولاب الملفات، وانحنى يفحص قاعدته في اهتمام بالغ، و...

وفجأة، أضيئت الحجرة كلها..

ونهض (فريد) في توتر، واستدار يواجه القادم، الذي لم يكن سوى (شعبان)، مدير الشركة، الذي هتف في عصبية:

- من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

انعقد حاجبا (فريد)، وهو يحدق في وجهه، قبل أن يشير إليه، قائلًا في حدة:

- أنت.. أنت (شعبان مختار).. أنت مدير الشركة.

نطقها على نحو جعل (شعبان) يتراجع في توتر، ويقول:

- من.. من أنت؟!

اندفع (فريد) يقول في غضب:

- أيها المجرم.. المدارس ستنهار على رؤوس الصغار.. أيها القاتل.

امتقع وجه (شعبان)، وهتف:

- من أنت بالضبط؟.. ماذا تريد مني؟

صاح به (فريد):

- ستدفع ثمن جرائمك.. أنت و(فوزي) ستدفعان الثمن.

لم يكد ينطقها، حتى اندفع (فوزي) إلى الحجرة، وهو يهتف:

- (شعبان) بك.. كنت أعلم أنني سأجدك هنا.. لن يمكنك أن تتخيل ما حدث..

ثم انتبه فجأة إلى (فريد)، فاستدار إليه بنظرة وحشية، قائلًا:

- إذن فأنت هنا.. كان ينبغي أن أتوقع هذا.

سأله (شعبان) في ارتياع:

- هل تعرف هذا الرجل؟

أجابه (فوزي) في شراسة:

- نعم.. إنه الرجل الذي ذهبت لزيارته في المستشفى.. الدكتور (فريد خالد).

لم يكد (شعبان) يسمع الاسم، حتى تراجع كالمصعوق، وهتف:

- هو؟!.. إذن فما قالوه صحيح.. إنه يعرف كل شيء عن عملية المدارس.. كل شيء.. روح (كريم) حلت بجسده فعلًا.

قال (فوزي) في حدة:

- لست أصدق هذا الهراء، ولكن.

وفرد مديته بحركة عنيفة، مستطردًا:

- ما يدخل يمكن أن يخرج.

تراجع (فريد) في حذر، وهو يقول:

- إذن فستحاول قتلي ثانية.

أجابه (فوزي) في شراسة:

- ولن أفشل هذه المرة.

ثم انقض عليه في عنف، وهوى على صدره بالمدية، ولكن (فريد) تفاداها بوثبة جانبية، وعبر الباب المفتوح بقفزة أخرى، وانطلق يعدو خارجه، و(شعبان) يصرخ في انهيار:

- لا تجعله يهرب هذه المرة.. الحق به.. الحق به.

انطلق (فوزي) خلف (فريد)، في حين انهار (شعبان) على مقعده، وهو يردد:

- لو هرب، سنخسر كل شيء.. كل شيء.

ودفن وجهه في كفيه، وراح يبكي في انهيار، في نفس الوقت الذي قفز فيه (فريد) داخل المصعد، وضغط زر الهبوط في عصبية، وعيناه تراقبان (فوزي) الذي يعدو متجهًا إليه، ومديته تلمع في يده..

وكان سباقًا مخيفًا، خُيل إليه أنه عاش أحداثه من قبل، بين قدمي (فوزي) وباب المصعد..

ولكن (فوزي) انتصر هذه المرة..

لقد بلغ المصعد، قبل أن يغلق بابه تمامًا، ودفع يده بالمدية عبر فرجتيه، وهو يقول في شراسة جنونية:

- هل تصورت أنك ستنجح في الفرار؟

توقفت رحلة الباب تلقائيًا، عندما اعترضته يد (فوزي)، وعاد ينفتح في بطء، فشعر (فريد) بذعر شديد، جعله يضرب (فوزي) بقدمه، صارخًا:

- ابتعد.. ابتعد..

كانت الضربة من القوة، بحيث أنها ألقت (فوزي) إلى الخلف في عنف، فتدحرج أرضًا، وسقطت مديته، في حين عاود باب المصعد رحلته، والتحمت ضلفتاه، في نفس اللحظة التي قفز فيها (فوزي) واقفًا، وصرخ:

- لن تهرب مني.

لهث (فريد) في شدة، والمصعد يهبط به إلى أسفل، وتساءل في سخط عما دفعه إلى القدوم إلى هذا المكان، ولكن فجأة، سيطرت على رأسه فكرة عجيبة.

كان هناك شيء ما في أعماقه، يدفعه دفعًا إلى جذب ذلك الجزء من جدار المصعد...

ولم يقاوم (فريد)..

مذكرات زوج سعيد

لقد انتزع ذلك الجزء بالفعل، وأدهشه أن يعثر خلفة على بعض الوثائق، ولكنه لم يترك لنفسه مهلة للتفكير، وإنما انتزعها من مكانها، ودسها في جيبه في سرعة، وهو يراقب باب المصعد، الذي واصل هبوطه، حتى بلغ الطابق الأرضي، وانفتح بابه، فاندفع هو خارجه، وهو يهتف:

- حمدًا لله.. حمدًا لله.

ولكنه لم يكد ينطقها، حتى انقض عليه (فوزي) من الخلف، وغرس نصل مديته في ظهره، صارخًا:

- قلت لك لن تهرب مني.

شعر (فريد) بالألم الشديد في ظهره، وهو يسقط على وجهه، ويتدحرج نصف دورة، ويواجه (فوزي)، الذي جثم على صدره، وصاح في وحشية مخيفة:

- لا أحد يهرب مني بهذه البساطة.

كان (فريد) يرغب في مقاومته، ولكن الألم الشديد في ظهره كان يمنعه من هذا، ثم إن ساقي الرجل كانتا تكبلان ذراعيه في مهارة، ومديته ترتفع إلى أعلى، وتهم بالغوص في قلبه، و...

وفجأة، دوت رصاصة..

رصاصة انتزعت المدية من يد (فوزي)، مع صوت صارم يصرخ:

- إياك أن تكرر المحاولة..

وفي لحظات، كان رجال الشرطة يملأون المكان، ويمسكون (فوزي)، وعلى رأسهم الرائد (عبد الله)، و(فوزي) يصرخ:

- ماذا تفعلون؟.. ألقوا القبض عليه هو.. إنه لص، تسلل إلى الشركة في وقت متأخر، ولم يكن يعلم أنني و(شعبان) بك هنا، نراجع بعض المستندات، منذ انصراف الموظفين.. هل من حق أي لص أن يقتحم المكان؟

تجاهله (عبد الله) تمامًا، وهو ينحني ليفحص (فريد)، ويسأله في توتر:

- أأنت بخير؟!

أجابه (فريد):

- لقد طعنني في ظهري، وأحتاج إلى إسعاف عاجل.

صاح (عبد الله) في رجاله:

- اتصلوا بالإسعاف.. أسرعوا.

وهتف (فوزي):

- دفاع شرعي عن النفس.. حالة دفاع شرعي عن النفس.

هبط (شعبان) في هذه اللحظة، ورأى المشهد، فاضطرب في شدة، ولكن (فوزي) صاح به:

- أليس كذلك يا (شعبان) بك؟!.. إنه لص.. أليس كذلك؟

ارتبك (شعبان) لحظات، قبل أن يتمتم:

- بلي.. بلى.. إنه كذلك.

هتف (فوزي):

- أرأيت يا سيادة الرائد.. أرأيت.. (شعبان) بك سيشهد بأنني قضيت الليل كله معه في المكتب، وأن هذا مجرد لص..

قال (عبد الله) في غضب:

- لا فائدة يا رجل.. زوجتك اعترفت بأنك ذهبت إلى المستشفى لقتل الدكتور (فريد).. لا فائدة من الإنكار.

هتف في حدة:

- كاذبة.. كاذبة يا سيادة الرائد.. لقد فعلت هذا بسبب الخلافات بيننا.. إنها كاذبة.

سعل (فريد)، والتقط الأوراق من جيبه، وناولها للرائد (عبد الله)، قائلًا:

- دعه يتنصل من هذا، وستدينه هذه الوثائق.

امتقع وجه (شعبان)، وهو يحدق في الوثائق، في حين بدت الصدمة واضحة على وجه (فوزي)، قبل أن يقول:

- فليكن.. سأعترف بكل شيء يا سيادة الرائد.. المدير أجبرني على فعل هذا.. إنه..

قاطعه (شعبان) صارخًا:

- أيها الحقير.. أيها الخائن.

ولكن لم يعد للقول أهمية.. لقد انتهت القضية هذه المرة..

انتهت تمامًا..

☆ ☆ ☆

«كنت أعلم أن هذا سيحدث..».

نطقها الدكتور (منعم) بابتسامة كبيرة، شملت وجهه كله، قبل أن يلوح بسبابته، مضيفًا:

- منذ اللحظة الأولى، أدركت أن الله (سبحانه وتعالى) لم يقدر هذا الأمر عبثًا، وإنما أتت المصادفة لحكمة من حكمه (عز وجل).. إنه نوع من تحقيق العدالة، بوسائل يعجز البشر عن فهمها وتفسيرها، فعندما طارد (فوزي) (كريم)، وطعنه مرتين، إلى أن قتلته الصاعقة، كان يتصور أنه بهذا قد دفن السر إلى الأبد، ولم يدر بخلده قط أن الصاعقة نفسها ستوقع به وبمديره، بعد أقل من أربع وعشرين ساعة.

ابتسم الرائد (عبد الله)، وهو يقول:

- الأكثر غرابة هو أنني صدقت القصة منذ البداية، واقتنعت تمامًا بأن ما حدث يحمل حكمة ما.. من كان سيشر على تلك الوثائق، لو لم يحدث هذا؟!.. إنها حكمة ربانية.

تنهد (فريد)، وقال:

- لم يكن عندي أدنى شك في هذا.

أومأ الدكتور (عادل) برأسه، وسأله:

- الآن، وبعد أن نجوت من الموت مرتين بأعجوبة، أما زلت تحمل ذكريات (كريم عبد الرحمن)؟

هز (فريد) رأسه نفيًا، وهو يقول:

- مطلقًا.. لقد انمحى الكثير من رأسي، بعد خروجي من حجرة العمليات الجراحية.. ربما كان هذا من تأثير البنج المستخدم، أو...

قاطعة الدكتور (منعم):

- أو أن الفكرة استنفدت غرضها.

صمت (فريد) لحظة، ثم قال:

- بالتأكيد.

ران الصمت على الحجرة لحظات، قبل أن يقطعه الرائد (عبد الله)، وهو يبتسم، قائلًا:

- هل تعرف أن التقرير الرسمي لم يشر إلى حقيقة الأمر قط.

ابتسم (فريد) بدوره، مغمغمًا:

- أعتقد أن هذا أفضل.. من السخف أن يتهمنا أحد بالجنون، بعد كل هذا الجهد.

قهقه (عبد الله) ضاحكًا، وهو يقول:

- نعم.. أنت على حق.

ثم سأله مبتسمًا:

- ولكن العدالة الإلهية تحققت، وهذا هو المهم.. قل لي: هل تحتاج إلى شيء ما؟

أومأ (فريد) برأسه، وتنهد، قائلا:

- إلى النوم.

ابتسم الجميع في تعاطف، وأشار الدكتور (منعم) بيده، قائلًا:

- فليكن.. انعم بالنوم يا رجل.. أنت تستحقه بالفعل.

وعندما انصرف الجميع، وأطفئوا أنوار الحجرة، استرخي الدكتور (فريد) في فراشه، وغمغم:

- لماذا أنا دائمًا؟

ولكنه في هذه المرة يعرف الجواب..

إنها الحكمة الإلهية، التي تضع كل شخص في الموقع الذي يستحقه بالتحديد..

ولأنه أدرك الجواب، وعلى الرغم من جرحه وآلامه، ارتسمت على شفتيه ابتسامة راضية كبيرة، وهو يغلق عينيه، ويستسلم لنوم عميق، عسى أن يمحو به آثار الإصابة..

وآثار الصدمة.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- صاعقة..

2- الازدواج..

3- البديل..

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

صانع اللعب

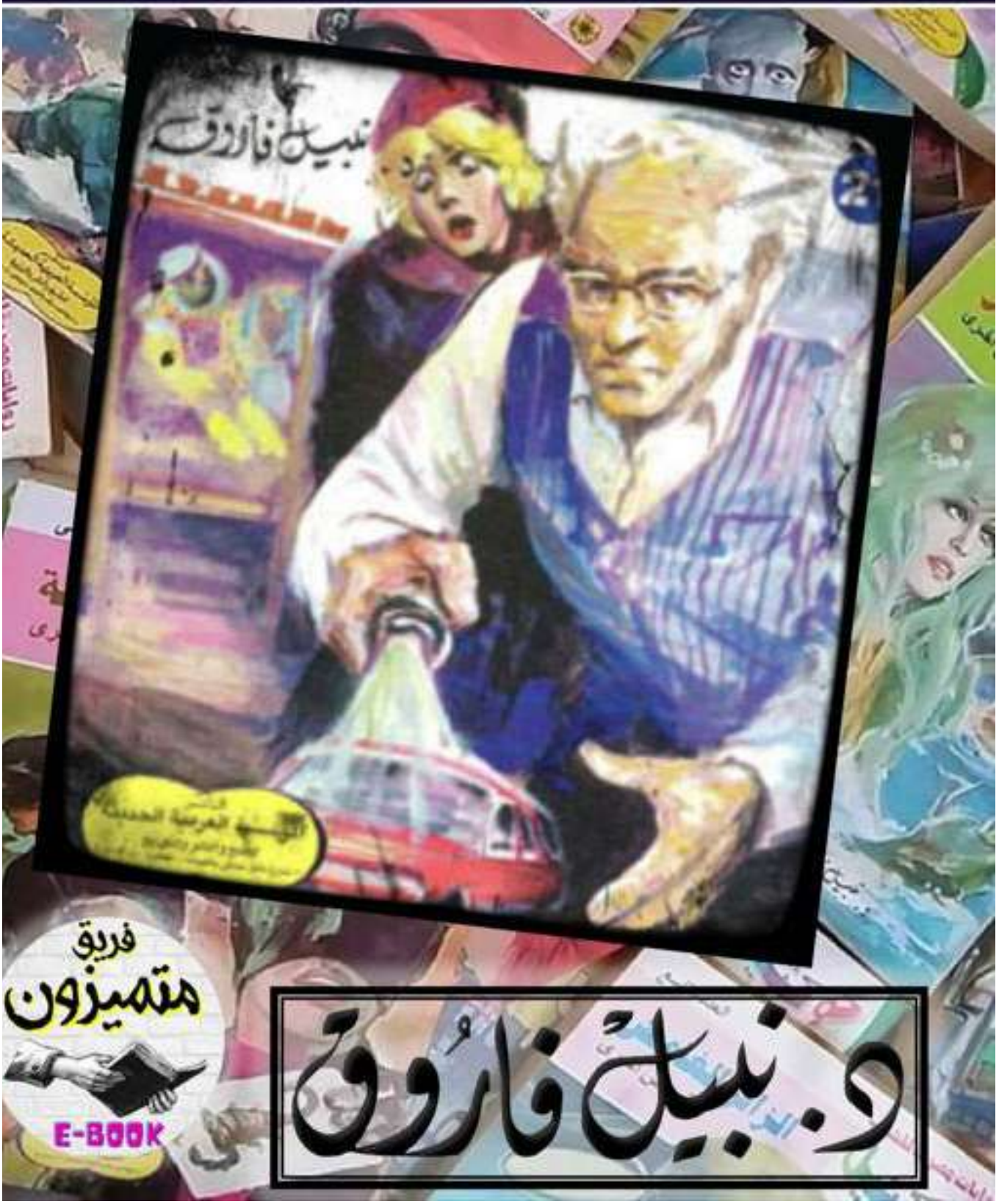

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

..سلسلة كوكتيل 2000

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

روايات مصرية للجيب
كوكتيل ٢٠٠٠
قصة العدد
صانع اللعب
المؤسسة العربية الحديثة
تطبع وتنشر وتوزع

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

صانع اللعب

1- الخيط الأول..

لست أدري كيف أبدأ قصتي هذه!..

الأحداث والوقائع ما زالت تتخبط وتتصارع في رأسي، على الرغم من مضي عام كامل على نهايتها العجيبة، التي لا تقل غرابة عن بدايتها وتطوراتها..

ومن المؤكد أنها تركت أثرًا عميقًا في نفسي..

عميقًا للغاية..

لقد كنت قبلها واحدًا ممن يرتادون المجتمعات، ويرتبطون بصداقات قوية عديدة، وعلاقات متينة، مع العشرات من رجال المجتمع، سواء في وطني (مصر)، أو في (انجلترا)، حيث أقيم وأعمل..

وكان أكثر ما يميزني هو تلك الابتسامة الهادئة، التي قلما تفارق ثغري، والتي جعلت بعض أصدقائي القدامى في (لندن) يطلقون علي اسم مستر (سمايل)، أو (المبتسم)، بلغتهم العريقة..

أما الآن، فقد انقلبت أحوالي تمامًا..

لقد أصبحت كائنًا منفردًا، أميل إلى الانطواء والعزلة، قليل العناية بمظهري وهندامي، لا أغادر معملي الخاص إلا لإلقاء محاضراتي في الجامعة، أو لشرح بعض الظواهر الفيزيقية لطلبتي، في معمل الكلية..

ولم يعد لي أصدقاء تقريبًا..

كلهم أدهشهم ذلك التحور العجيب في شخصيتي، وحاروا في أمري، بعد أن اعتزلتهم، ولم أعد أولي أحدهم اهتمامًا، حتى ولو

أتي لزيارتي في ليالي السبت، التي شهدت العديد من لقاءاتنا المرحة الطريفة في السابق..

وكلهم يتساءلون عما أصابني..

عن سر انطوائي..

عن تلك النظرة الحزينة، التي تطل دومًا من عيني، لتحل محل الابتسامة القديمة، التي انقطعت صلتي بها تمامًا، منذ عام كامل..

وأكثر ما يثير حيرتهم وقلقهم، هو اهتمامي الزائد ببيت الدمية، الذي أحتفظ به في حجرتي الخاصة، وأمنع أي مخلوق من الاقتراب منه، أو حتى لمسه، مهما كانت الأسباب.. وكذلك إقبالي الشديد على شراء الدمى الصغيرة، لتلك العروس الشهيرة (باربي)، وكل ما يخصها من ثياب صغيرة، وأدوات..

ومن المؤكد أنهم يتصورون جميعًا أنني أصبت بمس من الجنون..

وخاصة عندما حطمت كل النماذج الصغيرة، التي كانت تملأ بيتي، لعشرات السيارات، القديمة والحديثة، والتي كنت أسعى دومًا للحصول على الأنواع الجديدة منها، من أشهر الماركات العالمية، أو مما يتم صنعه يدويًا بإتقان شديد، مهما بلغ سعره، ومهما بذلت في سبيل هذا من جهد..

وربما كان الحديث عن نماذج السيارات الصغيرة هو المدخل المناسب لقصتي..

بل هو المدخل الصحيح لها بالفعل..

حمدًا لله.. لقد التقطت أخيرًا طرف الخيط، الذي سيسمح لي بترتيب كل الوقائع والأحداث في ذهني، بعد هذا الزمن الطويل..

ولا تجعلوا كلمة (الزمن الطويل) هذه تدهشكم، فالعام الواحد قد يبدو لكم فترة بسيطة محدودة، ولكنه مر بالنسبة لي كدهر كامل..

دهر لم أذق فيه طعم النوم إلا لمامًا..

وأنفقت فيه كل مدخراتي..

أو كدت..

وربما كان هذا هو السبب الرئيسي، في إقدامي على كتابة قصتي..

إنني أخشى أن أفقد قدرتي على الاستمرار، ماديًا أو معنويًا، فتكون النتيجة وخيمة، وأفقد أحب مخلوق إلى قلبي وعقلي، والتي..

ولكن لا..

دعونا لا نستبق الأحداث..

لقد استجمعت الموقف كله، ويمكنني أن أقص عليكم القصة الآن..

ومن البداية..

بداية قصتي العجيبة..

أعجب قصة في العالم كله..

☆ ☆ ☆

2- لعبة..

في البداية، دعوني أقدم نفسي..

اسمي الدكتور (نظمي سيف الدين)، في أوائل الخمسينات من العمر، أستاذ ورئيس قسم الفيزياء النووية، في واحدة من أكبر جامعات (إنجلترا)، حيث أعمل وأقيم، منذ ما يقرب من ربع القرن، منذ حضرت من (القاهرة)، للحصول على شهادة الدكتوراه في هذا الفرع الدقيق من العلم، ثم قررت الاستقرار في العاصمة البريطانية (لندن)، بعد أن حصلت على الشهادة، وعرضت علي الجامعة وظيفة متميزة فيها، بمرتب يسيل له اللعاب، في تلك الفترة..

وأنا أعزب غير متزوج، ولا تسألوني لماذا، فأنا نفسي أتساءل: هل ألهتني أبحاثي العلمية واهتماماتي التكنولوجية، عن التفكير في أمور الحب والزواج، فلم أفق من غيبوبتي هذه إلا بعد أن تجاوزت الخمسين من العمر؟!..

أم أن حياتي الاجتماعية الحافلة كانت تشبعني عاطفيًا، إلى الحد الذي لم أهتم فيه كثيرًا بتكوين أسرة وإنجاب أطفال، والانتماء إلى عائلة مستقرة؟!.

وأيًا كان السبب فقد قضيت ربع قرن من الزمان في (لندن) وحيدًا، في منزل كبير، يحسدني عليه أقراني في الجامعة، ولا تشغلني فيه سوى أبحاثي المتصلة، التي أجريها في معمل صغير، أقمته في قبو المنزل، أو هوايتي الشديدة لجمع نماذج السيارات الصغيرة، وبالذات النادرة منها، أو الذي تبلغ دقته حدًا يجعله أشبه بالسيارات الحقيقية، على الرغم من صغر حجمه..

وعلى الرغم من أنني لست الوحيد، الذي له مثل هذه الهواية، إلا أن أصدقائي كانوا يعجبون لشدة شغفي بجمع هذه النماذج، وتزيين أرفف مكتبة كبيرة بها، وباستعدادي لشراء النماذج الدقيقة منها بمبالغ كبيرة، يعتبرونها ثروات طائلة، لا ينبغي إنفاقها في مثل هذه اللعب..

صديق واحد كان يشاركني اهتماماتي هذه..

إنه الدكتور (ألفريد ليفيت)، أستاذ الطب الشرعي، في الجامعة نفسها..

هو أيضًا يجمع نماذج السيارات الصغيرة بنفس الشغف، ويحرص على أن يريني أي نموذج جديد، ينجح في الحصول عليه، كما يحتفظ مثلي بعدد من النماذج النادرة، التي دفع فيها -مثلي- ثروات طائلة..

وكم من الممتع أن يجد المرء من يشاركه هواياته واهتماماته..

ومن الطبيعي، والحال هكذا، أن تربطني بالدكتور (ألفريد) صداقة قوية متينة، مع اهتماماتنا المشتركة، على الرغم من أنه يكبرني بعشر سنوات كاملة..

والواقع أن هوايتنا المشتركة لم تكن السبب الوحيد لارتباطي بالدكتور (ألفريد)..

هناك سبب آخر أكثر أهمية..

ابنته (ديانا)..

و(ديانا) صحفية في جريدة (ديلي ميرور)، في الثلاثين من عمرها، ولكنها تبدو لفرط نشاطها وحيويتها، وكأنها أصغر بعشر سنوات على الأقل، كما أن ملامحها الدقيقة الرقيقة، وابتسامتها العذبة

الساحرة، تجعلها أشبه بنموذج مكبر للدمية الشهيرة (باربي)، يسعدك التطلع إليه، ومراقبته طوال الوقت..

ولقد وقعت في غرام (ديانا) هذه منذ اللحظة الأولى، التي وقع فيها بصري عليها، في مكتب والدها، منذ ثلاثة أعوام تقريبًا..

كانت قد حصلت على الطلاق مؤخرًا، من زوجها الصحفي بنفس الجريدة، بعد طول عناء، وقررت أن تدفن نفسها في العمل، لتنسي صراعاتها الطويلة معه، فانتقلت للعمل في قسم صحافة الجريمة، وتتبعت سلسلة جرائم قتل غامضة، كان الدكتور (ألفريد) هو الطبيب الشرعي المعتمد فيها.

ولقد أدهشني حقًا أن يقدم شخص عاقل على طلاق ملاك رقيق مثلها..

وأدهشني أكثر أن تعمل في هذا المجال العنيف، الذي جعلها تحضر بنفسها عملية فحص وتشريح جثة القتيل، التي يعمل فيها والدها، في محاولة للحصول على نسخة من تقرير الفحص، قبل أن يحصل عليها أي صحفي منافس..

ومنذ ذلك الحين، اقتربت أكثر وأكثر من الدكتور (ألفريد) وابنته (ديانا)، التي تصاعد حبها في قلبي وتضاعف عشرات المرات، مع مرور الوقت، وإن لم أجرؤ على الإفصاح عنه قط، مع فارق السن بيننا، والذي يتجاوز العشرين عامًا دفعة واحدة..

ولكن دعونا لا نتشعب في روايتنا، حتى لا نفقد طرف الخيط، الذي التقطته في صعوبة هذه المرة..

ودعونا نعد إلى قصتنا..

إلى البداية..

ولقد كانت البداية، كما سبق أن أخبرتكم، منذ عام تقريبًا، في واحدة من ليالي الشتاء في (لندن)، التي تنخفض فيها درجة الحرارة إلى ما يقرب من الصفر، وتتساقط الثلوج لتغمر الطرقات، وأسطح المنازل وأسقف السيارات..

وفي تلك الليلة، أشعلت النيران في المدفأة، وجلست إلى جوارها، أطالع بعض الكتب الحديثة، عندما دق جرس الباب ثلاث دقات متتالية، فارتفع حاجباي في دهشة، وأنا أغمغم:

- عجبًا!.. إنها دقات الدكتور (ألفريد) المميزة.. كيف أتى في مثل هذا الطقس؟

شعرت بقلق حقيقي، وأنا أهرع إلى الباب وأفتحه، ولكن دهشتي تضاعفت بشدة، عندما رأيت الدكتور (ألفريد) أمامي، في معطفه السميك، وهو يحمل صندوقًا متوسط الحجم وابتسامة كبيرة مبتهجة، ويقول في جذل:

- مفاجأة.. أليس كذلك؟

أفسحت له الطريق، وأنا أقول في حيرة:

- بلى.. إنك لم تعتد زيارتي دون اتصال مسبق.

نفض الثلج عن معطفه، وهو يقول في جذل عجيب:

- لقد تعمدت ألا أفعل، حتى تكون المفاجأة كاملة.

سألته وبصري يفحص الصندوق الذي يحمله:

- أية مفاجأة؟!

لوح بالصندوق، قائلًا في سعادة جمة:

- لقد هزمتك هذه المرة.

سألته، وهو يخلع معطفه.

- فيم؟

أسرع بالصندوق إلى المائدة التي تتوسط الردهة، وهو يقول:

- في سباق النماذج.. لقد حصلت على أفضل نموذج سيارة في الدنيا.

خفق قلبي في عنف، وأنا أعدو خلفه، وأسأله في لهفة:

- حقًا؟!.. أهذا هو؟

فض غلاف الصندوق في سرعة، ومد يديه داخله في حرص، ليخرج نموذجًا لسيارة حديثة، من طراز (مرسيدس)، لا يتجاوز طوله الأربعين سنتيمترًا على الأكثر..

واتسعت عيناي في دهشة وانبهار..

لقد كان ما أراه أمامي أفضل نموذج سيارة رأيته في حياتي كلها..

أفضلها على الإطلاق..

كل شيء فيه كان تحفة غير مسبوقة، ومطابقة تمامًا للأجزاء الحقيقية للسيارة (المرسيدس)..

الإطارات..

المصابيح الأمامية..

وحتى مساحات الزجاج..

وفي انبهار تام، هتفت:

- من أين حصلت على هذه التحفة؟

قهقه الدكتور (ألفريد) ضاحكًا في سعادة ظافرة، وهو يقول:

- إنك لم تر شيئًا بعد.. انظر..

وأخرج من جيبه عدسة مكبرة، وهو يداعب باب السيارة بطرق أظفره، ويفتحه، وناولني العدسة، وهو يشير إلى داخل السيارة، قائلًا:

- انظر إلى دقة الصنع المذهلة.. ذراع السرعة الآلي، وتابلوه السيارة، وحتى أحزمة الأمان.. كل شيء موجود في موضعه، وبنفس الخامات..

كاد قلبي يذوب انبهارًا، وأنا أتطلع إلى ذلك النموذج المبهر، وسألته بصوت متهدج ملهوف:

- كم دفعت ثمنًا له؟

تراجع بابتسامة مزهوة، وهو يجيب بسؤال آخر:

- كم يستحق في رأيك؟

اعتدلت قائلًا في حماس:

- ثروة.. إنني مستعد لدفع أي مبلغ من المال، مقابل نموذج كهذا.

أومأ برأسه موافقًا في سعادة، قبل أن يجيب:

- وهذا ما فعلته أنا.. هذا النموذج الذي تمسك به يساوي خمسة آلاف جنيه استرليني.

شهقت لهول المبلغ، الذي يساوي ثمن سيارة حقيقية صغيرة، وعدت أتأمل النموذج في انبهار، وأنا أردد:

- خمسة آلاف جنيه دفعة واحدة!

كان النموذج شديد الدقة بالفعل، إلى درجة الإتقان، وكان يستحق المبلغ، على الرغم من ضخامته، فلم أر في حياتي كلها شيئًا مثله، حتى أنني تساءلت عن ذلك الصانع الماهر، الذي يستطيع إنتاج لعبة بهذا الإعجاز التقني، تبلغ حد الكمال في مجالها، لدرجة أنك تستطيع رؤية كل تفاصيل المحرك، وآلات الحركة..

وكل شيء متقن بدرجة مذهلة..

وعدت أردد في خفوت، وكأنني أفكر بصوت مسموع:

- خمسة آلاف جنيه.

ابتسم (ألفريد) في سعادة أكبر، وهو يقول:

- إنها تحفة فريدة، وتستحق المبلغ، ما دام المرء قادرًا على دفعه..

وكان على حق تمامًا في قوله..

صحيح أن المبلغ ضخم للغاية، إلا أن مدخراتي تفوقه بعشر مرات، إلى جوار دخلي الكبير من مؤسسة التكنولوجيا الأوروبية، التي أعمل فيها كمستشار فيزيائي، منذ أكثر من عشر سنوات..

ثم إنك لا تستطيع مقاومة الرغبة في الحصول على شيء كهذا..

وفي لهفة واهتمام، التفت إلى (ألفريد)، أسأله:

- من أين حصلت عليه؟

استعاد النموذج في حرص، وهو يجيب في زهو:

- لقد وصلني عرض بالبريد، باعتباري أحد الأعضاء البارزين، في جمعية هواة نماذج السيارات، وعندما ذهبت لزيارة صاحب العرض، لم أستطع مقاومة الشراء.

قلت في دهشة:

- عجبًا!.. ولماذا لم يصلني عرض مماثل؟!.. أنا أيضًا عضو بارز في الجمعية نفسها..

هز كتفيه، قائلًا:

- لست أدري، ولكن مستر (جورج) أخبرني أنه انتخبني من بين أعضاء الجمعية، ليعرض عليّ نماذجه، بحيث أصبح وسيطًا، بينه وبين من أرشحه له من الأعضاء الآخرين.

قلت، وأنا أشعر بشيء من الغيرة:

- ولماذا أنت بالذات؟.. وكيف توصل إليك؟

ابتسم في خبث، وكأنما شم رائحة الغيرة من نبرات صوتي، وقال:

- ربما انتخبني بوساطة الكمبيوتر. أنت تعرف هذه الأجهزة.. إنها تنتشر الآن في كل مكان، وأي شخص ذكي يمكنه استغلالها لمعرفة أي شيء يريده.. ألم تقرأ ذلك الخبر، عن الصبي الذي نجح في اختراق كمبيوتر شبكة الدفاع، وحصل على معلومات سرية بالغة الخطورة؟!.

راقبته وهو يعيد النموذج إلى صندوقه، وشعرت في أعماقي بالحسد، لأن منافسي في هوايتي الأثيرة قد حصل على شيء مثله، فانهارت مقاومتي على الفور، وهتفت كطفل صغير:

- أريد نموذجًا مثله.

اتسعت ابتسامة (ألفريد)، حتى خيل إليّ أنه سينفجر ضاحكًا، وهو يقول:

- لا بأس.. سأخبر مستر (جورج).

قلت في عصبية:

- ولماذا لا تعطيني عنوانه فحسب؟

هز كتفيه مرة أخرى، وهو يحمل الصندوق تحت أبطه، قائلًا:

- الرجل لا يسعى للانتشار والشهرة، وإلا لأعلن عن بضاعته في الصحف، وكان هذا كفيلًا بأن يحقق له ثروة طائلة لو فعل.. إنه، كما أخبرني، لا يرغب في بيع نماذجه، إلا لمن يدرك قيمتها الحقيقية.

ثم لوح بسبابته، وهو يضيف في حماس:

- إنه ليس مجرد تاجر.. إنه فنان.. فنان حقيقي.

قالها، وانصرف دون أن يضيف الكثير، وتركني خلفه أكاد أشتعل لهفة وغيرة، وأترقب في شوق وقلة صبر تلك اللحظة التي ألتقي فيها بمستر (جورج).

ذلك الصانع العبقري..

صانع اللعب.

☆ ☆ ☆

3- مستر (جورج)..

حدث ذلك اللقاء بعد أسبوع كامل..

أسبوع كامل لم يعد لي من أمل سوى أن أحصل على نموذج مشابه لذلك الذي حصل عليه (ألفريد)..

وطوال ذلك الأسبوع، رحت أعيد فحص كل ما لدي من نماذج عشرات المرات..

وبالذات تلك الأكثر دقة وأناقة..

كانت لدي بعض نماذج السيارات القديمة، تفخر الشركات المنتجة لها بأنها من أفضل وأدق النماذج الموجودة بالأسواق، ولكنها كانت، على الرغم من دقتها المدهشة تكاد تبدو أشبه بلعبة رخيصة، إلى جوار الإتقان المذهل، الذي رأيته في نموذج (المرسيدس)...

وكان هذا يزيدني لهفة وتوترًا..

وأخيرًا، اتصل بي (ألفريد)، وقال في سعادة:

- حصلت لك على موعد معه.

قفزت من مقعدي في سعادة جمة، وأنا أصرخ:

- حقًا؟!.. متى؟ وأين؟

ضحك وهو يجيب:

- غدًا صباحًا، في متجره العتيق في (وست مينستر).

كان قلبي يرقص طربًا طوال الليل، وكأنني في سبيلي للقاء معشوقة قديمة، طال شوقي إليها، واستيقظت في الصباح الباكر، ورحت أتطلع إلى ساعتي كل دقيقة، وبدا لي وكأن الزمن يمضي في

بطء مثير للحنق، وتمنيت لو استطعت دفع عقارب الساعة إلى الأمام، ليحين الموعد المنشود..

وفي الثامنة والنصف بالضبط، كنت أجلس مستقلًا سيارتي أمام منزل (ألفريد)، الذي قهقه ضاحكًا، وهو يدلف إلى سيارتي، قائلًا:

- كنت أعلم أنك ستصل في موعدك بالضبط.

أجبته، دون أن أحاول إخفاء لهفتي:

- كان بإمكاني أن أصل قبل هذا، فالشوارع خالية تقريبًا.

هز كتفيه، وهو يقول:

- أمر طبيعي.. إنه يوم الأحد.

لم أكد أسمع جوابه هذا، حتى قفزت دهشتي إلى الذروة..

كيف لم أنتبه إلى هذا من قبل؟!..

إنه يوم الأحد بالفعل..

وهذا أمر عجيب للغاية..

ولو أردت أن تدرك مدى عجبه، فعليك أن تعرف شيئًا عن طبيعة يوم الأحد، في حياة البريطانيين..

إنهم من الشعوب التي تحترم يوم الإجازة الأسبوعية إلى حد مدهش. فمن المستحيل تقريبًا أن تجد متجرًا واحدًا يعمل في ذلك اليوم، مهما كانت الأسباب..

(لندن) كلها تبدو أشبه بمدينة للموتى في يوم الأحد، حيث يغادرها أكثر من سبعين في المائة من سكانها، إلى الحدائق والضواحي، للاستمتاع بيوم الإجازة، في حين يبقى الثلاثون في

المائة الباقون داخل منازلهم، يسترخون أمام (التليفزيون)، أو يدعون أبناءهم وأحفادهم لتناول طعام الغداء أو العشاء..

ولهذا أدهشني أن يختار مستر (جورج) يوم الأحد بالذات للقاء..

ولقد نقلت دهشتي هذه إلى (ألفريد) فابتسم مجيبًا:

- أعتقد أنه يتعمد هذا، فقد التقى بي أيضًا في أحد أيام الأحد..

إنه يعتبر عمله سريًا وخاصًا، ولا يحب أن يزاوله في الأيام العادية.

سألته في اهتمام:

- ما نوع المتجر الذي يمتلكه مستر (جورج) بالضبط؟

أجاب في هدوء:

- متجر لبيع لعب الأطفال.. إنه رجل عجوز، من ذلك الطراز العتيق، الذي يصنع بعض اللعب الخشبية ونماذج الدمى الصغيرة، المصنوعة من القماش والورق.

قلت في اهتمام:

- لابد أنها تحف رائعة.

هز رأسه نفيًا، قبل أن يجيب:

- إنها ليست كذلك على الإطلاق، وهذا ما يثير دهشتي.

سألته في حيرة:

- كيف؟!

مط شفتيه، وهو يجيب:

- انتظر، وسترى بنفسك..

كان هذا الجواب يزيدني توترًا وفضولًا، إلا أنني كتمت شغفي في أعماقي، ورحت أقطع الشوارع الخالية، حتى بلغت متجر (جورج) العتيق، في (وست مينستر)، والذي يحمل اسم (لعب مستر جورج)، وعندما توقفت أمام بابه الكبير المغلق، أشار (ألفريد) بسبابته، وقال:

- ليس من هنا.. سندخل من الباب الخلفي، في هذا الشارع الجانبي.

أدهشتني تلك الإجراءات المعقدة، التي يتخذها مستر (جورج) هذا، وكأنه أحد تجار المخدرات، ولكنني أطعت تعليمات (ألفريد)، ودخلت ذلك الشارع الجانبي الصغير، واتجهت مع صديقي إلى باب من خشب البلوط، علقت به دمية صغيرة، فدقه (ألفريد) دقتين متباعدتين، ووقف ينتظر..

ومضت لحظات ثقيلة من الصمت والسكون، بدت لي من شدة لهفتي، وكأنها أيام طوال، قبل أن ينفتح الباب في بطء، ويظهر من خلفه وجه مستر (جورج)..

كان شيخًا في السبعين من عمره على الأقل، أصلع الرأس، أشيب الفودين، متغضن الوجه، قصير القامة، يرتدي منظارًا طبيًا سميكًا، ذا إطار معدني رفيع، ويتطلع إلينا من خلفه بعينين نفاذتين صارمتين، شعرت بهما تفحصاني جيدًا، قبل أن يقدمني له (ألفريد)، قائلًا.

- صديقي (نظمي)، الذي حدثتك عنه.

مط (جورج) شفتيه، وهو يواصل تفحصه لي في صمت، قبل أن يشير بيده في صرامة، قائلًا:

- ادخلا.

تبعناه إلى ممر ضيق قصير، قادنا إلى صالة العرض الواسعة، حيث تراصت مئات الأنواع من لعب الأطفال، لمختلف الأعمار والفئات، وأشار (ألفريد) إلى مائدة خاصة، تتوسط الصالة الواسعة، وهو يقول:

- إنتاج مستر (جورج).

كدت أصرخ من فرط الدهشة، وأنا أحدق في تلك الدمى الخشبية، التي اشتهر مستر (جورج) بصنعها..

كانت مجرد نماذج بسيطة، غير متقنة الصنع، ولا تساوي في نظري ما يزيد على جنيه استرليني واحد، وبينها بعض النماذج البدائية للسيارات القديمة، لا يمكنني وضعها وسط مجموعاتي، حتى ولو تلقيتها كهدية مجانية..

وفي دهشة، همست في أذن (ألفريد):

- مستحيل!.. كيف يصنع شخص واحد نماذج حقيرة كهذه، ونموذج مذهل كذلك الذي لديك؟

ابتسم (ألفريد)، وهو يجيب هامسًا:

- لا تسألني، فلم أعثر على الجواب أبدًا.

زمجر مستر (جورج)، وهو يقول في خشونة غليظة:

- فيم تتهامسان؟

أجبته في سرعة:

- كنا نتساءل: متى نرى نماذجك المدهشة؟

أجابني في غلظة:

- لا تتعجل.

وانحرف بنا إلى ممر جانبي، قادنا إلى سلم ضيق، هبطنا فيه عشر درجات، قبل أن نتوقف أمام باب كبير في القبو، عليه رتاج كبير وقفل ضخم، فتحه مستر (جورج) في بطء مستفز، قبل أن يضيء حجرة صغيرة، لا تتناسب أبدًا وحجم الباب، وهو يقول بخشونته الغليظة:

- ها هي ذي.

وكدت أصرخ هذه المرة، من فرط الانفعال..

فأمامي مباشرة، وفوق عدد قليل من الأرفف الخشبية رديئة الصنع، كانت تستقر أروع مجموعة نماذج سيارات رأيتها في عمري كله..

(أوبل).. (فيراري).. (مازدا).. (تويوتا).. (فيات)..

كل أنواع السيارات تقريبًا..

وفي انبهار منقطع النظير، أقبلت على تلك المجموعة الفريدة، ورحت أفحصها في شغف شديد، وأنا ألهث انفعالًا..

وكانت كلها على نفس الدرجة من الإتقان المذهل، الذي رأيته في نموذج (المرسيدس)، الذي ابتاعه (ألفريد)..

كل التفاصيل موجودة بدقة مذهلة..

كلها..

وفي حماس شديد، هتفت:

- كيف يمكنك صنع هذه التحف؟

زمجر مستر (جورج)، وأجاب في خشونة:

- ليس هذا من شأنك.

كانت إجابة فظة، تتناسب مع طبيعة الرجل وشخصيته، وهو يستطرد في عصبية ونفاد صبر.

- أيها ستختار؟

كان السؤال، على الرغم من بساطته، مربكًا ومحيرًا إلى حد كبير، فلقد بدا لي، وأنا داخل تلك الحجرة الصغيرة، أنني داخل مغارة (علي بابا)، وحولي كنوز الدنيا كلها، فكيف أختار من بينها شيئًا واحدًا؟!..

ولو طاوعت لهفتي الشديدة، في تلك اللحظات، لأنفقت مدخراتي كلها في شراء هذه النماذج كلها، ولكن من حسن الحظ أن بقيت في رأسي أضغاث حكمة، جعلتني أتماسك أمام الإغراء القوي، وأشير إلى سيارة من طراز (تويوتا)، قائلًا:

- هذه.

مط شفتيه الجافتين دون مبرر، وهو يتجه نحو النموذج، والتقطه في غلطة كاد ينفرط لها قلبي، ثم جذب صندوقًا خاليًا، ووضعه داخله، وهو يقول في لهجة صارمة تحذيرية.

- خمسة آلاف جنية.. نقدًا وفورًا.

كنت مستعدًا بالمبلغ، فنقدته إياه على الفور، والتقطت الصندوق في حرص ولهفة، وأنا لا أصدق أنني حصلت على هذه التحفة الفريدة، في حين قال مستر (جورج) في صرامة حادة:

- بقي أمر واحد.. إياك أن تخبر أي مخلوق بما رأيته هنا، إلا بعد الرجوع إلي.. هل تفهم؟!

أومأت برأسي إيجابًا، على الرغم من حيرتي الشديدة لهذا المطلب العجيب، فزمجر الرجل، وقال في حدة:

- لم أسمع صوتك.

أجبته في خفوت:

- أعدك ألا أخبر أي مخلوق.

عاد يمط شفتيه، وهو يغمغم في ازدراء:

- تعدني؟!.. ومن يثق في وعد أجنبي؟

انعقد حاجباي في غضب، وأنا أقول:

- أنا مصري عربي يا مستر (جورج)، وأعتقد أنك تعرف أننا أكثر من يحترم وعوده.

مط شفتيه مرة أخرى، ولوح بيده على نحو جعلني أهم بالانفجار في وجهه غاضبًا، لولا أن أمسك (ألفريد) يدي في قوة، وهو يقول:

- فليكن يا مستر (جورج).. لن نخبر أحدًا..

ثم جذبني في قوة إلى خارج المتجر، وصفق مستر (جورج) هذا الباب الخشبي خلفنا في شيء من العنف المستفز، ولكن (ألفريد) ضحك، قائلًا:

- لا تأبه به.. إنه شيخ مخرف..

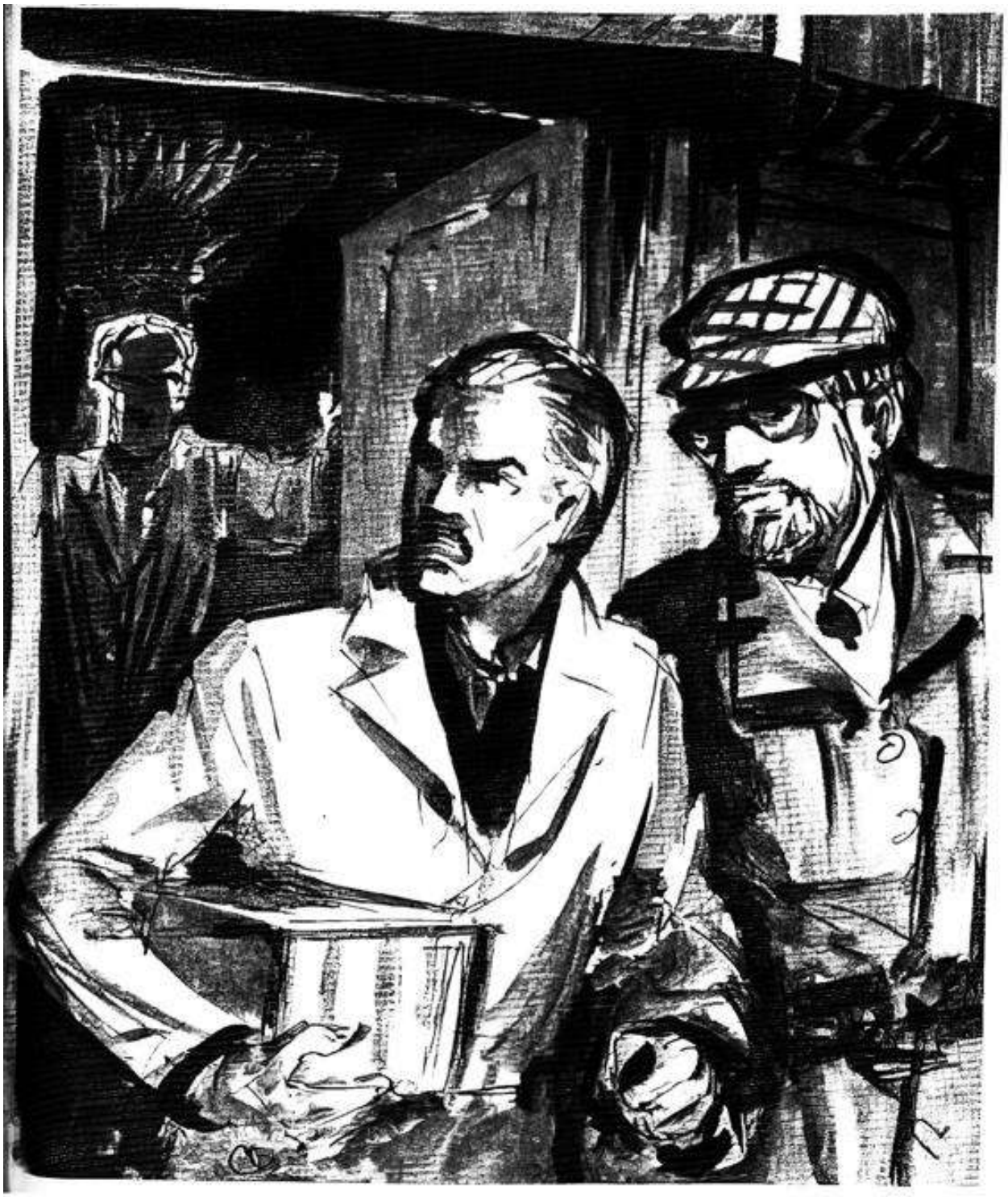

ثم جذبني في قوة إلى خارج المتجر، وصفق مستر (جورج) هذا الباب الخشبي خلفنا في شيء من العنف..

وضعت صندوق النموذج في سيارتي بمنتهى العناية، وأنا أقول:

- شيخ مخرف يصنع تحفًا كهذه؟!.

هز (ألفريد) رأسه، ونحن ننطلق بالسيارة، وقال:

- مازال هذا يدهشني في الواقع، فالدمى السخيفة، التي يصنعها هذا الرجل، لا تتناسب أبدًا مع نماذج السيارات الرائعة هذه.. إنه صانع لعب تقليدي للغاية، فكيف يمكنه إنتاج هذه الروائع؟

برزت فكرة ما في ذهني بغتة، فهتفت:

- ربما لا يكون هو صانعها.

التفت إلى (ألفريد) في دهشة، فتابعت في حماس:

- ربما يصنعها شخص آخر، لا يميل إلى الإفصاح عن نفسه ويستغل مستر (جورج) المأفون هذا لبيعها، بصفته صانع لعب قديم.. وربما كان هذا سر تلك التعقيدات، التي يحيط بها الشيخ الأمر.

التقى حاجبا (ألفريد)، وهو يومئ برأسه، ويقول في اهتمام:

- تفسير رائع يا (نظمي).. تفسير منطقي وجيد بالفعل.. وأعتقد أن صانع اللعب الحقيقي من النبلاء، الذين يخجلون من إعلان عملهم هذا، فيستغلون الآخرين لتسويق منتجاتهم.. نعم.. إنني أميل إلى هذا الاستنتاج بشدة.

واسترخى في مقعده في ارتياح، قبل أن يستطرد:

- يمكننا أن نناقشه أكثر، ونحن نتناول الشاي في منزلي.

ابتسمت وأنا أسأله:

- هل تدعوني لتناول الشاي؟

رفع سبابته، مجيبًا في سرعة:

- بل أدعوك لتناول طعام الغداء معي.

وقبل أن أحرك شفتاي للاعتذار، استدرك في خبث:

- (ديانا) ستأتي أيضًا.

أربكني أسلوبه في نطق العبارة، والضحكة القصيرة التي ختمها بها، فتضرج وجهي بحمرة الخجل، وتمتمت:

- فليكن.. إنني أقبل دعوتك.

أجاب في سرعة، وبنفس النبرة الخبيثة:

- كنت أعلم هذا.

نطقها، وربت على ركبتي ضاحكًا، على نحو زاد من خجلي وارتباكي، إلا أنني لم أستطع مقاومة لهفتي لرؤيتها، فقد مضت عدة أسابيع، منذ التقيت بها للمرة الأخيرة، وشوقي إليها يبلغ مبلغه..

ولكنني لم أتصور أن (ألفريد) يشعر بهذا، وأن حبي لها مكشوف مفضوح إلى هذا الحد..

حقًا.. لقد صدق الشاعر الذي قال:

«الصب تفضحه عيونه».

وفي منزل (ألفريد)، أخرجت نموذج (التويوتا) في لهفة، وأخرجت عدستي لأفحصه في شغف، وصديقي يقول:

- إنه لا يقل روعة ودقة عن نموذج (المرسيدس).

كانت فرحتي غامرة، وأنا أفحص داخل السيارة، قائلًا:

- انظر يا (ألفريد).. انظر إلى الدقة المدهشة.. أنظر إلى المقاعد الخلفية، والإطارات، والتابلوه.. يا للدقة والروعة!!

انهمك معي في فحص النموذج، قبل أن تقاطعنا صيحة مرحة:

- أنت هنا.. يا للمفاجأة!

لم أكد أسمع صوتها الرقيق الجميل، وتلك الموسيقى الأنثوية العذبة، التي تعزفها أوتار حنجرتها الناعمة، حتى نسيت النموذج ورقته، وروعة صنعه..

بل نسيت مستر (جورج) نفسه، وأنا ألتفت إليها، هاتفًا:

- (ديانا)..

خفق قلبي في عنف، عندما لمحت تلك السعادة في ملامحها وعينيها، وهي تقبل علي، هاتفة:

- كيف حالك يا (نظمي)!.. اشتقت إليك كثيرًا.

لم أصدق نفسي، مع نبرة الشوق في صوتها، واحتضنت كفها الرقيقة الممدودة نحوي بأصابعي، وغصت ببصري في بحر عينيها الزرقاوين، وغرقت فيهما بضع لحظات، قبل أن أهمس بصوت متهدج:

- أنا اشتقت إليك أكثر.

ارتفع حاجباها، وهي تقول في رقة مدهشة:

- حقًا!

كانت المرة الأولى، التي أدرك فيها أنها تشاركني المشاعر نفسها.

المرة الأولى، التي يخفق فيها قلبي في ثقة وسعادة..

إذن فهي أيضًا تحبني..

لقد فزت بقلبها دون أن أدري..

يدها الرقيقة، التي استكانت دافئة في كفي تقر بذلك..

السعادة المطلة من عينيها الجميلتين تعترف بهذا..

«احم.. أنا هنا!..».

نطقها (ألفريد) بابتسامة كبيرة، فانتفض جسدي، وتركت يدها بسرعة، وتضرج وجهي بحمرة الخجل، في حين ضحكت (ديانا) في بساطة، وهي تقول:

- ومن ينساك يا أفضل الآباء!

قبلت وجنتيه في مرح، وطبع هو قبلة حانية على جبينها، قبل أن يقول مبتسمًا:

- هل تعلمين؟.. لقد حصل (نظمي) على نموذج مماثل لنموذجي الرائع.

هتفت في سعادة:

- حقًا؟!.. وأين هو؟

أشار إلى النموذج، فارتفع حاجباها، وهي تقول:

- آه.. (تويوتا) قرمزية.. إنها طرازي المفضل.

ثم انحنت تفحص النموذج عن قرب، مستطردة بابتسامة كبيرة:

- إنها تشبه تماما تلك الـ.....

بترت عبارتها بغتة، وتلاشت ابتسامتها، وتراجعت في عنف، وهي تطلق شهقة قوية عنيفة..

شهقة حملت نفس الملامح، التي اكتسى بها وجهها..

ملامح الذعر..

ذعر بلا حدود..

☆ ☆ ☆

4- اللغز..

أدهشني موقف (ديانا) بشدة..

بل يمكنك أن تقول: إنه صدمني..

لقد تراجعت في ذعر هائل، ثم مادت بها الأرض، وترنحت، فأسرعت ألتقطها بين ذراعي، وأنا أهتف في ارتياع:

- (ديانا).. ماذا أصابك؟!

كانت ترتعد في انفعال عجيب، وعيناها الزائغتان تتطلعان إلى السيارة، وقد امتقع وجهها في شدة، حتى صار أشبه بوجوه الموتى، في حين تجمد والدها في مكانه، الهلع يرسم نفسه بأوضح صورة، على كل خلجة من خلجاته، فانقبض قلبي للموقف، ورحت أكرر:

- ماذا حدث يا (ديانا)؟!.. ماذا حدث؟

أشارت بسبابة مرتجفة إلى نموذج السيارة، وهي تقول:

- إنها.. إنها سيارتي.

قلت في دهشة:

- سيارتك؟!

وهنا التقط (ألفريد) أنفاسه في قوة، على هيئة شهقة قوية، قبل أن يقول:

- آه!.. هذا هو السبب إذن.

لم تزدني عبارته إلا حيرة وغموضًا، فهتفت في عصبية:

- أي سبب!

جفف عرقا باردًا عن جبينه، وهو يجيب:

- هذا النموذج يشبه تمامًا سيارتها، التي فقدتها منذ بضعة أشهر، واتهمت زوجها السابق بالتحريض على سرقتها.

نقلت بصري من النموذج إليها، وأنا أغمغم:

- وهل يستحق الأمر كل هذا!!.. إنه مجرد تشابه في الطراز واللون!

انتفضت (ديانا) بين ذراعي، وتملصت هاتفة:

- ليس مجرد تشابه عادي.

ثم اعتدلت، وأشارت إلى رسم دقيق، على الباب الأيسر للسيارة، مستطردة في انفعال عجيب:

- هذا الرسم يخصني وحدي.

التقطت العدسة، ورحت أفحص ذلك الرسم البسيط، قبل أن أقول في حيرة:

- ولكنه مجرد رسم عادي!

هزت رأسها نفيًا في إصرار، وهي تقول:

- ليس رسمًا عاديًا أبدًا.

ثم أشارت إلى صدرها، مستطردة في حدة:

- أنا رسمته بنفسي.

ارتفع حاجبي في دهشة بالغة، وعدت أحدق في الرسم الدقيق للغاية، قبل أن أهز رأسي في قوة، قائلًا:

- مصادفة.. مجرد مصادفة بالتأكيد.

عقدت ساعديها أمام صدرها، وهي تقول في عناد:

- لست أومن بالمصادفات.

التقي حاجبا (ألفريد) الكثين، وهو يغمغم:

- هناك تفسير حتمًا.

تطلعت إلى نموذج السيارة لحظات، ثم سألتها فجأة:

- كيف فقدت سيارتك؟

حاولت أن تجيب، إلا أن الانفعال جعل الكلمات تتعثر على شفتيها لحظة، قبل أن تقول:

- تركتها في شارع قريب من ميدان (ترافلجار)، وبداخلها كلبي (ريكي)، وتغيبت لساعة واحدة، وعدت فلم أجد (ريكي) أو السيارة.

ولم تكد تنطق عبارتها الأخيرة، حتى انفجرت باكية، فهز (ألفريد) رأسه في أسى، وغمغم:

- كانت تحب هذا الكلب بشدة، وأصابتها صدمة عصبية عندما فقدته.

ولم تكد تنطق عبارتها الأخيرة، حتى انفجرت باكية..

تنهدت في شيء من التوتر، وأنا أقول:

- إذن فرؤية النموذج أعادت إليك ذكرى كلبك الصغير المفقود.

صمتت لحظة، ثم غمغمت:

- ربما.

واستدركت في حدة:

- ولكن وجود الرسم ليس مجرد مصادفة.

تبادلت مع (ألفريد) نظرة حائرة، قبل أن أغمغم:

- ألديك تفسير آخر؟

قالت في صرامة:

- ربما لا يكون لدي التفسير المناسب، ولكننا سنجده لديه بالتأكيد.

عاد حاجبا (ألفريد) يلتقيان، في حين سألت أنا:

- لدي من؟

ألقت نظرة متوترة على النموذج، قبل أن تجيب:

- الصانع.

وعادت تعقد ساعديها أمام صدرها، مضيفة في صرامة حازمة:

- صانع اللعب..

☆ ☆ ☆

مط مستر (جورج) شفتيه في ضيق واضح، وهو ينقل بصره بيني وبين (ديانا)، من خلف منظاره الصغير السميك، قبل أن يسأل بأسلوبه الفظ الخشن:

- ماذا تريدان؟

بدا التوتر على وجه (ديانا) وخُيل إليّ أنها ستنفجر في وجه الرجل، فأسرعت أجيب:

- نحن هنا بخصوص النموذج.

انعقد حاجباه في صرامة، وهو يقول:

- أي نموذج!

اندفعت (ديانا) تجيب في حدة:

- نموذج (التويوتا) القرمزية.

أدار (جورج) عينيه إلي في بطء، ورمقني بنظرة غاضبة، قبل أن يقول في غلظة:

- ماذا عنه؟

قالت في صرامة:

- من أين حصلت عليه؟

أجابها الرجل في حدة:

- ليس هذا من شأنك.

لوحت بسبابتها في وجهه، صائحة:

- بل هو من شأني.. إنني أعرف هذه السيارة.

أدهشتني حدتها في التعامل مع الرجل، مع ما أعرفه عنها من رقة، وأدركت أن الأمر يثير أعصابها بشدة، ومن الممكن أن يتطور النقاش على نحو غير مرغوب، فتدخلت قائلًا:

- الواقع أنه هناك مشكلة بخصوص هذا النموذج.

لوح بيده في حنق، قائلًا:

- لا شأن لي بالمشكلات.. المفروض ألا تحضر أي شخص إلى هنا، إلا بعد استشارتي. أما النموذج، فلو أنك لا ترغب فيه، أعده إلي، واستعد نقودك.

قلت بسرعة:

- ليست هذه هي المشكلة، الواقع أن..

وقبل أن أتم عبارتي، اندفعت (ديانا) تقول:

- ذلك الرسم يخصني.

تراجع مستر (جورج) بحركة عنيفة، وامتزج حاجباه من شدة انعقادهما، وهو يقول في دهشة بالغة التوتر:

- الرسم؟!

أجابته في عصبية:

- نعم.. ذلك الرسم الدقيق على الباب الأيسر لنموذج (التويوتا) القرمزية.. لقد رسمته بنفسي علي الباب الأيسر لسيارتي، ذات الطراز واللون نفسه، ثم فقدتها فجأة، وأريد أن أعرف كيف نقلت الرسم إلى النموذج؟.. من أين حصلت عليه بالضبط؟

صمت مستر (جورج) تمامًا، وهو يتطلع إليها، وراحت أصابعه تنقر سطح مكتبه في عصبية، فكررت (ديانا):

- من أين يا مستر (جورج)؟

بدا عليه الحذر، وهو يجيب في بطء:

- ربما من صورة منشورة في صحيفة ما، أو..

قاطعته في شيء من البرود:

- لست أذكر أبدًا أن صورة سيارتي قد نشرت في أي مكان.

ابتلع مستر (جورج) لسانه هذه المرة، واحتقن وجهه بشدة، قبل أن يقول في خشونة عصبية فظة:

- ولا أنا أذكر شيئًا.. أنا شيخ طاعن في السن، وذاكرتي لم تعد على ما يرام.. لقد رأيت الرسم في مكان ما، ولكنني أجهل أين ومتي.

امتلأ وجهها بالغضب، ولوحت بسبابتها في وجهه، صائحة:

- اسمع أيها الرجل.. هذا الكلام يصلح لتحقيقات الشرطة، أما بالنسبة لي..

قبل أن تتم عبارتها، اندفعت أصابع قوية فجأة تقبض على معصمها، وارتفعت في المكان زمجرة غاضبة، امتزجت بشهقة الرعب والفزع، التي انطلقت من حنجرة (ديانا)، وجعلتني أستدير في تحفز، لمواجهة صاحب الأصابع القوية..

ولكن الدماء تجمدت كلها في عروقي، عندما وقع بصره عليه..

إنه لم يكن شخصًا عاديًا..

بل كان وحشًا..

وحشًا بمعنى الكلمة..

☆ ☆ ☆

صرخت (ديانا) في رعب أكثر وأكثر، هي تحاول تخليص معصمها من أصابع ذلك المسخ الضخم، الذي يتجاوز المترين طولًا، ونصفها عرضًا، والذي تشوهت ملامحه على نحو مخيف، وانقلبت سحنته بشكل بشع، وهو يطلق زمجرة تلو الأخرى، فاستنفرت شجاعتي كلها، وصحت في وجهه، وأنا ألوح بقبضتي:

- اتركها يا هذا، وإلا..

قاطعني صوت مستر (جورج)، وهو يندفع من خلف مكتبه، هاتفًا:

- رويدك يا (بندكت).. رويدك.. إنها لم تكن تقصد شرًا.

زمجر ذلك المسخ مرة أخرى، وكادت (ديانا) تفقد الوعي رعبًا، أمام نظراته المخيفة، ولكن مستر (جورج) كرر في شيء من الصرامة هذه المرة:

- اتركها يا (بندكت).

نقل المسخ نظراته إليه لحظة، ثم أفلت معصم (ديانا)، التي ارتمت بين ذراعي، وراحت تبكي في حرارة، فاحتويتها في حنان، وأنا أقول في حدة:

- ما هذا يا مستر (جورج)؟.. يمكنني إبلاغ الشرطة نظير ما سببته لهذه المسكينة من رعب وفزع.

زمجر (بندكت) هذا مرة أخرى، في حين عدل (جورج) منظاره الطبي الصغير فوق عينيه، وهو يتمتم متوترًا:

- لا داعي لهذا.. (بندكت) لا يقصد شرًا.. إنه صبي طيب.

هتفت (ديانا) في استهجان:

- صبي؟!

عاد مستر (جورج) يعدل وضع منظاره الطبي دون داع، وهو يقول في توتر شديد:

- لا تنظري إلى حجمه.. هذا الجسد الهائل يحمل عقل صبي صغير، لا يتجاوز العاشرة من عمره.. وهذا أفضل ما يمكنه بلوغه، فهو مصاب بتخلف عقلي خلقي منذ مولده، ولم تنجح محاولات علاجه منه أبدًا.

سألته (ديانا) في شيء من العصبية:

- كيف يعمل لديك إذن؟

توتر مستر (جورج) أكثر، وهو يقول:

- إنه لا يعمل لدي.

ثم أشاح بوجهه، مستطردًا:

- إنه ابني.

اتسعت عيوننا في ذهول، ونحن ننقل بصرينا بين مستر (جورج) بجسده الضئيل، وذلك المسخ العملاق الواقف إلى جواره، قبل أن تهتف (ديانا):

- ابنك!؟

أومأ مستر (جورج) برأسه إيجابًا، دون أن ينبس ببنت شفة، وران على المتجر صمت رهيب ثقيل، ساعد على تعميقه خلو المكان من الرواد، ثم قطعته (ديانا) بغتة، وهي تسأل:

- من يصنع تلك النماذج؟

حدق في وجهها بدهشة، فتابعت في صرامة، وهي تشير إلى الدمى البسيطة، التي اشتهر بصنعها:

- لا تحاول إقناعي بأن شخصًا مثلك، اشتهر بصنع الدمى والنماذج الخشبية البسيطة، يمكن أن يكتسب بغتة موهبة مدهشة، فيصنع تحفًا كهذه، في يوم وليلة.

احتقن وجه مستر (جورج) في شدة، وهي تميل نحوه، مستطردة:

- من صانع اللعب الحقيقي يا مستر (جورج)؟

خُيل إليّ أن سحابة كثيفة من الصمت قد هبطت على المكان، وغمرته لدقيقة أو يزيد، قبل أن يجيب مستر (جورج) في صرامة:

- ليس هذا من شأنك.

توقعت أن تنفجر (ديانا) في وجهه غاضبة، إلا أنها تراجعت في هدوء أدهشني، وهي تقول:

- فليكن.. أخف الأمر كما شئت يا مستر (جورج)، ولكنني أعدك أن أتوصل إلى الحقيقة، وإلى السر الذي تخفيه خلف هذه النماذج الدقيقة، وعندئذ..

لم تتم عبارتها..

ولم تكن بحاجة إلى هذا..

لقد تركت المعنى واضحًا، معلقًا في سماء الحجرة، وهي تستدير وتغادر المتجر في كبرياء مثير، فتبعتها في صمت، وقد بدا لي أنني أراها لأول مرة، وأكشف جوانب من شخصيتها التي لم أنتبه إليها من قبل قط..

ولم تكد سيارتي تنطلق بنا مبتعدة، حتى قلت، وأنا اختلس النظر إليها:

- لقد تعاملت مع الرجل بصرامة شديدة.

أجابتني في توتر:

- كان يستحق هذا.

ثم غاصت في مقعدها، مستطردة:

- ولو أردت رأيي، فهذه النماذج البالغة الدقة تخفي خلفها جريمة ما.

والتفتت إلى، مضيفة في حزم:

- جريمة كبري.

وعادت تغوص في مقعدها أكثر وأكثر..

☆ ☆ ☆

«إنك تبالغين كثيرًا يا (ديانا)..».

هتف (ألفريد) بالعبارة، بعد أن استمع إلينا طويلًا في صبر، ثم استطرد بابتسامة كبيرة كعادته:

- ربما يخفي مستر (جورج) عملًا غير قانوني، خلف عملية صنع وبيع هذه النماذج المدهشة.. خداع لدائرة الجمارك، أو تهرب ضريبي على الأرجح، ولكن الأمر لا يصل إلى حد الجريمة الكبرى.

قالت في اهتمام:

- لماذا يخفي، وبإصرار، اسم صانع الحقيقي إذن؟

لوح (ألفريد) بيده، وهو يقول:

- هناك ألف سبب لهذا.

ثم مال نحو ابنته، واستطرد مبتسمًا:

- يبدو أن عملك في صفحة الجريمة قد ملأ عقلك بخيالات لا حصر لها، ورحت ترين الجرائم الكبرى خلف كل عمل..

انعقد حاجباها في ضيق، وهي تقول:

- هناك أمر آخر.

سألها في اهتمام.

- وما هو؟

أشارت إلى صدرها، قائلة في حسم:

- غريزة الأنثى.

ارتفع حاجباي في دهشة، في حين انفجر (ألفريد) مقهقها في مرح أغضبها، قبل أن يلوح بكفيه، قائلًا:

- إنه عامل شديد الأهمية والخطورة بالفعل، ولكن المشكلة أن المحاكم البريطانية كلها لا تعترف به كدليل حاسم.

هتفت معترضة:

- أبي.. هل تسخر مني؟!

هز رأسه نفيًا في بطء، وهو يجيب:

- أبدًا.. إنني أحاول إعادتك إلى أرض الواقع فحسب.

صمتت لحظات، وهي تعقد حاجبيها في غضب، ثم نهضت قائلة:

- فليكن.. هل يمكنك أن تقلني إلى منزلي يا دكتور (نظمي)؟

هتفت في سرعة وحماس:

- بالطبع.

غادرنا منزل والدها معًا، دون أن نتبادل إلا أقل الكلمات، ولاذت هي بالصمت التام، طوال الطريق إلى منزلها، وهي غارقة في بحر من التفكير العميق، ولكننا لم نكد نبلغ المنزل، حتى التفتت إلي، وقالت:

- دكتور (نظمي).. هل تهتم حقًا لأمري؟

باغتني السؤال، وجعل أطرافي ترتجف، ولكنني أجبتها في حماس:

- أكثر مما تتوقعين.

مالت نحوي، وسألتني في تردد:

- هل يمكنك أن تفعل شيئًا من أجلي إذن؟

أجبت في حسم واثق:

- أي شيء تطلبينه..

وهنا تراجعت في ارتياح، قائلة:

- فليكن.. اصحبني الليلة إذن إلى زيارة سرية..

تراجعت، قائلًا في دهشة:

- زيارة سرية؟!.. إلى أين؟

تطلعت إلى عيني مباشرة، وهي تجيب:

- إلى متجر مستر (جورج)، صانع اللعب.

وكانت مفاجأة لي..

مفاجأة عنيفة.

☆ ☆ ☆

5- تسلل..

تصاعد الانفعال في أعماقي كثيرًا في تلك الليلة، وأنا أجلس في انتظار وصول (ديانا)، وبذلت جهدًا غير عادي، للسيطرة على تلك القشعريرة الباردة، التي تسري في أوصالي من فرط التوتر، على الرغم من جلوسي أمام المدفأة، منذ غروب الشمس.

كان ما تبتغيه (ديانا) يصيبني بمزيج من الذعر والخوف والقلق، لم يعد يتناسب مع ذلك الشيب الذي وخط فودي، وسرى في خصلة كبيرة في منتصف جبهتي..

كيف يمكن لأستاذ جامعي وقور مثلي أن يخوض تجربة كهذه، فيقتحم متجرًا بعد منتصف الليل، وهو يرتدي حذاءً مطاطيًا، ويحمل في يده مصباحًا يدويًا، ليبحث عن شيء يجهل ماهيته بالتحديد؟!

ماذا لو كانت هناك أجهزة إنذار، أو كاميرات مراقبة؟!..

وماذا لو كشفت الشرطة أمرنا؟!..

راحت عشرات الهواجس والأفكار تعربد في رأسي، وأنا أراقب عقارب الساعة، وأكاد أتوسل إليها ألا تمضي في سبيلها إلى منتصف الليل، حتى لا أضطر لخوض تلك المغامرة، غير مأمونة العواقب، مع (ديانا)، التي أعجز عن رفض مطلبها..

ولكن العقارب راحت تعاندني، فتسابقت مع بعضها، وأخذت تلتهم الوقت التهامًا في شراهة، كما يحدث في مثل هذه الظروف، وبدت وكأنها تخرج لي لسانها شامتة، عندما التقت عند قمة الساعة، التي ارتفعت دقاتها تعلن تمام منتصف الليل..

وفي اللحظة نفسها، ارتفع رنين جرس الباب..

وعلى الرغم من أنني كنت أنتظر قدوم (ديانا)، في هذا الموعد بالتحديد، إلا أن جسدي انتفض كله في عنف، مع رنين الجرس، وهرعت إلى الباب وأنا أرتجف، وفتحته ليطالعني وجهها الرقيق الجميل، وهي تقول في حماس:

- هل تأخرت؟

أجبتها بسرعة:

- بل وصلت في موعدك تمامًا.

كانت تبدو فاتنة، وهي ترتدي صديرية من الصوف السميك الداكن، وسروالًا من اللون نفسه، وتغطي شعرها الناعم الطويل بطاقية من نفس نوع الصوف، الذي صنعت منه قفازين، اختفى داخلهما كفاها الرقيقين..

وحاولت دعوتها للدخول، وكأنني أسعى لإضاعة، بعض الوقت، ولكنها أجابتني في حماس:

- بل دعنا ننطلق على الفور.. لن أطيق الانتظار.

خرجت معها وأنا أسب وألعن ذلك الحب، الذي يجبر المرء أحيانًا على التخلي عن الكثير من عاداته وأنماطه، وأدهشني ذلك التناقض في مشاعرنا، فهي تنطلق نحو المتجر في لهفة، وكأنها في طريقها إلى نزهة طريفة، في حين يبدو لي الأمر وكأنني في طريقي إلى حجرة الإعدام..

ولكن أيًا كان التناقض بيننا، فقد وصلنا إلى المتجر، بعد منتصف الليل بعشرين دقيقة بالتحديد.

وكانت المنطقة كلها صامتة وساكنة تمامًا، في هذا الوقت المتأخر، وذلك الطقس الرديء، فأوقفنا السيارة بعيدًا، وتسللنا إلى الشارع الخلفي، وسألتها هامسًا:

- كيف يمكننا الدخول.

غادرت السيارة، وهي تقول في حماس:

- اتبعني.

تحركت في خفة نحو نافذة جانبية، وأخرجت من جيبها مدية سويسرية، دفعت نصلها تحت الرتاج العتيق، ثم رفعت النافذة في يسر، قائلة:

- هل يمكنك القفز عبر النافذة؟

هتفت في دهشة:

- كيف فعلت هذا؟!

أجابت وهي تعبر النافذة في جرأة:

- الصحفي يجيد مهارات شتي بالضرورة.

ترددت، وأنا أسألها في قلق:

- ألا تخشين وجود أجهزة إنذار؟

ضحكت قائلة:

- هل رأيت في حياتك كلها متجر لعب بسيط، يضع أجهزة إنذار؟

ترددت لحظة، ثم تبعتها إلى الداخل، وقلبي يخفق في عنف، وخيل إلى أن كل الدمى المحيطة بي تحدق في، وأن الشرطة ستطبق على المكان بعد لحظات، وتحيط معصمي بالأغلال،

وتصورت مانشيتات الصحف.. «أستاذ جامعي يضبط متلبسًا بسرقة متجر لعب عتيق..».

وعلى عكسي تمامًا، كانت (ديانا) تتحرك في المكان، بجرأة مدهشة، وهي تسألني في اهتمام:

- أين يحتفظ بالنماذج؟

أشرت إلى الممر الذي يقود إلى القبو، وأنا أجيب:

- هناك.

اتجهت في خطوات واسعة نحو الممر، وأنا أهمس في توتر شديد:

- ولكن هناك رتاج كبير، وقفل ثقيل، على باب الحجرة، التي يحتفظ فيها بالنماذج.

غمغمت في اهتمام:

- لا تقلق.. ربما أمكنني التعامل مع ذلك القفل.

سألتها متوترًا في عصبية:

- ما طبيعة عملك بالضبط؟!.. أأنت واثقة أنه يتعلق بالصحافة، وليس...

قاطعتني في خفوت:

- قلت.. ربما.

ولم تكد تتم كلمتها، ونحن نتحرك نحو الممر، حتى انفتح باب المتجر الخلفي، وسمعنا صوت سعال مستر (جورج)، ووقع أقدام ثقيلة.

ثم اشتعلت الأضواء بغتة، و..

وغمرتنا تمامًا..

☆ ☆ ☆

لا يمكنني أن أدعي أنني كنت رابط الجأش، أو متمالك الأعصاب، عندما غمرتنا الأضواء معًا، ونحن داخل المتجر..

الواقع أن جسدي كله انتفض في هلع، وكدت أصرخ مذعورًا، وأرفع يدي مستسلمًا، ولكن من حسن حظي أن الرعب جمدني تمامًا في تلك اللحظة، لأسمع (ديانا) تهمس في انفعال:

- لا يمكنهما رؤيتنا، من هذه الزاوية.

انتزعتني عبارتها من رعبي وجمودي، وعاد النشاط إلى أطرافي بغتة، فأسرعت أتوارى خلف طاولة عرض كبيرة، وأنا أهمس:

- تعالي هنا.

لحقت بي (ديانا)، ورحنا نختلس النظر، عبر فرجة ضيقة، إلى مستر (جورج) بقامته الضئيلة وظهره المنحني، وهو يدلف إلى المكان مع ابنه (بندكت)، بسحنته المقلوبة دائمًا، وحجمه الهائل، وكان الأخير يحمل صندوقًا متوسط الحجم، والسعادة تبدو واضحة على وجهه المخيف، في حين كان والده يقول:

- نعم.. نموذج آخر جديد، يضاف إلى المجموعة يا (بندي).. لقد بعنا حتى الآن عشرة من هذه النماذج، وحصلنا على خمسين ألف جنيه.

لوح (بندكت) بيده، وهمهم بشيء أشبه بزمجرة عصبية، فهز مستر (جورج) رأسه نفيًا، وقال في أسى:

- كلا للأسف.. لم نصل بعد إلى المبلغ الذي طلبه ذلك الطبيب الأمريكي، ليجري لك تلك الجراحة.

بدا الحزن على وجه (بندكت)، فرسم (جورج) على وجهه ابتسامة، وهو يعود للتربيت عليه، قائلًا:

- لا.. لا تغضب.. عشرة نماذج أخرى، ونحصل على المبلغ.. أنت تعرف هواة جمع هذه النماذج.. إنهم من الحماقة بحيث لن يستطيع الواحد منهم منع نفسه، من الحصول على أكثر من نموذج، على الرغم من السعر، المرتفع.

انعقد حاجباي غضبًا لعبارته، ولوحت بقبضتي في عصبية، ولكن (ديانا) أمسكت كفي وضغطته في رفق حنون، وكأنها تواسيني، فسرى الدفء في جسدي كله بغتة، واختلج قلبي اختلاجة لم يفعل مثلها في عمره كله، حتى كدت أتجاهل ذلك الموقف الدقيق، ووجود (جورج) ووحشه الصغير، وأرفع يدها الرقيقة إلى شفتي، لألثمها ما تبقى من الليل.

ولكن شيئًا آخر جذب انتباهي بشدة..

لقد راح (بندكت) يشير إلى الصندوق الذي يحمله، ويلوح بيده، ويتقافز على نحو عجيب، وهو يهمهم بزمجراته الخافتة، ويهز رأسه في بطء، وكأنما يتوسل لوالده أن يسمح له بفتحه..

وفي شيء من الضجر، أشار له (جورج)، قائلًا:

- لا بأس يا (بندي).. لا بأس.. يمكنك أن تلعب به قليلًا.

تهللت أسارير الوحش الصغير، وراح يفتح الصندوق في لهفة، ثم أخرج منه نموذجًا مدهشًا، لسيارة من طراز (بورش)، وحمله في عناية، ليضعه فوق مائدة كبيرة، وهو يطلق أصواتًا غريبة، ويهتز في طرب مدهش..

وبابتسامة حنون، قال له (جورج):

- المهم أن تحافظ عليه جيدًا.. إننا نحتاج إلى كل نموذج.

كان قلبي ينبض في عنف، وأنا أراقب النموذج، في يد ذلك الصبي العملاق، الذي يلعب به في سعادة، كما لو كان لعبة عادية بسيطة، ووالده يراقبه في صمت..

وفجأة، انحنى (بندكت)، وحدق في النموذج في دهشة بالغة، قبل أن يلقيه فوق المائدة، ويتراجع مطلقًا ما يشبه الصرخة، فاندفع إليه (جورج)، هاتفًا:

- ماذا هناك؟

كان (بندكت) يولينا ظهره، ويخفي نصف المائدة بجسده الضخم، فلم نر ذلك الشيء، الذي اتسعت عينا (جورج) وهو يحدق فيه، ويهتف:

- يا للشيطان!.. كيف وقعنا في هذا الخطأ؟!.. إنها المرة الثانية، التي يحدث فيها هذا.

كان (بندكت) يولينا ظهره، ويخفي نصف المائدة بجسده الضخم، فلم نرَ ذلك الشيء..

كاد الفضول يقتلنا، ونحن نتابع ما يفعله، في محاولة لرؤية النموذج من زاوية أفضل، حتى أن (ديانا) غامرت برفع رأسها

فوق مستوى طاولة العرض، فجذبتها إلى أسفل، وأنا أهمس في عصبية:

- هل جننت؟.. لو لمحك أحدهما ستكون العاقبة وخيمة؟

ولكن لهفتها وفضولها الصحفي كانا يشتعلان، وهي تسألني:

- ما الذي تظنهما وجداه في ذلك النموذج؟

غمغمت وأنا أشد منها لهفة وفضولًا:

- من يدري؟.. انتظري وسنري.

وفجأة، حدث اضطراب ما عند المائدة، وبدا من حركة رأس (جورج) وابنه، أنهما يتابعان جسمًا متحركًا فوقها، وهتف الأول:

- أوقفه يا (بندي).. لا تسمح له بالفرار:

تحرك رأس (بندكت) لحظات في توتر، وانطلقت من حلقه زمجرة عصبية، ثم رفع قبضته بغتة، وهوى بها على المائدة، فصرخ (جورج):

- لا.. ليس هكذا.

ولكن (بندكت) أصيب بحالة هياج عجيبة، فراح يضرب المائدة بقبضته مرات ومرات، و(جورج) يصرخ، محاولًا إيقافه:

- كفي يا (بندي).. كفى.. كفي.

هتفت (ديانا)، وقد بلغ منها الفضول مبلغه:

- ماذا يحدث؟!.. ماذا يحدث؟!

أمسكت بها في قوة، محاولًا السيطرة على انفعالها الجارف، قبل أن يتسبب في كشف أمرنا، وأنا أقول:

- رويدك.. رويدك.. ربما هو فأر صغير، تسلل خفية إلى النموذج.

لم يكن قولي محض تخمين فحسب، وإنما كان نوعًا من الاستنتاج المنطقي، الذي ارتبط بحركة رأسيهما، وبتلك الدماء التي لوثت قبضة (بندكت)، الذي بدا مضطربًا في شدة و(جورج) يقول في انفعال:

- ما كان ينبغي أن تفعل ذلك أبدًا.. أبدًا.

خفض (بندكت) رأسه، وهو يهمهم بكلمات خافتة غير مفهومة، فتنهد (جورج) في قوة، وقال:

- فليكن.. ما حدث قد حدث.. إنه القدر.

ثم التقط مظروفًا، واستخدم قطعة مفلطحة من البلاستيك، ليدفع بقايا ذلك الشيء، الذي سحقته قبضة ابنه داخل المظروف، وألقاه في صندوق قمامة قريب، وعاد يربت على ظهر ابنه، قائلًا:

- هيا.. لا تبتئس هكذا.. سنضع النموذج مع أقرانه، ثم نعود إلى المنزل.

نهض العملاق الصغير، وسار خلف والده مخفض العينين، نحو القبو، حيث يحتفظ مستر (جورج) بنماذجه المتقنة.

وفجأة، وقبل أن أنتبه لما يحدث، غادرت (ديانا) مكانها، واندفعت نحو صندوق القمامة، فانتفض جسدي، وأنا أهتف:

- ماذا تفعلين؟

لست أدري ما الذي دفعها إلى تلك المخاطرة في الواقع، ولكن يبدو أن فضولها الصحفي الأنثوي لم يحتمل الانتظار، حتى

ينصرف (جورج) وابنه، لتعرف ما يحويه ذلك المظروف، أو أنها خشيت أن يتخلصا من صندوق القمامة كله عند انصرافهما..

المهم أنها فعلت ما فعلت..

وأنني هتفت بالعبارة السابقة..

المشكلة الوحيدة هي أنني هتفت بها في صوت مرتفع..

مرتفع أكثر من اللازم..

مرتفع إلى الحد الذي بلغ مسامع (جورج) وابنه، فالتفتا نحونا في دهشة وانزعاج وهتف (جورج):

- يا للشيطان!.. ماذا تفعلان هنا؟!

ولم يكد ينطقها، حتى أطلق (بندكت) زمجرة مخيفة، واندفع نحونا..

وفي حركة واحدة تقريبًا، اختطفت (ديانا) المظروف، من صندوق القمامة، وانطلقت تعدو نحو الباب، وأنا خلفها، و(جورج) يصرخ:

- أوقفهما يا (بندي).. أوقفهما..

كنا نعدو في رعب هائل، وكأنما تطاردنا شياطين الجحيم كلها، وقفزت (ديانا) تفتح باب المتجر الخلفي، وهي تصرخ:

- أسرع.. أسرع.

عبرت الباب خلفها مباشرة، وصفقته في وجه (بندكت)، الذي أطلق صيحة ألم غاضبة، ونحن نجري بكل قوتنا، محاولين عبور الشارع، وبلوغ السيارة، قبل أن يصل إلينا ذلك الوحش، وهتفت أنا منزعجًا ومذعورًا:

- كنت أعلم أن هذا سيحدث.. كنت أعلم.

لم أكد أتم عبارتي، حتى تعثرت (ديانا) فوق الأرض المغطاة بالثلوج، وسقطت على وجهها، وسقط منها المظروف أرضًا، فاستدرت لأعاونها على النهوض، في حين اندفعت هي محاولة استعادة المظروف، ولكنها لم تكد تمسك طرفه، حتى سقطت فوقه قدم (بندكت)، الذي أطلق زمجرة رهيبة، كادت تتجمد لها الدماء في عروقي، وشهقت لها (ديانا) في ارتياع، فهتفت بها، وأنا أجذبها في قوة:

- ابتعدي.. أسرعي.

كان الموقف شديد التوتر، و(جورج) يقفز خارج متجره، ويهتف.

- المظروف يا (بندي).. استعد المظروف.

وكنت مستعدًا في تلك اللحظة، للتخلي عن أي شيء في الدنيا، مقابل الفرار من ذلك الوحش الآدمي، وبلوغ سيارتي، إلا أن أصابع (ديانا) لم تفلت طرف المظروف أبدًا، وتشبثت به كما لو كان أملها الأخير في الحياة، فجذبتها بكل قوتي، صارخًا:

- اتركيه.. اتركيه بالله عليك.

ومع جذبتي القوية، تمزق المظروف..

وصرخت (ديانا) وهي تتشبث بجزء ضئيل منه، ولكنني واصلت جذبها في إصرار، ورحت أعدو بها نحو السيارة، في حين توقف (بندكت)، وانحنى يلتقط الجزء الأكبر من المظروف، مما منحنا فرصة كافية لبلوغ السيارة، وإدارة محركها و(ديانا) تهتف في عصبية:

- ينبغي أن نستعيد ذلك المظروف.

صحت بها، وأنا أراقب (بندكت)، الذي استعاد المظروف، وعاد يعدو نحو السيارة:

- اصمتي.

ومع صيحتي، وثب (بندكت) نحونا..

وضغطت دواسة الوقود بكل قوتي، ولكن العملاق الوحشي تعلق بالسيارة من الخلف، على الرغم من انطلاقها، فرحت أجره خلفي، وهو يطلق زمجرته المخيفة، التي امتزجت بصرخات (ديانا):

- أسرع.. أسرع بالله عليك.

ولكني ضغطت فرامل السيارة بغتة، فارتطم (بندكت) بمؤخرة حقيبتها في عنف، وأطلق زمجرة غاضبة، وأنا أعود الضغط دواسة الوقود، وأنطلق بالسيارة بأقصى سرعة، بعد أن أفلتتها قبضته..

ولثوان، ابتعدت السيارة وسط الشوارع الخالية، تاركة (بندكت) والمنطقة كلها خلفها..

ثم فجأة، انفجرت (ديانا) باكية..

كان من الواضح أن الوقت قد حان، لتفرغ شحنة التوتر والانفعال، التي امتلأ بها كيانها في تلك الليلة..

ولم أحاول منعها من البكاء..

لقد تركتها لتسكب شجونها كلها مع عبراتها، حتى انتهت تمامًا، وجففت دموعها، وهي تقول:

- ما كان ينبغي أن أورطك معي هكذا..

أردت أن أجاملها بعبارة رقيقة، أو أنطق بشيء ما يخفف من حدة الموقف، إلا أنني فوجئت بنفسي أندفع قائلًا:

- وأية ورطة!.. لقد رآنا الرجل في وضوح، تحت الأضواء الساطعة داخل متجره، وهو يعرفني جيدًا، ولا شك في أنه قد التقط رقم سيارتي، ولن يكون من العسير عليه أن يبلغ الشرطة باسم من اقتحم المتجر..

غمغمت في توتر:

- هذا لو فعل.

التفت إليها، أسألها في دهشة:

- ولماذا تتصورين أنه لن يفعل؟

رفعت قبضتها إلي، قائلة:

- هذا يتوقف على نتائج الفحص.

قالتها، وفتحت قبضتها، التي استقر فيها ذلك الجزء الضئيل من المظروف الذي تلوث بالدماء، واحتوى على قليل من مادة تشبه اللحم..

اللحم المفري..

☆ ☆ ☆

«خطأ.. ما فعلتماه أكبر خطأ..».

صرخ (ألفريد) بالعبارة في وجهينا في غضب، بعد أن استمع إلى قصتنا، في الثانية والنصف صباحًا، وراح يلوح بذراعيه، مستطردًا في حدة:

- اقتحام ممتلكات خاصة بدون وجه حق، وسرقة مظروف يخص الغير، وتعريض حياة مريض عقلي للخطر.. كلها جرائم تستحق العقاب.

قالت (ديانا) في خفوت:

- كان من الضروري أن أبحث عن تفسير..

صاح بها غاضبًا:

- هناك ألف وسيلة قانونية لهذا، بدلًا من التورط في أعمال مخالفة للقانون، كما يفعل اللصوص والمجرمون.. ماذا لو أبلغ الرجل الشرطة بالفعل.

أجابته في توتر:

- لو فعل، سأعرف بأنني كنت مخطئة.

تطلع إليها في دهشة، قائلًا:

- ماذا تعنين؟

أجابته في عصبية:

- أعني أنه لو كان مستر (جورج) هذا واثقًا من أنه لم يرتكب أية أعمال مخالفة للقانون، فسيسارع بإبلاغ الشرطة، عن أولئك الذين اقتحموا متجره عنوة، وسرقوا جزءًا من مظروف، ألقاه في صندوق القمامة، أما لو كان عمله ينطوي على خطأ ما، فسيحرص على كتمان الموقف، ولن يبلغ الشرطة.

صمت (ألفريد) لحظات، وكأنه يدرس موقفها ومنطقها، ثم قال في حدة:

- هذا ليس دليلًا.. البعض يفضلون عدم إبلاغ الشرطة، للحفاظ على سمعة المتجر.

ضحكت في عصبية، وهي تقول:

- أية سمعة؟!.. هل نسيت أنني صحفية قديمة؟.. لقد تحريت عن ذلك المتجر، وعلمت أنه لم تكن له أبدًا أية سمعة، و(جورج) هذا بالذات لم يبد أية مواهب، طوال نصف قرن، هي عمر متجره، فكيف أصبح عبقرية فذة هكذا فجأة، وراح يصنع نماذج مذهلة للسيارات.

عقد (ألفريد) حاجبية الكثين، وهو يقول:

- ليس من الضروري أن يكون هو صانعها.. المهم أنه الشخص الذي يبيعها، والقانون لا يحظر هذا، ولا يحظر أيضًا حفاظه على سرية اسم الصانع.

رفعت يدها إليه بذلك الجزء من المظروف، قائلة:

- وماذا عن هذا؟

تعلقت عيناه لحظة بالجزء الملوث بالدماء، ثم قال:

- ماذا عنه؟

قالت في لهجة أقرب إلى الضراعة:

- هل يمكنك أن تفحصه.. من أجلي؟

صمت لحظات، قبل أن يقول في حزم:

- فليكن.. سأقوم بفحصه، ولكن هذا سيكون آخر ما نفعله بخصوص هذه القضية.. آخره على الإطلاق.

لم تعترض (ديانا) على قوله هذه المرة، ولكن شيئًا ما في أعماقي جعلني أشعر أن ذلك الفحص لن يكون نهاية البحث..

لن يكون كذلك أبدًا

☆ ☆ ☆

6- فكرة مجنونة..

لم أحصل على قدر كاف من النوم، في تلك الليلة..

أو بمعنى أدق، لم أنعم بالنوم قط..

لقد قضيت الساعات القليلة المتبقية من الليل، وذهني يراجع الأحداث كلها، متصورًا أن الشرطة ستقتحم منزلي في أية لحظة، وتلقي القبض علي، بتهمة اقتحام متجر مستر (جورج)، ورحت أتقلب في فراشي كالمحموم، وألعن نفسي ألف مرة، لأنها طاوعت نداء الحب، وورطتني في تلك المغامرة السخيفة مع (ديانا)..

ولكن جانبًا مني كان يشعر بشيء من السعادة، على الرغم من كل هذا..

السعادة، لأنها لجأت إليّ أنا بالذات.

لأنني قضيت معها كل هذا الوقت، حتى ولو كنا داخل متجر لُعب عتيق، وبشكل غير قانوني.

ومع مرور الوقت، راحت صورتها تملأ ذهني، وتزيح عنه الكثير من توتره وانفعاله، واسترجعت مشاعري تلك اللحظة، التي ضغطت فيها يدي، بكل رقتها وحنانها، فسرى في جسدي دفء لذيذ، كاد يبعث الخدر في أعماقي، ويقودني إلى نوم ممتع، لولا أن ارتفع رنين المنبه في اللحظة ذاتها، ليعلمني في قسوة أن موعد استيقاظي قد حان، وأن محاضراتي ودروسي العملية تنتظرني في الجامعة..

ولأول مرة، منذ فترة طويلة، لم أتناول قدح القهوة المعتاد في الصباح، حتى لا يزيد أعصابي توترًا، وانطلقت على الفور إلى الجامعة، وأنا أتلفت حولي طوال الوقت، في انتظار ظهور رجال الشرطة، الذين سيلقون القبض علي.

حتى ذلك الشرطي البدين الطيب، الذي يقف أمام الجامعة، أثار شيئًا من الذعر في نفسي بزيه الرسمي، وهو يلقي علي تحية الصباح، وابتسامته الودود تلتهم وجهه كله كالمعتاد، وتصورت أنه سيتقدم نحوي، ويضع يده على كتفي، قائلًا في بساطة:

- مستر (نظمي).. يؤسفني أن ألقي القبض عليك.

وكان من الطبيعي أن تنخفض قدرتي على التركيز كثيرًا في ذلك اليوم، حتى أنني بذلت جهدًا خرافيًا لإلقاء محاضرة حول أشعة الليزر، وشعرت أنها خرجت ضعيفة مشوشة، فوعدت طلبتي بإعادتها على مسامعهم مرة أخرى، متعللًا بإصابتي بنوبة أنفلونزا، تمنعني من التركيز..

ولقد تقبل معظم الطلاب قراري هذا بارتياح، في حين راح البعض منهم يلقي أسئلة شغوفة، حول قدرات وإمكانيات أشعة الليزر، ثم سألتني طالبة من أكثر الطلاب تفوقًا:

- هل يمكننا أن نعتبر أشعة الليزر من أقوى وأفضل أنواع الأشعة، المعروفة في عالمنا هذا؟

هززت رأسي نفيًا، وأنا أجيبها، محاولًا تجميع شتات ذهني:

- لا يوجد ما يمكن أن نطلق عليه (أقوى وأفضل أنواع الأشعة المعروفة)، فهناك أنواع مختلفة من الأشعة، وكلها قوية ومفيدة، طبقًا للغرض من استخدامها، والنتائج المنشودة منها، مثل أشعة (ألفا) و(بيتا)، والأشعة (تحت الحمراء) و(فوق

البنفسجية) والسينية، أو أشعة (رونتجن)، وكذلك الأشعة (الكونية).. المهم هو ماذا تريد، وماذا يمكن أن يفيدنا أكثر فيما نريد.

سألتني مرة أخرى:

- لماذا تبدو أشعة الليزر أكثر فائدة في العلم الحديث إذن؟

أجبتها في شيء من الضجر:

- ربما لأنها الأكثر استخدامًا في الأجهزة الصوتية والمرئية، والأكثر شيوعًا في الاستخدامات الصناعية، و...

فجأة، انحبست الكلمات في حلقي..

لقد رأيت ذلك الشرطي البدين عند باب القاعة، يشير إليّ بيده، ووجهه مازال يحمل تلك الابتسامة البلهاء..

إذن فقد حدث ما كنت أخشاه..

لقد أبلغ مستر (جورج) الشرطة التي أتت لإلقاء القبض علي..

واعتصرت قبضة باردة كالثلج قلبي، وأنا أحدق في ذلك الشرطي، وأتخيل موقفي المؤسف، والشرطة تقتادني في ساحة الكلية، والأغلال تحيط بمعصمي، و..

«دكتور (نظمي).. إنني أتحدث إليك.!».

انتبهت على صوت الطالبة، فالتفت لأجدها تتطلع إلي في حيرة، قائلة:

- إنك لم تكمل الجواب.

حدقت فيها لحظة، في شرود عجيب، قبل أن أقول في توتر:

- معذرة.. إنني أشعر ببعض الإعياء.. سأجيب أسئلتك فيما بعد.

وتركتها متجهًا إلى حيث يقف ذلك الشرطي، وبدت لي قدمي وكأنهما داخل غلاف من الصلب الثقيل، وأنا أجرهما جرًا إلى باب القاعة، وهو يواصل الابتسام، ويتابع حركتي البطيئة نحوه في هدوء مستفز، حتى أصبحت أمامه مباشرة، فقلت بصوت أشد شحوبًا من وجهي:

- أنت تريدني.. أليس كذلك؟!

اتسعت ابتسامته أكثر وأكثر، وهو يجيب:

- بالتأكيد.

ومد يده نحوي، فانهارت أعماقي، ومددت له يدي، ليحيط معصمي بالأغلال، إلا أنني فوجئت به يضع شيئًا معدنيًا في راحتي، فهتفت في دهشة:

- ما هذا؟

أجابني بابتسامته الكبيرة:

- نسيت مفاتيح سيارتك في بابها.

حدقت في سلسلة المفاتيح في راحتي، قبل أن أهتف:

- فقط.

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- إنه ليس بالأمر البسيط يا دكتور (نظمي).. كان من الممكن أن يلمحها لص ما، ويسرق السيارة كلها، و..

لم أصدق نفسي، وهتفت أقاطعه في سعادة:

- يا إلهي!.. أشكرك يا (ألبرت).. أشكرك كثيرًا.

بدت عليه الدهشة، وأنا أشد على يده بتلك الحرارة، ثم عاودته نوبة الابتسامة، وهو يرفع قبعته الرسمية، قائلًا:

- لم أفعل سوي واجبي.

شعرت بارتياح شديد، وأنا أنصرف من الكلية، في منتصف النهار، بعد أن مضى كل هذا الوقت، دون أن يحدث أي شيء، وتذكرت تأكيد (ديانا) على أن مستر (جورج) لن يحاول إبلاغ الشرطة، وتساءلت عن تلك الحاسة السادسة التي تتمتع بها كل أنثى، وتجعلها قادرة على استنباط أمور بعينها.

ومجرد التفكير في (ديانا)، أعاد إلى جسدي ذلك الشعور الممتع بالدفء، على الرغم من البرودة الشديدة للطقس في الخارج، وتمنيت لو أنني التقيت بها ثانية، وقضيت بصحبتها بضع ساعات، حتى ولو اقتحمنا معًا مجلس العموم البريطاني هذه المرة..

وفجأة، خفق قلبي في عنف..

لقد رأيت سيارتها أمام منزلي، فأسرعت أوقف سيارتي خلفها، وهبطت منها في لهفة، وأسرعت إليها، وهتفت في سعادة:

- يا للمفاجأة!.. لم أتوقع زيارتك هذه!

ابتسمت من داخل سيارتها، ولوحت لي بيدها، ثم غادرت السيارة، وصافحتني وهي تقول في جدية:

- الرجل لم يبلغ الشرطة.

غمغمت، وأنا أقودها إلى منزلي، وأحمل عنها حقيبتها الكبيرة:

- أعلم هذا.

جلسنا معًا في حجرة الاستقبال، حيث ازدحمت الجدران بنماذج السيارات المختلفة، وهي تقول:

- هل تعلم.. لقد أجريت بعض التحريات حول الأمر.

سألتها في اهتمام:

- أي نوع من التحريات؟

مالت إلى الأمام، وبدت لي شفتيها جميلتين للغاية، وهي تجيب:

- تحريات صحفية.

ثم شبكت أصابعها أمامها، وتابعت في حماس واضح:

- تقارير الشرطة تؤكد وجود زيادة ملحوظة في حوادث سرقة السيارات في الشهور الأخيرة.

لم أفهم علاقة هذا بنماذج مستر (جورج)، فتراجعت في مقعدي، وسألتها في شيء من الحيرة:

- ما الذي يملأ رأسك بالضبط يا (ديانا)؟

أجابتني في جدية شديدة:

- فكرة مجنونة، ولكنها تتناسب مع كل الأحداث.

ازدردت لعابي في قلق، وأنا أسأل:

- مجنونة إلى أي حد؟!

استعادت حماسها، وهي تقول:

- أعتقد أنه هناك فنان مجنون، يقوم بصنع هذه النماذج الممتازة، ولكي يتقن عمله إلى حد الكمال، يقوم بسرقة السيارات، وتقليد كل جزء منها بمنتهى الدقة.

أدهشني ذلك التفسير، الذي توصلت إليه، وبدا لي، على الرغم من غرابته، منطقيًا إلى حد كبير، وخاصة مع ما نقرأ عنه يوميًا، من أخبار الفنانين وجنونهم، وتلك الأساليب العجيبة، التي يلجئون إليها أحيانًا، أو ترتبط بشخصياتهم غير النمطية ولكنني سألتها:

- ولكن لماذا ظهر ذلك الفنان الآن فقط؟!.. كيف لم نسمع عنه من قبل؟

أشارت بسبابتها، قائلة:

- لقد ألقيت على نفسي السؤال ذاته.

ثم طرقعت سبابتها وإبهامها، مضيقة:

- ووجدت الجواب المنطقي.

بدت لي فاتنة ساحرة، وهي تتحدث بكل هذا الحماس، ووجدت نفسي منجذبًا لحديثها بكل حواسي، وهي تتابع:

- من المؤكد أن ذلك الفنان ليس بريطانيًا، وإنما هو شخص أجنبي، وصل إلى بلادنا منذ فترة وجيزة، وهو على الأرجح صيني أو روسي.

سألتها في دهشة:

- ولماذا صيني أو روسي بالتحديد؟!

أجابتني في سرعة:

- لأن هذين الشعبين بالذات شديدا الاهتمام بفن المنمنمات.. هل تعرفه؟!.. إنه ذلك الفن الذي يتعامل مع الأشياء بالغة الدقة والصغر.. لقد قرأت في ملفاتنا أن أحد الفنانين السوفيت في هذا المجال، صنع يومًا نموذجًا لزهرة الأوركيد، داخل فراغ

شعرة رأس آدمية، وآخر صنع مسدسًا لا يمكن رؤيته إلا بعدسة تكبير ضخمة.. بل إن أحد فناني المنمنمات الصينيين قد صنع شطرنجًا كاملًا، بلوحته وقطعه كلها، بحجم رأس الدبوس حتى أن رؤيته لم تكن ممكنة إلا تحت عدسات المجهر، وهذه الدقة أشبه بالدقة التي تم صنع نماذج السيارات بها.. لقد فحصت ذلك النموذج الذي اقتناه أبي، بوساطة آلة تصوير، مثبتة على منفاخ أسود، وهذا الأسلوب يمنحني نسبة تكبير مقدارها عشرون إلى واحد من الحجم الأصلي، ووجدت أن المحرك يحوي كل الأجزاء الرئيسية، الموجودة في المحركات الحقيقية، فمن يمكنه صنع شيء كهذا، سوى فنان مبدع، من فناني المنمنمات.

حاولت هضم الفكرة هذه المرة، إلا أنها أصابتني بشيء من عسر الهضم، جعلني أعترض قائلًا:

- ولكن فنانًا بهذه الموهبة الخارقة لن يظل مجهولًا هكذا، ولن يسعى لبيع نماذجه بهذه السرية، بل سيبذل قصارى جهده لتقديم أعماله للنقاد ورجال الصحافة والإعلام، حتى يحوز شهرة واسعة، تضاعف أسعار تحقه عشر مرات على الأقل.

لوحت بكفها، قائلة:

- لا يمكنك أبدًا فهم الفنانين، ولا إخضاع تصرفاتهم للمنطق العادي.

تنهدت، قائلًا:

- ربما.

غلفنا الصمت لحظات، وكلانا يتطلع إلى الآخر، ثم سألتني (ديانا) في صوت خافت، يحمل رنة أسى واضحة:

- نظريتي لم تقنعك.. أليس كذلك؟

انفطر قلبي لحزنها، ولكن طبيعتي العلمية منعتني من قول ما لا أؤمن به، فقلت في خفوت:

- إنها نظرية ممتازة، ولكن حديث (جورج) مع ابنه، كان يوحي بأنه يحصل على ثمن بيع النماذج كله لنفسه، وهذا لا يتفق مع نظرية ذلك الصانع المجهول.

قالت في شيء من التردد:

- ربما يشتري (جورج) هذه النماذج من الصانع الحقيقي بثمن بخس، ثم بيعها لحسابه بثمن ضخم، ويكتفي ذلك الفنان المجهول بالحصول على ثمن السيارة المسروقة عند بيعها.

سألتها مبتسمًا:

- وما الذي يدفعه إلى المخاطرة بالكثير، وقبول القليل؟

صمتت في حيرة، ودارت عيناها في المكان، وكأنها تبحث عن حل آخر، أو تفسير جديد، ثم لم تلبث أن لوحت بذراعها، وهي تتراجع في مقعدها، قائلة في حنق:

- مهما حدث، لن يمكنك إقناعي قط بأن مستر (جورج) التافه هذا، هو الصانع الحقيقي لتلك النماذج العبقرية.

قلت بسرعة:

- من المؤكد أنه ليس صانعها، ولكن هناك تفسيرًا آخر للموقف، بخلاف فكرة الفنان المجهول هذه، على الرغم من أنها بدت لي منطقية في البداية.

أطلقت زفرة قوية، وهي تقول في مرارة:

- عقلي يكاد ينفجر من شدة التفكير والبحث عن تفسير.

لم تكد تتم عبارتها، حتى ارتفع رنين الهاتف، فالتقطت سماعته في حركة آلية، ووضعته على أذني، قائلًا:

- دكتور (نظمي سيف الدين).. من المتحدث؟

أتاني صوت (ألفريد) مفعمًا بالانفعال، وهو يقول:

- إنه أنا يا (نظمي).. لا يمكنك أن تتصور ما وجدته، عندما فحصت تلك البقايا.

اعتدلت في حركة حادة، وأنا أقول:

- ماذا وجدت يا (ألفريد)؟.. ماذا وجدت؟

هتفت (ديانا)، وهي تقفز من مقعدها:

- أهو أبي؟.. ماذا وجد في محتويات المظروف؟

كادت تلصق أذنها بسماعة الهاتف، لتستمع إلى (ألفريد)، وهو يقول:

- لقد فحصت تلك الدماء.. إنها نفس خلايا الدماء المعروفة، ولكنها أصغر حجمًا بخمس عشرة مرة على الأقل، أما الأنسجة الموجودة، والتي ينطبق عليها الأمر نفسه، فهي..

بتر عبارته بغتة بشهقة مكتومة، وانقطع الاتصال، وساد صمت مخيف لحظة، صرخت خلالها:

- (ألفريد).. ماذا حدث يا (ألفريد)؟

وصرخت (ديانا) في رعب:

- أبي.. أبي..

وحاولنا إجراء الاتصال معه مرة أو مرتين، ولكن هاتفه لم يستجب، فانطلقتا بسيارتي إلى منزله على الفور، وأسرعت (ديانا) إلى معمله، وهي تهتف:

- أبي.. أبي.. ماذا حدث يا أبي؟!

ولكنها لم تكد تقتحم المعمل، حتى أطلقت صرخة رعب هائلة، ارتجت لها جدران المنزل كله، وأنا ألحق بها، وأتلقى نصيبي من الصدمة.

لقد كان (ألفريد) ملقى أرضًا، والدماء تسيل من جرح واضح في جبهته، وإلى جواره مجهره الأثير محطمًا، وعيناه تحدقان في الفراغ، وقد فقدتا أهم ما فيهما.

البريق..

بريق الحياة.

☆ ☆ ☆

لقد كان (ألفريد) ملقى أرضًا، والدماء تسيل من جرح واضح في جبهته..

7- البريق..

لم تتوقف (ديانا) عن البكاء لحظة واحدة، منذ كشفنا لجثة (ألفريد)، وحتى وصول رجال الشرطة، حتى خُيل إليّ أنها قد سكبت ألف لتر من الدموع، وأن ذلك الشحوب الشديد في وجهها، يعود إلى الجفاف الذي أصابها من جراء هذا، ولكن العجيب أنها سيطرت على دموعها ومشاعرها تمامًا، عندما وصل مفتش الشرطة (جراي)، وبدأ بفحص المكان مع فريقه، قبل أن يقول:

- من الواضح أنها جريمة قتل عمد، ولكن أحدًا من المارة أو الجيران لم ينتبه إلى حدوث شيء ما، وهذا يجعل المهمة عسيرة، مالم يكن لديكما ما تضيفانه.

سألته في اهتمام:

- وماذا عن البصمات؟

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، وهو يقول:

- لم يعد هذا يجدي منذ فترة طويلة، فالجميع يشاهدون أفلام السينما و(التلفزيون)، وأي طفل صغير الآن يرتدي قفازات مطاطية، حتى لا يترك بصماته على الثلاجة، عندما يسرق منها قطعة شيكولاتة.

أحنقني أسلوبه المتعالي، فقلت في حدة:

- من الواضح أن الجميع يشاهدون تلك الأفلام، فأنت تقلد شرطي السينما.

انعقد حاجباه في غضب، وهو يقول:

- دعابة سخيفة.. والآن هل لديكما ما ترغبان في إضافته؟

كدت أقص عليه قصة مستر (جورج) ونماذجه، ولكن (ديانا) سبقتني إلى الحديث، قائلة:

- كان من المفترض أن هناك عينة، يقوم أبي بفحصها، ولكنها اختفت تمامًا، ولا يوجد أي تقرير عنها.

قال المفتش (جراي) في دهشة:

- عجبًا!.. المفترض أن الدكتور (ألفريد) قد اعتزل العمل في دائرة الشرطة، منذ ما يقرب من العامين، مكتفيًا بمحاضراته الجامعية.

قالت في حدة:

- هذا لا يعني أنه لم يعد طبيبًا شرعيًا.

رمقها بنظرة محنقة، قبل أن يقول في لهجة جافة:

- بالتأكيد.. هل تظنين أن تلك العينة من الأهمية، بحيث يتم قتله من أجلها؟

أجابته في حزم:

- نعم.

عاد حاجباه ينعقدان في شدة، وهو يسألها:

- وما نوع تلك العينة، التي يمكن أن يُقتل شخص ما بسببها؟

تصورت لحظة أنها ستقص عليه قصة (جورج)، أو جزءًا منها على الأقل، إلا أنني فوجئت بها تشير إلى جثة والدها، قائلة:

- سله هو، فكل ما أخبرني به هو أنه يفحص عينة إجرامية بالغة الخطورة.

ندّت مني حركة غريزية، وكأنني أهم بالاعتراض، ثم بدا لي أنه من غير اللائق أو المنطقي أن أفعل، ما دمت أجهل هدفها من هذا الموقف، فتراجعت بسرعة بدت لي مناسبة، إلا أنها لم تبد كذلك بالنسبة للمفتش (جراي)، الذي استدار نحوي بحركة حادة، ورمقني بنظرة صارمة، بدت وكأنها ستنفذ إلى أعماقي، وتنتزع أغواري، قبل أن يعود بعينية إلى (ديانا)، ويسألها:

- هل تتهمين أحدًا بقتل والدك؟

كدت أنفجر دهشة وغيظًا، عندما هزت رأسها نفيًا، وأجابت:

- كلا.. لا يمكنني اتهام شخص ما بالتحديد.

وصمتت لحظة، قبل أن تضيف في حزم:

- ليس بدون دليل.

رمقها المفتش (جراي) بنظرة أخرى صارمة، ثم أخرج بطاقته، وناولها إياها، قائلًا:

- فليكن.. هذه بطاقتي، وبها كل أرقام هواتفي.. لو تذكرت شيئًا ما، في أي وقت، أو وجدت أنه هناك من يمكنك اتهامه بقتل والدك، لا ترددي في الاتصال بي على الفور، في أية لحظة من الليل أو النهار...

غمغمت، وهي تلتقط البطاقة، وتدسها في جيبها:

- سأفعل.

تطلع إليها لحظة أخرى في صمت، وكأنما يحاول اختراق ذلك الجدار الصلب من الغموض، الذي أحاطت به نفسها، ثم التفت إلى فريقه، قائلًا:

- هيا يا رجال.. لم يعد لدينا ما نفعله هنا...

ظلت (ديانا) محتفظة بصلابتها وتماسكها، وهم ينقلون جثة (ألفريد)، ويغادرون المكان كله، وعندما ابتعدت سياراتهم، قلت لها في حدة:

- لماذا لم تتهمي (جورج) وابنه بقتل (ألفريد)؟

أجابتني، وهي تتطلع عبر النافذة:

- لم يكن هذا ليؤدي إلى شيء؟.

هتفت محنقًا.

- ليس من شأننا أن نقرر هذا.. كان المفترض أن نبلغ المفتش (جراي) بالأمر، ومهمته هو أن يبحثه ويمحصه، و..

قاطعتني قائلة:

- لن يهتم بك أحد بدون دليل.. لا تنس أنني صحفية قديمة في عالم الجريمة، وأعرف الكثير عن هذه الأمور.. كل ما يمكن أن يحدث هو أن يذهبوا لسؤال (جورج)، ويعلنوا اتهامنا له، وسيسخر منا ومنهم، ويكون قد أخفى نماذجه في مكان آخر، مما يمنحه فرصة إنكار كل شيء، وسينتهي الأمر بتوجيه اللوم إلينا، لأننا اتهمنا بريئًا دون دليل واحد، وربما يقاضينا (جورج) أيضًا، بتهمة الإساءة إلى سمعته.

بهُت لكلامها، وغمغمت:

- لم أكن أعرف كل هذا.

أجابتني، ومازالت تتطلع عبر النافذة:

- هذا أمر طبيعي.. أنت عالم فيزيائي، ولست متخصصًا في هذا المجال العنيف.

أخرسني إحساس بالندم وتأنيب الضمير لدقيقة أو يزيد، ظلت هي خلالها تتطلع عبر النافذة في صمت تام، قبل أن يتهدج صوتها بغتة، وهي تقول:

- كم سأفتقده.

وعندما استدارت إلي، كاد قلبي ينشطر، ويهوي بين قدمي، مع وجهها الغارق في بحر من الدموع، جعلني أهتف في لوعة:

- (ديانا).. أنت تبكين.. كنت أتصور بعد تماسكك أمام رجال الشرطة أن..

لم أستطع إتمام عبارتي، التي بدت لي فجة خالية من الذوق، ولكنها أومأت برأسها، وكاد صوتها يبكي معها، وهي تقول:

- لا يمكنني أن أبكي أمام أي مخلوق، فالدموع لا ينبغي أن تنسكب إلا أمام شخص تثق به، و..

وارتجف صوتها، وهي تضيف:

- وتحبه.

قالتها، واندفعت نحوي، وألقت نفسها بين ذراعي، ثم تفجر من عينيها نهر من الدموع، يغرق صدري وقلبي..

ومن المؤكد أنكم ستتهمونني بالأنانية المفرطة، وبجمود المشاعر أمام عواطف الآخرين، إلا أنه، وعلى الرغم من دقة الموقف، ومن مصرع (ألفريد)، وذلك الحزن الذي يملأ نفس (ديانا)، كانت هذه هي أسعد لحظات حياتي كلها..

اللحظة التي اعترفت فيها (ديانا) بحبها لي..

ويا لها من لحظة!..

لقد أحطتها بذراعي في حب وحنان، وتركتها تفرغ انفعالاتها كلها حتى النهاية، قبل أن تجفف دموعها، وتهمس:

- معذرة.

- هل تعتذرين؟!

تراجعت في رفق بالغ الرقة، وكادت روحي تنسحب معها، وكاد قلبي يثب من بين ضلوعي ليتشبث بها، لولا أن استعاد عقلي ذلك الموقف العصيب، الذي تمر به، فسألتها في خفوت:

- ماذا ينبغي أن نفعل؟

جلست على أول مقعد صادفها، وهي تقول:

- نحن نختلف عن الشرطة في أننا لا نحتاج إلى دليل مادي.. يكفينا أننا واثقان من أن مستر (جورج) وراء ما حدث، وأنه فعل ما فعل لاستعادة تلك العينة، التي كان أبي يقوم بتحليلها.

سألتها في حيرة:

- وكيف علم أنه سيفعل؟

لوحت بيدها، قائلة:

- (جورج) ليس غبيًا، لقد انتخب أبي، من بين أعضاء جمعية هواة جمع نماذج السيارات، ليعرض عليه نماذجه، وهذا يعني أنه أجرى عنه تحريات كافية، ويعلم جيدًا أنه طبيب شرعي شهير، ثم أنه التقى بك من خلال أبي، ومادام لم يستعد المظروف كله، ويدرك أننا حصلنا على جزء منه، فسيمكنه أن يستنتج بسهولة أننا سنلجأ إلى أبي لتحليل محتوياته.

امتلأت نفسي بحيرة شديدة، وأنا أقول:

- ولكن ما ذلك الشيء الذي كان يحويه المظروف، والذي يستحق أن يلجأ شيخ مثل مستر (جورج) للقتل، حتى لا ينكشف أمره؟

هزت رأسها نفيًا، وهي تقول:

- لست أدري.. كل ما نعلمه عن هذا الشيء هو أنه كان داخل نموذج السيارة، وأنه شيء حي، وفراره من المكان يمكن أن يعرض مستر (جورج) للخطر، ثم إن (بندكت) قتله بقسوة، وسحقه بقبضته على المائدة.

غمغمت:

- لقد تصورت في البداية أنه مجرد فأر صغير، تسلل خفية إلى النموذج، وأن (بندكت) المختل قتله بقبضته.

أومأت برأسها موافقة، وقالت:

- أنا أيضًا تصورت هذا، ولكن لهفة (جورج) الشديدة على استعادة المظروف، وقتله والدي من أجل استعادة الجزء الذي حصلنا عليه منه، وحديثه مع (بندكت) عن الخطأ الذي تكرر مرتين، كلها جعلتني واثقة من أن ذلك الشيء، الذي سحقه (بندكت)، لم يكن شيئًا عاديًا.

سألتها حائرًا:

- وماذا يمكن أن يكون؟

هزت رأسها، قائلة:

- لست أدري.. لا يمكنني حتى استنتاج هذا.

وصمتت لحظات، قبل أن تضيف في حزم:

- ولكن هناك وسيلة لمعرفة الجواب.

هتفت بها في انزعاج:

- لا تقولي إننا سنقتحم متجر مستر (جورج) ثانية.

وشعرت بالارتياح، عندما هزت رأسها نفيًا، وقالت:

- كلًا.. لن نفعل.

تنهدت قائلًا بالعربية:

- حمدًا لله.

ولكن قلبي هوى بين قدمي، وهي تستدرك في حزم:

- سنراقب مستر (جورج) نفسه.

ثم لأن صوتها، واكتسب رنة تفيض بالحنان والرجاء، وهي تستطرد:

- هل يمكنك أن تعاونني في هذا؟

أخبرني بالله عليك..

هل كان بإمكاني أن أرفض؟..

☆ ☆ ☆

كثيرًا ما أتساءل، منذ حداثتي، عن السر في إصرار الطبيعة على معاندة المرء، كلما ارتبطت بها أفعاله، فالجو يظل صحوًا طوال الأسبوع، وعندما تقرر القيام برحلة خلوية، تكفهر السماء فجأة، وتتصارع فيها السحب الكثيفة، ويتصادم بعضها مع البعض، لتنهمر دموعها على أم رأسك، وتفسد يومك ورحلتك.

وهذا ما حدث معنا، في الأيام التي قررنا فيها مراقبة (جورج)..

لقد انخفضت درجات الحرارة بشدة، على نحو لم تشهده (أوروبا) كلها منذ زمن طويل، حتى كادت أطرافنا تتجمد، ونحن نجلس داخل السيارة، على مقربة من منزل (جورج)، الذي حصلت (ديانا) على عنوانه باتصالاتها الصحفية، والثلوج تنهمر على السقف، وتتساقط على الزجاج الأمامي، الذي أضطر لمسحه كل فترة وأخرى، حتى لا تنعدم الرؤية عبره طويلًا..

وليومين كاملين، لم يغادر (جورج) مسكنه، منذ عودته من متجره، وحتى صباح اليوم التالي..

بل ولم يطل حتى من النافذة.

ولقد قدرت (ديانا) أنه يفعل هذا، خشية أن تكون قد أبلغنا الشرطة بأمره، فوضعته تحت نوع ما من أنواع المراقبة، وأنه لن يلبث أن يعاود تحركاته اليومية، عندما يشعر بالاطمئنان، وإن كنت لا أدري كيف سيشعر بهذا، ونحن نراقبه بالفعل..

ولكن العجيب أنه عاود تحركاته.

وفي اليوم الثالث فحسب.

كنت قد بدأت أشعر بالملل والسخط، وأفكر جديًا في العودة إلى منزلي، والاستمتاع بالدفء، إلى جوار مدفأتي العريقة، وحاولت إقناع (ديانا) بأن تشاركني هذ، دون أن أعترف لها بأن سنوات عمري، التي تجاوزت الخمسين بعدة أشهر، ليست قادرة على احتمال البرودة القارصة، التي يمكن أن تحتملها سنوات عمرها الثلاثين، ولكنني فوجئت بها تعتدل بحركة حادة، وتهتف في حماس:

- ها هو ذا.

استدرت أحدق في الطريق، عبر كرات الثلج، التي تراكمت على الزجاج، ووقع بصري على (جورج)، وهو يغادر منزله، داخل معطف سميك، وغطاء رأس من الفراء، وخلفه (بندكت) بحجمه الضخم، مرتديًا معطفًا من الفراء، جعله أشبه بدب عملاق، ودس الاثنان نفسيهما داخل سيارتهما القديمة، التي انطلقت فوق البساط الثلجي الأبيض، الذي يفرش الطرقات، فأدرت محرك سيارتي بسرعة، و(ديانا) تقول في انفعال:

- لا تضيء المصابيح، وحافظ على مسافة معقولة بيننا وبينهم، حتى لا ينتبهوا إلى أننا نتبعهم.

لم أكن أميل بطبعي إلى تلك الأساليب البوليسية، ولكنني أطعتها، ورحت أتتبع السيارة لنصف ساعة كاملة، وهي تتحرك نحو أطراف العاصمة، حتى توقفت في ضاحية هادئة، فقالت (ديانا):

- قف.. لا تقترب منهم أكثر.. سنغادر السيارة على أقدامنا، لو غادروا سيارتهم هنا.

تمنيت لحظتها لو أنهما ظلا داخل سيارتهما وفضلًا عدم الخروج، في هذا الطقس الثلجي المزعج، إلا أنهما تجاهلا أمنيتي، وتركا السيارة عند الناصية، ثم ترجلا في المكان لحظات، قبل أن يشير (بندكت) بيده إلى منطقة ما، في شارع جانبي، لا يمكننا رؤيته من موضعنا، فأومأ (جورج) برأسه إيجابًا، ودلف معه إلى ذلك الشارع الجانبي، فجذبتني (ديانا)، وهي تقول:

- هيا.. أسرع، وإلا فقدنا أثرهما.

تحركنا معًا في سرعة، واتسعت خطواتنا في لهفة، حتى اقتربنا من ذلك الشارع الجانبي، ولهثت (ديانا)، وهي تقول في انفعال.

- أراهنك على أنهما يسعيان لسرقة سيارة جديدة.. أكاد أقسم على هذا.. إنه التفسير الوحيد لـ..

فجأة، وقبل أن تتم عبارتها، انبعث ذلك الوميض، من الشارع الجانبي..

وميض مباغت سريع، أشبه بوميض مصباح تصوير، ولكنه فيروزي اللون، يقترن بصوت أشبه بالفحيح، أو يصوت اندفاع الهواء، ما عبر تجويف ضيق..

ولقد انتفض جسدانا، مع ذلك الوميض..

انتفضا، وسرت فيهما رجفة عجيب، امتزجت بقشعريرة باردة، جعلت (ديانا) تلتصق بي في ذعر مبهم، وهي تهمس في هلع:

- ما هذا؟.. ما هذا بالضبط؟

حاولت أن أجيب، أو حتى أن أهدي أعصابها المتوترة بعبارة ما، إلا أن لساني تجمد في حلقي، ولم أستطع النطق بحرف واحد، وذهني يعمل في توتر بالغ، وحيرة أشد عنفًا.

أي نوع من الأشعة هذا؟!.

أيها يمكن أن يعطي ذلك الوميض القرمزي الخاطف، بكل ما يبثه في النفس من ذعر وخوف واضطراب؟!

وقبل أن يبدأ عقلي عملية الفرز والتصنيف، وتحديد النوع المناسب من أنواع الأشعة الخاطفة، اندفع (جورج) وابنه خارج ذلك الشارع الجانبي..

وكانت لحظة رهيبة..

لقد تجمد أربعتنا تمامًا، وارتسمت المفاجأة على وجوهنا، وغلفنا صمت رهيب، ميزت خلاله ذلك النموذج الذي يحمله

(بندكت)، السيارة من طراز (مازدا)، زهرية اللون، قبل أن يهتف (جورج):

- أوقفهما يا (بندي).

ولابد أن أعترف هنا، بأن ذلك الدب الأدمي يمتلك سرعة استجابة مدهشة، فعلى الرغم من الصدمة التي أصابته ووالده، عندما رأيانا أمامهما، عند ناصية ذلك الشارع الجانبي، إلا أنه لم يكد يسمع صيحة والده، حتى ألقى إليه النموذج الذي يحمله، وانقض علينا في وحشية، وهو يطلق من حنجرته زمجرة شرسة مخيفة، جعلتنا نتراجع معًا، و(ديانا) تطلق صرخة رعب مكتومة.

والعجيب أنه، وهو الأكثر ضخامة، كان أخف منا حركة، فلحق بنا في لحظة واحدة، قبل أن ننطلق هاربين، وقبض على شعر (ديانا) ليجذبها إليه في قوة، جعلتها تطلق صرخة ذعر وألم وارتياع، فصرخت فيه:

- اتركها أيها الوغد.

وقبض على شعر (ديانا) ليجذبها إليه في قوة..

لم أكن يومًا ممن يبنون أجسادهم، أو يواظبون على القيام بأي نوع من التمرينات أو التدريبات الرياضية، إلا أنني لم أكد أري ما

فعله بحبيبتي (ديانا)، حتى هاجمته كالمجنون، ولكمته بكل قوتي في معدته.

وقبل أن ترتد إلى قبضتي، كنت قد أدركت الخطأ الذي ارتكبته..

لقد استقبلت معدة ذلك الوحش قبضتي، كما لو كانت جدارًا من الصلب، في حين اندفعت قبضته هو تلكمني لكمة، بدت لي وكأن سيارة نقل ذات مقطورة قد انقضت على فكي بأقصى سرعتها، فتراجعت في عنف، وانزلقت على الأرض المغطاة بالثلج، وسقطت على ظهري، في نفس اللحظة التي ركلته فيها (ديانا) في ساقه، صارخة..

- اتركني أيها الوحش.

صفعها على وجهها في وحشية، فمادت بها الأرض، وانقلبت عيناها، وكادت تسقط فاقدة الوعي، مما أصابني بغضب وجنون لا حصر لهما، فنهضت من كبوتي، وهاجمته مرة أخرى، وأنا أصرخ مستنجدًا، ولكنه أمسك بي من شعري وطرحني في خفة، كما لو كنت شيئًا لا وزن له، ثم ضرب بي الجدار بكل قوته..

وأعتقد أنني سمعت صوت (ديانا)، وهي تصرخ باسمي..

اعتقدت هذا فحسب، ولكن لا يمكنني الجزم به، ففي اللحظة التالية، كانت علاقتي بالسمع والرؤية قد انقطعت مؤقتًا..

والاسم العلمي لهذا بسيط ومعروف..

إنه (الغيبوبة).

☆ ☆ ☆

لست أدري كم بقيت فاقدًا للوعي، ولكن من المؤكد أنها فترة ليست بالطويلة، ولكنني أفقت لأجدني داخل سيارة (جورج)،

التي تتوقف في منطقة شبه مقفرة، لا يوجد بها سوي جرن قديم، أنبأني بأننا الآن خارج العاصمة..

وأول ما شعرت به، عندما استعدت وعيي هو الدهشة..

هذا لأنني لم أفقد وعيي من قبل قط، على الرغم من سنوات عمري الخمسين..

صحيح أنني رأيت أناسًا يفقدون وعيهم، سواء في الأفلام السينمائية، أو في عالم الواقع، أو على صفحات القصص والروايات، إلا أنني كنت أتساءل دومًا، كيف يحدث لهم هذا؟ وما شعورهم تجاهه؟.. وكنت أتصور أنني من الأشخاص الذين لا يمكن لأي شيء في الدنيا أن يفقدهم وعيهم.

أما في اللحظة التالية للدهشة مباشرة، فقد سيطر على الخوف والقلق..

كان (بندكت) يجلس إلى جواري، ويرمقني بنظرة قاسية، في حين يوقف (جورج) السيارة، وإلى جواره (ديانا) فاقدة الوعي، فاعتدلت قائلًا في توتر:

- ما الذي تنوي أن تفعله بنا يا مستر (جورج)؟

تنهد (جورج) في شيء من الأسف، وهو يجيب!

- ما كان ينبغي لكما أن تدسا أنفيكما في شئوني.. إنكما تجبراني على فعل ما أكرهه.

أدركت ما ينتويه من عبارته، فقلت في عصبية:

- فليكن.. سنتوقف عن دس أنفينا في شئونك.. سنعود إلى منزلنا، ونغلق فمينا إلى الأبد.

هز رأسه في أسى، وغمغم:

- فات الأوان للأسف.

وأشار إلى ابنه، فدفعني خارج السيارة في غلظة، ثم انتزع (ديانا) من مقعدها، وألقاها إلى جواري في خشونة، جعلتها تتأوه ألمًا، وتستعيد وعيها، مغمغمة:

- أين أنا؟.. ماذا حدث؟

لم تكد تنطقها، حتى وقع بصرها على (جورج) و(بندكت)، فشهقت في ارتياع، وقفزت تحتمي بي، فأحطت كتفيها بذراعي، وأنا أقول في توتر:

- ولكن لماذا يا مستر (جورج)؟!.. ما الذي يضطرك إلى التخلص منا؟

هتفت (ديانا):

- ألم تفهم بعد.. إنه الشخص الذي يسرق السيارات.. إنه اللص الخاص بصانع اللعب المجهول.

هز (جورج) رأسه نفيًا، وهو يقول:

- لم تفهمي شيئًا.. لم تفهمي شيئًا قط.

قلت في غضب:

- فليكن.. اشرح لنا أنت الأمر.. من يصنع تلك النماذج؟

صمت لحظات، وكأنما يدرس في ذهنه أمرًا ما، ثم أجاب في حزم:

- أنا؟

لوحت (ديانا) بذراعها، وهي تقول:

- هراء.. لن يمكنك إقناعي أبدًا بأن صانعًا رديئًا مثلك، يمكنه أن يصنع تحفا كهذه.. أنت مجرد لص سيارات، ولكن هناك صانع

آخر، يستمد إلهامه من السيارات المسروقة.

ابتسم (جورج) في شيء من الزهو، وهو يقول:

- أخطأت في نصف الحقيقة يا سيدتي.. صحيح أنني أسرق السيارات، ولكنني أيضًا صانع النماذج المبهرة، والفضل يعود إلى مصادفة مدهشة.

قالت في صرامة..

- المصادفات لا تصنع عبقريًا..

ضحك قائلًا:

- ولكنها فعلت..

ثم أخرج من جيبه قضيبًا شفافًا، ينتهي بمقبض من الجلد، واستطرد:

- والفضل لهذا.

قالت (ديانا) في دهشة:

- وما هذا بالضبط؟

برقت عيناه، وهو يجيب:

- إنه المصادفة.. المصادفة التي صنعت كل هذا.

قالها، وانطلق يروي القصة بلا توقف..

القصة المذهلة.

☆ ☆ ☆

8- المصادفة..

لم أر في حياتي كلها عينين تتألقان بشهوة الدنيا كلها، كما رأيت عيني مستر (جورج)، وهو يروي قصته، قائلًا:

- قضيت حياتي كلها أصنع الدمى والنماذج واللعب الخشبية، وأبيعها في متجري القديم، دون أن أحقق سوى نجاح محدود، مكنني بصعوبة من استئجار منزل بسيط، بعيدًا عن قلب العاصمة، وشراء سيارة متواضعة، والعيش بدخل محدود، لا يرقى أبدًا إلى مرحلة الاكتفاء بالضروريات، والسعي لامتلاك الكماليات، وعلى الرغم من زواجي في سن مبكرة، إلا أننا - أنا وزوجتي - لم ننجب سوى ابن واحد وهو (بندكت) هذا، الذي أتى إلى الدنيا بعيب خلقي، وتشوهات في الوجه والصدر، جعلته مجرد مسخ ضعيف العقل، عانينا كثيرًا لتربيته وتنشئته، حتى ماتت زوجتي منذ خمس سنوات، وتركت الحمل كله على عاتقي، فقررت أن أقضي عمري كله في محاولة تربية (بندي) ورعايته.

وألقى نظرة طويلة على ابنه، قبل أن يتابع:

- وعندما قرأت في مجلة أمريكية عن ذلك الجراح، الذي ابتكر نوعًا خاصًا من الجراحات الحديثة، القادرة على خفض درجة التخلف العقلي، ورفع مستوى ذكاء من هم على شاكلة (بندي)، عن طريق تحسين الدورة الدموية المخية، وتنشيط السائل المخي، أسرعت أتصل به، وأسأله عن التكلفة المطلوبة لإجراء الجراحة، فأخبرني أنها تقترب من المائة ألف جنيه استرليني.

وتنهد في عمق، ثم استطرد:

- وكان المبلغ رهيبًا بالنسبة لي، حتى أن مجرد التفكير فيه كان يرهق ميزانيتي المحدودة، مما أجبرني على التنازل عن الفكرة، والاكتفاء بالتحسر عليها، وعلى الفرصة التي تضيع، بسبب قلة مواردي.

وعادت عيناه تتألقان، وهو يضيف:

- ثم جاءت تلك المصادفة المذهلة.

قالت (ديانا) في عصبية:

- والتقيت بصانع اللعب، الذي أقنعك بسرقة السيارات لحسابه.

ابتسم في سخرية، وهز رأسه، قائلًا:

- من الواضح أنك لم تفهمي شيئًا بعد.

ورفع ذلك القضيب الشفاف، قائلًا:

- هذه هي المصادفة العجيبة..

ثم خفضه، مستطردًا:

- ففي متجري جزء خاص، لشراء اللعب القديمة والمستعملة، وإصلاحها، وإعادة بيعها بثمن مناسب، ولدي عدد كبير من الزبائن، من ذوي الدخول المحدودة، الذين يقبلون على هذا القسم بالذات.. وذات يوم، حضر إلى متجري طفل صغير، وقدم لي هذا الشيء، وطلب جنيهًا واحدًا ثمنًا له، ولما كان ذلك الشيء طريف الشكل، فقد نقدته المبلغ الذي طلبه وفكرت في إضافة بطارية صغيرة إلى القضيب الشفاف، مع مصباح مختلف الألوان، وبيعه كمصباح ملون، وعندما حاولت فصل الجزء الشفاف عن المقبض الجلدي، حدث الأمر فجأة، كقصة مصباح (علاء الدين)، وخرج الجني من المصباح..

انعقد حاجباي في شدة، في حين قالت (ديانا) في توتر:

- مصباح وجني؟!.. هل تسخر منا يا رجل؟

قهقه (جورج) ضاحكًا، قبل أن يقول:

- إنه تعبير مجازي يا آنستي، فالمصباح ليس سوى ذلك القضيب العجيب، الذي أجهل أين وكيف عثر عليه الصبي، أما الجني فهو تلك الأشعة الفيروزية، التي تنطلق منه، وتصنع ذلك التأثير المذهل.

وأمسك نموذج السيارة (المازدا)، ولوح به، قائلًا:

- الأشعة التي تحول السيارات الحقيقية إلى نماذج كهذه..

اتسعت عيناي في ذهول، وأنا أحدق في النموذج الذي يمسكه، في حين شهقت (ديانا)، وهتفت مستنكرة:

- كلا.. لا تحاول إقناعنا بهذا.. إنه ليس واحدًا من أفلام الخيال العلمي، لتسخر منا على هذا النحو.. لن أصدق أبدًا أنك تستطيع تصغير جسم حقيقي بأية أشعة كانت!!

هز كتفيه في لا مبالاة، وهو يقول:

- صدقي أو لا تصدقي، ولكن هذه هي الحقيقة.. وكل ما أحتاج إليه هو تصويب ذلك الجزء الشفاف نحو الشيء المراد تصغيره، ثم الضغط على المقبض الجلدي في قوة، فتنطلق الأشعة الفيروزية، ويبدأ الشيء الذي أصابته في التقلص بسرعة، حتى يصبح في هذا الحجم.

اندفعت أقول في توتر شديد:

- مستحيل!.. هل تقصد أن كل تلك النماذج لم تكن سوى سيارات حقيقية، تم تقليصها بوساطة شعاعك الفيروزي هذا؟

أومأ (جورج) برأسه إيجابًا في شيء من الزهو، جعلني أهتف:

- لهذا كانت متقنة تمامًا، وبالغة الدقة إلى حد مذهل.. رباه!. إنه التفسير الوحيد، الذي لم يجل بخاطرنا قط.

هتفت (ديانا) في عصبية:

- لا تصدقه يا (نظمي).. إنه مخادع.. لو أن هذا القضيب الذي يمسك به قادر بالفعل على تقليص الأشياء، فلماذا لم يستخدمه لتقليصنا، بدلًا من أن يحملنا إلى هذه المنطقة المقفرة للتخلص منا؟

أجابها (جورج) في هدوء:

- لأني لا أستطيع استخدام الأشعة مرتين متتاليتين.. لست أدري لماذا بالضبط، ولكنه أمر أشبه بتلك الأشياء التي يتم شحنها.. القضيب لا يحوي أي مصدر للطاقة، ولكنه يكتسبها من مصدر ما، وهذا يحتاج إلى ساعتين أو يزيد، ما بين كل طلقة وأخرى.

انعقد حاجباها في صرامة، وهي تقول:

- تفسير طريف، ولكنه أيضًا لا يقنعني.

مط (جورج) شفتيه وهو يقول:

- آه.. أنت تحتاجين إلى دليل أقوى.. فليكن.. لقد فقدت كلبك مع سيارتك (التويوتا) القرمزية.. أليس كذلك؟

شحب وجهها، وهي تقول:

- (ريكي).. ماذا فعلت به أيها الوغد.

ابتسم (جورج) في تشف، ثم أشار إلى (بندكت)، قائلًا:

- أرهم لعبتك يا (بندي).

تهللت أسارير (بندكت)، ودس يده في جيب معطفه، ثم أخرجها، وفرد راحته أمام وجهينا، وهو يبتسم أكثر ابتسامات الدنيا مقتًا وبشاعة.

وتراجعت (ديانا) كالمصعوقة، وهي تطلق شهقة هلع، في حين حدقت أنا في راحته ذاهلًا مبهورًا..

فهناك، في وسط راحته، كان ينبح كلب، لا يزيد حجمه على حجم جرذ صغير..

وصرخت (ديانا) في ارتياع:

- (ريكي)؟!.. مستحيل!.. مستحيل!

وقفزت يدها محاولة التقاط كلبها المتقلص، ولكن (بندكت) أبعده في سرعة، وهو يزمجر غاضبًا، شأن أي طفل، حاول آخر الاستيلاء على لعبته المفضلة، فصاحت (ديانا):

- إنه كلبي.. أعده إلي.

أما أنا، فالتفت إلى (جورج)، وقلت في توتر:

- إذن فذلك الشيء، الذي سحقه ابنك في المتجر، كان كلبًا آخر.

بدا الأسف على وجه (جورج)، وهو يقول:

- كلًا.. لم يكن كذلك.

وتنهد في عمق، قبل أن يستطرد.

- لقد كان آدميًا.

انتفض جسدي في رعب، وسرت فيه قشعريرة اشمئزاز عنيفة، ووثب عقلي يستعيد ذلك المشهد، و(بندكت) يهوى بقبضته على المائدة مرات ومرات، ثم يرفعها ملوثة بالدماء، وشعرت بمعدتي تنقبض في شدة، في حين هتفت (ديانا):

- يا للبشاعة!.. يا للبشاعة!.

وتفجر جوفها فجأة عبر حلقها، وأفرغت محتويات معدتها كلها في ألم، فأسرعت أربت عليها، ومنحتها منديلي، وأنا أقول في حدة:

- أي مخلوق أنت؟.. وأي وحش ابنك هذا.. لقد سحقتما آدميًا بلا رحمة أو شفقة.. يا إلهي!.. إذن فهذا ما كان يقصده (ألفريد) المسكين، عندما قال: إن خلايا الدم معروفة، ولكنها أقل حجمًا بخمس عشرة مرة.. كان يقصد أنها دماء وخلايا بشرية.

بدا التوتر في صوت (جورج)، وهو يقول:

- كانت غلطة غير مقصودة.. خطأ غير متعمد.. يبدو أن ذلك الرجل كان نائمًا داخل السيارة، فلم ننتبه إلى وجوده في أثناء تقليصها، ولكنه استيقظ في المتجر، وأصابه الذعر لرؤيتنا، عندما بدونا له كعملاقين رهيبين، وحاول الفرار في يأس ورعب، مما أثار توتر (بندكت)، فتحرك في تلقائية، وسحقه بقبضته.. كان رد فعل غير مقصود، من شخص له مثل عقليته.

خفض (بندكت) عينيه، كصبي صغير يتلقى التأنيب، و...

وفجأة، برزت الفكرة في رأسي..

لقد انتبهت فجأة إلى أن (جورج) وولده لا يحملان سلاحًا في مواجهتنا، باستثناء أشعة التقليص، التي لا أدري ما إذا كان شحنها قد اكتمل أم لا.

وعلى الرغم من أنني لم أفعل هذا في حياتي قط، بل ولم أتصور نفسي أبدًا أفعله، وجدتني أتدفع نحو (بندكت) بغتة، وأضم قبضتي، ثم أهوى بهما مجمعتين على فكه..

وكان التأثير قويًا للغاية..

تأثير المفاجأة والضربة معًا واختل توازن (بندكت)، وسقط على ظهره، وهو يطلق خوارًا كالثور الذبيح، فصرخت وأنا ألتقط يد (ديانا).

- اجري.. أجري بكل قوتك.

صرخ (جورج) في لوعة، وهو يعدو نحو ولده، ويفحصه مذعورًا، في حين انطلقت أنا أجري مع (ديانا)، وقد اتخذنا ذلك الجرن

القديم وجهة لنا، دون أن ندري لماذا فعلنا هذا، والأرض أمامنا ممتدة بلا نهاية..

ومن خلفنا، سمعنا (جورج) يصرخ:

- أعدهما يا (بندي).. لا تسمح لهما بالفرار.. أعدهما.

ولم تكد صرخته تكتمل، حتى تعالى من خلفنا وقع أقدام ثقيلة، لم نكن بحاجة إلى الالتفات إليها، لندرك أن (بندكت) يطاردنا كخرتيت ثائر، مما زاد من سرعتنا، وجعلنا نتجاوز حتى الرقم القياسي لأبطال مسابقات العدو للمسافات القصيرة، حتى بلغتنا ذلك الجرن القديم، واندفعنا داخله، و..

وشهقت (ديانا) في ارتياع..

كنا كمن ألقى نفسه عمدًا بين فكي أسد، أو داخل مصيدة قوية، لا فكاك منها، فلقد اقتحمنا الجرن، لنجد أنه مغلق من كل جوانبه، باستثناء المدخل الذي عبرناه، والذي يعدو (بندكت) نحوه بكل قوته..

وفي ارتياع كامل، صرخت (ديانا):

- ماذا نفعل؟.. ماذا نفعل؟

تلفتت حولي، وأنا أشد ذعرًا منها، ولمحت سلمًا خشبيًا كبيرًا، يستند إلى طابق علوي للجرن، فهتفت بها:

- أسرعي إلى هناك.

جرينا نحو السلم، ولكن (بندكت) بلغ الجرن قبل أن نصل إليه، فصرخت (ديانا) في رعب، إلا أنني دفعتها نحو السلم، قائلًا:

- اصعدي.. اصعدي بسرعة..

كنت أعلم أن الوقت لن يسعنا للصعود معًا، ولكن بسالة مفاجئة ملأت قلبي، وجعلتني مستعدًا لمواجهة الموت نفسه، لو اقتضى الأمر، في سبيل الذود عن (ديانا).. عن الحب الوحيد، في حياتي كلها..

وفي جرأة أدهشتني شخصيًا، استدرت أواجه ذلك المسخ الآدمي، الذي انقض عليّ في غضب هادر، حاولت التصدي له بقبضتي، إلا أنه تلقى لكمتي في ثورة، ولطمني بكفه في صدري، لطمة انتزعتني من مكاني، وألقتني ثلاثة أمتار على الأقل إلى الوراء..

وعندما نهضت وأنا ألهث في ألم، استقبلتني قدمه الضخمة بركلة في وجهي، أضافت مترًا زائدًا إلى الأمتار الثلاثة السابقة.

ولكنني سقطت إلى جوار سلاح..

شوكة حرث ضخمة، تركها أولئك الذين هجروا المكان، وكأنما لم يعد يعنيهم أمرها..

وفي سرعة، التقطت الشوكة الثقيلة، ولوحت بها في وجه (بندكت)..

لم أكن أقصد أكثر من إرهابه، إلا أن الأطراف الحادة للشوكة أصابت صدره، ومزقت جزءًا من معطفه، فصرخ في غضب، وضربها بيده في عنف، فأطاح بها بعيدًا، قبل أن يحملني من معطفي، ويلقي بي لمترين آخرين..

وعندما ارتطمت بالأرض هذه المرة، وجدت نفسي إلى جوار السلم تمامًا، وسمعت (ديانا) من الطابق العلوي تهتف:

- اصعد يا (نظمي).. اصعد بسرعة.

لم أدر بم يفيد الصعود بالضبط، إلا أن الموقف لم يكن يسمح بالتفكير، فوثبت أتعلق بالسلم، ورحت أتسلقه بكل قوتي وسرعتي، ومن خلفي تنطلق زمجرة (بندكت) الغاضبة، وهو يعدو نحو السلم، ويتسلقه بدوره خلفي، و(ديانا) تصرخ في رعب هائل:

- أسرع يا (نظمي).. أسرع بالله عليك.

لست أدري كيف اكتسبت كل هذه الرشاقة، ولكنني تسلقت السلم في ثوان معدودة، ووثبت إلى الطابق الثاني، واستدرت لأجد (بندكت) خلفي مباشرة، وقد انقلبت سحنته المخيفة على نحو رهيب، حتى بدا أشبه بشيطان مريد، ويده تمتد لتقبض على كاحلي، و(ديانا) تصرخ وتصرخ، فضربت السلم بكل قوتي، مستخدمًا قدمي في آن واحد، ورأيت عينا (بندكت) تتسعان لحظة، قبل أن يهوي مع السلم، ويرتطم بالأرض في عنف..

ومع ارتطامه، أطلق (بندكت) صرخة بشعة، انشطر لها قلبانا، (ديانا) وأنا، فاندفعت أنظر إلى الطابق السفلي، حيث كان في انتظاري مشهد رهيب بشع..

لقد سقط (بندكت) فوق شوكة الحرث الضخمة، التي اخترقت ظهره، وعبرت جسده، وبرزت أسنانها الحادة من صدره..

وجحظت عينا (بندكت)، والدماء تتدفق من بين شفتيه على نحو مخيف، ثم لم يلبث بريق الحياة أن خبا من العينين الجاحظتين بغتة، وانتفض الجسد الهائل انتفاضة عنيفة، قبل أن تخمد حركته تمامًا..

وفي اللحظة نفسها، ارتجت جدران الجرن القديم بصرخة هائلة عظيمة، أطلقها مستر (جورج)، وهو يعدو نحو ابنه، صائحًا:

- (بندي).. واصغيري (بندي).

انكمشنا في ذعر، ثم لم تلبث (ديانا) أن أشارت إلى بقعة في نهاية الطابق الثاني هامسة:

- هناك نافذة في الخلف.

أسرعنا إلى تلك النافذة، ونحيب (جورج) وصراخه يملآن المكان، وهو يتحسس جثة ابنه كالمخبول، ومن حسن حظنا أننا وجدنا سلمًا خلف النافذة، استخدمناه للهبوط، ثم قلت ل(ديانا) في توتر بالغ:

- سنعدو حتى السيارة، وننطلق بها مبتعدين.

أطاعتني دون مناقشة، ورحنا نجري جنبًا إلى جنب، حتي بلغنا السيارة، وساعدت (ديانا) على دخولها، ثم درت حول مقدمتها، و...

وفجأة، برز (جورج) من الجرن، وهو يصرخ:

- لن تفرا بفعلتكما أبدًا.. أبدًا.

كان يصوب نحونا ذلك القضيب الشفاف، فصحت في (ديانا):

- اقفزي خارج السيارة.. أسرعي.

لم أكد أنطقها، حتى رأيت شعاعًا مستقيمًا، أشبه بشعاع الليزر له لون فيروزي، ينبعث من قمة القضيب، ويمرق على مسافة سنتيمترات قليلة مني، ليرتطم بجسم السيارة..

وشعرت بطاقة هائلة تدفعني إلى الأمام، لمسافة أربعة أمتار كاملة، مع وميض فيروزي قوي، امتزج بصرخة (ديانا)، وبصوت المفتش (جراي)، وهو يصرخ:

- توقف يا هذا.

ثم سمعته يطلق شهقة قوية، مستطردًا:

- ما هذا بحق السماء؟

استدرت لأجد سيارة (جورج) تتألق بشدة، ثم يتقلص حجمها بسرعة مدهشة، وعلى مقربة منها يقف المفتش (جراي) محدقًا فيها في ذهول، في حين يصرخ (جورج):

- كلكم تستحقون هذا.. كلكم.

التفت إليه (جراي) بسرعة، ورآه يصوب ذلك القضيب نحوه، فاستل مسدسه في سرعة، وأطلق النار ثلاث مرات متتالية سريعة..

وتفجرت الدماء من صدر (جورج) ورأسه، وعنقه، وترنح لحظة، ثم هوى أمام الجرن جثة هامدة، والمفتش (جراي) يهتف في سخط محنق:

- انظر ما الذي جعلتني أفعله.. انظر ما استدرجتني إليه.

نهضت زائغ البصر، أبحث عن (ديانا) في ارتياع، ووقع بصري على سيارة (جورج) المنكمشة المتقلصة، والمفتش (جراي) يتابع في عصبية:

- كنت أعلم أنكما تخفيان شيئًا ما، وراقبتكما خفية، وأنتما تتبعان (جورج) وابنه، وسمعت كل ما قاله، ولكن من المستحيل أن أضع هذا في تقرير رسمي،.. من سيصدق هذا؟!. من؟!

لم أهتم كثيرًا بحديثه، وأنا أهرع إلى السيارة المتقلصة، هاتفًا باسم (ديانا)، وكياني كله ينتفض ويخفق لكل حرف من حروف اسمها، والتقطت السيارة، ورفعتها إلى عيني..

وانهار قلبي تمامًا..

لقد حدث ما كنت أخشاه..

ويا لهول ما حدث!

☆ ☆ ☆

9- الختام..

لا شك عندي في أنكم قد فهمتم الموقف كله الآن..

لقد سقطت (ديانا) المسكينة ضحية لأشعة التقليص اللعينة!..

لم تستطع مغادرة السيارة في الوقت المناسب، فانكمشت معها، وتحولت إلى كائن ضئيل صغير، أشبه بالدمى التي تلهو بها الصغيرات..

هل عرفتم الآن لماذا أبتاع الكثير من تلك الدمى الصغيرة وثيابها؟!..

هل أدركتم سر اهتمامي الكبير ببيت الدمية، الذي أحتفظ به في منزلي؟!..

إنه المنزل الذي تقيم فيه حبيبتي (ديانا)، منذ ذلك اليوم المشؤوم..

لقد أخفيت أمرها عن الجميع، إلا عن شقيقتي الوحيدة (سوسن)، التي حضرت من (مصر) خصيصًا، لتشرف على رعايتها والعناية بها.

ومن حسن الحظ أنني نجحت في استعادة كلبها (ريكي)، من جيب (بندكت)، فلقد صار هو أنيسها الوحيد في منزلها الجديد..

وأنا أقضي معها أوقاتًا طويلة كل يوم، ونتحدث معًا، إلا أن الحزن لم يفارقني أو يفارقها لحظة واحدة، طوال العام المنصرم، الذي قضيته كله محاولًا سبر أغوار ذلك القضيب الشفاف، الذي تنطلق منه أشعة التقليص..

كنت أحتاج بشدة لدراسة كل ما يتعلق بتلك الأشعة العجيبة، التي أجهل حتى مصدرها، حتى يمكنني إنتاج أشعة مضادة، تعكس مفعولها، وتعيد حبيبتي (ديانا) إلى عالمها..

ولقد جندت خبراتي كلها لهذا البحث، الذي يشترك معي فيه اثنان من أفضل تلامذتي.. أحدهما مصري الجنسية، والثاني سوري..

(محمد) و(باسل)..

وكل منهما يعتقد أننا سنحتاج إلى عامين على الأقل، حتى نفهم طبيعة تلك الأشعة، التي لا تنطبق عليها القواعد، التي تحكم أي نوع آخر من أنواع الأشعة المعروفة..

الشيء الوحيد الذي توصلنا إليه، هو أن ذلك القضيب الشفاف يستمد طاقته من النجوم، وهذا سر تأخر شحنه..

لا ريب أن الطاقة التي تنبعث من النجوم تحوي نوعًا من الأشعة، لم نتوصل إليه بعد..

أشعة تعبر غياهب الكون، قبل أن تبلغنا..

وربما جاء هذا القضيب الشفاف أيضًا من وراء النجوم..

ومن أعماق الكون..

من يدري؟!

ولكن أحدًا منكم لم يسألني بعد، لماذا قررت أن أكتب لكم قصتي الآن، بعد مضي عام كامل على هذه الأحداث؟..

الواقع أنني أفعل هذا، لأنني اتخذت قرارًا حاسمًا، سيكون له أبلغ الأثر في حياتي ومستقبلي..

لقد بعت ممتلكاتي كلها، في (مصر) و(انجلترا)، وأودعت المبلغ كله كوديعة بنكية، باسم شقيقتي (سوسن)، تمنحها دخلًا معقولًا طيلة العمر..

هذا لأنني ما زلت أحب (ديانا) حبًا ملك شغاف قلبي، وسيطر على حواسي ومشاعري كلها..

أحبها حتى النخاع..

ومن أجل هذا الحب، قررت أن أتزوجها..

نعم.. ما دمت قد عجزت عن إعادتها إلى حجمها الطبيعي، بعد عام كامل من البحث، فالوسيلة الوحيدة لأنعم بقربها، هي أن أتقلص أنا إلى حجمها..

وهذا ما سأفعله اليوم..

ولن نحتاج إلى عقد زواج رسمي معتمد، لأننا حالة خاصة، تحتاج إلى قواعد خاصة..

سيعقد قراننا صديق مصري، يشرف على المسجد المقام عند أطراف العاصمة، وسيكون شاهدًا العقد هما (محمد) و(باسل)، اللذين سيواصلان الأبحاث، حتى يتوصلا إلى وسيلة لإعادتنا لحجمنا الأصلي بإذن الله..

وحتى يحين ذلك الحين، سأنعم بقرب (ديانا).. المخلوقة الوحيدة التي اختارها قلبي، وخفق لها، وانتخبها من دون العالمين، ليمنحها كل ما أدخره في أعماقي من حب وحنان، طوال أكثر من نصف قرن..

أما قصتي، فستبقى وثيقة للأجيال القادمة..

وثيقة سيستنكرها البعض، ويكذبها البعض، ويسخر منها البعض الآخر..

ولكنها ستبقى دائمًا رمزًا للغموض الذي يحيط بنا في هذا الكون، الذي لم نعلم عنه إلا قليلًا..

ورمزًا لأمر أعظم..

للحب..

الحب بلا حدود.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- الخيط الأول..

2- لعبة..

3- مستر (جورج)..

4- اللغز..

5- تسلل..

6- فكرة مجنونة..

7- البريق..

8- المصادفة..

9- الختام..

الفهرس:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الكوكب العاشر

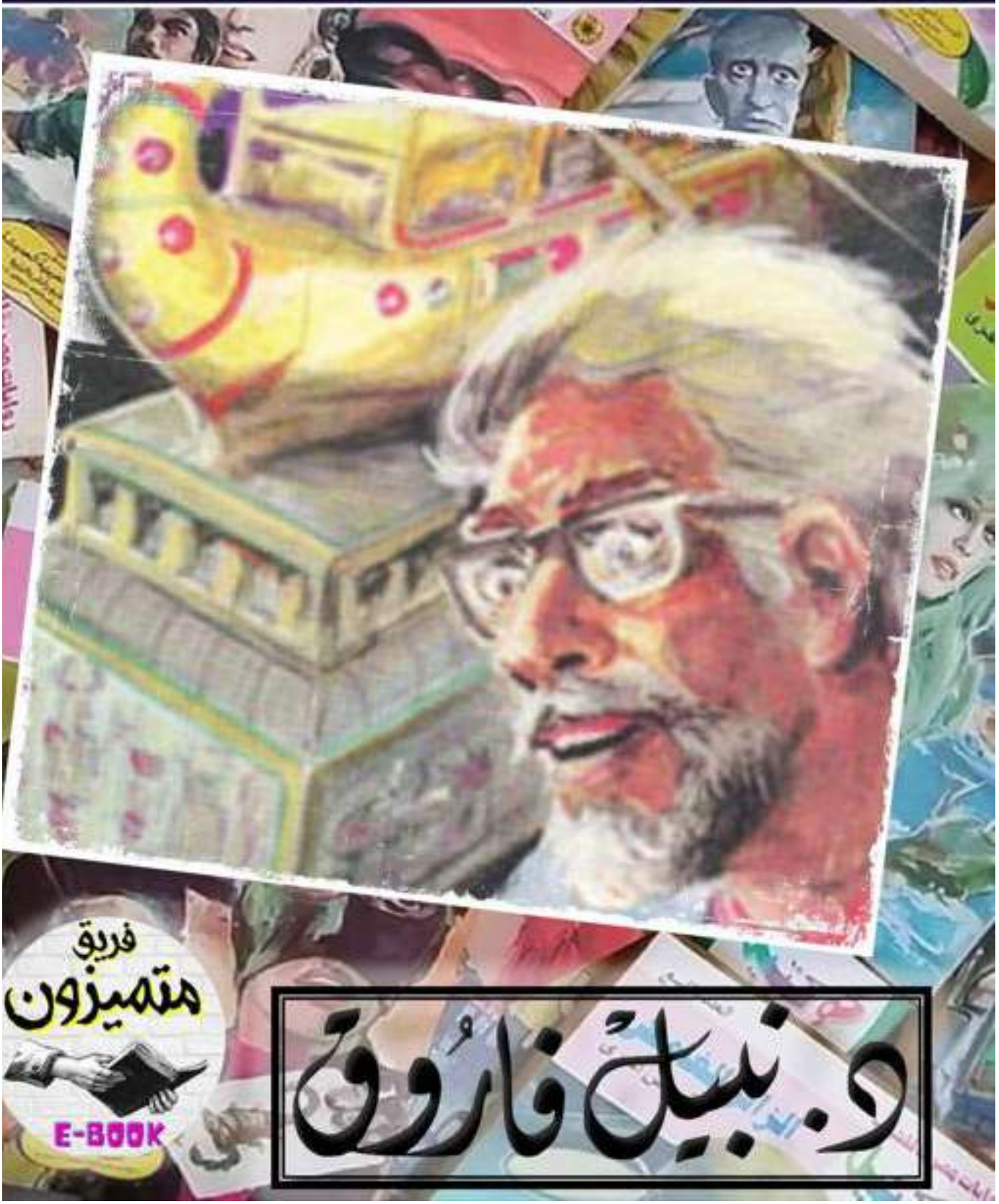

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

الكوكب العاشر
للناشر
المؤسسة العربية الحديثة

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000
الكوكب العاشـر

1- الزائـــر..

الفضاء الخارجي..

مكان ما بين كوكبي المريخ والمشتري.

عام 1550 قبل الميلاد، بتوقيت كوكب الأرض..

انتشرت أبخرة وردية خفيفة، في الغلاف الجوي لكوكب (نيوتس)، على نحو لم يعهده مناخ الكوكب من قبل، وبدا سطحه مقفرًا على غير عهده، حتى ليخيل للناظر أنه كوكب مهجور، لولا تلك القبة الزجاجية، التي تحيط بما بدا كأطلال مدينة قديمة، كانت يومًا دليلًا على حضارة راقية، لم تصمد طويلًا أمام المتغيرات والعوامل الطبيعية القاسية، التي أحاطت بالكوكب، منذ ما يقرب من نصف قرن، مع انهيار الطبقة الواقية لغلافه الجوي..

وداخل تلك القبة الزجاجية، لم يكن الحال بأفضل كثيرًا من خارجها، فقد امتدت المقابر لمسافات شاسعة، وبدا العدد القليل من الأحياء، من سكان الكوكب، شاحبًا ممصوصًا، بعد معاناة طويلة شاقة..

وخلف نافذة أحد المباني، التي بقيت على حالها القديم، وقف آخر رئيس لآخر مدينة على سطح الكوكب، يتطلع في أسى إلى الخراب الذي أصاب كل شيء، وهو يقول لقائد أمنه في مرارة:

- لم يعد هناك أمل.. الأبخرة الوردية المتصاعدة من شقوق الأرض تتزايد في سرعة، وآخر تقارير العلماء تؤكد أن الكوكب سينفجر لا ريب، خلال أسابيع معدودة.

وتنهد في حزن، مستطردًا:

- من يصدق هذا؟.. لم يكن انفجار الكواكب في شبابي سوي فكرة عجيبة، في روايات الخيال العلمي، أما الآن فقد صار حقيقة واقعة، ننتظر حدوثها بين ساعة وأخرى.

قال قائد الأمن في احترام:

- كان ينبغي أن نصغي إلى العلماء، عندما حذروا من حدوث هذا، منذ أكثر من نصف قرن.

هز الرئيس رأسه في أسى، وهو يجيب:

- كان أكبر خطأ ارتكبناه.. لقد سخرنا منهم، وعزلناهم، واتهمناهم بالتخريف والتشاؤم، وها نحن أولاء ندفع الثمن الآن.

وأشار بيده إلى الخراب المحيط بالمكان من كل جانب، مضيفًا:

- حضارات كوكبنا كلها أبيدت، وكل الحلول فشلت في إيقاف أو منع الكارثة، وانتشرت الأمراض والأوبئة، وتساقط الشعب كالذباب، ولم تعد لدينا طاقة كافية، أو وسائل متطورة.. بل لم يعد هناك شعب قادر على الصمود والمقاومة.. الجميع ينهارون في سرعة، والقبة الزجاجية لم تنجح في إنقاذنا.. إنها نهاية الكوكب بأكمله يا قائد الأمن.

عض قائد الأمن شفتيه، قائلًا:

- آه لو كنا أنجزنا مشروع الفضاء.

مط الرئيس شفتيه، قائلًا:

- فات أوان الندم.. لم يعد هناك ما يمكن فعله.. كوكبنا سينفجر كله بعد أسبوع أو أسبوعين على الأكثر، بعد تفاعل أشعة الشمس مع الأبخرة الوردية، والمواد المشعة في تربتنا.

وتنهد في عمق، وهو يصمت لحظة، قبل أن يضيف في اهتمام مفاجئ:

- ولكن لدينا سفينة الفضاء التجريبية..

خُيل لقائد الأمن أنه فهم ما يعنيه الرئيس بهذا الاهتمام المفاجئ، فقال في حماس:

- هذا صحيح يا سيادة الرئيس.. يمكنك أن تستقل سفينة الفضاء التجريبية، وتنطلق بها إلى أقرب كوكب يمكننا الحياة على سطحه.. إلى كوكب (لويند).

ارتسمت ابتسامة حزينة على شفتي الرئيس، وهو يلتفت إليه، قائلًا:

- لم تفهمني يا قائد الأمن.. لست أرغب في مغادرة الكوكب، أو العيش ككائن منفرد منبوذ، على كوكب آخر، يختلف عنا سكانه في مظهرهم وطبيعتهم، وحتى في درجة تقدمهم.

قال قائد الأمن في انفعال:

- ولكنها فرصتك الوحيدة يا سيادة الرئيس، فسفينة الفضاء التجريبية هي وسيلة الانتقال الوحيدة لدينا، للسفر عبر الفضاء، وهي لا تسع سوى راكب واحد، وأنت أكثر شخص يمتلك الحق في النجاة، ثم إن سكان كوكب (لويند) لا يختلفون عنا كثيرًا، سوى في الحجم ولون البشرة، ولقد راقبنا حضاراتهم طويلًا، عبر أجهزة الرصد الفضائية، وأعتقد أن من بينها حضارة خاصة، يمكنها استقبالك، وإكرام وفادتك، بل واعتبارك أحد الآلهة الهابطة من السماء.

تنهد الرئيس مرة أخرى، وهز رأسه، قائلًا:

- قلت لك: إنك لم تفهمني يا قائد الأمن.. لست أسعى للنجاة، بل إنني أعتقد أن انتهاء حياتي هنا، هو الوسيلة الوحيدة للتكفير عن أنانيتي وصلفي، اللذين تسببا فيما وصل إليه كوكبنا، ولكن ما أفكر فيه هو حضارتنا.. تلك الحضارة التي نشأت وتطورت عبر آلاف السنين.. ربما يكون مصيرنا هو الفناء، ولكن من العار أن تفنى كل هذه الحضارة.

سأله قائد الأمن في حيرة:

- وكيف يمكن إنقاذها؟

تطلع إليه الرئيس لحظة في صمت، قبل أن يقول في حزم:

- بنقلها إلى كوكب (لويند).

انعقد حاجبا قائد الأمن، وهو يسأل:

- وكيف السبيل إلى هذا؟

تطلع إليه الرئيس لحظة أخرى في صمت، ثم تقدم نحوه، ووضع يده على كتفه في حزم، قائلًا:

- سأسند إليك هذه المهمة يا قائد الأمن.

اتسعت عينا قائد الأمن، وتراجع كالمصعوق، وهو يهتف:

- أنا؟!

أجابه الرئيس في حزم أكبر:

- نعم.. أنت يا قائد الأمن.. سنستغل الأيام الباقية في حياة كوكبنا، لننجز أعظم أعمالنا على الإطلاق.. ستضغط كل حضارتنا في اسطوانات دقيقة، وسنرسلك بها إلى كوكب (لويند)، مع جهاز العرض الخاص بها، وبلغة الحضارة التي اخترتها.

قال قائد الأمن في دهشة متوترة:

- ولكن تلك الحضارة، على الرغم من تقدمها، بالنسبة لمثيلاتها على كوكب (لويند)، لم تبلغ بعد الحد الكافي لفهم حضارتنا، أو حتى لاستخدام اسطواناتنا الدقيقة، وإدراك ما تحويه.

أشار الرئيس بسبابته، قائلًا:

- ربما ليس الآن، ولكنهم سيتطورون حتمًا، وسيبلغون يومًا الحد الكافي لفهم هويتنا، وإدراك تأثيرها على تقدمهم، وعندما يحدث هذا، ستقفز بهم معلوماتنا لقرنين من التطور دفعة واحدة.

وبهذا تكون حضارتنا قد أثمرت في تطوير الحياة على الكوكب الوحيد بعدنا، الذي يحوي مخلوقات عاقلة، في مجموعتنا الشمسية كلها.

صمت قائد الأمن بضع لحظات، قبل أن يغمغم:

- سيدي الرئيس.. أعترف أن الفكرة رائعة، وتحمل الكثير من النبل والرقي، ومن روح الفروسية، التي اندثرت منذ قرون، وكان اندثارها سببًا من أسباب ما وصلنا إليه، ولكن الأمر ليس سهلًا كما تتصور، فربما أتلفوا وثائقنا واسطواناتنا، قبل أن يبلغ بهم التطور الحد الكافي، لفهم ما أهديناهم إياه.

أومأ الرئيس برأسه متفهمًا، وهو يقول:

- سنعمل على ألا يحدث هذا.. سنزودك بما يبهرهم، ويدفعهم إلى احترام تعليماتك إلى أقصى حد.. اطمئن.

وأطل التأثر من عينيه، وهو يستطرد:

- المهم أن تبذل قصارى جهدك للقيام بالمهمة على أكمل وجه، بحيث تنطلق بسفينة الفضاء التجريبية إلى كوكب (لويند) بأقصى سرعة، قبل أن ينفجر كوكبنا، ونفقد كل شيء.

وعاد يضع يده على كتفه، مضيفًا بصوت متهدج:

- وتذكر دائمًا أنك الأمل الأخير لحضارتنا.

اعتدل قائد الأمن، وشد قامته، وكأنه يعلن عزمه على القيام بالمهمة..

حتى آخر رمق..

☆ ☆ ☆

كوكب الأرض..

عام 1550 قبل الميلاد.

مصر الفرعونية..

فترة حكم الملك (أحمس)، وبدايات الأسرة الثامنة عشرة..

تطلع العراف الخاص بالملك (أحمس) إلى السماء ذات النجوم، واتسعت عيناه عمدًا، على نحو أضفى عليه مظهرًا مخيفًا، وهو يلوح بيده، قائلًا بصوته الضخم العميق:

- ذلك الوميض الكبير، الذي ظهر في السماء منذ أسابيع، ليس أمرًا عاديًا بالتأكيد يا مولاي العظيم.. إنه علامة على الرخاء الذي سيجري على يديك، على شعبك المخلص، بعد انتصارك على (الهكسوس)، وعودتك إلى عرشك سالمًا.. ذلك الوميض الذي اشتعل ثم انطفأ، هو الدليل على أن الآلهة راضية عما فعلت وتفعل لشعبك.

مط كاهن القصر شفتيه، وهو يقول:

- ولكن هذا الوميض استغرق طويلًا، فما الذي يعنيه هذا؟

لوح العراف بذراعيه في أسلوب تمثيلي مبتذل، وهو يهتف:

- يعني أن فترة حكم مولاي العظيم ستمتد إلى أمد طويل، تحت رعاية الآلهة.

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتي الملك (أحمس)، وهو يقول:

- أحسنت أيها العراف.. أحسنت.

عاد الكاهن يمط شفتيه، وكأنما لا يروق له ما يفعله العراف، الذي برقت عيناه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة، وهو ينحني أمام الملك، حتى يكاد رأسه يضرب الأرضية الحجرية، قائلًا:

- أنا في خدمة مولاي العظيم.

هز الملك (أحمس) رأسه في ارتياح، ثم رفع يده، وهو يقول في عظمة:

- وحتى يشعر شعبي بالرخاء، الذي أحمله معي، فأنا آمر بـ....

بتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه في دهشة تمتزج بشيء من الارتياع، وهو يحدق في السماء أمامه، من شرفة قصره، في حين أضيء المكان كله بضوء مباغت قوي، انعكس على وجوه الجميع، وهم يحدقون في كتلة من اللهب، راحت تشق طريقها في السماء، متجهة نحو الأرض..

ونحو قصر الملك (أحمس) بالتحديد..

وفي انبهار يبلغ حد الذهول، ران على الجميع صمت رهيب، وكتلة اللهب تهبط وتهبط في سرعة، حتى اتضحت ملامحها..

كانت عبارة عن جسم أسطواني أحمر اللون، له ثلاثة أجنحة، في شكل مثلث منتظم، ويهبط بسرعة رهيبة نحو الأرض، ومن أسفله تندلع ألسنة اللهب المخيفة..

وأمام أعين الجميع، هبط ذلك الجسم الأسطواني، على قيد أمتار قليلة من شرفة قصر الملك (أحمس)، الذي كان أول من انتزع نفسه من ذهوله، وهو يغمغم في قلق:

- ما هذا بالضبط؟

لم يكد يتم عبارته، حتى انفتح جانب الجسم الأسطواني، على نحو مباغت، انتقضت له أجساد الجميع، وهتف العراف:

- يا للآلهة!

وشهق الكاهن في عنف، في حين حدق الملك وأتباعه ووزراؤه في ذلك الكائن، الذي برز من فتحة الجسم الاسطواني..

كان تكوينه العام لا يختلف أبدًا عن تكوين البشر، ولكن بشرته كانت خضراء كلون حشائش الأرض، وعيناه كانتا حمراوين، مستديرتين، وعلى قمة رأسه شعر أزرق داكن..

وكان يرتدي زيًا فضيًا من قطعة واحدة، وخوذة صغيرة شفافة..

وفي هدوء، خلع ذلك الكائن خوذته، وهو يقول بلغة يفهمها الجميع، على الرغم من ركاكتها:

- أنا (بي-دو) قائد أمن كوكب (نيونس)، الذي انفجر منذ عدة أسابيع، ومعي رسالة خاصة لملككم (أحمس).

نطق عبارته، فران بعدها صمت أكثر رهبة على المكان، وقطعه الكاهن، وهو ينحني في سرعة، هاتفًا بصوت مرتجف:

- إنه مبعوث الآلهة إلى مولانا العظيم.

ترددت العبارة على الألسن، وتنقلت بين الآذان همسًا وجهرًا في ثوان معدودة، ثم سقط الجميع ينحنون أمام (بي-دو)، فيما عدا الملك (أحمس)، الذي اتسعت عيناه بشدة، وهو يحدق في ذلك المبعوث، الذي هبط من السماء، ليلتقي به شخصيًا..

وبعد دقيقة من التردد، نهض الملك (أحمس)، وأشار بيده، قائلًا:

- فليتقدم مبعوث الآلهة.

شد (بي-دو) قامته، وتقدم نحو الملك (أحمس)، وقال:

- إنني أحمل لك هدية من كوكبي.

ورفع يده أمام الملك بكرة بيضاء، مرر يده فوقها، ولمسها بطرف سبابته، فأضيئت فجأة بضوء مبهر، شهق له الجميع، واضطر معه الملك إلى إغلاق عينيه، و(بي-دو) يواصل:

- هذا المصباح يعمل بطاقة نادرة، ولقد اشتعل الآن، ولن ينطفئ قبل مليون سنة من سنوات كوكبكم (لويند).

وأمام تلك الظاهرة المبهرة، هتف الملك أن (أحمس) مرة أخرى:

- مرحبًا بمبعوث الآلهة.

ورفع يده أمام الملك بكرة بيضاء، مرَّر يده فوقها، ولمسها بطرف سبَّابته، فأضيئت فجأة بضوء مبهر..

كان (بي-دو) يهم بقول شيء ما، عندما زاغت عيناه بغتة، ولهث بشدة، وهو يقول:

- عجبًا!.. كنا نتصور أن جو كوكبكم يناسبنا، ولكن الواضح أن...

لم يستطع إتمام عبارته من شدة لهاثه، فأسرع يرتدي خوذته ثانية، ويضغط عدة أزرار في حزامه، فانتظمت أنفاسه إلى حد ما، وغمغم في أسى واضح:

- لقد أخطأنا ثانية.. ويا له من خطأ!

تطلع إليه الجميع في حيرة مترقبة، فشد قامته ثانية، وهو يقول للملك (أحمس):

- لم يعد لدي وقت، فليس لدي مخزون من الهواء إلا لساعة واحدة، فلم أكن أتوقع أن جوكم لا يناسب جهازي التنفسي قط..

أريد أن ألتقي بك وحدنا أيها الملك (أحمس)، فأنا أحمل لك رسالة خاصة.

لم يفهم الجميع من حديثه سوى الجزء الأخير، فالتفت الملك (أحمس) لحظة إلى مستشاريه، قبل أن يجيب:

- على الرحب والسعة يا مبعوث الآلهة.

عاد (بي-دو) إلى سفينته الفضائية، والتقط منها علبة كبيرة شفافة، حملها وهو يتجه مع الملك إلى حيث يتم اجتماعهما الخاص..

ولا أحد يدري ما الذي دار في ذلك الاجتماع بالضبط.

لقد ظلا معًا لساعة كاملة أو يزيد، وبعدها خرج الملك وحده، وهو يقول في أسى واضح:

- مهمة مبعوث الآلهة انتهت، وكذلك حياته..

اتسعت العيون كلها في دهشة وانبهار، وامتلأت نفوسهم بالحيرة، وحاول بعضهم سؤال الملك (أحمس) عما حدث في ذلك الاجتماع المغلق، إلا أنه لم يفصح عن هذا قط..

كل ما فعله هو أن أمر بمعاملة جثة (بي-دو) معاملة الملوك، وتحنيطها بأفضل الأساليب الممكنة، وإقامة قداس جنائزي مناسب لها..

وتم تنفيذ أوامر الملك بمنتهى الدقة..

وبعد أربعين يومًا بالتمام والكمال، أقيمت جنازة فخمة كبيرة للكائن (بي-دو)، وتم وضعه داخل تابوت خاص، ودفنه في مقبرة ملكية، مع أوانٍ كانوبية تحمل وجهه، ووضع معه كل ما حوته سفينة الفضاء التجريبية، التي أتى بها إلى الأرض، ثم أغلقت مقبرته في إحكام، ووضعت عليها حراسة مشددة، لمنع اللصوص والمغامرين من نهبها..

أما ذلك الصندوق الشفاف، والمصباح الذي لا ينطفئ أبدًا، فقد تم وضعهما داخل صندوق كبير، محكم الإغلاق، ازدان بنقوش تروي القصة كلها، وفوقه أقيم أروع نموذج عرفه التاريخ لمركب شمس..

وفي حزم واضح، أصدر الملك (أحمس) أوامره بالحفاظ على الصندوق ونموذج مركب الشمس، حتى تحين اللحظة المناسبة لفتحة، وإخراج محتوياته..

ولقد أصدر الملك (أحمس) أوامره بهذا، وفاء لوعد قطعه على نفسه، أمام (بي-دو)، وإن كان يجهل متى يمكن أن تحين تلك اللحظة المناسبة..

يجهل هذا تمامًا.

☆ ☆ ☆

2- اللغز..

النوبة..

شتاء عام 1959م..

ارتدي الحاج (جمال): كبير النوبيين جلبابه الأبيض النظيف، بعد عودته من حقله، مع غروب الشمس، وخرج يستنشق الهواء النقي، في تلك الفترة من السنة، وهتف ينادي ابنه البكر (محمد)، قائلًا:

- قل لأمك أن تعد لنا أقداح الكركديه، فالرجال على وشك الوصول..

كان يستعد لاستقبال رجال القرية، الذين اعتادوا قضاء أمسياتهم في الساحة الكبيرة أمام داره، لمناقشة أمورهم، وعرض مشكلاتهم عليه، بصفته كبيرهم، وأكثرهم حكمة ووقارًا، ورجاحة عقل.

وكعادته، حمل وجهه الأسمر الكلثومي ابتسامة عذبة مشرقة، ما أن يقع بصرك عليها، حتى تقع في هواه على الفور..

وفي هدوء، جلس الحاج (جمال) على مصطبة من مصاطب الساحة، يراقب غروب الشمس، ليؤدي صلاة المغرب، ويستعد لاستقبال الرجال، و..

«يا حاج (جمال).. يا حاج (جمال)..»

قطع الصياح تسلسل أفكاره، وانتزعه من نشوته الدائمة، وهو يشاهد غروب الشمس، فانتفض في مجلسه، وهتف:

- ماذا هناك؟.. ماذا حدث؟!

وقع بصره على عدد من شباب القرية، يهرعون إليه في انفعال واضح، فهب لاستقبالهم، وهو يسأل مجددًا:

- ماذا حدث يا شباب؟

أجابه أحدهم، وهو يشير إلى الجبل القريب:

- غريب يا حاج (جمال).. غريب دخل القرية.

هتف الرجل في دهشة:

- غريب؟!..

ثم اندفع خلف الشبان، يعبر شوارع القرية المنتظمة المستقيمة، حتى فوجئ أمامه برجل أحمر الوجه، أشقر الشعر، أزرق العينين، يبدو من هيئته وثيابه الرثة أنه خاض أهوالًا، قبل

أن يصل إلى القرية، وخاصة مع قدميه المتورمتين، اللتين يجرهما خلفه جرًا، وشفتيه المتشققتين، وهو يغمغم بصوت مبحوح مشروخ، ولكنته أجنبية واضحة:

- ماء.. أريد جرعة ماء.

قالها، وتهاوي جسده كله دفعة واحدة، فقفز الحاج (جمال) يلتقطه بين ذراعيه، وهو يهتف:

- أحضروا الماء بسرعة.

تعاون معه بعض شباب القرية، في حمل الرجل إلى الساحة، في حين أسرع البعض الآخر يحضر الماء، وهم بسقي الرجل، ولكن الحاج (جمال) أشار إليه، قائلًا:

- بلل شفتيه فحسب.. لو شرب الماء دفعة واحدة ستتأذى معدته كثيرًا.

استقبل الرجل قطرات الماء، التي تبلل شفتيه، في لهفة شديدة، وحاول اختطاف الوعاء من الشاب الذي يسقيه، وإفراغه كله في جوفه، ولكن الحاج (جمال) ربت عليه مهدئًا، وهو يقول:

- مهلًا يا رجل.. مهلًا.. تماسك قليلًا، وسنسقيك الماء كله.

التفت إليه الرجل بعينين زائغتين، وهو يقول بالإنجليزية، في لهجة أمريكية خالصة:

- لقد.. لقد رأيتها.

كانت معرفة الحاج (جمال) بالأمريكية محدودة، ولكنه فهم ما يعنيه الرجل، فسأله في حيرة:

- رأيت ماذا؟

ارتجفت سبابة الرجل، وهو يشير بها، قائلًا في تهالك:

- الشمس.. رأيت الشمس تشرق في قلب الصندوق القديم، رأيت الـ...

كان هذا آخر ما فهمه الحاج (جمال) من كلمات الرجل، الذي اندفع يتحدث ويتحدث في حرارة، وبكلمات مضطربة، تضاعفت معها صعوبة تفسيرها، وعيناه تتسعان وتتسعان في ذعر، ثم لم يلبث أن أخذ يلهث، ويلهث، فانعقد حاجبا الحاج (جمال) في قلق، وهو يقول:

- رويدك يا رجل.. حالتك لا تحتمل كل هذا الانفعال.

امتقع وجه الرجل في شدة، ولكنه لم يتوقف عن الحديث، ودس يده في جيب سترته الممزقة، وأخرج رقعة من الجلد، مد بها يده إلى الحاج (جمال)، وهي ترتجف في شدة، فالتقط الحاج رقعة الجلد، وهو يقول:

- حسنًا.. حسنًا.. سأحتفظ بها، ولكن اهدأ.. حالتك تتدهور بشدة، بسبب انفعالاتك الجارفة هذه..

ازدرد الرجل لعابه في صعوبة، فأسرع الحاج يبلل شفتيه، ويصب بينهما بضع قطرات من الماء، تلقفها الرجل في لهفة، قبل أن يقول بعينين زائغتين:

- الشمس.. عرفت موضع شمس (أحمس).

ردد الحاج في دهشة:

- (أحمس)؟!

ولم يكن ينطقها، حتى أطلق الرجل شهقة عنيفة، واتسعت عيناه عن آخرهما، ثم انهار فجأة، وفاضت روحه من جسده..

وبذل الحاج (جمال) وشباب القرية قصارى جهدهم، في محاولة لإسعاف الرجل أو إنقاذه، ثم تبين لهم أنه لقي مصرعه بالفعل، ولم يعد هناك ما يمكنهم فعله من أجله، فخفض الحاج (جمال) عينيه في أسى، وهو يقول:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾..

هيا يا شباب.. سنبلغ أقرب نقطة شرطة، ونخلي مسئوليتنا من الموقف كله.

تطوع بعض الشباب للذهاب إلى نقطة الشرطة، في حين تطلع الحاج (جمال) إلى الرقعة الجلدية التي أعطاه إياها الرجل قبل موته، والتي حوت بعض الأرقام والرموز باللغة الإنجليزية، وتساءل في حيرة: لماذا كان اهتمامه الشديد بها، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة..

وعلى الرغم من أنه راجع الرموز أكثر من عشر مرات، فقد بدا له الأمر أشبه بلغز..

لغز غامض..

☆ ☆ ☆

القاهرة..

صيف 1990م..

أطلق الرسام الصحفي (أحمد ضرغام) زفرة حارة، من أعمق أعماق قلبه، وهو يلقي ريشته على سطح مكتبه، ويتراجع بمقعده في حنق، متطلعًا إلى جهاز تكييف الهواء القديم في حجرته، قائلًا:

- كنت أتوقع منك هذه النذالة، فحرارة الجو تتجاوز الأربعين درجة مئوية، وأنت تختار هذا اليوم بالذات لتتوقف عن العمل.

ثم التقط سماعة الهاتف الداخلي للمجلة، وقال في غضب:

- أين عامل قسم الصيانة؟!.. إنني أتصل به منذ ساعة كاملة، لإصلاح جهاز التكييف، ولم يأت حتى الآن!

أحنقه أن يسمع بعض التبريرات التقليدية السخيفة، ردًا على سؤاله، فأنهى الاتصال في حنق، دون أن يكرر مطلبه، وزفر مرة أخرى في سخط، وهو يستعيد أحداث يومه المرهق، منذ فتح عينية في الصباح الباكر.

لقد استقبله، أول ما استقبله، انقطاع المياه في المنزل، بسبب بعض الإصلاحات التي تجري في المنطقة، فغضب وثار، لأن أحدًا لم يهتم بالتنبيه على السكان، ليدخروا احتياجاتهم من الماء قبل انقطاعه، ثم لم يلبث أن أدرك عدم جدوى ثورته، فاستخدم زجاجة من زجاجات الماء البارد في البراد، لغسيل وجهه، وإعداد قدح من الشاي، ثم هبط ليستقل سيارته، إلا أنها

فاجأته بأن بطاريتها قد استغرقت في سبات عميق، ورفضت النهوض منه، على الرغم من تعاون بعض المارة معه في دفع السيارة، مما اضطره إلى أن يستقل واحدة من سيارات الأجرة، للوصول إلى المجلة، ولكن السائق اتخذ مسارًا طويلًا، لينهي بعض أعماله الشخصية، فوصل إلى مقر المجلة متأخرًا، واحتمل في حنق تأنيب رئيس القسم الفني له، وتذكيره إياه بأنه من المفترض أن يتم تسليم عدد المجلة إلى المطبعة في المساء، وأنه لم ينته من لوحة الغلاف بعد..

وعندما صعد إلى مكتبه، ليضع اللمسات الأخيرة للوحة، توقف جهاز تكييف الهواء عن العمل، وأصبحت الحجرة أشبه بفرن صغير لا يطاق..

وعلى الرغم من هذا، فقد أنهى لوحة الغلاف، واتصل بسكرتير التحرير، ليرسل من يتسلمها، ثم أخذ يجمع حاجياته، وقد قرر الذهاب على الفور إلى النادي، والغوص في حوض السباحة، حتى غروب الشمس..

وبينما انهمك في وضع أشيائه في حقيبته، سمع طرقًا على باب مكتبه، فقال دون أن يلتفت إليه:

- ادخل.

سمع صوت الباب يفتح، ووقع أقدام تدلف إلى الحجرة، فقال بسرعة:

- اللوحة على المكتب يا عم (حسن).. اذهب بها إلى الأستاذ (فريد)، وقل له: إن الخلفية تحتاج إلى خمسين في المائة أزرق صرف، و..

قاطعه صوت ضاحك، يقول:

- لست عم (حسن) يا أستاذ (أحمد).

التفت في سرعة إلى مصدر الصوت الأنثوي الرقيق، ووقع بصره على زميلته (ليلى)، التي يميل إليها كثيرًا، وبصحبتها رجل أسمر البشرة، ممتلئ الوجه، على الرغم من نحول جسده الواضح، يرتدي حلة قديمة، بدا من الواضح أنه يحرص على تنظيفها والعناية بها جيدًا، وقميصًا ناصع البياض، بدأت أطراف ياقته في التآكل على نحو ما..

ولثانية أو ثانيتين، ظل (أحمد) يحدق في الرجل والفتاة، التي خفتت ابتسامتها، وهي تقول في شيء من القلق:

- هل أزعجك حضورنا، دون موعد سابق؟

هتف في حرارة:

- مطلقًا.

وأسرع يجذب مقعدًا، ويدعوها إلى الجلوس، مستطردًا:

- المكتب يزداد بهاء، كلما شرفته بزيارتك يا آنسة (ليلى)..

استعادت ابتسامتها العذبة، وهي تقول في مرح:

- آه.. مجامل أنت دائمًا.

ثم قدمت له الأسمر، مستطردة:

- الأستاذ (نجيب صديق) من النوبة.

صافحة في حرارة، مجاملةً لها، ودعاه إلى الجلوس بدوره، وهو يتطلع إليها متسائلًا، فأكملت بابتسامة كبيرة:

- الأستاذ (نجيب) طلب مقابلتك بالتحديد، لأمر يخص العمل.

- سأل في دهشة:

- أي عمل؟!

هزت كتفيها، مجيبة:

- ليست لدي أدنى فكرة.. هو سيخبرك.

استدار (أحمد) إلى النوبي بنظرة متسائلة، فتنحنح هذا الأخير في حرج، وقال في لهجة مهذبة للغاية:

- إنه أمر يتعلق برسم بعض الآثار.. إحم.. قطعة واحدة من الآثار بالتحديد.

ساوره الشك، وهو يغمغم:

- قطعة واحدة من الآثار؟!

ثم صمت لحظة، تطلع خلالها إلى وجه النوبي، الذي بدا له بسيطًا مباشرًا، على الرغم من ارتباكه الواضح، فسأله في اهتمام:

- ولماذا أنا بالتحديد؟

ازدرد النوبي لعابه، في محاولة للسيطرة على خجله وارتباكه، قبل أن يجيب:

- العدد قبل السابق من المجلة، كان يحوي موضوعًا عن الآثار المصرية القديمة، زينته أنت ببعض الرسوم الدقيقة الجميلة، التي جذبت انتباهنا بشدة، فوجدنا معها أنك الشخص المناسب لما ننشده بالضبط.

ردد في حيرة قلقة:

- لما تنشدونه؟!

ارتبك النوبي أكثر، وهو يقول:

- نعم.. أنا وأصدقائي.. إننا من المهتمين بالآثار.

لم يدر لماذا راودته الشكوك بشدة في هذا الموقف كله، فتراجع في مقعده، وهو يقول في شيء من الحزم:

- أستاذ (نجيب).. الواقع أنني..

قاطعه النوبي في سرعة:

- خمسة ألاف جنيه..

ارتفع حاجبا (ليلى) في دهشة، في حين اعتدل هو في حركة حاده، هاتفًا:

- ماذا؟!

أجاب النوبي في سرعة، وكأنما يخشى لو توقف ألا يستطيع مواصلة الحديث مرة أخرى:

- سندفع لك خمسة ألاف جنيه، إلى جانب الإقامة الكاملة، مقابل الرسوم المطلوبة.

أطلقت (ليلى) صفيرًا طويلًا، ثم أكملته بضحكة مرحة، وهي تقول:

- أعتقد أنها صفقة رابحة يا (أحمد).

كانت كذلك بالفعل، إلا أنه لم يستطع مقاومة موجة الشك في أعماقه، التي تساءلت في قلق: ما الذي يدفع شابًا مثله، إلى دفع مبلغ ضخم كهذا، مقابل بعض الرسوم البسيطة، على الرغم من أنه يبدو كشخص محدود الدخل بسيط الحال؟!..

ثم أية آثار تلك التي يرغب في الحصول على رسم لها؟!..

ولماذا؟!..

ثم اعترف لنفسه بأن إغراء المبلغ يفوق كل شكوكه وقلقه، فتنهد في عمق، ومد يده يصافح النوبي، قائلًا:

- اتفقنا يا أستاذ (نجيب).

تهللت أسارير النوبي، وشد على يده في حرارة، قائلًا:

- أشكرك يا أستاذ (أحمد).. أشكرك كثيرًا.

ثم استطرد في لهفة:

- هل يمكننا الرحيل خلال ساعة؟

هتف في دهشة:

- ساعة واحدة؟!

أومأ برأسه إيجابًا، وهو يقول في لهفة:

- نعم يا أستاذ (أحمد)، فطائرة (أسوان) ستقلع بعد ساعة واحدة، وعندما نصل إلى هناك، سيكون علينا أن نستقل واحدة من سيارات الأجرة إلى قريتي، وهذا يعني أننا سنصل إليها مع الغروب بإذن الله.

عاد القلق يملأ نفسه، وهو يسأله:

- هل تريدون الرسوم بهذه السرعة؟

أومأ برأسه إيجابًا، وازدرد لعابه في صعوبة، دون أن ينبس ببنت شفة، فغمغم (أحمد):

- في هذه الحالة، لا بأس.

تهللت أساريره مرة أخرى، وهو يعود للشد على يده، قائلًا:

- سنلتقي بعد ساعة واحدة في المطار إذن.

وأسرع يغادر المكتب، فابتسمت (ليلى)، قائلة:

- أهنئك.. لو أنني في موضعك لما خسرت صفقة كهذه أبدًا.

حاول أن يبتسم لعبارتها، إلا أنه عجز حتى عن مجاملتها، وعقله يدرس الأمر مرة أخرى، ويتساءل عما يعنيه هذا اللغز!...

ولكن عقله لم يتوصل إلى جواب..

أي جواب.

☆ ☆ ☆

على الرغم من أن الرحلة بالطائرة لم تستغرق أكثر من ساعات محدودة، من (القاهرة) إلى (أسوان)، إلا أن الرحلة بالسيارة، من (أسوان) إلى تلك القرية النوبية، استغرق أضعاف هذا الوقت، حتى أن (أحمد) شعر بإرهاق شديد، وكاد يلعن تلك اللحظة، التي وافق فيها على هذا العمل، ولم يحتمل الاحتفاظ بشعوره هذا في أعماقه، فهتف محنقًا:

- متى نصل إلى القرية؟.. غدًا مساءً؟

ابتسم النوبي، وهو يجيب بأسلوبه الشديد التهذيب:

- بل سنصل بعد دقائق معدودة.. اطمئن.

ابتلع (أحمد) غضبه وحنقه، وعقد ساعديه أمام صدره، وهو يزفر في سخط، حتى لاحت أضواء القرية من بعيد، والسيارة تتجه نحوها. مع مغيب الشمس..

وارتفع حاجبا (أحمد) في دهشة، والسيارة تدلف إلى القرية..

لقد كانت واحدة من القرى القليلة، التي لم يدخلها التيار الكهربي بعد، والتي مازالت تعتمد في الإضاءة على المشاعل، والمصابيح الزيتية القديمة. وعلى الرغم من هذا، فقد كانت منازلها نظيفة، وطرقاتها شبه ممهدة، بأحجار تم صفها بعناية، كما انتشرت الأشجار والمزروعات في كل مكان، على نحو أضفى على المكان جمالًا وأناقة من طراز خاص..

وفي لهجة تحمل كل الفخر والزهو، قال النوبي:

- هذه قريتي.

لاحظ (أحمد) أن شباب القرية قد وقفوا أمام منازلهم على الجانبين، وكأنهم لجنة استقبال خاصة، لم ينبس أي من أفرادها ببنت شفة، والسيارة تمرق بينهم في سرعة، متجهةً إلى ساحة كبيرة، وقف فيها عدد من شيوخ ورجال القرية، على رأسهم شيخ وقور، هادئ الملامح، أشيب الشعر، ممتلئ الوجه، يرفل في جلباب ناصع البياض، ويشع من عينيه بريق واضح، يشف عن ذكاء بلا حدود..

وأمام ذلك الوقور مباشرة، توقفت السيارة، فأسرع (نجيب) يغادرها، ويتجه نحو الشيخ، قائلًا في احترام شديد:

- لقد أحضرته يا حاج.

ابتسم الحاج ابتسامة هادئة عذبة، وهو يربت على كتفه، ثم التفت إلى (أحمد)، الذي غادر السيارة، وقال له في هدوء وقور:

- أهلًا بك بيننا يا ولدي.

شعر (أحمد) بمهابة الرجل تتسلل إلى أعماقه، فتقدم منه يصافحه، قائلًا:

- أشكرك يا والدي.. أشكرك.

منحة الحاج نفس الابتسامة العذبة، وقال:

- هيا بنا.. أظنك في حاجة إلى قسط من الراحة، بعد رحلتك الطويلة..

قاده إلى منزله، مع عدد من رجال القرية، وسرعان ما امتدت موائد عامرة بالطعام والشراب، فأكل (أحمد) حتى ملأ معدته، وشرب حتى ارتوى، ثم جاءت أقداح الشاي، فراح يرتشف قدحه في بطء، وهو يسأل الحاج:

- قل يا حاج: ما تلك الآثار، التي تريدون رسمها بالضبط؟

صمت الرجال جميعًا، عندما ألقى سؤاله، وران على المكان صمت رهيب، حتى خُيل إليه أن عبارته حملت شيئًا من السباب أو الإهانة، فتمتم قاطعًا ذلك الصمت:

- هل أخطأت بسؤالي؟

ابتسم الحاج، وهو يجيب:

- مطلقًا يا ولدي.. مطلقًا.

اندفع أحد الرجال يقول شيئًا ما، بلغة النوبيين، التي لا يفهمها سواهم، وأضاف رجل آخر عبارة أو عبارتين إلى حديث زميله،

فانعقد حاجبا الحاج في صرامة، وزجرهما بعبارة حملت لهجة صارمة، قبل أن يلتفت إلى (أحمد)، قائلًا:

- هل تحب رؤية ما سترسمه الآن، أم أنك تفضل أن تحظى بقدر من النوم والراحة أولًا، ثم تراه في الصباح؟

تنهد (أحمد)، وهو يجيب:

- لست أعتقد أن الفضول سيمنحني دقيقة واحدة، أنعم خلالها بالنوم، لو انتظرنا حتى الصباح.

ابتسم الحاج، وهو يقول في رصانة:

- كنت أتوقع هذا.

ثم تلاشت ابتسامته، وهو يضيف في حزم:

- ولكن هذا الأمر سيجشمك بعض المشقة.

أجابه (أحمد) في حماس:

- أنا لها.

صمت الحاج بضع لحظات، ثم قال في رصانة حازمة:

- لا بأس.. سنذهب على بركة الله.

لم يكد ينطقها، حتى أخرج أحد الحاضرين من جيبه عصابة سوداء، واستعد ليخفي بها عيني (أحمد)، الذي هتف منزعجًا:

- ما هذا؟!.. ماذا ستفعل يا رجل؟

أجابه الحاج:

- اطمئن يا ولدي.. إنه إجراء وقائي فحسب.. لا تقلق، ولكن من الضروري أن تعصب عينيك.. ثق بنا.

تردد (أحمد) لحظة، ثم سمح لهم بتعصيب عينيه، وبعدها تركهم يقودونه عبر دروب عجيبة، فتارة يصعدون، وتارة يهبطون، ويتسلقون الصخور مرة، ثم ينحدرون عليها مرة أخرى، ويسيرون على أرض ممهدة لبضع دقائق، ثم يمتلئ دربهم بعدها بالحصى والأحجار، حتى يصبح الانتقال من خطوة إلى أخرى أمرًا عسيرًا شاقًا..

ولثوان، جال بخاطر (أحمد) أنهم يصطحبونه إلى مكان ما للتخلص منه، ثم لم يلبث أن طرح الفكرة جانبًا، وهو يقنع نفسه بأنهم لم يكونوا في حاجة إلى كل هذا، فلو قتلوه في أي مكان داخل قريتهم، لما شعر بهم مخلوق واحد..

وأخيرًا، انتهت الرحلة..

وفي هدوء، قال الحاج:

- وصلنا يا ولدي.. يمكنك رفع العصابة عن عينيك..

أزاح (أحمد) العصابة عن عينيه في لهفة، فبهره ضوء المشاعل التي يحملها الرجال للوهلة الأولى، ثم لم تلبث عيناه أن اعتادتا الضوء، فاتضحت له معالم المكان الذي يقف فيه..

وهنا اتسعت عيناه في انبهار كامل.

فقد كان ما يراه أمامه مدهشًا.

مدهشًا بحق.

☆ ☆ ☆

3- بردية (أحمس)..

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت السابعة والنصف صباحًا بعد، عندما ظهرت سيارة عالم الآثار الأمريكي (جون بيشوب)، وهي تنطلق فوق رمال الصحراء، في طريقها إلى موقع التنقيب، على بعد كيلومترين فحسب من مدينة (أسوان)، ولم تمض دقائق معدودة، حتى توقفت سيارته (الجيب) عند موقع الحفر، وقفز هو منها في نشاط، على الرغم من سنوات عمره، التي تجاوزت الخامسة والخمسين بشهر وبضعة أيام، واتجه نحو العمال، الذين بدءوا عملهم كالمعتاد، مع مطلع الشمس تحاشيًا لارتفاع درجات الحرارة الشديدة، مع انتصاف النهار، وسأل رئيسهم في اهتمام بالغ:

- هل عثرتم على شيء ما اليوم؟

هز رئيس العمال رأسه نفيًا، وهو يجيب بالإنجليزية:

- ليس بعد يا دكتور (بيشوب).. المصطبة الحجرية، التي عثرنا عليها أمس، لم تكن سوى مقبرة لم تكتمل، والدكتور (فؤاد) قال: إنها لا تساوي شيئًا.

سأله (بيشوب) في اهتمام:

- ألم يكن عليها نقوش؟

عاد رئيس العمال يهز رأسه نفيًا، وهو يجيب:

- مطلقًا.

مط الأمريكي شفتيه في ضيق، وزفر في توتر، وهو يدس كفيه في جيبي سرواله القصير، ويسير فوق الرمال شاردًا وعيناه تحدقان

في اللامكان، حتى سمع صوت عالم الآثار المصري الدكتور (فؤاد)، وهو يقول:

- صباح الخير يا دكتور (بيشوب).. معذرة لأنني لم أحضر لاستقبالك على الفور، فقد كنت منهمكًا في دراسة بعض الخرائط القديمة في خيمتي.

التقت إليه (بيشوب)، مغمغمًا في شرود:

- لا بأس.. لا بأس.

ثم سأله في اهتمام:

- ألم ترشدك تلك المصطبة الفرعونية، التي عثرنا عليها أمس، إلى أي شيء، يمكن أن يقودنا إلى نموذج مركب الشمس؟

هز الدكتور (فؤاد) رأسه نفيًا، وقال:

- إنها ليست مصطبة مكتملة، بل مجرد باب مقبرة لم يكتمل.. أنت تعرف أن هذه المنطقة كانت أحد المحاجر، التي اعتمد عليها قدماء المصريين، للحصول على أحجار المقابر والبناء.

وصمت لحظة، قبل أن يضيف في تردد:

- ثم إنني لا أثق كثيرًا بوجود ذلك النموذج، الذي تتحدث عنه.

قال (بيشوب) في حدة:

- بل هو موجود.. أنا واثق من هذا.. ربما لا يكون هنا، ولكنه موجود حتمًا في مكان ما.

هز الدكتور (فؤاد) رأسه، قائلًا:

- لست أقصد وجوده هنا، أو في مكان آخر، وإنما أعني وجوده على الإطلاق.. إنني لم أقرأ أو أسمع في حياتي عن نموذج لمركب

من مراكب الشمس، مصنوع من الخشب والذهب، ومرصع بالأحجار الكريمة، وقاعدته عبارة عن صندوق مغلق، من وضع في رأسك أن مثل هذا الشيء موجود؟

هتف (بيشوب) في غضب:

- إنه موجود.. بردية (أحمس) تؤكد أنه موجود.

مط الدكتور (فؤاد) شفتيه، وهو يقول:

- حتى بردية (أحمس) هذه لم أسمع عن وجودها قط.

قال (بيشوب) في انفعال:

- ولكنني رأيتها بنفسي، في قسم الوثائق السرية، في المتحف البريطاني.. إنها واحدة من أكثر البرديات ندرة في العالم.. لقد أملاها (أحمس) بنفسه على كاتبه الخاص، ليصف فيها حادثة فريدة من نوعها، تقول: «إن مبعوثًا إلهيًا هبط من السماء، ومنح (أحمس) صندوقًا يحوي كل أسرار الكون، وشمسًا لا تنطفئ أبدًا، وبعدها مات.» ووضع (أحمس) صندوق الأسرار والشمس الصغيرة في صندوق، يزين غطاءه نموذج لمركب من مراكب الشمس، مصنوع من الخشب والذهب، ومرصع بالأحجار

الكريمة، إشارة إلى أن ذلك المبعوث جاء من وراء الشمس، ورافقها في رحلتها من الشرق إلى الغرب، ثم أحضر قطعة منها إلى الأرض.

ابتسم الدكتور (فؤاد)، وهو يقول:

- ألا تبدو لك القصة خيالية أكثر مما ينبغي؟!.. من الواضح أنها مجرد قصة رمزية، تشير إلى أن الآلهة كانت راضية عن انتصارات (أحمس)، وتبارك كل خطوة من خطواته، وليس من الضروري أن تكون الأحداث واقعية كما تتصور.. ثم لماذا لم نجد أي أثر لهذه القصة، على جدران المعابد، أو المقابر، أو حتى في برديات أخرى؟

أجابه (بيشوب) في انفعال:

- لأنه كان من المحظور تداولها، طوال عهد الأسرة الثامنة عشرة، وبعدها نسيها الكل، ولم يعد هناك من يذكرها، أو يشير إليها، ولولا بردية (أحمس) لما شعرنا بوجودها.

هز الدكتور (فؤاد) رأسه بعدم اقتناع، وهو يقول:

- ما زلت أعجز عن تصديق هذا أو الاقتناع به؛ فأنت تعلم أن القصة ذات المصدر الواحد لا يعتد بها كثيرًا في عالم التنقيب عن الآثار.

شد (بيشوب) قامته في عناء، وهو يقول:

- ولكن لدي ما يدعم قصتي.

سأله الدكتور (فؤاد) في اهتمام:

- أخبرني به إذن.

أجابه في حزم:

- لست أول من اطلع على بردية (أحمس)، وإنما طالعها منذ ما يزيد قليلا على الثلاثين عامًا، والدي وخالي، ولقد رفضها والدي، مثلما رفضتها أنت، ولكن خالي تحمس كثيرًا للفكرة، حتى أنه باع جزءًا كبيرًا من أملاكه في (انجلترا)، وجاء إلى هنا، وقضى ثلاثة أعوام في البحث والتنقيب، ثم فوجئنا به يبرق إلينا في (أمريكا)، مؤكدًا أنه عثر أخيرًا على صندوق الشمس، كما نطلق عليه، وأنه في طريقه إلى فحصه، وبعدها اختفى خالي لستة أشهر كاملة، ثم أبلغتنا السلطات أنه لقى مصرعه هنا، بالقرب من (أسوان).

انعقد حاجبا الدكتور (فؤاد) في شدة، وهو يقول:

- وما الذي يمكن أن يثبته هذا؟.. ربما أوهم أحدهم خالك بأنه يعرف موضع صندوق الشمس، ثم خدعه، أو لجأ إلى قتله؟ ليستولي على أمواله.

قال (بيشوب) في حدة:

- من المستحيل أن يعلن خالي أنه عثر على صندوق الشمس، دون أن يكون واثقًا من قوله تمام الثقة.. لقد كان رجلًا بالغ الدقة، في كل ما يقوله أو يفعله.

تنهد الدكتور (فؤاد)، وهو يقول:

- مازالت مجرد قرينة غير علمية.

بدا الغضب لحظات على وجه (بيشوب)، قبل أن يقول فجأة في حماس:

- وماذا عن الكوكب العاشر؟

ارتفع حاجبا الدكتور (فؤاد)، وهو يردد في دهشة:

- الكوكب العاشر؟!..

أجابه الدكتور (بيشوب)، وحماسه يتزايد:

- نعم، فبردية (أحمس) تشير إلى أن مبعوث الآلهة حدد له الموقع الذي جاء منه، وقال: إنه يقع ما بين الكوكب الأحمر والكوكب الكبير، وأنه يحمل اسم (نيوتس)، وكل فلكي يعرف أن الكوكب الأحمر هو (المريخ)، أما الكوكب الكبير فهو (المشتري).

سأله الدكتور (فؤاد) في تردد حذر:

- وما الذي يعنيه هذا؟

أجابه (بيشوب) في انفعال:

- يعني أن مبعوث الآلهة أخبر (أحمس) بموضع الكوكب العاشر، قبل نظرية الكويكبات بأكثر من ثلاثة آلاف عام.

تضاعف حذر الدكتور (فؤاد) وتوتره، وهو يسأله:

- وما نظرية الكويكبات هذه؟

أجابه بحماس شديد:

- الكويكبات هي كواكب صغيرة، تقع مساراتها بين (المريخ) و(المشتري) وتتراوح أقطارها بين كيلومتر واحد و(272) كيلو مترًا، والعلماء يعرفون منها ألفًا وخمسمائة كويكب، أشهرها (سيرس) و(بالاس)، و(يونو)، ويعتقدون أنها تكونت نتيجة انفجار كوكب عاشر، كان مداره يقع بين (المريخ) و(المشتري).

بدا مزيج من التردد والحيرة على وجه الدكتور (فؤاد)، وحاول لبضع لحظات أن يهضم نظرية الدكتور (بيشوب)، إلا أنه لم يلبث أن هز رأسه، مغمغمًا في حذر:

- ينبغي أن أقرأ نظرية الكويكبات هذه أولًا.

ضم (بيشوب) شفتيه في غضب، قبل أن يقول:

- لا فائدة.

ثم اتجه نحو سيارته، وهو يلوح بيده، قائلًا:

- أنا عائد إلى (أسوان).. هل تصحبني؟

سأله (فؤاد) في دهشة:

- وماذا ستفعل الآن في (أسوان)؟

قفز داخل السيارة، وأدار محركها، قبل أن يجيب:

- لدى موعد مع رئيس المدينة، لمعرفة ما أحاط بموت خالي، منذ ثلاثين عامًا تقريبًا.

هز (فؤاد) كتفيه، ومط شفتيه، وهو يغمغم:

- سيدهشني أن تجد لديهم ما يفيدك، بعد كل هذه السنين!

لم يعلق (بيشوب)، وهو ينطلق بسيارته مبتعدًا، ومغمغمًا:

- لا فائدة.. لن يصدقني أحدهم قط، إلا لو عثرت على صندوق الشمس هذا.

قالها، وضغط دواسة الوقود، لتزداد سرعة السيارة أكثر وأكثر، وتثير خلفها عاصفة هوجاء من الرمال، لم ينتبه إليها، والأفكار في رأسه تغلي..

وتغلي..

وتغلي..

☆ ☆ ☆

لم تكن ليلة (أحمد ضرغام) هادئة أو بسيطة أبدًا، ولم يستغرق في نوم عميق، كما كان من المفترض، بعد الرحلتين الشاقتين، اللتين قطعهما أمس..

لقد امتلأت ليلته بكوابيس لا حصر لها، رأى خلالها نفسه داخل مقبرة فرعونية قديمة، تمتلئ جدرانها بنقوش لشخص أخضر البشرة، أزرق الشعر، يقف وسط كرة من اللهب، يشع منها ضوء مبهر، يكاد يغشي الأبصار..

وكان يبذل قصارى جهده للخروج من المقبرة المغلقة..

ويصرخ..

ويصرخ..

ولكن صرخاته لم تتجاوز حلقه قط..

كان شيء ما يخنقها في أعماقه، ويمنعها من الانطلاق من بين شفتيه..

وفجأة، لم يعد ذلك الشخص الأخضر مجرد نقش على الجدار..

لقد خرج من صورته، وهبط على قدميه، وسط المقبرة القديمة..

وعندئذ تحولت النقوش إلى أشكال أخرى..

لقد أصبحت كلها عبارة عن نقش مكرر لـ (أحمد)، وهو يدق باب المقبرة بقبضتيه، في محاولة للفرار من كرة اللهب، التي يدفعها صاحب البشرة الخضراء نحوه..

وكما يحدث في النقش، اندفع (أحمد) نحو باب المقبرة، وراح يدقه بقبضتيه في ذعر، على أمل أن يسمعه أحد..

وكان لدقاته دوي هائل، يكاد يصم أذنيه، و...

«استيقظ يا ولدي..»

اخترق صوت الحاج أذنيه بغتة، فانتفض جسده في عنف، وهو يهب جالسًا على فراشه، ويحدق في الوجه الأسمر الهادئ، قبل أن يطلق من أعمق أعماق صدره زفرة حارة، قائلًا:

- صباح الخير يا حاج.. معذرة، فقد كنت أعاني كابوسًا ثقيلًا.

أومأ الحاج برأسه متفهمًا، وهو يقول في هدوء:

- كان هذا واضحًا في أنفاسك المتلاحقة، وتقلباتك العنيفة، ولهذا أيقظتك.

تنهد في عمق، وتطلع مرة ثانية إلى وجه الحاج، قبل أن يقول في توتر ملحوظ:

- هل تعلم!.. لثوان، كدت أتصور أن كل ما حدث أمس، كان جزءًا من الكابوس.

ابتسم الحاج، قائلًا:

- الجزء الخاص بالمقبرة، والصندوق، ونموذج مركب الشمس كان حقيقيًا..

لم يكن لدى (أحمد) أدنى شك في هذا، ولكن حاجبيه انعقدا، وهو يقول:

- ذلك النموذج حقيقي.. أليس كذلك؟

أومأ الحاج برأسه إيجابًا، دون أن ينبس ببنت شفة، فازداد انعقاد حاجبي (أحمد)، وهو يقول:

- هل أبلغتم هيئة الآثار بشأنه؟

هز الحاج رأسه نفيًا، وهو يجيب في هدوء:

- كلًا بالطبع.

سرى التوتر في جسد (أحمد)، وهو يقول:

- هل تعلمون أن هذا مخالف للقانون؟!.. إنكم تحتفظون بتحفة أثرية مدهشة، لا مثيل لها، حتى بين آثار (توت عنخ - آمون)، وطبقًا لقانون حماية الآثار، يعتبر هذا جريمة، و...

أشار إليه الحاج بيده، قائلًا بهدوئه المثير:

- مهلًا يا ولدي، لا تخلط بين العدل والقانون، فليس من الضرورة أن ينطوي القانون على العدل.

انعقد حاجبا (أحمد)، وهو يقول:

- وكيف هذا؟

أجابه الحاج في هدوء:

- القانون الإلهي وحده يحمل العدل المطلق، مع كل حرف من حروفه.

انعقد حاجبا (أحمد) في شدة، وهو يقول:

- ما الذي يعنيه هذا التلميح بالضبط؟

ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتي الحاج، وهو يجيب:

- لا يعني شيئًا يا ولدي.. لا يعني شيئًا.

ران عليهما الصمت لحظات، وكل منهما يتطلع إلى عيني الآخر مباشرة، قبل أن يقول (أحمد)، في شيء من العصبية:

- أنتم تسعون لبيع هذا النموذج.. أليس كذلك؟

لم يجب الحاج، وهو يتطلع إليه في صمت، وابتسامته الهادئة لا تفارق شفتيه، فتابع (أحمد) في عصبية أكثر:

- لن أشارك في أي عمل مخالف للقانون.

قال الحاج بهدوئه المستفز:

- لم يطالبك أحد بأن تفعل.

قال في حدة، وهو يجذب تجارب الرسم، التي أجراها في الليلة السابقة، ويلوح بها في وجهه:

- فيم تريدون هذه الرسوم إذن؟!.. أليست لعرضها على المشترين؟

صمت الحاج بضع لحظات، قبل أن يجيب في هدوء، يحمل الكثير من الحزم:

- هذا النموذج لدينا منذ ربع قرن يا ولدي، فما الذي منعنا من بيعه طوال هذه الفترة في رأيك؟!

حدق (أحمد) في وجهه مبهوتًا، وارتج عليه، فلم يستطع النطق بحرف واحد، فمال الحاج نحوه، وربت على ركبته، قائلًا:

- ثق بنا يا ولدي.. ثق بنا.

ونهض يغادر الحجرة، تاركًا (أحمد) خلفه، وفي أعماقه حيرة كبيرة..

حيرة بلا حدود..

☆ ☆ ☆

نهض رئيس مجلس مدينة (أسوان)، يصافح الدكتور (بيشوب) بابتسامة كبيرة، وهو يقول:

- مرحبًا يا دكتور.. أعتقد أننا توصلنا أخيرًا إلى بعض المعلومات، الخاصة بوفاة خالك (سام سيمونز).

سأله (بيشوب) في لهفة:

- هل عرفتم أين مات بالتحديد؟

أومأ رئيس مجلس المدينة برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم.. لقد لقى مصرعه في قرية من قرى النوبة، بعد أن عثر عليه سكانها في حالة مزرية، ويبدو أنه ضل طريقه لفترة وسط الصحراء. أو الجبال المحيطة بهم، ولقد أبلغوا أقرب نقطة شرطة إليهم بالأمر، فأرسلت أحد الجنود، مع طبيب صحة المنطقة، ووضع الطبيب تقريرًا حول سبب الوفاة، ثم غادر المنطقة مع الجندي وجثة خالك، التي تم شحنها إلى أسرته في (إنجلترا).

سأله (بيشوب) في لهفة.

- وماذا عن متعلقاته؟

ألقى رئيس مجلس المدينة نظرة على الأوراق أمامه، قبل أن يجيب:

- كلها سلمها الحاج (جمال)، كبير القرية، إلى رجل الشرطة، قبل أن يغادر القرية مع الجثة.

عقد (بيشوب) حاجبيه بضع لحظات، قبل أن يسأل في اهتمام:

- وأين يمكنني العثور على الحاج (جمال) هذا؟

ألقى رئيس مجلس المدينة نظرة أخرى على الأوراق، قبل أن يقول مبتسمًا:

- أخشى أن هذا لم يعد ممكنًا.

سأله (بيشوب) في شيء من الحدة:

- ولماذا؟!

أشار رئيس مجلس المدينة بيده، قائلًا:

- الرجل كان في الخامسة والثمانين من عمره، عندما مات خالك، منذ أكثر من ثلاثين عامًا، ولو أنه مازال على قيد الحياة، فهو الآن شيخ طاعن في السن، تجاوز مائة وخمسة عشر من الأعوام، ثم إن القرية كلها لم يعد لها وجود.

سأله في دهشة:

- كيف؟!

لوح رئيس مجلس المدينة بكفه، قائلًا:

- هل تذكر مشروع إنقاذ آثار معبد (أبو سنبل)؟.. أيامها كان المعبد مهددًا بالغرق، بسبب بحيرة (ناصر)، وغرقت أيضًا بعض قرى النوبة، فتم تهجير سكانها إلى قرى بديلة، ومازالت القرى القديمة غارقة تحت مياه البحيرة حتى الآن.

ازداد انعقاد حاجبي (بيشوب)، وغرق في تفكير عميق، ران خلاله صمت مطبق على الحجرة، قطعه رئيس مجلس المدينة يقوله:

- قل لي يا دكتور (بيشوب): لماذا انتظرت ما يزيد على ثلاثين عامًا، قبل أن تبدأ البحث عن أسباب موت خالك؟

تطلع إليه (بيشوب) لحظة في صمت، وعقله يستعيد الأسباب كشريط سينمائي سريع..

فعندما مات خاله، كان هو في الرابعة والعشرين من عمره، يدرس علم الآثار في إحدى جامعات (إنجلترا) العريقة، ولقد بلغه خبر وفاة خاله دون تفاصيل، وعندما عاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وهو في السابعة العشرين من العمر، لم يبلغه والده بأي أمر يخص مصرع خاله، بل ولم يناقشا الأمر قط، طوال سنوات وسنوات..

وعندما بلغ الخامسة والأربعين، وفي أثناء زيارة خاصة المتحف البريطاني، أطلعه أمين المتحف سرًا على بردية (أحمس).

ومنذ ذلك الحين، انقلبت حياته رأسًا على عقب.

لقد كرس حياته كلها لإثبات صحة ما جاء في البردية النادرة المنفردة، والبحث عن ذلك النموذج المركب الشمس، الذي يرقد فوق أعظم أسرار الكواكب..

وعلى الرغم من دراساته التي لا تنتهي، وأبحاثه التي استغرقت عمره كله، حتى أنسته حياته الشخصية، لم يتوصل قط إلى أية نتائج، بخصوص النموذج أو الصندوق..

ثم توفي والده بأمراض الشيخوخة، عندما بلغ هو الرابعة والخمسين من عمره..

وعندما بدأ في فرز أوراق والده ومستنداته ووثائقه، عثر على برقية خاله والتي اصفرت وتهالكت، ولكنها لم تفقد كلماتها بعد..

وكاد يجن من فرط الانفعال والحماس..

إذن فالبردية صادقة..

والنموذج موجود..

موجود..

موجود..

وبكل لهفته وحماسه، باع (بيشوب) قدرًا كبيرًا من أملاكه، لتمويل حملة البحث عن النموذج في (مصر)..

ولأن البرقية كانت مرسلة من (أسوان) في (مصر)، فقد اتجه (بيشوب) مباشرة إليها، وراح يبحث، ويبحث، ويبحث..

حتى وصل إلى النقطة التي بلغها الآن..

عرف الموقع الذي لقى فيه خاله مصرعه..

وهو واثق أن لهذا الموقع دلالته..

واثق تمام الثقة..

«لماذا يا دكتور (بيشوب)؟..» انتزعه تكرار سؤال رئيس مجلس المدينة من ذكرياته، فرفع عينيه إليه، قائلًا:

- عندما يبلغ المرء مثل عمري، تتبدل الرؤية أمامه كثيرًا، ويصبح أقل عملية، وأكثر عاطفية.

ابتسم رئيس المدينة، وهو يقول:

- هل تعني أن الأسباب العاطفية وحدها، وراء كل ما تفعله؟

أومأ (بيشوب) برأسه إيجابًا، وهو يقول في حزم:

- بالتأكيد.

ثم نهض يصافح رئيس مجلس المدينة، مستطردًا:

- وأشكرك على ما بذلته من أجلي.. أشكرك كثيرًا.

وغادر مجلس المدينة، وقد اختمرت في رأسه فكرة عجيبة.

عجيبة للغاية..

☆ ☆ ☆

4- الأعماق..

اتسعت عينا الصحفية (ليلى) في دهشة عارمة، وهي تحدق في وجه (أحمد)، في حجرة مكتب هذا الأخير في المجلة، قبل أن تهتف:

- إنها أعجب قصة سمعتها، في حياتي كلها؟!.. أأنت واثق من أن ذلك النموذج حقيقي؟!

تنهد، وهز رأسه في توتر، قبل أن يجيب:

- لست خبيرًا بالآثار المصرية القديمة، إلا أنني واثق من أن المكان، الذي ذهبوا إليه، هو مقبرة فرعونية ملكية، فقد رأيت نقوشًا لخراطيش ملكية على جدرانها، ثم إن بها تابوتًا ملكيًا مغلقًا، ونقوشًا تصف رحلة صاحب المقبرة إلى الحياة الأخرى، ولكن...

بتر عبارته بغتة، وهو يهز رأسه مرة أخرى في حيرة، فسألته في فضول:

- ولكن ماذا؟!

تنهد مرة أخرى، قبل أن يجيب:

- رسم صاحب المقبرة لم يكن يشبه رسوم المصريين المعتادة!! بل هو شخص عجيب، صبغوا وجهه بلون أخضر، وشعره بلون أزرق. كما قرنوا كل رسومه بكرة من اللهب، بدت وكأنها تتبعه أينما ذهب.

انعقد حاجباها في اهتمام واضح، وهي تسأل:

- وما الذي يعني هذا في رأيك؟

- مط شفتيه، وهز كتفيه، قائلًا:

- ربما يعني أن صاحب المقبرة ليس مصريًا.

تراجعت هاتفة في حماسة:

- مستحيل!.. المصريون لن يدفنوا أجنبيًا في مقبرة ملكية مصرية!.. انت تعرف كم يقدسون الموت، وكم يضفون عليه هالات خاصة، لا يمكنهم منحها للأجانب قط.

قلب كفيه، قائلًا:

- ليس لدي تفسير آخر.

بدت عليها ملامح الاهتمام والتفكير العميق، وهي تدرس الأمر في رأسها مرات ومرات، ثم لم تلبث أن غمغمت:

- هذا الأمر يحتاج إلى رأي عالم آثار.

تطلع إليها، وهي تنطق الكلمة، وخفق قلبه في وله، وتمني لو صارحها بحبه، في هذه اللحظة بالذات، وفاض به الوجد، فنهض من مقعده، قائلًا:

- (ليلى).. إنني..

ولكنها قاطعته فجأة باهتمام شديد:

- ولكنك نقلت برسومك كل شيء.. أليس كذلك؟

أحبطته مقاطعتها، ولكنه أومأ برأس إيجابًا، وفرد اللوحات التي رسمها أمامه، وهو يجيب:

- نقلت النموذج والصندوق فحسب، ولكنهم لم يسمحوا لي برسم جدار المقبرة.

ولكنها قاطعته فجأة باهتمام شديد:

- ولكنك نقلت برسومك كل شي..

ضحكت، قائلة:

- كان ينبغي أن تخبرهم أنك ستفعل هذا دون أجر إضافي.

ابتسم لضحكتها، وهو يقول:

- بل كنت مستعدًا للتنازل عن أجري كله مقابل هذا.

سألته في اهتمام:

- بالمناسبة!.. هل أعطوك المبلغ المتفق عليه؟

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- بالتمام والكمال.. بل والأهم أنهم لم يأخذوا الرسوم..

قالت في حيرة:

- عجبًا!

وأكمل هو بابتسامة عصبية:

- لقد أدهشني هذا أيضًا، ولكن رئيسهم طلب مني الاحتفاظ بها، لحين احتياجهم إليها، وربت على كتفي، وهو يؤكد لي أنني رسام، والرسام خير من يجيد الحفاظ على الرسوم.

هزت رأسها، قائلة:

- يا للغرابة!.. عندما حضر (نجيب) النوبي إلى هنا، كان يتعجل الأمر بشدة، وعندما تنتهي أنت من وضع الرسوم، يتركونك تحتفظ بها بحجة واهية!

وصمتت لحظة، قبل أن تلتفت إليه، وتسأله في اهتمام:

- ما الذي يسعى إليه هؤلاء القوم بالضبط؟!

هز رأسه، وقال في حيرة:

- من يدري؟!

قالت في شيء من الانفعال:

- ثم لماذا احتاجوا إلى رسام؟

انعقد حاجباه، وهو يسألها في دهشة:

- ماذا تعنين؟!

أجابته بنفس الانفعال:

- لو أنهم يسعون لتسجيل ما لديهم، كان من الأجدى أن يستعينوا بمصور فوتوجرافي.

ازداد انعقاد حاجبيه في شدة، وهو يعتدل بمقعده، قائلًا:

- هذا صحيح.. الصورة أكثر سرعة ودقة، ويمكنها تسجيل تفاصيل أكبر.

غرقت معه (ليلى) في تفكير عميق، قبل أن تقول في حزم:

- هؤلاء القوم لهم أهداف أخرى بخلاف الحصول على رسم جيد للنموذج.

أجابها في حسم:

- بالتأكيد.

سألته في اهتمام:

- كيف يمكننا معرفة ما يسعون إليه في رأيك؟

قال في حيرة:

- لست أدري.. الأمر كله محاط بغموض عجيب، و...

قاطعته، وهي تهتف فجأة:

- الرسم.

قال في دهشة:

- أي رسم؟!

أجابته في حماس:

- لقد تركوا لك رسم النموذج، ومن خلاله يمكننا فهم بعض الأمور.

اعتدل يواجهها، متسائلًا:

- وكيف هذا؟!

أشارت بسبابتها، قائلة:

- انشر الرسم في المجلة.

اتسعت عيناه في دهشة مستنكرة، وهو يهتف:

- أنشره!

قالت في حماس:

- نعم.. انشر الرسم في المجلة، إلى جوار مقال عادي عن الآثار المصرية القديمة، ولنر رد الفعل.

بدا عليه التردد، وهو يقول:

- ولكن هذا ليس من حقي.. إنه رسم خاص بهم قانونًا.

ضحكت، قائلة:

- وهل يمكنهم إقامة دعوى قضائية ضدك؟

صمت لحظات، وهو يدرس الأمر في رأسه من كل الوجوه..

ثم لم يلبث أن ابتسم، مغمغمًا:

- ولم لا؟!

فقد بدت له الفكرة جيدة..

جيدة جدًا.

☆ ☆ ☆

«قبل أن تبدأ، أحب أن أؤكد لك أن ما نفعله مخالف للقانون تمامًا يا دكتور (بيشوب)..»

نطق رجل في ملابس الغوص هذه العبارة في حزم، وهو يخوض في مياه بحيرة (ناصر) في حذر، وإلى جواره (بيشوب)، في زي غوص مماثل، فألقى هذا الأخير نظرة على ساعته، التي أشارت عقاربها إلى الواحدة صباحًا، قبل أن يقول في صرامة:

- فليكن.. لقد أنذرتني ثلاث مرات، وهذا يكفي بالنسبة لرجل يتمتع بقدر ما من الذكاء.. نعم.. أعلم أن هذا مخالف للقانون، ولكنني مصر عليه، وأعتقد أن المبلغ الذي نقدتك إياه يستحق المخاطرة.. أليس كذلك؟

مط الغواص شفتيه، ووضع منظار الغوص على وجهه، وهو يقول:

- كنت أتأكد من أنك تعلم فحسب.

قالها، وغاص في مياه البحيرة.. وهو يحمل مصباحه الضخم فتبعه (بيشوب) بلا تردد، وغاص بدوره في البحيرة..

ولدقائق، واصل الاثنان رحلتهما نحو الأعماق، دون أن يتبادلا إشارة واحدة، ثم لم يلبث الغواص المحترف أن أشار بيده إلى اليسار، وهو يدير مصباحه الضخم إلى حيث يشير، فظهرت في الأعماق أطلال منازل حجرية قديمة، اتخذتها أسراب الأسماك منازل لها، فتكدست داخلها، وراحت تدور حول جدرانها المتهالكة..

وعلى نحو مباشر، اتجه الاثنان إلى تلك الأطلال الغارقة مباشرة، وأشار (بيشوب) للغواص، يسأله عن القدر الذي يمكنهما البقاء

خلاله في الأعماق، فأشار إليه الغواص بأنه لن يزيد على ساعة واحدة، وهنا أومأ (بيشوب) برأسه متفهمًا، وراح يسبح حول الأطلال الغارقة، وكأنه يبحث عن شيء ما..

وعلى الرغم من أن الغواص لم يفهم بالضبط ما يسعى إليه (بيشوب)، إلا أنه تبعه دون مناقشة، وراحا يسبحان معًا في الأعماق، ويتفقدان الصخور المحيطة بالأطلال، حتى شارفت الساعة على الانتهاء، فأشار إليه الغواص، وبدأ الاثنان رحلة العودة إلى السطح..

ولم يكد الغواص يلتقط أنفاسه، من الهواء الطبيعي النقي، حتى سأل (بيشوب) في اهتمام:

- هل عثرت على ما كنت تبحث عنه؟!

أجابه (بيشوب) في شيء من العصبية:

- كلًا.

تلفت الغواص حوله في قلق، قائلًا:

- هل تعتقد أنه من الحكمة أن تغوص ثانية؟!.. لقد حالفنا الحظ حتى الآن، ولم ينتبه أحد إلينا، لأننا اخترنا منطقة غير حيوية للغوص، ولكن لو...

قاطعه (بيشوب) في صرامة:

- لن نغوص ثانية.

اتسعت عينا الغواص في دهشة، قائلًا:

- أتعني ليس الليلة؟

أجابه في حزم:

- بل لن نغوص مرة ثانية قط.

ولم يفهم الغواص ما يعنيه هذا!..

مادام لم يعثر على بغيته، فلماذا يرفض الغوص للبحث عنه ثانية؟!..

ثم ما الذي كان يبحث عنه، حول تلك الأطلال القديمة الغارقة!..

حار في محاولة تفسير الأمر بضع لحظات، ثم لم يلبث أن هز رأسه، قائلًا لنفسه في أعماقه:

- وماذا يعنيني في هذا؟.. لقد حصلت على أجري كاملًا، وانتهى كل شيء بسلام، وليذهب الأمريكي وما يبحث عنه إلى الجحيم.

وأسعده أن عادا إلى الشاطئ في أمان، فاستبدل ثيابه، كما فعل (بيشوب)، وضمتهما سيارة هذا الأخير، وهما يبتعدان عن المنطقة، ويتجهان إلى المدينة، دون أن يتبادلا حرفًا واحدًا.

فقد كان الأمريكي غارقًا في لجة من الأفكار..

لقد فحص المنطقة المحيطة بالأطلال الغارقة، ولم يعثر على أية علامات تشير إلى وجود مقابر فرعونية، أو حتى كهوف جبلية في المكان..

فمن أين جاء خاله إذن، عندما وصل إلى تلك القرية منهارًا ضائعًا؟!..

ووصوله إلى هناك، بهذه الحالة السيئة، يعني أنه ضل طريقه في مكان بعيد نسبيًا، فلماذا لم يلجأ إلى أية قرية أخرى في الطريق، أو حتى إلى مركز الشرطة، الذي كان سيلتقي به حتمًا، وهو يتجه إلى القرية، من الطريق الرئيسي؟!..

ألا يعني هذا أنه لم يتخذ الطرق الرسمية أو الرئيسية؟!..

انعقد حاجيا (جون بيشوب) في شدة، وهو يعيد دراسة الأمر كله مرات ومرات، قبل أن يهتف فجأة، وهو يضغط فرامل السيارة بحركة غريزية:

- رباه... هذا ما حدث بالتأكيد.

اندفع جسد الغواص إلى الأمام في عنف، بتأثير التوقف المباغت، وهتف في سخط:

- ماذا حدث؟!

لم يبد على (بيشوب) أنه سمعه، خلال الدقيقة التالية كلها، ثم لم يلبث أن قال في انفعال، وكأنه يتحدث مع نفسه:

- كيف لم أنتبه إلى هذا الأمر البسيط منذ البداية؟!.. إنه لم يتخذ الطريق الرئيسي أبدًا.

قال الغواص في دهشة:

- لم يتخذ ماذا؟!

انعقد حاجبا (بيشوب) في صرامة، وهو يقول:

- لا عليك يا رجل، هذا الأمر لا يخصك.

وعاد يضغط دواسة الوقود؛ لتواصل السيارة سيرها إلى المدينة، وعقله يسبح في أفكاره الجديدة..

الآن فقط، يمكنه تحديد منطقة البحث..

لقد عثر خاله على صندوق الشمس في منطقة ما، في قلب الصحراء وحزام الجبال، توازي نفس البقعة، التي كانت تحتلها القرية النوبية، قبل أن تغرقها مياه بحيرة (ناصر)..

السؤال الآن هو أين؟..

في أية منطقة من الصحراء بالتحديد؟!..

انشغل بالفكرة طوال الوقت، وحتى بعد أن وصل إلى فندق، في الثالثة صباحًا، فجلس يدرسها فوق خريطة كبيرة للمنطقة، ويضع علامات ترجيحية هنا وهناك، إلى أن أنهكه العمل والبحث، فألقى جسده المكدود فوق أقرب مقعد صادفه، وهو يسبل جفنيه، متمتمًا:

- كم أحسدك على ما توصلت إليه يا خالي.

تثاءب في تهالك، وألقي نظرة على ساعته، التي أشارت عقار بها إلى السادسة والنصف صباحًا، قبل أن يتابع:

- يا لها من ليلة طويلة!

وترك جفناه يلتقيان، بعد أن عجز عن إبقائهما مفتوحين، فانطبقا في إرهاق، وراح في نوم عميق، وعقله مازال يحمل السؤال نفسه.

أين عثر خاله على صندوق الشمس؟!..

أين؟!..

☆ ☆ ☆

لم تكد السيارة تصل بالنوبي (نجيب) إلى قريته، حتى قفز منها، وانطلق يعدو عبر شوارعها، وهو يلوح بمجلة في يده، هاتفًا:

- يا حاج.. يا حاج.

توقف الحاج عما يفعله، ورفع عينيه إليه في تساؤل، (نجيب) فواصل الجري حتى بلغه، ولهث في شدة، وهو يقول:

- انظر يا حاج.. (أحمد ضرغام) نشر رسم النموذج في المجلة، التي يعمل بها.

التقط الحاج المجلة في هدوء، وأخرج منظاره من جيب جلبابه الناصع البياض، ووضعه على عينيه، وهو يتطلع في اهتمام إلى الرسم المنشور، قبل أن يهز رأسه، ويبتسم ابتسامة هادئة، فقال (نجيب) لاهثًا:

- هل كنت تتوقع هذا يا حاج؟

أومأ الحاج برأسه إيجابًا، وهو ينزع منظاره عن عينيه، قائلًا بابتسامة عذبة:

- بالتأكيد.

قال (نجيب) في توتر شديد:

- ولكن هذا سيكشف سرنا يا حاج..

هز الحاج رأسه نفيًا، وهو يقول:

- اطمئن.. إنه مجرد رسم.

تطلع إليه بنظرة تحمل عدم الفهم، فتابع الحاج في رصانة، وابتسامته لا تفارق شفتيه:

- لو أنها صورة فوتوجرافية، لكانت دليلًا حاسمًا على وجود النموذج، ثم إنها كانت ستنقل نقوش المقبرة أيضًا، مما يثير انتباه وحماس كل عالم ومهتم بالآثار، في العالم أجمع، أما الرسم، فهو أمر يمكن التشكيك فيه.

لم تختف نظرة عدم الفهم من عيني (نجيب) تمامًا، فتابع الحاج بنفس الهدوء والرصانة، وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة:

- معظم من سيطالعون الرسم، سيتصورون أنه من خيال الرسام، الذي أضاف نموذجًا لمركب شمس، على قمة صندوق فرعوني قديم، والشخص الذي سيتوقف طويلًا عند الرسم، وينجذب إليه بشدة، ويسعي لسؤال الرسام عن كيفية وضعه، هو بالتأكيد شخص يدرك أن مثل هذا النموذج موجود.

ثم هز رأسه في وقار، مضيفًا:

- وهذا هو الشخص الذي نحتاج إليه.

بدت الدهشة على وجه (نجيب)، وهو يقول:

- أتعني أن نشر الرسم يتفق مع ما نسعى إليه يا حاج.

أومأ الحاج برأسه إيجابًا، وهو يقول في حزم:

- بالتأكيد يا ولدي.. بالتأكيد.

وعاد ينهمك في عمله..

☆ ☆ ☆

رفع عالم الآثار المصري الدكتور (فؤاد) عينيه، عن المجلة التي يطالعها، ليتطلع في اهتمام إلى عاصفة الرمال، التي أثارتها سيارة الدكتور (بيشوب) (الجيب)، وهي تتجه بسرعتها المعتادة إلى موقع الحفر، وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة، عندما توقفت السيارة على مقربة منه ووثب منها الدكتور في نشاط، واتجه نحوه في خطوات واسعة فاستقبله، قائلًا:

- صباح الخير يا دكتور (بيشوب).. هل غلبك النوم اليوم، فلم تستيقظ مبكرًا كعادتك؟

صافحه (بيشوب) في شيء من التوتر، وهو يقول:

- نعم، فلم أنم جيدًا ليلة أمس.

ثم أشار إلى موقع الحفر، مستطردًا في حزم عصبي:

- أعتقد أننا أخطأنا اختيار هذا الموقع.

ارتفع حاجبا الدكتور (فؤاد) في دهشة، وهو يقول:

- أخطأنا ماذا؟!.. ومن وضع في رأسك هذه الفكرة؟!.. إننا لم نحفر إلى العمق المناسب بعد، وربما لو...

قاطعه (بيشوب) بسرعة:

- كلًا.. هذا لن يجدي.. لقد أخطأنا اختيار الموقع بالتأكيد..

انعقد حاجبا الدكتور (فؤاد)، وهو يتطلع إليه، قائلًا:

- عجبًا!.. كنت شديد الحماس، في اختيار هذا الموقع للتنقيب، على الرغم من معارضتي لذلك.

قال (بيشوب) بنقاد صبر:

- كنت مخطئًا.

ثم انتزع من جيبه خريطة المنطقة، وفردها أمامهما، مستطردًا:

- لقد راجعت حساباتي، ووجدت أنه كان ينبغي أن ننقب هنا..

في تلك البقعة، شمال بحيرة (ناصر).

استعادت ملامح الدكتور (فؤاد) دهشتها، وهو يقول:

- يا له من موقع!.. لا أحد بحث عن الآثار هناك يا رجل من زمن طويل.. من أين واتتك الفكرة!!.. ثم أية حسابات تلك التي راجعتها؟

أشار (بيشوب) إلى الموقع الذي اختاره في عصبية، وهو يقول:

- أؤكد لك أن هذا هو الموقع المناسب.

تطلع إليه (فؤاد) لحظات في صمت، ثم لم يلبث أن هز رأسه، قائلًا:

- لست أفهمك اليوم يا (بيشوب).. حقيقة لست أفهمك أبدًا.

صاح (بيشوب) في عصبية زائدة:

- افهم أو لا تفهم.. هذا شأنك.. المهم أن ننتقل إلى ذلك الموقع الجديد على الفور.

قفزت دهشة (فؤاد) إلى ذروتها، مع هذا الانفعال العنيف، واقترب من (بيشوب) في قلق، قائلًا:

- ماذا أصابك يا رجل؟.. ألم تحصل على قدر كاف من النوم؟

صاح (بيشوب) في حدة:

- ليس هذا من شأنك أيضًا.. المهم أن نذهب إلى هناك، وأن ننقب، ونحفر، حتى نجد صندوق الشمس.. هذه هي الوسيلة الوحيدة لإثبات صحة بردية (أحمس).

رفع (فؤاد) سبابته، قائلًا:

- بمناسبة الحديث عن صندوق الشمس هذا.. هل رأيت ذلك الرسم، الذي يزين موضوع (الآثار الخالدة)، في هذه المجلة؟

ناوله المجلة، وهو يشير إلى الرسم المنشور في نصف صفحة كاملة.

وانتفض جسد (بيشوب) كله في انفعال..

واتسعت عيناه عن آخرهما..

إنه هو..

هو بلا أدنى شك..

صندوق الشمس، الذي وصفه خاله..

نموذج لمركب من مراكب الشمس، قاعدته غطاء لصندوق كبير، تزينه نقوش تروي القصة كلها..

وعلى الرغم من أن النقوش لم تكن واضحة تمامًا، في الرسم المنشور، إلا أن قلب (بيشوب) راح يخفق بشدة، وهو يجري فوقها بعينيه..

ها هو ذا مبعوث الآلهة..

وكرة اللهب..

والشمس التي لا تنطفئ أبدًا..

ثم هناك ذلك الرمز، الذي لا يعني شيئا محدودًا باللغة الهيروغليفية...

(بي-دو)..

وفي حركة مباغتة، قبض (بيشوب) على المجلة بأصابعه في قوة، وانطلق يعدو نحو سيارته، وقفز داخلها، والدكتور (فؤاد) يهتف خلفه في دهشة:

- انتظر يا رجل.. إنه مجرد رسم بسيط، من خيال رسام جامح.

ولكن (بيشوب) أدار محرك سيارته، وانطلق بها، مثيرًا عاصفة أخرى من الرمال..

وعاصفة أكثر ضخامة من الحيرة..

ومن الغموض.

☆ ☆ ☆

5- الحاج..

«الأستاذ (أحمد ضرغام) الرسام؟!..»

رفع (أحمد) عينية في دهشة إلى الرجل، الذي نطق العبارة بالأمريكية، وهو يقف عند باب حجرته، وتطلع إليه في اهتمام، وقد بدا له أشبه بأحد الرحالة الذين قرأ عنهم كثيرًا في شبابه، بلحيته وشاربة القصرين، وشعره الأشيب، والسروال القصير، وذلك المنظار الأنيق، والنظرة المفعمة باللهفة، المطلة من خلفه، فاعتدل مجيبًا:

- نعم.. أنا (أحمد ضرغام).. هل من خدمة، يمكنني تقديمها لك؟

دلف الرجل إلى الحجرة في خفة، وأغلق بابها خلفه، وهو يقول:

- بالتأكيد.

ثم قطع المسافة من الباب إلى مكتب (أحمد) في خطوة كبيرة واسعة، قبل أن يضع أمامه نسخة المجلة، متسائلًا:

- أنت صاحب هذا الرسم.. أليس كذلك؟

ثم قطع المسافة من الباب إلى مكتب (قاسم) في خطوة كبيرة واسعة، قبل أن يضع أمامه نسخة المجلة..

أجابه (أحمد) في اقتضاب حذر:

- بلي.

سأله الرجل في لهفة شديدة:

- هل شاهدت ذلك النموذج بنفسك؟!

تردد (أحمد) لحظة، قبل أن يقول:

- لست مضطرًا لإجابة هذا السؤال.

صاح فيه (بيشوب) في غضب:

- بل أنت مضطر.

تراجع (أحمد) في فزع ودهشة، وحدق في وجه (بيشوب)، الذي تراجع في سرعة، مستدركًا في عصبية:

- أعني أنه من واجبك أن تفعل.

ظل (أحمد) يحدق في وجهه لبضع لحظات أخرى، وقد خيل إليه أن الرجل مجنون أو مخبول، ثم لم يلبث أن اعتدل، وقال محاولًا التماسك:

- ليس من حقي أن أخبرك.

سأله في لهفة:

- ولماذا؟!

تردد (أحمد) لحظة أخرى، قبل أن يجيب:

- لابد أن أسأل أصحابه أولًا.

تراجع (بيشوب)، واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يهتف:

- أصحابه؟!..

ثم اندفع إلى الأمام ثانية بحركة حادة، أفزعت (أحمد)، قبل أن يستطرد في انفعال عنيف:

- إذن فقد رأيته بالفعل!

شعر (أحمد) بالحنق، من أسلوب الرجل، فلوح بكفه هاتفًا:

- كيف دخلت إلى هنا؟.. من سمح لك بالوصول إلى مكتبي؟.. ماذا أصاب طاقم الأمن هنا؟!

قالها، ويده تقفز إلى سماعة الهاتف، ولكن لم تكن أصابعه تحتويها، حتى أمسكتها يد (بيشوب) في قوة، وهذا الأخير يقول:

- مهلًا.. من الواضح أنك لا تفهم شيئًا.

تطلع إليه (أحمد) في عصبية، وهو يقول:

- اسمع يا رجل..

قاطعه (بيشوب) في سرعة، وهو يقدم له جواز سفره:

- (بيشوب).. الدكتور (جون بيشوب)، خبير الآثار المصرية القديمة، والأستاذ بجامعة (جورج واشنطن) الأمريكية.

ارتفع حاجبا (أحمد) في دهشة، وهو يقول:

- خبير آثار مصرية قديمة؟!

وابتعدت يده عن سماعة الهاتف، مستطردًا:

- لهذا إذن أثار الرسم اهتمامك.

أعاد (بيشوب) جواز سفره إلى جيبه، وهو يتخذ مقعدًا أمام مكتب (أحمد)، ويقول في حماس:

- ليس لأنني خبير آثار فحسب، ولكنني قضيت السنوات العشر الأخيرة تقريبًا في البحث عن ذلك النموذج بالذات.

هتف (أحمد):

- حقًا؟

أومأ (بيشوب) برأسه إيجابًا، وازدرد لعابه، قائلًا:

- عندما شاهدت الرسم في المجلة، أدركت على الفور أنه ليس نتاج خيال فنان، وإنما هو نقل أمين لنموذج شاهده بعينيه، ولهذا أتيت إليك على الفور؛ لأسألك أين ومتى رأيت هذا النموذج؟

هز (أحمد) رأسه، قائلًا:

- لست أعتقد أنه من حقي أن أخبرك.

توتر (بيشوب) في شدة، وهو يقول:

- اسمع.. سأمنحك عشرة آلاف دولار.

فغر (أحمد) فاه في دهشة، مع. ضخامة المبلغ، وغمغم:

- عشرة آلاف دولار؟!

هتف (بيشوب) في انفعال:

- سأرفع المبلغ إلى خمسة عشر ألفًا.. بل عشرين ألف دولار، مقابل معرفة مكان ذلك النموذج.

هز (أحمد) رأسه، وهو يتنهد في أسف، قائلًا:

- المبلغ كفيل بإدارة الرأس بالفعل، ولكني أجهل للأسف أين ذلك النموذج.

اتسعت عينا (بيشوب) في ارتياع، وهو يهتف:

- ولكنك قلت: إنك رأيته بنفسك؟!

أجابه (أحمد):

- هذا صحيح.. لقد رأيته بنفسي أربع مرات، ورأيت المقبرة التي تضمه، والتي تحمل جدرانها أعجب نقوش فرعونية رأيتها في حياتي كلها، وذلك التابوت الملكي، ولكنني أجهل تمامًا أين يوجد كل هذا.

سال لعاب (بيشوب) لما سمعه، وود لو انقض على (أحمد)، وانتزع منه السر انتزاعًا، ولكنه بذل طاقة خرافية السيطرة على أعصابه، وهو يقول له:

- صف لي المكان، وسأجده أنا بوسائلي.

هز (أحمد) رأسه في أسف، وهو يقول:

- لقد ذهبت إليه معصوب العينين.

ارتد (بيشوب) كالمصعوق، هاتفًا:

- معصوب العينين؟

ثم ارتجف جسده كله من فرط الانفعال، وانتقلت الارتجافة إلى شفتيه وصوته، وهو يقول:

- مستر (أحمد).. أعتقد أنه من واجبك أن تقص على القصة كلها، فأنا في ذروة اللهفة لسماعها.

تردد (أحمد) لدقيقة كاملة، قبل أن يحسم أمره، قائلًا:

- فليكن.. إنني أحتاج إلى من يشرح لي ما عجزت عن فهمه.

ثم رفع عينيه إلى (بيشوب)، مستطردًا في حزم:

- سأقص عليك القصة كلها يا دكتور (بيشوب).

ارتفع فجأة صوت أنثوي يقول:

- أية قصة؟

التفت (أحمد) إلى مصدر الصوت في سرعة، ثم انعقد حاجباه في توتر شديد..

فهناك.. عند باب الحجرة، كانت تقف (ليلى)، وإلى جوارها آخر شخص يرغب في رؤيته، في الوقت الحالي..

(نجيب)..

النوبي (نجيب صديق)..

☆ ☆ ☆

جلس الدكتور (فؤاد) لنصف ساعة كاملة، يتطلع إلى رسم نموذج مركب الشمس، في نسخة جديدة من المجلة، قبل أن يهز رأسه، ويغمغم في شيء من عدم الارتياح:

- غير معقول!

ثم نهض إلى مكتبه، والتقط عدسته المكبرة، وعاد يستخدمها في فحص الرسم..

ومع التكبير، بدت النقوش أكثر وضوحًا..

وتضاعفت دهشة الدكتور (فؤاد) وحيرته..

لقد كانت لغة هيروغليفية سليمة، يعود أسلوبها إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة، وتروي نفس القصة التي أشار إليها الدكتور (بيشوب)..

أو جزءًا منها على الأقل..

فمن الواضح أن القصة نقشت على جدران الصندوق الأربعة، والرسم لا يحوي سوي جانب واحد منها..

ولكن دقة هذا الجانب تؤكد أن الرسم ليس وحيًا من خيال الفنان..

إنه شيء رآه، وتأثر به، وتفاعل معه..

ورسمه..

شيء رآه رأي العين..

ومرة أخرى انعقد حاجبا الدكتور (فؤاد)، وتراجع بظهره إلى مسند مقعده، وهو يغمغم:

- إذن فقد كان (بيشوب) على حق.. بردية (أحمس) ليست محض خيال.. صندوق الشمس حقيقة واقعة.

استعاد ذهنه حديث (بيشوب) حول الصندوق ومحتوياته، وعلاقته بالكوكب العاشر الذي كان يدور يومًا في مجموعتنا الشمسية، ثم انفجر، ولم يتبق منه سوى عدد من الكويكبات والنيازك..

ثم عاد يهز رأسه في عنف، قائلًا:

- صعب.. صعب..

كان هناك صراع عنيف يدور في أعماقه، ما بين تصديق ما يصر عليه (بيشوب)، وما يوحي به الرسم، ورفض عقله لفكرة قدوم كائن من كوكب آخر، لزيارة ملك (مصر)، وتسليمه أسرارًا رهيبة..

فالفكرة – بالنسبة إليه – تبدو أشبه بروايات الخيال العلمي..

تلك الروايات التي لم ولن يلقي نظرة واحدة عليها، في حياته كلها..

إنه لا يقنع بما فيها..

بل ولا يجد مبررًا واحدًا لكتابتها أو قراءتها..

لا يوجد في العالم خيال جامح..

توجد فقط حقائق..

حقائق مجردة..

ولكن حتى فكرته هذه اصطدمت بجدار صلب..

من قال: إن العالم يخلو من الخيال؟!..

أعظم المخترعات بدأت بخيال عالم...

بفكرة..

بنظرية..

ثم تطور الخيال، وتجسد، ليضع حقائق مازالت تملأ حياتنا في كل لحظة..

الكهرباء كانت خيالًا..

والمصابيح...

والأسلحة..

وحتى السفر عبر الفضاء، بدأ كخيال، وانتهى كحقيقة لا تقبل الجدل..

ومرة أخرى، عاد الصراع يحتدم في عقله، وعجز عن الاسترخاء في مقعده، فنهض في حركة حادة، واتجه إلى مكتبته، وأدار عينيه في صفوف الكتب المتراصة فيها، وعناوينها المختلفة، قبل أن يغمغم:

- من يدري؟!.. ربما يحتاج الأمر مني إلى مزيد من الدراسة والبحث.. من يدري؟!

نعم يا دكتور (فؤاد)..

من يدري؟!..

☆ ☆ ☆

توتر الدكتور (بيشوب) في شدة، وانقلبت سحنته على نحو عجيب، حتى بدا أشبه بوحش غاضب، عندما دلفت (ليلى) والنوبي إلى مكتب (أحمد)، وهذه الأخيرة تقول بابتسامتها الساحرة:

- هل أزعجناكما؟

لم يفهم (بيشوب) عبارتها، التي نطقتها بالعربية، ولكنه رمقها بنظرة غاضبة شرسة، تلاشت لها ضحكتها، وحل محلها شيء من الخوف، وهي تقول:

- ماذا هناك؟

نهض (أحمد) يستقبلها في سرعة، وهو يقول بالإنجليزية:

- لا شيء.. إنه الدكتور (بيشوب).. خبير آثار أمريكي يرغب في نشر مقال حول الآثار المصرية القديمة.

قالها، وهو يرمي (بيشوب) بنظرة سريعة، استوعبها هذا الأخير على الفور، وإن لم يرق له مغزاها، فازداد انعقاد حاجبيه، في حين صافح (أحمد) (نجيب)، وهو يقول:

- مرحبًا يا أستاذ (نجيب).. متى وصلت إلى (القاهرة)؟

أجابه النوبي بلهجته الشديدة التهذيب كالمعتاد:

- الآن فقط يا أستاذ (أحمد).. لقد أتيت من المطار إلى هنا مباشرة..

قال (أحمد) في حرارة مبالغة:

- حمدًا لله على سلامتك يا أستاذ (نجيب).. تفضل.. سأتفرغ لك بعد قليل.. تفضلي يا (ليلى).

جلست (ليلى) والحيرة تملأ نفسها، وعيناها لا تفارقان وجه (بيشوب)، الذي بدا شديد الحنق والغضب، و(أحمد) يلتفت إليه، قائلًا:

- معذرة يا دكتور (بيشوب).. هل يمكننا استكمال حديثنا فيما بعد؟

رمقه (بيشوب) بنظرة شديدة التوتر، قبل أن يغمغم:

- لا بأس.. أنا أقيم في فندق (هيلتون النيل)، في الحجرة رقم (403).. سأنتظر محادثتك على أحر من الجمر..

ثم ألقى نظرة شرسة على (ليلى) و(نجيب)، وتوقف لحظة عند وجه هذا الأخير، قبل أن يسأله بالإنجليزية في اهتمام:

- أنت نوبي.. أليس كذلك؟

أومأ (نجيب) برأسه إيجابًا، وهو يقول:

- بلى يا سيدي.

هز (بيشوب) رأسه دلالة الفهم، وغمغم:

- كنت أتوقع هذا.

ثم رمق (أحمد) بنظرة أخرى، قبل أن يغادر حجرة مكتبه.

ولم يكد (بيشوب) يغلق الباب خلفه، حتى التفتت (ليلى) إلى (أحمد)، تسأله في انفعال:

- من هذا الرجل؟!

لوح بكفه، وهو يتنهد، مجيبًا:

- قلت لك: إنه خبير آثار أمريكي.

انعقد حاجباها، وهي تقول:

- عجبا!.. يبدو لي كرجل عصابات أمريكي.

مط (أحمد) شفتيه، وهز كتفيه وهو يقول:

- لا تحكمي على الناس من مظهرهم.

ثم التفت إلى (نجيب)، مستطردًا في سرعة، وكأنه يحول بينها وبين الخوض في أمر (بيشوب) هذا:

- قل لي يا أستاذ (نجيب): هل تحتاجون إلى رسومات أخرى؟!

هز (نجيب) رأسه نفيًا في هدوء، وقال:

- كلًا يا أستاذ (أحمد).. أشكرك.. الرسومات الأولى كانت جيدة بما يكفي.

سأله (أحمد) في توتر:

- لماذا لم تحتفظوا بها إذن؟

تجاهل (نجيب) السؤال تمامًا، وهو يميل نحوه، قائلًا:

- الحاج يرغب في مقابلتك.

تراجع (أحمد) في دهشة، مغمغمًا:

- الحاج ماذا؟!

ومرة أخرى، تجاهل (نجيب) السؤال، وأخرج من جيبه تذكرتي سفر، وهو يقول:

- لقد حجزت لنا تذكرتي سفر، في الطائرة المسافرة إلى (أسوان)، بعد ساعتين من الآن.

هتفت (ليلى) في دهشة:

- بعد ساعتين!

وانعقد حاجبا (أحمد) في شدة، وهو يقول في عصبية:

- من يظن نفسه ذلك الحاج؟!.. هل يعتقد أنه صار قائدًا حربيًا، وكلنا جنود في جيشه، حتى يأمر فيطاع؟!.. هل يكفي أن يشير إلى بسبابته، قائلًا: احضر يا (أحمد)، فأهرع إليه على الفور؟!

ارتفع حاجبا (نجيب) في دهشة، وهتف:

- معاذ الله أن يفكر الحاج بهذا الأسلوب يا أستاذ (أحمد).. إنه لا يفعل هذا معنا، وهو كبيرنا، وله علينا حق الطاعة، فكيف يفعله مع صديق مثلك.

تراجع (أحمد) مع كلمات (نجيب)، الذي تابع في تأثر:

- الحاج لم يرسلني لآمرك بالحضور، وإنما أرجوك أن تذهب لمقابلته، باعتبار أنك صرت صديقًا لقومنا، يمكننا اللجوء إليه وقت الحاجة..

ثم دس يده في جيبه، مستطردًا:

- ولو أنك تطلب مقابلًا ماليًا لهذا، فقد خولني الحاج الحق في...

قاطعه (أحمد) في حزم:

- كفى يا أستاذ (نجيب).

كان رد النوبي منطقيًا مفحمًا، حتى أن (أحمد) شعر بحرج شديد في أعماقه، وهو يتابع:

- هل تسمح بالانتظار في الخارج لبضع دقائق؟.. أريد التحدث مع (ليلى) وحدنا.

أدار (نجيب) عينيه في وجهيهما، ثم نهض، قائلًا:

- بالطبع يا أستاذ (أحمد).. بالطبع.

تابعته (ليلى) ببصرها، وهو يغادر الحجرة، ويغلق بابها خلفه في رفق وحرص، ثم التفتت إلى (أحمد)، تسأله في حيرة:

- لماذا طلبت منه الخروج؟

سألها في اهتمام:

- ما رأيك في هذا الأمر؟

قالت في اهتمام:

- أتقصد السفر ومقابلة الحاج؟!

أومأ برأسه إيجابًا، فمطت شقتيها، قائلة:

- أعتقد أنك مضطر لهذا.

ارتفع حاجباه في دهشة، وهو يقول:

- مضطر؟!

أجابت في حماس:

- بالطبع.. الواجب يحتم عليك أن تفعل.. لقد زرتهم من قبل، وأكرموا وفادتك، وأحسنوا ضيافتك كما أخبرتني، وكانوا

يتعاملون معك طوال الوقت كما لو كنت واحدًا منهم، واليوم يقولون إنهم يحتاجون إليك، فكيف يمكنك الرفض؟!

تراجع في مقعده، وهو يتأملها في اهتمام، ثم عقد ساعديه أمام صدره، وسألها:

- وماذا عن المقابل المادي؟

انعقد حاجباها، وهي تجيب:

- لا يمكنك المطالبة بقرش واحد بالطبع.

سألها في اهتمام:

- ولكنك كنت شديدة الحماس في المرة السابقة، عندما عرضوا عليّ خمسة ألاف جنيه.

أجابته في حزم:

- الخمسة ألاف جنيه كانت أجرًا لعمل تقوم به، أما في هذه المرة، فمن العار أن يتقاضى الصديق أي مقابل، لقاء خدمة يقدمها لصديقه.

ران عليهما الصمت بضع لحظات، بعد عبارتها الأخيرة، ثم لم يلبث (أحمد) أن ابتسم ابتسامة حانية، وهو يغمغم:

- هذا ما توقعته منك بالضبط.

ثم مال نحوها بحركة مباغتة، مستطردًا:

- (ليلى).. هل تتزوجينني؟!

اتسعت عيناها في دهشة، وتخضب وجهها بحمرة الخجل، وهي تغمغم:

- أتزوجك؟!

قال بسرعة، وكأنما يخشى أن يفقد شجاعته، لو توقف لحظة واحدة:

- نعم يا (ليلى).. أنا أحبك منذ فترة طويلة، وأتمنى أن تصبحي زوجتي.. ما رأيك؟

تضاعفت حمرة الخجل في وجهها، وارتبكت ابتسامتها على شفتيها، وانخفض بصرها إلى ما بين قدميها، قبل أن تنهض قائلة في اضطراب:

- سنناقش هذا بعد عودتك.

قالتها، وأسرعت إلى الباب، فهب من مقعده، يسألها في لهفة:

- هل أعتبر هذا رفضًا أم قبولًا؟

التفتت إليه، وأضاء وجهها كله بابتسامة عذبة، تفيض بالخجل والحياء، وهي تقول:

- ستعرف بعد عودتك.

وتهللت أساريره، وهي تعدو مبتعدة في خجل، ورقص قلبه طربًا، وهو يهتف:

- أستاذ (نجيب).

أطل (نجيب) بوجهة من الباب المفتوح، وعيناه تحملان تساؤلًا، فتابع (أحمد) في حماس:

- أما زلت تحتفظ بالتذكرتين؟

وتهللت أسارير (نجيب) بدوره..

☆ ☆ ☆

«لقد وصلنا تقريبًا..»

نطق (نجيب) الكلمة، وفي صوت أقرب إلى الهمس، ففتح (أحمد) عينيه، واعتدل على مقعده، داخل السيارة القديمة، التي تنقلهما إلى القرية، وفرك عينيه الناعستين، مغمغمًا:

- يبدو أنني استغرقت في النوم قليلًا.

ابتسم (نجيب) ابتسامة مشفقة، وهو يقول:

- إنك مستغرق في النوم، منذ ركبنا السيارة.

تمتم (أحمد) في إرهاق:

- حقًا؟!

قالها، وهو يتطلع إلى القرية، التي بدت مهيبة، مع غروب الشمس، الذي يلقى فيها مئات الظلال، التي انفردت فوق طرقها

الممهدة، والسيارة تتهادي فوقها في خفة، جعلت (أحمد) يقول:

- كيف مهدتم هذه الطرق ابتسم (نجيب)، مجيبًا:

- إنها فكرة من ابتكار الحاج.. لقد سوينا الأرض بألواح خشبية كبيرة تجرها الدواب، ثم غمرناها بأحجار صغيرة، من الجبال المحيطة، وتركنا للسيارات الزائرة مهمة تمهيد الطرق.

هز (أحمد) رأسه، قائلًا:

- من الواضح أن الحاج بالغ الذكاء في هذا الشأن.

أومأ (نجيب) برأسه موافقًا، وهو يقول:

- هذا ليس ابتكاره الوحيد، فقد صنع خزانات ضخمة، لاحتواء مياه الأمطار، واستخدامها في الشرب والطهي، وأمد منازلنا بشبكة من الأنابيب المطاطية، التي تنقل إلينا الماء وقتما تريد.

سأله (أحمد) في دهشة:

- ألم تمتد إليكم مشاريع توصيل المياه الحكومية؟!

ارتسمت على شفتي (نجيب) ابتسامة حزينة، وهو يقول:

- الحكومة نقلتنا من قريتنا إلى هنا، ثم نسيت أمرنا تمامًا، فلم تدرج قريتنا ضمن مشاريع الكهرباء أو المياه، أو حتى الوحدات الصحية والاجتماعية.

قال (أحمد) في حماس:

- اطمئن يا صديقي.. لن يدوم هذا إلى الأبد.. سأتبنى قضية قريتكم، وسأبلغ الأمر المسؤولين، من خلال المجلة، و...

قاطعة السائق بغتة، وهو يتحدث مع (نجيب) باللغة النوبية، فألقى هذا الأخير نظرة على المرآة الجانبية للسيارة، قبل أن

يربت على كتف السائق، ويجيبه باللغة نفسها، ثم يعود إلى (أحمد)، الذي سأله في قلق:

- ماذا هناك؟

ابتسم (نجيب)، قائلًا:

- لا شيء يا أستاذ (أحمد).. اطمئن.

لم يرتح (أحمد) للجواب، وأيقن من حدوث أمر ما، يخفيه عنه (نجيب) والسائق، ولكن قبل أن ينشغل بالتفكير في هذا، لاحت له ساحة القرية، التي يقف فيها كبارها كالمعتاد، وعلى رأسهم الحاج، بابتسامته العذبة المشرقة، فهتف في حماس:

- ها هو ذا الحاج.

ابتسم (نجيب) لحماسه، ولاذ بصمت مطبق، حتى توقفت السيارة أمام الحاج، الذي استقبل (أحمد) بابتسامة كبيرة، قائلًا وهو يصافحه في حرارة:

- مرحبًا بالصديق.

مال (نجيب) على الحاج، وتحدث معه قليلًا باللغة النوبية، فهز الحاج رأسه، وهو يقول بالعربية:

- لا بأس.. لا بأس.. كل شيء على ما يرام.

ثم وضع يده على كتف (أحمد)، قائلًا:

- تعال أيها الصديق، فلدي ما أتحدث به معك.

سار (أحمد) إلى جواره صامتًا، حتى ضمتهما حجرة في منزل الحاج، وتناول الاثنان طعامهما، وهما يديران حديثًا وديًا، ثم

جاءت أكواب الشاي، فارتشف الحاج رشفة من كوبه، وهو يتطلع إلى (أحمد)، وقال:

- أظنك تتساءل: لماذا طلبت منك الحضور إلى هنا ثانية؟

أومأ (أحمد) برأسه إيجابًا، وهو يرتشف الشاي بدوره، فهز الحاج رأسه، وقال:

- من حقك أن تفعل.. لقد أديت عملك، الذي أثار ولا ريب الكثير من الحيرة والشكوك في نفسك، وجعلك تتساءل عن سر احتفاظنا بذلك الأثر الفرعوني القديم، وعن سبب طلبنا الرسومات، وتركها لديك بعد الانتهاء منها..

ثم تنهد، مستطردًا:

- ولقد ناقشنا الأمر، ووجدنا أنك، كصديق، تستحق أن تشاركنا سرنا.

ومال نحوه، مضيفًا في حزم:

- والآن، سأروي لكن سر الصندوق.. صندوق الشمس.

وكانت مفاجأة ل(أحمد)..

مفاجأة مدهشة.

☆ ☆ ☆

6- الســرّ..

حدق (أحمد) طويلًا في وجه الحاج، الذي تراجع في هدوء، وهو يلتقط نفسًا عميقًا، ويقول في هدوء:

- منذ ما يزيد قليلًا على ثلاثين عامًا، وبالتحديد في شتاء عام 1959م، لم تكن قريتنا في هذا المكان، وإنما كانت تحتل منطقة أخرى، لم يعد لها وجود الآن، وإنما اختفت تمامًا تحت ما يعرف اليوم ببحيرة (ناصر).. المهم أنه ذات يوم، في ذلك التاريخ، فوجئت القرية بغريب يفد إليها، في حالة مزرية، ويسقط بين ذراعي كبيرها، وهو يحتضر.. وكعادتنا، أولينا الرجل جل اهتمامنا، وحاولنا إنقاذه وإسعافه، إلا أنه لفظ أنفاسه الأخيرة، بعد أن سلمنا رقعة من الجلد، تحوي خريطة ما، وإحداثيات لم نفهمها آنذاك، وبعد أن أشار إلى أنه رأى الشمس تشرق داخل صندوق قديم..

وصمت لحظة ليلتقط أنفاسه، قبل أن يتابع:

- ولسبب ما، احتفظنا بالخريطة المرسومة على الرقعة الجلدية، وسلمنا باقي متعلقاته للشرطة، و..

بتر عبارته بغتة، وكأنما يبحث عن كلمات مناسبة، أو يستشير عقله فيما ينبغي الإفصاح عنه، قبل أن يقول:

- وبوساطة الخريطة، وبعد بحث ودراسة استغرقا ثلاث سنوات كاملة، عثرنا على المقبرة، التي تضم صندوق الشمس.

قال (أحمد) في انفعال:

- ولكنكم لم تبلغوا المسؤولين.

هز الحاج كتفيه، وقال:

- كان في نيتنا أن نفعل، لولا ما حدث.

سأله (أحمد) في لهفة:

- وماذا حدث؟!

أجابه الحاج:

- عندما وصلنا إلى المقبرة، كان الصندوق مفتوحًا، ولدينا قناعة بأن ذلك الغريب هو الذي فتحه، فقد كان هناك مصباح ما داخله، يشع ضوءًا مبهرًا، حتى ليكاد يشبه ما وصفه ذلك الغريب، بقوله: إنه شاهد الشمس تشرق داخل الصندوق، وكانت المقبرة كلها مضاءة بذلك الضوء المبهر، حتى لم تعد هناك قيمة لمشاعلنا، وجعلني المشهد، مبهورًا مشدوهًا، حتي أنني اتجهت إلى الصندوق كالمسحور، ومددت يدي أمسك ذلك المصباح، و..

انتقض جسده كله في عنف، وهو يستعيد تلك الذكرى، وارتجفت شفتاه، وضاقت حدقتاه في انفعال، حتى خيل لـ (أحمد) أنها أعنف ذكرى في حياة الحاج كلها، فتمتم في فضول مغموس في اللهفة:

- وماذا يا حاج؟

لوح الحاج بيده، وزاغت عيناه، وهو يقول:

- أصابني ما يشبه الصاعقة، وسرت في جسدي طاقة هائلة، فلم أذكر سوى أنني أطلقت صرخة هائلة عظيمة، ثم أفقت بعدها لأجد نفسي راقدًا في منزلي، وحولي زوجتي وأبنائي، وعدد من كبار القرية، يتطلعون إلى في هلع وإشفاق..

وازدرد لعابة ثانية، وهو يهز رأسه، وكأنما ينفض عنها الجزء المؤلم من الذكريات، قبل أن يتابع:

- لم أنتبه إلى أية تغيرات في جسدي يومئذ، ولا في الأيام التالية، ولكنني لاحظت أن التميمة المصنوعة من الرصاص، والتي كنت أحملها دائمًا في جيبي، قد تحولت إلى قطعة من الذهب.

اتسعت عينا (أحمد)، وهو يهتف:

- آه.. حلم الكيميائيين القديم!.. تحويل الرصاص إلى ذهب.

أومأ الحاج برأسه إيجابًا، وهو يقول:

- نعم.. الطاقة التي تضيء ذلك المصباح الأبدي، كانت لديها القدرة على تحويل الرصاص إلى ذهب، ولكن بكميات محدودة، ولفترات محدودة من العام.

وتنهد مرة أخرى، قبل أن يتابع:

- وعندما درسنا الموقف، وقررنا الحفاظ على سر صندوق الشمس، واستخدام قدرته المدهشة على تحويل الرصاص إلى ذهب، في تمويل مشروعات تطوير قريتنا، فوجئنا بقرار تهجيرنا إلى قرية بديلة، لأن قريتنا ستغرق تحت مياه النيل، بعد تحويل مجراه، وإنشاء بحيرة (ناصر) الصناعية..

ارتفع حاجبا (أحمد) في تأثر، وهو يقول:

- يا للخسارة!

أطل الأسف من عيني الحاج، وهو يقول:

- وبالفعل، تم تهجيرنا إلى قرية بديلة، وغرقت قريتنا بالكامل، وانقطع الطريق بيننا وبين المقبرة وصندوق الشمس.

ثم انعقد حاجباه في حزم، مستطردًا:

- ولكننا لم نيأس.

قال (أحمد) في حماس:

- هذا واضح.

تابع الحاج في انفعال:

- كان من الضروري أن نصل إلى صندوق الشمس، وأن نستفيد بقدرته على إنتاج الذهب من الرصاص، حتى يمكننا الإنفاق على مشروعات تطوير قريتنا الجديدة، وتعليم أبنائها، وخاصة بعد أن أهملت الدولة شؤوننا، ونسيت أو تناست وجودنا وأصبحنا في حالة يرثى لها..

واعتدل في اعتداد، وهو يضيف:

- وقررنا الوصول إلى المقبرة بأي ثمن.

قال (أحمد) في حماس:

- ومن الواضح أنكم نجحتم في هذا.

ابتسم الحاج، قائلًا:

- لم يكن هذا سهلًا أو هينًا.. لقد احتاج منا إلى عشرين عامًا من العمل الشاق المتواصل، قمنا به جنبًا إلى جنب مع الجهود الذاتية لتطوير قريتنا، وتحسين سبل العيش فيها، في محاولة لرأب الصدع، بين تجاهل الدولة لنا، ورغبتنا في حياة كريمة آمنة.

وتنهد في ارتياح، وهو يتابع:

- وأخيرًا وصلنا إلى المقبرة، التي أطلقنا عليها اسم مقبرة الشمس.

وتهللت أساريره، مع استطراده:

- كان الضوء مازال يغمرها، من ذلك المصباح الدائم، ولكن ألوان النقوش بهتت إلى حد ما بسببه، مما أصابنا بالقلق، فاختبرنا قدرة طاقة المصباح: باستخدام قطع صغيرة من الرصاص، فتحولت إلي ذهب خالص بعد أسبوع واحد من التعرض لضوئه المبهر.

وابتسم، مضيفًا:

- وهكذا عادت عجلة التحسن والتطوير تدور، وبدأنا مشروعًا لمد لقرية بالتيار الكهربي على نفقتنا الخاصة، وإقامة مركز طبي، ومدرسة، ومكتبة عامة.

تم تلاشت ابتسامته، وهو يقول في أسى:

- ولكن مشروعنا هذا لم يكتمل للأسف.

سأله (أحمد) في انزعاج:

- كيف؟!

تنهد، وهز رأسه في أسف، قائلًا:

- لسبب أبسط مما تتصور.. في أحد الأيام، كنا نضع بعض قطع الرصاص، عندما فقد أحد رجالنا توازنه، فسقط فوق الصندوق.

هتف (أحمد) مذكورًا:

- وحطم المصباح.

هز الحاج رأسه نفيًا، وهو يقول:

- كلًا.. لم يصل الأمر إلى هذا الحد والحمد لله (سبحانه وتعالى)، ولكن سقوط الرجل على الصندوق أغلقه.

سأله (أحمد) في حيرة:

- وماذا في هذا؟

تطلع إليه الحاج في صمت، قبل أن يقول:

- لم يمكننا إعادة فتحه قط.

ارتفع حاجبا (أحمد)، وهو يهتف في دهشة:

- حقًا؟!

أجاب الحاج في أسف:

- من الواضح أنه لا يفتح بالطرق العادية، وأن له رتاجًا سريًا نجهله، فقد استغرقنا خمس سنوات كاملة في محاولة فتحه، إلا اننا فشلنا تمامًا.

سأله (أحمد) في اهتمام:

- ألم تحاولوا استخدام القوة؟!

رفع الحاج حاجبيه، وهو يقول في استهجان:

- القوة؟!.. القوة مع صندوق كهذا؟!.. لا أحد يجرؤ على اللجوء إلى القوة الغاشمة، في مثل هذه الظروف يا أستاذ (أحمد)، فمن يدري ما الذي يمكن أن يحدث عندئذ؟!.. ربما انفجر الصندوق بكل محتوياته، أو فقد طاقته أو فاعليته.. من يدري؟!

تنهد (أحمد)، وهو يومئ برأسه متفهمًا، ويغمغم:

- أنت على حق.

صمت الحاج بضع لحظات، ليلتقط أنفاسه، قبل أن يقول:

- ولهذا دعوناك لترسم الصندوق.

قال (أحمد) في دهشة:

- وما صلة هذا بذاك؟

أجابه الحاج في هدوء:

- كنا واثقين من أن الموقف كله سيثير حيرتك ودهشتك، وخاصة عندما ننقدك أجرك، دون أن نأخذ الرسومات، وأن حيرتك هذه ستدفعك إلى القيام بالخطوة الوحيدة المنطقية.. أن تنشر أحد الرسومات.

انعقد حاجبا (أحمد) في شدة، وهو يقول غاضبًا:

- إذن فقد كنت بالنسبة لكم مجرد فأر تجارب، يجري فوق متاهة أعددتموها بدقة، وأنتم تدركون أنه سيتخذ المسار الذي يروق لكم منها.

خفض الحاج عينيه، وهو يقول:

- أستاذ (أحمد).. لقد طلبت حضورك شخصيًا، لنقدم لك اعتذارنا عما فعلناه بك، ولكن لم يكن من المنطقي أن نمنحك كل ثقتنا دفعة واحدة، ونحن لا نعرف عنك إلا أقل القليل، ثم إننا كنا نريد منك أن تتحرك بمنتهى التلقائية، والسبيل الوحيد إلى هذا هو أن يحاط الموقف كله بنوع من الغموض، الذي يستفز حماسك، ويدفعك إلى التفكير والعمل، حتى تعثر على الشخص الذي يعرف طبيعة الصندوق، من الرسم المنشور في المجلة، فيسعى إليك بنفسه.

هتف (أحمد):

- الدكتور (بيشوب).

لم يكد ينطقها، حتى انبعث صوت يقول بالأمريكية في صرامة:

- في خدمتك أيها المخادع.

التفت (أحمد) والحاج إلى مصدر الصوت، ثم شهق الأول في دهشة..

فأمام عينيه مباشرة، كان هناك مسدس ضخم مصوب إليهما، وخلفه يقف آخر رجل يتوقع رؤيته في هذا المكان.

(بيشوب).

الدكتور (جون بيشوب)..

☆ ☆ ☆

لثوان ران صمت ثقيل على المكان، و(أحمد) والحاج يحدقان في فوهة المسدس المصوبة إليهما، قبل أن يهتف (أحمد):

- كيف وصلت إلى هنا؟!

فأمام عينيه مباشرة، كان هناك مسدس ضخم مصوب إليهما، وخلفه يقف آخر رجل يتوقع رؤيته في هذا المكان.

هز (بيشوب) كتفيه، وهو يجيب في استهتار:

- لم يكن الأمر صعبًا كما تتصور.. لقد شاهدت ذلك النوبي في مكتبك، وأدركت على الفور أنه واحد من الذين استعانوا بك،

لرسم ذلك الصندوق، مع نموذج مركب الشمس، لذا فلم أرحل، ولم أعد إلى الفندق، وإنما تبعتكما إلى المطار، واستقللت الطائرة معكما، في الدرجة الأولى، وعندما وصلنا إلى (أسوان) كنت قد تركت سيارتي (الجيب) في المطار لحسن الحظ، فتبعتكما بها إلى هنا، وعبرت شوارع هذه القرية السخيفة، التي تخلو من المارة مع غروب الشمس، فلم يعترضني أحد، حتى وصلت إلى منزل الحاج، وسمعت كل ما دار بينكما.

سأله الحاج في اهتمام:

- إذن، فأنت تعرف صندوق الشمس جيدًا.

أشار إليه (بيشوب) في حدة، مجيبًا:

- يا له من قول!.. إنني أعرف ذلك الصندوق بأكثر مما أعرف نفسي أيها المأفون.. لقد درسته طوال ما يقرب من عشر سنوات كاملة.

ارتفع حاجبا (أحمد) في دهشة، عندما ارتسمت على شفتي الحاج ابتسامة كبيرة، وهو يقول:

- عظيم.. أنت الشخص الذي نبحث عنه.

هتف (بيشوب) في سخرية:

- هكذا؟!.. أنتم سعداء الحظ إذن، فها أنا ذا، وأنتم ستقودونني الآن إلى المقبرة، التي تحوي صندوق الشمس.

أجابه الحاج في صرامة:

- ليس قبل أن تلقي مسدسك هذا جانبًا.

انعقد حاجبا (بيشوب) في غضب، وهو يلوح بمسدسه هاتفًا:

- اسمع أيها المخرف.. لست في موقف يسمح لك بإملاء أوامرك، ولا حتى بالتفاوض.. انظر إلى هذا المسدس، وستدرك أنني أسيطر على الموقف تمامًا، وأنك مضطر لطاعة أوامري.

اتسعت ابتسامة الحاج، وهو يقول في هدوء مثير:

- أتظن هذا حقًا؟!

لم يكد ينطقها، حتى انفتحت كل نوافذ وأبواب الحجرة، وظهر من خلفها جيش من شباب القرية ورجالها، يحمل كل منهم عصا غليظة، ونظرة صارمة حازمة، ارتجفت لها أطراف (بيشوب)، وهو يدور بمسدسه مذعورًا، ويهتف:

- مرهم بالتراجع يا حاج.. مرهم بالتراجع وإلا أطلقت عليك النار.

عقد الحاج كفيه أمامه، وهو يقول بإنجليزية سليمة:

- وكم رصاصة ستطلق، قبل أن تفرغ خزانة مسدسك يا رجل.. ثماني.. عشرًا.. أو حتى عشرين؟! في النهاية سيتبقى منا ما يكفي حتمًا لسحق عظامك، قبل أن تحقق حلمك برؤية صندوق الشمس.

دار (بيشوب) حوله في اضطراب، وقد احتقن وجهه، وأطل احتقانه عبر عينية الحمراوين، في حين تابع الحاج في هدوء شديد:

- ألم تسأل نفسك لماذا كانت شوارع القرية خالية؟.. هل تصورت أن (نجيب) وسائق السيارة لم ينتبها لمطاردتك لهما طوال الطريق؟..

خطأ يا رجل.. خطأ.. حتى وأنا أروى القصة لصديقنا الأستاذ (أحمد)، كنت أعلم أنك خلف النافذة، تسترق السمع.

عض (بيشوب) شفتيه قهرًا وغيظًا، قبل أن يخفض مسدسه، هاتفًا:

- اللعنة!

أشار الحاج إلى أحد رجاله، فأسرع ينتزع المسدس من يد (بيشوب)، في حين هتف (أحمد) في غضب:

- أنت أحقر خبير آثار قابلته، في حياتي كلها.

هتف (بيشوب) في حدة:

- بل أنا أعظم خبير آثار التقيت به في حياتك يا فتى، وستفخر يومًا بأنك صافحتني.

قال (أحمد) في حنق:

- أتعشم ألا يأتي ذلك اليوم أبدًا.

صاح (بيشوب) في ثورة:

- أنت غبي.. غبي مثلهم.. لقد عثروا على صندوق يحوي أعظم أسرار المجرة، ثم انبهروا بقدرة طاقته على تحويل الرصاص إلى ذهب، ونسوا أن الأسرار الأخرى تفوق الذهب بألف مرة.

قال الحاج في هدوء:

- نحن نعلم أن الصندوق يحوي أسرارًا رهيبة، ولكننا نخشى أن تقع في يد بشري، فيطغى ويتجبر، ويتصور أنه ملك العالم في قبضته، والقوة المطلقة مفسدة، وربما يكون فيها خراب الأرض كلها.

صاح به (بيشوب) في غضب:

- ليس من حقك أن تقرر.. ليس من حقك أن تتخذ قرارًا كهذا.

ابتسم الحاج، قائلًا:

- بل من الأفضل أن يتخذه شخص مثلي، لا يطمح إلى القوة أو النفوذ، وكل ما يطمح إليه هو حياة كريمة لائقة لقومه.

صرخ (بيشوب) في ثورة:

- خطأ.. خطأ.. الشخص الوحيد، الذي يمكنه اتخاذ قرار كهذا هو أنا.. أنا وحدي.. أنا صاحب الحق الوحيد في كل أسرار وطاقة صندوق الشمس.. أنا الذي قضيت عمري كله في البحث عنه.. أنا.. أنا.. أنا.

قال الحاج في حزم:

- وماذا عنا؟

صاح به (بيشوب):

- أنتم مجرد لصوص.. لقد سرقتم الخريطة من خالي (سام سيمونز).

قال الحاج في غضب:

- إننا لم نسرقها.. الرجل سلمني إياها بنفسه، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولم يطلب مني تسليمها إلى أي كائن كان.

اتسعت عينا (أحمد)، وهو يهتف في دهشة:

- سلمك إياها؟!.. هل تعني أنك...

لم يستطع إكمال عبارته، ولكن الحاج شد قامته، وهو يجيب:

- نعم.. أنا الحاج (جمال).. كبير القرية منذ زمن طويل.. طويل للغاية.

اتسعت عينا (بيشوب) في ذهول، وهو يقول:

- الحاج (جمال)؟!.. ولكن هذا مستحيل!.. الحاج (جمال) كان في الخامسة والثمانين من عمره، عام 1959م، ولو أنك هو، فهذا يعني أنك..

قاطعة الحاج في حزم:

- أنني تجاوزت المائة عام بخمس عشرة سنة أو يزيد.

حدق (أحمد) فيه ذاهلًا، قبل أن يهتف:

- ولكن هذا مستحيل!.. إنك تبدو كما لو أنك لم تتجاوز الستين من العمر بعد.

أومأ الحاج برأسه إيجابًا، وهو يقول:

- هذا صحيح يا ولدي، ولكنه تأثير تلك الطاقة الهائلة، للمصباح دائم الإضاءة.. إنني لم أدرك تأثيره مباشرة، عندما استعدت وعيي، بعد أن أعادني الرجال إلى منزلي، ولا في الأيام التالية، ولكنني بدأت أنتبه إليه مع مرور الأيام والشهور والسنين، عندما لاحظت أن كل رفاقي يشيخون ويهرمون ويموتون، في حين أظل أنا قويًا صحيحًا، وكأنما لا يمضي بي الزمن قط، كما أن طاقتي في العمل ظلت أكبر حتى من شباب القرية.

هتف (بيشوب) مبهورًا:

- الخلود.. لقد كشفت سر الخلود.

هز الحاج (جمال) رأسه نفيًا، وهو يقول:

- الخلود لله وحده يا ولدي.. كل ما حدث لي هو أن عوامل التقدم في السن تراجعت لبعض الوقت، وأشعر بها تعود لتهاجمني في هذه الأيام، بشراسة وأكبر من ذي قبل.

قال (أحمد) مبهوتًا:

- ولكنك تبدو سليمًا معافي.

ابتسم الحاج في أسى، قائلًا:

- ظاهريًا فحسب يا ولدي.. ظاهريًا فحسب.

هتف (بيشوب):

- ولماذا لا تتزود بالطاقة ثانية.. لماذا لم يفعل الجميع هذا؟

هز الحاج رأسه، قائلًا:

- لم يفلح هذا إلا معي فحسب، ويبدو أن هذا لا يحدث إلا بعد أن تظل طاقة المصباح محبوسة لسنوات طوال، وعندما يتم استهلاكها، عبر جسد ما، تنتفي منها هذه السمة على الفور.

عض (بيشوب) شفتيه قهرًا، وهو يهتف:

- يا للخسارة!.. يا للخسارة!

ثم استطرد في لهفة:

- ولكنني أريد رؤية تلك المقبرة.. أريد رؤية صندوق الشمس، والمصباح الذي لا ينطفئ أبدًا.

رمقه الحاج (جمال) بنظرة طويلة، قبل أن يقول في حزم:

- ستراه يا رجل.. ستراه.

سأله في لهفة أكثر:

- متى؟.. متى يمكنني رؤيته؟

تعلقت الأبصار كلها بالحاج (جمال)، الذي لاذ بالصمت بضع لحظات، قبل أن يجيب في حذر وحسم:

- الآن..

وانتفض قلب (بيشوب) في عنف..

☆ ☆ ☆

سري توتر واضح في جسد (أحمد)، والرجال يقودونه مع (بيشوب) معصوبي الأعين، عبر ذلك الطريق المجهول إلى مقبرة الشمس..

وفي هذه المرة، حاول جاهدًا أن يدرس الموقف، باستخدام كل حواسه الأخرى..

كان على الرغم من العصابة على عينيه، يستطيع تمييز نيران المشاعل، التي يحملها الرجال..

ولم تكن تلك النيران تهتز على نحو كاف، كما أنه لا يشعر بهبات النسيم على وجهه..

وهذا يعني أنهم يسيرون عبر نفق ما..

وللتأكد من صحة استنتاجه، راح يسعل بصوت مرتفع، وهو يصغي جيدًا إلى صدى سعاله، الذي تردد على نحو منتظم، كما يحدث عادة في الأماكن المغلقة..

أما (بيشوب)، فقد سأل في عصبية:

- أين نسير بالضبط؟

جاوبه صمت مطبق، زاد من حنقه وتوتره، فصاح:

- سألتكم أين نحن؟!

تردد صدى الصوت على نحو واضح، جعله يهتف:

- آه.. إننا داخل نفق ما.. لقد حفرتم نفقًا للوصول إلى المقبرة.. هذا ما فعلتموه طوال العشرين عامًا.

قالها، وهو يتلفت حوله في عصبية، فارتطمت يده بجدار النفق، وشعر برطوبته وبقطرات الماء المعلقة عليه، فاستطرد:

- وهذا النفق يمتد تحت مياه البحيرة.. أليس كذلك؟

مرة أخري جاوبه صمت مطبق، جعله يصرخ:

- لماذا تتجاهلونني؟

أجابه (أحمد) في توتر:

- ماذا كنت ستفعل، لو أنك في موضعهم، ورجل يصر على إقناعك بكشف سرك له؟

صاح (بيشوب):

- ليس هذا من حقهم.. ليس من حقهم أبدًا.

تنهد (أحمد)، قائلًا:

- من الواضح أنه ما من جدوى من مناقشة هذا الأمر معهم.

انعقد حاجبا (بيشوب) في غضب، وهو يقول:

- سيدفعون الثمن.. سيدفعونه غاليًا.

كانوا يسيرون منذ نصف الساعة تقريبًا، فيصعدون ويهبطون، وينحرفون إلى اليمين تارة، وإلى اليسار تارة، و...

وأخيرًا، ارتفع صوت الحاج، وهو يقول في هدوء:

- وصلنا.

لم يكد ينطقها، حتى رفع (بيشوب) العصابة عن عينيه، وأطلق شهقة قوية، وهو يحدق في ذلك الصندوق، الذي يحمل فوقه أروع نموذج لمراكب الشمس رآه في حياته كلها..

وفي انبهار شديد، راح (بيشوب) يدور في المقبرة، هاتفًا:

- إذن فهي حقيقية.. القصة كلها حقيقية.. بردية (أحمس) لم تكن كاذبة أو خيالية.. إنها حقيقة.. حقيقة..

ثم ألقى نفسه على الصندوق، وركع أمامه يتحسسه في انبهار، والحاج (جمال) يسأله في اهتمام:

- هل يمكنك أن تفتح الصندوق؟

التفت إليه (بيشوب)، هاتفًا:

- ألديك شك في هذا؟

ثم خفض يديه، وضغط جزءًا من النقوش، على الجانب الأيمن للصندوق، ويده الأخرى تدير نقشًا ثانيًا، في الجانب الأيسر منه، وبعدها دفع واجهة الصندوق، من طرفها الأيسر العلوي، وهو يقول في انبهار:

- كل شيء مذكور في بردية (أحمس).

ثم ألقى نفسه على الصندوق، وركع أمامه يتحسسه فى انبهار..

وأخيرًا تراجع خطوة، وضغط اسم (بي-دو) بكفيه، و..

وانفتح الصندوق..

ومع القدر الضئيل من الفراغ، الذي نشأ بين الصندوقي والغطاء، انبعث ضوء مبهر، كما لو أن الشمس تشرق بالفعل من قلب الصندوق..

وبكل لهفته، رفع (بيشوب) الغطاء قليلًا..

وغمر الضوء المبهر المكان كله..

وهتف (بيشوب)، وهو يطلق ضحكات ظافرة، رددتها جدران المقبرة في عنف:

- أخيرًا.. أخيرًا ظفرت بصندوق الشمس.. أخيرًا.

كان الضوء يغشي أبصار الجميع، والحاج (جمال) يقول:

- إنك لم تظفر به بعد.

أطلق (بيشوب) ضحكة مجلجلة أخر، وهو يقول:

- هذا ما تظنه أيها المأفون.

وعلى الرغم من شدة الضوء، استطاع (أحمد) تمييز ذلك الشيء، الذي يمسك به (بيشوب)، ويصوبه إلى الحاج..

وكان ذلك الشيء عبارة عن مسدس..

مسدس كبير، ضغط (بيشوب) زناده، وهو يقول:

- الوداع أيها المخرف.

ودوت الرصاصة في المقبرة القديمة..

مقبرة الشمس.

☆ ☆ ☆

7- وداعًا (بي-دو)..

طوال عمله كرسام صحفي، وعلى الرغم من الشهرة الواسعة التي نالها، من خلال رسمه لأغلفة وصفحات سلسلة الحركة الشهيرة (رجل المخاطر)، إلا أن (أحمد ضرغام) لم يتخيل نفسه قط في مواجهة مسدس حقيقي، ولم يتصور أبدًا أن باستطاعته التعامل مع شخص يحمله..

ولكن من المؤكد أن المواجهة الفعلية تختلف كثيرًا عن التصور والخيال..

فلم يكد (أحمد) يلمح ذلك المسدس، الذي يصوبه (بيشوب) إلى الحاج (جمال)، حتى وجد نفسه ينقض على الأمريكي، هاتفًا:

- احترس يا (حاج).

وفي نفس اللحظة، التي ارتطم فيها جسده بجسد (بيشوب)، انطلقت الرصاصة..

وانطلقت صيحة ألم من بين شفتي الحاج (جمال)..

وبكل ما يملك من قوة، هوى (أحمد) بقبضته على فك (بيشوب)، هاتفًا:

- أيها الوغد الحقير.. كنت تخفي مسدسًا ثانيًا.

قاومه (بيشوب) في شراسة، وهو يصرخ:

- أيها الغبي.. لست تفهم شيئًا.. إنهم لا يستحقون ما حصلوا عليه.. لا يستحقونه أبدًا.

ودفع (أحمد) بعيدًا، ثم هب واقفًا على قدميه، وهو يصوب إليه مسدسه صارخًا:

- كل هذا ملكي.. ملكي وحدي.

انتفض جسد (أحمد)، وهو يغلق عينيه في قوة وتصور أن الرصاصة ستخترق رأسه بلا ريب، إلا أنه سمع ضربة مكتومة وصرخة تأوه قوية، أعقبها صوت سقوط جسد على الأرض، ففتح عينيه في سرعة، ورأى أحد الرجال المرافقين لهم ممسكًا عصاه، وأمامه (بيشوب) على الأرض فاقد الوعي، والحاج يسرع نحوه، ويسأله في لهفة، والدماء تغرق كتفه، وتلوث جلبابه الناصع البياض:

- أستاذ (أحمد).. أأنت بخير؟!

أدار (أحمد) عينيه في المكان كله، وهو يغمغم:

- نعم.. نعم.. أنا بخير.

عاونه الحاج على النهوض، قائلًا:

- هيا.. سنعود إلى القرية.. هيا.

سأله مشيرًا إلى (بيشوب):

- وماذا عنه؟!

صمت الحاج (جمال) لحظة، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامته الهادئة المعهودة، وهو يجيب:

- أظنه سيشعر بندم شديد عندما يستعيد وعيه.

حاول (أحمد) النهوض، إلا أن قدمه انزلقت في ضعف، فقال:

- لست أدري ماذا أصابني؟!. يبدو أنني..

ثم مادت به الأرض، وأظلمت الدنيا أمام عينيه، وهو يهتف:

- رباه... ماذا فعلتم بي؟

أجابه الحاج في اهتمام:

- لا شيء يا ولدي.. أنت مرهق.. مرهق فحسب.

وكان هذا آخر ما سمعه (أحمد)، قبل أن يهوى في غيبوبة عميقة..

عميقة للغاية..

☆ ☆ ☆

لم يدر (أحمد) كم من الوقت ظل فاقد الوعي، ولكنه استيقظ فجأة، ليجد نفسه راقدًا فوق ذلك الفراش الوثير المريح، في حجرة الضيافة بمنزل الحاج (جمال)، فاعتدل جالسًا على طرفه، وتطلع إلى النافذة، التي تسللت خيوط أشعة الشمس من بين فرجاتها، وتمتم:

- يا إلهي!.. هل نمت كل هذا الوقت؟

أتاه صوت الحاج (جمال) هادئًا رصينًا، وهو يسأله:

- كيف حالك الآن؟

أدهشه أنه لم ينتبه إلى وجوده في الحجرة في البداية، فالتفت إليه بسرعة، قائلًا:

- أفضل بكثير.

ابتسم الحاج ابتسامته العذبة، وهو يقول:

- كنت مرهقًا للغاية أمس، حتى أنك فقدت الوعي.

استعاد ذهنه كل تفاصيل حادث الأمس، مع عبارة الحاج، وهتف:

- أين (بيشوب)؟

أشار الحاج بيده، مجيبًا في هدوء:

- لقد رحل.

ردد (أحمد) في دهشة:

- رحل؟!

أومأ الحاج برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم.. لقد استعاد وعيه بعد الفجر بقليل، وأخذ يصرخ ويهدد ويتوعد، مطالبًا بإعادته إلى مقبرة الشمس، ثم لم يلبث أن انهار، وراح يتوسل ويتضرع، ولما لم يأت هذا أيضًا بنتيجة، عاد يصرخ ويسب ويلعن، ثم استقل سيارته (الجيب)، وغادر القرية كلها في ثورة هائلة.

سأله (أحمد) في اهتمام:

- أظنه سيعود ثانية؟!

أجابه الحاج في هدوء:

- بكل تأكيد.

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة، وهو يضيف:

- ولكن ليس وحده.

سأله (أحمد) في حيرة:

- هل سيحضر بعض رجال العصابات مثلًا؟

ضحك الحاج، قائلًا:

- سترى يا ولدي.. سترى.

تطلع (أحمد) إلى كتفه، قبل أن يشير إليها، قائلًا:

- كيف حال إصابتك؟

صمت الحاج لحظات، ثم استعاد ابتسامته، وهو يكشف كتفه، قائلًا:

- ما رأيك أنت؟

كاد (أحمد) يقفز من فراشه ذاهًلا، وهو يحدق في كتف الحاج، التي لم يعد فيها من إصابته سوي خط باهت، يشير إلى الالتئام التام للجرح، وهتف:

- كيف حدث هذا؟

اعتدل الحاج، وهز رأسه، قائلًا:

- لا تسألني.. أنا نفسي أجهل السبب.

قال (أحمد) في انفعال:

- من الواضح أن تلك الطاقة ضاعفت من نشاط خلاياك إلى درجة مدهشة.

ابتسم الحاج، قائلًا:

- نعم.. يبدو هذا.

لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع صوت أبواق سيارات شرطة، تتجه إلى القرية، فقال (أحمد) في توتر:

- ما هذا؟

أشار إليه الحاج في هدوء، قائلًا:

- لا تقلق يا ولدي.. كنا نتوقع هذا.

قالها وغادر المكان في هدوء، ليستقبل سيارات الشرطة، فأسرع (أحمد) يرتدي ثيابه، ويهرع خلفه، وعندما وصل إلى الساحة، رأى الحاج يتحدث مع ضابط شرطة برتبة مقدم، وإلى جوارهما (بيشوب) يصرخ:

- إنه كاذب.. هذا الرجل كاذب أيها الضابط.. لقد رأيت بنفسي مقبرة فرعونية كاملة، ومومياوات، وآثار قديمة.. إن لديهم متحفًا كاملًا هنا.. كانوا يريدون بيعه لي، ولكنني أعرف القانون المصري.. أنا رجل شريف أيها الضابط.

انعقد حاجبا الضابط، وهو يسأل الحاج (جمال):

- أهذا صحيح يا حاج؟

أجابه الحاج في هدوء:

- نحن قوم شرفاء أيها الضابط، وأنتم خير من يعرفنا.. حتى الجرائم العادية لا تحدث بيننا. ولم نحاول قط بيع أية آثار، أو حتى عرضها للبيع.

صاح (بيشوب):

- إنه كاذب.. كاذب.. فتشوا المكان، وستعثرون على تلك الآثار حتمًا.. ستجدون مدخل نفق سري، أو شيء من هذا القبيل.

أدرك (أحمد) ما يسعى إليه (بيشوب)، وانعقد حاجباه في شيء كثير من القلق، في حين ظل الحاج على هدوئه، والضابط يقول له:

- معذرة يا حاج، ولكنني مضطر لتفتيش القرية كلها.

أشار الحاج بيده، قائلًا في بساطة:

- المكان كله رهن إشارتك أيها الضابط.

انتشر رجال الشرطة في القرية كلها، وراحوا يفتشون كل شبر فيها، وينقرون الجدران، ويدقون الحوائط، و(بيشوب) يتنقل حولهم كالمجنون، وهو يهتف:

- مدخل النفق السري في مكان ما هنا.. أنا واثق..

واقترب (أحمد) من الحاج، وهمس في أذنه بقلق:

- أأنت واثق من أنهم لن يعثروا على شيء.

ابتسم الحاج دون أن يجيب، ولكن ابتسامته حملت قدرًا هائلًا من الثقة، بث الارتياح في نفس (أحمد)، فجلس يتابع الموقف بنفس الهدوء..

واستغرقت عملية التفتيش الدقيقة نصف النهار، قبل أن يقول الضابط للحاج:

- تقبل اعتذاري يا حاج.

صرخ (بيشوب):

- مستحيل!.. إنه هنا في مكان ما.. مستحيل!

التفت إليه الشيخ في هدوء، وهو يقول:

- يبدو أنك لم تستطع التفرقة بين خيالك وواقعاك يا رجل.. ولو أنني في موضعك، لنسيت أمر صندوق الشمس هذا..

ثم انعقد حاجباه في صرامة، مع إضافته:

- وإلى الأبد.

اتسعت عينا (بيشوب) في ارتياع، وقد أدرك ما يعنيه الحاج، وتراجع كالمصعوق، وهو يصرخ:

- لا.. مستحيل!.. مستحيل!

ثم انطلق يقهقه ضاحكًا في قوة، ويلوح بيديه، هاتفًا:

- لقد لمسته بيدي.. لا يمكن أن أفقده الآن.. لا يمكن أبدًا..

وأمام أعين الجميع، راح يجري في القرية، صارخًا:

- صندوق الشمس حقيقة.. حقيقة..

ثم يقهقه ضاحكًا في قوة.

وكان من الواضح أن خبير الآثار الأمريكي قد أصيب بالجنون.

الجنون المطبق..

☆ ☆ ☆

انطلقت زغرودة قوية، خلف سيارة (أحمد) و(ليلى)، التي تنطلق بهما، في طريقها إلى (الإسكندرية)، لقضاء شهر العسل، وأطلق (أحمد) ضحكة عالية، قبل أن يضم (ليلى) إليه في حرارة، هاتفًا:

- لست أصدق نفسي.. أخيرًا أصبحنا زوجين.

هتفت ضاحكة:

- احترس أيها المجنون.. إنك تقود السيارة.

ضحك، قائلًا:

- اطمئني يا زوجتي العزيزة.. بعد ما واجهته في تلك القرية النوبية، لم يعد هناك ما يقلقني قط.

تملصت منه في دلال، وسألته:

- قل لي.. لماذا لم يحضر الحاج (جمال) حفل زواجنا؟

ابتسم مجيبًا:

- إنه لم يعد يميل كثيرًا إلى مغادرة القرية، فآلامه تتزايد، ويبدو أن الخلايا التي عملت طويلًا بنشاط زائد، بدأت في الانهيار الآن.

هزت رأسها، قائلة:

- هل تعلم؟.. لقد حصل ذلك النوبي على ما يحلم به الكثيرون، إلا أن هذا لم يسعده قط.

أومأ برأسه موافقًا، وهو يقول:

- هذا صحيح، فقد شرح لي كيف أنه تعذب طويلًا، ورفاقه يرحلون واحًدا بعد الآخر، وامرأته تشيخ وتموت، وكذلك أبناؤه، في حين يراقبهم هو يائسًا حتى من اللحاق بهم.

تنهدت مغمغمة:

- سبحان الله.

ثم سألته في اهتمام:

- وماذا عن (بيشوب)؟

مط شفتيه، قبل أن يجيب:

- لقد فقد عقله تمامًا، وتم ترحيله إلى موطنه، ومازال يخضع لعلاج مكثف، منذ ذلك الحين، ولكنه لا يستطيع نسيان أنه رأى صندوق الشمس، ولمسه بأصابعه.

ثم ابتسم، مستطردًا:

- ولكن العجيب أن زميله المصري الدكتور (فؤاد) تقدم ببحث كامل حول ما يطلق عليه اسم (بردية أحمس)، في مؤتمر الآثار المصرية القديمة الأخير، في (لوس أنجلوس)، وتضمن بحثه هذا وصفًا كاملًا لنموذج مركب الشمس، المصنوع من الخشب

والذهب، والمرصع بالأحجار الكريمة، والصندوق ذي النقوش، واستعان بالرسوم التي وضعتها أنا، لتوضيح شكل ذلك النموذج كما تضمن البحث أيضًا دراسة مستفيضة حول نظرية الكويكبات، وذلك العدد الهائل منها، الذي يقع بين (المريخ)، و(المشتري)، ولقد أثار بحثه هذا جدلًا واسعًا في المؤتمر، ونشرته عشرات المجلات العلمية المتخصصة، وعلق عليه عدد هائل من علماء الآثار.

والتفت إليها، يسألها:

- وهل تعرفين ما الاسم، الذي أطلقه على بحثه هذا؟

تطلعت إليه في تساؤل، فغمز بعينه، مجيبًا سؤاله:

- لقد أطلق عليه اسم (لغز الكوكب العاشر).

قالها، وزاد من سرعة السيارة، وهو يطلق ضحكة مرحة عالية، شاركته إياها زوجته، والسماء تزدان بالنجوم فوقهما، وكأنها تشاركهما فرحتهما وسعادتهما..

أو كأنها ترسل تحية إلى حطام ذلك الكوكب، الذي كان يومًا أعظم كواكب المجموعة الشمسية كلها.. الكوكب العاشر.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- الزائـــر..

2- اللغز..

3- بردية (أحمس)..

4- الأعماق..

5- الحاج..

6- الســرّ..

7- وداعًا (بي-دو)..

الفهرس:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

آلة الزمن

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

آلة الزمن
للمؤسسة العربية الحديثة

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

آلة الزمـــن

1- الضـائع..

انخفضت درجات الحرارة على نحو يفوق المعدلات الطبيعية، في تلك الليلة الأخيرة، من عام ألفين وعشرة، وبدت شوارع في (القاهرة) خالية تقريبًا، إلا من عدد قليل من المارة، الذين خرجوا للاحتفال بمولد العام الجديد، في حين قبع الباقون في منازلهم، يتابعون في شعف عروض (التليفزيون) المجسم (الهولوفيزيون)، الذي لم يبدأ بثه إلا في تلك الليلة بالتحديد، وران الصمت على الصغار والكبار في انبهار حقيقي، وهم يحدقون في تلك الصور الثلاثية الأبعاد، لنجوم الفن والصحافة، والاستعراضات المدهشة، التي تبدو وكأنها تعرض بينهم، بكل مؤثراتها الضوئية والصوتية، وحتي برائحة العطور وأدوات التجميل المستخدمة، واندفع الأطفال يحاولون إمساك تلك الصور الهولوجرامية في لهفة، وارتفعت صرخات الإثارة من حلوقهم، وأصابعهم الصغيرة تقبض على الهواء، دون أن تظفر بشيء مما يرونه بينهم.

وبعيدًا عن كل هذا، جلس رجال دورية الشرطة المتجولة داخل سيارتهم، وعيونهم تراقب كل ما حولهم، على الرغم من وجود أجهزة المراقبة والرصد الحديثة، داخل السيارات المجهزة، وبدا الضجر على ضابط الدورية، وهو يلوح بيده، مغمغمًا في شيء من الضيق:

- يا لها من ليلة!.. أشعر وكأننا نتجول في مدينة مهجورة.. من يمكنه أن يرتكب جريمة في ليلة كهذه؟!

ابتسم زميله، وهو يسترخي في مقعده، قائلًا:

- الجريمة لا تختار وقتًا بعينه.. إنها تحدث في كل زمان ومكان.. هذا ما تعلمناه في الكلية..

أومأ الضابط برأسه موافقًا، وهو يقول:

- هذا صحيح.. إنني أذكر ليلة كانت الأمطار تتدفق فيها كالسيول، وضبطنا لصًا يوصل جهاز كمبيوتر بنافذة الصرف الآلية لأحد البنوك، ويحاول الاستيلاء على ثروة.

هز زميله كتفيه، وقال:

- هذا أمر طبيعي.. اللص يختار دائمًا الأوقات التي يندر فيها تواجد المارة، حتى يمكنه العمل في هدوء.

بدا وكان الحديث يروق لهما، أو أنه يساعدهما على كسر الإحساس بالملل والضجر، فقد انهمكا بضع دقائق في مناقشة طبائع اللصوص، وتطور أساليب الجريمة في السنوات العشر الماضية، وظهور فئة جديدة من المجرمين، تتعامل مع التكنولوجيا وتعتمد عليها، وتبتكر من الطرق والأساليب ما يضاعف من صعوبة الصراع، ويضع رجال الشرطة في سباق دائم متصل، بكشف كل جديد، وتطوير وتحديث أساليبهم في التعامل مع الجريمة والمجرمين..

ثم فجأة، هتف الضابط:

- رباه!.. كدنا نفقد لحظة مولد العام الجديد.. إنها الثانية عشرة إلا دقيقة واحدة.

ضحك زميله، قائلًا:

- وماذا سنفعل لو لحقنا بلحظة مولده؟!.. هل نسيت أنهم اختارونا بالذات للعمل في تلك الليلة، لأن كلًا منا أعزب، لا

زوجة له ولا ولد.

ابتسم الضابط، وهو يقول:

- ولكننا نحتفظ بمشاعرنا الآدمية على الأقل.

واعتدل في مقعده، وهو يتطلع لساعة السيارة، ويخفض السرعة إلى حد ما، مستطردًا:

- هيا.. استعد.. بقيت عشرون ثانية فحسب، وتسع عشرة.. ثمان عشرة.. سبع عشـ..

قاطعة فجأة هتاف زميله:

- رباه!.. احترس يا رجل.. احترس.

رفع الضابط عينيه عن الساعة، وتطلع أمامه في انزعاج، ووقع بصره على ذلك الشاب النحيل، الذي برز بغتة من خلف كشك هاتف الكمبيوتر، وانطلق يعبر الشارع، و...

وضغط الضابط فرامل سيارته بكل قوته، وهو ينحرف بها إلى اليسار في سرعة، محاولًا تفادي الارتطام به، فانزلقت إطارات السيارة فوق الأرض الرطبة، وانبعث صوت آلي من الكمبيوتر الخاص بها، يقول:

- إنذار.. إنذار.. خروج مفاجئ عن المسار.. انزلاق بزاوية خطرة.. إنذار.

تجاوزت السيارة الشاب ببضع سنتيمترات لا غير، ودارت حوله على نحو عنيف، والضابط يحاول السيطرة على مسارها، وزميله يهتف:

- اخفض السرعة يا رجل.. اخفضها بالله عليك.

كان من الممكن أن تنزلق السيارة أكثر، وترتطم بجدار المبنى المقابل، لولا مهارة وبراعة الضابط، الذي نجح في السيطرة عليها أخيرًا، لتتوقف على مسافة نصف المتر من الجدار، فأطلق الضابط زفرة ملتهبة، من أعمق أعماق قلبه، قبل أن يهتف:

- حمدًا لله..

أما زميله، فقد انعقد حاجباه في شدة، وهو يتطلع إلى الشاب، الذي ترنح في شدة، وامتدت يده، وكأنما يحاول التشبث بشيء ما، قبل أن يهوي أرضًا، ففتح باب سيارته الدورية، وأسرع إليه، هاتفًا:

- عجبًا!.. إننا حتى لم نلمسه..

وقبل حتى أن يصل إلى الشاب، كانت الدهشة قد زرعت نفسها في مساحة واسعة للغاية من عقله.

هذا لأن الشاب كان يرتدي زيًا لا يتناسب قط مع برودة الطقس الزائدة، فهو يرتدي مجرد قميص صيفي بسيط قصير الأكمام،

وسروال من نوع (البلوجينز) الأمريكي، وحذاء رياضي من الكاوتشوك.

وبكل دهشته، انحنى الرجل يفحص الشاب، في حين لحق به الضابط، وهو يقول في انفعال:

- ماذا أصابه؟

أجابه زميله في شيء من التوتر:

- لقد فقد الوعي، ولا ريب في أنه يرتجف بردًا بهذا الزي الخفيف.

انحنى الضابط يحمل الشاب، وهو يقول:

- فلنسرع به إلى السيارة.. من الواضح أنه يحتاج إلى إسعاف عاجل.

تعاونا على نقله إلى السيارة، وأجرى الضابط اتصاله بهليكوبتر الإسعاف، ثم التقط يد الشاب، قائلًا:

- دعنا لا نضع فترة انتظار وصول هليكوبتر الإسعاف، ولنحصل على بعض المعلومات الخاصة به.

قالها، وألصق كف الشاب بشاشة الكمبيوتر، وهو يقول بلهجة آمرة:

- فحص البصمات.

استجاب الكمبيوتر للأمر على الفور، والتقط بصمات الشاب، وراح يراجعها مع كل البصمات المسجلة لديه، قبل أن يجيب بصوته الآلي:

- غير مسجلة.

انعقد حاجبا الضابط، وهو يقول في عصبية:

- ماذا تعني بأن بصماته غير مسجلة؟!. كل مواطن يتم تسجيل بصماته، عندما يبلغ الثامنة عشرة من عمره!

كرر الكمبيوتر بنفس الصوت المعدني الجاف:

- غير مسجلة.

انعقد حاجبا الضابط أكثر، وهم بنطق عبارة غاضبة، عندما ربت زميله على كتفه، قائلًا:

- ربما لم يلتحق الشاب بأية كلية جامعية، أو وظائف حكومية..

أنت تعلم أن القانون ينطبق على الفئتين فحسب، بعد المشبوهين وأصحاب السوابق بالطبع.

ثم ابتسم، محاولًا تهدئة الموقف، وهو يستطرد:

- ونحن نعلم الآن أنه ليس مجرمًا على الأقل.

ندّت عن الشاب تأوهات خافتة، فالتفت إليه الاثنان في اهتمام، وغمغم الضابط في انفعال:

- يبدو أنه يستعيد وعيه..

كان مصيبًا في تقديره هذا، إذ فتح الشاب عينيه بالفعل، وتطلع إليهما في توتر متهالك، وهو يقول:

- ماذا حدث؟!.. أين أنا؟!

أجابه الضابط:

- اطمئن.. إننا دورية الشرطة المتجولة.. لقد عثرنا عليك، و..

قاطعة الشباب في دهشة بالغة:

- الشرطة؟!.. ما هذا الزي الذي ترتديانه إذن؟!

تبادل الرجلان نظرة حائرة، قبل أن يجيبه الآخر:

- إنه زي الشرطة التقليدي، الذي يتم استخدامه منذ عام ألفين وثلاثة، طبقًا لتعديلات قانون الـ..

اتسعت عينا الشاب، وقاطعه هاتفًا في ذعر:

- ألفين وثلاثة؟!.. في أي عام نحن إذن؟

تبادل الرجلان نظرة دهشة أخرى، قبل أن يجيبه أحدهما في حذر:

- إننا في الدقائق الأولى من عام ألفين وإحدى عشر.

اتسعت عينا الشاب عن آخرهما، حتى بدتا وكأنهما ستقفزان في محجريهما، وهو يهتف في ارتياع:

- ألفين وإحدى عشر؟.. رباه!.. إذن فقد نجح الاختراع.. لقد نجح.

انعقد حاجبا الضابطين في توتر شديد، وسأله أحدهما:

- أي اختراع يا فتى؟!

تهالك جفنا الشاب، وهو يجيب:

- الآلة.. آلة الزمن.

ثم انهار فاقد الوعي مرة أخرى، في نفس اللحظة التي ارتفع فيها صوت هليكوبتر الإسعاف، التي تقترب من المكان..

فقد وعيه، وقد ترك خلفه في هذه المرة لغزًا.

لغزًا مدهشًا..

☆ ☆ ☆

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا بعد، عندما انبعث صوت الهاتف الآلي، المتصل بجهاز الكمبيوتر، في حجرة نوم مفتش المباحث (منير حلمي)، قائلًا بذلك الأداء الجاف:

- مكالمة هامة.. إدارة الشرطة.. أولوية قصوى.. حتمية استيقاظ.

تكرر النداء ثلاث مرات، قبل أن يفتح (منير) عينيه، ويتمتم في ضيق مجهد:

- فليكن.. لقد استيقظت.. صلني بالمتحدث.

توقف النداء على الفور، وتلاشت التعليمات الأساسية من شاشة الكمبيوتر، لتظهر صورة مدير المباحث، وهو يقول:

- هيا.. استيقظ يا (منير).. لدي مهمة عاجلة لك.

هبّ (منير) من فراشه، وهو يلعن تلك النظم الإليكترونية الحديثة، التي تتيح للمتحدث رؤية محدثه، عبر أجهزة الهاتف المرئية، ورفع خصلات شعره المتناثرة بأصابعه في توتر، وقال:

- معذرة يا سيدي، ولكنني أويت إلى الفراش منذ نصف الساعة فحسب، و...

قاطعه المدير في حزم:

- أعلم هذا يا (منير).. ولكن المهمة التي لدي لا يصلح لها سواك.

ردد (منير) في دهشة:

- لا يصلح لها سواي؟!.. ما طبيعة هذه المهمة بالضبط؟

تنهد المدير، مجيبًا:

- لست أدري.. لا يمكننا تصنيفها بالتحديد، ولكنها تتناسب مع اهتماماتك العلمية، وبرامج الكمبيوتر التي تطالعها باستمرار.

ثم اعتدل، مستطردًا في اهتمام:

- منذ ثلاث ساعات تقريبًا، عثرت إحدى دورياتنا المتجولة على شاب يرتدي زيًا صيفيًا، في هذا الطقس الشديد البرودة..

غمغم (منير) بشيء من السخرية:

- وهل فحصوا قواه العقلية؟

تجاهل المدير هذا التعليق، وهو يواصل.

- كان الشاب فاقد الوعي، ومجهدًا إلى حد كبير، وعندما استعاد وعيه لحظات، أبدى دهشة بالغة، أقرب إلى الذهول، لكوننا في بداية عام ألفين وإحدى عشر، ثم عاد يفقد وعيه، ولكن بعد أن ذكر شيئًا عن آلة زمن..

شحذت العبارة الأخيرة حواس (منير) في شدة، وطردت من ذهنه كل أثر للتعب أو النعاس، وهو يعتدل مرددًا:

- آلة زمن؟!

أومأ المدير برأسه إيجابًا، وقال:

- لقد أدهش هذا ضابطي الدورية أيضًا، ولكنهما سلما الشاب لهليكوبتر الإسعاف، ثم أرسلا بوساطة كمبيوتر السيارة تقريرًا عن الموقف، نقل الحيرة والدهشة إلينا أيضًا، وأثار سخرية زميلك (ماهر سليمان)، الذي قرر أن يتولى التحقيق في الأمر، فأسندت إليه هذه المهمة، واتجه مباشرة إلى مستشفى المعادي

العسكري، حيث تم نقل الشاب، ليراجع تقارير الأطباء، ويستجوبه إن أمكن.

سأله (منير) في شغف شديد:

- وهل فعل؟

أومأ المدير برأسه إيجابًا ثانية، وهو يقول:

- نعم.. تقارير الأطباء أكدت أن الشاب يتمتع بحالة صحية جيدة، ولكنه مرهق، ويحتاج إلى بعض النوم فحسب، حتى يستعيد قوته ونشاطه، ولكن الشاب استيقظ لبعض الوقت، فتحدث معه (ماهر)، ويبدو أنه عامله بشيء من القسوة والحدة، حتى أن الأطباء قد تدخلوا، وأصروا على إيقاف التحقيق، حرصًا على صحة الشاب.

سأله (منير)، وقد بلغ شغفه وفضوله مبلغهما:

- وما الذي أثار غضب (ماهر)، حتى يتعامل معه بالقسوة والحدة؟

أشار المدير بيده، مجيبًا:

- القصة التي رواها الشاب بالتأكيد، فأنت تعلم أن (ماهر) جاد صارم، لا يميل إلى تصديق كل الأمور المتعلقة بالعلوم الحديثة أو الغيبيات، أو خوارق الطبيعة، وعندما يستمع إلى شاب يدعي أنه أتي من زمن آخر، فمن الطبيعي أن..

هتف (منير) في انبهار:

- من زمن آخر؟!

ثم انتبه إلى أن أسلوبه هذا يفتقر إلى اللياقة، فاستدرك بسرعة:

- معذرة يا سيدي، ولكن الأمر أثارني بشدة، حتى أنني لم أتمالك نفسي.

هز المدير رأسه متفهمًا، قبل أن يقول:

- أعلم هذا يا (منير).. أعلم هذا.. اهتماماتك العلمية وشغفك بروايات الخيال العلمي يجعلان هذه القضية شديدة الإثارة بالنسبة لك، ولهذا رشحتك لها.

أجابه (منير) في حماس:

- سأذهب إلى مستشفى المعادي العسكري على الفور يا سيدي.

ثم تراجع بنفس السرعة، قائلًا في قلق:

- ولكنني أخشى أن يغضب (ماهر)، ويتصور أنني انتزعت منه قضيته.

أجاب المدير على الفور:

- ومن قال إنك ستنتزعها منه؟!

أطلت نظرة حائرة من عيني (منير)، فتابع المدير في حزم:

- الواقع أنكما ستعملان معًا في هذه القضية.

هتف (منير) في دهشة مستنكرة:

- أنا و(ماهر)؟!.. وفي هذه القضية بالذات؟!.. إننا لن نتفق أبدًا!

أجابه المدير في صرامة:

- بالضبط.. لن يمكنكما أن تتفقا أبدًا؛ لأن (ماهر) متحامل بشدة على الأمر، ويرفض الاعتراف بفكرة السفر عبر الزمن، في حين تتحمس لها أنت للغاية، وتؤمن بإمكانية حدوثها تمامًا، وأخشى أن ينفرد أحدكما بالقضية، فتدفعه عواطفه إلى اتخاذ مسار

مخالف لواقع الأمور، لذا فقد وضعتكما معًا في سلة واحدة، لخلق التوازن المطلوب، في معالجة مثل هذه الأمور.

مط (منير) شفتيه بعدم رضا، وهو يغمغم:

- قرار حكيم يا سيدي.

ابتسم المدير، لأن (منير) نسي أن شاشة الهاتف المرئي تنقل انفعاله الحقيقي في وضوح، وقال:

- أقدميتك تفوق أقدمية (ماهر)، بسبب الوسام الذي حصلت عليه من السيد وزير الداخلية، بعد نجاحك في حل قضية الساحر، وهذا يعني أنك ستصبح، من الناحية الرسمية، رئيس الموقف كله، ولكنني أطالبك بألا تستغل هذا في كبت آراء (ماهر).. اتركه يقول كل ما يحلو له، فقد يفيدك هذا كثيرًا في النهاية.. هل تفهمني؟

غمغم (منير):

- أفهمك جيدًا يا سيدي.

ابتسم المدير ثانية، وهو يقول:

- هيا.. انطلق إذن لتبدأ مهمتك يا رجل.. وفقك الله (سبحانه وتعالي).

انتهى الاتصال، واختفت صورة المدير من شاشة الكمبيوتر، فشد (منير) قامته، وغمغم في حنق:

- أنا و(ماهر) في قضية واحدة؟!.. يبدو أن الساعات القادمة ستكون أسوأ ساعات عمري بالفعل.

قالها، وأطلق زفرة ملتهبة من أعماقه، وبدأ يرتدي ملابسه، استعدادًا للغوص في أعجب لغز واجهه في حياته كلها..

لغز آلة الزمن..

☆ ☆ ☆

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي المفتش (ماهر)، وهو يستقبل زميله (منير) في قسم الطوارئ بمستشفى المعادي العسكري، ولوح بذراعه في تهكم، قائلًا بلهجة مسرحية:

- وفي اللحظة المناسبة بالضبط، ظهر المنقذ الجبار، فتلاشت كل الأسرار، واندلعت في العقول النار، و...

انعقد حاجبا (منير)، وهو يقول:

- القافية غير موزونة.

هز (ماهر) كتفيه، قائلًا في سخرية:

- وماذا في هذا؟!.. كل شيء في عصرنا هذا غير موزون.. الشعر.. الموسيقى.. الرياضة.. وحتى القراءة.. أنت مثلًا ما زلت تقرأ تلك السخافات، التي كتبها (رءوف وصفي) و(نبيل فاروق)، و(أحمد خالد توفيق) وغيرهم، والتي لم تعد تناسب التقدم الذي شهده عصرنا.

أشاح (منير) بوجهه، قائلًا في حزم:

- الخيال العلمي يناسب كل العصور، (جولي فيرن) كتب رواياته في القرن التاسع عشر، وما زال الناس يقرءونها حتى يومنًا هذا.

أجابه (ماهر) بلهجة، هجومية مستفزة:

- الحمقى والحالمون فحسب، أما الواقعيون والعقلاء، فيقرءون الأدب الاجتماعي الجاد.

التفت إليه (منير)، وقال في سخرية:

- وماذا عنك!!.. هل تقرأ الأدب الاجتماعي الجاد مثلهم؟

انعقد حاجبا (ماهر)، وهو يجيب في عصبية:

- أنا رجل مباحث، لا أضيع وقتي في تفاهات كهذه..

غمغم (منير) في سخرية أكثر:

- حقًا؟!

ازداد انعقاد حاجبي (ماهر)، وقال في صرامة:

- هذه ليست قضيتنا على أية حال.. إننا هنا لاستجواب ذلك النصاب فحسب.

أشار (منير) بسبابته، قائلًا:

- لا تصدر الحكم قبل المداولة.. المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

هتف (ماهر) مستنكرًا:

- إدانته؟!.. هل ستستمع إليه، وهو يدعي أنه سافر عبر الزمن إلى هنا؟!.. هل ستصدق قصة سخيفة كهذه؟!.. إنها لن تخدع حتى صبيًا في العاشرة من عمره.

أجابه (منير) في صرامة:

- دعنا نستجوبه أولًا، ثم نصدر حكمنا.

ثم اتجه إلى الطبيب المسؤول، وقال:

- أخبرني أيها الطبيب.. متى يمكننا استجواب الشاب؟

ألقى الطبيب نظرة غاضبة على (ماهر)، قبل أن يجيب (منير):

- الشاب مستيقظ بالفعل، ولكن أسلوب زميلك هذا..

قاطعه (منير):

- سأستجوبه أنا بنفسي.

انعقد حاجبا (ماهر) في غضب، وأشاح بوجه في حنق، فتألقت عينا الطبيب في شيء من الشماتة، وهو يقول:

- في هذه الحالة يختلف الأمر كثيرًا.

ولم تمض دقائق معدودة، بعد قوله هذا، حتى كان (منير) و(ماهر) يجلسان إلى جوار فراش الشاب، وقد لاذ الأخير بالصمت، ومط شفتيه في سخط واضح، في حين راح الأول يفحص الشاب بعينية في اهتمام.

كان شابًا في أوائل العشرينات من عمره، نحيل إلى حد ما، شاحب الوجه، أسود الشعر والعينين، يبدو مرتبكا حائرًا إلى حد ما، وهو ينقل بصره بينهما في حذر، فرسم (منير) على شفتيه ابتسامة ودود، وهو يسأله:

- ما اسمك يا فتى؟!

أجابه الشاب في سرعة وتوتر:

- اسمي (أشرف).. (أشرف عبد المجيد).

سأله (منير):

- وكم عمرك يا (أشرف)؟

ازدرد الشاب لعابه في توتر، وهو يختلس النظر إلى (ماهر)، مجيبًا:

- أنا في الثانية والعشرين من عمري.. أعنى أنني كذلك في الزمن الذي أتيت منه.

ابتسم (ماهر) في سخرية عصبية، في حين سأل (منير) الشاب في رفق:

- هل تعني أنك قد أتيت إلى هنا من المستقبل، بعد اختراع آلة الزمن يا (أشرف)؟

حدق الشاب في وجهه بدهشة، قبل أن يقول:

- المستقبل؟!.. أي مستقبل؟!.. بالنسبة لكم لا يعتبر الزمن الذي أتيت منه مستقبلًا.. إنه ماض.. ماضٍ يعود إلى ربع قرن مضى.

واتسعت عينا (منير) في دهشة:

لقد كان ما يسمعه مفاجئًا..

ولأقصى حد.

☆ ☆ ☆

2- الآلة..

لثوان، ران على حجرة الشاب، في مستشفى المعادي العسكري، صمت رهيب، و(منير) و(ماهر) يحدقان في وجهه بدهشة بالغة، قبل أن يقول الأخير في حدة:

- كلًا.. هذا يتجاوز الحدود.. إنك حتى لم تحاول أن تتقن عملية النصب السخيفة هذه.. كيف يمكنك أن تأتي إلينا في آلة زمن من الماضي، ونحن لم نسمع عن شيء كهذا في حياتنا كلها؟!

ومال نحوه في عصبية، مستطردًا:

- ثم أين آلة الزمن المزعومة هذه؟!.. أين أخفيتها؟ وكيف قدتها إلى هنا؟!

تراجع الشاب في ذعر، هاتفًا:

- لست أدري.. أقسم لك، لست أدري.. أنا أيضًا أشعر بالدهشة والحيرة، لأنكم لم تسمعوا عن آلة الزمن هذه، على الرغم من أن وجودي هنا دليل أكيد على نجاحها.

صاح (ماهر) في وجهه:

- دليل أكيد؟!.. أما زلت تصر على...

قاطعه (منير) بإشارة من يده، وهو يقول في صرامة:

- كفى يا (ماهر).. إنك ترهب الفتى بأسلوبك هذا، وتمنعه من الإدلاء بما لديه..

انعقد حاجبا (ماهر) في شدة، وهو يقول في عصبية شديدة:

- فليكن يا أستاذ العلم والخيال.. لن أتفوه بحرف واحد، حتى تنتهي من استجوابه.. هل يرضيك هذا؟

أجابه (منير) في صرامة:

- بالتأكيد.

ثم التفت إلى الشاب المذعور، مستطردًا بلهجة مختلفة:

- اهدأ يا (أشرف).. لا داعي لكل هذا التوتر والقلق.. نحن لا نتهمك بأي شيء.. إننا هنا لنلقي عليك بعض الأسئلة لاستيضاح الأمر فحسب.. اهدأ.

أومأ الشاب برأسه إيجابًا في توتر، فربت (منير) على كتفه مطمئنًا، قبل أن يرسم على شفتيه نفس الابتسامة الودود، ويقول:

- قل لي يا (أشرف): هل يمكنك أن تروي لنا كيف وصلت إلى هنا؟

ازدرد الشاب لعابه، قبل أن يومئ برأسه إيجابًا، ويتمتم في صوت شديد الخفوت والتوتر:

- بالتأكيد يا سيدي.. بالتأكيد.

ثم اعتدل في مجلسه، وازدرد لعابه مرة ثانية، واختلس نظرة أخرى إلى (ماهر)، وتنحنح في اضطراب، و...

وبدأ يروي القصة..

☆ ☆ ☆

«آلة زمن؟!..».

نطق مدير مركز البحوث العلمية الكلمة في لهجة عجيبة، تجمع ما بين الدهشة والسخرية والاستنكار، وهو يحدق في وجه الدكتور (هاشم حداد)، قبل أن تنطلق من أعماقه ضحكة مجلجلة، ويكمل في سخرية:

- ماذا أصابك يا دكتور (هاشم)؟.. فكر بواقعية يا رجل.. آلة الزمن هذه مجرد خرافة، تفيد صانعي السينما بأكثر مما تفيد العلماء.

بدا الغضب على وجه الدكتور (هاشم)، وهو يشير إلى الملف الذي وضعه أمام مدير المركز، قائلًا:

- آلة الزمن ليست خرافة يا سيادة المدير.. (أينشتين) تنبأ بوجودها، في معادلاته الخاصة بالزمن، ولو أنك راجعت معادلاتي، التي عدلت معادلات (أينشتين)، لوجدت أنه من الممكن جدًا أن...

قاطعه المدير، وهو يزيح الملف جانبًا:

- المعادلات شيء والواقع شيء آخر يا دكتور (هاشم). ربما كان السفر عبر الزمن ممكنًا، ولكن أحدًا لن يتوصل إليه في زمننا هذا.. من أين يمكنك أن تأتي بالطاقة اللازمة لتسيير آلة كهذه؟!

هز الدكتور (هاشم) رأسه، قائلًا:

- الأمر لا يحتاج إلى طاقة هائلة كما تتصور، فالسفر عبر الزمن يتم من خلال التغلغل في الأبعاد، بحيث نصل إلى منطقة الصفر الزمني، ومنها يمكننا الانطلاق إلى أية نقطة نشاء.

ابتسم مدير المركز في سخرية، قائلًا:

- وهذا التغلغل في الأبعاد، ألا يحتاج إلى طاقة!

أشار الدكتور (هاشم) بكفيه، مجيبًا:

- طاقة عادية.. نفس الطاقة التي تكفي لتشغيل آلة من آلات المصانع الكبيرة، فطبقًا للتصميمات التي وضعتها، لن تتحرك آلة الزمن من موضعها قيد أنملة، وكل ما ستفعله هو أنها ستعمل على إبدال الأقطاب بسرعة كبيرة، بحيث تصنع فيما حولها مجالًا كهرومغناطيسيًا، يتعاظم حتى يشق الحاجز بين الأبعاد، ويدفعها نحو منطقة الـ..

قاطعه المدير في صرامة هذه المرة:

- كفى يا دكتور (هاشم).. أحلامك هذه قد تبدو طريفة وأنيقة، لو تم وضعها في رواية من روايات الخيال العلمي، ولكن في مكان كهذا، وفي عام ألف وتسعمائة وخمسة وثمانين، فهي تبدو لي سخيفة للغاية.

احتقن وجه الدكتور (هاشم)، وهو يقول:

- سخيفة؟!.. إنني أتحدث عن آلة زمن يا سيادة المدير.. عن واحد من أقوى الأسلحة، التي يمكن استخدامها، في أي زمان ومكان.. هل يمكنك أن تتخيل ما يمكن أن يحدث، لو اخترعتها جهة معادية، وقررت إرسال فرقة من الكوماندوز مثلًا، لاحتلال زمن الفراعنة، والسيطرة على حضارتنا كلها منذ منشئها.

تراجع المدير في مقعده، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه، وهو يقول في برود:

- أنا واثق من أن هذا لن يحدث أبدًا.

قال الدكتور (هاشم) في حدة:

- لا يمكنك أن تثق هكذا.

اعتدل المدير في حركة حادة، وهو يقول:

- بل يمكنني أن أثق تمام الثقة، فلو تم اختراع آلة الزمن بالفعل، فما الذي منع مخترعيها من العبث بالزمن، وتغييره كيفما يحلو لهم؟

انعقد حاجبا الدكتور (هاشم)، وهو يقول:

- ومن أدراك أنهم لم يفعلوا؟

لوح المدير بذراعه كلها، وهو يجيب:

- لأن كل ما حولنا يبدو موزونًا ومتوازنا، على نحو يؤكد أن يدًا بشرية لم تمتد إليه بالتبديل أو التغيير، وأن الزمن كله في قبضة

الله (سبحانه وتعالى) وحده.

انعقد حاجبا (هاشم) مرة أخرى، وهرش رأسه، مغمغمًا:

- منطق معقول.

هتف المدير:

- أرأيت؟!.. أي تحليل منطقي يمكن أن يقودك في بساطة إلى استحالة وجود آلة زمن.

قال (هاشم) في حدة:

- لا توجد استحالة.. إنه مجرد تعارض منطقي، يحتاج إلى إعادة النظر في المعادلات.

قال المدير في صرامة:

- بل في الأمر كله.. وبمنتهى الصراحة، لا يمكنني قط أن أوافق على الاعتماد المالي، الذي طلبته لصنع خرافتك هذه.. لا يمكنني حتى من الناحية الإدارية الموافقة على اعتماد مليون جنيه دفعة واحدة لعمل واحد، مهما كان.

عاد وجه الدكتور (هاشم) يحتقن في شدة، وهو يغمغم:

- وماذا لو عثرت على ممول آخر؟

هز المدير كتفيه في لا مبالاة، قائلًا وفي سخرية:

- هذا لن يغضبنا.. ثق بهذا.

تضاعف الغضب في وجه الدكتور (هاشم) وصوته، وهو يقول في حدة:

- فليكن.. أنتم الخاسرون.

ولكنه غادر الحجرة وهو يرتجف غضبًا وانفعالًا، ولم يتوقف عن ارتجافته هذه، حتى وهو يروي كل ما حدث بالتفصيل، لسكرتيره الشاب (أشرف)، الذي استمع إليه في اهتمام شديد، قبل أن يقول:

- ولماذا لا تبحث عن ممول آخر بالفعل؟

تنهد الدكتور (هاشم) في مرارة، وهو يقول:

- كيف يا (أشرف)؟!.. كيف؟!.

الأمل الوحيد كان في مركز البحوث بكل من فيه من عقول علمية متفوقة، يمكنها استيعاب فكرة معقدة كهذه، ولو أنهم عجزوا عن استيعابها وفهمها، فمن سيمكنه هذا؟!

أجابه (أشرف) في حماس:

- هذا يتوقف على وسيلة عرض الفكرة.

سأله (هاشم) في حيرة:

- ماذا تعني؟!. هل أبتكر وسيلة جديدة لتبسيط النظرية مثلًا؟!

هز (أشرف) رأسه نفيًا، وهو يقول:

- بل أن تجد وسيلة مغرية ومثيرة لطرح فكرتك.

ثم مال نحوه، مستطردًا في حماس واضح:

- فلتكف مثلًا عن التحدث عن العواقب السياسية لاختراع آلة الزمن، ولتتحدث أكثر عن الفوائد الاقتصادية لها.

تطلع إليه الدكتور (هاشم) في حيرة، قائلًا:

- أية فوائد اقتصادية؟!

اعتدل (أشرف) في مجلسه، وتضاعف حماسه، وهو يجيب:

- تخيل رجلًا يسافر إلى الماضي، ويشتري كل الأراضي، التي ستصبح فيما بعد منطقة (مصر الجديدة)، أو (مدينة نصر) أو

(العجمي)، أو (المعمورة) مثلًا، إنه سيستطيع شراء كل هذه المناطق مجتمعة بثمن قطعة أرض صغيرة في (أسوان) في زمننا الحالي، ولكنه عندما يعود إلى زمننا هذا سيجد نفسه أغنى أغنياء الأرض منذ زمن (قارون).

برقت عينا الدكتور (هاشم)، وهو يستمع إلى سكرتيره، وهتف في انبهار:

- رباه.. كيف لم أفكر في الأمر على هذه الصورة من قبل؟

أجابه (أشرف) بسرعة:

- لأن العلم وحده يشغل ذهنك يا دكتور (هاشم).

أومأ (هاشم) برأسه إيجابًا، وهو يتمتم:

- بالتأكيد.. بالتأكيد..

تمتم بالكلمة والفكرة تتعاظم في رأسه، وتتخذ أبعادًا جديدة.. وعجيبة..

☆ ☆ ☆

تهالك جفنا الشاب فوق عينيه، وتوقف عن سرد قصته، وران على الحجرة صمت تام لثواني أخرى، قبل أن يبتسم (ماهر) في سخرية، قائلًا:

- قصة طريفة بحق.. أشعر برغبة قوية في التصفيق إعجابًا.

رمقه (منير) بنظرة معاتبة غاضبة، قبل أن يلتفت إلى الشاب، ويسأله في رفق:

- وهل نجحت هذه الفكرة الجديدة؟

أومأ الشاب برأسه في تهالك شديد، وهو يغمغم:

- بالطبع.. لقد اعتمدت في إقناع الممول على الطمع الطبيعي، في أعماق كل تاجر ثري.. كيف يمكن لشخص ما أن يقاوم فكرة كهذه، يمكنها أن تضاعف ثروته ألف مرة في وقت محدود؟!

قال (منير) في اهتمام:

- إذن فقد عثرتم على الممول.

أومأ الشاب برأسه في صعوبة، وأغلق عينيه تماما، وهو يهمس بصوت يغلب عليه التعب والإرهاق:

- نعم.. عثرنا عليه، واقتنع تمامًا بالفكرة.

قال (منير) في شغف:

- ثم ماذا؟!

طال انتظاره لجواب الشاب، الذي صمت تمامًا، وانتظمت أنفاسه في هدوء، فمط (ماهر) شفتيه، وابتسم في سخرية، قائلًا:

- لقد استغرق في النوم.

اعتدل (منير) في مجلسه، وتطلع إلى الشاب لحظة، قبل أن يقول:

- من الواضح أنه مجهد للغاية، والساعة تتجاوز الخامسة صباحًا الآن، ومن حقه أن ينعم بقسط من الراحة.

قالها، ونهض يغادر الحجرة، فتبعه (ماهر)، وهو يقول في عصبية:

- هل ستكتفي بهذا القدر من الاستجواب؟!

هز (منير) رأسه نفيًا، وهو يجيب:

- كلًا بالطبع، ولكن الشاب مستغرق في النوم، وليس أمامنا ما تفعله معه حتى يستيقظ.

قال (ماهر) في سخرية متوترة:

- لا تقل لي إنك تصدق روايته هذه.

صمت (منير) لحظات، ثم قال:

- إنها تحمل بعض الحقيقة على الأقل.

هتف (ماهر) مستنكرًا:

- حقيقة؟!.. أية حقيقة؟!

أجابه (منير)، وعقله يسبح في لجة من الأفكار:

- ذلك الجزء الخاص بالدكتور (هاشم حداد).

قال (ماهر) في حدة:

- وما أدراك أن هذا الجزء حقيقي؟

التفت إليه (منير)، وأجابه في حزم:

- ليس لدي أدنى شك فيه، لأنني أعرف أن الدكتور (هاشم) شخصية حقيقية..

ارتفع حاجبا (ماهر) لحظة في دهشة، قبل أن يقول في حدة:

- هذا لا يثبت شيئًا.. النصابون دائمًا أذكياء، ويجيدون التخطيط والإعداد لعملياتهم.. ربما قرأ ذلك الشاب شيئًا عن الدكتور (هاشم) هذا، واخترع بعدها القصة كلها.

هز (منير) كتفيه، وهو يقول في بساطة:

- هذا أمر يمكننا التأكد منه.

سأله (ماهر) في حذر:

- كيف؟

تطلع (منير) إلى عينيه لحظة، قبل أن يجيب:

- بسؤال الدكتور (هاشم) نفسه:

اتسعت عينا (ماهر) في دهشة، عندما ألقى (منير) جوابه بهذا، فهو لم يكن يتوقع أن الرجل الذي نسب الشاب إليه اختراع آلة الزمن ما زال على قيد الحياة..

لم يتوقع هذا قط..

☆ ☆ ☆

رفع الدكتور (هاشم حداد) عينيه في بطء، يتطلع إلى (منير)، و(ماهر) بنظرة حذرة متوترة، قبل أن يقول:

- نعم.. أنا الدكتور (هاشم حداد).. ما الذي تريدانه مني بالضبط؟

شعر (ماهر) بشيء من الإحباط، وهو يتفحص الرجل، الذي بدا على هيئة تختلف تمامًا عما توقعه، فهو ممتلئ الجسم إلى حد ما، أشيب الشعر، أشعثه، نمت لحيته على نحو يشف عن عدم عنايته بنفسه، وبدت حلته رثة، مما يوحي بفقره وقلة موارده، على الرغم من الفيلا التي يقطنها، في مدينة السادس من أكتوبر، والتي يقيم فيها وحيدًا منعزلًا من عدة سنوات..

أما (منير)، فأجاب سؤال الدكتور (هاشم) في هدوء:

- إننا نرغب في التحدث معك قليلًا، بشأن مصاب في مستشفى القوات المسلحة بالمعادي، يصر على أنك تعرفه شخصيًا.

انعقد حاجبا الدكتور (هاشم) في شدة، وهو يقول:

- لست أعرف أي مصابين أو أصحاء.. إنه كاذب ولا شك.

قال (ماهر) في سرعة:

- إنني أتفق معك في الرأي.

أشار إليه (منير) بالصمت، وهو يسأل الدكتور (هاشم) في حرص:

- إنك تقيم وحدك هنا يا دكتور (هاشم).. أليس كذلك؟

مط الدكتور (هاشم) شفتيه، وكأنما لا يروق له تدخل الآخرين في شؤونه، وهو يجيب في اقتضاب:

- بلي..

سأله (منير) بنفس الحرص:

- منذ متى؟

بدا الضيق على وجه الدكتور (هاشم)، وهو يقول في عصبية:

- أأنا مضطر لإجابة هذا السؤال؟

تنهد (منير)، وشد قامته في حزم، وهو يجيب:

- أخشى أن الجواب هو: نعم.

مط الدكتور (هاشم) شفتيه، وانعقد حاجباه أكثر، وهو يجيب:

- إنني أقيم هنا منذ عامين فحسب، فقد ورثت الفيلا عن عمي، الذي رحل مؤخرًا، وكان هذا أمرًا جيدًا بالتأكيد، فمنذ احترق منزلي، عام ألف وتسعمائة وستة وثمانين، وأنا أتنقل من مكان إلى آخر.

سأله (منير):

- وما سبب احتراق منزلك؟!

ازداد انعقاد حاجبي الرجل، وهو يجيب في حدة:

- لست أذكر.. لقد حدث هذا منذ ربع القرن، ومن العسير على شخص مثلي، في الخامسة والخمسين من عمره، أن يتذكر تفاصيل مضى عليها كل هذا الزمن.

قال (ماهر) متعاطفًا:

- بالطبع.. بالطبع يا دكتور (هاشم).. هذا أمر طبيعي من المؤسف حقًا أن يفقد المرء مسكنه بهذه الوسيلة البشعة، ولكن الله (سبحانه وتعالى) عوضك عنه بهذه الفيلا الأنيقة.. لا ريب في أنها تساوي ثروة الآن.

مط الدكتور (هاشم) شفتيه مرة أخرى، وهز كتفيه، قائلًا:

- بالتأكيد.. العناية بها وحدها تلتهم دخلي المحدود كله، فما بالك بثمنها؟!

ابتسم (ماهر)، وهم بقول شيء ما، لولا أن سبقه (منير)، وهو يقول:

- ما رأيك في محاولة لإنعاش الذاكرة؟

التفت إليه الدكتور (هاشم)، قائلًا في حيرة:

- محاولة لإنعاش الذاكرة؟!.. ماذا تقصد يا رجل؟!

أجابه (منير) في هدوء:

- نريد أن تصحبنا لتتعرف المصاب في المستشفى.

قال الدكتور (هاشم) في حدة:

- قلت لك: إنه لا صلة لي بأي مصابين، ولا...

قاطعه (منير) في صرامة:

- أخشى أن هذا إجراء حتمي.

تطلع إليه الرجل لحظة في غضب، ثم لم يلبث أن غمغم:

- فليكن.. ما دمت مضطرًا.

حملت سيارة (منير) ثلاثتهم إلى (القاهرة)، وفي الطريق سأل (منير) الدكتور (هاشم) في حذر مدروس:

- قل لي يا دكتور (هاشم): أما زلت تذكر نظريتك الخاصة بصنع آلة الزمن؟

انعقد حاجبا الرجل في شدة، وهو يجيب في عصبية:

- لست أرغب في التحدث عن هذا الأمر.

تجاهل (منير) قوله وهو يتابع:

- إنني أذكر الضجة التي حدثت عندئذ، عندما أعلنت أنك قد صنعت أول آلة زمن حقيقية.. كنت آنذاك في الخامسة من عمري، ولم أفهم ما يعنيه الأمر إلا عندما طالعت الصحف القديمة، عندما بلغت الثامنة عشرة من العمر، وأثارت القصة اهتمامي بشدة.

ألقى (ماهر) على الدكتور (هاشم) نظرة مستنكرة، قبل أن يقول:

- من الواضح أن الأمر لم يكن حقيقيًا، وإلا لكانت آلة الزمن بيننا الآن.. أليس كذلك؟

قال الرجل في حدة شديدة:

- قلت: إنني لا أريد التحدث عن هذا.

ومرة أخرى، تجاهل (منير) ثورته، وهو يسأله:

- لماذا لم ينعقد المؤتمر الصحفي، الذي طلبت عقده يا دكتور (هاشم)؟!.. ماذا حدث أيامها؟

صاح الرجل في ثورة حقيقية:

- قلت: لا أريد التحدث عن هذا.. ألا تفهمون؟!.. لا أريد التحدث عنه قط.

أدرك (منير) أن الرجل قد بلغ الذروة بالفعل، فلاذ بالصمت التام، وواصل قيادة سيارته حتى بلغ المستشفى، وهناك قاد مع زميله الدكتور (هاشم) إلى حجرة الشاب، وهو يقول:

- ما ستراه الآن ربما يصدم مشاعرك يا دكتور (هاشم)، ولكنني أريد منك أن تتماسك، وأن تتأكد من الموقف تمامًا، قبل أن تدلي بأي رأي فيه.

بدا التوتر على الرجل، وهو يسأل:

- لماذا؟!.. ما الذي سأراه بالضبط؟

أجابه (منير)، وهو يفتح باب الحجرة:

- ستعرف الآن.

قالها، ودفع العالم داخل حجرة الشاب في رفق، وهو يتطلع إلى وجهه في اهتمام، لمعرفة رد فعله الفوري..

ولثوان، تطلع الدكتور (هاشم) إلى الشاب دون أي انفعال، ثم انتفض جسده فجأة في عنف، واتسعت عيناه في ذهول، وهو يميل برأسه إلى الأمام، وكأنما يملأ بصره أكثر وأكثر بصورة الشاب النائم، قبل أن يهتف بانفعال جارف:

- (أشرف)؟!.. ولكن هذا مستحيل!.. مستحيل!

وفي رأي (منير)، كان هذا الانفعال بمثابة دليل..

دليل لا يرقى إليه الشك.

☆ ☆ ☆

3- الزمن..

لم يتوقف جسد الدكتور (هاشم) عن الارتجاف لفترة طويلة، حتى أنه عجز عن الإمساك بقدح الشاي، الذي أحضره (منير)، وراح يردد في انفعال شديد:

- مستحيل!.. مستحيل أن يكون هذا (أشرف)!.. لقد لقي (أشرف) مصرعه، منذ ربع القرن.

قال (ماهر) في حماس، موجهًا حديثه إلى (منير):

- ألم أقل لك؟

أشار إليه (منير) بيده، ولكنه واصل في انفعال:

- ألم تسمع ما قال الرجل.. (أشرف) الحقيقي لقي مصرعه منذ ربع القرن.. هذا الموجود ليس سوى نصاب حقير.

انتفض جسد الدكتور (هاشم)، وهو يقول:

- أنا لم أقل هذا..

ثم استدرك في سرعة:

- أعني أن الأمر مربك بحق، وإلى حد كبير، فالمفترض أن (أشرف) الحقيقي قد لقي مصرعه..

هم (ماهر) يقول شيء ما، ولكن (منير) استوقفه، وهو يسأل الدكتور (هاشم):

- ماذا تعني بكلمة (المفترض) هذه؟

أطلت الحيرة من عيني الرجل في وضوح، وهو يتمتم:

- أعني أنه لم يكن هناك تفسير آخر حينذاك.

سأله (منير) بسرعة:

- أي حين تعني؟

بدا الرجل أشد حيرة وشرودًا، وهو يلوح بيده، متمتمًا:

- منذ ربع قرن.

كان من الواضح أن الرجل مرتبك بشدة، وأن عقله المجهد عاجز عن تنظيم وتنسيق أفكاره، فتبادل (ماهر) و(منير) نظرة سريعة، قبل أن يربت الأخير على كتف الدكتور (هاشم) مهدئًا، وهو يقول في رقة:

- تمالك أعصابك يا دكتور (هاشم).. لا شيء يدعو للتوتر والقلق.. الشاب مستغرق في النوم في حجرته، ونحن نجلس وحدنا هنا، ولا أحد سيسمع ما تقوله.

رفع الدكتور (هاشم) عينيه إليه، وقال متوترًا:

- ماذا تعني؟!

أجابه (منير) بنفس الهدوء:

- أعني أنه يمكنك أن تشرح لنا كل ما لديك، دون أن تخشى المقاطعة أو التعليق.. الأمر يحتاج منك إلى أن تمنحنا ثقتك، وتروي لنا كل المختزن في أعماقك..

رمقه الدكتور (هاشم) بنظرة شك وقلق، قبل أن يسأل في حذر:

- ألن تسخرا مني؟

مط (ماهر) شفتيه، دون أن يجيب، في حين قال (منير) في لهجة مخلصة:

- مطلقًا.

التقط الدكتور (هاشم) نفسًا عميقًا، وارتشف رشفة من الشاي الساخن، قبل أن يقول:

- الجزء الذي رواه لكما ذلك الشاب حقيقي، ومطابق لما حدث تمامًا.

غمغم (ماهر) في شيء من الاستنكار:

- إذن فقد عثرتما على ممول لمشروع بناء آلة الزمن الـ...

أمسك (منير) يده في الوقت المناسب، قبل أن يكمل قوله، فابتلع لسانه، وأشاح بوجهه محنقًا، ولكن من حسن الحظ أن الدكتور (هاشم) لم ينتبه إلى هذا، وهو يجيب:

- نعم.. عثرنا على ممول، وافق على أن يمنحنا المبلغ المطلوب، بشرط ألا نفصح عن اسمه قط، ووقع معنا عقدًا بهذا، ثم ابتاع الشقة المجاورة لشقتي، ووضع فيها المولد الكهربي المطلوب، وأعد كل شيء لصنع الآلة، ولكن..

صمت بغتة، وهو يهز رأسه في ضيق، فسأله (ماهر) في اهتمام أدهش (منير).

- ولكن ماذا؟!

تنهد الدكتور (هاشم) في عمق، مجيبًا:

- ولكن واجهتنا مشكلة جديدة.. مشكلة بلا حل.

جذبت عبارته اهتمام وفضول الرجلين بشدة، فاعتدل في مجلسه..

وبدأ يروي..

☆ ☆ ☆

امتلأت نفس (أشرف) بالحماس، وهو يستقبل الدكتور (هاشم) في ذلك اليوم، في نهاية عام 1985م، هاتفًا:

- كل شيء على ما يرام يا دكتور (هاشم).. كل القطع وصلت، وتم توصيل مصدر الطاقة، ولا ينقصنا سوي تركيب الآلة، وبدء أول رحلة في التاريخ عبر الزمن.

كان يتوقع فرحة عارمة من العالم، أو حماسًا مماثلًا على الأقل، ولكنه فوجئ به يتطلع إليه بنظرة محبطة، ويغمغم:

- حسنٌ..

لم يكن رد الفعل طبيعيًا بأي حال من الأحوال، لذا فقد سأله (أشرف) في قلق:

- ماذا حدث يا دكتور (هاشم)؟

لوح الرجل بكفه، وقال وهو يلقي جسده على أقرب مقعد إليه.

- كارثة.

هوي قلب (أشرف) بين قدميه.

وهو يكرر:

- كارثة؟

ثم سأله في انزعاج شديد:

- ماذا حدث بالله عليك.

أخفى الدكتور (هاشم) وجهه بكفه، وراح يتنفس في صمت وانفعال لدقيقة كاملة، بدت لـ (أشرف) أشبه بالدهر، قبل أن يقول في مرارة:

- منذ أشار مدير المركز إلى أنه من المستحيل أن تكون هناك آلة زمن، وإلا لتدخل أهل المستقبل في أحوال الماضي، وهذه الفكرة تقلقني بشدة.

قال (أشرف) في توتر:

- إنها مجرد فكرة فلسفية.

تنهد الرجل، قائلًا:

- معظم النظريات العلمية العظيمة بدأت بلحظة تأمل فلسفية، تعتمد على مشاهدات واقعية، أو افتراضات منطقية، فالعلم الحقيقي لا ينبغي أن يتعارض مع المنطق السليم أو النظرة الفلسفية للأمور.

قال (أشرف):

- ولكن ما قاله مدير المركز مجرد رأي شخصي..

أشار الدكتور (هاشم) بسبابته، قائلًا:

- ولكنه منطقي للغاية، حتى أنني ظللت أراجع معادلاتي طوال الأشهر الماضية، وأعدلها.

ثم ارتجف صوته، وهو يكمل:

- حتى توصلت إلى الحقيقة المخيفة.

هبطت العبارة الأخيرة على (أشرف) كالصاعقة، فتراجع في توتر شديد، وهو يتمتم في شحوب، وبصوت باهت مختنق:

- أية حقيقة مخيفة؟

هز الدكتور (هاشم) رأسه في مرارة، وهو يجيب بلهجة أقرب إلى البكاء:

- الجدوى الاقتصادية لآلة الزمن لا يمكن تحقيقها.

اتسعت عينا (أشرف)، وهو يسأله:

- ماذا تعني؟

خلع الدكتور (هاشم) منظاره، ومسح دموعًا خفية بمنديله، وهو يقول:

- المعادلات الجديدة كلها قادتني إلى حقيقة لا تقبل الجدل.. السفر عبر الزمن لا يمكن أن يتم إلا في اتجاه واحد فقط.

ثم أشار بسبابته، مستطردًا بصوت مرتجف:

- إلى المستقبل.

حدق (أشرف) في وجهه لثوان، قبل أن يقول في خفوت شديد:

- لست أفهم.

دق الدكتور (هاشم) مسند المقعد بقبضته في عنف، وهو يهتف:

- أما أنا، فكان ينبغي أن أفهم منذ البداية.

واعتدل مستطردًا في عصبية:

- من الطبيعي ألا يستطيع المرء السفر عبر الزمن إلى الماضي، فالماضي قد انقضى بالفعل، بكل أحداثه وشخصياته وولد من ولد، ومات من مات.. كل هذا أمر حدث وانتهى، ولن يمكنك - مهما فعلت - أن تعيد عقارب الساعة إلى الوراء، أو أن تتدخل في مصائر وأقدار البشر.. لست إلها لتفعل.. الله (سبحانه وتعالى) وحده يملك مفاتيح القدر، ولا راد لقضائه قط.

شحب وجه (أشرف)، وهو يتراجع قائلًا:

- أتعني أن السفر عبر الزمن ليس ممكنًا؟

هتف الدكتور (هاشم) في سرعة:

- بل هو ممكن، ولكن ليس بالصورة التي يصورونه بها في كتب وأفلام الخيال العلمي.. إنه أبسط من هذا بكثير.. إنك تستطيع السفر عبر الزمن إلى المستقبل، ولكن ليس إلى الماضي.. هذا لأن السفر عبر الزمن ليس سوى وسيلة لتجاوز حاجز الزمان والمكان، عبر ثغرة بين الأبعاد.

أطلت من عيني الشاب حيرة شديدة، وهو يغمغم:

- معذرة يا دكتور (هاشم).. لا يمكنني فهم شيء مما تقوله.. لا تنس أن دراستي محدودة.

أشار إليه الدكتور (هاشم)، قائلًا:

- انتظر.. سأشرح لك الأمر بوسيلة أكثر بساطة.

ثم التقط خرطومًا مطاطيًا، وفرده أمام عيني (أشرف)، مكملًا:

- ما الذي ينبغي أن تفعله نملة، تقف عند بداية هذا الخرطوم، حتى تبلغ نهايته؟

أجابه (أشرف) في حيرة:

- ينبغي أن تسير فوقه.

قال الدكتور (هاشم) في حماس:

- عظيم.. وهذا يعني أنها ستستغرق الوقت اللازم للعبور، من بداية الخرطوم إلى نهايته.. أليس كذلك؟

أومأ (أشرف) برأسه متفهمًا، فثنى الدكتور (هاشم) الخرطوم، وهو يقول:

- ماذا سيحدث إذن، لو أننا جعلنا الخرطوم ينثني على هذا النحو، بحيث أصبحت بدايته قريبة للغاية من نهايته، دون أن ننقص من طوله شيئًا.. ألن يعني هذا أن كل ما على النملة أن تفعله، هو أن تقفز من البداية إلى النهاية مباشرة، دون المرور بباقي أجزاء الخرطوم؟!

قال (أشرف) في حذر:

- ولكن النملة لا يمكنها القفز.

هتف الدكتور (هاشم):

- بالضبط.. أضف إلى هذا أنها تجهل هذه الوسيلة أيضًا، ولكن ماذا لو أننا شرحنا لها ما ينبغي أن تفعله، وزودناها بوسيلة للقفز؟.. إنها ستنتقل في هذه الحالة من بداية الخرطوم إلى نهايته مباشرة، دون أن تضطر للسير بامتداد طوله كله.. هذا بالضبط ما ستفعله آلة الزمن، لو افترضنا أن هذا الخرطوم هو مسار الزمن نفسه.. الآلة ستساعدنا على اختيار منحنى زمني، والقفز من بدايته إلى نهايته، دون أن نضطر للسير في الزمن الحقيقي.

قال (أشرف) في حماس:

- الآن أفهم هذا جيدًا.

تنهد الدكتور (هاشم)، قائلًا:

- هذا يسعدني، ولكن ينبغي أن تفهم أيضًا أن هذا لا يمكن أن يحدث إلا باتجاه المستقبل فحسب.

قالها، وعاد يدفن وجهه بين كفيه، ويتحسر في مرارة، فلاذ سكرتيره بالصمت بضع لحظات، ثم قال في حزم:

- وماذا في هذا؟

أجابه الدكتور (هاشم) في مرارة شديدة:

- لن يتحقق الغرض، الذي من أجله منحنا الممول كل هذا المبلغ.. لن يمكنه السفر قط إلى الماضي.

قال (أشرف) بسرعة:

- ومن سيبلغه بهذا؟

حدق الدكتور (هاشم) في وجهه بدهشة واستنكار، وهو يهتف:

- ماذا تعني يا (أشرف)؟!.. الرجل دفع ملايين الجنيهات لتمويل مشروع، لن يعود عليه بالفائدة المرجوة، ونحن نعلم هذا.

أجابه (أشرف) في حزم:

- ولكنه هو لا يعلمه، والأفضل أن يظل على جهله به، حتى ينتهي صنع الآلة وتشغيلها.

هم الدكتور (هاشم) بالاعتراض مرة أخرى، ولكنه قاطعه متابعًا في حزم أكثر:

- ألا تدرك قيمة وقوة اختراعك يا دكتور (هاشم).. إنك ما إن تنتهي من صنعه، وتعلن عن وجود آلة زمن حقيقية، حتى تنهال عليك العروض بالمليارات، للحصول عليها.. ألا تدرك معنى الحصول على آلة كهذه؟!

أجابه في دهشة:

- ولكنها ستنقلهم إلى المستقبل فحسب.

قال (أشرف) في حماس:

- في المرحلة الأولى فقط، ولكن وجودها في حد ذاته يمنحهم الأمل في تطوير أسلوبها يومًا ما، والعثور على وسيلة لعكس اتجاهها، واستخدامها للسفر إلى الماضي، وحتى لو ظلت على حالها، فكم من البشر يتمنون السفر إلى المستقبل، لمعرفة ما ستكون عليه الحضارة بعد مائة عام مثلًا.

أجابه (هاشم) في شيء من التخاذل:

- لن يمكنهم العودة لو فعلوا، فالآلة ستنقلهم إلى المستقبل، ولكنها لن تستطيع إعادتهم إلى الحاضر، لأنه سيصبح بالنسبة لهم ماض مر وانتهى، وهي لا تمتلك القدرة على العمل في هذا الاتجاه.

قال (أشرف) في حزم:

- اتركهم يفعلون هذا على مسؤوليتهم.

ثم مال نحوه، مستطردًا:

- المهم أن يتم صنع آلة الزمن.. مهما كان الثمن.

وفي هذه المرة لم يعترض الدكتور (هاشم) أو يجادل..

لقد قرر الاستماع إلى نصيحة سكرتيره، والمضي قدمًا في صنع آلة الزمن.

وبأي ثمن..

☆ ☆ ☆

انعقد حاجبا (ماهر) في شدة، وهو يحدق في وجه الدكتور (هاشم)، قبل أن يقول في عصبية:

- إذن فقد اتفقتما على القيام بعملية نصب.

تراجع الدكتور (هاشم) كالمصعوق، وهو يقول:

- نصب؟!.. مطلقًا.. كل ما حدث هو أننا اتفقنا على إخفاء الأمر، حتى يتم صنع الآلة، وقررنا أن نقتسم كل ما يمكننا الحصول عليه من عائد مع الممول، وكان هذا يبدو عادلًا حينذاك.

مط (ماهر) شفتيه قائلًا:

- هذا رأي كل النصابين.

احتقن وجه الدكتور (هاشم)، وهو يقول في عصبية:

- لست أسمح لك..

انفجر (ماهر) في وجهه، صائحًا:

- ومن يهتم برأيك؟!.. هل تعتقد أنني أصدق كل هذا؟!.. هل تصورت أنني واحد من هؤلاء السذج، الذين يمكنهم أن يصدقوا فكرة وجود آلة الزمن المزعومة هذه؟!

ازداد احتقان وجه الدكتور (هاشم) بشدة، وهو يقول:

- ولكن آلة الزمن.. رباه!.. أعني أن وجود (أشرف) هنا يثبت أن آلة الزمن..

قاطعه (ماهر) في حدة:

- وجود (أشرف)؟!.. أراهن على أنه لا وجود أساسًا للمدعو (أشرف) هذا، وأننا لو راجعنا سجلات مركز البحوث القديمة، لما وجدنا اسمه في قائمة العاملين هناك قط.

أجابه الدكتور (هاشم) في عصبية:

- هذا أمر طبيعي، و(أشرف) لم يكن قط من العاملين في مركز البحوث.. لقد كان سكرتيري الخاص.

هتف (ماهر) ساخرًا:

- سكرتيرك الخاص؟!.. ومن أين لك بسكرتير خاص يا رجل؟!

إنك ترتدى حلة عفا عليها الدهر، لأنك لا تمتلك ثمن واحدة جديدة.

أجابه الرجل في ثورة:

- لم يكن حالي هكذا في الماضي.

هم (ماهر) بقول عبارة ساخرة جديدة، ولكن (منير) قال في صرامة:

- كفي يا (ماهر).. لسنا هنا للدخول في مشاحنات.

التفت إليه (ماهر) قائلًا في حدة:

- ولكننا هنا لكشف الحقيقة.. أليس كذلك؟

أجابه (منير) في صرامة أكثر:

- بلى، ولكن الحقيقة لن تنكشف بالغضب والعنف والعصبية والتوتر.. هناك وسيلة واحدة في رأيي للوصول إلى الحقيقة.

ثم أشار إلى رأسه، مردفًا:

- العقل.

قال (ماهر) في سرعة وعصبية:

- والأدلة المادية أيضًا.

صمت (منير) لحظة، وانعقد حاجباه في شدة لثوان، قبل أن يقول في حسم:

- بالتأكيد.

ثم التفت إلى الدكتور (هاشم)، وقال:

- دعنا نعد إلى ذكرياتك يا دكتور (هاشم).. ما الذي فعلتموه بشأن آلة الزمن؟!

ازدرد الدكتور (هاشم) لعابه، وعدل منظاره الطبي فوق أنفه، قبل أن يجيب في توتر:

- واصلنا صنعها، وكتمنا أمر عدم قدرتها على السفر إلى الماضي عن الممول، الذي كان يتابع الأمر في حماس منقطع النظير، وهو يسأل في لهفة: متى ننتهي من صنعها، حتى يمكنه بدء رحلة الثراء الفاحش، وكان قوله هذا يمزق ضميري، مما دفعني إلى بذل المزيد من الجهد، ومواصلة الليل بالنهار، حتى يمكنني الانتهاء من صنعها مبكرًا.

وصمت وهو يلتقط نفسًا عميقًا، فقال (منير) في اهتمام:

- ثم ماذا؟

لوح الرجل بيده، قائلًا:

- ثم انتهينا من صنع الآلة في صيف عام ألف وتسعمائة وستة وثمانين، ولكن من الناحية النظرية فحسب.

سأله (ماهر) في شيء من الحدة:

- ماذا تعني بالناحية النظرية؟!.. هل صنعتموها أم انتهيتم من وضع رسومها وتصميماتها فحسب؟

أجابه الدكتور (هاشم)، في شيء من العصبية:

- بل أعني أننا انتهينا من صنع آلة يفترض أنها قادرة على إرسال البشر والمواد عبر الزمن، ولكننا لم نكن قد اختبرنا هذا بالفعل.. أي أنها كانت آلة زمن من الناحية النظرية فقط، وليس من الناحية العملية، المؤيَّدة بتجربة ناجحة.

تراجع (ماهر) في مقعده، وهو يبتسم في سخرية، قائلًا:

- هذا أقرب إلى المنطق.

زفر (منير) في ضيق، والتفت إلى الدكتور (هاشم)، يسأله:

- وهل أجريتم اختبارًا لها؟!

تردد الدكتور (هاشم) لحظة، قبل أن يجيب:

- نعم.. أجرينا الاختبار، ولكن..

قال (ماهر) في سرعة:

- ولكنه فشل.. أليس كذلك؟!

انعقد حاجبا الدكتور (هاشم) في ضيق، وهو يجيب:

- لا يمكنك أن تقول إنه فشل.

وتردد مرة أخرى، ثم تابع في شيء من العصبية:

- ولا يمكنني الجزم بنجاحه.

سأله (منير) في حيرة:

- وكيف هذا؟!. إما أن ينجح الاختبار أو يفشل.. لا معنى لأنه لم يفشل ولم يثبت نجاحه.

تنهد الدكتور (هاشم)، وهو يجيب:

- ولكن هذا ما حدث.

سأله (ماهر) في شيء من السخرية:

- وكيف هذا أيها العبقري؟

رمقه الدكتور (هاشم) بنظرة غاضبة محنقة، إلا أنه لم يسمح لهذه المشاعر بالسيطرة على أفكاره، وإنما تغلب عليها بنفس عميق من هواء الحجرة، ثم عاد يروي ما لديه..

وبكل التفاصيل..

☆ ☆ ☆

تهللت أسارير (أشرف) في حماس، وهو يتطلع إلى آلة الزمن، هاتفًا في سعادة:

- أخيرًا تم صنعها يا دكتور (هاشم).. أخيرًا تحققت معجزة العلم، التي اندرجت تحت بند الخيال لسنوات وسنوات!

تطلع الدكتور (هاشم) إلى الآلة في انفعال، وراح قلبه يخفق في عنف، وهو يسترجع كل ما حدث منذ البداية..

أواقع هذا أم أضغاث أحلام؟.

هل صنع آلة الزمن بالفعل؟

هل نجحت محاولاته في تحويل الخيال إلى حقيقة؟

هل صدقت معادلاته إلى هذا الحد؟

كان الانفعال يغلب عليه بشدة، حتى أن جسده راح يرتجف، و(أشرف) يواصل تأمل الآلة، قائلًا:

- لا يمكنني الصبر لرؤية لحظة تشغيلها.. تلك اللحظة التي ستحدث فيها أول رحلة سفر عبر الزمن.

ثم التفت إلى الدكتور (هاشم)، مستطردًا بابتسامة كبيرة:

- إنك ستذكر اسمي للصحفيين، عندما تعقد المؤتمر الصحفي.. أليس كذلك؟

أجابه الدكتور (هاشم) بتمتمة خافتة:

- بالتأكيد.

اتسعت ابتسامته، وهو يقول في حماس:

- أخبرهم أني سكرتيرك، ومساعدك، والرجل الذي عاون في صنع أول آلة زمن في التاريخ.

وربت بيده على كتف الدكتور (هاشم)، متابعًا في حماس:

- أراهن على أن تجربتها الأولى ستبهرهم.

انعقد حاجبا الدكتور (هاشم)، وهو يردد في ارتياع:

- تجربتها الأولى؟!

تطلع إليه (أشرف) في دهشة، ثم سأله في حذر:

- هل حدث أمر ما؟

اضطرب الدكتور (هاشم)، وعجز عن التحدث لبضع لحظات، وهو يلوح بسبابته في اتجاه الآلة، قبل أن يتغلب على انفعاله جزئيًا، ويجيب:

- إننا لم نختبرها بعد.

ارتفع حاجبا (أشرف) في دهشة أكثر، وهو يقول:

- يا إلهي!.. هذا صحيح.. إننا لم نختبر آلة الزمن.

ثم عاد حاجباه ينعقدان، وهو يسأل الدكتور في اهتمام:

- كيف يمكننا اختبارها في رأيك؟

عدل الدكتور (هاشم) منظاره فوق أنفه، وهو يقول:

- دعنا نختر شيئًا بسيطًا، يمكننا إرساله عبر الزمن، بأقل قدر من المخاطر.

سأله (أشرف):

- قط أليف مثلًا.

هز الرجل رأسه نفيًا، وقال في حزم:

- كلًا.. لن أستخدم أي كائن حي في الاختبار الأول.. إننا نجهل تأثير عملية الانتقال عبر الزمن على الخلايا الحية.

قال (أشرف):

- رباه!.. يبدو أن الأمر سيحتاج إلى اختبارات عديدة.

بدا الضيق على وجه الدكتور (هاشم)، وهو يقول:

- يمكننا على الأقل استخدام أي جماد.

ثم أشار إلى مقعد من الخشب والقماش، من طراز (لويس السادس عشر)، وقال:

- هذا يصلح كعينة اختيار جيدة.

ابتسم (أشرف)، وهو يحمل المقعد إلى داخل الآلة، قائلًا:

- إنه كرسي ثمين.

هز الدكتور (هاشم) كتفيه، وقال:

- المجد يستلزم التضحية بالأشياء الثمينة أحيانًا.

وضع (أشرف) المقعد في منتصف الآلة تمامًا، ثم تراجع مبتعدًا، وأغلق بابها في حرص، وهو يقول:

- المقعد مستعد لبدء التجربة.

اتجه الدكتور (هاشم) إلى جهاز التشغيل، وخفق قلبه في قوة، وهو يضغط أزراره، ويسمع هدير آلة توليد الطاقة، و..

وصدر في المكان صوت أشبه بفرقعة عنيفة، كادت تصم آذانهما، وتألق ضوء مبهر للغاية، أجبرهما على الإشاحة بوجهيهما، و(أشرف) يهتف:

- رباه!.. الانتقال عبر الزمن عنيف للغاية.

ومع أخر حروف عبارته، انطفأ الضوء المبهر، وتلاشي صوت القرقعة، فالتفت الاثنان يحدقان في الباب الزجاجي لآلة الزمن، وخفق قلباهما في عنف، و(أشرف) يتمتم مبهورًا:

- لقد اختفى المقعد.. نجحت التجربة.. نجحت التجربة يا دكتور (هاشم).

قالها، وهو يلتفت إلى الدكتور (هاشم) في سعادة بالغة، إلا أن نظرة واحدة لوجه هذا الأخير جعلت قلبه يرتجف بين ضلوعه.

هذا لأن الانفعال الذي يملأ وجه الدكتور (هاشم) لم يكن يحمل لمحة واحدة من الفرح والسعادة، بل كان أقرب إلى الذعر والارتياع..

لقد انتبه الآن فقط إلى أن آلة الزمن، التي استغرق أكثر من عام لصنعها، تحوي عيبًا جوهريًا..

وخطيرًا..

خطيرًا للغاية.

☆ ☆ ☆

4- تحت الأضواء..

تثاءب المفتش (ماهر) في إرهاق، وارتشف رشفة من قدح القهوة المركزة الذي يحمله، قبل أن يتطلع إلى ساعته، التي أشارت عقاربها إلى الثامنة والربع صباحًا، في حين فرك (منير) عينيه، واسترخى في مقعده، وهو يسأل الدكتور (هاشم):

- وما العيب الجوهري، الذي كشفت وجوده في الآلة؟

أجابه الدكتور (هاشم) في مرارة:

- لم تكن تحوي جهاز توجيه.

لم يفهم (ماهر) ما يعنيه هذا، فالتفت ليسأل الدكتور (هاشم)، إلا أن هذا الأخير تابع موضحًا:

- كان بإمكاننا إرسال المقعد عبر الزمن، ولكننا نجهل نقطة هبوطه، ونعجز عن التحكم فيها.

قال (ماهر) في حدة:

- كيف تضمن إذن أنه سافر عبر الزمن؟!.. لم لا تكون آلتكم قد حللت ذراته فحسب، أو نثرتها في الهواء؟

ابتسم (منير) وهو يقول في خبث:

- إذن فأنت تفهم أنه من الممكن تحليل ذرات المادة أو نثرها في الهواء!.. عجبًا!... كنت أتصور أنك لا تهتم بتلك الأمور العلمية قط.

أشاح (ماهر) بوجهه: قائلًا:

- أنا أيضًا قرأت بعض روايات الخيال العلمي في شبابي.

ثم عاد يلتفت إليه، مستطردًا في عصبية:

- ولكنني لم أؤمن بحرف واحد مما جاء بها.

أشار إليه الدكتور (هاشم)، قائلًا:

- ولكن سؤالك منطقي للغاية، حتى أنني طرحته على نفسي، عندما اختفى المقعد.

قال (ماهر) في انبهار:

- حقًا؟

ثم لم يرق له اعترافه بمشاعره على هذا النحو، فعقد حاجبيه في شدة، وقال في صرامة:

- هذا أمر طبيعي.

هز الدكتور (هاشم) رأسه موافقًا، وهو يقول:

- نعم.. كان من الطبيعي أن ألقي على نفسي هذا السؤال، وخاصة لأني أجهل إلى أي زمن انتقل المقعد، إلا أن معادلاتي أشارت إلى أن الطاقة اللازمة لتحليل ذرات المادة وتشتيتها في الهواء، تفوق بكثير تلك التي تلزم لنقلها عبر الزمن.

مط (ماهر) شفتيه، وهو يقول في ضجر:

- معادلاتك مرة أخرى!!

أجابه الدكتور (هاشم) في حدة:

- نعم.. معادلاتي.. معادلاتي التي سيعرف العالم قيمتها الحقيقية يومًا.

ربت (منير) على كتفه، قائلًا:

- اهدأ يا دكتور (هاشم).. اهدأ.. من يدري ربما كان هذا هو اليوم الذي سيعرف فيه العالم قيمة معادلاتك.

التفت إليه الرجل، قائلًا في لهفة:

- هل تظن هذا حقًا؟!

هز (منير) كتفيه، قائلًا بابتسامة هادئة:

- من يدري؟!

بدا الارتياح على وجه الرجل، وهو يتمتم:

- يسعدني أنك تؤمن بي.

رمقه (ماهر) بنظرة استنكار، ولكنه لم يعلق على العبارة، في حين حافظ (منير) على ابتسامته الهادئة، وهو يسأل في اهتمام:

- هل صنعت آلة التوجيه المطلوبة هذه؟

هز الدكتور (هاشم) رأسه نفيًا، وقال في أسى:

- لم يكن هذا ممكنًا، حتى من الناحية النظرية، ففي ذلك الحين كانت معلوماتي عن السفر عبر الزمن محدودة، وتقتصر على كيفية الانتقال من نقطة زمنية إلى أخرى، عبر حاجز الأبعاد، ولكن لم يكن باستطاعتي تحديد زمن الوصول، حتى من خلال المعادلات النظرية.

قال (ماهر) في شيء من السخرية:

- إذن فقد ضاع المقعد عبر الزمن، ولم يعد هناك دليل يثبت وجود آلة زمن حقيقية.. أليس كذلك؟!

انفعل الدكتور (هاشم) أكثر من المعتاد هذه المرة، حتى أن وجهه قد احتقن في شدة، وهو يقول:

- أنا واثق من أن المقعد سيظهر يومًا، في زمن ما، وسيكون الدليل على أن آلتي الزمنية لم تكن خدعة أو وهمًا، وإنما كانت حقيقة.. حقيقة واقعة، فالمقعد يحمل توقيع صانعه، ومن العسير أن تجد مثله الآن.

انعقد حاجبا (منير) في شدة، ولكنه لم ينبس ببنت شفة، في حين قال (ماهر) في حدة:

- أين هي إذن؟!.. أين ذهبت آلة الزمن المزعومة؟

احتقن وجه الرجل أكثر، حتى خيل لـ (منير) أن الدماء ستتفجر منه، وهو يصرخ:

- أنت تعلم ما أصابها.. كلكم تعلمون ما أصاب آلتي.

صاح (ماهر):

- هكذا؟! إذن فأنت تدعي أن..

قاطعه (منير) فجأة في صرامة:

- كفى يا (ماهر).. إنك ستقتل الرجل باستفزازاتك هذه.

كان الدكتور (هاشم) يبدو وكأنه سيلفظ أنفاسه بالفعل، فقد جحظت عيناه، مع احتقان وجهه الشديد، واختنقت الكلمات في حلقه، وراح يلتقط أنفاسه في صعوبة، فتراجع (ماهر) في قلق، وهو يتمتم:

- أنا لم.. لم أقصد هذا.

مال (منير) على الدكتور (هاشم)، وسأله في توتر:

- هل تحتاج إلى إسعاف طبي؟

أشار الرجل بيده نفيًا، وقال في صعوبة:

- كلًا.. إنها أزمة عابرة.. سأستعيد قواي بعد قليل.

تطلع إليه (منير) في قلق أكثر، ثم نهض قائلًا، وهو يتجه إلى باب الحجرة:

- أعتقد أنه من الأفضل أن نطلب مساعدة طبية.

أخرج الرجل من جيبه كبسولة صغيرة شفافة، تحوي كمية من الحبيبات الصغيرة، من مختلف الألوان، وغمغم:

- لا عليك.. أنا أحمل كل أدويتي.

تطلع (ماهر) إلى الكبسولة، قبل أن يبتلعها الرجل، وهو يقول في دهشة:

- كل أدويتك؟!

أجابه (منير)، وهو يتطلع إلى الرجل في اهتمام قلق:

- إنها أحدث صيحة في عالم الدواء.. كبسولة واحدة، تحوي كل الأدوية والعقاقير، التي يحتاج إليها المرء، لعلاج عدد من الأمراض المختلفة، بحيث توضع كل مادة فعالة على شكل حبيبات، لا يمكنها أن تمتزج الا بعد وصولها إلى الأمعاء، عندما يذوب غلافها الخارجي..

مط (ماهر) شفتيه، وغمغم وهو يراقب الدكتور (هاشم) بدوره:

- العلم يتقدم كل يوم.

كانت أنفاس الرجل تستعيد انتظامها في بطء، فاعتدل على مقعده، ولوح بيده مؤيدًا، دون أن ينطق، فتنهد (منير)، وقال:

- هذا أمر طبيعي.

كانت عبارته مجرد تمهيد لإلقاء سؤال آخر، ولكنه لم يكد ينطق آخر حروفها، حتى ارتفع صوت دقات عالية على باب الحجرة، فالتفت إليه الجميع في دهشة، وقال (ماهر) في غضب:

- تري من هذا الوقح.

قالها، ونهض يفتح الباب، ولكنه لم يكد يفعل، حتى اندفع ثلاثة رجال وامرأة إلى الحجرة، وأحدهم يحمل آلة تصوير هولوجرافية، في حين أسرعت المرأة إلى الدكتور (هاشم) مباشرة، وهي تسأله في لهفة:

- دكتور (هاشم).. ما شعورك بعد ظهور سكرتيرك المفقود في زمننا هذا؟

تفجرت الدهشة في وجهي (ماهر) و(منير)، وهتف الأخير في غضب:

- من أخبركم بهذا الأمر؟!

أجابته المرأة في تعال:

- لدينا مصادرنا الصحفية.

وأسرع أحد رجالها يجيب في حماس:

- لقد تلقينا محادثة هاتفية مجهولة، و..

قاطعته في صرامة:

- إياك أن تفصح عن المصادر..

ثم التفتت بسرعة إلى الدكتور (هاشم)، وسألته في حرارة:

- كيف تلقيت الخبر؟

قال (ماهر) في حدة:

- لن تحصلوا على إجابات في هذا الشأن، فالتحقيق لم ينته بعد.

ولكن الدكتور (هاشم) أجاب في سرعة:

- لم أتأكد بعد من أنه سكرتيري السابق.

سألته المرأة في حماس:

- وماذا لو تأكدت من هويته؟.. ألن يعني هذا أن آلتك الزمنية كانت ناجحة بالفعل؟

أجابها الرجل في حماس مماثل:

- أنا واثق من أنها حقيقية.

صاح (ماهر) مرة أخرى في غضب:

- لا أسئلة جديدة حول هذا الأمر، قبل أن تنتهي التحقيقات.

استدارت إليه المرأة، وقالت في حدة غاضبة:

- ليس من حقك منعنا من هذا.. إننا نمثل وسائل الإعلام الحديثة، وهي مزيج من الصحافة والتليفزيون، والقانون يمنحنا الحق في السعي وراء كل الأخبار، ما دام لم يصدر بشأنها حظر تداول، من النائب العام شخصيًا.

ألجمه اندفاعها وحدتها، فتطلع إليها في دهشة، في حين عادت هي تلتفت إلى الدكتور (هاشم)، وتكمل في حماس وهي تلتقط يده:

- ما رأيك لو نقلنا لحظة لقائك به على الهواء مباشرة؟

قالتها، وجذبته في خطوات أقرب إلى العدو خارج الحجرة، وانطلقت به، مع فريق المصورين نحو حجرة الشاب، فهتف (ماهر) في دهشة غاضبة مستنكرة:

- من هذه المرأة بالضبط؟

ابتسم (منير)، وقال وهو يسرع خلف الركب إلى حجرة الشاب:

- لست أذكر اسمها بالضبط، ولكنها مذيعة تليفزيونية ناجحة، في نشرات الأخبار والتحقيقات الجادة، وهي على حق تمامًا، فالقانون يمنحها الحق في البحث عن الأخبار الجديدة بأي ثمن.

ثم أشار إليه، مستطردًا:

- هيا بنا نلحق بهم، فلست أحب أن يفوتني ذلك اللقاء الأول، بين الدكتور (هاشم) وسكرتيره.

عقد (ماهر) حاجبيه، وهو يلحق به، قائلًا في عصبية:

- هل حسمت الأمر، واعتبرته سكرتيره القادم من زمن آخر بالفعل؟

أجابه (منير) في حزم، وهو يحث الخطأ، ليلحق بطاقم التصوير:

- لم أحسم شيئًا بعد.

وصلا إلى الحجرة في نفس اللحظة التي دفعت فيها المذيعة الدكتور (هاشم) داخلها، وهي تقول:

- هيا.. تبادلا التحية أمام آلات التصوير.

التفت الشاب إليهم في دهشة، وانعقد حاجباه في توتر، وهو يتطلع إلى الدكتور (هاشم)، الذي توقف على قيد مترين منه، وراح يتطلع إليه بدوره في صمت، تسلل من بينهما ليغمر الحجرة كلها، فتغرق في صمت مهيب، والعيون كلها تراقب اللقاء في لهفة وفضول وشغف، و...

«الدكتور (هاشم)؟!..».

قطع (أشرف) حبل الصمت، وهو يلقي كلمته بلهجة تجمع ما بين الدهشة والتوتر والفرح، في حين تراجع الدكتور (هاشم)، وغمغم:

- مستحيل!.. إذن فقد نجوت؟

تجمد كل منهما في موضعه لحظة، ثم اندفعا كل منهما نحو الآخر، وتعانقا في حرارة، و(هاشم) يهتف:

- يا إلهي!.. لقد رأيتك ثانية.. التقيت بك بعد كل هذه السنين.

أجابه (أشرف) في حرارة:

- بالنسبة لي لم تمض سوى ساعات محدودة، على آخر لقاء لنا.

قالت المذيعة في انفعال:

- يا له من خبر لأول أيام العام الجديد!.. يا له من خبر!!

وغمغم أحد مساعديها في انبهار:

- إذن فآلة الزمن حقيقة.

صاح به (ماهر) في حدة:

- لم يثبت هذا بعد.. انتظروا نتائج التحقيقات.

ثم دفعهم خارج الحجرة في صرامة، مستطردًا:

- والآن غادروا الحجرة.. إنكم تعوقون تحقيقًا رسميًا.

هتفت المذيعة معترضة:

- القانون يمنحنا الحق في...

قاطعها في صرامة أكثر:

- إنه لا يمنحك الحق في إفساد التحقيقات الرسمية.. انتظري حتى نفرغ من عملنا أولًا، ثم استغلى ثغرات وسخافات القانون كيفما يحلو لك..

قالها، وصفق الباب خلفها في قوة، ثم ابتسم في خبث، مستطردًا:

- وأعتقد أننا لن نفرغ منه قبل أسبوع على الأقل.

أما (منير)، فقد تطلع إلى (أشرف) والدكتور (هاشم)، قبل أن يقول:

- إذن فهذا هو سكرتيرك يا دكتور (هاشم).

ربت (هاشم) على كتف (أشرف) في حرارة، وهو يهتف:

- إنه هو بكل تأكيد.. لم يتغير قط، منذ وقع بصري عليه آخر مرة.

سأله (منير) بسرعة:

- ومتى كانت أخر مرة هذه؟

أجابه (أشرف) بابتسامة كبيرة:

- في نفس اليوم، الذي كان ينبغي أن يعقد فيه المؤتمر الصحفي.

مط (ماهر) شفتيه، قائلًا:

- هل طلبتما عقد المؤتمر الصحفي، على الرغم من عدم وجود آلة توجيه؟

أجابه (هاشم) في اهتمام:

- بالتأكيد.. (أشرف) أقنعني بأنه ليس من الضروري أن نحدد زمن وصول الشيء، في المرحلة الأولى من الاختراع.. تكفي المعادلات

الرياضية، ووجود الآلة، مع قدرتها على إرسال المواد عبر الزمن.. ولقد اقتنعت بوجهة نظره، وقررت عقد المؤتمر الصحفي بأقصى سرعة، خشية أن يسبقني شخص ما إلى إعلان ما توصلت إليه، خاصة وأن الأمريكيين كانوا يجرون تجاربهم بالفعل، منذ أوائل الثمانينات، لاختراع آلة زمن.

قال (ماهر) في صرامة:

- إذن فأنت مستعد لتجاوز كل القواعد، في سبيل مجدك الشخصي.

أجابه الرجل في غضب:

- بل أنا مستعد لتجاوز العالم كله، في سبيل العلم.

أشار إليهما (منير)، قائلًا في حدة:

- كفي يا (ماهر).. لقد سئمت هذه المشاحنات غير المجدية.. دعنا نستمع إلى الرجل، ثم افعل ما يحلو لك بعدها.

احتقن وجه (ماهر)، وهو يقول:

- بل سأفعل ما هو أفضل.. سأتركك لتستمع وحدك إلى هذا الهراء، وسأذهب أنا لجمع كل التحريات الممكنة عن الدكتور (هاشم)، وسكرتيره المزعوم، وسأثبت أن كل هذا مجرد لغو.

قالها، واندفع يغادر الحجرة في حدة، ويغلق بابها خلفه في عنف، ولكنه لم يكد يفعل، حتى ارتطم بالمذيعة، التي هتفت غاضبة:

- مهلًا يا رجل.. هل الارتطام بنا جزء من تحقيقاتك الرسمية؟

صاح في وجهها محتدًا:

- اسمعي يا سيدتي، أو يا آنستي.. أيًا كانت حالتك الاجتماعية: إنني أبغض مشاهدة (التليفزيون)، وقراءة الصحف، والمجلات، وكل وسائل الإعلام الأخرى، ولكنني سأبذل قصاري جهدي، لجمع كل المعلومات الممكنة عن هذا العالم المأفون، لأثبت للدنيا كلها أنه مجرد نصاب كبير.

تطلعت إليه في دهشة، مرددة:

- نصاب كبير؟

أزاحها عن طريقه في حدة، قائلًا:

- إنه رأيي، وهو ليس للنشر.

أمسكت معصمه بغتة، وهي تقول:

- مهلًا..

التفت إليها في عصبية شديدة، وأدهشه آن رآها تبتسم، مستطردة:

- ما تبحث عنه لدي بالفعل.

حدق في وجهها بدهشة، وهو يقول:

- لديك؟!

أومأت برأسها إيجابًا، وهي تبتسم في عذوبة شديدة، وتجيب:

- عندما وصلنا خبر العثور على السكرتير، استعنت بأرشيف الصحافة والكمبيوتر، للحصول على كل المعلومات المطلوبة حول الدكتور (هاشم)، والقصة القديمة لآلة الزمن هذه، ومن حسن حظك أنني أحمل كل هذا معي الآن.

غمغم في توتر، وهو يتطلع إلى عينيها مباشرة:

- حقًا؟

بدت له ابتسامتها أكثر عذوبة، وهي تقول:

- نعم.. حقًا.. سأسمح لك بدعوتي لتناول قدح من الشاي، وسأطلعك على كل ما لدي..

خُيل إليه أن عذوبتها قد أزالت كل توتره وعصبيته في لحظات، وهو يقول:

- اتفقنا.

ضحكت في مرح، واتجهت معه إلى حجرة الانتظار قائلة:

- وبالمناسبة.. أنا آنسة، لم أتزوج بعد.

وجد نفسه يهتف في حرارة وحماس:

- حقًا؟

وفي هذه المرة اشتركا في ضحكة طويلة..

وصافية..

☆ ☆ ☆

«ما زال هناك أمر يثير حيرتي..».

نطق (منير) العبارة في هدوء شديد، وهو ينقل بصره بين (أشرف) والدكتور (هاشم)، فسأله الأخير في اهتمام:

- أي أمر هذا؟

سأله (منير):

- لماذا لم ينعقد المؤتمر الصحفي، مادام كل شيء كان يسير على ما يرام؟

تبادل (هاشم) و(أشرف) نظرة قصيرة، قبل أن يقول الأول في مرارة شديدة، تشف عما يعتمل في أعماقه:

- هل ستروي له أنت ما حدث، أم أرويه أنا؟

ربت (أشرف) على كتفه، قائلًا:

- دعني أروه أنا، فربما لا يحتمل قلبك انفعال استعادة الذكريات.

هز (هاشم) رأسه متفهمًا، وقال:

- فليكن.. هذا أفضل.

ربت (أشرف) على كتفه ثانية، ثم رفع عينيه إلى (منير)، قائلًا:

- لم نكد نعلن أمر المؤتمر الصحفي، حتى قامت الدنيا ولم تقعد.. كل علماء مركز البحوث استنكروا الفكرة، وعلى رأسهم المدير بالطبع، الذي لم يكتف بالاستنكار، وإنما راح يسخر من الدكتور (هاشم) وآلته طوال الوقت، أما الصحفيون فقد أبدوا تشككهم وحذرهم، إلا أن أحدًا منهم لم يرفض الحضور، خشية أن يفقد خبر الموسم، خاصة وأن وكالات الأنباء في العالم كله تناقلت الخبر، وبعضها أرسل مراسليه لحضور المؤتمر الصحفية وأصبح الأمر مسألة ساعات معدودة، وتصبح الشائعة حقيقة.

سأله (منير):

- ما الذي حدث إذن، في هذه الساعات المعدودة؟

بدا صوت الدكتور (هاشم) أشبه بالبكاء، وهو يقول:

- كارثة!

انعقد حاجبا (منير)، وهو يسأل:

- أي نوع من الكوارث؟

التفت الدكتور (هاشم) إلى (أشرف) بنظرة بائسة، فقال هذا الأخير في صوت حزين:

- سأخبرك.

وبدأ يروي التفاصيل الجديدة..

تفاصيل الكارثة..

☆ ☆ ☆

5- الكارثة..

تقارب حاجبا المفتش (ماهر) في اهتمام حقيقي، وهو يستمع إلى المذيعة، التي راحت تشرح له ما لديها، قائلة:

- السجلات تقول: إنه قبل صيف عام ألف وتسعمائة وستة وثمانين، لم يكن الدكتور (هاشم حداد) عالمًا بارزًا، أو حتى معروفًا، حتى أعلن فجأة أنه توصل لاختراع آلة الزمن، وحقق معجزة العلم في عصره.. وعلى الرغم من غرابة الإعلان ومباغتته، وشعور الجميع بالشك في صحته، وخاصة عندما يأتي عن لسان عالم مغمور مثله، إلا أن أحدًا لم يتردد في الحضور، خشية أن يكون الرجل صادقًا، فيخسر سبق العمر.

اعتدل يتطلع إلى عينيها، وهو يسألها:

- ثم ماذا؟

ضحكت عندما لاحظت نظرته، فتراجع مرتبكًا، وعاد يعقد حاجبيه في صرامة، قائلًا:

- أعني ماذا حدث بعدها؟.. لماذا لم ينعقد المؤتمر الصحفي؟

هزت رأسها، مجيبة:

- لا أحد يدري.. لقد توجه الجميع إلى منزله، في الموعد المحدود، وكلهم لهفة لسماع ما سيقول، ولرؤية آلة الزمن، التي قال: إنه انتهى من صنعها بالفعل، ولكنهم ما إن وصلوا، حتى فوجئوا بالنيران تندلع في المكان، ورجال الإطفاء يبذلون قصارى جهدهم للسيطرة عليها، في حين كان الدكتور (هاشم) يقف في الخارج، ويصرخ كالمجنون: «آلتي.. أنقذوا آلتي».

جذب الأمر انتباهه، وهو يسأل:

- ألم يناشدهم إنقاذ سكرتيره؟

أجابت بسرعة:

- لم يذكر شيئًا عنه إلا في تحقيقات الشرطة، التي تلت ذلك، والتي حضرها وهو في حالة يرثى لها، وذكر فيها إن سكرتيره تسبب في تدمير آلة الزمن، وفي احتراق معمله، بكل أوراقه ومعادلاته.

انعقد حاجبا (ماهر)، وهو يغمغم:

- لا ريب في أن ذلك المحضر قد حوى الكثير والكثير.

أسرعت تخرج رزمة من الأوراق من حقيبتها، قائلة:

- بالتأكيد.. لقد حصلت على نسخة منه.

حدق في الأوراق في دهشة، ثم رفع عينيه إليها، هاتفًا في انبهار:

- أنت رائعة.. كيف أمكنك أن تفعلي كل هذا في ساعات معدودة.

هزت كتفيها، قائلة:

- إنها طبيعة عملي.

ثم تراقصت على شفتيها ابتسامة مرحة، وهي تغمز بعينها، مضيفة:

- ثم إنني أجيد استخدام الكمبيوتر.

نطقتها، وتحولت ابتسامتها إلى ضحكة قصيرة، خفق لها قلبه، وهو يتطلع إليها، قبل أن يتسلل جزء منها إلى أعماقه، وينعكس على شكل ابتسامة تزين شفتيه، وهو يتمتم:

- عجبًا!.. عندما شاهدتك لأول مرة تصورت أنك متعالية مغرورة.

هزت كتفيها مرة أخرى، مجيبة:

- مطلقًا.. إنني أحترم نفسي وعملي فحسب.

ثم استطردت، وهي تشير إلى الأوراق:

- ولكن دعنا نعد إلى العمل.. لقد ملأ الدكتور (هاشم) محضر الشرطة كله بالحديث عن اختراعه، ومدي الفائدة التي يمكن أن تعود على العالم به، ثم بكي وهو يذكر سكرتيرة (أشرف عبد المجيد)، وأشار لأول مرة إلى أنه قد لقى مصرعه في الحادث، وبعدها انتابته لوثة عجيبة، فراح يصرخ مناشدًا العالم بالتدخل لمساعدته على بناء آلة زمن جديدة، ثم يبكي على معادلاته التي احترقت، حتى بلغ به الأمر حد الانهيار التام، فتم نقله إلى مستشفى الأمراض العصبية والنفسية في حي (العباسية)، حيث ظل هناك لعام كامل، قبل أن يعود إلى الحياة الطبيعية.

سألها (ماهر) في اهتمام:

- وماذا عن أولئك الذين حضروا لعقد المؤتمر الصحفي؟

تنهدت، قائلة:

- لو طالعت الصحف، التي صدرت في اليوم التالي، لوجدت أن الجميع تعاملوا مع الرجل بقسوة بالغة، فاتهمته الصحافة بالنصب والدجل، واتهمته الشرطة بتعمد إحداث الحريق، كوسيلة لإخفاء فشل آلته المزعومة، وحتى مركز البحوث، الذي كان يعمل فيه، أوقفه عن العمل، وحوله إلى تحقيق عاجل، اتهموه فيه بتجاوز الخطوات الشرعية للإعلان عن أي كشف

علمي جديد، وبعدم احترام قواعد العمل، ونال جزاء عنيفًا، جعله يتقدم باستقالته، التي تم قبولها على الفور، وطرد من عمله شر طردة.

مط شفتيه في أسف، قبل أن يسألها:

- أين عمل بعدها؟

أشارت بسبابتها، مجيبة:

- لم يلتحق بأي عمل.. لقد باع كل ما يملكه، وأودع المبلغ كله في البنك، وعاش من إيراده الضئيل لعشر سنوات كاملة، اعتزل فيها العالم كله، ولم يعد يلتقي بأحدٍ، أو يقابل أحدًا، أو حتى يجري أية اتصالات هاتفية.. بل ولم يمتلك هاتفًا أصلًا، وكأنما يسعى لينسى الناس وجود من الأساس.

تراجع متطلعًا إليها في اهتمام، وسأل:

- وماذا بعد السنوات العشر؟

أجابته بسرعة كالمعتاد:

- يبدو أن موارده كلها قد نفدت، مما اضطره للخروج للعمل، فالتحق بوظيفة بسيطة، لا تناسب مؤهلاته، ولكنه كان شديد الانتظام فيها، يحضر وينصرف في المواعيد الرسمية بالضبط، ويؤدي عمله على أكمل وجه، على الرغم من انعزاله التام عن باقي العاملين، وإصراره على عدم عقد أية صلات أو صداقات، مهما كانت الأسباب.

سألها (ماهر):

- أما زال يلتحق بهذا العمل حتى الآن؟

لوحت بسبابتها نفيًا، قائلة:

- كلًا.. لقد استقال منذ عام واحد، ويقول زملاؤه إنه كان مبتهجًا يوم استقالته، على عكس عهدهم به، وإنه أشار إلى أنه توصل أخيرًا إلى تصحيح كل معادلاته القديمة، وبعدها لم يره أحد منهم قط.

هز رأسه، مغمغمًا:

- قصة عجيبة بالفعل.

قالت في حماس:

- لا تتحدث عن العجائب الآن، فلدي في هذه الأوراق عجيبة أخرى، ستفوق كل العجائب السابقة.

ثم مالت نحوه، حتى تسلل عطرها الرقيق إلى أنفه، وهي ترفع أمام عينيه صورة ضوئية قديمة، مستطردة:

- هل يمكنك تعرف الشاب في الصورة؟

كانت الصورة قديمة ومتهالكة للغاية، إلا أن (ماهر) تعرف على الفور، ذلك الشاب الذي يقف إلى جوار الدكتور (هاشم)، الذي بدا أصغر مما هو عليه الآن بربع قرن على الأقل..

وبكل الدهشة، التي تفجرت في أعماقه، هتف (ماهر):

- رباه!.. إنه هو!!.. إنه (أشرف).

ابتسمت المذيعة، قائلة:

- مفاجأة.. أليس كذلك؟

لم ينبس ببنت شفة، وهو يحدق في الصورة، وقفز إلى ذهنه سؤال واحد، احتل عقله كله، ثم سال ليملأ كل ذرة من كيانه..

ما الذي حدث بالضبط؟ ولماذا وقع الحريق، الذي دمر آلة الزمن ومعادلاتها؟

لماذا؟

لماذا؟

☆ ☆ ☆

كانت عقارب الساعة تقترب من الموعد المحدود، لعقد المؤتمر الصحفي، فارتسم التوتر بأقصى صوره على وجه الدكتور (هاشم)، وهو يفرك كفيه، ويسير في المكان جيئةً وذهابًا، مما جعل سكرتيره يبتسم، قائلًا:

- رويدك يا دكتور (هاشم).. ما هي إلا ساعة واحدة، وينعقد المؤتمر الصحفي، وتحيا لحظة انتصارك، التي ستدخلك التاريخ من أوسع أبوابه.

مط الدكتور (هاشم) شفتيه، وهو يتمتم في عصبية:

- كل الطغاة دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه.. باب جهنم.. أنا لا أهتم بدخول التاريخ، بقدر ما يهمني أن أضع بصمة على نهج العلم.

ضحك (أشرف) قائلًا:

- من يدري؟!.. ربما أثبت الزمن فيما بعد أن معادلاتك لم تكن صحيحة تمامًا.

التفت إليه الرجل في حدة، قائلًا:

- ماذا تعني؟

لوح (أشرف) بيده، وواصل ضحكه، وهو يقول:

- لا تسيء فهمي يا دكتور (هاشم).. كل ما قصدته هو أنه ربما تكشف في المستقبل أن العودة إلى الماضي بآلة الزمن ممكنة، ويصبح التاريخ كله ملك يمينك آنذاك.

أجابه في صرامة عصبية:

- مستحيل!.. لم يعد هناك وجود للماضي، حتى تسافر إليه.

هز (أشرف) كتفيه، قائلًا:

- من يدري؟!

انفرجت شفتا الدكتور (هاشم)، وكأنما يهم بنطق شيء ما، إلا أنه لم يلبث أن أطبقهما، واستغرق في التفكير بضع لحظات، قبل أن يتمتم:

- نعم.. من يدري؟.

ثم عاد يفرك كفيه، ويتحرك في ا الحجرة بعصبية زائدة، قائلًا:

- كم الساعة الآن؟

أجابه (أشرف) مبتسمًا:

- الثانية عشرة وعشرة دقائق.. بقيت خمسون دقيقة على موعد المؤتمر الصحفي.

ضرب الدكتور (هاشم) راحته بقبضته، هاتفًا:

- لماذا لم نطلب عقده في الثانية عشرة بالضبط؟

غمغم (أشرف):

- لكل شيء موعده.

لوح الدكتور (هاشم) بذراعيه، وضرب جانبي فخذيه براحتيه، وهو يقول في حدة:

- لماذا يمضي الوقت بهذا البطء؟

كرر (أشرف):

- لكل شيء أوان يا دكتور (هاشم).

كان الرجل يشعر بتوتر مبالغ بالفعل، ولكنه لم يكن يحتمل الانتظار، حتى يعلن عن الاختراع بنفسه..

كان واثقًا من أن حياته كلها ستتغير، بعد هذا الإعلان..

بل حياة العالم كله.

أخيرًا، سيؤمن العديدون أن الطريق إلى العلم يبدأ حقًا بالخيال.

وأنه ما من شيء مستحيل..

حتى ولو كان مجرد فكرة..

ومهما بلغت غرابتها..

تملكته النشوة، وهو يتخيل عناوين الصحف، وانبهار العلماء، والتفاف العالم حوله، و...

«رباه!.. لقد انقطع التيار الكهربي؟؟».

انتفض جسده في عنف، عندما هتف (أشرف) بالعبارة، وصاح في ارتياع:

- ماذا تقول؟.. لماذا انقطع التيار الكهربي الآن؟!.. لماذا؟! إنه لم ينقطع لحظة واحدة، طوال عملنا في صنع وتركيب الآلة.

أجابه (أشرف) في توتر، وهو يفحص المنصهرات:

- لا ريب في أنه عطل طارئ.. كل المنصهرات هنا سليمة.

صاح (هاشم) في عصبية شديدة:

- ماذا تنتظر إذن.. اتصل بشبكة الكهرباء.. بالمسؤولين.. بأي شخص.. المهم أن يعود التيار الكهربي للعمل، قبل موعد المؤتمر الصحفي.. لابد وأن تعمل آلة الزمن أمام أعين الجميع.

تلفت (أشرف) حوله في اضطراب، محاولًا البحث عن وسيلة ما، لتفادي تلك العقبة الطارئة، ثم قفزت إلى ذهنه فكرة مباغتة، جعلته يهتف:

- رباه؟!.. مولد الطاقة يمكن أن يعمل بالكيروسين أيضًا.

صاح الدكتور (هاشم):

- حقًا؟!.. ماذا تنتظر إذن؟ أسرع بإحضار بعض الكيروسين لتشغيله.

أجابه (أشرف)، وقد استعاد حماسه:

- خزانه ممتلئ بالكيروسين.. سأذهب لتشغيله فحسب، وسيصبح كل شيء على ما يرام.

أمسك الدكتور (هاشم) يده في قوة، قائلًا:

- مهلًا.. لو قمت بتشغيل المولد، ستنتقل الطاقة إلى آلة الزمن، وربما جعلها هذا تبدأ عملها.

انعقد حاجبا (أشرف)، وتوقف مغمغمًا:

- آه.. هذا صحيح.

استغرق في التفكير بضع لحظات، قبل أن يقول:

- يمكننا أن نوصل سلكي الآلة بالمنصهرات الخاصة بالمنزل، وهكذا نستفيد من طاقة المولد في إضاءة المكان، ثم نوصلها بالآلة وقتما نريد.

بدا القلق على وجه الدكتور (هاشم) وهو يقول:

- هل تعتقد أن هذا ممكن؟

أومأ (أشرف) برأسه، واتجه نحو آلة الزمن، وهو يجيب في حماس:

- ليس لدي أدنى شك فيه.. هل نسيت أنني حاصل على دبلوم الصنائع، قسم الكهرباء؟ وأنني شاركت في تركيب هذه الآلة بنفسي.

تزايد قلق الدكتور (هاشم)، وهو يتابعه ببصره، قائلًا:

- احترس يا (أشرف).. أجهزة الآلة شديدة الحساسية.

أجابه الشاب، هو يفتح مستقبل الطاقة في الآلة:

- لا تقلق يا دكتور (هاشم).. اذهب فقط لتشغيل المولد، وعندما تعود سيكون كل شيء على ما يرام.

تردد الدكتور (هاشم) قليلًا، ثم اتجه إلى المنزل المجاور، وهو يغمغم مكررًا:

- احترس.

كان المولد يحتل صالة المنزل الآخر كلها تقريبًا، وتمتد منه كابلات كبيرة، عبر تجاويف تم صنعها بالجدار، إلى آلة الزمن، فخفق قلب الدكتور (هاشم) في قوة، وهو يتطلع إليه، ثم تسلل بصره فوقه، حتى توقف عند ذراع التشغيل، فتمتم في اضطراب شديد:

- أرجو من كل قلبي أن تكون على حق يا (أشرف).

ثم أمسك ذراع التشغيل، والتقط نفسًا عميقًا، وصاح بأعلى صوته:

- هل أنت مستعد يا (أشرف)؟

أتاه صوته يجيب:

- مستعد يا دكتور (هاشم).. قم بالتشغيل.

بسمل الدكتور (هاشم) وحوقل، ثم جذب الذراع، و...

وفي اللحظة ذاتها، عاد التيار الكهربي..

وبكل قوته..

وانتفض جسد الدكتور (هاشم) في عنف، مع ذلك الوميض القوي، الذي انطلق من الشقة التي تحوي الآلة، ممتزجًا بفرقعة عنيفة، وصرخة رهيبة، تحمل صوت (أشرف)..

وبكل الذعر والهلع في أعماقه، صرخ الدكتور (هاشم):

- لا.. آلتي.. لا.

ثم انطلق يعدو نحو المنزل الآخر، ولكنه لم يكد يبلغه، حتى دوى الانفجار..

انفجار عنيف أطاح بجسده لخمسة أمتار كاملة، وألقاه فوق السلم، الذي تدحرج فوقه في قوة، حتى استقر جسده أيضًا، في الطابق السفلي، وألسنة النيران تندلع في المكان كله لتضع لمسة النهاية..

نهاية الحلم..

حلم آلة الزمن..

☆ ☆ ☆

بكى الدكتور (هاشم) في حرارة، عندما بلغ (أشرف) هذه المرحلة من روايته، حتى خُيل لـ (منير) أن قلبه سينفطر حزنًا وألمًا، فاتجه إليه، وربت على كتفه، قائلًا في رفق:

- هل تؤلمك الذكريات إلى هذا الحد؟

أومأ الرجل برأسه إيجابًا، وهو يقول بمرارة لا حد لها، ودموعه تغرق وجهه:

- كانت أسوأ لحظات حياتي.. لقد فقدت كل شيء في لحظة واحدة.. منزلي.. آلة الزمن.. أوراقي.. المعادلات التي توصلت إليها بعد كفاح طويل.. وسمعتي.

قال (أشرف) مبتسمًا:

- وماذا عني؟؟

رفع عينيه الدامعتين إليه، قائلًا:

- كان لدي دائمًا الشك في أنني سأراك ثانية.. الضوء المبهر، والقرقعة.. لقد استنتجت أن الآلة ألقت بك عبر الزمن، خاصة وأن الانفجار نسف كل شيء في عنف، وتولت النيران المستعرة التهام الباقي، حتى أنهم لم يعثروا على جثتك قط، ولكن أحدًا لم يصدقني، أو يحاول الاستماع إلي، وإنما اتهموني بالكذب والنصب والجنون.. لقد حطموا سمعتي تمامًا، حتى أنني لم أنجح قط في إقناع أي ممول آخر بتمويل مشروع صنع آلة زمن جديدة.

قالها، وعاد يبكي في حرارة زائدة، مستطردًا:

- ولم يصدقني أحد، عندما ذكرت الحقيقة.. لم يصدقني أحد قط.

ارتفع فجأة صوت حازم يقول:

- أنا أصدقك.

التفت الجميع إلى مصدر الصوت في دهشة، وارتفع حاجبا المفتش (منير)، وهو يهتف في ذهول:

- أنت يا (ماهر)؟!

انعقد حاجبا (ماهر)، ومط شفتيه في ضيق، وهو يدلف إلى الحجرة، ويغلق بابها خلفه، مجيبًا:

- نعم.. أنا.. أنا أصدق قصة الدكتور (هاشم حداد).

هتف (منير):

- ولكنك كنت أكثر من يعارضها.

أشاح (ماهر) بوجهه، قائلًا:

- ليس من العيب أن يعود المرء إلى الحق، عندما يتبين له خطأ ما كان يؤمن به.. لقد راجعت ملف الدكتور (هاشم)، واقتنعت أخيرًا بقصته.

بدا الدكتور (هاشم) أكثر الجميع انبهارًا، وهو يقول:

- حقًا؟!

أومأ المفتش (ماهر) برأسه إيجابًا في شيء من الضيق، واتجه إلى أقرب مقعد إليه، واستقر فوقه، قائلًا:

- نعم، حقًا.. المرء لا يسعد بالتأكيد، عندما يعترف بأنه كان مخطئًا، وأنا ما زلت أشعر بالحيرة وعدم التصديق، إزاء فكرة آلة الزمن هذه، إلا أنه من العدل أن أعترف بأن كل الدلائل تشير إلى أن قصتك صحيحة، وأن هذا الشاب قد انتقل إلى هنا عبر الزمن.

ثم التفت إلى (أشرف)، مستطردًا بابتسامة باهتة:

- قل لي يا (أشرف): ما الذي شعرت به، وأنت تجتاز حاجز الزمن؟

كان (أشرف) يتطلع إليه في دهشة عجيبة، فاعتدل في سرعة، عندما سمع السؤال، ولوح بكفه، قائلًا:

- لم أشعر بشيء محدود.. فقط سمعت الفرقعة، وغصت وسط الضوء المبهر، ثم وجدت نفسي فجأة هنا، أرتجف بردًا، في ليلة رأس السنة، من عام ألفين وعشرة، أي بعد ربع القرن من اللحظة التي انتقلت منها إلى هنا.

انعقد حاجبا (منير)، وهو يسأل (ماهر):

- كيف تحول موقفك على هذا النحو؟! لقد كنت شديد المعارضة لفكرة آلة الزمن، ثم اقتنعت بها فجأة، فكيف حدث هذا؟

ناوله (ماهر) تلك الصورة القديمة، وهو يقول:

- هذه الصورة.

انعقد حاجبا (منير) أكثر، وهو يتطلع إلى الصورة، و(ماهر) يتابع:

- لقد تم التقاط هذه الصورة منذ ما يزيد على ربع القرن، وفيها يظهر الدكتور (هاشم) في شبابه، وإلى جواره يقف (أشرف)، ولا يمكن أن يحدث هذا، ما لم يكن (أشرف) قد انتقل إلينا، بنفس عمره وهيئته، عبر ربع قرن من الزمن بقفزة واحدة.

ابتسم (أشرف)، وتنهد الدكتور (هاشم) في ارتياح، في حين تطلع المفتش (منير) أكثر إلى الصورة، قبل أن يعتدل قائلًا:

- التشابه كبير بالفعل.

قال (ماهر) في دهشة:

- التشابه كبير؟!.. هذا أمر طبيعي يا رجل، فصاحب الصورة والواقف أمامك هما شخص واحد.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي (منير)، وهو يقول:

- لا تتسرع هكذا يا زميلي العزيز.. صحيح أن كل ما رواه الدكتور (هاشم) وهذا الشاب صحيح تمامًا، وأن كلًا منهما قد أدى دوره على خير ما يرام، إلا أن هذا لا يعني أنهما صادقان.

انعقد حاجبا (ماهر)، وهو يقول:

- (منير).. هل تسخر مني؟

أجابه (منير) في حزم:

- مطلقًا يا (ماهر).. إنما أقول الحقيقة مجردة.. فالدكتور (هاشم) وهذا الشاب نصابان.. نصابان كبيران.

وكانت مفاجأة عنيفة..

ومخيفة..

☆ ☆ ☆

6- الخدعة..

اتسعت عينا المفتش (ماهر) عن آخرهما، وهو يحدق في وجه زميله (منير)، وقد امتلأت نفسه بمزيج من الدهشة والحيرة، بلغا أقصى حدهما في أعماقه، بل وبدا له الأمر كله غير مفهوم على الإطلاق..

ففي اللحظة التي انقلبت فيها مفاهيمه، واعترف بأنه أصبح مقتنعًا إلى حد كبير، بأن آلة الزمن كانت حقيقة واقعة، استطاعت نقل السكرتير الشاب لربع قرن إلى مستقبله، يتراجع زميله تمامًا، ويتخلى عن إيمانه بوجودها، ويعلن شكه في الموقف كله، بل ويتهم العالم وسكرتيره بأنهما نصابان، احتالا على الجميع في براعة منقطعة النظير..

وفي حركة حادة، التفت (ماهر) يتطلع إلى الدكتور (هاشم) و(أشرف)، وكأنه يتوقع منهما استنكارًا أو اعتراضًا على ما نطق به (منير)، إلا أن الارتياع الذي حفر وجوده على وجهيهما في وضوح جعله يهتف:

- مستحيل!

قال (منير) في هدوء واثق:

- بل هو أمر ممكن للغاية، وتمت دراسته بدقة، ورسم الدكتور (هاشم) خطواته في براعة تؤهله لنيل جائزة كتاب السيناريو، وهذا لا ينقص من براعة (أشرف) المزيف هذا بالطبع، فقد أدى دوره في براعة يحسده عليها أعظم ممثلي العصر، وبخاصة عندما التقى بالدكتور (هاشم) لأول مرة، وأبدى كلاهما الدهشة والانبهار.. كانت ذروة الأداء المسرحي بالفعل.

نقل (ماهر) بصره بين وجوه الجميع في توتر شديد، قبل أن يهتف:

- ألن تقول شيئًا يا دكتور (هاشم)؟

شحب وجه الشاب في شدة، في حين ارتجفت شفتا الدكتور (هاشم) بضع لحظات، قبل أن يترك جسده يسقط على طرف الفراش الطبي الصغير، وهو يتمتم في انهيار واضح:

- كيف عرفت؟

اتسعت عينا (ماهر) أكثر وأكثر، وهو يهتف:

- ماذا؟ !!.. إذن فأنت تعترف!!

خفض الدكتور (هاشم) عينيه في مرارة، في حين قال (منير):

- لا يمكنه الإنكار.. إنه أذكى من أن يتلاعب بي ثانية، خاصة وأنه يدرك تمامًا أنه لن يحتمل ضغط التحقيقات، بعد أن انكشف أمره.

ارتجف الشاب، وقال في ذعر:

- أنا لست المسؤول عما حدث.. هو الذي أقنعني بالقيام بالدور، ووعدني بمبلغ ضخم من النقود التي ستنهال عليه، بعد نجاح اللعبة.

كاد (ماهر) يصرخ هذه المرة، وهو يسأل (منير):

- كيف عرفت هذا بالله عليك؟

هز (منير) كتفيه، وهو يقول في بساطة:

- بالتحليل المنطقي.. لقد بدأ الشك يراودني، عندما انفعل الدكتور (هاشم) في حدة، مع إشارتك إلى فشل اختراعه، فقد

تحدث عندئذ عن انتظاره لظهور ذلك المقعد، من طراز لويس السادس عشر، والذي يحمل توقيع صانعه، حتى يثبت أن آلته الزمنية كانت حقيقية.. قال هذا دون أن يشير إلى الشاب، الذي يرقد على قيد أمتار منه، والذي رآه بنفسه، ويدرك جيدًا أنه من الممكن أن يكون أقوى دليل على نجاح آلته بالفعل.

غمغم (ماهر):

- وما الذي يعنيه هذا؟

أجابه (منير) على الفور:

- يعني أنه واثق من أن الشاب ليس دليلًا، وفي انفعاله الحقيقي، تمنى لو يظهر المعقد.

أومأ الدكتور (هاشم) برأسه، وكأنما يؤمِّن على قول (منير)، الذي تابع بنفس الثقة والهدوء:

- ولكن النقطة التي كشفت لي الأمر كله، وجعلتني واثقًا من أن كل هذا مجرد خدعة، كانت عبارة نطق بها (أشرف).

هتف الشاب في دهشة:

- أنا؟!

أجاب (منير)، وهو يشير إليه بيده:

- أعترف أنك درست دورك جيدًا، وأن الدكتور (هاشم) اختارك بعناية بالغة، للتشابه الشديد بينك وبين سكرتيره السابق، ولأنك لم تحصل على مؤهل تعليمي، ولم تسجل بصماتك بعد.. كل شيء تمت دراسته بدقة، حتى يقنعنا بأن السكرتير لم يلق مصرعه في الانفجار، وإنما انتقل عبر الزمن إلى هنا، ولكن عندما سألك الدكتور (هاشم) عمن سيروي منكما الجزء الأخير من

القصة، أجبته أنت بأنك ستفعل، خشية أن يؤذي الانفعال قلبه المريض، على الرغم من أنه من المفترض أنك عندما رأيته لآخر مرة، لم يكن يعاني من أية متاعب صحية، في عام ألف وتسعمائة وستة وثمانين، فكيف أدركت أن قلبه مريض، في عام ألفين وإحدى عشر؟

ارتسمت على شفتي الدكتور (هاشم) ابتسامة مريرة، وهو يغمغم:

- كنت أعلم أن الأمور لن تسير على ما يرام طوال الوقت، وأن خطأ ما سيحدث حتمًا، ولكنني تصورت أن انبهار الناس بالموقف سيجعلهم لا ينتبهون كثيرًا إلى أية أخطاء بسيطة.

انعقد حاجبا (ماهر)، وهو يندفع نحو الدكتور (هاشم)، هاتفًا:

- أيها الوغد الكاذب.. لقد خدعتنا برواية ملفقة، و..

قاطعه (منير) بسرعة، وهو يعترض طريقه، قائلًا:

- مهلًا يا (ماهر).. صحيح أن الدكتور (هاشم) رتب الخدعة كلها، ولكنه لم يكذب في روايته قط.

صاح (ماهر) في غضب:

- لم يكذب؟!.. أي قول هذا يا رجل؟!.. كيف يتفق الخداع والصدق؟!

أجابه (منير)، وهو يبعده عن الرجل والشاب في رفق:

- لقد اتفقا هذه المرة.. صدق أو لا تصدق، ولكن الدكتور (هاشم) روى لنا القصة الحقيقية على الأرجح.

والتفت إلى الدكتور (هاشم)، قائلًا:

- أليس كذلك؟

كان وجه العالم شاحبًا بشدة، وهو يغمغم:

- بلى.. لقد رويت كل ما حدث بالفعل، ولكنني اضطررت لإعداد هذه الخدعة، حتى أعثر على تمويل جديد لصنع آلة الزمن، بعد أن توصلت إلى معادلات جيدة، ستكون نتائجها أفضل بالتأكيد من القديمة.. لقد بذلت جهدًا مضنيًا، طوال ربع القرن، في محاولة لإقناع أي مخلوق بتمويل المشروع، ولكن الشائعات التي انطلقت حولي، والتي أحاطت بي بشدة، بعد فشل التجربة الأولى، جعل الجميع يحجمون عن هذا.. لقد حاولت وحاولت.. وقدمت التصميمات والمعادلات.. ولكن من يفهم، ومن يستوعب.

ولهث في شدة، من فرط الانفعال، قبل أن يتابع:

- وعندما انتابني اليأس تمامًا، التقيت بـ (هيثم).

سأله (ماهر) في حدة عصبية:

- ومن (هيثم) هذا أيضًا؟

أشار الشاب إلى صدره، وهو يرتجف قائلًا:

- إنه اسمي الحقيقي.

مط (ماهر) شفتيه في ازدراء، فامتقع وجه الشاب في شدة، في حين تابع الدكتور (هاشم) وكأنما أراحه أن يفرغ ما أثقل صدره طويلًا:

- في البداية أذهلني التشابه الشديد بينه وبين (أشرف)، ثم علمت بعدها أنه يحمل شهادة متوسطة، على الرغم من ذكائه الواضح، وأن بصماته لم يتم تسجيلها بعد، في أرشيف الكمبيوتر العام،

وهنا بدأت الفكرة تختمر في ذهني، ولم يكن يعترضها سوى أمر واحد.. أن عمر (أشرف) كان يزيد على عمر (هيثم) بثلاثة أعوام، عندما وقع الحادث.. ولكننا تجاوزنا هذه العقبة بعد أن راجعت كتب الطب الشرعي، وعلمت أن هذه الفترة القصيرة لن تصنع فروقًا يمكن كشفها، بالنسبة للنمو والعظام، وأن أي خبير سيعزوها إلى الاختلافات الطبيعية بين بعض البشر وبعضهم.. وهنا رحت أشرح فكرتي لـ (هيثم)، الذي استوعبها بسرعة، وتعاون معي جيدًا لإتقان دوره، وتدرب على كيفية أدائه، حتى حانت اللحظة.. لحظة التنفيذ..

توقف ليلهث قليلًا، فسأله (منير):

- هل تحتاج إلى مساعدة طبية؟!

هز رأسه نفيًا، وهو يجيب:

- كلًا.. أنا بخير..

قالها، على الرغم من أنه التقط أنفاسه في صعوبة لبعض الوقت، قبل أن يتابع:

- وفي اليوم المنشود، ظل (هيثم) ساهرًا طويلًا، وقضى ما يقرب من عشرين ساعة في نشاط متواصل مستمر، مع القليل جدًا من الطعام، حتى يبدو مرهقًا منهكًا، عندما يتم العثور عليه، وارتدى ملابس صيفية، تشبه إلى حد كبير تلك التي كان يرتديها (أشرف)، في يوم الحادث، ثم بدأت اللعبة.

هتف (ماهر):

- يا لكما من وغدين!

أما (منير)، فسأل الرجل في اهتمام:

- وعندما كنت تضع خطتك، ألم تخش أن يتعرف أصدقاء (هيثم) وزملاؤه القدامى رفيقهم، فينكشف السر كله؟

بدت الدهشة على وجه الدكتور (هاشم)، وهو يغمغم:

- عجبًا!.. كيف لم تخطر هذه الفكرة برأسي؟

ابتسم (منير)، قائلًا:

- هذا لأنك لست مجرمًا بطبعك.

صاح (ماهر) في غضب:

- بل هو أكبر مجرم رأيته في حياتي كلها.. لقد صنع أكبر عملية نصب في هذا القرن، ليستولي على الملايين، بحجة صنع آلة الزمن المزعومة.

هتف الدكتور (هاشم) في حدة، ووجهه يحتقن في شدة:

- كلًا.. لا تقل هذا.. أعترف بأن ظهور سكرتيري كان مجرد خدعة، ولكن هذا لا يعني أن آلة الزمن كذلك.. إنها حقيقة.. حقيقة ستثبت يومًا، و...

جحظت عيناه بغتة، وهو يبتر عبارته، وتلاحقت أنفاسه في شدة، فقفز (منير) من مكانه، هاتفًا في انزعاج، وهو يلتقط الرجل بين ذراعيه:

- استدع فريق أطباء الطوارئ يا (ماهر).

اندفع (ماهر) يغادر المكان في سرعة، وهو يهتف:

- فريق أطباء الطوارئ.. أين فريق أطباء الطوارئ؟!

صاحت به المذيعة، وهي تهرع مع فريق التصوير إلى الحجرة:

- ماذا حدث؟!.. ماذا حدث؟

واقتحم الجميع الحجرة دون استئذان، في نفس اللحظة التي هرع فيها فريق أطباء الطوارئ إلى المكان، وقال (منير) للدكتور (هاشم) في توتر:

- اطمئن يا دكتور، سيسعفونك على الفور.

كان الرجل يلهث في شدة، وهو يهمس:

- آلة الزمن حقيقة.. صدقني.. إنني أحتفظ بكل المعادلات في.. في..

شهق فجأة، قبل أن يتم عبارته، وجحظت عيناه في شدة وارتجف جسده في عنف، ثم تراخي فجأة بين ذراعي (منير)، الذي هتف في ارتياع:

- دكتور (هاشم).

أزاحه رئيس فريق الأطباء جانبًا، وراح مع فريقه يبذلون قصارى جهدهم لإسعاف الرجل، و(ماهر) و(منير) يتابعان عملهم في توتر، وفريق التصوير ينقل المشهد على الهواء مباشرة، والمذيعة تعلق عليه في انفعال، حتى رفع رئيس فريق الأطباء رأسه في أسف، وتنهد قائلًا:

- لا فائدة.. لقد رحل.

أصابت الدهشة الجميع، وهم يحدقون في جثة الدكتور (هاشم)، قبل أن تهتف المذيعة في انفعال شديد:

- يا للقدر!.. في نفس اليوم، الذي أثبت فيه الدكتور (هاشم) صحة نظريته الخاصة بالسفر عبر الزمن، أصابته أزمة قلبية أودت به.. لم يعش لينعم بلحظة انتصاره.. لم يمهله القدر ليفعل.

تبادل (ماهر) و(منير) نظرة صامتة، قبل أن يقول (ماهر) في حنق:

- اللعنة.. سيصنعون من ذلك الأحمق بطلًا.

تمتم (منير) في حزن حقيقي:

- إنه ليس أحمق.. إنه واحد من أفضل علماء (مصر).

حدق (ماهر) في وجهة باستنكار، ثم قال:

- ماذا دهاك يا رجل؟!.. أما زلت تعتبر ذلك المأفون عالمًا، بعد أن اتفق على عملية النصب، هو وذلك الـ...

بتر عبارته بغتة، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يهتف:

- اللعنة!.. أين ذلك الشاب (هيثم)؟.. لقد استغل اللعين انشغالنا بإسعاف الرجل، وبادر بالفرار.. اللعنة.. اللعنة!

تركه (منير) يعدو محاولًا اللحاق بالشاب، في حين توقف هو جامدًا كالتمثال، يتمتم في توتر بالغ، وهو يتطلع إلى جثة الدكتور (هاشم):

- أين وضعت معادلاتك يا دكتور (هاشم)؟.. أين؟

نطقها وهو يدرك أنه يتطلع إلى نهاية الحلم، الذي كاد يتحول إلى حقيقة في صورة آلة.

ألة زمن.

☆ ☆ ☆

«من يصدق هذا؟».

ألقى (ماهر) السؤال في حماس شديد، وبلهجة تحمل سعادة واضحة، ولوح بذراعه كلها، قبل أن يضيف:

- عندما التقيت بـ (هدى) في ذلك المستشفى، منذ شهرين فحسب، بادر كل منا الآخر برد فعل عنيف، وها نحن ذا الآن زوجين سعيدين، لا يطيق أحدنا فراق الآخر لحظة واحدة.

كانا يجولان في إحدى سيارات الدورية في شوارع وسط (القاهرة).

ابتسم (منير) ابتسامة باهتة، وهو يغمغم:

- من الواضح أن كلًا منكما يناسب الآخر تمامًا.

ضحك (ماهر) في سعادة، وهو يقول:

- هل تعلم أننا ننتظر طفلًا؟

تمتم (منير)، وهو يقود السيارة في بطء:

- مبارك.

التفت إليه (ماهر)، وتطلع إلى وجهه لحظة، قبل أن يعقد حاجبيه، قائلًا:

- ماذا بك؟!.. أما زلت تفكر في هذا الأمر؟!.. لقد انتهت قضية آلة الزمن المزعومة هذه منذ شهرين كاملين، وتم إغلاق ملفها تمامًا.. حتى وسائل الإعلام سئمت ترديدها، فماذا بك؟!

أجابه (منير) في شيء من الضيق:

- الرجل كاد يخبرني بمكان معادلاته.

هتف (ماهر):

- أية معادلات؟!.. هل تصدق كل هذا؟.. آلة الزمن هذه مجرد وهم يا صديقي.. وهم استغله كتاب الخيال العلمي ليثروا على حساب القراء السذج أمثالك.. استيقظ من غفوتك يا رجل، وعد

إلى عالم الواقع.. العالم الذي لا يحوي آلات زمن، أو وحوشًا من عوالم أخرى، أو أطباقًا طائرة، أو حتى جراثيم ذكية.. أحرق كل ما لديك من قصص الخيال العلمي السخيفة، والحق بنا في عالمنا هذا.

صمت (منير) لحظات، ثم تنهد قائلًا:

- أنت على حق.. من الواضح أنني أنهك نفسي أكثر مما ينبغي.. ربما كان الرجل مخطئًا في معادلاته، وهذا ما أدى إلى انفجار آلته عند تجربتها.

قال (ماهر) في انفعال:

- هذا لو كانت هناك آلة منذ البداية.

أومأ (منير) برأسه متفهمًا، وواصل القيادة لبضع لحظات، قبل أن يرتفع صوت مراقبة التوجيه، عبر جهاز الكمبيوتر، وهي تقول:

- حادث سير في المنطقة السابعة، يحتاج إلى تغطية عاجلة.

اعتدل (ماهر) في مقعده، وهو يقول:

- ألم أقل لك: إننا سنعود حتمًا إلى عالم الواقع.. هيا ننطلق إلى المنطقة السابعة، لنحقق في أمر حادث السير هذا.

انطلق (منير) بالسيارة، حتى بلغا منطقة الحادث، وهناك استقبلهما شرطي المرور، والتوتر يملأ ملامحه، على نحو جعل (ماهر) يسأله في صرامة:

- ماذا بك يا رجل؟.. تبدو وكأنك شاهدت شبحًا.. إنه مجرد حادث سير.. أليس كذلك؟

أشار الشرطي بيده، قائلًا:

- بلي يا سيّدي، إنه مجرد حادث سير، ولكن السبب الذي أدى إلى حدوثه هو الذي يربكني، فقد كان كل شيء يسير على ما يرام، عندما ظهر ذلك الشيء بغتة، ففقد قادة السيارات سيطرتهم، وارتطموا بعضهم البعض.

انعقد حاجبا (منير)، وهو يسأله:

- ماذا تعني بأنه ظهر فجأة؟

لوح الرجل بيديه في توتر بالغ، وهو يجيب في عصبية:

- أعني أنه برز فجأة من الفراغ، وسقط على إحدى السيارات، وكأنما نشأ من العدم.. آه يا سيدي المفتش.. لن يمكنك أن تتخيل هذا قط، مالم تره بنفسك.

قال (ماهر) للشرطي في غضب:

- كفي سخافات يا رجل.. إنك تحتاج إلى فحص عينيك، قبل أن..

قاطعه (منير) وهو يسأل الشرطي في حزم:

- أين ذلك الشيء؟

قاده الشرطي إلى منطقة الحادث، وهو يشير بيده، قائلًا:

- ها هو ذا.

اتسعت عينا (ماهر) في ذهول، في حين انعقد حاجبا (منير) في شدة، وهو يتمتم:

- رباه!.. لقد كان على حق..

فأمامهما مباشرة، ووسط السيارات التي ارتطمت ببعضها، كان يستقر مقعد من طراز لويس السادس عشر، يحمل توقيع

صانعه.

مقعد أتى من مكان آخر..

وزمن آخر.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- الضـائع..

2- الآلة..

3- الزمن..

4- تحت الأضواء..

5- الكارثة..

6- الخدعة..

الفهرس:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

اللغز

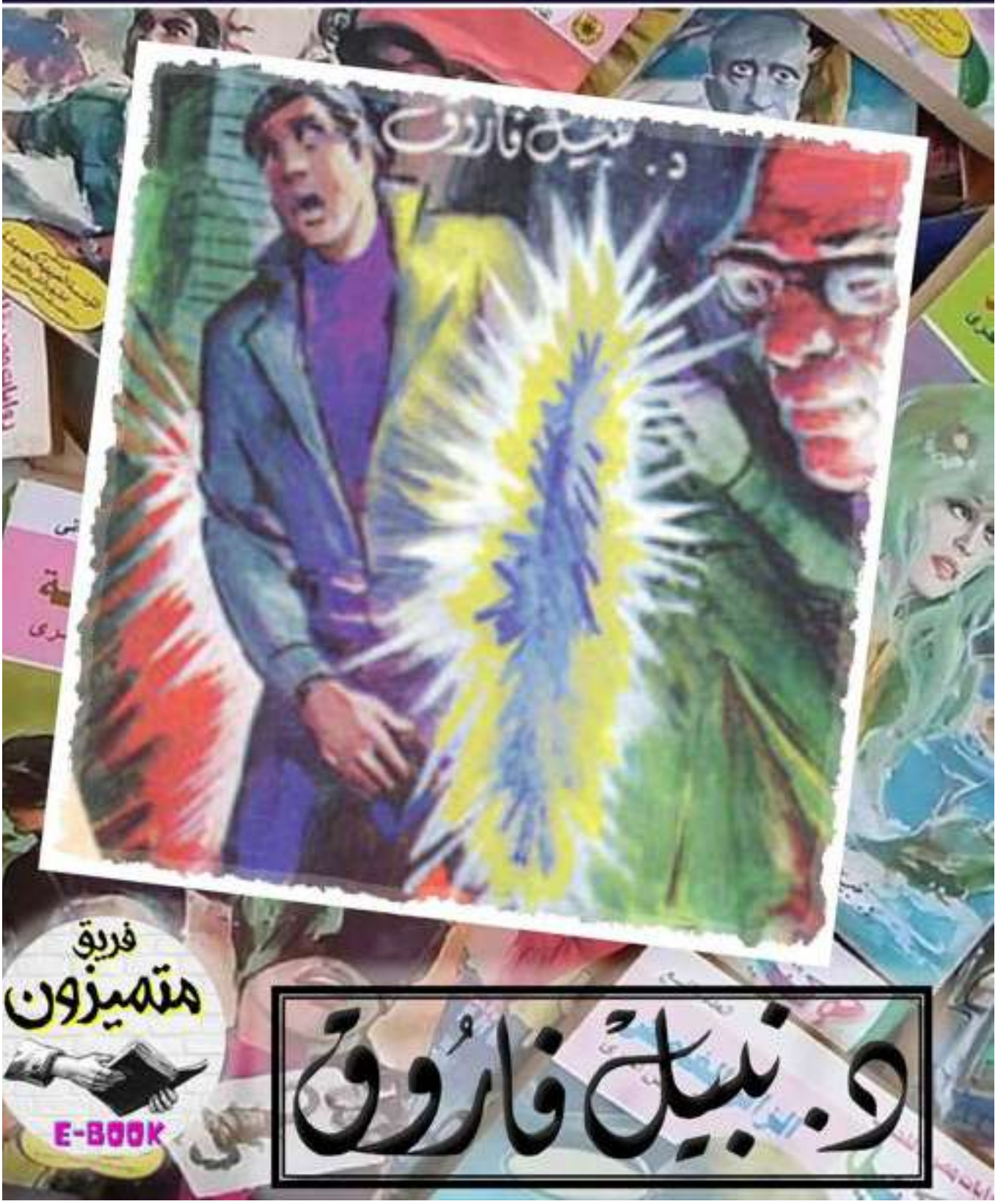

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

اللغز
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000
اللـغـــز

1- كيف؟!..

انسابت أشعة الشمس كشلال من ذهب، على مدينة (نيويورك) الأمريكية، في لحظات الشروق الأولى، وامتدت ظلال ناطحات السحب العملاقة لمئات الأمتار، والشفق يتألق بأضواء مبهرة، بدت وكأنها تنبع من أعماق المحيط، الذي بدا كدائرة هائلة، تشغل الأفق كله..

وفي بطء، راحت الشمس تصعد إلى السماء، معلنة مولد يوم جديد، وغمرت المدينة بنورها ودفئها، في تلك الفترة من الصيف، فدب النشاط في الطرقات، وراح الجميع يستعدون لبدء أعمالهم، والقيام بواجباتهم المعتادة..

وفوق سطح مركز التجارة العالمي، أعلى بناء في (نيويورك) في الوقت الحالي، ضم (ماهر المصري) جفنيه في قوة، ومط شفتيه في استنكار، عندما سقطت أشعة الشمس على وجهه، وزمجر في غضب، مغمغمًا:

- من فتح النافذة؟!

ألقى السؤال دون أن ينتظر جوابًا، وتثاءب في قوة، ثم اعتدل وهو ينقلب؛ ليرقد على جانبه الأيسر، ويستكمل ذلك الحلم، الذي ملأ اللحظات الأخيرة لنومه..

لم يكن الحلم جميلًا أو ممتعًا، ولكنه، وعلى الرغم من هذا، ترك نفسه يغوص فيه لدقيقة أخرى، والخدر يسري في جسده، ويدفعه إلى الاستغراق في النوم أكثر وأكثر..

وانتهى الحلم، كما تنتهي كل الأحلام، دون أن تنحسم الأمور فيه، أو تهبط كلمة النهاية، فتثاءب مرة أخرى، وكرر في غضب

أكثر:

- من فتح النافذة؟!

كانت أشعة الشمس تغمر وجهه كله في تلك اللحظة، فمال بوجهه، ورفع كفه إليه، ليحجب عنه الضوء، ويده الأخرى تبحث عن الغطاء بلا جدوى..

يا لها من بداية سخيفة ليوم جديد..

يوم من تلك الأيام، التي ينبغي عليه فيها أن يخرج لمواصلة البحث عن عمل، كما يفعل منذ أكثر من عام كامل، بعد تخرجه من كلية العلوم..

وهو يكاد يعرف ما ستنتهي إليه الأمور..

فشل، وإحباط، وشعور مؤلم بالمرارة والضياع، وباليأس من تحقيق حلم حياته..

أن يتزوج (ياسمين)..

لقد ارتبط بها وارتبطت به، منذ عامهما الأول في الكلية، وراح حبهما ينمو مع أحلامهما، طوال سنوات الدراسة، حتى تخرجا معًا وتصورا أن حصولهما على الشهادة هو نهاية مرحلة الانتظار، والخطوة الأولى في سبيل تحقيق حلم الزواج.

ولكن واقع الحياة صدم أحلامهما بمنتهى العنف والقسوة..

بل حطمها بلا رحمة أو هوادة.

لقد أدركا، بعد شهر واحد من التخرج، أن الشهادة ليست السبيل لتحقيق الحلم..

المهم هو أن يعثرا على عمل..

وعلى دخل محترم..

ولم يكن ذلك أمرًا هينًا أو بسيطًا..

إنه مشكلة هائلة..

مشكلة تحتاج إلى معجزة بكل المقاييس..

لقد تخرجا في قسم الجيولوجيا، ولا أحد يرغب في تعيين خريجي ذاك القسم..

لا شركات البترول، أو المناجم.

أو حتى المدارس الصغيرة.

الكل يتصرف وكان ذلك القسم استثنائي، أو تكميلي..

أو أنه مجرد إضافة طريفة لكليات العلوم في الجامعات..

ولكن خريجيه لا يحملون مسوغات تعيين كافية أو مناسبة..

وفي البداية، استنكر كلاهما هذا الأمر، واستهجنه، وراحا يناقشان مع كل من يرفضهما، ويجادلانه ويحاورانه.

وبعد ستة أشهر فحسب، أصبحا يكتفيان بالصمت والأسف..

ثم انهارت (ياسمين)..

صدمها الرفض ذات يوم، فبكت وتألمت، وأعلنت يأسها، وانسحابها من رحلة البحث عن عمل، وقررت مساندة (ماهر) في رحلته فحسب.

ومنذ ذلك الحين وهو يتعذب أكثر..

لقد ظل الموقف على ما هو عليه..

مجرد أداء نمطي، يتكرر كل يوم..

يستيقظ، ويتناول طعام الإفطار، ثم يخرج للبحث عن عمل، حتى يضنيه التعب، فيعود إلى المنزل محبطًا يائسًا حزينًا ويجري اتصالًا هاتفًيا قصيرًا مع (ياسمين)، يبدأ بسؤال ملهوف منها، وينتهي بعبارة مواساة حزينة..

نمط صار يتكرر كثيرًا، حتى أصابه اليأس والإعياء، ولم يعد يجد فائدة في كل ما يفعله أو يحاوله..

انتزعه هدير مروحة هليكوبتر من أفكاره، فرفع حاجبيه، دون أن يفتح عينيه، وتساءل عما تفعله هليكوبتر، في مثل هذا المكان، وبحثت يده مرة أخرى عن الغطاء دون جدوى، فضم ركبتيه إلى صدره وعقد ساعديه أمام صدره، وحاول أن يتجاهل هدير الهليكوبتر ليواصل النوم، و..

«أنت هناك.. ماذا تفعل عندك؟!..»

اخترق النداء أذنيه في عنف، فانعقد حاجباه في شدة، وتساءل: من هذا الذي يستخدم مكبرًا صوتيًا، ويتحدث بالإنجليزية على هذا النحو؟!

«أنت هناك.. أفصح عن هويتك، وإلا..»

كان النداء الثاني أكثر صرامة وقربًا، وهدير الهليكوبتر أصبح قويًا وعنيفًا، وكأنها تحلق فوقه مباشرة، ففتح عينيه في بطء، وهو يدور ليرقد على ظهره، ويهتف محتجًا:

- ما هذا الإزعاج؟!

لم يكد ينطقها، حتى انتفض جسده أعنف انتفاضة في حياته كلها، وكأنما أصابته صاعقة قوية، واتسعت عيناه عن آخرهما، حتى كادتا تقفزان من محجريهما، ومرت في عروقه قشعريرة

باردة كالثلج، كاد يتجمد لها جسده كله، وهو يصرخ بصوت حمل ذعر وذهول الكون كله:

- رباه!.. ما هذا؟!

صرخ بالكلمات، وهو يحدق في هليكوبتر تحمل شعار شرطة (نيويورك)، وتحلق فوقه مباشرة، وبداخلها شرطي يحمل مكبرًا صوتيًا، ويقول في صرامة:

- إياك أن تتحرك.. ابق في مكانك، حتى يصل رجال الأمن، وإلا أطلقنا عليك النار..

لم يكن (ماهر) بحاجة إلى هذا النداء فعليًا، فقد شمله الذهول حتى تجمد كيانه كله، وهو يدير عينيه فيما حوله، ويحدق في المدينة الممتدة أمامه حتى المحيط، من فوق ناطحة السحب الهائلة..

ومن باب بعيد، اندفع نحوه رجلان يرتديان زي رجال الأمن الداخلي للبناية، وصوبا إليه مسدسيهما، وأحدهما يهتف:

- ارفع يديك فوق رأسك.

أطاعهما (ماهر) في آلية، وهو يصرخ في ذعر وارتياع كبيرين:

- أين أنا؟!.. كيف أتيتم بي إلى هنا؟!.. كيف؟!

لم يكن بحاجة فعلية إلى الجزء الأول من السؤال..

إنه يعرف جيدًا أين هو..

لا أحد يمكنه أن يخطئ ناطحات السحب، وتمثال الحرية التي يبدو من بعيد..

إنه في (نيويورك) حتمًا..

ولكن السؤال الثاني بالغ الأهمية بالنسبة له..

هذا لأنه، وعندما أوى إلى فراشه في الليلة السابقة، لم يكن يرقد على سطح مبنى مركز التجارة العالمي..

بل ولم يكن يرقد على سطح أي مبني في (نيويورك)، أو حتى في (أمريكا) كلها..

لقد كان يرقد في منزله هناك..

في قلب (القاهرة)!!

☆ ☆ ☆

«إنه حلم..»

ردد (ماهر) الكلمة أكثر من مائة مرة، في ذهول لم ينجح في مفارقته، وهو يجلس داخل حجرة صغيرة عارية من الأثاث، باستثناء منضدة خشبية بسيطة ومقعدين، يحتل هو أحدهما، داخل قسم الشرطة في (نيويورك)..

لم يكن باستطاعته أبدًا أن يستوعب أنه داخل الولايات المتحدة الأمريكية بالفعل..

هذا مستحيل!

مستحيل تماما!

إنه واثق تمام الثقة من أنه أوى إلى فراشه في (القاهرة) أمس، على بعد آلاف الكيلو مترات من هذا المكان..

وهو ليس مجنونًا..

ليس كذلك بالتأكيد!

فكيف حدث هذا؟!..

كيف انتقل خلال الليل من منزله في حي (شبرا) في (القاهرة)، إلى سطح أعلى مبنى في العالم أجمع؟!..

كيف؟!

كيف؟!

التفسير المنطقي الوحيد هو أنه يحلم.

وأن كل ما يحيط به مجرد كابوس سخيف، لن يلبث أن يستيقظ منه..

ولكن هل يمكن أن يأتي الكابوس بكل هذا العمق والوضوح؟!

وبأدق التفاصيل؟!

لقد راودته كوابيس عديدة خلال عمره، ولكن أيها لم يشبه هذا قط!

إنه يرى كل ما حوله في وضوح تام.

ويمر بكل لحظة مرورًا ملحوظًا محسوسًا وملموسًا..

ولكن من يدري؟!..

ربما تغيرت طبيعة الكوابيس، كما تغير كل شيء في الدنيا..

ربما!!

انفتح الباب في هذه اللحظة، وبرز عنده رجلان، أحدهما ضخم الجثة، صارم الملامح، والآخر وسيم، أنيق، أشيب الفودين..

وبحركة سريعة، اندفع الضخم إلى ركن الحجرة، وعقد ساعديه أمام صدره القوي، وهو يرمقه بنظرة صارمة مخيفة، في حين أغلق الوسيم الباب خلفه في هدوء، وتطلع إليه لحظات في صمت، قبل أن يقول:

- أهلا يا (ماهر).. هل انتظرت طويلًا؟!

حدق (ماهر) في وجهه لحظة، قبل أن يقول في توتر بالغ، بلغته الإنجليزية الركيكة:

- هذا حلم.. أليس كذلك؟!

انعقد حاجبا الضخم في صرامة، في حين ارتفع حاجبا الوسيم، وهو يقول في شيء من الدهشة:

- حلم؟!

هز (ماهر) رأسه، ولوح بكفه في عصبية، قائلًا:

- أقصد أنه كابوس.. كابوس لن ألبث أن أستيقظ منه.. أليس كذلك؟!.. هه.. أليس كذلك؟!

تطلع إليه الوسيم لحظات في صمت، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة، وجذب المعقد الآخر، وجلس عند الطرف المقابل للمنضدة، واستند إلى سطحها بمرفقية، ومال نحو (ماهر)، قائلًا:

- اسمعني جيدًا يا هذا.. لسنا ندري كيف استطعت الوصول إلى سطح مركز التجارة العالمي، ولا كيف تجاوزت نظم الأمن والحراسة، دون أن يشعر بك أحد، ونعترف بأن عملك هذا قد أثار انبهارنا قبل سخطنا، ولكن لا داعي لأن يمتد ذكاؤك إلى محاولة التظاهر بالجنون، للإفلات من العقاب، فلدينا وسائل بارعة للغاية لكشف هذا.

تراجع (ماهر) مغمغمًا في دهشة:

- التظاهر بالجنون؟!

ثم اندفع مستطردًا في توتر بالغ:

- ولماذا أتظاهر بالجنون؟!.. إنني سأصاب به فعليًا، لو لم أجد تفسيرًا لهذا الموقف!

تبادل الوسيم نظرة ضجرة مع الضخم، ثم تراجع في مقعده، وسأل:

- أي موقف؟!

لوح (ماهر) بكفيه في عصبية، قائلًا:

- الموقف الذي أنا فيه؟!.. كيف أويت إلى فراشي في (القاهرة)؟ ثم استيقظت لأجد نفسي في (نيويورك)؟! أطلق الضخم صوتًا أشبه بالزمجرة، في حين ردد الوسيم:

- (القاهرة)؟!

ثم زفر في ضجر، وهز رأسه، قائلًا:

- قلت لك: إن هذا لن يفيدك.

عض (ماهر) شفته السفلى غيظًا، وضرب سطح المنضدة بقبضته، وهو يقول في عصبية شديدة:

- لست أتظاهر بالجنون أو الغباء؟!.. أقسم لكم إنني لا أفعل.. ألقوني في السجن لو أردتم، وجهوا لي أية اتهامات تحلو لكم، ولكن اشرحوا لي ما حدث.. أخبروني حل هذا اللغز! أخبروني بالله عليكم.

زمجر الضخم مرة أخرى، وقال:

- يبدو أن هذا الأسلوب لا يصلح للتعامل معه..

أشار إليه الوسيم بالصمت، ثم تطلع إلى وجه (ماهر) لحظة، قبل أن يقول:

- هل تعلم أن المركز التجاري العالمي ينوي منحك مكافأة؟!

اتسعت عينا (ماهر) في دهشة، وهو يقول:

- مكافأة؟!

أومأ الوسيم برأسه إيجابًا، وقال في حماس مصطنع:

- بالطبع.. لقد أنفقوا الملايين لتأمين المكان، وتزويده بأحدث نظم الأمن والإنذار، وعلى الرغم من هذا فقد نجحت أنت في اختراق وتجاوز كل هذا، والوصول إلى السطح.. ألا يعني هذا أنك عبقري؟.. إنهم سيمنحونك المكافأة، مقابل أن تشرح لهم كيف فعلت هذا، حتى يمكنهم تفادي تكرار الأمر مستقبلًا.

عض (ماهر) شفته مرة أخرى، وهو يقول:

- لن يمكنني إخبارهم بهذا قط.

سأله الوسيم في اهتمام:

- ولماذا؟

هتف (ماهر) في حدة:

- لأنني أجهل كيف وصلت إلى هناك.

انعقد حاجبا الوسيم في غضب، وهو يقول:

- إنك لم تهبط من السماء إلى السطح بالتأكيد، ولم تنشأ من العدم.. أم أنك تتصور أنك فعلت هذا أو ذاك؟!

قال (ماهر) في عصبية:

- إنني لم أفعل شيئًا.. صدق أو لا تصدق، ولكنني استيقظت لأجد نفسي هناك، ولست أدري كيف حدث هذا..

ازداد انعقاد حاجبي الوسيم، وأدار عينيه إلى الضخم، قائلًا:

- يبدو أنك على حق.. هذه الوسائل لا تصلح معه.

شمر الضخم عن ساعديه، وكشف عضلاته القوية، وهو يقول:

- هل تجرب وسائلي أنا؟!

تراجع (ماهر) في مقعده، هاتفًا في انزعاج:

- ماذا ستفعلون بي؟!

أجابه الضخم، وهو يتقدم نحوه في شراسة:

- سنجري اختبارًا لمعرفة أكبر عدد من القطع يمكن أن تتحطم إليه عظامك..

قفز (ماهر) مبتعدًا، وهو يقول في عصبية:

- إياك أن تقترب مني.

ارتسمت على شفتي الوسيم ابتسامة، وهو يشير إلى الضخم، قائلًا:

- مهلا يا (سميثي).. لم يحن وقت هذا بعد.

مط (سميثي) شفتيه، وكأنما لم يرق له منعه من تحطيم عظام (ماهر)، وتراجع في سخط؛ ليلتصق مرة أخرى بالجدار، ويعقد ساعديه أمام صدره، في حين التفت الوسيم إلى (ماهر) وقال:

- أستاذ (ماهر).. لست أدري لماذا تبذل كل هذا الجهد، لتلفيق خطة لا يمكن أن يصدقها أي رجل عاقل؟!.. تهمتك ليست بالخطورة التي تتصورها.. لقد عثروا عليك نائمًا فوق سطح مركز التجارة العالمي فحسب، ولم يضبطوك في أثناء محاولة سرقة، أو يعثروا معك على أية مسروقات أو مخدرات، أما بالنسبة

لتواجدك غير المشروع في الولايات المتحدة الأمريكية، فأنت حتى لم تحاول إنكاره، بل تصر عليه بشدة في قصتك، فلماذا كل هذا التعقيد؟؟

أجابه (ماهر) في عصبية:

- لأنني لم أذكر سوى الحقيقة.

زمجر الضخم، قائلًا:

- دعني أستخدم أسلوبي يا رجل.

هز الوسيم رأسه نفيًا في إصرار، ثم تراجع في مقعده، وتطلع إلى (ماهر) لحظات في صمت، وهو يشبك أصابع كفيه أمام وجهه، ثم قال:

- إذن فأنت تصر.

أجابه (ماهر) في حزم:

- كل الإصرار.

صمت الوسيم لحظة أخرى، ثم اعتدل يسأله:

- لن تمانع إذن في الخضوع لاختبار كشف الكذب.

أجابه (ماهر) في سرعة:

- مطلقًا.

بدا التوتر على الضخم، وقال في عصبية:

- وما الداعي لكل هذا؟.. إنها مجرد قضية تافهة.. ألقوه في السجن فحسب، حتى يذكر الحقيقة.

أجاب الوسيم في صرامة:

- دعني أدير الأمور بطريقتي.

ثم التفت إلى (ماهر)، وتابع بنفس اللهجة:

- اسمعني جيدًا أيها الشاب.. سنخوض اختبار كشف الكذب بعد قليل، وأريد منك أن تعلم أنه لو أكد الجهاز أنك صادق، أو أنك تؤمن بما تقول على الأقل، فأعدك أن أستمع إلى قصتك ثانية بآذان جديدة، أما لو ثبت أنك كاذب، وأنك تخدعنا منذ البداية..

لم يكمل عبارته، ولكن النظرة الصارمة المتوعدة، المطلة من عينيه، قالت أكثر مما يمكن أن ينطقه لسانه، حتى إن (ماهر) ازدرد لعابه في صعوبة، وتمتم:

- اتفقنا.

أشاح الضخم بوجهه بعدم اقتناع، وهو يغمغم:

- جهاز كشف الكذب يمكن خداعه.

رمقه الوسيم بنظرة نارية، دون أن ينبس ببنت شفة، ثم التفت إلى (ماهر)، قائلًا في حزم:

- هيا بنا.

لم تمض دقائق على هذا الحوار، حتى ضمت حجرة اختبارات كشف الكذب ثلاثتهم، إلى جوار الخبير الخاص بالجهاز، والذي راح يوصل الأسلاك بمعصمي (ماهر) وصدره ورأسه، وهو يقول:

- قبل أن نبدأ، أحب أن أنبهك إلى أن هذا الجهاز شديد الحساسية، ومهمته أن يقيس التغيرات في نبضك وضغطك، ودرجة حرارتك، وإفرازات العرق من جسدك، مع إجابتك على الأسئلة التي توجه إليك، ومن السهل عليه أن يتبين ما إذا كنت

تقول الحقيقة أم لا، من خلال المنحنيات الدقيقة التي يرسمها طوال الوقت.

غمغم (ماهر)، وهو يشعر في أعماقه بتوتر حقيقي:

- لا بأس.

- أومأ الخبير برأسه، وقال:

- عظيم.. في هذه الحالة، وبعد موافقتك الرسمية على خوض الاختبار، يمكننا البدء فيه.

مط الضخم شفتيه في امتعاض، وجلس الوسيم على مقعد قريب، والاهتمام يطل من كل خلجة من خلجاته، يراقب (ماهر)، في حين ضغط الخبير زر تشغيل الجهاز، وهو يقول:

- في البداية نلقي عددًا من الأسئلة التقليدية، مثل: ما اسمك بالضبط؟

أجابه (ماهر) على الفور:

- اسمي (ماهر).

ارتفع حاجبا الخبير في دهشة، وهو يحدق في الجهاز، وغمغم:

- مستحيل!

هب الوسيم من مقعده، قائلًا في توتر:

- هل كذب في قوله هذا؟

رفع الخبير عينيه إليه، وارتج عليه للحظات، وهو يشير إلى الجهاز، قبل أن تندفع الكلمات من بين شفتيه عصبية متوترة مضطربة:

- هذه المنحنيات.. إنني أجرى هذه الاختبارات منذ أكثر من عشر سنوات، ولكنني لم أر منحنيات مثلها قط.. إنها منحنيات عجيبة.. عجيبة للغاية.

ومرة أخرى، انتفض جسد (ماهر) في عنف.

ها هو ذا اللغز يزداد تعقيدًا..

وبشدة.

☆ ☆ ☆

2- الغموض!!..

راجع خبير أجهزة كشف الكذب تلك المنحنيات، التي سجلها الجهاز مع (ماهر)، أكثر من عشر مرات قبل أن يهز رأسه في حيرة، ويرفع عينيه إلى الوسيم، قائلًا:

- ليس هناك أدنى شك.. هذه المنحنيات لا يمكن أن تصدر عن إنسان طبيعي.

أومأ الوسيم برأسه متفهمًا، وهو يعقد حاجبيه في شدة، في حين قال (ماهر) في عصبية واضحة:

- ماذا تعني بقولك هذا؟!.. أنا إنسان طبيعي كما ترى.

هز الخبير برأسه مرة ثانية، مغمغمًا:

- مستحيل!

زمجر الضخم، قبل أن يقول:

- دعني أحطم عظامه، وستجد أنها مجرد عظام عادية، قابلة للكسر.

رمقه الوسيم بنظرة صارمة، في حين قال (ماهر) متوترًا:

- لماذا مستحيل؟!.. هل تجدني أمامك بعين واحدة، أم يبرز من رأسي هوائيان؟!

تطلع إليه الخبير لحظة في صمت، قبل أن يجيب في شيء من الرهبة:

- من الناحية الشكلية، أنت شخص عادي للغاية، ولكن المنحنيات التي تصدرها أجهزتك الحيوية لا تقول هذا، فكلها

معكوسة، وكأنما انقلبت رأسًا على عقب.. العليا سفلى، والسفلى عليا.

أطلت دهشة حقيقية من عيني (ماهر) وهو يتمتم:

- معكوسة؟!.. كيف؟!..

كان الوسيم يتطلع إليه في اهتمام، وهو ينطق هذا، وكأنما يحاول استشفاف حقيقة مشاعره، والتقى حاجباه أكثر لثوان إضافية، قبل أن يعتدل في مجلسه، ويقول في حزم:

- يبدو أن الأمر بحاجة إلى مزيد من الفحوص.

ثم نهض مشيرًا إلى (ماهر)، ومستطردًا:

- هيا بنا..

نهض (ماهر) في ارتباك، وهو يسأل:

- إلى أين؟!

أجابه في صرامة:

- قلت: إن الأمر بحاجة إلى مزيد من الفحوص.

أشار إليهم الخبير، وهو يقول في اهتمام:

- لحظة أيها السادة.. أريد إجراء اختبار بسيط، قبل انصرافكم.

التفت إليه الوسيم، قائلًا في توتر:

- أي اختبار هذا؟!

نهض الخبير إلى جهاز (تليفزيون) صغير، وأشعله وهو يجيب:

- مجرد اختيار بسيط.

ثم أشار إلى (ماهر)، مستطردًا:

- هل يمكنك وضع يدك على هذه الشاشة؟

بدت الدهشة على وجه (ماهر)، وهو يقول:

- بالتأكيد.. ولكن ما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟!

ارتسمت على وجه الخبير ابتسامة مرتبكة، وهو يغمغم:

- سنرى.

التقى حاجبا الضخم في تساؤل، وبدا الاهتمام على وجه الوسيم، في حين تقدم (ماهر) نحو جهاز (التليفزيون) في اضطراب، ومد يده نحو شاشته، وهو يتمتم:

- لست أدري ما الذي يمكن أن يعنيه هذا، ولا ما الذي..

يتر عبارته بغتة، عندما لامست يده الشاشة، وانتفض جسده في عنف، وهو يجذبها بحركة حادة، هاتفًا في دهشة شاركه فيها الجميع:

- ما هذا؟!

ففي نفس اللحظة، التي لامست يده فيها الشاشة، أصدر الجهاز قرقعة عجيبة، ثم انكمشت الصورة كلها، وكأنما تجذبها اليد خارج الشاشة.

وعندما ابتعدت يد (ماهر)، عاد كل شيء إلى طبيعته دفعة واحدة..

ولثوان، ران على الحجرة صمت مشوب بالذهول، استغرق ما يزيد قليلًا على نصف الدقيقة، قبل أن يقطعه الخبير، قائلًا في صوت مرتجف، من فرط الانفعال:

- أنت على حق.. الأمر يحتاج إلى مزيد من الفحوص.

ازدرد الوسيم لعابه في صعوبة، قبل أن يسأل بصوت مبحوح:

- أين؟

مط الخبير شفتيه، ولوح بكفه، وهو يجيب:

- لا توجد سوى جهة واحدة تصلح لإجراء الفحوص، في مثل هذه الحالة.

ثم صمت لحظة أخرى، قبل أن يستطرد في حزم:

- (وكالة ناسا للأبحاث)..

وحسم قوله الكثير..

☆ ☆ ☆

جلس (ماهر) صامتًا تمامًا، داخل الطائرة الصغيرة، التي تنطلق به في سماء الولايات المتحدة الأمريكية، مع الوسيم والضخم، في طريقها إلى (ناسا).

كان عقله يكاد ينفجر من تلك التطورات، التي تتلاحق على نحو عجيب، منذ الصباح الباكر..

وكانت هناك عشرات الأسئلة الحائرة في أعماقه التي تحتاج إلى أجوبة شافية.. ترى كيف وصل إلى هنا؟!.

كيف أوى إلى فراشه في (شبرا)، ليجد نفسه صباحًا في (نيويورك)؟!..

كيف؟!..

كيف؟!..

ثم ما الذي يحدث في جسده؟!..

إنه لا يشعر بأية تغيرات، ولكن الظواهر المحيطة به تؤكد العكس تمامًا..

منحنيات أجهزته الحيوية معكوسة..

تأثيره على الأجهزة الإليكترونية..

وما أدراه ما سيأتي فيما بعد، عندما يتعرض لمزيد من الفحوص!!..

هناك شيء ما تغير داخله بالتأكيد..

ولكن ما هو؟!..

ولماذا؟!..

لماذا؟!..

«لقد وصلنا..».

انتزعه قول الوسيم من أفكاره، فاعتدل في مقعده، وألقى نظرة عبر النافذة على المطار الصغير، الذي هبطت فيه الطائرة، قبل أن ينهض ليغادرها مع الرجلين، واستقل ثلاثتهم سيارة سوداء، نقلتهم إلى مبنى ضخم، استقبلهم فيه رجل وقور أشيب الشعر، حليق، يرتدي منظارًا طبيًا ومعطفًا أبيض، يحمل شعار (ناسا)، تطلع إلى (ماهر) في اهتمام، وهو يسأل الوسيم:

- أهذا هو؟

أجابه الوسيم في اقتضاب حازم:

- نعم.. إنه هو..

أومأ الوقور برأسه متفهمًا، وعاد يتطلع إلى (ماهر) لحظة، ثم استدار، وأشار لهم بيده، قائلًا:

- اتبعوني.

سار الثلاثة خلفه، عبر ممرات طويلة متشابكة، واستقلوا مصعدًا إلى الطابق الثالث من المبنى، ثم عادوا يعبرون الممرات، حتى انتهوا إلى قاعة كبيرة، تتوسطها منضدة فحص، أشبه بتلك المستخدمة في عيادات الأطباء، وعلى مقربة منها عدد من المقاعد، استقر الوقور فوق أحدها، وأشار إلى الآخرين بالجلوس، ثم مد يده إلى الوسيم، قائلًا:

- هل تحمل نتيجة الاختبار؟

ناوله الوسيم مظروفًا، التقطه في لهفة، والتقط منه ورقة الاختبار، وراح يفحصها في اهتمام كبير، ثم خلع منظاره، والتفت إلى (ماهر)، قائلًا:

- خدعة طريفة يا فتى.

انتفض (ماهر) في مقعده، وهو يهتف:

- خدعة؟!

وفي غلظة، وضع الضخم يده على كتف (ماهر)، قائلًا:

- انكشف أمرك يا صاح.

أما الوسيم، فكاد يقفز من مقعده، هاتفًا:

- أتقول: إنها خدعة يا دكتور (هايدن)؟!

هز الرجل كتفيه في هدوء واثق، وهو يقول:

- بالطبع.. وخدعة بسيطة أيضًا..

قال (ماهر) في عصبية:

- رائع.. هل يمكنك أن تشرح لي إذن تلك الخدعة البسيطة، التي تجعلني قادرًا على عكس اتجاه المنحنيات، والتأثير على الأجهزة الإلكترونية الحديثة؟!

ابتسم الدكتور (هايدن) في سخرية، قائلًا:

- تلك المنحنيات لا تأتي من فراغ.. إنها انعكاس لذبذبات يطلقها جسدك من أجهزته الحيوية، ويمكنك إرباك أجهزة القياس في أي اتجاه، بوساطة جهاز متغير الذبذبة، تخفيه في ثيابك.. أو حتى داخل جسدك.

حدق (ماهر) في وجهه بدهشة، وهو يردد:

- جهاز متغير الذبذبة؟!..

لم يدر لماذا بدا للاسم وقع خاص في أعماقه؟!..

لماذا شعر بالقلق والخوف، عندما أشار إليه العالم؟!..

ترى هل يحمل بالفعل جهازًا كهذا، دون أن يدري؟!..

هل؟!..

ويبدو أن قلقه هذا قد انحفر في ملامحه، فلقد تطلع إليه الوسيم طويلًا، في توتر بالغ، قبل أن يلتفت إلى الدكتور (هايدن)، قائلًا:

- هل يمكنك كشف الخدعة بوسيلة عملية!.. أعني هل يمكنك منحنا دليلًا على أن ما حدث مجرد خدعة؟!

تراجع الرجل في مقعده، وهو يرمق (ماهر) بنظرة ساخرة، مجيبًا:

- هناك ألف وسيلة لهذا.. إننا سنخضعه لكل الفحوصات والاختبارات الممكنة.. سنفحص جسده بالأشعة السينية، والموجات فوق الصوتية، والرنين المغنطيسي، ثن سنعيد فحصه بأجهزة كشف الكذب، وبوساطة خبير نفسي متخصص.. صدقني.. لن يمكنه خداعنا قط.

«فلنبدأ على الفور إذن..»

انطلقت العبارة بكل الحزم والصرامة، فاتسعت العيون في دهشة، وهي تحدق في وجه صاحبها..

في وجه (ماهر)..

لقد نطق العبارة مخلصًا بحق، فهو أكثر الحاضرين رغبة في حل هذا اللغز العجيب، ومعرفة السبب في وجوده هنا..

ولقد كان لعبارته تأثير قوي في المكان..

حتى الضخم حدق في وجه (ماهر) في دهشة، قبل أن يغمغم:

- عجبًا!.. ألا تعترض على الخضوع لكل هذا؟

أجابه (ماهر) في حزم:

- مطلقًا.. أخضعوني لكل ما تريدون، ولكن أبلغوني في النهاية ماذا يحدث لي..

وتحول حزمه إلى ثورة هادرة، وهو يضيف مكررًا:

- ماذا يحدث لي؟!..

ارتفع حاجبا الدكتور (هايدن) في دهشة بالغة، وتلاشت سخريته تمامًا، وهو يتطلع إلى (ماهر) هذه المرة، قائلًا:

- فليكن.. ستبدأ الاختبارات على الفور.

أومأ (ماهر) برأسه، متمتمًا:

- هذا أفضل.. أفضل كثيرًا.

قالها بكل التوتر والانفعال في أعماقه، فهو على استعداد لفعل أي شيء في الدنيا، لو أن هذا يسهم في العثور على تفسير منطقي..

تفسير أكبر لغز في عمره كله..

☆ ☆ ☆

لم تكن الفحوصات والاختبارات سهلة أو بسيطة..

ولم تستغرق وقتًا محدودًا، كما تصور (ماهر)..

لقد قضى يومين متتاليين يخوض اختبارًا تلو الآخر، ويخضع الفحص يليه ثان، وثالث، ورابع، حتى خُيل إليه أنه لم تعد هناك فحوصات أكثر في الدنيا كلها..

وطوال الوقت كان يشعر بشوق جارف لها..

لـ(ياسمين)..

في كل لياليه تقريبًا كان يحلم بها..

يحلم بأيام حبهما، ولحظات سعادتهما، وكفاحهما لتحقيق حلمهما.

وكان قلبه يخفق لهفة وشوقًا إليها..

ولم يفارق السؤال ذهنه قط..

كيف وصل إلى هنا؟!..

ولماذا؟!..

كان في البداية يحاول إقناع نفسه بأن ما يحدث مجرد كابوس، سيمضي حتمًا، ويستيقظ ليجد نفسه راقدًا في فراشه في (شبرا)، فيهرع للاتصال بها، ويروى لها ما رآه، ويضحكان معًا، قبل أن يخرج للبحث عن عمل من جديد..

ثم لم يلبث أن ألقى الفكرة كلها خلف ظهره..

أي كابوس هذا الذي يحيا أدق تفاصيله، طوال ثلاثة أيام بلياليها؟!.

أي كابوس، الذي يحرمه من حبيبته كل هذا الوقت؟!

وعندما بدأت الاختبارات والفحوص، خُيل إليه أن الكابوس قد عاد..

وأنه يحيا.. لأول مرة في حياته.. كابوسًا حقيقيًا..

لقد عامله الجميع بعدوانية وتحفز في البداية، وبذلوا قصارى جهدهم لكشف الخدعة التي توقعوا قيامه بها، ثم لم تلبث الحيرة أن أزاحت العدوانية من نفوسهم، واشتركت مع الدهشة في شعور جديد، فجَّر كل الفضول العلمي في أعماقهم، وجعلهم يبذلون قصارى جهدهم للبحث عن تفسير لتلك الظاهرة العجيبة، التي يواجهونها فيه..

إنه سليم تمامًا من الناحية التشريحية والطبيعية، ولكن ما إن يتعلق الأمر بالإلكترونيات وأجهزة الفحص، حتى يختل كل شيء على نحو مربك للغاية..

أجهزة رسم المخ والقلب تعطي منحنيات سليمة للغاية..

ولكنها معكوسة..

وحتى أجهزة الفحص بالأشعة، والموجات فوق الصوتية، والرنين المغنطيسي، لا يمكن أن تعمل على نحو طبيعي مع جسده، إلا لو تم عكس أقطابها..

وعلى الرغم من هذا، فكل شيء بداخله في موضعه بالضبط..

القلب، والكبد، والطحال، والمعدة..

وحتى فصا المخ..

وطوال اليومين اللذين استغرقهما الفحص لم ير (ماهر) الوسيم أو الضخم لحظة واحدة..

الدكتور (هايدن) وحده كان يشرف على كل ما حدث، ويتابعه خطوة فخطوة، ولا يحاول إخفاء دهشته أو انبهاره، مع نتائجها العجيبة..

وأكثر ما أثار دهشته وانبهاره هو الاختبار النفسي..

لقد قام به ثلاثة من أكثر الأطباء النفسيين شهرة وخبرة ومهارة، في (أمريكا) كلها، واتفق ثلاثتهم على أن (ماهر) يؤمن تمامًا بما يقوله، وأنه ليس كاذبًا أو مخادعًا، وإنما يجهل بالفعل كيف وصل إلى (نيويورك)، وكيف عثروا عليه على سطح أعلى بناء في العالم!!..

وفي النهاية ظهر الضخم والوسيم، عندما انتهت الاختبارات، وقرأ الدكتور (هايدن) النتائج على مسامعهما ومسامع (ماهر)، ثم تنهد في عمق، وخلع منظاره الطبي، قائلًا:

- خلاصة القول إن هذا الفتى ليس مخادعًا، وأن شيئًا ما قد حدث له، وتسبب في انتقاله بوسيلة ما، مازلنا نجهل كنهها بالضبط، من فراشه في (القاهرة)، إلى سطح مركز التجارة العالمي

في (نيويورك)، وأن ذلك الشيء قد أثر في مغناطيسية جسده على نحو مدهش، فانعكست أقطابه، ولم يعد يتوافق مع مغنطيسية الكرة الأرضية، حتى أن البوصلة نفسها تصاب بالارتباك والخلل، إذا ما اقتربت من جسده.

مط الضخم شفتيه، وغمغم في استهجان:

- غير معقول.

أما الوسيم، فقد نقل بصره بين (ماهر) والدكتور (هايدن) لحظات، قبل أن يسأل في حزم:

- أهذا تقرير نهائي؟!

أومأ الدكتور (هايدن) برأسه إيجابًا، وقال:

- بكل تأكيد.

هز الوسيم رأسه عدة مرات، وكأنه يستجمع أفكاره، والتقى حاجباه قليلًا، وهو يفكر في عمق، قبل أن يرفع رأسه إلى الدكتور (هايدن) ثانية، ويسأله في اهتمام بالغ:

- ألم تضعوا تصورًا تقديرًا لما حدث؟

أجابه العالم بسرعة:

- بالطبع.

سأله الوسيم في شيء من الحذر:

- وما هو؟!

صمت العالم لحظة، ثم أجاب:

- باعتبارنا من المتخصصين في مجال الفضاء والطيران، كان من الطبيعي أن تتجه عقولنا إلى تفسير واحد محدود.

سأله الوسيم:

- وما هو؟

أدار الدكتور (هايدن) عينيه إلى حيث يجلس (ماهر)، وتطلع إليه في اهتمام، قبل أن يجيب بلهجة شديدة الحسم:

- أن هذا الفتى قد تعرض للاختطاف من قبل مخلوقات من كوكب آخر.

انعقد حاجبا الضخم في شدة، وتراجع الوسيم في مقعده، وكأنما لم يباغته التفسير، أما (ماهر)، فقد قفز من مقعده، وهو ينتفض في عنف..

لقد صدم هذا التفسير أعماقه بالفعل..

صدمها بكل العنف..

وكل القسوة..

☆ ☆ ☆

«ستخضع لاختبار آخر..»

نطق الوسيم تلك العبارة في صرامة، فالتفت إليه (ماهر) في دهشة، وقال في توتر:

- اختبار آخر؟!.. كنت أعتقد أنني خضعت بالفعل لكل الاختبارات الممكنة!

أجابه الوسيم بلهجة جافة، لم يدر لها سببًا:

- إنه اختبار من نوع خاص.

ردد (ماهر) في قلق:

- من نوع خاص؟!

أشاح الوسيم بوجهه، قائلًا:

- نعم.. التنويم المغناطيسي.

هتف (ماهر) في دهشة:

- تنويم مغناطيسي؟!.. ولماذا؟

ضرب الوسيم سطح المنضدة بقبضته، وهو يجيب في عصبية:

- بسبب الاحتمال الذي وضعه هؤلاء العلماء.

ونهض من مقعده في حدة، ودس كفيه في جيبي سرواله، وراح يتحرك في الحجرة، قائلًا:

- لو أن تفسير هذا اللغز ينحصر بالفعل في أن مخلوقات فضائية قد اختطفتك، فلن تكون هذه هي الواقعة الوحيدة لهذا، فهناك عشرات الحوادث المسجلة رسميًا في هذا الشأن، ولكن أشهرها على الإطلاق حادثة تعرف باسم (حادثة بارني وبيتي هيل)، وهما زوجان، كانا يسلكان طريقًا غير مأهول، في ساعة متأخرة من الليل؛ لتوفير الوقت، وهما في طريق عودتهما إلى منزلهما، بعد عطلة قضياها عند شلالات (نياجرا) الشهيرة، ولكنهما وجدا نفسيهما بغتة على بعد خمسة وثلاثين ميلًا، من البقعة التي كانا فيها، وقد مرت عليهما ساعتان، لا يذكران دقيقة واحدة مما حدث في أثنائها..

وتنهد في عمق، ثم التفت إليه، متابعًا:

- ولقد عانى الزوجان (هيل) اضطرابات نفسية شديدة، مما دفعهما إلى اللجوء إلى طبيب نفسي، أخضعهما للتنويم المغنطيسي، كجزء من العلاج، فوجد أمامه مفاجأة مدهشة.. لقد روى له الزوجان، في أثناء نومهما المغناطيسي هذا، أن

مخلوقات فضائية قد اختطفتهما، في طبق طائر، وأجرت لهما بعض الفحوص، ثم أطلقت سراحهما فيما بعد، وكان للتفاصيل التي روياها الفضل الأعظم في تقدم الأبحاث في هذا الشأن.

ازدرد (ماهر) لعابه في صعوبة، وهو يغمغم:

- هل تعني أنني سأخضع للتنويم المغناطيسي للغرض نفسه.

أشار الوسيم بسبابته، قائلًا في حزم:

- بالضبط.

ثم شرد بصره بضع لحظات، قبل أن يضيف:

- وأتعشم أن يضع هذا نهاية اللغز.

نطقها على نحو خفق له قلب (ماهر) في عنف، وجعله يتساءل في توتر شديد..

ترى هل سيحسم التنويم المغنطيسي الأمير ويضع تفسيرًا للغز؟!.

هل؟!

☆ ☆ ☆

3- الأعماق..

بذل (ماهر) قصارى جهده ليسترخي في مقعده، كما طلب منه خبير التنويم المغناطيسي، وهو يتطلع إلى ذلك الجسم اللامع، الذي يتأرجح أمامه في رتابة، وصوت الخبير يتسلل إلى أذنيه خافتًا عميقًا:

- اترك جسدك يسترخي.. لا تبعد عينيك عن الضوء.. نم.. دع الهدوء يتسلل إلى أعماقك رويدًا رويدًا.. لا تقاوم.

لم تكن لدي (ماهر) أدني نية للمقاومة، وإنما كان أكثر لهفة على الخضوع للتنويم المغناطيسي، لعله يكشف شيئًا من الغموض المحيط به..

ورويدًا رويدًا، راحت أعماقه تمتلئ باطمئنان عجيب، وبدا له الضوء اللامع أمامه وكأنه يكبر، ويتسع، وينتشر، وصوت الخبير يزداد عمقًا وهدوءًا..

ثم لم تعد له أية سيطرة على إرادته..

لم يعد الكون أمامه سوى مساحة هائلة بيضاء، تنتظر توجيهات الخبير، لتتلون بأحداث وذكريات ووقائع..

وفي ارتياح، اعتدل الخبير، قائلًا:

- إنه نائم الآن.

مط الضخم شفتيه في صمت، في حين بدا الوسيم متوترًا للغاية، وهو يسأل خبير التنويم المغنطيسي:

- هل يمكنك أن تجزم بهذا؟

سأله الخبير:

- بالطبع.. ماذا تعني بسؤالك هذا؟

أجابه الوسيم في عصبية:

- أعني أليس من المحتمل أنه يتظاهر بهذا؟!

ارتسمت على شفتي الخبير ابتسامة، وهو يجيب:

- آه.. الجواب هو: كلًا يا رجل.. لا يمكنه أن يتظاهر بالخضوع للتنويم المغناطيسي، دون أن يكون خاضعًا له بالفعل، ففي حالته هذه لا يستجيب بؤبؤ عينه للضوء، وينخفض معدل تنفسه ونبضة إلى أقصى حد.

بدا شيء من الارتياح على وجه الوسيم، وهو يغمغم:

- هناك علامات لهذا إذن.

أومأ الخبير برأسه إيجابًا، وقال:

- بالطبع.. والآن هل نبدأ؟!

أجابه الضخم بصوته الغليظ:

- ابدأ قبل أن يقتلني الملل.

انعقد حاجبا الخبير، على نحو يوحي بأن العبارة لم ترق له، ثم التفت إلى (ماهر)، وقال بصوت هادئ عميق:

- (ماهر).. ادفع ذاكرتك إلى الخلف، وعد بها إلى اللحظة التي وجدت نفسك فيها فوق سطح مركز التجارة العالمي.. هل يمكنك أن تفعل هذا؟!

أومأ (ماهر) برأسه في آلية، قائلًا:

- نعم.. يمكنني هذا.

سأله الخبير:

- ما الذي تراه أمامك؟!

أجاب (ماهر) في آلية..

- هليكوبتر تحلق فوقي، وقائدها يطالبني بتحديد هويتي، وعدم مغادرة مكاني.

أدار الخبير عينيه إلى الوسيم، الذي أومأ برأسه إيجابًا، مؤيدًا قول (ماهر)، فعاد الخبير إلى هذا الأخير، وقال:

- دعنا نعد بذاكرتك بضع ساعات إلى الخلف.. إلى الليلة السابقة مباشرة.. ما الذي تتذكره؟!

صمت (ماهر) لحظة، ثم أجاب:

- عدت إلى منزلي، وتناولت طعام العشاء، ثم تحدثت هاتفيًا إلى (ياسمين).

سأله الخبير:

- ومن (ياسمين) هذه؟

أجابه (ماهر) على الفور:

- (ياسمين) خطيبتي.. إننا نحب بعضنا منذ أيام الدراسة.

أومأ الخبير برأسه متفهمًا، قبل أن يقول:

- حسن.. ما الذي حدث بعد هذا؟

أجابه (ماهر):

- أويت إلى فراشي.

بدا الاهتمام على وجه الضخم، عندما بلغ الخبير هذه النقطة، ومال الوسيم برأسه إلى الأمام في لهفة، والخبير يقول في اهتمام وتساؤل:

- ثم؟!

صمت (ماهر) لحظة، وكأنما يفتش في عقله عن الجواب، ثم لم يلبث أن قال في شيء من التردد:

- ثم وجدت نفسي فوق سطح مركز التجارة العالمي.

تراجع الخبير في دهشة، وازداد انعقاد حاجبي الضخم في شدة، في حين تمتم الوسيم:

- فقط؟!

أشار إليه الخبير بالصمت، وهو يسأل (ماهر):

- لا يمكن أن تكون قد انتقلت من نقطة إلى أخرى في لحظات قليلة كهذه.. لا ريب في أنه هناك ما حدث بين الواقعتين.

صمت (ماهر) طويلًا هذه المرة، ثم هز رأسه في بطء، مجيبًا:

- لست أذكر شيئًا.

التفت الخبير إلى الوسيم في حيرة، فغمغم هذا الأخير في عصيبة:

- قوله هذا مستحيل!!.. مهما كانت الوسيلة، التي انتقل بها من (مصر) إلى هنا، فهي تحتاج إلى بعض الوقت على الأقل.. كلنا نعلم أن أسرع طائرة تحتاج إلى اثنتي عشرة ساعة في رحلة مباشرة كهذه.

هز الخبير رأسه، قائلًا:

- إنه لم يستخدم طائرة بالتأكيد، ثم إنه لا يستطيع الكذب، وهو تحت تأثير التنويم المغناطيسي.

كرر الوسيم في حدة:

- مستحيل!

ثم سأل في عصبية:

- ألا يحتمل أنه هناك ما يعوق قدرته على التذكر؟!.. أعني أن يكون قد خضع لجلسة تنويم مغناطيسي مسبقة، تمنعه من الإفصاح عما في أعماقه، في هذه الجلسة.

صمت الخبير لحظات، انعقد خلالها حاجباه في شدة، وهو يدرس هذا الاحتمال، ثم رفع رأسه إلى الوسيم، قائلًا:

- هذا احتمال وارد بالفعل، ولكن هناك وسيلة للتغلب عليها، نطلق عليها اسم (الجسر)، لأننا نعبر بوساطتها الأوامر السابقة، التي تم غرسها في العقل الباطن، وندور حولها لتفاديها.

ثم تنحنح، والتفت إلى (ماهر)، قائلًا:

- قل لي يا (ماهر): كم مر من الوقت، ما بين دخولك إلى فراشك في (القاهرة)، واستيقاظك في (نيويورك)؟! عد إلى ذاكرة ساعتك البيولوجية، وحدد الوقت بمنتهى الدقة.

صمت (ماهر) لحظة، قبل أن يجيب:

- ست عشرة دقيقة وسبع ثوان بالتحديد.

وكان هذا الجواب مفاجأة جديدة..

مفاجأة أكثر عنفًا..

☆ ☆ ☆

تجهم وجه الدكتور (هايدن)، وهو يتابع شريط الفيديو، الذي يسجل جلسة التنويم المغناطيسي بكل تفاصيلها، ثم تراجع في مقعده، ولوح بكفه للوسيم، قائلًا في حزم:

- الأمر لا يقبل الشك يا رجل.. ذلك الفتى لم يتعرض لاختطاف من أي نوع.. هذه ليست حالة من حالات لقاءات النوع الثالث، أقصد أن هذه القضية ليس لها علاقة بأية مخلوقات فضائية.

أومأ الوسيم برأسه موافقًا في شيء من الضيق، وقال:

- لم يعد هناك شك في أنها ليست كذلك، ولكن هذه النتيجة لا تمنحنا إلا المزيد من الغموض، بالنسبة اللغز.

رمقه الدكتور (هايدن) بنظرة طويلة، قبل أن يميل إلى الأمام، قائلًا:

- قل لي يا رجل، لماذا أشعر وكأنك تخفي أمرًا ما؟

مط الوسيم شفتيه، وغمغم:

- إنه عملي.

هز الرجل كتفيه، وتراجع في مقعده، قائلًا:

- ربما كانت طبيعة عملك تعتمد على كتمان الأسرار وإخفاء المعلومات، ولكن لا ينبغي أن تخفي عنا أية أمور، يمكن أن تفيدنا في أبحاثنا.

صمت الوسيم بضع لحظات، وكأنما يراجع حديث الدكتور (هايدن) في عقله، ثم لم يلبث أن تنهد، ومط شفتيه، ونهض من مقعده، واتجه إلى النافذة، ووقف يتطلع عبرها بضع لحظات، قبل أن يقول:

- نحن نعلم منذ البداية أن الشاب لم يقض ليلته على سطح المبنى.

ارتفع حاجبا الدكتور (هايدن) في دهشة، وهو يقول:

- تعلمون؟!

أومأ الوسيم برأسه إيجابًا، وتنهد مرة أخرى، قبل أن يقول:

- نعم.. فالهليكوبتر التي عثرت عليه قامت بدورة سابقة، قبل ذلك بعشرين دقيقة، ولم يكن هناك أحد فوق السطح عندئذ.. لقد تصورنا في البداية أن رجال الدورية الطائرة أرادوا التستر على إهمالهم، ولكن تحقيقاتنا معهم أثبتت العكس، مما أصابنا بالحيرة، وجعلنا نتساءل عن كيفية وصوله إلى هناك، دون أن يستخدم أية طائرات، أو يتجاوز رجال أمن المبنى، الذين قاموا بجولتهم التفقدية الأخيرة، قبل تسليم عملهم للنوبتجية التالية، قبل عشر دقائق فحسب من عثور الهليكوبتر عليه!!

وهز رأسه في بطء، وهو يواصل التطلع عبر النافذة، ثم تابع:

- كان من العسير أن نهضم الفكرة، أو نتصورها، فالبشر لا يبرزون هكذا من العدم، ولا يظهرون فوق أسطح المباني بغتة، دون سابق إنذار، لذا فقد قررنا استجوابه على نحو مدروس، وبذل قصارى جهدنا لمعرفة ما خلفه.

مط الدكتور (هايدن) شفتيه، وهو يقول:

- كنت أعلم أن الأمر ليس بسيطًا، منذ أخبروني أن المشتبه فيه سيصل بصحبة إثنين من رجال المخابرات المركزية، وليس بصحبة رجال شرطة عاديين.

غمغم الوسيم:

- إنه لا يعلم أننا من المخابرات المركزية.

ران عليهما الصمت بضع لحظات، ثم سأله الدكتور (هايدن) في اهتمام:

- قل لي يا رجل: لماذا يبدو لي وكأن قصتك تنقصها بعض التفاصيل؟

التفت إليه الوسيم في بطء، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة، وهو يقول:

- كان ينبغي أن أدرك أنك أذكى من أن أتجاوز معك أية نقطة.. أنت على حق.. القصة ينقصها تفصيل واحد، ولكنه بالغ الأهمية، وخاصة بعدما قاله (ماهر) في جلسة التنويم المغناطيسي.

سأله الدكتور (هايدن) في شغف:

- وما هذا التفصيل المهم؟

عاد الوسيم يتطلع عبر النافذة، ولاذ بالصمت بضع لحظات أخرى، قبل أن يجيب:

- بعد الحادث الإرهابي، الذي تعرض له مركز التجارة العالمي، تم تزويده بدوائر أمنية خاصة، بالغة الدقة والتعقيد، تتحكم فيها ثلاثة نظم مختلفة من الطاقة، على نحو يضمن عدم توقفها عن العمل قط، حتى ولو انقطع التيار الكهربي عن (نيويورك) كلها.

وصمت لحظة، وكأنما يجد صعوبة في الاستطراد، ثم لم يلبث أن حسم أمره، أضاف في لهجة عصبية:

- وعلى الرغم من هذا، فقد توقفت كل هذه الأجهزة والدوائر عن العمل لثانيتين كاملتين، قبيل العثور على (ماهر) بدقائق معدودة.

وأدار عينيه في بطء، حتى واجهتا عيني الدكتور (هايدن) مباشرة، وهو يستطرد:

- وفي رأينا أن لظهوره ارتباط مباشر بهذه الظاهرة، التي لم يجد لها خبراؤنا أي تفسير آخر، والتي تثير قلق رجال الأمن بشدة.

قالها، واتجه نحو مكتب (هايدن)، دون أن يرفع عينيه عنه، وانحنى ليرتكز على سطح المكتب براحتيه، ويميل نحو العالم، قائلًا:

- وهذا يعني أن التوصل إلى حل اللغز لا يحمل أهمية علمية فحسب.. بل وأهمية أمنية أيضًا.. هل فهمت؟!..

تطلع (هايدن) إلى عينيه لحظات، وأجاب في حزم:

- بالتأكيد.

ثم تراجع بمقعده، مستطردًا في حنق واضح:

- كان ينبغي أن أدرك أن المخابرات المركزية الأمريكية لن تبذل كل هذا الجهد، أو تبدي كل هذا الاهتمام، من أجل العلم وحده.

هتف الوسيم في حدة:

- حاول أن تفهم يا رجل.

وانتزع يديه من المكتب بحركة حادة، ولوح بهما في عصبية، مستطردًا:

- إننا أمام حالة فريدة من نوعها.. حالة يدعى صاحبها أنه انتقل عبر الزمان والمكان بوسيلة مجهولة، كل ما نعرفه عنها هو أنها قادرة على إفساد كل الدوائر الكهربية، أو عكس أقطابها لفترة محدودة.. هل تدرك ما الذي يمكن أن يعنيه هذا، لو أننا نجحنا في تحديد هذه الوسيلة، وفهم قوانينها وقواعدها؟!.. إننا سنمتلك عندئذ أقوى سلاح في الكون كله.. سلاح يمنح مقاتلينا القدرة على الظهور في أي مكان بغتة، ودون سابق إنذار.. هل تتصور هذا؟!

حاول أن تتخيل معي عدوًا يهددنا بسلاح قوي، مثل الصواريخ ذات الرؤوس النووية مثلًا، ثم يجد رجالنا حوله بغتة، على الرغم من كل ما اتخذه من إجراءات أمن وحماية.. ستكون مفاجأة مذهلة.. بل حاول أن تتخيل لو أرسلنا قنبلة إلى فراشه مباشرة مثلًا، أو حتى رأسًا نوويًا.. إنه سلاح بلا حدود يا رجل.. سلاح يضمن لنا التفوق الدائم.

هتف (هايدن) في حدة:

- وهل تفتقر إلى هذا التفوق؟!.. لقد صرنا بالفعل أقوى دولة في العالم كله، وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

أشار الوسيم بيده، قائلًا:

- وماذا عن (الصين)؟!.. أليست دولة شيوعية متقدمة أيضًا؟! ألا تمتلك صواريخًا ذات رؤوس نووية؟!.. من أدرانا أنها لن تسعى لغزونا في المستقبل؟!.. هه.. من أدرانا؟!

زفر الدكتور (هايدن) في أسى، وأشاح بوجهه، قائلًا:

- لا فائدة من مناقشة مثل هذه الأمور مع أمثالك.

قال الوسيم في غضب:

- ماذا تعني بكلمة (أمثالك) هذه؟.. هل تتصور أن..

قبل أن يتم عبارته، اقتحم (سميثي) المكان في عنف، ولوح بذراعه في انفعال، وهو يهتف بصوته الأجش:

- الرجل.. ذلك الذي ظهر على السطح.. إنه يبدو وكأنه.. وكأنه..

هتف به الوسيم والعالم في آن واحد:

- وكأنه ماذا؟!

ازدرد لعابه في صعوبة، قبل أن يجيب بصوت شارف الاختناق من فرط الانفعال:

- وكأنه يحترق..

☆ ☆ ☆

على الرغم من كل ما شاهده الدكتور (هايدن) من العجائب، منذ بدأ عمله في وكالة أبحاث الفضاء الأمريكية، إلا أن حاجباه ارتفعا في دهشة بلا حدود، وهو يحدق في (ماهر)، الذي رقد على فراشه متصلبًا، وكأنما أصابته نوبة من داء الصرع، ومئات

الشرارات الصغيرة تتقافز على جسده، من شتى النقاط إلى نقاط أخرى، حتى أن جسده كله تألق بضوء أزرق باهت.

وفي ذهول، هتف الوسيم:

- ما هذا بالضبط؟!.. ماذا يحدث له؟!

هز الدكتور (هايدن) رأسه بدهشة بالغة، وهو يغمغم:

- لست أدري.. أنا لم أشاهد ظاهرة كهذه في حياتي كلها.. ربما.. ربما يحدث هذا بسبب تعارض أقطابه المغنطيسية مع أقطاب الأرض.

ثم استدرك بسرعة، بلهجة أقرب إلى الهلع:

- وهذا مجرد رأي أولي.. لا يستند إلى قواعد علمية.

حدق الوسيم في (ماهر) مرة أخرى، ثم قال مرتبكًا:

- المهم هو ما الذي يمكن أن تؤدي إليه.

هز (هايدن) رأسه نفيًا، وتنهد، قبل أن يجيب:

- لست أدري يا رجل.. ربما كانت ظاهرة وقتية، وربما..

قبل أن يتم عبارته، دوت فرقعة مكتومة في الحجرة، على نحو جعلهم يتراجعون جميعًا في حركة غريزية.

ثم تلاشت الشرارات كلها دفعة واحدة..

وعندئذ..

عندئذ فقط، استرخى جسد (ماهر)، وراح يسعل في قوة، والعرق يسيل في كل جسده في غزارة، وأنفاسه تتلاحق في سرعة مخيفة..

ولثوان، وقف الجميع يتطلعون إليه في ذهول، ثم اندفع الدكتور (هايدن) نحوه، هاتفًا:

- يا للمسكين!.. من الواضح أنه تعذب كثيرًا.

مط الضخم شفتيه، وغمغم:

- ولكنه لم يمت للأسف.

صاح به الوسيم في غضب شديد:

- كفى يا (سميثي).

فتح (ماهر) عينيه في صعوبة، وأدارها نحو الدكتور (هايدن)، وهمس في تهالك وخفوت شديدين:

- ماذا يحدث لي؟!

تنهد (هايدن)، وتمتم:

- ليتني أعلم يا فتى.. ليتني أعلم..

اندفع الضخم يسأل في لهفة:

- كيف كنت تشعر؟!.. هه.. كيف؟!

أغلق (ماهر) عينيه، وتمتم في تهالك:

- آلام رهيبة.. عنيفة.. عذاب لكل ذرة في كياني.

تمتم الدكتور (هايدن):

- يا للمسكين!

أما الوسيم، فقد اعتدل في وقفته، وشد قامته، والتقي حاجباه، وهو يتطلع إلى (ماهر) في توتر ملحوظ، ثم جذب الدكتور (هايدن) إليه، في شيء من الخشونة، وسأله:

- هل سيتكرر هذا؟!

بدا الضيق على وجه (هايدن)، وهو يجذب ساعده من يده، قائلًا:

- ومن أدراني؟!

قال الوسيم في عصبية:

- كيف سنحل هذا اللغز إذن، مادام كل واحد هنا لا يحمل سوى ذلك الجواب السخيف.. من أدراني.. لست أدري.. لا أحد يفهم.. فمن يجيب عن أسئلتنا إذن؟!

أجابه (هايدن) في حدة:

- إننا نبذل قصارى جهدنا.. افعلوا أنتم شيئًا.

أشار الوسيم إلى صدره، هاتفًا:

- وهل تتصور أننا نقف ساكنين، في انتظار نتائجكم؟!.. لقد بذلنا جهدًا خرافيًا بالفعل، خلال اليومين السابقين يا رجل.. لقد راجعنا ملامح ذلك الشاب، مع كل المحتالين في (أمريكا) و(مصر).. وفحصنا كل شبر من مركز التجارة العالمي، وكل دائرة من دوائره الأمنية، بل كل جهاز، وكل ذرة سليكون فيها، ومشط خبراؤنا سطح المبنى، وفحصوه بالأشعة، دون الحمراء، وتحت البنفسجية، واختبروه بأجهزة تكنولوجية بالغة الدقة والحداثة، حتى إنهم أحصوا عدد النمل المصاب بالتهاب المفاصل عليه.

سأله الدكتور (هايدن) في اهتمام:

- وهل توصلوا إلى شيء؟!

عض الوسيم شفته السفلى في مرارة، وهو يجيب:

- مطلقًا.

ثم ضرب الجدار بقبضته، مستطردًا في غضب:

- لم يتوصلوا إلى أية نتائج للأسف.

فتح (ماهر) عينيه في صعوبة، وغمغم:

- هل فكرتم في سؤال عائلتي في القاهرة؟!

أجابه الوسيم على الفور:

- بالطبع.. رجال سفارتنا هناك يجرون اتصالًا معهم في الوقت الحالي، وسيصلني تقرير منهم في أية لحظة، و..

قاطعه أزيز متقطع من جيب سترته، فأسرع يلتقط هاتفه المحمول وهو يقول في لهفة:

- أعتقد أن هذا هو التقرير المنتظر.

ووضع الهاتف الصغير على أذنه، قائلًا:

- هل توصلتم إلى شيء؟!

واتسعت عيناه في دهشة كبيرة، وهو يهتف:

- أأنتم واثقون من هذا؟

بدا القلق على وجه (ماهر) المتهالك، في حين تطلع الضخم والعالم إلى الوسيم في اهتمام، وهو يستمع إلى محدثه في صمت، قبل أن يقول في حزم صارم:

- نعم.. أحضروه إلى هنا بأسرع وسيلة ممكنة.

ثم أنهى المحادثة، وأعاد الهاتف إلى جيب سترته، وهو يتطلع بنظرة صارمة إلى (ماهر)، قائلًا:

- معلومات مدهشة من (القاهرة).

سأله العالم في لهفة:

- هل عرفوا شيئًا عن (ماهر)؟

أومأ الوسيم برأسه إيجابًا، وهو يقول:

- بالطبع.. إنهم يعلمون عنه كل التفاصيل الآن.

غمغم (ماهر) في تهالك:

- كل التفاصيل؟!.. ومن منحهم كل التفاصيل؟

انعقد حاجبا الوسيم في شدة، وهو يجيب:

- منحها إياهم (ماهر المصري) نفسه.

وعلى الرغم من إرهاقه وتهالكه الشديدين، اعتدل (ماهر)، هاتفًا:

- من؟!

أجابه الوسيم بكل الغضب الهادر في أعماقه:

- لقد سمعتني يا هذا.. (ماهر المصري) مازال يقيم في منزله في حي يسمى (شبرا).. والسؤال الآن هو لماذا انتحلت شخصيته؟ ومن أنت بالضبط؟!

وجحظت عينا (ماهر) من فرط الذهول، وعقله يردد السؤال في ارتياع..

لو أن (ماهر المصري) مازال في (القاهرة)، فمن يكون هو؟!

من؟!

من؟!

☆ ☆ ☆

4- المجهول..

«مستحيل!!..»

همس (ماهر) بالكلمة لنفسه، وهو يجلس وحيدًا منكمشًا في ركن حجرته الصغيرة، التي سجنوه داخلها، ووضعوا على بابها جنديًا، ليمنعه من مغادرتها..

وكان عقله يكاد ينفجر من فرط الدهشة والغضب، وعدم التصديق..

مستحيل ألا يكون هو (ماهر المصري)!

مستحيل!

مستحيل!

صوته..

طبيعته..

أحلامه..

ذكرياته..

هو (ماهر المصري)..

هو..

لماذا إذن يصرون على العكس؟!

لماذا يحاولون إقناعه بأنه ليس هو؟!

لماذا؟!

كيف يمكنهم أن يشكوا في أمره؟!

كيف يمكن أن يقولوا: إنه ليس (ماهر)، الذي تخرج في كلية العلوم؟!..

الذي يحب (ياسمين)..

ويحلم معها بعش هادئ سعيد..

إنها مؤامرة..

نعم.. مؤامرة لتجريده من هويته، وبث الشك في عقله، لتحطيم ثقته بنفسه..

لنسف كيانه..

لسحق وجدانه..

ولكن لماذا؟!

كل ما يحدث يؤكد أنهم يبذلون قصارى جهدهم لحل ذلك اللغز العجيب..

يقاتلون لكشف ذلك الغموض..

وذلك الوسيم يؤكد له أن (ماهر المصري) مازال هناك في (القاهرة)، وأنهم سيحضرونه إلى الولايات المتحدة الأمريكية خلال ساعات محدودة..

اثنتي عشرة ساعة بالتحديد..

كيف يمكن أن يقولوا هذا، مالم تكن لديهم ثقة تامة فيما يقولون؟!

"مستحيل!.. مستحيل!.. مستحيل!.."..

ردد الكلمة في عصبية شديدة، وهو يضم ركبتيه إلى صدره، ويدفن وجهه بينهما في عنف.

لقد أخبره الوسيم أنهم تحققوا من شخصية ذلك الشخص في (القاهرة)، وتأكدوا بكل ما يحمله من أوراق رسمية، من أنه (ماهر المصري) لا ريب...

فمن يكون هو إذن؟!..

لا..

ينبغي أن يستسلم لما يفعلونه به..

لا ينبغي أن يراوده الشك لحظة واحدة في أنه (ماهر المصري)، ولا أحد سواه..

وهذا يعني أيضًا وجود مؤامرة..

شخص ما انتحل شخصيته في القاهرة، لسبب مجهول..

وهذا الشخص هو المسؤول عن إرساله إلى هنا..

نعم.. هذا هو التفسير الوحيد..

ولكن لماذا انتحل ذلك الشخص هويته؟..

وكيف أرسله إلى هنا؟!..

كيف؟!..

كيف؟!..

ومرة أخرى دفن وجهه بين ركبتيه، وراح يردد كلمة «مستحيل» بصوت أقرب إلى الصراخ والعويل..

صوت يوحي بأن صاحبه قد بلغ الحافة..

حافة الجنون..

☆ ☆ ☆

زفر الدكتور (هايدن) في توتر شديد، وهو يشير بسبابته إلى الوسيم، قائلًا في حدة:

- لست أفهم موقفك يا رجل المخابرات.. لا يمكنني فهمه أبدًا.. فليكن هذا الشاب هو (ماهر المصري)، أو (جيمس دالاس)، أو (فرناندو بترو)، أو حتى (سنج سانج).. أي فارق يصنعه هذا؟!.. إننا مازلنا أمام لغز علمي شديد الغموض.. لغز ظهوره المباغت على سطح أعلى مبنى في العالم كله، والمفترض أن تتركز جهودنا كلها على محاولة حل اللغز، وليس على السعي لكشف حقيقة شخصية الرجل.

انعقد حاجبا الوسيم في صرامة، وهو يقول:

- خطأ يا دكتور (هايدن). هناك فارق رهيب، بين كون هذا الرجل صادقًا أم محتالًا.. فارق لا يمكنكم إدراكه أيها العلماء.. فلو أن هذا الشخص ينتحل شخصية تخالف حقيقته، فسيضعنا هذا أمام احتمال مخيف، لابد لنا من مواجهته على نحو مباشر.

سأله (هايدن) في عصبية:

- أي احتمال هذا؟

أجابه في صرامة:

- احتمال أن يكون جاسوسًا لدولة أخرى.

قفزت الدهشة من كل خلية من خلايا الدكتور (هايدن)، وهو يهتف:

- جاسوس؟!

لوح الوسيم بيده، قائلًا:

- نعم.. جاسوس لدولة سبقتنا في السلم التكنولوجي، وتوصلت قبلنا إلى اختراع قادر على اختراق الزمان والمكان.

تراجع (هايدن) في مقعده، متمتمًا:

- أي تفكير هذا؟!

تابع الوسيم، وكأنه لم يسمع التعليق:

- من أدرانا أن وجود هذا الشاب هنا ليس نتاج التجارب الأولية لذلك الاختراع؟!.. من أدرانا أن المحاولة التالية لن تكون لاحتلال البيت الأبيض، أو البنتاجون، أو لنسف قواعد صواريخنا النووية مثلًا؟!.. كيف يمكن أن يغمض لنا جفن، وهناك احتمال ألا نستيقظ من نومنا ثانية أبدًا؟! ألا يمكنكم التفكير في كل هذه الاحتمالات أيها العلماء؟!

تطلع إليه الدكتور (هايدن) لحظة في دهشة، ثم اعتدل في جلسته، قائلًا في حدة واضحة:

- وهل نسيت أيها العبقري أن ذلك الشاب قد خضع لعدد مخيف من الاختبارات، وعلى رأسها التنويم المغناطيسي، وأنه في كل الأحوال لم يكن يكذب أو يخادع، في كل ما قاله؟!

مط الوسيم شفتيه، وقال:

- هذا يشير إلى أنه يؤمن بما قاله فحسب، ولا يعني أنه صادق فيه.

سأله (هايدن) في عصبية:

- وما الفارق؟!

أجابه في حزم:

- ربما يؤمن بما قاله، لأن هذا ما زرعوه في أعماقه.. وما جعلوه يؤمن به.. إنها وسيلة قديمة، استخدمت بنجاح في الحرب العالمية الثانية، وفي أثناء الحرب الباردة، بيننا وبين السوفييت، وسيلة تعد تطويرًا رائعًا لأساليب غسيل المخ التقليدية، مع الاستعانة ببعض الأجهزة الحديثة.

غمغم (هايدن):

- يا له من تفكير شيطاني؟!..

حمل صوت الوسيم شراسة عجيبة، لا تتناسب أبدًا مع مظهره الأنيق، وهو يقول:

- لابد أن تفكر كالشياطين، عندما تواجه الشياطين يا رجل.

ثم أشار إلى الضخم، الذي ظل صامتًا طوال الوقت، واستطرد وهو يتجه معه إلى الباب:

- وتذكر أنك كنت ستفعل مثلنا، لو أن هذا يخدم مسار العلم.

وغادر مع زميله الحجرة، وصفقا بابها خلفهما في قوة، فتشبث الدكتور (هايدن) بمسندي مقعده، وانقبضت عضلاته كلها، وهو يستعيد عبارة الوسيم الأخيرة..

ترى هل كان سيفعل مثلهما بالفعل، لو أن هذا يخدم مسار العلم؟!..

كان يتمنى أن يأتيه الجواب سلبيًا؛ ليشعر بأنه مازال آدميًا، يقيم وزنًا للمبادئ والقيم..

ولكن عقله صدمه بالحقيقة بلا رحمة..

نعم.. الوسيم صادق فيما قاله..

لو أن سحق (ماهر) سيخدم مسيرة العلم، لما تردد لحظة واحدة في سحقه، وهو يقنع نفسه بأنه يفعل هذا من أجل خير البشرية..

لا فارق بينه وبينهما..

لا فارق..

دفن وجهه بين كفيه، ونهر من المرارة والإحساس بالخزي والعار يتدفق في أعماقه، و...

وفجأة، ودون سابق إنذار، كما يحدث مع الكثير من العلماء، قفزت إلى رأسه فكرة عجيبة..

فكرة انطلقت بغتة، من أعمق أعماق الباطن، لتضع تفسيرًا لذلك اللغز..

وبحركة حادة عنيفة، اعتدل في مجلسه، وجذب وجهه من بين كفيه، واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يهتف:

- رباه!.. أمن الممكن أن..

لم يتم تساؤله، وإنما التقى حاجباه بشدة، وعقله يجاهد لاستعادة نظرية علمية، قرأها في أحد المراجع، ثم لم يلبث أن نهض، واتجه إلى مكتبته، وراح يبحث فيها عن مرجع قديم، يعود تاريخه إلى أوائل السبعينات، ولم يكد يعثر عليه، حتى التقطه في لهفة، وقلب صفحاته، وهو يغمغم:

- كم سيدهشني أن أجد الجواب هنا!.. ستكون مصادفة عجيبة بالفعل!.. عالم مصري يضع نظرية تفسر لغز وجود مصري آخر، بعد أكثر من ربع القرن!!.. أهذا ممكن؟!

ثم توقف عند صفحة بعينها، وراح يلتهم كلماتها التهامًا، ودرجة حرارة عقله ترتفع وترتقع وترتفع..

ومع كل سطر يمضي، كان يزداد ثقة بأنه قد عثر أخيرًا على الحل..

حل ذلك اللغز..

لغز (ماهر المصري)..

☆ ☆ ☆

تصاعدت حدة التوتر في أعماق (ماهر) إلى الذروة، عندما وجد نفسه أمام الوسيم والضخم، في حجرة كبيرة، مع رجلين يرتديان معطفين أشبه بمعاطف الأطباء، فسأل في عصبية:

- ماذا ستفعلون بي بالضبط؟

رمقه الوسيم بنظرة صارمة، قبل أن يجيب في خشونة:

- لا تخش شيئًا يا هذا.. إنه مجرد اختيار بسيط.

هتف (ماهر) في حدة باللغة العربية:

- اختبار آخر؟! لن أخضع لأية اختبارات أخرى. كفاكم ما فعلتموه بي حتى الآن.. لم أعد أحتمل المزيد.. أرسلوني إلى السجن، أو أعيدوني إلى (القاهرة)، ولكنني لن أخضع لأية اختبارات أخرى.. لن أفعل.. لن أفعل.

تمتم أحد صاحبي المعاطف البيضاء في قلق:

- يلوح لي أنه يوشك على الإصابة بانهيار عصبي.. إنه يصرخ بالعربية، دون أن ينتبه إلى أننا لا نفهم حرفًا واحدًا مما يقول، وهذا يعني أن إدراكه قد تشوش، وأن الـ...

قاطعه الوسيم في صرامة:

- لا تقلق نفسك بهذا الأمر.

ثم التفت إلى (ماهر)، وقال بحزم شديد:

- اسمع يا هذا.. ثورتك لن تجدي شيئًا.. إنك ستخضع لهذا الاختبار، شئت أم أبيت، وكل ما أستطيع أن أعدك به هو أن يكون الاختبار الأخير بالنسبة لك.

كانت مشاعر (ماهر) كلها تلتهب بثورة عارمة، ولكنه قاوم كل هذا، وهو يسأل الوسيم:

- أي اختبار هذا؟

شد الوسيم قامته، وهو يجيب:

- مصل الحقيقة.

هتف (ماهر):

- ماذا؟!

أجابه الوسيم في سرعة:

- مصل الحقيقة.. (بنتوثال الصوديوم)، الذي استخدمه الألمان قديمًا، لانتزاع الاعترافات من الجواسيس.. إنه مادة تجعلك في حالة أشبه بالغيبوبة، ولكنك قادر على السمع والرؤية والتحدث، مما سيجعل من العسير عليك أن تكذب، ولن يمكنك إلا أن تجيب بكل صدق وعفوية.

بدا مزيج من التوتر والتردد والقلق على وجه (ماهر)، فسأله الضخم في خبث:

- هل يخيفك هذا؟

التفت إليه (ماهر)، وقال في عصبية:

- كلا.. لو أنه سيثبت لكم أني (ماهر المصري) الحقيقي.

قال الوسيم في صوت قاس:

- سنري.

ثم أشار إلى مقعد كبير في منتصف الحجرة، مستطردا:

- هيا.. دعنا نبدأ الاختبار..

بدأ أحد الرجلين الآخرين في إعداد المحقن والمادة، في حين جذب الآخر (ماهر) في رفق إلى المقعد، وهو يقول:

- اطمئن.. المصل لا يسبب أية أعراض جانبية حادة.. فقط ستفقد توازنك لبعض الوقت، ثم..

قاطعه (ماهر) بغتة، وهو يشير إلى هاتف قريب في لهفة:

- آه.. هناك هاتف.

انعقد حاجبا الوسيم، وهو يقول:

- ماذا تريد من الهاتف؟

أجابه (ماهر) بسرعة:

- أريد التحدث إلى (القاهرة).

ازداد انعقاد حاجبي الوسيم، وقال:

- إلى (القاهرة)؟! ولماذا؟!

أجاب (ماهر) في لهفة واضحة:

- لا ريب في أن خطيبتي (ياسمين) تشعر بقلق هائل الآن، فأنا متغيب منذ ثلاثة أيام.. أريد أن أتحدث إليها، وأخبرها أنني بخير هنا.

تبادل الوسيم نظرة صامتة مع الضخم، الذي عقد حاجبيه بدوره، وكأنما لا يروق له هذا، ولكن الوسيم حك ذقنه بسبابته وإبهامه بعض الوقت، ثم قال:

- فليكن.. أعتقد أن هذا يمكن أن يفيد.

ثم استدرك في حزم:

- ولكنني سأستمع إلى المحادثة.

لم يشعر (ماهر) بالارتياح لهذا، ولكنه غمغم:

- لا بأس، ولكن تذكر أننا سنتحدث أنا وخطيبتي بالعربية وليس بالإنجليزية.

تمتم الوسيم:

- أعلم هذا.

التقط (ماهر) سماعة الهاتف في لهفة، وطلب رقم خطيبته (ياسمين) في القاهرة، واستمع إلى رنين الهاتف على الطرف الآخر في عصبية، وخفق قلبه في عنف، عندما فتح الخط، وكاد يصرخ من الفرحة، عندما سمع صوت (ياسمين) الرقيق، وهي تقول:

- آلو.. من المتحدث؟!

هتف بكل سعادته ولهفته:

- إنه أنا يا (ياسمين).. أنا.

لم تبد في صوتها تلك اللهفة التي توقعها، وهي تقول:

- (ماهر)؟!.. من أين تتحدث؟!

أجابها في سرعة:

- من الولايات المتحدة الأمريكية.. لا تجعلي هذا يدهشك.. لقد وصلت إلى هنا بأسلوب عجيب، و...

قاطعته (ياسمين) في دهشة:

- وصلت إلى هناك؟! ولكن هذا مستحيل يا (ماهر)..

قال متوترًا:

- قلت لك: إنها.

ولكنه فوجئ بها تتابع بنفس الدهشة:

- لقد أوصلتك بنفسي إلى المطار منذ ساعة واحدة.

انعقد حاجبا الوسيم في شدة، في حين اتسعت عينا (ماهر) عن آخرهما، وهو يقول بصوت لا يكاد يخرج من حلقه المختنق:

- أوصلتِني بنفسِك.

أتاه صوتها، وهي تقول:

- مزحة طريفة ومكشوفة يا (ماهر).. أنا أعلم بالطبع أنك تتحدث من المطار.. قل لي.. هل تأخر إقلاع الطائرة؟!

ألجم الذهول لسانه، وخنق الكلمات والمشاعر في أعماقه، فاكتفى بالتحديق في الهاتف بنظرة بلهاء، وصوت (ياسمين) يتردد، قائلًا:

- ألو.. (ماهر).. هل تسمعني؟!.. ماذا حدث يا (ماهر)؟ ماذا حدث؟!

ضغط الوسيم زر الهاتف، وأنهى الاتصال، ثم التقط السماعة من يد (ماهر)، وأعادها إلى موضعها، وهو يتطلع إليه بنظرة حازمة، جعلت (ماهر) يغمغم:

- أعتقد أنه من الأفضل أن نبدأ الاختبار.

وفي خطوات بطيئة متثاقلة، اتجه نحو المقعد، وألقى نفسه فوقه، ومد يده إلى صاحب المعطف الأبيض، ليحقنه بمصل الحقيقة..

الحقيقة، التي صار أكثر الجميع رغبة في معرفتها..

الحقيقة، التي أصبحت بالنسبة إليه مجرد جواب لسؤال محدود..

تري من هو؟!

من؟!

☆ ☆ ☆

خفق قلب الدكتور (هايدن) في عنف، وهو يدلف بسيارته إلى ذلك الحي الأنيق، الذي يضم فيلات العلماء، الذين عملوا أو يعملون لحساب (ناسا)، وانحرف إلى اليسار، ليتجه نحو فيلا صغيرة، بدت مهملة إلى حد ما، مقارنة بالفيلات المحيطة بها، وتوقف أمام سورها الخشبي القصير، وغادر سيارته ليعبر حديقتها، التي ارتفعت حشائشها على نحو زائد، وهو يغمغم مبتسمًا:

- من الواضح أن العلم مازال يشغلك عن حياتك اليومية يا دكتور (عرفان).

وهز رأسه لحظة، قبل أن يدق جرس الباب..

ولبعض الوقت، خُيل إليه أن الفيلا خالية، لولا أن تناهى إلى مسامعه وقع أقدام تقترب من الباب، فتنحنح، وشد قامته، وعدل من هندامه، قبل أن ينفتح الباب، ويظهر على عتبته شيخ في أوائل السبعينات من عمره، يتمتع بصحة جيدة، على الرغم من شعره القليل، الذي وخطه الشيب عن آخره، ومنظاره الطبي السميك، الذي تطلع من خلفه إلى الدكتور (هايدن)، قائلًا:

- لو أنك بائع جائل، أو مندوب إحدى المجلات العلمية، فليس لدي أدني استعداد لـ..

قاطعه (هايدن)، وهو يقول بابتسامة كبيرة:

- ألا تذكرني يا دكتور (عرفان)؟!

تطلع إليه الشيخ بضع لحظات، من خلف منظاره الطبي، قبل أن يغمغم في حيرة:

- وهل المفترض أن أفعل؟

أجابه (هايدن)، دون أن تفارقه ابتسامته:

- أنا (هايدن).. الدكتور (إدوارد هايدن)،.. كنت تلميذك منذ ثلاثين عامًا، وعملت كمساعد لك، في أوائل السبعينات.

ردد الدكتور (عرفان):

- (هايدن).. آه.

لم يبد عليه أنه تذكر الرجل، إلا أنه، وعلى الرغم من هذا، تراجع قليلًا عن الباب؟ ليفسح له المجال للدخول، وهو يقول:

- تفضل يا دكتور (هايدن).. مرحبًا بك في منزلي.. تفضل.

دلف الدكتور (هايدن) إلى المكان، وانتظر حتى استقر بهما المقام في الردهة، ثم قال دون مقدمات:

- أنا هنا من أجل نظريتك القديمة يا دكتور (عرفان).

انعقد حاجبا الشيخ، وهو يغمغم:

- نظريتي القديمة؟!

أجابه بسرعة ولهفة:

- نعم.. تلك النظرية التي وضعتها في بداية السبعينات، والتي أثارت جدلًا علميًا واسعًا حولها، في ذلك الحين.

تألق بريق حيوي في عيني الشيخ، وهو يقول:

- آه.. تلك النظرية.. إنهم لم ينجحوا في استيعابها قط.. ربما أمكنهم هذا بعد عدة سنوات، إذا ما نجحوا في...

قاطعه (هايدن):

- أعتقد أن لدي دليلًا على صحة نظريتك.

لم يكد ينطق عبارته، حتى خُيل إليه أن ارتجافة عنيفة قد سرت في جسد الشيخ، الذي زاغت نظراته لحظة، قبل أن يدفع جسده إلى الأمام، هاتفًا:

- دليل؟!

أومأ الدكتور (هايدن) برأسه إيجابًا، ودفع إليه بمظروف كبير، يحوي كل شيء عن (ماهر)..

قصته من أولها..

نتائج فحوصاته واختباراته..

تقرير الطب النفسي..

جلسة التنويم المغنطيسي..

كل شيء..

وبأصابع مرتجفة بفعل العمر والانفعال، التقط الدكتور (عرفان) المظروف، وفضه في لهفة، وراح يطالع الأوراق.

وكان من الواضح أن الدكتور (هايدن) قد أصاب الهدف المنشود بكل دقة..

لقد اتسعت عينا الدكتور (عرفان)، وتألقتا ببريق يفيض بالحيوية والنشاط، حتى بدا وكأنما انخفض عمره عشرين عامًا على الأقل، وهو يمضي قدمًا في مطالعة الأوراق والنتائج، ثم لم يلبث أن اعتدل في النهاية، وخلع منظاره الطبي، وبدت عيناه مغرورقتين بالدموع، وهو يتمتم:

- أخيرًا.

هتف به (هايدن):

- أتعنى أن نظريتك تنطبق على تلك الحالة؟

أومأ الدكتور (عرفان) برأسه إيجابًا، قبل أن يتمتم في انفعال:

- تمامًا.. كل شيء ينطبق على هذه الحالة بمنتهى الدقة.

سأله (هايدن):

- حتى تلك الشرارات الكهربية التي..

قاطعه (عرفان)، وهو يلوح بيده، قائلًا:

- كل شيء.. كل شيء..

ثم مال أكثر إلى الأمام، حتى كاد يسقط من مقعده، وهو يستطرد في لهفة:

- أريد أن أرى ذلك الشاب.. أريد أفحصه، قبل فوات الأوان.

تراجع (هايدن) في دهشة، مرددًا:

- قبل فوات الأوان؟!

أومأ الدكتور (عرفان) برأسه إيجابًا، وقال:

- بالطبع.. التجربة التي خاضها عنيفة للغاية، حتى وإن لم يشعر بأدنى ألم عند مروره بها، وسينهار جسده رويدًا رويدًا، حتى يلقي مصرعه.

هتف (هايدن) في انزعاج:

- رباه!.. ألا يمكن تفادي حدوث هذا؟!

رفع الدكتور (عرفان) سبابته أمام وجهه، وهو يقول:

- هناك وسيلة واحدة.

سأله (هايدن) في لهفة:

- ما هي؟!

أعاد الدكتور (عرفان) منظاره إلى أنفه، وأشار بسبابته إلى الأمام، مجيئًا في حزم:

- أن نعيده من حيث أتى.

وحان دور الدكتور (هايدن) لينتفض في عنف..

فلقد بدا له أن الحل الوحيد للمشكلة هو المستحيل!

المستحيل بعينه!

☆ ☆ ☆

5- هروب..

هز (سميثي) الضخم رأسه في شيء من الحيرة، وهو يسأل الوسيم بصوت خشن غليظ:

- ما رأيك في هذا الأمر؟!.. هل تعتقد حقًا أن ذلك الشاب ينتحل شخصية أخرى؟!

أجابه الوسيم في صرامة، وهو يرفع قدميه فوق سطح مكتب صغير، في الحجرة التي يحتلانها:

- ليس من حقنا أن نعتقد ونتصور يا (سميثي).. في عملنا هذا لا يحق لنا الاعتماد إلا على الأمور الواضحة، ذات الدلالات المادية القوية، التي لا تقبل الشك.

قلب (سميثي) كفيه في حيرة، وهو يغمغم:

- وما الأدلة التي لا تقبل الشك في هذه القضية؟!.. إن كل شيء يبدو بالنسبة لي مشوشًا مضطربًا، وبالغ العجب والغرابة.

أشار الوسيم بيده، قائلًا:

- مازالت هناك أمور يمكن التيقن منها.

سأله (سميثي) في اهتمام:

- مثل ماذا؟!

لوح الوسيم بكفه، وأسبل جفنيه في إرهاق، قائلًا:

- لقد طلبت من رجالنا في (القاهرة) إرسال صورة (ماهر) بوساطة (الفاكس)، مع نسخة من بصماته.

سأله الضخم:

- وهل تعتقد أن هذا سيحسم شيئًا؟!

هز الوسيم كتفيه، دون أن يجيب، وأغلق عينيه تمامًا، على نحو يوحي بالنوم، وران على الحجرة، صمت ثقيل، استغرق ثوان معدودة، قبل أن يرتفع رنين الهاتف المتصل بجهاز (الفاكس)، فاعتدل الوسيم في حركة حادة، وكاد يختطف الورقة التي برزت من الجهاز، في شدة لهفته، ومال الضخم برأسه ليلقي نظرة عليها، ثم هتف في دهشة:

- عجبًا؟.. إنه صورة طبق الأصل من ذلك الذي نحتجزه.

انعقد حاجبا الوسيم في شدة، على نحو يشف عن عدم ارتياحه لهذه النتيجة، وغمغم في شيء من العصبية:

- هذا أمر طبيعي.. لن ينتحل شخصيته آخر، دون أن يشبهه تمامًا في ملامحه.. جراحات التجميل جعلت هذا أمرًا ممكنًا.

ثم التقط نسخة البصمات، وتطلع إليها لحظات في صمت، قبل أن يضغط أحد أزرار الهاتف، ويقول في لهجة آمرة:

- أرسلوا شخصًا لأخذ نسخة بصمات أريد مقارنتها ببصمات ذلك المصري على الفور.

سأله الضخم، وهو مازال يتطلع إلى الصورة المرسلة بالفاكس في دهشة:

- ما الذي تتوقعه من مقارنة البصمات؟

مط الوسيم شفتيه، وتنهد في عمق، قبل أن يغمغم:

- من يدري؟!.. ربما تحمل لنا تلك المقارنة جديدًا.

قالها دون أن يدرك أنه نطق نبوءة جديدة..

فمقارنة البصمات ستحمل له حتمًا أمرًا جديدًا..

ومدهشًا..

مدهشًا للغاية..

☆ ☆ ☆

اعتدل الجندي الواقف عند باب حجرة (ماهر) في احترام، عندما اقترب منه الدكتور (هايدن) والدكتور (عرفان)، وأشار إليه الأول، وهو يقول في لهجة حازمة آمرة:

- أحضر الشاب، سنجري عليه اختبارًا آخر.

ارتفع حاجبا الجندي في دهشة، وهو يختلس نظرة إلى ساعة الحائط، التي تشير عقاربها إلى قرب منتصف الليل، وقال في تردد:

- معذرة يا دكتور (هايدن)، ولكن أوامر الـ...

قاطعه (هايدن) في صرامة:

- لحساب من تعمل يا رجل.

ارتبك الجندي، وهو يجيب:

- لحساب (ناسا) يا سيدي.

أزاحه (هايدن) جانبًا، وهو يقول بلهجة صارمة غاضبة:

- لا تطع إلا أوامر رجال (ناسا) إذن.

بدا القول منطقيًا للغاية، بالنسبة للجندي، فشد قامته، وأدى التحية العسكرية بحركة آلية، قائلًا:

- كما تأمر يا سيدي.

دلف الدكتور (هايدن) إلى حجرة (ماهر)، وخلفه الدكتور (عرفان)، الذي يدفع قدميه دفعًا، ويبذل قصارى جهده لمقاومة لهفته وفضوله، اللذين عجزا عن الاختفاء في أعماقه، عندما أصبح داخل الحجرة، فهتف مشيرًا إلى (ماهر):

- أهذا هو؟!

اعتدل (ماهر) على فراشه بحركة حادة، وتراجع هاتفًا في هلع:

- ماذا هناك؟!.. ماذا تريدون مني هذه المرة؟!

ربت الدكتور (هايدن) على كتفه في رفق، وهو يقول:

- اطمئن يا فتى.. نحن هنا لمساعدتك.

ردد (ماهر) في شك:

- مساعدتي؟!

مال (عرفان) نحوه، وتطلع إلى وجهه بشغف شديد، قبل أن يهمس:

- سنعيدك من حيث أتيت.

اتسعت عينا (ماهر) عن آخرهما، وكاد فكه السفلي يسقط من فرط الدهشة، وهو يهتف:

- ماذا؟!

ربت (هايدن) على كتفه ثانية، وهمس في أذنه:

- ثق بنا يا فتى، ولا تأت بأية انفعالات يمكن أن تثير شكوك الحارس.. هيا.. اتبعنا.. إننا نسعى حقًا لمعاونتك على الخروج من هذا الموقف.

كانت الدهشة تغمر (ماهر)، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، إلا أن شيئًا ما في أعماقه جعله ينهض، ويتبعهما في صمت، عبر ممرات المبنى المتشابكة، حتى وصل ثلاثتهم إلى سيارة كبيرة، تنتظر في موقف السيارات، دفعه الدكتور (هايدن) داخلها، وهو يقول في انفعال:

- أسرع بالله عليك.. ليس لدينا الكثير من الوقت.

وما أن أصبح الثلاثة داخل السيارة، حتى انطلق بها الدكتور (هايدن) بسرعة، وهتف (ماهر) في توتر عنيف:

- ماذا يحدث؟!.. ماذا ستفعلون بي؟

ابتسم (عرفان)، وهو يقول له بالعربية:

- اطمئن يا ولدي.. إننا نحاول مساعدتك فحسب.

هتف (ماهر):

- أأنت (مصري)؟!

أومأ (عرفان) برأسه إيجابًا، وربت على كتفه، قائلًا:

- وأسعى لإخراجك من هذا الموقف.

حدق (ماهر) في وجهه لحظة، ثم أدار عينيه بين وجهيهما، وقال في حيرة مذعورة:

- ماذا يحدث بالضبط؟!.. كيف يمكنكما مساعدتي على الخروج من هذا؟!.. وماذا تقصد ان بقولكما بأنكما ستعيداني من حيث أتيت؟!.. هل سأعود إلى ذلك المركز في (نيويورك)؟!

أجابه الدكتور (هايدن)، وهو ينطلق نحو مطار خاص صغير، بالقرب من (ناسا):

- لا.. لن نعود إلى هناك.. لقد أجرى الدكتور (عرفان) حساباته، وحدد النقطة المطلوبة، وسيحتاج الوصول إليها إلى ساعة وعشر دقائق من الطيران، وكل ما نسعى إليه هو أن نبلغها في الوقت المناسب، وإلا فستضيع فرصة عودتك إلى الأبد.

اتسعت عينا (ماهر) في ارتياع، وهو يردد:

- ماذا يعني هذا؟!.. ما الذي يعنيه بالله عليكما؟!

اندفع (هايدن) بالسيارة داخل المطار الخاص، وتوقف إلى جوار طائرة صغيرة، وهو يقول في انفعال:

- سنشرح لك كل شيء بالطبع، ولكن أسرع الآن بالله عليك، فليس أمامنا الكثير من الوقت.

غادر (ماهر) السيارة معهما في توتر، واستقلوا الطائرة الخاصة التي بدا وكأنها كانت متأهبة للإقلاع فور وصولهما، إذ لم تمض دقائق خمس، حتى كانت تحلق في الهواء، في طريقها إلى وجهة يجهلها وحده، ولقد تضاعف توتره، عندما سمع الدكتور (عرفان) يسأل:

- هل تعتقد أنهم لن يكشفوا الأمر، قبل وصولنا إلى الهدف؟

أجابه (هايدن) في توتر ملحوظ:

- لقد استأجرت سيارة أخرى، وسيحتاج الأمر منهم إلى بعض الوقت لكشف ما فعلناه، وفي خلال هذا نكون قد بلغنا الهدف.

هتف (ماهر) في حدة:

- ألم يحن الوقت بعد، لأعلم ما تفعلانه بي، وإلى أين تحملاني بالضبط؟!

تبادل العالمان نظرة صامتة، ثم ربت الدكتور (عرفان) على ركبته، قائلًا:

- بالطبع يا ولدي.. بالطبع.. لقد عانيت الكثير، ومن حقك الآن أن تجد تفسيرًا لكل ما حدث.

ازدرد (ماهر) لعابه في صعوبة، وهو يسأل بصوت أجش مبحوح، من فرط اللهفة والانفعال:

- هل.. هل تعني أن لديك تفسيرًا لوجودي هنا؟!

أومأ (عرفان) برأسه إيجابًا، وقال:

- بالطبع.

تشبث (ماهر) بسترته، وهو يهتف:

- أخبرني ما لديك بالله عليك.

تنهد الدكتور (عرفان) وربت على كتفه، وهو يقول:

- سأخبرك بكل شيء يا ولدي، ولكن اهدأ، فقبل أن أخبرك كيف حدث ما حدث لك، ينبغي أن أقص عليك أولًا بعض الأمور.

سأله (ماهر) في توتر:

- أية أمور؟!

اعتدل الدكتور (عرفان) في مقعده، وأزاح يد (ماهر) عن سترته، قبل أن يقول في هدوء:

- منذ فترات طويلة، وعبر عشرات السنين، يواجه العلم عددًا من الألغاز الغامضة، التي تثير حيرته وارتباكه، ويعجز معها عن إيجاد تفسيرات منطقية، تروي لهفته، أو تشيع فضوله.. ومن هذه الألغاز، وعلى رأسها بالنسبة لما نحن بصدده، حالات الاختفاء والظهور الغامضة، فبعد ظهر يوم الثالث والعشرين من سبتمبر عام ألف وثمانمائة وثمانين مثلًا، في مدينة (جالاتين)

بولاية (تنيسي) الأمريكية، كان القاضي (أوجست بيك) في طريقه إلى مزرعة صديقه (دافيد لانج)، لقضاء أمسية دافئة معه، كعادته في العديد من الأمسيات، وعندما اقترب من المزرعة، رأي زوجة (لانج) وطفليه (جورج) و(سارة)، مع رفيقة لهما في شرفة المكان، يتطلعان إلى (لانج)، الذي بدا له واضحًا، وهو يعبر الحقول، في طريقه إلى المنزل ولقد لمحه (لانج)، فلوح له بيده، وتقدمه خطوتين، و...

صمت لحظة عند هذه النقطة، وتطلع إلى عينى (ماهر)، قبل أن يضيف:

- واختفى.

ارتجف جسد (ماهر) على نحو واضح، وهو يحدق في وجه (عرفان)، الذي تابع في اهتمام:

- حدث هذا أمام أعين الجميع، وعلى نحو جعلهم يتصورون أن (لانج) قد سقط في حفرة ما وسط الحقول، فأطلقت زوجته صرخة فزع، وانطلق الجميع نحو البقعة التي اختفى فيها، ولكنها كانت خالية تمامًا من أي أثر، ولم يجدوا بها أية فجوات، ولقد أطلقوا جرس الإنذار، بعد ساعتين كاملتين أعياهم خلالهما البحث عنه، فخرج القرويون في منازلهم، وشاركوا في عملية البحث عن (دافيد لانج) لخمس ساعات أخرى، فتشوا خلالها كل شبر في المزرعة دون جدوى.. ولم يقتصر الأمر على هذا، بل لقد اجتمع عشرات الرجال في الأيام التالية، وحفروا الأرض، بحثًا عن كهوف أو حفر خفية، ولكن (دافيد لانج) كان قد اختفى تمامًا، ولم يعثر له أحد على أدني أثر للأبد.

فغمغم (ماهر) مبهورًا:

- رباه!.. أين ذهب إذن؟!

تجاهل الدكتور (عرفان) السؤال، وهو يواصل:

- حدث هذا أيضًا في (الإسكندرية)، في السبعينات، عندما كانت سيدة تسير إلى جوار زوجها، ثم اختفت فجأة، فتصور الزوج المذعور أنها سقطت في حفرة قريبة، واهتمت السلطات بالأمر، وتم تفتيش الحفرة، وكل شبكات المجاري والصرف في المدينة، وحتى الأنفاق القديمة، التي تخلفت عن (الإسكندرية) البطلمية، دون جدوى، ودون أن يتم العثور على أدنى أثر لها.

تمتم (ماهر):

- هل تشير إلى علاقة هذا بـ..

قاطعه الدكتور (عرفان)، وهو يستطرد:

- وهذه ليست حوادث الاختفاء الغامضة الوحيدة، فهناك حادث اختفاء لثلاث فرق صينية كاملة، أثناء الحرب العالمية الثانية، دون أن تترك خلفها أدنى أثر، وحوادث اختفاء طائرات وسيارات، وبشر، لم تنته التحقيقات المكثفة حولها إلا إلى مزيد من الغموض والحيرة.

تصاعد قلق (ماهر) أكثر وأكثر، وتراجع في مقعده، وهو يتطلع إلى الدكتور (عرفان) في صمت، في حين التقط الشيخ أنفاسه، وخلع منظاره الطبي، ومسحه بمنديله، ثم عاد يرتديه، قائلًا:

- والأمر لا يقتصر في هذه الحوادث الغامضة على الاختفاء، وإنما يمتد، كما في حالتك، إلى حوادث ظهور مفاجئ غير مفسر، ولعل أشهرها حادثة وقعت ذات يوم مشرق، من أيام أكتوبر، عام ألف وخمسمائة وثلاثة وتسعين، فوسط زحام السوق في

مدينة (مكسيكو سيتى)، كان المارة يختلطون بالجنود، أصحاب الزي المميز، ثم لاحظ الجميع وجود جندي حائر مرتبك، يرتدي زيًا لا يشبه أزياء الجنود التقليدية كما أنه يحمل سلاحًا يختلف تمامًا عن أسلحتهم، وعندما اتجه إليه الجنود، وحاصروه بأسلحتهم، أجابهم في اضطراب أنه خرج في الصباح لتنفيذ أمر بحراسة قصر الحاكم في (مانيلا)، حيث يعمل، ثم أخبرهم أنه حائر بشدة، وأنه واثق من أن هذا ليس قصر الحاكم، وأنه ليس في (مانيلا). ولكنه سيؤدي واجبه بقدر استطاعته، خاصة وأن الحاكم قد قتل ليلة أمس.. ولقد كانت صدمة عنيفة لذلك الجندي بالتأكيد، عندما علم أنه على بعد آلاف الكيلو مترات من (مانيلا)، ورفض تصديق هذا تمامًا، كما رفض الآخرون تصديق قصته، والاقتناع بأنه قطع المسافة من (مانيلا) إلى (مكسيكو سيتي) في ليلة وضحاها، وتم إلقاؤه من السجن، باعتباره جاسوسًا..

شحب وجه (ماهر)، عند هذا الجزء، وتمتم:

- رباه!.. هذه القصة تشبه ما حدث لي!

وافقه الدكتور (عرفان) بايماءة من رأسه، وهو يتابع:

- وبعد شهرين من وضعه في السجن، وصلت سفينة من (الفلبين) تحمل خبر مقتل الحاكم، في نفس الليلة التي ذكرها الجندي، مما جعلهم يطلقون سراحه، وإن لم يستطع مخلوق واحد، عبر أربعمائة سنة تفسير رحلته العجيبة هذه، عبر الزمان والمكان.

اتسعت عينا (ماهر) في ذعر، وغمغم:

- ولكنك تملك التفسير.. أليس كذلك؟!.. قل لي إن لديك تفسيرًا لكل هذا.. قل لي بالله عليك.

ربت الدكتور (عرفان) على كتفه مهدئًا، وهو يقول:

- بالطبع يا ولدي.. بالطبع.. والذي لا يكتفي بتفسير حالتك فحسب، وإنما يفسر أيضًا كل حالات الأمطار العجيبة، التي سجلتها مراجع الألغاز الغامضة.

سأله (ماهر) مبهوتًا:

- أية أمطار؟!

تنحنح الدكتور (عرفان)، وبدا وكأن الحديث المتواصل قد أرهقه، وهو يشير إلى الدكتور (هايدن)، الذي اعتدل في مقعده، والتفت إلى (ماهر)، قائلًا.

- هذه أكثر الحوادث شيوعًا، على الرغم من غرابتها يا فتى، فعبر التاريخ المكتوب، شهدت مواقع مختلفة في العالم أمطارًا عجيبة، لا تحمل قطرات المطر وحدها، وإنما تسقط معها طيور، أو أسماك، أو ضفادع، أو حتى تماسيح وثمار.

اتسعت عينا (ماهر) في دهشة بالغة، لم يتوقف عندها الدكتور (هايدن)، الذي تابع في اهتمام:

- ففي منتصف أكتوبر، من عام ألف وثمانمائة وستة وأربعين، هطلت على بعض أجزاء (فرنسا) أمطار حمراء، تساقطت معها بكثافة ألوف الطيور الممزقة والملوثة، من مختلف الأنواع، وكان سبب موت معظمها هو ارتطامها بالأرض عند السقوط، ولم يفهم شخص واحد سر هذه الظاهرة، التي تكررت مرة ثانية في يوليو، عام ألف وثمانمائة وستة وتسعين، أو بعد نصف القرن

تقريبًا، ولكن بدون الأمطار، فقد تساقطت عشرات الطيور الميتة على مدينة (باتون روج)، بولاية (لويزيانا)، من بينها نقار الخشب، والشحرور، والبط البري، وغيرها. والأعجب أن بعض الأنواع كان يندر وجودها في المنطقة، وبعضها أنواع غير معروفة على الإطلاق.. ثم حدث هذا مرة ثالثة في أغسطس عام ألف وتسعمائة وستين، في مدينة (كابيتولا) بولاية (كاليفورنيا)، حيث استيقظ السكان في الصباح ليفاجئوا بأن الطيور الميتة تغطى مدينتهم كلها، والغريب أنها كانت من النوارس المائية، التي تتخذ أعشاشها في المعتاد في القارة الأسترالية، والشاطئ الياباني.. والأمر ليس قاصرًا على الطيور فحسب، ففي (دلاس) الأمريكية هطلت أمطار من الأسماك في الثامن عشر من يونيو، عام ألف وتسعمائة وثمانية وخمسين، وكلها من نوع واحد، يتراوح طولها بين ثلاث وأربع بوصات، ولونها رمادي داكن تتخلله بقع حمراء مذهبة، وذيلها أحمر.

وفي الثاني عشر من يوليو، عام ألف وتسعمائة وواحد وستين، تساقطت من السماء ثمار الخوخ، على مبني بشارع (اللوفر) في مدينة (شريفبورت)، وفي عام ألف وثمانمائة وثمانين، تساقطت أحجار مختلفة الأحجام على مدينة (أوزارك) في (أركانساس)، وقبل هذا بعشر سنوات، وفي شهر أغسطس، أمطرت السماء مئات من سحالي الماء على مدينة (سكرامتو)، طوال الواحدة منها ما بين بوصتين وثماني بوصات. أما أغرب حالات الأمطار العجيبة، فهي سقوط تمساح من نوع (اليجيتور)، يزن حوالي ستين رطلًا، في حديقة منزل في (لونج بيتش)، عام ألف وتسعمائة وستين، ولم تكن المنطقة كلها بجفافها تصلح لعيش مثل هذا النوع من التماسيح، مما أثار حيرة ودهشة الجميع

لسنوات وسنوات، دون أن يصل أحد إلى تفسير منطقي لمثل هذه الأمور.

كان توتر (ماهر) قد بلغ ذروته، فقال في عصبية شديدة:

- ولكن الدكتور (عرفان) يملك تفسيرًا.. أليس هذا ما تريد قوله؟!.. هناك تفسير.. أليس كذلك؟!

تبادل الرجلان نظرة صامتة قلقة، فهتف بكل انفعاله:

- أريد معرفة ذلك التفسير.. هذا حقي.. أريد معرفته دون مقدمات، أو روايات أخرى معقدة.. أريد معرفة ذلك التفسير مباشرة.. أريد معرفة الحقيقة.

تبادلا نظرة أخرى، قبل أن يغمغم الدكتور (عرفان):

- بالطبع يا ولدي.. هذا حقك.

ثم تطلع إلى عيني (ماهر) مباشرة، وقال في حزم:

- الحقيقة هي أنك لا تنتمي إلى هذا العالم يا ولدي.. لا تنتمي إليه على الإطلاق.

وفي هذه المرة، كانت انتفاضة (ماهر) عنيفة..

عنيفة إلى أقصى حد.

☆ ☆ ☆

6- تحدّي المستحيل..

اتسعت عينا الوسيم في ذهول، وكاد يثب من مكانه، وهو يحدق في تقرير مقارنة البصمات، ويهتف:

- مستحيل!.. هناك خطأ ما حتمًا.. مستحيل!

سأله الضخم في قلق:

- ماذا حدث؟!

أجابه في انفعال جارف، وهو يلوح بالتقرير:

- هؤلاء الأغبياء يقولون: إن البصمات متطابقة تمامًا، وإنها للشخص نفسه، وهذا مستحيل، المفترض أنهم يقارنون بصمات الشاب الذي لدينا، بتلك التي وصلتنا بالفاكس من (القاهرة).. وهذا مستحيل!!.. لا يمكن أن يتواجد شخص ما في مكانين في آن واحد.. مستحيل!.. مستحيل!

بُهت الضخم للقول، وظل يحدق في وجه زميله بضع لحظات، قبل أن يقول في تردد متوتر:

- ربما هناك خدعة في الأمر.. ربما أبدلوا صحيفة ذلك الذي في (القاهرة) بأخرى، تحمل بصمات الذي لدينا هنا، و...

قاطعه الوسيم في عصبية:

- لم يحدث هذا يا (سميثي).. البصمات تم الحصول عليها من صاحبها مباشرة، هنا وهناك.

تراجع الضخم في حدة، هاتفًا:

- ولكن هذا مستحيل!.. لقد علمونا أن البصمات لا تتطابق قط، حتى بالنسبة التوائم المتماثلة.

انعقد حاجبا الوسيم في شدة، وهو يغمغم في عصبية:

- هناك تفسير لهذا.. هناك تفسير حتمًا.

ثم اندفع خارج الحجرة، فلحق به الضخم، هاتفًا:

- إلى أين؟!

أجابه الوسيم في حدة:

- سأنتزع ذلك الشاب في فراشه، وأجبره على قول الحقيقة، حتى ولو اضطررت لتحطيم رأسه من أجل هذا.

هتف الضخم:

- ولكن الأوامر تحتم أن..

قاطعه في غضب ثائر:

- فلتذهب الأوامر إلى الجحيم.. المهم هو الحقيقة.. الحقيقة وحدها.

جرى الضخم خلفه، عبر الممرات المتشابكة، حتى بلغا حجرة (ماهر)، وأشار الوسيم إلى الجندي الواقف أمامها، قائلًا في حدة:

- أفسح الطريق يا رجل.. سأنتزع هذا الشاب من فراشه، و...

تنحنح الجندي في ارتباك، وهو يؤدي التحية، قائلًا:

- معذرة يا سيدي، ولكن الشاب ليس هنا.

توقف الوسيم، وهتف في سخط:

- ليس هنا؟!.. ماذا تعني بأنه ليس هنا؟!.. المفترض أن عملك هو أن تمنعه من الخروج.

تنحنح الجندي ثانية، وقال:

- ولكن القواعد تحتم عليّ طاعة المسؤولين في (ناسا) بالدرجة الأولى، وعندما حضر الدكتور (هايدن) وزميله لاصطحاب الشاب، لم يكن بمقدوري منعهما.

انعقد حاجبا الوسيم، وهو يقول:

- الدكتور (هايدن) وزميله؟!.. من زميله هذا؟!

هز الجندي رأسه نفيًا، وأجاب:

- لست أدري.. لم أره قط، منذ تسلمت عملي هنا.

ازداد انعقاد حاجبي الوسيم، والتفت إلى الضخم، قائلًا في عصبية:

- لست أشعر بالارتياح لهذا الأمر.

ثم أشار بيده، مستطردًا:

- اقلب (ناسا) كلها، بحثًا عن الدكتور (هايدن)، وزميله الغامض هذا، وسل عن تلك الاختبارات العجيبة، التي تجري بعد منتصف الليل، وسأستجوب هذا الجندي المهمل، لمعرفة كل التفاصيل..

ثم اطل غضب الدنيا كله في عينيه، وهو يضيف:

- وأتعشم أن تكون هناك اختبارات حقيقية، وإلا فأقسم بأرواح أجدادي أن أجعل من هذه الليلة كابوسًا في حياة (هايدن) وزميله.. بل سأجعلها أبشع كوابيسهما.. أبشعها على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

انكمش (ماهر) في مقعده، وحملت عيناه أبشع نظرة ارتياع في الدنيا، وهو يحدق في الدكتور (عرفان)، الذي هز رأسه في أسف، مغمغمًا:

- أعلم أنه ليس من السهل عليك أن تتقبل الفكرة يا ولدي، ولكن..

قاطعه (ماهر) بصوت مختنق مبحوح:

- ماذا تعني بأنني لا أنتمي إلى هذا العالم؟!

ثم اعتدل في مجلسه بغتة، وعلا صوته في حدة، مكررًا:

- ماذا تعني بأنني لا أنتمي إليه؟!

وشملته نوبة من الغضب، جعلته يلوح بذراعيه، ويتقافز في مكانه، هاتفًا:

- ربما لا أنتمي إلى دولتكما.. أو إلى قارتكما، ولكنني مصري.. مصري من (القاهرة).. ومن حي (شبرا) بالتحديد... ألا تنتمي (مصر) بكل أحيائها إلى هذا العالم؟!

تبادل الرجلان نظرة قلقة، وتمتم (هايدن):

- كنت أعلم أن الأمر لن يمضي في يسر.

أما (عرفان) فأجاب:

- ليس لدينا أدنى شك يا ولدي، في أنك تنتمي إلى (مصر)، ولكن المشكلة أن (مصر) التي تنتمي إليها، ليست نفسها (مصر) التي نعرفها في عالمنا. صحيح أن للاثنتين تاريخ واحد، وحضارة متماثلة، وفي كل منهما نفس المدن، والأحياء، والأشخاص،

وحتى الحيوانات، والحشرات، ولكن كلًا منهما في عالم يختلف تمًاما عن العالم الذي تحتله الأخرى.. عالم نطلق عليه نظريًا اسم العالم الموازي.

اتسعت عينا (ماهر) وهو يتمتم:

- العالم الموازي.. ما معنى هذا المصطلح.. أنا لم أسمع به قط، طوال دراستي في كلية العلوم.

ابتسم (عرفان)، وقال:

- هذا أمر طبيعي يا ولدي، فنظرية العوالم المتوازية ليست بالنظرية البسيطة، التي يمكن تدريسها لطلاب كلية العلوم.. إنها نظرية بالغة التعقيد، تعود إلى أيام وضع (ماكس بلانك) لنظرية (الكم)، عندما قادته معادلاته إلى حتمية وجود عوالم أخرى، قد لا يكتفي بعضها بالأبعاد الثلاثة المعروفة، ولا حتى بالبُعد الزمني الرابع، وإنما يحتم عليها وجودها أن تعتمد على أبعاد خمسة، أو ستة، أو ربما أكثر.

هز (ماهر) رأسه، قائلًا:

- لست أفهم.

أومأ (عرفان) برأسه متفهمًا، وقال:

- فليكن.. دعني أحاول تبسيط الأمر أكثر.. نظريتي تقول: إننا لا نحيا وحدنا في الفراغ الذي يحتله كوكبنا، وإنما تحتل الفراغ نفسه عدة عوالم متوازية، قدر عددها بسبعة عوالم، طبقًا لدراسات طويلة، وكل عالم من هذه العوالم لا يشعر بوجود العوالم الستة الأخرى، لأنها تختلف عنه في الذبذبة والارتجاج، ودرجة الوصول إلى الحالة المادية. وفي كثير من الأحيان، يلتقي

عالمان أو أكثر من هذه العوالم المتوازية، في نقاط تماس محدودة، يختلف موقعها من عالم إلى آخر، ومن وقت إلى آخر، وعند نقاط التماس هذه، تحدث فجوة بين العوالم المتوازية، وعبر هذه الفجوة، يمكن أن ينتقل جسم ما، من أحد العوالم إلى الآخر، لو تصادف وجوده في نقطة التماس، في لحظة حدوثه، التي لا تستغرق في المعتاد أكثر من ثوان معدودة للغاية.. وعبر إحدى تلك الفجوات اختفى (دافيد لانج)، وسقط في عالم مواز، ولم يستطع العودة منه قط، وكذلك حدث لسيدة (الإسكندرية)، ولفرق الجنود الصينية، وعبر فجوات أخرى سقط جندي (مانيلا) إلى عالمنا، وجاءت نقطة التماس بالنسبة لعالمنا في (مكسيكو سيتي)، وكذلك في حالات الأمطار العجيبة، إذ تكون نقطة التماس لعالمنا في السماء، في حين قد تلتقي في العالم الموازي بسماء أيضًا، فتسقط طيور صريعة، أو في بحر، أو نهر، أو مستنقع، ومن هنا تتساقط إلى عالمنا الأسماك والضفادع والتماسيح، أو تلتقي بجبل أو مزرعة، أو أي شيء آخر..

ثم تطلع إلى عيني (ماهر) مباشرة، وقال:

- ولكن في حالتك أنت، كنت محظوظًا إلى حد كبير.

اتسعت عينا (ماهر) في استنكار، وهتف:

- محظوظ؟!.. أنا؟!..

أشار (عرفان) بيده، قائلًا:

- بالتأكيد.. لقد حدث التماس بين عالمك وعالمنا بعد دقائق معدودة من دخولك إلى الفراش، واستغراقك السريع في النوم، بعد كل ما تبذله من جهد للبحث عن عمل طوال النهار، وكانت

نقطة التماس بالنسبة لعالمك هي المنطقة التي يحتلها جسدك فوق الفراش، أما في عالمنا فكانت سطح مركز التجارة العالمي.. ماذا كان يمكن أن يحدث في رأيك، لو أن نقطة التماس في عالمنا كانت نقطة عارية في السماء، على الارتفاع نفسه؟!

ارتجف جسد (ماهر) في ارتياع، وتخيل نفسه يهوى في الفراغ، من هذا الارتفاع الشاهق، فشحب جسده، وعاد ينكمش في مقعده، ويتمتم:

- كانت ستحدث كارثة.

أشار إليه (عرفان) بسبابته، قائلًا:

- بالضبط.. ألم أقل لك: إنك محظوظ؟!

ران على ثلاثتهم صمت رهيب، استغرق ما يقرب من دقيقتين كاملتين، قبل أن يرفع (ماهر) إلى الرجلين عينين مغرورقتين بالدموع، ويغمغم:

- ربما كنت محظوظًا عند وصولي إلى عالمكما، ولكن ماذا عن مصيري فيه؟!.. المنطق والشواهد تقول: إنني سألقى حتفي فيه حتمًا..

تبادل (هايدن) و(عرفان) نظرة سريعة، قبل أن يقول الأخير:

- ربما لا يحدث هذا.

ثم اعتدل في معقده، مستطردًا:

- لو نجحنا في إعادتك إلى عالمك.

اتسعت عينا (ماهر) مرة أخرى، قائلًا:

- أهذا ممكن؟!.. أهذا ممكن بالله عليك.. هل..

بتر عبارته بغتة، وجحظت عيناه في شدة، وانطلقت في حلقه صرخة ألم، في نفس اللحظة التي تراقصت فيها على جسده شرارات كهربية مضيئة..

وفي ارتياع، هتف (هايدن):

- لا.. ليس ثانية.

أما (عرفان)، فقد أطل الذعر من عينيه، وغمغم:

- رباه!.. الطائرة..

وفي نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كانت كل مؤشرات الطائرة تتوقف بغتة، والطيار يفقد سيطرته عليها.. تمامًا.

☆ ☆ ☆

كادت أصابع الوسيم تعتصر سماعة الهاتف، من شدة الغضب والانفعال، وهو يتحدث مع رئيسه، قائلًا:

- خدعنا يا سيدي.. ذلك العالم المأفون خدعنا.. لقد هرب مع الشاب منذ نصف الساعة تقريبًا، بمعاونة شيخ خبيث، تؤكد كل الظواهر أنه عالم متقاعد أيضًا.

وصمت لحظة، ليستمع إلى رئيسه، ثم قال في توتر شديد:

- أقسم لك إن هذا ليس تقصيرًا منا يا سيدي.. لقد بذلنا أنا و(سميثي) قصارى جهدنا، ولكن الجندي الأحمق أطاع ذلك العالم، وسمح له بإخراج الشاب.. بالطبع يا سيدي.. بالطبع.. لقد قمنا بتحريات سريعة ومكثفة للغاية، وتوصلنا إلى أن (هايدن) لم يستقل سيارته، وإنما انطلق بسيارة مستأجرة، عثرنا عليها عند مطار خاص قريب، وهذا يعني أنه استأجر طائرة، لتنقله إلى وجهة ما، نبذل قصارى جهدنا للتوصل إليها.

صمت برهة أخرى، ليستمع إلى عبارات رئيسة الغاضبة، ثم قال:

- نعم.. لقد طلبت إحضار واحدة من طائراتنا (السوبر ماستير)، ذات السرعات الفائقة، للحاق بطائرتهم، فور تحديد وجهتها.. بالتأكيد يا سيدي.. بالتأكيد.. لن أسمح لهم بالفرار قط، مهما كان الثمن.

وأنهى المحادثة، وهو يكاد يشتعل غضبًا وثورة، وعض شفتيه غيظًا، مغمغمًا:

- اللعنة!.. أقسم ألا يفوز ذلك اللعين بغنيمته، مهما كان الثمن.

وانعقد حاجباه في شدة، وهو يدير الأمر في رأسه بضع لحظات، قبل أن تتألق عيناه ببريق شرس، ويغمغم:

- نعم.. لن يظفر بغنيمته قط.

لم يكد يتم قوله، حتى اندفع الضخم إلى الحجرة، ولهث في انفعال، هاتفًا:

- الطائرة في طريقها إلى جزر (بهاما).. لقد حددنا خط سيرها بالضبط، و(السوبر ماستير) تنتظر للانطلاق خلفها.. هيا أسرع، حتى يمكننا اللحاق بها.

انعقد حاجبا الوسيم في شدة، وهو يقول:

- مهلًا.. هناك خطوة ينبغي اتخاذها أولًا.

والتقط سماعة الهاتف، وأدار رقم القاعدة الجوية الحربية في (ميامي)، وقدم نفسه لقائدها، وأخبره بالكود السري الخاص باتصالات الطوارئ القصوى، قبل أن يقول:

- اسمعني جيدًا يا جنرال.. هذا أمر خاص بأمن الدولة، ولا وقت فيه للشرح والتفسير.. هناك طائرة تنطلق الآن نحو جزر (بهاما)، وهذه الطائرة تحمل ما يهدد أمن (أمريكا) كلها بالخطر.

وازداد انعقاد حاجبيه، وهو يضيف في صرامة:

- حسن.. هذه الطائرة ينبغي إسقاطها.. وبأي ثمن.

قالها، وعيناه تتألقان ببريق مخيف..

ووحشي..

☆ ☆ ☆

انتفض جسد الدكتور (هايدن) في عنف، عندما فقدت الطائرة توازنها، ومالت على نحو مخيف، وصاح في ارتياع:

- الطائرة تسقط يا دكتور (عرفان).. تسقط في المحيط.

وثب الدكتور (عرفان) في رشاقة مدهشة، لا تتناسب قط مع سنوات عمره، التي تجاوزت السبعين، واختطف حقيبة كبيرة، يحتفظ بها في حرص منذ البداية، وهو يقول:

- هذا أمر طبيعي، فالشاب يعاني نوبة أخرى، من نوبات تعارض الأقطاب، وهذا سيخلق حوله مجالًا كهرومغناطيسيًا عنيفًا، يكفي لإفساد عمل كل مؤشرات الطائرة مؤقتًا.

ثم فتح حقيبته، والتقط منها جهازًا أشبه بجهاز الصدمات الكهربية القلبية، مستطردًا:

- ولكنني كنت أتوقع حدوث هذا.

وألصق طرفي الجهاز بجسد (ماهر)، ثم ضغط أحد أزراره، فصدرت فرقعة قوية، وانتفض جسد (ماهر) في عنف، قبل أن تتلاشى كل الشرارات المحيطة به دفعة واحدة، والدكتور (عرفان) يضيف في حزم:

- وأستعد لمواجهته.

هدأ جسد (ماهر) على الفور، وعادت مؤشرات الطائرة للعمل، واستعاد الطيار الماهر سيطرته عليها في اللحظة الأخيرة، وعاد يرتفع بها، عائدًا إلى مساره، وزفر الدكتور (هايدن) في ارتياح، مغمغمًا:

- حمدًا لله.. حمدًا لله.. خُيل إليّ أنها نهايتنا.

أما (ماهر)، فقد تصبب عرق غزير على جبهته، وهو يتطلع إلى الدكتور (عرفان) بعينين متهالكتين، مغمغمًا في ألم وضعف:

- ماذا يحدث لي؟!

ربت الدكتور (عرفان) على كتفه، قائلًا:

- إنه رد فعل طبيعي لخلاياك يا ولدي، فهي تتواجد فعليًا في عالم تختلف ذبذباته تمامًا عن ذبذباتها المألوفة، ومن حقها أن تعلن تمردها وألمها من حين إلى آخر.

بدا الألم في عيني (ماهر)، وهو يتمتم:

- أما زلت تصر على قصة العالم البديل هذه؟

ابتسم (عرفان) في حنان، وهو يقول:

- هذا ليس سبة تخجل منها يا ولدي.. الله (سبحانه وتعالى) وحده يعلم أي عالم من هذه العوالم هو العالم الأصلي، وأيها البديل.. ومن يدري.. ربما كان عالمك أفضل من عالمنا، ولكن هذا لن يصنع فارقًا، فالمهم في النهاية هو أنك لا تنتمي لعالمنا.. وهذا يفسر كل الغموض المحيط بك.. ظهورك المباغت.. المنحنيات المعكوسة، التي تصنعها الأجهزة، عند قياس جسدك.. ضرورة عكس أقطاب الأجهزة عند فحصك.. نوبة التقاطب التي تصيبك.. كل هذا لأن ذبذبة جسدك تختلف تمامًا من ذبذبة أجسادنا، مما يربك كل الأجهزة الإلكترونية، التي تتعامل معها.

أومأ (ماهر) برأسه متفهمًا في مرارة، ثم أغلق عينيه، متمتمًا:

- قلت: إنه هناك وسيلة للعودة.

أجابه (عرفان):

- هذا صحيح.

ثم تابع في اهتمام شديد:

منذ أكثر من نصف القرن، ولا هم لي سوى دراسة حوادث الاختفاء والظهور الغامضة، ومراجعة كل المعلومات الخاصة بها، ومهما بلغت دقتها وبساطتها، ومهما بدت للآخرين تافهة عديمة القيمة.. وكان من الطبيعي، بعد كل هذا الجهد، وبعد اختراع وانتشار أجهزة الكمبيوتر المنزلية، بكل ما تحويه من ذاكرة مدهشة، وقدرات فذة على إجراء العمليات الحسابية شديدة التعقيد، أن أتوصل إلى مالم يتوصل إليه الآخرون في هذا الشأن.

وتوقف لحظة ليلتقط أنفاسه، قبل أن يقول:

- كل نقطة تماس تظهر في عالمنا مرتين.. هذا أكثر ما توصلت إليه أهمية، بعد أبحاث نصف قرن، خاصة وأنني أستطيع أيضًا تحديد موقع التماس الثاني بدقة، مادامت لدي معلومات كافية عن التماس الأول.

ثم مال نحو (ماهر)، مستطردًا بابتسامة ارتياح كبيرة:

- وهذا ما حدث لأول مرة بالنسبة لحالتك.

بدأ (ماهر) يتعافى في بطء، فاعتدل مغمغمًا:

- كيف؟!

أشار الدكتور (عرفان) بيده، قائلًا:

- إننا نعرف موقع التماس الأول بمنتهى الدقة، فهو سطح مركز التجارة العالمي، حيث عثروا عليك، أما موعده، فلدينا تقدير مناسب للغاية له، إذ إن الوقت ما بين دخولك إلى فراشك، واستيقاظك على سطح المبنى، لا يتجاوز ست عشرة دقيقة وسبع ثوان، ولقد استثنينا الدقائق الخمس الأولى، باعتبار أنك لن تغرق في النوم فور رقادك، والدقائق الخمس الأخيرة، لأنك قلت: إنك لم تستيقظ مباشرة، وهذا يعني أنه تبقت لنا ست دقائق فحسب، وهذا تقدير أفضل من المنتظر، بالنسبة للوقت.

سأله (ماهر) في اهتمام قلق:

- هل تعني أنك نجحت في تحديد موقع التماس الثاني بالفعل؟

أومأ (عرفان) برأسه مبتسمًا، وألقي نظرة على ساعته، قائلًا:

- هذا صحيح يا ولدي.. ونحن نتجه إليه الآن، وسنصل بعد خمس دقائق ونصف بالتحديد، وسيكون أمامنا ثلاث دقائق كاملة، قبل أن تنتهي حالة التماس، وأظنها تكفي لإعادتك إلى عالمك، لو وصلنا في الوقت المناسب.

بدت اللهفة على وجه (ماهر)، وهو يقول:

- وكيف سيبدو ظهوري هناك.

ابتسم (هايدن)، وأجاب هذه المرة:

- أراهن على أنها ستصبح حالة جديدة، من حالات الاختفاء والظهور الغامضة في عالمك.

أومأ (عرفان) برأسه إيجابًا، وقال:

- بالتأكيد.. وهذا هو الاختلاف المؤكد بين عالمينا، فحالات الاختفاء عندكم، ستصبح حالات ظهور لدينا، والعكس بالعكس.. ففي عالمنا مثلًا لم يختف (ماهر المصري)، بل هو هنا.. نسخة طبق الأصل منك، بنفس تاريخك وملامحك وحتى بصماتك، وربما تصيبه الدهشة الآن، لسفره المباغت غير المفهوم إلى (أمريكا)، بناء على طلب سفارتها في (القاهرة)، أما في عالمك فقد دخل (ماهر) إلى فراشه، ثم اختفى، وسيعود إلى الظهور، في فراشه أيضًا، وعلى نحو مباغت.. إنها ستصبح ظاهرة مدهشة في عالمك، ولكنني أحسد العلماء هناك، لأن ذلك سيحمل إليهم تفسيرًا ودليلًا يفتقر عالمنا إليه.

غمغم (ماهر):

- هذا لو صدق أحدهم قصتي.

هز (عرفان) كتفيه، وقال:

- سيضطر بعضهم لتصديقها حتمًا، فمن المؤكد أن أسرتك تكاد تجن الآن، بعد اختفائك الغامض طوال هذه الفترة، وعندما تعود على نحو مباغت، سوف..

قاطعه صوت الطيار، عبر جهاز الاتصال الداخلي، وهو يقول في توتر شديد:

- معذرة أيها السادة، ولكن هناك طائرتي (فانتوم) تحلقان إلى جوارنا، وجهاز اللاسلكي تلقى أمرًا بالعودة إلى (فلوريدا).

انعقد حاجبا (عرفان) و(هايدن) في شدة، وهتف (ماهر):

- رباه!.. كان ينبغي أن أعلم أن الحلم أجمل من أن يتحقق وقال (عرفان) في توتر:

- مستحيل!.. لا يمكننا أن نضيع دقيقة واحدة.. التماس لن يستمر لأكثر من ثلاث دقائق.

وتبادل نظرة عصبية مع الدكتور (هايدن)، قبل أن يغمغم هذا الأخير:

- يبدو أنه لا مفر من القيام بالخطوة، التي كنا نخشاها.

قالها، واتجه في خطوات عصبية نحو كابينة القيادة، والطيار يقول:

- معذرة مرة أخرى أيها السادة.. لا يمكنني مقاومة مقاتلتين (فانتوم).. أنا مضطر للعودة، و...

اقتحم (هايدن) كابينة القيادة في تلك اللحظة، وانتزع من جيبه مسدسًا، ألصقه برأس الطيار، قائلًا في صرامة:

- لن نعود يا رجل، واصل سيرك إلى الهدف.

ارتفع حاجبا الطيار في دهشة، وهتف:

- هل جننت يا رجل؟.. ألا تدرك ما تعنيه مقاومة أوامر مقاتلتين من طراز (فانتوم)؟!.. ألا تدرك ما يمكنهما فعله؟!

أجابه (هايدن) في صرامة أكثر:

- امض في طريقك.

عقد الطيار حاجبيه في توتر شديد، ثم التقط بوق جهاز اللاسلكي، وقال:

- من الطائرة (ج-10) إلى الفانتوم.. لا يمكنني طاعة الأوامر.. الطائرة مختطفة، وهناك مسدس مصوب إلى رأسي.. أكرر.. لا يمكنني طاعة الأوامر.

مط أحد قائدي (الفانتوم) شفتيه، عند سماعه هذا النداء، وغمغم:

- لا بأس.. أنت لا تمنحنا خيارًا آخر.

ودار بالمقاتلة دورة شبه كاملة، وهو يعد جهاز إطلاق الصواريخ، ثم انقض عليها في شراسة، و..

وأطلق أحد صواريخه.

☆ ☆ ☆

7- العالم البديل..

«هل جننت يا رجل؟!..».

صرخ الرئيس المباشر للوسيم بالجملة، عبر جهاز اللاسلكي في (السوبر ماستير)، في غضب هادر، قبل أن يستطرد في ثورة:

- كيف تطلب من الجنرال (لانجلي) إرسال مقاتلتين؛ لإسقاط الطائرة، التي تقل العالمين والشاب؟!.. ألا تدرك أنك بهذا الإجراء، تتجاوز الحد الأقصى لسلطاتك؟!.. كان ينبغي أن تطلب مني أنا فعل هذا..

غمغم الوسيم مرتبكًا:

- ولكن الموقف لم يكن يحتمل الـ...

قاطعه في ثورة:

- أي موقف؟!.. لقد اتصلت بي بالفعل، قبل أن تنطلق بطائرتنا (السوبر ماستير) خلف طائرتهم، فلماذا لم تبلغني بما تنوي فعله.

ارتبك الوسيم أكثر، وهو يتمتم:

- الواقع يا سيدي أن الفكرة قد..

عاد رئيسه يقاطعه في غضب:

- الوقع أنك بدأت تعتبر العملية ثأرًا شخصيًا، بينك وبين الدكتور (هايدن)، وهذا الموقف عار على من يعملون في المخابرات المركزية.. ليست لدينا عمليات ثأرية شخصية.. إن مصلحة الوطن فوق كل اعتبار.. هل تفهم؟!.. سأحاسبك حسابًا عسيرًا على موقفك هذا بعد أن ينتهي الأمر.

كظم الوسيم غيظه بصعوبة، وهو يقول، ملقيًا نظرة على ساعته:

- فليكن يا سيدي.. فليكن.. ولكنني أخشى أن الوقت قد فات لهذا الحديث، فمع فارق السرعة، بين طائرة خاصة ومقاتلة حربية، أعتقد أن (الفانتوم) قد انتهت من مهمتها بالفعل، في هذه اللحظة.

أجابه رئيسه في صرامة:

- خطأ يا رجل.. إننا نؤمن جيدًا بأن بقاء ذلك الشاب على قيد الحياة، أكثر فائدة لنا من موته، لذا فقد طلبت من الجنرال (لانجلي) الاتصال بالمقاتلتين، وإلغاء أمر التدمير، والاكتفاء بإجبار الطائرة على العودة..

قالها، دون أن يدري أن المواجهة قد حدثت بالفعل..

وأنه ربما يكون الوقت قد فات..

وبلا رجعة..

☆ ☆ ☆

«العملية ألغيت..».

تلقى طيار (الفانتوم) هذا الأمر في نفس اللحظة، التي تضغط فيها سبابته زر إطلاق صاروخه، عبر جهاز اللاسلكي المتطوِّر، فجذب عجلة القيادة بحركة غريزية، هاتفًا:

- اللعنة!

لم تغير جذبته مسار طائرته كثيرًا، ولكنها كانت كافية لينحرف صاروخه، ويتجاوز الطائرة الصغيرة بمتر واحد، ليواصل طريقه

نحو مياه المحيط، وينفجر بدوي عنيف، فصرخ طيار الطائرة الصغيرة في عصبية:

- أرأيت يا رجل؟!.. أرأيت؟! (الفانتوم) تطلق نحونا صواريخها.

ارتجف الدكتور (هايدن) في توتر شديد، بذل قصارى جهده حتى لا يظهر أثره في صوته، وهو يقول:

- قلت لك: امض في طريقك.

هتف الطيار:

- ماذا دهاك يا رجل؟!.. لقد أخبروني أنك عالم محترم من علماء (ناسا)، ولست أحد خاطفي الطائرات.

صاح به (هايدن)، بكل ما يملأ كيانه من انفعال:

- امض في طريقك يا رجل.. لا يمكننا التراجع.. هل تفهم؟! ليس لدينا ما يكفي من الوقت للتراجع.

ولم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع صوت قائد (الفانتوم)، عبر جهاز الاتصال، وهو يقول في صرامة:

- من (الفانتوم) إلى (ج-10).. هذا الصاروخ كان للتحذير فقط.. أكرر الأمر بالعودة إلى (فلوريدا)، وإلا فسيصيب الصاروخ القادم هدفه مباشرة.

قال الطيار في عصبية شديدة:

- هل سمعت؟!.. الصاروخ القادم سيصيب هدفه مباشرة.. هل تعلم ما هذا الهدف؟!.. إنه نحن يا رجل. نحن.

أجابه (هايدن) في توتر مماثل:

- لست أعتقد هذا.. لن يجازفوا بقتلنا، مادام أمامهم أمل واحد في استعادتنا أحياء.

ثم ألقى نظرة على ساعته، قبل أن يستطرد بتوتر بلغ ذروته:

- واطمئن؛ فلن يدوم هذا الموقف طويلًا.. لقد بلغنا الموقع المنشود تقريبًا.. هيا.. ارتفع إلى مسافة ألف قدم، وانطلق نحو الشرق في خط مستقيم.. هيا.

في نفس اللحظة، التي تنطق فيها عبارته، كان الدكتور (عرفان) يقول ل(ماهر) في انفعال:

- وصلنا تقريبًا يا ولدي.. استعد..

سأله (ماهر) في قلق خائف:

- ماذا ينبغي أن أفعل بالضبط؟

أجابه (عرفان) بسرعة:

- ستقفز من الطائرة.

شهق (ماهر) في قوة، وحدق في وجهه ذاهلًا مستنكرًا، وهو يهتف:

- أقفز من الطائرة؟!.. هل جننت يا رجل؟!.. هل تطلب مني القفز من الطائرة، من هذا الارتفاع؟!

أمسك (عرفان) كتفه في قوة، قائلًا في انفعال:

- هذا هو السبيل الوحيد يا ولدي.. نقطة التماس ستظهر بعد سبع وأربعين ثانية، بمساحة سبعة أمتار فحسب، على ارتفاع ستمائة قدم من سطح المحيط تقريبًا.. كل حساباتي تؤكد هذا.. وتؤكد أيضًا أنها فرصتك الوحيدة للعودة إلى عالمك، ولو

تخليت عنها، ستنتهي حياتك هنا في عالمنا، بعد أقل من شهر واحد.. هل تفهم؟!

وألقي نظرة أخرى على ساعته، قبل أن يستطرد في حدة:

- هيا يا فتى.. هيا.. الوقت ليس في صالحنا.. بعد أقل من أربع دقائق، ستضيع فرصة عودتك إلى عالمك إلى الأبد.. هيا.

قالها، وجذب باب الطوارئ، الذي انفتح في بطء، فارتطم الهواء البارد بوجهيهما في عنف، وحدق (ماهر) في الباب المفتوح في ارتياع، قبل أن يغمغم:

- لا.. لن يمكنني هذا قط.

صاح به (عرفان) في غضب:

- بل ستفعلها يا فتى.. إنها فرصتك الوحيدة.

هتف (ماهر):

- وماذا لو كانت حساباتك خاطئة؟!.. سيعني هذا أنني سأسقط في المحيط، من ارتفاع ثلاثمائة متر تقريبًا..

هل تعلم ما يمكن أن يحدث عندئذ؟!

صاح به (عرفان) في غضب، والهواء يكاد يدفعه أمامه دفعًا؟!

- ما الذي يمكن أن يحدث؟!.. أن تموت؟!.. وما الفارق بين أن تموت الآن، أو بعد أسابيع معدودة، تحيا فيها كفأر تجارب هنا؟!.. ربما كان الفارق الوحيد هو أنك ستموت، وأنت تدافع عن بقائك.

اقترب (ماهر) من الباب في حذر، وألقى نظرة في خوف، في نفس اللحظة التي ارتفع فيها صوت (هايدن)، من كابينة القيادة، وهو

يقول عبر جهاز الاتصال الداخلي في انفعال:

- وصلنا إلى الموقع المحدود بالضبط.. إننا نحلق فوقه مباشرة، و(الفانتوم) تحوم حولنا.. أسرعا.. الوقت ليس في صالحنا.

صاح (عرفان) في (ماهر):

- هيا.. اقفز يا فتى.. إنها فرصتك الأخيرة.. اقفز.

هز (ماهر) رأسه في قوة، هاتفًا:

- لا أستطيع.. المشهد مخيف للغاية.

ظهرت في (السوبر ماستير) في هذه اللحظة، وهي تنطلق بأقصى سرعتها نحو طائرتهم الصغيرة، التي دار بها الطيار حول المنطقة، في محاولة لعدم تجاوز البقعة المنشودة، في حين قامت طائرتا (الفانتوم) بمناورة جديدة لمحاصرتها، ومنعها من مواصلة طريقها..

وبكل الانفعال في أعماقه، هتف الوسيم، وهو يشير إلى الطائرة الصغيرة:

- ها هي ذي طائرتهم.. لقد لحقنا بهم.. سنعيدهم إلى (فلوريدا)، وعندئذ..

لم يتم عبارته، فسأله الضخم في توتر:

- أما زلت تصر على الانتقام.

ارتسمت على شفتي الوسيم ابتسامة متشفية، وهو يقول:

- لا وجود للانتقام في عالمنا يا رجل.. هل نسيت القواعد؟!

قالها، وعيناه تبرقان في وحشية عجيبة.

وحشية تعنى أنه يظهر عكس ما يُبطن حتمًا..

وكانت كل الملابسات توحي بأنه سيحقق انتقامًا، أفضل من كل ما تمناه في أحلامه..

فالشاب يخشى القفز نحو منطقة التماس، التي يمضي وقتها بسرعة مخيفة، والطيار يقوم بدورته الأخيرة فوقها، بعد أن حاصرته طائرتا (الفانتوم) في براعة، ولم يعد بمقدوره الاستمرار، فصاح في حدة وإصرار:

- فليكن يا رجل.. أطلق النار على رأسي لو أردت، ولكن البقاء هنا لم يعد ممكنًا، وإلا فسنرتطم حتمًا بواحدة من طائرتي (الفانتوم).. أنا مضطر للعودة.

قالها، وقرن قوله بالفعل، وأدار عجلة القيادة، ليتخذ مسار العودة، فصرخ (عرفان) في انفعال شديد:

- اقفز يا فتى.. اقفز.. لا تُضِع فرصتك الأخيرة.

تجمد (ماهر) في موضعه من شدة الخوف، وهو يقول بصوت مرتجف:

- لا أستطيع القفز.. لا أستطيع..

اتسعت عينا (عرفان) في ارتياع، وارتجف جسده في انفعال، وبدا له أن الحادثة التي ستؤكد صحة نظريته لن تحدث؛ لأن صاحبها مصاب بخوف مرضي من الارتفاعات، والطائرة في طريقها للابتعاد عن نقطة التماس الوحيدة، التي تم تحديد موقعها بمنتهى الدقة منذ الأزل، و..

وفجأة، اندفع (عرفان) نحو (ماهر)، صارخًا:

- قلت لك: اقفز.

اتسعت عينا (ماهر) في ذعر، وصرخ:

- لا.. لا تفعل.

ولكن (عرفان) انقض عليه، ودفعه أمامه عبر باب الطائرة، وهو يصرخ في انفعال شديد:

- اقفز.

انطلقت صرخة ذعر هائلة من حلق (ماهر)، وهو يهوى من هذا الارتفاع الشاهق مع (عرفان)، وانتفض جسد (هايدن) في عنف، عندما رأى المشهد عبر نافذة كابينة القيادة، وغمغم:

- رباه!.. دكتور (عرفان)!..

وفي (السوبر ماستير)، هب الوسيم من مقعده، صائحًا:

- اللعنة!.. ماذا فعلوا؟!.. هناك اثنان يسقطان من الطائرة!

قفز الضخم من مقعده بدوره، وهو يصيح:

- يا للشيطان!.. إنهما يهويان من هذا الارتفاع الشاهق، و...

قبل أن يتم كلمته انتفض جسده الضخم في قوة، وكأنما أصابته صاعقة، وجحظت عيناه حتى كادتا تقفزان من محجريهما، وتراجع في عنف، وهو يحدق في السماء، في حين وثب الوسيم من مكانه، وشهق شهقة بدت وكأنها قد انتزعت روحه من جسده، من فرط الذهول والانفعال.

فأمام عيونهم جميعًا، وعلى نحو يعجز القلم عن وصفه، تألق جسدا (ماهر) و(عرفان) لجزء من الثانية، ثم اختفيا في قلب السماء..

اختفيا تمامًا..

☆ ☆ ☆

«لقد عاد إلى عالمه..».

نطق الدكتور (هايدن) العبارة في هدوء عجيب، وهو يجلس داخل حجرة التحقيقات، في مكتب المخابرات المركزية في ولاية (فرجينيا)، فانعقد حاجبا الوسيم، دون أن ينبس ببنت شفة، في حين تنهد رئيسه، وقال:

- هل تعتقد أنه يمكنك إقناعنا بهذه القصة يا دكتور (هايدن)؟

هز (هايدن) كتفيه، واسترخى في مقعده، قائلًا:

- لا داعي لأن تقتنعوا بها، ولكن سيكون عليكم في هذه الحالة إيجاد تفسير آخر لكل ما حدث.. ظهور ذلك الشاب، فوق سطح أعلى بناء في العالم، وكل الظواهر التي ارتبطت بوجوده هنا..

وحتى اختفائه الغامض.

مط الرئيس شفتيه، وتنهد مرة أخرى، ثم تبادل نظرة صامتة طويلة مع معاونيه، قبل أن ينقر بأصابعه على سطح مكتبه، قائلًا:

- إذن فأنت تعتقد أن ذلك الشاب قد عاد من حيث أتى، في حين سقط الدكتور (عرفان) في عالم مواز بديل.. أليس كذلك؟

أومأ (هايدن) برأسه إيجابًا، وقال:

- بالتأكيد.. وأعتقد أن هذا سيغير مستقبل ذلك العالم البديل، الذي أتى منه (ماهر)، وأنه منذ هذه اللحظة لن يلتقي تاريخنا وتاريخه قط، ولن نصبح أبدًا عالمين متوازيين متماثلين.

سأله الرئيس في اهتمام:

- ولماذا؟!

لوح بكفه، قائلًا:

- لقد حصل ذلك العالم البديل على فرصة نادرة، لم يحظ بها عالمنا، أو أي عالم آخر، في سلسلة العوالم المتوازية، ففي هذه المرة لن تكون لديهم حالة ظهور غامضة فحسب، وإنما سيجدون أن الشخص، الذي انتقل إليهم من عالم آخر هو عالم متخصص في تلك الظاهرة بالتحديد، خاض التجربة بنفسه، وحصل على خبرة نادرة في هذا المجال..

انعقد حاجبا الرئيس في شدة، وهو يقول:

- هل تعتقد أنهم سيسعون للاستفادة من خبراته؟

هز كتفيه، مجيبًا:

- حتى لو لم يفعلوا، فلن يصمت هو.. أراهن على أنه سيسعى للالتقاء ببديله هناك، وستلتقي خبراتهما، ليصبحا قوة لا يستهان

بها، في مجال الانتقال عبر العوالم المتوازية.

تبادل الرئيس نظرة متوترة مع رجاله ومعاونيه، قبل أن يلتفت إلى الدكتور (هايدن)، قائلًا:

- ولكن من أدرانا أن هذا التحالف لن ينقلب ضدنا؟!.. الدكتور (عرفان) سيبذل قصارى جهده للعودة إلى عالمنا، حتى لا يلقى مصرعه هناك. وربما يؤدي هذا إلى أن يكشف نظراؤنا في العالم البديل وسيلة القفز من عالم إلى آخر، ويمتلكوا القدرة على التحكم فيها، مما يهدد أمن عالمنا وسلامته بخطر الغزو؟!. من أدرانا أنهم لن يسعوا عندئذ لاحتلال عالمنا، والسيطرة عليه؟

صمت الدكتور (هايدن) بضع لحظات، وهو يفكر في هذا الموقف..

إنه واثق من أن (عرفان) سيبذل قصارى جهده للقاء نظيره في العالم البديل..

ولكنه يجهل ما يمكن أن يؤدي إليه هذا؟!..

ترى هل سيقفز العلم قفزة جبارة، في العالم البديل، بسبب هذه الحادثة؟!.

أم أنه سيسعى بالفعل لاحتلال عالمه والسيطرة عليه؟!..

بل، والسؤال الأساسي، هو: هل توجد وسيلة لاختيار موعد ومكان نقاط التماس بين العوالم المتوازية؟!.

وهل يمكن التحكم فيها مستقبلًا؟!..

وكيف؟!..

عشرات الأسئلة راحت تعربد في رأسه، دون أن يجد لها جوابًا شافيًا، لذا فقد تطلع إلى الرئيس، ورسم على شفتيه ابتسامة،

وهو يجيب:

- أعتقد أن هذا سيظل لغزًا، يضاف إلى ما لدينا من غوامض علمية وخارقة.

وعلى الرغم من ابتسامته، فقد امتقعت وجوههم، وارتسم عليها مزيج من القلق، والخوف المبهم من المستقبل..

وفي ذعر، راح كل منهم يعتصر ذهنه في محاولة لتحليل هذا الموقف الجديد..

الموقف الذي بدا لهم أشبه باللغز..

لغز جديد غامض، و...

ومخيف..

مخيف إلى أقصى حد.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- كيف؟!..

2- الغموض!!..

3- الأعماق..

4- المجهول..

5- هروب..

6- تحدّي المستحيل..

7- العالم البديل..

الفهرس:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

قلبي ليس للبيع

د. نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

..سلسلة كوكتيل 2000

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

أوراق زهور

قلب ليس للبيع

(قصة كاملة)

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

(قصص العدد)

أوراق زهـور

قلبي ليس للبيع

علمتنا الحياة أن القاعدة الأساسية للوجود، هي أنه لكل شيء ثمن..
والحب ليس إستثناءً من القاعدة..
ولكن له ثمنًا واحدًا..
الحب..

نبيل

1- الأوراق..

صدقوني.. لست أدري كيف أبدأ قصتي هذه!..

بل لست أدري حتى كيف يمكن أن يكتب شخص ما قصته ويخطها على الورق!..

كيف يمكن أن يحول مشاعره إلى كلمات؟!

كيف يفرغ عذابات أعماقه فوق أوراق جامدة، لا تشعر أو تبالي، أو تتفاعل مع آلامه ومرارته؟!..

كل ما يمكن أن يشعر به الورق هو دموعي، التي تتساقط فوقه، لأن مواضع سقوطها عليه ستتجعد، وتتغير، وتفسد سطحه المنمق الأنيق..

ولكنني لا أجد بديلا عن الكتابة..

لابد أن أروي قصتي لأحد، قبل أن تتصاعد نيران قلبي أكثر وأكثر، وتلتهم كياني كله..

لابد أن يعرف شيء ما، ما فعلته بقلبي ونفسي وحياتي..

ولن أجد من يحفظ سري ويصونه سوى الورق..

وحده سيستوعب في مساحاته كل كلماتي، دون أن يفشي سري..

دون حتى أن يقاطعني..

أو يلومني..

أو يسخر مني..

الورق وحده سيحتمل اعترافي، الذي ساخطه عليه بكل صراحة ووضوح، و..

ومرارة..
ثم إنه لن يعارض قراري في النهاية..
فإما أن أحتفظ باعترافى هذا فوق الورق..
أو أمزقه، وأشعل فيه النيران..
إنه قرارى وحدي..
بعد أن أنتهي من اعترافى..
وياله من اعتراف!!
هيا.. خذي كلماتي أيتها الأوراق، قبل أن تنهار أعماقي..
وأعجز حتى عن الكتابة..
في البداية دعيني أقدم لك نفسي..
اسمى (هبة)..
ولا تسأليني عن باقي الاسم..
يكفيك اسمي أنا..
(هبة)..
كل ما يمكنني أن أخبركِ به عن أسرتي هو أنها أسرة كبيرة..
شهيرة..
معروفة..
وثرية.
وهذا الثراء الفاحش - كما يقولون - هو أساس مشكلتي..
أو فلتقولي.. مأساتى..

فأنا، أيتها الأوراق، من تلك الفئة، التي يقال: إنها ولدت وفي فمها ملعقة من ذهب..

بل ولن أبالغ لو قلت: إنها لم تكن فقط ملعقة لقد ولدت وفي فمها طاقم كامل من الذهب والماس وكل الأحجار الكريمة المعروفة.. وأحيط مولدى بحفاوة بالغة، عبرت عنها الصور الضوئية وشرائط (الفيديو) المسجلة، التي شاهدتها في حداثتى، والتي ملات نفسى بالزهو والفخر، وجعلتني أتصور نفسي كأميرة من أميرات الأساطير، التي أشاهدها في أفلام (والت ديزنى)، التي تفتحت عيني لأجد مجموعة كاملة منها في مكتبتى، فوالدي ووالدتي ينتميان إلى عائلتين بالغتي الثراء، ولقد تم زواجهما، مثلما يحدث في هذه الطبقة، كإجراء اقتصادى، لدمج الثروتين، وكخطوة تجارية، لإنشاء إمبراطورية مالية تسدّ عين الشمس، كما يقول العامة..

ولخمس سنوات كاملة، لم ينعم الله سبحانه وتعالى) عليهما بالإنجاب، على الرغم من تأكيد كبار الأطباء، في (مصر) والعالم، على أن كلا منهما طبيعى، ولا يوجد ما يمنعه من الإنجاب..

ثم فجأة، وبعد أن بدأ اليأس يتسلل إلى نفوس الجميع، أعلنت أنا عن وجودي على نحو درامى..

فكما روت لي جدتي فيما بعد، كان أبي وأمي يحضران حفلا رسميا في سفارة دولة كبيرة، وكانت أمي تهم بشرب كوب من العصير الطازج، عندما أطلقت فجأة شهقة مكتومة، ورفعت يدها إلى فمها، ثم أسرعت إلى الحمام؛ لتفرغ كل ما في جوفها مع. آهة حارة..

وفي منتصف الليلة نفسها، أعلن طبيب العائلة البشري..

وبعد ثمانية أشهر وستة أيام بالضبط من هذه الواقعة، أطلقت أنا صرختي الأولى في هذه الدنيا..

وكان من الطبيعي أن يقام في حفل (سبوع) أسطوري، على الرغم من أننى أتيت أنثى، ولست ذكرا كما كان أبي وأمي يتمنيان..

وبعد مولدي بقليل، امتلأت نفس والدي باللهفة لإنجاب طفل آخر، وأيدت أمي لهقته هذه بلهفة مماثلة، ولكن كليهما أدركا بعد سنوات أربع، أن هذا الأمل لم يعد ممكنا، وأن عليهما أن ينتظرا حملا مصادفا، كما جاء حمل أمى بى..

ولم يحدث هذا الحمل أبدا للأسف..

ولهذا، أصبحت الابنة الوحيدة، والمدللة لتلك الأسرة الشهيرة الثرية..

ومنذ بدأت أعي ما حولى، انتبهت إلى أن كل طلباتي أوامر، وإلى وجود جيش من الخدم والحشم، لا هم له إلا تلبية أوامرى، واللهاث لإحضار كل ما أشير إليه، مهما كان صعبا أو عسيرا..

أو حتى مستحيلا..

وشيبت بالفعل كالأميرة، وحباني الله (سبحانه وتعالى)..

بجمال طبيعي زاد من زهوي ونرجسيتى، وخاصة عندما ألمح نظرات الإعجاب والانبهار، في عيون كل الشبان الذين ألتقي بهم، في الأسرة، أو النادي، أو حتى في كلية الآداب، التي التحقت بها بعد عامين من الرسوب في الثانوية العامة..

والتحاقي بكلية الآداب هو البداية الحقيقية لقصتي..

فهناك، التقيت بـ (عمر)..

وقبل أن أقص عليكم لقائي الأول به، دعوني أشرح لكم أمرا مهما..

صحيح أنني نشأت بالغة الثراء والتدليل، وأن هذا قد جعل طباعي لا تطاق، كما ينبغي أن أعترف الآن. إلا أنه ترك لي قلب بنت عادية..

قلب حالم، عاطفي، يهفو إلى لمسة الحب الأولى، وإلى دقات العشق، التي تختلف حتما عن كل دقات القلب العادية، وتعزف وحدها لحنا تلتهب به مشاعر كل أنثى..

وبالذات في تلك الفترة من العمر..

وفي معظم ليالي الصيف والربيع، لم يكن يغمض لي جفن..

حتى مطلع الفجر، وذهنى يشترك مع قلبي في رسم صورة لفتى أحلامي..

صورة راحت تتكون وتتشكل مع الأيام، حتى خلت أنها حقيقة، وأن فتى أحلامي هذا حي يرزق، يحيا في وجداني وأصبحت لدي ثقة قوية بأنني سألتقى به يوما في عالم الحقيقة، حتى إنني رحت أنتظر هذا اللقاء، وأترقبه في لهفة، وأحلم به في نومي ويقظتي..

وأعتقد أنكم، بعد ما شرحته لكم، ستفهمون جيدا لماذا سَرَت في عروقى قشعريرة باردة، وانتفض جسدي كله، واختلج قلبي بين ضلوعي، عندما وقع بصرى على (عمر) لأول مرة..

وفي أول يوم من أيام الدراسة..

بل في أول ساعة..

لقد كان (عمر) هو رئيس اتحاد طلاب الكلية، وكان قد أعدّ حفل استقبال بسيط للطلبة الجدد، لامتصاص توترهم وقلقهم، ومنحهم الشعور بالأمان والهدوء، ودفعهم إلى تعرف مجتمعهم الجامعي، والاندماج فيه دون مخاوف أو تعقيدات..

وما إن وقعت عيناي على وجه (عمر) الوسيم وابتسامته الهادئة الودود، حتى وجدت نفسي أهوى في بئر حبه حتى القرار، وأصرخ بكل لهفة في أعماقي إنه هو..

إنه فتى أحلامي..

كان نسخة طبق الأصل من تلك الصورة، التي صنعتها في أحلامي منذ تنسم قلبي رحيق المراهقة الأول..

نفس الوجه، والعينين، والابتسامة..

نفس الهدوء، والثقة، والوسامة..

إنه هو..

ولست أدري بالضبط كيف مر بي ذلك الحفل، ولا ما إذا كان الجميع قد لاحظوا نظرة الانبهار، التي أحدجه بها طوال الوقت أم لا، ولكن ما أعرفه جيدا هو أن الحفل لم يكد ينفض، حتى لو كنت قد اتخذت قراري في هذا الشأن..

فلم يعد الهدف من التحاقي بكلية الآداب، هو الحصول على شهادة الليسانس..

بل أصبح هدفي الأول هو الحصول عليه..

على (عمر).

☆ ☆ ☆

2 - اللعـبة...

«أستاذ (عمر)....»

لست أدري ما إذا كانت اختلاجة قلبي قد انتقلت إلى صوتى أم لا، عندما ناديته باسمه، في ساحة الكلية، ولكنه عندما التفت إلى، كانت عيناه تحملان نظرة عجيبة، تجمع ما بين الدهشة والتساؤل والاهتمام، مع شيء من الإعجاب، شجعني على الاستطراد، قائلة في سرعة:

- أريد استشارتك في أمر خاص..

ارتفع حاجباه في مزيد من الدهشة، وهو يغمغم:

- خاص؟!

ارتبكت وأنا أجيب:

- نعم.. خاص بخبرتك في.. في اتحاد الطلاب..

رمقني بنظرة طويلة، وكأنه يحاول النفاذ إلى أعماقى وكشف الهدف الحقيقي لسؤالي، إلا أنه لم يلبث أن اعتدل في هدوء، وقال في لهجة مهذبة

- أنا رهن إشارتك.. ما الذي ترغبين في معرفته؟!

ارتبكت أكثر وأكثر، لأنه لم يكن لدي ما أسأل عنه فعليا وتطلعت إليه لحظات في صمت متوتر، وهو يتطلع إلى عيني مباشرة، في انتظار سؤالي، ونظراته تزيدني اضطرابا وارتباكا، والصمت بيننا يطول ويطول، حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة متعاطفة، وسألقي بلهجة هادئة رقيقة:

- هل ترغبين في ترشيح نفسك، في انتخابات اتحاد الطلاب القادمة؟؟

كدت أصرخ من فرط السعادة، عندما انتشلني سؤاله من بحر حيرتي العميق، وهتفت في لهفة:

- بالتأكيد.

اتسعت ابتسامته، وهو يسألني:

- لأية لجنة من لجان الاتحاد؟

أجبته بسرعة:

- اللجنة التي تنتمي إليها.

قفزت الدهشة إلى وجهه وعينيه بغتة، وانفرجت شفتاه لحظة في حيرة واضحة، ثم اعتدل في وقفته، وخيل إلى أنه فهم حقيقة الموقف في لحظة واحدة، وهو يجيبني في رصانة ووقار، اختلج لهما قلبى:

- اللجنة الاجتماعية ترحب بكِ يا آنسة...

هتفت بسرعة:

- (هبة).. اسمى (هية)..

ابتسم، قائلا:

- اللجنة الاجتماعية ترحب بكِ يا آنسة (هبة)، وأعدكِ أن أساعدك بقدر استطاعتي، وفي حدود ما تسمح به لوائح اتحاد الطلاب، لتفوزي بالمقعد، في الانتخابات القادمة بإذن الله.

رقص قلبي لكلماته، واختلج في قوة، وأنا أراقبه يبتعد عني، وهتف هاتف في أعماقي للمرة العاشرة..

أريد هذا الشاب بالذات..

أريده..

وبكل اللهفة والرغبة في أعماقي، رحت أجمع أكثر قدر من المعلومات عن (عمر)..

وكان أول ما عرفته هو أن (عمر) من أسرة عادية بسيطة.

لا هي بالغنية ولا بالفقيرة..

اسرة يمكنها أن تحيا حياة كريمة، وأن تحصل على كل احتياجاتها الضرورية، ولكنها لا تستطيع التطلع إلى الرفاهية..

ولا تملك حتى أن تفعل، ولا أن تدخر قرشا واحدا..

وعرفت أيضا أن (عمر) من المتفوقين في الكلية، وأنه فاز بمنصب رئيس اتحاد الطلاب لعامين على التوالي، وأنه يستعد لترشيح نفسه للمنصب ذاته، في هذا العام أيضا..

وأنه يهوى التصوير الفوتوغرافي، ويزاوله باستخدام آلة تصوير بسيطة بدائية روسية الصنع، يعتز بها كثيرا، على الرغم من

إمكانياتها المتواضعة، التي يجيد استخدامها والتعامل معها؛ ليخرج بلقطات رائعة فريدة، لم أر أجمل منها في حياتي كلها..

وبحسبة بسيطة، أدركت أن هذا هو المدخل الصحيح لقلب (عمر)..

هوايته..

ففي طفولتي، سمعت جدي يقول: إن أفضل وسيلة للتقرب إلى شخص ما، هي مشاركته هوايته المفضلة، فالمرء يميل بطبيعة الحال إلى من يشاركونه اهتماماته وميوله..

وفي مساء اليوم نفسه، أبرقت إلى مكتب والدي في (واشنطن) طالبة من المدير هناك أن يبتاع لى أفضل الة تصوير يابانية موجودة، وأن يرسلها إلى (القاهرة) بأسرع وأضمن وسيلة ممكنة..

وعلى عكس (عمر)، لم يكن الحصول على أحدث الة تصوير في العالم، يمثل لي أية مشكلة، فلم تمض أيام ثلاثة على برقيتي، حتى وصلتني حقيبة أنيقة، تحوي آلة تصوير حديثة للغاية، مع طاقم العدسات الخاص بها.

ولم يحاول طاقم مكتب (واشنطن) حتى استشارة أبي في (القاهرة)، قبل شراء آلة التصوير وإرسالها، فقد علمتهم الأيام أن طلبات (هبة) أوامر، لابد وأن توضع دائما على قمة الاهتمامات، وأن تسبق حتى أوامر أبي نفسه.

وعندما وصلت آلة التصوير لم يحاول أبي حتى أن يسأل عن سبب طلبي لها، ولم يلق نظرة واحدة على فاتورة شرائها، التي تجاوزت الألفي دولار..

إنها لعبة جديدة طلبتها (هبة)..

وهذا يكفي..

الشيء الوحيد الذي أدهشه، هو فرحي الشديد ولهفتي البالغة، عندما وصلت آلة التصوير، فحتى في طفولتي، لم أبدِ أي فرح أو لهفة، تجاه أية لعبة جديدة، مهما بلغت قيمتها، أما والدتي، فقد أضاء وجهها بابتسامة كبيرة، وربت على كتفي، وهي تتمنى لى المزيد من السعادة كعادتها..

وفي تلك الليلة لم يغمض لي جفن بحق..

لقد قضيت ليلتي كلها أقلب آلة التصوير، وأقرأ الدليل الخاص بها، في محاولة لفهم بعض خواصها، قبل أن أحملها في الصباح التالي إلى الكلية..

وفي لهفة، رحت أبحث عن (عمر) في كل مكان، حتى عثرت عليه، منهمكا في الحديث حول انتخابات اتحاد الطلاب القادمة، مع عدد من زملائه، فأقحمت نفسي في حديثهم، بحجة استعدادي لخوض الانتخابات، وتركت حقيبة آلة التصوير الجديدة تتدلى من كتفي في أناقة، وقلبي يخفق في قوة، ويتمنى ألا يستغرق (عمر) طويلا، قبل أن يبدي اهتمامه بها..

ورقص قلبي بين ضلوعي في سعادة غامرة، عندما لمحته يتطلع إلى الحقيبة في اهتمام بالغ، ولهفة لم يحاول إخفاءها، قبل أن يميل نحوى. ويسأل:

- هل تحوى هذه الحقيبة آلة تصوير، أم....

لم أمنحه الفرصة ليتم سؤاله وأنا ألتفت إليه، وأجيب في سرعة ولهفة:

- بالطبع.. هل ترغب في رؤيتها؟

تهللت أساريره كطفل صغير، وهو يهتف:

- آه.. بالتأكيد.. لو أنك تقبلين هذا.

أسرعت أدفع الحقيبة كلها إليه، وأنا أقول في سعادة:

- ولماذا أرفض؟!.. الواقع أنني أحضرتها خصيصا لسؤالك عن بعض خصائصها، فأنا أعلم أنك تهوى التصوير الضوئي وعاد قلبي يرقص طربا، وهو يلتقط الحقيبة في حرص ملهوف، كما لو أنه أب يحمل طفله الأول فور مولده، وأطلت سعادته مع صوته، وهو يقول:

- إنها المرة الأولى التي أشاهد فيها آلة تصوير من هذا الطراز.. لقد قرأت عنها فحسب..

وفي تلقائية جميلة، جلس فوق إحدى درجات السلم المجاور، والتقط آلة التصوير من الحقيبة في حرص وعناية، وكأنما يلتقط تحفة ثمينة من زجاج هش، ويخشى أن تحطمها أصابعه، مع أقل ضغط..

وتضاعف انبهارى به، وأنا أجلس إلى جواره، وأراقبه وهو يفحص آلة التصوير في سعادة وانبهار، وعلى نحو يشفّ عن اهتمام وخبرة في هذا المجال، وحاولت أن أقول شيئا، إلا أن الكلمات انحبست في حلقي، وظلت تقاوم لساني طويلا، قبل أن تنطلق في صوت متحشرج:

- هل.. هل تروق لك؟!

هتف بالجواب في حماس:

- بالتأكيد.. لطالما تمنيت الحصول على مثلها..

ثم تلاشى الحماس من صوته وعينيه، وأطل شيء من الحزن بدلا منهما، وهو يتابع في خفوت:

- ولكن لا أملك ثمنها..

تمنيت لحظتها أن أهتف به:

- إنها لك.. لقد أحضرتها من أجلك..

ولكن الكلمات احتبست في حلقي، وأنا أتطلع إليه صامتة، في حين راح هو يقول، وهو يتابع فحص آلة التصوير:

- هل تعلمين.. بآلة تصوير كهذه، يمكنني أن أقيم معرضا فريدا، خلال شهر واحد..

اخترقت كلمة واحدة حلقي، وأنا أتمتم بصوت مختنق:

- حقا؟!

تنهد مجيبا:

- ليس لدي أدنى شك في هذا.. إنها آلة تصوير رائعة، وإمكانياتها بلا حدود.

كدت أحسد آلة التصوير، على ما تحظى به من حبه ورعايته واهتمامه، وأنا التقط أنفاسي، وازدرد لعابي، قائلة:

- فليكن.. يمكنك أن تبدأ في الإعداد لمعرضك..

التفت إليّ، يسألني في دهشة:

- ماذا تعنين؟!

تطلعت لحظة إلى عينيه الحانيتين المندهشتين، قبل أن أجيب:

- أعني أنه يمكنك الاحتفاظ بها، حتى تقيم معرضك.

اتسعت عيناه عن آخرهما، وقفزت دهشته إلى ذروتها، وهو يقول:

- أحتفظ بها؟!.. هل تعنين حقا ما تقولين؟!.. أتعلمين كم تساوى آلة تصوير كهذه؟

نهضت قائلة:

- إنها لن تساوي شيئا، لو لم تخرج منها صور رائعة، كالتي تلتقطها أنت.

حدّق في وجهي بدهشة بالغة، وأطل في عينيه مزيج من الشكر والامتنان، كاد قلبي يهوى له بين ضلوعي، لو لم أهتف مستطردة:

- اعتبرني شريكتك في معرضك القادم..

وأسرعت أبتعد عنه، قبل أن تفضحني عيناي، أو تبلغ خفقات قلبي مسامعه..

وعندما غادرت الكلية، كنت واثقة من أنني قد ربحت الجولة الأولى في اللعبة..

وفي قلبه..

☆ ☆ ☆

3- خفقات..

لم يكد موسم الانتخابات الطلابية يهل، حتى اشتعلت الجامعة كلها بالحماس، واكتظت جدرانها باللافتات الدعائية، التي تدعو الطلاب لانتخاب هذا أو ذاك، وتجمع عدد من الطلاب في كل ركن، حول بعض المرشحين، الذين راحوا يشرحون برامجهم الانتخابية، بكلمات حماسية وأصوات عالية..

فيما عدا (عمر)..

وحده ظل هادئا مبتسما كعادته، يتحدث إلى الجميع في تلقائية وبساطة، دون أن أجد اسمه على لافتة واحدة..

وبكل الدهشة والقلق في أعماقي، سألته:

- أين دعايتك الانتخابية؟!.. لماذا لا تشرح برنامجك للزملاء كما يفعل الآخرون؟

ابتسم في هدوء، وهو يجيبني:

- برنامجي لا يحتاج إلى الشرح، فأفراد دفعتي كلهم يعرفونني، ويعرفون ما فعلته من أجلهم طوال العامين الماضيين، أما بالنسبة للدعاية، فلن يمكنني تعليق لافتات أنيقة كالآخرين..

سألته في حيرة:

- لماذا؟

تطلع إلى عيني لحظة في صمت، قبل أن يجيب في بساطة، دون أن يفقد ابتسامته الهادئة الواثقة:

- لأنني لا أملك ثمنها..

صدمني الجواب في البداية، وجعلني أتساءل في أعماقي:

- أمن الممكن ألا يجد شخص ما ثمن مجموعة من اللافتات الدعائية؟

ولكنني لم ألبث أن تذكرت حديثا قديما لجدتي، أخبرتني فيه أنه من الناس من لا يجدون حتى قوتهم اليومي، فغمغمت في خفوت:

- لا تملك ثمنها!

أومأ برأسه إيجابا في بساطة، وتابع:

- أسرتي أسرة عادية، ليست بالفقيرة أو الغنية. ووالدي لا يبخل علينا بكل ما يمتلك، ولكن ليس من العدل أن أنفق جزءا من دخلنا المحدود لعمل دعاية انتخابية..

تطلعت إليه في البهار، وهو يتحدث إلي بتلقائية مدهشة، ويصف لي حياته ومستوى أسرته المحدود...

وفي أعماقي ولدت فكرة جديدة..

لو أن (عمر) لا يملك تكاليف حملته الدعائية، فأنا أملكها، ولكن كيف يمكنني منحه إياها؟!..

إنه سيرفض أية نقود بالتأكيد، حتى ولو منحته إياها كقرض محدود، ولن يقبل الفكرة من الأساس، و....

وفجأة، قفزت الفكرة إلى ذهني..

ولأنها لم تكن تحتاج إلا للوقت والنقود، فقد شرعت في تنفيذها فور عودتي إلى المنزل..

لم أقم بتنفيذها بنفسي بالطبع، وإنما أسندت المهمة إلى واحد من موظفي والدي، الذي أسرع يعدُّ كل ما طلبته منه، دون أية أسئلة كالمعتاد..

وفي الصباح التالي، كانت جدران الكلية كلها تحمل لافتات دعائية بالغة الأناقة، تدعو لانتخاب حبيبى (عمر)...

وجاء رد فعل الجميع عجيبا للغاية..

لقد أصابتهم دهشة بالغة، لأن (عمر) لم يستخدم اللافتات الدعائية قط، منذ قام بترشيح نفسه في الانتخابات للمرة الأولى، وكان أكثر الجميع دهشة هو (عمر) نفسه..

لقد أدار عينيه في اللافتات حائرا، قبل أن يقول في دهشة تحمل شيئا في الاستنكار:

- من فعل هذا؟

ارتبكت للأسلوب الذي نطق به عبارته، وسألته - ألم يسعدك هذا؟ أجابني في حدة:

- كلا بالطبع.. فكرة اللافتات الدعائية هذه تخالف أسلوبي تماما..

شعرت بالحرج، وأنا أغمغم:

- ربما فعلها شخص يحبك، تصور أنها ستفيدك..

وتعمدت الضغط على كلمة (يحبك) هذه، لعل رسالتي تصل إليه، إلا أنه لم ينتبه إلى هذا، وهو يجيب في شيء من الغضب:

- كان ينبغي أن يستشيرني أولا..

انخفض صوتي أكثر، وأنا أجيب في انكسار:

- لقد خشي أن ترفض..

قال في عصبية:

- ولو.. كان المفترض أن..

ثم بتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه، وهو يلتفت إليّ ويحدق في وجهي بدهشة، جعلتني أخفض عينى، متمتمة:

- لم أكن أدرك أن هذا سيغضبك هكذا..

هتف في لهجة أشبه بالارتياح:

- أنت؟

ارتجفت شفتاي، وأنا أومئ برأسي إيجابا، والدموع تترقرق في عيني، فحدق في وجهي لحظة، وانفرجت شفتاه، وكأنه يهمّ بقول شيء ما، ثم لم يلبث أن أشاح بوجهه، وانطلق مبتعدا في خطوات سريعة واسعة.

وخفق قلبي في عنف..

خفق كطير ذبيح، يذرف آخر قطرة من دماء الحياة..

وانهارت مشاعري كلها في أعماقي..

ماذا فعلت؟!

ماذا فعلت؟!

لقد سعيت لكسب قلب حبيبي، فخسرته إلى الأبد..

نشدت سعادته، ففجرت غضبه وسخطه على أبدا

ودون أن أدري، انسكبت دموعي الحارة على وجهي، وراحت تغرقه كسيل وحشى، دون أن أنتحب، أو تصدر عن أهه واحدة..

والعجيب أن أحدا لم يحاول سؤالي عن سبب بكائي، أو يقترب مني حتى طوال الفترة التي سالت فيها دموعي..

الجميع اكتفوا بالتطلع إلى لحظات، ثم انصرفوا غير عابئين..

وكأنما لا يعنيهم أمري، أو تشغلهم دموعي..

ربما لأنني لست الطالبة الوحيدة، التي سالت دموعها في الحرم الجامعي..

أو لأنه ليس لي أصدقاء سوى (عمر)، في الكلية كلها..

ربما..

المهم أنني ظللت أبكى لنصف ساعة أو يزيد، حتى خيل إلى

أن دموعي قد نضبت تماما، عندما فوجئت بيد تمتد إلى بمنديل نظيف، وصاحبها يقول في خفوت:

- جففي دموعك..

خفق قلبي مرة أخرى في عنف، وأنا ألتفت إليه..

إلى (عمر)..

ومع اللهفة التي أطلّت من عيني، غمغم هو في شيء من الخجل:

معذرة.. لم أكن أقصد ما قلته.. الواقع أنني أشكرك كثيرا على ما فعلت من أجلي.. صدقيني.. أنت أفضل أخت لي في هذا العالم..

ولا أحد يمكنه أن يصف خفقات قلبي في تلك اللحظة..

لقد رقص كياني كله معها، وهو يشكرني على ما فعلته من أجله، وكادت تلك اللحظة تصبح أفضل وأروع لحظات حياتي..

لولا كلمة واحدة..

عندما وصفني بأنني أفضل (أخت) له..

لا يا (عمر)..

لست أريد أن أكون أختك..

أريد أن أصبح حبيبتك..

حبيبتك يا (عمر)..

ولكن لا بأس بها من بداية..

المهم أنه شعر بما أفعله من أجله..

وأدرك كم أحبه

والأكثر أهمية أنه نجح..

نجح نجاحا ساحقا في هذا العام، أفضل مرتين من نجاحه في الأعوام السابقة، وكأنما أتت فعلتي ثمارها، وأضافت إليه أصوات

نخبة جديدة من الطلاب، مازالت تؤمن بأسلوب اللافتات الدعائية التقليدية..

وفي غمرة سعادته بالنجاح، شكرني (عمر) في حماس لما فعلته من أجله، ثم قال لي في انفعال:

- وبالمناسبة.. آلة التصوير التي أقرضتني إياها، أدت عملها بنجاح منقطع النظير، وأنا أستعد لإقامة المعرض خلال أسبوعين..

صفقت بكفي في سعادة كالأطفال، وأنا أهتف:

- حقًا!

اتسعت ابتسامته، حتى شملت وجهه كله، وهو يومئ برأسه إيجابًا، ويقول في سعادة: - وأعتقد أنكِ أحق الناس بافتتاحه..

هل يمكنكم أن تتخيلوا سعادتي حينذاك؟!

لقد خفقت عروقي كلها بفرحة غامرة، ولم أستطع النوم لأسبوع كامل، وأنا أفكر فيما قاله، وفي المعرض القادم، الذي منحنى شرف افتتاحه، وفي كيفية جعله أفضل معرض للتصوير الفوتوغرافي شهدته الجامعة منذ افتتاحها، ولم يكن هذا عسيرا، مع اتساع دائرة معارف أبي واتصالاته...

وفي صباح يوم الافتتاح، فوجئ (عمر) بكل الصحف اليومية تقريبا تشير إلى معرضه، وتصفه بأنه رئيس اتحاد طلاب الكلية وفنان الجامعة، وتصدرت صورته باب أخبار الجامعات في إحدى الصحف الشهيرة، وتنازلت أنا عن حق افتتاح المعرض للأستاذ (رفقي)، أشهر مصور صحفي في (مصر) كلها، الذي انبهر

بالصور التي التقطها (عمر) بالفعل، وهنأه عليها كثيرا، وتنبأ له بمستقبل باهر..

بل وبلغت دهشة (عمر) ذروتها، عندما فوجئ بمندوب شركة خاصة يتعاقد معه على استغلال صوره في إنتاج نتيجة حائط أنيقة للعام الجديد، ومنحه عربونا ضخما، مع وعد بوضع اسمه على كل الصور..

وأعتقد أنكم أدركتم على الفور أن هذه الشركة واحدة من الشركات التابعة لإمبراطورية أبي..

ولكن (عمر) لم يدرك هذا لحسن الحظ..

ولقد قفزت سعادته إلى القمة بهذا المعرض، وأخبرني أننى جلبت له حسن الحظ..

وكان كل هذا كفيلا بتفجير كل ينابيع سعادتي..

لولا صورة واحدة..

صورة وضعها (عمر) في مكان الصدارة في معرضه، وكأنه يحمل لها اعتزازا خاصا للغاية..

أو بمعنى أدق، يحمل لصاحبتها كل الاعتزاز والتقدير..

فالصورة كانت الفتاة في مثل عمري تقريبا، عادية الملامح، بسيطة الملبس، على نحو يشف ّ عن التواضع ورقة الحال، ولكن وجهها كان يحمل ابتسامة عجيبة.. ابتسامة أثارت في أعماقى قدرا هائلا من الغيرة، بكل ما تحمله من رقة وعذوبة وسحر..

ابتسامة حب..

وفي قلق لا يوصف، سألت أحد أصدقاء (عمر) المقربين:

- لماذا أحاط (عمر) هذه الصورة بكل الاهتمام؟

ابتسم صديقه، وهو يتطلع إلى الصورة في إعجاب، قائلا:

- هذا أمر طبيعي، فهي صورة (ليلى)..

تصاعدت حدة الغيرة في أعماقي، وأنا أسأله:

- (ليلى) من؟!

أجاب في بساطة:

- (ليلى) ابنة عم (عمر)..

كان هذا الجواب وحده يكفي لإثارة أطنان من غيرتى، فما بالكم بما أضافه في هدوء:

- وحبيبته..

ومع قوله، انطلقت خفقات قلبي كقنبلة نووية..

لقد كان الجواب أشبه بصاعقة هوت على قلبي، ومزقته إربا..

بلا هوادة..

صاعقة لا تحمل أدنى قدر من الرأفة..

أو الرحمة..

☆ ☆ ☆

4- الصـدمة..

انتهى المعرض، ورفعت كل الصور من أماكنها..

فيما عدا صورة (ليلى)..

صحيح أنها لم تعد تحتل مكانها في صالة العرض، ولكن شيئا لم يستطع انتزاعها من قلبي وعقلي قط..

لقد انحفرت صورتها في كياني، وانغرست فيه، لتدمى قلبى طوال الوقت بلا انقطاع..

لم أستطع قط نسيان ما وصفها به صديق (عمر)..

إنها ابنة عمه..

وحبيبته..

لو أنها حبيبته، فمن أكون أنا؟!..

ما موقعي في قلبه؟!.

ما الذي صنعه كل ما فعلته من أجله؟!

لماذا هي وليس أنا؟!

لماذا؟!

لماذا؟

لماذا؟

لم أناقش هذا الأمر قط مع (عمر)، بل لم أشر حتى إليه..

على الرغم من لهفتي طوال الوقت لهذا..

وهو بدوره لم يشر إلى (ليلى) هذه أيدًا..

لقد استمرت علاقته بي أنيقة نظيفة، يغلفها الأدب والودّ، دون أن تتجاوز حدود الصداقة، أو تقترب، مجرد الاقتراب، من حافة الحب..

ووقر في قلبي أن (ليلى) هذه هي المسئولة عن الحاجز بيني وبينه..

هي السبب، في أن (عمر) لا يشعر بحبي له..

صحيح أنني لمحت نظرة حب في عينيه مرة أو مرتين، وهو يتحدث إلى، إلا أنها كانت تختفي بسرعة خلف حاجز من الرصانة والاحترام المهذب، اللذين ترتجف لهما عروق حنقا..

وغضبا..

وصدقوني أنني حاولت جاهدة نسيان أمر (ليلى) هذه..

حاولت، وحاولت، وحاولت.

ولكنني فشلت..

لم يكن بمقدوري قط أن أنسى الفتاة التي يحبها حبيبي..

لم يكن من الممكن أن أستوعب حتى وجودها..

وكثيرا ما كنت أتساءل: ما الذي وجده فيها؟!

ما الذي جعله يحبها؟!

وكلما ألقيت السؤال على نفسي، كانت صورتها تتمثل في ذهنى، بابتسامتها الرقيقة الساحرة، فتمتلئ نفسى بالغيرة والحنق والحسد، وأبكي طويلا في فراشي..

وعلى الرغم من ثقتي بحبه لها، واصلت علاقتي بـ (عمر)، الذي كاد يطير فرحا، عندما تم طبع النتيجة، التي تحوي صوره وتوقيعه، ومال على أذني هامسا:

- الفضل لكِ، بعد الله (سبحانه وتعالى).

رقص قلبي فرحا لقوله، ووجدت نفسي أكره (ليلى) هذه أكثر وأكثر، فلولاها لكان قليه خالصا لى، بكل حبه ودفئه وحنانه..

ولست أدري كيف مر بنا العام الدراسي، وقلبي يحمل كل هذه المشاعر، ولكنني استيقظت فجأة، لأجد أن (عمر) قد انتهى من الامتحانات النهائية، وبات ينتظر النتيجة، للحصول على درجة (الليسانس)..

وفي آخر أيام العام الدراسي، جلست طويلا مع (عمر)، الذي حدثني عن آماله وأحلامه، على نحو وجد صدى رائعا في قلبي، وجعلني أتساءل: أما زال يحب (ليلى) هذه حقا؟!

وعندما نهضنا لننصرف، كدت أتعلق به، وأناشده أن يبقى، فلم يكن بمقدوري أن أتصور أنه سيمضي الصيف كله، دون أن أراه.

ولقد ضغط هو يدي في حنان دافئ، وهو يقول

- سأبذل قصارى جهدي لتظل على اتصال يا (هبة)، وأتمنى أن أراك يوم ظهور النتيجة..

قلت بصوت متهدج:

- سأنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر.

لم أكد أنطقها، حتى شعرت بخجل عارم، جعلني أستطرد في سرعة:

- لأعرف نتيجتك على الأقل.

حمل وجهه ابتسامة حانية رائعة، وارتفع حاجباه في تأثر وهو يتطلع إلى عيني مباشرة، قبل أن يقول في عمق:

- النتيجة لا تقلقني كثيرا يا (هبة).. لقد بذلت قصارى جهدي، وأعتقد أن النجاح سيكون من نصيبي بإذن الله، ولكنه مجرد خطوة في حياة الإنسان، فالمهم بعدها أن يحصل على عمل جيد، وأن ينجح في حياته العملية، و..

وصمت الحل، وهو يواصل التطلع إلى عيني، قبل أن يضيف بصوت خافت حنون:

- وأن يحقق أحلامه..

لا أحد يمكنه أن يرسم صورة لي في ذلك اليوم..

لقد عدت إلى منزلي وأنا أطير من الفرح والسعادة، وعقلى يستعيد كل كلمة نطق بها..

إنه يحبني..

يحبني..

يحبني..

ولكن فجأة، عادت صورة (ليلى) ترتسم في خيالي..

وعاد ذلك السؤال البغيض يمزق قلبي..

كيف يحبك، وهو غارق في حبها؟!

القلب لا يحب مرتين..

هكذا علمونا في صغرنا..

وهكذا يقول قلبها..

ومرة أخرى، انتزعت (ليلى) فرحة قلبها مرة أخرى حرمتها من السعادة بمن تحب..

وبدلا من أن يرقص قلبها طربا لكلماته، بات يبكي بدموع من الدم؛ لأنه ليس لها..

ولكن هذا لم يمنعها من التفكير في أمره..

وفي كلماته الأخيرة..

النجاح وحده لا يكفي.. المهم أن يحصل المرء على عمل جيد..

وعلى حياة عملية ناجحة..

فكرت في كلماته طويلا وكثيرا، قبل أن تتجه إلى مكتب والدها الذي استقبلها بابتسامة كبيرة كعادته، وهو يقول:

- أهلا يا (هبة).. كيف حالك، وكيف تسير أيام الإجازة معك؟!

رددت تحيته، ثم قلت دون مقدمات، وأنا أضع أمامه بيانات (عمر):

- أبي.. أريد منك أن تجد وظيفة في شركاتك لهذا الشاب..

ارتفع حاجباه في دهشة، وألقي نظرة على بيانات (عمر) في اهتمام، قبل أن يسألني:

- ما مؤهلاته بالضبط؟

أجبته بسرعة:

- سيحصل على شهادة (الليسانس) بعد شهر واحد..

ارتفع حاجباه مرة أخرى، ثم هز رأسه، وسألني:

- لماذا هذا الشاب بالذات؟؟

خفضت عيني في خجل وأنا أجيب في خفوت:

- يهمني أمره.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة حانية، وهو يغمغم:

- آه.. فهمت..

ثم اعتدل في مجلسه، واستطرد بلهجة رئيس مجلس الإدارة الحاسمة:

- يمكنك أن تطمئنيه، فلو حصل على (الليسانس) هذا العام، سيجد وظيفة محترمة في انتظاره.

قفزت أتعلق بعنقه، وغمرت وجهه بالقبلات، فاتسعت ابتسامته الحانية، وهو يضمني إليه في رفق، وكأنما يعلن موافقته على ارتباطى بـ (عمر)، دون أن يسألني عنه أو عن أسرته، ومستواه الاجتماعي..

نفس ما كان يفعله، كلما راقت لي لعبة ما في طفولتي..

(هبة) تحتاج إلى هذا الشيء..

وهذا سبب كافٍ لحصولها عليه..

وأصبحت أعدّ الساعات والدقائق والثواني، في انتظار لحظة ظهور النتيجة، لأزف إلى (عمر) البشري..

بشرى حصوله على عمل في شركات والدي..

ولأنني أنتظر، مرت الدقائق كالساعات، والأيام كالشهور..

حتى خيل إلى أنه قد مر دهر كامل، قبل أن أهرع إلى الكلية لألتقي به، ونطالع معا نتيجته..

وكان لقاؤنا رائعا..

بالنسبة لي على الأقل..

لقد تصافحنا في حرارة، وأطلت اللهفة من عينيه، وهو يقول في رصانة:

- أهلا يا (هبة).. أوحشتني كثيرا..

أما أنا، فكدت ألقى نفسي بين ذراعيه، من شدة لهفتي إليه، وتخضب وجهي بحمرة الخجل، وأنا أقول:

- أنت أوحشتني أكثر..

وذهبنا معا لرؤية النتيجة..

ونجح (عمر)..

وفي غمرة سعادته بنجاحه، قلت له في حماس:

- لقد حصلت لك على وظيفة.

تطلع إلى بدهشة، فأخبرته بالأمر كله، وأطل تأثر واضح من عينيه، وهو يتطلع إلى عيني، قائلا:

- (هبة).. ماذا كان يمكنني أن أفعل بدونك؟

كانت هذه أروع عبارة سمعتها من بين شفتيه..

ماذا كان يمكن أن يفعل بدونى؟!.

ألا يعني هذا أنني متميزة؟!..

أنني أفضل منها..

من (ليلى)؟!

يومها فقط شعرت أنني تفوقت عليها، وأنني أصبحت أحتل في قلبه مكانة خاصة لن يمكنها الوصول إليها قط..

ولكن ما إن حل الليل، حتى عاد الشعور بالقلق ينتابني..

من أدراني أنه مازال يعتبرني أفضل (أخت) في الدنيا، وأنها وحدها تحتل مكان الحبيبة في قلبه؟!..

من أدراني أنني لست سوى صديقة عزيزة، تقدم الخدمة تلو الخدمة لصديقها، وأنني لم أحتلّ في قلبه قط موقع الحبيبة؟!

ذلك الموقع الذي ظفرت به (ليلى)..

(ليلى) ابنة عمه..

وحبيبته..

أقلقتني هذه الخواطر والأفكار، طوال اليومين التاليين، وانتزعت مني فرحتي وسعادتي بكلماته وموقفه، حتى علمت من أبي أنه قد تسلم عمله بالفعل في واحدة من الشركات، بمرتب لا يحلم به من يسبقه بسنوات من الخبرة.

وأن هذا من أجل خاطري وحدي..

ولأن لهفتي لرؤيته تنتصر دوما على كل مشاعري الأخرى، قررت أن أذهب لتهنئته في مكتبة الجديد..

وذهبت.

ارتديت يومها أفضل أثوابي، وكأنني في طريقي إلى حفل اختيار ملكة جمال (مصر)، لأنني كنت أشعر في أعماقي بأنني في منافسة دائمة مع حبيبته القديمة..

مع (ليلى)..

كنت واثقة من أنني أجمل وأفضل منها، إلا أنني لم أستطع التغلب على ذلك التوتر العنيف في أعماقي تجاهها، وأنا في طريقي إليه..

وعندما وصلت إلى مكتبه، كان قلبي يخفق في عنف شديد وتوتر يبلغ ذروته، وحنقي على (ليلى) يقف على قمة الغضب والثورة، و....

ودون أن أطرق الباب، دفعته لأدلف إلى مكتبه..

كان يولينى ظهره، ويتحدث عبر الهاتف في اهتمام شديد..

وسمعت اسم (ليلى) على لسانه..

لست أدري ماذا أصابني، عندما سمعته يردد هذا الاسم..

لقد تفجرت كل توتراتى وانفعالاتي، ووجدت نفسي أصرخ بلا وعي:

- (ليلى)؟!.. (ليلى) مرة أخرى؟!

التفت إلى في دهشة، وأشار إلى سماعة الهاتف، قائلا:

- إنها زوجة عمي.. أم (ليلى)، تهنئني بالوظيفة، و...

صرخت بكل غضب الدنيا:

- (ليلى).. (ليلى).. ألا يمكنك التفكير في سواها؟!

اتسعت عيناه في شدة، واعتذر لزوجة عمه في ارتباك، وأنهى المحادثة، ثم نهض إلى يسألني في حيرة متوترة:

- (هبة).. ماذا أصابك؟!..

ويبدو أن التفكير في (ليلى) لعدة أيام متواصلة ألهب أعصابى بحق، فقد وجدت نفسي أصرخ في وجهه ثائرة:

- ما الذي فعلته (ليلى) هذه من أجلك؟!.. أنا فعلت كل شيء.. أنا وحدي.. نقود أبي وثروته هما السبب في كل ما وصلت إليه حتى الآن..

اتسعت عيناه في ارتياع، وهو يحدق في وجهى غير مصدق، ولكنني واصلت في عصبية زائدة:

- لقد أحضرت آلة تصوير يابانية خصيصا من أجلك، بدلا من آلة التصوير السخيفة التي تملكها، وصنعت لك اللافتات الدعائية التي منحتك ذلك الفوز الساحق في انتخابات اتحادات الطلاب وجعلت الأستاذ (رفقي) يفتتح معرضك، وأجبرت والدي على شراء كل صورك من أجل نتيجة العام الجديد، وبأكبر ثمن ممكن، كما أجبرته على منحك تلك الوظيفة، التي لم تكن تحلم بمثلها، ولا بالمرتب الذي تحصل عليه منها.. أنا فعلت من أجلك كل شيء، وفي النهاية لا تفكر إلا في (ليلى) هذه.. (ليلى) وحدها.

تلاشت نظرة الارتياع من عينيه، وانعقد حاجباه في صرامة، وهو يقول:

- كفي.

صرخت في وجهه:

- كلا.. لن أكف.. ينبغي أن تعلم أن (ليلى) لم تكن لتمنحك نصف.. أو حتى شر ما منحتك أنا إياه.. (ليلى) لم..

أمسك كتفي فجأة في قوة، وارتجفت الكلمات على شفتيه في غضب، وهو يقول في حدة:

- (ليلى) لم يعد لها وجود..

رجتني كلماته حتى الأعماق، فحدقت في عينيه مرددة:

- لم يعد لها وجود؟!

أجابني في عصبية شديدة، لم أعهدها منه قط:

- نعم.. (ليلى) لم يعد لها وجود.. (ليلى) ماتت..

انتفض جسدي كله في عنف، وأنا أهتف ذاهلة:

- ماتت؟!

تخلى عن كتفي، وهو يقول في توتر:

- نعم.. (ليلى) ماتت قبل أن ألتقي بكِ بعام كامل.. ماتت بسبب سائق (أتوبيس) أرعن..

اتسعت عيناي في شدة، وأنا أتمتم:

- ولكن تلك الصورة في المعرض!!

أشاح بوجهه، وهو يقول في مرارة:

لو سألتِ، لعلمتِ أن تلك الصورة تتصدر كل معارضى..

إنها الصورة الوحيدة التي التقطتها لها..

ثم التفت يرمقني بنظرة نارية، مضيفا:

- التقطتها لها بآلة التصوير القديمة..

انهار كيانى كله في أعماقي، وأنا أتطلع إليه في ذهول، في حين عاد هو إلى مكتبه في بطء، وجمع أشياءه القليلة من فوقه، ثم اتجه إلى الباب في صمت، وأدار عينيه، ليلقي على نظرة أخيرة..

. نظرة جمدتني في مكاني، لكل ما تحمله من لوم وحزن وعتاب واستنكار، و...

وحبّ..

نعم..

في تلك اللحظة فقط أدركت أن (ليلى) لم تنافسني في قلبه قط.

ربما كانت حبيبته فيما مضى، ولكنها لم تعد كذلك الآن..

لقد كان يحبني أنا طوال الوقت..

أنا..

ولست أدري لماذا تجمدت في مكاني، والتصقت قدماى بالأرض، وهو يغادر المكان؟!..

لماذا لم أقفز لأتعلق به، وأصرخ بأنني لم أقصد أو أعنى كلمة واحدة مما قلتها له؟!..

وأنني أحبه بكل جوارحي..

بكل كياني..

بكل لهفتي ورغبتي كأنثى..

لست أدري حتى هذه اللحظة كيف تركته يرحل؟!..

كنت أعلم أنني جرحت كرامته، ومزقت قلبه بلا رحمة..

وأنه لن يغفر لى هذا قط..

لقد رحل (عمر).

لم يرحل من الشركة وحدها، ولكنه رحل من (القاهرة) كلها..

حتى أسرته لم تكن تعلم إلى أين ذهب..

كل ما يعلمونه هو أنه اتخذ قراره بأن يعمل وينجح

وبدون (هبة)..

بدون ثروة والدها واتصالاته..

ومن مدن شتي كانت تصلهم رسائله، التي تبشرهم بنجاحه في مجال التصوير، وفي سعادته بعمله الجديد..

أما أنا، فقد وصلتني منه رسالة لم يكتبها..

رسالة أدركتها منذ اللحظة التي ترك فيها العمل..

رسالة تقول: إن قلبه ليس للبيع..

لقد أحبني لأنني (هية)، وليس لأنني ابنة رجل ثري، يمكنها أن تمنحه كل شيء في الدنيا..

إنه لم يكن ينشد آلة تصوير فاخرة، أو لافتات دعائية أنيقة..

أو وظيفة محترمة براتب ضخم، عندما ربط قلبه بقلبي فقط، كان ينشد حبي..

الحب الخالص النقى..

الحب الذي لم أنجح في منحه إياه..

ولم أقز به منه..

لقد بذلت قصارى جهدي، لمعرفة، أين يعمل (عمر) ويقيم..

ولكنني فشلت..

أرجوكم، ابحثوا عنه معى..

أبلغوه أننى فهمت رسالته..

وأنني أحبه

وأريده..

وبأي ثمن.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- الأوراق..

2 - اللعـــبة...

3- خفقات..

4- الصـــدمة..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

أوراق بطل - الملحمة

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

أوراق بطل

د. نبيل فاروق

4730

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الي صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الي الجروب

انضم الي القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

أوراق بطل

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

قصة العدد

أوراق بطل

دار المؤسسة العربية الحديثة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الي المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

ذكريات كثيرة ينوء بها المرء، لسنوات وسنوات، وتظل حبيسة عقله وصدره، حتى يثقل بها رأسه، وتضيق معها أنفاسه، فيتمني، أكثر ما يتمني، أن يطرحها عن نفسه، ويرفع عبئها عن كاهله..
ولكن بعض الذكريات، لا يمكن أبدا أن تُطرح كاملة.. ولأسباب عديدة..
لذا، فالمرء يتخفف من بعضها فحسب، ويغزل في خياله ما يربط خيوطها ببعضها البعض..
ولعل في هذا ما يكفي..
هذه المرة على الأقل.

د. نبيل فاروق

١- البـطل..

«ما الذي تفعله هنا بالضبط؟!»
انطلقت تلك الصيحة الهادرة تخترق أذني، وأنا مستغرق بكياني كله في قراءة أحد الملفات، فانتفض جسدي في عنف، وقفزت من مقعدي بحركة الية، واستدرت أحدق في رجل قوى البنية، عريض المنكبين، أصلع الرأس، حازم الملامح والنظرات، انقض على بحركة حادة، واختطف الملف من أمامي، مستطردا:
- أين تظن نفسك؟! في مكتبة عامة؟!
أصابني ارتباك حقيقي، جعلني ألوح بيدي، متمتما في خفوت:
- لقد.. حصلت على تصريح خاص، و...
قاطعني في استنكار غاضب:
- تصريح خاص؟! أي تصريح هذا؟! ماذا أصاب جهاز المخابرات؟! هذه الملفات سرية للغاية!
كان يتحدث بصوت مرتفع، وهو يلوح بالملف في وجهي بأسلوب أقرب إلى التهديد والوعيد، مما أصابني بالمزيد من الارتباك والاضطراب، وجعلني أكرر:
- معي تصريح خاص.
سألني في حدة:
- ومن منحك مثل هذا التصريح.
از دردت لعابي في صعوبة، وهممت بالإجابة، لولا أن لمحت وجها مألوفا عند باب الحجرة، وصاحبه يجيب بابتسامة هادئة:
- أنا!
انعقد حاجبا الأصلع في شدة، والتفت إلي صاحب الجواب بحركة عنيفة، ثم لم يلبث أن أعتدل في وقفته، وهو يقول:

- السيد (أشرف)؟! معذرة، ولكنني لمحت وجها غير مألوف، يطالع أحد ملفات المخابرات، مما استفز مشاعري و..
قاطعه السيد (أشرف) بنفس الابتسامة الهادئة، وهو يربت على كتفه في رفق:
- أعلم هذا.. أعلم هذا.. لو أنني في مكانك لما اختلف رد فعلى كثيرا.. وأشكرك كثيرا على حماسك لتنفيذ الأوامر والتعليمات، وغيرتك على أمن العمل وأسراره أومأ الرجل برأسه، وغمغم:
- معذرة مرة أخري يا سيد (أشرف).
قالها، واستدار إلى بملامح هادئة، تختلف تماما عن ملامحه الغاضبة الثائرة، وأدهشتني ابتسامته العذبة، وهو يمدّ يده ليعيد إلى الملف، قائلا:
- تقبَّل أسفي.
أجبته بسرعة، وكأنني أخشى أن يتراجع:
- بالتأكيد.
أومأ برأسه في هدوء، وهو يمنحني ابتسامة أخري، قبل أن يغادر الحجرة، ويغلق بابها خلفه في هدوء..
ولثوانٍ، ظللت أحدق في باب الحجرة، حتى سمعت السيد (أشرف) يقول:
- هل أفزعك ما فعله؟
أجبته مع تنهيدة كبيرة:
- لقد جفت الدماء في عروقي..
أطلق ضحكة هادئة، وربت على ظهري؛ ليعيدني إلى مقعدى، وهو يلتقط مقعدا، ويجلس أمامي عبر المائدة، قائلا:
- ضع نفسك في موضعه، وتخيل أنك تتعامل طوال عمرك، باعتبار أن أية ورقة هنا تخضع لقواعد السرية المطلقة، ثم

فوجئت بشخص مجهول يطالع أحد ملفات العمليات السرية، فكيف يكون رد فعلك؟!
حاولت أن أبتسم، مغمغما:
- كنت سأقتله..
أطلق ضحكة أخري، قبل أن يقول:
- هذا يعني أنه كان رحيما بك..
شاركته ضحكته، قائلا:
- بالتأكيد.
استرخي في مقعده، ورمقني بنظرة طويلة صامتة، ثم سأل في هدوء، لا يخلو من اهتمام ملحوظ:
- هل قرأت الملف كله؟!
أومأت برأسي إيجابا، وقلت:
- إنها عملية ممتازة، ألقيتم القبض فيها على الجاسوس بمهارة واضحة، وصفعتم المخابرات الإسرائيلية صفعة قوية تردد رنينها طويلا..
ابتسم في هدوء، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه، متمتما:
- عظيم.
نطقها، وهو يتطلع إلي في اهتمام واضح، وكأنما ينتظر المزيد، إلا أنني لذت بالصمت طويلا، واحترم هو صمتي هذا، فلم ينطق بحرف واحد؛ ليمنحني زمام المبادرة، وحاولت أنا أن أقول شيئا، إلا أن الكلمات تعثرت في حلقي، فأطلقت سعالًا محدودا، قبل أن أغمغم:
- معذرة..
أشار بيده في هدوء، وابتسم قائلا:
- لا عليك.

عاد الصمت يغلفنا بعدها، وهو يتطلع إلى بنظرة فاحصة عميقة، من بين أصابعه المتشابكة، قبل أن يعتدل في مجلسه بغتة، ويسألني:

- لماذا تقدمت بطلب نشر بعض أعمال جهاز المخابرات؟!

كان سؤاله مباغتا في تلك اللحظة، فحدقت في وجهه لحظة، قبل أن أقول:

- المفترض أنني أجبت هذا السؤال بالفعل، قبل أن يتم منحي التصريح الخاص بمطالعة هذا الملف..

أجابني، وهو يتطلع إلى عيني مباشرة:

- لقد قرأت جوابك، الذي تقول فيه: إن هدفك من نشر أعمال المخابرات هو تحسين الصورة الذهنية للجهاز، عند عامة الشعب، وإعلان بطولاته، حتى يطالعها الشباب، ويدركون ما يبذله الوطن من أجلهم، وأن لبلدهم جهازا أمنيا قويا، يمكنه التصدي للأعداء بحزم وصرامة، وتحقيق انتصارات مبهرة في صراعه معهم أيضا.. كل هذا جميل ومنمق وحماسي للغاية، وربما كان السبب في موافقة اللجنة على الفكرة، ولكنني هنا أسألك عن السبب الحقيقي..

غمغمت، وعيناه تبدوان لي أشبه ببحر عميق، لا يمكنك خداعه، أو الفرار منه قط:

- السبب الحقيقي؟! أي سبب حقيقي؟!

رفع أحد حاجبيه، وخفضه مجيبا

- الشهرة.. الثراء.. التميز

التميز.. هناك أسباب عديدة، تخالف

كل ما ذكرته في جوابك الرسمي

ضايقني قوله، وبدا لي أشبه بالإهانة، فطال صمتي، واكتسبت نظرتي شيئا من التحدي والعناد، وأنا أتطلع إلى عينيه مباشرة، ثم

قلت:
- لماذا تلقي هذا السؤال؟!
ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة، وهو يتراجع ليسترخي في مقعده، ويقول في هدوء استفز مشاعري:
- لأني واثق من أنك تبحث عن شيء غير تقليدي..
سألته في شيء من العصبية:
- وما مصدر هذه الثقة؟!
أشار إلى الملف الذي أحمله، قائلا:
- هذا..
انعقد حاجبي في دهشة بالغة، وأنا أنقل بصري إلي الملف قبل أن أهتف مندهشا ومستنكرا:
- وماذا في هذا الملف؟!
أجابني بنفس الهدوء:
- العملية التي يحويها هذا الملف واحدة من أفضل عملياتنا على الإطلاق، والجاسوس الذي ألقينا القبض عليه فيها، أحد أكثر ضباط (الموساد) خطورة، ولقد شاركت في العملية بنفسي، وأعلم مدي قوتها، وعلى الرغم من هذا، فحديثك وصوتك يخلوان من الحماس تماما، مما يوحي بأنك لم تحصل على ما كنت تسعي إليه..
تطلعت إليه في دهشة أكبر، وأنا أتساءل: كيف أمكنه أن يغوص في أعماقي، ويسبر أغواري على هذا النحو؟!
كيف أمكنه أن يتسلل إلى وجداني، ويكشف منه ما حرصت أشد الحرص على كتمانه؟!
كيف؟!
كيف؟؟
خيل إلىَّ لحظتها أنه ليس مجرد رجل مخابرات عادى..

إنه ساحر..
قارئ أفكار، يمكنه قراءة كل ما يدور في خلايا مخي الرمادية..
أو خبير نفسي، لا يشق له غبار..
أي شيء، إلا مجرد رجل عادى..
وبكل ما يعتمل في أعماقي من دهشة ورهيبة، مع شيء من التوتر، غمغمت:
- أنت على حق.
لمحت في عينيه بريقا ظافرا، استغرقت لحظة واحدة، ثم تلاشي في سرعة، وهو يتطلع إليَّ في صمت رصين، يخفي
اهتماما شغوفا، جعلني أتابع:
- الواقع أنني، عندما أتيت إلى هنا، وتقدمت بذلك المطلب، لم أكن أسعى للحصول على عملية مبهرة، من عمليات المخابرات العامة.. ليس هذا ماكنت أبحث عنه..
اعتدل في مجلسه، وهو يسألني:
- ما الذي كنت تبحث عنه إذن؟!
صمت، وصمت..
وتطلع كلٌ منَّا إلى عيني الآخر طويلا..
طويلا..
وربما أطول مما ينبغي
وأخيرا أجبت، بكل ما في أعماقي من حزم وحسم:
- كنت أبحث عن بطل..
رفع أحد حاجبيه، مرددا في دهشة، لم يستطع إخفاءها:
- بطل؟!
شملني حماس مباغت، وأنا أجيب:
- نعم.. بطل.. بطل مصري، يزيح كل الأبطال الأجانب الآخرين أمامه، ويستقر وحده في وجدان الشباب، حاملًا قيمنا، ومبادئنا،

وتقاليدنا الدينية والاجتماعية، التي لن تتوافر قط في بطل أجنبي، مهما بلغت قوته وبطولته، ومهما بهر عقول الشباب، واستولى على قلوبهم..
تطلع إليَّ لحظة، وعيناه تحملان تأثرا واضحا، قبل أن يقول في خفوت:
- وكنت تتوقع أن تجد هذا في ملفات المخابرات:
تنهدت في عمق، ولوحت بيدي، قائلا:
- بل تمنيت هذا..
انعقد حاجباه في شدة، وخيل إلى أنه غارق في تفكير عميق، جعلني ألوذ بالصمت، وأعتدل في مجلسي، وأتطلع إليه بلهفة واضحة، وقلبي يخفق في قوة، وعقلي يهمس لي بأنه يحمل لي جوابا مدهشا..
جوابا يثلج صدري، ويمنحني كل ما حلمت وأحلم به منذ صباي..
البطل..
البطل المصري..
العربي
البطل الذي يحمل كل ما تمنيته طوال عمري..
القوة..
الوطنية..
البراعة..
الحماس..
الشجاعة..
البأس..
والاسم..
اسم (مصر).

ولدقيقة كاملة أو أكثر، ظل السيد (أشرف) غارقا في أفكاره وصمته، ثم لم يلبث أن رفع عينيه إلي، وقال:
- هل انتهيت حقا من مطالعة الملف؟!
كان السؤال مباغتا غير متوقع، حتى أنني حدَّقت في وجهه لحظة، قبل أن أجيب بصوت خافت:
- نعم.. لقد طالعته كله.
نهض يلتقط الملف من يدي، قائلا:
- عظيم.. حاول أن تتعايش مع أحداثه في أعماقك، ثم قدم لنا ملخصا لما ستكتبه أولا..
سألته متوترا:
- ألا يمكنني الحصول على نسخة من الملف؟!
ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة، تحمل جوابا بالنفي، وربت على كتفي، قائلا بلهجة لم يمكنني هضمها في سهولة:
- أرنا كيف ستقدم هذا العمل للناس..
كان هذا آخر ما تبادلناه من حديث، حول العمل وأحواله، وبعدها انتقل حديثنا إلى أمور بسيطة معتادة، وناقشنا حدثًا سياسيا مهما، كان يشغل أذهان الجميع في تلك المرحلة، وهو يسير إلى جواري كالمعتاد، حتى البوابة الرئيسية لجهاز المخابرات العامة، ولوح بيده في مودة، مع ابتسامة أنيقة، عندما انطلقت بسيارتي لمغادرة المكان، وكانت كل خلية في جسدي ترتجف، في ذلك الحين، من فرط التوتر والانفعال، وقلبي يواصل خفقاته القوية، التي تنتفض بها عروقي، وعقلي يصر على أن الأيام القادمة ستحمل لي حلم صبابي وشبابي ونضجي..
الحلم الذي اقتحمت من أجله عالم الأدب، متخليًا عن سنوات طويلة من الدراسة العلمية العملية الشاقة..
حلم البطل..

المصري..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

مضي شهر كامل على هذا اللقاء، وأنا أنتظر اتصال السيد (أشرف) في لهفة، جعلتني أختطف سماعة الهاتف، في كل مرة ينطلق فيها رنينه، إلا أنه لم يُجرِ اتصالا واحدا بي، طوال تلك الفترة، حتى إن ثقتي في مشاعري تراجعت، وبدا لي أن ملامح التفكير العميق، التي ارتسمت على وجهي، في تلك الليلة، ونحن نجلس معا داخل أحد مباني جهاز المخابرات العامة، لم تكن سوي لمحة من دهشته واستنكاره؛ لأنني حاولت البحث عن بطل أسطوري، بين ملفات المخابرات العامة المصرية..

بطل يصلح كنموذج لأفلام السينما الأمريكية، بأكثر مما يصلح كحقيقة واقعية، شخص عاش وقاتل، وربما مات أيضا، من أجل (مصر)..

ولم يستطع الحلم الكامن في أعماقي أن يحتمل كل هذا الانتظار.. وتوترت كل خلية في كياني، مع مرور الوقت، حتى لم يعد باستطاعتي كتابة حرف واحد، في ذلك الملخص، الذي طلبه السيد (أشرف)، للعملية التي طالعت ملفها..

شعور عجيب هذا، الذي ينتاب المرء، عندما يلوح له أن حلم حياته صار قريب المنال، ثم يباغت بأنه قد انطلق بعيدا..

بعيدا..

أبعد حتى من أفاق البصر ولم يكن من السهل أبدا أن أهضم هذا الشعور، أو أتجاهله..

كنت أشعر بغصة في حلقي طوال الوقت، وبفقدان للشهية تجاه كل شيء..

وأي شيء..

ولكن القدر كان يدخر لي ما لم أتوقعه قط..

فذات يوم، وبعد مرور ثلاثة وثلاثين يوما بالتحديد، على لقائي بالسيد (أشرف)، انطلق رنين هاتف مكتبي، ليفاجئني صوته الهادي الحازم، وهو يقول:
- مساء الخير يا دكتور.
كدت أقفز من مقعدي، وأنا أهتف بحماس منقطع النظير:
- صباح الخير يا سيد (أشرف).. كيف حالك؟! لقد اشتقت لسماع صوتك كثيرا، فمنذ...
قاطعني في حزم:
- ألديك أية ارتباطات خاصة الليلة؟!
باغتتني مقاطعته، وأدهشني سؤاله، وعلى الرغم من هذا، فقد أجبت بسرعة:
- مطلقا.. أنا رهن إشارتك..
قال في اهتمام:
- عظيم.. سأنتظرك في السادسة بالضبط.
قالها، وأنهي المحادثة، ودون أن يضيف حرفا واحدا..
وتركني أرتجف من فرط الانفعال، وأطرح على نفسي عشرات التساؤلات..
ما الغرض من اتصاله هذا؟!
إنه لم يسألني حتى عما فعلته بشأن الملخص المطلوب..
فما الذي يريده إذن؟!
تُري هل..
لم أستطع.. أو لم أجرؤ على استكمال السؤال الأخير في أعماقي..
لقد انتفض جسدي في عنف، لمجرد التفكير فيه..
ولم يتوقف انتفاض جسدي وارتجافه قط
لم يتوقفا، حتى وصلت إلى جهاز المخابرات العامة، قبيل السادسة بدقيقتين

وهناك، استقبلني السيد (أشرف) بملامح جادة رصينة، وألقي نظرة على ساعته، وهو يصافحني، قائلا:
- أهلا يا دكتور.. يروق لي كثيرا التزامك بدقة المواعيد، فهذا في رأيي أحد أهم عوامل النجاح...
أردت أن أجيب عبارته بتحية رقيقة، ولكنني وجدت نفسي أبذل جهدا شاقا، لأنتزع من حلقي كلمة واحدة مختنقة:
- أشكرك
ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة مشفقة، وكأنما يدرك ما يعتمل في أعماقي من انفعال، وربت على ظهري في رفق، قائلا:
- هيا بنا.
سألته في انفعال أكثر:
- إلى أين؟!
حملت شفتاه ابتسامة صامتة غامضة، وهو يقودني إلى سيارة صغيرة مصرية الصنع، ويدعوني للجلوس على مقعدها الخلفي، ثم يجلس إلى جواري، ويشير إلي السائق، قائلا في هدوء عميق:
- هيا بنا، على بركة الله.
انطلقت بنا السيارة، التي غرقت في صمت تام، والسيد (أشرف) مسترخ في مقعده، مسبل الجفنين، وملامحه ما زالت جادة رصينة، في حين واصل جسدي ارتجافاته، وأنا أتابع الطريق في لهفة، وأتساءل في أعماقي: إلى أين يأخذني هذه المرة؟!
وأين سنذهب؟!
أين؟!
أين؟!
وعندما تجاوزت السيارة مطار (القاهرة)، وبدأت انطلاقتها في طريق (الإسماعيلية) الصحراوي، لم أطق صبرا على الصمت، وسألته في لهفة شديدة:

- إلى أين نذهب؟!
صمت طويلا، حتى خيل إلى أنه لم يسمعني، ثم لم يلبث أن أجاب، دون أن يفتح عينيه:
- لقد عرضت مطلبك على اللجنة المختصة في الجهاز..
غمغمت في توتر:
- مطلبي؟!
تابع، وكأنه لم يسمعني:
- لم يكن الأمر سهلا، ولكنني نجحت في إقناعهم بأننا نحتاج بالفعل إلى بطل. بطل عربي مصري، يمكنه انتزاع إعجاب واحترام الشباب، ويطرح كل الانتماءات الأجنبية جانبا ليغرس في أعماقهم قيمنا، وتقاليدنا وانتماءنا الحقيقي.
هتفت، وجسدي كله ينتفض بحق:
- هل تعني أن...
قاطعني مواصلًا حديثه الهادئ العميق:
- ولقد قضينا شهرا كاملا في مناقشة هذا الأمر، ودراسته من كل الوجوه والجوانب، قبل أن نطرحه على (ا. ص) بنفسه.
قلت مبهورا:
- (١. ص)؟! ومن (١. ص) هذا؟!
صمت بضع لحظات، قبل أن يفتح عينيه، ويلتفت إليَّ، قائلا بابتسامة هادئة:
- إنك تبحث عن بطل.. أليس كذلك؟!
قفز قلبي من بين ضلوعي، وكدت أطلق شهقة عنيفة، وأنا أهتف:
- سيد (أشرف).. هل تقصد أن...
أومأ برأسه إيجابا، وابتسامته الهادئة تملأ وجهه، فاتسعت عيناي عن آخرهما، ورحت ألهث بأنفاس مبهورة، من فرط

الانفعال..
أخيرا سألتقي بالبطل..
بالحلم..
وعلى الرغم من سعادتي الجارفة، وانفعالي البالغ، في تلك اللحظات، لم أكن أتخيل قط ما سيقود إليه هذا اللقاء..
لم أتصور لحظة واحدة، أنه سيغير حياتي كلها، وسيربط اسمي إلى الأبد بـ (١، ص).. رجل المخابرات المصري، الذي ظللت أحلم به منذ صباي.
بالحلم..
حلم البطل..
المصري..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

٢- الأوراق..

«إلى أين نذهب بالضبط؟!»
منذ خرجت بنا السيارة من (القاهرة)، وأنا أقاوم بشدة إلقاء هذا السؤال؛ لأنني أعلم جيدا أنه سيكون، في كل الأحوال، بلا قيمة..
فمنذ بدأ تعاوني مع جهاز المخابرات العامة، أدركت أن أحدا لن يخبرني قط، إلا بما يمكنني معرفته، مهما كانت لهفتي وكان فضولي..
كما أن كل شيء يأتي في وقته بالضبط..
فإما أن أعلم بأمر ما، في الوقت المحدود لمعرفة هذا، أو لا أعلمه أبدا..
هكذا تقتضي قواعد العمل..
وقواعد السرية..
إلا أنني، وبعد نصف ساعة تقريبا من الصمت، وجدت أنني لا أستطيع كتمان السؤال في أعماقي، التي تحترق شوقًا ولهفة، فاندفعت ألقيه عن لساني، بغض النظر عن أي رد فعل ينشأ عنه..
ولثوانٍ، خيِّل إليَّ أن السيد (أشرف) لم يسمع حرفًا واحدًا مما قلته، في حين تطلع إلي السائق بنظرة سريعة، عبر مرآة السيارة الداخلية، قبل أن يعيد عينية إلى الطريق، ويواصل الانطلاق فيه في صمت رهيب..
ثم فتح السيد (أشرف) عينيه في بطء، وتطلع إلى لحظة في صمت، قبل أن يقول في رصانة هادئة:
- اصبر.. إن الله (سبحانه وتعالي) مع الصابرين.
انقبضت أصابعي في توتر، وقلت في عصبية واضحة:

- فليكن.. لم أكن أتصور أن الأمر يحتاج إلى كل هذه السرية.
بدا وجهه أشبه بتمثال، لا يمكنك قراءة ملامحه قط، وهو يتطلع إليَّ في صمت تام، ثم أشاح بوجهه عني، وتطلع عبر النافذة المجاورة له، فلذت بالصمت بدوري، وكل خلية في جسدي تكاد تحترق، من فرط اللهفة والتوتر والانفعال..
«الأمر يستحق كل هذه السرية بالفعل..»
نطق السيد (أشرف) بهذه العبارة، وهو يواصل التطلع عبر النافذة، فالتفت إليه في سرعة، مغمغما في انفعال:
- حقا؟!
عاد إلي صمته لدقيقة كاملة، وكأنه يفكر في أمر ما، أو يسعي لاتخاذ قرار ما، ثم لم يلبث أن التفت إلي، واعتدل في مقعده، قائلا:
- (ا. ص) لم يكن أبدا مجرد رجل مخابرات عادى.. إنه، ومنذ بداياته شخص فذّ للغاية، ويمتلك مواهب غير طبيعية، أدهشتنا نحن، قبل أن تدهش خصومنا، حتى إن كلينا يعتبره أسطورة في عالم المخابرات.. الإسرائيليون أنفسهم ألفوا عنه كتابا بعنوان (البطل العدو).. هل تتصور هذا؟! خصمك يُطلِق عليك لقب (البطل).. أليس هذا دليلا على أنهم قد انبهروا به؟!
قلت في حماس، وقلبي يدق في عنف:
- بالطبع.
ثم أضفت، محاولا أن أستحث السيد (أشرف) على مواصلة الحديث:
- لابد أن شخصا مثله كانت له حياة حافلة..
صمت لحظة، ثم قال في اقتضاب:
- أكثر مما تتصور..

لم يكن هذا جوابا شافيا أو مشبعا، لشخص يكاد يحترق لهفة وفضولا مثلي؛ لذا فقد سألته في توتر:
- كيف؟!
ارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة، وقال:
- دعه يخبرك بنفسه..
لم يكن من الممكن أبدا أن أتراجع، بعد أن بلغت هذا القدر، فواصلت محاولا إشباع فضولي، الذي بلغ ذروته..
- إنني أحاول تكوين فكرة عن الرجل، قبل أن ألتقي به..
صمت بضع لحظات أخري، ثم قال:
- كل ما أستطيع أن أخبرك به، في الوقت الحالي، هو أنه كان وما زال، فلتة في عالم المخابرات، وربما يعود جزء من الفضل في هذا إلى والده (رحمه الله)، الذي كان أحد رجال الرعيل الأول من جهاز المخابرات، وجزء أخر إلي الموهبة الطبيعية، التي يتمتع بها هو شخصيا، والتي منحها إياه الله (سبحانه وتعالي)، صاحب الفضل الأول والأخير، و(ا. ص) شخص مدهش بحق، فأثناء العمل يكون وحشا كاسرا لا شيء يمكن أن يقف في طريقه، أو يعترض سبيله، أما خارج العمل، فهو شخص مهذب للغاية، أنيق الملبس، بسيط الأسلوب، لبق، حتي إنه يصلح كمدير علاقات عامة من الطراز الأول..
سألته، ولهفتي تتصاعد في كل لحظة:
- وماذا عن زوجته، وأولاده؟! هل يجيد الاعتناء بأسرته؟!
هز رأسه نفيا، وقال:
- ليست لديه أسرة ليعتني بها.. إنه يعيش وحيدا..
قلت في دهشة:
- أتعني أن رجلا كهذا لم يتزوج قط؟!
بدا عليه التردد لحظة، ثم قال:

- لقد تزوج مرة واحدة..
سألته في لهفة:
- ثم؟!
زاد تردده هذه المرة، ثم لم يلبث أن قال في حزم:
- الأفضل أن نترك له شخصيا حق الإفصاح عن الجوانب الخاصة في حياته.
انتبهت في تلك اللحظة إلى أن السيارة تنحرف في طريق جانبي، فسألت السيد (أشرف) في لهفة: - إنه طريق (فايد).. أليس كذلك؟!
ابتسم السيد (أشرف)، دون أن يجيب، وعاد يسترخي في مقعده، فخشيت أن يقطع هذا ما اتصل بيننا من حديث، وسألته في سرعة:
- أما زال يعمل في جهاز المخابرات؟!
لم يجب السيد (أشرف) على الفور، وإنما لاذ بالصمت بضع لحظات، وكأنما يبحث عن جواب مناسب للسؤال، ثم لم يلبث أن قال:
- ليس من السهل أن تنقطع صلتك بجهاز المخابرات..
كان جوابا ذكيا، جعلني أتراجع في مقعدى، وأترك لخيالي العنان..
نعم.. ليس من السهل أن تنقطع صلة المرء بجهاز مثل المخابرات العامة، ما دام قد التحق به يوما..
وليس من السهل أيضا أن تتخلي المخابرات العامة عن شخص كهذا..
ولكن ليس من الضرورة أن يواصل العمل بصفة رسمية..
ربما أصبح مدربا..
أو مستشارا..

أو حتى أحد الخبراء القدامى، الذين يستعين بهم الجهاز إذا ما واجهته مشكلة ما..
ربما..
ومن المحتمل أيضا أن..
ولم أستطع إكمال ذلك الاحتمال الأخير في ذهني..
لم تطاوعني خلايا مخي حتى على التفكير فيه..
ولكن لساني خانني، وألقاه فجأة، على نحو أدهشني شخصيا:
- هل أقعدته إصابة ما؟
التفت إلي السيد (أشرف) بحركة عجيبة، عندما ألقيت هذا السؤال، وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة، وهو يجيب:
- الإصابات التي عانى منها الرجل في حياته، كانت تكفي لاعتزال جيش كامل من المحترفين..
ثم مال نحوي، وأضاف في حزم:
- إلا هو.
قالها، وتطلع إلى عيني بضع لحظات، قبل أن يتراجع مرة أخري إلى مقعده، فاز دردت لعابي في انفعال، وقلت بصوت مبحوح:
- من الواضح أنك مبهور به.
أسبل جفنيه، وغمغم:
- كلنا هذا الرجل.
ثم عاد إلي صمته، الذي شاركته فيه هذه المرة، والسيارة تنطلق بنا إلى مصيف (فايد)، حتى بلغت الطريق الموازي لشاطئ القناة، فانحرفت إلى اليسار، وواصلت انطلاقها بمحاذاة الفيلات الصغيرة، فالتفت إلي السيد (أشرف)، وسألته
- هل يقيم هنا؟!
أجاب في هدوء:

- الرجل أذاق عدة أجهزة مخابرات هزائم مريرة، هذا بالإضافة إلى بعض منظمات الجاسوسية، والجريمة المنظمة ومن الطبيعي أن يُحاط مكانه بالسرية.
قلت في سرعة:
- وبحراسة مشددة..
ابتسم، قائلا:
- إنه قادر على حماية نفسه بنفسه..
كان كل هذا الحديث عن الرجل وقدراته، يملأ نفسي بلهفة لا حدود لها لرؤيته، ويلهب مشاعري فضولا لمعرفة الكثير عنه، مما جعلني أعود إلى حالة الصمت، وأتطلع إلى الطريق في شوق، متمنيا أن نصل إلى مكانه بأقصى سرعة ممكنة..
وأخيرا بلغنا فيلا صغيرة، أنيقة، لها بوابة بسيطة، توقف أمامها السائق، وضغط نفير السيارة ثلاث مرات متتالية، ثم أضاء مصابيحها وأطفأها مرتين، فأسرع رجل طويل نحيل إلى البوابة، وفتحها، وألقي نظرة علينا، قبل أن يبتسم، ويرفع يده إلى رأسه بتحية مصرية شعبية، هاتفا في حرارة:
- أهلا (أشرف) بك.
أجاب السيد (أشرف) تحيته بابتسامة هادئة، ولوح بيده، دون كلمة واحدة، في حين انطلق السائق بالسيارة إلى حديقة صغيرة، وانحرف بها إلى اليمين، ليوقفها إلى جوار سيارة (مرسيدس) رياضية بيضاء اللون، تحمل لوحة أرقام قاهرية، فغادرت السيارة مع السيد (أشرف)، وأنا أسأله:
- أهذه سيارته؟!
ابتسم السيد (أشرف) دون أن يجيب، وربت على ظهري في رفق، وهو يقودني إلى الفيلا الصغيرة، وعيناي معلقتان بلوحة الأرقام، التي مازلت أحفظها عن ظهر قلب، إلى يومنا هذا..

وعندما خطونا داخل الفيلا، امتلأت نفسي بالرهبة والانبهار كانت أمامنا ردهة واسعة، أنيقة للغاية، بلونها الأبيض وأثاثها الذي يجمع بين الفخامة والذوق في آن واحد، واللمسات الجمالية البسيطة، التي توزعت بأناقة مدهشة هنا وهناك.
ولكن الشيء الوحيد، الذي جذب انتباهي بشدة، هو صورة..
صورة ضخمة، يبلغ ارتفاعها مترا ونصف المتر تقريبا، وعرضها حوالي المتر، تحتل جدارا بأكمله وحدها، مع مصباحين أنيقين على جانبيها..
صورة شابة مصرية جميلة، تشف ابتسامتها العذبة عن طيبة محببة، وروح بسيطة حلوة..
لم تكن فاتنة، أو مبهرة الجمال، ولكنها كانت جذابة..
ومصرية..
وفي فضول شديد، سألت السيد (أشرف):
- من هي؟! زوجته السابقة؟!
تطلع السيد (أشرف) طويلا إلى الصورة، وانفرجت شفتاه قليلا، وكأنما يهّم بقول شيء ما، وارتفع حاجباه لحظة في تأثر، ثم لم يلبث أن أخفي كل انفعالاته هذه في أعماقه، وقال:
- دعه هو يجيب هذا السؤال..
زادني الجواب لهفة وفضولا، فعدت أتطلع إلى الصورة، وإلى تلك الابتسامة العذبة على شفتي تلك الشابة، وأنا أتساءل:
- تُري من هي، إذا لم تكن زوجته السابقة؟!
إنه يعيش وحده، كما أخبرني السيد (أشرف)، وهذا يعني أنها ليست زوجة حالية..
من هي إذن؟!
شقيقته؟!
حبيبة قديمة؟!

أم..

- «مرحبا..»

انتزعني صوت هادئ رصين من أفكاري، وهو يلقي كلمة التحية، فاستدرت في سرعة إلى صاحبه، وقلبي يخفق في قوة ولهفة، و.. ورأيته..

لأول مرة في حياتي، وقع بصري عليه..
كان رجلا في النصف الثاني من الأربعينات، أنيقا وسيما للغاية، له ملامح هادئة وشعر أسود ناعم، وخط الشيب فوديه، فمنحه مظهرا وقورا، ورصانة أنيقة، وهو يهبط في درجات السلم من الطابق الثاني، وابتسامته تملأ وجهه، ومد يده يصافحني، قائلا:
- أهلا بك.. لقد أخبروني الكثير عنك، حتى تمنيت مقابلتك..
حدَّقت في وجهه، هاتفا:
- أنا؟! أنت تمنيت مقابلتي أنا؟!
ثم انتبهت إلى يده المدودة نحوي، فأسرعت أصافحه، قائلا:
- أنا الذي تمنيت مقابلتك طيلة عمري يا سيدى.
اتسعت ابتسامته، وربت على كتفي في مودة، ثم التفت إلي السيد (أشرف)، يصافحه، قائلا:
- كيف حالك يا (أشرف).. لم أرك منذ فترة طويلة.. أنت تعلم أنني أحب دائما أن ألتقي بأصدقائي:
بدت السعادة على وجه (أشرف)، وهو يقول:
- وأنا أشعر بالفخر، لأنك تعتبرني أحد أصدقائك يا سيدى..
ربت الرجل على كتفه أيضا في حرارة، ثم أشار إلى الحجرة الوحيدة في الطابق الأرضي، قائلا:
- تفضلا.. إنني أميل إلى الجلوس في حجرة المكتب.. هل يناسبكما هذا؟
أجابه السيد (أشرف) بسرعة:
- بالتأكيد.
كانت حجرة المكتب واسعة، أنيقة، تحوي مكتبة ضخمة، تحتل جدارين كاملين منها، متخمة بالكتب، من مختلف فروع العلم وصنوف الأدب، وأمامها مكتب كبير، من طراز عريق، أما

الجدار ان المقابلان، فيحتضنان أريكة وثيرة وعددا من المقاعد، قادنا الرجل إليها، وهو يسألني:
- ما الذي ترغب في تناوله؟! أعتقد أن المؤلفين والكتاب يميلون إلى القهوة.. أليس كذلك؟!
هززت رأسي نفيا، وأجبت:
- إنني لا أتناول القهوة على الإطلاق.. سأكتفي بقدح من الشاي بدون سكر.
لم يكن يعنيني ما سأتناوله، حتى ولو كان حامضا مركَّزا، فمنذ وقع بصري على الرجل، أدركت أنني سأحصل منه على قصة ممتازة..
وربما أفضل قصة في حياتي كلها..
ولكن الخادم أحضر أقداح الشام، ورحنا نرتشفها في بطء، ونحن نتحدث حول أمور عامة، وتتبادل الآراء الاجتماعية والسياسية، و...
ولم أستطع الاحتمال طويلا..
كان الرجل يرتشف الشاي في بطء وهدوء، عندما سألته بغتة:
- من صاحبة الصورة الكبيرة في الردهة؟!
تجمدت يده الممسكة بالقدح فجأة، قبل أن يبلغ شفتيه، وانعقد حاجبا السيد (أشرف) في شدة، على نحو خُيِّل إليَّ معه أنني قد أفسدت الأمر كله بلهفتي الزائدة هذه، وأن (١. ص) لن يواصل حديثه معي، إلا أنني فوجئت به يبتسم في هدوء، ويقول:
- من الواضح أنك لا تتميز بفضيلة الصبر.
شعرت أنه يحاول التخفيف من الموقف، فأسرعت أجيب في توتر:
- أعترف بهذا يا سيدى، فلقد قضيت عمري كله بحثا عن بطل مصري، يمكنني أن أقدمه لشبابنا، فأمحو به تأثير كل الأبطال

الأجانب، في قلوبهم وعقولهم، ثم فجأة وجدته أمامي، ومن الطبيعي ألا أطيق صبرا على سماع قصته..
تطلع إلي في شيء من الدهشة، مرددا:
- بطل؟!
ثم التفت إلي السيد (أشرف)، يرمقه بنظرة عتاب، وهو يتابع:
- يبدو أنهم بالغوا كثيرا في تقديمي لك.
ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي السيد (أشرف)، وهو يقول:
- حقا؟!
صمت (١. ص) بضع لحظات، ثم التفت إلى مرة أخري قائلا:
- لقد أديت واجبي فحسب.
وجدت نفسي أهتف فجأة في حماس:
- بالتأكيد.
ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة، وكأنما أدهشه حماسي الزائد، وتطلع إلى طويلا في صمت، قبل أن يقول:
- عندما طرحوا على الفكرة، استنكرت الأمر في البداية، فما تعلمناه، منذ التحقنا بالعمل في المخابرات، هو أن السرية هي اللبنة الأولي للتعامل، وأنه ينبغي على المرء ألا يكشف ما لديه قط، مهما كانت الأسباب، إلا أن (أشرف) تحدث إليَّ شخصيا، وشرح لي وجهة نظرك، التي بدت لي منطقية، ومقنعة، و...
صمت لحظة، ثم أضاف:
- ووطنية.
نطق الكلمة الأخيرة بصوت قوي، ولهجة عاطفية، جعلت قلبي يختلج في صدري، فتطلعت إليه في صمت مبهور، جعله يسألني مبتسما:
- ما الذي تريد معرفته عني بالضبط؟!
أجبت بسرعة مدهشة:

- كل شيء.
ارتفع حاجباه في دهشة، وهو يكرر:
- كل شيء؟!
اعتدل السيد (أشرف) في مقعده، وقال في توتر:
- أنت تعلم يا دكتور أنه لا يمكن نشر كل شيء، عن ضابط مخابرات محترف.
قلت مسرعا:
- كنت أقصد كل ما يمكن نشره..
تبادل الرجلان نظرة صامتة، خيل إلى أنها نقلت بينهما حوارا طويلا، لا تستوعبه صفحات الكتاب بأكمله، قبل أن يسألني (ا. ص):
- ما الشكل الذي ستنشر به ما ستسمعه؟!
تطلعت إليه بنظرة متسائلة، فتابع:
- أعني هل ستخرج في شكل مقالات، أم رواية، أم كتاب، أم...
قاطعته في اهتمام شديد:
- إنني أتمنى إصداره في شكل سلسلة روايات..
عاد حاجباه يرتفعان في دهشة، وهو يقول:
- سلسلة روايات؟!
أجبته في حماس:
- بالطبع.. عندما كنا في الطريق إلى هنا، أخبرني السيد (أشرف) أنك هزمت معظم أجهزة المخابرات المعروفة، وبعض المنظمات الإجرامية الشهيرة، ومنظمات التجسس، ومن المؤكد أن كل مواجهة من هذه، كانت تحوي من التفاصيل ما يصلح لكتابة رواية كاملة..
انفرجت شفتاه، وكأنه يهم بقول شيء ما، ثم لم يلبث أن أطبقهما، ولاذ بالصمت لدقيقة كاملة، انعقد خلالها حاجباه في

شدة، قبل أن يسأل (أشرف):
- أتعتقد أن هذا ممكن؟؟
أومأ السيد (أشرف) برأسه إيجابيا في صمت، فوافقه الرجل بإيماءة مماثلة، وعاد يغرق في صمته لدقيقة كاملة، احترقت خلالها أعصابي في شدة، وأنا أتساءل قلقا: هل سيمنحني حقا ما أريده؟
هل سيروي لي ذكريات المواجهة، مع أجهزة المخابرات، ومنظمات التجسس، والمنظمات الإجرامية؟!
هل سيقصّ عليَّ ذلك التاريخ، الذي سيحسدني عليه التاريخ نفسه؟!
هل؟!
«من أين نبدأ؟!»
لم أكد أسمع سؤاله، حتى كدت أقفز من مقعدي، وأطلق صرخة فرح قوية، إلا أنني بذلت جهدا خرافيا للسيطرة على انفعالي، ولكن الكلمات انعقدت في لساني، فلم أستطع نطق كلمة واحدة في البداية، مما جعل السيد (أشرف) يقول:
- أعتقد أن أفضل بداية هي التحاقك بالمخابرات.
انحلت عقدة لساني فجأة، عندما سمعت هذا القول، ووجدت نفسي أهتف:
- كلا.
التفت إليَّ الاثنان في تساؤل، فالتقطت نفسا عميقا، للسيطرة على مشاعري، قبل أن أقول:
- في الطريق إلى هنا، ذكر لي السيد (أشرف) أن والدك (رحمه الله)، كان أحد رجال المخابرات أيضا، وإليه يرجع جزء من الفضل، فيما وصلت إليه، وهذا يعني أن البداية الحقيقية تسبق التحاقك بجهاز المخابرات بكثير..

ارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة الهادئة، وهو يتطلع إليَّ قائلا:

- نعم.. أنت على حق.

ثم تنهد في عمق، واسترخي في مقعده، واستطرد:

- فليكن.. فلنبدأ بهذا التاريخ القديم..

اعتدلت في مجلسي، وأرهفت سمعي إليه جيدا، و...

وبدأ هو يروي..

من البداية..

البداية الحقيقية..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

٣- التاريخ..

ديسمبر 1954م
مكان ما، داخل إحدي الثكنات العسكرية، في منطقة (مصر الجديدة) ([1])
كل شيء بدا هادئا للغاية، في تلك المنطقة، التي لم تكن يد العمران قد امتدت إليها بعد، في ذلك الحين، حتى إن عبور تلك السيارة المدنية البيضاء فيها، كان كفيلا بإثارة عشرات من علامات التعب والاستفهام، التي لن تلبث أن تتضاعف إلى مئات المئات، عندما تتوقف تلك السيارة أمام بوابة المعسكر، فيؤدي حراس البوابة التحية العسكرية في احترام زائد لقائدها، الذي أجاب تحيتهم في سرعة، ودخل إلى المكان بالسيارة، وهو يشير إليهم بإغلاق البوابية في سرعة..
مظهر الحراس أيضا كان يثير الحيرة والتساؤل..
فهم لا يرتدون الزي التقليدي للجنود..
ولا أي زي رسمي آخر معروف..
بل كانوا يرتدون زيًّا بترولي اللون، ويتمنطق كل منهم بحزام أبيض عريض، يحمل على جانبيه مسدسين قويين..
وكان من الطبيعي أن يتساءل كل من يقع بصره عليهم: إلى أي جهاز أمني ينتمون؟!
وكان من العسير - والعسير جدا - إجابة هذا السؤال، في ذلك الحين..
فالجهاز الذي ينتمون إليه، كان جهازا وليدا، لم تعرف (مصر) مثله من قبل، في تاريخها كله، نشأ منذ أشهر قليلة، تحت

إشراف السيد (زكريا محيي الدين)، وبتوصية من الرئيس (جمال عبد الناصر) شخصيا..
وكان هذا الجهاز يحمل اسم (المخابرات العامة المصرية).
أما ذلك الذي دلف إلى المكان، داخل السيارة البيضاء، فكان المقدم (عبد المحسن)، أحد ضباط الجهاز، وواحد من قيادات الرعيل الأول له..
وعندما توقف المقدم (عبد المحسن)، داخل الساحة المخصصة لانتظار السيارات، داخل الثكنات، هرع إليه أحد رجال الحراسة، ليفتح باب السيارة، ولكن (عبد المحسن) اندفع خارجها، هاتفا في حدة:
- ماذا دهاكم يا رجال؟! تحية عسكرية قوية، وبوابة تنفتح فور رؤيتي، وتجاهل تام لكل ما تعلمتموه من قواعد الأمن التي تحتِّم اطلاعكم على أوراق أي زائر.. ما الذي ينقص إذن، ليدرك أي مراقب أنني أحد ضباط الجهاز؟!
ارتبك رجل الحراسة، وقال:
- معذرة يا سيادة المقدم، ولكننا لم نعتبرك زائرا، و...
قاطعة (عبد المحسن) في حدة:
- خطأ يا رجل.. خطأ.. ما دمت أحضر إلى ثكنة عسكرية بثياب مدنية، فلابد من معاملتي كأي زائر عادى، حتى أدخل المكان.. هل تفهم؟!
شد الرجل قامته، وقال:
- أفهم يا سيادة المقدم، وأعدك أن هذا الخطأ لن يتكرر ثانية أبدا..
الت ملامح (عبد المحسن) على صرامتها لبعض الوقت، ثم لم تلبث أن لانت، وهو يربت على كتف الرجل، قائلا:

- فليكن.. هذه الأخطاء حتمية، في الشهور الأولي، ولكن المهم أن يتم تداركها فيما بعد..
أومأ الرجل برأسه متفهما، وقال:
- بالتأكيد يا سيادة المقدم..
ربت (عبد المحسن) على كتفه ثانية، ومنحه ابتسامة مشجعة، ثم تابع طريقه نحو عدد من المباني من طابق واحد، في نهاية المكان، إلا أنه لم يلبث أن توقف بغتة، واستدار إلى الرجل، واستعاد حدته، هاتف:
- وبالمناسبة، لا تخاطبني قط بسيادة المقدم هذه.. هنا أنا السيد (عبد المحسن) فحسب.. الكل هنا يحمل لقب السيد فقط، بغضّ النظر عن الرُتَب.
شدَّ الرجل قامته بسرعة، وهتف:
- كما تأمر يا سيـ... احم.. أيها السيد (عبد المحسن)..
مط (عبد المحسن) شفتيه، واتجه إلى تلك المباني، وامتدت يده إلى مقبض مكتبه الخاص، إلا أنه سحبها بسرعة، وطرق باب المكتب المجاور له، ثم دفع الباب، دون أن ينتظر دعوة بالدخول، ودلف إلى الحجرة، قائلا:
- صباح الخير.
كان داخل الحجرة رجل في منتصف الثلاثينات من عمره، وسيم الملامح، أسود الشعر والعينين، متين البنيان، أنيق الملبس، التفت في بطء إلى (عبد المحسن)، وتطلع إليه لحظة في صمت وشرود، قبل أن يشير بيده بلا حماس، قائلا:
- ادخل يا (عبد المحسن).
أغلق (عبد المحسن) الباب خلفه، وهو يتطلع إلي الرجل، بنظرة تجمع بين القلق والإشفاق، مع كثير من الاحترام فهذا الرجل، على الرغم من أنه يشاركه رتبته، إلا أنه يعتبره استاذه، منذ

التحقا بالعمل معا، في هذا الجهاز الجديد ولهذا أسبابه بالطبع، فعلى الرغم من أن كليهما كان طيارا حربيا، قبل وأثناء ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، وأنهما شاركا معًا في الثورة، والتحقا بجهاز المخابرات العامة في اليوم نفسه، الذي صدر فيه قرار إنشائه، إلا أن زميله هذا (الذي سنطلق عليه في هذه الأوراق اسم (صدقي)، بدا وكأنه لم يخلق منذ الأزل إلا لهذا الهدف بالتحديد..

لقد بدا موهوبا، عبقريا بالفطرة، في هذا المجال، فهو سريع البديهة، ذكي، هادئ الأعصاب، سديد الرأي، يميل إلى الصمت والكتمان، حتى يخيل إليك أنه ليس باستطاعتك انتزاع أية معلومة منه، حتى ولو سلخت جلده شبرًا شبرًا، داخل وعاء من الزيت المغلي..

وإلي جوار هذا، فهو مهذب للغاية، لبق الحديث، مجامل..

باختصار، كان أشبه بشخصية مثالية، من تلك الشخصيات التي كانت تمتلئ بها الروايات المصورة في ذلك الحين، لذا فقد اكتسب المقدم (صدقي) هذا احترام الجميع وإعجابهم، وصار مثلا يحتذي، فيما ينبغي أن يكون عليه رجل المخابرات..

وعندما رآه (عبد المحسن) شاردا هكذا، في ذلك الصباح، لم يستطع منع نفسه من سؤاله في حذر:

- أما زلت تحصر تفكيرك في فشل عملية (باريس)؟!

تنهد (صدقي)، وقال:

- بالتأكيد.. العملية لم يكن لها أن تفشل أبدا.. لقد أعددنا كل شيء جيدا، وكان من الضروري أن تلقي القبض على ذلك الجاسوس في النهاية، إلا أنه نجح في الفرار منا، في قلب (باريس)، لأن المرشد الذي استعنَّا به، خدعنا لحساب الخصوم..

تنهد (عبد المحسن) بدوره، وجذب مقعدا، ليجلس إلى جواره، وقال:
- أنا أشعر بالضيق مثلك لفشل العملية، ولكن ما باليد حيلة، كل ما نملكه هو أن نبذل قصارى جهدنا، أما النجاح والفشل فهما بيد الله (سبحانه وتعالي)..
تطلع إليه (صدقى) بضع لحظات في صمت، قبل أن يشير بسبابته، قائلا:
- يبدو أنك أخطأت فهمي يا صديقى، إنني لا أشعر بالضيق تجاه ما حدث في عملية (باريس)، بقدر ما أتساءل عن أسباب فشلها؛ فأنا أعلم أن البكاء على ما مضي ليس مجديا، ولن يؤدي إلا لمزيد من الخسارة، ولكن المهم أن نتعلم من تجاربنا، وندرس أخطاءنا، حتى يمكننا تفاديها في المستقبل..
شعر (عبد المحسن) بالانبهار من حديث زميله، فقال في حماس:
- هذا صحيح.
ثم استطرد في لهفة:
- وهل توصلت إلى الأخطاء في العملية؟!
تطلع إليه (صدقى) لحظة أخري في صمت، وقال:
- بالطبع.
واعتدل في مجلسه، متابعا في اهتمام:
- المشكلة الرئيسية أن العملية اكتظت بالرجال، فقد اشترك فيها عدد أكبر مما ينبغي، ثم إننا استعنا بمرشد فرنسي، لا يمكن أن نضمن ولاءه لنا..
قال (عبد المحسن) في حيرة:
- ولكننا كنا مضطرين للاستعانة بذلك المرشد الفرنسي؛ لنقص معلوماتنا عن تلك المنطقة من (باريس)، كما أن كل رجل من

رجالنا كانت له مهمة، لا يمكن الاستغناء عنها..
أشار (صدقى) بسبابته مرة أخري، وقال:
- هذا صحيح، والخطأ لا يكمن في استعانتنا بالمرشد الفرنسي، ولا باضطرارنا لدفع كل هذا العدد من الرجال إلى العملية، ولكن الخطأ كل الخطأ في أننا كنا مضطرين لكل هذا.
سأله (عبد المحسن) في اهتمام:
- وكيف يمكن تلافي هذا؟!
نهض (صدقي) من مقعده، وراح يسير في حجرة مكتبه الصغيرة في انفعال، مجيبا:
- بأن تكون لنا مكاتب ثابتة، في معظم دول وعواصم العالم يتولى أمرها مصريون، يحملون جنسية تلك الدول، أو إقامة مؤقتة فيها على الأقل، ويبذلون قصارى جهدهم لجمع كل المعلومات عنها ومنها، بحيث يمكننا الاستعانة بهم وقت الحاجة، بدلا من أن نضطر للاستعانة بأجنبي، لا يمكن شراء انتمائه قط.
وافقه (عبد المحسن) في حماس، قبل أن يسأل:
- وماذا عن الرجال؟!
أجابه (صدقى) في حزم:
- هذا هو الأمر الأكثر خطورة، فمن أهم الأسباب، التي أدت إلى فشل العملية، أن (حسن) لم يكن يجيد الفرنسية، و (صالح) لم يحسن التصويب كما ينبغي، أما (سليم)، فلم يستطع الانطلاق بسيارته بالمهارة الكافية؛ ليطارد سيارة الجاسوس، في شوارع (باريس).. أضف إلى هذا أنه عندما بدأ الجاسوس هروبه، كان (صالح) عند الطرف الآخر للشارع، و (سليم) داخل سيارته، أما. (حسن) فحجمه لم يسمح له بالجري خلفه بالسرعة المطلوبة..
تنهد (عبد المحسن)، وقال:

- أنت على حق يا رجل.. ينبغي أن نبذل جهدا أكبر مع رجالنا، حتى يكتسبوا الكفاءة اللازمة للعمل..
أجابه (صدقى) في حزم:
- بل لابد أن نبذل قصارى جهدنا معهم، لاكتساب أكبر قدر ممكن من المهارات، فرجل المخابرات المثالي، ينبغي أن يجيد الكثير، والكثير جدا..
سأله (عبد المحسن) في اهتمام:
- مثل ماذا؟!
عاد (صدقى) يسير في الحجرة، قائلا في حماس:
- اللغات مثلا.. رجل المخابرات لابد أن يجيد ثلاث لغات على الأقل.. الإنجليزية، والفرنسية، والعبرية، حتى يمكنه التعامل بها في أي مجتمع، ولو أنه قادر على استيعاب المزيد، فلنلقنه الروسية والإيطالية، و...
هتف (عبد المحسن) ضاحكا:
- - رويدك يا رجل.. لا تتماد إلى هذا الحد.. المترجمون أنفسهم لا يجيدون كل هذا القدر من اللغات..
أجابه (صدقى):
- ولكن رجل المخابرات لابد أن يفعل.. من عرف لغة عدو اتقى شره.. ثم إن اللغات وحدها لا تكفي.. لابد أن يجيد إطلاق النار أيضا، ومعظم طرق القتال اليدوي، وقيادة السيارات، والطائرات، وحتى الزوارق البخارية، و...
قاطعه (عبد المحسن)، قائلا:
- (صدقي).. لا تتماد في أحلامك، فالحصول على مثل هذا الرجل مستحيل.. مستحيل تماما..
لوح (صدقى) بكفيه، هاتفًا:

- ولِم لا؟! العالم يمتلئ بأولئك الذين يجيدون مهارات شتي.. السباحون، وأبطال العدو، ورياضيو ألعاب القوي حتى بهلوان السيرك يجيد عددا لا بأس به من المهارات، فلماذا يعجز عن هذا رجل المخابرات؟!

مال (عبد المحسن) نحوه، قائلا:

- لسبب بسيط للغاية يا رجل، فكل هؤلاء، الذين تتحدث عنهم، يبدأ تدريبهم على تلك المهارات، منذ نعومة أظفارهم، حتى بهلوان السيرك، يتعهدونه بالتدريب والرعاية، منذ أن يتعلم المشي على قدميه، أما رجالنا، فهم يلتحقون بالمخابرات بعد إتمام دراستهم، أو بعد المرحلة الثانوية على أقل تقدير، وحتى لو بدءوا في محاولة اكتساب تلك المهارات، فور التحاقهم بالعمل، فسيبلغون الأربعين، قبل أن يصلوا إلى المستوي الذي تنشده..

انعقد حاجبا (صدقى)، وهو يقول:

- هناك وسيلة ما حتما..

تراجع (عبد المحسن) في مقعده، وتنهد في عمق، قائلا:

- ابحث عنها يا صديقي.. أبذل قصارى جهدك للبحث عنها..

أجابه (صدقى) في حزم:

- سأفعل.

قالها، وفي أعماقه فكرة تولد..

وتنمو..

في بطء..

وقوة..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

مضي أسبوعان كاملان على هذا الحديث، الذي انشغل (عبد المحسن) بالتفكير فيه ليومين أو ثلاثة، ثم لم يلبث أن طرحه جانبا، مؤمنا بأن الفكرة مستحيلة تماما..

صحيح أنه من الممكن أن يتم اختيار العناصر الصالحة، من بين طلاب المدارس الثانوية العسكرية، وإعدادها منذ صباها على العمل في المخابرات، وتدريبها على كل ما يحلم (صدقي) بوجوده في ضابط المخابرات الأسطوري هذا، إلا أن عاملا حيويا آخر سيعترض الأمر، ويفسد الفكرة كلها..

عامل الزمن..

والعمر..

فاكتساب كل هذا القدر من المهارات والقدرات، يحتاج إلى عشر سنوات على الأقل، كما قدر الخبراء، أما إجادتها إلى حد الإتقان، فتحتاج إلى خمسة عشر عاما إضافية، على أقل تقدير، وهذا يعني أن رجل المخابرات المنتظر هذا سيبلغ الأربعين من العمر، على الأقل، عندما يصبح صالحا للعمل، هذا بافتراض أنه سيبدأ تدريباته في الخامسة عشرة من العمر.

وهذا في رأيه مستحيل..

للغاية..

فالشاب - أي شاب - ينزع، في تلك الفترة من العمر، إلي الحرية والانطلاق، والتحرر من كل القيود، فكيف يمكن إخضاعه لبرنامج تدريبي مستمر، لإتقان الرماية، والسباحة والجري، وألعاب القوي، وقيادة السيارات، والطائرات، والزوارق الآلية، بالإضافة إلى ثلاث لغات حية، ورياضتين دفاعيتين على الأقل..

إنه يلهث تعبا، لمجرد ذكر القدرات المطلوبة، فماذا عمن يسعي لاكتسابها؟؟

وحتى بعد أن يكتسب شخص ما كل هذا، كيف يمكن أن يصقل تدريباته هذه بمواجهات عملية، تكسبه الخبرة اللازمة، ورجاحة العقل المطلوبة، لاتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب؟!

لا.. لا..

الظفر برجل مثل هذا مستحيل!
مستحيل ألف مرة!
كان هذا آخر ما توصل إليه عقله، فتوقف عن التفكير في الأمر، وافترض أن زميله (صدقي) لن يلبث أن يطرحه جانبا بدوره، ويلغي الفكرة من ذهنه وحياته، ويندمج في عملية جديدة، خاصة وأنهما يسعيان الآن البحث عن شاب مصري، يمكن زرعه في (إسرائيل)، بعد هوية يهودية، وتاريخ محبوك..
ولكن (صدقي) لم ينس..
ولم يطرح الفكرة قط..
فذات يوم، وبينما انهمك (عبد المحسن) في دراسة ملف شاب مجهول، تم إلقاء القبض عليه بالقرب من الحدود الليبية، لاستخدامه جواز سفر بريطانيا مزورا، في محاولة للفرار من (مصر)، فوجئ بزميله (صدقي) يقتحم مكتبه، حاملا ملفًّا ضخما، وهو يقول في حماس:
- وجدت الحل..
رفع (عبد المحسن) عينيه إليه، في دهشة وتساؤل، قائلا:
- وجدت ماذا؟!
ربَّت (صدقي) على الملف في حماس أكثر، قائلا:
- الحل يا صديقي.. الوسيلة المثلي للحصول على رجل المخابرات المثالي..
أعاد هذا القول إلى (عبد المحسن) ذكريات حديثهما السابق، فاعتدل في اهتمام، وسأله، وهو يتطلع إلى الملف:
- وما هي؟!
جذب (صدقي) مقعدا، وجلس أمامه عبر المكتب، وقلب صفحات الملف، مجيبا:

- إنها ليست بالوسيلة القديمة، ولكنها لا تزال صالحة للاستخدام؛ لأن أحدا لم يعد يلجأ إليها، منذ فترة طويلة ضاعفت تلك المقدمة في فضول (عبد المحسن) واهتمامه، فمال إلى الأمام، وأسند مرفقه إلى سطح المكتب، ليستند بذقنه على راحته، وهو ينصت إلى (صدقي)، الذي تابع:

- لقد استخدم السوفيت هذه الوسيلة، في عهد ستالين) ([2])، في محاولة منهم لصنع جيش من رجال الاستطلاع، الذين لا يُشق لهم غبار، فراحوا ينتزعون الأطفال الصغار، من الأسر التي تم اعتقال بعض رجالها ونسيانها بتهمة معاداة الدولة، ويجمعونهم في معسكرات خاصة، وكلهم دون السادسة من العمر، وفي هذه المعسكرات، تم تدريبهم على الحياة العسكرية الصرفة، وتلقينهم كل قواعد المواجهة والقتال، وعندما بلغوا العاشرة من العمر، كان بإمكانهم أداء نفس التدريبات، التي يؤديها رجال القوات الخاصة، وفي الثامنة عشرة، كان الواحد منهم بمثابة فرقة كاملة، في المواجهات العسكرية المباشرة ([3])، حتي إن البعض يعزو إليهم هزيمة القوات الألمانية، في الجبهة الروسية، إبان الحرب العالمية الثانية..

ارتفع حاجبا (عبد المحسن) في انبهار، وقال:

- من أين حصلت على هذه المعلومات؟!

ربت (صدقي) على الملف، قائلا:

- من الأبحاث والقراءات يا صديقي.. لقد جمعت ملفا كاملا، عن الأساليب القديمة غير التقليدية، الأجهزة المخابرات الأخرى.. وصدقني، لم يكن هذا أبدا بالأمر السهل أو البسيط..

وتنهد في عمق، مستطردا:

- هل تعلم.. أعتقد أن أي جهاز مخابرات، لابد أن يضم مكتبة ضخمة، للمراجعة والاطلاع ([4]).. هذا أمر حيوي للغاية..
أشار (عبد المحسن) بيده، قائلا:
- دعنا من هذا الآن.. وأخبرني.. إلي أين انتهت التجربة الروسية؟!
تنهد (صدقى) مرة أخري، ومط شفتيه، مغمغما:
- إلى الفشل..
تراجع (عبد المحسن) في حركة حادة، وكأنما صفعه الجواب، وهتف في دهشة:
- الفشل؟!
أجابه (صدقى) في سرعة:
- لم يكن الفشل الخطأ في التجربة نفسها، ولا في الفكرة التي استندت إليها، وإنما يعود إلى عاملين آخرين أولهما: أن تلك القوة لم تكن تستند إلى انتماء حقيقي، وإنما كان يشوبها شعور بالبغض والكراهية؛ لأن الجميع تذكروا أن آباءهم كانوا ثمن ما وصلوا إليه، ولولا إلقاؤهم في المعتقلات، أو إعدامهم دون محاكمة أو إدانة، لما أصبحوا هم فئران تجارب للجيش وخبرائه.. وثانيهما: أن (ستالين) نفسه لم يسمح باستمرار تلك الفرقة الفذة، بعد انتصار السوفيت في الحرب العالمية الثانية إذ كان يخشى أن يصاب أفرادها بالغرور، أو يحاولوا التمرد على سياسته، لذا فقد أعدم بعضهم دون محاكمة، كما فعل بذويهم، ونفي البعض الآخر إلى (سيبيريا)، ليلقي مصرعه وسط الثلوج الرهيبة، والمعاملة السيئة المهينة.
سأله (عبد المحسن)، وقد فتر حماسه إلى الأمر بعض الشيء:
- وهل تعتقد أنه يمكن تطبيق مثل هذه التجربة هنا؟

هتف (صدقى) في حماس:
- ولِم لا؟! لماذا لا نتعهد بعض الصبية بالرعاية والعناية منذ حداثتهم، لنصنع منهم رجال مخابرات أفذاذا في المستقبل؟!
هتف (عبد المحسن):
- بعض الصبية؟! ماذا دهاك يا رجل؟! هل تعتقد أنه من السهل أن تذهب إلى أسرة ما، وتقول في بساطة: أعطوني طفلكم؛ لأصنع منه رجل مخابرات فذا في المستقبل، فيمنحونك إياه مع ابتسامة امتنان وعبارة شكر؟!
انعقد حاجبا (صدقى)، وهو يقول في توتر:
- يمكننا أن نبدأ التجربة بصبية ملاجئ الأيتام، و...
قاطعه (عبد المحسن) في حدة:
- كلا يا (صدقى).. لا يمكنك أن تتمادي إلى هذا الحدّ..
صبية ملاجئ الأيتام لهم أيضا حق الاستمتاع بطفولتهم وصباهم، ولا يمكننا أن نخضعهم لنظام عسكري صارم وتدريبات قاسية مستمرة، لمجرد أنهم فقدوا أحد أبويهم أو كليهما، ولم يعد هناك من يذود عنهم، أو يمنعك من فعل هذا.
ارتفع حاجبا (صدقى) في دهشة بالغة، وهو يقول:
- يا إلهي! وهل تصورتني وحشًا قاسي القلب إلى هذا الحد؟!
ارتبك (عبد المحسن) للموقف، وأدرك كم أساء إلى زميله دون أن يدري، فتراجع مغمغما:
- معذرة يا رجل.. لم أقصد أن...
قاطعه (صدقى) في ضيق واضح، وهو يواصل حديثه:
- هل نسيت أنني أب لطفلين، يمكن أن يفقد كلاهما والده في أية لحظة؟!
وأنني أنا نفسي قد عانيت مرارة اليتم في طفولتي وصباي؟
تنهد (عبد المحسن)، قائلا في ارتباك أكثر:

- حسن.. أنا أعتذر..
لوح (صدقى) بيده، قائلا:
- لا داعي للاعتذار يا رجل.. ليس هذا ما أنشده.. إنني لا أعاتبك، وإنما أحاول توضيح الموقف فحسب..
ثم عاد إلي الملف الذي يحمله، والتقط منه بضع ورقات متابعا:
- فلو أنك طالعت البرنامج التدريبي، الذي أعددته لهؤلاء الصبية، لوجدت أنه ليس تدريبا عسكريا بالمعني المفهوم، وإنما هو أشبه بسلسلة من الألعاب المسلية المثيرة، التي تجذب في المعتاد انتباه من في مثل عمرهم، وعندما يزاولونها باستمرار، فإنهم يكتسبون مهارات شتي، مثل السباحة والعدو، وإصابة الهدف، والقتال اليدوي، مع بعض المعارف الرياضية والفيزيائية والكيميائية، التي تفيدهم فيما بعد، في الحياة العملية، ثم إنه هناك أيضا رحلات ترفيهية، ومعسكرات نشاط في دول أخري، بحيث يعتادون الترحال، والعيش في بيئات مختلفة، ويستخدمون اللغات التي يتعلمونها، في مناخها الطبيعي.. إنه برنامج أشبه بحياة الكشافة ([5])، وليس بمعسكرات التدريب العسكرية الخشنة..
سأله (عبد المحسن) في اهتمام
- وهل تعتقد أن الصبية، في مثل هذا العمر، يمكن أن يكتسبوا مهارات عديدة؟!
أجابه (صدقى)، في سرعة وحماس:
- بل أعتقد أن هذه أفضل مرحلة سنية، يمكن أن يكتسب فيها المرء كل المهارات الممكنة..
تطلع إليه (عبد المحسن) طويلا في صمت، ثم تراجع بمقعده، وقد انعقد حاجباه، وبدا كمن غرق في تفكير عميق، قبل أن

يشير بسبابته، قائلا:
- مازلت أعتقد أن الفكرة غير قابلة للتنفيذ، في مجتمعاتنا الشرقية على الأقل، فما من أحد سيتقبل فكرة إخضاع الأطفال أو الصبية لعملية الإعداد المبكرة هذه أبدا..
وعاد يميل نحوه، ويتطلع إلى عينيه. مباشرة، مضيفا:
- أنت نفسك يمكن أن تستنكر هذا، لو جاء أحدهم يعرض عليك التخلي عن أحد ولديك أو كليهما، ليخضع لبرنامج تدريبي مكثف، حتى يصبح في النهاية رجل مخابرات من طراز جديد ومتفوق.
وتنهَّد، قبل أن يقول في حزم:
- صدقني يا رجل.. ربما كانت فكرتك عبقرية، ولكنك لن تجد مسئولا واحدا يمكن أن يمنحك موافقة رسمية لتنفيذها..
التقي حاجبا (صدقى) مرة أخري في شدة، وهو يلملم أوراقه، ويعيدها إلى الملف، قائلا في حزم:
- ربما، ولكنني لن أتخلي عنها في سهولة.
ثم نهض ليغادر مكتب (عبد المحسن)، وتوقف لحظة بعد أن فتح بابه، والتفت إليه، قائلا في حزم أكثر:
- صدقني يا رجل.. هذه الفكرة ممكنة التنفيذ..
قالها، وغادر الحجرة، وأغلق بابها خلفه في هدوء كعادته، وتعلقت عينا (عيد المحسن) بالباب بضع لحظات، قبل أن يهز رأسه، مغمغما:
- مستحيل يا (صدقى).. مستحيل!
وعاد يطالع ملف ذلك الشاب، الذي تم إلقاء القبض عليه عند الحدود الليبية، وهو واثق من أن فكرة زميله لا يمكن أن تنجح عمليا أبدا..

ولكن المقدم (صدقى) لم يكن أبدا من الطراز، الذي يمكن أن يستسلم للفشل..
أو يتراجع عن فكرة يؤمن بها..
ولكنه، وحتى تلك اللحظة، التي غادر فيها مكتب زميله (عبد المحسن)..
أو تلك التي قدم فيها فكرته رسميا للمسئولين..
وحتى عندما غرق في محاولات شرحها وتوضيحها لأسابيع عديدة، لم يكن يدري أن القدر يدخر له الكثير في هذا الشأن والكثير جدا..
بل ولم يكن يتصور أبدا أن اسمه سيرتبط ارتباطا وثيقا برجل المخابرات الفذّ الذي يسعي لصنعه..
وإلي الأبد..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

٤- البداية..

«لقد رفضوا الفكرة تماما..»

نطق (صدقي) العبارة في أسي واضح، وهو يجلس على مقعده المفضل، في حديقة منزله الصغير في (المعادي)، فارتفع حاجبا زوجته في تعاطف وجداني، وربتت على كتفه في حنان، هامسة:

- ربما لم يستطيعوا استيعابها جيدا..

تنهد، قائلا في مرارة:

- كانت لهم نفس وجهة نظر (عبد المحسن).. أن هذه الفكرة لا تصلح للتطبيق في مجتمعاتنا الشرقية، ولست أدري ما صلة شرقيتنا بأمر كهذا.. إنني أسعى لصنع رجل مخابرات مثالي، يمكنه التصدي لأي خصم، ومواجهة أي موقف مهما بلغت صعوبته.. رجل يمتلك من المهارات والقدرات والخبرات، ما يجعله وحده قوة ضاربة، لا يشق له غبار، في مواجهة أي عدو، مهما بلغت قوته.

ترددت زوجته بضع لحظات، قبل أن تسأله في حذر:

- وهل تعتقد حقا أن صنع مثل هذا الرجل ممكن؟!

التفت إليها بحركة حادة، قائلا في استنكار:

- ولِم لا؟!

- أعتقد أن للجسد البشري طاقات محدودة، مهما بلغ حجمها..

أجاب في حزم

- خطأ.. راجعي الأرقام القياسية للدورات الأوليمبية ([6]) في السنوات العشر الأخيرة، وستجدين أنه في كل مرة يتم كسر الرقم القياسي، الذي تم تحقيقه في الدورة السابقة، في كل مجالات الرياضة تقريبا.. فما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟! إنه

يعني أن قدرات الجسد البشري لا محدودة، وأنه من الممكن تنميتها إلى أي حد، بالتدريب والمران..
قالت في اهتمام:
- هذا صحيح إلى حد كبير، وربما ينطبق على كل الرياضيين، في كل المجالات، ولكننا لم نسمع أو نقرأ قط عن رياضى، أمكنه التفوق في عدد من الرياضات المختلفة، في آن واحد. ([7]).
مط شفتيه، وهز كتفيه، قائلا:
- ربما يحدث هذا في المستقبل..
ابتسمت في حنان، وهي تتحسس شعره، قائلة:
- من يدري؟! ربما..
ثم تابعت ببصرها ولديها (أكرم) و (أحمد) [والأخير يحمل بالفعل هذا الاسم، في عالم الواقع]، وهما يلهوان في الحديقة الصغيرة، بكل مرح وبراءة الطفولة، قبل أن تهمس قائلة:
- هل تعلم؟! إنني أعتقد أن لديهم بعض الحق، في وجهة نظرهم هذه..
التقي حاجباه، وهو يتطلع إليها في استنكار، إلا أنها لم تنتبه إلى هذا، وهي تواصل متابعة ولديها في حنان، مستطردة:
- إنني لا أتصور أبدا أن يتعرض أحد أبنائي لأمر كهذا، حتى ولو كان هذا الأمر سيصنع منه أفضل وأقوي مقاتل في الدنيا كلها..
ازداد انعقاد حاجبيه، وهو يدير عينيه إلى ولديه بدوره، وارتسمت على ملامحه أمارات تفكير عميق، مع متابعته للعبهما ولهوهما البريء، ثم لم يلبث أن قال في خفوت:
- أريد قدحًا من القهوة.
كان من النادر أن يتناول أية مشروبات منبهة، حتى إن مطلبه أدهشها، إلا أنها نهضت على الفور، قائلة بذلك الحماس

التقليدي للزوجة المصرية:

- من عيني..

وأسرعت لتعد له قدح القهوة، في حين واصل هو متابعة ولديه في اهتمام، وفكرة عجيبة تدور في رأسه، وتلهب كل ذرة من

تفكيره وكيانه، ثم لم يلبث أن نهض من مقعده، واتجه إليهما، فأسرعا يعانقانه كعادتهما، وهتف (أكرم) في حماس:
- أبي.. هل تعلم؟! لقد أخفي (أحمد) الجاروف الصغير في الحديقة، ولكنني عثرت عليه، عندما تتبعت آثار قدميه كما علمتني..
ومط (أحمد) شفتيه الصغيرتين، قائلا في اعتراض:
- لم أكن أتعمد إخفاءه، ولو فعلت لما أمكنك العثور عليه قط.
ابتسم (صدقى)، وهو يضمهما إليه في حنان، ويقول:
- دعكما الآن من هذه الألعاب القديمة، فسنبدأ معا سلسلة من الألعاب الجديدة المبتكرة..
هتف الصغيران في سعادة:
- وهل ستشاركنا لعبنا هذه المرة يا أبي؟!
التمعت عينا (صدقى)، وهو يقول:
- بالتأكيد.. سأشارككما لعبة طويلة، يعلم الله (سبحانه وتعالي) وحده، متي وكيف تنتهي..
وعندما أحضرت زوجته قدح القهوة، أدهشها كثيرا انهماكه الشديد في اللعب مع ولديه، في حالته هذه..
وفي أعماقها، شعرت أن ما يفعله زوجها مع الولدين ليس مجرد مشاركة بسيطة بريئة في اللعب..
إنه يخفي هدفا أخر..
هدفا يخفق له قلبها في قلق وعنف..
وكانت كأي أم..
على حق في مشاعرها وأحاسيسها..
تماما..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

احتقن وجهة (عبد المحسن)، واتسعت عيناه في مزيج من الدهشة والاستنكار، وهو يحدق في وجه زميله (صدقي)، قبل أن يهتف في حدة:
- هل جننت يا (صدقي)؟! كيف تعرض ولديك لتجربة رهيبة كهذه؟!
ابتسم (صدقي) في هدوء شديد، وهو يجيب:
- إنها ليست كذلك بالنسبة لهما، فهما يستمتعان كثيرا بكل دقيقة منها، ويشعران بسعادة بالغة؛ لأنني أمنحهما الآن جزءا كبيرا من وقتي واهتمامي، وأشاركهما ما يتصورانه لهوا وعبثا طفوليا، ولا يدركان قط أن كل هذا مجرد جزء من البرنامج التدريبي، الذي أعددته.
هتف (عبد المحسن):
- ولداك يا (صدقي)؟!
هز (صدقي) كتفيه، قائلا:
- ولم لا؟! ما دام هناك أمل في صنع رجل المخابرات المثالي، وما دمت صاحب الفكرة الأساسية، فلم لا يحظى أحد أبنائي بهذا الشرف!!
قال (عبد المحسن) في توتر، لم تفارقه بعد لهجة الاستنكار:
- وهل سيسعدك أن يشب ولداك كرجلي مخابرات؟
صمت (صدقي) بضع لحظات، ثم مط شفته السفلي، قائلًا:
- لست أعتقد أن كليهما يصلح لهذا.. صحيح أنهما يمضيان في الأمر بشغف كبير، إلا أن (أكرم) يبدو لي موهوبا في هذا المجال، ولديه استعداد كبير للتطور فيه، وبالذات في النواحي الحركية، أما شقيقه (أحمد)، فهو يميل أكثر للأمور العقلانية، والتركيبات العلمية والبحتة..
ثم تنهد في عمق قبل أن يضيف:

- أعتقد أنّني سأركز جهودي في المستقبل على (أكرم) وحده..
قال (عبد المحسن) مستنكرا:
- الطفل لم يتجاوز الثالثة من عمره بعد يا (صدقى)..
ابتسم (صدقى)، قائلا:
- وماذا في هذا؟! إنه يلعب ويلهو، مثل كل الأطفال في مثل عمره.. كل ما في الأمر هو أنني أختار ما يناسبه من ألعاب فحسب..
ثم اتسعت ابتسامته، وهو يستطرد:
- اطمئن يا صديقي.. لا يمكنني أن أوذي ولدي، بأي حال من الأحوال.
هز (عبد المحسن) رأسه، بحركة تشف عن عدم الاقتناع، وقال:
- ولكنني مازلت أصر على أن...
قاطعه (صدقى) بغتة، وهو يسأله في اهتمام:
- ما الذي تم بشأن ذلك الشاب، الذي تسعي لزرعه في قلب (إسرائيل)؟
كانت محاولة ذكية؛ لإدارة دفة الحديث بعيدا، إلا أنها نجحت على نحو ملحوظ، فقد أجاب (عبد المحسن) في اهتمام وحماس:
- إنه مناسب تماما لما كنت أسعى إليه، فهو يجيد عدة لغات، ويمتلك ملامح يصعب تحديد جنسيتها أو انتمائها، كما أنه محتال بطبعه.. باختصار، إنه من الطراز الذي يمكن زرعه في أي مجتمع، فيتكيف معه في سرعة، ويغوص فيه ويتوغل في خباياه، ثم يمنحك كل ما تريده منه.
ابتسم (صدقى)، وهو ينهض، قائلا:
- عظيم.. هيا.. واصل عملك يا رجل، وأبلغني بالتطورات، إلى اللقاء..

أشار (عبد المحسن) بيده، مجيبا:
- إلى اللقاء يا صديقي.
ثم أضاف في حزم، قبل أن يبلغ (صدقى) الباب:
- ولكن إياك أن تتصور أنك نجحت في إلهائي عن أمر تجربتك العجيبة هذه.. لقد تجاوزت الحديث بإرادتي.
أطلق (صدقى) ضحكة مرحة، ثم غادر الحجرة، وأغلق الباب خلفه كعادته..
بكل هدوء..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

ديسمبر ١٩٥٥م..
كان شتاء قاسيا بحق..
واحد من أصعب فصول الشتاء، التي شهدتها (مصر)، منذ أكثر من عشر سنوات..
وعلى الصعيد السياسي، كانت الأمور كلها ملتهبة بشدة..
الرئيس (جمال عبد الناصر) يواصل سياسته المناهضة للاستعمار، بعد مؤتمر (باندونج) ([8])، و(أوروبا) و(أمريكا) و (الاتحاد السوفيتي) تتابع خطواته في قلق واهتمام، وخاصة بعد سياسة عدم الانحياز..
التغيرات الاجتماعية تواصل تقلباتها السريعة؛ لصنع مجتمع جديد..
الإسرائيليون يكثفون محاولاتهم لاختراق المجتمع المصري، وزرع شبكات جاسوسية جديدة فيه، بعد سقوط مجموعة عملية (لافون) ([9])
ومع كل هذا، كان على رجلين مثل (صدقى) و(عبد المحسن) أن يعملا طوال الوقت تقريبا، وبلا توقف حتى إن أحدهما لم ير

الآخر لشهر كامل، على الرغم من أن مكتبيهما متجاوران، داخل تلك الثكنات العسكرية، في منطقة (مصر الجديدة).
وذات صباح، اختفت فيه الشمس خلف غيوم داكنة كثيفة تنذر بسقوط أمطار غزيرة، وانخفضت درجات الحرارة على نحو يزيد على المعدلات الطبيعية، في تلك الفترة من العام، دق (عبد المحسن) باب حجرة (صدقى)، ثم دلف إليها، قائلا بابتسامة كبيرة:
- صباح الخير يا رجل.. كيف حالك..
منحه (صدقى) ابتسامة مماثلة، قائلا:
- بخير حال.. كيف حالك أنت، وماذا فعلت في عملية (٣١٣) هذه؟!
ألقي (عبد المحسن) جسده المرهق، على أول مقعد صادفه، وهو يلوح بيده، قائلا:
- (رفعت) في (إسرائيل) بالفعل منذ ثلاثة أسابيع..
هتف (صدقى) في فرحة حقيقية:
- حقا؟! هل تعني أننا قد نجحنا في خداع الإسرائيليين، وزرعنا عميلنا في قلبهم، دون أن يدركوا هذا؟!
هز (عبد المحسن) كتفيه، وأجاب بابتسامة هادئة:
- لقد أجدنا اللعبة يا رجل، وسار كل شيء كما خططنا له بالضبط، فلقد منحناه اسما يهوديا، وهوية معروفة، وعثرنا له على تاريخ منطقى.. وصحيح، ثم تركناه يندمج في المجتمع اليهودي، ويسعي للهجرة إلى (إسرائيل)، مثل أي شاب آخر، ثم تحولت ابتسامته إلى ضحكة سريعة، قبل أن يتابع:
- هل تعلم؟ لقد تقدم بطلب السفر ثلاث مرات، وتم رفض الطلب في كل مرة، وكأننا نرفض ذهابه إلى (إسرائيل)، حتى إنهم

تحايلوا لتهريبه من (مصر) إلى (إيطاليا)، حيث التقت به الوكالة اليهودية هناك، وساعدته على السفر إلى (إسرائيل).
ابتسم (صدقى)، قائلا:
- أهنئك يا رجل.. لقد أصبحت أستاذا..
تنهد (عبد المحسن) في عمق وقال:
- أشكرك.
ثم سأله في اهتمام:
- وماذا عن تجربتك؟! أي مدي بلغته فيها؟!
اعتدل (صدقى) في مقعده، وأجاب:
- لقد استبعدت (أحمد) من اللعبة تماما، كما سبق أن أخبرتك، وركزت جهودي كلها على (أكرم)، الذي يبدي استجابة واضحة ومبشرة، ولقد اكتسب بالفعل عددا من المهارات المختلفة، ويتحدث الآن بعض الإنجليزية والفرنسية، كما يمكنه تمييز الحروف العبرية، على الرغم من أنه لم يلتحق بالمدرسة بعد..
ارتفع حاجبا (عبد المحسن) في دهشة، وقال:
- في مثل هذا العمر؟!
ثم مال نحو زميله، يسأله في قلق:
- أليس من المرهق الطفل في عمره، أن يتعلم ثلاث لغات في آن واحد؟!
ابتسم (صدقى)، وهز رأسه نفيا، وهو يجيب:
- مطلقا.. لو أنك ذهبت لزيارة أية منطقة سياحية، مثل أهرامات (الجيزة)، أو (نزلة السمان) أو معابد (الأقصر) و(أسوان) سيدهشك أن الذي يقوم بالترجمة وإرشاد السائحين ليس جامعيا، أو يحمل حتى شهادة الابتدائية، وإنما هو مترجم فطري، يطلق عليه اسم (الترجمان).. ربما لا يجيد القراءة أو الكتابة، ولكنه يستطيع التحدث بأربع أو خمس لغات حية

بطلاقة مدهشة، كما لو أنه قضي عمره كله متجولا بين دول العالم المختلفة، على الرغم من أنه لم يغادر (مصر) قط.. بل ربما لم يغادر بلدته نفسها أبدا.. أما الأطفال الصغار، في سن (أكرم)، فستجدهم يتحدثون بكلمات وعبارات من مختلف اللغات المعروفة، ويرددونها في حديثهم مع السائحين الأجانب، لمجرد أنهم حفظوها عن ظهر قلب.. وأعتقد أن ذكاء (أكرم) يجعله قادرا على بلوغ ما بلغوه، في هذه المرحلة من العمر..

صمت (عبد المحسن) طويلا، وهو يتطلع إليه في انبهار، ثم تراجع مغمغما:

- كالمعتاد.. أنت دائما على حق..

ارتسمت على شفتي (صدقي) ابتسامة هادئة، وقال:

- لم يثبت هذا بعد يا صديقي.. لم يثبت بعد.

ثم تراجع في مقعده، وشرد بصره في سقف الحجرة، وهو يتابع:

- مازال أمامنا زمن طويل.. طويل للغاية، وربما كان على حق، في قوله هذا.. فـ (أكرم) الصغير مازال أمامه الكثير والكثير ليتعلمه، وهذا يحتاج إلى زمن طويل بالفعل.

ولكن الزمن يمضي حتما..

وبأسرع مما يتصور..

بكثير.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«هل ترغب في تناول قدح آخر من الشاي؟!»

ألقي عليَّ (ا. ص) هذا السؤال في اهتمام حقيقي، انتزعني فجأة من تركيزي، فانتفض جسدي بحركة لاشعورية، وهتفت:

- كلا.. أشكرك..

سألني مرة أخري:

- وماذا عن عصير الليمون؟؟

ابتسم السيد (أشرف)، وقال:
- هذا يناسبني..
تنهد، قائلا:
- فليكن.
أشار إلى خادمه لإحضار عصير الليمون، فسألته في لهفة، واهتمام:
- هل تعلم أن هذه حالة فريدة بالفعل؟! أعتقد أنك الشخص الوحيد في العالم، الذي حظي بكل هذا التدريب، في تلك الفترة من العمر.. أعني بالنسبة لرجال المخابرات..
صمت لحظة، قبل أن يهز كتفيه، قائلا في هدوء:
- نعم.. أعتقد هذا.
سألته في اهتمام:
- ولكن ألم يرهقك هذا؟! أعني ألم ينتزع سنوات طفولتك وبهجة صباك مثلا؟!
ارتسمت على شفتيه ابتسامة، تشف عن استعادته لذكريات ممتعة، وهو يجيب:
- مطلقا.. لقد كنت أستمتع بكل لحظة منها.. كل لعبة وكل خبرة جديدة أكتسبها.. لقد أجاد أبي (رحمه الله) عمله، حتى صرت شغوفا بكل ما يلقنني إياه، وأنتظر في لهفة تلك الساعات، التي تقضيها معا، والتي أغوص فيها في ذلك العالم المثير من المعرفة.
سألته، وأنا أشير بيدي:
- وماذا عن شقيقك؟! ألم يشعر بشيء من الغيرة؟!
عاد يبتسم، قائلا:
- (أحمد) كانت له اهتمامات أخري.. علمية على الأخص، ولقد انشغل كثيرا بطاقم من الأدوات المعملية والخامات الكيميائية،

أهداه إياه أبي، في ذلك الحين، ولم يبال بما نفعله معًا.
سألته، حتى نعود إلى قصته وذكرياته:
- وهل عمل والدك على إلحاقك بجهاز المخابرات فيما بعد؟!
صمت لحظة، ثم هز رأسه نفيا، وقال:
- لم تكن لأبي أية صلة مباشرة، لالتحاق بالمخابرات العامة، فلهذا قصة أخرى..
اعتدلت في مقعدى، قائلا:
- سيسعدني سماعها
لم أكد أتم عبارتي، حتى ارتفع رنين الهاتف، على نحو يوحي بأنها مكالمة من خارج (مصر) كلها، فاعتذر (ا. ص) بأسلوب مهذب، ونهض ليجيب الهاتف، وعندما سمعت اللغة التي يتحدث بها، سألت السيد (أشرف) في اهتمام:
- هل يتحدث الإيطالية؟!
هز رأسه نفيا، وأجاب في حزم مقتضب:
- بل الأسبانية..

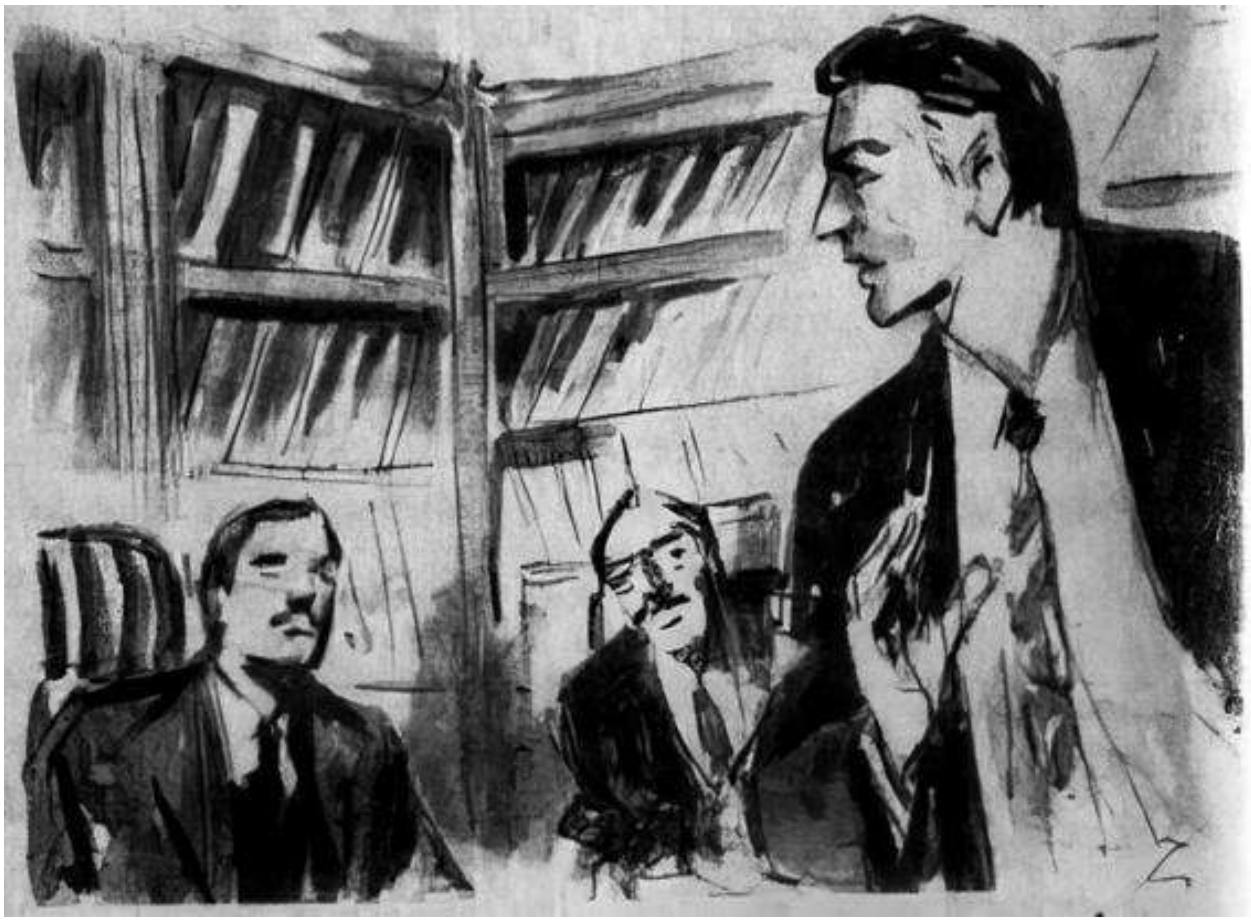

خلت لحظة أنه سيكتفي بهذا الجواب المقتضب، إلا أنه تابع في سرعة:

- لقد قضي فترة من حياته في (أمريكا الجنوبية)، ومازالت لديه بعض الاستثمارات هناك، وفي (الولايات المتحدة الأمريكية) أيضا، وهو يسافر كثيرا، لمتابعة استثماراته هناك، بين الحين والآخر، ولكنه يفضل الاستقرار في (مصر).

وصمت لحظة، ثم تابع في خفوت:

- وكانت له زوجة هناك أيضا..

سألته في اهتمام:

- مصرية؟!

تنهد، وأجاب:

- بل إسرائيلية.

هبط على الجواب كالصاعقة، فتراجعت في مقعدى بعنف، وهتفت:

- إسرائيلية؟! كيف؟!
انفرجت شفتا السيد (أشرف)، وكأنه سيخبرني بالجواب، إلا أنه لم يلبث أن عقد حاجبيه، وقال في حزم صارم:
- فليخبرك هو بهذا الأمر إن أراد.
أحنقني هذا، والتهب فضولي أكثر وأكثر، فنقلت عيني إلى (ا. ص)، الذي أنهي مكالمته الهاتفية، ثم عاد إلينا ليعتذر مرة أخري، عن انشغاله بها، وجلسنا نتناول عصير الليمون، وأنا أسأله:
- وهل واصل والدك (رحمه الله) تجربته حتى النهاية؟!
تنهد، مجيبا:
- أعتقد أنه أنجز الكثير منها، ولكنه لم يقنع أبدا بما بلغناه، في أية مرحلة، وكان يطلب المزيد والمزيد، ويؤكد لي أنه لا حدود لما ينبغي أن يكتسبه أو يتقنه رجل المخابرات، ولقد اصطحبني إلى أماكن ودول عديدة، وكان يصر على ألا نتحدث سوي لغة الدولة، التي تتواجد فيها، مهما كانت الأسباب ويحثني على الاختلاط بأهلها، وإقامة علاقات صداقة معهم، والتجوال في شوارعها، وطرقاتها، وأتعلم عاداتها وتقاليدها ووسائل العيش والتعامل فيها.. وكنت أستمتع بهذا بشدة، وأجيده تماما، وكنا نخطط للقيام برحلات أكثر، وأكثر.. ولكن..
بتر عبارته عند تلك الكلمة، وارتفع حاجباه في تأثر واضح، فسألته في لهفة:
- ولكن ماذا؟!
تبادل نظرة حزينة مع السيد (أشرف)، قبل أن يجيب:
- ولكن القدر لم يمهله ليفعل..
قلت في توتر:
- أتقصد أنه مات؟؟

هز رأسه في حزم، مجيبا:
- بل قُتِل.. اغتيل على يد عميل إسرائيلي محترف..
اتسعت عيناه في شيء من الارتياع، وأنا أهتف:
- كيف؟
تنهد، قائلا:
- لهذا قصة..
وعاد يروي ما لديه..
وأنا أنصت..
وبكل حواسي..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

٥- الخيانة..

خمسة عشر عاما مضت، منذ بدأ (صدقى) في تطبيق فكرته الفذة..
خمسة عشر عاما، حدث خلالها الكثير..
والكثير جدا..
اندلعت الحرب مرتين، بين (مصر) و (إسرائيل) إحداهما في عام ١٩٥٦ م، عندما وقع العدوان الثلاثي على (مصر)، من (انجلترا) و (فرنسا) و (إسرائيل)، إثر تأميم الرئيس (جمال عبد الناصر) لقناة (السويس)، والذي انتهي بانسحاب المعتدين، وتراجعهم إلى خطوطهم الأولي
بعد أن تلقوا إنذارا أمريكيا سوفيتيا، بعدم المضي في العدوان، وإلا كان على ثلاثتهم مواجهة ما لا قبل لهم به..
وكانت الثانية في عام ١٩٦٧م..
والهزيمة..
والمرارة..
والألم..
كان (أكرم) في السادسة عشرة من عمره، عندما حدث هذا، وكان قد اكتسب مهارات شتي، بهرت والده، قبل أن تبهر رفاقه..
فالفتي، في ذلك العمر، كان يجيد التحدث بخمس لغات حيَّة إلى حد مدهش، وبمعظم لهجاتها المحلية أيضا، بعد أن طاف العالم مع والده مرتين، ويمكنه إطلاق النار، باستخدام المسدسات والمدافع الآلية، بدقة تنخفض معها احتمالات الخطأ إلى اثنين في المائة، كما أنه حصل على الحزام الأسود، في لعبتي الجودو والكاراتيه، ويستطيع قيادة السيارات، وطائرات

التدريب، والزوارق البخارية، وحتى طائرات الهليوكوبتر بكل إجادة..
المؤكد أن هذا يفوق بكثير جدا، ما يمكن أن يكتسبه أقرانه، في نفس العمر..
ولم يكن هذا بفضل التدريب المتقن المدروس المستمر فحسب، على يد واحد من أفضل رجال المخابرات المصرية على الإطلاق..
وإنما كان أيضا بفضل موهبة طبيعية، حبابها الله (سبحانه وتعالي) الفتي، بحيث تتصور طوال الوقت، أنه لا يمكن أن يصلح - في الحياة - إلا لعمل واحد..
القتال..
وفي تلك الفترة أيضا، كانت المخابرات العامة المصرية قد تطورت كثيرا، وانتقلت إلى ذلك المبني الشهير، في منطقة (كوبري القبة)، الذي ضم عددا من الرواد، الذين أصبحوا أساتذة لا يُشَق لهم غُبار، في مجالهم هذا..
(صدقى)، و (عبد المحسن)، و (نسيم)، و(رفعت)، و (عزيز)، و (حسن).. وغيرهم..
وعلى الرغم من الهزيمة المؤلمة، في 1967 م، إلا أننا لا نستطيع أن نلوم هؤلاء الرجال، أو نتهمهم بالتقصير..
فالواقع أنهم قاموا بعملهم خير قيام، حتى إنهم نجحوا، في الأسبوع الأخير من مايو، في الحصول على الخطة الإسرائيلية للهجوم، وسلموها إلى القيادة السياسية، مما دفع الرئيس (جمال عبد الناصر) إلى الاجتماع بكل قادة الأفرع، للقوات المسلحة، وإعلانهم بما لديه، إلا أن أولئك القادة تراخوا في

عملهم، وأخطئوا بعدم الاهتمام بما قاله الرئيس، أو وضعه في الاعتبار، لسبب أو لآخر.. ([10])
ولهذا كانت الهزيمة..
وبعدها ذلك الشعور المؤلم بالمرارة والعار، الذي ملأ النفوس، واستقر في الوجدان، ونشر إحساسا عاما بالإحباط واليأس، و....
ولكن (صدقى) لم يستسلم لكل هذا..
كان يشعر مثلهم بالألم والمرارة، ألا أنه - كعادته – راح يدرس أسباب الهزيمة، ويمصها، ثم طلب فجأة عقد اجتماع مع رفاقه، ولم تكد تضمهم حجرة الاجتماعات، في مبني الأمن القومي، داخل نطاق المخابرات، حتى قال في حزم:
- هيا يا رفاق انفضوا عن أنفسكم مرارة الهزيمة، ودعونا نفكر معا، كيف نحقق النصر، في المواجهة التالية..
كانت كلماته قوية حاسمة، مما جعلهم يعتدلون في مقاعدهم، وينصتون إليه جيدا، وهو يشرح لهم خطة متكاملة، لتحقيق التفوق، في حرب المعلومات مع الإسرائيليين، بحيث لا يكتفون بالحصول عليها من مصادرهم فحسب، وإنما يسعون لغرس أذنهم في قلب القيادة الإسرائيلية..
وفي أعمق أعماقها..
والواقع أنها كانت خطة عبقرية مدهشة، ومتقنة للغاية، حتى إنه لم يتم التصريح بنشر تفاصيلها الكاملة، حتى لحظة كتابة هذه السطور..
ولقد تم تنفيذها على أكمل وجه..
وطوال عامين كاملين..
فعندما حل شهر فبراير، عام ١٩٦٩ م، كان الإسرائيليون، قد فقدوا ستة من أفضل جواسيسهم في (القاهرة)، وسقطت لهم

أربع شبكات تجسس في الدول العربية الأخرى، بمعاونة المخابرات العامة المصرية، في نفس الوقت الذي تسربت فيه الأسرار والمعلومات منهم، كما لو أن خزان أسرارهم يعاني من ثقب ضخم في قاعدته..
وكان هذا يعني - وبكل وضوح - أن المصريين يتقدمون بسرعة مدهشة، وأنهم قد استعادوا معظم قوتهم وكفاءتهم..
وبدءوا ينتقلون في تقدم واضح، من بئر الهزيمة، إلى إكليل النصر..
وكان هذا التقدم يخيف الإسرائيليين، ويثير قلقهم بشدة..
فلو استمر الأمر على هذا المنوال، سيبلغ الأمر مرحلة شديدة الخطورة، وسيفقد الإسرائيليون كل ما يحلمون به من تفوق، على نظم الأمن العربية..
لذا، فقد اجتمع مدير المخابرات الإسرائيلي بكبار رجاله ومعاونيه، في أوائل مارس، من عام ١٩٩٩ م، في مقرهم الرئيسي في (تل أبيب)، لمناقشة هذا الأمر، ودراسته من كل الوجوه، وبدا الجميع شديدي التوتر والعصبية في هذا الاجتماع، وخاصة الضابط (موردخاى)، الذي قال في حدة:
- لا يمكننا أن نسمح باستمرار الأمر على ما هو عليه، وإلا فستصبح أسرارنا أشبه بصفحة مفتوحة أمام المصريين، يقرءون منها ما يشاءون، وقتما يشاءون.. لقد بذلنا جهدا خرافيا؛ للسيطرة على هذا الأمر، ولكننا لم ننجح في الإيقاع بأكثر من عميلين مصريين، لقي أحدهما مصرعه في أثناء استجوابه، وقبل أن نحصل منه على أية معلومات، أما الثاني، فليس سوي مندوب اتصال داخلي، لا يعرف سوي ما يبلغونه به، ولقد أخطأ الزميل الذي ألقي القبض عليه، عندما تسرع في الإيقاع به، قبل

أن يلتقي بالجاسوس المصري، مما دفع هذا الأخير للفرار فخسرنا الهدف الرئيسي للعملية كلها..
باختصار، مواجهتنا مع المصريين، في الفترة الأخيرة، لم تسفر إلا عن الهزيمة لنا.. كل الهزيمة، ولابد من إيجاد حل لهذا الأمر، وإلا....
لم يتم عبارته؛ لأن المعني بدا له واضحا للغاية، ولم يكن بحاجة لكلمات أخري..
ولكن أحدا من زملائه لم يعلق على حديثه..
لذا، فقد ران على المكان صمت رهيب، والجميع يتطلعون إليه في ضيق واضح، حتى قال المدير بصوته الأجش:
- حديث صحيح يا (موردخاى)، على الرغم مما يثيره في نفوسنا من مرارة وشجون، فقد كان المفترض، بعد ما فعلناه بالعرب عامة، وب (مصر) على وجه الخصوص، أن تنكسر شوكتهم للأبد، وتمتلئ نفوسهم بالخوف منا، ويخشون مجرد ذكر اسمنا، ولكنني لا أستطيع أبدا فهم هؤلاء العرب، وبالذات المصريين منهم، فبدلا من أن يشعروا بالهزيمة والعار، إذا بهم ينهضون من كبوتهم، وينقضون على عملائنا كالنسور، ويقلبون المنضدة على رؤوسنا.. والمعلومات لدينا تؤكد أنه هناك عدد من كبار ضباط المخابرات المصرية وراء هذا التخطيط والانتصار المتواصل..
ثم دفع أمام رجاله ملفا كبيرا، مستطردا:
- وستجدون في هذا الملف كل ما أمكننا جمعه عنهم من معلومات..
طالع الرجال الملف في اهتمام شديد، قبل أن يقول أحدهم:
- ماذا لو دبرنا عددا من عمليات الاغتيال، للتخلص من هؤلاء الضباط، واحدا بعد الآخر؟!
انعقد حاجبا المدير، وهو يقول في صرامة:

- هل تعتقد أن اغتيال ضباط المخابرات المصريين أمر سهل أو بسيط؟! لقد حصلنا على كل هذه المعلومات عنهم، دون أن تنجح في الحصول على صورة واحدة لأحدهم، فكيف يمكنك اغتيال شخص تجهل هيئته؟! ثم إن الوصول إلي قلب (القاهرة) لاغتيال شخص ما، أيا كانت ماهيته، ليس بالأمر اليسير، فالمصريون وعوا الدرس جيدا، بعد حرب الأيام الستة، واتخذوا من أساليب الحيطة والحذر، مع تطوير نظم الأمن، ما يجعل المستحيل الظفر بهم مرة أخري، و...

اندفع (موردخاى) يقول بغتة:

- أعتقد أن لدي فكرة ما..

بدا الضيق على وجه المدير؛ لأن (موردخاى) قد قاطعه على هذا النحو، والتفت إليه، قائلا في صرامة:

- بخصوص ماذا؟!

أطل بريق عجيب من عينى (موردخاى)، وهو يجيب:

- بخصوص علاقتنا بالمصريين..

تطلع إليه المدير مع الآخرين بنظرة متسائلة، فتابع في اهتمام:

- منذ شهر ونصف الشهر تقريبا، أوقع المصريون بواحد من أخطر عملائنا في (القاهرة)، وهم يستعدون الآن لمحاكمته، بتهمة التخابر معنا، وأعتقد أنه من الطبيعي أن تسعي للتفاوض معهم، بشأن استعادة عميلنا هذا، أو مبادلته مع بعض أسراهم لدينا..

بدت الحيرة على وجوه رفاقه، في حين قال المدير في حدة:

- وما صلة هذا بما تناقشه الآن؟! ألا تلاحظ أنك قد تجاوزت الموقف يا (موردخاى)؟! ماذا دهاك يا رجل؟! لقد كنت أظنك دائما أفضل رجالي، والمرشح الوحيد لاحتلال مقعدي هذا يوما ما!

ارتسمت ابتسامة ماكرة على شفتي (موردخاى)، وهو يقول:
- لن يختلف ظنك هذا كثيرا يا سيدي؛ فأنا لم أتجاوز الموقف قط، وإنما هناك علاقة قوية، بين الأمرين..
سأله المدير في شيء من العصبية:
- أية علاقة هذه؟!
اعتدل (موردخاى)، قائلا:
- سأشرح لك يا سيدى..
وعندما بدأ (موردخاى) في شرح الأمر، أدرك الجميع أنه يستحق بالفعل احتلال مقعد المدير يوما ما..
بل ويستحق الحصول على لقب الثعلب وبكل جدارة..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

انعقدت حواجب (صدقى) و(حسين) و (عبد المحسن)، وتبادلوا نظرة قلقة متوترة، وهم يجلسون في حجرة مدير المخابرات العامة المصرية، قبل أن يقول (صدقى) في اهتمام مشوب بشيء من العصبية:
- سيادة المدير.. هل يمكنك أن تشرح لنا الأمر مرة أخري.. يلوح لي أنني لم أحسن استيعابه جيدا؟!
التقط المدير نفسا عميقا وقال:
- بالتأكيد يا سيد (صدقى).. الإسرائيليون يطلبون عقد لقاء معنا، للتفاوض بشأن عميلهم، الذي ألقينا القبض عليه مؤخرا، ولقد بلغنا هذا العرض عن طريق جهاز الأمن الإيطالي، الذي تتوسط بيننا وبينهم، ويؤكد أنه سيؤمن عملية اللقاء، ويحيطها بكل وسائل الأمن والحماية الممكنة..
سأله (عبد المحسن):
- ولماذا لم يقدموا عرضهم هذا بالطريق الرسمي؟!
أجابه المدير:

- حجتهم في هذا أن القنوات الشرعية لمثل هذه الاتصالات مغلقة، بحكم حالة الحرب بيننا وبينهم، ثم إنهم لم يعترفوا رسميا بأنهم ما زالوا يحتفظون ببعض أسرانا، حتى هذه اللحظة.
هز (صدقى) رأسه، وقال:
- ما زال هذا يبدو لي سببا غير مقتنع.
وافقة المدير بإيماءة من رأسه، وقال:
- هذا صحيح، ولكن يبدو أن ذلك العميل، الذي ظفرنا به يمثل بالنسبة لهم الكثير، وإلا ما لجئوا إلى أسلوب غير تقليدي كهذا، ثم إن اللقاء سيتم بين جهاز المخابرات فحسب بحيث يمكن أن تتنصل القيادة السياسية من الأمر كله، إذا ما حاول الإسرائيليون استغلال هذا اللقاء، للإيحاء بأننا نتفاوض معهم على شروط السلام..
انعقد حاجبا (صدقى)، وغرق في محاولة فهم الأمر، واستيعابه كعادته، في حين سأل (حسن) في اهتمام مشوب بالقلق:
- هل تم عرض هذا الأمر على سيادة الرئيس؟
أجابه المدير على الفور:
- بالطبع.. الرئيس (جمال) هو صاحب القرار الوحيد، في رفض أو قبول هذا العرض الإسرائيلي، ولقد أجري اتصالا شخصيا بقيادة الأمن الإيطالية، ووعده المسئولون فيها بأنهم سيمنحوننا كل الضمانات اللازمة، بالنسبة لإجراءات الأمن والحماية وغيرها..
رفع (صدقى) عينيه إليه، وقال في حزم:
- لا يمكننا أن نثق بكلمة الإسرائيليين قط.
تردد المدير لحظة، ثم قال:
- إنها كلمة الإيطاليين هذه المرة، ولنا أن نقبلها أو ترفضها
وتراجع في مقعده، ليدير عينيه في وجوه ثلاثتهم، مستطردا:

- ما رأيكم؟!
عاد الثلاثة يتبادلون نظرة قلق، ثم قال (عبد المحسن):
- إنه عرض عجيب بالفعل، ويملا النفس بعشرات الشكوك، إلا أنه يتحدث عن فرصة حرية، لعدد من أسرانا، يمكننا أن تبلغ به المائة، لو أحسنا التفاوض مع رجال المخابرات الإسرائيليين، وليس باستطاعتنا أن نرفض هذا، دون أن يكون للرفض مبررات قوية للغاية..
وتنهد (حسن) في عمق، قبل أن يرفع يده، قائلا:
ـ سأذهب إلى (روما)..
رمقه (عبد المحسن) بنظرة صامتة، ثم قال:
- وأنا أيضا..
استقر بصر المدير على (صدقى)، الذي واصل استغراقه في التفكير لبضع لحظات، ثم رفع عينيه إليه، قائلا في حزم:
- لن أتركهما يذهبان للقاء الإسرائيليين وحدهم.. سأصحبهم إلى هناك..
وتنهد بدوره، مستطردا:
- وليفعل الله (سبحانه وتعالي) ما فيه الخير.
لم يكن باستطاعته بالفعل ألا يسافر لحضور مثل هذا اللقاء الذي لا مثيل له في عوالم المخابرات..
بل وفي تاريخها كله..
ولكنه - والحق يقال - لم يكن يشعر بالارتياح لما سيحدث..
لم يكن يشعر بالارتياح أبدا..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

عجيبة هي تلك الرابطة، التي تنشأ بين الأب وأبنائه..
فعلى الرغم من أن (صدقي) لم يشرح لولديه قط سبب سفره إلى (روما)

ومن أنها لم تكن أول مرة يسافر فيها خارج البلاد، في الآونة الأخيرة..
على الرغم من كل هذا، كان (أكرم) و (أحمد) يشعران بقلق خفي، وهما يودعان والدهما في المطار قبل سفره..
كان (أكرم) أيامها يستعد لأداء امتحان الثانوية العامة، وشقيقه الأصغر (أحمد) في الصف الثاني الثانوي، ولكن أسلوب تربيتهما جعلهما ينضجان قبل الأوان، حتى إن والدهما شعر أنه يتعامل مع زميلين في المهنة، وليس مع شابين لم يتم أكبرهما عامه الثامن عشر بعد.
وسافر (صدقي) إلى (روما)، مع زميليه (حسن) و(عبد المحسن)..
وهنالك استقبلهم مندوب خاص من جهاز الأمن الإيطالي..
ونقلهم بسيارة مصفحة خاصة إلى فندق شهير، يطل على ذلك الميدان، الذي يرتفع فيه برج (پيزا) المائل، أشهر أثر تاريخي في (إيطاليا) كلها، وأحاط جناحهم بحراسة مكثفة في انتظار وصول الإسرائيليين، ليبدأ اللقاء..
وليبدأ التفاوض..
ولم يشعر (صدقي) بالارتياح منذ البداية..
منذ أصرت السلطات الإيطالية على تفتيش حقائبهم وثيابهم، للتأكد من أنهم لا يحملون أية أسلحة..
ولكن زميليه أقنعاه أنها إجراءات أمن عادية، في مثل هذه الظروف، وأن الأمن الإيطالي لا يريد أن يتحول اللقاء إلى حمام من الدم، وأنه يخشى أن تلتهب الأعصاب في أثناء التفاوض، فيستلَّ كل فرد سلاحه، و....
وتحدث مذبحة رهيبة..
ومع مرور الوقت، راح (صدقي) يستعيد قلقه وتوتره..

فقد كان من المفترض، طبقًا لما تم الاتفاق عليه، أن يصل الإسرائيليون في الخامسة، ولكن عقارب الساعة بلغت الخامسة والربع بالفعل، دون أن يصل أحد..
وفي غضب، هتف (صدقي):
- ليس من حق الإسرائيليين ألا يحافظوا على موعدهم معنا..
لن يمكننا أن نقبل هذا الأسلوب قط..
هتف بها، وهو يلتقط سماعة الهاتف، للاتصال بمسئولي الفندق..
ولكن الهاتف لم تكن به حرارة الاتصال المطلوبة..
كان صامتا تماما كقبور الموتى، على نحو انعقد له حاجبا (صدقى)، وقفز معه شكه وقلقه وتوتره إلى قمتهم..
وبحركة سريعة، ألقي سماعة الهاتف، واندفع إلى الباب، وفتحه، وألقي نظرة على ممر الفندق..
ومع تلك النظرة، أدرك أن شكوكه كلها كانت في محلها..
لم يكن هناك رجل أمن إيطالي واحد في المكان كله..
كلهم غادروا مواقعهم، ورحلوا من الطابق..
وربما من الفندق كله..
وكان هذا يعني، بالنسبة إليه، أمرا واحدا..
الخيانة..
لقد خانهم الإيطاليون، أو بعض رجال جهازهم الأمني..
وسلموهم لقمة سائغة للإسرائيليين..
اللقاء كله لم يكن سوي خدعة، لجذب بعض رجال المخابرات العامة إلى (روما)..
والتخلص منهم..
وفي غضب، تراجع (صدقى) إلى الجناح، هاتفا بزميليه:
- أسرعا.. ستغادر هذا المكان على الفور..

هتف به (حسن) في توتر:
- ماذا حدث يا (صدقى)؟
صاح به (صدقى):
- إنه فخ.
لم يكد ينطق الكلمة، حتى اندفع زميلاه معه خارج الجناح، وانطلقا يعدوان نحو سلم الفندق، و..
وفجأة، ظهر فريق القتلة..
خمسة من المحترفين بمدافعهم الآلية، برزوا فجأة من المصعد، متجهين نحو الجناح، لاغتيال رجال المخابرات المصريين الثلاثة..
وعندما غادر القتلة المصعد، كان (حسن) و (عبد المحسن).. قد بلغا بداية السلم، في حين كان (صدقى) في منتصف الممر تقريبا..
لذا فقد وجد نفسه أمام القتلة الخمسة وجها لوجه..
وكانت مفاجأة عنيفة للطرفين..
ولكن (صدقى) استعاد رباط جأشه أولا..
وسبق القتلة الذين كانوا يتصورون أنهم سيباغتون المصريين الثلاثة في جناحهم..
ودون سابق إنذار..
وبسرعة مدهشة، وقبل أن يخرج القتلة من إطار المباغتة..
انقض (صدقي) على أقربهم إليه، وكال له لكمة كالقنبلة..
وهو ينتزع مدفعه الآلي من يده..
ثم أطلق النار نحو الآخرين...
وأطلقوا هم أيضا نيرانهم بدورهم..
وفي نفس اللحظة التي حصد فيها مدفعه اثنين منهم، كانت رصاصات الأخرين تخترق صدره وذراعه وساقه..

ولكنه لم يسقط..
لقد واصل إطلاق النار، للذود عن زميليه، حتى أجبر القتلة الثلاثة المتبقين على العودة إلى المصعد، في حين اندفع (حسن) و (عبد المحسن) نحوه، هاتفين:
- (صدقي).. أأنت بخير؟!
أمسك موضع إصابة صدره بيده، وهو يهتف بهما:
اتركاني هنا، وأسرعا بالفرار.. الإسرائيليون لن يقنعوا بهذه الهزيمة السريعة، وسيرسلون جيشا للقضاء علينا، فلا تمنحوهم الفرصة للنصر..
أجابه (عبد المحسن) في حزم:
- لن نتركك خلفنا مهما حدث.
والتقط منه المدفع الآلي، وألقاه إلى (حسن)، مستطردا:
- هيا.. احِم ظهرينا.
وانحني يحمل (صدقي) على كتفيه، وانطلق الثلاثة يعدون هاربين من الفخ..
وكان أحد أغرب الحوادث، التي شهدتها (روما)، في تلك الفترة..
لقد تبادل (حسن) إطلاق النيران مع القتلة الثلاثة، في بهو الفندق، حتى نجع مع زميله في الفرار منه، واستولوا على سيارة كبيرة، انطلقوا بها مباشرة إلى السفارة المصرية..

وعندما بلغوا المكان، كان (صدقى) قد نزف الكثير من دماءه..
وكانت حالته الصحية متدهورة..
للغاية..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

ارتفع حاجبا (١. ص) في تأثر واضح، عندما بلغ هذه المرحلة، وران على حجرة المكتب صمت رهيب ثقيل استغرق دقيقة كاملة، قبل أن يتنحنح السيد (أشرف) في شيء من الحرج، ويقول:

- احم.. عصير الليمون هذا رائع للغاية..

أدار (ا. ص) عينيه إليه، وسأله في اهتمام:

- هل ترغب في تناول كوب آخر؟

هز السيد (أشرف) رأسه نفيا، وهو يغمغم:

- أشكرك.

التفت إلى (١. ص)، قائلا:

- وماذا عنك؟!

لم أدر لماذا تجاهلت سؤاله تماما، وكأنني لم أسمعه، أو لم أعد أبالي بقواعد الذوق واللياقة، وأنا أسأله في لهفة واضحة:

- أهكذا لقي والدك مصرعه؟!

التقي حاجبا (أشرف) في توتر، وكأنما يعلنني أنني لم أرع حدود اللياقة، عندما ألقيت هذا السؤال، في تلك اللحظة بالذات، مما ملأ نفسي بالحرج، في حين بدا التأثر لحظة على (ا. ص)، ثم قال:

- كلا.. إنه لم يلق مصرعه يومئذ..

كدت أقفز من مقعدي في دهشة، وأنا أهتف:

- عجبا! لقد تصورت أن...

رمقني السيد (أشرف) بنظرة صارمة، قبل أن أتم سؤالي..

فتراجعت مغمغما:

- معذرة.. لم أكن أقصد هذا..

ارتسمت ابتسامة شاحبة على شفتى (١. ص)، وهو يقول:

- لا عليك.

ثم صمت لحظة، وتابع:
- لقد نجا والدي (رحمه الله) بأعجوبة، في ذلك الحين، فقد كان هناك طبيب بارع في السفارة، نجح في استخراج الرصاصات من جسده، ونقل إليه لترا ونصف اللتر من الدم الذي تبرع به العاملون بالسفارة، ثم نقله السفير بنفسه، في سيارة خاصة، محاطة بحراسة مكثفة، إلى المطار، حيث حملته طائرة خاصة بجهاز الأمن المصري إلي (القاهرة)..
وعاد إلى صمته لحظة أخري، ثم قال في حزن:
- ولكنه لم يعد إليها أبدا مثلما غادرها.. لقد عاد بساق مصابة، وصدر ضعيف، وإصابات تحتاج إلى علاج طويل فعَّال.. ولكن كل هذا لم يؤلمه، بقدر ما آلمه أنه لم يعد يصلح لمواصلة العمل في جهاز المخابرات العامة بحالته هذه..
وتنهد في عمق، وهز رأسه في أسي، قبل أن يستطرد:
- لقد حاولوا إسناد بعض الأعمال الإدارية إليه، إلا أنه رفض هذا بشدة، مما دفع رئيس الجمهورية إلى تعيينه كملحق عسكري، لسفارة (مصر) في (بريطانيا)..
ورفع رأسه ليتطلع إلى السقف في شرود، قبل أن يضيف بصوت خافت، في محاولة لإخفاء ذلك التأثر، الذي أطلَّ واضحا من ملامحه:
- وهناك لقي مصرعه..
كنت أتمنى، أكثر ما أتمنى، أن ألتزم بقواعد الذوق واللياقة في مثل هذا الموقف، إلا أنني وجدت نفسي أندفع دون أن أدري، لأسأله في لهفة:
- كيف؟!
أشاح السيد (أشرف) بوجهه، ربما ليخفي حنقه وضيقه من أسلوبي، ولكن (ا. ص) لم يبد عليه أي ضيق أو استنكار، وهو

يجيب:
- بعد ما حدث في ذلك الفندق في (روما)، أدرك الإسرائيليون أن أبي واحد من أخطر رجال المخابرات المصرية على الإطلاق، وقرروا اغتياله بأي ثمن، وأسندوا هذه المهمة لضابطهم (موردخاى) شخصيا، فسافر إلى (لندن)، واستأجر ثلاثة من القتلة المحترفين، و...
بتر عبارته عند هذه النقطة، وازدرد لعابه في توتر ملحوظ، وكأنما يضيق بالتوغل في مثل هذه التفاصيل، فسألته في حذر:
- وماذا؟!
تطلع إليه السيد (أشرف) لحظة، ويبدو أنه أدرك مقدار تأثره بالأمر، فقد التقت إلي، مجيبا في مزيج من الصرامة والحزم:
- لا أحد يدري ماذا حدث في ذلك اليوم، ولا كيف كانت المواجهة، ولكن من الواضح أن القتلة المحترفين الثلاثة هاجموا والده، عندما كان يتريض كعادته، في الصباح الباكر، محاولا استعادة لياقته السابقة، بعد إصاباته في (روما)، وأنه لم يسمح لهم بسلبه الروح بهذه البساطة، فعلى الرغم من أنه لم يكن يحمل سلاحا، إلا أنه قاتل في شراسة، ونجح في القضاء على القتلة الثلاثة كلهم، بعد أن أصابوه برصاصاتهم، في أكثر من موضع، ثم لقي مصرعه بعدها برصاصة غادرة..
سألته في دهشة:
- ومن أطلقها؟!
أجابني (ا. ص) هذه المرة، بلهجة تقطر غضبا، وتحمل مرارة الدنيا كلها:
- (موردخاى) نفسه..
تنهد السيد (أشرف)، ومال يربت على كتف (ا. ص) في محاولة لتهدئة انفعاله، قبل أن يلتفت إلي، قائلا:

- لم نكن نعرف هذا بالتحديد، حتى فترة قريبة، عندما نقل إلينا أحد عملائنا عددا من الملفات السرية، عبر جهاز (الفاكس)، من قلب المركز الرئيسي ل (الموساد).. كل ما علمناه، في تلك الفترة، أن الرجل تم اغتياله بتدبير إسرائيلي، وأنه لقي مصرعه وهو يقاتل بنفس القوة والإصرار، بين اللذين قاتل بهما طيلة عمره..

وربت مرة أخري على كتف (ا. ص)، قبل أن يتابع بابتسامة باهتة:

- ولقد أمر الرئيس (جمال) بإحضار جثمان الرجل من (لندن) وأقيمت له جنازة رسمية، ظهرت بعدها صورة (أكرم) و(أحمد)، وهما يتصدران الجنازة، مع مندوب رئاسة الجمهورية، وعدد من المسئولين، على صفحات الجرائد..

وتطلع إلى الرجل في احترام شديد، ثم أضاف:

الشيء الوحيد المؤكد، أن هذا الأمر قد غيَّر حياة (ا. ص) ومساره تماما.

سألت في لهفة أكثر:

- كيف؟!

تطلع السيد (أشرف) مرة أخري إلى (ا. ص)، الذي صمت لحظة، ثم قال:

- كان هذا تحولا طبيعيا..

ثم عاد يروي القصة، وقلبي يخفق بانفعال أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

٦- المسار..

لم يكن من السهل أبدا أن يتجاوز (أكرم) و (أحمد) ما أصاب والدهما..
وبالذات (أكرم)..
فبالنسبة لـ (أحمد)، كان قد فقد والدا، وصديقا، وشقيقا أكبر، في آن واحد..
أما (أكرم)، فقد فَقَد الكثير.. والكثير جدا..
فوالده لم يكن بالنسبة إليه صديقا ورفيقا وكاتم أسرار فحسب..
بل كان أستاذا..
ومدربا..
ومثلا أعلى في الحياة كلها..
هو الذي لقنه كل ما عرفه، حتى تلك الأيام..
هو الذي دربه على كل ما اكتسبه من مهارات وخبرات..
بل هو الذي صنع منه فتي فذا، لا يمكن مقارنته بأي من أقرانه..
ولا حتى بمن يفوقونه سنًّا..
ثم إنه الرجل الذي علمه كيف يحب..
يحب وطنه..
(مصر)..
كيف يخفق قلبه لسماع اسمه..
وكيف يقاتل.. ويموت في سبيله..
لذا فلم يكن من السهل عليه أبدا أن يفقده..
وبهذه الوسيلة العنيفة..
القاسية..
والخسيسة..

ومنذ تلك اللحظة، التي علم فيها ما حدث، نما في أعماق (أكرم) شعور قوي آخر، إلى جوار حبه لوطنه..
شعور بالكراهية للمخابرات الإسرائيلية..
ولكل ما يحمل اسم (إسرائيل)..
والعجيب أن ذلك الشعور لم يفارقه قط، على الرغم من مضي كل تلك الأعوام، ومن كل ما فعله بالإسرائيليين، في ملحمة حياته الطويلة..
وفي تلك الفترة، عندما لقي اللواء - آنذاك - (صدقي) مصرعه، كان (أكرم) قد اجتاز - في نفس الوقت - امتحان الثانوية العامة، وحصل فيها على مجموع درجات كبير، يؤهله لدخول كلية الهندسة، التي كانت حلم الشباب في ذلك الحين.. ([11])..
ولكنه اختار اتجاها آخر..
لقد التحق بالكلية الحربية، في أواخر عام 1969 م..
والمراجع السجلات الكلية، في ذلك الحين، سيدرك كم بهر الشاب معلميه ومدربيه بقدراته المدهشة، وكم أثار إعجاب ودهشة، وربما حسد أقرانه أيضا، حتى إنه صار مثلا يحتذي..
وذروة يسعي الكل لبلوغها..
ولظروف خاصة، ارتبطت بتلك المرحلة، تخرج الشاب في الكلية الحربية بعد عام واحد من التحاقه بها، مع دفعة حظيت بذلك الامتياز، لاحتياج القوات المسلحة الشديد، في ذلك الحين، لضباط جدد، لتغذية وحدات الجيش المختلفة، التي خاضت مع العدو الإسرائيلي حرب استنزاف طويلة، كبدته خسائر فادحة، وجعلته يتراجع عن خطته الحقيرة لضرب المدنيين في العمق، كما فعل مع مصانع (أبو زعبل)، ومدرسة (بحر البقر) الابتدائية..

وفي نفس عام تخرجه، مات الرئيس جمال عبد الناصر)..
وكانت أكبر صدمة عرفتها الأمة العربية، التي خرجت عن بكرة أبيها، من المحيط إلي الخليج، ترثي الزعيم وتودعه وفي ظل هذا الحزن الشامل العميق، أصبح (أكرم) واحدا من ضباط الجيش المصري، في فترة توترات شاملة مع العدو، وإعداد المرحلة قادمة، ستحدث فيها حتما تلك المواجهة، التي ينتظرها الجميع منذ زمن طويل..
ومع أيامه الأولي، أدرك الجميع قدراته المتطورة، فتم إلحاقه بالسلاح الوحيد، الذي يصلح لاحتواء كل ما يمكنه منحة..
القوات الخاصة..
قوات الصاعقة، التي يقال إن المقاتل الواحد منها، يفوق مقاتلي فرقة كاملة من المشاة..
وعلى الرغم من أن حرب الاستنزاف كانت قد توقفت رسميا، في ذلك الحين، إلا أن الشاب تم إسقاطه ثلاث مرات على الأقل..
خلف خطوط العدو، مع عدد من رفاقه، لتنفيذ مهام خاصة..
وتكبيد العدو خسائر فادحة، ثم العودة إلى نقطة متفق عليها..
حيث يتم التقاطهم بوساطة الهليوكوبتر، وإعادتهم إلى الوطن..
وفي المرة الثالثة بالتحديد، أثبت الشاب أنه طاقة خاصة متفجرة، لا يمكن إهمال وجودها قط..
كان الهدف في تلك المرة أحد مخازن الذخيرة، التي يستمد منها خط (بارليف) ذخيرته ومؤنه، والذي لابد من تدميره؛ لإرباك العدو، وتكبيده خسائر فادحة..
وفي قلب الليل، حملت هليكوبتر حربية الشاب واثنين من رفاقه، من غرب القناة إلى شرقها..
إلي صحراء (سيناء)..

وعلى مسافة خمسة كيلومترات من الهدف، قفز الثلاثة من الهليوكوبتر، من ارتفاع عشرة أمتار، دون مظلة، وهبطوا على رمال (سيناء)، ثم انطلقوا على الفور لتنفيذ المهمة..
لم يكن من السهل أبدا أن يقطعوا تلك الكيلومترات الخمسة في قلب الصحراء، والعدو يحيط بهم من كل جانب ولكنهم فعلوها..
وبعد ساعة واحدة من المسير ([12])، بدا لهم الهدف واضحا وهم يختبئون فوق تبة رملية، على مسافة ثلاثين مترا منه..
وفي اهتمام، قال أكبرهم رتبة:
- استعدا لتنفيذ المهمة، عند ساعة الصفر.. ستزحف نحو الجدار الخلفي للمخزن، وسنتخلص من الحارسين هناك، ونزرع قنابلنا الزمنية، ثم تغادر المكان بأقصى سرعة..
وستلتقطنا هليكوبتر العودة من المنطقة (س) المتفق عليها..
وتطلع إلى ساعته لدقيقة وبضع ثوان، قبل أن يشير بيده، قائلا:
- هيا
انطلق الثلاثة يزحفون في سرعة، على رمال (سيناء) كما لو أنهم ثعابين ضخمة، واقتربوا من الجدار الخلفي للمخزن..
واقتربوا..
واقتربوا..
ثم فجأة، وقبل أن يبلغوا الهدف تماما، برزت تلك الهليوكوبتر في السماء..
هليكوبتر تفتيش حربية إسرائيلية، خرجت في تفقد عشوائي لبعض المواقع العسكرية، وقادها القدر إلى مخزن الذخيرة هذا، في هذه اللحظة بالذات..

وعلى الضوء الساطع، من المصباح الكبير أسفلها، انكشف المقاتلون الثلاثة..
وبكل الدهشة والذعر، هتف قائدها:
- اللعنة!.. إنهم المصريون!!
ومع أخر حروف كلماته، ضغط زر إطلاق النار، وراح يمطرهم بالرصاصات.
ومما يؤسف له، أن رصاصاته الأولي أصابت أحد الثلاثة فلقي مصرعه في الحال، في حين هب قائدهم واقفا، وهو يهتف بـ (أكرم):
- انتهي أمرنا.. لقد انكشفنا..
كان حراس المخزن كلهم قد تحركوا، إثر رصاصات الهليوكوبتر، ولم يكن القائد قد أتم عبارته بالضبط، عندما رأي (أكرم) ينتزع إحدي القنابل اليدوية من حزامه، ويلقيها بكل قوته نحو الهليوكوبتر، التي دارت في الهواء دورة كاملة، وعادت تنقض عليهما وقائدها يستعد لحصدهما، ليلحقا برفيقهما في جنة الخُلد..
وأمام عيني القائد، المتسعتين حتى آخرهما، أصابت القنبلة اليدوية مروحة الهليوكوبتر، عند مركزها مباشرة، و..
وانفجرت..
ومع انفجارها، ارتجت الهليوكوبتر في عنف، وانفصلت مروحتها الضخمة، وطارت وحدها في الهواء، تاركة الهليوكوبتر تهوي، لتنفجر على رمال (سيناء).
وفي نفس لحظة انفجارها، هجم الحراس على (أكرم) وقائده، وأحدهم يصرخ عبر اللاسلكي:
- المصريون!! إنه هجوم مصري.. أرسلوا إمدادات بأقصى سرعة..
وبسرعة خرافية، استدار (أكرم) يواجههم..

وانطلقت رصاصاته...
ورصاصاتهم..
وشعر الشاب برصاصة تخترق ذراعه، وبأخري تغوص في فخذه، ورأي النيران تصيب قائده، وتلقي به ثلاثة أمتار إلى الخلف..
إلا أنه لم يتوقف لحظة عن إطلاق النار..
ولقد أطاعته رصاصاته على نحو عجيب، فأصابت كلها أهدافها بلا استثناء، وسحقت كل طاقم الحراسة في ثوان معدودة..
وبكل اللهفة، أسرع (أكرم) يفحص قائده، الذي هتف به، وهو يمسك صدره الذي ينزف بشدة:
- اهرب يا (أكرم).. أسرع.. لقد طلبوا إمدادات عاجلة، ولن تمضي دقائق، حتى يكتظ المكان بالإسرائيليين، حتى سيخيل إليك أن (إسرائيل) كلها قد انتقلت إلى هنا.. هيا اهرب قبل فوات الأوان..

كان من الواضح أن إصابات القائد شديدة، وأن احتمالات بقائه على قيد الحياة قليلة للغاية، وعلى الرغم من هذا، فقد أجابه (أكرم) في حزم:

- لن أرحل دونك.

ثم اعتدل مستطردا بلهجة تحمل حسم الدنيا كله:

- بعد أن انتهي من تنفيذ المهمة..
رآه القائد يهرع إلى المخزن، فهتف به في ضعف متوتر:
- لا وقت لتنفيذ المهمة ا (أكرم).. لن يمكنك زرع كل القنابل الزمنية وحدك.. اهرب يا فتي.. اهرب قبل فوات الأوان..
ولكن (أكرم) لم يستمع إليه.
كان يعلم أنه على حق تماما في كل ما يقوله، وأن الإسرائيليين سيملئون المكان بعد قليل، إلا أنه لم يكن يستطيع العودة، قبل أن ينفذ ما أتي من أجله، حتى ولو دفع حياته ثمنا لهذا..
وبكل سرعته وخبرته ومهارته، راح يزرع القنابل الزمنية في الأماكن المحدودة لها، في سباق رهيب مع الزمن..
ومع الموت..
وعندما انتهي من إعدادها كلها للانفجار، كانت أضواء مصابيح سيارات (الجيب) العسكرية الإسرائيلية تسطع من بعيد..
وبكل الأسي، هتف قائده:
- فات الأوان يا (أكرم).. فات الأوان..
اندفع (أكرم) نحوه، وحمله في خفة، وانطلق يعدو به نحو إحدي سيارات رجال الحراسة، الذين لقوا مصرعهم برصاصاته، وهو يقول:
- ما دمنا على قيد الحياة، فالأوان لم يفت بعد..
تأوه القائد في ألم، عندما وضعه (أكرم) داخل السيارة، وانطلق بها بأقصى سرعته، على رمال (سيناء).
ومن خلفهما دوي الانفجار..
انفجر مخزن الذخيرة الرئيسي بدوي هائل، وخرجت منه كتلة رهيبة من اللهب والنيران، شاهدها المراقبون في وضوح، من الضفة الغربية للقناة، وهوت لها قلوب الإسرائيليين بين أقدامهم..

ثم امتلأت نفوسهم بالغضب..
وانطلقوا خلف (أكرم) وقائده..
وخبر الإسرائيليون مهاراته المدهشة في القيادة والمناورة..
وانبهروا..
انبهروا بحق..
لقد كان ينطلق فوق الأرض الرملية غير الممهدة، بنفس السلاسة التي يمكن أن تنطلق بها سيارة رياضية أنيقة، فوق طرق ممهدة، في نعومة الحرير، ويحفظ توازن السيارة بقبضة فولاذية، لا تسمح لعجلة القيادة بعصيان أوامره، أو الانحراف عن المسار الذي حدده لها، مهما بلغت صعوبة السير وعسرة الأرض..
وفي شحوب شديد، غمغم القائد:
- لن يمكننا العودة إلى المنطقة (س). لقد انكشف الأمر، وانطلقت الإمدادات الإسرائيلية، وأصبح دخول طائرتنا أشبه بالانتحار.
أجابه (أكرم) في حزم، وهو ينحرف إلى اليسار:
- أعلم هذا.
انطلقت الرصاصات من خلفه كالمطر، وأصاب بعضها جسم (الجيب)، إلا أنه لم يتوقف..
وواصل انطلاقه، نحو آخر مكان يمكنهم تخيله..
نحو خط (بارليف) نفسه..
ونحو منطقة بعينها منه..
وعندما بدا الخط واضحا، أمام عيني القائد، الذي فقد الكثير من دمه، وأخذ يقاوم غيبوبة عنيدة في إصرار، هتف ذاهلا:
- (أكرم).. إنك تتجه مباشرة نحو خط (بارليف)..
أجابه (أكرم) بنفس الحزم:

- أعلم هذا.
كان جنود خط (بارليف) قد انتبهوا إلى ما يحدث، ورأوا سيارته تنطلق نحوهم، وخلفها سيارات أخري تطاردها، وتفتح عليها وابل نيرانها، فأطلقوا النار نحو سيارته بدورهم، في محاولة لمنعه من بلوغهم.
وهكذا أصبح (أكرم) وقائده بين شقي الرُحَى.. أو بين المطرقة والسندان..
رصاصات تنهال عليهما من الأمام والخلف، وتضرب جسم سيارتهما من كل صوب، و..
وانحني (أكرم)، ودفع رأس قائده إلى أسفل، واندفع بين جنود خط (بارليف)، وضغط دواسة وقود السيارة أكثر وأكثر، فارتفعت نحو التبة الرملية، التي انتقي موقعها بالتحديد، عندما تذكر من النموذج المجسم، أنها ذات ميل حاد، أكثر من غيرها، وترك السيارة تبلغ قمتها، وهي تنطلق بأقصى سرعة ممكنة، فوثبت عن القمة، وطارت في الهواء بضعة أمتار، متجاوزة خط (بارليف) كله، لتهوي في النهاية في قناة (السويس)..
وانطلقت الرصاصات الغاضبة خلف السيارة، التي ارتطمت بالمياه في عنف، وغاصت في أعماقها بسرعة..
ومع غوصها، انتزع (أكرم) قائده منها، وراح يسبح به في قوة، نحو الشاطئ الغربي للقناة..

ونجا (أكرم)..
ونجا معه قائده، الذي شاهده بعينيه يفعل كل هذا..
وتحقق الهدف..
وانفجر مخزن الذخيرة..
وفي التقرير الذي قدمه للقيادة ذكر القائد ما حدث وبكل التفاصيل..
وكان من الطبيعي أن يتم رفع التقرير لوزارة الحربية، التي أرسلت نسخة منه إلى المخابرات الحربية، وأخري إلى المخابرات العامة..
وارتفع حاجبا (عبد المحسن) في تأثر، عندما طالع ذلك التقرير، وغمغم:
- حقا.. هذا الشبل من ذاك الأسد.
وافقه (حسن) بإيماءة من رأسه، وقال:
- الواقع أن الفتي قد أدي المهمة بأفضل مما كان يفعله والده في شبابه.
غمغم (عبد المحسن)، وهو يفكر في عمق:
- هذا صحيح.

ثم سأله في اهتمام:
- ألا تعتقد أننا بحاجة إلى شاب مثله، في جهاز المخابرات؟!
أجابه (حسن) على الفور:
- بالتأكيد، ولكنه ما زال صغير السن، بالنسبة للالتحاق بالعمل هنا رسميًّا.
قال (عبد المحسن) مستنكرا:
- صغير السن؟! أي قول هذا يا رجل؟! أنت تعلم مثلي أن (أكرم) بالذات استثناء من هذه القاعدة، وأن (صدقى) (رحمه الله)، قد تولي أمره بنفسه، وصنع منه معجزة حقيقية، في عالم المخابرات.
تنهد (حسن)، وقال:
- - (صدقى) صنع من ابنه مقاتلا من الطراز الأول، ولكن عمل المخابرات لا يحتاج إلى القوة والعضلات، بقدر ما يحتاج إلى الذكاء والحكمة ورجاحة العقل..
التقي حاجبا (عبد المحسن)، وهو يقول في صرامة:
- ومن قال إن الشاب يفتقر إلى الذكاء والحكمة ورجاحة العقل؟!
نهض (حسن) من مقعده، قائلا:
- إنه ما زال صغير السن، وهذه الأمور الثلاثة لا يمكن التدرب عليها، أو اكتسابها بالمران.
هتف (عبد المحسن) معترضًا:
- من قال هذا؟!
ابتسم (حسن)، وهو يجيب:
- أنا..
ثم أضاف، قبل أن يغادر الحجرة:
- ولا تنس أنني رئيس لجنة اختيار المرشحين الجدد..

قالها، وأغلق الباب خلفه، تاركا (عبد المحسن) وحده في الحجرة، يعاود قراءة التقرير الخاص بعملية مخزن الذخيرة، وهو يتمتم في أسف:

- يا للخسارة!

ولكنه - من الناحية الرسمية - لم يكن يملك ما يمكن أن يعاون به الشاب على الالتحاق بجهاز المخابرات العامة..

لم يكن يملك هذا قط.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

من المؤكد أن هيئتي، ونظرة الدهشة الكبيرة، المطلة من عيني، كانت تعطياني شكلا مضحكا، فقد أطلق السيد (أشرف) ضحكة قصيرة رصينة، قبل أن يشير إلي، قائلا:

- ماذا دهاك؟!

التفتُّ إليه بحركة حادة، وقلت:

- ماذا؟! ماذا تقصد؟!

ابتسم، قائلا:

- إنك تحدق في الرجل بدهشة عجيبة..

جعلتني كلماته أنتبه إلى الأمر، فاعتدلت بحركة سريعة، وقلت:

- معذرة، ولكنني أشعر بدهشة لا حدود لها بالفعل..

سألني (ا. ص) في اهتمام:

- لماذا؟

أدهشني سؤاله أكثر، فلوحت بذراعي، قائلا:

- لماذا؟! السبب واضح للغاية.. إنني أشعر بالدهشة؛ لأنهم رفضوا انضمامك إلى المخابرات العامة، على الرغم من صداقتهم السابقة لوالدك، و..

قاطعني في حزم:

- وما شأن صداقتهم لوالدي بالأمر؟!

ارتبكت، قائلا:
- لست أقصد شيئا، ولكن...
أرتجَّ عليَّ، فلم أستطع إكمال عبارتي، فتنهد هو، قائلا:
- عندما رفض الرجال التحاقي بالمخابرات العامة، في ذلك الحين، كانوا يؤدون واجبهم بكل أمانة، بغض النظر عن أية اعتبارات أخري، فقد درسوا أمري جيدا، ووجدوا أنه في تلك المرحلة، التي يتم فيها الاستعداد لمواجهة شاملة مع العدو الإسرائيلي، كان وجودي في صفوف القوات الخاصة في الجيش، أكثر فائدة وأهمية للجميع، من التحاقي بالمخابرات..
وصمت لحظة، قبل أن يتابع:
- وأعتقد أنهم كانوا على حق حينذاك.
سألته في اهتمام:
- أيعني هذا أنك لم تلتحق بجهاز المخابرات العامة، إلا بعد حرب أكتوبر؟!
صمت لفترة أطول هذه المرة، ثم ابتسم، قائلا:
- نعم ولا..
قلت في دهشة:
- أي جواب هذا؟!
اتسعت ابتسامته، وهو يقول:
- هذا ما حدث فعلا، فصحيح أنني لم ألتحق بالمخابرات العامة، رسميا، إلا بعد أن أديت واجبي في حرب أكتوبر ١٩٧٣م، في صفوف القوات الخاصة، إلا أنني بدأت عملي مع الجهاز فعليا، قبل هذا التاريخ بعامين كاملين.. وبالتحديد في يوليو ١٩٧١ م..
سألته في لهفة واضحة:
- وما الذي حدث في هذا التاريخ؟!

صمت لحظة، شرد خلالها بصره، وكأنما يستعيد تلك الذكريات البعيدة، قبل أن يبتسم مرة أخري، مجيبا:
- أمر غير متوقع.. أبدا..
وعاد يروي..
وأنا أنصت واستمع..
وبكل الاهتمام..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

مع كل المهارات والخبرات، التي اكتسبها (أكرم)، كان من الطبيعي أن ينتقل بسرعة إلى مرحلة تدريب الآخرين..
وكان من الطبيعي أيضا أن يتفوق في هذا المضمار..
ولو أنك التقيت بأحد الجنود الذين تولي تدريبهم، أو الذين شاركوه ملحمة النصر، في أكتوبر ١٩٧٣ م، لأدركت الأثر المبهر، الذي تركه في نفوسهم، والحماس العجيب الذي ينزرع في قلوبهم، وهم يتحدثون عنه، ويصفونه بعبارات رنانة، وكأنه أسطورة حية، لم يصدقوا وجودها، حتى وهم يرونها أمام أعينهم..
فلقد بذل (أكرم)، في تلك الفترة، جهدا خرافيا؛ لينقل كل معلوماته وخبراته إلى جنوده، وإلى زملائه الضباط، في القوات الخاصة وخارجها..
ولم يدخر ذرة واحدة من جهد، أو وقت، أو معرفة، أو يضنّ بخبرة من خبراته العديدة، في محاولة لصنع فريق مدهش، نجح في الأيام الأولي من حرب أكتوبر، في منع طابور كامل من المدرعات، من عبور ممر (متلا)، لمد يد العون للمحاصرين في خط (بارليف)، وتصدي لفرقتين من المظليين الإسرائيليين، على نحو لم تشهد الحروب الحديثة مثله، حتى في أحلك الظروف..

وفي ذلك اليوم، من أيام يوليو ١٩٧١ م، كان (أكرم) يدرب جنوده على القفز بالمظلات، من ارتفاع شاهق، وكان أول من قفز من الطائرة، التي حلقت فوق مدن القناة، والرجال يفارقونها واحدا بعد الآخر، في ظلمة الليل ويصنعون في سماء المنطقة سيمفونية مدهشة ([13])، خلبت لُبَّ الصديق، وأثارت ذعر ورهبة العدو..

وبينما كان يهبط بمظلته، أدار (أكرم) عينيه في السماء، ليطمئن إلى أن كل رجاله قد هبطوا..

وبسلام..

ولكنه لم يكد يلمس الأرض بقدميه، ويطوي مظلته، حتى هرع إليه أحد الجنود، وأدي التحية العسكرية في حزم، ثم قال بصوت قوى:

- القائد يطلبك في مكتبه على الفور يا سيادة الملازم..

كان مطلبا مباغتا غير متوقع، وعلى الرغم من هذا، فقد أجابه (أكرم) في حسم:

- سأذهب على الفور.

أعاد مظلته إلى حقيبتها، وهو يتجه في خطوات سريعة نحو مقر القيادة:

وعندما اقترب منه، وقع بصره على سيارة عسكرية كبيرة، تقف أمام المقر، ففحصها ببصره في سرعة، وسجل رقم لوحاتها المعدنية في ذاكرته، قبل أن يدق الباب، قائلا في صوت حاسم:

- الملازم (أكرم) يا سيدي القائد..

أتاه صوت القائد من الداخل، يهتف:

- أدخل يا (أكرم).. إننا ننتظرك منذ فترة طويلة..

دفع (أكرم) الباب، ودلف إلى مقر القيادة، ولم يكد يفعل، حتى سمع صوتا مألوفا، يقول:

- ها نحن ذا نلتقي ثانية أيها الملازم..

استدار (أكرم) بسرعة إلى مصدر الصوت، حيث وقف عدد من الرجال، لم يكد بصره يقع عليهم، حتى تفجرت الدهشة في أعماقه..

وكانت دهشة قوية..

وبلا حدود..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

٧- النيران..

كانت دهشة (أكرم) عارمة بحق، عندما وقع بصره علي ضابط المخابرات (حسن)، في ذلك المكان بالذات، فتهللت أساريره، وكاد يهتف بعبارة ترحاب، لولا أن تعلق بصره بالرجال الآخرين في الحجرة، والذين يفوقه أصغرهم بثلاث رتب على الأقل، فأي التحية العسكرية في قوة واحترام، وهو يقول لـ (حسن):

- مرحبا بك في معسكرنا يا سيدى.

اتجه إليه (حسن)، وربت على كتفه في حرارة، قائلا:

- كم تسعدني رؤيتك ثانية يا (أكرم)، وفي معسكر قوات الصاعقة بالتحديد.

كان ضابط المخابرات العتيق يقاوم رغبة قوية، انتقلت من بصره إلى كيانه كله، ليضم الشاب إليه، ويتبادل معه حديث الذكريات، حول الأيام الخوالي، عندما كان يقضي أمسياته في حديقة فيلتهم، مع (عبد المحسن) و (عزيز)، و..

ولم يكن باستطاعته هذا أبدا..

وخاصة في مثل هذه الظروف..

لذا فقد اكتفي بنظرة التأثر، التي أطلت من عينيه، ونفذت إلى كيان (أكرم)، فاختلج لها قلبه في شدة، واستعاد معها نفس الذكريات القديمة، التي كتمها كلاهما في أعماقه و(حسن) يشيح بوجهه، في محاولة لإخفاء انفعاله، ويشير بيده، قائلا:

- هذا هو الشاب الذي حدثتكم عنه أيها السادة، والذي سنعتمد عليه، بعد الله (سبحانه وتعالي)، في عملية (كأس النار).

التقي حاجبا (أكرم) في تساؤل، وتسلل إليه شيء من التوتر، مع نظرات الرجال، التي تركزت كلها عليه، في حين تابع (حسن) في

حماس، وهو يقدمهم إليه:
- هؤلاء السادة من المخابرات الحربية أيها الملازم، فسيتم التعاون بيننا هذه المرة، لإنجاز المهمة المطلوبة..
تساءل (أكرم) في أعماقه عن تلك المهمة، التي حملت اسما أقرب إلى الروايات الأسطورية، يوحي بالعنف والقسوة واللهب..
اسم (كأس النار) ([14])
ولم يطل تساؤله، فقد عقد (حسن) كفيه خلف ظهره، وهو يقول:
- الواقع أن الأمر خطير بالفعل أيها الملازم، فمنذ عدة سنوات، نجحنا في زرع عميل مصري في قلب (إسرائيل)، وساعدناه على توطيد صلاته بالمجتمع الإسرائيلي بكافة طوائفه، وبالذات الشق العسكري منه، ولقد أثبت ذلك العميل كفاءة نادرة، طوال فترة إقامته هناك، حتى إنه أصبح صديقا شخصيا لعدد من كبار قادة وضباط الجيش الإسرائيلي، و...
وصمت لحظة، ثم تابع في حزم:
- ومن هنا استطاع أن ينقل إلينا معلومة بالغة الخطورة وانعقد حاجباه، وهو يتطلع إلى عيني الشاب مباشرة، وقال بصوت قوى:
- الإسرائيليون أنشئوا خط أنابيب، بطول قناة (السويس)، لكي يتم ضخ مادة سريعة الاشتعال عبرها، وإشعال النيران في القناة، إذا ما حدثت محاولة لعبورها، أو لاقتحام خط (بارليف).
بدا توتر ملحوظ على وجه الشاب، والتقي حاجباه في شدة، وقد بدت له المعلومة رهيبة بالفعل، حتى إنه اندفع يقول في قلق:
- وهل يثق ذلك العميل بصحة المعلومة يا سيدى؟!
ثم انتبه إلى اندفاعته هذه، فعاد إلى وقفته العسكرية، مستطردا:

- معذرة أيها السادة، ولكن البريطانيين أطلقوا شائعة مماثلة، إبان الحرب العالمية الثانية..
تبادل العسكريون نظرة صامته، في حين تألقت عينا (حسن)، وهو يسأله:
- وما معلوماتك عن تلك الواقعة أيها الملازم؟
أجابه (أكرم) في اهتمام بالغ:
- في صيف عام ١٩٤٠ م، وعندما كان الميجور البريطاني (جون بيكر هوايت) يتفقد النظم العسكرية، والأسلحة التي تمتلكها (بريطانيا)، في خليج (سانت مارجريت)، بالقرب من (دوفر)، بصفته أحد ضباط المخابرات البريطانيين، أثار قلقه أن الشاطئ كان في حماية فصيلة من حملة البنادق، ولديها مدفعان فحسب، من طراز (برين)، ومدفع الي واحد، من طراز (فيكرز)، أما المدفعية المساعدة، فكانت قليلة للغاية، من طراز فرنسي عتيق، من عيار (٧٠ مم)، ولكل مدفع عشر قذائف فقط، وكان هذا يعني بالنسبة إليه أن أي هجوم يستهدف تلك المنطقة، سينجح حتما في غزو (انجلترا).. ولكنه شاهد في منطقة ما على الشاطئ خط أنابيب قديما، يضخ زيت الوقود من ثقوب صغيرة، أشبه برشاشات الحدائق، وقد اشتعلت فيه النيران، فبدا كما لو أنه ألف تنين صغير، ينفث اللهب.. وطوال طريق عودته إلى (لندن)، لم يفارق مشهد النيران مخيلته قط، حتى إنه لم يكد يصل إلى مقر قيادته، حتى طرح الفكرة على عدد من الخبراء لدراستها، وطلب منهم إعداد تقرير حول إمكانية مد خط من الأنابيب بامتداد الشاطئ، لتضخ النيران على الجنود، في أية محاولة الغزو.. ولقد أفتي أولئك الخبراء بأن الفكرة ممكنة التنفيذ، ولكنها باهظة التكاليف.. وهنا حول (هوايت) الأمر من حقيقة إلى شائعة، أطلقها في كل الدول والأماكن، التي زرع فيها

الألمان نقاط تنصتهم، حتى بلغت الشائعة جهاز مخابراتهم، وأصابتهم بالذعر، وخاصة عندما أجروا تجاربهم حول الأمر، وثبت لهم إمكانية حدوثه.. وبناء على هذه الشائعة وحدها، ودون أن تعمل (بريطانيا) على بناء خط الأنابيب فعليا، ألغي الألمان خطة غزو (انجلترا) كلها خشية أن تلتهم الثيران جنودهم على شواطئها. ([15])

انتهي (أكرم) من حديثه، وصمت، فران على المكان كله صمت رهيب، قطعة أكبر رجال المخابرات الحربية رتبة، وهو يقول في النهار واضح:

- ما شاء الله، ولا قوة إلا بالله سبحانه وتعالي وهنا لم يملك (حسن) نفسه، فاندفع يحتوي الشاب بين ذراعيه، هاتفا:

- حماك الله ورعاك يا فتي.. لقد أحسن (صدقى) (رحمه الله) عمله حقا.. إنك موسوعة في تاريخ المخابرات وتبادل رجال المخابرات الحربية نظرة أخري، ثم قال أحدهم:

- إنه الشاب المناسب تماما..

شد (أكرم) قامته مرة أخري، قائلا:

- كلي فداء لـ (مصر) يا سيدى..

ربت (حسن) على كتفه في حرارة هذه المرة، وقال في حماس:

- أحسنت يا (أكرم).. أحسنت يا ولدي..

ثم التقط نفسا عميقا، وكأنما يحاول السيطرة على مشاعره، قبل أن يقول:

- كلنا نعرف تلك القصة البريطانية القديمة أيها الملازم ولكن الأمر ليس مجرد شائعة.. لقد أنشأ الإسرائيليون خط أنابيب اللهب بالفعل، ولقد أكد لنا عميل أخر هذا، وأخبرنا بالوسيلة التي سيطلقونها بها، إذا ما حدث العبور؛ فقد أعدوا عددا كبيرا

من الصهاريج الضخمة، معبأة بخليط من مادة سريعة الاشتعال، ولها صمامات تتحكم فيها مضخات ماصة كابسة، ويخرج منها خط من الأنابيب، بقطر ست بوصات وتنتهي بفتحات تحت سطح الماء، على مسافات متقاربة، في كل المواضع الصالحة للعبور ([16]).. كل هذ تأكدنا منه، وتيقنا من أمره، ولكننا مازلنا بحاجة إلى معلومة شديدة الأهمية بل وربما كانت أكثر النقاط خطورة، في الأمر كله ثم مال نحوه، مستطردا في صرامة:

- نحتاج إلى معرفة طبيعة المادة، التي يستخدمها الإسرائيليون، لإشعال النيران في القناة..

وتنهد في عمق، قبل أن يتراجع، متابعًا:

- لابد أن نجري تجاربنا عليها، ونختبرها، ونري بأعيننا التأثير الذي يمكن أن تحدثه، عندما يبدأ العبور الحقيقي..

وصمت لحظة، ثم وضع يده على كتف (أكرم)، قائلا في حزم:

- باختصار، لو لم نحصل على تلك العينة، فسيتأخر قرار العبور كثيرا.. كثيرا جدا..
انتفض جسد الشاب كله، من فرط الحماس، وهو يقول:
- سنحصل عليها يا سيدي.. ستحصل عليها بإذن الله..
ابتسم (حسن)، وقال:
- أنا واثق من هذا يا ولدي.. سنحصل عليها بإذن الله (سبحانه وتعالي)، وسيتحقق لنا النصر.. كل النصر..
أدَّي (أكرم) التحية العسكرية في حزم وقوة، وهو يقول:
- أنا رهن إشارتكم يا سيدي، وعلى أتم الاستعداد للقيام بالمهمة فورا..
تبادل (حسن) نظرة زهو مع العسكريين، قبل أن يجيب:
- أعلم هذا يا ولدي.. أعلم هذا.. هيا.. اذهب لاستبدال زي العسكري هذا، وارتد ثيابك المدنية، فسنرحل عن هنا على الفور، إذ ينتظرك الكثير، قبل أن تبدأ مهمتك..
أجابه (أكرم) في حزم:
- دقائق وأصبح مستعدا يا سيدي..
أدي التحية مرة أخري لقائده والعسكريين، واتجه في خطوات قوية إلى الخارج، ولكن (حسن) استوقفه، قائلا:
- (أكرم).. انتظر..
توقف الشاب، ودار على عقبيه بأسلوب عسكري صرف، وتطلع إلى (حسن) في اهتمام، جعل هذا الأخير يبتسم قائلا:
- هناك أمر هام، من الضروري أن تدركه، قبل أن تبدأ عملك.
سأله (أكرم) في شيء من الحذر:
- وما هو؟!
اتسعت ابتسامة (حسن) قليلا، وهو يجيب:

- صحيح أن هذه العملية تتم تحت قيادة مشتركة، من المخابرات العامة والحربية، ولكنك، عندما تتولي أمرها، فستعمل باسمنا نحن.
خفق قلب الشاب في قوة، وهو يعقد حاجبيه قليلا، فتابع (حسن) في حزم:
- باسم المخابرات العامة المصرية..
وانتفض جسد الشاب كله في عنف وانفعال، وأدي التحية العسكرية في قوة أكبر، ثم عاد يدور حول نفسه، بذلك الأسلوب العسكري، قبل أن يندفع مغادرًا مقر القيادة، تاركًا قلبه خلفه، يهتف بالاسم، الذي تعلم أن يحبه ويموت في سبيله، منذ تنسم هواء الحياة..
باسمها..
اسم (مصر)..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

ومرة أخري، لعب القدر لعبته مع الشاب (حسن)، ضابط المخابرات الوحيد، الذي كان يرفض وبشدة، انضمامه إلى المخابرات العامة، هو نفس الذي ذهب يدعوه إليها، عندما استدعي الأمر هذا..
و (إسرائيل)، التي لم يبغض أكثر منها، في حياته كلها، كانت أول هدف يتجه إليه، ويقاتل على أرضه، في أول مهمة رسمية له، لحساب المخابرات العامة المصرية..
ولقد كانت المهمة مستحيلة بالفعل، من كل الوجوه، وبكل الحسابات..
وكان الذهاب إلي قلب (إسرائيل)، في مثل تلك الفترة، التي اشتعل فيها الموقف، على كل الجبهات، بمثابة إلقاء المرء نفسه في فوهة بركان ثائر..

ولكن (أكرم) فعلها..
وسافر إلي قلب (إسرائيل)..
ومن المؤكد أن كل قارئ يشعر بلهفة شديدة، لمعرفة ما الذي فعله هناك، وكيف نجح في الحصول على عينة المادة سريعة الاشتعال، وعاد بها سالمًا إلى (القاهرة)..
ومن المؤكد أكثر أن الجميع ينتظرون ويتوقعون قراءة التفاصيل كاملة، على الصفحات التالية..
ولكن هذا - للأسف الشديد - ما زال يندرج تحت بند السرية المطلقة، ولا يمكن نشر تفاصيله الكاملة حاليا.. ([17])
ومرة أخري.. للأسف..
كل ما يمكننا قوله هنا - الآن - هو أن (أكرم) قد دخل إلي (إسرائيل) بجواز سفر أوروبي، دون أن يشك رجل أمن واحد في أمره، وأن الرجال في (القاهرة) اتسعت عيونهم عن آخرها، من فرط الدهشة والذهول والانبهار، عندما وصلتهم منه معلومات بالغة الخطورة، أرسلها من داخل المعامل الكيماوية الإسرائيلية، التي تقوم بإنتاج تلك المادة السرِّية..
ولا أحد يعلم كيف بلغ ذلك المكان، الذي يحيطه الإسرائيليون بقدر هائل من السرية، تعجز معه أية نملة صغيرة عن الدخول، دون أن تخضع للتفتيش الدقيق، ثلاث مرات على الأقل، في ثلاث مراحل مختلفة!!
ولا كيف حصل أخيرا على عينة من المادة، وعاد بها إلى (القاهرة) عبر (باريس) و(روما)!!
ولكن العينة كانت بين يدي الرجال في (القاهرة)، في أوائل ديسمبر عام ١٩٧١ م..

وبدأت عملية اختبارها وفحصها، ليتضح بعدها أنها عبارة عن مزيج من مادة (النابالم) الحارقة، مع زيوت سريعة الاشتعال، وكيروسين..

وفي منطقة بعيدة عن العمران، على مياه النيل، تم إجراء تجربة عملية للعبور، مع استخدام ذلك المزيج المشتعل..

وكانت النتائج مخيفة للغاية..

فلقد بلغت درجة حرارة سطح الماء، بعد إشعال النيران، حوالي سبعمائة درجة مئوية، مما يعني أنه لو تم استخدام تلك المضخات، في أثناء عملية العبور، لأسفر هذا عن خسائر فادحة رهيبة، ربما التهمت أكثر من تسعين في المائة من موجة العبور الأولي..

ومرة أخري، كان على (أكرم) أن يعود إلى (إسرائيل)، في مهمة أكثر سرية وخطورة، ليحصل من الجنرال (شموئيل حونين)، قائد جبهة (سيناء)، في ذلك الحين ([18])، على سر الأسرار، في ذلك الشأن.. على خريطة أنابيب (النابالم)، المختفية تحت مياه القناة..

وبفضل ما حصل عليه (أكرم)، انطلقت مجموعتان من الرجال، في فجر السادس من أكتوبر ١٩٧٣م، لتنفيذ الشق الأخير من المهمة..

المجموعة الأولي قامت بقطع خراطيم المضخات الماصة الكابسة، المختفية تحت رمال (سيناء)، في حين تولت المجموعة الثانية، من رجال الضفادع البشرية، عملية سد فتحات الأنابيب بلدائن خاصة، ذات قدرة على التصلب السريع..

وعندما اندلعت الحرب فعليا، بعد عدة ساعات، وحاول الإسرائيليون تشغيل خط اللهب، وإحراق قوة العبور الأولي، فوجئوا بأن سلاحهم الأول صار فاسدا، أعجز من أن يطهو دجاجة صغيرة..

وكان العبور..

والنصر..

وفي نفس الوقت، الذي تمت فيه عملية قطع خط اللهب..

كان (أكرم) ينفذ مع مجموعة من رجال الصاعقة البواسل مهمة أخري بنفس الخطورة..

مهمة مازالت تندرج أيضا، تحت بند السرية المطلقة..

ولكنها تركت في الجميع أثرا لم ولن يمحوه الزمن، مهما طال المدى..

وفي الوقت، الذي احتفلت فيه (مصر) كلها بأول انتصار عسكري حقيقي، على العدو الإسرائيلي..

وبينما كان الرئيس (أنور السادات) يلقي خطابا حماسيا قويا، في مجلس الأمة (الشعب حاليا)، كان (أكرم صدقى) يقف أمام مدير المخابرات العامة الجديد، ليؤدي القَسَم، الذي لم يتمنَّ والده (رحمه الله) في حياته كلها، أكثر من أن يسمعه على شفتيه..

قَسَم الالتحاق بالمخابرات العامة المصرية..

ولكن (أكرم) كان يشعر أن روح والده تحلق حوله، وهو ينطق كل حرف من حروف القسم، لذا، فلم يكد يغادر مكتبه في اليوم الأول لعمله، حتى ذهب يلتقي بشقيقه (أحمد) الذي لم يكن قد تخرج بعد في كلية الطب، لينطلقا معًا إلي حيث يلتقيان بأحب إنسان إلى قلبيهما..

والدهما..

وأمام قبر (صدقى)، ردد (أكرم) القسم مرة أخري؛ ليطمئن والده إلى أن ابنه، الذي قضي فترة طويلة من عمره التدريبية وتثقيفه، وصقل مواهبه، قد بلغ ما أراده له بالضبط، وحقق آخر أحلامه في الدنيا..

ثم وضع يده على كتف شقيقه، وانطلقا معًا يواصلان عملهما من أجل الوطن..

من أجل (مصر).

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«إنها الثانية والربع صباحا..»

انتزعني السيد (أشرف) من تركيزي، بعبارته هذه، وهو يشير إلى ساعته، فتراجعت في مقعدي في ضيق، وأنا أقول:

- آه.. معذرة.. لم أنتبه لهذا..

لم أكن قد انتبهت المرور الوقت بالفعل، إلا أن أخر ما كنت أتمناه، في تلك اللحظة، هو الانصراف..

كنت أتمنى من أعمق أعماق قلبي، أن أواصل حديث الذكريات، وتقليب أوراق البطل، حتى ولو مر علينا ألف صباح وصباح..

ولكن السيد (أشرف) نهض، ومد يده يصافح (ا. ص)، قائلا:

- أشكرك يا سيدي، على كل ما منحتنا إياه من وقت وجهد، واعتذر لأننا قد أرهقناك إلى هذا الحد..

ابتسم (١. ص)، وربت على كتفه، قائلا:

- أهلا بكم في أي وقت.. إنه منزلكم..

لم يكن أمامي سوي أن أنهض أيضا، وأصافحه بدوري، وأقول في توتر ملحوظ:

- أسعدني الحديث معك كثيرا يا سيدي، ولكنني للأسف، لم أحصل على أجوبة بعض أسئلتي بعد..

سألني في اهتمام:

- مثل ماذا؟!
أشرت بيدي، قائلا:
- مثل هوية تلك الفتاة، التي تحتل صورتها جدار الردهة..
ابتسم (١. ص)، وأطلت من عينيه نفس النظرة، التي تجمع ما بين الشرود والتأثّر..
نظرة رجل يستعيد ذكريات قديمة..
عاطفية..
ومؤثرة..
ثم تلاشت تلك النظرة في سرعة، واختفت في أعماقه، وهو يقول:
- إنها قصة أخري طويلة..
وربت على كتفي، وهو يمنحني ابتسامة تزخر بالمودة والصداقة، مستطردا:
- ربما أقصها عليك في المرة القادمة بإذن الله.
كدت أقفز من مكاني فرحا، وأنا أسأله:
- أهناك مرة قادمة؟!
ابتسم السيد (أشرف)، وتبادل نظرة مع (ا. ص)، قبل أن يقول:
- بل مرات.. السيد (١. ص) لديه الكثير والكثير ليرويه، عن حياته الحافلة، ومغامراته العديدة.
واتسعت ابتسامته، وهو يغمز بعينه، مستطردا:
- ثم إنك تسعي لكتابة سلسلة طويلة.. أليس كذلك؟!
اختلج قلبي بين ضلوعي في قوة، من فرط سعادتي وارتياحي:
ولم تتوقف اختلاجاته لحظة واحدة، ونحن نودع الرجل وننطلق عائدين إلى (القاهرة)، مع وعد بلقاء آخر قريب..
تحول فيما بعد إلى لقاءات منتظمة، ملأت عشرات وعشرات من أوراق الذكريات، التي تصفحتها مع (١. ص)، عبر سنوات

خمس..
وطوال طريق العودة، لم نتبادل كلمة واحدة، أنا والسيد (أشرف)، فقد أسبل هو جفنيه، واسترخي في مقعده، كما لو أنه قد غرق في نوم عميق..
أما أنا، فلم يهدأ عقلي لحظة واحدة، وأنا أسترجع كل حرف من حديثي مع الرجل..
وفي أعماقي، تصاعدت عشرات التساؤلات، عما سيدور في اللقاءات التالية، ثم انزاح كل هذا، ليفسح المجال أمام سؤال واحد..
لو أنني بدأت بالفعل في كتابة تلك السلسلة، التي ستضم أوراقه وذكرياته ومغامراته، فأي اسم يمكن أن أختاره لها؟!
أي اسم هذا، الذي يمكن أن يربط بين الرجل، ومغامراته الفذة، التي قهر بها المستحيل؟!
ولكن عقلي المجهد - عندئذ - لم يتوصل إلى الاسم المناسب..
فطرحت التساؤل جانبا، ورحت أسترجع مرة أخري تلك الذكريات، التي ستصنع أفضل أوراق كتبتها، في حياتي كلها..
أوراق بطل..
وأي بطل!

(تمت بحمد الله)

تصفح معنا صفحات جديدة من (أوراق بطل) في الكتاب القادم من سلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠) الملحمة - وقصص أخري..

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الي الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- البطل..
٢- الأوراق..
٣- التاريخ..
٤- البداية..
٥- الخيانة..
٦- المسار..
٧- النيران..

Notes

[←1]
في تلك الفترة، لم يكن مبني المخابرات الحالي قد تم بناؤه بعد.

[←2]

(جوزيف فساريونفيتش ستالين) (1879 - 1953): سياسي روسي، خلف (لينين) في زعامة (روسيا) عام ١٩٢٤ م، ثم لم يلبث أن تخلص من منافسيه، وانفرد بالسلطة، وجعل نفسه رئيسا للوزراء، وقائدا عاما للجيش، وظل يحكم بديكتاتورية مطلقة، حتى وفاته..

[←3]

حقيقة.

[←4]

عند إنشاء جهاز المخابرات العامة، لم تكن به مكتبة رسمية، ثم لم يلبث بعض أفراده أن كونوا نواة لمكتبة صغيرة، تضم عددا من الكتب المتخصصة في علم المخابرات والجاسوسية، وبعدها تحولت هذه النواة إلى مكتبة ضخمة، تضم كتبا في مختلف التخصصات، في عهد (صلاح نصر) مدير الجهاز الأسبق.

[←5]

الكشافة: حركة رياضية اجتماعية، تربوية، تقوم على تنظيم الناشئين في فرق، بإشراف قائد مدري، يفرض عليهم الطاعة، ويلاحظ سلوكهم، ويعلمهم الاعتماد على النفس، والتعاون مع الآخرين، والتضحية في سبيل المجموع، ويكسبهم مهارات بيئية مختلفة، وليس للحركة الكشفية، أي طابع ديني ومذهبي، ولا يجوز لها الاشتغال بالسياسة..

[←6]

الألعاب الأوليمبية: بدأت الألعاب الأوليمبية في (اليونان القديمة، عام ٧٧٩ ق.م، واستمرت تقام كل أربع سنوات وحتى أوقفها الرومان في القرن الرابع الميلادي، ثم تنجح الفرنسي (بيير دى كوبرتان) في إعادتها عام ١٨٩٩م، وهي تقام منذ ذلك الحين كل أربع سنوات، فيما عدا عامي ١٩٤٠م، و ١٩٤٤م، حيث تم إلغاؤها بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية.

[←7]
لم تكن لعبة (الخماسي الحديث) معروفة، أو مشهورة، في ذلك الحين.

[←8]

(باندونج): مدينة غرب (جاوه) في (أندونيسيا)، تعتبر مركزا صناعية وسياحيا كبيرا عقد فيها مؤتمر (باندونج) (إبريل ١٩٩٥م)، الذي ضم ٢٩ دولة، ممثلة في رؤسائها، وألقي فيه الرئيس (جمال عبد الناصر) واحدا من أهم خطبة السياسية.

[←9]

مع بدايات الثورة، قامت المخابرات الإسرائيلية بمحاولة لإفساد العلاقة بين (مصر) و(الولايات المتحدة الأمريكية) عن طريق تفجير عدد من المراكز الأمريكية، في (القاهرة) و(الإسكندرية)، ولكن تم كشف العملية وإلقاء القبض على كل أفراد الشبكة، فيما عرف آنذاك - باسم (فضحية لافون)، نسبة إلى (بنحاس لافون)، الذي أصدر الأمر بإجراء العملية كلها.

[←10]

حقيقة.

[←11]

في تلك الفترة، كان المعركة بناء السد العالي، وما صحبها من حماس، أثر قوي في نفوس الشباب، بحيث صار منتهي أمل الواحد منهم أن يصبح أحد مهندسي السد العالي، ما جعل كليات الهندسية على قمة الهرم الجامعي لفترة طويلة.

[←12]

سرعة الإنسان العادي: ستة كيلومترات في الساعة.

[←13]
السيمفونية: تأليف آلي في الموسيقي الأوروبية، والأصل فيها في افتتاحيات الأوبرات الغنائية الإيطالية، في القرن السابع عشر، ثم تطور إلى تأليف مستقل، تشترك فيه مجموعة الآلات (الأوركسترا).

[←14]

ليس الاسم الحقيقي للعملية، ولكنه يشترك معه في المعني والمضمون.

[←15]

قصة حقيقية.

[←16]

حقيقة.

[←17]
ربما يتم قريبا، بإذن الله سبحانه وتعالي)، نشر تفاصيل العملية في كتاب مستقل، في سلسلة (كتاب كوكتيل).

[←18]

حقيقة.

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الملحمة

د. نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الي صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الي الجروب

انضم الي القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

الملحمة

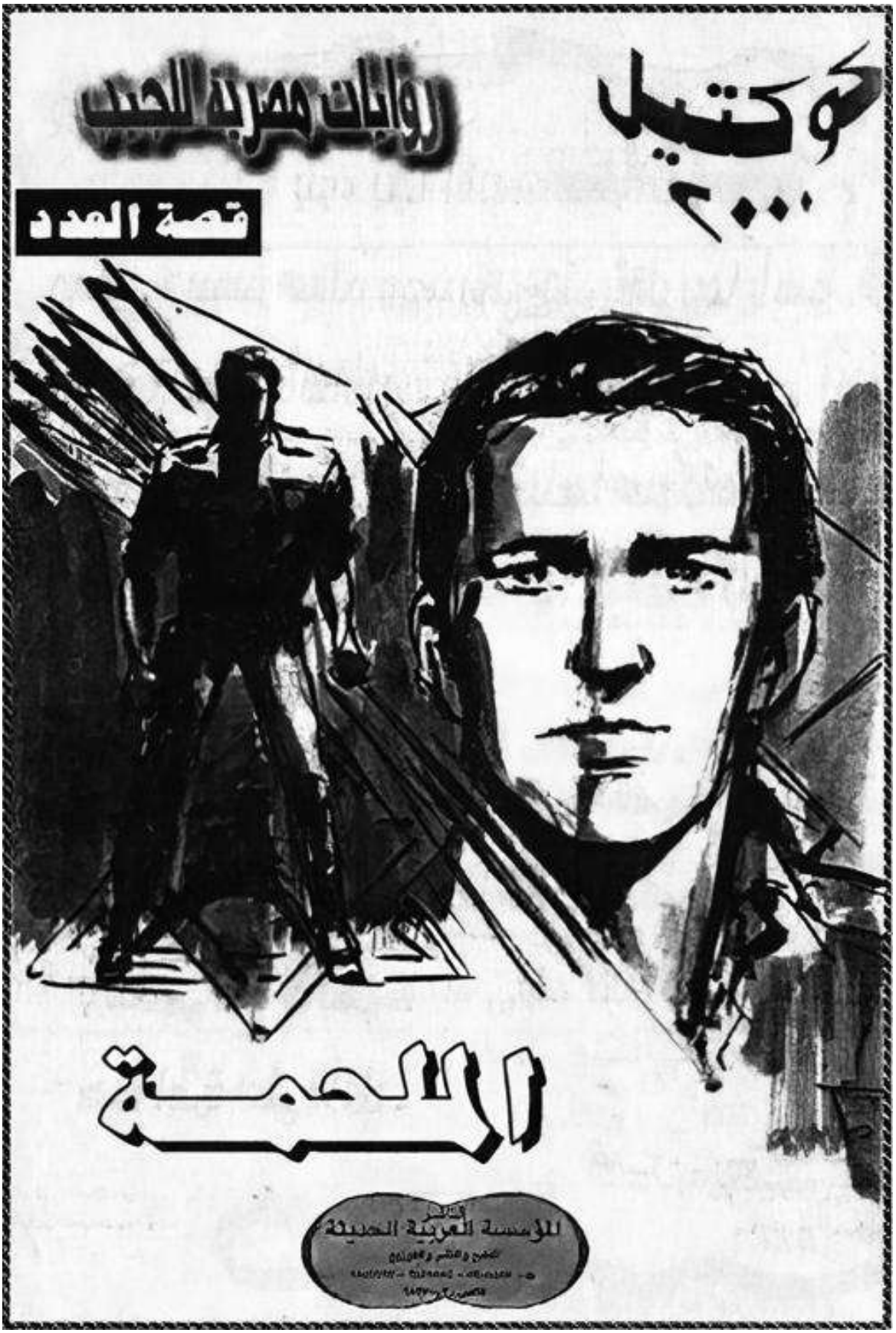
كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب
قصة العدد
اللحمة
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الي المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

ذكريات كثيرة ينوء بها المرء، لسنوات وسنوات، وتظل حبيسة عقله وصدره، حتى يثقل بها رأسه، وتضيق معها أنفاسه، فيتمني، أكثر ما يتمني، أن يطرحها عن نفسه، ويرفع عبئها عن كاهله..
ولكن بعض الذكريات، لا يمكن أبدا أن تُطرح كاملة.. ولأسباب عديدة..
لذا، فالمرء يتخفف من بعضها فحسب، ويغزل في خياله ما يربط خيوطها ببعضها البعض..
ولعل في هذا ما يكفي..
هذه المرة على الأقل.

د. نبيل فاروق

١- اللقاء الثاني..

على الرغم من أن فصل الصيف لم يكن قد انتهي بعد فعليا، ومن أن الطقس ما زال يحمل ذلك الدفء المنعش، بعد انكسار الموجات الحارة المتتالية، إلا أن السحب الداكنة راحت تتجمع في السماء طوال النهار، ثم لم تلبث قطرات المطر أن تساقطت، وراحت تضرب زجاج نافذة حجرة مكتبي لساعة أو يزيد، في إيقاع رتيب، ضاعف من حدة توتري، حتى إنني تخليت عن أوراقي وقلمي، ونهضت أفتح النافذة على مصراعيها، وأتطلع عبرها إلى الطريق، الذي تناثرت فيه تجمعات مائية صغيرة، ترسم فوقها قطرات المطر دوائر منتظمة، ما إن تتكون حتى تتسع وتتسع، وتمتزج ببعضها، ثم تتلاشى، لتحل محلها دوائر جديدة، في تواصل مستمر بلا انقطاع..

ولست أدري لماذا جذبني هذا المشهد بشدة..

ولماذا بدا لي أشبه بالحياة..

دوائر تتكون، وتتسع..

ثم تتلاقى....

وتتلاشى

وتنشأ دوائر جديدة...

والعجيب أننا، عندما تتكون في أعماقنا دائرة ما، وتروح تتسع وتتسع، يخيل إلينا أنها ستظل تتسع بلا نهاية..

ثم ندرك فجأة أن مصير كل الدوائر، مهما كبرت واتسعت هو التلاشي والضياع، لتفسح المكان لدائرة جديدة أخرى..

وأخرى..

وأخرى..

ومع تعلق عيني بهذا المشهد، راح عقلي يسترجع ذكريات قريبة، وكأنما غرقت في حالة من التنويم المغنطيسي، صنعتها الطبيعة..
كنت قد انتهيت على الفور، من وضع الخطوط العريضة لسلسلة جديدة، يمكنني من خلالها تقديم بطل جديد للقارئ العربي..
بطل يمتلك كل مقومات البطولة، القادرة على إبهار كل الشباب، دون الخروج عن القيم والتقاليد، التي يتميز بها مجتمعنا..
الشيء المدهش هو أنني لم أكن أحاول إبهار القارئ ببطولة خرافية، وإنما كنت أنقل إليه، وفي حماس شديد، جزءا من قنبلة الانبهار، التي تفجرت في أعماقي، عندما سمحت لى الظروف بمقابلة ذلك البطل..
شخصيا..
قنبلة الانبهار، التي مضى شهر كامل، على سريان مفعولها في عروقي، دون أن يتلاشى تأثيرها أو ينخفض درجة واحدة..
هذا لأن ذلك البطل، الذي التقيت به وجها لوجه، في سرية تامة، وتحت إشراف المخابرات العامة المصرية، لم يكن شخصا عاديا..
أو حتى بطلا عاديا..
لقد كان أسطورة..
مقاتل يندر أن يجود الزمان بمثله، في كل عشرة قرون من الزمان..
كان رجلا قذا، لا يقف أمامه حتى المستحيل نفسه وربما كان لقائي السابق به، هو السبب الرئيسي لتوتري الآن..
فمنذ جالسته في فيلته الخاصة، في منطقة (فايد)، واستمعت إليه مبهورا، وهو يقص على كيف أنشأه والده في مناخ خاص،

ووفقا لبرنامج تدريبي متميز، حتى صار واحدا من أفضل رجال المخابرات في العالم..
بل ربما كان أفضلهم أجمعين..
منذ ذلك الحين، لم ألتق به قط ([1])
ثلاثون يوما، من عمر الزمن، بدت لي أشبه بألف عام، وأنا أنتظر في لهفة تحديد موعد اللقاء التالي..
وعلى الرغم من أنني أحترق شوقا لهذا اللقاء، إلا أنني لم أجرؤ قط على طلب هذا، أو حتى الإشارة إليه، كلما التقيت بالسيد (أشرف)، في جهاز المخابرات العامة، أو تحدثت إليه هاتفيا..
والعجيب أنني كنت أشعر طوال الوقت، أن السيد (أشرف) يعلم ما أخفيه في أعماقي..
ربما لأنني لم أنجح في إخفائه جيدا، فأطل عابثا من عيني، أو كلماتي، أو حتى من بين ملامح وجهي وخلايا جسدي..
أو ربما لأنه رجل مخابرات محترف، اعتاد قراءة ما بين السطور، وسبر أغوار من أمامه، وكشف ما يدور في أعماقه، من لمحة أو خلجة، أو حتى طرفة عين..
ولكنه، على الرغم من هذا، لم يشر إلى الأمر قط، وكأنما لم يدركه..
أو لا يذكره..
واليوم بالذات، لم يتوقف عقلي عن التفكير في هذا الأمر قط، منذ استيقظت من نومي..
أو بمعنى أدق، منذ غادرت فراشي..
هذا لأنني لم أذق طعم النوم الحقيقي لحظة واحدة، وعقلي يبحث عن اسم السلسلة..
سلسلة روايات ذلك البطل..

الرمز..
رجل المخابرات المصري..
الرجل الذي قهر المستحيل..
استوقفتني العبارة الأخيرة بغتة، واستغرقني التفكير فيها بضع لحظات، و...
وفجأة، انتبهت إلى أن الدوائر المتسعة المتلاشية قد اختفت تماما، من سطح البقع المائية، وحل محلها سيل من الخيوط الفضية المتراقصة، التي تعلن أن الغيوم قد انقشعت، وأفسحت السبيل لقرص القمر المضيء..
ولأنني عاشق للطبيعة بكل صورها، فقد تعلقت عيناي بالمشهد الجميل، و...
وفجأة، اخترق رنين الهاتف أذني، وانتزعني من تأملاتي في عنف، فانتفض جسدي انتفاضة قوية، قبل أن أختطف سماعة الهاتف، قائلا:
- من المتحدث؟
فاجأني صوت هادئ رصين، يقول بلهجة مهذبة للغاية:
- مساء الخير يا دكتور.. هل جاء اتصالي في موعد مناسب؟!
ومن المؤكد أن صوتي قد حمل الكثير من انفعالي، وأنا أسأله:
- من يتحدث إلى؟!
أجابني بنفس الهَّدوء:
- (لبيب).. زميل السيد (أشرف).
هتفت بكل أعماقي:
- أهلا.
كان لدى الكثير والكثير لأقوله، ولكن الكلمة فقط عبرت عن كل ما أريده، فعجز لساني بعدها عن نطق حرف آخر، وأنا أنتظر رده في لهفة..

ولم يأتِ الرد مباشرة..
لقد منحني السيد (لبيب) بضع لحظات، وكأنما ينتظر ما سأقوله، ثم لم يلبث أن استعاد دفة الحديث، وهو يسأل:
- ألديك أية التزامات الليلة؟!
خفق قلبي بين ضلوعي في حماس، وأنا أهتف:
خيِّل إلى أن أسلاك الهاتف قد حملت ابتسامته، وهو يقول:
- عظيم.. سنمر لالتقاطك في تمام السابعة.. هل يناسبكَ هذا؟!
لم أدر ماذا قلت، ولا كيف أجبته، ولا حتى كيف ارتديت ثيابي، واستجمعت كل مشاعري وانفعالاتي، ولكنني كنت مستعدًا تماما، وكياني يفيض بكل أحاسيس الدنيا، وأنا أقف أمام منزلي، في السابعة إلا خمس دقائق وفي السابعة بالضبط، ومع دقات الساعة، توقفت أمامي سيارة بيضاء بسيطة، وهبط منها رجل أسمر البشرة، هادئ الملامح، باسم الثغر، مد يده لي بالتحية، قائلا:
- مساء الخير يا دكتور.. أنا (لبيب)..
صافحته في حرارة، ودلفت إلى السيارة، وأنا أسأله في اهتمام:
- أين السيد (أشرف)؟!
ابتسم بنفس الهدوء، وهو يشير إلى السائق، مجيبًا:
- لديه الكثير من العمل..
اكتفيت بالجواب، والسيارة تنطلق بنا، ورحت أسترجع ذكريات المرة السابقة، عندما لاذ السيد (أشرف) بالصمت والغموض، حتى بلغت بنا السيارة طريق (الإسماعيلية)، ولكن مهلا..
السيارة تتجه هذه المرة إلى طريق (الإسكندرية) الصحراوي، وليس إلى طريق (الإسماعيلية)؟!
«إلى أين نذهب؟!»

انطلق السؤال من بين شفتي في توتر ملحوظ، وعلى الرغم من هذا فقد احتفظ السيد (لبيب) بهدوئه الخرافي، وهو يجيب في بساطة:

- إليه.

كان جوابا مقتضبا، وافيا، شافيا، حتى إنني ارتبكت في البداية، وتجمدت الكلمات على شفتي طويلا، قبل أن أقول في عصبية:

- ولكن هذا ليس الطريق المعتاد..

ابتسم مجيبا:

- كل الطرق تؤدى إلى روما).

كان من الواضح أنه قليل الكلام، مال إلى الصمت، والاقتضاب، على الرغم من تهذيبه الواضح، وأسلوبه الأنيق الهادئ، لذا فقد أجبرت نفسي على الصمت، مقاومًا كل ما يشتعل في أعماقي من لهفة وفضول، حتى اتخذت السيارة طريقها، وانحرفت إلى طريق (الفيوم) وعندئذ وجدت نفسي أهتف مكررا:

- إلى أين نذهب؟

اعتدل السيد (لبيب)، قائلا في هدوء:

- السيد (١، ص) ينتظرنا في منزله الريفي، في (الفيوم).

ارتفع حاجباي في دهشة بالغة، وأنا أسأل:

- كم منزلا يمتلكه هذا الرجل؟!

ولست أدري ما الذي حواه سؤالي بالضبط، ولكنه جعل السيد (لبيب) يطلق ضحكة كبيرة، قبل أن يقول بلهجته المهذبة:

- لا تقلق نفسك بهذا.

لم يرق لي هذا الجواب، الذي لا يمنحني أية معلومات إضافية، فغصت في مقعدى، وضممت شفتي في حنق، واتخذت قرارا في أعماقي بالصمت، حتى نبلغ منزل (ا. ص)..

ولكنني لم أستطع الحفاظ على صمتي هذا طويلا..

فمع الفضول الملتهب داخلي، وجدت نفسي أسأله في لهفة:
- هل تعتقد أنه سيقصّ عليّ تفاصيل إحدى عملياته الخاصة؟!
صمت لحظة، قبل أن يجيب في حذر:
- هذا يعود إليه..
قلت في لهفة:
- ولكنك تستطيع استنتاج الأمر بالتأكيد..
سألني في دهشة:
- ولماذا بالتأكيد؟!
قلت في شيء من التوتر:
- لأنك تعرفه جيدا..
اتسعت ابتسامته كثيرا، وهو يقول في هدوء:
- إنني لم ألتقِ به من قبل قط.
تفجر الجواب في أعماقي كالقنبلة، فهتفت في دهشة:
- أهذا معقول؟!
هز رأسه بلا معنى، وتسلل شيء ما إلى ابتسامته، وهو يجيب:
- السيد (١. ص) بالنسبة إلينا أشبه بالأسطورة.. كلنا سمعنا ودرسنا الكثير من عملياته، ولكن قليلين منا شاهدوا صورته، وعدد محدود فحسب من التقى به شخصيا..
سألته في دهشة:
- إلى هذا الحد؟!
تنهد، قائلا:
- ألم أقل لك: إنه أسطورة؟!
تضاعفت دهشتي ألف مرة، وأنا أسترجع عباراته هذه..
قليلون فحسب من شاهدوا صورته..
وندرة فقط من التقوا به شخصيا..
يا للعجب!

ألهذا الحدِّ يحاط الرجل بالسرية؟!
ألهذا الحدِّ تبلغ أهميته وخطورته؟!
لم تكن الفكرة تقفز إلى ذهني، حتى تداعت أفكاري بسرعة مدهشة، لتنتقل إلى جانب آخر، برز في أعماقي بغتة..
إنني أحد من التقوا به شخصيا..
أحد الأفراد القلائل، الذين حظوا بهذه الفرصة النادرة.
يا لي من محظوظ!
ولأول مرة، منذ بدأ هذا الأمر، شملني شعور قوي بالزهوّ والسعادة..
شعور سيطر على حياتي كله، حتى إنني لم أشعر بمضيّ الوقت، حتى ارتجت السيارة بغتة، فانتفضت في مجلسي هاتفًا:
- ماذا حدث؟!
انتبهت فجأة إلى أن السيارة تنطلق عبر طريق نصف ممهد، وسط حدائق واسعة، والسيد (لبيب) يقول:
- لا شيء.. لا تقلق.. لقد وصلنا تقريبا..
ومع أخر حروف كلماته، ظهر أمامنا منزل أنيق، من طابق واحد، يتوسط تلك الحدائق، التي فاحت منها روائح فاكهة ناضجة، ممتزجة بعبير زهور، على نحو يكفي لإبهار أي عاشق للطبيعة مثلي، فغمغمت:
- هل يقيم هنا؟!
أجابني السيد (لبيب)، والسيارة تتوقف بنا أمام المنزل مباشرة:
- بعض الوقت.
لمحت في تلك اللحظة رجلا نحيلا طويلا، يندفع نحو السيارة، ويفتح بأبها، قائلا في ترحاب واضح:
- حمدا لله على السلامة..
غادرت السيارة وأنا أتطلع إليه في دهشة:

إنه نفس الشخص، الذي كان يحرس تلك الفيلا في (فايد)..
يبدو أنه حارسه الشخصي..
أو..
قطع أفكاري ذلك الصوت الهادئ العميق، الذي تسلل إلى أذني بغتة، قائلا:
- مرحبا.
التفتُّ بكياني كله إلى مصدر الصوت، وخفق قلبي في عنف..
إنه هو..
(1، ص)..
رجل المخابرات السابق..
البطل..
كان يقف عند باب المنزل، مرتديا حلة أنيقة بسيطة، وعلى وجهه ابتسامة ودود، تستقبلك وتصافحك في حرارة، قبل حتى أن تتلاقى أيديكم..
ومن الواضح أنني لست الوحيد الذي شعر بالانبهار، في تلك اللحظة..
السيد (لبيب) أيضا شاركني هذا الشعور..
بل وربما تفوَّق فيه أيضا..
لقد وقف صامتا، مفغور الفاه، يحدِّق في (ا. ص) دون أن ينبس ببنت شفة، أو يجيب حتى تحيته، على الرغم من تهذيبه الشديد..
ولا عجب في هذا..
إنه يلتقي، ولأول مرة، بالأسطورة، التي انبهر بالحديث عنها طويلا، وقرأ عنها ما ارتجفت له مشاعره، منذ سنوات وسنوات..
ويبدو أن (ا. ص) قد انتبه إلى هذا
بل من المؤكد أنه قد فعل

فلقد التفت إلى السيد (لبيب) بابتسامة أنيقة، وهو يمد له يده مصافا، ويقول في ترحاب:
- السيد (لبيب).. أليس كذلك؟!
بدا لى وكأن (لبيب) قد وثب نحوه، واختطف يده في لهفة شديدة، مجيبا:
- بلى يا سيدي.. إنه لمن دواعي فخري أن ألتقي بك شخصيا.
اتسعت ابتسامة (ا. ص)، دون أن يقول شيئا، وربت على كتف (لبيب) في رفق حنون، قبل أن يدعونا للدخول..
ولم تمض دقائق قليلة، حتى كنا نجلس في حجرة مكتب واسعة، تحوي أيضا مكتبة ضخمة، تحتل جدارا كاملا، وبين أيدينا أكواب الشاي الساخنة، و(ا. ص) يسألني في هدوء واهتمام:
- هل دونت ما قلناه في المرة السابقة؟!

ولم تمض دقائق قليلة ، حتى كنا نجلس فى حجرة مكتب واسعة . . .

أجبته في سرعة:

- بالتأكيد، و...

بترت عبارتي بغتة، عندما شعرت بأنها تفتقر إلى اللياقة..

فابتسم هو في هدوء، في حين قال (لبيب) في رصانة:
- ولكنه ما زال يطمح إلى المزيد..
أومأ (١. ص) برأسه موافقا، وهو يقول:
- بالتأكيد..
قالها، وأعاد كوب الشاي إلى المنضدة الصغيرة أمامنا، وهو يسألني في اهتمام:
- ما الذي تريد سماعه هذه المرة؟
أجبت في سرعة والدفاع، وكأنني أنتظر هذا السؤال منذ البداية:
- مغامراتك.
ارتفع حاجباه في دهشة بالغة، وتراجع في مقعده، وكأن العبارة قد صدمته، في حين تحرك (لبيب) في توتر ملحوظ، جعلني أدرك على الفور مدى ما يفتقر إليه جوابي من دقة ولياقة ووقار، فارتبكت مستطردا:
- إننا هنا لهذا الهدف.. أليس كذلك؟!
تبادل الرجلان نظرة صامتة، قبل أن يستعيد (ا. ص) ابتسامته، قائلا:
- في عالمنا، لا نطلق على مثل هذه الأمور اسم المغامرات، وإنما هي عمليات خاصة، أو مهام نحرص على القيام بها بنجاح.
وصمت لحظة قصيرة، قبل أن يضيف بصوت حازم، انتفض له كياني كله:
- من أجل (مصر).
ولست أدري لماذا ران ذلك الصمت المهيب الطويل على المكان، بعد قوله هذا، ولكنني شخصيا بذلت جهدا حقيقيا؛ لإجبار لساني على التحرك، وكسر حاجز الصمت، وأنا أقول في صوت خافت شاحب:
- وهل يمكنني الاستماع إلى إحدى عمليات الخاصة هذه؟!

أومأ برأسه، مجيبا، بنفس الابتسامة الهادئة:
- بقدر ما تسمح به قواعد السرية..
أعادت إلى ابتسامته الكثير من الهدوء والثقة والارتياح، فقلت في حماس:
- عندما جئنا لمقابلتك، في المرة السابقة، أخبرني السيد (أشرف) أنك قد اصطدمت بكل أجهزة المخابرات العالمية، وببعض المنظمات الإجرامية، ومنظمات الجاسوسية الخاصة، ولا ريب في أن كل صدام يصلح لقصة رائعة..
أجابني في بساطة:
- يبدو أن السيد (أشرف) يميل إلى المبالغة..
قلت في حماس أكثر:
- لست أعتقد هذا..
اتسعت ابتسامته، دون أن يعلق على عبارتي، واعتدل في مجلسه بهدوء، في حين قال (لبيب) في اهتمام:
- لا يمكنك أن تحظى بكل هذا في لقاء واحد..
سألته في لهفة:
- من أين نبدأ إذن؟!
لم أكن أتصور أن سؤالي عسير إلى هذا الحدّ..
لقد ساد بعده صمت عجيب، تبادل خلاله الرجلان نظرة طويلة، على نحو جعلني أتصور أن الرجال المخابرات لغة صمت خاصة، لا يفهمها سواهم، فقد بدا وكأن تلك النظرة الطويلة قد أدارت بينهما حديثا طويلا واضحا، قبل أن يعتدل (لبيب) في مجلسه، ويقول (ا. ص) في هدوء:
- المعتاد أن نبدأ بالتسلسل الطبيعي للأحداث..
ثم مال نحوي، مستطردا:

- بأول عملية رسمية قمت بها، كضابط في المخابرات العامة المصرية.
هتفت بكل حماس الدنيا:
- رائع.. هذا ما أنشده بالتأكيد..
عاد يبتسم ابتسامة هادئة، ويتراجع في مقعده، قائلا:
- في ذلك الحين كانت حرب أكتوبر قد انتهت فعليا، ولكن الصراع لم يهدأ بعد.. بل يمكن القول بأنه قد ازداد اشتعالا بعد أن أدرك الإسرائيليون، بصورة عملية، أن لدينا جهاز مخابرات قويًا، قادرا على خداع أجهزتهم، وتكبيدها خسائر فادحة، أيامها كانت حرب المعلومات في أوج عنفها وشراستها، وكان كل طرف يسعى للحصول على أكبر قدر منها، بأي ثمن كان.
وصمت لحظة، شرد خلالها بصره، وكأنه يستعيد تلك الذكريات القديمة، قبل أن يكمل في حزم:
- وفي تلك الظروف، بدأت مهمتي الأولى..
وغرق كياني كله في بحر من اللهفة والانبهار، وأنا أتطلع إليه، في انتظار كلماته..
وانتفضت عروقي كلها عندما اعتدل في مجلسه، وبدأ يروي ذكرياته..
ذكريات أول مهمة رسمية..
للبطل..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

٢- المهمة..

مايو ١٩٧٤م..
مازالت أصداء حرب أكتوبر (١٩٧٣م) تتردد عالميا، مع التحركات المصرية لإعادة البناء، والنشاط الجَمّ للرئيس (أنور السادات)، لتغيير خريطة (مصر) الاقتصادية والاجتماعية، والتغيرات السريعة في المفاهيم الإعلامية والسياسية والديموقراطية..
المصريون استعادوا الثقة في قيادتهم، وجيشهم، وجهاز مخابراتهم الفذ، الذي نجح بخطة رائعة، في خداع كل أجهزة الأمن والمخابرات، الإسرائيلية والأمريكية، حتى باغتهم الهجوم المصري، والعبور، وانهيار خط (بارليف)، أقوى خط دفاعي في التاريخ، على حد زعم العدو أما الإسرائيليون، فقد شملهم نوع من الارتباك المضطرب، المغموس في بحر من التوتر والغضب، وهم يحاسبون قياداتهم السياسية والعسكرية، على تلك الهزيمة المنكرة، بعد أن رددت أبواق دعايتهم دوما أنهم أقوى دولة في المنطقة، وأن جيشهم أسطوري، لا يمكن قهره أبدا..
ومن قلب (إسرائيل)، صدرت عشرات الكتب، التي تهاجم الجيش وأجهزة المخابرات، وتحمِّلها مسئولية ما حدث، ولعل أشهرها (المِحدَال).. أو (التقصير)، والذي أشاد مؤلفه بذكاء وبراعة جهاز المخابرات المصري، وبقوة وبسالة الجنود المصريين، عندما اشتعل القتال، على رمال (سيناء).. ([2])
وفي نفس الوقت، الذي وقف فيه جنرالات (إسرائيل) أمام المحاكم العسكرية في تل أبيب)، كان الرئيس (السادات) يقلد أبطال حرب أكتوبر الأوسمة والنياشين ويمنحهم بعض الرتب

الاستثنائية، تقديرا لجهودهم غير العادية، وبطولاتهم المدهشة، قبل وفي أثناء الحرب ومن بين هؤلاء الأبطال كان الملازم أول (أكرم صدقى)..
أو بمعنى أدق.. النقيب (أكرم)..
وعلى الرغم من الأسطر السبعة، التي حملتها شهادة التقدير، التي تلقاها الشاب، والتي كتبها الرئيس وذيلها بتوقيعه الشخصي، كان الشاب أكثر المجموعة هدوءا وتواضعًا..
وكأنما يكفيه أنه قد فعل ما فعل، من أجل الوطن..
الوطن وحده..
ولقد حرص السيد الرئيس على استقبال الأبطال في مكتبه بصفة سرية للغاية، حرصًا على طبيعة عملهم، التي تنفر في المعتاد من العلانية والوضوح، وقدم لهم شكر وامتنان (مصر)، ثم التفت إلى (أكرم)، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة، وهو يسأله:
- أنت ابن (صدقى).. أليس كذلك؟!
أومأ (أكرم) برأسه إيجابا، وهو يقول:
- لي كل الشرف يا سيادة الرئيس.
اتسعت ابتسامة الرئيس، وهو يربت على كتفه، قائلا:
- هذا الشبل من ذاك الأسد.
ونفث دخان غليونه الشهير، وهو يلتفت إلى مدير المخابرات، مستطردا:
- حقًا ما يقولون.. لم يمت من أنجب.
وافقه مدير المخابرات بإيماءة من رأسه، مغمغما:
- بالتأكيد..
ربت الرئيس على كتف (أكرم) مرة أخري بابتسامة عريضة، ثم استعاد جديته الشديدة، وهو يسأل المدير:
- هل أبلغته بالأمر؟!

هز مدير المخابرات رأسه نفيا، وهو يقول:
- ليس بعد يا سيادة الرئيس.
أطلت نظرة متسائلة من عينيّ (أكرم)، فتطلع إليه الرئيس لحظة، قبل أن يشير إليه، قائلا في حزم:
- لا تنصرف مع الباقين.. هناك ما ينبغي أن نتحدث بشأنه.
أجابه الشاب في حزم:
- أوامرك يا سيادة الرئيس.
ولم ينصرف (أكرم)، عندما حانت نهاية المقابلة..
وحده بقي مع مدير المخابرات، في حجرة مكتب الرئيس الخاصة..
وفي هدوء حازم، أشعل الرئيس (السادات) غليونه، وقال الشاب:
- الوطن يحتاج إليك يا (أكرم).
هتف الشاب بكل حماس وحزم الدنيا:
- وأنا فداء له يا سيادة الرئيس.
أومأ الرئيس برأسه مستحسنا، ثم أشار إلى مدير المخابرات، قائلا:
- أظنك أكثر قدرة على شرح مثل هذه الأمور..
قال المدير، وهو يشد قامته، كما اعتاد أيام عمله في الجيش:
- عفوا يا سيادة الرئيس..
ثم التفت إلى (أكرم)، قائلا:
- بعد حرب أكتوبر مباشرة، وكرد فعل للهزيمة، أنشأ الإسرائيليون قسمًا خاصًا، يضم رؤساء أجهزة الأمن الحساسية، كرئيس (الموساد)، ورئيس (أمان) ([3])، ومدير (الشين بيت) ([4])، بالإضافة لقادة الجيش، ومندوب غير عادي، من جهاز المخابرات الأمريكي.. ولأننا كنا واثقين من أن ذلك الاجتماع

سيشهد سيلا من المعلومات والمناقشات، على أعلى مستوى من السرية، فقد قمنا بعملية بالغة الحساسية والخطورة، تمكن خلالها الضابط (رفعت) من زرع جهاز تسجيل داخل حجرة الاجتماعات الرئيسية لذلك القسم، الذي أطلقوا عليه في (إسرائيل) اسم (درع القادة).. وذلك بتوجيه من السيد الرئيس شخصيا..

ابتسم الرئيس السادات، ونفث دخان غليونه في عمق، قبل أن يقول:

- كنت واثقا من أن أولادي يمكنهم القيام بهذا..

استقبل مدير المخابرات عبارة الرئيس بابتسامة امتنان، قبل أن يتابع في اهتمام:

- لم يكن من الممكن أن نزرع جهاز تنصت عاديا، أو أجهزة بث صوتية؛ لأن الإسرائيليين حرصوا للغاية على تأمين حجرة الاجتماعات هذه، ضد كل وسائل الاستماع، والتنصت، ولهذا فقد خدعهم (رفعت) في ذكاء فذّ، عندما زرع جهاز تسجيل خاصا، يبدأ عمله فور التقاط الأصوات، ثم يتوقف مع توقفها ([5])، وكان الجهاز معدا لتسجيل مائة ساعة من الأحاديث، على شريط دقيق فائق الحساسية.. وبهذا الأسلوب أمكننا تسجيل أدق أدق تفاصيل اجتماع قادة الأمن الإسرائيلي، وكأننا نجلس بينهم..

غلب الحماس الشاب، وهو يقول:

- عظيم.

تبادل الرئيس نظرة صامتة مع مدير المخابرات، قبل أن يقول في حزم:

- المشكلة أننا لم نستعد شريط التسجيل هذا بعد.

انعقد حاجبا الشاب، في اهتمام بالغ، والرئيس يشير إلى مدير المخابرات، ليكمل في اهتمام:
- الإسرائيليون لم يكشفوا أمر هذا الشريط قط، ولكنهم توصلوا إلى العميل الذي ساعدنا على زرعه، وفي أثناء فراره منهم، أطلقوا عليه النار، و...
وقتلوه.
راقب الرئيس (أكرم) في إمعان، عندما نطق مدير المخابرات الكلمة الأخيرة، ولاحظ تلك الارتجافة الخفيفة، التي استغرقت جزءا من الثانية، في شفته السفلى، والتي لولاها لظلت ملامحه جامدة ثابتة، كتمثال من الرخام.
وفي حزم، أشار الرئيس إلى مدير المخابرات بالتوقف، وهو ينفث دخان غليونه في بطء شديد، قائلا للشاب:
- أظنك قد استوعبت المطلوب منك بالضبط.
شدَّ (أكرم) قامته على نحو عسكري، وهو يجيب:
- استعادة الشريط من قلب (إسرائيل) يا سيادة الرئيس.
هز الرئيس رأسه نفيا، وقال:
- ليس هذا فحسب يا ولدي.. مهمتك هي استعادة شريط التسجيل من مكمنه، داخل حجرة الاجتماعات الرئيسية، التي يحيطها الإسرائيليون بأكبر قدر ممكن من السرية، وبكل وسائل المراقبة والأمن الحديثة، ويحرصون على حمايتها حرصهم على حياتهم نفسها، والعودة به إلى (مصر) سالمًا..
ثم اتعقد حاجباه، وهو يضيف في حزم:
- ومهما كان الثمن..
ظل الشاب على جموده بضع لحظات، قبل أن يقول بصوت قوى، حمل كل حزم وصرامة الدنيا:
- مهما كان الثمن يا سيادة الرئيس..

وكان هذا أشبه بالتوقيع على وثيقة خطر..
وإيذانا ببدء أول مهمة رسمية في حياة البطل..
وأكثرها خطورة..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

من المؤكد أن الذعر والانبهار قد ارتسما على وجهي بأعنف صورهما، إذ انتبهت فجأة على ابتسامة (لبيب) العريضة، والتي أوحت إلى بأنه يكتم ضحكة كبيرة في أعماقه، منعه تهذيبه من إطلاقها في وجهي، في حين توقف (ا. ص) عن روايته، وجلس يتطلع إلىَّ فى صمت وهدوء، فغمغمت مرتبكا:
- يا لها من مهمة!
ابتسم الرجل في بساطة، وهو يقول هادئا:
- كانت مهمة عسيرة بالفعل..
قلت في حماس:
- بالتأكيد.. دخول (إسرائيل) لم يكن بالأمر اليسير، في تلك الفترة، و....
قاطعتني تلك النظرة، التي تبادلاها معا، والتي انتقلت إليها ضحكة (لبيب)، التي خليل إلى أنها قد اخترقت حاجز الصمت، ودوت في أذني عالية قوية، قبل أن يقول (١. ص):
- دخول (إسرائيل) لم يكن أبدا مشكلة، بالنسبة لنا..
تفجرت الدهشة في كياني أكثر وأكثر، فتابع (لبيب) مبتسمًا:
- في ذلك الحين، لم تكن جوازات السفر متطورة صعبة التزوير، كما هي عليه الآن، ولم تكن وسائل الأمن وتحقيق الهوية بالكفاءة الحالية، ثم إنه كان وما زال لدينا قسم يختص يصنع هذه الأشياء بإتقان مذهل، يرأسه واحد من أبرع وأذكى خبراء التزييف والتزوير، في العالم أجمع..
ثم اتسعت ابتسامته، وهو يشير إلى (ا. ص) مضيفا في اعجاب:

- ثم إن المسافر كان يتقن عدة لغات حية بطلاقة تامة..
حدَّقتُ في وجهه لحظة، قبل أن ألتفت إلى الرجل، قائلا في حماس:
- إذن فقد سافرت إلى (إسرائيل) بجواز سفر زائف.
أومأ برأسه إيجابا، وهو يقول:
- نعم.. جواز سفر أمريكي، يحمل اسم (ميل روبنسون) مدير شركة (الغرب السعيد) للسياحة.
سألته في لهفة:
- وماذا لو حاول الإسرائيليون التيقن من الاسم أو الشركة؟!
اكتفي (ا. ص) بابتسامة هادئة، في حين أجاب (لبيب) في اهتمام:
- لم يكن من الطبيعي أن يراجع الإسرائيليون بيانات جواز سفر كل أمريكي يدخل (إسرائيل)، في تلك الفترة، وحتى لو فعلوا، فسيجدون بالفعل شركة سياحية في (كاليفورنيا) تحمل اسم (الغرب السعيد)، ومديرها يدعى (ميل روبنسون)، والأكثر أهمية أن تلك الشركة قد تبادلت بعض المراسلات مع (ماجى تورز) في (تل أبيب)، خلال الأسبوع السابق، وانتهى الأمر بدعوة وجهَّتها (ماجى تورز) إلى السيد (روبنسون)، لزيارة (تل أبيب)، ودراسة مشروع مشترك بين الشركتين.
هتفت مبهورا:
- من الواضح أن كل شيء تم إعداده بدقة بالغة حينذاك..
هز (ا. ص) رأسه في هدوء، مجيبا:
- هذا ما يحدث دائما..
ثم تراجع في مقعده، وشبك أصابع كفيه أمامه، مستطردا:
- وكما أخبرتك، لم يكن الدخول إلى (إسرائيل) قط مشكلة، بالنسبة لجهاز المخابرات العامة، لذا فقد وصلت إلى (إسرائيل)،

والتقيت بعميل مهم للغاية هناك، كانت مهمته الأولى أن يرتب لى كل ما أحتاج إليه؛ لتنفيذ هذه المهمة العسيرة..
اندفعت، قائلًا:
- وهذا العميل المهم كان يدير (ماجي تورز).. أليس كذلك؟
انعقد حاجبا السيد (لبيب) في توتر، على نحو جعلني أدرك أن سؤالي هذا لم يكن في محله قط، وأنني قد تجاوزت به كل قواعد السرية المسموح بها، في حوار كهذا، فتراجعت منكمشا في مقعدى كطفل ضبطوه يقوم بعمل متهور، وران على المكان كله صمت رهيب، من وجهة نظري، ولكن هذا الصمت لم يستغرق سوى ثانية واحدة، قبل أن يقطعه (ا. ص) في هدوء، دون أن يشير إلى ما حدث، وكأنه لم يسمعه:
- كان الإسرائيليون قد قاموا بتغيير كل نظم الأمن ووسائل المراقبة، بعد كشف أمر عميلنا، لذا فقد كنا نحتاج إلى معرفة نظم أمنهم الجديدة، حول حجرة اجتماعات (درع القادة)؛ لدراسة الوسائل الممكنة لاختراق تلك النظم، وبلوغ الحجرة، واستعادة الشريط المطلوب..
وصمت لحظة، قبل أن يضيف في حزم:
- وكانت هذه مهمة ذلك العميل الخاص..
نطق عبارته، فسرت في جسدي قشعريرة عجيبة، شحذت حواسي كلها، وأنا أستمع إليه، وهو يروي..
ويروي..
ويروي..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

على الرغم من أنها كانت المرة الأولى، التي يزور فيها الشاب (إسرائيل) فعليا، إلا أن كل شيء حوله كان مألوفًا معتادا، بعد أن قضى فترة من التدريب، في القسم (٣ ج أ)، التابع للمخابرات

العامة المصرية، والذي يقضي الدارس فيه ما يقرب من شهرين كاملين، في مناخ إسرائيلي بحت، كل المحال والأزياء والشوارع فيه كانت نسخة طبق الأصل من (تل أبيب)..
اللغة المستخدمة كانت العبرية وحدها، دون أية لغة أخرى، ولم يكن من المسموح لأي من المتدربين أن يتحدث بأية لغة بديلة، حتى خلال الأحاديث الجانبية والشخصية، حتى العملة المستخدمة كانت (الشيكل) الإسرائيلي وحده..
باختصار، كان من الضروري أن يعتاد الشخص ذلك المناخ الإسرائيلي مائة في المائة، قبل أن يجتاز هذا التدريب بنجاح.
ولأن الشاب موهوب بطبعه، ويجيد العبرية منذ نعومة أظفاره، فقد اجتاز هذه الدورة التدريبية في نصف الوقت، وبنجاح منقطع النظير..
وعندما أصبح داخل (تل أبيب)، استعاد كل ما درسه دفعة واحدة، وشعر وكأنه يقضي فترة تدريب إضافية فيه..
ولكن العجيب أنه لم يبد لمحة واحدة من هذا..
لقد ظل يتعامل كسائح أمريكي، يزور (إسرائيل) للمرة الأولى، حتى التقى بأدون (بيتون)، صاحب ومدير (ماجي تورز)، الذي قضى معه بعض الوقت في شركته، كما ينبغي أن يحدث، بين رجلين تربطهما بعض الأعمال التجارية المشتركة للمرة الأولى، ثم لم يلبث أن أصر على دعوته لتناول العشاء، في أحد مطاعم (تل أبيب) الشهيرة..
ولكنهما لم يذهبا إلى ذلك المطعم قط..
لقد ذهبا على الفور إلى منزل أمن، استأجره (بيتون) خصيصا لهذا الغرض، وهناك قدم له الرجل بعض الأدوات التي طلبت منه المخابرات المصرية إعدادها، بالإضافة إلى مسدس صغير الحجم، يصلح لإخفائه في ثنايا سترة عادية، قبل أن يقول:

- ما لديَّ من معلومات يؤكد أنك تهدف إلى مبنى يتبع وزارة الدفاع هنا، وتشرف عليه أجهزة أمن (الموساد) نفسها، وهذا يعني أن دخوله، أو حتى الاقتراب منه هو الخطورة بعينها..

وهناك قدم له الرجل بعض الأدوات التى طلبتها منه المخابرات

ظلت ملامح الشاب جامدة، وهو يقول:
- الواجب يحتم الدخول إليه، مهما كان الثمن..
تراقصت ابتسامة على شفتي (بيتون)، وهو يقول:
- هذا ما كنت أتوقعه..
ثم مال نحوه، مستطردا في جدية واهتمام:
- أحد مصادري أكد لي أن المبنى له مدخل واحد فحسب، يتوسط واجهته الأمامية، التي تواجه ساحة خالية كبيرة، هي الجزء الأعظم من الفراغ، المحيط بالمبنى من كل جانب، والذي ينتشر فيه أكثر من عشرين من رجال الأمن، الذين يحملون مدافع آلية قصيرة قوية، ويتم استبدال هذا الطاقم ثلاث مرات يوميا، حتى يظل الرجال يقظين طوال الوقت، وفي الليل تضاء تلك الساحة بكشافات قوية، تستمد طاقتها من مولدات خاصة، بحيث لا يمكن قطع التيار عنها قط، وهناك مدخل واحد أيضا لتلك الساحة، في مواجهة مدخل المبنى مباشرة، وعلى مسافة عشرين مترا منه، تقف أمامه دبابة مع أربعة من رجال الأمن، وكل رجل أمن في الموقع لديه أوامر مشددة بإطلاق النار دون تحذير، على أي شخص يقترب من المكان، المسافة عشرين مترا..
كان الشاب يستمع إليه في اهتمام، وذهنه يرسم صورة وهمية للمكان، بمنتهى الدقة، وبكل التفاصيل..
ويبدو أن (بيتون) قد لاحظ هذا، فقد توقف عن الحديث لحظة، وهو يتطلع إلى وجه الشاب في اهتمام، قبل أن يقول:
- هذا بالنسبة للخارج فحسب.
سأله الشاب في سرعة:
- وماذا عن الداخل؟!

بدت الدهشة على وجه (بيتون)، وكأنما لم يتوقع رد الفعل هذا، ثم لم يلبث أن ابتسم ابتسامة كبيرة، لم تتناسب قط مع فحوى عبارته، وهو يجيب:

- إنه أكثر خطورة..

سأله (أكرم) في اهتمام:

- كيف؟!

لوح (بيتون) بيده عدة مرات، دون أن يقول شيئا، ثم لم يلبث أن اندفع، قائلا:

- المبنى كله يحوي حجرة واحدة مغلقة، في الطابق الثاني منه، وهي حجرة اجتماعات على الأرجح، أما الطابق الأول، فهو أشبه بثكنة عسكرية، إذ يحوي استعدادات لصدّ هجوم مسلح قوي، وهناك ممر واحد، يقود إلى تلك الحجرة المغلقة في الطابق الثاني، وذلك الممر يقوم على حراسته أربعة من رجال القوات الخاصة، المدربين على مكافحة الإرهاب، أما الحجرة نفسها، والممر المؤدي إليها، فكلها مراقبة بآلات تصوير دقيقة، وهناك طاقم من ثلاثة أفراد، يراقب ويسجل كل ثانية طوال الوقت..

ثم التقط نفسا عميقا، وتراجع مستطردا:

- باختصار، من المستحيل الوصول إلى تلك الحجرة، حتى بالنسبة لفأر صغير، دون أن ينكشف أمره، ويتم سحقه سحقًا..

ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتي الشاب، وهو يقول:

- هذا بالنسبة للفأر..

قالها، ونهض في بساطة، مستطردا:

- أشكرك كثيرا يا أدون (بيتون).. لقد أحسنت شرح الموقف بحقّ..

ارتبك (بيتون)، وهو ينهض، قائلا:

- أتعشم هذا، فهذه آخر مهمة لي، قبل أن أصفى أعمالي في (إسرائيل)، وأرحل إلى (ألمانيا)، وكم أتمنى أن أكون ذا فائدة لكَ فيها..
ابتسم الشاب، وهو يصافحه، مغمغما:
- بالتأكيد..
ثم استدار لينصرف، ولكن (بيتون) أمسك كتفه، قائلا، في صوت مرتبك:
- لحظة يا مستر (روبنسون)..
التفت إليه الشاب بنظرة متسائلة، فارتبك أكثر، وهو يقول:
- معذرة لاستخدامي هذا الاسم، ولكنني أجهل اسمك الحقيقي..
قال الشاب في هدوء، وهو يتطلع إليه في اهتمام:
- لا عليك..
از درد (بيتون) لعابه، قبل أن يقول:
- إنني أتمنى لك نجاح مهمتك بالتأكيد، وأتعشم أن تعود إلى الوطن سالمًا، وفي هذه الحالة، ولأنه من المحتمل ألا نلتقي ثانية أبدا، فإنني أرجو أن تحمل معك شيئًا إلى (مصر)..
سأله الشاب بنفس الهدوء:
- شيء مثل ماذا..
هتف (بيتون) في لهفة:
- تحية..
ارتفع حاجبا الشاب في دهشة، فتابع (بيتون) فى صوت متهدج، يحمل مشاعر الدنيا كلها:
- تحية لأستاذي.. للسيد (عبد المحسن).. أخبره أن أكثر ما يشتاق إليه (رفعت) دائما، هو رؤيتك..
قالها، وغلفهما صمت مهيب بضع لحظات، قبل أن يمدَّ (أكرم) يده لمصافحته، قائلا في حزم:

- سأبلغه بإذن الله.
وشد على يد (بيتون) في حرارة، ثم استدار لينصرف..
وعندما فتح الباب، توقف عنده لحظة، ثم استدار إليه، مستطردا بكل الحزم:
- هذا وعد.
قالها، وأغلق الباب خلفه..
بكل هدوء.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«مستحيل!!»
انطلقت الكلمة من بين شفتي فى قوة، عندما توقف (١. ص) عن روايته بضع لحظات، فالتفت إلىَّ فى دهشة، وكذلك فعل السيد (لبيب)، الذي سألني مستنكرا:
- ما هو المستحيل؟!
أجبت في توتر:
- دخول حجرة اجتماعات (درع القادة).. الإسرائيليون لم يتركوا ثغرة واحدة، في ذلك الجدار الأمني الصلب، الذي أحاطوا به المكان.. لقد احتاطوا لكل الاحتمالات بلا استثناء..
مط السيد (لبيب) شفتيه، في حين ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتي (ا. ص)، وهو يميل نحوي، قائلا:
- من أهم القواعد التي تعلمناها، عند التحاقنا بالمخابرات العامة، أن كل النظم الأمنية، مهما بدت محكمة، تحوي حتمًا ثغرة ما، فجوة صغيرة، بين كل الإجراءات المحكمة، تكفي لعبور دقيق مدروس.
سألته في حيرة:
- وأين الثغرة في نظام محكم كهذا؟!
تبادل نظرة باسمة مع السيد (لبيب)، قبل أن يقول:

- هنا تكمن نقطة التفوق.. أن تنجح في العثور على الثغرة الخفية، في أي نظام أمني للخصم، دون أن ينتبه هو نفسه إليها..
- وهل عثرت على تلك الثغرة؟!
استعاد ابتسامته الهادئة، وهو يجيب:
- بالتأكيد..
سألته في لهفة:
- وما هي؟!
اتسعت ابتسامته، وهو يقول:
- لا تتعجل الأمور.. دع كل شيء يأتي في وقته بالضبط..
سألته، في شيء من العصبية:
- أهذه أيضا إحدى نقاط التفوق؟!
أومأ برأسه، قائلا:
- بالتأكيد..
ثم عاد يسترخي في مقعده، ويشبك أصابع كفيه أمام وجهه، متابعًا:
- من الناحية الظاهرية، لم تكن هناك ثغرة واحدة في نظام الأمن، المحيط بحجرة اجتماعات (درع القادة)، ولكن الرجال في (القاهرة) كان لهم رأي آخر، لذا فقد طلبوا مني قبل أن أسافر إلى (إسرائيل)، أن ألتقي بعميل سري آخر..
سألته:
- بخلاف أدون (بيتون)؟!
أجاب في هدوء:
- بالتأكيد.. لقد كان عميلا آخر، يعمل في وزارة الدفاع الإسرائيلية نفسها، ولديه معلومات مهمة للغاية، بشأن مبنى (درع القادة)، ولقد حددت المخابرات المصرية موعد ومكان اللقاء، في قلب أحد أكبر ميادين (تل أبيب)، في صباح اليوم التالي مباشرة..

وشرد بصره لحظة، قبل أن تحمل شفتاه ابتسامة خاصة توحي بأنه يستعيد ذكرى قديمة، تجمع على نحو عجيب، بين الارتياح والحزن، ثم لم يلبث أن أعاد عيناه إلى، قائلا:

- وكان من الطبيعي أن أتبادل مع ذلك العميل عبارات تعارف خاصة، لأن كلينا كان يجهل شخصية الآخر تماما.. كل ما كنا نعلمه هو أننا سنلتقي في التاسعة والنصف، أمام مقهى فرنسي الطراز، وأن كلا منا سيضع على صدره شارة خاصة صغيرة، لتمييز كل منا للآخر..

سألته:

- وهل سار كل شيء على ما يرام؟!

حملت شفتاه مرة أخرى تلك الابتسامة الخاصة العجيبة، وهو يقول:

- بالتأكيد

ثم اتسعت ابتسامته، وهو يضيف:

- ولكن الموقف كله كان يحمل لي مفاجأة.. مفاجأة مدهشة..

قالها، وعاد يروي قصته، لينتقل إلى أثر تلك المفاجأة..

وبقوة..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

٣- الشفرة..

عندما يقف المرء في أوسع ميادين (تل أبيب)، ليلتقط بعض الصور، للمباني القديمة، كأي سائح تقليدي، فمن الطبيعي ألا يلفت هذا انتباه أحد في المعتاد، حتى عندما تظاهر هذا السائح بأنه يحاول عبثا تغيير فيلم آلة التصوير، مع جهله الشديد بالآلة نفسها، وبينما يتظاهر السائح بالحيرة والارتباك، أتاه صوت من خلقه، يقول:

- هل تستخدم أفلاما من السليولوز الساخن؟!

تعقد حاجبا السائح في دهشة متوترة، عندما سمع العبارة، والتفت إلى صاحبها في حركة حادة..

أو بمعنى أدق، إلى صاحبتها..

كانت فتاة في أواخر العشرينات من العمر، جميلة الملامح إلى حد مدهش، سوداء الشعر والعينين، خمرية البشرة، لها ابتسامة ساحرة، على الرغم من التوتر الملحوظ في صوتها، وهي تكرر:

- هل تستخدم ذلك النوع؟!

كان من الواضح أن تأخره في الجواب قد أثار توترها، لذا فقد انتزع نفسه من دهشته، وهو يجيب:

- بالتأكيد، ولكنني أضيف إليه بعض الثلج.

بدا عليها الارتياح، وهي تلتقط آلة التصوير، مغمغمة:

- هذا يجعل مذاقه أفضل.

كان يتطلع إليها بدهشة كبيرة، وشعوره بالمفاجأة لم يزايله بعد..

كان يتطلع إليها ، بدهشة كبيرة ، وشعوره بالمفاجأة لم يزايله بعد . .

فمنذ بدأ مهمته، وحتى هذه اللحظة، كان يتصور أن العميل الثاني، الذي سيلتقي به في (تل أبيب)، هو أحد العسكريين، العاملين في وزارة الدفاع الإسرائيلية، ولكنه لم يتصور قط أن

يكون هذا العميل فتاة كهذه.. فتاة حسناء ساحرة، ترتدي ثياب سكرتيرة عسكرية أنيقة..
ولقد فحص تلك الفتاة بنظرة واحدة سريعة مدربة، وهى تخرج الفيلم من آلة التصوير، وتستبدل به فيلما آخر، ثم تعيد إليه الفيلم والآلة، وهي تبتسم، وكأنها تلقي عبارة مجاملة في حين كانت تقول في الواقع:
- الخامسة والربع بالضبط.. شارع (بن جوريون).
المبنى رقم سبعة.. الشقة اليسرى في الطابق الثالث.. ثلاث طرقات متفرقة..
قالتها في سرعة واقتضاب، ثم لوحت بيدها، قائلة بنفس الابتسامة:
- من الأفضل أن تتعلم استبدال الفيلم، ما دمت ستقضى هنا بعض الوقت..
تمتم، وهو يلوح بيده:
- بالتأكيد.
انصرفت في خطوات سريعة، ولم تلبث أن اختفت وسط الزحام، وهو يتابعها ببصره في صمت..
وفي أعماقه، تضاعف ذلك الشعور بالدهشة..
هذا لأنه لم يكن يتوقع ما حدث قط..
صحيح أنه مقاتل فذ، من طراز غير مسبوق، إلا أن عقليته، في ذلك الحين، لم تكن من التطور، بحيث يمكنه استيعاب وتقدير دور المرأة، في عمل كهذا..
لقد كان يعتقد - آنذاك - أن طبيعة العمل في أجهزة المخابرات، تحتاج حتما إلى قوة وبأس الرجال..
فقط الرجال..
ولكن هذا الرأي لم يؤثر قط في أدائه هذه المرة..

ففي تمام الخامسة والربع، كان يطرق باب الشقة اليسرى، من الطابق الثالث، في المبنى رقم سبعة، من شارع (بن جوريون)، ثلاث دقات متفرقة، ولم يكد ينتهي من الدقة الثالثة، حتى انفتح الباب في سرعة، وظهرت على عتبته تلك الفتاة، التي أفسحت الطريق في سرعة، وهي تقول بالعبرية:

- ادخل.

دلف إلى الشقة في سرعة، فأغلقت هي بابها خلفه، ثم ألصقت وجهها به، لتتطلع عبر العين السحرية في منتصفه، إلى الممر الممتد أمام المدخل، فقال هو في هدوء:

- لم يتبعني أحد.

سألته في توتر:

- وكيف يمكنك أن تثق بهذا؟!

أجاب في حزم:

- أنا واثق.

التفتت إليه بحركة حادة، وتطلعت إليه لحظة، قبل أن تندفع إلى حقيبة كبيرة، وتلتقط منها ملفًا ضخما، وضعته على المائدة، قائلة:

- هنا ستجد كل ما طلبوه في (القاهرة)..

جذب مقعدا، وجلس إلى جوار المائدة، والتقط الملف، وهي تتابع، في شيء من العصبية

- كل البيانات الخاصة بالعاملين في مبنى (درع القادة)..

غمغم في اقتضاب:

- عظيم.

وفي صمت وهدوء تامين، راح يراجع بيانات وصور كل العاملين بالمبنى..

الضباط..

الجنود..
طاقم الدبابة..
وحتى المراقبين..
ودون أن تنبس ببنت شفة، جلست الفتاة على أريكة صغيرة، في مواجهة المائدة مباشرة، وراحت تراقبه، في مزيج من التوتر والاهتمام..
ثم فجأة، انتفضت في مجلسها..
هذا لأنها انتبهت بغتة، إلى أنها تتطلع إليه كأنثى، وليس كفتاة عسكرية، في مهمة كهذه..
لذا، فقد قالت في عصبية:
- هل ترغب في تناول بعض الشاي؟!
رفع عينيه عن الأوراق، قائلا:
- ما اسمكِ؟!
كان سؤاله مباغتا، حتى إن حاجبيها قد ارتفعا في دهشة مبالغة، واتسعت عيناها عن آخرهما، وارتجفت شفتاها، قبل أن تضمهما في حزم، ثم تقول:
- سأذهب لإعداد الشاي.
ارتسمت على شفتيه ابتسامة، وهو يقول:
- لا بأس.. إنني أتناوله بدون سكر على الإطلاق.
ثم عاد يراجع تلك الأوراق في اهتمام بالغ..
كان يتوقف طويلا عند الصور الشخصية للعاملين بالمبنى فيفحصها، ويمحصها، ويراجعها من كل الزوايا، قبل أن يقرأ كل البيانات الخاصة بأصحابها، بمنتهى الإمعان..
ثم لم يلبث أن التقى خمسة ملفات بالتحديد، ودفع الباقي جانبا، فسألته الفتاة، وهي تضع قدح الشاي أمامه:
- هل أعيدها إلى الحقيبة؟!

أومأ برأسه إيجابا، وهو يتمتم:
- لو تفضلتِ بهذا.
التقطت كومة الملفات الفرعية، وأعادتها إلى الملف الضخم، الذي وضعته في الحقيبة، وهي تختلس النظر إلى الشاب في فضول..
كان قد فرد الملفات الخمسة أمامه، وأخذ يطالعها كلها في آن واحد، وقد بدا مستغرقا في عمله حتى النخاع، و...
«ميرينا..»
نطقت الاسم فجأة، بلهجة تشفّ عن عصبية خفية، فرفع الشاب عينيه إليها بنظرة متسائلة، جعلتها تتابع في توتر:
- اسمي (ميرينا).. (ميرينا يازوسكى)
ابتسم ابتسامة كبيرة، وهو يقول:
- تشرفنا.
نطقها بلهجة هادئة مهذبة، ثم أزاح أحد الملفات جانبًا، وعاد يطالع الملفات الأربعة الأخرى، في اهتمام بالغ..
وانعقد حاجباها في عصبية، قبل أن تقول في حذر:
- عمَّ تبحث بالضبط؟!
ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة، وهو يتجاهل سؤالها تماما، فمطت شفتيها في غضب أكثر، وقالت في عصبية:
- ينبغي أن تشرب الشاي، قبل أن يبرد.. أليس كذلك؟!
لم يجب سؤالها، في هذه المرة أيضا، وإن جذب إليه أحد الملفات الأربعة، في اهتمام كبير، وتطلع إلى صورة صاحبه لحظة، قبل أن يرفع عينيه إليها، متسائلا:
- كم يستهلك طاقم الحراسة الليلي من القهوة؟!
كان هذا السؤال أيضا مباغتا، فعاد حاجباها يرتفعان في دهشة، قبل أن تهتف مستنكرة:

- القهوة؟!
اعتدل في مقعده، قائلا:
- نعم يا (ميرينا).. أريد معرفة كمّ استهلاكهم اليومي من القهوة، ونوع البرامج التي يشاهدونها في المعتاد، في أثناء سهراتهم الليلية..
حدقت في وجهه بدهشة بالغة، قبل أن تعتدل في مجلسها قائلة:
- سأحاول.
أجابها في صرامة:
- بل ستفعلين
أدهشتها لهجته الآمرة، وأثارت في نفسها شيئا من الحنق، الممتزج بإعجاب أنثوي، لم تلبث أن أخفته في أعماقها، وهي تسأل في حدة:
- ومتي تريد هذه المعلومات؟!
أجاب بنفس اللهجة:
- غدًا، في الخامسة تماما.. هنا..
قالها، وجمع كل الملفات، وأعادها إليها، وهو ينهض من مقعده، ويلتقط سترته، فنهضت بدورها، متسائلة:
- هل ستنصرف الآن؟!
أومأ برأسه إيجابا، وهو يتجه إلى الباب، ويلقي نظرة عبر عينه السحرية، ليطمئن إلى خلو الممر المقابل، فسألته في حيرة متوترة:
- ألن تحصل على أية معلومات من هذه الملفات؟!
ابتسم، قائلا:
- لقد حصلت عليها بالفعل.

قالها، وفتح الباب ليتجاوزه في سرعة، ويغلقه خلفه في خفة، تاركا إياها داخل ذلك المنزل الآمن، تحدق في الباب المغلق لحظة، قبل أن تعتدل في وقفتها، وتشد قامتها، ثم تبتسم ابتسامة حالمة، مغمغمة:

- يا لك من رجل!

أما هو، فقد غادر المبنى، وراح يبتعد عنه في خطوات طويلة واسعة سريعة، قبل أن ينحرف في شارع جانبي آخر، ومنه إلى شارع ثان، وثالث، ورابع..

وأخيرا، اطمأن إلى أن كل شيء يسير على ما يرام، فهدأت خطوته، واستوقف واحدة من سيارات الأجرة، التي حملته إلى قرب الميناء، وهناك، جول بعض الوقت، حتى بلغ نقطة متفق عليها، حيث تنتظره سيارة، انطلقت به على الفور، عبر شوارع (تل أبيب)، وبدا سائقها مبتهجا للغاية وهو يقول له بالعربية:

- مرحبا بك في (تل أبيب)..

ابتسم الشاب، قائلا:

- بل قل مرحبا بك في (فلسطين) المحتلة يا (وليد).

هز السائل الفلسطيني رأسه، مغمغما:

- صدقت والله.

ثم أضاف في سرعة وجدية:

- لقد أعددنا لك موقعا ممتازا، وستجد لدينا كل الأدوات المطلوبة.

غمغم (أكرم)، وهو يسترخي في مقعده:

- عظيم.. عظيم..

لم يكن الليل قد اتصف بعد، إلا أنه كان يشعر بإرهاق شديد، جعله يسبل جفنيه، ويرخي أطرافه كلها، ويستغرق في النوم داخل السيارة، التي واصلت انطلاقها في (تل أبيب)، وقد لاذ

سائقها الفلسطيني بالصمت التام، حتى يمنح الشاب فرصة مناسبة للنوم والراحة..
«استيقظ أيها الشاب... استيقظ..»
تسللت العبارة إلى أذني (أكرم)، خافتة رقيقة قريبة، فاعتدل في مجلسه، وفتح عينيه، قائلا:
- هل وصلنا؟!
أومأ (وليد) برأسه إيجابا، فغادر (أكرم) السيارة، واندفع نحو المبنى القريب، وسرعان ما انضم إليه (وليد)، واستقل الاثنان المصعد إلى الطابق الثامن، ثم دلفا إلى شقة واسعة أنيقة، والفلسطيني يقول في حماس:
- هذا المكان يبعد عن المبنى العسكري ثلاثين مترا، ولكن لدينا حجرة جانبية هنا، تطل عليه مباشرة، وستجد بها كل ما طلبته..
اتجه الشاب مباشرة إلى تلك الحجرة، وتطلع إلى المنظار المقرب القوي، الذي اتصلت به آلة تصوير حديثة، مزودة بعدسات خاصة للرؤية الليلية، إذا ما احتاج الأمر لهذا، وغمغم:
- لقد أعددتم كل شيء بالفعل..

اتجه الشاب مباشرة إلى تلك الحجرة ، وتطلع إلى المنظار المقرب القوى

بدا الارتياح على وجه الفلسطيني، وهو يقول:

- بالنسبة للجيران هنا، فهذه الشقة خالية، لسفر صاحبها إلى (أوروبا)، أما بالنسبة لك، فستجد كل ما تحتاج إليه هنا، من

طعام وشراب وأدوات معيشة، ويمكنك الاختفاء لمدة شهر كامل لو أردت.
غمغم الشاب:
- كل ما احتاج إليه هو يوم واحد.
لوح (وليد) بيده، قائلا:
- خذ كل ما تحتاج إليه من وقت، أما أنا فسأعود إلى منزلي، حتى لا أثير الشبهات.
قال (أكرم) في هدوء:
- هذا أفضل بالتأكيد.
تمنى له الفلسطيني التوفيق، ثم غادر المنزل، وتركه وحده، في تلك الحجرة الجانبية..
وفي هدوء وبراعة تامين، راح الشاب يراقب المبنى طوال الليل، ويلتقط الصور..
عشرات الصور..
كان من الواضح أنه يدرس المكان كله بمنتهى الدقة، في محاولة لوضع خطة مناسبة، لتنفيذ تلك العملية، التي أسندتها إليه المخابرات العامة المصرية..
العملية المستحيلة..
تماما.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«هل تعتقد أنه سينجح؟!»
ألقى الرئيس (السادات) سؤاله هذا، على مدير المخابرات العامة، وهو يجلس معه في شرفة منزله الخاص، المطل على النيل، ويشعل غليونه الشهير، فاعتدل المدير في مجلسه، وأجاب في ثقة:
- نعم.. كلنا نعتقد هذا يا سيادة الرئيس.

واصل الرئيس إشعال غليونه للحظة أخرى، قبل أن يطفئ قداحته، قائلا في قلق:
- العملية ليست بسيطة، والوقت المتاح للتنفيذ قليل للغاية، فلابد أن يستعيد الفتى ذلك الشريط، قبل مساء الجمعة، وإلا فسيكشف الإسرائيليون أمره، عندما يبدؤون في تركيب الأجهزة الجديدة، التي حصلوا عليها من الأمريكيين.. أنت تعلم أن هذا ما جعل الأمر عاجلا للغاية..
تنهد مدير المخابرات، مغمغما:
- أعلم يا سيادة الرئيس.
ثم نهض من مقعده، وبدا وكأنه يستعيد الأمر كله أمام الرئيس، وهو يتابع في اهتمام:
- تلك الاتفاقية السرية، بين الإسرائيليين والأمريكيين بشأن أجهزة المراقبة ومنع التنصت الجديدة، والتي توصلنا إليها من خلال عميل سري مهم للغاية، هي التي دفعتنا للقيام بهذه المهمة الخطيرة على وجه السرعة، قبل أن يبدأ الإسرائيليون في نزع البطانة الخشبية لجدران قاعة اجتماعات (درع القادة)، في أثناء تركيبهم لتلك الأجهزة الجديدة، فيكشفوا أمر جهاز التسجيل والشريط.. ولهذا لم يكن لدينا الوقت الكافي لدراسة المكان، أو جمع المعلومات اللازمة، للقيام بعملية حساسة كهذه.. ولقد عقدت اجتماعا عاجلا لمناقشة الأمر مع كبار مساعدي، وخبراء الجهاز، وفي نهايته اتفق رأينا جميعا على أن (أكرم صدقي) هذا هو أفضل من يقوم بالمهمة..
نفث الرئيس دخان غليونه، وهو يقول:
- الأمر الوحيد الذي يقلقني، هو صغر سنه، بالنسبة لمهمة كهذه..
ابتسم مدير المخابرات، قائلا:

- هذا الشاب حالة خاصة يا سيادة الرئيس.. أنت نفسك منحته ترقية استثنائية؛ لبطولاته المدهشة، قبل وفي أثناء حرب أكتوبر، ثم إن والده (صدقى) رحمه الله، قد صنع منه مقاتلا فذا، منذ نعومة أظفاره، في تجربة لست أظنها تتكرر، في هذا الجيل، فـ (أكرم) لا يجيد عشرات المهارات القتالية، وعدة لغات حية فحسب، وإنما لديه أيضا القدرة على دراسة الموقف، ووضع الخطة المناسبة للتنفيذ، عندما تتوافر لديه المعلومات الكافية، وهذا ما كنا نحتاج إليه بالضبط.

شخص يمكنه القيام وحده، بما كنا سنفعله مجتمعين.. أن يجمع المعلومات، ويرتبها، ويستخلص منها كل النتائج الممكنة، ثم يحول كل هذا إلى خطة متقنة، واقعية، تصلح للتنفيذ، ولتحقيق كل الأهداف المنشودة..

بدا الارتياح على وجه الرئيس، وهو يتمتم مبتسما:

- إذن فأنت تثق به.

أجابه المدير في حزم:

ـ تماما مثلما كنت أثق بوالده (رحمه الله) يا سيادة الرئيس.

أومأ الرئيس برأسه موافقا، ونفث دخان غليونه بابتسامة كبيرة، وهو يقول بالإنجليزية:

- الابن مثل الأب..

ثم أشار إلى مدير المخابرات، مستطردا:

- أريد معرفة النتائج أولا فأولا.. إننا في مساء الثلاثاء، وهذا يعني أنه ليس أمامه سوى يومين فحسب، قبل أن يبدأ الإسرائيليون عملهم، مع صباح الجمعة.

تنهد مدير المخابرات، قائلا:

- اطمئن يا سيادة الرئيس.. (أكرم) سينجح في مهمته بإذن الله (سبحانه وتعالى).

نطقها بكل الثقة والحزم، على الرغم من أن كيانه كله كان يشتعل بسؤال واحد..
ترى هل سيتمكن (أكرم) من تنفيذ مهمته بنجاح، وفي الوقت المناسب؟!
هل؟!

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

مع دقات الساعة الثامنة، من صباح الأربعاء، بدأت عملية تغيير أطقم الحراسة، في مبنى (درع القادة) وبدقة متناهية، وعلى نحو شديد التنظيم، تم استبدال طاقم الحراسة الخارجي، وطاقم الدبابة، ثم امتد الاستبدال إلى كل الأطقم داخل المكان، بدءا من حراس الساحة الخارجية..
وحتى رجال القوات الخاصة الأربعة، في ذلك الممر، المؤدي إلى قاعة الاجتماعات..
وفي تمام الثامنة وعشر دقائق، كانت عملية الاستبدال قد اكتملت تماما، واتخذ الطاقم الجديد موقعه، في حين أدَّى الطاقم الليلي تمامه، واستعد للانصراف، بعد ليلة طويلة مملة كالمعتاد..
ومن بين أفراد ذلك الطاقم الليلي، كان النقيب (ليفي)..
(شارون ليفي)..
كان أحد رجال طاقم الأمن، في ثكنة الطابق الأول من المبنى، وأحد ضابطين مسئولين عن متابعة إجراءات الأمن في المكان..
ولكن الأكثر أهمية كانت ملامحه المتميزة..
فالنقيب (ليفي) كان أشبه بجاويش بريطاني، في أوائل القرن العشرين، بشعره الأحمر، وشاربه الضخم، وأنفه الكبير، وطابع الحسن الغائر، في منتصف ذقنه العريض..

وربما يعود هذا إلى أن جده كان بالفعل جاويشًا بريطانيا، إبان الحرب العالمية الأولى، كما كان أبوه أحد ضباط الجيش الإنجليزي، في الحرب العالمية الثانية..
و (شارون) نفسه كان من أوائل المهاجرين إلى (إسرائيل)، التي هاجر إليها والده، فور إعلانها كدولة، بعد احتلال (فلسطين) مباشرة، وأحد المشاركين في عمليات القمع والإرهاب الداخلي فيما بعد، عند التحاقه بالجيش الإسرائيلي، وحتى تم نقله إلى قوات الحراسات الخاصة..
وفي ذلك اليوم، كان النقيب (ليفي) يقاوم النعاس في صعوبة، وهو يقود سيارته إلى منزله؛ لأنه قضى ليلته كلها في مراجعة كافة إجراءات الأمن في المبنى، من الألف إلى الياء..
وعندما بلغ منزله، أوقف السيارة في المكان المخصص لها، ثم غادرها في رصانة، وعدل زيه العسكري في اعتداد، وفجأة، حدث ما حدث..
كان هناك صبيان فلسطينيان يطارد أحدهما الآخر، ويلاحقه بسباب ساخط، ثم لم يلبث المطارد أن توقف، وألقى شيئا ما بيده، نحو الآخر، الذي كان ينطلق في مسار يجعله، في لحظة إلقاء ذلك الشيء بالتحديد، في مواجهة النقيب (ليفي) مباشرة.
ثم فجأة، انحنى الصبي، وكأنما يتفادى ذلك الشيء، الذي ألقاه نحوه زميله، وكأنما رآه بعينين خفيتين، في مؤخرة رأسه..
وهكذا تجاوزه ذلك الشيء، الذي لم يكن سوى بالون صغير مملوء بسائل ما، وواصل طريقه كامتداد طبيعي، ليرتطم بالنقيب (ليفي)، وينفجر في وجهه..
وفي لحظة واحدة، اختفى الصبيان، وذلك السائل يغمر وجه (ليفي)..
كانت له رائحة نفاذة، تؤكد أنه ليس مجرد ماء عادى..

وخاصة مع ذلك الحرقان الشديد، الذي تسلل إلى عينيه، وهو يصرخ غاضبا محنقًا مستنكرا..
وبكل غضب الدنيا، صعد النقيب (ليفي) إلى منزله، وقصَّ ما حدث على زوجته في سخط، وهو يستبدل زيه العسكري، ويغسل وجهه عدة مرات بماء دافئ..
ولكن قبل مرور ساعة واحدة، كانت عينا (ليفي) قد تورمتا وانتفختا، وبلغ احمرارهما حدًّا لا يمكن السكوت عليه..
لذا، فقد اتجه (ليفي) على الفور إلى المستشفى العسكري، لفحص ما أصاب عينيه..
وفي المستشفى، طمأنه الطبيب، وأخبره أن الأمر لا يتجاوز مجرد التهاب عادي، ووصف له قطرة مخففة للاحتقان، ثم طلب منه ارتداء منظار داكن لعدة أيام، حتى يزول هذا الالتهاب، ويختفي احمرار عينيه..
وفي نفس الوقت، الذي عاد فيه النقيب (ليفي) إلى منزله، واستغرق في نوم عميق، كان (أكرم) يراجع تقريره الطبي، الذي أحضره إليه طبيب فلسطيني آخر، ويبتسم ابتسامة كبيرة في أعماقه، على الرغم من ملامحه الجامدة، التي لم تحمل أي انفعال قط، وهو يعيد التقرير إلى الطبيب، قائلا:
- عظيم.. أعِد هذا التقرير إلى موضعه.. لا نريد أن ينتبه أي مخلوق إلى أن الحالة الصحية للنقيب (شارون ليفي)، موضع اهتمام أي كائنٍ كان..
سأله الطبيب في اهتمام:
- ولكن لماذا فعلت به هذا؟! بم يفيدك التهاب عينيه؟!
أشار إليه الشاب بسبابته، قائلا في حزم:
- لا تجعل هذا يقلقك.. لا تشغل بالك به على الإطلاق..
ثم التفت إلى الفلسطيني (وليد)، مستطردا:

- هل أعددت ما طلبته؟!
أجابه (وليد) في سرعة:
- الرجال يبذلون قصارى جهدهم؛ لإعداده في الوقت المناسب.
سأله (أكرم) في اهتمام:
- وماذا عن التسجيلات؟!
ناوله الطبيب شريط تسجيل صوتيا صغيرا، وهو يقول:
- ها هي ذي.. لقد سجلت كل ما دار بين (ليفي) والطبيب..
ثم هز رأسه، وهو يضيف في حيرة:
- وإن كنت أتساءل بم يمكن أن يفيدك هذا؟! إنه مجرد حديث طبي، لا يحوي أية أسرار عسكرية!
دسَّ الشاب الشريط في جيبه، قائلا في هدوء غامض:
- لا أحد يدري، ما الذي يمكن أن يفيد يا رجل.
ثم التفت إلى (وليد)، يسأله:
- هل استوعبت كل المطلوب منك أن تفعله؟!
أومأ (وليد) برأسه إيجابا، وقال في حزم:
- وبمنتهى الدقة.
أشار (أكرم) بسبابته، قائلا:
التوقيت يا رجل.. احرص كل الحرص على التوقيت.
أجابه في حزم:
- اطمئن.
هز (أكرم) رأسه، مغمغما:
- عظيم.. أتعشم أن يسير كل شيء على ما يرام.
قالها، قبل أن يلقي التحية على الجميع، ويغادر المكان في خطوات حازمة قوية، فران الصمت التام، حتى أغلق الباب خلفه، وهنا هتف الطبيب:

- يا الله.. إنه كتوم للغاية.. كتلة من الحزم، والحسم، والصرامة، والغموض.
ابتسم (وليد)، قائلا..
- هكذا يكون الرجال.
ثم التفت إليه، مستطردا:
- إنها أول مرة ألتقي فيها به، ولم يسعدني الحظ برؤيته يعمل، حتى هذه اللحظة، ولكن شيئا ما في أعماقي ينبئني بأن هذا الشاب سيؤدي المهمة.. وعلى أكمل وجه.
نطقها، فعاد الصمت يخيم على المكان طويلا..
صمت يحمل الكثير من الحيرة..
والقلق..
والتساؤل..
والمهابة..
بلا حدود..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

منذ وصلت (ميرينا) إلى عملها، في وزارة الدفاع الإسرائيلية، وهي تشعر بتوتر شديد..
بل يمكن القول بأن هذا التوتر لم يفارقها لحظة واحدة، منذ تركت (أكرم)، في اليوم السابق..
إنها لا تدري لماذا بهرتها شخصيته إلى هذا الحدّ، على الرغم من أنها لم تلتق به سوي مرة واحدة، ولساعات محدودة، لم يتبادلا خلالها سوى عبارات محدودة!!
ولكن شيئا ما فيه، كان يجذبها إليه بشدة..
شيئا لم ينجح عقلها في التوصل إليه قطّ..
ولكن قلبها فعل..

ذلك القلب، الذي يخفق في قوة، كلما استعادت ذاكرتها تفاصيل لقائهما القصير..
ولكنها استنفرت كل إرادتها، لإخماد تلك المشاعر في أعماقها..
فأمامها عمل عاجل، لا بد من إنجازه، وإن كانت تجهل فائدته وأهميته تماما..
تُرى ما الذي يعني المخابرات المصرية، من استهلاك طاقم الحراسة القهوة، ومتابعة برامج البث التليفزيوني؟!..
ثم كيف يمكنها الحصول على معلومات كهذه؟!..
ظل السؤال الأخير يتردد في رأسها طويلا، وهي تجلس في مكتبها، في قسم السكرتارية العسكرية، حتى خلا المكتب من المترددين، فتلفتت حولها في حذر، ثم نهضت إلى أرشيف التوريد، وراحت تراجع في سرعة سجلات المُورِّدين وسجلت أسماء مُورِّدي البن، والكميات التي يتم توريدها لمبنى (درع القادة) أسبوعيا، و...
- ماذا تفعلين عندك؟!
انتفض جسدها في عنف، عندما انطلقت العبارة من خلفها، في صرامة شديدة، واستدارت في حركة حادة، تواجه (دافيد أهارونى)، ذلك العقيد الصلف، الذي يرأس القسم، والذي رمقها بنظرة نارية، وهو يمد يده إليها، مستطردًا في حدة:
- ماذا لديكِ؟!
كانت يدها الممسكة بالورقة تختفي، خلف طرف مكتب قريب، لذا فقد أفلتتها في خفة، وتركتها تسقط أسفل المكتب، وهي تجيب:
- لا شيء يا سيدى.. إنني أراجع بعض الأوراق فحسب.

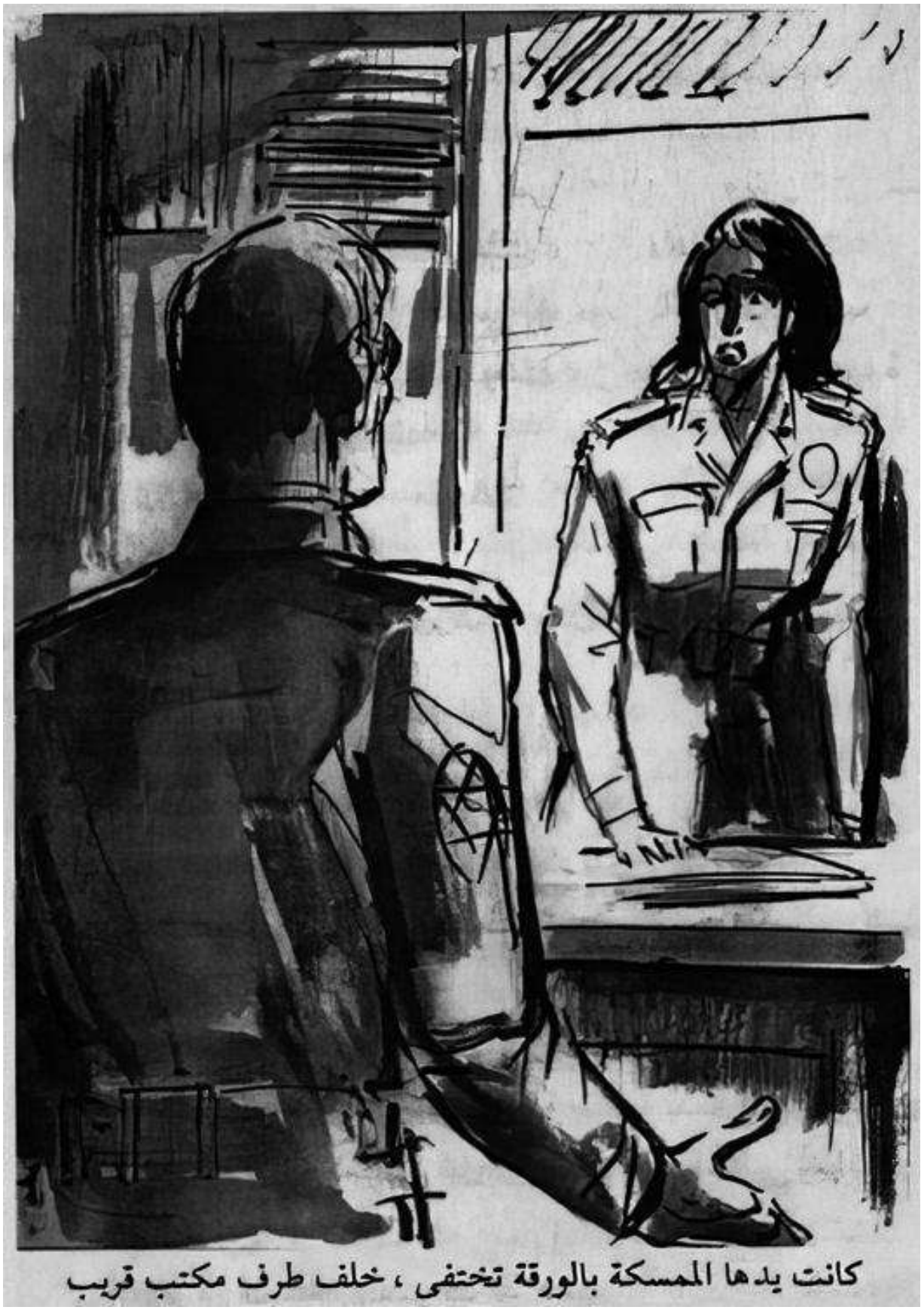

كانت يدها الممسكة بالورقة تختفى ، خلف طرف مكتب قريب

سألها في صرامة:

- أية أوراق!!

كانت تشعر باضطراب شديد في أعماقها، ولكنها بذلت جهدا خرافيا، للسيطرة على مشاعرها، وهي ترسم على شفتيها ابتسامة، حاولت أن تخفي بها توترها، وهي تجيب:

- أوراق المُورِّدين، فالبعض يشكو من نقص كميات القهوة، وبالذات في النوبتجيات الليلية.

عقد كفيه خلف ظهره، متسائلا:

- ومن هذا البعض؟!

خشيت أن يعثر على الورقة، بكل ما بها من بيانات، فأجابت في سرعة:

- أطقم حراسة مبنى (درع القادة)..

انعقد حاجباه الكتان في شدة، وهو يقول:

- (درع القادة)؟! وما شأنكِ أنتِ بدرع القادة؟!

هزت كتفيها، وأزاحت خصلة شعر عن جبهتها، وهى تضحك في توتر، قائلة:

- إنهم يحتاجون القهوة كالآخرين..

ازداد انعقاد حاجبيه، وهو يرمقها بنظرة بدت أشبه بخناجر حادة، تنغرس في جسدها، قبل أن يلقي نظرة على ساعته، قائلا:

- أعتقد أن ساعة الانصراف قد حانت.

ازدردت لعابها، وهي تغمغم:

- هذا صحيح.. سأرتب بعض الأوراق، ثم أنصرف على الفور.

أشار بيده، قائلا:

- فليكن.. رتبي أوراقك..

قالها، وهو يقف في موضعه، ويراقبها في اهتمام، فاتجهت إلى مكتبها، وراحت ترتب بعض الأوراق في ارتباك، ثم التقطت حقيبتها، قائلة:

- هل تسمح لى بالانصراف يا سيدى؟!

أومأ العقيد (أهارونى) برأسه إيجابا، وأشار بيده، قائلا:
- هيا.. انصرفي..
اختلست نظرة عصبية إلى المكتب المجاور، الذي سقطت الورقة أسفله، ثم عادت ترسم تلك الابتسامة الخاوية على شفتيها، وهي تغادر المكتب، قائلة:
- إلى اللقاء يا سيادة العقيد..
تابعها الرجل ببصره، دون أن يجيب تحيتها، حتى غادرت المكان، ثم أدار عينية إلى ذلك المكتب الآخر، واتجه إليه وانحنى يبحث أسفله، حتى التقط تلك الورقة، التي دوَّنت فيها البيانات..
وتلاقى حاجباه الكان في شدة، وهو يراجع ما كتبته..
كانت كل البيانات تتفق مع ما ذكرته، عن نقص كميات القهوة..
ولكن شيئا ما في أعماقه، كان يشتعل بالشك والريبة، وبسبب هذا الشيء، دسَّ العقيد (أهارونى) الورقة في جيبه، ثم التقط سماعة هاتف القسم، وطلب رقمًا داخليا، ولم يكد يسمع صوت محدثه، حتى قال في صرامة:
- أنا العقيد (أهارونى).. (دافيد أهارونى).. أريد مراجعة ملف السكرتيرة العسكرية (ميرينا يازوسكى).. نعم.. مراجعة كاملة شاملة.. أريد التحقق من كل بند ورد في ملفها.. كل جملة.. كل كلمة.. بل كل حرف..
وازداد التقاء حاجبيه، حتى امتزجا ببعضهما، وهو يضيف:
- أريد أن أعرف حقيقة ما تخفيه.. أيا كان الأمر..
وكان هذا يعني أن العملية ستتخذ حتمًا منحنى أكثر تعقيدًا.. وخطورة..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

٤- ميرينا..

«أراهن على أنه قد امتلأ بالشكوك، من قمة رأسه، وحتى أخمص قدميه..»

نطقت (ميرينا) العبارة في عصبية شديدة، وهي تدور في صالة ذلك المنزل الآمن، في شارع (بن جوريون)، في حين جلس (أكرم) يستمع إليها في صمت واهتمام، وهي تتابع:

- إنك لم تر نظراته، ولم تشهد إصراره على ألا يغادر المكتب، إلا بعد أن أغادره أنا..

ثم لوحت بذراعيها في حدة، مستطردة:

- ولا ريب في أنه سيعثر على الورقة، وستنتابه عشرات الشكوك.

التقى حاجبا (أكرم)، في تفكير عميق، وهو يقول:

- الورقة ستتناسب مع ما أخبرتِه به، في الوقت الحالي.

قالت في عصبية:

- ولكنه سيتحرى الأمر، وسيدرك بسرعة أن أحدا لم يَشْكُ من نقص القهوة، في (درع القادة)، وسيشعل هذا شكوكه أكثر وأكثر، وأمثاله لا يكتفون قط بالشكوك، وإنما يحولونها على الفور إلى استجوابات، وتحريات، وعنف، وقسوة..

ظل يتطلع إليها في صمت، وعقله يعيد دراسة الموقف مرات ومرات، ثم لم يلبث أن قال في حزم:

- هل تحفظين التفاصيل؟!

سألته في دهشة متوترة:

- أية تفاصيل؟!

أجاب في صرامة:

- تفاصيل المعلومات، التي حصلتِ عليها، بشأن مُورِّدي وكميات القهوة..
ثم مال إلى الأمام مستطردا:
- والتي ما كان ينبغي تدوينها قط، طبقا لما تعلمتِه من قبل.
انعقد حاجباها في عصبية، وهي تقول:
- كانت معلومات كثيرة، وليس من السهل حفظها، في ذلك الوقت الضيق.
قال في صرامة:
- ولكنك تحفظينها الآن.
عضت شفتها السفلى في قوة، قبل أن تقول في عصبية:
- حسن.. لقد أخطأت.. هل ستعاقبني على هذا؟!
نهض، قائلا:
- لا مجال هنا للعقاب أو المحاسبة.. المهم أن ننجز العمل.
ثم جذب مقعدا، وقدمه إليها، مستطردا:
- والآن أجلسي، وأخبريني كل ما لديكِ.
أطاعته في استسلام، قائلة:
- لم أستطع معرفة برامجهم المفضلة، ولكنني حصلت على كل البيانات الأخرى.
قال في هدوء:
- أخبريني إياها.
أخذت نفسا عميقا من هواء الحجرة، في محاولة لتهدئة أعصابها الثائرة، قبل أن تبدأ في إلقاء ما لديها..
وفي هدوء وتركيز شديدين، استمع هو إليها، وعقله يختزن كل ما تلقيه على مسامعه من معلومات، بشأن كميات القهوة المُستهلكة، وأسماء مُورِّديها وبياناتهم..

وعندما انتهت مما لديها، كانت أعصابها قد هدأت إلى حدٍ كبير، فارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة، وهي تقول:
- مازلت أجهل كيف يمكن أن يفيدك هذا؟!
ابتسم، قائلا:
- دعي الأمر لي.
ثم نهض مستطردا في حزم:
- المهم الآن ألا تذهبي إلى العمل غدا.. تقدمي بطلب إجازة طارئة، أو تمارضي، أو أفعلي أي شيء يخطر ببالكِ.. المهم أن تختفي تماما عن الأنظار، حتى تنتهي هذه المهمة..
سألته في حذر وقلق:
- ثم؟!
التقط نفسا عميقا، قبل أن يجيب:
- ثم نعمل على إعادتكِ إلى (القاهرة).
صعقها الجواب على نحو ملحوظ، إذ انتفض جسدها كله في عنف، وهي تهتف:
- (القاهرة)؟!
أجاب في حزم:
- نعم.. (القاهرة) يا (ميرينا).. لقد انكشف أمركِ أو كاد، وأصبح من المستحيل أن يستمر وجودكِ هنا.
ارتجَّ عليها بعض الوقت، وارتسمت في عينيها حيرة كبيرة، قبل أن تقول في توتر بالغ:
- ولكن هذا يعني نهاية عملي هنا..
أجاب:
- بالتأكيد.
تضاعف توترها وحيرتها لحظة أخرى، قبل أن تنهض في حدة، قائلة:

- ليس الأمر بهذه البساطة.. أنا هنا منذ خمسة أعوام، ولقد بذل الجميع جهدًا خرافيا لزرعي في المجتمع الإسرائيلي، باعتبارى مهاجرة يوغسلافية، ولقد كانت عملية متقنة، حتى أنني حصلت على هذا العمل، في السكرتارية العسكرية، في وزارة الدفاع الإسرائيلية، وليست أعتقد أن (القاهرة) ستتخلى عن هذا بسهولة.

أجابها في صرامة:

- أنا هنا أمثِّل (القاهرة).

هتفت محتدة:

- كلا.. لا يمكنني أن أقبل هذا.. إنها عملية متقنة، وليس من السهل أن..

قاطعها في صرامة أكثر:

- عمليتك انتهت بالفعل يا (ميرينا)، فملف (دافيد أهاروني) يؤكد أنه رجل جمّ الحذر والشك، ومادام قد شعر بالقلق تجاهكِ فلن يهدأ حتى ينبش ماضيكِ كله، ولن يلبث أن يكشف أمركِ إن عاجلا أو آجلا، وعندئذ لن يمكنكِ الإفلات منه قط.

امتقع وجهها، وهي تمتم:

- يا إلهي..

تابع بلهجة آمرة:

- حاولي إنهاء كل الأمور المتعلقة بكِ الليلة دون إبطاء، ثم انتقلي مع الصباح الباكر إلى هنا.. أو في ساعة متأخرة الليلة، لو استطعتِ، وسأقوم بكل الترتيبات الممكنة، لإخراجكِ من (إسرائيل)، بأسرع وسيلة ممكنة..

تطلعت إليه بنظرة صامتة لبضع لحظات، قبل أن تقول في خفوت:

- سأحاول.

والتقطت حقيبتها في استسلام، ثم اتجهت إلى الباب، وتوقفت عنده لحظة في توتر، ثم التفتت إليه، قائلة:
- أنا لست إسرائيلية في الواقع.
أومأ برأسه إيجابا، وقال:
- أعلم هذا.
تنهدت في عمق، ثم لوحت بيدها، وهي تغادر المكان قائلة:
- إلى لقاءٍ قريب بإذن الله.
غمغم:
(سبحانه وتعالى).
- ابتسمت في توتر، ولوحت بيدها مرة أخرى، قبل أن تغلق الباب خلفها في حذر، حتى لا يصدر عنه أدنى صوت..
ولثوان، ظل هو يتطلع إلى الباب في صمت، ثم لم يلبث أن انتزع نفسه من مشاعره، وجلس على مقعده صامتا، مغلق العينين، يراجع في ذهنه كل ما تجمع لديه من معلومات، ثم نهض إلى حقيبته، فأخرج منها جهاز تسجيل صغيرا، وضعه على المائدة، ودسّ فيه ذلك الشريط، الذي أحضره الطبيب، ثم وضع سماعتي الجهاز على أذنيه، وراح يستمع إلى حديث (ليفي) والطبيب في اهتمام عدة مرات، وبعدها أوصل جهاز التسجيل بجهاز خاص لقياس ذبذبات الصوت، وأخذ يدرس ذبذبة صوت (ليفي) لبعض الوقت، قبل أن يلتقط ميكروفون جهاز قياس الذبذبة، ويقول:
- عيني لا تؤلمني، ولكنني أنزعج من التطلع إلى الضوء.
كانت نفس العبارة، التي قالها (ليفي) للطبيب الإسرائيلي في الشريط المسجل..
والعجيب أن جهاز قياس الذبذبة قد سجل ذبذبات مقاربة للغاية، لتلك التي سجلها مع صوت (ليفي)..

وخفض الشاب جفنيه في ارتياح، ثم عاد يواصل تدريباته على تقليد صوت (ليفي) مرة..
ومرة..
ومرات..
وعندما أشارت عقارب الساعة إلى تمام السابعة، كان جهاز قياس الذبذبة يسجل نفس الذبذبات، التي رصدها من قبل، لصوت النقيب (شارون ليفي)..
وكان هذا يعني أن الجزء الأول من الخطة قد اكتمل..
وبنجاح..
وبقي أن يدخل الأمر حيز التنفيذ..
في الوقت المناسب.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

لم تكد عقارب الساعة تعلن تمام الثامنة مساء، حتى بدأت عملية تغيير واستبدال أطقم الحراسة، في مبنى (درع القادة)، بنفس النظام اليومي المعتاد..
وفي خطوات واسعة قوية، اتجه النقيب (شارون ليفي) إلى بوابة المبنى، وأبرز بطاقته العسكرية كالمعتاد، فرفع رئيس فريق الاستبدال عينيه إليه، قائلا في دهشة:
- لماذا تضع هذا المنظار الداكن على عينيك أيها النقيب؟!
أجابه (ليفي) بصوته الخشن الجاف:
- إنها أوامر الطبيب أيها العقيد.. لقد أصابني التهاب طارئ في عيني اليوم.
تطلع إليه العقيد بضع لحظات في صمت، قبل أن يغمغم:
- هكذا.
ثم أشار بيده، مستطردا:
- حاول أن تتقى الكشافات القوية إذن.

ابتسم (ليفي)، مغمغما:
- سأحاول.
قالها، وهو يستعيد بطاقته العسكرية، ويتجه إلى المبنى، ليحتل موقعه المعتاد..
وفي صمت، تابعة العقيد ببصره، حتى غاب داخل المبنى، ثم تمتم:
- منظار شمسي داكن، في نوبتجية ليلية؟! عجبا!
تصاعد التساؤل في أعماقه، وعربد الشك في كيانه بعض الوقت، حتى بلغ حدًا لم يستطع معه الوقوف ساكنا، فهبَّ من مجلسه، واتجه نحو المبنى، واندفع إلى الثكنة العسكرية في الطابق الأول، وهو يتساءل في حدة:
- أين النقيب (ليفي)؟!
بدت الدهشة على وجوه الرجال، مع هذا الأسلوب الفظ، وأشار أحدهم بيده، قائلا في توتر:
- النقيب (ليفي) ذهب يتفقد إجراءات الأمن كالمعتاد.
انعقد حاجبا العقيد في صرامة، وهو يستل مسدسة، هاتفا:
- إجراءات الأمن.
ثم اندفع نحو الممر، الذي يقود إلى حجرة المراقبة، على نحو جعل عددا من الجنود يعدون خلفه، وبعضهم يهتف منزعجا:
- ماذا هناك أيها العقيد؟! ماذا حدث؟!
اقتحم العقيد حجرة المراقبة في عنف، وهو يهتف:
- توقف يا هذا.
التفت إليه النقيب (ليفي) في دهشة، في حين هتف رجال المراقبة في ذعر:
- ماذا حدث؟!

انقض العقيد على النقيب في عنف، وجذبه من سترته العسكرية في قوة، وهو يغرس فوهة مسدسه في صدره، هاتفا في صرامة:
- محاولة ذكية، ولكنها لن تنجح أيها المحتال..
هتف (ليفي) في حدة، ورجال المراقبة يتراجعون مذعورين:
- ماذا تفعل أيها العقيد؟!
صاح به العقيد في حدة:
- لقد حذرونا من هذا، خلال الدورات الأمنية.. أن يحاول بعضهم انتحال شخصية أحد العاملين هنا؛ للتسلل إلى المكان.
هتف (ليفي):
- انتحال ماذا؟! أي قول هذا أيها العقيد؟!
وثبت يد العقيد لتجذب شارب (ليفي) الضخم، وهو يهتف:
- القول الفاصل أيها الـ..
بتر عبارته بغتة، عندما انطلقت آهة ألم، من بين شفتى النقيب (ليفي)، مع جذبه شاربة العنيفة، وأفلت الشارب بحركة مذعورة، وهو يتراجع، قائلا:
- يا للتوراة! إنه شارب حقيقي.

بتر عبارته بغتة ، عندما انطلقت آهة ألم من بين شفتى النقيب (ليفى) مع جذبه شاربه

تبادل رجال المراقبة نظرة متوترة، في حين هتف (ليفي)، وهو يعتدل محنقا:

- بالطبع هو شارب حقيقي.. ما الذي كنت تتوقعه؟!

ارتبك العقيد، ولوح بذراعيه لحظة في توتر، قبل أن يطاوعه لسانه على أن يقول في عصبية:
- إنه ذلك المنظار الداكن.. لقد أخبرونا في تلك الدورة الأمنية، أن الشيء الوحيد الذي يصعب تغييره، في ملامح الوجه كلها، هو العينان، لذا فالشخص، الذي يحاول انتحال شخصية آخر، يحرص على إخفاء عينيه في المعتاد..
قال (ليفي) في حنق:
- المنظار الداكن؟! أهذا كل ما أقلقك أيها العقيد؟! إنني أرتدى المنظار الداكن لإخفاء هذا..
نطقها، وهو ينتزع المنظار عن عينيه فى حدة، ويميل نحو العقيد، متطلعا إلى عينيه مباشرة..
وازدرد العقيد لعابه في صعوبة، وهو يتطلع إلى العينين المحمرتين المتورمتين، في وجه (ليفي)، قبل أن يشيح بوجهه، مغمغما:
- فليكن.. يمكنك أن تقول: إنه إفراط في الحذر..
واستدار يغادر المكان، وهو يضيف في عصبية:
- والإفراط في الحذر أفضل من الإهمال في تطبيق إجراءات الأمن.
مط (ليفي) شفتيه، وهو يغمغم محنقًا:
- بالتأكيد.
ثم التفت إلى رجال المراقبة، وهو يقلب شفتيه في ازدراء، في حين غادر العقيد الحجرة، وهو يقول في حدة:
- هيا.. فليعد كل منكم إلى أعماله.. هيا..
قالها، واندفع عائدا إلى موقعه، دون أن يدري أنه بأسلوبه المبالغ هذا، قد أسهم في إحكام الخطة..
خطة اقتحام (درع القادة)..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«لا يمكنني استيعاب كل هذا»

هتفت بالعبارة في توتر ملحوظ، عندما بلغ (ا. ص) هذا الجزء من روايته، فتوقف الحديث دفعة واحدة، والتفت الرجلان إلى في تساؤل، قبل أن يميل البطل نحوي، متسائلًا في اهتمام:

- ما الذي لا يمكنك استيعابه؟!

أجبته في توتر:

- كل شيء.. إنك تخبرني بأحداث لا يفترض قط أنك قد شاهدتها، ثم إنني كنت أتصور أنك ستنتحل شخصية (ليفي) هذا، وعلى الرغم من ذلك فقد فوجئت بأنك لم تفعل..

ابتسم، قائلا:

- ما أخبرك به هو خلاصة كل ما حصلنا عليه من معلومات، بعد أكثر من عشر سنوات، على انتهاء الواقعة، وهذا يتضمن كل ما تم تسجيله، في ملفات الإسرائيليين السرية، التي أمكننا الاطلاع عليها، من خلال عملية أخرى، في أوائل الثمانينات..

- وماذا عن انتحال شخصية (ليفي)؟!

هز رأسه، قائلا:

- لم يكن هذا ممكنا أو عمليا، في مساء الأربعاء..

سألته في فضول:

- ولماذا؟!

لوح بيده في الهواء، مجيبا:

- نحن أيضا كنا نعلم ما تعلمه الإسرائيليون، في دوراتهم الأمنية، وكنا ندرك جيدا أن ارتداء (ليفي) لذلك المنظار الداكن، في نوبتجية ليلية، كان كفيلا بإثارة الشكوك، بحيث يحدث ما حدث..

قلت مبهورة:

- إذا فقد تعمدت هذا..
اتسعت ابتسامته، وهو يقول:
- بالتأكيد..
ثم أشار بسبابته، مستطردا:
- ولولا هذا ما نجحت الخطة قط.
هتفت:
- حقا؟!
أومأ برأسه إيجابا، ثم استعادت ملامحه جديتها ورصانتها، وتلاشت الابتسامة من شفتيه، وهو يقول:
- ولكن هذا لا يمنع من أن ما حدث في تلك الليلة، كان يمكن أن يفسد العملية كلها، وينقلها في عنف، من خانة النجاح إلى بئر الفشل.
سألته في سرعة:
- لماذا؟! ماذا فعلت؟
هز رأسه نفيا، وهو يجيب:
- ليس أنا من فعل، وإنما (ميرينا)..
سألته مبهوتا:
- وماذا فعلت؟!
اعتدل في مجلسه، قائلا:
- سأخبرك.
وعاد يروي..
وبكل التفاصيل..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

لم تهدأ (ميرينا) لحظة واحدة، منذ عادت إلى منزلها، بعد أن فارقت (أكرم)..
لقد أدركت جيدا أن كل ما نطق به صحيح..

لقد انكشف أمرها، وعليها أن تسعى للفرار، بأسرع وسيلة ممكنة..
وبينما راحت تجمع أشياءها، وتعدم كل ما لديها من وثائق وأدلة، يمكن أن تلقى بها في غياهب السجون، راح عقلها يستعيد كلمات السيد (رفعت)، رجل المخابرات المصري، الذي تولى تدريبها والعناية بها منذ البداية..
لا أكثر ما يهمنا هو أمنك وسلامتك..
«عند شعوركِ بالخطر، تخلصي من كل ما يمكن أن يدينكِ، ثم ارحلي على الفور..»
«ستكون هناك دائما خطة لإنقاذكِ، إذا ما تعقدت الأمور»
«فقط اتصلي بهذا الرقم، واذكري ما حفظته عن ظهر قلب، وسيسير كل شيء على ما يرام»
توقف عقلها طويلا عند العبارة الأخيرة، واسترجعت في سرعة رقم الهاتف، الذي حصلت عليه منذ خمس سنوات، مع عبارة التعارف..
«لا تستخدمي هذا الرقم أبدا.. أبقيه في ذاكرتك، حتى لحظة الطوارئ القصوى فحسب»
هذا ما رده على مسامعها السيد (رفعت) مرات ومرات..
بعد أن منحها ذلك الرقم..
ولكنها تعتقد أن الوقت المناسب قد حان..
إنها بالفعل لحظة الطوارئ..
القصوى..
اللحظة، التي يمكن أن يرفع فيها الإسرائيليون النقاب عن وجهها الحقيقي، وينكشف كل ما أخفته منذ سنوات..
وإذا ما فعلوا لن يكون في انتظارها سوى مصير واحد..
الموت..

صحيح أن الإسرائيليين لا يستخدمون حكم الإعدام أبدا..
ولكنها لن تصمد حتما أمام وسائل تعذيبهم الوحشية طويلا..
وهي لا تخشى الموت، بقدر ما تخشى أن تتحطم مقاومتها وتنهار..
وتعترف..
تخشى أن تضطر لكشف كل ما تعلمته وأخفته في أعماقها..
هذا أكثر ما يخيفها ويؤلمها..
ومع تدفق تلك الأفكار في عقلها، راحت تعمل بجهد أكبر..
حتى تخلصت من كل ما يمكن أن يدينها..
ثم انتقلت إلى الهاتف..
كانت أصابعها بطيئة متثاقلة، وهي تطلب ذلك الرقم..
«عندما تطلبين ذلك الرقم، تأكدي تماما من أنها اللحظة المناسبة، فما إن يتم الاتصال حتى لا يعود هناك مجال للتراجع..»
استعاد عقلها تلك التعليمات الأخيرة للسيد (رفعت) وهي تدير الرقم الأخير..
ولثوان، راحت تستمع إلى الرنين، على الجانب الآخر..
قبل أن يأتيها صوت هادئ رصين، يقول بالعبرية:
- من المتحدث؟
از دردت لعابها في صعوبة، وقالت بصوت مختنق مرتبك، وباللغة العربية:
- كيف يمكنني الاشتراك في رحلة الشمس؟!
حملت إليها أسلاك الهاتف صمتا استغرق ثوان معدودة، قبل أن يقول صاحب الصوت في حذر واضح، وباللغة العربية أيضا:
- هذا يتوقف على توقيت الغروب..
از دردت لعابها مرة أخرى، ثم قالت:

- الشفق تلون بالفعل.
سمعت تنهيدة ارتياح، أعقبها صوت الرجل، يقول في حزم:
- كل شيء سيصبح معدًا، خلال أربع وعشرين ساعة، غدًا، في منتصف الليل تمامًا.. سأنتظر الاتصال..
غمغمت في توتر:
- بالتأكيد.
عاد يسألها في اهتمام بالغ:
- ألديكِ مكان آمن؟!
أجابته في سرعة:
- نعم، ولكن ليس لفترة طويلة..
سألها:
- هل يكفي لأربع وعشرين ساعة؟!
قالت متوترة:
- بالتأكيد.
سمعت مرة أخرى تنهيدة ارتياح، قبل أن يقول الرجل في حزم:
- سأنتظر اتصالكِ غدا.
قالها، وأنهى المحادثة على الفور، فأعادت الساعة إلى
موضعها، ونهضت تلتقط حقيبتها، و
وفجأة ارتفع رنين جرس الباب
وانتفض جسدها في عنف
من ذا الذي يمكن أن يزورها، في هذه الساعة؟!
من؟
وفي حذر متوتر، اتجهت نحو الباب، ورنين الجرس يتردد..
مرة ثانية..
وثالثة..
ورابعة..

وفي عصبية، انحنت تلصق عينها بالعين السحرية للباب..
وفي هذه المرة، انتفض جسدها في قوة، وكأنما أصابته ألف صاعقة..
إنه هو..
العقيد (أهارونى)..
هو بشحمه، ولحمه، وصرامته، وقسوته..
وشكوكه..
كان يقف أمام الباب في صرامة شديدة، حفرت ملامحها في وجهه، وفي انعقاد حاجبيه الكثين، وانعقاد كفيه خلف ظهره، وزيه العسكري، الذي لم يستبدله بعد، على الرغم من مرور كل تلك الساعات، على موعد الانصراف الرسمي..
وخفق قلبها في عنف..
أو سقط بين قدميها..
هي نفسها لم يمكنها التمييز..
ولكنها لاذت بالصمت تماما، وقفزت إلى ذهنها فكرة تجاهل الرنين، والتظاهر بأنها غير موجودة، و...
ولكن العقيد (أهارونى) قال في صرامة جافة:
- أنا أعلم أنك هنا يا (ميرينا).. حارس البناية أخبرني بهذا
عضت شفتيها في حَنَق، قبل أن تحسم أمرها، وتهتف:.
- أنا هنا بالطبع أيها العقيد.
نطقتها، وهي تفتح الباب، وتواجه العقيد الصارم بابتسامة، متوترة، مستطردة:
- ولكنني أتساءل في الواقع: ما سر هذه الزيارة المفاجئة؟!
دفع الباب في خشونة، ودلف إلى شقتها، مجيبا:
- يمكنك أن تقولي: إنها زيارة عمل..
رددت في توتر شديد، وهي تغلق الباب خلفه:

- زيارة عمل؟!
استدار إليها في صرامة، وهو يعقد كفيه خلف ظهره، قائلا:
- لماذا جمعت تلك المعلومات؟!
سألته في عصبية:
- أية معلومات؟
أجابها في خشونة:
- تلك التي كانت على الورقة، التي ألقيتها خلف المكتب..
لم تعترض على عبارته، أو أنها أدركت عدم جدوى إنكارها، فلاذت بالصمت في مواجهته، مما جعله يميل نحوها، قائلا في قسوة:
- لماذا نقلت تلك المعلومات يا (ميرينا)؟!
عجزت هذه المرة عن ازدراد لعابها، من حلقها الجاف، وهي تجيب بصوت مبحوح:
- لقد أخبرتك أيها العقيد أن الـ....
قاطعها في غضب:
- كاذبة
تراجعت بحركة حادة، مع تلك الصرخة الهادرة، فاندفع هو نحوها، قائلا:
- لقد اتصلت بنفسي بطاقم حراسة (درع القادة)، ولم أجد لديهم أية شكوى بهذا الشأن.
قالت في توتر:
. اطقم النوبتجية الليلية هو الذي....
قاطعها مرة أخرى، وهو يكاد ينقضّ عليها، كما ينقضّ ضبع شرس على عصفور رقيق:
- كاذبة.. لا أحد يشكو من نقص القهوة على الإطلاق، المُورِّدون يرسلون كميات كافية طازجة يوميا، من أفضل أنواع البن، وما

يتبقى منها يتم إرساله إلى قوات المشاة، صباح اليوم التالي، وهذا يعني أن لديهم دائما فائض من البُنّ الطازج، ولا يمكنهم أن يشكو من نقصه..
- امتقع وجهها، دون أن تجرؤ على قول شيء، في حين تراجع هو نحو الهاتف، وهو يواصل، بنفس القسوة والشراسة:
- ولهذا طلبت إعادة فحص ملفك، ومزيد من التحريات عن حياتك السابقة في (براج)، وأغلب الظن أن صورتكِ ستختلف حتما عن صورة (ميرينا زوسكى) الحقيقية..
ثم التقط سماعة الهاتف، وراح يدير رقما ما، وهو يتابع بنفس اللهجة المخيفة:
- وأنا هنا الآن بصفة غير رسمية، لأقنعكِ بتسليم نفسك، والاعتراف بكل ما تخفينه، قبل أن...
ولم تدر (ميرينا) ما قاله بعد هذا..
بل لم تدر حتى كيف فعلت ما فعلته...
لقد رأته يوليها ظهره، ويبدأ في طلب ذلك الرقم، وأدركت أنه ما إن يجري هذا الاتصال، حتى يصبح أمرها في خبر كان..
لذا، فقد اندفعت فجأة نحو تمثال من البرونز، يزين مدفأة وهمية لديها، واختطفته، لتهوي به على رأس العقيد (أهارونى).. وبمنتهى العنف..
واتسعت عينا العقيد عن آخرهما، والتفت إليها، هاتفًا:
- أيتها الـ...
ثم دار حول نفسه، وهوى ليرتطم بالأرض في عنف، وتركت (ميرينا) التمثال يسقط من يدها، وهي تحدق في الجسد الملقى أمامها، والذي تسيل من رأسه الدماء في غزارة، ثم لم يلبث جسدها أن انتفض مرة أخرى، وهي تنتزع نفسها من ذعرها، هاتفة:

- رباه! لا بد أن أغادر هذا المكان بأقصى سرعة..

ثم دار حول نفسه وهوى وهو يرتطم بالأرض

قالتها، وعادت تختطف حقيبتها، وتعدو نحو الباب..

وبكل سرعتها، راحت تقفز في درجات السلم، حتى بلغت الطابق الأرضي، و...

وانتفض جسدها كله مرة أخرى..
فهناك، عند مدخل البناية تماما، كان يقف اثنان من رجال الشرطة العسكرية، وعلى مسافة متر واحد منهما سيارة من سيارات الاعتقال العسكري..
وكان هذا يعني أن العقيد (أهارونى) كان كاذبًا كبيرًا..
إنه لم يأتِ إليها بصفة ودية كما ادَّعى..
لقد أتي خصيصا لإلقاء القبض عليها..
وهذا يعني أيضا أنها صارت محاصرة هنا..
في قلب البناية..
وفي قلب (إسرائيل).

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

٥- شكوك إسرائيلية..

توقف (١. ص) عن الاستطراد في روايته، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ودود، وهو يدير عينيه بيني وبين السيد (لبيب)، قائلا:
- أعتقد أن الوقت مناسب لتناول طعام العشاء..
أومأ السيد (لبيب) برأسه، وهو يقول في بساطة:
- نعم.. أعتقد هذا..
أما أنا، فقد رددت في دهشة:
- طعام العشاء؟!
أطلق (١. ص) ضحكة هادئة، وهو يقول:
- وما الذي يدهشك في هذا؟! أليس من الطبيعي أن تتناول طعام العشاء؟!
هتفت، معترضا:
- أريد أن أعرف ماذا أصاب (ميرينا)!
أجابني في هدوء:
- لقد أفلتت من رجال الشرطة العسكرية، وأتت إلى ذلك المنزل الآمن، في شارع (بن جوريون).
هتفت مستنكرا:
بهذه البساطة؟! إنني أريد معرفة التفاصيل..
ابتسم (١. ص)، وتبادل نظرة صامتة مع السيد (لبيب)، قبل أن يجيب:
- (ميرينا) كانت جاسوسة محترفة، تلقت تدريباتها على يد السيد (رفعت)، أحد أفضل الرجال، الذين عرفتهم المخابرات العامة المصرية، وهذا يعني أنها كانت تعرف جيدا..
ما ينبغي فعله، في مثل هذه الظروف كررت في عناد:

- ما زلت أريد معرفة التفاصيل.
هز رأسه نفيا في هدوء، وهو يقول:
- هذا ليس متاحا دائما، وبالذات في حالتنا هذه، فحتى التدريبات، والدروس التي يتلقاها كل جاسوس محترف، تعتبر من أدق أسرار أي جهاز مخابرات، ومن غير الممكن كشفها، قبل أن يتخلى الجهاز نفسه عنها، ويعتبرها أساليب قديمة، محترقة، لا بد من استبدالها بأخرى حديثة ومبتكرة سألته في دهشة:
- أتعنى أن تلك التدريبات ما زالت مُستخدمة، حتى يومنا هذا!
هز رأسه مرة أخرى، قائلا:
- بعضها..
ثم اتسعت ابتسامته، وهو يضيف بلهجة مهذبة حاسمة..
- ولكنها جميعها ليست متاحة، حتى هذه اللحظة.
لم يرق لي هذا، فتنهدت في حرارة، وقلت:
- للأسف..
ضحك السيد (لبيب)، وهو يربت على كتفي، قائلا:
- ما دمت ستعمل معنا، فينبغي أن تعتاد هذا..
قلت في حنق:
- إنني أحاول..
قال (ا. ص) في هدوء، وهو ينهض من مقعده:
- سرعان ما تعتاد هذا..
كنت أدرك عدم جدوى المناقشة، في مثل هذه الأمور، لذا فقد نهضت معهما إلى مائدة العشاء، الذي تكون من منتجات ريفية بسيطة، وشهية، وإن لم أستمتع كثيرا بتناولها ولا بأحاديث (ا. ص) الرقيقة، مع ذلك السيل من الأفكار الذي تدفق في ذهني..

تُرى كيف نجحت (ميرينا) في الفرار، من حصار الشرطة العسكرية؟!
هل تنكرت في هيئة أخرى؟!
أم فرت عن طريق السطح، إلى سطح المبنى المجاور؟!
أم..
أم..
أم..
عشرات الأفكار عربدت في رأسي، طوال فترة العشاء، لتفسد عليَّ تلك الدقائق الثلاثين، قبل أن ينتصر عقلي في النهاية..
==
ويقنعني بأنه من المحتم أن أتجاوز هذه النقطة، حتى لا أُفسد ما تبقى من اللقاء..
لقد نجحت (ميرينا) في الفرار فحسب..
هذا كل ما في الأمر..
وفي ذهني، رحت أرسم صورة وهمية لتلك الفتاة..
نفس الصورة، التي شاهدتها على جدار فيلته في (فايد) ([6])..
العينان السوداوان..
الشعر الأسود الطويل..
وتلك الابتسامة..
الابتسامة التي لا يمكنك أن تنساها أبدا..
حتى لو حاولت..
«هل نكمل روايتنا؟!»
ألقى الرجل سؤاله، ونحن نرتشف أكواب الشاي، في حجرة منزله الريفي، فانتزعني من أفكاري في عنف، وجعلني أهتف في حماس:
- بالتأكيد.

ابتسم، على نحو يوحي بأنه قد فهم ما أعانيه، ثم اعتدل في مقعده، وارتشف رشفة من كوب الشاي الساخن، في استمتاع واضح، قبل أن يقول:

- كان ما حدث مفاجأة حقيقية، تعني أن الإسرائيليين قد انتبهوا إلى اهتمام شخص ما، أو جهة ما بكميات البن وعدد أقداح القهوة، التي يتناولها رجال الحراسة، في (درع القادة)، وهذا يعني بالتالي أن تفشل خطة التسلل إلى المكان، واستعادة شريط التسجيل، في الوقت المناسب..

سألته في لهفة:

- وهل اضطررت لتغيير الخطة؟!

صمت بضع لحظات، ثم أجاب في حزم:

- كلا.

سألته مبهورا:

- على الرغم من المخاطرة؟

هز كتفيه، قائلا:

- الأمر كله كان مخاطرة كبيرة..

ثم مال إلى الأمام، مستطردا:

- ولكن كان هناك احتمال وارد، ألا يستوعب الإسرائيليون الأمر، إلا بعد انتهاء العملية، كما يوجد احتمال آخر بأن (أهارونى) قد احتفظ بالأمر كله لنفسه، حتى يفوز بالغنيمة كلها وحده، ويظهر في صورة البطل الأوحد، الذي نجح وحده في كشف عملية جاسوسية خطيرة، استهدفت (درع القادة)..

قلت في اهتمام متوتر:

- ولكن (ميرينا) قتلت العقيد (أهارونى) بالفعل..

قال في هدوء:

- هذه قضية أخرى، ربما تفيد العملية أكثر مما تضرها..

سألته في حيرة:
- كيف؟!
أجابني في بساطة:
- مصرع (أهارونى) جذب انتباه الإسرائيليين بشدة، وجعلهم يبحثون عن (ميرينا) في شراسة، ولكنهم في الوقت ذاته، ركزوا كل همهم في البحث عن سر مقتل (أهارونى)، وعما يمكن أن يعنيه هذا، بالنسبة لموقعه كرئيس لقسم السكرتارية العسكرية والمعلومات.. وهذا ما أفادنا كثيرا..
قلت مبهورا:
- إذن فقد تم تنفيذ الخطة نفسها..
أشار إلى بسبابته، قائلا:
- بالضبط
ثم اعتدل في مقعده، مستطردا:
- ولقد بدأ تنفيذها مع صباح الخميس.. وبالتحديد في الثامنة والنصف صباحا..
سألته بكل لهفة الدنيا:
- كيف؟!
ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة، وهو يعيد كوب الشاي الفارغ إلى المائدة، ثم يواصل قصته..
وبكل التفاصيل الممكنة..
كالمعتاد..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

مع دقات الثامنة صباحا، بدأت تغيير واستبدال أطقم الحراسة المعتادة، عند مبنى (درع القادة)، وبدأت معها عمليات الإحلال والمراجعة اليومية..
كل وسائل الأمن تم التأكد من صلاحيتها وسلامتها..

كل النظم روجعت بمنتهى الدقة والإحكام..
وفي الثامنة وست عشرة دقيقة، وصل مواد البن الطازج، وسُلِّمت الكمية اليومية المعتادة..
وفي هذه المرة، كان المُورِّد دقيقا للغاية، وهو يرصّ علب البن بعضها فوق البعض..
فبعض هذه العلب كان يحمل علامة حمراء دقيقة، تكاد لا تُرى إلا للملاحظ قوي البصر، عند قاعدتها..
ولقد حرص المُورِّد على وضع تلك العلب، ذات العلامة الحمراء، أسفل باقي العلب الأخرى، قبل أن يغادر المكان، تحت إجراءات دقيقة مشددة كالمعتاد..
وفي الثامنة والنصف تماما، كان (وليد) يدق باب ذلك المنزل الأمن، المجاور للمبنى، ثلاث دقات منتظمة، لم يكد (أكرم) يسمعها، حتى أسرع يفتح الباب، ويسأله في اهتمام بالغ:
- هل تم المطلوب؟!
أغلق (وليد) الباب خلفه، وهو يومئ برأسه إيجابا، قائلا في حماس:
- وعلى خير ما يرام.
ثم تضاعف حماسه، وهو يلوح بيديه، مستطردا:
- المُورِّد الإسرائيلي لم يتورع عن تقاضي رشوة، ليستبدل ببعض علب البن البرازيلي الطازج علبًا أخرى، بعد أن أقنعه أحد رجالنا أنها محاولة احتيال، الغرض منها الاستيلاء على البن الطازج، وإبداله ببن قديم، مدعيًّا أن طاقم الحراسة لن ينتبه إلى هذا، لو أننا وضعنا علب البن القديم أسفل الجديد، بحيث يتم استهلاكه في نهاية فترة السهر..
وضحك مضيفا:
- إننا نستغل فسادهم لضربهم.

ابتسم الشاب، مغمغما:
- بالتأكيد.
ثم عاد يسأل:
- وماذا عن (ليفي)؟!
أجابه في سرعة:
- لقد عاد إلى منزله مباشرة كالمعتاد، وأراهن أنه غارق الآن في سبات عميق.
سأله الشاب في اهتمام:
- هل رتبتم أمر سفر زوجته؟!
أومأ (وليد) برأسه إيجابا، وقال:
- لقد أرسلنا لهم تلك البرقية الزائفة صباح اليوم، والتي تشير إلى أن أمها تعاني مرضا شديدا، في (بولندا)، وترغب في رؤيتها بأسرع ما يمكن، لتبلغها بعض الأمور المالية.
ابتسم الشاب، قائلا:
- العبارة الأخيرة ستجعلها تهرع إلى هناك حتما، وخاصة عندما أوحينا إليها بأن كل الاتصالات الدولية مقطوعة، فهي ستخشى أن يسبقها شقيقاها إلى (وارسو)، وينتزعا تلك الأسرار المالية من أمها.
ضحك (وليد)، وقال:
- من الواضح أنك تفهم النفس البشرية جيدا..
هز (أكرم) كتفيه، وقال:
- إلى حدٍ ما..
ثم راح يداعب ذقنه في تفكير عميق، مستطردا:
- المهم الآن أن النقيب (شارون ليفي) يرقد في منزله وحده، والكل يعلم أنه سينام بعمق، حتى الرابعة عصرا على الأقل.
سأله (وليد) في اهتمام:

- وماذا ستفعل؟!
صمت قليلا، قبل أن تفتر شفتاه عن ابتسامة ساخرة، وهو بجيب:
- سنطيل فترة نومه فحسب..
نطقها في هدوء، ثم التقط سترته، مستطردا في حزم:
- أعتقد أنني سأذهب لزيارته.
سأله (وليد) في قلق:
- وما الذي ينبغي علينا أن نفعله؟
ربت (أكرم) على كتفه، وهو يتطلع إليه قليلا في صمت، ثم قال:
- لا شيء يا صديقي.. لا شيء.. لقد فعلتم كل ما يمكنكم فعله.
سأله (وليد) في تأثر:
- ألا يمكننا تقديم المزيد من التعاون؟!
هز رأسه نفيا، ثم لم يلبث أن ابتسم، قائلا:
- أتعشم ألا نضطر لهذا.
أمسك (وليد) كتفيه، وتطلع إلى عينيه مباشرة، وهو يقول:
- هل يعني هذا أننا قد لا نلتقي ثانية أبدا؟!
صمت الشاب لحظة، قبل أن يقول في خفوت:
- ربما.
تضاعف التأثر في عيني (وليد)، قبل أن يحتضن الشاب فجأة في حرارة، ويقول:
- يا للخسارة!
ثم تراجع مستطردا:
- ولكن لا تنس أن تبلغ سلامي وسلامنا جميعا، لكل الرجال في (مصر).
ابتسم الشاب، قائلا:
- سأفعل بإذن الله (سبحانه وتعالى).

وفي أعماقه، اكتملت العبارة:
- هذا لو أنني بقيت حيا، حتى أعود إلى الوطن..
تصافحا مرة أخرى، قبل أن يغادر الشاب المكان، ويتجه على الفور إلى حيث يقيم النقيب (ليفي)..
كان اختياره لذلك الرجل بالذات دقيقا للغاية، ومدروسًا بعناية فائقة..
هذا لأن النقيب (ليفي) كان، بحكم منصبه، المسئول عن مراجعة ومتابعة كل إجراءات الأمن في مبنى (درع القادة).. ثم إن ملامحه متميزة للغاية.. شارب ضخم، وطابع حسن، وعينان أدرك الجميع أنهما مصابتان بالتهاب حاد، يدفعه إلى إخفائهما طوال الوقت بمنظار داكن، كما أن قامته كانت تتناسب كثيرا مع قامة الشاب، وهذا يجعله شخصا مثاليا، يمكن انتحال هيئته ببعض البراعة، وهذا ما خطط له الشاب بالضبط..
وفي العاشرة والنصف صباحا، كان يقف أمام باب منزل (ليفي)..
وبأصابع ماهرة سريعة، عالج قفل الباب، بقطعتين من السلك، حتى سمع تكة خافتة، أنبأته بأن القفل قد استجاب فدفع الباب في رفق، ودلف إلى الداخل في خفة، و...
«من بالباب؟!»..
ارتفع الهتاف بغتة من الداخل، قبل أن يبرز (ليفي)، دون سابق إنذار، من المطبخ المجاور لباب الشقة..
وكانت مفاجأة غير متوقعة..
على الإطلاق.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«هذا الأمر مثير للقلق يا سادة»
نطق مدير المخابرات الإسرائيلية العبارة، في توتر ملحوظ، وهو يجلس على رأس مائدة الاجتماعات، في القاعة الرئيسية في مبنى

(الموساد)، قبل أن يشير بيده للرجال الخمسة الذين شاركوه الاجتماع، مستطردا:
- فمن الواضح أننا لسنا أمام جريمة قتل عادية، أو حتى جريمة عاطفية تقليدية؛ إذ إن ملف (ميرينا) يؤكد أنها فتاة ملتزمة، لا تميل إلى إقامة أية علاقات مشبوهة، سواء مع رجال جيش الدفاع أو سواهم، كما أن زيارة (أهارونى) لها لم تكن زيارة ودية أو معتادة؛ فقد اصطحب معه فريقا من الشرطة العسكرية، ولا أحد يحيط نفسه بهذه الزفة، وهو في طريقه لزيارة تقليدية.. ولو أضفنا إلى كل هذا طلب (أهارونى) بمراجعة ملف (ميرينا)، والبحث عن كل تفاصيل حياتها السابقة في (براج)، وتلك الورقة، التي عثرنا عليها في مكتبة، والتي تحوي بعض المعلومات العجيبة، حول استهلاك أطقم الحراسة في مبنى (درع القادة) للقهوة، فسنجد أننا حتما أمام حالة واضحة، من حالات الجاسوسية المعتادة، الجاسوس فيها هو (ميرينا يازوسكى)، التي كشف (أهارونى) أمرها، فاضطرت لقتله، حفاظا على سرها..
سأله أحد الرجال الخمسة:
- لماذا تركت جثته في منزلها إذن؟!
أجابه المدير في سرعة وحزم:
- لأن رجال الشرطة العسكرية كانوا يحاصرون المبنى.
هز رجل آخر رأسه، قائلا:
- غير منطقي.. طبقا لأقوال رجال الشرطة العسكرية، فقد كانوا يقفون أمام مدخل المبنى، ولا يحاصرونه كله، ثم إنه لو كانت (ميرينا) جاسوسة محترفة بالفعل، لوجدت وسيلة للتخلص من الجثة، قبل أن تغادر المكان..
أشار مدير المخابرات بيده، قائلا:

- خطأ أيها السادة.. الجاسوسة المحترفة لن تفعل هذا أبدا، فما إن يواجهها (أهارونى) بما لديه، حتى تدرك مباشرة أن أمرها قد انكشف، ولم يعد لبقائها ما يبرره، لذا فكل ما ستفعله، بعد أن تقتل (أهارونى)، هو أن تبادر بالفرار، وتلجأ إلى منزل آمن، معد لهذا الغرض بالتحديد، أو تحاول الخروج من (إسرائيل) كلها.. ولأن الخطوة الأخيرة ليست هيِّنة أو بسيطة، ومن الممكن كشف أمرها في سرعة، فالأرجح أنها تختفي الآن في مكان ما، حتى يتم الإعداد لهروبها..

تبادل الرجال الخمسة نظرة صامتة، قبل أن يغمغم أحدهم:

- منطق معقول..

اعتدل مدير المخابرات في ثقة، بعد أن أيقن من أنه قد نجح في إقناع الجميع، وأشار بيده، قائلا:

- وهكذا أيها السادة، تصبح نظرية الجاسوسية هي الأرجح، لذا فمن المحتم أن نعتصر أذهاننا، ونركز جهودنا على البحث عن أمر واحد، يربط ما بين (ميرينا)، و(أهارونى)، و(درع القادة)، والقهوة.. وفي الوقت ذاته، علينا أن ننبش كل شبر في (إسرائيل)، وفي (تل أبيب) بالذات، بحثا عن (ميرينا يازوسكى).

قال أحدهم في حزم:

- فلنعلن حالة الطوارئ القصوى..

قال آخر في توتر:

- هل تعتقد أن رئيس الوزراء سيوافق على هذا؟!

هز ثالث رأسه، قائلا:

- لست أعتقد هذا، فهم لا يوافقون على إعلان حالة الطوارئ الأمنية القصوى، إلا في حالات الحروب..

قال مدير المخابرات:

- ولكن الأمر يحمل اسم (درع القادة) هذه المرة، وأعتقد أن هذا كفيل بإثارة قلقهم، إلى أقصى حدّ.
أجابه الرابع في حسم:
- حتى ولو نجحنا في إثارة قلقهم، فهل تعلم كم سيستغرقون من وقت، قبل إصدار مثل هذا القرار؟!
قال الخامس في سرعة:
- يومين، على أقل تقدير.
انعقد حاجبا مدير المخابرات في صرامة، وهو يقول:
- فليكن.
ثم شد قامته، مستطردا، وهو يلتقط سماعة الهاتف الخاص:
- طبقا للقواعد، فنحن نتولى حراسة وحماية مبنى (درع القادة)، من الناحية الرسمية، وهذا يعني أن باستطاعتنا إصدار كل التعليمات الممكنة، في هذا الشأن، وتعديل وسائل الأمن والمراقبة، في أية لحظة..
وضرب رقما خاصا، في أثناء حديثه، وما إن سمع صوت محدثه، حتى قال في لهجة صارمة، حازمة، آمرة:
- اسمعني جيدا يا رجل.. لدينا هنا بعض الشكوك، في أن (درع القادة) قد يتعرض لهجوم مباغت، أو محاولة اختراق خفية؛ لذا فعليك أن تنفذ كل ما سأمرك به، وبمنتهى الدقة..
قالها، وراح يملى أوامره الجديدة، بشأن نظم الأمن والمراقبة، في مبنى (درع القادة)..
وكانت هذه الأوامر الجديدة تعنى أن خطة (أكرم) ستواجه عقبة خطيرة، قد تؤدي إلى فشل العملية بأكملها..
وبمنتهى العنف.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

كان ظهور (ليفي) مفاجأة حقيقية، في تلك اللحظة..

وللطرفين..
ولعل الأثر الأعظم، كان من نصيب (ليفي) نفسه..
لقد اتسعت عيناه في ذهول، وتدلي فيه الأسفل في بلاهة، قبل أن يهتف في حدة غاضبة، وهو يختطف سكينا ضخما من المطبخ
- اللعنة! لص؟!
ولكن الشاب لم يمهله..
لقد وثب نحوه كالفهد، وهو على فكه بلكمة كالقنبلة، ويده الأخرى تقبض على معصمه بأصابع كالفولاذ، وتلوية في عنف، لتجبره على إفلات السكين..
ومن المؤكد أن (ليفي)، كضابط أمن من طراز خاص..
كان يجيد القتال إلى أقصى حدٍّ..
ولكن من المؤكد أيضا أن الشاب كان أكثر قوة ومهارة..
فلم تمض ثوان معدودة، حتى كانت قبضته تهوى على فك الإسرائيلي بلكمة قاضية كالقنبلة، دفعته إلى الخلف في عنف، ليرتطم بالجدار، ثم يسقط أرضا، ويهمهم بكلمات غير مفهومة، والدنيا تظلم أمام عينيه..
وتظلم..
وتظلم..
ولم يدرِ الإسرائيلي كم بقي فاقد الوعي، ولكن الشيء الذي ذكره في تقريره، فيما بعد، هو أنه لم يكد يسترد وعيه المفقود، ويفتح عينيه، حتى أدرك أنه مقيد بإحكام إلى مقعد ثقيل، في حجرة نومه الخاصة، وأن كمامة عريضة قوية تكتم فمه، و.....

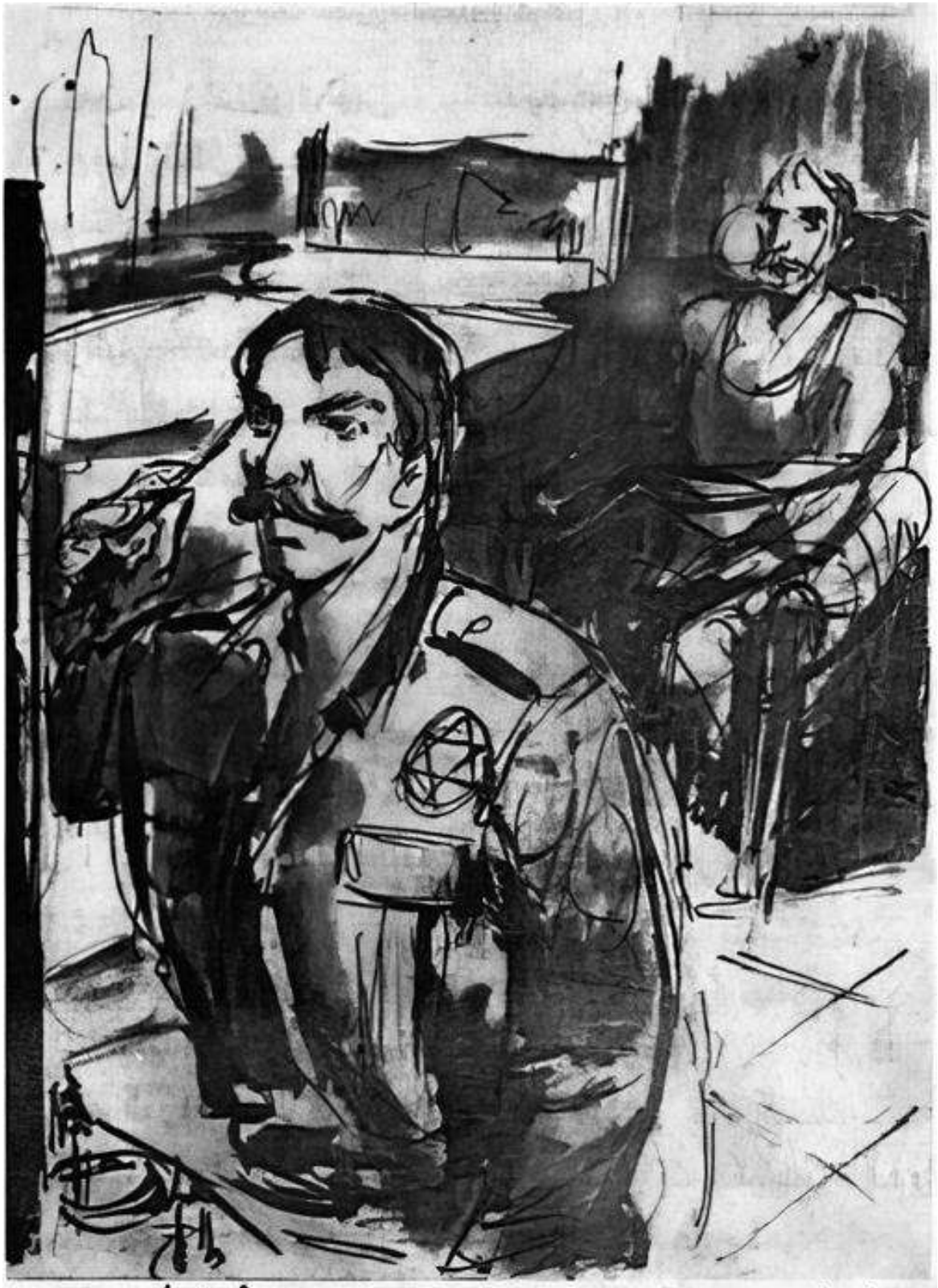

لم يكد يسترد وعيه المفقود ، ويفتح عينيه حتى أدرك أنه مقيد بإحكام إلى مقعد ثقيل

ولم تكن هذه هي المفاجأة الوحيدة له..
لقد كانت المفاجأة الحقيقية أمامه مباشرة..
عند المرأة الكبيرة، المواجهة للفراش..

فهناك، أمام المرآة مباشرة، كان يقف ذلك الشاب، الذي أفقده الوعي، وهو يتعامل مع ملامحه على نحو مذهل..
فبكل سرعة ودقة وبراعة، كان ذلك الشاب يتحول إلى نسخة منه..
نسخة متقنة بشدة..
نفس البشرة الشقراء..
والشارب الضخم..
وطابع الحسن في منتصف ذقنه..
كل هذا راح يتكون في سرعة، لتختفي تحته ملامح الشاب الحقيقية، وتتحول إلى ملامحه هو..
إلى ملامح النقيب الإسرائيلي (شارون ليفي)..
ولفرط ذهوله انطلقت من حلق (ليفي) شهقة قوية..
كتمتها تلك الكمامة على وجهه، فالتفت إليه (أكرم)، قائلا:
- هل تشعر بالدهشة؟
اتسعت عينا (ليفي) عن آخرهما، وهو يحدق فيه، في حين تابع الشاب في هدوء:
- ربما كان هذا هو السبب الرئيسي لاختياري لك.. فملامحك حادة متميزة، يسهل انتحالها..
كان قوله هذا يبسط الأمر بشدة، ولكنه لم يكن يكفي لإقناع (ليفي)، الذي سري الذهول في كيانه، وجري في عروقه مجرى الدم، حتى بدا له وكأن ما فعله (أكرم) أشبه بالمعجزة.
والواقع أنه كان كذلك، بكل المقاييس..
فالتنكر المتقن، الذي قام به، لم يجعله أشبه بالنقيب (ليفي) فحسب..
بل، لقد جعله نسخة طبق الأصل منه..
فيما عدا العينين..

ويبدو أن الشاب قد قرأ العبارة الأخيرة في عيني (ليفي)..
لذا فقد التقط منظار هذا الأخير الداكن، وهو يقول ساخرا:
- أظنك قد أدركت الآن لماذا أصبنا عينيك عمدا يا رجل!
شهق (ليفي) مرة أخرى، وراح يقاوم قيوده في استماتة، ولكن الشاب تجاهل هذا تماما، وهو يلتقط زي (ليفي) العسكري، قائلا:
- لا تحاول يا رجل.. قيودك محكمة للغاية، ولن يمكنك التخلص منها في سهولة..
وأخذ يرتدي الزي العسكري الإسرائيلي في هدوء، مضيفا:
- وكل ما يدور في عقلك من أفكار، لا يمكن تنفيذه عمليًا.. لن يمكنك إحداث أية جلبة لجذب الأنظار، ولن يمكنك طلب رقم هاتفي بأسنانك.. أما ما تتصوره عن كشف رفاقك لأمري فهو دعابة سمجة.. لقد شاهدوك أمس بهذا المنظار الداكن، ولا ريب في أنهم قد شعروا بالدهشة والشك، وتعاملوا معك من هذا المنطلق، ومن المؤكد أنهم قد شعروا بسخافتهم أيضا عندما تأكدوا من شخصيتك، بحيث لن يفكروا في تكرار هذه المهزلة اليوم.
وراح يضع اللمسات الأخيرة لزيه، مستطردا:
- أما بالنسبة للصوت، فسيدهشك أنه لن يثير شكوكهم قط.
نطق النصف الثاني من عبارته، مقلدا ومحاكيًا صوت (ليفي)، على نحو جعل هذا الأخير ينتفض في مقعده بعنف، وتتسع عيناه مرة أخرى، في ذهول تام..
ومع ذهوله وهيئته المضحكة البلهاء، ارتسمت ابتسامة على شفتي الشاب، وقال، وهو يتجه نحوه، ملتقطا شيئا ما من حقيبته:
- هل أدركت ما أعنيه يا نقيب (ليفي)؟!

راح الإسرائيلي يقاوم قيوده مرة أخرى في عنف، وقد دفعة الغضب الأعمى إلى محاولة عابثة لتمزيقها، فقال الشباب في هدوء، وهو يكشف ذراعه:
- قلت لك: لا فائدة..
حدق (ليفي) مذعورا في ذلك المحقن، الذي أبرزه الشاب، وتأوه عندما غرس إبرته في عروقه بسرعة، والشاب يتابع:
- إنها السابعة مساء الآن، وهذا العقار، الذي أحقنك به، شديد المفعول، وسيستمر تأثيره لستِّ ساعات كاملة، وهذا كل ما أحتاج إليه..
قاوم (ليفي) أكثر وأكثر، ولكن الشاب اعتدل واقفا، وقال له في هدوء مستفز:
- لا تقاوم يا رجل.. استسلم لتأثير العقار.. هذا أفضل..
كان (ليفي) يرغب في استمرار المقاومة إلى الأبد، لولا ذلك المخدر، الذي سري في كيانه، وجعل جفنيه يتثاقلان..
ويتناقلان..
ثم عاد الظلام يحيط به في سرعة..
ويتزايد..
ويتزايد..
وأخيرا أحاط بكل شيء..
ومع سقوط الإسرائيلي، اعتدل البطل المصري، وغمغم:
- معذرة يا رجل.. كان هذا ضروريا..
ثم ألقي نظرة أخيرة على نفسه في المرآة، قبل أن يغمغم:
- على بركة الله (سبحانه وتعالى).
نطقها، وغادر المنزل في هدوء، ليبدأ المرحلة الأكثر أهمية من الخطة..
والأكثر خطورة..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«الثامنة بالضبط في (تل أبيب).»

نطق الرئيس السادات) العبارة، وهو ينفث دخان غليونه في عمق، ويتطلع في اهتمام إلى مدير المخابرات، الذي أومأ برأسه، قائلا:

- نعم يا سيادة الرئيس.. في هذه اللحظة بالتحديد ستبدأ عملية تغيير واستبدال أطقم حراسة (درع القادة)، والمفترض أن يكون (أكرم) في طريقه إلى داخل المبنى الآن..

مط الرئيس شفتيه، قائلا:

- هي اللحظة الفاصلة إذن؟! هل تعتقد أنه سيتجاوزها؟!

مرة أخرى أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابا، وقال:

- بالتأكيد يا سيادة الرئيس.. (أكرم) يمكنه انتحال شخصية (ليفي) بمنتهى الدقة..

سأله الرئيس في قلق:

- إلى الحدِّ الذي يخدع فيه رفاق وزملاء الإسرائيلي؟

ابتسم مدير المخابرات، قائلا:

- بل إلى الحدِّ الذي يمكن أن يخدع أمه نفسها..

ثم اتسعت ابتسامته، وهو يضيف:

- الواقع يا سيادة الرئيس أن (أكرم) هذا فلتة من فلتات عالم المخابرات.. لقد غادر (القاهرة) دون الحد الأدنى من المعلومات، الذي يكفي للقيام بمهمة مستحيلة كهذه، وعلى الرغم من هذا، فقد نجح، خلال يومين فحسب، في الحصول على كل المعلومات المطلوبة، وإعداد خطة رائعة، كتلك التي أرسلها إلينا شفريًا، عبر البث اللاسلكي الفائق..

نفث الرئيس دخان غليونه ثانية، وهو يقول:

- المهم أن ينجح في تنفيذها.

تنهد المدير، قائلا:
- فلندع الله (سبحانه وتعالى) أن يفعل يا سيادة الرئيس..
في نفس اللحظة، التي نطق فيها مدير المخابرات عبارته كان (أكرم) يتجه نحو مبنى (درع القادة)، في خطوات واسعة ثابتة قوية، تشبه تماما خطوات (ليفي)..
وعندما توقف عند قسم إثبات الشخصية، أبرز بطاقة (شارون ليفي) العسكرية بمنتهى الثقة، وهو يقول، بصوت يحاكي صوت النقيب الإسرائيلي تماما:
- مساء الخير.. أتعشم أن تكون هذه الليلة أفضل من غيرها.
كانت نفس العبارة، التي يستخدمها (ليفي) في المعتاد، عند البوابة الرئيسية للمبنى، والتي قرأها الشاب على شفتيه وهو يراقب المكان من بعيد، في الليلة السابقة، بوساطة منظار مقرب قوي..
وكان من الواضح أنه يؤدي دوره بعبقرية فذة، ومهارة ليس لها مثيل، إذ إن ضابط المتابعة قد أجابه في هدوء:
- كلنا نتعشم هذا أيها النقيب.
ابتسم الشاب في هدوء، واستعاد البطاقة العسكرية، ثم عبر البوابة الرئيسية للمبنى، وقطع الساحة الواسعة، في خطوات طويلة قوية، و...
وفجأة، ارتفع صوت العقيد من خلفه في صرامة:
- قف.. قف أيها النقيب.
اخترقت الصيحة أذنيه، فتجمدت ساقاه، وتوقفتا في منتصف المسافة..
ومرة أخرى، ارتفع صوت العقيد الصارم، يقول:
- استدر.
شد الشباب قامته، وتحسس مسدسه، المختفي في حزامه.

وهو يدور على عقبيه في بطء رصين؛ ليواجه العقيد، الذي رمقه بنظرة كاللهب، وهو يقول بكل صرامة الدنيا:

- نظم الأمن تغيرت أيها النقيب.. تغيرت تماما..

وانقبض قلب الشاب بين ضلوعه في عنف، فالعبارة، التي نطق بها العقيد، كانت تعني أن خطته كلها قد انهارت دفعة واحدة.. بل تعني أنها قد انسحقت..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

٦- قلب الخطر..

لثوانٍ، بدا الموقف وكأنما تجمد تماما، عند مبنى (درع القادة)..
(أكرم) يقف مشدود القامة، في هيئة (ليفي)، والعقيد يتطلع إليه في صرامة، وعقل الأول يعمل بسرعة البرق، في محاولة لاستنباط ذلك التغيير الطاري، في نظم الأمن..
ثم تكلم العقيد..
كان صوته جافا خشنا كعادته، وهو يقول:
- سنحصل على بصماتك.
بدت دهشة الشاب طبيعية، وهو يهتف:
- بصماتي؟! ولماذا؟
والعجيب أنه، وعلى الرغم من دهشته الطبيعية، تحدَّث بصوت (ليفي) نفسه، على نحو لم يسمح بذرة واحدة من الشك، في التسلل إلى نفس العقيد، وهو يجيب:
- إنها الأوامر الجديدة.. كل شخص هنا سيتم فحص بصماته، للتأكد من شخصيته، كما ستتم مراجعة كل بطاقات الهوية العسكرية، للتيقن من صحتها.
ثم هز كتفيه، قبل أن يضيف:
- يبدو أنهم يشكون في أن بعضهم يحاول التسلل إلى هنا..
رسم الشاب على شفتيه ابتسامة شبيهة بابتسامة (ليفي)، وهو يجيب:
- التسلل إلى هنا، يا للسخافة؟! الباعوضة نفسها لا يمكنها أن تتسلل إلى هنا، دون أن نكشف أمرها.
ابتسم العقيد، مغمغما:
- بالتأكيد.

ثم اتجه إليه، ودفعه في رفق، مستطردا:
- ولكنها الأوامر.
كرر الشاب مرة أخرى:
- يا للسخافة؟
ودون أدنى اعتراض، سمح لمندوب المخابرات بالحصول على بصماته، ثم سلمه بطاقة (ليفي) العسكرية، وهو يقول ساخرا:
- محاولة تسلل؟! يا لها من فكرة سخيفة!
كان يعلم، بحكم خبرته، أن عملية فحص البصمات الخاصة بكل أطقم حراسة المبنى، ستستغرق حتما عدة ساعات ([7])، وأن عليه أن ينهي مهمته، وبنجاح، قبل أن يتوصل الخبراء إلى أن بصماته لا تتفق قط مع بصمات النقيب (شارون ليفي)..
وعلى الرغم من دقة الموقف، والسرعة الواجبة للتنفيذ، بدا (أكرم) هادئا تماما، وهو يتحدث إلى زملاء (ليفي) لبعض الوقت، قبل أن يشد قامته، ويقول بنفس اللهجة الصارمة الفخمة، التي تميز النقيب الإسرائيلي:
- حان الوقت لتفقّد نظم الأمن..
قالها، واسترجع عقله في لحظة واحدة تصميم المبنى كله، قبل أن يعقد كفيه، ويبدأ جولته داخل حجراته وطرقاته..
وفي شيء من الحذر، تابع أحد زملائه حركته، قبل أن يلتفت إلى زميل آخر، قائلا في خفوت:
- عجبا؟! ألا يبدو لك (ليفي) مختلفًا الليلة؟!
ارتفع حاجبا الزميل الأخر، وهو يقول:
- مختلفا؟! ماذا تعني يا رجل؟! (ليفي) هو (ليفي).. نفس النقيب المتغطرس الذي تعرفه؟!
هز الأول رأسه، مغمغما:

- كلا.. إنه يبدو لي الليلة غريب الأطوار.
هتف الثاني:
- بالتأكيد.
ثم التفت إلى الباقين، مستطردا
- وهذا يثبت أن (ليفي) الذي نعرفه، والذي عهدناه دائما غريب الأطوار.
وانفجر بالضحك مع الباقين، في حين مط الأول شفتيه في حنق، ثم هز كتفيه، مغمغما:
- ربما.
في نفس اللحظة، التي نطق فيها كلمته، كان (أكرم) يدلف إلى حجرة المراقبة، وهو يقول:
- مساء الخير يا رجال.. كيف حال العمل اليوم؟!
التفت إليه المراقبون الثلاثة في دهشة، لم تلبث أن تحولت عند أحدهم إلى ضحكة مرتبكة، وهو يقول:
- عجبا! إنك تبدو ودودا للغاية الليلة أيها النقيب..
نبهت عبارته الشاب إلى خطأ تصرفه، فشدَّ قامته في صرامة، قائلا:
- لا تعتادوا هذا!
تبادل الرجال الثلاثة نظرة متوترة، قبل أن يتمتم أحدهم:
- هذا هو النقيب (ليفي)، الذي نعرفه..
أجابه الشاب في حِدة صارمة:
- دعك من النقيب (ليفي)، واهتم بعملك.
استدار الثلاثة إلى شاشات المراقبة، وتبادلوا نظرة ساخرة خفية، في حين راح (أكرم) يجول في الحجرة، وكأنه يتفقد نظم الأمن، كما يفعل (ليفي) كل ليلة..

وفي خفة مدهشة، ودون أن يلاحظه أحد، التقط الشاب أحد شرائط المراقبة المسجلة قديما، ودسته في آلة تسجيل الشرائط الدورية..

وبسرعة وبراعة، أبدل عمل الآلة، من التسجيل إلى البث، وهو يسأل الرجال في صرامة:

- لماذا يحيط الإهمال بكل شيء هنا؟!

التفت إليه الرجال الثلاثة في دهشة، وأحدهم يهتف مستنكرا:

- الإهمال؟! أي إهمال؟! إننا نعمل هنا بكل كفاءة، ومن المستحيل أن...

قاطعه الشاب في صرامة:

- أصمت..

كانت مناورة بارعة منه، صرفت أنظارهم تماما عن شاشات المراقبة، في نفس اللحظة التي ظهرت فيها عليها عبارة إليكترونية تقول:

- الانتقال من التسجيل إلى البث..

استمر ظهور العبارة على الشاشات الثلاث لثانية واحدة، ثم تلاشت كالمعتاد، وبدأت الشاشات تنقل ما تم تسجيله، منذ شهر واحد..

الشاب وحده لاحظ ما حدث، وهو يتظاهر بالغضب والصرامة، وعندما اطمأن إلى أن كل شيء صار على ما يرام، مط شفتيه في ازدراء، قائلا:

- فليكن.. عودوا إلى عملكم، وسنناقش هذا غدا..

ولم يكد ينتهي من عبارته، حتى غادر المكان في خطوات سريعة، تاركا الثلاثة خلفه، يتبادلون نظرة دهشة، قبل أن يهز أحدهم رأسه، مغمغما:

- هذا هو (ليفي) الذي نعرفه.

وعادوا يتطلعون إلى شاشات المراقبة، دون أن يدرك أحدهم أن تلك الشاشات لم يعد لها أدنى فائدة، سوي لشخص واحد.. (أكرم)..
(أكرم)، الذي غادر حجرة المراقبة، وهو يعلم أن لعبته هذه لن تنجح في خداع هؤلاء المحترفين الثلاثة طويلا..
لذا، فعليه أن يتحرك بأقصى سرعة..
كان الجميع يتناولون أقداح القهوة كالمعتاد، عندما مر أمامهم، في طريقه إلى الجناح الخاص باستراحة القادة، فهتف به أحدهم:
- (ليفي).. هل ترغب في تناول قهوتك الآن؟!
لوح بيده، قائلا:
- لا.. ليس الآن.
ارتفع حاجبا الرجل في دهشة، وهو يغمغم:
- ليس الآن!
ثم التفت إلى رفاقه، مستطردا:
- عجبا! لقد كان موعد تناول القهوة هذا مقدسا، بالنسبة له.
ضحك آخر، وقال ساخرا:
- ألم أقل لك: إنه دائما غريب الأطوار.
بلغت عباراتهم هذه مسامع الشاب، ولكنه لم يتوقف لحظة واحدة، وإنما واصل طريقه إلى استراحة القادة، ولم يكد يدخلها، حتى أغلق بابها خلفه في إحكام، ثم تلفت حوله في سرعة، حتى رصد موقع فتحة التهوية، فاتجه إليها في سرعة، وجذب مقعدا، أعتلاه في خفة، وراح ينتزع غطاء الفتحة في سرعة ومهارة..
وعندما انزاح الغطاء، وثب الشاب يتعلق بالفتحة، قبل أن يدفع جسده داخلها، ثم يزحف عبرها في سرعة:
- كان عقله يراجع تصميمات المبنى في سرعة البرق، وهو يزحف عبر أنابيب التهوية الواسعة، حتى بلغ ممرًا رأسيا، يقود إلى

الطابق الثاني، فدفع ظهره إلى أحد جدرانه، وألصق قدميه بالجدار المقابل، وراح يدفع جسده بذراعيه القويتين إلى أعلى..
وبعد خمس دقائق من الدفع والمقاومة، انتقل إلى ممرات التهوية في الطابق الثاني..
وعلى الرغم من الجهد الذي بذله، ومن أنفاسه التي تتلاحق في سرعة، لم يتوقف (أكرم) لحظة واحدة..
لقد عاد يزحف عبر ممرات التهوية، بأقصى سرعة يسمح بها ضيق المكان، حتى بلغ تلك الفتحة، التي تطل على حجرة اجتماعات (درع القادة)..
وهنا توقف الشاب، وراح يتطلع إلى الحجرة، من خلال الشبكة المعدنية لفتحة التهوية..
كانت نفس الصورة، التي أطلعوه عليها في المخابرات العامة، قبل أن يبدأ مهمته..
نفس الصورة، التي رسمها، وبمنتهى الدقة، السيد (رفعت)، منذ عدة سنوات..
ولأن السيد (رفعت) قد نقل - آنذاك - صورة دقيقة للموقف فقد كان الشاب يعلم أن شبكة فتحة التهوية المعدنية، لهذه الحجرة بالذات، مُكهربة..
وأن مجرد لمسها سيؤدي إلى انطلاق مائة وخمسين ألف فولت ([8]) في جسده، دفعة واحدة..
لذا، فقد أخرج من جيبه تلك الأدوات، التي قدمها له أدون (بيتون) عند وصوله..
وبسرعة، راح يوصل تلك الأدوات بعضها بالبعض، ثم يوصلها بسلكين سميكين، برزا من نهايتها..

وفي حرص، أوصل أحد طرفي السلك بالشبكة، ثم أوصل الطرف الآخر بأحد أجزاء الآلة التي صنعها الآن ولم يكد يتم عمله، حتى مد يده في جرأة، وأمسك شبكة فتحة التهوية، و..
وبدأ ينتزعها من مكانها..
فآلته البسيطة حولت مسار التيار الكهربي إليها، وتركت الشبكة خالية منه تماما..
ولم تمض ثوان معدودة، حتى كان الشاب قد انتزع شبكة فتحة التهوية، ودفع جسده إلى الأمام، ليسقط داخل الحجرة، ورأسه إلى أسفل..
وبخفة ومهارة مدهشتين، دار جسده في الهواء، كأبرع بهلوانات السيرك، ليهبط على قدميه داخل حجرة الاجتماعات..
الحجرة السرية للغاية..
ولثوان، تجمد (أكرم) في مكانه، وكل خلية في كيانه تنبض بالتأهب والتحفز والحذر؛ ليتأكد من أن أحدا من رجال القوات الخاصة الأربعة، في الممر الخارجي، لم ينتبه إلى وجوده..
ثم دب نشاط جم بغتة، في الجسد المتجمد..
وبسرعة مدهشة، اتجه إلى أحد الجدران الخشبية للقاعة..
وأخرج من جيبه عدة أدوات، راح يستخدمها في براعة ليزيل أحد أجزاء الجدار..

وبسرعة مدهشة إلى أحد الجدران الخشبية للقاعة وأخرج من جيبه عدة أدوات راح يستخدمها فى براعة ليزيل أحد أجزاء الجدار..

وراحت الدقائق تمضي في سرعة..

وتمضي..

وتمضي..

ولم يتوقف الشاب عن العمل لحظة واحدة، على الرغم من العرق الغزير، الذي تصبب على وجهه وجسده، وصبغ ملابسه كلها أو كاد..
وأخيرا، انتزع ذلك الجزء من الجدار..
وتألقت عيناه في ظفر..
فأمامه مباشرة، وداخل تجويف مُعَدّ بمهارة مدهشة، كان يرقد جهاز التسجيل التقليدي، وبداخله الشريط شريط التسجيل، الذي يحوي كل أسرار (درع القادة)..
وفي نفس اللحظة، التي عثر فيها الشاب على الشريط، كان أحد رجال المراقبة الثلاثة يقول لرفيقيه في ضجر:
- يا له من عمل سخيف! إننا نقضي ليالينا كلها هنا، لا عمل لنا سوى تناول القهوة، ومراقبة تلك الشاشات، حتى ليخيل للمرء أن المشاهد والأحداث لا تتغير قط، وكأنما نشاهد الفيلم نفسه كل يوم..
هز أحد رفيقيه رأسه، مغمغما:
- أنت على حق يا رجل.. إنني - الليلة بالذات – أشعر وكأنني قد شاهدت هذه الأحداث من قبل بالفعل..
لوح الثالث بيده، قائلا:
- وهم.. مجرد وهم.. هذا ما يحدث دائما، عندما تراقب المكان نفسه، بنفس الأشخاص، لفترة طويلة متوالية من الزمن.. انظروا.. ها هو ذا العقيد يمارس سخافاته وتعنتاته كالمعتاد، والنقيب (ليفي) يتناول قهوته، متظاهرا بأنه لا يسمعه، و (مُورِّدخاى) نصف نائم كال...
بتر عبارته بغتة، واندفع جسده إلى الأمام في حركة حادة عنيفة، وهو يهتف:

- (مُورِّدخاى)؟! ولكن هذا مستحيل! لقد تم نقله إلى جهاز الحراسات العامة منذ أسبوعين!!
تبادل رفيقاه نظرة شديدة التوتر، قبل أن يهتف أحدهما:
- أمن المحتمل أن يكونوا قد أعادوه مرة أخرى؟!
صاح الثالث في عصبية:
- كلا.. إنه فيلم شاهدناه من قبل بالفعل.. لقد تذكرت الآن.. النقيب (ليفي) سيرتطم بـ (مُوردخاى)، وستنسكب قهوته على صدره، و...
قبل أن يتم عبارته، ارتطم (ليفي) ب (مُورِّدخاى)، على الشاشة بالفعل، وانسكبت قهوته على صدره..
وهنا صاح أحد الثلاثة:
- اللعنة! إنه شريط مُسجَّل..
قفز زميله إلى جهاز التسجيل، هاتفا:
- يا للشيطان! هذا صحيح.. لقد أبدل أحدهم عمل الجهاز من التسجيل إلى البث..
اتسعت عيون زميليه عن آخرها..
والتقت عيون الثلاثة بنظرة مذعورة، قبل أن يصرخ أحدهم:
- النقيب (ليفي)!!
ثم وثب إلى الجهاز، وأعاد عمله إلى التسجيل، وهو يستدير في سرعة هلعة إلى شاشات المراقبة الثلاث..
ولثانية واحدة، حملت الشاشات عبارة: الانتقال من البث إلى التسجيل.
ومع نهاية الثانية، عادت شاشات المراقبة تنقل ما يحدث فعليا..
واتسعت عيون الثلاثة عن آخرها، وهم يحدقون في الصورة، التي نقلتها الشاشات من حجرة اجتماعات (درع القادة)، والتي

أظهرت في وضوح فتحة التهوية، التي تدلت شبكتها من طرفها، وحقيبة الأدوات الصغيرة، الموضوعة إلى جوار الجدار..
وبكل رعب الدنيا، تراجع الرجل، صائحا:
- مستحيل! مستحيل!
أما رفيقه الثاني، فقد تجمد في مكانه، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما، وتدلى فكه السفلى في بلاهة وذعر، في حين تراجع الثالث لحظة، ثم لم يلبث أن قفز نحو باب الحجرة، صارخا:
- كارثة أيها العقيد.. كارثة..
وفي لحظة واحدة، تفجر الموقف كله..
وبشدة.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

كانت هيئتى عجيبة مضحكة بالتأكيد، وأنا أحدق في وجه (ا. ص)، عندما بلغ هذا الجزء من قصته، إذ إن الرجل، على الرغم من تهذيبه الشديد، لم يستطع منع نفسه من الضحك، وهو يسألني:
- ماذا هناك؟!
انتبهت فجأة إلى الأمر، فانتفض جسدي انتفاضة خفيفة، وأنا أنتزع نفسي من انبهاري ودهشتي، قائلا:
- هنالك الكثير بالتأكيد، فأنا مندهش.. بل مذهول؛ لأنك تروي لي كل هذا الآن..
بدت الحيرة على وجه السيد (لبيب)، وهو يسألني:
- وماذا في هذا؟!
- هذا يعني أنه قد نجح في الخروج من هذا الأمر حيًّا، وهذا يبدو لي مستحيلا تماما!
سألني (ا. ص) في اهتمام:
- ولماذا؟!

أجبته في انفعال شديد:
- لماذا؟! أتسألني لماذا؟! لقد كشف الإسرائيليون أمرك، وعرفوا الشخصية التي تنتحلها بالضبط، وأنت مازلت داخل وكرهم، محاطا بكل أطقم حراستهم.. ألا يبدو لك كل هذا رهيبًا؟! ألا يبدو معه الخروج بسلام أمرا مستحيلا؟!
صمت لحظة، وكأنما يسترجع تفاصيل الموقف كله، قبل أن يبتسم، قائلا:
- هذا صحيح
لوحت بذراعي عن آخرهما، وأنا أقول في عصبية:
- أنا على حق في دهشتي إذن.
ضحك مرة أخرى، وهو يقول:
- بالتأكيد.
ملت نحوه، قائلا:
- أخبرني بالله عليك، لماذا تركت كل شيء على حاله، في حجرة اجتماعات (درع القادة)؟! بل والأكثر أهمية أن تخبرني: كيف خرجت من ذلك المبني سالما؟!
تراجع في مقعده، وقال:
- أعتقد أن إجابة السؤال الأول أكثر سهولة، إذ إن ما فعلته، في حجرة اجتماعات (درع القادة)، كان مقصودا، ومعدًّا منذ البداية، وأعتقد أنه كان أفضل وسيلة لخداع الإسرائيليين، الذين لن يدركوا حقيقة الموقف، إلا عندما يقرءون سطورك..
قلت في لهفة:
لقد نجحت في القفز بفضولي ولهفتي إلى الذروة.
ابتسم، وقال:
- لم تتعلم الصبر بعد.
ثم تابع في اهتمام:

- عندما بدأت دراسة الخطة في (القاهرة)، كان الرجال يعلمون جيدا أن الإسرائيليين سيكشفون حتما تلك الفجوة، التي أخفي فيها السيد (رفعت) جهاز التسجيل التقليدي، منذ عدة سنوات، عندما يبدءون في تركيب أجهزتهم الحديثة، وسواء عثروا على الشريط المسجل أم لا، فسيدرك خبراؤهم ومحللوهم أننا قد حصلنا منهم على الكثير والكثير من المعلومات لبعض الوقت، وهذا يعني أن معظم هذه المعلومات تفقد أهميتها وخطورتها..

سألته في حيرة:

- ولماذا؟!

أجاب في حسم:

- لأن المعلومات السرية تكتسب قوتها وخطورتها من سريتها ذاتها، ومن كون الخصم يتصور أنه وحده يعلمها، فلو أنه يستخدم مثلا شفرة خاصة، لنقل رسائله لجواسيسه، ونجحنا نحن في الحصول عليها، فلن يمكننا أن نستفيد بها، إلا لو استمر هو في استخدامها، وهذا لن يحدث إلا لو ظل على قناعته بأنها سرية، أما لو أدرك أننا قد كشفنا أمرها، فسيعمل على استبدالها على الفور، مما يفقدنا الفائدة المرجوة منها أيضا.. وهذا يعني أن أقوى ما في حصولك على الأسرار، هو ألا يدرك خصمك قط أنك قد حصلت عليها..

ثم أشار بسبابته، مضيفا:

- وهذا كان أحد الأهداف الرئيسية للعملية..

سألته في اهتمام:

- ألم يكن من الممكن إخفاء الأمر كله عن الإسرائيليين؟!

هز رأسه نفيا، وهو يجيب:

- لو أننا فكرنا في الأمر من هذا المنطلق لفشلت العملية كلها منذ البداية، إذ لم يكن من الممكن أن أنتحل شخصية (ليفي) مثلا، لأنهم كانوا سيدركون هذا حتما، إن عاجلا أو آجلا، لذا فقد كانت الخطة الرئيسية تضع في الاعتبار أن الإسرائيليين سيكشفون الأمر حتما، لذا فقد كان من الضروري أن نضع أمامهم احتمالا منطقيًّا، يصرف أنظارهم تماما عن العملية الفعلية.. وهذا ما دفعني لترك كل شيء على ما هو عليه، بل ووضعت شريط تسجيل جديد في الجهاز، بحيث يبدو الأمر وكأن مهمتي الرئيسية كانت وضع جهاز تنصت وليس استعادة شريط مسجل بالفعل

سألته مبهور:

- وهل أقنع هذا الإسرائيليين؟!

اتسعت ابتسامته، وهو يجيب:

- للغاية.. لقد درسوا الموقف كله فيما بعد، من كل الوجوه، ثم توصلوا بعبقريتهم إلى ما دفعناهم إليه بالضبط، وخرجت تقاريرهم الرئيسية تؤكد أن مهمتي الرئيسية كانت زرع جهاز تنصت تقليدي، في حجرة اجتماعات (درع القادة).

تراجعت، هاتفا في استحسان:

- يا للبراعة!

بدا الفخر في عيني السيد (لبيب)، وهو يقول:

- كل عملياتنا تُدار بهذا الأسلوب.

التفت إليه، قائلا:

- لا تقل لي: إن كل عمليات جهاز المخابرات المصري تنجح بنسبة مائة في المائة، فلن أصدق هذا أبدا..

ضحك، وهو يقول:

- لا يمكنني أن أدعي هذا بالتأكيد، ولا أي جهاز مخابرات، في العالم كله، ومنذ بدء التاريخ، يمكن أن يقول: إن كل عملياته تنجح بنسبة مائة في المائة.. الإحصائيات تقول: إن أفضل نسبة معروفة، في عالمنا هذا، هي ثلاث وثمانون في المائة من النجاحات، مقابل سبع عشرة في المائة من الفشل..

سألته في لهفة:

- وكم تبلغ نسبتنا نحن؟!

بدت لي ابتسامته واثقة للغاية، وهو يقول:

- لا يمكننا ذكرها، ولكن يكفي أن تعلم أنها من أفضل النسب المعروفة، في هذا المضمار.

هتفت في سعادة:

- حقا!

أومأ برأسه إيجابا، قبل أن يشير إلى (ا. ص)، قائلا:

- وأمامك الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة، وربما كان هذا الاستثناء هو الذي صنع من السيد (ا. ص) أسطورة.

تطلعت إلى الرجل مبهورا، وأنا أقول:

- هل يعني حديث السيد (لبيب) هذا أنك لم تفشل طوال عملك قط؟!

صمت لحظة، ثم أجاب في شيء من الحياء:

- إنه يبالغ.

ولكن (لبيب) هتف في حماس:

- لا تصدقه.. ملفه يقول: إنه رجل المخابرات الوحيد في العالم أجمع، الذي حقق نسبة نجاح تعادل مائة في المائة.

تضاعف انبهاري، وأنا أهتف:

- رائع.

تصاعدت حمرة خجل إلى وجه البطل، على نحو أدهشني للغاية، وهو يقول في صرامة:
- دعكما من هذا الحديث الجانبي، ولنعد إلى القضية الرئيسية.
ارتبك السيد (لبيب)، وهو يقول:
- معذرة يا سيدي.. معذرة.
أما أنا، فقد احتقن وجهي خجلا، وعدت استقر على مقعدي في رصانة، في حين تجاوز هو الموقف في سرعة، وهو يستعيد هدوءه، قائلا:
- السؤال الحقيقي هو: كيف أمكنني الخروج من المبنى؟!
غمغمت:
- بالضبط.
تنهد، وقال:
- كان هذا دور القهوة..
قلت في دهشة:
- القهوة؟!
أومأ برأسه إيجابا، وعاد يروي قصة الخروج من قلب الخطر.
وقصة القهوة..
الغامضة.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

٧- ثقب الإبرة..

سرى توتر شديد في عروق (ميرينا)، وهي تضغط أزرار الهاتف، في الموعد المتفق عليه تماما، وخيل إليها أن رنينه قد استغرق دهرا كاملا، قبل أن يأتيها ذلك الصوت الرصين من الجانب الآخر، قائلا:

- من المتحدث؟!

أجابته في سرعة:

- طائر الليل.

كان هذا هو الاسم، الذي أخبروها أن تستخدمه، في حالات الطواري، عندما انتهت كل تدريباتها في القاهرة، واستعدت للسفر إلى (إسرائيل)..

وكان من الواضح أن الرجل يدرك هذا جيدا؛ إذ إنه لم يكد يسمع الاسم، حتى قال على الفور:

- كل شيء مُعَدّ.. اللقاء في الموقع (ص)، في الساعة ألفين وثلاثمائة..

كان هذا كافيا، بالنسبة لها، لتدرك أن اللقاء سيتم عند ميناء قديم مهجور، في طرف (تل أبيب)، في تمام الحادية عشرة مساءً..

وفي اهتمام، سألها الرجل:

- هل ستأتين بشمس أم ليل؟

أجابت في اقتضاب:

- شمس.

تمتم:

- سننتظركِ.

ثم أنهى المحادثة على الفور، فالتقطت هي نفسا عميقا، قبل أن تعيد سماعة الهاتف إلى موضعها في بطء، ثم تلتفت لتلقي نظرة على نفسها في المرآة، وتطلعت بضع لحظات إلى شعرها، الذي اصطبغ بلون أشقر متوهج، قبل أن تغمغم:

- صدقني يا رجل.. الست أميل للشمس، فالليل يناسب بشرتي أكثر.

لم تدر لماذا قفزت أفكارها، في تلك اللحظة إلى (أكرم)..

ولا لماذا خفق قلبها لذكره..

ولكن من المؤكد أنه ما إن لاح وجهه في ذاكرتها، حتى تفجرت في أعماقها موجة من مشاعر شتى، اختلج لها قلبها بين ضلوعها في قوة..

لقد شعرت بالبهجة، والسعادة، والقلق، والخوف، و..

والحب

وكم أدهشها هذا الشعور الأخير!!

إنها لم تلتق به سوى مرات قلائل..

ولم يتبادلا إلا أقل القليل من الكلمات..

ولكنها بالفعل تحبه..

بل هي مبهورة برجولته حتى النخاع..

وليست تدري كيف حدث هذا؟!

ولن تشغل نفسها بالبحث عن الأسباب..

إنها تحبه..

وهذا يكفي..

لا يعنيها حتى أن يدرك هذا..

أو أن يبادلها حبًا بحب..

المهم أن تحبه هي..

وإلى الأبد..

ومع أفكارها، شرد بصرها بضع لحظات، وارتسمت على شفتيها ابتسامة حالمة، ثم لم تلبث أن انتفضت في قوة، وهي تحدق في الساعة الكبيرة، المعلقة على الجدار..
الساعة التي أشارت عقاربها إلى العاشرة والربع، وكان هذا التوقيت يعني أن وقت الرحيل قد حان..
فمع ازدحام طرقات (تل أبيب)، في هذه الساعة، سيكون عليها أن تتحرك على الفور، حتى يمكنها أن تصل إلى الموقع (ص)، في تمام الساعة ألفين وثلاثمائة..
وعلى الرغم منها، تركزت أفكارها كلها على (أكرم)..
ترى ماذا يفعل في هذه اللحظة؟!
وكيف يؤدي مهمته؟!
ومع تساؤلاتها، شعرت بقبضة باردة كالثلج تعتصر قلبها وتعاظم في أعماقها شعور مخيف بأن (أكرم) يواجه خطرا داهمًا..
خطرا بلا حدود.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

عندما اندفع مراقب الشاشات نحو باب الحجرة، وهو يصرخ مستنجدا بالعقيد، كان يتصور أن باستطاعته، إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وكشف ما يفعله (أكرم) في المكان..
ولكنه لم يكن قد بلغ غايته بعد، عندما انفتح الباب بغتة..
وانتفض جسد الرجل في عنف..
بل انتفضت أجساد الرجال الثلاثة في آن واحد، عندما وقع بصرهم على ذلك الذي عبر الباب في سرعة، ثم أغلقه خلفه في قوة، وهو يقول:
- أراهن على أنكم قد كشفتم الأمر.

سقطت قلوب الرجال الثلاثة بين أقدامهم، وهم يحدقون في وجه (أكرم) الذي مازال ينتحل شخصية (ليفي)، والذي أغلق الباب بجسده، مستطردا في صرامة:

- من سوء حظكم أن جدران حجرتكم عازلة للصوت؛ لتضمن لكم الهدوء والعزلة..

انتزع أحد الرجال الثلاثة نفسه من ذهوله وذعره في سرعة، وقفز محاولا بلوغ جهاز الاتصال الداخلي..

ولكن الشاب كان أكثر سرعة وخفة..

لقد وثب نحو الرجل كالليث، واستقبل اندفاعه بلكمة كالقنبلة، ارتد معها الرجل في عنف، ليرتطم بعدد من أجهزة التسجيل، قبل أن يسقط فاقد الوعي..

وفي ذعر، اندفع الرجل الثاني نحو الباب، في محاولة للفرار، في حين انقض الأخير على (أكرم)، صارخا:

- النجدة أيها العقيد.. خيانة.. خيانة..

مال (أكرم) جانبا في خفة، متفاديا انقضاضة المراقب الأخير، ووثبت قدمه في اللحظة نفسها، لتغوص في معدة الآخر، قبل أن يبلغ الباب، ثم قفز إلى أعلى، ودار حول نفسه بمهارة مدهشة، ليركل الأخير في فكه بقدمه اليسرى، والآخر في أنفه باليمنى..

وسقط أحد الرجلين أرضا، وهو يتأوه في شدة، في حين اصطدم الآخر بالجدار، وارتد عنه في عنف، ليستقبله الشاب بلكمتين متعاقبتين سريعتين، تفجرتا في أنفه وفكه، ليسقط كالحجر..

وفي محاولة يائسة، حاول الأخير أن ينهض من سقطته، ويفتح باب الحجرة، ولكن الشاب أمسك كتفه في قوة، قائلا:

- لا تحاول يا رجل.

لوح الرجل بيده في ذعر، وهو يهتف:

- أنت.. أنت لست (ليفي).. (ليفي) الحقيقي ليس قويا إلى هذا الحدِّ!
أجابه الشاب في صرامة:
- استنتاج عبقري يا رجل.. أنا لست (ليفي) بالفعل..
هتف الرجل:
- لن تفلح خطتك أبدا.. العقيد سيراجع بنفسه إجراءات الأمن، بعد نصف ساعة من الآن، وسيكشف أمرك حتمًا..
أجابه الشاب في برود:
- لا تقلق نفسك بهذا الأمر.
ولكن الرجل تابع في عصبية:
- أنهم لن يسمحوا بخروجك من هنا أبدا، قبل الموعد الرسمي لانتهاء النوبتجية، في الثامنة صباحا.. هذا هو القانون، ولن يمكنك إخفاء ما حدث، طوال هذه الفترة.. لن يمكنك هذا قط.
هز الشاب رأسه، وقال في حزم:
- قلت لك: لا تقلق نفسك بهذا الأمر..
قالها، ثم رفع قبضته، مستطردا
- معذرة يا رجل.. لا تأخذ هذا بمأخذ شخصي.
هتف الرجل:
- لا.. أرجوك.
هوى (أكرم) بقبضته على فك الرجل، وهو يغمغم في ضيق:
- إنني مضطر للأسف.

هوى «أكرم» بقبضته على فك الرجل

كان يشعر بضيق شديد؛ لأنه اضطر لضرب رجل أعزل، ولكن ضروريات المهمة كانت تحتم عليه ألا يترك الرجل خلفه، خاصة

وهو يدرك جيدا أن ما فعله سينكشف حتما، خلال نصف الساعة..
وعلى أقصى تقدير..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«مفاجأة يا سيادة المدير..»
هتف رجل المخابرات الإسرائيلي بالعبارة، وهو يندفع إلى حجرة مدير المخابرات، ملوحا بورقة كبيرة في يده، ومستطردا:
- بصمات النقيب (شارون ليفي) لا تتطابق قط مع سجله لدينا.
قفز مدير المخابرات من خلف مكتبه، هاتفًا
- ماذا؟!
وامتقع وجهه بسرعة مدهشة وهو يسأل الرجل:
- هل راجعت الأمر بنفسك؟
أجابه الرجل في توتر شديد:
- مرتين يا سيدى.. الأمر لا يقبل الشك.. ذلك الرجل، الذي يراجع الآن إجراءات الأمن، في مبنى (درع القادة)، ليس النقيب (ليفي)، الذي نعرفه.
اتسعت عينا المدير عن آخرهما، وارتج عليه بضع لحظات، فلم يستطع نطق حرف واحد، على الرغم من خبراته السابقة، ثم لم يلبث أن هتف في حنق، وقد تحول وجهه من الامتقاع إلى الاحتقان الشديد:
- أسرع يا رجل.. اتصل بمبنى (درع القادة)، وأخبرهم أن يلقوا القبض على النقيب (ليفي) مباشرة..
اختطف الرجل سماعة الهاتف، وبدأ يطلب الرقم بالفعل، والمدير يتابع في عصبية:
- لا تجعلهم يقتلونه.. أريده حيًّا بأي ثمن.. لا بد أن نعرف من هو.. من أرسله، وما الذي أتى ليفعله بالضبط..

أتم الرجل الاتصال، وقال في اهتمام:
- (درع القادة)؟ هنا مكتب مدير (الموساد).. الكود السري هو (عفرتوف) هناك أوامر جديدة.. ألقوا القبض فورا على النقيب (ليفي).. (شارون ليفي)..
ثم اعتصرت أصابعه سماعة الهاتف بغتة، وهو يهتف:
- ماذا؟! ماذا تقول يا رجل؟!
سرت قشعريرة باردة، في جسد مدير المخابرات، وهو يهتف به:
- ماذا حدث هناك ماذا حدث!
ولكن الرجل لم يُجب مباشرة..
لقد شمله ذهول عجيب، جعله ينسى ما ينبغي فعله، عندما يلقي عليه رئيسه سؤالا كهذا، وهو يستمع إلى محدثه، على الجانب الآخر، فصاح به المدير في غضب:
- ماذا حدث يا رجل؟!
أدار رجل المخابرات عينية إلى المدير، وهو يقول في ذهول:
النقيب (ليفي) غادر المبني، منذ خمس دقائق..
صرخ المدير في غضب هادر:
- غادر ماذا؟!
ثم اختطف سماعة الهاتف من يد الرجل، صائحا:
- أي قول سخيف هذا؟! من جرؤ على مخالفة الأوامر؟ ألا تدرك أنه من المحظور تماما أن يغادر أحد المبنى، مهما كانت الأسباب، قبل موعد النوبتجية الرسمي؟!
أجابه العقيد، من مبنى (درع القادة)؛ بصوت يشف عن آلام شديدة:
- القانون يستثنى حالات الطوارئ يا سيدى.
صاح به مدير المخابرات في غضب هادر:
- وأية طوارئ تلك، التي استلزمت هذا الاستثناء أيها الغبي؟

أجابه العقيد في سرعة:
- الطوارئ الطبية يا سيدي.. يبدو أن الرجال قد أصابهم نوع من التسمم؛ فقد انتابتهم آلام معوية شديدة، وراحوا يفرغون ما بجوفهم في عنف، على نحو استلزم الاتصال العاجل بقسم الإسعافات الطبية، الذي أرسل قافلة من سيارات الإسعاف، التي حملت عددا من الرجال إلى المستشفى العسكري، كان من بينهم النقيب (ليفي).
احتقن وجه المدير أكثر وأكثر، وكادت أصابعه تغوص في سماعة الهاتف، وهو يقول في غضب ساخط:
- القهوة..
سأله رجل المخابرات في توتر:
- هل ترغب في قدح من القهوة يا سيدى؟!
التفت إليه المدير في حركة حادة، هاتفا:
- لهذا كانوا يبحثون عن المعلومات الخاصة بالقهوة.
قالها، وأنهى اتصاله بالمبني في عنف، ثم أجري اتصالا آخر، وصاح عبر الهاتف، بكل غضب وصرامة الدنيا:
- حالة طوارئ قصوى يا رجل.. لقد نجح جاسوس بارع في التسلل إلى مبنى (درع القادة)، وخرج منه منتحلًا شخصية النقيب (شارون ليفي)، في طريقه إلى المستشفى العسكري، والأرجح أنه لن ينتظر، حتى يصل إلى هناك..
أريد هذا الرجل بأي ثمن هل تفهم؟! بأي ثمن.. انشروا فرق التفتيش والمراقبة في كل الشوارع والطرقات.. راجعوا بطاقات الجميع.. جوازات السفر .. رخص القيادة.. كل ما يمكن فحصه.. راقبوا كل مخارج ومداخل (تل أبيب).. وألقوا القبض على كل ما تشتبهون في أمره.. اعتقلوا أي مخلوق، عند أول بادرة شك.. المهم أن تمنعوا ذلك الجاسوس من مغادرة المدينة،

مهما كانت الأسباب، ثم أنهى ذلك الاتصال الثاني، وعيناه تشتعلان بكل غضب الدنيا.
وفي أعماقه، وبكل الغضب الذي يسري في عروقه، أقسم أن يلقي القبض على ذلك الجاسوس المجهول وبأي ثمن..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«آنسة ميرينا..؟»
انتفض جسد (ميرينا) في عنف، عندما فاجأها ذلك الصوت الرصين، فالتفتت إلى صاحبه في حركة عنيفة، جعلته يشير بيده، قائلا:
- رويدك يا آنسة.. إنه أنا..
حدَّقت لحظة في وجه الرجل، قبل أن تطلق من أعمق أعماق صدرها زفرة حادة، قائلة في عصبية:
- إنني أنتظرك منذ سبع دقائق..
أجابها بنفس الهدوء والرصانة:
- المرور ليس يسيرًا الليلة.. الإسرائيليون يفتشون المارة والسيارات، ومن الواضح أنهم يبحثون عن شخص ما..
انقبض قلبها، وهي تغمغم:
- أعتقد أنني أعرف ذلك الشخص..
صمت الرجل لحظة، قبل أن يجيب:
- وأنا أيضا..
غلفهما الصمت بضع لحظات، بعد أن ألقت قولها هذا إلى أن قطعت هي أيضا حبل الصمت، قائلة في توتر:
- قلت: إن لديك وسيلة للخروج من هنا.
أجاب في سرعة:
- بالتأكيد.
ثم ألقي نظرة على ساعته، مستطردا:

- ولكننا في انتظاره..
رددت مبهوتة:
- في انتظاره؟!
ولهثت أنفاسها، وهي تسأله:
- هل تعني أن...؟
قاطعها صوت هادي رصين، يقول:
- نعم.. هذا ما يعنيه.
خفق قلبها في قوة، لم تشعر بها في حياتها كلها، وهى تلتفت إليه بكيانها كله، وعيناها تتألقان بفرحة غامرة..
كانت ترغب في أن تصرخ باسمه، بكل ما يغمر كيانها من مشاعر..
ولكنها لم تفعل..
انفعالها الجارف الجم لسانها، وكتم صرختها في حلقها، وجعلها تتطلع إليه في حب ولهفة وسعادة وصمت، في حين هتف الرجل الآخر في دهشة:
- رباه! كيف وصلت إلى هنا؟! إنني لم أشعر بك قط.
أجابه الشاب في هدوء، وكأنما أتي من نزهة لطيفة:
- لا عليك..
ثم سأله في اهتمام، وهو يناوله حقيبة من البلاستيك:
- هل أعددت كل شيء؟!
أجاب الرجل في سرعة، وهو يلتقط الحقيبة في عناية:
- (القاهرة) أعدت الأمر بكل دقة كالمعتاد.. ستتسلل الآن إلى هذا الميناء، حيث سينتظركما زورق آلي، له محرك مزود بكاتم محدود للصوت.. إنك تجيد قيادة هذا النوع من الزوارق أليس كذلك؟!
أومأ الشاب برأسه إيجابا، مغمغما:

- بالتأكيد
تابع الرجل، وهو يناوله ورقة صغيرة:
- عظيم.. انطلق به مباشرة إلى هذه النقطة، خارج حدود المياه الإقليمية الإسرائيلية، وفي البقعة المذكورة بالضبط، وتحت جنح الظلام، ستنتظركما غواصة مصرية، لديها أوامر بالتقاطكما فور ظهوركما، والعودة بكما إلى (القاهرة)..
تمتمت (ميرينا) مبهورة:
- غواصة؟!
تجاهل الرجل قولها تماما، وهو يربت على كتف الشباب قائلا:
- هيا.. لا تضيع الوقت.. انطلقا على بركة الله (سبحانه وتعالى).
صافحه الشاب في حرارة ورصانة، وهو يقول:
- أشكرك على كل ما قدمته.
غمغم الرجل في خفوت:
- إنما فعلت ما فعلت، من أجل (مصر)..
ابتسم الشاب، مغمغما:
- حسنا فعلت.
وصافحته (ميرينا) بدورها، وهي تقول في صوت مبحوح:
- أشكرك.
أومأ الرجل برأسه، وهو يقودهم إلى داخل الميناء، حيث وقف الزورق الآلي، الذي أشار إليه، متمتما:
- ها هو ذا.
وثب الشاب في خفة إلى الزورق، وعاون (ميرينا) على الانتقال إليه، ثم أدار محركه في مهارة، واستعد للانطلاق به، فهتف الرجل:
- وداعا.. أتعشم أن نلتقي مرة أخرى.. في (القاهرة).
ابتسم الشاب، مغمغما:

- أتعشم هذا.
تردد الرجل لحظة، ثم قال في تأثر واضح:
- ولا تنس إبلاغ سلامي للسيد (عبد المحسن)..
أجابه الشاب، وهو ينطلق بالزورق الآلي:
- سأفعل بإذن الله.
ضم أدون (بيتون) شفتيه في قوة، وهو يمسك الحقيبة البلاستيكية في عناية، متابعا بعينيه ذلك الزورق الآلي، وهو ينطلق مبتعدا، ويغيب وسط الظلام، ثم تمتم في تأثر شديد:
- على بركة الله (سبحانه وتعالى).
في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كان مدير المخابرات الإسرائيلية يدور في حجرته كالضبع الجريح، وهو يقول لمساعده، في توتر بالغ:
- سيحاول الخروج من (إسرائيل) بأقصى سرعة حتما، ولكنه لن يتجه إلى المطار، لثقته بأننا سنراجع أوراق المسافرين بمنتهى الدقة، وسنكشف أي تزوير محتمل والطريق البرية كلها مراقبة.. كما أن التوغل في (إسرائيل) ليس مأمون العواقب..
وأدار عينية إلى خريطة (إسرائيل) الكبيرة، المعلقة على جدار حجرته، وراح يدرسها ببصره في اهتمام، وهو يتمتم:
- ماذا يتبقى لنا إذن؟!
قال مساعده في حماس:
- ألا يمكن أن يستقل طائرة خاصة إلى (الأردن) أو (لبنان)... أو حتى يحاول عبور (سيناء) بها؟!
هز مدير المخابرات رأسه، مغمغما:
- المصريون ليسوا بهذا الغباء..
ارتفع حاجبا مساعده في دهشة، وهو يقول:
- المصريون؟! ومن قال إنه مصري؟!

أجابه المدير في صرامة:
- ومن سواهم يمكن أن يلعب بهذه البراعة؟!
ثم أشار إلى الخريطة إشارة عامة، مستطردا:
- إنهم يعلمون حتما أن وسائلنا الجوية والدفاعية ستكشف الأمر حتما، ولن تسمح لأية طائرة بالفرار، أو الـ...
بتر عبارته بغتة، وهو يتطلع إلى الخريطة، في اهتمام بالغ، جعل مساعده يسأله في حذر:
- أو ماذا يا سيدى؟!
هتف المدير بغتة:
- البحر.
ارتفع حاجبا مساعده في دهشة، عندما لم يجد أدنى ارتباط، بين سؤال وجواب رئيسه، وغمغم في حيرة:
- أي بحر؟!
أجابه مدير المخابرات في انفعال:
- البحر الأبيض المتوسط.. إنه أفضل وسيلة للفرار، مع كل ما أحطنا به المدينة من وسائل الأمن والتفتيش والمراقبة، إنه سيسعى إلى الفرار بحرا بالتأكيد.
هتف مساعده في حماس:
- يا للشيطان! هذا صحيح يا سيدى.
التفت إليه المدير في حدة، قائلا:
- أبلغ حرس السواحل، والقوات البحرية بالأمر.
أجابه مساعده في حماس:
- سأفعل على الفور يا سيدى.
صاح به المدير:
- هذا لن يكفي.. أريد منك أن تستقل بنفسك هليكوبتر بحرية، وتنطلق بها بحثا عن زورق ألي، ينطلق في قلب الليل.

استخدم مناظير خاصة للرؤية الليلية، واحمل مدفعا اليا قويا وانعقد حاجباه في شدة، وهو يضيف:
- واتس كل الأوامر، الخاصة بالإبقاء على ذلك الجاسوس حيًّا.. السفه فور رؤيته.. المهم ألا ينجح في الفرار أبدا، ودق سطح مكتبه بقبضته، مستطردا بكل غضب الدنيا:
- هل تفهم؟! أبدا.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

«إنني لست إسرائيلية»
نطقت (ميرينا) الكلمات في خجل خافت، والزورق البخاري ينطلق وسط البحر، في قلب الليل، فالتفت إليها (أكرم) بابتسامة هادئة، وهو يقول:
. لقد أخبرتني هذا من قبل.
ازدردت لعابها، قائلة:
- هناك ما لم أخبرك به بعد.
سألها:
- وما هو؟!
صمتت لحظة، وهي تداعب خصلة من خصلات شعرها قبل أن تجيب بالعربية:
- أنا مصرية.
التفت إليها بدهشة حقيقية، هاتفا:
- مصرية؟!
بدا وكأن دهشته قد أسعدتها للغاية، وهي تقول:
- نعم.. أنا مصرية أبا عن جد.. اسمي الحقيقي ليس (ميرينا)، وإنما (لبني).. (لبنى وجدي)..
تطلع إليها لحظة في انبهار، قبل أن يبتسم في إعجاب قائلا:
- رباه! إننا ننتمي لجهاز مخابرات فذ بالفعل قاتل في سعادة:

- بالتأكيد.
ثم جلست على طرف الزورق، وقالت بلهجة صافية، وكأنما أراحها أن تلقى ذلك الحمل عن كاهلها، بعد كل هذه السنوات:
- لقد تم زرعي هنا منذ خمس سنوات، بعد أن صنعت لي المخابرات المصرية تاريخا. متقنا، اعتمادا على كون والدتي يوغسلافية الأصل، وعلى إتقاني التام للغة اليوغسلافية، بلهجة أبناء (زغرب).. ولقد نجحت اللعبة على نحو مدهش..
وأصبحت مهاجرة جديدة، في المجتمع الإسرائيلي، ثم لم تلبث الأمور أن تطورت في سرعة، لأجد نفسي سكرتيرة عسكرية، في وزارة الدفاع الإسرائيلية، وتحت يدي كومة من الأسرار والمعلومات، أقوم بنقلها إلى (القاهرة)، أولا فأول..
ثم زفرت مرة أخرى في حرارة، قبل أن تقول:
- ولكن هل تصدقني لو أخبرتك أنني كنت أتمنى العودة إلى (مصر) طوال الوقت؟!
أومأ برأسه إيجابا، وغمغم:
- أصدقكِ بالطبع.
ابتسمت في ارتياح أكثر، وهي تقول:
- الهاجس الوحيد، الذي ظل يطاردني في شراسة، طوال السنوات السابقة، هو أن أموت، وأدفن بعيدا عن (مصر)..
لا يمكنك أن تتصور كم كان يؤلمني هذا، حتى صارت أمنيتي الوحيدة هي أن..
لم تكن قد أتمت عبارتها بعد، عندما دوت تلك الرصاصات..
رصاصات قوية، انطلقت من المدفع الآلي، الذي يحمله مساعد مدير المخابرات الإسرائيلي، داخل الهليوكوبتر البحرية، التي برزت فجأة، بمحركاتها الكاتمة للصوت..
واتسعت عينا (لبنى) عن آخرهما..

وانطلقت من حلقها شهقة قوية، تجمع ما بين الدهشة والذعر والألم، وهي تهتف:
- رباه! (أكرم).. إنني..
وقبل أن تكتمل عبارتها، كانت تسقط جثة هامدة بين ذراعيه، في نفس اللحظة التي دوت فيها رصاصات مدفع الإسرائيلي مرة أخرى، لتخترق جسم الزورق الآلي..
وبكل غضب الدنيا، انتزع الشاب مسدسه، صارخا:
- أيها الأوغاد..
ولكن الهليوكوبتر دارت حول نفسها دورة كاملة، ثم عادت تنقض على الزورق الآلي في شراسة..
وانطلقت رصاصات المدفع الآلي نحوه، في غزارة رهيبة.
وبلا هوادة.

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

وقبل أن تكمل عبارتها ، كانت تسقط جثة هامدة بين ذراعيه . . .

٨- النهاية..

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتي مدير المخابرات العامة المصرية، وهو يقف أمام الرئيس السادات)، قائلا:
- المهمة نجحت يا سيادة الرئيس.
تألقت عينا الرئيس في فخر وإعجاب، وإن حافظت ملامحه على نفس الهدوء، الذي أطل من صوته، وهو يقول:
- إذن فقد فعلها ابن (صدقى)..
أشار مدير المخابرات بسبابته، وهو يقول في حسم فخور:
- وبراعة منقطعة النظير يا سيادة الرئيس.
نفث الرئيس دخان غليونه، وابتسامته تتسع أكثر وأكثر، وعيناه تشردان في الفراغ، وكأنما يسترجع ذكرى قديمة، قبل أن يهز رأسه، متمتما:
- حقا.. هذا الشبل من ذاك الأسد.
ثم أدار عينية إلى مدير المخابرات، متسائلا:
- وهل عاد الفتى سالما؟
أجابه المدير في سرعة:
- لقد اتخذنا كافة الإجراءات اللازمة لإعادته يا سيادة الرئيس.
ثم أبتسم، مستطردا:
- ولكن الشريط في أمان تام الآن، وسيصل إلى (ألمانيا) صباح الغد، حيث سيتسلمه مندوبنا هناك، ويعود به، على أول طائرة إلى (القاهرة).
لوح الرئيس بسبابته، قائلا في حزم:
- المهم ابننا يا رجل.. عودته سالما أكثر أهمية بالنسبة لي، من استعادة ذلك الشريط.

وافقه مدير المخابرات بإيماءة من رأسه، وقال:
- بالتأكيد يا سيادة الرئيس.. بالتأكيد.
هز الرئيس رأسه مؤكدا، قبل أن يسأل:
- ومن سيخرج الشريط من (إسرائيل)؟!
أجابه مدير المخابرات:
- واحد من أهم عملائنا هناك يا سيادة الرئيس، وأحد أبرز رجال المجتمع الإسرائيلي، وأكثرهم بعدا عن الشكوك.. لقد ساعد رجلنا على الفرار، عن طريق البحر، بعد أن تسلم منه الشريط، وسيسافر به غدًا إلى (ألمانيا).. ومن سخرية القدر أن رفيق رحلته هو أركان حرب وزارة الدفاع الإسرائيلية شخصيا، فهو أحد أصدق أصدقائه، ومن الطبيعي ألا يتطرق إليهما أدنى شك.
ابتسم الرئيس في إعجاب، وهو يهز رأسه، متمتما:
- عظيم.. عظيم..
ثم رفع رأسه، مستطردا:
- المهم أن يعود ولدي سالما.
التقط مدير المخابرات نفسا عميقا، وهو يقول:
- بإذن الله يا سيادة الرئيس.. بإذن الله..
ولكن عقله كان يتساءل في قلق: تُرى أين (أكرم) الآن؟!
أين؟!

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

كانت لحظة دقيقة رهيبة، تلك التي يواجهها (أكرم)، في قلب البحر..
لقد انطلقت رصاصات المدفع الآلي نحوه فى غزارة، واخترقت جسم الزورق الآلي ومحركه، الذي اشتعلت فيه النيران، والشاب يقف فى ثبات مدهش، ويطلق رصاصات مسدسه الصغير نحو الهليوكوبتر..

ولم يكن القتال متكافئا أبدا، في ذلك الموقف، فمساعد مدير المخابرات الإسرائيلي كان يرتدي منظارا خاصا للرؤية الليلية، ويحمل مدفعا آليا قويا، يطلق منه النيران كالمطر، في حين لم يكن (أكرم) يملك سوى مسدسه الصغير..
وإرادته الكبيرة..
وفي زهو منفعل، هتف مساعد مدير المخابرات الإسرائيلي:
- لقد ظفرنا به.. لقد..
قبل أن يتم عبارته، اخترقت رصاصة من رصاصات (أكرم)، منتصف جبهته تماما، فاتسعت عيناه عن آخرهما، وسقط المدفع الآلي من يده، فهتف قائد الهليوكوبتر في هلع:
- ما.. ماذا حدث؟!
قبل حتى أن يكتمل هتافه، كان الإسرائيلي يهوى من الطائرة إلى البحر..
وفي نفس اللحظة تقريبا، دوي الانفجار..
انفجر الزورق الآلي في عنف، بتأثير النيران، التي اشتعلت في محركه، وأضاء المنطقة كلها، وشظاياها تتطاير، في دائرة واسعة رهيبة..
وبحركة آلية، جذب طيار الهليوكوبتر، عصا القيادة، فارتفعت به الطائرة عالية، وهو يهتف، عبر جهاز الاتصال اللاسلكي:
- من (هـ - ١) إلى القيادة.. من (هـ- ١) إلى القيادة.
كانت الشظايا تتساقط في البحر، عندما أتاه صوت قائده، يقول:
- من القيادة إلى (هـ -١).. ماذا يحدث عندك؟!
دار الرجل بالهليكوبتر، حول حطام الزورق، وهو يجيب:
- رجل المخابرات الذي يرافقني، لقي مصرعه، وسقط في البحر.. أرسلوا زورقا لانتشال جثته.. أما الجاسوس الذي كنا نطارده، فقد انفجر به الزورق الآلي، ولقي مصرعه على الأرجح.

مرت لحظة من الصمت، قبل أن يأتيه صوت قائده، قائلا في صرامة آمرة:
- حدد الموقع، وعد على الفور يا (هـ - ١)، وسنرسل زورقا، وعددا من رجال الضفادع البشرية، لانتشال جثة رجل المخابرات، وفحص المنطقة..
قال الطيار:
- عُلِم وسيُنفذ.
ثم دار دورة أخيرة بالهليكوبتر، حول حطام الزورق البخاري، قبل أن يغمغم:
- نعم.. لقد لقي مصرعه بالتأكيد..
نطقها، وانطلق مبتعدا، وعائدا إلى قاعدته..
وعندما تلاشى ازيز الهليوكوبتر، برز رأس (أكرم) من تحت الماء، وهو يحمل جثة (لبنى)، التي فحصها مرة أخيرة، وقال في حزم:
- اطمئنى.. سيتحقق ما تمنيته.. مهما كان الثمن..
وأمسك جثتها في قوة، وتطلع لحظة إلى النجوم، ليحدد موقعه واتجاهه، ثم راح يسبح، متجها نحو نقطة اللقاء بالغواصة المصرية..
ويسبح..
ويسبح..
ويسبح..

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

از دردت لعابي في صعوبة، عندما توقف (١. ص) عن الحديث، وقاومت في صعوبة دمعة كبيرة، تكونت في عيني، ولاحظت أنه هو نفسه يقاوم انفعالا جارفًا، وهو ينهض مغمغما بصوت خافت مجروح:
- معذرة.. سألقي بعض الأوامر لخادمي، وأعود على الفور.

تابعته ببصري في تأثر، وهو يبتعد في خطوات سريعة، حتى لا نشهد لحظات حزنه وتأثره، ثم التفتُّ إلى السيد (لبيب)، وسألته في خفوت:

- ماذا حدث بعد هذا؟!

هز رأسه، قائلا:

- ملحمة حقيقية.. لقد كانت المسافة، التي تفصله عن موقع الغواصة كبيرة، والماء بارد كالثلج، وجثة (لبنى) ثقيلة للغاية، في مثل هذه الظروف، وكان من الطبيعي أن يتخلى عنها، حتى يمنح نفسه فرصة للنجاة، و..

توقف لحظة، ليزدرد لعابه بدوره، ويهز رأسه فى بطء، قبل أن يكمل:

- ولكنه لم يفعل.

سألته مبهورا:

- هل أعادها إلى (مصر)؟!

أومأ برأسه إيجابا، وقال بصوت متهدج:

- قال في تقريره: إن هذا حقها.. لقد وهبت حياتها لـ (مصر)، ومن حقها أن تدفن في تراب (مصر)، كما كانت رغبتها دائما.

تراجعت بانبهار أكثر، وأنا أتمتم:

- يا له من رجل!

هز (لبيب) رأسه، مغمغما:

- بل قل: يا له من أسطورة!

حاولت أن أقول شيئا..

أي شيء..

ولكن لساني انعقد في حلقي، ولم أستطع النطق بحرف واحد، حتى عاد (١. ص) إلى المجلس، وقد استعاد هدوءه ورصانته ورباطة جأشه..

عندئذ انتزعت نفسي من سجنها، وقلت بصوت مختنق مبحوح:
- الآن علمت لماذا تحتفظ بصورتها؟!
سألني في حيرة:
- صورة من؟!
أشرت بإبهامي إلى ما خلف ظهري، وأنا أجيب:
- صورة (لبنى) التي تحتفظ بها في فيلتك في (فايد).. تلك الصورة الكبيرة على الجدار..
أطلَّ حزن عميق من عينيه، وهو يبتسم، قائلا:
- آه.. إنك تقصد تلك الصورة..
ثم اتسعت ابتسامته قليلا، وهو يضيف:
- إنها ليست (لبني)..
كان هذا الجواب مفاجأة مدهشة بالنسبة لى، فهتفت:
- ليست (لبنى)؟!
أومأ برأسه إيجابًا، فتابعت بسرعة:
- من هي إذن؟!
صمت لحظات طويلة هذه المرة، وشرد ببصره وأفكاره على نحو لم أعهده فيه من قبل، ثم لم يلبث أن انتزع نفسه من كل هذا، وهو يقول:
- هذه قصة أخرى..
قلت في لهفة:
- كلي آذان مصغية.
ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتيه، في حين هبَّ السيد (لبيب) من مقعده، هاتفا:
- لا.. ليس الليلة..
سألته معترضا ومستنكرا:
- ولماذا؟!

أشار إلى ساعته، مجيبا في حزم:
- لأنها الثالثة والربع صباحا الآن..
اتسعت عيناه عن آخرهما، وأنا أهتف:
- إلى هذا الحد؟!
أشار (ا. ص) بيده، قائلا:
- أنتما هنا على الرحب والسعة..
شعرت بالخجل، وأنا أنتزع نفسي من مقعدي في صعوبة وأنهض، قائلا:
- ولكن الوقت متأخر بالفعل..
تصافحنا في حرارة، ثم قادنا الرجل إلى الخارج، وصاحبنا حتى بلغنا السيارة، ثم صافحني ثانية، وهو يقول:
- إنه لمن دواعي سروري أن ألتقي بك ثانية..
هتفت بكل حرارة:
- ومن دواعي فخري أن التقيت بك يا سيدى.
ثم أمسكت يده، مستطردا في لهفة:
- ولكنني أريد وعدا منك بأن تروى لي يوما قصة صاحبة الصورة.
تبادل نظرة صارمة، مع السيد (لبيب)، قبل أن يشد على يدي، قائلا:
- بإذن الله.
وكان هذا آخر ما سمعته منه، قبل أن تنطلق بنا السيارة عائدة إلى (القاهرة)
وطوال طريق العودة، لم أتبادل كلمة واحدة مع السيد (لبيب)..
لقد أغلق عينيه، وترك جسده يسترخي في مقعده، كما لو أنه سيغيب في نوم عميق..
أما أنا، فقد رحت أسترجع كل تفاصيل اللقاء، وأتوقف عند بعض اللحظات لأراجعها، وأدرسها، وأفحصها، وأمحصها

بمنتهى الدقة..
وفي أعماقي، أخذت أستعيد حديثا كله مرة..
ومرة..
ومرات..
وفي كل مرة، كان شعوري بالانبهار والفخر يتضاعف..
ويتضاعف..
ويتضاعف..
وفي كل مرة، كنت أزداد إيمانا بأنني لم أكن أجالس شخصا عاديا..
بل أسطورة..
أسطورة، سيتوقف عندها القراء حتما، عندما تصدر سلسلة كاملة عنها..
ومن المؤكد أن أحدا لن يستوعب هذا الأمر في سهولة..
سينبهر به البعض، ويهاجمه البعض الآخر بمنتهى العنف والشراسة..
ولكن من المؤكد أيضا أنه سيجذب انتباه الجميع، كما جذب انتباهي، وأنا أستمع إلى مغامراته المستحيلة..
وكما امتلأت نفسي بكل الفخر والاعتزاز والسعادة، ليس لأنني قد فزت بشرف لقائه شخصيا فحسب، ولكن لأن القدر كان من السخاء، حتى إنه ربط اسمي بذلك الاسم، الذي أطلقته عليه في سلسلة رواياته..
إلى الأبد..
ويا له من شرف!!
بلا حدود..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الي الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- اللقاء الثاني..
٢- المهمة..
٣- الشفرة..
٤- ميرينا..
٥- شكوك إسرائيلية..
٦- قلب الخطر..
٧- ثقب الإبرة..
٨- النهاية..

Notes

[←1]
راجع (أوراق بطل) في كتاب (كوكتيل ٢٠٠٠) الخامس والعشرين.

[←2]
قام فريق (متميزون) للكتب النصِّية بنشر هذا الكتاب النادر.

[←3]
أمان: الاسم المختصر، الذي يطلق على المخابرات العسكرية الإسرائيلية، وهي المقابل للمخابرات الحربية لدينا.

[←4]
الشين بيت: جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي، وهو مشابه المباحث أمن الدولة في (مصر)..

[←5]
طرحت شركة (سونى) اليابانية أجهزة تسجيل من هذا الطراز في أوائل التسعينات.

[←6]
راجع قصة العدد (أوراق بطل)، في (كوكتيل ٢٠٠٠).. العدد (٢٥)

[←7]

لم يكن الكمبيوتر مستخدما لفحص البصمات آنذاك.

[←8]

الفولت: هو الوحدة العملية للقوة الدافعة الكهربية وفرق الجهد، وهي عبارة عن قوة الدفع الكهربائي، أو فرق الجهد، التي تنتج تياراً مقداره أمبير واحد، عندما تؤثر تأثيرا ثابتا على موصل، مقاومته الكهربية أوم واحد.

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

أسوار القلب

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

فريق متميزون

E-BOOK

2019

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

..سلسلة كوكتيل 2000

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

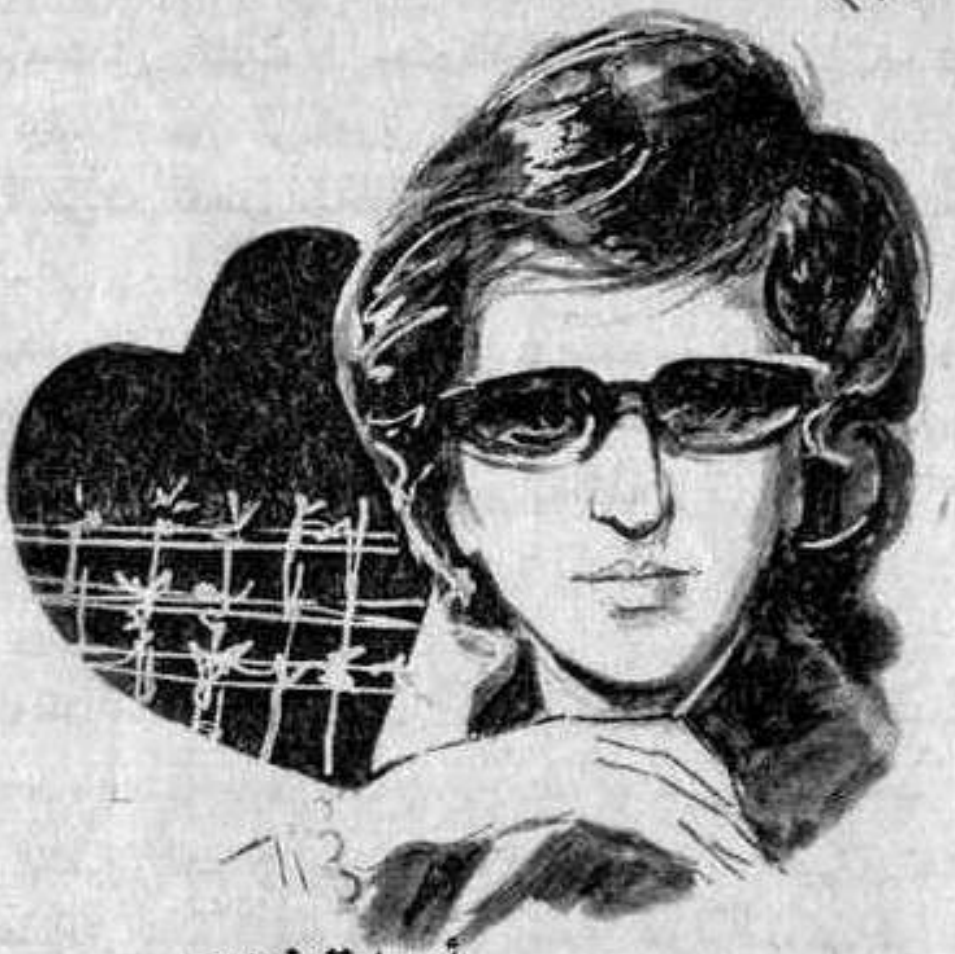

أوراق زهور

أسوار القلب

(قصة كاملة)

من روائع د. نبيل فاروق

المنشورة بسلسلة

كوكتيل 2000

(قصص العدد)

أوراق زهـور

أسـوار القلب

1- اعتــراف..

لست أدري كيف أبدأ معكم قصتي هذه!

كيف أرويها على الورق!

إنني لم أتصور أبدا أن يأتي يوم، أحتاج فيه إلى نقل مشاعري، بأية صورة من الصور..

حتى الكتابة..

وحتى لو كنت أنقل هذه المشاعر النفسي فقط..

ولكن شيئا ما في أعماقي تغير بالتأكيد..

وهذا يدهشني..

ويقلقني..

ولكن مهلا.. قبل أن أروي لكم قصتي، دعوني أقدم لكم نفسى...

اسمى (نجوى).. (نجوى حلمي).. عمري ثمانية وعشرون عاما.. تخرجت منذ أربعة أعوام فحسب في كلية التجارة، التي قضيت فيها حوالى ست سنوات كاملة، لم أبال خلالها بالنجاح أو الرسوب، كما لو أنني قد التحقت بها فقط لاستكمال الشكل الاجتماعي، والحصول على لقب (جامعية) الذي يرفعني إلى درجة محترمة في المجتمع..

ولكنني، ومنذ كنت في الثامنة عشرة من عمرى، أعمل في مجال يختلف تماما عن عالم التجارة والاقتصاد، وإدارة الأعمال..

في مجال السياحة..

زملائي وزميلاتي كانوا ينظرون إلى بإعجاب وانبهار؛ لأنني تعلقت بالحياة العملية مبكرا، وأصبحت أحصل على راتب جيد، وخبرة لا بأس بها في هذا المجال..

هذا، لأن أحدا منهم لم يفهم أو يدرك لماذا اخترت العمل، في هذه السن المبكرة..

الواقع أنني ابنة متوسطة في أسرتي، الى شقيقة تكبرني وشقيق يصغرني، وهذا يضعني في موقف سخيف، فشقيقتي الكبرى هي البكرية المدللة، وشقيقي الأصغر هو الولد، الذي كاد أبي يطير فرحا لمولده، وهو آخر العنقود، الذي يحظى بكل الحب والدلال..

أما أنا، فلا أحد يشعر بى..

لا أحد يهتم بمشاعري، أو أحاسيسي، أو يبالي باهتماماتى وميولى..

لا أحد..

حتى عندما أصاب بالمرض، وأرقد في فراشي محمومة يكتفون بالبحث عن بقايا المضاد الحيوي، الذي ابتاعوه بسرعة البرق، عندما سعلت شقيقتي الكبرى مرة، أو مخفض الحرارة، الذي خرج والدي لشرائه بعد منتصف الليل، عندما ارتفعت درجة شقيق الأصغر نصف درجة، بعد ثلاث ساعات من اللهو في الشارع تحت شمس الصيف..

. وبعدها لا أحد يسأل أو يهتم.. كنت أتناول الدواء بنفسي، وأغمر رأسي بالماء البارد مرات ومرات، حتى أشفى تماما، ويستعيد جسدي صحته، وتعاني أعماقي من جرح غائر في المشاعر..

ثم اعتدت عدم اهتمامهم بى، وألفته، وبدأت أرفض بنفسي أن يبدي أحدهم ولو لمحة واحدة من الاهتمام تجاهى، حتى لو كانت مجرد السؤال عن صحتي..

وفي أعماقى، تولدت رغبة قوية في أن أثبت لهم جميعا أنتي الأفضل، وأنهم أخطئوا كثيرا بتجاهلي..

ولم أعد ألجأ لأحد منهم قط، حتى أبي، لم أعد أطالبه بمصروفي، وهو لم يسألني يوما عما إذا كنت أحتاج إليه أم لا، وكأنما ارتاح لعدم مطالبتي به..

وهكذا التحقت بالعمل، في أول فرصة لاحت لى لذلك.

وتفانيت فيه بكياني كله..

كنت أريد أن أثبت للجميع أنني ناجحة، قوية.. وأنني أفضلهم..

ونجحت في عملي، في هذه السن المبكرة، واكتسبت فيه خبرة لا بأس بها، وحصلت منه على دخل جيد، كنت أبتاع منه كل ما أحتاج إليه من ثياب، وأحذية، وحقائب، وأدوات زينة.. وحتى الكتب والمراجع الجامعية..

ولم يتحمل والدي قرشا واحدا بشأنى، منذ ذلك الحين، ولم يحاول إخفاء هذا، وإنما راح يعلنه للجميع في فخر، مؤكدا أنني أفضل أبنائه، وأنجحهم..

وعلى الرغم من هذا، فإن شيئا لم يتغير..

إلا إلى الأسوأ..

صحيح أن الجميع اعترفوا بنجاحي في مجال السياحة، إلا أن هذا لم يدفعهم إلى الاهتمام بي، بل على العكس، زاد من لا مبالاتهم

بوجودى، متصورين أن (نجوى) أصبحت أقوى وأصلب من أن يشغلوا أنفسهم بأمرها..

والعجيب أتنسى تقمصت نفس الشخصية، التي أضفوها عليّ، مع مرور الوقت أصبحت أكسو نفسي بغلاف من القوة والصلابة.. وربما الصرامة أيضا، وخصوصا في عملي، حيث تتعرض الأنثى - في المعتاد - إلى كثير من المضايقات، التي تحتاج منها إلى الحزم والصرامة واللباقة معا، حتى لا تفقد جديتها في العمل، أو احترام الزملاء والعملاء لها..

وبعد تخرجي في كلية التجارة، التي تعثرت فيها طويلا، ازداد تعلقي بالعمل، وازددت انغماسا فيه، وكأنني أجد فيه السلوى والاهتمام، اللذين أفتقر إليهما في منزلي..

كنت أعمل طوال الوقت، وأبذل أضعاف أضعاف ما يبذله الزملاء في العمل، على الرغم من حصولي على الأجر نفسه، الذي يحصل عليه الآخرون، وتصديت في صرامة للكثيرين، الذين حاولوا إلقاء شباكهم حولي، والعزف على أوتار مشاعرى والعجيب أنني، وطوال سنوات العمل والدراسة، لم أشعر بالانجذاب تجاه أي رجل التقيت به.. بل على العكس، كنت أشعر وكأنني أكثر قوة وحزما منهم جميعا، وأن قلبي لا يمكن أن يخفق لأيهم، مهما كانت الظروف..

ولم يرق هذا الأمر لأمي أبدا..

كانت كأي أم مصرية، تريد أن تفرح بابنتها، وتطمئن إلى أنها قد استقرت في منزل زوجها، وصارت زوجة، وربة أسرة، وأم..

وكان هذا أكثر شيء أرفضه وأتحاشاه، في العالم كله..

فكرة الزواج كانت تصيبني بالذعر والفزع، وأنا أتخيل نفسي داخل منزل، يجهدني تنظيفه وتنسيقه، من الصباح إلى المساء، وبه طفل أو طفلان، لابد من رعايتهما والاعتناء بهما وبمتطلباتهما، وبعدها يعود زوجي إلى المنزل، مطالبا بمن يعتني به، ويتزين له، ويعد طعامه وشرابه، وثيابه، و...

لا.. مستحيل! لا يمكنني أن أتخيل نفسي في هذا الموقف قط، على الرغم من أن أمي تستحثني عليه طوال الوقت، وخاصة بعد زواج شقيقتي الكبرى، وسفرها مع زوجها إلى مقر عمله، في إحدى دول النفط.

ولم تتوقف أمي عن محاولات تزويجي أبدا، ولم أتوقف أنا عن الرفض بكل إصرار وعناد، بل ومكابرة في بعض الأحيان..

وتحولت - عمدا - إلى آلة فرز دقيقة، أرفض هذا لأنه أصلع وذاك لأنه لا يحسن انتقاء ثيابه، وثالث لأن أمه لم تحصل على شهادة جامعية، ورابع لأن شقته في منطقة غير ملائمة، و...

كل هذا وأمي تشد شعرها غيظا، وتحاول إقناعي بأن كل هذه الأسباب لا تعيب الرجل، الذي لا ينقص من قدره سوى جيبة، ومقدار ما يحويه من أموال، على حد قولها، دون أن تدرك أن الذي أرفضه فعليا ليس هذا أو ذاك..

إنها فكرة الزواج نفسها..

بل لقد كنت أرفض مجرد فكرة الارتباط بأي رجل كان، لأنني لم أومن بوجود رجال حقيقيين في زمننا هنا.

حتى قابلت (رأفت)..

وهنا بدأت قصتي..

قصتي الحقيقية..

☆ ☆ ☆

2 - رأفت..

منذ تخرجت في كلية التجارة، وابتلعتني دوامة العمل في مجال السياحة، انكمشت دائرة معارفي إلى حد كبير، وأصبحت تقتصر على ثلاث من الصديقات فحسب.. (سمية)، و (ليلى)، و (نيفين)، وثلاثتهن لم يعملن أبدا في مجال السياحة، وإنما كانت الأولى صديقتي منذ سنوات الدراسة، والثانية جارتي، والثالثة زميلة لشقيقتي الكبرى، شعرت بالارتياح والصفاء معي، بأكثر مما شعرت بهما مع شقيقتي فارتبطنا بصداقة وثيقة، لم تنفصم عراها قط، طوال سنوات تعارفنا الطويلة..

وفي ذلك اليوم، كنت مدعوة إلى حفل عشاء بسيط، أقامه خطيب (نيفين) لصديقاتها وأصدقائه واحتفالا بعقد قرانهما، الذي اقتصر على حفل بسيط محدود، لم يحضره سوى أقاربهما المقربين..

وكالمعتاد، كنت محط أنظار الجميع، على نحو يثير حسد الأخريات، فقد نسيت أن أخبركم أنني أتمتع بجمال يتجاوز الحدود الطبيعية، وبقوام جميل، أبذل جهدا خرافيا للحفاظ عليه والعناية به، وببشرة بيضاء صافية، أستحم ثلاث مرات يوميا، لأحافظ على نقائها..

وأنا أشعر دائما بالزهو والسعادة، في مثل هذه المواقف وبأنني نجحت في أن أصبح الأفضل، حتى في مضمار الأنوثة، الذي أرفض خوض السباق الطبيعي فيه..

ثم وصل (رأفت)..

لم أشعر بقدومه في البداية، إلا أنني لاحظت نظرات الجميع إلى بقعة ما خلف ظهري، ولمحت في عيون صديقاتي نظرة مبهورة، نفهمها نحن بنات حواء، وقبل أن ألتفت إلى حيث ينظرون، سمعت من خلفي صوتا مفعما بالرجولة، يقول:

.- معذرة لتأخري، كنت أنهي بعض الأعمال المهمة..

نهض الجميع لمصافحته، حتى صديقاتي الثلاث، في حين تعمدت أنا أن أظل جالسة، حتى يصافحني دون أن أنهض..

كما تقتضى قواعد اللياقة و (الإتيكيت)، و...

ودار (رأفت) حول المائدة ليصافحهم، ودخل مجال رؤيتي.

وانتفض قلبي بين ضلوعي في عنف، كما لو أصابته صاعقة قوية، أطلقتها السحب في ليل عاصف..

مستحيل! لا يمكن أن يكون هناك رجل كهذا، في زمننا المحدود..

رجل تشف كل لمحة من لمحاته عن الرجولة، وتنطق بها..

بل تصرخ بها..

رجولة من ذلك النوع الفواح، الذي تشم رائحته من مسافة ألف كيلومتر، وتتعرفه فور أن تقع عيناك عليه..

وفي حماس، قدمه لي خطيب (نيفين)، قائلا:

- صديقى (رأفت).. معيد بقسم البيولوجيا، في كلية العلوم..

وبابتسامة رقيقة جذابة، صافحني (رأفت)، وهو يقول:

- فرصة سعيدة جدا يا آنسة (نجوى).

حاولت أن أقول شيئا.. أي شيء، إلا أن لساني انعقد في حلقي، ولم يسمح لى سوى بهمهمة خافتة غير مفهومة، وأنا أسحب أصابعي الباردة كالثلج من بين أصابعه القوية، التي تركت يدي تفلت في رقة مهذبة، قبل أن يحتل المقعد المواجه الي مباشرة، بين (نيفين) وخطيبها..

إنني لم أومن في حياتي كلها بما يطلقون عليه اسم الحب من أول نظرة..

بل ولم أؤمن بالحب نفسه..

ولكنني، وبعد نصف ساعة فقط من وصول (رأفت)، وحديثه الممتع الهادئ، أدركت أن المعجزة قد حدثت..

وأنني وقعت في الحب.. بل وغرقت فيه حتى أذني..

ولأول مرة في حياتي، لم يعد اهتمام الآخرين يعنيني، بل

أصبحت أتمنى أن يبدي شخص واحد فحسب اهتمامه بي..

(رأفت)..

منذ احتل مقعده على المائدة، سيطر بلباقته على المجلس تماما، وراح يتحدث بصوته القوي، الذي تمتزج فيه الرجولة

بالرقة والأدب، وبكلمات واضحة واثقة، وأسلوب انبهر به الجميع، فأعاروه آذانهم، وعيونهم، ومشاعرهم..

والعجيب أنني شعرت بغيرة قوية..

كنت أتمنى - ولأول مرة - أن تقتصر رجولته ورقته وقوته عليّ وحدى، من دون الأخريات، اللاتي بدون مبهورات به، وبحديثه وشخصيته..

تم تصاعد في أعماقي بغتة ذلك الرفض العنيف للرجال والحب..

وخيل إليّ أن حديثا عنيفا يدور، بيني وبين عواطفي الخفية:

- لا تجعليه يخدعك.. إنه مجرد رجل..

- مثله لا يطلق عليه مجرد رجل.. بل قل: إنه الرجل.

- وما الفارق؟!

- الألف واللام.. أداة التعريف، التي تؤكد أنه يختلف عن الآخرين..

- وفيم يختلف؟!

- في أنه رجل، وبمعنى الكلمة..

- تقولين هذا؛ لأنك وقعت في حبه!

- ومن يمكنها أن تقاوم حب رجل كهذا؟!

- وماذا لو وقع هو الآخر في حبك؟؟

- سأشعر أنني دخلت الجنة..

- حتى لو طلبكِ للزواج؟!

لم يكد خاطر الزواج يقفز إلى ذهنى، حتى سرت في جسدى كله قشعريرة باردة، وتصاعدت نبرة خوف وتوتر إلى أعماقى، ووجدت نفسي أحدق فيه بشدة، على نحو جعله يتوقف عن الحديث بغتة، ويسألني في مزيج من اللهفة والجزع والقلق..

وبرجولة كادت تحطم البقية الباقية من مقاومتى:

- آنسة (نجوى).. هل تشعرين بالتعب؟!

كنت أرغب في الإجابة بالنفي، حتى أحتفظ بتلك الصورة القوية، التي رسمتها لنفسي، إلا أنني فوجئت بلساني يقول في توتر ملحوظ:

- نعم.. بالكثير من التعب..

فجر قولي الموقف كله، وتحرك الجميع في قلق ولهفة يحاولون إسعافي، أو إحضار طبيب معالج، إلا أنني رفضت كل هذا بشدة، وأخبرتهم أن كل ما أحتاج إليه هو العودة إلى المنزل..

- فليكن.. سأوصلك إلى هناك.. هيا..

انتفض جسدي كله في عنف، واتسعت عيناي في ارتياع، عندما نطق (رأفت) تلك العبارة، وأردت أن أعترض بشدة، وأن أرفض عرضه بكل إصرار، ولكن شيئا ما في لهجته الحازمة، أو في مشاعري المتخاذلة، جعلني أفتح فمى وأغلقه، دون أن أنطق حرفا واحدا، ثم أتبعه في استسلام فسره الجميع فيما بعد بأنه وليد التعب الشديد، الذي كنت أعانيه..

وكانوا على حق بالفعل..

لقد تبعته، لأنه كان المسئول عما أعانيه..

عن تلك الاختلاجات القوية في قلبي، والتي لم أعرف مثلها قط، في عمري كله..

وبمنتهى الرقة والتهذيب، فتح (رأفت) باب السيارة الأيمن، ودعاني إلى الجلوس، ثم احتل مقعد القيادة، وانطلق بالسيارة على الفور، وهو يسألني عن عنوانى..

وعندما اتخذ طريقه، قفزت إلى ذهني بعض التجارب السابقة المماثلة، مع زملاء وعملاء، قبلت عرضهم لتوصيلي، ثم اكتشفت بعدها أنها كانت مجرد محاولة رخيصة لمغازلتى، والظفر مني بما يرضى أغراضهم الدنيئة، ووجدت نفسي أبتعد عنه بقدر الإمكان، وأتحفز بمشاعري كلها، في انتظار أية بادرة تبدر منه..

ولكن مخاوفي لم يكن لها أي أساس..

لقد كان (رأفت) صورة حقيقية للرجل المهذب، الوقور، المحترم، الذي أقلني إلى منزلى، دون أن يتبادل معي سوى كلمات قليلة، اطمأن منها على حالته الصحية، وعلى التعب الوهمي، الذي ادعيت شعورى به..

وعندما بلغنا منزلى، عرض على أن يعاونني على الصعود إلى المنزل، وعندما أخبرته أن التعب قد زال تقريبا، تطلع إلى عيني مباشرة على نحو ارتجفت له كل ذرة في كياني، وقال في صوت خافت رقيق:

- آنسة (نجوى).. لا يمكنك أن تتصوري كم أسعدني أن التقيت بكِ هذا المساء.

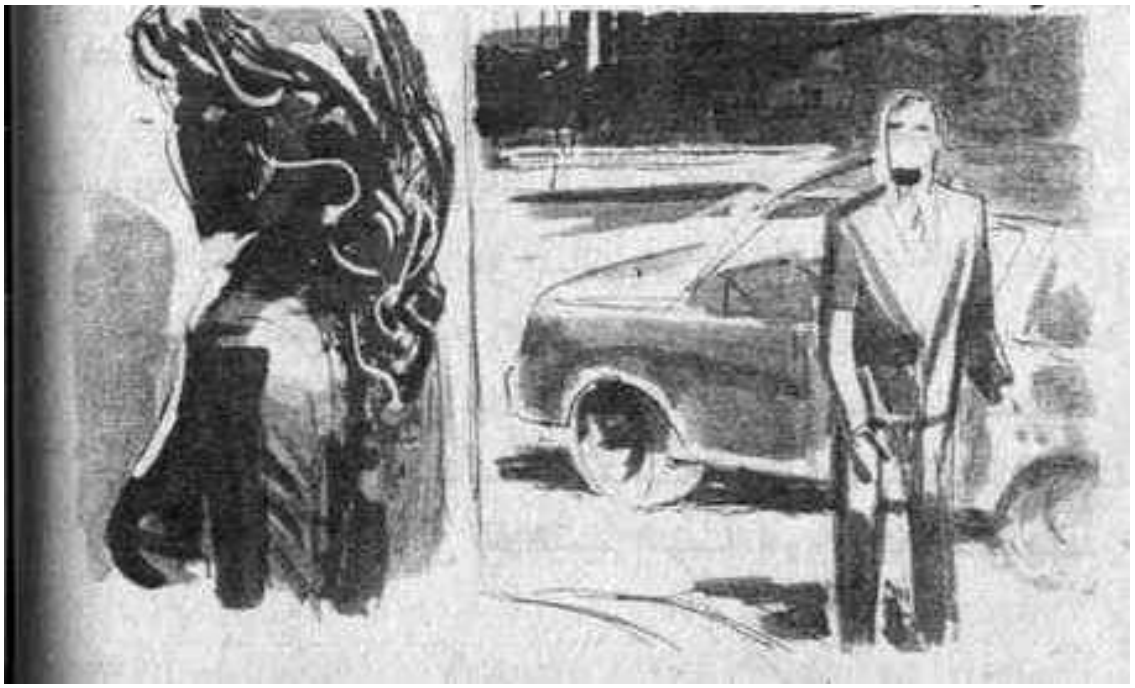

قالها، وصافحني مودعا، ثم انصرف بالسيارة، دون أن يلقي نظرة واحدة خلفه، وتركني أرتجف، وأتابعه ببصري في لهفة، وجسدي بارد كالثلج..

ولم أستطع النوم في سهولة، في تلك الليلة..

صورته كانت تملأ خيالي، وتشحن مشاعري، وتمنع جفوني من الانطباق، حتى إنني قضيت الليل كله أحدق في سقف الحجرة، أو أتقلب في فراشي كالمحمومة، إلى أن أشرقت الشمس، فغادرت الفراش بسرعة، وألقيت جسدي تحت مياه الدش الباردة، وكأنني أغسل عنه كل ما علق به من مشاعر وعواطف..

ولكنني لم أحتمل الروتين اليومي لأمي هذا الصباح..

حديثها حول ضرورة الزواج، وأهميته لكل بنت في الدنيا، واعتراضها على إفطارى الهزيل، الذي يتكون في المعتاد من بيضة واحدة مسلوقة، وفنجان من القهوة، وغيرها من الأحاديث المكررة، فأسرعت أرتدي ثيابي، وأغادر المنزل مبكرا، بحجة أن

الموسم السياحي على الأبواب، ومن الضروري أن أصل إلى مقر عملي، قبل الموعد المحدود بساعة كاملة.

وطوال الطريق إلى العمل، رحت ألوم نفسي وأعاتبها وأحاسبها في قسوة، على انصياعها لنداء القلب، واستسلامها لنداء العواطف..

لم يكن هذا من حقها أبدا..

إن أعماقي ما زالت ترفض فكرة الزواج، وتصاب بالذعر والفزع منها، وتأبى الارتباط بأي رجل، خشية إيقاظ أنوثتي الدفينة، التي سجنتها طويلا داخل قلبي، ومنعتها من الإذعان لنزواتها ورغباتها، وكل مظاهر الضعف الكامنة فيها..

وفي شركة السياحة، انهمكت في العمل، وانغمست فيه بأضعاف ما أفعل في المعتاد، محاولة إزاحة (رأفت) عن ذهني، وإبعاده عن تفكيري، و...

«صباح الخير يا آنسة (نجوى)..»

تسللت العبارة إلى أذني في رقة، إلا أن جسدي كله تجمد لسماعها، وارتفعت عيناي تحدقان في وجه صاحبها، قبل أن ينتفض كياني كله في عنف..

لقد كان هو..

(رأفت).

☆ ☆ ☆

3- وخفق قلبي..

أمور كثيرة تغيرت، منذ ذلك اليوم..

لقد فاجأني (رأفت) بتلك الزيارة، وأخبرني بكل صراحة أنه أتي خصيصا لمقابلتى، وأنه يود أن أمنحه فرصة للتعارف أكثر، وليروي لي بعض الأشياء المهمة عن نفسه وحياته وحاولت أن أرفض مطلبه هذا، وأعترض عليه في غضب متسائلة: كيف يجرؤ على طلب مثل هذا الأمر، كما كنت سأفعل مع أي شخص آخر، في موقف مماثل، إلا أن شيئا ما في أعماقي منعني من الرفض، وجعل وجهي يتضرج بحمرة الخجل، وأن أهمس بموافقتي في حياء، وأرجوه أن ينصرف حتى أنتهي من عملي، على أن نلتقي بعد انصرافي منه..

ولأول مرة في عمري كله، أجلس مع رجز وحدنا، في مشرب أحد الفنادق الفاخرة، المطلة على نيل (القاهرة)..

وفي هدوء حازم، وبذل الأسلوب الذي يتقاطر رجولة ونخوة، راح (رأفت.) يشرح لي ظروف حياته وعمله وأحواله المهنية والمالية، ورحت أنا أستمع إليه مبهورة مأخوذة، ورجولته تدغدغ حواسى، وتسيطر على مشاعري وتنسيني الدنيا كلها..

وللدقة، كنت أستمع بأذني فقط، وليس بعقلي، فلم يكن ما يرويه يعنيني في قليل أو كثير، إذ إنني مبهورة به شخصيا، ولا تهمني أية تفاصيل أخرى..

وعندما انتهى (رأفت) من حديثه، لاذ بالصمت بضع دقائق، وهو يتطلع إلى في اهتمام وترقب، وكأنه ينتظر تعليقي، ولكنني

لذت بالصمت بدوري، وأنا أتطلع إليه، حتى سألتي في شيء من القلق:

- ما رأيك؟!

سألته شاردة:

- ما رأيي في ماذا؟! أجابني بدهشة، تحمل شينا من الضيق والاستنكار: - فيما شرحته لك بالطبع؟!

انطلقت من أعماقى تنهيدة، وأنا أجيب:

- شيء رائع بالتأكيد..

تهللت أساريره، وهو يسألني في لهفة:

- إذن فأنت توافقين؟

انتزعني سؤاله من شرودى وانبهارى، وجعلني أسأله في توتر:

- أوافق على ماذا؟!

أجابني في سرعة:

- على أن أتقدم لخطبتكِ.

لم يكد يشير إلى الأمر، حتى هوت مشاعري وعواطفى كلها بين قدمي، وتصاعد بدلا منها ذلك الخوف الممزوج بالرفض، الفكرة الزواج، والتبعية لرجل ما..

أي رجل..

حتى ولو كان (رأفت)..

ودون أن أدري، انتقل ذلك الخوف الرافض إلى صوتى، وأنا أقول في عصبية:

- لا.. إلا الخطبة والزواج..

اتسعت عيناه في دهشة بالغة، وتراجع بحركة عنيفة كالمصعوق، وهو يقول:

- ماذا؟

ارتبكت بشدة، وأنا أقصد:

- أقصد أننا لم نتعارف جيدا بعد.

ضاقت عيناه، وانعقد حاجباه، وهو يقول:

- لهذا كانت الخطبة.. لنتعارف أكثر، ويفهم كل منا الآخر.. إنني لم أعرض عليكِ الزواج مباشرة

قلت في حزم:

- لا خطبة أو زواج، قبل أن نتعارف جيدا..

كان من الواضح أن هذا الأسلوب الحازم المتعنت مني لم يرق له أبدا، إلا أن رجولته وتهذيبه منعاه من الرفض، وأجبراه على الموافقة، مع وعد مني بألا تستغرق فترة التعارف هذه وقتا أطول مما ينبغي..

ومنذ ذلك الحين، أصبحنا نلتقي كثيرا..

وربما كان موعده هو الشيء الوحيد، الذي أحرص عليه حرصي على حياتي نفسها، وأنتظره بلهفة لم أعهدها في نفسى قط.

لهفة محبة عاشقة، تذوب شوقا لرؤية محبوبها، والتحدث إليه، والاستماع لكلماته وحديثه، بكل ما يحمله صوته من رجولة وقوة ورقة معًا..

ومع مرور الوقت، انتبهت إلى أنني لم أكن أحبه في البداية، وإنما كنت مبهورة به فحسب، أما الآن، ومع ازدياد معرفتى به، فأنا أحبه.. بل أعشقه حتى النخاع.

إنه الرجل الوحيد الذي عرفته، في حياتي كلها..

الرجل الوحيد الذي سلب عقلي، واستحوذ على كيانى؛ وامتلك كل خلية من خلايا قلبي، الذي لم يعد ينبض إلا بحبه..

وعشقه..

كم هو رقيق، حنون، قوى، واثق..

كم هو رجل..

واحتراما لكلمته، لم يناقش (رأفت) الأمر معي ثانية لفترة طويلة، استغرقت أربعة أشهر كاملة، توطدت خلالها علاقتنا وتوثقت، وعشت فيها أجمل أيام حياتي، وأسعد ساعات نبض فيها قلبي، في عمري كله..

ومن المؤكد أن أول ما تغير، بعد هذا اللقاء، هو أنا نفسي..

الجميع لاحظوا هذا التغيير..

أبي، و أمي وشقيقاى، وحتى زملاء العمل..

الجميع انتبهوا إلى أنني لم أعد (نجوى) الجافة الصارمة..

بل صرت واحدة أخرى، استيقظت أنوثتها، وتألقت، وتوهجت، وأصبحت أكثر مرحا وتقبّلا للحياة..

كانت أسعد لحظاتي تلك التي أقضيها مع (رأفت)، والتي تتشابك فيها أصابعنا، أو نتأمل ما غروب الشمس، وروعة الطبيعة الخلابة..

وطوال الوقت، كان (رأفت) يبثني حبه وهيامه، ويهمس في أذني بأجمل وأعذب كلمات الهوى والغزل والحنان، وأنا استمع إليه صامتة منتشية، وأتمنى لو أبثه حبي، كما يبثنى حبه..

ولكن شيئا ما كان يكبل مشاعري، ويعقد لسانى: ويمنعني حتى من التعبير عن حبي له، ولو بابتسامة بسيطة، أو كلمة رقيقة..

كنت أكتفي بالاستماع إليه فحسب، وقلبي يخفق ويضطرب ويبذل قصارى جهده لتجاوز تلك الأسوار العالية، التي أحطته بها منذ زمن طويل، ثم لا يلبث أن يلهث إرهاقا ويأسا، ويكتفي مثلي بالنبض والاستقبال..

لم أكن قد تخليت بعد عن تلك الفكرة، التي سيطرت على مشاعري وكياني منذ حداثتى، من أن الحب ضعف، لا ينبغي أن يستسلم الإنسان له قط، بل يجب أن يقاومه، ويقاتله، بكل ما أوتي من قوة..

وأن الارتباط والزواج سجن كئيب، ومعتقل تحيط به أسوار شائكة، أخشى مجرد الاقتراب منها، أو التفكير فيها..

لذا فقد كانت المرات الوحيدة، التي يتعثر فيها صفو لقائنا، أنا و (رأفت)، بعد الشهور الأربعة الأولى، هي تلك التي يشير فيها إلى رغبته في خطبتي والزواج منى..

لحظتها كنت أغضب، وأثور عمدا، وأتوعده بقطع علاقتنا نهائيا، لو عاد للحديث في هذا الأمر..

وفي كل مرة يغضب، ويحاول إقناعي بأن الزواج هو سنة الحياة، وهو النهاية الطبيعية لكل حب شريف نظيف، وبأنه يحلم بتكوين بيت وأسرة، وقضاء ما تبقى له من العمر إلى جوار زوجة محبة وفية مخلصة، ولكنني كنت أنهى الموقف بنفس الصرامة،

التي اعتدتها في حياتي العملية، وأصر على العودة إلى المنزل، منهية بهذا النقاش على نحو حازم باتر..

وفي كل مرة، كان يقاطعني لعدة أيام، ثم يعاود الاتصال بى، مدفوعا بحبه وهيامه فأتظاهر بأن شيئا لم يحدث، ونعود للتواعد واللقاء لبضعة أيام أو أسابيع..

ثم يتكرر الحديث حول الخطبة والزواج..

ويتكرر منى رد الفعل نفسه، وأنهى المناقشة في صرامة وحزم، وعودة إلى المنزل..

كانت ثقتي شديدة بنفسي، وبقدرتي على إدارة حياتى، على النحو الذي أردته تماما..

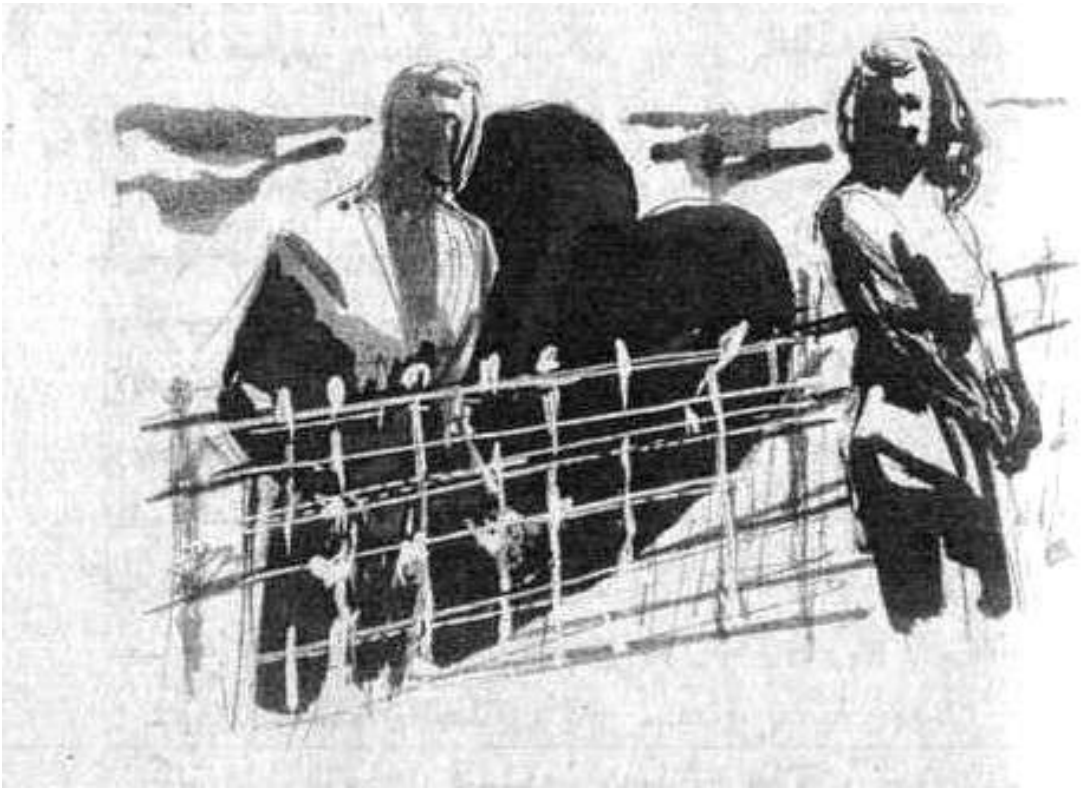

وكانت ثقتي بحبه لى أكبر..

إنه غارق في حبي حتى النخاع، ولن ينصرف عني قط مهما فعلت معه، ومهما كانت الأسباب والمبررات...

وفي بعض الليالي، التي يعاندني فيها النوم، ويأبى زيارة جفوني، كان يدور بيني وبين نفسي حديث في هذا الشأن:

- يا لك من مكابرة عنيدة! ألا تخشين أن يملّكِ، وينصرف عنكِ يوما!

- مستحيل! إنه يحبني من أعمق أعماقه..

- حتى الحب له حدود..

- إلا حبه لي..

- ولكن كل ما يطلبه هو زوجة وأسرة وبيت سعيد..

- لا.. كله إلا الزواج والأسرة

- ولكن الزواج هو سنة الحياة

- ليس بالنسبة لي.. إنني محط أنظار الجميع.. ما زلت الأفضل والأجمل، والأكثر جاذبية وسحرا.. الزواج سيفقدني بريقي وتفوقي..

- وكذلك عدم الزواج.. ألا تخشين أن يأتي يوم، تحملين فيه لقب (عانس)؟

- إنه أفضل من لقب (مطلقة)!

- ومن تحدث عن الطلاق؟!

- لو فشل الزواج، فسيتحول حتما إلى طلاق..

- ولماذا يفشل؟! (رأفت) يحبك.

- لا يمكنني أن أضمن حبه للأبد..

- لو حرصت على هذا ستظفرين به.

كنت أحاول استيعاب المنطق، ثم لا ألبث أن أرفضه في عناد وإصرار، وأقول لنفسي في حزم:

- لا.. كله إلا الزواج..

لم أنتبه أيامها إلى أن الأمور كانت تتطور بسرعة، وأن إصرار (رأفت) على الزواج كان يتزايد أكثر وأكثر، حتى أتى يوم أعدنا فيه مناقشة الأمر، وطلبت كالمعتاد العودة إلى المنزل، ففوجئت به ينفجر في وجهي، هاتفا في غضب عصبى:

- لماذا تتعاملين معي دائما وكأن الأمور والخيوط كلها بيديكِ وحدكِ؟! لماذا تصرين على أن يُدار كل شيء بأسلوبكِ، ودون أدنى تنازلات أو مناقشة؟! كل شيء يخضع لوجهة نظركِ وحدها.. كل خطوة لا تروق لك تدفعك للغضب والثورة.. كلما حاولت التحدث عن زواجنا، الذي أراه أمرا طبيعيا، تتعاملين معي بكل الصرامة والصلف والعناد، وتخبرينني بين الخضوع لرأيكِ أو الانفصال.. إنك تهينين رجولتي منذ تعارفنا، وأنا أحتمل وأحتمل، متصورا أنها مسألة وقت، حتى تشعري بالاطمئنان إلىّ وبالأمان معي، وعندئذ سيتغير كل شيء، ولكن الشهور تمضي وتمضي، وعنادكِ وصرامتكِ يتضاعفان.. وصلفكِ وصرامتكِ في التعامل معي يتزايدان.. إنني لم أعد أحتمل هذا يا (نجوى).. لم أعد أحتمله أبدا..

كان محقا في ثورته، إلا أن تلك الطبيعة العنيدة، التي حفرتها سنوات الكفاح في وجدانى، جعلتني أرفض الاعتراف بهذا، وأقول بنفس الصرامة والحدة:

- اسمع.. لو أنك تصر على موقفك هذا ف...

قاطعني بثورة:

- فستعودين إلى المنزل.. أليس كذلك؟! فليكن يا (نجوى).. سأعيدك إليه..

لم نتبادل كلمة واحدة، طوال طريق العودة، وتركني أمام منزلي، وانصرف دون أن يلقي على تحية الوداع، وكانت أول مرة يفعل فيها هذا، إلا أنني لم أشعر بقلق شديد لحظتها.. كنت واثقة من أنها واحدة من ثوراته المعتادة، وأنه سيقضي بضعة أيام في غضب ومقاطعة، ثم لن يلبث أن يعود لنستأنف علاقتنا كما أردتها تماما..

الحب وحده..

بلا خطبة، أو زواج..

ولم أدرِ لحظتها أن تقديري في هذه المرة لم يكن صحيحا..

لم يكن كذلك أبدا.

☆ ☆ ☆

4- يا قلب لا تنبض..

شهر كامل مضى، دون أن يتحدث إلى (رأفت) مرة واحدة..

شهر كامل لم تقع عيني عليه، أو تسمع أذني صوته..

في البداية تماسكت، وقلت لنفسي إنها مسألة وقت، ولن يلبث أن يعود كعادته، إلا أن الأيام راحت تمر في بطء، وأنا أنتظر عودته في لهفة، تتضاعف وتشتعل أكثر وأكثر، مع كل يوم يمضي، حتى لم أعد أحتمل الانتظار، وأصبح الأمل الوحيد في حياتي هو أن أسمع صوته وأراه، ولو لحظة واحدة..

لم يعد باستطاعتي الاستمرار في العمل بنفس الحماس..

لم يعد باستطاعتي حتى العودة إلى المنزل، وكأنني أخشى الرقاد في فراشي، حتى لا أتعذب بليلة جديدة من ليالي السهر والسهاد..

كلما انطلق رنين الهاتف أقفز إليه، وأختطف سماعته في لهفة، وأتمنى من كل قلبي أن يأتيني صوته عبر الأسلاك..

أن أسمع كلمة واحدة منه..

كلمة من تلك الكلمات الرقيقة الحانية، التي ظل يصبها في أذني طوال ما يقرب من عام كامل، دون أن يتلقى منى أدنى استجابة..

أنا نفسي ما زلت أجهل، لماذا لم أمنحه حبي وحناني، كما منحني حبة وحنانه؟!

لماذا؟ لماذا؟ لماذا!

هل تحجرت مشاعري، وتحطمت في أعماقي، حتى لم يعد بإمكانها الصعود إلى السطح؟؟ لماذا أشعر بها، وأعجز عن التعبير عنها؟!

لابد أن السنوات الطوال، التي سجنت عواطفي فيها خلف أسوار قلبي، قد حولت تلك الأسوار إلى صروح ضخمة، صارت مشاعري عاجزة عن تجاوزها..

والمؤسف أن هذا لم يؤرقني قط، إلا في تلك الأيام..

بعد أن افتقدت (رأفت).. وبشدة..

كم كنت أتمنى الاتصال به، والاعتذار عما بدر منى تجاهه..

كم تمنيت أن أتحدث إليه، وأرجوه أن يغفر لي، ويفهم مشكلتي، ويتعاون معي على حلها..

تلك المشكلة التي تقف حاجزا بيني وبينه..

مشكلة الخوف من الزواج والارتباط، والعودة إلى مسئوليات الأنوثة، التي أرفضها وأخشاها منذ زمن طويل..

ولكن شيئا ما في أعماقي منعني من الاتصال به طويلا..

وفي كل يوم يمضي، كان هذا الشيء يتضاءل، وينزاح جانبا، مع لهفتي الشديدة لسماع صوته، ومعرفة أخباره..

وأخيرا إنهار ذلك الشيء..

حبي له أزاح ترددي وخوفي ورفض كله جانبا، وجعلني أتصل به بكل لهفتي وحبي، وأسأل والدته عنه بصوت لاهث من فرط الانفعال..

وأتى جوابها ليخترق أذني وقلبي كسيف بتّار، غاص في النيران إلى درجة الاحمرار..

- لقد سافر (رأفت)..

سافر ليعمل أستاذا في إحدى جامعات دول النفط..

سافر دون أن يودعني، ولو بكلمات قليلة..

وانهارت مشاعر كلها في أعماقي، حتى خيل إلى أن قلبى قد توقف عن النبض..

كيف فعلها؟! كيف تخلى عني؟! كيف نسى حبنا الكبير؟؟

والعجيب أنني شعرت ببعض الغضب في البداية، ثم لم يلبث كل هذا الغضب أن تحول إلى فيض من الندم، استولى على كيانى كله، وسري في عروقي كحمم ملتهبة، تلتهم مشاعرى عن آخرها..

وانتابتني رغبة قوية عارمة في البكاء، رحت أقاومها في شدة، وكأن عقلي الباطن يرفض الاستسلام لها، لأنها علامة من علامات الضعف، التى جاهدت طوال عمري للتغلب عليها وتحاشيها..

ثم فجأة، صرخ قلبي: ولم لا؟!

ما عيب البكاء والضعف؟؟

كلنا بشر.. كلنا ضعفاء.. كلنا يحتاج بعضنا إلى البعض..

وفي تلك اللحظة، شعرت بحاجتي الشديدة إليه..

أريده إلى جوارى..

أريده صديقا، وحبيبا، و.... وزوجا..

نعم.. الآن أتمنى أن أتزوجه، وأقضى عمري كله إلى جواره..

ولست أدري ماذا أفعل لاستعادته..

أنه لم يتصل بي مرة واحدة منذ سفره..

ولكنني سأفعلها أنا هذه المرة..

سأرسل إليه خطابا طويلا، يحوي اعترافي هذا، وسأرجوه أن يغفر لي كل ما فعلته معه، وأن يعود إلى، أو يدعوني حتى للذهاب إليه..

وسأخبره أنني سأترك العالم كله من أجله.. من أجله وحده..

وأنا واثقة من أنه سيغفر، وسيعود؛ لأنه يحبني كما أحبه..

هل تعتقدون أنني على حق في ثقتي هذه؟!

هل؟!

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- اعتـــــــــراف..

2 - رأفت..

3- وخفق قلبي..

4- يا قلب لا تنبض..

فهرس المحتويات:

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الجاسوس 1001

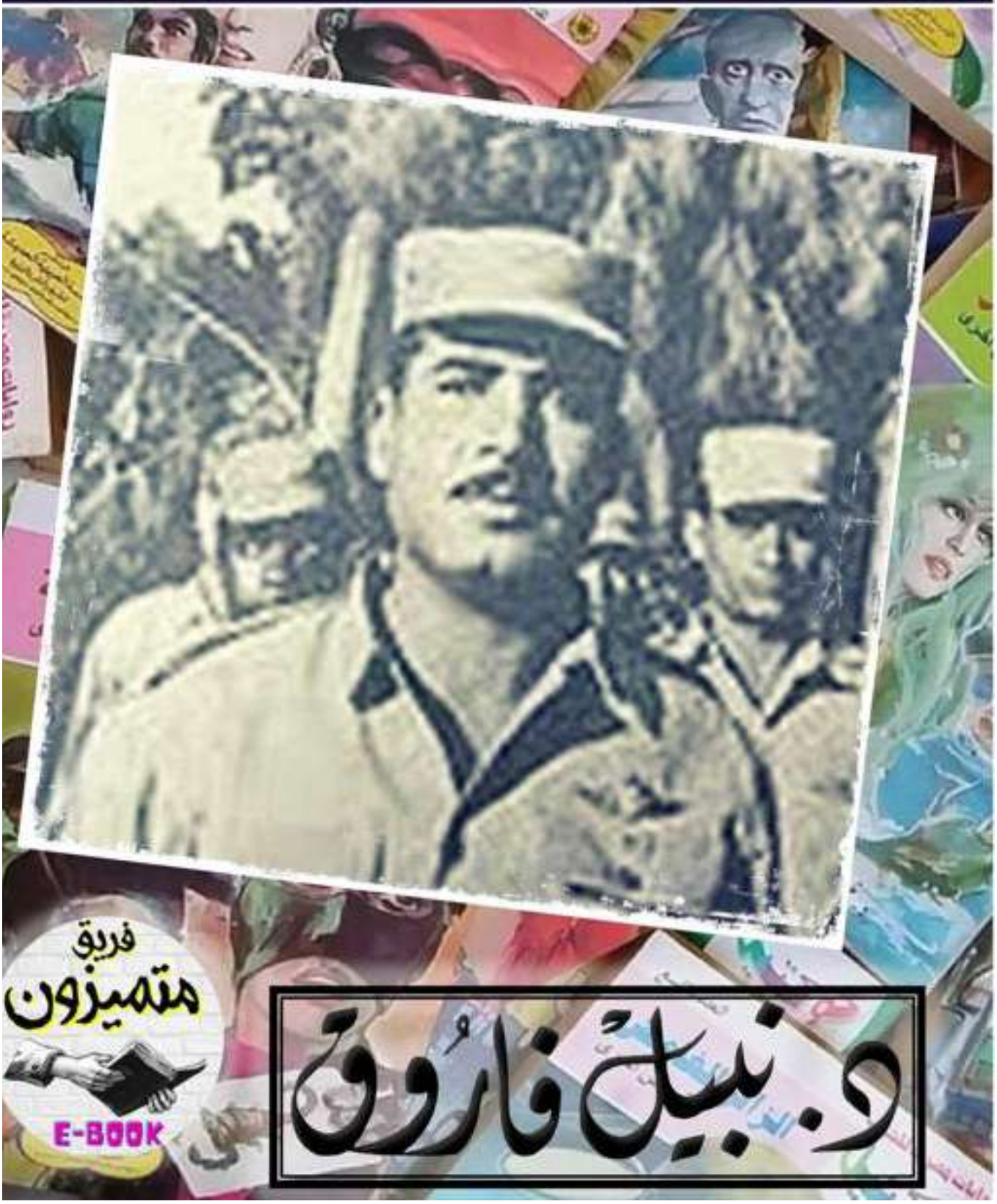

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

..سلسلة كوكتيل 2000

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..

إلى الحضارة..

إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

الجاسوس
رقم (١٠٠١)

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000
الجاسوس رقم 1001

على الرغم من أن عقارب الساعة كانت تشير إلى الثانية إلا عشر دقائق، بعد ظهر السادس من أكتوبر، عام ١٩٧٣م، إلا أن كل شيء بدا هادئا تقليديا، على الجبهة الغربية لقناة (السويس)؛ فكل الجنود والضباط يؤدون أعمالهم الروتينية المعتادة، وبعضهم يقوم بتنظيف أسلحته في تراخ، عند شاطئ القناة، في حين راح البعض الآخر يسبح في مياهها، ويتبادل النكات مع رفاقه بصوت مرتفع، بلغ مسامع الجنود الإسرائيليين، على الجبهة الشرقية للقناة، فابتسم بعضهم في سخرية، وألقى بعض عبارات الاستهزاء بالمصريين وجنودهم، الذين يمكنك استنباط حالة الطوارئ لديهم، بمجرد ارتدائهم خوذاتهم القتالية..

قالها؛ لأن واحدا من الجنود والضباط المصريين، لم يكن يرتدي خوذته، في ذلك اليوم..

ثم قطعت عقارب الساعة تلك الدقائق العشر في سرعة..

وأعلنت تمام الثانية..

وقبل حتى أن تنتهي دقاتها، كانت هناك أسراب من المقاتلات المصرية تهدر كألف ألف عاصفة، وهي تعبر القناة في آن واحد، معلنة بدء أقوى مواجهة عربية إسرائيلية في التاريخ..

وكانت المفاجأة عامة شاملة، مخيفة، بالنسبة للإسرائيليين..

لقد انهالت عليهم القنابل والصواريخ كالسيل، وعلى نحو تصوروا معه أن الجحيم قد فتح أكبر أبوابه، ليلتهمهم عن آخرهم..

أما الجنود الهادئون المتراخون على الجبهة الغربية، فقد نفضوا تراخيهم الزائف هذا بغتة، وتحولوا في غمضة عين إلى أسود

هصورة، وثبت إلى قوارب مطاطية لا حصر لها، اندفعت بهم صوب أقوى خط دفاعى استراتيجي، عرفته الحروب الحديثة..

(خط بارليف)..

وانهالت قذائف الإسرائيليين على الجنود البواسل من كل صوب، ونسفت عشرات القوارب، وغمرت سطح القناة بالدماء الطاهرة الذكية..

ولكن كل هذا لم يوقف الجنود..

ولم يرهبهم..

لقد ارتدت القذائف إلى الإسرائيليين أنفسهم، على هيئة ذعر رهيب، وصفوه فيما بعد، في كتابهم (التقصير)، بأنه ذعر خاطئ يواجه يوم الحساب..

وانطلقت مدافع المياه تشق الساتر الترابي..

واقتحم المصريون خط (بارليف)..

وارتفع العلم المصرى على الجبهة الشرقية لقناة (السويس)..

ووسط المعمعة والقتال والنيران والدماء، التقطت أجهزة الاستقبال اللاسلكية الإسرائيلية نداءً متكررًا، بصوت مصرى يموج باللهفة والقلق، وهو يهتف:

- أجب يا ألف وواحد.. أجب..

كان النداء يتواصل بلا انقطاع علي موجة خاصة، من الساعة الثالثة، وأربعين دقيقة، وكأنما يبحث المصريون عن شخص بالغ الأهمية، يرغبون بشدة في استعادته، على الرغم من كل ما يحدث على الجبهة، في تلك الساعات الأولى العنيفة..

وفي الرابعة وسبع وثلاثين دقيقة، تلقى ضابط مخابرات القنطرة غرب أمرا مبشرا من مدير المخابرات شخصيا بالانطلاق على الفور. للبحث عن جندي إسرائيلي بالتحديد وسط قافلة عربات، كانت تتحرك من (أم مرجم) إلى القنطرة شرق، وبأن يجري اتصالا بقائد الجيش الثاني؛ ليصدر أمرا بعدم إطلاق النار على أي فرد من جنود تلك القافلة، مهما كانت الأسباب..

وبات من الواضح أن الشخص، الذي يتم البحث عنه، له أهمية بالغة بالفعل، على الرغم من أنه يرتدي الزي العسكري الإسرائيلي، في زمن الحرب..

ولقد انطلق ضابط المخابرات على الفور لتنفيذ الأمر، وانطلق إلى الجبهة المشتعلة، بحثا عن اللواء (سعد مأمون)، قائد الجيش الثاني الميداني: للحصول على إذنه، قبل دخول منطقة القتال مباشرة.

ولكن حتى هذا لم يكن سهلا؛ فالجسور المقامة تكتظ بالمشاة والعربات المدرعة، والدبابات، التي تعبر إلى الجبهة الشرقية، وقائد الجيش الثاني يتحرك في سرعة ونشاط مدهشين، من موقع إلى آخر؛ ليتفقد جنوده واستعداداته، والخطوات التالية للعبور..

وعندما بلغت الساعة الخامسة إلا عشر دقائق، أدرك الضابط أن الوصول إلى النقطة المنشودة يكاد يكون مستحيلا، بسبب الألغام، وقوافل الإمدادات، والانفجارات التي تملأ الأفق، وأبلغ هذا الأمر لرؤسائه، في توتر بالغ..

وعندما بدأ الظلام يخيم على الجبهة، في الخامسة والنصف تقريبا، اخترقت هليوكوبتر حربية مصرية خطوط القتال،

ونجحت في الهبوط، عند موقع قافلة السيارات المنشودة، التي احترقت عرباتها، وتناثرت حولها الجثث..

وقبل حتى أن تستقر الهيلوكوبتر على الرمال، قفز منها ثلاثة رجال بثياب مدنية، وأضاءوا مصابيحهم اليدوية، واندفعوا نحو الجثث المتناثرة، وراحوا يفحصونها في اهتمام بالغ، جعل الطيار يتصور أنهم سيعثرون على وزير الدفاع الإسرائيلي نفسه وسط القتلى..

ثم هتف أحد الرجال الثلاثة بزميليه، معلنا عثوره على الشخص المنشود، فاندفعا إليه، وانحنى كلاهما يفحص جثة جندي إسرائيلي في اهتمام بالغ، قبل أن ينهض الرجال الثلاثة في صمت، والأسى يملأ وجوههم، ثم اندفع أحدهم نحو الطائرة، وهتف بالجنود القابعين داخلها، فخرج ستة منهم يحملون صندوقا من الخشب، وعلما مصريا جديدا، وبكل احترام وتقدير، نقلوا جثة العريف الإسرائيلي إلى الصندوق، ولفوه بعلم (مصر)، ووقف المدنيون الثلاثة وقفة عسكرية في حين أدى الضابط المرافق لهم التحية الرسمية، وهم أمام الصندوق، قبل أن ينقله الجنود الستة إلى الهيلوكوبتر وأقلع الطيار الحربي المصري بالهيلوكوبتر، وهو يتساءل في حيرة، كيف يمكن أن يحظى قتيل إسرائيلي بكل هذا الاحترام والتقدير، في زمن الحرب؟!

هذا لأنه لم يكن يدرى أن العريف الإسرائيلي (موشى زكى رافى)، الراقد في ذلك الصندوق، كان في الواقع شهيدا مصريا، وواحدا من أبرع الجواسيس، الذين عرفتهم (مصر)..

شهيد اسمه (عمرو)..

(عمرو طلبة)..

☆ ☆ ☆

من أبرز صفات رجال المخابرات العامة، في كل الأزمنة، قدرتهم المدهشة على استيعاب الأمور، والتكيف معها، والتحرك بسرعة ترتق الثقوب، بدلا من إضاعة الوقت في البكاء على الثوب الممزق..

لذا، فلم تكد نكسة يونيو ١٩٩٧ م تنحسر، حتى كان الرجال قد وضعوا خطة متقنة، لزرع عميل مصري، في قلب الجيش الإسرائيلي؛ ليصبح عينا وأذنا داخله، ويصنع خطا دائما من المعلومات؛ لتغذية المصريين بكل ما يحدث ويدور، داخل جيش العدو..

وكان من الطبيعي أن تتجه أنظارهم نحو أفضل مكان، يمكن الحصول منه على شخص صالح تماما، للعيش والعمل داخل (إسرائيل)..

نحو القسم (٣ ج أ)..

والقسم (٣ ج أ) هذا هو أحد أقسام مدرسة المخابرات، التي لا يمكننا تحديد موقعها، أو وصفها، أو حتى الإشارة إلى موضعها، ولكن كل ما يمكننا قوله، في هذا المضمار، هو أن ذلك القسم بالذات، يعتبر أكثر أقسام مدرسة المخابرات سرية وخصوصية، ولا يتسنى دخوله إلى لعدد محدود للغاية، وعبر إجراءات أمنية صارمة، يخضع لها الجميع بلا استثناء، وتتكرر في كل مرة، دون كلل أو ملل..

وإذا ما أمكنك دخول ذلك القسم، فسيبدو لك وكأنك قد انتقلت فجأة من (القاهرة) إلى (تل أبيب) بقفزة واحدة، فكل شيء هناك يتبع النظام الإسرائيلي بدقة مدهشة، فلافتات

الطرقات، وإشارات المرور، وحتى العملات المستخدمة، كلها إسرائيلية، وكل من في القسم يتحدثون العبرية فقط، حتى في أحاديثهم الهاتفية، ومن المحظور تماما التحدث بأية لغة أخرى، وبالذات اللغة العربية، مهما كانت الأسباب..

باختصار، كان أفراد القسم (٣ ج أ) يتعاملون طوال الوقت، وكأنهم داخل (إسرائيل) نفسها، بل ويتفاعلون ويفكرون بالعبرية، وليس بالعربية ومن بين كل أفراد القسم، انتقى رجال المخابرات العامة (عمرو طلبة) بالتحديد..

و (عمرو) هذا واحد من أكثر المتدربين في (٣ ج أ) كفاءة، وأكثرهم حماسا للعمل والمغامرة، وهناك من يهمس بأنه كان ابنا لأحد المسئولين السابقين، أو كبار ضباط الجيش..

المهم أن الاختيار وقع عليه، وتم اختباره، وامتحانه وتأكد الجميع أنه الشخص المناسب تماما للعملية، وبقي أن يجدوا له التاريخ المناسب تماما، ليبدأ حياته وشخصيته الجديدة..

وهذا أيضا لم يكن سهلا أبدا..

لقد راجع الرجال أكثر من ثلاثة آلاف ملف، لكل يهودي عاش في (مصر)، قبل أن يلقي القدر أمامهم بأفضل تغطية ممكنة..

(موشى زكى رافي)..

في أثناء البحث، وصلتهم شهادة وفاة الشاب يهودى، مات في مستشفى (المبرة) في (طنطا)، ولم يستدل على أهله لإبلاغهم بخبر وفاته..

وبسرعة مدهشة، وإتقان بلغ حد الكمال، اتخذ رجال المخابرات العامة المصرية كل الإجراءات الممكنة، لإخفاء كل ما يشير إلى

وفاة (موشى)، وجمع كل التحريات الممكنة عنه، في الوقت ذاته وأتت نتائج التحريات مرضية للغاية..

لقد كان (موشى) هذا شابا في مقتبل العمر، شديد الوسامة، جميل الملامح، ولد في حارة اليهود القرائين في (القاهرة)، وكان والده (زكى رافي) كليل البصر، يتجر في الأشياء القديمة، التي يجمعها من القمامة والمخلفات، ويقوم بفرزها في مسكنه، أما أمه فقد توفيت مبكرة، وهو بعد مجرد طفل صغير..

ولم يحتمل (موشي) الصغير العيش طويلا وسط أكوام القمامة، التي تملأ جنبات المنزل، وتزكم أنفه طوال الوقت، ففر من منزل والده، واختفي من حارة اليهود، دون أن يعلم أحد أين ذهب، وإن أثار اختفاؤه حزن وشفقة بعض النسوة في الحارة..

وانتقل الصبي من عمل إلى آخر، ومن مهنة وضيعة إلى أخرى أكثر وضاعة، حتى استقر به المقام في (طنطا)، حيث عمل في مصنع الزيوت والصابون هناك، والتحق في الوقت ذاته بمدرسة ليلية، تعلم فيها شيئا من المحاسبة، أقله للحصول على وظيفة كاتب في شركة لنقل البضائع، في شارع (البحر)، أحد الشوارع الرئيسية في المدينة، إلا أنه لم يلبث أن أصيب بمرض رئوي، من سوء التغذية والحياة المرهقة، وقضى عدة شهور للعلاج، قبل أن يقضى نحبه في هدوء..

أما والده، فقد توفي بعد ثلاثة أشهر من رحيله، وتولت الشرطة دفنه في مقابر الصدقة، نظرا لعدم العثور على أي أقارب أو أبناء له، في ذلك الحين..

واجتمع رجال المخابرات، ودرسوا شخصية (موشى) من كل الزوايا، وفحصوها، ومصوها من كل الوجوه، قبل أن يتفق رأيهم

على أنها أفضل تغطية لرجلهم (عمرو طلبه)..

وبدأت عملية تدريب (عمرو)، على تقمص شخصية (موشى رافي)، بمنتهى الدقة والانضباط، بحيث يكاد الفتى أن ينسى اسمه الحقيقي، ويتصور أنه بالفعل (موشى زكى رافي)..

لقد درس تفاصيل حياته بمنتهى الدقة، وشاهد عشرات الصور لمسقط رأسه، في حارة اليهود، وسافر إلى (طنطا)، وزار مصنع الزيوت والصابون، باعتباره مفتشا من وزارة الصحة، وشاهد شركة النقل في شارع (البحر)، واستمع إلى عشرات المحاضرات، قبل أن يبدأ خطواته العملية، لإثبات وتأكيد شخصيته الجديدة..

وفي أبريل 1969، ذهب (عمرو) إلى حارة اليهود واتجه مباشرة إلى المنزل رقم (١٩)، الذي كان يقيم فيه (زكى رافى)، وراح يسأل عن والده في اهتمام شديد، جذب إليه انتباه الجميع، وخاصة بعض النسوة، اللاتي استقبلنه بقرحة حقيقية، باعتباره (موشي)، ولكنهن لم يخبرنه بما أصاب والده (زكى)، وإنما طلبن منه سؤال الحاج (محمد أحمد شافعى)، المالك السابق للمنزل، والذي يمتلك محطة للوقود في شارع (بورسعيد)..

وانتظر (عمرو) الحاج (شافعى) طويلا في محطة الوقود، قبل أن يرشده أحد العاملين فيها إلى منزل الحاج، في الطابق الخامس من عمارة (بنزايون)، في شارع (الأزهر)..

وبالطبع لم يتعرفه الحاج (شافعى) في البداية، إلا أن (عمرو) أخبره أنه (موشى)، وأنه يبحث عن والده (زكى)، فاستقبله الرجل في ترحاب، وصدق روايته على الفور، ثم أفضى إليه بنبأ وفاة والده، ومن المؤكد أن (عمرو) كان ممثلا بارعا للغاية، إذ إن

حزنه وبكاءه على والده المزعوم، جعل الحاج يتأثر جدا، ويعرض عليه كل مساعدة ممكنة، إلا أن (عمرو) اكتفى بتجفيف دموعه، وغادر المنزل بلا رجعة..

وفي اليوم التالي مباشرة، قتل (عمرو) نفسه بحثا عن متعلقات والده، التي انتقلت إلى عهدة الحكومة، والتي لم تزد على بطاقة شخصية، وصورة لطفل صغير، ومبلغ لا يستحق الذكر..

ومع الغوص في الروتين وتعقيداته، استعاد (عمرو) تلك المتعلقات التافهة في أوائل مايو؛ ليبدأ معها المرحلة الأخيرة من الاختبارات، قبل أن يبدأ مهمته..

وكانت تلك المرحلة هي الأكثر صعوبة، في سلسلة الاختبارات، التي تعرض لها الشاب، إذ لم يكتف مدربوه بإعادة التدريبات منذ بدايتها، بمنتهى الدقة والإصرار، وإنما أضافوا إليها تدريبا شاقا جديدا؛ إذ كان يتم إيقاظ الشاب في أية لحظة، من الليل أو النهار، وسؤاله عن اسمه وهويته لضمان تقمصه التام للشخصية، على نحو لا يسمح بحدوث أية أخطاء، مهما كانت الظروف والملابسات..

وأخيرا، اجتاز الشاب الاختبارات الأخيرة في نجاح، واستعد لبدء مهمته..

وعلى عكس ما سيتصور الجميع، لم يسافر الشاب إلى (إسرائيل).

لقد حصل على وثيقة سفر رسمية، بناء على ما جمعه من أوراق، باسم (موشي زكى رافى)، وغادر (مصر) في الحادي والثلاثين من مايو، عام 1969 م، متوجها إلى (أثينا)، ومنها إلى (كوالالمبور)، عاصمة (الملايو)..

وفي (كوالالمبور)، بدأ (موشى) اليهودي عملية البحث عن عمل، وحاول في استماتة الحصول على وظيفة في شركة (تاى هونج) للبسكويت، ولكنه لم ينجح في هذا، فقضى ما يقرب من الشهرين عاطلا عن العمل، وراح يتردد طوال تلك الفترة على مقهى متواضع، يرتاده الباحثون عن العمل باستمرار، ويدعى (هنج كى).

وفي ذلك المقهى، التقى (موشى) بالإسرائيلي (تصادوق)..

و (تصادوق) هذا بحّار من بحارة السفينة الإسرائيلية (شيقمة)، وهو شخص ودود، بسيط، سكير، يهوى العبث والفجور، ويتنفسهما مع كل مساء، ولقد راقت له وسامة (عمرو) وملامحه الهادئة، فارتبط معه بصداقة محدودة، ثم لم يلبث أن راح يغريه بالسفر إلى (إسرائيل)، والشاب يبدى عدم اهتمامه، أو رغبته في الهجرة إلى هناك وازداد إلحاح (تصادوق)، وبدا له وكأن (موشى رافي) قد بدأ يميل إلى الفكرة، وخصوصا مع عجزه عن الحصول على عمل دائم في (كوالالمبور)، فأخذ يزين له الأمر، ويصف (إسرائيل) وكأنها الجنة الموعودة، حتى أعلن الشاب موافقته أخيرا، وأكد أنه سيسافر إلى (إسرائيل) للتجربة فحسب، وسرعان ما قرن القول بالفعل، ووصل في صباح التاسع من أغسطس إلى ميناء (حيفا)، حيث سجل اسمه كمهاجر جديد، وحصل على خطاب من وزارة الهجرة، وقيد اسمه في مكتب المهاجرين، التابع للوكالة اليهودية، وقضى أسبوعين جوّل خلالهما في (إسرائيل)، قبل أن ينفذ أوامر رؤسائه، ويعود مرة أخرى إلى (أثينا)..

ولأن (عمرو) عميل مخابرات محترف، تلقى تدريبات على أعلى مستوى، فقد كان يتميز بأهم عاملين من عوامل نجاح أي عميل

سرى..

الهدوء.. والصبر..

لذا، فلم يسأل (عمرو) قط عن سبب عودته إلى (أثينا)، ولم يُبد أدنى ضجر أو ملل، وهو يقضي فيها ستة أشهر كاملة، قبل أن يتلقى أمرا بالرجوع مرة أخرى إلى (إسرائيل)..

وفي هذه المرة، دخل (عمرو) إلى (إسرائيل) كمهاجر رسمى، وراح ينهى إجراءاته القانونية في وزارة الهجرة، ويجتاز هذه المرة اختبارات من نوع جديد..

إجراءات لا يؤدي الفشل فيها إلا النتيجة واحدة..

الإعدام..

وبلا رحمة..

وعلى الرغم من صعوبة الإجراءات والاختبارات، ودقة الأسئلة والاستجوابات، فقد اجتاز الشاب هذه المرحلة في نجاح، وخرج من وزارة الهجرة ليبدأ حياته الجديدة، ومهمته الجديدة..

في قلب العدو..

☆ ☆ ☆

أول درس تعلمه (موشى) في (إسرائيل)، هو أنها ليست - على الإطلاق - أرض الميعاد والأحلام، التي تتحدث عنها الدعايات اليهودية، فقد رأى بعينيه علامات البؤس والشقاء، على وجوه المهاجرين، والموظفون يطوحونهم، من مكتب إلى آخر، قبل أن يحصلوا في النهاية على قرض ضئيل، لا يكاد يكفي لحياة متدنية، لشهر أو شهرين، وخاصة اليهود الشرقيين (السفرديم)، الذين يتعلمون، منذ اللحظة الأولى، أنهم سيظلون أبدا الطبقة الأدنى،

ولن يتساوى أحدهم قط مع فئة اليهود الغربيين الممتازة (الإشكنزيم)..

أما الدروس التالية مباشرة، فقد كانت دروس اللغة العبرية..

وكم عاني الشاب، وهو يحضر تلك الدروس المسائية في انتظام، متظاهرا بصعوبة فهم اللغة العبرية، التي يجيدها إجادة تامة، تتيح له التحدث بها، وقراءتها، وحتى التفكير بحروفها وكلماتها، وجملها الطويلة..

وبعد شهر بدا أشبه بدهر كامل، انتهى الشاب من دروس العبرية، وحصل على شهادة فيها بدرجة جيد، ثم سافر إلى (القدس)، بحثا عن عمل مجز، بعد أن انتهى قرضه أو كاد..

وفي (القدس)، كان الشاب أسعد حظا، إذ حصل على وظيفة كتابية في مستشفى (أتنيم)، صار يقضي فيه يومه كله..

ومصطلح (يومه كله) هذا لا يحمل أدنى مبالغة، إذ إن الشباب لم يكن يمتلك، من راتبه وبقايا القرض، ما يكفي لاستئجار مسكن بسيط، لذا فقد كان يقضي نهاره كله في العمل، وليله كله مستلقيا فوق مقعدين باليين، في مطبخ المستشفى..

ولقد أثار هذا شفقة طبيب أمريكي، يدعى (مورتن فيكسبرت)، كان قد باع منزله في (نيويورك)، وهاجر إلى (إسرائيل)، مبهورا بالدعاية اليهودية، ثم لم يجد أمامه سوى وظيفة بسيطة، في ذلك المستشفى المتواضع ولأن (مورتن) هذا كان يشعر بمعاناة المهاجرين الجدد، فقد تأثر بموقف الشاب، ودعاه للإقامة في حجرة صغيرة، ملحقة بجراش منزله، الكائن في ١٣ شارع (آحاد ها عام)، وسط حي (تليبيا)، ولقد قدر (موشى) هذه الخدمة جيدا، وارتبط بعلاقة صداقة مع (مورتن)..

ولكن الصداقة لم تدم طويلا، إذ سرعان ما سئم (مورتن) هذا النمط من الحياة، واتخذ قراره بالعودة إلى (نيويورك)، وبدء حياته من جديد هناك، بعد أن يئس من تحقيق أي نجاح يذكر، في أرض الميعاد..

وبعد رحيل (مورتن)، انتقل الشاب إلى (تل أبيب)، سعيا وراء فرصة عمل أفضل، وهناك، كانت وسامته المفرطة هي جواز مروره إلى قلب عجوز شمطاء، تمتلك دارا للنشر وتدعى (شوشانا بيرسولكز)، فألحقته بالعمل لديها، كاتبا للحسابات، لقاء راتب معقول، وهي تتطلع أكثر ما تتطلع إلى وسامته وملاحته، وقامته الممشوقة..

وقبل مرور شهر واحد، على عمله في دار (أومانوت) المحدودة للنشر، كانت (شوشانا) قد قررت كسر كل الحواجز، والإعلان عن مقصدها مباشرة، كما تملى عليها طبيعتها السوفيتية الأوكرانية الجافة..

وفي نهاية عام 1970 م، وجد الشاب نفسه مدعوا للانتقال إلى منزل (شوشانا) والإقامة فيه بصفة دائمة..

وقد كان..

والمضحك أن الشاب قد اعتبر علاقته بتلك العجوز نوعا من التضحية، التي تقتضيها مهمته، في قلب العدو، وتحتمها طبيعة الشخصية التي يتقمصها ولكن الأمر لم يقتصر على (شوشانا)، التي بلغ نهمها للحب حدا ضاق به الشاب وكرهه، إذ لم تلبث ملاحته ووسامته أن جذبت إليه صيدا جديدا..

وكانت عجوزا متصابية أيضا، إلا أنها كانت على قدر من الجمال، جعلها تبدو أشبه بالإلهة (فينوس) نفسها، مقارنة بالشمطاء

(شوشانا)..

ولقد لمحت تلك الجديدة (سوناتا فيرد) الشاب، وهو يضرب على الآلة الكاتبة، وبهرتها وسامته، فاتجهت إليه في دلال، وانحنت تسدل شعرها الأشقر الناعم على وجهه، وتدفع رائحتها العطرة في أنفه وعروقه وأعصابه، بحجة متابعة ما يكتب، واختبار براعته في الضرب على الآلة الكاتبة..

وشعر الشاب بالكثير من القلق هذه المرة، فتلك المرأة (سوناتا) لم تكن امرأة عادية، فهي زوجة الدكتور (لينتال)، رجل المجتمع الشهير، ثم إنها - وإلى جوار هذا - عضو بارز في (الكنيست الإسرائيلي)..

ولكن (سوناتا) نفسها لم تبال بهذا، لقد وقعت أسيرة سحر الشاب، وخفق له قلبها، ولم يعد باستطاعتها مقاومة مشاعرها نحوه، لذا فقد واصلت زيارة دار النشر، وراحت تتقرب من الشاب أكثر وأكثر، بحجة زيارة صديقتها (شوشانا)..

ولكن حقيقة الأمر لم تخف على عاشقة محنكة مثل (شوشانا) التي أدركت على الفور أن صديقتها تسعى خلف فتاها، فاندفعت تدافع عنه، وتقاتل لاستعادته، ولكنها انتبهت فجأة إلى أنها قد تحركت بعد الأوان، وأن (موشى) و (سوناتا) صارا عشيقين بالفعل..

وثارت (شوشانا)، وهاجت، وأرغت وأزبدت، كما يقولون في الروايات القديمة، وصرخت في وجه (موشى)، ولكنه صفعها على وجهها في صرامة، ولملم أوراقه ليغادر دار النشر، قبل أن تطرده هي في غضب وثورة لا مثيل لهما..

ولم يبال الشاب كثيرا بما حدث، وواصل علاقته بصديقته الجديدة، التي ثار زوجها الدكتور (لينتال) ثورة عارمة، إثر الفضيحة التي أثارتها (شوشانا)، وطالبها بترك (تل أبيب)، والعودة معه إلى (الكيبوتز)، الذي كانا يعيشان فيه، إلا أنها رفضت هذا الأمر تماما، وتصدت لثورة زوجها في صرامة عجيبة، تعود إلى أصلها البافاري الألماني، ثم لم تلبث أن اتخذت خطوة أكثر جرأة وتهورا، فراحت تلتقى بالشاب في أماكن عامة، وتصطحبه إلى كل حفل تدعى إليه، كما لو أنها تعلن للعالم أجمع كونها عشيقته، دون أدنى إحساس بالحياء أو الخجل..

وكانت فرصة مثالية للشاب، للاختلاط بعلية القوم ونجوم المجتمع الإسرائيلي، والتوغل في أعماق ساسته ومسئوليه..

وتفتحت شهيته بشدة لجمع المعلومات، وإرسالها إلى (القاهرة)، إلا أنه تذكر جيدا ذلك الأمر الصارم، الذي وجهه إليه رؤساؤه في (القاهرة)، قبل أن تبدأ مهمته..

لا ينبغي أن يتحرك أو ينشط قط، إلا إذا تلقى أمرا مباشرا بهذا..

مهما كانت خطورة ما يراه أمامه..

ومهما بلغت سرية ما لديه من معلومات..

هذا لأن (عمرو طلبة) كان من ذلك الطراز من الجواسيس، الذي يطلق عليه اسم (الجاسوس النائم)، وهو جاسوس خاص، يتم زرعه في أحد مواقع العدو، بحيث يتدرج فيه على نحو طبيعى، دون أن يثير أية شبهات أو اهتمامات، حتى إذا بلغ الموقع المناسب، أو حانت اللحظة المنشودة، يتم إيقاظه وتنشيطه، للحصول على أفضل نتائج ممكنة، من شخص لم يعد موضع شبهات على الإطلاق..

لذا، كان على الشاب أن يكتفي بعلاقته بنائبة (الكنيست)، دون أن يبدي أدنى اهتمام بما يحدث حوله، أو يسعى للحصول على أية معلومات، مهما كانت قوتها..

ولكن هذا الحال لم يدم إلى الأبد، فسرعان ما تلقى (موشى زكى رافي) خطاب التجنيد الإجباري، كأي مهاجر جديد، طبقا لقانون الهجرة الإسرائيلي..

ولم يعارض الشاب الأمر، وإن طلب من صديقته أن تتوسط له، لدى بعض أصحاب النفوذ من أصدقائها، حتى يلتحق بوحدة عسكرية قريبة، وألا يتم إرساله إلى خطوط المواجهة، حيث القلق والخوف والخطر..

ولم تكن (سوناتا) بحاجة لهذه التوصية، إذ إنها لم تكن تحتمل غياب الشاب عنها يوما واحدا ولهذا فقد سعت لدى صديقها الواسع النفوذ (آل)، والذي استغل اتصالاته، وأبقى الشاب داخل (تل أبيب)، حيث تم إلحاقه بإدارة البريد العسكرية.

وكان هذا أكثر بكثير مما يمكن أن يحلم به (موشى)..

ولقد برع كثيرا في وظيفته هذه، دون أن يحاول استغلال موقعه، أو جمع أية معلومات، مهما كانت الظروف..

واجتاز الشاب هذا الاختبار الجديد أيضا بنجاح، وحظي بإعجاب رؤسائه الإسرائيليين، واحترامهم، و.. وثقتهم..

وهذا هو المهم..

وعندما انتهت فترة التجنيد الإجبارية، وكان الشاب بلا وظيفة معروفة، فقد رحب بالانضمام إلى قوات الجيش العاملة، والبقاء في نفس منصبه، في إدارة البريد.

وعندئذ.. عندئذ فقط، وصلته تلك الرسالة من (أثينا) رسالة بريئة المظهر والمضمون، مكتوبة بالحبر العادي، وبدون استخدام أية أحبار سرية معروفة أو مستحدثة، يوحي كل ما فيها بأن مرسلها شاب يوناني، ارتبط به (موشى) بصداقة وثيقة، في أثناء وجوده في (أثينا)، وقبل وصوله كمهاجر إلى (إسرائيل)..

كل ما في الأمر، أن الرسالة قد انتهت بعبارة تقليدية، تقول: «صديقك إلى الأبد (يورغو)»..

وكانت هذه هي كلمة السر المتفق عليها..

وعود الثقاب، الذي أشعل فتيل الجاسوس النائم..

وأيقظه..

ولا أحد يمكنه أن يتصور مدى انتعاش الشاب، عندما تلقي تلك الرسالة، التي انتظرها كثيرا وطويلا، ولا كيف تفجر فيض من النشاط بعدها في عروقه، فاندفع يجمع ويلتقط كل ما يقع تحت يديه من معلومات، في نهم شديد، في انتظار إرساله إلى (القاهرة)..

وفي الربع الأخير من عام 1972 م، تلقى الشاب هدية أنيقة من صديقه اليوناني (يورغو) في عيد مولده، وهى عبارة عن علبة أدوات حلاقة أنيقة، تحوي داخلها بعض الشفرات الجديدة، وماكينة حلاقة تحمل بحروف أنيقة اسم (موشى رافي)..

وفي حجرته الخاصة، وفي أثناء غياب (سوناتا)، قام الشاب المدرب بفك أجزاء أدوات الحلاقة، وإعادة جمعها. على نحو خاص، حتى تكون لدية جهاز إرسال واستقبال دقيق، ثم لم يلبث أن استعان بعدسة قوية، لنقل الشفرة المحفورة بدقة بالغة، على حافة الأمواس..

وبدأت (القاهرة) تتلقى سيلا من المعلومات، على نحو جعلها تطلب من الشاب التريث قليلا، حتى لا ينكشف أمره..

ولكن المهم أن رجال المخابرات المصرية صاروا على اطلاع تام؛ بكل ما يتم تبادله عبر البريد العسكري، مهما كانت درجة سريته، عبر إدارات ووحدات الجيش الإسرائيلي..

ولكن فجأة، وبدون سابق إنذار، وصل للشاب أمر صارم، أدهشه بشدة..

لقد أمره رؤساؤه بإثارة غضب (سوناتا).. وبأعنف وسيلة ممكنة..

ولم يكن هذا بالأمر العسير، وكعادته، لم يسأل الشاب الرؤساء عن سبب هذا الأمر، وإنما التقى سمراء فاتنة، وغزل خيوطه حولها، ثم لم يلبث أن اصطحبها إلى منزل سوناتا)، وفي فترة عودة هذه الأخيرة بالتحديد...

وعادت عضو (الكنيست) إلى منزلها، لتجد صديقها في فراشها، مع تلك السمراء الفاتنة..

وجاء دور (سوناتا) لتثور وتصرخ وتغضب..

وكما فعل الشاب مع (شوشانا) من قبل، صفع (سوناتا) على وجهها، ثم اصطحب رفيقته الجديدة، وغادر المنزل كله..

وانهارت الإسرائيلية بعض الوقت، ثم لم تلبث روح الغضب والثورة في أعماقها أن تحولت إلى رغبة عارمة في الانتقام، فأسرعت إلى صديقها (آل) ذي النفوذ، وطلبت منه أن ينقل الشاب الجاحد من (تل أبيب)، إلى أقرب نقطة لخط المواجهة وهكذا، وقبل مضى أسبوع واحد، كان الشاب قد انتقل من إدارة

البريد المركزية، ليعمل كرقيب للبريد العسكري، فى مركز العمليات في (أم مرجم)..

وكان هذا بالضبط ما تسعى إليه المخابرات المصرية..

أن يتم نقل جاسوسها رقم ألف وواحد، إلى الخطوط الأمامية للعدو الإسرائيلي مباشرة..

ومن موقعه الجديد هذا، راح الشاب يجمع كل ما يمكنه من معلومات، بالغة الأهمية والخطورة، عن الجبهة الإسرائيلية..

تحركات القوات...

خطوط الدفاع.. وأماكن الأسلحة..

تنظيمات القتال.. ومناطق تمركز المدرعات والمدفعية..

مصادر التموين.. مواضع الوحدات ومراكز القيادة..

أسماء الضباط والجنود..

كل شيء..

وعبر الأثير، راحت رسائله اللاسلكية المشفرة تنتقل إلى (القاهرة)، حاملة فيضا لا ينقطع من المعلومات، على نحو احتاج إلى إدارة كاملة لتنسيقه ومتابعته وتحليله..

كان من الواضح أن الشاب شغوف للغاية بموقعه الجديد، وأنه شديد الحماس لعمله، إلى حد لم يعد فيه مكان للخوف أو القلق..

والعجيب أنه ظل، وحتى اندلاع الحرب، مصدر ثقة كل من عملوا إلى جواره، من ضباط وجنود الجيش الإسرائيلي، بل وكان

الوحيد المسموح له بفحص وتأمين الخطابات، الواردة أو الصادرة من وإلى القيادة العامة في (تل أبيب)..

ومع المعلومات الواردة، راح الرجال في (القاهرة) يعيدون دراسة خرائط الجبهة، وتقييم الموقف الأمني والعسكري هناك، وتم تعديل بعض الخطوط، وتطوير البعض الآخر، ووضع علامات جديدة في بعض الأماكن..

ومضت الأيام في سرعة..

واقتربت ساعة الصفر..

ساعة المعركة..

☆ ☆ ☆

في تمام الثانية إلا عشر دقائق، بعد ظهر السبت، السادس من أكتوبر، 1973 م، صدر الأمر بإنهاء مهمة الجاسوس رقم ألف وواحد، قبل أن تبدأ حرب التحرير الشاملة..

وفي الثانية إلا خمس دقائق بالضبط، تلقي (عمرو طلبة) أمرا مباشرا من القيادة في (القاهرة)، بالتوجه إلى المبنى الخشبي، الذي تحتله النقطة الطبية في (أم مرجم) والمقام على تبة متوسطة الارتفاع، على مسافة مائتي متر من غرفة العمليات، التي كانت الهدف الأول لغارات الطيران، عندما اندلعت الحرب..

وفي الوقت ذاته، تلقى كل طياري الضربة الجوية الأولى، الذين سيحلقون فوق تلك المنطقة، أمرا حازما بعدم قصف النقطة الطبية في ذلك الموقع، مهما كانت الأسباب..

وعندما استقبل الشاب هذا الأمر، أدرك على الفور أن الحرب وشيكة، وأنه لن تمضي دقائق معدودة، حتى تهوى القذائف المصرية على غرفة العمليات الإسرائيلية كالمطر..

وعلى الرغم من هذا، فلقد خالف الشاب الأوامر، لأول مرة في حياته، ورفض مغادرة موقعه، إيمانا منه بأنه يستطيع تقديم خدمة ممتازة للقوات المصرية، بتوجيه الضربات عبر اللاسلكي، من مكانة هذا..

وفي الثانية بالضبط، بدأت الضربة الجوية الأولى، وقفز حماس الشاب ونشاطه إلى أوجهما، حتى إنه ارتكب خطأً عجيبا، وتجاهل الشفرة تماما، وراح يرسل برقياته على نحو واضح مباشر، وكأنما أدرك أنه لم يعد هناك مبرر للتوارى وقد اشتعل الموقف بالفعل وفي مركز القيادة، في المخابرات العامة، فوجئ الرجال ببرقية عاجلة مباشرة، من الجاسوس رقم ألف وواحد، تحمل تقريرا عن نتائج قصف غرفة العمليات الإسرائيلية، وكان هذا في الثانية والنصف وخمس دقائق..

وطلب الرجال من (عمرو) مغادرة موقعه بأقصى سرعة، إلا أنه لم يلبث أن أرسل برقية عاجلة أخرى، يقول فيها إن فرقته تلقت أمرا بالانتقال إلى المواقع الأمامية، فأبرقت إليه إدارة الجاسوسية، تطلب منه تحديد مسار القافلة، وأتاها الرد بأن القافلة تتجه نحو القنطرة شرق، وأنه سيرسل المزيد من المعلومات فيما بعد، ثم أعطي صورة دقيقة للقتال، وصوت القنابل ودوي الانفجارات يغطي معظم مقاطع صوته، الذي امتلأ باللهفة والحماس، على نحو فاق كل المرات السابقة..

وبعدها انقطع الإرسال تماما، وتوقفت برقيات (عمرو)..

وانطلق النداء عبر الأثير.. «أجب يا ألف وواحد.. أجب..»

ولكن الجاسوس رقم ألف وواحد لم يلبَّ النداء قط..

هذا لأن دماءه الطاهرة كانت تروى رمال (سيناء) الحرة.

معلقة النهاية الفعلية الواحدة من أكبر عمليات الجاسوسية، في مرحلة الإعداد لحرب أكتوبر، ونهاية واحد من أبرع وأفضل الجواسيس، الذين عرفتهم (مصر)..

الجاسوس رقم ألف وواحد..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الوريث

د. نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

الوريث

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- تمويل..

«دكتور (حسن)..»
انتفض جسد العالم الشاب، عندما سمع اسمه يتردد، على لسان سكرتيرة مكتب (فؤاد صالح).. رجل الأعمال والملياردير الشهير، وانتزعه صوتها من أفكاره العديدة، التي شرد فيها لساعة كاملة، وهو يجلس في انتظار هذه المقابلة التي بني عليها العديد من آماله وأحلامه، منذ ما يقرب من عام كامل، فهب واقفا في احترام مثير للشفقة، وهو يعدل منظاره الطبي فوق أنفه، قائلا في ارتباك:
- ن.. نعم..
ابتسمت السكرتيرة الحسناء ابتسامة هادئة، تحمل لمسة من الخبث، توحي بأنها قد اعتادت هذا التوتر المضطرب، من كل من يلتقي بمخدومها الشهير لأول مرة، وأشارت بيدها، قائلة:
- (فؤاد) بك سيلتقي بك الآن.
هتف بلهفة، لم يستطع كتمانها:
- حقا؟!
اتسعت ابتسامة السكرتيرة، وهي تقول:
- نعم.. حقا يا دكتور (حسن)..
لم ينتبه إلى رنة السخرية في صوتها، وهو يندفع نحو باب مكتب (فؤاد) بك، ولكنه لم يكد يبلغه حتى ارتبك، واضطرب والتفت إليها، متمتما:
- الآن؟!
أومأت برأسها إيجابا، وقالت بكل ما أمكنها من هدوء وتهذيب، وهي تقاوم رغبتها في الضحك:

- نعم.. الآن يا دكتور (حسن)..
تردد الشاب لحظة، قبل أن يطرق الباب في حذر مرتبك، فتقدمت السكرتيرة تدفع الباب، قائلة:
- إنه في انتظارك يا دكتور..
اتسعت عينا الدكتور (حسن) عن آخرهما، وهو يحدق في المكتب الواسع الأنيق، ذي الواجهة الزجاجية العريضة التي تطل على النيل مباشرة، وفي الرجل البالغ الفخامة والأناقة والوقار، الذي نهض من خلف مكتب من الأبنوس الأسود ([1]) المطعم بقطع من النحاس الأصفر، وهو يبتسم في ترحاب، قائلا:
- تفضل يا دكتور (حسن).. مرحبا بك في مكتبي ارتباك الشاب، وهو يدلف إلى المكان، وانتفض جسده مرة أخرى، عندما أغلقت السكرتيرة الباب خلفه، فتمتم:
- أشكرك يا (فؤاد) بك.. أشكرك.
صافحه الملياردير في ترحاب، ودعاه إلى الجلوس، ثم اتخذ المقعد المقابل له، وهو يسأله في اهتمام:
- ترى ما المشروع الكبير، الذي طلبت مقابلتي لعرضه يا دكتور (حسن).
كان من الواضح أن الرجل لا يميل إلى إضاعة الوقت، وأنه يرغب دائما في طرق الحديد وهو ساخن، مما أربك العالم الشاب أكثر، وجعله يتململ على مقعده، ويعدل منظاره فوق أنفه ثانية، قبل أن يقول:
- الواقع أنها فكرة جديدة، لم يطرقها أحد بشكل عملي من قبل، ولكن لو أن... قاطعه الملياردير في شيء من الضجر:
- وما هي هذه الفكرة يا دكتور (حسن)؟!

ازدرد الشاب لعابه في صعوبة، وأشار بسبابته، مجيبا في توتر أكثر:
- قل لي يا (فؤاد) بك: ما الذي يمكن أن يفعله زوجان لا ينجبان، للحصول على ابن، تكتمل به سعادتهما؟!
بدا السؤال سخيفا للملياردير، ولكنه تمالك نفسه، وهو يجيب:
- يمكنهما أن يتبنيا طفلا
هز الدكتور (حسن) رأسه نفيا في قوة، وهو يقول:
- لا يوجد أفضل من أن تربي طفلا من صلبك.....
تطلع إليه الملياردير لحظة في شك حذر، قبل أن يجيب في بطء:
- أعتقد أنهم يتحدثون منذ عام أو عامين، عما يطلق عليه اسم (أطفال الأنابيب).. إنها عملية تلقيح اصطناعية تقريبا اتسعت ابتسامة الدكتور (حسن)، واكتسب صوته شيئا من الثقة، وهو يقول:
- عملية التلقيح الاصطناعية، التي يطلقون عليها اسم (أطفال الأنابيب)، مجرد عملية تخصيب خارج الرحم، باستخدام حيوان منوي وبويضة، من الأب والأم، وهى تستخدم مع أولئك الذين يعانون عدم استقرار الحمل، أو بعض التشوهات الخلقية، التي تمنع حدوث الحمل الطبيعي، وهم يعتبرون هذا إنجازا الآن، في أواخر السبعينات، ولن يمضي وقت طويل، حتى تجد مراكز (أطفال الأنابيب) هذه منتشرة في (مصر) كلها، قبل أن نبلغ منتصف الثمانينات على الأرجح...

ثم مال إلى الأمام، مستطردا:
- ولكن ليس هذا ما أقصده
وعاد يتراجع، مكملا، وقد اكتسب المزيد من الثقة:

- إنني أقصد أمرا أكثر تقدما
ألقى الملياردير نظرة على ساعته، وكأنه يشير إلى ضيق وقته، قبل أن يقول في ضجر واضح:
- ما هو مشروعك بالضبط يا دكتور (حسن)؟!
هتف الدكتور (حسن)، في حماس مباغت، أدهش الملياردير بشدة:
- قنبلة في هذا العالم.. فرصة ذهبية للذين لا يمتلكون القدرة على الإنجاب.. وما أعنيه هنا هو غير القادرين تماما، أو بمعنى أدق أولئك الذين تثبت كل فحوصهم أنه ليست لديهم حيوانات منوية على الإطلاق..
وعلى قدر دهشته، وجد الملياردير نفسه يسأل في فضول:
- وكيف يمكن لمثل هؤلاء أن ينجبوا؟!
أجابه في حماس متضاعف:
- هذه هي العبقرية
ثم هب من مقعده، وقد زايله كل ارتباكه، وحل محله حماس وثقة لا مثيل لهما، وراح يتحرك في المكتب الواسع، متابعا، وهو يلوح بذراعيه كليهما:
- منذ فترة قليلة، قرأت مقالا في مجلة (أتلانتيك)، بقلم (جيمس واطسون)، الحائز على جائزة (نوبل) في العلوم؛ يسبب أبحاثه المهمة حول بنية الوحدة الأساسية لكل كائن حي، والمعروفة باسم (دي. إن. إيه) (D.N.A) [2]) وفي مقاله هذا، قال (واطسون) إن التطورات العلمية المدهشة، تمهد الطريق بسرعة إلى تحقيق ذلك الهدف، الذي ظل طويلا مجرد حلم أو خيال يراود العلماء، دون أدنى أمل في تحويله إلى حقيقة..
والتفت إلى الملياردير، مستطردا في حماس شديد:

- الاستنساخ
رد الملياردير في دهشة:
- الاستنساخ؟! ما الذي تعنيه هذه الكلمة بالضبط؟!
أجابه الدكتور (حسن)، ملوحا بذراعيه
- ما يدل عليه منطوقها بالضبط يا (فؤاد) بك.. الاستنساخ هو صنع نسخة مماثلة تماما لشيء ما، وفي حالتنا هذه ستكون هذه النسخة عبارة عن كائن جديد.. إنسان آخر مماثل تماما للشخص، الذي تم صنع النسخة منه...
حدق الملياردير في وجهه بذهول، قبل أن يهب من مقعده، ويحتقن وجهه في شدة، وهو يهتف:
- دكتور (حسن).. هل أتيت هنا لتسخر مني؟!
اتسعت عينا العالم الشباب، وهو يقول في دهشة:
- أسخر منك؟! وكيف أسخر منك يا (فؤاد) بك، بعد أن سعيت طوال شهر كامل لمقابلتك، و...
قاطعة الملياردير في غضب:
- حديثك هذا هو السخرية بعينها.. ليس هذا فحسب، وإنما هو نوع من الكفر أيضا...
تراجع الدكتور (حسن) كالمصعوق، هاتفا:
- الكفر؟! رويدك يا (فؤاد) بك.. إنني مؤمن بالله سبحانه وتعالى) مثلك تماما..
صاح به الملياردير محنقا:
- وكيف لرجل يؤمن بالله (عز وجل) أن يفكر مجرد التفكير، في خلق إنسان آخر؟!
صرخ الدكتور (حسن) ملتاعا:
- خلق ماذا؟! مهلا يا (فؤاد) بك.. الخلق صفة يختص بها الخالق عز وجل)؛ فهو وحده (سبحانه) يقول للشيء كن

فيكون، ويخلق كل شيء من العدم، أما أنا فكل ما أتحدّث عنه هو العلم.. فقط العلم...
صاح (فؤاد)، وهو يعود إلى مكتبه في حنق:
- أي علم هذا، الذي يسعى لاستنساخ بشرى؟! لماذا لا نترك الأمر لله سبحانه وتعالى)، ليدير كل شيء، فيهب لمن يشاء إناثا، ويهب لمن يشاء الذكور، ويجعل من يشاء عقيما بإذنه تعالى ([3])؟!
أجابه الدكتور (حسن) في توتر:
- وما العيب في أن يسعى الإنسان لتحقيق ما يصبو إليه؟!
الله سبحانه وتعالى) خلق الداء والدواء، ولم يعترض أحد قط على لجوء الإنسان للدواء، طلبا للشفاء.. بل إن عملية زرع الأعضاء نفسها لم تواجه بهذا الاعتراض.. أنت نفسك، لو شعرت بالتهاب الزائدة الدودية ستسعى لإجراء عملية جراحية لاستئصالها، ولن تعترض بحجة أن نترك كل شيء لله (عز وجل) يديره كما يشاء؛ لأن الله أمرنا، من خلال رسوله (صلى الله عليه وسلم)، أن نعقلها ثم نتوكل، أي أن نبذل كل ما بوسعنا أولا، ثم نترك الباقي لله سبحانه وتعالى).. والعجز عن الإنجاب مرض كغيره من الأمراض ومن حق كل شخص أن يسعى للشفاء منه، بأية وسيلة كانت..
استقر الملياردير خلف مكتبه، وحدجه بنظرة ساخطة صارمة، قبل أن يقول في صرامة:
- مشروع مرفوض يا دكتور (حسن)..
امتقع وجه العالم الشاب، وتلاشت نصف ثقته على الأقل وهو يقول:

- اسمعني جيدا يا (فؤاد) بك، وحاول أن تعيد التفكير في الأمر.. إن ما أعرضه عليك ليس كفرا أو خلقا كما تتصور إنه نفس ما يحدث بالنسبة لمشاريع (أطفال الأنابيب) هذه.. الفارق الوحيد هو أننا لا نحتاج إلى خلية منوية لإحداث الإخصاب.. إننا نحتاج إلى خلية حية.. أية خلية من جسم الإنسان، باستثناء خلاياه الدموية.. أية خلية تحوي مادته الأساسية (D.N.A)، وبعدها ستقوم بتدمير نواة البويضة بالأشعة فوق البنفسجية، ونحقن داخلها المادة الأساسية للخلية البشرية، التي تحمل صبغياتها كاملة.. ثلاث وعشرون زوجا من الصبغيات ([4])، تحتويها البويضة، بكل ما فيها من جينات وصفات، تنتمي كلها إلى طرف واحد من الطرفين.. ذلك الطرف، الذي حصلنا منه على الخلية الحية.. هل تعلم ما الذي يمكن أن يؤدي إليه هذا؟! كائن جديد، يتماثل تماما مع الكائن الأول، في كل سماته وصفاته، ولا يحوي وصفة واحدة، سائدة أو متنحية من الطرف الآخر ([5])

ثم تراجع، مستطردا في توتر زائد:

- ألم تحلم بهذا أبدا؟! ألم تفكر يوما في إنجاب طفل، هو نسخة طبق الأصل منك، ليرث ثروتك، ويدير كل هذه المشاريع العملاقة؟!

أجابه (فؤاد) في صرامة:

- كلا.. لم أفكر في هذا قط؛ لأن لدي بالفعل ابن مثالي (حماه الله)

قال الدكتور (حسن) في توتر بالغ، أقرب إلى الضراعة:

- ولكنه لا يشبهك تمام الشبه.. ليس نسخة طبق الأصل منك، وهنا الفارق..

صاح (فؤاد) في حنق:
- ومن يحتاج إلى نسخة طبق الأصل من نفسه؟! أية متعة في هذا؟! المرء السوي يحتاج إلى ابن له صفات وسمات جديدة، ويأتي حاملا معه الأمل في مستقبل أفضل...
لوح الدكتور (حسن) بسبابته، قائلا:
- ربما كان هذا رأيك الشخصي، ولكنه ليس رأى باقي الأثرياء ورجال السلطة والقوة.. كل زعيم في العالم سيرى في هذا امتدادا خرافيا له.. وسيلة مدهشة لضمان الخلود...
هتف (فؤاد) بدهشة مستنكرة
- الخلود؟!
ثم عاد حاجباه ينعقدان في غضب صارم، وهو يكرر عبارته الأولى:
. مشروعك مرفوض يا دكتور (حسن)
وضغط زر استدعاء سكرتيرته، مستطردا في حزم:

- وأعتقد أن وقت المقابلة أيضا قد انتهى
عاد وجه العالم الشاب يمتقع بشدة، واضطربت الكلمات على لسانه، وهو يعدل منظاره الطبي فوق أنفه بعصبية قائلا:
- لا تتعجل يا (فؤاد) بك.. فكر في الأرباح الطائلة لاستثمار كهذا.. عديدون على استعداد لدفع الملايين، في سبيل الحصول على نسخة بشرية.. إننا نسبق العصر بخطوتين على الأقل، عندما نبدأ هذا الآن...
دخلت السكرتيرة الحجرة، في هذه اللحظة، وبدت عليها دهشة منزعجة، عندما رأت (فؤاد) يهب من خلف مكتبه، ويلوح بسبابته في غضب، هاتفا:
- تسبق العصر؟! نسبقه إلى أين؟! أإلى الجحيم بأفكارك الحمقاء الملحدة هذه؟
صاح الدكتور (حسن) في غضب:
- أفكار حمقاء ملحدة؟! إنه العلم يا رجل.. العلم أمسكت السكرتيرة يده، قائلة في قلق:
- دكتور (حسن).. اسمح لي
ضرب يدها بعيدا في عنف، وهو يواصل محتدا:
- الأغبياء فقط من يعترضون سبيل العلم والتقدم؛ لأن قطار العلم سيدهسهم ويسحقهم، ويمضي في طريقه، دون أن يبالي بهم، أو ينتبه حتى لوجودهم.
تراجعت السكرتيرة في هلع، وراحت تصرخ منادية رجال أمن المؤسسة، في حين بدا (فؤاد) شديد الغضب، وهو يصرخ:
- أخرجوا هذا المجنون الكافر من مكتبي.. ألقوه خارجا صباح الدكتور (حسن) في ثورة:
- هذا المجنون الكافر سبق زمانه بعشر سنوات على الأقل أنا الوحيد في العالم كله، الذي يمكنه استنساخ كائن بشرى بنجاح..

كل ما كان ينقصني هو التمويل، ولقد أتيت لأضع هذه الفرصة الذهبية بين يديك، ولكنك ركلتها بكل جهل ال وغرورك وكبريائك الزائف...

صرخ (فؤاد):

- أخرجوه.. أخرجوه قبل أن لم تكتمل صرخته، مع انقضاض رجال أمن المؤسسة على الدكتور (حسن)، الذي راح يقاومهم في استماته، وهو يطلق صيحات احتجاج ثائرة، في حين اندفعت السكرتيرة نحو (فؤاد)، هاتفة في جزع:

- (فؤاد) بك.. أأنت بخير يا (فؤاد) بك؟!

كانت على حق في جزعها، فالرجل كان يلهث بقوة، ويلتقط أنفاسه في صعوبة، وجسده كله يرتجف من فرط الانفعال، وهو يجيبها بصوت مختنق:

- ذلك الكافر.. الغبي

اندفع إلى الحجرة شقيقه (سمير)، وهو يهتف مذعورا:

- ماذا حدث؟! ماذا أصاب (فؤاد)؟!

أشارت إليه السكرتيرة بيدها في توتر، وهمت بقول شيء ما، لولا أن قال (فؤاد) في حدة، وبصوته المختنق اللاهث:

- أنا بخير.. اطمئنوا...

سأله شقيقه في قلق بالغ:

- ماذا أصابك؟!

أجابته السكرتيرة هذه المرة:

- ذلك الطبيب، الذي التقى به هنا، أثار أعصابه واستفزه وبشدة.....

سألها شقيقه في دهشة:

- ولماذا؟!

اندفع (فؤاد) يجيب في حدة:

ذلك المجنون أتي يعرض على مشروع إنتاج إنسان. خيل ل (سمير) أنه لم يسمع الكلمة أو يستوعبها جيدا، فتسأل مندهشا:
- إنتاج ماذا؟!
أجابه (فؤاد)، وهو يلوح بيده في حنق:
- إنتاج إنسان.. إنه يدعى قدرته على استنساخ أي بشرى بوسائل تكنولوجية حديثة، ويطلب مني تمويل هذا المشروع الكافر...
هتف شقيقه مذعورا:
- أعوذ بالله العلي القدير
أما السكرتيرة، فقد تمتمت:
وإنه مجنون حتما...
قال (فؤاد) في حدة:
- لو كان الأمر بيدي، لألقيته في مستشفى المجانين تناهى إلى مسامعهم عندئذ صوت هادئ، يتساءل:
من هذا الذي ستلقونه في مستشفى المجانين؟!
التفت الجميع في آن واحد إلى مصدر الصوت، وتهللت أسارير الملياردير، وعادت الدماء إلى وجهه، وكأنما أزال الصوت كل ما كان يملأ نفسه من انفعالات في لحظة واحدة، وهو يهتف:
- (عماد).. حمدا لله على سلامتك يا ولدي.
وارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي العم، في حين خفق قلب السكرتيرة، وهي تتمتم في شيء من اللهفة والحياء:
- حمدا لله على سلامتك يا (عماد) بك...
وفي خطوات هادئة رصينة، وبابتسامة لا يمكن إلا أن تأسر قلبك، من اللحظة الأولى، دلف (عماد)، ابن (فؤاد صالح) الوحيد إلى حجرة مكتب والده الواسعة الأنيقة، وهو يتساءل بصوت رجولي عذب:

- أشكركم، ولكنني لم أعلم بعد، من هذا الذي ستلقونه في مستشفى المجانين...
كان شابا في الخامسة والعشرين من عمره، وسيم الملامح، رياضي القوام، أنيق الملبس، باسم الثغر يهفو القلب لرؤيته، على نحو جعل والده يهب من مقعده، ويحتويه بين ذراعيه، وهو يربت على ظهره، قائلا بكل عاطفة الأبوة في أعماقه:
- حمدا لله على سلامتك يا (عماد).. لا تقلق نفسك بشأن ما حدث يا ولدي.. إنه شاب مجنون، جاء يعرض علينا مشروعا أحمق، فطردته من هنا شر طردة...
بدا التأثر على وجه (عماد)، وهو يقول:
- ولماذا لم تكتف بصرفه من هنا فحسب...
ابتسمت السكرتيرة في حنان، وقد اعتادت ردود أفعاله الرقيقة، وحساسيته المرهفة، وغمغم العم بابتسامة كبيرة:
- هذا هو (عماد) الذي نعرفه...
أما والده، فقد ربت على كتفه، قائلا:
- صدقني يا بني.. لقد حاولنا ثم استعاد ابتسامته، وهو يسأله في اهتمام:
- ولكن دعك من هذا الآن، وأخبرني: ما أخبار صفقة الزوارق.
أجابه (عماد) في حماس:
- سارت على خير ما يرام يا أبي.. أصحاب المصنع في(إيطاليا) اندهشوا لإصرارنا على إتمام الصفقة معهم، وتساءلوا: هل يسمح المناخ الاشتراكي في (مصر) بتسويق زوارق صيد فاخرة كهذه؟! ولكنني شرحت لهم كيف أن الأمور تتغير بسرعة، منذ انتهت الحرب، وبدأ الرئيس (السادات) مرحلة الانفتاح الاقتصادي، وأنه لن يمضي وقت طويل، حتى تتحول إلى الاقتصاد الحر، مع بداية الثمانينات على الأرجح، وستنمو رءوس

الأموال كتطور طبيعي، وتنشأ فئة جديدة من الأثرياء، الذين سيقبلون على شراء هذه الزوارق...
سأله والده في لهفة:
- وكيف كان جديتك معهم. أريد معرفة كل التفاصيل...
أجابه (عماد) بابتسامة كبيرة:
- سأخبرك بكل التفاصيل يا أبي
ثم ألقي نظرة على ساعته، قبل أن يستدرك في لهجة مهذبة:
- ولكن اسمح لي بأداء صلاة الظهر أولا تمتم العم:
- بارك الله فيك يا ولدي...
وأسرعت السكرتيرة تغادر المكان، لتفسح له مجال الخشوع للصلاة، في حين تطلع إليه والده في حب وزهو واعجاب، وهو يقول:
- يا للعالم المجنون؟! من ذا الذي يسعى لإنتاج نسخة منه، ولديه ابن رائع كهذا قالها، وكل ذرة في كيانه لا تحوي سوى صورة واحدة صورة ابنه الوحيد (عماد)...

☆ ☆ ☆

٢ -الابن..

لم تكد دينا تلمح سيارة (عماد)، وهي تتوقف أمام النادي، حتى هتفت في سعادة، وهي تصفق بكفيها كالأطفال:
(عماد) وصل...
ألقت هتافها، وقفزت من مقعدها؛ لتعدو نحو مدخل النادي لاستقباله، ولكن والدتها أمسكت يدها في قوة، وهي تقول في صرامة:
- بنت.. تماسكي وتمالكي نفسكِ.. لا داعي لهذه اللهفة المفضوحة...
سألتها ابنتها في دهشة:
- لماذا يا أمي؟!
أجابتها أمها:
- (عماد) سيتصور أنك متلهفة للقائه...
ضحكت قائلة
- ولماذا يتصور؟! إنها الحقيقة.. أنا في غاية الشوق...
هتفت أمها مذعورة:
- بنت.
أزاحت (دينا) يد أمها في رفق، وهي تهمس:
- أمي.. إنني لم أره منذ أسبوعين كاملين.. ألا تقدرين ثم غمزت بعينها، مستطردة:
- ثم إن (عماد) خطيبي.. رسميا
زوت الأم ما بين حاجبيها في اعتراض، وابنتها تعدو لاستقبال (عماد)، عند بوابة النادي، فابتسم زوجها، وغمغم، وهو يتظاهر بقراءة الصحيفة:

- جميل هو الحب.. أليس كذلك؟!
التفتت إليه الأم في غضب، وهي تقول:
- ابنتك لم ترث الحماقة من بعيد...
طوي الجريدة، وهو يقول بنفس الابتسامة، وكأنما اعتاد عنف أسلوبها وسلاطة لسانها الدائمة:
- أية حماقة في هذا؟! (عماد) مسافر خارج البلاد منذ أسبوعين كاملين، وهو خطيبها رسميا، وسيتزوجان بإذن الله في نهاية الشهر، فماذا يمنع إظهار لهفتها عليه...
قالت في حدة:
- أنت لا تعرف شباب هذه الأيام.. لو أبدت الفتاة أي ميل واضح نحوه، تعالى عليها وتغطرس، وعاملها كالجارية تطلع إليها بنظرة عتاب، وهو يقول:
- وهل يبدو لك (عماد) كشباب هذه الأيام؟!
ورفع رأسه ليتجاوزها بنظرة إلى بوابة النادي، حيث التقى (عماد) و(دينا) في لهفة، وتعانقت أيديهما في حب ودفء به وتابع:
- إنه شاب يتمنى كل أب أن ينجب مثله.. مهذب، مثقف متدين، متعلم.. ينتمي لعائلة باللغة العراقة والثراء.. لا يمكنك أن تتصوري كم تمنيت أن يكون لي ابن مثله، منذ رأيته لأول مرة.. كان في الخامسة عشرة من عمره، ويبدو كرجل ناضج رصين...
ثم تنهد، مستطردا في ارتياح:
- ولقد منحني الله إياه كزوج لابنتي الوحيدة.. حمدا لله رب العالمين...
التفتت إليه زوجته في حدة، قائلة:
- أتعايرني يا رجل؛ لأنني لم أنجب لك ولدا؟!
هتف ضاحكا:
- رباه! سنبدأ المناورات المعتادة!

ثم هب واقفا، ولوح بيده، مستطردا:.
- أهلا يا (عماد).. حمدا لله على السلامة يا ولدي حياه (عماد) فى حرارة، ثم مال على أم (دينا)...
بابتسامة عذبة، قائلا:
- كيف حالك يا أمي؟! اشتقت لحنانك كثيرا هذه المرة...
نطقها بلهجة دافئة، جعلت المرأة تهتف في حرارة وحماس:
- ليس بقدر ما أوحشتنا أنت يا ابني.. هيا.. اجلس..
اجلس وقص علينا كل ما فعلته في رحلتك...
جلس (عماد) على المقعد المجاور لها، و(دينا) تهتف مداعبة:
- كم أشعر بالغيرة، كلما ناداك (عماد) بلقب (أمي) هذا فأنت تمنحينه ضعف ما تمنحينني إياه من الحنان حينذاك بدت أمها حنونة للغاية، على نحو يفوق المعتاد، وهى تجيب بابتسامة كبيرة:
- هكذا (عماد) دائما.. لا يمكنك أبدا مقاومته...
هتفت (دينا):
- آه.. سأشعر بالغيرة.
قهقه والدها ضاحكا وهو يقول:
- هذا حقها ...
شاركهم (عماد) بابتسامة مرحة رصينة، قبل أن يشير بيده، قائلا:
- لا يمكنك أن تتصوري كم يسعدني دائما أن أخاطبك بهذا اللقب، فلم تتح لي الفرصة أبدا لاستخدامه مع أمي الحقيقية كانت عبارته الأخيرة تحمل نبرة حزينة، مست قلوب ثلاثتهم، خاصة وهم يعلمون أن أمه (رحمها الله) قد ماتت في أثناء ولادته، وربتت أم (دينا) على رأسه في حنان، هامسة:
- اعتبرني أمك دائما...

تهللت أساريره، وهو يقول:
- إنني أعتبرك كذلك بالفعل..
قاومت (دينا) دمعة تأثر، امتلأت بها عيناها، ثم هتفت محاولة تغيير دفة الحديث:
- ماذا دهاكم؟ هل ستستولون على خطيبى، الذي لم أره منذ أسبوعين؟!
وجذبته من يده، مستطردة في حماس مرح:
- هيا لأريك ما صنعوه بحديقة النادي...
نهض معها في سعادة واضحة، وهو يقول لوالديها:
- معذرة.. إننا
قاطعه والدها بابتسامة كبيرة:
- لا بأس.. لا بأس.. يمكننا فهم هذا
تابعتهما الأم في حنان، وهما يتباعدان متشابكي الأيدي ثم لم تلبث أن انتفضت، وكأنها تستعيد شخصيتها الطبيعية قائلة في صرامة:
- ولكن لا ينبغي أن تبدي البنت لهفتها عليه...
ارتفع حاجبا الأب لحظة في دهشة، ثم لم تلبث أن انفجرت من بين شفتيه، على هيئة ضحكة مجلجلة، وهو يدفن وجهه في الصحيفة، متماشيا مواجهة زوجته الغاضبة بلا مبرر أما (عماد) و(دينا)، فلم يشعرا بما دار من حولهما، وهما يسيران جنبا إلى جنب، دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة كان الحب قد ملك شغاف قلبيهما، حتى لم تعد بهما حاجة إلى الكلام..
تلامس أصابعهما كان يكفيهما، في تلك اللحظة التي امتزجت فيها روحاهما، وهامتا في جنة من السعادة والدفع والحنان.. والحب ومن المؤكد أن هذا المشهد الجميل قد جذب انتباه كل

رواد النادي، الذين تعلقت عيونهم به، وراحت تتابعه في انبهار وحسد..

ولم تنطق (دينا) بأولى كلماتها، إلا عندما وصلا إلى حديقة النادي، فابتسمت في خجل، وهي تمتم:

- أوحشتني..

همس بحنان دافق:

- أنت أوحشتني أكثر..

لكزته بمرفقها في دلال، قائلة:

- لو أنني أوحشتك بحق لما غبت عني كل هذا الوقت...

ابتسم هامسا:

- كنت أحادثان هاتفيا كل يوم...

هزت كتفيها، قائلة:

- هذا لا يكفيني...

ثم استندت إلى جدار قريب، وهي تتطلع إلى عينيه مباشرة، هامسة:

- إياك أن تغيب عني مرة أخرى...

مال نحوها، مغمغما:
- عندما نتزوج، في نهاية الشهر، لن أسافر وحدي أبدا ستصحبينني في كل رحلاتي...
تمتمت وصوتها ينخفض:
- لن أفارقك لحظة واحدة..
همس بكل حب الدنيا:
- سأعتبر هذا وعدا.
قالت وصوتها يزداد انخفاضا:
- اعتبره وعدا، منذ هذه اللحظة، ولن تسافر وحدك قط، و...
قاطعها فجأة:
- فيما عدا مرة واحدة
انعقد حاجباها في غضب طفولي، وهي تقول:
- ولماذا هذا الاستثناء؟!
أشار بيده، قائلا:
- لا بد أن أتفقد فرع الشركة في (الإسكندرية)، لأننا تستعد لاستلام صفقة زوارق جديدة هناك، بعد أسبوع واحد مطت شفتيها، وضربت الأرض بقدمها، قائلة:
- سأسافر بصحبتك...
ابتسم، وداعب خصلة من شعرها، متمتما:
- والدتك لن تسمح بهذا..
قالت في عناد:
- سأسافر على الرغم منها...
بدا الهلع على وجهه، وهو يهتف مستنكرا:
- على الرغم منها؟!
ثم استطرد في صرامة:

- إياك أن تفكري في هذا الأمر.. السفر ضد رغبة والديك أمر مرفوض تماما.. طاعة الوالدين تعلو كل شيء...
ارتبكت، وتخضب وجهها بحمرة الخجل، وهي تقول:
- بالتأكيد يا (عماد).. أنا لم أكن أقصد هذا فعليا...
استعاد هدوءه وحنانه في سرعة، وهو يبتسم قائلا:
- أعلم هذا.
سألته في دلال:
- ومتى ستسافر؟!
أجابها مبتسما:
- يوم الأربعاء القادم.. سأقضي يومين فحسب، وسأعود صباح الجمعة بإذن الله...
مطت شفتيها كالأطفال، مغمغمة:
- ستوحشني للغاية حينذاك.
ابتسم أكثر، وهو يداعب خصلة شعرها مرة أخرى، هامسا:
- احتملي هذا أسبوعا آخر، وبعدها سأصبح ملكك إلى الأبد.
هزت كتفيها، قائلة في دلال:
- من يدري؟؟
ولم تتصور لحظتها أن دلالها هذا كان أشبه بالنبوءة..
فمن يدري بالفعل، ماذا يمكن أن يحدث، بعد أسبوع كامل؟!
من يدري؟!

☆ ☆ ☆

سأسافر اليوم إلى (الإسكندرية).. ...
ألقى (عماد) عبارته في هدوء، وهو يراجع ملف صفقة الزوارق الإيطالية، في مكتب والده، الذي رفع عينيه عن أوراقه، ليسأله في اهتمام:
- متى تصل باخرة الشحن؟!

أجابه في سرعة واحترام:
- فجر الغد.. سأكون في انتظارها بإذن الله (سبحانه وتعالى)..
تطلع إليه والده بضع لحظات في صمت، قبل أن يقول:
- لا تسافر وحدك.. خذ الأسطى (سيد) معك.
بدت الدهشة على وجه (عماد)، وهو يقول:
- الأسطى (سيد)؟! ولماذا؟! إنها تيست أول مرة أقود فيها السيارة وحدي إلى (الإسكندرية)!!
كان يشعر بحيرة كبيرة؛ لقلق والده الواضح، ولكن حيرته هذه لم تكن تقل عن حيرة (فؤاد) نفسه، الذي تساءل في أعماقه:
- ترى لماذا أشعر بكل هذا القلق؟! إنها بالفعل ليست أول مرة، يسافر فيها وحده إلى (الإسكندرية)! فماذا هناك إذن؟!
دفعته الحيرة إلى الصمت بضع لحظات، قبل أن يجيب في حزم:
- دعه يذهب معك هذه المرة.
لم يكن (عماد) يشعر بالارتياح لقرار والده، الذي لم يجد له ما يبرره، إلا أن طبيعته المهدية جعلته يومئ برأسه إيجابا، ويقول في طاعة:
- كما تأمر يا أبي...
تنهد (فؤاد) بارتياح، وشعر وكأن حملا ثقيلا ينزاح عن كاهله، وهو يشير بيده، قائلا:
- لا تتأخر هناك كثيرا.. أنه الإجراءات، وعد إلى هنا على الفور.. العمل يحتاج إليك...
تطلع إليه (عماد) لحظة في صمت، قبل أن يتقدم نحوه، ويربت على كتفه في حنان، قائلا:
- أنت كل الخير والبركة يا أبي.. أبقاك الله لنا...
ثم انحنى يطبع قبلة على يد والده، الذي قال في ارتباك:
- لماذا فعلت هذا؟!

اعتدل (عماد) بابتسامته العذبة، قائلا:
- لم أجد ما هو أفضل لأفعله، تعبيرا عن حبي واحترامي ارتفع حاجبا الأب، في تأثر وحنان، وهو يقول:
- لا أحد من شباب هذه الأيام يفعل هذا...
هز (عماد) كتفيه، قائلا:
- وما شأني بهم؟!
ثم عاد يبتسم في وجه والده، مستطردا:
- وهل لهم أب كأبي؟!
ربت (فؤاد) على خده، متمتما
- بارك الله فيك يا بني.. بارك الله فيك...
ولكن حتى تمتمته الخافتة هذه، عكست ما يختفي في أعماقه من حيرة وقلق نفس الحيرة والقلق، اللذين لم يفارقا (عماد) لحظة واحدة، حتى وهو يسير إلى جوار (دينا)، في حديقة النادي مما جعلها تقول غاضبة:
- هل أتيت لتودعني أم لتنشغل بالتفكير في صفقتك القادمة؟!
التفت إليها في دهشة، قائلا:
- بل أتيت لأقضي معك بعض الوقت، قبل سفري إلى(الإسكندرية)...
قالت محتدة:
- ولكنك لست معي على الإطلاق.. إنك شارد تماما...
ثم استطردت في ضيق:
- أجبني بصراحة.. هل تفكر في العمل؟!
شرد ببصره لحظة أخرى، قبل أن يجيب في خفوت:
بس كلا.. أفكر في والدي...
قالت في دهشة قلقة:

- والدك؟! وماذا به.. آخر مرة رأيته فيها، كان في أتم صحة وعافية...
هز رأسه، قائلا في قلق:
- اليوم لم يكن كذلك.
كان شاردا، متوترا، حتى انني أشعر بقلق حقيقي تجاهه.. أخشى أن يعجز عن مواجهة ضغط العمل وحده...
تطلعت إليه في توتر، ومدت يدها في رفق، تتحسس خده، قائلة في إشفاق:
- لا تقلق بشأن والدك.. إنه رجل قوى، بنى نفسه بنفسه، ويمكنه احتمال الكثير من المتاعب والضغوط وابتسمت في حنان، مستطردة:
- ثم إنني سأعمل على رعايته بنفسي...
أطل امتنان واضح، من عينيه العسليتين الدافئتين، وهو يقول:
- أعلم أنك ستفعلين
تشابكت أصابعهما، وتعانقت أكفهما، وهما يتطلعان لبعضهما في صمت، قبل أن يميل على أذنها، قائلا:
- أأخبرك بسر؟!
تخضب وجهها بحمرة الخجل، وهي تتمتم:
- أعرفه.
سألها هامسا:
- وما هو؟؟
أجابته في خفوت خجول:
- إنك تحبني...
ضحك، قائلا:
- هذا ليس سرا.. الجميع هنا يعلمون أنني غارق في هواك...
ضحكت في سعادة وخجل، قائلة:

- ما السر الآخر إذن؟!
أجابها في اهتمام:
- لقد أخبرت أبي أنني سأعود صباح الجمعة، ولكن الواقع أنني سأفاجئه بالعودة مساء الخميس...
سألته في حيرة:
- ولماذا تفاجئه؟!
ابتسم في حنان، مجيبا:
- الخميس هو عيد مولده...
هتفت في دهشة فرحة:
- حقا؟!
أجابها، وقد بدت السعادة واضحة في كلماته:
- إنه لم ينتبه إلى هذا، ولكنني سأفاجئه بحفل غير متوقع مساء الخميس...

قالت في حماس:
- اترك لى إعداد كل شيء.. سأبلغ الجميع، وأضمن وجوده في المنزل، وسننتظرك جميعا هناك...
تراجع في ارتياح، مغمغما:
عظيم.. كنت أعلم أنه يمكنني الاعتماد عليك...
ثم استعاد ابتسامته، متابعا:
- وسأعمل على أن يحمل له مساء الخميس مفاجأة.. مفاجأة غير متوقعة...
وكان على حق في عبارته إلى حد لم يتصوره هو نفسه مطلقا...

☆ ☆ ☆

مفاجأة!...

هتفت (دينا) بالعبارة، في وجه المليارديرر (فؤاد)، الذي تراجع في دهشة بالغة، وهو يقول:
- (دينا)؟! مرحبا بك يا بنيتي.. أية مفاجأة تعنين؟!
برز والداها من خلفها، وبصحبتهما عدد من الأصدقاء والمعارف، وكلهم يهتفون في آن واحد:
- عيد ميلاد سعيد يا (فواد) بك.
ارتفع حاجبا الرجل في دهشة، وهو يفسح لهم الطريق، قائلا:
- عيد ميلاد؟!
ثم لم يلبث أن هتف:
- رباه! إنه عيد ميلادي بالفعل.. كيف علمتم هذا؟!
طبعت (دينا) قبلة على وجنته، قائلة:
- (عماد) أخبرني، وأنا أخبرت الآخرين لم يكد يسمع اسم ابنه، حتى تهللت أساريره، وهتف:
- (عماد).. هل تذكر أيضا؟!
أجابته بابتسامة كبيرة:
- إنه لا ينساك أبدا...
ابتهج كثيرا لكلماتها، وراح يتابع في دهشة ذلك النشاط الذي شمل الجميع، وهم يعلقون الزينات والبالونات، ويعدون المائدة بالأطعمة والحلوى، ورأى (دينا) تحمل كعكة عيد الميلاد، التي انغرست في منتصفها شمعة واحدة، وهي تهتف ضاحكة:
- (عماد) أوصاني أن أضع شمعة واحدة، حتى لا تفصح عن عمرك الحقيقي...
ضحك بدوره، قائلا
- إنني لا أخشى هذا أبدا...
ثم تحسس شعره الأشيب، وأكمل:
- إنه حكم الزمن.

سألته في لهفة، وهي تضع الكعكة في عناية، في منتصف المائدة تماما:
- هل تحدث إليك (عماد) مؤخرا؟!
أجابها في سعادة:
- نعم.. لقد اتصل صباح اليوم، وأخبرني أن الشحنة قد وصلت، وكل شيء على ما يرام، وأن إجراءات دخولها تتم بسرعة والحمد لله...
قالت في ارتياح:
حمدا لله
تطلع إليها في حنان أبوي غامر، قبل أن يسألها:
- أخبريني يا (دينا).. هل تحبين (عماد) حقا؟!
تخضب وجهها بحمرة الخجل، وهي تقول:
- هل تسألني يا عماه؟!
اتسعت ابتسامته، وهو يقول:
- قلب الأب يبغي الاطمئنان...
أشاحت بوجهها في حياء، متمتمة:
- دعه يطمئن...
تنهد في ارتياح غامر، وهو يتمتم:
- طمئن الله (سبحانه وتعالى) قلبك...
انعقد حاجبا والدتها، وهي تتابع هذا الحديث، وأشارت إليها في صرامة، قائلة:
- (دينا).. تعالي...
استأذنت من حميها، وذهبت إلى أمها متسائلة:
- ماذا هناك؟
همست أمها في غضب:
- كيف تفصحين عن حبك لخطيبك بهذا الوضوح؟!

ضحكت (دينا)، قائلة:
- آه يا أمي.. أنت تتعاملين بعقلية جيل مضى.. إنني أحب(عماد) بالفعل، والجميع يعلمون هذا، وإخفاء الأمر سيثير الضحك لا أكثر...
قالت أمها في حدة:
- الرصانة والوقار يحتمان هذا...
قالت (دينا) مبتسمة:
- والبساطة والوضوح يحتمان العكس
ثم انحنت تطبع قبلة على خد أمها، مستطردة:
- لا تحاولي فرض طبيعة جيلك علينا يا أمي، فنحن من جيل أخر...
مطت أمها شفتيها، قائلة
- جيل الندامة
ضحكت (دينا)، وهي تبتعد، قائلة:
- ربما.
ارتفع رنين جرس باب الڤيلا، في هذه اللحظة، فاندفعت نحوه في لهفة وسعادة، وهي تهتف:
- (عماد) وصل...
سبقت الخادم إلى الباب، وفتحته في سرعة وتهللت أساريرها، وهي تهتف:
- حمدا لله على...
بترت عبارتها دفعة واحدة، وهي تحدق في ضابط الشرطة الذي وقف أمامها بملابسه الرسمية، وخلفه بواب الفيلا، والدموع تغرق عينيه، في حين يقول الضابط، في رصانة مرتبكة:
- فيلا الملياردير (فؤاد صالح)..
جاء (فؤاد) من خلفها، متسائلا بكل قلق الدنيا:

- أنا (فؤاد صالح).. ماذا هناك أيها الضابط؟!
هتف البواب في انهيار:
. (عماد) بك.. (عماد) بك.
هوى قلب (دينا) بين قدميها، وتراجعت في ارتياع وهي تردد:
(عماد).. ماذا حدث؟! ماذا حدث؟!
أما (فؤاد) فقد شحب وجهه، حتى كاد يحاكي وجوه الموتى، وهو يتساءل:
- ماذا أصاب (عماد)؟! ماذا أصاب ابني؟!
بدا الارتباك أكثر على الضابط، وهو يجيب:
- مهمتي ليست سهلة يا (فؤاد) بك، ولكن الأستاذ(عماد) كان يقود سيارته بسرعة، في طريق الإسكندرية الصحراوي، عندما اعترضت طريقة سيارة نقل كبيرة، و...
صرخت (دينا) في ارتياع مذعور، قبل أن يكمل الضابط حديثه، في حين بدا (فؤاد) على وشك الانهيار، وهو يسأل:
- هل.. هل أصيب؟!
احتقن وجه الضابط، وهو يجيب في حرج:
- البقية في حياتكم.. البقاء لله سبحانه وتعالى) وحده..
وعندئذ أطلقت (دينا) كل المحبوس في كيانها، على شكل صرخة، صرخة ارتجت لها الدنيا كلها، بمنتهى العنف والألم...

☆ ☆ ☆

٣- دموع الزمن..

اندفع العم (سمير صالح) عبر ممر المستشفى المعتم، في هلع واضح، وانتفض قلبه بين ضلوعه، عندما وقع بصره على شقيقه (فؤاد)، الذي بدا شاحبا منهارا، وهو يجلس أمام باب مشرحة المستشفى، حيث ترقد جثة ابنه (عماد)، والدموع تغرق وجهه كله...

وبأصابع مرتجفة، ربت (سمير) على كتفه، متمتما في وسط دموعه الغزيرة:

- البقية في حياتك..

راح (فؤاد) ينتحب، على نحو تمزقت له نياط قلب شقيقه قبل أن يشير بيده إلى باب المشرحة، قائلا بصوت يحمل كل ألم وحزن ومرارة الدنيا كلها:

- هل يمكن أن تصدق هذا؟! هل يمكنك أن تستوعبه؟!

(عماد) مات.. مات يا (سمير).. (عماد)، خيرة شباب الدنيا، لم يعد حيا مفعما بالدفء والنشاط، كما كان دائما قلبه النابض بالطيبة والحب، والعامر بالإيمان والوفاء، توقف عن الخفقان.. (عماد) صار مجرد جنة تحمل بطاقة تعريف في المشرحة، مجرد جثة يا (سمير)...

ربت (سمير) على كتفه مرة أخرى، قائلا:

- البقاء لله وحده يا (فؤاد).. له حكمته الواسعة، التي تقتضي أحيانا التعجيل بخيار الناس

هز (فؤاد) رأسه بمرارة، متمتما:

- ونعم بالله

ثم عادت دموعه تنهمر في غزارة، وهو يتابع:

- ولكنني لم أتصور قط أن يأتي هذا اليوم.. اليوم الذي أشهد فيه بنفسي موت ابني الوحيد.. كنت أتصور أنه هو الذي سيتقبل عزاني يوما، عندما تحين منيتي وقلب كفيه في مرارة أكثر، وشرد بصره، وهو يحدق في باب المشرحة، متمتما:
- لا يمكنني أن أصدق.. حتى هذه اللحظة أعجز عن تصديق أنه قد ذهب.. رحل.. لم يعد ينتمي إلى دنيانا...
قال (سمير) في خشوع فرضه الموقف:
- روحه عادت إلى بارئها.. تمن له الرحمة، وادع الله سبحانه وتعالى) أن يدخله فسيح جناته...
ارتجفت شفتا (فؤاد)، وهو يواصل التحديق في باب المشرحة، قبل أن يقول في مرارة:
- لماذا هو؟!
لم يحسن شقيقه سماع عبارته، فتساءل:
- ماذا تقول؟!
انفجر (فؤاد) في وجهه بغتة بغضبه هادر:
- لماذا هو؟! لماذا يموت (عماد) بالذات، دون كل خلق الأرض...
تراجع (سمير) بدهشة بالغة، وهو يهتف:
- يا إلهي! استغفر ربك يا رجل.. أي قول هذا؟!
ولكن (فؤاد) واصل ثورته، صائحا:
- لماذا أفقد وريثي الوحيد، بعد كل ما فعلته؟! إنني لم أؤذ أحدا.. لم أسرق أو أقتل، أو أخرب البيوت العامرة، كما فعل غيري.. لماذا يحدث لي هذا؟!
أمسك (سمير) كتفيه، هاتفا:
- اهدأ واستغفر ربك على كل ما قلته يا رجل.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا تفقد عقلك أمام هول الكارثة.. حاول أن تتقبل

قضاء الله سبحانه وتعالى)، فلا راد لقضائه...
انفجر (فؤاد) باكيا في مرارة شديدة، وهو يهز رأسه في قوة، قائلا:
- لماذا (عماد)؟! لماذا؟!
احتواه شقيقه بين ذراعيه في حنان مشفق، وراح يربت على كتفه وظهره، وهو يقول في خفوت:
- أعلم فداحة المصيبة.. كلنا نعلم، ونشعر بعمق كارثة فقد (عماد) (رحمه الله).. لا يمكنك أن تتصور ما أصاب الجميع.. (دينا) المسكينة منهارة تماما، حتى إن والديها قد نقلاها إلى المستشفى، على الرغم من أنهما أشبه بالذاهلين منذ سمعا الخبر المشئوم...
بكى (فؤاد) في مرارة، وهو يقول:
- لا أحد، في الدنيا كلها، سيشعر بما أشعر به أنا لا أحد.. لقد خسرت كل شيء بموته.. كل شيء.. لا يمكنني أن أستمر بعده أبدا...
تنهد (سمير)، قائلا:
- الحياة ستمضي، شئنا أم أبينا.. إنها إرادة الله (سبحانه وتعالى).. لا أحد يعلم حكمته (سبحانه وتعالى) فيما يحدث ولا أحد يدري أين يكمن الخير.. ربما يتصور المرء في أمر ما شرا، ولكن الله عز وجل) يخفى له فيه الخير، كل الخير، والعكس بالعكس...
ثم ربت على ظهر شقيقه ثانية، مكملا:
- كل ما علينا هو أن نتقبل قضاء الله (جل جلاله)، وأن نؤمن بأن فيه الخير لنا، مهما تصورنا العكس...
بكى (فؤاد) على صدره بكل ألم الدنيا، وهو يقول:
- ولماذا أستمر؟! ما فائدة المال، لو لم ينجح في إعادة ابني إلى أحضاني؟! ما فائدة كل أموال الدنيا، لو عجزت عن استعادته؟

تنهد شقيقه مرة أخرى، قائلا
- أستغفر الله العظيم.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. أموال الكون كله لا يمكن أن تعيد خلية واحدة منه يا رجل.. ما دام الله (سبحانه وتعالى) قد اختاره إلى جواره، فلا أحد في الدنيا يمكن أن يعيده، مهما فعل...، و
هتف (فؤاد):
- لا.. مستحيل! مستحيل!
ثم توقف فجأة عن البكاء والهتاف، وتجمد لحظة بين ذراعي شقيقه، الذي سأله في قلق شديد:
- (فؤاد).. هل...
قبل أن يتم عبارته، انتفض (فؤاد) فجأة في عنف، ثم انتزع نفسه من بين ذراعي شقيقه في حركة حادة، والتفت إلى باب المشرحة في حزم مخيف، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما، على نحو جعل (سمير) يمسكه من كتفيه، ويهزه بقوة، قائلا في ذعر:
- (فؤاد).. ماذا أصابك؟!
التفت إليه (فؤاد) في حزم وصرامة شديدين، وهو يقول:
- أريد أحد المسئولين بالمستشفى.. الآن..
شعر (سمير) بالدهشة والحيرة والقلق، مع هذا المطلب المفاجئ، فقال في توتر:
- اهدأ يا (فؤاد).
ضرب (فؤاد) ذراعيه في حدة، وهو يكرر في صرامة أكثر:
- أريد أحد المسئولين بالمستشفى الآن.. الآن...
هرع إليه أحد معاونيه، وهو يقول:
- أوامرك يا (فؤاد) بك...
أشار إليه (فؤاد) بذراعه، قائلا في عصبية زائدة:

- أحضر أحد المسئولين هنا.. أكبر مسئول في المستشفى أيقظ مديرها شخصيا لو اقتضى الأمر.. لا تضع لحظة واحدة...
ثم ضرب الجدار بقبضته، مستطردا بانفعال جارف:
- لا بد من نقل (عماد) إلى ثلاجة المشرحة حالا...
بدت الدهشة على المعاون والعم، ولكن الأول انتزع نفسه من دهشته في سرعة، واندفع لتلبية أمر رئيسة، في حين تساءل الثاني في قلق شديد:
- نقله إلى ثلاجة المشرحة؟! ولكن لماذا؟! الأمر لا يحتاج إلى هذا.. لقد اتخذنا كل الإجراءات الـ...
قاطعه في عصبية:
- لا بد من نقله إلى الثلاجة الآن.. لن نضيع ثانية أخرى لا بد أن نحافظ على أي أثر للحياة في خلاياه بأي ثمن اتسعت عينا العم عن آخرهما، وردد مبهوتا:
- الحياة..
ثم عاد يمسك كتفي شقيقه، متسائلا في قلق عارم:
- ما الذي تفكر فيه يا (فؤاد)؟! (عماد) (رحمه الله) مات بالفعل، و...
قاطعه (فؤاد) في عنف انفعالي، وكأنه حتى لم يسمعه وهو يقول بلهجة صارمة آمرة:
- احضر لي (حسن).. الدكتور (حسن)...
حدق (سمير) في وجهه، متمتما:
- الدكتور (حسن).. ومن الدكتور (حسن) هذا؟!
صاح في وجهة بانفعال ثائر:
- اتصل بـ (مروة).. سكرتيرتي.. ستفهم ما أعنيه قل لها:
إنني أريد الدكتور (حسن فكري).. لقد ترك حتما عنوانا أو رقم هاتف.. قل لها أن تنبش الأرض بحثا عنه.. أريده بأي ثمن...

ثم أمسك هو كتفي شقيقه، وتطلع في عينيه مباشرة، وهو يصرخ:
- بأي ثمن يا (سمير).. بأي ثمن
قال (سمير) بكل قلق الدنيا:
- فليكن يا (فؤاد).. فليكن.. أعدك أن أحضره إليك بنفسي، مهما كان الأمر...
وانطلق يعدو لتنفيذ ما طلبه شقيقه، وهو يتساءل في حيرة قلقة: ترى لماذا طلب وضع جثة (عماد) في ثلاجة المشرحة؟!
ولماذا يبحث عن الدكتور (حسن) هذا؟! لماذا؟! لماذا؟!
استيقظ الدكتور (حسن) مذعورا، على صوت طرقات عنيفة، على باب شقته الصغيرة، فهتف بصوت مرتجف، وهو يلتقط منظاره، ويضعه على عينيه، اللتين لم يفارقهما النعاس بعد:
- م.. من الطارق؟!
أجابه الطارق في لهفة من خلف الباب:
- الدكتور (حسن)؟!
قال متوترا:
- نعم.. أنا هو الدكتور (حسن).. من أنت؟!
أجابه الطارق بسرعة:
- لقد أرسلنا (فؤاد) بك.. (فؤاد بك صالح) ...
ارتفع حاجبا الدكتور (حسن) في دهشة بالغة، وألقى نظرة متوترة على ساعته، التي أشارت عقاربها إلى الواحدة بعد منتصف الليل، قبل أن يفتح الباب في حذر، متسائلا:
- وماذا يريد مني (فؤاد) بك، في مثل هذه الساعة رأى أمامه رجلان ضخما الجثة، تشف ملامحهما عن توتر يفوق توتره، وأحدهما يقول:

- لسنا ندري، ولكنه طلب منا إحضارك على الفور، بأي ثمن مرة أخرى ارتفع حاجباه في دهشة، وعدل منظاره فوق أنفه، وهو يتمتم في ارتباك مضطرب:
- لست أدري لماذا اللهفة والتعجل؟! ألا يمكن للأمر أن ينتظر شروق الشمس على الأقل؟!
تحول توترهما إلى عصبية شرسة، وأحدهما يقول:
- (فؤاد) بك قال: بأقصى سرعة، ولا أحد يمكنه رفض أوامره.. في هذه المحنة بالذات...
رد مبهوتا:
اس محنة؟! أية محنة؟!
تبادل الرجلان نظرة ملؤها الحزن والأسى، قبل أن يجيب الثاني بصوت يبكي دما:
- (عماد) بك رحل...
لم يكن قد التقى مرة واحدة في حياته كلها ب (عماد فؤاد صالح)، إلا أنه كان، ككل الناس، يسمع الكثير والكثير عن الشاب وسمعته العطرة، التي فاقت سمعة والده نفسها، حتى إنه رد مذعورا:
- رحل؟
أجابه الرجلان في آن واحد، وبصوت يشف عن مدى حزنهما ومرارتهما:
- البقاء لله وحده...
اتسعت عيناه عن آخرهما، وكأنه أيضا لا يستطيع استيعاب الموقف، ثم لم يلبث أن هز رأسه في قوة، قائلا:
- سأرتدي ملابسي، وأذهب معكما على الفور...
وطوال الطريق، لم يستطع عقلة التوقف لحظة واحدة، عن التفكير في السبب، الذي يدعو (فؤاد صالح) إلى استدعائه، في

الواحدة صباحا، بعد مصرع ابنه الوحيد وبكل الظروف والملابسات، لم تستقر في عقله ووجدانه سوى فكرة واحدة..
فكرة مجنونة...
ولكنه عاد يراجع معلوماته، وتفاصيل لقائه الوحيد بالملياردير الشهير، والحوار الذي تبادلاه عندئذ، ثم لم يلبث أن هز رأسه، متمتما:
- لا.. مستحيل!
كانت الفكرة تبدو له مجنونة حمقاء، حتى إنه أصر على طرحها عن فكره، على الرغم من توافقها مع كل المعطيات حتى التقى ب (فؤاد صالح) ....
كان يبدو مختلفا تماما، عن ذلك الرجل الفخم الأنيق، الذي التقى به في مكتبه، منذ أسبوع واحد كان شاحب الوجه، منتفخ العينين، محمر الأنف، يجلس على أريكة خشبية نصف متهالكة، أمام باب مشرحة المستشفى، برباط عنق متهدل، وسترة كادت تشكو من كثرة ما أصابها من بقع وأوساخ ولكنه لم يكد يلمح الدكتور (حسن)، حتى هب من مجلسه، واندفع نحوه، يشد على يده في حرارة عصبية، هاتفا:
- أشكرك يا دكتور (حسن).. أشكرك كثيرا لحضورك ارتبك الدكتور (حسن)، وهو يغمغم:
- أنا رهن إشارتك دائما يا (فؤاد) بك.. البقية في حياتك...
اغرورقت عينا الملياردير بالدموع، وهو يقول:
- (عماد) ذهب يا دكتور (حسن).. مات.. انتهى..

ازدرد الدكتور (حسن) لعابه في صعوبة، وهو يغمغم:
- إنني أقدر فداحة الكارثة يا (فؤاد) بك، فرحيل شاب مفعم بالأمل، مثل (عماد) بك، هو بحق...
قاطعه الملياردير في حزم مباغت، وبلهجة بدت، مع احمرار عينيه وتضخمهما، وكأنها هذيان شخص مخمور:
- ولكنني أرغب في استعادته..
حق الدكتور (حسن) في وجهه بذهول، متمتما:
- استعادته؟!
أمسك (فؤاد) كتفيه فجأة في قوة، وهو يقول في انفعال جارف:
- لقد أخبرتني أنك تستطيع صنع نسخة بشرية، من أي شخص كان.. هل تذكر حديثنا؟! إنني أوافق يا دكتور (حسن) أوافق على مشروعك الخاص بالاستنساخ هذا..
كرر الدكتور (حسن)، وقلبه يخفق في قوة:

- توافق؟! الآن؟
أجابه الملياردير بنفس الانفعال:
- نعم يا دكتور (حسن).. أوافق بكل إرادتي.. سأمول مشروع وتجاربك، مهما بلغت التكاليف المطلوبة.. أريد منك أن تبدأ على الفور.. اكتب قائمة بكل ما تحتاج إليه وسيحضره رجالي على الفور، مهما كان ثمنه شعر العم (سمير) بالقلق على شقيقه، مع كل هذا الانفعال، فتقدم نحوه، وجذبه في رفق، محاولا إعادته إلى تلك الأريكة الخشبية نصف المتهالكة، ولكن الملياردير تابع وبكل توتر وانفعال الكون:
- المهم أن تصنع لى نسخة منه
تجمدت يدا العم، على كتف شقيقه، واتسعت عيناه في ذهول مرتاع، في حين تراجع الدكتور (حسن)، مغمغما وهو يشير إلى باب المشرحة:
- أصنع لك نسخة منه؟! هل تعني.....
هتف (فؤاد)، ودموعه تتفجر كالسيل:
- نعم.. من (عماد).. ابذل قصارى جهدك، واستخدم كل علومك وعبقريتك، لتصنع لى نسخة منه.. أرجوك يا دكتور (حسن).. أرجوك
بدا منهارا، على نحو يدعو للشفقة والرثاء، وهو يتوسل للعالم الشاب أن يقبل عرضه، فهتف شقيقه مستنكرا:
- نسخة من (عماد)؟! أي قول هذا يا (فؤاد)؟! عد إلى رشدك يا رجل.. ابنك مات، وصعد إلى خالقه!! لا تجعل الحزن يفقدك عقالك إلى هذا الحد.....
دفعه (فؤاد) بمرفقه في عنف، صارخا:
- لا.. لم أفقد عقلي.. إنني أفكر بمنتهى العقل والحكمة.. هذا الرجل قادر بالفعل على صنع نسخة من ابني الوحيد ثم تشبث

بالدكتور (حسن) الذاهل، وهو يستطرد، في لهجة أقرب إلى الضراعة:
- لقد طلبت نقله إلى ثلاجة المشرحة، حتى أحافظ على بعض الخلايا سليمة.. هذا مهم للغاية.. أليس كذلك؟!
غمغم الدكتور (حسن)، وهو يعدل منظاره على أنفه:
- بالتأكيد، ولو أن الد (دي. إن. إيه) يبقى صالحا، حتى ولو...
قاطعة (سمير)، هاتفا:
- ماذا دهاك أنت أيضا يا دكتور (حسن).. هل ستوافقه على رأيه هذا؟! هل ستساعده على تحقيق مطلبه المستحيل؟!
أجابه مرتبكا:
- إنه ليس مستحيلا في الواقع.. صحيح أن أحدا لم يفعلها من قبل، إلا أن المبادئ العلمية سليمة تماما، ولا يوجد ما يمنع تحقيقها...
احتقن وجه (سمير) في شدة، وهو يهتف:
- لقد جننتما.. أصابكما الجنون حتما!! ما هذا الذي تتحدثان عنه؟! عودا إلى رشدكما، قبل أن تبلغا مرحلة الكفر والعياذ بالله.. (عماد) مات.. مات حسب إرادة خالقه.. الذي منحه الروح دون إرادتنا، شاء أن يستردها الآن، فلماذا نرفض هذا...
أجابه الدكتور (حسن) في عصبية:
- ومن تحدث عن الروح وإعادتها يا رجل؟! (عماد) مات..!
هذه حقيقة واقعية، لا أحد يمكنه نفيها، أو حتى مجرد مناقشتها.. إننا لن نعيد إليه الروح، مهما فعلنا أو أنفقنا ولكننا نتحدث عن أمر أخر، علمى تماما.. إننا نتحدث عن انتزاع نواة إحدى خلاياه، بما فيها من مادة (D.N.A) وزرعها في بويضة، تم قتل نواتها، حتى ينشأ جنين جديد، يحمل كل الصفات الوراثية لـ (عماد).

هتف (سمير):
- ولماذا نفعل هذا؟! لماذا نسعى لإيجاد نسخة منه؟! من يضمن أن يأتي هذا الجنين الجديد ب (عماد) آخر؟!
أشار إليه (حسن)، قائلا في حزم:
- إنه سيكون نسخة طبق الأصل منه....
هتف (فؤاد) بعصبية:
- هل سمعت يا (سمير)؟! هذا هو رأي العلم.. سيعود إلينا (عماد)، بكل صفاته وسماته، و.....
قاطعه الدكتور (حسن) في ارتباك:
- احم.. الواقع أن
لم يكمل عبارته على الفور، فاندفع (سمير) يقول:
- أرأيت؟! هو نفسه غير واثق مما يقول.
هتف الدكتور (حسن) معترضا:
- خطأ.. أنا واثق تمام الثقة
ثم تراجع، متابعا بلهجة أقل عنفا:
- الواقع أن العلم يقول: إن الإنسان ليس نتاج الوراثة وحدها، فصفاته الوراثية هي أحد عوامل ثلاثة، تتوقف عليها شخصيته...
سأله (فؤاد) في قلق:
- وما العاملان الآخران؟!
أجابه في سرعة:
- البيئة التي ينشأ فيها الفرد، وقدرته على التفاعل معها.
هتف (فؤاد):
- عظيم.. القادم الجديد سينشأ حتما في الظروف نفسها فيها (عماد).. إنه سيصبح نسخة طبق الأصل منه بالتأكيد.....
عاد (سمير) يمسك كتفيه في قوة، وهو يقول:

- (فؤاد).. اسمعني جيدا.. ربما كان إحساسك بالخسارة يدفعك لتصور أنك تمضي في الطريق الصحيح، ولكن حذار أن يخدعك عقلك، أو تنال منك عواطفك.. ذلك الذي تسعى إليه لن يعيد إليك (عماد).. والله (سبحانه وتعالى) وحده يعلم ما الذي يمكن أن ينتهي إليه هذا العبث.. ارض بقضاء الله عز وجل)، وادفن ابنك، واطلب له الرحمة.. ارض بما حدث، لأننا نجهل ما يخفيه لنا القدر.. إنني أسعى لصالحك يا (فؤاد).. حاول أن تفهمني يا شقيقي الوحيد..

تمتم (فؤاد):

- إنني أفهمك..

نطقها في خفوت شديد، حتى إن (سمير) سأله في قلق

- ماذا تقول؟!

ضرب (فؤاد) ذراعي شقيقه في عنف مباغت، صارخا:

- إنني أفهمك..

ثم تراجع، وهو يلوح بسبابته في وجهه ثائرا، ومستطردا:

- أفهمك جيدا يا (سمير).. أفهم لماذا تحاول منعي من السعي للحصول على وريث.. لقد أسعدك موت (عماد) بالتأكيد، لأن هذا يحرمني من وريثي، ويجعل لك نصيبا ضخما من ثروتي..

اتسعت عينا (سمير) في ذهول، وهو يهتف:

- أنا يا (فؤاد).

صاح به (فؤاد):

- نعم.. أنت يا شيخ المشايخ.. ولكن لا تطمئن كثيرا سأستعيد وريثي، ولن تأخذ قرشا واحدا من ثروتي.. هل تفهم.. لن ترثني قط....

امتقع وجه (سمير)، وهو يحدق فيه غير مصدق، قبل أن يهز رأسه، قائلا:

- يا للخسارة!
ثم التقط نفسا عميقا، قبل أن يتابع في مرارة:
- فليكن يا (فؤاد).. لا يمكنني أن أحاسبك على ما تلفظت به، في مثل هذه الظروف.. لا يمكنني حتى أن أعاتبك، ولكن يكفيني أنني قد أسديت إليك النصح، وحذرتك من مغبة ما ستقدم عليه...
أجابه (فؤاد) في صرامة غاضبة:
- احتفظ بنصائحك لنفسك.. لا أحد سيملي على قراراته أبدا، ما دام في صدري نفس يتردد...
زفر (سمير) في استسلام، والتفت بنظرة عاتبة إلى الدكتور (حسن)، الذي ارتبك، قائلا:
- لا يمكنني رفض فرصة كهذه.. إنه عرض مدهش لاستكمال أبحاثي، وتحقيق حلم حياتي.. حاول أن تفهم هذا نجاحي في صنع هذه النسخة البشرية سيضعني في موقع الريادة بالنسبة لهذا المجال.. سأسبق الجميع بعشر أو عشرين عاما من البحث على الأقل...
قال (سمير) في مرارة:
وماذا لو فشلت؟!
احتقن وجه الدكتور (حسن)، وهو يلوح بكفه، قائلا:
- في هذه الحالة لن يعلم أحد...
هتف (فؤاد) في غلظة:
- لن أسمح بالفشل قط..
التفت إليه (سمير) بحركة حادة، قائلا:
- هذا ما تريده أنت...
ثم استدار ليغادر المكان كله، وهو يتابع:
- ولكن الله سبحانه وتعالى) يفعل فقط ما يريد...

ران صمت مهيب على (سمير)، وغادر المكان، والاثنان يراقبان حتى اختفى في نهاية الممر، ثم قال (فؤاد) في لهفة:
- دكتور (حسن).. ما الذي تحتاج إليه، لتحصل على الخلايا المطلوبة...
تطلع إليه الدكتور (حسن) لحظة في صمت، ثم عدل منظاره فوق أنفه، واعتدل في وقفته، وهو يقول في حزم:
- (فؤاد) بك.. قبل أن تبدأ هذا، هناك أمور مهمة للغاية لا بد من توضيحها...
سأله المليارديرِ في قلق:
- وما هي؟؟
أجابه في لهجة قوية:
- الخطأ الذي يقع فيه معظم الناس، إذا ما ذكرت أمامهم كلمة الاستنساخ هذه، هو أنهم يتصورون أننا نمتلك آلة ناسخة، نضع فيها الخلية من جانب، فتخرج لنا نسخة من صاحبها الأصلي، من الجانب الآخر، وهذا المفهوم غير صحيح على الإطلاق؛ فعملية الاستنساخ لا تختلف كثيرا عن عملية إنتاج أطفال الأنابيب، ففي كليهما ستحصل على بويضة مخصبة، لا بد من زرعها في رحم أنثي، حتى تكتمل عملية نموها الطبيعية، وينشأ منها جنين صحيح، يقضي أشهر الحمل كاملة، ثم يولد على نحو طبيعي، ليبدأ حياته وسطنا الفارق الوحيد بينهما هو أنه في حالة الاستنساخ تكون البويضة خالية من الصبغيات تماما، مما يعني أن الجنين سيحمل كل الصفات الوراثية لصاحب الخلية الأولية، على عكس جنين أطفال الأنابيب، الذي سيحمل، كأي جنين طبيعي، مزيجا من الصفات الوراثية المكتسبة من الأبوين.. وفي كل الأحوال فإن هذا لن يتم في يوم وليلة.. ولن يتم حتى من المحاولة الأولى.. ستكون هناك

محاولات عديدة فاشلة، وتجارب غير سليمة، وحالات لن يكتمل فيها انقسام البويضة حتى تبلغ الحد اللازم لإعادة زرعها في الرحم.. وهذا قد يستغرق عاما أو عامين، وربما أكثر.. لا أحد يمكنه التحديد أو الجزم، ولكن كل المراحل الأولية، الخاصة بانتزاع نواة الخلية، وزرعها في البويضة عديمة النواة، ستحتاج إلى صبر شديد، وتكنولوجيا متقدمة، مع تقنية متطورة للغاية...

أجابه (فؤاد) في عصبية:
- إنني مستعد لتحمل كل التكاليف، مهما بلغ حجمها تابع الدكتور (حسن)، وكأنه لم يسمعه:
- الأمر سيحتاج أيضا إلى طبيب نساء وتوليد بارع، كما أنه من المحتم أن تتم العملية كلها خارج (مصر)...
سأله (فؤاد) في توتر:
- ولماذا؟!
أجابه في حزم:
- حتى لا ندخل في تعقيدات قانونية وإجرائية لا لزوم لها إننا نحتاج إلى مناخ يحمي ويشجع العلم والعلماء، وهذا لا يوجد إلا في البلدان المتقدمة، مثل (أمريكا) أو (سويسرا) مثلا، وأنا أرشح الأخيرة بالتحديد؛ لأن بها الدكتور (هنريخ)، أستاذ النساء والتوليد، الذي يهتم مثلي بهذه الأبحاث..
سنتعاون معا، لتنجز العمل في أفضل صورة ممكنة هز (فؤاد) رأسه في قوة، قائلا:
- كل هذا يمكن تدبيره.. إنها مسألة نقود فحسب، وليس عليك أن تقلق بشأنه.. أرسل للدكتور (هنريخ) هذا على الفور، وأبلغه

أن يستعد، وأنك ستسافر إلى (زيورخ) خلال يومين على الأكثر، ومعك كل ما يلزم لبدء العملية...
عاد يتشبث به في ضراعة، مستطردا:
- والآن، هل ستحصل على الخلايا المطلوبة؟!
أشار إليه الدكتور (حسن)، قائلا:
- بقي أمر واحد
سأله مضطربا:
- وما هو؟!
مال الدكتور (حسن) نحوه، قائلا:
- الأم.
تراجع (فؤاد) في دهشة، وهو يغمغم
- الأم؟! أية أم؟!
أجابه الدكتور (حسن):
- في الخارج لا يهتمون كثيرا بهذه النقطة، ولكنك تبحث عن وريث قانوني بالتأكيد، وهذا يحتم أن تتزوج، وأن تكون زوجتك هي صاحبة البويضة، التي سيتم تخصيبها بالخلية البشرية...
امتقع وجه (فؤاد)، وهو يقول:
- خلية (عماد)؟! ابني؟!
أجابه الدكتور (حسن) في حسم:
- بالتأكيد
تراجع (فؤاد) كالمصعوق، وازداد امتقاع وجهه على نحو مقلق، وهو يستند إلى الجدار، متمتما:
- ولكن هذا مستحيل! مستحيل تماما!
ارتفع حاجبا الدكتور (حسن) في دهشة، وهو يتساءل:
- ولماذا مستحيل!
أجابه (فؤاد) كالمذعور:

- لأنها خلية ابني يا رجل.. كيف يمكن لأي مخلوق أن يقبل بهذا؟! خلية ابني تخصب بويضة زوجتي؟! ألم تسأل نفسك يا هذا عما سينشأ عن هذا؟!

مع وجه الدكتور (حسن) بدوره، وهو يقول:

- رباه! إنني لم أفكر في هذا بالفعل

وانعقد حاجباه، وهو يستطرد في توتر:

- منذ جالت فكرة الاستنساخ برأسي، كنت أفكر في أن أكثر من سيسعون إليها ستكون بغيتهم هي صنع نسخة من أنفسهم، ولم يخطر ببالي قط أن يأتيني من يرغب في صنع نسخة من ابن لقي مصرعه...

وهز رأسه في قوة، وهو يعدل منظاره فوق أنفه، قائلا في عصبية:

- يا إلهي! إنها مشكلة حقيقية!

انهار الأمل في أعماق (فؤاد)، وارتجفت ساقاه، حتى لم تحتملا ثقله، فهوى جالسا على تلك الأريكة شبه المتهالكة، التي أصدرت صريرا كالأنين، في حين راح الدكتور (حسن) يسير في المكان، في توتر بالغ، وقد انعقد حاجباه، على نحو يشف عن التفكير العميق، و (فؤاد) يدفن وجهه بين كفيه قائلا:

- الرحمة يا إلهي! الرحمة! وعادت الدموع تنهمر من عينيه كالسيل، وهو يردد:

- سامحني يا (عماد).. سامحني يا ولدي.. لقد حاولت التفت إليه الدكتور (حسن)، في حركة حادة، وهو يسأل في حماس:

- قل لى يا (فؤاد) بك: هل تبحث عن وريث شرعي، أم وريث قانوني؟!

رفع (فؤاد) عينيه إليه، قائلا في حيرة

- وما الفارق؟!

أجابه في سرعة:
- فارق ضخم للغاية فالوريث الشرعي هو وريث من صلبك.. ابن حقيقي، يحق له أن يرثك من الناحية الشرعية، أما الوريث القانوني، فهو شخص يتمتع بالصفة القانونية، التي تتيح له أن يرثك، والفارق بين الشرع والقانون هو أن الأخير لا يهتم سوى بالأوراق والرسميات، والتوقيعات والأختام القانونية...
ارتجف قلب (فؤاد)، وهو يسأل:
- دكتور (حسن).. ما الذي تعنيه بالضبط؟!
أجابه في حزم:
- أعني أننا نستطيع تدبير الأمر، بحيث نحصل على البويضة من امرأة عادية، مصرية أو سويسرية، وأنا أفضل الأخيرة؛ لأنها ستعتبر الأمر مجرد صفقة تجارية، ولن تلقى الكثير من الأسئلة، أو تلاحق الوليد فيما بعد، ثم نعيد البويضة بعد تخصيبها إلى رحمها، لتحملها حتى يحين الوضع فتلد النسخة المنشودة، وخلال هذه الفترة، ستعلن أنك قد تزوجت امرأة سويسرية، ولن يراها أحد، حتى تتم الولادة، وتعود بالطفل، لتعلن أن زوجتك قد لقيت مصرعها عند ولادتها، وتسجل الطفل باسمك قانونا، فيصبح وريثك الرسمي، دون أن يدري سوانا حقيقة أمره...
عاد وجه (فؤاد) يمتقع، وهو يحدق في وجه الدكتور(حسن)، الذي شعر بما يعانيه ضمير رجل الأعمال، فقال في صرامة:
- إما هذا، أو تنسى فكرة الاستنساخ هذه تماما..
اتسعت عينا (فؤاد) في ارتياع، وهو يهتف:
- لا.. لا يمكننا نسيانها.. أرجوك...
سأله في صرامة واقتضاب:
- إذن؟!

حق الملياردير فيه مرة أخرى، قبل أن ينهض من مجلسه في صعوبة، ويتطلع إلى باب المشرحة بكل انفعاله، متمتما:
- ولكن ما الذي سيعنيه هذا، من الناحية الشرعية؟!
هز الدكتور (حسن) رأسه، قائلا:
- لست أدري.. معلوماتي قليلة للغاية في هذا الشأن ارتجفت شفتا الملياردير، وعقله يتصارع مع قلبه في عنف، بحثا عن مخرج من هذه المشكلة العويصة ترى هل ستقبل تلك المرأة السويسرية، أيا كانت، عرضا كهذا؟!
وماذا سيكون وضعها؟!
من الناحية الشرعية بالطبع!
إنها ستحمل في جسدها جنينا، هو نسخة طبق الأصل من ابنه، الذي يرقد ميتا، على بعد أمتار قليلة منه فما الذي يمكن أن يوصف به هذا؟! هل ستصبح زوجة لابنه؟!
مستحيل!
لا أحد يتزوج بعد موته؟!
هل سيصبح حملا غير شرعي إذن؟!
ومن سيتحمل وزره؟!
من؟!
امتلأ قلبه بهلع لا حدود له، وبدأ عقله يستوعب فداحة ذلك العبث، الذي يقدم عليه، ومدى ما يمكن أن يؤدي إليه من ارتباك في قاموس الحياة ولكن شيئا ما في أعماقه كان يرفض الاستسلام لنداء العقل والضمير وشيء ما في كيانه، وغريزة البقاء الكامنة في أعماقه، كان يرفض التخلي عن الرغبة العارمة في الحصول على وريث..
على امتداد لاسمه وحياته وسيرته...

على بديل لولده الوحيد، الذي انتزعته منه مخالب الموت، بكل قسوة وعنف على (عماد) الثاني النسخة الأمل..
الامتداد..
وفي توتر بالغ، أشاح (فؤاد) بوجهه، وكأنما يتفادى مواجهة ضميره، وهو يقول بصوت شاحب خافت مختنق:
- ابحث عن تلك السويسرية..
استرخت أعصاب الدكتور (حسن)، وزالت توتراته، وانعكس هذا على صوته وملامحه، وهو يقول:
- عظيم.. يمكننا البدء إذن..
اتجه نحو باب المشرحة، ودفعه بيده، متسائلا:
- هل ستحتاج إلى تصريح رسمي من المستشفى؟!
هز (فؤاد) رأسه، قائلا في عصبية:
- كلا.. لقد سويت الأمور هنا...
وصمت لحظة، قبل أن يضيف:
- النقود لها فوائد كثيرة، في مثل هذه الظروف..
أومأ الدكتور (حسن) برأسه متفهما، وقال:
- يمكنني استيعاب هذا.
وأشار بيده، مستطردا:
- مر رجالك بإحضار أحد الأوعية الحافظة للحرارة، وكثير من الثلج نطقها، وهو يتجه إلى ثلاجة المشرحة، ليبدأ مشروعه ذلك المشروع الرهيب، الذي لا يعلم منتهاه سوى الله (سبحانه وتعالى)..
وحده...

☆ ☆ ☆

٤- التجربة..

(سويسرا)، في السابع من نوفمبر ١٩٧٩م..
المحترم / (فؤاد بك صالح)..
بعد التحية:
سيدي.. يسعدني أن أبلغك أننا قد تجاوزنا عنق الزجاجة، في تجاربنا الخاصة بصنع نسخة بشرية من وريثكم الوحيد (عماد)..
لقد نجحنا صباح اليوم، الدكتور (هنريخ) وأنا، في عزل نواة الخلية الجسدية....
هذا قد يبدو لك سهلا بسيطا، ولكن الواقع أننا قد استغرقنا الأشهر الستة الماضية كلها، في إجراء التجارب الخاصة بهذا الأمر، وفي كل مرة، وعلى الرغم من التكنولوجيا المتطورة التي نستخدمها، كانت النواة تصاب أو تتلف، حتى استعنا أخيرا بالدكتور (جون فريدريش)، خبير الجراحة المجهرية الذي استخدم تقنية جديدة، ساعدتنا أخيرا على عزل النواة سليمة، بكل ما تحويه من مادة (D.N.A) ، التي تحمل كل صفات (عماد) الوراثية كاملة.....
ولا يمكنك يا سيدي أن تدرك مدى سعادتنا، بالوصول إلى هذه النتيجة، فهذه هي المرة الأولى التي ينجح فيها هذا الأمر مع خلية بشرية، بعد التجارب الناجحة، التي قام بها، في أواخر الستينات الدكتور (ر. بريجز) وزميله (ت. ج. كينج) والنتيجة الرائعة التي توصل إليها بعدهما الإنجليزي (ج. ب. جوردن)، عندما نجح في استنساخ ضفدع إفريقي، بوساطة جراحة مجهرية ([6]) والعجيب أنه عقب تجربة (جوردن)، تنبأ العالم البيولوجي الدكتور (روبرت سينشمير)، عام 1968م، بأنه سيصبح بالإمكان

استنساخ البشر، خلال عشر سنوات ([7])،وكما تر فقد بدأت نبوءته تتحقق، في نفس الزمن تقريبا ولكن دعنا من هذه التفاصيل العلمية، التي لن تفيدك أو تهمك على الأرجح يا (فؤاد) بك، ويكفي أن تعلم أنه الآن فقط، صرنا أقرب ما تكون إلى النجاح، وسنبدأ في البحث عن المتطوعة، بعد نجاحنا في عزل ألوية خمس خلايا أخرى على الأقل، وهذا سيحتاج إلى شهر واحد على الأكثر سيدى.. تهانئي مبدئيا، حتى نلتقي د. (حسن فكري) ...

قرأ (فؤاد) الخطاب ثلاث مرات متتالية، وهو يرتجف من فرط الانفعال، وقلبه يخفق في قوة..

أخيرا صار الحلم قريبا ها هي ذي الخطوة الأولى تتحقق عنق الزجاجة، كما يسميها الدكتور (حسن) - بعد ستة أشهر، ومليوني دولار، تحققت الخطوة الأولى ترى هل تكون بالفعل بداية لتحقيق الحلم هل تنقلهم حقا إلى الخطوة الثانية، والثالثة؟!

ثم إلى الهدف..

إلى إنتاج البديل الوريث المنتظر....

☆ ☆ ☆

«(فؤاد) بك.»

انتزعه سكرتيرته، عبر جهاز الاتصال الداخلي، من أفكاره وشروده، بصوتها المتوتر المضطرب، فطوى الخطاب وهو يضغط زر الجهاز، قائلا:

- ماذا هناك يا آنسة (مروة)؟!

صمتت لحظة لسبب ما، قبل أن تجيب، في شيء من العصبية:

- الآنسة (دينا) هنا

انعقد حاجباه، وهو يقول في توتر:

- (دينا)؟!
أجابته في سرعة:
- نعم.. (دينا).. خطيبة المرحوم (عماد)..
انتفض قلبه بين ضلوعه، وهو يسأل- وماذا تفعل (دينا) هنا؟!
أجابته بتوتر زائد:
- إنها تصر على دخول مكتب (عماد) بك (رحمه الله)، وتقول: إنها بحاجة شديدة لرؤيته....
صمت بضع لحظات، حتى إن سكرتيرته تساءلت في قلق:
- (فؤاد) بك.. هل تسمعني؟!
أجاب:
- نعم يا آنسة (مروة).. أسمعك، ولكنني أفكر في الأمر..
سألته في توتر:
- هل نسمح لها بدخول مكتب (عماد) بك؟! سعادتك أمرت بتركه على حاله، منذ.. منذ.....
لم تستطع إتمام عبارتها...
فازدرد لعابه في صعوبة، وقال:
- دعيها تأتي إلى
أجابته في ارتياح هذا القرار وكان حملا ثقيلا ينزاح عن كاهلها:
- أمرك يا (فؤاد) بك.. أمرك.
لم تمض ثوان على قولها، حتى سمع دقات رقيقة على باب مكتبه، فقال:
- تفضلي يا بنيتي..
دلفت (دينا) إلى حجرته بخطوات رقيقة، جعلتها أشبه بملاك يطير فوق الأرض، وهي تتمتم بصوت شديد الخفوت:
- صباح الخير يا عمي..

لم تكن تبدو أبدا كـ (دينا) التي عرفها من قبل لقد صارت نحيلة، شاحبة، ممتقعة، وكأنما فقدت كل وزنها وحيويتها، خلال الأشهر الستة الماضية وبمنتهى التعاطف والإشفاق، أسرع إليها، وصافحها في حنان، ثم قادها إلى الأريكة الوثيرة في ركن المكتب، وجلس إلى جوارها يسألها:

- كيف حالك يا بنيتي؟!

غمغمت في حزن عميق:

- حالي؟!

- ماذا فعلت بك الحياة؟!

اغرورقت عيناها بالدموع، وهي تخفضهما، قائلة:

- لم أعد أشعر بالحياة يا عمي، منذ...

لم تتم عبارتها، والدموع تنهمر من عينيها غزيرة، فربت على كتفها بحنان أبوي، قائلا:

- الحياة تمضي يا بنيتي، مهما امتلأت القبور...

هزت رأسها في مرارة، قائلة:

- أحيانا أتمنى لو ضمني قبر واحد معه.

قال في هلع:

- لا.. لا تتحدثي هكذا أبدا.. أطال الله في عمرك،، ومتعك بالصحة والعافية...

بكت في مرارة، قائلة:

- لم يعد بإمكاني العيش دونه.. لقد حاولت، وفشلت أبي وأمي أخبراني أن الأيام كفيلة بمحو ذكراه من نفسي، ولكن هذا لم يحدث أبدا.. إنني أذكره طوال الوقت، وأستعيد كل لحظة قضيناها معا دائما.. كل لقاء.. كل جملة.. بل كل حرف نطقه، أو همس به في أذني.. لا يا عمي.. لن يمكنني نسيانه قط، حتى إنني.. إنني...

وعضت شفتيها، قبل أن تستطرد في انهيار:
- فكرت في الانتحار..
اتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحدق فيها إلى هذا الحد تحب (دينا) ابنة الراحل؟!
إلى هذا الحد يتشبث به قلبها؟!
لم يكن يتصور قط أنه هناك مخلوق، في الكون كله، يمكن أن يحب (عماد)، كما أحبه هو!
ولكن ها هي ذي (دينا) تثبت أنه كان مخطئا كم هي غارقة في حبه؟!
وبينما كان يتطلع إليها، امتلأ قلبه فجأة بالحسرة يا للخسارة!
القدر لم يمهل ابنه، حتى يتمتع بكل هذا الحب لم يمهله حتى يتزوج (دينا)، وينجب منها إينا ابنا من صلبة ابنا يحمل اسمه ويرث ثروته وفي تلقائية، ودون أن يدرك ما يجري على لسانه، أحاط كتف (دينا) بحنان أبوي غامر، وهو يقول:
- سيعود يا (دينا).. (عماد) سيعود إلينا..
رفعت إليه عينين ذاهلتين محمرتين، وهي تتساءل:
- سيعود؟!
ارتبك لقولها، وانتبه بغتة إلى زلة لسانه، فحدق فيها لحظة، ثم هي واقفا، وابتعد عن الأريكة بخطوات واسعة عصبية، جعلت الفتاة تنهض خلفه، قائلة:
- ماذا كنت تقصد يا عماه؟!
انفرجت شفتاه لحظة، وهو يهم بإلقاء تفسير منطقى، إلا أن شيئا ما في أعماقه حجب هذا عن شفتيه، وجعله يفكر لحظة في توتر لماذا يخفي عنها الأمر؟!
لماذا يحمل وحده هذا السر، الذي يثقل كاهله، ويقض مضجعه؟!

من حقها أن تعلم هي أيضا أحبت (عماد) كما لم تحبه امرأة أخرى ومن يدرى؟!
ربما يمنحها هذا الأمل، كما حدث معه ربما ساعدها على أن تقبل فكرة رحيل (عماد)، وتنتظر مثله مولد نسخته القادمة..
ربما...
ودون كلمة واحدة، بل ودون حتى أن يلتفت إليها، التقط الخطاب، الذي أرسله الدكتور (حسن)، وناولها إياه ولسبب ما، اختطفت الخطاب منه في لهفة، وعادت إلى الأريكة، لتلتهم كلماته التهاما ولم تصدق عينيها وعقلها في البداية لذا فقد قرأت الخطاب مرة ثانية وثالثة ورابعة وفي النهاية، رفعت عينيها إلى (فؤاد)، متسائلة بكل لهفتها:
- ما الذي يعنيه هذا؟!
أجابها في توتر:
- نفس ما قرأته بالضبط.. إنني أمول مشروعا ضخما، الإنتاج نسخة من (عماد)..
ارتجفت شفتاها، وهي تتمتم:
- نسخة منه؟!
خيل إليها أنها قد نطقت الكلمات بقلبها وليس بلسانها، فقد ارتجف القلب وانتفض وخفق، مع كل حرف منها ويبدو أن (فؤاد) قد شعر بهذا، إذ إنه عاد يجلس إلى جوارها على الأريكة، وهو يقول بصوت مختنق مبحوح:
- سأشرح لك كل شيء يا بنيتي..
وطوال ربع ساعة تالية، قص عليها القصة كلها وأنصتت إليه هي في صمت وانتباه كاملين، دون أن تقاطعه بحرف واحد، أو تخفض عينيها عن عينيه، وجسدها كله يرتجف في انفعال شمل

كيانها كله، من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها، وعقلها يشارك قلبها محاولته المستميتة التصديق كل حرف تسمعه..
وعندما انتهى من روايته، خيم على المكان صمت رهيب.. صمت لم يقطعه أحدهما بحرف واحد، طوال دقيقة كاملة وإن خيل إليهما أن نبض قلبيهما قد تحول إلى طبول قوية تدق في الدنيا كلها...
ثم فجأة، قطعت (دينا) ذلك الصمت، وهي تقول في ضراعة:
- عمي.. دعني أحمله..
مال نحوها في دهشة، قائلا:
- ماذا؟!
تشت به في ضراعة، هاتفة:
- أرجوك يا عمي.. دعني أنا أحمله.. خذوا تلك البويضة مني.. اغرزوا فيها خلية (عماد)، ثم ازرعوها في رحمي دعه ينمو داخلي.. دعني أحتويه وأنجبه بنفسي...
اتسعت عيناه في ارتياع، وهو يهتف مستنكرا
- ماذا تقولين يا (دينا)؟!
عادت تبكي في مرارة، هاتفة:
- أرجوك يا عمي.. لم تعد لى رغبة في الدنيا سوى هذه ما دمت لم أحظ به زوجا، فلأحمل ابنه وأنجبه وأربيه...
هب من مكانه، صائحا:
- هل جننت؟! ألا تدركين ما تقولينه؟! كيف يمكنك أن تدمر حياتك بهذه الوسيلة؟! كيف ستواجهين المجتمع؟! بم ستفسرين الحمل والإنجاب؟! ألا تدركين ما سيصنعه بك الناس؟
هتفت:
- كل هذا لا يعنيني.

صاح بها:
- إنهم سيمزقونك إربا.. لن يرحمك أحد، حتى والدك ووالدتك.. الجميع سيتهمونك باتهامات بشعة حقيرة.
قالت في إصرار:
- لن أهتم باتهاماتهم..
صاح:
- وماذا عنه؟!
سألته في قلق:
- عن من؟!
صاح ملوا بذراعه كلها:
- عن (عماد).. أعنى النسخة التي ستنتجها من خليته كيف سيواجه الناس في المستقبل؟! كيف سيحيا، والكل يعتبره ابن سفاح؟! هل سيحتمل هذا العار؟!
امتقع وجهها، وهي تتراجع قائلة:
- راه! لم أفكر في هذا قط.
تابع في عصبية:
- ثم إنه لم يمكنك استيعاب السبب الحقيقي لكل هذا المشروع.. لم تفهمي أن هدفي الحقيقي ليس استعادة (عماد) فحسب، وإنما الحصول أيضا على وريث، يرث كل هذه الملايين.. وريث من صلبي...
ازداد امتقاع وجهها بضع لحظات، وزاغت عيناها وسط وجهها النحيل، وكأنها تبحث عن حل لهذه المشكلة، قبل أن تهتف فجأة في لهفة:
- عندي حل لهذه المشكلة
سألها في نهفة:
- وما هو؟!

اندفعت نحوه، وأمسكت يده في قوة، قائلة:
- أن نتزوج
انتفض جسده في قوة، وهو يهتف في هلع:
- نتزوج؟!
أجابته في لهفة وانفعال:
- هذا هو الحل المنطقي.. عندما نتزوج، وأحمل أنا(عماد) الثاني في أحشائي، وأنجبه، سيصبح قانونا وريثك الوحيد...
تراجع عنها، هاتفا:
- هل جننت يا (دينا)؟! كيف يمكن أن أتزوجك، وأنت بمثابة ابنتي؟! لقد كنت خطيبة ابني (رحمه الله)، فماذا سيقول الناس؟!
صرخت في غضب:
- الناس.. الناس.. الكل يتحدث عن الناس وأقوالهم، وردود أفعالهم!! ماذا يعنينا من كل هذا؟! فليقل الناس ما يقولونه، وليذهبوا كلهم إلى الجحيم.. لقد أحببت (عماد) ولم يعننا يوما كلام الناس؛ لأننا كنا نؤمن بأن لنا الحق في أن نفعل ما نقتنع ونؤمن به، حتى ولو رفضه العالم كله ثم استعادت لهفتها وانفعالها بغتة، وهي تستطرد:
- دعنا نتزوج، دون أن نبالي بكلام الناس وانفجرت فجأة في بكاء حار، مضيفة:
- أرجوك.. لا تحرمني من هذه الفرصة أبدا.. أرجوك ذهب غضبه كله مع دموعها، وحل محله تعاطف مشفق، وهو يتطلع إليها، قبل أن يقول في خفوت:
- ماذا سيظن...
انتعش الأمل في قلبها، وهي تقول في لهفة:
- أترك أمرهما لي

هز رأسه، مغمغما:
- وماذا عن سمعتي وعملي؟!
قالت في لهفة:
- ما من مخلوق، في عالم الاقتصاد كله، يمكن أن ينطق بكلمة واحدة، في حق (فؤاد صالح)، أكبر وأنزه رجل أعمال، في العالم العربي كله.. ربما استنكروا الأمر في البداية بسبب خطبتي السابقة ل (عماد)، أو بسبب فارق السن الكبير بيننا، إلا أنهم لن يلبثوا أن يتقبلوا الأمر الواقع ويتعايشوا معه، وتمضي بهم الحياة، وينسوا الموقف كله وأمسكت يده في قوة، مضيفة:
- وما سيتبقى هو أنت، وأنا، و...
ارتجف صوتها، وهي تكمل:
- و (عماد).
اتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحاول استيعاب ذلك الموقف أهذا ممكن؟!
هل يتزوج (دينا)؟!
انتزعته قبضة باردة بغتة من أفكاره، فانتفض جسده في عنف، وهو يهتف:
- لا.. هذا لا يمكن أبدا
هتفت في ألم:
- ولماذا؟!
أجابها في حدة:
- لا يمكن أن أتزوجك، وأنت تحملين حفيدي في أعماقك
اتسعت عيناها، وهي تهتف:
- حفيدك؟!
أشار بيده، قائلا:

- بالتأكيد.. ذلك الجنين، الذي سيأتي من خلية (عماد) يعد بمثابة ابنه، ومن المستحيل أن تحملي ابن (عماد)، وتكوني زوجتي في الوقت ذاته.. هذا مخالف لكل الشرائع السماوية...
اتسعت عيناها في ارتياع، وترنحت في وقفتها، حتى خيل إليه أنها ستهوي فاقدة الوعي، فأسرع يلتقطها بين ذراعيه، ويعيدها إلى الأريكة، قائلا:
- تماسكي يا (دينا).. تماسكي يا بنيتي.. العالم لم ينته بعد...
هزت رأسها في مرارة، قائلة:
- لا يمكنني أن أحتمل هذه الصدمة الجديدة.. لقد انتعش الأمل في قلبي، وتصورت أنني سأحتضن (عماد) مرة أخرى، وأضمه إلى.. تصورت أنني سأرعى هذا الصغير، وأربية، وأشاهده ينمو يوما بعد يوم، كما حدث مع (عماد)، منذ ربع قرن مضى.. يا إلهي كم تمنيت أن أطعمه بيدي.. أن أعلمه وألقته كل ما كان يحبه (عماد) ويهواه، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يحدق فيها، مع استطرادتها في الحديث عما تمنت أن تفعله مع الصغير المنتظر وعادت تلك الفكرة المجنونة تتصاعد في أعماقه...
إنها بالفعل أفضل من يمكنه رعاية الصغير لقد أحبت (عماد)..
وفهمت كل طباعه وميوله هي وحدها قادرة على تحقيق العاملين المتبقيين لتنشئة الصغير، بعد عامل الوراثة البيئة والتفاعل مع البيئة وفي هذه المرة تغيرت نظرته إلى الأمور واليها...
كانت دموعها تنهال في غزارة، عندما تطلع إليها طويلا، ثم نهض إلى الواجهة الزجاجية لمكتبه، وعقد كفيه خلف ظهره، وهو يتطلع عبرها في شرود وتفكير، قبل أن يحسم أمره، ويقول في حزم:
- أنت على حق يا (دينا).. أفضل ما نفعله هو أن نتزوج...

خفق قلبها في قوة، وهي تلتفت إليه في لهفة، فاستدار اليها، مستطردا:

- ولكنك لن تنجبي وريثي

سألته في حيرة متوترة:

- ماذا تعنى؟!

التفت إليها بجسده كله، مجيبا:
- أعني أن هذا ما يحتمه المنطق والعقل.. أنت لا يمكنك حمل نسخة من (عماد)، ولكنك تستطيعين تربيته والعناية به.. بل ربما كنت أفضل من يمكن أن يفعل هذا.. لا بد أن تدبر الأمر إذن.. فلنترك لتلك السويسرية مهمة الحمل والإنجاب، وبعد أن تلد، ويصبح الطفل حقيقة واقعة، ستعيده إلى هنا، وتبلغ الجميع أنك أنت أنجبته، وستحمل شهادة ميلاده اسمك، في خانة الأم، واسمي في خانة الأب وصمت لحظة، ثم أضاف في حزم:
- وهكذا سيصبح (عماد) الثاني وريثي رسميا وقانونيا اتسعت عيناها لحظة، وهي تستعيد ما قاله، قبل أن يسترخي جسدها كله في ارتياح، وتسيل دموعها مرة أخرى على وجنتيها، متمتمة:
- حمدا لله حمدا لله
وكان هذا يعني أن الأمور تتعقد أكثر..
وأكثر..
وأكثر...

☆ ☆ ☆

«تتزوجين من؟!»
قفزت أم (دينا) من مقعدها ذاهلة مستنكرة، وهي تصرخ بالعبارة في وجه ابنتها، التي أجابت في إصرار شديد:
- (فؤاد) بك يا أمي.. سأتزوج (فؤاد بك صالح).
اتسعت عينا والدها عن آخرهما، وهو يتساءل:
- (فؤاد صالح)، والد المرحوم (عماد) أجابته:
- هو نفسه يا أبي..
صرخت أمها في وجهها:

- لقد جننت.. لا ريب أنك كذلك.. لا بد من عرضك على طبيب نفسي.. سأتصل بالدكتور (عادل) على الفور قالت (دينا) في عناد وإصرار:
- لست مجنونة يا أمي، وصراخك هذا لن يجدي شيئا لقد فكرت في الأمر جيدا، بكامل وعيي وإدراكي، ووجدت أن (فؤاد صالح) هو أفضل زوج لي..
زاغت عينا والدها، وهو يقول في ارتياع:
- ولكنه في مثل عمري تقريبا يا (دينا)..
أجابته في سرعة:
- أعلم هذا يا أبي، ولكنه الرجل الذي أحببته...
صرخت الأم:
- ألم أقل لك؟! لقد جئت تماما..
أشار إليها الأب في صرامة، ثم اتجه إلى ابنته، وأحاط كتفيها بذراعه في حنان، وهو يقول:
- اسمعي يا (دينا).. كلنا يا حبيبتي نعلم أنك كنت غارقة في حب (عماد) حتى النخاع، ولكن هذا لا يعني أن تتزوجي والده بعد وفاته.. هذا لن يعيد إليك حب (عماد) أبدا...
تطلعت إليه لحظة في صمت، قبل أن تقول في حزم:
- إنه قراري الأخير يا أبي
رفع يده عن كتفها بحركة حادة، وهو يهتف:
- يبدو أن أمك على حق.. لقد جننت تماما.
واندفع نحو الهاتف، واختطف ساعته، مستطردا:
- من حسن الحظ أن (فؤاد) رجل عاقل رصين، ولم يجن، و...
قاطعته (دينا):
- إنها فكرته.

اتسعت عينا الأم في ذهول، في حين انتفض جسد الأب في عنف، وهو يقول:
- فكرته؟!
أجابت في حزم:
- نعم.. هو عرض على الزواج، وأنا وافقت على الفور وسواء وافقتما أم رفضتها، فسأتزوجه في نهاية الشهر...
انهارت أمها على الأريكة، مرددة:
- في نهاية الشهر...
أجابتها في صرامة:
- نعم يا أمي.. لقد أعددنا لكل شيء عدته.. سنتزوج في نهاية الشهر، ونسافر ما إلى (سويسرا)...
ارتجفت الكلمات على شفتي والدها، وهو يقول:
- يبدو أنكما قد أعددتما كل شيء..
أجابت في حزم:
- بالضبط.. لقد أعددنا كل شيء.
وشرد بصرها مع كلماتها، وهي تكرر:
- كل شيء..
حقت أمها في وجهها بضع لحظات، غير مصدقة ما تراه وتسمعه، ثم لم تلبث أن أخفت وجهها بين كفيها، وانخرطت في بكاء حار، في حين قاوم والدها دموعه، وهو يقول:
- المرء لا يملك ناصية مقاديره أبدا يا (دينا).. حتى ولو تصورت أنكما قد أعددتما كل شيء، فهذا لا يعني أبدا أن تسير الأمور كما تريدان...
حاولت أن تهرب من هذا الحوار بالتحديد، وهي تشيح بوجهها، قائلة:

- (فؤاد) سيدفع مائة ألف جنيه مهرا لي، وقاطعها والدها في حدة:
- لا تتحدث عن النقود...
ولوح بيده في وجهها، مستطردا في غضب:
- قولي إنك ستتزوجينه لأنك تريدين هذا، ولا تتحدث عن ثروته ونقوده.. إنها لم تكن السبب في قبولنا زواجك من (عماد) (رحمه الله)، ولن تكون أبدا السبب في قبولنا زواجك من والده.. اذهبي وتزوجيه يا(دينا)، ولكن لا تنتظري منا أبدا مباركة هذا الزواج أو حتى قبوله حاولت مقاومة دموعها طويلا، إلا أنها لم تلبث أن انفجرت باكية، وهي تقول:
- كل ما أتمناه هو أن تتفهموا موقفي..
وسالت دموعها في غزارة أكثر، وهي تضيف:
- يوما.
ثم واصلت البكاء بدموع كالحمم أو أكثر حرارة..
المجتمع كله تحدث عن زواج (دينا) من (فؤاد صالح)..
الكل استقبل الخبر في دهشة عارمة وفي استنكار شديد الكل استهجن أن يتزوج الملياردير من خطيبة ابنه السابقة...
والكل رفض فارق السن الضخم بينهما وربما كان توقع هذا هو ما دفع (فؤاد) إلى إتمام الزواج في هدوء، دون حفل ضخم، أو مظاهر بذخ مبالغة، كتلك التي صاحبت الانفتاح، في تلك الفترة من الزمن..
ولكن الحديث والغضب والاستنكار لم يستغرق سوى أسبوع واحد، ثم استوعب الناس الموقف، وخضعوا للواقع واستسلموا للحقيقة، وألقوا الأمر كله خلف ظهورهم لينشغلوا بقضية جديدة تماما كما توقعت (دينا) منذ البداية وحدهما (فؤاد) و

(دينا) كانا يعلمان السبب الحقيقي لزواجهما ووحدهما جلسا ينتظران الأخبار من (سويسرا)...
كان الدكتور (حسن) يبلغهما أو فأولا، بكل التطورات التي تواجه المشروع ولم تكن التطورات مرضية دائما فمحاولة انتزاع الأنوية الخلوية السليمة لم تنجح إلا مع خمس حالات فحسب وعندما بدأت عملية التلقيح الصناعي، فشلت ثلاث بويضات في التفاعل مع الخلية، عند زرعها داخلها، على الرغم من المحاولات التي تم بذلها، لتنبيه جهاز خاص في سيتوبلازم (*) البويضة، ليحثها على الانقسام، كما لو كانت مخصبة بنطفة بشرية طبيعية لقد رفضت البويضات الانقسام، أو التفاعل، مع الخلية البشرية تماما، كما لو أنها تدرك أن هذه الخلية لا تناسب العمل المنوط بها القيام به وتبقى الأمل في الخليتين الباقيتين، اللتين استوعبتا ذلك الموقف الجديد، وبدأنا عملية الانقسام بالفعل الأمل الأخير...[8]
كان من المحتم، حتى تكتمل العملية، أن ينشأ الجنين البشري، الذي يسمح له بالتضاعف داخل أنبوبة اختبار، حتى يبلغ مرحلة من العمر، تسمح بزرعه في رحم بشرى وهذا يعني أن تواصل الخلية انقسامها ونموها..
وهذا ما راح الجميع يترقبونه بكل اللهفة والقلق والتوتر(فؤاد).. و (دينا)..
والدكتور (حسن)..
وحتى الدكتور (هنريخ)...
ولأن الإنسان كائن متناقض بطبعه، فقد راح (فؤاد) و(دينا) يصليان لله (سبحانه وتعالى) أن ينجح المشروع، على الرغم من معرفتهما بما ستنطوي عليه عملية الحمل والولادة من مخالفة

صريحة لكل الأديان والشرائع السماوية؛ لأن تلك المتطوعة السويسرية ستحمل جنين شخص لا تربطها به أية صلة بل هو في الواقع شخص مات بالفعل، قبل أن تحمل هي ابنه بعدة أشهر ولكن يبدو أن الأمر كان بالنسبة إليها بالفعل، مجرد صفقة عمل...

وطال الانتظار لشهرين آخرين حتى كان اليوم الأخير من عام ١٩٧٩م...

ففي ذلك اليوم، عاد (فؤاد) إلى منزله مبكرا، على غير العادة، واندفع إلى حجرة نوم (دينا)، وهو يهتف:

- أخيرا يا (دينا).. أخيرا..

كان يلوح ببرقية في يده، فقفزت تختطفها منه بكل اللهفة والتهمت عباراتها الإنجليزية القليلة بكل توتر وانفعال كيانها كله..

«سيدي.. اليوم.. وفي تمام السابعة والنصف صباحا، بتوقيت (زيورخ)، تم زرع الجنين في رحم المتطوعة السويسرية.. مبروك.. الدكتور (حسن فكري)..»

ولم تصدق (دينا) عينيها بل ولم تحتمل الموقف كله لذا فقد سقطت على فراشها، وانفجرت ببكاء كالسيل وهي تهتف:

- أخيرا.. أخيرا

كانت و (فؤاد) يتصوران أن مشكلتهما كلها قد انتهت..

ولم يتصور أحدهما أنها كانت البداية..

البداية الحقيقية...

☆ ☆ ☆

٥- البديل..

ستة أشهر كاملة، قضتها (دينا) في (سويسرا)، تتابع حمل تلك المتطوعة هناك لحظة فلحظة، وتقيم معها في منزل واحد...
الكل في (القاهرة) كان يتصور أن (دينا) تقضي أشهر حملها في مصحة خاصة في (زيورخ)، حسب رغبة زوجها الذي ينتظر وريثه منها بلهفة بالغة، لم يحاول إخفاءها عن أحد، وبالذات عن شقيقه (سمير)، الذي أعاده إلى عمله في مؤسساته، بعد فترة انقطاع وخلاف طويلة ومن ناحيتها، كانت (دينا) ترسل إلى أمها خطابات منتظمة، تصف فيها كل ما تمر به تلك السويسرية، وكأنه يحدث معها هي وكم عانت الأم المسكينة، عندما كانت السويسرية تصاب بنوبة قيء حادة، أو تعاني اضطرابات الهضم، أو آلام الساقين...
وأخيرا حانت لحظة الوضع وسافر (فؤاد) بنفسه شخصيا إلى (زيورخ)، ليحضر مولد حفيده، والنسخة الجديدة من ابنه الراحل وفي مطار (زيورخ)، استقبله الدكتور (حسن) بابتسامة كبيرة، وصافحه في حرارة، وهو يقول:
- مرحبا يا (فؤاد) بك.. مبروك.. ما هي إلا ساعات وتستقبل نسخة طبق الأصل من ابتك الراحل سأله (فؤاد) بلهفة، وهما يستقلان السيارة، التي ستحملهما إلى المستشفى:
- أأنت واثق من أن كل شيء يسير على ما يرام؟!
ربت الدكتور (حسن) على كتفه، قائلا:
- اطمئن يا (فؤاد) بك.. كل شيء يسير وفقا للخطة أغمض (فؤاد) عينيه، متمتما:
-حمدا لله.. حمدا لله

ثم عاد يفتحهما، وهو يربت على حقيبته، قائلا في لهفة:
- هل تعلم يا دكتور (حسن)؟! لقد أحضرت معي كل الصور، التي تم التقاطها ل (عماد) عند مولده ارتفع حاجبا الدكتور (حسن)، وهو يقول:
- حقا؟!
أجابه في سعادة:
- بالتأكيد.. أريد أن أتأكد من أنه نسخة طبق الأصل منه أومأ الدكتور (حسن) برأسه متفهما، وهو يغمغم:
- عظيم.. عظيم.. هذا سيفيدنا كثيرا بالتأكيد...
لم يتبادلا الكثير من الحديث بعدها، حتى وصلت السيارة إلى المستشفى، التي دلف إليها (فؤاد) بمزيج من اللهفة والرهبة، وسار في ممراتها وقلبه يخفق في قوة وقلق، و
«(فؤاد)..»
اخترق صوت (دينا) أذنيه، بكل ما يحمله من لهفة وسعادة، فالتفت إليها بكيانه كله، وهو يهتف:
- (دينا).. هل..
قبل أن يتم عبارته، كانت تقفز متعلقة بعنقه، وهي تهتف:
- لقد عاد يا (فؤاد).. (عماد) عاد إلينا.
انتفض قلب (فؤاد) بين ضلوعه في عنف، وتصلبت عضلاته كلها، وارتجفت شفتاه من فرط الانفعال، وهو يسأل:
- هل.. هل أنجبت؟!
أجابته بسعادة غامرة:
- نعم.. أنجبت ذكرا كامل النمو، في صحة جيدة للغاية يزن ثلاثة كيلو جرامات تقريبا، ولقد تساءلوا عن الاسم الذي سنمنحه إياه...
هتف:

- (عماد).
طبعت قبلة على وجنته، قائلة:
- هذا ما أخبرتهم به
ارتجف كيانه كله هذه المرة، وهو يتمتم:
- حمدا لله حمدا لله...
ثم اغرورقت عيناه بالدموع، وهو يقول في لهفة:
- أين هو؟! أريد أن أراه...
جذبته من يده، وهي تعدو عبر الممر، هاتفة:
- بالتأكيد.. إنهم يضعونه بالقرب من الجدار الزجاجي لحجرة المواليد.. تعال.. سأريك إياه وسالت دموعها غزيرة، عندما بلغوا المكان، وهي تشير إلى الطفل، قائلة في سعادة:
- ها هو ذا..
حق فيه (فؤاد) في انفعال، قبل أن يفتح حقيبته بأصابع مرتجفة، ويلتقط منها أول صورة تم التقاطها ل (عماد) عند مولده، وراح ينقل بصره بينها وبين ذلك القادم الجديدة، ثم سالت الدموع من عينيه، وهو يغمغم:
- لست أدري كيف يمكنني أن أشكرك يا دكتور (حسن)..
لست أدري كيف يمكنني هذا أبدا...
ولم تفهم (دينا) سر انفعاله الزائد هذا، إلا عندما ألقت نظرة على صورة (عماد)، وقارنتها بوجه (عماد) الثاني في مهده فبلا أدنى اختلاف، ودون أدنى شك، كان الاثنان نسخة طبق الأصل من بعضهما وكان هذا يعني أن مشروع الاستنساخ قد نجح وإلى أقصى حد...

لم تشهد (القاهرة) الجديدة قط احتفالا بمقدم مولود جديد، كما حدث مع (عماد صالح) الثاني فلم يكد (فؤاد) يعود إلى

القاهرة، بصحبة زوجته (دينا)، وهي تضم إليها (عماد) الصغير، على نحو يوحي بأنها تخشى أن تنتزعه الدنيا منها، حتى بدأت (مروة) في إرسال الدعوات للجميع، لحضور الحفل، الذي أقامه الملياردير الكبير، احتفالا بمولد وريثه...

وعلى عكس ما حدث عند زواج (فؤاد) و(دينا)، استقبل الجميع هذا الخبر بفرحة عارمة، وانهالت تهانيهم على الاثنين، على نحو يعكس حب الناس واحترامهم البالغ ولقد تأثر الكل بالتأكيد، عندما علموا أن المولود الجديد سيحمل نفس اسم الابن الراحل، الذي افتقده الجميع اسم (عماد)...

وفي ذلك الحفل الضخم، الذي أقيم في أكبر فنادق(القاهرة)، وأحياه كبار نجوم الطرب، في ذلك الحين، كانت تتصدر المكان صورة كبيرة ل (عماد)، وكأنه يشارك الحاضرين في الاحتفال بمولد الوريث الجديد لآل (صالح) الكل حضر الحفل والكل بدا في غاية الفرحة والسعادة وعلى رأس الجميع، كان والد (دينا) ووالدتها وبحب وحنان لا مثيل لهما، أصرت الأم على حمل الصغير طوال الحفل، ودموع الفرح لا تتوقف عن الانهمار من عينيها وتبليل شفتيها الباسمتين...

أما الأب، فقد ضمته مائدة واحدة مع (فؤاد) وشقيقه سمير) والدكتور (حسن)، وبدا شديد التأثر، وهو يقول:

- الواقع يا (فؤاد) بك أنني لم أكن موافقا أو مقتنعا بهذه الزيجة في البداية.. لا تؤاخذني، ولكنني كأي أب، كنت أشفق على ابنتي من الزواج برجل في مثل عمرى...

ابتسم (فؤاد)، وهو يربت على كتفه، قائلا:

- لا عليك.. يمكنني تفهم هذا,

ابتسم الرجل ابتسامة كبيرة، وهو يقول:

- الآن أريد أن أشكرك كثيرا يا (فؤاد) بك، فلم أر ابنتي في حياتي كلها، بمثل هذه الفرحة والسعادة، حتى إنني أعتقد أن أفضل ما حدث لها، في عمرها كله، هو زواجها منك...
ضحك الدكتور (حسن)، قائلا:
- ليس هذا فحسب.. لقد أصبحت أيضا أم الوريث تعقد حاجبا (فؤاد) في ضيق، وهو يشيح بوجهه بعيدا، في حين هتف والد (دينا) في ارتباك:
- آه.. ليس هذا ما قصدته أبدا.. النقود ليست كل شيء أما (سمير)، فلم ينبس ببنت شفة، وهو يتطلع إلى الدكتور (حسن)، الذي انطلق يضحك فى مرح، وكأنه الوحيد الذي راقت له عبارته...
لم يكن يشعر بالارتياح أبدا لوجود الدكتور (حسن) ضمن المدعوين، في حفل استقبال (عماد) الصغير لماذا يدعوه (فؤاد) إلى حفل كهذا؟!
ما صلته به؟!
وما صلته بالأمر كله؟!
ترى هل...
لم يستطع إكمال تساؤله، حتى في أعماق عقله، فنفضه عن كيانه في قوة، واعتدل في مجلسه، قائلا بصوت مرتفع وكأنه يداري به كل الشكوك، التي تعربد في رأسه:
- فلندع الله (سبحانه وتعالى) أن يكون حظ (عماد) الصغير أفضل من حظ قرينه الراحل
هتف (فؤاد)، من أعماق قلبه:
- يا رب..
وقال الدكتور (حسن) في حماس:

- الشيء الذي أثق به، هو أن شهرته ستفوق شهرة(عماد) رحمه الله حتما...
نقل (سمير) بصره الي (حسن)، بعد أن نطق عبارته، ووجه (فؤاد)، الذي انعقد حاجباه مرة أخرى، وكأنما لا يروق له حديث الدكتور (حسن) على الاطلاق، وتساءل في أعماقه: ترى أي سر يجمع بينهما؟!
وفي لحظة واحدة، استعاد عقله تفاصيل ذلك الحديث الذي دار بينه وبين شقيقه، أمام باب المشرحة، منذ ما يقرب من عام ونصف العام، في حضور الدكتور (حسن) وانقبض قلبه في قوة...
ترى أمن الممكن هذا؟!
أمن المعقول أن يكون (عماد) الصغير هذا هو كائن مستنسخ، من (عماد) الراحل؟!!
أيمكن أن يحدث هذا بالفعل؟!
غير معقول؟!
غير معقول؟!
حق مرة أخرى في الدكتور (حسن)، وعقله يرفض تصديق الفكرة أو استيعابها..
أما (فؤاد)، فقد مال على أذن الدكتور (حسن)، قائلا في صرامة:
- أريدك في مكتبي صباح الغد...
كان الدكتور (حسن) جم السعادة، حتى إنه لم ينتبه إلى تلك الرنة الصارمة، وهو يهتف في حماس:
- بالتأكيد
والعجيب أنه ظل على جهله بحقيقة الموقف، حتى التقى بالملياردير في مكتبه بالفعل، صباح اليوم التالي، ورأى تلك

النظرة الصارمة الغاضبة في عينيه، وانتبه إلى الأسلوب البارد الجاف، الذي استقبله به، فتساءل في قلق:
- ماذا هناك؟!
أجابه (فؤاد) في غضب:
- حديثك عن شهرة (عماد) الصغير هذا لا يروق لي...
سأله الدكتور (حسن) في قلق حائر:
- ولماذا؟! الصغير سيصبح بالفعل أشهر طفل في العالم عندما نعلن نجاح مشروعنا، ونزف الدنيا مولد أول طفل مستنسخ في التاريخ...
انعقد حاجبا (فؤاد) في صرامة أكثر، وهو يقول:
- هذا بالتحديد ما طلبت منك مقابلتي من أجله..
ثم عقد كفيه خلف ظهره، مستطردا:
- إنك لا تستطيع إعلان هذا الأمر أبدا..
حدق الدكتور (حسن) فيه في دهشة غامرة، قبل أن يعدل منظاره على أنفه في ارتباك، متسائلا:
- ماذا تعني بالضبط يا (فؤاد) بك؟! إنني لم أقبل القيام بكل هذا، إلا من أجل هذه اللحظة بالذات.. لحظة إعلان الكشف، وتحقيق ما لم يبلغه الآخرون...
هز (فؤاد) رأسه في صرامة، وهو يقول:
- مستحيل يا دكتور (حسن)! مستحيل!
ارتباك الرجل أكثر، وشعر بقبضة باردة تعتصر قلبه، وهو يقول:
- ولكن لماذا؟!
أجابه الملياردير في حسم:
- لإن إعلان هذا الكشف يعني أن يعلم الجميع أن (عماد) الصغير ليس ابني.. ليس وريثي الوحيد...
هتف الدكتور (حسن):

- ولكنه ابن ابنك.
أشار (فؤاد) بسبابته، قائلا:
- وهنا تكمن المشكلة..
ثم عاد يعقد كفيه خلف ظهره، ويتحرك في حجرته الواسعة، متابعا في توتر:
- هذا الأمر معقد للغاية، من الناحية الشرعية، فأبناء الابن، الذي يموت قبل والده، لا يحق لهم أن يرثوا جدهم، وهذا يعني أن (عماد) الصغير لن يعتبر وريثا لى.. صحيح أنني أستطيع أن أوصى له بثلث ثروتي، وهو الحد الأقصى الذي يبيحه الشرع للوصية، إلا أن هذا سيعني أن يذهب ثلثا الثروة إلى الآخرين، وهذا ما لن أسمح به أبدا.. ناهيك عن الجدل الديني والقانوني، الذي سيثار حول الصغير، وحول شرعية انتمائه إلى ابني (عماد) وإلى، وستجد من يهاجمنا بعنف، ومن يتهمنا بالجنون، أو الكفر والإلحاد، ومخالفة شريعة الله (عز وجل)، وربما رفع بعضهم قضايا مدنية العزل الصغير، وحرمانه من الميراث...
وتوقف في حزم، مضيفا:
- لذا فمن المحتم أن يبقى هذا الأمر سرا بيننا...
اتسعت عينا الدكتور (حسن) عن آخرهما مرة أخرى وسقط فيه السفلي في بلاهة، وكأنه لم يستوعب هذا الموقف كله، ثم لم يلبث أن انتفض، هاتفا في حدة:
- مستحيل! مستحيل أن أقبل بهذا!
ثم اندفع يستطرد في غضب:
- ألا تدرك ما فعلناه يا (فؤاد) بك؟! لقد حطمنا كل القواعد العلمية في عصرنا هذا.. لقد سبقنا عصرنا بجيل كامل على الأقل، ففي الوقت الذي يبذل فيه العلماء قصارى جهدهم، لرفع

نسبة نجاح إنتاج (أطفال الأنابيب)، قفزنا نحن قفزة مذهلة، ونجحنا في إنتاج وليد جديد، من خلية بشرية عادية..
لقد صنعنا أملا جديدا لأولئك الذين تصوروا أنهم لا يستطيعون الإنجاب أبدا.. ألا يستحق هذا أن نعلن الكشف؟!
عاد (فؤاد) إلى مكتبه، وهو يقول:
- لقد عرضت عليك ملابسات الموقف وظروفه، وأعرض عليك أيضا مليوني دولار، ومعمل متكامل لبدء سلسلة جديدة من التجارب هنا، بشرط ألا تتفوه بحرف واحد عما فعلناه...
بدا الدكتور (حسن) صارما غاضبا، وهو يقول:
- وماذا لو رفضت الالتزام بهذا؟!
صمت (فؤاد) لحظة، وهو يتطلع إليه، ثم لم يلبث أن مال إلى الأمام، قائلا في صرامة شديدة:
- يؤسفني أنه ليس لديك الخيار...
انتفض جسد الدكتور (حسن) في انفعال، وهو يهتف:
- (فؤاد) بك.. هل تهددني؟!
هز (فؤاد) رأسه نفيا في بطء، وهو يقول:
- بل أبلغك بالواقع يا دكتور (حسن).. إنك لست أول من أتحدث إليه في هذا الشأن.. الدكتور (هنريخ) والدكتور(فريدريش) سبقاك إلى قبول عرضي، وحصل كل منهما على مليوني دولار بالفعل، مقابل كتمان الأمر كله.. ولقد قاما بتدمير كل النتائج و، وإذا ما عن لك أن تثير الأمر فسينكران ما تقوله تماما، وسأقاضيك أنا بتهمة التشهير...
امتقع وجه الدكتور (حسن) بشدة، وهو يقول:
- أيها إلى... الى...
قاطعه (فؤاد) في صرامة
- هل ستقبل عرضي أم لا؟!

ارتجفت شفتا الدكّتور (حسن)، وتهاوى على المقعد المقابل لمكتب (فؤاد)، وخلع منظاره الطبي، وراح يمسح دموعه، مغمغما في مرارة:
- جهد عام ونصف يضيع هكذا...
أجابه (فؤاد) في حزم:
- ولماذا تعتبر أنه قد ضاع هكذا؟! لقد أجريت خلاله التجارب، واكتسبت الخبرات الكافية، وستحصل الآن على مليوني دولار ومعمل جديد.. والأهم من هذا كله هو أنك تعلم الآن أن الفكرة ممكنة التحقيق.. ألا يعد كل هذا نصرا؟!
زفر الرجل في مرارة، متمتما:
- من وجهة نظرك..
تراجع (فؤاد) في مقعده، قائلا في صرامة:
- معذرة يا دكتور (حسن).. ربما لا يروق لك ما أفعله الآن، ولكن أسلوبي لم يتغير كثيرا عما كان عليه، منذ بدأ الأمر.. لقد كنت أبحث عن وريث، والآن أسعى لحماية وريثي هذا، أعتقد أن هذا حقي.. أليس كذلك؟!
ابتسم الدكتور (حسن) في سخرية مريرة، وهو يقول:
- تحمى وريثك؟! من الواضح أنك تعتبر المال هو كل شيء يا (فؤاد) بك...
ثم ارتفع صوته، وهو يقول في غضب مفاجئ:
- ولكنك لا تستطيع شراء كل شيء بنقودك هذه...
أجابه (فؤاد):
- لقد استعدت بها وريثي على الأقل...
اعتدال الدكتور (حسن)، وعاد ينهض في عصبية، وهو يتطلع إليه مباشرة، قائلا:

ربما ساعدتك ملايينك على استعادة وريثان، ولكن كل أموال الدنيا لن يمكنها شراء لحظة واحدة من قدرك اخترقت العبارة قلب (فؤاد) في عنف، ولكنه سيطر على مشاعره، وهو يقول في صرامة:

- أجبني يا دكتور (حسن).. هل ستقبل عرضي أم لا؟!

انعقد حاجبا الرجل في توتر بالغ، وهو يقول:

- يبدو أنني مضطر لهذا يا (فؤاد) بك

ثم أضاف في مرارة:

- ولكنني لن أنسى ما حدث قط...

واستدار يغادر المكتب الفاخر الواسع في غضب، فهتف(فؤاد) خلفه:

- الشيك سيصلك صباح الغد..

لوح الدكتور (حسن) بيده في غضب، وهو يصفق الباب خلفه في قوة، ولكن (فؤاد) لم يبال بهذا، وهو يلتقط ساعة الهاتف، ويطلب رقم منزله، ولم يكد يسمع صوت (دينا)، حتى ارتفع حاجباه في حنان غامر، وهو يسألها:

- كيف حال (عماد) الصغير اليوم؟!

ومع كلماتها، نسي كل حديثه مع الدكتور (حسن) بل نسي الدنيا كلها...

اكل شيء تقريبا تغير في (مصر)، خلال السنوات العشر التالية... الجماعات الإسلامية المتطرفة اغتالت الرئيس (أنور السادات)، يوم احتفاله بذكرى نصر أكتوبر، وتولى الرئيس حسني مبارك) زعامة (مصر)، بفكر جديد، وعهد جديد.. والاقتصاد وانطلقت الدولة بسرعة أكبر نحو الانفتاح الحر وتضاعفت رءوس الأموال أكثر وأكثر ونشأت طبقات جديدة، ثرية وفقيرة بل تم إعادة رسم الخريطة الاجتماعية ل (مصر) بالكامل...

أما على النطاق الشخصي، فقد بلغ (فؤاد) الثالثة والستين من عمره، وازدهرت أعماله على نحو غير مسبوق حتى صار واحدا من أغنى أغنياء المنطقة و(دينا) لم تنجب من (فؤاد) أي أطفال، واكتفت بتربية(عماد)، الذي أغرقته في حبها وحنانها ورعايتها، وكأنها قد وهبت حياتها لتنشئته فحسب...

ولم يبخل (فؤاد) على وريثه بأي شيء، مهما بلغ قدره. لقد صنع له حديقة أطفال خاصة، بها كل ما يمكن تخيله، من الألعاب المعروفة في ذلك الزمن، وألحق بقصره الجديد وحدة رعاية طبية متكاملة، لفحص الصغير والعناية به طوال الوقت...

أما الدكتور (حسن)، فقد حصل على المليوني دولار، إلا أنه لم يدخل ذلك المعمل، الذي أعده له (فؤاد) مرة واحدة لقد ترك (مصر) كلها، وهاجر بثروته إلى الولايات المتحدة الأمريكية، على أمل تحقيق حلمه هناك ولكنه كان على حق أموال الدنيا كلها لا يمكن أن تشتري لحظة واحدة من قدر الإنسان...

فبعد أن استقر به المقام هناك، وأنشأ لنفسه معملا محدودا، وبدأ اتصالاته بأحد مراكز الأبحاث الخلوية بالفعل، استوقفه اثنان من اللصوص، في ليلة هادئة من ليالي (نيويورك)، واستوليا على نقوده، ثم لم يكتفيا بهذا، وإنما أطلقا النار عليه، وفرا هاربين وانتهت حياة عالم الخلايا العبقري، في شارع جانبي صغير، في قلب (نيويورك)...

والمدهش أن (فؤاد) لم يعلم بالأمر، إلا بعد مضي عام كامل على مصرع الدكتور (حسن).. وبالمصادفة البحتة والواقع أنه لم يهتم بالخبر كثيرا بل يمكن القول بأنه قد شعر بالارتياح الكثير من الارتياح هذا لأن مصرع الدكتور (حسن) يضمن كتمان السر إلى الأبد ويضمن أن يظل (عماد) الصغير دائما هو الوريث الرسمي والوحيد...

وفي عيد ميلاده العاشر، أقام له (فؤاد) حفلا كبيرا، ينافس حفل مولده الأول، ودعا إليه العديد من رجال الأعمال والاقتصاد والسياسة، وكل العاملين في مؤسساته تقريبا ولكن شيئا واحدا أثار قلقه وتوتره حينذاك، وهو يراقب (عماد) الصغير، في أثناء الحفل ولأن شقيقه (سمير) كان يقف إلى جواره، فقد نقل قلقه هذا إلى لسانه في تلقائية، وهو يقول:

- عجبا! إنه لم يعد يشبهه

ابتسم (سمير)، مغمغما:

- هذا أمر طبيعي..

هز (فؤاد) رأسه في قوة، قائلا:

- ليس أمرا طبيعيا كما تتصور.. إنني أتابع تطوره طوال الوقت، وفيما مضى، خلال سنوات عمره السبع الأولى، كان يشبه (عماد) تمام الشبه، أما الآن لم يحاول إتمام عبارته، وهو يخرج من جيبة صورة لابنه الراحل (عماد)، في أثناء الاحتفال بعيد مولده العاشر أيضا، وراح يقارنها ب (عماد.) الصغير، الذي يلعب مع أقرانه في الحديقة، فابتسم (سمير) مشفقا، وهو يغمغم:

- ليس من الضرورة أن يتشابها..

قال (فؤاد) بسرعة:

- بل كان من المحتم هذا...

ثم استدرك في توتر:

- أعني لأنهما شقيقان

تطلع (سمير) إلى الصورة، ثم نقل بصره إلى (عماد) الصغير، قائلا:

- الوراثة، والبيئة، والتفاعل مع البيئة...

التفت إليه (فؤاد) في حركة حادة، قائلا:

- ماذا تعني؟!
أشار (سمير) إلى (عماد) الصغير، مجيبا:
- أعني أن ما تراه الآن هو تأثير البيئة، الذي أشار إليه الدكتور (حسن) رحمه الله..
قال (فؤاد) في عصبية:
- لست أفهم فيم تتحدث...
أجابه بابتسامة مشفقة:
- بل تفهم جيدا يا (فؤاد).. وأنا أيضا أفهم منذ عشر سنوات، منذ شاهدت الدكتور (حسن) في حفل استقبال (عماد) الصغير...
انعقد حاجبا (فؤاد) في توتر بالغ، وهو يقول في عصبية:
- هراء.
تابع (سمير)، وكأنه لم يسمعه:
- في البداية شككت في الأمر، ثم لم ألبث أن أيقنت من حقيقة شكوكي هذه، عندما فوجئت بك تنفق ستة ملايين دولار دفعة واحدة، لصالح الدكتور (حسن)، واثنين من الأطباء الأوربيين، ولم يكن من العسير عندئذ أن أفهم، خاصة وقد كنت المدير المالي للشركة آنذاك...
غمغم (فؤاد) في عصبية
- إذن فقد كنت تعلم...
أجابه (سمير) في سرعة:
- ولم أحاول الإشارة إلى هذا قط، وإن جعلني الفهم أستوعب الكثير مما حدث، ومما لم أفهمه في حينه...
سأله متوترا:
- مثل ماذا؟!
أجابه في حذر:

- زواجك من (دينا) مثلا...
أشاح (فؤاد) برأسه، قائلا في حدة:
- أموري الشخصية ليست من شأنك..
أجابه (سمير) في حسم:
- بالتأكيد..
ثم تردد لحظة، قبل أن يسأل:
- شيء واحد أرغب في معرفته، طوال كل هذه السنين هل (دينا) هي التي أنجبت الصغير بالفعل؟!
صمت (فؤاد) لحظة، قبل أن يجيب في صرامة:
- كلا..
تنهد (سمير) في ارتياح، مغمغما:
- حمدا لله..
قال (فؤاد) في غضب صارم:
- ولكن لن يمكنك إثبات هذا قط...
ابتسم (سمير) ابتسامة عتاب مشفقة، مغمغما:
- ومن سيحاول إثباته؟
والتفت إلى شقيقه، مكملا في أسى:
- صدقني يا (فؤاد).. صدقني يا شقيقي الوحيد.. أموالك هذه لا تهمني قط.. بارك لك الله فيها، وزادك منها الكثير لست طامعا في قرش واحد منها.. صدقني.. كل ما أحمله لك هو الحب.. حب الشقيق لشقيقه فحسب، وكل ما أتمناه لك هو الخير، كل الخير...
سأله (فؤاد) في عصبية:
- وماذا عن (عماد) الصغير؟!
أجابه بسرعة
- أنا أول من سيعترف بأنه وريثك الوحيد ثم تراجع، مستدركا:

- ولكن..
هتف به (فؤاد):
- ولكن ماذا؟!
عاد (سمير) يشير إلى الصغير، مجيبا:
- إنكم تدللونه كثيرا، حتى يكاد يفسد..
غمغم (فؤاد):
- إنه وريثي الوحيد...
أشار (سمير) بسبابته، قائلا:
- هذا لا يعني أن يتم تدليله إلى هذا الحد.. هل تدرك لماذا لاحظت أن هيئته تختلف بعض الشيء عن صورة (عماد) عندما كان في مثل سنه؟! هذا لأن (عماد) الصغير أكثر وزنا، وأقل رصانة واهتماما.. تدليلكم له صنع منه مخلوقا أنانيا عصبيا، ذاتا، لاهم له في الدنيا سوى تنفيذ رغباته، وتحقيق متطلباته، دون النظر إلى أية عوامل أخرى، أما (عماد)، رحمه الله، فعندما كان في العاشرة، كنت أنت تعمل ليل نهار، ولا تجد الوقت لتدليله، ومربيته كانت تحرص على تلقينه كل المبادئ الصالحة والأخلاقيات الحميدة اختلاف التربية هنا هو البيئة التي أتحدث عنها.. البيئة التي تختلف تماما عن البينة التي تربى فيها (عماد)...
تسلل القلق إلى أعماق (فؤاد)، مع كلمات شقيقه المنطقية، فتمتم في عصبية:
- هذا أمر يمكن تدبيره...
هز (سمير) رأسه نفيا، وهو يقول:
- المشكلة أنك لا تستطيع أن تحكم هذا الأمر قط، فالبيئة حتما تتغير، من زمن إلى آخر.. العصر نفسه يختلف.. انظر إلى (عماد) الصغير مثلا، وهو يلهو بألعاب الفيديو الحديثة إن هذا

سيكسبه حتما مهارات جديدة، وسيصنع في داخله تطورات، لم تكن لتحدث أبدا مع (عماد) الأصلي.. إنها حتمية التغيير يا شقيقي.. لا يمكنك أن تصنع نسخة متكاملة من شخص ما أبدا مهما حاولت.. لا بد أن يأتي الشخص الجديد بسمات جديدة، وطبيعة جديدة، وروح مواكبة للعصر الذي ينشأ فيه...
قال (فؤاد) في حدة:
- الأمر ليس بالخطورة التي تتصورها.. سأجعل (عماد) الصغير يخضع لنظام غذائي محكم، تحت إشراف الأطباء، وستجد أنه سيشبه (عماد) رحمه الله تمام الشبه، عندما ينخفض وزنه قليلا...

عاد (سمير) يبتسم بإشفاق مرة أخرى، وهو يقول:
- إنك تتحدث عن التشابه الشكلي يا (فؤاد)، ولكنني أتحدث عن التشابه الموضوعي.. انظر إلى (عماد) الصغير، كيف يعامل (دينا) بغطرسة وعنف وأنانية، وسل نفسك: هل يمكن أن ينمو هذا، ليصبح نسخة طبق الأصل من (عماد) رحمه الله، بكل هدوئه، ورقته، وأدبه، وايمانه بالله (سبحانه وتعالى)؟
صمت (فؤاد) لحظة، في توتر بالغ، قبل أن يغمغم:
- كل شيء يتغير مع الزمن...
وافقه (سمير) بتنهيدة وإيماءة رأس، وهو يقول:
- بالتأكيد يا (فؤاد).. بالتأكيد يا شقيقي الوحيد.. كل شيء يتغير مع الزمن...
لم يشأ (فؤاد) أن يناقش الأمر أكثر، فابتعد عن شقيقه، متظاهرا بالانشغال في أمر آخر، وراح يراقب (عماد) الصغير من بعيد كانت ملابسه قد اتسخت، من اللعب مع رفاقه، و(دينا) تحاول إقناعه أن يستبدل بها ملابس نظيفة، وهو يرفض هذا، ويتعامل

معها بأسلوب سخيف، يفتقر إلى الذوق والأدب، قبل أن يصرخ في وجهها غاضبا:
- ابتعدي عني.. لن أبدل ثيابي الآن.. ألا تفهمين مثل الحمير؟!
ارتبكت (دينا)، وتخضب وجهها بالحمرة، وتراجعت متمتمة:
- أنا مثل الحمير يا (عماد).. أليس من العيب أن تصف أمك بهذا؟!
أجابها الصغير في حدة عصبية:
- كلا.. ليس من العيب؛ لأنك بالفعل مثل الحمير ولم يحتمل (فؤاد) هذا...
كان الجميع يتطلعون إلى الصغير بدهشة واستنكار، عندما اندفع نحوه، وجذبه من أذنه في غضب، صائحا به:
- اعتذر لأمك عما قلته.
صرخ الصغير من الألم، وصاح في عناد:
- كلا.. لن أعتذر.. إنها كذلك بالفعل.
فصفعة (فؤاد) على وجهه، هاتفا:
- أنت تستحق هذا إذن...
تلقى الصغير الصفعة، واحتقن وجهه في شدة، وهو يتطلع إليه، ثم لم يلبث أن انطلق يعدو مبتعدا، دون أن يذرف دمعة واحدة...
وران صمت رهيب على المكان..
صمت قطعه (فؤاد)، وهو يجبر نفسه على الابتسام قائلا:
- لا تدعو هذا التصرف البسيط يفسد بهجتكم.. الصغير أخطأ، وكان يستحق العقاب.. كلنا نفعل هذا مع أولادنا أليس كذلك؟!
نسفت عبارته الصمت نسفا، وراح الجميع يتحدثون في آن واحد عن أبنائهم، التي لا تنتهي مشكلاتهم، ومتاعبه أما (دينا)، فقد مالت على أذن (فؤاد)، قائلة:

- ما كان ينبغي أبدا أن تصفعه على وجهه...
أجابها في حزم:
- لقد أساء إليك، وكان يستحق هذا...
قالت في حنان:
- أنا سامحته...
قال في حدة:
- تدليلك الزائد هذا له هو الذي أفسده قالت في ارتياع:
- هل تتوقع مني أن أضربه لو أخطأ؟
أجابها في صرامة:
- كل أم تفعل هذا..
قالت:
- إلا أنا..
ثم استدركت بلهجة أقرب إلى البكاء:
- هل نسيت من هو؟!
أجاب في عصبية:
- كلا.. لم أنس، ولكنني أفعل هذا لصالحه، وقبل أن يتم عبارته، فوجئ بقطعة من كعكة عيد الميلاد ترتطم بوجهه في عنف، فمسحها بيده هاتفا في غضب:
- من فعل هذا؟
فوجئ بالصغير يقف أمامه متحديا، وهو يقول:
- إياك أن تصفعني على وجهي مرة أخرى وللمرة الثانية، ساد صمت رهيب في المكان..
واتجهت الأنظار كلها إلى (فؤاد) و (عماد) الصغير(فؤاد) وحده، دون الجميع، لم يحدق في ابنه لقد انطلق بصره يجوب الحاضرين، حتى توقف عند شقيقه (سمير)..

كان بدوره يحدق في الصغير مستنكرا، إلا أن شيئا ما جعله يرفع عينية إلى شقيقه والتقت عيونهما وأفكارهما ودون أن ينطق أحدهما بحرف واحد، انطلق سؤال حائر من أحدهما إلى الآخر بسرعة البرق ترى هل من الممكن أن ينمو هذا الصغير، ليصبح نسخة طبق الأصل من (عماد)؟!

هل؟

وظل السؤال حائرا في سماء الصمت، على نحو يؤكد أن الجواب لن يأتي إلا على لسان الزمن..

الزمن وحده...

☆ ☆ ☆

٦- ميراث الخطأ...

أريد نقودا...
نطق (عماد) العبارة في غلظة وخشونة صارمتين، في مواجهة (دينا)، التي جف حلقها من فرط التوتر، وهي تتطلع إليه، قائلة:
- أية نقود؟! لقد أنفقت ما يقرب من ألفي جنيه، ولم ينتصف الشهر بعد كانت تتحدث إليه، وكيانها كله يتساءل: ترى في أي شيء أخطأت، في أثناء تربيتها له؟!
إنها و(فؤاد) يعلمان جيدا أنه نسخة طبق الأصل من الراحل (عماد)، من الناحية الوراثية والجسدية الاثنان يحملان نفس الجينات والصفات بالضبط ودون أدنى اختلاف فلماذا يبدو ذلك الواقف أمامها إذن، وكأنه شخص آخر لا ينتمي قط ل (عماد)، الذي أحبته، وكادت تتزوجه، منذ ما يقرب من ثمانية عشر عاما؟!
إنه لم يعد حتى يشبهه، بملامحه القاسية الشرسة، وملابسه المزرية، التي يصر على ارتدائها، على الرغم من ازدحام دولاية بكل غال وثمين، وشعره الطويل، المعقود خلف عنقه برباط مطاطي قذر، وكأنما هو ألد أعداء النظام والنظافة والأناقة والذوق..

ناهيك عن غلظته وقلة تهذيبه، وأسلوبه العدواني السخيف، وهو يجيبها:

- ألفان أو عشرة آلاف.. هذا لا يهم.. النقود موجودة لننفقها، لا لنكنزها في خزائننا...

هتفت به:
قول حق، براد به باطل... النقود خلقت بالفعل لننفقها، ولكنك ما زلت في السابعة عشرة من عمرك، فكيف تنفق كل هذا المبلغ، في فترة قصيرة كهذه؟! فيم أنفقت ألفي جنيه؟!
لوح بذراعه كلها، صائحا:
- هذا شأني، لست مضطرا لتقديم كشف حساب لأحد صاحت غاضبة:
- بل قل: إنك لا تستطيع تقديم كشف حساب.. هل تعلم لماذا؟ لأنني أعلم جيدا فيم تنفق نقودك على العبث والفساد.. هل ترغب في معرفة المزيد من التفاصيل؟! دعني أخبرك إذن عن ذلك الملهى في شارع (الهرم)، والراقصة(سونا)، وذلك القذر تاجر المخدرات، الذي تذهبون إليه في نهاية الليل، و.....
قاطعها في ثورة شرسة:
- هل تراقبينني؟! هل أرسلت خلفي من يراقبني؟!
تراجعت خائفة أمام ثورته، وهي تهتف:
- هذا حقي.. أنا أمك، ولا بد أن أعلم فيم تنفق نقودك...
أمسك كتفيها في قوة وغلظة، حتى إنها شعرت بأصابعه تنغرس فيهما بقسوة، فهتفت به:
- اتركني.
بدت لها عيناه المحمرتان أشبه بجمرتين من الجحيم، وهو يقول في لهجة ارتجفت لها عروقها:
- إياك أن تفعلي هذا مرة أخرى..
انتفضت بين يديه، قائلة::
- هل أترك هؤلاء الأوغاد يستولون على أموالك، وقاطعها بصرخة هادرة، وهو يدفعها بعيدا:
أنا حر...

ارتطم ظهرها بالجدار، وصرخت في ألم مذعور، ولكنه لم يبال بصرختها، وهو يضرب باب الدولاب بقدمه، ثم يفتحه في عنف، ويختطف من داخله عدة رزم من النقود، في لهفة مجنونة، جعلتها تندفع نحوه، صائحة:

استدار إليها بحركة حادة، صارخا:

- ابتعدي عني..

ولم يمكنها أن تستوعب ما حدث، مع نهاية صرخته لقد شعرت بتلك الصفعة القوية تهوى على وجهها، وتلقى بها على سريرها في عنف وقسوة..

شعرت بها، ولكنها لم تستوعبها أو قل إنها لم تصدقها.. أو رفضت أن تصدقها وفي مزيج من الألم، والارتياع، والذعر، والخوف، والاستنكار، والاستهجان، هتفت:

(عماد).. هل تضربني أنا؟! تضرب أمك؟!

رماها بنظرة كسهام النار، وهو يدس النقود في جيبيّ سترته الجلدية، دون أن ينبس ببنت شفة، ثم اندفع يغادر المكان في عنف كالعاصفة، فانفجرت الدموع من عينيها كالسيل، وهي تكرر:

- أتضرب أمك؟!

كانت كل خلية في جسدها تشعر بالألم والمرارة والانهيار ماذا حدث؟

كيف تحول إلى ما وصل إليه؟!

كان المفترض أن يصبح نسخة طبق الأصل من (عماد) نسخة طبق الأصل من وسامته، وأناقته، وطيبته، وحنانه نسخة من تدينه والتزامه هذا ما كانوا يسعون إليه منذ البداية فما الذي حدث؟!

هل أخطأت تربيته؟!

هل فشلت في أن تصنع منه ذلك الشاب، الذي كانت ستتزوجه يوما؟!
أم أنه الزمن؟!
الزمن الذي تغير، وتغيرت معه الظروف والطبائع وحتى الأخلاقيات..
ماذا حدث؟!
ماذا؟!
وفي مرارة، التقطت سماعة الهاتف، وطلبت رقم (فؤاد) الخاص، ولم تكد تسمع صوته، حتى هتفت:
- (فؤاد).. إننا ندفع الثمن.. ندفع الثمن يا (فؤاد).
انتزع الملياردير نفسه من حديثه مع شقيقه، وهو يسألها في توتر:
- أي ثمن يا (دينا)؟! ماذا حدث؟!
انفجرت دموعها مرة ثانية، وهي تجيب:
- نحن أفسدناه يا (فؤاد).. نحن صنعنا منه هذا الوحش، الذي يعيش بيننا الآن...
احتقن وجهه، وهو يسألها في توتر بالغ:
- ماذا فعل هذه المرة؟!
هتفت من وسط دموعها ومرارتها:
- لقد تجاوز الحدود هذه المرة... كنت أعاتبه؛ لأنه ينفق نقوده على الساقطات والمخدرات، عندما.. عندما...
لم تستطع إكمال عبارتها، وهي تنتحب بشدة. شرد في هلع:
- ساقطات ومخدرات؟! هل بلغ هذا الحد؟!
هتف (سمير) في ارتياع:
- أعوذ بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله
بكت (دينا) في مرارة أكثر، وهي تقول:

- لقد حطم الدولاب، واستولى على النقود، ثم... ثم صفعني.
اتسعت عينا (فؤاد) عن آخرهما، وكادت أصابعه تحطم سماعة الهاتف، وهو يصرخ عبره، بكل استنكار واستهجان الدنيا:
- صفعك.. هذا الكلب الحقير...
تمتم (سمير):
- رحماك يا رب العالمين.. رحماك...
شعر (فؤاد) بغصة في حلقه، وهو يقول لها:
- حسن.. اتركي الأمر لي.. سألقنه درسا لا ينساه أبدا وأنهى الاتصال، مغمغما في عصبية:
- ماذا أصاب هذا الولد؟! كيف انحدر إلى هذا الدرك؟!
ما الذي أخطأنا فيه بشأنه؟! لماذا لم ينشأ كقرينه؟!
حاول (سمير) أن يخفي مشاعره في أعماقه، إلا أنه عجز عن هذا، فقال في خفوت:
- الخطأ كان منذ البداية...
التفت إليه (فؤاد) في حدة، هاتفا:
- ماذا تقول؟
كرر (سمير) بصوت مسموع:
- أقول: إن الخطأ جاء منذ البداية..
رمقه شقيقه بنظرة غاضبة، وهو يقول:
- ما زال بإمكاننا إصلاح هذا الخطأ.
وضغط أحد أزرار جهاز الاتصال الداخلي، مستطردا في صرامة:
- (حلمي).. هل تعرف أين يمكن أن نجد (عماد) الآن؟!
أجابه (حلمي) هذا في سرعة:
- إنني أستطيع العثور عليه دائما يا (فؤاد) بك...
قال (فؤاد) في صرامة:
- عظيم.. اعثر عليه، وأحضره إلى هنا على الفور.. هل تفهم؟!

أجابه الرجل:
- أمرك يا (فؤاد) بك...
أغلق (فؤاد) جهاز الاتصال الداخلي، وهو يقول في عصبية:
- كل خطأ يمكن إصلاحه...
قال (سمير) في سرعة:
- على ألا يكون هذا بخطأ آخر...
صاح به (فؤاد) في حدة:
- لماذا تقول هذا دائما؟! لماذا تصر على اعتبار ما فعلناه خطأ؟! إنني لم أقتل أو أسرق.. كل ما سعيت إليه هو أن أحصل على وريث.. على شخص يفوز بكل هذه الثروة الطائلة...
أجابه (سمير)، وقد قرر أن يقتحم المشكلة مباشرة:
- كانت هناك وسيلة شرعية مباشرة، للحصول على ذلك الوريث.. أن تتزوج، على سنة الله ورسوله، وتنجب وريثا شرعيا، يباركه الله (سبحانه وتعالى)، ويجعله خير خلف لخير سلف.. ولكنك رفضت هذا.. رفضت أن تقبل ما قدره الله (عز وجل)، ولم ترض بقضائه، عندما اختار (عماد) (رحمه الله) إلى جواره... لم ترض بهذا، قط، ورفضت أن تستسلم للقدر، ورحت تنفق جهدك وأموالك لاستعادة ما ضاع، دون أن تفكر في بناء مستقبل جديد..
صاح به (فؤاد) في غضب:
- عندما سعيت لنسخ (عماد)، كنت أفكر في المستقبل في الوريث.. ألا يمكنك أن تفهم هذا قط؟! ا
تنهد (سمير)، قائلا:
- بل أفهمه يا (فؤاد)، ولكنني لا أرضى عنه أبدا.. كلنا عايشنا (عماد) رحمه الله.. كلنا كنا نعلم كم كان درة بين بني جيله.. ولكن الله سبحانه وتعالى) لم يرد له أن يرثك وهذه مشيئته (عز

وجل)، وكان ينبغي أن تقبل هذا، وتبحث عن وريث آخر، لا أن تصر على معاندة القدر، واستعادة الوريث، الذي قررت أنت أن يرث ثروتك...
انعقد حاجبا (فؤاد) في صرامة، وهو يقول:
- سيرثها يا (سمير) ... (عماد) سيرث ثروتي، مهما قلت أو فعلت...
أشار (سمير) بسبابته، قائلا
- فقط إذا كانت هذه هي مشيئة الله (سبحانه وتعالى).
صاح (فؤاد):
- سيرثني يا (سمير).. هل تسمعني؟! إنني لم أفعل كل ما فعلت، لتذهب الثروة إلى شخص آخر.. (عماد) وحده سيرثني.. هل تفهم؟!
احتقن وجه (سمير)، ولم ينبس ببنت شفة، في حين ارتفع صوت خشن، يقول في سخرية:
- بالطبع (عماد) هو الذي سيرثك يا (فؤاد) بك التفت الاثنان في آن واحد، إلى مصدر الصوت، وانعقد حاجبا (فؤاد)، وهو يقول في غضب صارم:
- لم أتوقع أن يحضرك (حلمي) بهذه السرعة.
ابتسم (عماد) في سخرية، وألقى جسده على أقرب مقعد إليه، ووضع إحدى ساقيه فوق الأخرى، على نحو مجاف الذوق واللياقة، وهو يجيب:
- لا فضل ل (حلمي) في هذا.. لا تجعله يخدعك كعادته لقد كنت في طريقي إلى هنا، عندما التقى بي عند مدخل المؤسسة...
سأله (فؤاد) في غضب:
- ماذا فعلت بأمك؟!
تجاهل (عماد) السؤال تماما، وهو يتابع:

- الواقع أنني أتيت إليك بشأن (مرسيدس) رياضية جديدة، شاهدتها مساء أمس، في معرض السيارات الجديد، عند ناصية الشارع، وهي ليست غالية الثمن، و.....
قاطعه (فؤاد) في غضب أكثر:
- ماذا فعلت بأمك يا ولد؟!
انعقد حاجباه في شراسة، وهو يقول:
- لقد حاولت منعي من أخذ النقود...
صاح به (فؤاد):
- إنك لا تستحق أية نقود، بعدما كشفنا أين وكيف تنفقها ارتبك (سمير)، وهو يقول:

- رويدكما.. المكان ليس مناسبا لتبادل مثل هذا الحديث. ولكن (عماد) تجاهل هذا القول، وهو يهب من مقعده، صائحا :
- من حقي أن أنفق نقودي أينما وكيفما أشاء صرخ فيه (فؤاد):
- إنها ليست نقودك بعد...
صاح فيه الشاب في شراسة:
- ولكنها ستصبح كذلك حتما.. لا توجد قوة في الأرض يمكنها أن تمنع هذا.. أنت قلتها بنفسك...
احتقن وجه (فؤاد)، وهو يصيح:
- إياك أن تتحدث معي بهذا الأسلوب مرة أخرى هتف (عماد):
- سأتحدث بالأسلوب الذي يحلو لي...
هتف (سمير) في قلق:
- لا تخاطب والدك بهذه اللهجة يا (عماد)..
وصاح (فؤاد) في غضب هادر:
- أنت عديم الأدب والتربية...
أجابه الشاب في تحد:

- ربما لأنني لم أجد من يربيني...
اندفعت السكرتيرة إلى المكتب في هذه اللحظة، هاتفة في قلق:
- (فؤاد) بك.. صوتكما بلغ الموظفين، و...
قاطعها (عماد) في غضب:
- وما شأنك أنت أيتها العاهرة؟
اتسعت عيناها في هلع مذعور، وتراجعت متمتمة أنا؟!
وكان هذا أكثر مما يمكن أن يحتمل (فؤاد)، فاندفع نحو(عماد)، صائحا:
- أيها الحقير..
وهوي على وجهه بصفعة قوية...
صفعة أودعها كل غضبه وحنقه وثورته ومع رنين الصفعة، هوى صمت ثقيل على المكان..
واتسعت عيون الجميع في ذهول(فؤاد) وحده ظل غاضبا صارما بعدها، وهو يرمق (عماد) بنظرة نارية، ثم يستدير إلى مكتبه، متابعا:
- هذا ما كان ينبغي أن أفعله منذ البداية
احتقن وجه (عماد) في شدة، واشتعلت عيناه بنيران الغضب، وهو يغمغم في صوت خافت، يموج بالسخط والثورة:
- لقد قلتها من قبل..
ثم اختطف منفضة السجائر النحاسية الثقيلة، واندفع نحو(فؤاد)، صارخا:
إياك أن تصفعني على وجهى..
استدار إليه (فؤاد)، دون أن يتخيل ما سيحدث، و...
وهوت المنفضة الثقيلة على جبهته، بمنتهى العنف والقسوة..
وشعر بشيء ينفجر داخل جمجمته، وشقيقه (سمير) يعدو نحو (عماد)، صارخا:

- ماذا تفعل؟! هل جننت؟!
وارتفعت المنفضة النحاسية مرة أخرى..
وعادت تهوي بنفس العنف والقسوة...
ورصدت عينا (فؤاد) هبوطها وبدت له عينا (عماد) أشبه بعيني شيطان رجيم وفي أذنيه، انطلقت صرخة سكرتيرته المذعورة، وهى تعدو خارجة، لاستدعاء رجال الأمن والشرطة وفي أعماقه، انطلقت صرخة أخرى كل شيء انهار النسخة التي بذل كل ما بذل من أجلها تقتله..
وطبقا للشرع، فالقاتل لا يرث ضحيته قط مهما كان ([9]) وهذا يعني أن ثروته كلها ستذهب إلى شقيقه إلى (سمير) وارتطمت المنفضة برأسه مرة ثانية وشعر بذلك الانفجار الثاني داخل جمجمته وتوقفت تلك الصرخة في أعماقه وهو...
أمام كل العيون الذاهلة، سقط (فؤاد صالح) عند قدمى(عماد)، والدماء تتدفق من رأسه في غزارة مخيفة وتراجع (عماد) ذاهلا مذعورا، وهو يحدق في (فؤاد) وكأنما لا يصدق أو يستوعب ما اقترفت يداه، في لحظة غضب حمقاء، ثم لم يلبث أن انفجر باكيا في انهيار..
أما (سمير)، فقد ألقى نفسه على شقيقه، وراح يحاول إيقاف ذلك النزيف الرهيب بيديه، وهو يصرخ:
- لا يا (فؤاد).. لا.. اطلبوا الإسعاف.. استدعوا أحد أطباء الشركة.. أسرعوا بالله عليكم.. أسرعوا..
سمع (فؤاد) هذه العبارة، وعيناه متسعتان عن آخرهما تحدقان في الآية المعلقة فوق مكتبه...
بسم الله الرحمن الرحيم.. وإن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده.. صدق الله العظيم.. ([10])

كان هذا آخر ما وقع عليه بصره، قبل أن تظلم الدنيا أمام عينية وتظلم، وتظلم ثم ينتهي كل شيء إلى الأبد.

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- تمويل..
٢ -الابن..
٣- دموع الزمن..
٤- التجربة..
٥- البديل..
٦- ميراث الخطأ...

Notes

[←1]

الأبنوس: خشب أسود اللون، وهو الخشب الصميمي لعدد من الأشجار الاستوائية، التي تنتمي إلى فه " (ديو سبيروس)، وهو خشب صاد ممتاز الصقل، يستعمل في صناعة بعض قطع الأثاث الفاخر، ومفاتيح البيانو، ولقد تحدث عنه عدد من قدامى المؤرخين، مثل: (هيرودوت) و(فرجل)، وهو غالي الثمن إلى حد كبير، حتى إن القلم المصنوع من خشب (الأبنوس) كان يعد هدية قيمة، حتى زمن قريب.

[←2]

* (D.S.A: حمض (الداي أوكسى رايو نيو كليك)، (Deoxyribohu clic Acid)، بروتين شديد التعقيد، يوجد في نواة الخلية، وهو الذي يحمل الصفات الوراثية، من جيل إلى جيل، ومن خلية إلى أخرى، ولا يمكن أن تنشأ الحياة أو تستقر (علميا) بدون وجود هذا الحامض، فهو المادة الكيماوية الأولى، التي تكون أحياء جديدة، وهو موجود في كل خلية حية، باستثناء كرات الدم الحمراء عديمة الأموية... المقال وكاتبه حقيقة

[←3]

بسم الله الرحمن الرحيم الله ملك السموات والأرض، يخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء إناثا، ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا، ويجعل من يشاء عقيما، إنه عليم قدير) صدق الله العظيم...

الآيات 8-10 من سورة الشورى

[←4]

الصبغيات (الكروموسومات): الكروموسوم جسم خيطي الشكل يوجد داخل النواة، في جميع خلايا النبات والحيوان، وعادة ما يكون واضحا عندما تكون الخلية في حالة انقسام (الانقسام الفتيلى)، ويوجد في ازواج وتحتوي الكروموسات على الجينات، التي تحدد الصفات الوراثية لكل كائن حي، وفي الإنسان يوجد ٢٣ زوجا من الكروموسومات

[←5]

يطلق على هذه العملية اسم (التزاوج اللاجنسي) Non Sexual reproduction

[←6]

حقيقة علمية تاريخية

[←7]

حقيقة

[←8]

السيتوبلازم: هو البروتوبلازم المحيط بالنواة في الخلية، ووظائفه تتم تحت سيطرة النواة، وهو يحوي مختلف أعضاء الخلية، مثل (الميتاكوندريا)، وأجسام (جولجى)، و(السنتروسوم)، والفجوات الغذائية، والشبكة الإندوبلازمية، و (الريبوسومات)، وتعتبر الفجوات ضن أعضاء الخلية، وهي عبارة عن فقاقيع مملوءة بالسائل الخلوي، وتقوم في الحيوانات وحيدة الخلية بعملية هضم المواد الغذائية...

[←9]

حقيقة..

[←10]

* الآية ١٢٨ من سورة الأعراف

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

قلعة الأسرار

نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

قلعة الاسرار

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- دعوة..

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي الصحفي الروماني (ميشيل)، وهو يستقبل (باسل) في مطار (بوخارست) عاصمة (رومانيا)، وبدت نبرة الترحاب واضحة في صوته، وهو يصافحه في حرارة، قائلا:

- مرحبا بك في (رومانيا) يا (باسل).. نحن نشكر لك تلبيتك لدعوة صحيفتنا

أجابه (باسل) بابتسامة وود:

- بل أنا الذي يشكركم يا رجل، على اهتمامكم بالمقال الذي أرسلته.

هتف (ميشيل):

- إنه مقال رائع يا (باسل).. كيف أمكنك معرفة كل هذا؟

هز (باسل) كتفيه، وقال:

- إنني أقرأ كثيرا.

ربّت (ميشيل) على كتفه في حرارة، وقاده إلى سيارة الجريدة التي تنتظر بسائقها أمام المطار مباشرة، وهو يقول:

- أهي أول زيارة لك لرومانيا يا (باسل).

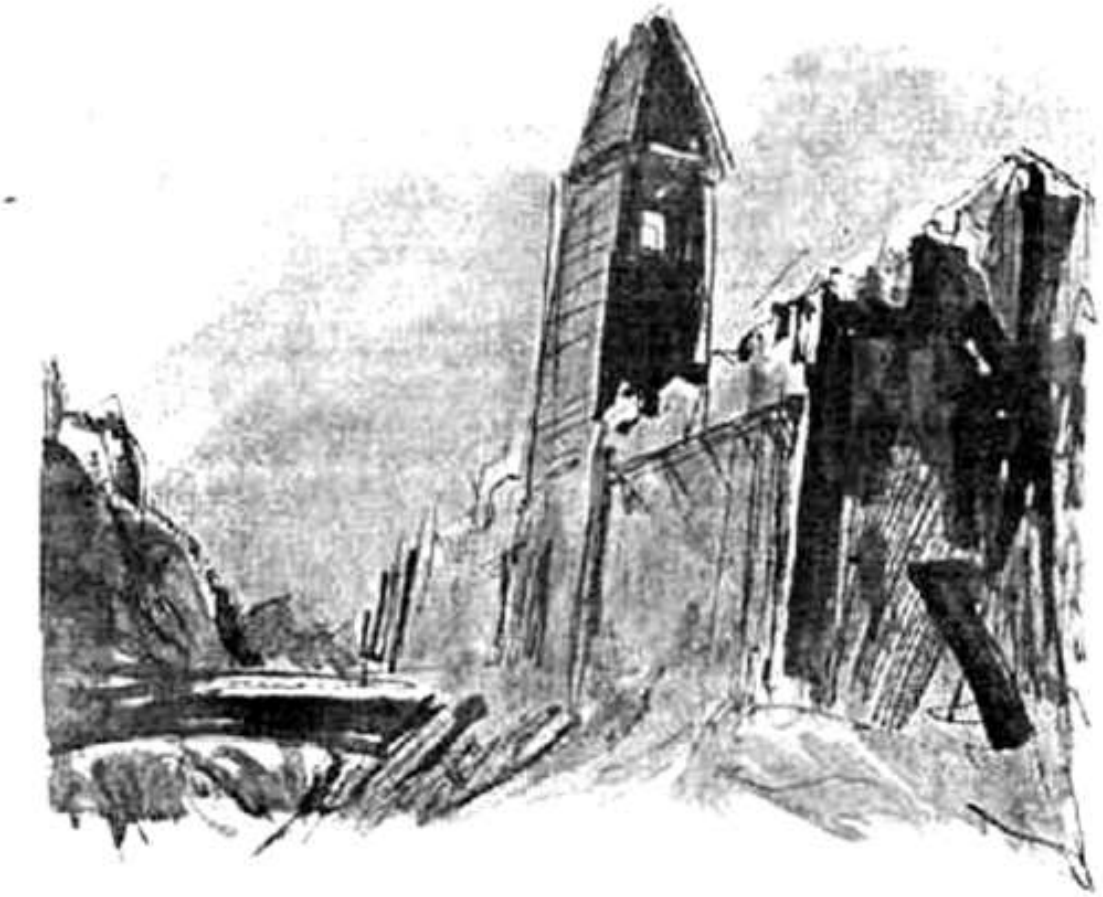

أومأ (باسل) برأسه إيجابا وقال:
- نعم.. ولكنني قرأت الكثير عنها.
ضحك (ميشيل) وهو يقول:
- اليوم إذن سيمكنك مشاهدة ما قرأت عنه.
قال (باسل) مبتسما:
- هذا لو وجدنا الوقت لذلك.
دعاه (ميشيل) لركوب السيارة، وهو يقول:
- لدينا الوقت كله يا صديقي، فالسيد (أندريه) رئيس التحرير لن يمكنه مقابلتك قبل مساء الغد، فقد انشغل بلقاء مهم مع وفد أمريكي اقتصادي، وصل إلى هنا صباح اليوم، وهذا يعنى أن أمامنا أكثر من ثلاثين ساعة، يمكننا القيام خلالها بجولة سياحية في (رومانيا)..
أين تحب أن تذهب؟
صمت (باسل) لحظات مفكرا ثم قال:

- ما رأيك فى زيارة إلى (ترانسلفانيا)؟
تطلع إليه (ميشيل) في دهشة، وهو يهتف:
- (ترانسلفانيا)؟! ولماذا (ترانسلفانيا) بلذات؟!
ابتسم (باسل) وقال:
- الحقيقة أننى أرغب في رؤية قصر (دراكيولا).
رفع (ميشيل) حاجبيه في دهشة، ثم لم يلبث أن خفضهما، وهو يبتسم في خبث، قائلا:
- آه. أنت تهوى قراءة قصص مصاصي الدماء.. أليس كذلك؟
- لا شيء يبرر القسوة يا صديقي، حتى مع الأعداء، فإذا قتلت فأحسن القتلة
لوح (ميشيل) بذراعه، قائلاً:
- هذا رأيك.
هز (باسل) رأسه نفيا، وهو يقول:
- كلا.. لقد قرأت رواية واحدة في هذا المجال، وهي تلك التي كتبها الروماني البريطاني (برام ستوكر) عام١٨٩٧م، والتي حملت اسم (دراكيولا) وشاهدت فيلما أو فيلمين للمثل الإنجليزي (كريستوفرلي) حول الفكرة نفسها، ولكن ما يجذبني فى الواقع هو الكونت (دراكيولا) الحقيقي، الذي أقام هنا، والذي أوحى للروائي (برام ستوكر) بفكرة روايته الشهيرة.
أوماً (ميشيل) برأسه متفهما، وهو يقول:
- لقد أساءوا كثيرا للكونت (دراكيولا) ووصفوه بأنه وحشي سادي، متعطش للدماء، على الرغم من أنه لم يقاتل سوى أعداء البلاد وحدهم.
غمغم (باسل):
- ولكنه كان شديد القسوة بالفعل.
هتف (ميشيل):

- مع الأعداء وحدهم.
أجابه (باسل) في هدوء:
ثم عقد حاجبيه مفكرا لحظات، قبل أن يقول:
-ولكن.. هل ترغب في رؤية قصر (دراكيولا). الذي يزوره كل سائح يفد إلى (رومانيا) أم قلعته السرية؟!
التفت إليه (باسل) في دهشة، وهو يقول:
- قلعته السرية؟! لم أقرأ قط عن شيء كهذا!
ابتسم (ميشيل) في خبث، وقال:
- لو أنك قرأت عنها، لما أصبحت سرية؟
بدا توتر شديد فى وجه سائق السيارة وصوته، وهو يقول عبارة ما بالرومانية، فابتسم (ميشيل) وربت على كتفه، وهو يرد على عبارته بأخرى.، ثم التفت إلى (باسل)، قائلاً بصوت يحمل نبرة ساخرة، وباللغة الإنجليزية، التي يتبادلان الحديث بها منذ البداية:
- معذرة لحديثنا بالرومانية، ولكن السائق كان منفعلاً بعض الشيء.
سأله (باسل):
- أهناك ما يؤرقه؟
ضحك (ميشيل) وقال:
نعم.. إنه أحد أبناء (ترانسلفانيا) وكلهم يصابون بالذعر، عندما يتحدث أي مخلوق عن قلعة (دراكيولا) السرية. سأله (باسل) في دهشة:
- ولماذا يصيبهم الذعر لهذا؟
فوجئ بالسائق يقول بالإنجليزية في عصبية:
- أرجوك يا سيدي.. لا داعي لمناقشة هذا الأمر.
أطلق (ميشيل) ضحكة عالية، وقال:

- اطمئن يا (ميخا).. لن يغرس (دراكيولا) أنيابه في عنقك هذا المساء.
بدا الغضب والتوتر على وجه السائق، فتدخل (باسل)، قائلا:
- مهلا.. ما الذي يعنيه هذا؟
أشار (ميشيل) إلى السائق، وهو يقول:
- نسيت أن أخبرك أن (ميخا) من الفئة الترانسلفانية، التي تؤمن بأن (دراكيولا) مصاص دماء حقيقي، وأنه لايزال على قيد الحياة حتى الآن.
قال (ميخا) في حدة:
- هذا حقيقي يا سيد (ميشيل).. إنك تسخر منا لأنك لم تر عربته، وهي تعبر الطريق الضيق في الجبال، في طريقها إلى قلعته، في الليالي المقمرة، تجرها جياده الرهيبة، ويقودها سائقه المخيف
لوح (ميشيل) بكفه، وقال:
- مجرد وهم.. إنها على الأرجح واحدة من سيارات فرقة مكافحة المخدرات، التي تبحث عن المهربين في الجبال.
قال (ميخا):
- محركات سيارات مكافحة المخدرات لا تطلق صهيلا يا سيد (ميشيل)، ولا تمتص دماء الضحايا.
سأله (باسل):
- ما معنى الحديث عن مص الدماء هذا؟
أجابه (ميخا) وهو يرتجف:
- لقد رأيت هذا بنفسي، عندما جرؤ مفتش الشرطة فى بلدتنا على الذهاب إلى الجبال وحده، في ليلة مقمرة، وبعدها عثروا عليه صريعا، وقد امتص (دراكيولا) دماءه كلها، لقد نشرت الصحف هذا الحدث.

التفت (باسل) إلى (ميشيل) يسأله:
- أهذا صحيح؟
هز (ميشيل) كتفيه وقال:
-لست أذكر هذا بالتحديد.
ثم أطلق ضحكة قصيرة، وهو يسال (باسل):
-أما زلت تفكر في زيارة قصر (دراكيولا)؟
صمت (باسل) لحظة، قبل أن يجيب في حزم:
-بل أفكر في زيارة قلعته السرية.
جاء رد فعل (ميخا) أعنف مما تصور (باسل).. فقد ضغط فرامل السيارة فجأة، حتى إن جسدي (باسل) و(ميشيل) اندفعا إلى الأمام، وارتطما بالمقعدين الأماميين، فهتف الأخير محنقا:
-ماذا أصابك يا رجل.. هل جننت؟
قال (ميخا) في حدة:
- سيدي.. ما تفكر فيه ضرب من الجنون.
صاح به (ميشيل):
- بل قل: إنك جبان رعديد.
هتف (ميخا) في غضب:
- لست جبانا، ولكن الأمر أخطر مما تتصوران.
أجابه (ميشيل) في حدة:
- فليكن يا (ميخا).. سنذهب إلى قلعة (دراكيولا) السرية، بك أو بدونك.
انعقد حاجبا (ميخا) طويلا ثم قال في عصبية:
- فليكن.. سأصحبكما إلى هناك، ولكنني سأبلغ زوجتي أولاً.. بأنني سأتأخر طويلاً.. ولا تنسيا أننى حذرتكما.
أوقف السيارة أمام هاتف عام، وذهب للاتصال بزوجته، فقال (باسل):

-عجبا!! ألم يدهشك أن أبدل موقفه بهذه السرعة؟
ضحك (ميشيل)، قائلاً:
- كلا.. لقد تعمدت استفزازه ليفعل.
قبل أن يلقى عليه (باسل) سؤالاً آخر، عاد (ميخا) إلى السيارة وبدا حازما، وهو يقول:
- والآن أيها السيدان، سننطلق إلى قلعة (دراكيولا) السرية.
وبدأت رحلة الرعب..

☆ ☆ ☆

استغرقت الرحلة من (بوخارست) إلى جبال (ترانسلفانيا) وقتا طويلاً بالفعل، قطعته السيارة دون توقف، وانهمك (باسل) خلاله في أحاديث شتى مع (ميشيل)، وفى مراقبة الطبيعة على جانبي الطريق، فى حين لزم السائق (ميخا) الصمت طوال الوقت، مكتفيا بإلقاء نظرة سريعة، كل حين وآخر، إلى (باسل) و(ميشيل) عبر مرآة السيارة الداخلية، حتى لاحت بلدة صغيرة من بعيد، تتألق تحت أشعة الشمس، التي اتجهت في رحلتها نحو المغيب، فغمغم (ميخا):
- سنحصل على قسط من الراحة هنا، ونتزود بالوقود قبل أن نواصل رحلتنا.
هتف (ميشيل) ضاحكا
- يا إلهي! هل يمكنك الحديث؟! لقد تصورتك أبكم، من طول صمتك.
عقد (ميخا) حاجبيه فى غضب، في حين أسرع (باسل) يقول مهدئا الموقف:
- كم تبقى لنا على وصولنا إلى القلعة يا (ميخا)؟
أجابه (ميخا) في اقتصاب:
- القليل.

لم يفهم (باسل) ما يعنيه بهذا القول المقتضب، ولكن (ميشيل) قال فى لهجة شبه ساخرة، تحمل نبرة تهكمية واضحة:
- لقد وصلنا تقريبا.
ثم أشار إلى الجبال المتاخمة للبلدة، مستطردا:
- القلعة هناك.
رفع (باسل) عينيه، يتطلع إلى الجبال في اهتمام، ولكنه لم ير شيئا، فربت (ميشيل) على كتفه، وهو يقول:
- عندما نصل إلى البلدة ستراها جيدا.
ولكنه لم يكن محقا بهذا القول، فقد بلغوا البلدة بالفعل، والشمس توشك على المغيب، ولكن (باسل) لم ير القلعة جيدا، على الرغم من تطلعه طويلاً إلى الجبال، فابتسم (ميشيل) وقال وهو يدير جذعه فى مرونة، ليتخلص من أثر الجلوس الطويل:
- ليس هكذا يا صديقي.
سأله (باسل):
-ما الذي تعنيه؟
أجابه (ميشيل)، وهو يلتقط حقيبته من السيارة:
- لن يمكنك رؤيتها بعينيك المجردتين.. ولهذا سأعيرك منظاري المقرب.
رمقهما (ميخا) بنظرة جانبية، ثم أشاح بوجهه، وتشاغل بتزويد السيارة بالوقود، ومراجعة الزيوت والشحوم، فى محطة وقود قريبة، فى حين ناول (ميشيل) منظاره المقرب إلى (باسل) وهو يشير إلى نقطة ما أعلى أحد الجبال، قائلا:
- انظر.. ستجدها هناك.
وضع (باسل) عدسة المنظار على عينيه، وراح يفحص قمة الجبل في اهتمام. و...
وفجأة، رآها أمامه تماما..

لم تكن قلعة بالمعنى المفهوم، ولكن مجرد أطلال قديمة، يرتفع من طرفها برج كبير، تهدمت قمته، وامتد سورها لعدة أمتار، قبل أن تبدو نهايته المنهارة.
وكان هناك خندق يحيط بالقلعة، وجسر خشبي يمتد من بوابتها الكبيرة، ليعبر هذا الخندق، في حين تحيط بالمكان بعض الأعشاب والأشجار.
وسأل (ميشيل) (باسل):
-هل تراها جيدا؟!
أوما (باسل) برأسه إيجابا، وقال:
- نعم.. إنها أطلال قديمة، و
بتر عبارته بغتة، والتقى حاجباه فى شدة حتى إن (ميشيل) سأله في قلق:
- ماذا هناك؟
أجابه (باسل) في انفعال واضح:
- هناك.. لقد رأيت..
لم يتم عبارته، وخفض المنظار عن عينيه، متمتما في توتر:
- عجبا.. أنا واثق من أننى رأيت هذا!
سأله (ميشيل) في لهفة:
- ما الذى رأيته بالضبط؟
أجابه (باسل) فى سرعة:
- رأيت ضوء مصباح يتحرك، عبر إحدى نوافذ القلعة، ومر ظل أمام الضوء لحظة، ثم اختفى.
حدق (ميشيل) في وجهه بدهشة، قبل أن يقول في ارتباك:
- ولكن هذا مستحيل يا صديقي.. لا أحد يقيم فى هذه الأطلال القديمة.. إنها متهالكة خالية، حتى إن هيئة المساحة لم تهتم بإعدادها وتركتها هكذا.

قال (باسل) في إصرار:
- ولكنني لم أكن واهما.. لقد رأيت هذا في وضوح.
هتف (ميشيل):
- مستحيل! من ذا الذي يمكنه العيش هناك؟
أتاهما صوت متوتر يقول:
- الكونت (دراكيولا).
التفت الاثنان إلى مصدر الصوت، ورأيا أمامهما شيخا طاعنا متغضن الوجه، يبدو كما لو أن عمره يربو على قرن كامل، وهو يستطرد:
- إنه لم يمت بعد.. لقد استغرق فى نوم طويل فحسب، طوال قرن من الزمان، ثم استيقظ ليتزود بدماء الضحايا.
كان (ميشيل) يهم بإلقاء عبارة ما، عندما اندفع (باسل)، قائلا:
- ومتى أستيقظ؟
أجابه الشيخ مرتجفا:
- منذ خمسة أعوام وثلاثة أشهر.
هتف (ميشيل):
- أي هراء هذا؟! هل ستصدق ذلك الرجل يا (باسل)؟
إنك لم تر ما تصورت أنك قد رأيته.. إنه مجرد انعكاس لأشعة الشمس الغاربة، على إحدى نوافذ القلعة.
بدا (باسل) هادئا أكثر مما ينبغي وهو يقول:
- ربما.. ولكنه في هذه الحالة يكون أعجب انعكاس رأيته، في حياتي كلها.
لوح الشيخ بسبابته فى وجه (باسل) وهو يقول:
- ليس انعكاسا يا فتى.. لو أنك رأيت شيئا يتحرك هناك، فهو الكونت (دراكيولا) نفسه.. صدقني يا فتى.. إنه هو.
ربت (باسل) على كتف الشيخ في هدوء وهو يقول:

- سنتأكد بأنفسنا يا عمّاه.
سأله الشيخ مذعورا:
- ماذا تعنى يا فتى؟ كيف ستتأكدون من هذا؟
أشار (باسل) إلى حيث أطلال القلعة، وهو يقول:
- سنذهب إلى هناك.
انتفض جسد الشيخ كله فى عنف، واتسعت عيناه فى ذعر لا مثيل له، وهو يحدق فى وجه (باسل) مغمغما في ارتياع:
- تذهبون إلى هناك؟ أ هل أصابكم مس من الجنون؟
أجابه (ميشيل) في عصبية:
- ربما أيها الشيخ، ولكننا لا نصدق حرفا واحدا من هذا كله، وسنذهب الليلة إلى تلك الأطلال القديمة، ونعود في الصباح، لنسخر منك ومن كل من يصدق هذه الخرافات.
التفت إليه (باسل) وهو يقول في صرامة:
- ليس من اللائق أن تتحدث إلى شيخ بهذا الأسلوب.
صاح (ميشيل):
- ألم تسمع ما قاله؟
- أجابه (باسل) في حزم:
- مهما فعل.. احترام كبار السن واجب، لا أتنازل عنه قط.
صرخ (ميشيل) في وجهه بعصبية بالغة:
- من تظن نفسك أيها العربي؟! هل أتيت إلى هنا، لتلقى على مسامعي محاضرات سخيفة حول الأخلاقيات والمُثُل
ظهر (ميخا) بينهما في هذه اللحظة وهو يقول:
- رويدكما! هل بدأ الخوف يسرى في عروقكما الآن؟
كانت عبارته كافية لامتصاص غضب (ميشيل)، الذي حدق في وجه (باسل) لحظة، ثم انفجر ضاحكا، وقال:

- كلا.. ليس بعد.. إنه بعض التوتر فحسب.. ولكن أخبرني، هل انتهيت من التزود بالوقود وإعداد ما يلزم؟
أجابه (ميخا):
- نعم.. كل شي ء على ما يرام. هل نبدأ رحلتنا الآن؟
لم تمض دقائق على هذا الحديث حتى كانت السيارة تغادر بهم البلدة، والشيخ يراقبهما فى هلع وذعر، فى حين عاود (ميشيل) توتره، وهو يقول:
- لقد أسدل الليل أستاره.. يا له من وقت، لبدء رحلة كهذه!
قال (ميخا) في خفوت:
- كل الأوقات تتساوى في مواجهة مصاصي الدماء.
لم يعلق (باسل) على عبارتيهما، بل اكتفى بمراقبة ذلك الطريق الضيق، شبه المصعد الذي يعبر الجبل، ويمر وسط دغل كثيف، صاعدا إلى قمة الجبل، في شكل حلزوني شبه منتظم، و..
وفجأة سرت في أجساد الثلاثة قشعريرة باردة كالثلج، واحتبست أنفاسهم دفعة واحدة، مع ذلك الصوت، الذي انطلق بغتة وسط الدغل.
صوت الصهيل..
صهيل عربة مصاص الدماء..

☆ ☆ ☆

٢- الرعب..

لم يكد ذلك الصهيل ينطلق، من أعماق الدغل، حتى ضغط (ميخا) فرامل السيارة في قوة، واندفع جسدا (باسل) و(ميشيل) مرة أخرى إلى الأمام فى عنف..

ولكن أحدا منهما لم يعترض.

لقد ران على الجميع صمت رهيب، داخل السيارة المغلقة، ووسط الظلام المحيط بها من كل جانب، قبل أن يقول (ميخا) في توتر:

- هل سمعتما هذا؟

أجابه (باسل) في صوت خافت:

- إنه صهيل جياد.

أما (ميشيل) فهتف في عصبية:

- هراء.. إنه مجرد صفير رياح تعبر ما بين الأغصان المتشابكة.

ردد (ميخا) في مزيج من الدهشة والاستنكار:

- صفير رياح؟!

كان محقا فى دهشته واستنكاره، إذ كان الجو خارج السيارة ساكنا هادئا، إلا من نسمات رقيقة، تهب بين حين وآخر، ولقد شعر (ميشيل) نفسه بسخافة الفكرة، فقال في حدة:

- أو هو جواد جفل من صاحبه، وضل طريقه وسط الدغل.

التفت (ميخا) ينظر إليه مستنكرا، فى حين اكتفى (باسل) بالتطلع عبر النافذة المجاورة له، فى محاولة لاختراق الظلام، ثم اعتدل (ميخا) وقال:

- هل نعود؟

صاح به (ميشيل):
- بل سنواصل طريقنا بالطبع.
تطلع (ميخا) إلى (باسل) في مرآة السيارة الداخلية، وقال:
- ما رأيك أنت يا سيد (باسل)؟
أجابه (باسل) في هدوء:
- لم يحدث ما يمكن أن يعوق رحلتنا يا (ميخا) سنواصل السير حتى نبلغ القلعة.
هز (ميخا) كتفيه، وكتما الأمر لا يعنيه، وعاد ينطلق بالسيارة، ويشق الظلمات بضوء مصباحيها..
وفجأة، سطع ضوء قوى فى مواجهة السيارة، وهتف (ميخا) وهو يخفى عينيه بذراعه:
- ما هذا بالضبط؟

اعتدل (باسل) يتطلع إلى الأمام فى اهتمام، فى حين خفق قلب (ميشيل) فى عنف، وهو يقول متوترا:
- ماذا حدث؟ ما الذي يعترض طريقنا؟
أوقف (ميخا) السيارة، وخفت الضوء الساطع أمامها قليلاً، ثم بدا ظل بشرى يتحرك أمامه، فهتف (ميشيل) مرة أخرى، وصوته يحمل رنة عصبية واضحة:
- ما هذا بالضبط؟
لم يكد ينتهي من قوله، حتى بدا جسد بشرى واضح، في مساحة الضوء لرجل يرتدى ثياب الشرطة الرومانية، اتجه مباشرة إلى (ميخا) وانحنى يتطلع عبر النافذة المجاورة له، إلى (باسل) و (ميشيل) وهو يقول:
- أوراقكم لو سمحتم.

ناوله (ميشيل) الأوراق، وهو يقول في شيء من الانفعال:

- إننا صحفيون.

فحص رجل الشرطة الأوراق فى سرعة ثم أعادها إليهم ورفع قبعته، قائلاً:

- معذرة، إنه تفتيش روتيني.. أنا الضابط (لوركا) من شرطة مكافحة المخدرات.. ولكن ماذا تفعلون هنا، في مثل هذا الوقت؟
أجابه (ميشيل) في توتر:
- نحن في طريقنا إلى القلعة.
رفع الضابط (لوركا) حاجبيه في دهشة، وهو يقول:
- قلعة من؟! لعلك لا تقصد أطلال قلعة (دراكيولا).
قال (باسل) بسرعة:
- هو كذلك.. نحن نقصد القلعة السرية.
مط الضابط شفتيه، وهز رأسه، قائلاً:
- لو أنى في موضعكم لما فعلت هذا قط.
قال (ميشيل) في عصبية:
- هذا لأنك لست رجل صحافة.
وأضاف (باسل) في صوت رصين:
- ثم إن القمر لم يكتمل بعد.
بدت الدهشة لحظة على وجه الضابط (لوركا) ورفع رأسه يتطلع إلى السماء قبل أن يتمتم فى خفوت، خيل إلى (باسل) أنه يحمل نبرة غاضبة:
- نعم.. هذا صحيح.
ثم أفسح الطريق أمام السيارة، وهو يقول:
-حسن.. واصلوا طريقكم ما دمتم بهذه الحماقة.
انطلق (ميخا) بالسيارة فى صمت وقطع ما يقرب من كيلو مترين، قبل أن يسأله (باسل):
- تقولون إن مصاص الدماء المزعوم هذا لا يظهر إلا في الليالي المقمرة التي تكتمل فيها استدارة القمر.. أليس كذلك؟
صمت (ميخا) قليلا، ثم قال:

- ليس بالضرورة.
لم يناقشه (باسل) هذه المرة، ولاذ بالصمت التام، والسيارة تواصل طريقها حتى لاحت أطلال القلعة من بعيد وقال (ميخا):
- لقد وصلنا.
لم يكد ينطقها، حتى انطلق ذلك الصهيل مرة أخرى، فهتف (ميشيل):
- أوقف السيارة ما (ميخا).
ضغط (ميخا) الفرامل بحركة سريعة، وتوقفت السيارة على بعد مائة متر من أطلال القلعة، ولكن (ميخا) أبقى مصابيحها مضاءة هذه المرة وهو يتمتم:
- إنه ليس صفير رياح هذه المرة يا سيد (ميشيل)، أليس...
قاطعه (باسل) في صرامة:
- اصمت.
عقد (ميخا) حاجبيه، وهو يقول:
- ماذا أصابك يا سيد (باسل)؟ ألا يروق لك حديثي هذه الـ...
قاطعه (باسل) في صرامة أكثر هذه المرة:
- قلت لك اصمت.
لاذ (ميخا) بالصمت تماما، فى حين همس (ميشيل) فى توتر، عندما لاحظ حاجبي (باسل) المتعانقين، ومحاولته لإرهاف سمعه:
- ماذا هناك بالضبط؟
أجابه (باسل) في اقتضاب شديد:
- أنصت.
أرهف (ميشيل) السمع بدوره، ثم هتف:
- إنه وقع حوافر جياد تقترب.

لم يكد يتم عبارته حتى تعالى الصهيل مرة أخرى، واقترب وقع حوافر الجياد، حتى صار مسموعا فى وضوح ثم فجأة ظهرت العربة.

عربة سوداء كالليل، تجرها أربعة جياد تكاد تذوب مع الظلام، ويقودها رجل يرفل فى ثوب أسود، يخفى جسده كله، من قمة رأسه، وحتى أخمص قدميه، ويحمل سوطا رفيعًا طويلا، يفرقعه في الهواء، فوق رءوس الجياد الأربعة، فتنطلق بكل سرعتها وقوتها وتنهب الأرض نهبا.

كانت أشبه بعربات النبلاء فى العصور الوسطى، ولكن السواد الذي اصطبغت به منحها مظهرا رهيبا مخيفا، وهي تعبر أمام سيارة الجريدة، وتنطلق في ضوء مصباحيها فوق الطريق شبه الممهد، متجهة إلى القلعة.

ثم أطفا (ميخا) مصباحي السيارة واختفت العربة وسط الظلمة، فهتف (باسل) في دهشة:

- لماذا فعلت هذا؟

أجابه (ميخا) في عصبية:

- لم ... لم أحتمل رؤية تلك العربة.
صاح به (باسل):
- أشعل المصباحين مرة أخرى يا رجل.. أريد أن أرى أين ستذهب تلك العربة.
عاد (ميخا) يضئ المصباحين، ولكن الطريق حتى القلعة بدا صامتا ساكنا فتمتم (ميشيل) في توتر:
- لقد اختفت.
ران على السيارة صمت ثقيل، بعد أن انتهى من عبارته، ثم قطع (باسل) هذا الصمت وهو يقول:
- هيا.. سنواصل طريقنا.
التفت إليه (ميخا) في دهشة، وهو يقول:
- أأنت واثق من هذا؟
أومأ (باسل) برأسه إيجابا، فتنهد (ميخا) وانطلق مرة أخرى بالسيارة، وقطع الأمتار المائة، التي تفصله عن القلعة فى لحظات، ثم توقف أمام ذلك الجسر الصغير الذي يعبر الخندق العميق المحيط بالقلعة إلى بوابتها، وقال:
- لا يمكنني عبور هذا الجسر القديم بالسيارة، إنه أضيق وأضعف من أن يحتملها.
قال (ميشيل):
- لا بأس.. سندخل القلعة سيرا على الأقدام.
هبطوا من السيارة، وعبروا ذلك الجسر إلى بوابة القلعة، ولم تكد أجسادهم تستقر داخل المكان، حتى صدرت فرقعة عجيبة، ثم ارتفع الجسر بغتة، وأغلق بوابة القلعة في دوى عنيف، فصرخ (ميخا):
- رباه!! لقد أصبحنا سجناء هنا.
ولم ينبس (باسل) أو (ميشيل) ببنت شفة..

لقد أصبحوا بالفعل سجناء في تلك القلعة..
- قلعة الرعب.

☆ ☆ ☆

انتفض جسد (ميشيل) فى عنف، عندما ارتفع الجسر فجأة، وسجنهم داخل القلعة، وصرخ (ميخا) فى ذعر:
-إنه هو إنه الكونت (دراكيولا).. لقد أصبحنا أسرى فى قلعته.. إنه سيمتص دماءنا حتى آخر قطرة.
هتف به (باسل) في صرامة:
- رويدك يا رجل.. ربما ارتفع الجسر بسبب خلل فى أجهزة رفعه، عندما عبرنا فوقه.
قال (ميخا) فى صوت أقرب إلى البكاء:
- وأين هذه الأجهزة.. لست أرى شيئا، وسط هذا الظلام الدامس.
أخرج (ميشيل) مصباحه اليدوي، وأضاءه، وهو يقول:
- لن يستمر هذا الظلام إلى الأبد.
وعلى ضوء المصباح، بدا لهم المكان لأول مرة..
كانوا داخل ممر ضيق، يربط ما بين بوابة القلعة وساحتها، ولا يحوي سوى مشعل قديم، معلق على الجدار، انتزعه (باسل) وهو يسأل (ميشيل):
- ألديك قدَّاحة لإشعاله؟
أجابه (ميخا) بسرعة:
- لدى قدَّاحتي.
مضت دقيقة كاملة، قبل أن تشتعل النيران في قمة المشعل، وأضفى تراقص النيران رهبة أكثر على الممر، حاول (باسل) تبديدها، وهو يقول:

- ادخر طاقة مصباحك الآن يا (ميشيل)، ودعنا نبحث عن مخرج آخر، من هذا المكان.
قال (ميخا):
- لا يوجد أي مخرج آخر.. هذه القلعة محاطة بذلك الخندق العميق الذي رأيتماه، والوسيلة الوحيدة لدخولها والخروج منها، هى ذلك الجسر.
تطلع إليه (باسل) لحظة في صمت، ثم قال:
- يمكننا أن ندفع الجسر، و...
قاطعه (ميخا) بسرعة:
- مستحيل! إن وزنه يربو على الطن، ولا يمكن تحريكه إلا بجهاز خاص.
هتف (ميشيل) فى عصبية:
- فيم انتظارنا إذن؟! فلنبحث عن ذلك الجهاز السخيف.
تحرك الثلاثة إلى ساحة القلعة، وراحت نيران المشعل تصنع ظلالاً مخيفة، تنعكس على الجدران، وأشار (ميخا) إلى مبنى نصف متهدّم، وهو يقول:
- أعتقد أننا سنجد جهاز التحكم في الجسر هنا.
تطلع (باسل) إلى المبنى، وقال:
- كلا.. لا أعتقد هذا.. إنه أبعد مما ينبغي، بالنسبة لآلة بدائية، ترفع وتخفض الجسر.. الأرجح أن يكون ذلك الجهاز هناك، في هذا البرج.
اضطرب (ميخا) على نحو ملحوظ، عندما أشار (باسل) إلى البرج الوحيد، الذي لم ينهر بعد، من أبراج القلعة، فسأله (ميشيل) فى صراحة:
- ماذا أصابك هذه المرة؟
أجابه (ميخا) فى توتر:

- لن أذهب إلى هذا البرج بالذات، ولو دفعتما لي أموال الدنيا كلها.
التفت إليه (باسل) في اهتمام، في حين سأله (ميشيل):
- ولماذا هذا البرج بالذات؟
أشار (ميخا) إلى البرج، وهو يقول:
- إنه يقيم هناك.
صاح به (ميشيل) بصبر نافد:
- من تعنى أيها المأفون؟
أجابه (ميخا) في حدة:
- صاحب القلعة.. الكونت.. الكونت (دراكيولا).
استدار (ميشيل) و (باسل) في آن واحد، يتطلعان إلى ذلك البرج، الذي يرتفع في أقصى يمين السور الأمامي للقلعة والذي بدا بالفعل أكثر قوة ومتانة، وكأنما أعيد تجديده منذ زمن قريب، وقال (باسل):
- إنه مجرد لغو.. وحتى لو كان الأمر كما تقول، فما يزال هذا البرج هو المكان الأمثل، لوجود جهاز التحكم في الجسر، وأنت نفسك قلت: إن الأمل الوحيد فى خروجنا من هنا، هو خفض الجسر.
تمتم (ميخا):
- هذا صحيح.. ولكن..
قاطعه (ميشيل) في حزم:
- لن نناقش هذه السخافات.. سنتجه مباشرة إلى هذا البرج.
تردد (ميخا) لحظة، ثم هز كتفيه، قائلاً:
- فليكن.. لقد حذرتكما.
قالها وتبعهما إلى درجات السلم الضخم، التي تقود إلى قمة أسوار القلعة، حيث مدخل البرج..

كانت الأسوار ترتفع لعشرة أمتار، حيث يمتد إفريز عريض، يبدأ عنده مدخل البرج، ولم يكد الثلاثة يبلغون الإفريز، حتى أطلق (ميشيل) زفرة قوية، وهتف في حنق وتوتر:
- لماذا كانوا يصنعون درجات السلم بهذه الضخامة؟ من كان يصعد إلى قمة الأسوار؟ العمالقة؟!
اجابه (ميخا)، وهو يلوّح بسبابته أمام وجهه:
-الكونت (دراكيولا) لا يحتاج إلى درجات السلم.
قال (باسل) ضاحكا:
-لماذا؟ هل يطير؟
هتف (ميخا) بسرعة:
- بالطبع.. ألم تقرأ شيئا عن هذا؟ الكونت (دراكيولا) هو مصاص الدماء الوحيد، الذي يمكنه أن يتحول إلى خفاش أو ذئب.
قال (ميشيل)، فى لهجة امتزجت سخريتها بغضبها:
- وماذا عن الباقين؟ هل يتحولون إلى ضفادع وثعابين وعقارب؟!
صاح (ميخا):
- لماذا تسخر من مثل هذه الأمور يا سيد (ميشيل)؟
أجابه (ميشيل) في حدة:
- لأنها لا تستحق أكثر من السخرية، وال...
بتر عبارته بغتة، وارتجف جسده في شدّة، واتسعت عيناه هلع واضح، وهو يحدق في نقطة ما، في الجانب المقابل من الاسوار، فالتفت (باسل) إلى حيث (ينظر) وهو يهتف في قلق:
- ما الذي أفزعك إلى هذا الحد:
شحب وجه (ميشيل)، وارتجفت سبابته، وهو يشير إلى حيث ينظر، قائلا:

- هناك.. لقد رأيت ال.. ال.. ال..
كان منفعلاً، حتى إنه عجز عن إتمام عبارته، فربت (باسل) على كتفه مهدئا، وهو يقول في صوت خافت:
- اهدأ يا رجل.. اهدأ يا صديقي.. ما الذي رأيته بالضبط؟ حدّق (ميشيل) في تلك النقطة، على الجانب المقابل من الأسوار، قبل أن يقول في اضطراب عظيم:
- كان يقف هناك.. هو نفسه.. بشحمه ولحمه، ووجهه المخيف البارد.
سأله (باسل) في دهشة شديدة:
- من تقصد؟
هتف (ميخا):
- ومن سواه؟ ألم تفهم بعد يا سيّد (باسل)؟ إنه يقصده هو.. يقصد الكونت (دراكيولا).
قال (ميشيل) في توتر شديد:
- نعم. الكونت (دراكيولا).. كان يقف هناك، ونظر إلى لحظة، ثم اختفى داخل ذلك الباب المفتوح.
عاد (باسل) يلقى نظرة على المكان نفسه، ثم قال في قلق:
- ربّما هو ظل، أو..
لم يحاول إتمام عبارته، إذ بدا له أنها لن تفيد كثيرا، في التخفيف من توتر (ميشيل)، أو إقناعه بأنه لم ير ما يعتقد أنه قد رآه. لذا فقد أدار دفة الحديث بعيدا، وهو يقول:
- فليكن.. سنتظاهر بأنك لم تري شيئا، ونركز جهودنا على دخول هذا البرج.
قالها ودفع باب البرج بكل قوته..
ولكن الباب لم يستجب..

وقال (ميخا) في توتر:

- إنه مغلق من الداخل بالتأكيد.. لن يتركه الكونت مفتوحا.

حاول (باسل) دفع الباب عدة مرات، ولكنه كان مغلقا من الداخل بالفعل، فتمتم (ميشيل) في خفوت:

- لن يمكننا دخوله.

ولكن (باسل) مال من جانب السور، وقال:
- ربما توجد وسيلة، فهناك نافذة للبرج، إلى جوار السور، ويمكنني الوصول إليها، وفتح الباب من الداخل.
تطلع إليه (ميشيل) و(ميخا) في صمت، دون أن يحاولا الاعتراض، فوثب يقف على قمة السور، ثم مال في رشاقة، وتعلق بحافة النافذة، وهو يقول:
- أرأيتما.. إنها ليست بالمهمة الصعبة، أو..
بتر عبارته بغتة، وهو يحدق في نقطتين لامعين حمراوين أمامه..
ثم انطلق ذلك الخفاش فجأة عبر النافذة، وارتطم بوجهه، و.
وأفلتت يد (باسل)، وهوى..
هوى من أعلى أسوار القلعة..

☆ ☆ ☆

٣- الـدم..

لم يكن هناك حائل واحد، بين (باسل)، والسقوط من فوق أسوار القلعة..

ولكن يد (ميشيل) امتدت فجأة، لتقبض على معصم (باسل)، قبل أن يهوى جسده إلى أعماق الخندق، المحيط بالأسوار، وارتفع صوت (ميشيل) يصرخ فى انفعال:

- تماسك يا (باسل).. تشبّث بيدي جيدا.

ولم يكن (باسل) بحاجة فعليا إلى القول، فلم يكد يشعر بأصابع (ميشيل) حول معصمه، حتى دفع قدميه إلى الأمام، وألصقهما بجدار القلعة، ليخفف من سرعة سقوطه، ثم رفع يده الأخرى ليمسك بحافة السور، فتراجع (ميشيل) بسرعة، وهو يجذبه إلى أعلى.

ولم يستغرق الأمر أكثر من ثوان معدودة، وجد (باسل) نفسه بعدها فوق ذلك الإفريز العريض، المحيط بأسوار القلعة من الداخل، وسمع

(ميشيل) يلهث، قائلاً:

- لست أصدق أننى فعلت هذا.. لقد رأيت ذلك الخفاش يندفع عبر النافذة، ورأيتك تسقط، ثم وجدت نفسي أقفز بكل قوتي، وأمسك معصمك.. صدقني يا (باسل).. لست أدرى كيف فعلتها.

ربّت (باسل) على كتفه، وهو يلهث بدوره، قائلاً:

- إنها مشيئة الله (عز وجل) يا رجل.. لم تحن لحظة مصرعي بعد.

اندفع (ميخا) في هذه اللحظة، يسأله:

- ولكن ماذا حدث هناك؟ أهو الخفاش الذي أفزعك فحسب؟
تطلع (باسل) إليه لحظة في صمت، قبل أن يجيب:
- بل رأيت شيئا أدهشني.
سأله (ميشيل) بسرعة:
- شيء مثل ماذا؟
أجابه وهو يلوّح بكفه:
- شيء أشبه بزوج من الأعين البشرية، تضئ بلون أحمر وسط الظلام.
تراجع (ميخا) في حركة حادة، وحدّق في باب البرج، هاتفا:
- إنه هو. إنه يدافع عن برجه..
قال له (ميشيل) في صرامة:
- كف عن سخافاتك هذه يا (ميخا).
صاح (ميخا):

- سخافاتي؟! لقد رآه السيّد (باسل) بنفسه.. ألم تريا كيف تحول إلى خفاش أمام أعيننا، وطار في وجه السيّد (باسل)؟!
ابتسم (باسل)، وهو يقول:
- إنني لم أقل شيئا كهذا يا رجل.. لقد رأيت شيئا يشبه الأعين البشرية، ثم طار خفّاش في وجهي، وهذا لا يعنى كل ذلك.. إنه مجرد خفّاش، أفزعه تواجدي المباغت، والخفافيش - كما تعلم - تتخذ من تلك الأطلال القديمة مستقراً فى المعتاد.
ثم نهض يعتلي السور مرة أخرى، مستطردا:
- وسأثبت لك أننى لا أوافقك على رأيك.
وثب فجأة، ليتعلق بحاجز النافذة، ثم دفع جسده عبرها، فهتف (ميخا):
- سيقتنصه مصاص الدماء.. سينتزع كل قطرة دم في جسده.

لوح (ميشيل) بيده في وجهه، هاتفا:
- اصمت يا رجل.
لم يكد يتم عبارته، حتى فتح (باسل) الباب من الداخل، وهو يقول:
- أرأيتما؟ لم يكن ذلك بالأمر العسير.
بدا (ميخا) شديد التوتر، وهو يحمل المشعل. في حين أسرع (ميشيل) يعير الباب، وهو يسال (باسل):
- هل وجدته مغلقا من الداخل؟
أجابه (باسل):
- نعم.. كان ذلك.
هتف (ميخا):
- إذن فهو في الداخل.
ضحك (باسل) وهو يقول:
- عجبا! ألم تقل منذ قليل: إنه غادر البرج في هيئة خفاش؟
ولكن (ميشيل) لم يشارك (باسل) سخريته هذه المرة، وإنما عقد حاجبيه، وهو يقول فى جدية، لا تخلو من التوتر:
- الأمر لا يحتمل السخرية يا (باسل)، فكون الباب مغلقا من الداخل، يعنى أنه هناك شخص ما، أو شي ء ما هنا.
وافق (باسل) بإيماءة من رأسه، وقال:
- بالتأكيد.. وهناك أيضا ما هو أخطر.
سأله (ميخا) في قلق واضح:
- مثل ماذا؟
أشار (باسل) إلى رتاج الباب، وهو يقول:
- مثل هذا. إنه رتاج حديث، من ماركة يل العالمية، ولا أعتقد أن صديقنا الكونت (دراكيولا) كان يمتلك مثله فى عصره.
حدق (ميشيل) في الرتاج بدهشة، وغمغم:

- هذا صحيح.
أما (ميخا)، فلوّح بكفه، وقال:
- وماذا في هذا؟ هل تظن أن الكونت (دراكيولا) سيظل حتى أبد الدهر، دون أن يجدّد قلعته.
قال (باسل) بسرعة:
- وكيف سيفعل يا رجل؟ هل يستعين بعمال من مصاصي الدماء القدامى؟!
عقد (ميخا) حاجبيه في غضب، في حين قال (ميشيل):
- إنها نقطة تستحق التوقف والتفكير بالفعل يا (باسل).
أشار(باسل) إلى أعلى، وقال:
- وربما وجدنا الجواب هناك.. فى حجرة البرج.
تطلّع (ميخا) و(ميشيل) إلى حيث يشير، ثم غمغم الأخير:
- نعم.. ربّما.
التقط (باسل) المشعل من (ميخا)، وراح الثلاثة يصعدون كل تلك الدرجات، حتى حجرة البرج، القائمة بالقرب من قمته، وعندما اقتربوا منها، همس (ميشيل) في توتر:
- هناك ضوء ينبعث فى الحجرة.
غمغم (باسل):
- إنها نيران على الأرجح.
تحركوا بسرعة أكبر، حتى بلغوا الحجرة..
وهنا اتسعت عينا (باسل) فى دهشة بالغة..
إنها لم تكن حجرة عادية، بأي مقياس كان، بل كانت - على الرغم من صغر حجمها نسبيًا - أشبه بالقصر، لفخامة أثاثها، وأناقة ترتيبها..
كان هناك فراش صغير، وثلاثة مقاعد، ولوحات فنية أصلية على الجدران، ومدفأة تشتعل داخلها النيران، وتحف ثمينة..

وكان هناك شعار ضخم، يحتل معظم الجدار المقابل..
شعار الكونت (دراكيولا).
وفى انبهار كامل، هتف (ميشيل):
- ما كل هذا؟ وكأن أميراً يقيم هنا.
تمتم (ميخا) في خفوت:
- (دراكيولا) هو أمير الظلام.
قال (باسل):
- حقّا؟!
كان صوته يحمل قدرا ضخما من السخرية، جعل (ميخا) يلتفت إليه فى حدة، ويقول بصوت غاضب:
- أما زلت تسخر مما تراه يا سيد (باسل)؟ أي دليل تريد أكثر من هذا، على وجود الكونت (دراكيولا)؟
أشار (باسل) بذراعيه لما حوله، وهو يقول:
- وهل يوجد هنا دليل ولحد على وجوده؟!
هتف (ميخا):
- وماذا عن هذا الشعار؟ أليس شعاره المعروف؟
مال (باسل) نحوه، وهو يقول:
- اسمع يا هذا.. أنا لا، ولن أومن بوجود ما تطلقون عليه اسم مصاص الدماء، فالله (سبحانه وتعالى) وحده يحيى ويميت.. هكذا تقول شريعتي، وهكذا أُومن، فلا تحاول إقناعي بالعكس، مهما تصوّرت قوة حجتك، ومهما..
قاطعه فجأة صوت واضح، يأتي من أسفل، فهتف (ميشيل) في ذعر:
- ما هذا بالضبط؟
أجابه (باسل) في حزم:
- سنرى ما هذا بالضبط.. ناولني مصباحك اليدوي.

قالها وعاد يهبط في درجات سلم البرج في حذر، وهو يحمل المصباح اليدوي الصغير، بعد أن ترك المشعل في يد (ميخا)، وسمع خطوات تصعد في وضوح، فانعقد حاجباه، وتمتم في صوت شديد الخفوت:

- تُرى هل قرر الكونت (دراكيولا) مواجهتنا.

كان وقع الخطوات يقترب منه صعودا، فالتصق بالجدار، وأطفأ المصباح، وأرهف سمعه، حتى أصبحت الخطوات على قيد متر واحد منه..

ثم أشعل المصباح في وجه القادم..

وكانت مفاجأة.

مفاجأة حقيقية.

☆ ☆ ☆

حدق (باسل) في وجه الرجل الواقف أمامه لحظة، قبل أن يهتف في دهشة كبيرة:
- الضابط (لوركا)! كيف وصلت إلى هنا؟
أجابه (لوركا):
- يا إلهي! لقد أفزعتني حقًّا يا (باسل).. ماذا تفعل داخل البرج؟ لقد ظننتك أحد مهربي المخدرات.
قال (باسل):
- لقد أخبرناك أننا في طريقنا إلى هنا، ولكن كيف نجحت في دخول القلعة؟ لقد ارتفع الجسر، وعزلها عن المكان.
أجابه (لوركا) في اقتضاب:
- هناك ممر سري أعرفه.
ثم أشار إلى أعلى، مستطرداً:
- قل لي: هل رفيقاك بأعلى؟
أومأ (باسل) برأسه إيجابا، وقال:
- نعم.. إنهما هناك.
صعد (لوركا) معه إلى تلك الحجرة، وهتف (ميشيل) عندما رآه:
- الضابط (لوركا)؟! يا لها من مفاجأة.
أدار (لوركا) عينيه في المكان، وقال:
- يا لها من حجرة فاخرة.. أي سلطان يقيم هنا؟
أجاب (باسل) مبتسما:
- المفترض أنه الكونت (دراكيولا).
أطلق (لوركا) صفيرا طويلاً، قبل أن يهتف:
- حقا؟! في هذه الحالة ينبغي أن تسرعوا بمغادرة المكان.
سأله (باسل) في اهتمام:
- هل تصدق مثل هذه الخرافة؟
أجاب (لوركا):

- بالتأكيد.. أنا أعلم أن الكونت (دراكيولا) حي.
هتف (باسل) في حدة:
- ماذا أصابكم جميعا؟ كيف تصدقون أمرا سخيفا كهذا؟! كيف يؤمن أحدكم بأن شخصا ما، مهما بلغت قوته، يمكنه أن يحيا وقتما يشاء ولأية فترة يرغب؟!
أجابه (لوركا) فى توتر:
- اسمع أيها العربي.. هذه أساطيرنا، التي نصدقها، و...
بتر عبارته بغتة، مع جلبة مباغتة، ارتفعت من أسفل البرج، فاعتدل الجميع دفعة واحدة، وهتف (ميشيل):
- ما هذا؟
انتزع (لوركا) مسدسه، وقال في صرامة:
- ابقوا في أماكنكم.. سأتفقد المكان، وأعود على الفور.
قال (باسل) في حماس:
- سأصحبك إلى أسفل.
التفت إليه (لوركا) في عنف، وقال:
- كلا.. سأذهب وحدي.. هذا أمر.
لم يكن من حقه فعلا إصدار الأوامر ل (باسل)، إلا أن هذا الأخير لم يشأ إضافة مزيد من التوتر للموقف، فلاذ بالصمت، ووقف إلى جوار (ميشيل) و (ميخا)، في حين هبط (لوركا) إلى أسفل، وغاب وسط الظلام، فتمتم (ميشيل):
- شجاع هذا الضابط.

وقال (ميخا):

- لم أكن لأهبط وحدي، مهما كانت الأسباب.

تطلع إليهما (باسل) فى صمت، ثم عاد ينظر إلى الفتحة، التي هبط منها (لوركا) وعشرات الأسئلة والأفكار تدور فى عقله..

وفجأة، انطلقت صرخة، رهيبة من أسفل..

صرخة تحمل صوت (لوركا) وأعقبها دوى ثلاث رصاصات متتالية، فصرخ (ميخا) في رعب:
- لقد رآه.
لم يكد يتم عبارته، حتى سمع ثلاثتهم خفقات أجنحة قوية، ثم اندفع خفاش كبير في الفتحة التي تقود إلى أسفل، وانطلق يعبر النافذة بسرعة، فهتف (ميشيل):
-إنه هو.
صاح به (باسل):
- هل ستصدق أنت أيضا هذا الهراء؟
خفض (ميشيل) عينيه خجلاً وتوترا، في حين اندفع (باسل) نحو الفتحة، وهم بالهبوط إلى أسفل، لولا أن ظهر (لوركا) فجأة، وهو يحمل مسدسه، الذي تنبعث الأدخنة في فوهته، وهتف:
- إنه هو.. لقد رأيته بنفسي.. لم أكن لأصدق هذا، لولا أن رأيته بعيني.
صاح به (ميشيل):
- ماذا رأيت بالضبط؟
ازدرد (لوركا) لعابه، ولوح بمسدسه، وهو يقول:
- لقد هبطت لأستطلع أمر تلك الجلبة، ولكن المكان كان خاليا، وفجأة دخل خفاش من النافذة، وهبط على الأرض، ثم فوجئت به ينمو بغتة، ويتحول إلى.. إلى..
هتف (ميخا):
- إلى الكونت (دراكيولا).
أشار إليه (لوركا) بأصابع مرتجفة، قائلا:
- بالضبط.. لقد وجدته أمامي، فلم أتمالك نفسي، وأطلقت صرخة رعب، ثم رحت أطلق عليه رصاصات مسدسي، ولكن

الرصاصات اخترقته، وارتطمت بالحائط، دون أن يهتز له رمش، وبعدها تحول مرة ثانية إلى خفاش، وصعد إلى هنا
ثم أخفى وجهه بكفيه، هاتفا:
- كان أمرا بشعا.. بشعاً للغاية.
توتّر (ميشيل) بشدة، وهو يتراجع مغمغما:
- إذن فالأمر صحيح الكونت (دراكيولا) موجود.
وهتف (ميخا):
- لم أشك في هذا لحظة واحدة.
أما (باسل) فقد ظل صامتا، معقود الحاجبين، وترك (لوركا) يقول في عصبية شديدة:
- لا بد أن نغادر هذه القلعة، بأسرع ما يمكننا.
قال (ميشيل):
- كيف؟! إننا أسرى هنا.
أجابه (لوركا):
- اطمئن.. أعرف طريقاً سريّا للخارج.
هتف (ميخا) في لهفة مبالغة:
- حقا؟! قدنا إليه بالله عليك.. أريد أن أغادر هذا المكان فورا.
أشار (لوركا) بيده، وهو يقول:
- إنه هناك.. في الجدار الخلفي.. سنهبط من هنا، ونعبر الساحة، ونتجه إلى أطلال البرج الأيسر..، و..
قاطعه (باسل) فجأة:
- أظننى أفضل البقاء هنا.
التفت إليه الجميع في دهشة، وهتف (ميخا):
- هل جننت؟ أتبقى وحدك مع مصاص الدماء؟
أدهشتهم ابتسامته أكثر، وهو يقول في بساطة:
- ولِمَ لا؟ أعتقد أنه طريف للغاية.

قال (ميشيل) في دهشة:
- (باسل)؟! ماذا أصابك يا صديقي؟
التفت إليه (باسل)، وقال:
- لا شيء يا (ميشيل).. فلتقل إنني أحب الخطر، وأميل إلى قضاء سهراتي مع مصاص الدماء.
صاح(لوركا) في حدة:
- هل تسخر من مصاص الدماء؟
قال (باسل):
- إنني أسيطر على مشاعري، حتى لا أنفجر ضاحكا يا رجل.
ردد (ميخا):
- تنفجر ضاحكا؟!
كان صوته يحمل من القلق أكثر مما يحمله من الدهشة، حتى إن
(ميشيل) التفت إليه في حدة، وقال:
- ما الذي يحدث هنا؟ هناك أمر لا أفهمه.
قال(باسل)في هدوء:
- دعني أشرح لك إذن يا صديقي.. لقد شاهدنا الليلة مسرحية هزلية سخيفة، تعرف باسم (ملهاة مصاص الدماء)، وحان وقت إسدال الستار عليها، ومواجهة مخرجها المحتال.
والتفت إلى أحد الرجلين، مضيفاً في حزم:
- أنت.
وكانت مفاجأة جديدة..
وعنيفة..

☆ ☆ ☆

٤ - الأسطورة..

انعقد حاجبا الضابط (لوركا) في غضب، عندما أشارت إليه سبابة (باسل)، وهتف في حدة ساخطة:
- هل جننت أيها العربي؟! كيف تجرؤ على توجيه أتهام كهذا إلى ضابط في فرقة مكافحة المخدرات؟
قال (ميشيل) في توتر:
- (باسل) يا صديقي.. يبدو أن أعصابك المتوترة قد..
قاطعه (باسل) في هدوء:
- اطمئن يا (ميشيل).. ليس لأعصابي أي شأن بهذا.. إنها عملية منطقية عقلانية استنتاجية بحتة.. وأنا في الواقع أشك فى كون (لوركا) ضابطا فى فرقة لمكافحة المخدرات، بل أعتقد - وهذا هو الأرجح - أنه أحد كبار مهربي المخدرات في المنطقة.
اتسعت عينا (ميخا)في هلع، في حين قال (لوركا) في حدة:
- يبدو أن الخوف قد أفقدك صوابك.
أطلق (باسل) ضحكة عالية، قبل أن يقول:
- الخوف؟! من ماذا يا رجل؟ إنكم حتى لم تتقنوا اللعبة.
ثم التفت إلى (ميشيل)، الذي علت الدهشة وجهه، وقال متجاهلا الآخرين تماما:
- صدقني يا (ميشيل).. كل ما رأيناه ومررنا به اليوم، ليس سوى مسرحية هزلية سخيفة، حاولوا إقناعنا بها، حتى نبتعد عن تلك القلعة، التي يتخذونها وكرا، لتخطيط وتدبير، وربما لعقد صفقات المخدرات.
قال (ميخا) في عصبية:
- أي قول أحمق هذا؟

التفت إليه (باسل)، وقال:
- من الطبيعي أن تقول هذا يا عزيزي (ميخا)، ما دمت متورطا في الأمر.
شحب وجه (ميخا) وتراجع في حركة حادة كالمصعوق، في حين هتف (ميشيل) في ذهول:
- (ميخا)؟! مستحيل!
ربت (باسل) على كتفه مهدئا، وهو يقول:
- اهدأ يا صديقي، وسأشرح لك الأمر كله.. هل تذكر البداية هذا الصباح، عندما أخبرتني بأمر تلك القلعة السرية؟ إننا لم نكد نأتي على ذكرها، حتى أصيب (ميخا) بتوتر شديد، وراح يثير رعبنا وخوفنا، فى محاولة لمنعنا من زيارتها، وعندما فشلت محاولته هذه، وافق على مرافقتنا إليها، وهو الذي كان يرتجف خوفا لمجرد ذكر اسمها.. لقد أثار هذا شكوكي في البداية، ولكنني لم أنتبه حينذاك إلى أن المحادثة الهاتفية، التي ادعى أنها لزوجته، كانت في الواقع لهذا الرجل (لوركا)، أو لأحد أعوانه، حتى يستعد لاستقبالنا، وإثارة رعبنا.
قال (ميشيل) ذاهلاً:
- ولكن الجميع في البلدة يقولون..
قاطعه (باسل)..
الجميع في البلدة يرددون ما نجح هؤلاء المهربون في غرسه في عقولهم، خاصة وهم ينشرون شائعات مخيفة، وينطلقون بتلك العربة المصبوغة بالسواد، في الليالي المقمرة، لإثارة الرهبة والخوف، اللذين يساعدان على ابتعاد الناس، وعزوفهم عن الاقتراب من القلعة، وبهذا يخلو الجو تماما لمهربي المخدرات.
ازداد (ميخا) شحوباً وانكماشاً، في حين قال (لوركا) في حدة:
- وماذا عن الشبح، الذي رآه (ميشيل)؟

تألقت عينا (باسل)، وهو يقول:
- هذا الشبح هو دليل جديد لإدانتك يا (لوركا).. فلم يشر أحدنا إلى هذا الأمر، منذ وصولك، فكيف إذن أمكنك معرفته، لو لم تكن أحد المشاركين في صنعه؟
التقى حاجبا (لوركا) في شدة، في حين تابع (باسل) في ثقة:
- وصولك بالذات هو الذي فجر كل الشكوك في أعماقي يا (لوركا)، فعلى الرغم من محاولتك إخافتنا في الدغل، تفجّرت فيك شجاعة مباغتة، جعلتك تأتى إلى القلعة، التي حذرتنا من الاقتراب منها، بل وتعبر ممرا سريا إليها، وبعدها تفتعل تلك المشاجرة الوهمية مع مصاص دماء مزعوم، يتحول إلى خفاش.. والواقع أنكم تجيدون العبث بتلك الخفافيش. وبخاصة ذلك الذي أطلقه أحدكم في وجهي، عندما كنت أهم بالدخول عبر النافذة.
فال (ميشيل) مبهوراً:
- وماذا عن الأعين شبه البشرية الحمراء؟
أجابه (باسل) في بساطة:
- مجرد مصباح صغير يا صديقي، ألصقت فوقه تلك الأعين الحمراء، فبدا في الظلمة كزوج من الأعين المخيفة.
قال (لوركا) فجأة بحدة:
- على الرغم من أناقة استنتاجك هذا، إلا أنه يفتقد الدقة، فما تزال هناك نقطة تعجز عن تفسيرها.
سأله (باسل) في هدوء:
- وما هي؟
أجابه في شيء من الشجاعة:
- لو أننا مهربو مخدرات كما تدعى، فلماذا نحاول إخافتكما، بدلا من أن نقتلكما وننهى الأمر؟

ابتسم (باسل) وهو يقول:
- سؤال طريف يا رجل، ولكن الجواب أكثر طرافة، فقتلنا لا يفيدكم كثيرا، كما يفيدكم إفزاعنا فحسب، فهذا الفزع سيصبح نقطة تقوية، بالنسبة للخرافة التي تنشرونها..
وعودتنا بوجوه شاحبة تخدم أغراضكم، بأكثر مما تفعل جثثنا.. ثم إن قتلنا قد يثير رجال الشرطة والأمن والصحافة، فتصبح هناك مشكلات عديدة، أنتم فى غنى عنها.
انتهى (باسل) من عبارته، فران على المكان صمت رهيب، قطعه (ميشيل)، وهو يهتف:
- إذن فالأمر كذلك.
بدا (ميخا) منهارا، وهو يقول:
- أستاذ (ميشيل).. أقسم لك إنني لم أكن أقصد أن..
صاح به (ميشيل) في غضب:
- اصمت أيها الخائن.. إنك لا تستحق حرفا واحدا، ألقيه على مسامعك.. إنك خائن جبان.. وسترى ما سأفعله، عندما أعود إلى الجريدة، وأفضح هذا كله.
ولكن (لوركا) استل مسدسه بغتة، وصوبه إلى (باسل) و (ميشيل)، قائلا في صرامة وعصبية:
- هذا لو عدت إليها.

تراجع (ميشيل) بحركة حادة، وهو يهتف:
- ماذا ستفعل يا رجل؟
هز (لوركا) كتفيه، وقال:
- لم يغد لدينا خيار آخر، فصديقك العربي هذا أذكى وأشجع مما توقعنا، واستنتاجه جاء دقيقا لدرجة مدهشة، ولم يعد بإمكاننا الإبقاء عليكما.
التقى حاجبا (ميشيل) في توتر بالغ، وهو يقول:
- هل.. هل ستقتلنا؟
هز (لوركا) كتفيه، وقال:
- ألديك حل آخر؟
التفت (ميشيل) إلى (ميخا)، وقال في عصبية:
- (ميخا).. هل ستتركه يفعل هذا؟
أشاح (ميخا) بوجهه، متمتما:

- معذرة يا سيد (ميشيل).. لا يمكنني مخالفة أوامر الزعيم.. ثم إنه على حق.. لا يوجد حل آخر.
اعتدل (باسل)، وهو يقول:
- من قال هذا؟ هناك حل آخر بالتأكيد.
سأله (لوركا) في سخرية:
- ما هو أيها الذكي؟
وهنا ألقى (باسل) المشعل بغتة في وجه (لوركا) الذي انحنى لتفاديه، ولكنه، وقبل أن يعتدل، فوجئ بقبضة (باسل) في فكه، فسقط مسدسه أرضاً، وارتطم رأسه بالجدار، فترنح في عنف، ودارت عيناه في محجريهما، وقبل أن يتمالك نفسه، هوى (باسل) على فكّه بلكمتين أخريين، أسقطه فاقد الوعي، فصاح (ميخا)، وهو يهاجم (باسل):
-لا..لا يمكنك أن تفعل هذا..
استقبله (باسل) بلكمة في أنفه، وهو يقول:
- من قال هذا؟
ثم أتبعها بثانية في فكه، مستطرداً:
- أنت أم الكونت (دراكيولا).
سقط (ميخا) أيضا فاقد الوعي، فأسرع (باسل) يلتقط مسدس (لوركا) في حين هتف (ميشيل) في انفعال:
- رائع.. رائع يا (باسل).. سنلقى القبض عليهما، ونرحل من هنا.
ولكن فجأة، ارتفع صوت يقول:
- ليس بعد أيها السيدان.
التفت الاثنان بسرعة إلى مصدر الصوت، عند الفتحة التي تقود إلى أسفل البرج، ورأيا أمامهما مدفعا آليا، مصوبا إلى رأسيهما مباشرة، وخلفه آخر شخص يتوقعان رؤيته!!
الكونت (دراكيولا).

شخصيا..

☆ ☆ ☆

مضت لحظات طويلة من الصمت، و (باسل) و(ميشيل) يحدقان في وجه الكونت (دراكيولا)، ببشرته المائلة إلى الزرقة، وعينيه الحمراوين، وأنيابه البارزة، وثيابه الحالكة السواد، ثم هتف (ميشيل):

- إنه هو.. هو نفسه الذي رأيته.

قال (باسل) وهو يخفض مسدسه:

- تنكر بارع، يمكن أن يخدع أي ساذج يصدق حكايات مصاص الدماء هذه.

ابتسم الرجل المتنكر فى هيئة الكونت (دراكيولا)، وهو يقول:

- إذن فأنت لا تصدق أننى مصاص دماء حقيقي.

هزّ (باسل) كتفيه، ومط شفتيه، قائلاً:

- لا يوجد شيء اسمه مصاص دماء يا رجل.. أنت تعلم هذا جيدا.. ثم ما حاجة مصاص دماء أسطوري لمدفع آلي.

أطلق الرجل ضحكة ساخرة، وقال:

- صدقت يا فتى.. المدفع الآلي مفيد لي وحدي، لأمنعكما من مغادرة القلعة.

قال(باسل) في برود:

- من يدري؟ ربما عجزت عن ذلك.

أطلق الرجل ضحكة أخرى، ثم أخرج جهازا صغيرا من جيبه، وهو يقول:

- أتقصد نجاحكما في الهروب من هنا؟! كم أتمنى لو أنكما فعلتما.. هل تعلم ما هذا الذي أمسكه بيدي؟ إنه جهاز تحكم عن بعد، (ريموت كنترول) .. أتدرى أي شيء أتحكم فيه بهذا الجهاز؟ إنه قنبلة صغيرة، وضعتها داخل سيارتكما، ولو نجحتما

في الفرار، وابتعدتما مائة متر كاملة، يكفي أن أضغط هذا الزر الصغير، فتنفجر السيارة هكذا.
قالها وضغط الزر، فدوى انفجار السيارة في الخارج، وبدا وهج النيران واضحا، وقال (ميشيل) في توتر:
- لقد فعلها.
قال الرجل ساخراً:
- الآن لم تعد أمامكما وسيلة واحدة للعودة إلى البلدة.
ثم أشار إلى (لوركا) و (ميخا) الفاقدي الوعي، مستطردا في صرامة:
- والآن هيا.. حاولا إنعاش هذين الزميلين.
تبادل (باسل)و(ميشيل) نظرة سريعة، ثم خفض هذا الأخير عينيه، وغمغم في مرارة وأسى:
- هيا يا (باسل).. ليس أمامنا سوى طاعته.
عقد (باسل) ساعديه أمام صدره، وهو يقول في حزم:
- لن أطيع مجرما كهذا.
بدا الغضب على وجه الرجل، وهو يصوب فوهة مدفعه إلى (باسل)، قائلا:
- بل ستطيع أوامري أيها العربي.. إنك لا تعلم ما يمكنني فعله.. إنني ألعب دور سائق سيارة الموت منذ خمسة أعوام، قتلت خلالها عشرة أشخاص، ولن يضيرني أن أضيف اثنين إلى قائمتي.
تجاهله (باسل) تماما، وهو يلتفت إلى (ميشيل)، قائلا:
- هل لاحظت هذا؟ يقول منذ خمس سنوات.. أي منذ تصور أهالي البلدة أن الكونت (دراكيولا) قد استيقظ.
صاح الرجل في ثورة:
- لا تتجاهلني أيها العربي.
استدار إليه (باسل) في برود وقال:

- ولكنى أهوى تجاهل أمثالك.
صرخ الرجل:
- فليكن أيها العربي.. أنت أردت هذا.
وضغط زناد مدفعه الآلي..
ولكنها كانت مباراة في سرعة الحركة وحسن التصرف..
لقد أدرك (باسل) أن الرجل سيضغط زناد مدفعه حتما، فانتظر حتى اللحظة الأخيرة، ثم دفع (ميشيل) جانبا، وهو يهتف:
- ابتعد يا صديقي.
وانحنى يختطف منضدة صغيرة، قذفها في وجه الرجل، في نفس اللحظة التي أطلق فيها رصاصات مدفعه، التي طاشت في الهواء، قبل أن ينقض عليه (باسل)، هاتفا:
- أخطأت يا رجل، عندما تركت لغضبك العنان.
وكال له لكمة كالقنبلة، مستطرداً:
- فالغضب هو العدو الأول للعقل.
وأتبعها بثانية كالصاعقة، مضيفا:
- ولحسن التصرف والإدراك.
كانت لكمتا (باسل) قويتين بالفعل، مما أفقد الرجل وعيه وتوازنه، فسقط منه مدفعه، وهوى جسده متدحرجا على درجات السلم، حتى سقط أسفل البرج..
وهتف (ميشيل)، وقد أصابه انبهار تام:
- (باسل).. أنت عظيم يا (باسل).. أنت أعظم عربي عرفته، في حياتي.
أجابه (باسل):
- العظمة لله (سبحانه وتعالى) وحده يا رجل.. هيا.. عاونني لنحكم وثاق هؤلاء الرجال.
تعاونا على إحكام وثاق الرجال الثلاثة، ثم قال (ميشيل) في قلق:

- ولكن كيف نغادر القلعة، ونعود إلى البلدة، بعد أنّ نسفوا سيارة الجريدة؟
قال(باسل):
- هناك وسيلة مضمونة، لو أمكننا العثور عليها.
سأله (ميشيل) في حيرة:
- ماهي بالضبط؟
ابتسم (باسل) ابتسامة غامضة، وهو يقول:
- انتظر حتى تراها بنفسك.
تبعه (ميشيل)، وهو يبحث عن تلك الوسيلة، فى المداخل المطلة على ساحة القلعة، حتى سمعه يهتف في ارتياح:
- ها هي ذي.
ارتفع حاجبا (ميشيل) في دهشة، عندما وقع بصره على ما يقصده
(باسل)..
كانت العربة السوداء، ذات الجياد الأربعة، تستقر داخل حظيرة خاصة، ولقد ربت (باسل) على عنق أحد الجياد، قائلاً:
- هل رأيت حكمة الله (سبحانه وتعالى) يا صديقي.. العربة التي أطلق عليها هؤلاء المجرمون اسم (عربة الموت)، ستكون هي بإذن الله وسيلتنا للنجاة.
ابتسم (ميشيل) في ارتياح، وهو يقول:
- أكاد أتخيل دهشة أهل البلدة، عندما يروننا أمامهم، مع تلك العربة السوداء، وبداخلها ذلك الذي ينتحل شخصية الكونت (دراكيولا)، موثوق اليدين والقدمين.. ستكون مفاجأة مدهشة لهم.
قالها وانطلق يضحك بملء فيه.. لقد انزاح عن كاهله حمل ثقيل.. بل عن كاهل بلدة بأكملها.

☆ ☆ ☆

أعلنت أجهزة مطار (بوخارست)، عن استعداد طائرة (مصر) للطيران للإقلاع. فابتسم (ميشيل)، وهو يصافح (باسل)، قائلا:

- لسنا ندرى كيف يمكننا أن نشكرك يا (باسل).. لقد كنت رائعا بحق.. هل تعلم أن (ميخا) و (لوركا) أدليا باعترافات تفصيلية رهيبة، أدت إلى إلقاء القبض على شبكة كاملة لتهريب المخدرات، كادت تفتك بشبابنا؟

أجابه (باسل) بابتسامة متواضعة:

- كم يسعدني أن أسهمت في هذا.

هتف (ميشيل):

- أسهمت؟! إنك صاحب النصر كله يا رجل.

هز (باسل) كتفيه، وقال:

- ربما، لقد سأعنى الله (سبحانه وتعالى) في هذا الأمر.

تطلع إليه (ميشيل) في إعجاب، وقال:

- أنت متواضع للغاية يا (باسل).

قال (باسل) في هدوء:

- بل هي حقيقة، يؤمن بها كل مؤمن يا رجل.

تصافحا فى حرارة، وقال (ميشيل) وهو يودعه:

- حاول أن تأتى لزيارتنا مرة أخرى يا (باسل)..

سيسعدني أن أستقبلك دائما هنا، ورئيس التحرير يتمنى لو أنك كتبت القصة كلها في مقال طويل، تنشره الصحيفة في صفحتها الأولى.

ابتسم (باسل)، وقال:

- بإذن الله يا صديقي.. بإذن الله.

وعندما أقلعت الطائرة، عائدة إلى المملكة، ظل (ميشيل) يلوح بيده طويلا، حتى أدركه التعب، وغابت الطائرة عن الأنظار، ثم

غمغم:
- إلى اللقاء يا صديقي العربي.. إلى اللقاء يا أشجع وأذكى من رأيت.
قالها وهو يقصد كل حرف فيها.. ويدرك أن هذا الشاب قد صنع ما عجز عنه أهل تلك البلدة في جبال (ترانسلفانيا)..
لقد حطم هذا العربي أسطورة عاشت طويلاً..
أسطورة القلعة..
قلعة الأسرار.

☆ ☆ ☆

(تمت بحمد الله)

☆ ☆ ☆

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- دعوة..
٢- الرعب..
٣- الـدم..
٤ - الأسطورة..

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

السيف

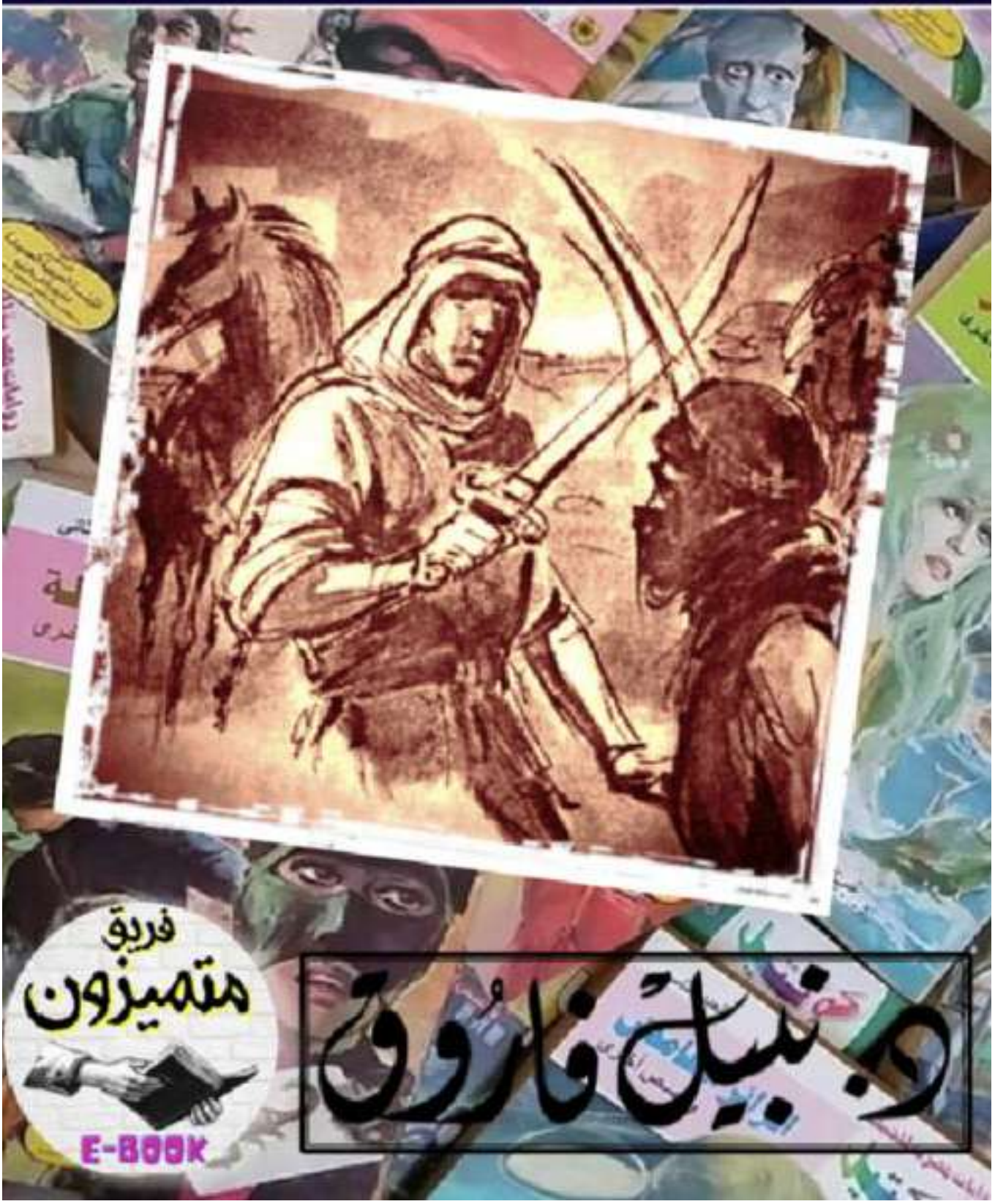

د. نبيل فاروق

فريق متميزون

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل٢٠٠٠)

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

السيف

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆☆☆

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب
السيف
المؤسسة العربية الحديثة

السيف..

انطلق صهيل جواد عربي أصيل، يركض فوق رمال الصحراء، وعلى متنه فارس شاب، تجاوز سنوات عمره العشرين بعام أو يزيد، وسيم المحيا، متين البنيان، يطارد غزالا شاردا، انطلق يعدو أمامه. محاولا الفرار، لولا أن التقط الفارس قوسه، ودس في وتره سهما طويلا، صوبه في ثبات إلى الغزال المنطلق، على الرغم من اهتزاز جواده، ثم أطلقه، ورمى به الغزال في مقتل، وهتف بجواده:

- رويدك.. لقد أصبنا الهدف.

توقف الجواد المدرب، إلى جوار الصيد تماما، فمال الفارس بجسده كله، في مرونة مدهشة والتقط الصيد، ثم حمله بساعد مفتول إلى صهوة الجواد، وربت عليه، قائلا:

- ها هو ذا غذاء اليوم يا صديقي.. أعنى غذاء البشر.

أطلق الجواد صهيلا خافتا، وكأنه يؤمن على حديث صاحبه.

الذي أمال عنانه، وقال في حسم:

- هيا بنا.. سنبدأ رحلة العودة.

انطلق الجواد مرة أخرى ينهب الأرض نهبا، عائدا إلى مخيمات القبيلة، بالقرب من تلك الواحة الوارفة، في قلب الصحراء، وقبل أن يبلغ منطقة النخيل، لاح من بعيد فارس آخر قادم من الواحة، على متن جواد أدهم، فقال الفارس الأول لجواده، وكأنه يتحدث إلى صديق عزيز:

- يبدو أنه هناك رسالة عاجلة يا صديقي.

بلغهما الفارس الآخر، وهتف:

- (حازم).. شيخ القبيلة يطلب رؤيتك على الفور.

سأله(حازم)، وهو يعدل صيده فوق جواده:

- أهناك أمر عاجل؟

أومأ الفارس الآخر برأسه إيجابا، وقال:

- بالتأكيد.. ولكن الشيخ لن يخبرنا كما تعلم.
ابتسم(حازم)، وقال:
- نعم.. أعلم يا صديقي.. أعلم.
ولكز بطن جواده بكعبه، مستطردا في حسم:
- استدر واتبعني إذن.. سنعود إلى الواحة معًا.
انطلقا متجاورين.. في طريق العودة إلى الواحة، وعقل(حازم) لا يحمل سوى فكرة واحدة، ملأت كيانه كله..
ما دام الشيخ يطلبه على هذا النحو، فهناك أمر عاجل حتما.. عاجل وخطير..
كان زعيم القبيلة الشيخ يجلس في وقار، داخل خيمته الخاصة، تحيط به بعض الطنافس المزركشة، عندما دلف(حازم) إلى خيمته، وانحنى نصف انحناءة، قائلاً في احترام بالغ:
- رهن إشارتك يا سيدي.
أشار إليه الشيخ، قائلا:
اجلس يا(حازم)، واقترب مني يا ولدى.
جلس(حازم) على قيد متر واحد منه، وداعب هو لحيته البيضاء في وقار، قبل أن يقول في رصانة:
- أنت تعرف أبناء عمومتنا بالتأكيد، في الواحة الخضراء.
أومأ(حازم) برأسه إيجابا، فأضاف الشيخ:
- منذ أسبوع واحد تم زفاف ابن عمنا (خالد)، وابنة أمير البلاد، وهذا أمر عظيم ورائع. ولقد بلغنا الخبر أمس فحسب، وكان من الضروري أن نرسل إلى (خالد)وقبيلته هدية مناسبة، إعلانا لفرحتنا واحترامنا، ولم نجد لدينا ما هو أفضل من هذا.
مد يده تحت وسادة قريبة، والتقط من أسفلها سيفا من الذهب الخالص، له مقبض مرصع بالياقوت والزمرد واللؤلؤ، فهتف(حازم):

- يا لروعته.
أجابه الشيخ:
- إنه سيف يخص أحد عظماء الروم، حصل عليه جدنا الأول، تقديرا لشجاعته وبسالته، أيام القتال الكبير، وتوارثته القبيلة، ضمن ما توارثته، حتى حانت هذه اللحظة.
قال(حازم) مبتسما:
- إنها هدية رائعة بالفعل يا سيدى.
ناوله الشيخ السيف الذهبي، قائلاً:
- خذ يا (حازم).. إنني أكلفك مهمة توصيل الهدية إلى صاحبها.. ستركب جوادك الآن، وتنطلق على الفور إلى الواحة الخضراء، لتسلم السيف إلى (خالد) مع تحياتي وتحيات قبيلتنا كلها.
حمل(حازم) السيف في اهتمام، وهو يقول في حسم:
- سأبذل قصارى جهدي، لأداء المهمة كما ينبغي يا سيدي.
قال الشيخ في صرامة:
- بل ستبذل حياتك نفسها، لو اقتضى الأمر يا (حازم).
نهض(حازم)، قائلاً:
- بالتأكيد يا سيدي.. سيصل السيف إلى (خالد) بإذن الله ((سبحانه وتعالى)، أو أهلك دون هذا.
ورفع قامته في اعتداد، وانطلق لأداء مهمته.

★★★

انطلق الجواد العربي ينهب الأرض نهبا براكبه.. حتى شارفت الشمس المغيب، دون أن يتوقف لحظة واحدة، وشعر(حازم) بالجهد الفائق، الذي بذله الجواد، فجذب عنانه في رفق، وهو يقول في لهجة حانية، لا تخلو من الحزم:
- كفاك يا صديقي.. لقد قطعنا شوطا طويلا اليوم.

خفف الجواد من سرعته، ونفخ الهواء بقوة من منخريه وأطلق صهيلاً خافتا، ثم توقف وهو يهز معرفته، وكأنّما ينفض عن نفسه التعب، فربت (حازم) على عنقه، وهبط عن صهوته، وانتزع قربة جلدية من سرجه، صب بعض الماء منها في كفه، وأدناه من شفتي الجواد، الذي ارتشفه في لهفة عن آخره، فكرر (حازم) العملية مرة ثانية، وثالثة، حتى اكتفى الجواد، فرفع هو فم القربة إلى شفتيه، وراح يروه عطشه، ثم أعادها إلى السرج، وقال للجواد:

- سنقضي الليلة هنا يا صديقي، ونواصل رحلتنا غدا.

أطلق الجواد صهيله الخافت مرة أخرى، وكأنما يعلن موافقته، فربت (حازم) على عنقه مرة أخرى، وبدأ ينتزع فرشا صوفيا من السرج، يحتفظ به معه، ليفترش بعضه ويتغطى بالبعض الآخر عندما ينام في العراء، وهم بوضعه على الرمال، عندما أطلق الجواد صهيلا عصبيا، وضرب الأرض بحوافره، فأثار زوبعة بالغة الصغر، جعلت (حازم) يرفع عينيه في سرعة إلى الأفق ويتطلع في اهتمام حذر إلى قافلة صغيرة من خمسة جياد، تقترب من موقعه في سرعة واعتدل(حازم)، وأمسكت قبضته مقبض سيفه في تحفز وعيناه لا تفارقان الخيول الخمسة وركابها، الذين اتضحت ملامحهم تدريجيًا، وهم يقتربون منه رويدا رويدا، حتى بدا من الواضح أنهم مجموعة من قطاع الطرق، لما يتميزون به من ملامح شرسة عنيفة، ووجوه حادة قاسية..

ولم يحرك (حازم) ساكنا، حتى بلغه الرعب، وإن ظلت يده ممسكة بمقبض السيف في قوة، وألقى عليه الرجال الخمسة نظرة استخفاف، قبل أن يقول أحدهم في خشونة:

- ماذا تفعل هنا يا فتى؟

أجابه(حازم) في قوة:
- ماذا تفعل أنت ورفاقك هنا.. إنها أرض آبائي وأجدادي.
تبادل الرجال نظرة ساخرة، ثم انفجر كبيرهم مقهقها وقال في شراسة:
- أرض من؟! يبدو أنك لا تدرك من نحن.
ومال على جواده آمرة غليظة:
- هيا.. أرنا ما لديك.
قال(حازم) في صرامة:
- حذار أن يمس أحدكم خيطا واحدا مما أحمله، وإلا مزقتكم إربا، وبات من العسير أن يميز فأر صغير بقاياكم، بعضها من البعض.
بدا الغضب في وجوههم، وهتف كبير لهم:
هكذا.
وفي حركة واحدة، استل الخمسة سيوفهم في وجه (حازم) الذي تراجع في سرعة، واستل سيفه بدوره، هاتفا:
- ويل لكم.
انقضوا عليه بسيوفهم وخيولهم، وهو واقف على قدميه، وأطلق جواده صهيل اعتراض واحتجاج، حينما تقارعت السيوف، وصلصات، وقاتل(حازم) كالأسد قاتل وراح سيفه يضرب السيوف الخمسة بكل قوة وبسالة وجسارة.. ولكن.. الكثرة تغلب - حتما - الشجاعة لقد أحاط به الرجال الخمسة، وانهالت سيوفهم عليه من كل جانب، حتى شعر بنصل سيف يضرب كتفه، وآخر يدمى جبهته، ثم أصابه رأس جواد في صدره، فألقاه أرضا، قبل أن يهاجمه جواد آخر، و...
وكانت الضربة عنيفة هذه المرة وأظلمت الدنيا وغاب(حازم) عن الوعي بسرعة وأطلق جواده صهيلا قويا، وراح يخفت في أذنه

تدريجيا..
ثم تلاشي كل شيء..
تلاشى تماما..

★★★

مع أول ضوء للشمس، نشطت كل الكائنات الحية في الصحراء، وخرجت بعضها من أوكارها، سعيا خلف رزقها وبحثا عن طعامها وفرائسها ومن بين هذه الكائنات كان ذلك العقرب الأسود الصغير الحجم، الشديد السمية والخطورة، الذي برز من بين الرمال وكأنما ينمو من العدم، ورفع ذيله الأسود السام في تحفز وهو يتجه نحو ذلك الجسد الراقد على رمال الصحراء دون حراك.

جسد(حازم)..

واقترب العقرب الأسود من ضحيته الساكنة وارتفع ذيله السام، ولكن الجواد العربي الأصيل أطلق صهيله القوى، وهوى بحافره على العقرب الأسود، فسحقه وسط الرمال، ثم ضربه بعيدا، وكأنما يؤمن لصاحبه المزيد من الحماية، وبعدها مال برأسه إلى عنق (حازم)، وراح ينفخ الهواء فيه من منخريه في رفق قلق للمرة المائة، منذ غياب شمس اليوم الماضي ثم أطلق صهيلا خافتا، ودفع رأس صاحبه برأسه عدة مرات حتى سعل (حازم)، وتمتم:

رويدك.. رويدك.

وبعدها مال برأسه إلى عنق (حازم) ، وراح ينفخ الهواء فيه من منخريه . .

استعاد وعيه في بطء، وشعر بآلام شديدة في كتفه ورأسه ولكنه نهض جالسا، ونفض الرمال عن وجهه وثيابه وتحسس جرح جبهته، والدماء الجافة عليه، قبل أن يتنهد مغمغما:

.عجبا.. لقد تركوني حيا.
كان هذا يدهشه في الواقع، فقطاع الطرق الوافدون على بلاده عبر الحدود، لا يتركون الأحياء خلفهم عادة، ولكن ربما تصوروا أنه قد لقى مصرعه، فاكتفوا بسلب ما لديه، ورحلوا..
استعاد عقله ووعيه وإدراكه بغتة، فهتف وهو يهب واقفا:
- رباه! لقد سلبوا السيف.
اندفع نحو سرج جواده، وبحث بسرعة عن السيف، الذي يحتفظ به داخل رقعة من الجلد، واحتقن وجهه غضبا وثورة عندما لم يعثر له على أثر، وهتف:
- لقد سرقوه!
امتلأت نفسه بمرارة لا حد لها جعلت الدماء تتصاعد إلى رأسه، والحزن يعتصر قلبه بقبضة فولاذية باردة، وهو يستطرد:
- لم نستطع الحفاظ عليه يا صديقى
جاوبه الجواد بصهيله الخافت، وكأنه يواسيه في مصابه ولكن(حازم) انتفض قائلا في صرامة:
- ولكن لا.. لقد أقسمنا أن نوصل السيف إلى الواحة الخضراء، أو نهلك دونه والتفت إلى الجواد، مستطردا:
- هل سمعت يا صديقي؟ أو نهلك دونه.
وعلى الرغم من آلامه ومرارته وجراحه وثب فوق صهوة الجواد بكل حزم، وعزم، وجذب عنانه، قائلا:
- ولمن نحنث بقسمنا قط.
كان واحدا من فرسان الصحراء.. الذين تعلموا منذ حداثتهم كيف يقرءون الآثار على الرمال، وكأنها كتاب مفتوح، لذا فقد راح يتبع آثار قطاع الطرق، في صبر وأناة، حتى بلغ تلك المنطقة الجبلية، على مشارف الصحراء، مع انتصاف النهار فتوقف وألقي نظرة طويلة على الجبل، قبل أن يغمغم:

- يبدّو أننا بلغنا وكر اللصوص يا صديقى.
هبط عن صهوة الجواد، وربت على عنقه، قائلاً:
- الزم الصمت يا صديقي.. وحذار أن ينتبه هؤلاء المجرمون إلى وجودنا، قبل أن نباغتهم ونستعيد سيفنا الذهبي.
خيل إليه، كما يحدث في معظم الأحيان أن جواده يفهم تماما، فقد هز رأسه في صمت دون أن يطلق صهيله المعتاد فابتسم(حازم)، واتجه إلى الجبل، وراح يتسلقه في سرعة ومهارة، حتى بلغ منطقة مرتفعة أمكنه منها أن يطل على مدخل مغارة كبيرة، يقف على بابها حارس ضخم الجثة، يؤكد وجوده أنه وكر قطاع الطرق، الذين يبحث عنهم ولم يكن (حازم) يملك سلاحا هذه المرة بعد أن استولى المجرمون على سيفه وخنجره، كما استولوا على السيف الذهبي، وعلى قوسه ونشابه أيضا.
ولكن هذه لم تكن أبدا مشكلة (حازم)..
لقد تحرك فوق الصخور بكل حذر.. دون أن يصدر عنه أدنى صوت، حتى انتقى منطقة مناسبة، وقال:
- ألا تضايقك الشمس يا رجل.
انتفض الحارس الضخم من المفاجأة، ورفع عينيه إلى حيث (حازم) في حركة حادة، وأسرعت يده إلى مقبض سيفه.. و..
وانقض(حازم)..
كان من الممكن أن ينقض على الرجل دون تنبه، وأن يستغل عامل المفاجأة، ولكن طبيعة الفروسية الكامنة في أعماقه أبت عليه أن يهاجم خصما في ظهره، حتى ولو كان هذا الخصم عملاقا مسلحا..
وكانت الانقضاضة ناجحة للغاية، فقد سقط الحارس الضخم، مع ثقل (حازم)، وتدحرج الاثنان فوق الصخور، والحارس ينتزع سيفه، قائلا في حدة:

- أية رياح خبيثة ألقت بك هنا؟

أمسك(حازم) معصم الحارس بيسراه، ليمنعه من استخدام السيف، وهوى على فكه بيمناه، قائلا:

- بل قل.. ما أسوأ حظك، الذي ألقاني في طريقك.

أصابت اللكمة فك الحارس كالقنبلة، فارتج لها مخه داخل جمجمته، وتراخت لها أصابعه، التي تمسك مقبض السيف، فلوى(حازم) معصمه في قوة، وهو يصيب فكه بلكمة أكثر عنفا، قائلا:

- ألا توافقني على هذا الرأي يا رجل؟

سقط السيف من يد الحارس، ولكنه استجمع قوته، ودفع(حازم) عن صدره، وهو يقول:

- لا.. لست أوافقك عليها يا صاح.

كان من الواضح أن الحارس قوى البنية بالفعل، فعلى الرغم من كل ما تلقاه من لكمات وضربات، هب واقفا على قدميه،

وانتزع خنجره من حزامه، مستطردا في وحشية:
- بل ربما كان هذا من سوء حظك أنت.
قالها وهوى بخنجره على قلب (حازم).. الذي تفادي الطعنة بحركة مرنة، ثم لكم الحارس في معدته، بكل ما يملك من قوة، وأزاح يده الممسكة بالخنجر بساعده، قبل أن يحطم أنفه بلكمة ثانية ساحقة وكانت هذه اللكمة هي فصل الختام، إذ تحطم لها أنف الحارس، وزاغت عيناه، ودارتا في محجريهما، قبل أن يهوى على وجهه فاقد الوعي وفي سرعة، التقط (حازم) الخنجر، ودسه في حزامه ثم سار إلى حيث سقط السيف، وحمله في قوة، وهو يقول:
- إنك لا تشبه سيفي البتار، ولكنك تؤدي الغرض.
اتجه إلى مدخل المغارة مرة أخرى، وعبره في حذر، وهو يمسك السيف في تحفز، وعبر ممرا صخريا طويلاً، حتى بلغ منطقة فسيحة.. يجلس داخلها أربعة رجال، وقد انهمكوا في إحصاء عدد من العملات الذهبية..
وبغته، قفز (حازم) وسطهم، هاتفا:
- هي غنيمة جديدة إذن!
انتفضوا في ذعر للمفاجأة، وقبل أن يتحرك أحدهم، كان(حازم) قد طعن أولهم بسيفه، ثم دار على عقبيه، وهوى بنصله على يد الثاني وهب الثالث والرابع للقتال، ولكن (حازم) أصاب الثالث قبل أن يلتقط سيفه، في حين شهر الرابع سيفه، هاتفا:
- إنها لحظاتك الأخيرة يا فتى.
التقى السيفان بصليل قوى، رددته جدران المغارة و(حازم) يقول:
- إنها لحظتكم أنتم لا أنا

لم يتقارع السيفان أكثر من لحظات معدودة، أدرك اللص بعدها أنه يبارز فارسا صنديدا، لا يشق له غبار، فهتف:
- النجدة.. النجدة يا رفاق.
ولكن أحدا لم يهب لمعاونته كانوا قد ذاقوا نصل سيف (حازم) بالفعل.. وعلموا أي فارس يقاتلون، وكانت إصاباتهم تغنيهم، فانكمشوا في أماكنهم واكتفوا بمراقبة القتال بأعين زائغة، حتى أدار (حازم) سيفه حول نصل سيف خصمه، وهو يقول:
- انتهت اللعبة يا رجل.
وبضربة تحمل من المهارة أكثر مما تحمل من القوة، أطاح بسيف خصمه، ثم رفع ذبابة سيفه إلى عنقه، وألصقه بالحائط، فصاح اللص مذعورا:
- لا.. الرحمة.. لا تقتلني.. أرجوك.
سأله(حازم) في صرامة:
- أين سيفي؟
لوح الرجل بيده في رعب، هاتفاً:
- سيفك هناك.. إلى جوار الحائط.
ألقي(حازم) نظرة سريعة إلى سيفه الخاص، الموضوع في غمده الجلدي المنقوش، مستندا إلى جدار المغارة، وقال:
- أين السيف الذهبي؟
قال الرجل في ارتياع:
- ليس هنا.. أقسم لك إنه ليس هنا.
جاء الجواب ليفجر مزيدا من الغضب في أعماق (حازم)، الذي دفع ذبابة سيفه أكثر، في عنق غريمه، حتى أدماه، فصرخ الرجل:
.أقسم لك إنني أقول الحق.
صاح به (حازم) في حدة:
- أين هو إذن.. أجب وإلا أجهزت عليكم جميعا.

شحب وجه الرجل، وارتعد زملاؤه الثلاثة المصابون.. فهتف أحدهم:
- سأخبرك.. سأخبرك بكل ما تريد
التفت إليه (حازم)، قائلا في صرامة:
- هيا.. أخبرني أين هو؟
ازدرد الرجل لعابه الجاف في صعوبة، وقال:
- لقد فكرنا - في البداية - في إذابته، كما نفعل بالمسروقات الأخرى، وبيعه إلى صائغ نعرفه.. في المدينة الكبيرة خلف حدودكم، ذات القباب الضخمة، ولكن الزعيم رأى أن هذا سينقص من قيمته كثيرا، فقرر أن يحمله بنفسه، مع الأربعة الباقين منا، إلى مدينة القباب، ليبيعه كما هو.. حتى يفيد بثمنه الضخم دفعة واحدةً.
بدا التوتر على وجه (حازم)
إذن فزعيم المجرمين قرر عبور الحدود، إلى مدينة القباب، لبيع السيف
ولكن لا..
لن يسمح له أبدا..
وفي صرامة، سأل الرجل:
- ومتي رحل الزعيم ورجاله؟
أجابه الرجل في استسلام مرير:
- في الفجر.. وسيبلغون مدينة القباب مع غروب الشمس.
التقى حاجبا (حازم) في شدة لم يعد لديه ما يكفي من الوقت لا بد له من أن ينطلق الآن وبأقصى سرعة ممكنة وأعاد(حازم) سيفه إلى غمده، وهو يقول في صرامة:
- كان يمكنني أن أقتلكم جميعا بلا رحمة، جزاء ما فعلتم بي، ولكن من حسن حظكم أنني لست قاتلا مثلكم..

ثم اتجه في اعتداد إلى مدخل المغارة، تاركا الرجال الأربعة خلفه، في انهيار شديد، غير مصدقين أنهم قد نجوا، أما هو فغادر المغارة في سرعة، وعاد إلى حيث ترك جواده، وربت على عنقه، وقال وهو يشير إلى جرابه الجلدي المنقوش:

- لقد استعدت سيفي يا صديقي، وبقي أن أستعيد السيف الذهبي

وثب على صهوة الجواد في رشاقة، وجذب عنانه، مستطردا:

- وهذا يحتاج من كلينا إلى جهد أكبر، و..

وفجأة، وقبل أن يتم عبارته، انقض عليه الحارس الضخم، من فوق صخرة قريبة، وأحاط وسطه بساعديه المفتولين، وهو يقول في غضب جنونى:

- لن تفلت بهذه البساطة.

سقط(حازم) من فوق جواده، وسقط فوقه الحارس الضخم، وشعر (حازم) بثقله، وهو يجثم على أنفاسه، ويكبل ساعديه، ورآه يعتدل ويلتقط حجرا ضخما، وهو يصرخ:

- إنك لن تغادر هذا المكان حيا.

وبكل ما يملك من قوة هوى بالحجر على رأس (حازم)..

وبلا رحمة..

★★★

تصور(حازم) في موقفه العصيب هذا، أن نهايته آتية لا ريب..

كان الحارس الضخم يجثم على صدره، ويقيد حركته وملامحه تبدو أشبه بملامح ذئب مفترس.. أضناء الجوع والعطش، قبل أن يجد في النهاية فريسة سهلة.. سيهلك جوعا، لو لم يمزقها بمخالبه إربا، ويلتهمها التهاما وكان الحجر الضخم يرتفع إلى أعلى، بين يدي الحارس، ويستعد ليهوى بكل ثقله على رأس (حازم) بلا رحمة أو هوادة.. و..

وفجأة انقلبت الأمور كلها رأسا على عقب..
انقلبت بصهيل قوى، رددت الجبال صداه، عندما اندفع الجواد لنصرة فارسه، ورفع قائميه الأماميين، ليهبط بحافريهما القويين على ظهر الحارس الضخم وجاءت الضربة عنيفة قوية، دفعت جسد الحارس إلى الأمام، وهو يمسك الحجر الضخم فوق رأسه، فاختل توازنه، وأفلتت أصابعه الحجر، فسقط..
سقط على رأس الحارس نفسه، وليس على رأس (حازم)..
وفي لحظة، وجد (حازم) الحارس ملقى إلى جواره، فاقد الوعي، والدماء تنزف من رأسيه.
فهتف بجواده:
- أحسنت يا صديقي.. إنني مدين لك بحياتي مرة أخرى خيل إليه أن الجواد يفهم جيدا، عندما رآه يتراجع في خطوات رشيقة، وينفخ الهواء من بين أسنانه في قوة، ثم يهز رأسه هزة قوية تطايرت لها معرفته الناعمة، في مشهد أنيق، قبل أن تعود لتستقر على جانب عنقه، ثم تقدم من فارسيه، وكأنما يدعوه لامتطائه مرة ثانية، ولكن (حازم) ربت على عنقه، قائلا:
- لا يمكننا أن تنصرف بهذه السرعة يا صديقي.
ثم انتزع من سرجه قطعة طويلة من القماش، وانحنى يضمد بها جرح رأس الحارس الضخم، بكل سرعة ومهارة وعناية..
وكان مشهدًا كفيلا بإثارة دهشة الحارس نفسه، لو أنه استعاد وعيه في تلك اللحظة فلن يتصور أبدا أن يهتم (حازم) بجرحه إلى هذا الحد وهو الذي حاول قتله منذ لحظات ولكن(حازم) أجاب السؤال بنفسه، بعد أن انتهى من تضميد الجرح، ونهض قائلا لجواده:
- أعلم أنه حاول قتلى.. ولكنه بشر.. ولن نتركه مصابا هكذا.. أليس كذلك؟

لم يكن ينتظر بالطبع جوابا من جواده، لذا فقد أمسك السرج بيسراه، واستطرد في حزم:
والآن هيا بنا يا صديقي
وبحركة بالغة المرونة والرشاقة، وثب على صهوة جواده، وجذب لجامه، فانتفض الجواد، وانتعش، وأطلق صهيله القوى الرنان، ثم انطلق في قلب الصحراء، ينهب الأرض نهبا، ويثير خلفه عاصفة عاتية من الرمال..
ولم تفارق عينا (حازم) رمال الطريق طوال الوقت..
كان يتابع آثار الأقدام بكل عناية واهتمام، ليمكنه معرفة خط سير زعيم المجرمين ورجاله..

ولم يكن الأمر سهلاً..
لقد سبقه الزعيم ورجاله بعدة ساعات، وعليه أن ينطلق بأقصى سرعته وقوته، لتعويض هذه الساعات الضائعة ولم يتوان الجواد لحظة واحدة بدوره، لقد أطاع تعليمات فارسه، التي

تأتيه عبر جذبات اللجام المختلفة، ولكزات الكعبين في معدته، وضغط الساقين على بطنه، ومضي في طريقه قويا، عنيدا، على الرغم من طول الطريق، وقسوة الصحراء، والشمس تلهب رأسه ورأس راكبه، وهي تقطع رحلتها عبر السماء، نحو الغروب..
ثم لاحت مدينة القباب..
لاحت مع غروب الشمس، وقد انعكس الضوء الأخير على قبابها الذهبية، فالتمعت وتألقت كعدد من الشموس الصغيرة، التي تشارك الشمس الأم رحلة الغروب، خلف الأفق البعيد وجذب(حازم) عنان جواده، على نحو جعل الجواد يخفف من سرعته، ويتوقف في النهاية، وهو يضرب الرمال بحوافره في عصبية، وكأنما يعلن استعداده للمضي قدما وقطع المزيد من الطريق، لو أمره صاحبه بهذا ولكن(حازم) كان غارقا بكل حواسه، في التطلع إلى القباب الذهبية.
ها هي ذي مدينة القباب.
عاصمة البلاد المجاورة لبلاده.
بعد لحظات سيعبر هذه التلال القريبة التي تمثل حدود بلاده وينتقل إلى البلاد المجاورة، حيث مدينة القباب الذهبية.
سينتقل من عالم إلى آخر، يختلف عن عالمه تماما.
صحيح أن الدولتين متجاورتان، ولكن طبيعة كل منهما تختلف عن الأخرى تماما.
في مدينة القباب لن يجد فرسانا أو قبائل..
لن يجد ذلك النمط العربي الاصيل الذي اعتاده في موطنه..
وهنا يكمن الخطر..
امتلأت نفسه بالقلق والحذر والتحفز والتوتر، ولكنه لم يتراجع، أمام كل هذه المشاعر، وإنما لكز جواده مرة أخرى وهز لجامه

في رفق، فواصل الجواد طريقه، وعبر مع صاحبه حدود البلاد، واتجه نحو مدينة القباب..

★★★

مع مغيب الشمس، عبر (حازم) وجواده أبواب المدينة، وامتزجا بذلك النهر من زحام البشر داخلها، حتى بلغ (حازم)أول صائغ بالمدينة، فهبط عن جواده، واتجه إليه، قائلاً:

. السلام عليكم يا رجل.. هل أتاك اليوم من يعرض عليك شراء سيف مصنوع من الذهب الخالص، ومقبضه مرصع بالأحجار الكريمة؟

ارتفع حاجبا الرجل، وبدا مبهورا من مجرد الوصف، وهو يهتف:

- لا يا ولدي.. لم أر تحفة كهذه التي تصفها، لا اليوم، ولا في أي يوم مضى، طوال أربعين عاما، قضيتها في هذه المهنة، وحتى لو رأيته لما أورثني هذا سوى الحسرة والغيظ سأله(حازم) في حذر:

- الحسرة والغيظ؟! ولماذا يا رجل؟

تنهد الرجل، وقلب كفيه، وهو يجيب:

- لأنني أعجز عن شراء تحفة كهذه.. إنها تحتاج إلى صائغ كبير، عظيم الثراء، يمتلك ثروة كافية، لشراء مثل هذا السيف، وله اتصالات مع علية القوم، الذين يمكنهم الحصول عليه.

سأله(حازم) في فراغ صبر:

- صائغ كبير مثل من؟

أجابه الرجل في سرعة:

- مثل (شيلوكى).. صاحب ذلك القصر، في نهاية السوق، إنه يتخذه مسكنا ومتجرا، يمكنك اللحاق به الآن، فعمل المتجر يتوقف بعد الغروب.

وشب(حازم) على صهوة جواده، وأسرع نحو قصر(شيلوكي) هذا، ولم يكد يبلغه حتى أوقف جواده، وقفز إلى الأرض، وربت

على عنق الجواد، قائلا:
- انتظرني هنا يا صديقى.
لمح الجياد الثلاثة، التي تتوقف أمام المتجر، وميز منها جواد زعيم المجرمين، فغمغم في ارتياح:
- حمدا لله.. يبدو أننا وصلنا في الوقت المناسب.
ولكنه لم يكد يدلف إلى المتجر الفسيح، حتى التقى حاجباه في توتر، وهو يدير عينيه في المكان الخالي، إلا من رجلين من صغار البائعين..
لم يكن هناك أدنى أثر لزعيم المجرمين، أو لرجل يوحي مظهره بأنه (شيلوكي)، الصائغ الثرى، فسأل (حازم) العاملين في انفعال:
- أين السيد (شيلوكي)؟
أجابه أحدهما في خشونة:
- ليس هنا.
سأله(حازم) في صرامة:
- أين ذهب؟ إنني أريده لأمر عاجل، وبالغ الأهمية والخطورة، وأريد مقابلته الآن.. فورا تبادل الرجلان نظرة حذرة، قبل أن يقول أحدهما:
- لا يمكنك مقابلته فورا.. إنه يجرى صفقة مهمة.
أمسك(حازم) مقبض سيفه في حزم وهو يقول:
- هذا بالضبط ما أريد مقابلته بشأنه، فلو أن هذه الصفقة تختص بسيف من الذهب، فلن يمكنه إتمامها لأن هذا السيف مسروق.
تبادل الرجلان نظرة متوترة هذه المرة، وقال أحدهما في غلظة:
- ليس هذا في شأنك يا رجل ابتعد هيا، قبل أن ننادي الجند، ونطالبهم باعتقالك.

امتشق(حازم) سيفه في حركة سريعة، وهو يقول في قوة وإصرار، بديا واضحين في لهجته وملامحه:
- قلت لكما سأقابله على الفور.
لم يكد ينطقها، حتى لمحت عيناه ذلك الباب الخلفي للمتجر الذي تم صنعه بمهارة كبيرة، بحيث يبدو إطاره وكأنه جزء في النقش العام للمتجر، فاتجه إليه في حزم، جعل الرجلين يعترضان طريقة، ويهتفان:
ليس هذا من حقك.
أجابهما في لهجة مخيفة:
- ابتعدا، أو امزقكما إربا.
ارتفع من خلفه فجأة صوت غليظ، يقول:
- قالا: إنه ليس من حقك
والتفت في سرعة إلى مصدر الصوت، والتقت عيناه بعيني أحد قطاع الطرق، الذين هاجموه في اليوم السابق وسرقوا منه السيف، ولم يكد الرجل يراه، حتى قال في سخرية:
. إذن فهو أنت.. مرحى.. هل تفكر في استعادة سيفك الذهبي يا فتى؟
استدار إليه (حازم) بجسده كله، وهو يقول في صرامة:
- بل أنا مصر على هذا.
وبدون كلمة إضافية أخرى، وعلى نحو مباغت تماما، انقض كل منهما على الآخر، والتقى سيفاهما بصليل مزعج، وراحا يتقارعان في قوة وعنف وصلابة، فهتف أحد عاملي المتجر بزميله:
- الجند.. أسرع في طلب الجند.
اندفع العامل خارج المتجر، تلبية لهاتف زميله، في نفس اللحظة التي مال فيها (حازم)، جانبا متفاديا ضربة من سيف خصمه، كشفت صدر هذا الأخير، فوثب (حازم) في سرعة وحنكة،

وطعنه ولم يضع لحظة واحدة بعدها كان يعلم أن العامل سيستدعي الجند في أقرب وقت، وأن صليل السيوف قد بلغ حجرة (شيلوكي) الخلفية حتما، لذا فقد أزاح العامل الثاني، فور سقوط خصمه، ثم انقض على الباب الخلفي، وركله بكل ما يمتلك من قوة، فحطم رتاجه، واندفع داخل الحجرة..

وهب الرجال الأربعة داخل الحجرة دفعة واحدة، مع ذلك الاقتحام المفاجئ..

كان زعيم المجرمين مع رجلين من رجاله، يتأهبان لصد الهجوم، في حين كان (شيلوكي) بجسده الضئيل، ورأسه الأصلع، ولحيته الحادة القصيرة، يحمل السيف الذهبي، ويحاول الفرار إلى داخل قصره، عبر باب جانبي آخر

وهتف الزعيم:

- إذن فقد أتيت خلفنا.

ولكن(حازم) لم يناقشه كان قد تعلم الدرس جيدا، وأدرك أنه، في مثل هذه الصراعات، يكون لكل ثانية ثمنها، ومفعولها الحاسم، في تحقيق النصر، أو جلب الهزيمة، لذا فقد هاجم الرجال الثلاثة بلا توقف أو تردد، وطعن أحدهم بسرعة مدهشة. ثم أصاب يد الثاني بضربة مدروسة، أطاحت بسيفه، ومزقت كفه

ولكن الزعيم انقض عليه بدوره، هاتفا:

- لن تربح، مهما فعلت هذه المرة.

أما(شيلوكي)، فقد عبر الباب الجانبي إلى قصره، وراح يصرخ:

- النجدة.. لص.. إلى يا رجال.

تلقى(حازم) ضربة الزعيم على نصل سيفه، ثم أزاحه جانبا، ودفع الزعيم نفسه بضربة قوية من قدمه، وهو يقول:

- لم يحن الوقت لقتالك بعد.. السيف أولاً.

سقط الزعيم على ظهره، وهو يهتف في غضب:

- انتظر.
كان يأمل في تعطيل (حازم) قليلا من خلال مبارزة عنيفة طويلة، حتى يصل الجند، أو يهب رجال (شيلوكي) لنجدته ولكن(حازم) كان يدرك هذا الغرض، لذا فقد فوت الفرصة على الزعيم، إذ وثب عبر الباب الجانبي، ثم أغلقه خلفه في إحكام، وهتاف (شيلوكي) ما يزال يتردد في المكان:
- النجدة يا رجال.. أوقفوا اللص
كان الباب يقود إلى القصر، حيث يعدو (شيلوكي)، فانطلق(حازم) خلفه، انطلق الزعيم داخل الحجرة الخلفية للمتجر، يضرب بابها الجانبي بقبضتيه في غضب وغيظ، وهو يصرخ:
- عد أيها الجبان.. عد أيها الرعديد.
تجاهل(حازم) هذه المحاولة تماما وأضاع على الزعيم فرصة استفزازه للمرة الثانية، وهو يعدو خلف (شيلوكى)، الذي تعثر في عدوه، وسقط على وجهه، وهو يصرخ:
أنقذوني من اللص.. النجدة
بلغه(حازم) في هذه اللحظة، ووضع ذبابة سيفه على رقبته، وهو يقول:
- لست أنا اللص يا رجل.. اللص هو من يشترى سيفا مسروقا، وهو يعلم هذا.

بلغه (حازم) فى هذه اللحظة ، ووضع ذبابة سيفه على رقبته ، وهو يقول : - لست أنا اللصّ . .

استدار إليه (شيلوكي)، وهو يرتعد كعصفور مبتل وهتف:
- لست أريد السيف.. أبق على حياتي وخذه.. خذ السيف، أو حتى خذ كل ثروتي، ولكن اتركني حيًا.

اختطف(حازم) السيف الذهبي من يده، وهو يقول:
احتفظ بثروتك أيها الصائغ، يكفيني سيفنا الذهبي.. إنه حقنا.
لم يكد يمسك السيف في يده، حتى ظهر رجال (شيلوكى) من كل صوب، وكل منهم يحمل سيفه، في نفس اللحظة التي انهار فيها الباب الجانبي، تحت ضربات زعيم اللصوص، الذي ظهر منه، وخلفه عدد من الجند، وأشار إلى (حازم) وهو يهتف في غضب:
- ها هو ذا اللص.. أمسكوه.
وأطبق الجميع على (حازم) ومن كل صوب.

★★★

كان الموقف بالغ الدقة والخطورة، ويدعو إلى السخرية في الوقت ذاته، فقد كان (حازم) هو صاحب السيف الحقيقي والجميع فيما عدا هذا مجرد لصوص، يحاولون سرقة سيفه وبيعه، ولكن الأمور كلها تبدو مقلوبة تماما؛ إذ إن رجال (شيلوكي) والجنود ينظرون إليه باعتبار أنه هو اللص، وأن الجميع فيما عداه شرفاء.
وكان من المستحيل أن يقاتل (حازم) كل هذا العدد دفعة واحدة، لذا فقد دارت عيناه فيما حوله بسرعة، بحثا عن منفذ أو مهرب، من هذه الأزمة..
وتوقفت عيناه عند باب جانبي نصف مفتوح، يقود إلى أحد أبراج القصر، وقبل أن يدرس عقله الموقف، كانت قدماه تسرعان نحو الباب، والجميع يعدون خلفه، و (شيلوكى) يصرخ:
أمسكوه.. إنه لص.. لقد سرق سيفي الذهبي.
أما زعيم المجرمين، فصرخ:
اقتلوه.. اقتلوا اللص.
ولكن(حازم) بلغ الباب، قبل أن يبلغه أحدهم، فقفز عبره، ثم دفعه بكل قوته، وأغلقه في وجوه مهاجميه، وألقى رتاجه

الخشبي الضخم في سرعة وعنف، وتراجع لاهثًا والضربات تهوى على الباب في قوة وغضب.
وألقى(حازم) نظرة على ذلك المكان، الذي قادته قدماه إليه كان أشبه بمخزن قديم، أو حجرة مهملات، له جدران هائلة الارتفاع، تصل إلى عشرة أمتار، وتنتهي بنوافذ مربعة كبيرة، يتسلل منها ضوء القمر، ليمنحه القدرة على الرؤية بصعوبة، أما أرضية المكان فقد تكدست فيها عدة أشياء، عصى خشبية، وحبل طويل، وبعض أعواد الخيزران، وبقايا سرج قديم.
ومن الخارج سمع (حازم) زعيم المجرمين يهتف بالجنود وبرجال(شيلوكي):
- احضروا بعض الفئوس.. سنهدم هذا الباب الخشبي أو نشعل فيه النيران.. المهم أن نظفر باللص.
صاح(شيلوكي) في عصبية:
- لا.. لا تشعلوا النيران.. ستتلفون السيف الذهبي
ثم صاح صوت من بعيد:
- لقد أحضرت الفئوس
وبعدها بلحظات بدأت الفئوس تهوى على الباب، وتسعى لتحطيمه ولم يكن هناك مخرج طبيعي من هذا الموقف الحرج، ولكن عقل(حازم) راح يعمل بكل سرعته وقوته كالمعتاد، في مثل هذه الظروف...
وبسرعة انحنى (حازم) يلتقط عودا قويا من أعواد الخيزران، ثم انتزع قطعة طويلة من الجلد، من السرج القديمة وأخرج خنجره، وراح يصنع فجوتين صغيرتين، في طرفي عود الخيزران، ثبت فيهما قطعة الجلد الطويلة الرفيعة وجذبها في قوة. لينثني عود الخيزران، ويصبح قوسا قويا وبعدها التقط عددا آخر، ثبت في نهايته بعض قطع الجلد ليصبح أشبه بسهم طويل، والتقط

طرف الحبل، وربطه جيدا في نهاية السهم الخيزران، ثم وضع السهم في وتر القوس وصوبه إلى النوافذ العلوية، قائلا:
- على بركة الله (سبحانه وتعالى).
جذب وتر القوس بكل قوته، وصوب سهمه في إحكام وإتقان إلى النافذة البعيدة، على الرغم من شظايا الخشب، التي بدأت تتطاير داخل المكان الضيق، بعد أن عبرت بعض الفئوس الباب، وبدأت تصنع فيه فجوات صغيرة، تتسع في سرعة..
وأطلق(حازم) سهمه، الذي جذب إليه الحبال، وهو يندفع نحو النافذة، وعينا (حازم) تتابعانه في قلق وترقب مغمغما:
- ترى هل يتخذ المسار المنشود؟
أجابه السهم على الفور، عندما عبر فجوة واسعة تعلو إطار النافذة تماما، وهو يجذب الحبل الطويل خلفه فأسرع(حازم) يجذب الحبل، ليوقف اندفاع السهم، وهو يهتف:
- حمدا لله.
أوقفت الجذبة السهم بصورة مباغتة، فهوى بفعل الجاذبية ولكن الحبل تعلق بإطار النافذة العلوي، فتأرجح السهم، وعبر النافذة مرة أخرى إلى الداخل، وهنا أفلت (حازم) الحبل هاتفا:
- رائع.
كانت حركته معقدة بعض الشيء، ولكنها أتت بالغرض ومنها تماما، فقد تهاوى السهم مرة أخرى داخل المخزن القديم وهو يجذب الحبل خلفه، حتى بلغ قبضة (حازم)، في الوقت الذي صنعت فيه الفئوس فجوات أكبر، وهتف زعيم اللصوص في الخارج:
.اضربوا بقوة أكبر.. سنظفر به حتما بعد قليل.
ولكن(حازم) جذب طرفي الحبل، عقدهما ببعضهما، والحبل يلتف حول الإطار العلوي للنافذة، ثم راح يتسلق الجدار في

خفة وسرعة، وقبل أن يبلغ النافذة بمتر واحد، انهار باب المخزن، واندفع الرجال داخله وهتف (شيلوكي) في ارتياع، وهو يرفع عينيه عاليا:

.إنه ليس هنا.. إنه يهرب بسيفي.. أوقفوه.

رفع الرجال أقواسهم إلى أعلى، وأطلقوها نحو (حازم)، الذي تسلق الحبل بسرعة كبيرة، والسهام تتناثر من حوله، ثم قفز عبر النافذة إلى سور القصر، وخلفه زعيم اللصوص يصرخ:

.أوقفوه.. لا تسمحوا له بالفرار.

ولكن(حازم) قال ساخرا:

.فات الوقت يا رجل.

وأطلق من بين شفتيه صفيرا طويلاً، بلغ مسامع جواده، فأطلق صهيلا قويا، وانطلق إلى حيث صاحبه، الذي وثب من فوق الأسوار هاتفا:

- هيا يا صديقى

هبط على ظهر جواده مباشرة، وبدقة تدعو إلى الإعجاب ولم يكد يستقر فوقه، حتى انطلق الجواد بكل سرعته وقوته.

هبط على ظهر جواده مباشرة ، وبدقة تدعو إلى الإعجاب ، ولم يكد يستقر فوقه ، حتى انطلق الجواد بكل سرعته وقوته ..

و(شيلوكى) من خلفه يصرخ:
- سيفي.. سيفي الذهبي.. أوقفوه

ولكن الجواد اخترق سوق المدينة كعاصفة عاتية و(حازم)من فوقه يهتف:
- انطلق يا صديقى.. انطلق.. لقد استعدنا مالنا.
وبوثبة رائعة، تجاوز الجواد أبواب المدينة وحراسها وانطلق نحو التلال..
ونحو الحدود..

★★★

لم يتوقف (حازم) وجواده عن العدو طيلة الليل، على الرغم من أن أحذا لم يتحرك بالسرعة الكافية لمطاردتهما خارج أسوار مدينة القباب، أو أن أحذا لم يجرؤ على مطاردتهما عبر الحدود.
المهم أن الواحة الخضراء قد بدت واضحة، مع شروق شمس الصباح التالي، وبلغها (حازم) بعد نصف الساعة من الغروب، حيث استقبله أهلها بترحاب شديد، وعانقه (خالد)، وهو يهتف في سعادة وحماس:
- مرحى يا رجل.. كم نشتاق إليك.. أية رياح طيبة أرسلتك إلينا؟
ناوله(حازم) السيف الذهبي، وهو يقول:
- أتيت حاملا هذه الهدية إليك، من شيخ قبيلتنا، بمناسبة زواجك من ابنة أمير البلاد.
أخرج(خالد) السيف الذهبي من غمده، فانطلقت شهقات الإعجاب والانبهار من الجميع، وقال شيخ الواحة الخضراء مبتسما:
- هدية عزيزة من أخ عزيز يا ولدى، ولكن ألم يكن من الخطر أن تعبر الصحراء وحدك إلينا، وأنت تحمل ثروة كهذه؟
ابتسم(حازم)، وقال:

- الله (سبحانه وتعالى) خير حافظ يا سيدي، ومهما كانت المخاطر، فنحن فرسان الصحراء، ولن يهزمنا رعاعها قط.
ثم غمز بعينه لجواده، مستطردا:
- أليس كذلك يا صديقي؟
أطلق الجواد صهيله القوى، فالتفتت إليه كل العيون في إعجاب، وارتسمت على شفتي (حازم) ابتسامة كبيرة تعلن وصول السيف إلى صاحبه، و..
ونجاح المهمة ..

★★★

(تمت بحمد الله)

★★★

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد عبر الزمن

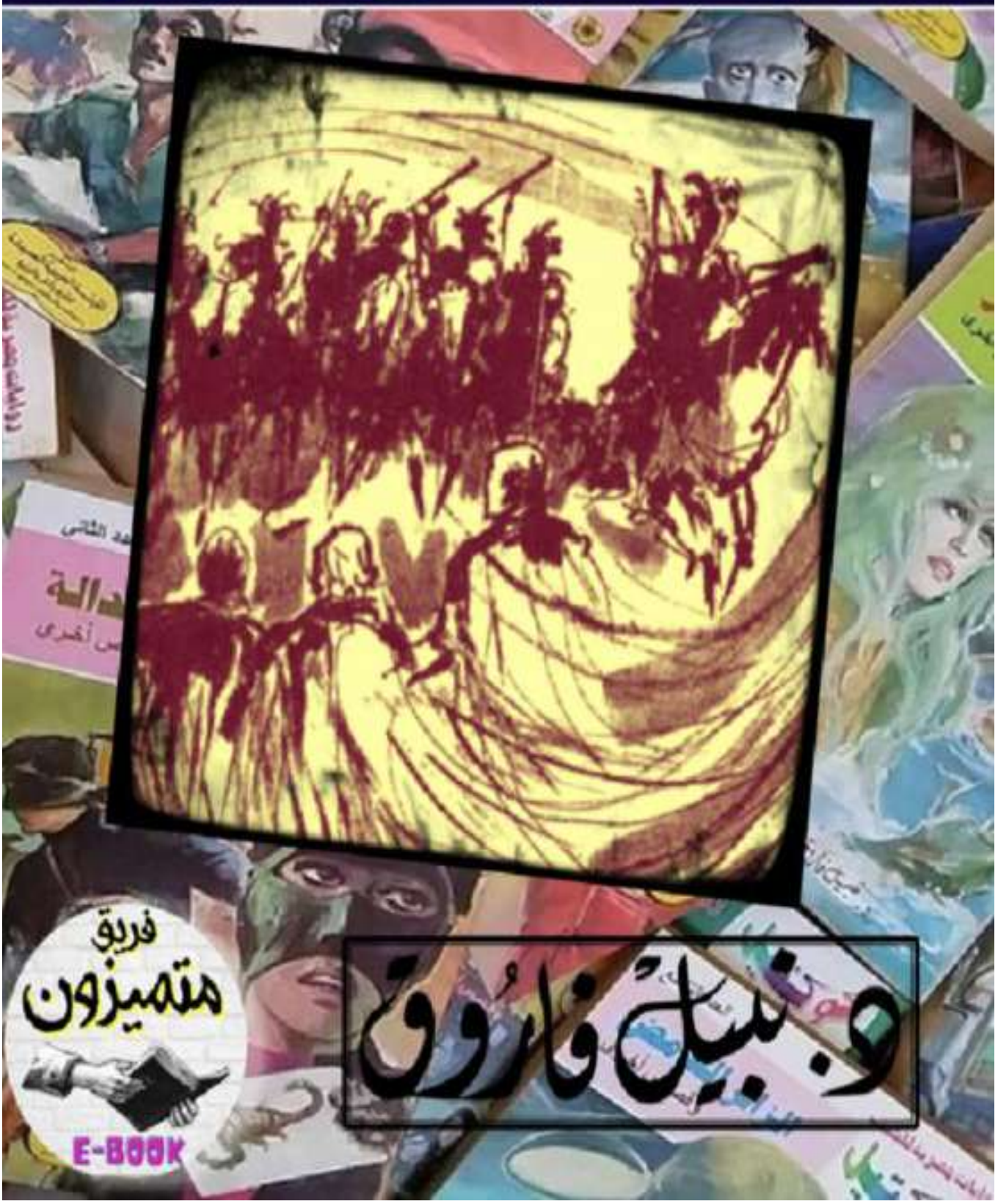

نبيل فاروق

فريق متميزون

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

عبر الزمن

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- الملياردير..

سطعت الأضواء وتألقت في قاعة التصوير التليفزيوني في محطة (C.C.N) الأمريكية، وعدل المذيع الشهير رباط عنقه، وتأكد من أناقته ووسامته للمرة العاشرة، قبل أن يشير إلى مخرج البرنامج، قائلا:

- نحن على أتم استعداد.

أشار إليه المخرج بإبهامه، قائلا في تعجل متوتر:

- سنبدأ البث بعد دقيقة واحدة.

أومأ المذيع برأسه متفهما، قبل أن يلتفت إلى (باسل)، ويقول بابتسامة كبيرة:

- أأنت مستعد يا أستاذ (باسل)؟

تنهد (باسل)، وأجاب في ضجر واضح:

- بالتأكيد.. إنني مستعد منذ فترة طويلة.

ارتفع صوت المخرج داخل قاعة التصوير، وهو يقول:

- فليستعد الجميع عشرة.. تسعة.. ثمانية.. سبعة ستة.. خمسة.. أربعة.. ثلاثة.. اثنان.. واحد.. الآن.

انبعث صوت الموسيقى التصويرية للبرنامج الشهير وتركزت آلات التصوير على وجه المذيع وهو يقول:

- سيداتي آنساتي.. سادتي.. مرة أخرى نلتقي في برنامجكم المعروف (أغرب من الخيال).. وفي هذه المرة نلتقي بصحفي عربي، كانت له على أرضنا مغامرة أغرب بالفعل من الخيال.

ثم اتسع المشهد ليشمل (باسل) أيضا، والمذيع يستدير إليه مستطردا:

- أستاذ (باسل).. هل التقيت حقا بغزاة من الفضاء هنا؟ وهل خضت معهم مغامرة عنيفة، قبل أن تنجح في الفرار منهم أحد

أصدقائك بما يشبه المعجزة؟
أجابه (باسل) في هدوء:
- هذا صحيح، ولقد نشرت التفاصيل كلها في الصحف، وأستعد حاليا لإصدار كتاب في هذا الشأن.
سأله المذيع، في لهجة مستفزة:
- لماذا إذن لم يعثر المسئولون على أية آثار لهؤلاء الغزاة، عندما ذهبوا إلى البقعة التي حددتها مع زميلك؟
أجابه (باسل) في حزم هادئ:
- لا يمكنني إجابة هذا السؤال، فلست أدرى ما إذا كان المسئولون لم يعثروا بالفعل على أي أثر للغزاة، أم أن هذا ما تقوله تصريحاتهم الرسمية فحسب.
ارتفع حاجبا المذيع في دهشة، وهو يقول:
- ما الذي تقصده بهذا القول بالضبط يا أستاذ (باسل)؟
أجابه (باسل) في سرعة:
- أقصد أنه من المفترض أن توجه سؤالك هذا للمسئولين عندكم، وليس لي.
لم يرق الجواب للمذيع، فانعقد حاجباه في شيء من الضيق وهو يسأل (باسل):
- قل لي يا أستاذ (باسل): هل تؤمن حقا بوجود مخلوقات في كواكب أخرى؟
أومأ (باسل) برأسه إيجابا، وهو يقول:
- الله (سبحانه وتعالى) الذي خلق الحياة في قاع البحار والمحيطات، وأعماق الكهوف وباطن الأرض، قادر على خلق الحياة أيضا في غياهب الكون، وفي أبعد الكواكب وأصعبها بيئة ومناخًا..

استمر البرنامج على هذا المنوال، والمذيع يحاور (باسل) ويناوره ويحاول استفزازه وإخراجه عن وعيه وشعوره، إلا أن (باسل) ظل هادئا باسما واثقا، يجيب عن كل الأسئلة في حنكة وبساطة أرهقتا المذيع الشهير، حتى إنه بدا شديد الارتياح وهو يختم برنامجه بابتسامته الأنيقة، وكأنما ألقى عن كاهله حملاً ثقيلا، ولم تكد الأضواء تنحسر حتى التفت إلى (باسل)، وهتف به:

- هل تؤمن بكل هذا حقا؟

ابتسم (باسل) وغادر مقعده، وهو يقول:

- لم أعتد نطق حرف واحد لا أومن به تماما يا رجل.

انعقد حاجبا المذيع في شدة، وهو يقول محتدا:

- هذا ما أسمعه من الجميع، ولكنني أسأل عن الحقيقة.

أجابه (باسل)، وهو يبتعد في سرعة:

- هذه هي الحقيقة.

كان يشعر بضجر شديد في التعامل مع أجهزة الإعلام، التي تسعى لتقديم البرامج المثيرة، التي تجتذب أكبر عدد من المشاهدين، دون الاهتمام بما يمكن أن تقدم هذه البرامج من معارف وأفكار مجدية ومفيدة.

وفي سرعة، وكمن يفر من منطقة موبوءة، غادر (باسل) مبنى المحطة التليفزيونية الشهيرة، وهبط إلى مرأب البناية حيث استقرت سيارته، وهو يغمغم:

- أعتقد أن هذا يكفي في (الولايات المتحدة الأمريكية)، فأنا أتوق كثيرا للعودة إلى (المملكة)، ولقاء الأصدقاء والـ...

بتر عبارته بغتة، عندما انتبه إلى هذا الشخص الضخم الجثة، الذي برز من خلف سيارته في معطف مطر باهت، ورمقه بنظرة قاسية، وهو يقول:

- أستاذ (باسل) أليس كذلك؟

قبل أن يجيب (باسل)، ظهر رجل ثان في معطف مماثل ولكنه أقل حجما، وبدا وكأن الرجلين يسعيان لتطويقه مع اقتراب الأول من يساره في خفة، واتجاه الثاني نحوه من اليمين دون أن ينتظرا جوابه..

ولم يضع (باسل) لحظة واحدة..

لقد تحرك في سرعة، فوثب نحو الأول الذي أخذته المفاجأة، وهتف:

- ما هذا؟ إنك..

قبل أن يتم كلمته، كانت قبضة (باسل) تهوى على فكه كالقنبلة وتبعده مترين إلى الخلف، في نفس اللحظة التي اندفع فيها الثاني نحو بطلنا، ويده تثب إلى جيب معطفه، فاستدار إليه (باسل) في سرعة وانزلق في مهارة ليركل قدمي الرجل في قوة أفقدته توازنه، وجعلته يسقط أرضا قبل أن تبلغ يده جيب معطفه، فانقضَّ عليها (باسل) ولوى ذراعه خلف ظهره في حركة سريعة مرنة، وهو يقول في صرامة:

- لا داعي لهذا، لن أسمح لك بالتقاط سلاحك.

هتف الرجل منزعجا:

- ولكنك لا تفهم شيئا.. إننا لم نحاول مهاجمتك..

لمح (باسل) الضخم ينهض، وهو يمسك فكه في غضب، فصاح في حدة:

- ماذا تسمى ما فعلتماه إذن؟؟

فاجأه صوت هادئ من خلفه، يقول:

- إنهما لم يفعلا شيئا.. أنت الذي تسرعت يا أستاذ (باسل)!

استدار (باسل) إلى مصدر الصوت في دهشة، ووقع بصره على رجل وقور، أشيب الفودين، وقف إلى جوار سيارة فاخرة فارهة، فتح سائقها بابها في احترام بالغ، والرجل يواصل حديثه مبتسما:

- لقد أرادا أن يدعواك لمقابلتي، ولست أدرى لماذا بادرتهما بالهجوم؟
امتزجت دهشة (باسل) بالكثير من الحرج، وهو يغمغم:
- مقابلتك؟!
هتف به الضخم في حنق:
- نعم.. هذا كل ما سعينا إليه، ولكنك تصرفت بعدوانية عجيبة.
تخلى (باسل) عن ذراع الآخر، ونهض يغمغم معتذرا:
- من الواضح أنني أسأت فهم الموقف بالفعل.. تقبلا أسفى ولكنكما تحركتما على نحو مريب.
أطلق الأنيق ضحكة جذلة، وهو يقول:
- لا عليك يا أستاذ (باسل).. الواقع أنك تعاملت معهما بمهارة تستحق الإعجاب.. لقد كانت واقعة مدهشة بالفعل.
عقد الرجلان حواجبهما في غضب، في حين اتجه الأنيق نحو (باسل)، وصافحه قائلا:
اسمى (دونالد ويست)، وأعتقد أنك سمعت أسمي من قبل.
هتف (باسل):
- بالطبع.. أنت صاحب مجموعة من أقوى الصحف والمجلات في طول (الولايات المتحدة الأمريكية) وعرضها.
ابتسم (دونالد) في شيء من الزهو، وهو يقول:
- بالضبط.. معلوماتك جيدة للغاية يا أستاذ (باسل)، وهذه واحدة من صفات الصحفي الناجح.
ثم صمت لحظة، قبل أن يضيف:
- وهذا ما أحتاج إليه بالضبط.
أطلت نظرة تساؤل في عيني (باسل)، فاتسعت ابتسامة (دونالد)، وهو يتابع:
- ما رأيك في العمل لحسابي يا أستاذ (باسل)؟

ارتسمت الدهشة على وجه (باسل)، وقال:
- أعتقد أن أي صحفي يتمنى سماع مثل هذا العرض يا مستر (دونالد)، ولكنني صحفي، عربي، وأميل إلى العمل في الصحف العربية، ثم إن لديك عددا من أفضل الصحفيين في (أمريكا) كلها.
ابتسم (دونالد)، وهو يقول:
- هذا صحيح يا أستاذ (باسل)، ولكن المهمة التي أعرض عليك العمل لحسابي من أجلها، ليست مهمة صحفية بالمعنى المفهوم، ولكنها مهمة ذات طابع خاص.. خاص للغاية..
وتفجر مزيج من الحيرة والتساؤل في أعماق (باسل)، وهو يتطلع إلى ابتسامة (دونالد ويست) التي بدت له غامضة..
غامضة إلى حد مخيف..

☆ ☆ ☆

شعور عجيب، ذلك الذي ملأ نفس (باسل) وهو يقف في مواجهة (دونالد ويست) في تلك اللحظة، فقد امتزجت روح الفضول والمغامرة في أعماقه مع شعور قوى بالقلق والحذر تسلل عبر عروقه، ودفعه إلى التطلع إلى (دونالد) طويلا في صمت، قبل أن يقول:
- وما طبيعة هذه المهمة الخاصة جدا يا سيد (ويست).

لم ترق له أبدا ابتسامة (دونالد) وهو يجيب:
- تستطيع أن تقول إنها مهمة نصف صحفية، ونصف بوليسية يا أستاذ (باسل).. قل لي: هل سمعت عن دكتور (ارنست سيلرز)؟
أجابه (باسل) في حذر، لم يدر ما الذي دفعه إليه بالتحديد:
- بالطبع.. إنه واحد من أكبر علماء الفيروسات في العالم، يقال إنه في سبيله للتوصل إلى مصل جديد، للوقاية من الإصابة بمرض (الإيدز).
هتف (ويست):
- عظيم.. هذا هو طراز الصحفي الذي أفضله.. ذكي وجريء.. وواسع الاطلاع والمعرفة.. مرحي يا (باسل) إنك تناسب المهمة بالضبط.
سأله (باسل) في حدة:
- وما طبيعة هذه المهمة بالضبط؟

مرة أخرى لم ترق له ابتسامة الرجل الذي أجاب:
- (ارنست سيلرز) توصل بالفعل إلى المصل، ولكنه يرفض الإفصاح عن تركيبه أو أسلوب صنعه، ويصرّ على إعلان الأمر في مؤتمر صحفي عالمى.
سأله (باسل):
- وما المشكلة في هذا؟
هز (دونالد) كتفيه، وهو يجيب:
- بعض شركات الأدوية لا يروق لها أن يعلن الدكتور (سيلرز) هذه المعلومات في مؤتمر صحفي، فهذا يجعلها مباحة للجميع، في حين أنه لو انفردت شركة واحدة باحتكار تصنيع المصل الجديد، فستربح منه مليارات الدولارات.
قال (باسل) في دهشة:
- ولكن هذا على حساب المرضى والمصابين والمعرضين للعدوى.
لوح (دونالد) بذراعه في حدة، وهو يهتف:
- ومن يبالي بهذا؟!
ارتفع حاجبا (باسل) في دهشة أكبر، فاستدرك (دونالد) في سرعة:
- أقصد بالنسبة لأصحاب شركات الأدوية العملاقة، الذين لا يهمهم سوى الأرباح الهائلة التي يمكن تحقيقها لو احتكرت تصنيع المصل وإنتاجه.
عاد حاجبا (باسل) ينخفضان، ثم انعقدا في شيء من التفكير لم يلبث أن أفصح عن نفسه على لسانه، وهو يقول:
- مازلت لم أفهم المشكلة بعد.. ما طبيعة مهمتي بالتحديد؟
التقط (دونالد) نفسا عميقا، وأطلت من عينيه نظرة واثقة وهو يجيب:

- الواقع أن دكتور (سيلرز) يقيم خارج المدينة، في فيلا صغيرة، والمفترض أن يقود سيارته إلى هنا صباح الغد، لحضور المؤتمر الصحفي، ولقد رفض حماية الشرطة له بإصرار، ولهذا خطرت لي الفكرة.. إننا نحتاج بالطبع لحمايته، وضمان وصوله إلى المؤتمر الصحفي سالما، ولو أرسلت إليه أحد رجالنا للقيام بهذه المهمة، سيشك في أنه رجل شرطة متنكر، وسيرفض وجوده إلى جواره تماما. أما لو ذهب إليه صحفي عربي نال شهرة واسعة في (أمريكا) في الآونة الأخيرة، فأعتقد أن الأمر سيختلف كثيرا.

أومأ (باسل) برأسه متفهما، وهو يقول:

- آه.. فهمت يا مستر (ويست).. إذن فأنت تطلب مني مهمة مزدوجة.. أن أصطحب دكتور (سيلرز) إلى المؤتمر كصحفي عربي، وأن أقوم بحمايته طوال الطريق إلى هناك أيضا.

لوح (دونالد) بسبابته، قائلا بابتسامته المقلقة الواسعة:

- بالضبط.. ألم أقل لك: إنك ذكي بالفعل؟

تطلع إليه (باسل) لحظة، قبل أن يسأله في اهتمام:

- ولماذا تصورت أننى أصلح للمهمة يا مستر (ويست)؟

قهقه (دونالد) ضاحكا، قبل أن يقول:

- اطمئن يا أستاذ (باسل).. لقد درست الأمر جيدا، ووجدت أنك خير من يصلح للمهمة.

ثم غمز بعينه، مستطردا:

- ثم إنني سأدفع بسخاء.

انعقد حاجبا (باسل) في ضيق، وهو يقول:

- لن أفعل هذا قط من أجل المال يا مستر (ويست)، سأفعله من أجل هؤلاء المرضى أو المعرضين للعدوى، الذين يمكن أن يعاونهم مصل الدكتور (سيلرز) لو طُرح بسعر مناسب.

تألقت عينا (ويست) وهو يمد يده إلى (باسل)، قائلا:

- اتفقنا.
وعندما تصافحا في قوة، كان (بأسل) يتطلع إلى عيني (دونالد ويست)، اللتين أطل منهما بريق لم يبعث في نفسه الارتياح.. أبدا..

☆ ☆ ☆

عدل الدكتور (سيلرز) منظاره الطبي فوق عينيه، وهو يصافح (باسل) ويتطلع إلى وجهه في اهتمام شديد، قائلا:
- أنت (باسل) إذن.. مستر (ويست) أخبرني أنك ستصحبني إلى قاعة المؤتمر.. أهذا صحيح؟
أجابه (باسل) في هدوء:
- لست وحدي يا سيدى، فمعي المصور (فريدي).. وسيلتقط لك بعض الصور في أثناء الطريق.
انعقد حاجبا العالم، وهو يقول في حدة:
- كلا.. لست أحب هذا.. إنني أكره أن أبتسم أمام الكاميرا..
ضحك (فريدي)، وهو يقول:
- لا عليك يا دكتور (سيلرز).. لست أريد منك أن تبتسم، أريد الصور طبيعية تماما.
مط الطبيب شفتيه في شيء من الحنق، ثم قال في غلظة:
- فليكن.. هيا بنا.
كان قصير القامة في حوالي الخمسين من العمر، أشيب الشعر، حليق الوجه، يرتدى منظارا طبيا بسيطا، وحلة من طراز قديم، جعلته يبدو أشبه بممثل هزلي، في فيلم كلاسيكي من أفلام الأربعينيات.
وعندما استقر في السيارة، التي يقودها (باسل)، بدا شديد التبرم والسخط، وهتف:

- أزرار.. أزرار.. أزرار.. كيف تستمتعون بقيادة هذه السيارات الحديثة؟! إنها تثير الملل.. ما الذي يفعله المرء إذن لو أن كل ما حوله يدار بالأزرار؟

ابتسم (باسل) وهو ينطلق بالسيارة، قائلا:

- حاول أن تتقبل هذا يا دكتور (سيلرز).. إنها ضريبة التكنولوجيا.

همهم الرجل بكلمات ساخطة، انفجر لها (فريدي) ضاحكا، وسطع ضوء مصباح التصوير داخل السيارة، وهو يهتف:

- ملامحك رائعة في أثناء الغضب يا دكتور (سيلرز).

لوح العالم بيده في حدة، وهو يقول:

- كفي.. إنك تثير سخطي أكثر.

قهقه (فريدي) ضاحكا مرة أخرى، والتقط صورة جديدة، فابتسم (باسل) وهو ينطلق بالسيارة في الطريق الخاص، الذي يربط منزل الدكتور (ويست) بالطريق العام..

كان طريقا ضيقا، يستوعب سيارة واحدة في كل من الاتجاهين، وتحيط به الأشجار الطويلة من كل جانب فسأل (باسل):

- هل صنعت هذا الطريق بنفسك يا دكتور (سيلرز)؟

هز الرجل كتفيه، وأجاب في شيء من الضجر:

- كلا.. لقد منحوني المنزل والطريق الخاص معاً..

فتح (باسل) شفتيه، وهم بقول شيء ما، عندما صرخ (فريدي) فجأة:

- رباه!! ما هذا بالضبط؟

ومع آخر حروف كلماته، لاحظ (باسل) ذلك الشيء الذي أثاره على هذا النحو.. وانعقد حاجباه في شدة أيضا مع صرخة الدكتور (سيلرز):

- صحيح.. ما هذا؟

كانت هناك كرة عجيبة، أشبه بكرة لهب، تندفع نحوهم من نهاية الطريق، كما لو أنها تتدحرج على الهواء وألسنة اللهب تحيط بها على نحو مخيف، فضغط (باسل) فرامل السيارة بحركة غريزية، ثم دفع عصا السرعة إلى وضع العودة للخلف، واستدار لينطلق بالسيارة عكسيا، ولكن (فريدي) صرخ في رعب:

- لا فائدة.. ستبلغنا حتما.. إنها تقترب بسرعة مذهلة.. و....

وقبل أن يتم (فريدي) عبارته، بلغت كرة اللهب السيارة، وأحاطت بها في سرعة مذهلة بالفعل..

وفي اللحظة التالية مباشرة، شعر (باسل) بصاعقة هائلة تهوى على رأسه، وانتفض جسده في عنف، وسمع صراخ (فريدي) والدكتور (سيلرز).. و..

وانتهى كل شيء بغتة..

☆ ☆ ☆

٢- الزمن..

لا أحد يدري كم مضى من الوقت، منذ ابتلعت كرة اللهب السيارة بركابها، ولكن (باسل) استعاد وعيه بغتة، وفتح عينيه دفعة واحدة، قبل أن يبهره ضوء الشمس، فيعود لإغلاقهما وهو يتمتم:

- أين أنا؟! ماذا حدث؟!

عاد يفتح عينيه مرة أخرى في بطء، ثم حدق فيما حوله في دهشة بالغة..

لم يكن هناك طريق مرصوف فيما حوله، ولا أشجار على الجانبين، بل صارت هناك صحراء جبلية شاسعة تحيط به من كل جانب دون أدنى أثر للحضارة.. لا أعمدة إنارة، أو طرقا ممهدة، أو علامات طريق..

فقط كان هناك (فريدي) والدكتور (سيلرز) الفاقد الوعي من حوله، والسيارة التي احترق معظمها..

وفي حيرة شديدة أخذ (باسل) يفحص جسديّ (فريدي) والدكتور (سيلرز) ليتأكد من أنهما ما زالا على قيد الحياة.

كانت آثار الاحتراق أكثر وضوحا على المقدمة وأطراف الزجاج الأمامي..

وتأوه (فريدي)..

كان يستعيد وعيه في ألم، وهو يقول:

- ماذا أصابنا؟ أهي صاعقة؟

غمغم (باسل):

- لو أنها صاعقة، فيبدو أنها دمرت كل ما حولنا..

اتسعت عينا (فريدي) في دهشة، وهو يدير عينيه حوله، قبل أن يهتف:

- رباه! ما هذا المكان بالضبط؟
هز (باسل) رأسه نفيا، وهو يقول:
- لست أدرى.. هناك شيء غير مفهوم فيما حدث.
قال (فريدي) في توتر:
- وما الذي حدث بالضبط؟ كل ما أذكره هو أن كرة من اللهب انقضَّت علينا، وبعدها أصابتني صاعقة رهيبة، وأفقت لأجدنا هنا.. كيف فعلت بنا كرة اللهب هذا؟
باغته صوت الدكتور (سيلرز)، وهو يقول في ضعف:
- بل السؤال هو ما طبيعة كرة اللهب هذه؟
التفت الاثنان إلى الدكتور (سيلرز) الذي اعتدل متهالكًا وعدَّل وضع منظاره الطبي على عينيه، وهو يستطرد:
- إنني لم أقرأ أو أسمع أو أرى شيئا كهذا قط.
ثم حدق في الصحراء المحيطة بهم بدوره، قبل أن يهتف:
- أين ذهب منزلي؟!
جاوبه صمت تام، أطبق على السيارة، والجميع يحاولون استيعاب الموقف، قبل أن يقطع (باسل) هذا الصمت، وهو يعتدل ويمسك مفتاح السيارة، قائلا:
- فليكن.. سنؤجل البحث عن التفسير لما بعد، أما الآن فسنحاول الخروج من هنا.
قالها، وهو يدير المفتاح، و..
ولكن المحرك لم يستجب قط..
لقد ظل صامتا ساكنا، وكأنما فقدت السيارة كل طاقتها، ولم تعد قادرة على تشغيله..
وفي حنق، هتف (فريدي)
- هذا ما كان ينقصنا.
تنهد الدكتور (سيلرز)، وهو يقول:

- سيفوتنا المؤتمر الصحفي.
صاح (فريدي) مستنكرا:
- أهذا كل ما يقلقك؟
هتف الدكتور (سيلرز):
- هل تحاول الحجر على تفكيري؟
كادا يشتبكان في مشاجرة كلامية، لولا أن اندفع (باسل) يهتف:
- لحظة.. الموقف لا يحتمل هذه التصرفات.. إننا نواجه مشكلة، والمفترض أن نتكاتف لتجاوزها، لا أن نصنع عددا من المشكلات الجديدة.
صمت الاثنان إثر كلماته، ثم فتح الدكتور (سيلرز) الباب، وقال:
- فليكن.. هيا بنا
غادر الثلاثة السيارة، ووقفوا يديرون رءوسهم فيما حولهم، في محاولة لتحديد الاتجاه الذي سيتخذونه، قبل أن يقول (باسل):
- لقد كنا نتجه إلى الطريق الرئيسي، عندما وقع الحادث.. دعونا ننطلق إذن.
قاطعه هتاف الدكتور (سيلرز):
- انظرا هناك.
استدار الاثنان إلى حيث يشير، ولاحظ (باسل) كرات من الدخان تتصاعد من خلف جبل قريب، على نحو منتظم، فسأل في اهتمام:
- ما هذا بالضبط؟
أجابه الدكتور (سيلرز):
- إنها رسالة دخان، من ذلك النوع الذي يجيده الهنود الحمر القدامى، ولكن...
صمت لحظة في حيرة، قبل أن يستطرد:

- ولكن أحدا لم يعد يفعل هذا منذ عشرات السنين.
عقد (باسل) حاجبيه، وهو يقول:
- ربما كانت وسيلة لجذب السياح.
صمت الدكتور (سيلرز) لحظة أخرى، قبل أن يعدل منظاره مغمغما في قلق واضح:
- نعم.. ربما!
رفع (فريدي) آلة التصوير إلى عينيه، وهو يقول:
- على كل الأحوال، الأمر يستحق التصوير.
وبدأ يلتقط صور رسالة الدخان، فابتسم (باسل) قائلا:
- لا فائدة.. لن يوقفك أي شيء عن مواصلة عمـ..
بتر عبارته بغتة، والتقى حاجباه في شدة، فهتف به الدكتور (سيلرز) في قلق:
- ماذا هناك؟
لوح (باسل) بكفه، قائلاً:
- لست أدرى.. أعتقد أن..
ثم انحنى بسرعة، وألصق أذنه بالأرض، وبدا عليه الاهتمام الشديد، فهتف الدكتور (سيلرز) في دهشة:
- ما الذي يفعله بالضبط؟
هز (فريدي) رأسه في حيرة، وقال:
لست أدرى، ربما يحاول سماع دبيب النمل.
ولكن (باسل) اعتدل دفعة واحدة، وهو يقول في توتر:
- هناك جياد تقترب منا.. عدد كبير.. حوالي سبعة أو تسعة جياد.. يقودها فرسان مدربون وحوافرها ليست مزودة بالحدوة التقليدية.
هتف الدكتور (سيلرز) مبهورا:
- هل أخبرتك الأرض بكل هذا؟

أما (فريدي) فسأله في لهفة:
- من أي اتجاه تأتى الجياد؟
أجابه (باسل) مشيرا بيده:
- من الغرب.
لم يكد يتم عبارته، حتى ظهرت الجياد السبعة، من خلف جبل بعيد، وعلى متنها فرسان من نوع عجيب..
من الهنود الحمر..

وعندما انطلقت صيحاتهم القتالية، تراجع الدكتور (سيلرز) في ارتياع، وهو يهتف:

- ما هذا؟! جزء من البرنامج السياحي؟!

بدأ التوتر على وجه (باسل)، في حين راح (فريدي) يلتقط الصور في لهفة، وهو يقول في انفعال:

- رائع.. رائع.. إنه مشهد نادر بالفعل.. لم أكن أعلم أنهم يصنعون البرامج السياحية بهذه الروعة.
ولكن (باسل) كان له رأى آخر..
فهؤلاء الهنود الحمر كانوا ينطلقون نحوهم في براعة مدهشة، والصرامة المرتسمة على ملامحهم مع الريش الذي يزين رءوسهم، والنقوش الكثيفة على صدورهم، كلها كانت تعنى أنهم جادون..
جادون للغاية..
وبالفعل، بدأ الهنود يطلقون سهامهم ورماحهم نحو (باسل) ورفيقيه، فصرخ الدكتور (سيلرز):
- رباه!! إنهم يهاجموننا..
وعندما انغرز رمح قوى على مسافة متر واحد من (فريدي)، أدرك الثلاثة أنهم يواجهون مصيرا واحدا لا غير..
القتل.

☆ ☆ ☆

جذب (باسل) الدكتور (سيلرز) من يده في قوة، وهو يصرخ:
- اركض يا (فريدي).. اركض بكل قوتك..
لم يكن (فريدي) بحاجة إلى هذا الهتاف فعليا، فقد انطلق يعدو بكل قوته بالفعل، فور إدراكه أن الهجوم الهندي حقيقي، ولكن الجياد القوية كانت تقترب من الثلاثة بسرعة مدهشة، وليس هناك ما يمنع الهنود الحمر من إطلاق سهامهم عليهم من هذه المسافة القصيرة، وإصابتهم بمنتهى الدقة، و...
وفجأة دوي صوت الرصاصات في المكان..
وسقط هندي أحمر، ثم ثان..
فثالث..

وتوقف (باسل) ورفيقا في توتر بالغ، وقد حوصروا بالسهام الهندية والرصاصات، ولكن الهنود تراجعوا بسرعة، وكأنهم أدركوا أن الجانب الآخر صار أكثر قوة، وابتعدوا وهم يطلقون نفس الصرخات القتالية، بعد أن حملوا قتلاهم

وعاد (فريدي) يلتقط الصور في لهفة، وهو يهتف:

- نجونا.. نجونا..

ولم يجبه (باسل) أو الدكتور (سيلرز)، فقد تركز بصرهما على ثلاثة من رعاة الأبقار الأمريكيين، اقتربوا على متون جيادهم، وهم يمسكون مسدساتهم، وأحدهم يحمل بندقيته..

وغمغم الدكتور (سيلرز) في عصبية:

- قل لي يا (باسل): هل اشتركنا سهوا في أحد أفلام رعاة الأبقار؟!

لم يجبه (باسل)، الذي راح عقله يعمل في سرعة وتوتر، محاولا التوصل إلى تفسير منطقي لما يحدث، في حين فغر (فريدي) فاه، عندما وقع بصره على رعاة الأبقار الثلاثة، وهتف بدوره:

- ما هذا بالضبط؟! برنامج سياحي آخر؟

جاوبه صمت ثقيل، والعيون تحدق في رعاة الأبقار الثلاثة الذين اقتربوا كثيرا، قبل أن يتوقفوا، ويسأل أحدهم في خشونة:

- ماذا تفعلون هنا؟ من أنتم؟ وما هذه الثياب الغريبة التي ترتدونها؟ ثم ما هذا الشيء؟

ألقى سؤاله الأخير، وهو يشير إلى السيارة، فقال (باسل) في توتر:

- لا تقل لي إنك لم تر سيارة من قبل.

هتف آخر في دهشة:

- لم ير ماذا؟!

انعقد حاجبا الدكتور (سيلرز) في شدة، وهو يعدل منظاره الطبي، قائلا:

- مهلًا أيها السادة.. أنا الدكتور (أرنست سيلرز) وأنا في طريقي لحضور مؤتمر صحفي عالمي، وأرجو أن تعاونوني على الوصول في موعدي؟

تبادل رعاة الأبقار الثلاثة نظرة دهشة، ثم قال أحدهم في صراحة، وهو يعيد مسدسه إلى جرابه:

- دعونا نذهب بهم إلى مستر (إدواردز)، فربما أمكنه فهم حديثهم العجيب هذا

ثم التقط حبلا طويلا، وراح يديره في الهواء، ليصنع منه أشرطة كبيرة، فهتف (باسل):

- لا تحاول هذا.

ولكن الرجل ألقى أشرطته على الدكتور (سيلرز)، فأحاط بها ذراعيه وصدره، وجذبه في خشونة، فصاح (باسل):

- قلت لك لا تحاول هذا.

وقفز يلتقط طرف الحبل، ثم جذبه بكل قوته، فانتزع الرجل من فوق جواده، وأسقطه أرضا، وسط دهشة زميليه، فصرخ الرجل في غضب، وهو ينتزع مسدسه من غمده:

- كيف جرؤت أيها الـ...

قاطعه (باسل) بضربة قوية على معصمه، أطاحت بمسدسه ثم عاجله بلكمة كالقنبلة، وهو يقول:

- لقد حذرتك.

.

وارتفع صوت (فريدي) يهتف:

- احترس يا (باسل).

استدار (باسل) ليواجه ما حذره منه (فريدي) ولمح طرف مسدس، و..

وهوت ضربة عنيفة على مؤخرة عنقه، فمادت به الأرض وترنح، وسقط..
سقط فاقد الوعي، وسط رعاة الأبقار الثلاثة، وأظلمت الدنيا من حوله..

☆ ☆ ☆

«إنكم تثيرون دهشتي بالفعل أيها السادة»
تسللت تلك العبارة إلى أذنى (باسل)، وهو يستعيد وعيه، وشعر بصداع رهيب يكتنف رأسه، ظل مسترخيا في رقاده، وسمع صاحب العبارة يستطرد:
- كل شيء فيكم يثير حيرتنا وقلقنا، فذلك الشيء الذي تطلقون عليه اسم (السيارة) لم نر مثله قط، وكل ما بداخله عجيب غريب.. وحتى الثياب التي ترتدونها، مصنوعة من أقمشة غير مألوفة، وناعمة إلى حد مدهش..
فتح (باسل) عينيه.. والدهشة تملأ نفسه، وحدق في حيرة في المكان الذي يرقد داخله..
كانت قاعة تشبه إلى حد كبير، ذلك الذي يراه في أفلام الغرب القديمة، التي تستعرض حياة رعاة الأبقار..
جدران خشبية، ومدفأة كبيرة، وبنادق معلقة على الجدران وفراء حيوانات، وموائد ضخمة ثقيلة، وأربعة من رعاة الأبقار بينهم رجل ضخم الجثة، أشيب الشعر يتحدث إلى الدكتور (سيلرز) و (فريدي) ويتابع:
- حتى قصتكم، والألفاظ التي تستخدمونها تثير حيرتنا، فلسنا ندرى ماذا تقصدون بالمؤتمر الصحفي والأمصال، وهذه المصطلحات العجيبة التي لم نسمع مثلها من قبل قط.
قال (فريدي) في توتر:

- كيف هذا يا رجل؟ ألا تغادر مزرعتك هذه قط؟! ألا تمتلك حتى جهاز تلفزيون؟!

ارتفع حاجبا الرجل في دهشة، هاتفاً:

- جهاز ماذا؟

اعتدل (باسل) جالسا، وهو يقول:

- تليفزيون يا رجل.. ذلك الصندوق الذي تتتابع الصور على شاشته الفضية.. ألم تسمع عنه قط؟

انتزع أحد رعاة الأبقار مسدسه، وصوبه بسرعة إلى (باسل) الذي التفتت إليه عيون الجميع، ولكن الأشيب قال في حزم:

- اخفض مسدسك.. إنه أعزل.

انتبه (باسل) في هذه اللحظة فقط، إلى أنه يرتدى ثوب رعاة أبقار خشنا بدلاً من ثوبه الوطني، ويبدو أن الأشيب لاحظ هذا، فقال في غلظة:
- لقد أعرناك أحد ثيابنا، حتى يتم إصلاح ثوبك، فقد تمزق جزء منه واتسخ الباقي مع سقوطك أرضا..
أما الدكتور (سيلرز)، فقد هتف مبهورا:
- هل سمعت هذا يا (باسل)؟ يبدو أن هؤلاء القوم منعزلون للغاية.. إنهم لم يسمعوا قط عن السيارة، أو التليفزيون.. بل إن آلة التصوير التي يحملها (فريدي) أدهشتهم للغاية!
شعر (باسل) بدهشة حقيقية، وهو يقول:
- إلى هذا الحد!
وهز (فريدي) رأسه في حيرة، وهو يضحك في ارتباك قائلاً:
- هؤلاء أعجب قوم رأيتهم في حياتي يا (باسل).
أجابه الأشيب الضخم في حدة:
- بل نحن قوم طبيعيون يا هذا.. أنتم الذين ينبغي وصفكم بالعجب والغرابة، فأنا (إدواردز).. صاحب أكبر مزرعة في المنطقة، وهؤلاء أبنائي، والجميع يعرفوننا.. الطبيب والمأمور، وكل سكان البلدة، أما أنتم فمن يعرفكم؟
قال الدكتور (سيلرز):
- إذن فهناك بلدة، وفيها طبيب ومأمور.. عظيم.. دعونا نذهب إليها إذن، وسنتصل هاتفيا، لنبلغ مستر (ويست) أننا ضللنا طريقنا، وهو سيرسل من يلتقطنا.
تبادل الرجال نظرة دهشة أخرى، قبل أن يسأل (إدواردز) في حيرة:
- وما هذا الهاتف؟!
هتف (فريدي):

- هل تجهلون الهاتف أيضا؟!
قفزت فجأة فكرة عجيبة إلى رأس (باسل)، فقال بسرعة:
- مهلا يا سادة.. يبدو أننا ننتمي إلى مجتمعين مختلفين تماما..
سأله الدكتور (سيلرز)
- ماذا تقصد يا (باسل)؟
أجابه (باسل) في انفعال واضح:
- حاول أن تنظر إلى الأمر من زاوية جديدة، وستفهم ما أعنيه يا دكتور (سيلرز)، ولكن دعني ألق أولا سؤالا على مستر (إدواردز).. قل لي يا مستر (إدواردز).. في أي عام نحن؟
بدت الدهشة على وجه الرجل، وهو يجيب:
في عام ١٧٨٥م بالطبع.
وكان الجواب مفاجأة..
مفاجأة مذهلة

☆ ☆ ☆

٣- الماضي المجهول..

لثوان، ران على المكان صمت رهيب، وارتسم ذهول بلا حدود على وجهي (فريدي) والدكتور (سيلرز)، قبل أن يهتف الأخير في انزعاج شديد:

- ماذا تقول يا رجل؟ لسنا بالتأكيد في عام ١٧٨٥م..

إننا في منتصف تسعينات القرن العشرين، ولن يمكنك إقناعي أبدا بـ...

أوقفه ذلك الانفعال العجيب، الذي ارتسم على وجوه (إدواردز) وأبنائه، وهتاف أحدهم الذاهل:

- تسعينات ماذا؟!

اتسعت عينا الدكتور (سيلرز) في هلع، وأدار بصره في كل ما يحيط به في ذعر، في حين ردد (فريدي) في ذهول:

- عبر الزمن.. لقد انتقلنا إذن عبر الزمن.. رباه!! هذا ما يحدث في أفلام الخيال العلمي.. لقد نقلتنا كرة اللهب العجيبة إلى الماضي لأكثر من قرنين من الزمان..

هتف الدكتور (سيلرز):

- هذا يفسر كل شيء إذن.. الصدمة واختفاء المنزل، وكل ما يحيط بنا.. حتى دهشة هؤلاء السادة..

تبادل مستر (إدواردز) نظرة حائرة مع أولاده، قبل أن يقول:

- معذرة، ولكننا لا نفهم شيئا مما تقولون.

أمسك الدكتور (سيلرز) كتفيه في انفعال، وهو يقول:

- هذا أمر طبيعي يا رجل.. أنت لا تفهم حديثنا لأنك تسبقنا بأكثر من مائتي عام.. لقد عاد بنا الزمن إلى الخلف في واقعة تعد الأولى من نوعها.. لقد تحقق ما تنبأ به (أينشتين)، عندما ذكر في

نظريته أن الزمن نسبي، وأنه من الممكن أن يسير فيه المرء إلى الأمام أو الخلف، إذا ما وجد الطاقة المناسبة لهذا.
غمغم (إدواردز) في حيرة أشد:
- ومن (أينشتين) هذا؟
أطلق الدكتور (سيلرز) ضحكة انفعالية قصيرة، قبل أن يقول:
- (أينشتين) يا رجل.. (ألبرت أينشتين).. ذلك العالم الفيزيقي الألماني، الذي وضع نظرية النسبية، والذي مات عام ١٩٥٥م
فغر الرجل فاه في ذهول، قبل أن يهتف في عصبية:
- كيف مات في عام 1955م وما زلنا في عام 1785م؟!
مط الدكتور (سيلرز) شفتيه، قبل أن يقول في مرح:
- إنها مسألة عويصة، يطول شرحها يا رجل، ولكنني أعدك أن أبذل قصارى جهدي لتفسيرها لك، قبل أن نعود إلى زمننا، و....
امتقع وجهه بغتة، واتسعت عيناه في هلع، وهو يستطرد:
- رباه! ولكن كيف نعود إلى زمننا؟
عاد ذلك الصمت الرهيب يخيم على المكان، وتبادل (باسل) و (فريدي) والدكتور (سيلرز) نظرة متوترة، قبل أن يقول (باسل):
- نعم أيها السادة.. هذا هو السؤال..
وبقي قوله معلقا في فضاء القاعة العتيقة بلا تعليق..
وبلا جواب.

☆ ☆ ☆

هبط الليل على المزرعة القديمة، في تلك البقعة المقفرة من الغرب، واستند (فريدي) بظهره إلى قائم خشبي، عند حظيرة الخيول، وهو يردد في مرارة:
- ولكن هذا مستحيل! مستحيل!
سأله (باسل) في خفوت:
- ماذا بك؟

أجابه (فريدي) في حدة، وهو يلوح بآلة التصوير:
- لا يمكنني تصديق هذا.. لا يمكنني أن أهضم أبدا أننا غادرنا زمننا إلى غير عودة.. هذا يبدو طريفا ومثيرا في أفلام وروايات الخيال العلمي، ولكنه مفزع للغاية، عندما يتحول إلى واقع.. كيف يمكنك أن تتصور أنك ستفارق الأهل والأقارب والزملاء والأصدقاء إلى الأبد؟! كيف تستوعب فكرة البقاء في عصر لا تنتمي إليه، ولا ينتمي إليك.. عصر يفتقر إلى كل ما اعتدت وجوده من حولك.. لا كهرباء أو مياه نقية أو سيارات، أو أجهزة تليفزيون، أو راديو.. بل ولا حتى ساعة تعرف بها الوقت؟
وزفر في عصبية، قبل أن يضيف:
- هذا لو أنه هناك قيمة للوقت.
عقد (باسل) حاجبيه، وهو يقول:
- الواقع أنني لا أستطيع استيعاب الفكرة بأكملها يا (فريدي)، فكيف يمكن لشخص ما أن يسافر عبر الزمن، ويصل إلى زمن يسبق مولده؟! ما الذي يمكن أن يحدث لو أن هذا الشخص أساء إلى وجوده بتصرف ما؟! هل يموت قبل أن يولد؟! كلا يا صديقي.. لست أهضم هذه الفكرة أبدا..
تنهد (فريدي) ولوح بكفه قائلا:
- الأكثر إثارة للفزع هو أنها لم تعد مجرد فكرة يا (باسل) لقد صارت واقعا.. أصبحت حلما يتمنى المرء أن يستيقظ منه.. بل كابوسا.. أبشع كابوس عشته في حياتي يا (باسل)..
لم يعلق (باسل) على عبارته هذه، وهو يدير عينيه فيما حوله في بطء متوتر..
كان هناك شيء لا يروق له، في الأمر برمته..
صحيح أن (إدواردز) وأبناءه تركوهم يتحركون ويجولون في حرية، داخل حدود المزرعة، إلا أن شيئا ما في أعماقه يشعره

كأنه تحت مراقبة شديدة..
مراقبة خفية، يعجز عن تحديد موقعها، وإن رصدتها أعماقه في شدة..
وفي شيء من التوتر، سأله (فريدي):
- أين الدكتور (سيلرز)؟
أشار (باسل) بيده، قائلا:
- يتحاور مع (إدواردز) في الداخل، ويحاول إقناعه بفكرة الانتقال عبر الزمن.
هز (فريدي) كتفيه، وكأنما الأمر لا يعنيه، ونهض قائلاً:
- دعه يحاول.. أنا سأقوم بجولة في المكان، فربما ساعدني هذا على التغلب على ذلك الملل الرهيب، الذي يملأ نفسي.
سأله (باسل) مبتسما:
- هل ستلتقط بعض الصور؟
ابتسم (فريدي) في أسى، وهو يقول
- وما الفائدة؟! لن يرى الفيلم النور، في زمن يسبق اختراع آلة التصوير نفسها بقرن كامل تقريبا.
قالها وسار يائسا حزينا، فتابعه (باسل) ببصره في أسف قبل أن يتمتم:
- من يدري يا (فريدي)؟ ربما كانت الأمور تُخفى أكثر مما تُظهر.
ثم اتجه إلى المنزل الكبير، ليتابع حوار الدكتور (سيلرز) مع (إدواردز).
أما (فريدي)، فقد سار حول المزرعة في ضجر وملل، وراح يركل الحصى والأحجار الصغيرة في سخط، وهو يقول لنفسه:
- ها هي ذي نهايتك يا (فريدي).. كنت تحلم بالفوز بجائزة (بوليتزر) أعظم جوائز عالم الصحافة، فإذا بك تجد نفسك في زمن آخر، لا يعرف الصحافة نفسها..

زفر مرة أخرى في مرارة، وواصل طريقه، حتى بلغ بناءً خشبيا صغيرا، حمل بابه قفلا معدنيا كبيرا، جعله يبتسم في سخرية مريرة، قائلا:

- تُرى ما الذي يوجد في هذا العصر، ويستحق قفلا كهذا لحمايته؟! إنني لا أستخدم مثله في الـ...

بتر عبارته بغتة، وهو يحدق في القفل، ثم انحنى يفحصه في اهتمام، قبل أن يهتف:

- مدهش؟! هذا يقلب الأمور كلها رأسا على عقب..

ثم اعتدل وتلفت حوله في انفعال، وكأنما يتيقن من أن أحدًا لا يراقبه، قبل أن يعود لفحص القفل، ويخرج من جيبه مصباحا يدويا صغيرا يضيء به القفل، ويتمتم:

- نعم.. لقد كنت على حق.. إنه مصنوع من الصلب، وهذا اسم الشركة على القاعدة وتاريخ الصنع، و...

تملكه انفعال جارف، فتألقت عيناه في حيوية، واعتدل يهتف:

- (باسل).. (باسل).. لن تصدق ما عثرت عليه..

وانطلق يعدو عائدا إلى المنزل الكبير، ولكنه لم يكد يقطع عدة أمتار، حتى سمع صوتا يهتف من خلفه:

- إلى أين؟

استدار (فريدي) بسرعة إلى مصدر الصوت، ورأى السهم المصوب إلى صدره، فصرخ بكل قوته:

- النجدة يا (باسل).. النجـ..

ولكن السهم لم يمهله..

لقد انطلق نحو الهدف..

وبمنتهى الدقة.

☆ ☆ ☆

تنهد الدكتور (سيلرز) في قوة، وهو يواجه (إدواردز)، قائلا في شيء من الضجر واليأس:
- حسنٌ.. إنني أستسلم.. لن يمكنني إقناعك بالنسبة الزمنية قط.. إنك تحتاج إلى قرن كامل من الزمان، حتى يمكنك استيعاب هذا.
قال الرجل في غضب:
- ماذا تعني؟ هل تتهمني بالغباء؟!
أجابه الدكتور (سيلرز) بسرعة:
- مطلقا.. كل ما في الأمر أن الفكرة أصعب من أن يستوعبها أي شخص عادي في زمني، فما بالك بمزارع في زمنك.
زمجر الرجل في غضب مرة أخرى، فتدخل (باسل)، قائلا:
- الدكتور (سيلرز) لا يقصد أي سوء.. إنه خلاف فلسفي فحسب.
قال الرجل في دهشة مستنكرة:
- خلاف ماذا؟
لوح الدكتور (سيلرز) بيده، وقال:
- لا عليك.. لن يفهم أحدنا الآخر أبدا..
عقد (إدواردز) حاجبيه الأشيبين الكثين في غضب، وتراجع في مقعده، قائلا:
- فلتكن من ذلك المستقبل المزعوم، ونحن مما تطلق عليه اسم الماضي، ولكن المهم أنني نجحت في إنشاء مزرعة قوية وفي تربية ثلاثة رجال أشداء، فما الذي فعلته أنت؟
أجابه الدكتور (سيلرز)، في اعتزاز:
- أنا صنعت أول مصل مضاد لفيروس (الإيدز).
قال (إدواردز) مستنكرا:

- لماذا؟! لا أحد يعرف هذا الشيء الذي تتحدث عنه يا رجل، ولا أحد يهتم به.
قال الدكتور (سيلرز) في حدة:
- ربما كان هذا صحيحاً في زمنك، ولكن في زمني أنا...
قاطعه (إدواردز) ساخرا:
- وهل ستعود إلى زمنك هذا؟
شحب وجه الدكتور (سيلرز)، واحتبست الكلمات في حلقه وزاغ بصره لحظة، قبل أن يغمغم بصوت متحشرج:
- رباه! كيف لم أنتبه إلى هذا؟!
لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفعت صرخة (فريدي)، وهو يستنجد بصديقه (باسل) ثم انقطعت بغتة بشهقة مكتومة، فوثب (باسل) من مكانه، واندفع خارجا، وهو يهتف:
- (فريدي).
انطلق بأقصى سرعته نحو مصدر الصرخة، واتسعت عيناه في ارتياع، عندما رأى (فريدي) ملقى أرضا، وقد انغرس سهم هندي طويل في صدره، وجحظت عيناه في رعب..

وقبل أن يندفع (باسل) نحوه، سمع أحد أبناء (إدواردز) يهتف به:

- استلقِ أرضا يا فتى.. إنهم هنا..

ألقى (باسل) جسده أرضا، وهو يسأله:

- من هؤلاء؟

أجاب الشاب وهو يزحف أرضا:
- الهنود.. الهنود الحمر.. لقد باغتونا بالهجوم.
زحف (باسل) في سرعة، حتى بلغ (فريدي)، وقال له في توتر:
- (فريدي).. ماذا أصابك؟
كان المصور يرتجف في شدة، ولكن عينيه الجاحظتين التفتتا نحو (باسل)، قبل أن يتمتم:
- قفل يا (باسل).. قفل من الصلب.. عثرت على قفل من الصلب..
انعقد حاجبا (باسل) وهو يهتف:
- الصلب؟!
أطلق (فريدي) شهقة عنيفة، انتفض معها جسده كله ثم تراخي جثة هامدة، فاعتصر الألم قلب (باسل)، وهو يغمغم:
- يا للمسكين!
وتلا بعض الآيات القرآنية، وهو يغلق عينيه في رفق، قبل أن يصل الدكتور (سيلرز)، ويهتف فزعا:
- هل.. هل مات؟
أجابه (باسل) في أسي:
- نعم.. لقد قتلوه بلا رحمة، ومات قبل أن يحقق أحلامه..
ارتجف الدكتور (سيلرز)، وهو يردد:
- نعم.. قبل أن يحقق أحلامه..
ثم أمسك يد (باسل) في قوة، مستطردا:
- اسمع يا (باسل).. أريد منك خدمة..
سأله (باسل) في توتر:
- ماذا تريد يا دكتور (سيلرز)؟ أنا رهن إشارتك.
أجابه الرجل، وهو يرتجف:

- أريد منك أن تبذل قصارى جهدك، للبحث عن شخص يمكنه استيعاب كيفية صنع وتركيب المصل المضاد لفيروس (الإيدز) في هذا العصر.. ما دمنا قد انسلخنا من عصرنا وعدنا إلى الماضي، فلا بد أن نستغل هذه الفرصة النادرة لنحارب فيروس (الإيدز) قبل أن يبدأ هجومه الشرس.. هل تدرك مدى روعة هذا يا (باسل).. سنودع التفاصيل لدى شخص مؤتمن في هذا العصر، وعندما يظهر فيروس (الإيدز) في ثمانينيات القرن العشرين، ستكون تركيبة المصل المضاد له جاهزة، هذه هي الحكمة في عودتنا إلى الماضي يا (باسل).

عقد (باسل) حاجبيه، وهو يقول:

- كلا يا دكتور (سيلرز).. احتفظ لنفسك بهذه التفاصيل.

انتزع الرجل ساعته، وقال في توتر:

- مستحيل! إنها فرصتي الوحيدة لتحقيق ما كنت أحلم به قبل أن تنتهي حياتي في هذا الزمن، بسهم هندي آخر.

وفي سرعة وخفة، أزاح المظروف الخلفي للساعة والتقط من أسفله (ميكروفيلم) دقيقا، ناوله (باسل) مستطردا:

- خذ.. هذه هي كل المعادلات والتفاصيل، والشرح الكامل لتركيب وطريقة صنع المصل، خذها وابحث عن الـ.....

قاطعه (باسل) في عصبية شديدة:

- ماذا فعلت يا رجل؟ لقد أعطيتهم ما يريدون..

تراجع الدكتور (سيلرز) في دهشة، وهو يقول:

- أعطيتهم ماذا؟

أجابه (باسل) في انفعال:

- ألم تفهم الأمر بعد يا رجل؟ إنها خدعة.. كل ما حولنا مجرد خدعة كبيرة.. أعدوها ونفذوها بمنتهى الدقة، حتى يمكنهم أن يحصلوا على هذه التفاصيل الدقيقة..

شحب وجه الدكتور (سيلرز)، وهو يهتف:
- خدعة؟! ولكن هذا مستحيل يا (باسل)! كل شيء حولنا يؤكد أننا قفزنا إلى الماضي.
أجاب (باسل):
- ألم أقل لك: إنها خدعة متقنة للغاية؟! لقد صنعوا كل شيء بحرفية شديدة.. المكان والثياب والأدوات، وحتى أدوات الخياطة وأطباق المائدة.. كل شيء تمت دراسته بدقة مدهشة، حتى نقتنع تماما بأننا عبرنا الزمن إلى القرن الثامن عشر.. كل شيء فيما عدا ذلك القفل، الذي ذكره (فريدي) قبل أن يموت.. القفل المصنوع من الصلب.
قال (إدواردز) في عصبية:
- وما المشكلة في وجود قفل من الصلب؟
التفت إليه (باسل) مجيبا في صرامة:
- المشكلة أن الصلب ليس معدنا في حد ذاته، ولكنه سبيكة صناعية لم يتم إنتاجها إلا مع بدايات العصر الصناعي، عندما صنعوا الأفران الضخمة، والسبائك الحديثة، وليس في عام ١٧٨٥م أبدا..
احتقن وجه (إدواردز) في شدة، ثم استدار إلى أحد أبنائه، وهوى على وجهه بصفعة قوية، وهو يقول:
- أيها الغبي.. كان ينبغي أن تنتبه إلى هذا..
تراجع الدكتور (سيلرز) مصعوقا، وهو يهتف:
- إذن فكل هذا..
قاطعه صوت ساخر، يقول:
- نعم يا دكتور (سيلرز).. كل هذا مجرد خدعة.. أذكى خدعة في التاريخ.

استدار الجميع إلى مصدر الصوت، وأطلق الدكتور (سيلرز) شهقة عنيفة، فقد كان ذلك الواقف أمامه هو آخر شخص يتوقع رؤيته في مثل هذا المكان.
آخر شخص على الإطلاق.

☆ ☆ ☆

٤- المفاجأة..

على الرغم من الدهشة العارمة التي أصابت الدكتور (سيلرز) وهو يحدق في وجه (دونالد ويست)، ظل (باسل) هادئا للغاية، وكأنه كان يتوقع هذا، وهو يقول:

- أهنئك يا مستر (ويست).. الخدعة كانت متقنة إلى حدٍ كبير، ولكن الكمال لله (سبحانه وتعالى) وحده.. الشيء الوحيد الذي يملأ نفسي غضبا، هو أنك تسببت في مقتل (فريدي) المسكين.

هز (ويست) كتفيه في لا مبالاة، وهو يقول:

- لقد دس أنفه فيما لا يعنيه، فنال ما لا يرضيه.

وهنا هتف الدكتور (سيلرز) مبهورا:

- ولكن كيف؟! كيف فعلت كل هذا؟ لقد شاهدنا كرة اللهب التي انقضَّت علينا، وشاهدنا آثار الاحتراق التي تركتها على السيارة، وشعرنا بالصدمة، و..

قاطعه (باسل) في حزم:

- لا تجعل كل هذا يبهرك يا دكتور (سيلرز)، فكرة اللهب لم تكن سوى صورة هولوجرامية مجسمة ذات ثلاثة أبعاد، يتم صنعها باستخدام أشعة الليزر، المنعكسة على أسطوانة خاصة بحيث تبدو للناظر حقيقية، في حين أنها مجرد وهم علمي مدروس، وآثار الاحتراق التي رأيتها على مقدمة السيارة، تم صنعها باستخدام مشعل عادي، أما تلك الصدمة التي أصابتنا داخل السيارة فهي أبسط جزء من الخطة، إذ يكفي توصيل أسلاك كهربية إلى المقاعد، ثم تشغيل التيار بجهاز تحكم عن بعد (ريموت كنترول)، وبعد أن نفقد وعينا من أثر الصدمة تحملنا شاحنة إلى هنا، حيث تم ترتيب الأمر وإعداده بمنتهى الدقة، لإقناعنا بفكرة الانتقال عبر الزمن هذه.

تألقت عينا (ويست)، وهو يهتف:
- مدهش.. عقليتك علمية ومرتبة للغاية..
أما الدكتور (سيلرز)، فقد بدا مصدوما، وهو يقول:
- ولكن لماذا؟! لماذا كل هذا؟!
أجابه (باسل):
- حتى يمكنهم الانفراد بالسر يا دكتور (سيلرز).. سر المصل الجديد.
قال الرجل في دهشة:
- ولكنهم أنفقوا الملايين حتما، لتنفيذ هذه الخدعة!!
أجابه (ويست) هذه المرة، وهو يضع كفيه في جيبي معطفه، ويبتسم في ظفر:
- الملايين لا تساوي شيئا، أمام المليارات التي ستتحقق لمن يفوز بالسر.
قال الدكتور (سيلرز) في حنق:
- ولكنك ملياردير بالفعل يا (ويست).
هز (ويست) كتفيه، وقال:
- وماذا يضيرني لو حصلت على المزيد؟
قلب الدكتور (سيلرز) شفتيه في امتعاض وازدراء، وهو يقول:
- يا للحقارة!
قهقه (ويست) ضاحكا في جذل، وكأنما امتدحه (سيلرز)، فسأله (باسل) في غضب ساخط:
- قل لي يا (ويست): لماذا أقحمتني في هذه العملية؟
أجابه الرجل في زهو:
- للسبب الذي أخبرتك به في البداية يا (باسل).. كنت أحتاج إلى شخص يمكن أن يثق به (سيلرز).. شخص معروف ارتبط اسمه

في الآونة الأخيرة بالعلم والخيال.. شخص نظيف كما يقولون في عالمنا.
ثم أطلق ضحكة ساخرة، قبل أن يضيف:
- كما أن وجود شخص ذكي مثلك، يضفي على اللعبة متعة أكبر بالتأكيد.
قال (باسل) في غضب:
- يا للحقارة!
عاد الملياردير الأمريكي يقهقه ضاحكا في جذل، قبل أن يشير إلى الدكتور (سيلرز)، قائلا:
- والآن يا عزيزي الدكتور (سيلرز).. أعطني هذا (الميكروفيلم) الظريف، الذي يحوي كل ما نسعى إليه..
بدت المرارة واضحة على وجه الدكتور (سيلرز)، وهو يتطلع إلى (الميكروفيلم) المستقر في راحة يده، قبل أن يمد هذه اليد نحو (ويست)، و..
وفجأة، وثب (باسل) يختطف الميكروفيلم، وهو يهتف:
- لن تحصل عليه أبدا يا (ويست).
صرخ (رونالد ويست):
- امنعوه.. استعيدوا (الميكروفيلم).
انقض (إدواردز) وأبناؤه الثلاثة على (باسل).. ولكن هذا الأخير هوى على فك أقربهم إليه بلكمة ساحقة، ووثب يركل الثاني في معدته، قبل أن يعدو نحو اسطبل الخيول، فصرخ (ويست):
- أطلقوا عليه النار.. اقتلوه قبل أن يفر مع (الميكروفيلم)..
انطلقت الرصاصات خلف (باسل)، ولكنه قفز داخل الاسطبل، وهو يقول في شيء من السخرية:
- ليس من الضروري أن تربح دائما يا (ويست)، فحتى العمالقة يخسرون معاركهم أحيانا..

كانت الجياد ثائرة، مع دوى الرصاصات، ولكن (باسل) انتقى جوادا أبيض قوى الصدر نحيل البطن، سميك العنق كبير الذيل، ووثب على متنه، هاتفا:

- هيا يا صديقى.. دعنا نثبت لهم أن العرب هم أعظم الفرسان.

ولكز الجواد بكعبيه، وهو يجذب عنانه، فأطلق الجواد صهيلا قويا، علا فوق دوى الرصاصات، وضرب الهواء بقائمتيه، قبل أن ينطلق عبر باب الاسطبل، وقد انحنى (باسل) فوقه، حتى التصق بظهره، وهو يرتدى ثياب رعاة الأبقار التي أبدلوها بثوبه في أثناء غيبوبته..

وفي ذعر، هتف (رونالد):

- لا تطلقوا النار على الجواد.. إنه يساوى ثروة..

تراجع الرجل في تردد، وخشي كل منهم أن يطلق النار على (باسل)، فتصيب رصاصته الجواد، في حين انطلق (باسل) بكل ثقة، متجها نحو أسوار المزرعة، وعندما بلغها صاح بالجواد:
- حانت لحظة الزهو يا صديقي.
وانصاع الجواد لفارسه على الفور، فوثب متخطيا الأسوار وثبة رشيقة رائعة جعلت (إدواردز) يهتف بلا وعى:
- يا له من فارس!
ثم انتبه إلى وجود (ويست)، فاستدرك بسرعة:
- ولكنه لن يفوق فرساننا.
التقط (ويست) الكلمة من بين شفتيه، وصاح في رعاة الأبقار الثلاثة..
- أسرعوا خلفه.. أريد هذا (الميكروفيلم) بأي ثمن.. هل تفهمون؟ بأي ثمن.
وثب الثلاثة على صهوة جيادهم، وانطلقوا خلف (باسل)..
وكانت مطاردة عجيبة، في قلب الليل..
ومن حسن الحظ أن القمر كان بدرا في تلك الليلة، ولكن الصحراء بدت شاسعة متشابهة أمام عيني (باسل)، الذي قال محدثًا نفسه:
- أين تذهب يا (باسل).. كل الأماكن تبدو متماثلة، ولا يوجد طريق للخروج من هنا..
لم يكد يتم حديثه القصير مع نفسه، حتى تناهى إلى مسامعه وقع حوافر الجياد، فالتفت إلى الخلف، ورأى رعاة الأبقار الثلاثة يقتربون منه، فلكز بطن جواده مرة ثانية، وهو يهتف:
- هيا يا صديقي.. ابتعد بنا عن هنا.
كانت أمامه ثلاثة دروب متشابهة، فاختار أقربها إليه في سرعة، وانطلق عبره وخلفه رعاة الأبقار الثلاثة..

ودوت الرصاصات في قلب الليل، ولكن (باسل) أدرك على الفور أنها تنطلق لإرهابه فحسب، وأن أيا منهم لن يجرؤ على إطلاق النار مباشرة، خوفا على الجواد، و...
ولكن فجأة بدت له نهاية الدرب الذي اختاره وخفق قلبه في عنف..
لقد كان طريقه مسدودا في نهايته بصخرة ضخمة رأسية، تمنعه من مواصلة الانطلاق، والفرار من أعدائه..
وكان هؤلاء الأعداء يقتربون أكثر وأكثر..
وفي حسم ودون أن يتردد لحظة واحدة، جذب (باسل) عنان جواده، واستدار يواجه خصومه، ثم هتف في صلابة:
- الآن سنثبت لهم أننا أعظم الفرسان..
وانطلق بجواده في مواجهة أعدائه، الذين أصابتهم دهشة بالغة، لم تلبث أن تحولت إلى ذهول تام، عندما حدثت المواجهة..
وكان من الطبيعي أن يحدث هذا، لأن ما فعله معهم (باسل)..
كان مذهلاً..
مذهلا بحق..
دس (دونالد ويست) كفيه في جيبي معطفه في عصبية واضحة، وهو ينفث غضبه مع أنفاسه في وجه الدكتور (سيلرز)، قائلا:
- هل رأيت ما فعله (باسل) هذا، عندما تأزمت الأمور؟ لقد أثر السلامة، وفر بنفسه، تاركا إياك خلفه..
ابتسم (سيلرز) في سخرية، وقال:
- هذا ما كنت أتمنى أن يفعله بالضبط.. لقد أنقذ (الميكروفيلم) ومنعك من الحصول عليه، وهو يدرك أنك لن تخاطر بقتلي، قبل أن تطمئن إلى وجود (الميكروفيلم) معك.
عقد (ويست) حاجبيه، وهو يقول في حنق:
- ألم يخش أن أجبرك على البوح بالسرّ..

هز (سيلرز) رأسه نفيا، قبل أن يقول:
- (باسل) ذكي كما لاحظت، وسيدرك أنه لو كان بإمكانك إجباري على هذا، لما أنفقت كل هذه الملايين، لتدبير خطة الزمن السخيفة هذه.
تصاعد هدير مروحة هليكوبتر، و (دونالد ويست) يقول في صرامة:
- ربما كان الموت نفسه لا يخيفك يا (سيلرز)، ولكنني واثق من أن وسيلة الموت نفسها تصنع فارقا كبيرا..
بدا القلق يتسلل إلى نفس (سيلرز)، مع ظهور الهليكوبتر واقترابها، و (ويست) يتابع في غضب وحشي:
- سأحملك إلى مكان مجهول يا (سيلرز)، وهناك سأقتطع جزءا من جسدك في كل مرة، وسأذيقك العذاب ألوانا، وأحرق أطرافك بالنار، حتى أحصل على السر.. (دونالد ويست) لا يخسر معركة قط.
شعر (سيلرز) بخوف حقيقي، وهو يلوح بيده، قائلا:
- إنك تخيفني فحسب.. لن تفعل هذا بحق.. إنك لا تستطيع أن تتصرف كوحش حقيقي.
ابتسم (ويست) في سخرية، وهو يقول:
- هل تظن هذا حقا؟
توتر (إدواردز)، قائلا:
- مستر (ويست).. لا يمكن للأمور أن تصل إلى هذا الحد فلم نت..
فجأة ودون سابق إنذار، وقبل أن يتم (إدواردز) عبارته، استلّ (ويست) من جيب معطفه مسدسا، وأطلق النار على رأس راعي البقر الكهل، الذي جحظت عيناه في ألم وذهول، وامتزج الشيب في رأسه ببقع الدم قبل أن يهوى جثة هامدة، فصرخ (سيلرز):

- لقد قتلته.. قتلت (إدواردز) دون أدنى تردد:
- أطلق (ويست) ضحكة مجنونة، وهو يقول:
- هل صدقت الآن أنني أستطيع فعل أي شيء ممكن؟
صاح (سيلرز):
- أنت مجنون.. مجنون..
صوب (ويست) المسدس إليه، هاتفا:
- مجنون وقاتل يا.. (سيلرز).. اسمعني جيدا.. لقد بلغت مدى لا يمكن التراجع بعده.. هيا.. سترحل معي في هذه الهليكوبتر، أو أطلق النار على رأسك بلا تردد..
وأمام هذا التهديد الصريح، لم يعد هناك مجال للاختيار..

☆ ☆ ☆

من المؤكد أن رعاة الأبقار الثلاثة لن ينسوا ذلك المشهد، حتى آخر يوم في أعمارهم.. فقد كانوا يطاردون (باسل)، ولكنهم فوجئوا به يستدير بجواده، ثم ينقض عليهم، وهو يصرخ بكل ما في أعماقه من قوة وإيمان:
- الله أكبر.
لم يكن أحدهم يفهم حرفا واحدا من العربية، ولكن الصيحة زلزلت كيانهم، وأرجفت قلوبهم، وبثت في نفوسهم الرعب، فتراجعوا مذعورين في حين اقتحم (باسل) جيادهم بجواده، الذي أطلق صهيلا قويا بدوره، فتراجعت الجياد الأخرى، وتضاربت قوائمها في الهواء، واختلط الحابل بالنابل وسقط اثنان من رعاة الأبقار من فوق صهوتي جواديهما. في حين فقد الثالث توازنه، وتشبث بالسرج بكل قوته، فجفل جواده، وانطلق هائما في قلب الصحراء..
أما (باسل)، فلم يتوقف لحظة واحدة..

كان أعزل من السلاح وحيدا، ولكن إيمانه بخالقه (عز وجل) جعله أقوى من خصومه الثلاثة المسلحين..
وفي سعادة هتف (باسل)، وهو يعدو بجواده عائدا إلى المزرعة:
- حمدا لله.. حمدا لله.. كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذنه (سبحانه وتعالى)..
أطبقت أصابعه على عنان الجواد، وعلى (الميكروفيلم) في قوة، وواصل انطلاقه نحو المزرعة، في محاولة للحاق بالدكتور (سيلرز)، قبل أن يجبره (ويست) على البوح بسر المصل.
ومن بعيد، لاحت له الهليكوبتر، تحت ضوء القمر، وقد استقرت وسط المزرعة و (ويست) يتجه إليها، وهو يدفع (سيلرز) أمامه ولمح (سيلرز) الفارس القادم فهتف:
- - (باسل).. إنه (باسل).
كان من العسير تمييز القادم، الذي يرتدى زى رعاة الأبقار نفسه، الذي يرتديه الباقون، ولكن (ويست) أدرك بغريزته أن القادم هو (باسل)، فدفع (سيلرز) أمامه في عنف أكبر، وهو يصيح بقائد الهليكوبتر:
- أسرع يا رجل.. اقلع فور ركوبنا
شاهدهما (باسل) يدلفان إلى الهليكوبتر، فحث جواده على الإسراع أكثر، صائحا:
- سيفلت المجرم منا يا صديقي.. أعلم أنني أطالبك بجهد إضافي، ولكن أسرع، وسأمنحك مكافأة كبيرة عندما ننتصر بإذن الله.
بدأت الهليكوبتر ترتفع بالفعل، والجواد يعدو نحوها بسرعة مدهشة، وكأنما أصبح التجاوب بينه وبين فارسه تاما، وعندما أصبحت الهليكوبتر على ارتفاع ثلاثة أمتار، وصل إليها (باسل) بجواده، فصاح بكل قوته:

- الآن يا صديقي الآن.
استجاب له الجواد على الفور، فوثب وثبة رائعة، أضاف إليها (باسل) قفزة أخرى، جعلته يتعلق بالقائم السفلي للهليكوبتر قبل أن يهبط جواده أرضا..
واختل توازن الهليكوبتر، مع ذلك الثقل الإضافي، فمالت على نحو بالغ الخطورة، وصرخ (ويست) بالطيار:
- احترس يا رجل.. إنك تعرضنا للخطر..
لم يكد ينطقها، حتى كان (باسل) يقفز داخل الهليكوبتر، هاتفا:
- لقد وصل الخطر بالفعل.
صوب إليه (ويست) مسدسه، صارخاً:
- لا.. لا تقترب مني.
ولكن (باسل) أزاح المسدس بضربة مباشرة على معصم (ويست)، ثم أعقب هذا بأن هوى على فكه بلكمة ساحقة، قائلا:
- ومن يرغب في الاقتراب من مجرم مثلك؟
تفجر الدم من أنف (ويست)، وهو يصرخ:
- كيف.. كيف جرؤت على...
أخرسته لكمة كالصاعقة من قبضة (باسل)، فهوى على مقعده فاقد الوعي، في حين اندفع قائد الهليكوبتر يبحث عن مسدسه، إلا أنه لم يكد يطبق أصابعه عليه، حتى كانت فوهة مسدس (ويست) تلتصق بمؤخرة رأسه، وسبابة (باسل) على زناده، وهو يقول في صرامة:
- لا تحاول.
ألقى الطيار مسدسه، وهتف:
- لا تطلق النار.. أنا استسلم.. سأفعل كل ما تأمرني به.
تنهد (باسل) في ارتياح، وهو يقول:

- فليكن يا رجلّ.. قدنا إلى أقرب مركز شرطة..
واسترخت أعصابه كلها..

☆ ☆ ☆

انتهى الأمر كله في ساعات معدودة، فقد انهار رعاة الأبقار الثلاثة، بعد مقتل والدهم، واعترفوا بكل شيء بالتفصيل، وتم إلقاء القبض على (دونالد ويست)، بتهمة التآمر والتحريض على قتل المصور (فريدي)، واحتلت هذه الأنباء مانشيتات كل الصحف في (أمريكا).. وعلى رأسها صحف (ويست) نفسه، أما (باسل) فلم يكد ينتهي من التحقيقات والاستجوابات، التي قضى فيها وقتا طويلاً، حتى ربت على عنق الجواد الأبيض، ووضع أمامه جعبة تمتلئ بقطع السكر، وهو يبتسم، قائلاً:
انظر يا صديقي.. هأنذا، بوعدي.
هز الجواد رأسه في قوة، وأطلق صهيلا متصلا، تردد عبر المزرعة كلها، و..
وعبر الزمن..

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- المليارديير..
٢- الزمن..
٣- الماضي المجهول..
٤- المفاجأة..

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

قارون

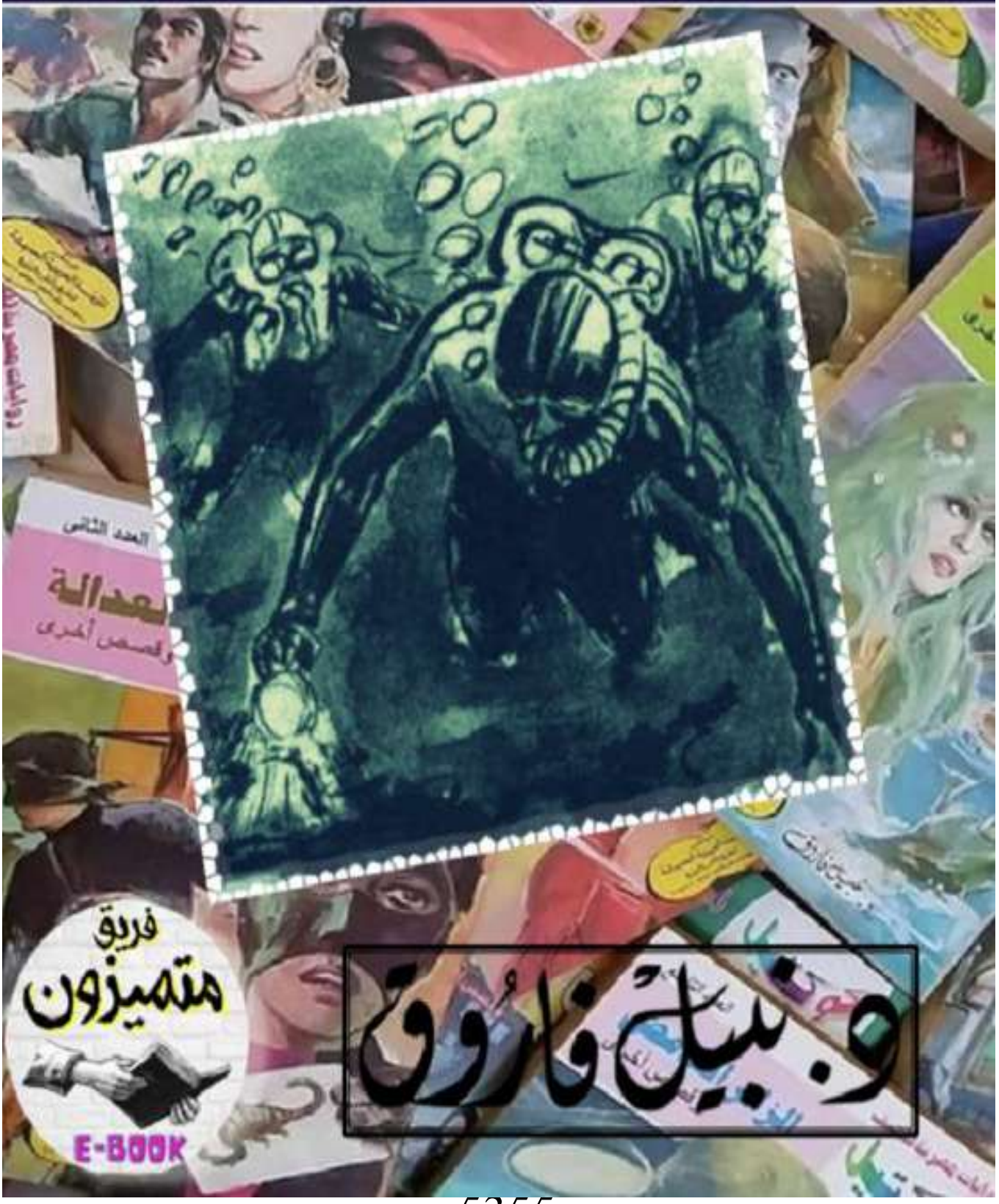

وبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

قارون

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- الاعماق..

«يا للملل!»
غمغم رجل الأعمال (صفوت البرديسي) بالكلمة، في ضجر شديد، وهو يجلس في استرخاء تام، فوق مقعد وثير، في حديقة الفندق السياحي الشهير في (الفيوم) ([1])، وتثاءب في قوة قبل أن يرفع قدميه على المقعد المقابل، وأرخى القبعة القماشية التي يرتديها على عينيه، اتقاء لضوء الشمس، متابعا:
- قل لي بالله عليك، ما الذي أتينا لنفعله هنا؟!
ابتسم شريكه وصديق عمره (عاصم)، وهو يجيب:
- المفترض أننا هنا لتهدئة أعصابنا، والتفكير في وسيلة للخروج من تلك الأزمة المالية.. هل نسيت؟!
مط (صفوت) شفتيه، وهو يقول في حنق:
- وكيف يمكنني أن أنسى شيئا كهذا؟!
ثم خفض قدميه، واعتدل في مجلسه، وهو يتابع في شيء من العصبية:
- لست أدرى كيف حدث هذا.. لقد كنا نسير على ما يرام، وكان المفترض أن تقفز بنا تلك الصفقة الأخيرة إلى القمة ولكن...
بتر عبارته، ليعض شفتيه في مرارة، ويهز رأسه في عصبية، جعلت شريكه (عاصم) يعقد حاجبيه، ويقول في لهجة، حملت على الرغم منه لمحة صارمة:
- لو كان كل شيء يسير على ما يرام، لما حدث هذا،،
استدار إليه (صفوت) بحركة حادة، هاتفا:
- ماذا تعني؟!

انعقد حاجبا (عاصم) أكثر، وحاول عبثًا العودة للاسترخاء في مقعده، إلا أن (صفوت) تابع بحدة أكثر:
- لقد فعلت ما فعلت، كمحاولة لتحقيق أفضل وأكبر ربح ممكن للشركة..
تسلل الغضب إلى صوت (عاصم)، وهو يقول:
- بتزوير فواتير الشراء، ومحاولة خداع الجمارك والضرائب؟!
لوح (صفوت) بذراعه، هاتفا:
- هذا ما يفعله الجميع
أجابه (عاصم)، وهو يبذل كل طاقته، للسيطرة على أعصابه:
. انتشار الخطأ لا ينفي كونه خطأ..
صاح (صفوت) في غضب:
- كلام سخيف، وفلسفة بالية، لم تعد تناسب الزمن وطبيعة العصر.. الكل يفعل ما أفعله، كمحاولة لتحقيق أرباح مناسبة حتى الدولة تفعل بنا هذا.. هل نسيت تقديرات الضرائب الجزافية، والإهمال في نقل وتخزين ما نستورده، و...
قاطعه (عاصم)، وقد عجز أخيرا عن السيطرة على أعصابه:
- وماذا كانت النتيجة؟! انكشاف الأمر، ومصادرة البضائع وقضية قد ينهار معها كيان الشركة كله، لو لم نحصل على الأموال اللازمة للتعويضات المطلوبة
احتقن وجه (صفوت)، وهو يقول في عصبية:
- مجرد سوء حظ..
نهض (عاصم) من مقعده في حركة حادة، وهو يقول:
- بل سوء تقدير، وسوء تخطيط..
لوح (صفوت) بسبابته في وجهه، هاتفا:
اسمع يا (عاصم).. لو أننا سنقضي ما تبقى من الأسبوع هنا، فحذار أن...

قاطعه (عاصم) في صرامة محتدة:
- لا داعي يا (صفوت).. لا داعي.. لست أظنني أستطيع قضاء ساعة واحدة أخرى بصحبتك.. سواء هنا أو في (القاهرة).. لقد كان مجيئنا إلى هنا مجرد محاولة أخيرة، لإصلاح ما أفسدته بيننا، بأسلوبك العصبي، وأطماعك المنطلقة بلا حدود..
صاح (صفوت):
- لو أن العمل معي لا يروق لك فـ...
قاطعه (عاصم) في صرامة شديدة:
- الوداع يا (صفوت).
ثم استدار في حدة، وابتعد عنه بخطوات سريعة، متابعا:
- المحامي سيتصل بك؛ لإنهاء إجراءات فض الشركة.
احتقن وجه (صفوت) بشدة، ولوح بذراعه في غضب، هاتفا:
- هذا لن يعفيك من دفع نصيبك من الخسارة والتعويضات
تجاهل (عاصم) العبارة الأخيرة، وهو يختفي داخل الفندق..
فاحتقن وجه (صفوت) مرة أخرى، وهو يقول في حدة:
- كيف يتخلى عنى في ظروف كهذه؟! يا للحقارة!
عقد ساعديه أمام صدره، وراح ينفخ في غضب عصبي وهو يستعيد ما حدث..
لقد حاول بالفعل خداع الجمارك والضرائب..
ولكن ماذا في هذا؟!
الكل يفعل مثله..
كل التجار..
وكل رجال الأعمال..
ما ذنبه لو أن الأمور لم تسر كما يرام؟!
ضابط الجمارك كان نظيفا، ولم يقبل رشوته..
مجرد مصادفة!

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت منتصف النهار بعد، وعلى الرغم من هذا فقد ترك مقعده، واتجه إلى مقهى الفندق، وطلب من النادل ([2]) كأسا من الخمر، إلا أن هذا الأخير هز رأسه، قائلا:

- لا يمكنني تقديم شيء كهذا هنا يا سيدي.

انعقد حاجبا (صفوت)، وهو يهتف:

- يا للسخافة!

سأله النادل في حذر:

- ما رأيك بزجاجة مياه غازية؟!

مط (صفوت) شفتيه، مغمغما:

مياه غازية؟! كلا.. إنني أفضل قدحا من الماء، أحضر النادل الماء، وسأله بابتسامة مرسومة، وهو يضعه أمامه:

- هل تشعر بالملل هنا يا سيد (صفوت)؟!

هز (صفوت) كتفيه، قائلاً في سخرية عصبية:

- الملل فحسب؟!

اعتدل النادل، وهو يقول:

- ولكن (الفيوم) بها عشرات الأماكن السياحية الجميلة، ولو أنك قررت أن تخرج للنزهة، فيمكنني أن أرشدك إلى أربعة أو خمسة أماكن رائعة..

زفر (صفوت) في عصبية، قائلاً:

- النزهة؟! هذا آخر ما أفكر فيه يا رجل.. ما يهمني بحق، هو أن أجد وسيلة لتهدئة أعصابي..

ثم هز رأسه في قوة، مستطردا بحدة:

- آه لو كنا في (الغردقة).

سأله النادل في اهتمام:

- ولماذا (الغردقة)؟!
لوح بذراعه، قائلاً في حنق:
- على الأقل كنت سأغوص بعض الوقت..
ردد النادل في حذر مندهش:
- تغوص؟!
تنهد (صفوت)، وأومأ برأسه، قائلاً:
- الغوص هو الرياضة الوحيدة، التي يمكنني أن أنسى خلالها كل متاعبي وتوتراتي..
ثم عاد يلوح بذراعه في حنق، هاتفا:
- ولكن أين لي به هنا؟
تردد النادل لحظة، وكأنما يخشى التصريح بما لديه، ثم لم يلبث أن قال في حذر:
- لو أنك تحمل معك أجهزة الغوص، فربما اعتدل (صفوت) بحركة حادة، وهو يهتف في لهفة:
- ربما ماذا؟! هل يوجد مكان صالح للغوص هنا؟!
تلفت النادل حوله في حذر، قبل أن يميل على أذنه، هامسا:
- ربما ليس من الناحية الرسمية..
لهث (صفوت) بانفعال عجيب، وهو يسأله في خفوت:
- وماذا عن الناحية غير الرسمية؟!
اعتدل النادل، وابتسم، قائلاً:
- لو أنك تحمل عدة الغوص.
قاطعه (صفوت) في لهفة:
- إنها دائما في حقيبة السيارة، وأسطوانات الأكسجين ممتلئة لحسن الحظ.
اتسعت ابتسامة النادل، وهو يقول:

- عظيم.. في هذه الحالة، لدى صديق يمكن أن يوفر لك مكانا للغوص..
سأله (صفوت) بلهفة أكبر:
- أين؟!
أشار النادل بيده إشارة عشوائية، مجيبا:
- هناك.. في البحيرة..
تألقت عينا (صفوت) بتساؤل ملهوف، فتابع النادل في حزم:
- بحيرة (قارون)..
وكانت هذه هي البداية.
انتشرت أشعة الشمس الدافئة، على سطح بحيرة (قارون)، في ذلك اليوم، الثاني عشر من أكتوبر عام ١٩٩٢م، وبدا مظهرها، مع انعكاس الأشعة الذهبية عليها، أشبه بتحفة فنية مبهرة، جعلت (صفوت) يغمغم، داخل الزورق الذي يستقله:
- يا للروعة!
ابتسم النادل (مجدي)، وهو يقول:
- ألم أقل لك.. لن تجد مكانا في العالم، أجمل من بحيرة (قارون).
تطلع (صفوت) مرة أخرى إلى البحيرة، وربت على أسطوانات الأكسجين في قاع الزورق، وهو يسأل في اهتمام:
- هل القاع صخري أم طيني؟!
ارتفع حاجبا (مجدي) في دهشة، وهو يقول:
- عجبا! لم يطرح أحد هذا السؤال من قبل قط!
ابتسم (صفوت)، قائلاً:
- ربما لأن أحدا لم يحاول الغوص فيها أبدا..
تبادل (مجدى) نظرة صامتة، مع صاحب الزورق (حمادي)، قبل أن يقول:

- الواقع أن الغوص هنا هو إجراء غير قانوني، ولن يسمح به الأمن أبد، فهم يقولون إن مياه البحيرة لم تعد نقية بشكل صحي، وأن الرؤية في القاع عسيرة نوعا ما، وهذا ما دفعنا إلى المخاطرة بالقدوم في وضح النهار، إذ إن الرؤية منعدمة تحت السطح ليلاً..

قال (صفوت) في شيء من العصبية:

- أهذه هي الأسباب الوحيدة؟!

بدت الدهشة والحيرة على وجهيهما، وغمغم (حمادي):

- ولماذا تكون هناك أسباب أخرى؟!

التقط (صفوت) زعنفتي الغوص، وارتداهما في عصبية وهو يقول:

- عندما يتعلق الأمر بالحكومة، لا يمكنك أن تتنبأ أبدا راقبه الاثنان، وهو يضع منظار الغوص على عينيه، ثم قال (مجدي) محذرا:

- لا تستخدم زى الغوص الأسود؛ فهو يلفت الانتباه من عشرة كيلومترات، في مثل هذا الوقت.

غمغم (صفوت) في حدة، وهو يرتدى أسطوانة الأكسجين الأولى.

- لا تقلق.. أنا أعلم هذا.

ثم التقط كشافا مائيا ضخما، ولوح بيده،، قائلاً:

- لا تتحركا من هنا حتى أعود.

قالها، ومال بظهره إلى الخلف، وترك جسده يهوى في مياه البحيرة..

كانت المياه باردة، على الرغم من دفء الشمس، ولكن جسده استوعب هذا، وتكيف عليه في سرعة، وهو يغوص..

ويغوص..

ويغوص..
لم يكن القاع ممتعا، كمثيله في مياه البحر الأحمر الصافية ولا يحوي تلك الأسماك الجميلة الملونة المتنوعة، أو الأعشاب المرجانية العديدة المبهرة كان قاعا مزدوجا، من الصخور والطحالب والطين، تعكرت مياهه، وباتت الرؤية فيه صعبة مرهقة ولكنه واصل الغوص، بالقرب من القاع، في محاولة لاستعادة هدوء أعصابه فالغوص، والغوص وحده، كان يمنحه الهدوء، ويبث في عروقه حالة فريدة من الاسترخاء وراحة النفس ربما لأنه يشعر أنه في عالم خاص للغاية عالم يحيا بتلقائية وهدوء، واستقرار، و...
وفجأة، سرت في جسده رجفة عجيبة رجفة لم يكن لها أبدا ما يبررها وفي اللحظة ذاتها، بدا وكأن القاع كله يرتجف وينتفض وتضاعفت عكارة المياه إلى حد مخيف، حتى انعدمت الرؤية تماما..
وبكل ذعره وتوتره، أشعل (صفوت) مصباحه الضخم في محاولة لاختراق المياه المظلمة، ورؤية ما يحدث ولكن عكارة المياه تضاعفت أكثر وأكثر وأكثر...
وتضاعف ذعر (صفوت) ألف ألف مرة، وراح يضرب الماء بكفيه وذراعيه وقدميه، بمنتهى العنف، في محاولة للفرار من خطر مبهم عجيب ثم صك ذلك الصوت المكتوم مسامعه..
صوت أشبه بانهيار ضخم، أو بانكسار جدار هائل وبعدها توقف كل شيء وراحت المياه تهدأ وتهدأ.. ومعها أعصاب (صفوت)..
لقد زال الخطر، أيا كان، وهدأت الأمور..
ولكن ماذا حدث؟!
ماذا؟!

استعاد رباطة جأشه، وتصاعد فضوله في أعماقه، وتملكته روح المغامرة، فعاد يشعل مصباحه، ويجوب القاع، الذي عادت مياهه إلى هدوئها، وزالت عكارتها بالتدريج..

كان كل شيء يبدو عاديا، مستقرا، وفجأة، لمح ذلك الشق شق ضخم في القاع، لم يكن موجودا من قبل إنه واثق من أنه لم يكن هناك شق يبلغ اتساعه مترين على الأقل، يغوص فيه ضوء مصباحه، حتى يبلغ قاعدة صخرية في نهايته، مع ظل يوحى بوجود امتداد أفقي، على مسافة أربعة أو خمسة أمتار تحت القاع وعلى الرغم من خوفه، لم يستطع (صفوت) المقاومة وبدافع من فضوله ولهفته، انطلق نحو الشق، وغاص عبره في حذر، حتى بلغ قاعدته الصخرية كان هناك بالفعل امتداد أفقي أو شبه أفقي...

فلقد بدا، من تلك الزاوية، مائلاً إلى أسفل على نحو ما..

وكان متسعا، يكفي لعبور رجلين على الأقل وضوء المصباح لا يبلغ نهايته وفي جرأة يحسد عليها، انطلق (صفوت) يعبر ذلك الشق الأفقي، ويتوغل فيه أكثر، وأكثر وأكثر..

كان يمتد لعشرين مترا على الأقل، ثم ينتهي في فجوة ضخمة مغلقة فجوة تنتهي بجدار صخري هائل ولكن هناك امتداد آخر إلى أعلى امتداد ضخم، بحجم الفجوة كلها ولأنه قد بلغ هذا الموضع بالفعل، فلم يكن هناك مبرر للتراجع. لذا فقد ارتفع إلى أعلى..

وقبل أن يقطع مترين بارتفاعه، وجد نفسه فجأة، فوق سطح الماء وكانت مفاجأة مدهشة بالفعل فكيف يصل إلى سطح الماء بهذه السرعة، مع أنه من المفترض أنه تحت السطح فعليا بعشرة أمتار على الأقل؟!

بل بخمسة عشر مترا، لو أضاف عمق الشق وبكل دهشته وحيرته، أدار مصباحه الضخم في الفجوة الهائلة التي بلغها كان داخل تجويف كبير، يرتفع سقفه لثلاثة أمتار ونصف المتر تقريبا، له جدران صخرية، تحوي نقوشنا هيروغليفية على الأرجح ثم انخفض بضوء مصباحه، وهو يهتف مبهورا:

- رباه! إنه معبد أثرى مجهول، و

قبل أن يتم عبارته، وقع ضوء مصباحه على أرضية التجويف وانعكست مئات الأضواء على وجهه بل على المكان كله وفي لحظة واحدة، بدا وكأن الشمس قد أشرقت في المكان كله، وألقت ضوءها الذهبي على جدرانه ونقوشه وسقفه..

واتسعت عينا (صفوت) عن آخرهما وخفق قلبه كما لم يخفق أبدا من قبل والتمعت عيناه على نحو عجيب والتمع وجهه كله بالأضواء الذهبية المنعكسة..

بل، والتمع كيانه كله بانبهار، ولهفة، وجشع الدنيا كلها فما يراه أمامه، لم يكن شيئا عاديا أبدا بل كان شيئا مذهلاً بكل المقاييس..

وفي كل الظروف...

بلاّ استثناء...

☆ ☆ ☆

٢- زلزال..

لوحت زوجة (عاصم) بذراعها، في توتر بالغ، وهي تهتف بانزعاج شديد:

- إنه أعنف زلزال عرفته (مصر).. لقد أصاب البلاد كلها بالرعب.. هل تصدق أن كل من أعرفهم غادروا، مذعورين، بأقل قدر من الثياب، وكلهم بلا استثناء تصوروا أن بيوتهم تنهار.. ألهذا الحد فقد الناس ثقتهم في البيوت والمباني.. وهناك عمارة انهارت في (هليوبوليس)، وأخرى في مكان ما، لست أذكره بالضبط، والتليفزيون يقول: إن عشرات الآثار القديمة قد تصدعت، و...

أمسك كتفيها، قائلاً:

- لقد انتهى كل شيء يا حبيبتي.. أهدئى..

هزت رأسها في قوة، قائلة:

- كلا.. لم ينته بعد.. يقولون: إنه هناك توابع للزلزال، ربما تأتى مدمرة، مثله تماما التقط نفسا عميقا، وهو يقول في توتر:

- إنها ظاهرة طبيعية، ولا داعي لكل هذا الانزعاج...

ألقت رأسها على صدره، وتركت لدموعها العنان، وهي تقول:

- لا بد أن نبتعد يا (عاصم).. لا بد أن نترك (القاهرة) هذه الأيام، لا يمكنني أن أغمض عيني، وأنا أتوقع أن ينهار المنزل فوق رءوسنا في أية لحظة.. الموت تحت الأنقاض أمر بشع.. بشع.. إنني أختنق، كلما تصورت نفسي أدفن حية حتى الموت...

بكت في غزارة، وجسدها يرتجف بين ذراعيه كعصفور مبتل، فربت عليها في حنان، قائلاً:

- لن يحدث هذا بإذن الله يا حبيبتي.. (القاهرة) تحوي آلاف المنازل، وواحد أو اثنين فقط انهارا، وستثبت التحقيقات أن هذا قد حدث بسبب ضعف الخامات، أو عدم مراعاة الضمير والقواعد في عملية البناء، أو لأنها منازل قديمة للغاية، كانت بالفعل آيلة للسقوط، سواء أجاء الزلزال أم لا.. وما تعانين منه أمر طبيعي للغاية، يطلقون عليه اسم (هلع ما بعد الكوارث)، وسيزول مع الوقت بإذن الله...

بكت أكثر، وهي تهتف:

- أنا خائفة مذعورة، والمشهد لا يفارق ذهني أبدا، أراد أن يطمئنها بعبارة ما، لولا أن ارتفع رنين جرس الباب، على نحو عصبي متصل، فانتفضت بين ذراعيه، صارخة:

- ماذا حدث؟! ماذا هناك؟!

انعقد حاجبا (عاصم)، وهو يربت عليها، قائلا:

- اطمئني.. اطمئني..

أبعدها عنه في صعوبة، وهو يسرع إلى الباب، قائلاً في عصبية:

. حسنا.. حسنا.. انتظر قليلاً، الدنيا لن تنتهي..

فتح الباب في حدة، وكل ذرة في كيانه ترغب في الانفجار، في وجه ذلك السخيف، الذي يدق الجرس بلا انقطاع، إلا أنه لم يكد ينظر إلى وجه القادم، حتى وجد نفسه يهتف، بكل دهشة الدنيا:

- (صفوت)؟! متى عدت من (الفيوم)؟!

اندفع (صفوت) يتشبث به، وهو يقول في انفعال عجيب:

- لن تصدق يا (عاصم).. لن تصدق ما عثرت عليه. حدق (عاصم) في وجهه بدهشة، وحاول أن يجذبه إلى الداخل في رفق، قائلا:

- (صفوت).. هل شعرت بالزلزال في (الفيوم) أيضا؟!

لوح (صفوت) بذراعه، هاتفا بنفس الانفعال:
- هذا الزلزال رائع.. إنه سبب خلاصنا، وطريق القضاء على كل مشكلاتنا ومتاعبنا المالية إلى الأبد...
تسعت عينا الزوجة في دهشة مستنكرة، وهي تهتف:
- (صفوت)؟! هل جننت؟! هذا الزلزال رهيب.. إنه يهدد بدفننا أحياء.. هل يمكنك أن تتصور هذه البشاعة.. الدفن حيا حتى الموت.. إنها أبشع ميتة في الوجود، وأسوأ قاطعتها ضحكة عصبية عالية، انطلقت بغتة من بين شفتيه وهو يهتف:
- الزلزال لا يحمل الموت وحده..
ثم برقت عيناه على نحو عجيب مخيف، وهو يضيف:
- قد يحمل معه الثراء أيضا...
حدق (عاصم) وزوجته في وجهه بدهشة بالغة، وخيل إليهم أنه قد أصيب بجنون غير طبيعي، فأمسك الأول يده. وقاده إلى حجرة الصالون، وهو يقول في رفق مشفق:
- (صفوت).. تعال يا صديقي.. سنعد لك كوبا من النعناع و.
جذب (صفوت) يده في حدة، وهو يهتف:
- هل تظنني مجنونا؟! لك كل الحق في هذا، فما رأيته كان يكفي لإصابة عبقري العباقرة بجنون مطبق؟!
سأله (عاصم) في حذر:
- ما الذي رأيته يا (صفوت)؟!
أجابه (صفوت) في انفعال، وعيناه تبرقان بشدة:
- إنه هناك يا (عاصم).. في أعماق البحيرة في (الفيوم).. لقد رأيته بنفسي.. إنه شيء رائع ومبهر يا (عاصم).. رائع ومبهر إلى أقصى حد...

كرر (عاصم) سؤاله، في شيء من العصبية:

- ما الذي رأيته يا (صفوت)؟!
برقت عينا (صفوت) أكثر وأكثر، وأطل منهما جشع الدنيا كله، وهو يجيب:
- الكنز.. الكنز يا (صفوت)
قالت الزوجة في حيرة مبهورة:
- أي كنز؟!
تراجع (صفوت)، وهو يهتف:
- كنز (قارون)
اتسعت عينا (عاصم) وزوجته عن آخرهما، وهما يحدقان فيه، قبل أن يقول (عاصم) في عصبية:
- قل لي يا (صفوت).. هل يبدو لك الموقف مناسبا لهذا العبث السخيف...
أجابه (صفوت) في انفعال:
- لا يوجد أي عبث يا رجل.. الكنز هناك.. بل الكنوز.. لقد رأيت ما يحتاج إلى قافلة من سيارات النقل، لحمله إلى مكان آخر...
سألته زوجة (عاصم) في انبهار:
- رأيت ماذا؟!
التمعت عينا (صفوت) عن آخرهما، وهو يهتف:
ذهب.. رأيت أطنانا من الذهب، والحلي، والمجوهرات رأيت ذهبا يتجاوز ثمنه آلاف المليارات.. ذهبا يكفي لتحويلنا إلى أغنى أغنياء العالم، في غمضة عين...
برقت عينا الزوجة في لهفة، في حين انعقد حاجبا(عاصم)، وهو يقول::
- (صفوت).. هل تدرك ما تقوله؟!
هتف (صفوت) بفرح جنونى:
- بالتأكيد يا رجل.. بالتأكيد.. لقد رأيت كل هذا بعيني..

اندفعت زوجة (عاصم) فجأة، وأمسكت ذراع (صفوت) في قوة، وهي تقول بكل لهفة الدنيا:

- أريد أن أراه.. أريد أن أرى كل هذا الذهب بنفسى..

قهقه ضاحكا، وهو يهتف:

- بالتأكيد.. لماذا أنا هنا إذن؟!

قال (عاصم) في صرامة:

- هل صدقت ما قاله؟!
هتفت، قبل حتى أن يكمل سؤاله:
- نعم.. أصدقه
عاد حاجباه ينعقدان في شدة، وهو يقول:
- لماذا؟! ألأنك ترغبين في تصديقه؟! هل تصورت أنه من السهل أن يغوص شخص ما في قاع بحيرة (قارون)، ليجد كنزه تحتها بهذه البساطة؟!
قال (صفوت) في سرعة:
- هذا ما حدث بالضبط...
اندفعت زوجة (عاصم) فجأة، وأمسكت ذراع (صفوت) في قوة لوح (عاصم) بيده، هاتفا:
- لم نسمع أبدا عن ممارسة رياضة الغوص، في بحيرة(قارون).
تألقت عينا (صفوت)، وهو يشير بسبابته، قائلاً:
- ولكنك تعرفني جيدا، هوايتي الأولى هي كسر القواعد كل القواعد.
.وبكل حماس الدنيا، راح يروى لهم كل ما حدث كله وبكل التفاصيل. ولقد زلزلت الرواية كيانهم بحق كل منهما في اتجاه الزوجة سقطت على أقرب مقعد إليها، وهي تلهث مبهورة وعقلها يرسم صورة رائعة لأطنان الذهب والمجوهرات، في حين اتسعت عينا (عاصم) عن آخرهما، وهو يغمغم:
- يا إلهي! مستحيل! مستحيل!
هز (صفوت) رأسه في قوة، هاتفاً:
- ليس مستحيلاً.. قلت لك: إنني قد رأيت كل شيء بنفسي...
جلس (عاصم) بدوره على مقعد قريب، وهو يقول:
والآن ماذا نفعل؟!
هتف به (صفوت) في حماس:

- أهذا سؤال يا رجل.. سنستولى على الكنز كله بالطبع..
رفع (عاصم) عينيه إليه في ذعر، هاتفا:
- نستولي عليه؟!
قال (صفوت) في سخرية:
- بالطبع.. هل تصورت أننا سنبلغ الصحافة، ونكتفي بالشهرة والأضواء، ونترك كل هذه المليارات للدولة...
قلب (عاصم) كفه، قائلاً:
- أليس من المفترض أنها صاحبة الحق، في أي كنز أثرى، يكشف على أرض (مصر)؟!
هتف (صفوت) مستنكرا:
- صاحبة الحق؟! أي حق؟! الحكومة أيضا تسعى للاستيلاء على كل ما يعثر عليه أي مخلوق، ولكن بقانون.. نوع من السرقة المغلفة بشرعية زائفة.. هل تعلم: لقد أخبرني والدى أن هذا القانون السخيف لم يكن له وجود، حتى تم كشف مقبرة (توت - عنخ - أمون) ([3])، وعثر فيها (هوارد كارتر) على كنوز رهيبة.. ففي ذلك الحين كان القانون يمنح المكتشف نصف ما يعثر عليه، ولكن الحكومة أرادت الاستئثار بالكنوز كلها، فألغت القانون، ووضعت القانون الجديد، الذي يمنحها كل الحق، في كل ما يكشف على أرضها. ([4])
قال (عاصم) في عصبية:
- إنها ليست مجرد كنوز يا (صفوت).. إنها آثار.. تاريخ لا يمكن للوطن أن يتنازل عن نصفه، أو حتى عن قطعة واحدة منه للآخرين...
حدق (صفوت) فيه، مغمغما:
- تاريخ؟!

ثم انطلقت من حلقه مرة أخرى قهقهة عالية مدوية والتفت إلى زوجة (عاصم)، هاتفا في سخرية عصبية:
- هل رأيت ما يفعله زوجك، وسمعت ما يقوله يا (دينا).. أخبره عن كنز أغنى رجل عرفه التاريخ، فيحدثني عن الدولة والتاريخ، وحقوق الوطن..
غمغمت في حنق:
- أحمق!
التفت إليها (عاصم) بغضب شديد، فاستدركت في سرعة، وهي تنكمش في مقعدها:
- من لا يظفر بفرصة كهذه...
انعقد حاجبا (عاصم) بشدة، وبدا لحظة وكأنه منهمك في تفكير عميق، قبل أن يغمغم في عصبية:
- إنكم تعرضون على مخالفة القانون...
مال (صفوت) نحوه، قائلاً بصوت أشبه بالفحيح:
- بل نعرض عليك فرصة لا تتكرر، لتصبح بضربة واحدة أغنى رجل في العالم وبعينين برقتا كاللهب، مالت نحوه زوجته، مضيفة:
- ذهب ومجوهرات بمليارات يا (عاصم).. أمر لم يحلم به حتى أكثر المتفائلين في الكون...
ازداد انعقاد حاجبى (عاصم) طويلاً، وبدا على ملامحه قلق بالغ، فربتت زوجته على كتفه، هامسة في ضراعة:
- أرجوك يا (عاصم).. أرجوك.. لا تضيع فرصة كهذه أبدا.
ثم ألقت رأسها على كتفه، وتفجرت الدموع من عينيها أنهارا، وهي تقول:
- أرجوك..

انفطر قلبه لحزنها ودموعها، ورفع يدها يتحسس شعرها وخدها في حنان، وبدا من ملامحه أن يلين للفكرة، ويلين، ولكن لماذا؟!

نطق (عاصم) السؤال فجأة، وهو ينتفض في مجلسه، ويحدق في وجه (صفوت)، فتراجعت زوجته (دينا)، قائلة في قلق:

- لماذا ماذا؟!

هب (عاصم) من مقعده بحركة حادة، وهو يلوح بسبابته في وجه (صفوت)، قائلاً:

- لماذا أخبرتنا بهذا؟! لماذا لم تحتفظ بالكنز والسر لنفسك؟!

بهت (صفوت) للسؤال، وهتف:

- ماذا تقول يا (عاصم)؟! إنك شريكي، وصديق عمرى، و...

قاطعه (عاصم) في صرامة

- لماذا يا (صفوت)؟!

تنهد (صفوت)، وهو يحاول السيطرة على أعصابه، وهز رأسه، قائلا:

- هناك ذهب كثير.. كثير جدا.. أطنان من الذهب، تكفي الكل، و

قاطعه (عاصم) بصرامة أكثر:

- لماذا يا (صفوت)؟!

ازدرد (صفوت) لعابه، وتردد بضع لحظات، قبل أن يقول في عصبية:

الواقع أنني أحتاج إلى معاونتك..

انعقد حاجبا (عاصم) بشدة، وهو يقول:

- هذا جواب أكثر إقناعا.

ثم عاد يجلس على مقعده، متطلعا إلى (صفوت) بنظرة نارية، جعلت هذا الأخير يهتف، في عصبية أكثر:

- وماذا في هذا؟! إننا شريكان.. أليس كذلك؟!
مال (عاصم) إلى الأمام، وسأله بنفس الصرامة:
- ما العقبة التي تحول بينك وبين ذلك الكنز المزعوم يا (صفوت)؟!
أجابه في توتر:
- ليس مزعوما يا (عاصم).. إنه كنز حقيقي.. لقد رأيته بنفسي
هتفت (دينا) في لهفة جشعة:
- هل أحضرت شيئا منه معك يا (صفوت)؟! دعني أر ما أحضرته.. أرجوك..
ابتسم (صفوت) ابتسامة مرتبكة، وهز كتفيه في توتر، فنقل (عاصم) بصره بينه وبين زوجته، قبل أن يقول:
- من الواضح أن لسؤالينا جوابا واحدا يا (صفوت).
زفر (صفوت)، قائلاً:
. هذا صحيح
سأله (عاصم) مرة أخرى، ولكن باهتمام فضولي:
- ما الذي يحول بينك وبين الكنز؟!
هز (صفوت) كتفيه مرة أخرى، وقلب كفيه في توتر ملحوظ، والتردد يملأ كل خلجة من خلجاته، ثم لم يلبث أن حسم أمره فجأة، وأجاب في عصبية:
- الأفاعي؟!
تراجعت (دينا) بحركة حادة، في حين هتف (عاصم) بدهشة بالغة:
- الأفاعي؟! أية أفاع.. المفترض أن هذا المكان مغلق منذ آلاف السنين، فكيف بلغته تلك الأفاعي، وما الذي تحيا عليه؟!
هز (صفوت) رأسه في قوة، وقال:
- لا تسألني عن كل هذا، فأنت خبير الأفاعي لا أنا..

هتف (عاصم) بدهشة:
- أنا؟!
أجابه في سرعة:
- بالطبع أنت.. هل نسيت أنك خريج كلية العلوم، قسم البيولوجيا ([5])؟! المفترض أنك أكثر من يمكنه التعامل مع الأمر...
انعقد حاجبا (عاصم) طويلاً، قبل أن يسأله في اهتمام:
- ماذا وجدت هناك بالضبط يا (صفوت)؟!
أجابه في توتر:
- في البداية، بدا كل شيء عاديا، حتى إنني خرجت من تلك الفجوة، واندفعت نحو الكنز، وكلى لهفة لالتقاط أي شيء منه.
وصمت لحظة، ازدرد خلالها لعابه في صعوبة، قبل أن يضيف:
- ثم فجأة، ظهرت تلك الأفاعي.. عشرات منها، برزت من كل صوب، واتجهت نحوي في مشهد مخيف، جعلني أتراجع مذعورا، وأقفز مرة أخرى في الفجوة الممتلئة بمياه البحيرة، وما إن فعلت حتى توقفت كلها، وعادت بسرعة مدهشة إلى جحورها، وكأن كل مهمتها هي حماية الكنز فحسب...
اتسعت عينا الزوجة في ارتياع، في حين غمغم (عاصم) مبهورا:
- رباه! أهذا صحيح؟!
أجابه (صفوت) في انفعال:
- نعم.. صحيح.. هذا ما حدث بالضبط، ولقد كررت المحاولة ثلاث مرات، وفي كل مرة يحدث الأمر ذاته.. هجوم عندما أقترب من الكنز، وتراجع فور ابتعادي عنه...
انعقد حاجبا (عاصم) في شدة، وبدت عليه علامات التفكير العميق، وهو يغمغم:

- يا للغرابة!
ازدرد (صفوت) لعابه في صعوبة، وقال في توتر:
- ولكن هناك حل حتما لهذا.. أليس كذلك؟! أليس كذلك يا (عاصم)؟!
هتفت (دينا) في حماس مصطنع:
- بالطبع هناك حل.. (عاصم) عبقري، في معالجة هذه الأمور...
أجابها (عاصم) في صرامة:
- لا شأن للعبقرية بالأمر..
ثم نهض، مستطردا في حزم، وهو يتجه نحو مكتبته، مضيفا:
- إنه العلم
والتقط موسوعة كبيرة من المكتبة، وهو يسأل (صفوت) في اهتمام:
- هل يمكنك معرفة نوع الأفاعي التي رأيتها؟!
أجابه (صفوت) في سرعة:
- إنها.. إنها ذلك النوع المفلطح الرأس.. هل تعرفه؟!
ذلك الذي نراه في الأفلام الهندية.. النوع الذي يخرج راقصا من السلة، عندما يقوم الفقير الهندي بالنفخ في مزماره.. هل تعرف ذلك النوع من الأفاعي؟!
قلب (عاصم) صفحات الموسوعة بضع لحظات، ثم وضع صورة كبيرة أمام (صفوت)، قائلاً:
- أتشبه هذه؟!

حدق (صفوت) في صورة الأفعى أمامه، قبل أن يهتف
- بالضبط.. إنها هي..
أومأ (عاصم) برأسه وزفر قائلاً، وهو يقرأ ما كتبته الموسوعة:
- آه.. (الكوبرا).. هذا ما توقعته.. إنها واحدة من أشرس وأخطر أنواع الأفاعي السامة، وهي تشتهر بعادة رفع الجزء الأمامي من الجسم، ونفخ غطاء الرأس، ويطلق على ذلك النوع من الأفاعي اسم (ناجا) (Naja)، والنوع الموجود منها في (الهند) يعرف باسم (كوبرا المنظار)؛ لوجود علامة على ظهرها تشبه المنظار، و (الكوبرا) في الشرق الأقصى و (أندونيسيا) سوداء اللون، بلا أية علامات، أما في الجزء الاستوائي من (آسيا) فيوجد نوع يعرف باسم الكوبرا الملك، وهي من أخطر وأكبر الثعابين السامة في العالم وطولها يزيد في بعض الأحيان على ستة أمتار، أما ثعابين الكوبرا الإفريقية، فهي تبصق السم في وجه أي إنسان أو حيوان يزعجها، ولو لم يتم تنظيف هذا السم بماء نظيف بأسرع وقت،

فهو يؤدى إلى إصابة دائمة، قد تصل إلى العمى الكامل.. أما النوع الصغير منها، والذي يعرف باسم (ناجا هاجي)، فهو النوع نفسه، الذي انتحرت به الملكة (كليوباترا)، عام ثلاثين قبل الميلاد...
انعقد حاجبا (صفوت)، وهو يهز رأسه، قائلاً:
- النوع الذي رأيته لم يكن صغيرا، ولم يبلغ الأمتار الستة بالتأكيد.. ثم إنه ليس أسود اللون، وليست به علامات المنظار على رأسه...
وافقه (عاصم) بإيماءة من رأسه، وقال:
- بالطبع، فالنوع الذي ستجده هنا هو النوع المصري (ناجا هاجى) (Naja Haje)، في الطور الناضج منه، وهو يبلغ ما بين المتر والمتر ونصف المتر طولاً...
هتف (صفوت):
- بالضبط
ثم تساءل في لهفة ضارعة:
- هل توجد وسيلة للخلاص منه؟!
صمت (عاصم) بضع لحظات، وهو يعيد الموسوعة إلى المكتبة، قبل أن يقول في حزم:
- هذا يحتاج إلى استشارة أحد أساتذتي القدامى...
هتفت زوجته:
- أيعني هذا أنك ستشترك معنا، في عملية انتشال كنوز(قارون)، من قاع البحيرة؟!
التفت إليها، قائلاً في دهشة
- معكما؟!
ارتبكت، قائلة:
- نعم.. أقصد مع (صفوت)...

التقط نفسا طويلاً عميقا، وأدار الأمر في رأسه على كل الوجوه، قبل أن يقول في حسم:

- بالطبع.

زفر (صفوت) في ارتياح، وأغلق عينيه في قوة، في حين أطلقت (دينا) ضحكة عالية، تموج بالفرحة والسعادة وقفزت تتعلق بعنقه، وتغمر وجهه بالقبلات، وقد نسيت كل شيء عن الزلزال.. كل شيء...

☆ ☆ ☆

٣- البحث...

ارتسمت ابتسامة كبيرة، على وجه الدكتور (محسن الغندور)، أستاذ ورئيس قسم البيولوجيا في الجامعة، وهو ينهض لمصافحة تلميذه القديم (عاصم)، قائلا في سعادة:

- صباح الخير يا (عاصم).. كيف حالك يا ولدى، وكيف حال شركتك؟! لماذا لم نرك منذ فترة طويلة؟!

غمغم (عاصم) في خجل:

- مشاكل الدنيا فحسب..

ابتسم الدكتور (محسن)، وأشار إليه بالجلوس، وهو يقول:

- لا يمكنك أن تتصور مدى سعادتي برؤيتك.. لقد كنت طالبا نجيبا متفوقا، وكلنا كنا نتوقع لك مستقبلاً باهرا، لولا بتر عبارته في شيء من الخجل، فتابع (عاصم) في مرارة:

- لولا إصرار العميد على تعيين ابن شقيقته كمعيد بالقسم، وهو المنصب الذي كان ينبغي أن أحصل عليه أنا، بحكم كوني الأول على الدفعة...

تنهد الدكتور (محسن)، مغمغما:

- لعلك تذكر أننا قد وقفنا جميعا إلى جوارك حينذاك...

قلب يده، قائلاً:

- وماذا كانت النتيجة؟! ها هو ذا يحتل المنصب، الذي كنت أستحقه أنا...

ثم هز كتفيه، وابتسم، مستطردا:

- وربما كان هذا من حسن الحظ، فلولاه لما أصبحت صاحب شركة استيراد وتصدير.

ضحك الدكتور (محسن)، وكأنما انزاح عن كاهله حمل ثقيل، وهتف
- بالضبط
ثم مال نحوه، متابعا:
- ولكن الواقع أنني أشعر بالقلق عليك، لأنك شريك لذلك الثعبان (صفوت).. لقد التقيت به مرتين فحسب، ولكنني لم أشعر بالارتياح تجاهه أبدا...
غمغم (عاصم) بكلمات غير مفهومة، ثم سأله مباشرة:
- قل لي يا دكتور (محسن)، لقد كانت رسالة الدكتوراه التي أعددتها حول أفعى (الكوبرا).. أليس كذلك؟!
أومأ الرجل برأسه، قائلاً
- بلى.. هل تثير اهتمامك في هذه الأيام؟!
أجابه (عاصم) في حذر:
- هذا صحيح.. لقد واجهتني مشكلة ما، وأردت أن أقرأ بعض المعلومات عن أفعى (الكوبرا)...
رمقه الدكتور (محسن) بنظرة عتاب، قائلاً:
- من الواضح إذن أنك قد نسيت..
ثم مال نحوه، مستطردا:
- هل نسيت أننى قد أهديتك نسخة من رسالة الدكتوراه، عندما كنت طالبا نابها، في عامك الأول بالقسم؟!
شعر (عاصم) بالخجل، وهو يغمغم:
- آه.. هذا صحيح
تذكر، في هذه اللحظة فقط، أنه يضع رسالة الدكتوراه، الخاصة بالدكتور (محسن)، والتي تحوى كل المعلومات الممكنة عن أفعى (الكوبرا)، في ركن مهمل بمكتبته، وتصاعد الخجل في أعماقه، وهو يشعر بارتباك شديد، ولسانه عاجز عن قول أي

شيء، حتى إنه هم بالاعتذار والنهوض، لولا أن دلف رجل وقور إلى الحجرة، وهو يقول:
- دكتور (محسن).. هل تذكرت أن...
بتر عبارته فجأة، عندما وقع بصره على (عاصم)، فابتسم الدكتور (محسن)، وهو ينهض لاستقباله، قائلاً:
- (عاصم).. تلميذ سابق، وصاحب شركة للاستيراد والتصدير حاليا..
ثم أشار إلى الوقور، متابعا:
- الدكتور (رفعت إلهامي).. أستاذ التاريخ القديم نتعاون في رسالة حول أحد المعابد القديمة بالفيوم.
لم يكد يأتي على ذكر (الفيوم)، حتى سرت في جسد(عاصم) ارتجافة خفية، جعلته ينهض بحركة مبالغة، ليصافح الرجل في حرارة زائدة، قائلا:
- فرصة سعيدة يا دكتور (رفعت).. سعيدة للغاية!
بدت الدهشة على وجهي الرجلين، وتبادلا نظرة حائرة، قبل أن يجلس الدكتور (رفعت)، قائلاً:
- الأستاذ (عاصم) خريج قسم البيولوجيا أيضا.. أليس كذلك؟!
لم يبد على (عاصم) أنه قد سمع السؤال، وهو يسأل في لهفة:
- هل تجرى الكثير من الأبحاث في (الفيوم) يا دكتور(رفعت)؟!
مرة أخرى بدا مزيج من الدهشة والحيرة على وجهي الرجلين، ثم لم يلبث الدكتور (رفعت) أن تنحنح، قائلاً:
- إلى حد ما...
سأله (عاصم) في لهفة:
- وهل امتدت أبحاثك هذه إلى البحيرة؟!
سأله في دهشة:
- أية بحيرة؟!

أجابه بلهفة أكبر:
- بحيرة (قارون).
عاد الرجلان يتبادلان نظرة أكثر دهشة وحيرة، قبل أن يتساءل الدكتور (محسن) في حذر:
وما الذي يجعل اهتمامك إلى هذا الحد ببحيرة (قارون) يا (عاصم)؟!
انتبه (عاصم)، في هذه اللحظة فقط، إلى لهفته الزائدة، فتراجع في مقعده، وبذل جهدا جهيدا للسيطرة على أعصابه وهو يجيب:
- لا شيء.. لقد قضيت إجازة قصيرة في (الفيوم)، وسمعت هناك من يشير إلى أن كنز (قارون) مدفون تحت البحيرة. حدق الدكتور (محسن) في وجهه لحظة، ثم لم يلبث أن أطلق ضحكة عالية، قائلا:
- وهل صدقت هذا؟!
تنحنح الدكتور (رفعت)، وقال:
- الواقع أن الأمر ليس بهذه البساطة، يا دكتور (محسن)..
هتف (محسن) و (عاصم) في آن واحد:
- حقا؟!
تنحنح الدكتور (رفعت)، واعتدل في مقعده، وأشعل غليونه، قائلا:
- الواقع أن الأقاويل، التي تتردد حول وجود كنز (قارون) أسفل البحيرة، عديدة وقديمة للغاية، ف- (الفيوم) كانت عاصمة الدولة الوسطى، وهناك الكثير من الأهرامات والقصور في المنطقة، وكانت منطقة تموج بالثراء، في تلك الفترة، ولقد بني فيها أكبر القصور على الإطلاق، وهو قصر (اللابرانت) أو (التيه)، وكانت هذه المنطقة هي المخزن الهائل للقمح والغلال،

في عصر الرومان، وقديما، في عصر (أمنمحات الثالث)، كانت البحيرة مخزنا كبيرا للمياه، وأقام هو فيها مشروعا زراعيا ضخما، ومع دخول الإسلام، اختلطت الأفكار الدينية بالأساطير والحكايات الشعبية للمنطقة، فجاءت قصة (قارون) وكنوزه المدفونة تحت البحيرة، ولكن التاريخ لا يمكنه حسم ما إذا كان (قارون) قد عاش في هذه المنطقة أم لا ([6])

قال (عاصم) في اهتمام:

- ولكن هناك قصر يطلق عليه اسم (قصر قارون) هناك...

هز الدكتور (رفعت) رأسه، قائلاً:

- المؤكد تاريخيا أن القصر، الذي يطلق عليه هذا الاسم، هو معبد (يونيسياس)، إله الخمر عند الرومان...

ابتسم الدكتور (محسن)، وقال:

- الأمر كله إذن مجرد خرافات...

هز الدكتور (رفعت) كتفيه، وهو يقول:

- لا يمكنك أن تعتبر السير الشعبية خرافات، فالقاعدة تقول: إنه لا يوجد دخان بدون نار، وفكرة وجود كنوز (قارون) أسفل البحيرة ليست مرفوضة تماما، بل إنها تستحوذ على عقول وتفكير العديدين، منذ الفتح الإسلامي لـ (مصر)، ولقد جرت عدة محاولات للبحث عنها بالفعل، ولكنها لم تسفر عن شيء، ولكن هذا لم يمنع السائحين من التساؤل والبحث ولم يمنع العشرات من دراسة الفكرة، وتحليلها، وإصدار مؤلفات وأبحاث عنها ([7])..

تراجع (عاصم) في مقعده بارتياح كبير، وهو يغمغم:

- إذن فهناك ظل للحقيقة في الأمر كله

أومأ الدكتور (رفعت) برأسه، قائلاً:

- بالتأكيد
وهنا.. هنا فقط شعر (عاصم)، بارتياح كبير...
(صفوت) لم يكن واهما إذن إنها حقيقة كنوز (قارون) هناك أسفل البحيرة وكلها في انتظار من ينتشلها ومن يتحول بفضلها إلى أغنى رجل في (مصر)..
بل في العالم أجمع بلا منازع..
رقصت كل ذرة في كيان (صفوت) طربا، وهو يتوقف بسيارته أمام منزله، بعد أن قضى نهاره كله في إعداد كل ما ينبغي، للفوز بكنوز (قارون) استأجر سيارة نقل كبيرة مغلقة، ومخزنا في أول طريق (مصر - الإسكندرية) الصحراوي، لينقل إليه الذهب والمجوهرات، ووضع تفاصيل الخطة بالكامل...
لقد حدد الموقع الذي غاص فيه، ويمكنه أن يبلغه مع(عاصم) ليلاً، ومعهما أسطوانات الأكسجين وثياب الغوص، وبعد أن يجد (عاصم) وسيلة لإبعاد الأفاعي السامة، سيتعاونان معا لنقل الكنز إلى سيارة النقل الكبيرة...
كل ليلة يمكنهما نقل أقصى ما يستطيعان، إلى ذلك المخزن في أول الطريق الصحراوي وبرقت عيناه عن آخرهما، في جشع بلا حدود إنهما سيحتاجان إلى شهر على الأقل، حتى يمكنهما نقل الكمية كلها وبعدها سيصبحان أغنى رجلين في الدنيا كلها..
لم يدرِ لماذا انقبض قلبه، عندما بلغ هذه النقطة بالتحديد؟! لماذا أحنقه أن يشاركه مخلوق آخر هذه الكنوز؟! المفترض أنه هناك أطنان من الذهب والمجوهرات أطنان تكفي ألف رجل، للعيش في رغد، لقرن كامل من الزمان فلماذا يغضبه أن يشاركه فيها أحد؟!
حتى (عاصم)؟!

لم يعترف في أعماقه بأن السبب الحقيقي هو جشعه وطمعه وأنانيته، التي ترفض أن ينعم غيره بما ينعم هو به. أنانيته، التي تتجاوز كل حدود العقل والمنطق حاول أن يقاوم ذلك الشعور السخيف حاول وحاول ولكنه لم يستطع كل ما أقنع به نفسه هو أنه مضطر للاستعانة ب- (عاصم)، حتى يظفر بكل هذه الكنوز، ومن حسن حظه أنه لا يوجد ثالث، أو...

«أستاذ (صفوت) ...»

قاطعته العبارة فجأة، فوثب من مكانه، والتفت إلى صاحبها هاتفا:

- ماذا تريد؟!

فوجئ أمامه بالنادل (مجدي)، يبتسم في خبث، قائلا:

- معذرة.. هل أفزعتك؟!

حدق (صفوت) في وجهه لحظة، قبل أن يقول في حدة ودهشة:

- ماذا تفعل هنا؟!
هز (مجدي) كتفيه، وقال:
- لقد غادرت (الفيوم) فجأة، وشعرت بالقلق، فأتيت للاطمئنان عليك...
انعقد حاجبا (صفوت)، وهو يسأله في صرامة:
- أهذا ما تفعله مع كل نزيل بالفندق؟!
ابتسم (مجدي) ابتسامته الخبيثة، وهو يقول:
- كلا بالطبع
ثم أضاف بلهجة ملؤها الدهاء:
- ولكن لدى سؤال، كان من الضروري أن أطرحه عليك سأله (صفوت) في حذر قلق:
- أي سؤال؟!
مال (مجدي) نحوه، واكتسب صوته الخبيث لهجة شرسة، وهو يسأل:
- ما الذي عثرت عليه في البحيرة يا سيد (صفوت)؟! انتفض جسد (صفوت) في عنف، واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يردد مذعورا:
- في البحيرة؟!
أجابه (مجدي)، وقد تحولت لهجته كلها إلى الشراسة:
- نعم يا سيد (صفوت).. في البحيرة.. البحيرة التي خرجت منها حاملا كل انفعال الدنيا، وجسدك يرتجف، ووجهك محتقن وكل ذرة في كيانك متلهفة للعودة إلى الشاطئ...
ظل (صفوت) يحدق فيه لحظة، قبل أن ينتزع نفسه من ذعره، ويقول في عصبية شديدة:
- إنه الزلزال يا رجل.. ألم تشعر به؟! أعنف زلزال واجهته(مصر) في الـ... قاطعه (مجدي) بضحكة ساخرة عالية، قبل أن يقول:

- زلزال؟! محاولة لطيفة بحق يا سيد (صفوت) عاد يميل نحوه بشراسة أكثر، قائلاً:
- ولكنها فاشلة
قال (صفوت) في عصبية:
- ولماذا يا هذا؟! ألم يثر الزلزال فزع (مصر) كلها؟!
أجابه (مجدي) في حدة:
- بالطبع، ولكن الشخص الذي أثار الزلزال فزعه، سيصعد إلى السطح مباشرة، وليس بعد اثنتين وعشرين دقيقة كاملة تحت الماء...
امتقع وجه (صفوت)، واتسعت عيناه مرة أخرى، وهو يحدق في (مجدي)، الذي تراجع، متابعا في عنف:
- لقد عثرت على شيء تحت الماء يا سيد (صفوت)..
شيء ربما أظهره الزلزال.. شيء جعلك تقضى كل هذا الوقت، ثم تصعد وكلك انفعال، ولهفة على العودة إلى (القاهرة) بأسرع وقت ممكن، فما الذي عثرت عليه بالضبط صمت (صفوت) تماما، وهو يحدق في وجهه، ولا يجد في نفسه القدرة على الكلام، فابتسم (مجدي) في وحشية، قائلا:
- (حمادي) أيضا شعر بما شعرت أنا به، ونحن نعيدك إلى شاطئ البحيرة، وهو يعرف الموقع بالتحديد، ولن نعدم وسيلة للبحث في القاع، حتى ولو استأجرنا بعض الغواصين،
«لا..»
قاطعه (صفوت) بصيحة مذعورة، فابتسم (مجدى) ابتسامة ذئب مفترس، وهو يقول:
- آه.. إذن فأنت تعرف...
حاول (صفوت) أن يتماسك، وأن يزدرد لعابه، عبر حلقه الجاف، وهو يقول في لهجة أقرب إلى الضراعة:

- ما عثرت عليه لا يهم أحذا يا (مجدي).. صدقني إنها بعض الآثار القديمة، وكل ما فكرت فيه هو قاطعه (مجدي)، مستعيدا شراسته:

- آثار قديمة؟! هل تسخر مني يا رجل؟!
ثم مال نحوه، مستطردا في حدة:
- لقد عثرت على كنز...
اتسعت عينا (صفوت) حتى كادتا تلتهمان وجهه كله، وهو يتراجع كالمصعوق، فابتسم (مجدي) بظفر أكثر، وهو يقول:
- هذه المنطقة كانت مخزنا رومانيا، ولا ريب في أن قاعها يخفى مئات العملات الذهبية القديمة.. لقد عثرت عليها أليس كذلك؟!
تنهد (صفوت)، مجيبا، وعقله يبحث عن خدعة جديدة:
- بلى.. لقد عثرت على صندوق من العملات الذهبية القديمة...
تألقت عينا (مجدي)، وهتف في لهفة ظافرة:
- كنت أعلم هذا.. كنت أعلمه...
أمسكه (صفوت) من ذراعه في قوة، وهو يتلفت حوله، قائلاً في توتر:
- اخفض صوتك يا (مجدي).. اخفضه بالله عليك.
ثم جذبه، مستطردا:
- تعال.. سنتحدث في منزلي.. هذا أكثر أمنا تبعه (مجدي)، وهو يقول في صرامة:
- سنحصل على أنصبة متساوية.. أنت و(حمادي) وأنا هذا شرطنا..
أجابه (صفوت)، وهو يسرع إلى شقته:
- بالتأكيد.. بالتأكيد..

نطقها يراجع الموقف كله، ويبحث عن وسيلة للخلاص من ذلك المأزق، وللتخلص من تلك المشكلة صحيح أن كنوز (قارون) هائلة، إلى حد لا يمكن أن ولكنه لن يسمح بأن يحصل ذلك المأفون على جزء منها بهذه البساطة لن يسمح أبدا مهما كان السبب...

سرت موجة عنيفة من التوتر والانفعال، في جسد (دينا) زوجة (عاصم)، وهي تصعد في درجات سلم منزل (صفوت).. كان من الواضح، من شحوب وجهها وزيغ عينيها، أنها لم تنم لحظة واحدة، منذ أخبرهما (صفوت) بأمر الكنز كنز (قارون) لم تنعم بلحظة واحدة من النوم، لتحلم فيها بذلك الكنز الهائل، الذي يمكنه أن ينقلها، في غمضة عين، من زوجة رجل أعمال عادي، إلى أغنى امرأة في العالم أجمع ولكنها باتت ليلتها مستيقظة، تضع الخطوط العريضة لذلك الثراء..

فالثراء يلهم المرأة، بأكثر مما يفعل ألف مرة بالرجل..

إنه بالنسبة لها أثواب جميلة غالية، وحلى أصلية ثمينة ومعاطف فراء، وسيارات فارهة، وحتى عمليات تجميل باهظة يمكن أن تمنع عنها شبح الشيخوخة لسنوات وسنوات ولقد حلمت بهذا طويلاً حلمت به عندما تزوجت (عاصم)، بعد عام واحد من عمر شركته مع (صفوت).. -

كان جارا لها منذ وعت عيناها الدنيا، ويكبرها بخمسة أعوام، وترتجف كل ذرة في كيانه حبا ولهفة، كلما وقع بصره عليها ولكنها لم تبادله الحب أبدا بل وربما لم تعش في حياتها كلها قصة حب..

لم يكن لديها الوقت لتفعل، وهي تخطط لمستقبلها، وترسم أحلام طموحها بلا حدود مشكلتها الوحيدة كانت أن جمالها محدود لم يكن بالجمال الذي يمكن أن توقع به شابا ثريا أو حتى شيخا من شيوخ البترول وكان من المستحيل أن تقبل بالزواج من شاب عادي لتكافح وتكافح معه، حتى يذبل شبابها ويفنى، قبل أن تتمتع بكل قطرة منه ثم أنشأ (عاصم) تلك الشركة مع (صفوت)..

وخيل إليها أنه سيصبح، في غضون سنوات قلائل، رجل أعمال كبيرا، وثريا.. شابا، تحلم بالزواج منه كل فتاة لذا، فقد أسرعت تلقى شباكها حوله والواقع أن هذا لم يكن يحتاج إلى الكثير من الجهد، فقد كان (عاصم) غارقا في هواها بالفعل..

ولهذا لم يستغرق الأمر طويلاً...

بعد عام واحد من إنشاء الشركة، وعندما استقرت الأمور، تم زفافها إليه وقبل مرور عام آخر، كانت قد أدركت أن حلمها لم يكن ناضجا صحيح أنها لم تعان قط من شظف العيش معه، إلا أنه لم يكن بالثراء الذي توقعته لقد أنفق الكثير والكثير على إنشاء الشركة، وموعد جنى الأرباح التي تحلم بها، لم يحن بعد..

ثم جاءت تلك الأزمة المالية، التي تسبب فيها (صفوت).. وتحطمت معها كل أحلامها وكل طموحاتها ثم جاء (صفوت) بخبر الكنز.. وعادت الأحلام والطموحات بل لقد قفزت إلى ذروة، لم تبلغها من قبل قط... قفزت من أحلام الثراء، إلى حلم التفوق والسطوة والنفوذ فتراء بهذا المقدار الخيالي، يجلب معه حتما القوة والنفوذ وبلا حدود...

كان قلبها يخفق من فرط الانفعال، عندما بلغت شقة(صفوت)، فوقفت تلهث لحظة أمام الباب في تردد إنها أول

مرة تزوره فيها في منزله بمفردها وهذا يجعلها متوترة عصبية ولكن من الضروري أن تلتقي به وحده..
لذا، فقد حسمت أمرها، وضغطت زر الجرس، ثم التقطت نفسا عميقا، وكأنما تحاول تهدئة أعصابها الثائرة. ولم يستجب أحد لرنين الجرس ولكنها شعرت بحركة في الداخل حركة واضحة متوترة..
وفي إصرار، ضغطت الجرس مرة ثانية وثالثة ورابعة..
وفي عصبية، هتفت:
- (صفوت).. لماذا لا تفتح الباب؟!
لم تكد تتم عبارتها، حتى انفتح الباب، وظهر (صفوت) على عتبته، ممتقع الوجه، زائغ العينين، مرتجف الشفتين وهو يهتف بدهشة وانزعاج:
- (دينا)؟!
سألته في عصبية:
- لماذا لم تفتح الباب مباشرة؟! هل
قفزت الفكرة إلى رأسها بغتة، فأضافت في خبث، وهي تختلس النظر إلى الداخل:
- هل تستضيف صديقة ما؟!
هتف في توتر بالغ:
مطلقا.. أنا وحدي تماما.. من وضع هذه الفكرة العجيبة في رأسك؟
أزاحته عن طريقها، وهي تقول في حزم:
- لن تمانع في دخولي إذن..
لم تكد تلمس صدره، حتى شعرت بتلك الارتجافة التي. شملت جسده كله، فسألته في توتر:
- ماذا هناك يا (صفوت)؟!

أجابها في عصبية شديدة، وهو يغلق الباب خلفها في سرعة:
- لا شيء.. لا شيء..
رمقته بنظرة شك طويلة، قبل أن تشعل سيجارتها، قائلة في توتر:
- أراهن على أنك تتساءل عن سر زيارتي لك وحدى، بدون (عاصم)، وعلى هذا النحو المباغت...
ازدرد لعابه، وألقى نظرة قلقة على المطبخ، قبل أن يجب في عصبية:
- هذا صحيح.
نفثت دخان سيجارتها في عصبية مماثلة، قائلة:
- كان من الضروري أن أتحدث إليك وحدنا.
اختلس نظرة أخرى إلى المطبخ، متمتما:
- وحدنا؟!
زفرت في عصبية، ولوحت بيدها الممسكة بالسيجارة، وهي تتحرك في المكان، قائلة:
- إنني أشعر بالقلق من (عاصم).
سألها في توتر:
- لماذا؟!
قالت في حدة، وهي تنفث دخان سيجارتها في قوة:
- إنه زوجي، وأنا أعرفه جيدا.. في أية لحظة يمكن أن يتراجع عن الموقف، ويتحدث عن الحق والعدل والقانون، وربما اندفع بلا تفكير، وأفسد العملية كلها هز رأسه في قوة، قائلاً:
- لا.. من المستحيل أن يفعل (عاصم) هذا..
قالت بسخرية عصبية:
- من المستحيل؟! من الواضح أنك تجهل طبيعته تماما، على الرغم من صداقتكما الطويلة ثم اكتسبت لهجتها بعض الشراسة،

وهي تضيف:
- إنه ليس طموحا مثلنا.. كثيرا ما يفضل الفقر والـ...
والشرف..
نطقت الكلمة الأخيرة بكل العصبية والسخرية، فتطلع إليها بدهشة، ثم اختلس نظرة أخرى إلى المطبخ، قبل أن يسألها بكل التوتر:
- ماذا تقترحين؟!
برقت عيناها في شدة، وهي تقول:
- أن نتم العملية، في أسرع وقت ممكن، قبل أن أفقد سيطرتي عليه...
تردد لحظة، قبل أن يقول:
- يمكننا أن نبدأ الليلة، ولكن..
صاحت به في لهفة:
- ولكن ماذا؟!
اختلس نظرة أخرى إلى المطبخ، وقال في عصبية:
- هناك أمور ينبغي أن أعتني بها أولا..
انعقد حاجباها في غضب، وألقت سيجارتها أرضا في عنف، وهي تهتف:
- كنت أعلم أنك تخفيها هنا.. في المطبخ..
قالتها، واندفعت نحو المطبخ، فصاح بها في ذعر:
- لا يا (دينا).. لا..
ولكنها بلغت المطبخ، ودفعت بابه في قوة، ثم اندفعت إليه وتسمرت فجأة في موضعها واتسعت عيناها عن آخرهما، بكل رعب وفزع الدنيا وفي أعماقها، انكتمت صرخة هائلة فما رأته أمامها كان رهيبا ومخيفا للغاية...

☆ ☆ ☆

٤- الدم...

لم تكن المرة الأولى، التي يعود فيها (عاصم) إلى منزله فلا يجد زوجته (دينا) ولكنه لم يدر لماذا شعر بالتوتر والانقباض، في هذه المرة بالذات؟!

ربما لأن كل ذرة من كيانه تعاني الأمرين، منذ أقنعته هي وشريكه بالانضمام إليهما، في هذه المغامرة، غير مأمونة العواقب إنه واثق من أن (صفوت) لم يشركه، إلا لأنه يحتاج إلى معاونته بشدة ولأنه يثق به كثيرا أيضا يثق بشرفه وأمانته. ونزاهته ومع الخاطر الأخير، انعقد حاجباه في عصبية يا لها من مفارقة ساخرة؟!

(صفوت) يحتاج اليوم إلى شرفه وأمانته ونزاهته، التي طالما سخر منها، واعتبرها عائقا أمام طموحه وتفوقه يحتاج إلى شرفه وأمانته ونزاهته، للقيام بعمل يفتقر إلى أبسط قواعد الشرف والأمانة والنزاهة ولكن المؤسف أنه وافقه واستسلم لتوسلات زوجته ودموعها زفر بكل توتر الدنيا، وحاول أن يدفن مرارته في أعماقه وهو يتجه إلى مكتبته، ويبحث فيها عن رسالة الدكتوراه، التي أهداه إياها الدكتور (محسن). من الواضح أنه لم يعد يقرأ كالماضي ها هي ذي الرسالة في موضعها، كما تركها منذ أكثر من عام. لم يلق عليها نظرة واحدة.. يا للعار!

التقط الرسالة، وجلس على مقعده المفضل، يقرؤها في اهتمام ودون أن يدري، استغرقه الأمر تماما وراح يلتهم المعلومات في نهم عجيب نهم كاد ينساه تماما، بعد أن ترك الجامعة، وانهمك في أعمال الشركة مع شريكه وصديقه القديم (صفوت)..

وكم شعر لحظتها بالإعجاب، تجاه الدكتور (محسن)..

لقد جمع عشرات المعلومات الجديدة والمفيدة، حول أفعى(الكوبرا)، وتاريخها. القديم، منذ اتخذها قدماء المصريين آلهة تحمى الملوك، وأطلقوا عليها اسم (أرايوس)، وحتى اتخذت منها الأبحاث الطبية الحديثة وسيلة، لإنتاج بعض العقاقير الطبية، المضادة لمرض الروماتيزم، بالإضافة إلى الترياق المضاد لسموم الثعابين ([8])..

وكل هذا بأسلوب مشوق جذاب رائع..

وعبر دراسة جادة، قوية، جمعت كل عادات الأفعى وأساليبها، ونقاط قوتها وضعفها، وفجأة، خفق قلبه في عنف واتسعت عيناه عن آخرهما..

ودون أن يدري، وجد نفسه يهتف:

- وجدتها.. وجدتها يا (دينا)..

ثم انتبه فجأة إلى أن زوجته لم تعد بعد وأن عقارب الساعة قد تجاوزت الخامسة وبكل توتر الدنيا، راح يتساءل في أعماقه: ترى أين ذهبت زوجته؟!

أين؟!

أين؟!

أهدئى يا (دينا).. أرجوك.. لقد كنت مضطرا...

هتف (صفوت) بالعبارة في خفوت، وهو يحاول باضطراب تهدئة (دينا)، التي اتسعت عيناها عن آخرهما، وراحت ترتجف في عنف، ودموعها تسيل كالأنهار على وجهها، ولكنها حدقت في وجهه بارتياع، هاتفة:

- من هذا؟! من هذا؟!

أجاب بلهجة أقرب إلى الضراعة:

- إنه (مجدي).. نادل الفندق، الذي كان بصحبتي، هو وصديقه المراكبي، عندما عثرت على الكنز ارتجفت في عنف، قائلة:

- ولكن.. ولكن..

ثم انفجرت بغتة، بكل ذعر الدنيا:

- ولكنك قتلته...
انتفض جسده كله مع صيحتها، وهتف بارتياع:
- خفضي صوتك يا (دينا).. أرجوك.. قلت لك: إنني كنت مضطرا...
حدقت فيه مرة أخرى، فتراجع في انهيار، وترك جسده يسقط على أقرب مقعد إليها، وهو يدفن وجهه بين كفيه قائلا؛ بصوت أشبه بالنحيب:
- لقد ظل يهددني بكشف أمر الكنز، وإبلاغ السلطات، وإفساد العملية كلها..
قالت:
- كان يمكنك أن تخدعه.. أو ترشوه...
صاح في مرارة:
- لقد حاولت.
ثم عاد إلى نحيبه، مضيفا:
- ولكنني فشلت.. لقد حاولت إقناعه بأن كل ما عثرنا عليه مجرد صندوق، يحوى ألف قطعة ذهبية، من العملات الرومانية القديمة، وأننا سنمنحه وزميله نصيبهما منه، ولكنه رفض تماما، وأصر على أن يشاركنا زميله الغوص، لرؤية كل شيء بنفسه...
اتسعت عيناها، وهتفت في ذعر:
- لا.. مستحيل!
أومأ برأسه، قائلاً:
- هذا ما قلته لنفسي، وما جعلنا نشتبك في عنف.. لقد حاول أن يقتلني.. وكنت.. وكنت... كنت أدافع عن نفسي حدقت فيه لحظة، ثم هزت رأسها في قوة، مرددة:

- مستحيل! مستحيل أن يفسد خطتنا، وينسف أحلامنا مستحيل!!
نهض من مقعده، واتجه نحوها، قائلاً في لهفة:
- أرأيت أننى كنت على حق؟!
نقلت بصرها بينه وبين المطبخ، والجثة مهشمة الرأس التي تبدو من بابه المفتوح، وتساءلت بصوت مرتجف:
- ولكن ماذا سنفعل به؟!
أراحه أن استخدمت صيغة الجمع في سؤالها، فقال في سرعة:
- لقد فكرت في الموقف جيدا.. إنني أقيم وحدى، وعندي مبرد ضخم، ولقد أحضرت المنشار الكهربي بالفعل، و....
قاطعته في ارتياع:
- رباه! فيم تفكر بالضبط يا (صفوت)؟ هل.. قاطعها هو هذه المرة:
- هذا هو الحل الوحيد...
هتفت، وهي تشيح بوجهها، وتغلق عينيها في قوة
- يا للبشاعة!
هز رأسه، قائلاً:
- الرجل مات بالفعل يا (دينا)، ولا يضير الشاه سلخها بعد ذبحها.. ثم إنه من المستحيل تماما، في مدينة مزدحمة ساهرة كمدينة (القاهرة)، أن ننقل جثة كاملة من عمارة سكنية، في شارع رئيسي، ولكن لو تم تقطيعها إلى أجزاء صغيرة، وتخزينها في مبرد كبير، فيمكننا، بوساطة حقيبة كبيرة، أن...
قاطعته في حدة:
- كفى.. لا أريد سماع هذا
تطلع إليها لحظة في صمت، ثم تراجع في بطء إلى مقعده، قائلاً في حزم:

- فليكن.. سأتولى أمره بنفسي...
ثم انعقد حاجباه، وهو يضيف في صرامة:
- ولكنك ستعاونينني على التخلص من الآخر...
هتفت مذعورة:
- الآخر؟!
أجابها في صرامة:
- نعم.. المراكبي.. (حمادي).. لقد اتصل به (مجدي) من هنا، وطلب منه أن ينتظرنا، عند مدخل مدينة السادس من أكتوبر، في تمام منتصف الليل، ويمكننا أن نتخلص منه هناك...
صرخت مذعورة:
- مستحيل!
قال في شراسة:
- لا يوجد مستحيل! لقد تورطنا في الأمر بالفعل، ولا يمكن أن نخسر كل شيء بعد هذا...
. هزت رأسها في قوة، هاتفة:
- مستحيل! مستحيل!
قال بشراسة أكبر:
- لو أننا تركنا المراكبي، فسيزعجه عدم حضور النادل، وستراوده الشكوك والمخاوف، وربما يبلغ الشرطة بالأمر بل إنه سيفعل حتما.
ارتجفت شفتاها، واتسعت عيناها في ارتياع، وهي تحدق في وجهه، فتابع في صرامة وحشية:
- لا بد من القضاء عليه يا (دينا).. بأي ثمن ارتجف جسدها كله مع شفتيها، وهي تقول:
- ولكن.. ولكن ما الذي سيمنع البوليس من كشف أمرنا لو فعلنا؟

هز رأسه، قائلا:
- لا توجد وسيلة وحيدة لربطنا بالأمر.. المفترض أننا لا نعرف ذلك المراكبي، ولم نلتق به أبدا من قبل.. حتى المرة الوحيدة، التي التقيت به فيها، كان اللقاء خفيا، غير قانوني، ولم يعرف به سوى (مجدي).. ذلك الذي يرقد جثة هامدة في المطبخ...
أدارت عينيها تحدق مرة أخرى في جثة النادل.. قبل أن تقول في ارتياع:
- و (عاصم).. ماذا عن (عاصم)؟!
هتف مستنكرا:
- هل تصورت أنه سيوافق على الاشتراك معنا، في عمل كهذا؟!
صاحت مذعورة:
- لا.. ولا حتى أن يعلم بحدوثه ثم عاد صوتها ينخفض، متابعة:
- ولكن كيف سأقنعه بخروجي في منتصف الليل وحدي؟!
انعقد حاجباه في شدة، ونهض من مقعده، وراح يدور في المكان بتوتر، قبل أن يتوقف، قائلاً:
- عندي الوسيلة.. سأعطيك عقارا منوما، يكفي قرص واحد منه، ليغرق في سبات عميق لساعتين أو ثلاث، وهي كل ما نحتاج إليه لنتم عملنا...
ارتجفت من قمة رأسها، وحتى أخمص قدميها، وهي تقول:
- سأحاول يا (صفوت).. سأحاول...
صاح بها في صرامة:
- لا مجال للتردد.. إما هم أو نحن...
ثم عاد يميل نحوها، وهو يخرج من جيبه علبة الحبوب المنومة، مضيفا في شراسة:
- إما الثراء والنفوذ والقوة، أو الخراب والسجن والفقر اتخذي قرارك...

خفضت عينيها لحظة، وعاد جسدها يرتجف كريشة في مهب الريح، وهي تدير عبارته الأخيرة في رأسها إما الثراء والنفوذ والقوة أو الخراب والسجن والفقر ولم يكن القرار صعبا أو عسيرا لذا، فقد مدت يدها، والتقطت العلبة من بين أصابعه، واحتوتها في قبضتها في قوة، وعبارة أخرى تتردد في رأسها بقوة إما هم أو نحن وانقبضت أصابعها على علبة الدواء المنوم أكثر..
وأكثر
وأكثر..

☆ ☆ ☆

هب (عاصم) من مقعده، واندفع نحو زوجته بكل لهفة الدنيا، فور دخولها إلى المنزل، وهتف:
- رباه! (دينا) أين كنت؟! لقد بحثت عنك في كل مكان كانت شاحبة، زائفة، مرتجفة، وهو يحتويها في صدره، فهتف بارتياع:
- ماذا حدث؟!
ارتجف صوتها بشدة، وهي تقول:
- إنه.. إنه حادث سيارة..
هتف بدهشة:
- ولكن السيارة كانت معي أنا!
أجابته، وهي تدفن وجهها في صدره، حتى لا يقرأ الكذب في عينيها:
- إنها سيارة أجرة.. السائق صدم شخصا و... وقتله كان مشهد الدم بشعا.. بشعا بحق...
انهمرت الدموع من عينيها، وهى تستعيد مشهد جثة(مجدي)، الملقاة في المطبخ، مما أضفى على انفعالها صدقا وواقعية، جعلاه يحتويها بين ذراعيه في حنان مشفق، وهو يقول:

- رباه! يا لها من تجربة! هل.. هل احتاجوا إلى شهادتك في قسم الشرطة؟
بكت أكثر، وهي تجيب:
- نعم.. لقد ذهبت إلى هناك، وقضيت الوقت كله، حتى حصلوا على أقوالي، وسمحوا لي بالانصراف..
قال في أسف:
- ولماذا لم تحاولي الاتصال؛ لأرسل إليك المحامي على الأقل؟!
ترددت لحظة، ثم قالت:
- قالوا إن الأمر لا يستحق هذا، ثم.. ثم إنك لم تبتع لي هاتفا محمولا بعد ثم انفجرت باكية في عنف، وراحت تضرب صدره بقبضتيها هاتفة:
- لماذا لم تفعل؟! لماذا؟! لماذا؟!
ضمها إليه في حنان، وربت عليها، قائلاً
- لقد انتهى الأمر يا حبيبتي.. كانت تجربة بشعة، ولكنها لا تستحق كل هذا...
هتفت مفرغة كل انفعالها:
- هل شعرت بذلك الزلزال الآخر؟! لقد حدث وأنا داخل قسم الشرطة.. لقد تصورت أن القسم سينهار على رءوسنا، وكنت خائفة.. خائفة جدا...
تنهد، قائلاً:
- إنه ليس زلزالا.. إنه مجرد تابع للزلزال هتفت:
- ولكن المنازل يمكن أن تنهار معه، وتدفننا تحتها أحياء شعر بالشفقة عليها، مع ذلك الخوف الرهيب، الذي يرتجف معه جسدها كله، وحاول أن يجد وسيلة لتهدئتها، فلم يجد أمامه سوى أن يهتف فجأة:
- لقد عثرت على الوسيلة...

أبعدت رأسها عن صدره، لتسأله في حذر:
- أية وسيلة؟!
أجاب في حماس:
- وسيلة إبعاد أفاعي (الكوبرا) عن الكنز كانت وسيلته ناجحة للغاية، فقد جفت دموعها بغتة، ورقص قلبها في صدرها، وهي تهتف في لهفة:
- حقا؟!
أجابها في حماس حقيقي، وهو يقودها في رفق إلى الأريكة:
- نعم.. حقا.. الدكتور (محسن) تحدث، في رسالة دكتوراه عن أفعى (الكوبرا)، عن عشب برى، ينمو في صحراء (مصر)، في منطقتي (سوهاج) و (قنا)، له رائحة خاصة، تنفر منها أفعى (الكوبرا)، والبدو هناك يستخدمونه لإبعادها ومنع اقترابها من خيامهم في أثناء النوم ([9])
ارتجف صوتها من فرط الانفعال هذه المرة، وهي تسأله:
- وهل.. هل يمكننا الحصول على ذلك العشب؟!
هتف بابتسامة كبيرة:
- بالتأكيد.
وجدت نفسها تقفز فجأة من مقعدها، وتصفق في حماس صائحة:
- رائع.. عظيم.
ابتسم هو ابتسامة كبيرة، في حين شعرت هي بالدهشة، مع كل هذا الحماس، حتى إنها قاومته بشدة، لتسأله:
- ومتى يمكننا الحصول عليه؟!
اعتدل، مجيبا:

- لقد اتصلت بالدكتور (محسن) منذ ساعة تقريبا. وأقنعته أنني أقوم ببضعة أبحاث، حول هذا العشب، وأنني أحتاج إلى كمية كبيرة منه، كمحاولة لفتح أسواق تصديرية له في الخارج، ولقد تحمس جدا للأمر، وأخبرني أنه سيتصل بصديق له يقيم في (الأقصر)، ليحضر لنا أكبر كمية ممكنة من العشب، قبل مساء الغد...

هتفت في لهفة:

- أيعني هذا أننا نستطيع القيام بالعملية مساء الغد؟!

انعقد حاجباه في شدة، وهو ينهض، قائلاً في عصبية:

- بهذه السرعة

كاد قلبها يهوى بين قدميها، من فرط القلق، وهي تقول:

- السرعة واجبة، في مثل هذه الأمور

قال في حدة:

- وما الداعي إليها؟! الكنز هناك منذ آلاف السنين، فما الذي يجعل استخراجه عاجلا إلى هذا الحد؟

تضاعف قلقها وتوترها، وحاولت إقناعه في لهفة، وهي تقول بنعومة مصطنعة:

- ربما يكشفه غيرنا

قال في حنق:

- ما من أحمق سوانا، يغوص في بحيرة كهذه؟!

أدركت أن رصاصتها قد طاشت هذه المرة، ولم تشأ أن تخبره بما فعله شريكه، حتى لا يصاب بالذعر، ويفر من العملية كلها، لذا فقد راح عقلها يبحث في لهفة عن مبرر آخر، ثم لم تلبث أن هتفت:

- لقد أخبرتني ليلة أمس، أن سبب وجود تلك الفجوة في القاع، هو أن ضغط الهواء المحتبس داخلها يمنع الماء من إغراقها،

مما حفظها جافة، تحت البحيرة، طوال كل هذه السنين...
أجاب في حذر:
والغواصات
- إنها نظرية علمية سليمة، والغواصات القديمة جدا كانت أشبه بناقوس مقلوب، يمنع الهواء بداخله ارتفاع سطح الماء عظيم.. ما الذي يمكن أن يحدث إذن، بعد أن انفتح ذلك الشق، في قاع البحيرة؟! أليس من المحتمل أن ينفد الهواء، ويرتفع سطح الماء داخل الفجوة، فيغرق كل شيء؟!
انعقد حاجباه في شدة، وهو يدرس هذا الاحتمال، قبل أن يغمغم:
- هذا محتمل بالتأكيد.. الاحتمال نفسه هو الذي منعني من استخدام الدخان لطرد الأفاعي، فقد خشيت أن تلتهم النيران كل الهواء في الفجوة.
قالها، ثم التقط نفسا طويلا في عصبية، مستطردا:
- فليكن.. دعينا نفعلها مساء الغد
برقت عيناها في ظفر، وهي تهتف:
- كنت أعلم هذا.. كنت أعلم أنك لن تخذلني أبدا...
وفي نعومة أفعى، طبعت على خده قبلة دافئة، في نفس اللحظة التي داعبت فيها علبة الأقراص المنومة في جيبها، ثم لم تلبث أن تراجعت بابتسامة كبيرة، قائلة:
- والآن دعني أعد لك كوبا من الشاي.. كوبا يختلف عن كل ما شربته في حياتك...
قالتها، واتسعت ابتسامتها، وصارت أكثر شبها بابتسامة الأفعى.. أفعى (الكوبرا).
المصرية...

☆ ☆ ☆

هل ظهر مفعول الأقراص بسرعة؟!
ألقى (صفوت) سؤاله في اهتمام، وهو ينطلق بسيارته، في طريق (الفيوم)، قبيل منتصف الليل بربع الساعة فزفرت (دينا) في توتر، وهي ترتدي قفازها الجلدي مغمغمة:
- (عاصم) لا يتناول أية أدوية أو عقاقير.. إنه حتى لا يدخن، لذا فقد استغرق في نوم عميق، بعد أقل من الساعة إنه حتى لم يكمل كوب الشاي...
تنهد مغمغما:
- عظيم..
جمعهما الصمت لثلاث دقائق كاملة بعدها، وكل منهما غارق في أفكار مختلفة متضاربة، ثم لم يلبث هو أن قطع هذا الصمت، قائلا:
- هل ارتديت قفازك؟!
أجابته في عصبية:
- نعم.. أشعر الآن أننا اثنان من القتلة المحترفين قال في صرامة:
- للضرورة أحكام..
تمتمت في خفوت شديد:
- أعلم هذا..
وصمتت لحظة أخرى، ثم سألته في توتر بالغ:
- أأنت واثق من أنه سيأتي وحده؟!
أجاب ساخرا:
- لست أظنه بالحماقة الكافية، ليضيف إلى القسمة شريكا...
مطت شفتيها دون تعليق، وحاولت أن تستقر في مقعدها وهي تتطلع إلى ظلام الطريق، وأخذ ذهنها يسترجع تفاصيل الخطة التي وضعها هو، قبل أن تنتفض فجأة على مقعدها، هاتفة:
- لا.. لن يمكنني أن أفعل هذا..

انعقد حاجباه في صرامة شديدة، وهو يقول:
- بل ستفعلينه..
هتفت، وكل ذرة في كيانها ترتجف:
- مستحيل! إنني لم أفعل هذا من قبل قط..
صاح في حدة:
- وهل فعلته أنا؟! هل كنت قاتلاً محترفا طيلة عمري؟! إنها الضرورة.. ألا يمكنك استيعاب هذا؟! الضرورة.. أنا لم أخطط لقتل (مجدى)، عندما جاء لابتزازي.. لقد حدث ما حدث، دون حتى أن أدرك أنه قد حدث بكت في حدة، وهي تهتف:
- ولكننا سنفعلها عمدا هذه المرة...
قال في غضب:
- للضرورة أحكام..
صاحت:
- ما دمت تؤمن بهذا، فلماذا لا تفعلها أنت إذن؟!
صرخ بانفعال هادر:
- لأنه لن يمنحني الفرصة لهذا.. أنت وحدك يمكنك مباغتته هل فهمت الآن؟!
صرخت بدورها:
- لا.. لا أفهم..
وهنا ضغط فرامل السيارة بكل قوته، فتوقفت بحركة حادة وأطلقت إطاراتها صريرا مخيفا، شق سكون الليل، واندفع جسد (دينا) إلى الأمام في عنف، فصاحت في غضب عصبي:
- لماذا فعلت هذا؟! كدت تقتلني...
استدار إليها بكل غضب الدنيا، هاتفا:
- اسمعيني جيدا.. إنها ليست لعبة أو مزحة.. إنها لحظة تقرير مصير.. إما نحن أو هم.. إما الثراء بلا حدود أو السجن لخمسة

عشر عاما على الأقل.. أيهما تفضلين؟!
امتقع وجهها بشدة، وهي تحدق في وجهه بارتياع، فتابع في صرامة:
- إنه كنزنا يا (دينا)، وثراء بهذا الحجم لن يأتي بسهولة، أو بالأحلام والتمنيات وحدها.. إنه يحتاج إلى تضحيات الكثير من التضحيات...

خفضت عينيها، متمتمة في مرارة:
- أعلم هذا.
التقط نفسا عميقا، وهو يتراجع، قائلا:
- ثم إنها ضربة واحدة، تصبحين بعدها أغنى امرأة، في العالم كله.. ألا يستحق الأمر هذا؟!
عضت شفتيها في توتر، وهي تومئ برأسها إيجابا، فتنهد في ارتياح، قائلاً:
- عظيم
وعاد ينطلق بالسيارة، مضيفا في حزم:
- ستهبطين قبل نقطة اللقاء بنصف الكيلومتر كما اتفقنا أومأت برأسها إيجابا، دون أن تتفوه بحرف واحد، وذهنها يسترجع كلماته إما نحن أو هم الثراء أو السجن وأدركت عندئذ أنها قد اقتحمت بالفعل طريق الدم ولم يعد هناك سبيل للعودة على الإطلاق...

☆ ☆ ☆

٥- بريق الذهب...

أين (مجدي)؟!
هتف (حمادي) المراكبي بالسؤال في عصبية، عند مدخل مدينة (السادس من أكتوبر)، وهو يفحص سيارة (صفوت) ببصره في توتر..
- لقد فضل البقاء في (مصر)..
- مستحيل! لقد اتفقنا على أن نلتقي هنا..
- لم يعد هذا باستطاعته..
- لماذا؟!
وهنا ظهرت هي من خلفه برزت من وسط الظلام، حاملة ذلك القائم المعدني السميك وقبل أن ينتبه إليها، كانت قد أصبحت على مسافة متر واحد منه، وهو يهتف في ذعر عصبي:
- أين (مجدي)؟! ماذا فعلت به؟!
نظرة عينى (صفوت) جعلته ينتبه إلى وجود شخص ما خلفه فاستدار بسرعة وصرخ (صفوت):
- هيا..
وهوت هي بالقائم المعدني بكل قوتها..!!.

«لا.. لا...»

انطلقت الصرخة من حلقها، وهي تهب فزعة في فراشها فاندفع نحوها (عاصم)، واحتواها بين ذراعيه، وهو يقول بحنان مشفق:

- رويدك يا حبيبتي.. رويدك...

-وضمها إليه في دفء، وهو يهمس في أذنها:
- أهو كابوس الزلزال مرة أخرى؟!
بكت على كتفه في حرارة، وهي تقول:
- نعم.. إنه هو..
تنهد في قوة، وضمها إليه أكثر، وهو يقول:
- ماذا أفعل لأنتزع ذلك الخوف من قلبك؟!
لم تجد ما تجيبه به، فواصلت البكاء على كتفه بحرارة أذابت قلبه، وعقلها يستعيد ما فعلته أمس ألاف المرات لقد قتلت المراكبي بمنتهى العنف والخوف قتلته لأنها خافت أن يبلغ الشرطة خافت من السجن جن... والضياع قتلته لأنها خشيت أن تفقد الكنز حلم الثراء..
والنفوذ..
والقوة..
ولقد ظلت تبكي وترتجف، طوال طريق العودة، دون أن يحاول (صفوت) تهدئتها لحظة واحدة وعندما وصلت منزلها، في الواحدة صباحا، كان أول ما فعلته هو أن ابتلعت قرصين كاملين، من علبة الأقراص المنومة كان (عاصم) ما زال غارقا في نوم عميق، فاندست إلى جواره، وحاولت أن تغرق في النوم مثله ولكن حتى مع الأقراص المنومة، لم يكن الأمر سهلاً لقد ظلت ترتجف لساعة أخرى على الأقل، قبل أن يأتي القرصان مفعولهما، وتنام.. ولم يكن نومها هادئا، بأي حال من الأحوال لقد عاودها المشهد في أحلامها مائة مرة بل ألف مرة...
لقد راح عقلها يستعيده ويستعيده ويستعيده. بلا توقف. أو هوادة. أو رحمة.. ولكنه الثمن.. الثمن الذي عليها أن تدفعه، حتى تظفر بالكنز بالثروة..
بالنفوذ...

«متى سنقوم بالعملية؟!»
ألقت السؤال، بكل ما يملأ كيانها من توتر وانفعال، فتراجع ينظر إليها في دهشة، جعلتها تكرر، بكل عصبية الدنيا:
- متى؟!
تنهد في عمق، وتراجع أكثر، مجيبا:
- الأعشاب ستصل في الخامسة تقريبا، ولو أن (صفوت) مستعد، فـ...
قاطعته في لهفة:
- إنه مستعد.
سألها بدهشة:
- ولماذا أنت واثقة هكذا؟!
هزت كتفيها في عصبية، قائلة:
- أنت تعرف (صفوت).
حدق في وجهها لحظة، وكأنما لم يقنعه ما نطقته، ثم لم يلبث أن هز رأسه، قائلاً:
- يمكننا أن نقوم بها الليلة، كما اتفقنا من قبل اندفعت نحو الهاتف، قائلة:
عظيم.. سأبلغ (صفوت) ثم توقفت بغتة، والتفتت إليه، مستدركة في ارتباك:
- أعنى أنه عليك أن تبلغه؛ ليعد أدوات الغوص لثلاثتنا على الأقل.
هتف بدهشة مستنكرة:
- ثلاثتنا؟! ماذا تعنين بقول ثلاثتنا هذا؟!
أجابته بعصبية شديدة:
- أعنى أنني سأغوص معكما بالطبع...
هتف في حدة:

- مستحيل! لا يمكنني أن أسمح بهذا أبدا..
صاحت في ثورة:
- ومن المستحيل أن أضيع فرصة إلقاء نظرة كاملة على كنز كهذا.. إنه مشهد لا يراه المرء كل يوم...
حدق في وجهها لحظة، ثم هز رأسه في قوة، هاتفا:
- مستحيل!
صرخت:
- سأغوص معكما، مهما قلت أو فعلت.. إنني أجيد الغوص مثلكما، وثلاثتنا نغوص معا في البحر الأحمر، منذ قضينا شهر العسل هناك.. (صفوت) هو الذي علمنا أن نفعل أتذكر هذا...
هز رأسه، قائلا:
- المشكلة ليست في إجادتك للغوص من عدمه..
هتفت:
- ما المشكلة إذن؟!
خفت صوته، وهو يجيب:
- لست أرغب في تجشيمك المشقة...
صرخت:
- مشقة؟! هل تعتبر رؤية كنوز (قارون) مشقة؟!
زفر في توتر، وتطلع إليها لحظة، ثم قال:
- لست أدرى.. لست أشعر بالارتياح
رقة صوته جعلتها تتقمص مرة أخرى طبيعة الأفعى وتتمسح به في نعومة، قائلة:
أرجوك يا (عاصم).. سأندم ما تبقى لي من العمر لو أضعت فرصة كهذه.
غمغم في تخاذل:

- لن يكون هذا بالأمر السهل.. إننا سنحمل الكثير من الأدوات.. مصابيح الإضاءة، والأعشاب، والأجولة التي سنعبئها بالذهب والمجوهرات، و...
قاطعته في لهفة:
عظيم.. في هذه الحالة تصبح ستة أياد أفضل من أربع.. كان قولها منطقيا، وعلى الرغم من هذا فلم يشعر بالارتياح أبدا...
شيء ما في أعماقه جعله يشعر أن تلك الليلة تحمل لثلاثتهم موعدا غامضا موعدا مع القدر مع الحياة.. أو الموت...
مط ضابط المباحث شفتيه، وهو يراقب رجال الإسعاف، الذين يحملون جثة المراكبي (حمادي)، وغمغم:
- أراهن أنها جريمة ثأر أخرى...
سأله رئيسه في هدوء:
- ولماذا تصورت أنها جريمة ثأر؟!
هر الضابط كتفيه، وقال:
- إنها ليست جريمة سرقة بالتأكيد، فحافظة نقوده في جيبه بكل ما تحويه، وهو يرتدى ساعته أيضا
قال رئيسه:
- وهويته تقول: إنه مراكبي بسيط من (الفيوم)، وهذا يستبعد احتمالات الثأر أيضا
انعقد حاجبا الضابط، وهو يقول:
- ولكنه ليس حادث سيارة بالتأكيد، فلقد تهشم رأسه بجسم صلب، وبضربة واحدة تقريبا وافقه رئيسه بإيماءة من رأسه، قائلاً:
- إنها جريمة قتل، ما من شك في هذا، ولكن من الواضح أنها سترهقنا كثيرا، في البحث عن أسبابها ومبرراتها، والمشتبه فيهم بارتكابها، فهناك جزء غامض للغاية في الأمر، وهو لماذا جاء

الرجل إلى بقعة كهذه، ليلقى حتفه فيها، ما دامت ليست حادثة سيارة، أو جريمة سرقة؟!
غمغم ضابط المباحث:
- هذا ما علينا أن نبحث عنه
ثم زفر في توتر، قبل أن يضيف:
- المشكلة أنه في بعض الأحيان تكون الجريمة واضحة، ولكنك تفشل تماما في العثور على دليل واحد، يساعد في كشف الجناة، وأكثر ما يحنقني في هذا أنهم يفلتون من العدالة في النهاية...
هز رئيسه رأسه، وقال:
- مطلقا.. ربما يفلتون من القانون، ولكن ليس من العدالة سأله في حيرة:
- وما الفارق؟!
أجابه في حزم:
- فارق ضخم للغاية
ثم تنهد، وشرد بصره، قبل أن يضيف:
- فالعقاب الدنيوي، الذي يعتمد على القانون ونصوصه، والعثور على الأدلة والبراهين، أمر قاصر للغاية، وكثيرا ما يصيبنا بالإحباط والغيظ، عندما نتيقن من الجاني، ثم لا نمتلك دليلاً لإدانته، أما العدالة، فهي أمر يحفظه الخالق (عز وجل)، ونتيجته لا يمكن أن يفلت منها أحد، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره ([10]).. والله (سبحانه وتعالى) منتقم جبار، وهو أعدل العادلين، وله تصاريفه الخاصة، التي تجعلنا نؤمن دوما بأن الجاني لا بد أن يلقى جزاءه.. حتى ولو لم ندرك هذا أو نره...
وصمت لحظة أخرى، ثم أضاف في خشوع:

- وهذه هي العدالة..
نطقها، فرآن عليهما صمت مهيب صمت يحمل كل دلائل الإيمان بالعدالة الحقة...
«أأنتما مستعدان؟!»
نطق (صفوت) العبارة في همس، داخل ذلك الزورق المطاطي الكبير، الذي نقل ثلاثتهم إلى قلب بحيرة (قارون)، وسط ظلام الليل، فتمتم (عاصم) في عصبية:
- أنا مستعد.
وهتفت (دينا) في لهفة:
- وأنا كذلك

كان ثلاثتهم يشعرون بتوتر بالغ، بعد تلك المغامرة، التي حملتهم في قلب الليل إلى (الفيوم)، وجعلتهم يتسللون بزورقهم المطاطي إلى الموقع، الذي يحفظه (صفوت) عن ظهر قلب، في قلب البحيرة ولكن توترهم هذا كان مشوبا بلهفة حقيقية لهفة لبلوغ ذلك الشق، ورؤية الكنز كنز (قارون)..
وفي حزم، قال (صفوت):

- الماء بارد، ولكن ثياب الغوص المطاطية ستحمي أجسادنا، وتخفيها أيضا في ظلام الليل.. والمصابيح لن نشعلها إلا على عمق أربعة أمتار، حتى لا تكشف وجودنا.. احرصا على أن تتبعاني طوال الوقت، فأنا وحدي أعرف الطريق إلى الشق انعقد حاجبا (عاصم) دون أن يجيب، في حين لهثت (دينا) من فرط الانفعال، وهي تقول:

- بالطبع.. بالطبع..

وضع منظار الغوص على عينيه، وهو يتابع أوامره:

- كل منا سيحمل مصباحه.. أنا سأحمل الأجولة الفارغة في طريق الذهاب، و (عاصم) سيحمل حقيبة الأعشاب، وفي طريق العودة سيحمل كل منا جوالا...

ثم ابتسم، مكملاً:

- من الذهب والمجوهرات..

ازداد انعقاد حاجبى (عاصم)، في حين برقت عينا (دينا)، وهي تهتف في حماس:

- نعم.. نعم..

ابتسم (صفوت) في ثقة، ثم وضع منظم أسطوانة الأكسجين في فمه، وأشار بيده، قائلاً:

- هيا..

وخلال نصف دقيقة فحسب، كان ثلاثتهم في قلب البحيرة. بحيرة (قارون).

كان التوتر يشمل كل خلية في أجسادهم، وهم يغوصون ويغوصون.. ويغوصون...

وعند عمق أربعة أمتار تقريبا، أشعل كل منهم مصباحه كان المشهد يبدو رهيبا للغاية، مع عكارة القاع، وظلام الليل، حتى

إن (دينا) قد تساءلت في حيرة: كيف يعرف (صفوت) طريقه، وسط هذه المياه؟!
إنها، وعلى الرغم من ضوء المصباح، لا تكاد ترى ما أمامها ولكنهم يغوصون أكثر..
حتى بدا القاع...
كان طينيًا، صخريا، ومعكرا إلى حد كبير ثم فجأة، ظهر ذلك الشق كان الطين في القاع قد غمر جزءا منه، على نحو جعل قلبها يخفق في قوة، مع خوفها من أن ينطمر الشق تماما مع الوقت، فلا يمكنهم العثور عليه، في الرحلة التالية (صفوت) يقول: إنهم يحتاجون إلى عشر رحلات على الأقل، حتى يمكنهم نقل الكنز كله..
عشر رحلات!
يا لها من ثروة طائلة!!
دفعها الحماس إلى عبور الشق، خلف (صفوت) و (عاصم)، على الرغم من المشهد الرهيب، الذي تصنعه أضواء المصابيح، مع الظلام والعكارة وعندما بدءوا في عبور الشق الأفقي، راح حماسها يتضاعف ويتضاعف ويتضاعف...
ثم خفق قلبها في عنف، مع بلوغهم نهايته، حيث تلك الفجوة، والبحيرة الداخلية في البداية صعد (صفوت)..
ثم لحق به (عاصم)..
وجاءت هي في النهاية ومع كل متر تقطعه، كان قلبها يخفق بعنف أكثر وأكثر وأكثر..
ثم وجدت نفسها فجأة، فوق سطح الماء، و (صفوت) يهتف، بكل لهفة وطمع وجشع وانفعال الدنيا:
- هل تريان؟! ها هو ذا الكنز..

وبكل لهفتها، أدارت ضوء المصباح وتألقت الأضواء وأضيئت الفجوة كلها بذلك البريق بريق الذهب وعندئذ، كاد قلبها يتوقف من فرط الانبهار، وهي تحدق في أطنان الذهب والتحف والمجوهرات الآن فقط أدركت شعور (على بابا)، في القصة الشعبية الشهيرة، عندما دخل مغارة الأربعين لصا، ووجد أمامه كل هذا القدر من المجوهرات والذهب ولكنه حتما، لم ير ربع ما تراه أمامها الآن إنه كنز هائل، لا مثيل له، حتى في أكثر الروايات والأساطير إغراقا في الخيال...

كنز لن تكفي تلك الرحلات العشر لنقل نصفه، مهما أمكنهم حمله..

وبكل دهشة الدنيا، هتف (عاصم):

- رباه! إذن فالكنز حقيقي!!

أطلق (صفوت) ضحكة عالية، تموج بالانفعال، وهو يهتف:

- قل لي يا رجل.. ما الذي تراه أمامك بالضبط؟! حقيقة أم خيال؟!

هتفت (دينا) بلهفة رهيبة:

- بل حقيقة.. حقيقة.

قالتها، ثم انفجرت هاتفة في انفعال جارف، فتنهد (عاصم)، وغمغم:

- هل كان منسوب المياه مرتفعا هكذا، عندما جئت أول مرة؟!

هز (صفوت) رأسه، قائلا في قلق:

- كلا.. لم يكن كذلك.

أجاب (عاصم) في حزم:

- من الواضح إذن أن المياه ستغمر هذا الكهف، بعد عدة أيام على الأكثر...

هتفت (دينا) في ارتباع:

- هل تعنى أننا لن نتمكن من نقل الذهب كله؟!
أجاب في توتر:
- المياه لا تفسد الذهب أو المجوهرات.. ثم إن ما ننقله منها خلال أسبوع واحد، سيكفينا للحياة في رغد ونعيم، حتى آخر أيام حياتنا.
قالت بجشع عجيب:
- لا.. لن نترك قطعة واحدة منه.. أريده كله.. كله.. حدق فيها بدهشة، وكأنما يراها لأول مرة، وشعر وكأنها امرأة مختلفة تماما، عن تلك التي أحبها وتزوجها، ولكنه حاول أن يتجاهل هذا، وهو يغادر فجوة الماء، قائلا:
- هل ستظهر الأفاعي الآن؟!
أجابه (صفوت) بقلق شديد:
- هذا ما يحدث دائما.
توقف (عاصم) على الجزء الجاف، قائلاً:
- لست أرى أيها هنا.
غمغم (صفوت)، وهو يتلفت حوله في توتر:
- لا تتعجل.
لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع فجأة رأس أفعى كبيرة، من بين قطع الذهب والمجوهرات ثم تلتها ثانية وثالثة وعاشرة..
وعشرات من كل مكان برزت أفاعي (الكوبرا). مئات منها ارتفعت رءوسها، تألقت عيونها، تحت أضواء المصابيح وبريق الذهب...
وشهقت (دينا) في هلع، وهي تهتف:
- رباه! رباه!
وارتجف جسد (صفوت) كله أما (عاصم)، فقد بدا أكثرهم هدوءا وتماسكا، وهو يفتح حقيبة الأعشاب، قائلاً:

- يا للعجب! إنها أفعى (ناجا هاجي) بالفعل.. في عدة أطوار منها.. لا يوجد مبرر علمي واحد لوجودها على قيد الحياة، طوال كل هذه السنين..
غمغم (صفوت) في عصبية:
- إنها لعنة الفراعنة.
هز (عاصم) رأسه، وهو يراقب في حذر تلك الأفاعي، التي اتجهت كلها نحوه، مغمغما:
- هذا ليس مبررا علميا...
اتسعت عينا (دينا) في ارتياع، عندما شاهدت تلك الأفاعي وهي تنقض كلها على (عاصم)، وانطلقت من حلقها صرخة رعب مدوية، جلجلت وسط فراغ الكهف، على نحو ضاعف من رهبتها وعنفها ولكن (عاصم) فتح الحقيبة في سرعة، وهو يهتف:
- فلنر الآن ما إذا كانت أبحاثك صحيحة أم لا يا دكتور. (محسن). وبكل قوته، ألقى محتوياتها نحو الأفاعي. ولثوان، تجمدت كل أفاعي (الكوبرا).. وتجمدت معها دماء (صفوت) و (دينا).. ثم راحت الأفاعي تتراجع في بطء. وتتراجع. وتتراجع..
وفي حماس، التقط (عاصم) كومة من العشب، ودفعها إلى الأمام أكثر وتراجعت الأفاعي أكثر وأكثر وفي حماس، هتف (صفوت) وهو يصعد إلى اليابسة:
- إنها تتراجع.. لقد نجحنا.. لقد نجحنا..
لحقت به (دينا)، وهي تلهث في عنف وقوة، من فرط الانفعال، غير مصدقة أنهم قد تجاوزوا تلك العقبة وأن الكنز قد أصبح في قبضتهم لم تصدق، حتى التقط (عاصم) قطعة كبيرة من الذهب مغمغما:
- آه.. إنه ذهب حقيقي بالفعل.

عندئذ فقط صرختّ، بكل فرحة وسعادة وظفر الدنيا، واندفعت بكيانها كله نحو أطنان الذهب والمجوهرات، وراحت تلتقط الحلي والماسات بلهفة بلا حدود، وهي تصرخ:
- لقد نجحنا.. نجحنا.. الكنز كله صار لنا.. كنز (قارون) كله.. كل هذا الذهب والمجوهرات ملكنا..
ثم التفتت إلى (صفوت)، مواصلة بنفس الانفعال الجنوني:
- إنه يستحق يا (صفوت).. يستحق كل ما فعلناه.. اتسعت عينا (صفوت) في ارتياع، ولكنها واصلت صارخة وضاحكة في عنف:
- يستحق حتى قتلنا لذلك المراكبي الغبي الـ...

لم تكد الصرخة تتجاوز شفتيها، حتى انتهت فجأة إلى ما فعلته، فاستدارت تحدق في زوجها بذعر هائل ذعر لم ينافسه سوى ذلك الذعر الرهيب، المطل من عيني (عاصم) وملامحه.. فلقد صدمته عبارتها الأخيرة صدمته إلى حد لا يمكن تصوره. على الإطلاق...

☆ ☆ ☆

٦- العدالة...

هوى قلب (صفوت) بين قدميه، وهو يحدق في وجه(عاصم)، الذي بدا مصدوما مصعوقا، على نحو جعل (دينا) تتراجع في ارتياع، قائلة:

- لم نكن نرغب في هذا يا (عاصم)، ولكننا اضطررنا..

هتف بكل غضب ومقت واستنكار الدنيا:

- اضطررتما؟! أنت ومن؟! وهذا الحقير؟!

قال (صفوت) في عصبية:

- (عاصم).. إنني..

قاطعه في ثورة:

- اخرس..

ثم احتقن وجهه بشدة، وهو يهتف في مرارة:

- أنتما؟! أنتما معًا؟! أتخدعاني إلى هذا الحد؟! تخونانى معًا؟! زوجتي، وأقدم صديق لي؟! أنتما؟!

صاحت (دينا) مذعورة:

- لا يا (عاصم).. أنا لم أخنك قط.. (صفوت) لم يمس شعرة واحدة منى صرخ بكل غضبه:

- ولكنك شاركته جريمة قتل.. أرقت معه الدم، دون أن أعلم أو أدرى..

قالت في ضراعة:

- صدقني يا (عاصم).. لم أكن أرغب في عمل هذا قط.

صرخ:

- ولكنك فعلته.

ارتجف (صفوت)، وهو يقول:

- (عاصم).. حاول أن تفهمنا.. (مجدي) والمراكبي هددا بكشف السر، وأرادا منعنا من الفوز بالكنز.. ذلك الكنز الهائل الذي تراه أمامك.. ولم يكن باستطاعتنا أن نسمح لهما، ولكن قتلهما لم يكن واردا، و...

قاطعه بصرخة مذعورة:

قتلهما؟! أتعنى أنكما أرقتما الدم مرتين صاحت (دينا):

- من أجل الكنز يا (عاصم).. من أجل الثراء والنفوذ والقوة.. من أجل المستقبل.

صرخ:

- أي مستقبل؟! المستقبل المغموس في الدم والقتل والجريمة؟! هل تصورتما أن الثروة الطائلة ستغسل ضميريكما، وتغفر ذنوبكما؟! هراء.. كل ما تريانه أمامكما، وما ارتكبتما من أجله كل هذا، لم يكف لإنقاذ (قارون) نفسه، عندما خسف به الله (سبحانه وتعالى) الأرض.. لم يعفه من جحيم أبدى، يأتي الفاسق حتما، طال عمره أم قصر...

انتفض جسد (صفوت) كله، وهو يقول في عصبية:

- هذه الفلسفة لن تفيد الآن يا (عاصم).. الوقت يمضي في سرعة.. دعنا ننقل الذهب أولا، ثم قاطعته صيحة (عاصم) الهادرة:

- كلا..

اتسعت عينا (دينا) في ارتياع، وهي تقول:

- كلاً؟! ماذا تعني؟!

أجابها في حدة، وهو يلوح بذراعه في قوة:

- أعنى أنه لن يكون هناك ذهب.. لن ننقل قطعة واحدة من هنا.

صرخ (صفوت):

- هل جننت؟!

أجابه (عاصم)، بصرخة مماثلة:
- بل عدت إلى صوابي.. عاد إلى عقلي وضميري ورمي زوجته بنظرة قاسية ثائرة، وهو يتابع:
- كان ينبغي أن أدرك منذ البداية أن الثراء غير الشرعي لا يمكن أن يفيد.. ولا يمكن أبدا أن يحفر طريق الخير الثراء غير المشروع خدعة من عمل الشيطان.. خدعة تدفع البشر، من ضعاف النفوس إلى الخديعة والغش، والسرقة والقتل أيضا...
ارتجفت (دينا) بشدة، وهي تقول في ارتياع:
- (عاصم).. لا تقل لي إنك ستتخلى عنا الآن.
صرخ:
- بل سأقولها.. سأقولها ألف مرة.. إنني لن أتخلى عنكم فحسب، ولكنني سأخرج من هنا مباشرة إلى أقرب قسم للشرطة...
صرخت متراجعة في رعب، في حين هتف (صفوت):
- لقد جننت.. من المؤكد أنك قد جننت...
تابع (عاصم) في صرامة، وهو يضع منظار الغوص على عينيه، ويتجه في حزم إلى البحيرة الداخلية:
- سأخبرهم بكل ما حدث.. بالكنز، والقتل، و...
قبل أن يتم عبارته، اندفع (صفوت) نحوه كالمجنون، وتعلق بعنقه، صارخا:
- لا.. لن أسمح لجنونك بنسف أحلامنا كلها.. لا. تشبث به (عاصم)، وهو يصرخ:
- اتركني.. اتركني أيها الحقير.. لن أسمح لكما بالإفلات بكل هذا أبدا.. أبدا
اشتبكا معا في قتال عنيف، أمام عينى (دينا)، اللتين اتسعتا في ارتياع شديد، وهي تطلق الصرخات المتتابعة المذعورة..

لم تكن تتصور أبدا أن يبلغ الأمر هذا الحد إنها تشعر بالقلق تجاه زوجها وضميره اليقظ منذ البداية ولكنها لم تتصور أبدا أن يتخلى عنها، في موقف كهذا أو أن يصر على إضاعة فرصة كهذه فرصة لا تتكرر في الجيل الواحد أبدا بل ربما في التاريخ كله..
سيضيعها بحماقته وتسرعه، وغبائه سيضيع إلى الأبد فرصة الثراء والنفوذ والقوة..
ليس هذا فحسب، وإنما سيلقى بها وشريك عمره في السجن أيضا.. قفز ذلك الخاطر إلى ذهنها، في نفس اللحظة التي تغلب فيها (عاصم) على (صفوت)، وأمسك معصمه بقوة، صارخا:
- سأرحل من هنا يا (صفوت).. سأرحل دون أن يمكنكما منعي.. لن أسمح باستمرار هذا أبدا...
صرخ (صفوت)، وهو يقاتل في استماتة:
- أيها المجنون.. إنك ستفسد كل شيء.. كل شيء.
صاح (عاصم):
ولكنني سأنقذ نفسي، و...
قبل أن يتم عبارته، هوت تلك الضربة على مؤخرة رأسه ضربة قوية عنيفة، ارتج معها كيانه كله، فاستدار يحدق في صاحبتها، بكل ذعر، ودهشة، واستنكار الدنيا..
وللحظة واحدة، التقت عيناه بعيني (دينا).. زوجته.
وفي تلك اللحظة، أدرك أنها امرأة أخرى امرأة لم يعرفها من قبل قط امرأة شريرة.. قاسية.. جشعة.. وفي اللحظة التالية، كانت هي تهوى على رأسه بضربة أكثر عنفا، بسبيكة الذهب التي تحملها ثم بأخرى وأخرى.. وأخرى..
كانت تصرخ بهستيريا عجيبة، وهي تضرب وتضرب وتضرب كفى يا (دينا).. كفى..

صرخ (صفوت)، وهو يندفع نحوها، ويمسك معصمها في قوة، متابعا:
- لقد حطمت رأسه تماما...
اتسعت عيناها بارتياع مذعور، وهي تحدق في جثة زوجها عاصم الذي سقط عند حافة البحيرة الداخلية، وسط بركة من الدم، تفجرت من رأسه المحطم، ثم نقلت بصرها إلى سبيكة الذهب الملوثة بالدم في يدها، قبل أن تصرخ:
- لا.. لا.. لا..
ضمها (صفوت) إليه في قوة، هاتفا:
- أهدئى.. اهدئي.. كان هذا حتميا.. إما هو أو نحن.. لو أنه خرج من هنا حيا لأفسد الأمر كله
صرخت كالمجنونة:
- لقد قتلته.. قتلت زوجي.. قتلت (عاصم).
هزها في عنف، صائحا:
- كل هذا من أجل الكنز.. لا تنسى.. من أجل الثروة الطائلة.. كل هذا من أجل كنز (قارون)..
ظلت ترتجف بين ذراعيه لعشر دقائق على الأقل، والدموع تتفجر من عينيها بمنتهى العنف، حتى قال هو في صرامة:
- دعينا لا نضيع المزيد من الوقت.. الشمس ستشرق خلال أربع ساعات فحسب، وينبغي أن نكون في الطريق عندما تفعل...
أومأت برأسها مستسلمة، وهي تمسح دموعها، وتناولت الجوال الذي قدمه لها، وراحت تملؤه بالذهب، وهي تتحاشى النظر إلى جثة زوجها، وتبذل كل جهدها لطرد ما حدث من ذهنها وراح الجوال يمتلئ بالذهب والمجوهرات ويمتلئ ويمتلئ..
وفي محاولة لطرد الموقف من رأسها، سألت في عصبية:

- هل تعتقد أنه بإمكاننا بيع كل هذا؟! أعنى أنها تحف أثرية قال في شراسة:
- تحف أو غير تحف.. الذهب هو الذهب.. إننا لا نريد أن تطاردنا الشرطة، بتهمة تهريبه أو بيع الآثار.. سنذيب كل هذا، ونصنع منه سبائك من الذهب فحسب...
ثم التقط نفسا عميقا، وهتف:
- ولو أردت رأيي، فما حملناه حتى الآن يتجاوز الثلاثة ملايين كذهب خام فقط قالها، وانطلقت من حلقه ضحكة ظافرة مدوية ضحكة خيل إليها أنها تتردد في المكان بعنف، حتى لتهز جدرانه أيضا، ولكن مهلا الجدران تهتز بالفعل وبقوة..
وبكل الذعر، هتف (صفوت):
- رباه! إنه زلزال آخر.. أو تابع من توابع الزلزال الأول أسرعي يا (دينا).. أسرعي...
وضع كل منهما منظار الغوص على عينيه، وثبت منظم الأكسجين في فمه، ثم حملا جوالي الذهب، ووثبا في البحيرة الداخلية، وراحا يغوصان في الفجوة الكبيرة، حتى بلغا ذلك الشق الأفقي، وضوء مصباحيهما يشق الطريق، والمياه تزداد عكارة في شدة، والجدران ترتج بعنف أكبر وأكبر وأكبر وبكل قوتهما وذعرهما، راحا يسبحان ويسبحان.. ويسبحان...
وعندما سلطا ضوء المصباحين على مخرج الشق، كادت(دينا) تطلق صرخة رهيبة، تحمل رعبا لم يشعر به مخلوق حي من قبل فقد كان جانبا الشق يقتربان من بعضهما، مع الارتجاجات القوية (صفوت) أيضا رأى ذلك المشهد الرهيب، فدفع جسده إلى الأمام بسرعة أكبر وأكبر ولكن جانبا الشق اقتربا بسرعة والذهب الثقيل كان يمنعهما من الانطلاق لذا، ففي لحظة واحدة، ودون اتفاق مسبق، تخلى كل منهما عن جوال الذهب،

وتركا الجوالين يهويان داخل النفق، وهما يسبحان بكل قوتيهما نحو الشق الخارجي ثم ارتج المكان بعنف أكبر بغتة وتعكرت المياه بشدة..

وانعدمت الرؤية تماما ولكنهما سبحا أسرع وفجأة ارتطما بجدار صخري سميك خشن وعادت الرؤية تتضح وفي لحظة واحدة، أدرك كلاهما ما حدث..

وانهار قلب (صفوت) في أعماقه أما (دينا)، فقد تركت منظم الأكسجين يسقط من بين شفتيها، وهي تصرخ، وتصرخ، وتصرخ، بكل رعب وهلع وارتياع وفزع الدنيا، تحت الماء لقد التقى جانبا الشق وأغلق المكان عليهما تماما.. وإلى الأبد مع الأفاعي والكنز، الذي سفكا من أجله الكثير من الدم كنز (قارون)...

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- الاعماق..
٢- زلزال..
٣- البحث...
٤- الدم...
٥- بريق الذهب...
٦- العدالة...

Notes

[←1]

الفيوم: محافظة تحتل منخفضا صحراويا، غرب محافظة (بنى سويف)، عاصمتها (الفيوم)، تم ضمها إلى محافظة (بنى سويف) أكثر من مرة، قبل أن تنفصل، وتصبح مديرية قائمة بذاتها، منذ عام (١٨٧٠م) أرضها غير مستوية السطح، ويقع جزء كبير منها تحت مستوى البحر، في شمالها الغربي تقع بحيرة (قارون)، يربطها بالوادي شريط ضيق من الأراضي الزراعية (فتحة اللاهون)، يجرى فيها (بحر يوسف)، الذي يروي المحافظة، التي تشتهر بزراعة الأرز، والموالح، والتين، والعنب، وبها الكثير من المناطق السياحية..

[←2]

الجارسون

[←3]

(توت - عنخ - آمون): ملك مصري فرعوني قديم (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق. م)، من الأسرة الثامنة عشرة، زوج ابنة (اخناتون)، ثم تتويجه في العقد الثاني من عمره، ومات دون العشرين، تنصل من ديانة (أتون)، وعاد إلى (طيبة) والإله (آمون)، ولقد مول اللورد (كارنرفون) حملة للبحث عن مقبرته، التي عثر عليها (هوارد كارتر) سليمة، بكل تحفها وكنوزها، (المعروضة حاليا في المتحف المصري)، عام ١٩٢٢م.

[←4]

حقيقة

[←5]

البيولوجيا: علم الأحياء، وينقسم إلى علمي النبات والحيوان، ويتضمن كل من هذين القسمين علوم الخلية، والأنسجة، والتشريح، والمورفولوجيا، والفسيولوجيا، وعلم الأجنة، وعلم البيئة، وعلم الوراثة والتطور، وعلم الحفريات، وعلم التصنيف، وأضيف إليها حديثا علم الميكروبيولوجيا (الكائنات الدقيقة)، والبيولوجيا الحيوية، ولقد كان لكشف المجهر في القرن السادس عشر أكبر الأثر في تطور علم البيولوجيا

[←6]

حقائق علمية وتاريخية وواقعية

[←7]

حقيقة

[←8]

حقيقة علمية

[←9]

حقيقة

[←10]

القرآن الكريم: بسم الله الرحمن الرحيم * فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره *. الآيتان ٧ و٨ من (سورة الزلزلة).

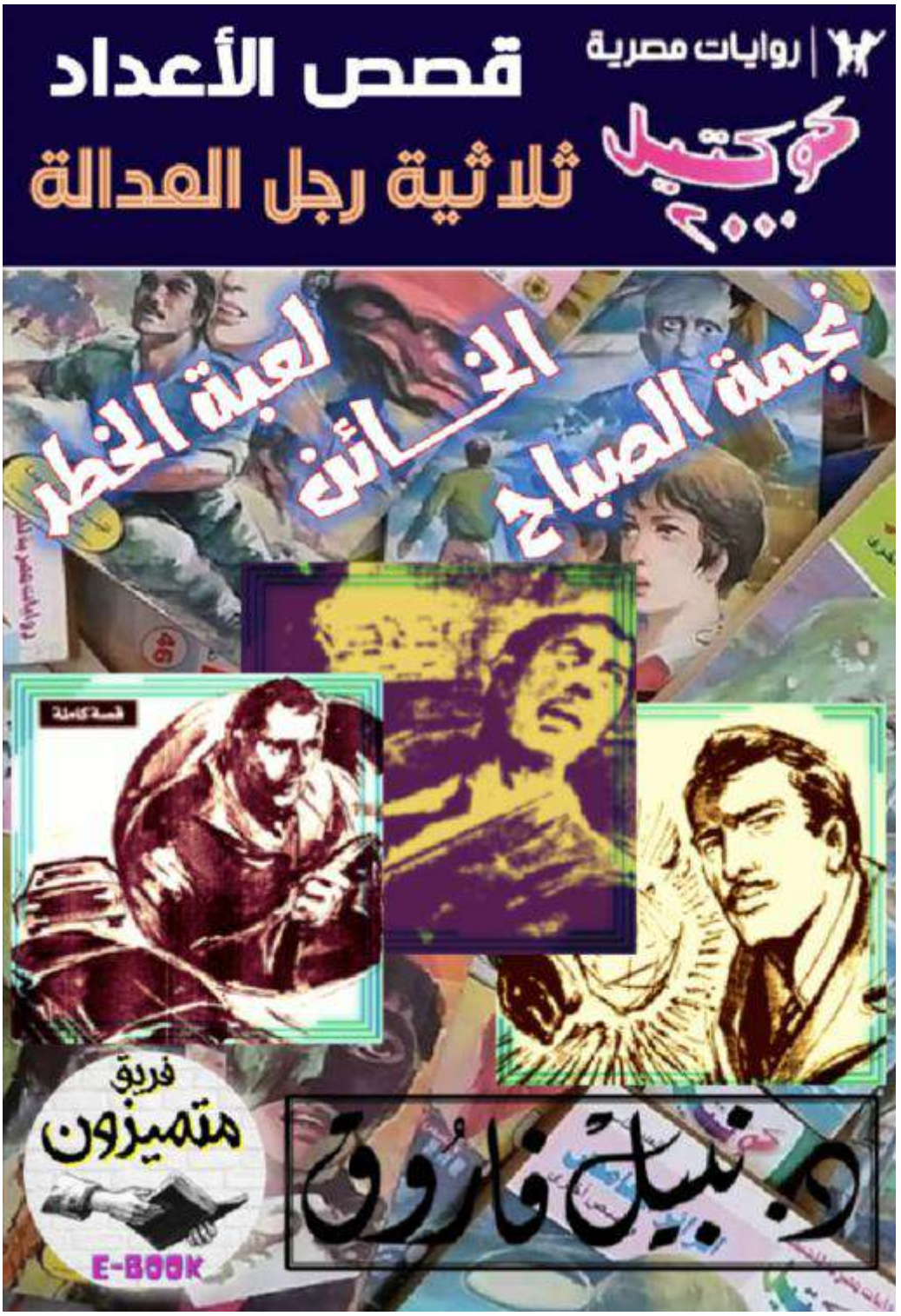
روايات مصرية
كوكتيل ٢٠٠٠
قصص الأعداد
ثلاثية رجل العدالة
نجمة الصباح
الخائن
لعبة الخطر
قصة كاملة
فريق
متميزون
E-BOOK
د. نبيل فاروق

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

رجل العدالة

نجمة الصباح

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

رجل العدالة

نجمة الصباح

قصة كاملة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٢٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٨٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٣٧٠٠٢

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

رجل العدالة (١)
نجمة الصباح

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

شق رنين الهاتف سكون حجرة نوم مفتش الأمن العام (هاشم همام) قبيل الفجر بنصف الساعة تقريبا، وامتدت يد (هاشم) في تكاسل، تنتزع سماعة الهاتف، وتمتم في صوت لم يفارقه النعاس بعد:

- هنا منزل المفتش (هاشم)، وهذا تسجيل و....

قاطعه صوت زميله (يحيى) في حدة:

- دعك من هذا يا (هاشم).. إنه أنا (يحيي)، وأنا أعلم أنك لا تستخدم هاتفا مزودا بجهاز تسجيل المحادثات..

زفر (هاشم) في حنق، واعتدل جالسًا على طرف فراشه وفرك عينيه في تراخ، مغمغما:

- حسن.. ماذا هناك؟ هل نفد صبر المشرف العام يا صديقي.. أم؟

قاطعة (يحيي) في صوت يحمل رنة انفعال واضحة:

- لقد سرقوا (نجمة الصباح)..

قفز الخمول والتراخي دفعة واحدة من رأس (هاشم) وقفز هو نفسه واقفا، وهو يهتف في ذهول:

- سرقوا ماذا؟

كرر (يحيى):

- سرقوا نجمة الصباح يا (هاشم).. سرقوها على الرغم من كل احتياطات الأمن.. إنني أتحدث إليك من المتحف.. لقد كشفوا أمر السرقة منذ نصف الساعة فقط، و...

قاطعه (هاشم) في انفعال:

- أنا في طريقي إليك.

لم يدرِ كيف ارتدي ثيابه بكل هذه السرعة، ولا كيف هبط إلى حيث سيارته، وانطلق بها هكذا..

كان الخبر مذهلًا بحق..
إنه لم يتصور أبدا إمكانية سرقة (نجمة الصباح) تلك الماسة الضخمة، التي تُعدُّ من أكبر قطع الماس في العالم كله، والتي يبلغ ثمنها عشرين مليونا من الدولارات على الأقل، والتي أحاطها متحف المدينة بإجراءات أمن فائقة التشدد، في الفترة التي تقرر عرضها فيه، والتي تنتهي مساء الغدّ..
لقد تم وضع الماسة في قاعة خاصة، وعلى منصة مستديرة من المرمر، يبلغ ارتفاعها مترا واحدا، وتحيط بها دائرة من الخلايا الضوئية، يكفي لمس شعاع ضوئي واحد منها، لتنطلق صفارات الإنذار في المكان كله، وتهبط أبواب معدنية في سرعة فائقة فتحيل قاعة الماسة إلى سجن مُحكم.
ولتلك القاعة ثلاثة أبواب، تغلق ليلا بحاجز من الأشعة دون الحمراء، ولأشعة الليزر القاتلة، التي يتم التحكم فيها عبر شبكة كمبيوتر خاصة، بحيث يتم تحديد أي هدف يمر عبر حاجز الأشعة دون الحمراء وإمطاره بأشعة الليزر القاتلة في جزء من الثانية..
وأرضية القاعة نفسها من نوع خاص يكفي أن تطأه قدم طفل صغير، بعد انتهاء مواعيد العرض بالمتحف، لإشعال جهاز إنذار بها..
خاص، يغلق نفس الأبواب المعدنية
أضف إلى هذا آلات التصوير التليفزيونية، التي تراقب الماسة ليل نهار..
باختصار، كانت (نجمة الصباح) في حصن حصين، يجعل سرقتها مستحيلة..
وعلى الرغم من هذا، فقد سرقها أحدهم..

تضاعفت حيرة (هاشم) وهو يسترجع إجراءات الأمن مرات ومرات، وبدا له أن الأمر أشبه بمزحة سخيفة، وأن أحدا لم يسرق (نجمة الصباح) بالفعل، ولكنه لم يكد يبلغ المتحف ويقف داخل القاعة الحصينة، حتى تلاشت تلك الفكرة من رأسيه، مع صوت زميله (يحيى)، وهو يشير إلى المنصَّة المرمرية الخالية، قائلا في حيرة:

- لقد اختفت.. كانت كل وسائل الأمن تعمل بكفاءة تامة طيلة الوقت، ولكن (نجمة الصباح) اختفت..

سأله (هاشم) في اهتمام:

- كيف يا (يحيي)؟ كيف ومتى اختفت (نجمة الصباح)؟

أجابه (يحيي):

- لقد استجوبت طاقم الحراسة والأمن في المتحف، وهو يتكون من حارسين داخل المتحف وآخرين مهمتهما مراقبة الشاشات التليفزيونية، في حجرة خاصة بالطابق الثاني، ولقد أجمعوا على أن (نجمة الصباح) كانت في موضعها، حتى موعد تبديل الحراسة، في الرابعة صباحا..

سأله هاشم:

- وماذا حدث حينذاك؟

لوح (يحيى) بكفيه، قائلا:

- لقد اختفت.

سأله في حدة:

- كيف؟ هذا هو ما أسألك عنه!

مط (يحيى) شفتيه، وقلب كفيه في حيرة، وهو يقول:

- لا أحد يدري.. لقد تم تبديل طاقمي الحراسة فى دقيقة واحدة فقط، ولم يكد الطاقم الجديد يبدأ عمله، حتى كشف اختفاء الماسة.

عقد (هاشم) حاجبيه، وهو يقول:
- ولكن هذا غير منطقي، وغير مقبول.. من المستحيل أن يتجاوز مخلوق بشري كل حواجز الأمن، ويسرق (نجمة الصباح) ثم يبادر بالفرار، خلال دقيقة واحدة فقط.
قلب (يحيى) كفيه مرة أخرى وقال:
- ولكن هذا ما أجمع عليه طاقم الحراسة..
بدت علائم التفكير العميق على وجه (هاشم)، وأعلنت عن نفسها في صمته الطويل، وفي تلك الحركة التقليدية، التي يستخدمها كلما اشتدت حيرته إزاء أمر ما، فيحك أرنبه أنفه بسبابته في بطء ورتابة، ثم لم يلبث أن هز رأسه، قائلا:
- مستحيل! هناك أمرٌ خاطئ في هذه السرقة يا (يحيي).
سأله (يحيى) في نهفة:
- ما هو؟
هز (هاشم) رأسه، قائلا:
- لست أدري، هذا ما أبحث عنه.
قال (يحيى) في إحباط:
- ولكن الحراس الأربعة قالوا...
قاطعه (هاشم):
- إنه أحد الاحتمالات، التي تملأ ذهني..
سأله في دهشة
- أي احتمال هذا؟
اشتعلت عينا (هاشم) ببريق الحزم، وهو يقول:
- أن يكون الحراس الأربعة هم بغيتنا.. وأنها عصابة يا رجل.. عصابة من أربعة من رجال الحراسة..
وكانت مفاجأة حقيقية لـ (يحيى)، الذي حق في وجه (هاشم) في دهشة، قبل أن يهز رأسه في عنف، هاتفا:

- لا يا (هاشم).. يمكنك استبعاد هذا الاحتمال، فنحن ننتقي رجال الحراسة، بدقة تامة، ثم إن توزيعهم يتم عشوائيا، على نحو يصعب معه اتفاقهم على أمر بالغ الخطورة كهذا..
بدا الضيق على وجه (هاشم)، وهو يحكّ أرنبة أنفه بسبابته، مغمغما:
- إنك تجعل الأمر أكثر صعوبة يا (يحيى).
وعاد يدير عينيه في المكان، وهو يتمتم في خفوت، وكأنما يتحدث إلى نفسه:
- إذن فنحن أمام جريمة متقنة ومُحكمة للغاية، قام بها شخص من خارج المكان، ونجح خلال دقيقة واحدة فقط في اختراق حواجز أمن رهيبة، يؤكد صانعوها أنه يستحيل اختراقها بأية مقاييس، و....
بتر عبارته بغتة، وعاد إلى التفكير العميق، ثم رفع رأسه في حدة، وقال:
- قل لي، كم رجلا يمكنه الاقتراب من (نجمة الصباح)، دون رقابة؟
هز (يحيي) رأسه، وهو يقول:
- لا أحد.
هتف (هاشم) في دهشة:
- مطلقا؟!
عقد (هاشم) حاجبيه، وهو يقول في صرامة:
- حسن.. أريد قائمة بكل العاملين في المكان، وبخاصة المشرفين على رعاية (نجمة الصباح)، ووسائل الأمن المحيطة بها.
جاءه صوت من خلفه، يقول:
- إنه أمر أبسط مما تتصور..

التفت (هاشم) إلى صاحب الصوت في هدوء، ووقع بصره على رجل متين البنيان، حاد النظرات، يرتدي زي حراس أمن المتحف، وإن أضيف إلى زيه بالذات مستطيل أحمر يزين جيب السترة الأيسر، وقبل أن يلقى (هاشم) سؤالا واحدا، أسرع (يحيى) يقول:

- هذا الرجل هو أخطر مسئول في المتحف.. أخطرهم على الإطلاق..

ابتسم ذلك الرجل، الذي وصفه (يحيى) بأخطر مسئولي المتحف، في حين راح (يحيى) يستطرد:

- العقيد (مختار).. قائد حرس المتحف.

درس (هاشم) العقيد (مختار)، قائد حرس المتحف بنظرة فاحصة سريعة، وسأله في هدوء:

- حسن.. لماذا تعتبر الحصول على القائمة أمرا سهلًا للغاية؟

هز العقيد (مختار) كتفيه، وقال:

- لأن عدد المسئولين عن (نجمة الصباح) لا يتجاوز الأربعة..
أنا، والسيد (فتحي) مدير المتحف، و (رشوان) خبير الماس، و (نادر) المهندس المسئول عن أجهزة الأمن، وهو خبير بالإلكترونيات..
ثم ضاقت عيناه، وهو يقول بلهجة استفزازية:
- ولكن لماذا تسأل عن المسئولين بالذات؟
أشار (هاشم) إلى القاعدة المرمرية الخالية، وهو يقول:
- لأن الأسلوب الذي اختفت به (نجمة الصباح) يعني بالضرورة أن اختفاءها قد تم بوساطة أحدكم..
حدَّق (مختار) في وجهه لحظة، قبل أن يهتف في غضب:
- كيف تجرؤ؟
وبصورة غريزية، امتدت يده نحو المسدس المعلق بحزامه، وانتزاعه في عنف، وصوبه نحو (هاشم)..
وبسرعة لم يتوقعها أحد، انحنى (هاشم) ومال جانبا وأطاح بمسدس العقيد (مختار) بضربة من يده اليسرى، ثم اعتدل في قوة، وهو على فك هذا الأخير بلكمة عنيفة..
وسقط (مختار) أرضا، ساخطا، في حين انحنى (هاشم) يلتقط مسدسه، وهو يقول في هدوء:
- لم يكن ينبغي أن يبدأ حديثنا على هذا النحو، خاصة وأننا من فريق واحد و...
بتر عبارته بغتة، وهو يحدق في نقطة ما على الأرض..
فهتف (يحيي) في لهفة:
- ماذا هناك؟
التمعت عينا (هاشم) قائلا:
- يبدو أنني قد وجدت أول الخيط..
وأشار إلى شيء ما على أرض القاعة..

شيء عجيب بحق..

☆ ☆ ☆

تطلع الجميع في حيرة إلى ذلك الشيء الدقيق، الذي يمسك به (هاشم) بين سبابته، وإبهامه، وخرج أول سؤال من بين شفتي العقيد (مختار) وهو يقول في توتر يغلب عليه السَخَط:

- ما هذا؟

وضع (هاشم) ذلك الشيء على راحته، ومد يده إلى العقيد (مختار) يسأله:

- دعني أنا ألقِ عليك هذا السؤال، ما هذا الشيء؟

تطلع العقيد (مختار) في حيرة إلى أسطوانة دقيقة لامعة تستقر في راحة (هاشم)، وهز رأسه، متمتمًا:

- لست أدري.. إنه يبدو لي مجرد قرص لامع صغير..

ثم استطرد في اعتداد:

- ولكن لدينا من يمكنه تحديد هويته..

سأله (هاشم) على الفور:

- هل تقصد المهندس (نادر) خبير الإلكترونيات؟

بدا الضيق على وجه (مختار) وكأنما لم يرق له أن يستنتج (هاشم) الجواب وقال في حنق:

- نعم.. هذا ما أقصده.. ولقد أرسلت في استدعاء الجميع، وسيكونون هنا بعد لحظات بإذن الله.

قالها وانصرف مغادرا المكان كله في خطوات حادة. وكأنما لم يعد يحتمل مجرد البقاء مع (هاشم)، الذي لم يبدُ عليه أدنى اهتمام بانصراف (مختار)، بل راح يولى اهتمامه كله لتلك الأسطوانة اللامعة الدقيقة في راحته، فسأله (يحيى):

- ماذا تظنها؟

هز (هاشم) كتفيه، وقال:

- تبدو لي أشبه بأسطوانة كمبيوتر، ولكن بربع الحجم المعروف، أو أقلّ..
وأطبق راحته على الأسطوانة، وهو يلتفت إلى القاعدة المرمرية الخالية، التي كانت تستقر الماسة فوقها منذ أقل من ساعة وسأل (يحيى):
- قل لي: متى تم إيقاف وسائل الأمن؟
- فور وصولنا، فما كنا لنطأ أرض قاعة عرض (نجمة الصباح) دون إيقاف كل وسائل الأمن، وإلا لأصبحنا بغتة في سجن محكم، وأمطرتنا أشعة الليزر القاتلة..
- هل سألت متى يتم تنظيف القاعة؟
- بعد انصراف رواد المتحف تماما، يقوم بتنظيفها عاملان، تحت حراسة مشددة، وتحت رقابة آلات التصوير التليفزيونية..
تطلع إليه (يحيي) لحظة قبل أن يسأله في خفوت وانفعال:
- (هاشم).. لقد توصلت إلى شيء ما؟
لم يقلّ غموض ابتسامة (هاشم) وهو يقول:
- لا.. ليس بعد يا صديقي
عقد (يحيى) حاجبيه في شك، وبدا له أن (هاشم) يخدعه على نحو ما، أو يخفي عنه أمرا حيويا، وكاد يصارحه بهذا بالفعل، لولا أن ارتفع صوت العقيد (مختار):
- لقد وصل الثلاثة الأخرون..
التفت إليه (هاشم) وهو يقول:
- عظيم.
وراح يتأمل الرجال الثلاثة بنظرة فاحصة..
كان أحدهم نحيلا قصيرا، حاد النظرات، يبدو شديد التوتر، والآخر فارع الطول، يرتدي منظارا طبيا أنيقا، ويحمل وجهه

وسامة جيدة، في حين بدا الثالث بدينا على نحو مبالغ، جعل (هاشم) يسأله:
أأنت مدير المتحف يا سيدى؟
أجابه الرجل:
- لا المدير هو هذا النحيل القصير السيد (فتحي)، أنا رشوان) خبير الماس، وهذا الطويل الوسيم هو المهندس (نادر) الخبير التكنولوجي..
غمغم (نادر):
- تقصد خبير الإلكترونيات..
أطلق (رشوان) ضحكة، وهو يقول:
- الفارق ليس كبيرا..
قال (هاشم):
- ربما.. هذا ما سيخبرنا به المهندس (نادر)، بعد أن يجيب عن سؤالي الأول..
ثم فرد راحته أمام (نادر) قائلا:
- ما هذا؟
تطلع (نادر) إلى الأسطوانة الدقيقة في هدوء، وقال:
- إنها أسطوانة ليزر..
- وما عمل أسطوانة الليزر هذه؟
- إنها تستخدم في بعض الأنواع الحديثة من أجهزة الكمبيوتر، حيث يتم البحث عن المعلومة منها بوساطة شعاع من الليزر.
- كيف تفسر إذن وجود أسطوانة ليزر على أرضية القاعة؟
- ربما سقطت من أحد زوار المعرض..
- هذا مستحيل، لأن القاعة يتم تنظيفها فور انصراف الزوار، ولن يترك عاملا النظافة أسطوانة لامعة كهذه.
- ما تفسيرك لوجودها إذن؟

ابتسم (هاشم) وهو يدس الأسطوانة في جيبه قائلا:
- ليس لديَّ أي تفسير.
ثم استطرد:
- بصفتك خبير الإلكترونيات، والمسئول عن كل وسائل الأمن هنا.. أخبرني: هل يمكن لأي مخلوق التسلل إلى القاعة، وسرقة الماسية، خلال دقيقة واحدة فقط؟
- لا.. هذا مستحيل، حتى ولو منحت السارق ثلاث ساعات..
اندفع مدير المتحف يقول:
- بل هذا ممكن، لو أنه أحسن التفكير، فقد يمكنه هذا..
سأله (هاشم):
- كيف يا سيد (فتحي)؟
- يمكنني أن أريكم كيف.. أعطني تلك الأسطوانة الصغيرة يا سيد (هاشم).
ناوله (هاشم) الأسطوانة في بساطة، فاتجه بها نحو الدائرة المحيطة بقاعدة الماسية، وقال:
- لو أن السارق وضع تلك الأسطوانة فوق إحدى الخلايا الضوئية، فسينعكس عليها الضوء، ويمكنه عندئذ أن يمدّ يده عبر الفجوة الناشئة، ويسرق الماسة..
اتسعت ابتسامة (هاشم)، وهو يلتفت إلى (نادر) ويسأله:
- ما رأيك يا سيد (نادر)؟
- أسخف فكرة سمعتها في حياتي..
احتقن وجه المدير غضبا، في حين استطرد (نادر) في حسم:
- وضع الأسطوانة الصغيرة فوق إحدى الخلايا الضوئية كفيل بإطلاق أجهزة الإنذار على الفور، لا منعها من الانطلاق، ثم إن الوصول إليها يستلزم أن يسير السارق فوق أرضية الحجرة، ولو أنه فعل لانطلقت أجهزة الإنذار، وأغلقت أبواب القاعة تلقائيا..

قال (هاشم) بابتسامة هادئة:
- شكرا لك يا سيد (نادر)، هذا يلغى فكرتك تماما يا سيد (فتحي).
والآن هلا أعدت إلى تلك الأسطوانة؟
عقد (فتحي) حاجبيه في صرامة، وهو يقول في عصبية:
- مستحيل!
- بل ستعيدها إلى يا سيد (فتحي)، وإلا اتهمتك بإعاقة سير العدالة.
- ولكنك هنا في أرضي أيها المفتش، وكل من هنا يأتمر بأمري.
- أعِد الأسطوانة يا سيد (فتحي) وإلا..
- لن تأخذها أيها المفتش، امنعوه يا رجال..
أسرع (يحيي) يستلّ مسدسه، ولكن يد حراس المتحف أطبقت على عنقه من الخلف، وأحاطت قبضة الحارس الأخرى بمعصم (يحيى)، في محاولة لمنعه من استخدام مسدسه، في حين رفع الحراس الثلاثة الآخرون أسلحتهم في وجه (هاشم)، الذي صاح في غضب، وهو يتجه نحو (فتحي) بحركة حادة:
- أطع القانون أيها المدير.
وانقض الحراس الثلاثة على (هاشم)..
على رجل العدالة.

☆ ☆ ☆

قلائل هم، من رأوا (هاشم) يعمل..
وندرة هم، من رأوه يقاتل..
ولكن كل من رآه أو تعامل معه، كان يحمل له شعورا واحدا..
الاحترام..
وعندما انقضَّ حراس المتحف الثلاثة على (هاشم)، بأمر من مديرهم كانوا يجهلون كل شيء عنه، إلا أنه رجل أمن..

وبعد دقيقة واحدة، كانوا يعلمون عنه الكثير..
وكان الدرس سريعًا..
وقاسيًا..
في نفس اللحظة التي انقضوا فيها، تراجع (هاشم) إلى الخلف بغتة، ثم دار على عقبيه، وأطلق قبضته اليمنى كالقنبلة، في وجه أولهم، ومال جانبا لتلكم قبضته اليسرى أنف الثاني ثم قفزت قدمه تركل مسدس الثالث، وقفزت القدم الأخرى بعدها بجزء من الثانية، وغاصت في معدة الرجل نفسه..
وتأوه الحارس الثالث، وهو ينثني متراجعا، ممسكا بمعدته في ألم، في حين تجمدت الدماء في عروق الرابع، الذي يشلّ حركة (يحيى)، عندما رأى مسدس (هاشم) مصوبا إلى رأسه، وسمع (هاشم) يقول في مزيج من غضب وصرامة هائلين:
- اتركه.
وفي لمح البصر، تخلى الحارس عن (يحيى)، وتراجع رافعا ذراعيه، هاتفا في هلع:
- كنت أنفذ الأوامر فحسب..
سعل (يحيي)، عندما تخلى الحارس عن عنقه، واستلَّ مسدسه على نحو غريزى، في حين صاح (هاشم) في غضب، وهو يلتفت إلى مدير المتحف، الذي استحال وجهه إلى قطعة صفراء شاحبة:
- أي عبث يجري هنا؟! إننا نتقاتل كما لو كنا فريقين متعارضين، على الرغم من أننا نسعى جميعا لهدف واحد.. أعطني الأسطوانة.
ارتجف جسد المدير (فتحي) وهو يمدّ يده إليه بالأسطوانة، متمتما في لهجة أقرب إلى الانهيار:

- ها هي ذي.. لم أكن أنوى مهاجمتك، ولكنني أردت إنهاء الأمر داخليًّا، فنحن متحف له سمعته، ولو انتشر الخبر فسوف....

ارتجف جسد المدير (فتحي) وهو يمد يده إليه بالأسطوانة ..

قاطعه (هاشم) في صرامة:

القانون هو القانون يا سيد (فتحي)، لقد سرق أحدهم الماسة النادرة، ولا بد من التوَّصل إليه، ومعاقبته، حتى تتحقق العدالة.. إنني لا أتنازل أبدا عن حق العدالة.. هل تفهم؟
أومأ الرجل برأسه في شحوب، على حين أعاد (هاشم) مسدسه إلى جيبه في بساطة، وكأنما لم يكن ثائرا منذ لحظة واحدة، وأضاف وهو يتطلع إلى الرجال الثلاثة الآخرين، الذين شاركوا المدير ذهوله وشحوبة:
- سننسى كل ما حدث، فليس لدينا وقت نضيعه في مشاحنات وصراعات جانبية.. دعونا نواصل التحقيق..
ثم وجَّه حديثه إلى العقيد (مختار)، قائلا:
- قل لى يا رئيس الأمن.. من منكم يمكنه الاقتراب من الماسة؟
أجابه (مختار)، وهو يحاول السيطرة على أعصابه:
- كلنا يمكنه ذلك.. من حقي أنا أن اقترب منها، لفحص وسائل الأمن ومراجعتها، ولكنني لم ألمسها منذ وصولها، والسيد (فتحي) المدير له الحق في الاطمئنان عليها في أية لحظة، و (نادر) يستطيع فحص أجهزة المراقبة والأمن دائما..
سأله (هاشم):
- وهل يتم هذا تحت المراقبة؟
أجابه (نادر) هذه المرة:
- كل خطوة هنا تتم تحت المراقبة، ويتم تسجيلها بآلات التصوير، على شرائط خاصة..
سأله:
- وهل تحتفظون بهذه الشرائط دائما؟
هز رأسه نفيا، وقال:
- لا.. يتم تغييرها وتسجيل الأحداث الجديدة عليها كل اثنتي عشرة ساعة، فلا مبرر للاحتفاظ بأطنان من الشرائط المسجلة

دون طائل..
صمت (هاشم) لحظات، وكأنما يدرس الأمر، ثم سأل (رشوان) بغتة:
- متى قمت بتلميع الماسة لأخر مرة؟
بدا وكأن (رشوان) قد بوغت بالسؤال، أو كأنه تلميذ مهمل، فاجأه أستاذه بسؤال دقيق حول مقررات الدراسية، على حين غرة، فلقد ارتبك (رشوان) وتلعثم، وراح يجفف عرقًا وهميًّا، وهو يجيب:
- هذا الصباح فحسب.. أعني صباح اليوم السابق..
سأله (هاشم) في هدوء:
- في أية ساعة فعلت؟
أجابه في توتر:
- المتحف يفتح أبوابه في التاسعة صباحا للجمهور، وأنا أعمل على العناية بالماسة وتلميعها في الثامنة عادة، لتتألق أكثر..
سأله:
- وكيف يتم هذا؟
ازدرد (رشوان) لعابه على نحو ملحوظ وأجاب:
- إنني أرشُّها بسائل خاص، ثم أحيطها بغلاف مخملي رقيق، وأقوم بتدليكها لدقيقة كاملة، لإزالة كل ذرة غبار على سطحها، وبعدها يبدأ تشغيل مصباح التألق، فتبدوا الماسة مبهرة..
عقد (هاشم) حاجبيه، وهو يسأل:
- ما مصباح التألق هذا؟
أشار (نادر) إلى دائرة من المعدن، تعلو القاعدة المرمرية تماما، تراصت داخلها عدة مصابيح صغيرة، بنفسجية اللون، وقال:
- هذا هو مصباح التألق.. إنها عدة مصابيح دقيقة، تطلق أشعة غير مرئية، هي مزيج من الليزر والأشعة فوق البنفسجية، وهذا

الضوء الخاصّ ينعكس على سطح الماسة على نحو أكثر تشتتا مما يفعل الضوء العادي وهذا التشتت يمنح الماسة بريقا مضاعفا، وبهاءً مبهرًا..
صمت (هاشم) لحظات أخرى، ثم سأل (رشوان):
- هل رآك أحد وأنت تقوم بعملك هذا الصباح؟
أجابه (رشوان):
- أجل.. رآني الجميع، وتم تفتيشي أيضا..
وابتسم (نادر) قائلا:
- الأمور هنا تسير بدقة بالغة يا رجل العدالة.. بل هي تفوق دقة الساعة، فكل من يقترب من الماسة يتم تفتيشه جيدا، قبل دخول حجرة عرضها، ما دامت وسائل الأمن متوقفة عن العمل، ونحن نوقفها حتما، عندما يقوم السيد (رشوان) بتلميع الماسة..
تطلع إليه (هاشم) لحظة في صمت، ثم ابتسم ابتسامة غامضة، وهو يقول:
- واضح من لهجتك أنك تهوى الدقة الشديدة في كل الأمور..
هز (نادر) كتفيه، وقال في بساطة:
- إنه عملي.
ران الصمت تماما على المكان، بعد عبارة (نادر) المقتضبة، وتعلقت العيون كلها بـ (هاشم)، الذي راح يحكُّ أرنبة أنفه بسبابته في بطء ورتابة، فغمغم (يحيى) في قلق:
- الأمر يبدو شديد الغموض مثيرا للحيرة.. أليس كذلك؟
التفت إليه (هاشم) في هدوء، وبدا لحظة أنه شديد الشرود، إلا أنه لم يلبث أن ابتسم، وقال:
- لا.. ليس تماما..
هتف (يحيي) في لهفة:
- هل توصلت إلى شيء ما؟

هز كتفيه دون أن يجيب، ودون أن تتلاشى ابتسامته، فقال العقيد (مختار) في سخرية عصبية:
- هيا يا (شيرلوك هولمز).. أخبره عما توصلت إليه..
أدار (هاشم) عينيه إليه، وبدا هادئا واثقا، وهو يقول:
- ليس بعد..
واستدار يتطلع إلى قاعدة (نجمة الصباح) المرمرية لحظة، قبل أن يسأل:
- هل تعمل وسائل الأمن الآن؟
أجابه (نادر) في هدوء:
- لا.. إنها تتوقف عند حدوث طارئ مفاجئ.. رجال الحراسة يوقفونها.
هز (هاشم) رأسه متفهما، واتجه نحو القاعدة، وانحنى يفحص إطارا أنيقا يحيط بقمتها، ويحمل نقوشا منتظمة، وقال:
- أنيق هو هذا الإطار..
أجابه (مختار) في ضيق:
- إنه القاعدة التي ترتكز عليها (نجمة الصباح)، وهو ليس مجرد إطار.. إنه نوع من الـ.. الـ..
بدا وكأنه لا يتذكر الاسم تماما، فقد التفت إلى (نادر)، واستطرد في عصبية:
- ما اسم هذا الشيء؟
أجاب (نادر) في بساطة:
- حافظ اتزان إليكتروني.. إنه جهاز خاص، يعمل إلكترونيا لتبقى (نجمة الصباح) دائما ثابتة، مستقرة على طرفها المدبب.
أبتسم (هاشم) وقال:
- رائع هو متحفكم هذا.. إنه يزخر بالأجهزة الحديثة.
بدا الضيق على وجه (يحيى)، وهو يقول:

- إذن فأنت لم تتوصل إلى شيء هذه المرة.
التفت إليه (هاشم) وقال:
- وهل خذلتك من قبل يا صديقي؟
بدا الانفعال واللهفة على وجه (يحيي) في حين قال (نادر):
- ربما تشعر بالحيرة هذه المرة، لأن الأمر يتعلق بأجهزة تجهل معظمها..
بدا وكأن (هاشم) سيطلق ضحكة مدوية، وهو يقول:
- على العكس.. لقد جعل هذا الموقف أكثر طرافة..
وعقد ساعديه أمام صدره، وعادت ملامحه إلى جديتها، وهو يقول:
- ثم إنني أحمل لكم مفاجأة أيها السادة..
تطلعوا إليه جميعا في تساؤل، فأضاف في حزم، وبلهجة تحمل ثقة لا حصر لها:
- لقد عرفت من الجاني.. من سرق (نجمة الصباح).. وكيف..
وكانت مفاجأة بحق.

☆ ☆ ☆

تعلقت العيون كلها بوجه (هاشم)، بعد أن أدلى بهذا التصريح الخطير، عن كشفه حل اللغز كله..
لغز (نجمة الصباح)..
وكانت كل هذه العيون تحمل مزيجا عجيبا من القلق والترقب والتوتر والدهشة، جعل (هاشم) يبتسم في هدوء ويقول:
- لقد تمت السرقة على نحو بالغ المهارة والتعقيد، ولكن ما من جريمة كاملة في التاريخ كله.. لم ولا ولن توجد مثل هذه الجريمة، فالشرّ لن ينتصر أبدا على الخير، وكل مجرم يرتكب ولو....
قاطعة العقيد (مختار) في عصبية:

- أفصح عما لديك يا رجل.. لسنا نحتاج إلى تلك المحاضرة التقليدية..
ابتسم (هاشم) أكثر، وهو يقول:
- أنت على حق، فالدنيا كلها تعلم هذه القاعدة، دون أن يستفيد منها مجرم واحد..
والتفت إلى حيث قاعدة الماسة، وأضاف في حزم:
- دعونا نسترجع الموقف كله أيها السادة.. لديكم هنا ماسة نادرة.. يبلغ ثمنها عشرين مليونا من الدولارات، وهو مبلغ يسيل له لعاب أي شخص يحمل في أعماقه بذرة شر، على الرغم من وسائل الأمن الإلكترونية، البالغة التعقيد، التي تحيط بها، ولكن..
استدار إليهم مرة أخرى، وهو يرفع سبابته أمام وجهه مردفًا في صرامة:
- لا يوجد جهاز أمني يستحيل اختراقه..
لانت ملامحه بغتة، على نحو أدهشهم وارتسمت على
شفتيه ابتسامة غامضة، وهو يستطرد: - ولقد سرقت الماسة بالفعل، وهذا يجعلنا نستبعد تماما فكرة استحالة سرقتها، ويدفعنا فقط للبحث عن الوسيلة والشخص، وفي رأيي أنا تأتي الوسيلة في البداية، فكشف كيفية السرقة يقودنا في المعتاد إلى السارق، والعكس أكثر تعقيدا بكثير..
قاطعه (فتحي) المدير هذه المرة:
- سيد (هاشم).. أرجوك.. نريد أن نعرف..
لم يبد على (هاشم) أنه يعير هذه المقاطعة اهتماما، فقد تابع بنفس الهدوء والابتسامة الغامضة، وكأنما لم يسمع عبارة المدير:

- والوسيلة هنا محيرة، فلقد تمت سرقة الماسة في فترة وجيزة للغاية، يستحيل خلالها أن يتسلل أي مخلوق إلى داخل المتحف، حتى ولو طار مثل (سوبر مان)، فستعترضه حواجز الأشعة دون الحمراء، وقذائف الليزر، وشبكات الكمبيوتر..
ثم تسلل الخبث إلى ابتسامته، وهو يقول:
- إلا لو كان خبيرا في تفادي تلك العوائق الإلكترونية..
عقد المهندس (نادر) حاجبيه في غضب، وهو يقول:
- هل تتهمني أيها المفتش؟
لوح (هاشم) بكفه، قائلا:
- من السهل أن أفعل، ولكن حتى أنت تعجز عن بلوغ الماسة واقتناصها، على الرغم من معرفتك بكل وسائل الأمن المحيطة بها، فالوصول إليها يحتاج إلى دخول المتحف، وتجاوز طاقم الحراسة أولا..
بدا الارتياح على وجه (نادر)، في حين أضاف (هاشم):
- ثم إنك لا تجيد التعامل مع الماس، مثلما يفعل السيد (رشوان).
هتف (رشوان) في ذعر:
- أنا؟! ولكنني لم ألمس الماسة منذ قمت بتلميعها هذا الصباح، ولقد بقيت في موضعها بعد انصرافي، وحتى عندما اختفت، كنت أنا في حفل خاص، حضره العشرات و...
قاطعه (هاشم) في هدوء:
- أنا واثق بأنك لم تتجاوز حواجز الأمن لسرقتها، فحجمك وحده يمنعك من هذا، ثم إنك لست صديقا ورئيسا لرجال الحراسة، حتى يمكن الاستعانة بهم، أو ضمان سكوتهم.
هتف العقيد (مختار) في ثورة:
- هل تشير إليَّ؟

رفع (هاشم) سبابته أمام وجهه قائلا:
- مطلقا، فأنت شخص عصبي بطبعك، وأمثالك لا يصلحون للقيام بسرقة دقيقة كهذه..
قال المدير (فتحي) في حدة:
- لم يبق سواى.
هز (هاشم) كتفيه، وقال:
- ربما، ولكن توترك الملحوظ هذا سيجعل سرقتك للماس أمرا واضحا حتى للأعمى..
ابتسم (مختار) في شماتة، وهو يقول:
- إذن فقد فشلت في معرفة السارق.. أو أنه ليس أحدنا على الأقل..
قال (هاشم) بابتسامته الغامضة:
- أنا لم أقل هذا.
صاح (يحيى) بغتة:
- لقد فهمت.. إنها نفس نظرية عصابة الحراس الأربعة التي رفضتها أنا.. إننا الآن أمام عصابة تتوافر لها كل الشروط.. أليس كذلك؟ لقد سرق هؤلاء الأربعة الماسة..
صاح المدير في غضب:
- لست أسمح لك، ولست...
قاطعه (هاشم) في حزم:
- لا بأس أيها السادة.. لقد مللت الأمر..
تعلقت به العيون كلها مرة أخرى، فأضاف:
- الواقع أن الأمر يثير حيرة الجميع، لأننا نحاول البحث عن الوسيلة التي سرقت بها الماسة، خلال فترة إبدال الحراسة القصيرة، ولكن الواقع أن الماسية قد سرقت قبل ذلك.. قبله بكثير.

اتسعت عيون الجميع في دهشة، وهتف (رشوان) في ذعر:
- ولكن كيف؟
ابتسم (هاشم)، وهو يقول:
- لا تلقِ هذا السؤال يا سيد (رشوان)، فأنت بالذات تعلم كيف تم هذا.. لقد أتيت لتلميع الماسة كالمعتاد، وقام الحراس بتفتيشك قبل الدخول إلى حجرة عرضها، ثم أخرجت أنت قطعة المخمل، ووضعتها فوق الماسة، بحيث أخفيتها تماما، وساعدك جسمك الضخم على إخفاء المشهد عن آلات التصوير، وأنت تحيط الماسة بالمخمل، ثم تضعها في جيبك.
شحب وجه (رشوان) في شدة، واحتبس صوته في حلقه لحظة، قبل أن يهتف مذعورا:
- ولكن الماسة بقيت في موضعها، بعد أن انصرفت أنا و...
قاطعه (هاشم):
- خطأ يا سيد (رشوان).. إنك لم تترك الماسة في موضعها، فلقد حملتها معك وأنت تغادر القاعة، ومن المؤسف أن الحراس لا يعملون على تفتيشك في أثناء خروجك، كما يفعلون مع دخولك..

قال (مختار) في توتر:

- ولكن الماسة بقيت بالفعل.. لقد رأيتها بنفسي، و (رشوان) ينصرف.

أجابه (هاشم):

- إنك لم ترها يا سيد (مختار)، وإنما رأيت صورتها.. صورة هولوجرافية مجسمة لها، بدت بأبعادها الثلاثة، وكأنما هي الماسة نفسها..

اتسعت عينا (مختار) في ذهول، وهو يردد:

- صورة ماذا؟

التفت (هاشم) إلى (نادر)، وقال:

- صورة هولوجرافية أيها المهندس.. أنت تفهم تماما ما أتحدث عنه يا سيد (نادر)، فالصور المجسمة هي صورة ذات ثلاثة

أبعاد، يتم عرضها بوساطة شعاع من الليزر، يسقط فوق أسطوانة تحمل الصورة المراد عرضها..
وأخرج الأسطوانة الدقيقة من جيبه، مستطردا:
- أسطوانة مثل هذه..
لم ينبس (نادر) ببنت شفة، وإن بدا شحوبه الشديد أشبه باعتراف كامل، و (هاشم) يستطرد:
- لقد تمت الجريمة بدقة بالغة.. بنفس الدقة التي تهواها يا (نادر).. لقد حمل (رشوان) الماسة من موضعها في نفس اللحظة التي بدأ فيها جهاز العرض الهولوجرافي، الذي أخفيته انت داخل حافظ الاتزان الإلكتروني في العمل، راسما صورة خدَّاعة لـ (نجمة. الصباح)، أوهمت الجميع بوجودها في موضعها، في حين يغادر (رشوان) المتحف كله بها، في هدوء واطمئنان، ويستمر عرض الصورة بوساطة مصباح ليزر خاص، أضفته أنت إلى مصباح التألق فوق الماسة، ويتوهم الجميع أن (نجمة الصباح) تتألق في موضعها، حتى يحين موعد تبديل الحراسة، بعد مرور أكثر من اثنتي عشرة ساعة، وبعد أن تم محو أشرطة التسجيل التليفزيونية، التي يمكنها وحدها إثبات سرقة (رشوان) للماسة، وهنا يتوقف جهاز عرض الليزر عن العمل، ويقذف الأسطوانة التي تحمل صورة الماسة خارجه، فتبدو الماسة وكأنها قد اختفت بغتة كالسحر
ورفع الأسطوانة الدقيقة أمام وجهه، مستخدما سبابته وإيهامه فقط، وهو يضيف:
- وفي نفس اللحظة التي يقذف فيها الجهاز الأسطوانة خارجه، يمحو عنها الصور الهولوجرافية، والدليل الوحيد على ما حدث.. ولكن وجود الأسطوانة كان يؤكد أنها قد جاءت من مكان ما، بعد انتهاء عاملي النظافة من تنظيف القاعة، ولم يكن

هناك مكان يصلح لمجيئها سوى هذا الشيء الذي يعلو القاعدة المرمرية..
ثم ابتسم، مستطردا في هدوء:
- ألم أقل لك إنه ما من مجرم لا يرتكب ولو خطأ واحدًا صغيرًا؟
قاوم (نادر) شحوبه، وهو يغمغم في صوت متحشرج مختنق:
- إنني أنكر هذا و...
ولكن (رشوان) انهار بغتة، وهو يهتف:
- سأعترف.. سأعترف بكل شيء.
وهنا ابتسم (هاشم) في رصانة، وقال:
- لا فائدة يا (نادر).. لقد انتهى كل شيء.. لقد خسرت اللعبة.. خسرتها تماما

☆ ☆ ☆

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية والنصف ظهرا، عندما ربت (يحيى) على كتف (هاشم)، مغمغما:
- هل استغرقت في النوم؟
فتح (هاشم) عينيه في بطء، وقال:
- ليس بعد.. وإن كنت أتمنى هذا. قل لي: هل انتهيت من عملك؟
ابتسم (يحيى)، وجلس إلى جواره، قائلا:
- كل شيء على ما يرام، لقد أدلى (نادر) و (رشوان) باعتراف تفصيلي، وأرشدنا إلى الموضع الذي أخفيا فيه الماسة ولقد استعدناها، والعقيد (مختار) يودّ أن يعتذر عما سببه لك، وكذلك مدير المتحف، الذي يصرّ على منحك وسامًا خاصًا و...
لوح (هاشم) بكفه، قائلا:
- فيما بعد يا صديقي.. فيما بعد، فلست أميل إلى حمل الأوسمة، وإنما إلى النوم الآن.. النوم العميق..

راقبه (يحيى) وهو ينطلق بسيارته عائدا إلى منزله، ثم ابتسم في إعجاب، وغمغم:

- يا لك من رجل يا (هاشم).. إنك حقا أفضل من يحمل هذا اللقب.. لقب (رجل العدالة).

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

رجل العدالة

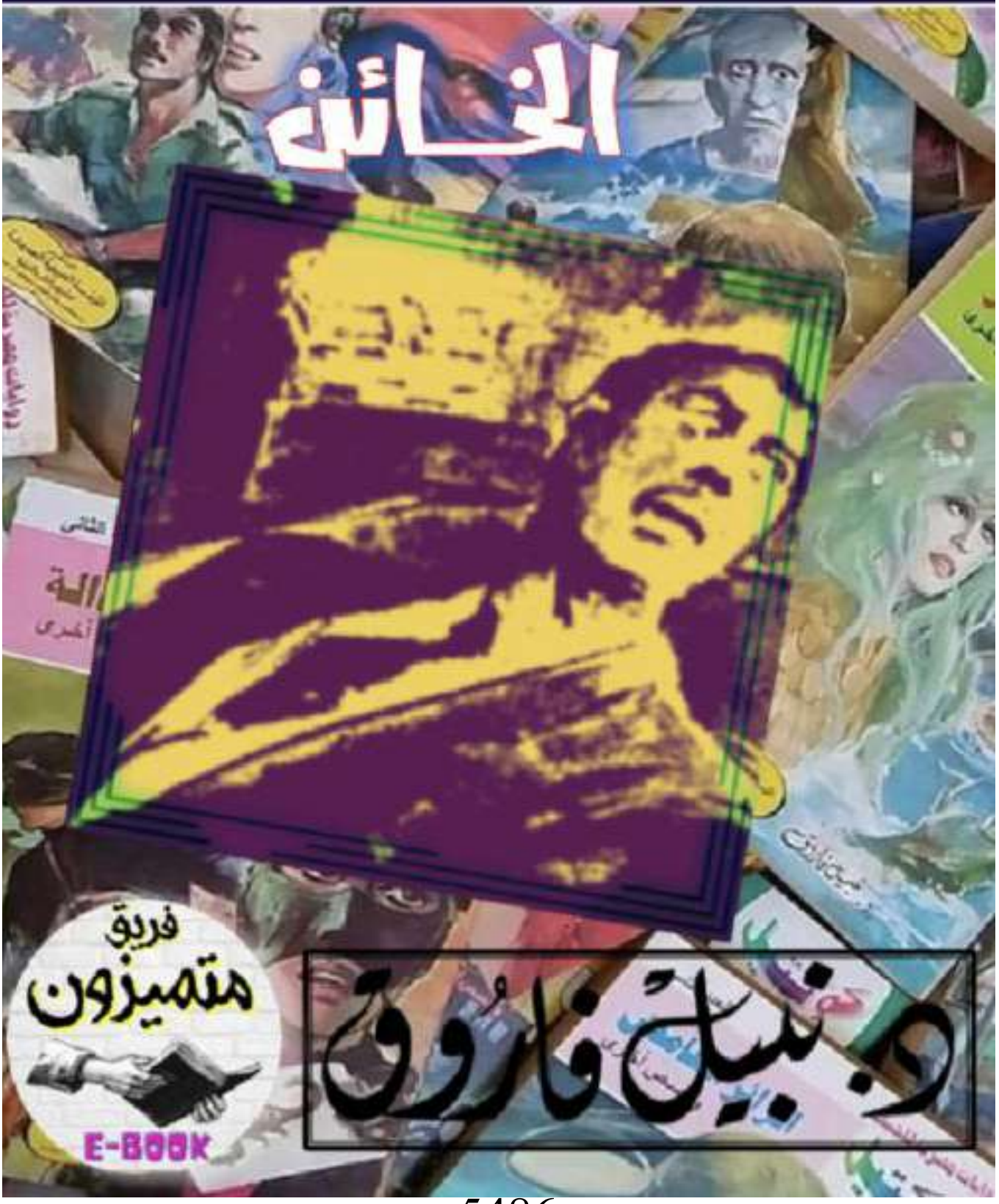

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

رجل العدالة

الخائن

قصة كاملة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

5489

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

رجل العدالة (٢)
الخائن

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- مهمة خاصة..

تطلع (هاشم همام)، رجل الأمن الشهير، إلى ذلك المبنى الصغير، المحاط بحراسة قوية، والذي يقف وحيدا، وسط تلك المنطقة الهادئة الخضراء، على مشارف العاصمة، وهو يقترب منه بسيارته، عبر طريق خاص ممهد، يحظر المرور فيه لغير المتجهين إلى ذلك المبنى، والحاملين لتراخيص خاصة، لا يتم منحها إلا بعد تحريات واسعة طويلة، وتعقيدات أمنية كثيرة..

كان يعلم أن هذا المبنى واحد من عدة مبان، تتبع إدارة الأبحاث العسكرية في دولته، ولكنه يجهل تماما سر استدعائه رسميا إلى مثل هذا المكان، الذي لا يخضع للقوانين المدنية وفي هدوء، أوقف (هاشم) سيارته أمام باب المبنى الرئيسي، وأبرز هويته وتصريحه إلى حارسي البوابة، اللذين راجعا التصريح والهوية في إمعان، ثم سمحا له بدخول المبنى، حيث استقبله حارس ثالث، قاده إلى حجرة مدير المبنى، الذي مضى يستقبله في ترحاب، وهو يصافحه قائلا:

- مرحبا بك يا (هاشم)، في مركز الأبحاث العلمية العسكرية.

ثم اعتدل مبتسما، وهو يستطرد:

- أتعلم أن الكمبيوتر قد انتخبك شخصيا، من بين ثلاثة آلاف رجل أمن، في المنطقة العربية كلها؟

أومأ (هاشم) برأسه إيجابا، وقال في حذر:

- أعلم هذا يا سيدي، ولا شك أن الاختيار يشرفني، ولكنني أتساءل عن البيانات، التي تم تزويد الكمبيوتر بها، لينتخبني بالذات.

قال المدير في هدوء:

- أتقصد طبيعة المهمة، التي اخترناك لها؟ لا تتعجل يا (هاشم).. اجلس وسأشرح لك كل شيء.
جلس (هاشم) على المقعد المقابل لمكتب المدير، الذي جلس بدوره وشبك أصابع كفيه أمام وجهه، وبدا الاهتمام على ملامحه، وهو يقول:
- الواقع أن بيننا خائنا..
انعقد حاجبا (هاشم) في شدة، وهو يقول:
- خائن؟!
أومأ المدير برأسه إيجابا، وقال برنَّة أسف واضحة:
- أعلم أن هذا أمر يصعب تصديقه، ولكنه التفسير الوحيد لكل ما يحدث هنا، فمنذ ما يقرب من تسعة أشهر، بدأ فريق من علمائنا في دراسة وتطوير أشعة الليزر، في محاولة لاستنباط نوع متطور من الأشعة القاتلة، يمكن تزويد الطائرات الحربية به، وصنع مدافع مضادة للطائرات منه، وما إلى ذلك، وعندما بدأت هذه الدراسات تبشِّر بالنجاح، وقعت عدة حوادث عجيبة.
صمت المدير لحظة، وكأنما يلتقط أنفاسه ويستجمع أفكاره، ثم استطرد:
- في البداية جرت محاولة لسرقة تصميمات وجداول المشروع، وفشلت المحاولة بسبب دقة أجهزة الإنذار، ولكنها أشارت إلى وجود خائن بين أفراد المشروع، وبعدها تحطَّم موصِّل صغير لدوائر السيليكون، على نحو يوحي بأنه قد تحطَّم بفعل فاعل، ثم انفجرت أنبوبة من أنابيب الليزر دون مبرر.. باختصار، لم يعد هناك شك في وجود خائن ما، يبذل أقصى جهده لمنعنا من تطوير هذا السلاح الجديد، بعد أن فشل في سرقة تصميماته.
سأله (هاشم) في اهتمام:
- هل أجريتم تحقيقا رسميا في هذا الشأن؟

هز المدير رأسه نفيا، وقال:
- لقد رفضت هذه الفكرة، حتى لا أشيع الخوف في نفوس العلماء، المشرفين على المشروع وإلا أثر هذا في صفاء عقولهم واهتمامهم البالغ بالعمل..
بدت علامات التفكير العميق على (هاشم)، وهو يسأل:
- هل تم اختيار العلماء بدقة؟
أجابه المدير:
- نعم ولكنني أستبعد كون الخائن هو أحد العلماء، فكلهم يعرفون تصميمات المشروع، ولن يحاول أحدهم سرقتها.
سأل (هاشم):
- من يعمل بالمشروع إذن، بخلاف العلماء؟
تنهد المدير، وصمت لحظة، ثم قال:
- طاقم الأمن.
عقد (هاشم) حاجبيه، وهو يسأله:
- هل تشك في طاقم الأمن؟
أومأ المدير برأسه إيجابا، وقال في صوت خافت:
- هذا هو الاحتمال الوحيد للأسف.
ثم مال نحو (هاشم)، مستطردا:
- ليس الطاقم كله بالطبع، فالاتهام ينحصر حتما في هؤلاء، الذين يمكنهم بلوغ منطقة المشروع، بحكم طبيعة منصبهم، أو توزيعهم الأمني، وهؤلاء لا يزيد عددهم على ثلاثة، (عمر)، و (أيمن)، و (جاد)؛ فهم رؤساء طاقم الحراسة، ويمكنهم دخول قاعة التجارب وحجرة العلماء، في أية لحظة بحجة التأكد من إجراءات الأمن والنظام.
سأله (هاشم) في اهتمام بالغ:
- من منهم كان هنا، عندما حدثت محاولة سرقة التصميمات؟

ابتسم المدير وقال:
- لو أن الأمر بهذه البساطة لما احتجنا إلى معاونتك يا (هاشم)، فلقد تم حادث السرقة، في وجود الثلاثة، وكان كل منهم يملك دليلا ينفي عنه تهمة محاولة السرقة.
ران الصمت لحظات داخل الحجرة، ثم قال (هاشم) في هدوء:
- هل تطلب مني التحقيق في الأمر يا سيدى؟
أجابه المدير في سرعة:
- ليس بصورة رسمية..
ثم بلع ريقه، واستطرد:
- لقد أعلنت أننا ننوي مراجعة وسائل الأمن، بوساطة خبير أمني شهير، وذكرت اسمك يا (هاشم).
رفع (هاشم) حاجبيه، وعاد يخفضهما مبتسمًا، وهو يقول:
- هل أصبحت خبيرا في وسائل الأمن؟
أجابه المدير:
- أنت كذلك بالفعل، وكل ما أرجوه أن تستخدم كل خبرتك هذه في كشف أمر الخائن، فمن يدري ما الذي يمكن أن يفعله، في المحاولة القادمة؟
نهض (هاشم) واقفا، وهو يقول:
- اطمئن يا سيدي.. لن يهدأ لى بال، حتى يسقط هذا الخائن في يد العدالة يا سيدي، فهذه هي مهنتي..
وابتسم مستطردا:
- العدالة.

☆ ☆ ☆

أدرك (هاشم)، منذ الوهلة الأولى، أن مهمته لن تكون أبدًا بالمهمة السهلة أو الهيِّنة، فلقد استقبله رجال الأمن الثلاثة في برود، لا يخلو من وضوح عدم ارتياحهم لقدومه، إذ بدا أنهم

يعتبرون مهمته نوعا من التدخل في عملهم، أو فرض الوصاية عليهم، ولقد صارحه (جاد) بهذا، وهو يقول:
- وما شأن الشرطة بالأمن العسكري؟ أتظن أمن المدنيين يشبه أمن العسكريين؟!
أجابه (هاشم) في برود مماثل:
- كلاهما أمن على أية حال.
اندفع (عمر) يقول:
- خطأ.. الأمن العسكري أمر بالغ الخطورة، قد يساوي الخطأ الواحد فيه أمن دولة كاملة..
قال (هاشم):
- هذا صحيح، ولهذا السبب بالذات انتدبتني إدارة الأبحاث العسكرية لفحص الأمن هنا..
ثم استطرد بسرعة، قبل أن يصدر من أحدهم تعليق آخر:
- والآن من منكم سيرشدني إلى قاعة الأبحاث؟
أجابه (أيمن) في برود عدائي:
- ولم لا تذهب إليها وحدك؟ إنها هناك، في نهاية هذا الممر.
ألقي (هاشم) نظرة على الممر، ثم قال:
- لا بأس.. سأذهب إليها وحدي..
واتجه نحو الممر في حزم، دون أن يلتفت خلفه، ودون أن يدرك أن أحد رجال الأمن الثلاثة كان يقول لنفسه سرًّا:
- هراء يا (هاشم همام).. إنني أعرف من أنت، وأعرف لماذا أنت هنا.. وأعرف أيضا أن أيامك في هذه الدنيا قد أصبحت معدودة.. معدودة للغاية..
وقهقه شيطان الشرِّ في أعماقه..

☆ ☆ ☆

فحص (هاشم) قاعة البحث وحجرة العلماء في دقة بالغة، جعلته يؤمن في النهاية بأنه من المستحيل أن يحاول شخص من الخارج سرقة التصميمات، أو تحطيم جهاز الأشعة الجديد، ومن المحتم أن يكون الخائن هو أحد أفراد طاقم الأمن الثلاثة، كما قال مدير المركز..

وبينما شرد (هاشم) مع أفكاره، اقتحم خلوته صوت ساخر، يقول:

- هل عثرت على دليل؟

التفت (هاشم) في حركة سريعة إلى مصدر الصوت، ووقعت عيناه على (عمر) الذي يبتسم في سخرية مستطردا:

- ألا توجد أية بصمات؟

رمقه (هاشم) بنظرة باردة، وهو يقول:

- وهل المفترض أن يوجد دليل وبصمات؟

أطلق (عمر) ضحكة ساخرة قصيرة، وقال:

- هل تتصور أن مهمتك هنا سرية يا رجل الأمن؟ لو أنك تتصور هذا فأنت واهم.. كل مخلوق في هذا المكان يدرك جيدا أنك هنا، بسبب حوادث المشروع..

سأله (هاشم) في سخرية مماثلة:

- هل تعرَّض المشروع للحوادث؟

انعقد حاجبا (عمر) في غضب مفاجئ وهو يقول:

- هل تسخر مني؟

ثم انتزع مسدسه في حركة سريعة، مستطردا في ثورة:

- إنني أكره من يسخر منى.

لم يدر (عمر) كيف تحرك (هاشم) بهذه السرعة، بل إنه لا يذكر حتى ما حدث بالضبط..

لقد انتزع مسدسه من غمده، وصوبه إلى (هاشم) ثم خيِّل إليه أن (هاشم) قد اختفى من أمامه بغتة، ثم ظهر على قيد خطوة واحدة منه، وبعدها هوت على فكه صاعقة، ألقته أرضا، وانتزعت منه مسدسه، ثم نقلته كالساحر إلى يد (هاشم)، الذي قال فى صرامة:

- وأنا أكره من يصوب إلىَّ مسدسه..

لم ينبس (عمر) ببنت شفة، وهو يحدق في المسدس في ذهول، ثم نقل عينيه إلى وجه (هاشم) الذي استطرد في صرامة:
- خاصة إذا ما كانت محاولة للتخلص منى.
ندت من بين شفتي (عمر) حشرجة خشنة، ميَّز (هاشم) عبرها كلمة تقول:
- هل جننت؟

وفي بساطة، ألقى (هاشم) المسدس إلى (عمر) وقال:
- لا.. لم أُجنّ بعد، وأرجو ألا تفعل أنت..
نهض (عمر) ينفض غبارا وهميا عن ثيابه، وهو يقول في عصبية:
- من المؤكد أنك ستضعني على رأس قائمة المشتبه فيهم، بعد ما حدث..
قال (هاشم) في هدوء، وهو يعقد ساعديه أمام صدره:
- ليس إذا ما أخبرتني كل ما لديك حول هذه الحوادث الغامضة.
قلب (عمر) كفيه، قائلا:
- كل ما أعلمه لا يتجاوز ما أخبروك به حتما، فلقد حدثت محاولة لسرقة التصميمات، ثم حادثتان غامضتان لتدمير جهاز الأشعة الجديد، وأظنهم يشكون في وجود خائن بيننا.
غمغم (هاشم):
- من الواضح أن السرية هنا تحتاج إلى إعادة تقييم..
ثم ارتفع صوته، وهو يسأل:
- هل يعلم الجميع ما تعلمه؟
هز (عمر) كتفيه، وقال:
- بالطبع.
ثم أردف في توتر:
- ما عدا علماء المشروع، فنحن نحيطهم بسياج من الأمن والكتمان، حتى أصبحوا معزولين تقريبا عن العالم الخارجي، فحتى النافذة الوحيدة لقاعة البحث وحجرة العلماء لا تطلّ إلا على الحقول الممتدة إلى ما لا نهاية، وتنسدل فوقها طيلة الوقت تقريبا ستارة سميكة لا ينجح الضوء في التسلل منها، والشيء الوحيد الذي يربطهم بالعالم الخارجي، في أثناء عملهم، هو البرواز الزجاجي الصغير، في منتصف باب قاعة البحث،

وحتى هذا مصنوع من زجاج خاص، يسمح لهم برؤية ما يحدث داخل القاعة، في حين يبدو كالمرأة من الجانب الآخر، بحيث يعجز أي شخص في الخارج عن رؤية عملهم في الداخل.
مط (هاشم) شفتيه، وقال:
- إنه أمر أشبه بالسجن.
أجابه (عمر) بإيماءة من رأسه، وهو يقول:
- أوافقك القول.
ثم أعاد مسدسه إلى غمده، واتجه نحو الباب، مستطردا:
- سأتركك لتواصل عملك، فقد هبط الظلام، والمفروض أن نبدأ الفحص الأمني الروتيني..
تركه (هاشم) ينصرف، ثم غمغم:
- عجبا!! يبدو أنه لم يكن هناك داع لسرية مهمتي.
غادر المكان بدوره، وسار عبر الممر الطويل في بطء وهو يفكر في الأمر..
هل يمكن أن يكون (عمر) هو الخائن حقا؟
بدا له الاحتمال ممكننا، وإن لم يكن حتما، فلم يكن هناك دليل واحد يدين (عمر) حتى مع محاولته الاعتداء عليه، فمن الممكن أن تكون عصبيته تجاهه بسبب عملهما في مجال واحد، وشعور (عمر) بأنه ينتزع منه تخصصه..
فجأة انقطعت أفكاره مع انقطاع التيار الكهربي، وغرق الممر في ظلام دامس، فتوقف (هاشم) في مكانه، وقال في توتر:
- تُرى أمصادفة هي، أم..؟
قبل أن يتم تساؤله، أتاه الجواب على هيئة صوت..
صوت خافت، يحمل وقع أقدام حذرة..
هناك من يعبر الممر في اتجاهه..
وهناك من يضمر له الشرّ..

وفي صرامة، قال (هاشم):
- من هناك؟
صمت وقع الأقدام على الفور، وإن شعر (هاشم) أن خصمه مازال يقترب منه على أطراف أصابعه، فأمسك مقبض مسدسه في توتر، وهو يقول:
- سألت من هناك؟
أدار رأسه في الظلام في حذر، وكأنما يحاول اختراق حجبه بعينه، والتوتر يملأ نفسه..
وفجأة شعر بجسد يتحرك إلى جواره، فأستدار إليه هاتفا:
- سأطلق النار لو لم...
لم يتم عبارته..
لم يتمها، لأنه تلقى فجأة ضربة قوية على مؤخرة عنقه، فجرت فيضًا من الضوء الوهمي أمام عينيه، قبل أن يسقط، و..
ويفقد الوعي.

☆ ☆ ☆

استعاد (هاشم) وعيه في سرعة، وشعر بصداع شديد يكتنف رأسه، فحاول رفع يديه ليضعها على عنقه، إلا أن يده بدت ثقيلة، تعجز عن الحركة، مما أطار البقية الباقية من ذلك الضباب، الذي يحيط بذهنه، ففتح عينيه في صعوبة، وأدارهما إلى يده، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه في توتر، عندما اكتشف أنه مقيَّد المعصمين والقدمين، فوق منضدة مستطيلة، أشبه بموائد العمليات الجراحية، فغمغم:
- ماذا يحدث هنا؟
انتبه فجأة إلى ذلك الشعاع الضوئي، الذي يسقط على طرف المنضدة، على قيد سنتيمترات من عنقه، على هيئة خيط من الطاقة الصافية.

خيطٌ قاتل..
واتسعت عيناه عن آخرهما، عندما أدرك طبيعة تلك الأشعة ومسارها المحتوم..
لقد كان خيط الأشعة ساقطا من جهاز أشعة الليزر المطوَّر الجديد، الذي يتحرك في بطء، لتبتر الأشعة طرف المنضدة تدريجيًّا، متجهة نحو هدف بشرى حي..
نحو عنقه..
مباشرة.

☆ ☆ ☆

٢- ثغرة أمن..

انقبضت عضلات (هاشم) كلها في شدة، وهو يبذل أقصى قوته للتخلص من القيود، التي تربطه إلى المنضدة، دون جدوى، واحتقن وجهه بالدماء، وهو يتطلع في توتر إلى خيط الأشعة المدمر، الذي راح يشق المنضدة في بطء، كما لو كان سكينا حادا، يعبر قطعة من الزبد الطازج، متجها نحو عنقه، حاملا الموت إليه..

وانطلقت أفكار (هاشم) في انفعال بالغ..

هل سقط أخيرا؟

هل حانت لحظة الفشل، التي يخشاها طيلة عمره، والتي يعجز فيها عن الإيقاع بالمجرم، فيلقي حتفه جزاء هذا؟

انطلق في رأسه شريط سريع من الذكريات، حمل إليه كل معاركه السابقة في سبيل العدالة، مع وجه رفيق كفاحه (يحيى)، الذي لم يشاركه هذه القضية التي بدت وكأنها آخر القضايا.. حاول مرة ثانية التخلص من قيوده، إلا أنه أدرك مرة أخرى كم هي قوية متينة، تعجز عضلاته وحدها عن قطعها..

واقترب خيط الأشعة القاتل من عنقه..

واقترب..

واقترب..

وفجأة اقتحم أحدهم باب الحجرة، واندفع نحو جهاز الأشعة، ورآه (هاشم) في زي طاقم الأمن، يبحث بين الأزرار العديدة عن زر الإيقاف، ثم يضغطه..

وتوقف خيط الأشعة القاتل..

وتلاشى..

وفجأة اقتحم أحدهم باب الحجرة ، واندفع نحو جهاز الأشعة ، ورآه (هاشم) فى زى طاقم الأمن ، يبحث بين الأزرار العديدة عن زر الإيقاف ..

وفي اللحظة التي أطلق فيها (هاشم) من فوره تنهيدة ارتياح قوية، غير مصدق نجاته من هذا الموت المحتوم، اقترب منه

منقذه، الذي يرتدي زي طاقم الأمن، وسأله في انفعال، وهو يحلّ وثاقه:
- من فعل بك هذا؟
تطلع (هاشم) إلى وجهه، وهو يجيب:
- لست أدرى يا (أيمن).. لست أدري!!
حلَّ (أيمن) وثاق قدميه في سرعة، وهو يقول:
- يا إلهي!! حمدًا لله على أنني قد وصلت في الوقت المناسب.. لقد لمحت وهج الأشعة من الخارج، وأنا أعبر في جولة تفتيشية عادية، أمام الباب، فأدركت أن أمرا غير عادي يحدث، خاصة أن الحجرة كانت خالية، لذا فقد اقتحمتها بلا تردد، ووجدتك هنا، وتلك الأشعة اللعينة تكاد تجتزّ عنقك.
غمغم (هاشم)، وهو يتحسس معصميه، عند موضع القيود:
- أحسنت بفعلتك هذه. أأنت وحدك المسئول عن حراسة هذه المنطقة؟
أجابه (أيمن):
- لا.. هناك (عمر) و (جاد) أيضا..
ثم عقد حاجبيه، مستطردا:
- ولكنني لم أرهما منذ انقطاع التيار..
سأله (هاشم):
- ومن أي مكان يمكن قطع التيار؟
أجابه (أيمن):
- من الحجرة الرئيسية، في الطابق الأول، أسفل حجرتنا هذه مباشرة..
عقد (هاشم) حاجبيه لحظات مفكرا، ثم قال في حسم:
- أظنني أحتاج إلى رؤية (جاد)..
أجابه (أيمن) في حذر:

- لماذا؟ إنه لم يغادر حجرة الأمن منذ غروب الشمس، إلا مرة واحدة عند انقطاع التيار.. و..
قاطعه (هاشم):
- ربما لهذا أرغب في رؤيته..
هز (أيمن) كتفيه، وقال:
- كما تشاء.. هيا نهبط إليه..
هبطا معًا إلى حجرة الأمن، في الطابق الأول، حيث كان يجلس (عمر) و (جاد)، ولم يكد الأخير يراهما، حتى هتف في تهكم:
- ما هذا؟ هل عثرت على رجل الأمن العبقري بأعلى يا (أيمن).. يا لها من مصادفة!! وماذا كنت تفعل هناك أيها العبقري؟
أجابه (هاشم) في خشونة:
- كنت أختبر جهاز الأشعة الجديد أيها التافه..
تقافز الغضب من عيني (جاد)، وقال في حدة:
- قل لى يا سيد (هاشم): هل تتصور أن نتغاضى عن سخافتك هذه؛ لمجرد أن وجودك هنا رسمي؟
أجابه (هاشم) في صرامة:
- بل أتوقع محاولة قتل..
التفت إليه (عمر) في دهشة، في حين هتف (جاد) في توتر:
- محاولة قتل؟!
أسرع (أيمن) يقول:
- لقد تعرَّض السيد (هاشم) لمحاولة قتل، بوساطة جهاز الأشعة الجديد.
اتسعت عينا (عمر)، وهو يهتف في جزع:
- يا إلهي! هنا؟!
أما (جاد)، فقد هتف:
- إنه يستحق هذا..

أجابه (هاشم) في غلظة:
- بالتأكيد، ما دمت تعجز عن إتمام مهمتك القذرة في وجودى.
صرخ (جاد) في غضب:
- أيها الوقح.
وقفز نحو (هاشم) فيغضب وناوله لكمة قوية كالقنبلة تفاداها (هاشم) بانحناءة بارعة مرنة، ثم هوى بقبضته على معدة (جاد)، وهو يقول في صرامة:
- لست أنا الوقح يا رجل.
ثم أعقبها بأخرى في فك الرجل مستطردا:
- الوقح هو من يخون وطنه.
انثنى (جاد) للكمة، وسقط للثانية، ولكنه عاد يقفز واقفا على قدميه، وأطلق صرخة ثائرة، وهو يندفع نحو (هاشم) ثانية، ولكن (هاشم) تفادى انقضاضته هذه المرة بقفزة جانبية رشيقة، ثم أمسك يده في سرعة، ولواها خلف ظهره، ثم أحاط عنقه بساعده في قوة، وهو يقول:
- والوقح هو من تسلل من حجرة الأمن، وقطع التيار الكهربي عن المكان كله، ثم باغتني في الطابق الثاني وأفقدني الوعي، وحاول قتلى..
هتف (جاد) بكلمات مختنقة:
- ولماذا أقتلك؟
أجابه (هاشم):
- لتتخلص مني، قبل أن أكشف خيانتك لوطنك، وألقي القبض عليك، لتلقي جزاءك العادل.
اختنق صوت (جاد) أكثر، بتأثير ضغط ساعد (هاشم) القوي، وهو يقول:

- أنت مخطئ أيها العبقري.. لست أنا من قطع التيار الكهربي، ولست أنا من هاجمك وحاول قتلك..

شدد (هاشم) من ضغط ساعده أكثر، وهو يقول:

- أعطني دليلا واحدا على هذا.

هتف (جاد) في غضب:

- الدليل أكثر بساطة مما تتصور، فلقد كنت أجلس هنا عندما انقطع التيار الكهربي..

ورفع (هاشم) عينيه إلى (أيمن) في دهشة، وسأله:

- أهذا صحيح؟

أجابه (أيمن) في توتر:

- بالتأكيد..

تخلى (هاشم) عن عنق (جاد) وهو يقول لـ (أيمن) في عصبية:

- لماذا خدعتني إذن؟

أجابه (أيمن) في حدة:
- أنا لم أخدعك.. لقد قلت إن (جاد) لم يغادر حجرة الأمن إلا مرة واحدة، عند انقطاع التيار الكهربي، ولم أقل إنه قد فعلها قبل ذلك.
هتف (جاد) في غضب، وهو يمسك عنقه:
- هل رأيت أيها العبقري؟ كان ينبغي أن تنظر إلى الأمور كلها أولا، قبل أن تلقى اتهامك هكذا جزافا، بدلا من أن تنظر إلى مرآة من الأنانية، لا ترى فيها سوى نفسك.
برقت عينا (هاشم) فجأة، وأمسك كتفي (جاد) في قوة، وهتف في سعادة:
يا إلهي! أنت قلتها يا رجل.. أنت فعلتها
سأله (أيمن) في دهشة:
- ماذا حدث؟
التفت إليه (هاشم)، وهتف:
لقد عرفته يا رجل.. عرفت من هو الخائن.
واتسعت العيون كلها في ذهول..

☆ ☆ ☆

اتجهت العيون كلها إلى (هاشم)، مع صمت رهيب ثقيل، بدا وكأنما يجثم على صدور الجميع، فيما عدا (هاشم) الذي التمعت عيناه في ظفر واضح، وارتسمت على شفتيه ابتسامة فائزة واثقة، حتى قطع (عمر) ذلك الصمت الرهيب، وهو يقول في حذر:
- من هو الخائن يا رجل؟
أدار (هاشم) عينيه في وجوه الثلاثة ثم قال:
- إنه شخص يا (عمر) يجيد وضع خطته وتنفيذها، إلا أنه ليس بالذكاء الكافي الخبيث لإتمام خطته دون أخطاء، فعلى الرغم من

محاولته الظهور في مظهر بريء، فإنه كأي مجرم ارتكب خطأ واحدا، كشف أمره وأزاح القناع عن وجهه.
سأله (جاد) في خشونة:
- ومن هو؟
أدار (هاشم) عينيه في وجوههم مرة أخرى، ثم توقف عند أحدهم، وقال في صرامة:
- إنه أنت.
تراجع الذي وجه إليه (هاشم) اتهامه، وهتف في ذهول:
- أنا!!
عقد (هاشم) ساعديه أمام صدره، وهو يقول في حزم:
- نعم.. إنه أنت يا (أيمن).. أنت ذلك الخائن، الذي خان وطنه، وسعى لإفساد قوته، مقابل بعض المال فحسب.
حدق (عمر) و (جاد) في وجه (أيمن) في ذهول، في حين هتف هذا الأخير في حدة:
- لقد أنقذت حياتك.
أجابه (هاشم):
- هذه هي أبرع نقطة في خطتك، فلقد هاجمتني في الممر المظلم، وأفقدتني الوعي، ثم حملتني إلى حجرة البحث، حيث قيدتني إلى المنضدة، وأشعلت جهاز الأشعة، وتركته يتحرك نحوي في بطء، ثم غادرت الحجرة، ووقفت خلف بابها، وانتظرت حتى أشارت ساعة معصمك إلى أن الأشعة قد اقتربت من عنقي كثيرا، ثم اقتحمت الحجرة، وأوقفت الجهاز، وتظاهرت بإنقاذ حياتي، وأنت تتصور أن هذا يمنحني شعورا بالعرفان بالجميل، ويخفى على أي دليل يدينك، فتبتعد شبهاتي بعيدا..
لوح (أيمن) بيده في حدة، صائحا:

- مجرد تخمين سخيف.
أجابه (هاشم):
- بل حقيقة يا (أيمن)، فلقد وقعت في خطأ قاتل، عندما قلت لي: إنك كنت تعبر الممر في تفتيش عادي، ثم لمحت وهج الأشعة، فاقتحمت الحجرة، في حين لم يكن بإمكانك أبدا رؤية الوهج، لأن زجاج الباب من نوع خاص، كما أخبرني (عمر) يسمح للموجودين داخل الحجرة برؤية ما يحدث خارجها، ولكنه يبدو كالمرآة، بالنسبة للواقف خارجها..
اتسعت عينا (أيمن) في ذعر، وقد أدرك الخطأ الذي وقع فيه، في حين تابع (هاشم) في ارتياح:
- والعجيب أنني لم أنتبه إلى هذا، حتى قال (جاد): إنني أكتفي بالنظر في مرآة من الإنسانية.. عندئذ تذكرت أمر زجاج الباب وأدركت الخطأ الذي ارتكبته أنت..
هتف (عمر) في ذهول:
- أنت يا (أيمن)..
وفجأة قفز (أيمن) إلى الخلف، وانتزع مسدسه، وصوبه إلى الجميع، هاتفا في عصبية:
- نعم.. أنا.. ولكنني لست خائنا، فلست انتمى إليكم..
صحيح أن أوراقي كلها تقول إنني عربي، ولكنها كلها مجرد أوراق مزورة، نجحت في ضمي إلى طاقم الأمن منذ زمن..
إننا لن نسمح لكم أبدا بالتفوق عسكريا.. هل تفهمون؟
سأله (هاشم) في صرامة:
- وما الذي تنوي أن تفعله الآن؟ هل ستقتلنا جميعا؟
هتف (أيمن):
- ولم لا؟
أجابه (هاشم):

- لأن باقي رجال الحراسة لن يسمحوا لك بالفرار، بعد قتلنا.
أطلق الخائن ضحكة عصبية، قبل أن يقول:
- أخطأت هذه المرة أيها المغرور.. مسدسي هذا مزود بكاتم للصوت، يتيح لى قتلكم، دون أن يشعر بذلك مخلوق واحد، وبعدها سأركب سيارتي بكل هدوء، وأغادر المكان رسميا، بحجة تفقد الطريق، فهذا العمل من مهام الأمن، وبعدها سأتطلق مباشرة إلى المطار، حاملا جواز سفر دبلوماسيا يحمل شعار دولة صديقة لكم، بحيث لن يعترضني مخلوق واحد، فأبلُغ دولتي آمنا.

وأطلق الخائن ضحكة عصبية . قبل أن يقول : أخطأت هذه المرة أيها المغرور .. مسدسي هذا مزود بكاتم للصوت ..

قال (هاشم):

- وماذا عن جهاز الأشعة المتطور.. هل ستتركه هكذا. دون تدمير؟

لوح (أيمن) بفكه، وقال:
- من قال هذا؟ إنني أحمل أربع قنابل بلاستيكية قوية، سأزرعها قبل رحيلي، في أربعة أماكن مختلفة، بحيث تنسف المبنى كله، بعد ساعة من انصرافي..
وابتسم في سخرية مستطردا:
- ما رأيك يا رجل الأمن العبقري؟ ألا تبدو لك خطتي عبقرية محكمة..
وفجأة اختطف (جاد) منفضة سجائره، وألقاها نحو (أيمن)، هاتفا في غضب:
- أيها الخائن..
مال (أيمن) جانبا في سرعة، متفاديا المنفضة، ولكنه لم يكد يعتدل، حتى وجد (هاشم) أمامه مباشرة، وقبل أن يسأل نفسه: كيف بلغه (هاشم) بهذه السرعة، كانت يد هذا الأخير اليسرى تمسك معصمه، وتبعد فوهة مسدسه، في حين انقبضت أصابع اليد اليمنى، وتحولت إلى قنبلة، قفزت لتنفجر في وجهه، وتطيح به بعيدا..
وقبل أن يستوعب عقله ما حدث، كان (هاشم) يجثم فوقه، ويحيط معصميه بالأغلال، وهو يقول في سخرية:
- ما دمت قد سألتني رأيي، فالواقع أنني ما زلت أصر على قولي أيها الخائن.. أنت خبيث، ولكنك لست بالذكاء الكافي، لتضع خطة مُحكمة.
هتف (أيمن) في مرارة:
لقد ساعدك حسن الحظ فحسب..
هز (هاشم) رأسه نفيا، وقال:
- لا يا رجل.. لست أؤمن بالحظ، بل بالعناية الإلهية، التي لا يحصل عليها الخونة أمثالك..

وعندما ابتسم هذه المرة، كانت ابتسامته مفعمة بالثقة..
والإيمان..
والظفر..

☆ ☆ ☆

شد مدير مركز الأبحاث العسكرية على يد (هاشم) في حرارة، وهو يهتف:
- رائع يا (هاشم).. رائع بالفعل.. لقد حللت قضية شديدة التعقيد، عجزنا جميعا عن حلها، في أقل من أربع وعشرين ساعة.. إنك عبقري بالفعل كما يقول الجميع..
أجابه (هاشم) في هدوء:
- إنما هو توفيق من الله (سبحانه وتعالى) يا سيدى..
هتف المدير:
- بالطبع يا (هاشم)، ولكن هذا لا يمنعنا من منحك وسامًا.
هز (هاشم) رأسه نفيا، وقال:
- لا سيدي.. لم أفعل هذا من أجل وسام، وإنما فعلته من أجل الحق والعدالة، ويكفيني فخرا أن وفقني الله (سبحانه وتعالى) إلى حل اللغز، وإلقاء القبض على الخائن، الذي هدد أمن وطني وسلامته..
والتقط نفسا عميقا وهو يرفع عينيه إلى علم بلاده، مستطردا في اعتزاز وفخر:
- هذا هو الوسام الحقيقي يا سيدى..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- مهمة خاصة..
٢- ثغرة أمن..

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

رجل العدالة

لعبة الخطر

قصة كاملة

د. نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

رجل العدالة (٣)
لعبة الخطر

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

ضغط (هاشم همام)، أشهر رجال الأمن بالمنطقة، دواسة الوقود في سيارته، التي انطلق بها عبر شوارع المدينة، في الثالثة صباحا، في تلك الليلة الشتوية الباردة التي خلت فيها الطرقات من المارة تماما، وهو يتعجل العودة إلى منزله، بعد ليلة طويلة مرهقة، قضاها في عمل دائم مستمر، منذ الثامنة صباحا، وحتى تلك اللحظة كان يشعر بتعب وتهالك، لم يشعر بمثلهما في حياته كلها، ويتمنى لو يبلغ حجرة نومه، ويلقى جسده المكدود على الفراش، لينعم بنوم عميق طويل، أم ألا يتم استدعاؤه في الصباح المبكر، لمواجهة قضية جديدة كالمعتاد..

وفي سرعة ونعومة، راحت السيارة الرياضية الصغيرة تشق طريقها، عبر طرقات المدينة، و (هاشم) يتمتم في إرهاق:

- ينبغي أن أفكر جديا في البحث عن مسكن جديد، بالقرب من مقر عملي، حتى يمكنني أن أحظى ببعض النوم بين ساعات العمل على الأقل..

عكست مرآة سيارته أضواء أخرى تقترب منه في سرعة، فتطلع إلى المرأة لحظة، وابتسم ابتسامة شاحبة مغمغما:

- ها هو ذا مسكين آخر، يعود إلى منزله قرب الفجر انني لست الضحية الوحيدة للعمل إذن..

اقتربت منه السيارة الأخرى بسرعة كبيرة، جعلته يعقد حاجبيه، وهو يتساءل في قلق:

- بأية سرعة ينطلق ذلك الأحمق؟ إنه يتجاوز حتما السرعات المسموح بها، للسير داخل المدن..

نقل بصره في تتابع منتظم قلق، بين الطريق والمرآة.

وهو يقترب من مفترق طرق كبير، ولاحظ أن السيارة الأخرى قد خففت من سرعتها على نحو مباغت، ثم توقفت في منتصف

الطريق، فتساءل في حيرة:
- لماذا توقف هذا الـ...
بتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه في ذعر، وهو يرفع قدمه في سرعة كبيرة، من دواسة الوقود، ويضغط بها دواسة الفرامل، وهو يهتف:
- ما هذا؟
كانت هناك سيارة أخرى، تعبر التقاطع في سرعة كبيرة، وعلى نحو مباغت، حتى كاد يرتطم بها، و...
وفجأة توقفت السيارة..
توقفت في منتصف تقاطع الطريق تماما، لتسدَّ الطريق أمامه، مما جعله يضغط فرامل السيارة بأقصى قوة ممكنة فأطلقت إطارات سيارته صريرا مخيفا، ومالت السيارة في عنف، ودارت حول نفسها نصف دورة، وهو يبذل أقصى جهده، للسيطرة على عجلة القيادة، ومنع السيارة من الانقلاب حتى نجح في إيقاف السيارة بعرض الطريق، وهو يهتف في غضب:
- مجنون هذا الرجل مجنون حتمًا..
شعر بالدماء تغلى في رأسه من فرط الغضب فدفع باب سيارته في حدة، وهو يقول ساخطًا:
سألقن هذا الأحمق درسا قاسيا لن ينساه أبدا.. لقد كاد يقتلني باستهتاره هذا.
كان يهم بمغادرة سيارته عندما تجمدت عيناه لجزء من الثانية على مشهد السيارة الأولى، التي عادت تتحرك من جديد، وانطلقت نحوه، وكأنها تتعمد الارتطام بجانب سيارته..
وفي هذا الجزء من الثانية انتبه (هاشم) إلى أمر قد يبدو بسيطا، ولكنه حمل لعقله انطباعا عجيبا..
كانت السيارتان من طراز واحد ولون واحد..

لم يدرك للوهلة الأولى ما يعنيه ذلك، ولم يحاول البحث عن تفسير عاجل، إذ لم تكن الظروف تحتمل هذا..
كان الأمر الحتمي الوحيد هو ضرورة إنقاذ حياته وبأسرع ما يمكن..
وفي حركة سريعة، عاد (هاشم) إلى مقعد القيادة..
وضغط دواسة الوقود مرة أخرى، وانحرف بعجلة القيادة في سرعة، وانطلق بسيارته، في اللحظة الأخيرة، قبل أن ترتطم به السيارة الأخرى..
ولكنه لم ينج من الاصطدام تماما..
لقد ارتطم الجانب الأيسر، من مقدمة السيارة الأخرى..
بالجانب الأيسر الخلفي من سيارته، ولكنه سيطر على عجلة القيادة في قوة، وهو ينطلق في الطريق المعاكس لطريق منزله..
وفي مرآة سيارته، رأى السيارتين تستديران، وتطاردانه جنبا إلى جنب مرة أخرى، فزاد من سرعة سيارته، وهو يهتف في دهشة وتوتر:
- ماذا يفعلان؟ إنهما مجنونان ولا ريب..
كان ينطلق بأقصى سرعة يمكن أن تنطلق بها سيارته، داخل المدينة، وعلى الرغم من هذا، اقتربت منه السيارتان بسرعة عجيبة جعلته يشعر بقلق بالغ، وهو يقول:
- عجبا! يبدو أن السيارتين تمتلكان محركات فائقة، أو دورات سرعة إضافية، أو...
ارتطمت إحدى السيارتين بمؤخرة سيارته، في اللحظة نفسها فبتر عبارته، وأدار عجلة القيادة في حركة سريعة وانحرف بها إلى طريق جانبي، فانحرفت السيارتان خلفه بنفس السرعة، وعلى نحو يوحي بأن سائقيهما من المحترفين، الذين يجيدون قيادة السيارات في مهارة مدهشة..

وبدأ شعور (هاشم) بالقلق يتصاعد خاصة وأنه لم يكن يفهم ما تعنيه هذه المطاردة، التي نشأت بغتة كما أن قوة السيارتين المطاردتين كانت تزعجه وتورثه شعورا بالعجز..
وفي مهارة، تجاوزته إحدى السيارتين وقطعت الطريق في سرعة كبيرة، ثم انحرف بها سائقها فجأة، وأوقفها بعرض الطريق مما اضطر (هاشم) إلى ضغط فرامل سيارته بأقصى قوته، حتى لا يرتطم بها فدارت سيارته نصف دورة مرة أخرى وتوقفت بعرض الطريق بدورها.
وتصور (هاشم) أن السيارة الأخرى ستصطدم به في عنف، فمال إلى اليمين في حركة غريزية عنيفة، و..
ولكن شيئا من هذا لم يحدث..
لقد ساد فجأة هدوء عجيب..
هدوء مثير..
ومخيف..
ولثوانٍ لم يستطع (هاشم) استيعاب الأمر..
لقد توقفت إحدى السيارتين بعرض الطريق أمامه، على بعد مائة متر تقريبا وتوقفت الثانية خلفه، على بعد مماثل، دون أن يغادر أي سائق سيارته..
وفي توتر، سأل (هاشم) نفسه:
- ماذا يفعلان؟
بقي سؤاله بلا جواب، وتلاشى مع ذلك الصمت المطبق، وهذا السكون الرهيب، الذي شمل كل شيء، على نحو ضاعف من توتر (هاشم)، الذي قال:
- هل سنبقى هكذا إلى الأبد؟
تذكر فجأة، بمجرد الانتهاء من عبارته، أنه يمتلك جهاز إرسال، من أجهزة الأمن، فالتقطه في حذر، وهو يغمغم:

- هذا الأمر يحتاج إلى مساعدة خارجية.
رفع جهاز اللاسلكي إلى فمه في بطء، وضغط زر الاتصال، وهو يقول، دون أن يرفع عينه عن السيارتين:
- هنا (هاشم همام).. أجب يا مكتب الأمن إلى..
لم يسمع صوت الرصاصة، ولكنه فوجئ بها تعبر نافذة سيارته الجانبية، وتخترق جهاز اللاسلكي، وتحطمه بصوت مكتوم، فتراجع في حدة، وحق في الجهاز المحطم في ذهول، ثم نقل بصره إلى السيارتين، وقال في اقتضاب وتوتر وسخط:
- رصاصة؟!
كان ما حدث يعني له أمرا واحدا..
أنهم لا يسعون لقتله..
لو أراد من أطلق الرصاصة قتله، لكان من السهل عليه أن يطلق النار على رأسه مباشرة بنفس المهارة التي أطلق بها رصاصته على جهاز اللاسلكي، من هذه المسافة ماذا يريدون منه إذن؟
أهي لعبة؟!
مضت لحظات، وهو يدرس هذا الاحتمال في ذهنه، ناقلًا بصره بين السيارتين اللتين توقفتا تماما، وكأنهما تنتظران منه القيام بمبادرة شخصية، ثم لم يلبث أن قال في صرامة:
- هناك وسيلة واحدة، للتأكد من هذا.

أدار محرك سيارته مرة أخرى، واعتدل بها في هدوء، فتحركت السيارة التي تسد الطريق أمامه، وأفسحته له تماما، وكأنها تدعوه للانطلاق.

وانطلق (هاشم) بالفعل..

انطلق متجاوزا السيارة في سرعة ورأي السيارة الأخرى تنطلق خلفه، ثم تشترك معها السيارة الأولى، فاستدار بسيارته واتخذ طريق دائرة الأمن، وهو يقول في حزم:

- ما دامت المطاردة تستهويكما، فسأقودكما بنفسي نحو الفخ.

كان ينطلق بأقصى سرعة، في هذه المرة أيضا، ولكن السيارتين تبعناه بسرعة كبيرة، وبلغتاه في بساطة مدهشة، ثم اتجهت

إحداهما إلى يمينه، والثانية إلى يساره بحيث طوقتاه تماما، على نحو مدروس..
وحاول (هاشم) أن يرى سائقي السيارتين، إلا أن النوافذ الجانبية لهما كانت مصنوعة من زجاج معتم، يحجب عنه الرؤية تماما، حتى عجز عن رؤية ما بداخل السيارتين وأحنقه أن يعجز عن دارسة خصميه، خاصة وأنهما أخذا ينحرفان في بطء، وكأنهما يجبرانه على اتخاذ طرق خاصة، على الرغم منه، ويقودانه إلى حيث يريدان..
وأثار هذا المزيد من توتره وحنقه، فحاول التخفيف من سرعة السيارة، ليفلت من هذا الحصار، إلا أنهما خففا من سرعة سيارتيهما بدورهما، بحيث لم يكن هناك فكاك من حصارهما..
وفي قلق، لاحظ (هاشم) أنهما يقودانه إلى خارج المدينة، فغمغم:
- ما الذي يهدفان إليه بالضبط؟
كان يتجه، على الرغم منه، إلى خارج المدينة، وكان لا بد له من المقاومة، فانطلق بسرعة كبيرة، انتقل إليها سائقا السيارتين على الفور، فضغط فرامل سيارته على نحو مباغت، هاتفا:
- وداعا أيها الحمقى..
تجاوزته السيارتان لحظات، كانت كافية لينحرف إلى اليمين، وينطلق عبر طريق جانبي طويل..
ومن خلفه سمع (هاشم) صرير إطارات سيارة تتوقف..
ثم رأي بعدها إحدى السيارتين تطارده في سرعة، في حين لم يلمح السيارة الأخرى، فتساءل في قلق وحيرة:
- أين ذهبت السيارة الأخرى؟
لم يكد يتم عبارته، حتى ظهرت السيارة الأخرى في نهاية الطريق..

وأدرك (هاشم) أنه لن يربح لعبة السرعة هذه، فمن الواضح أن سيارته لا تقارن أبدا بقوة السيارتين الأخريين لذا فقد أوقف سيارته في منتصف الطريق، ورأى السيارة من خلفه تتوقف..
وعاد الصمت والسكون يشملان كل شيء ومرة أخرى تساءل (هاشم) عما يعنيه كل هذا؟
إنهما يحاولان جذبه إلى خارج المدينة..
لكن لماذا؟
لو أرادا قتله لفعلا..
إنه حتى لا يحمل سلاحه..
لقد تركه في مكتبه، وهو يتصور أنه لن يحتاج إليه..
في ليلة بلغ فيها إرهاقه مبلغه..
ومن الواضح أنه لا فكاك له من هذا إلا إذا..
قفزت فكرة ما إلى ذهنه فجأة، فدفع باب سيارته، وهبط منها، وصاح في غضب صارم:
- ماذا تريدان مني بالضبط؟
لم يتلق سوى الصمت جوابا لسؤاله، فهتف مرة أخرى:
- ماذا تريدان؟
أتاه الجواب في هذه المرة، على هيئة رصاصة صامتة، انطلقت - ولا ريب - من مسدس أو بندقية، تم تزويدها بكاتم للصوت، وأصابت زجاج باب السيارة الأمامي واخترقته في دوى مكتوم، فقفز (هاشم) داخل سيارته مرة أخرى، وقال في حدة:
- يبدو أنه لا مفرَّ..
أدار محرك سيارته واستدار بها في بطء، فاتجهت إليه السيارتان مرة أخرى، وحاصرتاه في هدوء وعادتا تقودانه إلى خارج المدينة..
وفي ذهنه، راح (هاشم) يرتب الأمر جيدا..

إنها لعبة..
لعبة عجيبة من نوعها، يحاول صاحباها إثبات تفوقهما في القيادة.
أو أنها عملية ثأر..
شخص ما، أو عدة أشخاص، يعبثون به قليلا، كما يفعل القط بالفأر، قبل أن يلتهمه ولكن من يفعل به هذا؟!
من؟!
بذل أقصى جهده للسيطرة على أعصابه، وتركهما يقودانه إلى خارج المدينة، وهو يحاول ترتيب ذهنه، لمعرفة شخصية خصميه..
مَن مِن أعدائه يجيد القيادة بهذه المهارة؟
(جابر)، و(سليم)، و (طاهر)، و (لبيب)..
من يمكنه أن يتفق مع الآخر.. لمهاجمته على هذا النحو؟
بدأ في وضع الأسماء جنبا إلى جنب، ولكنه كشف أن أي اثنين منهم، يمكنهما أن يتعاونا لإزالته وقتله نفض عملية البحث عن ذهنه مؤقتا، عندما لاحظ أنهما نجحا أخيرا في دفعه إلى خارج المدينة، وهو يجتاز مخرجها الرئيسي، وينطلق بينهما عبر الطريق الخارجي الطويل..
ثم التمع البرق في السماء..
وهطلت الأمطار فجأة..
أمطار غزيرة، بدت وكأن السماء قد انشقت عنها، دون سابق إنذار..
ومع الأمطار، خففت السيارتان سرعتهما، وتراجعتا على نحو مباغت، وراحتا تنطلقان خلفه وهو يتساءل:
- ها نحن أولاء قد أصبحنا خارج المدينة.. ماذا تريدان إذن؟

انتبه فجأة إلى أنه يقترب من منحني شهير خارج المدينة، أطلق عليه السائقون اسم (منحنى الموت)، وساوره القلق أكثر من ذي قبل، إذ بدا له ذلك المنحنى مكانا مثاليا للتخلص منه، و....
وفجأة ضربته إحدى السيارتين من الخلف..
ضربته في عنف، وكأنها تحاول دفعه إلى الأمام، في نفس اللحظة التي اتجهت فيها السيارة الأخرى، لتسير إلى يساره، محاذية إياه تماما واقترب المنحنى..
وكان من الضروي أن ينحرف (هاشم) يسارا، ولكن السيارة التي تجاوره كانت تمنعه من هذا، في نفس الوقت الذي تضربه فيه السيارة الأخرى من الخلف في عنف..
لقد صدق حدسه..
إنهم ينوون القضاء عليه في هذا المنحنى..
في منحنى الموت..
خفق قلبه في قوة وعنف، عندما أدرك أنهم يريدون قتله بالفعل هذه المرة، وصاح لنفسه:
- لا.. لن يصلح الاستسلام هذه المرة.
كان عليه - في هذه المرة - أن يدافع عن حياته، وبكل ما يملك من قوة..
وفي عنف، انحرف (هاشم) بسيارته يسارا واحتكَّ جانب السيارة الأيسر بجانب السيارة الأخرى الأيمن..
وانطلق صرير رهيب مزعج، وراحت الشرارات تنطلق من مناطق الاحتاك، وخصمه يصر على عدم التراجع..
وهو يزداد إصرارا على إنقاذ حياته..
والمنحنى يقترب..
ويقترب..
ويقترب..

وفجأة انحرف (هاشم) يمينا، قبل أن يبلغ المنحنى وأفلت من السيارتين في مناورة بارعة سريعة، وتركهما تتجاوزانه بعدة أمتار، وهو يضغط فرامل سيارته في رفق، ثم عاد بسرعة إلى يسار الطريق، وتجاوز مع السيارتين ذلك المنحنى الخطر في مهارة..
وأصاب الغضب قائدي السيارتين فخففا من سرعتهما بدورهما، وعادا يطوقان (هاشم)، من الخلف واليمين هذه المرة في محاولة لدفعه إلى الارتطام بذلك الحاجز المعدني الذي يفصل جانبي الطريق عن بعضهما..
وفي عنف، راحت السيارة الخلفية تضرب مؤخرة سيارته، في حين أخذت السيارة التي إلى يمينه تدفعه نحو الحاجز في إصرار..
واحتك جانب السيارة الأيسر بالحاجز في عنف، وتطاير الشرور أكثر عنفا وقوة هذه المرة، وصاح (هاشم) غاضبا:
- أيها القذران..
ثم ضغط فرامل سيارته بغتة، وترك السيارة الخلفية ترتطم بمؤخرة سيارته في عنف، في حين تجاوزته السيارة اليمني بمترين أو ثلاثة، فانحرف يمينا، وانتهز فرصة تخفيفها لسرعتها، للحاق به مرة أخرى، وزاد من سرعته هو، وتجاوزها بغتة..
الآن أصبحت السيارتان خلفه..
وبكل مهارته وقدراته، راح (هاشم) ينتقل من يمين الطريق إلى يساره، محاولا منع السيارتين من تجاوزه، أو تطويقه.
وتزايد انهمار الأمطار..
ومع حركة مساحتي السيارة، لمح (هاشم) تلك اللافتة..
لافتة كبيرة، مكتوبة بطلاء فوسفوري تنعكس عنه الأضواء في شدة لتوضح وجود هوَّة عميقة إلى يمين الطريق، بعد عدة أمتار..
هوَّة عميقة؟!

هوى قلبه بين ضلوعه، عندما قرأ اللافتة..
إنها فرصتهما الثانية..
دفعة قوية ناجحة، ويتخلصان منه في قاع الهاوية..
راح قلبه ينبض في قوة وعنف، وسيارته تقترب من الهوَّة العميقة، وبدا من الواضح أنهما لاحظا اللافتة أيضا..
فقد راحت إحدى السيارتين تضربه من الخلف في عنف، وكأنها تحاول دفعه إلى الهوَّة..
ولاحت الهوَّة من بعيد..
والسيارة تقترب بسرعة مخيفة..
وكان عليه أن يبحث عن حل لهذا الموقف، وعن مخرج من هذا المأزق.
والعجيب أن (هاشم)، على الرغم من طبيعة عمله، يكره العنف والدمار والقسوة ولا يميل إلى هذه الصفات، إلا إذا اضطرته الظروف الطارئة لهذا..
وهذا الموقف من أصعب الظروف الطارئة التي مر بها في حياته..
إنه يواجه الخطر..
خطر الموت.
ومن حقه الدفاع عن حياته..
وبأية وسيلة كانت..
وانعقد حاجباه في حزم صارم، وهو يدرس خطته..
وكعادته، استغرقت منه دراسة الخطة لحظة واحدة، وفي اللحظة التالية مباشرة، كان يضعها موضع التنفيذ..
وضغط (هاشم) فرامل سيارته، وترك السيارة الأخرى..
تدفعه أمامها، نحو الهوَّة، وهو يتخذ يسار الطريق، ليمنع السيارة الأخرى من محاصرته من جهة اليسار..

ودفعته السيارة نحو الهوَّة..
دفعته بكل قوتها، وهو يضغط فرامل سيارته، وسمع صوت احتكاك الإطارات بالأرض المبتلة..
وأصبحت الهوَّة على قيد خمسة أمتار..
أربعة..
اثنين..
وفجأة أطلق (هاشم) فرامل سيارته، وضغط دواسة الوقود، ثم انحرف إلى اليسار..
ولثوانٍ، خُيِّل إليه أنه سيهوي بسيارته في الهوَّة..
لقد انزلقت السيارة بالفعل، وشعر وكأن إطاراتها الخلفية قد مالت في الهواء خارج الطريق ولكنه سيطر على عجلة القيادة بيد من الفولاذ..
أما السيارة الأخرى، التي كانت تدفعه في عنف، فقد اندفعت بسرعة كبيرة مباغتة، عندما أفلتت منها سيارة (هاشم)..
فجأة، ووجد قائدها نفسه يندفع نحو الهوَّة، فضغط فرامل سيارته، محاولا الإفلات من السقوط، وانحرف بعجلة القيادة يسارا، ولكن السيارة انزلقت في عنف، فوق الأرض الزلقة و...
واندفعت خارج الطريق..
ولثوان، بدت السيارة معلقة في الهواء، فوق الهوَّة..
ثم هوت..

واندفعت خارج الطريق .. ولثوان ، بدت السيارة معلقة فى الهواء ، فوق الهوة .. ثم هوت ..

وتناهى إلى مسامع (هاشم) صوت الارتطام العنيف ثم دوى الانفجار..

انفجرت السيارة في قاع الهوَّة في عنف، واشتعلت بها النيران.

وفي مرآة سيارته، رأى (هاشم) السيارة الأخرى تتوقف عند الهوَّة، فزاد من سرعة سيارته، حتى بلغ أول منحنى، يمكن أن يعيده إلى المدينة، وانحرف يسارا، ثم انطلق بكل سرعته عائدا..
وانطلقت السيارة الأخرى خلفه..
كان من الواضح أن قائدها قد أصيب بجنون الغضب..
وأنه يطارد (هاشم) في عنف أكثر هذه المرة، فقد انحرف في المنحنى بسرعة مدهشة، كادت تخرجه عن الطريق، ثم اندفع بسرعته القصوى، فوق الأرض الزلقة، على الرغم مما يعرضه له هذا من مخاطر..
وراح (هاشم) يناور في براعة..
كان كل ما يسعى إليه هو أن يمنع هذه السيارة من تجاوزه، حتى لا يجبره قائدها على العودة إلى الطريق مرة أخرى، لذا فقد انطلق أمام السيارة مباشرة، محتملا ضرباتها، ومسيطرا على عجلة القيادة، بكل ما يمكن من قوة..
وفجأة تحطم زجاج السيارة الخلفي.. وفي نفس اللحظة، تكون ذلك الثقب، في الزجاج الأمامي..
وأدرك (هاشم) طبيعة هذا الشيء على الفور..
إنه رصاصة..
لقد بدأ قائد السيارة المتبقية، في إطلاق النار عليه..
وهو يهدف إلى قتله هذه المرة.
وأصبحت مناورة (هاشم) حتمية.. وخصمه يطلق الرصاصات..
رصاصة..
وثانية..
وثالثة..
وتهشم زجاج السيارة الأمامي أيضا، وارتطمت الرياح الباردة، المحملة بالأمطار بوجه (هاشم)، الذي راح يرتجف، وشعر

بأطرافه تتجمد، وأنفه يلتهب..
ومع ضربات قلبه المتلاحقة، عبر مدخل المدينة بسرعته القصوى، ورأي السيارة تلاحقه في إصرار، وقائدها يحاول تجاوزه بشتى الطرق، ولكنه يمنعه من هذا بمناورات معقدة، استخدم فيها كل مهاراته وخبراته في القيادة، لتفادى فارق القوة والسرعة، الذي يميز السيارة الأخرى..
وفجأة توقفت السيارة في عرض الطريق، ثم انحرف بها قائدها في طريق جانبي، واختفى تمامًا..
وهنا تضاعف قلق (هاشم)..
كان يعلم أن قائد السيارة سيظهر فجأة كما اختفى..
ولكنه يجهل كيف ومتى، وأين يظهر..
كل ما يمكنه فعله، هو أن ينطلق بأقصى سرعة، محاولًا بلوغ دائرة الأمن، قبل أن يظهر قائد السيارة الأخرى..
وتضاعف إحساسه بالبرد، مع صعوبة الموقف، وتمنى أكثر وأكثر، لو أنه بلغ فراشه، واندسَّ تحت الأغطية السميكة، لينعم بالدفء والأمان..
وفجأة ظهرت السيارة الأخرى..
ظهرت من طريق جانبي، على نحو مباغت، وهو تنطلق نحو الجانب الأيسر لسيارة (هاشم)..
ثم انطلقت الرصاصات..
ثلاث رصاصات متتالية، لم يسمع صوتها كالمعتاد، ولكنه شعر بإحداها تحتك بعنقه، وسمع الأخرى ترتطم بزجاج النافذة، أما الثالثة، فنفذت من باب السيارة، واستقرت في مسند المقعد خلفه..
وحاول (هاشم) أن يزيد من سرعة سيارته، إلا أنها كانت تنطلق بأقصى سرعتها بالفعل، فلم يملك سوى الانحراف يمينا، إلا أن

هذا لم يمنع الاصطدام.
اصطدام عنيف، أصاب النصف الخلفي من السيارة، وأدارها حول نفسها، قبل أن ترتطم بالإفريز، وتقفز فوقه ثم تستقر ويتوقف محركها..
ودارت السيارة الأخرى حول نفسها وواجهت سيارة (هاشم)، ثم أشعلت أضواءها الأمامية وأطفأتها عدة مرات، وكأنها ثور هائج، يستعد للانقضاض على فريسته.
وفي توتر بالغ، راح (هاشم) يدير مفتاح سيارته، وهو يقول:
- لا تتخلي عني في هذه اللحظة..
ولكن السيارة أبت أن تتحرك..
لم يشتعل محركها أبدا..
وانطلقت السيارة الأخرى..
ولم يعد هناك مجال للمحاورة والمناورة.. وبكل ما يملك من سرعة وقوة، قفز (هاشم) خارج سيارته قبل لحظة واحدة من ارتطام السيارة الأخرى بها..
لقد خسر سيارته، في حين لم تخسر السيارة الأخرى سوى مصباح أمامي، وجزء من شبكة المقدمة..
وتراجعت السيارة الأخرى، ثم استعدت للانقضاض على (هاشم)، الذي هبَّ واقفا على قدميه، ثم انطلق يعدو بأقصى سرعته..
ولربع دقيقة كاملة، لم تتحرك السيارة..
كان قائدها يراقب (هاشم)، وهو يعدو بكل قوته محاولا بلوغ نهاية الطريق الطويل، كقط يراقب فأرًا، قبل الانقضاض عليه..
أما (هاشم) فأخذ يلهث في قوة، وهو يقول لنفسه:
- هيا أيها المغرور.. امنحني ربع دقيقة أخرى، ولن تنجح بعدها في الإيقاع بي أبدا..

ولكن السيارة انطلقت في هذه اللحظة..
انطلقت بكل سرعتها بغتة، وكأنما اتخذ قائدها قراره الحاسم، بالقضاء على (هاشم)..
وسمع (هاشم) السيارة تنطلق خلفه..
ولم يكن هناك طريق جانبي واحد، يمكنه الفرار عبره..
واقتربت السيارة في سرعة غاضبة..
وراح قائدها يمني نفسه بالثأر..
واقترب من (هاشم) أكثر وأكثر، بحيث لم يعد يفصلهما سوى متر أو مترين..
وفجأة انحرف (هاشم) يمينا، وقفز بقدميه فوق سيارة متوقفة، إلى جانب الطريق، ثم قفز منها إلى الإفريز..
وانحرفت السيارة خلفه..
وكانت أمامه السيارة نفسها، التي قفز فوقها (هاشم)..
ولم يكن من الممكن تفادي الاصطدام..
وبكل العنف، ارتطم الجانب الأيمن للسيارة، بالجانب الأيسر للسيارة المتوقفة..
وفي مشهد نادر عجيب، قفزت السيارة في الهواء.
وكانت قفزة رهيبة، حلقت فيها السيارة لحظات، ثم هوت لترتطم بالأرض في عنف، قبل أن تنقلب رأسا على عقب..
وتوقف (هاشم) مبهوتًا، يلهث في عنف..
ثم رأى تلك اليد، ذات القفاز الأسود، وهي تحاول الخروج من السيارة، فتحرك لإسعاف صاحبها، ومعاونته على الخروج من السيارة..
ولكن الانفجار حدث بغتة.
انفجار عنيف، نسف السيارة كلها، ودفع (هاشم) عدة أمتار للخلف، قبل أن يستقر أرضا، ويتطلع إلى السيارة المشتعلة في

ذهول..
لقد نجا..
وهذا يكفي.
ولم يكن شعوره بالبرد قد انتهى بعد، وهو يجلس في حجرة مكتبه، في السادسة صباحا، وبين يديه قدح من الشاي الساخن، وزميله (يحيى) إلى جواره يقول:
- كانت ليلة عنيفة، ومن حسن حظك أن نجوت منها.
غمغم (هاشم):
- لم أتصور أن يحدث هذا أبدا..
ثم سأل (يحيي) في اهتمام:
- ولكن من هما؟ وماذا أرادا مني؟
مط (يحيى) شفتيه، وهز كتفيه، قائلا:
- لا أحد يدري بعد، وربما أفادنا الطب الشرعي، في معرفة شخصيتهما، وإلى ذلك الحين سيظل الأمر كله غامضا مجهولا، ولقد تحريت عن الأشخاص الأربعة، الذين كنت تشك في أمرهم، ووجدت أن (طاهر) و(سليم) في السجن يقضيان فترة عقوبة طويلة، أما (لبيب) و(جابر)، فمازالا على قيد الحياة، وقد التقيت بهما بنفسي..
ارتشف (هاشم) رشفة من قدح الشاي، وقال في حيرة:
- من هما إذن؟
هز (يحيى) كتفيه، وقال:
- فلنترك هذا الزمن.. المهم الآن أنك قد نجوت من هذه اللعبة.
قال (هاشم) مستنكرا:
- لعبة؟!
ابتسم (يحيى)، وقال:

- نعم يا صديقى، بالنسبة لرجل العدالة، فهي جزء من اللعبة الدائمة، التي يحيا فيها، مضحيًّا براحته وساعات نومه.
واتسعت ابتسامته، وهو يستطرد:
- لعبة الخطر.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الـــدم

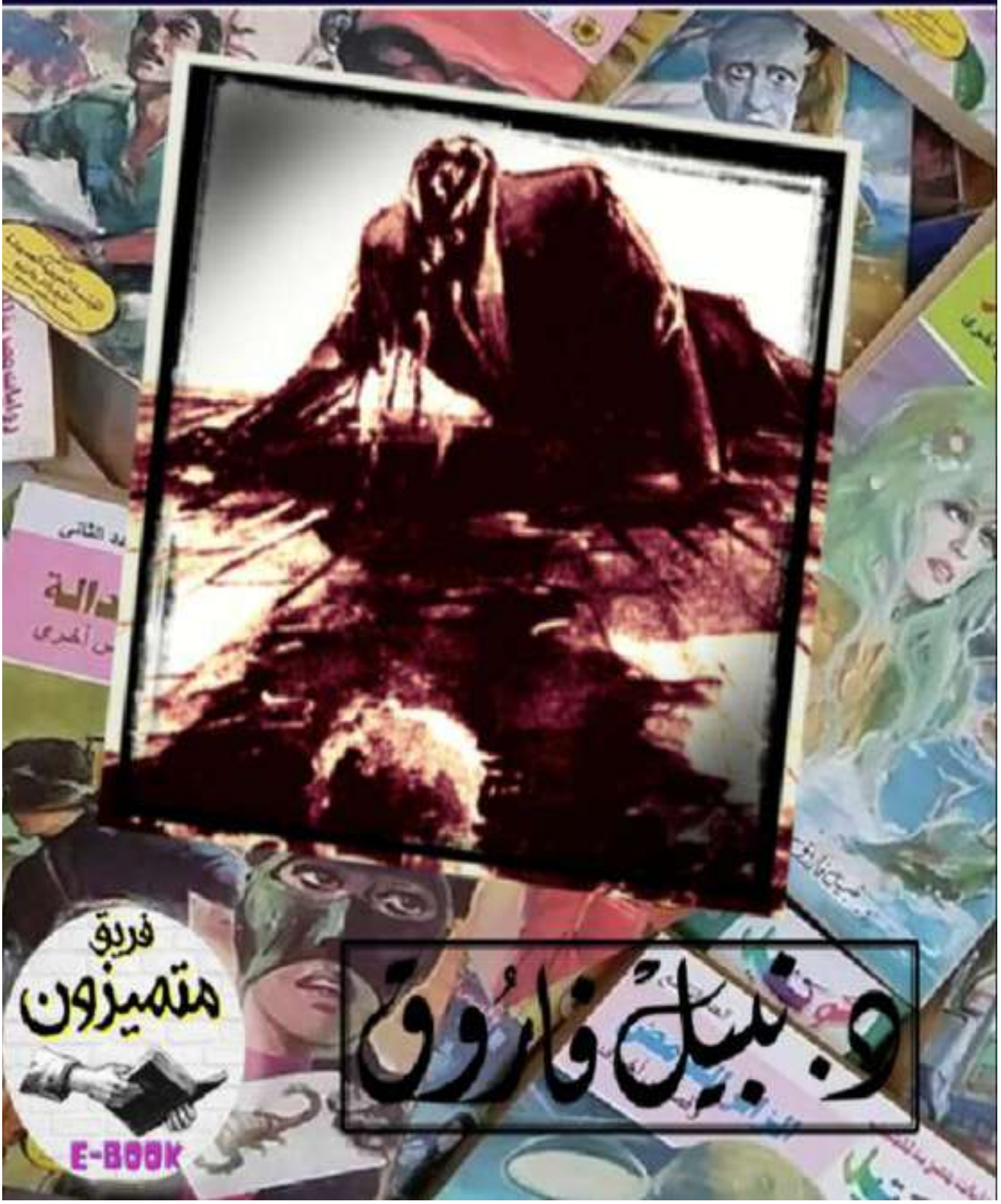

نبيل فاروق

فريق متميزون

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

الدم

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- الجريمة..

دوت أبواق سيارات الشرطة والإسعاف على نحو مزعج، وهي تتوقف أمام ذلك الفندق الفاخر، من فنادق الخمسة نجوم، والمطل على نيل (القاهرة)، واندفع مدير الفندق يستقبل رجال الشرطة والأطباء، في توتر بالغ، وهو يقول:

- رويدكم أيها السادة.. اخفضوا هذه الأصوات بالله عليكم إنكم تصيبون النزلاء بالذعر والاضطراب.. أرجوكم.

أشار الرائد (صفوت) إلى قادة سيارات الشرطة والإسعاف لخفض الأبواق أو إيقافها، وهو يسأل المدير بلهجة حازمة أصبحت جزءا من تكوينه وشخصيته، بعد سنوات العمل الطويلة، في قسم المباحث الجنائية:

- أين القتيل؟!

أشار المدير إلى الداخل في توتر، قائلاً:

- هنا.. لقد نقلناه إلى...

قاطعه (صفوت) في حدة غاضبة:

- نقلتموه؟! هل جننتم يا رجل؟! إنكم تفسدون القضية كلها بحماقتكم هذه! كيف تقومون بنقل الجثة، قبل قيامنا بالمعاينة الأولية؟!

توتر المدير أكثر، وهو يجفف عرقه، ويلوح بيده، قائلاً:

- لقد أطلق عليه القاتل النار، في المقهى الرئيسي، في منتصف المكان بالضبط، ونسف رأسه على نحو بشع، وكان من المستحيل أن نترك الجثة هكذا، خاصة وأن...

قاطعه (صفوت) في حدة:

- ولو..

كان يعبر معه بوابة الفندق الإليكترونية، التي انطلقت تصرخ في عنف، معلنة اعتراضها على الأسلحة، التي تعبرها، إلا أن (صفوت) ورجاله تجاهلوا صراخها تماما، وهم يتجهون نحو المقهى الرئيسي، حيث انهمك بعض عمال الفندق في تنظيف مائدة في منتصفها، على نحو جعل (صفوت) يقول في عصبية:

- ما الذي يفعلونه بالضبط؟!

ارتبك المدير بشدة، وهو يجيب:

- الدماء كانت تغرق كل شيء، و..

قاطعه في غضب،:

- سألقى القبض عليك يا رجل، بتهمة إخفاء الأدلة وإتلافها..

امتقع وجه المدير، وهو يهتف:

- رباه! إنني لم أقصد هذا قط، ولم قاطعه بإشارة صارمة من يده، وهو يشير إلى رجاله، الذين اندفعوا يبعدون عمال النظافة، ويحيطون بالمائدة، في حين سأل هو المدير في صرامة:

- وأين الجثة؟!

أشار الرجل في شحوب إلى حجرة في نهاية القاعة، فاندفع(صفوت) نحوها، وهو يغمغم في غضب:

- كيف يمكننا أن نعمل، وسط كل هذا الكم من الحماقة؟!

يفسدون كل شيء، ثم يطالبوننا بنتائج عاجلة، و.. كان يغمغم بعبارته، وهو يفتح باب الحجرة، ولكنه لم يكد يفعل، حتى اختنقت الكلمات في حلقه، واتسعت عيناه عن آخرهما، وسرت في جسده قشعريرة عنيفة، وهو يحدق في الجثة، التي تم نقلها بمقعدها، الذي لقيت مصرعها فوقه إلى تلك الحجرة.....

كانت جثة رجل يرتدى حلة غالية الثمن، ورباط عنق زاهd الألوان، وحذاء إيطاليا فاخرا، وساعة ذهبية، و.. وهذا كل ما يمكن ملاحظته بالنسبة إليه فلم يكن له وجه.. أو رأس....

لم يكن قد تبقى من رأسه سوى جزء يسير من مؤخرة الجمجمة، يتصل ببواقي العنق، أما فيما عدا هذا، فقد تم نسف الرأس تماما وعلى الرغم من أن (صفوت) قد شاهد عشرات من حالات القتل العنيفة، بحكم عمله في منطقة مشتعلة الأحداث، في أعماق الصعيد، فور تخرجه، إلا أنها كانت المرة الأولى، في حياته كلها، التي شاهد فيها مشهدا بهذه البشاعة.....

لذا، فقد تراجع بحركة حادة، جعلت المدير يجفف عرقه، قائلاً في عصبية:

- كان من المحتم أن نبعده عن الأنظار، فسمعة الفندق لا..

قاطعه (صفوت) في توتر شديد:

- اصمت.

ابتلع المدير كلماته، وتراجع خارج الحجرة، وكأنما ينأى بنفسه عن رؤية ذلك المشهد، الذي لن يفارق خياله أبدا، في حين ازدرد (صفوت) لعابه في صعوبة، وهو يحدق في الجثة متسائلاً: ترى أي سلاح هذا، الذي يمكن أن ينسف جمجمة كاملة، على هذا النحو؟!

لقد شاهد، إبان عمله في الصعيد، رجلاً أصيب بخمس رصاصات في جمجمته، من مسافة ثلاثة أمتار، وعلى الرغم من هذا فقد بقي رأسه في مكانه أما هذا، فقد تحطمت جمجمته تماما..

بل انسحقت سحقا فأي سلاح فعل بها هذا؟!

أي سلاح؟!

وفى عصبية بالغة، سأل مدير الفندق:

- مع كل نظام الأمن والبوابات الإليكترونية، كيف عبر القاتل بسلاحه إلى الداخل؟

هز المدير رأسه في توتر، مجيبا:

- لا أحد يدري.. البوابات لم تطلق رنينها، ونحن لم نسمع حتى دوى الرصاصة.. لقد لمحنا وهجها فحسب، ثم رأينا الدماء تتفجر، لتغرق كل شيء، وتترك ذلك المسكين خلفها هكذا.
قال (صفوت) في عصبية:
- لم تسمعوا دوى الرصاصة؟! الذي فعل هذا استخدم حتما مدفعا يا رجل، وليس مجرد رصاصة..
قال المدير مبهوتا:
وكيف يمكن أن يخفى مدفعا؟!
صاح (صفوت) بعصبية:
- أخبرني أنت
قال المدير في حدة:
- إنها مهنتك أنت.. أنا رجل سياحة وفندقة فحسب...
هتف (صفوت):
- وأنت المسئول الأول عن هذا المكان أيضا
عاد المدير يجفف عرقه، ويهز رأسه، قائلاً:
- لا أحد هنا يدري كيف حدث هذا! البوابات الإليكترونية تعمل بكفاءة، والرجل لم يكن يحمل حتى حقيبة، عندما عبرها، واتجه نحو القتيل مباشرة، ونسف رأسه...
انعقد حاجبا (صفوت) بشدة، وهو يقول في صرامة:
- اسمع يا رجل.. أنا ضابط شرطة، منذ ما يقرب من أثني عشر عاما، وخبرتي تؤكد لي أن نتيجة كهذه لا يمكن أن تحدث إلا من سلاح ضخم، فلا تقل لي إن أحدا لم يره يحمله...
قال المدير في عصبية:
وهل تعتقد أننا كنا سنتركه يفعل ما فعله بمنتهى البساطة لو أننا رأينا سلاحه؟!

كان الجواب منطقيا إلى حد مستفز، حتى إن (صفوت) قد عقد حاجبيه في توتر، وهو يسأله في صرامة:
وماذا بعد أن فعل ما فعل؟! لماذا تركتموه يمضي في سبيله؟!
عض الرجل شفتيه، قائلاً:
- ومن قال: إننا تركناه؟!
سأله (صفوت) في توتر:
- أين هو إذن؟!
قلب الرجل كفيه في مرارة، وهو يجيب:
- للوهلة الأولى، لم نفهم ما حدث، خاصة وأننا لم نسمع دوى رصاصة، كما سبق أن أخبرتك، ولكنه استدار يغادر المكان في هدوء، على الرغم من صرخات الهلع والرعب والذعر، فانقض عليه ستة من أقوى حراس الأمن عندنا، و...، و..
قال (صفوت) في لهفة عصبية:
- وماذا؟!
قلب الرجل كفيه مرة أخرى، قائلاً:
- ولكنه أوقفهم جميعا بضربة واحدة، وغادر المكان بكل هدوء، و..
قاطعه (صفوت) بصيحة مستنكرة:
- بضربة واحدة؟! أي نوع من الرجال تستخدمون للحراسة يا رجل؟! أبطال لعبة تنس الطاولة؟!
قال المدير في غضب عصبي:
-رجالنا هم أفضل أطقم الحراسة في (مصر) يا سيادة الرائد، ولكن من الواضح أن ذلك الرجل كان قويا كالثور، أو أنه يستخدم شيئا نجهله، فقد أخبرني الرجال أنهم شعروا وكأنهم قد تلقوا صاعقة في صدورهم، ألقتهم بعيدا عنه بمنتهى العنف...

هتف (صفوت) في عصبية:
- هراء.
قال المدير في حدة:
- ليس هراء أيها الرائد.. هذا ما وصفه الرجال بالضبط؟
قال (صفوت) في غلظة:
- مجرد محاولة سخيفة لتبرير فشل أكثر سخافة يا رجل ثم شد قامته، مستطردا في صرامة:
- وعلى أية حال، سأتولى التحقيق في هذه الجريمة بنفسي....
.
لم يكد ينطق عبارته، حتى سمع دقات على باب الحجرة، فالتفت إليه، قائلاً في حدة:
من خلف الباب؟
سمع صوتا يتنحنح في حرج، قبل أن يقول:
- هل يمكننا رفع الجثة الآن؟! نحن رجال الإسعاف، ورجال الأدلة الجنائية هنا، ويرغبون في بدء الفحص....
قال (صفوت) في خشونة لم يتعمدها:
- دعهم يأتون
مضت لحظات من الصمت والسكون، قبل أن يدفع أحدهم الباب، ويدلف إلى الحجرة، و
« رباه! ما هذا بالضبط؟!»
انطلقت شهقات مذعورة، من حلوق الرجال، وهم يحدقون في المشهد البشع، فهتف بهم (صفوت) في غضب:
- ماذا دهاكم؟! ألم تروا جثة قتيل من قبل؟!
هتف أحدهم بصوت مرتجف:
- ليس بهذه الصورة.
أجابه في حدة:

- حاولوا اعتياد المشهد إذن، وارفعوا الجثة، وانقلوها إلى الطب الشرعي، فور انتهاء رجال الأدلة الجنائية من عملهم ثم استدار إلى المدير، متابعا في صرامة:
- وأنت.. مر رجالك بجمع كل نقطة دم، أزالوها من مسرح الجريمة، وكل ذرة تراب أيضا.. حتى الأدوات والقطع، التي استخدموها في عملهم الأخرق، أريدها في المعمل الجنائي، مع قائمة بأسماء كل العاملين في الفندق، وكل رجل أمن وحراسة، بالإضافة إلى فحص شامل للبوابات الإليكترونية وانطلقت من أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة، مضيفا في عصبية:
- إنها جريمة معقدة، ولا أريدها أن تصبح نقطة سوداء في ملف خدمتي...
لم يدر، وهو ينطق عبارته الأخيرة، أن هذه الجريمة بالذات قد تنهي ملف خدمته كله..
بل وقد تصبح نقطة تحول رهيبة في حياته كلها نقطة بلا عودة.. على الإطلاق.

زفر الدكتور (أحمد) الطبيب الشرعي الشاب، في ضجر شديد، وهو يوقف سيارته الصغيرة، أمام مشرحة (زينهم) ويغادرها مغمغما:
- كان ينبغي أن أستمع إلى نصيحة جدى، عندما قال: إن كلية الزراعة أكثر فائدة من كلية الطب
زفر مرة أخرى، وهو يدلف إلى مكتبه، فهب مساعده من مقعده، قائلا:
- دكتور (أحمد)! حمدا لله على أنك قد وصلت.. المباحث الجنائية اتصلت خمس مرات حتى الآن، ووكيل النيابة يطلب سرعة فحص هذه الجثة، وعمل التقرير اللازم....

هتف الدكتور (أحمد) في حنق، وهو يرتدى معطفه وقفازي التشريح المطاطين:
- ماذا أصابهم جميعا؟! إنها مجرد جريمة قتل، وليست اغتيالاً سياسيا، حتى يصاب الجميع بالهلع والتوتر إلى هذا الحد..
ثم إنني قد أتيت فور اتصالك بي، ولكن الطرق مزدحمة للغاية، في ساعة الذروة هذه، فماذا يمكنني أن أفعل؟!
واتجه بخطوات عصبية إلى قاعة التشريح، متابعا في غضب:
- لماذا لم تتصل بالدكتور (إلهام) أو الدكتور (أبو سنة)؟!
كلاهما يقيم في مكان أقرب منى على الأقل غمغم مساعده في توتر:
- الواقع أن
قاطعه في حدة:
- فليكن.. لا تبحث عن أعذار ومبررات.. أنا أفهم هذا ومط شفتيه، متمتما في سخط:
- ولقد اعتدته أيضاً...
توقف لحظة، وهو يتطلع إلى الجثة، الراقدة على منضدة الفحص الرخامية، بكامل ملابسها، وتمتم في عصبية:
- رباه! من فعل به هذا؟!
هز المساعد رأسه، مغمغما:
- لست أدرى..
قاطعه (أحمد) مرة أخرى:
- لا بأس.. لا بأس.. أعطني التقرير الأولى، وأحضر آلة التصوير، لنقوم بعملنا....
انطلق مساعده لتنفيذ الأوامر، في حين جذب هو مقعدا، وجلس إلى جوار الجثة، وراح يتطلع إليها في حيرة، متسائلاً عن السلاح القوى، الذي يمكن أن ينسف رأس رجل على هذا النحو،

ثم لم يلبث أن طرح هذا السؤال عن رأسه مؤقتا، وهو يميل لفحص ثياب الجثة في اهتمام كان القتيل يرتدي حلة فاخرة، غالية الثمن للغاية، وخاوية تماما، بعد أن قام رجال المباحث الجنائية بتجريدها من كل ما تحمله، وكانت أصابعه طويلة إلى حد مثير للاهتمام، حتى إن (أحمد) قد رجح أنه عازف بيانو أو قيثارة...

القميص أيضا كان من نوع فاخر باهظ الثمن، ولكن نسيجه بدا غريبا للغاية، إلى الحد الذي دفع (أحمد) إلى قطع جزء منه، ووضعه في كيس خاص، لفحصه فيما بعد، ثم التقط محقنا صغيرا، وغرسه في أحد شرايين المعصم الأيمن، وحصل على ما يقرب من عشرين سنتيمترا في الدم لفحصها، و...

وفجأة، توقفت كل أفكاره، وهو يتطلع إلى عينة الدم، التي احتوتها قنينة المعمل الخاصة شيء ما فيها جذب جزءا من انتباهه أو من وعيه الباطن على الأقل ربما هو لونه الأحمر القاني، الذي بدا أكثر كثافة من المعتاد..

كان داكنا، أقرب إلى اللون البنفسجي، منه إلى الأحمر بكل درجاته، على الرغم من أن درجة سيولته لم تكن أكبر من المعتاد، أو...

ولكن مهلاً كيف يمكن أن يظل الدم سائلاً حيويا، بعد ما يقرب من ثلاث ساعات على الوفاة؟!

كيف لم يحدث ذلك التجلط المعتاد، داخل الشرايين الميتة؟!

بل وكيف توقف النزيف، من الرأس المحطم، لو أن الدم مازال نشيطا على هذا النحو؟!

كيف؟!

كيف؟!

كيف؟!

«هل ألتقط الصور الآن؟!»
انتفض جسده في عنف، عندما اخترق سؤال مساعده أذنيه، وهو منهمك في التطلع إلى عينة الدم، فأفلتت القنينة من يده، وانزلقت نحو الأرضية الرخامية، فانتزع نفسه من مقعده، ووثب يلتقطها في الهواء بلهفة زائدة، وهو يهتف في حدة:
- ماذا فعلت؟!
تراجع مساعده في دهشة، وحدق في قنينة الدم، التي استقرت في راحة الدكتور (أحمد)، الذي سقط جسده كله أرضا، وهو يواصل في حنق:
- لقد أفزعتني.
تمتم الرجل في ارتباك قائلاً:
- لم أقصد هذا يا دكتور (أحمد).. لقد تصورت أن قاطعه الدكتور (أحمد) بإشارة من يده، وهو ينهض:
- لا بأس.. لا بأس.. التقط كل الصور اللازمة، حتى أطالع التقرير المبدئي، ثم أحمل عينة الدم هذه إلى المعمل فورا...
غمغم الرجل متوترا، وهو يبدأ في التقاط الصور بالفعل:
- بالتأكيد يا دكتور.. بالتأكيد
وضع (أحمد) قنينة الدم على سطح دولاب الأدوات في حرص، وألصق عليها ورقة صغيرة بالبيانات المطلوبة، ثم التقط التقرير المبدئي، وجلس يطالعه في اهتمام، ومساعده يلتقط مجموعة من الصور للجثة، من كافة الجوانب كان التقرير يصف حالة الجثة، عند وصول رجال الشرطة إلى المكان، بمنتهى الدقة، وبكل التفاصيل اللازمة، و...
لكن مهلاً هناك خطأ ما في التقرير خطأ بخصوص الرأس بالتحديد وفي اهتمام، نهض يلقي نظرة على الجثة، قبل أن يقول في سخط:

- سأظل أصر دوما على أن يكون لدينا متخصص، لفحص أية جثة، في مسرح الجريمة، فالأطباء والمسعفون التقليديون لا يجيدون كتابة التقارير الرسمية في هذا الشأن سأله مساعده في اهتمام، وهو يعيد آلة التصوير إلى حقيبتها:
- لماذا؟!
أشار (أحمد) إلى الرأس، قائلاً في حدة:
- التقرير يقول: إن الجثة بدون رأس تقريبا، وها أنتذا ترى بنفسك أن قاعدة الجمجمة موجودة بالكامل، وكذلك الفك السفلي، حتى قاعدة الأسنان، و...
«يا إلهي!!»
بتر مساعده حديثه بشهقته هذه، فانعقد حاجباه، وهو يسأله في عصبية:
- ما هذا بالضبط؟!
كان مساعده يحدق في الجثة بذعر، وهو يهتف:
- كيف لم أنتبه إلى هذا من اللحظة الأولى؟! رباه!! وأنا أتساءل ما الشيء المختلف في الجثة...
قال (أحمد) بعصبية أكثر:
ماذا تعنى يا رجل؟!
ارتجفت سبابة الرجل مع صوته، وهو يشير إلى الجثة، قائلا:
- هذه الـ.. الجثة، كانت بدون رأس بالفعل، عندما أتوا بها إلى هنا...
. حدق (أحمد) في وجهه لحظة بذهول، ثم نقل بصره إلى الجثة بحركة حادة، قبل أن يعود إلى الرجل، هاتفا:
- أي قول أحمق هذا؟! بل أي سخف؟! هل جننت يا رجل أم أن بصرك قد أصيب بمرض هيستري نادر؟!
هتف الرجل في عصبية شديدة:

- أقسم إنها لمّ..
قاطعه (أحمد) في غضب:
- حذار أن تكذب
هتف الرجل في حدة:
- أكذب؟! ولماذا أكذب؟! هذه الجثة كانت بلا رأس بالفعل، عندما أحضروها إلى هنا...
مال (أحمد) نحوه، وهو يقول في صرامة غاضبة:
- ثم ماذا؟! هل نما الجزء الآخر هنا؟!
حدق الرجل في الجثة مذعورا، وهو يغمغم:
- ربما
تراجع (أحمد)، هاتفا في حنق:
- ربما؟! ربما ماذا أيها المأفون؟! هل رأيت في حياتك كلها جثة تنمو خلاياها، بعد ساعات من الوفاة؟!
هز الرجل رأسه نفيا في بطء، وهو يواصل التحديق في الجثة بذعر مذهول، قبل أن يتراجع في بطء، متمتما:
- لست أدرى.. لست أدرى!
قالها، ثم اختطف قنينة الدم، وانطلق يعدو خارج المكان هاتفا:
- سأذهب بالعينة إلى المعمل فورا...
تابعه (أحمد) ببصره في دهشة مستنكرة، ثم عاد يتطلع إلى الجثة، ويهز رأسه، قائلاً في عصبية:
- يبدو أنه قد جن بالفعل.
نهض من مقعده، وضغط زر جهاز التسجيل، وراح يجرد الجثة من ثيابها، وهو يصف ما يفعله بمنتهى الدقة، ثم لم يلبث أن التقط مشرطه، وهو يقول:
- والآن، بعد الفحص الظاهري، تبدأ عملية التشريح، لفحص

الأنسجة والإصابات الداخلية وبحزم واثق، راح يشق جدار البطن، بفتحة طويلة، تبدأ من أسفل عظمة القص مباشرة، وحتى الصرة، ثم أزاح طبقة الجلد، والدهون الداخلية السميكة، و
وانتفض جسده كله في عنف..
واتسعت عيناه عن آخرهما، حتى كادتا تبتلعان وجهه كله وهو يحدق في أحشاء الجثة الداخلية، مغمغما:
- رباه! مستحيل أن يكون هذا حقيقيا! مستحيل!
قالها بكل ذعر ودهشة الدنيا، لأن ما رآه أمامه، داخل تلك الجثة كان شيئا مذهلاً!! مذهلاً بحق! واتسعت عيناه عن آخرهما، حتى كادتا تبتلعان وجهه كله، وهو يحدق في أحشاء الجثة الداخلية...

☆ ☆ ☆

٢- فوق مستوى البشر....

قبل حتى أن تتوقف سيارة الشرطة، أمام مشرحة (زينهم)، كان الرائد (صفوت) يثب خارجها، وهو يهتف برجاله في صرامة:
- أحيطوا بالمكان.. لا أحد يدخل أو يخرج، إلا بأوامر مباشرة منى.. هل تفهمون؟
أسرع رجاله ينفذون الأمر، ويحيطون بمبنى المشرحة، في حين اندفع هو داخلها، وهو يسأل في صرامة:
- أين مكتب الدكتور (أحمد شريف)؟!
قاده حارس المكان إلى مكتب الدكتور (أحمد)، فاندفع إليه قائلا في توتر:
- الرائد (صفوت شاهين).. من المباحث الجنائية بالمديرية ماذا حدث هنا بالضبط؟! ولماذا طلبت حضوري على وجه السرعة؟!
كان الدكتور (أحمد) يجلس خلف مكتبه، وقد بلغ شحوب وجهه حدا مخيفا، جعله ينافس وجوه الموتى، الذين اعتاد المكان التعامل معهم، وهو يلوح بيده، قائلا بصوت أكثر شحوبا من وجهه:
- ذلك الرجل الذي أحضرتموه..
قال (صفوت) في صرامة:
- القتيل؟!
هز (أحمد) رأسه بحركة حادة، وهو يقول:
- إنه ليس قتيلاً.
سقط فك (صفوت) الأسفل، وهو يهتف بكل استنكار الدنيا:
- ليس ماذا؟!

كرر (أحمد) في عصبية شديدة:
- ليس قتيلاً
انعقد حاجبا (صفوت)، وهو يقول في غضب:
- أي قول هذا بالضبط؟! لو أنه ليس قتيلاً، فأية صفة تحب أن نطلقها، على جثة فقدت رأسها...
صاح (أحمد) في حدة:
- لست أدرى.. إنها حالة لم أر، ولم ير الطب كله مثيلاً لها من قبل، ولكن ذلك الذي أحضرتموه لم يكن قد لقى مصرعه بعد، عندما بدأت في تشريحه بالفعل...
:
حدق (صفوت) في وجهه بذهول غاضب مستهجن، قبل أن يهتف بغضب بلغ مداه:
- دكتور (أحمد).. هل تعاطيت بعض المواد المخدرة أم ماذا؟!
هز (أحمد) رأسه مرة أخرى في حدة، قائلاً بعصبية زائدة:
- كلا.. لم أتعاط أية مواد، سواء مخدرة، أو غير مخدرة وما أقوله لك، على الرغم من استحالته الطبية، رأى علمي محض...
ثم مال بجسده كله نحوه، مستطردا:
- لقد فحصت الرجل بنفسي، وعندما بقرت بطنه، كانت أجهزته كلها تعمل، على النحو نفسه، الذي تعمل به في قلب رجل حي.. لم تكن أجهزة متوقفة أو تالفة.. هل يمكنك أن تستوعب هذا؟!
وتراجع بحركة حادة، وهو يلوح بذراعه، صائحا:
- المعدة لم تكن قد توقفت عن الهضم بعد.. هل تصدق؟!
حدق (صفوت) في وجهه بذهول بالغ، قبل أن يهز رأسه في قوة، وعناد، هاتفا:
- مستحيل!

ثم ضرب سطح المكتب براحته في قوة، مضيفا:
- ذلك الرجل لقى مصرعه، في مقهى فندق شهير، وأمام عشرات النزلاء، وتم نقله إلى هنا بدون رأس، فكيف يمكن أن تقول بعدها إن...
قاطعه (أحمد) بمنتهى الحدة:
- هذه النقطة أيضا غير صحيحة
انعقد حاجبا (صفوت) أكثر، وهو يتساءل في توتر:
- أية نقطة؟!
أجابه (أحمد) بنفس الحدة:
- مسألة الرأس هذه.. الجثة التي جئتم بها إلى هنا، لها نصف رأس، وليست بدون رأس تماما كما تدعون...
اتسعت عينا (صفوت) عن آخرهما، وهو يقول:
- بنصف ماذا؟!
ثم هب واقفا، ومال نحو الدكتور (أحمد) في حدة، قائلاً:
- قل لي أيها الطبيب الشرعي: أأنت واثق من أننا نتحدث عن الجثة نفسها؟!
زفر (أحمد) في عصبية، قائلاً:
- من المصادفات العجيبة أنه ليس لدينا سواها الليلة ثم نهض بدوره من مقعده، واندفع نحو الباب، مستطردا:
- ويمكنك أن تراها بنفسك....
-
عقد (صفوت) حاجبيه في عصبية، وهو يندفع خلف(أحمد)، الذي قطع ممر المكان بخطوات سريعة واسعة حتى بلغ قاعة التشريح، فدفع بابها، قائلاً:
- لقد أعدت خياطة جدار المعدة، و...

بتر عبارته دفعة واحدة، وارتد بحركة حادة عنيفة، مطلقا شهقة ذعر، جعلت (صفوت) يحث الخطى نحوه، هاتفاً:
- ماذا هناك؟!
انتهت كلماته عند باب القاعة بالضبط، فحدق بدوره في الجثة، قبل أن تتسع عيناه عن آخرهما، ويغمغم في ذهول:
- مستحيل!
فالجثة الراقدة على منضدة الفحص الرخامية، في منتصف القاعة، لم تكن عديمة الرأس بالفعل..
بل كانت تمتلك نصف رأس نصف يمتد من العنق وحتى منتصف الأنف بالتحديد....
ألقى الدكتور (حسن وهبي) نظرة مرهقة على ساعته التي أشارت عقاربها إلى التاسعة مساء، وهو يخلع معطفه الطبي، قائلاً لزميله في إجهاد واضح:
- يا له من يوم شاق! عمليتان كبريان وثلاث جراحات صغرى.. من النادر أن يمر بنا يوم كهذا يا رجل....
ابتسم زميله ابتسامة مرهقة، وهو يقول:
- أعتقد أن أيامنا كلها كذلك، ولكننا اعتدناها، واعتدنا نسيانها كلها، فور عودتنا إلى منازلنا، وربما لهذا نتصور دوما أن كل يوم هو أشق الأيام.. أليس كذلك؟!
ابتسم الدكتور (حسن) بدوره، وهو يلقى جسده على المقعد الكبير خلف مكتبه، قائلا:
- لا تنس متاعب الإدارة أيضا يا رجل.. إننى لست كبير جراحي المستشفى فحسب، ولكنني مديرها أيضا هز زميله رأسه، قائلاً:
- كان الله (عز وجل) في عونك....
تمتم الدكتور (حسن):
- ونعم بالله...

كان يهمّ بطلب قدح من الشاي، عندما دلفت سكرتيرته إلى المكتب، ممسكة بإشارة عاجلة، وهي تقول في حيرة أدهشته:
- إشارة من مشرحة (زينهم) يا دكتور (حسن)...
انعقد حاجباه، وهو يسألها في قلق:
- مشرحة (زينهم)؟! وما صلتنا بهم؟! إننا لم نفقد مريضا يستحق الفحص والمراجعة، منذ ما يقرب من قاطعته في توتر، على الرغم من تنافي هذا مع أصول اللياقة:
سيحضرون مريضا إلى هنا...
هتف بدهشة، شاركه إياها زميله:
- مريضا؟! من مشرحة (زينهم)؟! ومنذ متى تختص المشرحة بالمرضى...
هزت رأسها نفيا، دلالة عدم الفهم، وهي تقول:
- إنهم في طريقهم إلى هنا
ردة الدكتور (حسن)، في دهشة حائرة:
في طريقهم إلى هنا؟!
ثم عاد يعقد حاجبيه، متابعا في لهجة يغلب عليها الحذر:
- ربما هو أحد الأطباء.. أصيب في أثناء العمل، ورأوا نقله إلى هنا لإسعافه...
قال زميله في حيرة:
- لماذا الإشارة الرسمية إذن؟!
تراجع الدكتور (حسن) في مقعده، وازداد انعقاد حاجبيه وهو يتمتم:
- نعم.. لماذا؟!
مع آخر حروف كلماته، تسلل إلى مسامعه دوى أبواق سيارة إسعاف تقترب، فعاد يعتدل في مقعده، ده، قائلا:
- لا بأس.. دقائق وسنحصل على أجوبة لكل تساؤلاتنا.

ثم نهض يرتدي معطفه الطبي مرة أخرى، وهو يبتسم ابتسامة متوترة، مضيفا:
- أعتقد أن العمل لم ينته الليلة بعد...
هب زميله من مقعده، قائلاً في حزم:
- لا بأس.. عد أنت إلى منزلك، وسأتولى أنا أمر هذه الحالة...
هز الدكتور (حسن) رأسه نفيا، وقال:
- ليتني أستطيع.. إنها إشارة رسمية، وهذه تبعيات الإدارة. قالها، وغادر حجرة مكتبه، واتجه مع زميله إلى قسم الطوارئ، في نفس اللحظة التي توقفت فيها سيارة الإسعاف أمامه، وقفز منها الدكتور (أحمد)، قائلاً في توتر:
- أنا الدكتور (أحمد شريف)، من مشرحة (زينهم).. لقد أرسلنا إشارة عاجلة، و..
قاطعه الدكتور (حسن) في حزم:
- نحن في انتظاركم...
عبرت سيارة الشرطة بوابة المستشفى، في نفس اللحظة التي نطق فيها عبارته، فالتقى حاجباه في توتر، وهو يتابعها ببصره، حتى توقفت خلف سيارة الإسعاف، وغادرها الرائد (صفوت) في عصبية واضحة، فقال الدكتور (حسن) في حذر:
- ماذا هناك بالضبط؟!
بدا (أحمد) شديد التوتر، وهو يجيب:
- إنه أمر صعب التصديق، ولكن.. لا بأس.. سأخبرك بكل شيء...
تمتم الدكتور (حسن)، في حذر أكبر:
- هذا أفضل بالتأكيد
ازدرد (أحمد) لعابه في صعوبة، وقال:

الواقع أننا قد تسلمنا صباح اليوم جثة قتيل، لقي مصرعه في أحد الفنادق الفاخرة، وعندما وصلت إلينا الجثة، كانت بدون رأس...
بدا الاهتمام على وجه الدكتور (حسن)، وهو يتساءل:
- ثم ماذا؟!
ازدرد (أحمد) لعابه مرة أخرى، قبل أن يجيب في عصبية:
- ولكنها كانت حية...
تراجع الدكتور (حسن) بحركة حادة، مع القول الأخير فاندفع (أحمد) يروى كل ما حدث، بكل التفاصيل...
الأحشاء النشطة...
الرأس الذي يعاود النمو..
كل شيء..
ولم يقاطعه الدكتور (حسن) أو زميله بحرف واحد طوال الوقت، وهما يحدقان فيه بذهول تام مستنكر، حتى انتهى من روايته، ولهث بشدة، من فرط الانفعال، قائلا:
- قبل أن تتهماني بالجنون، ينبغي أن تعلما أن الرائد (صفوت)، ضابط المباحث الجنائية بالمديرية، كان شاهدا على كل ما رويته، ثم إن الجثة - أعنى المصاب - أو أيا كان ما ستطلقونه عليه معنا هنا، في سيارة الإسعاف...
تبادل الطبيبان نظرة متوترة، قبل أن يتنحنح الدكتور (حسن)، ويقول في رصانة، بذل قصارى جهده لاصطناعها، كمحاولة لإخفاء حيرته واضطرابه وشكوكه:
- كلامك كله، حتى مع تأكيد الرواية، لا يحوى ذرة واحدة من الحقائق العلمية أيها الشاب، فأبسط قاعدة طبية في الوجود تؤكد أن المخ هو المحرك الرئيسي، لكل أجزاء الجسد، فيما عدا القلب ([1])، الذي يتمتع بنظام إدارة خاص، وهذا يعني أنه مع

نسف الرأس، والمخ بالتبعية، ينتهي النشاط الحيوي لكل خلية في الجسد، ومن المستحيل أن تعمل أية أجهزة بعدها، حتى ولو افترضنا أن قاطعه (أحمد) في عصبية:

- ما رأيك لو قمتما بفحص ما نحمله أولا، ثم تحدثتما عن القواعد الطبية والعلمية فيما بعد؟!

لم ترق هذه المقاطعة العصبية للدكتور (حسن)، بحكم طبيعته ومنصبه، إلا أنه، وعلى الرغم من هذا أشار إلى (أحمد) قائلاً:

- فليكن.. أدخلوه إلى حجرة الفحص...

تابع ببصره الدكتور (أحمد) والضابط (صفوت)، وهما يشرفان على نقل الجثة، المغطاة بملاءة بيضاء كبيرة، تلوثت بعض أجزائها ببقع من الدم، وتساءل في حيرة:

أمن الممكن أن يكون ما يقولانه صحيحا؟!

ولكن التساؤل لم يدم في ذهنه أكثر من ثانية واحدة، هزّ رأسه بعدها في حزم وحدة، قائلا:

- مستحيل!

تطلع إليه (أحمد) و (صفوت) في صمت، ثم تبادلا نظرة سريعة، قال الضابط بعدها في توتر:

- هيا.. أعطنا رأيك الطبي يا سيدي..

تنحنح الدكتور (حسن)، وربت على كتف زميله، قائلاً:

- هيا إلى العمل يا صديقي....

دلف الكل إلى حجرة الفحص الصغيرة، والتقط الدكتور (حسن) نفسا عميقا، قبل أن يرفع الغطاء عن الجثة، و..

- «مستحيل!»

صرخ الضابط بالكلمة، وهو يرتد في عنف، في حين اتسعت عينا الدكتور (أحمد) عن آخرهما، وهو يردد:

- رحماك يا رب.. رحماك يا رب...
التفت إليهما الدكتور (حسن)، في حدة وهتف بعصبية:
- ماذا أصابكما.. أهي أول مرة تريان فيها جثة محطمة الرأس؟!
صاح (صفوت)، وهو يشير إلى الجثة:
- عندما رأيتها آخر مرة، ونحن نحضرها إلى هنا، كانت بنصف رأس...
هتف الدكتور (أحمد) في شحوب:
- وأنا أيضا...
هتف زميل الدكتور (حسن) في استنكار:
- مستحيل! الرأس هنا سليم تقريبا، والملامح كلها واضحة كل ما في الأمر هو أن قمة الرأس محطمة، و...
قاطعه (أحمد) في عصبية:
- انتظر، وستلتئم قريبا!
هتف الدكتور (حسن) في حدة:
- تلتئم؟! أين تعلمت الطب أيها الشاب؟! الق نظرة واحدة وستدرك أن قمة الرأس مهشمة تماما، والمخ داخلها ممزق متهتك إلى أقصى حد.. هذا الرجل ميت مائة في المائة قاطعته هذه المرة شهقة من زميله، فالتفت إليه، صائحا في غضب:
- حتى أنت؟!
صاح زميله، وهو يتراجع في ذعر:
- الوريد العنقي.. انظر إلى الوريد العنقي...
حدق الدكتور (حسن) في الوريد العنقي، الذي يشير إليه زميله المذعور، واتسعت عيناه عن آخرهما بدوره. فعلى نحو شديد الوضوح، كان الوريد العنقي ينبض في قوة..
نعم.. ينبض بدماء الحياة والحيوية..
وبكل دهشته وحيرته، هتف (حسن):

- رباه! إنه.. إنه حي.
تراجع (صفوت) بحركة أكثر حدة، وهو يهتف بذهول:
- حي؟! مستحيل!
أما (أحمد) فغمغم بلهجة أشبه بالانهيار:
- هذا ما كنت أخشاه.
ساد الصمت بضع لحظات، والكل يحدق في الجثة بذهول قبل أن ينتفض الدكتور (حسن) في حدة قائلاً:
- حالة تشخيص خاطئ أخرى.....
هتف (أحمد):
- تشخيص ماذا؟!
اعتدل الدكتور (حسن) وهو يقول في حزم: -
- خطأ في التشخيص، كما يحدث لأي طبيب ناشئ.. الرجل مصاب في رأسه بالفعل، ومخه متهتك، ولكن قلبه ما زال يعمل، لأنه يعتمد على صانع حركة داخلي خاص، وعندما فحص طبيبنا الشاب الجثة، تصور، نظرا لتهتك المخ، أنه أمام جثة، ولكن الواقع أن...
قاطعه (صفوت) في حدة غاضبة:
- ولكن الواقع أن تلك الجثة كانت فاقدة الرأس تماما، حتى بداية العنق، عندما رأيتها لأول مرة.
تساءل الطبيب الآخر في دهشة:
- فاقدة الرأس؟! أتقصد مقطوعة الرأس؟!
أجابه (صفوت) بنفس الحدة:
- بل منسوفة الرأس
سأله في سرعة متوترة:
- وأي سلاح يمكن أن يفعل هذا؟!
هز (صفوت) رأسه في عصبية، مجيبا:

- لا أحد يدري.
انعقد حاجبا الدكتور (حسن) في توتر بالغ، وهو يحدق في الجثة، مغمغما:
- مستحيل! لا يمكنني أن أصدق هذا أبدا
قال (أحمد) في غضب:
- وما الذي يدعونا لتلفيق قصة عجيبة كهذه؟!
صاح به في صرامة:
- محاولة إخفاء خطأ ما.. ربما كان الضابط هو المسئول عن إصابة الرجل، وأنت تحاول حمايته، بدافع صداقة أو قرابة من يدري؟!
هتف (صفوت) بغضب:
- كيف تجرؤ
أما (أحمد) فقال محنقا:
- وهل فقدت عقلي، حتى أحاول حمايته بقصة كهذه؟!
أليس من الأسهل أن أقوم بكتابة تقرير رسمي يبرئه؟!
صاح الدكتور (حسن):
- ومن أدراني؟!
ثم اندفع خارج المكان، وهو يتابع بغضب هادر:
- أنا رجل علم، ولا أومن بهذه الخزعبلات.. أريد تقريرا طبيا يمكن قبوله، وإلا فلن أفحص خلية واحدة من هذه الجثة
استوقفه (صفوت) في غلظة، قائلاً:
- اسمع يا رجل.. إما أن تفحص هذه الجثة، أو قبل أن يتم عبارته، انطلقت صرخة رعب هادرة، من حجرة الفحص، ثم أعقبتها شهقات ألم وذعر متتابعة سريعة فاندفع (صفوت) نحو المكان، وهو ينتزع مسدسه من حزامه، في حين لحق به (أحمد) والدكتور (حسن)، والأخير يهتف:

- رباه! أية ليلة هذه؟! أية ليلة؟!
قفز الثلاثة إلى الحجرة في لحظة واحدة..
ثم تراجعوا بمنتهى العنف، في لحظة واحدة أيضا..
فما رأوه أمامهم كان مذهلاً.
ومفزعا..
إلى أقصى الحدود....

☆ ☆ ☆

٣ - بداية ونهاية.....

من المؤكد أن ذلك المشهد، الذي رآه الرجال الثلاثة، في حجرة الفحص، بقسم الطوارئ في المستشفى، لن ينمحي من ذاكرتهم قط، ما تبقى لهم من العمر هذا لو تبقى لهم المزيد من العمر ففي ركن حجرة الفحص، كان زميل الدكتور (حسن) ملقى، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما، في ألم ورعب، وفي صدره فجوة كبيرة، تتدفق منها أنهار من الدم، في حين كانت الجثة أو بمعنى أدق، كان ذلك الشخص، ذو الملامح الأجنبية، والشعر الأشقر القصير، والذي كان مجرد جثة هامدة بلا رأس منذ بضع ساعات، يقف على مسافة متر واحد من الرجل ممسكا في يده قلبه!

نعم.. قلبه بوسيلة ما، لا يمكن تفسيرها قط، بأية قواعد علمية أو طبية، أو منطقية، استعاد حياته وحيويته ونشاطه، ونهض من رقاده، بجسد ورأس كاملين، لا تنقصهما خلية واحدة، وانتزع قلب الطبيب المسكين، و...

ففي ركن حجرة الفحص، كان زميل الدكتور (حسن) ملقى، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما، في ألم ورعب، وفي صدره فجوة كبيرة، تتدفق منها أنهار من الدم..
وبكل توتره وذعره، رفع (صفوت) مسدسه، صارخا:
- توقف.. توقف وإلا..
لم يدر ما الذي يمكن أن يهدد به شيئا كهذا شيئا استعاد حياته، على نحو يخالف كل القواعد شيئا - لسبب ما - لا يموت أبدا.....
وبهدوء مخيف، استدار إليه ذلك الشخص، وهو ما زال يمسك قلب الطبيب بين أصابعه، وتطلع إليه بعينين باردتين كالثلج..
واتسعت عيون الرجال الثلاثة، في رعب بالغ، وهم يحدقون في ذلك الوجه من المنظور العام، كانت الملامح وسيمة جميلة إلى حد كبير ولكن، في تلك اللحظة، وتحت تلك الظروف، بدت لهم بشعة مخيفة.. وإلى أقصى حد.....
ومرة أخرى، ومع تحرك ذلك الشخص نحوهم، صرخ(صفوت):
- قلت: قف.
ولكن ذلك الشخص اتجه نحوهم في هدوء بالغ هدوء عجيب مستفز. مخيف، ثم رفع يده إليهم يده التي تحمل القلب البشرى الدامي ولوهلة، خيل إليهم أن القلب ينبض في يده، وبين أصابعه أو أنه كان ينبض بالفعل وبحيوية عجيبة..
ومرة أخيرة، وفي نفس اللحظة التي اقتحم فيها حراس أمن المستشفى المكان، صرخ (صفوت):
- قف.. لا تتقدم خطوة واحدة
ولكن ذلك الشخص تقدم خطوة أخرى..
وأدار يده نحو (صفوت)، والدم يسل منها على نحو بشع، و...
وأطلق صفوت النار.

لم يكن قرارا عقلانيا، وإنما رد فعل بشريا طبيعيا، أمام أمر يفوق كل إدراك البشر وعقولهم أمر مخيف رهيب..
فدون حتى أن يدرى، اعتصرت سبابته زناد مسدسه الرسمي، وانطلقت الرصاصات في غزارة.
انطلقت من فوهة المسدس، لتخترق رأس ذلك الشخص الرأس الذي نما منذ ساعات قليلة تسع رصاصات اخترقت الرأس، في عنف شديد ومن مسافة قصيرة للغاية وفي مشهد بشع، تحطمت أجزاء من الجمجمة، وبعض الأسنان، وقطعة من الفك السفلي، وانفجرت واحدة من العينين ولكن ذلك الشخصي لم يسقط صريعا فقط تراجع لمتر أو يزيد، ثم اعتدل، وتطلع إليهم بعينه المتبقية، في برود شديد، بعد أن ارتطم بمائدة الفحص، وأسقط كل ما عليها من أدوية الطوارئ، وأربطة الشاش، والقطن، وزجاجة كبيرة من الكحول النقي، تحطمت على أرضية الحجرة، وأطلقت في المكان كله رائحة قوية، زادت من رهبة وعنف الموقف كله..
وبكل رعب الدنيا، تراجع حراس الأمن، وانطلقوا يعدون هاربين، وهم يطلقون صرخات مذعورة، مع المشهد الرهيب وفي ارتياع، صرخ الدكتور (حسن):
- مستحيل! مستحيل!
والتصق الدكتور (أحمد) بالجدار في رعب لا محدود، واتسعت عيناه عن آخرهما، وساقاه تعجزان عن معاونته على الفرار، الذي تمناه في تلك اللحظة، كما لم يتمن أي شيء آخر في الوجود...
أما الرائد (صفوت)، فقد تراجع أيضا خطوة، بعد أن فرغت خزانة مسدسة، لأول مرة في حياته، واتسعت عيناه في رعب، وهو يغمغم:

- ولكن! ولكن!
ثم فجأة، لمحت عيناه الكحول المسكوب، عند قدمي ذلك الشخص، والتمعت عيناه بفكرة مجنونة، والرائحة النفاذة تخترق أنفه، وتغوص في مخه حتى أعمق أعماقه وبحركة بارعة سريعة، التقط قداحته من جيبه، وهو يقول في عصبية:
- فليكن.. ما من مخلوق حي، في الكون كله، يمكن أن ينجو من هذا. ثم أشعل القداحة، وألقاها تحت قدمي ذلك المخلوق، وهو يتراجع في قوة، ويدفع الدكتور (حسن) معه خارج الحجرة...
واتسعت عينا (أحمد) أكثر وأكثر، وهو يواجه تلك الجثة الحية وحده وفي لحظة أو أقل، اشتعلت النيران. وعلى الرغم من هذا، واصل ذلك الشيء تحركه لخطوة أو خطوتين، وقد تحول إلى كتلة من اللهب واتسعت عينا (أحمد) عن آخرهما، وهو يصرخ ويصرخ..
ويصرخ..
ولكن ذلك المشتعل توقف فجأة ثم تراجع في عنف، وكأنما أصابته صاعقة مباغتة وانطلقت من حلقه صرخة أو هي شيء أشبه بالصرخة لقد انطلق منه صوت أشبه ببئر عميقة، انطلق داخلها إعصار مباغت صوت تردد في المستشفى كله أو ربما في المنطقة بأكملها وصرخ (أحمد) مرة أخرى.
وصرخ..
وصرخ.
ومع صرخاته، اندفع حراس الأمن مرة أخرى إلى المكان، حاملين أسطوانات الإطفاء الحمراء، ولكن (صفوت) صرخ فيهم بكل عصبيته وتوتره:
- كلا

صاح به الدكتور (حسن):
- هل جننت أيها الضابط؟! إنها نيران مشتعلة.
صرخ (صفوت) بعصبية أكثر، وهو يرفع مسدسه في وجوههم:
- قلت: كلا..
كانت صرخات (أحمد) تخترق أذنه في قسوة، الدخان ينتشر في المكان كله، ممتزجا برائحة شواء مخيفة، ولكن كل هذا لم يكن يساوي في نظره شيء شرير كل ما سيطر على كيانه لحظتها، هو أنه من الضروري أن يحترق ذلك الشيء وحتى آخر خلية منه مهما كانت العواقب وهذا ما حدث بمنتهى الدقة...
الجثة المحترقة بأكملها، والتي بدت أشبه بتمثال من الفحم كانت ترقد في سكون، على منضدة الفحص الرخامية، في قلب مشرحة (زينهم).
وبخطوات مرتجفة مترددة، دلف (أحمد) إلى المكان كان يرتدي معطفه، وقفازيه، ويمسك بيده أكبر مشرط في المكان كله..
ولكن قلبه كان يخفق في عنف بمنتهى العنف.
أو أنه كان يرتجف بين ضلوعه
من العسير عليه أن يقوم بعمله هذه المرة..
من العسير جدا..
ولكنه تقدم من الجثة المحترقة..
واقترب..
واقترب.
ولثوان، حدق فيها صامتا، وتطلع إلى الرأس المحترق:
- ترى هل من الممكن أن...
لم يتم عبارته، وهو يرفع مشرطه بأصابع مرتجفة، ويتجه به نحو صدر الجثة، و.

وفجأة انفتحت العينان دفعة واحدة وحدقتا فيه بتلك النظرة الباردة المخيفة واتسعت عيناه في رعب بلا حدود وسقط المشرط الكبير من بين أصابعه وحاول أن يتراجع وأن ينطلق هاربا ولكن قدميه تسمرتا في الأرض، كما حدث في المرة السابقة وظلت عيناه تحدقان في عيني الجثة، و... وارتفعت اليد المحترقة بغتة واخترقت صدره ثم أمسكت قلبه.....

لاااااااا....

انطلقت الصرخة من حلق الدكتور (أحمد)، وهو يهب جالسا في فراشه، وقلبه يخفق بمنتهى العنف وعلى الرغم من خروجه من ذلك الكابوس البشع، فقد اتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحدق في كل ما حوله وكأنما يتأكد من أنه في منزله وفي حجرة نومه ولثلاث دقائق كاملة، ظل قلبه يخفق بذلك العنف، وأنفاسه تتلاحق، والعرق يغمر وجهه، قبل أن يتمتم:

- مستحيل! أسبوع كامل، وذلك الكابوس يصر على مطاردتي كل ليلة.. أعتقد أنني لن أستطيع نسيان هذا أبدا لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع رنين الهاتف المجاور لفراشه بغتة، على نحو جعله يقفز من مكانه، وهو يطلق صرخة مذعورة، ثم يختطف السماعة، هاتفا في عصبية من المتحدث، في مثل هذه الساعة؟!

أتاه صوت الرائد (صفوت)، وهو يقول في دهشة:

- هذه الساعة؟! إنها الثامنة والنصف صباحا.. أليس المفترض أن تذهب إلى عملك الآن؟!

اتسعت عينا (أحمد)، وهو يتمتم في دهشة:

- الثامنة والنصف؟!

قالها محدقا في المنبه الكبير بجوار الهاتف، قبل أن يطلق زفرة متوترة، قائلاً:

- إنني في إجازة.

قال (صفوت) في دهشة:
- لماذا؟! ألم تنته كل التحقيقات، ويتم إغلاق الملف نهائيا؟!
زفر (أحمد) مرة أخرى، قائلاً:
- إنني بحاجة إلى فترة من النقاهة وتهدئة الأعصاب
زفر (صفوت) بدوره، وهو يغمغم:
- كلنا بحاجة إلى هذا يا صديقي.. إنه أبشع ما مررت به في حياتي كلها.. لست أظنني سأنسى هذا قط...
هز (أحمد)، رأسه، قائلاً في توتر:
- الكوابيس ما زالت تهاجمني كل ليلة.
هتف (صفوت):
- أنت أيضا؟!
أوما برأسه إيجابا، دون أن ينتبه إلى أنهما يتحدثان عبر الهاتف، في حين تابع (صفوت)، كما لو أنه لم ينتظر جوابا:
- صدقني يا صديقي، أنا أيضا تراودني كوابيس مخيفة كل ليلة.. الأمر كله كان كابوسا كبيرا، وما زال يدهشني أن المسئولين قد استوعبوا القصة، على الرغم من منطقيتها، ويسعدني أيضا أنهم قد وافقوا على مطلبك بإذابة الجثة في حامض مركز، غرابتها وعدم بعد فحصها وتشريحها، باعتبار أن هذا هو الحل الوحيد لإتقاء ما يمكن أن يحدث منها في المستقبل....
اعتدل (أحمد) قائلاً:
- هذا أدهشني أكثر في الواقع.. بل لقد بدا لي أنهم مستعدون بالفعل للتصديق، أو أن بتر عبارته بغتة، فاستحثه (صفوت)، قائلاً
- أو أنهم ماذا؟!
تردد (أحمد) لحظة، قبل أن يندفع، مجيبا:
- أو أنهم يعلمون...

هتف (صفوت)، بكل دهشة الدنيا:
- يعلمون؟! مستحيل! وكيف يمكن أن يعلموا أمرا كهذا تنهد (أحمد) قائلاً:
- لست أدرى، ولكن تصور نفسك في موضعهم، وشخص أتي ليخبرك بقصة كقصتنا، مع جثة محترقة، فهل كنت ستنهى الأمر بكل إجراءاته، خلال أسبوع واحد؟!
غمغم (صفوت)، بلهجة تسلل إليها الشك:
- ولا حتى في عام كامل...
قال (أحمد) في اهتمام أكثر:1
- لماذا بدا الجميع متفهمين ومتعاونين إذن؟! وكيل النيابة ورجال المباحث العامة، وحتى رئيس مصلحة الطب الشرعي..
الكل استوعب رواية مذهلة، في سرعة أكثر مدعاة للذهول بل ووافقوا على إجراء فريد، لست أظن أحدا قد فكر فيه مجرد تفكير من قبل، وكأنهم أكثر رغبة منا في التخلص من الجثة ألم يلفت هذا انتباهك؟!
أجابه (صفوت) في بطء، وكل حرف من حديثه يحمل قنطارا من الشك والحذر:
- بكل تأكيد، ولكنني تصورت أن..
بتر عبارته دفعة واحدة، دون سبب محدود، واستمر صمته بضع لحظات، قبل أن يقول في حزم:
- أعتقد أننا نحتاج إلى التحدث وجها لوجه لبعض الوقت، قل لي: هل يمكنك دعوتي إلى قدح من الشاي؟!
أجابه (أحمد) في لهفة، وكأنما كان يتمنى هذا:
- إنني في انتظارك.
لم تمض نصف الساعة، حتى ضمتهما مائدة صغيرة، مع قدحين من الشاي، في حجرة مكتب (أحمد)، و(صفوت) يقول في

حسم:
- ما يدهشني أكثر أن التحقيقات قد انتهت، وتم إغلاق الملف، بأمر من النائب العام شخصيا، على الرغم من أن كل تحرياتنا لم تتوصل إلى معرفة شخصية القتيل أو هوية قاتلة...
سأله (أحمد) في دهشة
- لماذا؟! ألم تجدوا شيئا في حافظته الشخصية، أو في جيوب حلته؟!
هز (صفوت) رأسه مجيبا:
- لم يكن يحمل حافظة، أو أية أشياء أخرى.. لقد كانت جيوبه كلها خالية تماما...
تراجع (أحمد)، قائلاً:
- خالية تماما؟! وكيف هذا.. كل شخص منا يحمل في جيبه شيئا على الأقل.. تذكرة قطار قديمة، مفاتيح سيارته أو منزله أو بعض النقود على الأقل....
هز (صفوت) رأسه مرة أخرى، وهو يقول:
- إلا هذا الشخص.. لقد ذهب إلى الفندق، دون أن يحمل معه أية أشياء على الإطلاق.. حتى الحلة، التي كان يرتديها كانت جديدة، ولم ينتزع منها السعر بعد.. من الواضح أنه قد ابتاعها قبل ذهابه إلى هناك مباشرة، لمقابلة شخص ما...
مال (أحمد) نحوه، متسائلا في اهتمام:
- وماذا عن مدير الفندق وموظفيه؟!
سأله (صفوت) في حذر:
- ماذا عنهم؟!
قال في سرعة:
- ربما كانوا هم من جرده من كل ما يحمله...
هز (صفوت) رأسه نفيا، وقال:

- كلا.. لقد افترضت هذا أيضا، ولكن الكل أكد أن ثلاثة من طاقم الأمن ظلوا مع الجثة طوال الوقت، منذ مصرعها، وحتى حضرت أنا...

انعقد حاجبا (أحمد)، وهو يحاول البحث عن منطق الأمور، ثم لم يلبث أن هز رأسه بدوره، وهو يتمتم:

- عجبا!

ثم استطرد في اهتمام:

- وما دمتم تجهلون شخصية القتيل، فمن الطبيعي أن يستحيل العثور على قاتله، وسط ملايين البشر، إلا إذا....

هتف به (صفوت):

- إلا إذا ماذا؟!

أجاب في سرعة أيضا:

- إلا إذا حصلتم على أوصافه من الشهود...

مط (صفوت) شفتيه، وهو يقول في حنق:

- لا تذكرني بهذا بالله عليك، فقد استجوبت الكل، وخرجت بأربعة أوصاف مختلفة، لا توجد أدنى صلة بين أي منها والباقين.. بعضهم وصفه بأنه عريض المنكبين، خشن الشعر له شارب ضخم، والبعض الآخر بأنه طويل نحيل له لحية قصيرة، والبعض الثالث بـ..

قاطعه (أحمد)، قائلاً:

- يا للسخافة!

ابتسم (صفوت)، مغمغما:

- صدقت.

ثم التقط نفسا عميقا، وكأنما يحاول تهدئة أعصابه الثائرة قبل أن يلوح بذراعه كلها، قائلاً، مع محاولة للابتسام:

.. ولكن لماذا يقلقنا كل هذا، بعد أن نفض الكل أيديهم منه؟!

دعنا ننس كل شيء مثلهم يا صديقي، ولنعد لممارسة حياتنا الطبيعية، فمهما كان ما حدث، فقد انتهى الأمر تماما، وهذا هو المهم أليس كذلك؟!

تنهد (أحمد) متمتما:

- أتعشم هذا..

نطقها بلسان ما زال يحمل نبرة من الشك والقلق والحذر نبرة لم ترق قط إلى مرحلة إدراك الحقيقة المخيفة حقيقة أن كل هذا لم يكن نهاية الأحداث لقد كان البداية فقط.

☆ ☆ ☆

٤- لون الدم...

آخر أيام الإجازة..
التقط (أحمد) نفسا عميقا، وهو يوقف سيارته أمام المشرحة، في ذلك الصباح، وظل لخمس دقائق كاملة قابعا داخل السيارة، يتطلع إلى المكان في رهبة، وكأنما هو زائر عادي، أدرك لأول مرة في حياته، أن وظيفة المشرحة هي حفظ جثث الموتى...
ثم أخيرا، انطلقت من أعمق أعماقه زفرة متوترة، وهو يغادر السيارة، مغمغما:
- لا بأس.. لا بد من مواجهة الأمر، إن عاجلاً أو آجلاً...
دلف إلى المكان في توتر، وكأنه طبيب حديث التعيين واستقبله الزملاء والعاملون بابتسامات كبيرة، وترحاب شديد، وأسرع عامل المكان يعد له قدح القهوة المعتاد، قبل حتى أن يستقر على مكتبه، وبدا الكل ودودا مرحبا، على نحو أزال توتره، ومنحه الكثير من الهدوء والاستقرار والثقة، حتى إنه ارتدي معطفه الطبي في حماس، وهو يسأل زميله بابتسامة كبيرة:
والآن ماذا لدينا اليوم؟!
ضحك زميله، قائلاً:
- هل تتعجل العمل إلى هذا الحد؟!
هز (أحمد) كتفيه، وابتسم، قائلاً:
- ما دمنا هنا، فالعمل أفضل من الملل
ضحك زميله مرة أخرى، وهو يقول:
- يبدو أنك مضطر للاكتفاء بالملل اليوم، فلأول مرة، منذ فترة طويلة، ليست لدينا حالات للفحص.. الزملاء أنهوا كل العمل أمس...

تنهد (أحمد)، قائلاً:
- عظيم
ولكن زميله استدرك في سرعة:
- فيما عدا..
قالها، وبتر عبارته بغتة، على نحو جعل (أحمد) ينحنى نحوه، متسائلاً:
- فيما عدا ماذا؟!
هز كتفيه، وتردد لحظة، قبل أن يقول:
. عينة الدم.. أعتقد أنه لم يعد هناك مبرر للاحتفاظ بها الآن....
انعقد حاجبا (أحمد)، وهو يسأله:
- أية عينة دم؟!
تردد زميله بضع لحظات أخرى، وكأنما يخشى أن يفسد الموقف، فقال (أحمد) يستحثه، في شيء من العصبية:
- أية عينة دم تتحدث عنها؟!
زفر زميله مستسلما، وقال:
- عينة الدم، التي حصلت عليها من تلك الجثة، صاحبة المشكلة الـ
اتسعت عينا (أحمد) عن آخرهما، وهو يتذكر الأمر فجأة كيف نسى عينة الدم تلك؟!
كيف غابت عن ذهنه، وسط كل تلك الأحداث العنيفة؟!
بل كيف غابت عن أذهان المحققين، والمسئولين، ورجال الشرطة، والنيابة، والكل؟!
وبتوتر أدهش زميله، التفت إليه، قائلاً:
- أين تلك العينة؟!
أجابه زميله في دهشة:
في ثلاجة المعمل.. لست أدرى لماذا احتفظوا بها كلها؟!

عشرة سنتيمترات أو عشرون كانت ستكفى كل الفحوصات الممكنة، وكل الـ..
قاطعه (أحمد) في عصبية:
- عشرون ماذا؟! ما الذي تقصده بقولك هذا يا رجل.. كم يبلغ حجم العينة التي وصلتكم؟!
مط زميله شفتيه، مجيبا في حذر:
- حوالي الخمسين
سأله في حدة:
- خمسون ماذا؟!
قال زميله في توتر:
- خمسون سنتيمترا تقريبا يا (أحمد).. ماذا أصابك؟!
أما زلت تشعر بالتوتر، كلما تذكرت الـ قفز (أحمد) من مقعده، قبل أن يتم زميله عبارته، وانطلق يعدو كالصاروخ، نحو المعمل...
عشرون سنتيمترا.. خمسون سنتيمترا...
رباه! ما الذي يحدث بالضبط؟!
أي عبث شيطاني هذا؟!
كيف تنمو هذه الأشياء، على هذا النحو العجيب؟!
كيف...
كيف....
أدهش موقفه الكل، فتبعوه إلى المعمل الصغير، وهتف به مديره، عندما اقتحم المكان في عنف:
- ماذا دهاك يا دكتور (أحمد)؟! ماذا حدث؟!
فتح (أحمد) ثلاجة المعمل في حركة حادة، ثم اتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحدق في الوعاء الكبير، الممتلئ بما يقرب من

نصف لتر من الدم أمامه، على نحو يكاد معه الغطاء المحكم يتفجر، وتراجع في توتر بالغ، هاتفا:
مستحيل! مستحيل!
صاح به مديره:
- ما هو المستحيل!
أشار إلى الوعاء في عصبية، قائلاً:
- كل هذا الدم.. كيف أصبح هكذا؟!
مال مديره برأسه، يتطلع إلى الدم في دهشة، متسائلاً:
- أصبح ماذا؟!
صاح (أحمد) في حدة:
- كيف أصبح بهذا الحجم.. أعنى بهذه الكمية؟!
بدت حيرة أكثر على وجه المدير، وهو يتساءل:
- أية كمية؟!
صاح (أحمد):
- هذه العينة كانت عشرين سنتيمترا فحسب، عندما أرسلتها إلى هنا، فكيف بلغت هذا المقدار، خلال عشرة أيام؟! كيف؟!
حدق المدير في وجهه، كما لو أنه يتطلع إلى مجنون، قبل أن يقول في حدة:
- ومن قال إن هذه العينة تخصك؟! إنها تخص بعض الأبحاث، التي أجريها أنا، والتي تستهلك كميات كبيرة في المعتاد.
اتسعت عينا (أحمد)، وهو يقول ذاهلاً:
- تخصك أنت؟!
ثم استدار يحدق في الثلاجة شبه الخالية مرة أخرى، قبل أن يهتف:
- أين العينة الأخرى إذن؟!
تنحنح فني المعمل، وقال في حرج متردد:

- الواقع أن..
استدار إليه (أحمد) بحركة حادة، متسائلاً في شراسة:
- أن ماذا؟!
ارتبك الفني أكثر، وقال في شيء من الذعر:
- إنها عينة تالفة، وغير مسجلة رسميا، و..
صاح فيه (أحمد)، بشراسة أكبر:
- ماذا فعلت بالعينة؟!
لوح الرجل بذراعيه في هلع، هاتفا:
- أنا لم أفعل شيئا.. لقد تحطمت القنينة وحدها، والدم كله كان متجلطا، ولقد اضطررت للتخلص منها في البالوعة...
قاطعه (أحمد)، هاتفا في ارتياع:
- متجلطا؟! البالوعة؟! يا إلهي! يا إلهي!
تراجع مع هتافه، وترك جسده يهوى على أول مقعد ارتطم به، أمام دهشة وتوتر الجميع، وعلى رأسهم المدير، الذي قال للفني في غضب عصبي:
- كيف يمكن أن يتجلط الدم هنا؟! المفترض أن تمنعه البرودة من هذا...
هتف الرجل مذعورا:
- أقسم لك يا سيادة المدير إنني لا أعرف كيف.
قاطعه (أحمد) في صوت خافت، ولهجة حملت كل مرارة الدنيا:
- أنا أعرف كيف؟!
التفت إليه الجميع في دهشة بالغة، فتراجع برأسه في ألم مستطردا:
- ولكنني أجهل لماذا؟! لماذا؟!.

هذا هو السؤال الحقيقي، والأكثر خطورة، في ظل هذه الظروف لماذا يحدث كل هذا؟! لماذا؟!
اشرأب (صفوت) بعنقه وهو يحدق في وجه (أحمد) بذهول، وتدلى فكه الأسفل على نحو عجيب، وهو يهتف:
- حية؟! دماء حية؟! ماذا تعنى بقولك هذا يا رجل؟!
هز (أحمد) رأسه، وقال:
- أعنى ما فهمته بالضبط، وما تحاول إقناع نفسك بعدم فهمه... عينة الدم، التي اخذتها من الجثة، تنمو.. تماما كما حدث مع الجثة نفسها.
حدق (صفوت) في وجهه لحظة أخرى، ثم لم يلبث أن تراجع، وأشعل سيجارته في عصبية، قائلاً:
- رباه! ألن ينتهي هذا الكابوس أبدا؟!
مال (أحمد) نحوه بدوره، وهو يقول:
- أخشى أنه قد بدأ فحسب يا صديقى...
اتسعت عينا (صفوت) وهو يهتف مذعورا:
- بدأ؟!
أوما (أحمد) برأسه، قائلاً:
- فني المعمل لم يفهم ما حدث، إلا من مستوى تفكيره المحدود فحسب، فالقنينة التي تحوى عينة الدم تحطمت، لأن الدم قد نما وتزايد، وتضاعف حجمه، من السنتيمترات العشرين، التي حصلت عليها أنا، إلى سنتيمترات خمسين، رآها زميلي، إلى كتلة متجلطة ضخمة، تفوق سعة القنينة كتلة تخلص منها الفني عبر البالوعة، لتواصل نموها في مكان لا يعلمه إلا الله (سبحانه وتعالى) ...
نفث (عصمت) دخان سيجارته في عصبية، وهو يغمغم في توتر بالغ:

- نموها؟!
ضرب (أحمد) سحب الدخان بيده، وهو يهتف في حدة:
- توقف عن تدخين هذا السم.. إنك تقتل نفسك بهذا، دون أية جدوى...
مط (عصمت) شفتيه في حنق، وهتف:
- دعك من التدخين ومضاره، وأخبرني بالله عليك: ما الذي تعنيه بمواصلة النمو هذه؟!
هز (أحمد) كتفيه، وقلب كفيه، قائلاً:
- أعنى ما تخشى فهمه يا صديقي.. تلك الكتلة المتجلطة أشبه بجنين في طور النمو.. جنين لا يحتاج إلى رحم، لأنه يلتقط عوامل نموه من كل ما حوله، حتى يصبح كائنا كاملاً، مثل ازدرد لعابه في صعوبة، قبل أن يتابع في عصبية:
- مثل ذلك الذي قتلته هناك.. في حجرة الفحص بالمستشفى...
انتفض جسد (صفوت) في عنف، وسقطت سيجارته من بين شفتيه، وعيناه تبلغان اتساعهما، وهو يحدق في وجه (أحمد) كالمصعوق، لدقيقة أو يزيد، قبل أن يقول بصوت مرتجف:
- مستحيل! مستحيل أن يحدث هذا مرة أخرى.
ثم لوح بذراعه، وهو يميل لاستعادة سيجارته بيده الأخرى، مستطردا:
- ثم من أدراك أن ذلك الدم سينمو بالفعل، أو سيمكنه أن يواصل النمو، في بيئة كهذه؟! أليس من المحتمل أن يقتله التلوث في أنابيب المجاري؟؟
مط (أحمد) شفتيه، مغمغما:
- هذا محتمل...
هتف (صفوت)، وكأنما وجد مخرجا:
- ألم أقل لك؟!

أجاب (أحمد) في حزم:
- ومن المحتمل أن يتواصل النمو، على الرغم من كل العوامل
انعقد حاجبا (صفوت)، وهو يقول في عصبية:
. ليس لدينا دليل واحد على هذا...
زفر (أحمد) في توتر، وقال:
- من يدري؟! ربما أتانا الدليل على نحو لا يمكننا احتماله لم يعلق (صفوت) على العبارة، وهو يميل ليستند إلى مقعده، وينفث دخان السيجارة في عصبية، وعقله يتساءل بكل قلق الدنيا:
هل يمكن أن ينمو ذلك الدم بالفعل؟!
هل؟!
وبقي السؤال يمزق خلايا مخه بلا جواب أو رحمة...

☆ ☆ ☆

انطلقت دقات الساعة، تعلن تمام منتصف الليل في (القاهرة)، وشد حارس الأمن، في ذلك المبنى الأنيق، في حي الزمالك، قامته، والتقط نفسا عميقا من هواء الليل الرطب، قبل أن يلتقط مجلة فنية حديثة، مغمغما:
- ليلة جديدة من الملل والإرهاق.
وتنهد في أسى، وهو يطالع المجلة، متابعا:
- لن يمكنني الاستمرار طويلاً في هذه المهنة.. إنني لم أحصل على شهادتي الجامعية، لأعمل كحارس أمن واصل مطالعة المجلة في اهتمام، وهو يرفع ساقيه على سطح المكتب، وفجأة، لمح ذلك الشيء كتلة حمراء دامية، في حجم جنين صغير، تستقر في نهاية مدخل البناية، بالقرب من فتحات الصرف..

ولوهلة، خيل إليه أنها جنين غير مكتمل النمو بالفعل، إلا أنه لم يكد يعتدل في مجلسه، ويلقي نظرة أخرى عليها، حتى أدرك أنها مجرد كتلة حمراء قانية غير منتظمة وبدهشة وقلق، اتجه الحارس نحو تلك الكتلة، وهو يتحسس مسدسه في توتر، وانحنى يتطلع إلى الكتلة القانية في حيرة..

كانت أشبه بقطعة كبيرة من الجيلي، حمراء قانية، و..
وتنبض..
نعم.. تنبض في بطء وقوة، كما لو أنها تحوي في أعماقها قلبا حيا..
واستحالت دهشة الحارس إلى ذهول تام، وهو يتمتم:
- ما هذا بالضبط، وكيف وصل إلى هنا؟!
كان ذلك الشيء ينبض على نحو عجيب، جذب انتباه الحارس في شدة، فاقترب أكثر وأكثر..
وفجأة، وثب ذلك الشيء الدموي.. وثبة قوية مباغتة، جعلته يلتصق بوجه الحارس، الذي تراجع في عنف كالمصعوق، واختنقت صرخته، خلف تلك الكتلة الدموية، الملتصقة بوجهه، وراح يضرب بذراعيه في عنف، وأمسك ذلك الشيء، يحاول انتزاعه عن وجهه ولكن أصابعه غاصت في كتلة من الدم كتلة تفجرت على نحو رهيب، وغمرت جسده كله بالدم وبكل الرعب، راح الحارس يتراجع، ويتراجع، وذراعاه تقاتلان في استماتة، ورعب، وهلع. ولكن أنفاسه اختنقت في صدره..
واختنقت...
واختنقت...
ثم لم تلبث مقاومته كلها أن انهارت..
وسقط جسده..
سقط جثة هامدة..
وفي بطء، راحت بقع الدم تنفصل عن جسده، وتزحف فوقه في نعومة مدهشة، لتلتصق مرة أخرى بذلك الكيان الذي ظل مستقرا على وجه الحارس طويلاً..
طويلا جدا...

☆ ☆ ☆

هب (أحمد) من فراشه مذعورا، مع رنين جرس باب منزله المتصل، فاندفع نحوه في عصبية، هاتفا:
- حسن.. حسن.. أنا قادم...
ولم يكد يفتح الباب، حتى هتف في دهشة عارمة:
- (صفوت).. ما الذي...
قاطعه (صفوت) في صرامة، قبل أن يتم عبارته:
- ارتد ملابسك، وتعال معي فورا...
حدق (أحمد) في وجهه، متسائلاً بكل القلق:
- ماذا هناك؟!
تجاوزه (صفوت) إلى الداخل، مجيبا:
- جريمة قتل، أريد منك أن تعاينها بنفسك...
قال (أحمد)، في دهشة حذرة:
- جريمة قتل؟! ومنذ متى ينتقل الطبيب الشرعي إلى مسرح الجريمة مباشرة؟!
أجابه (صفوت)، في صرامة عصبية:
- هذه الجريمة استثناء من القاعدة...
اتسعت عينا (أحمد) في ارتياع، وقد أدرك ما يرمي إليه(صفوت)، وغمغم:
- انتظرني دقيقة واحدة...
لم يتبادل أحدهما كلمة واحدة مع الآخر، طوال الطريق إلى الزمالك، وما إن بلغا البناية، التي وقع عندها الحادث، حتى اتجه (صفوت) نحو الجثة المغطاة، وكشف الغطاء عنها وهو يقول في توتر:
- لقد عثر عليه حارس البناية المجاورة بالمصادفة البحتة
انتفض جسد (أحمد) في عنف، وهو يحدق في جثة الحارس بذهول يمتزج بالرعب والهلع...

لقد كانت الجثة ملقاة على ظهرها، وقد اتسعت عيناها، في رعب هائل، وتجعد جلدها كله، مكتسبا لونا شديد الزرقة لون جسد خلا تماما من الدم حتى آخر نقطة..

ودون كلمة واحدة، انحني (أحمد) يفحص الجثة بدقة أكبر في حين اكتفى صفوت بالتطلع إليه، وهو ينفث دخان سيجارته في عصبية وكان الأمر كله رهينا بحق لقد امتص شيء ما كل قطرة دم في جسد الحارس، على نحو لا مثيل له ثم إن ذلك الشيء قد زحف نحو مدخل البناية زحف لمتر أو يزيد، ثم نهض نعم.. نهض واقفا على قدمين صغيرتين، في حجم قدمي طفل، خطا بهما عشر خطوات تقريبا، قبل أن يختفي كل أثر له دفعة واحدة...

وفي عصبية زائدة، ومع نهوض (أحمد)، غمغم (صفوت):

- إنه هو.. أليس كذلك؟!

أوما (أحمد) برأسه إيجابا، دون أن ينبس ببنت شفة فهتف (صفوت) في حنق، وهو ينفث دخان سيجارته:

- كنت أعلم هذا..

تطلع (أحمد) إلى الجثة مرة أخرى، قبل أن يقول في حزم:

- أريد فحص هذه الجثة.. الآن

أشار (صفوت) إلى الرجال، فأسرعوا يحملون الجثة، وهو يقول في صرامة:

- مشرحة (زينهم).. فورا...

شملهما الصمت مرة أخرى لبعض الوقت، وهما ينطلقان نحو المشرحة، قبل أن يهتف (صفوت) في غضب:

- ما الذي يسعى إليه ذلك الشيء بالضبط؟!

أجابه (أحمد) في توتر:

- النمو..

هتف (صفوت):
- وما هو بالضبط؟! من أين جاء؟! وما الذي يريده منا؟!
صمت (أحمد) بضع لحظات في تردد، قبل أن يسأل(صفوت) في حذر:
- قل لى يا رجل.. هل تؤمن بوجود كائنات في عوالم أخرى؟!
حدق (صفوت) فيه لحظة بذهول، قبل أن يهتف محنقا:
- هل تعتقد أن الوقت يناسب هذه الخزعبلات؟!
أجابه (أحمد) في حزم:
- وجود كائنات في كواكب أخرى ليس خزعبلات.. إنه فرضية علمية جادة للغاية، وفرضية منطقية أيضا....
صاح (صفوت) في حدة:
- وهل هذا وقت مناقشة الفرضيات؟!
أجابه بحزم أكثر:
- هذا هو الوقت المناسب تماما
صاح (صفوت):
- بدلالة ماذا؟!
هتف (أحمد) في توتر:
- ألم تنتبه بعد إلى ما يحدث يا رجل؟! ألم تدرك قط أننا نواجه شيئا لا ينتمي إلى عالمنا، بأي حال من الأحوال؟! ألم تحاول أبدا ربط الأحداث ببعضها، وفهم ما يمكن أن تعنيه؟!
قاتل غامض مجهول، يعجز الكل عن وصفه بدقة، يستخدم سلاحا رهيبا، قادرا على نسف رأس بشرى كامل، دون أن يصدر صوتا، ودون أن تكشفه بوابات الأمن الإليكترونية، وقتيل يفقد رأسه كله، ثم ينمو ذلك الرأس مرة أخرى، ويعود القتيل إلى الحياة، وينتزع قلب رجل حي، ثم يتلقى تسع رصاصات دون أن يموت، ثم عينة دم تتضخم، ويتضاعف حجمها وحده، حتى

تحطم قنينتها، ورجل يتم قتله ببشاعة، وامتصاص كل نقطة دم في جسده.. ألم تقتنع بعد أن كل هذا لا ينتمي إلى عالمنا؟!
حدق (صفوت) فيه بذهول، وتطلع عبر زجاج السيارة إلى سيارة الإسعاف، التي تنطلق أمام سيارة (أحمد)، وارتجفت شفتاه بضع لحظات، قبل أن يتمتم في خفوت شديد:
- من عالم آخر؟!
احترقت السيجارة بين أصابعه، دون أن يدري، حتى شعر بلهيبها، فألقاها بعنف عبر النافذة، هاتفا:
- مستحيل!
ثم التفت إلى (أحمد)، متابعا في عصبية:
- طوال حياتي لم أصدق هذه الخرافات أبدا، ولن أصدقها الآن، لمجرد أن أمامنا لغزا لم نتوصل إلى حله بعد.. التبرير الذي تبحث عنه أسخف من الموقف نفسه.. اعترف بعجزك عن الفهم بدلا من أن تؤلف قصة سخيفة عن الفضاء وسكانه المزعومين...
هتف (أحمد) في حدة:
- ألديك تفسير آخر أيها العبقري؟!
صاح (صفوت):
وهل هناك تفسير أول؟! هل تحاول إقناعي بأن القاتل والقتيل مخلوقان من كوكب آخر، قطعا ملايين الكيلو مترات، من (المريخ) إلى هنا، ليقتل أحدهما الآخر...
قال (أحمد) في عصبية:
- ومن تحدث عن المريخ؟!
هتف (صفوت) في سخرية عصبية:
- إنهما ليسا من القمر بالتأكيد...
انعقد حاجبا (أحمد) في غضب وقال:

- فليكن.. من الواضح أنك تمتلك عقلية غير علمية على الإطلاق...
قال (صفوت) في حدة:
- سأترك لك هذا الامتياز، أيها العلمي العبقري...
مط (أحمد) شفتيه، مغمغما:
- يا للسخافة!
فأشاح (صفوت) بوجهه، هاتفا:
- يا للحماقة!
لم يتبادلا كلمة أخرى، وكلاهما يكتم غيظه في أعماقه، حتى بلغا مشرحة (زينهم)، فأسرع (أحمد) يرتدي معطفه وقفازيه واندفع لفحص الجثة، التي تم نقلها إلى قاعة التشريح، في حين وقف (صفوت) في الخارج، ينفث دخان سيجارته في عصبية، وهو يكرر كل بضع دقائق:
مخلوقات من الفضاء!! يا للسخافة!
مضت أكثر من ساعة كاملة، بدت له أشبه بالدهر، نفث خلالها دخان علبة سجائر كاملة، قبل أن يخرج (أحمد) من حجرة الكشف ممتقع الوجه، على نحو مخيف، جعل (صفوت) يحدق فيه بضع لحظات في ذهول، قبل أن يهتف بنفاد صبر:
- ماذا هناك بالله عليك؟!
هز (أحمد) رأسه، بكل شحوب الدنيا، وهو يتمتم بصوت مرتجف:
- لن يمكنك أن تصدق.. لن يمكنك أبدا واتسعت عينا (صفوت) عن آخرهما فالأمر كان بالفعل مذهلاً..
مذهلاً للغاية....

☆ ☆ ☆

٥- نمو..

الثالثة بعد منتصف الليل...
ساد الهدوء تماما تلك المنطقة، في وسط مدينة (القاهرة) عند ميدان (أحمد عرابي)، حتى إن صوت عبور سيارة شرطة النجدة، دون أن تطلق أبواقها التقليدية، بدا مزعجا للغاية خلال الدقيقة التي استغرقتها، قبل أن تنطلق إلى شارع (قصر النيل)، ويتلاشى صوتها رويدا رويدا ثم يعود الهدوء التام، ليشمل كل شيء...
ومن أحد الأركان المظلمة، وبنعومة عجيبة، تحرك جسم غريب، ليعبر الطريق، بسرعة كبيرة نسبيا كان أشبه بطفل صغير، يسير على ساقين قصيرتين للغاية إلا أن نصفه العلوي كله كان عبارة عن كتلة هلامية، حمراء قانية، غير ذات معالم الواقع أنه لم يكن يسير على هاتين الساقين بل كان ينزلق، كقطرة ماء على سطح أملس، على نحو لا يمكن أن يقوم به أي كائن حي، على سطح الأرض، باستثناء أنواع نادرة من الثعابين الزاحفة، ضئيلة الحجم وبخفة مدهشة، مال ذلك الجسم، ليختفي وسط بقعة مظلمة أخرى، ملاصقة لجدار بناية قديمة...
ثم توقف تماما، وتجمد في مكانه، حتى صار من المستحيل تمييزه عما يحيط به ومن بعيد، أتى أحد السكارى يترنح ويقطع المكان بخطوات غير متزنة، وهو يرفع عقيرته بغناء أجش منكر واعتدل ذلك الجسم الغريب فجأة..
ومال في بطء، وكأنما يتابع حركة ذلك السكير ثم انزلق فجأة يتبعه كان يتحرك بسرعة كبيرة، ويقطع الطريق، تحت الأضواء مباشرة، في جرأة عجيبة، كما لو أن بلوغ الهدف هو هدف في حد

ذاته أو أنه حياة بأكملها ولسبب ما، توقف السكير بغتة، ثم استدار بحركة حادة ينظر إلى ما خلفه..
وفي نفس اللحظة، وثب ذلك الجسم والتصق بوجه الرجل وصدره، ودفعه أمامه في عنف، ليسقط على ظهره بدوى شديد، في وسط الشارع..
وعلى الرغم من غياب عقله، راح الرجل يقاوم ويدافع عن حياته بعنف واستماتة، وراح يغرس أصابعه في ذلك الجسم مرات.. ومرات.. ومرات..
ولكن أصابعه غاصت في كيان لين هذه المرة، ثم ارتدت في عنف، دون أن تترك في الجسد القاني أدنى أثر.

وراحت أنفاس الرجل تختنق وتختنق وتختنق..

وأخيرا، تلاشت مقاومته وانهار ذراعاه إلى جواره ثم تراخي جسده كله..

وفي هدوء، استقر ذلك الجسم الدموي فوقه، وراح يمتص الدم من جسده، في شراهة عجيبة شراهة مدهشة، جعلته ينتزع

نصف لتر في كل دقيقة...
وخلال اثنتي عشرة دقيقة فحسب، كان قد استولى على كل قطرة دم، في جسد السكير.. كل قطرة ثم انتقل لامتصاص الـ...
«رباه! ما هذا بالضبط؟!»
أطلق سائق سيارة دورية الشرطة العبارة، في ذعر ذاهل، وهو يطلق ضوء مصباحي سيارته، ليغمر الكائن الدموي وضحيته بغتة..
وتوقف الكائن دفعة واحدة ثم نهض بحركة حادة، ليواجه سيارة دورية الشرطة واتسعت عيون ضابط الدورية وجنوده في ذهول ورعب، أمام ذلك المشهد الرهيب لقد بدا أمامهم كيان شبه بشرى، بلا ملامح أو تفاصيل واحدة..
كيان...
فقط كتلة كبيرة من الدم، في حجم شاب بالغ، تواجههم في تحد عجيب وبحركة آلية، ودون أن يدري، ضغط السائق دواسة الوقود، وقفزت سيارة دورية الشرطة إلى الأمام، واندفعت نحو الكيان الدموي، الذي انطلقت منه صرخة رهيبة صرخة قادمة من أعمق أعماق قبور الدنيا كلها ثم ارتطمت به السيارة بمنتهى العنف ومع ارتطامها، تمزق جسده الدموي إربا تمزق متحولاً إلى عدة قطع دموية، تناثرت في كل مكان في الشارع، وضابط الدورية يهتف بالسائق:
- ماذا فعلت أيها الأحمق؟!
ومع هتافه، ارتطمت بقعة دموية ضخمة بزجاج سيارة الشرطة الأمامي، في مشهد بشع للغاية، جعل الجميع يحدقون فيها بذعر حقيقي ولكن ذلك الذعر تحول إلى رعب كامل، عندما انزلقت كتلة الدم فجأة، ثم وثبت من السيارة، واندفعت نحو الكتل

الأخرى التي اتجهت نحو بعضها، من كل مكان، حتى التقت على مسافة متر واحد من جثة السكير..
ثم التحمت ببعضها دفعة واحدة ونهضت واقفة نهضت بنفس حجمها السابق، وتكوينها شبه البشرى تكوين أشبه بجسد شاب بالغ، بلا ملامح أو تفاصيل وتجمد رجال الشرطة في مكانهم، وانطلقت ثلاث أو أربع صرخات، من البنايات المطلة على الشارع، ثم أضيئت النوافذ والشرفات، و..
وتراجع الكيان الدموي شبه البشرى لحظة ثم انزلق بنفس النعومة، وبسرعة مذهلة، نحو إحدى البنايات الضخمة، ذات الطراز التقليدي القديم، فهتف ضابط الشرطة، وهو يستل مسدسه:
- امنعوه.. لا تسمحوا له بالفرار....
أطلق هتافه، ووثب بمسدسه خارج السيارة، وانطلق يعدو نحو البناية، وتبعه جنوده بأقدام خائفة مترددة، حتى بلغوا المكان، وأضاءوا أنواره، وراحوا يفتشون كل ركن فيه ولكن المكان كان خاليا تماما ولم يكن هناك أثر لذلك الكائن أدنى أثر...
«ماذا تقول؟!»
هتف الرائد (صفوت) بذهول، وهو يحدق في وجه (أحمد)، الذي زفر في توتر بالغ، قائلاً:
- تماما كما أخبرتك يا (صفوت).. ذلك الشيء لم يمتص الدم وحده من جسد ضحيته، وانما امتص، بوسيلة ما، كل نخاع العظام أيضا.. باختصار.. إنه يسعى خلف كل ما له صلة بالدم وتكوينه، سقط فك (صفوت) الأسفل بذهول أكثر، وهو يهتف:
- مستحيل! مستحيل! ما الذي يمكن أن يفعل ببشرى هذا؟!
انعقد حاجبا (أحمد)، وهو يقول في عصبية:
- ليس شيئا من عالمنا

احتقن وجه (صفوت)، وهو يصيح:
- لا تحاول مرة أخرى إقناعي بخرافاتك هذه.
صاح فيه (أحمد):
- أما زلت عنيدا مكابرا؟!
صرخ (صفوت):
- قلت مستحيل!
لم يكد يطلق صرخته، حتى ارتفع أزيز جهاز اللاسلكي الذي يحمله، فرفعه إلى أذنه بسرعة، وهو يهتف:
- من هناك؟!
انعقد حاجباه بمنتهى الشدة، وهو يستمع إلى محدثه، واحتقن وجهه مرة أخرى، وبدا عليه توتر بالغ، وهو يقول في عصبية:
- سأحضر على الفور
ثم أنهى الاتصال، ورفع عينيه إلى (أحمد)، قائلاً بصوت شاحب:
- لقد فعلها مرة أخرى...
اتسعت عينا (أحمد)، وهو يتراجع بحركة حادة، واختنقت الكلمات في حلقه لبضع لحظات، قبل أن يخلع معطفه، قائلاً:
- هيا بنا..
وبعد لحظات، كان كلاهما ينطلق نحو موقع الحادث الثاني دون أن يتبادلا كلمة واحدة، وقد أدركا أنهما يواجهان كارثة..
كارثة لها مفهوم آخر وعالم آخر..

☆ ☆ ☆

«لقد حدث ما كنا نخشاه.»
نطق رجل طويل، قوى، حاد الملامح، العبارة، في صوت حمل طنا من التوتر، فزفر آخر عريض المنكبين، وغمغم، وهو يعقد كفيه خلف ظهره، ويتطلع عبر نافذة كبيرة:
- لقد علمت.

قال الطويل بنفس التوتر:
أخشى أن الأمر قد أفلت من أيدينا قال عريض المنكبين في مرارة:
- أمر طبيعي..
ثم استدار إلى الطويل، مستطردا:
- إننا نواجه أمرا نجهل كل شيء عنه تقريبا هز الطويل رأسه، وجلس على أول مقعد صادفه، وهو يقول:
- لقد تدربنا على مواجهة أقوى النوائب، ولكن هذا الشيء لم يكن في الحسبان قط، حتى في أبشع كوابيسنا تمتم عريض المنكبين:
- إنه أبشع كوابيسنا بالفعل...
ثم لوح بكفه، مستطردا في حنق:
- أننا لا نعلم حتى كيف يمكن أن نواجهه.
سأله الطويل في حذر:
- وماذا عن الأمريكيين؟!
سأله عريض المنكبين:
- ماذا عنهم؟!
هز الطويل كتفيه، قائلاً:
- أعتقد أن لديهم خبرة في هذا المضمار ابتسم عريض المنكبين ابتسامة مريرة، وهو يقول:
- في أفلامهم فحسب، وليس في عالم الواقع..
زفر الطويل في توتر، وعاد يهز رأسه، قائلاً:
- هذه المرة حدث الأمر في شارع عام، وفي وجود عشرات الشهود....
قال عريض المنكبين في حدة:
- وماذا عن المرة السابقة، هل كان حادث الفندق سريا؟!

أجابه الطويل في سرعة:
- كلا ولكن من الممكن تفسيره باعتباره جريمة قتل عادية عاد عريض المنكبين يبتسم ابتسامته المريرة، قائلاً:
- هل تعتقد هذا؟!
مط الطويل شفتيه، وقلب كفيه، وهو يقول في عصبية:
- ماذا سنفعل إذن؟! هل سنقف مكتوفي الأيدي، ونترك كل هذا يحدث في الطرقات؟!
تطلع إليه عريض المنكبين بضع لحظات في صمت، ثم عاد يلتفت إلى النافذة، وهو يجيب في توتر ملحوظ:
- ليس لدينا ما نفعله يا رجل، سوى المتابعة، ومواصلة البحث، أو استنتاج الخطوة التالية، فالأمر يفوق إدراكنا وقدراتنا ألف مرة، ونحن مضطرون للانتظار وزفر زفرة ملتهبة؛ بدت وكأنها نابعة من أعمق أعماق توتره، وهو يضيف:
- فقط الانتظار.
ثم رفع عينيه يتطلع إلى السماء بنجومها المتألقة السماء التي ينتظر منها الحل..
الحل الوحيد....
سرت ارتجافة باردة في جسد الدكتور (أحمد)، وهو يفحص جثة السكير، التي خلت من أية نقطة دم كسابقتها وتنهد في توتر بالغ، وهو يتطلع إلى نظرة الرعب الهائلة في العينين المتسعتين عن آخرهما، قبل أن ينهض مغمغما:
- رباه! متى ينتهي هذا الكابوس؟!
لم يسمع (صفوت) عبارته، وهو يلقى عشرات الأسئلة على طاقم دورية الشرطة، وبعض سكان الشارع، الذين التفوا حوله هلعين مذعورين، يلقون بدورهم سيلا من الأسئلة، حول ذلك الأمر

الخارق، الذي شاهدوه بأعينهم وبخطوات ثقيلة، انتزع (أحمد) نفسه من مكانه، واتجه نحو (صفوت)، الذي سأله في توتر:
- نفس العلامات؟!
أوما (أحمد) برأسه إيجابا، فانعقد حاجبا (صفوت) بشدة، وهو يتمتم:
- رباه!
هتف ضابط دورية الشرطة في عصبية:
- إننا لم نشاهد شيئا كهذا، إلا في أفلام الرعب الأمريكية التي تطير النوم من أعيننا، أما في عالم الواقع قاطعه (صفوت) في صرامة عصبية:
- صف ما رأيته للطبيب الشرعي...
خيل إليه أن هذا هو السؤال، الذي كان الجميع في انتظاره منذ البداية، فقد اندفعوا يتحدثون كلهم، في آن واحد تقريبا، وكل منهم يصف ما رآه، في حماس وذعر، امتزجا ليصنعا لهجة عجيبة للغاية ولكن الأكثر عجبا أن الجميع قد اتفقوا على أوصاف واحدة كيان شبه بشرى، في حجم شاب بالغ، مكون بالكامل من مادة حمراء قانية رهيبة، بشعة وبينما هم يلقون أوصافهم، اندفعت إلى المكان سيارة كبيرة، تحمل شعار صحيفة يومية شهيرة، فهتف (صفوت) في سخط:
- هذا ما كان ينقصنا...
اندفع الصحفيون من السيارة، نحو الجمع المحتشد، فتراجع(أحمد) بحركة متوترة، وحاول عبثا ترتيب أفكاره، ليجد ما يجيب به رجال الصحافة، و...
ولكن فجأة، ظهر ذلك الضخم، رجل ضخم الجثة، صارم الملامح، اعترض طريق رجال الصحافة فجأة، وأشار بذراعيه في حزم صارم، وهو يقول بصوت خشن جاف:

- لا أحاديث صحفية أو صور.. النائب العام أصدر أمرا بحظر النشر في هذا الحادث، حتى انتهاء التحقيقات...
انطلقت هتافات السخط والاعتراض من الصحفيين، إلا أنه تجاهل كل هذا، وهو يلتفت إلى السكان، قائلا بلهجة آمرة:
- هيا.. عودوا إلى منازلكم.. إنكم تفسدون الأدلة بتواجدكم هنا....
كان أسلوبه ولهجته يكفيان، ليندفع الجميع عائدين إلى منازلهم، في حين التفت هو إلى طاقم دورية الشرطة، قائلاً بنفس اللهجة:
- ستحضر دورية أخرى احتياطية لتحل محلكم، أما أنتم فتوجهوا فورا إلى مديرية أمن (القاهرة)، للإدلاء بأقوالكم فيما حدث، و..
قاطعه (صفوت) في عصبية:
- مهلا أيها السيد.. إنك تلقى أوامرك هنا وهناك، دون أن تفصح عن هويتك.. من تكون بالضبط؟!
التفت إليه الرجل في هدوء، وتطلع إليه بنظرة فاحصة حادة، قبل أن يقول:
- الرائد (صفوت شاهين).. أليس كذلك؟!
قال (صفوت) بعصبية أكثر:
- إذن فأنت تعرف من أنا!! عظيم.. والآن من أنت؟!
تجاهل الرجل سؤاله، وهو يلتفت مرة أخرى إلى طاقم الدورية، قائلاً بصرامة غاضبة عنيفة:
- ماذا تنتظرون؟!
أسرع الجنود إلى سيارتهم، وأدى ضابطهم التحية العسكرية في قوة، وهو يهتف:
- أمرك يا سيدي.

ثم لحق برجاله، وانطلقت بهم السيارة فورا، في نفس اللحظة التي ظهرت فيها سيارة الدورية الاحتياطية عند الناصية، فهتف (صفوت) في عصبية:
- إنك لم تجب سؤالي بعد...
تطلع إليه الرجل في برود صارم، جعله يهتف في حدة:
- من أنت بالضبط؟!
مع آخر حروف كلماته،، سطع ضوء مصباح تصوير بغتة، فاستدار الضخم إلى مصدره بحركة حادة، ثم لوح بذراعه في الهواء، فبرز أربعة رجال بغتة، وكأنما نشئوا من العدم، واندفعوا نحو المصور، الذي تراجع في ذعر، هاتفا:
- من حق الناس أن تعرف الحقائق....
انتزع الرجال الأربعة آلة التصوير منه في صرامة، ثم فتحوا غطاءها الخلفي، وانتزعوا منها الفيلم، فهتف (صفوت):
بأي حق تفعلون هذا؟!
أجابه الضخم في برود:
- وبأي حق تلقى أنت هذا السؤال؟!
أخرج (صفوت) بطاقة هويته الرسمية من جيبه، قائلاً:
- أنا ضابط مباحث، و...
قاطعه الضخم في صرامة:
- ولقد تم إعفاؤك من التحقيقات، في هذه القضية...
اتسعت عينا (أحمد) في دهشة، في حين صاح (صفوت) بكل الغضب:
- بأمر من...
تطلع الرجل إلى عينيه مباشرة، وهو يجيب في تحد:
- بأمر السيد رئيس الجمهورية شخصيا.
اتسعت عينا (صفوت) بدوره، وهو يردد ذاهلاً:

- رئيس الجمهورية؟!
استغرق ذهوله لحظة، عاد بعدها يقول في حدة:
- وأين أمر رئيس الجمهورية هذا؟!
أخرج الرجل من جيبه ورقة مطوية، وفردها أمام وجه (صفوت)، قائلاً:
- ها هو ذا...
حدق (صفوت) في الورقة، وفي الشعار الرسمي الذي يعلوها، وفي التوقيع أسفلها، قبل أن يغمغم:
- يا إلهي!
طوى الرجل الورقة مرة أخرى، ودسها في جيبه، ثم أشار بيده، فبرزت سيارة سوداء كبيرة، من سيارات نقل الموتى عند الناصية، واتجهت مباشرة نحو جثة السكير، وأسرع الرجال الأربعة ينقلونها إلى السيارة، في حين التفت الضخم إلى (أحمد)، وارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة، وهو يقول:
- معذرة يا دكتور (أحمد).. سنتولى نحن الاهتمام بالجثة هذه المرة..
حدق (أحمد) فيه بدهشة، لم تزل منها ذرة واحدة، حتى انطلق الرجل مع رجاله الأربعة، في سيارة سوداء أخرى، تبعتها سيارة نقل الموتى، التي تحمل الجثة، فهتف:
- رباه! إنه يعرفني أيضا...
غمغم (صفوت) في عصبية:
- لقد كنت على حق.
قال (أحمد) في دهشة:
- بشأن مخلوقات الكواكب الأخرى؟!
هز (صفوت) رأسه نفيا في قوة، قائلاً في إصرار:
- كلاً..

ثم تابع السيارتين بدوره، مضيفا في صرامة عصبية:
- بشأن أنهم يعلمون....
قالها وأطبق شفتيه مع (أحمد) في صمت تام صمت يحمل الكثير من التوتر والقلق والخوف...
صمت طويل ثقيل، خيم على ذلك المقهى الصغير، في حي(الحسين)، حيث جلس (أحمد) و (صفوت) في الخامسة والنصف صباحا، بعد أن أديا صلاة الفجر في المسجد كان كل منهما غارقا في لجة من الأفكار، لا تختلف كثيرا عما يغرق فيه رفيقه (أحمد) كان يتساءل: أي نوع من المخلوقات هذا، الذي ينمو بالدم وحده؟!
الوصف، الذي أدلى به الكل، يعني أن عينة الدم، التي لم تتجاوز السنتيمترات العشرين، منذ عشرة أيام فحسب، قد صارت في حجم شاب يافع، وأنها ما زالت في لون الدم من الواضح أن حجمها يتزايد، كلما التهمت المزيد منه وأنها تواصل البحث عن المزيد..
والمزيد...
والمزيد....
والله (سبحان وتعالى) وحده يعلم، متى وكيف يمكن أن ينتهي هذا الأمر كل ما يحدث هو أن ذلك الكائن يسعى للنمو، النمو بلا حدود..
وأنه يمتلك قدرة عجيبة، تشبه قدرة حيوان (الهيدرا)، الذي يمكن أن تنمو كل خلية مقتطعة منه، لتصنع كائنا جديدا منفصلاً ([2]) وهذا قد يعني أنه سينمو إلى النهاية نهاية الكون ونهايتنا....

ولكن ما من مخلوق خالد أبد الدهر كل المخلوقات تموت الخالق وحده حي لا يموت ولقد قتل (صفوت) ذلك المخلوق ذات مرة وكان من الممكن أن ينتهي الأمر عند هذه النقطة لولا عينة الدم.

مرور (صفوت) بذاكرته، جعله يرفع عينيه، متطلعا إليه، ومتسائلاً: ترى فيم يفكر في صمته هذا؟!

ووسط سحب الدخان، كانت أفكار (صفوت) تنطلق بعيدا إنهم يعلمون المسئولون يعلمون الورقة التي فردها ذلك الضخم أمامه، لم تكن تحوي أمرا من رئيس الجمهورية بالفعل بل كانت تحمل تفويضا للضخم، من مدير أكبر وأقوى جهاز أمن في البلاد المخابرات العامة...

وهذا يثير دهشته وحيرته. وخوفه ما شأن المخابرات العامة بأمر كهذا؟!

ما شأن جهاز، مهمته حماية أمن وسلامة البلاد، بمجموعة من حوادث القتل الداخلية، مهما بلغ عنفها وغموضها؟!

ما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟!

بل وما الذي يمكن أن يعنيه كل شيء؟!

أمر النائب العام بمنع النشر... إعفوه من مواصلة التحقيقات ...اهتمام المخابرات العامة للأمر ما الذي يمكن أن يعنيه كل هذا؟!

انطلق أزيز جهاز اللاسلكي، في تلك اللحظة، فانتفض(صفوت) في مجلسه والتقطه في حدة، قائلاً:

- ماذا يريدون الآن؟!

ضغط زر الاتصال، وهو يقول:

- الرائد (صفوت شاهين)..

انعقد حاجباه في شدة، وهو يستمع إلى محدثه، قبل أن يقول في عصبية:

- فليكن.. سأحضر على أية حال.

أنهى الاتصال، في توتر بالغ، فسأله (أحمد) في لهفة قلقة:

- ضربة جديدة؟!

أجابه بإيماءة رأس، قائلاً في عصبية:

- لن يمكنك أن تصدق من ضحيته الجديدة.

جف حلق (أحمد)، وهو يسأله:

- من؟!

مال (صفوت) نحوه، مجيبا:

- مدير الفندق.

واتسعت عينا (أحمد) عن آخرهما، وهو يرتد كالمصعوق لقد كانت بالفعل مفاجأة.. مفاجأة مذهلة...

☆ ☆ ☆

٦ - الانتقام...

ارتفع هدير مراوح الهليوكوبتر العسكرية، التي تقل رئيس الجمهورية، في السادسة والنصف صباحا، وهي تحلق في سماء مدينة (الأقصر)، قبل أن تنحرف غربا، وتنطلق في اتجاه الواحات الخارجة، لخمسين كيلو مترا، ثم تميل جنوبا، لتبلغ تلك المنطقة، التي أحيطت بدائرة واسعة من الأسلاك الشائكة، التي أقيمت على عجل، لتعزلها عن كل ما حولها، وحوصرت بعدة فرق من قوات الجيش، بكامل عدتها وعتادها، على نحو يوحي بمدى أهمية المنطقة وخطورتها..

وفور هبوط الهليوكوبتر، اندفع نحوها ضابط كبير برتبة لواء أركان حرب، وأدى التحية العسكرية للرئيس في قوة، فسأله الرئيس في اهتمام بالغ:

- أما زال ذلك الشيء هنا؟!

أجابه الرجل في حزم، وهو يشير بيده:

- إنه لن يذهب بعيدا يا سيادة الرئيس مط الرئيس شفتيه، مغمغما:

- من يدري..

كان الجميع يتحركون بسرعة كبيرة، في تلك الساعة المبكرة من الصباح، وهم يتجهون إلى قلب دائرة الحصار، حتى توقفوا أمام حفرة كبيرة، أشار إليها اللواء، وهو يقول في حزم:

- ها هو ذا.

تطلع الرئيس في دهشة إلى المركبة الكبيرة، ذات التكوين العجيب، والتي بدت محطمة تماما تقريبا، في قلب الحفرة، قبل أن يتمتم:

- سبحان الله (العلي القدير).. يخلق مالا نعلم.
أشار اللواء بيده، قائلاً:
- هل ترغب في إلقاء نظرة قريبة يا سيادة الرئيس؟!
أجابه الرئيس، وهو يهبط الحفرة بالفعل:
- بالتأكيد.
كانت المركبة كبيرة إلى حد ما، في حجم طائرة (إيرباص) ضخمة، مصنوعة من مادة لامعة، لا تبدو مألوفة، وبداخلها أجهزة وأدوات متطورة للغاية، لا مثيل لها على كوكب الأرض..
أما الجزء الخلفي بأكمله، فقد كان يحوى عشرات الأوعية البلورية الكبيرة، التي تحوي كلها مخلوقات عجيبة، لقيت مصرعها من جراء سقوط المركبة، وتحطمها في الصحراء الغربية فيما عدا وعاء واحدا...
وعاء أكبر قليلاً من الآخرين، تحطمت واجهته، وخلا من أية مخلوقات.. وفي صوت خافت، قال مدير المخابرات، وهو يشير إلى الوعاء المحطم:
- من الواضح أنها مركبة فضائية من عالم آخر، مهمتها جمع عينات من المخلوقات الحية، في الكواكب الأخرى غمغم الرئيس، وهو يهز رأسه، محاولاً تصديق ما يراه:
- (سبحان الله).. لولا أننى أرى هذا بنفسي، لما تصورت حدوثه قط، إلا في أفلام وروايات الخيال العلمي...
مط مدير المخابرات شفتيه، مغمغما:
- كلنا هذا الرجل يا سيادة الرئيس.
تابع بنفس الاهتمام والخفوت:
- الفحص الأول يشير إلى أن هذه المركبة معدة بحيث يقودها اثنان من المخلوقات العاقلة، لقى أحدهما مصرعه مع السقوط،

في حين اختفى الثاني، وكذلك المخلوق الذي كان يضمه هذا الوعاء المحطم...
سأله الرئيس في قلق:
- أتعتقد أنهما سبب ما نواجهه الآن؟!
أوما الرجل برأسه، مجيبا:
- بكل تأكيد يا سيادة الرئيس.
تنهد الرئيس، قائلاً:
- وأيهما المسئول في رأيك؟
غمغم الرجل:
- وهل يصنع هذا فارقا؟!
هز الرئيس رأسه، متمتما:
- لست أعتقد هذا.
ثم لوح بذراعه كلها، متابعا في عصبية:
- ولكن لو أن المركبة قد سقطت وتحطمت هنا، فلماذا يحدث كل هذا هناك، في (القاهرة)؟!
تردد مدير المخابرات لحظة، قبل أن يقول في حذر:
- لدى نظرية في الواقع...
لم يستطع إكمال عبارته، فقال الرئيس يستحثه على المواصلة:
- كلي آذان مصغية...
حسم هذا تردد الرجل، وقال:
- أعتقد أن الخطر الحقيقي الذي نواجهه، هو ذلك المخلوق، الذي فر من الوعاء المحطم، والذي يسعى للفرار، على سطح كوكب يجهله، وقائد المركبة المتبقي يحاول استعادته بشكل أو آخر، وهو الذي نسف رأسه، عندما عثر عليه في الفندق انعقد حاجبا الرئيس، وهو يدرس هذا الاحتمال، في حدود معلوماته،

وقدرته على تخيل ما لم يواجهه في حياته قط، قبل أن يشير بسبابته، قائلاً:
في هذه الحالة، لا بد أن نفترض أن كليهما يمتلك القدرة على تقمص الهيئة البشرية، ولكن الملاح لديه وسيلة لتعرف عينته، على نحو أو آخر، ولهذا عثر عليه في الفندق. قال مدير المخابرات في حماسة:
- بالضبط، ولكن الملاح يجهل - إلى حد ما - طبيعة عينته بالكامل، بدليل أنه لم يتصور قدرتها على العودة إلى النشاط مرة أخرى التقى حاجبا الرئيس أكثر، وهو يقول:
- وربما يجهل عودتها بالفعل....
تنهد مدير المخابرات، قائلاً:
- ليت باستطاعتنا إبلاغه بوسيلة ما هز الرئيس رأسه، قائلاً:
ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ثم استدرك في حزم:
- ولكن هناك وسيلة حتما؛ للقضاء على هذا الكابوس
عض مدير المخابرات شفتيه لحظة، قبل أن يجيب في أسف:
- المشكلة أن ذلك القاتل الدموي لا يتحرك وفق منهج مدروس، بحيث يمكننا تتبعه وتعقبه.. إنه يختار ضحاياه عشوائيا، ومن أحياء مختلفة، ولو أننا حددنا مساره مرة واحدة، فربما قاطعه رنين هاتفه المحمول الخاص، فالتقطه من جيبه في سرعة، وهو يقول في لهفة:
- ربما هناك جديد..
غمغم الرئيس في توتر:
- جديد في أي اتجاه؟!
انعقد حاجباه، وهو يتابع الكلمات المقتضبة، التي تبادلها مدير المخابرات مع محدثه، قبل أن ينهي المحادثة قائلاً:
- يبدو أننا قد التقطنا طرف خيط.

سأله الرئيس في لهفة
- هل عثرتم عليه؟!
هز المدير رأسه نفيا، وأجاب:
- بل ارتكب حادثة قتل أخرى.
هتف الرئيس في غضب:
- وهل تعتبر هذا طرف خيط؟!
-أوما مدير المخابرات برأسه، قائلاً:
- بالتأكيد.
ثم مال نحو الرئيس، متابعا في حزم:
- إنها أول حادثة تتبع مسارا معروفا..
وكان على حق في قوله هذا.. فحادثة قتل مدير الفندق، كانت بالفعل طرف خيط..
خيط من الدم...

☆ ☆ ☆

بدا (صفوت) شديد العصبية، وهو يتلفت حوله، في حجرة مدير الفندق الفاخر، المطل على النيل، قائلا للدكتور (أحمد):
- أسرع يا رجل.. أنا واثق من أنهم سيظهرون، بين لحظة وأخرى.

غمغم (أحمد) في توتر:

.. إنني أبذل قصارى جهدي، ولكن من الواضح أنه لم يكتف بالدم ونخاع العظام هذه المرة.. لقد حطم قاعدة الجمجمة وامتص منها المخ أيضا....

حدق (صفوت) فيه، هاتفا:

- ماذا؟!
أجابه في عصبية:
- المخ.. لقد حطم جزءا صغيرا من قاعدة الجمجمة، وسحب المخ كله عبره.
سأله (صفوت) بدهشة:
- وماذا سيفعل به؟!
أجابه (أحمد):
- يحتاج إليه حتما للنمو....
لم يكد يتم عبارته، حتى اقتحم الضخم المكان، وخلفه رجاله الأربعة، وتوقف عند الباب بنظرة صارمة قاسية، وهو يقول:
- أظنني أبلغتكما من قبل أنه لا شأن لكما بهذه القضية..
قال (صفوت) في عصبية، حاول أن يغلفها بلهجة ساخرة:
- أية قضية؟! لقد كنا نقضى بعض الوقت في الفندق فحسب، و....
قاطعه (أحمد)، وهو يقول بصرامة مفاجئة:
- هذا لن يفيد.. إننا نعلم كل شيء.
تسللت لمحة من السخرية إلى ابتسامة الرجل وصوته، وهو يقول:
- تعلمون ماذا؟!
أجابه (أحمد) في تحد:
- نعلم أننا نواجه مخلوقا غير بشرى...
انعقد حاجبا الضخم في توتر، فتابع (أحمد) في عصبية:
- مخلوق من عالم آخر...
ازداد انعقاد حاجبي الضخم، وهو يرمقهما بنظرة صارمة غاضبة، قبل أن يشد قامته، قائلاً:
- أعتقد أن هذا يحتاج إلى حديث طويل..

ثم قسا صوته على نحو مخيف، وهو يضيف:
- في مكان آخر..
ومع قوله، ارتفعت فوهات مسدسات الرجال الأربعة، في وجهي (أحمد) و(صفوت)، مع نظرات صارمة متحفزة، جعلت (صفوت) يهتف في عصبية:
- ماذا تفعلون أيها الحمقى؟! أنا ضابط شرطة
مد الضخم يده إليه، قائلاً في صرامة:
- مسدسك أيها الرائد.
هتف (صفوت) في عناد:
- ليس هذا من حقك.
انعقد حاجبا الضخم بضع لحظات، في غضب شديد، ثم لم يلبث أن خفض يده، قائلاً في هدوء مباغت عجيب:
- حيث سنذهب، لا يصح أن يحمل أي شخص سلاحا ناريا...
ثم كرر في حزم:
- أي شخص..
مضت لحظة من الصمت، تعلقت خلالها عينا (صفوت) بعيني الرجل، قبل أن يمد الأول يده إلى حزامه، فينتزع منه مسدسه، ويناوله للضخم، الذي ابتسم، قائلا:
- أحسنت القرار.
والعجيب أنه، وعلى الرغم من كل ما يحيط بهما من ظروف، شعر (أحمد) و (صفوت) في تلك اللحظة، بالاطمئنان والأمان إلى حد ما..

☆ ☆ ☆

«كيف تفعل هذا دون استشارة؟!»
هتف عريض المنكبين بالعبارة في حدة، في وجه الضخم الذي شد قامته في حزم، مجيبا:

- كان هذا أفضل ما يمكن عمله.. إنهما يعلمان..
صاح به عريض المنكبين:
بل هما يخمنان فحسب.....
قال الضخم:
- تركهما، بعد كل ما علماه، كان أكثر خطورة لوح عريض المنكبين بذراعه، قائلاً في حنق:
- يبدو أن الأمر قد أفلت منا بالفعل
نهض الطويل من مقعده، قائلاً:
- لست أعتقد هذا.....
هتف عريض المنكبين:
- بعد أن رأى كل هؤلاء ما حدث؟!
هز الطويل كتفيه، قائلاً:
- وما الذي رأوه؟! ظاهرة عجيبة، سيروونها كما يروون قصص وحكايات العفاريت والأشباح.. مجرد قصص، لا دليل على واقعها وصحتها، ورجال الشرطة سيكتمون الأمر، بحكم وظيفتهم، وخشيتهم أن يتهموا بالحماقة وضعف العقل، أو حتى بالخوف والجبن.
أشار عريض المنكبين بذراعه كلها، قائلا في حنق:
- وماذا عن ضابط المباحث والطبيب الشرعي.. لقد سمعت بنفسك أنهما يعلمان.. أو على الأقل يستنتجان ما نواجهه
قال الطويل في سرعة:
عظيم.. هذا يعني أن بإمكاننا الاستعانة بهما، دون أن نخشى شيئا...
انعقد حاجبا الضخم في دهشة، في حين تطلع عريض المنكبين لحظة إلى الطويل في صمت، ثم استدار يتطلع عبر النافذة لدقيقة أو يزيد، قبل أن يقول في حزم:

- فليكن.. سأذهب لمقابلتهما.
وشرد ببصره وأفكاره بضع لحظات، ثم أضاف في عصبية:
- إننا نحتاج إلى طبيب شرعي على الأقل.
سأله الضخم في قلق:
- وهل ستشرح لهما الأمر كله؟!
أجابه عريض المنكبين في صرامة، وهو يلتفت إليه بحركة حادة:
- كلا بالطبع..
ثم عاد إلى النافذة متابعا في صرامة:
- أنت تعرف القاعدة الذهبية في عالمنا وانعقد حاجباه في شدة، وهو يضيف:
- المعرفة بقدر الحاجة... فقط...

☆ ☆ ☆

«تجربة فاشلة، من تجارب هندسة الوراثة..»
ألقى عريض المنكبين العبارة في حسم، أمام (أحمد) و (صفوت)، فانعقد حاجبا الأول في شدة، في حين هتف الثاني في حيرة:
- هندسة ماذا؟!
ابتسم عريض المنكبين، وهو يتراجع في مقعده، قائلا:
- أنا مثلك تماما، أجهل الكثير من التفاصيل العلمية والفنية، عن هذه الأمور، ولكن كل ما أعلمه هو أن تلك التجارب الخاطئة، قد أسفرت عن وجود وحش طليق، أشبه بمصاص الدماء.. وحش يعتمد في وجوده على كل خلايا جسده، وليس على المخ وحده...
هتف (صفوت) مبهورا:
- يا إلهي! أهندسة الوراثة هذه بشعة إلى هذا الحد؟!
قلب عريض المنكبين كفيه، وكأنما يعلن عجزه عن الفهم في حين قال (أحمد) في حذر:

- وهل لدينا في (مصر) التكنولوجيا اللازمة، للقيام بتجارب معقدة كهذه؟!
أجابه عريض المنكبين في هدوء:
- إنه مشروع مشترك.. مصري أمريكي...
هتف (صفوت):
- كل الكوارث تأتي من الأمريكيين...
هز الرجل كتفيه العريضين، دون أن يعلق على عبارة (صفوت)، ثم التفت إلى (أحمد)، قائلاً:
- الواقع أننا نحتاج إلى تعاونك يا دكتور (أحمد)، باعتبارك قد أصبحت خبيرا فيما يحدث.. لقد نقلنا جثة مدير الفندق إلى هنا، ولدينا قاعة مجهزة لفحصها، وستجد كل الأدوات اللازمة لذلك، و...
قاطعه (أحمد) فجأة:
- وماذا عن القاتل؟!
انعقد حاجبا الرجل، وهو يسأله في حذر:
- أي قاتل؟!
أجاب (أحمد) في عصبية:
- ذلك الذي نسف رأس المخلوق في الفندق.. أهو جزء من تجارب هندسة الوراثة أيضا؟!
ازداد انعقاد حاجبي الرجل بضع لحظات، ثم لم يلبث أن مال نحو (أحمد)، قائلاً في صرامة شديدة:
- ما دمت ستتعاون معنا، فلابد أن تتعلم حقيقة أساسية هنا.. لا أحد يعلم إلا بقدر ما يكفيه فحسب...
قال (أحمد) في عصبية:
- أأنا مضطر للتعاون؟!
تراجع الرجل في مقعده، قائلا في حزم:

- لا أحد مضطر لأي شيء هنا، ولكن الوطن يناديك، فهل أنت مستعد لتلبية ندائه...
هتف (صفوت) في حزم وحماس:
- كلنا رهن إشارة الوطن.
بدا التوتر أكثر وأكثر على وجه (أحمد)، فسأله عريض المنكبين في حزم صارم:
- وماذا عنك؟
صمت (أحمد) بضع لحظات، قبل أن يجيب:
- أنا مستعد لفعل كل ما تريدون
تراجع الرجل، قائلاً:..
- عظيم.. ستتولى فورا فحص جثة المدير، واستخراج التقرير الفني، بأسرع وقت ممكن، أما بالنسبة لك أيها الرائد، فستتولى التحقيق مرة أخرى، مع الحرص على السرية المطلقة، ومع ملاحظة أنك تعمل فعليا لحسابنا، وكل تقاريرك ستوجه إلينا مباشرة، وسيتم إبلاغ رؤسائك بهذا، وصدقاني.. إنكما تقدمان بهذا خدمة للوطن.. خدمة جليلة...
حاول (أحمد) أن يبتسم مجاملاً، إلا أن وجهه عجز عن رسم تلك الابتسامة الزائفة على شفتيه؛ فقد كان عقله ينبئه بأن هناك الكثير مما يخفى الرجل الكثير جدا...

☆ ☆ ☆

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثامنة والنصف صباحا عندما اتجه الدكتور (حسن وهبي) إلى المرآب الملحق بفيلته الأنيقة، وزوجته تهتف به من النافذة المطلة على الحديقة:
- حاول ألا تتأخر الليلة.. شقيقتي وزوجها سيقضيان السهرة معنا، ولا داعي لأن يتصورا أنك ترفض التواجد معهما، عندما حضرت مع أول نسمات الصباح، في المرة السابقة....

لوح بيده في ضجر، قائلاً:
- سأبذل قصارى جهدي..
مط شفتيه في حنق، وهو يتجه إلى سيارته الكبيرة، صائحا:
- يا للسخافة! الكل منشغل بالحفلات والسهرات، والبحث عن وسائل الترفيه والتسلية، ولا أحد يتذكر أننى طبيب جراح، ومدير مستشفى كبير استقل السيارة، وهو يطلق زفرة محنقة، وأدار المحرك و..
وفجأة، انتفض جسده في عنف، واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحدق في مرآة السيارة الداخلية، التي نقلت إليه مشهدا بالغ البشاعة....
مشهد وجه بلا ملامح، فيما عدا عينين بلون الدم، تحدقان فيه بنظرة ملؤها البغض والكراهية وانفرجت شفتا الدكتور (حسن)، ليطلق صرخة ذعر وهو يدفع جسده جانبا، محاولاً القفز من السيارة ولكن يدا دامية باردة، كتمت أنفاسه بغتة، والتصقت بوجهه على نحو عجيب، في حين قفزت يد أخرى تقبض على عنقه، وتعتصره في قوة، فاتسعت عيناه في رعب هائل، وراح يضرب الهواء بذراعيه في عنف واستماتة ثم فجأة، شعر بذلك الألم الرهيب في صدره، فجحظت عيناه عن آخرهما، حتى كادتا تثبان من محجريهما، وأدرك أن اليد الثانية قد تخلت عن عنقه أدرك هذا في لحظة واحدة لحظته الأخيرة..
رفع الرائد (صفوت) عينيه في دهشة، يتطلع إلى الدكتور(أحمد)، الذي بدا شديد الإرهاق والتوتر، وهو يقف أمامه شاحب الوجه، أشعث الشعر، وقد نمت شعيرات لحيته على نحو ضاعف من شحوبه وجحوظ عينيه، فهب (صفوت) من مكانه، وهو يجذب مقعدا، ويدفعه إليه، هاتفا:

- يا إلهي! اجلس يا رجل.. إنك تبدو كمن لم ينم لشهر كامل
جلس (أحمد) على المقعد، وهو يقول بصوت شاحب:
- كان ينبغي أن أعود إلى منزلي على الفور، ولكنني أردت أن ألتقي بك أولا، و...، و...
هتف (صفوت):
- التقط أنفاسك أولا يا صديقي.. يا إلهى.. إنك تحتاج إلى قدح من القهوة المركزة فورا...
- وقرص من الأسبرين..
هتف (صفوت)، وهو يضغط زرا على مكتبه:.
- بالتأكيد.
ألقى أوامره إلى جندي الخدمة بإحضار ما طلبه (أحمد)، ثم جلس خلف مكتبه، يسأله في اهتمام قلق:
- ماذا حدث؟!
هز (أحمد) رأسه، وتراجع في مقعده، وهو يطلق زفرة متوترة، قائلاً:
- الأمر أبشع مما كنا نتصور..
سأله في قلق شديد:
- ماذا تعني؟!
لوح (أحمد) بيده، قائلاً:
- ذلك الوغد ليس مصاص دماء حقيقي فحسب، ولكنه ينتزع كل ما يمكنه انتزاعه من ضحيته، على نحو بشع.. لقد قمت بتشريح جثة مدير الفندق، وأنا أتصور أنه قد فقد دمه ونخاع عظامه ومخه فحسب، ولكنني فوجئت بأن جسده يخلو من الكليتين، والكبد أيضا..
اتسعت عينا (صفوت)، وهو يتراجع في حدة، هاتفاً:
- رباه! هل التهمهم؟!

هز (أحمد) رأسه، مجيبا:
- بل امتصهم.
هتف (صفوت).
- امتص كليتين وكبدا؟!
أوما (أحمد) برأسه، قائلاً في مرارة مرهقة
- إنني لم أعثر سوى على فتحات صغيرة دقيقة، على جانبي الجسم، ولا توجد أية فتحات تكفى لانتزاع الكليتين والكبد
تمتم (صفوت):
- يا إلهي!
نهض (أحمد) من مقعده، وراح يدور في الحجرة في توتر، وهو يقول:
- إنهم يخدعوننا... إنها ليست تجارب هندسة وراثة كما يدَّعون.. الأمر يتجاوز هذا بكثير.
سأله (صفوت) في حذر:
- ماذا تعني؟!
استدار إليه (أحمد) في حدة، وقال في عصبية:
- إنني لم أتنازل عن نظريتي بعد.
سأله (صفوت) في حذر:
- أية نظرية؟!
أجابه في حدة:
- الكائنات الخارجية
ضرب (صفوت) جبهته براحته، هاتفا:
- لا.. ليس مرة أخرى
صاح (أحمد):
- هذا هو التفسير الوحيد...

عاد جندى الخدمة بالقهوة والأسبرين في تلك اللحظة، فبدت عليه الدهشة، من أسلوب (أحمد) ولهجته، ولكن (صفوت) صاح به في صرامة:
- اترك كل شيء هنا، وانتظر في الخارج.
أسرع الجندي ينفذ الأمر، ويهرع إلى الخارج، في حين قال(صفوت) في توتر:
- اسمع يا صديقي.. ربما يميل عقلك إلى ذلك التفسير الخرافي العجيب، ولكن الواقع يختلف تماما.. إنها تلك الهندسة الموروثة، التي....
قاطعه (أحمد) في عصبية:
- الهندسة الوراثية..
لوح (صفوت) بيده، قائلاً:
- أيا كان اسمها.. المهم أنها المسئولة عما حدث، كما أخبرونا هناك، في الـ..
قاطعه (أحمد) مرة أخرى في حدة:
- كذب.. كل هذا مجرد كذب.. إنهم يحاولون إخفاء الحقائق.. ولكنهم يعلمون.. يعلمون أنهم يواجهون مخلوقات من الفضاء الخارجي.. يعلمون.. يعلمون..
ربت (صفوت) على كتفه، قائلاً:
- اهدأ يا صديقي.. اهدأ.. ما رأيك لو استبدلنا بالقهوة كوبا من النعناع الدافئ، أو...
دفع (أحمد) يده بعيدا، وهو يهتف في غضب:
- إنك لا تصدقني..
زفر (صفوت)، وقلب كفيه، قائلاً:
- إنني أبذل قصارى جهدي، ولكن انطلق أزيز جهاز اللاسلكي في هذه اللحظة، ليقطع عبارته، فالتقطه متسائلا:

- ماذا هناك هذه المرة؟!
اتسعت عيناه عن آخرهما، ووثب من مكانه، صارخا:
- ماذا تقول؟! مستحيل! أنا قادم على الفور...
حدق (أحمد) فيه، متسائلاً في هلع:
- من هذه المرة؟!
لوح (صفوت) بذراعه، هاتفا:
- الدكتور (حسن).. هل تذكره؟! إنه ذلك الطبيب، في المستشفى الكبير.. لقد.. يا إلهي! لقد انتزع ذلك الوغد قلبه بعد أن امتص كل قطرة دم في جسده...
اتسعت عينا (أحمد) عن آخرهما، حتى بدا في هيئته هذه، كصورة مجسمة للرعب والهلع، وهو يقول:
- رباه! الدكتور (حسن).. ولكن هذا مستحيل! مستحيل!
ثم أمسك كتفي (صفوت) في قوة، هاتفاً:
- ألا تدرك ما يعنيه هذا يا رجل؟! إنه يهدم نظرية هندسة الوراثة هذه.. يهدمها من أساسها، و...
واتسعت عيناه مرة أخرى، في ذعر بلا حدود، وهو يتراجع، قائلاً:
- إنه ينتقم.. يا إلهي! إنه ينتقم.. لقد قتل مدير الفندق، ثم الدكتور (حسن)، ولم يبق أمامه سوى.. سوى..
وارتجفت كل ذرة في كيانه، وهو يحدق في وجه (صفوت) مضيفا:
- سوانا
وانتقلت ارتجافته إلى (صفوت)..
وبمنتهى العنف...

☆ ☆ ☆

٧- عالم آخر...

«من السرب السابع إلى القاعدة... أثناء تدريبات الاختراق تم رصد جسم طائر مجهول الهوية.. نطلب الإذن بمطاردته فورا..»

«من القاعدة إلى السرب السابع.. ما الذي تعنيه بجسم طائر مجهول الهوية؟!»

«من السرب السابع إلى القاعدة.. أمامنا جسم ضخم، في حجم حاملة طائرات، له شكل أشبه بالسيجار الهائل، وهو يتجه مباشرة نحو الجنوب الغربي، عند الساعة الثامنة..»

«من القاعدة إلى السرب السابع.. ذلك الجسم لا يبدو على شاشة الرادار.. هل يمكنكم رؤيته بوضوح..»

«من السرب السابع إلى القاعدة.. نحن نرصده بكل وضوح وننطلق بأقصى سرعتنا، في محاولة للحفاظ على المسافة بيننا وبينه، وعلى الرغم من هذا، فهي تتسع بسرعة كبيرة..»

«من القاعدة إلى السرب السابع.. واصلوا تتبعكم لذلك الجسم المجهول، دون أية محاولة للاحتكاك أو الاشتباك، لحين صدور أوامر أخرى»

«رباه! هذا مستحيل!»

«من القاعدة إلى السرب السابع.. ما الذي يحدث عندك بالضبط؟!»

«من السرب السابع إلى القاعدة.. ذلك الجسم انحرف فجأة بزاوية قائمة.. قائمة تماما.. أعلم أن هذا مستحيل عمليا تحت أية مقاييس، ولكنني أقسم إنه فعلها، وهو يتجه نحو الواحات الخارجة مباشرة.»

«من القاعدة إلى السرب السابع.. توجد منطقة عسكرية محظورة، وبالغة السرية، بالقرب من الواحات الخارجة حاولوا منع ذلك الجسم المجهول من بلوغها بأي ثمن..»
«من السرب السابع إلى القاعدة.. كيف يمكننا منعه، ونحن عاجزون حتى عن بلوغه.. بل إن سرعته تتجاوز سرعة صواريخنا نفسها..»
«من القاعدة إلى السرب السابع.. حاولوا منعه بأي ثمن هل تسمعني؟! بأي ثمن..»
«من السرب السابع إلى القاعدة.. كنا نتمنى أن نفعل، ولكن تلك المنطقة المحظورة تبدو أمامنا بالفعل، وذلك الجسم توقف فوق منتصفها مباشرة.. يا إلهى! إننا نلمح جسما فضائيا مجهولاً، يستقر داخل حفرة كبيرة، و..»
«من القاعدة إلى السرب السابع.. امنع ذلك الجسم المجهول بأي ثمن.»
«من السرب السابع إلى القاعدة.. سنطلق الصواريخ فورا.»
«من القاعدة إلى السرب السابع.. نسمع دوي انفجارات.. هل قمتم بنسف ذلك الجسم المجهول.»
«من السرب السابع إلى القاعدة.. كلأ.. لم ننجح في هذا للأسف.. صواريخنا انحرفت عن الهدف لسبب مجهول، وارتفعت إلى أعلى، ثم انفجرت على ارتفاعات عالية جدا، و... يا إلهي؟ ما الذي يحدث؟»
«من القاعدة إلى السرب السابع.. ما الذي يحدث أمامكم؟! من القاعدة إلى السرب السابع.. أجب.. أجب فورا.»
«من السرب السابع إلى القاعدة.. معذرة لتأخر الرد، ولكن ما يحدث أمامنا مذهل بكل المقاييس.. تلك المركبة الفضائية ترتفع محطمة من الحفرة العميقة، وتنطلق نحو ذلك الجسم

المجهول، كما أنه مغناطيس ضخم.. ونحن عاجزون عن بلوغه هناك طاقة ما تحيط به، وتؤدى إلى انحراف أجهزتنا بعنف..»
«من القاعدة إلى السرب السابع.. امنع ذلك الجسم المجهول من اختطاف المركبة المحطمة.. امنعه بأي ثمن»
«إننا نحاول.. ولكن..»
«من القاعدة إلى السرب السابع.. ماذا يحدث عندك ما تلك الفرقعة العنيفة.. أجب أيها السرب السابع.. أجب..»
«من السرب السابع إلى القاعدة.. المركبة المحطمة التصقت بالجسم الضخم، ثم انطلق الاثنان إلى أعلى، في خط مستقيم، واختفيا بغتة، كما لو أنهما قد اخترقا الغلاف الجوي بسرعة الضوء.. يا إلهي! هذا مستحيل! مستحيل تماما! لن يصدق أحد تقريرنا.. لن يصدقه مخلوق واحد..»

☆ ☆ ☆

«إنها مخلوقات من الفضاء الخارجي، وليست مشكلات هندسة وراثة..»
ألقى (أحمد) العبارة في غضب عصبي، في وجه عريض المنكبين، الذي تراجع بمقعده في هدوء، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه، قائلاً:
- وما الذي جعلك تؤكد هذا؟ إنك لم تبدأ حتى في فحص جثة الدكتور (حسن)!
هز (أحمد) رأسه في قوة، قائلاً:
- لست بحاجة لفحصها، حتى أصل إلى استنتاج كهذا. مصرع الرجل وحده يؤكد نظريتي.....
هز الرجل كتفيه، قائلاً:
- لو أنك تقصد نظرية الانتقام، فهي لا تشير سوى إلى أن ذلك المخلوق يحتفظ بذاكرته في خلاياه، كما يحتفظ بحياته فيها

أيضا.
مال (أحمد) إلى الأمام، وقال في حدة:
- خطأ.
ارتفع حاجبا الرجل في دهشة، فتابع (أحمد) في عصبية:
- لو أنها مسألة ذاكرة، لقتل ذلك الشيء مدير الفندق فحسب، ولسعي للبحث عن قائله، أيا كان، ولكن ما حدث ليس كذلك على الإطلاق، فعينة الدم، التي صنعت ذلك المخلوق، تم انتزاعها منه قبل أن يلتقي بالدكتور (حسن)، ولم يكن من الممكن أبدا أن تحمل ذاكرة قديمة، ثم إن الأمر من المستحيل أن يكون مجرد مصادفة، أن يقع اختياره على الدكتور (حسن) بالذات، من بين ستين مليون مواطن.. بل الواقع أن ذلك المخلوق يتمتع بسمة لا يتمتع بها أي كائن حي، على وجه الأرض، حتى الكائنات التي تصنعها هندسة الوراثة، بكل أعاجيبها وتقنيتها.. إن ذاكرته لا تكمن في أعماقه، بل تنتقل بوسيلة ما، لا مثيل لها على الأرض، من جيل إلى آخر، حتى ولو لم يلتق الجيلان أبدا، أو تكون بينهما أية صلات مباشرة.. إنه كيان واحد، حتى ولو قمت بتجزئته إلى ألف كيان.. هذا يفسر التقاء الأجزاء الممزقة ببعضها، وإعادة تكوين الجسد، كما حدث مع سيارة دورية الشرطة، ويفسر أيضا انتقامه من الدكتور (حسن)، الذي لم يره قط عينة الدم، التي كنا نحتفظ بها، في ثلاجة المعمل، كانت ترتبط طوال الوقت بذلك الجسم، الذي يعيد تكوينه.. ترى ما يراه، وتشعر بما يشعر به، وتواجه ما يواجهه.. لذا فقد أدركت ما أصابه، ورأت من فعل به هذا.. وهي الآن تسعى للانتقام.....
تطلع إليه عريض المنكبين طويلاً في صمت، ثم قال في صرامة:

عد إلى منزلك يا دكتور (أحمد).. أنت تحتاج إلى بعض النوم والراحة.....
هتف (أحمد) في حدة:
- ذلك الوغد يسعى للانتقام من (صفوت) و(منى).. إننا نحتاج إلى حماية خاصة...
مال الرجل إلى الامام، وقال في صرامة أكثر:
- عد إلى منزلك يا دكتور (أحمد)، واترك لنا مهمة الحماية هذه.
التقت نظراتهما على نحو حاد للحظة أو يزيد، ثم هب(أحمد) من مقعده، قائلاً:
- فليكن.
ثم اندفع خارج الحجرة، فانعقد حاجبا عريض المنكبين لحظة، ثم التقط سماعة هاتفه، قائلا:
- نعم يا سيادة المدير.. لقد رحل بالفعل.. أعلم.. نعم أعلم ما حدث في الواحات الخارجة.. ربما لا يعني شيئا على الاطلاق يا سيدى، ولكننا سنتتبع الخيط.. سنتتبعه حتى نهايته..
وأنهى الاتصال، ثم نهض يتطلع عبر نافذة حجرة مكتبه إلى الدكتور (أحمد)، وهو ينطلق بسيارته مغادرا المكان، وغمغم في توتر:
- رباه! إنه أملنا الأخير.. ترى هل..
ولم يتم سؤاله لم يتمه أبدا..

☆ ☆ ☆

على الرغم من التوتر العنيف، الذي كان يشعر به الدكتور(أحمد)، وهو يدلف إلى منزله، كان النعاس يداعب عينيه على نحو عجيب أنه يشعر بإرهاق عنيف، لم يشعر بمثله، في حياته كلها، إلا أنه من العجيب أن يهاجمه النعاس على هذا النحو، مع شدة توتره إلا إذا..

استعاد ذهنه مشهد كوب العصير الطازج، الذي قدمه له عريض المنكبين، وأصر على أن يشربه كله، وتذكر ذلك الطعم اللاذع فيه، ثم هتف:
- ياللسخافة! لقد دسُّوا لى عقارا منوما.....
كان يجر قدميه جرا، وهو يتجه إلى حجرة نومه، وما إن ألقى جسده على فراشه، حتى التقط سماعة الهاتف، وطلب رقم (صفوت)، ولكن رنين الجرس استمر طويلاً.. طويلاً جدا..
وبلا جواب وكرر (أحمد) الاتصال مرة..
ومرة..
ومرات..
وأخيرا شعر بالحنق والأسى، فألقى سماعة الهاتف، قائلاً، وهو يغالب النعاس بصعوبة:
- رباه! لماذا يدفعونني للنوم عمدا؟! لماذا؟!
كان عقله يحاول التفكير في الأمر، ولكن العقار المنوم راح يسيطر على كيانه رويدا رويدا، حتى أسبل جفنيه، و...
وغرق في نوم عميق...
وعلى الرغم من العقار المنوم، كان نومه مضطربا إلى حد كبير، كان عقله، حتى في نومه يستعيد كل ما مر به من أحداث رهيبة، ومشاهد بشعة، منذ بدأ ذلك الكابوس وفي عنف، راح يتقلب في فراشه كالمحموم، وأشباح عجيبة تمر برأسه مخلوقات بشعة وأسلحة رهيبة كتل دموية ضخمة، تهاجمه من كل صوب..
ثم تلاشت كل تلك الصور فجأة، وحلت محلها صورة واحدة..
صورة.. ذلك الكائن..
كان يقف هناك، بالقرب من النافذة، يتطلع إليه بعينين دمويتين مخيفتين، و...

وانتفض جسد (أحمد) في عنف، وهو يهب جالسا على فراشه، وهاتفا:
- لا.
كان قلبه يخفق في عنف، وأنفاسه تتلاحق على نحو عجيب، وقد حل الظلام، وانتشر في الحجرة كلها، فغمغم بأنفاس لاهثة:
- رباه! يا له من كابوس! لقد خيل إلى أن...
بتر عبارته بغتة، وسرت في جسده قشعريرة باردة كالثلج وهو يحدق في الركن البعيد لحجرته، في رعب بلا حدود فهناك، في ذلك الركن المظلم، بين الجدار ودولاب ملابسه الكبير، كان يقف شخص ما شخص ناضج كبير، يلتصق بالجدار، ويتطلع إليه مباشرة وعاد قلب (أحمد) يخفق بمنتهى العنف أهو مجرد ظل صنعه خياله، أم قبل أن يكتمل الخاطر في رأسه، عبرت سيارة الطريق، وتسلل ضوء مصباحيها إلى النافذة، وانعكس بعضه على الجدار وانطلقت من حلق (أحمد) شهقة ملؤها الرعب والفزع.....
لقد انعكست لمحة الضوء على زوج من الأعين زوج في لون الدم إنه يقف هناك بالفعل ذلك الكائن الدموي الرهيب يقف هناك، ويتطلع إليه مباشرة متى جاء؟!
وكيف؟!
ولماذا يقف ساكنا هكذا؟!
وما إن مر السؤال الأخير بذهنه، حتى خطا ذلك الكائن الرهيب إلى الأمام، ودخل دائرة الضوء
وبكل الرعب في أعماقه، وثب (أحمد) من فراشه وتراجع صائحاً:
- ماذا تريد مني؟! أنا لم أقتلك.. لم أقتلك..
ولكن ذلك الكائن تقدم نحوه أكثر وأكثر.. وأكثر..

كانت عيناه تلتمعان بذلك البريق الدموي، ويداه ترتفعان نحو عنق (أحمد)، الذي اتسعت عيناه بكل رعب الدنيا، ووثب إلى كيانه كله سؤال واحد مخيف ترى ما الذي سينتزعه من جسده، بعد أن يمتص دمه ونخاعه.. قلبه مخه.. أم أحشاءه..

وبكل هلعه، راحت يداه تبحثان فيما حوله، عن أي شيء يمكن أن يقاتل به أو يقاوم به أي شيء وارتطمت يده بالمنبه الثقيل، فالتقطه، وألقاه بكل قوته نحو ذلك المخلوق ولكن يد المخلوق الدموية ارتفعت في سرعة، والتقطت المنبه ليست يده، وإنما يداه..

ولكن مهلاً.. إن ذراعيه مازالا يرتفعان نحو عنقه.. واتسعت عينا (أحمد) برعب هائل، وهو يلتصق بالجدار، هاتفا:

- لا.. مستحيل! مستحيل.

فالمخلوق الذي يقترب منه، لم يكن له ذراعان فحسب بل كان أشبه بالأخطبوط أخطبوط بشرى التكوين، تبرز منه ست أذرع دفعة واحدة.. ووثب قلب (أحمد) من بين ضلوعه، وهو يصرخ:

- لا.. لا.. لا..

ومع صرخته، انهار باب حجرته بغتة، واندفع عبره شخص مألوف ثم تبعه آخران وبصوته الصارم العصبي، صاح (صفوت)، وهو يرفع فوهة مسدسه:

- وقعت أيها الوغد.. لقد أوقعنا بك أخيرا.....

استدار ذلك الكائن الأخطبوطي إلى الرجال الثلاثة، الذين ضغط أحدهم زر الإنارة، فغمر الضوء الحجرة، واتسعت عيون الرجال الثلاثة في دهشة مذعورة، وهتف (صفوت):

- رباه! أي عبث شيطاني هذا؟!

أزاحه أحد الرجلين الآخرين جانبا، دون أن ينطق كلمة واحدة، ورفع مسدسه، وأطلق النار على ذلك المخلوق وانتفض (أحمد) في عنف، مع دوي الرصاصات، التي اخترقت جسد ورأس الكائن، في مواضع شتى ولكنها لم تسقطه كل ما حدث هو أنه قد أطلق صوتا رهيبا، لم تجد أية كلمات لوصفه، وإن بدا وكأنه ينبع من أعمق أعماق الجحيم، ثم اندفع نحو الرجال، وانقضت أذرعه

الستة عليهم، ورأى (أحمد) (صفوت) يطير بعيدا، ثم يرتطم بالجدار في عنف، ويسقط على وجهه، وأحد الرجلين الآخرين يندفع نحو النافذة، ويخترق زجاجها، ليهوى من الطابق الثالث، أما الرجل الثالث، فقد أمسك ذلك المخلوق رأسه بذراعين، ثم اعتصر عنقه بكفين آخرين ومع الحشرجة الرهيبة، التي أطلقها الرجل، هب (صفوت) من سقطته، والتقط مسدسه مرة أخرى، صائحا:

- كفى أيها الوغد.. كفي...

وانطلقت رصاصاته نحو الكائن مرة أخرى وفي هذه المرة أيضا، اخترقت الرصاصات جسد الكائن دون أن تسقطه، وإنما أثارت غضبه بشدة، فألقى الرجل المحطم العنق جانبا، واستدار يواجه (صفوت)، بشراسة لا مثيل لها وضغط (صفوت) زناد مسدسه مرة ثانية وثالثة ورابعة ولكن لم تنطلق منه رصاصة واحدة..

لقد فرغت خزانته تماما، وصار عليه أن يواجه ذلك الوحش وحده.

بلا سلاح

وبلا أمل..

وبكل غضبه، هتف (صفوت):

- هيا أيها الوغد.. هيا.. أضف إلى قائمة حفاراتك اسم ضحية جديدة.. هيا...

تقدم المخلوق البشع نحوي، وراحت أذرعه الست تضرب الهواء، في أكثر المشاهد رعبا، في حياة (أحمد)، الذي راح يردد بأنفاس لاهثة:

- لا.. لا يمكن أن تكون هذه هي النهاية.. لا..

مع آخر حروف كلماته، سطعت الحجرة كلها بضوء أزرق قوى، جعل ذلك المخلوق يطلق صرخة رهيبة أخرى، ثم يستدير بكل

سرعته إلى النافذة واتسعت عينا (أحمد) و (صفوت) عن آخرهما، مع مرأى ذلك الطيف الداكن، الذي عبر النافذة، وسط شلال الضوء الأزرق، ثم تكون في سرعة، في هيئة بشرية كاملة (أحمد) رآه طويلاً حاد الملامح و (صفوت) شاهده ضخما مفتول العضلات والرجل الذي اقتحم الحجرة، في اللحظة نفسها، رآه وسيما عريض المنكبين ومن المؤكد أن ذلك الكائن الدموي قد رآه بشكل مختلف تماما، فقد تراجع في ذعر، وراح يضرب أذرعه في الهواء، ويصدر صوتا عجيبا عميقا، كما لو أنه يأتي من أعماق قبر رطب وفي هدوء، رفع ذلك الشكل البشرى يده، وهي تحمل دائرة كبيرة..

وأطلق الكائن صرخة أخرى..

ثم انطلق من الدائرة شيء أشبه بقوس من الضوء قوس اتجه مباشرة نحو ذلك الكائن الدموي، ثم أحاط به، على هيئة دائرة كبيرة، انطلق منها قوسان، من أعلى وأسفل ليصنعا منها كرة من الضوء، احتوت ذلك الكائن داخلها، ثم راحت تتقلص، وتتقلص وبسرعة مدهشة وضرب الكائن الهواء بذراعيه مرتين، ثم راح يضرب جدران الضوء في يأس، سرعان ما تحول إلى ما يشبه البكاء وهو ينكمش، ويفقد كل تفاصيله، ليتحول إلى كتلة..

مجرد كتلة دموية، لها ستة أذرع أخطبوطيه صغيرة، أصبحت سجينة داخل كرة الضوء، التي تحولت في سرعة إلى كرة من البلور وأمام العيون الذاهلة، والأفواه المفغورة، والأطراف المتجمدة، انحنى الطيف البشرى يلتقط الكرة البلورية، ثم تراجع نحو النافذة، وانطلق عبرها، ليمتزج بالضوء الأزرق، ثم يختفي كل شيء دفعة واحدة..

وفي نفس لحظة اختفائه، اندفع الضخم إلى الحجرة، هاتفا:

- أين هو؟!
كان زميله ذاهلا مبهوتا، فلوح (صفوت) بيده، قائلاً بصوت مبحوح، من فرط الانفعال:
- لقد ذهب.
غمغم الضخم مبهورا:
- ذهب؟!
أوما (صفوت) برأسه، مغمغما:
- إلى الأبد..
قالها، وتطلع الكل في صمت وانبهار إلى النافذة المحطمة، التي اختفى خارجها الطيف والضوء الأزرق، وذلك المخلوق الدموي، وكل منهم يطرح على نفسه سؤالا واحدا تُرى هل انتهى الأمر حقا؟!
هل؟!
«أعتقد أن كل شيء قد انتهى بسلام..»
نطق عريض المنكبين العبارة، في هدوء وارتياح، وهو يجلس خلف مكتبه، الذي غمره ضوء الشمس، من النافذة المفتوحة، فسأله (صفوت) في توتر:
- أأنت واثق؟!
أوما عريض المنكبين برأسه إيجابا، وهو يقول بابتسامة رصينة:
- اطمئن..
زفر (صفوت)، مغمغما:
- إنني أحاول، ولكن عقلي أصبح منشغلاً بالفضاء، والكواكب، ومخلوقات العوالم الأخرى..
ثم نهض من مقعده، مستطردا في شيء من العصبية:
- ولكن ما فعلتموه مع الدكتور (أحمد) ما زال لا يروق لي أبدا..
سأله الطويل في هدوء:

- وما الذي فعلناه؟!
- لقد دسستم له عقارا منوما، وأنتم تعلمون أن ذلك الشيء سيسعى إليه حتما..
قال الضخم في برود:
.. لو لم نفعل هذا، لكنا ما زلنا نحصد الضحايا، حتى هذه اللحظة...
هتف محنقاً:
- ولماذا العقار المنوم؟!
ابتسم عريض المنكبين، وقال:
- لقد كان يحتاج إلى النوم بالفعل.
هز (صفوت) رأسه في قوة، وقال:
- ما زلت أشعر بالضيق...
تبادل الرجال الثلاثة نظرة صامتة، قبل أن يقول عريض المنكبين بابتسامة كبيرة:
- اطمئن.. لن يمضي وقت طويل، حتى تعتاد مثل هذه الأمور..
قال (صفوت) في دهشة:
- اعتادها، ولماذا؟!
أجابه الرجل، وهو يميل نحوه، ويناوله ورقة مطوية:
- لأن هذا هو أسلوبنا في العمل..
فتح (صفوت) الورقة، وحدق فيها ذاهلا، في حين ابتسم الرجال الثلاثة، والطويل يقول:
- مرحبا بك يا رجل، في صفوف المخابرات العامة المصرية.
وكانت مفاجأة جديدة..
ولكن، ولأول مرة، منذ فترة طويلة، لم تكن مفاجأة مخيفة..
على الإطلاق.

☆ ☆ ☆

منتصف الليل، كما تعلن دقات الساعة، في مشرحة (زينهم)، والدكتور (أحمد) يرتدي معطفه الطبي، وقفازيه، ويفحص جثة جديدة، في اهتمام بالغ كانت هذه هي وسيلته الوحيدة لنسيان ما حدث الانغماس في العمل حتى النخاع..

وعند طرف منضدة البحث، كانت هناك قارورة صغيرة، تمتلئ ببقايا عينة دموية ولكنه لم ينتبه إلى وجودها ودون أن يدرى، ارتطمت يده بها وسقطت القارورة..

وتحطمت على أرضية القاعة..

وفي ذعر، التفت إليها (أحمد)، وحدق فيها، وانتفض جسده كله في عنف..

لقد تكورت بقعة الدم، التي سقطت من القارورة المحطمة، وراحت تنمو في سرعة، وتتحول إلى كتلة دموية فقفز من مقعده، وتراجع حتى التصق بالجدار، وهو يهتف:

- لا.. ليس ثانية.. ليس ثانية...

ومع هتافه، نمت فجأة أذرع أخطبوطيه من الكتلة الدموية. ثم وثبت كلها نحو وجهه، و...

«لا..»

انطلقت الصرخة من حلقه، وهو يهب جالسا على فراشه، وراح قلبه يخفق في عنف شديد، وهو يلهث بشدة، وأسرع يضيء المصباح المجاور للفراش ويدير عينيه في الحجرة التي استبدل بأثاثها كله أثاثا آخر جديدا، وكأنما يتأكد من أن كل هذا لم يكن سوى كابوس...

وبأطراف مرتجفة، نهض يجلس على طرف فراشه وارتشف رشفة ماء، وهو يهز رأسه، واثقا من أنه سيمضي وقتا طويلا جدا، قبل أن ينسى كل ما مر به وحتى يطرح عن نفسه ذلك السؤال، الذي يؤرق مضجعه، ويطارده صباحا ومساء، ويحرمه

الراحة والهدوء دائما ترى هل انتهى الكابوس بالفعل، أم أنه ما زالت هناك قطرات من دم ذلك المخلوق، في مكان ما، تنتظر الفرصة المناسبة لتنمو وتنمو وتنمو...

الآن فقط أدرك لماذا أخفت الدولة ما حدث عن المواطنين ولماذا تخفى كل الدول الحوادث والأمور الخارقة، ولا تعترف بوجودها رسميا قط فالرعب الذي يملأ كيانه، منذ أدرك ما يمكن أن يحويه الكون، وما يمكن أن يأتي به الفضاء، قد استقر في أعمق أعماق وجدانه، وجعله يرتجف في كل ثانية، خشية أن تتكرر تلك التجربة الرهيبة مرة أخرى ولهذا يدرك أن السؤال لن يفارق رأسه، مهما تبقى له من العمر..

بل ولن يفارق كيانه كله..

إلى الأبد...

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- الجريمة..
٢- فوق مستوى البشر....
٣ - بداية ونهاية.....
٤- لون الدم...
٥- نمو..
٦ - الانتقام...
٧- عالم آخر...

Notes

[←1]

* حقيقة علمية وطبية.

[←2]

*حقيقة علمية

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

النداء

نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

النداء

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- ساعة الصفر..

السبت.. السادس من أكتوبر ١٩٧٣..
الواحدة ظهرا..
في تلك اللحظة فقط، وقبيل ساعة الصفر بستين دقيقة فحسب، تلقى الطيار (عزت شاهين)، النقيب بالقوات الجوية المصرية، الأوامر، الخاصة بالضربة الجوية الأولى، في حرب الثأر، التي طال انتظار (مصر) لها.
وبمنتهى العنف والحماس، خفق قلبه بين ضلوعه، وهو يهتف بصديقه وزميل سلاحه (حسن):
- أخيرا.. أخيرا سنفعلها يا (حسن).
التقط (حسن) نفسا عميقا، وهو يقول في حزم:
- أخيرا يا (عزت).
انطلقا معا إلى حيث ارتديا ثياب القتال، وهتف (عزت)، وهو يطلق ضحكة صاخبة:
- أراهنك على أنني سأسقط ضعف ما ستسقطه أنت، من طائرات العدو..
هتف (حسن) بضحكة مجلجلة:
- هيهات
راحا يتحديان بعضهما، بأسلوبهما المرح، الذي يحمل كل آيات الصداقة والمودة، وهما يتجهان إلى ممرات الإقلاع، حيث تقبع طائرتاهما الحديثتان، من طراز الميج السوفيتية الصنع، والتي يقودها، ولأول مرة، طيار واحد، دون ملاح مساعد..
وقبل أن يبلغا طائرتيهما بعدة أمتار، توقف (حسن)

فجأة، والتفت إلى صديقه، وأمسك عضده بأصابع قوية وهو يقول بتوتر مباغت:
- (عزت).. لا تتهور كثيرا في أثناء القتال.. تذكر ما أخبرونا به في القيادة.. إننا لا نقاتل لننتحر، ولكن لنفوز وننتصر على العدو.. والانتصار يعني الإبقاء على حياتنا أيضا..
ابتسم (عزت) في حيرة متوترة، وهو يقول:
- ومن جعلك تتصور أنه من الممكن أن أقدم على الانتحار؟
بدا التردد على وجه (حسن)، وشفتيه المرتجفتين، قبل أن يربت على كتف صديقه في قوة، قائلا بمنتهى الحزم:
- لن أسمح لهم بالمساس بك يا صديقي.. صدقني.. لن أسمح لهم أبدا..
أطلق (عزت) ضحكة حائرة مرتبكة، وهو يقول:
- ماذا دهاك اليوم يا صديقي.. تتحدث إلى كما لو كنت مبتدئا في هذا المضمار!! ألم نقم بكل مناوراتنا معا، وكلانا يعرف قدرات الآخر جيدا؟!
تنهد (حسن) في توتر عجيب، وهز رأسه، قائلاً:
- لست أدرى لماذا أشعر بـ.. حسن.. لا عليك.. وفقك الله يا صديقي.. هيا بنا..
أمسك (عزت) يده فجأة، قائلاً:
- انتظر.
تطلع إليه (حسن) في حيرة قلقة، فرفع (عزت)، مطواته الصغيرة، قائلاً:
- إنه أسلوب من أساليب الهنود الحمر، ولكنني أميل إليه كثيرا.
قالها، وغرس مليمترا من نصل مطواته الصغيرة، في طرف سبابته اليسرى، ثم فعل المثل بسبابة (حسن) اليسرى، وألصق سبابته الدامية بها، وهو يضحك، قائلاً:

- الآن نحن أخوة بالدم.
ابتسم (حسن)، قائلاً:
- نحن دوما كذلك يا صديقي..
ثم عاد يربت على كتفه، هاتفاً:
- والآن هيا بنا.. (مصر) تنتظرنا..
وانطلق كلاهما لتلبية النداء..
نداء الوطن..

☆ ☆ ☆

كانت مفاجأة مذهلة للعدو الإسرائيلي بكل المقاييس أكثر من مائتي طائرة، عبرت قناة السويس، على طول خط المواجهة، في لحظة واحدة تقريبا..
وقبل أن يستوعب العدو المفاجأة، كانت الصواريخ المصرية تنهمر على مطارات وقواعد ومعسكرات العدو كالمطر..
وفي خط (بارليف)، أقوى خط دفاعي في التاريخ، على حد قول صانعيه، اختفى الكل في ارتياع، والنيران تنهال على كل شبر، والانفجارات تدوى في كل سنتيمتر من المكان..
وتحت وابل النيران المكثفة، من الطيران والمدفعية على مواقع العدو، هبطت زوارق جنودنا في مياه القناة، لتعبرها ببسالة ألجمت العدو قبل الصديق وفي طائرته، هتف (عزت):
- رائع.. عظيم.. كم حلمت بهذه اللحظة طويلاً أتاه صوت (حسن)، عبر جهاز الاتصال اللاسلكي وهو يهتف بحماس منقطع النظير:
- إنه حلمنا جميعا يا رجل
كانت طائراتهم تسيطر تماما على سماء المعركة، وتنسف وسائل الدفاع الإسرائيلية بلا هوادة..

واشتعلت (سيناء) كلها بالنيران والانفجارات ثم ظهرت طائرات العدو أربعة أسراب من طائرات الفانتوم الأمريكية الصنع، خرجت بطياريها الإسرائيليين؛ لمواجهة الهجوم وانقض نسورنا البواسل وفي سماء (سيناء)، بدأت أول مواجهة حقيقية، بين نسورنا وحمائمهم وأثبت نسورنا أنهم الأفضل وبلا منازع....
(حسن) وحده أسقط أربعا من طائرات الفانتوم الإسرائيلية. و (عزت) أسقط ثلاثا، ببراعة مدهشة، وقام بدورة مبهرة، وسط النيران والدخان، لينقض على مؤخرة الطائرة الرابعة..
كان الطيار الإسرائيلي بارعًا بحق، وهو يحاور ويناور، محاولاً الإفلات من طائرة (عزت)، إلا أن هذا الأخير كان يبدو وكأنما التصق به، على نحو لا يصلح معه الفرار..
وفي مقعده، أمسك (عزت) عصا الإطلاق، وهو يغمغم:
- الوادع يا هذا.. أنت تعادل الكفة، بيني وبين(حسن) في تلك اللحظة بالذات، ظهرت الطائرة الإسرائيلية الأخرى.....
برزت من بين السحب الكثيفة، وانقضت من أعلى على طائرة (عزت)..
ومن بعيد، لمحها (حسن)..
وبأقصى سرعته، اندفع نحو طائرة (عزت)، وهو يهتف عبر جهاز الاتصال المحدود:
من (نسر - 7) إلى (نسر - 6).. احترس
خصم آخر من أعلى، عند الساعة التاسعة ([1])
رفع (عزت) رأسه في سرعة، ولمح الفانتوم التي تنقض عليه من أعلى، فهتف في صرامة، وهو يضغط زر الإطلاق:
- فلنجعلها الضحية رقم خمسة....

انطلق الصاروخ من طائرته، في نفس اللحظة التي ارتفع هو فيها، بزاوية عسيرة مدهشة، ودار بطائرته حول نفسها، على نحو مخيف، جعل (حسن) يهتف، وهو يتجه نحوه:
- رباه! ما الذي يفعله هذا المجنون؟
ودوى الانفجار...
نسف الصاروخ تلك الفانتوم الإسرائيلية بعنف، وانبعثت مع انفجارها كتلة هائلة من اللهب، أحاطت بها لمسافة ضخمة، حتى إن طائرة (عزت) قد اخترقتها، مع مناورتها المعقدة، قبل أن تدور لمواجهة الفانتوم الخامسة، وقد انقلبت رأسا على عقب واتسعت عينا (حسن) في ارتياع، مع مرأى مسار طائرة (عزت)، التي بدا من الواضح أنها سترتطم حتما بالفانتوم الإسرائيلية...
وصرخ (حسن):
- احترس يا (نسر - 6).. احترس.. ولكن مسار طائرة (عزت)، مع مسار الفانتوم الخامسة، كان يحتم الارتطام واتسعت عينا (حسن) أكثر وأكثر ثم فجأة، ظهرت تلك البقعة البرتقالية شيء أشبه بكرة بلا حدود كيان هلامي، برتقالي اللون، اندفع فجأة من بين السحاب، بسرعة تفوق سرعة أقوى الطائرات بخمس مرات على الأقل..
وبلغ اتساع عينى (حسن) أقصاه، وهو يحدق في تلك الظاهرة الرهيبة، وفي الطائرتين، اللتين تزمعان الارتطام ببعضهما و
وفجأة، ارتطم ذلك الكيان الهلامي البرتقالي بالفانتوم الإسرائيلية..
ودوى الانفجار...
انفجار هائل رهيب، يفوق انفجار ثلاث طائرات مجتمعة. أصيبت بعشرة صواريخ على الأقل...
وصرخ (حسن):
- لا يا (عزت).. لا.

وبسرعة مدهشة، تلاشي أثر الانفجار، وتهاوت الشظايا على مسافة واسعة للغاية، حتى لقد بدت أشبه بمظلة من النار، تغمر سماء المعركة كلها وبكل لهفة الدنيا مشط (حسن) السماء بعينيه لقد تلاشى الانفجار تماما ولم يعد هناك أثر لذلك الكيان الهلامي البرتقالي العجيب ولا لطائرة (عزت)..

لم يعد هناك أدنى أثر...

☆ ☆ ☆

٢ - العودة.....

السادس من أكتوبر ١٩٩٣ م.....
السادسة والنصف مساء..
قطع (حسن فهمي)، ضابط المخابرات المصري ذلك الممر الطويل، في خطوات واسعة سريعة، أقرب إلى العدو، ومساعده (رأفت) يعدو خلفه، هاتفا:
مهلا يا سيد (حسن).. لا داعي للعجلة.. الرجل في قبضتنا بالفعل تجاهله (حسن) تماما، وهو يسرع الخطى، حتى بلغ ضابطا من ضباط سلاح الطيران المصري، برتبة عقيد استقبله متسائلاً في توتر:
- السيد (حسن فهمي).
صافحه (حسن) في توتر مماثل، قائلاً:
- هو أنا.. قل لي: أين هو؟!
أشار العقيد بيده، مجيبا:
- بالداخل.. لقد وضعناه في حجرة الاستجوابات، ولكن..
قاطعه (حسن)، في شيء من العصبية:
- ولكن ماذا؟!
أجابه العقيد في صرامة:
- ولكنني لست أدرى ما علاقة المخابرات العامة بالأمر إننا جهة عسكرية، والمفترض أن نتعامل مع المخابرات الحربية وحدها...
أجابه (حسن) في شيء من الخشونة:
- إنها قضية أمن قومي يا رجل، ورجال المخابرات الحربية يعلمون أننا سنتولى الأمر هذه المرة، وهم يتفهمون أسبابنا
وصمت لحظة، ثم أضاف بصلابة متوترة:

- ويمكنك القول إنه هناك عامل شخصي.
ردد العقيد في دهشة:
- شخصي؟!
سأله (حسن) في صرامة:
- قل لي: كيف يمكننا أن نراه؟!
زفر العقيد، في عصبية واضحة، وهو يجيب:
- يمكنك أن تلتقي به مباشرة، أو تلقى عليه نظرة أولا، عبر النافذة ذات الزجاج المزدوج الانعكاس، في الحجرة المجاورة...
مد (حسن) يده في لهفة، نحو مقبض الحجرة، التي يحتجزون فيها الرجل، إلا أن يده تجمدت قبل أن تلمسها بلحظة، وبدت عليه علامات تفكير عصبية لبضع لحظات، قبل أن يعيد يده إلى جواره، قائلاً:
- فلنلق عليه نظرة أولاً
قاده العقيد إلى الحجرة المجاورة، قائلاً:
- فليكن.. تفضلا
تردد (حسن) لحظة، عند باب الحجرة المجاورة، فدفعه مساعده (رأفت) في رفق، وهو يغمغم:
- هيا يا سيد (حسن).
ودلف (حسن) إلى الحجرة.
كان قلبه يخفق في عنف، وعيناه تدوران في الحجرة الصغيرة شبه المظلمة، وكأنما يتجنب النظر إلى الحجرة الأخرى، عبر الزجاج المزدوج، الذي ينقل الرؤية في اتجاه واحد فقط وقال العقيد في حزم، وهو يشير إلى نافذة الزجاج المزدوج:
- ها هو ذا
وبصعوبة، أدار (حسن) وجهه إلى الزجاج، وألقى نظرته الأولى وبعنف، سرت في جسده قشعريرة باردة كالثلج، وعيناه تتسعان

عن آخرهما، وهو يحدق فى ذلك الجالس فى الحجرة المجاورة..

كان شابا، في أواخر العشرينات من العمر، عصبي إلى حد ملحوظ، وهو يدير عينيه فيما حوله، في توتر بالغ وهو يرتدي زيا من أزياء الطيارين، عتيق الطراز، على نحو لم يعد مستخدما، إلا في بعض دول الاتحاد الروسي القديم...

وبكل دهشته وذهوله واستنكاره، هتف (حسن):
- مستحيل!
اتسعت عينا (رأفت)، للطريقة التي أطلق بها رئيسه هتافه، في حين التفت العقيد إلى (حسن)، متسائلاً في دهشة:
- هل تعرفه؟!
بدا صوت (حسن) أكثر شحوبا من وجهه، وهو يقول:
- ربما..
بدت الإجابة مبهمة عجيبة، وخاصة بعد أن عجزت قدما(حسن) بعدها عن حمله، فتهاوى على أقرب مقعد إليه وهو يردد:
- ولكن كيف؟! كيف؟!
قال العقيد في دهشة:
- ماذا تعنى بكيف هذه؟!
رفع (حسن) عينيه إليه بحركة حادة، وهو يسأله بحزم مباغت:
- ماذا حدث بالضبط؟!
جذب العقيد مقعدا، وجلس قبالته، قائلاً:
- كان هذا في الثانية وسبع وعشرين دقيقة بالتحديد عندما ظهرت طائرته بغتة، على شاشات الرادار، في سماء (سيناء).. لقد أدهشنا هذا بشدة، خاصة وأننا لم نلتقطه وهو يعبر مجالنا الجوي..
غمغم (حسن):
- بالتأكيد
انعقد حاجبا (رأفت) في توتر، في حين تجاهل العقيد هذا التعليق، وتابع بنفس الاهتمام:

- لقد قمنا بالاتصال به لاسلكيا على الفور، وطلبنا منه تحديد هويته، ولكنه استنكر هذا بشدة، وتحدث كما لو أنه ذو هوية معروفة، بل وادعى أنه أحد طيارينا، وطلب الإذن بالعودة إلى القاعدة...

اعتدل (حسن)، يسأله بصوت مختنق:

- وماذا فعلتم؟!

أجابه العقيد في سرعة:

- الإجراءات الطبيعية.. أرسلنا مقاتلتين لمحاصرته وإجباره على الهبوط حيث نريد.. ولقد تصرف بعصبية شديدة مع مقاتلتينا، وبدا وكأنه سيشتبك معهما، لولا أنه كشف نفاد ذخيرته تماما...

غمغم (حسن) بصوت مبحوح:

- ربما لأنهما من طراز (فانتوم)

بدت الدهشة أكثر على وجه العقيد وصوته، وهو يقول:

- وماذا في هذا؟! معظم طائرات أسرابنا اليوم من طراز (الفانتوم)! هذا أمر طبيعي

تراجع (حسن) في مقعده، متمتما:

- ليس بالنسبة إليه...

انعقد حاجبا (رأفت) أكثر، في حين هتف العقيد في حدة:

- لست أفهم شيئا.

زفر (حسن) زفرة ملتهبة، وهو يشير بيده، قائلاً:

- لا عليك.. واصل قصتك يا رجل...

مط العقيد شفتيه، وهز كتفيه في حنق، وهو يقول:

- لا شيء.. لقد أجبرناه على الهبوط في مطار (ألماظة) الحربي، ولقد بدا شديد العصبية والتوتر، وهو يغادر طائرته (الميج)، وتساءل: هل احتل الإسرائيليون (القاهرة)؟!

وعندما أجبناه بالنفي، تضاعف ارتباكه، وبرزت حيرته أكثر وأكثر، وراح يردد أنه طيار مقاتل مصري، برتبة نقيب، وحدد رقم واسم سربه، ولكننا لم نجد له أي أثر في سجلاتنا كلها...

غمغم (حسن):

- لقد راجعتم سجلاتكم الحديثة فحسب..

قال العقيد في عصبية:

- هذا أمر طبيعي..

أشار (حسن) إليه بسبابته، قائلاً:

- وهنا يكمن الخطأ..

هتف العقيد في حدة:

- أي خطأ؟!

زفر (حسن) مرة أخرى، ونهض من مقعده، ودس يديه في جيبي سرواله، وهو يتجه نحو النافذة ذات الزجاج المزدوج، وتطلع لدقيقة كاملة إلى ذلك الجالس في الحجرة الأخرى، قبل أن يسأل في اهتمام:

- وماذا عن الطائرة؟!

أجابه العقيد في سرعة، وكأنما يريحه الانتقال إلى تلك النقطة:

- طائرة (ميج) سوفيتية، من ذلك الطراز، الذي كنا نستخدمه منذ عشرين عاما، أيام حرب أكتوبر.. ما زالت لدينا بضع طائرات من ذلك الطراز، ولكن حالتها ليست بجودة حالة طائرته، التي تبدو وكأنها لم تستخدم منذ زمن طويل...

سأله (حسن):

- وماذا عن الصندوق الأسود لطائرته؟!

أجابه العقيد:

- الطائرة كلها تخضع للفحص الآن، بما في ذلك صندوقها الأسود وسينبئنا الخبراء بما يجدونه على الفور...

صمت (حسن) طويلاً مرة أخرى، وهو يتأمل الشاب في الحجرة المجاورة، ثم لم يلبث أن تساءل في خفوت:
- كم كان يحوي خزانها من وقود؟!
أجابه العقيد فورا:
- حوالي الثلث وبالمناسبة إنه وقود عتيق الطراز أيضا، من النوع المستخدم في حرب أكتوبر 1973 م. ١٩٧٣ وصمت لحظة بدوره، ثم استدرك في اهتمام:
- ولم تكن هناك أية ذخائر.. لا صواريخ، أو حتى طلقات للمدفع...
انعقد حاجبا (حسن) في شدة، وهو يغمغم:
- عجبا!
لثوانٍ أخرى، غلفهم الصمت التام، وثلاثتهم يتطلعون إلى الجالس في الحجرة المجاورة، عبر الزجاج المزدوج، قبل أن يغمغم (حسن) في حزم:
- فليكن!
ثم التفت إلى مساعده (رأفت)، مضيفا:
- ابدأ في استجوابه الآن.
هتف (رأفت) في دهشة:
- أنا؟!
أجابه في صرامة:
- لماذا تصورتني اصطحبتك إذن؟!
سأله العقيد هذه المرة في حيرة:
- ولماذا لا تستجوبه أنت؟!
صمت (حسن) بضع لحظات، قبل أن يقول في حزم صارم:
- سأدخر المواجهة كإجراء أخير...
وعاد يدير عينيه إلى (رأفت) مضيفا:

- ماذا تنتظر؟! هيا
تنهد (رأفت)، ورفع كفيه وخفضهما في استسلام، قائلاً:
- كما تأمر يا سيد (حسن).
قالها، وغادر المكان، ولم تمض لحظات، حتى رآه(حسن) يدلف إلى الحجرة المجاورة وفي أعماقه، وعلى الرغم من تماسكه ظاهريا، غمغم (حسن):
- مستحيل!
فما يراه أمامه كان مذهلاً بالفعل وبكل المقاييس...

☆ ☆ ☆

3 - الشِق..

كل شيء يبدو هادئا ساكنا، في تلك الساعة من النهار في المنطقة الجبلية المقفرة، جنوب غرب مدينة (قنا)..
ولكن هذا السكون كان يخفى الكثير فبين الصخور الضخمة المتناثرة، في تلك المساحة المكشوفة الواسعة، كان يكمن رجال مكافحة المخدرات، في انتظار وصول بعض المهربين، بناء على معلومات سابقة كلهم كانوا يلتزمون الصمت التام، وعيونهم تلتمع كعيون الصقور، وسط الظلام ورائحة الجبل، وفجأة، حدثت تلك الهزة الأرضية...
هزة مباغتة، تبلغ ما يقرب من الدرجات الخمس بمقياس(ريختر) ([2])، استغرقت ثلاث ثوان فحسب ولكن تأثيرها كان عنيفا للغاية فمع انبعاثها المباغت، خرج بعض رجال الشرطة من مكامنهم، وانكشف الكمين، وفسدت الخطة كلها، وسارع المهربون بالفرار والاختفاء...
وبكل الحنق والغضب، هتف الرائد (يحيى):
- هذا ما كان ينقصنا.. شهران من الإعداد والتخطيط والتدريب، ثم تتحرك الطبيعة في موعد غير مناسب فتُفسد كل شيء.
زفر النقيب (رفعت)، مغمغما:
لا أحد يمكنه الوقوف في وجه الطبيعة.. ربما كان الخير في فشل المهمة هذه المرة.
هتف الرائد (يحيى):
- أي خير؟! هؤلاء المجرمون يفسدون أجيالاً كاملة بسمومهم البيضاء تلك، وفشلنا في الإيقاع بهم اليوم يعني وقوع المزيد من ضحاياهم، في الأيام القادمة...

ربت النقيب (رفعت) على كتفه، قائلاً:
- من يدري؟! ربما أصابهم ما حدث اليوم بالذعر فتوقفوا عن ترويج تلك السموم لبعض الوقت...
قال (يحيى) في مرارة عصبية:
- لو أنهم يفقهون لما..
قاطعه أحد الجنود وهو يهرع إليه بأنفاس لاهثة هاتفا:
- سيادة الرائد.. يبدو أن...
صاح به (يحيى)، مقاطعا في حدة:
- ماذا هناك؟!
بدا صوت الجندي مرتجفا كجسده، وهو يشير بيده، مجيبا:
- شِق يا سيادة الرائد.. الزلزال صنع شِقا في أرض الجبل.
انعقد حاجبا الرائد (يحيى) وهو يرمى بصره إلى حيث يشير الجندي، مرددًا:
- شِق؟!
من موقعه لمح شيئا أشبه بدخان كثيف أحمر اللون، يتصاعد من بقعة ما، على مسافة ستة أمتار منه، في منتصف المنطقة المنبسطة تقريبا وفي شيء من الحذر، لم يدر سببه، اتجه مع النقيب (رفعت) نحو ذلك الشِق ولم يدر لماذا شعر في أعماقه بذلك الخوف المبهم، وهو يتجه نحو الشِق الصغير، الذي لا يزيد طوله على نصف المتر، واتساعه عن عشرة سنتيمترات على الأكثر ولكنه ذلك الدخان المتصاعد منه حتما..
دخان كثيف، أحمر، يبدو أشبه بدماء متبخرة أو بدخان ينزف دما، أو...
«ما هذا بالضبط؟!».
قطع سؤال النقيب (رفعت) تلك الأفكار العجيبة، من التداعي في رأسه، فهز يده بشيء من العصبية، مجيبا:

- مجرد شِق أحدثه زلزال.
ردد النقيب (رفعت)، في دهشة مستنكرة:
- مجرد شِق؟!
ثم استدرك هاتفاً:
- وهذا الدخان العجيب؟!
تطلع الرائد (يحيى) إلى الدخان مرة أخرى، في حيرة تمتزج بنفس الخوف المبهم العجيب، قبل أن يهز رأسه قائلا:
- لست أدرى..
نطقها، وحدق في الدخان مرة أخرى، وخيل إليه أنه يكاد يتشكل في هيئة ما، أو...
«هل نبلغ الوزارة؟!»
مرة أخرى، قاطعه سؤال النقيب (رفعت)، فأجاب في عصبية:
- بالتأكيد..
ثم انتزع نفسه انتزاعا، من أمام الشِق، وابتعد عنه في خطوات سريعة، وهو يضيف، وقد تضاعفت عصبيته، على نحو غير مفهوم:
- اترك (لطفي) و(عبد الرازق) لحراسة المكان ولنعد كلنا إلى (قنا).. هيا..
لم يكد يلقى الأمر، حتى اتسعت عيون الجنديين المكلفين في ارتياع، فصاح بهما النقيب (رفعت) في صرامة:
- ماذا دهاكما؟! إنكما ستحرسان المكان لبضع ساعات فحسب، وسنرسل لكما كل ما تحتاجان إليه من طعام وأغطية.. إننا في وضح النهار...
وعلى الرغم مما قاله، فما إن انطلقت بهم السيارات، عائدة إلى المدينة، وتاركة الجنديين خلفها، حتى أدرك أنه، ولسبب ما، لا يشعر بالارتياح لما يحدث لا يشعر بالارتياح أبدا.

أول ما تفجر في أعماق (رأفت)، عندما دلف إلى حجرة الاستجواب، هو شعور عجيب بالإشفاق، على ذلك الشاب، الذي يرتدي زي الطيارين القديم، والذي هب من مقعده بحركة حادة فور دخوله، وتراجع كمن يواجه خطرا مخيفا، هاتفا:

- من أنت؟! ماذا تريد مني؟!

أشار إليه (رأفت)، قائلاً:

- اهدأ يا رجل.. اهدأ.. أنا هنا لأتحدث معك فحسب بدا مزيج من التردد والتوتر، على وجه الشاب، وهو يقول في عصبية:

- ولكن أين نحن؟! لماذا تغير كل شيء على هذا النحو؟! لماذا تبدو الأمور مختلفة؟! لماذا؟! لماذا؟!

أشار إليه (رأفت) مرة أخرى، وهو يقول:

- اجلس واهدأ أولا، ودعنا نطرح أسئلتنا، ثم نجيب كل أسئلتك...

تردد الشاب لحظة، ثم لم يلبث أن جلس أمامه، وقال في حزم صلب:

- لن تحصل منى على أية معلومات، تخص وحدتي أو بلدي...

ابتسم (رأفت)، قائلاً:

- إنها بلدنا أيضا يا رجل.

سأله الشاب في تردد:

- حقا؟!

كان السؤال يحمل قدرا هائلاً من الحيرة والتوتر، إلا أن(رأفت) تجاهل جوابه تماما، وهو يسأله:

- ماذا حدث بالضبط؟!

تنهد الشاب، قائلاً:

- لقد.. لقد أسقطت الطائرة الرابعة

مال (رأفت) إلى الأمام، متسائلاً:

- ثم ماذا؟!
هز الشاب رأسه، وكست الحيرة ملامحه، وتلك النظرة المطلة من عينيه، وهو يقلب كفيه، مجيبا:
- لست أدرى.. تلك الكتلة البرتقالية ظهرت فجأة واصطدمت بالطائرة الخامسة، في نفس اللحظة التي أطلقت فيها صاروخي نحوها، ثم.. ثم.. ثم
هتف به (رأفت) في فضول:
- ثم ماذا؟!
هز الشاب رأسه في قوة وهو يجيب:
- لست أدرى.. لقد ارتطمت أنا أيضا بتلك الكتلة البرتقالية، ولكن الارتطام كان أشبه بما يحدث، لو أنك قفزت على وسادة ضخمة من الإسفنج الطريّ.. وقبل أن أدرك ما حدث، وجدت نفسي أخترقها، واصطبغ كل شيء حولي باللون البرتقالي، وبدا وكأن.. وكأنني داخل مخ ضخم...
هتف (رأفت) بدهشة بالغ:
- مخ؟!
أومأ الشاب برأسه إيجابا في قوة، وقال:
- وتلافيفه..
- نعم.. مخ بشرى،.. تماما كما كنا نراه في كتب العلوم في المرحلة الثانوية.. مخ اخترقته طائرتي، و...
صمت لحظة، انعقد خلالها حاجباه، وكأنما يحاول اعتصار المعلومات من ذهنه، قبل أن يتابع، في شيء من الحذر:
- وخرجت منه..
سأله (رأفت) في سرعة:
- متى؟!
تطلع إليه الشاب في دهشة، مجيبا:

- فورا بالطبع
مط (رأفت) شفتيه، وتراجع في مقعده، ولوح بالملف الذي كان يحمله منذ دخوله قائلا:
- هناك خطأ في هذه الأوراق إذن
تطلع الشاب إلى الاسم المدون على الملف، وهتف في توتر:
- إنه ملفي..
أجابه (رأفت) وهو يفتح الملف:
- بالضبط.. وملفك هذا يقول إن اسمك (عزت محمد عبد الرحمن شاهين)، الشهير بـ (عزت شاهين).. كنت طيارا مقاتلاً، في القوات الجوية المصرية...
هتف الشاب مستنكرا:
- كنت؟!
تابع (رأفت)، وكأنه لم يسمعه:
شاركت في الضربة الجوية الأولى، يوم السادس من أكتوبر، عام ١٩٧٣ م، تحت كود (نسر - 6)، وبعد الحرب.....
قاطعه الشاب في حدة:
- بعد الحرب؟! ماذا تعنى ببعد الحرب هذه؟! من المستحيل أن تنتهي حربنا مع العدو الإسرائيلي بهذه السرعة.....
ارتفع حاجبا (رأفت)، وهو يهتف:
- سرعة؟! الحرب انتهت منذ زمن طويل يا رجل، وملفك هذا محفوظ هنا منذ ذلك الحين...
هتف الشاب في ذعر مستنكر:
- ملفي محفوظ!
نطقها، وهب من مقعده في حدة، صائحا:
- ما الذي تريد أن تقنعني به بالضبط؟! لماذا تتحدث بهذا الأسلوب؟! ما الذي تريد قوله بالتحديد؟!

فتح (رأفت) الملف، ووضعه على سطح المنضدة، وهو يقول في حدة مماثلة:
- أريد أن أقول: إن هذا هو موقفك الرسمي الآن.
حدق الشاب في صورته داخل الملف، وفي الختم الكبير إلى جوارها، والذي يحمل كلمة واحدة، كادت تزلزل كيانه، وهو يرددها صارخا:
- مفقود؟!
أجابه (رأفت) في صرامة:
- ومنذ عشرين عاما..
اتسعت عينا الشاب عن آخرهما، وتراجع كالمصعوق، حتى ارتطم ظهره بالجدار، وهو يردد بكل هلع الدنيا:
- مفقود؟! منذ عشرين عاما؟! ماذا تقول يا هذا؟! إنها ليست حقيقة.. إنه كابوس.. كابوس بشع...
أتاه صوت من مدخل الحجرة، يقول في حزم:
- هناك وسيلة واحدة لحسم الأمر.
استدار الشاب في حدة، إلى مصدر الصوت، وحدق في ذلك القادم الجديد لحظة، قبل أن يهتف بارتياع أكبر:
- من.. من أنت؟! إنك تشبه صديقي (حسن)، ولكنك.. ولكنك...
لم يمهله (حسن) لإتمام عبارته وإنما اندفع نحوه، وأمسك يده اليسرى، ورفعها إلى عينيه، وحدق لحظة بنظرة عجيبة للغاية، في ذلك الجرح الحديث، في سبابة يد الشاب والذي لم يبدأ حتى في تكوين جلطة الاندمال الأولية، ثم أفلت اليد، ورفع يده هو أمام الشاب، وأشار إلى جرح سبابته، الذي اندمل منذ عشرين عاما كاملة، وهو يقول بلهجة غلبها تأثر واضح:
- ولكنني أكبر سنا.. أليس كذلك؟!

واتسعت عينا (عزت) عن آخرهما، وهو يحدق في وجه صديقه القديم لقد كان لقاء مذهلاً ومستحيلاً تماما...

☆ ☆ ☆

٤- لغز الألغاز..

انعقد حاجبا الرائد (يحيى)، في توتر شديد، عندما وصلت به السيارة، التي تقل مأمور الناحية، ومهندس مصلحة المساحة، إلى موضع الشِق، وهتف في غضب وهو يدير عينيه فيما حوله:

- أين (لطفي) و (عبد الرازق)؟! كيف غادرا المكان، على الرغم من الأوامر؟!

غمغم المأمور بقلق، ونظره معلق بالدخان الأحمر الدموي، الذي بدا كثيفا على نحو كبير ملحوظ:

- ربما يقضيان حاجة هنا أو هناك.

هتف (يحيى) مستنكرا:

- معًا؟!

توقفت السيارة في تلك اللحظة، على مسافة عشرة أمتار من الشِق، فغادرها مكملاً في عصبية:

- سيدفعان ثمن هذا غاليا.. سوف...

بتر عبارته بغتة، عندما لمح بندقية أحد الجنديين، ملقاة إلى جوار الشِق، فاكتسب صوته رنة متوترة، وهو يشير إليها، قائلاً:

- ما الذي يعينه هذا بالضبط؟!

قبل أن يجيب أحد سؤاله، انطلقت شهقة قوية من حلق مهندس المساحة، وهو يهتف:

- وتقولون إنه شِق صغير؟!

دفع (يحيى) قدميه دفعا، إلى حيث يقف المهندس مع المأمور، واتسعت عيناه عن آخرهما، بدهشة لا محدودة لقد اتسع الشِق اتسع بشدة..

طوله الآن لا يقل عن أربعة أمتار، وعرضه يبلغ نصف المتر على الأقل، والدخان الذي يتصاعد منه صار أكثر كثافة على نحو مخيف، على الرغم من أنه يتلاشى بسرعة، دون أدنى أثر، على ارتفاع متر واحد من سطح الأرض أما أعماق الشِق، فقد كانت مضيئة متوهجة، بلون برتقالي عجيب ملحوظ، على الرغم من أن الشمس لم تغرب تماما بعد...

وفي دهشة تحمل رنة ذعر، قال المأمور:

- أعتقد أنه من الأفضل أن نبلغ المسئولين في (القاهرة).. من الواضح أن الأمر يفوق قدراتنا بكثير.

أوما (يحيى) برأسه، قائلاً:

- نعم.. أعتقد هذا.

نقل المهندس بصره بينهما لحظة، ثم انفرجت شفتاه، وكأنما يهم بقول شيء ما، و...

وفجأة، انعقد حاجباه في شدة، واستدار يحدق في الشِق، هاتفاً:

- هل سمعتما هذا؟!

سأله المأمور، في دهشة حائرة:

سمعنا ماذا؟!

أجابه كالمأخوذ:

- النداء.

تبادل المأمور والرائد (يحيى) نظرة دهشة عارمة، قبل أن يغمغم الثاني في حيرة بلا حدود:

- أي نداء؟!

اتجه المهندس نحو الشِق كالمسحور، وهو يجيب:

- نداؤهم.. هؤلاء في الأعماق.. إنهم ينادونني اتسعت عينا المأمور عن آخرهما، وراح يردد في توتر لا محدود:

- لا بد أن نبلغ (القاهرة).. لا بد أن نبلغ (القاهرة) فورا.

أما الرائد (يحيى) فقد اندفع نحو المهندس، وهتف به:
- انتظر يا هذا.. لا تقترب من هذا الشِق.
استدار إليه المهندس بحركة حادة، جعلته يتجمد في مكانه، ثم قال بلهجته العجيبة المأخوذة، وعينيه الزائغتين الشاردتين:
- لا بد أن أذهب.. لا يمكنني ألا ألبي النداء...
ثم عاد يلتفت إلى الشِق، ورفع ذراعيه بمستوى كتفيه هاتفا:
- أنا قادم.
وثب (يحيى) نحوه، صائحا:
- لا.. لا تفعل
خيل إليه لحظة أن الدخان الدموي قد تحول بغتة إلى قبضة دخانية، أحاطت بالمهندس المسكين، ثم جذبته في عنف، ليختفي جسده في الشِق تماما ومع اختفائه، تألق الشِق أكثر وأكثر، بذلك الوهج البرتقالي المخيف ثم اتسع الشِق كله بغتة اتسع ليبلغ طوله ستة أمتار، وعرض ما يزيد على الثمانين سنتيمترا...
ومع اتساعه، تراجع (يحيى) كالمصعوق، في حين أطلق المأمور شهقة قوية، قبل أن يصرخ:
- لا بد أن نبلغ (القاهرة).. فورا...
وكان على حق في ارتياعه هذا؛ فما يراه رهيب رهيبا بحق...

«لم نعثر على حطام طائرتك أبدا...»
نطق (حسن) العبارة في تردد، وهو يتطلع إلى (عزت)، الذي لم يفارقه ذهوله بعد، والذي ردد بلهجة أقرب إلى الشرود:
- حقا؟!
تابع (حسن):

- لقد رأيت ما حدث بعيني.. رأيت طائرتك تغوص في قلب ذلك الكيان الهلامي البرتقالي.. ثم لم يعد هناك أثر لأي شيء.. ولقد ذكرت هذا في تقريري الرسمي، عندما لم تعد من الضربة الأولى، ولكن الحرب كانت قد اشتعلت بالفعل، وتطورت بسرعة، ولم يبال أحد، في خضم القتال، برؤيا غير مؤكدة كهذه...

ترقرقت عينا (عزت) بدموع ثائرة، انحبست خلف أسوار كبريائه، ولكنها أطَّلت مع ارتجافة شفتيه، وهو يسأل:

- كم مضى من وقت.

ازدرد (حسن) لعابه، مجيبا في حذر:

- عشرون عاما.

انتفض جسد (عزت) في عنف، واتسعت عيناه في ارتياع بلا حدود، وهو يصرخ:

- عشرون؟!

ثم هز رأسه في قوة، مضيفا:

- مستحيل! إنها مجرد لحظة بالنسبة لي.. لحظة اخترقت خلالها شيئا ما، ثم خرجت منه.. مجرد لحظة وهب من مقعده في حدة شديدة، صائحا:

- لا.. مستحيل! لا يمكن أن يحدث هذا.. إنه مجرد كابوس.. كابوس بشع...

اقترب منه (حسن) في حذر، وربت على كتفه، قائلاً:

- بل حقيقة يا صديقي.. حقيقة.. صحيح أنها مدهشة مذهلة، مخيفة، وتبدو أشبه بروايات الخيال العلمي إلا أنها حقيقة...

ردد (عزت) في مرارة:

عشرون عاما.. يا إلهي! يا إلهي!

ثم رفع عينيه إلى (حسن) بحركة حادة، متسائلاً:

ولكن من فعلها...

بدت حيرة متسائلة في عينى (حسن)، فأضاف(عزت) في انفعال:
- من انتصر في حرب أكتوبر؟! من؟!
ارتفع رأس (حسن) وارتسمت على شفتيه ابتسامة مزهوة، وهو يجيب:
- نحن.
تألقت عينا (عزت)، وهو يهتف:
- مرحى.
ثم عاد يسأل في لهفة:
- هل استعدنا (القدس)؟!
تلاشت ابتسامة (حسن) وهو يجيب:
- إنهم يتفاوضون من أجل هذا يا صديقي.
هتف (عزت) مستنكرا:
- يتفاوضون؟!
عادت ابتسامة (حسن) باهتة، وهو يقول:
- إنها عشرون عاما يا صديقي، ولقد تغيرت أمور كثيرة، وتطورت أمور أخرى، و...
قبل أن يتم عبارته، تراجع (عزت) بحركة حادة، واتسعت عيناه عن آخرهما، في ارتياع مخيف، فارتبك(حسن)، وقال:
- الأمر ليس بهذا السوء يا رجل.. لقد استعدنا (سيناء) كلها، و...
قاطعه (عزت)، وهو يهتف:
- النداء.
ردد (حسن) مبهوتا:
- النداء؟! أي نداء؟!
اتجه (عزت) نحو باب الحجرة، وبدا مأخوذا مسحورا وهو يردد:
- إنهم ينادونني.. لا بد أن أذهب.. لا بد...

هتف (حسن)، وهو يعترض طريقه:
- تذهب؟! إلى أين؟!
وانعقد حاجبا (رأفت) بشدة، مع مظهر (عزت) العجيب، وهو يواصل طريقه، وكأنما لا يرى (حسن)، ويواصل ترديده:
- لا بد أن أذهب.. لابد.
أمسك به (حسن) في قوة، قائلاً:
- لن تذهب إلى أي مكان.....
ارتفعت يدا (عزت) بغتة، في سرعة مدهشة، وقبض على ذراعي (حسن)، ورفع هذا الأخير عن الأرض في خفة، على الرغم مما يتمتع به من قوة ومرونة، ثم ألقاه جانبا في عنف وفي نفس اللحظة، التي ارتطم فيها جسد (حسن) بالأرض، استل (رأفت) مسدسه في سرعة، واقتحم العقيد وجنوده الحجرة، و...
«لا تطلقوا النار»
صرخ (حسن) بالعبارة، وهو ينهض في سرعة ولهفة، ولكن (رأفت) صاح، وهو يجذب إبرة مسدسه في حزم:
- إنه يسعى للفرار.
أمسك (حسن) معصمه في قوة، صائحا:
- قلت: لا تطلقوا النار
كان (عزت) يواصل طريقه بنفس الشرود والآلية وكأنما لا يشعر بكل ما يدور حوله، فانعقد حاجبا العقيد، وأشار إلى رجاله، قائلاً في صرامة:
- نريده حيًا.
انقضَّ جنديان على (عزت)، فكبل أحدهما ذراعيه في حين دار الثاني حوله في سرعة، ولكن (عزت) انتزع الجندي من خلفه بقوة مذهلة، وضرب به الجدار في عنف وهو يهتف:
- لابد أن ألبي النداء.

وبضربة فنيّة مدروسة، هوى الجندي الآخر على مؤخرة عنق (عزت) بكعب مدفعه الآلي، فزاغت عينا هذا الأخير أكثر، ثم هوى أرضا كالحجر...

وبكل دهشته وحيرته، هتف (حسن):

- ماذا حدث؟! يا إلهي! ماذا حدث؟!

لم يدر أنه، وفي نفس اللحظة التي نطق فيها عبارته، كان الدخان الدموي، المتصاعد من ذلك الشِق في جبال (قنا)، يتموج في عنف، وكأنما يعلن غضبه وثورته أما الشِق نفسه، فقد كان يتسع.. ويتسع..

ويتسع بلا حدود...

☆ ☆ ☆

هـ - الخوف..

«أمر غير معقول على الإطلاق..»
نطق مدير المخابرات بالعبارة في توتر، وهو يعقد كفيه خلف ظهره، متطلعا - عبر نافذة حجرته الواسعة قبل أن يطلق من أعمق أعماقه زفرة حارة، مستطردا:
- طيار تختفي طائرته منذ عشرين عاما، دون أن تترك خلفها أدنى أثر، ثم تعود للظهور فجأة، وهو بداخلها لم يكبر يوما واحدا، ولم يلتئم جرح سبابته بعد! يا لها من قصة! إنها أشبه بروايات الخيال العلمي، ومهاترات السفر عبر الزمن.....
زفر مرة أخرى، قبل أن يلتفت إلى (حسن) متسائلاً:
- هل فحصتم كل الوثائق؟!
أومأ (حسن) برأسه إيجابا، وقال:
- إنه (عزت) الذي أعرفه، وليس شخصا ينتحل شخصيته.. لقد راجعنا بصماته، وبيانات طائرته وحالتها...
تساءل مدير المخابرات:
- ثم؟!
واصل (حسن):
- ليس هناك أدنى شك.. ربما تعجز عقولنا عن إدراك ما حدث أو استيعابه، ولكن (عزت) قفز عشرين عاما في لحظة واحدة، وعاد إلينا...
زفر المدير للمرة الثالثة، متمتما:
- سبحان الله العلي القدير..
قال (حسن)، وصوته يحمل توترا ملحوظا:

- السؤال الآن هو ماذا ينبغي أن نفعل؟! إنه هنا.. في زمننا الحالي، ومن الواضح أن عقله مصاب بلوثة ما، لا يمكننا تفسيرها.. إنهم ما زلوا يحتفظون به، في مطار (ألماظة) الحربي، في انتظار أوامرنا..

هز المدير رأسه، قائلاً:

- بل السؤال الحقيقي هو لماذا؟!

انعقد حاجبا (حسن)، وهو يردد الكلمة في دهشة:

- لماذا؟!

أشار المدير بسبابته، قائلاً:

- نعم يا (حسن).. لماذا؟! لماذا عاد (عزت) للظهور الآن، بعد عشرين عاما؟!

تساءل (حسن) في حذر:

- أتقصد كيف؟!

أجابه المدير في حزم:

- بل لماذا.

ثم ربت على كتفه، متابعا:

- عندما تبلغ مثل عمري، ستتعلم قاعدة مهمة في هذه الحياة، ألا وهي أنه ما من شيء في الوجود يحدث عبثا الله (سبحانه وتعالى) يدير هذا الكون بدقة تعجز عقولنا كبشر عن استيعاب ذرة واحدة منها، ومادام (عزت) قد عاد، فهناك سبب إلهي لعودته حتما.

تساءل (حسن):

- مثل ماذا؟!

هز المدير رأسه، قائلاً:

- قلت لك: إن عقولنا تعجز عن استيعاب الهدف، ولكن ثق بأن الأيام ستجيب هذا السؤال حتما.. ثق بهذا تماما نطقها المدير،

دون أن يدرك أن الجواب سيأتي سريعا بأسرع من كل تصوراته كلها بلا استثناء....

اتسعت عينا الدكتور (جمال)، أستاذ الجيولوجيا ([3])بكلية العلوم، وهو يحدق في ذلك الشِق، الذي كاد يلتهم المنطقة كلها، على الرغم من أن كثافة الدخان الأحمر المتصاعد منه لم تتزايد، وظلت تتلاشي في الهواء، على ارتفاع متر واحد من سطح الأرض...

وبكل دهشته، الممتزجة بشيء من الخوف المبهم قال الرجل:
- إنني لم أقرأ عن شيء كهذا قط.. إنه ليس نشاطا بركانيًا، أو تغيرا جيولوجيا طبيعيا، أو حتى أي شيء آخر.. إنها ظاهرة غير طبيعية، وغير معروفة...
سأله الضابط الموفد من (القاهرة) في قلق:

- هل تعتقد أنه سيزداد مع الوقت؟!
راجع الدكتور (جمال) الأوراق التي أمدوه بها، وعاد يتطلع إلى الشِق الضخم، في حيرة مذعورة،، قائلاً:
- بناء على ما ورد هنا، لم يكن هذا الشِق يزيد على نصف المتر طولاً، وعشرة سنتيمترات اتساعا، في الثالثة إلا عشر دقائق، من ظهر اليوم، وها هو ذا يبدو في حجم بحيرة صغيرة، ونحن بعد في السابعة والنصف مساء، وهذا يعني أنه لو استمر الاتساع على هذا المعدل، فسيلتهم هذا الشِق محافظة (قنا) كلها، خلال يوم واحد، ثم يواصل اتساعه، ليلتهم (مصر) كلها خلال ثلاثة أيام على الأكثر....
حدق الضابط في وجهه، وهو يهتف مستنكرا:
- هل تمزح؟!
هز الدكتور (جمال) رأسه في قوة، مجيبا:
- مطلقا.
اتسعت عينا الضابط في ارتياع، وهو يحدق في ذلك الشِق الهائل، بنظرة ملؤها الخوف، قبل أن يتساءل:
- أهو رأي علمي محض؟!
أومأ الدكتور (جمال) برأسه، وقال في حزم واثق:
- بالتأكيد.
انعقد حاجبا الضابط في شدة، وهو يقول:
- هذا يعني إذن أن الأمر أخطر مما كنا نتصور.. أخطر بكثير..
نطقها بصوت حمل نبرة غريبة. نبرة دهشة، و... وخوف...
☆ ☆ ☆
«لست أذكر حرفا واحدا من كل هذا!!»
نطق (عزت) العبارة بدهشة عارمة، وهو يحدق في شاشة التليفزيون، التي تعرض ما تم تصويره في حجرة الاستجوابات،

منذ بضع ساعات، وتملكه خوف مبهم، وهو يتساءل عما دفعه إلى هذا الهذيان، في حين غمغم (حسن):
- من المؤكد أن القفز لعشرين عاما من الزمن، في لحظة واحدة، يؤدي إلى تغيرات كثيرة...
أدار (عزت) عينيه إليه في حركة حادة، قائلاً:
- تقصد إلى الجنون!
صمت (حسن) لحظة قبل أن يجيب:
- علماء النفس يؤكدون أن تجربتك هذه لا بد أن تترك شيئا من التوتر النفسي...
ردد (عزت) في مرارة:
- التوتر النفسي؟!
هز (حسن) كتفيه، قائلاً:
- الأمر ليس هيئا...
خفض (عزت) عينيه، وتمتم بمرارة أكبر:
- بالتأكيد.
شعر (حسن) بإشفاق وتعاطف شديدين، تجاه صديق عمره، الذي يبدو له وكأنه قد عاد من سبات عميق، استغرق عقدين من الزمان، وتطلع إليه بضع لحظات، في صمت مهيب، قبل أن يسأله في خفوت:
- ألا تذكر شيئا مما حدث؟!
تمتم (عزت):
- لقد أخبرتكم بكل ما أذكره...
قال (حسن) بنفس الخفوت:
- مستحيل!
رفع (عزت) عينيه إليه بحركة حادة، قائلاً بدهشة:
- ألا تصدقني؟!

حاول (حسنّ) أن يبتسم، وهو يجيب:
- هل سبق أن كذبتك؟!
تطلع إليه (عزت) لحظة، ثم لم يلبث أن خفض عينيه، متمتما:
- مطلقاً..
اعتدل (حسن)، وتنحنح، قبل أن يقول:
- ولكن هذا لا يمنع من وجود نقطتي غموض، لا يمكننا إيجاد أي تفسير لهما...
سأله (عزت) في حيرة:
- وما هما؟!
تحرك (حسن) في الحجرة، مجيبا:
- الصندوق الأسود لطائرتك يؤكد إلى حدٍ ما قصتك...
ردد (عزت) في دهشة:
- إلى حد ما؟!
أومأ (حسن) برأسه إيجابا، وقال:
- بالطبع، ففي قصتك، حدث اختراق ذلك الكيان البرتقالي الهلامي، الذي ما زلنا نجهل ماهيته، في لحظة واحدة، ولكن بيانات الصندوق الأسود تقول: إنك قد قضيت داخله ما يقرب من نصف الساعة....
انتفض جسد (عزت) في عنف، وهو يهتف:
- نصف الساعة؟! مستحيل!
واصل (حسن) في اهتمام، وهو يحاول أن يستشف انفعالاته:
الصندوق الأسود سجل الاختراق، ثم سجل صمتا عجيبا، طوال نصف ساعة كاملة، وبعدها سجل ما تلقيته فور خروجك من ذلك الشيء.
اتسعت عينا (حسن) وهو يتمتم
- نصف الساعة؟! يا إلهي!.

شعر (حسن) بما يعانيه صديق عمره، فمال نحوه، وربت على كتفه في رفق:
- حاول أن تتذكر يا (عزت).. حاول أن تعتصر ذاكرتك أكثر، لتخبرنا ماذا حدث، خلال نصف الساعة تلك؟!
بدا (عزت) مأخوذا مذعورا، وهو يردد:
- مستحيل! لا يمكن أن....
بتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه عن آخرهما، وخفق قلبه في عنف نعم.. إنه يذكر شيئا بل أشياء..
أشياء متخبطة، متداخلة، مشوشة
الدم.. النيران.. الدخان الأحمر.. و...
وتلك الأشياء..
أشياء بشعة الخلقة، رهيبة، مخيفة، ترقد داخل..
داخل كبسولات من مادة هلامية عجيبة..
ثم تلك الـ...
لا.. يمكنه أن يسترجع ذلك الجزء من ذاكرته..
لا...
«لا..»
انطلقت الصرخة من حلقه قوية، والعرق ينهمر على وجهه وجسده كالمطر، واتسعت عيناه في ارتياع مذعور، وخوف بلا حدود، فهتف به (حسن) في جزع:
- ماذا حدث؟! ماذا حدث يا صديقى؟!
هب (عزت) من مقعده، هاتفاً:
- إنهم.. إنهم هنا...
سأله (حسن)، وقد اختلطت حيرته بذلك الخوف المبهم:
- من يا (عزت)؟! من هم؟!

اتسعت عينا (عزت) في رعب أكثر، وارتفعت يداه في حركة عنيفة مباغتة؛ لتكتما أذنيه، وهو يصرخ:
- لا.. لا أريد أن أسمع ذلك النداء مرة أخرى...
تضاعف خوف (حسن) وحيرته، وهو يمسك كتفيه، قائلا:
- أي نداء يا (عزت)؟! أي نداء؟!
صرخ (عزت)، وهو يضغط أذنيه أكثر وأكثر:
- لا.. لا أريد أن أذهب إليهم.. لا أريد..
صرخ (حسن) بدوره:
- من هم يا (عزت)؟! من هم؟!
اندفع طبيب المطار إلى الحجرة، في هذه اللحظة فالتفت إليه (حسن) في حدة، هاتفا:
- ماذا ستفعل؟!
أشار الطبيب بالمحقن الذي يحمله، مجيبا:
اطمئن.. إنه مجرد مهدئ؛ حتى لا يتكرر ما حدث ظهر اليوم...
وقبل حتى أن يكمل حديثه هذا، كان قد كشف ذراع(عزت)، وغرس فيه إبرة المحقن وضغط (عزت) أذنيه أكثر وأكثر كان يحاول كتمان ذلك النداء بكل قوته..
ولكن هيهات..
النداء كان يتردد في كل ذرة من كيانه صاخبا مدويا هذا لأنه لا يأتيه من مصدر خارجه إنه ينطلق من أعماقه من أعمق أعماقه ولكن ذلك العقار، الذي حقنه به الطبيب، جعل النداء يخفت ويخفت.. ويخفت..
أخيرا بدأ يشعر بالارتياح، والهدوء، والاسترخاء ومرة أخرى، ولكن بصوت أكثر رفقا، سأله (حسن):
- أي نداء هذا الذي تتحدث عنه يا (عزت)؟! ومن هؤلاء؟!
تطلع إليه (عزت) بعينين نصف مغلقتين، وتمتم:

- أما زال والدي على قيد الحياة؟!
اندهش (حسن) للسؤال، الذي أتى جوابا لسؤاله وغمغم في حيرة:
- نعم.. ما زالا على قيد الحياة، وسنبلغهما أمر عودتك بالطبع، و...
قاطعه (عزت)، وهو يمسك يده بغتة:
- كلا.. لا تفعل..
تضاعفت دهشة (حسن) وهو يغمغم:
- لا أفعل؟! ألا تريد أن تبلغ والديك أمر عودتك؟!
ارتجفت ابتسامة متهالكة على شفتي (عزت)، وهو يقول:
- لقد حزنا طويلاً لغيابي، ولا ينبغي أن يحزنا مرة أخرى.
تراجع (حسن) بدهشة حادة، وهو يقول:
- يحزنا؟! وهل يمكن أن تحزنهما عودتك؟!
هز (عزت) رأسه، وجفناه يلتقيان في تهالك، وهو يجيب:
- بل سيمزقهما اختفائي مرة أخرى يا صديقي
سرت قشعريرة باردة مؤلمة في جسد (حسن)، وهو يهتف:
اختفاؤك مرة أخرى؟! ماذا تعنى بالله عليك؟!
ولم يجب (عزت) هذه المرة..
فقط أغلق عينيه، وترك نفسه يغرق في سبات عميق، تاركا (حسن) خلفه، مع طن من الدهشة والحيرة.. بل أطنان...

☆ ☆ ☆

6 - لماذا؟!

«مستحيل!!»
تسللت الكلمة مع كل انفعالاتها، من بين شفتى (حسن)، وهو يطالع ذلك الفيلم، الذي تم التقاطه للشِق الضخم وغمغم:
- رباه! ماذا يحدث بالضبط؟! (عزت) عند الظهر، ثم هذا الشيء الرهيب؟! ماذا ينتظرنا؟!
أشار إليه المدير، قائلاً:
- الأمران مازالا طي الكتمان والسرية التامة يا (حسن) والسيد الرئيس اقترح بحث احتمال ارتباطهما ببعضهما على نحو ما.. وهو احتمال منطقي ومعقول، لو طبقنا قاعدتنا الذهبية، في عدم الإيمان بتوافق المصادفات وصمت لحظة، قبل أن يتابع في توتر:
- المشكلة أننا نفتقر تماما إلى المعلومات في الحالتين مما يعجزنا حتى عن إيجاد الرابطة بينهما.. كل ما نعلمه هو أن الشِق ما زال يواصل اتساعه، وما زال الكل يرددون أمر ذلك النداء الغامض، الذي تحدث عنه المهندس الذي ابتلعه الشِق و....
قاطعه (حسن)، وجسده ينتفض انفعالاً:
- أي نداء؟!

روى له المدير تفاصيل ما أورده الرائد (يحيى) في تقريره، فاتسعت عينا (حسن) عن آخرهما، وهو يهتف:

- رباه! هذه هي الرابطة بين الحدثين إذن يا سيادة المدير..

لم يكن قد روى لمديره، ما ردده (عزت)، قبل أن يغرق في سباته، فراح يشرح ما حدث بأدق التفاصيل وشاركه عندئذ مديره في انفعاله، وهو يقول:
- النداء هو الرابطة بين الحدثين إذن.. لقد كان سيادة الرئيس على حق.. الحدثان وقعا معا، أو أن أحدهما كان السبب في حدوث الآخر، إما أن الشِق قد جلب (عزت) إلى عالمنا، أو أن اختراقه لحاجز الزمن، هو الذي صنع ذلك الاضطراب، و...
بتر عبارته بغتة، وانعقد حاجباه في شدة وتوتر، فسأله(حسن) في حذر شديد القلق:
- ماذا هناك؟!
تطلع إليه المدير لحظة في صمت، قبل أن يجيب في حزم:
- لو أن هذا الاحتمال صحيح، فسيعني هذا أنه سيتعين علينا القيام بإجراء يمليه علينا ضميرنا وعملنا.
تسلل الخوف إلى قلب (حسن)، وهو يسأل:
- وما هو؟!
شد المدير قامته، وهو يجيب:
- التخلص من مُسبِب الكارثة...
اتسعت عينا (حسن) في ارتياع، قبل حتى أن يكمل المدير:
- من (عزت شاهين).
وهوى قلب (حسن) بين قدميه كالصخر...

☆ ☆ ☆

تلك الأشياء البشعة تنتشر في كل مكان(عزت) لا يجد منها مهربا إنها تطارده. تحاصره.
كل شيء من حوله اصطبغ بذلك اللون البرتقالي وكان من الضروري أن يهرب أن يفر من ذلك المصير البشع.. ولكن تلك الأشياء انقضت عليه من كل صوب...

وها هي ذي تقيد حركته، وتحبس أنفاسه في صدره، فيختنق.. ويختنق.. ويختنق..
هب من رقاده في عنف، وهو يلهث بشدة، هاتفا:
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..
انتبه فجأة إلى شخص يجلس على مقربة من فراشه، في صمت وجمود، فسرت في جسده قشعريرة سريعة وهو يهتف:
- من أنت؟!
أتاه صوت صديقه (حسن)، يقول:
- إنه أنا
وامتدت يده تضغط زر الإضاءة، وهو يضيف بابتسامة باهتة:
- هل نمت جيدا؟!
اعتدل (عزت) جالسا على طرف فراشه، وهو يغمغم:
- أظنني نمت لساعة أو يزيد....
أجابه (حسن):
- ثلاث ساعات وست عشرة دقيقة بالضبط.
تمتم (عزت):
- أظنني كنت بحاجة إلى هذا..
غمغم (حسن) بدوره:
- بالتأكيد..
ران عليهما الصمت، لما يقرب من دقيقة كاملة، وكلاهما يتطلع إلى الآخر، قبل أن يتساءل (عزت) بغتة:
- ما الأمر الثاني؟!
تطلع إليه (حسن) في دهشة، فتابع:
- قلت لي إنه مازال هناك أمران غامضان، أحدهما تلك الفجوة التي سجلها الصندوق الأسود، فما الأمر الثاني؟!

قلب (حسن) شفتيه لحظة، ثم لم يلبث أن مال نحوه، متسائلاً:
- أين ذهبت ذخيرة الطائرة؟!
التقى حاجبا (عزت)، وهو يقول:
- المفترض أن يتبقى صاروخ واحد، ومائة رصاصة على الأقل....
هز (حسن) رأسه، قائلاً:
- لم يكن بها صاروخ واحد، أو رصاصة واحدة.....
ازداد التقاء حاجبى (عزت) وهو يغمغم:
- يا إلهي!
ثم نهض من مكانه، واتجه نحو النافذة، التي أضيفت إليها شبكة من الصلب، وتطلع عبرها متسائلاً:
- أما زلنا في مطار ألماظة؟!
أجابه (حسن) في اقتضاب:
- بلى.
تنهد (عزت)، ولاذ بالصمت بضع لحظات أخرى، قبل أن يقول:
- هل تعلم ما الذي يعنيه اختفاء الذخيرة؟!
سأله (حسن) في اهتمام:
- يهمني أن أعلم.
استدار إليه (عزت)، مجيبا بصوت مرتجف:
- يعني أنهم يدرسون أسلحتنا..
حدق (حسن) في وجهه بدهشة عارمة، قبل أن ينهض من مقعده بحركة حادة، ويتجه نحوه، متسائلاً في عصبية:
- من هم يا (عزت)؟! من هؤلاء الذين تتحدث عنهم طوال الوقت؟!
تطلع إليه (عزت) في تردد وتوتر، وبدا لحظة أنه سيفرغ كل ما بجعبته، إلا أنه لم يلبث أن هز رأسه في قوة، قائلاً:

- لا.. لن يمكنك أن تستوعب هذا
قال (حسن) في توتر:
ما دمت تستطيع استيعابه، فماذا يمنعني من هذا؟!
قلب (عزت) كفيه، قائلاً:
- لست أدرى.. لست أدرى حتى كيف أمكنني أنا استيعابه؟! ربما لأنني رأيت ما لم تره أنت، ومررت بما لم تمر به.
أمسك (حسن) كتفيه، وهو يقول بتوتر زائد:
- صف لي ما رأيته.
هتف (عزت) في مرارة:
- ليتني أستطيع..
ثم أخفى وجهه بكفيه، مستطردا بلهجة أشبه بالبكاء:
- إنني عاجز حتى عن إيجاد الكلمات المناسبة.. لست أدرى كيف يمكنني أن أصف ما شاهدته.. لست أدرى..
حدق (حسن) في وجهه، قائلاً:
- ألم تقل: إنك قد شاهدت ما يشبه المخ البشرى؟!
هتف (عزت):
- في البداية فحسب...
سأله (حسن) في عنف، وكأنما يستحثه على الكلام:
- ثم ماذا؟!
كانت عينا (عزت) محمرتين بشدة، عندما رفعهما إليه، وكانتا تحملان مزيجا من الألم، والحزن، والخوف والرهبة، والذعر، انتقل كله إلى لسانه، عندما قال بلهجة أقرب إلى الضراعة:
- أرجوك يا (حسن).. أرجوك.. لا توقظ ذلك الوحش الرابط في أعماق مخي.. أرجوك...
تراجع (حسن)، قائلاً في حدة:
- ولكن من الضروري أن أعرف.. إنه واجبي.

عض شفتيه في ألم ومرارة، وهو يحاولّ تنظيم أفكاره وإزاحة حزن الدنيا كله عن كاهله، قبل أن يهتف:
- إنك لا تدرك مدى أهمية أن نعرف ما لديك.. لا تدرك أننا نواجه خطرا رهيبا.. خطرا بمثابة....
قاطعه (عزت) في حزن رهيب:
- شِق في أرض (مصر)، يتسع في سرعة، حتى يكاد يلتهمها عن آخرها..
استدار إليه (حسن) بحركة أشبه بالإعصار، وهو يهتف ذاهلا:
- كيف عرفت؟!
هز (عزت) رأسه في انهيار، وهو يغمغم:
- صدقني.. أنا أتمنى معرفة جواب السؤال نفسه..
ثم رفع عينيه الدامعتين إلى (حسن) مستطردا:
- أريد أن أعرف كيف عرفت؟! كيف؟! هل زرعوا كل هذا في عقلي، أم..
بتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه عن آخرهما، وبدا وكأنه يحدق في كيان مبهم خفي، قبل أن يصرخ:
يا إلهي! إنهم يتحركون أسرع مما ينبغي.. ذلك الشِق سيلتهم كل شيء في غضون ساعات قليلة واستدار بجسده كله، يشير إلى النافذة مستطردا:
- قبيل الفجر..
وانتفض جسد (حسن) كله في عنف..
وحدق بدوره في النافذة، وعقله يكرر في أعماقه تلك الكلمات بلا انقطاع..
النهاية آتية لا ريب.
قبل الفجر...

☆ ☆ ☆

7 – الأشياء...

حلَّ الدكتور (جمال) رباط عنقه، في توتر شديد وهو يطالع تقارير الفحص الأخيرة، ومسح عرفا غزيرا عن جبهته ووجهه، وهو يقول:

- النشاط يتزايد على نحو مخيف...

غمغم الضابط المسئول عن العملية، وهو يتطلع إلى الشِق الرهيب، في قلق بالغ:

- والشِق يزداد اتساعا أيضا..

زفر الدكتور (جمال) مغمغما:

- بأسرع مما كنا نتوقع بكثير..

التفت إليه الضابط، وسأله في توتر:

- ألم يمكنكم جمع معلومات كافية عن الموقف؟! ألم تتوصلوا بعد لمعرفة ماذا يحدث داخله؟! أحمم هي التي تسطع هكذا أم ماذا؟!

هز الدكتور (جمال) رأسه، في حيرة عصبية، وهو يجيب:

- لا توجد أية حمم بالداخل، على الرغم من كل الوهج البرتقالي الذي تراه، والأدخنة الحمراء المتصاعدة، بل إننا لا نجد حتى سببا لوجودهما، فطبقا لما أجريناه من فحوص، وباستخدام أحدث ما توفر لنا من أجهزة، يفترض أن هذا الشِق مدخل إلى فراغ ضخم للغاية وعميق بلا حدود.....

هتف الضابط مستنكرا:

- فراغ؟! ويفترض هذا؟! ماذا دهاكم يا رجال العلم؟! ألا ينبغي أن تكون مصطلحاتكم وعباراتكم دقيقة واضحة دوما؟!

أجابه الدكتور (جمال):

- بلى، ولكن هذا عندما يتعلق الأمر بما يمكننا فهمه أو استيعابه، ولكننا أمام ظاهرة مذهلة، لم يمض على حدوثها بضع ساعات، وتتفاقم بسرعة مخيفة، لا تمنحنا حتى فرصة دراستها واستيعاب معطياتها الجديدة....

هتف الضابط:

- ولكن لا بد من إيقاف ما يحدث بأية وسيلة..

قال الدكتور (جمال) في حدة:

- ألديك ما تنصحنا به؟!

صاح الضابط:

- أنتم العلماء.

قلب الدكتور (جمال) كفيه، هاتفا في يأس ومرارة:

- ولقد فعلنا كل ما بوسعنا، وعجزنا عن إيجاد حل..

بلغت عصبية الضابط مداها، وهو يهتف:

- ماذا تعنى؟! هلي سنقف جميعا صامتين، حتى يبتلعنا هذا الشيء الجهنمي بلا رحمة..

صمت الدكتور (جمال) لحظة، وهو يطيل النظر في الشِق، قبل أن يهز رأسه في بطء، مجيبا:

- هناك حل ما حتما.. حل يكمن في مكان ما، أو توقف بضع لحظات، قبل أن يضيف، بصوت حمل كل توتر الدنيا:

- أو في عقل ما..

ربما لم يكن يقصد هذا المعنى حرفيا ولكن عبارته كانت صادقة ودقيقة إلى أقصى حد....

☆ ☆ ☆

لخمس دقائق كاملة، لم ينبس (عزت) ببنت شفة وهو يتطلع في حزن ثقيل عجيب، إلى طائرته الرابضة على أرض مطار (ألماظة)..

وفي أعماقه، كان هناك بركان ثائر، يفيض بحمم من ذكريات بغيضة، ومرارة رهيبة، وخوف مبهم عجيب..
تجربته، التي استغرقت في عالمه عشرين عاما كاملة والتي سجلها الصندوق الأسود لطائرته كنصف ساعة كاملة، كانت بالنسبة إليه هو مجرد لحظات فكيف تركت في كيانه كل هذه الذكريات والمعلومات والمخاوف إذن؟!
كيف؟!
لام
كيف؟!
إنه يعرف كل ما يحدث الآن في وطنه.
في عالمه..
في كوكبه
يعرف كل ما يحدث وكأنه يراه..

أو رآه..
بل ويعرف حتى ما سيحدث، خلال الساعات القليلة القادمة...
يعرف ذلك المصير البشع، الذي أعدته تلك الأشياء للأرض..
المصير المخيف الرهيب، الذي سيبتلع عالما بأكمله إنه شيء لم يعرفه، أو حتى يتخيله، في عمره كله شيء يعجز حتى عن وصفه فتلك الأشياء ليست بشرا أو أية مخلوقات عادية إنها أشياء رهيبة..
رهيبة..
رهيبة..
والمصير القادم أيضا رهيب وإلى أقصى حد وبكل مرارة الدنيا، عض شفتيه، حتى كاد يدميهما وفي أعماقه ترددت صرخة بائسة يائسة لماذا؟!
لماذا عاد، في هذا التوقيت بالذات؟!
لماذا كتب له أن يخوض هذه التجربة الرهيبة؟!
لماذا عاد ليشهد تلك النهاية البشعة لعالمه؟!
لماذا؟!
لماذا؟!
وفجأة، قفز إلى ذهنه خاطر مخيف..
مخيف إلى أقصى حد..
خاطر جعل وجهه يمتقع بشدة، وعينيه تبلغان أقصى اتساعهما، في ارتياع بلا حدود، جعل (حسن) يهتف:
- ماذا أصابك؟!
حدق (عزت) في وجهه، وكأنما ينتبه إلى وجوده لأول مرة، وهو يردد في رعب عجيب:
- يا إلهي! يا إلهي!
أمسك (حسن) كتفيه في قوة، وهو يكرر:

- ماذا أصابك؟!
اتسعت عينا (عزت) مرة أخرى في ارتياع، وهو يقول:
- إنه أنا.
سأله (حسن) في قلق:
- أنت ماذا؟!
خفض (عزت) عينيه، وهو يجيب بصوت أقرب إلى البكاء:
- أنا المسئول عن كل هذا...
جاء دور (حسن)، ليبلغ اتساع عينيه أقصاه، وهو يصرخ:
- أنت؟! ماذا تعني؟!
هز (عزت) رأسه في قوة، هاتفا بكل مرارة:
- لا يمكن أن يكون الأمر مجرد مصادفة.. لا يمكن أن ترتبط عودتي بحدوث هذا، إلا لو كانت هناك رابطة قوية بين الأمرين...
قال (حسن) في حذر:
- هذه نظريتنا أيضا..
انقلبت الأدوار بينهما، وأمسك (عزت) كتفيّ (حسن) هذه المرة، وهو يهتف في انفعال:
- لو أعدت دراسة الأمر، فستجد أن عودتي، واختراقي لكل قوانين الزمن والفيزياء وطبيعة الكون، هي التي حفزت تلك الأشياء على بدء لعبة الإبادة هذه....
ردد (حسن)، في صوت يحمل رنة جزع:
- الإبادة؟!
هتف (عزت):
- نعم.. هذا ما يسعون إليه.. هذا ما جاءوا من أجله الإبادة الشاملة.. إبادة الجنس البشري من الوجود
قال (حسن)، وقد احتبس صوته في حلقه، من شدة الانفعال:

- ولكن لماذا؟!
أجابه (عزت) بانفعال أكثر:
- لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي يجيدونه.. إنهم يجوبون الكون كله، منذ ملايين السنين، لإبادة كل حضارة يمرون بها.. إنهم ليسوا مخلوقات عادية يا صديقي.. إنهم الشر.. الشر نفسه مجسما.....
ردد (حسن) خلفه، في انبهار مذعور:
- الشر؟!
ثم تراجع بحركة حادة، هاتفا:
- أي قول هذا يا (عزت)؟! إنها ليست واحدة من مسرحيات (شكسبير) ([4])، المفعمة بالرموز والأساطير ليست حلما آخر، من أحلام ليالي الصيف.. إنه عالم الواقع يا رجل.. العالم الذي لا يوجد فيه تجسيد صاف، لأية صفة في الوجود..
زفر (عزت)، على نحو خيل لـ (حسن) معه، أن النيران قد انطلقت من حلقه كالتنين، قبل أن يقول:
اطرح كل الفلسفات جانبا، وصدقني.. هؤلاء هم الشر الخالص المجسم..
انعقد حاجبا (حسن) في شدة، وتراجع بضع خطوات وكأنما يلقى نظرة شاملة كاملة على صديق عمره، قبل أن يعتدل في وقفته، ويشد قامته، قائلاً في حزم:
- ربما..
تطلع إليه (عزت)، في صمت واستسلام، ولكنه استدرك بكل صرامة:
- ربما كان ما تقوله صحيحا.. ربما كانت عودتك سببا في تنشيط تلك الأشياء.. ربما.. إنه مجرد افتراض، يفسر ارتباط الحدثين

ببعضهما، ولكن هناك افتراضا عكسيا أيضا، ألا وهو أن استعادتها لنشاطها، هو الذي حررك من السجن الزمني، الذي قضيت فيه نصف ساعة مجهولة وأعادك إلينا....

خفق قلب (عزت)، مع هذا الافتراض الجديد، وهتف:

- هل تعتقد هذا؟!

أجابه (حسن) في حزم:

- كل شيء مجرد افتراض

وصمت لحظة، قبل أن يضيف:

- فيما عدا أنك هنا الآن

زفر (عزت) مرة أخرى، وعاد يخفض عينيه، متمتما:

- السؤال هو لماذا؟! لماذا أنا هنا؟!

تطلع إليه (حسن) لحظة في صمت مشفق، ثم لم يلبث أن اتجه نحوه، وربت على كتفه، مغمغما:

- رئيسي يؤمن بأنك هنا لسبب ما.. سبب لا يعلمه إلا الله (سبحانه وتعالى).

ارتجفت شفتا (عزت) في تأثر، وعاد يرفع عينيه إلى(حسن)، متسائلا في حزن عميق:

- سبب مثل ماذا؟!

حاول (حسن) أن يبتسم، وهو يقول:

- من يدري؟!

هز (عزت) رأسه، مغمغما:

- نعم.. من يدري؟

وتنهد في عمق، قبل أن يضيف:

- ولكن لن يمكنك أن تتصور كم يخيفني أن يتردد ذلك النداء مرة أخرى.. كم أخشى قدومه التالي، وذلك التمزق الذي أشعر به، في كل ذرة من كياني

ثم شهق على نحو مباغت، وهتف:
- إنهم لا يردون أن أبقى على قيد الحياة.. إنهم يسعون لتدميري بأي ثمن.
انعقد حاجبا (حسن)، وهو يقول:
- هنا ينبغي أن نسأل.. لماذا؟!
- أصدقك القول، أن أحد أسباب استمرار احتجازك هنا، هو احتمال جال بخاطرنا، أن يكون سبب وجودك، وتوافق عودتك مع ظهور الشِق، الذي تصنعه تلك الأشياء، هو أنك عين لهم على الأرض، ولكن قولك بأنهم يسعون للقضاء عليك فجر احتمالاً آخر، وسؤالاً آخر وتطلع إلى عينى (عزت) مباشرة، وهو يكمل بمنتهى الصرامة:
- ربما كنت تعرف وسيلة القضاء عليهم.
هوت العبارة على (عزت) كالصاعقة، فتراجع بحركة حادة، هاتفا:
- أنا؟!
قال (حسن) في سرعة:
- نعم.. أنت.. أنت المخلوق الحي الوحيد في عالمنا الذي اخترق كيانهم يوما، وخرج منه حيا.. ربما لأن الطائرة، التي كنت داخلها، هي التي حمت جسدك منهم ليس هذا فحسب، ولكنها منحتك فرصة أن ترى وتدرك.. وتفهم، وتعرف مدى قوتهم وخطورتهم..
ثم مال نحوه، مضيفا بلهجة حازمة للغاية:
- وتعرف نقاط ضعفهم أيضا.
اتسعت عينا (عزت)، وهو يتراجع ويتراجع، وتفجر في ذاكرته بركان من الرءوس والأحداث والذكريات نعم.. لقد استغرق طويلاً، داخل ذلك الكيان البرتقالي الرهيب استغرق أكثر مما

استوعبته ذاكرته في البداية أكثر بكثير استغرق ما كان بكفيه ليرى ويدرك ويفهم وكما لو أن (حسن) قد ضغط زرا خفيا، في أعمق أعمق تلافيف مخه، تحررت كل ذكرياته دفعة واحدة، وانهمرت في مخه كالسيل ومع تدفق الذكريات، راح جسده ينتفض في عنف وينتفض وينتفض..

ثم اتسعت عيناه، على نحو لم يحدث في عمره كله قط.

وانطلقت من كيانه، وعبر حلقه، شهقة قوية..

نعم.. الآن يتذكر كل شيء..

ويعرف كل شيء..

يعرف أن الأمر أكثر خطورة وبشاعة مما كان يتصور أكثر ألف مرة.

☆ ☆ ☆

٨ - القرار...

ارتجت الأرض مرة أخرى بعنف، في تلك المنطقة الجبلية، في جنوب (مصر)، وانهارت مع الارتجاج مجموعة صخور جبلية أخرى، وابتلعها الشِق المتسع دون صوت، وكأنما ذابت في أعماقه، أو تفتتت إلى قطع صغيرة، مع دخانه الأحمر الرهيب، الذي يتألق بذلك الضوء البرتقالي، المنبعث من أعماق الشِق، ليصنع صورة أشبه بالجحيم، جعلت الضابط المسئول يهتف:

- سيرسلون فريقا أكثر تطورا

زفر الدكتور (جمال)، مغمغما:

- لن يكون هناك وقت لهذا..

تجاهل الضابط العبارة، وهو يواصل:

- فريق من رجال الصاعقة سيجازف بالغوص في الشِق لجمع كل المعلومات الممكنة عن أعماقه، و... قاطعه الدكتور (جمال) هذه المرة، هاتفا في ارتياع:

- بالغوص في ماذا؟! ألا تفهم ما يحدث هنا يا رجل؟! ذلك الشِق أشبه بحفرة من حفر النار، تلتهم، وبلا رحمة كل من يقترب منها، فما بالك بمن يغوص فيها..

قال الضابط، في صرامة شديدة:

- لا بد أن نعرف..

هتف الدكتور (جمال):

- ألا توجد وسيلة لذلك، سوى التضحية بفريق من خيرة شبابنا؟!

صاح الضابط:

- إنهم جنود، ومهمتهم حماية هذا الوطن، والدفاع عنه، مهما كان الثمن.. هل تفهم أيها الجيولوجي؟! مهما كان الثمن...
تراجع الدكتور (جمال)، أمام هذه الثورة العارمة، وازدرد لعابه في صعوبة، وهو يغمغم:
- ولكن ما سيفعلونه هو نوع من الانتحار...
صمت الضابط بضع لحظات، وارتجفت شفتاه، وكأنما يحاول السيطرة على انفعالاته، قبل أن يقول في حزم:
- وهم انتحاريون..
وازدرد لعابه، قبل أن يضيف بحزم أكبر:
- وهذا واجبهم..
لم يكد يتم كلمته، حتى سمعا أزير الهليوكوبتر الحربية التي حجبها الظلام المحيط بالمنطقة، والتي لم تلبث أن ظهرت فجأة، وهي تعبر فوق رأسيهما، ورءوس المحيطين بالمكان متجهة نحو الشِق مباشرة، والذي يبعد عن الجميع مائتي متر تقريبا وبحركة ماهرة سريعة، انخفضت الهليكوبتر، وخففت من سرعتها على نحو ملحوظ، ودون أن تتوقف، راح رجال الصاعقة يثبون منها إلى الأرض، بكامل عدتهم وأسلحتهم وانتشروا يحيطون بالشِق في سرعة، على نحو يوحي بأنهم يعرفون مهمتهم جيدا، وتدربوا عليها طويلاً وما إن اكتمل عددهم، حتى ارتفعت الهليكوبتر مرة أخرى، واستعادت سرعتها، وراحت تدور حول المكان وكأنما يراقب من بداخلها الأحداث...

وحبس الدكتور (جمال) أنفاسه، وهو يراقب ما يحدث في انبهار متوتر...

وبدون كلمة واحدة، وبإشارات سريعة حازمة أحاط رجال الصاعقة بالشِق، ثم اتجهوا نحوه في حزم وصلابة يوحيان

بقلوب صلبة باسلة، لا تعرف للخوف سبيلا وبكل القوة، راحوا يقتربون..
ويقتربون..
ويقتربون..
ومع كل خطوة، كان قلب الدكتور (جمال) ينتفض في صدره، وشعوره بالخوف والذعر يتضاعف..
ويتضاعف..
ويتضاعف..
وفجأة، وثب قلبه من بين ضلوعه، وهو يطلق صرخة رعب قوية فبلا مقدمات، وبحركة مباغتة رهيبة، انقسم الدخان الدموي إلى عشرات الأجسام، الشبيهة بأذرع الأخطبوط التف كل منها حول أحد رجال الصاعقة البواسل، في سرعة مذهلة، وجذبه إلى الشِق إلى قلب الجحيم البرتقالي الرهيب وانطلقت من حلوق الرجال صرخة دهشة وانزعاج..
صرخة استغرقت ثواني معدودة..
ثم تلاشت هناك..
في أعماق الشِق.
ومع تلاشيها، ارتجَّت الأرض كلها مرة أخرى..
ثم انطلق الشِق يتسع في سرعة رهيبة ويتسع ويتسع وصرخ الدكتور (جمال)، وهو يعدو بأقصى سرعته:
- سيلتهمنا.. سيلتهمنا جميعا..
انطلق الجميع يعدون، واتساع الشِق يطاردهم كألف ألف شيطان، وبسرعة تتجاوز قوتهم مرتين على الأقل ومن خلفه، سمع الدكتور (جمال) صرخات الرجال، الذين راح الشِق يلتهمهم بلا رحمة أو هوادة، فزادت سرعة عدوه، حتى لقد خيل إليه أنه يعدو بأسرع من قدرات البشر بالفعل ويبدو أن هذا كان

صحيحا؛ لأن قلبه كان يخفق على نحو مخيف رهيب وأخيرا، عجز جسده البشرى عن الاحتمال والمواصلة فسقط..
هوى على وجهه، وهو يصرخ:
- إنها النهاية.. إنها النهاية..
ولكن الارتجاج توقف بغتة، مع آخر حروف صرخته وهدأ كل شيء.
ولثوان، لم يصدق الدكتور (جمال) أنه قد نجا، فظلّ منكمشًا على نفسه، يغلق عينيه في قوة، ويرتجف كطير مبتل، في يوم بارد.
وأخيرا، فتح عينيه وحدق فيما أمامه في ذهول مذعور عندما سمع صوت الضابط المسئول، يقول في خفوت يحمل كل انفعالات الدنيا:
- لم يتبَّق سوانا.
وأمام عيني الدكتور (جمال)، وعلى مسافة عشرين مترا فحسب، كانت حافة الشِق تتألق، بذلك الوهج البرتقالي وتنبعث من خلفها الأدخنة الحمراء القانية.. أما الشِق نفسه، فكان قد اتسع، حتى التهم المكان كله بكل ما فيه ومن فيه وكان هذا يعني أن الدكتور (جمال)على حق..
لا توجد وسيلة وحيدة للنجاة..
أية وسيلة...

☆ ☆ ☆

«أريد استعادة طائرتي..»
نطق (عزت) العبارة، بكل ما تفجر في كيانه من انفعالات، فحدق فيه (حسن) بدهشة، مرددا:
- طائرتك؟! ماذا تعني؟!
لوح (عزت) بذراعيه انفعالاً، وهو يقول:

- أعنى أننى أريد إنهاء الموقف كله.. أريد محو الساعات العشر الماضية، وكأنها لم تكن.. سأقود طائرتي، وأبتعد عن هنا.
هتف (حسن) مستنكرا:
- تقود ماذا؟! هل جننت يا رجل؟! هذا مستحيل تماما أمسك (عزت) ذراعيه في قوة، وهو يقول:
- بل هذا هو الأمل الوحيد يا (حسن).. صدقني.. الأمل الوحيد في أن ينجو عالمنا منهم
حدق فيه (حسن) بدهشة مستنكرة، فتابع (عزت) في انفعال:
- لقد كنت على حق.. أنا وحدي أعرف نقطة ضعفهم أنا وحدى يمكنني الوصول إليها، وسحقهم تماما أرجوك... أريد طائرتي.
ظل (حسن) يحدق فيه لحظة، ثم لم يلبث أن انتزع نفسه منه، وتراجع بحركة حادة قائلا:
- هذا غير ممكن..
وخفض عينيه لحظة، وكأنما يخفى انفعالاً ما، أو يحسم أمرا ما، ثم عاد يرفعهما، قائلاً:
- طائرتك تحت التحفظ، وما زالت تخضع للفحص والاختبار، ومن المستحيل أن قاطعه (عزت) في انفعال:
- افعل شيئا يا (حسن).. أرجوك.. لا تضع الوقت لا تحطم عالمنا؛ لأنك عاجز عن اتخاذ قرار كهذا
ران عليهما صمت مطبق، لما يقرب من دقيقة كاملة، على الرغم من انفعالهما الجارف، وكلاهما يتطلع إلى عينى الآخر، وكأنما يحاول أن يستشف ما يدور في عقله.. دقيقة عصفت فيها عشرات الأفكار والاحتمالات برأس(حسن).. صحيح أن ما يطلبه (عزت) عسير ولكنه ليس مستحيلا فبحكم منصبه، وموقعه،

والصلاحيات التي تم منحه إياها هذا الصباح، كان باستطاعته أن يعيد (عزت) إلى طائرته..
وأن يسمح له بالإقلاع بها أيضا صحيح أن الكل سيعترض على هذا الإجراء، وربما يصفونه بالجنون، كما أن الطيران الليلى ليس سهلاً أو مقبولاً، وخاصة بوساطة مقاتلة عتيقة الطراز كهذه ولكن أحدا - بحكم القانون - لن يملك منعه..
ومن ناحيته، كصديق قديم لـ (عزت)، فهو يميل إلى منحه ما يريد حتى ولو كان هذا ضربا من الجنون ولكن من موقعه، كضابط مخابرات مسئول، لم يكن من الممكن أن يسمح بهذا، قبل أن يتيقن من صحة الأسباب وصدق وسلامة الدوافع و (عزت) يضعه أمام خيار عسير للغاية فالعالم كله يواجه خطر إبادة شاملة، خلال ساعات قليلة وربما كان ما سيفعله (عزت) هو بالفعل الأمل الوحيد في النجاة ربما ولكن هناك أمرا آخر، ينبغي أن يخشاه ذلك النداء الغامض، الذي تحدث عنه (عزت) أكثر من مرة..
ماذا لو أن تلك الأشياء، التي يجهل كينونتها تماما، قد سيطرت على عقل (عزت) بالفعل؟!
وماذا لو أن ما سيفعله بطائرته، سيكون بمثابة إشعال فتيل عملية الإبادة الشاملة، وهو نفسه لا يدرك هذا؟!

احتمال بالغ الخطورة بالفعل ولكن على (حسن) أن يتخذ القرار وبمنتهى السرعة وهذا ليس بالأمر اليسير ليس كذلك أبدا....
وفي بطء يموج بالانفعالات، سأل (حسن):
- ماذا ستفعل بالطائرة؟!
أجابه (عزت) في سرعة وصرامة:
- سأذهب إليهم.. الطائرة ستحميني منهم، كما فعلت من قبل..

ثم انعقد حاجباه، وهو يضيف:
- وأقسم ألا أتوقف، قبل أن أمحو شرورهم، من الكون كله..
ازدرد (حسن) لعابه، وهو يسأل، بصوت أكثر خفوتا:
- وماذا سيحدث لك؟!
تطلع (عزت) إلى عينيه مباشرة، وهو يقول مكررا:
- أريد استعادة طائرتي يا (حسن).. أرجوك..
ارتجفت شفتا (حسن)، وهو يغمغم:
- ليس بهذه البساطة..
اندفع (عزت) نحو النافذة، وأشار إلى المكان خارجها هاتفا:
- هكذا؟! ألق نظرة إذن على عالمنا يا صديقي.. فربما كانت هذه آخر مرة تراه فيها، في حياتك كلها ثم عقد ساعديه أمام صدره، مضيفا في حزم عصبي:
- أعني في حياة الأرض كلها..
ولم يجب (حسن) بحرف واحد...
فالقرار بالنسبة إليه مازال عسيرا..
عسيرا للغاية..

☆ ☆ ☆

النهاية بدأت بالفعل هذا ما أدركه الدكتور (جمال) وهو يحدق مذعورا في ذلك الشِق، الذي راح يتسع في سرعة مخيفة، ودون أن يصحب هذا الاتساع أية ارتجاجات كالسابق.. لقد بدأت المرحلة النهائية ذلك الشِق، بما يكمن داخله، بدأ بالفعل رحلته لالتهام كل ما حوله..
والله (سبحانه وتعالى) وحده يعلم، متى يتوقف هذا متى؟!
وفي توتر بلا حدود، هتف الضابط المسئول:
- رباه! ألا يمكن إيقاف هذا أبدا؟!

كانا ينطلقان مبتعدين، بآخر سيارة سليمة، تبقت في المكان، وعلى الرغم من هذا، فقد كانت حافة الشِق تقترب منهما أسرع. وأسرع.. وأسرع..

وفي يأس غلفه ذعر بلا حدود، غمغم الدكتور (جمال):

- لا فائدة.. لا فائدة..

كان كيانه كله قد انهار بداخله، مع يأسه من النجاة والفرار من ذلك المصير البشع، وفجأة، ظهرت تلك المقاتلة في السماء مقاتلة قديمة، من طراز الميج، سوفيتية الصنع، عبرت السماء بهدير قوى، ثم دارت حول المكان وفي دهشة كبيرة، هتف الضابط المسئول:

- مقاتلة؟! في هذا الوقت من الليل.. ماذا يفعل هؤلاء المجانين؟! هل يفكرون في نسف تلك الفجوة قبل حتى أن يتم كلمته، كانت المقاتلة تنقض بأقصى سرعتها على منتصف الفجوة تماما..

وصرخ الدكتور (جمال):

- رباه! إنهم مجانين بالفعل...

وبداخل المقاتلة، انبعث للمرة العاشرة، ذلك الهتاف التحذيري:

- من القاعدة العسكرية إلى الميج.. عد إلى قاعدتك فورا، وإلا..

قبل أن يكتمل الهتاف، أغلق (عزت) جهاز الاتصال، وهو يقول في صرامة:

- ماذا يمكنكم فعله، أكثر من هذا؟!

قالها، وهو ينطلق بمقاتلته نحو الفجوة، التي غمرتها سحابة رهيبة دموية وبسرعته التي تتجاوز سرعة الصوت، اخترق سحابة الدم..

وعَبَر الفجوة..

كانت مساحة هائلة من الفراغ، اصطبغت كلها بالوهج البرتقالي الرهيب ولكنه لم يتوقف لقد اعتدل بالطائرة، وانحرف إلى اليمين، وواصل انطلاقه عبر فراغ ضخم، بدا وكأنه يحتل كل باطن الأرض تقريبا ولكنه كان يعرف طريقه جيدا وينطلق نحوه مباشرة..

أسرع من الصوت ولاح ذلك الغشاء الأصفر السميك أمامه وبكل قوته وسرعته، اخترقه وانخفضت سرعة طائرته بغتة انخفضت لتتواءم مع معدلات الزمن، داخل ذلك الفراغ الجديد...

وظهرت تلك الأشياء البشعة في كل مكان وبدا المكان كله أشبه بقطعة من الجحيم كل شيء لم يعد كما هو على الأرض كل القواعد والموازين والأسس العلمية اختلت واختلفت فها هو ذا ينطلق بطائرته، بسرعة لا تزيد على مائة كيلومتر في الساعة،

وكأنما يتم عرض المشهد بالتصوير البطيء. إلا أنه لم يفقد تحكمه فيها لحظة واحدة..
والأشياء البشعة تنقض عليه من كل صوب..
وتطلق نداءها..
ذلك النداء، الذي عاد ينطلق من كل خلية من خلاياه ويعتصر مخه بلا هوادة..
ولكنه قاوم..
وقاوم..
وقاوم..
كل جسده بدأ يرتجف في شدة، والعرق الغزير يغمر وجهه وجسده، وذلك النداء الرهيب يلتهم مخه بلا رحمة ولكن الهدف بدا من بعيد ذلك الشيء الشبيه بالمخ البشري، والذي تضاعف حجمه ألف مرة على الأقل، عن ذلك الذي رآه، وهو يخترق ذلك الكيان البرتقالي القديم وبلا تردد، اتجه بالطائرة نحوه وانقضت الأشياء البشعة بعنف أكثر واشتعلت كل خلية من خلايا مخه بذلك النداء الرهيب الذي يحثه على التوقف والتراجع ويدفعه إلى الجنون أو الموت.....
واقتربت مقاتلته من الهدف أكثر وأكثر. وتضاعفت قوة النداء وتمزق مخه أكثر.
ولكنه قاوم بكل إرادته..
بإرادة من فولاذ...
قاوم، لأنه كان يلبي نداء أكثر تأثيرا وقوة.
نداء الوطن والواجب....
لذا فقد واصل طريقه، وغمغم وهو ينقض على الهدف مباشرة:
- لن تظفروا بعالمي أبدا أيها الأوغاد

وعلى الرغم من آلامه وعذاباته، شد قامته، واكتست ملامحه بحزم وحسم، وهو يرتطم بالهدف، و...
وانتهى كل شيء في لحظة واحدة...

☆ ☆ ☆

٩ - الفجر..

كل شيء عاد إلى سابق عهده كل شيء..
وعندما انبلج الفجر، واصطبغ الشفق بألوانه الرائعة، لم يكن قد تبقى، من ذلك الشِق المخيف، سوى أثر صغير في باطن الجبل أثر لم تعد تتصاعد منه أية أدخنة، مما شجع بعض فريق الفحص على الالتفاف حوله، والدكتور جمال يقول:
- سبحان الله (العلي القدير).. يخلق بالفعل ما لا نعلم. ذلك الشيء كان في حجم قرية كاملة، منذ بضع ساعات، ثم ها هو ذا يكاد يتلاشى الآن.. رباه! لن تجدوا مثيلاً لهذا، في أية كتب جيولوجية أو علمية، أو حتى تاريخية..
هز الرائد (يحيى) رأسه، قائلاً:
- من حسن حظنا جميعا أن الأمر قد اندرج تحت بند السرية المطلقة، لأنه كان من المستحيل أن نخبر به أحدا، دون أن يتهموننا بالجنون المطبق...
زمجر الضابط المسئول، قبل أن يقول:
لولا ملابسات الأمر، لما كان من المفترض أن تسمع حتى عن هذا الأمر أيها الرائد.
زفر (يحيى) مغمغما:
- ليت هذا ما حدث.. لا يمكنك أن تتصور كم ستترك فينا هذا التجربة الرهيبة من ذكريات وانفعالات.. ألا ترى تأثيرها على وجوه الكل.. أنت، وأنا، والدكتور (جمال)، وفريقه العلمي، و...
صمت لحظة، ثم استدار يشير إلى صخرة عالية بعيدة ة، جلس فوقها رجل صامت، يتطلع إلى شروق الشمس وأردف:

- وحتى ذلك الغامض، القادم من القاهرة في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كان (حسن) يجلس على تلك الصخرة، محاولا كتمان دموعه وانفعالاته وهو يستعيد لحظاته الأخيرة، مع صديق عمره، الذي فقده مرتين..

«لا تجازف بحياتك يا (عزت).. أرجوك»

«حياتي ثمن رخيص لما ستحققه مهمتي يا (حسن)..»

«لا يمكنني أن أفتقدك مرة أخرى..»

«ولا يمكنك حمايتي أيضا كالسابق.. صدقني.. الموت هو آخر شيء يمكن أن يقلق أمثالنا.. لقد كنا نتوقعه وننتظره مع كل طلعة جوية..»

«كان هذا في أيام الحرب يا (عزت)..»

ارتسمت على شفتي (عزت) ابتسامة باهتة، عندما نطق (حسن) عبارته الأخيرة، وتطلع إليه، قائلا:

- هل نسيت حقيقة الموقف يا صديقي؟! ربما انتهت الحرب بالنسبة لكم، منذ عشرين عاما.. وربما تعيشون اليوم تحت مظلة سلام لم أتصور حدوثه قط، ولا يمكنني حتى قبوله، من الناحيتين، المنطقية والنفسية، ولكن بالنسبة لى الحرب بدأت منذ ما يزيد قليلا على الساعات العشر فمنذ تلك الفترة - بالنسبة لي - خرجت لأقاتل العدو، تلبية لنداء الوطن، ومشاعري ما زالت على حالها.. إنني ما زلت ألبي النداء وتطلع إلى عينيه مباشرة، مضيفا بكل الحزم والحسم:

- نداء الواجب..

على الرغم منه، فرت دمعة من عينى (حسن)، وهو يجلس على تلك الصخرة، مستعيدا حديثهما الأخير وانحدرت على وجهه، فارتفعت أصابعه تمسحها في حزن ومرارة، وهو يتمتم:

- لقد كنت أشجعنا يا صديقي.. كنت أصدقنا، وأروعنا وأكثرنا بطولة.. كلنا كنا نبذل حياتنا في سبيل الوطن، أما أنت، فدفعت حياتك في سبيل العالم كله كانت تلك الدمعة إيذانا بثغرة في مشاعره، انحدرت معها كل دموعه على وجنتيه، وهو يواصل:
- صدقني.. لن أنساك أبدا.. بطولتك الفريدة لن يعلم بها أحد، ولن تشير إليها كتب التاريخ، ولكنني سأذكرك دوما.. سأذكرك، ليس لأننا صديقين فحسب، ولكن لأن بيننا أخوة من نوع خاص ورفع سبابته؛ ليلقي نظرة على الجرح الحديث، في أعلاها، وهو يضيف:
- أخوة دم..
وبلا مقاومة، ترك دموعه الغزيرة تغرق وجهه، وهو يتطلع إلى ذلك الذي لم يكن العالم ليشهده قط، لولا أن لبي صديقه الراحل نداء الواجب إلى الفجر..
الفجر الجديد...

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- ساعة الصفر..
٢ - العودة.....
3 - الشِق..
٤- لغز الألغاز..
هـ - الخوف..
6 - لماذا؟!
7 – الأشياء...
٨ - القرار...
٩ - الفجر..

Notes

[←1]
يستخدم الطيارون في المعتاد نظام عقارب الساعة، لتحديد مواقع الأهداف المحيطة به

[←2]

مقياس (ريختر): نظام لقياس شدة وقوة الهزات الأرضية، ابتكره الجيولوجي الأمريكي (تشارلز ريختر)، عام ١٩٣٥م، وتم تطويره على مدار الزمن، وهو يقيس الطاقة الناجمة عن بؤرة الزلزال، مع وضع بعض العوامل المهمة في الاعتبار، مثل نوعية وقوة الصخور بالمنطقة، وطبيعة استجابتها للهزات الأرضية..

[←3]

جيولوجيا: علم يبحث في أصل الأرض، وتاريخها التركيبي والطبيعي، وكذلك المواد التي تتكون منها، وجميع التغيرات التي وقعت، في أثناء تكونها وتطورها، وأحد فروعها يعمل على رصد التغيرات والنشاطات الأرضية، ودراستها، وتحليل أسبابها ومقدماتها

[←4]

ويليام شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦م): أعظم الشعراء وكتاب المسرح الإنجليز، وله الفضل في أن يحتل الفن المسرحي مكانته المرموقة لم يتم تحديد هويته بالضبط، ولكنه أنتج خلال حياته عددا من المسرحيات، التي ما زالت تحظى بشهرة لا محدودة، ويتكرر إنتاجها مسرحيا وسينمائيا، كل عقد من الزمن على الأقل، ومن أشهر مسرحياته (هاملت) و(عطيل) و(ماكبث)، و(حلم ليلة صيف)..

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الجرثومة

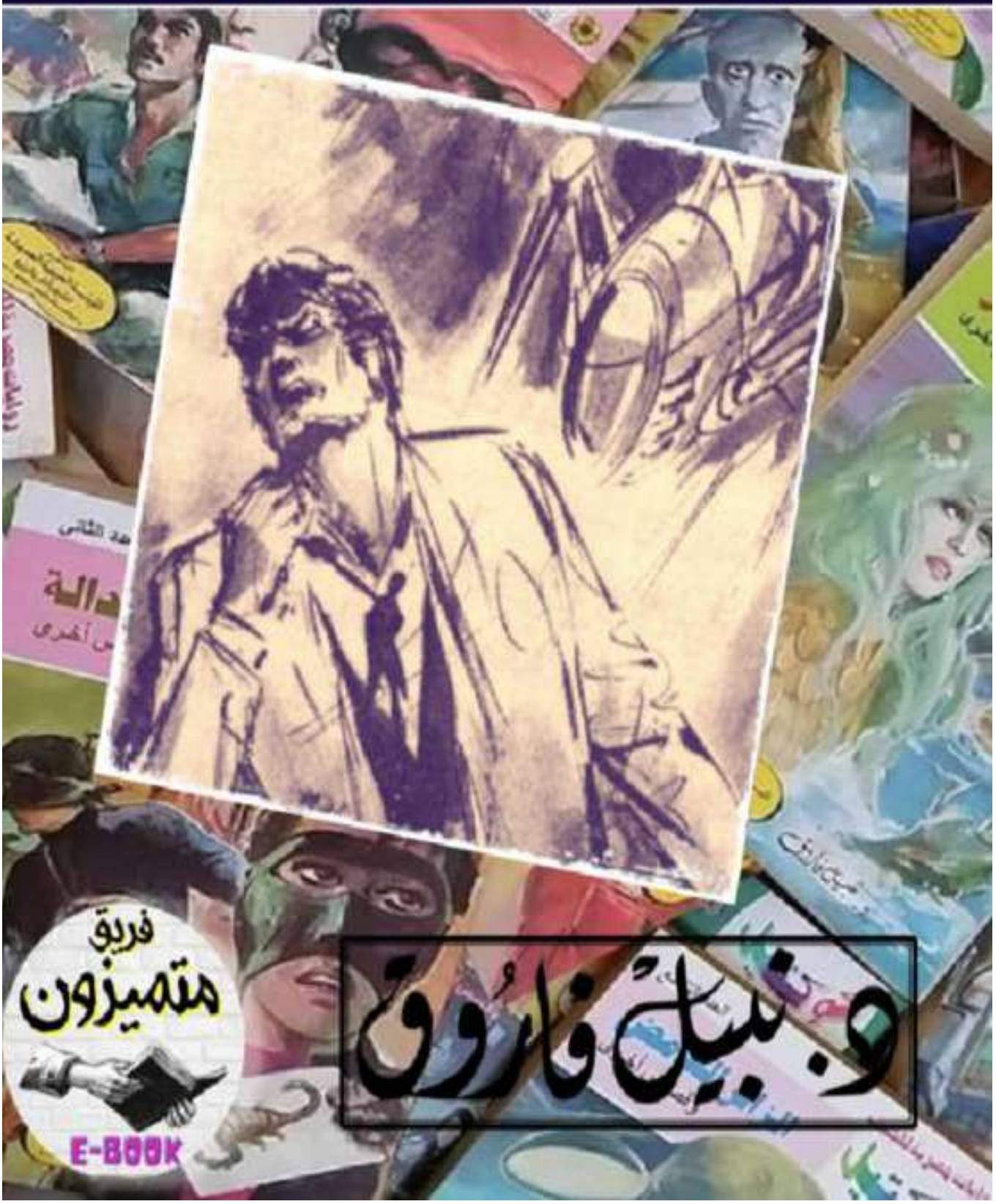

نبيل فاروق

فريق متميزون

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

الجرثومة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- حادث عجيب..

ارتفع صوت سارينة سيارة الإسعاف، وهي تشق شوارع (القاهرة) المزدحمة في صعوبة، وراح الطبيب المصاحب لها يزفر في توتر، وهو يلوح بيده، قائلاً في عصبية شديدة:

- أمر غير محتمل! لابد أن يجدوا حلاً لهذه المشكلة السخيفة.. ليس من المنطقي أن تخرج سيارة إسعاف المفترض فيها أن تسعف مريضا في حالة حرجة عاجلة، فتخوض كل هذا الزحام العشوائي، قبل أن تصل إليه!

لماذا لا يستخدمون الطائرات الهليكوبتر، كما تفعل الدول المتحضرة..

لوح سائق سيارة الإسعاف بيده، وهو يقول في سخرية:

- ربما لأننا لسنا دولة متحضرة.

التفت إليه الدكتور أشرف، بحركة حادة، وهو يقول:

تبدو وكأن الأمر لا يقلقك أبدا.

هز السائق كتفيه في لا مبالاة، قائلاً:

- ولماذا يقلقني؟!

قال (أشرف) في حدة:

- لأن حياة إنسان تعتمد على وصولنا إليه بالسرعة المناسبة.

أجابه بلا مبالاة أكثر:

- وماذا بيدنا لنفعله؟!

انعقد حاجبا (أشرف) في عصبية متوترة، وهو يقول:

- لست أدرى.

ثم استدرك في صرامة:

- ولكن ينبغي أن نحاول.

توقف السائق في إشارة مزدحمة، وعاد يطلق سارينة السيارة بأقصى قوتها، دون أن يبالي به أحد، فقال في سخرية:
- مع هؤلاء؟!
مط (أشرف) شفتيه، وأشاح بوجهه في تذمر، فابتسم السائق في تعاطف، قائلاً:
- الواقع أنك شخص مختلف عما ألفناه يا دكتور (أشرف)، فأنت تولى كل أمر عناية فائقة..
غمغم (أشرف):
- هذا ما ينبغي أن يفعله كل إنسان شريف، يراعى ضميره، ويراعي الله (سبحانه وتعالى).
قال السائق في احترام:
- بالتأكيد.. أنت على حق تماما ولكن يبدو أن الزمن والتطور قد أفسدا فطرة الناس، فلم يعودوا كما كانوا.. هل تعلم أنك أول طبيب يرافق سيارة الإسعاف، منذ زمن طويل؟!
إنهم يعتمدون على المسعفين فحسب..
اعتدل (أشرف) في مجلسه، عندما بدأت السيارات تتحرك، وقال في حزم:
- ما تعلمناه يقول: إن هذا خطأ
هز السائق رأسه قائلا في استسلام:
- بالتأكيد.
توقفت السيارات مرة أخرى، قبل أن تتجاوز سيارة الإسعاف الإشارة، التي استعادت بسرعة ضوء مصباحها الأحمر، فزفر (أشرف) بضجر وغضب، وهو يسأل:
- موقع البناء الذي نقصده خلف ذلك المبنى هناك، أليس كذلك؟!
أومأ السائق برأسه، مغمغما:

- بلى.
لم يكد ينطقها، حتى التقط الدكتور (أشرف) حقيبته، وقفز خارج السيارة، قائلاً:
عظيم.. الحق بي هناك إذن، بعد أن تنفرج الأزمة.
هتف السائق في دهشة:
- ولكن.
ولم تكتمل كلمته، مع اختفاء (أشرف) وسط الزحام، فابتسم، وهز رأسه، متمتما:
- ياله من مقاتل:
أما (أشرف)، فقد راح يسير بسرعة أشبه بالعدو، حتى بلغ موقع البناء، ولمح فريقا من العاملين يلتف حول بقعة ما، فاتجه نحوها مباشرة، وهو يقول في حزم:
- أفسحوا الطريق.. أنا الطبيب.. هيا..
تراجع الرجال في سرعة، وأفسحوا له الطريق، فاندفع بكل اهتمامه وحماسه، نحو عامل ملقى أرضا، وجسده يرتعد وينتفض في قوة، على نحو عجيب، وانحنى ليبدأ فحصه وهو يسال:
- ماذا حدث بالضبط
أتاه الجواب على لسان أحد مهندسي الموقع، وهو يقول في توتر شديد:
- لست أدرى.. لقد كان يعمل مع زملائه، وكل شيء يسير على ما يرام، عندما سمعنا صوت شيء يشق الهواء، ثم رأيناه يصرخ، ثم يسقط أرضا كالصخرة، وهو يمسك عنقه...
انعقد حاجبا (أشرف) وهو يفحص العامل في سرعة قائلاً:
- ما الذي تعنيه بصوت شيء يشق الهواء؟!

تردد المهندس، وبدا عليه مزيج من القلق والحرج، فاندفع أحد العمال يجيب في انفعال شديد:
- رصاصة.. لقد سمعنا صوت رصاصة..
التفت إليه الدكتور (أشرف) في دهشة، قائلاً:
- رصاصة؟!
هز المهندس رأسه في قوة، قبل أن يقول في حدة:
- مجرد تخمين.. لا أحد يمكنه الجزم بشيء كهذا.
اندفع العامل نفسه، يقول في إصرار:
- إنها رصاصة.. لا يمكن أن أخطئ تمييزها.. إنني أسمعها منذ طفولتي، في بلدتنا بالصعيد
صاح به المهندس في عصبية:
- إنا لم نسمع دويا، ولم نر حتى وهجها قال العامل بعناد:
- ربما أطلقت من بعيد.
انعقد حاجبا (أشرف)، وهو يفحص عنق العامل المصاب، بكل دقة واهتمام، وقال في قلق:
- قلتم: إنه كان يمسك عنقه، قبل أن يسقط..
هتف أحدهم:
عقب سماعنا صوت الرصاصة، أمسك عنقه، وأطلق صرخة ألم، ثم سقط دفعة واحدة
أخرج (أشرف) من حقيبته محقنا، وهو يقول:
- ثم راح ينتفض بهذه القوة.. أليس كذلك؟!

هز المهندس رأسه نفيا وقال:

- كلا.. هذه الانتفاضة بدأت منذ ربع الساعة فحسب. توقفت يد (أشرف)، قبل أن يخرج المحقن من غلافه الواقي، وقال في دهشة:

- منذ ربع الساعة؟!

كان الموقف كله يحيره تماما، فقد راجع في ذهنه كل الأعراض، التي يمكن أن ترتبط بالإصابة بطلق ناري، ولكنها لم تكن تنطبق أبدا على الحالة التي أمامه فباستثناء تلك الارتجافة العنيفة، التي تشمل جسد العامل كله، من قمة رأسه، وحتى أخمص قدميه، لم تكن هناك أية ظواهر أخرى واضحة لا تغير في ضغط الدم أو سرعة النبض، ولا ارتفاع في درجة الحرارة، أو معدل التنفس، أو إفرازات عرق زائدة..

ثم راح ينتقض بهذه القوة.. أليس كذلك؟!

بل ولا يوجد أي أثر للإصابة بطلق ناري أو سواه..

على الأقل في الأجزاء الواضحة من الجسد وبالذات العنق، الذي أمسك به الرجل قبل سقوطه ولا توجد آثار دماء، في أي جزء من جسده..

فقط تلك الانتفاضة العجيبة، غير المفهومة

ومن بعيد، سمع صوت سارينة سيارة الإسعاف، التي وجدت أخيرا طريقها إلى الموقع وامتلأت نفسه بحيرة شديدة فلأول مرة في حياته، يعجز عن تشخيص حالة طارئة أمامه ولأول مرة، يجد نفسه عاجزا عن اتخاذ القرار..

حتى قرار العلاج الطارئ..

فبالنسبة إليه، كانت تلك الحالة التي أمامه، أشبه باللغز لغز غامض عجيب للغاية...

☆ ☆ ☆

«إنها حالة تفاعل بيروجيني..»

نطق الدكتور (عبد الحميد) الكلمة في شيء من الحذر، بعد أن انتهى من فحص العامل، في مستشفى الطوارئ، فهز الدكتور (أشرف) رأسه نفيا في قوة، قائلاً:

- مستحيل! حالات التفاعل البيروجينية تنشئا في وجود أجسام غريبة في مجرى الدم، وفي هذه الحالة يحدث انخفاض ملحوظ في ضغط الدم، ويتسارع معدل النبض، وهذا غير موجود في الحالة التي لدينا هنا.....

مط الدكتور (عبد الحميد) شفتيه، وقلب كفيه في شيء من الحيرة، وهو يقول:

- لا يوجد تفسير آخر.. لقد فحصنا المخ، وقمنا بعمل رسم للعضلات، وحقنا الرجل بجرعة مناسبة من عقار (الفاليوم) المهدئ، وكل هذا لم يسفر عن شيء....

تطلع (أشرف) إلى العامل، الذي مازال جسده ينتفض، وتساءل في قلق:

- ألا يحتمل أن يكون هذا مرضا جديدا، لم نعهده من قبل؟!

سأله الدكتور (عبد الحميد):

- وماذا عن صوت الرصاصة، الذي تحدثوا عنه، قبل سقوط الرجل؟! -

تردد (أشرف) بضع لحظات، قبل أن يجيب في حذر:

- ربما هي مجرد مصادفة.

ابتسم الدكتور (عبد الحميد) وربت على كتفه، قائلاً:

- تفسير مريح للأعصاب، ولكنه ليس منطقيا أبدا حاول ألا تلجا إلى ما ينهى المشكلة في أعماقك، إلا عندما تعجز كل السبل عن إنهائها فعليًا.....

انعقد حاجبا (أشرف)، وراح يهضم عبارة أستاذه في ذهنه، وشعر بشيء من الخجل من نفسه، وهو يقول، في شيء من العصبية:

- ولكنني أعدت فحصه بمنتهى الدقة، ولم أجد أثرا لأية إصابة حديثة..

قال الدكتور (عبد الحميد) في هدوء حازم:

- أعده مرة ثالثة..
ثم اعتدل، مستطردا:
- أما الآن، فسنفترض أنها حالة تفاعل بيروجيني، وسنحقن الرجل بعقار الكورتيزون مع جرعة من مضادات الحساسية، وسنعتبر كل هذا اختبارا علاجيًا..
غمغم (أشرف):
- فليكن..
ترك طاقم التمريض ينفذ العلاج المنشود، بعد انصراف الدكتور (عبد الحميد)، وتراجع هو ليجلس على مقعد كبير، في آخر الحجرة، وعقله يعيد دراسة الأمر كله مرة أخرى...
لقد كان الدكتور (عبد الحميد) على حق، عندما أشار إلى أنه قد حاول إراحة ذهنه، بافتراض أن الرصاصة، التي سمعها الجميع، في موقع البناء، كانت مجرد مصادفة فليكن.. سيعيد الافتراض بأنه هناك رصاصة بالفعل أو شيء ما على الأقل شيء اخترق الهواء بسرعة كبيرة، أعطت انطباع الرصاصة، قبل أن يرتطم بعنق العامل ليصيبه بكل هذا..
ارتطم بعنقه...
بعنقه...
ترددت الكلمة في ذهنه عدة مرات، على نحو جعله يهب من مقعده، ويندفع مغادرا الحجرة، وهو يهتف في أعماقه..
نعم.. عنقه..
فقط عنقه..
إنه ليس بحاجة لإعادة فحص جسده كله فقط العنق اقتحم حجرة مكتبه في انفعال، والتقط من درج مكتبه عدسة مكبرة ضخمة، أسرع عائدا بها إلى حجرة الطوارئ، ثم جذب مقعدا، وجلس إلى جوار جسد العامل، وراح يفحص جانبى عنقه

بعدسته المكبرة، وسط دهشة طاقم التمريض كان يفحص كل سنتيمتر في عنق الرجل، بمنتهى الدقة والعناية، ولكن كل شيء بدا طبيعيا، و...
مهلا... هناك شيء ما، عند الجانب الأيسر من العنق فوق الوريد العنقي تماما نقطة صغيرة..
صغيرة جدا..
ترى هل..
لم ينتظر حتى يكتمل تساؤله في أعماقه، وإنما هب من مكانه، وقال لطاقم التمريض، بلهجة عصبية آمرة:
- أريد نقل هذا المريض إلى حجرة الميكروسكوب الجراحي فورا....

هتفت الممرضة في انزعاج:
- فورا؟!
أجابها في صرامة ينقصها الصبر:
- نعم فورا.. خذي عشرة سنتيمترات من دمه، وأرسليها للمعمل، وأخبريهم أننى أريد تحليلا كاملا شاملا.. كل شيء بلا استثناء، ثم انقلوه فورا إلى حجرة الميكروسكوب الجراحي.. وأكرر.. فورا..
اندفع بكل انفعاله وحماسه إلى حجرة الميكروسكوب الجراحي، وقام باستدعاء الفني الذي وصل بعد دقائق خمس، وهو يقول في انزعاج:
- ماذا حدث؟! هل توجد عمليات جراحة ميكروسكوبية للطوارئ؟!
أجابه (أشرف) في صرامة:
- اصمت وقم بعملك فحسب يا رجل.....

همهم الفني بكلمات متبرمة، وهو يعد الميكروسكوب الجراحي للعمل، في نفس الوقت الذي وصلت فيه الممرضة، مع عامل يدفع سرير المصاب، فأشار إليها (أشرف)، قائلا بنفس الانفعال، الذي يأبى أن يفارقه:

- ضعاه هنا

لم يكن يطيق صبرا على فحص عنق الرجل، بعد أن عثر فيه على تلك النقطة الصغيرة جدا، والتي بدت تحت عدسات الميكروسكوب الجراحي أشبه بفجوة مستديرة في جلد العنق، تمتد إلى الوريد العنقي مباشرة، لها أطراف محترقة إلى حد ما، وقد تجمد الدم فوقها مؤخرا إذن فهذا صحيح لقد اخترق عنقه شيء ما..

شيء صغير جدا تقريبا في حجم جرثومة ([1]) ...

اعتدل في مجلسه، وراح قلبه يخفق في قوة، من فرط الانفعال، بعد أن توصل إلى ما رآه بعينه، تحت الميكروسكوب الجراحي وبلا وعى، وجد نفسه يهتف:

الدكتور (عبد الحميد).. أين الدكتور (عبد الحميد)؟!

أجابته الممرضة في حيرة:

- إنه يفحص مرضاه، في قسم الأمراض الباطنية هتف في حماسة:

- لا بد أن يرى هذا.. لا بد أن يرى ما حدث..

صاحت الممرضة بدورها:

- رباه! هذا صحيح.. لقد توقف جسده عن الانتفاض ارتج جسده كله من المفاجأة، وحدق في جسد العامل المصاب في دهشة لقد توقفت انتفاضة جسده بالفعل كيف لم ينتبه إلى هذا؟!

إنه لم يكن ليتمكن تحت الميكروسكوب الجراحي، لو أن جسده يواصل تلك الانتفاضة العنيفة وهذا يعني أن انتفاضته قد تلاشت منذ فترة.

منذ بدأ الكورتيزون ومضادات الحساسية عملهما تفاعلت كل المعلومات في ذهنه، وتصارعت، والتهبت، فهتف، وهو يعدو لمغادرة المكان:

- سأحضر الدكتور (عبد الحميد) ليرى هذا..

انطلق يعدو عبر الممر الطويل، الممتد من حجرة الميكروسكوب الجراحي، وهو يحاول تقييم الموقف مرة، على ضوء المعطيات الجديدة، و...

وفجأة، اخترقت أذنه صرخة قوية مذعورة أخرى صرخة حملت صوت الممرضة، ثم أعقبتها صرخات متواصلة، جعلته يستدير، ويعدو عائدا إلى حجرة الميكروسكوب الجراحي، مع كومة ممن جذبتهم تلك الصرخة القوية، حتى إنه اضطر لشق طريقه بينهم في صرامة قبل أن يندفع داخل الحجرة وانعقد حاجباه في شدة، وهو يحدق فيما رآه هناك لقد كانت الممرضة ملتصقة بالجدار، تواصل صرخاتها المذعورة، وإلى جوارها ذلك العامل الذي شاركها نقل المصاب، في حين كان فني الميكروسكوب الجراحي ملقى أرضا وقد أمسك عنقه، واتسعت عيناه على نحو مذعور، وبكل انفعاله، صاح (أشرف) في الممرضة:

- ماذا حدث؟! ماذا حدث؟!

حدقت في وجهه لحظة بذعر، فأمسك كتفيها، ورجها في قوة، وكأنما ينتزعها من غيبوبة عميقة، وهو يصرخ في وجهها مرة أخرى:

- أخبريني ماذا حدث؟!

انتفض جسدها في عنف، وصرخت:
- لست أدرى.. لقد سمعنا صوت رصاصة، ثم رأيناه يصرخ في ألم ويمسك عنقه، ثم يسقط هكذا واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحدق فيها، ثم
يستدير ليحدق في الفني في ذهول مذعور...
رصاصة...
وصرخة..
وسقوط..
ها هو ذا اللغز يعود من جديد..
وأكثر عنفا وغموضا بكثير..

☆ ☆ ☆

٢ - اللغز...

هز الدكتور (عبد الحميد) رأسه في حيرة، وهو يتطلع إلى فني المعمل، الراقد على فراش الطوارئ، وجسده ينتفض في عنف، وغمغم:

عجبا!

أشار إليه (أشرف)، قائلا في انفعال:

. نفس ما حدث للعامل سابقا.. صوت رصاصة يسمعه الكل، ثم يمسك عنقه، ويصرخ ألما، ويسقط فاقد الوعي، وبعد ربع الساعة أو يزيد، تبدأ تلك الانتفاضة العجيبة، التي تشمل جسده كله، دون أن ينخفض ضغط دمه، أو يعاني تغيرات في النبض أو معدلات التنفس.. أمر يتعارض تماما مع كل القواعد الطبية المعروفة...

أجابه الدكتور (عبد الحميد) في حزم:

ولكنه يمثل مجموعة جديدة من الأعراض، لابد أن نعمل على تسجيلها وتقييمها، باعتبارها إشارة إلى حالة جديدة، لم تعرفها مراجع الطب من قبل...

سأله (أشرف) في عصبية:

- وماذا عن صوت الرصاصة؟!

هز الرجل رأسه مرة أخرى، مغمغما بنفس الحيرة:

- من يدري؟!

عض (أشرف) شفتيه في توتر، وقال:

- على كل حال.. أقترح أن نسير على الوتيرة العلاجية نفسها، مع هذه الحالة أيضا.. سنحقنه بالكورتيزون ومضادات الحساسية، ثم نفحص عنقه، تحت الميكروسكوب الجراحي.. فربما...

قاطعه الدكتور (عبد الحميد) في حزم:
- كلا.. سنحصل على عينة دمه أولا، قبل أن نضيف إليه أية عقاقير طبية..
قال (أشرف) في حماسة:
- بالمناسبة! هل انتهى المعمل من إعداد تقرير فحص عينة دماء العامل؟!
أشار الدكتور (عبد الحميد) بسبابته نفيا، وقال:
- ليس بعد.. لقد طلبت منهم فحصا شاملاً تاما، وهذا يستغرق بعض الوقت، و...
قاطعه وصول الممرضة، في تلك اللحظة، وهي تقول في انفعال:
- لقد استيقظ.
التفت إليها الاثنان في آن واحد، وسألها (أشرف):
- ماذا تقولين؟!
بدت شديدة الانفعال، وهي تهتف:
- العامل المصاب.. لقد استعاد وعيه.. تماما..
لم تمض دقيقة واحدة، على قولها هذا، حتى كان الاثنان في حجرة العامل، الذي بدا شاحبا مرهقا، وهو ينقل بصره بينهما، متسائلاً في قلق، يحمل لمحة من الخوف والتوتر:
- إين أنا؟! ماذا حدث لي؟!
سأله الدكتور (عبد الحميد) في اهتمام:
- ألا تذكر ما حدث؟!
هز الرجل رأسه نفيا، وأشار بيده في ضعف، مجيبا:
أذكر أنني سمعت صوتا أشبه بالرصاصة، ثم شعرت بألم شديد في عنقي، وبقلبي يخفق في عنف، وبعدها استعدت وعيي، لأجد نفسي هنا، و...
توقف فجأة، واتسعت عيناه في ألم، وصرخ:

- لا.. ليس ثانية..
هتف به (أشرف):
- ماذا حدث؟!
أجابه الرجل، في ألم شديد:
تلك التقلصات المؤلمة، في عضلات الساقين.. إنها تحدث كل عشر دقائق تقريبا
انعقد حاجبا الدكتور (عبد الحميد)، و(أشرف) يفحص الرجل في اهتمام، قبل أن يقول الأخير:
- إنها حالة نقص بوتاسيوم على الأرجح..
سأل الدكتور (عبد الحميد) "عامل:
- قل لي يا رجل.. هل تعاني ارتفاعا في ضغط الدم؟!
هز الرجل رأسه نفيا وهو يقول في ألم:
- كلا.
سأله باهتمام أكثر:
- ألا تتناول مدرات البول لسبب أو آخر؟
هتف الرجل بألم شديد:
- مطلقا.. لست أتناول أية أدوية أو عقاقير طبية.....
قال (أشرف) مكررا في حزم:
- إنها حالة نقص حاد في البوتاسيوم.
غمغم الدكتور (عبد الحميد):
- بالتأكيد.
وصمت لحظة، ثم أضاف في حزم:
- ولكن من الواضح أنه لم يكن يعاني منها، قبل أن يصيبه ما أصابه، في موقع العمل التقط التذكرة الطبية للعامل، وخط عليها العلاج اللازم، وطلب من الممرضة تنفيذه فورا، ثم أشار إلى (أشرف)، قائلاً:

هيا.. أظن أنه من الضروري أن نبدأ في فحص فني الميكروسكوب الجراحي.
سأله (أشرف)، وهو يسير إلى جواره في سرعة:
- ألديك تفسير محدود؟!
مط الدكتور (عبد الحميد) رأسه نفيا، وقال:
- بل لدى مخاوف غير محدودة..
لم يحاول تفسير عبارته ولم يحاول (أشرف) أن يسأله لقد لاذ كلاهما بصمت عجيب، وهما يحقنان الفني بالعقاقير الطبية، وينقلانه بمعاونة الممرضة إلى حجرة الميكروسكوب الجراحي.
ومع تلاشي انتفاضته، بدءا في فحص عنقه...
وبانفعال شديد، هتف (أشرف):
- انظر يا دكتور (عبد الحميد).. هناك، عند الوريد العنقي تماما.....
انعقد حاجبا الدكتور (عبد الحميد) بشدة، وهو يحدق عبر عدسات الميكروسكوب الجراحي، في تلك الفجوة الصغيرة، ذات الأطراف شبه المحترقة، التي تغطيها دماء تجمدت حديثا، ثم لم يلبث أن تراجع، وبدا أشبه برجل يحمل هموم الدنيا كلها، وهو مستغرق في تفكير عميق قبل أن يقول في حزم:
- (أشرف).. أظننا نحتاج إلى مساعدة متخصصة..
سأله (أشرف) في قلق حائر:
- ماذا تعني يا دكتور (عبد الحميد)؟!
التقط الرجل من جيبه قلما وورقة، وراح يخط رقم هاتف، وهو يجيب:
- إننا نحتاج إلى شخص متخصص في علم الجراثيم.. ولست أجد في ذهني من هو أفضل من الدكتورة (زينب مختار). ها هوذا رقم هاتفها.. اتصل بها فورا، وأخبرها أننا بصدد كشف

جرثومة من نوع جديد، وستجدها هنا، خلال أقلّ من ساعة واحدة..
ناوله رقم الهاتف، فقال (أشرف) في حماسة:
- سأتصل بها فورا..
جلس على المكتب الصغير، في ركن الحجرة، والتقط سماعة الهاتف، وضغط أزرار الرقم، وفجأة اخترق أذنيه صوت رصاصة..
رصاصة عبرت هواء الحجرة، دون دوى أو وهج..
فقط صوت اختراقها للهواء وبحركة آلية مذعورة، رفع عينيه إلى حيث يجلس الدكتور (عبد الحميد)..
وانتفض جسده كله في عنف، وهو يطلق شهقة رعب قوية..
فعلى عكس الحالتين السابقتين، لم يطلق الدكتور (عبد الحميد) صرخة واحدة فقط أمسك عنقه في ألم، واتسعت عيناه عن آخرهما في ذعر ثم سقط فاقد الوعي، ليعلن مولد ضحية جديدة ضحية للجرثومة..
الغامضة..

☆ ☆ ☆

لم تكد الدكتورة (زينب مختار) توقف سيارتها، في ساحة المستشفى، بعد سبع وثلاثين دقيقة بالتحديد، من مكالمة (أشرف)، حتى هرع إليها هذا الأخير، بوجه شاحب ممتقع، وهو يقول:
- أسرعي يا دكتورة (زينب).. أسرعي بالله عليك أجابته في هدوء عجيب لا يتناسب مع لهفتها لمعرفة ما يحدث:
- إنني أسرع بالفعل، منذ تلقيت مكالمتك.. أخبرني.. كيف حال الدكتور (عبد الحميد) الآن؟!
أجابها، وهو يسرع إلى جوارها، إلى قسم الطوارئ:

نفس الأعراض، التي ذكرتها لك هاتفيا.. فقدان الوعي، ثم ظهور تلك الانتفاضة العجيبة...

سألته:

- وماذا عن فني الميكروسكوب الجراحي؟!

أجابها بحيرة يائسة:

- استعاد وعيه، بعد عشرين دقيقة تقريبا، من سقوط الجرثومة..

الدكتور (عبد الحميد)، وهو يعاني أيضا نقصا حادا، في نسبة البوتاسيوم في الدم.

غمغمت، وهي تحثّ الخطى أكثر:

- عجبا!

وانعقد حاجباها بضع لحظات، في تفكير عميق، قبل أن تقول في حزم:

- وماذا عن تحاليل الدم للحالتين السابقتين؟!

كانا قد بلغا حجرة الدكتور (عبد الحميد)، عندما أجابها:

- بالنسبة للعامل كان كل شيء طبيعيا، باستثناء وجود نسبة عجيبة من الأوزون في الدم، ونقص حاد في نسبة البوتاسيوم، أما بالنسبة للفني، فقد كانت هناك نسبة أقل من الأوزون، مع نقص محدود في نسبة البوتاسيوم، وهذا في العينة التي أخذت منه، قبل حقنه بالكورتيزون ومضادات الحساسية، أما العينة

التي تلت استعادته لوعيه، فلم يتم إعداد التقرير الخاص بها بعد.....
توقفت تلقى نظرة على جسد الدكتور (عبد الحميد)، الذي ينتفض في قوة، قبل أن تردد، وكأنها تتحدث إلى نفسها:
- ترى ما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟!
أدرك (أشرف) أنها توجه السؤال لنفسها، لذا فلم يحاول إجابته، وتركها تستغرق في التفكير وحدها طويلاً، قبل أن تقول في حزم:
- هل حصلتم على عينة من دمه لفحصها؟!
أجابها في سرعة:
- بالتأكيد.
قالت بحزم أكبر:
- عظيم.. أريد منكم أن تعطوه العقاقير الطبية نفسها ولكن ليس الآن.
سألها في حيرة:
- لماذا؟!
أجابته في حزم شديد:
- لا بد من اتخاذ بعض الإجراءات أولاً..
ثم التفتت إليه، تسأله:
- أين حجرة مدير المستشفى؟!
كان من الواضح أنها تمتلك شخصية قوية مسيطرة، وأنها تعرف ما تريده بالضبط، لذا فقد أجابها (أشرف) في سرعة:
- في الطابق الثاني، ولكنك لن تجديه الآن، فالساعة تقترب من الحادية عشرة، وهو ينصرف في الثامنة أجابته في حزم:
- أرسل في استدعائه.. أيقظه من نومه لو اقتضى الأمر المهم أن يأتي إلى هنا فورا.. أخبره أننا نتحدث عن كارثة طبية محتملة، والأمر لا يحتمل أي تأخير...

لم يدر (أشرف) سر قوة هذه الطبيبة الخبيرة، إلا أنه لم يكد يبلغ مدير المستشفى هاتفيًا ما قالته، ويخبره اسمها، حتى وجده يهرع إلى المستشفى لمقابلتها، ويصافحها في احترام بالغ، وهو يقول في توتر شديد:

- الدكتور (أشرف) ذكر لفظ (الكارثة الطبية).. هل لى أن أعلم ما الذي يعنيه هذا؟!

أجابته بلهجتها الواثقة الحازمة:

- يعني أننا نواجه شيئا جديدا غامضا.. جرثومة على الأرجح، لها صفات لم نعهدها من قبل، ونتائج انتشارها لا يعلمها، حتى الآن، سوى الله (سبحانه وتعالى)، ولا بد من اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة، وبمنتهى السرعة جف لعاب المدير، لما سمعه منها، فقال بارتباك شديد:

- وما المطلوب منى بالضبط؟!

أجابته في سرعة، تشف عن تحديد موقفها المسبق:

- أريد حجرة معزولة تماما، ومعملاً متأهبا طوال الأربع والعشرين ساعة، للقيام بكل ما يطلب منه، وأريد أيضا بعض حيوانات التجارب، وبعض المرشحات البكتيرية.

ازدرد الرجل لعابه في صعوبة، وهو يقول:

- هذا يحتاج إلى موافقات عليا، و...

قاطعته في صرامة شديدة:

- فليكن.. اطلب موافقة وزير الصحة، أو حتى رئيس الوزراء شخصيا.. أخبرهما أن الأمر يتعلق بالأمن القومي....

شهق الرجل، وهو يكرر مذعورا:

- الأمن القومي؟!

أجابته بصرامة أكثر:

- بالتأكيد.. من أدرانا أنها ليست وسيلة جديدة، من وسائل الحرب البيولوجية، يحاول العدو اختبار تأثيرها علينا؟!
امتقع وجه مدير المستشفى بشدة، وهو يقول في اضطراب:
- سأتخذ كل الإجراءات اللازمة.
قالت في حزم واثق:
- بالتأكيد..
ثم اتجهت إلى حجرة الدكتور (عبد الحميد)، في خطوات واثقة قوية، تاركة (أشرف) خلفها مبهورا. وبشدة..
ولكن من المؤكد أن انبهاره هذا قد بلغ عشرات أضعاف ما كان عليه، مع ما حدث خلال الساعة التالية فإبلاغ المسئولين أتى ثماره، على نحو لم يتصوره قط، أو حتى يتخيل حدوثه..
ولأن الدكتورة (زينب) قد رفضت تماما فكرة نقل الدكتور(عبد الحميد) إلى أي مكان آخر، وأعلنت عدم مسئوليتها عما يمكن أن يؤدي إليه هذا، فقد حضر فريق طبى فني خاص، لتحويل إحدى حجرات المستشفى إلى منطقة معزولة تماما، عن طريق إحاطتها داخليا بخيمة خاصة معقمة من البلاستيك، لها جانب شفاف تماما للمراقبة والمتابعة، وتم وضع الدكتور(عبد الحميد) داخلها، وجسده ما زال ينتفض في عنف، وبعد توصيل جسده بكل أجهزة الفحص والمراقبة، سمحت الدكتورة (زينب) بحقنه بالكورتيزون، ومضادات الحساسية، ثم طلبت من الكل مغادرة الحجرة تماما، فسألها (أشرف) في دهشة:
- ألن نفحص عنقه؟!
أجابته في حزم:
- ليس الآن..
سألها في عصبية:
- متى إذن؟!

انعقد حاجباها في صرامة، وهي تقول:
- اصمت، وانتظر...
لاذ الجميع بالصمت، وهم يراقبون الدكتور (عبد الحميد)، من خلال الجدار الشفاف للخيمة الواقية، ويتابعون أجهزة الفحص، وإشاراتها، ومؤشراتها، التي أوحت كلها بوجود اضطرابات عنيفة في أداء العضلات..
ولما طال الصمت، برز صوت قوى صارم، يسأل:
- ما الذي ننتظره بالضبط؟!
لم تجب الدكتورة سؤاله، فأضاف في حدة:
- أريد جوابا صريحا...
التفت إليه، تسأله في صرامة:
- ومن أنت بالضبط؟!
وضع بطاقة خاصة أمام وجهها، وهو يجيب بصرامة أكثر:
- العميد (مجدي).. من الأمن القومي.
هتفت مستنكرة:
- وما شأن الأمن القومي بهذا؟!
أجابها في غلظة:
- أنتِ جعلت له الشأن الأكبر، عندما افترضت أنه من المحتمل أن تنتمي تلك الجرثومة الغامضة، التي تسعين لكشفها، إلى حرب بيولوجية محتملة...
انعقد حاجباها في توتر، وانفرجت شفتاها في عصبية على نحو يوحي بأنها ستنفجر في وجهه، إلا أن نظرته الصارمة جعلتها تتراجع في سرعة، قائلة:
- ما زال الاحتمال قائمًا..
قال في صرامة:
- في هذه الحالة، لا بد أن أفهم ما يحدث..

تنهدت في توتر، وأشارت بيدها إلى الدكتور (عبد الحميد)، الذي بدأ جسده يهدأ في وضوح، قائلة:
- إننا أمام حالة عجيبة، وأعراض لم يسجلها أي مرجع طبي من قبل، وهي ترتبط بأمور عجيبة، يصعب تفسيرها، وفقا للمنهج الطبي المعروف..
سألها في اهتمام صارم:
- بمعنى؟!
أكملت، وكأنها لم تسمعه:
- ففي كل مرة، يرتبط الأمر بصوت أشبه برصاصة تعبر الهواء، وهذه هي النقطة الأكثر غموضا، في الأمر كله، إذ إنه من بين كل وسائل انتقال العدوى، التي عرفها تاريخ الطب، لا توجد جرثومة واحدة، تقفز من جسد إلى آخر، مخلفة ذلك الصوت القوى، أو حتى أي صوت آخر..
وانتقال العدوى نفسه أمر غير مفهوم، إذ أنها تنتقل دوما إلى شخص واحد فحسب، ويقترن هذا بشفاء المريض السابق، الذي يعاني نقصا شديدا في نسبة البوتاسيوم، مع وجود أوزون مجهول المصدر في دمه..
قال في اهتمام:
- هذا يعني أننا امام جرثومة جديدة، لم يرصدها أو يسجلها العلم من قبل.
أشارت بسبابتها، قائلة:
- بالضبط.. جرثومة أحادية الإصابة.. لا تترك أي دليل على التكاثر أو النمو، في جسد أية ضحية، وهي تفارق الجسد، إذا ما توقفت عضلاته عن الحركة.
سألها في اهتمام أكثر:
- ولماذا هذا في رأيك؟!

ترددت لحظة، قبل أن تقول في حزم
- لم أجر الاختبارات اللازمة بعد.. ليس لدى الآن سوى نظرية.
قال في حزم:
- أحب أن أسمعها..
قبل أن تنفرج شفتاها، لتجيب عبارته، هتف الدكتور(أشرف) فجأة، في ذعر شديد:
- يا إلهي! انظروا..
استدار الكل إلى شاشات أجهزة الفحص، وخفق قلب الدكتورة (زينب) بمنتهى العنف فوفقا لكل المؤشرات، كان جسد الدكتور (عبد الحميد) ينهار بمنتهى السرعة والعنف...

☆ ☆ ☆

٣ - العدو الخفي..

ضغط الدم كان ينخفض بسرعة مخيفة، ومعدلات النبض تتسارع على نحو رهيب، والعرق يغمر جسد الدكتور (عبد الحميد)، وكأنما انفتحت مسامه العرقية كلها دفعة واحدة، دون سبب معروف...

وبكل ذعرها، هتفت الدكتورة (زينب):

- مستحيل! لقد تم حقنه بعقار الكورتيزون.. لا يمكن أن ينخفض ضغط دمه على هذا النحو..

هتف (أشرف)، وهو يلتقط محقنا في لهفة:

- لا بد من حقنه بالأدرينالين فورا

أمسك العميد (مجدي) معصمه في قوة، قائلاً في صرامة:

مهلاً.. لا يمكنك أن تدخل الخيمة الواقية، دون زي خاص

أشار (أشرف) إلى أجهزة الفحص، صائحا في حدة:

- لا وقت لهذا.. ألا ترى ما يحدث.. لو تأخرنا دقيقة أخرى، سيلقى أستاذي مصرعه هناك.

استل العميد (مجدي) مسدسه، وهو يقول في صرامة أكبر:

- عندما يتعلق الأمر بالأمن القومي، لا قيمة لحياة فرد واحد.

هتفت الدكتورة (زينب):

- هل جننت؟!

صاح بها العميد (مجدي):

- إنني أقوم بواجبي..

دفعه (أشرف) بيده فجأة، وهو يصرخ:

- وأنا أيضا
قالها، ووثب نحو الخيمة الواقية، وجذب سوستة مدخلها في عنف، فأدار العميد (مجدي) فوهة مسدسه نحوه، صائحا:
. فليكن.. أنت أردت هذا..
اندفعت (زينب) نحوه، وارتطمت به في قوة، فسقط معها أرضا، وانطلقت رصاصة مسدسه، لتخترق جدار الحجرة، في نفس اللحظة التي اندفع فيها (أشرف) داخل الخيمة الواقية، وكشف ذراع أستاذه، ليحقنه بعقار الأدرينالين..
وبكل غضبه، صاح العميد (مجدي):
- كيف تجرئين؟!
نهضت الدكتورة (زينب)، قائله في عصبية:
- كيف تجرؤ أنت على قتل إنسان، لأنه يحاول إنقاذ أستاذه؟!
صاح في غضب صارم، وهو ينهض بدوره:
- عندما يتعلق الأمر بأمن (مصر) لا يمكن أن أخاطر بانتشار جرثومة كهذه، مهما كان الثمن.....
هتفت في ضيق:
- وكيف يمكنك أن تحكم على أمر كهذا؟!
وأشارت إلى أجهزة الفحص، مستطردة في حدة:
- هل ترى هذا؟! حقنه بالأدرينالين أعاد معدلاته الحيوية إلى طبيعتها..
هتف غاضبا:
- وماذا عن العدوى؟!
أدارت عينيها في حركة سريعة إلى داخل الخيمة الواقية، وهي تقول في توتر:
- نعم.. ماذا عنها؟

لم تكد تتم عبارتها، حتى سمع الجميع بغتة ذلك الصوت، الشبيه بصوت رصاصة تخترق الهواء، ثم صرخ الدكتور (أشرف) في ألم، وأمسك عنقه، قبل أن يسقط أرضا وبمنتهى العصبية، أدارت الدكتورة (زينب) عينيها إلى العميد (مجدي) مرة أخرى، قائلة:

- لقد حدثت بالفعل.

وكان من الواضح أن الأمر يزداد غموضا أكثر...

وأكثر...

وأكثر...

☆ ☆ ☆

شعر الدكتور (عبد الحميد) بآلام محدودة في أطرافه، وهو يستعيد وعيه في بطء، فتأوه مغمغما:

- ماذا حدث؟!

أتاه صوت يألفه منذ زمن طويل، يقول في حنان:

- حمدا لله على سلامتك..

فتح عينيه، وتطلع إلى وجه الدكتورة (زينب) لحظة قبل أن يبتسم في إرهاق شديد، قائلاً:

- أنتِ؟! ما أجمل أن يقع بصري على وجهكِ، عندما أفتح عيني.

ضحكت ضحكة قصيرة، وضغطت يده في حنان، قائلة:

- مازلت كما أنت، لم تتغير أبدا...

همس في تهالك:

- وما زلت أحبكِ من أعمق أعماق قلبي..

ارتفع حاجباها في تأثر، وهي تتطلع إليه في حنان، قبل أن تبعد يدها عن كفه، وتعتدل في مجلسها، قائلة:

- ولكن هذا لم ينقذ زواجنا من الفشل للأسف..

قال في أسى:

- أنت التي أصررت على الطلاق..
عضت شفتها السفلي، التي ارتجفت قليلا، ثم ما لبثت أن قالت في توتر:
- دعنا من هذا، وأخبرني.. ما الذي شعرت به، بعد أن اخترقتك تلك الجرثومة..
سألها في اهتمام مرهق:
- هل فعل؟
أومأت برأسها إيجابا، وقالت:
- لقد فحصت عنقك بنفسي، تحت الميكروسكوب الجراحي.
ثم مالت نحوه، مستطردة في اهتمام حائر:
- هل تعلم أنها قد خرجت من جسدك، من نفس الفتحة التي دخلت منها، عند وريدك العنقي؟!
لوح بيده في ضعف، قائلاً:
- أمر مثير للاهتمام بالفعل..
ثم تنهد، مضيفا:
- يا إلهي! كم أشعر بالإرهاق.
قالت في تعاطف:
- أمر طبيعي.. نقص شديد في البوتاسيوم، ونسبة عجيبة من الأوزون في الدم.
سألها في اهتمام:
- أهو فيروس جديد كما توقعت؟!
هزت رأسها نفيا، وقالت:
- بل جرثومة غريبة، لم يتم رصدها من قبل، وهي أكبر حجما من الفيروسات أو البكتيريا المعروفة...
سألها:

- وما سر ذلك التفاعل البيروجيني العنيف، غير التقليدي، الذي يحدثه وجودها في الجسم؟!
هزت رأسها، قائلة:
- ليس تفاعلاً بيروجينيًا كما تصورت، بل هو استحثاث مقصود لعضلات الجسم، حتى تنقبض وترتخي بإيقاع سريع يساعد مضخة الصوديوم والبوتاسيوم التبادلية في الخلايا على العمل بكفاءة أكبر....
سألها في دهشة:
- بأي هدف؟!
ابتسمت ابتسامة باهتة، قائلة
- كان ينبغي أن تستنتج أيها العبقري.
حاول ان يعتدل جالسا، وهو يقول:
- سرعة إنتاج البوتاسيوم، الذي تستهلكه الجرثومة بوسيلة ما.
أشارت بسبابتها، قائلة:
- بالضبط.
ثم هزت رأسها مرة أخرى، متابعة:
- أحادية الإصابة هي أكثر شيء يثير اهتمامي، مع وسيلة انتقالها، المصحوبة بصوت الرصاصة أيضا، فهذا يوحى بأننا أمام جرثومة واحدة، لا تتكاثر أو تتضاعف، وهذا أمر لم نقرأ له مثيلاً قط...
جلس على طرف الفراش، ولهث لحظة، وكأنما بذل جهدا خرافيا، قبل أن يسألها:
- بمناسبة أحادية الإصابة.. من يحمل الجرثومة بدلاً منى الآن؟!
ازدردت لعابها، قبل أن تجيب في حذر:
- (أشرف).
انتفض جسده في عنف، وهو يهتف في ذعر:

- الدكتور (أشرف).
أومأت برأسها إيجابا، فوثب من فراشه، هاتفا:
- وتركته وحده! يالك من مستهترة!!
على الرغم من إرهاقه الشديد، راح يعدو إلى جوارها، حتى بلغا حجرة (أشرف)، الذي يرقد داخل الخيمة الواقية وجسده ينتفض في عنف، فاستقبلهما العميد (مجدي) في لهفة، وهو يسأل الدكتور (عبد الحميد):
- هل استعدت عافيتك بهذه السرعة؟!
لم يبد حتى أن الدكتور (عبد الحميد) قد سمعه، وهو يتابع المؤشرات والمنحنيات الإليكترونية لكل الأجهزة، التي تتصل بجسد (أشرف)، فالتفت العميد (مجدى) إلى الدكتورة (زينب)، قائلا في توتر:
- أيعني هذا أن الجرثومة ليست قاتلة؟!
أجابته في سرعة:
- حتى الآن، هي ليست كذلك!
سألها في عصبية:
- ماذا تعنين بكلمة حتى الآن هذه؟!
أجابته في صرامة:
- إننا نواجه جرثومة مجهولة، تتصرف كما لو أنها عدو بالغ الذكاء والحنكة تراجع العميد (مجدي) مبهوتا، وهو يقول:
- جرثومة ذكية؟! أي قول أحمق هذا؟!
لم يرفع الدكتور (عبد الحميد) عينيه عن جسد (أشرف) المنتفض، وشاشات الفحص والمتابعة، وهو يستمع بانتباه إلى الدكتورة (زينب)، وهي تجيب في صرامة:
- عيبكم يا رجال الأمن هو أنكم تنشدون دوما تفسيرا يناسب طبيعة عقولكم ومعارفكم، وترفضون قبول أي أمر يتجاوز حدود

المنطق العادي...
زمجر العميد (مجدي)، قائلا:
- أليس هذا ما يفترض أن يفعله أي إنسان عاقل؟!
أجابته بنفس الصرامة:
امنحنى تفسيرا آخر لما حدث إذن.. لقد حقنت الدكتور (عبد الحميد) بالعقاقير، ثم تركته وحده معزولا، دون أية وسيلة لانتقال الإصابة، وهنا عمدت تلك الجرثومة المجهولة إلى العبث بمعدلاته الحيوية، لإجبارنا على التحرك بالسرعة المناسبة، التي تمنعنا من اتخاذ أية إجراءات وقائية، وتدفعنا إلى المجازفة بدخول واحد منا، يمكن أن تنتقل إليه، بعد أن استنفدت كل ما يمكن استنفاده من البوتاسيوم، وبعد أن منعتها العقاقير الطبية، على نحو أو آخر، من استحثات انقباضات العضلات وتحفيز مضخة الصوديوم والبوتاسيوم التبادلية....
حدق في وجهها لحظة، وقد أربكته تلك المصطلحات العلمية الطبية، ثم لم يلبث أن قال في حدة:
- ربما كان نوعا من الغريزة المتطورة، تماما مثل الثعبان، الذي يتوارى في جحره إذا ما لاح له الخطر...
قال الدكتور (عبد الحميد):
- هذا أمر مختلف..
التفت إليه العميد (مجدي) في حدة، قائلًا:
- كنت أظننا نتحدث عن الأمور المختلفة..
أشار الدكتور (عبد الحميد) إلى (أشرف) الذي يواصل جسده انتفاضاته، قائلاً في حزم:
- أعتقد أن الأمر الوحيد، الذي يستحق أن نتحدث عنه الآن، هو هذا المسكين، الذي سيفقد كل ما بجسده من بوتاسيوم،

لو لم نبادر بحقنه بالكورتيزون، والمواد المضادة للحساسية..
قالت الدكتورة (زينب) في صرامة:
- لن أحقنه بالكورتيزون..
التفت إليها الدكتور (عبد الحميد)، قائلاً:
- ولم لا؟!
أجابته في حزم:
- وفقا لنظريتي.. مضادات الحساسية وحدها هي التي أوقفت عملية استنفاد البوتاسيوم...
عقد ساعديه أمام صدره، وسألها:
- ولم لا يكون الكورتيزون هو ما فعل هذا؟!
عقدت ساعديها أمام صدرها بدورها، وقالت:
- التجربة ستثبت أينا على حق..
قال في حدة:
- هذا دأبك دائما.. العناد دون سند علمى
هتفت محتدة:
- هل نسيت أننى أتمتع بغزيرة الأنثى، التي تجهلونها أنتم أيها الرجال؟!
أطلق ضحكة عصبية ساخرة، قائلاً:
- غريزة الأنثى؟! يا للسخافة! خدعة أخرى غير علمية يروق لكن تصديقها، دون أية دلائل أيتها النساء...
صاحت به:
- الآن أعلم لماذا فشل زواجنا..
صاح بها:
- أما زلتِ تصرين على أننى المسئول؟!
هتف بهما العميد (مجدي) في حدة:

أعتذر عن مقاطعة هذا الحوار اللطيف، ولكن ترى ألديكما وقت لمتابعة الحالة التي أمامكما أم لا؟!
أصابتهما عبارته في مقتل، فبتر كل منهما حديثه دفعة واحدة، وتطلعا إلى بعضهما بشيء من الحرج والخجل قبل أن يلتفتا معا إلى الواجهة الشفافة للخيمة الواقية ويقول (عبد الحميد) في حزم:
- ألم يحن الوقت بعد لحقنه بأي عقار كان؟!
أجابته الدكتورة (زينب)، في شيء من التوتر:
- إنني أنتظر وصول القرد..
استدار إليها بكل دهشته هاتفاً:
- القرد؟! أي قرد؟!
أجابته في سرعة متوترة:
- أريد معرفة ما إذا كانت الإصابة تنتقل عبر البشر وحدهم، أم أنه من الممكن أن تنتقل عبر أي كائن حي سألها في اعتراض عصبي:
- هل ستضعين القرد مع (أشرف)؟!
أجابته بصلابة وصرامة:
- بالضبط..
صاح في حدة:
- هذه أكبر حماقة يمكن أن...
بتر عبارته بغتة، عندما هتفت، وهي تشير إلى رسام المخ الكهربي:
- يا إلهي! انظر...
أدار عينيه في حركة حادة سريعة إلى حيث تشير، ثم اتسعت عيناه في دهشة مذعورة..

فإشارات المخ كانت توحي بأن عقل(أشرف) يشهد نشاطا غير عادى نشاط أشبه بنشاط مخ يعمل في معضلة رياضية شديدة التعقيد، على نحو لا يمكن أن يتناسب مع شخص فاقد الوعي...
وبكل دهشته، غمغم الدكتور (عبد الحميد):
- ترى ما الذي يعنيه هذا بالضبط؟!
صمتت الدكتورة (زينب) بضع لحظات، وهي تحدق في رسام المخ الكهربي، قبل أن تقول بلهجة عجيبة:
- يعني أنها تتصل به عقليا، على نحو أو آخر...
هتف الدكتور (عبد الحميد)، والعميد (مجدي) بها في آن واحد:
- ما هي؟!
التفتت إليهما، مجيبة بحزمها المعهود:
- الجرثومة.
وكان جوابا مدهشا إلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

«أين هو بالضبط؟!»
هذا السؤال هو أول ما طرح نفسه على ذهن (أشرف)، وعقله يبدأ في الشعور بما حوله فعلى الرغم من أنه لم يفتح عينيه بعد، إلا أنه يشعر جيدا بتلك الحركة من حوله إنه داخل غواصة..
نعم.. غواصة تسبح في أعماق البحر، وتتحرك في نعومة مدهشة ولكن ما الذي أتى به إلى مكان كهذا؟!
آخر ما يذكره هو أنه كان يحقن الدكتور (عبد الحميد) بالأدرينالين، عندما سمع صوت الرصاصة، وشعر بشيء حاد ضئيل يرتطم بعنقه ثم لم يشعر بعدها بأي شيء وهذا يعني أن تلك الجرثومة الغامضة قد أصابته فما الذي فعلوه به بعد هذا؟!
هل يستخدمون معه وسيلة علاج مختلفة جديدة؟!

أم أنه...
قبل أن تكتمل أفكاره، سمع صوتا عميقا هادئا، يقول:
أنت ما زلت ترقد على فراشك في المستشفى، فاقد الوعي من المؤكد أنه قد سمع العبارة..
ولكنه لم يسمعها حتما بأذنيه لقد سمعها بعقله..
بعقله وحده..

شيء ما تسلل إلى أعمق تلافيف مخه، وانغرس في مراكز سمعه مباشرة، ونقل إليه العبارة أو الإحساس بها على الأرجح..
ولكن مهلاً..
هذا مستحيل تماما، من الناحية العلمية!
كيف يكون فاقدا للوعي، ويمكنه أن يستوعب الأمر ويشعر به، على هذا النحو شديد الوضوح؟!
أهو مجرد حلم؟!
ولكن فاقد الوعي لا يحلم مثل النائم.. ([2])
«إنه ليس حلما..»
مرة أخرى يتردد ذلك الصوت الهادئ العميق في عقله مباشرة..

«أين أنا إذن؟!»
هو الذي ألقى السؤال عبر عقله هذه المرة، ودون أن يفتح شفتيه، على نحو لم يعهده، أو يختبره في نفسه من قبل قط وهذا أدهشه بشدة وأثار حيرته إلى أقص حد...
«جسدك ما زال يرقد على فراش المرض، يواصل انقباضات عضلاته، حتى يمدنا بالبوتاسيوم اللازم.. أما عقلك، فهو معنا هنا..»
تردد الصوت الهادئ العميق مرة أخرى، في أعمق أعماق مخه، فتساءل، دون أن يفتح شفتيه أيضا:
- معكم؟! من أنتم؟! وكيف تتصلون بعقلي هكذا؟!
أتاه الجواب مقتضبا، أكثر هدوءا وعمقا:
- نحن من تطلقون علينا ذلك الاسم..
تساءل بعقله:
- أي اسم؟!
وجاء الجواب أكثر عمقا بكثير:
- الجرثومة
وانتقلت الانتفاضة إلى عقله بمنتهى العنف...

☆ ☆ ☆

٤- الاتصال...

انهمكت الدكتورة (زينب) تماما، في فحص قرد الشمبانزي الصغير ([3])، وإعداده للتجربة، في حين راح الدكتور (عبد الحميد) يتطلع إلى مؤثرات رسام المخ الكهربي، وهو يقول في قلق:

- ما زال النشاط المخي مستمرا.

غمغمت في شرود:

- عظيم.

التفت إليها، هاتفا في استنكار:

- عظيم؟!

أجابته في ثقة أحنقته:

بالطبع.. هذا يعني أن الاتصال العقلي مستمر...

هتف في حدة:

اتصال عقلي؟! من أين تأتى عالمة مثلك بهذه الخزعبلات؟!

غمغم العميد (مجدي):

- هذا ما أتساءل عنه...

استدارت الدكتورة (زينب)، تنقل بصرها بينهما في حنق، قبل أن تعتدل، مشيرة إلى الممرضة، وقائلة في صرامة:

استعدوا لإدخال الشمبانزي، وحقن الدكتور (أشرف) بمضادات الحساسية ثم عادت تستدير إليهما، قائلة في حدة:

عندما يتطور عقل العالم، وتزداد خبراته، يصبح أكثر قدرة على تصور ما يتجاوز حدود إدراك الشخص العادي قال الدكتور (عبد الحميد) في صرامة:

- هذا ليس منطقا علميا...

ثم أضاف بشيء من السخرية:
- ولا يتناسب حتى مع غريزة الأنثى
احتقن وجهها في غضب، وهي تهتف:
- يا لك من حاقد!
صاح مستنكرا:
- حاقد؟! أنا؟!
زفر العميد (مجدي)، قائلا في حدة:
- هل ستعاودان الشجار؟!
انعقد حاجباها، وزمت شفتيها في شدة، في حين زفر الدكتور (عبد الحميد) بدوره، قائلا:
- كلا.
ثم أشاح بوجهه، نحو الجانب الشفاف من الخيمة، مستطردا، وكأنه يصرف ذهنه عن الأمر:
- الشمبانزي بالداخل، وها هي ذي الممرضة تحقن(أشرف) بمضادات الحساسية التقطت الدكتورة (زينب) نفسا عميقا، لتسيطر على أعصابها المتوترة، قبل أن تقول في حزم:
- فلنتابع إذن ما سيحدث..
قالتها، وهي تدير عينيها إلى رسام المخ الكهربي وتتساءل في أعماقها تُرى ما الذي يدور في عقل (أشرف) الآن بالضبط؟! وماذا يحدث هناك في أغواره؟!
ماذا؟!
ماذا؟!

☆ ☆ ☆

«مستحيل!»
انطلق الهتاف من أعماق مخ (أشرف)، قبل أن يكمل، دون أن يفتح شفتيه:

- مستحيل أن أتحدث إلى جرثومة! الجراثيم كائنات دقيقة، بسيطة التركيب، ليست بها أجهزة معقدة، تتيح لها التفكير والتحدث أتاه الجواب في تلافيف مخه، بذلك الصوت الهادئ العميق:
- أنتم تصورتم أننا مجرد جرثومة، ولكن واقعنا ليس كذلك أبدا.
تساءل في حيرة ولهفة:
- ما أنتم إذن؟!
خيل إليه أن فترة طويلة من الصمت قد مضت، قبل أن ينبعث ذلك الصوت العميق من أعماق مخه، قائلاً في بطء:
- من الصعب أن تستوعب..
هتف من أعماقه:
- يمكنني أن أحاول..
قال الصوت العميق:
- لا توجد سوى وسيلة واحدة لهذا.
هتف بكل لهفة:
- وما هي؟!
عاد ذلك الصوت العميق يصمت طويلاً مرة أخرى، قبل أن يجيب بلهجة حازمة:
- أن تصبح واحدا منا..
لم يكد يتم عبارته، حتى شعر (أشرف) وكأنه قد سقط بغتة في بئر عميقة..
عميقة بلا قرار..
كان ينزلق داخلها، في منحنيات حادة، وبسرعة مدهشة، وكأنه يهوى من ارتفاع ألف ألف متر.
والعجيب أنه لم يشعر بالخوف أي خوف..

شيء ما في أعماقه، أو مخه، أو في كيانه كله، جعله يدرك أن ما يحدث لن يسبب له الضرر أدنى ضرر..
ثم فجأة، بدا وكأنه قد ارتطم بكيان رخو رطب أو بخلايا مخ آخر وبلا مقدمات، انفتحت بصيرته على رؤيا واضحة جدا..
وعجيبة جدا..
وبلا مقدمات أيضا، وجد نفسه واحدا من طاقم سفينة فضائية عجيبة.. كانوا أربعة ملاحين.. اثنان يجلسان في المقدمة، أمام نافذة زجاجية كبيرة، وهو يجلس مع آخر في المؤخرة..
لم يكونوا بشرا..

ولكن هيئتهم كانت قريبة للغاية من البشر نفس التكوين التشريحي المتناسق، باستثناء أصابع اليد الثلاثية، والوجه ذي العينين الضخمتين الواسعتين، والبشرة الصفراء الشاحبة، والرأس الأصلع الحرشوفي حتى هو، كانت له الهيئة نفسها....

وكان يشعر وكأنه منذ الأزل واحد منهم لقد أوصلوا عقله بعقل أحدهم غاصوا به في ذاكرتهم؛ ليعرف قصتهم كلها..
سفينة الفضاء كانت تنطلق بين النجوم بسرعة خرافية، ولكن الكواكب من حولها بدت ضخمة..
بل هائلة..
وإلى أقصى حد.
ولأنه يغوص في عقل أحدهم، فقد فهم السر إنهم كائنات صغيرة للغاية، في حجم الفيروسات، وسفينتهم الفضائية كلها لا يزيد حجمها عن حجم جرثومة صغيرة.
ومن بعيد، ظهر كوكب (الأرض)..
وبسرعة تقترب من سرعة الضوء، انطلقت سفينة الفضاء الجرثومية نحوه.
لم يكن بنية الملاحين قط الهبوط فوقه، نظرا لجاذبيته الرهيبة، بالنسبة لحجم سفينتهم..
وخارج مدار جاذبية (الأرض)، توقفت السفينة الفضائية الدقيقة، وراحت ترصد الحياة على كوكب الأرض، بوسائل تكنولوجية شديدة التقدم..
كانوا، على ضآلة أحجامهم، يمتلكون تكنولوجيا تفوق تكنولوجية (الأرض) بعشرات المرات..
وكانت لديهم بالفعل معلومات كثيرة فائقة عن (الأرض)..
لا ريب في أنهم يراقبونها منذ سنوات طوال..
ربما أطول مما يمكننا أن نتصور
فبحجمهم هذا، يستحيل أن ترصدهم أية وسيلة رصد مهما بلغت دقتها كوكب الأرض نفسه، وهم يقفون خارج مدار جاذبيته، كان يملأ الفضاء كله أمام عيونهم، كما لو أنه عالم كامل أزرق اللون بلا حدود...

واسترخي ذهن (أشرف) تماما، وهو يتابع هذا..
ثم فجأة، عبر ذلك النيزك الصغير إلى جوار السفينة ومستها فحسب ومع حجمها الجرثومي، اختل توازنها تماما، واندفعت نحو (الأرض)، وملاحوها يبذلون جهدا خرافيا للسيطرة عليها، واستعادة توازنها ولكن السفينة سقطت في مجال جاذبية الأرض. وراحت تهوي..
وتهوى..
وتهوى..
بمنتهى العنف..

☆ ☆ ☆

«إشارات المخ تشير إلى تضاعف مفاجئ للنشاط»
نطق الدكتور (عبد الحميد) العبارة في قلق شديد، فهزت الدكتورة (زينب) رأسها، مغمغمة في حيرة متوترة:
- عجبا! كما لو أنه يمر بكابوس عنيف
الدكتور (عبد الحميد) رأسه في قوة، قائلاً:
- مستحيل! فاقدو الوعي لا يحلمون، أو يرون الكوابيس..
تساءل العميد (مجدي) في توتر:
- ما الذي يعنيه هذا إذن؟!
مطت الدكتورة (زينب) شفتيها، وهزت رأسها، قائلة:
- لسنا ندرى.. هذا يتعارض مع أي منطق طبي.
وترددت لحظة، قبل أن تضيف:
- إلا إذا..
قاطعها العميد (مجدي) في توتر:
- أرجوك.. لا حديث مرة أخرى عن ذلك الاتصال العقلي الفائق..
مطت شفتيها مرة أخرى، وعقدت ساعديها أمام صدرها، قائلة:

- أنتما وشأنكما.
ثم أشارت إلى (أشرف)، عبر الجانب الشفاف من الخيمة الواقية، مضيفة في حدة:
- فسرا لي إذن، كيف يسترخي جسده تدريجيا، في نفس الوقت الذي يشتعل فيه عقله هكذا؟!
تبادل الرجلان نظرة صامتة حائرة، قبل أن يجيب الدكتور (عبد الحميد) في عناد:
- هناك حتما تفسير علمى..
ثم أشاح بوجهه في سرعة، قبل أن تلقى سؤالاً آخر وإن عاد عقله يتساءل في حيرة شديدة:
تُرى ما الذي تسبب في هذا النشاط الفائق لعقل (أشرف) الفاقد الوعي؟!
وكيف يمكن أن يحدث هذا، في مثل هذه الظروف؟!
كيف؟!
كيف؟!
سفينة الفضاء الجرثومية أصبحت سجينة في مجال جاذبية الأرض لا يمكنها أن تتحرر منه، إلا بطاقة هائلة طاقة لا تتوافر في محركاتها الاعتيادية ولكن هناك محرك خاص للطوارئ..
محرك يمكنه دفعها، ضد قوة الجاذبية الأرضية، حتى تعود إلى الفضاء الخارجي ولكن هذا المحرك يحتاج إلى طاقة خاصة جدا..
طاقة قوامها الرئيسي مادة البوتاسيوم، في صورته الحيوية.
ووفقا لما لديهم من معلومات، لا يمكن أن يتوافر البوتاسيوم في صورته الحيوية المطلوبة، إلا في الأجساد البشرية.
والأجساد البشرية وحدها...
وهنا كان على الطاقم أن يدرس الأمر جيدا وأن يتخذ القرار..

وبأقصى سرعة..
العوامل المناخية لكوكب (الأرض) كانت تؤذى أجهزة السفينة بشدة..
والانتظار يعني الدمار..
الدمار الشامل.
ومن موقعه، داخل مخ الملاح الطبي، اقترح (أشرف) الفكرة كلها.
الغوص في أعماق الأجساد البشرية، وحث عضلاتها على العمل والانقباض بكل طاقتها، لتشغيل مضخة الصوديوم والبوتاسيوم التبادلية، والحصول على الطاقة المطلوبة وقد كان..
وبسرعتها المدهشة، اخترقت السفينة الفضائية الجرثومية سماء كوكب (الأرض)، واتجهت نحو أول بشرى رصدته اختراقها الجو بهذه السرعة، جعل صوت انطلاقها أشبه بالرصاصة ثم اخترقت الوريد العنقي للعامل وبوسائلها التكنولوجية المتقدمة، راحت تقوم بكل المطلوب، وهي تسبح وسط دماء الرجل، مع اتخاذ كل ما يلزم، لمنع التفاعل البيروجيني، الذي يمكن أن يقضي عليه وطوال الوقت، كانت أجهزتها تستهلك مادة الهيستامين البشرية ([4])، كوقود مؤقت، لتشغيل أجهزتها، وتطلق العادم على شكل أوزون ([5])

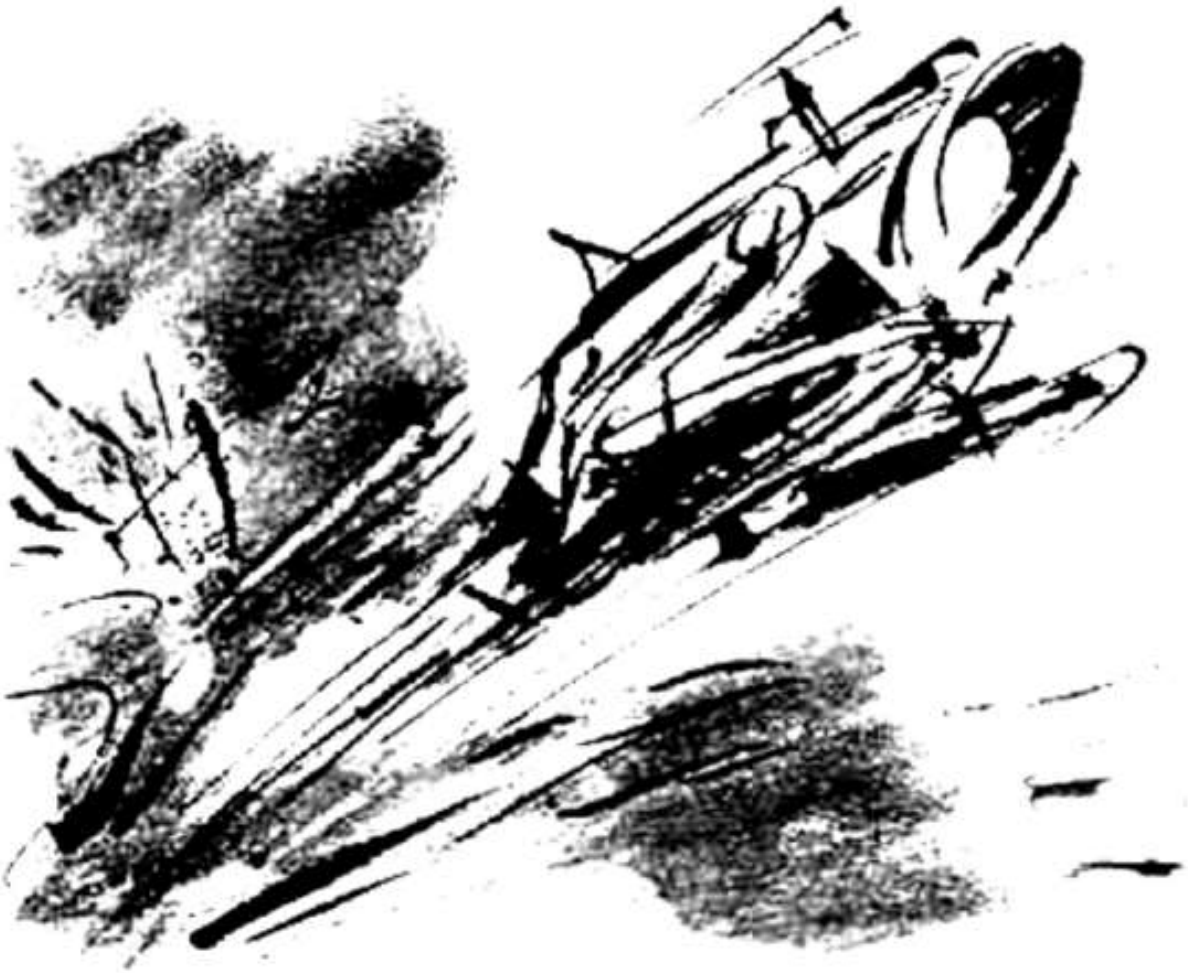

وقبل أن تحصل على كفايتها، بدأ البشر في استخدام مضادات الحساسية، التي تمنع إطلاق الهيستامين لذا، كان من المحتم أن تنتقل سفينة الفضاء الجرثومية إلى شخص آخر.. شخص تجد لديه ما ينقصها من الوقود من البوتاسيوم..

☆ ☆ ☆

«إذن فهذا ما كان يحدث؟!»

هتف (أشرف) بالعبارة، من أعمق أعماق عقله، ولم يكد يفعل، حتى انسحب بغتة من عقل الملاح الطبي، وعاد إلى جسده، وإلى الظلام المحيط به، مع شعور عجيب بأنه قد سقط فجأة من حالق، فوق وسادة لينة مريحة..

ولوهلة، خيل إليه أنه لن يحصل على الجواب أبدا، إلا أن ذلك الصوت الهادئ العميق لم يلبث أن عاد إلى عقله، وهو يجيب:

- كنا مضطرين لهذا.. ولقد بذلنا كل جهد ممكن، حتى لا يصاب أحد بالأذى.. وكنا واثقين أنكم تستطيعون تعويض ما نحصل عليه من البوتاسيوم، من أجساد البشر...
تساءل (أشرف):
- أما زلتم بحاجة إلى المزيد؟!
أجابه الصوت العميق:
- قدرتنا على الاتصال بك تعنى أنه لم يعد ينقصنا سوى القليل.. والقليل جدا..
سأله في لهفة، من أعماق مخه:
- هل اتصلتم بالضحيتين السابقتين؟!
أجابه ذلك الصوت الهادئ العميق، وهو يخفت على نحو ملحوظ:
- عقلاهما لم يكونا بالكفاءة المطلوبة، وقدرتنا على الاتصال العقلي لم تكن قد اكتملت بعد..
غمغم في ارتياح:
عظيم.. كم يسعدني أن أخبرتموني بالأمر، فمهما فعلنا، لم يكن من الممكن أبدا أن ندرك حقيقة الأمر..
وخيل إليه أنه قد ابتسم في أعماقه، وهو يتابع:
- ولكن اطمئنوا.. يمكنكم الحصول على كل ما تحتاجون إليه من البوتاسيوم، من جسدي وحده.
بدا الصوت خافتا وبعيدا للغاية، وهو يقول:
- نشكرك كثيرا، ولكن هذا لم يعد مجديا.. لقد توقف إنتاج الهيستامين في جسدك، وربما يكفينا ما حصلنا عليه بالفعل..
هتف (أشرف):
- لا.. انتظر.. هناك ما أرغب في....

قبل أن يتم عبارته، التي انطلقت من خلايا مخه الرمادية، خيل إليه أنه عاد يسقط في عنف، فهتف:
- لا.. ليس الآن..
تباعد الصوت في سرعة، وهو يقول:
- تذكر.. لا ترو لأحد ما سمعته وشاهدته.. فوفقا لدراستنا، لن يصدق مخلوق واحد روايتك.. سيبدو لهم الأمر أشبه بهذيان شخص فاقد الوعي، أو مجرد حلم..
مجرد حلم..
حلم..
حلم..
ثم انتهى كل شيء فجأة..

☆ ☆ ☆

بدت لهجة الدكتورة (زينب) مفعمة بالانفعال، وهي تشير إلى رسام المخ الكهربي، هاتفة:
- انظرا لقد توقف نشاط المخ الزائد فجأة!
هتف الدكتور (عبد الحميد):
- هذا صحيح.. جسده أيضا استرخى تماما استدارت بسرعة إلى الخيمة الواقية، وهي تقول في انفعال:
- الشمبانزي.. تابعا ما سيحدث للشمبانزي.
مع آخر حروف كلماتها، سمع الجميع بغتة ذلك الصوت الحاد، الشبيه بصوت رصاصة تخترق الهواء..
ثم فجأة، ارتجف الجانب الشفاف من الخيمة في عنف..
وسمعت الدكتورة (زينب) تلك الرصاصة، تعبر على مسافة سنتيمتر واحد من أذنها اليسرى، فأطلقت صرخة مذعورة، وهي تلقى نفسها جانبا وفي عنف، تحطم زجاج النافذة، وتناثر إلى

الخارج، فاستل العميد (مجدي) مسدسه، وأداره نحو النافذة في سرعة ولكن شيئا آخر لم يحدث...
فقط أصيب الشمبانزي المسكين بحالة من الذعر، فراح يصرخ ويتقافز هنا وهناك، قبل أن يتعلق بعنق الدكتورة (زينب)، ويتشبث بها، وكأنما ينشد لديها الحماية، كطفل صغير مذعور وفي حنان عجيب، راحت هي تربت عليه، مغمغمة:
- اهدأ يا صغيري.. اهدأ.. لقد انتهى كل شيء
سألها العميد (مجدي) في عصبية، وهو ما زال يمسك مسدسه:
- أتعتقدين هذا حقا؟!
تطلعت إلى الشمس، التي تشرق من بعيد، عبر النافذة المكسورة، وإلى الدكتور (أشرف)، الذي هدأ جسده واستقر، ثم ضمت الشمبانزي المذعور إلى صدرها في دفء وحنان، وهي تجيب في حزم:
- نعم.. أعتقد هذا.
تطلع إليها الرجلان لحظة في صمت، ثم لم يلبث العميد(مجدي) أن أعاد مسدسه إلى غمده، في حين ابتسم الدكتور (عبد الحميد)، وأشار إلى الشمبانزي، قائلاً:
- الآن أدركت ما الذي كان ينقص زواجنا ليستمر ثم مال نحوها، وهمس في حب:
- طفل.
وتضرج وجهها بحمرة الخجل بشدة.....

☆ ☆ ☆

٥- الختام....

ابتسم الدكتور (أشرف) في إرهاق، وهو يرقد على فراشه في المستشفى، وأشار بيده في ضعف، قائلا:
- يرددون في المستشفى أنكما ستتزوجان مرة أخرى أهذا صحيح؟!
تضرج وجه الدكتورة (زينب) بحمرة الخجل، وضغط الدكتور (عبد الحميد) كفها في حنان وحب، وهي تقول:
- نعم.. لقد قررنا إعادة التجربة، على ضوء المعطيات الجديدة.
اتسعت ابتسامته، وهو يقول:
- ألف مبروك
خفضت الدكتورة (زينب) عينيها في خجل، في حين سأله الدكتور (عبد الحميد) في اهتمام:
- ولكن ماذا عنك؟! هل تشعر بأنك تتعافى؟!
أومأ برأسه إيجابا، وهو يقول:
- بالتأكيد
رفعت الدكتورة (زينب) عينيها إليه دفعة واحدة، وهي تسأله في شغف:
- ماذا أخبرتك به؟!
سألها (أشرف) في حذر قلق:
- ماذا تعنين؟!
لوحت بيدها، قائلة في انفعال:
- تلك الجرثومة.. ما الذي أخبرتك به، عندما اتصلت بعقلك؟!
حدق في وجهها بدهشة عارمة، وبدا له من المذهل أن تستنتج أمرا كهذا، في حين ضحك الدكتور (عبد الحميد)، قائلا:

- لا تجعلها تفزعك يا (أشرف).. إنها تميل هذه الأيام إلى قصص الخيال العلمي، وليس إلى العلم وحده.
قالت في إصرار:
- أراهن على أنها لم تكن مجرد جرثومة.
حاول (أشرف) أن يبتسم، وهو يسألها:
- وماذا يمكن أن تكون إذن؟!
لوحت بيدها مرة أخرى، وهي تجيب في ثقة عجيبة:
- شيء من كوكب آخر. كاد يقفز من مكانه، وهو يهتف ذاهلاً:
- من ماذا؟!
ضحك الدكتور (عبد الحميد) بملء فيه، فى حين أجابت في حماسة:
-شيء من عالم آخر.. من أعماق الفضاء.. شيء عاقل، أو يحوي كائنات عاقلة هتف الدكتور (عبد الحميد):
- يا له من خيال جامح!
غمغم (أشرف) في انبهار:
- أو هي عبقرية مفرطة.
تألقت عيناها لعبارته، ومالت نحوه، متسائلة بكل لهفة الدنيا:
- هل أصاب استنتاجي؟!
تطلع إلى عينيها مباشرة لبضع لحظات، قبل أن يقول في بطء:
- ومن يمكن أن يصدق قصة كهذه؟!
تراجعت في مقعدها ببطء، قائلة بلهجة حملت نبرة ظافرة:
- لا أحد.
ثم غمزت بعينها، مستطردة:
- إلا العباقرة فحسب.
ابتسم، قائلاً:
- بالتأكيد.

نقل الدكتور (عبد الحميد) بصره بينهما لحظة في دهشة مستنكرة، قبل أن ينهض، قائلاً في حزم:
- أعتقد أنك أفضل حالاً الآن، وهذا يعني أن نتركك، ونذهب للاهتمام بشئوننا، خاصة وأننا نستعد لبدء عالمنا من جديد.
غمغم مبتسما:
. وفقكما الله (سبحانه وتعالى)، ورعاكما.
ابتسمت الدكتورة (زينب)، وهي تقول:
- الله (سبحانه وتعالى) يرعى كل خلقه..
ثم غمزت بعينها، مضيفة:
- حتى ولو كانوا في حجم الجرثومة.
اتسعت ابتسامة (أشرف) أكثر، وهو يتابع انصرافهما ثم استرخي في فراشه، وعقله يستعيد تفاصيل اندماجه بعقول صغيرة قوية..
عقول تثبت أن الله (عز وجل) يضع سره أحيانا في أضعف خلقه..
وأصغرهم حتى ولو كانوا في حجم صغير للغاية حجم جرثومة...

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

5797

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- حادث عجيب..
٢ - اللغز...
٣ - العدو الخفي..
٤- الاتصال...
٥- الختام....

Notes

[←1]

الجراثيم: كائنات حية دقيقة، من الطبقة السفلى، في مملكتي الحيوان والنبات، تسبب أمراضا نتيجة لتطفلها، كالبكتريا، والفيروسات، والفطر السقمي في مملكة النبات، وكالحيوانات الأولية (البروتوزوا)، في مملكة الحيوان، ويدخل تحت الجراثيم أيضا خلايا التناسل، في الذكر والأنثى، وكذلك بذور النبات، أو ما تحمله من أجنة، كجرثومة القمح.

[←2]

حقيقة علمية

[←3]

الشمبانزي: من القردة العليا، الشبيهة بالإنسان، موطنه وسط وغرب(إفريقيا)، وهو كالغوريلا أكثر شبها بالإنسان، من القردة العليا الأخرى، وأكثرها ذكاء، وقابلية للتعلم

[←4]

الهيستامين: مادة تشتق من الحمض الأميني (هستدين)، توجد في معظم الخلايا النباتية والحيوانية، وتساعد في زيادة مرور الدم، عند عمل العضلات، وتنبيه إفراز العصير المعدي، وخاصة حمض (الهيدروليك)، ويطلق الهيستامين من الأنسجة إلى الدم بكثرة، نتيجة الحروق، أو الحوادث التي تمزق الأنسجة، أو الجراحة الشديدة، أو بعض حالات الحساسية، وعندئذ تحدث صدمة شديدة، وهبوط في ضغط الدم.

[←5]

غاز لونه ضارب إلى الزرقة، غير ثابت، له رائحة نفاذة، وهو صورة جزيئية للأكسجين، يتركب جزيؤه من ثلاث ذرات منه، وهو أشد نشاطا من الأكسجين، وأثقل منه بمرة ونصف، يتكون عند مرور تفريغ كهربي خلال الأكسجين، لذا فهو يتواجد في الهواء، بعد العواصف الكهربية

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

رؤيا

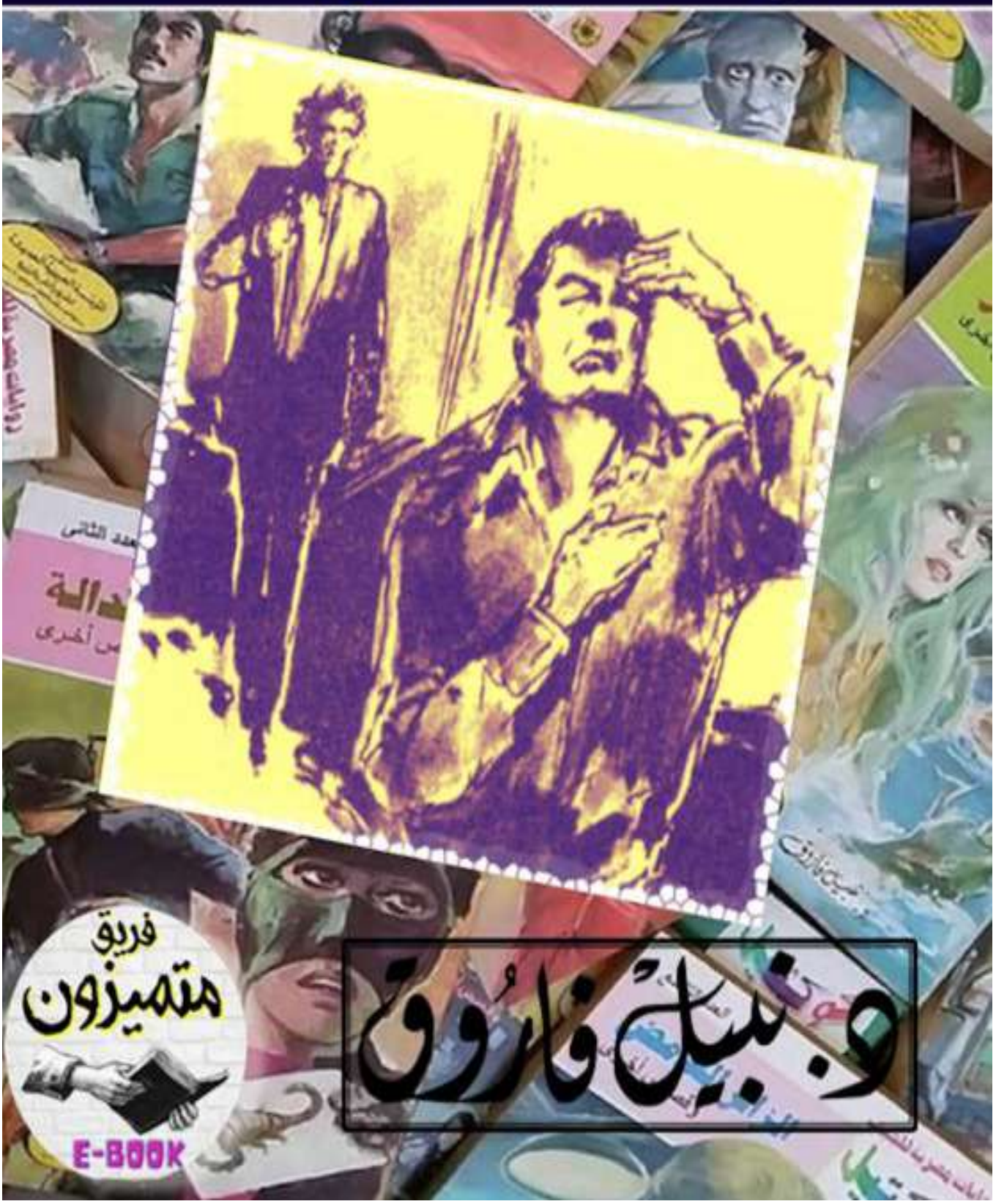

وبنبيل فاروق

فريق متميزون

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

رؤيا

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١ - الحادث..

انطلقت ضحكة (رأفت) عالية مجلجلة، داخل منزل أسرته الصغير، في ذلك الحى الشعبي، من أحياء (القاهرة)، وربت على كتف أمه في حنان، وهو يداعبها قائلا:

- كبير هو قلبك يا أمي، وعظيمة هي كلماتك.

ثم مال نحوها، وطبع قبلة حانية على خدها، متابعا:

- ولكنني - للأسف - لا أستطيع طاعتك هذه المرة.

مطت أمه شفتيها في غضب، وهي تقول معاتبة:

- هذه المرة فقط؟! إنك لا تطيعني أبدا.. دائما تستمع إلى عقلك وحده.. كم أنت عنيد.

ابتسم والده، وهو يغمغم:

- من شابه أباه فما ظلم

التفتت إليه، هاتفة:

- ماذا أصابك أنت أيضا؟!

ضحك الوالد، وهو يلوح بيده، قائلًا:

- لا شيء.. أنا لم أقل شيئا.

عاد (رأفت) يطبع قبلة على وجنة أمه، وهو يقول:

- أمي.. إنني لن أسافر وحدى.. هيئة التحرير كلها ستذهب لزيارة المطابع الجديدة، في السادس من أكتوبر، وهذا ليس سفرا بالمعنى المألوف.. إنها مسافة قريبة.

هزت أمه رأسها في إصرار، قائلة:

- قلبي لا يشعر بالارتياح هذه المرة.

ضحك (رأفت) مرة أخرى، وهو يقول:

- هل تتصورين أنني سأعتذر عن الذهاب؛ لأن قلب أمي لا يشعر بالارتياح؟!
قالت في حدة:
- ولم لا؟!
ارتفعت ضحكته مرة أخرى، وهو يقول:
- لأن العمل لا يعرف هذا، أو يعترف به.. العمل لا شأن له بقلوب الآباء والأمهات.. العمل عمل.
قالت الأم في حدة:
- هو عمل غبي إذن..
تطلَّع إليها (رأفت) بضع لحظات، في حنان مشفق، قبل أن يطبع قبلة أخرى على خدها، قائلًا:
- أمي.. أنا مضطر للذهاب.. أرجوك.. لا تجعليني أذهب مخلفا غضبك منى.
رق صوتها، وشملته بحبها وحنانها الجارفين، وهي تغمغم:
- لست غاضبة منك يا ولدى، بل خائفة عليك..
نهض، قائلًا:
- لا تخافي.. كل شيء سيسير على ما يرام بإذن الله..
تبعته ببصرها، وهو يغادر الحجرة، ثم تنهدت في حرارة، وغمغمت:
- إنهم لا يدركون ما يعنيه قلب الأم..
لم يسمع (رأفت) عبارتها، وهو يلملم أشياءه في سرعة، حتى يلحق برفاقه، ولكن والده لحق به في حجرته، ووقف صامتا، يتطلع إليه بضع لحظات، قبل أن يغمغم في حذر:
- حافظ على نفسك جيدا الليلة.
ابتسم (رأفت) مغمغما:
- ولماذا الليلة؟!

تردد الوالد لحظة، قبل أن يقول:
- بيني وبينك، أنا أصدق مشاعر أمك جيدا.
التفت إليه (رأفت) بابتسامة كبيرة، فاستطرد في سرعة:
- لى تجارب عديدة معها.. صدقي.. إنها تمتلك بصيرة حادة.
ربت (رأفت) على كتفه، مغمغما:
- أبقاكما الله لي، وحفظكما بصحة وسعادة.
لم يحاول والده اعتراضه، وهو يغادر المنزل، ولكن شيئا ما انقبض في صدره، وهو يغمغم:
- حفظك الله يا ولدي.. حفظك الله ورعاك
لم يسمع (رأفت) هذه العبارة أيضا، وهو يهرع إلى سيارته الصغيرة، متمتما في توتر:
- رباه! لقد تأخرت كثيرا.. أتعشم أن يكون الطريق هادئا؛ حتى أصل في موعدي
كان يشعر بقلق شديد، وهو يتطلع إلى ساعته، وعقله يحسب الزمن المتوقع، لبلوغ مبنى الجريدة، في مدينة مزدحمة مثل (القاهرة)، وفي ساعة كهذه، تزدحم الشوارع فيها بالسيارات والمارة كان مبعث قلقه وتوتره أنه قد اعتاد دوما الحفاظ على مواعيده، بدقة اشتهر بها بين أقرانه، وساعدته على التفوق عليهم، في بعض التحقيقات، مع كبار المشاهير ورجال الأدب والسياسة ولأنه يعلم أن حافلة الجريدة ستحمل الجميع إلى المطابع الجديدة، بعد أقل من نصف الساعة، فقد زاد من سرعة سيارته الصغيرة، واتجه بها مباشرة نحو الكوبري العلوي، في محاولة لاختصار الطريق والوقت..

ولقد انطلقت من أعمق أعماقه تنهيدة جارة، عندما بدا له الكوبري خاليا، فزاد من سرعة السيارة أكثر، وهو يغمغم عظيم.. هناك فرصة للوصول في الموعد أدار عجلة القيادة في حركة حادة، ليصعد في المنحنى الأول للكوبري، وهو يطلق من بين شفتيه صفيرا منغوما، و..

وفجأة، وجد تلك السيارة أمامه سيارة سوداء كبيرة، توقفت إلى يسار الطريق، على عكس المعتاد؛ ليستبدل سائقها إطارا تألفا كان خطأ بالغا من قائد السيارة الكبيرة، الذي يتحتم عليه دوما التوقف إلى يمين الطريق لذا فقد بوغت به (رأفت) أمامه، وهو يصعد الكوبري بسرعته الكبيرة..

ومع المفاجأة، أدار عجلة القيادة على نحو غريزي إلى أقصى اليمين وانحرفت السيارة الصغيرة في عنف وأطلقت إطاراتها صرخة قوية مخيفة، امتزجت بصراخ قائدة سيارة أخرى قريبة ثم ارتطمت السيارة بسور الكوبري في عنف وشعر (رأفت) بجسده يندفع إلى الأمام، ويكاد يرتطم بتابلوه السيارة، أو بزجاجها الأمامي، لولا حزام الأمان الذي يشده إلى مقعده.. وبعدها رأى جزءا من سور الكوبري يطير أمام عينيه ثم اختلت زاوية الرؤية تماما وشعر بجسده يهوي ورأى قمة سيارة ضخمة، من سيارات نقل الجنود تقترب منه في سرعة مخيفة الارتطام عنيفا وكان عنيفا للغاية ولوهلة، تسلل إلى ذهنه صوت صرخات عديدة مختلفة، ووقع أقدام تعدو ثم أظلمت الدنيا كلها دفعة واحدة تماما..

☆ ☆ ☆

«إنه يعود إلى وعيه»

كانت هذه أول عبارة تتسلل إلى أذنيه عبر الظلام، حاملة صوتا أنثويا مألوفا، جعله يفتح شفتيه، في محاولة لقول شيء ما، إلا أن كل ذرة في كيانه قد شعرت بالضعف ضعف شديد، بدت معه شفتاه ثقيلتين إلى حد كبير، فعاد يغلقها، وأذنه تلتقط صوت والده، يغمغم بلهجة غلب عليها البكاء:

- حمدا وشكرا لك يا رب.. حمدا وشكرا لك

ثم شعر بوالدته تحتضنه، وهي تبكي، هاتفة:

- حمدا لله على سلامتك يا ولدى.. كنت أعلم أن هذا سيحدث.. قلبي أنبأني، وأنتم سخرتم منى.

بذل جهدا ضخما ليفتح عينيه، وليتمتم:

- أين أنا؟!

قبل حتى أن يجيب أحدهم سؤاله، بدأ يستوعب ما حوله.. كان يرقد داخل حجرة مستشفى صغير، وأمه تحتضنه ووالده يقف إلى جوار فراشه، في حين تبكي زميلته (نجوى) أمامه، في فرح وسعادة، وهي تقول من وسط دموعها:

- حمدا لله على سلامتك يا (رأفت).. حمدا لله..
حاول عبثا أن يعتدل، وهو يتساءل في حيرة:
- ماذا حدث؟!
أجابته أمه، وهي تبكي في حرارة:
- سيارتك سقطت من الكوبري، فوق سيارة من سيارات الجيش، كانت فارغة لحسن الحظ..
استعادت ذاكرته الموقف كله مع كلماتها، فهتف في ضعف:
- آه.. تلك السيارة السوداء الكبيرة اعترضت طريقي أمس، و..
هتفت أمه:
- أمس؟!
وتطلعت إلى والده في هلع لم يفهمه، فتساءل في حيرة:
- ألم يحدث هذا أمس؟!
مسحت (نجوى) دموعها، وهي تحاول الابتسام، قائلة:
- الحادث وقع منذ ثلاثة أسابيع يا (رأفت).
اتسعت عيناه، وهو يغمغم:
ثلاثة أسابيع.. ولكن
لم يستطع إكمال عبارته، مع ضعفه ودهشته، فتراجع مرة أخرى في فراشه، وتمتم:
- يا إلهي!.. يا إلهي!
قالت أمه، وهي تبكي على صدره:
- كانت حالتك خطيرة للغاية بعد الحادث، والأطباء تصوروا أنه لا أمل في نجاتك، بسبب إصابة رأسك رفع يده بحركة آلية، يتحسس ضمادات رأسه، التي شعر بها لأول مرة، مع كلمات أمه، وهو يغمغم:
- رأسي؟!
قاوم أبوه مشاعره، ليومئ برأسه،، قائلًا:

- كان الكل فاقدي الأمل تماما، فيما عدا الدكتور (صبري).. إنه طبيب وجراح شاب، للمخ والأعصاب، وسندين له، ما تبقى من حياتنا، بسبب إصراره على إجراء عملية بالغة الخطورة لك.. عملية استغرقت ست ساعات كاملة قبل أن يخبرنا أنه هناك أمل في نجاتك..
تحسس (رأفت) ضمادات رأسه مرة أخرى، وهو يتمتم:
- أي نوع من العمليات؟!

ضحكت (نجوى) من بين دموعها، وهي تقول:
- وما شأننا نحن؟! لسنا أطباء لنفهم ما يحدث المهم أنك قد استعدت وعيك، وعدت إلينا سالما..
انبعث من خلفها صوت يقول في مرح:
- نعم.. عاد إلينا سالما، بعد أن أرهقنا جميعا..
أدار (رأفت) بصره، مع استدارتهم جميعا، ورأى ذلك الطبيب الشاب، الذي يدلف إلى الحجرة، والذي اندفعت أمه نحوه، هاتفة:
- كيف أشكرك يا ولدي.. كيف أشكرك!! إنني أدين لك بحياتي وحياة ابني الوحيد
ابتسم الطبيب في هدوء، وهو يقول:
- قمت بواجبي فحسب يا أماه.
احتوته الأم بين ذراعيها، هاتفة، والدموع تغرق وجهها من جديد:
- من اليوم أنت ابني الثاني، بعد أن أعدت إلى ابني الأول..
بدت الدهشة لحظة على الطبيب الشاب، ثم لم يلبث أن ربت عليها في حنان، وهو يغمغم:

- أشكرك كثيرا يا أمي.. والآن اسمحي لي بفحص أخي الذي استعاد وعيه منذ قليل، بعد غيبوبة طويلة..
- كيف حال الصحفي الهمام؟!
غمغم (رأفت):
- بخير والحمد لله (العلي القدير)..
أفسحت له الطريق، وهي تربت عليه في حنان وسعادة، فاتجه مبتسما نحو (رأفت)، وقال في مرح:
بدأ الدكتور (صبري) في فحصه؛ ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام، واستسلم له (رأفت) بعض الوقت قبل أن يسأله:
- ما نوع العملية، التي أجريتها لي؟!
ابتسم الطبيب، وهو يجيبه:
- عملية من نوع جديد.. أنت أول من تجرى له، في الشرق الأوسط كله..
هتفت (نجوى):
- إلى هذا الحد؟!
أومأ الطبيب برأسه، وتابع، وهو يواصل فحص(رأفت):
- كان هناك كسر في قاع الجمجمة، وشريان أو اثنين تهتكا تماما، مع وريد رئيسي، وكان من الضروري أن نمنع النزيف فورا، ثم نعيد تشكيل الدورة الدموية المخية، لتعويض أجزاء الشرايين والأوردة التالفة، وهذا ليس بالأمر السهل..
سأله (رأفت) في قلق:
- ألا يمكن أن يؤدي هذا إلى خلل ما؟
عاد الطبيب الشاب يبتسم، وهو يقول:
- هل تشعر بأي خلل؟!
حرك (رأفت) أطرافه خفية، قبل أن يجيب في حذر:
- ليس على نحو واضح..

تراجع الطبيب، وهو يقول:
- من الناحية الطبية، كل شيء على ما يرام، فاستجاباتك العصبية سليمة، وتفاعل العين مع الضوء مثالي، ولقد تذكرت من حولك، ولم تفقد إحساسك الطرفي..
بكت الأم في فرح، في حين هتف الأب في حماسة:
- أصابعك الذهبية لها الفضل في هذا، بعد الله (سبحانه وتعالى)، يا دكتور (صبري).
وشاركت (نجوى) الأم بكاءها الفرح، فابتسم (رأفت) في شيء من القلق، وهو يتساءل:
- أيعني هذا أنه لن تظهر أية مفاجآت مستقبلية؟!
صمت الدكتور (صبري) بضع لحظات، قبل أن يقول:
- الواقع أن المخ البشري، على الرغم من كل ما كشفناه بشأنه، وكل الدراسات التي أجريت حوله، في كافة المجالات، ما زال لغزا كبيرا مجهولًا، وما زالت هناك أجزاء غامضة كبيرة فيه، فالعلماء، مع كل تقدمهم، لم يكشفوا بعد سر الأحلام مثلًا، بل ولم يجدوا سببا حاسما حازما واحدا، لحاجتنا إلى النوم، من الناحية العلمية ([1])..
سأله (رأفت)، في مزيج من الحذر والقلق:
- وما الذي يعنيه هذا، بجواب صريح؟!
بدا التوتر على الوالدين، فهتفت (نجوى)، محاولة تهدئة الموقف:
- يا لك من مجادل عنيد يا (رأفت)! هيا.. كف عن توترك، وتلك الأسئلة الصحفية، التي أصبحت جزءا من شخصيتك، وابذل قصارى جهدك لتخرج من هنا؛ فقد انتقلنا بالفعل إلى مقر

الجريدة الجديد، منذ أسبوع واحد والزملاء ينتظرون عودتك، حتى يفتتحوه رسميا.

تطلع إليها الدكتور (صبري) بابتسامة هادئة، حتى انتهت من حديثها، فالتفت إلى (رأفت)، وتطلع إليه أيضا بصمت، قبل أن يقول:
- اطمئن يا أستاذ (رأفت).. ما دامت كل أجهزتك تعمل على نحو طبيعي، فلست أظن أنه ستفاجئنا أية أمور ضخمة..
غمغم (رأفت) في قلق:
- من يدري؟!
ولم يجب الدكتور (صبري)..
فقد كان هذا هو السؤال نفسه، الذي يشتعل به ذهنه منذ استعاد (رأفت) وعيه، وتذكر كل من حوله مع عملية جديدة ومعقدة كهذه، من يدري ما الذي يمكن أن يحدث؟!
من؟!

☆ ☆ ☆

٢- المقر الجديد..

تهللت أسارير (رأفت)، وانتعشت كل ذرة من كيانه، مع الاستقبال الحافل، الذي استقبله به رفاقه، في مقر الجريدة الجديد كان من الواضح أن الكل يكن له الكثير من الود والمحبة، وبخاصة (نجوى)، التي كانت تتحرك في كل مكان، وتقدم الحلوى والمشروبات للجميع، فى فرح وسعادة، وكأنها تحتفل بعيدها هي أما الأستاذ (ماهر)، رئيس التحرير، فقد صافحه في حرارة شديدة، وأصرَّ على أن يقوم بقص شريط الافتتاح الرمزي بنفسه، وربت على كتفه في مودة، وهو يضحك، قائلا:

الآن فقط أثبت لنا أن رأسك بالصلابة التي نعرفها عنه يا بطل..

ضحك الكل لدعابته، وقضوا بعض الوقت في المرح والمزاح، قبل أن يصفق رئيس التحرير بيده، قائلًا:

- هيا يا رجال.. لا يمكننا قضاء كل الوقت في المرح..

هناك جريدة أسبوعية، ينبغي أن يصدر العدد الجديد منها صباح السبت.. دعونا لا ننس هذا..

ضحكت (نجوى)، وهي تقول:

- الرجال فقط، أم النساء أيضا.

ابتسم الأستاذ (ماهر)، وهو يقول:

- الكل هنا رجال.. هيا.. لن نضيع المزيد من الوقت قالها، واتجه إلى حجرة مكتبه مباشرة، فمالت (نجوى) على اذن (رأفت)، هامسة في مرح:

- لا تصدقه.

غمغم، وهو يتأمل وجهها الجميل:

- بالتأكيد
ضحكت في سعادة، واتجهت إلى مكتبها، وسرعان ما انهمكت مع الآخرين، في إعداد ومراجعة المقالات والموضوعات للازمة، والمطلوبة للعدد الجديد، فيما عدا (رأفت)، الذي راح يدير عينيه فيما حوله، ويتأمل المكان في اهتمام، ويقارن بينه وبين المقر القديم وعلى الرغم من أن المقر الجديد يحتل طابقا كاملًا، من بناية عريقة، في منطقة وسط (القاهرة)، إلا أن شيئا ما في أعماقه جعله يشعر بعدم الارتياح له، ووجد نفسه يفضل المبنى القديم، في حي (شبرا)، على الرغم من حجراته الضيقة، و..
وفجأة رأى ذلك الرجل..
رجل حاد القسمات والنظرات، عبر باب الجريدة، في بطء عجيب، وكل خلجة من خلجاته تشف عن العصبية والتوتر ولثانية، توقف الرجل، وأدار وجهه النحيل إليه والتقت نظراتهما ودون وعي منه، وجد (رأفت) جسده يرتجف، وشعر بقشعريرة باردة كالثلج تسري في كيانه، وراح قلبه يخفق في قوة وعنف، وهو يتطلع إلى عينى ذلك الرجل، اللتين بدتا له مخيفتين وإلى أقصى حد..
ولكن الرجل لم يتوقف عنده طويلًا لقد انتقل بغتة، من البطء إلى السرعة الشديدة، وهو يندفع نحو حجرة الأستاذ (ماهر) رئيس التحرير، ويفتحها دون استئذان، ودون أن يطرق حتى بابها، ثم يغيب داخلها، ويصفق الباب خلفه في قوة.

والعجيب أن عم (عامر)، فراش مكتب رئيس التحرير، لم يعترضه بل ولم يسأله حتى عما يريد كان وكأنه يعرفه جيدا ويعرف هدفه أيضا..

وتراجع (رأفت) في مقعده، وذلك التوتر العجيب مازال يسرى في كيانه، وحدق في باب حجرة الأستاذ (ماهر) المغلق لنصف

دقيقة كاملة، خفق خلالها قلبه بعنف أكثر مما ينبغي، حتى إنه لم يحتمل، فمال على زميله (أسعد)، يسأله:
- من ذلك الرجل؟!
رفع (أسعد) عينيه إليه، وهو يتساءل في حيرة:
- أي رجل؟!
أشار (رأفت) بيده، وهو يقول في عصبية، لم يدر سببا منطقيا لها:
- الرجل الذي دخل الآن، والذي دلف إلى حجرة الأستاذ(ماهر) مباشرة.
حدق (أسعد) في وجهه لحظة، ثم أدار عينيه إلى باب حجرة الأستاذ (ماهر)، قبل أن يهز رأسه في قوة، قائلًا:
- لم أر رجلا يدخل هنا، ثم إنك تعرف كيف يتحدث عم(عامر) بصوته الجهوري، الذي يبلغ مسامعنا جميعا وهو يعلن لرئيس التحرير، وجود زائر ما.
قال (رأفت) في إصرار
- عم (عامر) لم يعترضه.. لقد دخل حجرة الأستاذ(ماهر) مباشرة
تدخلت (نجوى) في الحديث، قائلة:
- مستحيل! أنت تعرف الأستاذ (ماهر) مثلنا.. لا أحد يدخل حجرته دون استئذان، حتى والده نفسه.
هتف (رأفت) في حدة:
- لقد رأيت ذلك الرجل بنفسي..
بدا القلق على وجه (نجوى)، وهي تتطلع إليه في حيرة، في حين لوح (أسعد) بيده في بساطة، وقال:
- الأمر سهل للغاية
ثم مال إلى الأمام، هاتفا:

- عم (عامر).. من الزائر، في حجرة الأستاذ (ماهر)؟!
حدق فيه عم (عامر) بدهشة، وهو يقول:
- زائر؟! أي زائر؟!
أجابه (رأفت) في حدة وغضب:
- الزائر النحيل، الذي دخل من الباب إلى حجرة الأستاذ(ماهر) مباشرة، دون أن..
قبل أن يكمل عبارته، أشار عم (عامر) إلى الباب، قائلا:
- أستاذ (رأفت).. لم يأتنا أي زائر اليوم.. إننا حتى لم نفتح الباب مرة واحدة.
أدار (رأفت) عينيه بحركة حادة إلى الباب، ثم انعقد حاجباه في شدة فالباب كان مغلقا بالفعل وهو لا يذكر أن ذلك النحيل قد أغلق الباب خلفه ليس باب الطابق.
وفي عصبية شديدة، هب من مقعده، هاتفا:
- لقد رأيته بنفسي.
ثم اندفع فجأة نحو حجرة الأستاذ (ماهر)، فاتسعت عيون رفاقه في دهشة، وشهقت (نجوى)، هاتفة في ارتباع:
- (رأفت)، ماذا تفعل؟!
أما عم (عامر)، فقد حاول اعتراض طريق (رأفت)، وهو يقول:
- أستاذ (رأفت).. أنت تعرف أوامر الـ أزاحه (رأفت) عن طريقه في حدة، هاتفا:
- ابتعد.
ثم فتح باب حجرة مكتب رئيس التحرير، واندفع داخلها..
«ما هذا؟! كيف تسمح لنفسك باقتحام مكتبي هكذا؟!»
صاح الأستاذ (ماهر) بالعبارة، في غضب هادر، إلا أن(رأفت) لم يسمعها تقريبا، وهو يدير عينيه في الحجرة بذهول..

فبخلاف رئيس التحرير، لم يكن هناك مخلوق واحد داخل الحجرة..
أي مخلوق..
وبغضب متصاعد، هب الأستاذ (ماهر) من مكتبه، وصاح به مرة أخرى:
- كيف تجرؤ؟!
في نفس اللحظة، اندفعت (نجوى) مع الآخرين إلى الحجرة، وهتفت في لوعة:
- (رأفت)! ماذا أصابك؟!
شحب وجه (رأفت) على نحو مخيف، وهو يدير عينيه مرة أخرى في المكان، الذي ليس له سوى باب واحد وتصبب على وجهه عرق غزير، وهو يغمغم:
- لقد رأيته بنفسي..
نطقها بصعوبة، ثم تلاشي إحساسه بما حوله ودفعة واحدة..

☆ ☆ ☆

«صف لي ما حدث بالضبط..»
ألقى الدكتور (صبري) السؤال في اهتمام، على مسامع (رأفت)، الذي أطلت من عينيه حيرة بالغة وهو يقول:
- لقد رأيته بنفسي.. رأيته كما أراك الآن.. بكل الوضوح قال الدكتور (صبري) في اهتمام:
- ولكنه لم يكن هناك فعليا.. أليس كذلك؟!
- هذا ما يقولونه..
تطلع إليه الدكتور (صبري) طويلًا، ثم قال:
ولكنك تأكدت بنفسك..
تردد (رأفت) بضع لحظات، وهو يشعر بغصة في حلقه، بعد أن روى القصة نفسها مرتين، ثم لم يلبث أن قال في عصبية:

صاح (رأفت)، وهو ينهض من مقعده بحركة حادة:
- وهذا ما يكاد يصيبني بالجنون..
ثم توقف بغتة، وأطل الذعر من عينيه، وهو يلتفت إليه متسائلًا:
- أم أنه قد أصابني بالفعل؟!
صمت الدكتور (صبري)، وهو يتطلع إليه بعينين قلقتين، فهتف (رأفت):
أخبرني بالله عليك.. هل أصابني الجنون، من جراء إصابة الرأس هذه؟! هل أصابني؟!
تنهد الدكتور (صبري)، وقال:
- دعني أصدقك القول.. هناك بالفعل حالات جنون تنشأ من إصابات المخ والقشرة المخية، وكذلك حالات انفصام الشخصية، ولكن توقف عند هذه النقطة يضع لحظات، فهتف به (رأفت):
- ولكن ماذا بالله عليك؟!
هز الدكتور (صبري) رأسه في قوة، قائلًا:
- ولكنني لست متخصصا في هذا المجال ثم تطلع إلى عينيه مباشرة، ليضيف في حزم:
- إنك تحتاج إلى طبيب نفسي..
اتسعت عينا (رأفت) عن آخرهما، وهو يتراجع بحركة حادة كالمصعوق، وهو يردد في ارتياع:
- طبيب نفسي؟!
وارتجف جسده وصوته، وهو يضيف:
- إذن فقد أصابني الجنون بالفعل.
هتف الدكتور (صبري) في صرامة:
- كلا.. لا تقع في نفس الخطأ، الذي يقع فيه الجهلاء.

ثم نهض ليضع يده على كتفه في قوة، قائلًا:
- فارق كبير بين المتاعب النفسية والجنون.. كبير جدا..
وصمت لحظة، قبل أن يجبر نفسه على الابتسامة، متابعا:
- ثم إنك لن تتعامل مع طبيب نفسي عادى..
أدار إليه (رأفت) عينين متسائلتين، فتابع بنفس الابتسامة:
- هل سمعت من قبل عن الدكتور (ثروت الشربيني)؟!
هز (رأفت) رأسه نفيا، فتابع الدكتور (صبري):
- الدكتور (ثروت) أحد أفضل أساتذة الطب النفسي في الشرق الأوسط كله، بل وربما في العالم أجمع، على الرغم مما ستتهمني به من المبالغة، فهو يجيد علم النفس، والطب النفسي، وحاصل على شهادة في علم الاجتماع، وله دراسات في الآثار النفسية، المترتبة على إصابات المخ، كما أنه واحد من الأساتذة المعدودين، في علم الظواهر فوق النفسية وفوق السلوكية..
وصمت لحظة، التقط خلالها نفسا عميقا، قبل أن يضيف في حزم:
- باختصار.. إنه الرجل الذي تحتاج إليه تماما..
سأله (رأفت) في توتر قلق:
- وما الذي يمكن أن يفيدني به؟!
التقط الدكتور (صبري) سماعة هاتفه، وهو يبتسم قائلا:
- من يدري؟!
ومرة أخرى، كان هذا هو السؤال من يدري؟!..

☆ ☆ ☆

منذ الوهلة الأولى، شعر (رأفت) بالارتياح للدكتور(ثروت)؛ فقد كان رجلًا وقورا هادئا، باسم الثغر يمنحه ذلك الشيب، الذي غزا شعره كله، هيبة ذات طابع خاص، في حين تطل من عينيه، اللتين تبدوان من خلف منظار طبي أنيق، لمحة من ذكاء متوقد،

يجعلك تمنحه ثقتك، فور وقوع بصرك عليه ولقد استقبله الرجل بابتسامة كبيرة، وقاده إلى مقعد وثير، وهو يقول:
- الدكتور (صبري) شرح لي الأمر كله، ولكن يهمني جدا أن أسمع القصة منك شخصيا..
وعلى الرغم من أنها المرة الخامسة، التي يروى فيها ما حدث، منذ شاهد ذلك النحيل، إلا أن (رأفت) راح يروى للطبيب النفسي الموقف كله، وبأدق التفاصيل والرجل يستمع إليه في اهتمام بالغ، ودون أن يقاطعه بحرف واحد، حتى انتهى من روايته، فتراجع الدكتور (ثروت) في مقعده، وداعب نقنه، وتطلع إليه مواصلا صمته، وهو يداعب ذقنه بسبابته لدقيقة، قبل أن يعتدل، قائلًا:
أهذه أول مرة يحدث فيها هذا لك؟!
أوما (رأفت) برأسه إيجابا، فسأله الرجل:
- وماذا عن أسرتك؟!
سأله (رأفت) في حذر:
- ماذا عنها؟!
أشار الرجل بيده، قائلًا:
هل سبق لأحد من أسرتك أن شاهد أية هلاوس، أو قاطعه (رأفت)، وهو يهب من مقعده في حدة، هاتفا:
- هلاوس؟! قلت لك: إنني لست مجنونا.
ابتسم الرجل في هدوء، وهو يقول:
- وأنا لم أقل العكس يا أستاذ (رأفت).. ولم أشر حتى إليه، ولكنني استخدمت المصطلح الطبي فحسب ثم جذبه من يده في رفق؛ ليعيده إلى مقعده، وهو يقول:
- دعنا نطلق عليها اسم رؤيا.. ولنصغ السؤال مرة أخرى.. هل سبق لأحد من أسرتك أن شاهد أية رؤيا من قبل؟!

تردد (رأفت)، واستعادت ذاكرته موقف أمه، قبل الحادث مباشرة، ولكنه طرح هذا عن رأسه، وهو يجيب في حذر:

- ليس على حد علمي..

أوما الدكتور (ثروت) برأسه منغما، وأشار بيديه، قائلا:

- فلننتظر إذن..

ردد (رأفت) في دهشة مستنكرة:

- ننتظر؟!

هز الرجل كتفيه في بساطة، قائلًا:

- بالتأكيد.. فهناك أمور لا يمكن حسمها، إلا لو تكررت الرؤيا مرة أخرى

هتف (رأفت) في عصبية:

- مثل ماذا؟!

ابتسم الدكتور (ثروت)، في رصانة ووقار، وهو يجيب في هدوء:

- اترك لي هذا

وعلى الرغم من أن هذا الجواب لم يمنحه أية تفسيرات إلا أن (رأفت)، ولسبب لم يستطع تفسيره أبدا، شعر بالارتياح والثقة

بل وراوده شعور بأن المشكلة قد انتهت نهائيا..

☆ ☆ ☆

«أأنت واثق من أنك لا تحتاج إلى إجازة أخرى؟!»

نطق الأستاذ (ماهر) رئيس تحرير الجريدة السؤال في حذر متوتر، وعلى نحو جعل (رأفت) يشعر بالغضب وهو يجيب:

- إنني في خير حال.

كرر الأستاذ (ماهر):

- أأنت واثق؟!

سيطر (رأفت) على أعصابه في صعوبة، وهو يتمتم:

- واثق تماما..

ظل رئيس التحرير يتطلع إليه بضع لحظات في صمت، فقال في عصبية:

- أستاذ (ماهر)، أنا لست محررا جديدا..

غمغم (ماهر)، وهو يطلق زفرة حارة:

- بالتأكيد يا (رأفت).. بالتأكيد..

قالها، وعاد إلى مكتبه، وأغلق بابه خلفه، فلوح(رأفت) بيده في حنق، قائلًا:

- ماذا أصابه؟! أيظنني مجنونا؟!

اختلس (أسعد) نظرة حذرة إليه، وتظاهر بالانهماك في العمل؛ ليتحاشى الدخول معه في مناقشة ما، في حين غمغمت(نجوى):

- لا تجعل هذا يزعجك..

كانت تتمنى لو احتوته بين ذراعيها، ومررت أصابعها على شعره؛ لتمتص كل توتره، وهي تضيف في حنان:

- الكل هنا يعلم أنك أعقل العاقلين..

أدار عينيه في وجوه رفاقه، الذين يتحاشونه بالانشغال في أعمال وهمية، وهو يقول في حدة:

- ليس هذا ما يبدو لي..
جلس خلف مكتبه في عصبية بالغة، فترددت هي لحظة ثم جذبت مقعدا، وجلست إلى جواره، وقالت بابتسامة حانية:
- كانت حكمة منك ألا تخبر والديك ما حدث.
هز رأسه، وزفر في عصبية، قائلًا:
- لم أكن لأحتمل نظراتهما إلى كمجنون..
هتفت:
- لست مجنونا يا (رأفت)..
انخفض صوتها، وهي تضيف:
- أنت أعظم إنسان في الدنيا كلها..
أدار عينيه إليها، والتقت نظراتهما لحظة، فتضرج وجهها بحمرة الخجل، وخفضت بصرها متمتمة:
- بالنسبة لي على الأقل..
ومن أعمق أعماقه، تصاعد شعور جميل، ليسري في عروقه، ويغذى كل ذرة من كيانه وخفق قلبه بل رقص بين ضلوعه وفي تلك اللحظة، بدت له (نجوى) كأجمل مخلوق في العالم أجمع وتمنى لو أنها تصبح رفيقة عمره، و..

وفجأة، لمح باب حجرة مكتب الأستاذ (ماهر)، وهو يفتح بحركة حادة، فرفع عينيه إليه بحركة غريزية، في نفس اللحظة التي تمتمت فيها (نجوى):
- أعتقد أن كل ما تحتاج إليه هو قليل من الراحة، و..
قبل أن تتم عبارتها، انتفض جسده بغتة في عنف، واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يثب من مقعده بحركة حادة..
فما رآه أمامه، في هذه اللحظة، كان مخيفا.. إلى درجة الرعب...
☆ ☆ ☆

٣- ثورة عقل....

كل ذرة في كيان (رأفت) راحت ترتجف في انفعال، وهو يرقد على تلك الأريكة الوثيرة، في حجرة الدكتور (ثروت)، الذي جلس إلى جواره، وضغط زر التسجيل، متسائلًا بنفس الصوت الهادئ الوقور:

- أهو نفس الرجل النحيل، الذي رأيته في المرة السابقة؟!

أجابه (رأفت) بصوته المرتجف:

- نعم.. نفس الرجل.. نفس الوجه النحيل، والنظرات الحادة المخيفة، ولكنه كان يحمل سكينا هذه المرة التقى حاجبا الرجل، وهو يسأله في اهتمام:

- سكينا؟!

أومأ برأسه إيجابا، ومسح وجهه بيده، وكأنما يريد أن يمحو ما بذاكرته، قبل أن يقول، وقد تضاعفت ارتجافته:

- نعم.. سكينا حادة، يقطر الدم من نصلها، على نحو مخيف رهيب.

ثم اعتدل بحركة حادة، متابعا في توتر عصبي، وهو يحدق ببصره بعيدا، وكأنما يصف ما يراه، وليس ما رآه من قبل:

- كان وجهه النحيل يحمل كل مقت الدنيا، وعيناه تتألقان بجنون، والدماء المتساقطة من سكينه تصنع بركة صغيرة من الدم عند قدميه وقلب كفيه، وهو يضيف في ارتياع:

- عم (عامر) لم يبد أي اهتمام، وكذلك رفاقي، وكل هذا كان يؤكد أن ما أراه مجرد وهم.. هلاوس كما وصفتها، وعلى الرغم من هذا فقد اندفعت إلى حجرة الأستاذ (ماهر)، و..، و..

ارتبك بشدة، فمال الدكتور (ثروت) على أذنه، قائلًا:

- وماذا يا أستاذ (رأفت).. تحدث؟!
هز (رأفت) رأسه في قوة، وهو يقول:
- الباب كان مغلقا، والكل اعتبرني مجنونا كالمرة السابقة.. حتى (نجوى) نفسها، بكت من أجلي، والأستاذ (ماهر) طلب مني أن أقوم بإجازة طويلة، حتى تهدأ أعصابي، وأستعيد سيطرتي عليها.
وأخفى وجهه بين كفيه، وبدا وكأنه ينتحب، وهو يتابع:
- لقد انتهى أمري، وضاع مستقبلى، و..
قاطعه الدكتور (ثروت) في حزم:
- ليس إلى هذا الحد..
هتف (رأفت):
- أي حد؟! لقد كانت حجرة الأستاذ (ماهر) خالية، وبقعة الدم لم يكن لها أثر.. كل هذا كان في رأسي فحسب.
صمت الدكتور (ثروت) بضع لحظات، قبل أن يقول:
- هذا لا يعني الجنون..
قال (رأفت) بصوت أشبه بالبكاء:
- ما الذي يمكن أن يعنيه إذن؟!
تنهد الرجل، مغمغما:
- ربما يعني الكثير
تراجع في مقعده ببطء، وبدا وكأنه غارق في أفكاره بعض الوقت، قبل أن يعتدل دفعة واحدة، ويقول:
- في عام ١٩٤١م، كان هناك شاب هولندي عادى، يدعى (بيتر هيركوس)، يعاون والده في طلاء بناء من أربعة طوابق، عندما زلت قدمه، وسقط من الطابق الرابع على رأسه، فتم نقله على نحو عاجل إلى المستشفى، الذي قضى فيه بعض الوقت في غيبوبة عميقة، أفاق منها ليكشف أن عقله قد اكتسب موهبة من نوع خاص جدا..

نجح هذا القول في جذب اهتمام (رأفت)، الذي نهض جالسا على طرف الأريكة، وهو يتساءل في لهفة:
- أي نوع؟!
أجابه الرجل:
- لقد اكتسب عقله قدرة مدهشة، على معرفة ماضي كل ما يلمسه أو يحيط به.. كان يلمس الشيء، فتتدفق كل المعلومات عن تاريخه إلى عقله.. باختصار، اكتسب الشاب شفافية مذهلة، جعلت إدارة (سكوتلاند يارد)، أشهر دائرة بوليسية في العالم أجمع، تعترف بموهبته.. بل وتستعين به في حل غموض بعض القضايا الكبرى، ولقد حقق نجاحات جعلت عدة هيئات بوليسية أخرى تستعين به، ليحقق عدة انتصارات رائعة أخرى.
ردد (رأفت) في انبهار:
- حقا؟!
ثم انتبه فجأة إلى ما يقصده الدكتور (ثروت) بحديثه فتساءل في توتر:
- هل.. هل تعتقد أننى أيضا قد..
قاطعه في حزم:
- ليس بالضرورة..
والتقط نفسا عميقا، قبل أن يضيف ولكن من المؤكد أنه هناك شيء ما؛ فأنت لم تلمس تلك الأشياء، قبل أن تظهر أمامك تلك الرؤى...
هز (رأفت) رأسه، قائلًا في توتر:
- لم أفهم ما تعنيه..
تطلع الرجل إليه مباشرة بضع لحظات، قبل أن يقول:
- إننا نحتاج إلى بعض التحريات الصحفية....
سأله (رأفت) في حيرة:

- عن ماذا؟!
مال الرجل نحوه كثيرا، وهو يجيب:
- عن تاريخ مقر الجريدة الجديد..
وكانت مفاجأة..

☆ ☆ ☆

حدق الأستاذ (ماهر) طويلًا في وجه (رأفت)، في دهشة مستنكرة، قبل أن يقول في عصبية:
- اسمع يا (رأفت).. لست أنكر أنك واحد من أفضل المحررين في الجريدة، ولكن هذا لا يعني أن تضيع وقتنا وجهدنا، بسبب هلاوس سخيفة...
عض (رأفت) شفتيه، في محاولة للسيطرة على أعصابه، وهو يقول:
- ليست هلاوس يا أستاذ (ماهر).. الدكتور (ثروت) يقول: إنه من المحتمل أن..
قاطعه رئيس التحرير في حدة:
- الدكتور (ثروت) هذا أكثر جنونا منك...
اتسعت عينا (رأفت)، وهو يهتف مستنكرا:
- أكثر جنونا؟!
صاح رئيس التحرير:
- بالتأكيد.. أنت ترى خزعبلات، وهو يعطيك تفسيرات هزلية لها، وعلينا نحن أن نبذل أنفسنا في سبيل تخريفكما هذا...
ثم ارتفع صوته أكثر، وهو يصرخ:
- لا.. لن نضيع دقيقة واحدة، في فحص تاريخ مقرنا الجديد هذا.. هل تفهم؟! لن نضيع لحظة واحدة...

قالها، واستدار مندفعا إلى حجرته في حدة، وصفق بابها خلفه في عنف، فتنحنح عم (عامر) وغمغم في حرج:
معذرة يا ولدي.. أنت تعلم كم هو عصبي المزاج
تمتم (رأفت) في غضب:
- وضيق الأفق
ربت (أسعد) على كتفه من الخلف، قائلًا:
اطمئن يا صديقي.. هذا ليس عملا رسميا، ولم يكن يحتاج إلى موافقة رئيس التحرير.....
هتف في لهفة:
حقا؟!
التفت إليه (رأفت) في تساؤل، قبل أن تهتف (نجوى) في حماسة:
- سنتولى هذا الأمر بأنفسنا...
أجابته بنفس الحماسة:
- بالتأكيد.. هذا واجبنا...
ارتفع حاجباه في تأثر، وهو يغمغم:
- الواقع أنني.. أننى..
أضاف (أسعد)، وقد انتقل إليه حماسها:
- سنبحث ملفات البناية، ونسأل الجيران، والبواب والمحال التجارية في المنطقة.. سنفعل كل شيء ممكن، حتى نقدم لك ملفا كاملا لهذا المقر.....
«أنت يا أستاذ..»
انطلق هتاف الأستاذ (ماهر) من خلفه، في غضب هادر، فالتفت إليه، قائلا في حدة:
- ماذا هناك يا أستاذ (ماهر)؟!
صاح به رئيس التحرير في غضب:

- وجودك هنا يفسد عمل الآخرين، ويشغلهم بالتفكير في رواياتك الهستيرية، عن القيام بعملهم، والجريدة لا يمكن أن تصدر بعد موعدها الأسبوعي المعروف.....
سأله (رأفت) في عصبية:
- ما الذي يعنيه هذا؟!
صاح به في حدة:
- يعني أنه من الأفضل، لك ولنا، أن تحصل على إجازة أخرى، حتى يستقر عقلك، وتمضى فترة النقاهة المناسبة.
شهقت (نجوى) في ذعر، وانعقد حاجبا (أسعد) في شدة، في حين احتقن وجه (رأفت)، وهو يقول:
- أستاذ (ماهر).. هل تمهد لفصلي؟!
صاح رئيس التحرير في حدة:
- أنا لم أتحدث عن الفصل.. فقط كنت أتحدث عن إجازة مرضية.....
هتف (رأفت) في عصبية:
- ولماذا إجازة؟! أنا مستعد لتقديم استقالتي فورا.
شهقت (نجوى) مرة أخرى، وصاحت وهي تندفع نحوه:
- لا يا (رأفت).. ليس هناك داع للاستقالة...
هم بالانفجار في وجه رئيس التحرير، ولكنها لكزته في جنبه، مستطردة:
إنه أمر مؤقت فحسب...
احتقن وجه (رأفت) أكثر، وتطلع إلى عينى الأستاذ(ماهر) في تحد عصبي، فقال هذا الأخير، وهو يشيح بوجهه:
- أتعشم هذا..
واستدار عائدا إلى حجرته، في خطوات سريعة عصبية، وانعقد حاجبا (رأفت) في شدة، ووثب قلبه بين ضلوعه في عنف، وهو

يحدق في موطئ قدمي الأستاذ (ماهر)..
كانت كل قدم تترك خلفها أثرا من الدم، الذي يتقاطر من حذائه، على نحو عجيب وعلى الرغم من أنه قد رأى هذا في وضوح شديد، ككل الرؤى السابقة، لم ينبس (رأفت) ببنت شفة هذه المرة فقط عض شفتيه، وهو يتابع آثار الدم على الأرضية حتى أغلق الأستاذ (ماهر) باب حجرته خلفه، فأغلق هو عينيه وفتحهما، وحدق مرة أخرى في أرضية المكان ولكن آثار الأقدام الدموية بقيت واضحة للغاية..
وزفر (رأفت) في عصبية، وهو يلملم أوراقه، قائلًا: سأنصرف
تبادل رفاقه نظرة قلقة، وقال (أسعد):
- لا داعي لهذا يا (رأفت).. الأستاذ (ماهر) لم يكن يقصد ما قال...
كان من الواضح أن أحدا غيره لم ير تلك الآثار الدموية، مما جعله يقول في عصبية أكثر:
- أعلم هذا.. أعلم هذا.. إنني أحتاج إلى الانصراف فحسب..

هتفت به (نجوى) في قلق:

- هل آتي معك؟!

استدار إليها بابتسامة شاحبة، وهو يقول:

- كلا.. أكملي عملك فحسب..

سأله رفيق آخر:

- وماذا عن مقالك الأسبوعي؟!
توقف لحظة مفكرا، قبل أن يجيبه في حذر:
- اكتب أن الأستاذ (رأفت) يعتذر عن مقاله الأسبوعي.
واستدار يتطلع إلى الأرضية في توتر وفي هذه المرة، لم يكن هناك أثر للدماء أدنى أثر..
لذا فقد عاد ببصره إلى رفيقه، مضيفا في توتر عنيف:
- لمرضه..
قالها، وغادر المكان في اندفاع، تاركا رفاقه خلفه، وقد خيم عليهم صمت مطبق ثقيل، قطعته (نجوى) وهي تقول في حدة:
- هل سنتخلى عنه بهذه البساطة؟!
قال (أسعد) في حزم:
- مطلقا..
ثم استدار إلى الباقين، مستطردا في صرامة:
- زميلنا في محنة يا رفاق.. هل سنقف إلى جواره أم سنتخلى عنه؟! أريد ردا صريحا مباشرا.. وفوريا وارتفعت كل الأيادي في آن واحد، معلنة الموافقة.. الجماعية...

☆ ☆ ☆

لم يشعر (رأفت) في حياته كلها بالتوتر، مثلما شعر به في ذلك اليوم، وهو يتقلب في فراشه، محاولا اجتذاب النوم، على الرغم من تناوله لذلك العقار المهدئ، الذي وصفه له الدكتور (ثروت)، والذي نصحه بضرورة قصر استخدامه على الحالات القصوى فقط...
كان ما رآه اليوم قد أقنعه بأنه على حافة الجنون بالفعل وهذا ما أصبح يشعر به
نظرية الحالة العقلية الفائقة هذه لم تعد تقنعه..

إنها نوع من الهلاوس، كما وصفها الدكتور (ثروت) في البداية، بتلقائية فطرية، وهو يشرح حالته وشعر بغصة في حلقه ليته لقى مصرعه في الحادث ليته مات، ودفن، وانتهت حياته كصحفي، والكل يذكر ذكاءه وبراعته، ومقالاته الساخنة، والتي كثيرا ما أثارت الجدل، في الساحة الأدبية والسياسية ويا له من موقف، لم يتخيل يوما حدوثه!!

الآن أصبح الكل يعتبره مخبولا، مختل العقل..

حتى رئيس التحرير، الذي انتقاه من بين كل الصحفيين؛ ليجعله المسئول الأول عن قسم التحقيقات، يطالبه اليوم بأن يأخذ إجازة مفتوحة، حتى يستعيد اتزانه العقلي، وتوازنه النفسي...

ويا لها من مرارة، تلك التي يشعر بها، في كيانه كله!

أهكذا تكون نهاية مستقبله؟!

أهكذا تنتهي سمعته؟!

استعاد ذهنه انتصاراته الصحفية السابقة، ومقالاته الملتهبة، ثم مر بالحادث، وفقدان الوعي، وما تبع هذا من اضطرابات وهلاوس، حتى توقف عند مشهد أمه، وهي تستقبله في قلق لدى عودته المبكرة من عمله، ورعايتها الحانية له، حتى أوى إلى فراشه، وتظاهر بالنوم، لتنسحب هي إلى حجرتها..

ودون أن يدري، سالت من عينيه الدموع دموع ساخنة ملتهبة، سالت على وجنتيه، وتساقطت على الفراش، فأغلق عينيه في قوة، وتمتم:

- لماذا يا إلهي! لماذا؟!

ويبدو أن دموعه قد أفرغت الكثير من انفعالاته وتوتره، أو أنه ذلك العقار المنوم، الذي جعل جسده يسترخي أخيرا، وألقاه في نوم عميق..

عميق...
عميق بلا قرار...

☆ ☆ ☆

كانت ساعة متأخرة للغاية، عندما أوقف سيارته أمام البناية، التي تضم مقر الجريدة الجديد...
كل شيء كان هادئا في قلب الليل، في وسط العاصمة والبناية كلها كانت نائمة وفي هدوء، صعد في درجات السلم لم يستقل المصعد كالمعتاد...
ولم يدر حتى لماذا؟!
المهم أنه راح يصعد في درجات السلم ويصعد ويصعد وعندما بلغ المقر الجديد، كان بابه مفتوحا والعجيب أنه لم يتساءل عن كونه كذلك ولم يشعر بأدنى خوف أو قلق.. فقط دلف إليه، وتطلع إلى المكاتب الخالية، وإلى مكتبه..
ثم أدار عينيه إلى نتيجة كبيرة على الجدار نتيجة تشير أوراقها إلى الخامس من يناير وفي أعماقه، بدأ يشعر بالقلق..
قلق مبهم عجيب، سري في كل خلية من جسده، وتصاعد إلى قلبه، فخفق في قوة، وراح يرتجف بين ضلوعه، على نحو جعله يتلفت حوله في عصبية، قبل أن يتوقف بصره عند باب حجرة الأستاذ (ماهر)..
شيء شرير..
مخيف..
وعلى الرغم من بابها المغلق، شعر بأن شيئا ما يحدث هناك..
رهيب..
وعلى الرغم من ذلك الخوف، الذي سري في عروقه، اندفع نحو حجرة رئيس التحرير، وفتحها بحركة حادة..
ثم انتفض جسده كله وبمنتهى العنف..

وتجمدت عيناه في محجريهما، وهو يحدق برعب في عيني ذلك النحيل، الذي التفت إليه بحركة حادة، ورفع سكينه، التي تتقاطر منها الدماء الساخنة اللزجة وفي تلك اللحظة فقط، انتبه (رأفت) إلى أنه يخوض في بحر من الدم دماء ملأت الحجرة كلها، وأغرقت قدميه واتجه ذلك القاتل النحيل نحوه، وهو يطلق صرخة عالية..

صرخة حادة، وحشية، رهيبة

صرخة امتزجت برنين الهاتف، وهو يتراجع مذعورا..

ثم تلاشت الصرخة، وتعالى رنين الهاتف وهب (رأفت) من فراشه مذعورا، وحدق في حجرته بذهول، وهو يلهث في عنف، ورنين الهاتف يتواصل في إلحاح أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

والتقط سماعة الهاتف، وهو يقول لاهثا:

- من المتحدث؟!

صوت (نجوى) مفعما بالانفعال، وهي تهتف:

- (رأفت).. لن تصدق ما توصلنا إليه

اعتدل بحركة حادة، وهو يسألها في توتر:

- وما الذي توصلتم إليه؟!

أسرعت تخبره ما لديها

واتسعت عيناه عن آخرهما فما توصل إليه رفاقه كان مذهلًا وبكل المقاييس..

☆ ☆ ☆

٤- الجريمة..

«جريمة قتل؟!»

نطق الدكتور (ثروت) الكلمة في بطء، يحمل كل الاهتمام، وهو يتطلع إلى عينى (رأفت) مباشرة، فهز هذا الأخير رأسه في توتر، وقال:

- نعم.. الرفاق بحثوا جيدا تاريخ المقر، والبناية كلها، وكشفوا أنه هناك جريمة قتل حدثت، في إحدى الشقق الثلاث، التي يحتلها المقر الجديد للجريدة، ولكن هذا منذ خمسين عاما..

سأله الرجل في اهتمام أكثر:

- وما نوع الجريمة؟!

ازدرد (رأفت) لعابه، في شيء من التوتر، وقال:

- مهندس يدمن المخدرات، أصابته نوبة من الجنون المؤقت، فقتل زوجته وأبناءه، ثم انتحر..

التقى حاجبا الدكتور (ثروت) بضع لحظات، في تفكير عميق، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة ارتياح، وهو يقول:

- هذا يفسر كل شيء..

سأله (رأفت) في توتر:

- يفسر ماذا؟!

أجابه في حماسة:

- تلك الرؤى التي تراودك، كلما ذهبت إلى مقر الجريدة الجديد..

ثم مال نحوه، وتألقت عيناه، وهو يضيف:

- إنك تشاهد ما حدث في المكان، منذ خمسين عاما كان هذا ما توقعه (رأفت) بالضبط، منذ أخبرته (نجوى) بأمر جريمة القتل البشعة التي وقعت في ماضي المقر، وعلى الرغم من هذا، فقد

تراجع بحركة حادة، كما لو أصابته العبارة بصدمة عنيفة، واتسعت عيناه في ذعر، جعل الدكتور (ثروت) يسأله في قلق:

- ما الذي يخيفك؟!

هتف في عصبية:

- إنك لم تر ما أراه..

قال الدكتور (ثروت) في حماسة:

- ولكنها هبة لا يتمتع بها الكثيرون.. لقد انجلت حواسك، وأصبحت قادرا على رؤية التاريخ نفسه.. ألا تدرك ما يمكن أن يعنيه هذا؟! إنك حالة نادرة، من حالات التألق العقلي الفائق.. حالة لم نشهد مثلها في عالمنا العربي قط..

هتف (رأفت) في مرارة:

- ولماذا أنا؟!

أجابه الرجل في سرعة:

- ولماذا تسأل؟! الله (سبحانه وتعالى) منحك هبة خاصة من هباته (عز وجل)، اقبلها إذن، ولا ترفض عطية الخالق، الذي

يهب من يشاء بغير حساب..
دفن (رأفت) وجهه بين كفيه، وهو يقول:
- تلك الرؤى تعذبني..
ربت الرجل على كتفه، قائلًا:
- ولكن من المؤكد أن فيها خيرا ما.
رفع عينيه إليه، قائلا في مرارة:
- أي خير في عذاب كهذا؟!
نهض الدكتور (ثروت)، والتقط نفسا عميقا، ملأ به صدره، ثم أفرغه على هيئة زفرة حارة ملتهبة، قبل أن يقول بوقاره ورصانته المعهودين:
- اسمع يا أستاذ (رأفت).. أنت شاب ذكي، وصحفي نابه نشيط، إلا أن سنوات العمر العشر، التي تفصل بيني وبينك منحتني خبرة خاصة في الحياة.. خبرة علمتني أن الله (سبحانه وتعالى)، عندما يمنح شخصا هبة ما، تفوق ما يملكه أقرانه من البشر، فهو لا يمنحه إياها ليعذبه، ولا حتى ليستفيد بها وحده.. إنه يمنحه إياها من أجل هدف ما.. هدف بعيد المدى، لا يمكن أن ندركه نحن بعقولنا المحدودة، مهما بلغت عبقريتها وتطلع إلى (رأفت) مباشرة، وهو يضيف:
- صدقني يا ولدي.. ما يأتينا من الخالق (عز وجل) خير دوما.. ونحن وحدنا، يمكننا أن نزرع فيه الشر، لو نجح الشيطان في إغوائنا ما يأتينا من الخالق (عز وجل) خير دوما.
ظلت العبارة تتردد في ذهن (رأفت) بعد أن غادر عيادة الدكتور (ثروت)، وطوال الطريق إلى منزله وعلى الرغم من كل ما يمر به، شعرت نفسه بارتياح غامر، مع ذكر الله (سبحانه وتعالى)، فتنهد مغمغما:
- قدر الله، وما شاء فعل.

مرة أخرى راح يطلق من بين شفتيه صفيرا منغوما، بنفس اللحن الذي كان يردده ليلة الحادث..

ولأول مرة أيضا يتخذ نفس الكوبري العلوى، في طريق عودته إلى المنزل وعندما مر بموضع الحادث، وجد نفسه يتمتم بالعبارة ذاتها:

- ما يأتينا من الخالق (عز وجل) هو خير حتما ولم يدر لماذا تذكر (نجوى) في هذه اللحظة، وشعر بقلبه يخفق بين ضلوعه، وبدت له صورة وجهها الباسم الرقيق أمام عينيه، فتمتم:

- آه يا (نجوى)..

لم يكد يهبط من الكوبري، إلى الطريق المعتاد، حتى أوقف سيارته على جانب الطريق، والتقط هاتفه المحمول وطلب رقم (نجوى)، ولم يكد يسمع صوتها، حتى قال، بكل حرارة الحب في أعماقه:

- (نجوى).. هل يمكنني أن آتي لزيارتكم الليلة..

ورقص قلب (نجوى)..

بمنتهى الحب..

☆ ☆ ☆

انطلقت زغرودة عالية، من بين شفتي والدة (رأفت)، قبل أن تحتضن (نجوى) بكل حب وحنان الدنيا، هاتفة من وسط دموع فرحتها:

- ما أجمل عروس ابني.. خطبتكما اليوم هي لحظة عشتها، في حياتي كلها..

قبلتها (نجوى) في حب، قائلة:

- بل هي أسعد لحظة في حياتي أنا يا أمي..

أطلقت الأم زغرودة عالية أخرى، فابتسم (رأفت)، قائلا:

- كفى يا أمي.. صحتك لن تحتمل كل هذا.

هتفت الأم:

- صحتي على خير ما يرام.. دعك أنت منى، وانشغل بعروسك عنى..

كان الحفل بسيطا مبهجا بحق، وراح (رأفت) و (نجوى) يتبادلان الأحاديث المرحة مع رفاقهما، وضحك (أسعد)، قائلا:

- حذار من زوج المستقبل يا (نجوى).. موهبته الجديدة تجعله قادرا على معرفة ماضيك كله..
هتفت ضاحكة:
- فليكن.. ليس لدى ما أخفيه
ولكن الدعابة لم ترق ل- (رأفت)، فقال في شيء من الصرامة:
- دعونا لا نتحدث عن هذا:
ربتت (نجوى) على يده مهدئة، وهي تقول:
- نعم.. دعونا لا نفعل.. هناك الكثير لتفعلوه هنا.
ثم أشارت بيدها، وغمزت بعينها، مضيفة:
- أمي ستفتتح البوفيه الآن.
انطلقت صيحات رفاقهما مرحة مهللة، وهم ينطلقون إلى البوفيه، فمالت هي على أذن (رأفت)، هامسة:
- لا تجعل هذا ينتزع فرحتنا..
تنهد مغمغما:
- اطمئنى.
وعلى الرغم من قوله، فقد سألها في توتر:
- لماذا لم يحضر الأستاذ (ماهر) حفل خطبتنا؟! لقد دعوته بنفسي!
ربتت على يده مرة أخرى، قائلة:
- لا تجعل هذا يقلقك.. الأستاذ (ماهر) اعتذر عن الحضور؛ لأن محاميه يحمل إليه بعض الأوراق المهمة جدا، بخصوص قضية الإرث، التي رفعها على زوج عمته الراحلة، ولقد تحددت جلسة المحاكمة صباح الغد، ولا يمكنه تأجيل موعد المحامي، ولكنه وعد بالحضور، إذا ما أنهى عمله مبكرا..
غمغم:
- هذا أفضل.

اندفع (أسعد) نحوهما في هذه اللحظة، وهو يهتف في حرارة:
- هيا.. أمك تصر على أن تفتتحا البوفيه بنفسيكما ونحن نتضور جوعا.. هيا بالله عليكما..
ضحكت (نجوى)، قائلة:
- هيا يا (رأفت).. قبل أن يلتهموننا نحن..
تبعها (رأفت) وهو يرسم على وجهه ابتسامة متوترة، واستقبلته والدة (نجوى)، وهي تهتف:
- هيا يا عريس.. اقطع الكعكة مع عروسك وناولته سكينا طويلًا حادا لقطع الكعكة..
وانتفض جسد (رأفت) في عنف، وهو يلتقط السكين، ولم تفت انتفاضته (نجوى)، التي أدركت على الفور سر اضطرابه، فأسرعت تلتقط السكين من يده، وهي تهتف مصطنعة المرح:
- لا.. سأقطعها أنا.. النساء أولًا..
وعندما وقف (رأفت) إلى جوارها، وهي تقطع الكعكة، شعرت بجسده المرتجف، ووجدت نفسها تتساءل: تُرى هل عاودته الرؤيا في تلك اللحظة أيضا؟!
هل؟!

☆ ☆ ☆

«كلًا.. لم يحدث أي شيء..»
زفر (رأفت) في توتر شديد، وهو ينطق العبارة، أمام الدكتور (ثروت)، الذي سأله في اهتمام:
- ماذا أثار توترك إذن؟!
هز (رأفت) كتفيه، قائلًا:
- لست أدرى.. رؤية السكين ذكرتني بما أراه، في مقر الجريدة الجديد، وبالذات ما رأيته في حلمي، و... و....
قاطعه الدكتور (ثروت) باهتمام قلق:

- حلمك؟! إنك لم تتحدث عن أي حلم!
مط شفتيه، قائلًا:
- إنه مجرد حلم.
بدا صوت الدكتور (ثروت) عصبيا، وهو يقول:
- لقد اتفقنا منذ البداية على أن تخبرني بكل التفاصيل مهما بدت لك تافهة.. هذا مهم للغاية في بحثنا..
بدا الضيق والضجر على وجه (رأفت)، وهو يقول:
- لم أتصور أن مجرد حلم يمكن أن..
قاطعه الرجل بنفس العصبية:
- فليكن.. صف لي ما رأيته في حلمك..
ازدرد (رأفت) لعابه في توتر بالغ، ثم راح يروى له حلمه المخيف..
وباهتمام يفوق الحد، استمع إليه الدكتور (ثروت)، حتى انتهى من روايته، فالتقط الرجل نفسا عميقا، وغمغم:
- إذن فقد رأيت التاريخ بوضوح..
قال (رأفت) في إصرار:
- إنه مجرد حلم.
مال الدكتور (ثروت) نحوه، وسأله في اهتمام:
- هل أخبرك رفاقك عن التاريخ، الذي ارتكبت فيه تلك الجريمة القديمة؟!
هز رأسه نفيا، قائلًا:
- ليس بالتحديد.. لقد حدثت منذ نصف قرن تقريبا.
قال الدكتور (ثروت) في حزم:
- ليس تقريبا..
ثم أشار إلى النتيجة المعلقة على جدار عيادته، مضيفا:
- إننا في التاسع من ديسمبر الآن.

تطلع (رأفت) إلى النتيجة في حيرة، قائلًا:
- ما الذي يعنيه هذا؟!
أجابه الدكتور (ثروت):
- يعني أن الذكرى الخمسين لجريمة القتل ستحين، بعد أقل من شهر واحد..
قال (رأفت) في عصبية:
- مازلت أسأل: ما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟!
تراجع الدكتور (ثروت) في مقعده، وقال:
- يمكن أن يعني الكثير، وخاصة عندما راودتك تلك الرؤى، مع مرور نصف قرن على الجريمة عادت الحيرة تملأ نفس (رأفت)، وهو يحدق في وجه الطبيب النفسي طويلًا، قبل أن يهب من مقعده، قائلًا في حدة:
- لقد أعياني التفكير في هذا الأمر.. فليحدث ما يحدث.
سألقى كل هذا خلف ظهري، وأحيا حياتي كما كنت أفعل سابقا.
قال الدكتور (ثروت) في قلق:
- لا يمكنك أن تنسحب بهذه البساطة..
قال (رأفت)، في حدة أكثر:
- بل يمكنني أن أنسحب فورا؛ لأنني لم أعد أحتمل كل ما يحدث.. إنني أستعد لبدء حياة جديدة.. أستعد للزواج والاستقرار، وتكوين أسرة جديدة، ولست مستعدا أبدا لإفساد كل هذا، بسبب أمور لا يمكنني حتى فهمها أو هضمها نهض الدكتور (ثروت) بدوره، وهو يقول:
- أستاذ (رأفت).. لا تهدر فرصة نادرة كهذه.. أرجوك.
لوح (رأفت) بذراعه، هاتفا:
- أية فرصة؟!
أجابه الرجل في سرعة:

- فرصة دراسة حالتك هذه.. إننا نحتاج إلى إجراء بعض الفحوص، و....
قاطعه (رأفت)، وهو يندفع نحو باب الحجرة، قائلًا في غضب:
- آسف.. لست فأر تجارب، ولن أضع نفسي في هذه الدوامة العلمية السخيفة أبدا..
لحق به الدكتور (ثروت)، وأمسك كتفه في قوة، وهو يقول:
- أستاذ (رأفت).. أرجوك.. إن أكبر خطأ وقع فيه
معاصرو ذلك الهولندي (بيتهيركوس)، هو أنهم لم يحاولوا دراسة ظاهرته العقلية علميا، وربما لو فعلوا، لقفز علم النفس قفزة مدهشة، يعلم الله (سبحانه وتعالى) وحده إلى أين كانت ستقودنا..
هتف (رأفت) في عصبية شديدة:
- كل هذا لا يعنيني.. فليذهب علم النفس كله إلى الجحيم..
المهم أن أحيا حياة طبيعية، وليس كفأر تجارب تشبث به الرجل مرة أخرى، وهو يقول في لهجة، أقرب إلى الضراعة:

- إننا أمام حالة عقلية فائقة، ولا ينبغي أن يسمح لك ضميرك بإهدارها، دون أن يستفيد منها العالم كله..
- ولماذا أدفع حياتي، ثمنا لفائدة العالم؟!
أجابه الرجل في سرعة:
كلماته الأخيرة جعلت قلب (رأفت) يرتعد وسط ضلوعه، وأشعلت نيران ضميره، على نحو جعله يتوقف، ويغمض عينيه، ويتمتم في مرارة:
- كل العظماء، الذين نقرأ عنهم في كتب التاريخ، شاركوك هذا المصير.. إنه قدرهم.
ثم مال نحوه، مضيفا في همس:

- وقدرك..
مرة أخرى، ارتعد قلب (رأفت) بين ضلوعه، فاستدار يتطلع إلى الدكتور (ثروت) في مرارة، مغمغما:
- فليكن..
ثم استدرك، مستعيدا صرامته وعصبيته:
- ولكن ليس قبل الخميس الأول من يناير..
تراجع الطبيب النفسي، متسائلًا في حيرة:
- وما الحكمة في هذا؟!
أجابه في عصبية أكثر:
- لأن هذا تاريخ حفل زفافي.
حدق الرجل في وجهه لحظة بدهشة، ثم لم يلبث أن ابتسم، قائلًا:
- اتفقنا.. سنعتبرها إجازة قصيرة، تمنحك فرصة لالتقاط أنفاسك، وتهدئة أعصابك
وصمت لحظة، ثم أضاف، وقد تلاشت ابتسامته: -
- وتمنحني أنا فرصة إجراء المزيد من التحريات، حول تلك الجريمة القديمة.. فمن يدري؟!
ومن جديدة، طرح السؤال ذاته نفسه من يدري؟!
من؟!

☆ ☆ ☆

على الرغم من كل الاستعدادات، التي استغرقت أسبوعا كاملًا، ومن أن كل رفاق العروسين، قد شاركوا في الأمر إلا أن حفل زفاف (رأفت) و (نجوى) لم يبدأ، إلا قبيل الحادية عشرة مساء بدقائق قليلة ولقد قطع العروسان ممر الفندق الطويل، فيما يقرب من ساعة كاملة، في زفة لم تشهد المنطقة مثلها منذ فترة طويلة..

وعندما استقر الاثنان على مقعديهما، وحولهما قوس مدهش من الزهور، كانت عقارب الساعة تشير إلى منتصف الليل تقريبا ووسط زغاريد الفرح، وعبارات التهنئة، والتعليقات المرحة، مال (رأفت) على أذن عروسه، يهمس:

- الأستاذ (ماهر) لم يحضر الليلة أيضا.

ضحكت قائلة:

- لقد أرسل أكبر باقة زهور هنا، وأعطى الكل إجازة لحضور الحفل، على الرغم من أن العدد الأسبوعي سيصدر بعد غد.. لقد تولى الأمر كله بنفسه، حتى يتيح لنا حفل زفاف جيدا..

ثم ابتسمت، وهي تتطلع إليه بدلال، مستطردة:

- الواقع أنه يستحق الشكر..

تطلع إلى وجهها الجميل، وثغرها الباسم الرقيق، قبل أن يبتسم في حب، قائلًا:

- هذا صحيح.

توالت فقرات الحفل الرائعة، على نحو جميل مبهر، وراح الكل يتسابق على مجاملة الصحفي النابه، وراح الوقت يمضي في سرعة واندمج (رأفت) و(نجوى) مع رفاقهما، وتعلت ضحكاتهما، قبل أن يعودا إلى مقعديهما، فهتفت (نجوى):

- رباه! إنه أسعد يوم في حياتي..

أجابها بكل فرحة الدنيا:

- وأنا أيضا..

ثم استدار إلى حيث تجلس أمه، مستطردا:

- هل رأيت كيف كانت أمي تـ....

بتر عبارته بغتة، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يحدق في أمه، على نحو جعل (نجوى) تسأله في قلق:

- ماذا حدث؟!
أشار إلى أمه، قائلًا في توتر:
- ما هذه البقعة الكبيرة، على ثوب أمي؟!
أدارت عينيها إلى أمه، متسائلة في حيرة:
- أية بقعة؟!
توترت كل ذرة في كيانه، وهو يحدق في بقعة حمراء كبيرة، على ثوب أمه، تبدو واضحة وضوح الشمس، مع لون الثوب الفاتح، حتى إنه هتف:
- مستحيل ألا تريها؟!
كادت تبكي من فرط قلقها، وهي تحتضن ذراعه، قائلة:
- رباه! إنها تلك الحالة مرة أخرى..
زاغت عيناه، وهو يسألها، في شيء من الذعر:
- ألا ترينها؟!
أغلق عينيه في قوة، وشعر بجسده كله ينتفض، وهو يهمس لنفسه:
- يا إلهي! ليس الليلة.. ليس الليلة يا رب..
ربتت (نجوى) على كتفه، محاولة تهدئته، دون أن ينتبه الناس إلى ما يحدث، وهي ترسم على شفتيها ابتسامة متوترة، وفجأة، ارتفع رنين هاتفه المحمول..
ارتفع على نحو انتزعه من الموقف بغتة، فانتفض جسده كله في عنف، واتسعت عيناه عن آخرهما، فحدق في أمه، بكل توتر الدنيا ولم تكن هناك أية بقع على ثوبها أية بقع على الإطلاق..
وتواصل رنين الهاتف المحمول
وتواصل
وتواصل
وفي حركة متوترة، التقط الهاتف، وقال في عصبية:

- أيّا كنت يا من تتحدث.. أنا الآن في حفلّ زفاف..
قاطعه صوت الدكتور (ثروت)، وهو يقول:
- إنه أنا يا أستاذ (رأفت).
شعر (رأفت) بتوتر أكثر؛ لمجرد سماع صوت طبيبه النفسي، في هذه اللحظة، ولكنه ازدرد لعابه في عصبية وقال:
- لماذا لم تأتِ يا دكتور (ثروت)؟! لقد تركت لك دعوة زفاف، و..
قاطعه الرجل مرة أخرى، وهو يقول في انفعال:
- معلومات زملائك عن الجريمة لم تكن دقيقة..
عاوده التوتر البالغ، وهو يسأله:
- ماذا تعنى؟!
أجابه بنفس الانفعال:
- ذلك المهندس لم يمسك سكينا واحدة في أثناء جريمته..
لقد أطلق الرصاص على زوجته وأطفاله، ثم نسف رأسه.
عض (رأفت) شفته في عصبية، وهو يقول:
- هل يبدو لك هذا الحديث مناسبا لحفل زفاف؟!
ارتبك الطبيب النفسي، وهو يقول في حرج:
- معذرة، ولكن هناك أمرا آخر، تصورت أنه سيريحك أن تعرفه الآن..
سأله في عصبية:
- وما هو؟!
أجابه في سرعة:
- الجريمة لم تحدث في الخامس من يناير كما تصورنا، بل في السابع عشر من يوليو..
مدت (نجوى) يدها في هذه اللحظة وأغلقت الهاتف المحمول، ثم قطعت عنه الاتصال، وهي تقول مبتسمة:

- لن يسرقك أي شيء، أو أي شخص منى هذه الليلة منحها ابتسامة مرتبكة، وترك أصابعها تعانق أصابعه وتبعث فيها الدفء، وعقله حائر فيما سمعه من طبيبه النفسي منذ لحظات ترى ما الذي يمكن أن يعنيه كل هذا؟!

لقد درب عقله على تقبل فكرة الرؤية الماضية، على الرغم من عدم اقتناعه بمثل هذه الأمور، فقط ليوهم نفسه بوجود تفسير لحالته هذه القاتل لم يستخدم سكينا تفسير يخالف الجنون ولكن ما قاله الدكتور (ثروت)، يقلب الصورة كلها رأسا على عقب..

والجريمة لم تحدث في الخامس من يناير..

ما الذي رآه إذن؟!

من ذلك النحيل القاتل، الذي يمسك سكينا يقطر منها الدم؟!

من؟!

من؟!

انتزعته (نجوى) من أفكاره وتوتراته وتساؤلاته، وهي تهمس في أذنه:

- من الخطأ أن يشرد العريس بأفكاره، في حفل زواجه بعيدا عن عروسه.

استدار إليها مبتسما، وهو يقول:

- وهل يمكنني هذا؟!

ضحكت في دلال، وهي تهمس:

- ما رأيك لو افتتحنا حلبة الرقص بـ..

قبل أن تتم عبارتها، التقطت أنناهما جلبة محدودة، فالتفتا إلى مصدرها معا، ورأيا أحد عمال الفندق، محتقن الوجه، يحاول لملمة بعض الأكواب من الأرضية، وهو يقول لأم (رأفت) في ارتباك:

- معذرة يا سيدتي.. ألف معذرة.. لقد تعثرت، ولم أقصد هذا، أبدا، و..
ولم يسمع (رأفت) باقي العبارة، وهو يحدق في تلك البقعة الحمراء الكبيرة، على ثوب أمه، والتي صنعها الشراب، الذي سكب من العامل (نجوى) أيضا حدقت في البقعة نفسها بذهول، قبل أن تقبض أصابعها على أصابع (رأفت) في قوة، وهي تقول بصوت مبحوح منفعل:
- رباه! (رأفت).. لقد رأيت هذا قبل أن يحدث!!
واتسعت عينا (رأفت) عن آخرهما..
«لقد رأيت هذا قبل أن يحدث..»
«رأيته قبل أن يحدث..»
«قبل أن يحدث..»
احتقن وجهه بشدة، والعبارة تتردد في رأسه، وراح عرق غزير يتصبب على وجهه في غزارة، وهو يحدق فيما حوله، دون أن يرى شيئا..
حفل الزفاف كان في الخميس، الرابع من يناير ولكن عقارب الساعة تجاوزت منتصف الليل بساعتين كاملتين وهذا يعني أنهم الآن في الخامس من يناير في موعد الجريمة بالضبط..
وبسرعة مذهلة، استعاد عقله أحداثا شتى متفرقة وفي انفعال جارف، هب من مقعده، صارخا:
- يا إلهي! الأستاذ (ماهر).
ثم أقدم على أغرب شيء يمكن أن يقدم عليه عريس، في حفل زفافه لقد انطلق يعدو، أمام العيون الذاهلة وبأقصى سرعته..

☆ ☆ ☆

٥- اللحظة الأخيرة..

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت الثانية صباحا، عندما أوقف سيارته أمام البناية، التي تضم مقر الجريدة الجديد في وسط العاصمة كل شيء كان هادئا، في قلب الليل، ولكنه وثب من السيارة، واندفع نحو البناية بكل سرعته ولم يستقل المصعد كان يخشى أن يتعطل، فتحدث الكارثة قبل وصوله وبخطوات كالقفز، راح يصعد في درجات السلم.

ويصعد..

ويصعد..

وعندما بلغ المقر الجديد كان بابه مفتوحا، فاندفع إليه، وهو يلهث في عنف.. وبكل توتره، تطلع إلى المكاتب الخالية، وإلى النتيجة الكبيرة على الجدار، والتي تشير أوراقها إلى الخامس من يناير ثم انقض على حجرة الأستاذ (ماهر)..

واقتحمها في عنف..

وتجمدت عيناه في محجريهما، وهو يحدق برعب في عيني ذلك النحيل، حاد القسمات والنظرات، والذي التفت إليه بحركة وحشية، وهو يرفع سكينه ذات النصل الكبير الحاد، ويده الأخرى تقبض على عنق الأستاذ (ماهر) في شراسة..

ولكن لم تكن هناك دماء، تتقاطر من نصل السكين لم تكن هناك أية دماء بصوت متحشرج مختنق، هتف الأستاذ (ماهر) في ذعر:

- النجدة يا (رأفت).. النجدة.

وارتفعت سكينه إلى أعلى. وتراجع (رأفت) بحركة حادة وهوت السكين وهنا ترك النحيل عنق الأستاذ (ماهر)، ثم انقض على

(رأفت)، وهو يطلق صرخة عالية صرخة حادة، وحشية، رهيبة..
وشعر (رأفت) بآلام حادة في ذراعه، ورأى السكين ترتفع مرة أخرى، والدماء تتقاطر من نصلها وفي هذه المرة، لم ينتظر حتى تهبط السكين مرة أخرى.. لقد ارتفعت يده تقبض على معصم النحيل في قوة، ثم نقضت يده الأخرى على معدته بكل العنف وشهق النحيل شهقة قوية، امتزجت بما يشبه الزمجرة الغاضبة، قبل أن يركل (رأفت) في معدته بكل قوته ويدفعه إلى الخلف، ليرتطم بالجدار، ثم يسقط على وجهه أرضا..
واختطف الأستاذ (ماهر) ثقالة الورق من سطح مكتبه، واندفع بها نحو النحيل، صارخا في عصبية:
- أيها القاتل المجنون.
استدار إليه القاتل النحيل بحركة حادة، وطوح سكينه في عنف، فمزق نصلها قميص الأستاذ (ماهر)، وجرح صدره، فتناثرت الدماء في الحجرة، وعلى وجه (رأفت)، الذي حاول النهوض، لولا أن عاجله النحيل بركلة عنيفة في فكه، أسقطته مرة أخرى أرضا..
ومن بين عينيه الزائغتين، نصف المغلقتين، شاهد(رأفت) عيني النحيل تبرقان في جنون، ونصل سكينه يرتفع عاليا، وهو يطلق صرخة عالية وحشية، و..
وفجأة، اقتحم (أسعد) المكان، مع أحد رجال الشرطة، الذي صاح، وهو يشهر سلاحه في وجه النحيل:
- ألق سكينك وإلا...
ولكن النحيل أطلق صرخة وحشية أخرى وهوى بالسكين على صدر (رأفت)..
ومن خارج الحجرة، دوت صرخة (نجوى) المذعورة الملتاعة، وامتزجت بدوي رصاصة، اخترقت كف النحيل وأطاحت

بسكينه، قبل أن ينقض عليه رجل الشرطة في قوة..
وشعر (رأفت) بالمعركة العنيفة، التي تدور في حجرة رئيس التحرير ثم بدأ شعور بما حوله يتلاشى تدريجيا، قبل أن ينقطع شعوره بمن حوله تماما..

☆ ☆ ☆

ارتفعت ضحكة (أسعد) عالية مجلجلة، قبل أن يربت على ظهر (رأفت)، قائلا في مرح:
- أراهنكم على أنه أغرب حفل زفاف في الوجود.. العريس يفر من عروسه، لينقذ رئيس التحرير في اللحظة الأخيرة يا له من مانشيت صحفي مثير..
هتفت (نجوى)، معترضة في مرح:
- خطأ.. إنه لم يفرّ منى..
تنهد الأستاذ (ماهر)، وهو يتحسس ضمادات صدره، قائلا:
- ولكنه أنقذ حياتي.
ومط شفتيه، واعتدل في مقعده، ليتابع:
- إنه شقيق زوج عمتي، وهو مريض نفسي، تصور أننى عدو لشقيقه، بعد أن ربحت قضية الميراث، وجردتهما من كل ما استوليا عليه، فقرر ذبحي بلا رحمة، ولقد كاد ينجح في هذا
وتنهد مرة أخرى، وهو يتطلع إلى (رأفت) مضيفا في امتنان:
- لولا وصولك في الوقت المناسب.
قال (رأفت) بابتسامة هادئة:
- الفضل لله (سبحانه وتعالى) وحده يا رجل.
ابتسم الدكتور (ثروت)، وأشار بسبابته في ارتياح، قائلا:
- ألم أخبرك أن كل ما يأتينا من الخالق (عز وجل)، فيه كل الخير لنا؟
وهز رأسه، قبل أن يتابع في حماسة:

- لقد تصورنا أنك تكرار لحالة (بيتر هيركوس) الشهيرة، وأن ما تراه مجرد حوادث ماضية، التقطها عقلك بحواس متألقة، شحذها الحادث، أو ساعدت العملية الجراحية الجديدة، التي أجراها لك الدكتور (صبري)، على وجودها، ولكن الحقيقة أن ما رأيته كان رؤيا مستقبلية.

اعترضت الأم، قائلة:

- الغيب لا يعلمه إلا الله (سبحانه وتعالى)

أشار الدكتور (ثروت) بسبابته مرة أخرى، قائلًا:

- وهو (سبحانه) يهب من يشاء بغير حساب، ثم إنه هناك حالات دينية وتاريخية وطبية عديدة، حدثت فيها الرؤى المستقبلية؛ لخير البشر والناس..

غمغم الأب:

- ونعم بالله.

ثم أضاف في حنان:

- المهم أن ابننا الوحيد بخير.

أومأ (ماهر) برأسه، قائلًا:

- هذا صحيح.

ثم بدا عليه الاهتمام المهني، وهو يضيف:

- ولكن هل تعلم يا (رأفت).. أي صحفي في العالم يتمنى أن يمتلك موهبتك هذه؛ فيها يمكنه معرفة الأحداث الساخنة قبل حدوثها، بحيث يكون أول من يصل إلى موقعها.

ابتسمت (نجوى)، وهي تضغط يد (رأفت) في حنان ولكنه لم يلتفت إليها، وإنما شرد بصره على نحو عجيب، وهو يغمغم في عمق:

- هل قلت الأحداث الساخنة؟

خفق قلب أمه في قلق، وتجمدت نظرات الأب، وانعقد حاجبا الدكتور (ثروت) في شدة، في حين هتف الأستاذ (ماهر) في انفعال ولهفة:
- هل أتتك رؤيا جديدة؟!
أشار (رأفت) بيده، وهو يقول ببصره الشارد:
- نعم.. أرى أنكم جميعا ستذهبون..
قال الدكتور (ثروت) في حيرة قلقة:
- نذهب؟! إلى أين؟! ولماذا؟!
تلاشت تلك النظرة الشاردة بغتة، وحلت محلها ابتسامة خبيثة، و (رأفت) يقول:
- إلى أي مكان.. هذا لا يعنيني، المهم أن أجد بعض الوقت المنفرد لعروسي الجميلة، التي لم تبدأ شهر عسلها معي بعد..
لوهلة، لم يستوعب الجميع الأمر، ثم فجأة انفجروا ضاحكين، ونهض الأستاذ (ماهر) قائلًا:
- إنه على حق يا سادة.. هيا بنا..
ثم غمز بعينه، وهو يستطرد:
أظن أن إجازة لمدة أسبوعين تكفي.. أليس كذلك؟!
انتظر (رأفت) حتى انصرفوا جميعا، ثم احتوى عروسه بين ذراعيه، فدفنت وجهها في صدره، قائلة:
- (رأفت).. هل تشعر أنك على ما يرام الآن؟!
غمغم، وهو يقبل جبينها:
- بالتأكيد
سألته في ارتياح:
- هل انتهت تلك الرؤى إلى الأبد؟!
ضمها إليه في حنان أكثر، وهو يقول هامسا:
- من يدري؟!

قالها، وعطرها الرقيق يطلق في رأسه رؤيا جديدة رؤيا لحياة سعيدة مديدة حتى آخر العمر..

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- الحادث..
٢- المقر الجديد..
٣- ثورة عقل....
٤- الجريمة..
٥- اللحظة الأخيرة..

Notes

[←1]

حقيقة علمية

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الغريب

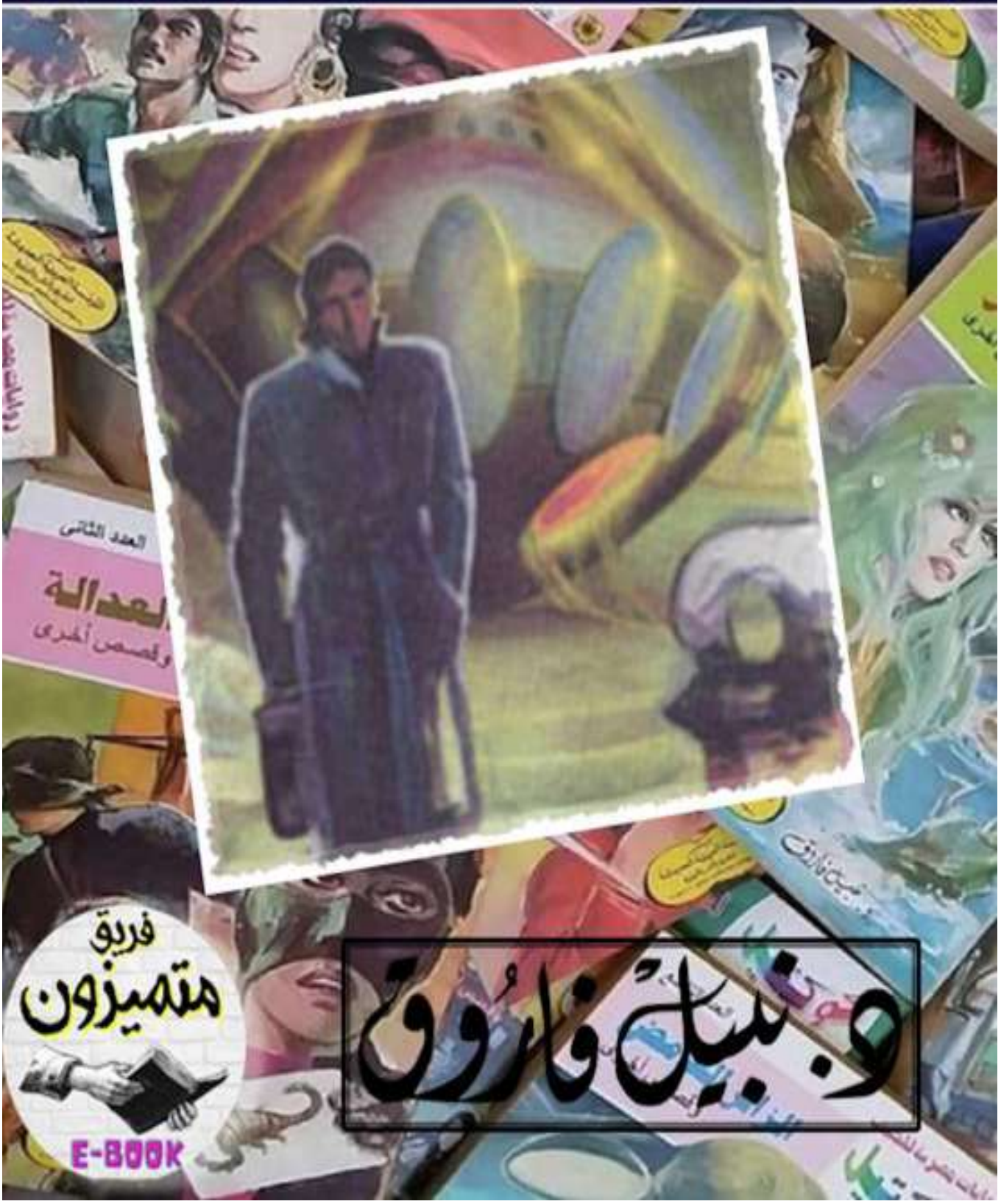

وجيه فاروق

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

الغريب

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- قصتي..

لست أدرى كيف أبدأ هذه القصة!!
بل لست أدرى حتى لماذا أقصها عليكم!!
فمن المؤكد أنكم لن تصدقوا حرفا واحدا مما سأكتب!
أنا نفسي، لم أكن لأصدق قصة كهذه، حتى ولو قصها عليَّ أقرب الناس، وأشهرهم بالأمانة والصدق..
ولكن ليس بيدي سوى أن أكتبها، لعل هذا يخفف من تلك الحمم الملتهبة، التي تسري في عروقي، وتكاد تلتهم كل خلية في جسدي، وكل ذرة من تفكيري وكياني، الذي لا أدرى ما إذا كان سيظل على تماسكه، أم سينهار تماما بين لحظة وأخرى..
والواقع أننى أشعر بمسئوليتي عن كتابة هذه القصة لعل أحدا يقرؤها يوما، ويعلم منها تفسير ما بدا للجميع لغزا غامضا، منذ فترة قريبة..
أو لعلها بعيدة..
لم أعد أدرى حتى كيف يمضي الزمن، ولا كيف تمر الأيام..
كل شيء يبدو متشابها، على نحو يكاد يصيبني بالجنون..
كل شيء..
آه.. يبدو أننى قد أسرفت في تقديم الأمر، حتى كدت أصيبكم بالملل..
أو لعلني فعلت، دون أن أدرى أو أقصد..
اعذروني إذن، فلو أنكم في موضعي، لما كانت لديكم القدرة على كتابة سطر واحد، مما سأكتبه لكم..
لو أمهلني العمر..
وخشية ألا يمهلني، دعونا نبدأ على الفور..

دعوني أقص عليكم القصة من بدايتها..
قصتي..

☆ ☆ ☆

منذ اللحظة الأولى، التي تسلمت فيها عملي، كضابط الشرطة، المسئول عن نقطة صغيرة، في إحدى محافظات الصعيد، أدركت أننى قد انتقلت إلى دنيا أخرى، تختلف تمام الاختلاف عن العاصمة، التي ولنت، ونشأت، وعشت فيها طوال عمري..
فحيث نشأت، كان من العسير أن تعرف كل سكان شارعك، أو منطقتك، بل وليس من السهل حتى أن تربطك صداقة قوية، بكل سكان البناية التي تقطنها، حتى إنه هناك ساكن أو اثنان، اعتدت رؤيتهما طوال عمري، دون أن أعرف مهنتهما بالتحديد، وربما حتى لحظة كتابة هذه السطور أما هنا، فالوضع مختلف تمامًا..
كل الناس تعرف كل الناس، وكل شخص يعرف كل العائلات، صغيرها قبل كبيرها، بغض النظر عن طبيعة العلاقة، بينه وبينها..
ومع وصولي إلى نقطة الشرطة، وربما قبل أن أصل إليها فعليا، كان كل مخلوق، في المنطقة المحيطة بها، يعلم بالأمر، ويعرف اسمي كاملاً أيضا لذا، كان من الطبيعي أن تنهال على الدعوات، من عمد القرى التابعة للنقطة، وأعيانها، وكبار مزارعيها، لتناول الغداء، والعشاء، حتى الإفطار في بعض الأحيان.
ولكنني تشبثت بشدة، بنصيحة وجهها لي والدى..
لواء الشرطة السابق - قبل أن أنتقل فعليًا إلى الصعيد..
لا ينبغي أن أقبل دعوة أي مخلوق، ما دمت ضابطا للشرطة، ينبغي أن يتعامل مع القانون وحده، وأن يكون الكل أمامه سواسية..

ومن هذا المنطلق، كنت شديد الحزم، في عدم قبول أية دعوة، مؤكدًا لكل من يسعى إلى ذلك، أن بإمكانه دعوتي كما يشاء، عندما يتم نقلي إلى مكان آخر..
وفي حماسة، راح الكل يؤكد لى أنه لا علاقة لوظيفتي أو مهنتي بتلك الدعوات، باعتبار أن التقاليد العريقة، في صعيد (مصر)، تحتم دعوة أي غريب لتناول الطعام، في بيوت العمد والأعيان، كنوع من التعبير عن كرم الضيافة، وحسن الاستضافة..
والواقع أن هذا صحيح تماما، ففي الصعيد يقدرون كثيرا الغرباء، ويسعون لاستضافتهم، بكرم طبيعي، وسخاء يحسدون عليها..
ثم إن التعامل مع الغريب له قواعد خاصة وصارمة للغاية، فلا يجوز أبدا إيذاؤه، بالقول أو الفعل، أو توجيه التهديدات إليه، أو رفع السلاح في وجهه.. حتى ولو كانت الحرب مشتعلة بين العائلات..

حرب الثأر، التي لم تنجح أية وسيلة، اجتماعية، أو سياسية، أو حتى أمنية، في وقف الاتجاه إليها قط فعندما تشتعل الأمور، بين عائلتين أو أكثر، يصبح السير في الطرقات غير أمن، بأي حال من الأحوال؛ نظرا لانتشار بعض القناصة العشوائيين، فوق أسطح المنازل، أو وسط حقول القصب إلا بالنسبة للغريب.....

فالغريب، أي غريب، يمكنه أن يجول في طرقات القرى، في ذروة اشتعال الحرب، دون أن يمسه مخلوق واحد بسوء..
وكل من يصطحب الغريب، يتمتع بالحماية نفسها.. فمن الممكن جدا أن يستضيف أحد أبناء العائلات المتحاربة غريبا، ثم يخرج معه، بعد انتهاء الزيارة، ليوصله إلى حيث يشاء، وهو آمن مطمئن، فالقواعد الصارمة، التي لا يتم تجاوزها قط، تحتم

عدم المساس به، وهو يسير إلى جوار غريب، بل وحتى يعود مرة أخرى إلى منزله، ولكن ما إن يغلق بابه خلفه، حتى ينتهي الحظر، ويعود مرة أخرى إلى خانة الأعداء..

قواعد عجيبة وقوية.
وفي البداية، لم أكن أعرف الكثير عن تلك القواعد، إلا أنه لم يمض شهران فحسب، حتى صرت عليما بكل قواعد التعامل في الصعيد، بل وأصبحت أعرف كل سكان المنطقة تقريبا، وأستطيع تمييز بعضهم عن بعض، من خلال ثيابهم، أو ملامحهم، أو أسلوب حديثهم..
واعتدت أيضا أسلوبهم المستفز، في التعامل مع جرائم القتل..
ولقد ذكرت جرائم القتل وحدها؛ لأن باقي الجرائم نادرة الحدوث هناك، أو أننا، بتعبير أدق، لم نكن نعلم عنها إلا النزر اليسير فالسرقات مثلاً تتم معالجتها داخليا، وحوادث الاعتداءات يقومون بتصفيتها فيما بينهم، على عكس المدن، التي يلجأ فيها الكل للشرطة وحدها....
والواقع أنني بدأت أيامها أشعر بشيء من الإعجاب والارتياح، تجاه هذا الأسلوب القبلي الحازم الحاسم الصارم، وهذه التقاليد العريقة، التي يحافظ عليها الكل بإصرار قوى، يحيط كل شيء بنظام دقيق، سواء اتفقنا معه أو رفضناه..
وربما تبدو لكم هذه المقدمة طويلة بعض الشيء، ولكنها مهمة جدا؛ لفهم ما سيأتي بعدها من أحداث فكما أخبرتكم، منذ بضعة أسطر، كانت الجرائم التي نتعامل معها، على نحو عام، هي جرائم القتل، وحوادث الموت وحدها..
وفي البداية، كنت أتعامل مع هذا الأمر بحزم صارم، فأذهب لمعاينة موقع الحادث، أو مسرح الجريمة، وأصطحب معي

الطبيب الشرعي للمنطقة، والذي كان يشاركني اهتمامي الشديد، حتى إنه لم يكن يشكو قط، وهو يقضى ليلة كاملة، في قلب الجبل، أو حضن الجبل، كما يصفونه، ليضع تقريرا مفصلاً دقيقا، حول رجل أصابه عدد هائل من الرصاصات، حتى بدا أشبه بالمصفاة..

وعندما كنت أبدأ التحقيقات حول الجريمة، كنت أغضب وأثور بشدة؛ لعجزي عن الحصول على أية معلومات، من أي مخلوق، على الرغم من أن الجريمة قد تمت وسط سوق القرية مثلاً، أو في أكثر ساحاتها ازدحاما هذا لأنني لم أكن قد فهمت عقلية أبناء الصعيد بعد..

إنهم، وبكل صراحة، لا يثقون بالشرطة، أو القانون أو حتى القضاء..

لا يثقون إلا بأنفسهم فقط.....

فالقانون، من وجهة نظرهم، لن يحقق لهم العدل الذي ينشدونه، إذا ما عاقب القاتل بالأشغال الشاقة المؤقتة، أو حتى المؤبدة؛ فهم لا يؤمنون إلا بقاعدة واحدة حازمة في هذا الشأن من قتل يقتل لذا، فهم لا يمنحون القانون أية معلومات، خشية أن تؤدى إلى إلقاء القبض على القاتل، الذي ينوون أن يقتصوا منه بأنفسهم..

الحالة الوحيدة، التي يمكنك أن تحصل فيها على معلومات، هي حالة الموت بأحد الحوادث القدرية ولقد اعتدت هذا بسرعة، فلم أعد أشعر بالحماسة، وإنما بالكثير من الملل، كلما بدأت التحقيقات الرسمية، الخاصة بأية جريمة؛ لثقتي بأن هذا لن يؤدي إلى أي شيء، مهما قلت أو فعت والمدهش أن زميلي الطبيب الشرعي الشاب، لم يبلغ هذه المرحلة أبدا..

كان يشعر دوما بالحماسة والاهتمام البالغ، وهو يؤدى عمله، في أية حادثة أو جريمة، بغض النظر عن النتائج. أما أنا، فقد أصبحت المعلومات هي الدليل الأكيد بالنسبة لي، على أن ما أمامنا مجرد حادث، وليس جريمة قتل، ففي الحالة الأولى سيخبرك الكل بما تريد معرفته، وفي الحالة الثانية، لن تحصل على حرف واحد.....

وفي تلك الليلة، التي بدأت فيها الأحداث، تلقيت بلاغا بوقوع حادث عنيف، في منطقة قريبة من نقطة الشرطة، وأكد البلاغ أن عمدة القرية ينتظرني في موقع الحادث، وأن الطبيب الشرعي الدكتور (فياض) في طريقه إلى هناك، فارتديت زى العمل الرسمي، واستقللت سيارة الشرطة إلى هناك.. ولقد كان حادثا عنيفا بالفعل.....

واحدة من عربات القطار، الذي يتولى نقل قصب السكر، من حقول المزارعين، إلى المصنع في (نجع حمادي)، انقلبت فوق رجل، لم يتم تحديد هويته بعد..

وكنت أعلم أن الأمر سيستغرق الليل كله على الأقل؛ لرفع عربة القطار، وإعادتها إلى القضبان، واستخراج جثة القتيل، وكتابة تقرير الطب الشرعي الكامل ولقد بدأت أشعر بالإرهاق والملل، قبل حتى أن نصل إلى موقع الحادث وعندما وصلت بنا سيارة الشرطة إلى هناك؛ كان الكل يقوم بعمله بالفعل..

ثلاث سيارات كبيرة، مع جيش من الرجال، من أبناء القرية، كانوا يتعاونون؛ لرفع عربة القطار المقلوبة، وإعادتها إلى القضبان.

العمدة وشيخ الخفر، وفريق من الخفراء كانوا يحيطون بالمكان، ويتحركون في توتر ملحوظ، لم ألمحه قط، في جرائم القتل السابقة.

الدكتور (فياض)، الطبيب الشرعي الشاب، كان يدرس موقع الحادث بدقة، ويدون بعض التفاصيل في دفتر ملاحظاته، على الرغم من أن هذه مهمة الشرطة، وليست مهمته.. وفي اهتمام، راح الكل يتحدث، في وقت واحد تقريبا، ليصفوا كيف أن حجرا صغيرا، على قضيب قطار القصب، قد أذى إلى انقلاب إحدى عرباته، في نفس اللحظة التي كان يمر فيها غريب، و..

وتوقفت أنا عند كلمة غريب هذه..

فالقرية التي وقع فيها الحادث، واحدة من القرى العميقة، في أحضان الجبل، والتي لا تمر بها أية طرقات عامة، بل يقود إليها طريق ترابي واحد، يزيد طوله على العشرين كيلومترا..

وفي قرية كهذه، من المستحيل أن تجد غريبا، ما لم يكن ضيفا على أحد سكانها وما أدهشني حقا، هو أن أحدا لم يستطع معرفة هوية ذلك الغريب، الذي راح ضحية حادث قطار القصب أبدا..

خمسة رجال على الأقل، شاهدوا عربة القطار تنقلب فوقه.. ولكن لا أحد عرف من هو..

وكان هذا أمرا عجيبا للغاية، في قرية كهذه، خاصة وأن الشهود الخمسة قد أجمعوا على أنه كان يسير وحده، حاملا حقيبة صغيرة..

غريب يسير وحده، في قرية من قرى حضن الجبل، على مسافة تزيد على الكيلومترين، عن الطرق الرئيسية فيها، دون أن يعرف مخلوق واحد هويته وفي أثناء محاولات رفع العربة المقلوبة، وإعادتها إلى قضبانها، رحت أجرى بعض التحريات والاستجوابات، في محاولة لتحديد هوية ذلك الغريب.

ولكن هذا لم يزد الأمر إلا غموضا فذلك الغريب لم يكن ضيفا على أحد سكان القرية، أو حتى أحد زوارها الرسميين، بل إن سيارة واحدة، من السيارات التي تنقل الركاب من وإلى القرية، لم تحمله إلى هذا المكان أبدا..

وبدأت أعصابي تتوتر بشدة، مع كل ما يحيط بالموقف من غموض، ويبدو أن هذا التوتر كان واضحا على ملامحي، فقد أتاني الدكتور (فياض) مبتسما، وهو يربت على كتفي، قائلاً:
- اهدأ يا (أحمد).. ما هي إلا دقائق، ويتم رفع العربة، ونجد مع الجثة أية أوراق، يمكن أن تكشف هويتها
حاولت السيطرة على أعصابي، وأنا أقول:
- فليكن.. سأنتظر
كان على حق تماما، في الجزء الأول من قوله، إذ لم تمض دقائق قليلة، حتى نجح الرجال مع العتاد، في رفع العربة، وإعادتها إلى قضبان قطار القصب، وأصبحت جثة ذلك الغريب واضحة أمامنا ولكن في مشهد بشع..
بشع إلى أقصى حد..
فالعربة الثقيلة سقطت على ذلك الغريب، فدكته في الأرض دكا، وضغطته على نحو لم أره في حياتي قط، بحيث كان ملقى على جانبه، وسمك جسده كله لا يتجاوز العشرين سنتيمترا.....
تماما كذلك المشهد الهزلي، الذي نراه في أفلام الرسوم المتحركة والعجيب أنه لم تكن هناك نقطة دماء واحدة وعلى الرغم من حالة الهلع التي أصابتني، وأنا أحدق في هذا المشهد، الذي أراه لأول مرة، مع كل ما رأيت من حوادث وجرائم قتل عنيفة، بدا الدكتور (فياض) هادئا متماسكا، وهو يفحص جثة ذلك الغريب، بنفس الحماسة والاهتمام ومع حماسه، تغلبت على هلعي وتوتري، ورحت أتأمل الجثة، محاولا أن أستشف منها هوية صاحبها كان يبدو كرجل عادي، لم يمكنني تحديد عمره، مع حالته الرهيبة هذه، ولكنه يرتدي معطفا من الجلد، له لون غير معتاد، هو مزيج من الأزرق والأسود، ويوحى بالثراء على نحو ما، أما حذاؤه، فقد جذب انتباهي واهتمامي بشدة، إذا بدا

أشبه بالأحذية الرياضية، على نحو يتناقض مع المعطف، كما أن لونه الفضي الزاهي، لم يكن يتناسب قط، مع التواجد في مكان كهذا ما، لم أدر سببه لحظتها، راودني شعور مبهم بالخوف، وأنا أتطلع إلى الجثة، التي انتهى الدكتور (فياض) من فحصها، ثم راح يفتش جيوب ثيابها، قبل أن يعتدل، مغمغما في دهشة:

- عجبا!

اندفعت أسأله في عصبية:

- ماذا هناك؟!

لبضع لحظات، تصورت أنه لم يسمع سؤالي، وهو يحدق في تلك الجثة لبضع لحظات، قبل أن يلتفت إلى بعينين حائرتين، مغمغما:

- ثيابه!

امتزج توتري بما اكتسبه من حيرته، وأنا أسأله:

- ماذا عنها؟!

قلب كفيه في حيرة أكثر، قائلاً

- لم أر شيئا مثلها قط

ترددت لحظة، قبل أن أتجه إليه، وانحنى لفحص ثياب الغريب ولقد كان على حق في حيرته هذه، فثياب ذلك الغريب لم تكن تشبه بالفعل، أي نوع من الثياب عرفته، في حياتي كلها..

كانت أشبه بأردية رجال الإطفاء، ذات لون فضي، ومكونة كلها من قطعة واحدة، تبدأ من الرقبة، وحتى القدمين والعجيب أن ذلك الحذاء الرياضي، كان قطعة منها، لا يمكن فصله عنها، على نحو لم أعهده في أية ثياب أخرى..

ثم إن المادة المصنوعة منها أيضا كانت عجيبة، تبدو أقرب إلى البلاستيك، منها إلى القماش وفي حيرة مماثلة، غمغمت:

- ما هذا بالضبط

قلب الدكتور (فياض) كفيه مرة أخرى، وهو يقول:
- لست أدرى.
ثم التقط نفسا عميقا، ليضيف بمنتهى الحزم:
- ولكننا سنفحصه جيدا، بعد تشريح الجثة
قالها، ثم اعتدل، وراح يلقى أوامره لمعاونيه؛ لنقل جثة ذلك الغريب الغامض إلى سيارة الإسعاف، ثم لم يلبث أن التفت إلى، ووجد في نفسه القدرة على الابتسامة، وهو يقول:
اطمئن.. الطب الشرعي قادر على صنع المعجزات.
غادر المكان مع سيارة الإسعاف، وبقيت أنا بعض الوقت؛ لإنجاز ما ينبغي إنجازه، ثم لم ألبث أن عدت بسيارة الشرطة إلى الاستراحة الملحقة بالنقطة، وذهني مشغول بالتفكير في ذلك الغريب، وفي كل ما يحيط به من ملابسات، و..
وفجأة تذكرتها....
تذكرت تلك الحقيبة الصغيرة، التي شوهدت في يد الغريب قبل الحادث، والتي أكد الشهود جميعهم رؤيتها أين ذهبت؟! أين اختفت؟!
إنني لم ألمحها في موقع الحادث، ولم يذكرها محضر الفحص... بل ولم يشر مخلوق واحد إلى العثور عليها، في موقع الحادث..
فأين ذهبت؟!
أين؟!
التهب عقلي بالتساؤل، على نحو عجيب، كما لو أننى واثق من أن تلك الحقيبة الصغيرة، تحوى كل أسرار الدنيا، ولم أكد أبلغ الاستراحة، حتى أسرعت إلى الهاتف، وطلبت رقم مكتب الدكتور (فياض)، وما إن سمعت صوته، حتى سألته بكل اللهفة:
- هل عثرتم على حقيبة الغريب؟!
سألني في حيرة:

- أية حقيبة؟!
هتفت به، في عصبية زائدة:
- الحقيبة التي جاءت في أقوال الشهود، والتي لم ألمحها في موقع الحادث، ولم يتم العثور عليها.....
أجابني في سرعة:
- أو أن أحدا قد عثر عليها، وقرر الاحتفاظ بها، أملاً في أن يعثر داخلها على بعض النقود أو النفائس لم أدر لماذا بدا لي الاحتمال الأخير هو الأكثر منطقية، فهتفت في غضب:
- لو أن أحدهم فعل هذا، فأقسم أن..
قبل أن أتم عبارتي، فوجئت بصوت يقول في هدوء، لا يخلو من حزم عميق:
- أأنت الضابط المسئول هنا؟!
وبحركة غريزية، انتفض جسدي كله، وأنا أستدير بحدة إلى مصدر الصوت، وأحدق في صاحبه، بكل توتر الدنيا فهناك، وعند باب الاستراحة المغلق، كان يقف غريب آخر.....

٢ - الآخر..

«من أنت؟! وكيف دخلت إلى هنا؟!»

انطلق الهتاف من حلقي، بكل ما اعتمل في نفسي من انفعال، وأنا أتساءل بحق، كيف دخل ذلك الغريب استراحتي، دون أن أشعر بهذا؟!

وفي نفس اللحظة، التي انطلق فيها هتافي، كانت عيناى تتطلعان في حيرة متوترة، إلى الباب المغلق خلفه، وقد راودني شعور بأنني أقف أمام شبح، وليس أمام بشرى حقيقي، من لحم ودم!!

ولكن الغريب ظل هادئا، بقامته المديدة، وبنيانه المتين، وذلك المعطف الأسود الطويل، الذي يغطي جسمه كله تقريبا، وملامحه القوية الوسيمة، وعينيه العميقتين، اللتين تطلعنا إلى عينى مباشرة وهو يقول في هدوء، لا يخلو من الحزم والصرامة:

- أنا رجل أمن مثلك..

رددت بتوتر:

- رجل أمن؟!

أضاف بنفس اللهجة:

- ولكن من مستوى أعلى...

ضاقت عيناي بشدة، وأنا أحاول فهم ما يعنيه، بأنه رجل أمن من مستوى أعلى.. وفي ذهني، دارت عشرات الخواطر أهو أحد

رجال مباحث أمن الدولة مثلاً؟!
أم هو رجل مخابرات؟!
أم ماذا؟!
حاولت التماسك، على الرغم من ذلك التوتر العنيف، الذي سرى في كياني، وأنا أقول، متظاهرا بالصرامة:
- هل يمكنني رؤية ما يثبت هويتك؟!
تجاهل قولي تماما، وهو يتقدم نحوي، قائلاً:
- هل توصلت إلى شيء، بشأن حادث الليلة؟!
كان ينبغي أن أصر على مطالعة هويته، إلا أن شيئا ما في أسلوبه، أو ملامحه القوية، أو لهجته الآمرة الصارمة، التي توحي بأنه رجل لم يعتد مخالفة أوامره، جعلني أجيب في توتر:
- إنه مجرد حادث....
بدت عيناه أكثر عمقا، وهو يكرر، في صرامة أكثر:
- هل توصلت إلى شيء؟!
لست أدرى لماذا شعرت بالخوف، من عينيه العميقتين، حتى إنني أشحت بوجهي، مجيبا:
- انقلاب عربة القطار حدث دون تخطيط، ومن سوء حظ القتيل أنه كان هناك، في المكان غير المناسب، والوقت غير المناسب، لذا فقد سحقته العربة سحقا، و..
قاطعني فجأة:
- وماذا عن الحقيبة؟!
فوجئت بسؤاله هذا، فانعقد حاجباي في شدة، وأنا أسأله في عصبية:
- من أنت بالضبط؟!
مال نحوى أكثر، حتى خيل إلى أن عينيه ستبتلعان كياني كله، وهو يكرر، في صرامة رهيبة:

- ماذا عن الحقيبة؟!
كنت أرغب في التمرد على أسلوبه هذا، وفي الصراخ في وجهه؛ كمحاولة لاستعادة سيطرتي على أعصابي وإثبات قوة شخصيتي، كما تعلمت في أكاديمية الشرطة، ولكنني فوجئت بنفسي أجيب في استسلام:
- لم نعثر عليها؟
سألني بسرعة:
- وأين ذهبت إذن؟!
أجبت بنفس الاستسلام، الذي لم أفهمه في نفسي قط:
الدكتور (فياض) يقوم بفحصها الآن،، و
قاطعني في صرامة شديدة:
- مره ألا يفعل
انعقد حاجباه مع قولي هذا، وخيل إلى أن نيران الغضب قد اشتعلت، في عينيه العميقتين، وهو يتراجع في بطء، حتى اعتدل واقفا، ليبدو أمامي كالعملاق، وهو يسأل:
- وأين الجثة؟!
غمغمت:
, حدقت في وجهه بدهشة مستنكرة، وأنا أهتف:
- لماذا؟! أليس من المعتاد أن
قاطعني مرة أخرى، في صرامة أكثر:
- أهو من كنت تتحدث إليه هاتفيا، لحظة وصولي؟!
انتبهت، في هذه اللحظة فقط، إلى أنني لم أنه حديثي مع الدكتور (فياض) بعد، وأنني ما زلت أمسك سماعة الهاتف، فرفعتها بسرعة إلى أذنى، هاتفا:
- دكتور (فياض).. أأنت..
قاطعني صوت الطبيب الشرعي الشاب، وهو يهمس في انفعال:

- أنا هنا.. لقد سمعت كل شيء.
تطلعت إلى الغريب، الذي ضاقت عيناه بشدة، وهو يراقبني في اهتمام، فازدردت لعابي في صعوبة، وقلت:
- لست أدرى لماذا تهتم السلطات بحادث بسيط كهذا، ولكن يبدو أنهم لا يريدون فحص الجثة أو الـ قاطعني الدكتور (فياض)، بنفس الهمس المنفعل:
- اسمعني جيدا يا (أحمد).. لست أعتقد أن للأمر علاقة بأية سلطة رسمية في (مصر).
لم يكن باستطاعتي التجاوب معه، في وجود ذلك الغريب، لذا فقد اكتفيت بالإنصات له، وهو يتابع:
- ذلك القتيل ليس شخصا عاديا بالتأكيد.. لقد أعدت فحص ثيابه، وهي لا تشبه أية ثياب نعرفها هنا ربما تتصور أنني أمتلك خيالاً جامحا، ولكن الأمر يتجاوز حدود أية سلطات رسمية، في (مصر) كلها.
كان الغريب يتابعني بنظرة فاحصة صارمة، من عينيه العميقتين، مما جعلني أغمغم، في حذر متوتر:
- هل بدأت عملية الفحص بالفعل؟!
التقط الدكتور (فياض) ما دفعته إليه في سرعة، وهمس في انفعال شديد:
- نعم.. أخبره أننى قد فعلت، وحاول تعطيله بقدر الإمكان، وسأعمل أنا على فحص الأمر بسرعة، و..
قبل أن يتم عبارته، تحرك ذلك الغريب فجأة، وضغط زر الهاتف بسبابته، لينهي الاتصال على نحو مباغت، وهو يقول في صرامة:
- سنذهب إليه.

مرة أخرى أردت أن أرفض، وأن أصرخ في وجهه، ولكن قوة ما سيطرت على كياني كله، وجعلتني أقول في تخاذل:
- المسافة من هنا للمدينة بعيدة، و..
قاطعني في حزم:
- سنذهب بسيارتي.. إنها أكثر قوة وسرعة.
لم أدر ماذا أصابني، وأنا أتبعه كالمسحور، أو كشخص مسلوب الإرادة، دون أن أحاول الاستعانة بأحد الجنود، أو طاقم الحراسة..
والعجيب أنني لم ألمح أحدا منهم حول نقطة الشرطة، أو حتى في الجوار، وذلك الغريب يقودني إلى سيارته، التي بدت فخمة وحديثة الطراز، على نحو غير مألوف، في الناحية كلها، وخاصة من الداخل، حيث حمل التابلوه الخاص بها عشرات الأزرار، والشاشات الصغيرة، والأدوات الحديثة، التي لم أر مثيلا لها، حتى في أفخم أندية وأماكن العاصمة نفسها....
وفي حزم، جلس الغريب خلف عجلة قيادة سيارته، وأنا أجلس على المقعد المجاور له، صامتا مستسلما، حتى سمعته يقول:
- اربط حزام الأمان
لم أدر سر اهتمامه بأمر كهذا، في مكان معزول، ولكنني أطعته بنفس الاستسلام، وانطلقت السيارة..
ومع انطلاقها، سرت في جسدي قشعريرة باردة، واتسعت عيناي عن آخرهما، في دهشة وتوتر بلا حدود فعلى الرغم من وعورة الطرق النسبية، في المنطقة المحيطة بنقطة الشرطة، كانت تلك السيارة تنطلق، في نعومة وسرعة مدهشتين، وعلى نحو لم أشعر بمثله، في حياتي كلها، كما لو أنها لا تمس الأرض على الإطلاق وفي ساعة كهذه، كان من الطبيعي ألا نلتقي بأية سيارات أخرى..

ولكن الرحلة، من نقطة الشرطة، وحتى مكتب الدكتور(فياض)، استغرقت ربع الوقت، الذي تستغرقه سيارة الشرطة في المعتاد وهذا ما أدهشني بشدة وما أذهل الدكتور (فياض)، خدما رآنا ندلف إليه، في قاعة التشريح، بعد ربع ساعة فحسب، من انقطاع اتصالي به، وقبل حتى أن يبدأ في نزع ذلك الثوب العجيب، عن جسد قتيل حادث قطار القصب وبذلك الذهول، حدق الدكتور (فياض) في ذلك الغريب الآخر، قبل أن يهتف:

- ولك كيف

قبل أن يتم سؤاله، قاطعه ذلك الغريب، وهو يقول في حزم:

- من الواضح أنك لم تبدأ بعد.

هتف به الدكتور (فياض) بكل توتر الدنيا:

- من أنت بالضبط؟!

أجابه الغريب في هدوء صارم، وهو يزيحه عن طريقه في حزم:

- أتعشم ألا تكون قد كتبت أية تقارير رسمية عن الأمر قالها، وانحنى يفحص جثة القتيل، في اهتمام تجاوز كل لحدود، فازدرد الدكتور (فياض) لعابه في صعوبة، وهتف به:

- ماذا تريد منا؟!

- هذا غير مسموح هنا

تجاهله الغريب تماما، وهو يخرج من جيبه أداة رفيعة، مررها على وجه القتيل المضغوط، فقال الدكتور (فياض) في حدة، وهو يندفع نحوه:

استدار إليه الغريب بحركة حادة، فارتطم الدكتور (فياض) بعينيه العميقتين الصارمتين، على نحو جعل جسمه كله ينتفض

في عنف ملحوظ، قبل أن يتراجع في شيء من الذعر، متسائلا في تخاذل لم يدهشني:

- ما الذي تسعى إليه بالضبط؟!

تجاهله الغريب تماما، وهو يغرس آلته الرفيعة في عنق القتيل، ثم يديرها في دقة، قبل أن ينتزعها، ويعيدها مرة أخرى إلى جيبه..

وبعدها، وفي هدوء عجيب، وأمام عيوننا، أنا والدكتور (فياض)، ودون أدنى اعتراض أو تدخل منا، راح ينزع عن القتيل ثيابه العجيبة.

ولم أدر لماذا وقفنا نتطلع إليه، بكل هذا التخاذل والاستسلام؟!

لقد كنا كالمنومين مغنطيسيا، أو كالمسحورين.. نشاهد ونراقب ونعترض، ولكن دون أن تنبس ببنت شفة، أو نتحرك قيد أنملة.. ونزع الغريب ثياب القتيل، في عناية فائقة، وطواها عدة مرات، حتى أصابنا الذهول، وهي تنطوي على بعضها، حتى أصبحت في حجم حافظة صغيرة. حتى الحذاء انطوى، واختفى داخل طيات الثياب، التي وضعها الغريب في جيب معطفه، ثم وقف يتأمل الجثة بضع لحظات، قبل أن يلتفت إلينا، قائلا:

- هذا كل شيء

لم يكد ينطقها، حتى خيل إلينا أننا قد تحررنا بغتة، من قيد ثقيل، فهتف الدكتور (فياض) في عصبية بالغة:

- ما الذي فعلته بالضبط؟!

أجابه الغريب في صرامة:

- لا شأن لك بهذا

صاح فيه الدكتور (فياض):

- ما الذي تعنيه بأنه لا شأن لي بهذا؟! إنني مسئول عن جثة هذا الرجل، أو أيا كانت ماهيته، منذ وصولها إلى هنا!

أشار الغريب بيده إلى الجثة، قائلاً في هدوء:

- وها هي ذي أمامك.. افعل بها ما تشاء.

صاح الدكتور (فياض):

- وماذا عن الثياب؟!

انعقد حاجبا الغريب في صرامة شرسة، وهو يجيب:

- لا شأن لك بالثياب.

صاح الدكتور (فياض)، على نحو لم أعهده فيه من قبل:

- أي قول أحمق هذا.. هل تظنني أجهل لماذا فعلت هذا؟!

تراقصت ضحكة ساخرة، في عيني الغريب العميقتين، وهو يعتدل في وقفته، لتبدو قامته المديدة القوية، ويعقد ساعديه

أمام صدره، قائلاً:
- ولماذا فعلت هذا؟!
أجابه الدكتور (فياض) في تحد:
- لتخفي الدليل
سأله الغريب في هدوء:
. الدليل على ماذا؟!
التقط الدكتور (فياض) نفسا عميقا، بكل توتر الدنيا، قبل أن يجيب، في تحد وعصبية أكثر:
- الدليل على أنه، وربما أنت أيضا، لستما من عالمنا.
انتفض جسدي في عنف، مع عبارة الدكتور (فياض)، وحققت فيه بدهشة، هي أقرب إلى الذهول، قبل أن أنقل بصرى بحركة حادة، إلى ذلك الغريب، الذي ظل هادئا للغاية، على الرغم من اختفاء النظرة الساخرة من عينيه العميقتين وهو يقول:
- خيالك جامح للغاية.
هتف به الدكتور (فياض):
- بالتأكيد.. جامح إلى درجة كشف الحقيقة، التي تصورتم أن عقولنا لن تدركها قط....
لثوان، بدا لي أن المشهد كله قد تجمد، وأنا أنقل بصري بينهما في ذهول، قبل أن أهتف في توتر:
- خيال.. عالم آخر.. حقيقة؟! أي قول هذا يا دكتور (فياض).. هل تعتقد أن

قاطعني الغريب، قبل أن أكمل عبارتي، وهو يقول، في لهجة حملت قدرا ملحوظا من السخرية:
- الدكتور (فياض) يتصور أنني وصاحب هذه الجثة، مخلوقان من عالم آخر، حضرنا إلى هنا بطبق طائر؛ لنُجري بعض

الأبحاث، أو لنحصل على عينات بشرية وحيوانية يمكننا دراستها على كوكبنا ثم مال نحو الدكتور (فياض)، مكملاً بكل السخرية:
- أليس كذلك؟!
انتفض جسد الدكتور (فياض)، وهو يهتف في عناد:
- ولم لا؟!
هتفت أنا مستنكرا: -
- دكتور (فياض)
التفت إلى الطبيب الشرعي الشاب، هاتفا في حدة:
- لا تجعل سخريته الوهمية هذه تخدعك، وسل نفسك: لماذا أتى إلى هنا بهذه السرعة، لينزع ثياب الجثة، ويمنعنا من فحصها.. ثم ما تلك الأداة التي حقنها بها، وما تأثير ما حقنها به؟!
اعتدل الغريب مرة أخرى، وقال:
ها هي ذي الجثة أمامك.. افحصها كما تشاء، ولن تجد فيها أية اختلافات، عن البشر العاديين هتف الدكتور (فياض):
- داخليا وخارجيا؟!
عاد الغريب يعقد ساعديه أمام صدره، مجيبا:
- بالتأكيد.
قال الدكتور (فياض)، في تحد سافر:
- وماذا عن فحص المادة الوراثية؟!
صمت الغريب لحظة، ثم أجاب:
افحص ما يحلو لك
هتف الدكتور (فياض):
- حتى الثياب؟!
فجأة، تحول ذلك الغريب إلى الشراسة والصرامة البالغة، وهو يقول:

- اسمع أيها الطبيب.. هذا الأمر، الذي تتحدث عنه، بكل العناد والتحدي، يتعلق بأمن الدولة القومي، وغير مسموح لك بتجاوز الخطوط الحمراء فيه.. هل تفهم جيدا؟!
أجابه الدكتور (فياض)، في عنف مماثل:
- أثبت لنا هذا إذن.
انعقد حاجبا الغريب في شدة، فتابع هو في صرامة متحدية:
- أبرز تحقيق الشخصية الخاص بك
رمقه الغريب بنظرة مشتعلة، ولكنني تدخلت، قائلاً:
- إنه مطلب عادل.
نطقت عبارتي، وكل ذرة في كياني تنتفض في انفعال، وكل خلية في جسدي تتلهف لمعرفة الحقيقة. حقيقة ذلك الغريب، الذي ظل صامتا جامدا، ينقل بصره بيننا، قبل أن يقول في حزم صارم:
- فليكن.
دس يده في جيب معطفه، فتعلقت به عيونا ولكنه ترك يده في جيب المعطف بضع لحظات، على نحو أثار أعصابنا، وجعل الدكتور (فياض) يهتف في عصبية:

- هل تعد مسدس الأشعة الخاص بك للعمل، قبل أن تطلقه علينا، لتحولنا إلى كومتين من الرماد؟!
ابتسم الغريب ابتسامة ساخرة باهتة، وهو يخرج يده من جيب معطفه، قائلاً:
- ربما
ثم أخرج يده ببطاقة من البلاستيك، اختطفتها أنا من بين أصابعه في لهفة، لنحدق فيها معا..
كانت واحدة من بطاقات جهاز المخابرات العامة المصرية،.:: غير القابلة للتزوير، تحمل رقما كوديا، مع صورة واضحة لذلك

الغريب ولكن دون أية أسماء وفي توتر، غمغم الدكتور (فياض):
- ومن أدرانا أنها بطاقة هوية حقيقية؟!
أجابه الغريب في حزم:
- سل صديقك ضابط الشرطة؛ فهو يعلم أن هذه البطاقات غير قابلة للتزوير.
أجبته في توتر:
- ولكنني لم أر إحداها من قبل.
قال في صرامة، وهو يعيد البطاقة إلى جيب معطفه:
- لقد رأيتها الآن.
كان من الواضح أن البطاقة سليمة تماما، إلا أن شيئا ما في أعماقي، كان يرفض وبإصرار، تصديق ما رأته عيناى، منذ لحظة واحدة شيء عبر عنه الدكتور (فياض)، وهو يقول في عصبية:
- هذا لم يقنعني.
سأله الغريب في هدوء:
- لماذا؟!
أجابه في حدة:
- لأن كونك أحد رجال المخابرات العامة، لا يحل هذا اللغز. ما زالت ثياب القتيل غير مألوفة، ولا تشبه أي شيء هنا التقى حاجبا الغريب، والتقط نفسا عميقا، قبل أن يقول:
- فليكن.. أظن أنه ليس أمامي سوى أن أعتمد على وطنيتكما، وحفظكما للسر.
تبادلنا، الدكتور (فياض) وأنا، نظرة مفعمة بالانفعال، قبل أن أهتف أنا:
- أي سر؟!
بدا الغريب صارما حازما، وهو يجيب:
- الدكتور (فياض) لم يكن مخطئا، في كل ما تصوره..

هناك جزء من خياله أصاب الحقيقة شعرت بحلقي يجف، على نحو مؤلم، وأنا أحدق في وجهه، في حين انتفض جسد الدكتور (فياض)، وهو يتراجع في حركة حادة عنيفة فما قاله ذلك الغريب كان مفاجأة.. مفاجأة مذهلة..

٣- السر..

لدقيقة كاملة تقريبا، ظللت أنا والدكتور (فياض) نحدق في وجه ذلك الغريب، بكل دهشة الدنيا، قبل أن يلوح الطبيب الشرعي بسبابته المرتجفة، قائلاً:

- ذلك القتيل ليس بشريا.. أليس كذلك؟!

تراقصت ابتسامة باهتة، على شفتي الغريب، وهو يقول:

- كلا.. ليس كذلك

اتسعت عينا الدكتور (فياض) بدهشة أكبر، في حين تساءلت أنا في حيرة:

- ما الذي أصاب الحقيقة إذن؟!

ربت الغريب على جيب معطفه، قائلاً:

- الثياب

انتقل بصرانا إلى جيب معطفه، وأنا أردد في حذر متوتر:

- الثياب؟!

أوما برأسه إيجابا، وهو يقول:

- نعم.. الثياب

ثم أشار بيده، وهو مستطرد:

- وسأشرح لكما الأمر كله..

جذب مقعدا، وجلس عليه في هدوء، وهو يتابع:

- منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر، هبط طبق طائر هنا بالفعل.

هتف الدكتور (فياض) في انفعال:

- هنا؟!

أجابه بنفس الهدوء:

- نعم.. هنا.. في قلب المنطقة الجبلية، بين مدينتي(قنا) و(دشنا).. ولقد رصدته قواتنا الجوية، وخرجت ثلاث من مقاتلاتنا لمطاردته، وعلى عكس المتوقع والمعتاد، يحاول ذلك الطبق الطائر مناورة مقاتلاتنا، أو حتى القيام بأي فعل، مما دفعنا إلى محاصرة منطقة هبوطه، والسيطرة عليه، مع فريق من العلماء، وقادة الطيران الحربي.

هتف الدكتور (فياض) في لهفة:

- وهل عثرتم فيه على أحياء؟!

هز الغريب رأسه نفيا، وقال:

- كلا.. عثرنا داخله على مخلوقين من عالم آخر، تشبه أجسادهما أجسادنا، إلى حد مدهش، ولكنهما كانا قد لفظا أنفاسهما الأخيرة لسبب ما، لم يدركه علماؤنا، حتى هذه اللحظة.

سألته أنا:

- وهل كانا يرتديان تلك الثياب؟!

أومأ برأسه إيجابا، وهو يقول:

- تلك الثياب كانت أكثر ما أثار دهشة علمائنا، ليس لطبيعة مادتها، التي لم تعرف مثيلا لها على الأرض قط، وإنما للخواص المدهشة، التي تتمتع بها، فهي متينة إلى حد مذهل، حتى إنه لا يمكن قطعها، أو حرقها، أو حتى خدشها، بأية وسيلة معروفة لدينا، كما أنها تجعل مرتديها أخف وزنا، وأكثر نشاطا، كما لو أنه لا يرتديها فحسب وإنما هي تسري في دمه، وتمنحه قدرات هائلة أيضا..

تمتم الدكتور (فياض) في انبهار:

- يا إلهي!

تنهد الغريب، وقال:

- كان من الواضح أن التكنولوجيا، التي حملها إلينا ذلك الطبق الطائر، قادرة على دفعنا مائة سنة إلى الأمام، وأن بعض الدول لن تسمح لنا بهذا قط، وستسعى للاستيلاء على ما لدينا، مهما كان الثمن..

هتف الدكتور (فياض) في حماسة:

.. مستحيل! لابد من حماية ما لدينا.. إنه أمر لن يتكرر.

أشار الغريب بسبابته، قائلاً:

- بالضبط.. وهذا ما فعلناه.. لقد أحطنا الطبق الطائر بكل وسائل الحراسة والحماية الممكنة، وأحطنا كل ما يتعلق به بالسرية البالغة، ولكن هذا لم يمنع مخابرات إحدى الدول الكبرى، من اختراق نظامنا الأمني، وتجنيد أحد العلماء، العاملين في مشروع فحص ودراسة الطبق الطائر..

اندفعت أنا أقول في انفعال:

دعنا نخمن.. إنه قتيل حادث قطار القصب.. أليس كذلك؟!

أشار إلى، هاتفا:

- بالضبط

نقل الدكتور (فياض) بصره بيننا في حيرة، قبل أن يتساءل في توتر:

- ولكن لماذا كان يرتدى تلك الثياب؟!

هز الغريب كتفيه، قائلاً:

- كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة؛ لسرقة الثياب الفضائية، وكل أسرار الطبق الطائر.. لقد غافل الكل، وارتداها تحت المعطف المميز، الذي يرتديه الكل في موقع الفحص، وحمل كل ما يمكنه من معلومات، داخل حقيبة صغيرة، وغادر الموقع.

ثم تنهد في عمق، قبل أن يتابع:

- والله (سبحانه وتعالى) وحده أعلم، ما الذي كان يمكن أن يحدث، لو لم تسقط عربة القطار عليه!!
غلفنا صمت عجيب، بعد أن انتهى من حديثه، ورحت أنا والطبيب الشرعي نتطلع إليه بعض الوقت، حتى تساءل الدكتور (فياض) فجأة:
- ولكن لماذا لم يتم نقل الطبق الطائر إلى مكان آمن، بدلاً من الانتقال لفحصه هنا؟!
هز الغريب رأسه، قائلاً:
- لم يمكنا نقله من مكانه، بأية وسيلة معروفة.
سأله الدكتور (فياض) في سرعة:
- ولماذا؟!
لوهلة، بدا لنا أن الغريب سيجيب تساؤل الدكتور (فياض)، إلا أنه لم يلبث أن هب من مقعده بغتة، قائلاً في صرامة:
- لقد عرفتما، ما يكفيكما
وتركزت عيناه على وجهي، وهو يضيف:
- والآن، علينا أن نستعيد الحقيبة.
تبادلت نظرة متوترة مع الدكتور (فياض)، الذي انعقد حاجباه لحظة، قبل أن يقول في حزم:
- لو أنها تحوي تلك الأسرار، فلابد من استعادتها بأي ثمن.
كلماته هذه أنعشتني، وبثت في نفسي ارتياحا افتقدته، منذ وقع حادث القطار، فشددت قامتي، وقلت في حزم:
.. هيا بنا..

ومرة أخرى، بهرتني سيارة الغريب، بسرعتها ونعومتها المدهشتين، وخاصة عندما انحرفنا إلى الطريق الترابي، الذي يقود إلى القرية، دون أن تفقد انسيابيتها المبهرة، فقال الغريب في هدوء:

- هذه السيارة تبهرك.. أليس كذلك؟!

أومأت برأسي إيجابا، فابتسم، قائلاً:

- إنها سيارة تجريبية..

لم أفهم تماما ما يعنيه، فغمغمت في حذر

- تجريبية!!

اندفع يقول في حماسة، لم أعهده فيه من قبل:

- إنها أولى ثمرات التكنولوجيا، التي حصلنا عليها، من ذلك الطبق الطائر.. مادة عجيبة مدهشة، ما إن يتم طلاء الإطارات بها، حتى لا تلمس السيارة الأرض، عندما تكتسب سرعتها
سألته في انبهار:
- ماذا تعنى بأنها لا تلمس الأرض؟!
أشار بيده في الهواء، قائلا:
- وسادة عجيبة، مضادة للجاذبية، تصنعها تلك المادة، عندما نطلى بها إطارات السيارة، بحيث لا تشعر بالطريق قط.. أليس هذا مدهشنا؟!
قلت في انبهار:
- بالتأكيد
استعاد حماسته، وهو يقول:
- تصور جيشنا كاملاً، يستخدم هذه المادة، التي تلغى عوامل مقاومة الاحتكاك تماما.. تخيل جيشنا أسرع وأقوى من كل جيوش الأرض.. جيش يمكن أن ينطلق في كل التضاريس، وكل أنواع المناخ ثم استدار إلى، ونحن نقترب من القرية، مستطردا:
. سنصبح أقوى جيش في العالم، بفضل تكنولوجيا ذلك الطبق الطائر يا رجل
قلت:
- إلى هذا الحد؟!
لوح بيده، قائلاً:
- وربما أكثر من هذا الحد
ثم استعاد صرامته بغتة، وهو يضيف:
- المهم أن نستعيد تلك الحقيبة.
كلماته جعلتني أشعر بأهمية وخطورة تلك الحقيبة، مما جعلني صارما قاسيا، على عكس المعتاد، وأنا أقف أمام عمدة القرية،

قائلاً:
- اسمع يا عمدة.. الأمر ليس هزلاً.. (القاهرة) أرسلت مندوبا خاصا، ليتابع الموقف هنا، ولا بد من استعادة الحقيبة بأي ثمن.. هل تفهم؟!
ظل الغريب صامتا، هادئا، يتطلع إلى العمدة، الذي رمقه بخوف حذر، قبل أن يتساءل:
- وهل بلغت الأخبار (القاهرة) بهذه السرعة؟! الحادث وقع منذ ساعتين فحسب، و..
قاطعته في صرامة أكثر:
- قلت لك: إن الأمر مهم وخطير جدا
نقل العمدة بصره بيننا بضع لحظات، ثم قال في حذر أكثر:
- فليكن.. سننشر الخبر في القرية كلها، و.
قاطعه الغريب هذه المرة، بمنتهى الغلظة والخشونة:
- لا وقت لهذا العبث
لم يرق لي تدخله على هذا النحو، الذي يمكن أن يهز هيبتي في القرية، لذا فقد قلت في عصبية:
- العمدة سيتعاون معنا بالتأكيد
هتف العمدة في سرعة:
- بالضبط يا باشا
ولكن الغريب قال، بنفس الغلظة والخشونة:
- لو أراد التعاون معنا لفعل.. إنه يعرف أين الحقيبة.
انتفض جسد العمدة في عنف، وهو يهتف مستنكرا:
- أنا؟!
اقترب الغريب منه، وهو يقول في صرامة مخيفة، امتزجت هذه المرة بغلظته وخشونته:

- نعم.. أنت تعرف أين تلك الحقيبة، ولكن ما لا تعلمه هو أن وجودها هنا قد يعني حياتك، وحياة أهل القرية كلها.
امتقع وجه العمدة، وهو يقول في عصبية:
.. أتهديد هذا؟!
خشيت أن يتحول الأمر إلى نوع من التحدى، حتى لا يتشبث العمدة بكرامته الصعيدية، ويتحول الموقف كله إلى ما لا تحمد عقباه، فهتفت:
- ليس تهديدا يا عمدة، ولكنه قاطعني الغريب، وهو يتطلع إلى عيني العمدة مباشرة، ويواصل بأسلوبه نفسه:
كل ما تحويه الحقيبة لا يمكن أن يفيدكم قط، ولكن بداخلها مرض خطير، سيصيب أي شخص يعبث بها، وستنتقل عدواه بسرعة رهيبة، حتى إنه لن تشرق الشمس، حتى يصاب به كل شخص هنا..
ردد العمدة في شك حذر:
. مرض خطير؟! –
مال الغريب نحوه أكثر، وهو يتابع:
- مرض يصيب الكبد، ثم يدمر الرئة، خلال ساعة واحدة، فينزف المرء دمه من كل فتحات جسده، ويختنق على نحو مؤلم، ثم تبدأ أطرافه في التساقط، مع آلام رهيبة، كافية وحدها لقتل أكثر الرجال صلابة وشجاعة، فإن لم تفعل، فالنيران التي ستشتعل في كل مكان من كيانه، ستلتهم البقية الباقية من إرادته، وكل هذا خلال ثلاث ساعات من الإصابة فحسب..
اتسعت عينا العمدة عن آخرهما في ارتياع، في حين هتفت أنا مبهوتا:
- إنك لم تخبرني بهذا قط.
التفت إلى، قائلاً في صرامة:

- لم أشأ أن أصيبك بالذعر منذ البداية
وعاد يدير عينيه العميقتين إلى العمدة، مستطردا:
ولكنني كنت مضطرا لتوضيح الحقيقة هنا.
خيل إلى أن ركبتي العمدة قد ارتجفتا، من تحت جلبابه السميك، وأن نظرة رعب قد أطلت من عينيه، وهو يحدق في عيني الغريب، الذي سأله، بكل انفعالات الدنيا:
- والآن، أين تلك الحقيبة؟!
ارتجفت شفتا العمدة، وهو يغمغم
- سأرسل في طلبها فورا..
تراجع الغريب معتدلاً، وهو يقول في صرامة:
عظيم..
أثار الموقف كله دهشتي وتوتري، وخاصة عندما بدا العمدة، ذلك الرجل القوى المهيب، مذعورا كطفل صغير وهو يستدعى شيخ خفرائه، ويطلب منه إحضار تلك الحقيبة الصغيرة من منزله فورا ومع انطلاق شيخ الخفراء لتنفيذ الأمر، عربدت في رأسي بعض الشكوك المخيفة، على نحو جعلني أسأل العمدة:
- قل لي يا عمدة، هل يمكن الاتصال ب- (القاهرة)، من هاتفك هنا؟!
أشار الرجل بيده، مجيبا، في شيء من الشرود:
- بالتأكيد يا باشا.. تفضل
أسرعت إلى حجرة السلاح، حيث يوجد هاتف العمدة، وأنا اعتصر ذهني، لاستعادة رقم هاتف منزل زميلي (أشرف)، الذي يعمل والده في المخابرات العامة..
ومن حسن الحظ أننى قد تذكرته وأجريت الاتصال كنت أعلم أن (أشرف) ليس في المنزل حتما، على الرغم من الساعة

المتأخرة؛ لأنه يتولى أمر مكتب الوزير، خلال الفترة الليلية، ولكنني لم أكن أريد التحدث إلى (أشرف)..
وإنما إلى والده..
ولقد أجاب الرجل رنين الهاتف في جزع، إلا أنني قدمت له اعتذاري وأسفي، ثم قلت في اهتمام:
- سيدى.. لدى سؤال عن عملك، قد يندرج تحت بند السرية المطلقة، ولكن معرفته ستغير الكثير من الأحداث هنا.
سألني رجل المخابرات، في حذر قلق:
- وما سؤالك؟!
ازدردت لعابي في صعوبة، قبل أن أسأله:
- هل هبط طبق طائر، في صعيد (مصر)؟!
لوهلة، خيل إلى أن الاتصال قد انقطع، ثم لم ألبث أن سمعت صوت رجل المخابرات، والد زميلي (أشرف)، وهو يهتف بصوت لاهث:
- كيف علمت بهذا؟!
كان الجواب، على الرغم من عدم مباشرته، يعني أن كل ما رواه ذلك الغريب حقيقي، وعلى الرغم من هذا، فقد خفق قلبي في عنف، وشملني انفعال عجيب، وأنا أقول:
- وهل كان بداخله مخلوقان فضائيان، يرتديان ثيابا فضية، غير قابلة للحرق أو القطع، أو قاطعني بانفعال عنيف:
- يا إلهي! كيف بلغك كل هذا؟! المفترض أن هذا الأمر..
قبل أن يتم عبارته، انقطع الاتصال بغتة، ورأيت يد الغريب تنتزع سلك الهاتف، وهو يقول في غضب صارم:
- خيل إلى أنك كنت تتحدث مع شخص ما، حول الطبق الطائر، وتلك الثياب الفضائية، عبر هاتف غير مؤمن..
قل لي يا ضابط الشرطة:

- أين تعلمت قواعد الأمن بالضبط.
قلت في حدة:
- لم أكن أتحدث مع شخص عادي.. إنه أحد زملائك في جهاز المخابرات العامة
أجابني بنفس الصرامة الغاضبة:
- حتى هذا غير مسموح به
ثم استدار عائدا إلى مندرة العمدة، وهو يضيف:
- هيا بنا.. لقد أحضروا الحقيبة بالفعل
لم أصدق عينى، عندما خرجت لأجد الحقيبة في يد العمدة، الذي ناولها إلى الغريب، وهو يقول مرتجفا:
- لم نكن نعلم أنها بهذه الخطورة..
التقطها الغريب منه، وهو يقول في صرامة:
- لا بأس.
سألته في توتر:
- ألن تراجع محتوياتها؛ للتأكد من أن كل شيء على ما يرام؟!

أجابني بنفس الصرامة:
- إنه كذلك.

لم أدر كيف يمكنه الجزم، ولكنني لحقت به إلى سيارته المبهرة، وخلفنا العمدة، الذي بدا لي شاحبا ممتقعا، على نحو لم أعهده فيه أبدا وعندما دلفنا إلى السيارة، تردد العمدة لحظة، ثم سأل الغريب في قلق:

- هل.. هل كانت قصة ذلك المرض الخطير حقيقية؟!
أدار الغريب عينيه إليه، في بطء وهدوء، قائلاً بكل صرامة:
- كلا.
تراجع العمدة بدهشة مذعورة، غير مصدق أن ذلك الغريب قد خدعه وعبث به، بكل هذه البساطة، في حين انطلق الغريب بالسيارة مبتعدا، دون أن يوليه أدنى اهتمام، فقلت في شيء من العصبية:
من الواضح أنك مخادع كبير..
انعقد حاجباه، وهو يقول في صرامة:
- أخبرتك أننى رجل أمن مثلك، ولقد أسندت إلى مهمة محدودة، ولا بد من إنجازها، وتحقيق النجاح فيها، بأية وسيلة كانت..
ثم التفت إلى، مستطردا:
- ألم تكن لتفعل المثل، لو أنك في موضعي؟!
غمغمت:
- بالتأكيد
عاد يقود السيارة، وهو يقول في حزم:
- ثم إن هذه الخدعة أنجزت الأمر بسرعة.. أليس كذلك؟!
غمغمت في توتر:
- بلى.
ثم أطلقت زفرة ملتهبة، من أعمق أعماق صدري، قبل أن أضيف:

- من حسن الحظ أن كل شيء قد انتهى بأمان
ابتسم ابتسامة لم ترق لي، وهو يقول:
- وبسرعة كبيرة
عاودني ذلك القلق المبهم، وهو يتجه نحو استراحة نقطة الشرطة، وتمتمت في عصبية:
- أين ذهب الرجال؟! الاستراحة تبدو مهجورة..
قال في حزم:
سيعودون.
لم أدر لماذا نطقها بكل هذه الثقة، ولكنني كنت واثقا من أنه مسئول، بشكل أو بآخر، عن اختفاء الجميع، إلا أننى أخفيت هذا في أعماقي، وهو يوقف السيارة أمام الاستراحة، فغادرتها متسائلا:
- هل سنكتب التقارير المعتادة؟!
كان رنين هاتف الاستراحة يتواصل من الداخل، فأوماً هو برأسه، قائلاً:
- كل شيء كالمعتاد.
لوحت بيدي، ثم أسرعت إلى الداخل، لإجابة رنين الهاتف، ولم أكد ألتقط سماعته، وقبل حتى أن أنطق بحرف واحد سمعت صوت الدكتور (فياض)، وهو يهتف في انفعال:
- (أحمد).. أين أنت؟! إنني أحاول الاتصال بك، منذ ما يقرب من الساعة، حتى إنني اتصلت بهاتف العمدة في القرية، ولكن الرنين يتصل دون جواب
سألته في توتر شديد:
- لقد وصلت على الفور.. ماذا هناك؟!
صاح في انفعال جارف:
- لقد خدعنا يا (أحمد).. ذلك الغريب خدعنا.

قلت في توتر بالغ:
- لماذا تقول هذا؟! لقد اتصلت بنفسي، بأحد رجال المخابرات العامة، وتأكدت من أن
سألته بكل توتر الدنيا:
- لماذا يا دكتور (فياض)؟! لماذا؟!
قاطعني في انفعال:
- لقد خدعنا يا (أحمد).. لم تعد لدى ذرة من الشك في هذا
صاح بكل انفعالاته:
- تلك الجثة.. إنها تشبهنا تماما، فيما عدا أمرا واحدا.
سألته في حذر:
- وما هو؟!
هتف:
- البصمات.. ليست لديهم بصمات على الإطلاق..
اتسعت عيناي، وأنا أقول في ذعر:
- لا بصمات؟! ما من مخلوق.
قاطعني هاتفا:
- بل قل ما من بشرى يا رجل.. إنهما ليسا من البشر حتما..
قلت برعب:
- إنهما؟! تقول إنهما؟!
أجابني في سرعة:
- نعم.. الاثنان ليسا من البشر.. لا القتيل، ولا ذلك الغريب الآخر..
انتفضت كل خلية في جسدي، وهو يتابع بصوت لاهث:
- هل تذكر ذلك المقعد، الذي جذبه الغريب في معملي؟!
لقد قمت بفحصه جيدا.. فحصت كل سنتيمتر منه، بعد أن أدركت أمر انعدام البصمات هذا.. وهل تعلم ما الذي عثرت

عليه؟! لا شيء على الإطلاق.. الغريب لم يكن يرتدى أية قفازات، ولكنه لم يترك بصماته على المقعد، الذي جذبه أمام عيوننا.
غمغمت بذهول مذعور:
- ولكنه ترك لك جثة الآخر، وكان يمكنك أن
قاطعني بضحكة عصبية منفعلة، قبل أن يقول:
- الجثة؟! يا لها من مهزلة! أنسيت ذلك الشيء، الذي حقنها به أمامنا.. الجثة تتحلل يا رجل الجثة تتحلّل يا رجل.. تتحلل بسرعة مخيفة، لا يمكن أن تحدث في الطبيعة، وقبل ساعة من الآن لن تبقى منها ما يكفي حتى لفحص مادتها الوراثية.
هززت رأسي، وأنا أقول في ذعر:
- مستحيل يا دكتور (فياض).. مستحيل أن
قبل أن أتم عبارتي، انقطع الاتصال الهاتفي بغتة، كما يحدث في كل مرة، فالتفت في سرعة إلى مدخل الاستراحة، وانتفض جسدي مرة أخرى في عنف، وأنا أحدق في وجه الغريب، الذي قال بلهجة لم ترق لي ابدا:
- ولماذا مستحيل!
قالها، ووجهه يحمل ابتسامة كبيرة وبغيضة إلى أقصى حد..

٤- الختام..

على الرغم مما اشتهرت به، في أكاديمية الشرطة، من الصلابة والشجاعة، وجدت نفسي أرتجف، وأنا أقف داخل الاستراحة الصغيرة، الملحقة بنقطة الشرطة، محدقا في ذلك الغريب، الذي ابتسم ابتسامة ظافرة ساخرة، وهو يقول:

- كنت أتعشم أن تنتهي الأمور بهدوء، دون أن أضطر إلى التدخل مرة أخرى.

قلت في توتر بالغ:

- إذن فأنت بالفعل.. أنت.. أنت

أجابني في هدوء حازم:

- مخلوق من عالم آخر.. هذا صحيح

كان الجواب متوقعا، بعدما أخبرني به الدكتور (فياض)، وعلى الرغم من هذا، فقد سرت في جسدي ارتجافة، ممتزجة بقشعريرة باردة كالثلج، واتسعت عيناي عن آخرهما، حتى إنني شعرت بالألم، وهو يتابع، بنفس الابتسامة المقيتة:

- الجزء الذي أخبرتكما به حقيقي، فقد هبط أحد أطباقنا الطائرة هنا اضطراريا بالفعل، وقواتكم تحيط به الآن، وبداخله أحد رفاقنا، الذي لقي مصرعه مع الهبوط العنيف، أما الآخر، فقد نجح في الفرار، مع حقيبة العينات، وكان المفترض أن التقى به في منطقة قريبة؛ لانتشاله، وإعادته إلى السفينة الأم، التي تختفي خلف الجانب المظلم للقمر، لولا حادث القطار، الذي أودى بحياته، على نحو غير متوقع على الإطلاق..

غمغمت في مرارة:

- إذن فالسلطات الرسمية تعلم

أطلق ضحكة قصيرة مكتومة، قبل أن يقول:
- السلطات لا تعلم إلا أن الطبق الطائر هناك، ولكنهم لم يعلموا بوجود أحد رفاقنا صريعا داخله بعد؛ لأنهم - وبكل بساطة - لم ينجحوا في فتحه قط.
ثم شد قامته، وهو يضيف:
- ولن ينجحوا
قلت في عصبية:
- لا تكن واثقا هكذا..
هز كتفيه، قائلاً:
ليست مسألة ثقة، ولكنها مسألة معرفة؛ فطبقنا الطائر سينسف نفسه بنفسه، فور عودتي بحقيبة العينات إلى السفينة الأم
قلت في توتر بالغ:
- هل يعني هذا أنه هناك طبق طائر آخر في الجوار؟!
هز رأسه نفيا، وقال في هدوء:
- ليس في الجوار، وإنما أمام باب استراحتك مباشرة. اتسعت عيناي عن آخرهما، وأنا أهتف:
- رباه! هل تعنى أن
قاطعني في هدوء:
- نعم.. تلك السيارة، التي رافقتني فيها، هي طبقي الطائر
وأطلق ضحكة قصيرة، قبل أن يضيف:
- هل علمت الآن لماذا انبهرت بها؟! إنها تكنولوجيا تفوق تكنولوجيتكم الأرضية، بألف عام على الأقل.
قلت في توتر:
- الدكتور (فياض) كشف أمرك منذ البداية، وسيخبر العالم كله بما حدث.

بدا لا مباليا، وهو يقول:
- طبيبك الشرعي هذا لم يعد يملك دليلا واحدا.. لا ثياب، ولا جثة، ولا حتى مادة وراثية.. ولا أحد سيصدقه، لو أخبرهم قصة كهذه.. كل ما سيحدث هو أنهم سيعتبرونه مجنونا، وسيتعاملون معه على هذا الأساس
قلت في حدة:
- وماذا عن شهادتي، إلى جوار أقواله؟!
صمت بضع لحظات، على نحو جعلني أتأكد من أننى قد أصبت الهدف، وخاصة عندما قال في هدوء:
- هذا كفيل بإشارة بعض الأقاويل والشكوك.
ثم التقط نفسا عميقا، قبل أن يضيف:
- ولكن كل شيء له حل.
لم أشعر بالارتياح لقوله هذا، وتراجعت بحركة حادة، عندما رفع تلك الحقيبة الصغيرة أمامي، قائلاً:
- أخبرتك أن هذه حقيبة العينات، ولكنني لم أخبرك بنوع تلك العينات.
تطلعت إلى الحقيبة في توتر وفضول، فوضعها أمامي على المنضدة، وضغط زرا في قمتها، متابعا:
- ومن المؤكد أن هذا سيدهشك
مع ضغطة الزر، انفتحت الحقيبة على مصراعيها.
واتسعت عيناي عن آخرهما
فتلك الحقيبة الصغيرة كانت تحوى عينة، من كل ما يمكن أن تراه حولك، في منطقة كهذه..
حيوانات..
طيور..
نباتات..

كل شيء تقريبا..
كل الأصناف والأنواع..
ولكن في أحجام صغيرة للغاية وكلها، فيما عدا النباتات بالطبع، مخدرة نائمة، ساكنة وأمام ذهولي التام، ابتسم الغريب، قائلا:
- إنها لن تظل هكذا.. إننا نستخدم أشعة خاصة، لن تعرفها أية أجيال قريبة على كوكبك، لتصغيرها على هذا النحو.. هذا يجعل نقلها وتغذيتها أسهل بكثير.. وهي فاقدة الوعي؛ لأن أمخاخها تعجز عن العمل، في هذا الحجم الصغير، ولكن عندما نصل بها إلى كوكبي، سنعيدها إلى حجمها الطبيعي، فتستعيد وعيها، وتحيا في بيئة صناعية، تشبه البيئة هنا، حتى يتمكن علماؤنا من دراستها، ومعرفة صور وطبيعة الحياة على كوكبك.
ظللت أتطلع إلى تلك الحيوانات والطيور والنباتات المصغرة، في ذهول تام، قبل أن أرفع عيني إليه، وأرتطم بعينيه العميقتين، وهو يقول:
- هل لاحظت، الذي ينقص تلك العينات؟!
اعتدلت في توتر، ووثبت يدي في آلية إلى مقبض مسدسي، وهو يضيف في سخرية:
- عينة بشرية
سحبت مسدسي في سرعة، ولكنه ضغط ذلك الزر في الحقيبة..
وسطع ضوء قوى في وجهي ثم أظلمت الدنيا كلها تماما..
لم أدر كم بقيت فاقد الوعي داخل تلك الحقيبة الصغيرة، ولا كيف تمت تغذيتي، حتى وصلت إلى هنا لقد استعدت وعيي، لأجد نفسي هنا، في ذلك الكوكب، الذي يشبه كثيرا كوكب الأرض، باستثناء أنه لا يعرف الليل أبدا..
فهنا تشرق شمسان، إحداهما في حجم شمسنا، والأخرى صغيرة بعيدة، لا تمنح نفس الضوء والدفء، ولكنها تمنع وجود الليل

وذلك النهار المستمر يكاد يصيبني بالجنون، خاصة وأنني أقيم داخل منزل من الزجاج، حتى يتمكن العلماء هنا من مراقبتي ودراستي طوال الوقت..

هل يمكنك أن تتصور نفسك في حياة، يراقبك فيها الآخرون بلا انقطاع؟! إنه أمر كفيل بإصابتك بالانهيار وباليأس ولكن الشيء الوحيد الطيب، هو أنهم لا يؤذونني أبدا، ولا يمنعونني من فعل أي شيء كان حتى عندما طلبت بعض الأوراق والأقلام، منحوني ما يشبههما على الفور، ولم يحاول أحدهم منعي من تدوين قصتي ربما لأنهم لا يعلمون لماذا أدونها!

أنا نفسي أجهل لماذا أفعل؟!

فبعد مرور ثلاثة أعوام تقريبا، على وجودي هنا، في سجني الزجاجي البغيض، أصبحت واثقا من أنني سأبقى هنا إلى الأبد، ولن أعود إلى الأرض قط ولكنني كتبت القصة ومن يدري؟! ربما وصلت إليكم يوما ربما..

وقبل أن أختم تفاصيل تلك الليلة، التي غيرت مجرى حياتي ومستقبلي كله، أردت أن أخبركم أننى قد تعلمت بعضا من لغتهم هنا، وأدركت لماذا لا يخاطبونني أبدا بإسمي الذي يعرفونه جيدا..

ولماذا يصرون على مخاطبتي باسم (بلوكتا)!!

أو بمعنى أدق بهذه الصفة فالكلمة (بلوكتا)، تعنى معنى محدودا، بلغة هذا الكوكب..

تعنى.. (الغريب)..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

روايات مصرية

قصص الأعداد

كوكتيل ٢٠٠٠

السلسلة الوحشية

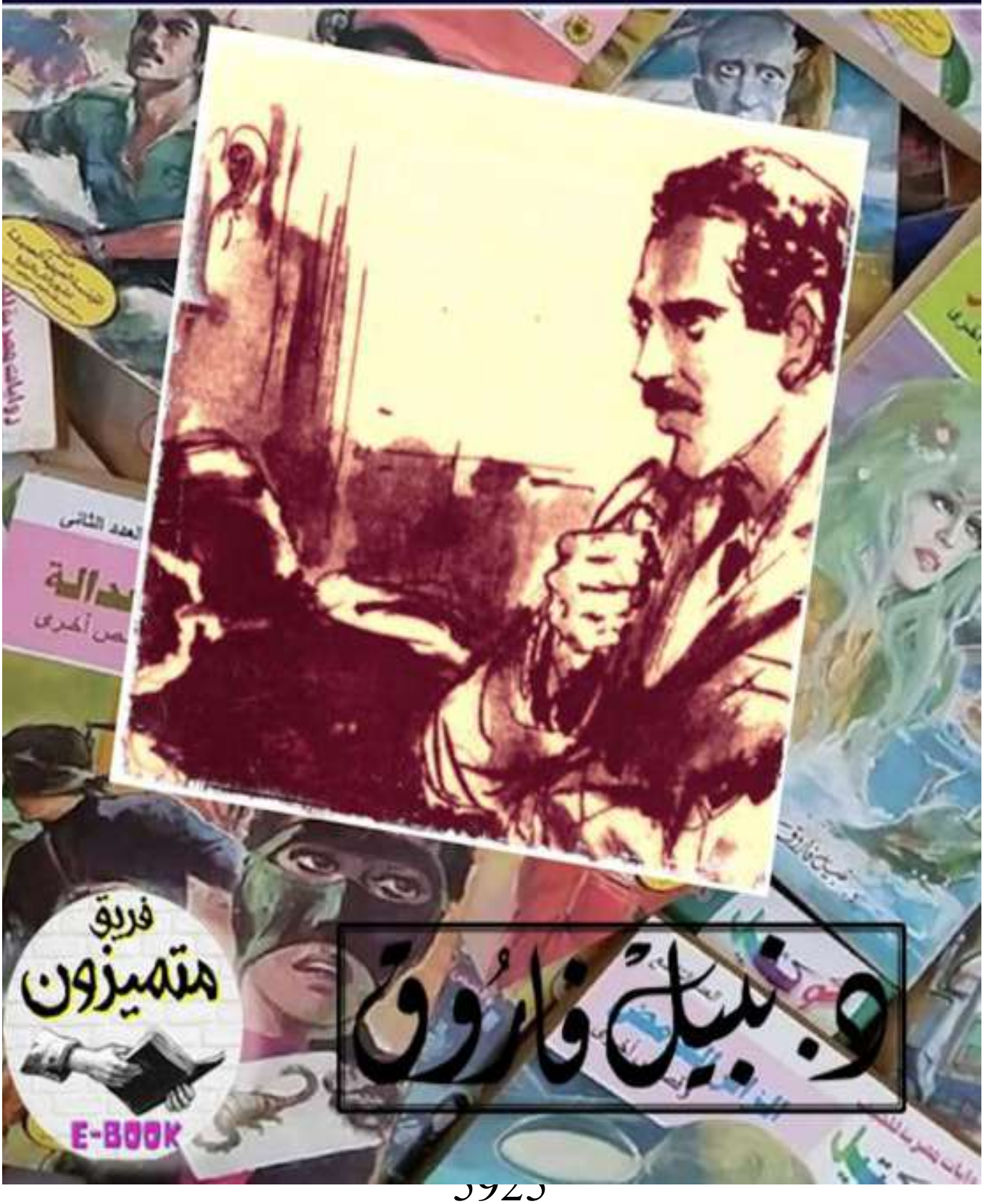

وبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

السلسلة الوحشية

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- الحلقة الأولى..

«يا لها من ليلة!»
تثاءب رئيس المباحث (شريف عز الذين) في قوة، بعد أن تمتم بتلك العبارة، ثم اعتدل في مجلسه، وفرك عينيه متابعا في إرهاق واضح:
- كان ينبغي أن أقضي هذه الليلة في منزلي.
ابتسم مساعده الرائد (عمر)، وهو يقول:
- إنها ليلة هادئة على أي حال..
انتقلت ابتسامته إلى (شريف)، وهو يعود للاسترخاء في مقعده، قائلاً:
- ربما هذا هو سبب إرهاقي؛ فعندما يعتاد المرء إيقاع العمل المتواصل، يرهقه كثيرا أن يقضي الليل في قراءة بعض الصحف القديمة، وهو مسترخ في مقعد وثير، أمام تلفاز ملون.
وافقه (عمر) بإيماءة من رأسه، قبل أن يقول:
- النوبتجيات في هذه المنطقة الراقية، تختلف حتما عنها في المنطقة الشعبية، التى انتقلت منها إلينا، يا سيادة المقدم..
لوح (شريف) بكفه، وأسبل عينيه، في شيء من الإرهاق، وهو يقول:
- لا تحاول إقناعي بأن الجريمة منعدمة، في الأحياء الراقية، فخبرتي علمتني أن الجريمة يمكن أن تحدث في أي مجتمع..
مرة أخرى، وافقه (عمر) بإيماءة من رأسه، قائلاً:
- هذا صحيح، ولكن الجريمة تتخذ شكلاً عنيفا وعلنيًا في المعتاد، في الأحياء الشعبية، نظرا لبساطة سكانها ومباشرتهم، أما هنا، فالناس تتصور أن الاستعانة بالشرطة أمر يؤذى

سمعتهم، ويفسد صورتهم الاجتماعية، لذا فهم يخفون ما يحدث داخل مجتمعهم بقدر الإمكان، ويسعون لحل خلافاتهم على نحو غير رسمي.
صمت (شريف) بضع لحظات، محاولاً استيعاب ذلك المنطق، ثم لم يلبث أن غمغم، وهو يسترخي أكثر في مقعده:
- سنرى، على أية حال..
أغلق عينيه تماما، محاولاً إقناع نفسه بقليل من النوم، وقد بلغ منه الملل مبلغه، و..
وفجأة، انطلق رنين الهاتف..
ومع حالة الصمت والهدوء، التي غرق فيها مع مساعده طوال الليل، بدا رنين الهاتف أشبه بقنبلة ضوضاء، تفجرت فجأة في المكان، ففتح معها (شريف) عينيه..
واعتدل في مقعده بحركة حادة، في حين وثب (عمر) من مكانه، واختطف سماعة الهاتف بحركة آلية، قائلاً:
- مكتب المباحث.. ماذا هناك؟!
شعر (شريف) بمزيج من القلق والحيرة، مع الدهشة العارمة، التي ارتسمت على وجه (عمر)، وهو يقول بلهجة ملؤها الانفعال:
- فليكن.. سنأتي على الفور..
ولم يكد يعيد السماعة إلى موضعها، حتى سأله (شريف) في اهتمام، حمل رنة من التوتر:
- ماذا هناك؟!
قلب (عمر) كفيه في صمت، استغرق منه بضع لحظات، وكأنما لا يجد ما يقوله، ثم لم يلبث أن أجاب بصوت مبحوح:
- جريمة في الحي.
تألقت عينا (شريف)، وهو يهب من مقعده، قائلاً:

- أرأيت! حتى هذه الأحياء الراقية، لا تخلو من الجرائم.
والتقط سترته في حماسة، وقد دب في جسده نشاط عجيب، مستطردا:
- ولو أردت رأيي، فهذه الأحياء بالذات هدف لأي لص، يسعى للاستيلاء على ما خف حمله، وغلا ثمنه، و..
قاطعه (عمر)، في توتر ملحوظ:
- ليست جريمة سرقة يا سيادة المقدم..
تطلع إليه (شريف) في تساؤل حائر، فتابع بكل التوتر:
- إنها جريمة قتل.
تجمدت يدا (شريف) بضع لحظات، وهو يرتدي سترته، وحدق في وجه (عمر) مبهوتا، قبل أن ينتزع نفسه من هذه الحالة، ويكمل ارتداء سترته، قائلاً في سخرية عصبية:
- وتقول: إن الأحياء الراقية أكثر هدوءا.
هز (عمر) رأسه في حيرة، وهو يتبعه إلى الخارج، قائلا:
- صدقني يا سيادة المقدم.. إنني أعمل هنا منذ ستة أعوام، وهي أول جريمة قتل تحدث، طوال هذه الفترة.
جمعتهما سيارة الشرطة، التي شقت بهما شوارع ذلك الحي الهادئ، في طريقها إلى مسرح الجريمة، و(شريف) يسأله:
- ألديك أية معلومات عن الجريمة؟!
هز (عمر) رأسه، مجيبا:
- القليل جدا، فكل ما أخبروني به، هو أن القتيل رجل أعمال شهير، يدعى (توفيق زاهر) فحسب..
غمغم (شريف)، وهو يضع في ذهنه تصورًا مبدئيًا للجريمة:
- رجل أعمال.. آه.. يبدو أنها جريمة دافعها المال على الأرجح.
وكتداع طبيعي، بالنسبة لرجل مباحث محنك، راح عقله يرسم ويضع كل الاحتمالات، المتعلقة بمقتل رجل أعمال شهير.

أول الاحتمالات التي وضعها هو السرقة، باعتبار أن أي لص محترف، سيسيل لعابه حتما، لسرقة رجل أعمال شهير، ولو ضبطه رجل الأعمال في أثناء السرقة، فمن المحتمل أن يتطور الأمر إلى جريمة قتل ثم هناك عوامل المنافسة، والتي تجاوزت، في الآونة الأخيرة، حدود الأخلاقيات والشرف، وأصبح من المحتمل أن تبلغ حد القتل..

وهناك أيضا..

«وصلنا يا سيادة المقدم..»

انتزعه (عمر) من حساباته، فاعتدل في مقعده، وتنحنح قائلاً:

- فليكن.. دعنا نسعى لكسر الرقم القياسي، في زمن حل هذه الجريمة..

غمغم (عمر):

- أتعشم هذا..

شد (شريف) قامته، واتجه بخطواته الحازمة القوية، نحو الفيلا الأنيقة الصغيرة، التي يقيم فيها (توفيق زاهر) وحده، في أطراف ذلك الحي الراقي، واستقبله عند بابها أحد ضباط الدورية الراكبة، التي تلقت بلاغ الحادث في البداية، فسأله في حزم، اعتاده من طول عمله في المباحث:

- أين موضع الجريمة؟!

أجابه الضابط، في توتر شديد:

- في حجرة مكتب القتيل..

ثم هز رأسه، مضيفا في انفعال:

- إنه أمر بشع.. بشع للغاية! لست أدرى كيف يقدم آدمي على أمر كهذا!

انعقد حاجبا (شريف)، وهو يغمغم في عصبية:

- إلى هذا الحد؟!

أشار الضابط بيده، قائلاً:
- سترى بنفسك يا سيادة المقدم.
بدأ التوتر يتصاعد في أعماق (شريف)، وهو يدلف إلى الفيلا، وقد اتخذت الجريمة في ذهنه منحنى جديدا، راح يقوده إلى فكرة الانتقام، في حين قال (عمر) في تحفظ:
- هذا الضابط يعمل في القوة منذ سنوات، ولكنني لم أره يوما بهذا الانفعال العنيف.
قال (شريف) في صرامة:
- من الواضح أنه لم يشهد حادثة قتل من قبل، أو..
بتر عبارته دفعة واحدة، مع دخوله إلى حجرة المكتب التي وقعت فيها الجريمة..
فما رآه أمامه كان بالفعل بشعًا..
بشعا للغاية.

☆ ☆ ☆

التقط الطبيب الشرعي نفسا عميقا، وهو يخلع قفازيه المطاطيين، ويلقيهما في وعاء صغير أحضره معه، قائلاً:
- التفاصيل الكاملة لن يمكنك الحصول عليها، إلا بعد نقل الجثة إلى المشرحة، وفحصها جيدا، ولكن ما أستطيع أن أقوله مبدئيا، هو أن القتيل قد تعرض إلى حرارة شديدة مباغتة، في منطقة الوجه والصدر، شوهت بعض ملامحه، وأصابته بصدمة عصبية ([1])، أدت إلى هبوط في الدورة الدموية على نحو مباغت، ليسبب وفاة فورية..
سأله (شريف) في اهتمام:
- وماذا عن صدره الممزق؟!
هز الطبيب الشرعي رأسه، مجيبا:

- هذا أغرب ما في الأمر، فبعد وفاته مباشرة، وربما قبل أن تتوقف أنفاسه، مزق القاتل صدره في وحشية، وانتزع قلبه..
هتف (عمر) مبهوتًا:
- انتزعه؟!
تنهد الطبيب الشرعي، وهو يومئ برأسه، قائلاً:
- نعم.. القلب تم انتزاعه بعنف وحشي؛ حتى إن الشرايين والأوردة المتصلة به، قد تمزقت على نحو مخيف.
هتف (عمر) مستنكرا:
- ولماذا يفعل أي مخلوق طبيعي هذا؟!
انعقد حاجبا (شريف)، وهو يقول في صرامة:
- كل شيء له أسبابه.
وقبل أن يلقى (عمر) سؤالاً آخر، التفت (شريف) إلى الطبيب الشرعي، متسائلا:
- والآن هل يمكن رفع الجثة من هنا؛ حتى يمكننا استكمال تحقيقاتنا واستجواباتنا؟!
أومأ الطبيب الشرعي برأسه إيجابا، وقال:
- بالتأكيد.. أعتقد أيضا أن رجال الأدلة الجنائية قد انتهوا من عملهم.
ثم تثاءب، وهو يلقى نظرة على نافذة حجرة المكتب، المطلة على حديقة خلفية صغيرة، والتي بدت منها أضواء الفجر واضحة، قبل أن يتابع:
- وأراهنك على أنهم لم يجدوا أية بصمات للقاتل..
التقط مسئول الأدلة الجنائية العبارة، وقال:
- يوجد عدد من البصمات هنا، ولكن معظمها للقتيل على الأرجح.
قال (شريف) في صرامة:

- دعونا لا نستبق الأحداث، حتى خروج التقارير الرسمية النهائية.

مط (عمر) شفتيه، دون أن يعلق بحرف واحد، وواصل صمته هذا، حتى انتهى الجميع من أعمالهم، وغادروا المكان كله، في السادسة والربع صباحا، وعندئذ قال في توتر:

- إنها أول مرة أشاهد فيها جريمة كهذه.. لماذا ينتزعون قلبه بالله عليك..

بدا (شريف) صارما حازما، وهو يقول:

- ربما كان هناك شق عاطفي، وراء هذه الجريمة، وانتزاع القلب تعبير عن هذا.

هز (عمر) رأسه في حيرة، قائلاً:

- ولكن الرجل غير متزوج، والكل يؤكد أنه لم تكن له أية علاقات نسائية.

اتجه (شريف) نحو ثقب في الجدار، وهو يقول في حزم:

- هذه الأمور قد تحدث سرًا أيضا.

قال (عمر)، في حيرة أكثر:

- ولكن لماذا؟! إنه مليونير، ويمكنه أن..

قاطعه (شريف) في صرامة:

- هل استجوبت رجال أمن وحراسة الفيلا؟!

لم ترق هذه المقاطعة للرائد، إلا أنه شد قامته، وأجاب في سرعة:

- نعم، ولقد اتفقت أقوالهم على أن كل شيء كان هادئا، وكان القتيل ينجز بعض الأعمال في مكتبه، حتى ساعة متأخرة كعادته، عندما سطع الضوء بغتة، في الحديقة الخلفية، على نحو أشبه بضوء مصابيح التصوير الخاطف، وبعدها انطلقت صرخة رهيبة من القتيل، دفعت الجميع إلى أن يهرعوا إليه، وعندما وصلوا، كانت حجرة المكتب موصدة من الداخل، لذا فقد دار بعضهم إلى الحديقة الخلفية، ورأى المشهد البشع،

عبر نافذتها، فحطمها ليدخل إلى حجرة المكتب، ويفتح بابها للآخرين، الذين أبلغوا الشرطة على الفور.
انعقد حاجبا (شريف) في شدة، وهو يقول في حدة:
- مستحيل!
تساءل (عمر)، في دهشة حائرة:
- ولماذا مستحيل؟!
أجابه (شريف) في صرامة:
- لأنه وفقا لأقوالهم، كانت حجرة المكتب كلها مغلقة من الداخل، ولو أن هذا صحيح، لوجدوا القاتل بالداخل، وألقوا القبض عليه متلبسا..
اتسعت عينا (عمر)، كمن ينتبه إلى هذه الحقيقة لأول مرة، وغمغم:
- يا إلهي! هذا صحيح.
رفع (شريف) سبابته أمام وجهه، وهو يقول:
- هناك أمر آخر
سأله (عمر)، في شيء من اللهفة:
- وما هو؟!
اندفع (شريف) خارج الحجرة، وهو يقول في حزم:
- المسافة التي تفصلنا عن موقع رجال الأمن والحراسة قصيرة للغاية، حتى إنني أعتقد أن وصولهم إلى هنا، فور سماعهم الصرخة، لن يحتاج إلى أكثر من دقيقتين لو افترضنا أنهم سيسيرون في هدوء، ولن يندفعوا كالبرق والحديقة الخلفية ذات أسوار عالية للغاية، ولقد فحصتها بنفسي، ومن المستحيل أن يكون أي مخلوق قد تسلق تلك الأسوار، دخولاً أو خروجا؛ لأن الأغصان والزهور، الملتفة حول الأسوار، لم تصب بأدنى

تلف، وهذا يعني أنه، حتى لو هرب القاتل من النافذة، فسيكون عليه أن ينتقل إلى الحديقة الأمامية، حيث سيرونه حتما..

سأله (عمر) في اهتمام منفعل:

- ما الذي تريد قوله بالضبط، يا سيادة المقدم؟!

توقف (شريف) دفعة واحدة، وهو يقول في صرامة:

- أعنى أنه من المستحيل أن تتم جريمة القتل، وفقا لأقوال رجال الأمن والحراسة، مع الحالة التي وجدنا عليها المجني عليه.

سأله (عمر) في حذر:

- وما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟!

أجابه (شريف)، في سرعة وصرامة:

- أنهم يكذبون.

ثم مال نحوه، مضيفا:

- أو أنهم قتلة

وانتفض جسد (عمر)..

في عنف..

☆ ☆ ☆

٢- الحلقة الثانية...

التقى حاجبا (شريف) في شدة، وهو يراجع تقريري الطب الشرعي والأدلة الجنائية للمرة الخامسة، خلال ساعة واحدة، فأشار (عمر) بيده، قائلاً في خفوت:

- القراءة لألف مرة، لن تضيف جديدا

أزاح (شريف) الأوراق عن وجهه، قائلاً في عصبية:

- ولكن هذه التقارير تبدو لي مستحيلة

وصمت لحظة، ثم لوح بيده، هاتفا في حدة:

- وسخيفة أيضا.

تنهد (عمر)، وتراجع في مقعده، قائلاً

- فلنعترف أن الأمر غامض بحق.

صاح (شريف)، وهو ينهض من مقعده بحركة حادة:

- بل هو أمر مستحيل.

بدا شديد العصبية، وهو يتحرك في الحجرة، متابعًا:

- - تقرير الطب الشرعي الرسمي أكد الرأي الأولى للطبيب لقد تفجر شيء ما في وجه (توفيق زاهر)، فقتله على الفور، ولم يكتف القاتل بهذا، وإنما شق صدره، وانتزع قلبه، بمنتهى القسوة والوحشية.

ثم انعقد حاجباه في شدة مرة أخرى، وهو يضيف:

- وانتزع شيئا ما من الجدار أيضا.

مال (عمر) إلى الأمام، متسائلاً:

- أي شيء هذا؟!

هز (شريف) رأسه في توتر بالغ، وهو يجيب:

لست أدرى.. هناك فجوة في الجدار، توحي بأن شيئا ما كان هناك، ثم تم انتزاعه في سرعة وعنف.
قال (عمر) في حذر:
- لقد رأيت تلك الفجوة، ولكنها تبدو أصغر من أن تحوي خزانة سرية، أو..
قاطعه (شريف) في حدة:
- ليست خزانة.
تساءل (عمر) في حيرة:
- ما الذي تم انتزاعه من الجدار إذن؟!
هز (شريف) رأسه في قوة، وهو يقول في توتر بالغ للغاية:

لست أدرى.. لست أدرى.
شعر (عمر) بالإشفاق عليه، مع العصبية الشديدة،
التي يراه عليها، فنهض يربت على كتفه، قائلا:
- وماذا عن نظرية اشتراك رجال الأمن والحراسة في ارتكاب الجريمة؟!
زفر (شريف)، في عصبية واضحة، قبل أن يقول:
- لقد كنت أتبنى هذه النظرية بمنتهى الحماسة، قبل أن أرتطم بعائق بالغ الأهمية ثم رفع سبابته أمام وجهه، مكملاً في مرارة:
- الدافع..
وافقه (عمر)، قائلاً:
- هذا صحيح، فالفحص أكد أن كل شيء على حاله كل النقود، والمجوهرات، والوثائق، والسندات، ثم إنه من غير المنطقي أن يتآمر الرجال على قتل مخدومهم،
الذي أكدت كل التحريات حسن معاملته لهم
عاد (شريف) يتحرك في الحجرة، بنفس العصبية السابقة، قائلاً:

- لا بد أن نستبعد تماما المال، كدافع للجريمة، فالقاتل، أيا كانت هويته، لم يكن يسعى إليه.
وتوقف دفعة واحدة، ليضيف في حزم متوتر:
- السر كله يكمن في القلب.. لماذا أصر القاتل على انتزاع قلب ضحيته، بهذه القسوة والوحشية؟! لماذا؟!
هز (عمر) كتفيه، وقال في حذر:
- كنت أظن أن السر يكمن في كيفية دخول القاتل وخروجه..
كاد حاجبا (شريف) يمتزجان، من عنف التقائهما وهو يقول:
- هذا لغز آخر
لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع رنين الهاتف بغتة، فالتفت إليه (شريف) في حركة حادة، في حين التقط (عمر) السماعة في سرعة، قائلاً:
- مكتب المباحث..
انعقد حاجباه في شدة، وهو يستمع إلى محدثه، قبل أن يقول في صرامة، حملت موجة عاتية من التوتر:
- سأبلغه فورا.
سأله (شريف) في لهفة، قبل حتى أن يعيد سماعة الهاتف إلى موضعها:
- ماذا هناك؟!
رفع (عمر) إليه عينين حائرتين متوترتين، وهو يقول:
- إنه الطبيب الشرعي
سأله (شريف)، بمنتهى اللهفة:
- هل كشف شيئا جديدا، في جريمة مقتل (توفيق زاهر)؟!
هز (عمر) رأسه، قبل أن يجيب كالمبهوت:
- بل أخبرني أنه يفحص الآن جريمة قتل أخرى
وصمت لحظة، ثم أضاف بصوت منفعل:

- مماثلة
وخفق قلب (شريف) في عنف..
كانت جريمة مماثلة بالفعل، ولكن في حي راق آخر، من أحياء المدينة، وفي الطرف الآخر منها..
فالضحية هو أيضا رجل أعمال شهير، يدعى (عادل عازر)، يقيم وحده في شقة واسعة فاخرة، من طراز قديم، ولقد شهد جاره بأنه قد رأى، من نافذة حجرة نومه، الملاصقة لحجرة مكتب (عادل)، وميضا أشبه بوميض مصباح التصوير، ينبعث في قوة، قبل أن تخترق صرخة (عادل) أذنيه، على نحو يوحي بأنه يعاني ألما وعذابا رهيبين، مع خوف بلا حدود ولقد اتصل الجار برجال الشرطة على الفور، والتقطت دورية راكبة اتصاله، وتوجهت إليه، لتصل بعد عشر دقائق فحسب..
ولما لم يستجب رجل الأعمال للطرقات، فقد اقتحم رجال الشرطة المنزل، ثم اقتحموا حجرة المكتب، المغلقة من الداخل، ليجدوه ملقى في منتصفها جثة هامدة..
المدهش أن أحدهم قد انتزع كليته هذه المرة، بمنتهى القسوة والوحشية
القتل تم بوساطة حرق مباغت، في الوجه والصدر نطق الطبيب الشرعي العبارة في توتر، وهو يشير إلى الجثة الملقاة في حجرة المكتب، قبل أن يهز دوره في قوة، مستطردا:
- إنني أعمل في الطب الشرعي، منذ عشرين عاما،
ولم أشهد شيئا كهذا قط، حتى في جرائم الانتقام والثأر في أعمق أعماق الصعيد.
غمغم (عمر):
- وأنا أيضا..

أما (شريف)، فقد انعقد حاجباه، دون أن ينبس ببنت شفة، وعيناه معلقتان بفجوة صغيرة في الجدار، توحى بأن شيئا ما قد تم انتزاعه منها بعنف..

وفي توتر، تطلع (عمر) إلى جثة رجل الأعمال الثاني، مغمغما:

- هذا يسقط نظرية الانتقام العاطفي، فلقد تم انتزاع الكلى هذه المرة.. أليس كذلك؟!

كان ينتظر جوابا من رئيسه، فلما افتقده، التفت إليه مكررا:
- أليس كذلك يا سيادة المقدم؟!
أدهشه أن بدا وكأن (شريف) حتى لم يسمعه، وهو يتجه نحو تلك الفجوة في الجدار، ويفحصها بمنتهى الاهتمام والدقة،

فاتجه نحوه، قائلاً:
- التشابه مدهش
أشار (شريف) بسبابته، قائلاً في خفوت، يشف عن أنه في حالة تفكير عميق:

تطلع (عمر) إلى جثة رجل الأعمال الثاني، مغمغما:
- هذا يسقط نظرية الانتقام العاطفي..
- حجم الفجوة متماثل.. تُرى ما الذي كان يخفيه كل منهما، في جدار حجرة مكتبه؟!
حاول (عمر) أن يبحث عن جواب للسؤال، ثم لم يلبث أن غمغم:
- شيء يستحق القتل من أجله بالتأكيد
استدار إليه (شريف) بحركة حادة، قائلاً:
- وماذا عن انتزاع الأعضاء؟!
ارتبك (عمر)، وهو يقول:
- هناك سبب لكل هذا حتما.
لوح (شريف) بيده قائلاً في حدة:
- هناك سبب لكل شيء في الوجود.. المهم أن تدركه.
ثم توقف ليفكر لحظة، قبل أن يقول في حزم صارم:
- أعتقد أننا أمام حالة، لا وجود لها في تاريخ الجريمة في (مصر).
سأله في حذر:
- أية حالة؟!
قبل أن تنفرج شفتا (شريف) بالجواب، ارتفع صوت صارم غاضب، يقول في حدة:
- ما الذي يحدث هنا بالضبط؟!

التفت الاثنان إلى صاحب الصوت، الذي لم يكد يلمح(شريف)، حتى تابع بدهشة بالغة:
- (شريف عز الدين)؟! ماذا تفعل هنا؟!
مد (شريف) يده ليصافحه، مجيبا:
- هذه الجريمة تتشابه مع جريمة أخرى، ما زلت أحقق في أمرها، و..
قاطعه الرجل في حدة، دون أن يصافحه:
- هذه ليست منطقتك.
بدا التوتر على وجه (عمر)، مع هذا الأسلوب الفظ، ولكن(شريف) ابتسم، شأن رجل اعتاد هذا، والتفت إليه، قائلاً:
- أقدم لك المقدم (باسم جلال).. منافسي رقم واحد منذ التحق كلانا بالمباحث الجنائية.
بدا (باسم) هذا شديد الحدة، وهو يقول:
- لسنا هنا في حفل تعارف.. إنك لم تجب سؤالي..
ماذا تفعل في منطقتي.. ليس من حقك حتى أن تتواجد هنا، ولا أن..
قاطعه (شريف) في صرامة:
- اسمعني جيدا، وكف عن أسلوبك السخيف هذا إنني أتابع جريمة قتل غامضة، تتماثل مع هذه الجريمة في نواح شتى، وكان من الطبيعي أن أبحث هنا، عما يمكن أن يفيدني في الجريمة الأولى.
لوهلة، خيل ل- (عمر) أن المقدم (باسم) سينفجر غضبا، مع احتقان وجهه الشديد، إلا أنه لم يلبث أن هدأ فجأة، وهو يقول في اهتمام:
- أهي متشابهة كثيرا؟!
أجابه (شريف) في سرعة وحزم:

- بل متماثلة تقريبا، لولا اختلاف واحد
راح يشرح له تفاصيل مقتل (توفيق زاهر)، و(باسم) يستمع إليه، في دهشة مبهورة، قبل أن يقول:
- يا إلهي! الأمر يبدو كما لو أننا نواجه قاتلاً متسلسلاً.
هتف (عمر) في دهشة:
- قاتل ماذا؟!
ربت (شريف) على كتفه، قائلاً:
- هذا ما كنت سأخبرك به، عندما وصل المقدم (باسم).
اندفع (باسم) يقول في انفعال:
- القاتل المتسلسل هو نوع خاص جدا من القتلة، يرتكب مجموعة من الجرائم، بدافع يختلف من قاتل إلى آخر ولكنه واحد في كل سلسلة الجرائم، التي يرتكبها قاتل متسلسل بعينه
التقط (شريف) طرف الخيط؛ ليكمل:
- في معظم الحالات، يكون هناك دافع نفسي، وراء ما يرتكبه أي قاتل متسلسل، والوسيلة الوحيدة، لمعرفة ذلك الدافع، هي دراسة الجرائم التي يرتكبها بمنتهى الدقة، ودراسة كل ما يتعلق بضحاياه بالدرجة الأولى؛ لأن هذا النوع من القتلة، ينتقى ضحاياه من فئة بعينها دوما
قال (عمر) في حماسة:
- بالتأكيد، الاثنان من رجال الأعمال غير المتزوجين، وكلاهما يحيا وحده.
هز (باسم) رأسه نفيا في حزم، وهو يقول:
- هذا لا يكفى
أجابه (شريف) في سرعة:
- بالتأكيد.. لا بد من معرفة كل تفاصيل حياتيهما.. أعمالهما.. تاريخهما.. صفقاتهما.. كل شيء.

قال (عمر) في حسم:
- سأبدأ في جمع التحريات على الفور
لوح (باسم) بيده، قائلاً:
- سأجند كل رجالي لهذا..
ثم استطرد في حيرة:
- ولكنها أول مرة نواجه قاتلاً متسلسلاً في (مصر).
التقط (شريف) نفسا عميقا، قبل أن يقول في حزم:
- لكل شيء بداية.
نطقها، دون أن يدري أنهم بالفعل أمام البداية..
بداية سلسلة رهيبة دموية..
ووحشية
إلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

«خبر الموسم..»
هتفت (ياسمين)، صحفية قسم الحوادث بالعبارة، بحماستها الزائدة المعتادة، وهي تندفع داخل القسم، ملوحة بدفتر ملاحظاتها الصغير، على نحو جعل رئيسها الأستاذ (فتحي) يسألها في اهتمام:
- ماذا هناك هذه المرة؟!
لهثت من فرط الانفعال، وهي تلقى جسدها على ذلك المقعد البسيط خلف مكتبها مجيبة:
- رجل أعمال آخر تم اغتياله، وتشويه جسده بوحشية، خلال أقل من ثمان وأربعين ساعة.
هتف الأستاذ (فتحي) بكل دهشته، وهو يثب من خلف مكتبه، ويختطف دفترها الصغير:
- جريمة قتل أخرى؟! مستحيل!

واصلت لهائها، وكأنما كل ذرة في كيانها تموج بالانفعال، وهي تقول:
- ليس هذا فحسب، ولكنها جريمة مماثلة تقريبا مع الأولى،، والضحية رجل أعمال أعزب آخر، من الفئة التي برزت في عالم الاقتصاد بغتة، بعد عودة بورصة الأوراق المالية...
راجع الأستاذ (فتحي) الملاحظات، التي دونتها في دفترها الصغير، قبل أن يقول في اهتمام شديد:
- الدافع.. لا بد أن نعرف الدافع...
هتفت في حماسة:
- الانتقام بالطبع.
مال نحوها، يسألها:
- الانتقام لماذا؟! ما الذي فعله (توفيق زاهر)، أو (عادل عازر)، ليستحقا القتل والتشويه. لوحت بكفها، وهي تلتقط شطيرة من حقيبتها، مجيبة بنفس الحماسة:
- عالم المال والأعمال قاس وعنيف، ولا يعرف الرحمة.. عالم وحشي، يفترس فيه الكبير الصغير، بلا تردد أو هوادة، ومن المحتمل أن كلاهما قد سحق أحد الكيانات الصغيرة، في أثناء اندفاعه لتكوين ثروته، وربما دون حتى أن يتوقف لرؤية نتائج ما فعل...
وقضمت قطعة من شطيرتها، قبل أن تكمل بفم مملوء بالطعام:
- أو ربما لم يدرك ما فعله، حتى حدث ما حدث
عاد الأستاذ (فتحي) إلى مقعده، وهو يفكر فيما ذكرته، قبل أن يقول في انفعال متحمس:
- احتمال معقول، ولكن من المؤكد أنه كيان واحد، ذلك الذي سحقاه معا، فالجريمة تمت بأسلوب واحد في الحالتين..

أومأت برأسها إيجابا، دون أن تنطق حرفا واحدا، وهي تبتلع طعامها، قبل أن تهتف بصوت مبحوح:
- بالتأكيد
ضرب سطح مكتبه بقبضته، قائلاً في حماسة:
- موضوع رائع للعدد القادم.. هيا.. ابدئي عملك على الفور.. أريد تحقيقا كاملاً عن الحادثتين.. اربطي بين وحشية الجريمتين، ووحشية عالم المال والأعمال.. أريده تحقيقا مثيرا، يجذب كل فئات المجتمع، مع دس فكرة الانتقام واحتمالاته. والكثير من المعلومات عن الضحيتين.. كل شيء عنهما، منذ دخولهما عالم المال، وحتى مصرعهما.
أشارت بيدها، قائلة:
- لقد مررت على القسم الاقتصادي بالفعل، وطلبت منهم هناك كل المعلومات المتوافرة، عن (توفيق زاهر) و(عادل عازر).
عاد يضرب سطح مكتبه بقبضته، صائحا:
- عظيم
ثم التقط أوراقه، ليواصل عمله، مضيفا في صرامة:
- وأريد هذا التحقيق، بشكله النهائي، على مكتبي هنا، صباح بعد الغد
توقف الطعام بين فكيها، واتسعت عيناها في ارتياع، وحاولت أن تقول شيئا، ولكنها سعلت مرتين، قبل أن تهتف:
- الوقت لن يكفي لهذا
أجابها بنفس الصرامة:
- وفري وقت النوم ومشاهدة التلفاز
مطت شفتيها في غضب، وهي تعيد ما تبقى من شطيرتها إلى حقيبتها، وكأنما تعلن غياب شهيتها المفاجئ، فسألها الأستاذ (فتحي)، وهي تنهض من خلف مكتبها:

- إلى أين؟!
أجابته في حدة:
- سأدخر وقت الطعام أيضا...
أخفى ابتسامته بيده، وهو يقول في صرامة مصطنعة:
- بعد الغد..
- لقد سمعت
كانت أكثر حماسة منه، وهي تتجه إلى القسم الاقتصادي، وتندفع داخله بحماستها المرحة المعروفة، هاتفة:
- أين الملفات؟! هل ستضيعون اليوم كله في البحث؟!
أجابها الأستاذ (سالم)، رئيس القسم الاقتصادي، بهدوئه الشديد:
- الأمر لا يحتاج إلى كل هذا الجهد.. إنهما أصغر ملفين لدينا
التقطت الملفين، اللذين ناولها إياهما، في لهفة حقيقية، وهي تقول:
- أصغر ملفين؟! ولماذا؟!
هز كتفيه، مجيبا في بساطة:
- من الواضح أن كلا منهما لم يكن له ثقل يذكر، في عالم المال والاقتصاد، قبل أن يربحا الملايين، من تداول الأسهم في بورصة الأوراق، ويقفزا إلى السطح بغتة.
التقى حاجباها، وهي تسأله:
- في وقت واحد؟!
أومأ برأسه إيجابا، وهو يقول:
- تقريبا
ازداد انعقاد حاجبيها، وهي تراجع الملفين في سرعة، وقد بدا لها أنها قد التقطت طرف الخيط، أو الحلقة الأولى في السلسلة.. السلسلة الوحشية....

٣- الحلقة الثالثة..

فرد (شريف) الأوراق كلها أمامه، وهو يراجع كل ما حدث للمرة العاشرة..
الجريمتان بشعتان وحشيتان إلى أقصى حد..
وغامضتان على نحو عجيب ومستفز..
في الحالتين، كان الضحية في حجرة مكتبه المغلقة من الداخل وعلى الرغم من هذا وصل إليه القاتل ومزقه تمزيقا.
وفي الجريمتين سطع ضوء خاطف، قبل أن يطلق الضحية صرخة رعب وألم، ويلقى حتفه بصدمة عصبية عنيفة وفي المرتين، تم انتزاع شيء ما من الجدار شيء صغير وخطير حتما..
وفي الحادثين أيضا لم يقع بصر مخلوق واحد على القاتل. بل ولم يعرف أحد كيف دخل، وكيف خرج.. بل ولا حتى كيف ارتكب جريمته..
ولماذا..

☆ ☆ ☆

«أية جرائم هذه؟!»
تمتم (شريف) بالسؤال في عصبية، وهو يلملم الأوراق، وفي داخله يتصاعد غضب شديد غضب ضابط مباحث خبير، يجد نفسه، لأول مرة في حياته، أمام لغز جرائم قتل غامضة، غير قابلة للتفسير وأسئلة بلا حدود....
كيف وصل القاتل إلى حجرة مغلقة؟!
كيف ارتكب جريمته؟!
وبأي سلاح؟!
لماذا ينتزع أعضاء ضحاياه؟!
وما الذي ينتزعه من الجدران؟!

احتقن وجهه بشدة، من شدة غضبه وتوتره، مع عجزه التام عن إيجاد جواب، ولو افتراضي، لكل ما يحدث..
وبكل توتره، التقط نفسا عميقا، ملأ به صدره، قبل أن يطلقه في قوة، على شكل زفرة طويلة ملتهبة، في نفس اللحظة التي دلف فيها مساعده (عمر) إلى الحجرة، قائلا في انفعال:
- لن تصدق ما توصلت إليه، بشأن (زاهر) و(عازر)..
رفع (شريف) عينيه إليه، محاولا السيطرة على مشاعره، وهو يسأله:
- وما الذي توصلت إليه؟!
خرج السؤال من بين شفتيه حادا عصبيا، على الرغم منه إلا أن (عمر) لم يتوقف أمام هذا، وهو يتجه نحوه مجيبا بنفس الانفعال:
- الاثنان لم يكن لهما وجود، منذ خمس سنوات فحسب..
انتفض جسد (شريف) في عنف، وهو يهتف:
- لم يكن لهما ماذا؟!
لوح (عمر) بذراعيه، مجيبا:
- أي تاريخ؟!
قالها، ووضع كومة من الأوراق أمام (شريف)، متابعًا بانفعال أكثر:
- انظر.. كل شيء لدينا عنهما يبدأ منذ خمس سنوات فحسب.. كلاهما استخرج السجل التجاري، والبطاقة الضريبية لشركته، منذ خمس سنوات، دون أي تاريخ سابق، في عالم التجارة أو الأعمال
فحص (شريف) الأوراق ببصره، قبل أن يقول في حذر:
- وماذا في هذا؟! أي شخص يمكن أن
قاطعه (عمر) في انفعال، دون أن ينتبه إلى ما في هذا من تجاوز:

قبل هذا لم نجد اسميهما في أية وثيقة رسمية..
لا شهادات تخرج، أو جوازات سفر، أو حتى شهادات ميلاد..
تراجع (شريف) في مقعده، متسائلاً في توتر:
- وماذا عن البطاقات الشخصية، التي استخرجا بموجبها كل أوراق شركاتهما؟!
أشار (عمر) بسبابته، قائلاً:
. كلاهما يحمل بطاقة رقم قومي جديدة.
هتف (شريف):
ـ عظيم.
مال (عمر) نحوه، مكملاً في حزم:
- ومزورة.
مرة أخرى، انتفض جسد (شريف) في عنف، وهو يهتف:
- مستحيل!
ثم هب من مقعده، مستطردا في عصبية:
- بطاقات الرقم القومي لا يمكن تزويرها.
قال (عمر)، في حزم عصبي:
- المسئولون عن إصدارها أيضا يؤكدون هذا
رفع البطاقتين بسبابته وإبهامه، أمام عينى (شريف)، مضيفا:
ولكنهما مزورتان.
اختنق صوت (شريف) في حلقه، وهو يسأله:
- وكيف تأكدت من هذا؟!
ألقى (عمر) البطاقتين على سطح المكتب، مجيبا في حدة:
- أرقامهما لا وجود لها على الإطلاق.
كرر (شريف) في توتر بالغ:
- مستحيل!

وبأصابع غلبها الانفعال، التقط البطاقتين، وراح يفحصهما بمنتهى الدقة، قبل أن يلقيهما بدوره على سطح المكتب، مكررا:
- مستحيل!
قالها، واتجه نحو نافذة حجرته، وراح يحك ذقنه في عصبية، وهو يحاول استيعاب هذه المفاجأة الجديدة، قبل أن يغمغم في عصبية:
.. وكأنما كان ينقصنا لغز جديد
ضرب (عمر) سطح المكتب براحته، قائلاً:
- هذا يعني أن الرجلين زائفين، وربما يمنحنا هنا دافعا للجريمتين..
استدار إليه، متسائلاً في حدة:
- مثل ماذا؟!
أجابه في سرعة:
- ربما هما شريكان في سرقة كبرى، ويرغبان في محو تاريخهما الإجرامي، وبدء حياة جديدة.. بل وربما كانت الأموال، التي اقتحما بها عالم رجال الأعمال، هي حصيلة تلك السرقة..
انعقد حاجبا (شريف) في شدة، وهو يقول:
احتمال معقول.
ثم تابع في حماسة صارمة:
- راجع بدايتهما جيدا، واستخرج ملفات كل السرقات الكبرى، التي لم يتم التوصل إلى الجناة فيها.. أريد كشفاً دقيقا، بكل عملية قاما بها، منذ..
قبل أن يتم عبارته، ارتفع رنين هاتفه، فالتقطه هو هذه المرة، قائلا في عصبية:
ماذا هناك؟!
رأى (عمر) جسده ينتفض للمرة الثالثة، فهتف به:

- هل حدث ما أخشاه؟!
اتسعت عينا (شريف)، وهو يجيب في توتر شديد:
- نعم.. إنه رجل أعمال أعزب ثالث.
ارتجف صوت (عمر)، من فرط الانفعال، وهو يسأل:
- وما الذي انتزعوه هذه المرة؟!
ازدرد (شريف) لعابه، قبل أن يجيب بصوت مختنق:
- عينيه.
وانتفض جسد (عمر) هذه المرة..
وبمنتهى العنف..
اندفعت (ياسمين) داخل القسم الاقتصادي،، وألقت الملفين اللذين راجعتهما عدة مرات، على مكتب الأستاذ (سالم)، هاتفة:
- هناك خطأ ما، في هذه الملفات
خلع الأستاذ (سالم) منظاره الطبي، وهو يتساءل:
- أي خطأ؟!

مالت نحوه، تسأله في اهتمام:

- قل لي: كم تبلغ نسبة النجاح في البورصة؟!

ابتسم، متسائلاً:

- أي نوع من النجاح؟!

لوحت بكفيها بضع لحظات، وهي تبحث عن الكلمات المناسبة، قبل أن تحسم أمرها، وتسأله في توتر:
- لو افترضنا وجود رجل اقتصاد عبقري، وخبير في البورصة، ومحظوظ أيضا، فكم تبلغ نسبة نجاحه، فيما يشتريه ويبيعه من أسهم وسندات؟!
هز كتفيه، قائلاً:
- هناك دوما تقلبات مفاجئة، وتغيرات سياسية، واقتصادية، و..
صمت لحظة، وهو يحسب الأمر في ذهنه، قبل أن يضيف:
- أعتقد أن أفضل نسبة ممكنة، هي اثنان وتسعون في المائة.
سألته، في لهجة حملت رنة تحد:
- أهذا أكبر احتمال وارد؟!
قال في تردد حذر:
- يمكن أن يرتفع إلى خمسة وتسعين في المائة، لو أن الـ..
قاطعته في توتر:
- وماذا عن مائة في المائة، ودون خسارة واحدة، خلال خمس سنوات؟!
ابتسم، وهو يتراجع، قائلاً:
- هذا مستحيل يا آنسة (ياسمين)، ولم يحدث قط، في أي..
قاطعته مرة أخرى، وهي تشير إلى ملفي (توفيق) و (عادل)، قائلة:
- بل حدث هنا.
اتسعت عيناه في دهشة بالغة، وهو يغمغم:
- مستحيل!
اختطف الملفين في لهفة، وهي تقول، في شيء من العصبية:

- (توفيق زاهر) و(عادل عازر) حققا ما تراه مستحيلاً، وعلى نحو مذهل، لست أدرى كيف لم يجذب انتباهكم أبدا.
لقد ربحت كل عملية شراء أو بيع قاما بها، للأسهم والسندات، في بورصتنا المصرية.. ليس هذا فحسب، وإنما كان كل منهما يشترى ويبيع في اللحظة المناسبة تماما، وكأنهما يقرآن الغيب.
راجع الملفين في سرعة، وهو يسألها:
- أأنت واثقة؟!
أجابته في حزم:
- تمام الثقة
اتسعت عيناه مرة أخرى، وهو يراجع بيانات الملفين قبل أن يقول في هلع:
- يا إلهي! هذا مستحيل!
سألته في لهفة:
- أيصلح هذا كدافع للقتل؟!
هتف مبهوتا:
- القتل؟! ولماذا؟
لوحت بيدها، قائلة:
- ربما كان لهما جاسوس في قلب البورصة، يمدهما بالمعلومات الدقيقة، عن أحوال الأسهم والسندات، مقابل عمولة ما، ثم امتنعا عن منحه تلك العمولة، فثارت ثائرته، وقتلهما بكل غضبه.
مط شفتيه، قائلاً:
- غير منطقي، فلا أحد يمكنه معرفة أحوال البورصة بهذه الدقة، حتى من يعملون داخلها، فالتغيرات التي تحدث في أقصى العالم، يمكن أن تؤثر فيها، خلال ساعة واحدة.

صدمها جوابه، فاتسعت عيناها لحظة، قبل أن تلقى جسدها على المقعد المواجه لمكتبه، وتلتقط شطيرة طازجة من حقيبتها، لتقضم قطعة منها، قائلة في حيرة، وبصوت أقرب إلى البكاء:

- ما الدافع إذن؟!

أطلق (سالم) ضحكة قصيرة، فارتبكت، واحمر وجهها خجلاً، وهي تضحك في حياء، قائلة:

- الانفعال يحفز شهيتي للطعام.. لم أستطع السيطرة على هذا قط

اتسعت ابتسامته، وهو يقول:

- كل منا له أسلوبه، في إفراغ انفعاله.

غمغمت في خجل:

- بالتأكيد.

لم تكد تتم عبارتها، حتى ارتفع رنين هاتفها المحمول، بسرعة، هاتفة:

فالتقطته:

- أنا (ياسمين).. من المتحدث؟!

ارتفع حاجباها عن آخرهما، حتى كادا يلامسان منابت شعرها، قبل أن تهب من مجلسها، هاتفة في انفعال:

- سأذهب على الفور

تابعها الأستاذ (سالم) ببصره، وهى تندفع نحو الباب، قبل أن تتوقف فجأة، وتلتفت إليه، قائلة:

- حتى لا نضيع الوقت، ابدأ في البحث عن ملف رجل الأعمال (إبراهيم زغلول)، وأراهنك أن حجمه لن يزيد على حجم ملفيّ (زاهر) و(عازر).

بدا وكأنها ستكتفي بهذا القول، إلا أنها لم تلبث أن أضافت في حزم:
واحتياطيا، أخرج كل الملفات، التي لها الحجم نفسه. قالتها، واندفعت خارج المكان بأقصى سرعة..

☆ ☆ ☆

سرى التوتر في كل ذرة من كيان (شريف)، وهو يحدق في تلك الفجوة الصغيرة، في جدار حجرة مكتب رجل الأعمال الأعزب (إبراهيم زغلول)، قبل أن ينقل بصره إلى جثة هذا الأخير، التي حملت آثار الاحتراق المحدود، في منطقة الوجه والصدر، والطبيب الشرعي يقول في توتر:
- إننا أمام حالة مماثلة جديدة.. مكتب مغلق من الداخل احتراق محدود، في منطقة الوجه والصدر، أدى إلى هبوط مفاجئ حاد، في الدورة الدموية.. وعينان منتزعتان بقسوة.
يا إلهى! ما الذي يحدث هنا؟!
مط (شريف) شفتيه، مغمغما:
- هذا ما نحاول معرفته.
ألقى الطبيب الشرعي قفازيه المطاطيين داخل حقيبة أدواته، وهو يقول في عصبية:
- إننا نبذل قصارى جهدنا..
بدا الغضب على ملامح (شريف)، ولكنه لم يعلق بحرف واحد، في حين تنحنح (عمر)، قائلاً في شيء من الحزم، هزمه توتره الشديد:
- الأفضل أن تعرفوه بسرعة، قبل أن تزدحم المشرحة بجثث رجال الأعمال، الذين فقدوا أعضاءهم.
قال الطبيب الشرعي، وهو يغادر المكان:
- لو أن هذا قصارى جهدكم، فابحثوا عمن تستعينون به إذن.

عض (شريف) شفته السفلي في سخط، دون أن ينبس ببنت شفة، حتى غادر الطبيب الشرعي المكان، فهتف في حدة:
- من يتصور نفسه؟!
قال (عمر)، محاولاً تهدئة أعصابه:
- الرجل أشد توترا منا؛ لأنه يواجه ما يجهله، والناس أعداء ما يجهلون في المعتاد.
لوح (شريف) بذراعه، هاتفا:
- وما ذنبنا نحن؟! إننا نواجه قاتلاً متسلسلاً مجهولاً، وجه غضبه وجنونه إلى حفنة من رجال الأعمال العزاب، دون سبب واضح أو منطقي، ولا أحد يدري كيف يصل إليهم، ولا كيف ينفذ جريمته.. لا بصمات، أو آثار، أو حتى وسيلته لدخول الحجرات المغلقة من الداخل دوما، وكأنما تنشق عنه الأرض، أو يخرج من الجدران كالعفاريت أو الأشباح.
انعقد حاجبا (عمر) بشدة، مع العبارة الأخيرة، وراودته لحظة فكرة أن يكون ذلك القاتل المتسلسل الوحشي شبحا، عاد لينتقم من قاتليه، إلا أنه سرعان ما نبذ الفكرة، وألقاها خلف ظهره، و(شريف) يتابع في عصبية:
- كل ما نعرفه هو أنه يستخدم سلاحا حارقا، وأن ظهوره يرتبط بضوء خاطف، و..
فجأة، وقبل أن يتم عبارته، سطع في المكان ضوء خاطف قوى، كضوء مصابيح التصوير الضوئي، فانطلقت من حلق(عمر) شهقة محدودة، في حين وثب (شريف) جانبا، برد فعل بالغ السرعة، واستل مسدسه من حزامه، وهو يدور حول نفسه، مصوبا المسدس إلى مصدر الضوء، و..
وانطلقت شهقة أخرى مذعورة..
شهقة حملت صوت (ياسمين)، وهي تهتف في ارتياع:

- لا.. لا تطلق النار
حدق (عمر) فيها بدهشة مستنكرة، في حين احتقن وجه (شريف) من شدة الغضب، وهو يصرخ فيها:
- من سمح لك بالدخول إلى هنا؟!

ارتجفت أصابعها، وهي تخفض آلة التصوير، التي التقطت بها صورتهما منذ لحظة، وتلتقط هويتها من جيبها، هاتفة:
- أنا (ياسمين).. صحفية بقسم الحوادث، بجريدة الـ..
قاطعها (شريف)، وهو يكرر بغضب هادر:
- من سمح لك بالدخول؟!
ازدردت لعابها في صعوبة، في محاولة للسيطرة على أعصابها، وبذلت جهدا خرافيا، لتبدو متماسكة أمامهما، وهي تقول:
- أنا صحفية، ومن حقي أن..
صرخ (شريف) يقاطعها، للمرة الثانية:

- ليست لك أية حقوق هنا
اتسعت عيناها في ارتياع، هاتفة:
- ماذا؟!
اندفع نحوها، ولوح بمسدسه في وجهها، وهو يصرخ:
- إننا نقوم بعمل شاق، ونواجه جريمة رهيبة، ولسنا مستعدين لمجاملة الصحافة، على حساب عملنا.. هل تفهمين؟!
اتسعت عيناها أكثر، وهي تتراجع مذعورة، قائلة بصوت مرتجف:
- هل.. هل ستطلق النار على، من أجل هذا؟!
انتبه فجأة إلى أنه ما زال يحمل مسدسه في يده، فأعاده إلى حزامه بحركة عصبية، قائلاً في صرامة:
- اخرجي.
اعتدلت في توتر، وحاولت أن تتماسك مرة أخرى، قائلة:
- إنني أتابع هذه الجرائم، من منظور صحفي، ولقد قمت ببعض التحريات، و
قاطعها في حدة شديدة:
قلت: اخرجي من هنا.. اتركينا نمارس عملنا لم تستطع احتمال فكرة الانصراف، دون الحصول على أية معلومة جديدة، فهتفت في حدة:
- ليس هذا من حقك.. إنها ليست منطقتك.. الجريمة. حدثت في نطاق عمل المقدم (وجدي).
انعقد حاجبا (شريف)، وهو يقول في عصبية:
- من الواضح أنك تعلمين الكثير
تنحنحت، محاولة اكتساب المزيد من الثقة، وهي تقول:
- قلت لك: إننى صحفية بقسم الحوادث، في جريدة الـ..
قاطعها في تحد عصبي:

- ما لم تعلميه إذن، يا صحفية الكوارث، أن الوزارة قد أسندت لي مهمة متابعة تلك السلسلة الوحشية من الجرائم، في أي مكان في الدولة كلها.
تنحنحت مرة أخرى، قائلة:
عظيم.. هذا خبر جديد
احتقن وجهه، وهو يصرخ فيها:
- الخبر الآخر هو أنني سألقي بك خارجا، لو لم تبادري بالخروج من تلقاء نفسك، خلال دقيقة واحدة من الآن.
استعادت كلمات رئيسها الأستاذ (فتحي)، وهو ينصحها بعدم التراجع أبدا، أمام أي ضابط شرطة غاضب، وازدردت لعابها مرة أخرى بصعوبة أكبر، وهي تسأله في توتر:
- هل عثرتم على أية أدلة هذه المرة؟!
أدهشه عنادها وإصرارها، فتراجع يحدق فيها، على نحو جعل حمرة الخجل تتصاعد إلى وجنتيها، وهي تكرر في ارتباك:
- هل..
لم تستطع إكمال سؤالها، مع النظرة العجيبة التي رمقها بها، والتي بدت وكأنها تلتهم كيانها كله دفعة واحدة..
أما هو، فقد شملته حالة عجيبة، من الدهشة والحيرة، وربما الاستنكار المتخاذل أيضا فما حدث في تلك اللحظة، لم يكن يتناسب قط مع وحشية الموقف المحيط به لقد خفق قلبه.
نعم.. باغته قلبه بخفقة مفاجئة بين ضلوعه، وعقله يصرخ، في كل ذرة من كيانه.. ما أجملها حمرة الخجل، التي توردت بها وجنتاها، بدت له، في تلك اللحظة، كأعظم وأجمل مشهد رآه، في حياته كلها ولكنه سرعان ما استنكر ذلك الشعور، واستنفر كل قواه، لطرده من ذهنه وأعماقه، وهو يقول في صرامة:
- ماذا تريدين بالضبط؟!

أراد أن تخرج العبارة صارمة للغاية، إلا أنها جاءت، على الرغم منه، متخاذلة، على نحو ارتفع معه حاجبا (عمر) في دهشة، في حين لم تنتبه (ياسمين) إلى ما أصابه، وهي تسأله في سرعة ولهفة، قبل أن يتراجع:

- هل عثرتم على أدلة، أو حتى طرف خيط؟!

صمت بضع لحظات، قبل أن يسألها، في لهجة بدت هادئة هذه المرة:

- هل تعدين بعدم نشر أي شيء، إلا بعد الرجوع إلى.

ثم استدرك في سرعة:

- لمصلحة التحقيق بالطبع.

لم تدرك لماذا تصاعدت حمرة الخجل إلى وجنتيها مرة أخرى، وهي تقول في ارتباك:

- نعم.. إذا ما وعدتني بمنحى التفاصيل كاملة...

أجابها في سرعة أدهشت (عمر) نفسه:

- اتفقنا.

ثم أشار بيده لما حوله، مستطردا:

- الجريمة تتشابه مع الجريمتين السابقتين اللتين راح ضحيتهما(زاهر) و(عازر)، والقاتل لم يترك خلفه أي دليل.. كالمعتاد.

سألته في لهفة:

- ولا حتى ما يشير إلى الدافع، وراء كل هذه الجرائم.

هز رأسه نفيا، وهو يجيب:

- مطلقا.

راودته لحظة فكرة إخبارها بأمر بطاقتي الرقم القومي الزائفتين، إلا أنه لم يلبث أن تراجع، وفضل الاحتفاظ بالمعلومة لنفسه..

هي أيضا، كادت تخبره بتشابه الملفين الاقتصاديين ل- (زاهر) و(عازر)، ولكنها لم تفعل، أمام نظراته التي ما زالت مركزة على ملامحها الجميلة الهادئة، والتي حاولت تحاشيها، بالفرار بعينيها إلى سقف الحجرة، وفجأة، لمحت ذلك الشيء دائرة زجاجية صغيرة، تختفي أعلى تلفاز صغير، موضوع في ركن الحجرة البعيد دائرة، أدركت (ياسمين) ماهيتها على الفور، وشعرت بارتجافة باردة تسري في جسدها، وهي تمنع شهقة الظفر من الانطلاق من بين شفتيها في صعوبة.

ولاحظ هو ما أصابها وكاد يرفع عينيه إلى حيث تنظر. ولاحظت هي هذا، فقالت في سرعة:

- هل تعتقد أنه ستحدث جرائم قتل أخرى؟!

نجح سؤالها في تشتيت انتباهه، وهو يعود ببصره إليها، قائلاً:

- هذا يتوقف على الدافع، الذي لم نتوصل إليه بعد كان يتوقع منها مزيدا من الأسئلة، حول الجرائم ودوافعها، إلا أنه فوجئ بها تقول في لهفة عجيبة:

- حسنا يا سيادة المقدم.. أشكرك.

قالتها، واندفعت مغادرة الحجرة، دون أن تضيف جديدا، فارتفع حاجباه في دهشة، ونمت في أعماقه ابتسامة كبيرة، لم تظهر على شفتيه، وهو يلتفت إلى (عمر)، قائلاً:

- يا لها من شخصية عجيبة!

أما هي، فقد غادرت المكان كله، وقلبها يرقص طربا؛ فتلك الدائرة الزجاجية الصغيرة، كانت تعنى أنها قد عثرت على طرف الخيط، الذي لم تعثر عليه الشرطة بعد وهذا يعني أن مستقبلها الصحفي سيقفز ألف خطوة إلى الأمام..

☆ ☆ ☆

٤- الحلقة الرابعة....

لسبب ما، لم يستطع (شريف) محو صورة (ياسمين) من ذهنه أبدا، على الرغم من الجهد الذي يبذله، في مراجعة تقارير الطب الشرعي، ومعمل الأدلة الجنائية، حول جريمة مقتل (إبراهيم زغلول)، والتي لم تختلف كثيرا عن تقارير جريمتي (زاهر) و (عازر)، إلا في العضو الذي تم انتزاعه، في الجريمة الأخيرة..

وما زال كل شيء غامضا دافع القتل..

هوية القاتل

محتوى تلك الفجوة في الجدار و..

«بطاقة الرقم القومي مزورة بإتقان أيضا..»

هتف (عمر) بالعبارة، وهو يندفع داخل المكتب، ملوحا ببطاقة (إبراهيم زغلول)، فاعتدل (شريف) في مقعده، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يقول:

- ما الذي يحدث بالضبط؟!

وضع (عمر) البطاقة أمامه، وهو يقول في انفعال:

- إنني أميل إلى فكرة العصابة والثأر.

تنهد (شريف)، قائلاً

- ربما، ولكنها لا تحل لغز ذلك القاتل الشبح، الذي يعبر الجدران؛ ليقتل الضحية، وينتزع أحشاءها في وحشية، دون المرور بالأبواب والنوافذ المغلقة حدق فيه (عمر) لحظة، قبل أن يلقى جسده على مقعده، ويمسح وجهه براحته، قائلاً:

من الواضح أننا أمام أعجب جرائم قتل في التاريخ. مط (شريف) شفتيه، مغمغما:

- هناك حتما تفسير ما.

لم يكد يتم عبارته، حتى سمع دقات على باب المكتب، فهتف في شيء من العصبية:
- ادخل.
دلف أحد مساعدي الشرطة إلى المكان، وأدى التحية العسكرية، قبل أن يقول:
- هناك رجل يطلب مقابلتك، يا سيادة المقدم.
سأله (شريف) في توتر:
- أي رجل؟!
أجابه مساعد الشرطة في سرعة:
- يقول إنه رجل أعمال، لديه شركة للتعامل مع الأوراق المالية في البورصة، و..
قاطعه (شريف) في لهفة، قبل أن يتم حديثه:
- دعه يدخل
اندهش مساعد الشرطة لتلك اللهفة، إلا أنه أدى التحية العسكرية مرة أخرى، قائلاً:
- كما تأمر يا سيادة المقدم
لم يكد يغلق الباب خلفه، حتى هب (عمر) من مقعده، هاتفا:
- هل تعتقد أن..
قاطعه (شريف)، بإشارة، حازمة من يده، وهو يقول في انفعال، حاول السيطرة عليه:
- دعنا لا نستبق الأحداث
لم تمض دقيقة، حتى دلف رجل الأعمال إلى الحجرة، وبدا عصبيا مضطربًا، وهو يقدم نفسه، قائلاً:
- (موريس أسعد).. رجل أعمال، وخبير في بورصة الأوراق المالية، و..
قاطعه (شريف)، في شيء من الصرامة:

- وأعزب، وتقيم وحدك
كان يتوقع لمحة من الدهشة أو الذعر، إلا أن الرجل أوما برأسه، قائلاً في استسلام:
- بالضبط.
تبادل (شريف) و (عمر) نظرة صامتة، قبل أن يسأله الأول في تماسك:
- ما الذي نستطيع تقديمه لك يا أستاذ (موريس)؟!
زاغت عينا الرجل، على نحو عجيب، وهو يقول:
- أنا هنا من أجل سلسلة جرائم القتل الأخيرة.
تبادل ضابطا الشرطة نظرة صامتة أخرى، قبل أن يتساءل (عمر) في حذر:
- ماذا عنها؟!
ازدرد الرجل لعابه، قبل أن يقول في توتر:
- لن تتوصلوا إلى حلها أبدا.
بدت عليهما دهشة مستنكرة، قبل أن يميل (شريف) نحوه، قائلاً في شيء من الصرامة:
- وكيف يمكنك الجزم بأمر كهذا؟! أهي عدم ثقة في قدراتنا، أم أنك قارئ للغيب...
هز (موريس) رأسه نفيا، وهو يجيب:
- لا هذا ولا ذاك، ولكن الأمر يفوق إدراككم بكثير مرة ثالثة،
تبادل الرجلان نظرة صامتة حائرة، ثم تراجع (شريف) في مقعده، وهو يقول في صرامة:
- لم أفهم
ازدرد (موريس) لعابه بمنتهى الصعوبة والتوتر، وهو يجيب:
- لن تفهموا أبدا.. القاتل شيء يفوق إدراككم.. بل يفوق إدراك أي بشرى.

انعقد حاجبا (شريف) في توتر، في حين هتف (عمر) في استنكار:
- أي قول هذا؟! هل أتيت لتسخر منا يا رجل؟!
هز (موريس) رأسه، في يأس عجيب، وهو يقول:
- أبدا.
تبادلا نظرة متوترة للغاية، قبل أن يسأله (عمر) في
حزم حذر:
- هل تعلم لماذا يقتل ضحاياه؟!
أومأ برأسه إيجابا في مرارة، فهتف به (شريف)، في لهفة لم يحاول حتى أن يخفيها:
- لماذا إذن؟!
انطلقت من بين شفتى (موريس) زفرة ملتهبة كالحمم وهو يجيب:
- إنه واجبه.
جاء الجواب مدهشا، حتى إن (شريف) تراجع بحركة حادة، في حين شهق (عمر)، هاتفا في استنكار:
- واجبه؟!
عاد (موريس) يومئ برأسه إيجابا، وحمل صوته كل يأس ومرارة الدنيا، وهو يقول:
- نعم.. نحن أخطأنا، وكان عليه أن يؤدي واجبه.
كانت العبارة أكثر غموضا، حتى إن (شريف) قال في حدة غاضبة:
- وهل يحتم واجبه انتزاع أعضائهم بمنتهى القسوة؟!
هز رأسه في مرارة، قائلاً:
- نعم.. للأسف.
شهق (عمر) مرة أخرى، في حين احتقن وجه(شريف)، وهو يسأله في حدة:
- ولماذا يفعل شيئا وحشيا كهذا؟!

أشار (موريس) بسبابته، مجيبا بصوت بائس يائس:
لأنها ستكشف الحقيقة.
هتف (عمر):
- أية حقيقة؟!
بدا لحظة، من ملامح الرجل وانفراجة شفتيه، أنه سيجيب السؤال، إلا أنه لم يلبث أن أطبق الشفتين، وهز رأسه في قوة، هاتفا:
- لا.. لا أريد أن أتورط فيما هو أكثر من هذا.. لا..
قال (شريف) في صرامة:
- تتورط في ماذا؟!
هب من مقعده بحركة حادة، ولوح بذراعيه في قوة، وكأنه يطرد عدوا خفيا، وهو يهتف:
- في إفساد كل شيء.. لقد أخطأنا، وتجاوزنا الحدود، وكدنا نفسد كل شيء.. كل شيء..
وثب (شريف) من خلف مكتبه بحركة مباغتة، وقبضت أصابعه على معصم (موريس) في قوة، وهو يصيح به:
- اسمع يا هذا.. إما أن تخبرنا بكل شيء، وإلا قتلتك أنا، بوحشية أكثر من وحشية ذلك القاتل المجنون، الذي تدعى أنه يؤدي واجبه.
لم يبد أدنى خوف، في ملامح وصوت (موريس)، وهو يقول:
- إنه لا يدرك أن ما يفعله وحشي.
قال (شريف) في حدة:
- وكيف هذا أيها العبقري؟! حتى المعتوه يدرك أن قاطعه (موريس)، وهو يجذب معصمه من يده في قوة:
- إنه ليس بشريا.
وكان جوابا عنيفا مذهلاً..

وبكل المقاييس.....

☆ ☆ ☆

كتمت (ياسمين) أنفاسها، وهي تتلفت حولها في حذر، قبل أن تثب متعلقة بحافة سور منزل (إبراهيم زغلول)، ثم تدفع جسدها إلى أعلى، وتقفز إلى الحديقة الخلفية، وتعدو في خفة نحو الباب، الذي وقفت إلى جواره تلهث، من فرط التوتر والانفعال، وكأنما بذلت جهدا خارقا، وهي تغمغم:

- حمدا لله.. لم يضعوا حراسة إضافية على المنزل

حاولت أن تدير مقبض الباب، الذي بدا مغلقا في إحكام، فأسرعت تدور حول المنزل في خفة، حتى بلغت نافذة المطبخ، التي استجابت ضلفتها لها من الخارج، ففتحتها، ووثبت داخل المكان، وسط الظلام الدامس، وعادت تلهث متمتمة:

- يا إلهى! من يصدق أننى أنتحل الآن شخصية مغامري السينما؟! الأستاذ (فتحى) كان على حق..

الصحافة مهنة المتاعب...

ظلت كامنة في مكانها بعض الوقت، حتى اعتادت عيناها لرؤية فنهضت متسللة إلى حجرة المكتب، وتأكدت من أن نافذتها مغلقة بإحكام، قبل أن تشعل مصباحا يدويا صغيرا، مغمغمة:

- من حسن الحظ أن آلة التصوير والمراقبة، التي يستخدمها. السيد (إبراهيم)، تشبه تلك التي ابتاعها خالي لشركته في الشهر الماضي.

أسقطت ضوء المصباح اليدوي على تلك الدائرة الزجاجية، متابعة:

- آه.. ها هي ذي عدستها.. لاريب في أن جهاز التسجيل مختف في مكان ما هنا

راحت تبحث في حماسة عن جهاز التسجيل الصغير، الذي يعمل على تخزين كل ما تلتقطه الكاميرا الدقيقة، على أسطوانة مدمجة عالية الكثافة.

نفس الجهاز الذي يخفيه خالها، في ركن خفي من مكتبه..

فمن المؤكد أن ذلك الجهاز قد سجل كل ما حدث، خلال جريمة قتل (إبراهيم زغلول) الغامضة سجل دخول القاتل ووسيلة القتل وحتى انتزاع العينين.

سرت في جسدها ارتجافة باردة، عندما بلغت هذا الجزء من تفكيرها، فهزت رأسها في قوة، وتمتمت:

- سيكون سبقا صحفيًا مدهشا

مع آخر حروف كلماتها، لمحت تلك الحلية المثبتة في الجدار، وتعرفتها على الفور، فاندفعت نحوها، هاتفة:

- ها هوذا.

جذبت الحلية بطريقة خاصة، كما علمها خالها، فانفتح باب جهاز التسجيل الدقيق، وتألقت داخله تلك الأسطوانة المدمجة عالية الكثافة، على ضوء مصباحها اليدوي فهتفت دون وعى:

- آه.. كنت على حق.

التقطت الأسطوانة في سرعة، ولهفة، و..
وفجأة، شعرت بحركة ما خلفها..
والتفتت في سرعة..
وسطع في المكان ضوء خاطف
ضوء أشبه بمصابيح التصوير الضوئي القوية وانطلقت من حلق (ياسمين) صرخة قوية.
انتهى كل شيء..
وعاد الصمت والظلام يطبقان على المكان. تماما..

☆ ☆ ☆

«ما الذي يعنيه هذا بالضبط؟!»
هتف (شريف) بالسؤال في حدة، في وجه (موريس) الذي هز رأسه في قوة، قائلاً:

- لن يمكنكم إدراك هذا.. لن يمكنكم استيعابه قط كاد (شريف) يصرخ في وجهه مرة أخرى، لولا أن تدخل (عمر)، قائلاً:
- مهلا يا سيادة المقدم
استدار إليه (شريف) في حدة، فتابع في سرعة:
- الأمر يحتاج إلى بعض التوضيح.
ثم مال ليهمس في أذنه:
- الرجل إما مجنون أو مذعور، ولن نحصل على أي شيء منه، إلا بالهدوء والصبر
لوح (شريف) بيده، قائلاً في حنق:
- إنه لك.
قالها، وعاد إلى مقعده، وأشاح بوجهه في سخط في حين التقط (عمر) نفسا عميقا، ثم سأل (موريس):
- قل لي يا سيد (موريس): هل تعرف ضحايا سلسلة القتل الوحشية هذه؟!
أومأ (موريس) برأسه، قائلاً:
- بالتأكيد
- هل تعلم أننا، عندما فحصنا متعلقاتهم، فوجئنا بأن.
قاطعه (موريس) في حزم:
- بطاقات الرقم القومي التي يحملونها، كلها مزورة.
أدار (شريف) وجهه إليه بحركة حادة، وقال في غضب:
- كيف عرفت
- مط (موريس) شفتيه، والتقط بطاقته من جيبه، وألقاها إليه، قائلا في توتر:
لأن بطاقتي لا تختلف عن بطاقاتهم
تراجع (شريف) بمقعده، وكأنما ستنفجر البطاقة في وجهه، في حين اتسعت عينا (عمر)، وهو يلتقط البطاقة، ويفحصها،

قائلاً:
- أهذه أيضا مزورة؟!
تنهد الرجل، وأومأ برأسه، قائلاً:
- بالتأكيد
سأله (شريف) في حدة، أنجبتها حيرته:
- وكيف أمكنكم تزوير بطاقات متقنة كهذه؟!
تنهد مرة أخرى، وهو يشير بيده، قائلا:
،
- هذا أمر بسيط بالنسبة لنا
انعقد حاجبا (شريف) بشدة، وهو يسأله:
- هل لك أن تخبرني، من أنتم بالضبط؟!
تردد (موريس)، واضطرب، وامتقع وجهه على نحو عجيب، و..
وفجأة، ارتفع رنين الهاتف.
ومع رنينه، انتفض (موريس) في عنف، ووثب من مكانه، وهو يطلق شهقة ذعر، أدهشت (شريف) و(عمر) وتعلقت عيناه بالهاتف في ارتياع، فالتقط (عمر) سماعته، وهو يقول في توتر:
- هل يفزعك رنين الهاتف إلى هذا الحد؟!
لم يكن (عمر) قد وضع السماعة بعد على أذنه، عندما أشار إليه (موريس) في ذعر، هاتفا:
- (ناجى).. إنه (ناجي) حتما،
انعقد حاجبا (شريف) في توتر، في حين قال
(عمر) عبر الهاتف:
- مكتب المباحث.. ماذا لديكم؟!
اتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحدق في وجه(موريس)، هاتفا:
- كيف.. كيف عرفت؟!

امتقع وجه (موريس) أكثر، وحملت عيناه كل رعب الدنيا، في حين تساءل (شريف) في توتر:
- أهي جريمة جديدة؟!
أعاد (عمر) سماعة الهاتف إلى موضعها، وهو يقول في ذهول:
- نعم.. رجل الأعمال الأعزب، وخبير بورصة الأوراق المالية (ناجي يوسف).. لقد تم قتله في حجرة مكتبه المغلقة، وانتزع القاتل قاطعه (موريس)، بكل رعب الدنيا:
- كبده.. انتزع كبده.
وقفز ذهول (عمر) إلى ذروته.
فما قاله (موريس) كان صحيحا.. وبمنتهى الدقة...

☆ ☆ ☆

ضوء خاطف، سطع في وجه (ياسمين)، ثم تلاشى دفعة واحدة.. وانتفض جسدها في عنف واختل توازنها، على نحو لم تواجهه من قبل قط فجأة، لم تعد تدري أين هي بالضبط..
بل ولا كيف تقف أو ترقد أو حتى تطير كل شيء من حولها اختلف واختل. كل شيء..
ومن حولها، أضيئت الدنيا وأظلمت بسرعة رهيبة، وإيقاع لاهث مخيف وخفق قلبها.
خفق بمنتهى القوة.. ومنتهى الخوف. خاصة عندما برزت أمامها تلك العينان المخيفتان، وسط الظلام الدامس. عينان التمعتا بضوء مبهر، و..
وفجأة، ارتفع رنين الهاتف وهبت من رقادها..
وفي دهشة ما لها مثيل، حدقت في جدران وأثاث حجرة نومها، قبل أن تغمغم في رعب:
- مستحيل! مستحيل أن يكون كل هذا مجرد كابوس!
مستحيل!

تواصل رنين الهاتف، وهي مازالت تحدق في حجرتها، قبل أن ينتزعها من ذهولها صوت طرقات أمها على باب الحجرة، هاتفة:
- (ياسمين).. هل ستجيبين الهاتف أم ماذا؟!
انتفضت هاتفة:
- سأجيب يا أمي.
التقطت سماعة الهاتف بحركة سريعة، واختنق صوتها في حلقها، وهي تقول:
- من المتحدث؟!
أتاها صوت الأستاذ (سالم)، وهو يقول في ارتباك:
- أنا (سالم) يا آنسة (ياسمين).. معذرة.. هل أيقظتك؟!
ألقت نظرة على ساعتها، التي أشارت عقاربها إلى الحادية عشرة، قبل منتصف الليل، وهي تجيب في توتر:
- تقريبا
تضاعف ارتباكه، وقال:
- لم أكن أعلم أنك تنامين مبكرا هكذا، ولكنني أردت أن أخبرك، أننا وجدنا، في ملفاتنا الاقتصادية، خمس حالات متشابهة، ينطبق عليها الموقف نفسه.. كلها لرجال أعمال عزاب، يعملون في مجال الأسهم والسندات والبورصة، وكلهم برزوا منذ خمس سنوات فحسب، دون تاريخ سابق، ولم يخسر أيهم صفقة واحدة، منذ بدأ حياته العملية، على الرغم من أن أحدهم لم تكن لديه أية خبرات سابقة على الإطلاق
اعتدلت، قائلة في اهتمام:
- خمس حالات أخرى؟!
أجابها في سرعة:
- بل خمس حالات في مجملها، وهذا يتضمن (زاهر)، و (عازر)، و(زغلول)..

هبت جالسة، على طرف الفراش، وهي تقول في حماسة:
- هذا يعني أنه مازالت هناك احتمالات لحدوث جريمتي قتل أخريين
قال في اهتمام:
- هذا ما قدرته.
سألته:
- ما الاسمان الآخران؟ وهل هما..
بترت عبارتها بغتة، وهي تحدق في المنبه المجاور لفراشها، فسألها (سالم) في قلق:
- آنسة (ياسمين).. أين أنت؟!
سألته في حدة، لم يجد لها ما يبررها:
كم الساعة الآن؟!
أدهشه السؤال، كما حيره أسلوبها، ولكنه أجاب:
- التاسعة وست دقائق.. لماذا؟!
ألقت نظرة أخرى على ساعتها، التي تشير إلى ما بعد الحادية عشرة بدقيقتين، قبل أن تسأله في توتر زائد:
- أأنت واثق؟!
أجابها في حيرة أكثر:
- بالطبع يا آنسة (ياسمين).. ساعتي، وساعة الحائط، وحتى التوقيت في هاتفي المحمول، كلها تشر إلى التاسعة وست دقائق هتفت، وهي تحدق في ساعتها مرة أخرى:
- مستحيل!

بلغت حيرته ذروتها، وهو يتساءل:
- ولماذا مستحيل!
أجابته في حدة:
معذرة يا أستاذ (سالم).. سأتصل بك مرة أخرى.
أنهت الاتصال، وهي تنقل بصرها بين ساعتها والمنبه، قبل أن تقول في توتر:
- لم يكن كابوسا
السلسلة الوحشية
كانت تذكر، وبمنتهى الدقة، كل خطوة قامت بها هناك.
في منزل (إبراهيم)..
كل شيء..
وبكل التفاصيل
وهذا لا يحدث أبدا في الأحلام..
أو حتى في الكوابيس

إنها واثقة من أنها كانت هناك لقد تسللت إلى الداخل إلى حجرة المكتب وعثرت على جهاز التسجيل والأسطوانة.
ثم شعرت بالحركة خلفها
وومض الضوء الخاطف..
وبعدها وجدت نفسها تستيقظ، على فراشها، وفي حجرة نومها.
وساعتها تسبق كل الساعات بساعتين تقريبا..
فما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟!
ما الذي يمكن أن يعنيه؟!
وظل السؤال يلتهم عقلها طوال الوقت
بلا جواب وبلا رحمة..

☆ ☆ ☆

غضب عارم، ذلك الذي ملأ جسد وعقل (شريف)، وهو يقف داخل حجرة مكتب رجل الأعمال الأعزب (ناجي يوسف)، الذي استلقي جثة هامدة في منتصفها، مصابا بحروق محدودة، في منطقة الوجه والصدر، وقد انتزع أحدهم كبده، في قسوة وحشية..
وهناك، في ركن الحجرة، كانت توجد تلك الفجوة الصغيرة، التي بدت له، في تلك اللحظة، وكأنها تخرج له لسانها في تحد وفي عصبية شديدة، قال الطبيب الشرعي:
- ألا توجد نهاية لهذا؟!
أدار (شريف) عينيه في حركة حادة، إلى (موريس)، الذي يبدو شبه منهار، وهو يقف تحت حراسة (عمر)، عند مدخل الحجرة، وقال في غضب:
- نحن في سبيلنا إلى وضع النهاية
خلع الطبيب الشرعي قفازيه، وهو يقول في حنق:

- أتعشم أن تأتي بسرعة، فلم يعد هناك مكان لمزيد من الجثث في المشرحة.
احتقن وجه (شريف) في غضب، والطبيب الشرعي يغادر المكان، ولم يكد يتأكد من انصرافه، حتى اندفع نحو (موريس)، قائلاً في حدة:
- كيف عرفت أنه سينتزع كبده؟!
أجابه (موريس) في مرارة:
- هذا أمر طبيعي
اكتفى بهذا الجواب المقتضب، وخفض عينيه في ألم، فازداد احتقان وجه (شريف)، على نحو لم يعهده (عمر) من قبل، حتى إنه هتف:
- سيادة المقدم..
قبل حتى أن تكتمل عبارته، كان (شريف) قد انقض على (موريس) فجأة، وانتزعه من مكانه، ليضرب به الحائط، وهو يصرخ في وجهه، بكل غضب الدنيا:
- اسمع يا هذا.. لقد سئمت ألغازك السخيفة هذه، ولم أعد أحتمل سماعها.. إما أن تفصح عما لديك، أو أنسف رأسك برصاصة من مسدسي، في التو واللحظة.
لم تبث صرخته الخوف في نفس (موريس)، الذي تطلع إلى عينيه مباشرة، قائلاً في يأس:
- لن يمكنك أن تفعل بي أكثر مما سيفعله هو بي.
صاح (شريف):
- من هو؟! من القاتل بالله عليك؟!
هز (موريس) رأسه في قوة، صائحا:
- لن تفهم.. لن يمكنك أبدا أن تفهم

صرخ (شريف) مرة أخرى في غضب، ثم جذبه في عنف قاس، إلى ركن الحجرة، وأشار إلى تلك الفجوة في الجدار، صائحا:
- ماذا يوجد هنا؟! ما الذي يخفيه كل منكم، في جدار حجرة مكتبه؟!
عاد (موريس) يهز رأسه في قوة، صائحا:
- الأمر يفوق إدراككم.. لن يمكنكم فهمه أبدا.
انقبضت كل عضلات (شريف)، وهو يرفعه عن الأرض بقبضتيه، صائحا:
- أخبرنا أولا، واترك لنا مهمة الفهم، وإلا
أمسك (عمر) يده، ليقاطعه قائلاً في توتر:
كفى يا سيادة المقدم.. كفى.. إنك تتجاوز بهذا كل الحدود المسموح بها.. الرجل مذعور فحسب، فهو معرض للمصير نفسه، الذي أصاب الآخرين.
صاح (شريف):
- لا يعنيني إذا ما كان..
بتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يفلت (موريس)، ويلتفت إلى (عمر)، هاتفا:
- يا إلهى! هذا صحيح.. كيف لم ننتبه إلى هذا؟!
كيف؟!
تراجع (عمر)، متسائلاً في حيرة:
- إلى ماذا؟!
أمسك كتفيه في قوة، هاتفا في انفعال:
- لقد أدركت الآن فقط، كيف يمكننا حل هذا اللغز؟!
وسرت قشعريرة عنيفة في جسد (عمر)..
فما نطقه (شريف) كان بالفعل مدهشنا..
إلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

٥- الحلقة الخامسة....

وثبت (ياسمين) في خفة، إلى الحديقة الخلفية لمنزل (إبراهيم زغلول)، وتجاهلت الباب الخلفي تماما هذه المرة، وهي تتجه مباشرة إلى نافذة المطبخ، التي استجابت لها من الخارج، فقفزت عبرها إلى الداخل، واستقرت بضع لحظات، وهي تغمغم:

- لقد كنت هنا من قبل.. من المستحيل أن ينقل الكابوس كل هذه التفاصيل

أخرجت من جيبها مصباحا يدويا كبيرا، واهتدت بضوئه، لبلوغ حجرة المكتب، وما إن دلفت إليها، حتى زفرت مكررة:

- لقد كنت هنا من قبل

أدارت ضوء مصباحها إلى الجدار، ليسقط مباشرة على تلك الحلية، فانعقد حاجباها في شدة، وجلست على أقرب مقعد إليها، وهي تحدق فيها في صمت، لما يقرب من دقيقة كاملة، قبل أن تقول في عصبية:

- إنها لم تكن رؤيا بالتأكيد.. لقد كنت هنا.. كنت هنا حتما.

أغمضت عينيها، وراحت تعتصر عقلها، محاولة استعادة جزء مظلم من ذاكرتها لقد كانت هنا..

وكان هناك جهاز تسجيل..

وأسطوانة..

وذلك الشخص

بل ذلك الشيء.

والوميض الخاطف وانتفض جسدها في عنف، وهي تفتح عينيها بحركة حادة، وتحدق في الحجرة المظلمة في ارتياع، وكأنها تتوقع

ظهور ذلك الشيء مرة أخرى..
ولثوان، تجمد جسدها كله، من فرط رعب وهمي، قبل أن تغمغم:
- ولكن كيف؟! كيف؟!
راح عقلها يضع تفسيرا عجيبا للموقف كله، وعيناها تحدقان في ظلام الحجرة، وقد شملها شرود عجيب.. تفسير يتفق مع جرائم القتل وتشابه الحالات.. وذلك الشيء..
وساعتين ضاعتا من عمرها..
وكان التفسير مخيفا..
ومدهشا
واتسعت عيناها عن آخرهما في الظلام، وهي تتمتم:
- يا إلهي! لو أن هذا التفسير صحيح..
ونهضت بحركة حادة، لتجذب تلك الحلية في الجدار، مكملة:
- فلن أجد الأسطوانة، داخل جهاز التسجيل. انفتح الجهاز في نعومة، وتطلعت هي إلى موضع الأسطوانة الفارغ، وهي تتراجع، متمتمة:
- رباه! هل.. هل..
ارتطمت قدمها بشيء ما، قبل أن تتم عبارتها، فأدارت ضوء مصباحها اليدوي الضخم نحوه، ثم أطلقت شهقة مكتومة، وهي تحدق فيه..
وفي بطء، انحنت تلتقط مصباحها اليدوي الصغير الذي أتت به في المرة الأولى، والذي ارتطمت به قدمها الآن، وهو ملقى أرضا..
وفي لحظة، استعاد ذهنها صرختها المذعورة، وسقوط المصباح اليدوي الصغير من بين أصابعها، قبل أن تفقد وعيها..
وهنا، تألقت عيناها ببريق عجيب، وهي تتمتم في ثقة:
- نعم.. لقد كنت هنا.

وأيقنت من صحة نظريتها، على الرغم من غرابتها..
أيقنت تماما..
ارتجف جسد (موريس)، من قمة رأسه، وحتى أخمص قدميه، عندما دفعه (شريف) داخل حجرة مكتبه الأنيقة عنوة، وراح يقاوم في عنف، صائحا:
- لا.. من الخطأ أن آتي إلى حجرة مكتبي.. كلهم فعلوا هذا، فظفر بهم هناك.. أخرجوني من هنا.. أرجوكم.. أخرجوني قبل أن يأتي.
شعر (عمر) بمزيج من التوتر والارتباك، و(شريف) يمسك (موريس) في قوة، قائلاً في صرامة حادة:
- بل ستبقى في حجرة مكتبك يا سيد (موريس)، حتى تخبرنا لماذا يحدث كل هذا، وما الذي تخفيه هنا
تصبب عرق غزير على وجه (موريس)، وهو يقول في ارتياع:
- إنك لا تفهم.. لقد أتيت إليكم لأبتعد عنه.. تصورت أنه لن يجازف بكشف أمره، أمام سلطات الأمن هنا.
واتسعت عيناه، على نحو بدا وكأنه سيصاب معه بالجنون، من شدة الرعب، وهو يقول:
- العودة إلى هنا أشبه بالانتحار.. إنها منطقة اتصال قوية، وسيصلها بسهولة
صاح به (شريف):
- من هو؟! ومن أنتم؟! ولماذا يحدث كل هذا؟!
تعلقت عينا (موريس) بجزء من الجدار، وهو يهتف:
سأخبرك.. سأخبرك بكل شيء، ولكن أخرجني من هنا أولا.. أرجوك..
تتبع (شريف) بصره، حتى ذلك الجزء من الجدار، ثم دفعه جانبا، وهو يتجه إليه، قائلاً:

- أهنا يختفي ذلك الشيء الصغير، الذي ينتزعه القاتل دوما.
خيل ل- (عمر) أن الرجل قد أصابه مس من الجنون بحق، عندما أطلق صرخة رعب قوية، واندفع نحو (شريف)، صائحا:
- لا.. لا تخرجه.
استدار إليه (شريف) بحركة حادة، وبادره بلكمة مباغتة قوية، دفعته مترين إلى الخلف، ليسقط على ظهره، وهو يواصل صراخه:
اتركه في مكانه.. الآخرون أخرجوه، فحدث الاتصال.
أرجوك.. أرجوك.
ثم انهار بغتة، وراح يبكى وينتحب في عنف، مرددا:
أرجوك.. أرجوك..
كان انهياره عجيبا، حتى إن (شريف) توقف في مكانه، وتطلع إليه بدهشة، قبل أن يتبادل نظرة حائرة مع (عمر)، ثم يتجه إلى (موريس)، ويسأله، في لهجة أقل عصبية:
- ما الذي يحدث بالضبط؟!
أشار (موريس) بيده، قائلاً في انهيار:
- نحن أخطأنا.. تصورنا أنه بإمكاننا الدوران حول القانون وخداع الجميع، والمجيء إلى هنا، لنجعل حياة عائلاتنا أفضل، ولكنهم كشفوا أمرنا، وأرسلوه خلفنا، لتنفيذ القانون
انعقد حاجبا (عمر)، وهو يقول في استنكار:
- أي قانون هذا، الذي يبيح قتل المتهم، والتمثيل بجثته.
قبل أن تنفرج شفتا (موريس) بالجواب، ارتفع صوت أنثوى، يجيب في حزم:
- قانون المستقبل.
استدار الثلاثة في آن واحد، نحو (ياسمين)، التي وقفت عند ركن الباب، في حزم عجيب، كسا ملامحها كلها.

وفي توتر غاضب، هتف (عمر):
- ماذا تفعلين هنا؟! ما الذي أتى بك؟!
أما (شريف)، فقد فوجئ بقلبه يخفق لمرآها، على الرغم من دقة الموقف، وأدهشه أن حملت شفتاه ابتسامة ترحاب وود، فأسرع يئدها، متصنعا الصرامة، وهو يقول:
- كيف عرفت أننا هنا؟! -
هزت كتفيها، قائلة:
- عرفت أمر مقتل (ناجي يوسف)، وقدوم (موريس) إليكما، في مكتب المباحث، فاستنتجت الباقي
سألها (عمر) في حدة:
- وكيف علمت أن (موريس) يرتبط بالآخرين؟!
أجابته في حدة مماثلة:
- إنه رجل أعمال أعزب، ويعمل في بورصة الأوراق المالية، ويقيم وحده.
وصمتت لحظة، ثم أضافت في خفوت:
- ثم إن ملفه أحد خمسة ملفات متماثلة، من الناحية الاقتصادية وأدارت عينيها إلى (موريس)، مكملة:
- ملفات لخمسة أشخاص، برزوا فجأة، في عالم المال والأعمال، دون تاريخ سابق.. هل تعلمون لماذا لم يكن لأيهم تاريخ سابق؟!
استقبل (موريس) الرسالة، التي نقلتها إليه عيناها، وخفض عينيه، مجيبا في مرارة:
- لأنه قبل خمس سنوات، لم يكن لنا وجود، في هذا العالم.
اتسعت عينا (شريف) عن آخرهما، وهتف (عمر)، وهو يتراجع بحركة عجيبة، لم يكن لها ما يبررها:
- لم يكن لهم وجود في هذا العالم؟! ماذا تعنى يا رجل؟!

وجهت (ياسمين) حديثها إلى (موريس)، قائلة:
- هل ستخبرهم، أم أخبرهم أنا؟!
اندفع (شريف) يقول، في دهشة بالغة:
- هل تعرفين ما الذي يحدث؟!
أما (موريس)، فقد حدق فيها بضع لحظات، في ذعر مستنكر، قبل أن يقول في عصبية:
- لا.. مستحيل أن تدركي ما يحدث! مستحيل!
قالت في حزن:
- ربما يبدو الأمر مستحيلاً، لو تطلعت إليه من زاوية تفتقر إلى الخيال، ولكن لو تساءلت، كيف ظهر خمسة رجال فجأة، في عالم المال والأعمال، ليعملوا جميعهم في بورصة الأوراق المالية، دون أن يخسر أحدهم عملية واحدة، منذ خمسة أعوام كاملة، ثم مزجت هذا بحوادث قتل عجيبة، ارتبطت كلها بانتزاع أحد أعضاء الضحية، وربطت كل هذا بلمحة من الخيال، لبدت الحقيقة منطقية إلى حد كبي..
امتقع وجه (موريس)، على نحو عجيب، وانكمش في مكانه، وعيناه تحملان ذعرا واضحا، جعل (شريف) يقول في ذهول:
- هل مست قلب الحقيقة؟!
لم يجب (موريس) سؤاله، فأجابت هي:
- أعتقد أنه يمتلك دليلاً على هذا أيضا، على الأقل داخل جسده.
ثم تقدمت نحو الرجل، متسائلة في صرامة:
- أين يكمن ذلك الشيء؟!
حدق فيها (موريس) بضع لحظات في ذعر وصمت، فعقدت ساعديها أمام صدرها، قائلة:
- هل سنضطر لعمل رسم مقطعي لجسدك كله أم..
قاطعها، وهو يشير إلى رأسه، قائلاً بصوت مرتجف:

- هنا.
اتسعت عيون (شريف) و(عمر) معا، وهما يتبادلان نظرة ملؤها الدهشة والحيرة، في حين سألته هي، في لهفة واهتمام:
- في جمجمتك؟!
هز رأسه نفيا، وهو يجيب في استسلام:
- بل في الفص الأمامي للمخ.
تألقت عيناها بنظرة ظافرة، جعلت (شريف) يهتف في عصبية:
- هل لنا أن نفهم ما يدور هنا؟!
تطلعت (ياسمين) إلى (موريس)، قائلة:
- أعتقد أن الوقت قد حان لهذا.
هز رأسه في انهيار، وهو يقول:
- لن يمكنهم إدراك هذا.. من الخطر أيضا أن يعرفوا.
صاح (شريف) في حدة:
- ما الذي يحدث هنا؟!
أدارت (ياسمين) عينيها إليه، قائلة:
- ما يحدث أمر يفوق كل إدراك بشرى حالي، وتصديقه يحتاج إلى عقول متفتحة أكثر من المعتاد.
وصمتت لحظة، وهي تلتفت مرة أخرى إلى (موريس)، متابعة:
- أو إلى دليل لا يقبل الشك
خيل لضابطي المباحث أن عينيها تتبادلان رسالة صامتة مع عينى (موريس)، الذي تطلع إليها بضع لحظات في ارتياع، ثم لم يلبث أن خفض عينيه، ونهض في تثاقل، وكأنما زاد عمره عشر سنوات على الأقل، واتجه إلى مكتبه، وجذب جزءا من قائمه الخشبي، لينفتح أمامه درج سرى، التقط منه كتابا عجيبا، له غلاف يلتمع على نحو مدهش، وناوله إلى (شريف)، قبل أن

ينهار على مقعده، ويدفن وجهه بين كفيه، قائلا بلهجة أشبه بالبكاء:

- لقد أخطأنا.. لقد أخطأنا

حدق (شريف) في الكتاب بدهشة بالغة، وهو يتساءل عن ماهية خامته، التي بدت ناعمة كالمخمل، وصلبة كالفولاذ في آن واحد، ثم حاول أن يفتحه في تردد، فتمتمت (ياسمين):

- أعتقد أنه يحتاج إلى كلمة سر.

رفع (شريف) عينيه إليها في دهشة، في حين هتف(عمر)، في عصبية مستنكرة:

- الكتاب؟!

قالت في اهتمام:
- أظنه ليس كتابا بالمعنى المعروف.. أليس كذلك يا (موريس)؟!
أجابها (موريس)، دون أن يرفع وجهه، من بين كفيه:
- إنه يحتاج إلى البصمة الجينية لصاحبه.
تضاعفت دهشة (شريف) وعصبيته، وهو يقول:
- بصمة جينية؟! أي كتاب هذا بالضبط؟!
رفع (موريس) وجهه من بين كفيه، قائلاً:
- دليل البورصة، خلال نصف قرن
قال (عمر) في حدة:
- نصف قرن؟! عمر البورصة هنا لا يتجاوز قاطعته (ياسمين):
- عمرها تجاوز هذا بكثير، من حيث أتى الرجال الخمسة..
عاد (موريس) يدفن وجهه بين كفيه، و (شريف) يسألها، في حذر متوتر:
- ومن أين أتوا؟!
التقطت نفسا عميقا، قبل أن تجيب:
- من المستقبل.. مستقبلنا ودوت قنبلة في المكان قنبلة من الدهشة والذهول..
بلا حدود..

☆ ☆ ☆

٦- الحلقة الأخيرة..

هذا هو التفسير الوحيد
نطقت (ياسمين) العبارة في حزم، وهي تجلس داخل حجرة مكتب (موريس)، الذي بدا منهارا تماما، في نفس الوقت الذي بدا فيه (شريف) و(عمر) مذهولين، وهي تتابع:
- خمسة رجال، ظهروا في حياتنا فجأة، وعملوا جميعهم في مجال البورصة، ثم لم يخسروا عملية واحدة طوال خمس سنوات، على الرغم من أن كل الإحصائيات تؤكد استحالة حدوث هذا، حتى لأكثر خبراء البورصة حظا، فما الذي يمكن أن نفسر به هذه النقطة بالتحديد لم يجد أحد الموجودين جوابا، فتابعت في حماسة:
- أنهم يعرفون أسعار الأسهم والسندات، وتقلبات البورصة مسبقا
ثم أشارت بسبابتها، وهي تنهض مستطردة:
- ولما كانت معرفة هذا بدقة أمرا مستحيلاً، حتى بالنسبة لمسئولي البورصة ذاتهم، فالاحتمال الوحيد، الذي قد تعجز عقولنا عن استيعابه، هو أنهم قد أتوا من زمن مستقبلي، حيث أصبحت كل هذه التغيرات مجرد تاريخ.
قال (عمر) في حدة:
- يا لها من فكرة خيالية، تناسب عقل صحفية شابة، او
« إنها على حق.. »
قاطعه (موريس) بالعبارة في مرارة، جعلتهم يلتفتون إليه جميعا، وعينا (عمر) تتسعان عن آخرهما، في حين غمغم (شريف) في ذهول:

- على حق؟! هل تعنى
اعتدل الرجل في مجلسه، وقال في شيء من الحزم:
- لقد أتينا بالفعل من المستقبل.
وعلى الرغم من أن هذا يتوافق مع نظريتها، فقد سرت جسد (ياسمين) ارتجافة باردة كالثلج، عندما أعلن اعترافه بهذه الصراحة، وتألقت عيناها في ظفر، في حين شمل الذهول والصمت (شريف) و(عمر)، و(موريس) يتابع، على نحو بدا معه وكأنه قد قرر مواجهة الأمر.
وطرح كل مخاوفه عن كاهليه:
- بعد نصف قرن من الآن سيصبح السفر عبر الزمن حقيقة واقعة، ولكن العلماء سيكشفون مخاطره الجسيمة، وخاصة عند التدخل في أية أمور يمكن أن تهدد المستقبل كله بالفناء، لذا فقد تم حظر السفر إلى الماضي، مع الحكم بإعدام كل من يسعى إلى هذا.
غمغمت (ياسمين) بلهفة
- ولكنكم الخمسة خالفتم القانون، وعدتم إلى هنا
. أومأ برأسه إيجابا، وراحت الدموع تسيل من عينيه وهو يقول:
- لم نكن نرغب في إيذاء أحد.. كل ما أردناه هو أن نصنع ثروة طائلة، من تعاملنا في بورصة الأوراق المالية، مع معرفتنا لكل تطوراتها، خلال نصف قرن، حتى تصبح عائلاتنا أكثر ثراء وقوة في المستقبل.
انتزع (شريف) نفسه من ذهوله، وهو يقول:
.. وبعدها تعودون إلى زمنكم
هز رأسه نفيا، وأجاب في مرارة:
- لا توجد أية وسيلة لعودتنا إلى زمننا.. السفر عبر الزمن يحتاج إلى تكنولوجيا هائلة، لا يمكن أن تتوافر في هذا الزمن، بأي حال

من الأحوال.
قالت (ياسمين) مبهورة:
- يا إلهى؟ هل ضحيتم بزمنكم، من أجل عائلاتكم؟!
أوما برأسه إيجابا، وهو يكرر:
- لم نرغب في إيذاء أحد
عجزت ساقا (عمر) عن حمله، من فرط ذهوله، فترك جسده يسقط، على أقرب مقعد إليه، في حين أشار (شريف) إلى الجدار، قائلاً في انفعال:
- وما ذلك الشيء، الذي تخفونه في جدران مكاتبكم؟!
أجابه في استسلام:
- إنه جهاز إنذار خاص، يكشف قدوم أي أمنى من المستقبل، بحثا عنا
وعادت الدموع تنهمر من عينيه، وهو يتابع:
- لقد تصورنا أنه سيحمينا، إذا ما أرسلوا أحد تلك الأشياء للقضاء علينا، ولكن من الواضح أنهم قد استخدموا ذبذباتها، لكشف مواضعنا، وتنفيذ الحكم فينا
اتسعت عينا (شريف)، وذهنه يرسم صورة لأحد الضحايا، وهو يسرع إلى حجرة مكتبه، ويغلقها عليه في إحكام، ثم يسرع بإخراج ذلك الشيء، المختفي في الجدار، لمعرفة ما إذا كانوا قد أرسلوا ما يتعقبه، ولكن الذبذبات تجلب القاتل إليه، و..
« ولماذا ينتزع أحشاءهم؟! »
قاطعه (عمر)، وهو يلقى السؤال في توتر بالغ، فهز(موريس) رأسه، وعاد يدفن وجهه بين كفيه، مجيبا في يأس وأسى:
- الحياة في المستقبل تختلف عنها الآن.. التلوث بلغ حدا لا يمكنكم تصوره، والحرب العالمية الثالثة، التي بدأتها الولايات المتحدة الأمريكية، بعد سقوط برجيها، أدت إلى انتشار

التأثيرات البيولوجية، والكيماوية، والنووية، مما أصاب بعض الأعضاء البشرية بالتلف، أو بأورام خبيثة لا شفاء منها، فتم ابتكار واختراع أعضاء بشرية بديلة لم يعد هناك جسد بشرى يخلو من أحدها على الأقل.

هتف (شريف):

- أهي الأعضاء التي ينتزعها ذلك القاتل؟!

أوما برأسه إيجابا، وقال:

- لو تركها لكشف الطب الشرعي وجودها، ولأدرك على الفور أنها تكوينات نصف صناعية، تفوق إمكانيات هذا العصر بكثير، ومهمة الأمني، بعد تنفيذ الحكم فينا، هي التخلص من كل ما يمكن أن يشير إلى منشئنا، حتى لا يؤدي هذا إلى حدوث تموجات زمنية عشوائية، قد تفسد المستقبل كله، أو على الأقل، تكشف لكم حقيقة السفر عبر الزمن، قبل الموعد الطبيعي لكشف قواعده، وهذا خطر بالغ.

أشار (شريف) بيده إلى الجدار، قائلاً في انفعال:

- ألهذا يأخذ جهاز الإنذار أيضا؟

أجابه في يأس:

لديه حاسة لكشف موضع كل ما ينتمي إلى عصرنا أدار (شريف) عينيه إلى الجدار، مرددا في انفعال أكثر:

- إذن فالدليل الرئيسي، على كل ما تقول، موجود هنا داخل هذا الجدار

قالها، وهو يتجه بالفعل نحو الجدار، فانتفض (موريس)، صارخا:

- لا.. لا تلمسه.

ثم وثب نحو (شريف)، كفهد جائع ثائر، وهو يصرخ:

- إنك تعرض حياتي كلها للفناء.

انقض على (شريف) في عنف شرس، واستقبله هذا الأخير في مهارة تتناسب مع خبرته وطبيعة عمله، إلا أن الانقضاضة أسقطتهما معا أرضا، وهما يشتبكان في حدة، فشهقت (ياسمين) في ذعر، وهي تتراجع هاتفة:

- ماذا تفعلان؟! يا إلهى! ماذا تفعلان؟!

أما (عمر)، فقد اندفع نحوهما، في محاولة لفض اشتباكهما، وهو يصيح:

- كفي.. هذا خطأ..

صرخ (موريس)، وهو يقاتل كالمجنون:

- إنها حياتي.. لن أسمح لكم بتحطيمها بهذه البساطة كان الرجل يقاتل بقوة وشراسة بلا حدود، وكأنما فقد عقله وأعصابه من فرط الخوف، حتى إن (شريف)، بكل خبرته وقوته، لم يستطع التصدي له، في حين حاول(عمر) أن يسيطر عليه، صائحا:

- ما تفعله جريمة يا هذا، و..

قبل أن يتم عبارته، دار (موريس) حول نفسه بحركة سريعة،، وركله في معدته، ثم وثب واقفا على قدميه، ولكمه في أنفه وفكه لكمتين قويتين، صارخا:

- إنها حياتي.. حياتي أنا

نهض (شريف)، في محاولة للسيطرة على الموقف إلا أن (موريس) اختطف مسدس (عمر) من حزامه، واستدار إلى (شريف)، صارخا:

لن أسمح لكم بهذا أبدا.

وأطلقت (ياسمين) صرخة رعب هائلة، فقد كان من الواضح أن الرجل قد أصيب بجنون حقيقي، وأنه سيطلق النار بلا تردد، و..

وفجأة، سطع ضوء قوى في الحجرة كلها..

ضوء أشبه بوميض مصباح تصوير ضوئي قوى.. واتسعت عينا (موريس)، في رعب هائل، والتفت(شريف) و (عمر) و (ياسمين) إلى مصدر الوميض. ووقعت أبصار الجميع عليه شخص معدني، يشبه البشر في تكوينه العام، وله وجه مخيف، أشبه بالبيضة، وجسمه كله أسود اللون، فيما عدا عينيه الكبيرتين، اللتين تلتمعان بضوء عجيب ولقد ظهر في منتصف الحجرة تماما، وعلى نحو مباغت، وكأنما نشأ من العدم..

وفي الوقت الذي حدق فيه الثلاثة بذهول، تراجع(موريس) برعب هائل، وهو يصرخ:

- لا.. لا تفعلها.. لا.. لا..

ثم ضغط زناد مسدس (عمر)، وانطلقت الرصاصات ترتطم بالجسم المعدني، ثم ترتد عنه في قوة.. أما المعدني نفسه، فقد رفع يده نحو (موريس)، وصدر منه صوت معدني عجيب، يقول بلغة عربية، ذات لهجة غير مألوفة:

الخامس والأخير.. إعدام.

ومع آخر حروف كلماته، صرخ (موريس):

- لا.. لا!!!!

وانطلقت حزمة من الأشعة الزرقاء، من قبضة المعدني..

وأصابت (موريس) في وجهه وصدره..

ودون حرف واحد، سقط رجل المستقبل كالحجر ولم ينبس أحد الحاضرين بحرف واحد حتى (ياسمين)، لم تطلق صرخة واحدة..

أما المعدني، فقد تجاهل ثلاثتهم، وكأنما لا يعنيه وجودهم

واتجه مباشرة نحو الجدار، وغاص فيه بأصابعه، وانتزع منه جهازا أشبه بمذياع صغير، تاركا خلفه فجوة صغيرة، قبل أن يتجه نحو (موريس)، ثم يغرس أصابعه في جمجمته على نحو بشع، أطلقت معه (ياسمين) صرخة قوية، قبل أن تتراجع يد المعدني، وهي تحمل الفص الأمامي لمخ (موريس)، والدم يتقاطر فيه عندئذ، هوت (ياسمين) فاقدة الوعي، من هول الموقف، فقفز (شريف) يلتقطها بين ذراعيه، هاتفا:

- يا إلهي! يا إلهي!

استدار المعدني نحوهما، فهتف (عمر)، وهو يتحفز للانقضاض عليه:

- احترس يا سيادة المقدم.. إنه يتجه نحوكما

لم يدر (شريف) ماذا يفعل، وهو يحمل (ياسمين) الفاقدة الوعي بين ذراعيه، والمعدني يتجه نحوهما مباشرة، وانقض (عمر) فجأة..

انقض على المعدني، صائحا:

لا.. لن تظفر بهما

ودون أن يتوقف لحظة، طوح المعدني يده، ليلطم(عمر) في عنف، ويلقيه عبر الحجرة، ليرتطم بالجدار في قوة، ثم يسقط أرضا فاقد الوعي..

وتوترت أعصاب (شريف) أكثر، وحاول أن يلتقط مسدسه، وهو يحمل (ياسمين) بين ذراعيه، وخاصة عندما من المعدني يده نحوه..

ولكن المعدني لم يكن ينشده هو لقد انتزع من جيبه ذلك الشيء، الشبيه بالكتاب: والذي يلتمع غلافه على نحو عجيب، ثم تراجع إلى منتصف الحجرة، وتطلع إليه بعينيه الواسعتين الضخمتين اللامعتين، و..

وسطع ذلك الضوء الخاطف مرة أخرى..
ثم تلاشي دفعة واحدة
تلاشي، بعد أن اختفى المعدني تماما، دون أن يترك خلفه أدنى أثر، وكأنما ذاب في العدم.. ذاب إلى الأبد أو إلى المستقبل..
تنهد (شريف) في توتر، ولوح بيده، وهو يقول ل- (ياسمين):
- لقد حصلت على أفضل قصة لهذا العام بالتأكيد ابتسمت، قائلة:
- ولكنها ليست قصة حقيقية
هز كتفيه، وهو يقول:
- كان من المستحيل أن ننشر القصة الحقيقية.. لن نجد من يصدقها أبدا.
وافقته بإيماءة من رأسها، قائلة:
- ولكنني مررت بتجربة لن أنساها أبدا.. تجربة خسرت خلالها ما يقرب من ساعتين من عمري.
- لن يخفض هذا ذرة واحدة من جمالك.
تخضب وجهها بحمرة الخجل، وأشاحت بوجهها، محاولة التهرب من نظرات الإعجاب والحب، التي يرمقها بها، وهي تقول في ارتباك:
- القراء صدقوا القصة التي وضعناها، والتي اتهمنا فيها (موريس) بأنه قد ارتكب كل هذه الجرائم، انتقاما من الأربعة الآخرين، بعد أن تآزروا لإفلاس شركته، وتدمير مستقبله، ثم انتحر بإطلاق النار على رأسه في النهاية.
هز كتفيه، قائلاً:
الطبيب الشرعي ساعدنا على هذا، على الرغم من أنه لم يقتنع بحرف واحد مما قلناه.
ضحكت، وهي تقول في خجل:

- كان من المستحيل أن نخبره بالقصة الحقيقية.
تطلع بضع لحظات إلى جمالها الفاتن، قبل أن يميل نحوها، قائلا:
- ولكنك أخطأت بعدم إبلاغي بأمر آلة المراقبة، وما سجلته تلك الأسطوانة.. ربما لو فعلت، لتغيرت الأمور كثيرا.
صمتت لحظة، ثم قالت في دلال:
- ربما من الأفضل أننى لم أفعل
ابتسم، قائلاً:
- نعم.. ربما من الأفضل هذا
ثم استدرك في سرعة وصرامة:
- وربما لا.
التفتت إليه في دهشة، فاستعاد ابتسامته، وهو يقول:
. هذا يحتاج إلى مناقشة طويلة، ولكن مكتب المباحث لا يناسب هذا..
غمغمت في حياء:
- ما رأيك في مكتبي بالجريدة؟!
اتسعت ابتسامته، وهو يقول:
- ما رأيك أنت بمائدة أنيقة، تطل على النيل؟!
رقص قلبها بين ضلوعها، مع تصاعد خمرة الخجل إلى وجنتيها، وهي تهمس في سعادة:
- سيكون هذا رائعا
هتف بكل سعادة الدنيا:
حقا؟!
كان ذهنه وذهنها يحملان ألف سؤال وسؤال حول ذلك المعدني، وهل عاد إلى المستقبل أم لا، وهل هناك آخرون بينهم.. وهل.. وهل.. وهل..

ولكنهما طرحا كل هذا عن ذهنيهما وقررا أن يعيشا لحظة سعادتهما، بعد أن انتهت الحلقة الأخيرة من السلسلة الوحشية، واستقرت موجات الزمن، وصار أمامهما مستقبل واحد، عليهما الاهتمام به مستقبلهما..
معا..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

Notes

[←1]

الصدمة العصبية: مصطلح طبي، يستخدم للتعبير عن حالة يتصاعد فيها الألم إلى درجة تؤدي إلى تفتح كل الأوعية الدموية الصغيرة، التي تجذب كل الدم، مما يؤذي بالتالي إلى هبوط حاد في الدورة الدموية، أما الصدمة النفسية، التي كثيرا ما يخلط العامة بينها وبين الصدمة العصبية، فهي حالة معنوية، قد تؤدي أيضا إلى آثار فسيولوجية مدمرة.

روايات مصرية

كتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

سلسلة فاى

البعث

عملية النسر المنفرد

عملية الأستاذ

عملية تل أبيب

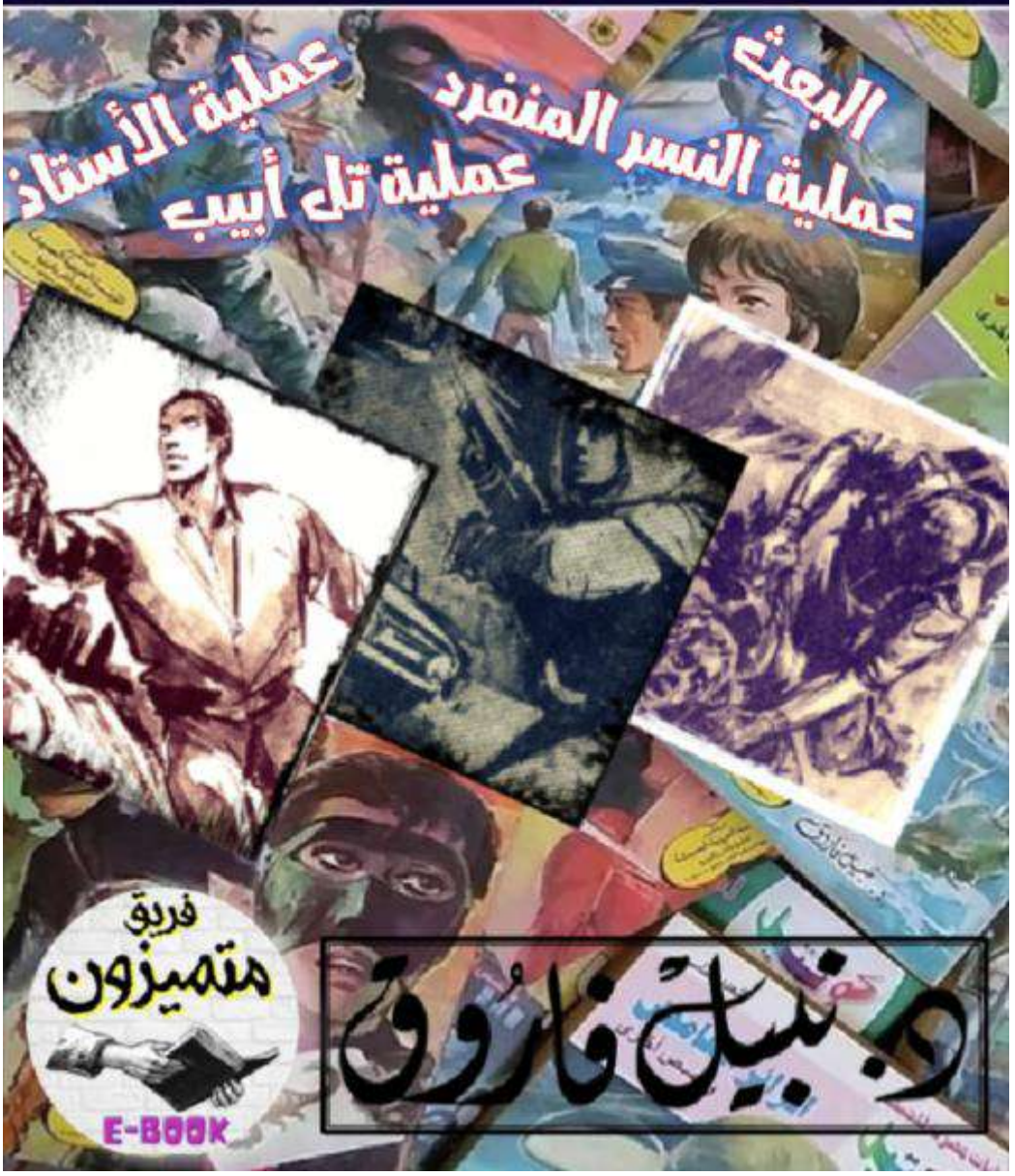

د. نبيل فاروق

فريق متميزون

E-BOOK

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

البعث

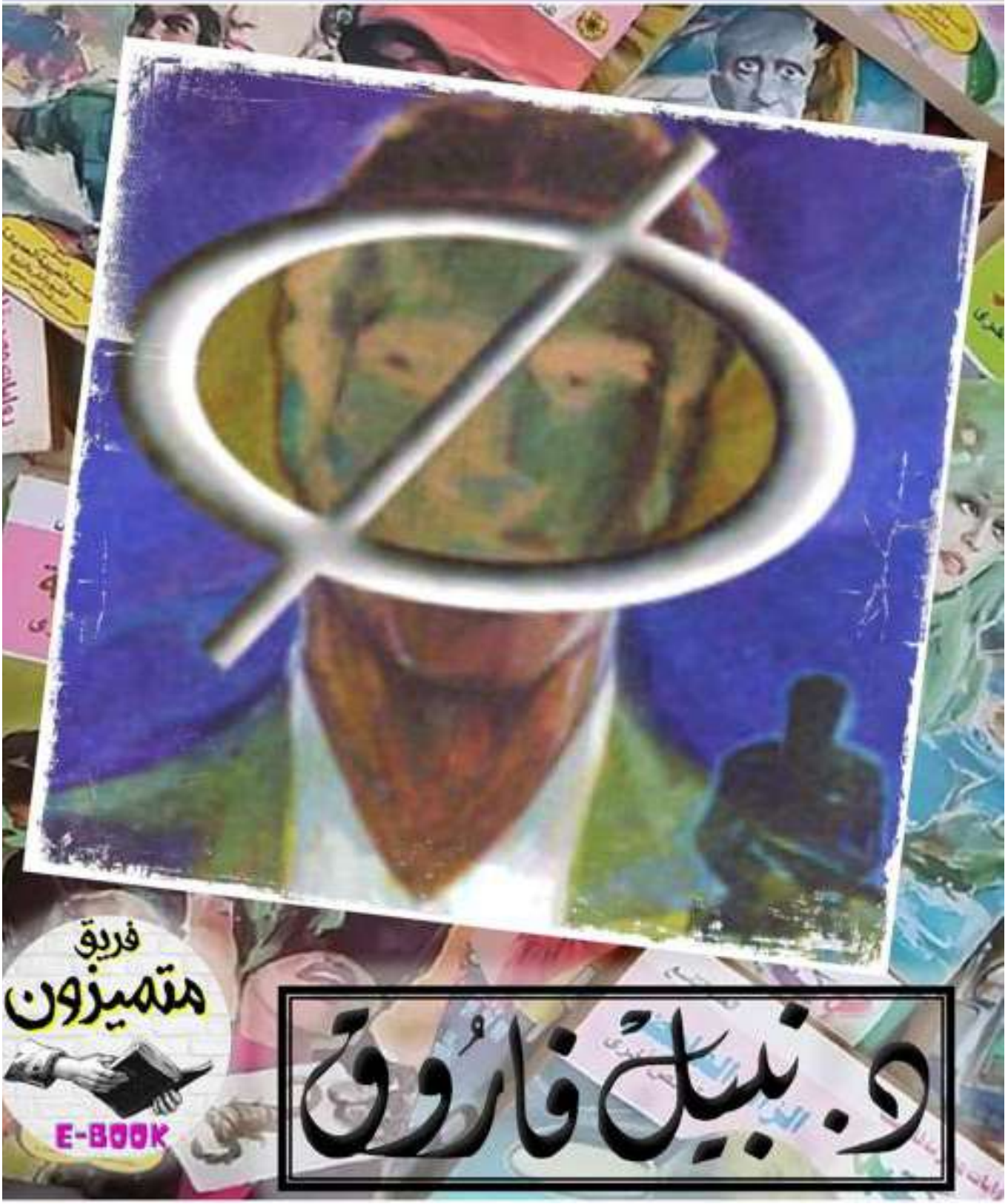

فريق متميزون

E-BOOK

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل 2000)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تجميع وتحويل قصص العدد المنشورة من سلسلة كوكتيل 2000 للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب
قصة العدد
البعث
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل 2000

البعـــــــث

سلسلة كوكتيل 2000..

مع بدء العد التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000، بمثابة باب إلى المعرفة..
إلى الحضارة..
إنها ثقافة الغد.. لشباب اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

هذه القصة لم تحدث من قبل..
أو ربما حدثت..
أو أن بعضها حدث، وبعضها لم يحدث..
ضعها من عقلك حسبما يتراءي لك..
ولكن المهم أنها تحمل توقيع الوطن..
توقيع (مصر)..

نبيل فاروق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- البداية..

الخامس من أكتوبر.. عام 1973م..
التاسع من رمضان.. عام 1393 ه..
كل شيء هادئ، في قلب (سيناء)، في تلك الساعة المتأخرة من الليل..
الرمال والتباب بدت ساكنة، مع النسيم الهادئ العليل، وانتظمت حباتها، إلا من آثار الزواحف والحشرات الصغيرة، التي نشطت مع المناخ المعتدل، وراحت تزحف في كل الاتجاهات، بحثًا عن غذائها، بعضها من البعض، ومن بقايا نباتات عشوائية صغيرة، تناثرت على مساحات واسعة، وفي قلب الصحراء، حتى لا تكاد تلحظ وجودها..
حتى الجنود الإسرائيليون، في خط (بارليف) وحوله، هبط عليهم شيء من الكسل والخمول، فجلسوا يتسامرون، ويطلقون سحب الدخان من سجائرهم المشتعلة، دون أن يبالوا بالمصريين، الذين يقبعون على الشاطئ الغربي للقناة، وكأنما وقر في قلوبهم أن وجودهم على شاطئها الشرقي صار أمرًا نهائيًا سرمديًا، وأن المصريين لم يعودوا قادرين على القتال، أو على شن أي حرب شاملة حاسمة..
وبعيدًا عن كل هذا.
أو بمعنى أدق: فوق كل هذا..
وعلى ارتفاع كيلومترين تقريبًا، بعيدًا عن كل مجالات الرادار المعروفة، حلقت طائرة حربية مصرية، من ذلك الطراز، المعد لنقل الجنود ورجال المظلات، متجاوزة منطقة البحيرات، وبداخلها عدد من رجال الصاعقة المصريين،

جلسوا بكامل عتادهم ومعداتهم، على نحو يوحي بأنهم في طريقهم إلي مهمة خاصة، من تلك المهام التي تم تدريبهم للقيام بها، وآذانهم كلها تصغى في اهتمام وانتباه شديدين لقائدهم، وهو يراجع معهم تفاصيل المهمة للمرة الأخيرة، قائلًا:

- غدًا تبدأ معركة التحرير.. تلك المعركة التي انتظرتموها طويلًا، وتدربتم من أجلها كثيرًا.. المعركة التي ستسترد بها (مصر) عزتها وكرامتها بإذن الله، وترد الصاع صاعين للإسرائيليين، الذين باغتونا بهجومهم منذ ست سنوات، في الخامس من يونيو عام 1967م، ونجحوا في احتلال (سيناء)، وتكبيدنا هزيمة فادحة.. غدًا تحين لحظة الثأر يا رجال.. ستشن قواتنا هجومها الشامل على الجيوش الإسرائيلية، في سبيل تحرير (سيناء)، واستعادة الكرامة العربية.. ولابد أن نعترف جميعًا بأن الجيش الإسرائيلي ليس ضعيفًا أو ساذجًا، وقادته ليسوا بالأغبياء، وأنهم، ما إن يتلقوا الضربة الأولى، حتى يبدءوا تحركهم بأقصى سرعة، ويدفعوا قواتهم وجيوشهم الاحتياطية إلى الجبهة، لقلب ميزان المعركة لصالحهم.

واعتدل يلتقط نفسًا عميقًا، ملأ صدره القوي، قبل أن يضيف بلهجة حماسية حاسمة:

- وهنا يحين دوركم أيها الرجال.

انتشت نفوسهم بالكلمة، واشتعلت الدماء في عروقهم للعبارة، وهتف بعضهم في حماس منقطع النظير:

- كلنا فداء للوطن.

واحد منهم فقط لم ينبس ببنت شفة..

والعجيب أنه كان أكثرهم حزنًا وحماسًا وانتماء..

كان يشعر - كعهده دائمًا - أن الكلمات، مهما بلغت بلاغتها، لن يمكنها أبدًا أن تعبر عما يجيش به صدره..

لا أحد يمكنه أن يشعر بما يعنيه له اسم (مصر).
(مصر) الأم..
والوطن..
والحياة..
كانوا جميعًا في ذروة الحماس، ولكنه وحده كان يعتلي هذه الذروة..
هذا لأنه لم يكن أبدًا شخصًا عاديًا..
إنه، ودائمًا، من طراز خاص..
خاص للغاية..
طراز اعتاد كتمان كل مشاعره في أعماقه، مؤمنًا بأن الفعل وحده هو مقياس جودة وصلابة الرجال..
صامت هو، في معظم الوقت..
كتوم دائمًا..
نادرًا ما يتبادل الحديث مع رفاقه، وإن لم يخل ثغره قط من ابتسامة هادئة بسيطة، جذبت إليه قلوب الجميع، واكتسبت حبهم وثقتهم واحترامهم..
«مهمتكم هي قطع خطوط مواصلات العدو وإمداداته..»
نطق القائد هذه العبارة في حزم، فأرهف الجميع آذانهم، وضاعفوا انتباههم، وهو يشير بعصاه الرفيعة إلى نموذج مجسم لـ (سيناء)، استقر عند أقدامهم، على أرضية الطائرة، مستطردًا:
- عندما يهاجم جيشنا خط (بارليف)، سيحاول العدو تعزيز قواته وتواجده هناك، وسيدفع طابورًا من الدبابات نحو الخطوط الأمامية، وطبقًا للمعلومات التي أمدنا بها جهاز المخابرات، سيعتمد العدو على أحدث طراز من الدبابات، وهذا الطراز يفوق أحدث ما لدينا من مدرعات، ثلاث مرات على الأقل، ومواجهته على نحو مباشر ستكون عسيرة، وخصوصًا في

الساعات الأولى للقتال، وقبل أن يكتمل عبور قواتنا ومدرعاتنا إلى الضفة الشرقية.
ثم اعتدل، مضيفًا في حسم:
- باختصار.. نجاح ذلك الطابور من الدبَّابات الحديثة، في الوصول إلى الخطوط الأمامية، قبل أن نستعد لمواجهته، قد يقلب الأمور كلها رأسًا على عقب، ولهذا فمن الضروري أن ننجح في إيقاف تقدّمه، وأن تكبده أفدح خسائر ممكنة..
وأدار عينيه في وجوههم، قبل أن يتابع:
- نجاحكم في مهمتكم العسيرة، قد يتوقف عليه مصير الحرب كلها، لذا فمن المحتم أن تنجحوا.. مهما كان الثمن..
مهما كان الثمن..
اخترقت العبارة كيانه، واستقرت ملتهبة في وجدانه..
ولم يكن يحتاج إلى المزيد..
طوال الفترة التي تلقى فيها تدريباته، لم يكن يحتاج إلى أكثر من هذا..
حتى في العمليات التي شارك فيها، في أثناء حرب الاستنزاف، كان يثبت أنه سريع الفهم والاستيعاب، جمّ النشاط والحماس، يكفيه أن يسمع الكلمة السحرية، حتى ينطلق كالليث، ويقاتل كالفهد، ويبذل أقصى طاقاته للفوز والنصر..
كلمة (مصر)..
كل من عمل تحت إمرته انبهر بأدائه..
كلهم أجمعوا على أنه - منفردًا - قادر على القيام بعمل فرقة انتحارية كاملة، لو اقتضى الأمر.
ولقد أثبت هذا في مرات عديدة..
ومازال مستعدًا لإثباته..
«اشتعل المصباح الأحمر يا رجال..»

نطقها القائد في اهتمام مشوب بالتوتر، وهو يشير إلى مصباح أحمر مضاء، في سقف الطائرة، قبل أن يستطرد:

- لقد وصلنا إلى النقطة المنشودة.. ستقفزون جميعًا، عندما يضاء المصباح الأخضر، وانتبهوا جيدًا، لن يتم فتح المظلات قبل أن نصل إلى عد ألف ومائة ، حتى لا ترصدكم رادارات العدو.. المفروض أن هبوطكم هنا محاط بسرية تامة.. حافظوا على وجودكم، حتى تحين اللحظة المناسبة.. لا تتورَّطوا في أية اشتباكات جانبية، قبل ظهور طابور الدبابات، وتذكروا دائما أن مهمتكم محدودة وواضحة.. امنعوا وصول تلك الدبابات إلى الخطوط الأمامية بأي ثمن.. هل تفهمون؟ بأي ثمن. اشتعل المصباح الأخضر في تلك اللحظة، فهتف القائد:

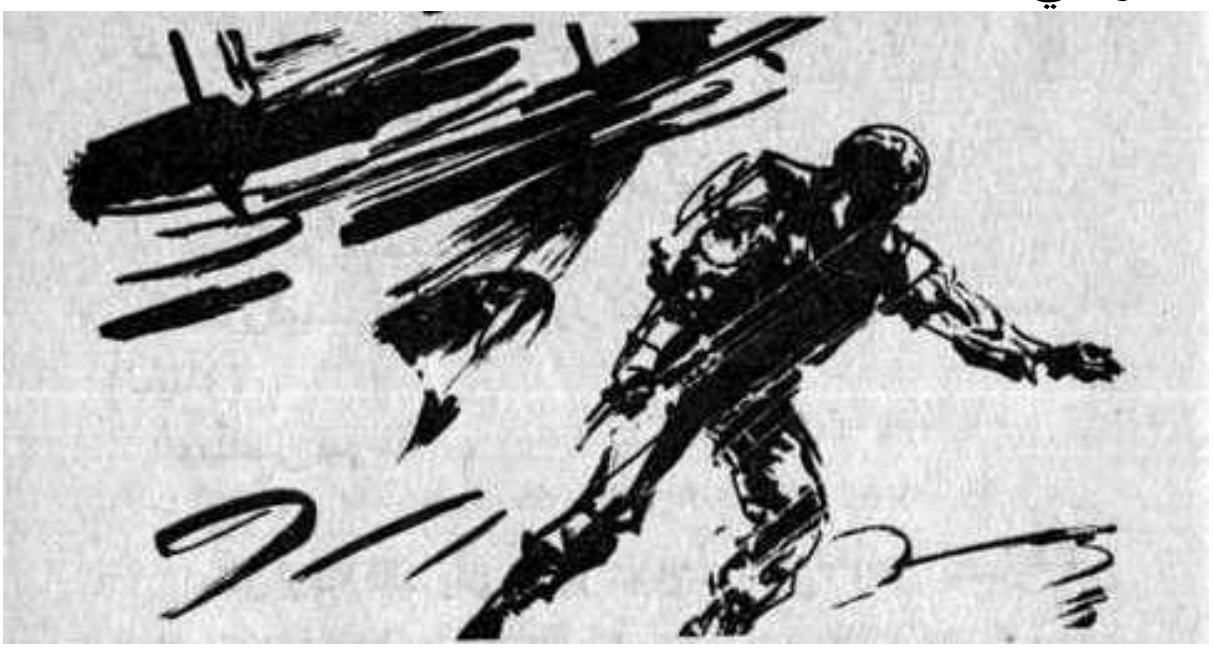

- حانت اللحظة يا رجال.. هيَّا.. على بركة الله.

وبلا تردد، وثب رجال الصاعقة من الطائرة، واحدًا بعد الآخر، وعلى رأسهم قائدهم..

وفي أعماق ذلك الصامت، راح العدّ يجري في سرعة..

ألف وواحد.. ألف واثنان.. ألف وثلاثة..

كـان جسـده يـهبط بسـرعة مدهشـة، مـع عجلـة الجاذبيـة الأرضـية، والصـحراء تتضـح تـدريجيًا، مـع اقترابـه بـهذه السرعة من الأرض، ورفاقه يبدون من حوله أشبه بطيور صغيرة، حانت لحظة عودتها إلى العش، ورأي بعضهم يفتح مظلته، وهو يواصل العد..

ألف وثمانية وتسعون.. ألف وتسعة وتسعون.. ألف ومائة..

كانت الأرض قد اقتربت كثيرًا.. ومظلات كل من سبقوه ترتفع أمام عينيه، وظروف الهبوط مواتية للغاية، و...

ولكن كانت هناك نقطة ضعف واحدة..

لقد جذب حبل مظلته، كما يفعل في كل مرة، ولكن..

المظلة لم تستجب..

لقد رفضت أن تنفتح، وتركت جسده يهوى نحو صحراء (سيناء)..

وبأقصى سرعة..

☆☆☆

احتقن وجه قائد لواء السيارات الإسرائيلي، وهو يصرخ في وجه سائقه غاضبًا:

- ماذا تعني بقولك السخيف هذا؟.. كيف ضللت طريقك وسط الصحراء؟ أهي المرة الأولى، التي تقود فيها سيارتي، في قلب (سيناء)؟!

ارتبك السائق، وهو يقول:

- لست أدري ماذا حدث هذه المرة يا سيدي؟!.. لقد تلفت البوصلة، وهذه التلال هناك كانت تعطي ظلالا عنيفة، و..

قاطعه القائد في ثورة:

- لا أريد أية مبررات.. أنت سائق فاشل.. هذا هو المبرّر الوحيد.. هل يمكنك أن تخبرني، كيف أبرّر فشلك هذا أمام القيادة؟!.. كيف أشرح لهم أننا كنا في طريقنا إلى الغرب، فوجدنا أنفسنا في الشرق؟!.. خمس سيارات تحت قيادتي، وأكثر من ثلاثين جنديًا يضلّون طريقهم في قلب الصحراء، ويخسرون مواقعهم المحدودة، بسبب غباء سائق.. ماذا أفعل بحق الشيطان؟.. هل يكفي أن تنطبق السماء على رأسك، و...

بتر عبارته بغتة، وهو يحدّق في السماء، قبل أن يهتف في انفعال:

- يا للشيطان!

رفع الجميع عيونهم إلى السماء، مع هتافه، وأبصروا في آن واحد تلك النقاط التي توزعت فيها على نحو عشوائي، والتي راح بعضها يتحوَّل إلى كرات أكبر حجمًا، في حين صاح القائد، وهو يلتقط مسدسه بحركة غريزية:

- فليقطع ذراعي إن لم يكن هذا فريقًا من المظليين المصريين.

وانتفض جسده من فرط الانفعال، وهو يربّت على ظهر سائقه في قوة، مستطردًا:

- مرحى يا رجل.. يبدو أن حاستك السادسة هي التي قادتك إلى هذا الخطأ الليلة.. ويالها من مفارقة! ربما تتلقى وسامًا بسبب خطأ سخيف.

ولوَّح بيده لرجاله، هاتفًا:

- هيا.. أطفئوا أنوار سياراتكم، وأخفوها في أي مكان، ثم انتشروا في المنطقة، وانتظروا إشارتى، لنحصد هؤلاء المصريين حصدًا.

قالها، وقهقه ضاحكًا في جذل ظافر، مستطردًا:

- لقد اختاروا هذه البقعة لهبوطهم، في عبقرية نادرة، لأنهم يعلمون أنها ستكون خالية من الدوريات تمامًا الليلة، مع حركة الانتقالات الدورية، بمناسبة عيد (كيبور)..
ثم ربَّت على ظهر سائقه مرة أخرى في عنف، مضيفًا:
- ولكن الخطأ الذي ارتكبته أفسد خطتهم يا رجل.. كم أشعر بالسخرية، كلما تخيلت وجوه رجال مخابراتهم، الذين أرهقوا أنفسهم في جمع المعلومات وتحديد نقطة الهبوط، ثم نفاجئهم نحن بسحق رجال مظلاتهم سحقًا.
والتقط نفسًا عميقًا، وهو يشير للرجال، قائلًا في حزم:
- هيا.. أعدوا أسلحتكم.. إنهم لا يتوقعون وجودنا.. سنستفيد بعامل المفاجأة إلى أقصى حد.. وبالمناسبة..
وتألقت عيناه، وشفتاه تحملان ابتسامة كبيرة جذلة، مع استطرادته:
- لا أريد أحياء.
وعاد يقهقه ضاحكًا..

☆☆☆

كانت مفاجأة حقيقية له ألا تنفتح مظلته..
لقد اختبرها ثلاث مرات متتالية على الأرض، كما تقتضي التعليمات، قبل أن تقلع الطائرة، وفي كل مرة كانت تعمل بشكل طبيعي..
ولكن ما فائدة التفكير فيما حدث؟!..
المهم الآن هو ما سيحدث..
الأرض تقترب بسرعة كبيرة، وكلما أصبحت أكثر قربًا، تفقد المظلة أهميتها وفاعليتها، حتى لو انفتحت..

وبتقدير جزافي سريع، أمامه خمس ثوان فحسب لحسم الموقف..
وإلا..
وفي سرعة وحزم، حلَّ حزام مظلته، وانتزعها من كتفيه، وفحص قفلها الخاص..
وعرف السبب من اللحظة الأولى..
لقد انعقد جزء من ذلك الخيط، الذي يفتح المظلة، مع سلسلة القفل، فأعاق عملية الجذب الطبيعية..
وفي حسم شديد، وسرعة مدهشة، وثبات أعصاب يحسد عليه، راح يحلّ العقدة، ويفصل الخيط عن السلسلة..
والأرض تقترب أكثر وأكثر.
وعندما انتهى من عمله، كان قد تجاوز بالفعل الحد الآمن لفتح المظلة، وبدت له الأرض أقرب مما يتصوَّر..
ثم إنه قد ابتعد كثيرًا عن ذلك الموقع، الذي هبط فيه رفاقه، مع تحكمهم البارع في اتجاهات الهبوط..
- ولكن ما من سبيل آخر.

كان المفروض أن يعيد المظلة إلى كتفيه، حتى لا ينتزعها ضغط الهواء منه، عندما تنفتح، ولكن الوقت لم يكن يكفي لفعل هذا..

وهكذا تشبَّث بحزامي المظلة، بكل ما يملك من قوة، وأحاطهما بساعده الأيسر، الذي برزت عضلاته على نحو عجيب، ثم جذب الخيط..

وانفتحت المظلة هذه المرة..

ومع عنف الهواء، كادت تنتزع ساعده من جسده، وتفلت منه تمامًا، لولا أن استنفر كل ذرة من قوته، وتشبث بالحزامين بقبضته اليمني أيضًا..

إلا أن قصر المسافة، لم يسمح للمظلة بالعمل كما ينبغي..

صحيح أن سرعة الهبوط انخفضت كثيرًا، ولكن الصحراء مازالت تقترب في سرعة، و..
وارتطم جسده بالرمال في عنف..
كانت الصدمة أكبر مما توقع، حتى أن كل عظمة في جسده صرخت ألمًا، وهو يتدحرج فوق الرمال، ويحيط به قماش المظلة..
ومن بعيد، تناهى إلى مسامعه صوت يصرخ بالعبرية:
- الآن يا رجل.
ثم ارتفع دوي رصاصات من خلف التل، ممتزجًا بصوت قائد مجموعته، وهو يصرخ:
- إنه فخ.. قاتلوا بكل قوتكم.. إنه فخ..
وتعالى دوي الرصاصات بشدة، حتى بدا له وكأنه يدوي في أعماقه، وحاول النهوض، وهو يتشبَّث بمدفعه الآلي بكل قوته..
ولكن فجأة، أظلم كل شيء من حوله، و...
وفقد الوعي..
على رمال (سيناء)..

☆☆☆

2- الرمال..

السادس من أكتوبر.. عام 1973م..
العاشر من رمضان.. عام 1393ه..
توسَّطت الشمس كبد السماء، وألقت أشعتها الحارة فوق الرمال، التي تصاعدت حرارتها تدريجيًا، وانطبعت فوقها آثار ضئيلة، لعقرب أسود صغير ، راح يتحرك فوقها في بطء، وذيله القائم فوقه يهتز في شيء من التوتر، في رحلة بحثه عن فريسة، يشبع بها جوعه، بعد أن انتصف النهار أو كاد.
ودون اهتمام خاص، تسلق العقرب جسد ذلك الراقد على الرمال، الذي سكنت حركته تقريبًا، إلا من أنفاس شبة منتظمة، يعلو بها صدره ويهبط في رفق..
وعبر العقرب ذلك الجسد في بطء، وكأنما يعبر صخرة عادية، من تلك الصخور التي تتناثر أحيانًا هنا وهناك، في قلب الصحراء، حتى بلغ عنقه، فتسلَّل عبره إلى وجهه وأنفه، و...
واستيقظ الشاب بغتة.
استعاد وعيه في نفس اللحظة، التي عبر فيها العقرب أنفه..
وفي تلك اللحظة، كان أي تصرف عنيف، وأية حركة مباغتة، أمر كاف ليتوتر العقرب، ويشعر بالخطر، و..
ويلسع خصمه..
وهنا تجلّت قوة أعصاب الشاب وشجاعته..
كان قد استعاد وعيه على الفور، ومازال ذهنه يعاني بعض التشوش والارتباك، وعلى الرغم من هذا، فلم يكد يلمح العقرب الأسود، حتى تجمد في مكانه تمامًا، وحبس أنفاسه كلها، وحرص

أشدّ الحرص على ألا تصدر منه أدنى حركة، تكفي لإثارة ذلك الكائن الضئيل القاتل..
لذا فقد واصل العقرب رحلته في هدوء، وقفز من الأنف إلى العين اليسرى، ثم الأذن، وبعدها عاد إلى رمال الصحراء..
وعندئذ فقط، اعتدل هو في سرعة، وانتزع خنجره من غمده، عازمًا على قتل العقرب، ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة.. فنظر إلى العقرب في توتر، ثم تركه يذهب إلى حال سبيله.
إنه يرقد على رمال (سيناء) ، فاقد الوعي منذ فترة ليست بالقصيرة؛ لأن الشمس توسطت السماء أو كادت، وحرارة جسده أكثر ارتفاعًا..
وبسرعة، وبدون مزيد من التفكير، نهض يجمع مظلته، ودفنها في رمال الصحراء، ثم حمل أسلحته كلها، ومدفعه الآلى، وتأكد من صلاحية جهاز اللاسلكي الذي يحمله، قبل أن يتوجَّه ببصره وتفكيره إلى التبة القريبة..
لم يكن جسده قد تخلّص من آلام الرضوض والكدمات بعد، إلا أن ذاكرته راحت تستعيد كل ما سمعه أمس، قبل أن يفقد وعيه تمامًا، فتوترت أعصابه، وأسرع الخطا نحو قمة التبة، و...
وانعقد حاجباه في توتر وانفعال عنيفين..
ولقد كان المشهد بشعًا بحق..
كل رفاقه صرعى برصاصات العدو الغادرة، على رمال (سيناء)، التي امتزجت بدمائهم الطاهرة.
كلهم بلا استثناء..
حتى القائد، تلقى أكثر من تسع رصاصات، في صدره وبطنه ورأسه..
ويا للبشاعة!..

أي شخص في موضعه، كان سيشيح بوجهه على الأقل، حتى يتجنب المشهد الرهيب..

ولكنه لم يفعل..

لقد ظل يتطلّع إلى الجثث الممتزجة بالدماء، وكأنما يصرّ على أن يملأ عينيه وكيانه كله بهم، حتى لا ينسى ما أصابهم قط..

نعم.. كان يصرّ على ألا ينسى..
سيذكر هذا إلى الأبد..

يـذكر أن جنـود العـدو قتلـوا كـل رفاقـه، دون أن يحـاولوا أسرهم، لم يجشموا أنفسهم حتى مشقة دفن جثثهم..

لقد تركوها نهبًا للذئاب والطيور الجارحة، دون رحمة أو اهتمام..

وفي أعماقه، نمت دمعة كبيرة، ولكنها أبدًا لم تجد سبيلها إلى عينيه..
لا وقت لديه للدموع..
إن عليه أن يحفر حفرة كبيرة..
مقبرة جماعية، تكفي لدفن الجميع..
وبكل الهمة والألم، راح يحفر.. ويحفر.. ويحفر..
وعندما أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة وأربعين دقيقة بالضـبط، كـان قـد انتـهى مـن مـهمته، ووارى رفاقـه كلـهم التراب..
وعندئذ..
عنـدئذ فقـط، ضـغط زر جـهاز الاتصـال، لينقـل الخبـر إلـى (القاهرة)..

ولكن فجأة، تراجع في قراره..
كلًا.
لن يبلغ (القاهرة)..
لن يتسبَّب في إرباك خطة الحرب كلها..
لقد هبطت فرقته هنا، وبذلت دماءها على رمال (سيناء) الغالية، من أجل تحقيق هدف واحد..
منع وصول طابور الدبَّابات الحديثة إلى الخطوط الأمامية للعدو..
مهما كان الثمن..
وانعقد حاجباه في عزم وصرامة، مع تلك الفكرة الجنونية، التي ملأت رأسه، واشتعلت في كيانه، وجرت في عروقه مجرى الدم.
سيواجه وحده طابور الدبَّابات، وسيبذل قصارى جهده؛ لمنعه من الوصول إلى الصفوف الأمامية للعدو..
وبأي ثمن..

☆☆☆

انعقد حاجبا القائد العسكري الإسرائيلي لجبهة (سيناء)، وهو يراجع تقارير المراقبة الدورية، قبل أن يرفع عينيه إلى قائد لواء السيارات، قائلًا في غضب وحدة:
- أكثر ما يخنقني هو أنك تشعر بالفخر لما فعلت.
ارتسمت الدهشة على وجه قائد الدورية، وهو يقول:
- أليس من المفروض أن أفعل.. لقد قضى رجالي على فرقة كاملة من المظليين المصريين، دون أن نفقد سوى أربعة رجال..
ما النصر إذن، لو لم يكن هذا؟
صاح قائده في وجهه:
- أما زلت تذكر ما تعلمته من الدراسات العسكرية يا رجل؟!.

ألم يخبرك أحد عن أهمية وضرورة الحصول على أسرى أحياء، من قوات العدو؟

انتفض قائد الدورية في حدة، وهو يقول:

- أي أسرى؟!.. إنك تتحدَّث بهذه الغطرسة لأنك تجلس خلف مكتبك.. من الواضح أنك لا تعرف كيف يقاتل هؤلاء الرجال.. لقد أعددنا لهم فخًا محكمًا، وباغتناهم بفتح النيران عليهم، دون سابق إنذار، وعلى الرغم من هذا فقد قاتلوا كالوحوش.. ياللشيطان!.. لن أنسى ذلك المشهد ما حييت.. كانت الدماء تنزف من كل جزء في أجسادهم، وسبَّاباتهم مازالت تضغط أزندة مدافعهم، وأيديهم تمتلك القوة الكافية، لإلقاء قنابلهم علينا.. لقد كان جحيمًا رهيبًا، حتى أنني تصوَّرت أننا نحن الذين وقعوا في الفخ، ولست أدري حتى هذه اللحظة، كيف أبدناهم عن آخرهم، دون أن نخسر أكثر من هؤلاء الرجال الأربعة!

دق قائده سطح مكتبه بقبضته، صارخًا:

- راجع أقوالك يا رجل.. الدنيا كلها تعرف أن الجيش الإسرائيلي هو أقوى جيش في العالم..

أطلق الرجل ضحكة عصبية ساخرة، وهو يقول:

- رويدك يا سيِّدي.. أنا ضابط في ذلك الجيش، ولست واحدًا من هؤلاء السذج، الذين توجهون إليهم أبواق دعاياتكم.. أنا أعرف الحقيقة كلها، وأشاهد بنفسي ما يحدث، داخل صفوف الجيش القوي العظيم..

لوَّح قائده بيده في وجهه، صائحًا:

- لو أنك تفهم شيئًا، لما قتلت المظليين المصريين كلهم..

ألم تسأل نفسك: لماذا اختاروا هذه البقعة للهبوط، على الرغم من أنه لا توجد حولها أية أهداف عسكرية مناسبة لهم؟!

بدت الحيرة على وجه قائد الدورية، وتمتم مرتبكًا:
- ربما أنهم..
لم يجد ما يكمل به عبارته، فانعقد حديثه في حلقه، وتضاعفت معالم الحيرة في وجهه، فتابع رئيسه في حدة أكثر:
- ألم تسأل نفسك: لماذا أرسل المصريون فرقة مظلات كاملة هذه المرة.. ألم تحاول فحص معداتهم وأسلحتهم؟!..
ألم تنتبه إلى أن تسليحهم يفوق التسليح التقليدي المعتاد، في المهمات البسيطة؟!..
ثم تحوَّل صياحه إلى صراخ، وهو يختم حديثه:
- ألم يدر بخلدك لحظة أن العملية تفوق المعتاد؟!.. ألم تتساءل لحظة واحدة: ما الهدف هذه المرة؟!
قال قائد الدورية في حذر:
- وماذا يمكن أن يكون هدفهم؟
صرخ قائده:
- هل تسألني؟؟
ثم استدار يشير إلى خريطة (سيناء)، مستطردًا:
- ها هو ذا هدفهم.
ارتفع حاجبا قائد الدورية في دهشة واستنكار، قبل أن يهتف:
- مستحيل!.. لن يخطر ببال المصريين أبدًا أن...
قبل أن يتم عبارته، اقتحم أحد مساعدي القائد العسكري الحجرة، وانتفضت كل ذرة في كيانه، وهو يصرخ:
- سيّدي القائد.. المصريون عبروا قناة (السويس)، ويقتحمون الآن خط (بارليف).
وهنا شهق قائد الدورية شهقة عنيفة، كادت تنتزع روحه من جسده.

لقد كانت المفاجأة مدهشة..
بل مذهلة..
مذهلة تمامًا..

☆☆☆

شقّ سماء (سيناء) صوت كهزيم الرعد، عندما عبرتها الطائرات المصرية المقاتلة دفعة واحدة، وفي توقيت متناسق، إلى حد يدعو للدهشة والإعجاب، وراحت تصلي (خط بارليف) الأسطوري نيرانها، وتلهبة بقذائفها، في نفس اللحظة التي دوت فيها المدافع المصرية على الجانب الغربي لقناة (السويس)، وانفجرت قنابلها في تحصينات العدو ومخازنه، وفي خط (بارليف)، لتجبر الإسرائيليين على الانزواء داخلها، في حين انطلق الجنود المصريون البواسل يعبرون قناة (السويس)، أقوي مانع مائي في التاريخ، وحناجرهم تطلق أعظم هتاف في الكون كله..
الله أكبر..
الله (سبحانه وتعالى) أكبر وأقوى من المعتدين..
ومن الدنيا كلها..
وكما توقع الخبراء تمامًا، لم يكد العدو يستوعب ما حدث، ويفيق من صدمته الأولى، حتى أطلق الإشارة لطابور الدبابات الحديث، الذي انطلق من مكمنه على الفور، في طريقه إلى الخطوط الأمامية، للتصدّي للهجوم المصري العنيف..
وفوق تبة صحراوية طبيعية، رقد هو بكامل تسليحه، وبعشرات القنابل اليدوية التي يحملها، والتي استعار

معظمها من جثث رفاقه قبل دفنهم، يراقب الطريق بمنظاره المقرب، في انتظار ظهور الدبَّابات في أية لحظة..
وفـي أعماقـه، راح يتمنـى أن تكـون المخـابرات المصـرية محقة في تقديرها، وفيما لديها من معلومات، تشير إلى أن طابور الدبابات الحديثة سيتخذ هذا الدرب بالتحديد، في ظروف الطوارئ..
وما زال يذكر ذلك اليوم، الذي شرح لهم فيه قائده (رحمه الله) هذه الخطة..
يومها سأل القائد في حيرة:
- مادامت مخابراتنا قد نجحت في تحديد موقع الطابور بهذه الدقة يا سيّدي، فلم لا يتم قصفه بواسطة الطيران؟!
ابتسم القائد يومئذ، وهو يقول:
- سؤال جيد، وكنت أتوقعه منك بالذات.. نعم.. لماذا لا يتم قصف الطابور مباشرة بالطائرات، بدلا من المخاطرة بإرسال فريق خاص لأداء المهمة؟!.. الجواب هو أن هذه الدبابات الحـديثة مزودة بوحـدة صـواريخ دفـاع جـوي مـن طـراز خاص، يتم توجيهها بوساطة الكمبيوتر وأشعة الليزر، كما أن بها رادارات خاصة، يمكنها رصد الطائرات، من مسافة ثلاثين كيلو مترًا، وإطلاق الصواريخ الدفاعية نحوها، قبل سبع ثوان.. إنها أحدث المخترعات والمبتكرات الأمريكية، التي تحظى بها (إسرائيل)، بصفتها الطفل المدلّل لأمريكا، ورجالنا لم يتدربَّوا على التعامل معها بعد.
سأله في اهتمام:
- أهذا يعني أننا لو نجحنا في نسف وحدة صواريخ الدفاع الجوي، تكون المهمة قد نجحت؟.. أعني أننا بذلك نكون قد

أزحنا العقبة، وأصبح بإمكان طائراتنا قصفها، وتدمير الطابور كله.
أومأ القائد برأسه إيجابًا، وهو يقول:
- هذا صحيح نظريًا، ولكن الإسرائيليين يخفون تلك الوحدة بين طابور الدبابات، في هيئة تماثل الدبَّابات نفسها، ويبدلون موقعها في كل مرة، بحيث تستحيل معرفته، أو تحديد موقع الوحدة، لذا فليس أمامنا سوى أن نهاجم الطابور كله.

«من القيادة إلى (اعتراض-3).. حدد موقعك، ومدى استعدادك للتصدي لطابور النمل، ومنعه من بلوغ علبة السكر..».
انبعث ذلك النداء فجأة من جهاز اللاسلكي، الذي أخذه من جثة القائد، فأسرع يلتقطه، وضغط زر الاتصال فيه، وهو يجيب:
- من (اعتراض-3) إلى القيادة.. أنا في الموقع (صفر)، وما زلت في انتظار طابور النمل.
مرَّت فترة من الصمت، قبل أن يأتيه صوت حذر، يقول:
- من القيادة إلى (اعتراض-3).. حدِّد شخصيتك وموقعك.
أجابه في حزم:
- أنا (صاعقة 144)، أتحدَّث من الموقع (صفر).
مضت فترة صمت أخرى، قبل أن يسأله صوت صارم متشكك:
- لماذا تجيب النداء يا (صاعقة 144)؟!.. أين قائدك، وما موقف الفرقة؟!
أجابه على الفور، في صوت يحمل رنة حزن ومرارة:
- الجميع أبيدوا في كمين مباغت.. القائد، والرفاق.. كل الزملاء.. الجميع لقوا مصرعهم.

هتف صاحب الصوت في ارتياع:
- ماذا تعني يا (صاعقة 144)؟!.. ألم يعد هناك سواك؟
أجابه في حزم:
- نعم.. لم يعد هناك سواي، ولكن المهمة ستتم بإذن الله.
صاح صاحب الصوت:
- ستتم؟!.. لم يعد هناك وجود للمهمة يا رجل.. لماذا لم تبلغنا من قبل؟
أجابه في لهجة أشد حزمًا وعنادًا:
- المهمة ستتم بإذن الله.
هتف صاحب الصوت:
- هل جننت يا هذا؟.. كان المفروض أن...
أبعد الجهاز عن أذنه بحركة سريعة، قبل أن يكمل مندوب القيادة عبارته، ووضع منظاره المقرب على عينيه مرة أخرى، ثم عاد يهتف عبر جهاز الاتصال:
- لقد وصل طابور النمل.. أنا مستعد لأداء المهمة.
هتف الصوت ذاهلًا:
- مستعد لماذا..؟
ولكن الشاب أنهى الاتصال بضغطة زر حازمة، وعلق الجهاز في حزامه، ثم ثبت خوذته فوق رأسه، وجذب إبرة مدفعه الآلي، ورقد يراقب طابور الدبَّابات الحديثة، وهو يقترب..
ويقترب..
ويقترب..

☆☆☆

3- حرب رجل واحد..

وقف قائد القوات الخاصة المصرية، وسط زملائه من قادة القوات، حول مائدة العمليات الحربية، يتابعون مع وزير الحربية (آنذاك)، ورئيس الجمهورية، تطورات القتال، فوق نموذج ضخم مجسَّم لساحة المعركة، وسحب الرئيس نفسًا من غليونه بضع لحظات، قبل أن يسأل الوزير وهو ينفث دخانه:

- ما موقف الأولاد هناك، في قلب (سيناء)؟

أجابه الوزير بسرعة:

- كلهم في مواقعهم يا سيادة الرئيس.. اطمئن.. إنهم يعرفون كيف يؤدون واجبهم.

أومأ الرئيس برأسه، مغمغمًا:

- أعلم هذا.. أعلم هذا.

ثم أشار بطرف الغليون إلى قائد القوات الخاصة، مستطردًا:

- إننا نعتمد اعتمادًا كبيرًا على رجالك.

شدّ القائد قامته، وهو يجيب في ثقة:

- اطمئن يا سيادة الرئيس.. رجالى تلقوا تدريبات خاصة ستجعلهم يبهرون الإسرائيليين، عندما تحين لحظة المواجهة معهم، وعندما...

قاطعه ظهور أحد رجاله، وهو يؤدي التحية العسكرية في احترام، ويمد يده إليه بإشارة عاجلة، فالتقطها قائلا:

- معذرة يا سيادة الرئيس.. يبدو أنها رسالة عاجلة من الرجال.

وألقي نظرة على الورقة، ثم ارتفع حاجباه في دهشة بالغة، كانت تكفي، في ظل هذه الظروف، ليعقد الرئيس حاجبيه في توتر،

ويهتف بالوزير:
- ماذا هناك يا رجل؟
رفع قائد القوات الخاصة عينية إليهما في ارتياع، قائلًا:
- فرقتي الخاصة (اعتراض-3)، تمت إبادتها بالكامل، في قلب (سيناء).
نفث الرئيس دخان سيجارته، وسعل في قوة، في حين قال الوزير:
- ماذا تقول؟!.. أليست هذه هي الفرقة المسؤولة عن منع طابور الدبَّابات الحديثة من الوصول إلى الخطوط الأمامية للعدو؟
أومأ قائد القوات الخاصة برأسه، قائلًا:
- إنها هي.
تبادل الرئيس والوزير نظرة شديدة التوتر، فاستدرك قائد القوات الخاصة بسرعة:
- لقد تبقى منها رجل واحد.. اسمه الكودى (صاعقة-144)، ولقد وصل بالفعل إلى الموقع (صفر).
وقال الوزير في حدة:
- وما الذي يمكن أن يفعله رجل واحد؟
نفث الرئيس دخان غليونه في عمق، قبل أن يقول:
- لا أحد يدري.. في الحروب، رجل واحد قد يصنع فارقًا ضخمًا..
ران عليهم الصمت لحظات، بعد عبارة الرئيس، ثم قطعه قائد القوات الخاصة، وهو يقول:
- دعونا نمنحه الفرصة إذن.. إنه هناك، وكما يقول سيادة الرئيس: لا أحد يدري ما الذي يمكن أن يحدث في الحروب..
ثم إنه ليس أمامنا سوى هذا، أليس كذلك؟
تبادل الرئيس نظرة أخرى مع الوزير، ثم قال:

- هـذا يتعـارض مـع خططنـا تمـامًا، ولكـن الحـرب انـدلعت بالفعل، ولم يعد التراجع ممكنًا.. هيا.. دعونا نكمل الطريق، وعلى بركة الله.
وكان هذا فصل الختام..

☆☆☆

ظهر طابور الدبَّابات الحديث، من خلف تل الرمال البعيد، وراح يتقدّم في بطء، متخذًا نفس المسار، الذي حددته المخابرات من قبل..
ثلاثون دبَّابة تتحرك في تشكيل ثنائي، وتفصل كل دبَّابة عـن الأخـرى مسـافة ثلاثـة أمتـار، عبـر مسـار متعـرج، جعـل المشهد كله أشبه بثعبان آلي هائل، يشق طريقه عبر صحراء (سيناء)..
وفي تلك اللحظة فقط، بدأ هو يشعر بالقلق..
- كـيف يمكنــه أن يتصــدّى وحــده لكــل هــذه الـدبابات، مـع تسليحها الحديث؟..
كيف يمكنه أن يراوغها، في وضح النهار، وأشعة الشمس تغمر المكان كله، وتكشف مسيرة نملة على آفاق البصر؟!..
أخذ يبذل قصارى جهده لدراسة الأمر كله، وتقليب الأمور فــي ذهنــه، محــاولًا إيجــاد حــل منطقـي للمـوقف، ويـراجع أسلحته، و...
وفجأة، تكونت الخطة كلها في رأسه..
هكذا، كطلقة رصاص، أصابت تلافيف مخه، ففجَّرت فيها كل قدرات التخطيط والتدبير والإبداع..
ودون أن يضيع ثانية واحدة، انطلق يعدو بأقصى سرعته، مستترًا بالمرتفعات الرملية، ومتخذًا نفس المسار، المفترض أن يتخذه

طابور الدبَّابات..
وعندما بلغ منعطفًا خاصًا، قفز إلى الجانب الآخر للمرتفع، وراح يحفر الرمال في سرعة مدهشة:
كان يعتمد اعتمادًا كاملًا على ثقل الدبابات، الذي يجبرها على السير بسرعات بطيئة نسبيًا، وهو يصنع مكمنًا وسط الرمال، ثم يخفي جسده داخله، ويضع سترته فوقه، ويدفن نفسه تقريبًا، ثم يجلس لينتظر، وكيانه كله مشبع بالحماس والحزم..
ولم تمض دقائق معدودة، بعد أن أخفي نفسه وسط الرمال، حتى رأي، عبر فرجة صغيرة، طابور الدبابات يتجه نحوه..
ودون مبرر منطقى، كتم أنفاسه تمامًا، وهو يتابع طابور الدبَّابات، الذي عبر أمامه في بطء، في تشكيل مزدوج، بحيث تستطيع كل دبَّابة مراقبة زميلتها طوال الوقت، من خلال مراقب يبرز نصفه من فتحة الدبَّابة العلوية..
وانتظر حتى عبر آخر زوج من الدبَّابات، ثم وثب من قلب الرمال، وألقى واحدة من قنابلة اليدوية بأقصى قوته، نحو الجانب الأيمن للطابور..
وانفجرت القنبلة وسط الرمال..
ومع انفجارها، التفتت العيون جميعها إلى موضعها، وتوتر المراقبون، وهم يبحثون عن مصدرها.
وفي تلك اللحظة، التي التفتت فيها كل العيون إلى اليمين، وثب هو فوق جنزير آخر دبَّابة إلى اليسار، ومنه إلى برجها، وأحاط عنق مراقبها بساعده الأيسر، ثم انتزعه من مكانه بقوة فولاذية، وهو يغمد خنجره في قلبه، قبل أن يلقيه بعيدًا، ويقفز داخل الدبَّابة..
وكانت مفاجأة لطاقم الدبابة الإسرائيلي، شلّت حركتهم لحظة، كانت كافية ليطلق هو رصاصاته، ويعمل خنجره فيهم،

بكل ما اكتسبة من قوة ومهارة، وكل ما تلقاه من تدريبات مكثفة مدروسة..
ولم تمض ثوان معدودة، حتى كانت له السيطرة الكاملة على تلك الدبَّابة..
ولكن وسط جيش من الدبَّابات المعادية..
لم يكن قد تعامل من قبل مع دبَّابات مماثلة، إلا أنه وزملاؤه الـــراحلون تلقـــوا تـــدريبًا محـــدودًا علـــى قيـــادة الـــدبَّابات المصرية، قبل بدء المهمة..
ولم تكن الاختلافات كبيرة بين النوعين..

يكفي أن يضغط هذه الدراسة، ويدفع هذا الذراع، ويجذب تلك الرافعة، وستنطلق الدبَّابة في مسارها..

وكانت المفاجأة الثانية للإسرائيليين، عندما اندفع بدبَّابته وسط الدبابات الأخرى، وراح يرتطم بها، ويضربها في تهور عنيف،

وعقله يستعيد معلوماته السابقة عن الدبَّابات، التي تؤكد له أن مدفع الدبابة يفقد فاعليته مع الأهداف القريبة.
وتشتَّت طابور الدبابات واضطرب، مع ذلك الهجوم المباغت الجنوني، وخاصة عندما امتزجت الدبَّابات بعضها بالبعض، وصار من العسير تحديد الدبَّابة المارقة، وسط الارتباك الحادث، فهتف قائد الطابور في غضب:
- استعيدوا التشكيل، وحاصروا الدبَّابة التي سيطر عليها العدو، واحموا وحدة الدفاع الجوي.
تلقى جهاز اللاسلكي، في الدبَّابة التي سيطر عليها، ذلك الهتاف بالعبرية، فترجمه عقله المدرَّب بسرعة إلى العربية، وأدرك أن الإسرائيليين سيبذلون جهدهم لحماية وحدة الدفاع الجوي الصاروخية التي تحمي وجودهم، وأنه بمراقبة ما سيفعلونه، سيمكنه تحديد موقعها بالضبط..
ولكن السؤال هو: كيف يمكنه الوصول إليها بعد تحديدها؟!..
وبسرعة، راح عقله يعد الخطة الجديدة، وهو يراقب تحركات الدبَّابات، عبر النافذة المستعرضة الصغيرة داخل دبَّابته..
ودون أن يبعد عينيه عن النافذة، أخذ يبدل ثيابة العسكرية بزي أحد أفراد الطاقم، حتى حدد موقع وحدة الدفاع الجوي الصاروخي، وهنا فتح باب برج الدبابة، ووثب خارجه، وهو يصرخ بالعبرية:
- لن تهزمنا أيها المصري.. لن تنجح أبدًا.
قالها، وأردف قوله بإطلاق رصاصات المدفع الآلى داخل الدبابة، قبل أن يقفز منها إلى الأرض، هاتفًا بالعبرية:
- إنه هنا.. المصري هنا.

التفت الجميع إلى الدبَّابة التي غادرها على الفور، وانطلق وابل من النيران نحوها، ولكن القائد الإسرائيلي انتبه إلى الخدعة، فصاح عبر أجهزة اللاسلكى:
- لا تجعلوه يخدعكم.. إنه أحد جنود العدو.. اقتلوه.. اقتلوه بسرعة.
كان يعدو بأقصى سرعته نحو وحدة الدفاع الجوي، عندما تناثرت الرصاصات من حوله كالمطر، وشعر برصاصة تخترق ظهره، وأخرى تغوص في فخذه، وثالثة تعبر لحم ذراعه اليسرى، وتخرج مع خنجر من الألم، من جانبها الآخر..
ولكنه لم يتوقف لحظة واحدة..
إرادته الفولاذية تجاهلت كل جراحه وآلامه، وجعلته يواصل طريقه، ويقفز فوق الدبَّابة التي تخفي وحدة الدفاع الجوي الصاروخي، وقائد الدبَّابات يصرخ:
- اغلقوا برج الوحدة.. لا تسمحوا له بالدخول..
قفز أحد أفراد طاقم وحدة الدفاع الجوي الصاروخي، محاولا إغلاق البرج من الداخل، إلا أن جندي الصاعقة المصري كان الأسبق إلى البرج، ففتحه في قوة وعنف، ودفع فوهة مدفعه الآلي عبره، هاتفا:
- كان ينبغي أن تغلقه من البداية يا رجل.
أصابته رصاصة رابعة في كتفه الأيسر، وحطمت عظمة الكتف، وهو يطلق نيران مدفعة الآلي على طاقم الوحدة الإسرائيلي، ومزقت خامسة جزءًا من لحم عنقه، وهو يثب داخل الوحدة، ويغلق باب البرج خلفه في إحكام..
كان غارقًا في دمائه، ويغوص في بركة دم إسرائيلية، وحوله جثث أربعة من القتلى، ولكنه تغاضى عن كل هذا، وهو

يعيد ضبط جهاز اللاسلكي على موجة القيادة، ويهتف:
- من (صاعقة-144) إلى القيادة.. أنا في الموقع (صفر+٢).. تمت السيطرة على وحدة الدفاع.. أرسلوا النسور للقضاء على طابور النمل.
جاء هتافه في نفس اللحظة، التي صرخ فيها قائد الطابور الإسرائيلي في ثورة:
- أيها الأغبياء.. إنه فرد واحد.. كيف سمحتم له بهذا.. لقد احتل وحدة الدفاع الصاروخي.. تراجعوا على الفور.. اتخذوا مسار الطوارئ بسرعة.
وعلى الرغم من غضبهم وحنقهم، استدار رجال الطابور بدبَّاتهم، وانطلقوا يبتعدون عن مسارهم الأصلي..
وكان هذا كفيلا بإفساد العملية كلها..
إفساها تمامًا..

☆☆☆

تلقى قائد القوات الخاصة رسالة الشاب بدهشة عارمة، وهتف في حماس:
- اسمعوا هذا.. لقد سيطر وحده على الموقف، وعلى وحدة الدفاع الصاروخي.
ارتفع حاجبا الرئيس في دهشة، وعض بأسنانه على غليونه، في حين هتف الوزير:
- مستحيل!.. رجل واحد فعل هذا!
أجابة قائد القوات الخاصة في انبهار:
- لقد قالها سيادة الرئيس.. رجل واحد يمكنه أن يصنع فارقًا.. لست أدري كيف فعلها، ولكنه يؤكد سيطرته على وحدة

الـــدفاع الصـــاروخية، ويطـــالبنا بإرســـال الطـــائرات القصف الطابور كله.
قال الوزير في توتر:
-هذا يبدو أقرب إلى الفخ.. ربما سيطر الإسرائيليون على الشـــاب، ويجبرونـــه علـــى إرســـال هـــذه الرســـائل، حتـــى يستدرجوا طائرتنا، وينسفونها بصواريخهم.
أجاب قائد القوات الخاصة في حزم:
- رجالي يفضلون الموت، على القيام بعمل واحد، من شأنه تعريض أمن وطنهم للخطر.
قال الوزير في إصرار:
- مازال الأمر يبدو لي أشبه بالفخ.
نفث الرئيس دخان غليونه، وأشار بعصاه، قائلًا:
- لن نخسر شيئًا على أية حال.
التفت إليه الجميع، فتابع في رصانة حاسمة:
- لـو أن رسـالة هذا الشـاب صـحيحة، فـهذا يعنـي أنـه بـذل الكثـير، فـي سـبيل تحقـيق مـا فعلـه، ومـن الخسـارة، كـل الخسارة، أن يضيع عمله المدهش هذا هباء.. دعونا نفترض أنـــه صـــادق، وترســـل ثـــلاث مقـــاتلات فحســـب لمواجـــهة الطابور.. سنربح الكثير لو أننا نجحنا في تدميره، قبل أن يقلب دفة الأمور على الجبهة، ولن نخسر لو كان الأمر مجرد خـــدعة، ســـوي طـــائرة أو طـــائرتين، وهـــذا مقـــابل عـــادل لمخاطرة كهذه، قد تساعدنا على أن نربح معركتنا كلها.
ران الصمت على المكان لحظة، قبل أن يقول الوزير في حزم:
- أنا أتفق مع سيادة الرئيس.
أجابه قائد القوات الخاصة بسرعة:
- وأنا كذلك.

وهنا التقط الرئيس نفسًا عميقًا، وأومأ برأسه مرتين، قبل أن يقول:
- على بركة الله.. أرسلوا الطائرات..
وكان له ما أراد..

☆☆☆

«من القيادة إلى (صاعقة-144).. حدد موقع الطابور، وابتعد عن المكان، قبل أن تتم تصفيته..»
جاءه النداء عبر جهاز اللاسلكي في دبَّابته، فأجابه في حزم:
- لا يمكنني الابتعاد.. الطابور يتخذ مسارًا مختلفًا، لم يكن ضمن الخطة.. إنني أطارده في إصرار.. لن يمكنني الابتعاد..
إنني الآن في الموقع (صفر+ 3.2 ش).. أرسلوا الطائرات بسرعة.
هتف به مندوب القيادة:
- الطائرات في طريقها إليك.. ابتعد بسرعة.. سيشتعل الجحيم بعد دقائق، ولكن يمكنهم تمييزك وسط الدبابات الأخري.
أجابه بسرعة:
دعك من عملية تمييزي هذه.. لو سمحت لهم بالابتعاد سأدخل في مجال الإصابة، وسيمكنهم نسفي تمامًا، ثم اتخاذ مسار غير معروف.. من الضروري أن أطاردهم على هذا النحو.. هذا يثير حنقهم وغضبهم، ولكنهم لا يتصوَّرون أنني سأطالبكم بقصفهم وأنا بينهم.. دعونا نستغل هذه الثغرة، ونباغتهم بهجوم شامل ساحق.. إنهم ينحرفون الآن إلى الموقع (صفر -9.6 ق)..

عاد مندوب القيادة يقول في إلحاح:
- إننا ننقل إرشاداتك إلى الطائرات.. حاول أن تتصل بقائد السرب الصغير مباشرة.. سنعطيك رقم موجته، ولكن ابتعد بالله عليك، قبل أن يتم قصف الطابور.
وهنا صرخ في غضب:
- لقد غيروا مسارهم مرة أخرى، ويتجهون إلى الموقع (صفر + 7 ش).. إنهم يحاولون الفرار، يا رجل.. لابد من تواجدي بينهم.. من الواضح أن هذا يزعجهم بشدة، فقد بدأوا الالتفاف حولي، في محاولة لتطويقي ومنعي من الحركة، تمهيدًا لنسفي.. هيا يارجل.. استحث تلك الطائرات.. دعها تقصف الجميع.. هيا يا رجل.. لا تخاطر بمصير جيش كامل من أجل رجل واحد، أرسلهم بسرعة.. هيا.
نقل إليه جهاز اللاسلكي صوت تنهيدة عميقة، أعقبه صوت مندوب القيادة، وهو يقول:
- فليكن الله (سبحانه وتعالى) معك يا رجل.. الوداع.
انتهى الاتصال، وأسرع هو ينتقل إلى موجة الطائرات، هاتفًا:
- من (صاعقة-144) إى قائد النسور: هل تسمعني؟
أتاه صوت قائد السرب الصغير، يقول:
- أسمعك يا (صاعقة-144).. نحن في طريقنا إلى هناك.
في نفس اللحظة، التي تلقى فيها هذا النداء، كان القائد الطابور الإسرائيلي يهتف في غضب:
- مادام هذا المجنون مصرّ على تعقبنا، فدعونا نذيقه ما نجيد يا رجال.. سنشويه شيًا داخل وحدة الدفاع الصاروخي، التي أحكم سيطرته عليها..

وبناء على أوامره، برز بعض الجنود خارج دبَّاباتهم، وألقوا قنابل النابالم على الوحدة، فانفجرت تشعل النيران في جنزيرها، وفيما حولها..

حدث هذا وهو يفقد سيطرته على وعيه تدريجيًا، مع إصاباته المتعدّدة، والدماء الغزيرة التي فقدها..

وعلى الرغم من كل هذا، فقد انتشى جسده، مع صوت الطائرات المصرية، التي انقضت على الطابور، وصرخ:

- هيَّا.. اضربوا يا رجال.. اقصفوا هؤلاء الأوغاد.

ومن حوله، دوت الانفجارات عنيفة، ممتزجة بصراخ الإسرائيليين، ففتح باب برج الدبَّابة، ودفع جسده خارجها، ووثب وسط النيران، وتدحرج..

ودوى انفجار أكثر عنفًا، على مقربة منه، فطار معه جسده لخمسة أمتار على الأقل، وانغرست فيه عشرات الشظايا الملتهبة، و...

وانتهى كل شيء في لحظات..

حتى هو.

☆☆☆

4- الفتى..

أشارت عقارب الساعة إلى الخامسة والنصف، من مساء اليوم الأوَّل للحرب، التي اندلعت منذ ثلاث ساعات ونصف الساعة فحسب، وتعالى أزيز هليوكوبتر حربية مصرية، تنطلق على ارتفاع منخفض، فوق صحراء (سيناء)، وبداخلها رجلان، بخلاف قائدها، الذي بدا شديد التوتر والاهتمام، وهو يقول:

- الشمس توشك على الغروب، ونحن نتوغَّل أكثر وأكثر، في مناطق ما زال يسيطر عليها العدو.

أجابه أحد الرجلين في حزم:

- واصل طريقك يا رجل.. إنها أوامر الرئيس نفسه.. لا رجوع إلا بعد أن نستعيد جثة ذلك الفتى بأي ثمن.

كان يبدو أكبر سنًا من صاحبه، بذلك الشيب الذي خطط فوديه، ولكن العجيب حقًا، في تلك الساعات الأولى من الحرب ومع التوتر الشديد على الجبهة، أن كليهما لم يكن يرتدي زيًا عسكريًا، وإنما كان كل منهما يرتدي حلة أنيقة، ورباط عنق متناسقًا، كما لو أنهما رجلا أعمال، في طريقهما لعقد صفقة خاصة..

وربما كان هذا بالذات ما يستفز قائد الهليوكوبتر العسكرية، وما جعله يقول في شيء من الحنق والاستنكار:

- أتعني أننا نقوم بهذه المجازفة لاستعادة جثة؟!.. أي قول هذا؟.. لقد مررنا في طريقنا بمئات الجثث، تفترش رمال (سيناء)، فما الذي يميز هذه الجثة بالذات.

أجابه الرجل في صرامة:

- ليس هذا من شأنك.. نفذ الأوامر فحسب.

كـان مـن الواضـح أنـه يمتلـك سـلطة مـا، تجبـر الطيـار علـى طاعته، فقد ابتلع لسانه في سخط، وانطلق بالهليوكوبتر نحو البقعة، التي تم تحديدها له من قبل، والتي تقع – نظريًا - في منطقة سيطرة العدو..

وفي خفوت، غمغم الأصغر سنًا:

- سـيادة المقـدَّم.. هـل تعتقـد حـقًا أن الأمـر يسـتحق المخاطرة؟

صمت الرجل لحظة، قبل أن يجيب في صرامة:

- مادامت هذه أوامر سيادة الرئيس، فالأمر يستحق حتمًا.

وعاد إلى صمته لحظات أخرى، قبل أن يضيف:

- لقد أدى هذا الفتى لوطنه خدمة لا تقدَّر بثمن، وليس أقل من أن نستعيد جثته.

سأله الشاب:

- لمـاذا؟!.. لقـد راجعـت ملفـه بنفسـي.. إنـه يتـيم الأبـوين.. ماتت أمه وهي تلده، وكان أوَّل الأبناء، أي أنه بلا أخوة أو أخوات، ثم مات والده بعد خمس سنوات، دون أن يتزوَّج بأخرى، وتولى خاله تربيته، وظل أعزب لم يتزوَّج، حتى التحق الفتى بالقوات الخاصة، ولقد مات ذلك الخال منذ أربعـة أشـهر، ولـم يعد للفتـى أي أقـارب علـى قيـد الحيـاة..

باختصـار.. إنـه وحيـد تمـامًا فـي هـذا العـالم، فمـن يـهتم باستعادة جثته؟

أجابه الرجل في حزم:

- (مصر).

انبـهر الشـاب بـالجواب، وتـراجع فـي مقعـده بحركـة حـادة، وغرق مع الآخرين في صمت ثقيل، ساد المكان كله، إلا من

صـوت مروحـة الـهليوكوبتر، إلا أنـه لـم يلبـث أن اعتـدل، وهمس:
- سيادة المقدّم (رفعت).
التفت إليه المقدّم (رفعت)، فأضاف:
- إنني أعتذر.
تطـلَّع إليـه (رفعـت) لحظـة فـي صـمت، ثـم اعتـدل، مجـيبًا بلهجته الحازمة دومًا:
- لا عليك يا (سمير).
قالها وترك الصمت يستعيد سيطرته مرة أخرى، حتى مال الطيار بالمروحية، قائلًا:
- وصلنا إلى الهدف.
ومع قوله، لاح طابور الدبابات المحطم، وقد تناثرت تمامًا على رمال سيناء، في مشهد مهيب، بدأ أشبه بلوحة رائعة، تحمل اسم (اندحار أسطورة الجيش الذي لا يقهر).. وخفق قلـب (سـمير) فـي رهبـة، عنـدما هبطـت الـهليوكوبتر وسـط الحطام والدمار، ووجد نفسه يهتف في حماس:
- الله أكبر.. لقد كبدناهم خسائر فادحة بالفعل.
ابتسم (رفعت) في شيء من السخرية، وهو يغمغم:
- هل انتبهت لهذا الآن فحسب؟
أشار (سمير) بيده، هاتفًا:
- هل سنعثر عليه، وسط كل هذا؟
أجابه (رفعت) بحزمه المعهود، وهو يقفز خارج المروحية:
- سنبذل قصارى جهدنا.
هتف الطيَّار بشيء من الحدة:
- المهم أن تسرعا، فالشمس بدأت تغوص في الأفق، ولست أدري متى يأتي الإسرائيليون.. إنهم يستغلون فترة الليل دائمًا، لاستعادة

جثث قتلاهم..
قال (رفعت)، وهو يبتعد:
- لا تقلق نفسك بهذا الشأن يا رجل.. لن يأتي الإسرائيليون قبل ساعتين على الأقل.
هتف الطَّيار:
- وكيف يمكنك أن تجزم بهذه الثقة؟
أجابه في صرامة:
- لأن ما أعرفه عن الإسرائيليين يفوق ما درسته أنت عنهم بعشر مرات على الأقل.
انعقد حاجبا الطيَّار، وهو يقول في حدة:
- من يظن نفسه؟
ابتسم (سمير)، وربَّت على كتفه، وهو يغادر المروحية، قائلًا:
- إنه واحد من أفضل من عرفت في عالم المخابرات يا رجل، وصدقني ما ليس من السهل أن تلتقي في حياتك كلها بواحد مثله.
هتف الطيار:
- من المخابرات؟!.. آه.. ألهذا يتصوَّر أنه فوق الجميع؟
ابتسم (سمير) مرة ثانية، وهو يبتعد عن المروحية دون تعليق، وانضمّ إلى (رفعت)، الذي أشار إلى الدبابات المحطمة، قائلًا:
- ابحث عن وحدة الدفاع الصاروخي.. لقد أرسل آخر رسائله من داخلها، قبل أن يقصفها رجالنا.. أعتقد أننا سنجد جثته داخلها، أو بالقرب منها على الأقل.
انطلقا يفحصان الحطام في اهتمام بالغ، والطيار يتطلّع إلى ساعته في توتر وقلق، حتى هتف (سمير):
- ها هي ذي.. لقد عثرت على وحدة الدفاع الصاروخي.

أسرع إليه (رفعت)، وألقي نظرة على الوحدة، التي احترقت عـــن آخرهـــا، وتحطـــم جزء منـــها، بفعـل أحـد الصـواريخ المصرية، وقال:
- يا للبشاعة!.. لو أنه ظل داخلها، فسيكون من المستحيل أن نستعيد منه ما يكفي لملء فنجان من الشاي.
قال (سمير):
- لقد قصفها رجالنا، فانفجرت كل صواريخها داخلها.. إنها محطمة تمامًا، على عكس الدبابات الأخرى.
قال (رفعت) في صرامة، لم يكن لها ما يبررها:
- هذا أمر طبيعي.
ثم قفز فوق الوحدة، وألقي نظرة داخلها بمصباحه اليدوي، قبل أن يقول:
- عندي هنا كومة من الأشلاء المحترقة.. سيحتاج الأمر إلى ملقط، لاستخرج بقايا ذلك الفتى المسكين.
ودون أن يبالي بحلته الأنيقة، وثب داخل الوحدة، وراح يفحص البقايا والأشلاء في اهتمام بالغ، والطيار يهتف من بعيد:
- الشمس غربت بالفعل.
تجاهله (رفعت) تمامًا، وهو يواصل فحص تلك الأشلاء الآدمية، التي تناثرت في كل مكان، واحترقت على نحو بشع، وامتزجت بالكثير من الدماء، ثم قال في توتر:
- إنه ليس هنا؟
قال (سمير) في دهشة:
- وكيف أمكنك الجزم؟
أجابه وهو يقفز خارج الوحدة:
- هذه الأشلاء تخص ثلاث جثث، ولقد عثرت بينهما على ثـلاث سـلاسل، تحمل بيانات أصحابها وكلهم من جنود العدو،

وهذا يعني أنه ليس هنا.
ثم راح يدير عينيه في المكان، مع ضوء مصباحه اليدوي، والطيَّار يقول في عصبية:
- ضـــوء مصـباحك هـذا يمكـن رؤيتـه مـن مسـافة عشـرة كيلومترات .. هل تتعمد قتلنا أم ماذا؟
ولكن (رفعت) تجاهله مرة أخرى، وهو يهتف:
- انظر يا (سمير).. هناك.
قالها، وانطلق يعدو، دون أن ينتظر رد فعل صاحبه، حتى بلغ ذلك الموضع، الذي سقط فيه الشاب، وانحنى يجذب السلسلة المعلقة برقبته، وألقى نظرة على البيانات المدونة عليها، على ضوء مصباحه، قبل أن يهتف في حماس:
- إنه هو.. إنه هو يا (سمير).
أجابه (سمير) في انفعال:
- عظيم.. لقد عثرنا عليه بأسرع مما كنا نتوقع.. هيَّا نحمله إلى الهليوكوبتر، ونغادر هذا المكان، قبل أن يصاب الطيَّار بانهيار عصبي.
أسرع (رفعت) يدفع كفيه تحت إبطي الشاب، وهو يقول:
- انظر إلى الدماء التي تغطي جسده.. لقد أصيب الفتى بشدة، ولكنه واصل مهمته، على الرغم من هذا.. هل رأيت شجاعة تفوق شجاعته.. يا للخسارة!.. كم كنت أتمنى أن أشدّ على يده.
حمل (سمير) ساقي الشاب، وهو يتمتم:
- أعتقد أنني أشاركك أمنيتك هذه يا سيادة المقدّم، فلو...
انتفض جسده بغتة، عندما ندت من الجسد المثخن بالجراح حركـــة انقباضـية محـدودة، وسـعل مـرة واحـدة، وصـرخ (رفعت):

- مستحيل!.. إنه حي.. يا للمعجزة!.. إنه حي.. كل هذه الإصابات لم تنجح في قتله.. إنها معجزة بحق.
ثم انطلق يعدو نحو الهليوكوبتر، حاملًا جسد الشاب، و(سمير) يعاونه في آلية، واستقبلهما الطيَّار بصيحة استنكار، وهو ينظر إلى الزي الممزق، فوق جسد الشاب:
- إسرائيلي؟!.. هل فعلنا كل هذا، لنستعيد جثة جندي إسرائيلي؟!
صاح به (رفعت) في صرامة، وهو يضع الشاب داخل الهليوكوبتر.
- ها يا رجل.. انطلق بأقصى سرعة، وعد بنا إلى (القاهرة).. ربما كنا سعداء الحظ، واستطعنا إنقاذ حياته.. هيا.
اتسعت عينا الطيَّار في ذهول، وهو يهتف:
- إنقاذ حياته؟!.. هل تعني أن...
قاطعه (رفعت)، بكل ما يموج في صدره من انفعالات:
- نعم يا رجل.. إنه حي.. أسرع بالله عليك.. أسرع.
ولم تمض دقيقة واحدة، حتى كانت الهليوكوبتر تنطلق عائدة إلى (القاهرة)، وهي تحمل الدليل..
الدليل على قدرة الخالق (عز وجل)..

☆☆☆

«أنا أوافقك أيها المقدم.. إنها معجزة...»..
قالها كبير الجراحين، في المستشفى العسكري في (المعادي)، وهو ينتزع قفازي الجراحة المطاطيين من يديه، قبل أن يستطرد، والدهشة لم تفارقه بعد:
- لقد أخرجنا من جسده ثلاث رصاصات، وأكثر من دستتين من الشظايا، وكان قد فقد نصف دمائه تقريبًا، وعلى الرغم من هذا

فقد ساعدته بنيته القوية، وإرادة الله (سبحانه وتعالى) على البقاء حيًا.. إنها أغرب حالة شاهدتها في حياتي كلها.

أوما (رفعت) برأسه موافقًا، وهو يغمغم:

- هذا صحيح.. لقد كتب له الله (سبحانه وتعالى) البقاء، وأنا واثق بأن هذا كان لحكمة لا يعلمها سواه.
سأله الطبيب، وهو يغسل يديه:
- أهناك من يهتم ببقائه على قيد الحياة؟.. أعني هل له زوجة أو أبناء مثلًا؟؟
هزَّ (رفعت) رأسه نفيًا، وهو يجيب:
- بل ليس له أي أقارب على الإطلاق..
رفع الطبيب حاجبيه في دهشة، وهو ينتقل إلى ما خلف مكتبه، ويشعل سيجارته، قائلًا:
- عجبًا... لله (سبحانه وتعالى) في خلقه شئون.. عشرات الآباء والأزواج يموتون بسبب رصاصة أو شظية واحدة، وذلك الفتى يحيا، على الرغم من كل إصاباته، دون أن يكون هناك من يهتم بأمره.. سبحان الله.
صمت (رفعت) لحظة، ثم سأله:
- متى سيستعيد لياقته في رأيك؟
حدَّق الطبيب في وجهه لحظة بدهشة، قبل أن يقول:
- لياقته؟!.. بل قل: متى يستعيد وعيه يا رجل؟.. من الواضح أنك لا تدرك حقيقة الموقف جيدًا.. صحيح أن هذا الشاب لم يمت، ولكن هذا لا يعني أنه سيعود كما كان.
انعقد حاجبا (رفعت) في شدة، وهو يقول:
- ماذا تعني؟
نفث الطبيب دخان سيجارته، قبل أن يجيب:
- لقد كانت إصاباته بالغة، وفقد الكثير من دمائه، وقضى ما يقرب من الثلاث ساعات دون علاج، كما أن قوة الانفجار أصابت مخه بارتجاج عنيف، مع قصور في الأكسجين، و...
قاطعه (رفعت)، في شيء من الضيق:

- لست أفهم الكثير من النواحي الطبية.. دعنا نقفز إلى النتائج مباشرة، دون المرور بالتفاصيل.
ابتسم الطبيب، وهو يقول:
- آه.. كدت أنسى طبيعتك المتبرمة.. فليكن يا (رفعت) بك..
النتيجة النهائية هي أن هذا الشاب سيصاب بتلف ما، في خلايا المخ.. لا يمكننا تحديد هذا بشكل قاطع الآن، فلا توجد وسيلة علمية متاحة لهذا ولكنه لن يعود قط إلى ما كان عليه.
بدا الضيق على وجه (رفعت)، وهو يسأل:
- وما نوع هذا التلف بالتحديد؟.. هل سيصاب بنوع من الشلل مثلًا؟
هزّ الطبيب كتفيه، وهو ينفث دخان سيجارته مرة أخرى، مجيبًا:
- ربّما.. أو ربما يصاب بضعف في السمع، أو البصر، أو عدم توافق في حركة الأطراف، وربما يفقد ذاكرته، أو قدرته على التركيز.. لا أحد يدري.
لوَّح (رفعت) بيده، ليطرد سحب الدخان، قبل أن يقول في حدة:
- هذه السجائر ستقتلك يومًا.
حدَّق الطبيب فيه بدهشة، قبل أن يبتسم مرتبكًا، ويغمغم:
- عجبًا... المفروض أنني الطبيب هنا، وأنني المسؤول عن تحذير الناس من أضرار التدخين، ولكنك تعكس الأمور كالمعتاد.
ثم أطفأ السيجارة، وهو يسحقها بسبَّابته وإبهامه في المنفضة، مستطردًا:
- المهم أن أحدًا لا يمكنه التنبؤ مسبقًا بما سيكون عليه الشاب، عندما يستعيد وعيه.
سأله (رفعت):
- ومتى يفعل؟

عاد الطبيب يهز كتفيه، مجيبًا:
-لا أحد يدري أيضًا.. إصاباته تركت أثرًا عنيفًا في جسده وعقله.. ربما يعود إلى وعيه بعد يوم، أو أسبوع.. أو حتى عشر سنوات.. هذا أمر نجهله تمامًا.

بُهت (رفعت) للجواب، وهتف مستنكرًا:
- عشر سنوات؟!.. أمن الممكن أن يسقط شخص ما في غيبوبة عميقة، لعشر سنوات متصلة؟!
أشار إليه الطبيب، قائلًا:
- توجد حالات مسجلة، في الولايات المتحدة الأمريكية، ظلت إثنى عشر عامًا بهذه الصورة، وهم يبقون عليها بوسائل تنفس وتنظيم قلب صناعية، ويداومون على تليين مفاصلها وعضلاتها، في أثناء فترة الغيبوبة، عبر برنامج علاج طبيعي مدروس، بحيث يمكنها استعادة لياقتها، خلال فترة قصيرة، إذا ما استعادت وعيها، ولا تصاب بالتيبس الكامل، من جراء الرقاد لفترات طويلة.. صحيح أن الشاب يمكنه التنفس بصورة طبيعية، وقلبيه على ما يرام إلى حد كبير، ولكنه سيحتاج بالطبع إلى برنامج للعلاج الطبيعي، حتى يستعيد وعيه، بعد فترة لا يعلمها إلا الله (سبحانه وتعالى).
صمت (رفعت) لحظات في أسى، ثم هز رأسه، مغمغمًا:
- يا للخسارة!.. ليس من السهل أن تجد شابًا كهذا.. لقد أدى واجبه ببسالة مدهشة، وإرادة فولاذية لا تنصهر، وعندما حانت اللحظة، التي يتراجع عندها أشجع الرجال، وقف هو كالطود، وقاتل كالأسود، واتخذ قرارًا نادرًا بالتضحية بحياته، في سبيل وطنه.. إنه طراز نادر بالفعل، يؤسفني أن تخسره (مصر).

تطلّع إليه الطبيب لحظات، وقد انتقل بكلماته إلى منطقة تأثر وانفعال كبيرة، ثم همس، وكأنه يخشى أن يفسد صوته رهبة الموقف كله:

- ربما لم تخسره بعد.. من يدري؟

التفت إليه (رفعت) في حركة حادة، وظل يحدّق في وجهه لحظات في صمت، قبل أن ينعقد حاجباه، ويقول في حزم:

- نعم.. من يدري؟..

وفي تلك اللحظة.

في تلك اللحظة بالذات، تكونت الفكرة في رأسه..

ويالها من فكرة..

☆☆☆

«فكرة مجنونة للغاية يا (رفعت)..»

هتف زميله المقدّم (نسيم) بالعبارة، وهو يلوّح بيده في حدة، قبل أن يستطرد:

- كدت أنفجر غيظًا، وأنا أسمعك تشرحها للسيد المدير!..

كيف تقرّر تجنيد شخص فاقد الوعي، في صفوف المخابرات العام؟!.. إنها سابقة عجيبة للغاية، وغير مفهومة.

أجابه (رفعت) في هدوء:

- ولكن المدير تفهم الموقف، واستوعبه على نحو جيد.. إننا لن نخسر شيئًا، إذا ما قررنا ضمّ هذا الشاب لصفوفنا، فكل ما فعلته هو أن حصلت على موافقة مبدئية فحسب، ولا أحد يمكنه أن يلزمنا بقبوله أو رفضه، إذا ما فكرنا في التراجع.. كل ما في الأمر هو أننا سننتظر ما ستسفر عنه الأمور، فلو استعاد ذلك الشاب وعيه وكفاءته، سيكون من الخسارة، كل الخسارة، ألا ينضم مثله إلينا، أما لو لم يعد إلى ما كان عليه، فسنتولاه برعايتنا، كما لو كان أحد رجالنا، الذين يصابون في أثناء العمل.

قال (نسيم) في عصبية:
- لو أن الأمر اقتصر على هذا، لما وجدت مني استهجانًا أو معارضة، ولكنك تمضي بالأمور إلى حد يثير الحنق.. لقد أوردت اسم الشاب، ضمن قائمة شهداء الحرب، وأغلقت بهذا سجله في عالم الأحياء، ثم إنك أخفيت اسمه عن الأطباء والعاملين بالمستشفى العسكرى، وكأنك تتعمد تحويله إلى شخص غامض.. رجل خفي.. معامل فاي..
انعقد حاجبا (رفعت)، عند سماعه الكلمة الأخيرة، وسأل في دهشة:
- ما معنى (فاي) هذه؟
لوَّح (نسيم) بسبَّابته، وهو يجيب:
- (فاي).. ذلك الرمز المعروف، في الرياضة الحديثة، والذي يشير إلى القيمة الخالية.. مجرَّد قيمة خالية.. إنها لا تساوي حتى صفرًا؛ لأن الصفر قيمة محدودة في عالم الرياضيات.. ألم تسمع عن (فاي) من قبل يا رجل.. ذلك الرمز الذي يمثل شبه دائرة يقطعها خط مستقيم رأسي.. ألم تر هذا الرمز من قبل قط؟
صمت (رفعت) تمامًا، وهو يفكر في عمق، قبل أن يردّد في خفوت:
- (فاي).. القيمة الخالية.. نعم.. هذا يناسب الأمر تمامًا.
تطلّع إليه (نسيم) في دهشة، قائلًا:
- يناسب أي أمر؟
أجابه (رفعت) في حماس، وهو يلتقط ملفًا من فوق مكتبه:
- لقد حللت مشكلة عويصة يا رجل.. كنت أفكر في الاسم الكودي، الذي يناسب العميل الجديد، عندما يستعيد وعيه، وينضم إلى صفوفنا، وهأنتذا تلقيه عن لسانك، دون أن

تدري.. نعم.. أي لقب يناسب شخصًا يعتبره العالم كله في عداد الأموات.. شخص يحمل هوية جديدة، ويمتلك حياة جديدة.. أهنئك يا رجل.. لقد ألهمتني الحل..

حدَّق فيه (نسيم) مرة أخرى في دهشة، وهو يلتقط قلمه، ويرسم به شكلًا بيضاويًا يقطعه خط رأسي مستقيم، على الملف الخاص بالشاب..

رمز القيمة الخالية (فاي)..

وكانت هذه هي البداية..

البداية الحقيقية.

☆☆☆

5- البعث..

السابع من أبريل، عام 1974م..
تسلَّم الدكتور (عاطف) عمله للمرة الأولى، في قسم الرعاية المركزة، في مستشفى المعادي العسكري، وهو يحمل على كتفيه رتبة ملازم أوَّل، فور عودته من الجبهة، ومنذ لحظاته الأولى، جمع الملفات الطبية لكل مرضى القسم، وراح يراجعها في اهتمام، ليكون فكرة مناسبة عن المرضى الذين يضمهم القسم، قبل أن يتعامل معهم مباشرة.
كان كل شيء، بالنسبة إليه، يسير على ما يرام، حتى وقع في يده ذلك الملف.
مجرَّد ملف عادي المظهر، مثل كل الملفات السابقة، ولكنه مكتظ على نحو عجيب، بعشرات التقارير، والفحوص، والاستشارات، كما لو أن صاحبه يلقي رعاية خاصة للغاية، بوساطة عدد من أكبر أطباء المستشفى، وأكثرهم خبرة وتخصصًا، في مختلف المجالات الطبية، وفروع التحاليل والفحوص والمعامل..
والمفروض، طبقًا للملف، أن ذلك المريض فاقد الوعي، منذ السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م، وعلى الرغم من هذا فقد أجريت له ثلاث عمليات جراحية كبرى.. واحدة لإخراج بعض الرصاص والشظايا من جسده، والثانية لتصفية تجمع دموي بين خلايا المخ والجمجمة، والثالثة جراحة تجميلية، لتغيير بعض ملامحه، التي مزقها انفجار ما..
وليس هذا كل ما في الأمر..

إنهم يخضعونهلكل الفحوص اللازمة والضرورية، وغير الضرورية، أسبوعيًا، ويقوم طاقم خاص بعمل علاج طبيعي منتظم له، في أثناء غيبوبته؛ للحفاظ على نشاط عضلاته وقدرتها على الحركة والاستجابة..

ثم إنه يرقد فوق فراش خاص، تم استيراده خصيصًا من أجله، ليتموَّج بصفة منتظمة، على وسادة هوائية، منعًا لإصابته بقرح فراش أو التهابات مزمنة..

وفي دهشة كاملة، هتف الدكتور (عاطف):

- هناك خطأ ما حتمًا.

وألقى الملفات كلها على مكتبه، وحمل هذا الملف بالذات، وهو يندفع نحو الممرضة الأولى للقسم، قائلًا:

- ما هذا بالضبط؟

التفتت إليه في هدوء، تسأله:

- ماذا هناك؟

لوَّح بالملف في وجهها، قائلًا في شيء من العصبية:

- هل قرأت هذا الملف مرة واحدة؟!.. ألديك تبرير منطقي لما يفعلونه لهذا المريض بالذات؟!.. إن ميزانية الإنفاق عليه، تعادل تقريبًا ميزانية القسم كله.. من هو بالضبط، حتى يحظى بكل هذا؟!.. ابن أحد المسؤولين، أم وزير حربية سابق؟!

استقبلت ثورته بهدوء عجيب، وكأنها اعتادت هذا الموقف، من كل طبيب جديد، وأجابت في بساطة:

- ليست لدي أي أجوبة.

صاح في حنق:

- ما الذي يعنيه هذا الجواب السخيف؟.. لقد قضى ذلك المريض في غيبوبته ما يزيد على خمسة أشهر.. كيف تجهلين كل شيء عنه، طوال هذه الفترة؟!

واصلت حفاظها على أعصابها، وهي تجيب:
- لست وحدي من يجهل كل شيء عنه.. لو أنك انتبهت إلى الملف جيدًا، للاحظت أنه لا يحمل أي اسم.. فقط رقم (144) وهذا الرقم لا يعني أي شيء على الإطلاق، بالنسبة لنظم المستشفى، ثم إنه غير مسموح على الإطلاق بوجود أي زائرين، سوى شخص واحد، ممشوق القامة، صارم الأسلوب والملامح، أشيب الفودين، يزوره بصفة منتظمة إلى حد ما، بصحبة مدير المستشفي نفسه لدقائق معدودة، ثم ينصرف دون أن يتحدَّث إلى أحد، حتى أننا لا نعرف صوته.
ذابت ثورته في أعماق دهشته، وهو يعيد التطلع إلى الملف، وانتبه لأوَّل مرة إلى الرقم الصغير على غلافه، ورقم الهاتف المدون تحته، فسألها في حيرة:
- وماذا عن رقم الهاتف؟
أجابته بسرعة وهدوء:
- إننا لم تستخدمه قط، منذ أتوا به إلى هنا.. ولكن الأوامر تحتّم الاتصال بالرقم فورًا، إذا استعاد ذلك المريض وعيه، أو جزءًا منه، في أية لحظة من الليل أو النهار.
بهره الغموض المحيط بالموقف كله، ففغر فاه لحظات، وهو يحدّق في الملف، قبل أن يهز رأسه، مغمغمًا:
- عجبًا!!
ثم رفع عينية إلى الممرضة، وسألها في صوت خافت، وقد تلاشت ثورته تمامًا:
- وأين هذا المريض الغامض؟
أشارت بيدها إلى حجرة مغلقة، في نهاية الممر، مجيبة:
- هناك.

اتجـه فـي آليـة إلـى تلـك الحجـرة، وفتحـها فـي شـيء مـن الحذر، وكأنه يتوقع أن يقفز شبح في وجهه فجأة، ولم يكد يلقي نظرة على الشاب، الراقد فوق الفراش المتموج، وقد أحاطت به أحد أجهزة الفحص والمراقبة، في تلك الفترة،
حتى ارتفع حاجباه في دهشة، وهتف:
- إنه شاب صغير.
أجابته الممرضة في خفوت، وهي تتطلَّع إلى الشاب في شيء من العطف والحنان والحسرة:
- نعم.. ووسيم أيضًا.. إنني أقوم برعايته في فترة عملي، وأحلق لحيته باستمرار، وأعاون طاقم العلاج الطبيعي، و...
لاحظت فجأة أن الطبيب ينظر إليها في دهشة، فارتبكت وتنحنحت، مكملة:
- إنني أقوم بعملي..
ظلَّ الطبيب يتطلَّع إليها لحظة في صمت، قبل أن يبتسم، قائلًا في خبث:
- حقًّا؟!

تضرج وجهها بحمرة الخجل، وارتبكت أكثر، ولكنه أشاح بوجهه عنها، مكملًا بسرعة:
- إنه يستحق الشفقة بالفعل.
ودلف إلى الحجرة في صمت، وراح يدير عينيه في كل ما تحويه، قبل أن يهز رأسه، مغمغمًا:
- يبدو أنني لم أحسن تقدير الموقف.. إنهم لا ينفقون عليه ما يساوي ميزانية القسم كله فحسب.. إنهم ينفقون عليه ثلاثة أضعاف هذا المبلغ على الأقل.
اقتربت منه الممرضة، وهي تقول في خفوت:

- لا ريب أنهم يرون أنه يستحق هذا.. ثم إن كل هذه الأجهزة ستصبح ملكًا للقسم، عندما يستعيد وعيه.
أومأ برأسه بلا معنى، قبل أن يتمتم:
- هذا لو استعاد وعيه..
انفرجت شفتا الممرضة، لتنطق بشيء ما، عندما التقطت أذناها فجأة تأوهات خافتة للغاية، فتجمَّد جسدها كله، ثم استدارت في حدة إلى الشاب، وأطلقت شهقة عنيفة، وهي تهتف:
- رباه!.. انظر يا دكتور.
التفت الدكتور (عاطف) بسرعة، إلى حيث تنظر، ثم ارتد في عنف، كمن أصابته صاعقة..
كل هذا لأن الشاب فتح عينيه، وتطلّع إليهما بنظرة خاوية، وتحرَّكت شفتاه في بطء، وكأنه يحاول نطق شيء ما، ولم يخرج منهما سوى همهمة خافتة غير مفهومة، إلا أنها كانت كافية لجذب نظرات الطبيب والممرضة في سرعة، وتقفز إلى رأسهما فكرة.. فكرة واحدة مشتركة..

☆☆☆

لم يكن ذلك الصباح عاديًا أبدًا، بالنسبة للمقدم (رفعت).
لقد تلقى عشرات التقارير والمعلومات، من عدد من العملاء السريين، وراح يطالعها كلها بكل الاهتمام، قبل أن يدمجها في تقرير واحد، تتم دراسته في أثناء الاجتماع اليومي..
ولقد انهمك في هذا العمل حتى النخاع، ولم يفارق مكتبه لحظة واحدة، منذ الخامسة والنصف صباحًا، و...
وفجأة، ارتفع رنين هاتفه الخاص..
والعجيب أنه، وهو المدرَّب على مواجهة الخطر، والمعتاد على خوض أصعب المواقف والمعارك، وتجاوز أعقد

الظروف، انتفض في عنف، مع الرنين المباغت، وقفز تقريبًا من مقعده، قبل أن يختطف السمَّاعة، ويقول في حدة:
- من المتحدث؟
أتاه صوت الدكتور (عاطف)، وهو يقول في توتر مرتبك:
- لقد استعاد وعيه.
من الممكن أن يعتبر البعض أن هذه العبارة مبهمة إلى حد كبير، ولكن (رفعت) فهمها على الفور، ووثب واقفًا، وهو يجيب في حزم:
- سأحضر على الفور.
لم يدر بعدها كيف ارتدي سترته، ولا كيف قاد سيارته بهذه السرعة، من (حدائق القبة) إلى (المعادي)، ولكنه وجد نفسه أخيرًا داخل حجرة الشاب، الذي لم يختلف كثيرًا عما كان عليه في غيبوبته، باستثناء ما كانت عليه عيناه، اللتان راحتا تنتقلان من وجه (رفعت) إلى وجه أخصائي المخ والأعصاب، الذي يقول في ارتياح واضح:
- عظيم.. لم أكن أتوقع أن يستعيد وعيه أبدًا.. لقد فعلها أخيرًا.. حمدًا لله.
أطلّ شيء من خيبة الأمل، من صوت (رفعت)، وهو يقول:
- أهذا ما تطلقون عليه استعادة الوعي؟!.. إنه أشبه بجثة أوصلوها بتيار كهربي، لتحرك عينيها فقط.
ابتسم الطبيب، وهو يقول:
- إنها البداية فحسب.. لا تنس أنه رقد فاقدًا للوعي لفترة طويلة، وليس من السهل أن يستعيد المخ قدراته، وسيطرته على الجسد، بعد فترة كمون طويلة كهذه.
سأله (رفعت) في اهتمام:
- أتعني أنه سيفعل، مع مرور الوقت؟

أجابه الطبيب في حماس:
- بالطبع.. سيتحسَّن هذا الشاب تدريجيًا، ويستعيد قدراته البشرية خطوة فخطوة، مع مداومة العلاج، والمواظبة على جلسات العلاج الطبيعي.. صدقني.. لن تمضي ستة أشهر، حتى يستعيد قدرته على المشي والكلام.
هتف (رفعت):
- المشي والكلام؟!.. أهذا أقصى ما يمكن أن يصل إليه؟!
صمت الطبيب لحظة، ثم مط شفتيه، قائلًا:
- نحن لم نعرف بعد أي أثر تركته الإصابة في مخه، ولكن كل ما تستطيع معاونته فيه، هو أن نعيد إليه قدرته على المشي والكلام، أما ماعدا هذا، فهو يتوقف على عاملين.
سأله (رفعت) في اهتمام بالغ:
- وما هما؟
أشار الطبيب بسبَّابته ووسطاه، قائلًا:
- الزمن، وإرادة الشفاء في أعماقه.
أومأ (رفعت) برأسه متفهمًا، ثم أطلّت من شفتيه لمحة ابتسام، وهو يجيب في حسم:
- يمكننا إذن أن ننتظر.
وفي أعماقه، عاد الأمل ينتعش..
وبشدة..

☆☆☆

«كيف حاله الآن؟!..»
ألقى المقدّم (نسيم) السؤال على زميله (رفعت)، داخل حجرة مكتب هذا الأخير، الذي ابتسم ابتسامة باهتة، وهو يجيب:
- أفضل من ذي قبل.. إنه يتناول طعامه بنفسه، ويمكنه السير عبرِ الممر جيئة وذهابًا، دون أن يستند إلى أحد.

مطّ (نسيم) شفتيه، وعقد حاجبيه، وهو يقول:
- أيبدو لك هذا كافيًا، بالنسبة لشخص يتم تجنيده؟!
صمت (رفعت) لحظات، ثم أجاب في جدية:
- الشاب سيتحسن يا (نسيم).. لقد أكد لى الأطباء هذا.. بل إنه تجاوز بالفعل كل توقعاتهم؛ فالفحوص كلها تشير إلى أن إصابة مخه لم تفقده أيًا من توافقاته العصبية، أو حواسه المباشرة، وربما حدثت معجزة جديدة، وتجاوز الأزمة كلها دون خسائر.

غمغم (نسيم) في سخط:
- هذا ما سيتضح مع الزمن.
أشار (رفعت) بسبَّابته، قائلًا:
- بالضبط.. حل المشكلة كلها يكمن في الزمن.. امنحه ما يكفي من الوقت، وأنا واثق من أننا لن نندم أبدًا.. صدقني يا (نسيم).. أهم وأخطر ما في الأمر، هو أن تجد شخصًا يصلح للعمل معنا، ويضيف إلينا الجديد، وقد تقضي عمرك كله، وأنت تبحث عن مثل هذا الشخص فلا تجده.. ماذا يضيرنا إذن لو انفقنا جزءًا من العمر، لنفوز بشخص، نعلم جيدًا أنه يمتلك كل الصفات المنشودة، ولا يعوزه إلا الوقت.. فقط الوقت؟!
صمت (نسيم) لحظات، وكأنه يستوعب الموقف كله، ثم قال:
- أنت على حق.. لقد كنت متسرعًا ومخطئًا.
ابتسم (رفعت)، قائلًا:
- أتدري؟.. هذا أعظم ما فيك يا صديقي.. تمتلك قلب الأسد، وعناء الدنيا كلها، ولكنك تحمل وسط هذا شجاعة كافية

للتراجع، إذا ما تبين لك خطأ رأيك.. إنها صفة نادرة الوجود بحق.
مطَّ (نسيم) شفتيه، ولوَّح بكفه، قائلًا:
- لا تضخم الأمور.
ثم تنهَّد، مستطردًا:
- وعلى أية حال، يبدو أنني لن أعرف نتيجة هذا العمل.
سأله (رفعت) في قلق:
- ما الذي تعنيه؟!
هزَّ كتفيه، وابتسم ابتسامة باهتة، وهو يقول:
- لقد أصبحت رئيس مكتبنا في (نيويورك).
هتف (رفعت):
- ألف مبروك يا رجل.. هذا يعني أنك ستواجه الأمريكيين هذه المرة.
ثم أمسك كتفيه في قوة، وتطلّع إلى عينيه مباشرة، مستطردًا:
- دعهم يعترفون بكفاءتنا يا رجل.
ابتسم (نسيم)، قائلًا:
- سأبذل قصارى جهدي، وعليك أن تفعل المثل هنا.. وأنا واثق من أنك ستنجح مع ذلك الشاب.. المهم أن تبلغني، ما الذي تأثر فيه، بعد إصابة مخه؟
تنهَّد (رفعت)، وهو يقول:
- المهم أن أعرف أولًا يا رجل.. وأن يجيب الزمن على هذا السؤال.
المهم أن يجيب الزمن السؤال..
ما الذي فقده الشاب؟!..
ما هو؟!..

☆☆☆

وقف (رفعت) صامتًا، في ركن حديقة المستشفي، المطلّ على النيل، يراقب الشاب، الذي يجول وحده في الحديقة، وانعقد حاجباه في شدة، عندما داعب الشاب طفلة صغيرة، ثم حملها في هدوء، وطبع على وجنتها قبلة حانية، قبل أن يعيدها إلى أمها، وهو يمنحها ابتسامة عذبة هادئة..

«لقد تحسن كثيرًا.. »

انبعثت العبارة من خلفه، فاستدار (رفعت) إلى صاحبتها، الممرضة الأولى لقسم العناية المركزة، وحاول أن يبتسم، وهو يجيب:

- هذا يبدو واضحًا.

ابتسمت ابتسامة كبيرة، عوضت ابتسامته الباهتة، وهي تقول:

- إنه صاحب إرادة فولاذية بحق.. لقد حقق في ثلاثة أشهر، ما يعجز عن تحقيقه مريض مشابه في عام كامل.. هل رأيت كيف يسير ويتحرك.. لقد استعاد توافقه العصبي كله تقريبًا.

سألها (رفعت) في اهتمام:
- لماذا لم يتحدَّث حتى الآن إذن؟.. هل أصيب مركز الكلام في مخه مثلًا؟
ضحكت قائلة:
- هذا غير وارد، فمركز الكلام في الجانب الأيسر من المخ، وإصابته تركزت كلها في الجانب الأيمن الخلفي..
تطلَّع طويلًا إلى الشاب، قبل أن يكرّر:
- لماذا لا يتكلم إذن؟
قالت لي إهتمام:
- يبدو لي أن هذا جزء من شخصيته، أو...
صمتت بغتة، مما استثار انتباهه، فالتفت إليها يسألها:
- أو ماذا؟
أجابته بعد فترة من التردّد:
- أو أنه يشعر بالحيرة..
أطلَّ التساؤل من عينيه، فأكملت بسرعة:
- عندما يكون وحده، أو يتصوَّر أنه كذلك، يتمتع ببعض الكلمات غير المفهومة، أو غير المترابطة، ويتأمل كل ما حوله بنظرة حائرة.. ألم تنتبه إلى النظرة التي يحدجك بها، كلما أتيت لزيارته؟!.. إنه ينتظر زياراتك باهتمام بالغ، وتمتلئ عيناه بالتساؤلات، وهو يتطلَّع إليك.. أكاد أقسم إنه يخفي شيئًا ما في أعماقه، أو...
كانت تستدير نحو الحديقة، وهي تواصل حديثها، عندما بترتها بغتة، وشهقت على نحو جعل (رفعت) يستدير بدوره، و...
وكانت مفاجأة..

لقد وجد نفسه يتطلّع مباشرة إلى عيني الشاب، الذي يقف على مسافة متر واحد منه، وينظر إليه باهتمام شديد..
ثم انفرجت شفتا الشاب..
انفرجتا في بطء، وهو يسأل بكلمات متعثرة:
- من.. من أنا؟!
وكان للسؤال وقع كالصاعقة، ولكنه حمل في طياته جوابًا واضحًا..
الآن فقط، عرف (رفعت) ما الذي فقده الشاب..
عرفه في وضوح .

☆☆☆

«ذاكرته...».
نطق (رفعت) الكلمة في حزم، أمام مدير المخابرات، الذي ارتفع حاجباه في شدة، ثم عادا ينخفضان، وهو يقول:
- إذن فقد فقد ذاكرته تمامًا؟!.. يالها من مصادفة!.. ألا يذكر أي شيء عن ماضيه؟
هزَّ (رفعت) رأسه نفيًا، وهو يقول:
- مطلقًا.. عقله صار صفحة بيضاء، لم يمسها الحبر، إلا منذ استعادة الوعي.. من هنا فقط تبدأ ذاكرته، أما كل ما سبق هذا، فقد تلاشى تمامًا، وكأنما لم يكن له وجود من قبل.
صمت المدير لحظات، وهو يتطلّع إليه، ثم تراجع في مقعده، قائلًا:
- مازالت الفرصة أمامك يا (رفعت).. لو أردت أن تتراجع، فلن يلومك أحد قط.
أجابه (رفعت) في سرعة:
- مستحيل!.. فقدان الشاب لذاكرته أمر مؤسف بالتأكيد، لو نظرنا إليه من الناحية الإنسانية أو الاجتماعية، أما من

الناحيــة العمليــة، فـهو يتفـق تمـامًا مـع خطتـي الأوليـة، بـل ويساعدها كثيرًا.. لقد فقد الشاب ذكرياته وماضيه، ولكنه لن يفقد قوته وإرادته وعزمه، وذلك الانتماء الذي يتدفق في عروقه، ويجري فيها مجرى الدم.. ولقد انتهى ماضيه بالفعل، منذ أوردنا اسمه في قائمة شهداء حرب أكتوبر، ويمكننا أن نقول إنه ولد فقط عندما استعاد وعيه.. ولد باسم جديد، وهوية جديدة.

سأله المدير مبتسمًا:

- وأي اسم ستمنحه إياه؟

انعقد حاجبا (رفعت) في شدة، وهو يقول:

- من الناحية الرسمية، وطبقًا لما سيدوَّن في السجلات، سنمنحه ليس اسمًا واحدًا، وإنما عدة أسماء، تتيح له حرية الحركــة وســرعة التخفـي، أمـا هنـا، فلـن يحمـل سـوى اسـم واحد.

سأله المدير، وهو يعتدل في لهتمام:

- أي اسم؟

صــمت (رفعــت) لنصــف دقيقــة كاملــة هـذه المـرة، قبـل أن يجيب في حزم:

نفس الاسم المرسوم على ملفه..

وامتزج حزمة بنبرة صارمة، وهو يستطرد:

- اسم (فاي).

وأعلن القدر مولد رجل جديد.

رجل من طراز خاص..

خاص جدًا.

☆☆☆

6- الفتى فاي..

الخامس والعشرون من يناير 1975م..
أضيء مصباح أحمر، في سقف طائرة نقل الجنود، وهي تحلّق على ارتفاع شاهق، فارتفع صوت صارم يقول:
- استعد للقفز.
نهض الراكب الوحيد في الطائرة، وهو يحكم حقيبة مظلته خلف ظهره، ووقف أمام الباب المفتوح، وهو يلتقط أنفاسه في بطء، ليملأ صدره كله بالهواء، في ذلك الارتفاع، الذي يختلف فيه الضغط الجوي تمامًا، عن مثيله على سطح الأرض ، وتعلَّق بصره بالمصباح الأخضر، الذي أضيء بدوره، وصاحب الصوت يهتف:
- اقفز..
قبل حتى أن تكتمل الكلمة، كان الشاب قد قفز بالفعل، وراح جسده يهوي في السماء، مخترقًا السحب الكثيفة، ومتجاوزًا إياها، ليتجه نحو الأرض، التي بدت له بعيدة صغيرة، من ذلك الارتفاع الكبير..
وداخله، راحت متوالية عددية تتردد بسرعة:
- ألف وواحد.. ألف واثنان.. ألف وثلاثة.. ألف و...
فجأة، تفجرَّ شيء ما في عقله.
إنها ليست أوَّل مرة، يمرّ فيها بمثل هذا الموقف..
لقد فعلها من قبل..
وعلى النحو نفسه..
ولكن متى؟!..
متى وأين؟!..

كاد التساؤل يستغرقه تمامًا، ولكنه نفضه بسرعة عن رأسه، وأكمل:
- ألف وعشرون.. ألف وواحد وعشرون..
بذل جهدًا ليطرد تلك الذكريات المشوشة، التي تهاجم عقله في إصرار، وواصل العدّ، حتى بلغ الحد المطلوب، فجذب خيط المظلة، التي انفتحت على الفور، وصنعت شكلًا أشبه بقبة ضخمة، في قلب السماء..
وفي مهارة، راحت يداه تجذبان حزامي المظلة، في تناسق مدروس، لتتجه بحملها إلى نقطة الهبوط، التي تم تحديدها مسبقًا..
مبنى من عشرين طابقًا، في أحد الأحياء الراقية في حي (الجيزة)، هبط هو فوقه في براعه، ولم يكد يلمس سطحه، حتى جذب المظلة بكل قوته، وترك جسده ينثني في مرونة، وهو يجمع قماشها العريض، ويدفعه داخل حقيبتها، ثم يعتدل، ويتلفت حوله في حذر، ليتأكد من أنه وحده على السطح..
وعند حاجز السطح، انحنى يعدّ الأدوار أسفله، ليحدّد نوافذ الطابق السابع عشر، ثم ثبت خطافًا قويًا في إحدى المواسير القوية، وألقى حبلًا قصيرًا، وتعلق به، وأخذ يهبط في سرعة، مستندًا بساقية إلى حائط المبني، حتى بلغ أحد نوافذ الطابق السابع عشر، فأطل بنظره عبرها في حذر، وتأكد من أن أحدًا لا يلمحه، وأخرج من جيبه قاطع زجاج ماسيًا، واقتطع به قطعة من زجاج النافذة، امتدَّت يده عبرها تزيح الرتاج، ثم وثب داخل المكان..
وفجأة، برز أحد الحرَّاس عند الباب، وهتف:
- ما هذا؟
كانت يده تسرع نحو مسدسه، ولكن الشاب وثب في براعة وخفة، وركل الحارس في وجهه، ثم هبط على قدميه

ليلكمه في أنفه وفمه، فتراجع الحارس في عنف، وتفجرت الدماء من أنفه، ومن ركن شفتيه، ولكنه عاد ينقض مرة أخرى، فقفز الشاب ثانية، ودار جسده كله حول نفسه في سرعة مدهشة، قبل أن تضرب قدمه صدر الحارس، وتلقيه مرة أخرى إلى الخلف، ليرتطم في الجدار، ويسقط على وجهه..

ومع سقوطه، برز حارسان آخران، استل كل منهما مسدسه بالفعل، ولكن الشاب جذب مسدسه بسرعة تفوقت عليهما، وأطلق النار:

- ولكن صوت إطلاق النار كان عجيبًا..

و كان يختلف تمامًا عن دوي الرصاصات المعروف، وحتى عن صوت رصاصة تخرج من كاتم للصوت..

كان أشبه بسعال مكتوم..

حتى الدماء التي تفجَّرت في رأس أحد الحارسين، وصدر الثاني، لم تكن حمراء قانية ككل الدماء.

بل كانت وردية باهتة، ذات ملمس أكثر لزوجة..

ولكن الأكثر غرابة، هو أن أحد الحارسين لم يسقط أرضًا..

فقط ارتسم الحنق على وجهيهما، عندما أصابتهما تلك الرصاصات العجيبة، في حين أضيء المكان كله، وارتفع فيه صوت المقدم (رفعت)، وهو يقول:

- لا بأس.. يمكننا اعتبار هذه التجربة ناجحة.. وبلا خسائر.

نهض الحارس الأوَّل، وهو يمسح الدماء الحقيقية عن أنفه وفمه، قائلًا في سخط:

- ماذا تسمى هذا إذن؟

أجابه (رفعت) في صرامة:

- ضرورات المهنة.

تبادل الحراس الثلاثة نظرة سريعة، ثم زفر أحدهم، وهو يتقدّم ليصافح الشاب، قائلًا:
- أهنئك.. أنت تجيد إطلاق النار بحق، وسرعة التقاطك لمسدسك تثير الإعجاب.
تمتم الشاب:
- أشكرك.
غادر الحراس الثلاثة المكان، وبقي (رفعت) وحده مع الشاب، الذي سأله:
- ما الذي ينبغي أن أفعله، لأسمع عبارة: «رائع.. عملية ناجحة تمامًا..»؟
صمت (رفعت) لحظات، ثم أجاب في حزم:
- أن تخوض عملية حقيقية.
سأله الشاب:
- وما الفارق؟!.. إننا نتعامل مع كل تدريب، وكأنه عملية حقيقية.
تطلّع إليه (رفعت) لحظات أخرى في صمت، ثم أشار إلى رأس الشاب، قائلًا:
- الفارق يكمن هنا.
ثم خفض سبَّابته، ليشير إلى صدره، مستطردًا:
- وهنا.
نظر إليه الشاب في تساؤل، فأوضح بنفس اللهجة الحازمة:
- صحيح أننا نتعامل مع كل تدريب وكأنه عملية حقيقية، ولكنك تعلم في أعماقك أنه مجرَّد تدريب، وقلبك لا يشعر بالخوف من المواجهة الحقيقية، وهذا لا يبرز قدراتك الحقيقية.
صمت الشاب لحظات في حيرة، قبل أن يقول:
- ولكنني أشعر دائمًا أنها ليست المرة الأولى.. أشعر أنني فعلت هذا من قبل.. حتما فعلته.

قاوم (رفعت) ابتسامته، ووأدها في مهدها، وهو يقول في اقتضاب:
- ربّما.
تطلَّع إليه الشاب طويلًا، وكأنما يحاول الغوص في أعماقه، واستخراج ما يخفيه فيها من معلومات وأسرار، قبل أن يسأل في بطء:
- أنت تعرف من أنا.. أليس كذلك؟
أجابه (رفعت) في هدوء:
- ما الذي تبحث عنه بالضبط يا (فاي)؟
قال الشاب في صرامة:
- واسمي ليس (فاي) بالتأكيد.
سأله (رفعت):
- ولم لا؟!
أجابه متوترًا:
- إيقاع الاسم نفسه لا يروق لي.. إنني مصري.. هذا ما أثق به تمامًا، حتى ولو فقدت ذاكرتي كلها.. لهجتي نفسها تؤكد هذا، هذا الاسم (فاى) لا يبدو مصريًا أبدًا.
قال (رفعت)، في شيء من الحذر:
- ربما كان فرعونيًا.
هزَّ الشاب رأسه نفيًا في قوة، وهو يشير إلى الرسم على صدره، قائلًا:
-بل هو رمز رياضي.. ها هو ذا.. إنني أحمله على صدري.. شكل بيضاوي يقطعه خط مستقيم رأسي.. لقد بحثت في القواميس الموجودة بالمكتبة، حتى عرفته.. إنه ليس اسمى.. إنه الرمز الذي يشير إلى القيمة الخالية، ولكن ما هو اسمي الحقيقي؟!

مضت لحظة من الصمت، قبل أن يقول (رفعت):
- وبم تفيدك معرفته؟
أجابه الشاب:
- أن أشعر بهويتي.
أشار إليه (رفعت)، قائلًا:
- هويتك مصرية.. أنت قلت هذا بنفسك.
صاح الشاب:
- هذا صحيح، ولكن من أنا؟!.. من صاحب هذا الجسد؟.. ما اسم صاحب الوجه الذي أحمله؟!.. من حقي أن أعرف.. من حقي أن أفهم.
لأذ (رفعت) بالصمت تمامًا، حتى أفرغ الشاب ثورته، ثم أجابه في حسم:
- نعم.. من حقك أن تعرف، وأن تفهم.
انتبهت كل حواس الشاب، وتعلّق بصره بشفتي (رفعت) في لهفة، قبل أن يستدرك هذا الأخير في سرعة:
- ولكن السؤال هو: فيم يفيدك هذا؟
قال الشاب في دهشة:
- في أن أعرف من كنت على الأقل.
قال (رفعت) في صرامة:
- وماذا لو أنك كنت لصًا أو قاتلًا محترفًا؟!
ارتد الشاب كالمصعوق، ولكن (رفعت) واصل في عنف:
- ماذا لو أنني أنقذتك من حكم الإعدام مثلًا، أو أنك كنت أحد جواسيس العدو، وأمكننا تجنيدك، أو...
قاطعه الشاب في عنف:
- مستحيل!..
ثم أشار إلى صدره، مستطردًا في صرامة:

- صحيح أنني فقدت ذاكرتي، ولكنني لم أفقد قط ذلك الانتماء في أعماقي.. لم أفقد تلك الارتجافة، التي تسري في عروقي، كلما سمعت اسم (مصر).. مازال كياني كله على أتم الاستعداد لتلبية ندائها، في أية لحظة، ومهما كان الثمن، و...

ارتج شيء ما في أعماقه، مع الجزء الأخير من العبارة..

مهما كان الثمن..

متى سمعها من قبل؟!..

من ردَّدها على مسامعه؟!..

أي أثر تركته في أعماقه؟!..

كان من الممكن أن يغرق في تساؤلاته طويلا، إلا أنه أزاحها جانبًا في سرعة، وهو يكمل، بعد وهلة من الصمت:

- والشخص الذي يحمل هذه المشاعر تجاه وطنه، لا يمكن أبدًا أن يصبح لصًا أو قاتلًا، ومن المستحيل أن يخون وطنه، مهما كانت المغريات.

ترك (رفعت) ابتسامته تطفو على شفتيه، وهو يقول:

- هذا ما أردت أن أسمعه منك.

ثم تقدَّم نحوه، ووضع يده على كتفه، مستطردًا:

- لقد كنت على حق، في كل ما قلته.. مثلك يستحيل أن يخطئ في حق نفسه، أو في حق وطنه.. أنت لم تكن أبدًا لصًا أو قاتلًا أو جاسوسًا.. بل على العكس تمامًا.. لقد كنت بطلًا.. كنت واحدًا من أعظم الأبطال، الذين بذلوا أنفسهم في سبيل الوطن.. كنت بطلًا تفخر به بلاده.

انتشى الشاب بالكلمات، وتضاعفت اللهفة في نفسه، و(رفعت) يتابع:

- إنك لم تتردد لحظة واحدة في التضحية بحياتك نفسها، من أجل (مصر)..
انتفضت عروق الشاب، عندما سمع الكلمة السحرية، التي ينهار لها وجدانه، وراح قلبه ينبض في عنف، مع كلمات (رفعت)، ونبرته الحماسية:
- ولم تتخل عنك (مصر)، بعد كل ما فعلته من أجلها.. لقد استعادتك من بين جثث الموتى، وبذلت جهدها وأموالها، لتمنحك الرعاية والحماية، وتتجاوز بك حافة الخطر.. الله (سبحانه وتعالى) كتب لك البقاء، وأطال في عمرك لحكمة لا يعلمها إلا هو (سبحانه).. لقد حصلت على فرصة نادرة يا فتى.. انمحت كل ذاكرتك السابقة، وبدأت حياة جديدة، وكأنك تبعث بعد الموت.. وسبحان الله الذي يحيي ويميت..
الله (عز وجل) شاء لك أن تبدأ من جديد، فلماذا تنبش ماضيك؟!.. دعه خلف ظهرك.. لا تبحث عنه.. خض حياتك الجديدة بروح واعدة.. خضها باسمك الجديد، وهويتك الجديدة.. خضها بلا تساؤلات أو منغصات، من أجل نفسك.
ثم اقترب منه في شدة، مضيفًا بلهجة تموج بالحماس والانفعال:
- ومن أجل (مصر).
انتفض الشاب كله هذه المرة، وهو يقول، في حماس منقطع النظير:
- كلي فداها.
ثم شدَّ قامته، مستطردًا:
- صحيح أنني مازلت أجهل الحكمة من هذا، ولكنني أعدك بأنني، ومنذ هذه اللحظة، سألقي حياتي السابقة كلها خلف ظهري، ولن

أحاول قط معرفة ما كنت عليه، وسأحمل حتى آخر لحظة في عمري اسمًا واحدًا.
وأشار إلى صدره، مضيفًا في حزم وحسم:
- اسم (فاى).
وانتفض جسده في حماس أكثر..

☆☆☆

«احترس يا (رفعت)..»..
نطق مدير المخابرات هذه العبارة الموجزة في حزام، وهو يلوّح بسبّابته في وجه (رفعت)، مستطردًا:
- تـــذكر القاعـدة الرئيسـية فــي عملنــا.. «لا تقـع فــي حــب العميل..».. تعامل معه دائمًا بدون مشاعر أو عواطف، وإلا فقد تنحاز له، حتى عندما يقع في أخطاء جسيمة، فتهدّد بهذا أمنه، وأمن الوطن كله.
صمت (رفعت) لحظات، ثم قال في حزم:
- اطمئن يا سيّدي.. ليس أنا من يفعل هذا.
تراجع المدير في مقعده، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه، وهو يقول:
- هذا يحدث دائمًا دون أن تشعر يا (رفعت).. إنك تؤمن تمامًا بالمبدأ، ولكن العميل يجتذب إعجابك يومًا فيومًا، فلا تنتبه إلا وأنت مغرم به، بحيث تبدو لك كل أفعاله صحيحة، مهما انطوت على خطأ.
عاد (رفعت) إلى صمته لحظات أخرى، ثم قال:
- الواقع أن هذا الشاب بالذات أثار إعجابي واهتمامي، منذ اللحظة الأولى يا سيّدى، من قبل حتى أن يستعيد وعيه، وهذا كان السبب الرئيسي، في إصراري على تجنيده بين صفوفنا، ولكن هذا الإعجاب يتخذ معي اتجاهًا آخر، بخلاف ما يثير قلقكم.. إنني

أريد أن أصنع من هذا الشاب تحفة نادرة، في عالم المخابرات، ولهذا فأنا لا أتغاضى عن أية أخطاء يرتكبها، مهما كانت بسيطة..
وشرد ببصره، وهو يضيف:
- بل وربما أقسو عليه في بعض الأحيان، على الرغم من إعجابي به، ولكنني أتعامل معه كما يتعامل الأب مع ابنه، الذي يتمنى رؤيته في أرفع مكانة في الدنيا كلها.. صدقني يا سيّدي.. هذه العملية تهمني.. تهمني أكثر مما تتصوَّرون.
كان تهدج صوته الواضح، وهو يشرح الأمر، يشير إلى عكس ما يحاول إقناع المدير به تمامًا..
ولقد أدرك المدير هذا بالفعل.
ولكن من حسن الحظ أن القواعد في عالم المخابرات ليست صارمة إلى حد الجمود..
إنها تسبح فوق بحر من المرونة والحكمة، مما يؤثر على صانع القرار فيها، ويجعله أكثر قدرة على التعامل مع الأحداث والمتغيرات..
ومن هذا المنطلق، أومأ المدير برأسه، ثم قال:
- فليكن يا (رفعت).. سأسمح لك بإكمال المهمة حتى النهاية.
تألقت عينا (رفعت)، على الرغم من الجهد الخارق، الذي بذله للسيطرة على انفعاله، ولكن المدير تنهد، وهو يضيف:
- على الرغم من أن الظروف ستتعارض مع هذا.
سأله (رفعت)، وقد مال انفعاله كله إلى جانب القلق:
- أية ظروف؟
أجابه المدير بابتسامة هادئة:
- لقد انتهت فترة عمل (نسيم) في مكتب (نيويورك)، وسيعود إلى القاهرة، ليتسلَّم عمله في الجهاز.. خمن من سيحل

محله هناك.
ارتفع حاجبا (رفعت)، وهو يقول:
- هل تقصد سيادتك أنني...؟
قبل أن يتم تساؤله، أومأ المدير برأسه إيجابًا، وقال:
- نعم يا (رفعت).. أنت المدير الجديد لمكتبنا في (نيويورك).. هيَّا أعد حقائبك، واستعد للسفر خلال ثلاثة أيام، فـ(نسيم) ينتظرك على أحرّ من الجمر، لتتسلَّم العمل، ويعود هو إلى الوطن.
صمت (رفعت) لحظات في شرود، فابتسم المدير، قائلًا:
- وستحتاج إلى مساعد بالطبع، ولقد رشحت لك النقيب (حسن عبد الله).
انعقد حاجبا (رفعت)، وهو يقول:
- (حسن عبد الله)؟!.. من هو؟.. لم أسمع به من قبل!
قال المدير، وهو يمدّ يده إليه بصورة ضوئية:
- ربما لا تعرف اسمه، ولكنك بالتأكيد تعرف هيئته.. ها هي ذي صورته.
ولم يكد (رفعت) يلقي نظرة على صاحب الصورة، حتى ارتفع حاجباه في دهشة، في حين أكمل المدير في جدية حاسمة:
- إنه يحتاج إلى التدريب على التعامل في أرض أجنبية.. أليس كذلك؟
ولم ينطق (رفعت) بكلمة واحدة، وإن شعر في أعماقه بامتنان كبير، فالصورة التي أعطاه إياها المدير، والتي تحمل اسم النقيب (حسن عبد الله)، كانت في الواقع صورة الشاب.
صورة (فاي).

☆☆☆

7- الإرهاب..

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي (نسيم)، وهو يستقبل صديقه (رفعت)، ويصافحه في حرارة، مربتا على كتفه، قائلًا:

- مرحى يا رجل.. لا يمكنك أن تتصوَّر كم اشتقت إليك.

أجابه (رفعت) بابتسامة هادئة، ولهجة تحمل شوقًا حقيقيًا:

- شعور متبادل يا صديقي.

أدار (نسيم) عينيه إلى الشاب، وارتفع حاجباه في دهشة، وهو يهتف:

- أهذا هو...؟!

جاء صوت (رفعت) محملًا بنبرة فخر واعتزاز، وهو يجيب:

- نعم.. إنه هو.

تطلّع (نسيم) إلى الشاب لحظة في صمت ودهشة، ثم لم يلبث أن ابتسم، وهو يصافحه، قائلًا:

- مرحبًا بك بين صفوفنا يا فتى.

فوجئ بـ(رفعت) يقول في حزم صارم:

- ليس بعد.

انعقد حاجبا الشاب في ضيق، في حين قال (نسيم) في دهشة:

- ماذا تعني؟!.. لقد حضر معك بصفة رسمية.. أليس كذلك؟

رفع (رفعت) سبَّابته، مجيبًا:

- تحت الاختبار فحسب.

واصل (نسيم) التطلّع إليه في دهشة، لفترة من الوقت، قبل أن يبتسم، قائلًا:

- آه.. بالطبع.

ثم التفت إلى الشاب، مستطردًا:

- مرحبًا بك على أي حال.
وغمز بعينه، مضيفًا:
- تحت الاختبار.
ابتسم الشاب ابتسامة باهتة، وهو يقول:
- أشكرك يا سيّدي.
شملهم صمت قصير بلا مبرّر، قبل أن يقول (رفعت):
- متى تعود إلى الوطن يا (نسيم)؟
هزَّ (نسيم) كتفيه، قائلًا:
- فور انتهائي من حزم حقائبي يا صديقي.. إنني أكاد أموت شوقًا للعودة إلى (مصر).
ثم هزَّ رأسه، وابتسم مستطردًا:
- عجيبة هي (مصر) هذه.. تحنقك أوجه القصور فيها، ويغضبك الإهمال في بعض أماكنها، ولكنك ما إن تبتعد عنها، حتى تكشف أن قلبك ينبض باسمها، وأنك تذوب شوقًا للعودة إليها.
أجاب الشاب في سرعة:
- لأنها (مصر).
نطقها وكأن هذا وحده سببًا كاف لعشقها والشوق إليها..
وفي لحظة صمت تالية، تطلَّع إليه (رفعت) و(نسيم) في صمت، قبل أن يقول الأوَّل:
- ماذا فعلت برجال الـ(سي. آى. إيه) ؟.. هل جعلتهم يقسمون إننا الأفضل؟
ضحك (نسيم)، قائلًا:
- من الواضح أن فكرتك عن العمل هنا وردية للغاية يا رجل.. إننا نقضي معظم وقتنا في جمع المعلومات، وتنسيقها، وإرسالها بالشفرة إلى (القاهرة)، ثم ننتظر

أوامرهم، ونعمل على تنفيذها.. إننا لم نحتك بالمخابرات الأمريكية مباشرة سوى مرتين، وفيما عدا هذا، كنا نقضي الكثير من الوقت في مشاهدة (التليفزيون)، و...

كان ينطق عبارته الأخيرة، وهو يشير إلى (التليفزيون)، الذي انقطع إرساله فجأة، وظهر وجه مذيعته الشهيرة، وهى تقول:

- سيّداتي سادتي.. تقطع برامجنا المعتادة، لنذيع عليكم هذا الخبر الهام.. احتل عدد من الإرهابيين أحد المتاجر الكبرى في قلب (نيويورك)، واحتجزوا عددًا من الرهائن، من بينهم زوجة وزير التجارة الفرنسي، والممثلة العالمية (ريتا براون) والسفير المصري، و..

لم يسمع (رفعت) باقي الخبر، وهو يهتف:

- رباه!.. سفيرنا في قبضتهم.

أشار إليه (نسيم) بالصمت، قائلًا:

- مهلًا يا رجل.. دعنا نتابع الحدث كله.

واصلت المذيعة سرد أسماء بعض الرهائن، قبل أن تتابع:

- ولقد حاصرت قوات الشرطة المبنى، ولكن الإرهابيين طلبوا فدية قدرها خمسة ملايين دولار، وطائرة هليوكوبتر كبيرة، تنقلهم إلى جهة لم يتم تحديدها بعد، وهدّدوا بقتل أحد الرهائن كل ساعتين، ما لم تتم الاستجابة لمطالبهم، ومازال رجال الشرطة يتفاوضون معهم للإفراج عن الرهائن، و..

استمرت المذيعة في إعلان الخبر، في حين غمغم الشاب:

- إنهم يحتجزون مصريًا.

أجابه (نسيم):

- ليس مصريًا عاديًا.. إنه سفيرنا نفسه.

قال الشاب في حزم:

- لايهم منصبه!
هتف (نسيم) في دهشة:
- ماذا تقول؟
انتبه (رفعت) إلى الشاب، وهو يجيب:
- أقول إن مهنته لا تهم.. المهم أنه مصرى.. أي مصري، ولا يمكننا أن نسمح لهم بتهديد مصري قط..
تألقت عينا (رفعت)، وهو يستمع إلى هذه الكلمات، في حين التفت إليه (نسيم)، وقال في دهشة حقيقية، وهو يشير إلى الشاب:
- قل لي: أيعني حقًا ما يقول؟
ابتسم (رفعت)، قائلا:
- (فاي) قليل الحديث، ولكنه يعني دائمًا كل حرف ينطق به.
ثم وضع يده على ذراع الشاب، قائلًا في حزم:
- أعتقد أن الفرصة جاءتك يا (فاي).
التفت إليه الشاب في حركة حادة، وسأل بصوت يلتهب حماسًا وانفعالًا:
- هل تعتقد هذا حقًا؟
أومأ (رفعت) برأسه إيجابًا، وهو يقول:
- نعم.. لن ننتظر الأوامر هذه المرة.. سأتحمل المسؤولية كاملة، وأسند إليك هذه المهمة.
هتف (نسيم) مستنكرًا:
- هل جننت يا رجل؟.. إنه شاب واحد، وحديث العهد بالعمل، و...
لم يلتفت (رفعت) للقول، وكأنه لم يسمعه، وهو يمسك ذراع الشاب في قوة، قائلًا:
- افعلها يا فتى.. انقذ هؤلاء الرهائن، وعلى رأسهم السفير المصرى.. افعلها من أجلي.. من أجل (مصر).

انتفض جسد الشاب كله، وهو يقول:
- أشكرك يا سيّدي.. أشكرك كثيرًا..
وأخرج مسدسه، وجذب مشطه، وتركه يرتد في عنف، بذلك الصوت المعدني، قبل أن يضيف في حزم:
- متى نبدأ؟
أشار (رفعت) بسبَّابته، وتألقت عيناه، وهو يهبط بها في حزم:
وكانت هذه إشارة البدء..

☆☆☆

اكتظت تلك المنطقة من (نيويورك) على نحو بشع، في تلك اللحظات، واحتشد حولها جيش من رجال الشرطة، والإطفاء والحرس الوطني، ورجال الصحافة، والإعلام، والمارة، والمتطفلين، حتى لم يعد هناك موطئ لقدم، وتعلَّقت أبصار الجميع بذلك المتجر، المكون من خمسة طوابق، والذي أغلقت بوابته الزجاجية السميكة، المضادة للرصاص، وظهر خلفها اثنان من الإرهابيين، يحملان مدفعين آليين ضخمين، في حين بدا زميلان لهما واضحين، فوق سطح المبنى، بمدفعيهما الكبيرين، ومعهما ثلاثة من الرهائن، في حالة يرثى لها، وبرز زعيم الإرهابيين من نافذة بالطابق الخامس، وهو يصيح في صرامة:
- بقيت ساعة واحدة، ونرسل إليكم الضحية الأولى.. وأرجو أن تدركوا جيدًا أننا لا نمزح، وأن ما نقوله ليس مجرَّد تهديدات جوفاء.. ساعة فقط، فإما أن تصل الهيوكوبتر مع النقود، أو تثبت لكم صحة ما نقول.
عقد ضابط المباحث الفيدرالية الأمريكي (مارش) حاجبيه في غضب، عندما سمع هذا القول، وغمغم محنق:
- يا للوغد!

ثم التفت إلى أحد مساعديه، واستطرد في حدة:
- ماذا يفعلون هناك في القيادة؟.. الوقت يمضي في سرعة، وهم لا يحركون ساكنًا.. أين ردود الأفعال المنتظرة؟
أجابه مساعده، في توتر مماثل:
- لست أدري ما يفعلونه بالضبط.. يقولون إنه من الضروري أن يجمعوا أكبر قدر من المعلومات أولًا، قبل اتخاذ أية خطوة تالية.. ثم إنهم يفضلون الانتظار حتى آخر وقت ممكن.
هتف (مارش) في حنق:
- آخر وقت ممكن؟!.. كيف يفكر هؤلاء الحمقى بالضبط؟!.. الأمر لا يحتمل الانتظار والتروي.. إما أن يستجيبوا لمطالب هؤلاء الأوغاد، أو يقاتلوهم مباشرة.. فليرسلوا الهليوكوبتر والنقود، أو فرقة مسلحة لاقتحام المكان، وإنقاذ هؤلاء الرهائن.
هزَّ مساعده رأسه، وهو يقول:
لو أنني في موضعهم، لما كان القرار سهلًا بالنسبة لي على الإطلاق، فالصحافة لن ترحمهم لو دفعوا الفدية بهذه البساطة، وسيتهمهم الرأي العام بأنهم تقاعسوا عن أداء واجبهم، وبأنهم بهذا يفتحون الباب أمام أية عمليات إرهابية أخرى، بعد أن سمحوا لهؤلاء الإرهابيين بتحقيق أهدافهم، ولو أنهم أرسلوا فرقة لاقتحام المكان، ستكون هناك خسائر حتمًا في الأرواح، بين صفوف الفرقة، وبين الرهائن أنفسهم، وفي هذه الحالة أيضًا لن يرحمهم أحد.
لوح (مارش) بيده، قائلًا:
- وماذا عن هؤلاء الرهائن؟.. من يرحمهم؟
تنهَّد مساعده في أسف، مغمغمًا:
- من يدري؟!

فـي نفـس اللحظـة التـي نطـق فيـها عبارتـه، كـان (رفعـت) يخفض منظاره المقرب عن عينيه، في نافذة مبنى يواجه المبنى التجاري مباشرة، ويقول في اهتمام:
- تسعة أشخاص.
غمغم (نسيم)، وهو يواصل المراقبة:

- هذا ما أحصيته أيضًا.. اثنان في المدخل، ومثلهما فوق السطح، والزعيم وثلاثة في الطابق الخامس، وواحد يفتش الطوابق الأخرى طوال الوقت.
ثم التفت إلى الشاب، الذي يعد مسدسه، وقد ارتدى تلك الحلة السوداء، التي تحمل على الجانب الأيسر من صدرها الرمز (فاي)، واستطرد في قلق:
- هل سيمكنك مواجهة كل هؤلاء بمسدس وخنجر؟!
أجابـه (رفعـت) فـي ثقـة، وهـو ينـاول الشـاب جـهاز اتصـال لاسلكيًا صغيرًا:
- إنه يستطيع سحقهم وهو أعزل.
عقد (نسيم) حاجبيه، وهو يقول:
- المبالغة لن تكون في صالحه.
قال الشاب في هدوء، لا يخلو من الحزم:
- بالتأكيد.
ثم أشار إلى ورقة أمامه، مستطردًا:
- أأنتمـا واثقـان مـن أن أفضـل نقطـة لاقتحـام المكـان هـي فتحات التهوية، في الطابق الثالث؟!
أجابه (نسيم) في سرعة:
- بدون أدنى شك.. هذا المتجر هو متجري المفضل، منذ تسـلَّمت عملـي هنـا. وبحكـم العـادة، كنـت أدرس مـداخله ومخارجـه،

كلمـا أتـيت إليـه، ولقـد لاحظـت ذات مـرة أن فتحات التهوية العلوية فيه مناسبة لمرور شخص متوسط المقاييس، وأنها تتصل بفتحات التهوية للمبنى الذي يقع خلفـه مباشـرة، لأنـه يـخّص المـالك نفسـه، وأعتقـد أن الفيدراليين الأمريكيين سيكشفون هذا بعد فوات الأوان.

سأله (فاي)، وهو يدسّ المسدس في حزامه:

- ولماذا الطابق الثالث بالتحديد؟

أجابه (رفعت) هذه المرة:

- لان الإرهابيين يحتلون بالفعل الطابقين الأول والخامس، وسنراقب نحن ذلك الذي يفتش الطوابق الثلاث الأخرى، ونتصل بـك لاسلكيًا، لنحـدد لـك اللحظـة المناسبة لـدخول الطابق الثالث، عندما يكون هو في أحد الطابقين، الرابع أو الثاني.

وأضاف (نسيم):

- ثم إن الطابق الثالث يحوي الأثاثات المنزلية والأدوات الكهربائية، وكلها أشياء كبيرة، يمكن الاختباء خلفها وقت اللزوم.

غمغم الشاب:

- هل تقومون بدراسة الموقف بهذه الدقة دائمًا؟

ابتسم (نسيم) في سخرية، وهو يقول:

- بهذه الدقة؟!.. إنك لم تر بعد الدراسات الدقيقة يا فتى..

مـا نفعلـه الآن ينـدرج تحـت اسـم (الدراسـات الميـدانية المباشرة).

وألقى (رفعت) نظرة على ساعة يده، وهو يراقب الشاب، الذي ارتدى معطفًا ليخفي حلته السوداء، ثم قال:

- هيا يا فتى.. الوقت يمضي في سرعة.

دسَّ الشاب جهاز اللاسلكي في جيبه، قائلًا في حزم:

- اطمئن.

وإتجه في خطوات حاسمة نحو الباب، ولكن (رفعت) قال في صوت خافت:
- (فاي).
كاد لسانه يخونه، وينطق الاسم الحقيقي للشاب، ولكنه سيطر عليه في اللحظة الأخيرة، ونطق اسمه الجديد، فالتفت إليه الشاب بعينين متسائلتين، وتقدَّم هو نحوه، وأمسك كتفيه في قوة، وتطلَّع إلى عينيه مباشرة، قائلًا:
- أريدك أن تنجح.
صمت الشاب لحظة، قبل أن يجيب:
- سأبذل قصارى جهدي.
ثم استدار، وغادر المكان كله..
ولثوان، ظل (رفعت) صامتًا جامدًا، يتطلع إلى الباب، الذي غادره الشاب على الفور، حتى انتزعه صوت (نسيم) من شروده، وهو يقول:
- «لا تقع في حب العميل».
استدار إليه (رفعت) في بطء، دون تعليق، فاستطرد في حزم:
- هذا خطأ كبير في عالمنا.. إنك تميل إلى هذا الشاب أكثر مما ينبغي.
كان يتوقع إنكارًا أو استهجانًا من (رفعت)، إلا أنه فوجئ به يجيب، في شيء من الحزن:
- هذا صحيح.
تطلَّع إليه (نسيم) في دهشة، وهمَّ بقول شيء ما، ولكن (رفعت) استوقفه بإشارة من يده، قائلًا:
- ولن نناقش هذا الأمر الآن.
ثم ضغط زر (التليفزيون)، مستطردًا:

- منذ هذه اللحظة، لن يشغل فكرنا سوى هذا الموقف.. سنتابع التغطية التليفزيونية أولًا فأولًا، ونراقب الموقف من هنا، ونبقى على اتصال بالشاب.
ووضع منظاره المقرب على عينيه، مضيفًا في حسم واضح:
- وهذا كل شيء.
ولم يعلّق (نسيم) بحرف واحد هذه المرة..
فقط وضع منظاره المقرّب على عينيه بدوره، و...
وواصل المراقبة.

☆☆☆

لم يكن الوصول إلى المبنى الخلفي عسيرًا، بعد أن تركزت الأبصار والجهود كلها على المبنى التجاري الأمامي، حتى أن الشاب وجد نفسه في سرعة، داخل قبو المبنى، عند فتحة التهوية الرئيسية، قبل مرور دقائق عشر، فرفع جهاز الاتصال اللاسلكي إلى شفتيه، وقال:
- هنا (فاي).. أنا الآن عند النقطة (1).
أتاه صوت (رفعت)، وهو يقول في حماس:
- عظيم.. لا تضع ثانية واحدة يافتى.. تقدَّم على الفور.
قال الشاب بسرعة:
- أنا في طريقي.
ثم خلع معطفه، وعلَّقه فوق ماسورة قريبة، ثم انحنى يخلع ذاك الشباك المعدني الثقيل، الذي يسدّ فتحة التهوية الرئيسية، وانزلق داخلها، وراح يزحف داخل ممراتها في سرعة ومهارة، حتى بلغ نهاية الممر، حيث ارتفع ممر رأسى، بارتفاع طوابق المبنى التجاري الخمس، لتتفرَّع منه مداخل الطوابق..

وكانت جدران ذلك الممر من المعدن المصقول، على نحو يجعل تسلّقه شبه مستحيل، فقال الشاب عبر جهاز الاتصال:
- أمامى المدخل الرأسي للتهوية، وأنا في النقطة (صفر-3)..
دوت الكلمة في رأسه بغتة..
البقعة (صفر-3)..
يومًا ما ردَّد عبارة مشابهة..
متى؟!..
وأين؟!..
قبل أن يسترسل في أفكاره، سمع صوت (رفعت)، عبر جهاز الاتصال، وهو يقول:
- ماذا تنتظر مني يا فتى.. واصل طريقك.. لقد خسرنا نصف الساعة حتى الآن، ولم يعد أمامنا سوى النصف الآخر.
كاد يخبره بصعوبة الموقف، إلا أن شيئًا ما في أعماقه رفض الاعتراف بهذا، فأجابه في حزم حاسم:
- أنا في طريقي إلى الموقع (صفر)، بإذن الله.
قالها ووضع جهاز الاتصال في حزامه، ثم ألصق ظهره بجدار الممر الرأسي، ودفع قدمية في الجدار المقابل، و..
وبدأ يتسلَّق بهذا الأسلوب المرهق..

ولم تكن عملية سهلة أبدًا..

لقد أنَّ عموده الفقري ألمًا، وصرخت عضلات ساقيه، وراح يلهث في شدة، قبل أن يتجاوز حتى الممر الخاص بالطابق الثاني.
وهنا تجلَّت إرادته الفولاذية...
كان يمكنه أن يتوقف لالتقاط أنفاسه، في الطابق الثاني، إلا أنه خشي أن يسترخي جسده، فلا يعود قادرًا على المضي في ذلك الأمر الشاق مرة ثانية..
ثم إنه كان يخشى فقدان الوقت..
ولهذا لم يتوقف..
كان العرق يغمر وجهه، والألم يسري في جسده كله، ولكنه لم يتوقف لحظة واحدة..

لقد واصل طريقه بإرادة مذهلة، حتى بلغ الفتحة المحدودة، التي تقود إلى نظام التهوية في الطابق الثالث، فدار بجسده في بطء ليدلف إليها، و...

وفجأة، انزلقت قدماه من الجدار المقابل، وفقد جسده توازنه، و...

وهوى.

هوى من ارتفاع ثلاثة طوابق.

☆☆☆

شفَّت كل خلجة من خلجات (رفعت) عن ذلك القلق العنيف، الذي يعتمل في أعماقه، وهو يلقي نظرة على ساعته، ثم يعاود التطلُّع إلى المبنى التجاري، عبر منظاره المقرّب، فقال (نسيم):

- أما زلت تشعر بالقلق؟

أجابه (رفعت) في توتر:

- الوقت يمضي في سرعة، ولم يعد باقيًا على الموعد سوى عشر دقائق، والفتى لم يظهر بعد.

سأله (نسيم) للمرة الخامسة:

- هل تعتقد أنه قادر على مواجهة الجميع هناك؟

أومأ (رفعت) برأسه إيجابًا، وهو يقول:

- الفتى تلَّقى تدريبات معقدة للغاية يا (نسيم)، ثم إنه مقاتل صاعقة سابق، أثبت مهارة مذهلة في حرب أكتوبر، عندما أوقف وحده طابور دبَّابات حديث.

غمغم (نسيم):

- وهل سينسف نفسه مع هؤلاء الإرهابيين أيضًا؟

رفع (رفعت) المنظار المقرّب عن عينيه، قائلا في ضيق:

- لا تسخر من الموقف.

تنهَّد (نسيم)، وقال:

- صدقني يا رجل.. لست أسخر من الموقف أبدًا، فأنا رجل مخابرات مثلك، ويمكنني تقدير مدى خطورة الأمر، ولكنني أشك في قدرة شاب منفرد، على مواجهة تسعة من الإرهابيين دفعة واحدة.

صمت (رفعت) لحظات، ثم قال في حزم:

- إنه محترف.
قال (نسيم):
- وماذا عنهم؟
هزَّ (رفعت) كتفيه، قائلًا:
- مجرَّد طغمة من الأوغاد، الذين يتصوَّرون أن مجرد حمل السلاح يجعلهم أكثر قوة من الآخرين.
سأله (نسيم):
- وهل تعتقد أن هذا يمنحه مزية كبيرة؟
أومأ (رفعت) برأسه إيجابًا، وهو يقول:
- بالطبع.. لا يمكن أبدًا أن تقارن، بين محترف وهاو، مهما بلغ عنف ذلك الهاوي وشراسته.
تنهَّد (نسيم) مرة أخرى، قبل أن يتمتم:
- ربما كنت على حق.
ومع آخر حروف كلماته، نقل (التليفزيون) صوت الضابط (مارش)، وهو يقول لزعيم الإرهابيين، عبر مكبر صوتي:
- المسؤولون وافقوا على تلبية مطالبكم، ولكن المهلة التي منحتمونا إياها قصيرة للغاية.. نحتاج إلى ساعة أخرى لتدبير المبلغ.
أتاه صوت زعيم الإرهابيين، وهو يقول:
- لا بأس.. سنمنحكم ساعة أخري.
هتف (نسيم) في دهشة:
- ماذا أصاب ذلك الوغد؟.. هل أصبح فجأة رقيق القلب؟!
ولكن زعيم الإرهابيين جذب أحد الرهائن إليه، وهو يكمل في شراسة ساخرة:
- ولكننا سنترك لكم خلال هذه الساعة ما تذكرونا به.

وبلا ذرة واحدة من التردّد أو الشفقة، أطلق النار على رأس رهينته، ثم ألقاه خارج النافذة...

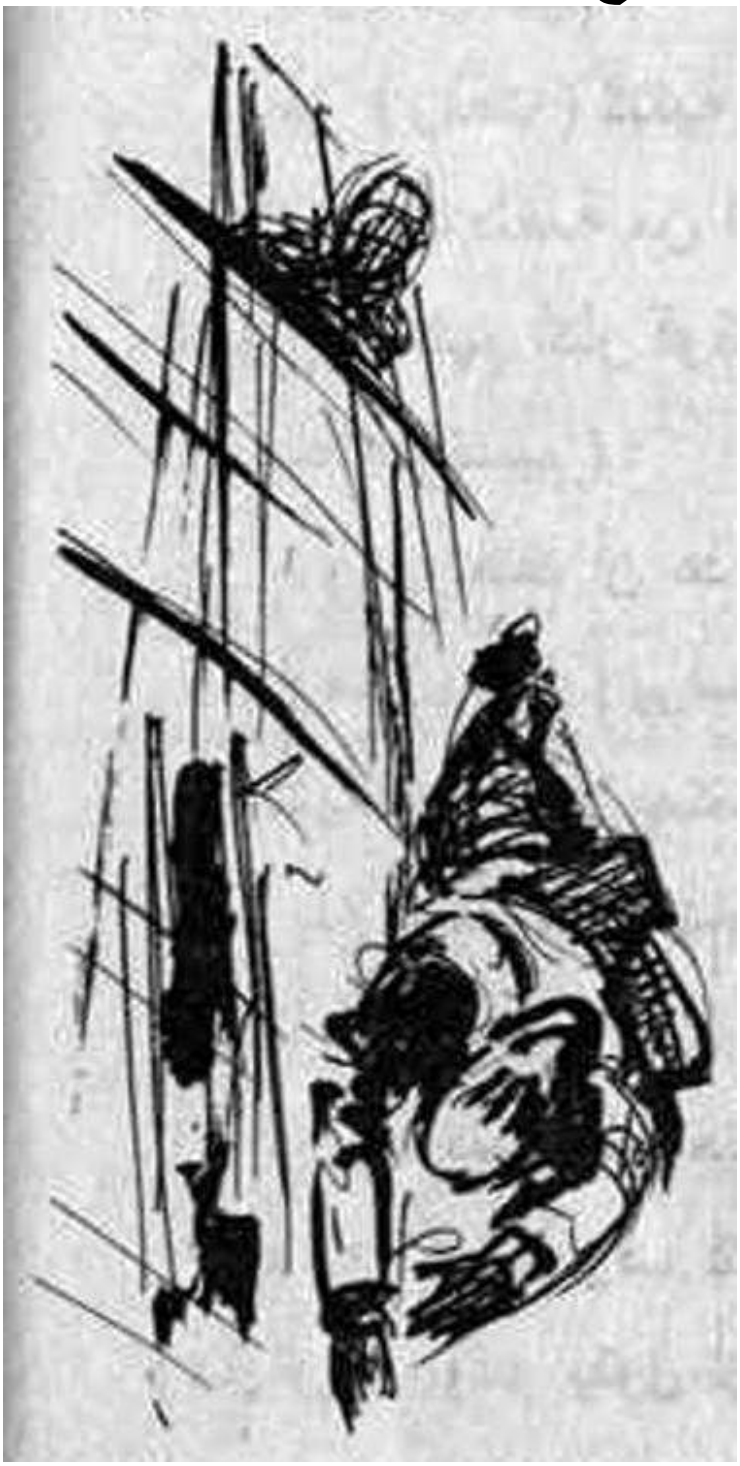

وانتفض جسدا (رفعت) و(نسيم)، مع بشاعة المشهد، ونقل التلـــيفزيون صـــراخ الجمـاهير وذعـرهم، والجثـة تسـقط محطمة الرأس من الطابق الخامس، لترتطم بالأرض في عنف، والضابط (مارش) يصرخ:

- لماذا؟.. لماذا؟

أجابه زعيم الإرهابيين بضحكة ساخرة عالية، قائلًا:
- إنها بطاقتنا يا رجل، وأراهن على أنها ستجبركم على عدم مد المهلة دقيقة واحدة إضافية، فبعد ساعة بالتحديد، وبدون دقيقة إضافية، سأنسف مخ هذا الرجل.
قالها، وهو يجذب إليه أحد الرهائن..
وانعقد حاجبا (نسيم) في شدة، في حين تمتم (رفعت) في غضب:
- يا للوغد!
فقد كانت الضحية المنتظرة هذه المرة هي السفير.
السفير المصري..
وهتف (نسيم):
- كم أتمنى أن ينسف فتاك رأس هذا الوعد، عندما يصل إليه.
أجابه (رفعت)، وهو ينظر إلى ساعته:
- المهم أن يصل إليه أولًا.. إنني أشعر بقلق شديد من أجله..
لماذا لم يظهر أو يتصل حتى الآن؟!
ثم أمسك جهاز الاتصال، مستطردًا:
- سأتصل به أنا.
وقبل أن تضغط بسبَّابته زر الاتصال، ظهرت مذيعة التليفزيون على الشاشة، وهي تقول في انفعال:
- سيّداتي سادتي.. وصلتنا الآن معلومات مدهشة، حول هؤلاء الإرهابيين.. لقد تبين لنا أن زعيمهم هو (بيتر سوان)، رجل المخابرات الأمريكية المنشق، وأن رفاقه من المحترفين، الذين أنجبتهم حرب (فيتنام)، وليسوا مجرَّد إرهابيين عاديين.. أكرّر: إنهم محترفون.. محترفون.
تبادل (رفعت) و (نسيم) نظرة تفيض بالهلع، عندما كرَّرت المذيعة كلمتها الأخيرة، وهتف (نسيم) في حنق:

- هذا عيب الدراسات الميدانية المباشرة، التي لا تستند على قاعدة من المعلومات الموثقة.
أما (رفعت)، فضغط زر الاتصال، هاتفًا:
- لابد من تحذير (فاي).. لن يمكنه أبدًا مواجهة تسعة من المحترفين.
وهتف عبر الجهاز:
- (فاي).. (فاي).. هل تسمعني؟
كرَّر النداء ثلاث مرات متتالية، فلم يجيبه سوي الصمت المطبق..
صمت يجعلك تتساءل: ماذا حدث بالضبط؟..
ماذا أصاب الشاب؟..
ولكن سؤالك يظل ضائعًا، عبر موجات اللاسلكي بلا هدف..
وبلا جواب..

☆☆☆

عندما يواجه المرء خطرًا مباغتًا، تنطلق كل طاقات جسده دفعة واحدة، وتأتي ردود أفعاله غريزية سريعة، ينسقها المخ بأسلوب عجيب، عجز عن تفسيره علماء المخ ووظائف الأعضاء، حتى هذه اللحظة..
وفي اللحظة التي انزلق فيها جسد الشاب، وبدأ يهوى في الفراغ، من ارتفاع ثلاثة طوابق، اندفعت يداه إلى الأمام في حركة غريزية، وتشبثتا بحافة الممر الأفقي، الذي يقود إلى نظام تهوية الطابق الثالث بالكامل..
وبكل قوته، وغريزة البقاء في أعماقه، تيبَّست أصابعه فوق الحافة، وحمت جسده كله من السقوط المروع، وهو يرتطم بجدار الممر الرأسي في عنف..

ومع قوة الارتطام، قفز جهاز اللاسلكي من حزامه، واصطدم بالجدار، ثم سقط من هذا الارتفاع، وضرب قاع الممر بدوي عنيف، خيل للشاب أنه تردَّد في المبنى كله، وانتقل صداه إلى الشوارع المجاورة، قبل أن يتلاشى، ويضيع في تلك الممرات المتشابكة، التي بدت وكأنها بلا نهاية..

ولثوان، ظلّ الشاب معلقًا بالحافة، وهو يلهث في شدة، ثم اندفعت الدماء في عروقه، لتنقبض عضلاته، ويرفع جسده إلى أعلى..

وفي الظروف المعتادة، كان هذا عملا عاديًا، أما الآن، فقد شعر وكأن جسده أصبح يزن أضعاف أضعاف ما كان عليه، حتى صار كتلة من الفولاذ، تحتاج إلى ونش هائل لرفعها..

ولكنه نجح..

أخيرًا نجح..

واسترخي جسده يلهث لحظات، قبل أن يلقي نظرة متوترة على ساعة يده، التي أشارت عقاربها إلى بقاء خمس دقائق فحسب، من المهلة الممنوحة..

وكان هذا يعني أنه فشل في إنقاذ الضحية الأولى..

امتلأت نفسه بالحنق والمرارة، ولكن هذا لم يمنعه من النهوض، والتحرك في سرعة، داخل ممر التهوية، قبل أن يكمل حتى التقاط أنفاسه، وهو يعدو تقريبًا، على يديه وركبتيه، عبر الممر، حتى بلغ ساحة البيع، في الطابق الثالث..

ولدقيقة أو يزيد، راح يراقب المكان، عبر الفتحات الضيقة في سقفه، التي تتم عبرها عملية تنقية الهواء، من خلال ممرات التهوية..

كان يشعر بالضيق؛ لأنه فقد جهاز الاتصال، إلا أن هذا لم يفت من عضده، فقد اتخذ قراره بالقيام بالمهمة وحده، مادامت الظروف تضطره إلى هذا..

وحده..
نعم.. لقد فعلها حتمًا من قبل..
يومًا ما، خاض عملية خطيرة وحده..
شيء ما في أعماقه يذكر هذا..
ولكن لا وقت الآن لاستعادة الذكريات، والنبش في مقبرة الماضي..
هناك مهمة، لابد أن يبذل قصارى جهده للنجاح فيها..
وبأي ثمن..
فالنجاح هذه المرة، يعني مولده من جديد.
إنه مرحلة بعث، ينهض فيها من ماضيه، وينطلق في حاضره ومستقبله..
وعلى الرغم من فقدانه لجهاز اللاسلكي، ويقينه من أنه يؤدي المهمة منفردًا، دون توجيه خارجي، أزاح أحد مربعات التهوية من السقف، وثبَّت الحبل الذي يحمله على كتفه، ثم وثب إلى قاعة البيع في الطابق الثالث، و...
"يا للشيطان!.."
انطلقت الصيحة من مسافة ثلاثة أمتار منه، فاستدار نحوها في سرعة، ورأى فوهة مدفع آلى مصوَّبة نحوه، وخلفها أحد الإرهابيين، وقد امتلأت ملامحه بتوتر عنيف، وقفزت سبَّابته إلى زناد مدفعه..
ولكن الشاب قفز قفزة قوية مرنة، لا يمكن وصفها إلا بأنها مذهلة؛ فقد عبر بها الأمتار الثلاثة، التي تفصله عن الإرهابي، وجسده يدور كله حول نفسه، ثم يركل المدفع الآلي في يده، قبل أن تعتصر سبَّابته الزناد..
وعندما هبط على قدميه، كان الإرهابي ينقض عليه في غضب، هاتفًا:

- إذن فقد بدأ أوغاد الشرطة تحركاتهم.
هوى الإرهابي على فكه بلكمة قوية، ألقته إلى الخلف في عنف، فارتطم بكومة من الوسائد المطاطية، جعلته يرتد سريعًا، واستغل هو ارتدادته هذه، ليلكم الإرهابي بكل قوته في معدته..
وعندما انثنى الرجل من أثر اللكمة، عاجله بضربة أخرى كالقنبلة، على مؤخرة عنقه، ثم استقبل ذقنه بركلة عنيفة من ركبته، تحطم لها أنف الإرهابي، الذي أطلق صوتًا أشبه بالخوار، وحاول أن ينهض، ملقيًا سبابًا ساخطًا، كتمه الشاب بلكمة أخيرة، امتزج صوت ارتطامها بفك الإرهابي بصوت أسنان تتحطم، قبل أن يسقط الرجل فاقد الوعي تمامًا..
وفي سرعة، جذب الشاب الإرهابي بعيدًا، وانتزع حبل إحدى الستائر، وراح يقيده في إحكام، ثم ألقاه داخل أحد الدواليب، وأحكم إغلاقه، ووقف يدرس الموقف..
كان أمامه طريقان للوصول إلى الطابق الخامس، حيث يحتفظون بالرهائن، إما أن يصعد إليه، عبر السلم أو المصعد، أو يهبط إليه من السطح.
ولكل من الطريقين متاعبه ومخاطره.
فالصعود يجعله يواجه أربعة من الإرهابيين مباشرة، مع وجود الرهائن، بكل ما يحمله هذا من مخاطر، والهبوط من السطح يحتاج أولًا إلى الوصول للسطح، الذي يقف فوقه إثنان من الإرهابيين مع بعض الرهائن، والسيطرة على الموقف هناك، بما يحمله من مخاطر أيضًا..
ولكن الوقت يمضي، وعليه أن يحسم موقفه..
وبأقصى سرعة..

☆☆☆

«مراقب الأدوار لم يظهر، منذ خمس دقائق..»..

نطق (رفعت) هذه العبارة في اهتمام بالغ، وهو يراقب المبنى التجاري بمنظاره المقرّب، فسأله (نسيم):
- وما الذي يعنيه هذا في رأيك؟
أجابه في شيء من الحماس:
- أن (فاي) نجح في الوصول إلى هذه النقطة، وتخلَّص من مراقب الأدوار بشكل ما.
صمت (نسيم) لحظة، وهو يزن الأمر في رأسه، قبل أن يسأل:
- لماذا لم يعد يستجيب لنداءاتنا اللاسلكية إذن؟

أجاب (رفعت)، وهو يواصل المراقبة في اهتمام:
- ربما أصيب جهاز اللاسلكي معه بعطب ما.
هزَّ (نسيم) كتفيه، قائلًا:
- ربَّما.
ثم عاد يستطرد:
- ولكن كل شيء في المبنى يسير على الوتيرة نفسها، باستثناء غياب مراقب الأدوار، ومن الواضح أن الأمريكيين سيستجيبون لمطالب الإرهابيين، فلست أرى ما يشير إلى العكس.. لا توجد فرق هجوم، أو برامج حصار.. لقد أبعدوا حتى القناصة، من أسطح المباني المجاورة، بناءً على أوامر هؤلاء الأوغاد.
صمت (رفعت) طويلًا، قبل أن يقول:
- أنا واثق من أن (فاي) هناك، في مكان ما، ولكنني لست أدري أين ستتجه ضربته القادمة؛ فقد كان من المفروض أن نرشده نحن إلى نقطة الهجوم المثالية، بناء على مراقبتنا من هنا.
ألقى (نسيم) نظرة إجمالية على المكان، ثم غمغم:

- بـــالنظر إلـــى أنـــها عمليتـــه الأولـــى، أعتقـد أنـــه ســيهاجم الموجودين في الطابق الخامس مباشرة؛ فالوقت يمضي معه في سرعة، ثم إن أية معركة على السطح ستثير جلبة محســـوسة، تكفـــي لتفجـــير المـــوقف تمـــامًا، فـــي الطـــابق الخامس.
رفع (رفعت) المنظار المقرب عن عينيه، وهو يسأله:
- وماذا كان من الممكن أن تفعل، لو أنك في مكانه؟
أشار (نسيم) بسبَّابته، قائلًا:
- كنـــت ســـأهاجم الإرهـــابيين علـــى الســـطح أولًا، وبأسـلوب مبـــاغت ســـري، يحسـم المـوقف فـي لحظـات، دون أن يثـير الآخرين.
صمت (رفعت) طويلًا هذه المرة، ثم هزَّ رأسه، وقال في حزم:

- فلنركز على مراقبة السطح إذن.
كان بقوله هذا يراهن بسمعته نفسها على ورقة واحدة..
ورقة تحمل الرمز (فاي)..

☆☆☆

ألقى أحد الإرهابيين على السطح نظرة على ساعته، وهو يقول ساخرًا:
- (بيتر) لم يطق صبرًا، ونسف جمجمة الرهينة الأولى، قبل الموعـد المحـدود بعشـر دقـائق كاملـة.. تـرى متـى يـذبح الثانية؟
انتفض الرهائن الثلاثة أمامه في ذعر، وكانوا امرأتين وفتاة صـغيرة، فـي الثالثـة عشـرة من عمرهـا، راحـت تبكـي فـى ارتياع، فجذبها الإرهابي الثاني من شعرها الأشقر الطويل في قسوة، وهو يقول:

- مـا رأيـك فـي هـذه الصـغيرة؟.. دعنـا نلـق بـها مـن السـطح مباشرة، عندما يحين الموعد.
صرخت الفتاة في ذعر وألم، فقهقه الأوَّل ضاحكًا، وقال:
- فكرة رائعة.. سيروق لي أن أسمع صراخها، وهى تهوى في الفضـاء، قبـل أن تـرتطم بـالأرض، وتتـهشَّم كـل عظمـة فـي جسدها.
بكت الفتاة أكثر وأكثر، فقالت إحدى المرأتين في حنق:
- هل تشعران باللذة لما تفعلانه؟.. هل تجدان متعتكما في إذلال هذه المسكينة؟
صرخ أحدهما في وجهها:
- اصمتي يا امرأة، وإلا انتزعت فروة رأسك، كما كان الهنود الحمر يفعلون قديمًا.
تراجعت المرأة في ارتياع، في حين قهقه هو في مرح، مستطردًا:
- حاول أن تتخيَّل شكلها، بدون هذا الشعر الأشقر.
قالها وانطلق يضحك، ويضرب الأرض بقدميه كالأطفال، حتى انبعث صوت صارم، من جهاز اللاسلكي الذي يحمله، قائلًا:
- ماذا يحدث عندكما؟
ارتبك الرجل، وأعاد قدميه إلى موضع الوقوف، وتلاشت ضحكته، في حين أجاب زميله عبر الجهاز ساخرًا:
- اطمئن يا (بيتر).. (هوز) كان يمرح قليلًا...
أجابة (بيتر سوان) في صرامة:
- مره بالتوقف عن هذه السخافات.. عبث الأطفال هذا قد يفسـد خطتنـا كلـها.. مـا المـوقف عنـدكما؟.. هـل تريـان أيـة قناصة في الجوار؟

قال الرجل، وهو يدير عينيه فيما حوله:
- مطلقًا.. من الواضح أنهم استجابوا لمطالبنا حتى الآن، فالمنطقة نظيفة تمامًا.
أجابه (سوان)، في شيء من الشراسة:
- ولكن الهليوكوبتر والنقود لم يصلا بعد أيها الغبي.
ثم أنهى الاتصال، وهو يشعل سيجارته، وينفث دخانها في عصبية، جعلت أحد رجاله يقول:
- هل تسير الأمور على ما يرام يا مستر (سوان)؟
أجابه (سوان)، وهو ينفث دخان سيجارته:
- ستظل تسير على ما يرام، مادمت تثبت لهم دائمًا أن تهديداتك ليست جوفاء.
قالت الممثلة (ريتا) في حنق:
- وهل وسيلتك إلى هذا هي إراقة الدماء؟
رمقها بنظرة صارمة، قبل أن يجيب:
- ألا تروق لكِ وسائلنا؟
ثم وثب فجأة، يجذبها من شعرها في قسوة، ويهوى على وجهها بصفعة عنيفة، صارخًا:
- ألا تروق لكِ؟
صرخت في ذعر، وصاحت في ألم:
- ماذا تفعل أيها المجنون؟
صفعها مرة أخرى في غضب، صارخًا:
- إياكِ أن تصفيني بالجنون.. هل سمعتِ؟.. إياكِ؟
اندفع السفير المصري، محاولًا الدفاع عنها، وهو يقول في حدة:
- لا تصفع أبدًا امرأة.
التفت إليه (سوان) في غضب هائل، ودفع (ريتا) جانبًا في غلظة، وهو يقول له في شراسة:

- ماذا تقول يا رجل؟.. ما الذي تنصحني به؟
شدَّ السفير المصري قامته في اعتداد وشموخ، وهو يجيب:
- ليس من الرجولة أن تصفع امرأة.
مال (سوان) نحوه في حدة، قائلًا:
- حقًّا؟!
ثم جذبه من سترته في عنف، وألصق فوهة مسدسه بعنقه، وهو يصرخ في وجهه:
- هل يمكنك تكرار نصيحتك الآن؟.. هل لديك الشجاعة لتفعل؟!.. هل ترى كيف ابتلعت الموقف بسرعة، عندما شعرت بالفوهة الباردة تلتصق بعنقك؟
أجابة السفير في شجاعة صارمة:
- الشيء الوحيد الذي ابتلعته هو سخافاتك، أما ما أراه أمامي، فهو مجرَّد إرهابي يعانى عقدة نفسية، تجعله يتصوَّر أنه سيصبح أعظم رجل في العالم، عندما يمسك سلاحًا.
احتقن وجه (سوان) في شدة، وهو يقول:
- إذن فأنت ترغب في الانتحار.
أجابة السفير بسرعة:
- بل أؤمن بأنه مادام الموت ضرورة لا فرار منها، فمن العار أن يموت المرء جبانًا.
حدَّق (سوان) في وجهه لحظة، ثم تراجع قائلًا في سخرية:
- عظيم.. أنت لست مجرَّد سفير لدولة من دول العالم الثالث.. أنت فيلسوف أيضًا.
ثم صرخ فجأة:

- ولكنني سأشعر بمتعة رائعة، عندما تحين لحظة قتلك.

واندفع نحو النافذة، صارخًا:
- أنتم أيها الأوغاد بأسفل.. لقد اتخذت قراري باختصار المهلة إلى نصف الساعة فقط، بدلًا من ساعة كاملة.
قالها، واستدار ينظر إلى السفير المصرى فى سخرية وشماتة؛ دون أن يدرى أن قوله هذا لم يترك ل(فاي) سوى ثلاث عشرة دقيقة..
فقط..

☆☆☆

ألقى الإرهابي العنيف فوق السطح، نظرة طويلة على ساعته، قبل أن يقول للفتاة الصغيرة ساخرًا، وهو يعبث بخنجره:
- استعدّي يا صغيرتي.. سأذبحك بعد أقل من ربع الساعة.
أمسكت المسكينة رقبتها في ارتياع، وهي تبكي في حرقة، هاتفة:
- لا تذبحني.. أرجوك.. أرجوك.. لا أريد أن أموت.. أرجوك.
قهقه ضاحكًا، وهو يستمتع بتوسلاتها ودموعها، فقالت السيدة في توتر:

-لا تخافي يا صغيرة.. إنه يرهبك فحسب.
التفت إليها الرجل في غضب، هاتفًا:
-أرهبها فحسب.. يبدو أنك لا تحسنين فهم الأمور أيتها الحقيرة.
وجذبها من شعرها في حدة، جعلتها تطلق صرخة ألم مذعورة، وهو يرفع خنجره نحو رأسها، مستطردًا:
- ولهذا تستحقين درسًا قاسيًا.
صرخت المرأة في رعب، وأطلت من عيني الإرهابي نظرة قاسية متشفية، وهو يهم بانتزاع فروة رأسها، و...
وفجأة وثب (فاي) عبر فتحة المصعد العلوية، وألقى خنجره في براعة، ليغرسه في قلب ذلك الإرهابي الحقير، الذي أطلق شهقة ألم ودهشة، وسقط خنجره من يده، في نفس اللحظة التي استدار فيها زميله نحو الشاب، في سرعة تليق بالمحترفين، وهو يهتف:
- يا للشيطان!
وبسرعة، استلّ (فاي) مسدسه، ولكن ذلك المحترف رفع فوهة مدفعه الآلي نحوه بسرعة أكبر، و...
وكانت مواجهة بالغة السرعة والعنف..
مواجهة المحترفين.

☆☆☆

لم يكن الشاب يدرك، أو يتصوَّر، أن خصمه محترف إلى هذا الحد، فقد فوجئ به يصّوب إليه فوهة مدفعه الآلي في سرعة مذهلة، قبل حتى أن يرفع هو مسدسه في وجهه..

وبدا له أنه خسر المواجهة هذه المرة..

ولكن فجأة، انثنى الإرهابي إلى الخلف، وجحظت عيناه في شدة، ثم سقط منه مدفعة الآلي، وبرزت بقعة دموية في جبهته من الأمام، وهو يترنح، قبل أن يسقط على وجهه جثة هامدة..

ولثوان معدودة، حدَّق الشاب في جثة الإرهابي في دهشة، دون أن يفهم ما حدث..

ولم يكن وحده الذي يشعر بهذا..

فعلى سطح مبنى قريب، ارتفع حاجبا الضابط (مارش) في دهشة عارمة، وهتف:

- من أين أتي هذا الشخص؟!.. ما الذي يحدث بالضبط؟

ثم التقط جهاز اللاسلكي الخاص به، وهتف عبره:

- أخبروني ماذا يحدث هنا؟!.. ما الذي تفعلونه بالضبط؟

ولم يكد يتلقَّى الجواب، حتى اتسعت عيناه في دهشة بالغة، والتفت إلى مساعده، قائلًا:

- إنهم لم يفعلوا شيئًا حتى الآن.

ثم عاد يحدّق في السطح المقابل، مستطردًا:

- ماذا يحدث هناك إذن؟

أما في تلك الشقة، التي تواجه المتجر بالضبط، فقد خفض (رفعت) بندقيته، المزوَّدة بمنظار مقرب قوي وكاتم صوت، و(نسيم) يهتف به:

- إصابة رائعة يا رجل.. أنا نفسي لم يكن بإمكاني أن أفعل ما هو أفضل.. كيف توقَّعت أن الشاب سيختار السطح؟
أجابه (رفعت) في انفعال:
- كنت أعلم أن (فاي) أكثر ذكاء مما يتوقعون جميعًا.
وأعاد منظاره المقرب إلى عينيه، مستطردًا:
- المهم ألا يضيع لحظة واحدة، فقد أعلن عن وجوده، وأخشى أن يقوم أحد حمقى (التليفزيون) الأمريكي بتصوير ما يحدث، فتصل الصورة مباشرة إلى الإرهابيين، عبر أي جهاز (تليفزيون) بالمبنى.
نطقها في نفس اللحظة، التي تحرَّك فيها الشاب في سرعة، وثبت طرف الحبل الذي يحمله في بروز واضح في السطح والسيدة تهتف به في سعادة:
- لقد أنقذت حياتنا.. أشكرك.. أشكرك كثيرًا.
أرادت أن تطبع قبلة امتنان على وجنته، إلا أنه ازاحها في رفق، قائلًا:
- فيما بعد يا سيّدتي.. فيما بعد.
وأطل من السطح، ليقيس المسافة بعينيه، ما بين الحافة ونوافذ الطابق الخامس، ثم أمسك طرف الحبل، في المسافة التي قدرها مسبقًا، وأشار للسيدتين والفتاة، قائلًا في حزم:
- تراجعن.
قالها، ووثب من السطح، على نحو جعل الفتاة تطلق شهقة ارتياع، والمرأتين تصرخان في هلع..
ولكنه أثبت براعته ودقته، على نحو مدهش..
لقد جاءت قفزته متقنة ومدروسة إلى حد مذهل، فلم يكد الحبل يرتطم بحافة السطح، حتى جذب جسده إلى الداخل في

عنـــف، جعلـــه يظـــهر أمـــام نافـذة الطـابق الخـامس، ويقتحمها على نحو مباغت قوي..
وعلى الرغم من أن الرجال الأربعة هناك، كانوا محترفين بحـــق، إلا أن ذلـــك الاقتحـــام المـدهش المفـاجئ أصـــابهم بصدمة عنيفة، سمحت للشاب بالقفز أرضًا، والتدحرج في مهارة، وإطلاق النار على رأس أحدهم، و على صدر الثاني، قبـل أن يثـب واقـفًا علـى قـدميه، ويطلـق رصـاصة ثالثـة، اخترقت عنق الثالث.. ولكن (بيتر سوان) لم يكن بالرجل السهل..
لقـد كـان أوَّل مـن اسـتوعب المـوقف، وقـفز خـارج نطـاق المفاجأة، فأطلق الرصاص مرتين، محاولًا إصابة الشاب، إلا أن الحركـــة السـريعة لـهذا الأخـير أفسـدت محاولتـه فـي المرتين، فما كان منه إلا أن جذب إليه (ريتا) من شعرها في عنـف وقسـوة، وألصـق مسـدسه بعنقـها، فـي نفـس اللحظـة التي استدار إليه الشاب فيها، وهو يصّوب نحوه مسدسه، فصرخ (بيتر) في عصبية عنيفة:
- حركة إضافية، وأنسف رأسها الجميل بلا تردّد.
تـوقف الشـاب، مصـوبًا إليـه المسـدس فـي حـذر، فـي حـين هتف السفير:
- اتحتمي بامرأة أيها الحقير.
صاح به (بيتر) في حدة:
- اخرس يا رجل، وإلا أخذتك بدلًا منها.
تقدَّم نحوه السفير، قائلًا:
- فليكن.. أنا أوافق.. خذني بدلًا منها.
صرخ (بيتر):
- لا أريد بطولات زائفة.. تراجع وإلا قتلتكما معًا.
بدا الغضب على وجه السفير، وصرخت (ريتا):

- لا تستفزوه.. لا تحاولوا استفزازه.. تذكروا أنني في قبضته.
انعقد حاجبا الشاب في صرامة، وهو يقول في اقتضاب:
- اتركها.
أطلق (بيتر) ضحكة عصبية ساخرة، قبل أن يقول:
- أتركها؟!.. يا له من قول ساذج سخيف!.. اترك أنت مسدسك يا فتى، وإلا علمتك كيف تنسف رءوس السخيفات أمثالها.
لم يتحَّرك الشاب قط، أو يختفى انعقاد حاجبيه الغامض، ولكنه لاحظ تألقًا غير طبيعي في عيني (بيتر سوان)، وهو ينظر إلى نقطة ما خلفه...
إلى حيث المصعد..
ثم فجأة، فهم معنى هذا التألق، فانحني في سرعة، واستدار يطلق النار نحو المصعد..
أو نحو ذلك الإرهابي، الذي ترك موقعه عند باب المتجر، وصعد ليستطلع سبب دوي الرصاصات في الطابق الخامس..
ولكن الرصاصة لم تصب الرجل في مقتل..
لقد اخترقت ذراعه فحسب..
وعندما أطلق الشاب رصاصته الثانية، التي اخترقت رأس الرجل مباشرة، دفع (بيتر) (ريتا) بعيدًا، وأطلق النار بدوره على الشاب..
ولشدة انفعاله وتوتره، لم تصب رصاصته هدفها بالضبط، وإنما اخترقت كتف الشاب، الذي استدار في سرعة، على الرغم من إصابته، وصوَّب مسدسه إلى (بيتر)..
ولكن الرجل كان قد استعاد وضعه الدفاعي بسرعة..

لقد أحاط عنق السفير بساعده هذه المرة، وهو يصرخ في الشاب:
- حاول.. حاول أن تضغط الزناد، وسأقتله أمام عينيك بلا تردّد.
نهض الشاب في بطء، وصوَّب مسدسه إلى رأس (بيتر) في إحكام، وهو يقول بالعربية:
- هل يمكنك المخاطرة يا سيادة السفير؟
اتسعت عينا السفير في دهشة، وهو يهتف:
- أأنت مصرى؟!
وصاح (بيتر) في عصبية:
- بأية لغة تتحدثان؟
تجاهله الشاب تمامًا، وهو يقول للسفير:
- سأعدّ حتى ثلاثة، ثم تزيح رأسك بسرعة إلى اليسار.. هل يمكنك هذا؟
أجابه السفير، والدهشة لم تفارقه بعد:
- بالتأكد.
قال الشاب في هدوء:
- واحد.. اثنان..
وصرخ (بيتر)، وهو يجذب إبرة مسدسه في عصبية:
- تحدَّثا بالأمريكية، أو...
قبل أن يتم كلماته، قال الشاب في حزم:
- ثلاثة..
ولم يكد ينطقها، حتى أزاح السفير رأسه بسرعة إلى اليسار، ليكشف رأس (بيتر)، وضغط الشاب زناد مسدسه، و...
وكانت الإصابة محكمة تمامًا..
وجحظت عينا (بيتر سوان) في شدة، وسقط مسدسه من يده، وأفلت عنق السفير، وهو يتراجع بثقب بين عينيه، حتى ارتطم بالنافذة المحطمة، وهوى من ارتفاع خمسة طوابق.

ومع لحظة سقوطه، صرخ الضابط (مارش) في انفعال:

- اقتحموا المكان.

ولم يعد هناك سوى إرهابى واحد، استسلم على الفور، بعد أن أدرك أن رفاقه كلهم انتهوا، مما جعل عملية الاقتحام سالمة تمامًا، وعندما وصل رجال الشرطة الأمريكيون إلى الطابق الخامس، كان الرهائن كلهم بخير، وخاصة السفير المصري، الذي حمل وجهه ابتسامة فخر عريضة، جعلت الضابط (مارش) يسأله في حيرة:

- قل لي يا سيادة السفير: ما الذي يملأ نفسك بالسعادة إلى هذا الحد؟

أجابه السفير في هدوء:

- لقد أنقذتمونا.. أليس كذلك؟

تطلَّع إليه (مارش) لحظات في شك، ثم أشار إلى رسم كبير على الجدار، لشكل بيضاوي، يقطعه خط رأسي، وسأله:

- وماذا عن هذا الرمز؟.. ما الذي يعنيه؟

هزَّ السفير كتفيه، وهو يجيب:

- ومن أدراني؟

قالها، وابتسامته تتسع، وتمتلئ بمزيد من الفخر والاعتزاز، فهو لن ينسى أبدًا تلك الكلمات، التي سمعها من الشاب، قبل أن يختفي

تمامًا من المكان:
- مع تحيات (مصر)، والمخابرات المصرية يا سيادة السفير.
لحظتها شعر أنه من الطبيعي أن يسري الفخر في عروقه..
يكفي أنه سفيرها..
سفير (مصر)..

☆☆☆

«لقد فعلتها يا رجل.. فعلتها.. ياللروعة!.. لم أكن أتوقع هذا أو أتخيله قط..»

هتف (نسيم) بالعبارة في سعادة بالغة، في حين ألقي (رفعت) جسده على أقرب مقعد إليه، ولهث وكأنه يعاني انفعالًا شديدًا، وهو يجيب:

- نعم.. لقد فعلها.. حمدًا لله.. حمدًا لله.

كان قد انتزع منذ لحظات، تلك الرصاصة التي انغرست في كتف الشاب، وضمَّد جرحه في مهارة، تعلَّمها في أثناء مواجهاته السابقة، فرفع عينيه إليه، وابتسم قائلًا:

- وأنت أيضًا فعلتها يا فتى.. لقد اجتزت ذلك الخيط الفاصل، ما بين الهاوي والمحترف.

نهض الشاب في بطء، قائلًا:

- كانت هناك أخطاء.

أجابه (نسيم) في سرعة:

- جلَّ من لا يخطئ.. لا يوجد عمل متكامل قط.. المهم ألا تؤدي الأخطاء إلى الفشل..

ثم ابتسم، وربَّت على ظهر الشاب، مستطردًا:

- ولكنني أعترف أنك موهوب في هذا المجال.. لقد أحسن (رفعت) الاختيار حقًا، وأراهنك على أنه يشعر الآن بالفخر.. أليس كذلك يا (رفعت)؟

وتطلَّع إلى زميله، الذي دفن رأسه بين كفيه، ولاذ بالصمت تمامًا، على نحو جعله يكرر:

- أليس كذلك؟

ظلَّ (رفعت) جامدًا في هذا الوضع الدقيقة أو يزيد، قبل أن يرفع وجهه إليهما، ويقول بصوت حمل طنًا من التأثر، الذي فاضت به عيناه:

- بلى.

بدا لحظة أنه سيكمل عبارته، إلا أنه لم يلبث وضمّ شفتيه في قوة، وكأنما يخشى أن يغلبه التأثر، فران على المكان صمت طويل، بعد أن غلب تأثره، قائلًا:

- لقد أثبت (فاي) قدراته، واستعداده لخوض المعارك بمفرده.

تطلَّع إليه الشاب لحظات في صمت، قبل أن يقول في خفوت، وبلهجة أشبه بالتساؤل:

- إنها ليست المرة الأولى، التي أفعل فيها هذا.

غاص كل منهما في عيني الآخر لحظات، ثم أجاب (رفعت):

- نعم.. إنها ليست المرة الأولى.

ثم التقط نفسًا عميقًا، واعتدل على مقعده، قبل أن يضيف:

- لهذا ينبغي أن تستعد.

سأله الشاب في إهتمام:

- أستعد لماذا؟

شرد (رفعت) لحظة أخرى، ثم أجاب في حزم:

للعودة إلى (مصر).

وكانت مفاجأة عنيفة بالفعل..

☆☆☆

عقد رئيس الشرطة حاجبيه، وهو يهتف في وجه الضابط (مارش) مستنكرًا:

- مصري؟!.. هل فقدت عقلك يا رجل، أم أنك تعاني نوبة هذيان؟!.. مستحيل أن يكون الشخص الذي فعل هذا

مصريًا!.. مستحيل!.. مستحيل!
زفر (مارش) في توتر، وهو يقول:
- ولكن كل شيء يؤكد هذا يا سيدي.. الشهود قالوا: إنه تحدَّث مع السفير المصرى بلغة لا يعرفونها، أصابت السفير نفسه بالدهشة، ثم إن أحد الشهود من أصل إيراني، ويمكنه تعرف اللغة العربية بسهولة.
قال رئيس الشرطة في حدة:
- لماذا ينكر السفير نفسه هذا إذن؟
أجابه (مارش) في ضيق:
- من الطبيعي أن يفعل هذا، فهو رجل ديبلوماسي، ويعرف جيدًا أن أي إجراء، يقوم به مواطنه، على أرض أمريكية، دون الرجوع إلى السلطات، يعد أمرًا غير قانوني، ولا يمكنه الاعتراف به قط.
قال رئيس الشرطة في حنق:
- ونحن لا نستطيع إجباره على تغيير أقواله هذه.
لم يجد (مارش) ما يقوله، فقلب كفيه مستسلمًا، مما جعل رئيسه يقول:
- في هذه الحالة أنصحك بنسيان الأمر كله.. المهم أنه تم القبض على أحد الإرهابيين، والقضاء على الباقين، ولن يضيرنا أبدًا أن ينسب هذا إلينا.. أليس كذلك؟
أومأ (مارش) برأسه، مغمغمًا:
- بلى.. لن يضيرنا هذا.
ولكن عقله لم يستطع أن يهدأ أبدًا، وهو يبحث عن تفسير لتلك العلامة، التي زينت الحائط في المبنى التجاري..
علامة (فاي)..

☆☆☆

"لماذا فعلت هذا؟.."
قالها (رفعت) للشاب، في شيء من الحنق، وهما يقفان مع (نسيم)، في مطار (نيويورك)، فسأله الشاب في حيرة:
- فعلت ماذا؟..
قال (رفعت) في صرامة غاضبة:
- لماذا تركت علامتك على الجدار؟
صمت الشاب لحظات، قبل أن يهزّ كتفيه، قائلًا:
- لست أدري.. أردت أن أتركها هناك فحسب.
أجابه (رفعت) في حدة:
- بل أردت أن تزهو بانتصارك.. أردت أن تعلن للعالم كله أنك صاحب الفضل في هزيمة الأشرار.. أليس كذلك؟
تمتم الشاب في حرج:
- ليس بالضبط، ولكن..
قاطعه (رفعت) في عصبية:
- هناك أمر آخر ينبغي أن تتعلمه، في عالم المخابرات يا فتى.. إننا نعمل دائمًا في الخفاء، والعمليات الوحيدة التي تعلن عن نفسها في عالمنا، هي العمليات الفاشلة، أو التي مضى عليها ردح من الزمن، أما العمليات الناجحة، فتبقى عادة طي الكتمان.. ولا مجال للزهو قط في عالمنا.. إما أن
تعمل من أجل الوطن، دون انتظار لشهرة أو أوسمة، أو لا تعمل إطلاقًا.. هل تفهم؟
تطلَّع الشاب إلى عينيه لحظات، ثم أجاب:
- نعم.. أفهم.
لم ينبس (نسيم) بحرف واحد، طوال حديث زميله، فقد كان يدرك جيدًا أن السبب الرئيسي لعصبيته، هو أنه يؤدي واجبه، على حساب مشاعره وانفعالاته..

إنه يميل كثيرًا للشاب، ويعتبره بمثابة ابن له، ويتمنى لو أبقاه دومًا إلى جواره، إلا أن واجبه يحتم عليه إعادته للوطن، حتى يصبح أحد رجال العمليات الخاصة..

وهذا الصراع يمزقه في شدة..

والعجيب أن مشاعر (رفعت) تبدَّلت في سرعة، من العصبية والغضب إلى شيء من الحنان، وهو يمسك ذراع الشاب، قائلًا:

- عندما نفترق الآن، لا تتصوَّر أبدا أنني أتخلى عنك، فلقد انتهى دوري معك، والمفروض أن تنتقل إلى مرحلة جديدة من التدريبات.. مرحلة لا يصلح لها سوى (نسيم).. أي (قلب الأسد)، كما نطلق عليه.. وعلى يديه ستتلقى عشرات المعارف والمعلومات الضرورية، في عالم المخابرات..

استمع إليه جيدًا، وأطع كل أوامره.

ارتفع في هذه اللحظة النداء الأخير، الذي يدعو ركاب طائرة (مصر للطيران)، المتجهة إلى (القاهرة)، للتوجه إلى الطائرة، فألقي (رفعت) نظرة أخيرة على الشاب، وقال:

- هيّا.. اذهب مع (نسيم).. إنها تنتظرك وتحتاج إليك.

قال الشاب في حيرة:

- من هي؟

أجابه في تأثر شديد:

- (مصر) يا (فاي).. (مصر) تنتظر خدماتك.

انتفضت عروق الشاب، وهو يقول:

- رقبتي فداء لها.

تصافح الثلاثة في حرارة، وبقي الشاب لحظات، متطلعًا إلى عينى (رفعت) في صمت، حتى قال له هذا الأخير في عصبية:

- هيا.. اذهب.. الطائرة لن تنتظرك.

وعنـدما ارتفعت الطـائرة، عائـدة إلـى الـوطن، وعلـى متنـها (نسيم) والشاب، كان (رفعت) يدرك أنها ربما تكون آخر مرة يراه فيها، طبقًا لنظم عالم المخابرات، ولكنه واثق من أن هذا الشاب سيضيف الكثير والكثير إلى هذا العالم الغامض..

وفي صمت، وربما لأوّل مرة في حياته، ترك (رفعت) تأثره يغلبه، وسمح لدموعه أن تسيل في بطء على وجهه، وهو يتابع الطائرة، التي غابت وسط السحب، تاركة خلفها خيطًا من الدخان، بدا وكأنه يرسم مع السحب شكلًا لرمز مألوف..

رمز القيمة الخالية..

(فاي).

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

-

الفهرس:

سلسلة كوكتيل 2000..

1- البداية..

2- الرمال..

3- حرب رجل واحد..

4- الفتى..

5- البعث..

6- الفتى فاي..

7- الإرهاب..

المحترفون..

الاقتحام..

البداية الجديدة..

روايات مصرية

قصص الأعداد

كوكتيل ٢٠٠٠

عملية النسر المنفرد

الجزءين مجمّعين

(سلسلة فاي)

د. نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

عملية النسر المُنفرد

(سلسلة فاى)

(الجزئين مُجمَّعين)

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

هذه القصة لم تحدث من قبل..
أو ربما حدثت...

أو أنَّ بعضها حدث، وبعضها لم يحدث...
ضعها فى عقلك حسبما يتراءى لك..
ولكن المهم أنَّها تحمل توقيع الوطن..
توقيع (مصر)..

د. نبيل فاروق

١- ومازال التدريب مستمرًا..

انحدرت الشمس نحو الأفق، فى رحلتها اليومية إلى المغيب، وبدت كقرص أحمر ملتهب، خلف تلك المجموعة الصامتة من المبانى والثكنات القديمة، التى أحيطت بعدد قليل من الحرَّاس، فى ثياب بترولية اللون، وكل منهم يتمنطق بزوج من المسدسات القوية، وكأنما تلقَّى تدريبات خاصة، تتيح له التعامل بسلاحين فى آن واحد..

وفى الممرات الواسعة، بين المبانى والثكنات، تحرَّكت سيارة جيب إسرائيلية، تحمل على جانبها نجمة (داود) السداسية، بلون سماوى واضح، وسط دائرة بيضاء كبيرة، وتوقفت أمام مبنى من طابقين، حملت لافتته عبارة عبرية بحروف كبيرة واضحة، تشير إلى أنه عبارة عن (كافيتيريا)، أو مشرب مخصَّص لضباط وجنود جيش الدفاع الإسرائيلى..

وفى هدوء، غادر السيارة الجيب ضابط شاب، ممشوق القوام، عريض المنكبين، تحمل ملامحه وسامة معقولة، وسمرة شرقية واضحة، واتجه مباشرة نحو المشرب، وعندما عبر بابه، ألقت عليه عيون الحاضرين نظرة سريعة، قبل أن يعودوا إلى أحاديثهم وثرثرتهم، بلغتهم العبرية، ذات النغمات الشرقية الواضحة، فى حين اتجه هو إلى الساقى، وقال:

- أعطنى كوباً كبيراً من عصير البرتقال الطازج.

قال الساقى، وهو يصب العصير:

- أربعون شيكلاً ([1]).

عقد الضابط حاجبيه، وهو يقول فى صرامة:

- أنت لص.. هذا المبلغ مبالغ فيه للغاية.

أجابه السابق فى لا مبالاة:
- اكتب شكوى لجيش الدفاع، فهو الذى يحدد الأسعار هنا.
قال الضابط فى غضب:
- أنا أعرف أسعار المشروبات، وأنت تسرق خمسة شيكلات على الأقل.
صاح به الساقى فى حدة، وهو يبعد الكوب عن يده:
- ادفع المبلغ، أو اترك العصير.. هل تفهم؟
انعقد حاجبا الضابط، وهو يقول:
- سآخذ العصير على الرغم منك، وربما أحطِّم أنفك أيضاً.
قالها، واندفعت قبضته نحو أنف الساقى، الذى تراجع هاتفاً فى دهشة:
- حذار يا هذا.
لم يكد ينطقها، بتلك اللهجة المصرية الخالصة، حتى ارتفع صوت صارم يقول:
- خطأ.
ران الصمت التام على المكان، واستدارت العيون كلها إلى مصدر الصوت، حيث برز رجل حازم الملامح والقسمات، يستطرد فى صرامة:
- ليس من المفروض أن تنطق حرفاً واحداً بالعربية، مهما كانت المؤثرات.
ارتبك الساقى، وهو يقول:
- معذرة يا سيدى.. لقد حدث هذا عفواً.
أجابه الرجل بنفس الصرامة:
- أعلم هذا.. وهنا يكمن الخطر.. فى رد الفعل العفوى.. الشئ الوحيد، الذى يمكن أن يكشف أمركم هو رد الفعل العفوى هذا.
ثم دارت عيناه فى المكان، وكأنما يوجه حديثه للجميع، مضيفاً:

- لقد التحقتم جميعاً بهذا القسم، كجزء من تدريباتكم فى مجال العمل الخارجى، حيث المفروض أن يكون كل ما يحيط بكم هو قطعة من (إسرائيل).. الطرق.. اللافتات، اللغة، وحتى نوع المشروبات المقدمة، والعملات المستخدمة، والمفروض هنا، فى القسم (٣.ج.أ)، أن تعيشوا وتتعايشوا كما كنتم داخل (إسرائيل) نفسها، بحيث يصبح الواحد منكم مؤهلاً لأن يتم زرعه هناك، فى أية لحظة، إذا ما اقتضت الحاجة، والحديث باللغة العربية، تحت تأثير انفعال طارئ، أو رد فعل عفوى، يمكن أن يعتبر هنا مجرد خطأ، يستوجب المساءلة والعقاب، ولكن لو حدث هذا هناك، فى قلب (إسرائيل) فسيصبح بمثابة التوقيع على حكم بالإعدام.. هل فهمتم؟!

همهموا جميعاً بالموافقة، وغمغم ذلك الذى يلعب دور الساقى الإسرائيلى:

- إننى أعتذر يا سيدى، وأعد بألا أقع فى هذا الخطأ مرة ثانية قط.

أجابه ضابط المخابرات المصرى فى صرامة:

- لا اعتذارات هنا.. الاعتذار الوحيد هو إعادة الدورة بالكامل، فالفشل يعنى أنك غير مؤهل إلى الحد الكافى.

ثم أشار بيده، مستطرداً:

- هيا.. عودوا إلى أعمالكم.

قال عبارته الأخيرة، وانسحب من المكان فى هدوء، وعاد الجميع يتعابون أحاديثهم وحواراتهم، وكأن الدقائق الأخيرة لم يكن لها وجود..

كانوا يتحدثون بالعبرية، فى سلاسة مدهشة، وحتى أحاديثهم، كانت تدور فى معظمها حول قضايا داخلية، تثير اهتمام رجال جيش الدفاع الإسرائيلى بالتحديد، فى حين انهمك عدد محدود

منهم فى مناقشة ما حدث، وقالت فتاة ترتدى زى (رق سمَّال) إسرائيلى ([2]).
- المدِّرب على حق فيما فعل.. إننا لا نعبث هنا، وهذه ليست تدريبات لمسرحية هزلية.. كلنا نعلم أن أدنى خطأ يحدث فى أرض العدو، يكفى لكشف أمرنا، ووقوعنا فى الأسر.
ثم انعقد حاجباها، مستطردة فى حزم، وهى تدبر عينيها فى وجوه رفاقها:
- وأنتم تعلمون ما يفعله الإسرائيليون بأسراهم.
أومأ بعضهم برأسه متفهماً، فى حين قال أحدهم فى سخط:
- لم يكن هذا ليحدث، لولا أن استفزه ذلك الوافد الجديد.
اندفع آخر يسأل فى شغف:
- بمناسبة الحديث عن ذلك الوافد الجديد.. هل يعرف أحدكم اسمه؟
تبادلوا نظرات حائرة متسائلة، قبل أن تجيب فتاة أخرى:
- إنه لم يخبر أحداً باسمه قط، وهم لم يمنحوه حتى اسماً كودياً، أو رقماً يمكن أن نستدل به عليه.
اختلس أحدهم نظرة إلى الشاب، الذى يتحدث مع الساقى فى هدوء، وغمغم:
- لماذا يحيطونه بكل هذا القدر من السرية والغموض؟!.. من هو بالضبط؟
أجابته الفتاة الأولى فى حزم:
- ليس هذا من شأننا.
عادت إليها العيون، بمزيج من الدهشة والاستنكار، فتابعت بنفس اللهجة الحازمة:

- هل نسيتم ما تعلمنا؟.. المعرفة على قدر الحاجة.. لا تسأل عما لم يخبروك به عن عمد.
تنهَّد آخر فى حنق، وهو يقول:
- من الواضح أنك تتحيزين لذلك الوافد الجديد، على الرغم من أن استفزازه لزميلنا، هو السبب فى وقوعه فى الخطأ.
قالت الفتاة فى حدة:
- وماذا لو أن هذا حدث فى (إسرائيل) نفسها، وكان الذى استفزه ضابط إسرائيلى حقيقى؟
همَّ أحد المحيطين بها بالتعليق على عبارتها، لولا أن برز ضابط المخابرات، المسئول عن التدريبات، وأشار إلى ذلك الشاب، الذى يتحدثون عنه، وقال:
- أنت.. تعال هنا.
لم يحاول الشاب مناقشته، وإنما اتجه إليه فى سرعة وصمت، فهمس الضابط فى أذنه بعبارة قصيرة، اعتدل الشاب بعدها، وشد قامته، ثم غادر المكان فى خطوات واسعة، وكأنه فى طريقه للقاء بالغ الأهمية..
وفى حزم، قال الضابط:
- أعتقد أن هذا يكفى اليوم.
وفى اللحظة التى بدأ فيها الجميع يستعدون للانصراف، كان الشاب يقفز داخل السيارة الجيب، التى تشبهه تماماً السيارات العسكرية الإسرائيلية، وينطلق بها عبر طرقات المكان، حتى توقف أمام مبنى منعزل، من طابق واحد، فغادر السيارة، وطرق بابه فى هدوء، وسمع صوتاً مألوفاً، يقول:
- ادخل يا (فاى).
دفع الشاب الباب، ودلف إلى المكان، وارتفعت يده بالتحية العسكرية، وهو يقول:

- فى خدمتك يا سيدى.
رمقه رجل المخابرات المصرى (نسيم) بنظرة فاحصة، قبل أن يسأله فى شئ من الحزم:
- كيف حال تدريباتك هنا؟
أجابه الشاب فى هدوء واقتضاب:
- أعتقد أن كل شئ يسير على ما يرام.
مط (نسيم) شفتيه، وهو يقول:
- ليس تماماً..
ثم التقط ملفاً كبيراً، وطالع صفحاته، مستطرداً:
- تقاريرك كلها فوق المتوسط، بالنسبة لتدريبات المرحلة الأخيرة، فأنت تتحدث الآن الإنجليزية والفرنسية والعبرية، ولكن ليس بالطلاقة المطلوبة، وما زالت مهاراتك الكيميائية والفيزيائية دون المستوى، ومدربوك يقولون أنك مرهق للغاية، بالنسبة لاختبارات التنكر والتمويه.. الشئ الوحيد الذى تتفوق فيه هو القتال اليدوى، وإطلاق النار، وأساليب الحرب التقليدية، الذى اعتدت عليها فى....
بتر عبارته بغتة، عندما أدرك أنه كاد يكشف أموراً لا ينبغى كشفها، فانعقد حاجبا الشاب، وهو يسأل:
- فى ماذا يا سيدى؟
أجابه (نسيم) فى صرامة:
- لا تسأل.
ثم عاد يضرب بيده على الملف، مستطرداً:
حاول أن تبذل جهداً أكبر يا فتى.. هذا المستوى غير مقبول إطلاقاً.
قال الشاب فى شئ من التوتر:
- ولكننى أتفوَّق على العديد من الدارسين يا سيدى، و...

قاطعه (نسيم) فى غضب:
- وتتأخر عن دارسين آخرين.. كلا يا (فاى).. ليس هذا هو المستوى الذى أطمح إليه.. إننى أتولى تدريبك بنفسى، وأنا لا أفعل هذا إلا نادراً، ومع عناصر محدودة، أستشف فيها التفوق والتميز.
وانعقد حاجباه فى صرامة شديدة، مع استطرادته:
-انس كل من يعقبك، وتطلَّع فقط إلى من يسبقونك، وابذل المزيد من الجهد.. هل تفهم؟.. المزيد من الجهد.
صمت الشاب لحظة، ثم أجاب:
- سأبذل قصارى جهدى يا سيدى.
استعاد (نسيم) هدوءه فى سرعة، وأومأ برأسه، قائلاً:
- عظيم.. هذه هى الروح التى أنشدها.
ونهض يلتقط سترته، مستطرداً:
- والآن إلى اللقاء.. سأتركك تتم تدريباتك هنا، وأنطلق أنا إلى المطار، فابنة أخي (وفاء) ستصل من (لندن) بعد ساعة، والمفروض أن أستقبلها بنفسى.
حاول (فاى) أن يبتسم، وهو يتمتم:
- أتمنى لها أن تصل بسلام يا سيدى.
قالها، دون أن يدرى أن الساعات التالية، ستجعل هذا هو أمل الجميع..
أن تصل الطائرة القادمة من (لندن)..
وبسلام..

☆ ☆ ☆

«نحن نعبر البحر..».
انطلق ذلك الهتاف المفعم بالسعادة، من بين شفتى صبى صغير، وهو يتطلَّع عبر نافذة الطائرة متهللاً، فالتفتت إليه

الشابة الجالسة إلى جواره، وابتسمت فى حنان، وهى تقول:
- نعم.. هذا هو البحر.. لقد تجاوزنا (أوروبا) ([3])، والطائرة تنطلق الآن نحو (القاهرة).
التفت إليها الصبى، وسألها فى اهتمام:
- هل تسافرين كثيراً؟
أومأت برأسها إيجاباً، متمتمة:
- هذا أمر طبيعى، فأنا أدرس فى (لندن)، وأسافر مرتين فى العام على الأقل.
مطَّ شفتيه، قائلاً:
- أما أنا، فهى المرة الثانية، التى أركب فيها طائرة، على الرغم من أن أمى إنجليزية ووالدى مصرى، والمرة الأولى هى التى أرسلانى فيها لزيارة جدتى، وفى المرتين سافرت وحدى.
داعبت رأسه مرة أخرى، وهى تقول:
- ولكن جدتك تحبك كثيراً، ولقد أوصتنى برعايتك والعناية بك، حتى تصل إلى (القاهرة).
تطلَّع إليها لحظة فى صمت، ثم سألها:
- اسمك (وفاء).. أليس كذلك؟
أومأت برأسها إيجاباً، وابتسمت وهى تسأله:
- هل يروق لك؟
هتف فى حماس:
- إنه اسم جميل.. رفيقتى فى المدرسة اسمها (وفاء) أيضاً، ولكنها لا تشبهك فهى..
انتبه فجأة إلى شرودها، فنقل عينيه إلى حيث تنظر، ورأى رجلاً فى معطف داكن، يسير عبر ممر الطائرة، متجهاً نحو كابينة القيادة، فسأل:

- آنسة (وفاء).. ماذا يقلقك؟
أشارت إلى ذلك الشخص فى شرود، وهى تقول فى قلق واضح:
- لست أدرى يا (أحمد).. هذا الرجل يثير فى نفسى بعض القلق، كما لو أنه..
قبل أن تتم عبارتها، كانت المضيفة تعتبر مسيرة ذلك الرجل، قائلة بابتسامة هادئة:
- لا يوجد ما يهمك هنا يا سيدى.. دورات المياه فى الجانب الآخر، و..
هوى الرجل على وجهها بصفعة قوية مباغتة، أزاحتها عن طريقه، ثم وثب نحو كابينة القيادة، واقتحمها وهو ينتزع من طيات معطفه مسدساً، ويهتف بقائد الطائرة ومساعديه:
- خط السير تغير أيها السادة.

هوى الرجل على وجهها بصفعة قوية مباغتة ، أزاحتها عن طريقه ، ثم وثب نحو كابينة القيادة ..

انطلقت صرخات الذعر من الركاب، وهبَّ ثلاثة رجال من مقاعد مختلفة، وانتزع كل منهم مسدسه، وانطلق أحدهم نحو كابينة القيادة، على نحو يوحى بأنه رجل أمن محترف، ولكن

شهقة عنيفة من خلفه أوقفته، فالتفت يحدِّق فى زميله، الذى ذبحه خنجر حاد بلا رحمة، وفى نفس اللحظة اخترقت رصاصة رأس زميله الثانى، ونسفته فى مشهد بشع، فى حين سمع صوتاً من خلفه يقول:

- هذا عيبكم يا رجال الأمن.

حاول الرجل أن يستدير بسرعة، ولكن نصل خنجر حاد، اخترق ظهره، وبرز من صدره، فى موضع القلب تماماً، فجحظت عيناه فى ألم ذاهل، قبل أن يهوى جثة هامدة، وسط موجة من الذعر سادت الطائرة، وارتفع وسطها صوت صارم وحشى، يقول:

- أوَّل من سيغادر مقعده منكم، سيتلقى رصاصة فى رأسه.

انكمش الجميع فى مقاعدهم فى ارتياع، وبدا لهم رجلان آخران، يحمل كل منهما مدفعاً آلياً قصيراً، ويسيطر أولهما على مؤخرة الطائرة، فى حين يحتل الثانى منتصفها، أما زعيمهما، الذى احتل كابينة القيادة، فقد ارتفع صوته الخشن الساخر، وهو يقول:

- انتهى الأمر أيها السادة.. الطائرة الآن تحت سيطرتنا، ويؤسفنى أن أخبركم أنها لن تصل إلى (القاهرة) أبداً.

قالها، وعيناه تتألقان فى قوة..

وفى وحشية.

☆ ☆ ☆

٢- الخطة..

توقفت سيارة مدير المخابرات العامة المصرية، أمام مبنى مجلس الوزراء، وأسرع أحد رجال الأمن يستقبله فى لهفة، وهو يقول:

- الجميع فى انتظارك يا سيدى.. السيد رئيس الوزراء، ووزير الحربية، وقائد القوات الجوية، وسيصل سيادة الرئيس بنفسه بعد قليل.

عبر مدير المخابرات ساحة المبنى فى خطوات سريعة، وقبل أن يستقل المصعد إلى حيث قاعة الاجتماعات، سمع من خلفه أبواق الدراجات الآلية، وهى تقترب من المكان، فتوقف مغمغماً:

- لقد وصل السيد رئيس الجمهورية.

لم تمض ثوان معدودة، على قوله هذا، حتى كان رئيس الجمهورية يهبط من سيارته أمام البوابة الداخلية الكبيرة، وغليونه بين شفتيه، وعلامات القلق والاهتمام تملأ ملامحه، ولم يكد يلمح مدير المخابرات، حتى وضع عصاه تحت إبطه، وصافحه فى حرارة، قائلاً:

- كنت أعلم أنك ستصل بسرعة.. أخبرنى.. ما معلوماتك حول الموقف.

أجابه مدير المخابرات، وهو يدلف معه إلى المصعد:

- ما زالت معلوماتنا محدودة يا سيادة الرئيس.. كل ما نعلمه هو أن بعضهم اختطف طائرة (مصر للطيران)، القادمة من (لندن)، وأجبروها على الهبوط فى مطار (نيقوسيا) فى (قبرص) ([4]) ، والمطلب الوحيد الذى تم التقدم به هو تزويد الطائرة بوقود

كاف لرحلة طويلة، دون تحديد الاتجاه.. وما زلنا نجهل حتى الآن عدد المختطفين، وهويتهم، ووجهتهم الحقيقية.
عقد الرئيس حاجبيه، ونفث دخان غليونه فى توتر، وهو يقول:
- معلومات قليلة يا مدير المخابرات.. قليلة للغاية.
أجابه مدير المخابرات فى حزم:
- إننا نبذل قصارى جهدنا يا سيادة الرئيس.
مط الرئيس شفتيه دون تعليق، واتجه مع مدير المخابرات إلى قاعة الاجتماعات، حيث استقبلهما رئيس الوزراء، ووزير الحربية ([5]) ، وقائد القوات الجوية فى اهتمام بالغ، وبدأت مناقشة الأمر على الفور، وقال وزير الحربية:
- الأمور لم تتضح بعد يا سيادة الرئيس، ولكننا أعددنا فرقة من رجال الصاعقة، مؤهلة لمكافحة الإرهاب، وهم على أتم الاستعداد للتحرك فوراً، والسفر إلى (ليماسول) مباشرة، لاقتحام الطائرة وتحرير الرهائن.
قال الرئيس فى بطء:
- هذا عمل بالغ الخطورة يا وزير الحربية، ما دمنا نجهل عدد المختطفين، ومواقعهم، ومدى سيطرتهم على الطائرة، ثم إننا نحتاج إلى موافقة السلطات القبرصية، للقيام بهذا العمل على أرضهم.
أجاب رئيس الوزراء:
- لقد أجريت بعض الاتصالات، بشأن هذه الموافقة، ولكن القبرصيين يتحفظون كثيراً فى منحنا مثل هذه الموافقة، فهم يرفضون قيامنا بعمل عسكرى على أرضهم، إلا أنهم يعملون فى الوقت ذاته على تعطيل عملية التزود بالوقود بقدر إمكانهم، حتى يمنحونا الفرصة لاتخاذ قرار أفضل.

قال قائد القوات الجوية فى حزم:
- يمكننا أن نسمح لهم بالإقلاع، ثم نسيطر عليهم فى الجو، باثنتين من طائراتنا المقاتلة، ونمنعهم من الذهاب بعيداً، وبعدها نجبرهم على الهبوط حيثما نشاء.
هز رئيس الجمهورية رأسه نفياً، وهو يقول:
- هذا لا يحل المشكلة، فأولئك الذين يختطفون الطائرات، لا يتورعون لحظة عن ذبح كل من لديهم من رهائن، إذا ما تعرضوا للخطر.
تردد رئيس الوزراء لحظة، قبل أن يقول:
- لابد أن نضع فى اعتبارنا أن أية عملية سيكون لها حتماً عدد من الضحايا.
أجابه رئيس الجمهورية فى حزم:
- لن نضحى بأولادنا بهذه البساطة يا رئيس الوزراء.
ثم التفت إلى مدير المخابرات، واستطرد فى شئ من الحدة:
- ماذا لديك يا مدير المخابرات؟!.. هل ستظل صامتاً هكذا؟
استدار إليه مدير المخابرات، وأجاب فى هدوء:
- الواقع يا سيادة الرئيس، إننى أنتظر حضور أحد رجالى، فهو متخصص فى مكافحة الإرهاب، ثم إنه شخص غير تقليدى، ولديه دائماً وسائل غير تقليدية، لمعالجة مثل هذه الأمور.
ازداد انعقاد حاجبى رئيس الجمهورية، وراح ينفث دخان غليونه لحظات، قبل أن يسأل مدير المخابرات:
- من هذا الشخص بالضبط؟
أجابه المدير فى سرعة، وكأنه كان ينتظر السؤال:
- (نسيم) يا سيادة الرئيس.. المقدم (نسيم)..
صمت الرئيس لحظات أخرى مفكراً، قبل أن يهتف:

- آه.. (نسيم).. أليس هو ذلك الرجل الذى أحضر الجاسوس (باروف) من (عمان)؟
ابتسم المدير، قائلاً:
- بلى يا سيادة الرئيس.. إنه هو.
لم يكد ينطق عبارته، حتى دلف رئيس الأمن إلى القاعة، وهو يقول:
- المقدم (نسيم) يطلب الإذن بالدخول يا سيادة الرئيس.
أشار إليه رئيس الجمهورية، قائلاً:
- دعه يدخل.. هيا.
دخل (نسيم) القاعة فى خطوات سريعة، والتوتر يغمر وجهه كله، ويفصح عن نفسه فى نظراته وحركاته، ولكنه تماسك بشدة، وهو يؤدى التحية لرئيس الجمهورية، الذى أشار إليه بالجلوس، قائلاً:
- اجلس يا (نسيم).. رئيسك يقول: إنك الرجل المناسب لهذا الموقف، وأرجو أن تثبت لنا هذا.. هل تعتقد أنك ستبذل قصارى جهدك فى هذه العملية؟
أجابه (نسيم) فى اقتضاب، وهو يتخذ مقعده:
- ليس لدى أدنى شك فى هذا.
لاحظ الرئيس ذلك التوتر الواضح فى صوت (نسيم)، فتطلَّع إليه فى تساؤل، جعل مدير المخابرات يندفع قائلاً:
- ابنة شقيق (نسيم) بين الرهائن يا سيادة الرئيس.
رفع الرئيس حاجبيه فى دهشة، وهو يقول:
- ابنة شقيقه.. ولكن هذا يفسد كل شئ.
انعقد حاجبا (نسيم) فى مزيد من التوتر، والرئيس يتابع:
- وجود ابنة شقيقه بين الرهائن، يجعله يضع خطته بشكل متوتر، ويتحاشى كل ما يمكن أن يعرضها للخطر..

هزَّ مدير المخابرات رأسه نفياً، وهو يقول:
- ليس (نسيم) يا سيادة الرئيس.. إننى أضمن حياده، مهما كانت الظروف، وأراهن عليه بمنصبى وتاريخى كله.
نقل رئيس الجمهورية بصره بين (نسيم) ومديره لحظات، قبل أن يقول فى حسم:
- على بركة الله.. دعونا نراجع خطتنا ثانية.
أعاد الجميع المناقشة كلها على مسامع (نسيم) الذى استمع إليهم فى صمت واهتمام كاملين، حتى أنهى وزير الحربية حديثه قائلاً:
- وما زلت أصر على رأيي يا سيادة الرئيس.. لن يمكننا تحرير الرهائن، والسيطرة على الموقف، إلا بعملية انتحارية، لا يمكن توقعها قط.
أومأ الرئيس برأسه فى صمت، وهو يحشو غليونه، ثم التفت إلى (نسيم)، قائلاً:
- ما رأيك يا خبير مكافحة الإرهاب؟
اعتدل (نسيم)، وهو يقول:
- إننى أتفق مع رأى السيد وزير الحربية يا سيادة الرئيس، ولكن..
بدا التوتر على ملامح الجميع، وهم يتطلعون إليه، عندما توقف عند هذا القدر، فالتقط نفساً عميقاً، وتابع فى حزم:
- ولكن مع تطوير هام وجوهرى.
سأله الرئيس:
- أى تطوير هذا؟
مال نحوه (نسيم)، وهو يقول:
- سنقوم بمهمة انتحارية، ولكن بأسلوب عجيب، لن يخطر ببال هؤلاء المختطفين قط، هذا لأن خطتنا ستبدو جنونية.
قالها، وراح يشرح خطته..

ولقد كانت بالفعل خطة جنونية..
جنونية للغاية..

☆ ☆ ☆

تفجرت الدموع من عينى (أحمد)، وهو يهتف مذعوراً:
- لا أريد البقاء هنا.. أريد العودة إلى (القاهرة).. أريد العودة إلى أبى وأمى.
اندفع نحوه أحد الإرهابيين الثلاثة، وصرخ فى وجهه:
- اخرس أيها الصبى، وإلا قطعت لسانك، وشويته فى فرن الطائرة.

صرخ الصبى فى ارتياع، وألقى نفسه بين ذراعى (وفاء)، التى قالت فى حدة:
- إنك تخيف الصبى.
مال الإرهابى نحوها، وقال فى غلظة وحشية:
- حقاً؟!.. يا لك من غبية عطوف!.. ما رأيك لو انتزعت قلبك الحنون هذا، وسلقته مع لسانه؟!
ازدردت لعابها فى صعوبة، وهى تغمغم:
- أنت متوحش.

تراجع مُطلقاً ضحكة عالية، وهو يقول فى شراسة:
- شكراً لمجاملتك.. شكراً كثيراً.
أشعل الإرهابى الذى يقف عند باب كابينة القيادة المفتوح سيجارته، وهو يقول فى صرامة:
- اصمت يا رجل.. ضحكاتك هذه تثير أعصابى.
أجابه الرجل فى حدة:
- كل شئ حولنا يثير أعصابى أيضاً.. لماذا تأخروا هكذا فى تزويدنا بذلك الوقود اللعين.
عقد زعيمه حاجبيه، وهو يقول:
- إنهم يحاولون تعطيلنا لسبب ما.
هتف الثالث، من مؤخرة الطائرة:
- هذا يعنى أنهم يصنعون خطة لاقتحام الطائرة.
أجابه الكابتين فى توتر:
- كلا.. عملية التزود بالوقود تحتاج عادة إلى وقت طويل، وأنتم أعلنتم أنكم تريدون رحلة طويلة.. أليس ذلك؟
التفت إليه الزعيم، وقال فى صرامة:
- اصمت.. لم يطلب أحد رأيك.
قال الكابتن متوتراً:
- ربما.. ولكن هذه الطائرة لن تحتمل رحلة طويلة.. إنها ليست مجهزة لعبور المحيط مثلاً.
قال الزعيم فى حدة:
- ليس هذا من شأنك.. اصمت أو يحل مساعدك محلك فى القيادة.. هل تفهم ما أعنيه بهذا؟
ازدرد قائد الطائرة لعابه، وهو يغمغم:
- نعم.. أفهم.
ولكنه أضاف فى عصبية:

- ولكننى لست أفهم ما تسعون إليه بالضبط.. إنكم لم تعلنوا أية مطالب، ولم..
هوى زعيم الإرهابيين على وجهه بكعب مسدسه، صارخاً:
- قلت: اصمت.
تفجَّرت الدماء من وجه قائد الطائرة، وسقط إلى جوار مقعده فى ألم، فهتفت المضيفة، وهى تهرع إليه:
- لقد أصبته.
صرخ فيها الزعيم:
- لا تتحركى.. اتركيه هكذا، إنه يستحق هذا.
ثم التفت إلى مساعد القائد، مستطرداً فى شراسة:
- ستتولى القيادة، كما لو أن القبطان قد أصيب بحادث طارئ.. هل تفهم؟
أومأ المساعد برأسه إيجاباً، وهو يتطلَّع إلى القبطان المصاب فى قلق، فأشار زعيم الإرهابيين إلى ضابط الاتصال، قائلاً:
- لقد تأخروا فى عملية تموين الطائرة بالفعل.. اتصل بالبرج، وأبلغهم أننا نرغب فى الإقلاع بعد نصف ساعة على الأكثر، ولو لم يتم هذا، سنبدأ فى قتل رهينة كل عشر دقائق، حتى يتم الإقلاع.
انطلقت الصرخات داخل الطائرة، وانكمش (أحمد) بين ذراعى (وفاء)، وهو يصرخ:
- لا أريد أن أموت.. لا أريد أن أموت.
ولم تجب (وفاء)..
لم تكن حتى قادرة على الإجابة..
لقد كان قلبها يرتجف..
ويرتجف..
ويرتجف..

☆ ☆ ☆

تألق البدر فى قلب السماء، محاطاً بملايين النجوم الساطعة، فى مشهد رائع، من إبداع الخالق (عز وجل)، واسترخى (فاى) فى مقعد قيادة السيارة (الجيب) المكشوفة، يتطلَّع إليه فى صمت، وقد أطلق العنان لأفكاره، محاولاً استرجاع شئ من ذكرياته القديمة، التى تصر على الاختباء خلف حاجز مظلم، فى غياهب عقله..

إنه لم يتذكر بعد من يكون..

لم يسترجع ذكرياته السابقة لعمله مع المقدم (رفعت)..

ولكن هناك مصابيح تتألق أحياناً فى ذاكرته المظلمة..

مصابيح تشير إلى أنه كان، فيما مضى أيضاً، مقاتلاً..

وكان يحارب الأعداء أنفسهم..

ولكن متى؟!..

وكيف؟!..

كل هذا ما زال يقبع داخل الجزء المظلم من ذاكرته..

ذلك الجزء الذى لم يمتد إليه ضوء المصابيح بعد..

إنه لا يذكر حتى الاسم الذى كان يحمله..

لا يذكر حرفاً واحداً منه..

إنه..

قاطعه بغتة هدير مروحة هليوكوبتر تقترب، وانتزعه من أفكاره وشروده، فاعتدل يتطلَّع إلى السماء، ورأى الهليوكوبتر تعبر قرص القمر الفضى، وتتجه نحوه مباشرة، فانعقد حاجباه فى شدة، وراح يراقبها ببصره، حتى استقرت على مسافة أمتار قليلة منه، ورأى قائدها يشير إليه، هاتفاً:

- هيا يا فتى.. الأوامر تحتم ألا نضيع لحظة واحدة.

سأله الشاب فى حذر، وهو يتجه إليه:

- هل تبحث عنى أنا.
أجابه الطيار فى توتر:
- بالتأكيد.. لقد اتصلت بقائد التدريب، وأخبرنى أننى سأجدك هنا.. وهو يعلم أنك سترحل معى.. هيا.. أسرع..
قفز (فاى) داخل الهليوكوبتر، وهو يقول:
- ولكن هذا الزى الذى أرتديه سيثير بعض المشكلات، إنه زى (سيجين مشنى) إسرائيلى ([6]) ، والمفروض ألا أرتديه سوى هنا.
أشار الطيار إلى حقيبة خلف مقعده، قائلاً، وهو يستعد للإقلاع:
- ستجد كل ما تحتاج إليه هنا، ولكنك ستضطر لإبدال ثيابك داخل الهليوكوبتر، فلدى أوامر مشددة بعدم إضاعة ثانية واحدة.. من الواضح أنهم يحتاجون إليك بشدة، وبأسرع وقت ممكن.
أمسك الشاب يده فى صرامة، وهو يقول:
- مهلاً.. قبل أن تقلع.. كيف لى أن أتأكَّد من أن هذا الإجراء العجيب، الذى لا يتفق مع القواعد العامة، حدث بأمر من المسئولين بالفعل، وأنها ليست خدعة بشكل ما.
ابتسم الطيار، وهو يقلع بالفعل، ويناوله مظروف مغلق، قائلاً:
- لقد توقعوا سؤالك، وطلبوا منى أن أعطيك هذا المظروف، مؤكدين أنك ستفهم على الفور.
التقط الشاب المظروف، وفتحه بسرعة، والتقط منه ورقة مطوية، فضها ليجد فى منتصفها رسماً لشكل بيضاوى شبه مستدير، يقطعه خط مستقيم..
وكان هذا هو الرمز الذى يحمله..
رمز (فاى) ([7]) .

وفى حماس، طوى الشاب الورقة، ودسها فى جيبه، قائلاً:
- انطلق يا رجل.. لن نضيع ثانية واحدة بإذن الله.
وانطلقت الهليوكوبتر..
ودون أن تضيع ثانية واحدة..

☆ ☆ ☆

عندما هبط (فاى) من الهليوكوبتر، فى أحد المطارات الحربية الصغيرة، استقبله (نسيم)، وهو يقول:
- مرحباً يا فتى.. هيا.. الطائرة تنتظرنا.

عندما هبط (فاى) من الهليوكوبتر ، فى أحد المطارات الحربية الصغيرة ، استقبله (نسيم) ..

أسرع (فاى) إلى جواره، نحو طائرة حربية تستعد للإقلاع، وهو يسأله:

- إلى أين سنذهب يا سيدى؟

أجابه (نسيم)، وهو يصعد معه إلى الطائرة.

- سأخبرك بكل شئ فى الطائرة يا فتى.. لا ينبغى أن نضيع لحظة واحدة..
وعندما أقلعت الطائرة، بعد لحظات معدودة، كان (نسيم) يشرح الموقف كله للشاب، بكل تفاصيله المعروفة، وأضاف:
- الشئ الوحيد، الذى توصلنا إليه، هو سبب اختطاف الطائرة، ففى مخزن الحقائب والبضائع فيها، عشرة صناديق تحوى عدداً من القطع الأثرية المصرية القديمة، كانت تُعرض ولمدة شهر كامل فى (لندن)، ومن الواضح أن هؤلاء المجرمين ارتكبوا عملية اختطاف الطائرة لهذا الغرض وحده، خاصة وأنهم لم يعلنوا أية مطالب محددة، كما يحدث عادة فى حالات الاختطاف، التى تقوم بها منظمات معروفة، أو فئات ذات معتقدات خاصة.. وفى اعتقادنا أنهم سيستقلون الطائرة إلى منطقة تم إعداد مهبط عشوائى فيها، وسيجرونها على الهبوط هناك، ثم يحصلون على القطع الأثرية، التى تساوى ملايين الدولارات، و..
صمت لحظة، ليزداد لعابه المتوتر، قبل أن يستطرد:
- وبعدها يقتلون الجميع.
انعقد حاجبا (فاى) فى شدة، وهو يقول:
- هل تعتقد أنهم يجرؤون على قتل كل هذا العدد من البشر يا سيدى؟
أومأ (نسيم) برأسه إيجاباً، وهو يقول:
- ليس لدى أدنى شك فى هذا، فأمثالهم لن يتركوا كل هذا القدر من الشهود خلفهم.. أعتقد أنهم سيعمدون إلى نسف الطائرة بعد انصرافهم بالغنيمة.
ثم التقط نفساً عميقاً، استعاد به سيطرته على أعصابه، وأضاف فى حزم:

- ولقد درسنا كل الاحتمالات، وانتهى بنا الأمر إلى الموافقة على القيام بعملية انتحارية، لإنقاذ الرهائن، والسيطرة على الموقف، ولقد اقترحت أنا خطة جنونية، أثارت استنكار الجميع، فيما عدا السيد رئيس الجمهورية، الذى هزَّ رأسه لحظات، ثم أعلن موافقته على الخطة، على الرغم من جنونها، مؤكداً أنه يؤمن بأنها الوسيلة الوحيدة لمباغتة المختطفين، وتحقيق النتيجة المنشودة، على الرغم من خطورتها البالغة.

تطلَّع إليه الشاب فى تساؤل، فاستطرد:

- إننا سنسمح للطائرة بالإقلاع، بعد التزود بالوقود.

تضاعف التساؤل فى عينى الشاب، فالتقط (نسيم) نفساً أكثر عمقاً، قبل أن يتابع:

- وعندئذ سنقوم بعمليتنا الانتحارية.

والتفت يتطلَّع إلى الشاب، قائلاً:

- عملية ستقوم بها وحدك.

ارتفع حاجبا (فاى) فى دهشة، و(نسيم) يضيف فى حزم شديد:

عملية أطلقنا عليها اسم (النسر).. (عملية النسر المنفرد).

وتضاعفت دهشة (فاى)، وهو يستمع إلى التفاصيل..

تضاعفت ألف مرة.

☆ ☆ ☆

٣- النسر..

ألقى زعيم الإرهابيين نظرة على ساعة يده، وأشعر سيجارته فى هدوء، وهو يقول:

- بقيت عشر دقائق فحسب على الموعد المحدد.. دعونا ننتق ضحيتنا الأولى..

انطلقت صرخات النساء، وانهمرت دموعهن كالأمطار، وانكمش الجميع فى مقاعدهم فى ارتياع، محاولين الفرار من عينى الزعيم، اللتين دارتا فى الوجوه، بحثاً عن ضحيته الأولى، التى سيثبت بها جدية تهديده..

وفى ارتياع، صرخ (أحمد):

- لا.. لا أريد أن أموت.. لا.

ضمته (وفاء) إلى صدرها محاولة تهدئته، على الرغم من أن كل خلية فى جسدها ترتجف ذعراً، وهى تقول:

- اطمئن.. اطمئن يا (أحمد).. لست أظن أن قلوب هؤلاء الوحوش تبلغ من القسوة ذلك الحد، الذى يجعلهم يقتلون صبياً مثلك، بلا ذنب جناه.

ولكن أحد الإرهابيين الثلاثة اندفع نحوها، وهو يقول فى وحشية:

- أخالفك الرأى يا ذات القلب الحنون، فالفكرة لا بأس بها.

ثم انتزع الصبى من بن ذراعيها فى شراسة، جعلت الصبى يصرخ فى ارتياع، وجعلها تصيح:

- لا.. لن تأخذه.

صفعها الرجل فى قسوة، صائحاً:

- اخرسى أيتها الحقيرة.. من سمح لك باتخاذ القرارات هنا.

انفطرت قلوب الجميع مع صراخ الصبى ووحشية الإرهابى، ولكن زعيم الإرهابيين قال للرجل فى صرامة:
- اترك الصبى.
التفت إليه الرجل فى شراسة عصبية، فكرر:
- قلت: اترك الصبى.
زمجر الرجل فى غضب، ثم دفع الصبى، يعيده إلى مقعده، قائلاً فى حدة:
- هل انتقلت إليك عدوى الشفقة والحنان؟.. أنت تعلم جيداً أن اختيار الصبى كضحية أولى، يجعلهم يدركون كم نحن جادون فى قولنا.. أليس هذا أحد المبادئ التى تعلمناها منك؟.. أن نصدم المشاعر، وبقسوة، حتى يمكننا تحديد أهدافنا بأقصى سرعة؟
نفث الزعيم دخان سيجارته، وهو يبتسم فى برود، قائلاً:
- ما زلت أنتهج السياسة نفسها يا رجل، ولكننى أختلف معك فى اختيار أسلوب الصدمة فحسب.
هتف الرجل فى حدة:
- لا توجد صدمة أعنف من اختيار صبى مثله كضحية أولى.
قال الزعيم فى صرامة شديدة:
- قلت إننا لن نبدأ بالصبى.
همهم الرجل بكلمات ساخطة، فاستطرد الزعيم فى جذل:
- سنبدأ بها.
قالها وهو يشير إلى تلك الفتاة، التى انفجر قلبها من فرط الهلع والذعر والارتياع.. إلى (وفاء)..

☆ ☆ ☆

«لا يمكننى إجبارك على القيام بمهمة انتحارية كهذه يا (فاى)..».

نطق (نسيم) تلك العبارة فى حزم واضح، داخل الطائرة الحربية، التى تنطلق إلى (قبرص)، وهو يتطلَّع إلى وجه الشاب مباشرة، قبل أن يستطرد:

- ولكن ما عرفته عنك، وما نقله إلىَّ مدربك الأوَّل المقدم (رفعت) من انطباعات، يجعلنى واثقاً من أنك لن ترفض المهمة.

صمت الشاب لحظة، قبل أن يقول فى صوت قوى:

- أعلم أنها مهمة انتحارية تماماً يا سيدى، ولكننى لن أتردَّد لحظة واحدة فى قبولها، ما دامت من أجلها.

وخفق صوته مع نبضاته، وهو يضيف:

- من أجل (مصر).

كانت هذه هى الكلمة السحرية، التى تتفجر لها كل خلية فى جسد الشاب بالحماس والقوة والعنفوان..

الكلمة التى يكفى ذكرها، ليشحذ الشاب قواه وحواسه، ولا يتردد فى التضحية بحياته نفسها، لو اقتضى الأمر من أجلها..

من أجل وطنه..

(مصر)..

وعلى الرغم من أن (نسيم) اعتاد إخفاء انفعالاته ومشاعره، خلف قناع جليدى جامد، وهو يتعامل مع تلامذته ومعاونيه، إلا أن حاجباه ارتفاع فى تأثر هذه المرة، ويده تربت على كتف الشاب، مغمغماً:

- (رفعت) كان على حق.. أنت شاب نادر فى هذا الزمن..

صمت الشاب لحظة، ثم سأل فى اهتمام:

- هناك نقطة تقلقنى يا سيدى.. كيف يمكننا تحديد وجهة الطائرة؟

أجابه (نسيم):

- ستتعقبهم مقاتلة قبرصية فور إقلاعهم، وتبلغنا خط سير الطائرة أولاً فأولاً، ثم إن برج المراقبة فى (نيقوسيا) سيبلغ الطيار، باستخدام شفرة خاصة، بضرورة الانطلاق بسرعة بطيئة نسبياً، حتى يمكننا اللحاق بها، و..

والتقط نفساً عميقاً كعادته، قبل أن يربت على كتفه ثانية، مستطرداً فى انفعال:

- وعندئذ يحين دورك يا بطل.

أومأ الشاب برأسه إيجاباً، دون أن ينبس ببنت شفة، وعقله كله يدرس تلك المهمة، التى يستعد للقيام بها..

المهمة الانتحارية..

☆ ☆ ☆

تألقت عينا زعيم المجرمين، وهو يرفعهما عن ساعته، قائلاً فى لهجة أقرب إلى الجذل:

- دقيقتان وتنتهى المهلة.

أطلق الإرهابى الثانى ضحكة مجلجلة، وهو يجذب (وفاء) من شعرها فى قسوة، هاتفاً:

- هيا يا نبع الحنان.. قولى وداعاً لهذا العالم، الذى لم يقدر عطفك السامى.

صرخت (وفاء) فى رعب، وأصيب (أحمد) المسكين بحالة فزع هستيرية، فراح ينتفض ويصرخ، وهتف قائد الطائرة فى توتر وتهالك:

- هل يسعدكم تعذيب الفتيات والأطفال؟

أشعل الزعيم سيجارة أخرى، وهو يقول فى لا مبالاة:

- لا تلمنا على ما يحدث يا رجل.. وجه اللوم إلى أولئك الرجال فى برج المراقبة، فهم الذين تسببوا فى ضياع الوقت، ولقد وعدت بقتل الرهينة الأولى، بعد مُضى نصف ساعة بالتحديد.

هتف مساعد الطيار فى عصبية:
- ولكنهم يملئون الخزان بالوقود بالفعل.
نفث الزعيم دخان سيجارته، وقلب كفيه فى استهتار، وهو يقول:
- ولكنهم أضاعوا الوقت.. ما ذنبى إذن؟
ثم أشار إلى الإرهابى الثانى، الذى هتف فى جذل:
- نعم.. ما ذنبنا.
أغلقت (وفاء) عينيها فى رعب، وغاص قلبها بين ضلوعها فى انهيار، وشعرت بفوهة مدفع الإرهابى تلتصق بجانبها، و..
«قف..».
انطلقت صيحة مساعد القبطان تشق المكان، قبل أن يستطرد بانفعال:
- البرج أبلغنا أن عملية التزود بالوقود قد انتهت، وأنه يسمح لنا بالإقلاع، قبل الوقت المحدد بنصف دقيقة.
هتف الإرهابى الذى يلصق فوهة مدفعه بجانب (وفاء)، وهو يجذب إبرة ضرب النار فى شراسة:
- نصف دقيقة لا تكفى.
هتف الكابتن فى ضعف، موجهاً حديثه إلى الزعيم:
- قلت إنك تحترم كلمتك. أليس كذلك؟

مطَّ زعيم المجرمين شفتيه، ونفث دخان سيجارته فى بطء، ثم أشار إلى الإرهابى الآخر، قائلاً:

- اخفض مدفعك.

هتف الإرهابى فى غضب:
- قلت: إننا سنبدأ بها.
صاح الزعيم فى وجهه، وهو يصوِّب إليه مسدسه:
- نفذ أوامرى دون مناقشة، وإلا نسفت رأسك.
احتقن وجه الإرهابى لحظات، قبل أن يخفض مدفعه، مغمغماً فى حنق:
- فليكن أيها الزعيم.. فليكن.
ودفع (وفاء) فى قسوة، ليلقيها فوق مقعدها، وكأنما يحنقه أن منعه الزعيم من إراقة دمها، فى حين بدأ مساعد الكابتن فى إدارة محركات الطائرة، وهو يسأل:
- ما وجهتنا بالضبط؟
أجابه الزعيم فى صرامة:
- لا تسأل.. انطلق فحسب.
قال المساعد فى عصبية:
- من المهم أن أعرف وجهتنا.. اتجاه الإقلاع يعتمد على هذا.
صرخ فيه الزعيم فى غضب صارم:
- لا تحاول خداعى يا هذا.. هيا.. انطلق، وعندما نصبح فوق السحاب، سأحدد لك وجهتنا بالضبط.
تبادل المساعد نظرة مع القائد، ثم غمغم:
- فليكن..
وانطلقت الطائرة فوق ممر الإقلاع لفترة من الوقت، ثم حلقت عالياً، وارتفعت مبتعدة عن مطار (نيقوسيا)، فى اتجاه الغرب، وراحت ترتفع وترتفع، حتى اختفت وسط السحاب، وعندئذ ابتسم زعيم الإرهابيين فى ارتياح، وهو يقول لمساعد القائد:
- والآن، در نصف دورة، وانطلق فى اتجاه الجنوب الشرقى.
سأله مساعد القائد فى اهتمام، وهو يدور بالطائرة:

- وما وجهتنا بالضبط؟
اندفع الزعيم إلى الأمام بحركة حادة، وانتزع أسلاك جهاز اللاسلكى فى عنف، فصاح القائد:
- ماذا تفعل أيها المجنون، ما من مطار سيسمح لنا بالهبوط، دون أن نحدد له هويتنا لاسلكياً.
ابتسم الزعيم، وهو يقول:
- اطمئن يا رجل.. المطار الذى سنتجه إليه ينتظرنا، ويعلم من نحن مسبقاً.
أثارت كلماته ولهجته توتر مساعد القائد، فعاد يسأله:
- ما وجهتنا بالضبط؟
نفث الزعيم دخان سيجارته فى بطء واستمتاع، ثم برقت عيناه، وهو يجيب فى صوت عميق:
- (إسرائيل).
وكانت المفاجأة مذهلة..

☆ ☆ ☆

انهمرت الأمطار فى غزارة، على العاصمة البريطانية (لندن)، على الرغم من الطقس الدافئ فى تلك الليلة، وتحت المطر المنهمر، اندفع رجل رياضى القوام، نحو مدخل الطوارئ، فى أحد المستشفيات الكبرى، وهو يرتدى معطف مطر سميكاً، وقبعة من طراز إنجليزى عتيق، وقد بدا من ارتفاع ياقة معطفه، وانخفاض حافة قبعته، أنه يحاول جاهداً حماية نفسه من الأمطار الغزيرة، ولكن من المؤكد أن هذا أخفى ملامحه تماماً، وهو يعبر المدخل، ويواصل طريقه بضعة أمتار أخرى، ثم ينحرف يساراً، ويلتفت حوله فى حذر، قبل أن يدلف فى خطوة واسعة سريعة إلى دورة المياه، وهناك انتزع قبعته، وطواها بسرعة مدهشة، على نحو يوحى بأنها مجهزة لهذا الغرض،

ووضعها فى جيب المعطف، الذى انتزعه، ونفض قطرات المياه العالقة به، ثم قلبه على الوجه الآخر، فبدا أبيض ناصعاً، أشبه بمعاطف أطباء المستشفى، وعلى صدره بطاقة من بطاقات الهوية المستخدمة فى المكان، تحمل صورته، مع اسم بريطانى، يشير إلى أنه أحد الأطباء الجدد، ومن الجيب الداخلى أخرج سماعة طبية، علقها حول عنقه، وغادر دورة المياه فى هدوء، واتخذ طريقه فى أروقة المستشفى الكبير، ووجهه يحمل ابتسامة هادئة واثقة..

وفى قسم الحالات الحرجة، توقف الرجل عند إحدى الحجرات، وسمع الطبيب داخلها يقول لزميله:

- لقد نجا بمعجزة.. كلنا توقعنا أن يلفظ أنفاسه فى حجرة العمليات.. هل تعلم.. لقد أخرجنا ست رصاصات من جسده..

اثنتان منها كانتا على بُعد سنتيمتر أو يزيد عن حافة القلب، والثالثة اخترقت عنقه، ومزقت جزءاً من وريده العنقى، والرائعة والخامسة غاصتا فى معدته، أما السادسة، فقد حطَّمت أحد ضلوعه، قبل أن تستقر فى الرئة اليمنى.

أطلق الزميل صفيراً قصيراً، قبل أن يلقى نظرة على المريض المسجى على الفراش، ويغمغم:

- إنها معجزة بحق..

ثم سأل فى اهتمام:

- ولكن أخبرنى.. هل تتوقعون نجاته، بعد كل هذا؟

تنهد الطبيب الأول، قائلاً:

- احتمال نجاته لا يتجاوز الخمسة فى المائة، على الرغم من كل ما فعلناه معه، ولكن من يدرى؟

أومأ زميله برأسه إيجاباً، وقال:

- نعم.. من يدرى؟

وقفا يتبادلان حديثاً قصيراً بعدها، ثم غادرا الحجرة، وتركا الممرضة وحدها فيها، ولم يكد كلاهما يختفى فى نهاية الممر، حتى دلف الرجل إلى الحجرة ذاتها، وسأل الممرضة بإنجليزية سليمة:

- كيف حال المريض؟.. أنا الدكتور (ويليام)، منتدب من الشركة من أجله.

نهضت الممرضة واقفة فى احترام، مجيبة:

- لقد فحصه الدكتور (إدوارد) منذ لحظات، و..

قاطعها ملوحاً بيده:

- لا بأس.. لا بأس.. سأعيد فحصه بنفسى.. الشركة التى يعمل بها تصر على هذا.. أحضرى حقيبة الفحص، واتصلى بالدكتور (ألفريد)، فى رقم (٩٧٦٥٧٨٣)، وأخبريه أننى سأقوم بالفحص، ولا داعى لحضوره.

أجابته فى احترام:

- كما تأمر يا دكتور.

وأسرعت تغادر الحجرة لتنفيذ ما طلبه، ولم تكد تفعل، حتى أغلق هو الباب فى سرعة، ثم اقترب من المريض، وداعب منطقة التقاء حاجبيه، وهو يقول بالعربية، وبلهجة مصرية خالصة:

- (عاطف).. استيقظ يا (عاطف).

كرر العملية عدة مرات، وهو يردد العبارة نفسها، فى صبر شديد، حتى فتح المريض عينيه فى صعوبة، وتمتم:

- من.. من أنت؟

أجابه الرجل فى اهتمام:

- أنا (مجدى).. زميل لك، فى (م . ع . م)([8]) .

ازدرد (عاطف) لعابه فى صعوبة، وهو يهمس متهالكاً:

- وكيف يمكننى أن أثق بهذا؟
أجابه (مجدى) على الفور:
- هل سبق لك أن زرت برج (لندن)؟
همس (عاطف):
- بل زرت برج (إيفل) فحسب.
قال (مجدى):
- لا بأس.. لو أنك زرت برجاً واحداً، فكأنك زرت الأبراج كلها.
كانت هذه هى عبارات السر المتفق عليها، لذا فقد ابتسم (عاطف) فى وهن، متمتماً:
- حمداً لله.. كنت أخشى أن أموت، قبل أن ألتقى بأحدكم..
أمسك (مجدى) يده فى رفق، وهو يقول:
- اطمئن يا صديقى.. الوطن لن يتخلى عنك أبداً.. بعد لحظات ستأتى سيارة إسعاف خاصة، بحجة نقلك إلى مستشفى آخر، وستحملك مباشرة إلى المطار، حيث تنتظرك طائرة طبية خاصة، ستنقلك إلى الوطن، مع كل الرعاية اللازمة.
أمسك (عاطف) معصم (مجدى)، بكل ما تبقى له من قوة، وهو يقول:
- دعك من كل هذا الآن.. لست أظن أننى سأبقى، حتى يتم كل هذا.. ولكن استمع إلىَّ جيداً، فالأمر أخطر مما تتصوَّر.

انعقد حاجبا (مجدى)، وهو يسأله:
- ماذا هناك يا (عاطف)؟
التقط (عاطف) أنفاسه فى صعوبة، وبدا وكأنه يلهث، وهو يقول:
- تلك الوثيقة، التى أطلقوا النار علىَّ من أجلها.. لقد حصلت عليها.. إنهم لم يسترجعوها بعد.. إنها وثيقة بالغة الخطورة.. وثيقة لن يتردَّد الإسرائيليون فى نسف نصف (أوروبا) من أجل استرجاعها، قبل أن تقع فى أيدينا.
سأله (مجدى) فى توتر شديد:
- وأين هذه الوثيقة؟
كان صوت (عاطف) يتدهور فى سرعة، ولكنه استنفر قواه كلها، أو ما تبقى منها، وهو يقول:
- فى طريقها إلى (القاهرة).. ولكنهم لم يمهلونى لأبلغ القيادة هناك.. استمع إلىَّ بكل حواسك يا (مجدى).. استمع جيداً.
وبأنفاس متقطعة، وكلمات لاهثة، راح (عاطف) يروى ما لديه.. وكان ما يرويه مدهشاً..

وخطيراً..
خطيراً إلى أقصى حد.

☆ ☆ ☆

٤- السر..

احتقن وجه مدير المخابرات المصرية، وهو يطالع البرقية السرية العاجلة، التى وصلته من فورها من (لندن)، ثم ناولها لرئيس الجمهورية، قائلاً فى توتر بالغ:

- يبدو أننا أخطأنا تحديد الهدف يا سيادة الرئيس.. هؤلاء الذين اختطفوا الطائرة ليسوا مجرد جماعة من المجرمين، الأمر أخطر من هذا بكثير.

انعقد حاجبا رئيس الجمهورية، وهو يلتقط البرقية، ويطالعها فى اهتمام، فى حين سأل وزير الحربية فى قلق:

- ماذا حدث بالضبط؟

أجابه مدير المخابرات فى انفعال:

- حدث أن رجالى فى (لندن) كشفوا منذ دقائق، أن (الموساد) الإسرائيلى وراء عملية اختطاف الطائرة.

هتف رئيس الوزراء فى انزعاج:

- (الموساد).. ولماذا يفعلون هذا؟.. إنه تحد سافر.

أجابه مدير المخابرات:

- إنهم لن يعلنوا هويتهم قط، ولن تجد معهم دبوساً يشير إليها، وسيتبرأ (الموساد) من المختطفين رسمياً، لو استلزم الأمر.. إنها عملية عنيفة قذرة أيها السادة، ولكن الهدف الذى يسعى إليه الإسرائيليون خطير للغاية، إلى الحد الذى دفع رجالهم لاختطاف الطائرة.

سأله رئيس الوزراء فى توتر:

- هل يرغبون فى سرقة الآثار؟

هز مدير المخابرات رأسه نفياً، وهو يقول:

- بل الأمر أكثر خطورة بكثير، والهدف الذى يسعون خلفه يساوى أضعاف ما تساويه الآثار..
ثم اعتدل، والتقط نفساً عميقاً، قبل أن يقول:
- دعونا أشرح لكم الأمر أيها السادة.. منذ فترة، راودنا الشك فى وجود تعاون وثيق بين (إسرائيل) ودولة شرقية كبيرة، بصورة تامة السرية، وبعد موافقة السيد رئيس الجمهورية، قررنا القيام بعملية تابعة لجهاز المخابرات، لكشف هذا التعاون، وتحديد مداه، ومدى خطورته بالنسبة لنا، خاصة وأننا نعتبر هذه الدولة الشرقية حليفاً وصديقاً هاماً لنا.. وبعد عدة أشهر من العمل الشاق المتواصل، نجح أحد رجالنا فى الحصول على وثيقة بالغة الخطورة والأهمية، تحوى كل المعلومات المطلوبة، ولكن الإسرائيليين كشفوا أمره، وطاردوه، وأطلقوا عليه النار، وتصوَّرنا نحن أن هذا يعنى أنهم استعادوا الوثيقة.
وتنهد فى عمق، قبل أن يضيف:
- ولكننا كنا على خطأ.
سأله قائد القوات الجوية فى اهتمام بالغ:
- أتعنى أنهم لم يستعيدوا الوثيقة بعد؟
هزَّ مدير المخابرات رأسه نفياً، وقال:
- هذا صحيح.. لقد كان رجلنا يعمل تحت تغطية مناسبة، باعتباره أحد رجال الآثار، المرافقين لآثار (توت - عنخ - آمون) ([9]) فى أثناء فترة عرضها فى (لندن)، وعندما شعر بالخطر، بعد حصوله على الوثيقة، قام بإخفائها داخل أحد صناديق الآثار، اعتماداً على الحراسة المكثفة، التى ستحاط بها الآثار، حتى يتم نقلها إلى الطائرة، والتى ستمنع الإسرائيليين من الوصول إلى الوثيقة، ولكن كان تقديره صحيحاً الى حد ما، فلم ينجح

الإسرائيليون فى استعادة الوثيقة، ولكنهم لم يستسلموا بسهولة، وأعدوا خطة اختطاف الطائرة، حتى يمكنهم استعادة وثيقتهم.
نفث رئيس الجمهورية دخان غليونه، وهو يقول فى حزم:
- هذا يجعل وجهتهم واضحة.. إنهم سيهبطون بطائرة ركاب كبيرة، ولا يمكنهم أن يفعلوا هذا فى أية دولة.. إنهم سيهبطون حتماً فى أرضهم.
ثم اعتدل فى صرامة، مستطرداً:
- فى (إسرائيل)..
اتسعت عينا رئيس الوزراء فى هلع، وهتف وزير الحربية:
- ولكن لماذا طلبوا تزويد الطائرة بوقود يكفى لرحلة طويلة؟
أجابه رئيس الجمهورية:
- التمويه.. محاولة التمويه على خط السير الفعلى.
ثم أومأ برأسه فى صمت، قبل أن يتابع فى حسم:
- أعتقد أن هذا يبدل طبيعة المهمة تماماً يا سادة.. الأمر لم يعد يقتصر على تحرير الرهائن، واستعادة السيطرة على الطائرة.. بل أصبح هناك هدف آخر، لا يقل أهمية وخطورة.. إنه ضرورة الحصول على تلك الوثيقة، وإحضارها إلى هنا، مهما كان الثمن.
وعاد ينفث دخان غليونه، وهو يدير عينيه فى الحضور، قبل أن يضيف فى حزم شديد:
- هل فهمتهم ما أعنيه؟!.. مهما كان الثمن؟
وأصبح الأمر أكثر وضوحاً..
وأكثر دقة..

☆ ☆ ☆

التقط (نسيم) إشارة طائرة المراقبة، التى تتبع الطائرة المختطفة، وأشار إلى (فاى)، قائلاً:

- إنهم يتجهون إلى الجنوب الشرقى.. هذا أفضل بالتأكيد، سنبلغهم بسرعة أكبر فى هذه الحالة.
ثم التفت إلى الشاب، مستطرداً:
- هل انتهيت من ارتداء ثيابك؟
أومأ الشاب برأسه، مغمغماً فى اقتضاب:
- نعم.
ألقى (نسيم) عليه نظرة فاحصة سريعة، وجال بخاطره أنه لو رأى أى شخص آخر ما يرتديه أو يحمله الشاب، لارتفع حاجباه فى دهشة بالغة، أو لانفجر ضاحكاً فى حيرة وسخرية..
لقد كان الشاب يرتدى زى القفز بالمظلات، ويحمل على ظهره حقيبة المظلة، ولكن معصميه وركبتيه حملت شفاطات قوية، فى حين تعلق فى حزامه حبل طويل، ينتهى طرفه ببندقية صيد مائية، ذات رمح قوى، وعلى صدره اسطوانة أكسجين صغيرة..
وكان من المدهش حقاً أن تجتمع كل هذه الأشياء معاً..
ولكن (نسيم) كان يعلم أنها كلها ضرورية..
ضرورية للغاية..
وفى اهتمام، قال للشاب:
- العمل الذى ستقوم به ليس سهلاً أو بسيطاً، ومن المؤكَّد أن العديدين يحجمون عن القيام به، أو حتى مجرد التفكير فيه، ولكننى أعلم أنك مؤهل له.
غمغم الشاب:
- أشكرك يا سيدى.
هز (نسيم) رأسه نفياً، وهو يقول:
- لست أجاملك يا فتى، فلا مجال للمجاملة فى عالمنا كما تعلم.. لقد أشرفت على جزء كبير من تدريباتك بنفسى، والواقع أنك تذكرنى بأيام شبابى، وهذا ما يجعلنى أثق بك كثيراً.

ابتسم الشاب، وهو يقول:
- لقد سمعت الكثير عن العمليات الفذة، التى قمت بها يا سيدى..
لوَّح (نسيم) بذراعه، قائلاً:
- كان هذا منذ فترة طويلة.
ثم وضع يده على كتف الشاب، مستطرداً:
- ولكن ما ستفعله أنت بإذن الله، يفوق كل هذا.
انفرجت شفتا الشاب، وهمَّ بقول شئ ما، ولكن الطيار قال فجأة:
- إشارة عاجلة يا سيادة المقدم، على الخط السرى المأمّن.
انعقد حاجبا (نسيم)، وقفز يلتقط مسماع اللاسلكى، ويضعه على أذنيه، وهو يقول عبر البوق الصغير:
- هنا المقدم (نسيم).
وازداد انعقاد حاجبيه فى شدة، وهو يستمع إلى محدثه فى اهتمام بالغ، قبل أن ينهى المحادثة، ويقول للطيار فى حزم:
- انطلق يا رجل فى اتجاه الشرق، بزاوية ست وثلاثين درجة، وارتفع إلى أقصى ما يمكنك بلوغه.
ثم التفت إلى الشاب، مستطرداً:
- لقد تغيرت طبيعة المهمة، تغيرت تماماً.

☆ ☆ ☆

ارتسمت ابتسامة متلذذة على شفتى زعيم المختطفين، وهو يدير عينيه فى الوجوه المذعورة داخل الطائرة، وأشعل سيجارته فى استمتاع، وهو ينفث دخانها نحو فوهة مسدسه المتحفز، وأسرع إليه أحد الرجلين، قائلاً فى اهتمام:
- هذه الطائرة لها مدخل يقود إلى مخزن الحقائب.

انعقد حاجبا الزعيم، والتفت إلى مساعد القائد، وصوَّب إليه مسدسه، وهو يقول فى صرامة غاضبة:
- لماذا لم تخبرنى بهذا؟
أجابه المساعد فى توتر:
- أنت لم تسأل.
مطَّ الزعيم شفتيه، وقال:
- وهل يتم فتح هذا المدخل من هنا، مثل الباب الخارجى؟
أجابه المساعد:
- نعم.. لقد منعتنا من فتح مخزن الحقائب، عندما كنا فى مطار (قبرص)، فلم أتصوَّر أن..
قاطعه الزعيم فى صرامة:
- فليكن.. افتح المدخل الداخلى الآن.
ضغط المساعد أحد الأزرار أمامه، وقال:
- ها هو ذا.
التفت الزعيم إلى الإرهابى الآخر، قائلاً:
- خذ موقعى، وسأهبط للبحث عما أتينا من أجله.
قال الرجل فى شئ من الجذل، وهو يلوِّح بمسدسه:
- على الرحب والسعة.
اتجه الزعيم فى خطوات واسعة إلى مؤخرة الطائرة، حيث مدخل المخزن الداخلى، وهبط إلى مخزن الحقائق والبضائع، وتوقف أمام الصناديق الكبيرة، التى تحمل الآثار المصرية القديمة، وابتسم مغمغماً:
- عظيم.. يبدو أن مهمتنا ستنجح بأسرع مما توقعنا.
والتقط عتلة معدنية.. وراح يكسر أغطية الصناديق الخشبية، ويبحث فى اهتمام عن الهدف الرئيسى عن عملية الاختطاف كلها..

عن الوثيقة..
الوثيقة الإسرائيلية..

☆ ☆ ☆

وراح يكسر أعطية الصناديق الخشبية ، ويبحث فى اهتمام عن الهدف الرئيسى من عملية الاختطاف كلها ..

«هذه هى حقيقة الأمر إذن!..».

غمغم الشاب بهذه العبارة فى خفوت، عندما شرح له (نسيم) الموقف كله، فاعتدل هذا الأخير، وهو يسأله:
- هل يغير هذا من الأمر شيئاً بالنسبة لك؟
أجابه الشاب فى حزم:
- بالتأكيد.
تراجع (نسيم) فى دهشة، هاتفاً:
- ماذا؟
استدرك الشاب فى سرعة:
- إنه يجعلنى أكثر إصراراً على النجاح فى المهمة.
ابتسم (نسيم) فى ارتياح، وهو يقول:
- ألم أقل لك إنك تذكرنى بأيام شبابى؟
ثم اعتدل فى حزم، مستطرداً:
- والآن لقد علمنا الوجهة التى تتخذها الطائرة، وعلينا أن نلتقى بها قبل أن تبلغها.. هل تحب أن نراجع الخطة مرة أخرى؟
أومأ الشاب برأسه إيجاباً، ففرد (نسيم) أمامه رسماً تخطيطياً للطائرة، وهو يقول:
- هذا هو المدخل الوحيد، الذى يمكنك أن تصل من خلاله إلى داخل الطائرة.. إنها منطقة هبوط الإطارات.. الجهاز الذى معك سيساعدك على فتح باب الإطارات، وعبره ستتسلل إلى مجموعة التروس، التى ستقودك إلى أنبوب العادم، سر بمحاذاته وستجد فتحة الطوارئ، ومنها ستقتحم الطائرة من الداخل.
ثم تنهد قبل أن يستطرد:
- وانتبه جيداً إلى أن كل ما سنعتمد عليه هو عامل المفاجأة.. لا أحد سيتوقع ظهورك فى هذه اللحظة.. إنهم يشعرون الآن بالثقة والقوة، بعد أن أقلعت بهم الطائرة من (ليماسول) فى سلام، واتخذت طريقها إلى (إسرائيل)، وبعد نصف ساعة، سيدخلون

مجالها الجوى، لذا فمن المفروض أن تنتهى مهمتك كلها، قبل هذا الوقت.
غمغم الشاب:
- سأبذل قصارى جهدى يا سيدى.
تابع (نسيم):
- النقطة الأكثر خطورة هى أننا نجهل عدد المختطفين ومواقعهم، ولن يمكنك كشف هذا إلا بعد الاقتحام الفعلى، وعندئذ سيكون عليك أن تتعامل معهم وفقاً للظروف.
أومأ الشاب برأسه متفهماً، وقال:
- أعلم هذا يا سيدى.
صمت (نسيم) لحظات، وهو يتطلَّع إلى وجه الشاب الهادئ محاولاً إخفاء انفعاله وتأثره، ثم لم يلبث أن لربت على كتفه، قائلاً:
- وفقك الله يا فتى.
لم يكد يتم عبارته، حتى قال الطيار:
- نحن نحلق فوق الطائرة.
سرى الانفعال فى جسد (نسيم)، وهتف:
- هيا.. استعد يا بطل.. حانت اللحظة الحاسمة.
نهض (فاى) فى حزم، وأمسك بندقية الصيد فى قوة، وانفتح باب جانبى للطائرة، فوضع الشاب قناع أكسجين صغيراً على وجهه، و(نسيم) يهتف:
- لا تقفز إلا عند سماع الإشارة.
مضت الثوانى فى بطء رهيب، قبل أن يهتف الطيار:
- الآن.
وبلا ذرة من التردد، وثب الشاب من الطائرة..

ومن بعيد، لاحت له الطائرة المختطفة، وهى تواصل سيرها، وجسده يهوى فى الفضاء بأقصى سرعة، وعقله يعمل كألف كمبيوتر، استعداداً لتنفيذ العملية التى أسندت إليه..

العملية الانتحارية..

أخطر عملية انتحارية فى التاريخ.

☆ ☆ ☆

٥- الانتحاري..

انتفض جسد طيار المقاتلة المصرية، وسرت فيه قشعريرة باردة، عندما قفز الشاب من الطائرة بلا تردد، فهتف بصوت يغلب عليه الانفعال:

- رباه!.. إنه لم يتردد لحظة واحدة.. هذا الشاب انتحارى حقيقى.

تمتم (نسيم):

- بل هو مصرى حقيقى.

قال الطيار فى شئ من التوتر:

- معذرة يا سيادة المقدم، ولكن هذه الخطة تبدو لى جنونية للغاية!.. إنكم تطلبون من هذا الشاب أن يقفز من هذا الارتفاع الشاهق، وألا يستخدم مظلته، بل يحلق فى السماء كطير كاسر، ويتحكم فى اتجاه جسمه فى براعة، ليلتقى بالطائرة المخطوفة، ويتعلق بها، وهى تنطلق بسرعتها الكبيرة، ثم يقتحمها من باب الإطارات، ليهاجم عدداً تجهلونه من المختطفين، ويحرر الطائرة.

أومأ (نسيم) برأسه موافقاً فى توتر، وقال:

- لست أنكر أنها خطة انتحارية مجنونة، ولكن هذا فى رأيى ما يضمن لها النجاح؛ فلا أحد يتوقع مثل هذا الهجوم الانتحارى.

قال الطيار:

- هذا لو نجح.

صمت (نسيم) لحظة، ثم قال:

- سينجح يا رجل.. سينجح بإذن الله.. فهذا الشاب الفذ، الذى رأيته يقفز فى الفضاء أمامك، منذ لحظات معدودة، هو النسر

الذى اقتبسنا منه اسم العملية..
وعاد إلى صمته لحظة أخرى، قبل أن يستطرد فى حزم:
- النسر المنفرد.

☆ ☆ ☆

سبح جسم الشاب فى الهواء، وهو يهبط بسرعة مدهشة، ويبذل قصارى جهده وخبرته، حتى يتحكم فى اتجاه جسده، ويلتقى بالطائرة..
كانت المرة الأولى، التى يقفز فيها من هذا الارتفاع الشاهق، حيث تقل نسبة الأكسجين إلى حد مخيف، وينخفض الضغط الجوى كثيراً..
ولكن القواعد نفسها كانت تسرى على حركته..
عندما يهبط موازياً للأرض، ويستقبل الهواء بصدره وبطنه، تنخفض سرعة هبوطه، ويهبط رأسياً..
أما عندما يميل جسده إلى أحد الجانبين، فإن هذا يدفعه يميناً أو يساراً..
وعندما يستقبل الهواء برأسه، تزداد سرعة هبوطه، ويتجه إلى أسفل..
وهذا ما يتعلمونه فى تدريبات القفز..
وما برع فيه، وبز أقرانه..
وبكل براعته وخبرته، اتجه بجسده نحو الطائرة، التى تشق طريقها فى الهواء، متجهة نحو الجنوب الشرقى..
نحو (إسرائيل)..
وبسرعة مذهلة، راح عقله يسترجع تفاصيل الخطة..
أخطر ما فى الأمر هو التوقيت..
على الرغم من سرعة الهبوط المدهشة، كان عليه أن يتحرك بدقة شديدة، وأن ينفذ كل خطوة فى موعدها تماماً..

وهذا يحتاج إلى ذهن صاف..
وإلى أعصاب من فولاذ..
واقتربت الطائرة..
اقتربت بسرعة مذهلة..
وهوى جسده..
وهوى..
وهوى..
ثم أصم الهدير القوى أذنيه، والطائرة تلتقى به فى الهواء..
وتقاطع مسار هبوطه، مع خط سير الطائرة لحظة، قبل أن تجتذبه قوة الاندفاع نحو جناحها فى عنف، كآلة شفط هائلة..
وعندئذ، أطلق بندقية الصيد..
وانطلق الرمح القوى نحو جسم الطائرة..
ولوهلة، خُيِّل إليه أن الرمح لم يصب الهدف، وأنه سيواصل طريقه فى الهواء، وهو يجذب خلفه لفة الحبال الكبيرة، المعلقة فى حزامه..
ولكن الرمح أصاب الهدف..
مع انحراف بسيط..
كان المفروض أن ينغرس فى جسم الطائرة، إلا أنه انزلق فوقه، وانفرس أسفل الجناح الأيسر..
ومع سرعة الطائرة الفائقة، انجذب جسد (فاى) فى عنف، وراح ينطلق فى الهواء، معلقاً بجناح الطائرة..
وكان مشهداً رهيباً بحق..
طائرة ركاب ضخمة، تحلق فى الهواء، تحت ضوء القمر، ويتدلى من جناحها حبل طويل، فى نهايته رجل يندفع بنفس سرعة الطائرة، وعلى وجهه قناع أكسجين صغير..

ولثوان، دار رأس الشاب فى شدة، مع التغيير المباغت فى السرعة، وكاد يفقد وعيه، ولكنه استجمع إرادته كلها، ليسيطر على ذلك الدوار العنيف، الذى أحاط به، حتى اكتسب جسده سرعة الطائرة، وتكيف معها، وبدأ يستعيد سيطرته على نفسه..

كان الهواء مثلجاً، تكاد تتجمد له أطرافه، ولكنه تجاهله، وتشبث بالحبل بكل قوته، وراح يجذبه بعضلاته القوية، محاولاً الوصول إلى جسم الطائرة..

ولم يكن هذا بالعمل السهل..

ضغط الهواء يدفعه بعيداً، وعضلاته الفولاذية تقاومه بكل قوتها، وتحركه نحو جسم الطائرة بشكل بطئ للغاية، ومرهق إلى حد مخيف..

ضغط الهواء يدفعه بعيدًا ، وعضلاته الفولاذية تقاومه بكل قوتها ، وتحركه نحو جسم الطائرة ..

ولكنه قاوم..
وقاوم..
وقاوم..

كان أكثر ما يميزه هو تلك الإرادة الصلبة، التى تتحدى بقوتها الفولاذ، وبصلابتها الصلب نفسه..
وأخيراً بلغ جسم الطائرة، وهو يلهث بشدة، ويكاد يتحول إلى كتلة من الثلج بلا حياة، فألصق الشفاطات المثبتة بذراعيه وركبتيه بجسم الطائرة، وأخذ يلتقط أنفاسه فى صعوبة، على الرغم من قناع الأكسجين الذى يملأ وجهه كله.
وبعد استراحة دامت ثلاث دقائق..
لو أنه من المنطقى أن نطلق على وضعه هذا اسم (استراحة)..
بدأ يتحرك على جسم الطائرة، مستعيناً بالشفاطات القوية، ليلصق جسده به، حتى بلغ مدخل إطارات الطائرة..
وفى سرعة، وباستخدام الجهاز الذى منحوه إياه، بدأ يفتح المدخل، حتى دلف منه إلى جسم الطائرة، و..
وفجأة، أفلت الجهاز من بين أصابعه المتجمدة..
وهوى من حالق..
ومع سقوطه، سقط قلب الشاب بين قدميه..
لقد فقد وسيلة الدخول إلى قلب الطائرة..
فقدها قبل أن تبدأ الخطة..
الخطة الفعلية..

☆ ☆ ☆

«هل نقوم بدورة أخرى؟».
القى قائد الطائرة الحربية المصرية السؤال، وهو يختلس نظرة إلى (نسيم)، الذى تصاعد توتره كثيراً، مع تطلعاته المستمرة لساعته، وبدا عليه الانشغال بشدة، حتى أنه لم يسمع السؤال، فهتف الطيار:
- سيادة المقدم.. هل نقوم بدورة أخرى؟

التفت إليه (نسيم) بحركة حادة، وكأنما يستيقظ من حلم عميق، وهتف:
- بالطبع.
ثم تمالك أعصابه، واسترد جأشه، وهو يستطرد:
- المفروض أنه الآن داخل الطائرة.. قم بدورة إضافية، ربما أصيب جهاز اللاسلكى معه بعطب ما.
بدأ الطيار دورته، وهو يقول:
- فليكن.. ولكنها آخر دورة يمكننا القيام بها، فبعدها سندخل المجال الجوى الإسرائيلى ([10]) ولن يصبح بوسعنا تتبع الطائرة.
توتر صوت (نسيم) أكثر، وهو يقول:
- فليكن.. فليكن.. سنقوم بهذه الدورة الأخيرة، ثم نعود إلى الوطن.
قالها وهو يتساءل فى أعماقه: لماذا تأخر (فاى) فى إعلان وصوله إلى الطائرة؟!..
ولماذا لم يعلن أنه فشل فى هذا، وهبط بالمظلة إلى البحر؟..
ما الذى حدث بالضبط؟!..
ما الذى حدث؟!..
وراح السؤال يتكرر فى أعماقه بلا انقطاع..
وبلا جواب..

☆ ☆ ☆

خفق قلب الشاب فى عنف، عندما سقط منه الجهاز الخاص بفتح باب إطارات الهبوط، وغمغم:
- بداية غير موفقة..
كان يحتفظ بالكثير من هدوء أعصابه، على الرغم من دقة موقفه..
وهذا واحد من أكبر مميزاته..

إنه معلق بجسم طائرة، تنطلق على ارتفاع كبير، وقد فقد وسيلة الدخول إليها، وعلى الرغم من هذا فهو رابط الجأش، متمالك الحواس، وعقله يعمل فى سرعة خرافية، للبحث عن حل لأزمته..

وفى حزم، استل خنجره، وراح يحل بنصله المسامير القوية، التى تثبت الباب..

ولم يكن هذا أيضاً بالعمل السهل..

لقد كانت المسامير قوية للغاية، وتحتاج منه إلى جهد عنيف، وهو يحلها واحداً بعد الآخر، وعيناه تنتقلان بينها وبين ساعته، التى تشير إلى أن الوقت يمضى فى سرعة مخيفة..

مخيفة للغاية..

ولكن لكل شئ نهاية..

أخيراً انتزع المسمار الأخير، وأفلت الباب من مكانه، وتهاوى فى الهواء، فدفع الشاب جسده داخل منطقة إطارات الهبوط، وراح يلهث فى قوة، متمتماً:

- أخيراً.

ثم التقط جهاز اللاسلكى، وضغط زره، قائلاً:

- النسر فى العش.

كانت عبارة مقتضبة للغاية، ولكنها جعلت قلب (نسيم) يثب من بين ضلوعه، ويرقص طرباً، حتى أنه تخلى عن رصانته المعهودة، وصرخ:

- لقد فعلها.. فعلها ذلك الشاب المدهش.. فعلها.

وفى لهفة، اختطف جهاز الاتصال اللاسلكى، وصاح عبر الموجة السرية المأمونة:

- لقد فعلها.. إنه الآن داخل الطائرة.

تلقى الرئيس (السادات) الهتاف، عبر جهاز الاتصال الفائق، وهو يجلس فى قاعة هيئة الأمن القومى، فارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة، وهز رأسه فى سعادة وارتياح، فى حين هتف رئيس الوزراء:

- رائع.. هذا الفتى رائع.

وتراجع وزير الحربية فى مقعده، وهو يطلق زفرة ارتياح كبيرة، فى حين اعتدل قائد القوات الجوية، وهو يقول:

- عظيم، ولكن أتعشم أن يتم مهمته بسرعة.

قال الرئيس مبتسماً:

- لقد قطع الشوط الأعظم.. من كان يصدق أنه سيفعل ما فعله!!.. إننا لو أعلنا هذا، فلن يصدقه أحد.. شاب يقفز من طائرة إلى أخرى!!.. هذا أشبه بأفلام الحركة الأمريكية.

ثم عاد يهز رأسه فى سعادة، وحشا غليونه، قبل أن يضيف:

- كنت أعلم أن أولادى يستطيعون تحطيم المستحيل!

قال قائد القوات الجوية فى قلق واضح:

- أعترف أن الشاب حقق إنجازاً مذهلاً، بأى مقياس عملى يا سيادة الرئيس، ولكن السرعة أصبحت هى العامل الأكثر خطورة الآن، فلو لم يتم الشاب المهمة، ويستعيد السيطرة على الطائرة، خلال سبع دقائق من الآن، فسيعنى هذا أن الطائرة ستصبح داخل المجال الجوى الإسرائيلى.

ثم انعقد حاجباه فى شدة، وهو يستطرد:

- وهذا يعنى الفشل للأسف.. الفشل التام.

قالها، فهبط وجوم ثقيل على الحاضرين..

كل الحاضرين..

☆ ☆ ☆

انهمرت دموع الصبى (أحمد) فى ارتياع، وهو يدفن وجهه فى صدر (وفاء)، ويهتف:
- لا أريد أن أموت.. أريد العودة إلى أبى وأمى.. لا أريد الذهاب إلى (إسرائيل).. أبى يقول: إنهم أشرار هناك.
ربتت عليه فى حنان، على الرغم من خوفها، وغمغمت:
- اطمئن يا صغيرى.. ستعود بإذن الله إلى أبيك وأمك.
صاح فيها الإرهابى الغليظ:
- اخرسى يا ذات القلب الحنون.. لا أحد منكم سيعود إلى (مصر) أبداً.
انتفضت، وهى تقول:
- لماذا؟!.. إنكم ستحصلون على ما تبغون.. لماذا تؤذوننا إذن؟
هز كتفيه، وأطلق ضحكة ساخرة، وهو يقول:
- يبدو أننا نحب هذا.. إننا نميل إلى إيذاء العرب.. كل العرب.. وبالذات المصريين منهم.
شحب وجهها، وهى تقول:
- أنت إسرائيلى.. أليس كذلك؟
قهقه ضاحكاً مرة أخرى، وهو يقول:
- يا للعبقرية!.. هل توصلت إلى هذا وحدك؟
ازداد شحوب وجهها، وراحت ترتجف فى شدة، فى نفس اللحظة التى قال فيها الأخر، الذى يقف عند كابينة القيادة، وهو يبتسم فى ارتياح:
- دخلنا مجالنا الجوى.
سرت همهمة مذعورة بين الركاب، وجحظت عيونهم، وهم يتطلعون إلى جثث رجال الأمن الثلاثة، الذى استقلوا الطائرة لحماية الآثار المصرية، فذبحهم هؤلاء الإسرائيليون بلا رحمة،

وتصوَّر كل منهم أن مصيره لن يختلف عنهم كثيراً، وانكمشت (وفاء) بالذات فى مقعدها، وهى تتمتم فى ارتياع:
- ستقتلوننا جميعاً، فور هبوطكم فى (إسرائيل).. أليس كذلك؟.. ما دمتم كشفتم لنا عن هويتكم، فهذا يعنى أنكم قررتم إعدامنا بالفعل.
ابتسم الرجل فى سخرية، وهو يقول:
- ألم أقل لك: إنك عبقرية؟.. من أين تأتين بكل هذا الذكاء؟!
تفجرت الدموع من عينيها، وهى تهتف:
- أنتم وحوش، وحوش قساة القلب.. لماذا ستقتلوننا هناك؟.. لماذا؟
كشر الرجل عن أنيابه، وهو يقول:
- اطمئنى.. أنت بالذات لن أقتلك هناك.
ثم انتزعها من مقعدها فى قسوة مخيفة، مستطرداً:
- سأقتلك هنا.
صرخت (وفاء) فى رعب، وراح الصبى يصرخ بشكل هستيرى متصل، وشاركه الركاب صيحات الخوف والانهيار، ولكن كل هذا لم يوقف ذلك الوحش الإسرائيلى، الذى جذب إبرة إطلاق النار، وقفز بسبابته إلى الزناد، وهو يلصق فوهة مدفعه الآلى الصغير بعنق (وفاء)..
كان من الواضح أنه لا شئ سيمنعه هذه المرة من قتلها..
لا شئ..

☆ ☆ ☆

أسبل رجل المخابرات الإسرائيلى (زايون) جفنيه فى تراخ، وهو يسترخى داخل سيارته الأنيقة، داخل المطار العسكرى، بالقرب من حدود وقف إطلاق النار ([11])، وراح يتطلع إلى السماء فى

هدوء، فى حين اقترب منه أحد الجنود، وأدى التحية العسكرية، وهو يقول فى احترام شديد:
- الطائرة دخلت مجالنا الجوى يا سيدى.. وصلتنا إشارة عاجلة بهذا.
ارتسمت على شفتى (زايون) ابتسامة ساخرة، دون أن يتغيروضع الاسترخاء، الذى يعبر عنه جسده كله، وهو يغمغم:
- عظيم.
قالها، وعاد إلى صمته لحظات، حتى سأله الجندى فى تردد:
- والآن ماذا ينبغى أن نفعل يا سيدى؟
فتح (زايون) عينيه فى بطء، وهو يلتفت إليه، قائلاً:
- المعتاد.
هتف الجندى فى دهشة:
- المعتاد؟!
اعتدل (زايون)، وهو يقول فى صرامة:
- بالتأكيد.. ماذا نفعل عادة، عندما تخترق طائرة ما مجالنا الجوى؟
قال الجندى فى تردد:
- نحذرها لاسلكياً، ونطالبها بتحديد هويتها، وتبرير اقتحامها لمجالنا الجوى، ثم نطالبها بالهبوط والخضوع لنا، وفى حالة رفضها، نطلق مقاتلتين لاعتراضها، وإجبارها على الهبوط.
عاد (زايون) يسترخى، وهو يقول:
- عظيم.. قم بكل هذا إذن.
صمت الجندى لحظة فى دهشة، قبل أن يندفع قائلاً:
- ولكنكم قلتم إن جهاز اللاسلكى فى تلك الطائرة سيكون محطماً، طبقاً لخطتكم، وإن رجالنا يسيطرون عليها، و..
اعتدل (زايون) فى حركة حادة، قائلاً:

- وماذا؟.. لو أن جهاز اللاسلكى فى الطائرة محطم، فالمفروض أننا وحدنا نعلم هذا، أما أجهزة اللاسلكى الأخرى، التى ستلتقط إشارتنا، فسيبدو لها أننا دولة بريئة مسالمة، اخترقت طائرة مجهولة مجالها الجوى، فاضطرت للقيام بالإجراءات الروتينية للتعامل معها.

تهللت أسارير الجندى، وهو يقول:

- آه.. فهمت.. سأنفذ الأوامر على الفور يا سيدى.

وابتعد فى خطوات سريعة، فألقى عليه (زايون) نظرة ساخرة، وغمغم:

- خطأ أيها الغبى.. أنت لم تفهم شيئاً.. لم تفهم شيئاً قط.

ثم ابتسم ابتسامة واسعة، مستطرداً:

- فاليوم سيتعلم المصريون الدرس.. سيتعلمون أن العبث مع (الموساد) ينتهى دائماً بعواقب وخيمة.. وخيمة للغاية..

قالها، وعاد يسترخى داخل سيارته أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

☆ ☆ ☆

٦- القتال..

هوت قلوب الركاب بين أقدامهم، داخل الطائرة المصرية، واتسعت عيونهم فى ارتياع، عندما ألصق الإرهابى فوهة مدفعه القصير بعنق (وفاء)، واستعد لإطلاق النار..

كان من الواضح أنه يستغل غياب زعيمه للثأر منها..

وأنه ما من شئ سيحول بينه وبين قتلها بلا رحمة..

وبلا تردد..

ولكن فجأة، اقتحم الشاب المكان..

اقتحمه بوثبة رشيقة، عبر فتحة الطوارئ فى مؤخرة الطائرة، فانتفض جسد الإرهابى فى عنف، أمام المفاجأة المذهلة، ودفع (وفاء) بعيداً، وهو يلتفت إليه بمدفعه، صارخاً:

- يا للشيطان!. كيف دخلت إلى هنا؟

كانت سبابته تسرع نحو زناد مدفعه، ولكن الشاب أطلق رصاصته أولاً بسرعة مدهشة..

وكل من يعملون فى هذا المجال، يعلمون جيداً أنه من الخطر، كل الخطر، أن يطلق شخص ما النار داخل طائرة، تحلق على ارتفاع كبير..

هذا لأن ثقباً صغيراً فى جدار الطائرة، يكفى لانهيار توازن الضغط داخلها فى لحظات، فتنفجر نوافذها، وتتحطم جدرانها، وينتهى أمرها فى دقائق معدودة..

ولكن الشاب لم يكن ليسمح بإصابة واحدة فى الجدار..

لقد أطلق رصاصته، وهو يثب إلى الأمام، وأصاب خصمه إصابة مباشرة، فى منتصف جبهته تماماً، فجحظت عيناه لحظة، ثم

هوى جثة هامدة، فى نفس اللحظة التى صرخ فيها الإرهابى الآخر:

- احترس يا (يائيل).. لقد خدعونا.

لقد طلق رصاصته ، وهو يثب إلى الأمام ، وأصاب خصمه إصابة مباشرة ، فى منتصف جبهته تمامًا ..

قالها، وهو يستدير بمدفعه الآلى، ويستعد لإطلاقه نحو الشاب، الذى قفز قفزة مذهلة، ودار جسده قليلاً فى الهواء، قبل أن يسقط على ظهره أرضاً، وينزلق لحظة، وهو يميل خلفاً، ويطلق رصاصتين من مسدسه، اخترقت إحداهما عنق الرجل، والأخرى صدره، فى موضع القلب تماماً..

وانطلقت صيحات الركاب فى سعادة ولهفة، عندما شاهدوا الإرهابيين يسقطان جثتين هامدتين، واندفعوا من مقاعدهم يحيطون بالبطل، الذى سألهم فى اهتمام:

- هل يوجد آخرون؟

اندفعت نحوه (وفاء) وهى تهتف:

- هناك ثالث فى مخزن الحقائب.. ولكن قل لى: كيف دخلت إلى هنا؟

تجاهل سؤالها، وهو يسأل:

- أهم ثلاثة فقط؟

أجابه راكب آخر:

- نعم.. ثلاثة فحسب.

سأل وهو يزيح الركاب، ويتحرك فى سرعة نحو كابينة القيادة:

- وأين مدخل مخزن الحقائب هذا؟

عدت خلفه (وفاء)، وهى تجيب:

- فى مؤخرة الطائرة.. أسرع قبل أن يفعل أى شئ.

اندفع أولاً إلى كابينة القيادة، وقال لمساعد القائد:

- هل عبرت المجال الجوى الإسرائيلى؟

أجابه الرجل فى ذهول:

- إننا داخله بالفعل، ولكن كيف وصلت إلى هنا؟

قال الشاب فى حزم، متجاهلاً السؤال للمرة الثانية:

- اخرج منه بأقصى سرعة، ولا تضيع لحظة واحدة.

اعتدل الطيار الأول، وقال فى إرهاق:
- هيا أطع أوامره يا رجل.. اخرج من المجال الجوى الإسرائيلى بأقصى سرعة.. هيا.
أما الشاب، فقد عاد أدراجه بسرعة، وهو يقول للركاب فى صرامة:
- فليعد كل منكم إلى مقعده.. الخطر لم ينته بعد.
ثم توقف قائلاً:
- من منكم (وفاء)؟
هتف (وفاء) فى دهشة:
- أنا؟!.. هل تعرفنى؟
التفت إليها، وقال:
- عمك يرسل إليك تحياته:
تحولت دهشتها إلى ذهول، وهى تهتف:
- عمى؟!.. عمى (نسيم)؟!
ولم يجب الشاب هذه المرة أيضاً، بل واصل سيره فى سرعة، نحو المدخل الذى يقود إلى مخزن الحقائب، ووثب عبره، ..
واستعد لمواجهة زعيم الإرهابيين..
المواجهة الأخيرة..

☆ ☆ ☆

انتفض (زايون) فى عنف، وهو يعتدل هاتفاً:
- ماذا تقول يا رجل؟.. أية طائرة تلك التى تتراجع.
أجابه الجندى فى توتر مضطرب:
- الطائرة المصرية يا سيدى.. كنا نقوم بالإجراءات التقليدية، عندما فوجئنا بها تستدير، وتنطلق عائدة إلى المجال الجوى المصرى.
صرخ (زايون):

- مستحيل!.. لا تسمحوا لها بالعودة قط.. أين المقاتلات؟
ارتجف الجندى، وهو يجيب:
- لم نكن قد بلغنا هذه المرحلة بعد يا سيدى.
صاح (زايون):
- وماذا تنتظر يا رجل؟.. أطلقوا مقاتلتين خلفها.. الأوامر محدودة، ولا مجال للمساومة فيها.. سنجبر هذه الطائرة على الهبوط فى (إسرائيل)، أو..
وانعقد حاجباه كشيطان مريد، وهو يضيف فى وحشية:
- أو ننسفها نسفاً.
تراجع الجندى مبهوتاً، وهو يقول:
- ورجالنا على متنها يا سيدى؟!
لوَّح (زايون) بذراعه فى عنف، قائلاً:
- قلت: لا مساومة.
وانتفض جسده كله، من فرط الانفعال، وهو يضيف:
- ما تحمله هذه الطائرة لا ينبغى أن يصل إلى (القاهرة) أبداً.. مهما كان الثمن.. هل تفهم يا رجل؟.. مهما كان الثمن.
وكان من المحتم، بناءً على هذا، أن تنطلق المقاتلات الإسرائيلية، ولديها أمر واحد..
أمر بالنصر..
أو القتل..

☆ ☆ ☆

سمع (يائيل) تلك الصيحة التحذيرية، التى أطلقها رفاقه، وهو داخل مخزن الطائرة، فاشتعلت أعصابه كلها، وهو يهتف:
- اللعنة!.. كيف فعلوا هذا؟.. أراهن على أنهم دسوا شخصاً ما، فى جسم الطائرة، قبل إقلاعها من (قبرص).. اللعنة!

ثم راح يضرب الصناديق، ويفتحها بمنتهى العنف، ويبحث فى جنون عن الوثيقة، وتألقت عيناه فى شدة، عندما لمحها تستقر، داخل غلاف من البلاستيك، بين قطع الآثار الثمينة فهتف:
- أخيراً..
وفى نفس اللحظة التى التقطها فيها، وثب (فاى) داخل المخزن.. وفى سرعة تليق بالمحترفين، استدار إليه، (يائيل)، وألقى خنجره..
وقبل أن يقفز الشاب مبتعداً، أصاب الخنجر يده، ومزق جزءاً منها، وأفقده مسدسه، ولكنه استعاده فى سرعة، وهو يثب محتمياً بصندوق كبير..
وفى عصبية، هتف (يائيل)، وهو يستل مسدسه:
- لست أدرى كيف وصلت إلى هنا يا هذا ولكنك لن تظفر بى أبداً.
تحرَّك الشاب بسرعة، وهو يقول:
- لا داعى للمكابرة يا رجل.. اللعبة انتهت تقريباً.. لقد قضيت على زميليك، والطائرة تعود أدراجها، وتنطلق مغادرة المجال الجوى الإسرائيلى.
قهقه (يائيل) ضاحكاً فى عصبية، وهو يقول:
- هذا لا يعنى أنك انتصرت.. فمن يدرى؟.. ربما ذبحتك أنا هنا، واستعدت سيطرتى على الطائرة.
اندفع الشاب نحو ذراع قصيرة فى الجدار، فدفعها فى قوة، ثم حطمها، قائلاً:
- لن يحدث هذا أبداً.
ومع حركته أغلق مدخل المخزن الداخلى فى إحكام، ومع تحطم الذراع، صار فتحه مستحيلاً، والشاب يتابع فى صرامة:

- لقد أصبحنا سجينين هنا.. أنا وأنت، ولن يتم فتح المخزن، إلا عند عودتنا إلى (القاهرة)، وهذا يعنى أن مهمتك قد فشلت.
زاغت عينا (يائيل)، وهما تدوران فيما حوله، وقد شعر أنه أشبه بفأر فى المصيدة، ثم هتف فجأة:
- ليس بعد.
قالها، واندفع نحو مظلة طوارئ، معلقة على الجدار، فانتزعها فى عنف، وأخذ يلبسها فى سرعة، وصندوق الآثار الكبير يخفيه عن عينى (فاى)، الذى قال:
- لا توجد وسيلة واحدة للخروج من هنا، إلا فى (القاهرة).
قهقه (يائيل) ضاحكاً، وهو يقول:
- هذا ما تتصوَّره أيها المصرى المغرور.. ألا تعلم لماذا صمموا مدخل المخزن الداخلى، وجعلوه محكماً إلى هذا الحد؟..
لقد فعلوها ليعزلوا المخزن عن قلب الطائرة تماماً عند الضرورة.. هل تعلم لماذا؟
ثم جذب ذراعاً أخرى فى الجدار، صارخاً:
- لأنه يوجد هنا مخرج طوارئ خاص.
ومع صرخته، انفتح مخرج الطوارئ فى عنف، ودوت فى المكان فرقعة قوية، وجذب الانخفاض المفاجئ فى الضغط جسد (يائيل) إلى الخارج، وهو يطلق ضحكة ظافرة مجلجلة.
ولم يتردد الشاب لحظة واحدة..
لقد انطلق يعدو بكل قوته، ووثب من مخرج الطوارئ خلف (يائيل)..
فعلها، وهو يعلم جيداً أنه حتى ولو استعاد الوثيقة، فالمنطقة التى قفز فيها من الطائرة ما زالت تقع داخل المجال نفسه..
المجال الجوى الإسرائيلى..

☆ ☆ ☆

روايات مصرية للجيب
عملية النسر المنفرد
الجزء الثانى
فاى
سلسلة جديدة
د. نبيل فاروق
المؤسسة العربية الحديثة

٧- المظلة ..

على الرغم من أن عقارب الساعة كانت تشير إلى تمام منتصف الليل، فمبنى مجلس الوزراء المصري بدا أشبه بشعلة من النشاط والحركة، على نحو يوحي بحدوث أمر جلل، خاصة وأن رجال الأمن انتشروا في المكان، وحول المنطقة كلها، على نحو لم يحدث من قبل، كما أن أرقام السيارات داخل ساحة الانتظار في المبنى، كانت تشير في وضوح إلى اجتماع بالغ الأهمية والخطورة، ينعقد حتى هذه الساعة المتأخرة، في قاعة الاجتماعات الرئيسية، ويضم رئيس الجمهورية شخصيًّا، ورئيس الوزراء، ومدير المخابرات العامة، ووزير الحربية، وقائد القوات الجوية.

وكان من الطبيعي أن يثير مثل هذا الاجتماع السري عشرات المخاوف والتساؤلات، وبالذات لأن الصحف أو نشرات الأخبار لم تكف لحظة واحدة عن متابعة أخبار الطائرة المختطفة، التي قادها المختطفون عنوة إلى المجال الجوي الإسرائيلي..

ومع عشرات التعليقات والتحليلات، التي خرج بها الصحفيون ورجال الإعلام والسياسة، إلا أن أحدًا منهم لم يخطر بباله قط السر الفعلي والسبب الحقيقي، وراء حادث اختطاف الطائرة، والاجتماع السري في مبنى مجلس الوزراء..

ولم يكن من الممكن أن يعلن هذا السبب الحقيقي قط

فالواقع أن مختطفي الطائرة لم يكونوا من الإرهابيين العاديين، وإنما كانوا من رجال (الموساد)، الذين يسعون لاستعادة وثيقة بالغة السرية والخطورة، حصل عليها رجل مخابرات مصري،

وأخفاها داخل صناديق الآثار، التي تنقل محتويات معرض (توت – عنخ –آمون)، بعد انتهاء فترته في (لندن)..
ولأن العملية شديدة التعقيد، والهدف بالغ السرية، كان من الطبيعي أن تستعين المخابرات المصرية بشخص غير تقليدي، للقيام بمهمة تحرير الرهائن، وإنقاذ الطائرة المختطفة، ومنع الإسرائيليين من استعادة الوثيقة..
وعندما تم إسناد المهمة إلى رجل المخابرات المحترف (نسيم)، وقع اختياره على الشخص المناسب، للقيام بمهمة انتحارية مدهشة، لتحقيق الأهداف الثلاثة.
وقع اختياره على (فاي)..
(فاي) وحده.
ولأن العملية تحتاج إلى شخص واحد بالتحديد، فقد حملت اسم (عملية النسر المنفرد)..
وانطلق (نسيم) مع (فاي) لتنفيذ المهمة..
وكانت العملية انتحارية عنيفة بالفعل، تعتمد على مبادرة مدهشة، لا يمكن أن يتصورها أو يتوقعها المختطفون..
لذا فقد كان أثر المفاجأة صاعقًا للمختطفين.
لقد فوجئوا بالشاب يقتحم الطائرة في الجو، وينقض عليهم كأسد هصور، حتى أنه قتل اثنين منهم في الهجوم الأوَّل، ثم انطلق محاولًا اللحاق بالثالث، قبل أن يستعيد الوثيقة المنشودة، من مخزن البضائع في بطن الطائرة..
ولكن الإرهابي الثالث (يائيل) كان قد استعاد الوثيقة بالفعل، عندما حدثت المواجهة في المخزن؛ لذا فقد وجد أن أفضل ما يفعله، والطائرة داخل المجال الجوي الإسرائيلي، هو أن يقفز منها حاملًا الوثيقة، فيفوز بالغنيمة الرئيسية كلها..
وعبر مخرج الطوارئ، قفز (يائيل)..

وبلا تردد، قفز خلفه (فاي)، وهو يعلم تمام العلم أن الطائرة ما زالت تحلق فوق المجال الجوي للعدو..
المجال الجوي الإسرائيلي.

☆ ☆ ☆

دفع قائد الطائرة عجلة القيادة، في محاولة لزيادة السرعة، والخروج من المجال الجوي الإسرائيلي، وهو يقول لمساعده في توتر بالغ:
- هل تعتقد أننا نستطيع الإفلات منهم؟.. سيطلقون مقاتلاتهم خلفنا حتمًا..
أجابه مساعده، وهو يؤدي عمله في توتر أشد:
- فرصتنا الوحيدة في أن الأحداث تداعت في سرعة، حتى أن الإسرائيليين قد يرتبكون، فلا يطلقون مقاتلاتهم خلفنا، إلا بعد فوات الأوان.
انتفض جسد قائد الطائرة، وهو يقول:
- كلا.. لست أظن هذا..
التفت إليه مساعده، قائلًا:
- لماذا؟.. المفترض أن..
قاطعه قائد الطائرة، وهو يشير إلى الخارج، قائلًا:
- لقد أطلقوها بالفعل.
التفت مساعده إلى النافذة الجانبية في حركة حادة، واتسعت عيناه في ذعر، وهو يحدِّق في مقاتلتين إسرائيليتين، تنطلقان نحو الطائرة، بزاوية توحي بنية الانقضاض المباشر، وهتف:
- إنهما تنقضان علينا.. ماذا يمكننا أن نفعل؟
أجابه القائد في توتر بالغ:
- لست أدري.. الطائرة لن تصمد أمامهما أبدًا.
هتف مساعده:

- ولكنك طيار مقاتل سابق.. ألا يمكنك مناورتهما، حتى ندخل مجالنا الجوي على الأقل؟!
قال القائد في حدة:
- لا تنس أن هذه الطائرة مدنية يا رجل، وليست مصنوعة للمناورة والقتال، وجسمها لن يحتمل أية تحركات مباغتة..
شحب وجه مساعده، وهو يقول:
- أيعني هذا أننا انتهينا؟!
قال القائد في توتر:
- ربما لن يطلقوا النار.. إننا طائرة مدنية، والعرف الدولي يقول..
قاطعه مساعده في عصبية:
- العرف الدولي؟.. ومنذ متى كان الإسرائيليون يهتمون بالقوانين والأعراف الدولية؟.. ألم يسبق لهم إسقاط طائرة مدنية بحجة أنها اخترقت مجالهم الجوي ([12]) ؟
راجع القائد بيانات الأجهزة والمؤشرات أمامه، قبل أن يقول:
- ولكننا نقترب من مجالنا الجوي بالفعل.. دقيقتان فحسب، و..

قاطعته صيحة مساعده:
- احترس.. مقاتلة تنقض علينا.
ولم يدر المساعد أي تأثير تركته صيحته في قائده..
لقد اخترقت أذنه..
بل كيانه كله، وانتزعته بغتة من طبيعته الرصينة كقائد طائرة مدنية، لتلقي به في عنف، في أعماق مهنته القديمة كمقاتل جوي لا يُشقُّ له غبار.
لقد لمح المقاتلة تنقض عليه من اليسار، فمال بالطائرة بغتة، لتفادي الانقضاضة، ثم انخفض بها إلى أسفل، واندفع إلى الأمام في حركة واحدة..

وفي نفس اللحظة تقريبًا، أطلقت المقاتلة الإسرائيلية صاروخها.. ومع المناورة المباغتة غير المتوقعة، تجاوز الصاروخ الإسرائيلي جسم الطائرة المدنية المصرية، في حين صرخ ركابها في ذعر، وقفز الصغير (أحمد) يتعلق بعنق (وفاء)، وهو يصرخ:

- لا أريد أن أموت.. لا أريد أن أموت.

ضمته (وفاء) إلى صدرها، وجسدها كله يرتجف انفعالًا، وهي تقول:

- اهدأ يا صغيري.. اهدأ.. كل شيء على ما يرام.

ولكن اللهجة التي نطقتها بها لم تنجح حتى في إقناعها هي، وعيناها المتسعتان تحدقان في رعب، في المقاتلة الإسرائيلية الثانية، التي انقضت على الطائرة من الزاوية الأخرى، وصوَّب قائدها صاروخه نحو الهدف بالضبط، وهو يقول في غضب صارم:

- مناورة لا بأس بها أيها المصري، ولكن المؤسف أنها ستكون مناورتك الأخيرة.

قالها، وسبابته تتجه نحو زر إطلاق الصاروخ..

وشق السماء صاروخ قوي، يعرف هدفه بالضبط، و..

وكان انفجار الطائرة هائلًا..

☆ ☆ ☆

أطلق (يائيل) ضحكة ظافرة عالية، وهو يقفز خارج الطائرة المدنية، وهتف وجسده يسبح في الهواء، وسط الظلام الدامس:

- خسرت أيها المصري.. كان ينبغي أن تدرك أنه ما من رجل مخابرات في العالم يفوق أحد رجال (الموساد)..

لم يكد يتم عبارته، وهو يمد يده لجذب خيط المظلة، حتى انقض عليه (فاي)..

وكانت انقضاضة مباغتة، تفجرت دهشتها في أعماق (يائيل) كألف قنبلة، وجعلته يصرخ ذاهلًا:
- مستحيل!
وكان على حق في صرخته هذه، فما فعله (فاي) يعد ضربًا من المستحيل بالفعل..
لقد وثب خلف (يائيل)، وتحكم في زوايا جسده ببراعة مذهلة، ليندفع في الهواء، خلف خصمه مباشرة، حتى انقض عليه كالصاعقة..
وكل رجل مظلات في العالم يدرس هذا الأسلوب..
ويعرف كيف يتحكم في جسده وحركته، في أثناء هبوطه الحر، قبل فتح المظلة..
ولكن قليلين هم من يجيدون هذا..
وندرة من يتقنونه..
و(فاي) واحد من هؤلاء، الذين أتقنوا التحكم في الجسد، في أثناء الهبوط الحر، إلى درجة تقارب الكمال..
ثم إنه يمتلك صفة مدهشة أكثر..
الإصرار..
وربما كانت هذه أقوى سماته..
إنه يمتلك قدرًا من الإصرار والعزم والعناد، يكفي فصيلة كاملة، للقتال كالوحوش، في مواجهة الخطر..
كما أنه لا يدخر وسعًا، أو يتردد لحظة واحدة، في التضحية بكل غال وعزيز، وحتى بحياته نفسها، ما دام الأمر يحمل الكلمة السحرية، التي يكفي النطق بها، ليشتعل حماسه، وتلهب أعماقه، وتبلغ إرادته ذروتها..
كلمة (مصر)..
فمن أجلها قبِل القيام بالمهمة..

ومن أجلها قفز خلف (يائيل)..
وانقض عليه في الهواء..
ودون أن ينطق حرفًا واحدًا، هوى بقبضته على فك (يائيل) كالقنبلة، فتأوَّه هذا الأخير ألمًا، وصرخ:
- كيف تجرؤ أيها المصري ال..
قاطعته لكمة أخرى ساحقة، من قبضة (فاي) نفسها، فتحطَّمت واحدة من أسنانه الأمامية، وأغرق الدم وجهه، وهو يصيح:
- سأقتلك أيها المصري.. سأقتلك.
لكمه (فاي) في معدته بكل قوته، وهو يستل خنجرًا ماضيًا، و..
وفجأة، انتزع (فاي) الوثيقة من جيب (يائيل)، ثم جذب خيط مظلة هذا الأخير، وهو يقول في اقتضاب:
- وداعًا.
انخفضت سرعة هبوط (يائيل) بغتة، مع فتح مظلته، في نفس اللحظة التي تركه فيها (فاي)، ليواصل هبوطه الحر بسرعة أكبر، فصرخ (يائيل) في غيظ وثورة، عندما انتبه إلى ما فعله خصمه:
- أيها الوغد الحقير.. لقد خدعتني.. لقد خدعتني.
لم يكن أمامه ما يفعله، وهو يهبط بتلك السرعة المنتظمة، البطيئة نسبيًّا، وعيناه تراقبان في حنق هبوط (فاي) الحر السريع، قبل أن يفتح مظلته، بعد أن استعاد الوثيقة الإسرائيلية..

وعيناه تراقبان في حنق هبوط (فاى) الحر السريع ، قبل أن يفتح مظلته ، بعد أن استعاد الوثيقة الإسرائيلية ..

وبكل غيظه وحنقه، التقط (يائيل) جهاز اللاسلكي الصغير من حزامه، وهتف عبره في حدة:

- من (ص – ٧) إلى المراقب الأرضي.. انتحاري مصري استعاد الوثيقة، وهو يهبط الآن في قلب (سيناء).
قفز رجل (الموساد) (زايون) من مقعده كالمصعوق، عندما تلقى الرسالة، وصرخ في غضب:
- ماذا تقول؟!.. مصري استعاد الوثيقة؟!.. كيف تسمح له بهذا؟.. كيف؟
أجابه (يائيل) في عصبية:
- لقد خدعني، واستعادها في الجو.. حاوِلوا الإطباق عليه فور هبوطه.. إنني أراه أسفلي.. لقد فتح مظلته بالفعل، وسيهبط في المنطقة الخامسة.
صرخ (زايون)، وهو ينهي الاتصال:
- أيها الغبي.. أيها الغبي.
ثم عاد إلى مقعده، في السيارة (الجيب) الكبيرة، وهو يقول لسائقها في حدة:
- انطلق بنا إلى المنطقة الخامسة.. فورًا..
انطلق السائق عبر صحراء (سيناء)، إلى المنطقة التي حملت عسكريًّا الرقم خمسة، في حين غيَّر (زايون) تردد جهاز اللاسلكي، وهو يقول:
- هنا العقيد (زايون)، من (الموساد).. أريد التحدث مع النقيب (بن عازر)، قائد أمن المنطقة الخامسة فورًا.
مضت لحظات من الصمت، ثم ارتفع صوت أجش، يقول:
- هنا النقيب (بن عازر).
قال (زايون) في صرامة:
- اسمعني جيدًا أيها النقيب.. الأمر بالغ الأهمية والخطورة، إلى حد يفوق كل تصوراتك؛ لذا فسأطالبك بتنفيذ أوامري مباشرة دون مناقشة، على أن يبدأ هذا فورًا، وأنا في طريقي إليك.

قال النقيب (بن عازر) بصوته الأجش:
- هذا يحتاج إلى تأكيد أمني.
أجابه (زايون) في سرعة:
- كلمة السر (فجر)، والكود السرى (٧٧٧).. أهذا يكفيك!
قال (بن عازر):
- بكل تأكيد.. أوامرك يا سيادة العقيد.
قبضت أصابع (زايون) على جهاز اللاسلكي في قوة، على نحو يشف عن غضبه وثورته، وهو يقول:
- هناك جاسوس يهبط الآن بالمظلة في منطقتك.. أريد هذا الجاسوس بأي ثمن.. لا توجد أية أهمية للإبقاء عليه حيًّا.. اقتلوه فور رؤيته، ولكن لا يمس أحدكم جثته، بأي حال من الأحوال.. هل تفهم؟
أجابه (بن عازر) في حزم:
- أفهم يا سيادة العقيد.. هل من أوامر أخرى؟!
قال (زايون) في صرامة:
- نعم.. أبدأ التنفيذ على الفور.
قال (بن عازر) في حماس:
- سمعًا وطاعة يا سيادة العقيد..
وأنهى الاتصال، وهو يغمغم بصوته الأجش الغليظ:
- جاسوس يهبط بالمظلة في منطقتي.. عظيم.. أخيرًا سنحصل على قدر من النشاط، بعد فترة خمول طويلة.
ثم هتف ينادي مساعده الأول، وقال له في صرامة:
- أريد فرقة من عشرة رجال، وثلاثة من أفضل القناصة لدينا، مع بنادق مزودة بمناظير مقربة، وثلاث سيارات من طراز (لاندروفر).
وارتسمت على شفتيه ابتسامة جذلة، مع استطرادته:

- فلدينا رحلة صيد.
ردد المساعد في دهشة:
- رحلة صيد؟!.. وما الذي يمكن اصطياده هنا؟
أطلق (بن عازر) ضحكة ساخرة طويلة، قبل أن يقول:
- جواسيس.
قالها، وراح يضحك في مرح، على نحو ضاعف من دهشة مساعده، الذي لم يجد أمامه سوى أن يغمغم:
- كما تأمر يا سيدي.
وفي حماس جذل، ارتدى (بن عازر) ثياب الميدان، وخرج لمقابلة فرقة الصيد التي أعدها، وقفز داخل إحدى السيارات الثلاث، وهو يقول في صرامة:
- هيا يا رجال.
انطلقت السيارات الثلاث القوية، فوق رمال الصحراء، و(بن عازر) يراقب السماء بمنظاره المقرب، ذي القدرة على الرؤية الليلية، ورجاله كلهم تحفز وإصرار، و..
وفجأة، هتف (بن عازر) في حماس:
- ها هو ذا.
كان المنظار يصبغ السماء أمامه بلون أخضر باهت، ولكن المظلة وصاحبها بديا واضحين تمامًا أمامه، فأشار إلى السيارات الثلاث بالتوقف، وهو يقول للقناصة الثلاثة:
- ها هو ذا الهدف.. هل ترونه في وضوح؟
أجابوه في آن واحد، وهم ينظرون عبر مناظيرهم المجهزة للرؤية الليلية:
- بكل وضوح.
ارتسمت على شفتيه ابتسامة جذلة، وهو يقول:
- عليكم به إذن.

كانت المظلة تقترب كثيرًا من الأرض، عندما صوَّب القناصة الثلاثة بنادقهم إلى صاحبها، و..
وانطلقت رصاصاتهم في سخاء..
وأصابت هدفها..
كلها.

☆ ☆ ☆

٨- أرض العدو..

انتفض جسد قائد الطائرة المصرية في عنف، مع دوي الانفجار، وانطلقت شهقة من بين شفتي مساعده، في حين انطلقت صرخات الركاب المذعورة، مع كتلة اللهب الهائلة، التي ملأت السماء، وأضاءتها على نحو مخيف بضع لحظات، هتف بعدها قائد الطائرة في دهشة تمتزج بالفرح:

- رباه!.. إنه لم يطلق صاروخًا نحونا، وإنما أصابه صاروخ آخر قبل أن يفعل.. تُرى كيف حدث هذا؟

أشار مساعده إلى النافذة أمامه، وقال وجسده يهتز انفعالًا وحماسًا:

- فعلها نسورنا يا سيدي.

اتسعت عينا قائد الطائرة في انبهار، وهو يحدِّق في المقاتلات الخمس المصرية، التي تتجه نحوه، بعد أن نسفت إحداها المقاتلة الإسرائيلية، قبل لحظة واحدة من ضغط قائدها على زر إطلاق صاروخه، نحو الطائرة المدنية، وهتف في سعادة، وهو يحدِّق في عدادات الطائرة:

- رباه!.. هذا صحيح.. مناورتنا قذفت بنا دون أن ندري، إلى مجالنا الجوي.. لم يعد باستطاعة الإسرائيليين الظفر بنا.. لقد نجونا.. نجونا.

في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كان قائد السرب المصري يقول للمقاتلة الإسرائيلية، عبر موجة اتصال دولية، في صرامة شديدة:

- أنت تقتحم المجال الجوي المصري.. عد فورًا، وإلا ألحقناك بزميلك.

ارتجف قائد المقاتلة الإسرائيلية، وهو يتصل ب(زايون) على موجة أخرى، قائلًا:
- عملية إسقاط الطائرة المدنية المصرية فشلت.. المصريون أسقطوا مقاتلة زميلي، وسأضطر للعودة.
هتف به (زايون) في توتر:
- فلتذهب الطائرة المصرية إلى الجحيم.. لن يمكنهم إثبات أي شيء يخصنا ودعهم يرحلون، فالوثيقة لم تعد على متن الطائرة.
استدار الطيار الإسرائيلي، وانطلق عائدًا إلى قاعدته، في حين أحاطت المقاتلات المصرية الخمس بالطائرة المدنية، وهتفت (وفاء) داخلها في سعادة:
- مقاتلات مصرية!.. لقد نجونا.. نجونا.
انطلقت صيحات الفرح في الطائرة، وراح الجميع يتعانقون، ويتبادلون التهنئة والتحية، ويتصافحون في حرارة، وصوت القائد يأتي عبر جهاز الاتصال الداخلي، قائلًا بلهجة تحمل كل الارتياح والسعادة:
- سيداتي سادتي.. يسعدني أن أبلغكم أن مشكلتنا قد انتهت بشكل حاسم والحمد لله.. لقد نجونا، وعدنا إلى مجالنا الجوي، في حماية نسورنا البواسل، وسيواصلون حمايتنا لساعة أخرى، حتى نصل إلى ميناء (القاهرة) الجوي.. تحياتي لكم، وتهاني مرة أخرى بالنجاة..
احتضنت (وفاء) (أحمد) الصغير، ودموع الفرح تنهمر على وجهها في غزارة، وعقلها يسترجع تلك العبارة القصيرة، التي ألقاها إليها (فاي)..
«عمك يرسل إليك تحياته.. ».
واستعادت مشهد ذلك الشاب الهادئ الحازم، وهو يلقي عبارته، ثم يندفع للحاق بالمختطف الثالث، في مخزن الطائرة، ووجدت

نفسها تتساءل في اهتمام: تُرى أين ذهب ذلك الشاب، وماذا أصابه في بطن الطائرة؟!..
وبقيت تساؤلاتها مدفونة في صدرها، وهي تنمو..
وتنمو..
وتنمو..

☆ ☆ ☆

أشعل رئيس الجمهورية غليونه في تمهل، كعادته كلما استغرق في تفكير عميق، ثم نفث دخانه بضع لحظات في بطء وشرود، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة كبيرة، وهو يواجه الحاضرين، قائلًا:
- إذن فقد نجح ابننا في إنقاذ طائرتنا، وتخليصها من المختطفين.. عظيم.. عظيم.. هذا خبر يستحق أن تتداوله وسائل الإعلام العربية والعالمية بحق.
تنحنح مدير المخابرات، قبل أن يقول:
- ولكننا لا نعلم بعد ما إذا كان قد نجح في مهمته الأخرى أم لا..
نفث الرئيس دخان غليونه مرة أخرى، وهو يتطلَّع إليه في صمت، قبل أن يشير بيده، قائلًا:
- المفترض أنه فعلها، ما دام قد أنقذ الطائرة، وسيطر على الموقف هناك.
أشار مدير المخابرات بيده، قائلًا:
- لماذا لم يرسل إشارة بهذا إذن؟.. نحن نعلم أن المختطفين أفسدوا جهاز اللاسلكي بالطائرة، ولكنه يحمل جهازه الخاص، فلمَ لم يستخدمه لإعلان انتصاره، كما تقتضي إجراءات الأمن والتعامل؟
انعقد حاجبا الرئيس لحظة، قبل أن يقول في حزم:
- أنت على حق.. الموقف يثير الريبة إلى حد ما.

ثم أشار بيده، مستطردًا:
- ولكن هذا أمر نتدارسه فيما بيننا، وليس في اجتماع كهذا، تتابعه كل الأعين والعقول.. المفترض أننا هنا من أجل طائرة مختطفة، ولقد تم تحرير هذه الطائرة، ولم يعد هناك مبرر منطقي لاستمرار اجتماعنا، فلا أحد سوانا، والمخابرات الإسرائيلية، يعلم بأمر تلك الوثيقة، ولا بوجود ابننا هذا..
والتفت إلى مدير المخابرات، متسائلًا:
- ماذا تطلقون عليه؟
أجابه الرجل في سرعة:
- (فاي) يا سيادة الرئيس.
هزَّ الرئيس رأسه، مغمغمًا:
- اسم عجيب!
ثم نفث دخان غليونه، قبل أن يستطرد:
- المهم أن الشق العلني قد انتهى أيها السادة، وطبقًا للأعراف المتبعة، سيخرج رئيس الوزراء الآن، بصحبة قائد القوات الجوية، للإدلاء ببيان حول الموقف، وشرح كيفية إنقاذ الطائرة المدنية، دون الدخول في التفاصيل الفعلية، وبهذا ينتهي الحدث من الناحية الرسمية، ونعود كلنا إلى منازلنا، أمام عدسات الصحفيين والمصورين.
ومطَّ شفتيه لحظة، وهو يتنهد في عمق، مضيفًا:
- أما من الناحية العملية، فعلينا أن نتابع موقف الوثيقة الإسرائيلية، وهذا يدخل تحت نطاق عملك يا مدير المخابرات.
أجابه الرجل في حزم:
- نحن نتابع الموقف بكل اهتمام وانتباه يا سيادة الرئيس.
أومأ الرئيس برأسه متفهمًا، وهو يقول:
- عظيم.. عظيم..

ثم نهض، مستطردًا في حزم:
- سأعود إلى منزلي أيها السادة، حتى تنتهي هذه الليلة، من الناحية الرسمية والصحفية، ولكنني سأظل مستيقظًا، لإبلاغي بأية تطورات في هذا الشأن.
قالها الرئيس، وانصرف عائدًا إلى منزله، في حين خرج رئيس الوزراء، وقائد القوات الجوية لمواجهة الصحفيين ورجال الإعلام، أما مدير المخابرات العامة، فقد استقل سيارته، عائدًا إلى مكتبه، وفي عقله يدور تساؤل واحد..
ترى لماذا انقطعت أخبار (فاي) هكذا؟!..
لماذا؟..
لماذا؟..

☆ ☆ ☆

انعقد حاجبا (زايون) في شدة، مع دوي رصاصات القناصة الذي بلغ مسامعه، وهو ينطلق نحو موقع الهبوط، فالتقط جهاز اللاسلكي من حزامه، وهتف عبره في انفعال:
- من العقيد (زايون) إلى النقيب (بن عازر).. ماذا يحدث عندك؟
نقلت إليه موجات اللاسلكي ضحكة عالية ظافرة، تحمل صوت (بن عازر) الأجش الغليظ، وهو يقول:
- لقد ظفرنا به يا سيادة العقيد، ولم يكن الأمر عسيرًا كما كنت تتصوَّر.
سأله (زايون) في توتر:
- هل رأيت جثته بنفسك؟
أجابه (بن عازر) في هدوء مستفز:
- نحن في طريقنا إليها الآن.
قال (زايون) في صرامة:

- ما زالت أوامرى سارية.. لا تلمسوا جثته، حتى أصل إليكم.
أطلق (بن عازر) ضحكة أخرى، قبل أن يقول:
- لا بأس يا سيادة العقيد.. لا بأس.. من يحب لمس جثة جاسوس؟!..
اطمئن.. سنترك الغنيمة كلها لك.
أنهى (زايون) الاتصال، وهو يعقد حاجبيه، مغمغمًا في حنق:
- يا للسخافة!.. كيف يضعون رجلًا مثلًا على رأس قطاع أمني كامل؟
أجابه سائق السيارة في حذر:
- النقيب (بن عازر) من أكثر ضباط جيش الدفاع كفاءة يا سيدي، ومنذ تسلم عمله في القطاع الخامس، لم تحدث أية مشكلات كبيرة، وانخفض معدل الجريمة، والاعتداء على الجنود، إلى أدنى حد بين المناطق الأمنية كلها.
رمقه (زايون) بنظرة غاضبة، وهو يقول:
- من الواضح أنك شديد الإعجاب به.
أجابه السائق، وهو يزن كلماته في دقة:
- بل أردد ما سمعته عنه يا سيادة العقيد.
مطَّ (زايون) شفتيه مستنكرًا، وهو يقول:
- فلنأمل أن يستحق كل ما يقال عنه.
لم يتبادل بعدها كلمة واحدة مع السائق، حتى لاحت لهما السيارات الثلاثة القوية، وهي تقف عند منطقة عارية، وداخلها فرقة الصيد، وإلى جوارها يقف النقيب (بن عازر)، الذي ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة، لم يرق مضمونها ل(زايون) كثيرًا، وخاصة مع اللهجة شبه الساخرة، التي استقبله بها النقيب، وهو يقول:

- مرحبًا يا سيادة العقيد، كم يسعدني أن ألتقي بواحد من أساتذة (الموساد) هنا، فقد اعتدنا ألا نستقبل المتميزين إلا نادرًا.
تجاهل (زايون) هذا الأسلوب الاستفزازي، وهو يسأله:
- أين جثة الجاسوس؟!
أشار (بن عازر) إلى جثة ملقاة فوق الرمال، والدماء تغرق نصفها العلوي، وما زالت المظلة تتصل بها، وقال:
- ها هي ذي.. لقد أصبناه مباشرة، من المحاولة الأولى، فقناصتي من أفضل القناصة، في (سيناء) كلها.
تركه (زايون) يلقي خطبته، واندفع نحو الجثة، وانحنى يُلقي نظرة عليها، على الضوء المنبث من مصابيح السيارات الثلاث، ثم احتقن وجهه بشدة، وهو يصرخ:
- أيها الأغبياء!.. أيها الأغبياء!

تركه (زايون) يلقى خطبته ، واندفع نحو الجثة ، وانحنى يلقى نظرة عليها ..

هذا لأن الجثة الملقاة أمامه لم تكن جثة (فاي).
وإنما كانت جثة الإسرائيلي (يائيل)..
وبكل الثورة والغضب في أعماقه، صرخ (زايون):

- إنه ليس هو.. ليس المقصود أيها الحمقى.
انعقد حاجبا (بن عازر) في غضب، وهو يقول:
- ومن أدرانا أنه ليس الشخص المقصود؟!.. لقد طلبت منا اقتناص شخص مجهول، يهبط بمظلة في قطاعنا، ففعلنا.. لقد نفذنا أوامرك بمنتهى الدقة، وأصبنا الجاسوس.
صاح (زايون) في ثورة:
- أي جاسوس؟!.. إنه أحد رجالنا.. واحد من أفضل رجالنا.
هتف (بن عازر):
- وما شأننا؟.. إننا ننفذ أوامرك فحسب.
احتقن وجه (زايون) بشدة، وكاد ينفجر في وجه (بن عازر)، إلا أنه لم يلبث أن سيطر على مشاعره، وهو يتلفت حوله، قائلًا:
- الآخر هنا حتمًا.. لقد هبط قبله.. إنه في مكان ما هنا.
ثم استدار إلى (بن عازر)، ووضع يده على كتفه في قوة، وهو يضيف في صرامة وحزم:
- استمع جيدًا إلى الأوامر الجديدة يا رجل.. هناك جاسوس في منطقتك الأمنية، وبحوزته أسرار بالغة الخطورة والأهمية، ولو نجح في الفرار سيعرض أمن (إسرائيل) للخطر، وأنت المسئول الأول عن هذا.. هل تفهم؟
انعقد حاجبا (بن عازر) في شدة، وهو يقول:
- ألا توجد أية معلومات بخصوص هذا الجاسوس؟
هز (زايون) رأسه نفيًا، وهو يجيب:
- مطلقًا.. لسنا نعرف حتى هيئته، ولا كيف يبدو.. كل ما نعرفه عنه أخبرتك به بالفعل.
ثم مال نحوه بشدة، حتى ارتطمت أنفاسه بوجهه، مستطردًا في صرامة:
- والآن، ماذا ستفعل بشأنه؟

صمت (بن عازر) لحظة، قبل أن يجيب في حزم:
- الكثير.
ثم شد قامته في اعتداد، والتفت إلى رجاله، مستطردًا:
- هيا يا رجال.. سيتغير التشكيل طبقًا للمتغيرات الجديدة.. سننقسم إلى ثلاث فرق.. كل سيارة ستضم أربعة رجال وأحد القناصة، وسيصحبني العقيد (زايون) في السيارة الثالثة، وسنقوم بتمشيط المنطقة شبرًا شبرًا، على أن يتم الاتصال اللاسلكي بيننا بشكل منتظم، ومهمتنا هي البحث عن جاسوس، والقضاء عليه، ومنعه من الفرار بأي ثمن.. هل استوعبتم الأمر؟
أجابوه بصوت رجل واحد:
- بالتأكيد.
وهنا، ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة واثقة، وهو يلتفت إلى (زايون)، قائلًا في حسم:
- يمكنك اعتبار الأمر منتهيًا.. خذها كلمة من (بن عازر).
واتسعت ابتسامته أكثر وأكثر، في حين انعقد حاجبا (زايون)، وهو يلقي على نفسه سؤالًا بالغ الأهمية.
ما دام ذلك المصري قد هبط بالفعل في قلب (سيناء)، وفي تلك المنطقة العارية تمامًا من الصحراء، فأين يمكن أن يختبئ؟!.
أين؟!..

☆ ☆ ☆

عندما جذب (فاي) حبل مظلة (يائيل)، كانت خطته تعتمد على اختصار الصراع، بينه وبين هذا الأخير، وإجباره على الهبوط بسرعة أقل منه نسبيًّا، بحيث يصل هو إلى الأرض أولًا، حاملًا الوثيقة السرية، فتتضاعف فرصته المحدودة في النجاة من هذا الموقف العسير..

ولإنجاح خطته، واصل (فاي) هبوطه الحر لدقيقة أخرى، قبل أن يجذب حبل مظلته بدوره..
وعندما فعل، كانت رمال (سيناء) قد أصبحت قريبة إلى حد كبير، حتى أن فتح المظلة لم ينجح في التخفيف من سرعته إلى الحد الكافي، فراحت الأرض تقترب منه بسرعة مخيفة، و..
وانطلقت ذاكرة الشاب فجأة..
لقد عاش هذا الموقف من قبل..
الهبوط بسرعة كبيرة، والاقتراب المخيف من رمال (سيناء).
وبالتحديد رمال (سيناء)..
من المؤكَّد أنه عاش هذا الموقف من قبل.
ولكن لا وقت للتفكير في هذا الآن..
إنه يقترب من الرمال في سرعة، ولا بد أن ينفذ كل ما تعلمه في هذا الشأن..
وفي سرعة ومهارة، ضم ركبتيه إلى صدره، ودفع رأسه بينهما، وتكوَّر على نحو بالغ المرونة والرشاقة..
ثم ارتطم بالرمال..
لم يكن الارتطام عنيفًا كما توقع، ولكنه أعاد إلى ذاكرته مشهدًا مماثلًا..
مشهد ارتطامه برمال (سيناء)..
ولثوان، ترك الشاب جسده يسترخي فوق الرمال، وهو يحاول اعتصار ذاكرته، واسترجاع ذلك المشهد القديم..
ثم نفض المحاولة عن كيانه كله في حزم، وهو ينهض ليجذب مظلته، ويطويها، ثم يدفنها في قلب الرمال..
لقد أصبح داخل (سيناء)..
وفي المنطقة التي يحتلها العدو بالتحديد ([13]) .

وفجأة، صك مسامعه دوي الرصاصات..
واستدار بكيانه كله يتطلَّع إلى منطقة قريبة، ووقع بصره على ثلاث سيارات (جيب) قوية، من طراز (لاند روفر)، وعلى متنها ثلاثة من القناصة، يمطرون (يائيل) برصاصاتهم..
ومن النظرة الأولى، فهم (فاي) الموقف كله..
لا ريب في أنهم اقتنصوا (يائيل) بدلًا منه..
هذا هو التفسير الوحيد، لإطلاق الإسرائيليين نيرانهم على مظلي إسرائيلي..
وهذا يعني أنهم يسعون من أجله هو..
وبكل قوتهم..
وبسرعة درس (فاي) الموقف كله، وأدرك أنه لو تحرك من مكانه الآن، فسيكشفون أمره حتمًا، وأبصارهم كلها متجهة إليه..
لذا فقد كمن في مكانه، راقدًا على رمال (سيناء)، يراقب الموقف بكل انتباه..
ولم يمض وقت طويل، حتى ظهر (زايون)، ودارت تلك المحادثة العنيفة بينه وبين (بن عازر)..
ومع ابتعاد الأنظار عنه، في تلك اللحظات، راح الشاب يزحف مبتعدًا، في محاولة لبلوغ تبة رملية بعيدة، تصلح للاختبار خلفها..
وبكل سرعة ومهارة، أخذ يزحف، ويزحف، ويزحف..
وعندما أصبحت تلك التبة على مسافة أمتار خمسة منه، سمع من خلفه بغتة هدير محرك سيارة (لاند روفر) قوية، تنطلق في اتجاهه مباشرة..
وأدرك الشاب أن عملية البحث عنه قد بدأت..
واندفع يحاول الزحف بسرعة أكبر، نحو التبة القريبة..
ولكن (اللاند روفر) كانت تقترب، وتقترب، و..

وفجأة، غمرت أضواء مصاحبيها المنطقة كلها..
ولم يعد بلوغ التبة ممكنًا..
لم يعد كذلك أبدًا..

☆ ☆ ☆

٩- رجل واحد..

اندفعت (وفاء) تلقي نفسها بين ذراعي عمها (نسيم)، رجل المخابرات القدير، وانفجرت باكية في انفعال، وسط مطار (القاهرة)، وهي تهتف:

- آه يا عمي (نسيم).. لم أتوقع أبدًا إنني سأراك ثانية.. لم أتصوَّر أننا سنحيا، حتى نصل إلى (القاهرة).

ضمها (نسيم) إليه في رفق وحنان، وهو يربت على شعرها، قائلًا:

- لقد وصلتم جميعًا سالمين يا صغيرتي، فيما عدا رجال الأمن الثلاثة.. وحمدًا لله على نجاتكم.

ابتعدت عنه بمقدار ذراعها، وهي تمسك كتفيه في قوة، هاتفة:

- ولكن الشاب الذي أرسلته كان رائعًا يا عمي.. لقد هاجمهم كالأسد، وقضى عليهم في لحظات معدودة.. إنه رائع بحق.

انعقد حاجبا (نسيم) في شدة، وهو يغمغم:

- الشاب الذي أرسلته؟!.. ومن وضع في رأسك أنني المسئول عن هذا؟

أجابته في حماس:

- هو أخبرني يا عمي.

ازداد انعقاد حاجبيه، وهو يقول في غضب:

- هو أخبرك؟!

ترددت لحظة، قبل أن تجيب:

- ليس بشكل مباشر.. فقط قال لي: إنك ترسل إليَّ تحياتك.

زفر (نسيم) في حنق، مغمغمًا:

- يا للحماقة!

سألته في قلق:

- هل ارتكب خطأ بهذا؟
أبعدها في رفق، قائلًا:
- لا تقلقي نفسك بالأمر، حمدًا لله على سلامتك.. هيا سيصحبك سائقي إلى المنزل، فما زال لديَّ ما أقوم به هنا.
قالت مترددة:
- ألا يمكنني البقاء؟!
هز رأسه في حزم، مجيبًا:
- كلا.
كانت تعلم أنه ما من جدوى من مناقشته، عندما يتعامل بهذا الحزم، فانصرفت صاغرة مع السائق، في حين اتجه هو إلى الطائرة، وهو يقول لنفسه محنقًا:
- يا لسخافة هذا الشاب؟.. ألا يمكنه استيعاب قواعد الأمن السرية قط؟!.. ماذا لو أن أحدهم في الطائرة يعرف (فاتن)، ويعرفني، ويمكنه أن يتتبع الأمر، ويتوصل إلى أن المخابرات العامة وراء عملية الإنقاذ؟!.. بل وماذا لو كشفوا حقيقته؟!
هزَّ رأسه في سخط، وهو يدلف إلى الطائرة، ويسأل قائدها:
- هل يمكنك أن تصف لي ما حدث بالضبط؟!
أجابه الرجل في ارتياح:
- كلا للأسف، فلم أشاهد الموقف بنفسي، ولكن الكل أجمعوا على أن الشاب كان رائعًا بحق.
سأله (نسيم) في اهتمام:
- أين ذهب إذن.. هل تعتقد أنه قفز من الطائرة لسبب ما؟
أجابه الرجل في حماس:
- بالتأكيد.. لقد تلقينا إشارة في كابينة القيادة، تفيد بأن باب المخزن الداخلي تم إغلاقه في إحكام، ثم فتح أحدهم مخرج الطوارئ، وعندما تطلَّع مساعدي عبر النافذة، شاهد شخصًا

يقفز من مخرج الطوارئ، ثم تبعه آخر مباشرة، وما دام الكل يؤكدون أنه لم يكن هناك سوى المختطف الثالث والشاب، فهما القافزان حتمًا.
انعقد حاجبا (نسيم)، وهو يدرس الموقف في ذهنه أكثر من مرة..
لو أن المختطف الثالث قفز من مخرج الطوارئ في بطن الطائرة، ثم لحق به (فاي)، فهذا يعني أن الإسرائيلي استعاد الوثيقة، ثم بادر بالفرار، لثقته في أنه سيهبط في أرض تحت السيطرة الإسرائيلية، ولم يتردد (فاي) لحظة واحدة في اللحاق به، على الرغم مما يمثله هذا من خطورة بالغة..
هذا هو التفسير الوحيد..
وعلى الرغم من حنقه ونقمته على (فاي) منذ لحظات، وجد نفسه يقول في حماس:
- يا له من شاب رائع!
سأله قائد الطائرة في دهشة:
- ماذا تقول يا سيدي؟
لوَّح (نسيم) بكفه، قائلًا:
- لا عليك يا رجل.. إنه مجرد انفعال بدائي بسيط.. دعنا نفحص صناديق الآثار أولًا، حتى يمكننا تكوين صورة واضحة عن الموقف.
تبعه قائد الطائرة إلى المخزن في حيرة، في حين راح هو يفحص الصناديق، ليتأكد من أن الوثيقة لم تعد داخلها، قبل أن يقول لنفسه في حزم:
- هذا يعني أن مهمة الشاب لم تنته بعد، وأن عناده سيدفعه إلى مواصلة القتال للفوز، مهما كان الثمن.
كانت هذه هي طبيعة الشاب، التي يفهمها (نسيم) جيدًا.

إنه لا يتوقف عن القتال أبدًا، في سبيل الفوز، مهما كانت المصاعب والعقبات.
ولكن المشكلة الكبرى هذه المرة، هي أنه يقاتل بظهر عار، وسط صحراء جرداء، في قلب استحكامات العدو..
وفي قلب الخطر..
خطر بلا حدود..

☆ ☆ ☆

انطلق ضوء مصباحي السيارة (الجيب)، يشق ظلمة الليل، في قلب (سيناء)، وهي تنطلق بركابها، بحثًا عن الشاب، الذي التصق بالرمال في قوة، اعتمادًا على زيه المموه، الذي يصعب تمييزه وسط الصحراء..
ومن حسن حظه أن الرمال من حوله كانت مرتفعة إلى حد ما، حتى أنها حجبته عن أنظار الرجال الخمسة داخل السيارة، التي تجاوزته بمترين أو ثلاثة، قبل أن يقول أحد ركابها في حزم:
- مهلًا.. فلنتوقف هنا.
توقفت السيارة، على مقربة منه، والقناص داخلها يسأل زميله في اهتمام:
- ولماذا نتوقف هنا بالتحديد؟
أجابه زميله، وهو يحمل مدفعه الآلي في حذر:
- الجاسوس هبط هنا، والمنطقة كلها شبه عارية كما ترى، والأماكن الوحيدة الصالحة للاختباء، هي تلك التباب الرملية، المنتشرة هنا وهناك، ولو أنه في منطقتنا، فسنجده خلف هذه التبة على الأرجح.
عقد القناص حاجبيه، وهو يقول:
- أنت على حق.
ثم جذب بندقيته، مستطردًا:

- اذهبوا للبحث عنه هناك، وسأنتظر هنا لحراسة السيارة.
هبط الجنود الأربعة من (الجيب)، وهم يحملون مدافعهم الآلية، وقال أحدهم للقناص، وهم يتجهون إلى التبة:
- لو لمحته يجري، أطلق النار عليه على الفور.
ابتسم القناص، ولوَّح ببندقيته، قائلًا:
- اطمئن.. إنه مضمار تفوُّقي..
راقبهم الشاب من مكمنه، وهم يتجهون إلى التبة، ويدورون حولها من الجانبين، في مناورة حذرة متحفزة، وألقى نظرة سريعة على القناص، الذي بقي داخل السيارة، وعينه على منظار بندقيته، المجهز للرؤية الليلية، يدور به فيما حوله في بطء.
كان من الواضح أنهم سيكشفون أمره إن عاجلًا أو آجلًا، فقد ساعده الحظ على الإفلات منهم مرة، ومثل هذه المصادفات لا تتكرر أبدًا، في الصراعات المباشرة.. ثم إن زاوية حركتهم، عندما يعودون إلى السيارة، ستجعله واضحًا للأعين حتمًا..
هذا ما لم يكشف ذلك القناص أمره أولًا، بمنظاره المجهز للرؤية الليلية.
وبحسبة بسيطة، أدرك الشاب أن استمرار اختبائه لن يكون لصالحه أبدًا..
وأنه ليس أمامه سوى تنفيذ مبدأ (نابليون) ([14]).
الهجوم خير وسيلة للدفاع..
ولكن حتى الهجوم له أسلوبه المدروس، في مثل هذه الظروف..
فلو انطلقت رصاصة واحدة، سيعني هذا الإعلان عن وجوده، وتحديد منطقة الصراع بدقة تكفي لتضافر الجميع ضده..
وهذا آخر ما يسعى إليه..

وفي حزم، انتزع نفسه من مكانه، وانطلق بأقصى سرعته نحو القناص، الذي فوجئ بانقضاضته، فاتسعت عيناه في قوة، وهو يدير بندقيته، هاتفًا:

- اللعنة!.. من أين؟..

لم يكن قد أتم عبارته بعد، عندما وثب (فاي) نحوه، وركله في وجهه بكل قوته، قبل أن يستقر داخل السيارة، ويحطم أنفه بلكمة كالقنبلة، وهو ينتزع البندقية من يده..

ولأن عمل القناص لا يتضمن أبدًا أية احتكاكات مباشرة، فقد كان القتال سريعًا، وحسمه الشاب بلكمة أخيرة، حطمت أنف الإسرائيلي، وأطاحت به من السيارة إلى رمال الصحراء فاقد الوعي..

وحسمه الشاب بلكمة أخيرة ، حطمت أنف الإسرائيلي ، وأطاحت به من السيارة إلى رمال الصحراء فاقد الوعي ..

وفي سرعة، قفز الشاب إلى مقعد القيادة، وأدار محرك السيارة، ثم انطلق بها إلى ما خلف التبة.

وفي دهشة التفت الإسرائيليون الأربعة إلى السيارة، وانطلقت في أعماقهم حيرة بلا حدود، وهم يتساءلون عن السبب، الذي حدا بزميلهم إلى اللحاق بهم خلف التبة..
وبهر الضوء عيونهم لحظات محدودة..
كانت كل ما يحتاج إليه الشاب..
فبكل سرعته، مال نحو أحد الإسرائيليين الأربعة، وصدمه في عنف، فأطاح به بعيدًا، قبل أن ينحرف بزاوية حادة، وينقض على الثاني.
وفي نفس اللحظة التي طار فيها جسد الإسرائيلي الثاني، بتأثير الصدمة القوية، تراجع الجنديان الباقيان، وشهر كل منهما مدفعه في مواجهة السيارة، وأحدهما يصرخ:
اللعنة!!.. إنها خدعة.
ولم يكد يتم صيحته، حتى انطلق خنجر ماض في الهواء، وانغرس في قلبه مباشرة، فشهق في مزيج من الألم والذهول، قبل أن يسقط جثة هامدة، فوق رمال (سيناء).
أما الرابع، فقبل أن تنطلق من مدفعه رصاصة واحدة، فوجئ ببندقية القناص تندفع نحوه، فانحنى ليتفاداها، إلا أن أحد مقاعد السيارة انقض عليه، في اللحظة نفسها، وأصاب رأسه مباشرة، فهوى فاقد الوعي..
وهنا فقط، أوقف الشاب السيارة، وقفز منها في نشاط، وراح يفحص الإسرائيليين الأربعة، ثم انتقى أقربهم إلى حجمه، ونزع عنه ثيابه، وارتداها في سرعة، ثم عاد إلى السيارة، والتقط منها خريطة كبيرة لصحراء (سيناء)، أخذ يطالعها على ضوء مصباحي السيارة، قبل أن يشير بسبابته إلى موقعه الحالي، مغمغمًا:
- إذن فأقرب نقطة إلى هنا هي ممر (متلا).. الأمر ليس سهلًا بالتأكيد.

وصمت لحظات ليدرس موقفه الصعب، قبل أن يهز رأسه، ويدير محرك السيارة، قائلًا:
- لا بأس.. اسع يا عبد، وسيعينك الله (سبحانه وتعالى) على بلوغ مأربك.
لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع صوت (بن عازر)، عبر جهاز اللاسلكي، وهو يقول:
- من القيادة إلى السيارة (بيت).. حدد موقعك الآن، وكلمة السر.
انعقد حاجبا (فاي) في شدة، دون أن ينبس ببنت شفة، فتكرر النداء بصوت النقيب الأجش الغليظ:
- موقعك وكلمة السر يا (بيت).
كان من الحماقة أن يمس الشاب جهاز الاتصال، وهو يجهل كلمة السر المطلوبة، فدفع عصا السرعة في حزم، وانطلق بالسيارة، وصوت (بن عازر) يصرخ عبر جهاز الاتصال:
- اللعنة!.. اذكر موقعك وكلمة السر يا (بيت).
ومرة أخرى تجاهله الشاب، وهو ينطلق بالسيارة، فوق رمال (سيناء)، وقد أدرك جيدًا أنه، على الرغم من محاولته الناجحة، قد انكشف أمره.
وأن المطاردة قد بدأت..
وبعنف..

☆ ☆ ☆

ألقى (بن عازر) بوق جهاز الاتصال اللاسلكي في عنف، وهو يهتف في حنق:
- اللعنة!.. ماذا أصاب هؤلاء الأغبياء؟!.. هل فقدوا حاسة السمع؟
أجابه (زايون) في عصبية:
- بل ربما يكونون قد فقدوا ما هو أكثر أهمية!

التفت إليه (بن عازر) في حدة، قائلًا:
- هل تعني أن..
قاطعه (زايون) في انفعال:
- لا يوجد تفسير آخر يا رجل.. ذلك الجاسوس هزم رجالك، واستولى على سيارتهم، وربما كان يستخدمها الآن بالتحديد، في محاولة للفرار من هنا.
انعقد حاجبا (بن عازر) في شدة، وهو يهتف:
- اللعنة.
ثم التقط بوق جهاز الاتصال مرة أخرى، وهتف:
- من السيارة (ألف) إلى (جيمل).. كل المواقع تتحرك إلى الموضع (بيت).. الجاسوس يحاول الفرار هناك.
هتف به (زايون) في حدة:
- ماذا فعلت أيها التعس؟!.. لو أن الجاسوس استولى على السيارة (بيت) بالفعل، فهو يستقبل رسالتك اللاسلكية الآن، وسيدرك ما تسعون إليه جيدًا.
أجابه (بن عازر) في فظاظة:
- أنت على حق يا رجل (الموساد).
وعاد يلتقط بوق جهاز الاتصال، قائلًا:
- يتم فورًا استبدال الموجة الحالية (س)، بموجة الاتصالات الاحتياطية (س + ٨).
وأبعد البوق عن فمه، وهو يدير مؤشر الجهاز، قائلًا ل(زايون):
- ما دام يجهل ما نعنيه بالموجة (س + ٨)، فلن يمكنه متابعة رسائلنا أبدًا.
واطمأن إلى تعديل الموجة، قبل أن يقول للسيارة (جيمل)([15]).
في حزم، وهو يفرد أمامه خريطة كبيرة لصحراء (سيناء):

- الطريق الوحيد المحتمل، بالنسبة لهذا الجاسوس، هو أن يدور حول (جبل حيطان)، في محاولة للحاق بالقوات المصرية، عند البحيرات المرة، ولا بد لنا من قطع الطريق عليه، قبل أن ينجح في هذا.

قال (زايون) في اهتمام:

- دعهم يتجهوا غربًا، وسنلتقي بهم عند سفح الجبل.

نقل (بن عازر) الأمر لجنوده، عبر جهاز الاتصال اللاسلكي، قبل أن ينهي الاتصال، قائلًا في صرامة:

- لو أن هذا المصري نجح بالفعل في الاستيلاء على سيارتنا (بيت)، فأقسم بعظام آبائي وأجدادي أن يدفع الثمن غاليًا.. غاليًا بحق.

عقد (زايون) حاجبيه، وهو يقول:

- المهم أن نعثر عليه أولًا.

أجابه (بن عازر) في غضب:

- سنفعل.

انطلقت بهم السيارة، عبر رمال الصحراء، وعيونهم تدور في كل مكان، بحثًا عن الشاب، ومدافعهم الآلية متحفزة للقائه في توتر وغضب..

ومضت نصف ساعة كاملة، والسيارة تعبر بحر الرمال، قبل أن يغمغم (زايون) في توتر:

- عجبًا!.. لا يوجد له أدنى أثر.

ثم هتف فجأة:

- توقفوا.

أوقف السائق السيارة على نحو غريزي، فأثارت حولها عاصفة من الرمال، جعلت (بن عازر) يسعل في شدة، وهو يقول في حنق:

- لماذا التوقف الآن؟
عقد (زايون) حاجبيه، وهو يتلفت حوله، قائلًا:
- لا يوجد أدنى أثر له، وضوء مصباحي سيارته لا يظهر على مدى البصر، في كل الاتجاهات، ومن المستحيل أن ينطلق بلا أضواء، في هذا الظلام شبه الدامس.
قال (بن عازر) متوترًا:
- هل تعني أننا أخطأنا تحديد مساره؟!
صمت (زايون) لحظات، وهو يدير عينيه فيما حوله، قبل أن يجيب في حزم:
- بل أكاد أكون واثقًا من هذا.
هزَّ (بن عازر) رأسه في حيرة، قائلًا:
- ولكن هذا هو السبيل الوحيد أمامه، وإلا فسيكون عليه أن يدور حول الجانب الآخر للجبل، وهذا يحتاج منه إلى ست ساعات كاملة، يكون خلالها مُعرَّضًا لشتى أنواع الخطر، ولفترة أطول مما ينبغي، ولست أظنه من الحماقة، بحيث يقدم على هذا.
رفع (زايون) أحد حاجبيه، وهو يقول:
- الحماقة؟!.. آخر ما يمكن أن يتصف به رجل كهذا هو الحماقة.. من الواضح أنه ثعلب خبيث، وإلا ما نجح في اقتحام الطائرة في الجو، وهزيمة ثلاثة من أفضل محترفينا، في هذا المجال.
وصمت لحظة أخرى، قبل أن يستطرد:
- لذا فمن المحتمل جدًّا أنه اتخذ طريقًا آخر.
التقى حاجبا (بن عازر)، وهو يستعيد خريطة (سيناء)، قائلًا:
- لا يوجد طريق آخر، سوى ذلك الذي يقود إلى ممر (متلا).
ثم هزَّ رأسه في قوة.. متابعًا في حسم:

- ولكن هذا مستحيل!.. لا يمكنه أن يجازف إلى هذا الحد.. لو أنه محترف بحق، فسيدرك حتمًا أن الممر محاط بحراسة مشددة، كواحد من النقاط الرئيسية في استراتيجية ([16]) الدفاع عن (سيناء)، ومجرد الاقتراب منه، دون تصريح رسمي، يعد مخاطرة غير محسوبة.

قال (زايون)، وهو يفكر في عمق:

- ولكن الممر هو أقصر طريق يقطعه، لبلوغ القوات المصرية، ولو أنه محترف بحق، فسيدرك أن أحدًا لن يتوقع له أن يتخذ هذا الطريق المستقيم.

قال (بن عازر) معترضًا:

- أختلف معك كثيرًا في هذا يا سيادة العقيد.. المحترف لا يلقي نفسه في التهلكة بهذه البساطة.

التفت إليه (زايون)، وهو يقول في صرامة:

- صه يا رجل.. أنت لا تفقه شيئًا في أساليب المحترفين الحقيقية.

وأشار بيده إلى سائق السيارة، وهو يلتقط بوق اللاسلكي مستطردًا:

- نداء إلى الجميع.. سننطلق مباشرة إلى ممر (متلا).

قالها، دون أن يدري أنه أصاب هدفه بمنتهى الدقة هذه المرة..

وأن القدر قد اختار للمواجهة تلك البقعة بالتحديد..

الطريق إلى ممر (متلا)..

ذلك الممر الاستراتيجي.

المميت.

☆ ☆ ☆

١٠- الطريق إلى الممر..

تطلع (نسيم) في إمعان إلى خريطة كبيرة لصحراء (سيناء)، وهو يحك ذقنه بسبابته وإبهامه، كعادته كلما استغرق في تفكير عميق، قبل أن يلتفت إلى زميله (محسن)، قائلًا:

- باعتبارك خبيرًا بصحراء (سيناء) ودروبها، هل يمكنك أن تستنتج خط السير، الذي يمكن أن يتبعه رجلنا، للخروج من هذا المأزق، لو أنه ظفر بوسيلة انتقال مناسبة؟!

جال (محسن) ببصره في الخريطة، قبل أن يشير إليها، قائلًا:

- ليس أمامه سوى أن يدور حول الجانب الشمالي لجبل (حيطان)، ليلتقي بقواتنا المتمركزة عند البحيرات المرة.

مط (نسيم) شفتيه، قائلًا:

- نعم هذا ما يبدو واضحًا من النظرة الأولى.

وتطلَّع إلى الخريطة مرة أخرى، قبل أن يضيف في حزم:

- لذا فلن يتخذ هذا المسار أبدًا.

هز (محسن) رأسه، قائلًا:

- ليس أمامه سواه، وإلا فسيضطر لعبور ممر (متلا)، بكل ما يمثله هذا من خطورة بالغة.

صمت (نسيم) لحظات، وهو يطالع الخريطة للمرة العاشرة، في تلك الليلة، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة هادئة، ولسانه يقول:

- سيتجه إلى الممر إذن.

تطلع إليه (محسن) في دهشة، قبل أن يقول:

- ما الذي يجعلك واثقًا من أنه سيقدم على مثل هذه الخطورة الجنونية؟

أجابه (نسيم) في سرعة:
- لأنني كنت سأتخذ هذا المسار حتمًا، لو إنني في موضعه.
ثم استعاد ابتسامته، مستطردًا:
- ولا تنس أنني الشخص الذي يدربه، ويلقنه كل ما يعرفه، في عالم المخابرات.
جلس (محسن) على مقعد وثير، وهو يقول:
- لاحظ أن العملية التي يقوم بها الشاب ليست عملية مخابرات بالدرجة الأولى، بل هي أشبه بالعمليات الانتحارية، التي يقوم بها رجال القوات الخاصة.
قال (نسيم) في حزم:
- ولكنه يقوم بها لحساب المخابرات العامة يا رجل، وهذا هو المهم.
ثم انعقد حاجباه، وهو يستطرد متوترًا:
- الشيء الذي يثير قلقي بشدة، هو لماذا لم يتصل بنا، منذ هبوطه في (سيناء)؟
صمت (محسن) لحظة، قبل أن يجيب:
- هناك تفسيرات عديدة لهذا يا صديقي، وأبسطها أنه..
بتر عبارته بغتة، فأكملها (نسيم) في ضيق:
- أنه لقي مصرعه هناك.. أليس كذلك؟
أومأ (محسن) برأسه إيجابًا، فتنهد (نسيم) في عمق، قبل أن يقول:
- ربما يبدو ما سأقوله لك سخيفًا، ويتنافى تمامًا مع طبيعة عمل المخابرات، إلا أن لديَّ شعورًا قويًّا بأن هذا لم يحدث.
غمغم (محسن) في دهشة:
- مجرد شعور؟!
أومأ (نسيم) برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم يا (محسن).. مجرد شعور، ولكنه من القوة، بحيث يبدو لي أشبه بقرينة قوية، تحتاج إلى ما يؤيدها.
سأله (محسن) في اهتمام:
- مثل ماذا؟
صمت (نسيم)، وهو يتطلَّع إلى الخريطة مرة أخرى، قبل أن يجيب في حزم:
- مثل الاقتراب من موقع المعركة.
قالها، والتقط سماعة هاتفه، وأدار قرصه بسرعة، ولم يكد يسمع صوت محدثه، حتى قال في لهجة آمرة:
- أريد طائرة هليوكوبتر صغيرة، من ذلك الطراز الذي كانوا يستخدمونه في حرب الاستنزاف.. الوجهة؟!.. نعم.. سأخبرك عن وجهتها.
وشد قامته، وهو يضيف في حزم:
- (سيناء).. قلب (سيناء).
وأنهى المحادثة، دون أن يضيف حرفًا واحدًا..

☆ ☆ ☆

انطلق (فاي) بالسيارة (اللاند – روفر) في حزم، متجهًا إلى ممر (متلا) مباشرة، وعقله يدرس الأمر مرات ومرات بلا توقف..
إنه واثق من أن التحليل الطبيعي للموقف، سيدفع خصومه إلى تصور أنه سيتخذ حتمًا الطريق السهل، الذي يدور حول جبل (حيطان)، للحاق بالقوات المصرية عند البحيرات المرة..
ولقد تلقى تدريباته بحيث يختار دائمًا أبعد الحلول إلى المنطق الطبيعي..
فهذا وحده يربك العدو..
ولهذا اتجه نحو ممر (متلا) مباشرة..
آخر اتجاه يمكن أن يخطر ببال شخص في مثل موقفه..

ومن الطبيعي أن اختراق ممر استراتيجي، مثل ممر (متلا)، مغامرة غير مأمونة العواقب أبدًا، فهناك كتيبة كاملة من القوات الخاصة الإسرائيلية تحرس الممر، بالإضافة إلى مدفع مضاد للطائرات، وعدد من صواريخ الدفاع الجوي..

والاقتراب.. مجرد الاقتراب من الممر، يشبه إلقاء المرء نفسه في فوهة بركان ثائر ([17]) تتناثر منه الحمم في كل صوب، لتلتهم الأخضر واليابس..

ولكن هذا لن يدفعه للتراجع أبدًا..

سيجد حتمًا وسيلة لعبور الممر..

أية وسيلة..

توقفت أفكاره بغتة، مع ذلك الضوء المزدوج، الذي لاح له فجأة، في المرآة الجانبية للسيارة..

توقفت أفكاره بغتة ، مع ذلك الضوء المزدوج ، الذى لاح له فجأة ، فى المرآة الجانبية للسيارة ..

وأدرك الشاب طبيعة ذلك الضوء المزدوج على الفور..
كان مصباحي سيارة (لاند روفر) أخرى، تطارده في إصرار..
وانعقد حاجبا الشاب في حزم..

إذن فقد كشفوا لعبته..
أدركوا أنه اتخذ أكثر المسارات صعوبة وخطورة..
وهذا يعني أنه لا يواجه قوة غاشمة فحسب..
بل يواجه عقلًا ذكيًّا، يموج بالخبث والدهاء..
وفي البداية، زاد الشاب من سرعة السيارة، في محاولة للإفلات من المطاردة، ثم لم يلبث أن أدرك أن هذا غير مجد على الإطلاق.
لقد كشفوا مساره، ولن يعجزوا عن دفع كتيبة كاملة للتصدي له، وقطع طريقه إلى الممر..
ومرة أخرى، اعترف بأنه ليس أمامه سوى مبدأ (نابليون)..
الهجوم..
وفي حزم، أدار عجلة القيادة دورة حادة، دارت لها السيارة حول نفسها في سرعة، مثيرة عاصفة من الرمال، وكادت تنقلب على جانبها، لولا سيطرته التامة على عجلة القيادة، على نحو ساعد السيارة على استعادة توازنها، قبل أن ينطلق بها نحو السيارة المطاردة مباشرة..
وفي سرعة، انتزع حزام المقعد، وربط به عجلة القيادة في قوة، ليثبتها في موضعها، ثم حمل صندوق ذخيرة ثقيلًا، من المقعد الخلفي، ووضعه فوق دواسة الوقود، قبل أن ينتزع فتيل ثلاثة قنابل يدوية، ويلقيها في قاع السيارة، وهو يواصل الانطلاق بها نحو السيارة الأخرى، التي هتف سائقها في ذعر:
- ماذا يفعل هذا المجنون؟!.. إنه ينطلق نحونا مباشرة.
أجابه أحد الرجال في حزم:
- لا تجعل هذا يربكك.. إنه يقصد هذا.. لن يمكنه الانطلاق نحونا حتى النهاية، حافظ على خط سيرك، وسيضطر هو للانحراف.

قال رجل آخر في سخرية:
- هذا لو بقي على قيد الحياة.
قالها، وصوَّب مدفعه الآلي إلى سيارة (فاي)..
وانطلقت رصاصاته ورصاصات رفاقه نحوها كالمطر..
وخفض الشاب رأسه في سرعة، وأضاء المصباحين القويين للسيارة، وهو يواصل انطلاقه بها نحو سيارة الإسرائيليين لثوانٍ إضافية، قبل أن يقفز منها، ويتدحرج جسده على الرمال، مبتعدًا عن مسارها..
ولأن ضوء المصباحين الكبيرين كان يبهر أبصار الإسرائيليين، لم ينتبهوا إلى أنه تخلى عن السيارة، وواصلوا إطلاق نيرانهم عليها، قبل أن يصرخ سائقها:
- إنه لم ينحرف.
وأدار عجلة قيادة سيارته في سرعة، في محاولة لتفادي الارتطام، إلا أن سيارة (فاي) ارتطمت بمؤخرة سيارته، و..
وانفجرت القنابل اليدوية الثلاث..
ومع انفجارها، اشتعل صندوق الذخيرة، الذي يضغط على دوَّاسة الوقود..
ودوي انفجار هائل..
انفجار أطاح بالسيارتين معًا، وبالإسرائيليين الخمسة، وأضاء المنطقة كلها لثانيتين أو يزيد، مع ألسنة اللهب، التي تصاعدت لارتفاع خمسة أمتار..
ومن بعيد، صرخ (بن عازر) في غضب:
- اللعنة!.. هذا الانفجار أقوى من أن تحدث سيارة واحدة، يركبها رجل واحد..
وانعقد حاجبا (زايون)، وهو يقول في عصبية:
- أخشى أن الجاسوس ظفر بسيارتك الثانية وركابها يا رجل.

صاح (بن عازر):
- اللعنة!.. اللعنة.. !
ثم لكز سائق السيارة في كتفه، مستطردًا في ثورة:
- انطلق إلى حيث وقع الانفجار يا رجل.. لن نسمح لذلك الجاسوس بإهانتنا على هذا النحو.
انطلق السائق بأقصى سرعته، نحو موقع الانفجار، و(زايون) يغمغم في توتر:
- ذلك الجاسوس ليس سهلًا.. ليس كذلك أبدًا.
قال (بن عازر) في غضب:
- سنظفر به يا سيادة العقيد.. أعدك أننا سنفعل.
رمقه (زايون) في شك، قبل أن يقول في حزم:
- الأمر أخطر من أن نخضعه للعواطف والوعود أيها النقيب.
لاحت لهما السيارتان المشتعلتان، في تلك اللحظة، وحولهما جثث الجنود، فهتف (بن عازر) في حنق:
- لقد ظفر برجالنا.. لن نسمح له بالإفلات بفعلته هذه أبدًا.
وضع (زايون) يده على كتفه في قوة، قائلًا:
- ولكنه ضحى بسيارته، لينسف سيارة الرجال، وهذا يعني أنه لم يذهب بعيدًا.
انعقد حاجبا (بن عازر) في قوة، وهو يقول:
- هذا صحيح.
ثم أشار إلى نقطة بعيدة، مستطردًا في حزم:
- ها هو ذا.
استدار (زايون) في سرعة، إلى حيث يشير (بن عازر) وانعقد حاجباه في شدة، عندما وقع بصره على ذلك الجسم، الذي يتحرَّك في حذر فوق الرمال، والذي بدا في وضوح، على الضوء المتراقص لألسنة اللهب، وقال في انفعال:

- نعم.. إنه هو.. دعونا ننطلق نحوه، و..
قاطعه (بن عازر) في حزم:
- لا داعي لهذا.. من هذه المسافة، يمكننا استخدام وسيلة أفضل.
ثم لمس كتف القناص المصاحب له، قائلًا:
- عليك به.
أومأ القناص برأسه إيجابًا، ورفع بندقيته إلى كتفه، وألصق عينيه بمنظارها المجهز للرؤية الليلية، و(زايون) يسأله في لهفة:
- إنه هو.. أليس كذلك؟!
أجابه القناص في حسم:
- بلى.. إنه هو.
وصوَّب بندقيته في إحكام، وانعقد حاجباه، وهو يتمتم:
- ولكنه..
لم يتم عبارته، ودوي الرصاصة يملأ المكان، وهي تشق طريقها عبر الصحراء، وتستقر في رأس الهدف..
وبمنتهى الدقة..

☆ ☆ ☆

انطلقت الهليوكوبتر الحربية الصغيرة، تشق طريقها عبر سماء (مصر)، في طريقها إلى الشرق، وقائدها يقول لراكبها الوحيد في اهتمام:
- الأوامر التي تلقيتها تحتم عليَّ طاعتك دون مناقشة، ولكن اسمح لي بسؤال واحد: إلى أين نتجه بالضبط؟
أجابه (نسيم) في اقتضاب:
- إلى (سيناء).
سأله الطيار:
- أي جزء منها بالتحديد؟

رمقه (نسيم) بنظرة جانبية، وهو يقول في صرامة:
- قلت سؤالًا واحدًا؟
انعقد حاجبا الطيار، وهو يقول:
- هذا جزء من السؤال.
صمت (نسيم) لحظة، ثم سأله بغتة:
- كنت أحد الطيارين الذين اشتركوا في حرب الاستنزاف.. أليس كذلك؟
أجابه الطيار في ضيق:
- بلى.. أهذه وسيلة للتهرب من إجابة سؤالي؟
تجاهل (نسيم) عبارته، وهو يسأله ثانية:
- كم مرة شاركت في حرب الاستنزاف؟
زفر الطيار في ضيق، قبل أن يجيب:
- خمس عشرة مرة.
سأله (نسيم):
- وماذا كنت تفعل في كل مرة؟!
أجابه الجيار، وقد بدأ الحذر يتسلل إلى نفسه:
- كنا نعبر خطوط العدو، وننزل الرجال خلف تحصيناته، ثم نعود لالتقاطهم، بعد أن يفرغوا من مهمتهم.
قال (نسيم) في حزم:
- هذا بالضبط ما سنفعله الليلة.
ارتفع حاجبا الطيار في دهشة، وهو يقول:
- هل تعني أنك..
قاطعه (نسيم) بسرعة:
- كلا.. إننا سنلتقط أحد رجالنا من هناك.
سأله الطيار في اهتمام، وقد استعاد حماس المعارك:
- ما الذي تعنيه كلمة (هناك) هذه.

صمت (نسيم) لحظة، قبل أن يجيب في حسم:
- خلف ممر (متلا).
التقى حاجبا الطيار في عزم، وهو يقول:
- تمامًا مثل الأيام الخوالي.
قالها، والهليوكوبتر تعبر بهما قناة (السويس)، في طريقها إلى (سيناء)، فاعتدل (نسيم)، وقال:
- أعتقد أن المسافة تسمح لنا بإجراء الاتصال مع رجلنا.. أليس كذلك؟
أجابه الطيار:
- بالتأكيد.. لو أنه في دائرة نصف قطرها مائة كيلو متر.
ضغط (نسيم) زر جهاز الاتصال اللاسلكي، وهو يقول:
- لو أنه يذكر كل ما لقنته إياه، فسيكون الآن في ذلك النطاق بإذن الله.
وضبط موجة الاتصال الخاصة، بينه وبين (فاي)، قبل أن يقول:
- من العش إلى النسر.. أجب..
وانتظر لحظة صامتة، ثم كرر في شيء من القلق:
- من العش إلى النسر.. أجب.. الأمر مهم للغاية.
ولكن جهاز الاتصال اللاسلكي ظل على صمته، وكأنما يعلن أن النسر لم يعد قادرًا على إجابة الرسالة..
وليس لهذا سوى تفسير واحد من اثنين..
إما أنه فقد جهاز الاتصال الخاص به، أو..
أو أنه فقد ما هو أكثر خطورة..
حياته نفسها.

☆ ☆ ☆

١١- القنَّاص..

صوَّب القناص بندقيته المزودة بجهاز الرؤية الليلية في إحكام، نحو (فاي)، الذي يرقد على رمال (سيناء)، وسأله (زايون) في لهفة:

- إنه هو.. أليس كذلك؟

أجابه القناص في حسم:

- بلى.. إنه هو..

ثم انعقد حاجباه في دهشة وتوتر، وهو ينظر عبر منظاره إلى (فاي)، الذي يصوِّب إليه بندقية مماثلة، وتمتم:

- ولكنه..

قبل أن يتم عبارته، ضغط (فاي) زناد البندقية، التي حصل عليها من القناص الأول.

وسبق القناص الآخر بثانية واحدة..

وكان لهذه الثانية أثر هائل في مجرى الأحداث..

لقد انطلقت رصاصته، وشقت طريقها عبر الصحراء، لتستقر في رأس القناص..

وبمنتهى الدقة..

وأطلق الإسرائيلي صرخة عنيفة، تجمع بين الألم والذهول، قبل أن يرتد في عنف، ويسقط جثة هامدة، بين (زايون) (وبن عازر)..

واتسعت عيون الاثنين في ذهول، وهما يحدقان في جثة القناص، قبل أن يصرخ (زايون):

- غادروا السيارة.. إنه يحمل بندقية قنص مماثلة.

قالها وقفز خارج السيارة، وتبعه (بن عازر) وأحد الجنديين، أما الجندي المتبقي، فقد اخترقت رصاصة (فاي) الثانية عنقه،

وأسقطته صريعًا، قبل أن يغادر السيارة بدوره..
وفي عصبية شديدة، هتف (بن عازر)، وهو يختبئ مع (زايون) والجندي الآخر خلف السيارة:
- من أين حصل على تلك البندقية؟!
أجابه (زايون) في حنق:
- لا ريب في أنه حصل عليها من القناص الأول، عندما هاجم السيارة (بيت).
لم يكد يتم عبارته، حتى دوت رصاصة أخرى، وسمع ثلاثتهم صوتها، وهي ترتطم بجسم السيارة، فقال (بن عازر) محنقًا:
- إنه يسرف في إطلاق رصاصاته.
انعقد حاجبا (زايون) وهو يقول:
- هذا يدهشني في الواقع، فمع بندقية كهذه، وشخص يجيد التصويب مثله، من الحماقة أن يهدر المرء رصاصاته بلا طائل.
سمع الثلاثة دوي رصاصة جديدة، ارتطمت بجسم السيارة بدورها، وهتف (بن عازر) في سخط:
- ولكن ها هو ذا يرتكب تلك الحماقة.
ازداد انعقاد حاجبي (زايون)، وهو يغمغم:
- حماقة؟!.. ولكن ماذا لو أنه..
بتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه في ارتياع، مع دوي الرصاصة الثالثة، وصرخ، وهو يندفع مبتعدًا:
- يا للشيطان!.. خزان الوقود.
اتسعت عينا (بن عازر)، وهو يقول:
- خزان ماذا؟!
ومع آخر حروف كلماته، دوَّى الانفجار..
لقد أصابت رصاصات (فاي) هدفها بمنتهى الدقة، واخترقت خزان وقود السيارة، وأشعلت فيه النيران، فانفجر بدوي هائل،

قذف السيارة قرابة المترين في الهواء، وأطاح بالنقيب (بن عازر) والجندي لثلاثة أمتار، قبل أن ترتطم السيارة بالأرض مرة أخرى، وتنقلب فى عنف، وتشتعل فيها النيران..

لقد أصابت رصاصات (فاى) هدفها بمنتهى الدقة ، واخترقت خزان وقود السيارة ، وأشعلت فيه النيران ..

أما (زايون)، فقد لحقت به الموجة التضاغطية، التي نشأت مع الانفجار، ودفعته أمامها لمترين كاملين، قبل أن يسقط على الرمال، وهو يهتف في غضب لا مثيل له:
- اللعنة!.. اللعنة!
نهض في حنق، وأسرع نحو (بن عازر)، الذي تلوث صدره كله بالدماء، واحترق جزء كبير من شعره المجعد، وجانب وجهه، وذراعيه، وهو يسعل في عنف، مغمغمًا:
- لقد فعلها.. فعلها ذلك المصري..
ألقى (زايون) نظرة سريعة على الجندي، ولم يكن بحاجة إلى التمعن، ليدرك أنه لقي مصرعه مع الانفجار، فقد اخترقت شظية كبيرة جمجمته، وغاصت فيها على نحو بشع، لتغمر وجهه كله بالدم..
وفي سخط، هتف (زايون):
- لن نسمح لهذا المصري بهزيمتنا على أرضنا أبدًا.
سعل (بن عازر) مرة أخرى، وتناثرت الدماء من بين شفتيه، وهو يقول في ألم ومرارة:
- ولكنه هزمنا بالفعل أيها العقيد.. لقد حطم سياراتنا الثلاث، وقضى على عشرة جنود، وثلاثة من أفضل قناصينا.. ماذا تريد أكثر من هذا، لتعترف بالهزيمة.
صاح (زايون) في غضب:
- إنه لم ينتصر بعد.
وانتزع جهاز اللاسلكي الخاص به من حزامه، وهو يستطرد:
- ما دام على أرضنا، فما زالت الهزيمة من نصيبه، مهما فعل.
وهتف عبر الجهاز:
- أريد طائرة هليوكوبتر على الفور.. نعم.. طائرة مزودة بمدفع آلي وصاروخين.. كلمة السر (فجر)، والكود السرى (٧٧٧)،

وسأحدد لك موقعنا بالتحديد.
سعل (بن عازر) مرة أخرى، وتدفق الدم من بين شفتيه غزيرًا هذه المرة، وهو يقول:
- أتعتقد أن هذا سيفلح؟
أجابه (زايون) في حزم:
- ستكون مواجهة بين رجل واحد وهليوكوبتر حربية.. ما نتيجة مثل هذا الصراع في رأيك؟!
هزَّ (بن عازر) رأسه، مغمغمًا:
- مع شخص مثله، لا يمكنك التنبؤ.
لم يرق الجواب لرجل المخابرات الإسرائيلي، فانعقد حاجباه في حنق، في حين التفت (بن عازر) إلى الأفق، الذي بدأ يتلون بأضواء الفجر الأول، وتمتم:
- هل تعلم يا صاح؟.. منذ خرجنا لمطاردة ذلك المصري، كان لديَّ شعور بأنني لن أرى الشمس تشرق ثانية.
قال (زايون) في توتر:
- من يدري؟.. ربما رأيت شروق عشرات الشموس..
ضحك (بن عازر) في ألم، وقال:
- أأنت تقول هذا؟!.. إنك لم تحاول حتى الاتصال بالكتيبة الطبية.
قالها وأطلق ضحكة أخيرة، تناثرت معها قطرات الدم، وفاضت بعدها روحه، فسقط رأسه أرضًا، وفقدت عيناه بريق الحياة، فعض (زايون) شفتيه في غضب، وهو يغمغم:
- ستدفع الثمن أيها المصري.. ستدفع الثمن غاليًا.
ونهض في حذر، يتطلَّع إلى حيث كان يرقد (فاي)، إلا أنه وجد المكان خاليًا، إلا من بندقية القنص الفارغة..
لقد اختفى الشاب.

اختفى تمامًا..

☆ ☆ ☆

لم يعد (فاي) يمتلك أية وسيلة انتقال..
لقد صار وحيدًا أعزل، في قلب (سيناء)..
وفي المنطقة الخاضعة لسيطرة العدو..
ولكن هذا لم يفتَّ من عضده، أو يحبط همته..
لقد استغل لحظة انفجار السيارة الأخيرة، وتخلَّى عن بندقيته، وانطلق يعدو مبتعدًا بأقصى سرعة..
لم يكن يدري ما الذي حققه الانفجار بالضبط، ولكنه يدرك جيدًا أن لكل دقيقة ثمنها، في مثل هذه الظروف، وأنه لم يعد أمامه سوى أن يعدو بكل قوته..
وفي حزم، انتزع جهاز اللاسلكي الخاص به، وهتف عبره:
- من النسر إلى العش.. من النسر إلى العش.
أتاه صوت (نسيم)، عبر الجهاز، وهو يهتف:
- أين أنت أيها النسر؟!.. لقد حاولنا الاتصال بك، ولكننا لم نتلق أية استجابة.
أجابه الشاب، وهو يعدو فوق الرمال:
- لقد استقبلت الاتصال بالفعل، ولكن لحظة استقباله كانت بالغة الحساسية، ولم يكن أمامي سوى التركيز على العمل بشدة.
سأله (نسيم) في لهفة:
- إلى أي حد بلغت مهمتك أيها النسر؟
أجابه الشاب في حزم:
- الرسالة بحوزتي، وما زالت الغربان تطاردني في إصرار، في محاولة لاستعادتها.
ران الصمت لحظة، وكأنما يجاهد (نسيم) للسيطرة على انفعاله، قبل أن يسأله:

- ما موقعك بالتحديد أيها النسر؟!.. استخدم شفرة الخرائط رقم (سبعة).
راجع الشاب كل ما تعلمه في هذا الشأن، قبل أن يجيب:
- في الموقع (٧ ج ل)، وأتجه نحو الموقع (١٠١٠مم).
مضت لحظة أخرى من الصمت، قبل أن يقول (نسيم):
- كنت واثقًا من هذا.
ثم سأله في حماس:
- ما مدى تسليحك بالضبط؟
صمت الشاب هذه المرة، قبل أن يجيب:
- صفر.. أنا أعزل تمامًا، وبلا وسيلة انتقال، و..
قبل أن يتم عبارته، ارتفع من خلفه هدير مروحة الهليوكوبتر الحربية، وهي تتجه نحوه..
ودوت رصاصات مدفعها الآلي..
في قلب (سيناء)..

☆ ☆ ☆

انتفض قلب (نسيم) في عنف، مع دوي الرصاصات، الذي نقلته موجات اللاسلكي، قبل أن ينقطع البث فجأة، فهتف عبر جهاز الاتصال في انفعال:
- ماذا حدث عندك أيها النسر؟.. ماذا حدث؟!
لم يتلق أي جواب هذه المرة، فانعقد حاجباه بشدة، وهو يغمغم:
- ترى هل..
لم يستطع إتمام عبارته، فألقى الطيار عليه نظرة قلقة، قبل أن يقول في حذر:
- هل تعتقد أنهم ظفروا به؟!
صمت (نسيم) لحظة، قبل أن يتمتم:

- كل شيء محتمل.. كل شيء..
سأله الطيار في حذر أكثر:
- إننا داخل حدود العدو بالفعل، والطيران المنخفض وحده، مع تفادي نقاط المراقبة، يسمح لنا بالتوغل في قلب (سيناء).. هل تعتقد أنه علينا أن نواصل المجازفة، أم أن الحكمة تقتضي الانسحاب؟
التفت إليه (نسيم)، مجيبًا في صرامة:
- انس أمر الانسحاب هذا.
وعاد يتطلع أمامه، مستطردًا في حزم:
- لقد انقطع الاتصال لسبب ما، والوسيلة الوحيدة لمعرفة هذا السبب، هي الوصول إلى هناك.
أشار الطيار إلى الأفق، قائلًا:
- لاحظ أن الشمس ستشرق بعد قليل، والتسلل في أرض العدو نهارًا، يختلف تمام الاختلاف عن التسلل الليلي المعتاد.
التفت إليه (نسيم)، وقال في صرامة:
- هل تشعر بالخوف؟
انعقد حاجبا الطيار، وهو يجيب في حزم:
- مطلقًا..
وأطبق شفتيه بعدها، وواصل انطلاقه فوق صحراء (سيناء) دون أن ينبس ببنت شفة، في حين حاول (نسيم) أن يسترخي في مقعده، وعقله يتساءل: هل من الممكن أن يجد (فاي)، إذا ما وصل إليه في الوقت المناسب؟!..
هل؟!..

☆ ☆ ☆

لم يكد (زايون) يلمح (فاي)، وهو يجري فوق رمال (سيناء)، حتى هتف بطيار الهليوكوبتر الحربية الإسرائيلية في انفعال:

- ها هو ذا.. انقض عليه، وأطلق النار على الفور.
وفي لحظة الانقضاض، انتبه الشاب إلى الموقف، فانطلق يعدو..

وانطلقت خلفه رصاصات الهليوكوبتر..
وشعر الشاب بآلام عنيفة في ساعده، الذي احتكت به رصاصة، ومزقت جزءًا من لحمه، في حين أصابت رصاصة ثانية جهاز اللاسلكي، وأطاحت به من يده، لتنسفه نسفًا..
وفي ثورة، صاح (زايون):
- لقد أخطأته يا رجل.. أخطأته.. اترك لي القيادة، ما دمت تعجز عن إصابة هدفك على هذا النحو.
قال الطيار في غضب:
- لا تحاول يا سيادة العقيد.. لا أحد يقود طائرتي سواي.
أشار (زايون) إلى (فاي)، وهو يهتف:
- اقض عليه إذن.. هيا.. اثبت براعتك.
دار الطيار بالهليوكوبتر، وانقض بها مرة أخرى على الشاب، الذي انطلق يعدو بأقصى سرعته، في خط متعرج للغاية، والدماء تنزف من إصابة ذراعه، وتصنع خطًّا دمويًّا على رمال الصحراء..
ومرة أخرى، أطلق الطيار رصاصاته..
ولكن الشاب لم يتوقف..
لقد خُيل إليه أن مشاعره كلها قد توقفت، ولم يعد أمامه سوى أن يعدو باستمرار، وبلا توقف..
ومن خلفه، اخترقت رصاصات الهليوكوبتر رمال (سيناء)، التي تناثرت في عنف، والشاب يعدو، ويعدو، ويعدو..
ومرة أخرى، صرخ (زايون):
- أيها الغبي.. لقد أخطأته.
انعقد حاجبا الطيار في غضب، وهو يقول في حدة:

- ماذا دهاك أيها العقيد؟!.. إنه مجرد رجل واحد، وسنظفر به إن عاجلًا أو آجلًا.
صاح (زايون):
- اظفر به الآن إذن.
هتف الطيار:
- إنه يجيد المراوغة، ولكنه لن يواصل هذا إلى الأبد.. دعه يعدو فوق رمال الصحراء، ولن يلبث أن يلهث وتتقطع أنفاسه، ولا يعود قادرًا على المضي لمتر إضافي واحد، وعندئذ سنمطره برصاصاتنا، وينتهي الأمر.
قال (زايون) في غضب:
- اسمعني جيدًا أيها الطيار.. هذا الشخص ليس جاسوسًا عاديًّا.. إنه يحمل وثيقة سرية بالغة الخطورة، ولو نجح في الخروج بها من هنا، يمكنك أن تعتبر أننا فشلنا، وأن أمن (إسرائيل) كلها صار مهددًا بالخطر.
أشار الطيار بيده، وهو يدور بالهليوكوبتر دورة واسعة، قائلًا:
- اطمئن يا سيادة العقيد.. لن يمكنه الخروج من هنا حيًّا.
أدار (زايون) رأسه، ليتابع حركة (فاي)، والهليوكوبتر تكمل دورتها، وانعقد حاجباه في توتر بالغ، عندما لمحه يخلع حذاءه، وقال في عصبية:
- لماذا؟.. لماذا يخلع حذاءه؟
قال الطيار في دهشة:
- حذاءه؟!
ثم انعقد حاجباه، مستطردًا:
- ربما يجد أن العدو على الرمال أكثر سهولة، بدون حذاء ثقيل.
كانت الهليوكوبتر قد أكملت دورتها، وعادت تنقض على (فاي)، الذي حمل فردتي الحذاء، وعاد يعدو مرة أخرى في خط متعرج،

فهتف (زايون):
- هيا.. أطلق عليه النار.. هيا.
ضغط الطيار زر إطلاق النار، وانطلقت الرصاصات تطارد الشاب، الذي مال يمينًا ويسارًا في مهارة، ثم انبطح أرضًا، وراح يتدحرج في قوة، والرمال تتناثر من حوله..
وأدهشه كثيرًا أن مناورته كانت ناجحة إلى هذا الحد، فلم يصب برصاصة واحدة من الهليوكوبتر، التي أكملت طريقها، و(زايون) يصرخ داخلها:
- أنت فاشل أيها الطيار.. فاشل.
صاح به الطيار في غضب:
- إنك تتجاوز حدودك كثيرًا يا رجل (الموساد).. حتى منصبك لا يمنحك الحق في إهانتي على هذا النحو.
هتف به (زايون) في غضب:
- بل لي كل الحق أيها الطيار، فأنا أفوقك رتبة، وأجيد قيادة الهليوكوبتر أفضل منك ألف مرة.
انعقد حاجبا الطيار في شدة، وهو يقول:
- إذن فأنت تصر على هذا؟
أجابه (زايون) في صرامة:
- تمام الإصرار.
أطل الغضب من كل خلية من خلايا الطيار، قبل أن يقول في حدة:
- فليكن.. قُد أنت الهليوكوبتر، وأثبت مهارتك.
قالها، وتخلى عن عصا القيادة، التي اختطفها (زايون) في لهفة، قائلًا في حزم:
- سأثبت لك أنني الأكثر مهارة أيها المتحذلق.

كان (فاي) يواصل العدو، وهو يحل حزامه، ويربطه بفردتي الحذاء من الطرفين، فغمغم (زايون) متوترًا:
- ما الذي يفعله بالضبط؟!
أشار الطيار بيده، قائلًا:
- لم يعد لي شأن بما يفعله.
دار (زايون) بالهليوكوبتر، وعقله يتساءل عما يفعله الشاب بالضبط، ثم لم يلبث أن طرح كل هذا خلفه، وقال في صرامة:
- فليفعل ما يحلو له، ما دام سيلقى مصرعه في النهاية.
قالها، وتجاوز الشاب، دون أن يطلق عليه النار، فارتفع حاجبا الطيار في دهشة، وهو يقول:
- إنك لم تطلق النار.
أجابه (زايون) في حزم، وهو يدور بالهليوكوبتر حول نفسها:
- وسائلي تختلف.
كان بمناورته هذه يواجه الشاب مباشرة، بدلًا من السعي خلفه، فهتف الطيار مبهورًا.
- فكرة رائعة.
ارتسمت على شفتي (زايون) ابتسامة واثقة ظافرة، وهو ينقض على الشاب مباشرة، و..
ويضغط زر إطلاق النار.
وكان الموقف عنيفًا.
عنيفًا بحق..

☆ ☆ ☆

كان تصورته هذه يواجه الشاب مباشرة ، بدلاً من السعي خلفه ..

١٢- اللمسة الأخيرة..

لم تكن عقارب الساعة قد بلغت السادسة صباحًا بعد، عندما ارتفع رنين الهاتف الأحمر الخاص، في حجرة مكتب مدير المخابرات العامة المصرية، فاختطف سماعته بسرعة، قائلًا:

- صباح الخير يا سيادة الرئيس.. لم أتصوَّر أنك ستستيقظ مبكرًا إلى هذا الحد!.. أعني بعد اجتماع البارحة.

أجابه رئيس الجمهورية في صوت يحمل رنة إجهاد واضحة:

- إنني لم أنم بعد.. لم يغمض لي جفن طوال الليل، وأنا أفكر في بطلنا، الذي هبط في أرض العدو.. قل لي: ألديكم معلومات حديثة بشأنه؟

أجاب مدير المخابرات في حزم:

- بالطبع يا سيادة الرئيس.. آخر رسالة تلقيناها من المقدم (نسيم)، تؤكد أن الشاب لم يلق مصرعه، وأنه يقاتل للخروج من نطاق العدو.

قال الرئيس في ابتهاج:

- عظيم.. عظيم.. امنحه كل المساعدات الممكنة.. سآمر كل أجهزة الدولة بالتعاون معك.. أريد استعادته بأي ثمن.

تردد مدير المخابرات لحظة، قبل أن يقول:

- الواقع أن المقدم (نسيم) قام بمبادرة شخصية يا سيادة الرئيس، وإن كنا نخشى رد الفعل الذي يمكن أن ينشأ عنها.

سأله الرئيس في اهتمام:

- وما هذه المبادرة؟

أجاب مدير المخابرات على الفور:

- لقد انطلق بطائرة هليوكوبتر إلى ما خلف خطوط العدو، في محاولة لالتقاط الشاب، من خلف ممر (متلا).
صمت الرئيس بضع لحظات، قبل أن يقول في قلق:
- هذا سيستفز الإسرائيليين حتمًا.
سأله مدير المخابرات في حذر:
- هل نطالبه بالعودة يا سيادة الرئيس؟
أجابه الرئيس في سرعة وحزم:
- مطلقًا.. لن نتخلى عن بطلنا أبدًا.
وازدادت لهجته حزمًا، وهو يضيف:
- لو أن الأمر يخص الإسرائيليين، لأرسلوا جيشًا كاملًا لالتقاط رجلهم، من أي مكان، دون أن يبالوا بقواعد أو أعراف، أو حتى مواثيق دولية.. دعهم يضربون رءوسهم بالجدران، وليعلنوا السبب الحقيقي لوجود رجلنا خلف خطوطهم، لو أنهم يجرءون على هذا.. دعنا نستفزهم قليلًا يا رجل.. المهم أن نستعيد بطلنا.
ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتي مدير المخابرات، وهو يقول:
- هذا ما نتوقعه دومًا من رئيسنا.
صمت الرئيس لحظة، قبل أن يقول:
- أخبرني بأية تطورات، وأريد أن أستقبل البطل في منزلي بنفسي، فور عودته إلى الوطن.
قال مدير المخابرات، قبل أن ينتهي الاتصال:
- سنبذل قصارى جهدنا لتحقيق هذا يا سيادة الرئيس.
وأعاد السماعة إلى موضعها، وهو يستطرد مغمغمًا:
- هذا لو استعدنا الشاب على قيد الحياة.
وكانت عبارته دقيقة بالفعل..
لو استعادوا الشاب..

على قيد الحياة..

☆ ☆ ☆

عندما انقض (زايون) بالهليوكوبتر على الشاب، كان واثقًا من الانتصار، على نحو لا يقبل الجدل..

ولكن فجأة، رفع (فاي) حزامه، بالحذاءين المعقودين في طرفيه، وأداره في يده بمهارة مدهشة، وهو يندفع نحو الهليوكوبتر..

ولم يفهم (زايون) ما يحدث، فاندفعت سبابته نحو زر إطلاق النيران..

وألقى (فاي) حزامه..

وفي نفس اللحظة، فهم الطيار ما يسعى إليه الشاب، فانقض على عصا القيادة، وجذبها هاتفًا:

- احترس..

انطلقت الرصاصات، في نفس اللحظة التي مالت فيها الهليوكوبتر إلى أعلى قليلًا، فطاشت كلها في الهواء، ولم تمس جسد الشاب، في حين طار حزامه وفردتا الحذاء تدوران حول نفسيهما، حتى ارتطم بمروحة الهليوكوبتر، فالتف حولها بسرعة مدهشة، وصرخ الطيار في ذعر:

- يا للشيطان.. لقد فعلها.

فهم (زايون) الموقف كله، مع تلك الفرقعة المخيفة، التي انطلقت من المروحة، قبل أن تتوقف بغتة عن الدوران، وتميل الهليوكوبتر على نحو بالغ الخطورة، جعل رجل المخابرات الإسرائيلي يصرخ في هلع:

- اللعنة!.. اللعنة!..

وفي اللحظة التالية، ارتطمت مروحة الهليوكوبتر برمال (سيناء) في قوة، وتحطمت في عنف، و(فاي) يلقي نفسه أرضًا، ويتدحرج

مبتعدًا عن المكان كله، والشظايا المتطايرة من المروحة المحطمة تتطاير في كل مكان..
ثم ارتطم جسم الهليوكوبتر نفسه بالرمال وتفجرت عاصفة هائلة منها، وهي تتدحرج في عنف..
وكان المشهد رهيبًا بحق..
وتحطم ذيل الهليوكوبتر، وتطاير بدوره في اتجاه آخر، مع مروحته الجانبية، وتصاعدت سحب الرمال على نحو مخيف..
ثم استقر حطام الهليوكوبتر فوق رمال الصحراء..
وهبطت سحب الرمال في بطء.
ولثوانٍ ظل الشاب راقدًا في مكانه، ثم لم يلبث أن نهض في بطء، لينفض الرمال عن جسده، ويتطلَّع إلى حطام الهليوكوبتر، قبل أن يتجه نحو مروحتها المحطة، ويستخلص من بينها حزامه وفردتي حذائه..
كان ذلك السلاح الذي صنعه، والذى أسقط به الهليوكوبتر، قديمًا قدم الدهر، ويحاكي الأسلحة التي استخدمها سكان العصور الحجرية، والتي ما زالت تستخدمها بعض القبائل الإفريقية البدائية، والتي تتكون من حجرين، يربطهما حبل طويل، بحيث يساعدان التفاف الحبل حول سيقان الفريسة، لمنعها من الفرار ([18]).
وفي هدوء، ارتدى الشاب حذاءه وحزامه، ونهض يلقي نظرة أخرى على حطام الهليوكوبتر، قبل أن يتجه نحوها في بطء..
كان يسعى للحصول على سلاح..
أي سلاح، يعاونه على عبور ممر (متلا)، من الشرق إلى الغرب..
وعندما انحنى ليلقي نظرة داخل الهليوكوبتر المحطمة، وقع بصره على جثة الطيار، الذي تحطم عنقه، ومال رأسه على

صدره بزاوية مخيفة، و..
ولم تكن هناك جثة أخرى..
وانعقد حاجبا الشاب، وهو يتساءل في أعماقه: أين ذهب الشخص الآخر إذن؟!..
لم يكن السؤال قد تجاوز عقله، أو بلغ أطراف شفتيه، وعلى الرغم من هذا، فقد سمع من خلفه صوتًا عصبيًّا غاضبًا، يقول:
- هنا.
استدار الشاب إلى مصدر الصوت في سرعة، وتطلَّع في صمت متوتر إلى (زايون)، الذي بدا في حالة يُرثى لها، مع التمزقات في زيه ووجهه، وشعره الأشعث على نحو عجيب، وهو يصوِّب إليه مسدسًا كبيرًا، ويستطرد في غضب:
- لم تكن تتوقع نجاتي.. أليس كذلك؟
أجابه الشاب في خفوت:
- كل شيء محتمل.
هتف (زايون) في حدة:
- نعم.. كل شيء محتمل.. حتى انتصارك على كل هذا العدد من رجالنا.. هل تعلم أيها المصري؟.. أنت محظوظ.. محظوظ كثيرًا.
قال الشاب في حزم:
- لا شأن للحظ بهذا.
صاح (زايون)، وهو يلوِّح بيده في غضب:
- لا تقل لي: إنك انتصرت لمهارتك وبراعتك.. كل ما حدث كان مجرد ضربة حظ.. هل تفهم؟!.. مجرد ضربة حظ..
صمت الشاب تمامًا، دون أن يحاول التعليق على هذا القول المجحف، فتابع (زايون) في عصبية:
- ولكن كل شيء انتهى الآن.

ومد يده إليه، مستطردًا في صرامة:
- أعطني الوثيقة.
تجاهل الشاب اليد الممدودة، وهو يقول:
- من أدراك أنني ما زلت أحتفظ بها؟
انعقد حاجبا (زايون) في غضب، وهو يقول:
- لا داعي للمناورات.. كلانا محترف، ويدرك أنه من العبث الدخول في حوار سخيف كهذا.
ثم تراجع بضع خطوات، مستطردًا في عصبية:
- ولكن لا بأس.. لا تعطني إياها.
وجذب إبرة مسدسه، مستطردًا في حدة:
- سأنتزعها من جثتك.
وأطل قدر هائل من المقت والكراهية، من كل ذرة في ملامحه، وهو يضيف:
- وداعًا أيها المصري.. لقد أرهقتنا كثيرًا، ولكنك خسرت في النهاية..
حاول الشاب دراسة الموقف بسرعة، والبحث عن وسيلة للنجاة، و..
ودوت الرصاصات..
ومع دويها، انتفض جسد الشاب في عنف، وتصوَّر أنها اخترقت جسده كلها، ولكن لماذا لم يشعر بأدنى ألم؟!..
أدرك الجواب على الفور، مع هدير مروحة الهليوكوبتر، الذي صك مسامعه بغتة، ومشهد (زايون)، الذي اتسعت عيناه في ألمٍ ورعبٍ، وتفجرت الدماء من مواضع عديدة في جسده، وهو يغمغم:
- ولكن هذا مستحيل!. مستحيل!

وفي نفس اللحظة، التي هوى فيها جثة هامدة، ارتفع صوت (نسيم)، وهو يهتف في مرح وسعادة:
- مرحى أيها النسر.. لقد وصلنا في اللحظة المناسبة بالضبط.
لم يتمكن الشاب أبدًا من وصف مشاعره، في تلك اللحظة، عندما لمح الهليوكوبتر المصرية، وهي تنخفض إلى ارتفاع متر واحد عن سطح الأرض، و(نسيم) يشير من داخلها، هاتفًا:
- هيا يا بطل.. دعنا ننصرف من هنا بأقصى سرعة.
انطلق الشاب نحوه، وقفز يتعلق بالهليوكوبتر، التي ارتفعت على الفور، وهو يدفع جسده داخلها، ويلهث قائلًا:
- تم تنفيذ المهمة يا سيادة المقدم.
ارتسمت على شفتي (نسيم) ابتسامة كبيرة، وهو يقول:
- حمدًا لله على سلامتك يا بطل.
انطلق الطيار بالهليوكوبتر، هاتفًا:
- لقد أشرقت الشمس بالفعل.. لن تكون عودتنا سهلة أبدًا.
هتف به (نسيم) في حماس:
- استخدم كل براعتك يا رجل.. طر على ارتفاع منخفض، وتفادَ كل نقاط الرادار، وراوغ هؤلاء الأوغاد، وسنصل سالمين بإذن الله.
وربت على كتفي (فاي)، مستطردًا:
- لقد استعدنا بطلنا.. وهذا هو المهم.
وانطلقت الهليوكوبتر المصرية، في طريق العودة، وكأنها تعلن انتهاء العملية..
عملية النسر المنفرد..

☆ ☆ ☆

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتي رئيس الجمهورية، وهو يصافح الشاب، في القصر الجمهوري، ويربت على كتفه في

حرارة، قائلًا:
- حمدًا لله على سلامتك يا بطل.. (مصر) تدين لك بالكثير.
انتفض كيان الشاب كله، مع ذكر اسم (مصر)، وغمغم في خفوت:
- كلنا فداء (مصر) يا سيادة الرئيس.
أومأ الرئيس برأسه، قائلًا:
- أنت خير دليل على هذا أيها البطل.
ثم تطلع إليه في إعجاب، قبل أن يضيف:
- قل لي يا بطل: ما نوع المكافأة التي تفضلها بالضبط؟
أجاب الشاب بسرعة:
- لقد حصلت على مكافأتي بالفعل يا سيادة الرئيس.
قال الرئيس في حيرة:
- وكيف هذا؟
شد الشاب قامته، قائلًا في حزم:
- كان لي شرف الإسهام في الحفاظ على أمن (مصر).
ابتسم الرئيس، قائلًا:
- و(مصر) تدين لك بالشكر.
واتسعت ابتسامته، وهو يستطرد في لهجة ذات مغزى خاص:
- أيها النقيب.
ارتفع حاجبا الشاب في دهشة، وهمَّ بتصحيح رتبته للرئيس.
إلا أنه فهم الأمر في سرعة، فارتفع حاجباه في تأثر، والرئيس يربت على كتفه، قائلًا بابتسامة كبيرة:
- أنت تستحق هذه الترقية الاستثنائية يا بطل.
ظلت العبارة تتردد في رأس (فاي) طويلًا، وهو يجلس إلى جوار (نسيم)، في سيارة هذا الأخير، التي تنطلق عائدة إلى مركز

التدريب الخاص، وارتسمت على شفتي رجل المخابرات القدير ابتسامة كبيرة، وهو يقول:
- أعتقد أنه حان الوقت لأهنئك شخصيًّا.
تمتم الشاب:
- أشكرك يا سيدي.. الواقع إنني أدين لك بالكثير، فأنت أستاذي ومدربي، بعد سيادة المقدم (رفعت).
نطق الجزء الأخير في تأثر واضح، جعل (نسيم) يرمقه بنظرة جانبية، قبل أن يقول، محاولًا تغيير الموضوع:
- هل تعتقد أن تدريباتك كانت كافية، لمواجهة الموقف في (سيناء)؟
صمت الشاب لحظة، قبل أن يجيب في حزم:
- أعتقد أنني ما زلت في حاجة إلى المزيد.
أومأ (نسيم) برأسه إيجابًا، وقال:
- ما زال في قدرتك استيعاب أضعاف ما تعلمته.
ثم التقط ورقة أنيقة من أمامه، وناولها للشاب، قائلًا:
- وبالمناسبة.. أنت تستحق شهادة التقدير هذه.
انعقد حاجبا الشاب في تساؤل، وهو يلتقط الشهادة، ولم يكد يلقي نظرة عليها، حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة..
لقد كانت واحدة من الشهادات، التي يقدمها جهاز المخابرات للمتفوقين والمتميزين من رجاله..
وفي موضع الاسم منها، كان هناك شكل بيضاوي، يقطعه خط مائل مستقيم..
وكان هذا هو الرمز، الذي يحمله دومًا، في كل الأوراق الرسمية..
الرمز الذي لم ولن يحمله سواه..
رمز (فاي).

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- ومازال التدريب مستمرًا..
٢- الخطة..
٣- النسر..
٤- السر..
٥- الانتحاري..
٦- القتال..
٧- المظلة ..
٨- أرض العدو..
٩- رجل واحد..
١٠- الطريق إلى الممر..
١١- القنَّاص..
١٢- اللمسة الأخيرة..

Notes

[←1]

(1) الشيكل: عملة إسرائيلية.

[←2]

(2) رق سمَّال: (رقيب أول) باللغة العربية.

[←3]

(3) أوروبا: قارة مع جزرها، مساحتها حوالى عشرة ملايين وثلاثمائة وستين ألف كيلو متر مربع، يفصلها عن (آسيا)، جبال (أورال)، وبحر (قزوين) و(القوقاز)، والبحر الأسود، وعن (أفريقيا)، البحر الأبيض المتوسط، ويحدها شمالاً، المحيط المتجمد الشمالى، وغرباً المحيط الأطلنطى، وأكبر الجزر التابعة لها هى الجزيرة البريطانية.

[←4]

(4) قبرص: جمهورية، جزيرة فى البحر الأبيض المتوسط، عاصمتها (نيقوسيا)، ومعظم سكانها من اليونانيين، مع قلة من الأتراك، وهى سهل فسيح، تخترق سلسلتان من الجبال، منها جبل (أوليمبوس)، ومن أهم ما تنتجه، الكروم، والقمح، والزيتون، والتبغ، ويستخرج منها معدن النحاس بكثرة.

[←5]

(5) تدور الأحداث فى منتصف السبعينات، عندما كان لقب وزير الدفاع هو (وزير الحربية).

[←6]

(6) سيجين مشنى: (ملازم) باللغة العبرية.

[←7]

(7) (فاى): رمز فى الرياضة الحديثة، وهو يرمز إلى القيمة الخالية، التى لا وجود لها والغرض منها هو ضبط المعادلات والنسب فحسب.

[←8]

(8) (م . ع . م): المخابرات العامة المصرية.

[←9]

(9) (توت – غنخ – آمون) – (١٦٣١ – ٢٥٣١ ق.م) : ملك (مصر)، من الأسرة الثامنة عشرة، زوج ابنة (إخناتون)، توج فى مطلع العقد الثانى من عمره، ومات دون العشرين، تنصل من ديانة (آتون)، وعاد إلى (طيبة) والإله (آمون)، وتم العثور على قبره سليماً عام ٢٢٩١م، بكل كنوزه المعروضة الآن فى المتحف المصرى.

[←10]

(10) المجال الجوى: هو الجزء من الفضاء، الموازى لحدود أية دولة، والقانون الدولى يعتبره ضمن نطاق سيادة الدولة، ومن غير المسموح لأية طائرات اختراقه، دون الحصول على تصريح أو إذن مسبق، فيما عدا حالات الحرب الفعلية.

[←11]

(11) تدور وقائع القصة قبل توقيع اتفاقية (كامب دافيد)، وقبل أن تسترد (مصر) (سيناء) بالكامل.

[←12]

(12) واقعة حقيقية.

[←13]

(31) في ذلك الزمن، لم تكن (مصر) قد استرجعت (سيناء) بالكامل.

[←14]

(41) نابليون بونابرت: (٩٦٧١ – ١٢٨١): إمبراطور (فرنسا)، ولد بجزيرة (كورسيكا) وتخرج ضابطًا للمدفعية في (فرنسا)، دافع عن حكومة الإدارة، فعين قائدًا للحملة الإيطالية (٦٩٧١ – ٧٩٧١)م، وقاد الحملة الفرنسية على مصر (٨٩٧١)، وأسقط حكومة الإدارة، وأقام القنصلية، ثم أعلن نفسه إمبراطورًا (٤٠٨١)، وعلى الرغم من انتصاراته القوية، هُزم أخيرًا في (واترلو) (٥١٨١)، وتم نفيه إلى جزيرة (سانت هيلانة) حيث مات هناك.

[←15]

(15) جيمل: حرف الجيم في اللغة العربية، التي ترتب حروفها طبقًا لمنهج الحروف العربية القديمة (أبجد هوز)، بحيث تبدأ بألف.. بيت.. جيمل.. دالت.. هي.. قاف.. زاين.. إلخ.

[←16]

(16) الاستراتيجية: فن القيادة في الحرب الشاملة على مستوى الدولة، حيث يتم تنسيق الخطط العسكرية مع الخطط الاقتصادية، والإعلامية، والسياسية، وتهدف إلى تحقيق هدف قومي، وتوصف بأنها الخطة العامة، لحملة عسكرية كاملة.

[←17]

(17) البركان: فتحة في قشرة الأرض، تتصاعد منها الغازات، وتقذف الصخور (مصهورة وصلبة)، وغالبًا ما يكون على هيئة جبل مخروطي الشكل، يتكون من المواد المقذوفة تحت القشرة، وتنشأ قوى البركان الانفجارية من تراكم الأبخرة والغازات، في حالة فوق التسخين، واحتجازها خلف سدادة من الحمم المتصلبة، في قصبة البركان.

[←18]

(18) حقيقة.

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

عملية تل أبيب

الأجزاء الثلاثة مجمّعة

(سلسلة فاي)

د. نبيل فاروق

فريق متميزون

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

عملية تلّ أبيب

(سلسلة فاى)

(الأجزاء الثلاثة مُجمَّعة)

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

هذه القصة لم تحدث من قبل..
أو ربما حدثت...
أو أنَّ بعضها حدث، وبعضها لم يحدث...

ضعها فى عقلك حسبما يتراءى لك..
ولكن المهم أنَّها تحمل توقيع الوطن..
توقيع (مصر)..

د. نبيل فاروق

١- العميل..

بدأ قرصُ الشمس رحلته اليومية نحو الأفق، وراح يهبط في بطءٍ، كعينٍ تغلب صفرتُها حمرتَها، مُلقيًا آخر خيوط الضوء الباهتة على مطار (تل أبيب) الحربي، حيث تراصت المقاتلات الصغيرة، من طراز (فانتوم – ١٥)، واستعدَّ الطيارون لمغادرة ممرات الهبوط والإقلاع، في حين اتجه طاقم الفنيين إلى الطائرات، لإجراء عمليات الصيانة والمتابعة الدورية، وانشغل عدد من الإداريين والضباط في مراجعة التقارير الواردة، ودراسة الخرائط الجديدة..

وفي تلك اللحظة، التي يتضاعف فيها النشاط، وتتزايد الحركة، ويقل الوجود الأمني أو يرتبك إلى حدٍّ ما، تحرَّك أحد الفنيين عبر الممر الطويل، في برج المراقبة الرئيسي، في خطوات واسعة واثقة، وهو يحمل بعض قطع غيار المحركات الرئيسية، على نحو يوحي بأنَّه في طريقه إلى قسم الصيانة، لتسليم أو استبدال شيء ما، إلا أنَّه لم يواصل مسيرته حتى قسم الصيانة، وإنَّما توقف لحظة ليتأكد من أن أحدًا لا ينتبه إلى حركته، ثم انحرف في خفة إلى ممر آخر جانبي، واندفع عبره لثلاثة أمتار، قبل أن يتوقف أمام أحد الأبواب المغلقة في إحكام، ويخرج من جيبه أداة صغيرة، دسَّها في ثقب المفتاح، وراح يعالج الرتاج في سرعة، حتى استجاب له، فدفع الباب، ودلف إلى الحجرة في وثبة واحدة، وأغلق بابها خلفه، ثم اتجه مباشرة إلى أحد الأدراج، وراح يقلِّب ما فيه من ملفات في اهتمام، قبل أن يتوقف عند ملف بالتحديد، انتزعه من مكانه، ووضعه فوق المكتب المجاور، وأخرج من جيبه آلة تصوير صغيرة، وراح يلتقط صور صفحات

الملف في عناية، حتى انتهى من تصويرها كلِّها، فوضع آلة التصوير في جيبه، وأعاد الملف إلى موضعه في عناية بالغة، ثم غادر الحجرة، وتلفَّت حوله في حذر، واتجه عائدًا إلى الممر الرئيسي، و...

«ماذا تفعل هنا؟!..».

انطلق السؤال بغتة من خلفه، بصوت يجمع ما بين الدهشة والغضب والاستنكار، فاستدار إلى مصدره في سرعة، ورأى أحد رجال الشرطة الحربية، يسحب مسدسه من غمده، ويندفع نحوه، مستطردًا في صرامة:

- انتظر.

ولكن الرجل لم ينتظر..

كان من المستحيل أن يخاطر بالوقوع في قبضة الشرطة الحربية، وهو يحمل في جيبه آلة تصوير صغيرة، بداخلها (ميكروفيلم)، يحوي عددًا من الصور، تكفي واحدة منها لإلقائه خلف القضبان، حتى آخر العمر، ما لم يلق مصرعه من شدة التعذيب داخل زنزانة رطبة، في أعماق السجن الحربي الإسرائيلي..

لذا فقد التفت إلى الجندي، وقال في حِدَّةٍ:

- ماذا تريد مني؟

رفع الإسرائيلي مسدسه، قائلًا:

- ماذا كنت تفعل في هذا ال...

قبل أن يتم عبارته، ألقى الرجل ما يحمله في وجهه، ثم انقضَّ عليه، وهوى على فكِّه بلكمة كالقنبلة، هاتفًا:

- ليس هذا من شأنِكَ.

بوغت الإسرائيلي بهذا الهجوم غير المتوقع، ودفعته اللكمة إلى الوراء في عنف، ولكنه تماسك بقوة عجيبة، وحاوَل أن يطلق

النار على الرجل، الذي أمسك معصمه، ودفعه إلى أعلى في قوة، وهو يقول:
- من الواضح أنَّك قوي الاحتمال.
انطلقت الرصاصة بدوي خفيف، تردَّد صداه في المكان كله، فغاص الرجل بقضبته في معدة الإسرائيلي، مستطردًا:
- ولكن حتى الثيران لها نقاط ضعف.
شهق الإسرائيلي، وانثنى جسده كله إلى الأمام، فحطم الرجل أنفه بلكمة أخيرة، ألقته فاقد الوعي، في نفس اللحظة التي انطلقت فيها صفارات الإنذار في المكان، وراحت الأبواب تغلق آليًا، مع نداء يتردد بالعبرية..
وبدا من الواضح أن الأمور قد تأزَّمت للغاية..
وأنَّ الفرار لم يعد مضمونًا على الإطلاق..
وفي سرعة، اختطف الرجل مسدس جندي الشرطة الحربية الإسرائيلي، وانطلق يعدو نحو باب المكان، الذي يغلق آليًا، ووثب يتجاوزه في مهارة، قبل أن يلتقي مصراعاه، ولكنه وجد ثلاثة من الإسرائيليين يعدون نحوه، وأحدهم يشير إليه، صائحًا:
- ألقوا القبض على هذا الرجل.
لم يكن هناك مجال للمناورة أو التظاهر، وخاصة مع دوي صفارات الإنذار، وما تصنعه من أعصاب متوترة، وأوتار مشدودة، فلم يُضِع الرجل وقتًا، وإنَّما رفع المسدس الذي اختطفه من الإسرائيلي، وأطلق النار نحو الإسرائيليين الثلاثة بلا تردد..
وأصابت رصاصاته أحد الرجال، وأطاحت به في عنف، إلا أنَّ الرجلين الآخرين أطلقا رصاصاتهما بدورهما في نفس اللحظة..
واخترقت رصاصة ذراع الرجل، وغاصت ثانية في فخذه، وعبرت الثالثة صدره وحطمت أحد أضلاعه، قبل أن تستقر داخل رئته

اليمنى..
وواصل الرجل إطلاق النار، على الرغم من إصاباته، وهو يعدو نحو منطقة تجمع الطائرات، وأسقط رجلين آخرين، إلا أنَّ أكثر من عشرة رجال كانوا يطاردونه في شراسة، ورصاصاتهم تنطلق نحوه بلا هوادة..
واخترقت رصاصة أخرى ظهر الرجل، وخامسة كتفه، فاندفع جسده إلى الأمام، وسقط بين إطارات واحدة من طائرات (الفانتوم – ١٥)..
وفي صرامة، ارتفع صوت يقول بالعبرية:
- لا تطلقوا النار، حتى لا نتلف الطائرات.. لقد أصابته رصاصات عديدة.. حاصروه فحسب، وسينهار وحده حتمًا، بين حين وآخر..
لهث الرجل في شدة، وهو يستمع إلى العبارة، وأدرك أن صاحبها مُحقٌّ تمامًا، فمع كل ما أصابه من رصاصات، كان من العجيب أن يحتفظ بوعيه، ولكنه لن يلبث أن يسقط حتمًا، مع ما يفقده من دماء..
وعلى الرغم من دقة موقفه، انحصر تفكيره كله في ذلك (الميكروفيلم)، داخل آلة التصوير، وفي مدى أهمية ما يحويه من صور ومعلومات، فأخرج الآلة من جيبه، وانتزع منها (الميكروفيلم)، وهو يلهث في تهالك، واستخدم آلته الصغيرة، ليحل إحدى المفصلات الدقيقة، في منطقة الإطارات، ثم دفع داخلها (الميكروفيلم)، وعاد يربطها في إحكام، وهو يبذل جهدًا خرافيًا، للسيطرة على توافقه العصبي، والحفاظ على درجة من الوعي، تسمح له بالمضي في عمله..
وكان من الواضح أنَّه يستمد قوته كلَّها من إصراره على إنقاذ (الميكروفيلم)؛ إذ لم يكد يطمئن إلى أنَّه في أمان، داخل تلك

المفصلة الصغيرة، حتى تهاوت قوته كلها، وانهار جسده دفعة واحدة، وسقط فاقد الوعي..
وفي بطءٍ حذرٍ، وبعد أن لاحظوا سقوطه فاقدا للوعي.. راح الإسرائيليون يقتربون من الرجل، ومدافعهم الآلية مشهرة متحفزة بشدة..
ولكن الرجل لم يبد حراكًا أو مقاومة..
لم يبد أيًّا منهما على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

«عميل مصري؟..».
هتف رجل (الموساد) الإسرائيلي، المسئول عن أمن المطار الحربي بالكلمة في مزيج من الغضب والسخط والاستنكار، وهو يقطع ممر المستشفى العسكري في (تل أبيب) في خطوات عصبية سريعة، ولوَّح بيده في حِدَّةٍ، مستطردًا:
- وكيف تسلَّل عميل مصري إلى المطار الحربي؟!.. أين كان رجال الأمن؟!
تنحنح مساعده (زلفي)، وهو يعدو خلفه، قائلًا:
- إنَّه لم يتسلَّل إلى هناك يا أدون (بيجال).. إنَّه.. إنَّه..
صاح به (بيجال يائيل) في عصبية:
- إنَّه ماذا؟! تحدَّث.
كان قد بلغ حجرة الطوارئ، التي يرقد داخلها ذلك العميل، عندما تنحنح (زلفي) في حرجٍ، وأجابه:
- إنَّه يعمل هناك..
تجمَّد (بيجال) في مكانه، واتسعت عيناه عن آخرهما، وجحظتَا حتى كادتَا تبرزان من محجريهما، قبل أن ينتفض في عنفٍ، ويلتفت إلى مساعده بحركة حادة، هاتفًا:
- يعمل هناك؟!

نطقها بأكبر قدر ممكن من السخط والاستنكار، فتراجع (زلفي) أمام ثورته، وارتبك أكثر، وهو يجيب:
- نعم يا سيدي.. لقد كان يعمل هناك باعتباره.. باعتباره.
لم يرق هذا التردد ل(بيجال)، فصرخ:
- باعتباره ماذا؟
شحب وجه (زلفي)، وازدرد لعابه في صعوبة، وهو يجيب:
- باعتباره إسرائيليًّا.
لو أن صاعقة هَوت فجأة من السماء، في يوم صحو، وانتخبت (بيجال يائيل) بالتحديد، من بين ملايين الأحياء، لتضرب رأسه بكل قوتها، لما تركت في نفسه ذلك الأثر، الذي تركه جواب (زلفي).
لقد امتقع وجه (بيجال)، كما لو أنَّه لم يعد يحوي قطرة واحدة من الدم، وجحظت عيناه حتى برزتَا من محجريهما بالفعل، وانفرج فاهُه على نحو عجيب، واشرأب بعنقه كذَكَرِ أوزٍّ، وظلَّ على هذا الوضع لما يقرب من نصف دقيقة كاملة، قبل أن يتمتم في صعوبة، وكأنَّما ينتزع الكلمات من حلقه انتزاعًا:
- إسرائيليًّا؟!..
وارتسم الذهول على كل لمحة من ملامحه، وهو يتراجع، ويلصق ظهره بباب حجرة الطوارئ، مكررًا؟!..
- باعتباره إسرائيليًّا؟!..
شعر (زلفي) بالقلق، مع ذلك الانطباع العجيب، الذي ملأ وجه رئيسه، وتضاعف ارتباكه عشر مرات على الأقل، وهو يغمغم:
- إنَّه يحمل هوية إسرائيلية، باسم (رافائيل أعانوت)، ويعمل في المطار الحربي منذ ما يقرب من العام، ولولا إصابته لما...
قاطعه (بيجال) بصيحة هادرة:
- منذ ما يقرب من عام؟!

كان وجهه قد فقد امتقاعه، واحتقن في شدة، وكأنَّما عادت إليه دماؤه، مع كل ما تبقَّى في جسده من دماء، وجسده يرتجف في انفعالٍ مخيفٍ، وهو يستطرد:

- هذا يعني وجود ثغرة في نظم الأمن.. ثغرة دفع المصريون من خلالها أحد عملائهم، لينتحل شخصية إسرائيلية، ويعمل في صفوفنا.. بل والأدهى أنَّه التحق بالعمل في مطار (تل أبيب) الحربي بعينه.. يا لها من كارثة!

ثم استدار، ودفع باب حجرة الطوارئ، واندفع داخلها، قائلًا:

- أين ذلك الجاسوس؟

أشار إليه طبيب الحجرة بالصمت والهدوء، وهمس وهو يشير إلى المصري، الذي رقد فوق فراش صغير، وقد امتدت إليه عشرات الأنابيب والأسلاك الدقيقة، لفحص حالته طوال الوقت:

- ها هو ذا.. ولكن حذار أن تبذل جهدًا زائدًا معه، فربما يلقى مصرعه.

هتف (بيجال) في حِدَّةٍ، وهو يتجه إلى الفراش:

- فليذهب إلى الجحيم.

قالها، وهزَّ المصري في قوة، فهتف الطبيب:

- هذه القسوة بالغة الخطورة.. الرجل مصاب بعدد من الرصاصات، وتجاوز على الفور جراحه بالغة الخطورة، وأي تعامل عنيف قد يؤدي إلى...

قاطعه (بيجال) بصرخة كادت ترج المستشفى كله:

- قلت لك فليذهب إلى الجحيم.

انعقد حاجبَا الطبيب، وتراجع بضع خطوات، في حين قال (بيجال) للمصاب في غلظة عصبية:

- استيقظ يا رجل.. استعد وعيك، وقل لي ماذا كنت تفعل عندما انكشف أمرك؟!.. ولماذا كنت تحمل آلة تصوير صغيرة خالية؟!.. أجِب أيُّها اللعين.. أجِب.
ظلَّ المصاب مغلق العينين، ساكنًا في فراشه، على الرغم من أمارات الألم، التي ارتسمت على ملامحه، فتدخل الطبيب، قائلًا في صرامة:
- لا فائدة مما تفعل.. الرجل فاقد الوعي، ولن يستعيده لمجرد أنَّك صارمٌ قاسٍ بلا قلب.
صاح (بيجال):
- لا بدَّ أن يجيب أسئلتي.
قال الطبيب في حِدَّةٍ:
- مهما بلغت صرامتك، فلن يمكنها أن تتجاوز قوانين الطبيعة.. كل ما يمكن أن يحدث هو أن تقتله قسوتك، فتضيع معه كل الأجوبة، التي تسعى إليها.. أهذا ما تريده أم ماذا؟
انعقد حاجبَا (بيجال) في شدة، ولاذ بالصمت بضع دقائق، ثم لم يلبث أن سأل في عصبية:
- متى يمكنني استجوابه؟
أجابه الطبيب، وهو يعقد ساعديه أمام صدره:
- بعد ساعة على الأقل، عندما يستعيد وعيه بصورة طبيعية.
قال (بيجال) في حِدَّةٍ:
- فليكن.. سيظل مساعدي أمام الباب طوال هذه الساعة، ولن يسمح بدخول أو خروج شخص واحد، حتى يستعيد هذا المصري وعيه.. هل تفهم؟
زفر الطبيب في ضجر، وقال:
- فليكن.. والآن، وحتى تنتهي هذه الساعة، هلا غادرتما الحجرة، لنتمكن من مواصلة عملنا هنا.

انعقد حاجبَا (بيجال) بشدة، وقال لمساعده (زلفي)، وهما يغادران الحجرة:
- هل سمعت ما قلته؟!
أومأ (زلفي) برأسه إيجابًا، وهو يغلق الباب خلفه، فتطلَّع الطبيب إلى الباب المغلق لحظة، ثم التفت إلى المصاب، وقال باللغة العربية في قلق:
- (فتحي).. أأنت بخير؟!
فتح المصاب عينيه في تهالك، وهو يتمتم:
- ذلك الوغد كاد يعجل بنهايتي.
ربت الطبيب على كتفه، قائلًا في تعاطف:
- اطمئن يا صديقي.. سأبذل قصارى جهدي لإنقاذك، ونقلك من هنا، و...
قاطعه المصاب:
- لا تُضِع الوقت بالله عليك.. كلانا يعلم أنَّ إصاباتي قاتلة، وأنَّني لن أحيا لأكثر من ساعات معدودة.. دع عنك فكرة إنقاذي هذه، واستمع إليَّ قبل فوات الأوان.
ثم تشبث بمعطفه، مستطردًا في لهاث:
- (الميكروفيلم).. لقد أخفيت (الميكروفيلم).
ربت الطبيب على كتفه مرة أخرى، قائلًا في إشفاق:
- استرح يا رجل.. حالتك الصحية لا تسمح ب...
قاطعه المصاب في توتر:
- لقد أخفيته في قائم الإطار، للمقاتلة (ف - ٢١٠).. أخبرهم في (القاهرة) أنَّ.. أنَّ..
تلاحقت أنفاسه في عنفٍ، واحتبست الكلمات في حلقه، فقال الطبيب في قلقٍ شديدٍ:
- كفى يا رجل.. توقَّف عن الحديث.. توقَّف بالله عليك.

تشبَّث به المصاب أكثر، وهو يقول، وأنفاسه تتلاحق أكثر وأكثر:
- من الضروري أن يسعوا للحصول عليه، قبل أنْ.. قبل أنْ...
ردَّد الكلمة مرتين، ثم أطلق شهقة قوية، وتعلَّق بمعطف الطبيب، وجحظت عيناه في قوة، فاندفع (بيجال) و(زلفي) إلى الحجرة، وهما يهتفان:
- ماذا حدث؟!.. ماذا أصابه؟!
ولم يكن الطبيب بحاجة لإجابة أي من السؤالين..
لقد أتى الجواب أوضح مما ينبغي..
أتى حاملًا رائحة لا يمكن أن تخطئها أنف..
رائحة الموت..

☆ ☆ ☆

٢- المهمة..

دوَّى الانفجار في قلب الصحراء، وتطايرت الشظايا في عنفٍ، متناثرة في كل اتجاه، وانطلقت صفارات الإنذار تعلن حالة الطوارئ، في نفس اللحظة التي برز فيها شابٌّ في زي رجال الصاعقة، يحمل مدفعًا آليًا، ويعدو بكل قوته، وكأنَّما هو جزء من الشظايا المتطايرة..

ومن بعيد ظهرت سيارة (جيب)، تحمل على جانبها نجمة (داوود)([1])، وهتف أحد الرجال الثلاثة داخلها، وهو يشير إلى الشاب:

- ها هو ذا.

انطلق سائق (الجيب) نحو الشاب مباشرة، في نفس الوقت الذي ظهرت فيه سيارة عسكرية أخرى، اتخذت الاتجاه نفسه..

وكان سباقًا رهيبًا..

الشاب يعدو بكل قوته، فوق رمال الصحراء، والسيارتان تطاردانه في إصرار، وفوهات مدافع العدو الآلية مصوبة إليه في تحفُّز..

وانطلقت رصاصات المدافع الآلية نحو الشاب، ولكن المسار المتعرج الذي يتخذه، والسرعة التي يعدو بها، منعَا إصابته في هذه المرحلة..

وزاد قائدَا السيارتين من سرعتهما، وتضاعف إصرارهما على اللحاق بالشاب، الذي يجري بسرعة مدهشة، بالنسبة للأرض التي تحت قدميه، متجهًا نحو تبة عالية، تبعد بضع عشرات من الأمتار فحسب..

وداخل إحدى السيارتين هتف رجل في زي نقيب إسرائيلي، يستحث سائقها:
- هيا يا رجل.. دقيقة واحدة ونظفر به.. هيا..
ولم يكد يتم عبارته، حتى برزت تلك الهليكوبتر، من خلف التبة.. هليكوبتر حربية مصرية، من طراز صغير الحجم، سريع الحركة، بارع المناورة، ارتفعت بغتة من خلف التبة، واتجهت نحو الشاب، الذي بات من الواضح أنَّه يعرف موضعها، ويتجه إليها منذ البداية..
وصرخ قائد فريق المطاردة الإسرائيلي:
- لا تسمحوا للهليكوبتر بانتشاله.. أطلقوا النار نحوها أيضًا..
ولم يكد يصدر الأمر، حتى انهال سيل من الرصاصات على الهليكوبتر، التي أدرك قائدها دقة وحرج الموقف، فأشار إلى الشاب هاتفًا:
- أسرِع بالله عليك.. أسرِع.. لن يمكنني الانتظار طويلًا.
ولكن الشاب أدرك بدوره أنَّ الأمر صار أدق مما ينبغي، وأنَّه حتى لو لحق بالهليكوبتر، فستدركهما رصاصات العدو حتمًا؛ لذا فقد لوح بمدفعه لقائدها، هاتفًا:
- أسرِع إلى ما خلف التبة.
اتسعت عينا قائد الهليكوبتر في دهشة، وهو يهتف:
- خلف التبة؟!
صرخ فيه الشاب، وهو يستدير لمواجهة السيارتين بمدفعه:
- قلت لك خلف التبة.. هذا أمر.
وأمام الموقف الملتهب، لم يسع قائد الهليكوبتر سوى تنفيذ الأمر، فارتفع بالطائرة مرة ثانية، واتجه نحو التبة، في حين راح الشاب يطلق رصاصات مدفعه في جرأة مدهشة على السيارتين،

حتى اضطرهما للانحراف عن مسارهما، وقائدهما يهتف في حنق:
- اللعنة!.. كيف يمكنه هذا؟!
وكانت فرصة نادرة بحق..
السيارتان انحرفتا عن مسارهما، وتوقفتا مؤقتًا عن إطلاق النار نحوه، أو نحو الهليكوبتر، و...
وبسرعة مدهشة، استدار الشاب، وانطلق يعدو صاعدًا التبة خلف الهليكوبتر..
وأدرك قائد فريق المطاردة الإسرائيلي هذا، فهتف برجاله:
- إنَّه يحاول الفرار.
ومرة أخرى، انطلقت الرصاصات خلف الشاب والهليكوبتر، مما اضطر قائدها إلى المضي في طريقه، على الرغم من أن الشاب، واصل عدوه نحوها، دون أن يطالبه بالتوقف لالتقاطه؛ لأنَّه يدرك أن التوقف للحظة واحدة، سيعني القضاء عليهما معًا، دون أدنى شكٍّ..
وعلى مسافة كبيرة، وقف رجلان، أحدهما في زي عسكري برتبة عقيد، والثاني يرتدي ثيابًا مدنية، يراقبان المشهد عبر منظارين مقربين في اهتمام، وغمغم العسكري:
- لن ينجح.
أجابه المدني في ثقة:
- بل سيفعلها.
هزَّ العسكري رأسه بعدم اقتناع، وهو يقول:
- العدو فوق الرمال ليس بالأمر الهين، فما بالك بصعود التبة، واللحاق بالهليكوبتر.
أجابه المدني في ثقة أكبر:
- سيفعلها.

هزَّ العسكري كتفيه، ولم يحاول الاعتراض صراحة، ولكنه في قرارة نفسه، كان واثقًا من أنَّ ما يحاوِل الشاب أن يفعله مستحيل..
مستحيل تمامًا..
ولكن الشاب كان يمتلك إصرارًا يفوق أقصى الحدود.
وإرادة من فولاذ..
وإصراره وإرادته صنعَا من قدميه آلة رهيبة، لا تدرِك سوى الجري فوق رمال الصحراء.
وبأقصى سرعة..
لقد تجاوز الأمتار التي تفصله عن الهليكوبتر، التي لم تتوقف لحظة واحدة، ثم علق مدفعه الآلى بكتفه، و...
وقفز..
ومع قفزته، اتسعت عيون الجميع دهشة وانبهارًا..
حتى أولئك الذين يلعبون دور الإسرائيليين.
لقد بدا لهم لحظة، وكأنَّه يطير في الهواء، قبل أن يتعلق بحاجز باب الهليكوبتر، ويصرخ في قائدها:
- ابتعد.. ابتعد بأقصى سرعة يا رجل.
واتسعت العيون مرة أخرى، وهي تتابع ابتعاد الهليكوبتر، والشاب يدفع جسده داخلها، قبل أن يلوح بقبضته في ظفر، ثم يرسم في الهواء شعارًا عجيبًا..
شعارًا يشبه رمزًا رياضيًّا معروفًا..
(فاي)..
وهتف العسكري مبهورًا:
- كنتَ على حقٍّ يا رجل.. لقد فعلها.
أما المدني، فقد انعقد حاجبَاه في ضيق، وهو يغمغم محدثًا نفسه:

- يا للسخافة!.. إنَّه لا يستطيع مقاومة رسم شعاره أبدًا، كلما انتصر في معركة ما.. هذا الشاب سيكشف نفسه يومًا بحماقته هذه.

التفت إليه العسكري، يسأله:

- ماذا تقول؟

رسم المدني على شفتيه ابتسامة، وهو يجيب:

- لا شيء.. كنتُ معجبًا بما فعله فحسب.

ربت العسكري على كتف المدني في حماس، قائلًا:

- دعني أهنئك يا (نسيم).. أخيرًا عثرت على امتداد حقيقي لك.. إنَّه يذكرني بشبابك، أيام كنا نعمل معًا، في القوات الخاصة.

ارتسمت على شفتي رجل المخابرات (نسيم) ابتسامة حقيقية هذه المرة، وهو يقول في زهو وارتياح:

- لقد دربته بنفسي.

ربت العسكري على كتفه مرة أخرى في حرارة، قائلًا:

- بالتأكيد.. ومَن يصلح لهذا سواك؟!

ثم سأله في اهتمام:

- ولكن قل لي هل أصبحت المخابرات أكثر ميلًا للأعمال العنيفة، في هذه الأيام؟!.. المفترض أنَّها مجال لصراعات العقل وحدها..

هزَّ (نسيم) كتفيه، وقال:

- المخابرات مجال لكل أنواع الصراعات بلا استثناء.. كلٌّ يأتي في موضعه، عندما تقتضي الأمور..

أومأ العسكري برأسه متفهمًا، وهو يقول:

- بالتأكيد.. أذكر أنَّكم استعنتم ذات مرة برجال الضفادع البشرية في (أبيدجان)([2]) .. أليس كذلك؟

أجابه (نسيم) بإيماءة من رأسه، وشرد بصره متمتمًا، وكأنَّه يستعيد ذكرى قديمة:
- بلى.. كانت عملية من طرازٍ خاصٍّ للغاية([3]) .
ثم تعلَّق بصره بالهليكوبتر، التي تتجه نحوهما، وهو يتابع:
- ولكنها ليست الأخيرة، فهناك مهمة أخرى من طرازٍ خاصٍّ للغاية، تنتظر هذا الشاب.
سأله العسكري في اهتمام:
- هل أصبح مؤهلًا للقيام بالمهام الخاصة؟
ابتسم (نسيم)، قائلًا:
- إنَّها ليست أول مهمة له.
ارتفع حاجبَا العسكري، هاتفًا:
- حقًّا؟!
ثم عاد يهز رأسه، مستطردًا:
- كان ينبغي أن أدرك هذا.
وانتقلت ابتسامة (نسيم) إليه، وهو يتابع:
- هل تعلم يا (نسيم) لو لم تظفروا بهذا الشاب في المخابرات العامة، لقدمت طلبًا لإلحاقه بالقوات الخاصة.
التفت إليه (نسيم) بابتسامة كبيرة، وهو يقول:
- وماذا لو أخبرتك أنَّنا استولينا عليه من القوات الخاصة بالتحديد..
ارتفع حاجبَا العسكري في دهشة، وهتف:
- من القوات الخاصة؟!.. هل تعني أن هذا الشاب كان أحد رجال الكوماندوز المصري يومًا؟!
أومأ (نسيم) برأسه إيجابًا، وقال:
- نعم.. وأنت قمت بتدريبه بنفسك، قبيل حرب أكتوبر.

ارتفع حاجبَا العسكري بدهشة أكثر، قبل أن ينعقدَا في قوة، وهو يردِّد:
- دربته بنفسي؟!
قالها، وهو يعتصر ذهنه بشدة، محاولًا تذكُّر شابٍّ عمل معه في أحد الأيام، بكل هذه المهارات، قبل أن يغمغم:
- قبيل حرب أكتوبر كانت لدينا كتيبة كاملة من الموهوبين في هذا المضمار، ولكنني أذكر منها شابًا بارعًا، أثبت تفوقًا إضافيًّا، كان اسمه..
قاطعه (نسيم) في حزمٍ:
- إنَّه هو على الأرجح.
حدَّق العسكري في وجهه لحظة بدهشة، ثم لم يلبث أن هزَّ رأسه نفيًا، وارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة، وهو يقول:
- مستحيل!.. تلك الكتيبة لقيت مصرعها كلها، في فخ إسرائيلي، في أول أيام الحرب.
قال (نسيم):
- فيما عدا هو.
انعقد حاجبَا العسكري أكثر، وقال في شيء من التوتر:
- مستحيل!.. التقارير الرسمية كلها أكدت أن..
أشار إليه (نسيم) بالصمت، وهو يتابع هبوط الهليكوبتر، قائلًا:
- إنَّها قصة طويلة معقدة، سأرويها لك فيما بعد.
حافظ العسكري على انعقاد حاجبيه، ولاذ بالصمت مضطرًا، وشد قامته في وقفة عسكرية صارمة، عندما اندفع الشاب نحوهما من الهليكوبتر، وأدَّى التحية العسكرية في احترام، قائلًا:
- تمَّت المهمة بنجاح يا سيدي.
أومأ العسكري برأسه، دون أن ينبس ببنت شفة، في حين قال (نسيم):

- لقد تابعتُ ذلك التدريب الحي بنفسي، وأعتقد أنَّك أنجزته كما ينبغي..
ثم انعقد حاجباه، وهو يستدرك في صرامة:
- فيما عدا خطأٌ واحدٌ.
بدا اهتمام قَلِق على وجه الشاب، وهو يقول:
- أي خطأ؟!
لوح (نسيم) بسبابته في الهواء، قائلًا:
- ذلك الشعار الذي رسمته في الفراغ.
احتقن وجه الشاب، وهو يقول:
- معذرة يا سيدي، ولكنني..
قاطعه (نسيم) في حِدَّةٍ:
- ولكنك لم تستطع مقاومة هذا.. أليس كذلك؟
صمت الشاب لحظة، ثم هزَّ كتفيه، دون أن يتكلم، فتنحنح العسكري، وقال:
- لا بأس يا (نسيم).. الشاب أبلى بلاءً حسنًا، ويستحق التقدير لا اللوم والعتاب.
التفت الشاب إلى العسكري، وقال في امتنان:
- أشكرك يا سيدي.. الواقع أنَّني..
توقفت عبارته بغتة في حلقه، وانعقد حاجبَاه في شدة، وهو يحدِّق في وجه العسكري، وانطلقت في عقله بغتة ذكرى قديمة، في أعمق أعماق مخِّه..
«المقاتل الحق لا يثنيه جهدٌ عن الوصول إلى مأربه..».
عبارة تألقت في عقله بغتة، حاملة صوت ذلك العقيد، الذي يقف أمامه، وارتسمت معها صورة له مع فارق جوهري..
لم تكن رتبته تتجاوز الرائد..
وكان ذلك في يومٍ ما..

أول يوم قفز فيهَ بمظلة من طائرة حقيقية.
وراحت الصورة تتكون وتتضح في سرعة، على الرغم من الضباب الباهت، الذي يحيط بها من كلِّ جانبٍ..
الطائرة تنطلق محلقة فوق الصحراء الغربية، والرائد يدير عينيه في وجوه الجميع، قائلًا في حزم:
- نسبة الخطر لا تتجاوز العشرة في المائة يا رجل، ولكن في أذهانكم، دعوها تنخفض إلى خمسة في المائة، أما في قلوبكم، فلتكن صفرًا.
كان يشعر أيامها بحماسٍ جارفٍ، وينتظر لحظة القفزة الأولى في شوقٍ؛ لذا فقد تفجَّر حماسه، عندما أشار إليه الرائد بالتحديد، قائلًا:
- لا أريد منك أن تتردد لحظة واحدة.
لحظتها أجاب في حسمٍ:
- مطلقًا يا سيدي.
ثم أضيء مصباح الاستعداد، ونهض الجميع في تأهُّب..
وكان هو في أول الصف..
وانطلق النداء..
«اقفز..».
وقفز..
«إلى أين ذهبت؟!..».
نطق (نسيم) العبارة في حزمٍ، يشوبه شيء من القلق، وقد أدرك أن ذاكرة الشاب قد انطلقت من عقالها لحظة، وكادت تستعيد تاريخه القديم..
ولقد أتى تدخله في الوقت المناسب تمامًا..
لقد انتفض الشاب مع العبارة، واستعاد وقفته العسكرية الصارمة، وهو يقول:

- لا شيء يا سيدي.. أنا هنا.
رمقه (نسيم) بنظرة عميقة، وكأنَّما يحاول أن يستشف ما يدور في أعماقه، قبل أن يقول:
- عظيم.. اتبعني.
اختلس الشاب نظرة أخرى إلى العقيد، ثم تبع (نسيم) في خطوات سريعة، بعد أن أدَّى التحية العسكرية، فردَّ العقيد تحيته، وتبعه ببصره، حتى اختفى مع (نسيم)، داخل السيارة المدنية التي تنتظرهما، والتي انطلق بها سائقها على الفور، ثم ابتسم مغمغمًا:
- يا لك من محظوظ يا (نسيم)!
أما (نسيم) نفسه، فقد ظلَّ صامتًا بضع لحظات، وهو يجلس إلى جوار الشاب، في المقعد الخلفي للسيارة، ثم ضغط زرًا إلى جواره، فارتفع من مؤخرة المقعدين الأماميين حاجز مزدوج، عزلهما عن السائق تمامًا، وهنا التفت إلى الشاب، قائلًا:
- كنتَ بارعًا في هذه المناورة بحق.
أجاب الشاب في هدوء:
- أشكرك يا سيدي.

كانت هناك نظرة تساؤل واضحة، تُطلُّ من عينيه؛ لأنه ليس من المعتاد أن يأتي (نسيم) بنفسه، ليلتقطه من أرض التدريب، ولقد انتبه (نسيم) إلى هذه النظرة، ولكنه تظاهَر بأنَّه حتى لم يلمحها، وهو يقول:

- لقد راجعت نتائجك في الآونة الأخيرة، وكلها مرضية إلى حدٍّ كبير، وبالذات إجادة اللغة العبرية، فهذا ضروري للغاية، بالنسبة لمهمتك الجديدة.

انعقد حاجبَا الشاب، دون أن ينبس ببنت شفة، فتابع (نسيم):

- المطلوب منك هذه المرة، هو أن تستعيد (ميكروفيلم)، أخفاه أحد عملائنا السابقين في مكان داخل أرض العدو، وهذا (الميكروفيلم) يحوي معلومات بالغة الأهمية والخطورة، خاصة بالشفرة المستخدمة في سلاح الطيران الإسرائيلي، ولا بدَّ من استعادته بأي ثمن.

أومأ الشاب برأسه إيجابًا، وهو يدرك جيدًا ما تعنيه عبارة (بأي ثمن) هذه..

يدرك أنَّه لا ينبغي معها أن يبخل بأي جهد، وأن يبذل روحه نفسها، لو اقتضى الأمر، في سبيل تحقيق الهدف..
ولم يكن هذا يقلقه أبدًا..
كل ما ملأ رأسه واهتمامه، في تلك اللحظة، هو سؤال واحد.
سؤال أفصح عنه قائلًا:
- وأين أخفى العميل ذلك (الميكروفيلم) يا سيدي؟
صمت (نسيم) لحظة، ثم أجاب في حزمٍ واقتضابٍ:
- في المطار.. مطار (تل أبيب) الحربي.
وانعقد حاجبَا الشاب..
انعقدَا في شدة..

☆ ☆ ☆

«لقد عبرنا منطقة الممرات..».
ارتفع صوت قائد الطائرة المصرية بهذه العبارة، التي بدت أكثر وضوحًا داخل الفراغ الخالى، إلَّا من (نسيم)، الذي ارتدى حلة تدريب داكنة، و(فاي)، الذي اختفى جسده داخل معطف مموه، وحمل مظلته خلف ظهره، فالتفت الأول إلى الثاني، قائلًا:
- ستقفز من الطائرة بإذن الله، عند منطقة (وادي العريش)، بالقرب من (القصيمة)، وهناك ستلتقي ببدوي يعمل لحسابنا اسمه (صالح)، وسيتولى هو عملية نقلك إلى (بئر سبع)، ومنها ستتجه إلى (تل أبيب)، حيث تبدأ مهمتك.
أومأ الشاب برأسه إيجابًا، وسأل في صوت هادئ:
- أليس من الخطر أن نتوغل في (سيناء) إلى هذا العمق؟
أدهش ذلك الهدوء العجيب (نسيم)، وأثار إعجابه إلى حدٍّ كبير، ولكنه – تبعًا لطبيعته الصارمة – أخفى هذا في أعماقه، وحافظ على ملامحه الجافة، وهو يجيب في حزمٍ:
- (سيناء).. مصرية، برغم أنف الجميع.

وصمت لحظة، ثم استطرد بابتسامة باهتة:
- أضف إلى هذا أن قائد الطائرة خبير في تفادي محطات الرادار هنا.
أومأ الشاب برأسه متفهمًا، ثم سأل بنفس الهدوء:
- هل سيزودني (صالح) هذا بالسلاح اللازم؟
هزَّ (نسيم) رأسه نفيًا، وأجاب:
- كلَّا.
بدا الضيق على وجه الشاب، فتابع (نسيم):
- وجود سلاح معك أمر بالغ الخطورة، في هذه المرحلة، فالمفترض أنَّك بدوي، تحمل هوية مصرية، وبطاقة مرور من سلطات الاحتلال، وهذا يجعلك موضع شبهات إلى حدٍّ ما، وربما طرأ برأس أحدهم أن يفتشك، فماذا لو عثر على السلاح معك عندئذ؟!
ثم ربت على كتفه، مستطردًا:
- ولكن اطمئن.. ستحصل على سلاح فور وصولك إلى (تل أبيب).
ارتسمت على زاوية فم الشاب ابتسامة شاحبة، وهو يتمتم:
- أشكرك يا سيدي.
لاذ كلاهما بالصمت طويلًا، بعد عبارته المقتضبة هذه، ولم يتبادلَا كلمة واحدة، حتى أُضيئ مصباح الاستعداد، وارتفع صوت الطيار، وهو يقول:
- وصلنا إلى (وادي العريش)، وسنبلغ منطقة الهبوط بعد دقائق معدودة.
وعندئذ ربت (نسيم) على كتف الشاب في حماس، قائلًا:
- استعد يا بطل.

نهض الشاب في حزم، وشد أحزمة المظلة في قوة، واتجه نحو باب القفز، وتعلَّق بصره بالمصباح، في حين راح قلب (نسيم) يدق في قوة، وكأنَّه هو الذي يستعد للقفز..
ثم صاح الطيار:
- الآن..
ومع صيحته، تحول لون المصباح من الأحمر إلى الأخضر، فهتف (نسيم):
- على بركة الله.
وقبل أن تكتمل صيحته فعليًّا، كان الشاب قد قفز..
وخفق قلب (نسيم) في قوة أكبر، وهو يتابع هبوطه، في حين قال الطيار، في بساطة من اعتاد مثل هذه الأمور:
- هل نستعد للعودة؟
صمت (نسيم) لحظة، ثم لم يلبث أن اعتدل، وأجاب في حسمٍ:
- نعم.. فلنعد إلى الوطن.
قالها وعقله وقلبه متعلقان بالمهمة التي يتجه إليها ذلك الذي قفز في تلك البقعة من الأرض..
أرض العدو..

☆ ☆ ☆

التقى حاجبَا العريف الإسرائيلي (يهو) وبدا عليه الغضب، وهو يمطُّ شفتيه، قائلًا لزميله (دافيد) في حنق:
- لماذا اتخذت هذا الطريق.. المفترض ألَّا تحيد الدورية عن مسارها أبدًا؟
ابتسم (دافيد) في خبث، وهو يقول:
- لا تتعجل يا رجل.. ربما لو انتظرت نصف ساعة أخرى، لشكرتني في حرارة على تغيير مسار الدورية الليلة.
قال (يهو) في عصبية:

- أشكرك على ماذا؟.. تغيير مسار الدورية جريمة عسكرية، وربما نخسر مستقبلنا كله بسببها.
قال (دافيد) في استهتار، وهو يوقف السيارة:
- لن نخسر شيئًا.. اطمئن.. لا أحد سيشعر بأنَّنا قد غيرنا مسار الوردية، ولو انتبه النقيب إلى هذا، وأنا أستبعد ذلك تمامًا في ليلة السبت، سندعي أنَّنا ضللنا طريقنا فحسب.
هتف (يهو):
- ضللنا طريقنا؟!.. عذر أقبح من ذنب يا رجل.. إنَّني أفضِّل أن أعترفَ بتغيير المسار، على أن يتصور النقيب أنَّني، وبعد سبع سنوات من العمل في (سيناء)، قد ضللت طريقي داخل (وادي العريش).
لم يبدُ على (دافيد) أدنى قدر من الضيق، وهو يقول:
- ولكن الأمر يستحق هذا.
ثم مال على أذنه، مستطردًا في جذل:
- ستأتي (راشيل) وزميلتها لمقابلتنا هنا.
هتف (يهو) في انبهار:
- (راشيل).. أتقصد تلك الفاتنة، ذات الشعر الأحمر؟!.. هل ستأتي إلى هنا حقًّا؟!
غمز (دافيد)، مجيبًا:
- نعم.. وستصطحب معها زميلتها الشقراء، ذات ال...
بتر عبارته بغتة، وانعقد حاجبَاه في شدة، فهتف به (يهو)، وهو يلتفت إلى حيث تسمرت عيناه:
- هل وصلتَا؟!
لم يكد يلقي سؤاله، حتى وقع بصره على ذلك الشيء، الذي احتبست له الكلمات في حلق زميله..
وكان ذلك الشيء عبارة عن مظلة هبوط.

مظلة هبوط تقترب من أرض (سيناء)، وفي نهايتها بطلنا..
(فاي)..
وفي حركة خاطفة، ودون أدنى قدر من التروي والتفكير، اختطف (يهو) بوق جهاز الاتصال اللاسلكي، وضغط زره، وهو يصرخ:
- جاسوس.. جاسوس في المنطقة..
واشتعلت نيران الخطر في لحظة واحدة.

☆ ☆ ☆

٣- الصحراء..

تحرَّك رجل المخابرات الإسرائيلي (بيجال يائيل)، في خطوات واسعة، عبر ممرات برج المراقبة الرئيسي، في مطار (تل أبيب) الحربي، وهو يقول في عصبية:

- من المستحيل أن يكون كل شيء على ما يرام هنا.. ما الذي كان يفعله ذلك العميل المصري إذن؟!

أجابه مساعده (زلفي)، في شيء من التردد:

- ربما لم يجد الوقت ليفعل ما جاء من أجله.

هتف (بيجال):

- مستحيل!

ثم لوح بذراعه كلها، مضيفًا:

- وحتى لو افترضنا هذا، فكيف تفسر وجود آلة تصوير صغيرة خالية في جيبه؟!

لماذا يحمل آلة تصوير بدون (ميكروفيلم)؟!

صمت (زلفي) لحظات، وهو يعتصر ذهنه، محاولًا إيجاد جواب، ثم لم يلبث أن هز رأسه، متمتمًا:

- لست أدري.

توقف (بيجال) بغتة، حتى كاد مساعده يرتطم به، وهو يقول في حِدَّةٍ:

- أما أنا، فيمكنني أن أتخيل الأمر.

فَقَدَ (زلفي) توازنه، مع ذلك التوقف المباغت، وكاد يسقط على وجهه، لولا أنْ ألصق راحته في الجدار، ولهث من فرط الانفعال، وهو يغمغم مجاملًا:

- حقًّا؟!

أدار (بيجال) عينيه فيما حوله، وقال وكأنه يتخيل ما حدث:
- لقد تسلَّل ذلك العميل إلى هنا، مُستغِلًّا لحظة تغيير النوبات، ثم عبر هذا الممر، الذي سيقوده إلى ثلاث حجرات لا غير.. مخزن قطع الغيار، ومكتب الضابط المناوب، وحجرة الوثائق.. ولا ريب في أنَّه قد اتجه إلى الأخيرة بالتحديد.
غمغم (زلفي):
- ولكنها كانت مغلقة، بعد إلقاء القبض عليه!
تجاهل (بيجال) هذا التعليق تمامًا، وهو يواصل حديثه، معبرًا عنه بحركات يديه:
- ولأنه مدرَّب جيدًا، فقد عالج الرتاج في مهارة، حتى استجاب له، ثم دخل إلى الحجرة، وأخذ أحد الملفات، واستخدم آلة التصوير ليلتقط له بعض الصور، ثم أعاده إلى موضعه، وغادر الحجرة.
هزَّ (زلفي) كتفيه، متمتمًا:
- تفسير أنيق، ولكن..
قاطعه (بيجال) بنفس التجاهل، وهو يتابع:
- ولمحه جندي الشرطة الحربية، وكان عليه أن يهرب، وأن ينقذ ذلك (الميكروفيلم) في آلة التصوير بأي ثمن، ولكن الرجال طاردوه، وأطلقوا عليه النار، فانتزعه من الآلة، وأخفاه في مكانٍ ما..
وانعقد حاجبَاه في شدة، عندما بلغ هذه النقطة، وأدار عينيه فيما حوله ثانية، وهو يكرِّر في صوتٍ خافتٍ متوترٍ:
- في مكانٍ ما هنا..
تنهَّد (زلفي)، وأشار بيده، قائلًا:
- لقد فتشنا المكان كله، ولم نعثر على أدنى أثر لأي (ميكروفيلم).

ضرب (بيجال) الجدار بقبضته، وهو يقول في حِدَّةٍ:
- ولكنه هنا حتمًا.. لا يمكن أن يكون قد ذهب بعيدًا.
وعاد حاجبَاه يلتقيان، وهو يدير عينيه في المكان في توترٍ شديدٍ، قبل أن يستطرد:
- فليكن.. واصلوا البحث طوال الوقت، وأريد إجراء تحقيق واسع النطاق بشأن نجاح ذلك العميل في الوصول إلى هنا، وفي تجاوز إجراءات الأمن، وانتحال شخصية (إسرائيلي).. أريد معرفة كيفية حصوله على الهوية، وكيف لم ينكشف أمره، عندما تم إلحاقه بالعمل هنا، وهل له معاونون داخل المطار؟!.. أريد معرفة أجوبة كل الأسئلة، وأي سؤال آخر يمكن أن يخطر ببالي في أثناء التحقيق.. هل فهمت؟!.. كما أريد إبلاغي بأية حوادث غير مفهومة، أو أية أحداث يمكن تأويلها على نحو يوحي بالتجسس، ومراقبة كل الحدود، ورفع درجة الأمن والاستعداد في المطار إلى الحد الأقصى.
توقف عن الاستطراد، وقد احتقن وجهه، واحمرت عيناه، ثم أشار بيده، وهو يلتقط أنفاسه، قبل أن يضيف:
- المهم ألا تتنفس حشرة، يمكن الشك في احتمال عملها لحساب المصريين، دون أن يتم إبلاغي بعدد أنفاسها.. هل تفهم؟
أومأ (زلفي) برأسه إيجابًا، وهو يتمتم بأنفاس مبهورة:
- أفهم يا سيدي.. أفهم.
أشار (بيجال) بيده، قائلًا:
- هيا.. اذهب لتعلن كل هذه الأوامر على الفور.
انطلق (زلفي) لتنفيذ الأمر، في حين عاد (بيجال) يعقد حاجبيه في شدة، ويدير عينيه في المكان، وهو يتمتم:
- إنَّه في مكان ما حتمًا.

ولكن عقله لم يتخيل ذلك المكان فعليًّا..
لم يتخيله قط..

☆ ☆ ☆

كان (فاي) يهبط بمظلته نحو رمال (سيناء)، عندما لمح أضواء سيارة الجيب العسكرية، التي تنطلق نحوه مباشرة بأقصى سرعة، فانعقد حاجباه في شدة؛ إذ كان من المفترض أن تكون تلك المنطقة خالية من أية دوريات عسكرية، في الوقت المحدد لهبوطه فيها، طبقًا لما قرره خبراء المخابرات، بناءً على جداول الدوريات، التي حصل عليها عملاؤها..
من أين أتت تلك السيارة إذن؟!
لم يكن هناك وقت لإجابة السؤال، أو حتى للهبوط على نحو طبيعي، على أرض (سيناء)، فبالسرعة التي تنطلق بها السيارة نحوه، والسرعة التي تهبط بها المظلة، سيصل إلى الرمال ليجد السيارة ورصاصات أصحابها في انتظاره..
والمؤسف أنَّه لا يحمل أسلحة..
أية أسلحة..
إنَّه يحمل فقط عقله وإرادته..
وفي موقف كهذا، كانت تلك أسلحة كافية..
ففي سرعة، ودون إضافة لحظة واحدة، حلَّ الشاب حزام مظلته، وترك جسده يهوي في الفضاء، من ارتفاع ستة أمتار، ليرتطم بالرمال في عنف، ويتدحرج فوقها في قوة، قبل أن يستقر جسده، مع آلام مبرحة، تسري في كيانه كله..
ولكنه لم يستسلم لتلك الآلام..
لقد هبَّ واقفًا على قدميه، في نفس اللحظة التي هتف فيها (يهو)، وهو يشير إليه في توتر:
- ها هو ذا.. الحق به يا (دافيد).

قالها، وهو يصوب مدفعه الآلي إلى الشاب، ويطلق رصاصاته في سخاء..
وانطلق الشاب يعدو، فوق رمال الصحراء، ومن خلفه تدوي الرصاصات بدوي مخيف، امتزج بهدير محرك السيارة، التي تنطلق خلفه بأقصى سرعتها..
وكان من الواضح أنَّه، مهما بلغت سرعة الشاب، فلن يمكنه الفرار من السيارة أبدًا، و...
وفجأة، انثنى جسد الشاب إلى الخلف، واندفع إلى الأمام في عنف، وانطلقت من حلقه صرخة قوية، قبل أن يسقط على وجهه فوق الرمال، وتهمد حركته تمامًا..
وفي ظفر، هتف (يهو):
- أصبته.. لقد أصبته..
هتف بها، وانطلقت من حلقه ضحكة مجلجلة، ولوَّح بمدفعه الآلي، في حين أوقف (دافيد) السيارة، على مسافة متر واحد من الشاب، وقال في حماس:
- أرأيت يا رجل.. لقد أصبحنا بطلين بتغيير مسارنا هذا.
قفزا من السيارة معًا، واتجها نحو الشاب، و(يهو) يقول في حذر:
- عجبًا!.. أين أصابته الرصاصات بالضبط؟.. لستُ أرى أثر الدماء، أو ال..
قبل أن يتم عبارته، فوجئ بالشاب يثب واقفًا على قدميه، ويركل المدفع من يده، قائلًا:
- هذا طبيعي.
وفي نفس اللحظة، التي طار فيها المدفع من قبضة (يهو)، هوى الشاب على فكه بلكمة كالقنبلة، مستطردًا:
- لأن الرصاصة لم تصبني قط.

كانت ضربات الشاب قوية وعنيفة للغاية، إلا أنَّ (يهو) احتملها كجدار من الصلب، وأطلق صرخة غاضبة ثائرة، وهو ينقض عليه، ويحيط وسطه بذراعيه، ثم يدفعه أمامه، وهو يصرخ ويصرخ:

- لا أحد يفعل هذا بي.. لا أحد..

شعر الشاب بقوة خصمه، الذي حمله كما لو كان طفلًا صغيرًا، وراح يدفعه أمامه في شراسة، وحاول أن يخلص ذراعيه منه، إلا أن الإسرائيلي كان يحيطهما بساعدين كالفولاذ، عكف على تنميتهما وتقويتهما لسنوات وسنوات، ويصرخ:

- ستدفع الثمن أيُّها الجاسوس.

ثنى الشاب ركبته، وغاص بها في معدة (يهو)، الذي أطلق صوتًا عجيبًا، أشبه بصرخة قردٍ غاضبٍ، وزاد من ضغط ساعديه على

ذراعي الشاب ووسطه، ثم دفع رأسه إلى الخلف، وضرب بها جبهته في عنف..
ودار رأس الشاب مع عنف الضربة، وشعر بألم شديد في جبهته، وأدرك أن ضربتين أخريين تكفيان، ليشج رأسه بلا رحمة، فانطلق عقله يعمل في سرعة مذهلة، بحثًا عن مخرج من هذا المأزق..
وفي حركة مرنة، دفع قدميه بين ساقي الإسرائيلي، ثم فتحهما عن آخرهما، فانفرج ساقَا الإسرائيلي بغتة، واتسعت عيناه في دهشة، وهو يفقد توازنه، ويواصل جسده اندفاعه، بفعل القصور الذاتي، فيسقط مع الشاب على الرمال.
ولكن الشاب كان مستعدًا لهذه السقطة، فلم يكد ظهره يلامس الرمال، حتى ثنى ركبتيه، ودفع قدميه في معدة (يهو)، ثم فرد ساقيه في حركة سريعة مباغتة..
وعلى الرغم من قوته، فقد (يهو) توازنه تمامًا، بتلك الحركة المفاجئة، ووجد جسده يدور في الهواء، قبل أن يرتطم رأسه بالرمال، ويدور ليسقط على ظهره..
وفي نفس لحظة سقوطه، فرد الشاب جسده في مرونة يُحسد عليها، وقفز واقفًا على قدميه، ثم ركل الإسرائيلي في أنفه وفكِّه ومعدته، ثلاث ركلات سريعة متتالية، شهق لها الرجل، وتأوه وتفجرت الدماء من أنفه وفمه تغرق وجهه، قبل أن تأتي الركلة الأخيرة، لتفقده وعيه تمامًا.
وبأقصى سرعة، استدار (فاي) ليواجه الإسرائيلي الآخر (دافيد).. وأطلق عقله صرخة تحذير..
فعلى مسافة ستة أمتار منه، وفي حزمٍ شديد، وغضب يفوق الحد، وقف الإسرائيلي (دافيد) يصوب إليه مدفعه الآلي، ويضغط الزناد، و...
وانطلقت الرصاصات في قلب الليل..

☆ ☆ ☆

لم يكن هناك مكان واحد، يمكن أن يختبئ فيه الشاب، من رصاصات الإسرائيلي (دافيد)، فكلاهما يقف في قلب الصحراء، بكل فراغها واتساعها، والإسرائيلي وحده يحمل سلاحًا، من العسير أن تخطئ رصاصاته هدفها، من مسافة قصيرة كهذه..

لكل هذا، لم يكن لدى الإسرائيلي أدنى شك، في أنَّه ظافر بخصمه لا محالة..

ولكن فجأة، انقلبت الأمور رأسًا على عقب..

فجأة انطلق خنجر يشق الهواء، لينغرس في منتصف ظهر الإسرائيلي، الذي جحظت عيناه، وأطلق شهقة قوية، ومال جسده كله إلى الخلف بحركة حادة، فانطلقت رصاصاته كلها في الهواء، قبل أن يهوي جثة هامدة، ويندفن وجهه في الرمال التي احتلها قادته..

رمال (سيناء)..

وقبل أن يبدي الشاب دهشته، أو يتساءَل عمَّا حدث، برز فجأة رجلٌ متين البنيان، عريض الفك والكتفين، أسمر البشرة، يرتدي زيًّا بدويًّا، وأسرع ينتزع خنجره من ظهر الإسرائيلي، قائلًا في توتر:

- معذرة لأنني تأخرت عن موعدنا، ولكن من حُسن الحظ أنَّني وصلت في الوقت المناسب.

قال الشاب في اهتمام:

- أنت (صالح).. أليس كذلك؟

صافحه البدوي، قائلًا:

- بلى.. وسيارتي تنتظرنا، على بُعد مائتي متر من هنا.. أسرع.

انطلقا يعدوان معًا، فوق رمال الصحراء، و(صالح) يقول:

- لست أدري كيف وُجِدَت هذه الدورية المحدودة هنا فالمفترض أن تكون المنطقة خالية، في هذا الوقت بالتحديد،

ولكن وجودها يفسد كل الأمور بالتأكيد.
قال الشاب في توتر:
- بالطبع.. الرصاصات ستجذب انتباه الكثيرين حتمًا.
هزَّ (صالح) رأسه، وهو يقول:
- ليست الرصاصات وحدها.. لقد أطلقا إنذارًا عامًّا.
التفت إليه الشاب بدهشته، فتابع:
- سيارتي بها راديو قادر على التقاط موجاتهم.
سأله الشاب، وقد لاحت السيارة من بعيد:
- وما الذي يمكن أن يحدث؟
توقَّف (صالح)، ولهث وهو يجيب في اقتضاب متوتر:
- الكثير.
ثم أشار إليه، مضيفًا في حزم:
- اخلع معطفك هذا، فالأفضل في مثل هذه الظروف، أن تنفي عن نفسك أية صفة عسكرية.
خلع الشاب معطفه، فبدا أسفله زيًا بدويًا، أخرج من جيبه غطاء رأس، جعله يبدو أشبه كثيرًا ببدو (سيناء)، وتأمله (صالح) لحظة، قبل أن يهز رأسه، متمتمًا:
- لا بأس.. فلنأمل أن يخدعهم هذا.
قالها، ووثب الاثنان إلى السيارة، التي انطلق بها (صالح) على الفور، وهو يقول في حزم:
- تذكَّر أنَّك ابن شقيقتي الراحلة.. اسمك (بسَّام)، وتعاني عيبًا في النطق.
سأله الشاب في ضيق:
- ولماذا عيب في النطق هذا؟
أجابه (صالح) بسرعة:

- حتى يبرر أية أخطاء في لهجتك البدوية .. الإسرائيليون ليسوا أغبياء، وسيكشفون أمرك من أول خطأ.
أومأ الشاب برأسه متفهمًا، وسأله:
- هل سنتجه مباشرة إلى (القصيمة)؟
تنهَّد (صالح)، وأجاب:
- نعم.. وكل ما أتمناه هو أن نصلها سالمين.
تلفَّت الشاب حوله، وغمغم:
- ما زال كل شيء يبدو هادئًا، و...
قبل أن تكتمل كلماته، برزت تلك الهليكوبتر بغتة، من خلف تلٍّ بعيد..
برزت على نحو مباغت مخيف، وأسفلها يضيء مصباحًا كاشفًا ضخمًا، وهي تطلق نحوهما مباشرة..
وهتف الشاب، وكل خلية في جسده تتحفز للقتال:
- أطفئ أنوار السيارة.
مطَّ (صالح) شفتيه، وأجابه متوترًا:
- لا فائدة.. لقد لمحونا بالفعل، وأي تصرُّف غير طبيعي سيضاعف شكوكهم، وسيدفعهم للهجوم مباشرة بلا إنذار.
انعقد حاجبَا الشاب، وهو يتابع الهليكوبتر ببصره، وشعر بالحنق في أعماقه؛ لأنه لم يلتقط أحد أسلحة الإسرائيليين، قبل أن يتجه مع (صالح) إلى سيارته، وسأل في قلق:
- ما الذي تتوقع أن يفعلوه الآن؟!
أجابه (صالح) في توترٍ شديدٍ:
- سيوقفوننا، ويفتشون السيارة حتمًا، وربما ألقوا القبض علينا، لاستجوابنا بوساطة رجال (أمان)*.
انعقد حاجبَا الشاب في شدة أكثر، وبدا له الموقف سخيفًا، ومعقدًا.

وبالغ الخطورة..
صحيح أنَّه يحمل أوراق هوية، وتصريح أمن إسرائيليين، وكلها متقنة التزوير إلى أقصى حد، إلا أنَّها لن تصمد حتمًا، أمام استجواب خاصٍّ، في عقر دار المخابرات الإسرائيلية.
وهو يعرف رجال (أمان) ([4]) جيدًا.
إنَّه لم يلتق بأحدهم وجهًا لوجه أبدًا، ولكنه رأى عشرات الصور لهم، وشاهد أفلامًا تم تصويرها خلسة، لأساليب استجوابهم الوحشية، ودرس الكثير والكثير عنهم، في مدرسة المخابرات..
ولن يسمح لهم بالظفر به أبدًا..
وفجأة، ودون سابق إنذار، وثب الشاب خارج السيارة، وهو يقول ل(صالح) في حزم:
- واصل طريقك.
ارتفع حاجبَا (صالح) في دهشة عارمة، وانفرجت شفتاه، وهو يهم بقول شيء ما، إلا أنَّه لم يلبث أن أطبقهما، وعقد حاجبيه، وتطلَّع في مرآة السيارة إلى الشاب، الذي جرى بضع لحظات، ثم انبطح فوق الرمال، وراح يراقب المشهد في حذر وتحفز..
وفي نفس اللحظة تقريبًا، التي فعل فيها (فاي) هذا، بلغت الهليكوبتر سيارة (صالح) الجيب، وغمرتها بضوء مصباحها الكاشف القوي، وارتفع منها صوت قوي، عبر مكبر صوتي، يقول:
أوقف السيارة، وغادرها مرفوع اليدين.
ضغط (صالح) فرامل السيارة، وغادرها وهو يضع كفيه فوق رأسه، وقلبه يخفق في عنف، في حين هبطت الهليكوبتر إلى

جواره، وغادرها رجل يحمل مدفعًا آليًا، صوبه إليه في تحفز وعصبية، وهو يقول في حِدَّةٍ:
- مَن أنت؟.. وماذا تفعل هنا؟!
أجابه (صالح) في سرعة:
- اسمي (صالح).. الشيخ (صالح عطية).. إنَّني أقيم بالقرب من هنا.. في (القصيمة).
سأله الرجل في غلظة عصبية:
- وما الذي أخرجك من دارك، في هذه الساعة المتأخرة؟
أجابه (صالح):
- كنت أطرد قطًّا.
هتف الإسرائيلي:
- تطرد ماذا؟!
ازدرد (صالح) لعابه، وأجاب:
- قطًّا.. إنَّه قط سخيف، اتخذ منزلي سكنًا، وراح يعيث فيه الفساد، فيسرق الطعام، ويمزق الأثاث، ويتلف ال...
قاطعه الإسرائيلي في غضب:
- هل تسخر مني أيُّها العربي؟!..
أجاب (صالح) في سرعة:
- مُطلقًا.. أنت تعرف القطط.. لا بدَّ وأن تحملها إلى مكان بعيد للغاية من منزلك، حتى تضمن عدم عودتها إليه..
اندفع الإسرائيلي نحوه، وضربه بكعب مدفعه في معدته، صائحًا:
- كاذب.
سقط (صالح) أرضًا، وشعر بآلام رهيبة في معدته، فراح يلهث في قوة، والإسرائيلي يصرخ:
- أنت جاسوس.. أنت الجاسوس الذي أبلغونا عنه.. قل لي ما الذي كنت تفعله بنا.. اعترف.

حاوَل (صالح) أن يقول شيئًا، ولكن الإسرائيلي ضربه مرة أخرى بكعب مدفعه في معدته، مكررًا:
- اعترف أيُّها العربي.
برز الطيار من الهليكوبتر، في هذه اللحظة، وهو يشير بيده، قائلًا:
- لم أنجح في الاتصال بدورية (يهو) و(دافيد).. جهاز الراديو عندهما لا يستجيب أبدًا.
احتقن وجه الإسرائيلي، وهو يقول:
- لا يستجيب؟!
ثم التفت إلى (صالح)، وصوب إليه مدفعه، صارخًا:
- ماذا فعلت بهما أيُّها الجاسوس العربي الحقير؟!.. هل قتلتهما؟!.. هل قتلت جنديين من جيش الدفاع؟.. هل جرؤت؟
لهث (صالح) من فرط الألم، وهو يجيب:
- لستُ جاسوسًا.. أنا هنا لأطرد القطَّ.
صرخ الإسرائيلي:
- هل تصر؟
ثم تراجع خطوتين، وتابع بوجهٍ تفجَّرت فيه دماء الغضب:
- فليكن.. أنت أردت هذا.
تنهد الطيار، وقال في لا مبالاة:
- هيا يا رجل.. اقتله ولنواصل طريقنا.
جذب الإسرائيلي إبرة مدفعه، وصوبه إلى (صالح)، و...
وفجأة، برز (فاي)..
انبعث فجأة من وسط الظلمة، وهو ينقض على الإسرائيلي كالليث، دفاعًا عن البدوي، فصرخ الطيار بزميله:
- احترس.
استدار الإسرائيلي ليواجه ذلك القادم الجديد، وهو يهتف:

- اللعنة.. مِن أينَ؟..
قبل أن يتم عبارته، وثب الشاب عليه، وكال له لكمة كالقنبلة، وهو يضرب مدفعه بعيدًا..
وسقط الإسرائيلي أرضًا، في حين تراجع الطيار نحو الهليكوبتر، هاتفًا:
- يا للشيطان!
حاول الإسرائيلي أن ينهض، ولكن الشاب انقضَّ عليه ثانية، وركله في أنفه بكل قوته، وهو يقول:
- لا تنهض.
ثم دار حول نفسه، وركله ركلة أخرى، مستطردًا:
- الأرض هي مكانك الطبيعي..
تفجر الدم من أنف الإسرائيلي وفكِّه، وتخاذَل جسده كله على الرمال، فاتسعت عينا الطيار في ذعر، وقفز داخل الهليكوبتر، في حين التفت الشاب إلى البدوي، وسأله في قلق:
- أأنت بخير؟!
أومأ (صالح) برأسه، متمتمًا:
- نعم.. أنا بخير.
ثم أشار إلى الهليكوبتر، مستطردًا:
- ولكن الآخر يحاول الفرار.. سيكشف أمرنا حتمًا.
استدار الشاب بكيانه كله نحو الهليكوبتر، التي ارتفعت من الأرض بالفعل، وعلى الرغم من هدير مروحتها العنيف، أمكنه أن يميز صوت قائدها، وهو يهتف غاضبًا:
- ستدفع الثمن غاليًا أيُّها العربي.
تصور الشاب للحظة أن الإسرائيلي يشير إلى ما سيحدث، عندما يبلغ السلطات بما حدث، إلا أنَّه لم يلبث أن أدرك أن التهديد مباشر للغاية..

وربما أكثر مما ينبغي..
لقد ارتفع الإسرائيلي بالهليكوبتر مترًا واحدًا عن الأرض، ثم انقض بها بكل قوته..
نحو (فاي) مباشرة.

☆ ☆ ☆

٤- المقاتل..

فرك رجل المخابرات (نسيم) كفيه في توترٍ، داخل الطائرة التي تستعد لدخول المجال الجوي المصري، وسأل الطيار للمرة الخامسة:

- أنت واثق من أن جهاز اللاسلكي يعمل بكفاءة؟!

ابتسم الطيار في شيءٍ من التوتر، وهو يجيب:

- نعم يا سيادة العقيد.. جهاز اللاسلكي يعمل بكفاءة تامة، ولست أدري لماذا لم يستقبل الرسالة التي تترقبها، حتى هذه اللحظة.

انعقد حاجبَا (نسيم) في توتر بالغ، وتمتم:

- فليكن.. دعنا ننتظر قليلًا.

كانت نفس العبارة، التي كررها للمرة الخامسة، في حين راح ذهنه يعمل في سرعة وقلق، بحثًا عن تفسير للموقف..

كان المفترض – طبقًا للتعليمات – أن يرسل (صالح) إشارة مُتَّفقًا عليها، فور حدوث اللقاء بينه وبين (فاي)..

فلماذا لم يفعل؟!

هل تعذَّر اللقاء لسبب ما؟!..

هل فشل؟!

ولماذا؟!

ومن أي جانب؟!..

هل فشل الشاب في الوصول إلى نقطة اللقاء؟ أم أنَّ (صالح) هو الذي لم ينجح في عبور الصحراء لسبب ما؟!

وما الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى حدوث هذا أو ذاك؟!

انشغل عقله في التفكير لبضع دقائق، حتى انتزعه الطيار من أفكاره، وهو يطلق ضحكة ظافرة، ويهتف في حماس:
- عبرنا المجال الجوي المصري.. مرة أخرى نجحنا في خداع هؤلاء الإسرائيليين، وأثبتنا لهم أنَّنا الأفضل، على الرغم من ضعف إمكانياتنا المادية.
غمغم (نسيم):
- الإمكانيات المادية لا تصنع أبطالًا يا رجل.
هتف الطيار في حماس:
- بالتأكيد.
ران عليهما الصمت لحظة، ثم زفر (نسيم) في توتر، وسأل:
- قل لي يا رجل.. هل..
قاطعه الطيار في سرعة:
- نعم.. جهاز اللاسلكي يعمل بكفاءة.
قالها، وراقت له دعابته، فانطلق يضحك في مرحٍ، وهو يتجه نحو المطار الحربي، الذي أقلعت منه طائرته، ولكن (نسيم) مطَّ شفتيه، وعقد حاجبيه في شدة، ولم يبادله تلك الضحكة المرحة.
لقد كان من العسير عليه.. في ظِلِّ هذه الظروف.. حتى أن يبتسم..
من العسير جدًّا..

☆ ☆ ☆

التقى حاجبَا (بيجال يائيل) في صرامة، وتشابكت أصابع كفيه أمام وجهه، وهو يهز مقعده في بطء ورتابة، وسط صمت ثقيل، خيَّم على حجرة الاستجواب في مطار (تل أبيب) الحربي، وعيناه تتطلعان إلى رئيس فريق الأمن الحربي، الذي بدا شديد العصبية

والتوتر، بعد أن طال به الوقت، دون أن يلقي عليه (بيجال) سؤالًا واحدًا.
ولثوانٍ إضافية، لاذ رئيس الأمن بالصمت، ثم لم يلبث أن فقد صبره، فقال في شيء من الحدة:
- حسن.. هل سنظلَّ هنا طوال الليل؟
رمقه (بيجال) بنظرة صارمة، قبل أن يجيب:
- كلَّا بالتأكيد.
ثم اعتدل في حركة حادة، مستطردًا:
- لو أنَّك أجبت أسئلتي بمنتهى الصدق.
قال الرجل في حِدَّةٍ:
- أية أسئلة؟.. إنني هنا منذ نصف الساعة، ولم أسمع سؤالًا واحدًا.
انعقد حاجبَا (بيجال) في صرامة أكثر، وهو يسأله:
- كيف تسلَّل ذلك المصري إلى هنا؟
أجابه الرجل في عصبية:
- أوراقه كلُّها كانت سليمة.. وما زالت كذلك.. لقد راجعتها بعد مصرعه، ووجدت أنَّها كلها قانونية تمامًا.
قال (بيجال) في غضب:
- هذا مستحيل!.. لا يمكن أن يحصل مصري على هوية إسرائيلية.
قال رئيس الأمن في حنق:
- وما شأني أنا؟!.. سل المصريين.. سلهم كيف منحوا رجلهم هوية إسرائيلية حقيقية.. ربما ابتاعوها من شخص ما، أو دفعوا رشوة مقابلها، أو حتى نجحوا في زرع الرجل منذ زمن طويل.
احتقن وجه (بيجال)، وهو يقول في غضبٍ مستنكرٍ:

- نجحوا في زرعه؟!.. المصريون ينجحون في زرع عميل وسطنا؟! هذا مستحيل تمامًا.
قال رئيس الأمن بلهجة مستفزة:
- ولكن المستحيل تحقَّق، ويمكنك أن تراه بنفسك في مشرحة المستشفى العسكري.
ازداد احتقان وجه (بيجال)، وعاد يتراجع في مقعده، ثم قال في عصبية:
- فليكن.. لن نناقش هذا الأمر الآن، ولكن أخبرني: كيف لم تنتبه إلى أنَّه جاسوس؟!. ألم يبدر منه أي تصرف مثير للشك؟
أجابه الرجل في حسم:
- مُطلقًا.
قال (بيجال) في حِدَّةٍ:
- ولا لمحة واحدة.
كرَّر الرجل في حسم أكثر:
- قلتُ مطلقًا.. الرجل كان مثالًا للجندي الإسرائيلي المخلص.. بل لقد بدا لي شديد التدين إلى درجة التعصب.
مطَّ (بيجال) شفتيه في شيء من الازدراء، وهو يقول:
- إذن فقد نجح في خداعك.
أجابه الرجل في غضب:
- أظنه نجح في خداع الجميع.
هتف (بيجال):
- ليس الجميع.
رمقه الرجل بنظرة ذات مغزى خاص، وهو يقول:
- على الأقل أولئك المسئولين عن حماية الوطن من الجواسيس والعملاء.
احتقن وجه (بيجال) ثانية، وغمغم:

- أيُّها ال..
قاطعه الرجل متحفزًا:
- ال.. ماذا؟!
انفرجت شفتَا (بيجال)، وتكورتَا على نحوٍ مضحكٍ، وكأنَّه يمنع نفسه في صعوبة من إطلاق سباب عنيف، يعاقب عليه القانون، ثم لم يلبث أن قال في سخطٍ واضحٍ، وهو يكتم أنفاسه:
- أعتقد أن هذا القدر من الأسئلة يكفيني.
أدرك رئيس الأمن أنَّه قد نجح بالفعل في استفزاز رجل المخابرات، فارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة متشفية، وهو يغمغم:
- حقًّا؟!
صاح (بيجال) في وجهه:
- نعم.. حقًّا.
نهض رئيس الأمن في بطء، وابتسامته الساخرة المتشفية ملتصقة بشفتيه، وسأل:
- مَن ترغب في استجوابه الآن؟
أدرك (بيجال) أن الرجل يسخر منه عمدًا، فلوح بيده، هاتفًا:
- اخرج.. اخرج قبل أن أطلق النار عليك.
أسرع الرجل يغادر المكان، وضحكة ساخرة تنفجر في أعماقه، في حين هتف (بيجال) في غضبٍ هادرٍ:
- اللعنة!.. كيف يمكن للمرء أن يعمل، وسط هذا المناخ المستهتر؟
ثم اعتدل يصرخ:
- (زلفي).. أين أنت يا (زلفي)؟
هرع مساعده إليه، قائلًا:
- رهن إشارتك يا أدون (بيجال).

سأله (بيجال) في حِدَّةٍ:
- ماذا فعلتم؟
هزَّ الرجل رأسه، مجيبًا:
- لم نجد شيئًا، على الرغم من أنَّنا فتشنا المكان كله، ولم نترك فيه شبرًا واحدًا.
التقى حاجبَا (بيجال)، وهو يقول في حِدَّةٍ:
- مستحيل!.. هناك (ميكروفيلم) في مكان ما هنا حتمًا.
قلب (زلفي) كفيه في حيرة، قائلًا:
- أين؟!
انعقد حاجبَا (بيجال) في شدة، ودبَّت عليه علامات التفكير العميق لبضع لحظات، قبل أن يرفع عينيه إلى (زلفي)، ويقول:
- اسمعني جيدًا يا (زلفي).. أريد مقابلة كلَّ مَن شاهد ما حدث.
كل شخص رأى ولو لمحة من الحادث.. أريد تكوين صورة دقيقة للموقف كله.
وشرد ببصره لحظة، قبل أن يتابع في حسم:
- صورة تكفي لتحديد الوسيلة، التي أخفى بها ذلك العميل (الميكروفيلم)، وبمنتهى الدقة، وكأنَّني رأيتُ كل ما حدث بنفسي.
قالها دون أن يدري أنَّه بذلك قد التقط طرف الخيط، للوصول إلى الحقيقة..
حقيقة (الميكروفيلم)..
ومخبئه..

☆ ☆ ☆

هل سبق لك أن رأيت طائرة هليكوبتر وجهًا لوجه؟!..
إنَّها جسم هائل، من المعدن والزجاج، أشبه بسمكة قرش ضخمة، يبلغ طولها في المتوسط اثني عشر مترًا، وعرضها ثلاثة

أمتار، وارتفاعها يزيد على المترين ونصف المتر، وفي قمتها مروحة ضخمة، لها صوت أشبه بالهدير، يكاد يصم الآذان، عندما تبدأ دورانها..

هل يمكنك الآن أن تعقد مقارنة بين حجم الهليكوبتر، وحجم الرجل العادي؟!..

وهل يمكنك أن تتخيل الآن شعور (فاي)، والهليكوبتر الحربية تنقض عليه مباشرة، وقائدها يحمل هدفًا واحدًا..

قتله..

وبلا رحمة..

وبكل الهلع والارتياع في أعماقه، هتف (صالح):

- احترس يا فتى.. احترس.

لم تلتقط أذنَا الشاب ذلك الهتاف، وهو يتحرك في سرعة، محاولًا تفادي انقضاضة الهليكوبتر، التي بدت له كوحشٍ معدني ضخم مخيف، فانحنى في مرونة، وترك جسده ينزلق على رمال الصحراء، فتجاوزته الهليكوبتر ببضعة سنتيمترات، وهتف قائدها في غضب:

- اللعنة!.. لقد أفلت هذه المرة.

وجذب عصا القيادة، ليرتفع بالهليكوبتر، وهو يستطرد:

- ولكنه لن يفلت في المرة القادمة.

كان الرجل يجيد القيادة بحق؛ لذا فقد ارتفع بالهليكوبتر في رشاقة، ودار بها دورة ضيقة، قبل أن يستعد للانقضاض على الشاب.

ولكن عينيه اتسعتَا في شدة، وارتج جسده في عنف، وهو يحدِّق في الرمال..

لقد كان (صالح) هناك، وإلى جواره يرقد الإسرائيلي الفاقد الوعي، أما الشاب فلم يكن له وجود قط..

وفي دهشة عارمة، هتف الطيار:
- اللعنة!.. أين ذلك العربي؟
انتفض جسده في عنف، عندما أتاه صوت صارم، يجيب:
- هنا.
كان الصوت يأتي من مسافة متر واحد منه، فالتفت إلى مصدره في ذعر، ووقع بصره على الشاب، وهو يدفع جسده داخل الهليكوبتر، فصرخ:
- يا للشيطان!.. لقد تعلَّق بها!
وقفزت يده في سرعة، محاوِلة التقاط مسدسه، ولكن الشاب انقضَّ عليه، وركله في أنفه، قائلًا:
- من الخطر أن تعبث بالأسلحة النارية هنا.
تفجرت الدماء في أنف الطيار، ولكنه تشبث بعصا القيادة، فارتفعت الهليكوبتر أكثر، وجذب مسدسه بالفعل، وصوَّبه إلى الشاب، صارخًا:
- على العكس.. الأسلحة النارية بالغة الأهمية..
قبض الشاب على معصمه بحركة سريعة، وهو يقول:
- هذا لو أنَّك تجيد استخدامها.
انطلقت رصاصة من مسدس الإسرائيلي، ومزقت جزءًا من جلباب الشاب البدوي، وقطعة من لحم ذراعه، قبل أن يلوي الشاب معصم الرجل، فتنطلق رصاصة ثانية، وتخترق الزجاج الأمامي..
وفي صرامة، لوى الشاب معصم الطيار أكثر وأكثر، وهو يقول:
- هل ستقاوم طويلًا؟
دارت الهليكوبتر حول نفسها، في مناورة بالغة الخطورة، بعد أن فقد الطيار سيطرته عليها، وانشغل بمقاومة الشاب، هاتفًا:
- بالتأكيد.. الإسرائيلي لا يستسلم أبدًا.

حلَّ الشاب حزام مقعد الطيار بحركة سريعة ماهرة، وهو يجيب في حزم صارم:
- فليمت إذن.
قالها، وتعلَّق بلوحة الأزرار في سقف الهليكوبتر، ثم رفع قدميه، وركل بها الإسرائيلي بكل قوته، فانتزعه من مقعده، ودفعه خارج الهليكوبتر..
واتسعت عينا الطيار الإسرائيلي في رعبٍ هائلٍ، عندما وجد جسده يطير في الفراغ، وأطلق صرخة ذعرٍ رهيبةً، وهو يهوي في الفضاء، ليرتطم برمال الصحراء في عنفٍ، ويلقى مصرعه على الفور..
وانتصر (فاي)..
انتصر مرحليًا؛ إذ إنَّه لم يكد يتخلص من الطيار الإسرائيلي، حتى انتبه بغتة إلى أن الهليكوبتر، التي فقدت توازنها تمامًا، تميل على نحو مخيف، وتتجه مباشرة نحو الرمال..
رمال الصحراء..
ومع السرعة التي تهوي بها، كان من الواضح أنَّها تشهد لحظاتها الأخيرة..
ولحظات الشاب أيضًا..

☆ ☆ ☆

لهث (صالح) في انفعال شديد، عندما شاهد الشاب يتعلق بالهليكوبتر، وشاهد الصراع الدائر بينه وبين قائدها، وتمتم:

- رباه!.. هذا الشاب شديد التهور.

احتبست أنفاسه مع التحركات العنيفة للهليكوبتر، التي راحت تدور في الهواء على نحوٍ مخيف للغاية، وهتف من أعماقه:
- رباه.. ساعده.. ساعده.. إنَّه لا يستحق هذا.
لم يكد ينطقها، حتى فوجئ بالإسرائيلي الآخر ينقضُّ عليه في عنفٍ من الخلف، صارخًا في ثورة:
- لن تفلحوا أبدًا أيُّها العرب.
كانت الانقضاضة قوية مباغتة عنيفة، إلا أنَّ البدوي (صالح) لم يكن أبدًا بالرجل الهين..
لقد خبر الخطر وعرَّكه، وعايشه طويلًا وكثيرًا، حتى لم يعد هناك ما يمكن أن يفت في عضده..
لذا، فقد استقبل انقضاضة الإسرائيلي بردٍّ فعلٍ مباشر وسريع، فانحنى إلى الأمام، وأدار ذراعيه خلف ظهره، عبر كتفيه، وقبض على مؤخرة عنق خصمه، ثم جذبه في قوة، جعلت الإسرائيلي يطير في الهواء، ويسقط على ظهره في عنف..
ولكن الإسرائيلي أيضًا لم يكن بالخصم الهين..
لقد سقط على ظهره، ثم هب واقفًا على قدميه بسرعة مدهشة، واستلَّ من حزامه خنجرًا ماضيًا، وهو يهتف في غضبٍ:
- قلت لك.. لن تفلح أيُّها العربي.
قالها، وانقضَّ في وحشية على (صالح)، الذي وثب جانبًا، واستلَّ خنجره من حزامه، وهو يقول في صرامة:
- أخطأتَ باختيارك الأسلحة البيضاء يا هذا.
هوى الإسرائيلي بخنجره على صدر (صالح)، إلا أنَّ البدوي استقبل الخنجر على نصل خنجره، ثم دفع الإسرائيلي في قوة، ووثب يطعنه في قلبه مباشرة، مستطردًا:
- فهذا مضمارنا منذ الأزل.

شهق الإسرائيلي، وجحظت عيناه في قوة، ثم هوى جثة هامدة، تحت قدمي (صالح)، الذي بدا جامدًا، خاليًا من أية انفعالات، وهو ينحنى لينتزع خنجره من قلب الإسرائيلي، ويمسح نصله في زيه العسكري، قبل أن يعيده إلى حزامه، ويرفع عينيه ليتابع حركة الهليكوبتر..

وفي اللحظة نفسها، هوى الطيار من الطائرة، وأطلق صرخة رهيبة، قبل أن يرتطم بالرمال..

وفي هذه المرة، شهق (صالح) في انزعاج..

ليس حزنًا على الإسرائيلي، ولكن خوفًا على مصير الشاب.. لقد كانت الهليكوبتر تهوي نحو رمال الصحراء..

وفي مسارٍ مخيفٍ..

☆ ☆ ☆

من المؤكد أن التدريبات المكثفة، التي يتلقاها الشاب في مدرسة المخابرات، قد أضافت إليه عددًا لا بأس به من الخبرات والمهارات المختلفة..

ولكن أفضل ما أضافته إليه هو القدرة على التفكير بسرعة..

وعلى اتخاذ القرار المناسب.

وفي الوقت المناسب.

وعندما شاهد الشاب الهليكوبتر تهوي، دار في عقله فجأة كل ما تلقاه من تدريبات، حول طرق قيادتها، وكيفية التعامل معها، في حالات الطوارئ..

وقبل حتى أن يكتمل تفكيره، كان يقفز ليحتل مقعد القيادة، ويمسك عصا القيادة في قوة..

ودوت في عقله التعليمات الأساسية..

«لا تفقد السيطرة على أعصابك أبدًا..».

«كل شيء يمكن إصلاحه، مع ردِّ الفعل المناسب، في الوقت المناسب..».
«الآلة لا إرادة لها.. إنَّها فقط تطيع كل ما تأمرها به، حتى ولو كان خطأ..».
وفي حزمٍ، حدَّد الشاب المسار الذي ينبغي أن يتخذه، وراح يحرك عصا القيادة في خفة، ومهارة، وهو يسيطر على أعصابه بقلبٍ من فولاذ..
ولثوانٍ، واصلت الهليكوبتر انحدارها، ولكن بسرعة أقل، وبزاوية أقل حِدَّة، وخفق قلب (صالح) في عنف، إلا أنَّها لم تلبث أن اعتدلت بغتة، وانخفضت سرعة هبوطها إلى أقصى حدٍّ، قبل أن تتوقف لحظة في الهواء، ثم تبدأ رحلة هبوط هادئة منتظمة..
وفي انفعال جارفٍ، صرخ (صالح):
- لقد فعلها.. يا للروعة!.. ذلك الشاب الرائع فعلها.
أثارت الهليكوبتر عاصفة من الغبار، وهي تهبط فوق رمال الصحراء، ولكن (صالح) لم يُطِق الانتظار، فاندفع يشُقُّ سحابة الرمال، وهو يهتف:
- يا لك من بطل!.. ما اسمك يا فتى؟
تطلَّع إليه الشاب في صمتٍ مشوبٍ بالتوتر، قبل أن يتمتم:
- (فاي).
سأله (صالح) في دهشة:
- ماذا؟!
ازدرد الشاب لعابه، وأجاب:
- (فاي).. هذا هو الاسم الوحيد الذي أعرفه.
انعقد حاجبَا (صالح)، وهو يتطلع إليه في دهشة، ثم لم يلبث أن ابتسم، وربت على كتفه، قائلًا:
- آه.. قوانين السرية.. ينبغي أن أدرك هذا.

ثم أشار إليه، مستطردًا:
- ولكن دعنا من هذا الآن، وهيا بنا نبتعد من هنا بأقصى سرعة.
أشار الشاب إلى قلب الصحراء، قائلًا:
- أعتقد أن الأمور لن تسير طبقًا للخطة بعد الآن.
بدا التوتر على وجه (صالح)، وهو يحدِّق في أضواء مصابيح السيارات، التي تقترب من موضعهما، وقال:
- رباه!.. إنَّها ست سيارات جيب على الأقل.. ينبغي أن نتحرك بأقصى سرعة.. ها.
عقد الشاب حاجبيه بضع لحظات، ثم قال بلهجة حاسمة:
- أسرِع أنت إلى (القصيمة).
هتف (صالح):
- أنا؟!.. هل تقصد وحدي؟!.. هذا مستحيل!! مهمتي هي أن أصحبك حتى (بئر سبع)، طبقًا للخطة.
أجابه الشاب في حزمٍ:
- لم يعد هناك وجود للخطة.. لقد ارتبك الأمر كله، وعلينا أن نرتجل خطة جديدة.
سأله في حِدَّةٍ:
- هل تعتمد تلك الخطة الجديدة على رحيلي وحدي؟
أومأ الشاب برأسه إيجابًا، وقال:
- نعم.. لا أحد يعلم أنَّك وسيطًا لنا، وخاصة بعد مصرع هذين الإسرائيليين، وأملُك الوحيد في النجاة والاستمرار هو أن تعود فورًا إلى (القصيمة)، وسأعمل على تغطية فرارك.
سأله (صالح) في عصبية:
- وكيف ستفعل هذا؟
ربت الشاب على جسم الهليكوبتر، مجيبًا:
- بهذه.

هزَّ (صالح) رأسه معترضًا، وقال:
- ولكنهم ينتظرونك بالفعل في (بئر سبع).
تنهد الشاب، وأجاب:
- سأبذل قصارى جهدي للحاق بك وبهم هناك.. هذا وعد.
صمت الاثنان، وكل منهما يتطلع إلى الآخر، ثم قال (صالح)، وهو يمسك كتفي الشاب في قوة:
- سأنتظرك هناك، في (بئر سبع).. كلمة السر (نسر) ابحث عن (أبي مازن).
أومأ الشاب برأسه، مغمغمًا:
- سأفعل بإذن الله.
ربت (صالح) على كتفيه في حرارة، ثم انطلق نحو سيارته، ولوح له بيده، قبل أن تنطلق به السيارة نحو بلدته..
وفي هدوء حاسم، جذب الشاب عصا القيادة، وارتفع بالهليكوبتر، ثم انطلق نحو رتل السيارات..
كانت خطته تعتمد على تشتيت الرتل، وإمطاره برصاصات مدفع الهليكوبتر، بحيث ينشغل الجميع في القتال، حتى يبتعد (صالح) عن المنطقة تمامًا.
ولكن فجأة، برزت ثلاث طائرات هليكوبتر حربية من خلف رتل السيارات، والتقط جهازه اللاسلكي رسالة بالعبرية، تقول:
- من (س) إلى (و).. لماذا تتخذ هذا المسار؟!.. لماذا تخالف مسارك الطبيعي؟ أجب.. من (س) إلى (و).. اذكر كلمة السر.
ولكن الشاب تجاهَل الرسالة تمامًا..
إنَّه يجهل كلمة السر، وسيضطر حتمًا للاشتباك مع طائرات الهليكوبتر الثلاثة، على الرغم من براعة طياريها وتفوقهم العددي.
ومن الطبيعي أنَّه لا جدوى من الفرار..

لذا، فقد انقضَّ الشاب على طائرات الهليكوبتر الثلاثة، واللاسلكي يصرخ بالعبرية:

- ماذا تفعل يا (و)؟! لماذا تتخذ هذا المسار العجيب؟!

ولم يجب الشاب في هذه المرة أيضًا..

كل ما فعله هو أن ضغط زر إطلاق النيران، في قمة عصا القيادة، و...

واشتعل الجحيم في سماء (سيناء)..

☆ ☆ ☆

فاى

سلسلة جديدة

روايات مصرية للجيب

عملية تل أبيب

الجزء الثانى

د. نبيل فاروق

المؤسسة العربية الحديثة

٥- الجحيم..

«تلقينا رسالة لاسلكية مشفَّرة من (سيناء)..»
انتفض جسد (نسيم) في انفعال، عندما سمع هذه العبارة، بعد دقيقة واحدة من عودته إلى المطار، فاندفع نحو ضابط اللاسلكي، يسأله في لهفة:
- أين هي؟!
ناوله الضابط الرسالة، فاختطفها بسرعة، وقرأ كلماتها في توترٍ ملحوظٍ، قبل أن ينعقد حاجبَاه في شدة، ويغمغم:
- اللعنة!.. ليس بهذه السرعة.
سأله الطيار في اهتمام:
- ماذا حدث؟!
مطَّ (نسيم) شفتيه، وأجاب في صرامة، وهو يدسُّ الرسالة في جيبه:
- ليس هذا من شأنك.
ودون أن يبالي بالدهشة البالغة، التي ارتسمت على وجه الطيار، اتجه إلى السيارة التي تنتظره، وقال لسائقها في شيء من العصبية، وهو يجلس في مقعدها الخلفي:
- عد بنا إلى الإدارة على الفور.
انطلق السائق بالسيارة مباشرة، قبل أن يغلق (نسيم) بابها خلفه، ولم يعلق هذا الأخير على ما حدث، وهو يخرج الرسالة من جيبه، ويعيد قراءة كلماتها، التي تقول:
«ظروف طارئة، حالت دون تنفيذ الجزء الأول من الخطة بنجاح.. افترقنا بالقرب من نقطة الهبوط.. أنا في طريقي إلى (القصيمة)، وسألتقى بالشاب في (بئر سبع).. إذا ما نجح في

تجاوز الموقف الحالي.. ثلاث طائرات هليكوبتر وست سيارات (جيب) عسكرية في الموقع.. الشاب يقود هليكوبتر إسرائيلية.. دعاؤكم له..» (صالح)

وعاد حاجبا (نسيم) ينعقدان في شدة، وذهنه يحاوِل رسم صورة لذلك الموقف شديد التعقيد..

(فاي) يقود هليكوبتر إسرائيلية، ويواجه جيشًا صغيرًا من الإسرائيليين..

ست سيارات جيب بجنودها، وثلاث طائرات هليكوبتر!!..

ترى كيف يمكن أن يتعامل الشاب مع كل هذا؟!..

كيف؟!..

كيف؟!..

وعبثًا، بذل (نسيم) جهدًا يفوق العادة، في محاولة للاسترخاء في مقعده، والسيارة تنطلق به نحو إدارة المخابرات، ولكن ذهنه لم يكفَّ لحظة واحدة عن التفكير في ذلك الجحيم، الذي اندلع حتمًا هناك..

في قلب (سيناء)..

☆ ☆ ☆

من حسن حظ الشاب، أن طائرات الهليكوبتر الإسرائيلية الثلاث لم تفهم في البداية، ما يفعله، ولم يستوعب قادتها ذلك المسار العجيب الذي اتخذته طائرته، التي بدت لهم وكأنها تنقض عليهم مباشرة..

ثم استوعبوا الموقف كله دفعة واحدة..

ولكن بعد فوات الأوان..

استوعبوه مع رصاصات الهليكوبتر التي يقودها الشاب، عندما انطلقت نحوهم بلا هوادة..

ومع الانقضاضة المباغتة الأولى، أصابت رصاصات الشاب ذيل الهليكوبتر (ع)، ونسفت مروحة الهليكوبتر (ز)، قبل أن تميل في مهارة، محاولة اللحاق بالهليكوبتر (س)، التي أدرك قائدها الموقف في اللحظة المناسبة، فابتعد بها عن مرمى النيران، وهو يهتف عبر اللاسلكي:

- من المروحة (س) إلى القيادة.. خيانة.. خيانة.. المروحية (و) تنقض علينا.. (ز) و(ع) أصيبتا. خيانة.

كان قائد الهليكوبتر (س) مقاتلًا محترفًا، تلقَّى تدريبات طويلة مكثفة، حول قتال الهليكوبتر والمواجهات المباشرة، مما مكنه من مراوغة الشاب في مهارة، وجعله ينجح في الإفلات منه، والدوران دورة واسعة لينقض بدوره عليه.

ولكن (فاي) فاجأه بعدم الاشتراك في القتال..

لقد انتبه إلى أن مسار سيارات (الجيب) العسكرية الست ستدفعها نحو سيارة (صالح) حتمًا، وأن هذا سيضع البدوي في مأزق شديد، قد يؤدي إلى وقوعه في أيدي الإسرائيليين، وكشف أمره، وكل ما سيتبع ذلك من نتائج..

لذا فقد اندفع بغتة نحو سيارات (الجيب)، وراح يمطرها برصاصات الهليكوبتر، في مسار نصف دائري، قبل أن يعود لمواجهة الهليكوبتر (س).

وفي غضب، تطلع قائد الهليكوبتر الإسرائيلي إلى سيارات (الجيب) الأربع، التي دمرتها رصاصات الشاب، وإلى طائرتي الهليكوبتر، اللتين تحطمتا على رمال (سيناء)، ثم هتف، وهو ينقض على الهليكوبتر (و):

- اللعنة!.. ستدفع الثمن أيُّها الجاسوس القذر.. ستدفع الثمن.

وضغط زناد مدفعي الهليكوبتر..

وانطلقت النيران..

وبالنسبة للشاب، بدا صوت ارتطام الرصاصات، بجسم الهليكوبتر التي يقودها، أشبه بدوي مطارق قوية عنيفة، فوق براميل معدنية فارغة، واخترقت رصاصتان زجاج الهليكوبتر الأمامي، ومرقتا على قيد سنتيمترات من جسده، قبل أن تستقر إحداهما في خلفية صندوق القيادة، في حين نسفت الثانية جزءًا من مسند مقعده..

ولكن أجهزة القيادة بقيت على حالها..

ولهذا، فقد مال الشاب بالهليكوبتر، وانخفض بها على نحو مباغت، ثم انقض على الهليكوبتر الأخرى مباشرة..

وارتفع حاجبَا قائد الهليكوبتر (س) في دهشة، وهتف عبر اللاسلكي:

- ماذا يفعل هذا المجنون؟!

هتف بها، وضغط زر إطلاق النار، وانطلقت رصاصات الهليكوبتر نحو الشاب، الذي ضغط زر إطلاق النار في طائرته بدوره، و..

ولكن مدفعي الطائرة لم ينطلقَا..

لقد أصابت رصاصات خصمه جسم طائرته في عنف، ونسفت جزءًا من ذيلها، وقاعدة مروحتها، في حين لم تنطلق من طائرته رصاصة واحدة..

وفي حماسٍ عنيفٍ، صرخ الإسرائيلي:

- ظفرت بك أيُّها الجاسوس اللعين.. ظفرت ب..

اختنق الجزء الأخرى من الصرخة في حلقه، واتسعت عيناه عن آخرهما، عندما رأى هليكوبتر الشاب تنقض عليه، انقضاضة انتحارية رهيبة، فغمغم مرتجفًا:

- اللعنة!.. إنَّه..

حاوَل بقدر استطاعته تفادي الارتطام الوشيك، فجذب عصا القيادة، وارتفع بالهليكوبتر، و..
ولكن هليكوبتر الشاب لحقت به في اللحظة الأخيرة..
وأمام عيون الناجين، من سيارات الجيب الإسرائيلية، ارتطمت طائرتا الهليكوبتر بمنتهى العنف، في سماء (سيناء).
وكان الانفجار عنيفًا..
وهائلًا..

☆ ☆ ☆

انعقد حاجبَا رجل (الموساد) (بيجال يائيل) في شدة، وهو يقف في برج المراقبة، في مطار (تل أبيب)، وعيناه تجوبان أرض المطار، وحظائر الطائرات في توترٍ شديدٍ، واهتمام بالغ.
كان قد كوَّن صورة تقريبية لما حدث، في تلك الدقائق التي انكشف فيها أمر الجاسوس المصري، وحتى تم إلقاء القبض عليه في مهبط الطائرات، وراح بذهنه يجاهد لاستنتاج ما لم يره

الشهود، وما حدث في الثواني القليلة، التي أخفى فيها الرجل (الميكروفيلم).
وبمقدرة فذَّة، بدأ شريط وهمي يعرض في عقله، متخيلًا الرجل وهو يعدو خارج المكان، ويتجه نحو مهبط الطائرات، والرصاصات تطارده، حتى يسقط، و...
وازداد انعقاد حاجبيه في شدة..
لقد سقط الجاسوس عند إحدى الطائرات..
وبالقرب من إطاراتها بالتحديد..
وهناك انهار جسده..
وفقد وعيه..
وفي خفوت شديد، تمتم (بيجال) بكلمة واحدة، وعيناه تستديران إلى نقطة بعينها من المهبط:
- هناك..
ولأكثر من دقيقة كاملة، تركَّز بصره على تلك البقعة، حيث بدا أثر دماء لم ترفع بعد، وعاد ذهنه يعرض المشهد مرات ومرات..
وفي أعماق عقله تكوَّنت فكرة..
فكرة عجيبة، أشبه بما يحدث في أفلام السينما، ولكنها راحت تكبر وتنمو، وتتصاعد من أعماق العقل إلى قمته، وذهنه يؤيدها بعض الوقت، ثم يعود لرفضها واستنكارها، ثم لتأييدها ثانية، حتى حسم لسانه الأمر، وهو يلتفت إلى قائد البرج، ويسأله في اهتمام بالغ:
- كيف تهبط الطائرات هنا؟
تطلَّع إليه الرجل في شيء من الدهشة، قبل أن يجيب:
- بالطرق التقليدية بالطبع.
أجابه (بيجال) في عصبية:

- لست أقصد هذا.. إنَّني أتساءل عن تنظيم الهبوط .. هل تهبط الطائرة نفسها في المكان ذاته، في كل مرة؟!
أومأ الرجل برأسه إيجابًا، وهو يقول:
- بالطبع.. الطائرات تنطلق في أسراب كما تعلم، ثم تهبط على نحو منتظم، في أماكن محدودة، تبعًا لرقم السرب، وموقعه، و...
قاطعه (بيجال)، وكأنَّه يتحدث إلى نفسه:
- في أمكان محدودة.. عظيم.
ثم أشار إلى الطائرة (الفانتوم)، الرابضة عند بقعة الدم، مستطردًا:
- إذن فتلك الطائرة هناك، هي نفس الطائرة، التي كانت في ذلك الموضع، ليلة القبض على الجاسوس المصري.
أومأ قائد البرج برأسه إيجابًا، وهو يتطلع إليه في حيرة، فهزَّ (بيجال) رأسه، وتمتم في شيء من الحماس:
- عظيم.. عظيم..
تطلَّع إليه قائد البرج في حيرة، وتساءل عن سرِّ اهتمامه الشديد بالطائرة (ف – ٢١٠)، وأدهشه أن ألقى (بيجال) نظرة أخرى على الطائرة، ثم اندفع يغادر البرج، في خطوات سريعة واسعة، واتجه نحو الطائرة (ف – ٢١٠)، وهو يغمغم لنفسه:
- من يدري؟.. ربما..
ولثوانٍ، وقف يتطلع إلى الطائرة في صمت متردِّد، ثم لم يلبث أن انحنى يتفحص إطاراتها ببصره في اهتمام، وهو يراجع تلك الفكرة العجيبة، التي وقرت في أعماقه، و..
«أدون (بيجال).. خبر عاجل من (سيناء)..».
انطلق هتاف مساعده (زلفي)، فانتزعه فجأة من أفكاره، وجعله يلتفت إليه في شيء من العصبية، قائلًا:
- أي خبر هذا؟

لهث (زلفي)، وهو يتجه نحوه في خطوات سريعة، أقرب إلى العدو، قائلًا:
- هناك جاسوس آخر.
التقى حاجبَا (بيجال)، وهو يقول في توتر:
- جاسوس آخر؟!
أومأ (زلفي) برأسه إيجابًا، وازدرد لعباه، قائلًا:
- نعم يا أدون (بيجال).. المصريون أسقطوا جاسوسًا آخر في (سيناء)، خلف الممرات، ورجالنا يسعون للإيقاع به الآن.
سأله (بيجال) في حِدَّةٍ:
- يسعون؟.. ولماذا لا يلقون القبض عليه مباشرة، ما داموا قد كشفوا أمره؟!
لهث (زلفي) ثانية، وهو يقول:
- يبدو أن هذا ليس أمرًا سهلًا.. إنَّه ليس جاسوسًا عاديًا على الأرجح.
انعقد حاجبَا (بيجال) أكثر، وهو يغمغم:
- ليس جاسوسًا عاديًا؟!
ثم التفت إلى إطار الطائرة مرة أخرى، قبل أن يضيف:
- جاسوس مصري غير عادي!!.. وفي هذا التوقيت بالذات!
وصمت بضع لحظات، قبل أن يهزَّ رأسه، ويتطلع إلى (زلفي)، قائلًا في صوتٍ صارمٍ عميقٍ:
- يبدو أن اللعبة تتعقد أكثر وأكثر يا (زلفي).
قالها، وتحرَّك في خطوات واسعة سريعة كعادته، فهتف به (زلفي):
- إلى أين يا أدون (بيجال)؟
أجابه (بيجال)، وهو يتجه مباشرة إلى سيارته:
- يا له من سؤال!.. إلى (سيناء) بالطبع يا رجل.

وعندما انطلقت بهما السيارة، كانت تلك الفكرة العجيبة تتعمق في رأس (بيجال) أكثر..
وأكثر..
وأكثر..

☆ ☆ ☆

«(صالح تركه هنا..».
نطق (نسيم) العبارة، وهو يشير إلى نقطة بالقرب من (القصيمة)، فوق خريطة ضخمة لصحراء (سيناء)، قبل أن يتابع:
- وطبقًا لآخر ما لدينا من معلومات، فقد تركه البدوي، وهو يخوض قتالًا غير متكافئ، في تلك البقعة، ولا أحد يدري ما الذي انتهت إليه الأمور هناك.
تطلع زملاؤه إلى الخريطة في اهتمام، ثم قال أحدهم:
- الواقع أن الوضع الذي تصفه لا يبشِّر بالخير، فذلك الشاب، مهما بلغت كفاءته، مجرد فردٍ واحدٍ، لن يمكنه أبدًا أن يتصدى لثلاث طائرات هليكوبتر، وستِّ سيارات (جيب) عسكرية محملة بالجنود، ثم إنَّه بالنسبة لطبيعة الإسرائيليين، ستكون هذه مجرد بداية.. إنَّهم على استعداد لدفع فرقة كاملة إلى المنطقة، لو لم يظفروا به؛ إذ إنَّهم لن يسمحوا أبدًا بوجود جاسوس مصري في نطاقهم.
استمع إليه (نسيم) في صمت، قبل أن يقول في حزمٍ:
- ذلك الشاب، الذي تصفه بأنَّه مجرد فردٍ واحدٍ، ليس مقاتلًا عاديًّا.. إنَّه فذٌّ بكل المقاييس.. لقد أشرفت على تدريبه بنفسي، وأعلم جيدًا أنَّ بإمكانه أن يصنع ما يفوق توقعاتكم.
تبادلوا نظرة صامتة، قبل أن يشير أحدهم بيده، قائلًا:

- هذا ليس أحد أفلام الحركة الخيالية يا (نسيم)، والشاب ليس بطله الخارق.
أجابه (نسيم) في حزم أكثر:
- ولكنه يمتلك قوة إرادة فولاذية، وإصرارًا لا حدود له، ثم إنَّه يتميز بصفة مدهشة، تجعله في رأيي بطلًا خارقًا.
أطلَّ التساؤل من العيون، فأضاف في صرامة:
- إنَّه يحب (مصر).
نطقها، فران على المكان صمتٌ تامٌّ، استمر لنصف دقيقة كاملة، قبل أن يتنحنح أحد الحاضرين، قائلًا:
- كلنا نحب (مصر) يا (نسيم)، ولا نتردد لحظة في التضحية بحياتنا من أجلها، ولكن دعنا نتحدث بواقعية.. الشاب بالفعل في موقف لا يحسد عليه، ونجاته منه ستكون أشبه بالمعجزة، وحتى لو فعل، هل تعتقد أن الإسرائيليين سيسمحون له بالاستمرار؟!.. إن وجود جاسوس في نطاقهم سيصيبهم بالجنون، وسيدفعهم إلى مضاعفة إجراءات الأمن ثلاث مرات على الأقل، مما سيجعل مهمته أشبه بمحاولة لاقتحام الجحيم من أوسع أبوابه.
التقى حاجبَا (نسيم) في حِدَّةٍ، وهو يقول:
- ماذا تعني بهذا؟!.. هل تقترح إلغاء العملية؟!
هزَّ زميله رأسه نفيًا في هدوء، قائلًا:
- هذا سابق لأوانه بالتأكيد.. كل ما أقترحه هو أن ننتظر، حتى نعرف ما انتهت إليه الأمور بالضبط.
أجاب (نسيم) في صرامة شديدة:
- (فاي) سينجو بإذن الله.. لقد دربته على مواجهة أصعب الظروف وأكثرها قسوة.

تبادل الرجال نظرة أخرى صامتة، لم يغب مغزاها عنه، فتابع بسرعة:
- أما بالنسبة للإسرائيليين، فهناك خطة بديلة بالطبع.
ثم عاد يشير إلى الخريطة، مستطردًا:
- فاختيارنا لموقع الهبوط لم يكن عشوائيًّا، ولم يتركز على قربه من (القصيمة)، وخلوه من الدوريات الإسرائيلية فحسب، وإنَّما اخترناه لأنه قريب من الدرب الصحراوي الرئيسي، الذي يقود إلى واحدة من القواعد الإسرائيلية العسكرية الرئيسية، القريبة من منطقة (عين قديس)، بحيث يتصور الإسرائيليون، في حالة كشف أمر الشاب، أن مهمته هي تدمير مخزن الذخيرة في (عين قديس)، وهذا سيدفعهم حتمًا إلى تكثيف وجودهم في تلك المنطقة، في حين سيغير الشاب عندئذ مساره إلى (مويلح)، حيث ينتظره عميل آخر من عملائنا، و...
قاطعه فجأة صوتٌ حازمٌ، يقول:
- لستُ أعتقد أنَّه هناك ما يستدعي الخوض في كل هذه التفاصيل.
التفت الجميع إلى زميلهم، الذي دلف إلى قاعة الاجتماعات على التو، وأطلَّ مزيـج من التوتر والقلق واللهفة من عيني (نسيم)، وهو يتطلع إليه، فتابع الرجل في شيء من المرارة:
- لقد وصلتنا معلومات جديدة من (سيناء).. لقد انتهى الأمر.
خفق قلب (نسيم) في عنفٍ، والرجل يضيف:
- الشاب لقي مصرعه في حادث ارتطام وانفجار طائرتي هليكوبتر، بعد أن أبلى بلاءً حسنًا للغاية، و..
ولم يسمع (نسيم) باقي العبارة..
لقد تمزَّق شيء ما في أعماق قلبه..
تمزَّق بكل عنفٍ..

وكلِّ قسوة.

☆ ☆ ☆

٦- سيناء..

لم تكن نيران الحطام قد خَبَت بعد، في قلب (سيناء)، عندما هبطت الهليكوبتر، التي تُقلُّ (بيجال)، على رمال الصحراء، وقفز منها هذا الأخير، وهو يسأل أحد ضباط الجيش الإسرائيلي في حزم:

- هل ألقيتم القبض على الجاسوس؟

أدَّى الضابط التحية العسكرية في احترام، وهو يجيب:

- لقد لقي مصرعه يا سيدي.

سأله (بيجال) في عصبية:

- هل قتلتموه؟!.. مَن أصدر ذلك الأمر الغبي؟!.. كان ينبغي أن توقعوا به حيًّا، حتى يمكننا استجوابه، ومعرفة هدفه، و...

قاطعه الضابط في سرعة:

- إنَّنا لم نقتله يا سيدي.. هو قتل نفسه بنفسه.

انعقد حاجبَا (بيجال) في توتر متسائل، فتابع الضابط:

- لقد انقضَّ على طائرة هليكوبتر أخرى، على نحو انتحاري، فارتطمت الطائرتان، وانفجرتَا، وها هما ذا تحترقان على الرمال.

تطلع (بيجال) إلى الحطام في توتر شديد، وهو يغمغم:

- انفجرتَا؟!

كان يشعر بحِنق بالغٍ، مع الخسائر الواضحة، التي تحيط به من كل جانب..

أربع سيارات (جيب) محترقة..
أكثر من سبعة من الجنود لقوا مصرعهم، ومثلهم أصيبوا في مواضع مختلفة..
وأربع طائرات هليكوبتر تحطَّمت تمامًا..

كلُّ هذا فعله جاسوس..
جاسوس مصري واحد..
والأسخف أنَّه لقي مصرعه، قبل أن يتم استجوابه، لمعرفة هدفه، والغرض من هبوطه في هذه البقعة بالذات..
كان أكثر ما يستفز عقله ومشاعره، هو أنَّه جاسوس واحد..
لو أنَّ المصريين أسقطوا مجموعة من الكوماندوز، لبدا له هذا أكثر وضوحًا ومنطقية، ولتصوَّر على الفور أنَّها كانت محاولة لتدمير مخزن الذخيرة، بالقرب من (عين قديس)..
ولكن جاسوسًا واحدًا؟!!
عادت تلك الفكرة العجيبة تُلحُّ عليه في إصرار، وهو يسير فوق رمال الصحراء، نحو حطام الطائرتين المرتطمتين، وأسرع (زلفي) خلفه، يقول:
- يبدو أن العملية قد انتهت، قبل أن نصل.
سأله (بيجال) بغتة، في لهجة تشف عن توتر واهتمام زائدين:
- لماذا أرسل المصريون جاسوسًا واحدًا في رأيك؟!
بُهت (زلفي) للسؤال، وارتبك بضعَ لحظات، قبل أن يجيب:
- ربَّما لا تحتاج العملية إلى أكثر من رجلٍ واحدٍ.
سأله (بيجال) في توتر:
- وما تلك العملية التي لا تحتاج لأكثر من رجلٍ واحدٍ؟!.. ما طبيعتها؟! ما نوعها؟!
قلَّب (زلفي) كفيه في حيرة، وهو يغمغم:
- لست أدري.. ربَّما..
ولم يجد ما يُكمل به عبارته، ولكنَّ (بيجال) لم ينتظر جوابه، وهو يقول في شيءٍ من الانفعال، وكأنَّما يُحدِّث نفسَه، وهو يواصل السير نحو الحطام:

- لا يمكنك أن ترسل رجلًا واحدًا لنسف مخزن ذخيرة، ولا للقيام بغارة انتقامية.. ثم إنَّ مرحلة حرب الاستنزاف قد انتهت، منذ زمن طويل، والأمور شبه مستقرة من الناحية العسكرية، بيننا وبين المصريين، بعد حرب أكتوبر، وفي تلك الفترة بالتحديد، وهذا يعني أن ذلك الرجل لم يهبط هنا للقيام بعمل عسكري.

سأله (زلفي) في شيء من الحيرة:

- لماذا هبط إذن؟

صمت (بيجال) بعض الوقت، وهو يقترب من الحطام، قبل أن يجيب بنفس اللهجة المنفعلة:

- ألا يذكرك هذا بما كان يحدث في الحرب العالمية الثانية؟!.. راجع ما درسته عن تلك الفترة يا رجل، وما لقنك إياه خبراؤنا، في أيام تدريبك الأولى، وستدرك لماذا يهبط رجل واحد بمظلة، في منطقة خاضعة لنفوذ دولة أخرى؟

توقَّف (زلفي) دفعة واحدة، وهو يهتف بانفعال:

- أتقصِد أنَّها عملية جاسوسية؟

التفت إليه (بيجال) في بطءٍ، قائلًا:

- ألديك تفسير آخر؟!

صمت (زلفي) بضع لحظات، وهو يدير الأمر في رأسه، قبل أن يجيب في حسم:

- كلَّا.

ثم تنهَّد في توتر، وسأل:

- ولكن أية عملية تجسس هذه، التي يمكن القيام بها في مكان كهذا؟

أشار (بيجال) بيده، قائلًا:

- ليس من الضروري أن تكون هذه المنطقة هي مسرح العملية.. إنَّها فقط منطقة صالحة للهبوط، فالمهم أن يصل رجلهم إلى ما خلف خطوطنا، ثم يتحرك بعدها بخطة مسبقة، للوصول إلى المكان المنشود.

سأله (زلفي):

- وما هذا المكان في رأيك؟

توقف (بيجال)، وامتد بصره بعيدًا، وهو يجيب:

- لو أن الفكرة التي تدور في ذهني صحيحة، فأنا أعرف مسرح العمليات المنشود.

سأله (زلفي) في لهفة شديدة:

- أين يا أدون (بيجال)؟!.. أين؟!

أجابه (بيجال) في سرعة:

- نظريتي تقول: إنَّ ذلك الجاسوس الأول، قد أخفى (الميكروفيلم) قبل أن يفقد وعيه، في ال...

بتر عبارته بغتة، وانعقد حاجبَاه في شدة، وهو يحدِّق في بقعة قريبة من رمال الصحراء، فسأله (زلفي):

- في أي شيء يا أدون (بيجال)؟!

لم يجب رجل (الموساد) عن تساؤله، وإنَّما اندفع فجأة نحو البقعة، التي تعلَّق بها بصره، وتلاقى حاجبَاه في شدة، وهو يحدق فيها، هاتفًا:

- اللعنة!.. اللعنة!

لحق به (زلفي)، ولهث في انفعال، وهو يقول:

- ماذا حدث؟!

أشار (بيجال) إلى بقعة الرمال، وهو يجيب في غضب:

- انظر.. كيف لم ينتبه هؤلاء الأوغاد إلى هذه الآثار؟!

قالها، وعقله يتخيل ما حدث، بناءً على الآثار التي تركها فوق الرمال أمامه..
وتكونت الصورة في سرعة..
صورة وهمية، بدت فيها هليكوبتر المصري، وهي تنقض على الهليكوبتر الإسرائيلية الأخرى، ثم يثب منها المصري في اللحظة الأخيرة، قبل أن يحدث الارتطام، فيسقط فوق رمال الصحراء، ويتدحرج فوقها لثلاثة أمتار، والانفجار يدوي من فوقه، والطائرتان تهويان على رمال (سيناء)..
وبعين الخيال، رأى (بيجال) المصري ينهض من سقطته، ثم يعدو مبتعدًا عن المكان، قبل أن يصل إليه الإسرائيليون..
وفي حنق ساخط غاضب، هتف الإسرائيلي:
- لقد خدعهم.. خدعهم جميعًا.
هتف به (زلفي) في توتر بالغ:
- مَن هذا الذي خدعهم؟!
التفت إليه (بيجال) في انفعالٍ جارفٍ، وأمسك كفَّه في قوة، وهو يقول في حِدَّةٍ:
- اتصل بأقرب مكتب لنا يا رجل، وأخبرهم أنَّني أريد أفضل دليل في المنطقة كلها.. أريد أبرع خبراء تقصي الأثر في (سيناء) كلها.
ثم انعقد حاجبَاه وكأنَّما تعانَقَا، وأطلت شياطين الغضب كلُّها من عينيه وصوته، وهو يستطرد:
- فسأشن حربًا شعواء على ذلك الجاسوس المصري.. حربًا لن أرضى لها إلَّا نهاية واحدة.. النصر.. النصر التام..
وكان هذا يعني أن الأمور قد انتقلت إلى مرحلة جديدة..
وعنيفة..

☆ ☆ ☆

فرك (صالح) كفيه في توترٍ بالغٍ، وهو يقول لشقيقه (أحمد) في عصبية:
- لم يكن ينبغي أن أنصرف.. لم يكن ينبغي أن أتركه وحده قط، مهما كانت الظروف.
ربت (أحمد) على كتفه محاولًا تهدئته، وهو يقول:
- كلاكما في قبضة الإسرائيليين، وأنت تعلم ما يفعلونه، في مثل هذه الظروف.
عضَّ (صالح) شفته السفلى قهرًا، وقال:
- ولكنني تركته وحده.. تخليت عنه، وهو في أمسِّ الحاجة إليَّ.. تركته يواجه جيشًا بمفرده.
تنهَّد (أحمد) قائلًا:
- وماذا كان بإمكانك أن تفعله من أجله؟
لوَّح (صالح) بكفيه، هاتفًا:
- أي شيء.. أي شيء.. كان يمكنني أن أساعده بقتل إسرائيلي واحدٍ على الأقل.
قال (أحمد) في صرامة:
- ثم ماذا؟!
هتف (صالح) في مرارة:
- ثم يحدث ما يحدث.. من يبالي بالموت أو الحياة، في مثل هذه الظروف؟
وضرب صدره بقبضته في حنق، مستطردًا:
- بتركي له أصبحتُ عارًا على رأس كل بدوي.
ربت (أحمد) على كتفه ثانية، وهو يقول:
- لقد فعلتَ ما كان ينبغي فعله يا رجل، ولا داعي لأن تلوم نفسك على هذا النحو البالغ القسوة..

هتف (صالح):

- بل كان ينبغي أن..

قبل أن يُتمَّ عبارته.. ارتفعت دقات حذرة من باب منزله، فبتر حديثه، واستلَّ خنجره من حزامه بحركة عصبية، وهو يلتفت إلى الباب، فأمسك شقيقه يده، قائلًا:

- مهلًا يا رجل.. لا تفقد سيطرتك على أعصابك على هذا النحو.

ثم اتجه نحو الباب، قائلًا:

- مَن الطارق؟

أتاه صوت متوتر يجيب:

- إنَّه أنا أيُّها الأخ (أحمد).. أنا (فائز).. صديق (صالح).

أعاد (صالح) خنجره إلى حزامه في سرعة، وهو يلقي نظرة على ساعة يده، مغمغمًا في قلق:

- (فائز)؟!.. في الثالثة والنصف صباحًا؟!

أسرع (أحمد) يفتح الباب، فدلف البدوي إلى المنزل في سرعة، وأغلق الباب خلفه، وهو يلهث في توتر، قائلًا:

- الإسرائيليون لم يغمض لهم جفن الليلة.
جذبه (صالح) من ذراعه، وهو يسأله في عصبية:
- ماذا حدث؟!
أجابه (فائز) على الفور:
- يقولون: إن قتالًا عنيفًا دار في الصحراء، بالقرب من بلدتنا، ولا ريب في أنَّك سمعت الانفجارات مثلي، وهناك شائعة تقول إن جاسوسًا مصريًّا هبط هناك، وأنَّ الإسرائيليين يحاولون القضاء عليه.
سأله (صالح) في لهفة:
- يحاولون؟!.. أتعني أنَّهم لم يظفروا به بعد؟!
أجابه (فائز):
- بالتأكيد، وإلا فلماذا فرضوا حظر التجوال، منذ الواحدة والنصف صباحًا، ولماذا منعوا أي شخص من دخول (القصيمة) أو الخروج منها؟!
أدهشه ذلك البريق الظافر، الذي أطل من عيني (صالح)، وهو يقول في حماس:
- عظيم.. عظيم.. حمدًا لله.
انعقد حاجبَا (فائز)، وهو يميل نحوه، ويسأله في قلق:
- (صالح)..ألك صلة بما يحدث؟
أسرع (أحمد) يجيب:
- وما شأن (صالح) بهذا؟!.. إنَّه لم يغادر المنزل منذ غروب الشمس.
امتلأت ملامح (فائز) بالشكِّ، وهو يغمغم:
- حقًّا؟!
تطلَّع إليه (صالح) في صمتٍ وتبادَل كلاهما نظرة طويلة، قبل أن يخفض (فائز) عينيه، ويقول:

- ما دمتَ تقول هذا، فهو صحيح.
ثم عاد يرفع عينيه إلى (صالح)، ويربت على كتفه، قائلًا:
- على أي حال، أنا رهن إشارتك في أية لحظة يا رجل.
ابتسم (صالح)، وهو يقول:
- أعلمُ هذا يا (أبو رابح).
أومأ الرجل برأسه متفهمًا، وصمت لحظة أخرى، ثم قال:
- أعتقد أنَّه من الأفضل أن أعود إلى منزلي.
سأله (أحمد) في قلق:
- وماذا ستفعل مع قواعد حظر التجوال؟!
ابتسم (فائز)، وهو يقول:
- نفس ما فعلته، عندما أتيت إلى هنا.. اطمئن يا فتى.. مهما بلغت براعة هؤلاء الأوغاد، لن يمكنهم إحكام السيطرة علينا أبدًا.
ثم غمز بعينه، مستطردًا:
- إنَّها ما زالت أرضنا.
ولم يكد (فائز) ينصرف، حتى التفت (أحمد) إلى شقيقه، قائلًا:
- هل تعتقد أن الشاب قد نجا حقًّا؟!
أجابه (صالح) في حماس، وهو يتجه نحو حجرته:
- بالتأكيد، وإلا فلماذا يتصرف الإسرائيليون بكل هذه العصبية؟!
وفتح باب الحجرة في حركة حادة، مستطردًا:
- لست أدري بحق كيف أفلت منهم، ولكنه فعلها، والخطوة التالية لهذا، هي أنَّ...
بتر عبارته بغتة، وانطلقت من حلقه شهقة قوية، وهو يرتد إلى الخلف في عنف..
ففي حجرته، كانت تنتظره مفاجأة!!
مفاجأة مدهشة!!

☆ ☆ ☆

«أنت على حق يا سيد (بيجال)..».

نطق خبير تقصي الأثر العبارة، وهو يشير إلى الآثار على الرمال، ثم اعتدل مستطردًا:

- شخص ما سقط هنا، من ارتفاع خمسة أمتار تقريبًا، ثم تدحرج حتى هناك، وبعدها نهض، وانطلق يعدو حتى تلك البقعة، وبعدها تسلل في حذر، واتخذ طريقه نحو الجنوب.

أومأ (بيجال) برأسه متفهمًا، قبل أن يسأل الخبير:

- هل يمكنك تعقُّب آثاره حتى النهاية؟!

تردَّد الرجل لحظات، ثم أجاب:

- نعم.

قالها، واستدرك في سرعة:

- لو أنَّه لم يغادر منطقة الرمال.

تقارب حاجبَا (بيجال)، وهو يقول:

- دعنا نأمل ألا يكون قد فعل.

والتفت إلى مساعده (زلفي)، قائلًا:

- أحضر واحدًا من تلك السيارات هناك.

أسرع (زلفي) لتلبية الأمر، في حين استدار (بيجال) إلى الخبير قائلًا في صرامة:

- أأنت واثق من قدرتك على تتبعه؟

أجابه الخبير:

- كل الثقة يا سيدي.. إنَّها مهنتي.

مطَّ (بيجال) شفتيه في عدم رضا، لم يكن له ما يبرره، وقال في عصبية:

- أريد أن أنتهي من هذا بأسرع وقتٍ ممكنٍ.. لا بدَّ أن أعود إلى المطار.

سأله الدليل في حيرة:
- أي مطار؟!
صاح به في عنفٍ:
- لا شأن لك بهذا.. اهتم أنت بالبحث عن أية آثار أخرى.. هيا اذهب.
ابتعد الخبير في سرعة، في حين أطلق (بيجال) زفرة عصبة ملتهبة، وراح يتلفت حوله في توتر، وفكرته تكاد تهبط من عقله؛ لتلتهم كيانه التهامًا..
لقد أرسل هؤلاء المصريون جاسوسهم لمهمة محدودة..
مهمة قد تتوافق مع الفكرة التي تعربد في أعماقه.
أرسلوه لاستعادة (الميكروفيلم)..
ذلك (الميكروفيلم)، الذي يجهل ما يحويه، وما يحمله من أسرار..
(الميكروفيلم) الذي يكاد يصيبه بالجنون..
الذي..
«السيارة يا أدون (بيجال)..»
قطع صوت (زلفي) تسلسل أفكاره، فالتفت إليه في شيء من العصبية، قائلًا:
- أية سيارة؟!
ارتبك (زلفي)، وهو يقول:
- السيارة التي طلبتها.
رمقه (بيجال) بنظرة مستنكرة، وكأنَّما لم يطلب منه إحضار أية سيارات، ثم لم يلبث أن انتبه إلى الأمر، فقال في عصبية:
- فليكن.. استدع ذلك الخبير، وهيا بنا..
قاطعه صوت الخبير، وهو يشير إليه، هاتفًا:
- سيد (بيجال).. هناك آثار أخرى.

انعقد حاجبا (بيجال) في شدة، واتجه نحو الخبير في خطوات سريعة، وتطلَّع إلى تلك الآثار الجديدة، والخبير يقول:
- إنَّها ليست إحدى آثارنا.
وازداد انعقاد حاجبى (بيجال) في شدة..
فتلك الآثار كانت تحمل مفاجأة أخرى..
وتعني أن اللعبة ستمتد إلى جولة جديدة، أكثر أهمية..
وأكثر خطورة..

☆ ☆ ☆

لثوانٍ، انعقد لسان (صالح)، وعجز عن التفوُّه بحرفٍ واحدٍ، وهو يحدِّق في وجه الواقف أمامه، فاندفع شقيقه (أحمد) نحو الحجرة، وهو يستلُّ خنجره، هاتفًا في قلقٍ وانزعاج:
- ماذا حدث؟.. هل..
ثم ابتلع باقي عبارته، وهو يحدِّق بدوره في ذلك الشاب، ذي الثياب البدوية، الذي وقف في منتصف الحجرة، بقامة مشدودة في اعتدادٍ، على الرغم من علامات الإرهاق والإعياء الواضحة على وجهه، وفي نبرات صوته، وهو يقول:
- معذرة.. لم أقصد مباغتتكما.
انحلت عقدة لسان (صالح) مع عبارة الشاب، فاندفع نحوه في حرارة، هاتفًا:
- ربَّاه!.. كيف وصلت إلى هنا؟
أجابه (فاي) في تماسك:
- سيرًا على الأقدام.
اتسعت عينا (أحمد) في دهشة، وهو يغمغم:
- أهذا هو؟!
أما (صالح) فأسرع يدعو الشاب للجلوس على طرف فراشه، وهو يسأله في حماسٍ:

- لستُ أقصد هذا، وإنَّما أردتُ سؤالك عن كيفية توصلك إلى منزلي، وتجاوزك لنقاط التفتيش الإسرائيلية، وقواعد حظر التجوال؟!

ترك الشاب جسده المجهد يسقط على حافة الفراش، وهو يجيب في هدوءٍ رصينٍ، لا يتناسب أبدًا مع الإجهاد المطل في كل خلجة من خلجاته:

- كانت هناك خطة بديلة، في حالة عدم نجاحي في العثور عليك، أو سقوطي بعيدًا عن نقطة اللقاء، ولقد تم تدريبي على نموذجٍ (للقصيمة)، وحدَّدوا لى موقع منزلك بالضبط.

سأله (أحمد) في انبهار:

- هل درَّبوك على هذا أيضًا؟!

أومأ الشاب برأسه إيجابًا، وقاوَم سقوط جفنيه في إصرار، وهو يجيب في خفوت:

- إنَّهم لا يهملون أية تفاصيل أو احتمالات.

تمتم (أحمد):

- يا إلهي.. عَمَار يا (مصر).

أما (صالح)، فسأل الشاب في لهفة:

- وماذا عن الإسرائيليين وحظر التجوال؟!

ترك الشاب جفناه يسقطان فوق عينيه، وهو يغمغم في إرهاق شديد:

- هذه ليست مشكلة.

مال (أحمد) بوجهه إلى الأمام، وهو يحدِّق فيه بدهشة وانبهار، وفي حين ربت (صالح) على كتف الشاب في حرارة، وهو يقول:

- لا بأس يا بطل.. لا بأس.. لقد أبليت بلاءً حسنًا بحق، ولكنك الآن تحتاج إلى النوم.. جسدك فقد طاقته، ويحتاج إلى إعادة شحن بطارياته.. هيا.. ارقد في فراشي، وانعم ببعض النوم.. هيا.

حاول الشاب أن يقاوم رغبته في النوم، وهو يتمتم:
- وماذا عن الذهاب إلى (بئر سبع)؟
دفعه (صالح) في رفق؛ ليستلقي على الفراش، وهو يجيب في مزيجٍ مدهش من الإعجاب والتعاطف:
- سنذهب إليها يا بطل.. اطمئن.. سنذهب إليها.. احظ ببعض النوم أولًا، وسننطلق إليها مع الساعات الأولى للصباح.
لم يكن الشاب بحاجة إلى إلحاحٍ طويلٍ، مع إرهاقه وتهالكه الشديدين، فترك جسده يسترخي فوق الفراش، وهو يهمس:
- لا بأس.. لا بأس.
ثم هوى في بحر النوم بلا مقدمات..
ولثوانٍ، تطلَّع إليه (صالح) في صمت، ثم التفت إلى شقيقه، ووضع سبابته على شفتيه يدعوه إلى السكوت، ودفعه أمامه إلى خارج الحجرة، ثم أغلق بابها خلفه في رفقٍ، وهمسٍ:
- يبدو أنَّك ستضطر لاستضافتي في حجرتك الليلة.
سأله شقيقه مبهورًا:
- قل لي يا (صالح).. أكلُّ رجال المخابرات المصرية مثل هذا الشاب؟
ربت (صالح) على كتفه، قائلًا بابتسامة كبيرة:
- كلُّهم أبطال.
أومأ (أحمد) برأسه، وكأنَّما اكتفى بهذا الجواب، واتجه مع شقيقه إلى حجرته على أطرف أصابعهما، وكأنَّهما يخشيان إيقاظ الشاب، و...
وفجأة ارتفعت طرقات قوية على باب الشقة، فتجمَّد كلٌّ منهما في مكانه، وغمغم (صالح) في توترٍ شديدٍ:
- تُرى من يمكن أن يأتي في هذه الساعة؟
انتزع (أحمد) نفسه من دهشته وتوتره، واندفع نحو الباب قائلًا:

- من يدري؟
تحرَّك (صالح) في سرعة، محاوِلًا بلوغ حجرة الشاب لتحذيره، قبل أن يفتح (أحمد) الباب، ولكن الباب انفتح بغتة في عنف، واندفع عبره أربعة من الجنود الإسرائيليين إلى الحجرة، وصوبوا مدافعهم الآلية إلى (صالح) و(أحمد)، في نفس الوقت، الذي دلف فيه رجل صارم الملامح، يرتدي حلة مدنية، إلى المنزل، وهو يرمق البدويين بنظرة نارية..
رجل يُدعى (بيجال)..
(بيجال يائيل).

☆ ☆ ☆

٧- تحت الحصار..

«لقد فعلها..»

هتف (نسيم) بالعبارة في حماسٍ مدهشٍ، وهو يقتحم حجرة الاجتماعات الصغيرة، في مبنى المخابرات العامة، في الثالثة والصف صباحًا، فالتفت إليه الجميع في دهشة متسائلة، جعلته يلوح ببرقية في يده، مستطردًا:

- رجلنا نجا منهم.

ارتفعت حواجبهم في دهشة، وهتف أحدهم:

- (فاي)؟!

اندفع (نسيم) نحو مقعده، وهو يشير إلى البرقية، مجيبًا:

- نعم.. (فاي).. رجلنا (فاي).. لقد لقن الإسرائيليين درسًا قاسيًا، وجعلهم يعرفون مَن هم المصريون، وما الذي يمكن أن يفعلوه.

أشار إليه قائد المجموعة في اهتمام، قائلًا:

- اهدأ يا (نسيم)، وأخبرنا ماذا لديك.

لم يستطع (نسيم) مقاومة حماسه وانفعاله، وهو يجلس على مقعده، قائلًا:

- الشاب حطَّم أربع طائرات هليكوبتر (بي. أو – ١٠٥)، وأربع سيارات (جيب عسكرية)، وأسقط الجنود الإسرائيليين كالذباب، في مواجهته الأولى المنفردة معهم، ثم، وبعد كل هذا، نجح في الفرار منهم، وأصابهم بغضب جنوني، يدفعهم إلى نبش الأرض نبشًا للبحث عنه.

غمغم أحدهم:

- ربَّاه!.. أفعل كلَّ هذا وحده؟

ولكن قائد المجموعة اعتدل في مجلسه، وقال متوترًا:

- إذن فقد تعقدت الأمور هناك.
صمت الجميع إثر عبارته، وتركزت أبصارهم كلُّها على (نسيم)، الذي ذهب حماسه الزائد دفعة واحدة، واستعادت ملامحه جمودها وصرامتها، وهو يشارك الجميع صمتهم لما يزيد قليلًا عن نصف الدقيقة، ثم يقول في حزم:
- تعقدت للغاية.
نطقها، ثم استعاد حماسه بغتة، مضيفًا:
- ولكن هذا لا يمنع من أنَّ رجلنا ما زال متفوقًا.
أجابه القائد في صرامة:
- ربما كان كذلك من الناحية القتالية، وإن كنت أظنُّ هذا مجرد تفوق وقتي، أما من الناحية الأمنية، فذلك القتال، الذي دار في قلب (سيناء)، أيًّا كانت نتائجه، يعني أن جزءًا كبيرًا من خطتنا قد فشل.
أجاب (نسيم) في سرعة:
- ليس بعد.. الإسرائيليون يطاردون الشاب ويبحثون عنه، وسيقلبون الأرض من أجله، ولكنهم لن يستطيعوا أبدًا معرفة الهدف من هبوطه في (سيناء)، ولا الجهة التي ينتمى إليها.
ثم تراجع في مقعده، وقال مشيرًا بأصابعه:
- دعونى أذكركم بكل الاحتياطات التي اتخذت في هذا الشأن، فالمظلة التي هبط بها سوفيتية الصنع، وهي من طراز شائع، يستخدمه السوفيت والبولنديون، والمجريون، والسوريون، والعراقيون، ونحن، وبعض رجال المرتزقة، أما الزي الذي يرتديه فهو زي بدوي، يمكن أن يرتديه أي شخص يسعى للتسلل إلى مثل هذا المكان، ثم إنَّه لا يحمل أية أسلحة، ولديه أوراق رسمية سليمة، صادرة من جهات إسرائيلية مُعتَرف بها هناك، وتحمل كل الأختام المطلوبة.

سأله أحدهم:
- وماذا عن ملامحه ولهجته؟.. ألا تكفي لكشف هويته؟
هزَّ (نسيم) رأسه نفيًا، وهو يقول:
- كلَّا.. الشاب تدرب لفترة طويلة في القسم العبري (٣. ج. أ)، وهذا يؤهله لتقمُّص شخصية إسرائيلية في أية لحظة، حتى لو تم إيقاظه على نحو مباغت، أو تعرض للقسوة والتعذيب.
ران عليهم الصمت لحظات، وهم يتبادلون نظرات قلقة، ثم قال القائد:
- فليكن.. لم يعد التراجع ممكنًا، وليس أمامنا سوى حلٍّ من اثنين، فإما أن نصدر أمرًا بإلغاء العملية كلها، أو نمضي فيها قدمًا، أيًّا كانت النتائج.. ما رأيكم أيُّها السادة؟!
جرى تصويت سريع في القاعة، بعد مناقشة قصيرة، وتنفس (نسيم) الصعداء، عندما انتهى الأمر إلى الموافقة على استمرار العملية، والتفت إليه القائد، قائلًا:
- حسنًا يا (نسيم).. ما الموقف الآن بالضبط؟!
اعتدل (نسيم) في مجلسه، واستعاد الكثير من حماسه، وهو يجيب:
- ما دام الشاب قد نجح في الإفلات من الإسرائيليين، فسيتنقل مباشرة إلى الخطة البديلة، وسيتجه إلى منزل (صالح) في (القصيمة).. لقد درس المنطقة جيدًا، ولن يجد صعوبة في هذا.
ثم التقط نفسًا عميقًا، قبل أن يضيف:
- ولكن الأخبار ليست كلها حسنة بالتأكيد.
بدا الاهتمام والتساؤل في عيونهم، فتابع:
- فالرجل الذي يتولى العملية، في الجانب الإسرائيلي، ليس بالخصم الهين أو السهل.. إنَّه واحد من أقوى ضباط (الموساد)، وأكثرهم عنفًا وذكاءً وشراسة.

وأدار بصره في العيون، قبل أن يستطرد:
- إنَّه (يائيل).. (بيجال يائيل).
بدا أثر الاسم واضحًا في وجوههم، وهم يتبادلون نظرات أكثر قلقًا وتوترًا، وتنهد القائد في عمق، قائلًا:
- هذا يجعل موقف الشاب أكثر دقة، ف(بيجال) عنيد للغاية، ولا يقبل الهزائم بسهولة، وسيواصل مطاردته للشاب بلا هوادة، حتى يظفر به، حتى ولو اضطر إلى نسف نصف إسرائيل للوصول إليه.
أومأ (نسيم) برأسه موافقًا، وقال:
- هذا صحيح، ولذلك فقد أرسلت رسالة لاسلكية شفرية إلى أحد عملائنا المخلصين، في تلك المنطقة، وطلبت منه إفادتنا بتحرُّكات (بيجال) خطوة فخطوة، حتى يمكننا التحرُّك في الوقت المناسب، إذا ما تعقدت الأمور أكثر وأكثر، و...
اضطر لبتر عبارته، عندما ارتفع رنين هاتف الطوارئ الخاص، واستدارت العيون كلُّها إلى الهاتف، الذي التقط القائد سماعته، ووضعها على أذنه، قائلًا:
- ماذا هناك؟
وانعقد حاجبَاه في شدة، وهو يستمع إلى محدثه، قبل أن يغمغم بكلمة غير مفهومة، وينهي المحادثة، ثم يرفع عينيه إلى (نسيم)، قائلًا:
- عملينا أرسل آخر الأخبار.
أطلَّت اللهفة من عيون الجميع، وهو يتابع:
- الشاب بالفعل في منزل (صالح).
تنهَّد (نسيم) في ارتياح، وهم بقول شيء ما، لولا أن استدرك القائد في سرعة وحزم:
- وكذلك (بيجال) ورجاله.

واتسعت عينا (نسيم) في شدة، دون أن ينبس ببنت شفة..
لقد تعقدت الأمور أكثر وأكثر بالفعل..
وحدثت المواجهة التي يخشاها..
المواجهة بين (فاي)، ورجل (الموساد) المُحنَّك (بيجال)..
ويا لها من مواجهة!..

☆ ☆ ☆

خرجت الكلمات صارمة قاسية، من بين شفتي (بيجال)، وهو ينقل بصره بين وجهي (صالح) و(أحمد)، قائلًا:
- أين هو؟!
امتقع وجه (أحمد) في شدة، واتسعت عيناه في ارتياع، لم يغب عن عيني (بيجال) الخبيرتين، في حين قال (صالح) في سرعة:
- أين مَن يا رجل؟
التفت إليه (بيجال) في حركة حادة، وهو يقول:
- المصري.
تمالك (صالح) أعصابه جيدًا، وهو يجيب:
- أي مصري؟!.. كلُّنا هنا مصريون يا رجل.
مال (بيجال) برأسه نحوه، قائلًا في شراسة:
- لا تتذاكى أيُّها الحقير.. أنت تفهم سؤالي جيدًا، ولا جدوى من الإنكار، أو التظاهر بالبراءة والسذاجة.. لقد عثر الخبير على آثار إطارات سيارتك على الرمال، وتتبعناها إلى هنا، والسيارة ما زالت في مكانها أمام المنزل.
قال (صالح) في هدوء:
- وماذا في هذا؟.. إنني لم أدع.. إنَّني لم أخرج بسيارتي إلى الصحراء.. لقد أردت طرد قط، و...
باغته (بيجال) بصفعة قوية على وجهه، قبل أن يكمل عبارته، وصرخ فيه غاضبًا:

- قلت لك: لا تتذاكى.
احتقن وجه (صالح) في شدة، وأطلَّ غضب الدنيا كله من عينيه، في حين هتف (أحمد) في ثورة، ويده تقفز نحو خنجره المعلق في حزامه:
- أيُّها ال...
أمسك (صالح) يده في سرعة، هاتفًا:
- إيَّاك..
ضاقت عينا (بيجال)، وهو ينقل بصره بينهما، وقال في صرامة:
- أحسنت بمنعه أيُّها البدوي، فلو لمس مقبض خنجره هذا، لمزقته رصاصات رجالي إربًا، قبل أن يستلَّه من حزامه.
بذل (صالح) قصارى جهده لكظم غيظه، والسيطرة على أعصابه، وإن لم يستطع منع عينيه من رمي (بيجال) بنظرة نارية، وهو يتمتم:
- أعلم أن أمثالك لا يتورعون عن فعل هذا.
زمجر (بيجال) في شراسة واضحة، وهو يقول:
- عظيم.. إنَّني أميل دائمًا إلى التعامل مع مَن يحسنون فَهم الأمور.. هذا يختصر الكثير من الوقت، ويدخر الجهد والملل.
ثم عاد يميل نحوه، وهو يسأل في صرامة مخيفة:
- والآن، دعني أكرِّر السؤال للمرة الأخيرة.. أين هو؟!
لم يكد يتم عبارته حتى تناهت إلى مسامعه حركة خافتة، جعلته يدير عينيه في سرعة إلى الحجرة، التي يرقد داخلها الشاب، ثم استلَّ مسدسه، وهو يشير إليها، هاتفًا في انفعال:
- اهجموا يا رجال.
ولم يُضع الإسرائيليون لحظة واحدة..
فقبل حتى أن يكتمل هتافه، كانوا يندفعون نحو الحجرة، ويقتحمونها، و...

وردَّد الليل دوي الرصاصات في سماء (القصيمة)..

☆ ☆ ☆

مما لا شكَّ فيه أن الشاب كان مجهدًا إلى أقصى حد، عندما بلغ منزل (صالح)..

لقد تلقَّى تدريبًا مكثفًا، خلال الساعات القليلة، ما بين إبلاغه بالمهمة، وهبوطه الفعلي بالمظلة في قلب (سيناء)..

ثم خاض تلك المعركة العنيفة مع الإسرائيليين..

وقطع أكثر من عشرين كيلو مترًا سيرًا على الرمال..

وما أدراك كم يجهد السير على الرمال..

ولكل هذا، فقد استغرق في نومٍ عميق، في نفس اللحظة التي استلقى فيها على فراش (صالح)..

ولم تمض دقائق على هذا، حتى اقتحم (بيجال) ورجاله المكان..

وفي نفس اللحظة، التي فعلوا فيها هذا، استيقظ عقله دفعة واحدة..

استيقظ بكامل طاقته وحيويته، مثلما يحدث مع الذئاب، في ساعات الخطر..

وفي الثانية التي بدأ فيها رجل (الموساد) حديثه مع (صالح) و(أحمد)، كان الشاب يثب خارج فراشه، ويندفع نحو الباب على أطراف أصابعه..

وسمع دوي الصفعة، التي هوت على وجه (صالح)، فغلت الدماء في عروقه، وكاد يقفز خارج الحجرة، وينقضُّ على (بيجال)، ويحطِّم أنفه بلكمة مباشرة..

لولا أن دوت في رأسه كلمات مدربه الأولى (رفعت).

«لا تسمح لانفعالك بإخماد صوت العقل أبدًا..».

«في كل الظروف والأحوال، يمكنك أن تقاتل بكل قوتك، دفاعًا عن كرامتك وكبريائك.. إلا لو تعارض هذا مع مصلحة (مصر)..»

«عندما تبلغ الأمور الحد الأقصى من التعقيد والتشابك، فلا تتردد لحظة في الانسحاب، ما دام تمهيدًا لجولة جديدة من الصراع..»..

استعاد كل هذه العبارات في جزء من الثانية، وتمتم في صرامة:

- ستدفع ثمن هذه الصفعة يومًا أيُّها الإسرائيلي بإذن الله.. ستدفع ثمنها غاليًا.

وبالضبط كما تم تدريبه، راح عقله يدرس موقفه الحالي، ويبحث عن أفضل الوسائل لمواجهة الخطر، والسعي لإتمام المهمة التي هبط من أجلها..

وبعد ثوانٍ معدودة، كان يفتح نافذة الحجرة، ويثب متعلقًا بحافتها الخارجية العليا، ثم يدفع جسده بكل قوته إلى السطح..

والتقطت أذن (بيجال) صوت قفزته إلى السطح، فهتف يطالب رجاله بالهجوم، وأسرعوا بدورهم يقتحمون الحجرة..

وفي نفس اللحظة، التي فعلوا فيها هذا، كان الشاب يعدو فوق السطح، نحو حافته المطلة على مدخل المنزل ثم يثب منه إلى واحدة من سيارات (الجيب) العسكرية الثلاث، التي تقف هناك..

وكانت مفاجأة مدهشة لسائق السيارة، الذي صرخ، وهو يدير فوهة مدفعه الآلي نحو الشاب:

- اللعنة!.. من أين أت..

لم يمهله الشاب ليتم عبارته، وإنَّما انقضَّ عليه كالصاعقة، وهوى على فكه بلكمة كالقنبلة، ثم انتزع مدفعه الآلي من يده، قبل أن يركله بقدمه في صدره، ويلقي به خارج السيارة، ثم يلتفت لمواجهة الحارس الإسرائيلي، الذي استدار نحوه بمدفعه..

وردَّد الليل دوي الرصاصات في سماء (القصيمة)..

رصاصات انطلقت من مدفع الحارس الإسرائيلي..

ومن مدفع الشاب..
وهنا تجلت براعة التدريبات المصرية..
وموهبة الشاب القتالية الفذة..

لقد تحرَّك في سرعة مدهشة، فمال بجسده، وانثنى في رشاقة، ووثب جانبًا، في نفس اللحظة التي أطلق فيها الحارس الإسرائيلي رصاصاته، فطاشت كلها في الهواء، ولم تُصِب سوى زجاج (الجيب) وأحد مقاعده، في حين أطلق الشاب رصاصاته نحو هدفه في إحكامٍ مدهشٍ، فاخترقت كلُّها جسد الحارس، واقتلعته من الأرض، لتلقي به ثلاثة أمتار إلى الخلف، فارتطم بباب منزل (صالح)، وحطمه في عنف، ليسقط معه داخل المكان، وينابيع الدم تنفجر من صدره وعنقه ورأسه..

واتسعت عينا (بيجال) في غضبٍ هائلٍ، وهو يحدِّق في جثة الحارس، هاتفًا:

- اللعنة!.. إنَّه هنا.

في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كان الشاب يقفز إلى مقعد قيادة (الجيب)، ويدير محركها، ثم ينطلق بها مبتعدًا، فاستل (بيجال) مسدسه، وصرخ وهو يعدو نحو الخارج:

- ألقوا القبض على هذين البدويين الخائنين، وليلحق الباقون به.. أسرعوا.

وقفز خارج المنزل، وراح يطلق رصاصات مسدسه خلف (الجيب)، التي انطلق بها الشاب بأقصى سرعة، وهدير رصاصات المدافع الإسرائيلية يدوي من خلفه، ويعزف مع صوت ارتطام الرصاصات بجسم السيارة سيمفونية لا يستوعبها إلا من أَلِفوا مثل هذه الحياة..

سيمفونية الخطر..([5])

وبلا تردد، وثب (بيجال) إلى واحدة من سيارتي (الجيب) الأخريين، وانطلق بها خلف الشاب، في حين انطلق خلفه

أربعة من الجنود، في السيارة المتبقية، وبقي جنديان لإلقاء القبض على (صالح) وشقيقه..
ولم يكن من الطبيعي أو المنطقي، أن يستسلم البدويان بهذه البساطة.
لقد انكشف أمرهما، ولم يعد هناك مهرب من الاعتقال..
ولم يعد لديهما أيضًا ما يخسرانه..
لذا فقد استل (صالح) خنجره من غمده، ووثب نحو أحد الجنديين، هاتفًا:
- الموت أهون من الوقوع في أيديكم أيُّها الأوغاد.
بوغت الجندي بالهجوم، وقبل أن يدير فوهة مدفعه نحوه، كان (صالح) يغمد خنجره حتى مقبضه في صدره..
أما الجندي الآخر، فقد وثب متراجعًا في سرعة ومرونة، وصرخ:
- قتلتما زميلي أيُّها البدويان.. إنكما تستحقان القتل.
وفي نفس اللحظة التي استلَّ فيها (أحمد) خنجره، كان الإسرائيلي يصوب فوهة مدفعه إليه وإلى شقيقه، و..
ودَوَت الرصاصات مرة أخرى، في سماء (القصيمة)..
كان من الواضح أن الشاب بارع للغاية في قيادة سيارته..
وأن (بيجال) لا يقل عنه براعة..
أو إصرارًا..
ومن بعيد، بدأ الشفق يتلون بألوان الفجر الأولى، معلنًا الاستعداد لمولد شمس يوم جديد، وثلاث سحابات من الرمال تتكون في قلب الصحراء، في واحدة من أشرس المطاردات التي شهدتها (سيناء).
وفي أعماقه، شعر (بيجال) بغضبٍ هادرٍ..
لقد نجحت وسائله، وعثر على الجاسوس..
ولكنه لم يوقِع به في قبضته..

ومن الواضح أنَّه ليس جاسوسًا عاديًّا..
إنَّه رجلٌ من طرازٍ خاصٍّ..
خاصٍّ للغاية..
إنَّه يبدو له أشبه بالزئبق، كلما أطبقت عليه الأصابع، أفلت منها في سرعة وليونة..
ولكنه لن يسمح له هذه المرة..
لن يسمح له بالإفلات منه أبدًا..
ومهما كان الثمن..
وفي عنفٍ، انتزع بوق جهاز اللاسلكي في السيارة، وأدار مؤشر الجهاز إلى موجة محدودة، وهو يقول:
- (زلفي).. أين أنت أيُّها اللعين؟
أتاه صوت (زلفي)، يقول في ارتباك:
- أنا هنا يا أدون (بيجال).. إلى جوار الهليكوبتر كما أمرتني.
صاح به (بيجال):
- استقل تلك الهليكوبتر اللعينة، وأسرِع بها إلى هنا يا رجل.. لقد عثرنا على الجاسوس.
هتف (زلفي):
- حقًّا؟!.. هل ألقيتم القبض عليه؟
صاح (بيجال) في ثورة:
- ليس بعد أيُّها الغبي.. ليس بعد.. أسرِع بالهليكوبتر إلى هنا.. إنَّنا نطارده، ولا أريد أن أمنحه فرصة واحدة للفرار.
أجابه (زلفي) في انفعال:
- أرشدني إلى موقعك، وسنأتي إليك على الفور.
قال (بيجال)، وهو ينحرف بسيارته في عنف خلف الشاب:
- اتجه إلى الشرق، وسترى المطاردة في وضوحٍ يا رجل.. أسرِع.
وأنهى الاتصال، وانعقد حاجباه في حِدَّةٍ، وهو يغمغم:

- اللعنة.. ذلك الجاسوس ماهرٌ بحق.. إنَّه يتجه إلى..
بتر عبارته بغتة، وازداد انعقاد حاجبيه في شدة، وهو يقول:
- يا للشيطان!.. نعم.. إنَّه يتجه نحو فرقة (عامير) دون أن يدري.. إنَّها فرصة مثالية.
وعاد يلتقط بوق اللاسلكي، ويجري اتصالًا آخر..
وعندما انتهى من اتصاله، كانت دبابتان في فرقة الجنرال (عامير) تنفصلان عن رفيقاتهما، وتتجهان بطاقميهما نحو الغرب، لاعتراض طريق سيارة الشاب، وكان هذا يعني أن المطاردة قد تحولت إلى حملة صيد في قلب (سيناء)..
حملة احتشدت لها كل القوى، من أجل فريسة واحدة..
فريسة تحمل اسمًا فريدًا في عالم الأحياء..
اسم (فاي).

☆ ☆ ☆

فاى
سلسلة جديدة
روايات مصرية للجيب
عملية تل أبيب
الجزء الثالث والأخير
د. نبيل فاروق
المؤسسة العربية الحديثة

٨- مقاتل.. وجيش..

ارتفعت الشمس من خلف جبال (سيناء)، وغمرت الصحراء، الممتدة إلى مدى البصر، بأشعتها الذهبية، التي انعكست على الرمال، وعلى سطح الدبابتين، اللتين انطلقتا من معسكر الجنرال (عامير)، لاعتراض طريق (فاي)، ووضع قائد إحداهما منظاره المقرب على عينيه، وهو يقول:

- لا يوجد أثر لذلك الجاسوس على مدى البصر.. أجر اتصالًا آخر برجل (الموساد)، وسله: أهو واثق من أن الجاسوس ينطلق نحونا مباشرة.

أجابه أحد رجاله من طاقم الدبابة:

- سمعًا وطاعة يا سيدي.

وأجرى اتصاله بسرعة، مع (بيجال)، الذي هتف في عصبية:

- ماذا تقول يا هذا؟! إنَّه يتجه نحوكم بالتأكيد.. ها هو ذا، على بُعد كيلو متر واحدٍ منَّا.. إنَّني أراه في وضوح، على الرغم من عاصفة الرمال العاتية، التي تثيرها سيارته، مع السرعة الرهيبة، التي ينطلق بها على رمال (سيناء).

ثم أضاف في حنق:

- لست أدري كيف اكتسب تلك المهارة، ولا كيف يحتفظ بتوازن السيارة، مع هذه السرعة المخيفة.

أشار قائد الطاقم إلى الرجل، وقال:

- فليكن.. أخبره أنَّنا سنواصل طريقنا، حتى نلتقي به، و..

بتر عبارته فجأة، وهو يشرئب بعنقه، هاتفًا:

- ها هو ذا.. إنَّني ألمحه الآن.

نقل رجل الاتصال هذا إلى (يائيل)، الذي هتف بدوره في انفعال:

- عظيم.. انسفه يا رجل.. انسفه بلا تردد.
ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتي قائد طاقم الدبابة، وهو يقول:
- بالتأكيد يا رجل.. سننسفه نسفًا، ونبعثر أشلاءه فوق الرمال، بحيث لا تجد الفئران أنفسها ما يكفيها من بقاياه..
وأشار إلى أفراد طاقمه، مستطردًا في صرامة:
- حدِّد الهدف.
أدار الرجال مدفع الدبابة، وقال أحدهم:
- تم تحديد الهدف والتصويب عليه.
تطلع الرجل لحظة أخرى إلى سيارة (فاي)، عبر منظاره المقرب، ثم أشار بسبابته، قائلًا في حزمٍ مقتضبٍ:
- اضرب.
ومع إشارته، جذب جندي المدفع ذراع الإطلاق..
وانطلقت القنبلة..
نحو الهدف مباشرة..
نحو (فاي)..

☆ ☆ ☆

انطلق (بيجال) ليطارد الشاب، تاركًا اثنين من جنوده خلفه؛ لإلقاء القبض على (صالح) وشقيقه..
ولم يكن من الطبيعي أو المنطقي، أن يستسلم البدويان بهذه البساطة، فقد انكشف أمرهما، ولم يعد لديهما ما يخسرانه..
لذا، فقد وثب (صالح) يستلُّ خنجره، ويغمده حتى مقبضه، في صدر أحد الجنديين، فوثب الثاني متراجعًا في خفة، وهو يصرخ:
- قتلتما زميلي أيُّها البدويان.. إنَّكما تستحقان القتل..
ورفع مدفعه في وجهيهما، و..
ودوت الرصاصات في سماء (القصيمة)..

ومع دويها، انتفض (صالح) وشقيقه (أحمد) في عنف، وخُيِّل إليهما أن رصاصات الإسرائيلي قد اخترقت جسديهما، ثم لم يلبثا أن انتبها إلى جحوظ عيني الجندي، وتلك الدماء التي تدفقت من مواضع شتَّى في جسده، قبل أن يسقط عند قدميهما جثة هامدة، ويبرز من خلفه جارهما (فائز)، قائلًا في لهفة:

- أأنتما بخير؟!

حدَّقَا في وجهه بدهشة، قبل أن يهتف (صالح) مأخوذًا:

- بالتأكيد.. لقد وصلت في اللحظة المناسبة يا رجل.

انعقد حاجبا (فائز) في صرامة، وهو يعيد مسدسه الآلي إلى غمده، قائلًا:

- لم يكن هذا من قبيل المصادفة أو العشوائية.

أطلَّ تساؤل كبير من عيونهما، فأضاف في حزم:

- أنا أيضًا أعمل لحساب المخابرات المصرية.

تهلَّلت أساريرهما، واندفع (صالح) نحوه، يربت على كتفيه في حرارة، هاتفًا:

- مرحى يا رجل.. مرحى.

ارتسمت على شفتي (فائز) ابتسامة باهتة، تلاشت بسرعة، وهو يقول:

- هيا.. غادرَا (القصيمة) بأقصى سرعة.. اتجها إلى الموقع (٧١٠)، وستلتقطكما هليكوبتر مصرية من هناك؛ لتنقلكما إلى (القاهرة).

تبادل (صالح) و(أحمد) نظرة دهشة، قبل أن يسأل الأخير:

- ولماذا نذهب إلى (القاهرة)؟!

أجابه (فائز) في سرعة:

- هذه هي الأوامر.. أن ترحلا فورًا، في حالة انكشاف أمركما.. سألحق أنا بالشاب في قلب الصحراء، وأبذل قصارى جهدي

لمعاونته على الوصول إلى (تل أبيب)، فلا بدَّ أن تكتمل المهمة بأي ثمن.
تبادَل (صالح) وشقيقه نظرة أخرى، تحمل كل الحزم والعزم هذه المرة، ثم قال الأول:
- كلَّا يا (أبو رابح).. لقد انكشف أمرنا وانتهى الأمر، وكان من الممكن أن نلقى حتفنا منذ لحظات، لولا ما فعلته، وسنواصل مهمتنا يا رجل.
قال (فائز) في توتر:
- هذا شديد الخطورة يا (صالح).. الإسرائيليون لن..
قاطعه (أحمد) في حزم:
- أنت تدرك أنَّنا خير من يعرف مسالك (سيناء) ودروبها يا رجل، وأنَّنا الأفضل في هذا المضمار، منذ عهود أجدادنا، وبدون خبراتنا هذه قد تتعرض المهمة كلُّها للفشل.
قال (فائز) في تردد:
- ولكن الأوامر..
ربت (صالح) على كتفه، قائلًا:
- الشيء الوحيد، الذي ينبغي وضعه في الاعتبار، هو نجاح المهمة يا رجل، ولا داعي لأن تخاطر بكشف أمرك، بعد أن انكشف أمرنا.
والتقط نفسًا عميقًا، قبل أن يستطرد في حزم:
- هيا يا (أبو رابح).. أجرِ اتصالك ب(القاهرة)، وأخبرهم أن (صالح) و(أحمد) سيواصلان القتال.
انعقد حاجبَاه في حزم أكثر، وهو يضيف:
- من أجل (مصر)..
وانتفض قلب (فائز) بين ضلوعه..
بمنتهى العنف..

☆ ☆ ☆

لحظة واحدة، كانت الفيصل بين الموت والحياة..

ففي تلك اللحظة، كان الشاب ينطلق نحو الدبابتين، وضوء الشمس المواجه لعينيه، يمنعه من تمييزهما في وضوح..

عندما انطلق مدفع إحداهما..

ولمح الشاب وهج الإطلاق..

وفهم ما يعنيه..

وبحركة حادة عنيفة، انحرف بالسيارة، وانطلق بها يسارًا.

وعلى مسافة أربعة أمتار فحسب منه، دوَّى الانفجار..

انفجرت القنبلة، التي أطلقتها الدبابة الأولى، وانطلقت مع انفجارها عاصفة من الرمال، بلغ بعضها سيارة الشاب، وهو ينطلق في خط متعرج، وقد أدرك أنَّه لم يعد يواجه السيارتين المطاردتين فحسب..

وإنما أيضًا دبابتين قويتين..

وفي نفس اللحظة، التي أدرك فيها هذا، كانت الدبابة الثانية تطلق قنابلها بدورها..

وعلى الرغم من المهارة المدهشة، التي يقود بها الشاب السيارة، فوق رمال (سيناء)، راحت القنابل تنفجر عن يمينه ويساره، وكاد بعضهما يقتلع السيارة من مكانها، وهو يواصل الانطلاق بها، و(بيجال) من خلفه يصرخ غاضبًا، عبر أجهزة الاتصال اللاسلكية:

- ماذا دهاكم يا رجال؟! أين تعلمتم التصويب؟! كيف تخطئون إصابة سيارة جيب واحدة؟!

صاح به قائد إحدى الدبابتين في حِدَّة:

- تعال أنت وصوِّب كما يحلو لك أيُّها المتحذلِق.. ذلك الرجل يقود السيارة في براعة مدهشة، ورجالي محترفون، ويبذلون

قصارى جهدهم للظفر به.
هتف (بيجال) في حِنق:
- فلنحاصره إذن.. أو ننسف نصف الصحراء من حوله.. المهم ألَّا نسمح له بالفرار أبدًا.
في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته هذه، كان الشاب يواصل الانطلاق في خطٍّ متعرج، فوق رمال (سيناء)، ويده اليمنى تفحص محتويات سيارة (الجيب)، بحثًا عن سلاح ما، تركه أحد الجنود الإسرائيليين خلفه، أو عن أي شيء يمكن أن يصلح كسلاح..
كانت هناك عبوة وقود احتياطية، وخزانة رصاصات إضافية، تركها أحد الجنود خلفه..
ولم تكن هناك أية أسلحة..
وبسرعة، راح عقل الشاب يعمل، ويعمل.. ويعمل، في محاولة لإيجاد وسيلة مناسبة، للاستفادة مما وجده، في موقفه الشديد الصعوبة، خاصة وقد بدأت الدبابتان عملية حصاره، وسيارة (بيجال) تقترب أكثر، وخلفها سيارة الجنود، و...
وفجأة، برزت أيضًا تلك الهليكوبتر الحربية، التي أتى بها (زلفي)..
ودون مقدمات، انهالت رصاصاتها على سيارة الشاب، و(زلفي) يهتف، عبر جهاز الاتصال اللاسلكي:
- ها نحن ذا يا أدون (بيجال).. لقد وصلنا، وسننسف ذلك الجاسوس.
لوح (بيجال) بقبضته، هاتفًا في حماس:
- نعم يا (زلفي).. انسفه.. اسحقه.. لا أريد أن تتبقَّى منه حفنة واحدة من الأشلاء.
تألقت عينا (زلفي)، وبدت له هذه فرصة مثالية، لإرضاء رئيسه، وإثبات تفوقه، فغمغم:

- سمعًا وطاعة يا أدون (بيجال).. سمعًا وطاعة..
ثم التفت إلى قائد الهليكوبتر، قائلًا:
- هل سمعت؟!
أومأ الطيار برأسه إيجابًا، وضغط زر إطلاق النيران في قمة عصا القيادة، وهو ينقضَّ مرة أخرى على السيارة، مغمغمًا:
- بالتأكيد..
وصار الشاب في موقف لا يُحسد عليه بالفعل..
لقد أصابت رصاصات الهليكوبتر الجزء الخلفي من سيارته، وثقبت خزان وقودها، في نفس الوقت الذي انفجرت فيه قنبلة إحدى الدبابتين، على مسافة ثلاثة أمتار منه، وكادت موجتها التضاغطية تقتلع السيارة من مكانها، وتقلبها على جانبها فوق الرمال..
ولكن العجيب أن الشاب لم يفقد أعصابه، أو قدرته على التفكير والتدبير، على الرغم من كل هذا..
لقد درس موقفه العصيب بدقة، وهو ينطلق بالسيارة في خطٍّ متعرج للغاية، والتقط عبوة الوقود الاحتياطية، وانتزع فوهتها، ودس فيها قطعة من القماش، انتزعها من غطاء قديم، ملقًى بإهمال داخل (الجيب)..
ومن حسن حظه أن عثر على علبة ثقاب صغيرة، في درج تابلوه السيارة، استخدمها لإشعال النيران في طرف قطعة القماش، قبل أن يلقي العبوة ذات الطرف المشتعل في المقعد الخلفى للسيارة (الجيب)..
وفي الهليكوبتر، لمح (زلفي) ما فعله الشاب، فعقد حاجبيه في توتر، وهو يغمغم:
- ما الذي يفعله هذا الرجل؟! هل يزمع الانتحار فرارًا منَّا؟!
أجابه الطيار بلهجة ساخرة:

- دعنا لا نمنحه هذه الفرصة.
قالها، وهو يعاود الانقضاض على (الجيب)، ويطلق نيرانه نحوها..
واخترقت الرصاصات هذه المرة جسم (الجيب) وكادت تظفر بالشاب أيضًا، حتى أن إحداها احتكت بفخذه الأيمن، قبل أن تغوص في طرف مقعد القيادة، في حين اخترقت ثانية الزجاج، ونسفته في عنف، لتتناثر شظاياه في وجهه..
ولكن الشاب لم يتوقف..
لقد واصل انطلاقه، متجهًا نحو إحدى الدبابتين، والعبوة المشتعلة ما زالت في المقعد الخلفي للسيارة، وكأنَّه يزمع الانتحار بالفعل..
وفي الدبابة، رأى قائد طاقمها السيارة (الجيب) تنطلق نحوه مباشرة، فغمغم في توترٍ شديدٍ:
- ما الذي يفعله هذا المجنون؟! إنَّه ينطلق نحونا مباشرة!!
ثم التفت إلى أحد رجاله، هاتفًا:
- أطلق قنابلك نحوه يا رجل.. انسفه نسفًا.
خفض الرجل ماسورة مدفع الدبابة بأقصى سرعة ممكنة، محاولًا تصويب فوهته إلى الجيب، إلا أنَّها كانت قد اقتربت في شدة، فهتف:
- سيدي.. إنَّها..
اختنقت الكلمات في حلقه، واتسعت عيناه في ذعر، عندما شاهد الشاب يقفز خارج السيارة، على الرغم من الرصاصات والانفجارات، ويتركها تواصل طريقها نحو الدبابة، التي هتف قائدها:
- اللعنة!.. إنَّها سوف..

قبل أن يتم عبارته، ارتطمت السيارة (الجيب) بمقدمة الدبابة، و..
وانفجرت عبوة الوقود الإضافية..
وانفجرت معها السيارة كلها..
وبحركة غريزية، مع دوي الانفجار، واشتعال النيران في الدبابة، جذب قائد الهليكوبتر عصا القيادة، فارتفع بالطائرة عاليًا، و(زلفي) يهتف:
- اللعنة! اللعنة! كيف فعل هذا؟!
أجابه قائد الهليكوبتر في توترٍ بالغ:
- من الواضح أنَّه ليس جاسوسًا عاديًّا، إنَّه مقاتل من نوعٍ متميزٍ للغاية، يتفوق حتى على رجال الكوماندوز المصريين، الذين واجهناهم في حرب أكتوبر.
لوَّح (زلفي) بيده في حِدَّةٍ، هاتفًا:
- لا تتحدث عن حرب أكتوبر هذه.. لا تتحدث عنها الآن بالذات.

أما (بيجال)، فقد احتقن وجهه بشدة، عندما شاهد ما حدث، وغمغم:

- مستحيل! أي جاسوس هذا، الذي أرسله المصريون؟!

ثم لم تلبث دهشته هذه أن تحوَّلت إلى غضبٍ هادرٍ، وهو يصرخ:
- سأظفر بك حتمًا أيُّها المصري.. سأظفر بك، ولو كان هذا آخر عملٍ، في حياتي كلها.
قالها، وهو يزيد من سرعة سيارته، حتى يبلغ الشاب، الذي قفز من (الجيب) قبل انفجارها، ولم يعد يمتلك وسيلة للفرار..
ولكن الشاب لم يتوقف لجزء من الثانية، منذ وثب خارج (الجيب)..
لقد قفز منها، وتدحرج على رمال (سيناء)، وهو يقبض على قطعة أخرى من القماش، مبللة بالوقود، وبداخلها كل الرصاصات، التي انتزعها من الخزانة الإضافية، التي عثر عليها في (الجيب)، ثم وثب واقفًا على قدميه بخفة مدهشة، وانطلق يعدو بكل قوته نحو الدبابة الثانية، التي لم يَفِق طاقمُها من أثر المفاجأة بعد..
وقبل أن يستعيد أفراد الطاقم جأشهم، وقدرتهم على المواجهة والقتال، كان الشاب يثب فوق جنزير دبابتهم، ومنه إلى برجها، ويشعل لفة القماش، مغمغمًا:
- من (مصر)، مع خالص تحياتي.
وفتح البرج بحركة سريعة، وهو يحمد الله (سبحانه وتعالى)؛ لأن المراقب لم يغلقه خلفه من الداخل، عندما هبط إلى باطن الدبابة، ثم ألقى لفة القماش المشتعلة، وأغلق البرج ثانية في قوة..
وبداخل الدبابة، حدَّق أفراد الطاقم وقائدهم في اللفة، وصرخ أحدهم:
- قنبلة.
ولكن القائد هتف قائلًا:

- كلَّا.. إنَّها ليست قنبلة.. إنَّها..
واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يصرخ في رعب:
- رصاصات.
وفي نفس اللحظة، التي انطلقت فيها صرخته، كانت النيران قد رفعت درجة حرارة مظاريف الطلقات، إلى الحد الكافي لإشعال البارود اللادخاني داخلها، فانفجر، مطلقًا المقذوفات في كل اتجاه، داخل الدبابة المغلقة..
ولم ينتظر الشاب لمعرفة النتائج، التي بدت له محسومة على نحو منطقي، فانطلاق أكثر من دستتين من الرصاصات، ([6]) على نحو عشوائي، داخل مساحة مغلقة كهذه، كفيل بقتل كل كائنٍ حيٍّ فيها..
ثم إن سيارتي (الجيب) الإسرائيليتين تنطلقان نحوه، وتقتربان منه بسرعة، مع كل ما تحملانه من جنود..
والهليكوبتر تكمل دورتها، استعدادًا للانقضاض عليه من جديد..
وهو لا يحمل سلاحًا واحدًا للقتال..
أو للدفاع عن نفسه..
لذا فقد وثب من فوق الدبابة الثانية، وانطلق يعدو على الرمال، على نحو جعل (بيجال) يهتف في ظفر:
- آه.. وقعت أيُّها المصري.. لا يوجد مكان واحد، يمكنك الذهاب إليه، أو الاختباء فيه هنا.. لقد انتهيت.. انتهيت تمامًا.
ومع نهايات كلماته، انقضَّت الهليكوبتر بالفعل، وقال قائدها في غضبٍ هادرٍ:
- إنَّها نهايتك هذه المرة أيُّها الجاسوس.
وضغط زر إطلاق النار في قمة عصا القيادة، و..
وانطلقت الرصاصات..

هادرات..

☆ ☆ ☆

٩- رمال.. ودماء..

تنهَّد (نسيم)، وفرك عينيه في إرهاقٍ شديدٍ، وهو يجلس على مقعدٍ خشبي صغير، في ركن قاعة الاجتماعات، في المخابرات العامة، ثم لوَّح بكفِّه، قائلًا:

- أعترف أنَّ الموقف معقدٌّ للغاية.

تبادَل زملاؤه نظرة صامتة مشفقة، قبل أن يتابع هو في حزم:

- ولكنه ليس ميئوسًا منه.

عاد الرجال يتبادلون نظرة أخرى، حملت شيئًا من التوتر، ثم مال أحدهم إلى الأمام، وقال في عصبية واضحة:

- (نسيم).. كلنا نعلم مدى ارتباطك بذلك الشاب، واقتناعك بمهاراته وقدراته، على الرغم من تعارض هذا بشدة مع قواعد العمل، التي تحتِّم عدم الوقوع في حبِّ العميل، مهما كانت أهميته وكفاءته، ولكن الموقف الذي أمامنا، يحتِّم علينا طرح كل الانفعالات والقناعات غير المنطقية جانبًا.

انعقد حاجبَا (نسيم)، دون أن يجيب، في حين تابع زميله، وهو ينهض إلى خريطة كبيرة لصحراء (سيناء) و(فلسطين):

- آخر ما وصلنا من إحداثيات، يشير إلى أن الشاب هنا، ينطلق بسيارة (جيب) في قلب الصحراء، وخلفه (بيجال)، وعدد من جنوده، كما أن عميلنا في معسكر الجنرال (عامير) يؤكد أن دبابتين قد خرجتا لاعتراض طريقه، والشاب لا يحمل حتى مسدسه، ليواجه به كلَّ هذا، فما الذي يمكن توقعه، في ظروف كهذه؟!

ازداد انعقاد حاجبي (نسيم)، وهو يقول في صرامة:

- مع (فاي)، لا يمكنك أن تتوقع شيئًا.

هتف زميل آخر في حِدَّةٍ:
- إنَّه مجرد مقاتل يا (نسيم).. رجل واحد، مهما بلغت قدراته.. وهذا الرجل الواحد يواجه جيشًا صغيرًا محدودًا، لن يلبث أن يتطور بسرعة، كعادة الإسرائيليين؛ ليتحول إلى قافلة من الدبابات، وطائرات الهليكوبتر، والعربات المدرعة، وسيكون عليه أن يواجه كلَّ هذا وحده.. هل تعتقد أن باستطاعته هذا؟!
كان التوتر، الذي يشعر به (نسيم) في أعماقه، يفوق توترهم مجتمعين بمرتين على الأقل، إلا أنَّ طبيعته الصارمة جعلته يخفي هذا عن ملامحه وصوته، وهو يجيب:
- سيجد وسيلة ما.
هتف أحد الرجال:
- كفى يا (نسيم).. إنَّك تتجاوز كل الحدود المسموح بها، بموقفك هذا.. هل تعتقد أنَّنا لا نتمنى مثلك نجاح المهمة؟! إنَّك تُدرِك جيدًا مدى أهميتها وخطورتها بالنسبة لنا.. ولكن من الخطأ أن نستند على افتراضات وهمية، أو غير معقولة، ونحن نتعامل مع أمرٍ كهذا.. أو مع أي أمر آخر.. إن العمل في أجهزة المخابرات بالتحديد، يحتِّم الاستناد دومًا إلى الواقع المجرد، دون أية عواطف، أو انفعالات، أو رغبات وأهواء شخصية.
صمت (نسيم) لحظة، برزت خلالها نواجذه، وكأنَّما يبذل جهدًا خرافيًّا، للسيطرة على مشاعره، قبل أن يقول:
- فليكن.. وماذا لو افترضنا هذا؟!
بدت عليهم الحيرة، التي لم تلبث أن انتقلت إلى لسان أحدهم، وهو يقول:
- ماذا تعني يا (نسيم)؟!
اعتدل (نسيم) بحركة حادة، وقال في صرامة شديدة، أفرغ فيها توتره كله:

- بل ماذا يعني حديثكم أنتم؟!
قالها، وهبَّ من مقعده، ليندفع نحو الخريطة الكبيرة، متابعًا:
- فلنفترض أن الشاب يواجه دبابتين وسيارتي (جيب) متخمتين بالجنود.. أو حتى سربًا من طائرات الهليكوبتر المقاتلة.. ما الذي سيضيفه هذا أو يحذفه من المهمة؟! هل سنتوقف عن متابعتها؟! هل سنلغيها؟! أجيبوني.. ما الذي سيفعله هذا؟!
ران عليهم مزيج من الصمت والارتباك، وتمتم أحدهم:
- الواقع أنَّنا لم..
قاطعه (نسيم) في حزمٍ، وهو يشير بيده إلى الخريطة:
- الواقع أنَّه ليس لدينا ما نفعله، سوى أن نواصل العملية، وليكن ما يكون.. أنتم تقولون إن آخر ما لدينا هو أن (فاي) هنا.. يواجه جيشًا محدودًا من الإسرائيليين، وأن المواجهة ليست في صالحه، وأنَّه سيخسر حربه حتمًا.
ثم التفت إليهم، وعقد ساعديه أمام صدره، متابعًا:
- ولكن ماذا لو خرج من المواجهة ظافرًا؟!
ظهر عليهم التوتر، وهمَّ أحدهم بقول شيءٍ ما، لولا أن تابع (نسيم) في صرامة:
- سؤال لم يطرحه أحدكم على نفسه؛ لثقتكم في استحالة خروجه من تلك الحرب الطاحنة ظافرًا، ولكنه أيضًا مجرد احتمال، يقبل الخطأ والصواب، ولأنَّنا رجال مخابرات، وعملنا يحتِّم علينا عدم إهمال أية احتمالات، مهما بلغت ضآلتها، فدعونا نفترض أنَّه انتصر، ونجح في الخروج من تلك المصيدة المحكمة، فما الذي سيحدث عندئذ؟!
جذب أسلوبه اهتمامهم، على الرغم منهم، فأنصتوا إليه في صمتٍ وانتباهٍ، وهو يتابع على الخريطة:

- هذا الشاب من طراز خاص – كما سبق أن أخبرتكم – ولقد قمت بتدريبه بنفسي، ودرست أسلوب تفكيره جيدًا، حتى إنني أستطيع استنتاج، أو استنباط خطواته التالية.. إنَّه الآن هنا، والمطلوب منه أن يذهب إلى (بئر سبع)، ومنها إلى (تل أبيب)، ولكن الأمور تشابكت وتعقَّدت، وصار من الأفضل أن يتم اختصار خط السير، والوصول إلى الهدف بأقصى سرعة، لذا فسيتجاهل الذهاب إلى (بئر سبع)، وسيتجه مباشرة إلى (تل أبيب).

سأله أحدهم في لهفة شديدة:

- كيف؟!

التقط (نسيم) نفسًا عميقًا، قبل أن يجيب:

- لست أدري؟!

هبط عليهم الجواب كالصاعقة، فتراجعوا في دهشة بالغة، قبل أن يهتف أحدهم:

- ماذا تعني بأنَّك لست تدري يا (نسيم)؟!

لوَّح (نسيم) بيده، قائلًا:

- أعني ما سمعتموه بالضبط يا سادة.. أنا واثق من أن الشاب سيتجاوز (بئر سبع)، وسيتجه مباشرة إلى (تل أبيب)، ولكن كيف سيفعل هذا؟.. لست أدري.. لقد دربته جيدًا على حسن الاستفادة من الظروف المحيطة، وعلى فنِّ معالجة الكوارث، ثم إنَّه يجيد التعامل مع كل وسائل النقل تقريبًا، وبكفاءة جيدة جدًّا.. ربما لا تبلغ حد الامتياز، ولكنها تكفي للتعامل مع ظروف بالغة التعقيد، يعجز سواه عن مجرد التفكير فيها، ولكل ما سبق، أعتقد أنَّه سيجد وسيلة للانطلاق مباشرة إلى (تل أبيب).

اندفع أحدهم يقول:

- هذا لو خرج من محنته سالمًا.

انعقد حاجبَا (نسيم) في شدة، وهو يقول:
- نعم.. لو خرج من محنته سالمًا.
وفي أعماقه، تكرَّرت العبارة ألف مرة..
نعم.. إنَّه واثق من قدرة الشاب على حسن التصرف..
حتى في أعقد الظروف..
وواثق أيضًا من أنَّه سيجد وسيلة ما، للذهاب إلى (تل أبيب)..
ولكن هذا لو خرج من تلك الحرب ظافرًا..
أو حتى سالمًا..
لو..

☆ ☆ ☆

في نفس اللحظة، التي انطلقت فيها رصاصات الهليكوبتر، وثب الشاب..
وثب وثبة مرنة، قوية، مدهشة، عائدًا إلى الدبابة الثانية.
ومع وثبته، شعر بسهمٍ من النار يمزق جزءًا من فخذه الأيمن، وتناثرت الرمال على وجهه، من رصاصة ضربت الرمال، على مسافة سنتيمترات قليلة منه، وارتطم كتفه الأيسر بجزء من جنزير الدبابة، قبل أن يتدحرج جسده كله في سرعة، ويختفي أسفلها..
وصاح طيار الهليكوبتر في غضب، وهو ينخفض بها، ليدور حول الدبابة:
- اللعنة! أين ذهب ذلك الجاسوس؟! ما الذي يظن أنَّه يفعله؟!
كانت سيارة (بيجال) قد بلغت المكان أو كادت، فهتف هذا الأخير، وهو ينطلق نحو الدبابة:
- لماذا انخفضت الهليكوبتر يا (زلفي)؟!.. وأين ذهب ذلك المصري؟!
هتف (زلفي) عبر اللاسلكي:

- الواقع يا أدون (بيجال) أنَّنا..
قبل أن يتم عبارته، برز الشاب فجأة، من الجانب الآخر للدبابة، وتسلق جنزيرها بخفة مدهشة، اتسعت لها عينا (بيجال)، وهو يستلُّ مسدسه، هاتفًا في حِدَّةٍ:
- اللعنة!.. إنَّه..
قبل أن تكتمل عبارته..
وقبل حتى أن يستوعب قائد الهليكوبتر، أو (زلفي)، أو الجنود الأربعة، في السيارة (الجيب) الأخرى الموقف، كان الشاب يثب نحو الهليكوبتر، ويتعلق بها، ثم ينثني في مرونة مذهلة، ويدفع جسده داخلها..

وبسرعة البرق، انتزع (بيجال) مسدسه، وأطلق رصاصاته نحو الهليكوبتر، صارخًا برجاله:

- امنعوه.. امنعوا المصري من الفرار بأي ثمن.

شعر الشاب برصاصة تخترق ظهره، وبأخرى تغوص في كتفه الأيسر في نفس اللحظة التي أخرج فيها (زلفي) مسدسه، هاتفًا:
- كيف فعلت هذا أيُّها ال..
أخرسه الشاب بلكمة كالقنبلة في فكه، قبل أن يميل بزاوية حادة، ويجذب عصا القيادة، قائلًا للطيار بالعبرية:
- ارتفع يا رجل.. ألا تقلقك تلك الرصاصات؟!
ارتفعت الهليكوبتر بحركة عنيفة، وبزاوية ميل مخيفة، ومالت مروحتها العلوية، حتى كادت تجتز عنق (بيجال)، لولا أن انحنى في سرعة، ووثب خارج السيارة في حين تردَّد رجاله، وهم يتابعون مسار الهليكوبتر الإسرائيلية بفوهات مدافعهم الآلية، في انتظار تأكيد منه لأمر إطلاق النار، على طائرة تحمل نجمتهم السداسية الزرقاء ([7])..
وبكل غضبه وحنقه وثورته، هتف (بيجال) بهم:
- ماذا تنتظرون أيُّها الحمقى؟! أطلقوا النيران.
حطم هتافه تردُّدهم، فانطلقت رصاصاتهم كالمطر خلف الهليكوبتر، التي ابتعدت أكثر وأكثر، وبداخلها جذب (فاي) عصا القيادة بيسراه، وهو يقبض على معصم قائدها بيمناه؛ لمنعه من انتزاع مسدسه، والطيار يقول في غضب:
- لست أدري كيف فعلتها أيُّها الجاسوس، ولكنك لن تنجح في السيطرة على طائرتي أبدًا.
قالها، ثم لكم الشاب في معدته بكل قوته، ودفعه بعيدًا، وهو يستلُّ مسدسه من غِمده، مستطردًا:
- بل ستلقى مصرعك داخلها.
كان الشاب يشعر بآلام مبرحة، تندلع من كل إصاباته، وبإرهاق لا حدود له، في كل جزء من جسده، إلا أنَّه، وعلى الرغم من

هذا، كان يحتفظ بإرادته الفولاذية سالمة قوية، وبإصراره على الفوز بمهمته تامًّا غير منقوص؛ لذا فقد مال جانبًا، في محاولة لتفادي الرصاصة، التي انطلقت من مسدس الطيار، ولكنه شعر بدويها كالقنبلة في أذنه، وبحرارتها الرهيبة تحرق جزءًا من ساعده الأيسر، فوثب نحو الطيار، دون كلمة واحدة، وهوى على معصمه بضربة قوية من حافة يده، أطاحت بمسدسه، وضربت به زجاج الهليكوبتر، قبل أن يسقط على أرضيتها، ويتدحرج خارجها، في نفس اللحظة التي حطَّم فيها الشاب فكَّ الطيار بلكمة أخرى، انطلقت من يمناه كالقنبلة..

وصرخ الطيار في غضبٍ هائلٍ:

- أيُّها الجاسوس اللعين.. لقد.. لقد..

قبل أن يتم عبارته، انتزع الشاب حزام مقعده، ثم ركله بكل قوته، مغمغمًا:

- اذهب إلى الجحيم.

اتسعت عينا الطيار، وضرب الهواء بذراعيه، محاولًا التشبث بأي شيء، وهو يطلق شهقةَ ذعرٍ وارتياعٍ هائلةً، ولكن (فاي) ركله ركلة أخرى، ألقته خارج الهليكوبتر، فهوى من حَالِقٍ، وهو يُطلق صرخةَ رعبٍ هائلةً، قبل أن يرتطم بالرمال في عنفٍ، وتناثرت دماؤه على مدى شاسع..

وبسرعة، وعلى الرغم من إصاباته، احتل الشاب مقعد القيادة، وسيطر على الهليكوبتر، قبل أن تفقد توازنها تمامًا، ثم دار بها، وهو يتمتم:

- خطوة أخرى، ويصبح الانتصار كاملًا.

كان (بيجال) يتابع الموقف من بعيد، فاحتقن وجهه بشدة، عندما شاهد الطيار يسقط من الهليكوبتر، وغمغم بصوتٍ مختنقٍ:

- مستحيل! لقد أرسل لنا المصريون أخطر جواسيسهم بالتأكيد.
ثم اندفع نحو جهاز اللاسلكي في السيارة، ولكنه لم يكد يلمسه، حتى هتف أحد رجاله في ذعرٍ:
- سيدي.. الهليكوبتر تعود.
رفع رأسه بحركة حادة، هاتفًا:
- تعود؟!
تعلَّق بصره لحظة بالهليكوبتر، وتساءَل في أعماقه عن سر عودتها، ثم لم يلبث أن استوعب الأمر كله، فهتف برجاله:
- ابتعدوا.. اتركوا السيارة.
وانطلق يعدو مبتعدًا مع جنوده الأربعة، وهو يحمي رأسه بذراعيه، في حين انقضَّ (فاي) على السيارتين، وراح يمطرهما برصاصات الهليكوبتر..
وألقى (بيجال) نفسه أرضًا، عندما دوَّى انفجار السيارة الأولى، في حين لقي اثنان من رجاله مصرعهما، مع انفجار السيارة الثانية، قبل أن ترتفع الهليكوبتر مرة أخرى، وتنطلق مبتعدة، في اتجاه الشمال..
واحتقن وجه (بيجال) في شدة، وهو ينهض من فوق الرمال، التي غرقت بدماء الإسرائيليين، وهتف بصوت مختنقٍ مبحوحٍ:
- اللعنة!.. اللعنة!
قال أحد الجنديين الباقيين في توتر:
- لقد نجونا بأعجوبة يا سيدي.
التفت إليه (بيجال) في حِدَّةٍ، هاتفًا:
- إنَّه لم يكن يستهدفنا أيُّها الغبي، وإلا فما الذي منعه من قتلنا؟!
وانعقد حاجبَاه في شدةٍ، وهو يتابع:
- لقد استهدف وسائل الاتصال.

وصمت لحظة، اشتعلت فيها النيران، المطلة من عينيه، قبل أن يضيف:
- وأنا أعترف ببراعته، وبأن المصريين قد أحسنوا اختيار رجلهم، ولكن هذا لا يعني أنَّه سيتفوق علينا نحن الإسرائيليين.. سألقِّنُ هذا الجاسوس درسًا قاسيًا، ليدرك أن العبث مع (بيجال يائيل) لا يمكن أن يجلب النصر أبدًا.
وانعقد حاجباه في شدة، مع استطرادته الصارمة:
- أبدًا.
نطقها وهو ينتزع من جيبه جهاز اتصال صغيرًا، ويضغط زره، قائلًا:
- هنا (بيجال يائيل).. (م – ١).. إلى قيادة القوات الجوية لمنطقة (سيناء)..
كشفنا وجود جاسوس مصري، على جانب كبير من الخطورة.. الجاسوس نجح في الاستيلاء على الهليكوبتر (٦٠٧)، بعد اشتباك عنيف، ويتجه نحو الشمال.. أرسلوا ثلاث طائرات (فانتوم) لاعتراضه.. أكرِّر.. ثلاث طائرات مقاتلة.. أريد إسقاطه دون إنذار، وتنفيذ الأوامر فورًا، وبلا أدنى مناقشة..
وأنهى الاتصال، وحاجبَاه ينعقدان أكثر وأكثر، مغمغمًا:
- سنرى أيُّها المصري.. سنرى ما الذي يمكن أن تفعله كل مهاراتك، في مواجهة ثلاث من أفضل مقاتلاتنا.. سنرى..
نعم يا رجل المخابرات المصري..
سنرى..

☆ ☆ ☆

«مستحيل!.. هذا الشاب مُدهش بحق!!»
هتف (أحمد) بالعبارة، وهو يراقب الصراع العنيف، بين الشاب والإسرائيليين، عبر منظاره المقرب، وقد امتلأت نفسه بحماس

هائل، انتقل بسرعة إلى شقيقه (صالح)، الذي ضم قبضته، هاتفًا:
- هكذا يكون الرجال.. لقد حطم أنف الإسرائيليين، وجعلهم يدركون حجمهم الحقيقي.
هبَّ (أحمد) من مكانه، قائلًا:
- لقد استولى على الهليكوبتر.. إنَّه ينطلق بها إلى هنا.
هبَّ (صالح) من مكانه بدوره، هاتفًا:
- إنَّه مصري يا رجل.. مصري مثلنا.
كانت الهليكوبتر تقترب بسرعة من التبة، التي يختفيان عندها، فانطلق (صالح) يعدو، ويلوح بذراعيه، هاتفًا:
- إنَّه نحن أيُّها المقاتل.. إنَّه نحن..
لمح (فاي) سيارتهما (الجيب) المدنية، ورأى (صالح) يلوح بذراعيه، فأشار بيده، وهو يغمغم:
- حمدًا لله.. إنهما بخير.. حمدًا لله.
تجاوزهما بالهليكوبتر إلى ما وراء التبة، ثم هبط بها فوق الرمال، وهما يعدوان نحوه في سعادة واضحة، ولم يكد يقفز خارجها، حتى اندفع (صالح) نحوه، يعانقه في حرارة، ويربت على ظهره في قوة، هاتفًا:
- مرحى يا بطل.. مرحى.. مرحى.. لقد فعلتها.. لقد أرقت دماءهم على رمالنا.. لقد فعلتها..
أما (أحمد)، فصافحه في قوة، قائلًا في تأثر:
- يبدو أنَّني أدين لك بالاعتذار، فعندما رأيتُك لأول مرة، تساءلت في سخطٍ عن السبب، الذي دفع المصريين إلى إرسال شاب غرير، للقيام بمهمة عسيرة كهذه، ولكن..
بتر عبارته فجأة، وهو يحدِّق في الدماء التي تغرق الجلباب البدوي، الذي يرتديه الشاب، وكأنَّما رآها لأول مرة، وهتف

مذعورًا:
- رباه!.. إنَّك مصاب.. مصاب بشدة.
كان الشاب يترنح بالفعل؛ لذا فقد احتواه (صالح) بين ذراعيه، وصاح:
- يا إلهي! أسرِع يا (أحمد).. لا بدَّ أن نسعفه بسرعة..
لا بدَّ.
خلص الشاب نفسه من بين ذراعيه، وهو يهتف:
- لا.. لا وقت لهذا.. المهمة ينبغي إنجازها في أسرع وقت ممكن.. لا يمكنني إضاعة لحظة واحدة.
هتف به (صالح):
- مستحيل يا فتى!! الدماء تغمر جسدك، وظهرك ينزف على نحو مخيف، ثم إنَّ الإسرائيليين لن يسمحوا لك بالابتعاد بطائرتهم على هذا النحو.. سيطلقون خلفك حتمًا طائراتهم المقاتلة، التي لن يمكنك التصدى لها، مهما بلغت قوتك ومهارتك.
أومأ الشاب برأسه إيجابًا، مغمغمًا:
- أعلم هذا.
ثم استدرك في سرعة وعناد:
- ولكن المهمة ينبغي إنجازها بأسرع ما يمكن.
هتف (أحمد) في هذه اللحظة:
- يا إلهي!.. انظروا هناك.
التفت الاثنان بسرعة إلى حيث يشير، ولاحت لهم تلك النقاط الثلاث، التي تقترب منهم في سرعة مدهشة، تتجاوز ثلاثة أضعاف سرعة الصوت([8]) ..
المقاتلات الإسرائيلية الثلاث، من طراز (ف – ١٥)..

تلك المقاتلات، التي قال قائدها، عبر جهاز الاتصال الداخلي، وهو يحلق مع زميله على ارتفاع منخفض، فوق رمال (سيناء):
- ما زلنا نبحث عن الهدف.. كل شيء يبدو هادئًا، و..
وفجأة بتر عبارته، عندما لاحت له الهليكوبتر (٦٠٧) من بعيد، وهي ترتفع بسرعة كبيرة، ولمح ذلك الشخص خلف عصى قيادتها، فهتف:
- ها هو ذا الهدف.. لقد تم رصده.
صاح به (بيجال)، عبر اللاسلكي:
- انسفه يا رجل.. انسفه بلا تردد.
هتف الطيار في دهشة:
- أنسف هليكوبتر إسرائيلية؟!
صرخ (بيجال):
- لا تناقش الأوامر.. انسفه على الفور.
انعقد حاجبَا الطيار، ولكنه قال لزميله في صرامة:
- انقضاضٌ مباشرٌ على الهدف..
كانت الهليكوبتر تواصل ارتفاعها أكثر وأكثر، وبدا غطاء الرأس البدوي واضحًا على سائقها، فانقضَّت عليها طائرات (الفانتوم) الثلاث، وانطلق صاروخ من إحداها، شق طريقه نحوها مباشرة، و..
وأصاب الهدف..
ودوَّى الانفجار رهيبًا في الهواء، لينسف الهليكوبتر (٦٠٧) بكل ما عليها..
ومَن عليها.

☆ ☆ ☆

١٠- النيران..

بدا الإرهاق واضحًا على الرجال في (القاهرة)، عندما أشارت عقارب الساعة إلى تمام الثامنة صباحًا، دون أن يتذوق أحدهم طعم النوم، لأكثر من ثلاثين ساعة كاملة، وبذل بعضهم جهدًا خرافيًّا؛ لإبقاء عينيه مفتوحتين، وتثاءب أحدهم في قوة، قبل أن يشير بيده، قائلًا:

- معذرة يا رفاق، ولكنني لم أعد أحتمل المواصلة، فإما أن أحصل على قدرٍ من النوم، أو أسقط فاقدًا الوعي.

تمتم آخر:

- وأنا أيضًا.

واسترخى ثالث في مقعده، قائلًا:

- هذا يجعلنا ثلاثة.

رفع أكبر الموجودين رتبة يده، قائلًا:

- فليكن.. للجسد البشري متطلباته، التي لا تختلف كثيرًا، بين القادة والجنود.. لا أحد يمكنه الاحتفاظ بذهنٍ صافٍ، مع الجهد المتواصل، وعدم النوم المستمر، وعملناً يحتاج دومًا لصفاء الذهن؛ لذا فسنرفع الاجتماع حاليًا، وسنلتقي مرة أخرى، عندما تستدعي الأمور هذا.

بدا عليهم جميعًا الارتياح للقرار، ونهضوا ينصرفون، واحدًا بعد الآخر، فيما عدا (نسيم)، الذي ظلَّ قابعًا في مقعده، معقود الحاجبين، حتى انصرف آخرهم، فتطلع إليه صاحب الرتبة الكبيرة، وقال:

- (نسيم).. أنت أيضًا تحتاج إلى النوم..

رفع (نسيم) عينيه إليه في بطء، وتطلَّع إليه بضع لحظات في صمت، قبل أن يقول:
- سأنام هنا.
قال الرجل في دهشة:
- هنا؟!
أجابه (نسيم) في حزمٍ شديدٍ:
- نعم.. هنا.. إنَّني المسئول الأول عن العملية، وسأتابع الموقف لحظة فلحظة.
تنهَّد الرجل في إشفاق، وقال:
- (نسيم) يا صديقي.. الموقف كله ليس..
قاطعه (نسيم) في صرامة:
- سأنام هنا.
كان زميله يعرفه جيدًا، إلى الحد الذي يدرك معه عدم جدوى النقاش، فابتسم ابتسامة متعاطفة مشفقة، وربت على كتفه، مغمغمًا:
- وفقك الله يا رجل.
أومأ (نسيم) برأسه في عصبية، والتقط سماعة الهاتف، وقال في توترٍ:
- أريد قدحًا من القهوة المركزة على الفور.
انعقد حاجبَا زميله، وهو يقول مستنكرًا:
- قهوة؟! أنت تحتاج إلى ما يهدِّئ أعصابك الثائرة يا (نسيم)، وليس إلى ال...
قاطعه فجأة رنين الهاتف، فاعتدل (نسيم) يلتقط سماعته، قائلًا:
- هل من جديد؟!

وانعقد حاجبَاه في شدة، وهو يقبض على طرف مائدة الاجتماعات بأصابعه في قوة، وكأنَّما يتشبث بها، مغمغمًا:
- انفجرت، واشتعلت فيها النيران؟!
اعتدل زميله، يقول في عصبية:
- ما التي انفجرت، واشتعلت فيها النيران؟!
أشار إليه (نسيم) بالصمت، وهو يسأل محدثه في توترٍ بالغٍ:
- مَن أبلغنا هذا؟!
كاد الفضول يلتهم زميله، وهو يميل إلى الأمام، وكأنَّما يحاول سماع ما تنقله سماعة الهاتف، ولكن (نسيم) قال في حزمٍ:
- فليكن..
ثم أنهى المحادثة، والتفت إليه في بطء، فهتف به متوترًا:
- ماذا حدث؟! ما الذي انفجر؟!
أجابه (نسيم) في انفعالٍ واضحٍ:
- الشاب خرج من المعركة ظافرًا.
اتسعت عينا زميله في دهشةٍ عارمةٍ، تكاد تبلغ حدَّ الذهول، وهو يردِّد:
- خرج ظافرًا؟!
أومأ (نسيم) برأسه إيجابًا، وقال بنفس الانفعال:
- لقد دمر لوحده الدبابتين، والسيارتين العسكريتين، واستولى على هليكوبتر حربية.
فغر زميله فاه، وهو يجلس في بطءٍ، على أقرب مقعد إليه، مغمغمًا:
- يا إلهي!
تألقت عينا (نسيم)، وهو يقول:
- كنتُ أعلم أنَّه سيفعلها.. لقد دربته بنفسي.
هتف زميله، وهو يربت على كتفه في حرارةٍ:

- رائع يا رجل.. رائع.. ذلك الشاب أثبت أنَّه يستحق الانتماء إلى المخابرات المصرية بالفعل.
ثم مال نحوه، يسأله في اهتمام مشوب بالقلق:
- ولكن كيف سمح له الإسرائيليون بالاستيلاء على إحدى طائراتهم الهليكوبتر، دون أن يفتحوا عليه كل نيرانهم؟
تراجع (نسيم) في مقعده، قائلًا:
- لقد فعلوا.
وتراقصت في عينيه نظرة غامضة، وهو يضيف:
- لقد أطلقوا خلفه ثلاث مقاتلات، من طراز (ف – ١٥).
اتسعت عينا زميله، وهتف:
- ثلاث مقاتلات؟! يا إلهي!.. وكيف سيواجه ثلاث مقاتلات (فانتوم)، من طراز (ف – ١٥)، بهليكوبتر واحدة؟!
هزَّ (نسيم) رأسه نفيًا، وقال:
- لن يمكنه هذا أبدًا.
انعقد حاجبَا زميله في توتر، وهو يقول:
- لن يمكنه هذا؟! هل تعني أن...
قاطعه (نسيم) بسرعة:
- لقد رصدت المقاتلات الإسرائيلية الهليكوبتر بالفعل.
قال زميله في عصبية:
- ثم؟!
صمت (نسيم) لحظة، انتقلت خلالها تلك النظرة الغامضة إلى شفتيه، قبل أن يجيب:
- أطلقت عليها صاروخًا.. ونسفتها.
انتفض جسد زميله في عنف، وهو يقول:
- نسفتها؟! يا إلهي! أتعني أن..
أدهشه ذلك الهدوء الظافر، الذي قاطعه به (نسيم)، قائلًا:

- لقد نسف الإسرائيليون عملينا يا صديقي.
ثم استدرك بسرعة، وعيناه تتألقان كثيرًا:
- من الناحية الرسمية.
التقى حاجبَا زميله، وهو يتطلع إليه في دهشة، تتزايد في كل لحظة، مع ذلك الغموض المطل من عيني (نسيم) وشفتيه.
الغموض الذي راح يتزايد..
ويتزايد..
ويتزايد..

☆ ☆ ☆

«أهو بخير الآن؟!..»
ألقى (صالح) السؤال على شقيقه في توترٍ بالغٍ، فأشار إليه (أحمد) بالصمت، وهمس:
- إنَّه مستغرق في النوم، بعد أن شرب منقوع الأعشاب، الذي أعطاه إياه الشيخ (حامد)، ويبدو أن لهذا المنقوع تأثيرًا مخدرًا، فقد أخرج الشيخ الرصاصات من جسده، دون أن يصرخ أو يتأوَّه.
ابتسم (صالح) في إشفاق يمتزج بالإعجاب، وهو يقول:
- بل هو الذي كتم آلام جسده، واستنفر صلابته وإرادته، حتى لا تتجاوز صرخاته وتأوُّهاته حلقه.. الواقع أنَّ هذا الشاب، على الرغم من صغر سنِّه، له إرادة من حديد.
وافقه (أحمد) بإيماءة من رأسه، وقال:
- وبراعة من ذهب.
جلسا متجاورين، وقد بلغ منهما التعب مبلغه، وارتكنا إلى جدار الحجرة لبعض الوقت في صمت، قبل أن يغمغم (صالح):
- لا يمكنني أن أنسى ما فعله مع الإسرائيليين.
أجابه (أحمد):

- ولا ما فعله مع مقاتلاتهم.
ثم اعتدل، مستطردًا في حماس:
- كان يبدو وكأنه سيسقط فاقدًا الوعي، وعلى الرغم من هذا، فقد قفزت إلى ذهنه تلك الفكرة الجيدة.
اعتدل (صالح) بدوره، قائلًا:
- جيدة؟! إنَّها فكرة عبقرية يا رجل.. لقد قيد يدي الإسرائيلي، الفاقد الوعي داخل الهليكوبتر، إلى عصا القيادة، وأدار محركات الهليكوبتر لترتفع، ثم جذب عصا القيادة، ووثب منها، قبل أن تحلق عاليًا، في مواجهة مقاتلات (الفانتوم)، بعد أن وضع غطاء الرأس البدوي على رأس الإسرائيلي، وأتلف جهاز الاتصال اللاسلكي.
ابتسم (أحمد) وتنهَّد، ليقول:
- ومن حسن الحظ أن الإسرائيلي قد استعاد وعيه، بعد أن ارتفعت الهليكوبتر عاليًا في السماء، فتصورت المقاتلات أنَّه الشاب، وأطلقت نحوه صاروخها، فنسفت الهليكوبتر، وسحقتها سحقًا.
هزَّ (صالح) رأسه، قائلًا:
- ألم أقل لك إنَّها فكرة عبقرية؟!
خرج إليهما الشيخ (حامد) في هذه اللحظة، بجسده النحيل وقامته الضئيلة، ولحيته البيضاء الكثة، ووجهه الغارق في التجاعيد، فالتفتا إليه في لهفة، وسأله (أحمد):
- كيف حاله الآن؟!
رفع الشيخ يده الصغيرة المعروقة، وغمغم:
- بخير.
أفسح له (صالح) مكانًا للجلوس، وهو يسأله:
- هل تعتقد أنَّه سيتعافى بسرعة؟!

أومأ الشيخ (حامد) برأسه إيجابًا، وقال:
- إنَّه شاب قوي.. صحيح أن إصاباته عنيفة، ولكنها ليست قاتلة، ومعجون الأعشاب، الذي ضمدت به جروحه، سيجعلها تلتئم بسرعة كبيرة، وعندما يستيقظ، ويتناول وجبة دسمة ساخنة، سيستعيد معظم قوته ونشاطه.
تراجع (صالح) ليستند مرة أخرى إلى الجدار، وهو يتمتم:
- حمدًا لله.. حمدًا لله.
قال الشيخ (حامد)، بصوته الخافت ولهجته الرصينة:
- أحسنتما التصرف بإحضاره إلى (عسلوج)، فالإسرائيليون سيفتشون المنطقة التي سقطت فيها الهليكوبتر شبرًا شبرًا بالتأكيد، وسيعودون حتمًا إلى (القصيمة)، وربما يذهب بهم الأمر إلى تفتيش (العوجة)، أو صحراء (تسين)، ولكن سيدهشني حقًّا أن يتمادوا في الأمر، حتى يبلغوا (عسلوج).

أجابه (أحمد) في اهتمام:

- ربما كان احتمالًا بعيدًا، ولكنه ليس مستحيلًا، فالرجل الذي يقود الإسرائيليين هذه المرة أحد ضباط (الموساد)، ومن الواضح أنَّه ليس ضابطًا عاديًّا، فلديه خبرة مدهشة في تقصي

الأثر، وهو يستعين أيضًا بخبراء في هذا المجال.. صحيح أنَّنا حرصنا على إخفاء مسارنا وآثار إطاراتنا، إلا أنَّ هذا لن يخدع خبيرًا في هذا المجال.

صمت الشيخ (حامد) بضع لحظات في هدوءٍ، ثم لم يلبث أن رفع عينيه إليهما، قائلًا في رصانة، لا تخلو من الحزم:

- في هذه الحالة، أفضل ما تفعلانه هو أن تعملا على إعادة الشاب إلى (القاهرة).

بُهتَا للقول، فتمتم (أحمد) بلهجة متوترة:

- إلى (القاهرة)؟!

أما (صالح)، فقد وجم لحظة، ثم اندفع يقول في عصبية:

- ولكن الإسرائيليين لن يتحركوا فورًا يا شيخ (حامد)، فبالنسبة لهم، لقي الشاب مصرعه مع انفجار الهليكوبتر، و..

قاطعه الشيخ (حامد)، مشيرًا بسبابته، وهو يقول:

- ما دام القائم على العملية بهذه البراعة، وما دام هناك إسرائيلي مفقود، فالخدعة لن تنطلقى عليه طويلًا.

صمتَا في وجوم متوتر، فمال الشيخ (حامد) إلى الأمام، وتابع في حزم:

- اسمعا نصيحتي.. أعيدوا الشاب إلى (القاهرة).. وبأقصى سرعة.

ارتفع صوت الشاب فجأة، وهو يقول في حزم:

- المهمة لم تنتبه بعد يا عمَّاه.

التفت الجميع إليه في دهشة، ورأوه يقف عند مدخل الحجرة، مشدود القامة، متماسكًا، على الرغم من شحوب وجهه الواضح، فهتف به الشيخ (حامد):

- ما الذي تفعله يا ولدي؟! أنت تحتاج إلى الراحة والطعام، و...

قاطعه (فاي) في حزم، مشيرًا بيده:

- المهمة لم تنته بعد يا عمَّاه، والمقاتل الحق لا ينبغي أن يهدأ، قبل أن يتم عمله، أو يهلك دونه.
خفقت قلوب ثلاثتهم مع كلماته، وانخفض صوت (صالح) كثيرًا، حتى اقترب من الهمس، وهو يتمتم:
- ولكننا الآن في وضح النهار، والإسرائيليون في قمة توترهم، ولن يكون من السهل أبدًا أن نذهب إلى (بئر سبع)، أو...
قاطعه الشاب:
- لن نذهب إلى (بئر سبع).
هتف (أحمد) في دهشة:
- ماذا؟! ولكن الخطة الأساسية تحتِّم الذهاب إلى هناك أولًا!!
أجابه الشاب في حزمٍ أكثر:
- الخطة الأساسية انتهى أمرها، منذ اللحظة التي هبطتُ فيها في قلب (سيناء)، وانكشف أمر هبوطي، وتطوَّرت الأمور الآن يستلزم اللجوء إلى خطة بديلة، أو ارتجال خطة جديدة.
وصمتَ لبضع لحظات، وكأنَّما يعجز جسده المنهك عن المواصلة، وازداد شحوب وجهه، حتى إنَّ (أحمد) أسرع يجذب مقعدًا، ويقدمه له، قائلًا:
- اجلس يا..
وانعقد حاجبَاه، وهو يتطلع إلى وجهه، ويسأله في حيرة:
- عجبًا!.. إنَّنا لم نعرف اسمك بعد.
التفت إليه الشاب في بطء، وأدهشهم ذلك المزيج من الحيرة والتوتر والارتباك، الذي ارتسم على وجهه، وأطلَّ من صوته، وهو يغمغم:
- اسمي؟!
قال الشيخ (حامد) بلهجة مشفقة:
- كل شخص في الوجود له اسم يا ولدي.

تطلَّع إليه الشاب بنفس الحيرة المرتبكة المتوترة، وهو يقول:
- بالتأكيد يا عمَّاه.. بالتأكيد.
كان هناك إعصار رهيب يعتمل في عقله، في تلك اللحظة..
نعم.. كل شخص في الوجود له اسم..
وصفة..
وذكريات..
كل كائن في الكون له تاريخ، منذ لحظة مولده..
إلا هو..
لقد انمحى تاريخه كله، من أعمق أعماق رأسه..
ولم يعد له تاريخ..
أو ذكريات..
أو حتى اسم..
لقد أصبح شخصًا لا وجود له – رسميًّا – في سجلات الأحياء.
(فاي)..
«اسمي (فاي)..»
بدت الدهشة على وجوههم، وتبادلوا نظرة حائرة، قبل أن يردِّد الشيخ (حامد):
- (فاي)؟! يا له من اسم؛ أنا واثق من أنَّه لا مثيل له في لغتنا العربية.
تألقت عينا (أحمد)، وهتف:
- آه.. فهمت!
التفت إليه الشيخ (حامد) و(صالح) في تساؤل، فتابع في حماس:
- إنَّه في مهمة سرية، ولا يمكنه أن يخبرنا باسمه الحقيقي.. أليس كذلك؟!
صمت الشاب لحظة، ثم قال في حزمٍ مقتضبٍ:
- بالضبط.

بدا عليهم التفهُّم، وغمغم الشيخ (حامد) بابتسامةٍ حنون:
- فليكن يا ولدي.. فليكن.. وما قيمة الأسماء في موقف كهذا.
كرَّر الشاب بنفس الحزم:
- بالضبط يا عمَّاه.
ثم استطرد في سرعة، قبل أن يطرح أحدهم سؤالًا آخر:
- ولكن هذه ليست المشكلة، فالقضية الأساسية الآن هي أن أصل إلى (تل أبيب) بأقصى سرعة ممكنة.
تبادَل (صالح) و(أحمد) نظرة متوترة، وغمغم الأول:
- ليست لدينا وسيلة محدودة في الوقت الحالي، و...
قاطعه الشيخ (حامد) بغتة:
- أنا لدي الوسيلة.
وعندما التفت إليه الجميع، كانت عيناه تتألقان، كما لو أنَّه قد استعاد شبابه القديم..
تتألقان بشدة..

☆ ☆ ☆

عقد (بيجال يائيل) كفَّيه خلف ظهره، والتقى حاجبَاه في صرامة متوترة، وهو يتابع رجال الجيش الإسرائيلي، الذين انهمكوا في فحص بقايا الهليكوبتر، وجمع أشلاء ذلك الراكب، الذي لقي مصرعه معها، وملامحه تشف عن ذلك الصراع العنيف، الذي يدور في أعمق أعماق عقله..
لقد رأى ما حدث بنفسه..
رأى الهليكوبتر تحلق عاليًا، والمقاتلات تنقض عليها..
ورأى الصاروخ يضربها، فتنفجر في الهواء، وتتناثر بقاياها على مساحة واسعة..
ولكن شيئًا ما في أعماقه، يرفض الاعتراف بأن المصري قد لقي مصرعه..

شيء ما، يجعل الأمر كله غير منطقي بالنسبة إليه..
لقد رأى بنفسه براعة الشاب، وشاهده يسيطر على الهليكوبتر، وينقضُّ بها على سيارتي الجيب، فينسفهما نسفًا.
وعندما رأى الهليكوبتر ترتفع، في مواجهة المقاتلات، لم يلمح في ارتفاعها لمحة واحدة من المهارة والبراعة..
إنَّها حتى لم تلجأ إلى مناورة بسيطة، في محاولة للإفلات والنجاة..
فقد واصلت ارتفاعها، حتى أصابها الصاروخ..
وانفجرت..
هكذا ببساطة، ودون أي مقاومة..
وهذا لا يبدو له منطقيًّا..
أبدًا..
«أدون (بيجال).. لقد انتهينا من جمع الأشلاء والبقايا..»
قطعت العبارة تسلسل أفكاره، فالتفت إلى الضابط الإسرائيلي الذي نطقها، وسأله في حِدَّةٍ:
- أهي أشلاء رجل واحد أم رجلين؟
أجابه الضابط في شيء من الدهشة:
- بل رجل واحد يا أدون (بيجال).. الجاسوس كان يقود الهليكوبتر وحده، كما أكَّد طيارو (الفانتوم).
صاح به (بيجال) في حِدَّةٍ:
- أين ذهب مساعدي (زلفي) إذن؟!
تراجع الضابط، مُردِّدًا في توتر:
- مساعدك من؟!
أجابه (بيجال) في عصبية:
- مساعدى (زلفي).. لقد كان إلى جوار قائد الهليكوبتر، عندما قفز إليها ذلك المصري.. ولقد رأينا جميعًا الطيار يسقط من

الطائرة، ويلقى مصرعه على رمال الصحراء، ولكن أين ذهب (زلفي)؟! هل تبخَّر؟! تلاشى؟! لقد بحث عنه الرجال في المنطقة كلها، ولكننا لم نعثر حتى على جثته، فأين ذهب؟!

بدت الدهشة على وجه الضابط، وهو يقول:

- لستُ أدري.. ربما لو...

صاح به (بيجال) في غلظة:

- اصمت.

اتسعت عينا الضابط في دهشة، لم تلبث أن تحولت إلى غضب هادرٍ، وهو يقول في حِدَّةٍ وعصبية:

- أدون (بيجال).. أعلم جيدًا أن الموقف متوتر للغاية، ولكنني ضابط من ضباط جيش الدفاع الإسرائيلي، ولن أسمح بأن..

قاطعه (بيجال) مرة أخرى في غضبٍ هادرٍ:

- اصمت ودعني أفكر.

التقى حاجبَا الضابط الإسرائيلي في توترٍ بالغٍ، وكظم غيظه في صعوبة، وهو يتطلع في غضبٍ إلى (بيجال)، الذي أمسك ذقنه بسبابته وإبهامه، وراح يفكر في عمق، قبل أن يلتفت إليه، ويسأله في عصبية:

- هل عثرتم على الساق اليمنى للجثة؟!

أومأ الضابط برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم.. عثرنا على جزءٍ كبيرٍ من الجثة، ولكنه محترق، و...

قاطعه (بيجال) في توترٍ ونفاذ صبر:

- أين هي؟!

لم يكن هذا الأسلوب العصبي المتعجرف يروق أبدًا للضابط الإسرائيلي، إلا أنَّه يدرك جيدًا مكانة رجل (الموساد)؛ لذا فقط كظم غيظه مرة أخرى، وأجاب:

- اصحبني يا أدون (بيجال).

سارا جنبًا إلى جنب، فوق رمال (سيناء)، حتى بلغا سيارة كبيرة، جمع فيها الجنود كل الأشلاء، وأشار الضابط إلى الساق اليمنى في تقزز، قائلًا:

- ها هي ذي.

تطلَّع (بيجال) إلى الساق لحظات في صمت، ثم لم يلبث أن التقط من جيبه مطواة سويسرية متعددة الأسلحة، وفرد سلاحها الأساسي، ثم طعن به الساق المحترقة بحركة بشعة، جعلت الضابط الإسرائيلي يتراجع في حِدَّةٍ، ويشعر بغثيان شديد، لم يستطع مقاومة تطوره، عندما مزَّق (بيجال) الساق بلا هوادة، ليكشف عظامها الداخلية، فاستدار الضابط، وراح يفرغ ما في جوفه، فصاح به (بيجال) في غضب:

- سيطِر على مشاعرك يا صاحب الأحاسيس الرقيقة.. ألم تشاهد أبدًا جنودًا مزقتهم القنابل في الحرب؟!

اعتدل الضابط، ومسح شفتيه بكمِّه، قائلًا:

- ليس بهذه الوسيلة.

مطَّ (بيجال) شفتيه في ازدراء، وأزاح لحم الساق بلا مبالاة، ثم انعقد حاجبَاه في شدة، وهو يهتف:

- اللعنة!

غلب الفضول الضابط، فمال برأسه يلقي نظرة على ما يفعله (بيجال)، وهو يسأل:

- هل عثرت على شيء؟!

أشار (بيجال) إلى قطعة من البلاتين في عظمة الساق، مجيبًا في عصبية شديدة:
- نعم.. هذا المسمار البلاتيني.. إنَّه يخص (زلفي)، الذي أصيب في حرب يونيو عام ١٩٦٧م..
ثم رفع عينيه إلى الضابط، مستطردًا في غضبٍ هادرٍ، يقترب من مرحلة الثورة:
- وهذا يعني أن الأشلاء، التي تجمعونها منذ أكثر من ثلاث ساعات، هي أشلاء (زلفي)، وليست أشلاء ذلك المصري.
قالها، وجسده كله يرتجف في انفعالٍ، قبل أن يلقي الساق في حِدَّةٍ، مضيفًا:
- ويعني أيضًا أنَّنا خسرنا ثلاث ساعات كاملة.
ثم اندفع إلى واحدة من سيارات الجيش، والتقط مسماع جهاز اللاسلكي الخاص بها، هاتفًا:
- هنا (بيجال).. (بيجال يائيل).. أريد الاتصال فورًا بالقيادة المشتركة لجهازي (أمان)([9]) و(الموساد)([10]) في تل أبيب.. الأمر عاجل.. عاجل للغاية.
وكان يعض شفتيه غيظًا، وهو يقول لنفسه:
- فليكن أيُّها المصري.. سأفتح أبواب الجحيم كلها، ولن تجد جحر فأر، يمكنك الاختباء فيه مني، في (إسرائيل) كلها.. هل تفهم.. لن تنجو مني أبدًا، مهما كان الثمن.
وكان على حقٍّ فيما قاله..
لقد فتح أبواب الجحيم على الشاب، في قلب (إسرائيل)..
فتحها عن آخرها.

☆ ☆ ☆

١١- أبواب الجحيم..

«(نسيم).. (نسيم).. لقد وصلت رسالة جديدة..»
كان (نسيم) غارقًا في نومٍ عميقٍ، فوق مقعدين متقابلين، في حجرة الاجتماعات، وقد بلغ منه التعب والإرهاق مبلغهما، إلا أنَّ العبارة لم تكد تتسلَّل إلى أذنيه، حتى هبَّ من رقاده، واعتدل جالسًا على أحد المقعدين، وهو يفرك عينيه، ويمد يده لالتقاط الرسالة، قائلًا:
- أين هي؟!
ناوله زميله الرسالة، فتطلَّع إليها لحظة، ثم عاد يفرك عينيه؛ ليزيل عنهما غشاوة النوم والإرهاق، قبل أن يقرأ كلماتها، قائلًا:
- لقد تم إرسالها على موجة البث القديمة، و(صالح) يقول فيها: إن الشاب سيواصل مهمته، وإنهم سيعملون على نقله إلى الهدف، عبر (غزة)، ثم (يافا).
التقى حاجبَا زميله، وهو يقول:
- هذا يدهشني في الواقع، فأنت توقعت أنَّه سيذهب إلى (تل أبيب) مباشرة.
صمت (نسيم) بضع لحظات، وهو يتطلع إلى الرسالة مرة أخرى، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة غامضة، ويقول:
- هذا صحيح.
ثم عاد يرفع قدميه على المقعد المقابل، مستطردًا:
- ولكن من الواضح أن للشاب وجهة نظر أخرى.
تنهَّد زميله، وقال:
- ولكننا لا نعتقد أن وجهة النظر هذه تتفق مع الظروف الحالية، فالموقف شديد التوتر في (إسرائيل)، بعد ما حدث في

(سيناء)، ولقد أعلنوا حالة الطوارئ القصوى، في صفوف (أمان) و(الموساد) معًا، ورجالهم يفتشون كلَّ مَن يدخل أو يخرج من أية مدينة أو قرية، أو حتى مستعمرة خيام صغيرة.

هزَّ (نسيم) كتفيه في هدوء، وقال:

- هذا دأبهم، فهم يتصورون أن أيَّ جاسوس يدخل إلى أرضهم، كفيل بتدمير كيانهم كله.

وصمت لحظة، قبل أن يهبط من مقعده، ويتجه إلى الخريطة الكبيرة، متابعًا:

- ثم إنَّ ما تعلمناه وخبرناه يؤكد أنَّه ما من نطاق أمني يخلو من الثغرات، مهما بلغ إحكامه وبلغت دقته، وعدد رجال الأمن الإسرائيليين لن يكفي لحصار كل المدن والقرى الإسرائيلية في آنٍ واحدٍ.

قال زميله، وصوته يحمل قلقه وتوتره:

- ولكنهم سيفعلون هذا في المدن الرئيسية على الأقل.

تطلَّع (نسيم) إلى الخريطة طويلًا في صمت، قبل أن يقول:

- بالضبط.

شعر زميله بالحيرة، وهو يقول:

- ألا يشعرك هذا بالقلق؟!

صمت (نسيم) لفترة أطول، ثم بدا وكأنه لم يسمع حرفًا واحدًا من سؤال زميله، وهو يشير إلى (تل أبيب) على الخريطة، قائلًا:

- ينبغي أن نبذل قصارى جهدنا لتدبير أمر الشاب، عندما يبلغ (تل أبيب)، وعلينا أن نمنحه وسيلة مضمونة لدخول المطار الحربي هناك، على الرغم من كل الاستحكامات الأمنية الإضافية هناك.

قال (زميله) في شيء من الحذر:

- المهم أن يصل إلى (تل أبيب) أولًا.

انعقد حاجبَا (نسيم) بشدة، وبدا لحظة وكأنه يفكر في عبارة زميله، إلا أنَّه لم يلبث أن قال في اهتمام:
- أريد الملف الكامل لكل الجنود، الذين يعملون في مطار (تل أبيب) الحربي، وبالذات أولئك الذين سيتسلمون النوبة الليلية اليوم.. كل المعلومات وكل الصور.. وبالذات الصور.. أريدها واضحة ملونة بقدر الإمكان([11]) .
بدت الحيرة على وجه زميله، وهو يسأله:
- (نسيم).. فيم تفكر بالضبط؟!
أشار إليه (نسيم)، مجيبًا:
- في تأمين دخول الشاب إلى المطار، في الظروف الحالية.
سأله زميله في دهشة:
- وماذا عن الخطر الذي يواجهه، والذي سيواجهه حتمًا، في (غزة) و(يافا)، قبل أن يبلغ (تل أبيب)؟
ارتسمت ابتسامة على شفتي (نسيم)، وهو يقول:
- اطمئن.. لقد دربته بنفسي.
سأله زميله، في شيء من العصبية:
- وما الذي يعنيه هذا، هذه المرة؟!
اتجه (نسيم) في هدوء إلى مقعده، وجلس عليه، ورفع قدميه على المقعد المقابل، ثم أسبل جفنيه في استرخاء، قبل أن يجيب:
- يعني أنَّه سيتوصل إلى الثغرة.
وامتلأت ابتسامته بالغموض، مع استطرادته:
- وسيبلغ (تل أبيب).. بإذن الله (سبحانه وتعالى).
هتف زميله:
- كيف؟!

اتسعت ابتسامة (نسيم)، وتضاعفت جرعة الغموض فيها، وهو يغلق عينيه، وكأنَّما غرق في نوم عميق..
عميق للغاية..

☆ ☆ ☆

أدَّى مسئول الاتصال، في الثكنات العسكرية الإسرائيلية التحية العسكرية، في قوة واحترام، وهو يمد يده ببرقية عاجلة إلى (بيجال)، قائلًا:
- برقية عاجلة من (تل أبيب) يا سيدي.
التقط (بيجال) البرقية في لهفة، وقرأها في اهتمام شديد، ثم التقى حاجباه في توتر، جعل ضابط الثكنة يسأله في قلق:
- ماذا هناك يا أدون (بيجال)؟!
أشار (بيجال) بيده، قائلًا:
- رجالنا في (تل أبيب) اعترضوا رسالة شفرية لاسلكية، أرسلها الجاسوس من مكان ما في قلب (سيناء)، إلى قيادته في (القاهرة)، مستخدمًا موجة بث قديمة، ربما لأنَّه تصوَّر أنَّنا لن نستمر في مراقبتها، بعد أن عرف المصريون أنَّنا قد كشفنا أمرها بالفعل.
سأله الضابط في اهتمام:
- وماذا يقول في رسالته هذه؟!
صمت (بيجال) بضع لحظات، ثم أجاب:
- طبقًا للرسالة، التي استغرق مكتبنا في (تل أبيب) ساعة كاملة، حتى يحل شفرتها، سيتجه إلى (غزة)، ومنها على (يافا)..
هتف الضابط في حماس:
- عظيم.. لقد كشفنا خطَّ سيره، ويمكننا الإيقاع به..
التقى حاجبَا (بيجال) مرة أخرى، وغمغم:
- ولكن لماذا استخدم موجة البث القديمة؟!
أشار إليه الضابط، قائلًا في حماس:

- السبب الذي ذكرته منطقي للغاية يا أدون (بيجال).. لقد اضطر لإرسال الرسالة إلى قادته، ولكنه خشي أن تستطيعوا تحديد موقعه أو هدفه؛ لذا فقد استخدم موجة البث القديمة، متصورًا أنَّكم لن تولوها الاهتمام الكافي، بعد أن انكشف أمرها.
صمت (بيجال) بضع لحظات، قبل أن يغمغم في خفوت، وكأنَّه يُحدِّث نفسه:
- إنَّه يستهدف (تل أبيب) حتمًا، وهذا المسار يتفق مع طريقه إليها، وهذا يعني أنَّه أقرب إلى الحقيقة، و...
بتر عبارته، وعاد إلى صمته لبضع لحظات أخرى، قبل أن ينعقد حاجباه في حزم، ويدق المائدة بقبضته، قائلًا:
- نعم يا رجل.. أنت على حق.. إنَّه التفسير الوحيد.
قالها، والتقط سماعة الهاتف اللاسلكي، وطلب رقمًا خاصًّا، ولم يكد يسمع صوت مُحدِّثِه، حتى قال في حزم:
- أنا (بيجال).. اسمعني جيدًا يا رجل.. الجاسوس سيتجه إلى (غزة)، ومنها إلى (يافا)، قبل أن يتجه إلى (تل أبيب).. ارفع درجة الأمن في المدن الثلاث، وكل الطرق المؤدية إليها، إلى الدرجة القصوى، وانشر دورياتك في الطرق الفرعية، والخلفية، وكل ممر يمكن أن يؤدي إلى واحدة من المدن الثلاث، وبالذات (تل أبيب).. لا تسمح بدخول أو خروج ذبابة منها، دون أن تحمل أوراقًا رسمية مضمونة.. هل تفهم؟!
وأغلق الهاتف، وهو يستطرد في صرامة:
- أرنا الآن ما يمكنك أن تفعله أيُّها المصري.
في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كان (صالح) والشاب ينطلقان، على متن جوادين، عبر دروب جبلية معقدة، في جبل (الخليل)، والأول يهتف في حماس:

- فكرة الشيخ (حامد).. عبقرية بالفعل، فالإسرائيليون سيراقبون كل السيارات، ووسائل النقل المختلفة، التي تنطلق عبر كل الطرق المأهولة وغير المأهولة، ولكن لن يخطر ببالهم أبدًا أن يراقبوا تلك الدروب الجبلية، التي لا يعرفها سوى أهل المنطقة، ولن يتصور أحدهم أن نجتازها على صهوة الجياد.
قال الشاب:
- كل شيء جيد، ما دام يقود إلى الهدف.
أجابه (صالح)، وهو يجذب عنان جواده:
- بالتأكيد.
وتوقف بجواده، وراح يجفف العرق الغزير، الذي انسكب على جبهته، قبل أن يتابع في مزيج من الاهتمام والقلق:
- المفترض أن يلتقي بنا الدليل، الذي اتصل به الشيخ (حامد) هنا، فلن يمكننا التوغل في تلك الدروب الجبلية وحدنا، وإلا ضللنا طريقنا إلى الأبد.
توقف الشاب، وجفف عرقه بدوره، وهو يقول في هدوءٍ عجيبٍ:
- فليكن.
تطلَّع إليه (صالح) بضع لحظات في صمت، ثم ابتسم، وهو يربت على كتفه، قائلًا:
- فكرتك أيضًا عبقرية يا سيد (فاي)، فالرسالة الشفرية، التي أرسلناها على موجة البث القديمة، سيتم اعتراضها بالتأكيد، وسيبذل الإسرائيليون جهدًا لترجمة شفرتها التقليدية، مما سيمنحهم شعورًا بأنَّهم قد ظفروا بك.. وأراهن على أنَّهم سيحاصرون (غزة) و(يافا).
قال الشاب في بساطة:
- و(تل أبيب) أيضًا.
تنهَّد (صالح)، وقال:

- بالتأكيد.
ثم استدرك في حماس:
- ولكنني واثق من أنَّ مندوب المخابرات المصرية، الذي سيلتقي بك خارج (تل أبيب)، ستكون لديه وسيلة ما لإدخالك إلى المدينة.. إنَّهم يعدون لكل شيء عدته.
انفرجت شفتا الشاب، وبدا وكأنَّه سيعلق على هذا القول، إلا أنَّه أشار بيده، وقال في خفوت واقتضاب:
- ها هو ذا.
أدار (صالح) عينيه في سرعة، إلى حيث يشير الشاب، ووقع بصره على رجلٍ عادي، يرتدي ثيابًا مدنية، ويتجه نحوهما على متن جوادٍ أبيض، فشدَّ لجام جواده، وتمتم في شيء من التوتر والضيق:
- يبدو أنَّنا سنفترق هنا يا سيد (فاي).
أومأ (فاي) برأسه إيجابًا، دون أن يتفوه بحرف واحد، وتابعت عيناه الرجل، حتى بلغهما، ورفع يده بالتحية، قائلًا:
- مرحبًا أيُّها السيدان.. ترى هل أجد لديكما عود ثقاب؛ لإشعال قرص الشمس.
ابتسم (صالح)، وقال:
- ألا تكفيك قداحة باردة؟!
كانت هذه هي عبارة اللقاء المتفق عليها؛ لذا فقد التفت الدليل إلى الشاب مباشرة، وقال:
- أعتقد أنَّك على عجلة من أمرك، للوصول إلى (تل أبيب).. أليس كذلك؟!
أومأ (فاي) برأسه إيجابًا، فتابع الدليل، وهو يدير عنق جواده:
- هيا بنا إذن.. سنحتاج إلى ثلاث ساعات على الأقل، قبل أن نبلغ (رام الله)، ومن هناك سنستقل دراجتين آليتين إلى (اللد)،

وهذا سيحتاج إلى ثلاث ساعات أخرى، أي إنَّنا لن نبلغ (تل أبيب) قبل منتصف الليل.
غمغم الشاب:
- المهم أن نصلها سالمين.
أجابه الدليل:
- بإذن الله.. هيا بنا.
التفت الشاب في صمت إلى (صالح)، الذي دمعت عيناه، وهو يصافحه، قائلًا:
- هيا.. اذهب على بركة الله.. أتمنى لك التوفيق في مهمتك.
وشدَّ على يده في قوة، مستطردًا:
- أعلم أن (فاي) هذا ليس اسمك الحقيقي، ولكنه الاسم الذي سيظل محفورًا في أذهاننا وذاكرتنا إلى الأبد، والذي سنستخدمه، عندما نروي ذكرياتنا لأحفادنا في المستقبل، عندما تستعيد (مصر) (سيناء)، ويستعيد الفلسطينيون وطنهم المسلوب.. إلى اللقاء يا صديقي.. وفقك الله ورعاك.
ثم أشاح بوجهه، ليخفي انفعاله، وهو يهتف:
- هيا.. الوقت من ذهب.. انطلق.. انطلق على بركة الله.
جذب الشاب لجام جواده، دون أن ينطق بحرف إضافيٍّ واحدٍ، وانطلق مع الدليل، على متن جواديهما، و(صالح) يتابعهما ببصره، حتى اختفيا وسط دروب جبل (الخليل)، ثم ترك دموعه تنهمر على وجهه، وهو يكرِّر:
- انطلق يا فتى.. انطلق على بركة الله (سبحانه وتعالى)، وتحت رعايته.. انطلق من أجلها.
والتقط نفسًا عميقًا، قبل أن يضيف:
- من أجل (مصر).
وعندما استدار عائدًا بجواده، كانت دموعه تنهمر..

وبحق..

☆ ☆ ☆

مطَّ الجندي الإسرائيلي (دافيد بتروفيسكي) شفتيه، وضغط الوسادة في قوة على أذنيه، في محاولة لمنع ذلك الصخب، الذي يمنعه من النوم، بعد ليلة كاملة، قضاها في حراسة مطار (تل

أبيب)، وتمتم بسبابٍ ساخطٍ، مع تصاعد صوت أجش، ينشد أغنية إسرائيلية شهيرة، على نحو مزعج للغاية، أسفل نافذة حجرة نومه مباشرة، ثم لم يلبث أن هبَّ من فراشه، صائحًا بزوجته في غضب:

- من هذا الحمار، الذي يمنعني من النوم؟

أسرعت إليه زوجته، قائلة:

- إنَّه رجل مخمور، يجلس أسفل نافذة حجرة نومك مباشرة، ولقد فشلنا في إقناعه بالانصراف.

هتف محنقًا، وهو يلقي نظرة على ساعته:

- مخمور؟! وفي مثل هذه الساعة؟! إنَّها الخامسة والنصف، ولا بدَّ وأن أتسلم عملي في المطار، عند منتصف الليل، ولم أنم لحظة واحدة، طوال ليلة أمس.. فلينصرف ذلك الغبي، وإلا هشَّمت رأسه.

تنهدت زوجته، قائلة:

- تحدَّث إليه بنفسك لو أردت، فقد سئمت محاولة إقناعه.

هتف، وهو يختطف معطفه المنزلي:

- إقناعه؟! مثل هذا لا يحتاج إلى إقناع، بل إلى إجبار.

وفتح نافذة حجرته، ليصيح في الرجل بغضب:

- أنت أيُّها المأفون.. انصرف من هنا، قبل أن أتصل بالشرطة، لإلقائك في السجن.

كان الرجل يحتضن عمود الإنارة، مع زجاجة خمر نصف فارغة، وهو يترنَّح على نحو مضحك، ولكنه رفع عينيه إلى (بتروفيسكي)، قائلًا في سخرية:

- عجبًا! أي صوت قبيح هذا، الذي أسمعه؟!

صاح به (بتروفيسكي) في غضب:

- صوت قبيح؟! أنا صاحب الصوت القبيح أيُّها الحقير..

أغلق المخمور أذنيه بطريقة هزلية، هاتفًا:
- آآه.. الصوت يزداد قبحًا، حتى أن أذني لا تحتملانه.
انطلق المارة يضحكون، مع أسلوبه الهزلي، فاحتقن وجه (بتروفيسكي)، وصاح به:
- ماذا تقول يا غبي؟! ألا تدرك أنَّك تتحدث مع عريفٍ في جيش الدفاع الإسرائيلي؟!
فتح الرجل عينيه عن آخرهما، على نحوٍ مضحكٍ، وقال:
- جيش ماذا؟! أما زال لدينا جيش حي، بعدما فعله بنا المصريون في أكتوبر.
احتقن وجه (بتروفيسكي) أكثر، وهو يصيح:
- ماذا تقول أيُّها الوغد؟!
أجابه الرجل في سخرية:
- أقول إن عريف جيش محترم لا يجد في نفسه الشجاعة للمواجهة مباشرة، ويكتفي بإلقاء السباب عبر النافذة.. هيا.. اهبط إلى هنا أيُّها المتحذلق، وسألقنك درسًا لن تنساه.
صاح (بتروفيسكي):
- أنا؟! ستلقنني أنا درسًا أيُّها الوقح.
قهقه الرجل ضاحكًا، وأشار إلى (بتروفيسكي)، وهو يتحدث مع المارة، قائلًا:
- هل رأيتم؟! إنَّه يخشى مواجهتي.. هـ.. هذا لأنَّه جبان.. هل رأيتم؟!
صرخ (بتروفيسكي)، وقد بلغ جنونه مبلغه:
- أنا جبان أيُّها الوغد؟! أنا.. انتظرني، لو أنَّ بك ذرة واحدة من الشجاعة.. انتظرني حتى أهبط إليك.
حاوَلَت زوجته أن تمنعه من الهبوط إلى الشارع بمعطف النوم، إلا أنَّ ثورة غضبه منعتها من هذا، فاكتفت بهمهمة غير

مفهومة، وهو يقفز في درجات السلم، ثم يندفع نحو المخمور، هاتفًا:
- هيا.. واجهني أيُّها الحقير، وسوف..
وفجأة، وقبل أن يتم عبارته، دبَّ النشاط فجأة في ذلك المخمور، الذي وثب إلى الأمام، وانحنى في خفة، ثم لكم (بتروفيسكي) لكمة كالقنبلة، في أنفه مباشرة، ورفع زجاجة الخمر، ليحطمها على رأس هذا الأخير، قبل أن يدور على عقبيه، ويعدو بكل قوته، ليختفي في الشارع المجاور، فأطلقت زوجة (بتروفيسكي) صرخة ذعرٍ، وهي تهتف:
- النجدة.. لقد أصاب زوجي.. النجدة.. النجدة.
أما (بتروفيسكي) نفسه، فقد احتقن وجهه بشدة، على الرغم من أنفه المحطم، وذلك الجرح في قمة رأسه، وترنَّح من فرط الدهشة والألم، والإحساس بالخزي والخجل، وهو يتساءل في حيرة: لماذا فعل ذلك المخمور هذا؟!
لماذا؟!..

☆ ☆ ☆

«وصلنا إلى (رام الله)..»
نطق الدليل تلك العبارة بأسلوبه الحازم المقتضب، وهما يصلان بجواديهما إلى المدينة، ثم أشار بيده، مستطردًا:
- لن ندخل إلى المدينة، حتى لا نثير الشبهات.. شقيقي (نزار) سيلتقي بنا هنا، وسيحضر الدراجتين البخاريتين، ويأخذ الجوادين.
والتفت إليه، يسأله في اهتمام:
- ألا ترغب في تناوُل بعض الطعام، قبل أن ننطلق إلى (اللد)؟!.
أجابه الشاب في اقتضاب:
- كلَّا.

بدا شيء من القلق على وجه الدليل، وهو يقول:
- الطريق طويل وشاق، والشيخ (حامد) أخبرني أنَّك لم تنم سوى ساعة واحدة، منذ...
قاطعه الشاب في حزم:
- العمل يأتي أولًا.
وافقه الدليل بإيماءة من رأسه، قائلًا:
- صدقت.
لم يكد يتم عبارته، حتى لاح لهما شقيقه (نزار)، وهو يقترب على متن دراجة آلية، وهو يجر إلى جوارها دراجة أخرى، فغمغم الرجل:
- عظيم.. كل شيء يسير على ما يرام.
بلغهما (نزار) بعد دقائق معدودة، وصافح الشاب في اهتمام، ثم سأله:
- هل وصلتُ إليكما في الوقت المناسب؟!
أومأ الشاب برأسه إيجابًا، وتمتم:
- بالتأكيد.
تبادلوا الدراجتين الآليتين والجوادين، وسأل الدليل شقيقه:
- كيف الحال في البلدة يا (نزار)؟
أجابه (نزار) بسرعة:
- الإسرائيليون ليسوا على ما يرام يا (فواز).. إنَّهم متوترون للغاية، وأعتقد أن كل هذا بسببه.. إنَّهم يعلمون بوجوده.. أليس كذلك؟!
أجاب (فواز) في اقتضاب:
- بلى.
ثم أدار محرك دراجته الآلية، وقال في صرامة:

- عد إلى البلدة بالجوادين يا (نزار)، وأجر اتصالك بالأصدقاء في (اللد)، وقل لهم أن يستعدوا، فلسنا نرغب في إضاعة لحظة واحدة.. هل تفهم؟!

أومأ (نزار) برأسه إيجابًا، وغمغم:

- أفهم يا (فواز).. أفهم.

لم يتبادلَا كلمة واحدة إضافية، و(نزار) ينطلق بالجوادين، عائدًا إلى (رام الله)، وتابعه الاثنان ببصرهما، ثم التفت (فواز) إلى الشاب، وسأله بأسلوبه المقتضب:

- هل تجيد قيادة الدراجات الآلية؟!

أدار الشاب محرك دراجته، وهو يجيب بنفس الاقتضاب:

- بالتأكيد.

انعقد حاجبَا (فواز) في شيء من الشك، وهو يقول:

- سننطلق في طرق وعرة وغير ممهدة.

رفع الشاب عينيه إليه، قائلًا في حزمٍ:

- هيا بنا.

نطقها في ثقة تامة، جعلت (فواز) يبتسم، ويهز رأسه، قائلًا:

- على بركة الله.

وانطلقا لإكمال المهمة..

من أجل (مصر)..

☆ ☆ ☆

تطلَّع (بيجال) إلى قرص الشمس، الذي مال إلى المغيب، وهو جالس على مقعدٍ كبيرٍ وثير، في الطابق الثاني من مبنى صغير، في مدينة (غزة)، وتصاعد توتره حتى كاد يبلغ ذروته، وهو يستمع إلى ضابط المراقبة، الذي راح يقرأ آخر تقارير المتابعة، قائلًا:

- حصار المدينة لم يسفر إلا عن سقوط عددٍ من الفلسطينيين، المطلوب إلقاء القبض عليهم، ولكننا لم نعثر بعد على ذلك

الجاسوس المصري يا أدون (بيجال).
سأله (بيجال)، في شيء من العصبية:
- هل راجعتم أوراق الجميع؟!
أجابه الضابط بإيماءة من رأسه، وقال:
- كلها يا أدون (بيجال)، وبمنتهى الدقة، ولكن هذا لم يسفر عن شيء.
ضاقت جبهة (بيجال)، وهو يكرر في أعماقه..
هذا لم يسفر عن شيء..
إذن فالجاسوس لم يأتِ إلى هنا..
ولم يذهب أيضًا إلى (يافا)..
كل التقارير الواردة من هناك تؤكد هذا..
أين ذهب إذن؟!
أين اختفى؟!
إنَّه لم يتلاش حتمًا في قلب الصحراء..
ولم يبث برقيته الشفرية هذه إلى (القاهرة) عبثًا..
فأين هو إذن؟!
«هل نواصل الحصار والتفتيش يا أدون (بيجال)؟!»
قطع سؤال الضابط أفكاره، فعقد حاجبيه، وهو يتطلع إليه في صرامة، قبل أن ينهض إلى الخريطة المعلقة على الجدار، دون أن يجيب سؤاله، فكرر الضابط:
- أدون (بيجال).. هل نواصل الحصار والتفتيش؟!
مرة أخرى، تجاهَل (بيجال) تمامًا، وهو يراجع الخريطة الكبيرة، فازدرد الضابط لعابه في توترٍ، وقال:
- أدون (بيجال).
سأله (بيجال) فجأة:
- ما أفضل طريق للوصول إلى (تل أبيب)؟!

كان السؤال مباغتًا بالنسبة للضابط، فقال في دهشة:
- (تل أبيب)؟!
أجابه (بيجال) في اهتمام شديد، دون أن يرفع عينيه عن الخريطة:
- ليس بالنسبة للمسافر العادي، ولكن بالنسبة لشخص هارب.
تضاعفت حيرة الضابط ودهشته، ولكنه أجاب في شيء من الحذر:
- الهارب سيتفادى الطرق الرسمية والمباشرة بالتأكيد.
هتف (بيجال) في حماس، وكأنَّما توصَّل الضابط إلى نظرية علمية مدهشة:
- بالضبط.. سيتفادى كل الطرق الرسمية، وسيحاول الدوران في طرق بعيدة غير مطروقة، حتى يصل إلى هدفه، دون أن يشعر به أحد.. بل وسيحاول تضليل مطارديه أيضًا.
غمغم الضابط بنفس الحيرة:
- بالتأكيد يا أدون (بيجال).
عضَّ (بيجال) شفتيه في غيظ، مكملًا:
- ولأن مطارديه أغبياء بما يكفي، فلن يكون وقوعهم في الفخ عسيرًا، وسيبذلون قصارى جهدهم لمراقبة فتحة الجحر الواضحة، في نفس الوقت الذي يدور هو فيه حولهم، ليخرج من الفتحة الأخرى.
حدَّق الضابط في وجهه لحظة في دهشة، قبل أن يهز رأسه، مغمغمًا في حيرة، رسمت خطوطها واضحة في ملامحه وصوته:
- أدون (بيجال).. الواقع أنَّه لا يمكنني استيعاب الأمر، و...
قاطعه (بيجال)، وهو يشير بسبابته إلى الخريطة، قائلًا في حزم:
- هنا؟!
أدار الرجل عينيه إلى حيث يشير (بيجال)، قائلًا:

- أين؟!
أجابه (بيجال) في عصبية:
- (اللد) أو (الرملة).. هنا فتحة الجحر الخفية.. الجاسوس لن يذهب إلى (تل أبيب) عن طريق (غزة) و(يافا)، كما نجح في إقناعنا.. بل سيدور من هناك، من حول جبل (الخليل)، ثم يتجه إلى (اللد) أو (الرملة)، ومنهما إلى (تل أبيب).
لم يستوعب الضابط هذا أيضًا، إلا أنَّه لاذ بالصمت، وترك (بيجال) يهتف في غضب:
- اللعنة! اللعنة! كان ينبغي أن أدرك هذا من البداية.. كان ينبغي أن أفهم لماذا استخدم موجة البث القديمة!!
قالها، وانقضَّ على الهاتف، وانتزع سماعته بحركة عنيفة، وطلب رقمًا خاصًّا، ليقول في توترٍ بالغٍ:
- أنا (بيجال).. وصلتني معلومات حديثة، تؤكِّد أنَّ الجاسوس المصري سيتجه إلى (اللد) أو (الرملة)، ومن إحداهما إلى (تل أبيب).. أريد تكثيف الحصار حول المدينتين، واستمراره حول (تل أبيب).. راقبوا كل الطرق الفرعية والخلفية.. استخدموا طائرات هليكوبتر بمصابيح ضوئية كبيرة.. افعلوا أي شيء.. المهم ألَّا ينجح ذلك المصري في الوصول إلى (تل أبيب)..
وأنهى المحادثة، ثم طلب رقمًا آخر، وقال:
- أنا (بيجال يائيل)، صلني بقائد المطار.
وانتظر لحظات، حتى سمع صوت قائد مطار (تل أبيب) الحربي، فقال في توتر:
- اسمعني جيدًا يا رجل.. افتح أذنيك عن آخرهما، وأنصت إلى كل كلمة سأخبرك بها، ولا تنه المحادثة قبل أن تستوعبها جيدًا.. لدي من الأسباب ما يؤكِّد لي أنَّ المصريين يحاولون إدخال أحد عملائهم إلى المطار، لاستعادة ميكروفيلم، تركه

جاسوسهم السابق في مكان ما هناك؛ لذا أريد منك أن تضاعف إجراءات الأمن، وتعلن حالة الطوارئ القصوى، انتق أفضل رجالك للحراسة، وليكونوا جميعًا من الذين تم ترشيحهم للعمل في المخابرات الحربية، ولا تدخل أي مخلوق، ما لم يكن معروفًا، وله ملف ممتاز عندك.. أما أنا فسأستقل هليكوبتر، وسأتجه إليك على الفور.. انتظرني.

وأنهى المحادثة بنفس العنف، الذي بدأها به، وهو يعقد حاجبيه في شدة، على نحو يوحي بأنهما قد امتزجا، ويقول في غضب هادر:

- فليكن أيُّها المصري.. لقد نجحت في خداعنا، حتى هذه اللحظة، ولكن الحكمة القديمة تقول: «من يضحك أخيرًا، يضحك كثيرًا».. وأنا أعدك بأنَّني سأكون آخر من يطلق ضحكاته، في هذه العملية.

في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كان الشاب ينطلق مع رفيقه، على متن الدراجتين الآليتين، نحو مدينة (اللد)، وهما لا يدركان أن دورية إسرائيلية كبيرة ستعترض طريقهما هناك، وستفتح عليهما بابًا جديدًا من أبواب الجحيم..

- بل وربما كان أوسع أبوابه..

على الإطلاق.

☆ ☆ ☆

١٢- وجهًا لوجه..

على الرغم من أن الفترة، التي استسلم فيها (نسيم) لنومٍ حقيقي، لم تكن تتجاوز الساعة ونصف الساعة، طوال الثلاثين ساعة الماضية، إلا أنَّه بدا جمَّ النشاط، شديدَ الاهتمام، وهو يرتشِف قدح القهوة الداكن، الذي أمسك به بأصابعه كلها، وهو يدور حول مائدة الاجتماعات، التي عاد الرجال إليها، مع غروب الشمس، وراح يستمع في انتباهٍ شديدٍ إلى أحد زملائه، الذي يقول:

- ولقد ذهب (دافيد بتروفيسكي) بنفسه إلى مستشفى (تل أبيب العسكري)، وأبلغ عن واقعة الاعتداء عليه، وتم إسعافه بضمادة لأنفه المكسور، وخياطة ذلك الجرح القطعي في أعلى فروة الرأس، وحصل على تقرير طبي يثبت إصاباته، وقام بالاتصال فعليًّا بقائده في المطار؛ للحصول على إجازة مرضية، إلا أنَّ قائده رفض بشدة، بحجة إعلان حالة الطوارئ القصوى، ومنع الإجازات وإلغائها تمامًا، وهذا يعني أن (بتروفيسكي) مضطر للذهاب إلى مطار (تل أبيب)؛ لاستلام نوبة حراسته في منتصف الليل، على الرغم من إصاباته.

ارتشف (نسيم) رشفة أخرى من قدح القهوة في استمتاع، وقال:

- عظيم.. كل شيء يسير إذن على ما يرام.

قال أحد زملائه في حزمٍ:

- ولكننا ما زلنا نجهل موقف الشاب يا (نسيم).

ابتسم (نسيم)، وقال:

- لا تقلق بشأنه.. إنَّه تلميذي.

ثم اتجه إلى الخريطة، وقال مشيرًا إليها بيسراه:

- إنَّه لن يذهب إلى (غزة) أو (يافا)، كما قالت رسالته، التي نسبها إلى (صالح)، واستخدم في كتابتها شفرة تقليدية، ثم أرسلها على موجة بث قديمة، حتى يعترضها الإسرائيليون، ويشددون الحراسة على المدينتين، في حين يتسلَّل هو عبر طريق مختلف تمامًا.

تبادَل الرجال نظرة، لم يستطع أحدهم إخفاء لمحة الإعجاب فيها، قبل أن يقول أحدهم، وهو يشير بدوره إلى الخريطة:

- رسالة (صالح) الأخيرة تقول: إنَّه سيعبر جبل (الخليل)، ثم يدور حول (رام الله) و(اللد)، ليبلغ (تل أبيب)، ولو سار كل شيء دون عقبات، فالمفترض أن يكون على مشارف (اللد) الآن، وسيبلغ (تل أبيب) قبيل منتصف الليل بساعة أو نصف الساعة على الأكثر.

ارتشف (نسيم) رشفة جديدة من قدح القهوة، قبل أن يضعه على المائدة، قائلًا:

- بالضبط.. وعندما يبلغها لن يكون في حاجة إلى دخولها، أو إلى مواجهة عمليات التفتيش والبحث، فسيلتقي به رجلنا خارج المدينة، ويسمله كل الأوراق، التي تتيح له دخول مطار (تل أبيب).

وصمت لحظة، ثم أضاف في حزم:

- وهناك يبدأ الخطر الحقيقي.

هزَّ أحد الرجال رأسه، قائلًا:

- وأي خطر!! إنَّه سيصبح في قلب ثكنة العدو، وعليه أن يذهب إلى الطائرة (ف – ٢١٠)، ويحل أحد مسامير قائمها، ثم يحصل على الميكروفيلم، ويعود به إلى هنا.. كل هذا وسط إجراءات أمن مشددة، لم يعرف المطار مثلها، منذ حرب أكتوبر.

سأل أحدهم في قلق:

- وماذا لو كشف الإسرائيليون أمره، قبل أن يستعيد الميكروفيلم؟!
مطَّ (نسيم) شفتيه، ولوَّح بكفِّه، قائلًا:
- لستُ أرغب حتى في تخيُّل ما سيحدث.
ثم التقى حاجباه، وهو يضيف:
- ولكنني واثق من أنَّ الشاب لن يتراجع أبدًا، حتى ولو انكشف أمره، وانطلق الجيش الإسرائيلي كلُّه خلفه.. إنَّه سيقاتل، ويقاتل، وسيمضي في مهمته حتى النهاية.. مهما كان الثمن.
نطقها، وهو يثق تمامًا بكل حرف منها..
لقد درَّب الشاب بنفسه، ويعرف جيدًا مدى مهارته وإصراره وعناده..
ويدرك أنَّه سيمضي في مهمته بالفعل حتى النهاية..
ومهما كان الثمن..

☆ ☆ ☆

«تلك هناك أضواء (اللد)..»
تطلَّع الشاب في صمت إلى المدينة، بعد أن نطق (فواز) العبارة، وبدت له الأضواء متراقصة مهتزة، مع حالة الإرهاق التي بلغها، فلاذ بصمته هذا، خشية أن ترتجف الكلمات على شفتيه لو انفرجتا، وترك (فواز) يتابع:
- المفترض أن نلتقي بأحد الرفاق هنا؛ ليبلغنا ما الذي ينبغي فعله، عندما نصل إلى (تل أبيب).
أجابه الشاب في حزم:
- أنا أعرف ما الذي ينبغي فعله، عندما نصل إلى (تل أبيب).
التفت إليه (فواز) يسأله:
- وما هو؟!
انعقد حاجبَا الشاب، وهو يقول في صرامة:

- سأخبرك في حينه.
قفز شيء من الغضب إلى عيني (فواز) لحظة، ثم لم يلبث أن استوعب الأمر، وأدرك أنَّه من الضروري أن يحتفظ الشاب بأموره سرًّا، وتذكَّر أنَّه يجهل حتى المهمة التي هو بصددها، فغمغم:
- فليكن.
مع آخر حروف كلماته، لاح له ضوء يقترب، من خلف التل، فقال في حماس:
- ها هو ذا.. هيا بنا.
قالها، وانطلق بدراجته الآلية على الفور، دون أن يمنح الشاب فرصة المناقشة، أو إبداء الرأي، فتردَّد الشاب لحظة، ثم لحق به بدراجته، ودار الاثنان حول التل، و...
وفجأة، سطعت تلك الأضواء في وجوههم..
لم يكن قادمٌ واحدٌ هذا..
بل كان هناك قادمون..
سيارتا دورية إسرائيليتان، ودراجة عسكرية آلية..
وعندما وجد الشاب والدليل نفسيهما وجهًا لوجه، أمام تلك الدورية، هتف الأخير في انزعاج شديد:
- يا إلهي!! الإسرائيليون!!
ثم دار بدراجته البخارية، وانطلق بها هاربًا بأقصى سرعة..
وكان هذا يكفي لإشعال الموقف كله..
فلم يكد ينطلق هاربًا، حتى أدرك الإسرائيليون أنهم أمام هدف واضح، فانطلقت رصاصاتهم بلا تفكير خلف (فواز)..
ونحو الشاب أيضًا..
وهكذا، وفي لحظات، وجد الشاب نفسه يواجه سيلًا من النيران..

ولكن هذا لم يفزعه..
ولم ينتزع ذرة واحدة من شجاعته، وقدرته على التفكير السليم..
وفي سرعة مدهشة، دار بدراجته الآلية، وهو يميل بها في شدة، حتى كادت ترقد على جانبها أرضًا، وهي تنطلق مبتعدة، ورصاصات الإسرائيليين تمرق فوق رأسه مباشرة..
وما أن تجاوز التل، حتى اعتدل بدراجته، واندفع بها نحو أكثر الدروب ضيقًا ووعورة وخلفه انطلقت الدورية كلها..
وانهال سيل الرصاصات مرة أخرى..
وفي هذه المرة، سمع صوت ارتطام إحدى الرصاصات بجسم الدراجة، وشعر برصاصة أخرى تخترق تلك العضلة القوية، بين عنقه وكتفه الأيمن، وسالت الدماء الدافئة اللزجة على صدره وظهره، وهو ينحرف داخل درب ضيق، عجزت السيارتان الإسرائيليتان عن ارتياده، فتوقفتا أمامه، في حين اندفع راكب الدراجة العسكرية الآلية خلفه.
وفي توتر عصبي، ضغط قائد الدورية زر الاتصال اللاسلكي، وهو يهتف:
- من الدورية السابعة إلى القيادة.. أدون (بيجال) كان على حق.. لقد اعترضنا طريق الجاسوس، ونحن نطارده الآن.. أكرِّر.. اعترضنا طريق الجاسوس، ونطارده الآن.. أرسلوا هليكوبتر للمعاونة.. وبأقصى سرعة..

لم يكد الرجل ينهي رسالته، حتى صدرت الأوامر لطائرتي هليكوبتر عسكريتين، كانتَا على أهبة الاستعداد، فأقلعتَا على الفور؛ لتشتركَا في المطاردة.

وانفتح ذلك الباب الجديد من أبواب الجحيم..

على مصراعيه..

☆ ☆ ☆

لم يدر الشاب أين يذهب بالضبط!

كان يجيد قيادة الدراجة الآلية، التي تدرَّب على قيادتها طويلًا وكثيرًا، منذ التحق بالعمل في المخابرات العامة المصرية، باعتبارها وسيلة نقل خفيفة وسريعة، وفعالة، في كل الظروف والأحوال...

إلا أنَّه يجهل المسارات والدروب في تلك المنطقة..

يجهلها تمامًا..

صحيح أنَّه نجح في ارتياد أحد الدروب الضيقة،، وأجبر السيارتين العسكريتين على التوقف، إلا أنَّه لا يدري إلى أين سيقود هذا!!

ولا ما الذي ينتظره، في نهاية الدرب!!

لذا فقد اتخذ قرارًا حاسمًا..

ووضعه موضع التنفيذ على الفور..

ودون تردد..

وبينما كان راكب الدراجة الآلية الإسرائيلية يطارده في إصرار، فوجئ به يدور بدراجته بغتة، واثبًا فوق صخرة صغيرة، ثم يندفع نحوه مباشرة..

وعلى الرغم من أن الإسرائيلي رجل أمن عسكري محترف، إلا أنَّ تلك المبادرة المباغتة أربكته بحق، فانحرف بدراجته في حركة عنيفة، محاولًا تفادي الارتطام بدراجة الشاب، الذي مال على نحو مدهش، وضم قبضته اليسري، ثم هوى بها على فكِّ الإسرائيلي بلكمة كالقنبلة، اقتلعت هذا الأخير من فوق دراجته الآلية، ودفعته في اتجاه حركة دراجة الشاب، لأربعة أمتار كاملة، قبل أن يسقط على الأرض في عنفٍ، ويتدحرج فوقها في قوة..

ولكن العجيب أنَّه لم يفقد الوعي..
لقد قفز واقفًا على قدميه، فور استقرار جسده على الأرض، واستلَّ مسدسه من غمده، في نفس الوقت الذي دار فيه الشاب بدراجته البخارية ثانية، وانقضَّ عليه في سرعة، فوق الأرض الوعرة..
وفي نفس اللحظة، التي أطلق فيها الإسرائيلي رصاصته، وثب الشاب بدراجته الآلية، وسمع صوت الرصاصة، وهي تخترق خزان وقودها، قبل أن يضرب الإسرائيلي بإطارها الأمامي، ويسقطه أرضًا في عنفٍ شديدٍ..
ومع سقوط الدراجة، وثب عنها الشاب، وترك جسده يتدحرج بعيدًا عنها، في نفس اللحظة التي حاول فيها الإسرائيلي النهوض، و...
وحدث الانفجار..
انفجرت الدراجة البخارية، بعد أن اشتعلت النيران في خزان وقودها، وأطاحت بالجندي الإسرائيلي، وتردَّد دوي انفجارها في المنطقة كلها..
وبسرعة، ودون أن يضيِّع لحظة واحدة، نهض الشاب يعدو نحو دراجة الإسرائيلي، ووثب فوقها، وأدار مقبض الوقود، واستعدَّ للانطلاق بها..
عندما ظهرت طائرتا الهليكوبتر بغتة..
وما أن لمحتَا الشاب، ينطلق بالدراجة البخارية العسكرية، حتى انقضتَا عليه، وأطلقتا رصاصاتهما نحوه..
وبأقصى سرعته، وبكل ما يمتلكه من خبرة ومهارة ومران، انطلق الشاب بالدراجة البخارية، عبر الدرب الضيق، وهو يحتمي ببعض الصخور البارزة، في محاولة لتفادي الرصاصات المنهمرة من أعلى كالمطر..

ولو أنَّ مراقبًا خارجيًّا ألقى نظرة على هذا المشهد، لأخذته الدهشة بشدة، وهو يتطلع إلى الدراجة البخارية، التي تنطلق في خطٍّ متعرجٍ، على نحوٍ مدهشٍ، فوق أرض شديدة الوعورة، والرصاصات تتناثر من حولها، وعلى جوانبها، ولتساءل في حيرة: كيف يمكنها المواصلة، في مثل هذه الظروف، دون أن تخترقها رصاصة واحدة، من هذا السيل المنهمر؟!

والباحث عن الجواب لن يجد تفسيرًا منطقيًّا واحدًا لهذا..

سوى أنَّها إرادة الله (سبحانه وتعالى) ومشيئته، التي تعلو كل القواعد والمنطق والقوانين، وتجبها جبًّا..

حتى قائدَا الطائرتين أصابتهما الدهشة، فهتف أحدهما في حِنق:

- مستحيل! لا يمكن أن نخطئ إصابة الهدف إلى هذا الحد!

التقط زميله قوله، عبر جهاز الاتصال اللاسلكي المشترك، فقال في غضب، وهو يضغط زر إطلاق أحد الصاروخين، على جانبي الهليكوبتر:

- ربما يساعده مساره المتعرج على تفادي رصاصاتنا يا رجل، ولكن ماذا سيفعل في مواجهة صاروخ؟!

قالها، وسبابته تضغط زر الصاروخ حتى آخره، فهتف زميله في ارتياع:

- لا.. لا تطلق الصاروخ، على هذا الارتفاع المنخفض.

انطلق هتافه بعد فوات الأوان..

وبعد أن سبق السيف العزل..

وانطلق الصاروخ..

ولأن مشيئة الله (سبحانه وتعالى)، تعلو كل مشيئة..

ولأن اسم الشاب لم يقدَّر له بعد أن ينتقل من عالم الأحياء، إلى سجلات الموتى، فقد اعترضت طريقه صخرة صغيرة، ما أن

ارتطم بها الإطار الأمامي لدراجته، حتى وثب في الهواء، واندفعت إلى الأمام..
في نفس اللحظة، التي ارتطم بها الصاروخ بالأرض..
وكان الانفجار..
ومن خلفه، شعر الشاب بموجة التضاغط العنيفة، التي ولدها الانفجار، تدفعه إلى الأمام أكثر وأكثر، حتى بدا كطائرٍ عجيبٍ، يحلِّق على ارتفاع ثلاثة أمتار من الأرض، تطارده عشرات الشظايا والصخور الصغيرة، التي ارتطمت بظهره، وصنعت فيه عشرات الجروح والكدمات، قبل أن تهبط به الدراجة أرضًا، وتدور حول نفسها، ثم يسقطان معًا، ووهج الانفجار لم يتلاشى بعد..
أما طائرتا الهليكوبتر، فقد أطلقت إحداهما ذلك الصاروخ، وارتفع بها قائدها في حركة غريزية، عندما دوَّى الانفجار، الذي باغت الهليكوبتر الثانية بوهجٍ مخيفٍ، وقِطعٍ مختلفة الأحجام من الصخور المتناثرة، التي أصابت مروحتها، وجسمها، و..
وفقدت الهليكوبتر توازنها، مع تضاغط الهواء المباغت، ومالت على نحو بالغ الخطورة، فارتطمت بأطراف مروحتها بصخرة بارزة كبيرة..
ودوَّى انفجار آخر في المنطقة..
انفجار أكثر عنفًا..
ومع ألسنة النيران، المتصاعدة من الهليكوبتر المحترقة، احتقن وجه قائد الهليكوبتر الأخرى، وشعر بمسئوليته عمَّا أصاب زميله، ولمح الشاب، على وهج النيران، وهو ينهض، ويعود إلى دراجته البخارية، وينطلق بها عبر الدرب الضيق، فصرخ بكل ما يشتعل في أعماقه من تطورٍ وانفعالٍ:
- لن تذهب بعيدًا.. لن تذهب بعيدًا أيُّها الجاسوس.

وانقضَّ بكل ثورته على الدراجة البخارية، وراح يمطرها برصاصاته بلا هوادة..
وفي هذه المرة، كان الموقف أكثر صعوبة وخطورة وحساسية..
فالشاب متعب مرهق، نفدت قواه أو كادت، وجسده مثخن بجراح وكدمات وسحجات لا حصر لها..
والصراع لا يتوقف أبدًا، و...
وفجأة، وجد نفسه أيضًا في مواجهة سيارتي الدورية بجنودهما، الذي يربو عددهم على العشرة..
وكانت المفاجأة مزدوجة، له ولهم..
هم أيضًا باغتهم وجوده، فارتفعت فوهات مدافعهم الآلية في توترٍ، ورأوا الهليكوبتر تطارده، وبدا لهم أن أمره قد انحسم تمامًا، بين المطرقة والسندان..
ولكن الشاب لم يكن أبدًا بالمقاتل العادي..
إنَّه مقاتل فذٌّ، يمتلك إرادة من حديد، وإصرارًا يلين له الفولاذ..
كما أنَّه تلقَّى تدريباته على يد (نسيم)، أحد أفضل وأبرع ضباط المخابرات العامة المصرية، على مرِّ تاريخها كله..
ولكل هذا، لم يفقد الشاب أعصابه لحظة واحدة، عندما فوجئ بسيارتي الدورية أمامه، والهليكوبتر تطارده بكل الإصرار والشراسة..
وفي سرعة، وكما كان يفعل خلال تدريباته، مال بالدراجة الآلية نحو صخرة صغيرة بارزة، وارتطم بها، و...
وقفزت الدراجة الآلية..
وكانت قفزة مدهشة..
قفزة تجاوزت السيارتين الإسرائيليتين، وعبرت بها فوق رؤوس الجنود، الذين أخذتهم الدهشة، فانحنوا بردٍّ فعل تلقائي، في حين واصلت الهليكوبتر انقضاضتها، وراحت تطلق رصاصاتها

خلف الشاب، وكأن قائدها لم يلمح السيارتين العسكريتين، فأصابت بعض رصاصاته الجنود الإسرائيليين، وقتلت أحدهم، قبل أن تتجاوزهم لتضرب الدراجة البخارية، التي يمتطيها الشاب، قبل أن تهبط أرضًا..

وشعر الشاب بإحدى الرصاصات تنسف الإطار الخلفي، وبأخرى تخترق خزان الوقود، وثالثة تدمي ساقه، قبل أن ترتطم الدراجة بالأرض، ويختل توازنها، فتنقلب في عنف، وتطرحه عن متنها بلا هوادة..

وتدحرج الشاب على الأرض في عنفٍ، وعندما توقَّف جسده، واعتدل، رأى الجنود الإسرائيليين يقفزون من السيارتين، ويعدون في اتجاهه، في حين كانت الهليكوبتر تدور في الهواء، وتعاوِد الانقضاض عليه بلا رحمة..

ومع الأرض العارية المحيطة به، والدراجة الآلية التالفة، وكل هذا العدد من الجنود، أدرك الشاب الأعزل أن أمره قد انتهى..

وبلا رحمة..

☆ ☆ ☆

فجأة، وبلا مقدمات، دوَّى انفجار ثالث، في تلك المنطقة، على مسافة كيلو مترات قليلة من (اللد)..

انفجار نسف الهليكوبتر الثانية في الهواء، وأطاح بها بغتة، على نحو أذهل الجنود الإسرائيليين، وفجَّر دهشة عارمة في أعماق الشاب، إلا أنَّ هذه الدهشة لم تلبث أن تلاشت، عندما انطلقت صيحات قوية في الجوار، وبرز من خلف الأشجار عدد من المقاتلين الفلسطينيين، وأحدهم يحمل قاذف صواريخ أمريكيًّا، من طراز (دراجون) ([12])، في حين راح الآخرون يطلقون نيرانهم على الإسرائيليين، الذين أخذتهم المفاجأة، ففقدوا ثلاثة منهم،

قبل أن يحتمى الستة الباقون بالسيارتين، ويتبادلون النيران مع الفلسطينيين..
أما الشاب، فلم يكد ينهض، بعد سقوط الهليكوبتر الثانية، حتى فوجئ بالدليل (فواز) يندفع نحوه، ويقول في انفعال لاهث:
- حمدًا لله.. لقد وصلنا في الوقت المناسب.. من حسن الحظ أنَّني نجحت في إحضار الرفاق بهذه السرعة.
ثم جذبه بعيدًا عن دائرة القتال، وهو يتابع بسرعة:
- هيا.. انصرف من هنا بسرعة، فلن تمضي دقائق، حتى يكتظ المكان بالإسرائيليين، ويتحول إلى قطعة من الجحيم.. لقد أبلغونا في (القاهرة) أن مندوبهم سيلتقي بك في النقطة (س + ٣).
وتوقف ليضيف في حزم:
- ولكنهم يؤكدون ضرورة التقائك به قبل منتصف الليل.. هذا أمر بالغ الأهمية إلى أقصى حد، كما أخبرونا.
أشار الشاب إلى القتال الدائر، قائلًا:
- لا يمكنني أن أترككم تقاتلون، و...
قاطعه (فواز) في حزم:
- إنَّها ليست مهمتك.. اترك لنا هؤلاء الملاعين، فنحن نجيد التعامل معهم، منذ زمن طويل، وأسرِع أنت لتكمل مهمتك.
ثم أشار إلى شابٍّ آخر، هرع إليهما على الفور، فقدمه للشاب، قائلًا:
- (راغب) سيعمل على نقلك إلى (تل أبيب)، عبر طرق خاصة، لا يمكن أن تنتبه إليها الدوريات الإسرائيلية.. هيا.. انطلقا.. لكل دقيقة ثمنها الآن..
تطلَّع إليه الشاب بنظرة امتنان صامتة، حملت كل ما يعجز لسانه عن النطق به، ثم التفت إلى (راغب)، قائلًا:

- هيا بنا..
قبل أن ينطلقًا مبتعدين، أمسك (فواز) معصم الشاب، وابتسم، قائلًا:
- قبل أن تنصرف، ينبغي أن تعلم أنَّني أدين لك بالاعتذار.
أطلَّ تساؤل حائر من عيني الشاب، فابتسم (فواز)، مضيفًا:
- إنَّك تجيد قيادة الدراجات الآلية ببراعة مدهشة.
ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتي الشاب، ولوح بيده، ثم انطلق مع (راغب) إلى الهدف الرئيسي..
إلى (تل أبيب)..

☆ ☆ ☆

«رويدك يا (نسيم)..»
قال أحد رجال المخابرات هذا، في حجرة الاجتماعات، وهو يتطلَّع مشفقًا إلى (نسيم)، الذي بدا الإرهاق عليه واضحًا، مُطلًّا من عينيه الحمراوين، فالتفت إليه هذا الأخير بحركة عصبية، جعلته يستطرد:
- هذا سابع قدح قهوة تتناوله، منذ بدأ الاجتماع، وأعصابك الثائرة لن تحتمل كل هذه الجرعة من المنبهات.
مطَّ (نسيم) شفتيه، وقال في عصبية زائدة:
- هذا شأني.
وارتشف الرشفة الأخيرة من قدح القهوة، قبل أن يتابع بنفس العصبية:
- (فاي) واجه الكثير هذه المرة، ولست أدري إلى متى سيحتمل جسده كل هذا الجهد.. أخشى ما أخشاه أن ينهار قبل المرحلة الأخيرة..
تبادَل الرجال نظرة متوترة، شفت عن أنَّ هذا ما يخشاه الجميع بالفعل، إلا أنَّ أحدهم تمتم:

- نتعشم ألَّا يحدث هذا.
مطَّ (نسيم) شفتيه مرة أخرى، مغمغمًا:
- تتعشم؟! هذا لا يكفي يا رجل.. لا يكفي أبدًا.
تبادَل الرجال نظرة متوترة أخرى، قبل أن يقول أحدهم، في شيء من الحزم:
- (نسيم).. أنت بحاجة إلى الراحة.
هتف (نسيم) مستنكرًا:
- الراحة؟! والآن؟! مستحيل يا رجل! لقد بدأ العد التنازلي بالفعل، ولم يعد هناك مجال للتراجع.
ثم ألقى نظرة سريعة على ساعته، قبل أن يستطرد بعصبية مفرطة:
- ولو أن كل شيء سار وفقًا للمخطط، فالمفترض أن يكون الشاب الآن على مسافة كيلومترات من (تل أبيب).
وانعقد حاجباه في شدة، مضيفًا:
- وأن يكون العريف (دافيد بتروفيسكي) في طريقه إلى مقرِّ عمله، في مطار (تل أبيب) الحربي.
نطقها (نسيم)، دون أن يدري أنَّه في نفس اللحظة، التي فارقت فيها الكلمات شفتيه، كان (بتروفيسكي) يهبط من منزله غاضبًا والضمادات تغطي نصف رأسه، وأنفه بأكمله، ويغمغم ساخطًا، وهو يستقل سيارته الصغيرة:
- يا لهذا العمل المرهق البغيض!! رأسي يُشجُّ وأنفي يتحطم، ولا يمكنني الحصول على أجازة ليوم واحد..
همهم بسبابٍ ساخطٍ، وانطلق بالسيارة الصغيرة، التي أطلقت فرقعة وقرقعةً، وانبعث منها ضجيج سخيفٍ، وهي تشقُّ شوارع (تل أبيب)، حتى توقَّفت عند نقطة التفتيش، في مدخل المدينة، وسأل (بتروفيسكي) جندي الحصار في عصبية:

- ماذا يحدث هنا؟! أنا عريف في المطار الحربي، ولدي نوبة حراسة، لا بدَّ أن تبدأ مع منتصف الليل.
مدَّ الجندي يده إليه، قائلًا في صرامة:
- أوراقك.
ناوله (بتروفيسكي) بطاقته العسكرية، فطالعها الرجل في اهتمام، وانعقد حاجباه في صرامة متوترة، وهو يقارن بين الصورة فيها، وذلك الوجه المغطَّى بالضمادات أمامه، فصاح به (بتروفيسكي) في حنق:
- هل ترغب في الحصول على بصمات أصابعي؟!
صمت الجندي لحظة، ثم أعاد إليه بطاقته العسكرية، قائلًا:
- لن تكون هناك ضرورة لهذا.
استعاد (بتروفيسكي) بطاقته العسكرية، وهو يتمتم بعبارات ساخطة، وانطلق بالسيارة خارج المدينة، متجهًا نحو المطار الحربي، وهو يقول لنفسه:
- يا له من نظامٍ سخيفٍ!.. جاسوس يلقَى مصرعه في المطار، فتقوم الدنيا ولا تقعد.. يا للسخافة!
لم يكد يتم عبارته، حتى فوجئ بشخص يندفع من بين الأشجار، ويعترض طريق سيارته، فضغط فراملها في قوة، وانحرف بها بحركة غريزية، حتى توقفت خارج الطريق، فخرج منها ملوحًا بقبضته وصائحًا في غضب:
- اللعنة!.. ماذا أصابك أيُّها ال...
بتر عبارته بغتة، وهو يحدِّق في وجه الرجل، الذي اندفع من بين الأشجار، وهتف في دهشة عارمة:
- يا للشيطان! إنَّه أنت؟!
كان نفس المخمور، الذي أثار ثائرته عند الظهر، وفعل به ما فعل، والذي ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة ساخرة، عندما

أدرك أن (بتروفيسكي) قد عرفه، وقال:
- نعم.. إنَّه أنا.
وقبل حتى أن تنتهي كلمته، كانت قبضته تهوي على فكِّ الإسرائيلي بلكمة ساحقة، أعقبها بأخرى في معدته، ثم ثالثة في مؤخرة عنقه، أسقطته فاقد الوعي..
وبسرعة، برز رجلان آخران من خلف الأشجار، حملا (بتروفيسكي) جانبًا، وابتعدا به عن المكان، بعد أن حصل الرجل الأول على بطاقته العسكرية وأوراقه، وتطلَّع إلى صورته، ثم ابتسم مغمغمًا:
- عظيم.. إنَّه يشبهه كثيرًا بالفعل.
قالها، والتقط حقيبة صغيرة من بين الأشجار، ألقاها داخل السيارة الصغيرة، التي استقلها، وانطلق بها في الطريق لكيلو مترين أو ثلاثة، قبل أن ينحرف إلى طريق جانبي، انطلق فيه لخمسة كيلومترات أخرى، ثم توقف، وغادر السيارة، وتلفَّت حوله لحظة، ثم أطلق صفيرًا منغومًا، أشبه بنداء أحد الطيور البرية، التي تميز المنطقة، وانتظر بضع لحظات، حتى سمع صفيرًا مماثلًا، فتنهَّد في ارتياح، وغمغم، وهو يلقي نظرة على ساعته:
- الحادية عشرة والنصف.. عظيم.. كل شيء يسير على ما يرام.
لم يكد يتم عبارته، حتى برز الشاب من خلف الأشجار، بصحبة (راغب)، الذي بدا متوترًا للغاية، وهو يتطلع إلى الرجل، الذي قال بابتسامة هادئة:
- السماء مظلمة أكثر من المعتاد الليلة.

أجابه الشاب في هدوءٍ مماثلٍ:
- ربما لأن القمر أسود اللون.
لم يفهم (راغب) شيئًا مما قاله الاثنان، فانفرجت شفتاه ليلقي سؤالًا ما، إلا أنَّ الشاب التفت إليه، قائلًا في صرامة:

- هيا.. عُد إلى قومك.
أطبق (راغب) شفتيه، واحتفظ بسؤاله في أعماقه، وهو يومئ برأسه إيجابًا، وسرعان ما اختفى بين الأشجار، وتناهى وقع قدميه إلى مسامع الشاب، وهو يبتعد.. ويبتعد..
ويبتعد..
وعندما أصبح خارج نطاق السمع، قال الرجل في اهتمام:
- ستجد في تلك الحقيبة الصغيرة زيًّا عسكريًّا إسرائيليًّا، مع ضمادات وأدوات تنكُّر، ومهمتي هي أن أزيل كل مظاهر الاختلاف، بينك وبين الجندي الإسرائيلي، الذي ستنتحل شخصيته؛ ليمكنك دخول المطار الحربي.. هيا.. أسرِع، فمن المحتَّم أن تصل إلى هناك قبيل منتصف الليل.
أسرَع الشاب يرتدي الزي العسكري، وناوَله الرجل الأوراق، وبدأ في التعامل مع ملامحه، ليبدو أكثر شبهًا بالجندي، ولتبدو إصاباته أقرب إلى الحقيقة، تحت الضمادات التي سيضعها على وجهه، على نفس الوضع الذي توجد به على وجه (بتروفيسكي)، وهو يقول:
- اسمك (دافيد بتروفيسكي).. عريف إسرائيلي، هاجر والداه إلى (إسرائيل) من (بولندا)، ولهما ميول شيوعية، لا يشاركهما فيها ابنهما (دافيد)، المتزوج من (راشيل بولوني)، مهاجرة شرقية، ولم ينجبَا أية أطفال، و...
واصل حديثه عن (بتروفيسكي)، وأسماء رفاقه في المطار، ووظيفته هناك، واسم قائده، ورئيسه المباشر، وموقعه وميوله، وكل ما يمكن طرحه، في هذه الدقائق القليلة..
ولم يقاطعه الشاب بحرفٍ واحدٍ..
لقد استمع إليه في انتباهٍ تامٍّ، وراح يحشو عقله بكل المعلومات الممكنة، ويبذل قصارى جهده، للحفاظ بها بين ثنايا مخِّه، حتى

انتهى الرجل من عمله، فنهض الشاب، وسأله في اهتمام:
- أين يضع (بتروفيسكي) هذا سيارته؟!
أجابه الرجل بابتسامة هادئة، وقد راق له أن ينتبه الشاب إلى هذه النقطة:
- في المربع رقم (١٢)، في الموقف الخارجي، الخاص بالمطار.
أومأ الشاب برأسه متفهمًا، والتقط مفاتيح السيارة، وأدار محركها، ثم انطلق بها، دون أن يتبادَل كلمة إضافية مع الرجل، الذي تلاشت ابتسامته في بطءٍ، وتنهد مغمغمًا:
- وفقك الله يا فتى.. وفقك الله في مهمتك.
أما الشاب، فقد انطلق بالسيارة في الطريق، الذي حفظه عن ظهر قلب، خلال ساعات التدريب، وراح يراجع كل ما سمعه من معلومات في ذهنه، حتى بلغ المطار، فأوقف السيارة في المربع رقم (١٢)، واتجه بخطوات ثابتة نحو مدخل الجنود في المطار، ولم يكد حارس المدخل يلمحه، حتى أطلق ضحكة قصيرة، وهتف:
- مظهرك يثير الضحك بالفعل يا (بتروفيسكي).. لقد أخبرونا بما فعله بك ذلك المخمور.
زمجر الفتى في خشونة، وقال بصوت لا يمكن تمييزه في سهولة:
- كفى يا رجل.. كفى.
وتجاوز المدخل في خطوات سريعة، وكأنه لا يرغب في مناقشة الأمر، ولكن الجندي استوقفه، قائلًا:
- معذرة يا (بتروفيسكي)، ولكن الأوامر الليلة تحتم مراجعة كل الأوراق، حتى بالنسبة للمعروفين.
مطَّ الشاب شفتيه، متظاهرًا بالحنق، وهو يناوِل الحارس أوراقه، فألقى عليها الرجل نظرة سريعة، وقال:
- فليكن.. هيا يا (بتروفيسكي)، نوبتك ستبدأ بعد قليل.

غمغم الفتى بنفس الخشونة:
- أعلم هذا.
ثم اندفع داخل المطار، و...
وفجأة، وجد أمامه شخصًا يعترض طريقه، فتوقف، ورفع عينيه إليه، و...
وتجمَّدت مشاعره كلها، عندما التقت عيناه بعينين قاسيتين نفَّاذتين..
عينى واحدٍ من أكثر رجال (الموساد) خطورة..
(بيجال)..
(بيجال يائيل)..
شخصيًّا..

☆ ☆ ☆

١٣- سماء الخطر..

«(فاي) ينبغي أن يكون داخل المطار الآن..»
نطق (نسيم) العبارة في توترٍ بالغٍ، وهو يتحرَّك داخل حجرة الاجتماعات في عصبية، فقال أحد رفاقه، مشيرًا إلى الخريطة:
- رجلنا في (تل أبيب) أبلغنا أنَّه قد انتحل شخصية (بتروفيسكي) بالفعل، وانطلق إلى المطار في سيارته الصغيرة. ولو سار كل شيء على ما يرام، سيكون داخل المطار الآن بالفعل.
فرك (نسيم) كفيه في عصبية، قائلًا:
- نعم.. لو..
تطلع رفاقه كلهم إليه في صمت، قبل أن يميل أحدهم نحوه، ويقول:
- ماذا دهاك يا (نسيم)؟!
التفت إليه (نسيم) في حركة حادة، قائلًا:
- ماذا هناك؟!
قال زميله في هدوء:
- إنَّها ليست أول مرة، تتولَّى فيها أمر مهمة ما، وليست المرة الأولى، التي تتابع فيها عملًا كهذا خطوة فخطوة، بل وكانت هناك عمليات سابقة، أكثر أهمية وخطورة، ولكننا لم نعهدك قد بهذا التوتر الزائد، إلا في هذه المرة.
تطلَّع إليه (نسيم) بنظرة خاوية، مغمغمًا:
- حقًّا؟!
تابع زميله في اهتمام:
لقد كنتَ أكثرنا هدوءًا وتماسكًا، في أصعب المواقف وأحلك الظروف، حتى إنَّنا كنَّا نطلق عليك اسم (الأسد الهصور)، فماذا

أصابك هذه المرة؟!
شردت عينَا (نسيم) بضع لحظات، وجذب مقعدًا، ليجلس عليه في بطءٍ، ويشبِّك أصابع كفيه أمام وجهه، وكأنَّه غارق في تفكير عميق، قبل أن يجيب:
- لستُ أدري.. ربما هو عامل السن.. لقد تقدَّمتُ في العمر عن ذي قبل.
هزَّ زميله رأسه نفيًا، وارتسمت على شفتيه ابتسامة مشفقة، وهو يقول:
- كلَّا يا (نسيم).. ليس هذا هو السبب الحقيقي، فالمرء يزداد حكمة ورصانة، كلما تقدم به العمر.
ثم مال نحوه أكثر، وأضاف:
- الحقيقة هي أنَّك تشعر بالخوف على الشاب.
ازدرد (نسيم) لعابه، وهو يتطلَّع إلى زميله في صمتٍ، فتابع الرجل، وهو يتراجع إلى مقعده:
- لقد تسلَّمتَ أمره من (رفعت)([13]) ، وأنت تشعر بالإعجاب تجاهه، وبأنَّه يذكرك بشبابك، كما قلتَ بنفسك، ومع مرور الوقت، وتوليكَ أمر تدريبه، تضاعفت تلك الرابطة بينك وبينه، حتى صار أشبه بابنٍ لك، تُولِيهِ كلَّ رعايتك واهتمامك، خاصة وأنَّك لم تتزوج أو تنجب أبدًا.
واصل (نسيم) تطلعاته الصامتة إليه، فأضاف في صرامة:
- وهذا يعني أنك تجاوزت الحدود المسموح بها في علاقات العمل، ووقعت في الخطأ الذي لا بدَّ من تفاديه طوال الوقت.. لقد وقعت في حبِّ العميل يا (نسيم)، وهذا يحتِّم ابتعادك عنه في المرحلة القادمة، حتى لا..
قاطعه (نسيم) فجأة، وهو ينهض من مقعده، قائلًا:

- هراء.
ثم اتجه إلى الخريطة، متابعًا بنفس التوتر:
- ولكننا سنناقش هذا فيما بعد، عندما تنتهي هذه العملية، أما الآن، فالأمر الوحيد، الذي ينبغي أن يشغل رؤوسنا هو هل نجح الشاب في دخول مطار (تل أبيب) الحربي، أم...
لم يتم عبارته، ولكن السؤال تفجر في كل الرؤوس بالفعل..
هل نجح الشاب في دخول المطار؟!
هل؟!

☆ ☆ ☆

لثوان، خُيِّل للشاب أن نظرات (بيجال) اخترقت عينيه، ونفذت إلى أعمق أعماقه، لتفحص كيانه كله، إلا أنَّ هذا لم ينسه أن يؤدي التحية العسكرية في احترام ظاهري، ويشد قامته في قوة، كما يفعل أي عريف بسيط، أمام أحد قادته..
ولم يرد (بيجال) تحيته..
لقد واصل التحديق فيه بنفس النظرة الصارمة المتفحصة، حتى ارتفع من خلفهما صوت يهتف:
- (بتروفيسكي).. لقد تأخرت على نوبتك.
استدار (بيجال) في بطءٍ، يتطلع إلى الضابط، الذي أطلق الهتاف، في حين أدَّى الشاب التحية العسكرية مرة أخرى، وقال بعبرية سليمة:
- سيدي.. لقد تأخرت على موعد نوبتي.
عاد إليه (بيجال) ببصره، وصمت لحظة أخرى، واصلت نظراته خلالها اختراق كيان الشاب، قبل أن يشير إليه، قائلًا:
- اذهب.
تحرَّك الشاب في خطوات سريعة إلى داخل المطار، في حين أشار (بيجال) إلى الضابط، قائلًا:

- هل تعرفه جيدًا؟!
أجابه الضابط في بساطة:
- بالطبع.. إنَّه (دافيد بتروفيسكي)، واحد من أفضل صف الضباط هنا.
سأله (بيجال):
- ماذا أصاب وجهه؟!
ابتسم الضابط، وقال:
- لقد لكمه مخمور، وحطَّم زجاجة خمر على رأسه في الظهر، في أثناء مشاجرة بينهما، بسبب غناء المخمور بصوت أجش، أسفل نافذة حجرة نوم (بتروفيسكي) مباشرة.
ثم ضحك مستطردًا:
- والواقع أن شكله بهذه الضمادات مضحك للغاية.
قالها، وراح يضحك في قوة..
ولكن (بيجال) لم يشاركه ضحكاته هذه.
ليس لأنَّه لا يميل للضحك في المعتاد فحسب..
ولكن لأن عقله لم يستوعب الأمر جيدًا، على نحو ما..
لقد ولدت بذرة شكٍّ في أعماقه..
ولن تهدأ، قبل أن تؤتي ثمارها..
لن تهدأ أبدًا..
أما الشاب، فلم يكد يصبح داخل المطار، حتى تحرَّك في سرعة نحو ممرات الهبوط..
وكم أدهشته دقة المعلومات لدى المصريين، حتى إنَّهم رسموا له المكان بالتفصيل، على نحو يشعر معه، وكأنَّه زاره بنفسه من قبل..
إنَّه سيقطع هذا الممر الطويل، ثم يدور حول المبنى الإدارى، وبرج المراقبة الجوية، وبعدها يصبح أمام المهبط مباشرة..

يا للدقة!..
ها هي ذي ممرات الهبوط أمامه..
والطائرة المنشودة هي الرابعة إلى اليمين، في الصف الأول وعلى الرغم من موقفه الشديد الحساسية..
وعلى الرغم من الخطر المحيط به من كلِّ جانب، شعر الشاب بارتياحٍ شديدٍ، وهو يتطلع إلى الطائرة (ف – ٢١٠)، التي خاض كلَّ ما خاض، واحتمل كلَّ ما احتمل، حتى يصل إليها..
كل المطلوب منه الآن أن يتجه إليها، ويتظاهر بربط حذائه، إلى جوار قائم إطارها، ثم يحل ذلك الجزء، الذي أخبروه عنه، ويستعيد الميكروفيلم، و...
وفجأة، أضيء ضوء أحمر عجيب في أعماقه..
شيء ما، أنبأه بأن شخصًا ما يراقبه من بعيد..
وفي بطءٍ، استدار الشاب خلفه..
ووقع بصره عليه..
على (بيجال)، الذي وقف عند نهاية الممر، يتطلع إليه بنظرة حادة طويلة..
وفي أعماقه، كان (بيجال) يدير الأمر أكثر من مرة..
لماذا اليوم بالذات؟!
لماذا يزعج شخص مخمور العريف (بتروفيسكي)، ويجذبه إلى اشتباكٍ سريعٍ، يتحطم فيه أنفه على هذا النحو؟!
لماذا؟!..
ثم كيف يتمكن مخمور من فعل كل هذا بعريف إسرائيلي، تلقَّى – على الأقل – التدريبات الأولية للدفاع عن النفس؟!
هناك شيء حتمًا، كان يستلزم وجود هذه الضمادات..
ربما لإخفاء شيء ما في وجه (بتروفيسكي) هذا..
أو...

وفجأة، وبلا مقدمات، قفزت الحقيقة كلَّها إلى رأس (بيجال يائيل)..
فجأة، فهم لماذا حدث الاشتباك؟!
ولماذا كانت الضمادات ضرورية!!
وفي نفس اللحظة، التي قفزت فيها الحقيقة إلى ذهنه، هتف (بيجال)، مشيرًا إلى الشاب:
- أوقفوا هذا الرجل.. إنَّه ليس (بتروفيسكي).
ومع صيحته، تكهرب الجو في المطار كله..
وانطلق الشاب يعدو، فوق ممرات الهبوط والإقلاع..
وبسرعة مدهشة، استل (بيجال) مسدسه، وأطلق النار..
وانطلقت صفارات الإنذار، و(فاي) يعدو بكل قوته، على الرغم من إصاباته المتعددة، التي راحت تنزف الدماء مرة أخرى، فبدا كما لو أنَّه قد تحوَّل إلى كيس دماء، ارتطم بقنفد ضال([14])..
واخترقت واحدة من رصاصات (بيجال) فخذه..
وتناثرت العشرات من حوله..
ولكنه لم يتوقَّف..
وواصل العدو..
لقد تجمعت حواسه كلها في ساقيه، اللتين تحولتا إلى آلتين للعدو، فانطلق بهما بسرعة مدهشة، و(بيجال) يعدو خلفه، صائحًا:
- أوقفوه.. إنَّه الجاسوس.. الجاسوس المصري..
واندفع الجميع من كلِّ صوب نحو الشاب..
ولكنه لم يتوقف لحظة واحدة..
لقد اجتاز أبواب الجحيم، حتى بلغ هذا المكان..
ولن يتراجع عن هدفه الآن أبدًا..

مهما كان الثمن..
ولقد انتبه (بيجال) فجأة إلى أنَّه يتجه نحو طائرة بعينها..
نحو (ف – ٢١٠)..
نفس الطائرة، التي لقي عندها الجاسوس السابق مصرعه..
واحتقن وجه (بيجال)، وهو يصرخ:
- آه.. الميكروفيلم هناك.. كنتُ واثقًا من هذا.. كنتُ واثقًا من هذا.
ومع آخر حروف كلماته، بلغ الشاب الطائرة (ف – ٢١٠)، ووثب يتعلق بها، قبل أن يقفز إلى كابينتها، ويدير محركها، وهو يجذب غطاء الكابينة فوقه، فصرخ (بيجال)، وهو يطلق رصاصاته كلها:
- امنعوه.. امنعوه بأي ثمن.. انسفوا الطائرة.. حطموا الممرات، ولكن امنعوه بأي ثمن..
انطلق الجميع نحو الطائرة، وراحوا يمطرونها برصاصاتهم، التي ارتطمت بجسمها القوي، وراحت ترتد عنه في عنف، والشاب ينطلق بها على ممر الإقلاع، فصرخ (بيجال):
- لا.. لا تجعلوه يقلع بها أبدًا.
كان يدرك أن جسم الطائرة سيقاوم الرصاصات العادية، وأن أحدًا من هؤلاء المهاجمين لن يمكنه إيقافها بأسلحة نارية تقليدية؛ لذا فقد توقف لحظة، ثم اندفع نحو جيب عسكرية، وقفز داخلها، ثم انطلق بها على الفور، وهو يقول في غضبٍ وانفعالٍ شديدين:
- الإطارات.. الجاسوس السابق وضع الميكروفيلم في مكان ما، بالقرب من الإطارات.. كان ينبغي أن أدركَ هذا.. كان ينبغي أن أدركه منذ البداية..

وانطلق بالسيارة؛ ليعترض طريق الطائرة، التي زادت سرعتها على ممر الإقلاع، وهو يقول في غضبٍ:
- والإطارات أيضًا هي الوسيلة الوحيدة؛ لإيقاف ذلك المصري.. لا بدَّ من نسف إطارات الطائرة، قبل أن تقلع.
وبجسارة حقيقية، انقضَّ على الطائرة بسيارته، دون أن يبالي باندفاعها نحوه، وصوَّب مسدسه إلى إطارها الأمامي في إحكام، وهو يقول:
- هيا أيُّها المصري.. الحق بزميلك في الجحيم.
وأطلق النار..
ولأنَّه رجل مخابرات محنَّك..
ولأن الأمر صار بالنسبة إليه، أكثر أهمية من حياته نفسها.
نجح (بيجال) في إصابة هدفه..
وانفجر إطار الطائرة (ف – ٢١٠)..
وبقوة..

☆ ☆ ☆

لم يكن من الممكن أبدًا أن يخطئ (بيجال) إصابة إطار طائرة ضخم، وهو يندفع نحوه مباشرة..
لذا فقد أصاب هدفه بمنتهى الدقة..
ونسف الإطار..
ولكن ليس في الوقت المناسب..
لقد انفجر الإطار، بعد أن كانت الطائرة قد ارتفعت عن الأرض بالفعل، وبدأت مرحلة الإقلاع، التي لم تعد تعتمد على الإطارات..
وبكل غضب وثورة الدنيا، صرخ (بيجال):
- لا.. لا.. مستحيل!

ثم أطلق شهقة قوية، عندما انقضَّ عليه الإطار المحطم، فقفز من السيارة، وتدحرج مبتعدًا عنها، وهي تعبر الهواء فوقه، وتنطلق بعيدًا..
واتسعت عينا (بيجال) في غضب وارتياع..
اتسعتا وهو يحدِّق في الطائرة، التي أقلع بها الشاب من المطار..
الطائرة التي تحوي الميكروفيلم..
والتي تحمل شهادة فشله كرجل مخابرات، ومسئول أول عن أمن المطار الحربي..
ثم صرخ.
صرخ يهتف بالجميع:
- ماذا تنتظرون؟! انطلقوا خلفه.. انسفوه.. أسرعوا.
ولم تمض ثوان، حتى أقلعت ثلاث مقاتلات إسرائيلية خلف الشاب..
خلف (فاي)..

☆ ☆ ☆

ران صمتٌ عجيبٌ على حجرة الاجتماعات، في مبنى الأمن القومي، داخل المخابرات العامة المصرية، وتركَّزت عيون الجميع على (نسيم)، الذي بلغ ذروة توتره وعصبيته، وهو ينقر بسبابته ووسطاه على المنضدة، قبل أن يهتف:
- أريد قدحًا آخر من القهوة.
أجابه أحدهم في توتر:
- لقد نفدت القهوة.
صاح (نسيم):
- نفدت؟! ماذا تعني؟! لماذا لا يعدون كمية إضافية منها.. إنَّنا نحتاج إلى المزيد.
نهض زميل آخر، يقول:

- اهدأ يا (نسيم).. كلنا ننتظر النتائج على أحرِّ من الجمر، ولكن أعصابنا لا تلتهب على هذا النحو.. اهدأ.
صاح (نسيم) في عصبية زائدة:
- أنا هادئ.. مَن قال إن أعصابي ملتهبة؟! هه.. مَن قال هذا؟!
ربت ثالث على كتفه، قائلًا:
- تمالك أعصابك يا رجل، فحتى لو فشل الشاب في استعادة الميكروفيلم، فلن يعني هذا خسارة فادحة، فربما..
قاطعه (نسيم) في حِدَّةٍ:
- ومَن قال إنَّه سيفشل؟!
قال رابع في حِدَّةٍ:
- كل شيء قابل للنجاح والفشل يا (نسيم).
قال في حِدَّةٍ:
- لسنا هنا لحضور محاضرة حول الفشل والنجاح.. إنَّنا.
قبل أن يتم عبارته، اقتحم أحد زملائهم حجرة الاجتماعات، وهو يحمل جهاز اتصال لاسلكي كبير، وهتف:
- (نسيم).. إنَّها رسالة من (فاي).. لا بدَّ أن تستمع إليها بنفسك.
ولم يدر (نسيم) كيف وثب عبر الحجرة، ليختطف مسماع جهاز الاتصال، ويهتف:
- (فاي).. أين أنت؟!
أتاه صوت الشاب، عبر جهاز الاتصال اللاسلكي، وهو يقول:
- أنا داخل الطائرة (ف – ٢١٠).. في سماء (تل أبيب).
شهق الجميع في دهشة، وهتف (نسيم) في انبهار:
- في سماء (تل أبيب)؟! ماذا حدث يا فتى؟!
أجابه الشاب بسرعة:
- الأمور تطورت وتعقدت في سرعة، ولم يمكنني انتزاع الميكروفيلم من الطائرة؛ لذا فقد فررت بها من هناك.. ما الذي

ينبغي فعله في رأيك يا سيدي.
هتف (نسيم):
- ابتعد بقدر الإمكان يا فتى، فالمقاتلات الإسرائيلية ستنطلق خلفك حتمًا، ولن يمكنك مواجهتها وحدك، فأنت لم تكمل تدريباتك القتالية الجوية بعد، ولست طيَّارًا محترفًا.. ابتعد بأقصى سرعة.
سأله الشاب:
- في أي اتجاه يا سيدي؟!
انعقد حاجبا (نسيم)، واستدار في حركة حادة إلى الخريطة الكبيرة، قبل أن يجيب في توتر:
- نحو البحر يا فتى.. انطلق نحو الغرب مباشرة.
صمت الشاب لحظة، ثم قال في حزم:
- لقد بدءوا مطاردتي بالفعل يا سيدي..
سأضطر لإيقاف الاتصال مؤقتًا.
صاح به (نسيم):
- اقفز خارج الطائرة يا (فاي).. اتركها تسقط، أو تغرق في البحر، ولكن لا تجازف بالمواجهة.. لن يمكنك أبدًا مواجهة المقاتلات الإسرائيلية.. هل تسمعني؟! هل تسمعني يا (فاي)؟!
ولكن جهاز الاتصال صمت تمامًا هذه المرة.
لقد أوقف الشاب الاتصال..
مضطرًا..
لم يكن باستطاعة الشاب بالفعل أن يواجه وحده ثلاث مقاتلات إسرائيلية، يقودها طيارون حربيون محترفون..
وكان يدرك هذا جيدًا..
لذا فلم يحاول الاشتباك معهم أبدًا..

كل ما فعله، هو أن واصل الانطلاق فوق البحر المتوسط، نحو الغرب مباشرة، وهو يهبط بالطائرة إلى أقلِّ ارتفاع ممكن..
وعبر جهاز الاتصال اللاسلكي، أتاه صوت أحد الطيارين الإسرائيليين، يقول في صرامة:
- نحن نسيطر على الموقف تمامًا، ونحاصرك من ثلاثة جوانب.. استسلم فورًا، وعد معنا إلى المطار، وإلا أطلقنا صواريخنا عليك مباشرة.
مطَّ الشاب شفتيه لحظة، ثم دفع عجلة القيادة إلى الأمام، قائلًا:
- اذهبوا إلى الجحيم.
واتسعت عيون الطيارين الثلاثة في دهشة، عندما مال بطائرته، متجهًا نحو البحر مباشرة، وقال أحدهم لزميليه:
- ماذا أصاب هذا المجنون؟! هل يزمع الانتحار؟!
أجابه زميله:
- بل يحاول الفرار منا، بالطيران على ارتفاع منخفض.
ثم استطرد، وهو ينخفض بطائرته بدوره:
- ولكنه لن يفلح.
انخفضت الطائرات الثلاث، وواصلت مطاردتها لطائرة (فاي)، وقائدها يكرر في صرامة:
- إنذار أخير يا هذا.. عُد معنا إلى المطار، وإلا نسفنا الطائرة.. لا يوجد إنذار آخر.
ولكن الشاب تجاهَل قولهم هذا، وواصل انطلاقه بالطائرة على ارتفاع أمتار قليلة من سطح البحر، فقال أحد الطيارين الثلاثة في توتر:
- فليكن.. ليس لدينا خيار آخر.
وفتح غطاء صندوق أزرار إطلاق النار، وهو يقول لزميليه:

- استعدوا لإصابة الهدف.

وعلى الرغم من أن كل كلمة ينطقونها كانت تبلغ أذني الشاب، الذي أعاد موجة البث إلى ما كانت عليه، بعد حديثه مع (نسيم)، إلا أنَّه واصل الانطلاق بمحاذاة سطح البحر، بأقصى سرعة ممكنة، على نحو جعل الطيار يقول لزميليه.

- استعدًّا.

ومع كلمته أحكم الشاب حزام مقعده، وأمسك ذراعًا صغيرة إلى جواره في قوة، حتى سمع الإسرائيلي يقول:

- الآن.

وهنا، وفي نفس اللحظة، التي ضغط فيها الثلاثة أزرار إطلاق النيران، جذب الشاب تلك الذراع الصغيرة، فطار غطاء الكابينة في عنف، وقفز مقعده خارج الطائرة، التي مالت نحو البحر في عنف، قبل أن يصيب أحد الصواريخ الثلاثة ذيلها، وينسفه في عنف وقوة..

ولم يفتح الشاب مظلة المقعد، بعد أن قذفه خارج الطائرة، وإنَّما تركه يهوي به إلى البحر، ويغوص معه في الأعماق..

ويغوص..

ويغوص..

وفي طائرة القيادة، قال الطيار الإسرائيلي، عبر جهاز الاتصال:
- من (شيلوك – ١) إلى القيادة.. اضطررنا للتعامل مع العدو مباشرة، وتم نسف الطائرة فوق البحر، خارج المياه الإقليمية، وغاص الحطام في الأعماق.
أتاه صوت قائده، يقول:
- انتهت مهمتك يا (شيلوك – ١).. عُد إلى القاعدة فورًا.
استدارت المقاتلات الإسرائيلية الثلاثة، عائدة إلى المطار، تاركة سطح البحر خلفها هادئًا، بلا أثر للحياة..
أي أثر..

☆ ☆ ☆

١٤- الختام..

«إنَّه في مكان ما هنا حتمًا..»

نطق (نسيم) العبارة في توتر، وهو يتطلع إلى سطح البحر، مع شروق شمس اليوم التالي، وزورق الطوربيد، التابع للبحرية المصرية ينطلق به، في نفس المنطقة التي سقطت فيها طائرة (فاي)، فرفع قائد الزورق منظاره المقرب على عينيه، وقال في قلق:

- لست أرى أي أثر له يا سيدي، وأخشى أنَّنا لا نستطيع التوغل أكثر من هذا، وإلا أصبحنا داخل المياه الإسرائيلية، وهذا يعني اختراق القانون الدولي، وسيؤدي إلى مشكلات دبلوماسية لا حصر لها.

قال (نسيم) في حِدَّةٍ:

- مشكلات دبلوماسية؟! أهذا كل ما يقلقك يا رجل؟! هل تعتقد أنَّني استقللت الطائرة طوال الليل، حتى يمكنني الوصول إليكم، واصطحابكم إلى هنا، بحثًا عن حل دبلوماسي؟! إنَّنا هنا للبحث عن شابٍّ جازف بحياته دون تردُّد، ودون التفكير في أية مشكلات أو تعقيدات سياسية، لمجرد أن هذا في صالح (مصر).. هل تفهم يا رجل؟ لقد فعلها من أجل (مصر).

أجابه قائد الزورق في صرامة:

- أنا أيضًا أرفض خوض المياه الإقليمية الإسرائيلية من أجل (مصر) فهكذا تعلمت، وهكذا الأوامر التي تلقيتها، عندما توليت أمر العمل في المياه الدولية.

مطَّ (نسيم) شفتيه، قائلًا في عصبية:

- إنَّنا نتحدث عن حياة بطل مصري.

هزَّ قائد الزورق كتفيه، وقال:
- ومن أدراك أنَّه على قيد الحياة؟! لقد أخبرتني أن مصادرك الإسرائيلية تؤكد أن طائرته أصابها صاروخ، وغرقت في الأعماق، فمن أدراك أنَّه لم يغرق معها؟!
عقد (نسيم) حاجبيه، دون أن يجيب، فتنهد الرجل، قائلًا:
- معذرة يا سيدي، ولكنني مضطر للعودة، و...
قبل أن يتم عبارته، هتف أحد رجاله في حماس:
- ها هو ذا!
التفت الجميع بسرعة إلى حيث يشير الرجل، وهتف (نسيم) في حماس:
- يا إلهي!.. هذا صحيح.. إنَّه هو.. أسرعوا نحوه.. إنَّه يسبح مقتربًا منا.. يا إلهي! أراهن على أنَّه لم يتوقف عن السباحة طوال الليل.. يا له من فتى؟!
انطلق زورق الطوربيد نحو الشاب مباشرة، وما أن تمَّ انتشاله، وأصبح فوق الزورق، حتى شدَّ قامته، على الرغم من كل ما يشعر به من إرهاق عنيف، أطلَّ واضحًا من كل خلجة من خلجاته، ومن عينيه الذابلتين، وأدَّى التحية العسكرية في قوة، وهو يواجه (نسيم)، قائلًا:
- سيدي.
اندفع (نسيم) نحوه، وربت عليه في حرارة، هاتفًا في سعادة جمة:
- حمدًا لله على سلامتك يا فتى.. حمدًا لله.. كم تسعدني نجاتك هذه المرة.
ارتسمت ابتسامة مُجهَدة، على طرف شفتي الشاب، وهو يقول:
- أشكرك يا سيدي.. أشكرك كثيرًا.
تطلع إليه قائد الزورق في انبهار، ثم اتجه نحوه، قائلًا:

- من الواضح أنَّك مجهد للغاية يا بطل.. هيا.. دع الرجال يعتنون بك، فهم يجيدون هذا.
أومأ الشاب برأسه إيجابًا، في إرهاق شديد، ثم التفت إلى (نسيم)، ومد يده المضمومة إليه، ثم فرد راحته، قائلًا:
- تم إنجاز المهمة بنجاح يا سيدي.
تألقت عينا (نسيم)، وهو يحدِّق في الميكروفيلم، المستقر في راحة الشاب، ثم التقطه في لهفة، هاتفًا:
- ربَّاه!.. لقد غُصت خلف الحطام، وانتشلته.. أليس كذلك؟!
ودون أن ينتظر منه جوابًا، ربت على كتفه في حرارة، مستطردًا:
- كنتُ أعلم أنَّك ستفعلها.. كنت واثقًا من هذا.. هيا اذهب لتحصل على قدر من الراحة، حتى نبلغ المدمرة، وهناك سنجد هليكوبتر في انتظارنا، لتعيدنا إلى الوطن.. هيا.
وامتلأت ملامحه بمزيج من الفخر والزهو والإعجاب، وهو يتابع الشاب، ثم التفت إلى قائد الزورق، وأشار إلى صدره، قائلًا بفخر:
- لقد دربته بنفسي.
قالها، وشد قامته بدوره، ووقف عند حافة الزورق بابتسامة عريضة، يراقب قرص الشمس، والزورق ينطلق بهم عائدًا إلى الوطن..
إلى (مصر)..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- العميل..
٢- المهمة..
٣- الصحراء..
٤- المقاتل..
٥- الجحيم..
٦- سيناء..
٧- تحت الحصار..
٨- مقاتل.. وجيش..
٩- رمال.. ودماء..
١٠- النيران..
١١- أبواب الجحيم..
١٢- وجهًا لوجه..
١٣- سماء الخطر..
١٤- الختام..

Notes

[←1]

(1) شعار (إسرائيل).

[←2]

(2) (أبيدجان): عاصمة جمهورية (ساحل العاج) (كوت دي فوار).

[←3]

(3) بعد احتلالها لصحراء (سيناء)، أرادت (إسرائيل) أن تثبت سيطرتها على المنطقة، عن طريق البدء في استخراج البترول منها، واستقدمت في سبيل ذلك حفارًا كنديًّا، تربَّص له رجال مخابراتنا، وأعدوا خطة لنسفه، قبل أن يصل إلى (إسرائيل)، ونجحت الخطة بالفعل، ولم يصل الحفار أبدًا إلى هناك.

[←4]

(4) أمان: المخابرات العسكرية الإسرائيلية.

[←5]

(5) السيمفونية: تأليف آلي في الموسيقى الأوروبية، الأصل فيه من افتتاحيات الأوبرات الغنائية الإيطالية، في القرن السابع عشر، ثم تطوَّر فأصبح تأليفًا مستقلًّا، تشترك فيه مجموعة الآلات (الأوركسترا)، وقد يُراد به تصوير حالة ما، أو سلسلة معان لموضوع محدود.

[←6]

(6) الرصاصات تتكون في المعتاد من مظروف ومقذوف، وداخل المظروف يوجد بارود عادي في الرصاصات القديمة، ومادة أكثر تطورًا في الرصاصات الحديثة، لها قوة قذف أكبر، يطلق عليها اسم (البارود اللادخاني) (Smokeless powder).

[←7]

(7) شعار (إسرائيل).

[←8]

(8) سرعة الصوت : ٣٤٠ متر في الثانية الواحدة.

[←9]

(9) أمان: المخابرات الحربية الإسرائيلية.

[←10]

(10) الموساد: المخابرات العامة الإسرائيلية.

[←11]

(11) في تلك الفترة، في منتصف السبعينيات، لم يكن التصوير الملون منتشرًا أو معتادًا، كما هو الآن.

[←12]

(12) دراجون: قاذف صواريخ محمول، أنتجته وطورته شركة (ماك دونيل إيركرافت) الأمريكية، عام ١٩٦٦م، تم استخدامه لأول مرة عام ١٩٧٣م، وأطلق عليه آنذاك اسم (ف ج م – ٧٧ أ)، وأهم مميزاته إمكانية إطلاقه من أنبوب محكم الإغلاق، وهو يصلح لإصابة الأهداف الأرضية، أو الجوية المنخفضة فقط.

[←13]

(13) راجع عملية (البعث).

[←14]

(14) القنفد: حيوان من الثدييات آكلُ حشرات، ليلي – يكمن في الشتاء – جسمه مغطًى بأشواك حادة، تنتشر بين الشعر، بعض أنواعه تستوطن (إفريقيا) و(آسيا)، منها نوعان يعيشان في (مصر)، وهما (القنفد الحبشي)، و(القنفد الآذاني).

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

عملية الأستاذ

الأجزاء الثلاثة مجمعة

(سلسلة فاي)

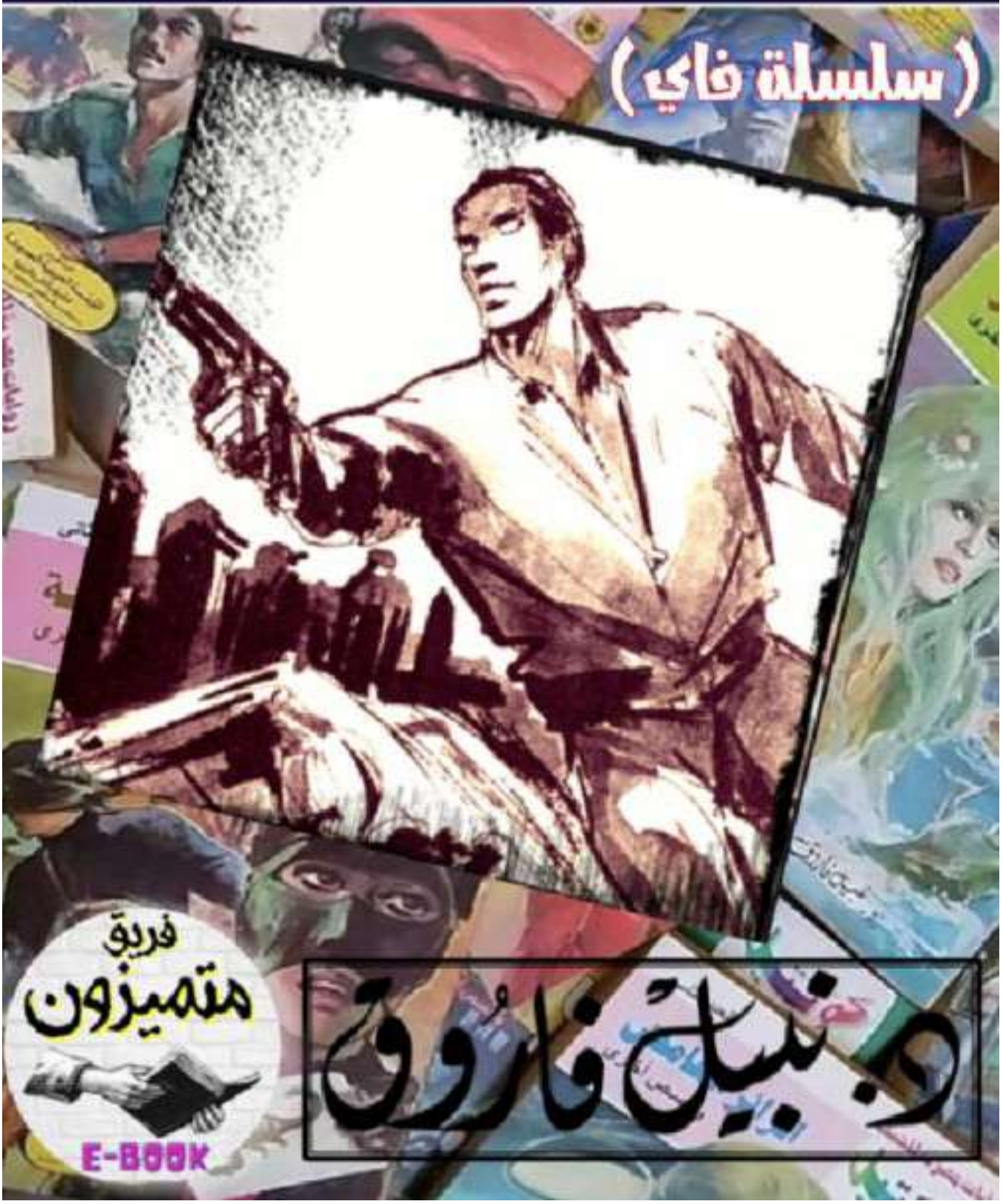

د. نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

عملية الأستاذ
(سلسلة فاى)

(الأجزاء الثلاثة مُجمَّعة)

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..

مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..

مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..

مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

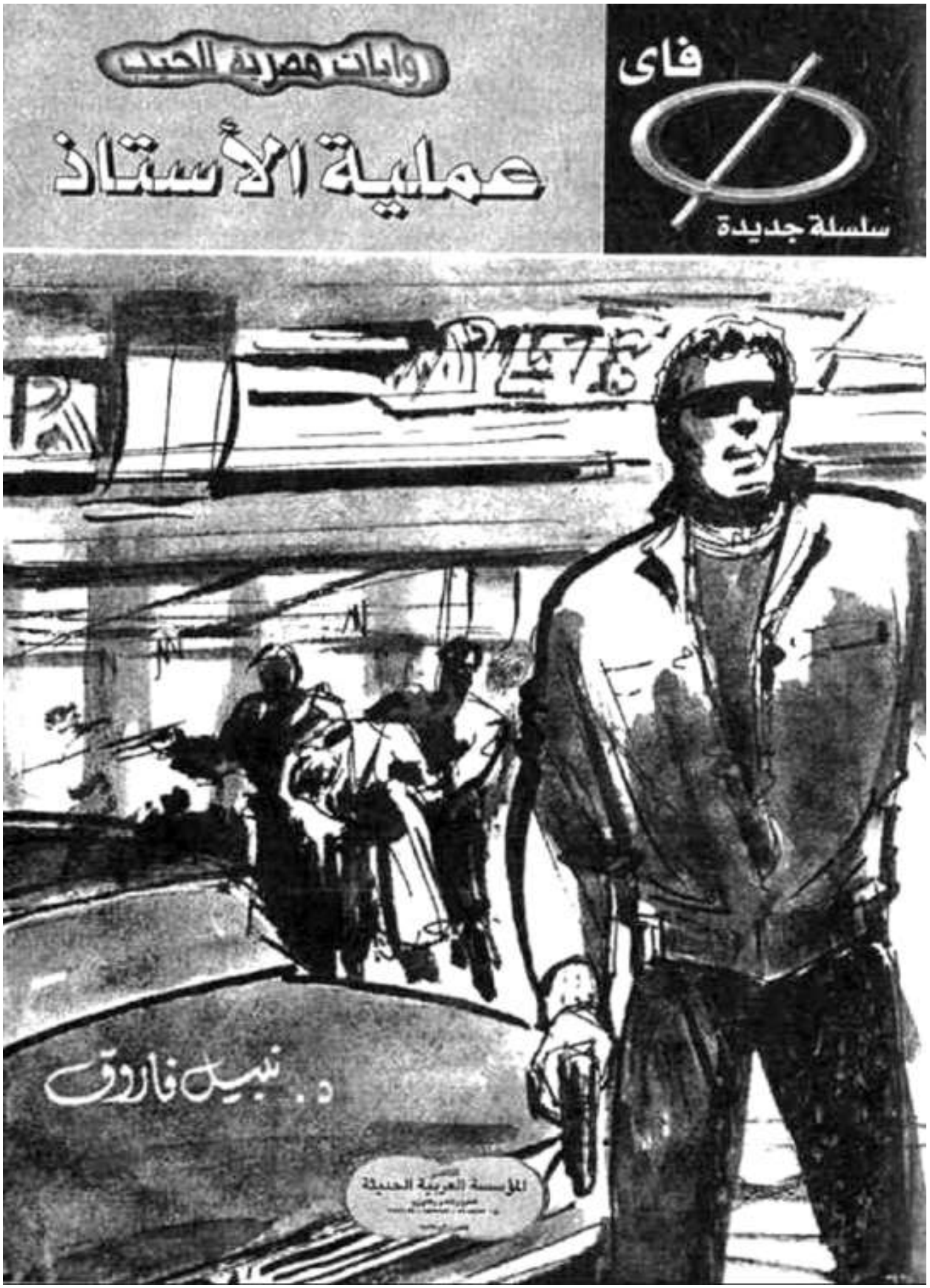

هذه القصة لم تحدث من قبل..
أو ربما حدثت...

أو أنَّ بعضها حدث، وبعضها لم يحدث...
ضعها فى عقلك حسبما يتراءى لك..
ولكن المهم أنَّها تحمل توقيع الوطن..
توقيع (مصر)..

د. نبيل فاروق

١- اختطاف..

«على ركاب طائرة (مصر) للطيران، المتجهة إلى (القاهرة)، سرعة إنهاء إجراءات السفر، فالطائرة ستقلع بعد ثمان عشرة دقيقة فحسب..»

ألقى رجل المخابرات المصري (رفعت) نظرة سريعة على ساعة معصمه، عندما بلغ النداء مسامعه، عبر مكبرات الصوت، المنتشرة في كل مباني مطار (جي. إف. كيه)؛ في مدينة (نيويورك)، وحمل معطفه على ساعده، وهو يلتقط حقيبته الجلدية الصغيرة، قائلًا لمساعده (صلاح):

- الوقت يمضي في سرعة.. سنفترق الآن .. نفِّذ كلَّ ما أمرتك به، بشأن هؤلاء الإسرائيليين، فمن الواضح أنَّهم يتحركون على نحو عصبي متوتر، بعد أن أوقعنا برجلهم الأول في (مصر)، ولست أستبعد إقدامهم على أي عمل عدواني انتقامي، خلال الساعات القليلة القادمة، قبل أن يلقي الرئيس (السادات) خطابه، ويعلن سقوط جاسوسهم ([1]).

ابتسم (صلاح)، قائلًا:

- أنت تعرف الإسرائيليين يا سيد (رفعت).. لقد حطَّم جيشُنا أسطورة جيشهم الذي لا يقهر، في حرب أكتوبر، ونجحنا نحن في خداعهم طوال الوقت، حتى بدا (الموساد) في صورة مُخزية، عندما اندلعت الحرب بغتة، دون أن يدركَ هذا، أو ينتبهَ إليه، وهذا لا يروق لهم بالتأكيد، فما بالك بنجاحنا في الإيقاع بواحدٍ من أفضل جواسيسهم وضبَّاط مخابراتهم، بضربة بارعة مدهشة، وقبل أن ينجح في تنفيذ عملية الاغتيال، التي تسلَّل إلى

بلادنا للقيام بها.. إنَّهم مصابون بالجنون حتمًا، وسيفعلون أي شيء في الدنيا، لحفظ ماء وجوههم.
أومأ (رفعت) برأسه إيجابًا، وقال:
- بالضبط.. خبراؤنا يتوقعون قيامهم بعملية انتحارية قوية، تلفِت إليهم أنظار العالم أجمع، ويختفي مع ضجيجها دوي سقوط جاسوسهم الأول.
سار (صلاح) إلى جواره، وهو يسأله:
- وما الذي تتوقع منهم فعله يا سيد (رفعت)؟!
هزَّ (رفعت) رأسه نفيًا، وهو يقول:
- لا أحد يمكنه التنبؤ بهذا يا (صلاح)، فالإسرائيليون بطبعهم لا يحترمون أو يراعون أية قيم أو قواعد أخلاقية أو إنسانية؛ لذا فيمكنك أن تتوقع منهم القيام بأي عمل كان، وبأقصى سرعة ممكنة.. إذ إنَّه من الضروري أن يضربوا ضربتهم اليوم أو غدًا صباحًا، على أقصى تقدير، حتى يضيع خطاب الرئيس (السادات) مع قوة الضربة.
هزَّ (صلاح) رأسه، وهو يبتسم، قائلًا:
- لن يمكنهم أن يربحوا أبدًا.
ابتسم (رفعت)، وغمغم، وهو يتجه نحو بوابة ممر الإقلاع:
- أتعشَّم هذا.
كان يستعد لتقديم جواز سفره إلى ضابط البوابة، عندما اندفع نحوه رجل ممشوق القوام، وهو يقول في توتر:
- مهلًا.. لحظة أيُّها السيد.
التفت إليه (رفعت) في هدوء، متسائلًا:
- ماذا هناك؟!
أشار إليه الرجل، قائلًا:

- يبدو أنَّك قد استبدلت جواز سفرك بجواز سفري، دون أن تدري، و...
انعقد حاجبَا (رفعت)، وهو يقاطعه في توتر:
- جواز سفرك؟!
أدرَكَ على الفور أنَّ عذر الرجل غير منطقي؛ إذ إنَّ جواز سفره لم يكن جوازًا عاديًّا، ولا يمكن الخلط بينه وبين أي جواز سفر آخر، وإنَّما كان دبلوماسيًّا أحمر اللون، مميزًا للغاية..
وكان هذا يعني أنَّ الرجل مخادع..
وأنَّ له هدفًا آخر..
وبحركة سريعة، تراجع (رفعت)، وقفزت يده بحركة غريزية نحو سترته، قبل أنَّ يتذكر في لمح البصر أنَّه لا يحمل مسدسه المعتاد في حين هتف (صلاح)، وهو يقفز نحوه، محاولًا حمايته.
- ماذا يحدث بالضبط.
لم يكد ينهي عبارته، حتى انقض عليه رجلان قويَّان من الخلف، فقيد أحدهما ذراعيه بساعدين من الصلب، في حين هوى الثاني على رأسه بهراوة ثقيلة..
وبحركة سريعة ماهرة، مال (صلاح) برأسه جانبًا، ودفع جسده كله إلى الخلف في قوة، فتفادى ضربة الهراوة، التي هوت على كتف ذلك الذي يقيِّد ذراعيه من الخلف، فأطلق صرخة ألم، وتراخت ذراعاه اللتان تقيِّدان (صلاح)..
وفي نفس اللحظة، كان (رفعت) ينقضُّ على ذلك الذي تقدَّم نحوه، ويكيل له لكمة كالقنبلة، وضابط البوابة يهتف:
- ما الذي يحدث بالضبط؟!
حاوَل الضابط أن ينتزِع مسدسه من غمده، ولكنه فوجئ برجلٍ رابع ينقضُّ عليه، من الجانب الأيسر، ويطلِق عليه النار مباشرة..

ومعً دوي الرصاصة، في قلب المطار، ساد الهرج والمرج على نحوٍ عنيفٍ، وشعر (رفعت) بضربة قوية، على مؤخرة رأسه، فانطلقت من حلقِه آهةُ ألمٍ، ولكنه قاوَم في بسالة، وسيطَر بإرادة مدهشة على وعيه، على الرغم من عنف الضربة، ودار على عقبيه يواجه صاحبها..

ومن طرف عينه، لمح (صلاح) ملقًى أرضًا، والدماء تنزِف من رأسه في غزارة، وثلاثة من رجال أمن المطار يعْدُون نحوه من بعيد، في حين يواجهه رجلان قويًّا البنية، انقضَّا عليه في آنٍ واحدٍ، من اليمين واليسار..

وبسرعة مدهشة، اتَّخذ (رفعت) وقفة قتالية، واستقبَلَ الرجل الأيسر بلطمة عنيفة، في أنفِه مباشرة، ثم استدار يواجِه الأيمن، و...

وهوت لكمة أكثر عنفًا، على مؤخرة رأسه..

وفي هذه المرة، كانت أقوى مما يمكن أن يُحتمل..

- أو يُقاوَم...
وعلى الرغم من ذلك، فقد أطلق قبضته نحو خصمه، وشعر بها تضرب الهواء، في نفس اللحظة التي هوت فيها على رأسه ضربة أخرى، امتزجت بصيحة مبهمة، اخترقت أذنيه، قبل أن يتلاشى كل شيء من حوله دفعة واحدة..
وبأقصى سرعة..

☆ ☆ ☆

«كانت عملية سريعة ومحدودة للغاية..»
نطق مدير المخابرات المصري بالعبارة، في ضيقٍ واضحٍ، في مواجهة الرئيس (السادات)، الذي مطَّ شفتيه في امتعاضٍ، وراح يُشعِل غليونَه في بطءٍ، ومدير المخابرات يواصل:
- كل الغرض منها، كان إحداث أكبر قدرٍ ممكنٍ، من الهرج والمرج والاضطراب، تمكَّن عملاء (الموساد) خلاله من إفقاد رجلنا (رفعت) وعيه، وحمله إلى سيارة كبيرة، كانت في انتظارهم خارج المطار، وانطلقت بهم على الفور إلى مكانٍ مجهولٍ، دونَ أن تعلن أية جهة مسئوليتها عن الحادث..
نفثَ الرئيس دخانَ غليونه ثلاث مرات في توتر، قبل أن يسأل:
- وماذا عن رجال (الموساد)، الذين قاموا بالعملية؟!
أجابه مدير المخابرات في حِنقٍ:
- لقد اختفوا وسط الهرج الحادث.. تلاشوا، طبقًا لأقوال رجال أمن المطار، وكأن لم يكن لهم وجود.
مطَّ الرئيس شفتيه مرة أخرى، وهو يسأله:
- وما رأيك أنت؟!
أجاب مدير المخابرات في سرعة:
- هناك تواطؤٌ واضحٌ.
أومأ الرئيس برأسه موافقًا، وقال:

- بالضبط.
ثم نهض من خلف مكتبه، واتجه إلى نافذة الحجرة، وراح ينفث دخان غليونه بضع لحظات أمامها، قبل أن يقول في حزمٍ:
- الإسرائيليون يريدون إحراجنا، وترجيح كفتهم في المساومة، على إطلاق سراح جاسوسهم (إيليا).. لقد اختطفوا (رفعت)، حتى يمنعونا من إعلان سقوط رجلهم..
ثم التفت إلى مدير المخابرات، مستطردًا:
- أراهنُك أنَّ هذا هدفهم.. سيعلنوننا به بين لحظة وأخرى.
أجابه مدير المخابرات، متنهدًا:
- لقد فعلوها بالفعل يا سيادة الرئيس.
غمغم الرئيس في توتر:
- فعلوها؟!
أجابه مدير المخابرات:
- نعم يا سيادة الرئيس.. فمنذ ربع الساعة فقط، وصلتنا رسالة مشفَّرة من (الموساد)، يقولون فيها: إنهم مستعدون لاستبدال (إيليا) ب(رفعت)، خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، بشرط أن يتم هذا في سرية تامة، وعلى أرض محايدة.
انعقد حاجبَا الرئيس في شدة، وهو يغمغم:
- ألم أقل لك؟!
ونفث دخان الغليون مرتين أخريين، قبل أن يقول في حِدَّةٍ:
- لقد أخفيت الجزء الخاص بالتهديد والوعيد.. أليس كذلك؟!
هزَّ المدير رأسه نفيًا، وهو يقول:
- كلَّا يا سيادة الرئيس، لم يكن هناك تهديدٌ أو وعيدٌ، أو أية إنذارات صريحة؛ لأنهم يعلمون أنَّ الأمر مفهوم ضمنيًّا؛ إذ إنَّ منحهم مهلة الثمان والأربعين ساعة، يعني أنَّهم سيتخلصون من (رفعت)، عند انقضاء المدة، لو لم يتم التبادل.

التقط الرئيس نفسًا عميقًا، وارتسمت على وجهه كل علامات الغضب، وهو يقول:
- يا للسخافة! هؤلاء القوم ليس لديهم أدنى اعتبار للقيم، أو الأعراف الدولية.. ألَا يخشون أن ننتقم من جاسوسهم، لو أساءوا إلى (رفعت).
أجابه مدير المخابرات:
- لستُ أظنُّ أنَّ هذا يعنيهم كثيرًا يا سيادة الرئيس؛ فهدفهم الرئيسي هو منع فضيحة سقوط ضابطهم بأي ثمن، فإذا ما نجحوا في هذا، فلن يعلم أحد به، أما لو أعلنا الأمر بالفعل، فستصبح قصة فشلهم مضغة في الأفواه، وسينكشف أمر ضابطهم، بحيث يعدُّ، في لغة عالمنا، مجرد ورقة محترقة، لن يضيرهم التخلص منها، على سبيل الانتقام.
وصمت لحظة، قبل أن يُكمل:
- ثم إنَّهم واثقون من أنَّنا لن نتصرف بمثل وحشيتهم قط، مهما كان الثمن.
انعقد حاجبَا الرئيس في حِنق، وهو يعود للتطلع عبر النافذة، ويغمغم، وكأنه يتحدث إلى نفسه:
- كان ينبغي أن نتوقَّع منهم هذا.. كان ينبغي أن نتوقَّع أي شيء.
تنحنح مدير المخابرات، قائلًا:
- سيدي الرئيس.. أعلم أنَّ الموقف دقيق للغاية، وأنَّه من غير المنطقي أن نُجازِف بخسارة رجل مخابرات مخضرم مثل (رفعت)، بكل ما يحمله من أسرار ومعلومات، و...
قاطعه الرئيس بإشارة حازمة من يده، وهو يقول:
- (رفعت) لن يبوح لهم بحرف واحد، ولو مزقوه إربًا.
ارتسمت ابتسامة على شفتي مدير المخابرات، وهو يقول:
- ماذا تقترح يا سيادة الرئيس؟!

ألقى الرئيس السادات نظرة سريعة على ساعته، قبل أن يجيب في حسم:
- الموعد المحدد لإلقاء خطابي هو السابعة من مساء الغد، وهذا يعني أنَّ أمامنا إحدى وثلاثين ساعة كاملة، يمكننا أن نتحرك خلالها.
قال مدير المخابرات، وهو يشد قامته في تأهُّب:
- بالضبط يا سيادة الرئيس.
التقط الرئيس نفسًا عميقًا من غليونه، نفثه في هواء الحجرة في قوة، قبل أن يتابع، بمنتهى الحسم والحزم:
- أريد أن ألقي الخطاب في موعده يا (كمال).. في موعده بالضبط.. وأن أعلن من خلاله نبأ الإيقاع بالجاسوس الإسرائيلي، كما كان مقررًا من قبل.. هل تفهمني يا (كمال)؟!
اتسعت ابتسامة مدير المخابرات، وهو يقول:
- أفهمك بالتأكيد يا سيادة الرئيس.
أطلَّت صرامة الدنيا كلَّها من عيني الرئيس، وهو يكمِل:
- هذا أقوى ردٍّ نقدِّمُه للإسرائيليين، وأبلغُ جواب يتلقونه ردًّا على إنذارهم، على نحو يجعلهم يدركون مغبة العبث معنا، وخطورة تحدينا السَّافِر.
أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا، وهو يقول في ارتياح واضح:
- من حسن الحظ.. أنني كنت أتوقع موقفك هذا يا سيادة الرئيس.
ارتفع حاجبَا الرئيس، وهو يتساءَل في حذرٍ:
- كنت تتوقعه؟!
شدَّ مدير المخابرات قامَته في حزمٍ، مجيبًا:
- بالتأكيد يا سيادة الرئيس.. لذا فقد أرسلت رجالنا إلى (نيويورك)، فور سماعي الخبر..

فهتف الرئيس مبتهجًا:
- أحقًّا فعلت؟!
أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا، وقال:
- نعم يا سيادة الرئيس.. العميد (نسيم) سافر منذ ساعة إلى (باريس)، بصحبة أحد شبابنا، وفور وصولهما إليها، سيستقلان طائرة متجهة إلى (نيويورك)، وستصلها بإذن الله في الثانية صباحًا بتوقيتنا، أي في تمام السابعة مساءً، بتوقيت (نيويورك) ([2]) .
ثم شدَّ قامته أكثر، مضيفًا في حزم:
- وهذا يعني أنَّه سيكون أمامهما أربعة وعشرون ساعة كاملة، لتنفيذ المهمة.
تألقت عينَا الرئيس في إعجاب، وهو يقول:
- حسنًا فَعَلْتَ يا رجل.. حسنًا فَعَلْتَ.
وعاد ينفث غليونه، وهو يستطرد في اهتمام:
- أنا أعرفُ رجلنا (نسيم) هذا، ولكن مَن الشاب؟!
ابتسم مدير المخابرات، قائلًا:
- أنت تعرفه أيضًا يا سيادة الرئيس.. إنَّه ذلك الشاب، الذي نفَّذ وحده عملية (النسر المنفرد) ([3]) .. الشاب الذي يعدُّ من الناحية الرسمية، لا وجود له، في عالم الأحياء.. الشاب الذي يحمل فحسب رمزًا كونيًّا يشير إلى العدم...
وصمت لحظة، قبل أن يجيبَ في حزم:
- رمز.. (فاي).
ولم تكن هناك حاجة لإضافة المزيد.

☆ ☆ ☆

٢- نيويورك..

«هل تعتقد أنَّ المصريين سيستسلمون؟!»
ألقى رجل المخابرات الإسرائيلي (داني) سؤاله هذا، على رئيسه (راف)، الذي انهمك في مراقبة الطريق، عبر منظار مقرِّب، فمطَّ هذا الأخير شفتيه، وأنزل منظاره، وهو يقول في صرامة:
- إنَّهم عنيدون بطبعهم، ولكننا سنجبرهم على هذا.
هزَّ (داني) كتفيه، وقال:
- هذا ما كنتُ أقصده.. هل يمكننا أن نجبرهم على هذا؟!
صمت (راف) بضع لحظات، وأدار عينيه إلى زميلهما (يازوسكي)، قائلًا:
- هل تعتقد أنَّه بإمكاننا هذا يا (يازوسكي)؟!
نهض (يازوسكي) من مقعده، وعقد كفيَّه خلف ظهره، وهو يقول:
- لقد قلتها بنفسك: المصريون عنيدون للغاية، ولن يرضوا بالاستسلام بهذه البساطة.. سيقاومون حتى آخر رمق، وسيحاولون الخروج من هذا المأزق بأي ثمن.. ولهذا فمهمتنا الأساسية هي أن نمنعهم من استعادة رجلهم، بكل الوسائل الممكنة، حتى يمضي خطاب رئيسهم، دون الإعلان عن سقوط (إيليا)، وبعدئذ ستسير المفاوضات لصالحنا حتمًا.
سأله (داني) في لهفة:
- وما الذي تتوقَّع منهم فعله؟!
صمت (يازوسكي) بضع لحظات، قبل أن يجيب في حزمٍ:
- سيرسلون بعض رجالهم إلى هنا، في محاولة للعثور على رجلهم واستعادته.

مطَّ (داني) شفتيه، قائلًا:
- يا لحماقتهم!! هل يتصورون أنَّهم قادرون على انتزاعه منَّا، في مثل هذه الظروف؟!
انعقد حاجبَا (يازوسكي)، وهو يقول في صرامة:
- لا تستهِن بهم يا (داني).. إنها أول مواجهة لكَ معهم، بعد فترة عملك في الجبهة الشرقية، ولكن حذارِ من أن تتصور أنَّهم ضعفاء أو أغبياء.
واندفع (راف) يقول في حِدَّةٍ:
- لا تنس ما فعلوه بنا في حرب يوم الغفران ([4]) .
استدار إليه (يازوسكي) في حركة حادَّة، ورماه بنظرة نارية غاضبة، جعلته يستدرِك في سرعةٍ وارتباكٍ:
- أعني أنَّهم.. إلى حدٍّ ما.. ربما كانوا...
قاطعه (يازوسكي) في صرامة:
- هذا لن يتكرر أبدًا.
لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع رنين الهاتف المجاور له، فأسرع يلتقطه في لهفة، قائلًا في صرامة عصبية:
- مَن المتحدث؟!
التقى حاجبَاه في شدة، على نحو يوحي بأنَّه يتلقى معلومة بالغة الأهمية، حتى إنَّ (داني) اندفع نحوه، متسائلًا:
- هل أر.....
قاطعَه بإشارة صارمة من يده، وهو يقول لمحدِّثِه، عبر الهاتف:
- لا تجعله يغيب عن عينيك أبدًا.. اتبعه بمنتهى الدقة، واطلب من (درو) و(فيليب) أن يساعداك، حتى نصِل إليكم.. اسمعني جيدًا.. اترك جهاز اللاسلكي مفتوحًا طوال الوقت.. لا أريد أية عقبات.. هل تفهم؟!

وأنهى الاتصال بحركة عنيفة، وهو يلتقط مسدسه، ويجذب مشطه في قوة، ثم يتركه ليرتد إلى موضعه، بدوي معدني مكتوم، قبل أن يدسَّه في جرابه، المعلَّق تحت إبطه، و(راف) يسأله في توتر:

- هل أرسل المصريون أحد رجالهم.

أجابه (يازوسكي) في صرامة:

- ليس أحد رجالهم فحسب، بل أرسلوا واحدًا من أفضل رجالهم على الإطلاق.. (نسيم).

انعقد حاجبَا (راف) في حِدَّةٍ، في حين هتف (داني):

- (نسيم)؟! هل تقصد ذلك الذي...

قاطعه (يازوسكي) في صرامة، وهو يندفع نحو الباب:

- هو بعينه.

ثم استدار إليهما، مستطردًا بلهجة آمرة:

- واصِل مراقبة المنطقة يا (راف).. أما أنت فأجر اتصالًا بالرجال كل نصف ساعة، وتأكَّد من أنَّهم يُحكِمون قبضتهم على المصري الأسير طوال الوقت، وأكِّد لهم الأوامر الخاصة بقتله على الفور، إذا ما حاوَل المصريون استعادته.. هل تفهم؟! قتله على الفور، دون شفقة أو رحمة.

قفز (داني) يلتقط سماعة الهاتف، وهو يقول:

- أمرك يا أدون (يازوسكي).. أمرك.

وفي نفس اللحظة، التي اندفع فيها (يازوسكي) خارج المقر السري، كان (نسيم) ينهي إجراءات دخوله إلى (الولايات المتحدة الأمريكية)، ويغادر مطار (جي. إف. كيه) في هدوء، حاملًا حقيبة متوسطة، وأشار إلى إحدى سيارات الأجرة، قائلًا بصوت مسموع:

- الشارع الثالث والثلاثون.

قالها، وقفز داخل السيارة، التي انطلقت به على الفور، ولم تكد تبتعد بضعة أمتار عن المطار، حتى غمغم سائقها بالعربية:
- كيف حال الرجال فى (القاهرة)؟!

اعتدل (نسيم) في مقعده، وهو يجيب:

- الجميع بخير يا (طارق).. قل لي: هل يتبعوننا؟!
أجابه بابتسامة باهتة:
- منذ غادرنا المطار يا سيد (نسيم).
هزَّ رأسه متفهمًا، وهو يقول:
- عظيم.. اذهب بنا إلى الشارع الواحد والعشرين إذن.
سأله الرجل:
- وماذا عن الشارع الثالث والثلاثين؟!
أجابه في صرامة:
- لن تبدو اللعبة أنيقة، لو أننا ذهبنا إلى العنوان نفسه، الذي سمعه كل مخلوق يفهم العربية في المطار.
صمت (طارق) بضع لحظات، وهو ينطلق بالسيارة ويختلس النظر، عبر مرآتها الجانبية، إلى السيارة السوداء الكبيرة، التي تتبع سيارته كظلها، ثم لم يلبث أن قال:
- معذرة يا سيد (نسيم).. أعلم جيدًا أنَّه ليس من الصواب أن ألقي الأسئلة بهذا الشأن، ولكن بم يفيدنا إضاعة وقتهم ووقتنا في تتبعك.
صمت (نسيم) لحظة، ثم لم يلبث أن قال:
- أنت على حقٍّ يا (طارق).
همَّ الرجل بإلقاء سؤال آخر، لولا أن استدرك (نسيم) في صرامة:
- ليس من الصواب أن تلقي الأسئلة بهذا الشأن.
احتقن وجه (طارق)، وأدرك أنَّه قد ارتكب خطأً غبيًّا، في حين ألقى (نسيم) عبارته الصارمة، ثم استرخى في معقده في هدوء، وكأنَّ لا شيء في الكون كله يقلقه، وأسبل جفنيه على نحو محير، وشفتاه تحملان ابتسامة غامضة..
للغاية..

☆ ☆ ☆

كل شيء سار وفقًا للخطة، على نحو مدهش..
رجال (الموساد)، الذي يراقبون مطار (نيويورك)، انطلقوا على الفور خلف (نسيم)، باعتباره رجل المخابرات المصري الفذ، الذي حضر خصيصًا من (القاهرة)، ليتصدى لعملية اختطاف (رفعت)..
ولم ينتبه شخص واحد إلى (فاي)، الذي وصل على الطائرة نفسها، وأنهى إجراءات الوصول في بساطة، كشابٍّ مصري عادٍّ، وصل إلى (الولايات المتحدة الأمريكية)، في رحلة سياحية بسيطة..
ملامحه العادية، وتصرفاته التلقائية، لم تجذب إليه الأنظار قط، وهو يحمل حقيبته الصغيرة، ويغادر المطار، مختلسًا النظر إلى تلك السيارة الكبيرة، التي انطلقت خلف سيارة الأجرة، التي استقلها (نسيم)..
وفي خفة وسرعة، اتجه نحو سيارة أجرة أخرى صفراء، انشغل سائقها بإبدال أحد إطاراتها، في تكاسل عجيب، كما لو أنَّ العمل لا يعنيه على الإطلاق، أو أنَّه يرغب في إضافة بعض الوقت، كسبًا للراحة..
وبلكنة عربية واضحة، ولغة أمريكية ركيكة، هتف الشاب بالسائق:
- هل توجد فنادق عند تمثال الحرية؟!
رفع السائق، صاحب الملامح الإيطالية عينيه إليه، في تراخٍ ممل، وقال:
- هذا يتوقف على نوع العملة التي تحملها.
التقط الشاب من جيبه ورقة من فئة المائة فرنك الفرنسي، وناولها للسائق، وهو يتساءل، بنفس اللغة الركيكة:
- هل تصلح هذه؟!

راجع السائق رقم الورقة المالية في اهتمام، قبل أن يدسها في جيبه، قائلًا:
- بورقة كهذه يمكنني أنَّ أضمن لك مكانًا، داخل تمثال الحرية نفسه.
ومع آخر حروف كلماته، أحكم ربط إطار السيارة في سرعة، ولم تمض ثوانٍ عشر، حتى كانت تنطلق حاملة (فاي)، في عكس الاتجاه، الذي انطلقت فيه سيارة (نسيم)..
وما أن ابتعدت السيارة عن المطار، حتى قال السائق في اهتمام:
- أخبروني أنَّك تجيد التحدث بالإنجليزية.
نطقها بأمريكية ذات لكنة إيطالية، فأجابه (فاي) في هدوء، وبلغة سليمة للغاية:
- هذا صحيح.
ارتفع حاجبَا السائق، في دهشة بالغة، وهو يهتف:
- يا إلهي! إنك تتحدثها جيدًا بالفعل!! لقد تصورت في المطار أنَّ...
قاطعه (فاي) في اهتمام:
- أنت إيطالي.. أليس كذلك؟!
أطلق السائق ضحكة قصيرة، قبل أن يجيب:
- بل مصري ابن مصري.. والدتي فقط إيطالية، وحتى هي تعشق (مصر) حتى النخاع، و...
عاد (فاي) يقاطعه في هدوء:
- عظيم.
أدرَك السائق على الفور أنَّ الشاب لا يرغب في الاستطراد في الحديث، فمطَّ شفتيه، ولاذ بالصمت، في حين اعتدل (فاي) في مجلسه، وراح عقله يسترجع الموقف في سرعة:
- «الأستاذ في خطر يا (فاي)..»

تلك العبارة التي نطق بها مدربه (نسيم) في (القاهرة)، كادت تنتزع قلبه من بين ضلوعه، فور انتهائه من تدريبات الرماية، حتى أنَّه وجد نفسه يهتف في لهفة:
- كيف؟!
أشار (نسيم) بيده، وهو يجيب في مرارة:
- الإسرائيليون الأوغاد اختطفوه في (نيويورك).
تفجَّر عندئذ غضب هادِر في أعماقه، حتى أنه لم ينطق بحرفٍ واحدٍ، وهو يتطلع في توتر إلى (نسيم)، الذي أضاف، ملوِّحًا بقبضته:
- لا بد أن نستعيده سالمًا يا (فاي).. وبأي ثمن.
كلمة واحدة، استطاع النطق بها عندئذ..
كلمة واحدة، انطلقت من قلبه، وعروقه، وكيانه كله، إلى شفتيه مباشرة..
كلمة، حملت كل حزمه، وحسمه، ولهفته، وإصراره.
«متى؟!»..
والتفت إليه (نسيم) أيضًا بكيانه كله، وهو يجيب:
- الآن يا (فاي).. سنسافر إلى (نيويورك) الآن.
وكعادته، لم يلق أية أسئلة..
لم يسأل حتى كيف سيسافر إلى (نيويورك)..
وماذا سيحدث هناك؟!
ما الخطة التي سيتم اتباعها؟!
وكيف يمكن استعادة الأستاذ؟!
أستاذه، الذي انتشله من قلب الموت، وبعثه في هذا العالم الجديد..
عالم القوة، والغموض، والسر، والأسرار..
عالم الخطر..

الخطر بلا حدود ([5]).
وبسرعة، وبكلمات موجزة للغاية، شرح له (نسيم) الخطة، وهما في طريقهما إلى المطار، ثم لم يلبث أن ناوله كتابًا صغيرًا، يحمل غلافه عنوان رواية شهيرة، وقال في حزمٍ صارمٍ:
- ستجد كل شيء هنا.. لم يكن هناك وقتٌ للشرح والتدريب.. أعلم أنَّ الخطة المكتوبة عمل يتنافى مع أبسط القواعد المعمول بها، في عالم المخابرات، ولكن هذا كان البديل الوحيد أمامنا، فسنسافر كشخصين مستقلين، ولن نتبادَل حرفًا واحدًا، طوال رحلتنا إلى (أمريكا).. لا ينبغي أن يُدرِك مخلوقٌ واحدٌ أنَّ أحدَنا يعرف الآخر.. هل تفهم؟!
أومأ برأسه متفهِّمًا، دون أن ينبس ببنت شفة، ونفَّذ ما أمره به مدربه..
وفي الطائرة، قرأ الخطة كلها حرفًا حرفًا، حتى حفظها عن ظهر قلب، ثم حمل الكتاب إلى دورة المياه، وأشعل فيه النار، وترك نظام الصرف يلقيه في السماء، فوق (المحيط الأطلنطي)..
وها هو ذا ينفِّذ الجزء الخاص به من الخطة..
وبمنتهى الدقة.
«ما الذي ترغب في معرفته بالضبط؟!»
انتزعه السائق نصف الإيطالي من أفكاره، بسؤاله هذا، فالتفت إليه، مجيبًا في سرعة:
- أين مكتب (الموساد) هنا؟!
ابتسم السائق، مجيبًا:
- في الشارع السابع.. بناية قديمة من ستِّ طوابق.. مكتبهم يحتل الطابق الخامس بأكمله، وعليه لافتة باسم (كوهين – كوهين).. أعمال مقاولات.

ثم تساءَل في لهفة:
- هل ترغب في زيارتهم؟!
تجاهَل الشاب السؤال تمامًا، وهو يلقي نظرة عبر النافذة المجاورة، قبل أن يقول في حزمٍ:
- هناك سيارة تتبعنا.
انعقد حاجبَا السائق نصف الإيطالي، وهو يقول:
- لقد لاحظتُ هذا.
ثم أردف، وهو يزيد من سرعته:
- كيف انتبهوا إلى وجودك؟! لقد سار كل شيء على ما يرام.
نطقها، ويده تتسلل إلى سترته، فصمت الشاب لحظة، قبل أن يقول في هدوء:
- فيما عدا أمرٌ واحدٌ.
سأله الرجل، وهو يسحب مسدسه في بطء:
- وما هو؟!
انقضَّ عليه (فاي) فجأة، وأحاط عنقه بساعده الأيسر، وهو يجيب:
- أنَّكَ لست الشخص المناسب.

انحرفت السيارة في عنف، والسائق نصف الإيطالي ينتزع مسدسه في حِدَّةٍ، ولكن الشابَّ قبض على معصمه بأصابع كالفولاذ، وهو يُكمِل في صرامة:

- لقد تبادَلتَ معي عبارات السر المتفق عليها، ولكنك لست (ماريو)، الذي كان من المفترض أنَّ ينتظرني في المطار.

هتف السائق، وهو يقاوِم في استماتة:

- (ماريو) الأحمق هذا يرقد جثة هامدة في أعماق البحيرة المتجمدة، منذ ساعتين على الأقل، وأصابعه المقطوعة أجبرته على البوح بكل أسراره.. كنا نعلم أنَّه سيلتقي بشخصٍ ما هنا.

اعتصر (فاي) عنقه، وهو يقول صارمًا:

- وعندما لم يتعامل معه زميلي، أدركتم أنَّه يوجد شخص آخر.

صاح السائق، وهو يضغط فرامل السيارة في قوة:

- نعم أيُّها المصري الغبي.. إننا نقرأ أفكاركم، كما لو كانت كتابًا مفتوحًا.. لقد أوقعنا بك.. لن تنجو من هذا الفخِّ أبدًا.

توقفت السيارة بصريرٍ عالٍ عنيفٍ، وانطلق من خلفها صريرٌ آخرُ، قبل أن ترتطم بها سيارة ثانية في قوة..

ومع الاصطدام، اندفع جسد السائق إلى الأمام، ولكن ساعد (فاي) احتجز عنقه بكل قوته، فارتفع وسط صرير إطارات السيارات صوت قرقعة مكتومة، جحظت بعدها عينَا السائق، وهو ينهار جثة هامدة مدقوقة العنق..

ومع عنف الحادث، الذي ارتطمت فيه أربع سيارات بعضها بالبعض، ضغط سائق سيارة (الموساد) الثانية فرامل سيارته بكل قوته، ثم انتزع مسدسه، هاتفًا:

- ذلك المصري كشف الأمر.

قالها، وقفز من السيارة مع زميله، وكل منهما يحمل مسدسه، واندفعَا نحو سيارة الأجرة الصفراء، وهو يهتف:

- حاصروا السيارة.. لا تسمحوا له بالهروب.. أطلقوا النار فور ال...

بتر عبارته في عصبية شديدة، وهو يفتح باب السيارة في قوة..

فباستثناء السائق نصف الإيطالي، الذي سقط برأسه على عجلة القيادة، كانت السيارة خالية تمامًا، ولم يكن هناك أثر ل(فاي).. أدنى أثر.

☆ ☆ ☆

٣- المهمة..

لم يكد رنين هاتف سيارة (يازوسكي) ينطلق، حتى اختطفه في حركة سريعة، قائلًا:

- (يازوسكي).. من المتحدث؟!

أتاه صوت أحد رجاله، يقول:

- إنه أنا يا أدون (يازوسكي).. لقد كنت على حقٍّ في تخمينك.. كان هناك رجلٌ ثانٍ.

أجابه في صرامة:

- إنه استنتاج وليس تخمينًا يا هذا.. لقد درست أساليب المصريين الجديدة، حتى خبرت نظمهم الجديدة.

ثم اعتدل في مجلسه، وهو ينطلق بسيارته في شوارع (نيويورك)، واستطرد في اهتمام:

- وأين ذلك المصري الثاني الآن؟!

ارتبك الرجل، وتنحنح لحظة، قبل أن يجيب:

- لقد استقل سيارة (ليوناردو)، التي استولينا عليها، و...

بتر عبارته لحظة، فصاح به (يازوسكي) في حدة صارمة:

- وماذا؟!

تنحنح الرجل مرة أخرى، قبل أن يقول:

- لقد اختفى يا أدون (يازوسكي).

صرخ (يازوسكي) في غضبٍ هادرٍ:

- اختفى؟!

اندفع الرجل، يقول في توتر:

- لقد تتبعناه يا أدون (يازوسكي)، وكان (ليوناردو) يقوده إلى حيث اتفقنا، ولكن يبدو أنَّه قد كشف أمره بوسيلة ما؛ إذ إنَّه قد

هاجمه فجأة، و... وقتله.
انعقد حاجبَا (يازوسكي) في شدة، وهو يهتف:
- قتله؟!
أجاب الرجل:
- نعم يا سيدي.. لقد دق عنقه، وفرَّ من السيارة، وسط زحام (نيويورك)، قبل أن نبلغها، ولقد بحثنا عنه في كل مكان، ولكن هذا لم يجد؛ إذ إنَّ الطريق مزدحمة للغاية الآن، كما أنَّنا نجهل ملامحه، و...
قاطعه (يازوسكي):
- تجهلون ملامحه؟! أي قول غبي أحمق هذا يا رجل؟! ألم تلتقطوا له بعض الصور؟!
تنحنح الرجل مرة أخرى، وأجاب:
- بالطبع يا سيدي، ولكننا لم نقم بتحميض وإظهار الفيلم بعد، كما أنَّ الزوايا التي التقطنا بها الصور، لم تكن تكفي ل....
قاطعه (يازوسكي) في ثورة:
- كفى.. كفى.. سآمر بنسف رؤوسكم، لو أضفت عذرًا واهيًا آخر..
صمت الرجل في ارتباكٍ، في حين تابع (يازوسكي)، وكأنَّما يحدِّث نفسه:
- ولكن مهلًا.. لماذا أرسلوا ذلك الآخر بصحبة مخضرم مثل (نسيم)؟!
هزَّ الرجل، على الطرف الآخر كتفيه، دون أن ينبس ببنت شفة، وكأنَّما يراه (يازوسكي)، الذي لم يكن بحاجة فعليًّا إلى جوابه، وهو يواصل حديثه مع نفسه:
- إنَّهم يعرفون جيدًا أنَّ صورة (نسيم) محفوظة لكلٍّ منَّا، بعد عملياته الناجحة القوية ضدنا، وليس من المنطقي أن يتم إرساله

مع شخص مجهولٍ لنا، إلا إذا...
بتر عبارته عند هذا الحد، فسأله الرجل في فضول:
- إلا ماذا يا أدون (يازوسكي)؟!
انتبه (يازوسكي) بغتة إلى أنَّ الرجل ما زال على الخط، فصاح به في حنقٍ:
- إنَّه الاتصال أيُّها الغبي.. هذا ليس من شأنك.
قالها، وأنهى الاتصال في حِدَّةٍ، قبل أن يعقد حاجبيه، ويُكمِل:
- تُرى هل كان الغرض الوحيد لإرسال (نسيم)، هو جذب أنظارنا، بعيدًا عن الشخص الآخر؟! لا.. هذا ليس منطقيًّا..
إنَّهم بهذا يعلنون أنَّهم بصدد محاولة لإنقاذ رجلهم، ثم إنَّهم لو أرسلوا الآخر وحده، لما انتبهنا إليه.. لماذا جاء (نسيم) إذن؟! هناك سبب منطقي حتمًا.. المصريون ليسوا أغبياء.
ازداد انعقاد حاجبيه، وهو يعتصر عقله أكثر وأكثر، في محاولة لاستيعاب هذا الأمر، قبل أن ينتزعه رنين الهاتف المفاجئ من محاولته هذه، فاختطف سماعته قائلًا في خشونة:
- ماذا هناك؟!
أتاه صوت (فيليب)، وهو يجيب:
- إنه أنا يا سيدي.. لقد تعقبنا ذلك المصري، متصورين أنَّه في طريقه إلى الشارع الثالث والثلاثين، ولكن سيارة الأجرة أنزلته في الشارع الحادى والعشرين، أمام متجر ضخم للبقالة.. هل نتبعه داخله؟!
أجابه في صرامة:
- بالتأكيد.. لا تدعوه يغيب عن أبصاركم أبدًا، حتى تصلكم مني أوامر أخرى.
قالها، وأنهى المحادثة، وهو يقول لنفسه:

- مستحيل! مستحيل أن تكون قد أتيت من (القاهرة) إلى (نيويورك)، لتبتاع بقالتك من متجرٍ في (نيويورك) يا سيد (نسيم).. هناك هدفٌ حتمًا وراء هذه التصرفات غير المفهومة.

عاد حاجباه ينعقدان بشدة، وهو يعاود التفكير، ويعتصر عقله أكثر، وأكثر.. وأكثر..

وفجأة تألقت عيناه، وهو يهتف:

- آه.. بالتأكيد.. تمامًا مثلما كنا سنفعل، في ظروف مماثلة.. لقد حدث كل شيء بسرعة، والوقت أمامهم ضيق للغاية، ولا بد من التحرك بأقصى سرعة، والعمل على تفادي الأخطاء، بأفضل ما يمكن، وهذا يحتِّم النشاط والحكمة والخبرة، في آنٍ واحدٍ.. ولأنَّهم ما زالوا يفتقرون إلى المعلومات، فهم بحاجة إلى شخص يجيد التخطيط مثل (نسيم)، ولكنهم في الوقت ذاته، في أمَسِّ الحاجة إلى شخص يجيد التنفيذ أيضًا.. ولهذا أرسلوا الثاني..

فريق صغير متكامل.. مخطِّط، يمكنه وضع خطة سريعة محكمة، في ضوء ما يمكن التوصل إليه من معلومات، والثاني مُنفِّذ قوي، لديه القدرة على خوض النيران، دون أن يطرَف له جفن، لبلوغ هدفه، مهما كان الثمن.. هذا ما فعله المصريون بالتأكيد.

وضغط فرامل سيارته في حماس، وهو يتَّجه بها إلى جانب الطريق، على نحوٍ مفاجئ، وتجاهَل صرير إطارات السيارات، التي تفادَت الارتطام به في صعوبة، وسباب السائقين الغاضبين، وكأنه لم يعد يدري بالعالم من حوله.

وداخل سيارته المتوقفة، أمسك جانبي رأسه براحتيه، وهو يتابع في انفعال:

- عظيم.. أمامنا إذن مخطِّطٌ ومنفِّذ.. ومن الواضح أنَّ الأخير لا يجيد التخطيط، بأي حال من الأحوال، وإلا لما كانت هناك ضرورة للمجازفة بالأول.. إذن فأفضل وسيلة لكسب المعركة، هي تطبيق المبدأ القديم.. (فرِّق تَسُد).. فلنفصل المخطِّطَ عن المنفِّذ، ونعمل على ألَّا يلتقيا أبدًا، مهما كان الثمن.

ثم التقط هاتف السيارة، وضغط أزراره في سرعة، ولم يكد يسمع صوت محدثه، حتى قال في حزم:

- (يازوسكي).. اسمعني جيدًا يا (فيليب).. أما زال المصري نُصب أعينكم؟

أجابه (فيليب) في سرعة:

- بالتأكيد يا سيدي.. إنَّنا نراقبه ونتَّبعه أينما ذهب.. إنه يبتاع الآن بعض قطع الحلوى، و...

قاطعه (يازوسكي) في حزمٍ صارمٍ:

- أريد هذا الرجل يا (فيليب).

ردَّد الإسرائيلي في دهشة:

- تريده؟!
أجابه في صرامة أكثر:
- نعم.. أريده يا (فيليب).. أريده حيًا أو ميتًا.. المهم ألَّا يتحرك بحرية داخل (نيويورك)، منذ هذه اللحظة.. هل تفهم.. يا (فيليب)؟
أتاه صوت (فيليب) صارمًا قاسيًا، وهو يجيب:
- أفهم يا أدون (يازوسكي).. أفهم.
وأنهى (يازوسكي) الاتصال، وهو يعقد حاجبيه مرة أخرى في صرامة، مغمغمًا:
- الآن ستدركون أنَّ الخطأ لا يتكرر مرتين أيُّها المصريون.. لا يتكرر أبدًا.
نطقها، ولسان حاله يلقي حُكمًا أخيرًا على (نسيم).
حُكمًا بالإعدام..

☆ ☆ ☆

لم تكن المرة الأولى، التي يزور فيها الشاب (نيويورك)، فقد قضى فيها بعض الوقت في الماضى، كجزءٍ من تدريباته الأساسية ([6])؛ لذا فقد كان يحفظ شوارعها وطرقاتها عن ظهر قلبٍ، مما ساعده على الإفلات من خصومه، والتحرك في سرعةٍ وخفةٍ، حتى بلغ ذلك المنزل الآمن، الذي حفظ عنوانه، من تلك الرواية الزائفة على الطائرة..
وهناك استقبله شخصٌ ياباني الملامح، سأله في حرارة، بعد أن تبادلَا عبارات التعارف الشفرية المتفق عليها، وبلهجة مصرية خالصة:
- حمدًا لله على سلامتك.. أين السيد (نسيم).
أجابه في اقتضاب:
- لقد افترقنا في المطار.

سأله الرجل:
- لماذا؟ كان ينبغي أنَّ...
قاطعه الشاب في سرعة وحزم:
- هل حصلت على المعلومات المطلوبة؟!
استوعب الرجل الموقف على الفور، ولم يحاول تكرار سؤاله، وهو يجيب:
- إلى حدٍّ ما.
وناوله ورقة مطبوعة على الآلة الكاتبة ([7]) ، وهو يضيف:
- الإسرائيليون لهم ستة مكاتب هنا في (نيويورك)، ثلاثة منها يدركون جيدًا أنَّنا نعرفها؛ لذا فليس من المنطقى أن يحاولوا إخفاء رجلنا فيها، والثلاثة الأخرى موزعة بين (بروكلين) و(مانهاتن)، ومنذ ثلاثة أيام، استأجر بعضهم مخزنًا في الميناء، وابتاع ملحقهم العسكري شقة صغيرة في (هارلم).
غمغم الشاب، في شيء من الدهشة:
- (هارلم)([8]) ؟!
أومأ الياباني برأسه إيجابًا، وهو يقول:
- لقد أثار هذا دهشتي أيضًا، خاصة وأنَّه قد أحاط عملية الشراء هذه بسرية تامة، وكأنَّه يؤدي عملًا حربيًّا، كما استعان بفريق من بلطجية (هارلم) لحراسة المكان.
ثم مال نحو الشاب، مضيفًا، وهو يلوح بسبابته:
- لو أردت رأيي، فهذا هو المكان المناسب.
ألقى الشاب نظرة طويلة على الورقة، قبل أن يقول في اقتضاب:
- ليس بالضرورة..
تراجع الياباني في دهشة، مغمغمًا:
- كيف؟!

ولم يجب الشاب سؤاله..
بل لم يبد حتى أنَّه قد سمعه..
فهذا ما لقنه إياه أستاذه (نسيم) منذ التحق بجهاز المخابرات العامة..
«لا تفصح قط عما لديك..»
«الناس دائمًا مشحونة بالفضول، وعليك أن تتجاهل هذا تمامًا..»
«رجل المخابرات الناجح، هو من لا تشف ملامحه قط، عما يدور في أعماقه..»
وهكذا واجه الياباني بوجهٍ جامدٍ كالحجر، وهو يطوي الورقة، ويشعل فيها النار، في منفضة السجائر..
ومرة أخرى، وبفضول أكثر، سأله الياباني:
- ألا تبدو لك شقة (هارلم) هذه موقعًا مثاليًا، لإخفاء شخص تم اختطافه عنوة؟! عجبًا! لماذا ابتاعها الملحق العسكري الإسرائيلي إذن بمنتهى السرية، وأحاطها بجيش من المجرمين؟!
رمقه الشاب بنظرة صامتة جافة، دون أن يجيب سؤاله، أو يحاوِل إشباع لمحة واحدة من فضوله..
ومرة أخرى، تردَّدت في أعماقه كلمات الأستاذ..
«أفضل وسيلة، لجذب الأنظار إلى مكان ما، هي أن تتظاهر بإحاطته بالسرية..»
«إذا كان أمامك موضعان، لتخفي فيهما كنزًا ثمينًا، فأحط أحدهما بأكبر حراسة ممكنة، وأخف الكنز في الآخر..»
تردَّدت العبارات في أعماقه طويلًا، وهو يتطلع أمامه في شرود، فسأله الياباني باللغة العربية في اهتمام:
- هل سيتأخر السيد (نسيم) طويلًا؟
انعقد حاجبَا الشاب في شدة، وهو يلقي نظرة قلقة على ساعته:

- نعم.. لقد تأخر السيّد (نسيم) بالفعل..
كان من المفترض، طبقًا للخطة، أن يصل إلى هنا منذ ربع الساعة..
والسيد (نسيم) دقيق للغاية في مواقيته..
فلماذا تأخَّر إذن؟!
لماذا؟!
لماذا؟!
دار التساؤل القلِق في أعماقه، دون أن يدري أنَّ السيد (نسيم) كان يواجه، في تلك اللحظة أكبر خطر عرفه، في السنوات الثلاث الماضية..
أكبر خطر على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

انطلقت ضحكة كبيرة ساخرة، في أعمق أعماق (نسيم)، وهو يجول في هدوء، داخل متجر البقالة الواسع، في قلب (نيويورك)، ويختلس النظر إلى الإسرائيليين الثلاثة، الذين يتبعونه كظله طوال الوقت..
كان يريد أن يمنح (فاي) فرصة مناسبة؛ لبلوغ المنزل الآمن، والحصول على كل المعلومات المطلوبة، قبل أن يبدأ هو في مناورة الإسرائيليين، والفرار منهم، وسط زحام (نيويورك)، ليلحق به هناك..
حيث تبدأ المهمة..
كان يعتمد تمامًا على (فاي) هذه المرة..
يعتمد على كل ما درَّبه ولقَّنه إياه، طوال السنوات الماضية..
وكان يؤمن تمامًا بقدرته على تنفيذ المهمة..
فهو يدرك مدى صلابته، وقوته، وإصراره..

ويعلم جيدًا أنَّه إذا ما أَسندت إليه مهمة ما، فسيقاتل بكل قوته لتنفيذها على خير وجه، مهما كانت العقبات، أو الظروف والملابسات..
وكانت هذه أفضل صفاته..
إرادة فولاذية، وإصرار لا ينقطع أبدًا..
لهذا كانت الإدارة تعتمد عليه تمامًا، في كل العمليات الخطيرة العنيفة، التي تحتاج إلى خبراته السابقة في قوات الصاعقة، وإرادته التي تقهر الصلب، و...
توقفت أفكاره بغتة، عندما انتبه إلى أنَّ أحد الإسرائيليين الثلاثة يتجه نحوه مباشرة..
بسرعة وحيرة، تساءَل عقله عمَّا يمكن أن يعنيه هذا..
المفترض، طبقًا لقواعد المراقبة، أن يحافظ المراقب على مسافة منطقية، تفصله عن المراقب، في كل الأحوال؛ حتى لا ينكشف أمره قط..
وكسر هذه القواعد قد يعني أنَّ المراقب شخص يفتقر إلى الكفاءة..
أو أنَّ الأمر قد تجاوز حدود المراقبة بالفعل..
لم يكد يبلغ تلك النقطة من أفكاره، حتى تناهى إلى مسامعه صوت مشط مسدس من طراز (بيريتا)، ينجذب ويرتد إلى موضعه، و...
وبسرعة مدهشة، وكردٍّ فعلٍ تلقائي، وثب (نسيم) جانبًا، في نفس اللحظة التي انطلقت فيها رصاصة صامتة، من مسدس (فيليب)، أصابت إحدى زجاجات المياه الغازية، في نفس الموضع، الذي كان يحتله جسده، فانفجرت بدوي عنيف، داخل متجر البقالة..

ولم يحتج (نسيم) لأكثر من جزء من الثانية، ليستوعب الموقف كله، ويدرك أنَّ الأمور قد تغيرت بالفعل، وأن عملية المراقبة قد انتهت..
أو بمعنى أدق، تحوَّلت إلى عملية أخرى..
عملية اغتيال..
والعجيب أنَّ هذا كان يخالف كل القواعد والأعراف المعمول بها، في عالم المخابرات، في كل دول العالم، إلَّا أنَّ الوقت لم يكن يسمح بالتوقف للتفكير في هذا أو استنكاره..
لذا، فقد تحرَّك (نسيم) بسرعة مدهشة، وبخفة تتفوق كثيرًا على عمره، فدار على عقبيه، وانحنى يتفادَى رصاصة أخرى من مسدس (فيليب)، نسفت واجهة مبرد الخضروات، قبل أن يعتدل في سرعة، ويهوي على فكِّ هذا الأخير بلكمة كالقنبلة، أطاحت به مترين إلى الخلف، ليرتطم بزميله (مورو)، ويسقط الاثنان أرضًا في عنف..
وكردٍّ فعل تلقائي، انتزع (درو) مسدسه، وسط حالة الذعر العنيفة، التي سادت المكان، وصوبه إلى (نسيم)..
ولكن (نسيم) وثب في خفة، واختطف واحدة من علب الأطعمة المحفوظة، وألقى بها بكل قوته نحو (درو)..
وانطلقت رصاصة (درو)، وتجاوزت عنق (نسيم) بسنتيمتر واحد، قبل أن ترتطم علبة الأطعمة المحفوظة بوجهه، فيطلق صرخة ألم عنيفة، وهو يسقط على ظهره في قوة..
وقبل حتى أن يرتطم جسده بالأرض، كان (نسيم) يثب عبر كومة من علب مساحيق الغسيل، ويعدو نحو باب المتجر، الذي تزاحم عنده رواد المكان، يحاولون الفرار منه، بعد إطلاق النيران داخله..

وكان من الواضح أنَّ الخروج من المكان في سرعة أمرٌ مستحيلٌ، في ظلِّ الذُّعر والزِّحام، كما أنَّ إطلاق الرصاصات نحوه، في هذا الاتجاه، سيؤدي حتمًا إلى إصابة بعض رواد المتجر..

لذا، فقد تراجع (نسيم) بالتفافة سريعة، في نفس اللحظة التي نهض فيها (فيليب)، وهو يحاوِل إيقاف نزيف أنفه، هاتفًا:

- لا تسمحَا له بالفرار، مهما كان الثمن.
لم يكن (نسيم) يحمل سلاحًا؛ لذا فقد اندفع بكل قوته، محاولًا بلوغ الباب الخلفي للمتجر، عبر مخزن المؤخرة..
وبكل الغضب والشراسة، اندفع الإسرائيليون الثلاثة خلفه..
وانطلقت رصاصاتهم نحوه..
وقفز (نسيم) يحتمي ببعض قوائم المعروضات، التي أصابتها الرصاصات، فراحت تتطاير من حوله، كما لو كانت بعض القنابل المحدودة، و(فيليب) يهتف:
- حاصروه.. إنَّه يحاول بلوغ الباب الخلفي.
قفز (درو) عبر قائم مرتفع، وألقى جسده أرضًا، وهو يُطلِق رصاصاته، التي اخترقت الجدار، على قيد سنتيمترات قليلة من (نسيم)، قبل أن يدفع هذا الأخير جسده بكل قوته، ويثب داخل مخزن المؤخرة، في نفس اللحظة التي تعالى فيها دوي أبواق سيارة شرطة، تقترب من المكان..
وهتف (مورو):
- لقد نجح في بلوغ المخزن.
هتف (فيليب) في عصبية:
- المخزن له باب واحد، يقود إلى الشارع الجانبي، وهو شارع مغلق من أحد جانبيه، وله مخرج واحد، إلى الشارع الرئيسي.. حاصروه أنتما هنا، وسأمنعه أنا من الفرار بأي ثمن.
قالها، وانطلق يعدو نحو الواجهة الزجاجية للمتجر، وهو يلوح بمسدسه، صارخًا فيمن تبقَّى من الرواد:
- ابتعدوا أيُّها الأوغاد.. ابتدعوا.
تعالت صرخات الرواد، وتضاعف ذعرهم، عندما تعالى من خلفهم دوي رصاصات أخرى، اقترن بصوت زجاج الواجهة يتحطَّم وينهار، قبل أن يثب (فيليب) عبره، في نفس اللحظة التي

وصلت فيها سيارة الشرطة إلى المكان، وقفز منها شرطيان، صوبَّا إليه أسلحتهما، وأحدهما يهتف في صرامة:
- أَلقِ مسدسك، وإلا أطلقنا النار.
صاح بهما (فيليب)، وهو يندفع نحو مدخل الشارع الجانبي:
- شرطة فيدرالية أيُّها الأحمقان.. إنَّنا نطارد قاتلًا خطيرًا.. هيا.. تعاونَا معنا.
تردد الجنديان لحظة، فصرخ غاضبًا:
- هل تشكَّان في قولي؟! فيكن.. هاكما شارتي.
ودفع يده في جيب سترته، وكأنما يهم بالتقاط شارته، إلا أنَّه لم يلبث أن أخرجها حاملة مسدسًا آخر، انطلقت إحدى رصاصاته، لتغوص في قلب أحد رجلي الشرطة، في نفس الوقت الذي انطلقت فيه رصاصة من المسدس الأول، نسفت رأس الثاني..
ولم ينتظر (فيلب) حتى سقوط الرجلين، وإنَّما اندفع داخل الشارع الجانبي، في شراسة مخيفة، ليظفر بفريسته الرئيسية.. (نسيم)..
في نفس الوقت، كان رجل المخابرات المصري قد وثب إلى المخزن، وأغلق بابه خلفه في إحكام، ثم اندفع إلى الباب الخلفى، محاولًا الفرار عبره..
ولكن الباب الخلفى كان مغلقًا أيضًا..
وبإحكام..
وتلفت (نسيم) حوله في توتر، بحثًا عن أي شيء، يمكن أنَّ يعاونه على فتح أو تحطيم رتاج الباب الخلفي..
ولكن (درو) و(مورو) كانا يبذلان جهدهما أيضًا، لتحطيم رتاج باب المخزن..
وفي نفس اللحظة، التي وقع فيها بصر (نسيم) على بلطة الطوارئ، داخل صندوقها الزجاجي، أطلق (مورو) رصاصات

مسدسه على الباب..
واندفع (نسيم) بكل قوته نحو صندوق بلطة الطوارئ..
وانطلقت رصاصات (فيليب) من الخارج، تنسف رتاج الباب الخلفي..
وعندما بلغ (نسيم) الصندوق، كان الإسرائيليون الثلاثة يقتحمون المخزن، من الأمام والخلف، في آنٍ واحد..
وهوى (نسيم) بقبضته العارية، على واجهة الصندوق الزجاجية..
واستدارت إليه فوهات المسدسات الإسرائيلية الثلاث، في سرعة مدهشة..
وعندما بلغت سيارة الشرطة الثانية المكان، سجَّل راكباها دوي ثلاث رصاصات متتالية سريعة، داخل مخزن المؤخرة للمتجر..
وبعدها ساد صمت رهيب..
صمت تفوح منه رائحة مخيفة..
رائحة الموت.

☆ ☆ ☆

فاى

سلسلة جديدة

روايات مصرية للجيب

عملية الأستاذ

الجزء الثانى

د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

٤- المخطِّط..

نفث الرئيس (السادات) دخان غليونه الشهير، وهو يحاوِل الاسترخاء في ذلك المقعد الكبير في مكتبه، ويلقي نظرة على ساعته، قائلًا:

- الثالثة والنصف صباحًا هنا يا (كمال).. أي حوالي الثامنة والنصف مساءً في (نيويورك).. المفترض أن يكون رجالك هناك الآن.. ألم تبلغك أيةُ أخبار عنهم بعد؟!

أومأ مدير المخابرات المصرية برأسه، مجيبًا:

- بلى يا سيادة الرئيس.. رجلانا في (نيويورك) الآن، ولقد بدءَا مهمتهما على الفور.

سأله الرئيس (السادات) في قلق:

- وماذا عن الإسرائيليين؟!

مطَّ مدير المخابرات شفتيه، وزفر في توتر، مجيبًا:

- كالمعتاد يا سيادة الرئيس.. يتحركون في عنف وشراسة إلى أقصى حد.

نفث الرئيس دخان غليونه مرة أخرى، وقال:

- إنَّها ورقتهم الأخيرة يا (كمال).

غمغم مدير المخابرات:

- ورقة خاسرة بإذن الله يا سيادة الرئيس.

أشار إليه الرئيس، قائلًا:

- أهو مجرد رأي متفائل يا (كمال)؟!

أجابه مدير المخابرات في سرعة:

- لقد أرسلنا أفضل رجالنا يا سيادة الرئيس، ومن المؤكَّد أنَّهما سيبذلان قصارى جهدهما للفوز..... كالمعتاد.

أومأ الرئيس برأسه متفهمًا، وقال:
- فلندع الله (سبحانه وتعالى)، أن تُكلَّل جهودهما هذه بالنجاح.
ثم انعقد حاجباه، وهو يضيف:
- فسيُسيئُني بشدة أن يمضي خطابي الليلة، دون الإشارة إلى ذلك الإسرائيلي.
صمت مدير المخابرات بضع لحظات، قبل أن يجيب:
- لست أظن رجالنا يسمحون بهذا يا سيادة الرئيس.
نفث الرئيس دخان غليونه، وهو يغمغم:
- أتعشَّم هذا يا (كمال).. أتعشَّم هذا.
نطقها في هدوءٍ عجيبٍ، أدهش مدير المخابرات نفسه..
هدوء يخفي عاصفة عاتية، تنطلق في أعماق الرئيس..
عاصفة بلا حدود.
من المؤكَّد أنَّ تلك المواجهة، في المخزن الخلفي لمتجر البقالة الكبير، في قلب (نيويورك)، لم تكن أولى مواجهات (نسيم) مع الإسرائيليين..
ولكنها كانت أكثرها دقة..
فقد كان رجل المخابرات المصري يقف وحيدًا، حاملًا بلطة طوارئ، في مواجهة ثلاثة من رجال المخابرات الإسرائيلية، انقضَّوا عليه من الأمام والخلف، وكل منهم يحمل مسدسًا آليًا قويًّا..
وبحسبة بسيطة، يمكننا أن ندرك أنَّ النتائج لا يمكن أن تأتي لصالح (نسيم)..
أبدًا..
ولكن من قبل: إن مثل هذه الأمور، تخضع في المعتاد، لأية قواعد معروفة؟!

لقد اقتحم الإسرائيليون الثلاثة ذلك المخزن، ومسدساتهم متحفزة للانطلاق، وهو واثقون تمامًا من الظفر..
وما أن لمحوا (نسيم)، حتى ضغطت سبابتهم أزندة مسدساتهم بلا تردد..
وانطلقت رصاصاتهم تدوي في المكان..
ولكن ما من رصاصة منها أصابت هدفها..
هذا لأن الهدف، وبكل بساطة، لم ينتظر الإصابة..
لقد تحرَّك (نسيم) بأقصى سرعته، وخبرته الطويلة، في مواجهة الخطر، فانزلق أرضًا في خفة، وترك جسده ينخفض دفعة واحدة، وهو يلقي البلطة التي يحملها، بكل ما يملك من قوة، نحو الإسرائيليين (مورو) و(درو)..
وفي نفس اللحظة، التي انغرست فيها البلطة في صدر (مورو)، وانتزعته من مكانه، لتضرب به الجدار، وهو يطلق صرخة ألم رهيبة، كان (نسيم) يقفز إلى الأمام، ويقبض على معصم (درو)، ثم دار حول هذا الأخير في خفةٍ، لا تتناسب أبدًا مع سنوات عمره، وذلك الشعر الأشيب، الذي يغمر رأسه، وجعل من خصمه درعًا لجسده، ويده تترك معصمه، وتندفع إلى الأمام، لتقبض على يده، وتضغط سبابته فوق زناد مسدسه عنوة، وهو يرفع فوهة ذلك المسدس نحو (فيليب)..
وفوجئ (فيليب) بالرصاصات تنهمر عليه، من مسدس زميله، الذي قاوَم في عنفٍ، وهو يصرخ، مُحاوِلًا التخلص من (نسيم)، الذي شل حركته تمامًا:
- اتركني أيُّها المصري.. اتركني.
ولكنَّ أصابع (نسيم) بدت كالفولاذ، وهي تسيطر عليه، وتواصِل إجباره على إطلاق النار نحو رفيقه، و(نسيم) يدفعه إلى الأمام في قوة..

وقفز (فيليب) يحتمي بهرم من البضائع في المخزن، وهو يهتف:
- ذلك المصري ال...
قبل أن يتمَّ عبارته سمع صوت لطمة قوية، أعقبها صوت ارتطام بالأرض، فأدرك أنَّ (نسيم) قد أفقد (درو) وعيه..
والأخطر من هذا، أنَّه قد استولى على مسدسه..
وهذا يعني أنَّ كفتي الميزان قد تساويتا الآن..
رجل لرجل..
وبكل مقت وغضب، صاح (فيليب):
- على الرغم من كل ما فعلته، لن تنجو مني أبدًا أيُّها المصري.
ارتفع صوت بوق سيارة شرطة أخرى قادمة، فتضاعف توتر (فيليب)، وهو يقبض على مسدسه في قوة، ويتحرك في حذر، خلف كومة البضائع، هاتفًا:
- قلت لك: لن تنجو أبدًا أيُّها المصري.
تضاعف توتره، عندما لم يتلق جوابًا، أو يسمع أية حركة من حوله، فالتصق بصناديق البضائع أكثر وأكثر، وراح يتحرك في حذر عصبي، مُحاوِلًا أن يستشف موقع (نسيم)..
ثم تعالى وقع أقدام، تعدو نحو المخزن، فانعقد حاجباه في شدة، وألقى سبابًا ساخطًا، ثم اندفع نحو الباب الخلفي للمخزن، هاتفًا:
- فليكن أيُّها المصري.. سنؤجِّل القتال لجولة قادمة.
اقتحم شرطيان المخزن، في نفس اللحظة التي وثب فيها هو خارجه، وانطلق يعدو بكل قوته، فصرخ أحد الشرطيين:
- ها هو ذا.
وانطلق كلاهما خلف الإسرائيلي، وأحدهما يصرخ:
- توقَّف وإلَّا..

استدار (فيليب) في سرعة، وأطلق رصاصات مسدسه، ليطيح بأحد الشرطيين، ثم وثب إلى الأمام، مُحاوِلًا بلوغ سيارته..

استدار (فيليب) فى سرعة ، وأطلق رصاصات مسدسه ، ليطيح بأحد الشرطيين ..

ولكن الشرطي الثاني صرخ:

- توقَّف.
وضغطت سبابته زناد مسدسه، بكل قوته وعصبيته وتوتره..
وانطلقت الرصاصات تخترق ظهر (فيليب)، وتدفعه إلى الأمام في عنف، ليرتطم بسيارته في قوة، ثم يسقط أرضًا..
وفي توترٍ شديدٍ، هتف الشرطي، ومسدسه يرتجف في يده:
- أنت أجبرتني على هذا.. أنت الذي..
نهض (فيليب) من سقطته، والدماء تنزف من صدره في غزارة، وهتف بكل مقت الدنيا، وهو يرفع مسدسه نحو الشرطي:
- أيُّها ال...
وبكل ذعره، ضغط الشرطي زناد مسدسه مرة أخرى..
وعادت رصاصاته تنطلق..
وفي هذه المرة، اخترقت كلها صدر (فيليب)، واقتلعته من مكانه، كما لو أنَّه قد تلقَّى أقوى لكمة في الكون، وأطاحت به مِترًا ونصف المتر إلى أعلى، ليسقط على سقف سيارته، وتتدفق الدماء منه كالسيل، لتغمرها على نحوٍ مخيفٍ..
وكما يحدث في كل بلاد الدنيا، ازدحم المكان فجأة بالمارة الفضوليين، الذين أحاطوا بالسيارة والشرطي، في نفس الوقت الذي تصاعدت فيه أصوات أبواق سياراته شرطة وإسعاف، تتجه نحو المكان..
ووسط كل هذا الهرج والمرج، بدا (نسيم) شديد الهدوء، وهو يغادر متجر البقالة، ويشير لواحدة من سيارات الأجرة، التي تساءَل سائقها في فضول:
- ماذا حدث؟!
أجابه (نسيم) في بساطة:
- حادثة انتحار على الأرجح.
ثم استرخى في السيارة، وهي تنطلق به نحو هدف جديد..

مجهول..

☆ ☆ ☆

«كارثة!»

هتف (راف) بالعبارة في عصبية شديدة، وهو يضع سماعة الهاتف، ويلتفت إلى (يازوسكي)، مستطردًا:

- رجالنا كلهم سقطوا.. (فيليب) و(مورو) لقيا مصرعهما، و(درو) في قبضة الشرطة.

انعقد حاجبَا (يازوسكي)، وهو يسأله في حِدَّةٍ:

- هل تخلصوا من (نسيم)؟!

هزَّ (راف) رأسه نفيًا في شحوب، فضرب (يازوسكي) سطح المنضدة، أمامه بقبضته في حِدَّةٍ، وهو يهتف بسباب ساخط، قبل أن ينهض في عنف، قائلًا:

- هؤلاء المصريون تجاوزوا حدودهم.

التفت إليه (داني)، قائلًا:

- لو أردت رأيي، فالأفضل أن ننقل رجلهم، من مكتب (بروكلين) إلى أي مكان آخر.

صاح (يازوسكي) في حِدَّةٍ:

- خطأ.. أي تغيير الآن هو خطأ جسيم.. ربما كان هذا هو ما يسعون إليه منذ البداية.. أن نحاوِل تغيير مكان الأسير، فنكشف لهم أمرنا.

قال (راف) في دهشة مستنكرة:

- هل سنتركه هناك هكذا، في حراسة (دافيد) و(موشي) و(حام)؟!

أجابه (يازوسكي) في صرامة:

- نعم.. سنتركه هناك هكذا، ولكننا سنضاعف وسائل الحراسة والمراقبة، دون أن يشعر أحد.

سأله (داني):
- وماذا عن (نسيم)، وذلك الآخر؟!
التفت إليه (يازوسكي)، وهو يسأله في صرامة:
- هل أنهيتم صور ذلك الآخر؟!
ناوله (داني) مظروفًا كبيرًا، وهو يقول في تردد:
- ها هي ذي، ولكن...
قاطعه (يازوسكي)، وهو يختطف المظروف بحركة حادة:
- ولكن ماذا؟!
لم يجب (داني)، وإنَّما تبادَل نظرة شديدة التوتر مع (راف)، في نفس الوقت الذي راح فيه (يازوسكي) يراجع الصور، التي تم التقاطها في المطار، في سرعة، وانعقد حاجبَاه مع احتقانِ وجهه، وهو يلقي الصور في وجهيهما، هاتِفًا في غضب:
- ما هذا بالضبط؟!
ازدرد (داني) لُعابه، وهو يقول في توتر:
- الإضاءة لم تكن كافية، والشاب كان يتخذ زوايا غير...
قاطعه (يازوسكي) في غضب هادر:
- أغبياء.. لقد أضعتم فرصة نادرة، قد لا يمكننا تعويضها أبدًا.. إنَّنا نقاتل الآن مجرد شبح، ليست لدينا أية معلومات عنه..
ثم عضَّ شفتيه في غيظٍ، مستطردًا:
- وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث، في عالمنا هذا.
غمغم (راف)، محاولًا تهدئته:
- يمكننا أن ننصب فخًّا عند مكتب (بروكلين)، و...
قاطعه (يازوسكي) في حِدَّةٍ:
- لو أنَّه بلغ مكتب (بروكلين)، فسيعني هذا أنَّ العملية قد فشلت تمامًا.
ارتبك (راف)، وهو يغمغم:

- كان مجرد اقتراح.
أجابه (يازوسكي) في صرامة:
- اقتراح غبي.
ثم لوَّح بذراعه في حِدَّةٍ، مستطردًا:
- لست أدري كيف تم قبولكما في (الموساد)، فما ينبغي فعله هو عكس ما تفكران فيه تمامًا .. لا ينبغي أبدًا أن يصل (نسيم) ورفيقه إلى مكتب (بروكلين).. بل علينا أن نصرف أنظارهما عنه بكل وسيلة ممكنة، خلال الخمس عشرة ساعة القادمة، حتى يضطر رئيسهما إلى إلقاء خطبته، دون الإشارة إلى زميلنا (إيليا).
قال (راف) في حماس:
- وماذا لو هدَّدنا بقتل زميلهم، لو لم يتوقفوا عن السعي خلفنا؟!
رمقه (يازوسكي) بنظرة ازدراء، قائلًا:
- لن يصدق أحدهم هذا بالطبع، فهم محترفون مثلنا، ويعلمون أنَّنا لن نتخلص منه إلا في حالة اليأس التام؛ لأننا لو قتلناه، فما الذي سيمنع من كشف أمر سقوط ضابطنا عندئذ؟!
بدا الحرج على وجه (راف)، في حين قال (داني):
- لدي فكرة لصرف أنظار المصريين.
التفت به (يازوسكي) بنظرة متسائلة، فتابع في حماس:
- سنحضر شخصًا يشبهه في الهيئة والحجم، ونتظاهر بأنَّنا ننقله من مكان ما إلى آخر، تحت حراسة مُشدَّدة، وسيوحي إليهم هذا بأنَّنا ننقل رجلهم، فيسعون خلفنا، ويقاتلون لتخليصه، مما يمنحنا الفرصة للتعامل مع زميلهم الحقيقي، بأية وسيلة نشاء.
انعقد حاجبا (يازوسكي)، وهو يقول في صرامة:
- خطة طريفة، ولكنها سخيفة للغاية يا هذا، فخصمنا (نسيم) هذا ضابط مخابرات مخضرم، ومخطِّط من الطراز الأول،

وسيدرك من الوهلة الأولى أنَّها خدعة لجذب أنظارهم، و...
بتر عبارته بغتة، وازداد انعقاد حاجبيه، وعقله يدير الأمر مرات أخرى في سرعة، ثم لم يلبث أن رفع عينيه إلى الرجلين، قائلًا بلهجة عجيبة:
- ولكن هذا لا يمنع من أنَّها فكرة جيدة.
ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة شرسة، وهو يضيف:
- مع قليل من التعديل.
نطق عبارته الأخيرة، وراحت ابتسامته الشرسة تتسع..
وتتسع..
وتضاعفت شراستها..
ألف مرة..

☆ ☆ ☆

٥- الأسير..

ألقى رجل (الموساد) (دافيد) نظرة على ساعته، التي أشارت عقاربها إلى العاشرة مساءً بتوقيع (نيويورك)، وهو يستمع إلى (يازوسكي) عبر الهاتف، ويغمغم:

- عملية نقل؟! في هذه الساعة؟!

ثم انعقد حاجبَاه، وهو يستمع في اهتمامٍ شديدٍ، قبل أن يغمغم:

- آه فهمت.

وأنهى المحادثة، ملتفتًا إلى (رفعت)، المقيد إلى مقعد ضخم، وقال بلهجة ساخرة:

- من الواضح أنَّك تثير اهتمام الجميع أيُّها المصري.

أجابه (رفعت) في برود:

- وهل يحنقك هذا؟!

هزَّ (دافيد) رأسه في قوة، وهو يقول:
- بل يشعرني بأهمية ما فعلناه يا هذا.
ثم استلَّ مسدسه من حزامه، مستطردًا في صرامة:
- وعلى أية حال، لقد صدرت أوامر جديدة بشأنك.
تركزت عينَا (رفعت) على المسدس، وهو يقول:
- إنَّها لا تتعلق بالتخلُّص مني بالتأكيد، فلن يمكنكم فعل هذا، قبل أن يلقي الرئيس خطبته بالفعل.
ارتفع حاجبَا (دافيد)، وهو يهتف في دهشة:
- إذن فقد فهمت اللعبة.
انعقد حاجبا زميله (موشي)، وهو يشعل سيجارته، قائلًا في عصبية:
- هذا المصري ذكي للغاية، وسيسبب لنا الكثير من المشكلات.
ابتسم زميلهما (حام)، وهو يقول في سخرية:
- أية مشكلات أيُّها المَأفون ([9]) ؟! إنَّه بين أيدينا، مقيدٌ في مقعده، و...
قبل أن يتمَّ عبارته هتف (رفعت) بغتة، وهو يطوِّح قدمَه إلى أعلى:
- لا تنطقها بكل هذه الثقة.
ضربت قدمُه المسدس من يد (دافيد)، فطار في الهواء، وهذا الأخير يصرخ، مُنقضًّا على (رفعت) في غضب:
- أيُّها المصري ال...
كان ينقض بمنتهى العنف والثقة، باعتبار أنَّ خصمه مقيدٌ، و...
ولكن فجأة، انقضَّ عليه (رفعت) بدوره..
قفز من مقعده بغتة، واستقبل (دافيد) بلكمة كالقنبلة، أطاحت بهذا الأخير ثلاثة أمتار إلى الخلف، قبل أن يسقطَ أرضًا في

عنفٍ..
وفي حركةٍ مدهشةٍ، وثب (رفعت) يلتقط مسدس (دافيد)، الذي ركله منذ لحظة واحدة، قبل أن يسقطَ أرضًا، ثم استدار يواجه به (موشي) و(حام)، اللذَين استوعبَا المفاجأة بسرعة مدهشة، تليق بالمحترفين، وهبَّا يواجهانه بدوريهما..
وانطلقت رصاصات (رفعت)..
ورصاصاتهما..
واخترقت رصاصات (رفعت) صدر (حام)، وألقته أرضًا مضرجًا في دمائه، في حين أصابت إحدى رصاصات (موشي) ذراع (رفعت)، و...
وانقضَّ (دافيد) مرة أخرى..
كان (رفعت) يدير فوهة مسدسه، ليطلق النار على (موشي)، عندما باغته (دافيد) من الخلف، وهوى على رأسه بمنفضة سجائر ثقيلة..
ودار رأس (رفعت)، وهو يحاوِل الاستدارة، لمواجهة خصمه الجديد..
ولكن (موشي) انقض بدوره، وكبَّل ذراعي (رفعت) من الخلف، فهوى (دافيد) على رأسه بضربة أخرى، صارخًا:
- هيا.. افقد وعيك أيُّها المصري.. هيا.
كان أكثر ما يتمناه (رفعت)، في هذه اللحظة بالذات، هو أن يتحدى الإسرائيلي، ويظل محتفظًا بوعيه، و...
ولكن للبشر قدراته..
أي بشر..
لذا فقد أظلمت الدنيا بشِدَّة أمام (رفعت)..
وانتهى كل شيء دفعة واحدة..

وفي حِنق، انحنى (موشي) يفحص (حام)، قبل أن يهتفَ في غضبٍ، وهو ينقضُّ على (رفعت) الفاقد الوعي.
- لقد قتله.. هذا المصري الحقير قتله.. أقسم أنَّ...
أمسك به (دافيد) في شدة، وهو يقول في صرامة عصبية:
- رويدك يا رجل.. الأوامر أن نحتفظ به حيًّا، بكل وسيلة ممكنة.
لوح (موشي) بمسدسه، وهو يهتف:
- حيًّا؟! ألم تر ما فعله هذا المصري اللعين؟! لقد تجاوز الخمسين من العمر، وعلى الرغم من هذا، فقد أمكنه التخلص من قيوده ببراعة مدهشة، وهاجمك كشابٍّ في العشرين، ثم قتل (حام) برصاصات صائبة!! كيف يمكن أن نتركه حيًّا، بعد كل هذا.
أجابه (دافيد)، في صرامة أكبر:
- الأوامر هي الأوامر.
احتقن وجه (موشي) بضع لحظات، في غضبٍ هادرٍ، ثم لم يلبث أن أعاد مسدسه إلى غِمدِه، وهو يغمغم:
- يا للسخافة!
تراجع (دافيد) بدوره، وقال:
- يمكننا أن نقيده بالسلاسل هذه المرة.
غمغم (موشي) في سخط:
- أشكُّ أنَّ يفلح هذا.
هزَّ (دافيد) رأسه، وقال:
- اطمئن.. لقد صدرت أوامر جديدة بشأنه.
سأله (موشي) في توتر:
- أية أوامر.
صمت (دافيد) لحظة، قبل أن يجيبَ في حزمٍ:
- أوامر عجيبة.

ولم يزد حرفًا..
واحدًا..

☆ ☆ ☆

«(فاي).. هل تسمعني؟!»
تسلَّلت العبارة إلى آذان الشاب، عبر جهاز الاتصال الصغير، المثبت على رأسه، فأجاب في سرعة:
- أسمعك جيدًا يا سيدي.. أأنت بخير؟!
أجابه (نسيم) في هدوء:
- كل شيء على ما يرام.. لا تقلق بشأني.. اهتم بمهمتك الأساسية فحسب.
غمغم الشاب:
- كما تأمر يا سيدي.
سأله (نسيم) في اهتمام:
- أين أنت الآن؟!
أجابه الشاب، وهو يُعدُّ بندقيته:
- على سطح المبنى المواجه لمكتب (الموساد) في (بروكلين).
صمت (نسيم) لحظة، قبل أن يسأله، في لهجةٍ تحمل لمحةَ حذرٍ:
- ولماذا لم تتجه إلى ذلك المخزن؟!
أجابه الشاب في بساطة:
- كان أوضح مما ينبغي يا سيدي.
خُيِّل إليه أنَّه يرى ابتسامة (نسيم)، عبر جهاز الاتصال، وهو يقول في ارتياحٍ:
- أحسنت.
ثم سأله، مستعيدًا اهتمامه:
- ماذا تفعل عندك؟!

أجابه الشاب، وهو يصوب بندقيته إلى الجدار المجاور لنافذة المكتب في إحكام:
- لقد وصلتُ على الفور يا سيدي.
ثم ضغط زناد البندقية، مضيفًا:
- وهأنذا أبدأ عملي.
نقل جهاز الاتصال صوت انطلاق البندقية المكتوم، فقال (نسيم) في حماس:
- هل أطلقت جهاز الاتصال؟!
تابَعَتْ عينا الشاب جهاز الاتصال الدقيق، الذي أطلقه من بندقية خاصة، وهو ينغرس في الجدار، على بُعد سنتيمترات من نافذة مكتب (الموساد) الرئيسية، ثم أجاب في اقتضاب:
- نعم يا سيدي.
سأله (نسيم) في اهتمام شديد:
- ما الذي ينقله إليك جهاز الاتصال؟!
أدار الشاب مؤشرَ جهاز صغيرًا أمامه، وهو يجيب:
- يبدو أنَّ هناك شجارًا يدور في الداخل.. و...
بتر عبارته بغتة، فهتف (نسيم):
- ماذا حدث؟!
كان الشاب ينهض في حزم، وهو يجيب:
- هناك دوي رصاصات، من مسدسات مزودة بكواتم للصوت.
هتف (نسيم):
- يا إلهي! إنَّه هناك.. أَسرِع يا فتى.. تحرَّك فورًا.
أجابه (فاي) في حزمٍ، وهو يتحرك في خفة، ليتسلق برجًا صغيرًا على السطح:
- لقد فعلت.

مضت لحظة من الصمت، قال (نسيم) بعدها، عبر جهاز الاتصال:
- على بركة الله.. الاتصال للضرورة فحسب.
قالها، وأنهى الاتصال من ناحيته، ليفسح للشاب مجال الحركة، دون أية معوقات..
وهذا ما كان يحتاج إليه (فاي) بالتحديد..
وما يجيده بالتأكيد..
ففي سرعة وخفة، جذب من حزام حول وسطه حلقة ناقصة، ثبتها في سلك سميك، يمتد من السطح الذي يقف فوقه، إلى سطح مبنى مكتب (الموساد)..
ثم وثب من السطح..
وفي سرعة، انزلق جسده، من سطح إلى آخر، على ارتفاع يزيد على الأربعين مترًا، وسط ظلام ليل (نيويورك)..
وما أن تجاوز جسده حافة سطح المبنى الآخر، وبحنكة وخبرة وسرعة مظلي سابقٍ، أفلت (فاي) حزام صدره، وترك جسده يثب نحو السطح، ويهبط فوقه بمنتهى الرشاقة..
ولثوانٍ، ظل جامدًا في مكانه، قدماه على السطح، وركبتاه منثنيتان، وأصابع يمناه تلمس السطح لمسًا؛ ليتأكد من أنَّ أحدًا لم يلحظ هبوطه، أو ينتبه إليه..
لم يكن من الحكمة أن يحيطَ الإسرائيليون مكتبهم، الذي يحتفظون فيه بأسيرهم، بحراسة تفوق المعتاد، حتى لا يلفتوا إليه الأنظار..
ولكن من المؤكَّد أنَّهم يخفون شيئًا ما..
شيئًا قد لا ينتبه إليه أي متسلِّلٍ عاديٍّ..
لذا، فقد بقي الشاب جامدًا لفترة طويلة، كما لو أنَّه قد صار جزءًا من المكان..

وعندما اطمأن إلى أنَّ كل شيء هادئ وطبيعي، عاد يتحرك بخفة مدهشة..

كان يرتدي زيًّا أشبه بزي رجال الصاعقة، من اللونين الأسود والرمادي، وحذاءً بعنقٍ طويلٍ، وقفازين رقيقين، وحزامه يحمل كل ما يحتاج إليه من أسلحة..

تقريبًا..

وفي سرعة، فحص السطح كله تقريبًا، ثم انتقل إلى حافته، وانتزع من حزامه لفة من الحبال، ربط طرفها في مدخنة قوية، ثم ألقى الطرف الآخر، ليتدلَّى إلى قرب النافذة الرئيسية لمكتب (الموساد)..

وفى سرعة ، فحص السطح كله تقريبًا ، ثم انتقل إلى حافته ، وانتزع من حزامه لفة من الحبال . .

وكإجراءٍ أخير، حول ذبذبة جهاز الاتصال، المثبت على رأسه، والأشبه بسماعات جهاز تسجيل حديث، من تلك الأجهزة التي

لم تكن متوفِّرة آنذاك، إلى ذبذبة جهاز التنصت، المغروس إلى جوار النافذة، وهو يستعد للهبوط بالحبل، و...
«هل تعني أننا سننقله من هنا؟!»
نقل إليه جهاز التنصت عبارة (موشي) المستنكرة، وأعقبها صوت (دافيد)، وهو يقول في صرامة:
- ألديك حلٌّ آخر؟!
مضت لحظة من الصمت، قال (موشي) بعدها في حِدَّةٍ:
- ومَن سيهتم؟!
ثم ساد صمت مُقلق، امتزج بأصوات غير مميزة، فانعقد حاجبَا الشاب، وتجمَّد في مكانه بضع لحظات، قبل أن يتَّخذ قراره، ويتعلق بالحبل في قوة..
ويثب..
كان مُدربًا على نحوٍ مدهشٍ، حتى إنَّه راح ينزلق بوساطة الحبل، على جدار المبنى، من هذا الارتفاع الشاهق، في براعة مدهشة، وكأنَّما يمشي الهوينى، في شارع واسع ممهد، وسط حدائق غناء..
وطوال الوقت، لم يتلق جهاز الاتصال، سوى أصوات تحركات خافتة..
ثم ساد صمت تام..
وانزلق الشاب بسرعة أكبر..
وأكبر..
كان ذلك الصمت التام يقلقه..
بشدة.
وما أن بلغ النافذة، وألقى نظرة حذرة عبرها، حتى تضاعَفَ قلقه هذا..
ألف مرة..

فقد كانت ردهة المكتب الرئيسية، التي تطل عليها النافذة خالية..
كانت آثار المعركة واضحة فيها..
ولكنها خالية..
تمامًا..
وبسرعة، نقل الشاب موجة الاتصال، وهو يقول:
- من الخفاش الليلي.. إلى العش.. المكتب تم إخلاؤه بسرعة.. لا يوجد أحد.
أتاه صوت (نسيم)، وهو يسأله:
- أأنت بالداخل؟!
أجابه في سرعة:
- بل عند النافذة.
صمتت أجهزة الاتصال لحظة، قبل أن يعود صوت (نسيم) صارمًا، وهو يقول:
- العش يرغب في تقرير دقيق، أيُّها الخفاش الليلي.
أجاب الشاب في حزم:
- سمعًا وطاعة يا سيدي.
قالها، وثبَّت الحبل في حزامه جيدًا، ثم التقط من الحزام نفسه أداة رفيعة، راح يعالج بها رتاج النافذة من الخارج في سرعة، حتى أزاحه، ورفع النافذة، ووثب داخل الردهة الواسعة، وهو يحل الحبل من حزامه..
كان المكان هادئًا صامتًا بالفعل، وكل شيء فيه يشفُّ عن المعركة، التي دارت منذ قليل..
قيود (رفعت) الممزقة..
المقعد المقلوب..
أثار الرصاصات والدماء على الأرض والجدران..

وفي خفة، التقط الشاب مسدسه من غمده، وراح يتنقل من حجرة إلى أخرى، قبل أن يقول في خفوت:
- من الخفاش الليلي إلى العش.. المكان خالٍ بالفعل، وهناك أثر معركة عنيفة دارت فيه.. قتيل واحد على الأقل.
حمل صوت (نسيم) كل توتر الدنيا، وهو يردد:
- قتيل؟!
أجابه الشاب:
- الدماء تغمر الأرض وبعض الجدران، و...
بتر عبارته بغتة، فهتف به (نسيم) في توتر:
- ماذا حدث؟!
ولكن الشاب لم يجب..
لقد التقطت أذناه صوتًا خافتًا، جذب كل انتباهه، وجعله يتجاهل سؤال رئيسه، وهو يعود إلى الردهة في حذرٍ زائدٍ، و...
وفجأة، انعقد ذلك الصوت من خلفه..
وبوضوح أكثر..
وبكل سرعته، استدار (فاي) إلى مصدر الصوت..
ولمح رجلين ضخمين، يندفعان من مدخل سري خفي نحوه، وكل منهما يحمل مسدسًا آليًا، مزودًا بكاتم للصوت..
وقبل حتى أن تكتمل استدارته، ضغط الرجلان زنادي مسدسيهما، و...
وانطلقت الرصاصات.

☆ ☆ ☆

٦- خدعة جهنمية..

سرت موجة عنيفة من التوتر، في كيان (نسيم)، مع انقطاع الاتصال المباغت، فهبَّ من مقعده، داخل ذلك المنزل الآمن، الذي يدير منه معركته، وهتف في عصبية:

- ترى ماذا حدث؟!

اعتدل (طارق)، وهو يقول:

- أتظنه فخًّا يا سيدي؟!

لوح (نسيم) بكفه، مجيبًا:

- احتمال أكبر مما ينبغي.

وتحرَّك في المكان بعصبية أكبر، متابعًا:

- لقد دربتُ ذلك الفتى بنفسي، بعدما تسلمته من أستاذه الأول (رفعت)، وأُدركُ جيدًا أنَّ باستطاعته مواجهة أية مفاجأة، واستيعابها بسرعة، والتعامل مع أقوى الرجال، ولكن..

قال (طارق) في حيرة:

- ولكن ماذا يا سيدي؟ مع وصفك هذا، لا يوجد لكن.

لوح (نسيم) بسبابته، قائلًا:

- الإسرائيليون ليسوا أغبياء.. إنَّهم يعلمون أنَّنا لسنا هنا في رحلة سياحية، وأنَّنا نسعى حتمًا لاستعادة رجلنا، بأفضل ما لدينا ومَن لدينا، وسيبذلون قصارى جهدهم للقضاء على الشاب، كما حاولوا هذا معي.

قال (طارق):

- ولكنهم لا يعرفونه.

أجابه (نسيم) في حزم:

- لو صحَّ ما أخشاه، فهم يعرفونه الآن.

ثم أشار إليه، مستطردًا في صرامة:
- ولكن لدينا مراقبين آخرين، حول كل مكاتب (الموساد)، وأحدهم يراقب مكتب (بروكلين).. أجر اتصالك به على الفور، ليبلغنا ما يراه.
هبَّ (طارق) إلى الهاتف على الفور، وراح يجري الاتصال، و(نسيم) يواصل الدوران في المكان، مغمغمًا لنفسه:
- اهدأ يا (نسيم).. اهدأ.. لا تقع فيما تنصح الآخرين بتفاديه.. لا تفقد أعصابك، وقدرتك على التفكير السليم، في أحلك المواقف.
والعجيب أنَّ كلماته هذه كان لها تأثير السحر في نفسه، وكأنَّما اعتادت أن تستجيب له بكل خضوعٍ، فما أن انتهى منها، حتى سرى الهدوء في عروقه، وانبعثت من عقله إشارة خاصة، تُعلن أنَّه مستعدٌّ للعمل بكل طاقته، في نفس اللحظة التي هتف فيها (طارق)، وهو يناوله سماعة الهاتف:
- مراقب (بروكلين).
التقط (نسيم) الهاتف، وسأل المراقب على الفور:
- ماذا يحدث عندك؟!
أجابه الرجل في توترٍ واضحٍ:
- الكثير يا سيدي.. كنتُ سأجري اتصالي بكم على الفور، لو تأخرتم ثوانٍ معدودة.
سأله (نسيم)، والتوتر يعاوده:
- ماذا يفعلون؟!
أجاب الرجل:
- لقد وصلت سيارة كبيرة، وهناك استعدادات واضحة، توحي بأنَّهم يستعدون للتحرك من هنا.
انعقد حاجبا (نسيم) في شدة، وهو يغمغم:

- استعدادات واضحة؟!
ثم أضاف في حزم:
- راقب الموقف جيدًا يا رجل، وأبلغني أية تطورات أولًا فأولًا.
قالها، وأنهى المحادثة، وقد حملت كل خلية من خلاياه أمارات التفكير العميق..

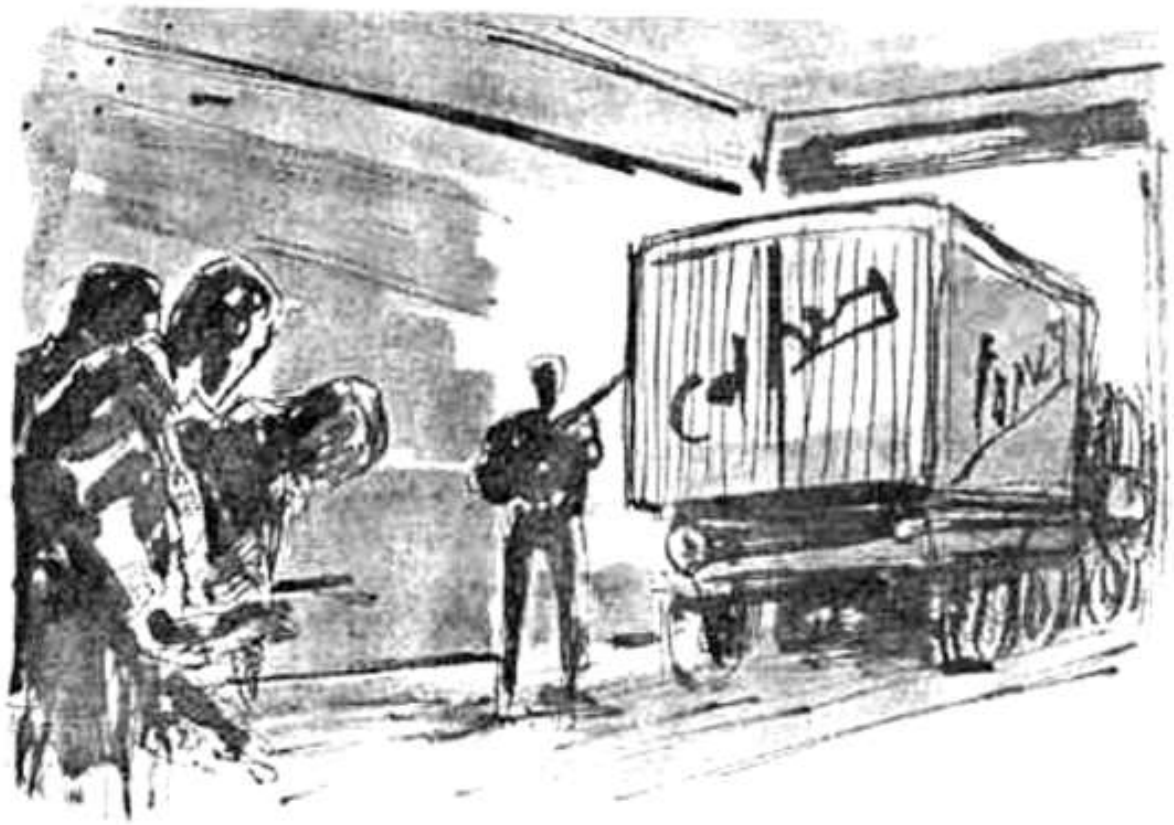

ترى ما الذي يفعله الإسرائيليون بالضبط؟!
أية استعدادات تلك التي يتخذونها؟!
ولماذا؟!
كل الدلالات توحي بأن (رفعت) في هذا المكان بالفعل..
أو أنَّه كان كذلك..
ولكن هناك آثار قتال..
واستعدادات..
واضحة..
ذلك الوضوح بالتحديد هو ما يقلقه..

إنَّه يبدو كما لو أنَّ الإسرائيليين يتعمدون جذب انتباههم..
وأن (رفعت) ليس هناك..
كل القواعد التي تعلمها في شبابه، ويعلمها لمن يتولى تدريبهم من الشباب، تؤكِّد هذا..
أي رجل مخابرات بسيط يعلم هذا..
ويدركه تمام الإدراك..
حتى الإسرائيليين يعلمون هذا..
ويعلمون أنَّ المصريين يعلمونه أيضًا..
فلماذا إضاعة الوقت، في مثل هذه السخافات؟!
لماذا؟!
التقى حاجباه أكثر وأكثر، وعقله يعتصر هذا الموقف، ويعيد دراسته أكثر..
وأكثر..
وأكثر.
ثم ارتفع رنين الهاتف..
وبسرعة البرق، التقط (نسيم) سماعته، ووضعها على أذنه، دون أن يقول شيئًا، فسمع صوت مراقب (بروكلين)، وهو يهتف في انفعال:
- إنَّهم يتحركون الآن يا سيدي.. السيد (رفعت) معهم..
إنَّهم يدفعونه عبر الممر الطويل، الذي تنتظر سيارتهم في نهايته، من الواضح أنَّه مصاب، وهم يخفون وجهه، ولكنني أعرفه جيدًا.. لقد عملت معه لعام كامل.
ولم يعلق (نسيم) على الهتاف، على الرغم مما يحمله من معلومات مخيفة..
(رفعت) بينهم..
وبكل هذا الوضوح..

كيف؟!
ولماذا؟!
من يضمن أنَّه ليس فخًّا آخر؟!
من يضمن أنَّها ليست لعبة ثانية، للإيقاع به وبالشاب، في حالة فشل الفخ الأول؟!
وهتف مراقب (بروكلين) ثانية:
- إنَّهم يتجهون بالسيد (رفعت) إلى السيارة يا سيدي.. ماذا سنفعل؟!
ومرة أخرى، لم يحر (نسيم) جوابًا..
فالموقف كان يحتمل كل الاحتمالات..
كلها بلا استثناء..
ولا بد له من أن يحسم أمره..
وأن يتخذ قراره..
بمنتهى الدقة..
والسرعة..
هتف مراقب (بروكلين)، في انفعال بلا حدود:
- ماذا سنفعل يا سيد (نسيم)؟!
ودار الأمر كله في رأسه مرة أخرى..
لا يمكن أن يتصرف الإسرائيليون بهذه السخافة..
إلا إذا..
قفز الاحتمال إلى رأسه بغتة..
وبدا منطقيًّا للغاية..
إلى أقصى حد..
وبسرعة، وما أن استقر الأمر في ذهنه، حتى ضغط زر جهاز اتصال الطوارئ، وهو يصيح:

- من العش إلى الخفاش الليلي.. الغربان تنقل النسر إلى وكر آخر.. المدخل الأمامي .. سيارة سوداء كبيرة .. انطلق أيُّها الخفاش.. انطلق فورًا..
كان يدرك جيدًا أنَّ (فاي) سيتلقى هذا النداء، حتى ولو كان جهاز الاتصال التقليدي مغلقًا..
ولكنه لا يدري ما الحالة التي سيكون عليها، عندما يتلقى النداء..
هل سيكون على قيد الحياة؟!
أم؟!
وكانت الاحتمالات هذه المرة أيضًا مخيفة..
للغاية!

☆ ☆ ☆

لم يكد الشاب يشعر بتلك الحركة خلفه، حتى استدار إلى مصدرها، بأسرع ما يمكنه..
ومع استدارته السريعة، لمح رجلي (الموساد)..
وانزلق..
انزلقت قدماه على دماء (حام)، التي تغرق الأرضية..
وفقد توازنه..
وسقط..
وفي نفس لحظة سقوطه، أطلق الإسرائيليان رصاصات مسدسيهما..
وانطلقت الرصاصات فوق رأس (فاي)..
وتجاوزه..
وكان هذا يعني أنَّ رجلي (الموساد) قد فقدَا عامل المفاجأة..
تمامًا..
ففي اللحظة التالية..
أو في الجزء التالي من الثانية..

وقبل حتى أن يلمس جسده الأرض، كان الشاب يهبُّ واقفًا، ويواجه خصمه..
ويطلق النار..
مسدسه أيضًا كان مزودًا بكاتم للصوت..
لذا، فقد انطلقت رصاصته بصوتٍ خافتٍ مكتومٍ، فاخترقت عنق أحد الإسرائيليين، وأصابت كتف الثاني، الذي أطلق النار مرة أخرى في غضب، وهو يهتف:
- أيُّها ال..
قبل أن يكتمل هتافه، كان (فاي) قد دار حول نفسه في خفة، متفاديًا الرصاصة، وأطلق رصاصته الثانية، ليطيح بالإسرائيلي..
وتدفقت دماء أكثر وأكثر على الأرضية..
وتجمَّد الشاب في مكانه، متلفتًا حوله في توتر..
لقد كان فخًّا..
الإسرائيليون كانوا يعلمون، على نحوٍ أو آخر، أنَّه قادم..
وتركوا مَن ينتظره..
ولكن ما الذي يعنيه هذا؟!
أكان الأمر مجردَّ فخٍّ؟!
ألم يكن السيد (رفعت) هنا منذ البداية؟!
ألم....
قبل أن يكتمل سؤاله الثاني، شعر بشيء آخر يقترب..
وتلفَّت حوله في توتر..
ثم فجأة، انقطع التيار الكهربائي..
وغرق المكان في ظلامٍ دامسٍ..
ومع الظلام، اقترب ذلك الشيء أكثر..
واقترب..
واقترب..

وأطلق الشاب طلقة أخرى، من مسدسه المزود بكاتم للصوت، نحو البقعة، التي أنبأته أذناه بأن ذلك الشيء يقترب منها..
ومع الوهج الذي أحدثته الرصاصة، رأى الشاب خصمه..
وفي اللحظة ذاتها، انطلقت زمجرة من حلق ذلك الخصم الألماني الضخم، وهو يثب نحوه، ويغرس أنيابه في معصمه..
كان كلبًا ضخمًا، من طراز (دوبرمان)، مُدرَّب على الانقضاض والهجوم، دون أن يفصح عن نفسه، أو يصدر عنه أدنى صوت..
ومع انغراس الأنياب في معصم الصبي، أفلت مسدسه مضطرًا، وسقط أرضًا، وهو يقاوم الكلب بكل قوته..
ودون أن يصدر عنه أيضًا أدنى صوت..
ومن بعيد، سمع وقع أقدام تعدو مقتربة..
وصوت يهتف:
- أمسكه يا (تيجر).. لا تسمح له بالإفلات..
كان (تيجر) يطلق زمجرات مخيفة، ويضرب بمخالبه، وأنيابه تفلت معصم الشاب، وتنقض على عنقه في شراسة ووحشية..
ولم يكن هناك مجال للتفكير..
أو الرحمة..
فالكلب الضخم يهاجم كالنمور المفترسة..
والآخرون يعدون نحو المكان..
ولقد فقد مسدسه..
وتوازنه..
وفي نفس اللحظة، اشتعل جهاز اتصال الطوارئ، المثبت على أذنه اليسرى، وانبعث منه صوت (نسيم)، وهو يهتف في انفعالٍ شديدٍ، ندر أن يصدرَ عنه مثله:
- من العش إلى الخفاش الليلي.. الغربان تنقل النسر إلى وكرٍ آخر.. المدخل الأمامي .. سيارة سوداء كبيرة .. انطلِق أيُّها

الخفاش.. انطلِق فورًا..
وهنا حسم (فاي) الأمر..
لم يعد يشعر بمخالب (تيجر)..
أو أنيابه..
لم يعد يشعر بأي شيء، سوى أنَّ عليه أن ينطلق فورًا لتنفيذ المهمة، التي طار من أجلها، من (القاهرة) إلى (نيويورك)..
أن ينفذ العملية..
عملية الأستاذ..
وبسرعة مدهشة، وإرادة فولاذية، استل خنجرًا، من غمدٍ خاصٍّ في حذائه، و...
وانطلقت زمجرة أخرى من حلق (تيجر).
زمجرة تحمل مزيجًا من الألم والذعر، عندما اخترق خنجر الشاب قلبه، قبل أن يدفعه بعيدًا، وهو يهب واقفًا، ويغمغم في شيء من الأسف:
- أنت أجبرتني على هذا.

زمجرة تحمل مزيجًا من الألم والذعر ، عندما اخترق خنجر الشاب قلبه ، قبل أن يدفعه بعيدًا . .

ولم تكد غمغمته تكتمل، حتى أضيء المكان بغتة، وانبعث صوت يهتف:

- ها هو ذا!

ومع الهتاف، ارتفعت فوهات ثلاثة مدافع آلية قصيرة..
ولكنَّ هتافًا آخر كان يتردد في عقل الشاب..
ووعيه..
وكيانه كله..
«انطلِق أيُّها الخفاش.. انطلِق فورًا..»
وانطلق الخفاش..
ومن خلفه، انطلقت رصاصات المدافع الثلاثة..
ولكن الشاب لم يتوقف..
كان عليه أن يقاتِل من أجل نجاح المهمة..
مهما كان الثمن..
ولما كان المكان مغلقًا، إلَّا من النافذة، والباب الذي يقف عنده خصومه الثلاثة بمدافعهم الآلية، فقد انطلق الشاب نحو المنفذ الوحيد..
ووثب..
وثب عبر النافذة المفتوحة..
من ارتفاع عشرة طوابق..

☆ ☆ ☆

روايات مصرية للجيب
عملية الأستاذ
الجزء الثالث
سلسلة جديدة
د. نبيل فاروق
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

٧- وثبة..

اتسعت عيون الإسرائيليين عن آخرها في ذهول، عندما وثب (فاي) أمامهم عبر النافذة المفتوحة، دون ذرةٍ واحدةٍ من التردد.
ودون أن يدري أحدهم، انطلقت من حلوقهم شهقة..
ومع نهايتها، اختفى جسد الشاب..
وهتف أحد الإسرائيليين في ذهول:
- لقد انتحر.
ردَّد آخر، في دهشة مستنكرة:
- انتحر؟!..
قالها، ثم اندفعوا جميعًا، في آنٍ واحد تقريبًا، نحو النافذة، التي قفز منها (فاي)..
وعندئذ..
عندئذ فقط، أدركوا أنَّه لم ينتحر..
وفهموا ما فعله بالضبط..
فمع وثبته، تعلق الشاب بذلك الحبل، الذي تدلَّى به من السطح، ودفعه أمامه في خفة، ليندفع جسده إلى جانب المبنى، قبل أن يتخلَّى عن الحبل، ويقفز في الهواء كنسر
ٍبشري، ويتعلق بأسطوانة الطوارئ، في زاوية المبنى ([10]) ..
وبخفة مذهلة، ترك جسده ينزلق على الأسطوانة بسرعة كبيرة، وعيناه ترصدان السيارة السوداء الكبيرة، التي توقفت أمام المبنى مباشرة، وفريق من الإسرائيليين يدفع (رفعت) المصاب في ذراعه أمامه نحوها، في غلظة وسرعة، وخشونة، و...
وبسرعة مدهشة، وقبل حتى أن يبلغ الأرض، استلَّ الشاب خِنجره، وألقاه بكل قوته نحو السيارة..

وفي نفس اللحظة، لمحه أحد الإسرائيليين، وصرخ، وهو يدير فوهة مسدسه نحوه:
- احترسوا.
وبسرعة، مال جانبًا؛ ليتفادى الخنجر، وهو يطلق رصاصات مسدسه، المزود بكاتم للصوت..
ولقد تجاوزه الخنجر بالفعل..
لأنه لم يستهدفه أبدًا..
فقد واصل طريقه إلى الهدف الأساسي، الذي ألقاه نحوه (فاي)..
وانغرس في إطار السيارة..
وفي نفس اللحظة، التي تفادى فيها الشاب الرصاصة، التي أطلقها الإسرائيلي نحوه، انفجر الإطار الأمامي الأيمن للسيارة..
ومع انفجاره، وصرخة الغضب، التي أطلقها أحد
الإسرائيليين، أدرك (رفعت) ما يحدث، على الرغم من القناع الأسود، الذي يخفي وجهه..
أدركَ أنَّها محاولة لإنقاذه..
فتحرَّك..
بكل سرعته..
وكل قوته..
وارتفعت قدمُه تركِل أقرب الرجال إليه، وهو يدفع رأسه إلى الخلف، ليضرب أنف الإسرائيلي، الذي يمسك به من الخلف، في نفس اللحظة التي واصل فيها (فاي) انزلاقه على الأسطوانة، حتى بلغ الطابق الأول، ورصاصات الإسرائيليين تطارده في شراسة وتخترق كتفه، وعضلة ساقه اليسرى، دون أن يتوقف لحظة واحدة..
أو يشعر بإصابته..

فمع مرأى أستاذه يقاتل، والإسرائيليون يدفعونه أمامهم في شراسة، وسائق السيارة يصرخ بهم، ليستحثهم على الإسراع، فارت الدماء في عروقه، وتصاعدت الحمم إلى رأسه، وانطلقت في أعماقه صرخة قوية، تستحثه على القتال..

ومع تلك الصرخة، وثب مرة أخرى..

واتسعت عيون الإسرائيليين، الذين يحملون مسدساتهم القوية، وتراجعوا في توتر، أمام ذلك النسر الأعزل، الذي يهبط عليهم من أعلى..

ثم حدث الاصطدام..

اصطدم جسد الشاب بثلاثة من الإسرائيليين، وسقط معهم أرضًا، في نفس اللحظة التي هوى فيها إسرائيلي آخر على رأس (رفعت) المقيد بضربة قوية، من كعب مسدسه، والسائق يصرخ به:

- أسرع يا رجل.. أسرع..

دفع الإسرائيلي (رفعت) في قسوة، داخل السيارة السوداء، وهو يهتف في عصبية:

- وماذا عن الإطار التالف؟!

صرخ به السائق المحترف:

- قلت لك: أسرع.

وثب الإسرائيلي داخل السيارة، في نفس اللحظة التي أمسك فيها الشاب معصم أحد الإسرائيليين، قبل أن يطلق رصاصات مسدسه في وجهه، وأداره في سرعة وقوة، لتنطلق رصاصة المسدس، وتخترق رأس الإسرائيلي الثاني، وتدفعه في عنف ليرتطم بالثالث، الذي سقط أرضًا، مع صوت الفرقعة المكتوم، الذي صاحب انفجار قبضة (فاي) في أنف زميله، ولم يكد ينهض حتى انطلقت في أنفه هو قرقعة ثانية، اختفت معالمها،

مع صرير إطارات السيارة السوداء الكبيرة، وذلك الصوت المزعج، الذي انطلق من إطارها الممزق، وهي تنطلق بأقصى سرعة، واحتكاك القلب المعدني للإطار يطلق شرارات مخيفة..
وبوثبة جديدة، اختطف (فاي) مسدس أحد الإسرائيليين، وانطلق يعدو خلف السيارة..
وعلى الرغم من ساقه المصابة، والدماء التي تغرق كتفه وسرواله وحذاءه، راح يعدو بسرعة مدهشة، وهو يطلق رصاصات المسدس، محاولًا نسف أحد الإطارين الخلفيين..
وفي دهشة تمتزج بذعرٍ مستنكرٍ، صرخ الإسرائيلي بالسائق المحترف:
- حان دورك لتسرع أنت يا رجل.. أَسرِع، قبل أن يظفر بنا ذلك المصري.
انعقد حاجبَا السائق في شِدَّةٍ، وزاد من ضغط قدمه على دواسة الوقود، ويداه تقبضان على الإطار بكل قوتهما، في محاولة للسيطرة على السيارة، التي أخل فقدان الإطار بتوازنها الطبيعي، وانبعث منها صوتٌ عالٍ مرتفعٌ مزعجٌ، يكفي لإيقاظ مدينة بأكملها، وتطايرت منها شرارات رهيبة، تكاد تشعل النار في الشارع كله..
إلا أنَّه لم يستسلم..
كان من المستحيل أن يفعل، وتلك السيارة تحمل أستاذه..
أستاذه الأول في عالم المخابرات..
لذا، فقد استعاد عقله في سرعة خريطة (نيويورك)، التي جعله أستاذه يحفظها عن ظهر قلب..
ثم انحرف بغتة، واندفع نحو شارع جانبي..
ومع رؤيته لهذا، في مرآة السيارة الجانبية، هتف السائق المحترف:

- لقد تخلَّى عن المطاردة.
صاح به الإسرائيلي في عصبية، وهو يلوح بمسدسه:
- واصل طريقك.. لا تتوقف.. هل تفهم؟!
ولم يكن السائق بحاجة للأمر والتهديد فعليًّا..
فكمحترف، كان يدرك جيدًا خطر الاطمئنان إلى نتيجة ما قبل أن ينزاح الخطر..
تمامًا..
لذا فقد واصل انطلاقه بالسيارة، على الرغم من صوتها المزعج، وصعوبة السيطرة عليها، والشرارات التي تنبعث منها، وعيناه تنتقلان من مرآة إلى أخرى، وعقله يتساءل: هل تخلَّى ذلك المصري عن المطاردة بالفعل.. أم..
ظهر من شارع آخر، وهو يندفع نحو السيارة بكل قوته، ومسدسه المزود بكاتم للصوت يطلق رصاصاته في سخاء..
وانفجر الإطار الخلفي الأيسر للسيارة..
واخترقت رصاصات الشاب زجاجها الخلفي..
وصرخ الإسرائيلي داخلها، وهو يقفز بمسدسه، ويطلق النار بدوره:
- ماذا يحدث؟! ماذا يحدث؟!
اختلَّ توازن السيارة السوداء الكبيرة في عنفٍ، كادَت معه تنقلب على جانبها، إلَّا أنَّ سائقها المحترف نجح في السيطرة عليها في صعوبة، في نفس الوقت الذي أطلق فيه زميله رصاصات مسدسه نحو (فاي)..
واخترقت رصاصة ثالثة ذراع الشاب..
وتفجر معها نهر من الدم..
ولكن حتى هذا لم يوقفه..

لقد واصل عدوه نحو السيارة، التي تضاعف صوتها عنفًا وإزعاجًا، وأطلق رصاصات مسدسه نحو الإسرائيلي، وأصابه، في عنقه وصدره، قبل أن تنفد رصاصاته تمامًا..

ومع سقوط الإسرائيلي جثة هامدة، صرخ السائق:

- يا للسخافة! يا للسخافة!

وانحرف بالسيارة في سرعة، محاولًا الفرار من خصمه، الذي بدا له أشبه بشيطان عملاق، لا سبيل لهزيمته، أو الفكاك منه قط..

وهنا وثب (فاي) وثبة أخرى..

وفي هذه المرة، دفعته وثبته حتى سقف السيارة السوداء الكبيرة.. فتشبث به بكل قوته..

و...

وضغط السائق المحترف زرًا صغيرًا، في تابلوه السيارة..

وانفتح السقف المتحرك دفعة واحدة..

ثم انتزعه ثقل الشاب من مكانه..

فطار في عنف..

حاملًا (فاي) معه..

وسقط الاثنان أرضًا..

بمنتهى العنف..

وانفتح السقف المتحرك دفعة واحدة .. ثم انتزعه ثقل الشاب من مكانه .. فطار فى عنف ..

كان الاصطدام مؤلمًا إلى أقصى حد، ولقد تدحرج جسده على نحو مخيف، والدماء تنزف من إصاباته في شدة، وصوت السيارة المزعج يبتعد..

ويبتعد..
ويبتعد..
ثم يختفى فجأة..
ووثب الشاب واقفًا على قدميه..
وتجاهَل جراحه، والدماء التي تنزف منه في غزارة، وهو يعاوِد الجري خلف السيارة، مسترشدًا بآخر ما سمعه منها، وقلبه يخفِق بمنتهى العنف..
حتى وجدها أمامه فجأة..
إطاراها ممزقان، ورصاصاته اخترقت معظم جسمها، والإسرائيلي ملقًى صريعًا داخلها..
أما فيما عدا هذا، فلم يكن هناك أثر لشيء أو شخص آخر..
لا السائق المحترف..
ولا الأستاذ..
لم يكن هناك أدنى أثر..

☆ ☆ ☆

تنحنح مدير المخابرات العامة المصرية في شيء من التوتر، وهو يدلِف إلى مكتب الرئيس (أنور السادات)، في تمام الثامنة صباحًا، بتوقيت (القاهرة)، واستقبله الرئيس بلهفة واضحة، وهو يسأله:
- ما الأخبار يا (كمال)؟!
أجابه مدير المخابرات في توتر:
- لقد عثروا عليه يا سيادة الرئيس.
هتف الرئيس في فرحة:
- حقًّا؟!
استدرَك مدير المخابرات في سرعة:
- ولكنهم فقدوا أثره مرة أخرى.

انعقد حاجبَا الرئيس في غضبٍ، وهو يقول:
- ما الذي يعنيه هذا بالضبط يا (كمال)؟!
شرح له مدير المخابرات ما حدث في (نيويورك)، خلال الساعات القليلة الماضية، واستمع إليه الرئيس في ضيقٍ واضحٍ، وهو يشعل غليونه، وينفث دخانه في بطء متوتر، قبل أن يشير بيده، متسائلًا:
- ألم تبحثوا عن المكان الجديد، الذي نقلوه إليه؟!
أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا، وقال:
- رجالنا يبذلون قصارى جهدهم، وينبشون (نيويورك) نبشًا يا سيادة الرئيس.. كل مداخل ومخارج المدينة مراقبة.. حتى حركة الطيران الخاص، ومسار الزوارق والقوارب.. لن يمكنهم نقله خارج المدينة قط.
لوح الرئيس بيده، قائلًا:
- المهم أن يتم العثور عليه قبل السابعة مساءً يا (كمال).
ثم نهض من مقعده، واتجه إلى النافذة المطلة على الحديقة، ونفث دخان غليونه مرة أخرى، قبل أن يستطرد في عصبية:
- وإلا فسأضطر إلى تجاوز خبر سقوط ذلك الجاسوس الإسرائيلي في خطابي.
وعاد حاجبَاه ينعقدان في غضب، وهو يضيف:
- وهذا لن يروق لي .. لن يروق لي أبدًا يا (كمال).
التقط مدير المخابرات نفسًا عميقًا، وهو يجيب:
- اطمئن يا سيادة الرئيس.
نطقها بلهجة لم تنجح حتى في إقناعه هو، فالتفت إليه الرئيس، وتطلع إليه لحظة، قبل أن يقول في صرامة:
- تقول: إن ذلك الشاب، الذي يعتمد عليه الجزء المهم والعملي من الخطة مصاب.

أجابه المدير في ثقة:
- سيكمل المهمة يا سيادة الرئيس.
كرَّر الرئيس في حزم:
- مصاب بشدة يا (كمال).
وهنا كرَّر مدير المخابرات بثقة أكبر:
- ولكنه سيكمل المهمة يا سيادة الرئيس.
رمقه الرئيس (السادات) بنظرة أخرى، وهزَّ رأسه في صمتٍ، ثم عاد يتطلع إلى الحديقة، وعقله يتساءَل: ربما استطاع الشاب أن يكمل المهمة بالفعل..
ولكن هل يمكنه أن يحقِّق النصر في نهايتها؟!
هل؟!

☆ ☆ ☆

التقى حاجبَا (نسيم) في توتر، وهو يتابع طبيب مكتب المخابرات المصري في (نيويورك)، وهو يضمد جراح الشاب، بعد أن انتزع الرصاصات من جسده، ثم سأله في شيء من العصبية:
- كيف حاله؟!
هزَّ الطبيب كتفيه، قائلًا:
- إنه قوي البنية، وأعتقد أنَّه سيتجاوز هذا.
مطَّ (نسيم) شفتيه، متمتمًا:
- أتعشَّم هذا.
نهض (فاي) جالسًا على طرف الفراش، والتقط قميصًا نظيفًا، وراح يرتديه في صمت، والطبيب يصف ما ينبغي فعله مع الإصابات، حتى انتهى من حديثه، وغادر المكان فالتفت (نسيم) إليه، قائلًا:
- بم تشعر الآن؟!

أجابه الشاب في اقتضاب:
- بالأسى.
لم يكن (نسيم) يتوقع هذا الجواب على الإطلاق؛ لذا فقد ارتفع حاجباه في دهشة، وهو يردِّد:
- الأسى؟!
ضمَّ الشاب قبضته، قائلًا في مرارة:
- لقد أفلتوا به.
ارتفع حاجبَا (نسيم) في دهشة، اختفت من ملامحه في سرعة، وهو يقول في حزمٍ:
- سنظفر بهم، ونستعيده بإذن الله.
ثم نهض، وربت على كتف الشاب، قائلًا:
- استرح قليلًا، ثم..
قاطعه الشاب في حزمٍ شديدٍ:
- كل دقيقة لها ثمنها يا سيدي.
انعقد حاجبَا (نسيم)، وهو يقول:
- الطبيب قال: إنَّه لن يمكنك الاستمرار هكذا.
شرد بصر الشاب، وقال:
- الأستاذ في خطر.
قال (نسيم) في حزمٍ:
- القتال بهذه الحالة كفيلٌ بقتلك.
صمت الشاب بضعَ لحظات، واصل خلالها شروده، قبل أن يقول:
- الحكمة القديمة قالت: من علمني حرفًا، صرت له عبدًا.
ثم التفت إلى (نسيم) مضيفًا:
- والعبد لا يقيم وزنًا لحياته، عندما يتعلق الأمر بسيده.
قال (نسيم) في حزم:

- الحر أيضًا يمكن أن يبذل حياته، من أجل أستاذه.
نهض الشاب، والتقط مسدسه الجديد، ودسَّه في حزامه، وهو يجيب:
- ولكن العبد لا يمتلك خيارًا آخر.
قالها على نحو أنبأ (نسيم) بأنه سيواصل القتال..
من أجل أستاذه..
حتى آخر نفس في صدره..
وآخر نقطة دم في عروقه..
لحظتها، وفي واحدة من المرات النادرة في حياته، اختلج قلب (نسيم) بين ضلوعه، وهو يتطلع إلى الشاب..
وفي أعماقه، شعر بالفخر؛ لأنه هو أيضًا أستاذ لذلك المقاتل الفذ..
شعر بكل الفخر..

☆ ☆ ☆

«هكذا يمكننا أن نؤكِّد أنَّ المصريين قد خسروا معركتهم..»
نطق (يازوسكي) العبارة في ظفر، وابتسامته تملأ وجهه كله، فتطلع إليه (راف) و(داي) في حذرٍ، وغمغم الأخير:
- هل تعتقد حقًّا أنَّ المصريين لن يمكنهم كشف المخبأ الجديد؟!
أجابه (يازوسكي) في سرعة وثقة:
- بالتأكيد.
ثم أشعل سيجارته، ونفث دخانها في بطء وعمق، قبل أن يستطرد بثقة أكبر:
- ليس في الوقت المناسب على الأقل.
ثم ألقى نظرة على ساعته، مضيفًا في صرامة:

- إنها الثانية والنصف صباحًا، أي التاسعة والنصف بتوقيت (القاهرة)، وهذا يعني أنَّ رئيسهم سيلقي خطابه بعد تسع ساعات ونصف من الآن، أمام مجلس الشعب هناك.
قال (راف) في توتر:
- ألا تبدو لك فترة طويلة للغاية، بالنسبة لعملية كهذه؟!
سأله في شراسة:
- ما الذي تلمِّح إليه بالضبط؟!
لوَّح (راف) بيده، قائلًا في حِدَّةٍ:
- من الواضح للأعمى أنَّنا نواجه اثنين من المحترفين، أحدهما خصمٌ قديمٌ مخضرمٌ لنا، ندرك إمكانياته جيدًا، ونعلم أنَّ الصراع معه ليس بالأمر الهين أو السهل، والثاني مقاتل شرس عنيد، كما وصفه سائقنا المحترف، وكما تؤكد دماء رجالنا، التي ترك بحرًا منها خلفه، والأسوأ أنَّنا نجهل كل شيء عنه، كما لو أنَّه قد نبت من العدم، ولم يكن له وجود من قبل، على الرغم من كل ما يبديه من قوة وحنكة ومهارة، وفي ظل هذه الظروف، تبدو لي الساعات التسع دهرًا لا نهاية له.
مطَّ (يازوسكي) شفتيه، وقال:
- تتحدَّث كما لو أنَّهم في الملعب وحدهم.
قال (راف) في صرامة:
- المفترض أن نراعي كل الاحتمالات.
أجابه (يازوسكي) في حزمٍ:
- ولقد فعلنا.
ثم نهض من مقعده، وراح يتحرَّك في المكان، مُحاوِلًا إخفاء توتره، وهو يتابع:
- لقد نجحنا في نقل الأسير من مخبأ توصلوا إليه، وهذه خطوة ناجحة، وبالغة الأهمية للغاية، والأكثر نجاحًا وأهمية وخطورة،

هو وضعه في مكان آخر، يصعب كشفه والوصول إليه، في الوقت المتاح لهم، وفي هذا السبيل، أعتقد أنَّنا قد أجدنا اللعبة.
غمغم (داني):
- طبقًا للقواعد، كان ينبغي أنَّ ننقله إلى مكان لا يثير الشبهات ولكن وضعه في مكتب (هارلم)، بكل ما يحيط به من حراسة، أشبه بإعلان صريح، لا ينقصه إلا النشر في الصحف.
أدار (يازوسكي) عينيه إليه، قائلًا في لهجة عجيبة، حملت نبرة ساخرة:
- أهذا رأيك؟!
أجابه (داني) في عصبية:
- أعلم أنَّك رئيسي يا أدون (يازوسكي)، ولكن هذا ما تقوله القواعد.
قال (يازوسكي)، بلهجة أكثر سخرية:
- القواعد التقليدية.. أليس كذلك؟!
انعقد حاجبَا (داني)، دون أن يجيبَ، في حين قال (راف) في حذر:
- هذا ما تعلَّمناه.
أجابه في سرعة وصرامة:
- وما تعلَّمه (نسيم) أيضًا، وما يعرفه كل رجل مخابرات في العالم، ويتصور استحالة مخالفته.
ثم فرقع سبابته وإبهامه، مضيفًا:
- وهنا تكمن العبقرية.
تبادل (داني) و(راف) نظرة صامتة، دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة، فتابع هو في حماس:
- المصريون يحاصرون (نيويورك)، منذ اختفى رجلهم للمرة الثانية في قلبها، ويدركون جيدًا أنَّه لم يغادرها، وأنَّه ما زال في مكان ما داخلها، وعلى الرغم من الوقت، الذي تريانه كبيرًا، فمن

المستحيل عليهم أن يفحصوا كل مكان يحتمل وجوده فيه، وليس أمامهم سوى التخمين والتفكير والاستنتاج، وعندما يبدؤون هذا، سيتبعون القواعد المعمول بها في عالمنا، وسيدفعهم هذا إلى استبعاد مكتب (هارلم)، الذي سبق لهم استبعاده بالفعل، في فرزهم الأول.

تبادَل الرجلان نظرة أخرى متوترة، قبل أن يتساءل (داني):

- وماذا لو كشف (نسيم) الأمر، كما فعل أمس؟!

أجابه في صرامة:

- لن يكون الوصول إلى رجلهم سهلًا، في ظل الحراسة القوية، التي نحيط بها مكتبنا في (هارلم).

قال (راف) في سرعة:

- وماذا لو نجحوا في هذا؟!

انعقد حاجبَا (يازوسكي) في غضبٍ، فاستدرك في توتر:

- ينبغي أن ندرس كل الاحتمالات.

ازداد انعقاد حاجبي (يازوسكي)، وهو ينفث دخان سيجارته في عصبية شديدة، قبل أن يقول:

- في هذه الحالة، سنلجأ نحن إلى تنفيذ القواعد التقليدية.

ازداد انعقاد حاجبى (يازوسكى) ، وهو ينفث دخان سيجارته فى عصبية شديدة ..

سأله (راف) في حذرٍ:
- أي بند منها؟!
أجابه في صرامة:

- ألا يستعيد الخصم رجاله أبدًا..
ثم بدا أشبه بوحش مفترس، وهو يضيف:
- إلا جثث هامدة.
ومرة أخرى، تبادل (داني) و(راف) نظرة صامتة..
ولكنهما فهمَا ما يعنيه رئيسهما هذه المرة..
فهمَا تمامًا.

☆ ☆ ☆

٨- أسلوبه..

لاذ الرئيس (السادات) بالصمت التام، على غير المعتاد، والصحفي الشهير (موسى صابر) يقرأ على مسامعه تلك الخطبة، التي سيلقيها في مجلس الشعب الليلة، حتى بلغ (موسى) تلك الفقرة، الخاصة بالجاسوس الإسرائيلي (إيليا)، فانعقد حاجبَا الرئيس، وأشار بيده في عصبية، جعلت الصحفي يسأله في قلق:

- هل ترغب في أن أعيدَ صياغة هذه الفقرة يا سيادة الرئيس؟!

ازداد انعقاد حاجبي الرئيس، وأشعل غليونه في صمتٍ، كعادته كلما أراد منح نفسه مهلة للتفكير، قبل إجابة سؤال ما، ثم لم يلبث أن قال في حزم:

- ضعها داخل برواز أحمر فحسب.

بدت الدهشة على وجه الصحفي الشهير، وهو يتساءَل:

- ولماذا يا سيادة الرئيس؟!

بدا له صوت الرئيس عصبيًا، وهو يجيب:

- ليس هذا من شأنك يا (موسى).. افعل ما أطلبه منك فحسب.

تضاعفت دهشة الصحفي، وهو يتطلَّع إلى الرئيس، الذي بدا له شديد التوتر، على غير المعتاد أيضًا، وأدرك بحسه الصحفي أنَّه وراء الأكمة ما وراءها، وأنَّ هناك أمرًا يتعلق بأمن الدولة، خاص بهذه الفقرة، ولا يريد الرئيس الإفصاح عنه في الوقت الحالي..

لذا فقد نهض، قائلًا:

- هل ترغب سيادتكم في تأجيل الأمر قليلًا؟!

أشار الرئيس بيده، قائلًا:

- لا بأس يا (موسى).. لا بأس.

غادر الصحفي المكتب في سرعة، ولم يكد يغلق الباب خلفه، حتى التقط الرئيس سماعة هاتفٍ خاصٍّ، يتصل بمدير المخابرات مباشرة، ولم يكد يسمع صوت هذا الأخير، حتى سأله في توتر شديد:

- إنها الحادية عشرة صباحًا يا (كمال).. أين رجالك الآن؟!

أجابه مدير المخابرات في توتر مماثل:

- ما زالوا يبحثون عن الهدف يا سيادة الرئيس.

صاح الرئيس في غضبٍ:

- ماذا أصابهم يا (كمال)؟!.. لقد أخبرتني أنَّهم أفضل من لديك.. هل سيخذلوننا أم ماذا؟!

قال مدير المخابرات في سرعة:

- إنه ليس بالأمر السهل يا سيادة الرئيس، والرجال يبذلون قصارى جهدهم بحقٍّ، ولم يذق أحدهم النوم، منذ بدأت هذه العملية.

صاح الرئيس:

- ومن ذاقه يا (كمال)؟ هل تتصوَّر أنني أستطيع النوم، وكرامة (مصر) كلها معرضة للخطر على هذا النحو؟!

كرَّر مدير المخابرات:

- الرجال يبذلون قصارى جهدهم يا سيادة الرئيس.

زفر الرئيس (السادات) في عصبية، وأغلق عينيه لحظة في توتر، قبل أنَّ يقول:

- أبلغني التطورات أولًا فأول يا (كمال).

غمغم مدير المخابرات:

- دون أدنى شك يا سيادة الرئيس.

أنهى الرئيس المحادثة، فتراجع مدير المخابرات في مقعده، وأغلق عينيه بدوره في قوة، وهو يقول لنفسه في عصبية:

- ترى أين أنتم الآن بالضبط يا رجال؟! أين؟!
نطقها، وأعماقه تحمل الكثير من القلق..
والتوتر..
والشعور بالخطر..
بلا حدود..

☆ ☆ ☆

التقى حاجبَا (نسيم) في شدة، وهو يمسك سماعة الهاتف، على نحو يوحي إليك بأنَّه سيعتصرها بين أصابعه، من شدة الغضب والانفعال، وهو يقول في حِدَّةٍ:
- ماذا تعني بأنَّه لا توجد إشارة واحدة إلى مكانه؟!.. ربما كان الإسرائيليون بارعون في هذا المضمار، ولكنهم ليسوا حواة أو سحرة، ولن يمكنهم إخفاؤه دون أدنى أثر.. هناك أمر ما يشير إلى وجوده حتمًا.. مخالفة مرور.. أثار إطار.. بصمة إصبع، أو حتى شاهد أعمى.. كل ما خبرته في حياتي يؤكد أنَّه هناك دليل أو أثر حتمًا.
واحتقن وجهه، وهو يستمع إلى محدثه مرة أخرى، قبل أن يهتف في غضب:
- لا أريد أية أعذار.. الوقت يمضي في سرعة.. إنها الرابعة والنصف صباحًا، والرئيس أمامه سبع ساعات ونصف فحسب، ليلقي خطابه الشهير، ولا يمكن أن نسمح لهؤلاء الأوغاد بمنعه من إعلان انتصارنا.. هل تفهم؟!
أنهى المحادثة في حِدَّةٍ، فسأله الشاب في هدوء لا يخلو من الحزم:
- ألم يعثروا عليه بعد؟!
هزَّ (نسيم) رأسه في عصبية، وهو يقول:

- يبدو أنَّ الإسرائيليين أجادوا اللعبة بشدة هذه المرة.. لقد اختفى (رفعت) داخل (نيويورك) تمامًا، دون أدنى أثر.
انعقد حاجبَا الشاب في شدة، وهو يقول:
- بالضبط.. هذا ما قلته لرجالنا منذ لحظات.
هزَّ الشاب رأسه هذه المرة، قبل أن يقول في حزم:
- كنت أقصدُ أنَّه من المستحيل أن نتوقف عند عقبة كهذه.
أجابه (نسيم) في صرامة:
- إنَّنا نبذل قصارى جهدنا.
أشار إليه الشاب، مجيبًا بنفس الحزم:
- بأسلوبكم.
انعقد حاجبَا (نسيم)، وهو يحدِّق فيه باستنكار، قائلًا:
- ماذا تعني؟! إنه أسلوبنا جميعًا.. هذا ما لقنه إياك (رفعت)، وما ألقنه إياك أنا.
قال الشاب في سرعة وحزم:
- وهناك ما تعلمتُه، في قوات الصاعقة.
ارتفع حاجبَا (نسيم) في دهشة، في حين انعقد حاجبَا الشاب، وهو يقول في عصبية:
- أظنني كنتُ في قوات الصاعقة.. أليس كذلك؟!
انطلقت عشرات الأفكار والذكريات العشوائية تعربد في عقله، وتنتشر كعاصفة من الثلج في عروقه، واتسعت عيناه على نحوٍ عجيب، وكأنَّما يريان أمامهما شريطًا متقطعًا لحياة قديمة..
الصحراء..
(سيناء)..
المظلة لم تنفتح..
لم تنفتح..
لم تنفتح..

السقوط..
ثم امتزجت الصور كلها..
وارتبكت..
و..
«بلى..»
نطق (نسيم) الجواب، لينتزعه من بحر ذكرياته المتلاطم بغتة، فأدار عينيه إليه، وهتف:
- حقًا؟!
لم يدر (نسيم) حتى هذه اللحظة، لماذا أجاب سؤال الشاب بالإيجاب؟!
لماذا أفصح له عن جزء من ذاكرته، على الرغم من أنَّ كل الأوامر كانت تُحتِّم إخفاء ماضيه تمامًا، منذ أن ألحقه (رفعت) بخدمة جهاز المخابرات العامة ([11]) ؟!
لماذا؟!
ربما لأنَّ الموقف كله كان يدفعه إلى هذا..
أو لأنَّه شعر، في تلك اللحظات بالذات، أنَّه من حقِّ الشاب أن يعلم..
وأن يدرك شيئًا عن ماضيه..
وهويته..
وحقيقته..
ربما..
ولقد حدَّث الشاب في وجهه بضع لحظات في دهشة شاردة، قبل أن ينعقد حاجباه في حزمٍ صارمٍ، وهو يقول:
- كنتُ أعلم هذا.
ثم صمت لحظة، وأضاف في صرامة عجيبة:

- ولكن هذا لا يهم الآن، على أية حال.
سأله (نسيم)، في لهجة بدت له حذرة أكثر مما ينبغي:
- ماذا يهم إذن؟!
رفع إليه عينين، حملتَا كل حزم الدنيا وصرامتها، أجاب الشاب:
- الأستاذ.
قالها، وانتزع مسدسه من حزامه، وجذب مشطه، ثم تركه يرتد بذلك الصوت المعدني، قبل أن يدسه في حزامه، ثم يشد قامته في وقفة عسكرية حازمة، قائلًا:
- سيدي.. أطلب الإذن بالانصراف.
سأله (نسيم) في توتر:
- إلى أين؟! أعني ماذا تنوي أن تفعل بالضبط؟!
صمت الشاب بضع لحظات، قبل أن يجيب في حزم:
- سأجرِّب أسلوبي يا سيدي.
ردَّد (نسيم):
- أسلوبك؟!
نطقها بتساؤلٍ خاوٍ، لم يحمل رنة دهشة أو استنكار..
تساؤل رجل يعرف ما الذي يتحدث عنه..
ولا يحتاج فعليًّا لجواب..
ولثوانٍ، لم ينبس الشاب ببنت شفة..
وكذلك معلمه..
ثم أشار (نسيم) بيده، قائلًا بصوت خافت:
- اذهب.
اتسعت عينا (طارق) في دهشة، وهو ينقل بصره بينهما، في حين تألقت عينا الشاب في ارتياح ظافر، وهو يقول في اقتضاب:
- أشكرك يا سيدي.
ثم اندفع نحو الباب، فاستوقفه (نسيم)، قائلًا في حزم:

- ابق على اتصال.
أجابه في حزم:
- دائمًا.
ثم أغلق الباب خلفه، في سرعة وخفة، فهتف (طارق) في دهشة، تحمل رائحة الاستنكار:
- سيدي.. هل ستتركه يعمل وحده هكذا؟!
أجابه (نسيم) في صرامة:
- لقد قمت بتدريبه بنفسي.
هتف (طارق):
- ولكن من الواضح أنَّه لن يلتزم بما تعلمه، وأنَّه بصدد القيام بمناورة شخصية، لا أحد يدري عواقبها بالضبط.
تطلَّع (نسيم) بضع لحظات، إلى الباب الذي انصرف منه (فاي)، قبل أن يدير عينيه إلى (طارق)، قائلًا في حزم:
- نفس ما كنت سأفعله، في مثل سنِّه.
واختلج قلبه مع شفتيه، وهو يضيف:
- بالضبط..

☆ ☆ ☆

مطَّ (درو) شفتيه في عصبية، وهو يغادِر قسم الشرطة، بصحبة (دافيد) و(موشي)، ولم يكد يبلغ سيارتهما، حتى لوَّح بذراعه، هاتفًا في حِدَّةٍ:
- ماذا دهاكما.. أكان من الضروري أنَّ أنتظر حتى الخامسة صباحًا، حتى يتم دفع الكفالة وإطلاق سراحي؟! أنتما تعلمان كم أكره البقاء في أقسام الشرطة.
قال (موشي) في صرامة، وهو يحتل مقعد القيادة:
- إنها ليست مدينة ملاه يا صاح.. لقد اضطررنا لإيقاظ القاضي (ديلون) من نومه، وانتزاعه من بين أحضان زوجته.

ليقرر الكفالة ، هل تعلم كم سيكلفنا دفع الكفالة؟.
صاح مستنكرًا، وهو يحتل المقعد الخلفي مع (دافيد):
- يكلفكم؟! هل تتحدث عن النقود؟! إنَّنا نجازف بأرواحنا يا هذا، ثم إن ميزانية عملنا ضخمة كما تعلم، و...
قاطعه (موشي) في غضب:
- اصمت يا (درو)، وإلا أعدتك إلى قسم الشرطة فورًا.
صاح به (درو) في حِدَّةٍ:
- لا تحاوِل تهديدي يا هذا، وإلا..
قبل أن يتم عبارته، أو يضغط (موشي) دواسة الوقود، انفتح الباب المجاور ل(دافيد) في حركة حادة، واندفعت عبره قبضة كالقنبلة، حطمت فك هذا الأخير بلكمة مباغتة، مع صوت صارم يقول:
- اترك لي مسألة التهديد هذه.
اندفع (دافيد) إلى اليسار، مع عنف اللكمة، وتفجرت الدماء، مع زوج من الأسنان، من بين شفتيه، وهو يرتطم بزميله (درو)، فقفزت يد (موشي) إلى مسدسه المعلق تحت إبطه بحركة سريعة، هاتفًا:
- ال...
قبل أن يكمل هتافه هذا، كان (فاي) قد اندفع داخل السيارة، وهوى على أنف (درو) بضربة قوية من مسدسه، هشمت الأنف، وضربت رأس صاحبه بالزجاج المجاور في عنف، قبل أن تتحرك فوهة المسدس الباردة في سرعة مدهشة، لتلتصق بمؤخرة عنق (موشي)، في قسوةٍ وعنفٍ، والشاب يقول بالعبرية في صرامة:
- إيَّاك حتى أن تحاوِل.

تجمَّدَت أصابع (موشي)، على مسدسه، ورفع عينيه إلى مرآة السيارة، ليلقي نظرة على وجه الجالس خلفه، وهو يتمتم بصوت مبحوح:

- هو أنت إذن؟!

كان الشاب يحيط وجهه بقناع بسيط من الصوف، يبرز عينيه وحدهما، اللتين أطلت منهما مع صوته صرامة مخيفة، وهو يقول بلهجة آمرة:

- انطلق.

قال (موشي) في عصبية، وهو يجذب مسدسه في حذر:

- ألَا تدرك أنَّنا أمام قسم الشرطة، و...

قاطعه الشاب بضربة عنيفة على رأسه، ثم مال وانتزع مسدسه من بين أصابعه في قوة، وألقاه عبر نافذة السيارة، مُكرِّرًا:

- انطلق.

قاطعه الشاب بضربة عنيفة على رأسه ، ثم مال وانتزع مسدسه من بين أصابعه فى قوة ..

كان رأس (موشي)، وعيناه تختفيان خلف غمامة ألم ذاهلة، إلا أنَّ تلك الصرامة الشديدة في صوت الشاب، جعلته يضغط دواسة الوقود، وينطلق بالسيارة، وهو يسأل في عصبية:

- إلى أين؟!
أجابه الشاب في سرعة:
- إلى مكتبكم في (بروكلين).
قال (موشي) في دهشة:
- ولكنَّه خالٍ تمامًا الآن، بعد ال..
قاطعه الشاب في صرامة:
- أعلمُ هذا.
لم يستطع (موشي) استيعاب الأمر، وهو ينطلق بالسيارة في عصبية، وفوهة مسدس الشاب تلتصق بمؤخرة عنقه في قسوة..
أما الشاب، فلم ينطق بحرف واحد طوال الطريق..
ولا ريب في أن ألف فكرة وفكرة قد راودته للفرار..
ولكن فوهة المسدس الباردة، التي تكاد تنغرس في مؤخرة عنقه، كانت تند تلك الأفكار واحدة بعد الأخرى..
حتى توقفت السيارة أمام مكتب (بروكلين)، في الخامسة والنصف صباحًا..
وفي حزم، غادر الشاب السيارة، وقال ل(موشي) في صرامة:
- احمل رفيقك.
سأله الإسرائيلي في عصبية:
- أيهما؟!
أجابه بنفس الصرامة والاقتضاب:
- اختر.
مال (موشي) ليحمل (درو) على كتفيه..
أو أنَّه تظاهر بهذا..
ثم تحرَّك فجأة، ودار على عقبيه في خفة مدهشة، ارتفعت معها قدمه بركلة قوية، لتضرب مسدس (فاي)..
ولكن الشاب كان مُدرَّبًا بحق..

وعلى يد اثنين من أعظم الخبراء في عالم المخابرات..
(رفعت)..
و(نسيم)..
لذا، فقد تراجع بخفة وسرعة، ومال برأسه ومسدسه إلى الخلف، متفاديًا ركلة (موشي) وانقضاضته..
ثم اندفع إلى الأمام في رشاقة، ولكم الإسرائيلي في معدته بكل قوته، على نحو انثنى معه الرجل في ألم، قبل أن يتلقى فكُّه لكمة كالقنبلة، ألقته فوق زميليه، على المقعد الخلفي..
ولكنه لم يفقد الوعي..
لقد دار رأسه بعنف فحسب، وحاوَل أن ينهض في صعوبة، ولكن (فاي) مال نحوه، وجذبه من رباط عنقه في قسوة شديدة، قائلًا:
- اسمع أيُّها الوغد.. الوقت أضيق من أضيعه معك.. وأية محاولة تالية سأواجهها بعنف لن يمكنك تصوره.. هل تفهم؟!
أومأ (موشي) برأسه إيجابًا، دون أن ينبس ببنت شفة، وهو يلهث في شِدَّةٍ، فتراجع الشاب، قائلًا في صرامة:
- هيا.. احمل أحد رفيقيك.
قاوَم (موشي) الدوار الذي يحيط برأسه، وحمل (درو) على كتفيه، ووقف إلى جوار السيارة، يقول في عصبية:
- والآن ماذا؟!
صوَّب إليه (فاي) مسدسه، وهو ينحني ليجذب (دافيد) ثم رفعه بذراعٍ واحدة ليلقيه على كتفه، على نحو اتسعت له عينا (موشي) في دهشة، وجعله يتمتم:
- إنَّك.. إنَّك..
قاطعه (فاي) في صرامة:
- هيا بنا.

تقدم (موشي) بحمله نحو المبنى، وهو يقول:
- الأمر لن يمضي بهذه البساطة.. هناك حارس للمبنى، وبوابته من زجاج مضاد للرصاص، و..
قاطعه في صرامة شديدة:
- اصمت.
انعقد حاجبَا (موشي) في عصبية، وواصَل طريقه حتى البوابة، وأشار من خلف زجاجها إلى الحارس، الذي نهض من خلف مكتبه، واتَّجه نحوه، و..
«ربَّاه!.. إنه ليس (جورج)!»
هتف (موشي) بالعبارة في ذهول، وهو يحدِّق في وجه الشاب، الذي يرتدي ثياب حارس المبنى، والذي فتح البوابة بابتسامة ساخرة، قائلًا:
- هل أدهشَتْكَ رؤيتي أيُّها الوغد؟!
حدَّق (موشي) في وجهه مرة أخرى، وهو يغمغم:
- أين (جورج)؟!
تبادَل الشاب ابتسامة وتحية سريعة بالأصابع مع (فاي) قبل أن يقول:
- آهٍ.. أتقصد ذلك الأحمق البدين، الذي يعمل لحسابكم؟!.. إنَّه يرقد فاقد الوعي في المخزن الخلفي.. ولكن اطمئن.. إنَّه لن يستعيد وعيه قبل فترة طويلة.
دفع (فاي) (موشي) أمامه في قسوة، قائلًا:
- تحرَّك.. ليس لدينا الليل بطوله.
اتجهوا جميعًا نحو المصعد، وقال الشاب، الذي ينتحل شخصية الحارس، بابتسامة كبيرة:
- بلِّغ تحياتي للقائد.
أجابه الشاب في صرامة حازمة:

- إنَّه لا يعلم شيئًا عن هذا.
انتفض جسد الحارس في عنفٍ، وهو يهتف في ذهول:
- لا يعلم ماذا؟!
أشار إليه (فاي) قائلًا وهو يدفع (موشي) بحمله داخل المصعد:
- ستفهم كل شيء فيما بعد.
حملهم المصعد إلى الطابق العاشر، ولم يكد يستقر بهم المقام داخل مكتب (الموساد) الخالي، الذي ما زال يحمل آثار القتال، ودماء المصابين، وجثة الكلب الصريع، حتى قال (فاي) في صرامة:
- قيِّد زميليك وكمِّم فمهما جيدًا، وبمنتهى الإحكام، فلست أحبهما أن يضيعَا وقتنا، عندما نبدأ حديثنا.
كان الغضب يشتعل في كل ذرة من كيان (موشي)، إلا أنَّه لم يملك سوى طاعة الأمر، فقيَّد زميليه وكمَّمهما في إحكام، قبل أن يلتفت إلى (فاي)، متسائلًا في عصبية:
- والآن ماذا؟!
سدَّد إليه الشاب مسدسه، وهو يقول في صرامة:
- الآن ستجيب أسئلتي.
قال (موشي) في حِدَّةٍ:
- لن أجيب أية أسئلة.
تجاهَل الشاب هذا التعليق، وهو يسأل بنفس الصرامة:
- أين رجلنا؟!
قال (موشي) في صرامة مماثلة:
- قلت: لن أجيب أية أسئلة.
انعقد حاجبَا الشاب، على نحوٍ مخيف، وهو يقول:
- وأنا أخبرتك من قبل أنني لست مستعدًّا لإضاعة لحظة واحدة.. هل تفهم هذا؟! أم أنَّك تحتاج إلى توضيح.

قال (موشي) في سخرية عصبية:
- بل أحتاج إلى توضيحٍ كبيرٍ، و..
قبل أن يتم عبارته، ضغط الشاب زناد مسدسه المزود بكاتم للصوت..
وانطلقت رصاصته..
وفي ألم ذاهل غاضب مستنكر، صرخ (موشي)، عندما اخترقت الرصاصة ذراعه اليسرى، وتفجَّرت معها عاصفة من الدم:
- لا..
ازداد صوت الشاب صرامة وغضبًا، وهو يقول:
- أين الأستاذ؟!
صاح (موشي) في غضب:
- فلتذهب وأستاذك إلى الجحيم.. إنَّك لن تحصل مني على حرفٍ واحدٍ..
ضغط الشاب زناد مسدسه مرة أخرى..
وانطلقت رصاصة ثانية، اخترقت فخذ (موشي) هذه المرة، فصرخ، وهو يسقط أرضًا:
- أيُّها المصري ال..
جذبه الشاب من قميصه فجأة في عنف، فابتلع كلماته مع آلامه، والتقت عيناه بعيني (فاي) الغاضبتين الصارمتين، وهو يقول:
- اسمع أنت أيُّها الإسرائيلي الحقير.. لقد اختطفتم أستاذي، وآذيتم شعبي طويلًا وكثيرًا، ولقد واجهتكم في كل ميدان، وانتصرت عليكم في كل جولة، وفي هذه الجولة بالذات، أُصرُّ على النصر التام، دون أية خسائر؛ لذا فإما أن تخبرني أين الأستاذ، أو لن أتورَّع عن تمزيقك إربًا، قطعة قطعة، حتى أحصل على الجواب، أو تهلك دونه؟!

صاح (موشي) في حِدَّةٍ:
- يا للشجاعة! أهذا ما تتفاخرون به أيُّها العرب؟! أتطلق النار على رجلٍ أعزل.
أجابه الشاب في صرامة:
- أنت بالذات لا تتحدث عن إطلاق النار على العزل، يا (موشي)، فالدماء البريئة، التي أرقتَها في حياتك، تكفي لإغراق ملفكَ كله في بحرٍ أحمر بغيض.. أرواح النساء والأطفال والشيوخ العزل، الذين ذبحتَهم بلا رحمة، وعذَّبتَهم حتى الموت، في سجونكم القذرة، تصرخ في كل لحظة مطالبة بالثأر.
وانعقد حاجبَاه، على نحو تجمَّدت له الدماء في عروق رجل المخابرات الإسرائيلي، وهو يضيف:
- وهذا ما عاهَدت نفسي على فعله، منذ لمحت وجهك في هذه العملية.
وارتجف (موشي)، من قمة رأسه، وحتى أخمص قدميه، عندما أكمل الشاب، بكل غضب وصرامة الدنيا:
- والآن، للمرة الأخيرة.. أين الأستاذ؟!
انفرجت شفتَا (موشي)، على نحوٍ يوحي بأنَّه سيجيب التساؤل هذه المرة، إلا أنَّ تألقًا مباغتًا فيهما جعل الشاب ينتبه إلى أنَّ شيئًا ما يحدث خلفه..
شيء ليس في صالحه..
أبدًا..
أضِف إلى هذا ذلك الصوت الخافت للغاية، الذي التقطته أذناه في اللحظة نفسها، والذي يوحي بأن بعضهم يتسلل خلفه، في خفةٍ وحذرٍ، و..
وقفز الشاب من مكانه..
ودار حول نفسه بسرعة..

ولكنها لم تكن بالسرعة الكافية..
فقبل أن تكتمل استدارته، هوَت على رأسه ضربة..
ضربة عنيفة..
عنيفة للغاية، حتى أنَّه سمع معه صوت شيء يتحطم..
وفي اللحظة نفسها، انقض عليه شخص قوى، ضخم الجثة، مفتول العضلات..
وكانت الانقضاضة أيضًا عنيفة..
للغاية..

☆ ☆ ☆

٩- عقل بعقل..

لنصف ساعة كاملة، لم يتحرك (نسيم) حركة واحدة، حتى لقد بدا أشبه بتمثال من الرخام، وهو يجلس أمام النافذة الكبيرة، المطلة على ميدان كبير، من ميادين (نيويورك)، وقد انعقد حاجبَاه، وبدت عليه علامات التفكير العميق..

وطوال تلك الفترة، لم ينبس (طارق) ببنت شفة، وهو يراقب رجل المخابرات المخضرم، ثم لم يلبث أن غمغم:

- هل توصَّلت إلى شيء يا سيدي؟!

استدار إليه (نسيم) في بطء، وتطلع إليه لحظة، وكأنَّما يراه لأول مرة، ثم لم يلبث أن قال في شرود:

- ليس بعد.

واعتدل مع قوله، وبدا وكأنه قد نَفَضَ شروده كلَّه دفعة واحدة، وهو يقول في حزمٍ:

- (يازوسكي) ليس غبيًّا، والإسرائيليون لم ينتخبوه لقيادة هذه العملية عبثًا.. إنَّه واحد من أكبر ثعالبهم وأكثرهم خبرة وحِنكة، وهو يجيد القواعد، بأفضل مما يجيد معرفة أبنائه.

غمغم (طارق):

- هذا واضح، بدليل عجزنا عن العثور على السيد (رفعت)، حتى هذه اللحظة، لقد نجح في إخفائه بمهارة فائقة.

نهض (نسيم) من مقعده، واستعاد شروده، وهو يجول في الحجرة، قائلًا، وكأنَّه يحدِّث نفسه:

- (رفعت) لم يغادر (نيويورك) منذ تم نقله من مكتب (الموساد) في (بروكلين)، و(يازوسكي) لم يغادر مسكنه، منذ اللحظة

نفسها.. إذن فهو واثق تمامًا من أنَّ أسيره في مكان آمن، لا يمكن أن يخطر ببالنا أبدًا.. أين هذا المكان إذن؟! أين؟!
سأله (طارق) في حذر:
- هل تعتقد أنَّ ذلك الشاب يمكنه التوصل إليه؟!
استدار إليه (نسيم) في حركة حادة، وانعقد حاجبَاه في حزمٍ عجيبٍ، وهو يقول في سرعة:
- ولِمَ لا؟!
ألقى (طارق) نظرة على ساعته، قائلًا:
- لقد انصرف منذ ما يقرب من الساعة.
قال (نسيم) في عصبية:
- وماذا إذن؟!
أجابه (طارق) في سرعة:
- ولم يجرِ أي اتصالٍ بنا بعد.
انعقد حاجبَا (نسيم) في شدة، وهو يغمغم:
- أنت على حق.
ثم التقط جهاز الاتصال الخاص المحدود، وهو يكمل:
- المفترض أنَّه يستخدم جهاز الاتصال طوال الوقت.
وضغط الزر، قائلًا:
- من العش إلى الخفاش الليلي.. حدِّد موقعك وموقفك الآن.. أُكرِّر.. من العش إلى الخفاش الليلي..
راح يكرِّر النداء مرة..
وثانية..
وثالثة..
ورابعة..
ثم خفق قلبه في عنف، وهو يكرِّره للمرة الخامسة..
ففي كل المرات، كان الجهاز يعلن إتمام الاتصال..

ولكّن ما من مجيب..
على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

«استيقظ يا رجل.. استعد وعيك.. هيا..»
تسلل الهتاف إلى أذني (فاي)، وسط ظلام عميق، فأيقظ عقله، دفعة واحدة، وجعله يفتح عينيه عن آخرهما، ويحدِّق في وجه زميله الشاب، الذي ينتحل هيئة حارس البناية، قبل أن يعتدل جالسًا فجأة، وهاتفًا:
- أين أنا؟! ماذا حدث؟!
تراجع زميله في توتر، وهو يشير بيديه لما حوله، قائلًا:
- أخبرني أنت ماذا حدث؟!
أدار الشاب عينيه فيما حوله، قبل أن ينعقد حاجبَاه في شدة، وهو يلقي على نفسه السؤال ذاته..
ماذا حدث؟!
فعلى بُعد أمتار قليلة منه، كان (موشي) ملقى على وجهه، والدماء تنزف من ثقب في رأسه، وعند قدميه سقط رجل ضخم الجثة، مفتول العضلات، وقد تهشَّم أنفه على نحو بشع، وأغرق وجهه كله بالدم..
وفي المواجهة، كان (درو) و(دافيد) ما زالا مقيدين ومكمَّمين على مقعدين متجاورين..
وفي لحظة واحدة، وقبل حتى أن يكتمل المشهد، استعاد الشاب ما حدث دفعة واحدة..
وبكل التفاصيل..
فمع الضربة التي تلقاها على رأسه، والتي حطمت جهاز الاتصال، انقض عليه (موشي)، صارخًا:
- خَسِرتَ أيُّها المصري.

ومع انقضاضته، هاجَم ذلك الضخم أيضًا، وهوى بلكمة قوية على فك الشاب..
كان رأسه يدور في عنف..
وكانت عيناه تميزان ما أمامهما في صعوبة، مع الغشاوة التي تحجبهما..
ولكن غريزته كانت تعمل بكفاءة..
غريزة المقاتل..
المحترف..
فدون وعي تقريبًا، انحنى متفاديًا لكمة الضخم، ورفع ساعده يتلقى ضربة (موشي)، الذي راح يصرخ:
- اقتله يا (باري).. اقتله.
مال الشاب جانبًا، ودار على عقبيه، لِيلكُم الضخم في معدته بكل قوته، ولكن (موشي) تعلق بعنقه، صارخًا:
- لن تفلِت أيُّها المصري.
كان القتال غير متكافئ على الإطلاق، وخاصة عندما انتزع الضخم من حزامه مسدسًا قويًا، وصوَّبه إليه، هاتفًا:
- إنَّها محطته الأخيرة.
التقطت عيناه فوهة المسدس..
ورصد عقله تلك الوحشية الشرسة، المطلة من عيني خصمه..
وتحرَّك جسده..
وانطلقت غريزة المقاتل في أعماقه..
وفي سرعة، انحنى إلى الأمام، وحمل (موشي) على ظهره، ثم ألقاه نحو ذلك الضخم بكل قوته..

وفى سرعة ، انحنى إلى الأمام ، وحمل (موشى) على ظهره ، ثم ألقاه نحو ذلك الضخم بكل قوته ..

وفي اللحظة نفسها، انطلقت الرصاصة..
وجَحَظَت عينا (موشي)..
ثم سقط جثة هامدة..

واتسعت عينا الضخم، وهو يهتف:
- لا.. (موشي).. مستحيل!
لم تكن كلماته قد اكتملت بعد، عندما تحرَّك الشاب، بكل ما تبقى له من قوة ووعي، ووثب وثبة مدهشة، دار خلالها حول نفسه، ثم ركل الضخم ركلة كالقنبلة، في أنفه مباشرة، أطاحت به، لِيسقط إلى جوار جثة (موشي)..
وعندئذ..
عندئذ فقط، نَفَدَتْ قوى الشاب عن آخرها..
وهوى..
و..
«كم الساعة الآن؟!»
ألقى الشاب سؤاله، في لهجة أقرب إلى الفزع، وهو يهب من مكانه، فاجأبه زميله في توتر:
- إنَّها السادسة والنصف.. لقد تأخرت كثيرًا وهذا ما دفعني للصعود، و..
قاطعه الشاب بصيحة هادرة:
- السادسة والنصف؟! يا إلهي! لقد أضعت وقتًا ثمينًا.
قال زميله في دهشة:
- أضعت ماذا؟! لقد كنت فاقد الوعي يا صاح.
هتف به:
- هذا لا يعني أحدًا.. مهما كانت المبررات، فقد أضعنا وقتًا ثمينًا.
ثم أدار عينيه فيما حوله، قبل أن يهتف بلهجة آمرة:
- أحضِر بعض الماء البارد.
تحرك زميله لتلبية مطلبه، وهو يسأله في قلق:
- ماذا ستفعل؟!

انحنى وهو يجذب الضخم، مجيبًا:
- سأوقظ هذا الوغد.
كانت دفعة المياه المثلجة كافية، لينتفض الضخم في عنف، ثم يطلق شهقة مختنقة، وهو يفتح عينيه عن آخرهما، ويحدِّق في وجهي الرجلين، قبل أن يقول في خشونة عصبية:
- من أنتما؟!
أجابت فوهة المسدس الباردة، الملتصقة بعنقه سؤاله، وأنعشت ذاكرته، وهو يحدِّق في جثة (موشي)، الملقاة على مسافة متر واحد منه، فهتف:
-إنَّكما مصريان.
أجابه (فاي) في صرامة:
- هذا صحيح أيُّها العبقري.. والآن، وبعد أنَّ تعارفنا، أريد منك أنَّ تجيب سؤالًا مباشرًا.
ثم مال نحوه، وتطلع إلى عينيه مباشرة، وهو يسأل:
- أين الأستاذ؟!
ازدرد الضخم لعابه في صعوبة، وهو يقول بصوت مبحوح:
- أي أستاذ؟!
جذب رجل المخابرات مشط مسدسه، وهو يقول في صرامة:
- يبدو أنَّه يحتاج إلى عقار ينعش ذاكرته، ولدي هنا نوع خاص منه، من عيار تسعة ملليمترات.. يلوح لي أنني سأضطر لحقنه به.
اتسعت عينا الضخم، وهو يهتف:
- لا.. أرجوك.. لا..
ثم سقط على ركبتيه، وبدا مظهره عجيبًا، وهو يتوسل:
- سأخبركما بكل ما تريدانه، ولكن لا تقتلاني.. أرجوكما.. أ...

وفجأة بتر عبارته، وانقضَّ على رجل المخابرات المصري، وتعلق بعنقه، وهو يطلق ضحكة وحشية مجلجلة، صارخًا:
- خدعتكما أيُّها المصريين.
جحظت عينا رجل المخابرات المصري، والأصابع الفولاذية تنغرس في عنقه، في حين وثب الشاب نحو الإسرائيلي الضخم، وهي على مؤخرة عنقه بلكمة كالقنبلة، هاتفًا:
- اتركه أيُّها الوغد.. اتركه..
ولكن الأصابع الضخمة انغرست في عنق رجل المخابرات أكثر..
وأكثر..
وأكثر..
وبكل قوته، جمع (فاي) قبضتيه، وهوى بهما على مؤخرة عنق الضخم، الذي أطلق خوارًا كالثور..
ثم سقط..
وسقط معه رجل المخابرات..
وفي سرعة وارتياع، انحنى (فاي) يفحص زميله، الذي جحظت عيناه عن آخرهما، ثم عض شفتيه في أسى ومرارة، وهو يسبل الجفنين المتورمين، قبل أن يستدير والغضب يعصف بنفسه، ومشاعره كلُّها تشتعل في عنف، وجذب الضخم الفاقد الوعي من سترته في حِدَّةٍ، وكاد يطلق النار على رأسه، ثأرًا لزميله القتيل، و..
ولكن صرخة من عقله أوقفته..
وجمَّدت أصابعه على زناد مسدسه..
ولثوانٍ، ظل يحدِّق في الإسرائيلي الضخم، في صمتٍ تامٍّ..
ثم برزت في ذهنه فكرة جديدة..
ومفيدة..
للغاية..

☆ ☆ ☆

تحرَّك مدير المخابرات المصري بخطوات واسعة سريعة، عبر حديقة منزل الرئيس (السادات)، الذي بدا شديد التوتر والعصبية، وهو ينفث دخان غليونه، على مقعده المفضل بالحديقة، ولم يكد يلمح مدير المخابرات، حتى سأله في لهفة:

- ما موقف رجالك يا (كمال)؟!

هزَّ مدير المخابرات رأسه في توتر، وهو يجيب:

- ليس جيدًا يا سيادة الرئيس.

انعقد حاجبَا الرئيس (السادات)، وهو يقول في عصبية:

- هل خَذَلَنا رجالُك يا (كمال)؟!

صمت مدير المخابرات بضع لحظات، قبل أن يجيب:

- لو أنَّ هذا حدث، فلن يكون بإرادتهم يا سيادة الرئيس.

هزَّ الرئيس رأسه في قوة، قائلًا:

- وما الفارق؟!

ثم نهض من مقعده في حِدَّةٍ، مستطردًا:

- لقد خسرنا في كل الأحوال.

قال مدير المخابرات في حزمٍ:

- ليس بعد يا سيادة الرئيس.. إنَّها الرابعة والنصف الآن، وخطاب سيادتكم في السابعة، وما زالت أمامنا ساعتان ونصف الساعة، و..

قاطعه الرئيس في غضب:

- وماذا يا (كمال)؟! لقد عجزوا عن تنفيذ المهمة طول كل الوقت الماضي، فما الذي يدعونا للاعتقاد في أنَّهم سينجحون في هذا، خلال ساعتين ونصف فحسب؟!

أجاب مدير المخابرات في حزمٍ:

- الذي يدعونا إلى هذا هو أنَّ كلينا مقاتل سابق يا سيادة الرئيس، ويعلم جيدًا أنَّ المعارك قد تنقلب رأسًا على عقب، في

لحظاتها الأخيرة.
صمت الرئيس بضع دقائق، نفث خلالها دخان غليونه في بطء، قبل أن يغمغم:
- أنت على حق.
وصمت لحظة أخرى، ثم سأل بلهجة قوية واثقة، وكأنَّما استعاد حماسه كله دفعة واحدة:
- ما الموقف بالضبط هناك؟!
شدَّ مدير المخابرات قامته، وهو يجيب:
- الإسرائيليون نقلوا (رفعت) إلى مكان مجهول، ولقد خرج (فاي) للبحث عنه، ولكنه اختفى، وانقطع الاتصال به تمامًا، حتى أنَّ (نسيم) قد خرج للبحث عنه، و..
قاطعه الرئيس في صرامة:
- للبحث عنه أم عن (رفعت):
- أجابه مدير المخابرات:
- إنه يعتقد أنَّ الهدفين لهما سبيل واحد يا سيادة الرئيس.
صمت الرئيس لحظة، قبل أن يقول:
- ربما.
ثم ألقى نظرة على ساعته، وأضاف في حزم:
- ليس أمامنا إذن سوى الانتظار.. والدعاء.
وعاد ينفث دخان غليونه..
في عمقٍ..

☆ ☆ ☆

انتفض الإسرائيلي الضخم في عنف، وفتح عينيه عن آخرهما، وحدَّق في جثتي (موشي) ورجل المخابرات المصري، قبل أن يخترق أذنيه صوت (دافيد) وهو يهتف:
- (باري).. استيقظ يا رجل..

أدار عينيه إلى (دافيد) و(درو)، المقيدين إلى مقعديهما، ولاحظ أنَّ الأول قد أزاح كمامته عن فمه، وهو يكمل في عصبية:
- هيا يا رجل.. أسرِع.. حل قيودنا.. هيا.
نهض (باري) في سرعة، وأسرع يحل قيودهما فسأله (درو) في حِدَّةٍ:
- من قتل (موشي)؟!
انعقد حاجبا (باري) لحظة، قبل أن يجيب في عصبية:
- ذلك المصري حتمًا.
ثم استدرك، في شيء من الزهو:
- ولكنني قتلت زميله.
حدَّقَا في جثة رجل المخابرات المصري، قبل أن يلقي (دافيد) نظرة سريعة على ساعته، ويهتف:
- إنَّها التاسعة وخمسون دقيقة.. لقد أضعنا وقتًا طويلًا بالفعل.
قال (درو) في عصبية، وهو يتلفت حوله:
- ترى أين ذلك المصري؟!
أجابه (باري) في توتر:
- من المؤكد أنَّه قد رحل، ليواصِل بحثه عن رجلهم.
غمغم (درو):
- بالتأكيد.
ثم أشار بيده، وهو يندفع نحو الهاتف، مستطردًا:
- ولا بد وأن نشرح لأدون (يازوسكي) كل ما حدث.
ضرب أزرار الهاتف في سرعة متوترة، ولم يكد يسمع صوت رئيسه، حتى قال في انفعال:
- أدون (يازوسكي).. أنا (درو).
هتف به (يازوسكي) في غضب:
- أين أنت يا (درو)؟! إنَّنا نبحث عنكم منذ ساعات.

أجابه (درو) في سرعة:
- لقد حدثت تطورات كثيرة يا أدون (يازوسكي).
انعقد حاجبا (يازوسكي) في شدة، وهو يستمع إلى ما يرويه (درو)، واحتقن وجهه كثيرًا، مع ذلك الغضب، الذي تصاعد في أعماقه، قبل أن يقول في عصبية:
- ماذا تعني بأنَّه قد اختفى؟! ليس من المنطقي أن يفعل هذا.. لقد بذل ذلك المصري كل الجهد، حتى يظفر بكم، ولن ينسحب بهذه البساطة، وخاصة بعد أن لقي زميله حتفه.
قال (درو) في انفعال:
- ربما عرف شيئًا من (باري)، وانطلق إليكم في (هارلم)، و..
قاطعه (يازوسكي) في حِدَّةٍ:
- أيُّها الغبي.
احتقن وجه (درو)، وهو يقول في توتر:
- ماذا فعلت؟!
أجابه في غضب هادر:
- نطقت بما لا ينبغي أن تنطق به.
ثم استطرد في صرامة آمرة:
- أغلق الهاتف، وغادر مكتب (بروكلين) فورًا، مع (دافيد) و(باري).
سأله (درو) في حذر:
- هل نأتي إليك في..
قاطعه في حِدَّة غاضبة:
- إيَّاك أن تكرِّرها أيُّها الغبي.
احتقن وجه (درو) أكثر، وهو يغمغم:
- كما تأمر يا أدون (يازوسكي).. كما تأمر.
وأنهى المحادثة، وهو يلتفت إلى زميليه، قائلًا في عصبية:

- إنه غاضب للغاية، حتى أنَّني لست أدري ما..
قبل أن يتم عبارته، صدرت قرقعة مباغتة، من السقف المزدوج فوقه، فرفع رأسه إليه، و..
وهوت عليه صاعقة..
صاعقة تحمل اسمًا لا مثيل له، في عالم البشر..
اسم (فاي)..
وفي نفس اللحظة، التي سقط فيها (درو) فاقد الوعي، سحب (دافيد) و(باري) مسدسيهما في سرعة، وصاح الأول:
- يالل..
وقبل أن تكتمل صيحته، انقض الشاب..
واشتعل الأمر كله..
بعنفٍ..

☆ ☆ ☆

بدا (يازوسكي) شديد العصبية، وهو يتحرك في مكتبه، في غضب هادر، حتى أنَّ مساعده قد سأله في توتر:
- ماذا هناك يا أدون (يازوسكي).. إنني لم أشاهدك عصبيًّا إلى هذا الحد قط.
لوَّح (يازوسكي) بيده، قائلًا:
- ذلك المصري المجهول ليس غبيًّا أو أحمقَ.. هذا ما أثبته قتاله السريع العنيف معنا، وهذا يعني أنَّه لن يفقِد (باري) وعيه، ويستعيد السيطرة الكاملة على الموقف، ثم يترك كل شيء وينصرف هكذا فجأة، دون مبررات.
سأله مساعده في حذر:
- ما الذي سيفعله إذن؟!
لوح بيده، مجيبًا:
- أي شيء، إلا الانصراف.

قالها، وانعقد حاجبَاه في تفكير متوتر عميق، استغرق بعض الوقت، قبل أن يكرِّر في عصبية:
- أي شيء.
ثم رفع عيناه إلى مساعده، قائلًا في صرامة:
- اتخذ الإجراءات اللازمة، لذهابي إلى (هارلم) فورًا.
هتف مساعده في دهشة مستنكرة:
- (هارلم)؟! ولكن..
قاطعه (يازوسكي) في صرامة:
- لا تقل (لكن).. نفِّذ الأمر فحسب.
ولكن مساعده لم يلتزم بالأمر، وهو يلوح بيده، هاتفًا:
- الأمر ليس بهذه البساطة يا أدون (يازوسكي).. المصريون يراقبون كل تحركاتنا بعيون الصقور ([12]) . ومهما اتخذنا من احتياطات، فإنَّهم سيتبعونك، وسيكشفون مخبأ رجلهم.
انعقد حاجبا (يازوسكي) وهو يقول في صرامة:
- هذا لو أنَّهم أكثر ذكاءً.
قال مساعد في عصبية:
- لا يوجد ما يوحي بأنَّهم أقل ذكاءً.
ازداد انعقاد حاجبيه، وهو يقول:
- سنرى.
هزَّ المساعد رأسه في قوة، قائلًا:
- معذرة يا أدون (يازوسكي)، ولكن الوقت لا يسمح بتجارب من هذا النوع.. إنَّها العاشرة صباحًا هنا.. أي الخامسة مساءً بتوقيت (القاهرة)، وهذا يعني أنَّ (السادات) سيلقي خطبته بعد ساعتين من الآن، ولو أنَّ المصريين..
قاطعه (يازوسكي) في غضب:

- إيَّاك أن تكررها.
ثم راح يتحرك في الحجرة، مضيفًا في حدة:
- إنني لست ساذجًا غريرًا، لأقع في خطأ كهذا.. سنرتب الأمر بحيث يبدو وكأنَّنا نتفقد كل مكاتبنا.. وفي مكتب (هارلم)، حيث نحتفظ بالمصري، سينتظرني (فيدو)، في حلة تشبه حلتي تمامًا، وهكذا سأدخل أنا، ويخرج هو ليواصل تفقد المكاتب، ولأنه يشبهني إلى حَدٍّ مدهش، بعد الجراحة التي أجريت له، في المهمة السابقة، فسيتصور المصريون أنَّه أنا، و...
قاطعه المساعد هذه المرة في حماس:
- فهمت.
انعقد حاجبَا (يازوسكي) في غضب، مع هذه المقاطعة، إلا أنَّ مساعده لم ينتبه إلى غضبه، مع انفعاله الجارف، وهو يهتف:
- إنَّك عبقري بالفعل يا أدون (يازوسكي).
أثلجت العبارة صدر الإسرائيلي، وأنسته عدم لياقة مساعده، فغمغم في صرامة مزهوة:
- لم تأت بجديد.
هتف المساعد:
- إذن فالمصريون لن يربحوا هذه المعركة أبدًا.
ازداد انعقاد حاجبي (يازوسكي) على نحوٍ مخيفٍ، وهو يجيب:
- على جثتي.
نطقها بكل الصرامة..
والشراسة..
والغضب..

☆ ☆ ☆

تطلَّع (نسيم) عبر منظاره المقرب، من داخل سيارة المخابرات المصرية المؤمنة إلى شبيه (يازوسكي)، الذي أولاه ظهره، وهو

يغادر سيارة هذا الأخير، ويدلف إلى مكتب (مانهاتن) في خطوات مسرعة، قبل أن يختفي داخل المبنى، وخلفه رجال الحراسة الخاصة، التابعون لبديله الأصلي، فخفض (نسيم) المنظار عن عينيه، وهو يغمغم في حيرة متوترة:

- ماذا يفعل هذا الوغد بالضبط؟!

أجابه (طارق)، في توترٍ مماثلٍ:

- لست أدري.. لقد زار كل مكاتبهم تقريبًا!! ربما يتفقد سير الأمور، أو..

قاطعه (نسيم) في حزم:

- مستحيل!

ثم عاد يرفع المنظار إلى عينيه، مستطردًا:

- (يازوسكي) أبرع وأذكى من أن يفعل هذا، في الساعات الحاسمة هذه.

وهزَّ رأسه، مضيفًا في شرود، يوحي بأنَّه غارق في تفكير عميق:

- إنَّه يحاول تشتيت انتباهنا لسبب ما.

غمغم (طارق):

- ربما لإضاعة الوقت فحسب.

عاد (نسيم) يهز رأسه، مغمغمًا:

- كلَّا.. هناك سبب آخر.

نطقها، وراح يعتصر عقله..

ويعتصره..

ويعتصره..

فالأمر بالنسبة إليه، لم يعد مجرد مهمة ينبغي إنجازها..

لقد صار صراعًا شخصيًّا..

صراع بين عقل..

وعقل..

☆ ☆ ☆

لم يعد الاتصال بالمعلِّم (نسيم) ممكنًا..

بل ولم يكن هناك حتى وقت لهذا..

فما أن تُشرِق الشمس، حتى تتحول (نيويورك) إلى غابة من الوحوش الآلية، تجري على إطارات من المطاط..

ويصبح السير فيها، والانتقال عبرها، من مكانٍ إلى آخر، عملية شاقة للغاية..

وبطيئة إلى أقصى حد..

والمسافة بين (بروكلين) و(هارلم) ليست بالقصيرة..

والوقت يمضي بسرعة..

لذا فقد تحرَّك الشاب، دون أن يعلن موقفه، وحمل سلاحه، مُتجهًا نحو مكتب (هارلم) مباشرة..

لقد نجحت خطته، عندما اختبأ في السقف المزدوج، ليستمع إلى الإسرائيليين، عندما يستعيدون وعيهم..

ومنهم عرف أين (رفعت)..

أين الأستاذ..

كل ما تبقَّى، هو أن يصل إليه..

وأن يبذل حياته في سبيل إنقاذه..

وبأقصى سرعة..

وها هو ذا الآن يقترب من الهدف..

ويقترب..

ويقترب..

ولكن الزمن أيضًا يمضي..

ويمضي..

ويمضي..

والزحام رهيب، على نحو لم يشهد مثيلًا له، حتى في (القاهرة)، التي يصفها البعض بأنَّها أكثر مدن العالم ازدحامًا..
وفي معصمه، أشارت ساعته إلى العاشرة وعشرين دقيقة..
عليه إذن أن يتحرك بسرعة أكبر..
مهما كان الثمن..
لذا فقد غادر الشاب سيارة الأجرة التي يستقلها، واستدعى خريطة (نيويورك)، التي يحتفظ بها في ذاكرته، وانطلق يعدو بكل قوته، على الرغم من ساقه اليسرى المصابة، التي تفجرت منها الدماء ثانية، وراحت تغمر سرواله على نحو مخيف..
كان الألم رهيبًا..
إلا أنَّه لم يتوقف لحظة واحدة..
حتى بلغ (هارلم)..
ومع دخوله حي الزنوج غير الرسمي، استدارت الأنظار كلها إليه، في فضول متحفز متوتر، وتعلَّقت الأبصار ببقعة الدم الكبيرة في سرواله..
ولكنه لم يبال..
وبسرعة، تجاوز الشارع الرئيسي بحي السود، ودلف إلى شارع جانبي ضيقٍ، واتجه مباشرة إلى سلم خلفي لمبنى قديم، و...
«إلى أين يا صاح؟!»
قاطعه صوت صارم سوقي، فالتفت إلى مصدره بحركة سريعة، ووقع بصره على ثلاثة من الزنوج الأقوياء يحمل اثنان منهم مسدسين قويين، في حين يلهو الثالث بهراوة ثقيلة، ذات أطراف حادة، وهو يتابع في سخرية شرسة:
- هل أخبرك أحدهم أنَّ هذا ممر عام؟!
قال الشاب في صرامة:
- ابتعدوا عن طريقي.. ليست لدي دقيقة أضيعها معكم.

تبادَل الثلاثة نظرةَ استخفاف ساخرة، قبل أن يتقدموا منه، وكبيرهم يلوح بهراوته الثقيلة، قائلًا:
- من الواضح أنَّك تجهل أين أنت بالضبط يا هذا.. وتجهل تمامًا مَن نحن بالضبط.. ولكن لا بأس.. سنغفر لك جهلك هذا، مقابل أن تعطينا حافظة نقودك وساعتك، و..
قبل أن يُتِمَّ الأسود الضخم عبارته، وثب (فاي) فجأة في الهواء، وركله، في أنفه ركلة كالقنبلة، أطاحت به ثلاثة أمتار إلى الخلف، ليرتطم بالجدار بمنتهى العنف، ويسقط على وجهه كالحجر، وهراوته الثقيلة تطير في الهواء..
وفي نفس اللحظة، التي اتسعت فيها عينا الآخرين ذهولًا، كان الشاب يقفز ليلتقط الهراوة، ثم يهوي بها على رأس أحدهما، قبل أن يدور حول نفسه، ويركل الثاني في معدته، ثم يلكمه في فكِّه لكمة ساحقة، أسقطته أرضًا، دون أن ينبس حتى بآهة ألم..
ولم ينتظر الشاب ليرَ ما أسفر عنه قتاله..
لقد ترك الزنوج الثلاثة يسقطون خلفه، وقفز هو يتعلق بالسلم الخلفي للمبنى، ويتسلقه في سرعة وخفة..

لقد ترك الزنوج الثلاثة يسقطون خلفه . وقفز هو يتعلّق بالسلم الخلفي للمبنى . راح يقفز إلى سطح ثانٍ ..

ومن سطح ذلك المبنى، راح يقفز إلى سطح ثانٍ..
وثالث..
ورابع..

وعندما بلغ أخيرًا مبنى يجاور ذلك الذي يحوي مكتب (الموساد)، كانت عقارب ساعته تشير إلى الحادثة عشرة إلا عشر دقائق بالتحديد..
وهنا توقف الشاب، وهو يلهث بشدة، من فرط الجهد والانفعال، وراح يراقب سطح المبنى المجاور، بمنتهى الحذر، وهو يلتقط أنفاسه رويدًا رويدًا..
كان من الواضح أنَّ الإسرائيليين يحيطون المبنى بحراسة مكثفة..
أربعة رجال مسلحون بالمدافع الآلية، على السطح وحده..
فما أدراك كم منهم بالداخل؟!
ولكن هذا لن يوقفه..
حراس الدنيا كلهم لن ينجحوا في إيقافه..
هذا لأنَّها ليست مهمة عادية..
إنَّه يقاتل من أجله..
من أجل الأستاذ..
لم يكد اللقب يتردد في أعماقه، حتى اشتعلت عروقه كلها بالقوة والحماس، والتهبت مشاعره عن آخرها، وانطلقت في أعماقه صرخة..
صرخة لم يسمعها سواه..
ولكنها ترددت في كل ذرة من كيانه..
وجعلته يثب كالليث إلى السطح المجاور.
سطح مبنى مكتب (الموساد) في (هارلم)..
ومع هبوطه فوقه، استدارت فوهات المدافع الآلية الأربعة إليه..
وانطلقت الرصاصات.

☆ ☆ ☆

١٠- اللحظات الأخيرة..

التقط الرئيس (السادات) نفسًا عميقًا، في توترٍ بالغٍ، وهو يرتدي ثيابه، في حجرته الخاصة، وانعقد حاجبَاه على نحو لم يرق لزوجته، التي سألته في قلق:

- ماذا هناك؟! ألا ترغب في إلقاء خطبتك هذه؟!

مطَّ الرئيس شفتيه، وهو يجيب:

- ليست مشكلة أن أرغب أو لا أرغب.. المهم ما الذي سيمكنني أو لا يمكنني قوله فيها؟!

بدت عليها الدهشة، وهي تسأله:

- ألم يراجعها معك (موسى)؟!

أجاب في ضيق:

- بلى، ولكن..

لم يتم عبارته، فأدركت هي بحدسها أنَّ هناك ما يقلق باله، ولا يمكنه الإفصاح عنه، مما جعلها تميل على أذنه هامسة في حنان:

- كل شيء سيسير على ما يرام بإذن الله.

تنهَّد الرئيس، مغمغمًا:

- أتعشَّم هذا يا (جيهان).. أتعشَّم هذا.

ثم ألقى نظرة على ساعته، التي أشارت عقاربها إلى السادسة وسبع دقائق، بتوقيت (القاهرة)، قبل أن يستطرد:

- وإن كنتُ أشكُّ في هذا.

تضاعف قلقها، وهي تعدِّل من هندامه، ثم لم تلبث أن ربتت على كتفه في حنان، وهي تسأله:

- هل ستذهب إلى المجلس مباشرة؟!

هزَّ رأسه، مجيبًا:

- كلّا.. سأقوم بافتتاح قاعة احتفالات جديدة للقوات المسلحة أولًا.
غمغمت:
- وفقك الله.
غادرها الرئيس، واستقل سيارته الرسمية، التي انطلقت وسط موكبه، وكبير ياورانه يقول:
- السيد وزير الدفاع ينتظر في قاعة الاحتفالات يا سيادة الرئيس، وأعضاء مجلس الشعب بالكامل في انتظار سيادتكم، و...
بتر عبارته لحظة، عندما بدا له أنَّ الرئيس لا يستمع إليه بانتباه، ثم تنحنح مغمغمًا في قلق:
- سيادة الرئيس.. هل أواصل؟!
خُيِّل إليه أنَّ الرئيس لم ينتبه إلى ما قاله، وهو يشير بيده إشارة صامتة، فتنحنح مرة أخرى، وعاد يواصل حديثه..
أما الرئيس (السادات)، فلم يكن بالفعل يستمع إليه..
لقد كان عقله شاردًا هناك..
بعيدًا..
للغاية..

☆ ☆ ☆

أول ما أدركه الشاب، وهو يثب إلى سطح مبنى مكتب (الموساد) في (هارلم)، هو أنَّه من الضروري أنَّ تنتهي العملية بأقصى سرعة..
ودون أن تجذب انتباه أي مخلوق بأسفل..
وهذا يعني مواجهة أربعة مدافع آلية بمسدس واحد، مزود بكاتم الصوت..
لذا، فقد وثب الشاب إلى السطح، وهو يطلق رصاصات مسدسه بالفعل..

وفي نفس اللحظة، التي استقر فيها جسده على السطح، كانت رصاصات مسدسه الصامتة قد أطاحت بأحد الإسرائيليين الأربعة بالفعل..
وقبل أن يضغط الثلاثة الآخرون أزندة مدافعهم، كان هو يثب إلى الأمام، ويطلق ثلاث رصاصات سريعة، وهو يدور حول نفسه بخفة وسرعة مدهشتين بالغتين..
هو نفسه لم يدر كيف تحرَّك بهذه السرعة..
ولا كيف أطلق رصاصاته بهذا الإحكام، وهو يثب هكذا..
ولكنه فعلها..
الإسرائيليون الثلاثة سقطوا على ظهورهم جثثًا هامدة، دون أن يدرك أحدهم حتى ماذا أصابه..
ولم يضع الشاب لحظة واحدة..
لقد التقط أحد مدافعهم الآلية، واتجه مباشرة نحو المدخل الرئيسي لأنابيب التهوية، وهو يستعيد خرائط المكاتب الإسرائيلية في (نيويورك)، والتي لقنه إياها (نسيم)، ودربه على التوغل فيها شبرًا فشبر..
وفي خفة، انزلق عبر أنبوب التهوية الرئيسي، حتى بلغ شبكة التهوية الأفقية للطابق السادس، حيث مكتب (الموساد) وراح يزحف عبرها في سرعة، وقد بدا له أنَّ الوقت يمضي كالصاروخ..
الحادية عشرة وعشر دقائق..
وخمس عشرة دقيقة..
عشرون دقيقة..
خمس وعشرون..
وها هو ذا أخيرًا، داخل شبكة التهوية، في سقف المكتب مباشرة..

وفي حذر، اقترب من فتحة التهوية، وأذناه ترهفان السمع، وعقله يعمل بمنتهى السرعة..
كان الهدوء يخيم على المكان إلى حدٍّ عجيب، إلا من وقع أقدام تتحرك هنا وهناك، مع رائحة تبغ، توحي بأن أحدهم أو بعضهم يدخن سيجارته في شراهة..
وفي حذر زائد، ألقى الشاب نظرة عبر الشبكة المعدنية لفتحة التهوية..
وعندئذ لمح هدفه..
الأستاذ..
رأى (رفعت) في وضوحٍ، مقيدًا إلى مقعد ضخم، وقد تم تكميم فمه في إحكام، وحوله يجلس ثلاثة من الحراس ضخام الجثة، وكل منهم يحمل مدفعًا آليًا من طراز حديث قوي..
وبسرعة، درس الشاب الموقف..
وحدَّد مواقع خصومه..
ولاحظ الأسلاك الكهربائية، المتصلة بشبكة فتحة التهوية..
وأدرك أنَّ الشبكة ستصعقه، لو أنَّه لمسها بجسده..
لذا فقد تراجع في سرعة، حتى بلغ منطقة واسعة، أدار جسده عندها، ليضع قدميه في المقدمة، ثم دفعه إلى الأمام، عبر أنبوبة التهوية، حتى بلغ الشبكة الكهربائية..
وبكل قوته، هوى على الشبكة بحذائه الثقيل، ذي النعل المطاطي العازل للكهرباء، ثم دفع نفسه إلى الأمام في عنف..
وفي لحظة واحدة تقريبًا، طارت شبكة فتحة التهوية، ووثب جسده داخل الحجرة..
وبسرعة البرق، استدار إليه الإسرائيليون الثلاثة..
وبأقصى سرعته، اعتدل هو ليواجههم..
وانطلقت رصاصاته..

ورصاصاتهم..
أصابت إحدى رصاصاته رأس أحدهم، وأطاحت به في عنف، واخترقت رصاصته الثانية عنق آخر، فجحظت عيناه، وأطلق شهقة قوية، وهو يسقط على وجهه كالحجر..
ثم شعر برصاصة تخترق معدته، وتنتزعه من مكانه، وتضرب به الجدار في عنف، قبل أن تنطلق رصاصة أخرى، من مدفع الإسرائيلي الثالث، وتغوص في الجانب الأيمن من صدره..
كانت الآلام مبرحة، والدماء تنزف من إصاباته كلها..
حتى السابقة منها..
ومذاق الدم يملأ حلقه، ويتسلَّل إلى أنفه برائحة عجيبة..
ولكنه تحرَّك بسرعة مدهشة..
وارتفعت فوهة مسدسه ثانية..
وانطلقت رصاصاته..
وارتد جسد الإسرائيلي في عنف، وارتطم بالمقعد الذي قيدوا إليه (رفعت)، قبل أن يسقط أرضًا جثة هامدة..
واتسعت عينا (رفعت) عن آخرهما، وهو يحدِّق في الشاب، الذي غرق جسده كله تقريبًا في دماء ساخنة، تتدفق من جراحه، وأنفه وفمه، وهو يقترب منه مترنحًا، ومغمغمًا في ارتياح عجيب:
- أخيرًا يا سيد (رفعت).
همهم (رفعت) بكلمات مبهمة، من خلف كمامته، فأسرع الشاب يحلها، وهو يقول في سعادة، لم تتفق قط مع نهر الدم المتدفق منه:
- كل شيء سينتهي على ما يرام.. المهم أنَّنا قد عثرنا عليك، و..
كانت الكمامة قد ارتفعت عن فم (رفعت)، فصاح بكل قوته وتوتره:
- أسرع بالفرار يا هذا.. إنَّه فخ.

لم يكد ينطقها، حتى برز (يازوسكي) في المكان، وقد انعقد حاجباه في غضب صارم، وحوله خمسة من رجاله، يصوبون مدافعهم الآلية كلَّها إلى هدف واحد..
إلى (فاي)..

☆ ☆ ☆

ارتفعت أبواق السيارات، المميزة لموكب الرئيس، في شارع مجلس الشعب، واصطف الناس على الجانبين، يلوحون للرئيس في سعادة، وهو يجيب تحيتهم بابتسامة كبيرة، لا تشف أبدًا عن ذلك التوتر الجارف، المستعر في أعماقه، حتى بلغ المجلس، فغادر سيارته في وقار، وحافظ على ابتسامته الواثقة، وهو يلف إلى المكان..
واستقبله رئيس مجلس الشعب بالترحاب، وقاده مع مرافقيه إلى الاستراحة الخاصة بالمكان، وألقى نظرة على ساعته، قائلًا بابتسامة كبيرة:
- السابعة إلا عشر دقائق يا سيادة الرئيس.. ما زال لدينا بعض الوقت لقدح من القهوة، قبل أن تلقي خطابكَ.
أشار الرئيس بيده، قائلًا:
- فلنستبدله بكوب من عصير الليمون.
هتف رئيس مجلس الشعب:
- بالتأكيد يا سيادة الرئيس.. بالتأكيد.
لم تمض دقيقة واحدة، حتى وصل عصير الليمون، وراح الرئيس (السادات) يرتشفه في بطء شديد، وكأنَّما يؤجل مرحلة المواجهة، وعقله يتساءل:
- ترى هل انتهت هذه العملية بالفشل؟!
هل خسر رجاله جولتهم، لأول مرة؟!
وهل هناك أمل في أن..

لم يكتمل تساؤله الأخير، مع صوت رئيس المجلس، وهو يقول بنفس الابتسامة الكبيرة:
- السابعة تمامًا يا سيادة الرئيس.
مطَّ الرئيس شفتيه، وكتم مشاعر المرارة في أعماقه، وهو ينهض، قائلًا بصوت قوي، لا ينقل أبدًا ما يعتمل في نفسه:
- لا يمكننا أن ندع الشعب ينتظر.
وفي خطوات ثابتة قوية، اتجه الرئيس إلى منصة المجلس، وسط عاصفة من التصفيق، ووقف يشير بيديه لنواب الشعب في القاعة، وللشعب كله، الذي يتابعه للمرة الأولى، على شاشات التليفزيون الملونة، التي بدأت عملها منذ أيام قلائل..
الكل شاهد ابتسامته القوية الواثقة..
ولكن واحدًا فقط من المشاهدين، كان يدرك ما الذي يختفي خلف تلك الابتسامة...
هذا لأنه يشاركه مشاعر الإحباط والمرارة، وهو يجلس في مكتبه، داخل مبنى المخابرات العامة المصرية، وأمامه لافتة صغيرة، تحمل صفة المدير العام..
فكلاهما، الرئيس ومدير المخابرات العامة، كان يدرك أنَّ الفقرة الخاصة بإلقاء القبض على الجاسوس الإسرائيلي (إيليا) قد تم حذفها..
وإلى أجل غير مسمى..

☆ ☆ ☆

كل فوهات المدافع الآلية كانت مصوبة إلى الشاب..
كلها بلا استثناء..
ومن خلفها، تألقت عينا (يازوسكي)، وهو يقول:
- دعني أعترف ببراعتك وعبقريتك أيُّها الشاب، على الرغم من أنني لم أر وجهك هذا من قبل قط.. لقد تصرفت بحنكة

مدهشة طوال الوقت.
ثم أشار إلى صدره، مستطردًا في حدة مباغتة:
- ولكنك لم تتفوق على حنكتي وعبقريتي قط.
حاول الشاب أن يرفع فوهة مدفعه الآلى، أو حتى مسدسه، ولكن ثلاثة من الإسرائيليين الأقوياء انقضوا عليه، وهوى كل منهم على جسده بكعب مدفعه، وخاصة على مواضع إصاباته، فسقط أرضًا، وكتم تأوهاته في بسالة، فهز (يازوسكي) رأسه، وقال في حنق:
- غبي ككل بني وطنك.. تأوه يا رجل.. اصرخ.. ابك.. لا تكتم مشاعرك على هذا النحو.
أجابه (رفعت) في صرامة:
- لن يفعلها، حتى لو مزقته إربًا يا (يازوسكي).
رمقه الإسرائيلي بنظرة صارمة، وجلس على أقرب مقعد إليه، وهو يقول:
- الكل يفعلها، إن عاجلًا أو آجلًا يا سيد (رفعت).
أجاب (رفعت) بصرامة أكثر:
- إلا هو.
انعقد حاجبَا (يازوسكى)، وهو يسأله:
- ومن هو؟! ما اسمه؟!
ابتسم (رفعت)، قائلًا:
- لن تعرف أبدًا.
بدا الغضب على وجه (يازوسكي)، وهو يقول:
- هل تتصور أنَّ هذا يعنيني؟! لقد أردت فقط معرفة الاسم، الذي سيتم نقشه على قبره.
ثم استل مسدسه، وصوبه إلى رأس (فاي)، مستطردًا في شراسة:
- عندما أطلق النار على رأسه.

قال (رفعت) في حنق:
- هل ستطلق النار على رجل أعزل؟!
هتف (يازوسكي) في لهجة تجمع بين الغضب والسخرية:
- رجل ماذا؟!
قالها، وانفجر ضاحكًا في سخرية، حتى دمعت عيناه، فمسحهما بكمه، وهو يقول:
- إنني أقتل العزَّل، منذ نعومة أظفاري يا هذا.
وجذب إبرة مسدسه، مستطردًا بشراسة أكبر:
- كما سترى الآن.
صاح (رفعت) في غضب ملتاع:
- أيُّها الوغد.
قهقه (يازوسكي) ضاحكًا مرة أخرى، وهو يصوب فوهة مسدسه إلى رأس الشاب مباشرة، و..
وفجأة تحرك (فاي)..

قهقه (يازوسكى) ضاحكًا مرة أخرى ، وهو يصوِّب فوهة مسدسه إلى رأس الشاب مباشرة ، و... وفجأة تحرك (فاى) ! ...

كانت الدماء تغمر جسده كله تقريبًا، ورئته المثقوبة تجعل أنفاسه ضيقة، ممتزجة بطعم ورائحة الدم، وضلوعه المكسورة من ضربات كعوب مدافع الإسرائيليين تنغرس في لحمه..

ولكنه وثب كالليث..
وأحاط عنق (يازوسكي) بساعده..
واستل بيده الأخرى خنجرًا، من جراب في ساقه، ووضعه على عنق هذا الأخير، وهو يقول في صرامة:
- الغبي فقط هو من يتعجل النتائج أيُّها الوغد.
كانت مفاجأة مدهشة للجميع، حتى إن الإسرائيليين الخمسة تجمدوا في أماكنهم، وهم يحدقون في ذلك المشهد، في حين هتف (يازوسكي) ذاهلًا:
- مستحيل!
صاح به الشاب في صرامة، على الرغم من الدوار العنيف، الذي يسيطر على كيانه كله:
- أطلِق سراح الأستاذ.
هتف (يازوسكي):
- مستحيل.
غرس الشاب جزءًا من نصل الخنجر في عنقه، هاتفًا:
- قلت: أطلِق سراحه.
ولكن (يازوسكي) هتف بغضب هادر:
- لن تحصل عليها أبدًا أيُّها المصري.
ثم صاح برجاله:
- أمهلوه خمس ثوان فحسب، ثم أطلقوا النار على أسيرنا، لو لم يستسلم هو أيضًا.
تحرك الرجال بسرعة، وارتفعت فوهات مدافعهم الآلية نحو (رفعت)، فقال (فاي) في صرامة:
- لو أصابوا شعرة واحدة منه، سأجز عنقك بلا رحمة.
أجابه (يازوسكي) في غضب هادر:
- الموت أهون من الفشل.

توترت كل ذرة في أعماق الشاب، عندما أدرك بغريزته أنَّ (يازوسكي) يعني بالفعل كل حرفٍ نطق به..
وأنَّه لن يتردد لحظة في قتل الأستاذ..
وبلا أدنى رحمة..
لو أنَّ هذا يعني الظفر والنجاح..
حتى ولو كان الثمن هو حياته نفسها..
وكان هذا يعني أنَّه ما من أمل..
إلا إذا..
«معذرة يا (يازوسكي)، ولكن الرياح لا تأتي دومًا بما تشتهى السفن..»
اتسعت عينا (يازوسكي) عن آخرهما، عندما ارتفعت هذه العبارة في المكان، في حين هتف (فاي) في انبهار:
- السيد (نسيم).
وتألقت عينا (رفعت) في سعادة، عندما شاهد (نسيم) يقتحم المكان، مع عشرة من رجال المخابرات المصرية، أحاطوا برجال (الموساد)، وصوبوا إليهم مدافعهم الآلية، فألقى الإسرائيليون أسلحتهم على الفور، ورفعوا أيديهم فوق رؤوسهم، و(يازوسكي) يهتف ذاهلًا:
- ولكن كيف؟!
أشار (نسيم) إلى رأسه، مجيبًا:
- كانت لعبة عقل أمام عقل يا رجل.. أنت خطَّطت لتخدعنا، ونحن كشفنا خدعتك في الوقت المناسب.. لقد كنت تلعب اللعبة نفسها طوال الوقت.. أوراق مكشوفة للغاية، إلى الحد الذي تبدو فيه وكأنَّها مجرد خدعة.. لقد أحسنت قلب القواعد أيُّها الوغد، ولكننا كشفنا لعبتك.
قال (يازوسكي) في حِدَّةٍ:

- ربما أيُّها المصري، ولكن ليس في الوقت المناسب.
ثم دفع (فاي)، ونهض عن مقعده، وأشار إلى ساعة الحائط، مستطردًا في عصبية:
- إنها الثانية عشرة وخمس دقائق.. لقد بدأ رئيسكم خطابه بالفعل، ولم يعد من الممكن أن يتراجع عنه، ثم..
بتر عبارته، ووثب بغتة نحو (رفعت)، وجذبه من شعره في قسوة، ثم استل مسدسًا صغيرًا مخفيًا في حزامه، وألصق فوهته بصدغ رجل المخابرات المصري، مستطردًا في شراسة:
- ثم إنكم لم تستعيدوا رجلكم حيًّا بعد.
صاح به (نسيم) في غضب:
- إيَّاك أن تمس شعرة واحدة منه يا (يازوسكي).. أعِده إلينا وإلا..
صرخ (يازوسكي) في غضب هادر، وهو يجذب إبرة مسدسه:
- على جثتي.
دار (فاي) حول نفسه في سرعة، هاتفًا:
- اتفقنا.
وانطلق خنجره يشق الهواء، لينغرس في صدر (يازوسكي) في عنف..
في موضع القلب تمامًا.
وتراجع الإسرائيلي في عنف وحِدَّةٍ، وجحظت عيناه عن آخرهما، وسقط مسدسه الصغير من يده، وهو يهتف:
- مستحيل!
ثم هوى جثة هامدة..
وبابتسامة شاحبة متهالكة كصوته وجسده، تمتم (فاي)، وهو يرسم بسبابته في الهواء شكلًا بيضاويًا، يقطعه خط مائل:
- فعلناها يا سيدي.
ثم هوى فاقدًا الوعي..

وبكل ذعره ولوعته، هتف (نسيم) برجاله، وهو يندفع نحو الشاب:
- استدعوا سيارة إسعاف.. أسرعوا بالله عليكم.
انطلق هتافه، وهو يحاول إيقاف الدماء المتدفقة من جسد الشاب..
الدماء التي رسمت حوله دائرة من الدم..
دائرة تشبه رمزًا رياضيًا، يشير إلى كمٍّ مجهول..
رمز (فاي)..

☆ ☆ ☆

على الرغم من أنَّ صوت الرئيس (السادات) ظلَّ قويًّا حازمًا، وهو يلقي خطابه أمام مجلس الشعب، وعلى مسامع الشعب المصري كله، فإن توتره الداخلي ظلَّ يتضاعف ويتضاعف، كلما اقترب من تلك الفقرة، المحاطة بإطار أحمر، والتي تشير إلى نجاح المخابرات العامة المصرية في الإيقاع بضابط المخابرات الإسرائيلي (إيليا)، بكل ما يحمله هذا من عار وفضيحة لجهاز (الموساد) الإسرائيلي، ومن تحطيم لغروره وغطرسته، وإثبات لخطأ دعاياته المبالغة، التي يصور بها مخابراته كفريق من الآلهة، غير قابل للفشل أبدًا..
كان يشعر بمرارة انتصارات أجهزة المخابرات تندرج تحت بند السرية المطلقة..
ولكن الضرورات الأمنية والسياسية تحتم التباهي بهذه الانتصارات، في بعض الأحيان..
وها هي ذي فقرة الانتصار تقترب..
وتقترب..
و..
«سيادة الرئيس..»

همس رئيس مجلس الشعب بالكلمة، وهو يصعد إلى المنصة، ويقترب من الرئيس، الذي توقف عن حديثه، وأدار بصره إليه في تساؤل صارم، فناوله الرجل ورقة مطوية، وهو يشير في صمت إلى نهاية المنصة، فأدار الرئيس بصره إلى حيث يشير، وتألقت عيناه، عندما وقع بصره على وجه مدير المخابرات العامة، وهو يحمل على وجهه ابتسامة هادئة واثقة، جعلت الرئيس يفض تلك الورقة المطوية، التي أرسلها إليه، ليقرأ فيها كلمات موجزة للغاية:

- تهانيي.. النسر عاد إلى العش بنجاح.

ومرة أخرى، تألقت عينا الرئيس، وهو يدس الورقة في جيبه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة كبيرة، وهو يواصل خطابه، ويواجه شعبه كله، قائلًا بصوت قوي:

- أنتهز فرصة خطابي هذا، لأزف إلى شعبنا كله، ولكافة الشعوب العربية بشرى خاصة، تثبت أنَّنا لم نتفوق على الإسرائيليين، ونحطم غرورهم وغطرستهم في حرب أكتوبر وعلى رمال (سيناء) فحسب، وإنَّما ما زلنا نكسر أنوفهم، ونسحق غرورهم، في كل مجال آخر.. وبالتحديد في حرب العقل والذكاء.. حرب المخابرات العامة.

جذب حديثه انتباه الجميع، فأرهفوا آذانهم وقلوبهم، ليستمعوا إلى ما مهد إليه الرئيس، الذي ارتسمت على شفتيه ابتسامة أكثر ظفرًا وثقة..

ابتسامة تحمل كل سعادته وثقة، في أنَّ رجاله قد نفذوا المهمة التي أوكلها إليهم..

وأنَّهم قد استعادوا الأستاذ..

واستعادوا معه الكرامة المصرية والعربية..

وبمنتهى النجاح.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- اختطاف..
٢- نيويورك..
٣- المهمة..
٤- المخطِّط..
٥- الأسير..
٦- خدعة جهنمية..
٧- وثبة..
٨- أسلوبه..
٩- عقل بعقل..
١٠- اللحظات الأخيرة..

Notes

[←1]

(1) تدور الأحداث في منتصف السبعينيات، إبان حكم الرئيس الراحل (محمد أنور السادات).

[←2]
(2) التوقيت في (مصر) يسبق الولايات المتحدة الأمريكية بسبع ساعات كاملة.

[←3]

(3) راجع كتاب كوكتيل ٢٠٠٠ رقم ٢١ (صانع اللعب وقصص أخرى).

[←4]

(4) الاسم الذي يطلقه الإسرائيليون على حرب أكتوبر.

[←5]

(5) راجع كتاب كوكتيل ٢٠٠٠ (البعث وقصص أخرى).. رقم ٢٠.

[←6]

(6) مأفون: أي ناقص العقل، ضعيف الرأي، لا تصدر عنه حكمة.

[←7]

(7) لم تكن أجهزة الكمبيوتر الصغيرة معروفة ومنتشرة، في ذلك الحين.

[←8]

)7) هارلم: حي السود، وأكثر الأحياء عنفًا وشراسة في (نيويورك).

[←9]

(6) راجع كتاب كوكتيل ٢٠٠٠ (البعث وقصص أخرى).. رقم ٢٠.

[←10]

(10) في بعض المباني الحديثة في (نيويورك)، يتم تزويد المبنى بأسطوانة مجوفة، يتم تبطينها من الداخل بمطاط سميك، ووسائل هوائية ناعمة، بحيث يمكن لسكان المبنى الانزلاق عبرها إلى الشارع، بسرعة نسبية، في حالة حدوث حريق، أو أي عمل إرهابي، يستهدف المبنى.

[←11]

(11) راجع قصة (البعث)، في سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠، العدد (٢٠).

[←12]

(12) الصقر: طائر جارح، ينتشر في كل أنحاء العالم، يتبع العائلة الصقرية، ومنها العقاب، والحدأة، وغيرها، والصقور الأصيلة تمتاز بأجنحتها الطويلة، ومناقيرها المعقوفة الحادة من أعلى، وهي تفتك بالطيور والثديَّات الصغيرة والحشرات، وتمتاز الصقور أيضًا بحِدَّةِ بصرها وقوة ملاحظتها.

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الرحلة

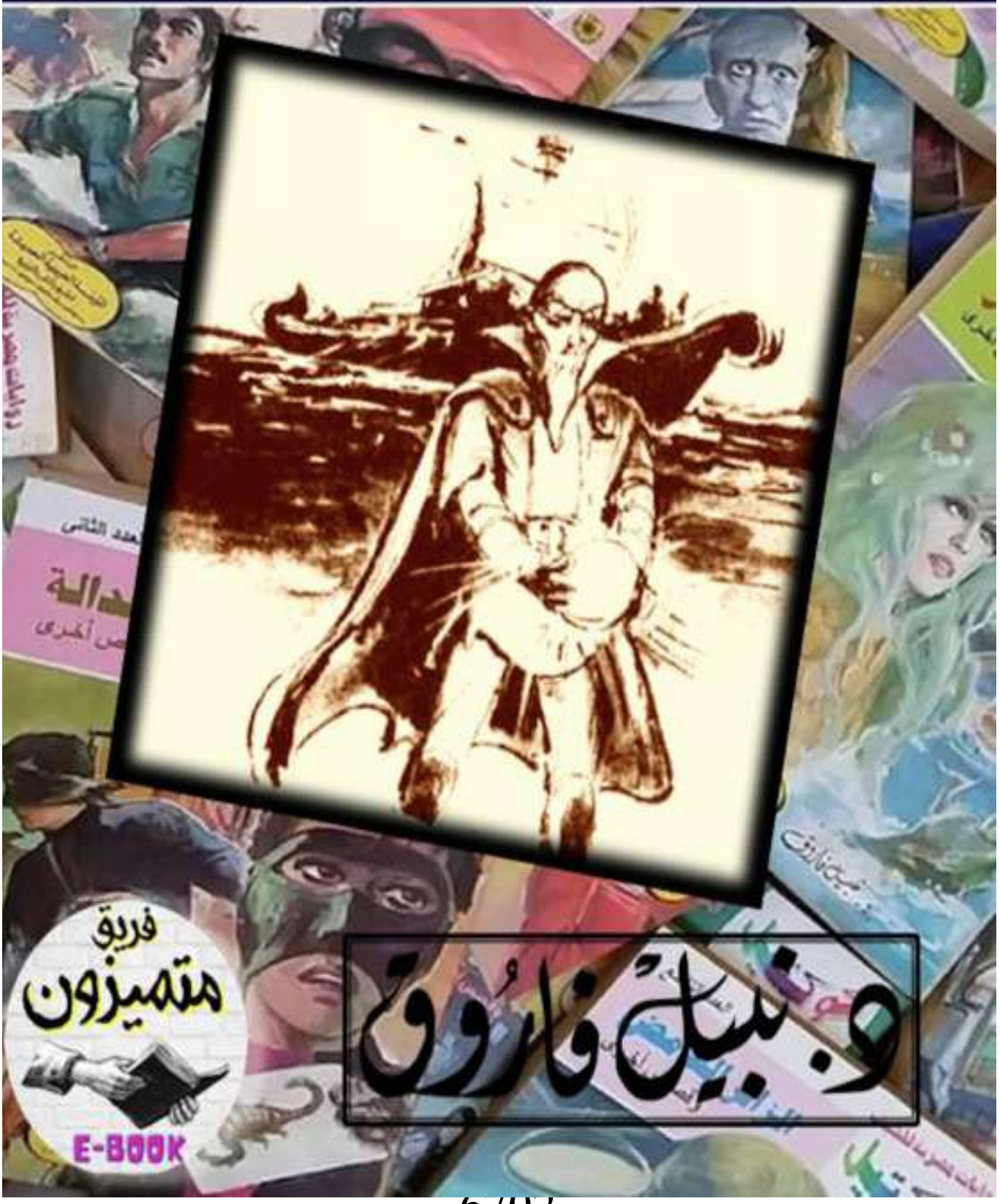

وبنبل فاروق

فريق متميزون

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

الرحلة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١ - الملك..

«انتصرنا..»
أطلق ملك تلك البلاد البعيدة الهتاف، في قوة وزهو وظفر، وهو يلوح بسيفه في الهواء، فوق قمة قصره المنيف، فتفجرت الحماسة في قلوب وخناجر فرسانه، وأطلقوا صيحات النصر بدورهم، على نحو ارتجت له جوانب المكان، وتألقت معه عينا الملك، وهو يلتفت إلى مستشاره الخاص، قائلاً:
- أخيرا يا (هولان).
ابتسم المستشار في رصانة، قائلًا:
- أخيرا يا مولاى.
لوح الملك بسيفه إلى فرسانه مرة أخيرة، قبل أن يعيد السيف إلى غمده ويضع يده على كتف مستشاره في مودة، قائلاً، وهو يقوده إلى الداخل:
- من يصدق أن تلك الحرب، التي خاضها أجدادي وآبائي، قد وضعت أوزارها أخيرا؛ لتمنحنا فوزا، طال اشتياقنا إليه.
غمغم المستشار بنفس الرصانة:
- لكل شيء نهاية، مهما طال الزمن يا مولاى.
وافقه الملك بإيماءة من رأسه، وتنهيدة حارة، انطلقت من أعمق أعماق صدره، قبل أن يستقر على عرشه، قائلاً:
- كانت رحلة طويلة للغاية يا (هولان).. رحلة استهلكت كل مواردنا، ولن تكون عملية إعادة البناء بأهون من الحرب نفسها.
قال المستشار في هدوء:
- لكل رحلة بداية يا مولاي!
حاول الملك أن يسترخي على عرشه اللامع، وهو يقول:

- نعم يا (هولان).. لكل رحلة بداية.. لكل رحلة..
لم يكد الملك يتم قوله، حتى دلف حاجبه إلى المكان، وانحنى، قائلا:
- مولاي.. القادة والنبلاء يودون تهنئتكم بالنصر، ويطلبون الإذن؛ للمثول بين أيديكم.
أشار إليه الملك بإرهاق واضح، قائلاً:
- ليس الآن.. أخبرهم أن مولاهم يرغب في الحصول على قسط من النوم والراحة أولا، وأنه سيستقبلهم مع مغيب الشمس..
انحنى الحاجب مرة أخرى، وهو يقول:
- أمر مولاي.
ثم اعتدل، وتوقف مترددا، على نحو جعل (هولان) يقول في صرامة:
- لِم لَم تنصرف يا هذا؟
بدا الحاجب متوترا مرتبكا، وهو يقول:
- معذرة يا سيدي المستشار.. معذرة يا مولاي الملك، ولكن هناك أمر آخر
اعتدل الملك على عرشه في دهشة، قبل أن يقول في غضب صارم:
- أي أمر هذا، الذي يدفعك إلى عدم طاعة أمر مولاك؟!
أسرع الحاجب يقول، في توتر بلا حدود:
معذرة يا مولاي، ولكن هناك غريب يلح في طلب مقابلتكم، ويقول: إن الأمر عاجل للغاية.
هتف به (هولان) في غضب:
- كيف تجرؤ أيها الـ..
اندفع الحاجب بغتة نحو الملك، ووضع في يده جسما لامعا، وهو يقول في ذعر وارتياع:

- سامحني يا مولاي، ولكن ذلك الغريب طلب مني أن أعطيكم هذا، وأكد لي أنكم ستوافقون على مقابلته فورا، إذا ما طالعتموه.
انعقد حاجبا (هولان) في غضب هادر، في حين اعتدل الملك على عرشه، وتطلع إلى ذلك الجسم اللامع في حيرة، قبل أن يقول في توتر:
- وما هذا الشيء بالضبط؟!
استدار (هولان) في فضول، يتطلع إلى ذلك الجسم اللامع، الذي امتدت إليه أصابع الملك في حذر، و..
«مولاى.. امنحني شرف مقابلتك..»
انبعثت العبارة فجأة، من ذلك الجسم اللامع، فانتفض جسد الملك في عنف، وهب من عرشه، بكل توتر الدنيا، في حين تراجع (هولان) بحركة حادة، هاتفا:
- أي سحر هذا؟!
سقط الجسم اللامع أرضا، وتدحرج بصوت مزعج، على الأرض المصقولة، قبل أن يستقر عند قدمي (هولان)، وذلك الصوت ينبعث منه، قائلاً:
- هذا ليس سحرا يا مولاي.. إنه جزء من تلك الكنوز الرهيبة، التي تنتظر من يكشف عنها الغطاء، في الجانب الآخر من العالم..
حدق الملك و(هولان) في ذلك الجسم اللامع، في مزيج من الدهشة والارتياع، في حين ارتجف جسد الحاجب وصوته، وهو يقول:
- إنه في الخارج، ينتظر سماحكم له بالدخول يا مولاي
رفع الملك عينيه المذعورتين إلى (هولان)، الذي بذل جهدا خرافيا، للسيطرة على انفعالاته، وهو ينقل بصره بين الملك، والحاجب، وذلك الجسم اللامع، الذي توقف انبعاث الصوت

منه، قبل أن يتنحنح في توتر، محاولاً السيطرة على أعصابه وصفاء ذهنه، ثم يشد قامته، قائلاً:
أظن أنه من الحكمة أن تلتقي به يا مولاى
قال الملك في توتر:
- ولكن ماذا لو أنه ساحر، أرسله الأعداء لاغتيالي، بعد أن أحرزت النصر عليهم؟!
استدار (هولان) إلى الحاجب، قائلاً:
- أدخله، في حراسة ثلاثة من أقوى قادة الجند وأشدهم.
انحنى الحاجب، بكل توتر الدنيا، وهو يتراجع، قائلاً:
- أمرك يا سيدي المستشار.. أمرك يا مولاي.
اعتدل الملك، وتطلع لحظة إلى (هولان) في توتر، قبل أن يعود إلى عرشه، ويجلس فوقه معتدلاً، قائلاً في حزم:
- ينبغي أن يلتقى بنا، ونحن في ذروة القوة والظفر
انحنى (هولان) يلتقط الجسم اللامع في حذر، قائلاً:
- بالتأكيد يا مولاي.. بالتأكيد
كان يقلب ذلك الجسم بين أصابعه في حيرة، عندما دلف قادة الحرس الثلاثة الأقوياء إلى المكان، يحيطون بذلك الغريب..
وانعقد حاجبا الملك في شدة وتوتر، في حين تفجر ألف سؤال وسؤال، في عقل المستشار (هولان)، وهو يحدق فيه فعلى الرغم من أن جسد الرجل بدا طبيعيا إلى حد كبير، إلا أن وجهه ورأسه بدوا مختلفين، على نحو واضح كان الرأس أصغر مما ينبغي، في حين كانت البشرة داكنة، على نحو غير معتاد، والعينان صغيرتان ضيقتان، بصورة غير مألوفة..
ولثوان، حدق الاثنان في ذلك الغريب، دون أن ينبسا ببنت شفة، في حين انحنى هو نصف انحناءة في احترام، وهو يقول:
- (ربان) في خدمتك يا مولاي

انعقد حاجبا الملك أكثر، في حين قال (هولان) في صرامة:
- ملامحك ولهجتك تقولان: إنك لست منا يا هذا
اعتدل الغريب، وهو يشير بيده، قائلاً في احترام:
- الواقع أننى من بلاد بعيدة.. بعيدة جدا أيها الحكيم (هولان)، ولكنني أتيت مسالما؛ لأعرض خدماتي على ملك البلاد.
أراد (هولان) أن يلقى سؤالاً آخر بل عشرات من الأسئلة والاستفسارات ولكن الملك قال فجأة، في صرامة بالغة، تشوبها لمحة من التوتر:
- أية خدمات تلك، التي تنوى عرضها علينا؟!
اعتدل الغريب، ولوح بذراعيه في حركة مسرحية، قائلاً:
- في البداية، أحب أن أهنئك بانتصارك العظيم، على أعداء بلادك أيها الملك، وأن أؤكد لك تضامني معك، ومع أهدافك النبيلة العادلة، و..
قاطعه الملك في حدة صارمة:
- هات ما لديك أيها الغريب..
ابتسم الغريب، قائلاً:
- (ربان) يا مولاى.. (ربان).
عاد حاجبا الملك ينعقدان في حنق، فقال (هولان) في صرامة:
- مولاك الملك يكره التطويل والاستطراد.. هات ما لديك على الفور أو.
قاطعه الغريب، وهو يشير إلى الملك، قائلاً:
- مجد عظيم ينتظرك هناك يا مولاي.. خلف المحيط الكبير مجد وثروات بلا حدود، ستجعل منك ملك ملوك عالمك بلا منازع
بدا الاهتمام على وجه الملك، وهو يعتدل على عرشه، قائلاً:

- مجد وثروات بلا حدود؟! أي قول هذا أيها الغريب؟! الكل يعلم أنه لا يوجد خلف المحيط الكبير سوى الموت، والخراب، والدمار كل السفن، التي أبحرت إلى هناك، غرقت وهلكت، وسط الظلام والضياع.. كلها بلا استثناء.

هز الغريب رأسه، في بطء وثقة، قائلاً:
- صدقني يا مولاي.. خلف المحيط الكبير توجد أرض هائلة.. أرض تحوي ثروات لا حدود لها.. ثروات عجيبة مبهرة.. أحجار متكلمة، كتلك التي بين يدي الحكيم (هولان)، وأخرى يمكنك أن ترى فيها ما يحدث بعيدا عنك، وثالثة تتيح لك التحدث الآخرين، من مسافات هائلة، ورابعة تصنع الثلج في قبو قصرك، وخامسة، وسادسة، وسابعة.. ثروات بلا حدود يا مولاى، ستجعلك أعظم ملوك زمانك.
قال (هولان) في صرامة:
- كل هذا يبدو أشبه بالسحر
حدق فيه الملك بضع لحظات، قبل أن يلتفت إلى (هولان)، ويسأله:
- هل يمكنك أن تصدق هذا؟!
بدا الاهتمام على وجه الملك، وهو يعتدل على عرشه ابتسم الغريب، قائلاً:
- السحر يمكن ممارسته في أي مكان، أيها الحكيم (هولان)، ولا توجد حاجة للانتقال عبر المحيط، لفعل أمر كهذا.
تطلع إليه (هولان)، بضع لحظات في صمت، قبل أن يسأله في صرامة:
- ما الذي تسعى إليه بالضبط أيها الغريب؟!
شد الغريب قامته، وهو يجيب، في سرعة وحزم:
- كل ما أريده هو سفينة واحدة، وطاقم مختار من البحارة؛ لنبحر معا عبر المحيط الكبير، إلى تلك الأرض الجديدة.. حيث الكنوز والثروات.
سأله الملك في حدة:

- هل تطلب منا أن نضحي بسفينة جديدة، وبطاقم من أفضل بحارتنا؛ من أجل ما لا يمكن إثباته، أو التأكد من وجوده؟!
قال الغريب في حزم:
- الأرض الجديدة موجودة يا مولاى، وذلك الحجر المتكلم، بين يدى الحكيم (هولان)، هو دليل حي على وجودها، ولقد حصلت عليه من أحد سكان تلك الأرض البعيدة، والذي قام بمغامرة مدهشة؛ ليثبت وجود أرضنا، ولكنه مات على سواحلنا، تاركا لنا هذا الدليل.
صمت الملك بضع لحظات، قبل أن يسأل (هولان):
- هل تبدو لك قصة معقولة؟!
صمت (هولان) طويلاً، قبل أن يلتفت إلى قادة الحرس الثلاثة، قائلا بلهجة آمرة:
- اصحبوه إلى الخارج.. أريد أن أحدث مولاي وحدنا. قاد الرجال الثلاثة الغريب إلى الخارج، وهو يقول في ثقة:
- سأنتظر.
وفور خروجه، تساءل الملك في اهتمام:
- ما رأيك؟!
أجابه (هولان) في رصانة:
- قصته تبدو غريبة، ولا يمكن المجازفة بتأكيد صحتها، ولكن لا يمكننا المجازفة أيضا بفقدان فرصة نادرة كهذه؛ إذ إن امتلاكنا لأشياء كالتي يتحدث عنها، والتي تشبه ذلك الشيء المتكلم، ستضعنا على قمة ما حولنا من شعوب، وتضمن لنا التفوق الدائم، كما لا يمكننا المجازفة بذهابه إلى شعب آخر، ومنحه ما لديه.
داعب الملك ذقنه بضع لحظات، قبل أن يقول في حذر:
وماذا لوقتلناه، ومنعناه من منح ما لديه لأي مخلوق آخر؟!

هز (هولان) رأسه نفيا، وقال:
- لا يمكننا أن نضمن أنه وحده يعلم هذا، كما أننا لا نضمن أن يبلغ الخبر أي ملك آخر، في وقت قريب، فيسعى إلى ما رفضنا نحن السعى إليه، ويمتلك ما أضعنا الفرصة لامتلاكه.
صمت للملك طويلاً، وهو يفكر في عمق، قبل أن يقول في بطء:
- إذن فأنت تحبذ منحه السفينة والرجال
وافقه (هولان) بإيماءة من رأسه، قائلاً:
- وفي أسرع وقت ممكن يا مولاى.
عاد الملك يداعب ذقنه بضع لحظات أخرى، ثم قال في توتر:
- وهل ترى أنه من الحكمة أن نرسل غريبا إلى أرض الثروات الرهيبة هذه، دون ضمانات كافية، تمنعه من الاستئثار بتلك القوة اللا محدودة؟! ماذا لو منحته تلك الأشياء قوة هائلة، تكفيه للسيطرة علينا؟!
سأله (هولان) في اهتمام:
وماذا يقترح مولاي؟!
اعتدل على عرشه، قائلاً:
- أن أرسل معه شخصا أثق به، وبحكمته، وقدرته على تبصر الأمور وتدبيرها، والسيطرة عليها إذا ما اقتضى الأمر
ثم مال إلى الأمام، مستطردا في حزم صارم:
- أنت يا (هولان).
وكانت مفاجأة..
حقيقية.

☆ ☆ ☆

٢ - الحكيم..

انتشرت الغيوم الكثيفة في السماء، والتقت بالمحيط الكبير عند الأفق، الذي تطلع إليه الحكيم (هولان) في صمت، وهو يقف على متن السفينة الكبيرة، التي تبحر بلا توقف، منذ خمسة أيام كاملة، وبدت الرياح هادئة مواتية، تملأ الأشرعة، وتدفع السفينة في اتزان وسرعة، في الوقت الذي اتجه فيه الغريب إلى حيث يقف الحكيم، وقال في هدوء:

وفقا لحساباتي، سنبلغ الهدف، خلال يوم واحد على الأكثر.

رمقه (هولان) بنظرة جانبية، وهو يقول في حذر:

- يدهشني أن يمكنك التقدير بهذه الدقة، فمراقبتي لك، خلال الأيام الخمسة الماضية، تؤكد لي أن خبرتك في الإبحار محدودة للغاية

استند الغريب إلى حاجز السفينة، وارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة، وهو يقول:

- بل يمكنك أن تقول: إننى لا أمتلك أية خبرة في الإبحار على الإطلاق، ولهذا احتجت إلى الرجال، الذين يمتلكون الخبرة في هذا الأمر.

سأله (هولان)، في شيء من الصرامة:

- كيف يمكنك تقدير الزمن إذن؟!

أجابه الغريب، في سرعة وحزم:

- لدى أساليبي.

كان سيكتفي بهذا القول المقتضب، لولا تلك النظرة المتوترة، التي أطلت من عيني (هولان)، والتي جعلته يكمل في هدوء:

- إنه أمر يرتبط بسرعة الإبحار، وقوة الرياح، و..

قاطعه (هولان) في حدة:
- وماذا؟!
أدار إليه الغريب عينيه في بطء، فتابع (هولان) في صرامة:
- ما تقوله أمر لا مثيل له، ولم نسمعه من قبل قط، حتى من علمائنا وحكمائنا، مما يثير في نفسي تلك الشكوك والتساؤلات القديمة.
ثم استدار إليه بجسده كله، متابعا:
- من أنت بالضبط؟! ومن أين أتيت؟!
التقط الغريب نفسا عميقا، وتطلع إلى الأفق طويلاً في صمت قبل أن يقول:
- هل سأظل أجيب عن هذا السؤال إلى الأبد؟!
قال (هولان) في صرامة:
- ما لم تمنحنى جوابا شافيا له!
صمت الغريب بضع لحظات أخرى، قبل أن يقول في بطء حذر:
- كل ما يمكنني قوله، هو أننى قد أتيت من بلاد بعيدة، لم تصلوا إليها، أو يمكنكم حتى تصورها من قبل
سأله (هولان) في صرامة:
- أهي نفس البلاد، التي نتجه إليها؟!
صمت الغريب طويلاً هذه المرة، قبل أن يجيب، في حزم مقتضب:
- كلا.
هم (هولان) بإلقاء سؤال آخر، ولكن الغريب اعتدل فجأة وقال في شيء من الصرامة:
- أعتقد أن لدى ما يجب القيام به، في هذه المرحلة من الرحلة.
قال (هولان) في توتر:
- أهي وسيلة للفرار من إجابة تساؤلاتي؟!

تطلّع إليه الغريب في هدوء، قائلاً:
- يمكنك تفسير الأمر، كما يحلو لك.
قالها، واندفع نحو كابينته الخاصة، وأغلقها خلفه في إحكام، فغمغم (هولان) في توتر:
- إنك تخفى شيئا أيها الغريب.. تخفى ما سأبذل قصارى جهدى لمعرفته
ثم اتجه نحو قبطان السفينة، وسأله في اهتمام:
- هل تعرف إلى أين نبحر بالضبط؟!
بدا صوت القبطان متوترا، على نحو ملحوظ، وهو يقول:
- كلا.. إنها أول مرة أبحر فيها، دون معرفة هدفي بالتحديد، وذلك الغريب، ذو الوجه العجيب، يحدد مسار الرحلة بدقة مثيرة للحيرة، كما لو أنه يعرف هدفه جيدا، ولولا هدوء البحر، ومؤازرة الرياح لنا، طوال الأيام السابقة، لفقدت السيطرة على الرجال، الذين بدءوا يرددون فيما بينهم، أن المحيط الكبير قد ابتلع كل من جرؤ على تحديه، وأن أحذا لم يعد منه قط؛ ليشرح ما يواجهه البحارة فيه، وبعضهم يخشى أن تهاجمنا الوحوش من أعماقه، في مرحلة ما..
غمغم (هولان):
- مجرد شائعات.. لا أحد عاد ليؤكد وجود تلك الوحوش الأسطورية.. لا أحد..
قال القبطان في توتر:
- ولا أحد نفي وجودها أيضا.
كان الضوء ينخفض في الأفق، على نحو ملحوظ، من خلف الغيوم الكثيفة، فقال (هولان) في قلق، لم يفارقه قط، منذ أبحرت السفينة:
- الأيام القادمة ستجيب عن كل تساؤلاتنا.

مط القبطان شفتيه، وهو يغمغم في عصبية:
- أو تبتلعنا، مثلما ابتلعت كل من قبلنا..
لم يحاول (هولان) التعليق على قوله، وهو يدير الأمر في رأسه مرة ثانية.
وثالثة..
ورابعة..
وفي كل مرة، كان قلبه يشعر بالقلق أكثر..
وأكثر..
وأكثر
الغريب يبدو واثقا للغاية من هدفه..
ومن قدرته على الوصول إليه..
لا أحد يعلم كيف..
أو حتى لماذا؟!
هناك غموض شديد عجيب، يحيط بكل شيء، منذ بدأت هذه الرحلة..
الغريب يجهل الملاحة تماما، وعلى الرغم من هذا، فهو يرسم خط سير السفينة بمنتهى الدقة، كما لو أنه يحفظ ذلك المحيط الكبير عن ظهر قلب، أو أبحر فيه مرات ومرات وهناك حيره أيضا تحيط به..
حيرة تتعلق بملامحه، التي تختلف كثيرا عن ملامح الآخرين..
ملامحه، التي تثير قلق البحارة، وخوفهم، وحتارهم أيضا..
يقول: إنه قد جاء من بلاد بعيدة..
بعيدة جدا..
ولكن هذا لا يفسر ذلك الاختلاف الكبير في ملامحه..
ولا يفسر معارفه الكثيرة أيضا..
معارفه، التي تفوق معارف أكبر الحكماء، في هذا الزمان

اختفى الضوء تماما في الأفق، وهبط الظلام؛ ليحيط بكل شيء، وليضاعف من توتر الموقف وقلقه، و..
وفجأة، غادر الغريب كابينته، وهو يقول في حزم:
- هناك عدد من الجزر الغارقة، ستواجهنا بعد قليل..
التفت إليه البحارة في توتر عصبي حائر، في حين سأله القبطان في حدة:
- ما الذي تقصده بمصطلح الجزر الغارقة هذا؟! إننى قبطان منذ زمن طويل، ولم أسمع هذا التعبير قط
بدا الغريب هادئا واثقا، وهو يقول:
التقى حاجبا (هولان)، وهو يقول:
- أتعنى أن هذا ما أصاب السفن السابقة؟!
أجابه الغريب في صرامة وحزم:
- الجزر الغارقة هي كتل صخرية، تختفى تحت سطح الماء وتبرز منها أطراف صغيرة، لا يمكنك أن تلاحظها بالعين المجردة، وبخاصة في مرحلة الظلام، وهذا مكمن خطورتها، عندما تصطدم بها السفن، فتتحطم قيعانها، وتغوص ببحارتها في الأعماق.
- ربما.
بدا القلق الشديد على البحارة، وهتف أحدهم في انزعاج:
- فلتتوقف إذن، قبل أن نصطدم بها، ونلقى مصير من سبقنا إليها.
شد الغريب قامته، قائلاً في حزم:
- كلا.. لن نتوقف.. سنضيء طريقنا فحسب، حتى يمكننا أن نتفادى الاصطدام
قال القبطان في صرامة:
- كل مشاعل الدنيا لن تكفي؛ لنضيء الطريق أمامنا، في قلب

الظلام الدامس
بدت ابتسامة الغريب غامضة، وهو يقول:
- ومن تحدث عن المشاعل؟!
ثم غاب في كابينته لحظة، عاد بعدها حاملا كرة من الزجاج، وهو يضيف:
- سنستخدم هذا.
تطلع الجميع إلى الكرة الزجاجية في حيرة، في حين تساءل(هولان)، وهو يتابع الغريب، الذي اتجه بها إلى مقدمة السفينة:
- وما هذا بالضبط؟!
أجاب الغريب، وهو يثبت الكرة في مقدمة السفينة، في إحكام شديد:
- هذا واحد من الكنوز العديدة، التي تنتظرنا هناك، في الأرض الجديدة يا رجال.
نطقها، ثم اعتدل، وراجع كل الأمور في سرعة، قبل أن يضيف:
- أغلقوا عيونكم، واحبسوا أنفاسكم، فما سترونه الآن لم تروه من قبل قط، حتى في أحلامكم.
لم يدر أحدهم ما الذي فعله بعدها بالضبط، ولكن فجأة، سطع الضوء من تلك الكرة الزجاجية ة..
سطع بقوة تغشى الأبصار، وسط ذلك الظلام المحيط بالسفينة ليضيء مقدمتها، ومسافة ضخمة من قلب المحيط الكبير أمامها..
وبكل انبهار الدنيا، شهق الجميع..
البحارة..
والقبطان..
وحتى الحكيم (هولان) نفسه..

أما الغريب، فقد ظل هادئا واثقا، كما لو أنه قد أتى أمرا، اعتاد القيام به دوما، وهو يعقد كفيه خلف ظهره، قائلاً:
- بهذا سنرى كل الأجزاء البارزة، ونتفادى الارتطام بها تماما.
ظل الكل مبهورا صامتا بضع لحظات، قبل أن يتساءل القبطان في توتر:
- وماذا عن الأجزاء المختفية تحت السطح؟!
أجابه الغريب في حزم، وهو يتجه إلى كابينته:
- اترك أمرها لي.. سأقودك عبرها.
وتوقف عند باب الكابينة، والتفت إلى (هولان)، مستطردا، بابتسامة أكثر غموضا:
- بوسائلي الخاصة
وأغلق الباب خلفه في هدوء، فهتف أحد البحارة بصوت مرتجف:
- من هذا الرجل بالضبط؟!
هتف آخر:
- يلوح لي أنه الشيطان نفسه، جاء يقودنا إلى قلب الجحيم.
قال ثالث في ارتياع:
- بل هو ساحر.. ساحر عظيم.. أرسله مولانا الملك؛ ليقود رحلتنا عبر المحيط الكبير؛ حتى لا نلقى مصير من سبقنا.
ووثب رابع إلى حيث يقف الحكيم (هولان)، وتشبث بذراعه، هاتفا في انفعال:
- من هذا الرجل أيها الحكيم؟! من هو؟!
أزاح (هولان) يد البحار، وهو يبحث عن الجواب في ذهنه، قبل أن يقول في حزم:
- هذا الرجل هو الذي وعدكم مولانا الملك بمكافآت وإنعامات سخية، لو ساعدتموه على إنجاح مهمته، وعبور المحيط الكبير،

إلى أرض الثروة والقوة..
ثم أشار إلى تلك الكرة المضيئة، مستطردا:
- القوة، التي ترون عينة منها هنا.
وشد قامته، هاتفا في صرامة:
- فهل ستضيعون أوامر مولاكم الملك؟!
انطلقت صيحة هادرة من حلوقهم، تؤيد مليكهم، وتعلن الولاء له، فشد (هولان) قامته أكثر، وهو يقول في قوة:
- أدوا عملكم، وسيضاعف مولانا الملك مكافآتكم وعطاياكم.
ارتفع هتافهم مرة أخرى، وأنستهم المكآفات المنتظرة توترهم وخوفهم، ودفعتهم إلى التعامل مع الموقف في حماسة، مع انبهارهم بتلك الكرة المضيئة، التي أثارت المحيط المظلم أمامهم.
أما (هولان) فقد اتخذ ركنا مجاورا لكابينة الغريب، وعقله يعيد دراسة الموقف، ربما للمرة الألف، وهو يطرح على ذهنه أسئلة عديدة..
وجديدة..
ومديدة..

☆ ☆ ☆

«ها هي ذي الجزر الغارقة!»
هتف أحد البحارة بالعبارة، وهو يشير إلى قمم الصخور الحادة، البارزة من تحت سطح الماء، فهب الجميع لرؤيتها، والقبطان يصيح بهم:
- اتخذوا أماكنكم.. استعدوا للمناورة.
ثم صاح في حدة:
- أين ذلك الغريب؟! قال إنه سيقودنا عبرها.
أتاه صوت الغريب، وهو يقول في حزم:

- أنا هنا.. اطمئن.
ثم جذب إليه أحد البحارة، مستطردا في صرامة:
قف هنا، عند باب الكابينة، وانقل كل ما أهتف به إلى القبطان فورا.. هل تفهم؟!
أجابه البحار بالإيجاب في توتر، ووقف عند باب الكابينة، التي اختفى الغريب داخلها، وهتف:
- خمس درجات إلى اليمين.
نقل البحار الهتاف إلى القبطان، الذي نفذ المناورة على الفور، قبل أن يأتيه هتاف آخر:
سبع عشرة درجة إلى اليسار
التقى حاجبا (هولان) في شدة، مع توالي الهتافات، التي راحت تقود القبطان، وسط تلك الجزر الغارقة، على نحو بالغ الدقة، جعل القبطان نفسه يهتف مبهورا:
- كيف يفعلها هذا الرجل؟! إنه يبدو كما لو أنه يحفظ المحيط عن ظهر قلب!!
ازداد التقاء حاجبى (هولان)، وهو يقول:
- نعم.. كيف يفعلها؟!
لم يستطع منع ذلك الفضول الرهيب، الذي سري في عروقه، مع تواصل هتافات الغريب، من داخل كابينته، و..
وفجأة، ودون سابق إنذار، اندفع (هولان) نحو كابينة الغريب واقتحمها في حدة، و..
وتوقف مبهورا مشدوها..
فهناك، داخل الكابينة.. كان الغريب يجلس، أمام مستطيل من مادة عجيبة يشع من منتصفها ضوء أخضر اللون، عبر لوح من الزجاج، تتحرك فوقه أشياء صغيرة مدهشة..
وكان هذا أكثر مما يمكن أن يحتمله عقل (هولان).. أكثر بكثير..

☆ ☆ ☆

٣ - القبطان..

«لقد تجاوزنا منطقة الخطر..»
هتف القبطان بالعبارة، في ارتياح وانبهار، وهو يقود السفينة، خارج منطقة الجزر الغارقة، ثم التقط نفسا عميقا، قبل أن يتابع في انفعال:
- هذا الرجل مدهش بحق! إنه يقودنا بمنتهى الثقة، عبر منطقة لم نعرفها من قبل قط
قال أحد البحارة في توتر:
- قلت لكم: إنه ساحر
هتف القبطان في حرارة:
- لو أنه ساحر، فهو يعمل إلى جوارنا.. وهذا من حسن حظنا..
سأله بخار آخر:
- هل تعتقد أنه هناك بالفعل أرض جديدة، وأنه سيقودنا إليها؟!
تطلع القبطان إلى الكرة المثبتة في مقدمة السفينة، والتي تضيء المحيط أمامه لمسافة شاسعة، قبل أن يقول في حزم:
- ما رأيك أنت؟!
ثم أدار عينيه إلى كابينة الغريب، التي اقتحمها (هولان) منذ قليل، وتساءل في أعماقه: ترى ما الذي يحدث في الداخل الآن؟!
ماذا يحدث؟!
ماذا؟!
في نفس اللحظة، التي دار فيها التساؤل في ذهنه، كان الغريب يضغط جانب ذلك الإطار العجيب، ويطفئ الضوء المنبعث من قطعة الزجاج في منتصفه، وهو يستدير إلى (هولان)، الذي لم يفارقه ذهوله وانبهاره بعد، قائلا بنفس الهدوء العجيب:

- ألا تنص قواعد اللياقة عندكم على أن يطرق المرء الباب، قبل الدخول إلى مكان لا يخصه.

انتفض (هولان)، وهو ينتزع نفسه من انفعاله، وهتف في صرامة:

- هذه السفينة، بكل ما عليها ومن عليها، ملك لمولاى الملك.
أحنقته تلك الابتسامة الساخرة، التي ارتسمت على شفتى الغريب، وهو يقول:
- هذا لا يمنع من ضرورة أن تطرق الباب..
سأله(هولان)، وهو يشير إلى الإطار العجيب في توتر:
- ما هذا الشيء بالضبط؟!
أجابه الغريب، وهو يتراجع في مقعده، بنفس الهدوء المستفز:
- لن يعنيك أن تعرف؛ لأنك لن تفهمه أبدا.
قال (هولان) في عصبية:
- أنا مصر على المعرفة
تطلع إليه الغريب طويلاً في صمت، قبل أن يقول:
- إنه أحد الكنوز، التي تنتظرنا هناك، في الأرض الجديدة.
هتف (هولان):
- بل هذا سحر مبين.
هز الغريب رأسه نفيا، وقال:
- كلا.. إنه ليس كذلك، إلا أن هذا ما سيبدو لكم حتما
التقى حاجبا (هولان) وهو يميل نحوه، متسائلاً في توتر:
- من أنت بالضبط؟!
ابتسم الغريب ابتسامة غامضة، وهو يقول:
- الواقع أنني قد سلمت هذا السؤال، أيها الحكيم (هولان).
هتف به (هولان):
- وأنا سنمت مراوغتك في الإجابة عنه بصراحة..
لاذ الغريب بالصمت بعض الوقت، وكأنما يدير الأمر في رأسه، قبل أن يسأل (هولان) في هدوء:
- ما الذي يثير توترك على هذا النحو أيها الحكيم؟!
أجابه (هولان)، في سرعة وحدة:

- كل شيء..
ثم التقط نفسا عميقا، محاولاً تهدئة أعصابه، وهو يضيف:
- أقسم إننى قد شاهدت الشياطين الصغيرة، تتقافز على سطح لوح الزجاج المضيء هذا.
ابتسم الغريب، وهو يقول في سخرية:
الشياطين الصغيرة؟!
صاح (هولان) في حدة:
- بالطبع.. من غيرها يمكن أن يضيء وينطفئ، ويعدو عابئًا هكذا، فوق لوح زجاجي، يتوسط إطارا عجيبا كهذا؟!
قال الغريب في هدوء:
- إنه ليس إطارا عجيبا! إنه شيء مفيد.. مفيد جدا.
تطلع (هولان) إلى الإطار في توتر، قائلاً:
- من أي شيء تم صنعه؟!
صمت الغريب طويلاً هذه المرة..
طويلا جدا..
صمت، وهو يتطلع إلى (هولان) مباشرة، دون أن يرفع عينيه عنه، وكأنما يدير أمرا ما في رأسه، قبل أن يقول في هدوء:
- من الواضح أنك شخص ذكي للغاية يا (هولان).
قال (هولان) في حدة:
- وأنت شخص غامض للغاية أيها الغريب.. كل شيء فيك عجيب وغير مألوف.. وجهك.. ملامحك.. وحتى أصابع يديك، التي تنقص إصبعا عن المألوف.
قال الغريب في بطء.:
- يمكنك اعتبار هذا نوعا من التطور الجنيني، غير المألوف هنا.
قال (هولان) في دهشة عصبية:
- التطور الماذا؟!

ثم اندفع يضيف في حدة:
- هذا يبدو لي أشبه بالتحورات، في عالم السحرة.
وخطا إلى الأمام بحركة عصبية، وهو يشير إلى رأس الغريب، مستطردا في توتر:
- وكذلك تلك النقط السوداء، التي تنتشر في رأسك
عاد الغريب يتطلع إليه في صمت طويل، ثم لم يلبث أن مال نحوه فجأة، وهو يقول في حزم:
- قل لي أيها الحكيم (هولان): لماذا تتعامل معى بهذا العداء؟!
جاء السؤال مباغتا، على نحو تراجع معه (هولان) بحركة حادة، قبل أن يقول في توتر:
- لأننى لا أثق بك.
سأله الغريب بسرعة
- لماذا؟!
قال (هولان) في حدة:
- لأن كل شيء فيك عجيب، ولا يدعو إلى الارتياح على الإطلاق.
تراجع الغريب في مقعده، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه، وهو يقول:
- لماذا تواصل الرحلة معى إذن؟!
قال (هولان) في غضب:
- لأن هذا ما يريده مولاي الملك، و..
قاطعه الغريب بغتة:
- هراء.
اتسعت عينا (هولان) في شدة، فتابع الغريب في صرامة:
- إنك تواصل الرحلة؛ لأنك تؤمن بأنني سأقودكم إلى شيء يفوق إدراككم.. شيء سيحقق لكم التميز على باقي الممالك المحيطة بكم، ويضمن لكم التفوق عليها، لعقود طويلة من الزمان..

شعر (هولان) بالسخط والحنق؛ لأن الغريب قد كشف ما يدور في أعماقه، على هذا النحو، وقال في توتر:
- فليكن.. إننى مضطر لمواصلة الرحلة معك، ولكنني لا أثق بك قط.. لا تعارض بين هذا وذاك..
هز الغريب كتفيه، وقال:
- هذا لا يضايقني.. ثق بي، أو لا تثق على الإطلاق، المهم أن نواصل الرحلة
مط (هولان) شفتيه الرفيعتين، وهو يقول في انفعال:
- هل تحتفظ في جعبتك بعجائب أخرى؟!
أجابه الغريب، بابتسامة غامضة:
- ربما.
قال (هولان) في عصبية
- ربما نعم، أم ربما لا؟!
مال الغريب إلى الأمام، قائلاً:
- كلمة ربما تفيد الاحتمالين أيها الحكيم
انفرجت شفتا الحكيم؛ ليقول شيئا ما، ولكن قبل أن يخرج حرف واحد من بين شفتيه، انطلقت من فوق السفينة صرخة هادرة:
- النجدة! الوحش!
انتفض جسد (هولان)، وهو يردد في ذهول مذعور:
- الوحش؟!
قالها، واندفع خارج كابينة الغريب، و..
وكان المشهد رهيبا بحق...
البحارة كانوا يعدون على سطح السفينة، بكل رعب الدنيا، في حين برزت من سطح البحر كرة هلامية ضخمة، لها عين واحدة

كبيرة، وأذرع رفيعة طويلة، راحت تطارد البحارة على نحو رهيب مخيف..
أما البحار، فكان يتشبث بالدفة، صائحا في توتر بالغ:
- لا تهربوا.. السفينة تفقد توازنها.. استخدموا سيوفكم أيها الجبناء! استخدموا سيوفكم.

ولكن كان من العسير أن يستمع البحارة المذعورون لصيحاته، بعد أن التفت تلك الأذرع الرفيعة حول اثنين منهم، وجذبتهم إلى تلك الكتلة الهلامية الضخمة، ثم لم تلبث أن غمرتهم في الماء، وباقي الأذرع تواصل سعيها، خلف البحارة الآخرين كان من الواضح أن ذلك الكائن يغرق ضحاياه، تحت سطح المحيط؛ حتى يتسنى له التهامهم فيما بعد، عندما ينتهي هجومه وعلى الرغم من الموقف الرهيب، ظل القبطان يدير الدفة، محاولاً الابتعاد عن ذلك الكائن الهلامي الضخم، وهو يهتف:
- ابتعد أيها الوغد.. اتركنا لحالنا.. اترك بحارتي.. اذهب
لم يكد يتم هتافه، حتى التفت إحدى الأذرع الرفيعة حول ساقه وجذبته نحو حاجز السفينة في حركة حادة، جعلته يفلت الدفة على الرغم منه، فصرخ، وهو يستل سيفه:
- الدفة.. السفينة ستفقد توازنها، و..
ولم يكن قد أتم عبارته، عندما هوت تلك الصاعقة فجأة.

☆ ☆ ☆

لم تكن صاعقة بالمعنى المفهوم، وإنما هي حزمة من ضوء مبهر، انطلق في خط مستقيم؛ ليصيب تلك الذراع الرفيعة، التي يلتف طرفها على ساق القبطان ويقطعها في عنف ومع ذلك الصوت الرهيب، الذي اقترن بتلك الصاعقة، والذي يشبه

فحيح ألف أفعى، توقف البحارة فجأة، والتفتوا إلى كابينة الغريب، في ذهول مبهور..
أما ذلك الكائن الهلامي الرهيب، فقد أدار عينه الواحدة الضخمة إلى الغريب في غضب، ثم جمع أذرعه كلها، وكأنما يستعد لتوجيهها كلها إلى خصمه الجديد، الذي أفقده واحدة منها..
ولكن الغريب ظل هادئا واثقا، وهو يرفع شيئا معدنيا في يده، ويصوبه إلى العين الواحدة الكبيرة، ثم يضغط جزءا منه..
وانتفضت أجساد الجميع، عندما انطلقت حزمة ضوء أخرى، من قمة ذلك الشيء المعدني، بنفس الصوت الشبيه بالفحيح انطلقت؛ لترتطم بعين ذلك الكائن الهلامي الرهيب، وتنسفها في مشهد مخيف، قبل أن تنسف الكتلة الكروية كلها.
وشهق البحارة، عندما تناثر سائل ساخن لزج، من الكائن الهلامي، على أجسادهم ووجوههم، وعلى سطح السفينة كله تقريبا.
ولكن الكائن نفسه هبط إلى أسفل، وغاص في مياه المحيط، وهو يفلت ضحيتيه السابقتين..
وبنفس الهدوء، خفض الغريب يده الممسكة بصانع الصواعق، واستدار إلى القبطان، قائلاً:
- هل الجميع بخير؟!
حدق القبطان في وجهه بدهشة، ثم هب واقفا، واندفع نحو حاجز السفينة، وتطلع إلى البحارين، اللذين أفلتتهما أذرع الكائن الهلامي، بعد أن صدعته حزمة الضوء الصاعقة، وقد برزا إلى السطح، وراحا يملآن صدريهما بالهواء، غير مصدقين أنهما قد نجوا، بعد أن كانا قاب قوسين أو أدنى من الغرق، ثم التفت إلى الغريب، وقال بأنفاس لاهثة، من فرط الانفعال:

- نعم.. كلنا بخير.
بدا الارتياح في وجه الغريب وصوته، وهو يقول:
- عظيم.
ثم استدار عائدا إلى كابينته، ولكن القبطان استوقفه، وهو يهتف في حزم:
- انتظر أيها الغريب.
استدار إليه الغريب في هدوء، فاتجه نحوه في خطوات ثابتة وتبعه باقي البحارة في صمت، على نحو أقلق (هولان)، الذي تراجع في توتر حذر..

☆ ☆ ☆

«لقد أنقذت حياتنا جميعا.»
نطق القبطان العبارة في حسم، فشد الغريب قامته، قائلاً:
- كان من الضروري أن أفعل.
وصمت لحظة، ثم أضاف بابتسامة هادئة:
- فهذا ينقذ حياتي أيضا.. أليس كذلك؟!
شد القبطان قامته بدوره، وهو يجيب:
- كلا.. ليس كذلك.
تضاعف قلق (هولان) وتوتره، وخيل إليه أنه يشهد بداية تمرد بحرى عنيف، فهتف في عصبية:
- تذكروا أنكم تعملون، في خدمة مولانا الملك
أشار إليه القبطان بالصمت في صرامة، ثم عاد يلتفت إلى الغريب، وهو يقول:
- هذا صحيح.
وأضاف آخر في حزم:
- أو ساحر طيب.

- لو أن ما تقوله صحيح، لما تساءلت عن مصير الجميع، بعد أن أزحت الخطر، فلا يفعل هذا سوى شخص نبيل.
غمغم ثالث:
- المهم أنه ليس شيطاناً
أسكتهم القبطان بإشارة من يده، قبل أن يقول في حزم:
- لهذا، نحن ندين لك جميعا بحياتنا..
ثم اعتدل، هاتفا:
- أيها الرجال.
مع آخر هتافه، انحنى الجميع في حركة واحدة أمام الغريب، الذي بدا، ولأول مرة مرتبكا، وهو يقول:
- لا.. لا تنحنوا أمامي.. المرء لا ينبغي أن ينحني إلا لـ..
قاطعه (هولان) في حزم:
- للملك.
هز الغريب رأسه، قائلاً:
بل لمالك كل الملوك قالها واستدار ليدلف إلى كابينته، ويغلق بابها خلفه، فاعتدل القبطان، هاتفاً:
- هيا.. فليعد كل منكم إلى موضعه.. سنواصل الإبحار..
اندفع الرجال، كل إلى موقعه بالفعل، فالتقى حاجبا (هولان)، وهو يتجه نحو القبطان، الذي عاد إلى الدفة، ووقف إلى جواره بضع لحظات في صمت، قبل أن يسأله:
- هل تثق به؟
أوما القبطان برأسه إيجابا، وقال في حزم:
- لقد أنقذ حياتنا.
أجابه (هولان) في توتر:
- أنقذ حياتكم من خطر، قادكم بنفسه إليه.

تطلع إليه القبطان بنظرة جانبية، قبل أن يعود بنظره إلى الأمام، قائلا:
- أسلوبك هذا يؤكد أنك لا تثق به.. أليس كذلك؟!
غمغم (هولان) في توتر:
- لا أثق بهدفه.
صمت القبطان بضع لحظات، قبل أن يقول في حزم:
- هل رأيت ذلك الشيء، الذي أطلق منه الصواعق، التي سحقت الوحش؟!
قال (هولان) في حذر:
- كلنا رأيناه.
سأله القبطان:
- ألا تعتقد أنه، بسلاح كهذا، كان بإمكانه أن يسيطر على كل شيء.. حتى على قوات مليكنا نفسه، وأن يجبرنا على القيام بهذه الرحلة، على الرغم منا؟!
تردد (هولان) لحظة، قبل أن يجيب، في حذر أكثر:
- الواقع أنه لو استبعدنا..
ولكن القبطان عاد يسأله، في حزم شديد:
- ألم يكن بإمكانه هذا؟!
صمت (هولان) لحظة، ثم أجاب في ضيق:
- بلى.
هز القبطان رأسه، وقال في حزم:
- مادام لم يفعل، فهو رجل جيد حتما.
انعقد حاجبا (هولان) في توتر، وغمغم:
- ربما..
ودون أن يضيف كلمة أخرى، اتجه نحو قمرته، مضيفا في صرامة، وكأنما يحاول استعادة مكانته:

- أيقظوني، إذا ما جد جديد.
تابعه القبطان ببصره، حتى اختفى داخل السفينة، ثم هز رأسه، مكررا في حزم:
- إنه رجل جيد حتما
لم يدركم واصل قيادة السفينة بعدها، في قلب المحيط الكبير إلا أن الضوء لم يلبث أن لاح في الأفق، ثم تصاعد في سرعة، من خلف الغيوم الكثيفة؛ ليملأ المكان كله، ويكشف المحيط الممتد إلى مالا نهاية، دون أن تلوح في الأفق أية أراض جديدة، فغمغم القبطان:
- عجبا! الغريب قال: إننا سنبلغ الهدف بعد يوم واحد، وها هو ذا اليوم قد انقضى، ولست ألمح أرضا جديدة
أدار بصره فيما حوله، وهتف بالمراقب، الذي يعتلي الصاري الكبير:
أبلغني بأي شيء تراه.
أجابه المراقب:
- بالتأكيد يا قبطان.. بالتأكيد.
عاد القبطان يدير عينيه فيما حوله، و..
وفجأة، التقطت أذناه ذلك الصوت العجيب صوت منتظم، رفيع، حاد، بدا وكأنه ينبعث من كابينة الغريب، ويتواصل بارتفاع مطرد، حتى احتل مسامع الجميع، فهتف أحد البحارة في توتر بالغ:
- ما هذا بالضبط؟!
صاح به القبطان:
اطرقوا باب كابينة الغريب.. هناك أمر ما يحدث في الداخل حتما.

اتجه البحار نحو الكابينة، وهم بطرق بابها، وذلك الصوت المنتظم يتصاعد أكثر..
وأكثر..
وأكثر..
ثم فجأة، وقبل أن يبلغ البحار الكابينة بمتر واحد، انفتح بابها فجأة وظهر الغريب على عتبتها، وهو يحمل في يده قرصا من مادة عجيبة، ينبعث منه ذلك الصوت المنتظم، ويضيء منتصفه بضوء أحمر متقطع واتسعت عيون الجميع، وهم يتراجعون في توتر بالغ، محدقين في ذلك القرص، في يد الغريب، الذي بدا وكأنه لا يشعر حتى بوجودهم، وهو يتطلع إلى السماء، وإلى السحب الكثيفة، التي تخفيها تماما، وكأنما ينتظر شيئا ما، بكل شغف الدنيا، فقال القبطان لأحد رجاله، في توتر بالغ:
- أيقظ الحكيم (هولان).. أيقظه فورا
اندفع الرجل لتنفيذ الأمر، وتبعه القبطان ببصره لحظة، قبل أن ينتزعه أحد البحارة من أفكاره، وهو يشير إلى السماء، صارخا بانفعال جارف عنيف:
- انظر.. انظر يا قبطان
وبحركة سريعة، رفع القبطان عينيه، إلى حيث يشير الرجل..
ثم انتفض جسده..
انتفض بعنف..
بمنتهى العنف..

☆ ☆ ☆

٤ - الغريب..

فرك (هولان) عينيه في قوة، قبل أن يعاود التحديق، في ذهول تام، في ذلك الجسم اللامع، الذي استقر على متر واحد من سطح الماء، على مسافة أمتار قليلة من السفينة، كطير معدنى هائل، امتد جناحاه إلى جانبيه، وعلته قبة من الزجاج السميك..
وفي الجانب الآخر للسفينة، اتسعت عيون البحارة، وهم يحدقون بدورهم في ذلك الجسم، وأطرافهم ترتجف ذعرا وارتياعا، وقبطانهم يقول، بكل توتر وانفعال الدنيا:
- لقد هبط من بين الغيوم أيها الحكيم.. كلنا رأيناه يخترقها فجأة، ثم يهبط نحونا مباشرة.. لقد حاولنا الابتعاد عنه، إلا أنه ظل يتبعنا أينما ذهبنا، ثم لم يلبث الغريب أن أمرنا بالتوقف.
وطلب منا ألا نخاف منه..
هتف (هولان):
- وما هذا الشيء بالضبط؟!
هز القبطان رأسه، مجيبا في انفعال جارف:
- لست أدرى.. حقا لست أدرى
انتفض (هولان) في قوة، وكأنما ينفض عن نفسه انفعالاته، قبل أن يتلفت حوله في عصبية، قائلاً:
- أين الغريب؟!
أشار القبطان بسبابة مرتجفة إلى كابينة الغريب، مجيئا:
- هناك.
استدار (هولان)، متجها إلى الكابينة، فتابع القبطان متوترا:
- كان يقف هنا، ممسكا بقرص لامع عجيب، حتى استقر ذلك الطائر المعدني إلى جوارنا، فعاد إلى كابينته

ثم هتف فجأة في حدة:
- إنه ساحر.. ساحر شيطاني رهيب..
عض (هولان) شفته السفلي في توتر، وهو يواصل طريقه نحو الكابينة، التي اقتحمها في غلظة، هاتفا:
- ما الذي يحدث هنا بالضبط؟!
لم يكد ينطقها، حتى تجمد لعابه في حلقه، واتسعت عيناه عن آخرهما، وسرت في جسده قشعريرة باردة كالثلج، وهو يحدق في الغريب، وفي هيئته الجديدة العجيبة كان قد تخلى عن ثيابه، وارتدى بدلا منها ثوبا لامعا، يبدو كأنه من قطعة واحدة، وحمل كرة من الزجاج، لها خلفية من نفس مادة ثوبه اللامع، وفي يده حقيبة صغيرة، من مادة تشبه مادة ذلك الإطار الذي كانت تتراقص على زجاجه الشياطين الصغيرة..
وفي ذهول مرتجف، تساءل (هولان):
- ما.. ما هذا بالضبط؟!
أجابه الغريب بابتسامة هادئة:
- هذا أنا أيها الحكيم
جف حلق (هولان)، وهو يسأله:
- أهذه.. أهذه ثياب السحرة؟!
اتسعت ابتسامة الغريب، وهو يقول:
- لا يوجد أي سحر في الأمر أيها الحكيم.. كل ما بهرك مجرد علم.. علم سيبلغه قومك ذات يوم.. ليس في حياتك أو حياة أحفادك.. بل في مستقبلكم.. هذا نتاج حتمى للتطور
شعر (هولان) بساقيه ترتجفان، وهو يبحث عن أي مقعد يمكن أن يحتمل جسده، وهو يقول:
- علم.. أي علم هذا، الذي يمكن أن يصنع هذه المعجزات؟!
هز الغريب رأسه، قائلاً:

- ليست معجزات.. إنها تطورات طبيعية.. صدقني
جلس (هولان) على قطعة من الخشب، وهو يتساءل، بصوت خنقه جفاف حلقه الشديد:
- وما ذلك الشيء في الخارج؟!
التقط الغريب نفسا عميقا، قبل أن يجيب:
- الهدف
رفع (هولان) عينيه إليه، وتمتم:
- الهدف؟!
تطلع الغريب إلى وجهه المجهد في إشفاق، ثم لم يلبث أن جذب مقعدا، وجلس أمامه، قائلاً:
- اسمعنى جيدا يا (هولان).. أنت رجل ذكي مخلص، وتمتلك عقلية قادرة على سبر الكثير من الأمور، وعلى الرغم من ثقتى بأنه من المستحيل، على الرغم من كل هذا، أن تستوعب الحقيقة، إلا أنني سأشرح لك كل شيء
غمغم (هولان) في صوت مبحوح:
- أنت من هناك.. أليس كذلك؟!
رئد الغريب في حيرة:
- هناك؟!
أشار (هولان) بيده، إشارة غير ذات معنى، وهو يقول، بصوت متحشرج، من فرط الانفعال:
- من مستقبلنا؟!
تراجع الغريب بحركة حادة، وهو يحدق فيه بمنتهى الدهشة، قبل أن ترتسم على وجهه ابتسامة كبيرة، قائلاً:
غمغم (هولان):
- إذن أنت من هناك

- يا إلهى! هذا الافتراض، في زمن كزمنك، يكفي لوصفك بالعبقرية يا رجل.. لم أكن أتصور أنه من الممكن، بأي حال من الأحوال، أن تخطر الفكرة ببال أحدكم، مهما جمح خياله يا إلهى! لست أصدق هذا!

تراجع (هولان) هذه المرة، وهو يقول

- من أين أنت إذن؟!

اتسعت ابتسامة الغريب أكثر وأكثر، وهو يميل نحوه، قائلاً:

كلا.. لست من مستقبلكم

اعتدل الغريب، قائلاً:

- أخبرتك أننى من بلاد بعيدة.. بعيدة للغاية.. بلاد تبعد أكثر بكثير مما تبعد تلك الغيوم، التي لا تنقشع أبدا

ثم عاد يميل نحوه، مستطردا:

- الواقع أننى من كوكب آخر

ردد (هولان) في دهشة حائرة:

- كوكب آخر؟! ماذا تعنى بكوكب آخر؟!

تنهد الغريب في عمق، وقال:

- لا يدهشني أنك تجهل ما أعنيه بكلمة كوكب هذه.. بل إننى واثق من أنه ليس لديكم عالم فلك واحد هنا.. بل وربما لن يكون لديكم أبدا.

ونهض من مقعده، وهو يضيف في اهتمام:

- وعلى الرغم من هذا، فسأشرح لك كل شيء..

صمت لحظة، وكأنما يرتب الأمر في ذهنه، قبل أن يتابع:

- الواقع أن ما حدث لم يكن أمرا متوقعا أبدا؛ فعندما بدأت رحلتنا، خارج مجموعتنا الشمسية، كنا نبحث عن كواكب أخرى تضم مخلوقات عاقلة، ولكن العجيب أن كوكبكم لم يكن ضمن الكواكب المرشحة لوجود حياة عاقلة على سطحها.. ربما

بسبب الغيوم الكثيفة، التي تحيط به، والتي منعتنا طويلا من رصدكم، أو معرفة ما.. ولكن عطلاً طارئا أصاب سفينتنا الأم، بالقرب من يدور عنده هنا، وبينما انهمك الزملاء في إصلاحه، قررت أنا أن أستقل مركبة فضائية متنقلة؛ لأخترق بها تلك الغيوم، وأفحص كوكبكم، الذي أخبرتنا مجساتنا الإليكترونية أن مساحته، وجاذبيته، ودرجات الحرارة على سطحه، ونسبة الأكسجين في هوائه، كلها تناسب حياتنا فيه، وترجح وجود حياة ما. عليه..

وتوقف؛ ليسأل (هولان) في إشفاق:

- هل يمكنك استيعاب هذا؟!

هز (هولان) رأسه نفيا في انبهار، فابتسم الغريب، ولكنه تابع، وكأنما يحتاج إلى إفراغ ما بصدره، بأكثر مما يعنيه أن يفهمه الحكيم:

ووفقا للحسابات الإليكترونية، لم تكن هناك سوى بقعة واحدة صالحة للهبوط على كوكبكم، وهي هذه النقطة، التي نحن فيها الآن، نظرا لتوزيع الأقطاب العجيب هنا، لذا فقد درت بمركبتي حول كوكبكم، وغادرتها بوساطة صواريخ دفع منفردة، هبطت بها في منطقتكم، في حين واصلت المركبة دورانها حولكم، خارج نطاق الغيوم، وكانت خطتي تعتمد على استكشاف حضارتكم، التي تقل كثيرا عن حضارة كوكبي، لفترة من الوقت، بوساطة ما أحمله معي من أجهزة، ثم أستخدم صواريخ الدفع مرة أخرى، للصعود إلى حيث مدار مركبتي، للعودة بها إلى السفينة الأم..

هز (هولان) رأسه في قوة، قائلاً:

لست أفهم حرفا واحدا مما تقول

عاد الغريب يبتسم، وتابع وكأنما لا يعنيه الأمر:

- ثم واجهت حربكم الأخيرة، مع أعداء مملكتكم، ووقفت أرصد ما يحدث، حتى فوجئت بسهم طائش يخترق جهاز صواريخ الدفع، ويتلف وحدة التحكم فيه تماما، وكان معنى هذا أنه لم يعد باستطاعتى العودة إلى مدار مركبتي، وأنه قد يحكم على بالبقاء في كوكبكم إلى الأبد، ما لم أجد وسيلة لبلوغ هذه البقعة، التي يمكن أن تهبط فيها المركب.

زفر (هولان) في عصبية، وقال:

- مازلت عاجزا عن استيعاب الأمر، إلا أن باستطاعتي أن أفهم الآن، لماذا دفعتنا إلى القدوم إلى هنا، ولكن ما يحيرني بحق هو: كيف أمكنك أن تتحدث لغتنا، على الرغم من أنك من مكان آخر كما تقول؟!

تطلع إليه الغريب بابتسامة كبيرة، وهو يقول:

- الواقع أنني لا أتحدث لغتكم، ولكن المترجم الآلي هو الذي يفعل هذا.

هتف (هولان) في ذهول:

- الماذا؟!

دفع الغريب سبابته في أذنه، والتقط من داخلها قرصا صغيرا، وهو يقول:

- انظر.. هذا الشيء الصغير هو نوع من الكمبيوتر المتطور، مهمته أن يلتقط كل أحاديثكم، وكل ما تتبادلونه من كلمات، ثم يقوم بتحليلها واستنباط العلاقات بينها؛ ليصنع قاموسا خاصا بكم، وبعدها، وعندما أضعه في أذني، فهو يترجم فورا كل ما تنطقون به، إلى لغتى أنا، أما لو نظرت إلى سقف حلقي، فستجد به شريحة إليكترونية صغيرة، مهمتها أن تترجم كل ما أنطق به إلى لغتكم أنتم.. لهذا كانت لكنتي تبدو لكم دوما عجيبة.

حدق (هولان) في القرص، الذي أعاده الغريب إلى أذنه، وهتف بكل دهشة الدنيا:
- أتعنى أن هذه الأشياء الصغيرة، هي التي تتحدث لغتنا؟!
أوما الغريب برأسه إيجابا، وقال:
- بالضبط.
وصمت لحظة، ثم تابع في خفوت، وبابتسامة حرجة:
- معذرة لأننى خدعتكم، ودفعتكم للقدوم إلى هنا، ولكن لم تكن أمامي أية وسيلة أخرى.. وسأعوضكم عن كل ما بذلتموه من أجلى.
سأله (هولان):
- بماذا؟!
أشار الغريب بيده، قائلاً:
- سأترك لكم كل هذه الأشياء، التي تحويها جعبتي، فيما عدا جهاز الرصد، والكمبيوتر الدفترى، فهما يحويان كل تفاصيل رحلتي على كوكبكم، ولا يمكنني تركهما هنا.
ثم ابتسم، مستطردا:
- وللأسف، لن يمكنكم الاستفادة مما سأتركه، إلا على نحو محدود للغاية؛ لأنه يفوق مداركم بكثير، ولكنني أتخيل الذهول الذي سيصيب العلماء في مستقبلكم، عندما يعثرون على أشيائي، وسط ما سيتركه زمنكم من آثار.. أراهن أن هذا سيصبح بالنسبة لهم لغزا، سيشغلهم لفترة طويلة من الزمن.
حدق (هولان) في جعبة الغريب، قائلاً في انبهار:
- هل ستترك كل هذا لنا؟!
غمغم الغريب مبتسما:
- نعم.. كل هذا.. وأرجو أن تبلغ تحياتي إلى مولاك، مع نصيحتي له بأن يضع كرة الضوء على قمة قصره.. هذا سيبهر

شعبه لسنوات وسنوات، وسيرهب أعداءه طويلا..
تمتم (هولان):
- سأفعل.
اتسعت ابتسامة الغريب، وربت على كتفه، وهو يقول:
- صدقني.. سأفتقدك كثيرا أيها الحكيم
تنهد (هولان)، قائلاً:
- وأنا أيضا.. سأفتقدك كثيرا أيها الغريب
وبدون كلمة إضافية، وتحت سمع وبصر البحارة والقبطان غادر الاثنان الكابينة، واتجها نحو حاجز السفينة، المواجه للمركبة الفضائية، التي تحلق فوق سطح الماء، وضغط الغريب زرا في جهازه، فامتد لوح معدنى براق، من جانب المركبة الفضائية، إلى حاجز السفينة، وارتفعت القبة الزجاجية فوقها، لتفسح الطريق لقائدها، فقال (هولان)، والانبهار لم يفارقه بعد:
- - صحيح أنك لم توصلنا إلى تلك الأرض الجديدة، ولكنني واثق من أن روايات البحارة والقبطان، عما حدث في هذه الرحلة، ستجعل منك أسطورة لا تنمحي، في مستقبل كوكبنا كله.
تنهد الغريب، قائلاً:
- هذا أكثر مما حلمت به.
ثم التقط من حقيبته ورقة، ناول قبطان السفينة إياها، قائلاً:
- هذه الخريطة ستساعدك على العودة إلى وطنك، دون أن تعبق الجزر الغارقة رحلتك.. احتفظ بها، فقد صنعها الكمبيوتر لمسارنا، وستصبح جزءا من تاريخ التطور البحري في كوكبك يوما ما..
قال القبطان في دهشة مبهورة:
- صنعها ماذا؟!
ربت الغريب على كتفه، قائلا بابتسامة كبيرة:

- لا عليك.. احتفظ بها فحسب
ثم صعد إلى اللوح البراق، الذي يقوده إلى مركبته، فسأله(هولان)، قبل أن يتجه إليها:
- ألا يمكنك أن تشبع فضولي، بالإجابة عن بعض الأسئلة التي ما زالت تحيرني؟!

أجابه الغريب في هدوء، وهو يسير نحو مركبته:
- بالتأكيد.. هات ما لديك.
قال (هولان) في لهفة:

- لقد فهمت لماذا تختلف ملامحك عن ملامحنا، ولكن ما هذه النقط السوداء على رأسك.. ليس لأحدنا مثلها هنا..
ابتسم الغريب، وهو يجلس على مقعد قيادة مركبته الفضائية، قائلاً:
- الواقع أن أكثر ما أدهشني، عندما هبطت على كوكبكم هذا، هو التشابه التشريحي المدهش بيننا، باستثناء أن رءوسكم أكبر حجما، وعيونكم أكثر اتساعا، وربما يعود هذا إلى الغيوم الكثيفة، التي لا تنقشع عن كوكبكم أبدا، ثم إن رءوسكم تخلو تماما من الشعر وربما للسبب نفسه أيضا..
قال (هولان) في دهشة:
- الشعر؟! وما هذا الشعر؟!
أشار الغريب إلى رأسه، قائلاً:
- ألياف رقيقة رفيعة، تغطى الرءوس في كوكبي، ولقد اضطررت لحلقها تماما، حتى لا أثير الدهشة أو الفزع هنا، ولكنها تعاود النمو، وتترك تلك النقاط السوداء عند منابتها.
سأله (هولان)، عندما رآه يستقر على مقعد القيادة:
- وما اسمك الحقيقي؟!
التقط الغريب نفسا عميقا، وهو يجيب بابتسامة هادئة:
- (حسام).. اسمى (حسام).
هتف به:
- وما اسم ذلك الـ.. الكوكب، الذي أتيت منه؟!
ضغط الغريب زر إغلاق القبة الزجاجية، وهو يجيب،، بابتسامة تتسع:
- اسمه كوكب الأرض.
ومع قوله، ضغط أزرار مركبته الفضائية، فارتفعت به عاليا، ثم انطلقت بفرقعة محدودة؛ لتختفى خلف الغيوم، التي تحيط

بذلك الكوكب دوما؛ ولتضع مشهد النهاية، الذي لن ينمحي من ذاكرة (هولان) والقبطان وبحارته قط..
نهاية الرحلة..
أو نهاية الأسطورة..
أسطورة الغريب، القادم من هناك..
من كوكب الأرض..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

قلب البحر

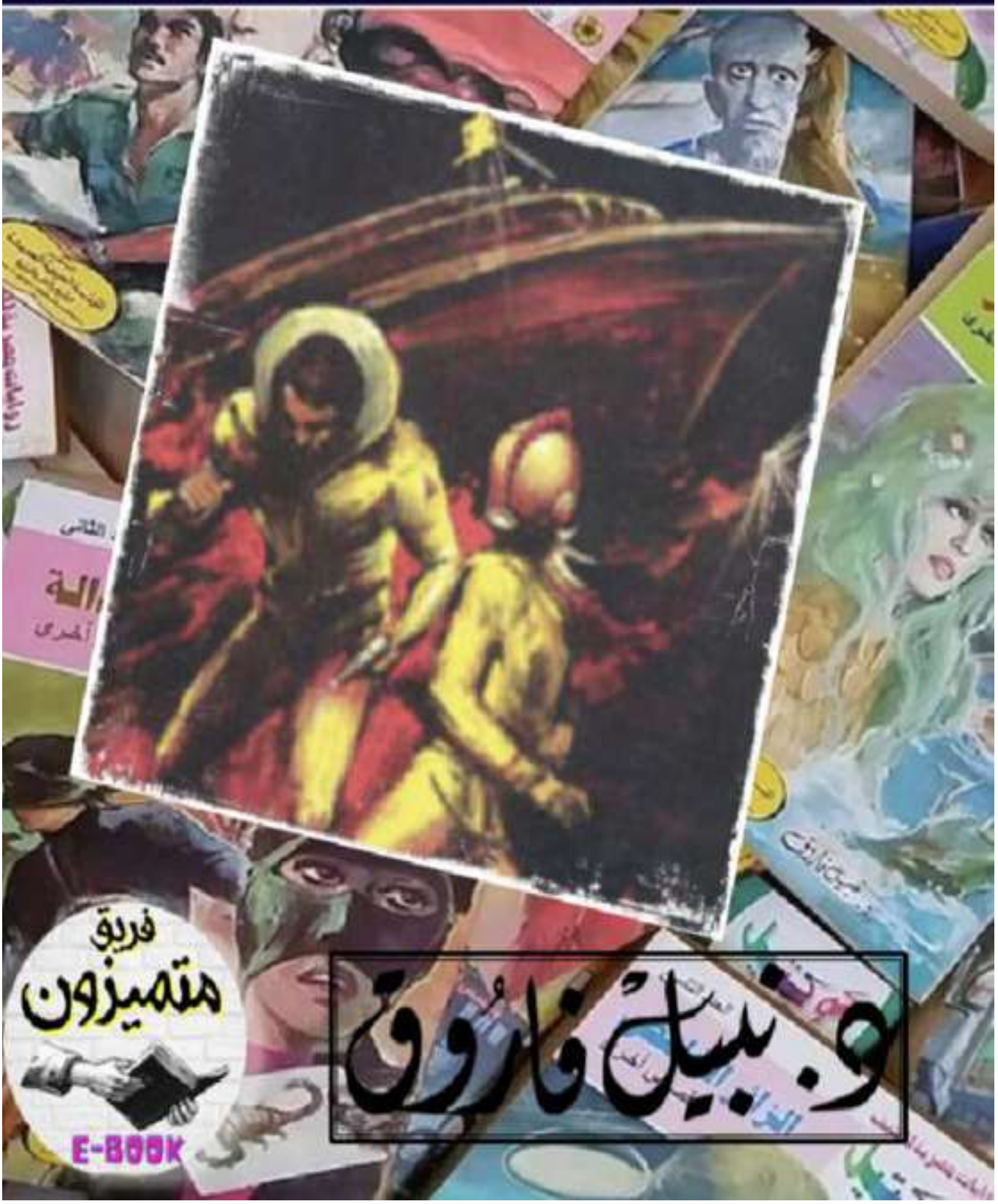

نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

قلب البحر

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- السفينة..

«سفينة مجهولة تقترب من الميناء..»
انطلق النداء بغتة، عبر جهاز الاتصال، في مكتب العميد (ممدوح)، مدير أمن ميناء الإسكندرية، الذي لم يكد يسمع العبارة، حتى اعتدل على مقعده في حركة حادة، وضغط زر جهاز الاتصال؛ متسائلاً:
- مجهولة؟! ماذا تعنى بأنها مجهولة يا رجل؟! أية سفينة تدخل مياهنا الإقليمية، لا بد وأن تحدد هويتها وبياناتها، ومن غير المعقول أن تصل سفينة إلى الميناء، دون أن تكون لدينا بيانات كاملة عنها، من خلال ضابط اتصالها، أو الشركة المالكة لها، أو حتى قوات حرس السواحل!
بدا من الواضح أن الرجل، على الطرف الآخر لجهاز الاتصال، يعاني مزيجا من الحيرة والارتباك والتوتر، وهو يجيب:
- لم تصلنا أية معلومات، بشأن هذه السفينة بالتحديد.
هتف العميد (ممدوح)، وقد انتقلت إليه انفعالات الرجل:
- هذا مستحيل!
أجابه الرجل في سرعة، وكأنه يلقى ما لديه:
- هذا ما حدث
التقى حاجبا العميد (ممدوح) في شدة، وعقله يلتهب بأسئلة، تكاد تلتهم كل ذرة من كيانه..
سفينة مجهولة؟!
أي مصطلح هذا؟!
إنه يعمل في إدارة أمن الميناء، منذ خمسة عشر عاما تقريبا..
ولم يسمع هذا المصطلح مرة واحدة!

فالمفترض - وفقا لكل القوانين البحرية، والمعايير والأعراف الدولية - أن تعلن أية سفينة هويتها في وضوح، فور دخولها إلى المياه الإقليمية لأية دولة في العالم، وأن تحصل على تصريح بدخول أي ميناء، وإلا فمن حق القوات البحرية أو قوات حرس السواحل، أن تتصدى لها، وتوقفها بالقوة، حتى ولو اقتضى الأمر نسفها نسفا، حماية للأمن القومي..

وهذا لم يحدث مرة واحدة، منذ التحق بالعمل، وحتى لو حدث، فسيتم التعامل مع السفينة المعتدية، عند حدود المياه الإقليمية، وعلى مسافة مئات الأميال البحرية من الميناء..

ولو تجاوز الأمر كل الحدود، لسبب ما، ونجحت السفينة في تجاوز نطاق القوات البحرية، وقوات حرس السواحل، واتجهت عنوة نحو الميناء، فسيتم إرسال تحذير بما حدث، حتى تنتظر قوات الأمن وصول السفينة، وتسعى لفرض سيطرتها عليها، فور رسوها على رصيف الميناء..

«السفينة المجهولة تواصل الاقتراب، بسرعة تتجاوز الحدّ الأمني..»

انتزعت عبارة الرجل العميد (ممدوح) من أفكاره، وأسئلته الملتهبة، فازداد انعقاد حاجبيه، وهو يقول في دهشة عصبية:

- ألم تبطئ من سرعتها، استعدادا لدخول الميناء؟!

أجابه الرجل في توتر بلغ ذروته:

- مطلقا.. إنها تنطلق نحو الرصيف بسرعة عالية، وفي خط مستقيم، ولا تستجيب للتحذيرات اللاسلكية أو الضوئية أو إشارات الأعلام البحرية.

شعر العميد (ممدوح) بقشعريرة عجيبة، تسري في كل ذرة من كيانه، وهو ينهض من مكانه، متمتما:

- عجبا! ولكن هذا يمكن أن...

لم يتم عبارته، وهو يندفع، في توتر متناه، نحو النافذة الكبيرة، في نهاية حجرة مكتبه، والمطلة على رصيف الميناء مباشرة، والتقط منظاره المقرب بحركة حادة، قبل أن يصل إليها، و...
وتجمدت كل ذرة في كيانه..
واتسعت عيناه عن آخرهما..
فالأمر لم يكن يحتاج إلى أية مناظير، مقربة أو مكبرة..
لقد كانت السفينة واضحة للعين المجردة..
واضحة في مشهد رهيب..
رهيب للغاية..
كانت سفينة سوداء، داكنة السواد، يرفرف على ساريتها علم كبير غير واضح المعالم..
وكانت تتجه نحو الميناء مباشرة..
وبسرعة مخيفة..
ولثانية أو ثانيتين، ظل العميد (ممدوح) يحدق في المشهد، ثم لم يلبث أن انتفض في عنف، وكأنما ينتزع نفسه من حلم عميق، ثم أزاح (ضلفة) النافذة الزجاجية، صارخا بكل قوته وانفعاله:
- أخلوا المكان بأقصى سرعة.
وكأن الجميع كانوا ينتظرون صيحته هذه؛ فلم تكد تنطلق حتى انطلق الجميع معها، يعدون في كل الاتجاهات، دون نمط واضح أو محدد..
وبأقصى سرعة..
لقد تفجر نهر من الذعر والهلع في نفوسهم، فتركوا ما بأيديهم، وانطلقوا محاولين الفرار، من ذلك الوحش المعدني الطائش، بأية وسيلة..
أما العميد (ممدوح)، فقد بلغ توتره ذروة، لم يبلغها من قبل قط، وهو يراقب تلك السفينة المجهولة، وهي تقترب..

وتقترب..
وتقترب..
وبكل قوته، تشبثت أصابعه بإطار النافذة، وتجمد جسده، على نحو لم يحدث في حياته كلها، عندما صارت السفينة الرهيبة على بعد أمتار قليلة، من رصيف الميناء..
ثم كان الارتطام..
أبشع مشهد رآه في حياته كلها..
سفينة ضخمة، ارتطمت برصيف الميناء، وحطمت كل ما أمامها بمنتهى العنف، قبل أن تثب فوق اليابسة، وتميل على نحو مخيف وهي تواصل اندفاعها، واكتساح كل ما يعترض طريقها..
واتسعت عينا العميد (ممدوح) عن آخرهما..
فالسفينة السوداء كانت تتجه، في زحفها على الجزء اليابس، نحو النافذة التي يقف عندها مباشرة..
وبسرعة رهيبة..
ولثانية، تجمد العميد (ممدوح) في مكانه أكثر..
وخلال تلك الثانية، بدت له السفينة، وكأنها تتضخم، وتتضخم، حتى تحولت إلى جدار أسود هائل، راح يتعاظم ويتعاظم، قبل أن يستيقظ عقل العميد (ممدوح) بغتة، ويطلق إشارة خطر إلى عضلاته، التي انتشر في عروقها الأدرينالين، الناشئ عن الانفعال، فانقبضت كلها بمنتهى القوة، ودفعت جسده إلى الخلف، في نفس اللحظة التي ارتطمت فيها مقدمة السفينة المجهولة، بنافذة حجرة مكتبه، وحطمتها بمنتهى العنف، فتناثر زجاجها في كل اتجاه..
ورفع (ممدوح) ذراعيه؛ في محاولة لحماية وجهه، من الزجاج المتطاير، وهو يصرخ بانفعال غريزى:
- مستحيل! مستحيل؟

لم يكن يرى ما أمامه، ولكنه كان يدرك مع دوى الأصوات من حوله، أن مقدمة السفينة الرهيبة تواصل تحطيم محتويات مكتبه، وهي تتجه نحوه أكثر..
وأكثر..
وأكثر..
ثم فجأة، توقف كل شيء..
وتلاشى الضجيج إلى حد كبير..
ومع توتره الزائد، خفض العميد (ممدوح) ذراعيه عن وجهه، واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحدق فيما أمامه..
في ذلك الامتداد المعدني الأسود الهائل، الذي بدا وكأنه بلا نهاية..
فالسفينة السوداء المجهولة، توقفت، بعد أن حطمت كل ما أمامها، على مسافة ثلاثين سنتيمترا منه فحسب..
وكان هذا أعنف موقف واجهه في حياته كلها..
أعنف موقف على الإطلاق..
ليس في حياته فحسب، ولكن في حياة ميناء (الإسكندرية)..
وفي تاريخه كله.

☆ ☆ ☆

بدا التوتر واضحا، على وجوه الحشد الهائل، من رجال الشرطة والجيش، الذين أحاطوا بتلك السفينة السوداء، التي استقرت على رصيف الميناء، في مشهد رهيب، ينافس أعنف مشاهد أفلام الكوارث، في السينما العالمية.
كان ثلثها الخلفي فقط ما زال داخل الماء، في حين استقرَّ ثلثاها الأماميان فوق الرصيف، وغاصت مقدمتها كلها في قلب مبنى أمن الميناء الرئيسي، في حين مالت السفينة كلها على جانبها

الأيمن، على نحو يوحي بأنه لولا استناد مقدمتها على جدران المبنى الذي اقتحمته، لسقطت على جانبها..
أما ما يحيط بها، فقد كان صورة مجسمة للدمار والفوضى، حتى أن مدير الميناء كان يهتف، في مزيج من الغضب والمرارة:
- من سيتحمل تكلفة ما حدث؟! من سيتحمل مسئولية كل هذا؟! من؟!
أجابه العميد (ممدوح)، في غلظة لم يتعمدها:
- اطمئن يا رجل.. إنه ليس أنت بالتأكيد..
هتف مدير الميناء في حدة:
- من إذن؟!
زفر العميد (ممدوح)، بكل ما يعتمل في صدره من انفعالات والتهابات، قبل أن يقول في حدة:
- لا يمكنك أن تتصور كم أتمنى معرفة جواب هذا السؤال.
لم يكد يتم عبارته، حتى جذب انتباهه صوت سيارة تقترب من المكان، فاستدار إلى مصدر الصوت، وهو يتوقع رؤية سيارة من سيارات الشرطة، أو حتى من سيارات الجيش، لذا فقد انعقد حاجباه بشيء من العصبية، عندما لاحظ أنها سيارة مدنية عادية، يقودها رجل وسيم الملامح إلى حد ما، يرتدى حلة مدنية أنيقة، وغمغم:
- من هذا بالضبط؟!
استدارت العيون كلها إلى السيارة، التي توقفت على مسافة ثلاثة أمتار فحسب من يسار السفينة السوداء، قبل أن يغادرها الرجل، الذي بدا هادئا إلى حدٍ مدهش، يتنافى مع كل قواعد العقل والمنطق، وهو يتطلع إلى السفينة، قبل أن يقول، في صوت لا يقل هدوءا عن ملامحه:
- إنها كما وصفوها تماما..

ولسبب ما، لم يحتمل العميد (ممدوح) هذا الهدوء الزائد، فاتجه نحو الرجل، وقال في عصبية واضحة:
- من أنت بالضبط؟! وكيف دخلت بسيارة مدنية إلى هنا، في مثل هذه الظروف، و....
قاطعه الرجل، وهو يلتفت إليه في هدوء:
- اسمي (رأفت).. من جهاز المخابرات.. وأنا أتولى القضية، منذ هذه اللحظة..
انعقد حاجبا مدير الميناء في توتر، وهو يردد:
- المخابرات؟!
وسرت همهمة غير واضحة في المكان، وكأنما يتناقل الجميع الخبر، في حين تساءل العميد (ممدوح) بنفس العصبية:
- وما شأن المخابرات بأمر كهذا؟! اقتحام سفينة مجهولة للميناء، أمر يخص الأمن العام؟!
ابتسم (رأفت) هذا في هدوء، وهو يقول:
- ربما كان للمسئولين رأى آخر.
قالها، وهو يتجه نحو السفينة، فلحق به العميد (ممدوح)، قائلاً، وهو يحاول عبثا السيطرة على عصبيته:
- المفترض، وفق ما تعلمناه، أنه لا شأن للمخابرات بالأمور الداخلية، وأن...
قاطعه (رأفت)، وهو يسأله في اهتمام:
- هل صعد أحد إلى سطحها بعد؟!
مط (ممدوح) شفتيه، وكأنما لم يرق له الأمر كله، إلا أنه أجاب في توتر شديد:
- ليس بعد.. لقد استخدمنا مكبرات الصوت؟ لنطالب من على سطحها بالاستجابة، ولكننا لم نتلق جوابا، ثم إن العَلَم الذي

يعلو ساريتها، غير معروف على الإطلاق، لا بين الأعلام الدولية، أو حتى البحرية..
رفع (رأفت) عينيه، يتطلع إلى العَلَم، الذي ما زال يرفرف على سارية السفينة، بلونه الذهبي المتألق، والذي تتوسطه دائرة حمراء لامعة، ثم قال في هدوء:
- بالتأكيد.
لم يتمالك (ممدوح) نفسه، فقال في حدة:
- يبدو أنك لا تبالي كثيرا بالأمر، يا رجل المخابرات..
خفض (رأفت) عينيه إليه في هدوء مدهش، وتطلع إليه بضع لحظات في صمت، قبل أن يقول:
- لا تجعل الظواهر تخدعك يا رجل.
أراد (ممدوح) أن يقول عبارة أخرى، يعارض بها قول رجل المخابرات، إلا أنه لم يكن قد فتح فمه بعد، عندما تابع (رأفت) في حزم:
- أريد ما يساعدني على الصعود إلى سطح السفينة..
هتف (ممدوح) في دهشة مستنكرة:
- ألن ننتظر رجال المعمل الجنائي أولاً؟!
أشار (رأفت) بيده، قائلا في حزم أكثر:
- دعنا نرى أولاً، ما إذا كنا سنحتاج إليهم أم لا.
قالها، ثم بدأ يلقى تعليماته إلى من حوله، لإعداد وسيلة الصعود إلى سطح السفينة المجهولة، فعقد (ممدوح) حاجبيه، وحاول أن يلوذ بالصمت لبعض الوقت، إلا إنه لم يستطع تمالك نفسه تماما، فقال في شيء من الحدة، حمل رنة غضب واضحة:
- وفقا لما تعلمناه، ينبغي ألا تتدخل، في مسرح الجريمة، قبل وصول رجال المعمل الجنائي.

لم ترق له أبدا تلك الابتسامة، التي ارتسمت على شفتي (رأفت)، وهو يقول:
- مسرح الجريمة؟! إننا لم نتأكد بعد ما إذا كنا أمام جريمة أم لا، يا سيادة العميد..
فجأة، ومع تلك الكلمات، انتبه (ممدوح) فجأة إلى حقيقة الموقف..
صحيح أن تلك السفينة قد اقتحمت الميناء على نحو لم يحدث من قبل قط، وأنها أثارت موجة غير مسبوقة من الرعب والتدمير في المكان، إلا أن شيئا لم يؤكد بعد أن هناك جريمة ما، وراء ما حدث..
ربما افترض الكل هذا، عندما لم تستجب السفينة لكل محاولات الاتصال، حتى بعد ارتطامها بالميناء..
أو ربما لأنه لم يظهر على سطحها شخص حي واحد، لا من طاقمها، ولا حتى من ركابها..
هذا جعل الكل يتصور أن السفينة تحمل جثث الجميع، الذين لقوا مصرعهم لسبب ما..
سبب لم يخطر ببال مخلوق واحد..
ولكن العنف، والمفاجأة، والتدمير، كلها دفعن الأذهان جميعها نحو افتراض وجود جريمة ما..
هذه هي الصورة الوحيدة، التي ملأت عقول الجميع، مع كل ما حدث..
ولكن رجل المخابرات هذا جاء ليلقى عبارة، فجرت سؤالاً مقلقا للغاية في الأذهان.
كل الأذهان..
لو أن ما حدث ليس بسبب جريمة ما، فما الذي يمكن أن يكون؟!

كاد السؤال ينتقل، من ذهن العميد (ممدوح) إلى لسانه، وهو يصعد مع (رأفت) وحدهما، إلى سطح السفينة، إلا أنه قرر أن يدَّخره لنهاية الفحص؛ فقد تثبت المشاهدة أن هناك جريمة ما بالفعل..

ولكن النظرة الأولى لم تكن توحى بهذا على الإطلاق فسطح السفينة الغامضة كان هادئا، نظيفا، خاليا من أي أثر للحياة..

أو حتى للموت..

لم تكن هناك جثثا متناثرة، كما رسم خيال (ممدوح) في البداية، أو بقع دماء، أو حتى بقع مجهولة الهوية.

كل شيء كان نظيفا هادنا، إلى درجة تتجاوز حتى ما يمكن وجوده، في الظروف العادية.

وبكل دهشة الدنيا، هتف (ممدوح):

- ما الذي حدث هنا بالضبط؟!

أدار (رأفت) عينيه في المكان، وهما يتجولان في أرجاء السفينة، وأجاب بنفس الهدوء، الذي ما زال يستفز العميد (ممدوح):

- سؤال جيد يا سيادة العميد؛ فحتى الآن، تبدو لي السفينة خالية تماما من البشر، أو من أي نوع آخر من الحياة.. بل يخيل إلى أنه لا يوجد بها حتى تلك الفئران، التي تتواجد عادة في قاع السفن.

تطلع (ممدوح) في توتر إلى قمرة القيادة، التي بدت مثالية أكثر مما ينبغي، وكل شيء فيها مرتب منسق، على نحو يوحى بأن يدًا لم تعبث بها، أو حتى تزاول فيها أية أعمال معتادة، منذ فترة طويلة للغاية، وعادت عشرات الأسئلة تعربد في رأسه، قبل أن يرفع عينيه مرة أخرى إلى ذلك العلم الذهبي، ذي الدائرة الحمراء اللامعة، مغمغما في عصبية شديدة:

- لست أفهم شيئا.. هذه السفينة تبدو وكأنها قد خرجت من حوض بناء السفن منذ قليل، ولم يتم تدشينها بعد!! كيف تجاوزت مياهنا الإقليمية، بحالتها هذه، دون أن يستوقفها أحد؟!

قال (رأفت)، في شيء من الصرامة:

- إنها لم تفعل.

استدار إليه (ممدوح)، يسأله في دهشة متوترة:

- لم تفعل ماذا؟!

أجابه (رأفت)، في صرامة أكثر:

- لم تدخل مياهنا الإقليمية؟!

هز (ممدوح) رأسه في عصبية، قائلاً:

- أي قول هذا يا رجل المخابرات؟! السفينة هنا بالفعل، ولقد تجولنا فيها معًا، وفحصنا كل حجراتها تقريبا، فكيف تقول إنها تدخل مياهنا الإقليمية؟!

استدار إليه (رأفت) بجسده كله، وهو يقول في حزم:

- ليس هذا ما أقوله يا سيادة العميد، بل ما تقوله تقارير رادارات القوات البحرية، وزوارق المراقبة التابعة لحرس السواحل.. هذه السفينة لم تعبر مياهنا الإقليمية قط، بل ظهرت فجأة، على بعد عدة أميال بحرية من الميناء.. نعم لا تحدِّق في وجهي بكل هذا الذهول المستنكر.. لقد سمعتني جيدا.. هذه السفينة ظهرت في البحر فجأة.. ظهرت من العدم.

وكانت مفاجأة للعميد (ممدوح)..

مفاجأة مذهلة..

☆ ☆ ☆

٢- الأشباح..

على الرغم من كل ما بذله من جهد، لم يستطع العميد (ممدوح) أبدا السيطرة، على تلك الارتجافة التي سرت في جسده، والتي تواصل رج مشاعره كلها، منذ كان مع رجل المخابرات على متن تلك السفينة الغامضة..

وعندما انتقلت تلك الارتجافة إلى أصابعه، وإلى رشفات الشاي الساخن، التي تناثرت من طرف شفتيه، شعر بحنق وسخط شديدين، حاول أن يخفيهما، مع توتره وارتجافته، خلف نبرات غاضبة زائفة، وهو يقول في عصبية بدت مبالغة:

- قلت: إنك لن تستعين برجال المعمل الجنائي..

هز (رأفت) كتفيه في هدوء، وهو يجيب:

- بل قلت: إننا لا ندري ما إذا كنا سنحتاج إليهم أم لا.. لقد صعدنا إلى سطح تلك السفينة، وكلانا يجهل تماما ما يمكن أن يواجهنا هناك، ثم...

قاطعه (ممدوح) بحدة مفاجئة:

- هراء.

التفت إليه رجل المخابرات، بوجه يخلو من الانفعالات تقريبا، فتابع في حدة:

- أراهن أننا، عندما صعدنا إلى تلك السفينة، كنت أنت تعلم ما سنجده هناك.

كان يتوقع غضبا أو استنكارا، أو محاولة غليظة للنفي على الأقل؛ لذا فقد أدهشه حقا أن ارتسمت ابتسامة هادئة، على شفتي رجل المخابرات، وهو يقول:

- ومن أين لي أن أعرف؟!

صاح به (ممدوح)، وقد تضاعف غضبه:
- إنك لم تُبدِ أية انفعالات مناسبة، عندما وجدنا ما وجدناه هناك..
مال (رأفت) نحوه، وسأله بمنتهى الهدوء:
- وما الذي وجدناه هناك؟!
تراجع (ممدوح) بحركة حادة، واتسعت عيناه في هلع عجيب، غير مبرر، قبل أن يقول في حدة:
- لا شيء.
وصمت لحظة، قبل أن يستطرد في حنق:
- وكان هذا كفيلا بأن يدهشك..
لم يعلق (رأفت) على القول لبضع لحظات، وإنما بدا أكثر غموضا من أية لحظة مضت، وهو يتطلع إلى عينى (ممدوح) مباشرة، في صمت تام، قبل أن يعتدل فجأة، ويقول في حزم:
- عندما تبدأ مهمتي بتقرير عن سفينة غامضة، تحمل علمًا مجهولا، ظهرت في مياهنا الإقليمية، وعلى شاشات راداراتنا فجأة، وكأنما نبتت من العدم، فمن الطبيعي أن يكون لدىَّ كل الاستعداد، لاستيعاب أية مفاجأة أخرى، على متن تلك السفينة، بعد أن ارتطمت بأهم مواني (مصر)، على نحو يوحي بأنها كانت تنطلق طوال الوقت بلا قبطان..
استوعب عقل (ممدوح) هذا المنطق بسرعة عجيبة؛ إذ لم يستغرق سوى ثوان ثلاث، حدق خلالها في وجه (رأفت)، قبل أن يسأله، في توتر لم يفارق صوته بعد:
- وهل رأى المسئولون أن المخابرات هي أفضل جهة، للتحقيق في أمر كهذا؟!
تراجع (رأفت) في مقعده، في هدوء عجيب، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه، وهو يواصل التطلع إلى (ممدوح) في صمت، لفترة

زادت عن الدقيقة الكاملة، قبل أن يسأله في اهتمام:
- هل سمعت يوما عما يُعرف باسم (تجربة فيلادلفيا)؟!
انعقد حاجبا (ممدوح) في توتر، وهو يتساءل:
- تجربة ماذا؟!
هز (رأفت) رأسه في بطء، ثم قال في حزم لم ينتقص من هدوئه المدهش:
- في ذروة الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد في أكتوبر ١٩٤٣م، في القاعدة البحرية الأمريكية في (فيلادلفيا)، أجريت تجربة مدهشة، كان من الممكن أن تغير تاريخ العالم كله..
تساءل (ممدوح)، وتوتره يتصاعد:
- أية تجربة تلك؟!
واصل (رأفت)، وكأنه لم يسمعه:
- لقد قام فريق من العلماء بتركيب عدد من الأجهزة، على المدمرة البحرية (DE – 173)، وعلى مدمرتين أخريين حولها، ثم بدأت التجربة، فأطلقت المدمرتان الأخريان طاقة ما، اتصلت بالأجهزة على متن (DE) 173 - ، وأحاطتها بطنين قوى، و.....
قاطعه (ممدوح) في عصبية:
- هل ستواصل الخوض في التفاصيل طويلاً؟!
رمقه (رأفت) بنظرة هادئة صامتة، قبل أن يعتدل بحركة حاسمة، قائلاً:
- اختفت.
ردد (ممدوح)، في توتر عصبي حذر:
- ما الذي اختفى؟!
أجابه (رأفت) في حزم:
- المدمرة (DE)173 ، اختفت تماما ([1])

فغر (ممدوح) فاه، دون أن ينطق بكلمة واحدة، فنهض (رأفت) من مقعده، وهو يواصل بنفس الحزم:
- في ذلك الحين، اختفت المدمرة، أمام أعين الجميع، بعد أن تمت إحاطتها بمجال كهرومغنطيسي قوى، وعلى الرغم من هذا فقد فشلت التجربة تماما؛ لأن المجال الكهرومغنطيسي، الذي أخفاها عن الأعين، أصاب كل البحارة على سطحها بما يشبه الجنون، بل وتسبب في مصرع اثنين من أفراد طاقمها أيضا، كما أن أجهزتها كلها أصيبت بالخلل؛ بسبب المجال نفسه، مما جعل الكل يجزم بأن فكرة الإخفاء، بهذا الأسلوب بالذات، غير مجدية على الإطلاق، مما ألقى التجربة ونتائجها كلها في غياهب النسيان.
شحب وجه (ممدوح)، على نحو عجيب، وهو يغمغم:
- إنك لا تقصد أن..
قاطعه (رأفت) بإشارة من يده، جعلته يطبق شفتيه تماما، في حين تابع هو:
- التجربة التي أخبرك عنها، تمت منذ ما يزيد عن ستين عاما، وكلانا يعلم كم تطور العلم، خلال تلك الفترة الطويلة، فلقد قرأت في إحصائية علمية قريبة، أن العلم قد تطور، خلال الأعوام العشرين الأخيرة، بمعدل يفوق ضعف تطوره، منذ القرن الثالث الميلادي، حتى منتصف القرن العشرين ([2])
تمتم العميد (ممدوح) مبهورا:
- يا إلهي! يا إلهي!
مط (رأفت) شفتيه، قبل أن يسأله:
- هل استوعبت الأمر؟!

أطلق (ممدوح) زفرة ملتهبة، من أعمق أعماق صدره، قبل أن يغمغم في عصبية بالغة:
- إنني أبذل قصارى جهدي.
أزاح (رأفت) ستارة نافذة تلك الحجرة، التي يجلسان فيها في مبنى الدائرة الجمركية، وألقى نظرة طويلة على السفينة المجهولة، التي بدت رهيبة المظهر، مع أضواء الغروب، التي امتزجت بمصابيح الميناء، والأضواء التي يستخدمها رجال المعمل الجنائي، المنتشرون على سطحها،، والذين يقومون بفحص كل سنتيمتر منها، في حين ارتشف (ممدوح) رشفة من الشاي، الذي فقد الكثير من حرارته، قبل أن يتساءل:
- هل تعتقد أن هذه السفينة المجهولة، هي امتداد لتلك التجربة في (فيلادلفيا)؟
صمت (رأفت) بضع لحظات، قبل أن يجيب في حزم:
- هذا احتمال وارد.
تساءل (ممدوح) في عصبية:
- ولماذا اختيار ميناء (الإسكندرية)، لاختبار أمر كهذا؟!
هز (رأفت) رأسه، مغمغما:
- من يدري؟!
وعاد إلى صمته بضع لحظات أخرى، وهو يواصل مراقبة السفينة، عبر زجاج نافذة الحجرة، ثم لم يلبث أن استدار إلى (ممدوح)، قائلاً:
- من الواضح أن هذه السفينة نتاج تجربة ما.. ليست تجربة مماثلة لما حدث في (فيلادلفيا) الأمريكية، عام ١٩٤٣م، ولكنها تجربة مخيفة بالتأكيد، فالسفن المختفية، قد لا تبدو واضحة للأعين، ولكنها ليست كذلك بالنسبة لأجهزة الرادار.. الأمر الوحيد، الذي ربما تشترك فيه التجربتان، هو أن هذه السفينة

خالية تماما من البشر، الذين ما زالوا لا يحتملون التواجد داخل مجالات كهرومغناطيسية قوية.
غمغم (ممدوح)، وهو يزيح قدح الشاي بعيدا، في توتر ملحوظ:
- رباه! ما الذي نواجهه بالضبط؟!
هز (رأفت) رأسه، وقال، وهو يعود ببصره إلى السفينة:
- أتعشم أن يحمل إلينا رجال المعمل الجنائي أي....
بتر عبارته بغتة، وانعقد حاجباه في شدة، وعلى نحو جعل (ممدوح) يلتفت إليه، متسائلاً في توتر شديد:
- ماذا حدث؟!
لم يجب (رأفت) تساؤله، فاندفع نحو النافذة بدوره، وموجة التوتر تنتقل عبر أطرافه في سرعة مخيفة، ولكنه لم يكد يلقي نظرة على السفينة السوداء المجهولة، التي تضاعف سوادها مع مغيب الشمس، حتى تحول التوتر إلى موجة ارتجافية عنيفة، شملت كيانه كله، من قمة رأسه، حتى أخمص قدميه، ومن أطراف جلده، حتى نخاع عظامه، وعيناه تتسعان إلى أقصاهما، وعقله يكاد يثب خارج جمجمته..
فأعلى سارية السفينة، كان ذلك العلم الذهبي يتألق، على نحو مدهش، وفي إيقاع منتظم هادئ، كما لو أنه يرسل رسالة ما..
ولكن هذا وحده لم يكن السبب..
فهناك أيضا، في قلب البحر، كان يكمن سبب آخر..
إيقاع مماثل، متألق بشدة، يجيب الإيقاع الأول، في فترات سكونه وصمته..
وكان هذا يعني أن اللغز لا يكمن في السفينة وحدها..
بل يكمن أيضا هناك..
في قلب البحر..

☆ ☆ ☆

«لم نجد شيئا، في قلب البحر..»
تردد النداء، عبر جهاز الاتصال، في حجرة أمن الميناء المؤقتة، فانعقد حاجبا (ممدوح)، في توتر شديد، في حين بدا (رأفت) هادئا أكثر مما ينبغي، وهو يقول:
ا- كنت أتوقع هذا..
حدق فيه (ممدوح) في دهشة، وكاد ينفجر في وجهه مستنكرا، إلا أن (رأفت) مال بحركة مفاجئة، ليضغط زر الاتصال، قائلاً:
- من القيادة المؤقتة إلى قيادة حرس السواحل.. هل فحصتم المنطقة كلها جيدا؟!
مضت لحظة من الصمت، بدت للعميد (ممدوح) أشبه بدهر كامل، قبل أن ينبعث صوت قائد حرس السواحل، عبر جهاز الاتصال، وهو يقول، في توتر حملته كلماته في وضوح:
- نعم.. فحصنا المنطقة بمنتهى الدقة، وحددنا مثلكم موضع انبعاث ذلك البريق العجيب، ولكننا، عندما وصلنا إليه، لم نجد أي شيء على الإطلاق.
سأله (رأفت) في اهتمام:
- وماذا عن القوات البحرية؟!
أجابه قائد حرس السواحل بنفس التوتر:
- لقد أرسلوا لنشين وغواصة، ولم يعثروا على أي شيء، لأعلى سطح البحر، أو حتى في أعمق أعماقه.
لم يستطع (ممدوح) الاحتمال، عند هذه النقطة، فهتف في حدة:
- ما الذي يمكن أن يعنيه هذا بالضبط؟!
أشار إليه (رأفت) إشارة صارمة، قبل أن يقول لقائد حرس السواحل، عبر جهاز الاتصال:

- واصلوا المحاولة، لنصف ساعة أخرى، ثم أبلغوني مرة ثانية بالنتائج.
أنهى الاتصال، وهو يعقد حاجبيه، في تفكير عميق، فكرر (ممدوح) هتافه، في حدة أكثر:
- ما الذي يعنيه هذا بالضبط؟!
هز (رأفت) رأسه نفيا في بطء، وهو يتجه نحو النافذة، ويتطلع مرة أخرى إلى تلك السفينة، وعلمها الذي توقف عن التألق، ثم مد بصره بعيدا إلى البحر، مغمغما:
- لا شك في أننا أمام لغز ضخم.. لغز غامض رهيب..
وصمت لحظة أخرى، تابع خلالها أضواء مصابيح رجال المعمل الجنائي، الذين ما زالوا يواصلون عملهم على سطح السفينة، قبل أن يشير بيده، متابعا:
- لغز يمتد من تلك السفينة، الرابضة هنا، إلى عمق البحر..
مط (ممدوح) شفتيه، متمتما:
- أنا أكره الألغاز..
صمت (رأفت)، بضع لحظات أخرى، قبل أن يقول في صرامة:
- عمل الشرطة لا يناسبك إذن.
ارتفع حاجبا (ممدوح)، في دهشة مستنكرة، ثم عادا ينعقدان في غضب، وهو يقول:
- كونك رجل مخابرات، لا يبيح لك إهانة الآخرين، على هذا النحو.
عقد (رأفت) حاجبيه، وبدا شاردا، وهو يواصل مراقبة السفينة السوداء الغامضة، متمتما:
- لم تكن إهانة..
أراد (ممدوح) أن يسأله في غضب، عما يعنيه هذا بالضبط، إلا أن (رأفت) اعتدل فجأة، وقال في اهتمام:

- لقد أنهوا عملهم..
كان الجواب واضحا للغاية، وعلى الرغم من هذا، فقد سأله (ممدوح) في توتر:
- من هم؟!
اندفع (رأفت) نحو باب الحجرة، وهو يقول:
- رجال المعمل الجنائي.
اندفع (ممدوح) خلفه، هاتفا:
- إلى أين تذهب؟! المفترض أن ننتظر التقرير الرسمي؟
هتف (رأفت)، وهو يثب درجات السلم، على نحو يعلن لهفته، التي أخفاها صوته وملامحه:
- لن نفعل.. السلطة التي منحني إياها سيادة الرئيس، تبيح لى معرفة النتائج فورا..
سرت قشعريرة باردة، في جسد (ممدوح)، عندما أتى (رأفت) على ذكر مؤسسة الرياسة، ووجد نفسه يغمغم في عصبية:
- الأمر إذن خطير.. خطير بحق.
لم تمض دقيقة واحدة، على غمغمته هذه، حتى كان يقف مع رجل المخابرات، أمام مسئول المعمل الجنائي، على مسافة خمسة أمتار فحسب من السفينة المجهولة، وهذا الأخير يقول، في توتر، بدا وكأن عدواه تنتقل بسرعة إلى الجميع:
- لم نعثر على أية علامات ظاهرية..
هتف (ممدوح) بالعبارة التي اعتادها لسانه، من كثرة ما رددها، في الآونة الأخيرة:
- ما الذي يعنيه هذا؟!
قلب مسئول المعمل الجنائي كفيه، وهو يقول، حيرة امتزجت بتوتره:

- يعني أنه لا يوجد شيء واضح.. لا بصمات، أو آثار أقدام، أو بقايا طعام، أو شراب، أو حتى قطرة دم واحدة.
ثم انعقد حاجباه، من شدة توتره، وهو يضيف:
- باختصار لا يوجد دليل واحد على أن أي كائن حي، حتى الفئران، قد وطأ هذه السفينة بقدميه..
قال (ممدوح) في عصبية:
- وماذا عنا؟! لقد صعدنا، رجل المخابرات وأنا إلى سطح هذه السفينة، و....
قاطعه مسئول المعمل الجنائي في حدة:
- حتى هذا، لم نعثر على أثر واحد يثبته..
انعقد حاجبا (رأفت) في شدة، عند هذه النقطة، في حين اتسعت عينا (ممدوح) بمنتهى الدهشة، وهو يهتف:
- ماذا تعنى بهذا القول؟! لقد صعدنا إلى سطح تلك السفينة بالفعل، ومن المستحيل أن نفتش كل جزء منها، دون أن نترك خلفنا أدنى أثر!
قال مسئول المعمل الجنائي، في حدة أكثر:
- ولكن هذا ما حدث!! صحيح أنه يخالف كل القواعد العلمية في عالمنا هذا، ولكنه حدث، وما زال يحدث.. حتى نحن لم نترك خلفنا أدنى أثر، خلال فحصنا لهذه السفينة المخيفة.. لم نترك خلفنا شيئا، وكأننا مجرد أشباح على سطحها.
ازداد انعقاد حاجبي (رأفت)، دون أن ينبس ببنت شفة، في حين هتف (ممدوح) مستنكرا ومتوترا:
- مستحيل!
قال مسئول المعمل الجنائي في سرعة:
- ولكنه حدث.. شئنا أم أبينا..

ثم التفت إلى جسم السفينة، الذي بدا هائلا من موقعهم هذا وأشار إليها بسبابة مرتجفة، مستطردا:
- هذه السفينة ليست من عالمنا.. أستطيع أن أجزم بهذا، ولكنني عاجز عن كتابته في تقرير رسمي، وإلا فسيتهمونني بالجنون رسميا، أو...
أمسك (رأفت) بكتفه بغتة، على نحو انتفض له جسد الرجل بمنتهى العنف، واستدار إليه بمنتهى الحدة والتحفز، فقال رجل المخابرات في صرامة، حطمت هدوءه المستفز:
- أريد عينات من جسم السفينة، وطلائها، وقماش ذلك العَلَم العجيب، الذي يرفرف أعلى الصاري الرئيسي بها، و...
قاطعه مسئول المعمل الجنائي، في عصبية بلغت أوجَّها:
- رويدك يا هذا.. ما تطلبه ربما يبدو لك أشبه بإجراء تقليدي بسيط، ولكن الواقع أنه مستحيل!
هتف له (رأفت) في صرامة:
- مستحيل.. ولماذا؟؟!
أجابه مسئول المعمل، وقد امتزجت عصبيته برنة يأس وإحباط عجيبة:
- لأن كل وسائلنا المعروفة، والمتطورة أيضا، لم تنجح في الحصول على عينة واحدة من جسم هذه السفينة لا شيء نعرفه، قادر على خدش أي شيء فيها، حتى الستائر القماشية.. أو التي تبدو قماشية.. بل وحتى الخرائط الورقية في حجرة القبطان وقمرة المهندسين..
تضاعفت دهشة (ممدوح) هذه المرة، حتى بلغت ذروة، لم تبلغها قط في حياته كلها، في حين بدا (رأفت) صارما متوترا، على نحو ربما لم يحدث أبدا، في حياته بأكملها، ومسئول المعمل يضيف، في لهجة رجل بلغ منه اليأس مبلغه:

- باختصار ووضوح أيها السادة.. نحن امام سفينة سوبر.. سفينة خارقة، لا نعلم من أين أتت، ولا حتى لماذا أتت إلى عالمنا هذا.

كان قوله وحده يكفي؛ لتفجير قنبلة من الذهول والرعب، في قلوب سكان مدينة ضخمة بأكملها، ولكن يبدو أن البحر، الممتد أمامهم بلا حدود، قد أبي أن يكتفي بهذا، فلم يكد مسئول المعمل الجنائي يتم قوله، حتى راحت بقعة منه تتألق فجأة، بضوء فسفوري أخضر..

وفي هذه المرة أيضا، تجاوب العلم الغريب أعلى السفينة، مع ذلك التألق البحري العجيب..

وكان هذا كافيا، ليبلغ الذهول والرعب والحيرة أقصى حدٍّ يمكن بلوغه، في كائن حي على الإطلاق.

☆ ☆ ☆

٣- كل الغموض..

هبط الظلام، ليغمر منطقة الميناء كلها، ويطغى على المصابيح التي بدا ضوؤها باهتا واهيا، مع الضباب الذي راح ينتشر، على نحو يوحي بأن الصباح سيحمل موجة حارة عنيفة..

ولفترة لم يدر مقدارها بالضبط، وقف العميد (ممدوح)، على رصيف الميناء، يتطلع في صمت إلى تلك السفينة السوداء الرهيبة، التي لم تبدأ إجراءات إعادتها إلى البحر بعد، انتظارا لانتهاء تحقيقات الأمن..

ثم فجأة، قرر أن يذهب إليها..

أن يعتلي متنها، ويسبر أغوارها، ويتحدى ذلك الغموض المستفز، الذي يحيط بكل ما يتعلق بها..

جرفه الحماس للفكرة، فلم يدر حتى كيف فعلها، وإنما وجد نفسه فجأة على سطحها الواسع، النظيف، اللامع، الذي يوحي بأن أحدا لم يمسه قط..

حتى رجال المعمل الجنائي..

ومرة أخرى، سرى في جسده ذلك الشعور المركب، الذي يجمع بين التوتر، والرهبة، والدهشة، والحيرة..

والخوف أيضا..

فالسفينة، على الرغم من صمتها وسكونها، كانت تحمل في كل ركن منها شيئا ما، لا يمكن وصفه..

شيئا يبث في نفسك ذلك المزيج الرهيب، من المشاعر والانفعالات..

أضف إلى هذا رائحة خاصة، مخيفة للغاية..

رائحة الموت..

لو أن له رائحة..
ولوهلة ما، بدا له أنه داخل قبر هائل..
قبر مائي متحرك..
ومن أعمق أعماقه، تصاعد ذلك الشعور، وتضاعف، وراح يرسم من حوله خيالات وظلال رهيبة..
خُيِّل إليه أن السفينة تموج بالأشباح..
أشباح بحارة، وركاب، ومهندسين، وقبطان..
خُيِّل إليه أن نوعا من الحياة قد دب فيها، وسرى في كل شبر منها، حتى إنه كاد يسمع نبضات قلبها..
قلب السفينة..
- وفي توتر، ما له من مثيل، راح العميد (ممدوح) يتجول في السفينة الغامضة..
ويتجول..
ويتجول..
وفي كل متر يقطعه، كان ذلك الشعور العجيب يتعاظم في أعماقه أكثر..
وأكثر..
وأكثر..
هذه السفينة حيَّة..
إنه يسمع أنفاسها..
يشعر بنبضات قلبها..
يدرك مشاعرها..
وأحاسيسها..
و....
ماذا أصابه؟!
كيف اقتنع بمثل هذه الفكرة؟!

كيف؟!
كيف؟!
كان عقله يستنكر الفكرة، التي أمتلأ بها كيانه، ولكن أعمق أعماق مشاعره كانت تتجاوب معها بشدة.
بمنتهى الشدة..
بل باقتناع أقرب إلى اليقين..
يقين من أنه يسمع نبضات قلب السفينة..
يسمعها بكل وضوح..
ومع ذلك اليقين المفاجئ، توقف دفعة واحدة، وبدأ يتراجع..
ويتراجع..
ويتراجع..
وبكل مشاعره، تمنى لو أن (رأفت) يصاحبه الآن..
يواجه معه تلك الأحاسيس العجيبة..
الرهيبة..
المخيفة..
ولأنه يقف وحده تماما، فقد قرر أن يغادر سطح هذه السفينة الغامضة المجهولة..
وبأقصى سرعة ممكنة..
ومع قراره، استدار العميد (ممدوح)؛ ليغادر السفينة، و...
وفجأة، تجمد في مكانه..
فأمامه مباشرة، وعلى مائدة صغيرة تبرز من جدار القمرة المعدني، كانت هناك منفضة سجائر، استقرت فيها سيجارة..
سيجارة اشتعلت قمتها، وتصاعد منها الدخان، ليرسم منحنيات متراقصة، في هواء القمرة..
وبكل ذهول ورعب الدنيا، حدق العميد (ممدوح) في تلك السيجارة، وكاد يتجمد في مكانه تماما، لولا تلك الأصوات

المتداخلة، التي انبعثت من خلفه بغتة، والتي أجبرته على أن يلتفت إليها، و...
ووثب قلبه من بين ضلوعه..
لم يرتجف أو ينتفض فحسب..
بل وثب من بين ضلوعه وثبًا..
فهناك، في تلك القمرة، كانت الحركة في كل مكان..
عدد من البحارة، وضابط أو ضابطين، في ثياب ذات ألوان ذهبية عجيبة، يمارسون حياتهم العادية، كما يفعل أي بحارة في أوقات راحتهم..
كان بعضهم يلعب الورق، والبعض الآخر يقرأ الصحف والمجلات، ومجموعة تناقش أمرا ما في أحد الأركان، في حين اكتفت مجموعة أخرى بالاسترخاء، ومشاهدة بعض الصور المتحركة في ركن آخر..
وكانت هناك أطباق طعام، وأكواب شراب، وأدخنة سجائر..
وكل ما يرتبط بمثل هذه المواقف..
ولم يكن هناك شخص واحد يوليه اهتماما، أو ينظر إليه، أو يبالي حقًا بوجوده..
كان وكأنه ليس هناك..
وكأنه هو الشبح الوحيد، وسط الأحياء..
ثم فجأة، وفي غمرة انفعاله، الذي تجاوز ذروته، شعر بيد قوية تمسك كتفه من الخلف، مع صوت عميق، يقول:
- العميد (ممدوح)..
وانتفض جسده بمنتهى العنف، و....
واستيقظ..
استيقظ ليحدق في وجه رجل المخابرات، الذي يسأله في قلق واضح شديد:

- أكابوسٌ هو؟!
ولم يجب (ممدوح) مباشرة.
لقد ظل يحدق في وجه (رأفت) لدقيقة كاملة، ضاعفت من قلق هذا الأخير، وجعلته يكرر:
- هل تعاني من كابوس ثقيل؟!
وهنا فقط، التقط (ممدوح) أنفاسه، واعتدل على ذلك المقعد الوثير، الذي دفع النوم إلى جسده المرهق، وسعل مرتين، قبل أن يقول، في شيء من العصبية:
- نعم كابوس رهيب.
اعتدل (رأفت)، وتطلع إليه لحظة في صمت، قبل أن يشير بإبهامه إلى النافذة خلف ظهره، مغمغما:
- أراهن أنه يتعلق بهذه السفينة.
أومأ (ممدوح) برأسه إيجابا، دون أن ينبس ببنت شفة، ثم نهض من مقعده، وجسده مازال يعاني من ارتجافة عصبية متواصلة، واتجه نحو النافذة، وتطلع إلى السفينة، التي بدت مخيفة أكثر، مع ظلام الليل، والمصابيح المحيطة بها، وغمغم:
- هل سنبقى هنا إلى الأبد؟!
أجابه (رأفت) في هدوء:
- أنا سأبقى، حتى يتم حل هذا اللغز، أما أنت، فيمكنك أن تعود إلى منزلك.. إنها الثالثة والنصف صباحا، ولديك زوجة وابن.. أليس كذلك؟!
انعقد حاجبا (ممدوح) في شدة، وهو يقول في ضيق:
- من الواضح أنك تعرف الكثير عني وعن عائلتي..
قال (رأفت)، بنفس الهدوء:
- لا تنس أن المعلومات مهنتي..
مط (ممدوح) شفتيه، متمتما، دون أن يزايله شعوره بالضيق:

- بالتأكيد.
كان يشعر بسخط شديد؛ لأن (رأفت) يعرف أسراره العائلية، على الرغم من ثقته في أنه سيسعى حتما لمعرفة المثل عن (رأفت)، لو انعكست الأدوار..
أو حتى دون أن تنعكس..
بل لقد راودته الفكرة الآن بالفعل..
فكرة أن يسعى للبحث عن أية معلومات ممكنة، عن رجل المخابرات هذا..
لم يكن يدري ما إذا كان هذا متاحا أم لا، مع المنصب شديد الحساسية، الذي يحتله في مؤسسة الرياسة، إلا أن الفكرة قد سيطرت على كيانه تماما، وراحت تتعاظم..
وتتعاظم..
وتتعاظم..
و..
«أريد أن أفحص هذه السفينة مرة أخرى، عن قرب..»
قطع (رأفت) أفكاره بتلك العبارة، فاستدار إليه في حدة، لم يكن لها أي مبرر واضح، وهو يقول:
- مرة أخرى؟! ولماذا؟!
تطلع إليه (رأفت) لحظة في صمت، ثم أجاب:
- من المؤكد أن النظرة إلى الأمور ستختلف، على ضوء المعطيات الجديدة.
أطلق (ممدوح) زفرة ملتهبة، من أعمق أعماقه، قبل أن يغمغم:
- ربما.
كان يحاول عبثا، مقاومة تلك الرغبة العارمة، التي تغلغلت في كيانه، إلا أن شيئا ما في خلايا مخه الرمادية، حول تلك الرغبة إلى لهفة شديدة، جعلته يضيف في حزم:

- أريد مراجعة بعض الأمور على كمبيوتر أمن الميناء، ثم أعود إليك، لمناقشة الأمر كله..
سأله (رأفت) في اهتمام:
- هل ستصحبني إلى سطح السفينة عندئذ؟!
أجابه (ممدوح)، وهو يندفع خارج الحجرة:
- ربما.
ظل (رأفت) صامتا هادئا، بعد أن غادر (ممدوح) المكان، ثم لم يلبث أن استدار في بطء، ليتطلع إلى السفينة الغامضة، الرابضة على رصيف الميناء، قبل أن يغمغم:
- أيتها السفينة الرهيبة.. كم تثيرين في نفوس الجميع من رهبة وخوف وقلق!! أنت بالفعل لغز غامض، في أذهان وعقول الكل.
وصمت لحظة، قبل أن يضيف في حزم خافت:
- فيما عدا أنا.
كانت عيناه تتألقان، على نحو عجيب، وهو يميل نحو زجاج النافذة أكثر وأكثر، دون أن تترك أنفاسه على الزجاج، ذلك الأثر الضبابي الخفيف، الذي تتركه أنفاس كل كائن حي، مع استطراداته الصارمة:
- أنا وحدي، أعلم ما الذي تحملينه إلى هذا العالم بالضبط..
أعلمه تمام المعرفة..
ومن حسن حظ العميد (ممدوح) أنه لم يكن داخل الحجرة، عندما نطق (رأفت) هذا عبارته الأخيرة، وإلا لتضاعف خوفه ودهشته وارتياعه ألف ألف مرة..
على الأقل..

☆ ☆ ☆

نهض رجال النوبتجية الليلية، في حجرة متابعة الأمن، في ميناء (الإسكندرية)، في احترام تام، عندما دلف العميد (ممدوح) إلى

المكان، وهو يقول في حزم متوتر:
- هل جهاز الاستعلام الأمني يعمل بكفاءة؟!
كانت عقارب الساعة تتجاوز الثالثة والنصف صباحا بثماني دقائق كاملة، ولم تكن هناك أية سفن قد وصلت إلى الميناء، إلا أن الرجال استجابوا لقائدهم في سرعة، وضغط أحدهم أزرار الكمبيوتر، متسائلاً:
- ما الاسم الذي ترغب في الاستعلام عنه، يا سيادة العميد؟؟!
انعقد حاجبا العميد (ممدوح) بشدة، عندما ألقى رجل الشرطة السؤال، وانتبه لأول مرة، إلى أنه لا يعرف عن (رأفت) هذا سوى اسمه الأول..
لا يعرف اسمه الكامل!!
أو رتبته!!
أو حتى جهاز المخابرات، الذي ينتمي إليه!!
أهو جهاز المخابرات العامة، أم المخابرات الحربية!
أم هو جهاز مخابرات خاص بمؤسسة الرياسة مباشرة!!
الواقع أنه لا يعرف عنه أي شيء..
على الإطلاق..
وفي توتر، تمتم:
- اسم رجل المخابرات الذي يتولى التحقيق، في لغز تلك السفينة السوداء المجهولة..
تساءل الضابط في حذر:
- ألا تعرف اسمه الكامل يا سيادة العميد؟! لقد قدم لك هويته السرية بالتأكيد.. أليس كذلك؟!
وازداد انعقاد حاجبى (ممدوح)..
وتضاعف غضبه وسخطه..
ألف مرة..

كيف سلم قياده إلى رجل، لا يعرف عنه شيئا؟!
كيف لم يطلب الاطلاع على هويته؟!
كيف؟!
لقد وصل بعد حادث ارتطام تلك السفينة الرهيبة برصيف الميناء مباشرة، في سيارة رسمية، وقدم نفسه باعتباره أحد رجال المخابرات..
ومع دقة الموقف وصعوبته، كان من الطبيعي أن يصدقه..
ثم إنه كان على اتصال متواصل، بكل الجهات الرسمية..
القوات البحرية..
حرس السواحل..
وحتى مؤسسة الرياسة نفسها..
لا يمكن أن يكون محتالاً أو زائفا إذن..
مستحيل تماما!
ولكن لماذا يشعر، في أعماقه، بأن هناك أمر يحيط بذلك الرجل، الذي يبدو له أكثر غموضا من البحر نفسه؟!
لماذا؟!
لماذا؟!
لم يقبل عقله بترديد السؤال طويلاً في أعماقه، لذا فقد نقله إلى مجموعة من الأوامر، انطلقت من بين شفتيه في حزم صارم، وهو يقول لرجال أمن الميناء:
- أريد معرفة كيفية وصول خبر ارتطام السفينة برصيف الميناء، إلى أية جهة رسمية، بهذه السرعة التي تسمح بوصول رجل المخابرات، بعد أقل من ثلث الساعة، إلى رصيف الميناء، ابحثوا عمن منح سيارته تصريحا بالدخول، دون إبلاغ مكتب الأمن..
أريد مراجعة أوراقه، وهويته، و...
قاطعه أحد ضباط الشرطة في توتر:

- سيادة العميد.. لا أحد منّا يملك مطالبته بإبراز هويته، وهو يتعامل معك شخصيا.
قال (ممدوح) في صرامة عصبية:
- سأتولى أنا هذا الجزء، وعليكم أنتم القيام بالباقي.. هل تفهمون؟!
أدى الجميع التحية العسكرية، وهو يغادر المكان بنفس الحدة، التي دلف بها إليه، واندفع عائدا إلى رصيف الميناء، وهو يقول لنفسه:
- فليكن يا رجل المخابرات.. ما دمت تعلم عنى الكثير، فمن حقي أيضا أن أعلم عنك كل شيء..
بدا صارما حازما، وهو يصل إلى تلك الحجرة، التي ترك فيها (رأفت)، ولكنه لم يكد يدلف إليها، حتى عاد حاجباه ينعقدان في توتر، قبل أن يهتف في الجندي الذي يقف عند الباب:
- أين ذهب السيد (رأفت)؟!
بدا الجندي شديد التوتر، وهو يشير بسبابته المرتجفة إشارة مبهمة، مجيبا:
- إلى هناك؟!
سأله (ممدوح) في حدة:
- إلى اين؟
أجابه الرجل، والكلمات تنافس ارتجافة سبابته، وتتفوق عليها أيضا:
- إلى تلك السفينة.
استدار (ممدوح) في حركة حادة إلى النافذة، قبل أن يندفع مغادرا الحجرة، وهو يهتف في حنق:
- ألم يستطع الانتظار؟

لم تمض دقائق ثلاث، على قوله هذا، حتى كان يعتلي ظهر السفينة بالفعل، وهو يقول لرجل المخابرات في حدة:
- كان ينبغي أن تنتظر عودتي؛ لنناقش الأمر كما اتفقنا قبيل انصرافي.
أجابه (رأفت) في هدوء مستفز، وهو يخرج مصباحه اليدوي الصغير من جيبه، ويشعله، قائلا:
- لم أصل إلى ما وصلت إليه، لأنني ألتزم دوما بما ينبغي..
سأله (ممدوح) في صرامة، وهو يسير إلى جواره، على سطح السفينة:
- وما الذي وصلت إليه بالضبط؟!
رمقه (رأفت) بنظرة خاوية، قبل أن يتجه إلى قلب السفينة، قائلا في هدوء:
- أما زال اهتمام ابنك الزائد بالعلوم يزعجك؛ لأنك ترغب بشدة في أن يلتحق بكلية الشرطة، ليصبح مثل أبيه وجده في المستقبل؟!
قال (ممدوح) في حدة:
- لو أن هذه محاولة منك، لتريني أن لديك معلومات غزيرة عني وعن حياتي الأسرية، فهذه سخافة كبيرة، لا تليق بموقف كهذا، أما لو أنها محاولة للفرار من إجابة السؤال، فهي محاولة فاشلة، لأنني أسألك بصفة رسمية، وليس بصفة ودية..
استدار إليه (رأفت) في بطء، وسأله في هدوء عجيب:
- بصفة رسمية؟!
أجابه (ممدوح) في حدة:
- نعم.. بصفة رسمية.. أريد رؤية أوراقك كلها، وما يثبت انتمائك إلى جهاز المخابرات.. وتحديد هويتك، وهوية جهاز المخابرات نفسه، و..

قاطعه (رأفت) بإشارة صارمة مباغتة من يده، قبل أن يسأله في اهتمام شديد:
- هل تسمع ما أسمعه؟!
ارتبك (ممدوح) لحظة، ثم تساءل في توتر:
- وما الذي تسمعه؟!
هز (رأفت) رأسه، قائلاً:
- يلوح لي أنني أسمع صوت أنفاس تتردد..
هتف (ممدوح)، وعقله يستعيد ذكرى ذلك الكابوس الرهيب:
- صوت أنفاس تتردد؟!
اندفع (رأفت) نحو قمرة قريبة من السطح، وهو يقول:
- نعم.. يبدو لي أننى أسمع صوت أنفاس، وأشعر بنبضات قلب، كما لو أن هذه السفينة....
قاطعه (ممدوح)، وهو يهتف:
- حية.. أليس كذلك؟
توقف (رأفت) لحظة أمام تلك القمرة، مجيبا:
- بالضبط.
ثم اندفع داخلها، وكأنه يتوقع رؤية شيء ما..
أما (ممدوح)، فقد تجمد في مكانه بضع لحظات، وهو يستعيد أدق تفاصيل ذلك الكابوس الرهيب..
صوت الأنفاس..
نبضات القلب..
ودخان السيجارة..
والبحارة..
والضباط..
والملابس البحرية العجيبة..

استعاد كل هذا، قبل أن ينتفض جسده في عنف، وكأنما يستيقظ من ذلك الكابوس مرة أخرى، ويهتف في عصبية:
- انتظرني.
قاوم ذلك التوتر الشديد في أعماقه، وهو يتجه نحو تلك القمرة بدوره..
كان الأمر داخلها واضحا للغاية..
الأنفاس مسموعة في وضوح..
نبضات القلب ترددها الجدران المعدنية..
وتلك الرائحة الرهيبة..
رائحة الموت.
وفي توتر، أدار عينيه فيما حوله، ثم قال في عصبية:
- دعنا نغادر هذا المكان..
أجابه (رأفت) في صرامة:
- ليس بعد.
استدار (ممدوح) في حدة، وهو يقول:
- فلتبق أنت إذن، أما أنا، فسأنصرف من هنا، و...
تجمدت الكلمات في حلقه، وتجمدت معها كل ذرة من كيانه، وهو يحدق في تلك المنفضة على المائدة الصغيرة، وفي السيجارة الموضوعة فيها، والتي تتصاعد منها خيوط الدخان المتراقصة ومن خلفه، انبعثت فجأة تلك الأصوات المتداخلة..
واتسعت عينا (ممدوح) إلى أقصاهما، وتجمدت الدماء كلها في عروقه...
تجمدت تماما..

☆ ☆ ☆

٤- ظهور واختفاء..

تراجع الضابط، المسئول عن الاستعلام الأمني، في توتر ملحوظ، وهو يراجع المعلومات، التي حصل عليها رجاله، وراح يحك ذقنه في عصبية واضحة، قبل أن يغمغم:

- مستحيل! لا يمكن أن يكون هذا ما حدث.. إنها كارثة..

كارثة أمنية على كل المستويات..

سأله زميله، في قلق شديد:

- ماذا حدث؟!

أجابه الضابط المسئول في عصبية:

وفقا لبيانات البوابات، ولتقارير شرطة الميناء، والجمارك وكل الجهات المسئولة، لم يحصل رجل المخابرات على أية تصاريح، للدخول بسيارته إلى رصيف الميناء!!

ثم التفت إلى زميله، مستطردا في توتر بالغ:

- بل إنه لم يعبر حتى أية بوابة، من البوابات المحيطة بالميناء..

انتقلت عصبيته إلى زميله، الذي هتف:

-- ولكن هذا مستحيل! كيف وصل إلى رصيف الميناء إذن؟!

هتف المسئول:

- هذا هو السؤال!

ثم استدار بجسده كله إلى زميله، متابعا في صرامة عصبية:

- اسمع.. الأمر على هذا النحو، يحتم الاتصال بكل الأجهزة الأمنية الرسمية، لنعلم ما الذي يحدث هنا بالضبط.. اتصل بالمخابرات العامة، والمخابرات الحربية، والقيادة المشتركة

للجيش، وحرس السواحل.. وحتى رياسة الجمهورية، لو اقتضى الأمر.
اتسعت عينا زميله، وهو يهتف:
- هل تعرف كم الساعة الآن؟!
صاح به المسئول، وهو ينهض من مقعده بحركة حادة:
ما يحدث هنا يتجاوز كل المحاذير، وسنوقظ الدنيا كلها، لو حتمت علينا إجراءات الأمن أن نفعل، لأنه لو تجاوزت الأمور الحد الأحمر، فلن يرحمنا أحد، وسنتحمل وحدنا مسئولية أي خلل أمني يحدث.. حتى سيادة العميد (ممدوح) سيتهمنا بـ...
بتر عبارته بغتة، وهو يتلفت حوله، هاتفا:
- أين سيادة العميد (ممدوح)؟!
أجابه زميله، وقد بلغ توتره ذروته بدوره:
سيادة العميد هناك، مع رجل المخابرات.
صاح به المسئول في حده:
- أين؟!
أشار زميله بسبابته إلى النافذة، التي تطل على رصيف الميناء مباشرة، وهو يجيب في توتر:
- على متن تلك السفينة.
استدار الضابط المسئول، بحركة غريزية تلقائية، نحو النافذة، وهو يهتف، بلهجة بدت مستنكرة للغاية:
- متن ماذا؟!
ودون أن ينتظر جوابا، اندفع نحو النافذة، وأزاح (ضلفتها)، و..
واتسعت عيناه عن آخرهما، وقلبه يخفق بقوة..
بمنتهى القوة..
فما يحدث هناك، عند رصيف الميناء، كان أمرا رهيبًا..
رهيبًا بحق..

☆ ☆ ☆

كل شيء كان أشبه بذلك الكابوس بالضبط..

كل شيء..

فهناك، في تلك القمرة، كانت الحركة في كل مكان..

عدد من البحارة، وضابط أو ضابطين، في ثياب ذات ألوان ذهبية عجية، يمارسون حياتهم العادية، كما يفعل البحارة، في أوقات راحتهم..

كان بعضهم يلعب الورق، والبعض الآخر يقرأ الصحف والمجلات ومجموعة تناقش أمرا ما، في أحد الأركان، في حين اكتفت مجموعة أخرى بالاسترخاء، ومشاهدة بعض الصور المتحركة، في ركن آخر، وكانت هناك أطباق طعام، وأكواب شراب، وأدخنة سجائر..

وكل ما يتناسب مع المكان والموقف..

وكما حدث في الكابوس تماما، لم يكن هناك شخص واحد يوليه اهتماما، أو ينظر إليه، أو حتى يبال بوجوده..

تماما كما لو كان مجرد شبح..

«الآن..»

انطلق الهاتف من خلفه، حاملاً صوت (رأفت)، فانتفض جسده بمنتهى العنف، وتمنى لو يستيقظ مرة أخرى؛ ليجد نفسه خارج كابوس جديد..

ولكن هذا لم يحدث..

ما حدث في الواقع، هو أن (رأفت) قد جذبه من معصمه في قوة، إلى خارج القمرة، وهو يقول:

- إنها اللحظة المناسبة..

تبعه (ممدوح) عبر ممرات السفينة، التي اكتظت بالبحارة والركاب، وحتى عمال النظافة، وهو يهتف:

- اللحظة المناسبة لماذا؟!
أجابه (رأفت) في حزم:
- لتفادي الكارثة.
صاح (ممدوح)، وقد بلغ ذهوله واستسلامه مبلغهما:
- أية كارثة؟!
لم يجب (رأفت) سؤاله هذه المرة، ولكنه استمر يجذبه من معصمه، ويندفع به وسط عشرات من رواد السفينة، الذين يرتدون كلهم تلك الثياب الذهبية العجيبة، ويتجاهلونهما تماما، كما لو أنهم لا يشعرون حتى بوجودهما..
ولفترة لم يدر زمنها قط، أصبح (ممدوح) كالمسحور، مسلوب الإرادة، يتبع (رأفت) بنفس السرعة، إلى سطح السفينة وعيناه الذاهلتان ترصدان ما حوله، دون أدنى انفعال.
لقد دبت الحياة فجأة، في كل مكان في السفينة..
البحارة يمارسون أعمالهم في نشاط..
الركاب يتجولون في استمتاع وهدوء..
الضباط يقودون العمل..
والقبطان في قمرة القيادة..
تلك القمرة التي انتهى إليها اندفاع (رأفت) و(ممدوح)، وقال الأول، وهو يتجه نحو القبطان مباشرة:
- الآن فقط يمكننا أن نخرج هذه السفينة من هنا..
ولم يسأله (ممدوح) عما يعنيه..
لم يحاول أن يسأله، حتى عندما رآه يدفع القبطان جانبا، ثم يتولى دفة القيادة في حزم..
وبثقة لا مثيل لها، وهدوء أسطوري مذهل، بدأ (رأفت) يلقى أوامره، من قمرة القبطان، إلى بحارة السفينة، في منطقة المحركات، بلغة عجيبة..

لغة لم يسمعها (ممدوح) في حياته قط..
ولكن من الواضح أنها قد أسفرت عن أمر واضح جلي...
لقدا رتجت السفينة السوداء الرهيبة في عنف..
ثم بدأت تتراجع..
وعلى عكس كل القواعد البحرية المعروفة، بدأت السفينة تعتدل، ثم تنسحب من رصيف الميناء في بطء، وصفارة استعداد قوية تنطلق منها، معلنة بدء رحلة جديدة.
وعلى رصيف الميناء، سادت حالة رهيبة من الهرج والمرج، وانتشر الذعر والفزع، على نحو لم يسبق له مثيل، وهتف مسئول الاستعلام الأمني في حدة:
- مستحيل! أوقفوا هذه السفينة! أوقفوا هذه السفينة.. لا تسمحوا لها بالتراجع، على هذا النحو.
سأله زميله في انفعال:
وكيف نفعل بالله عليك؟!
لم يدر مسئول الاستعلام بم يجيبه، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحدق في السفينة، التي انسحبت مقدمتها بالكامل من رصيف الميناء، وعادت إلى البحر، وبدأت تستعد للإقلاع إلى جهة ما..
في قلب البحر..
بحر الغموض..
ثم فجأة، امتلأت نفسه بمزيج من الغضب والثورة، جعله يهتف في صرامة عصبية:
- اتصلوا بكل أجهزة الأمن.. أبلغوا لقوات البحرية، وحرس السواحل، برحيل تلك السفينة.. لا بد أن يمنعوا هروبها بأي ثمن.
ثم صرخ، بكل ما يلتهب في أعماقه من انفعالات:

- هل تفهمون.. بأي ثمن!
في نفس اللحظة، التي انطلقت فيها صرخته الأخيرة، انتفض جسد العميد (ممدوح) في عنف، وكأنما يصحو من نوم مغناطيسي عميق، وهتف في حدة عصبية:
- أية لغة تلك، التي تحدثت بها؟!
أجابه (رأفت) بنفس الهدوء، وهو يواصل قيادة السفينة الغامضة:
- لغتهم.
هتف (ممدوح):
- وكيف لك أن تعرف لغتهم؟!
لم يكد يلقى سؤاله، حتى قفزت إلى ذهنه فجأة فكرة مخيفة، جعلته يتراجع بحركة عنيفة، وكأنما أصابته صاعقة، وهو يقول:
- رباه! أأنت منهم؟!
هز (رأفت) رأسه، قائلاً:
- كلا.. لست منهم بكل تأكيد.
سحب (ممدوح) مسدسه من غمده، وصوبه إليه في عصبية، وهو يهتف:
- بل أنت أحدهم.. هذا هو التفسير الوحيد لكل ما حدث..
لم يبال (رأفت) كثيرا، بالمسدس المصوب إليه، وهو يقول، بنفس الهدوء المستفز:
- أنت لا تدري شيئا عن التفسير.
صاح (ممدوح)، وهو يلوح بمسدسه في وجهه بغضب صارم:
- وهل تملك أنت التفسير أيها العبقري المتحذلق؟!
استدار إليه (رأفت) في بطء عجيب، وهو يواصل قيادة السفينة، وأجاب بنفس الهدوء العجيب:
- بالطبع يا سيادة العميد.. أنا أملك التفسير.. وكل الأجوبة أيضا.

اتسعت عينا (ممدوح) عن آخرهما، وهو يحدق فيه ذاهلا، وانخفضت فوهة مسدسه، دون أن يدري، وهو يغمغم:
- أنت؟!
أجابه (رأفت)، وهو يقود السفينة، إلى قلب البحر:
- نعم.. أنا.
سأله العميد (ممدوح) ذاهلاً:
- من أنت بالضبط؟!
أشاح (رأفت) بوجهه عنه، وهو يقول:
- السؤال الأكثر أهمية، هو ما هذه السفينة بالضبط؟! وكيف أتت إلى هنا، دون أن ترصدها أجهزة الرادار، أو يراها رجال البحرية المصرية، أو خفر السواحل؟!
كان هناك ألف ألف سؤال، كلها تعربد في أعمق أعماق (ممدوح) إلا أنه، ومع ذهوله الشديد، لم يملك سوى أنه يتساءل في خفوت:
- نعم.. هذا هو السؤال..
صمت (رأفت) بضع لحظات، قبل أن يقول:
- هل سمعت يوما عن مثلث (برمودا)؟!
أومأ (ممدوح) برأسه في بطء، قبل أن يجيب في خفوت:
- بالطبع.. إنه مثلث وهمي، يقع في غرب المحيط الأطلنطي، يمتد من (برمودا) شمالا، إلى (فلوريدا) جنوبا، ويتجه شرقا، عبر جزر (البهاما) وغربا، حتى خط طول 540، ثم يعود إلى (برمودا)، ولقد نسجت حوله عشرات القصص الوهمية والأسطورية، بسبب الاختفاء الغامض لعدة سفن وطائرات في نطاقه ([3])
قال (رأفت) بهدونه العجيب:

- معلومات رائعة، بالنسبة لرجل أمن، يعلن دوما استياءه، من اهتمام ابنه الزائد بالعلوم.
قال (ممدوح) في ضيق منعه ذهوله من بلوغ حد السخط:
- ابني لا شأن له بما نحن فيه.
قال (رأفت) في بطء:
- أهذا ما تظنه؟!
هز (ممدوح) رأسه بلا معنى، قبل أن يقول، وقد عاوده شيء من عصبيته:
- أتريد أن تقول: إن هناك صلة ما، بين مثلث (برمودا) في الأطلنطي، وهذه السفينة؟!
هز (رأفت) رأسه في هدوء، مجيبا:
- ليس على نحو مباشر.
وصمت لحظة، انحبست خلالها أنفاس (ممدوح)، وبدت له أشبه بدهر كامل، قبل أن يتابع بنفس الهدوء، الذي يستفزه منذ البداية:
- عشرات النظريات العلمية، حاولت شرح وتفسير تلك الاختفاءات الغامضة، التي حدثت عبر التاريخ، في مثلث (برمودا)، وفي مناطق أخرى من العالم، دون أي سبب علمي أو منطقي معروف ([4]) ومن بينها كانت نظرية، بدت للكل مبالغة في الخيال، إلا أنها كانت تحمل التفسير الفعلي للأمر كله.
غمغم (ممدوح)، في حالة من الانبهار المسحور:
- أية نظرية؟!
تجاهل (رأفت) سؤاله تماما، وواصل قيادة السفينة، إلى قلب البحر، وهو يتابع في آلية، وكأنما يردد أمرا يحفظه عن ظهر قلب:

- ثم ظهر عالم فذ، عبقري.. فلتة من فلتات العلم والتاريخ، أمكنه أن يدرس الظاهرة، من منظور آخر تماما مدفوعا بتأثره الشديد بحادثة اختفاء غامضة، حدثت هنا في (مصر)، وقلبت حياته كلها رأسا على عقب في صباه.

قال (ممدوح)، وقد أدهشه ذلك الهدوء العجيب، الذي ملأ كيانه:

- حادثة اختفاء غامضة؟! لا توجد حادثة اختفاء غامضة، في تاريخ (مصر) كلها، يمكن أن تتشابه مع ما حدث ويحدث، في مثلث (برمودا).

مرة أخرى تجاهله (رأفت) تماما، وهو يواصل بنفس الآلية:

- لقد انتبه ذلك العالم الفذ، إلى أن التاريخ لا يحوى حوادث اختفاء غامضة فحسب، وإنما يحوي أيضا حوادث ظهور غامضة، لم تحظ أبدا بالقدر نفسه من الاهتمام، الذي حظيت به حوادث الاختفاء، فهناك مثلاً تلك الواقعة، التي حدثت في أكتوبر ١٥٦٣م، أمام القصر الرئيسي، في مدينة (مكسيكو سيتي) في (المكسيك)، عندما ظهر جندى غريب فجأة، وسط الجنود وعمال القصر.. جندي يرتدي ثيابا تختلف عن باقي الجنود، ويحمل أسلحة تخالف أسلحتهم.. ولقد بدا ذلك الجندي مذعورا ومرتبكا، عندما أخبرهم أنه كان ضمن حراس حاكم (مانيلا)، في ذلك الصباح فحسب، وأنه وجد نفسه فجأة في هذا المكان، الذي يبعد آلاف الكيلومترات عن المكان، الذي استيقظ فيه، منذ ساعة واحدة.. ولقد أخبر ذلك الجندي المسئولين في (مكسيكو سيتي) أيضا، أن حاكم (مانيلا) قد قُتِل، في الليلة السابقة.. ولما كانت القصة عسيرة التصديق، فقد تم إلقاء القبض على الجندي، وسجنه في قصر حاكم (مكسيكو سيتى)، ولكن بعد شهرين من تلك الواقعة، وصلت سفينة من (الفلبين)،

حاملة خبر مصرع حاكم (مانيلا)، في نفس التوقيت، وبنفس الوسيلة، التي أعلنها ذلك الجندي ([5])

غمغم (ممدوح) مبهورا:

- مستحيل!

ولكن (رأفت) تابع، وكأنه لم يسمع تعليقه:

- كل ما فعله المسئولون، بناء على المعلومات الواردة من (الفلبين)، هو أن أطلقوا سراح ذلك الجندي، إلا أن قصته ظلت دوما غامضة عجيبة، ولم يصدقها أحد وإن سجلها أحد المسئولين، في قصر حاكم (مكسيكو سيتى)، من حسن الحظ.

بدا (ممدوح) أكثر انبهارا، وهو يغمغم، وكأنما نسى ما يحدث حوله:

- أحدث هذا فعلاً؟!

لم يدر ماذا أصاب (رأفت) بالضبط، فقد كان يواصل قيادة السفينة، في آلية عجيبة، وهو يتابع حديثه، بدا أشبه بشريط مسجل متصل:

- هناك أيضا قصة الطفلين ذوي البشرة الخضراء، واللذين ظهرا فجأة، في بلدة (بانجوس) في (اسبانيا)، في أحد أيام أغسطس ١٨٨٧م، من كهف في الجبال.. لقد ذهل الفلاحون لمرآهما، وأمسكوا بهما، وكان الطفلان مذعورين، ولهما تلك البشرة الخضراء الداكنة، والعيون الليمونية، ذات الطابع الأسيوي، ولقد حاول قاضي البلدة أن يغسل جلدهما، متصورا أنه نتاج صبغة ما، ثم اكتشف كالجميع أن هذا هو لون بشرتهما العادي.. ولأن لغة الطفلين كانت عجيبة مثل ملابسهما، فلم يفهمها احد، وظلا خمسة أيام دون طعام، لأنهما رفضا تناول أي شيء، حتى ضعفت صحتهما، إلى أن انتبه البعض إلى اهتمامهما الشديد

بحبوب الفاصوليا الخضراء.. ولقد لقي الطفل مصرعه بعد فترة قليلة، في حين بقيت الطفلة وعملت في منزل القاضي، وتعلمت بعض الإسبانية، لتشرح أنها وشقيقها جاءا من عالم آخر، يختلف عن عالمنا هذا تمام الاختلاف، وأنهما لا يدريان كيف انتقلا إلى هنا.. ولقد عاشت الفتاة لخمس سنوات بعد ظهورها الغامض، ثم ماتت بدورها،

ولم يتبق منها سوى ما سجله قاضي (بانجوس) في مذكراته. ([6])

هز (ممدوح) رأسه، وهو يتمتم:

- عقلي يعجز عن تصديق كل هذا.

وهنا فقط، استجاب (رأفت) لعبارته، والتفت إليه، قائلاً:

- هنا تأتى أهمية العقول العبقرية الفذة.. العقول القادرة على تجاوز حالة الانبهار وعدم التصديق، والتعامل مع كل الوقائع من منطلق علمى، بناء على نظرية علمية فلسفية، تضعها خلايا أمخاخهم المتفوقة.. تماما مثل (ألبرت أينشتين)، ذلك العالم المدهش، الذي قلب قوانين الفيزياء في زمنه رأسا على عقب.. لقد بدأ كل ما فعله بأفكار علمية فلسفية، اقتنع بها عقله، فسعى لإثباتها، عبر مجموعة من المعادلات الرياضية، ليخرج لنا بنظرية النسبية، التي ظلت مبهرة علميا، حتى زمن قريب.

هز (ممدوح) رأسه، وكأنما يعلن عجز عقله عن استيعاب كل هذا، ثم رفع عينيه المحمرتين إلى (رأفت) متسائلاً:

- من أنت بالضبط؟!

لم يكد السؤال يفارق شفتيه، حتى انبعث صوت من خارج السفينة فجأة، يقول صاحبه، عبر مكبر قوى للغاية:

- من القوات البحرية إلى السفينة المجهولة.. توقفي فورا، وإلا فسنطلق النار.. هذا إنذارنا الأول وسنطلق النار عقب الإنذار

الثاني مباشرة..
وانتفض جسد (ممدوح) في عنف..
انتفض، عندما أعاده ذلك الصوت إلى عالم الواقع دفعة واحدة، اعتدل في وقفته بحركة حادة، وهو يرفع فوهة مسدسه في حزم نحو (رأفت)، صائحا:
- ألم تسمع النداء؟! أوقف السفينة فورا.
أجابه (رأفت) بمنتهى الهدوء، وكأنه لا يبالي بفوهة المسدس، المصوبة إلى رأسه، ولا حتى بالمدمرة واللنشات البحرية التي تلاحقه، والتي لن تتردد لحظة واحدة في نسفه نسفا، لو أمرها:
- لو بقيت هذه السفينة هنا، ستكون نهاية هذا العالم كله.
لم يدر (ممدوح) لماذا صدق عبارته المخيفة هذه على الفور لم يدر لماذا خيل إليه أنه سمعها من قبل أو أنه قد عاش اللحظة نفسها، في زمن ما..
زمن آخر..
لم يدر شيئا عن كل هذا، إلا أنه كان يوقن، أعمق أعماقه، أن بقاء هذه السفينة في العالم، سيكون بداية الفناء..
الفناء التام..
وفي حالة عجيبة، راح يدير عينيه فيما حوله، وعشرات المشاعر المتناقضة تعربد في أعماقه..
كان البحارة والركاب يتحركون، وكأنهم لا يشعرون قط بما يدور حولهم..
حتى قبطان السفينة، الذي أزاحه (رأفت) عن الدفة، بدا كأنه غير مُبَالٍ بما حدث..
والمدمرة البحرية بدت واضحة، على مرمى البصر، على الرغم من ظلام الليل، وحولها لنشات الصواريخ البحرية.

وبخبرته الأمنية، كان يعلم أن المدمرة ستنفذ وعيدها حتما، وستنسف السفينة نسفا، لو لم يستجب (رأفت) لأوامرها..
لذا، وبكل الحزم والصرامة، عاد يلوح بمسدسه في وجه (رأفت)، صائحا في صرامة:
- أوقف السفينة فورا.
ولم يجب (رأفت) هذه المرة.
لم يجب بحرف واحد.
كل ما فعله هو أن تطلع إلى الأمام، في اهتمام وانتباه كاملين، نحو بقعة ما، في قلب البحر..
واتسعت عينا (ممدوح) عن آخرهما..
فهناك، في تلك البقعة، كانت هناك دائرة تألقت فجأة كما لو أنها مصباح هائل، نبت في قلب البحر..
وكان هذا تطورا مذهلا وغير متوقع..
على الإطلاق.

☆ ☆ ☆

٥- عالم آخر..

بدا ضابط الشرطة، المسئول عن الاستعلامات الأمنية، في ميناء (الإسكندرية)، شديد التوتر والارتباك، وهو يستقبل مندوب رئاسة الجمهورية، الذي بادره قائلاً، في غضب واضح:

- كيف يمكن أن يحدث هذا، يا رجال أمن الميناء؟! حادث بهذه الخطورة، يتم التعامل معه بكل هذا الاستهتار، حتى إن أحدا لا يحاول إبلاغ المسئولين بالأمر!! هذه جريمة.

أجابه الضابط في توتر بالغ:

- لقد قمنا بواجبنا يا سيدي، والاتصالات بيننا وبين قيادة القوات البحرية، وقيادة حرس السواحل، لم تنقطع لحظة واحدة.

هتف مندوب الرياسة في حنق:

- وهذا ما يثير جنوننا أكثر وأكثر.. كيف تتولى القوات البحرية، مع قوات حرس السواحل أمرا كهذا، دون إبلاغنا به؟!

كيف؟! كيف؟!

تنهد ضابط الشرطة في عصبية، وهو يقول:

- يمكنك أن تسألهم هذا يا سيدي.

هتف مندوب الرياسة في حدة:

- ومن قال إنني لم أفعل؟!

ثم تلاشت عصبيته دفعة واحدة، وبدا يائسا حائرا، على نحو أثار دهشة ضابط الشرطة، خاصة عندما جذب مندوب الرياسة مقعدا، وأطلق من أعماق صدره زفرة ملتهبة بالمشاعر والاحباطات، وهو يجلس عليه، مواصلاً:

- ولكن الكل يؤكد أنه قد تلقى إرشادات رسمية، من أجهزة الأمن العليا، ومن وزارة الدفاع مباشرة، وأن كل الإشارات والأوامر كانت ملحقة بالشفرات السرية الخاصة، وبأكواد الطوارئ القصوى، التي لا يعرفها سوى القادة، وسيادة الرئيس شخصيا، حتى إن أحدهم لم تراوده ذرة واحدة من الشك، تجاه ما تلقاه من أوامر وتعليمات.

غمغم ضابط الشرطة:

- هذا مستحيل! من الناحية الأمنية على الأقل!

أشار إليه مندوب الرياسة، في انفعال جارف، وهو يهتف:

- بالضبط.

ثم هب من المقعد، الذي لم يكتمل حتى جلوسه عليه، وهو يتابع في عصبية يائسة:

- هذا ليس مستحيلاً من الناحية الأمنية والمنطقية فحسب، ولكن من الناحية التكنولوجية أيضا، فالاتصال بجهات كهذه، لا يمكن أن تتم من جهة بعيدة، دون أن يتم رصد الاتصال، على نحو أو آخر، ولكن هذا لم يحدث أبدا، مما يوحي بأننا أمام جهة بالغة القوة، تمتلك تكنولوجيا تفوق التكنولوجيا التي تستخدمها مؤسسة الرياسة نفسها، لحماية أمنها واستقرارها، وهي بالمناسبة، أعلى تكنولوجيا معروفة، في يومنا هذا.. أو...

بتر عبارته دفعة واحدة، قبل أن يستطرد، في صوت بدا مرتجفا:

- أو أننا نواجه قوة هائلة، لا قبل لنا بها.. قوة أتت من خارج حدود فهمنا وإدراكنا..

وصمت لحظة، ثم أضاف:

- أو خارج حدود عالمنا.

سرت قشعريرة باردة، في جسد الضابط، مع سماعه العبارة الأخيرة، وغمغم في توتر شديد:

- أيعني هذا أن السّيد (رأفت) ليس..
قاطعه مندوب الرياسة في حزم:
- كل أجهزة المخابرات هنا، تعمل بتكليف وأوامر مباشرة من مؤسسة الرياسة، وما دمنا لم نعلم بما حدث، فمن المحتم أن أي جهاز مخابرات، لم يرسل أحدا، و...
بتر عبارته مرة أخرى، قبل أن يتساءل في انفعال:
- أين تلك السيارة، التي وصل بها رجل المخابرات الزائف هذا إلى هنا؟!
بدا الضابط وكأنه قد انتبه إلى هذا الأمر فجأة، وهو يهتف:
- في الخارج.. ما زالت في الخارج..
سأله مندوب الرياسة، وهو يندفع إلى الخارج:
- هل تم فحصها؟!
هتف الضابط، وهو يتبعه إلى رصيف الميناء:
- لم يكن هناك داع لهذا.. أعنى من الناحية الأمنية.
اندفع الاثنان نحو السيارة، التي وصل بها (رأفت)، إلى رصيف الميناء، وقال مندوب الرياسة، وهو يلهث في انفعال:
- يا لها من مفارقة!! هو يقوم باستدعاء رجال المعمل الجنائي لفحص السفينة المجهولة، في حين لا يفكر شخص واحد في فحص سيادته؟
همهم ضابط الشرطة بكلمات غير مفهومة، وكأنما يحاول الدفاع عن موقف إدارة أمن الميناء، ثم تساءل بصوت حماسي متوتر:
- هل أرسل في استدعاء رجال المعمل الجنائي ثانية؟!
أجابه مندوب الرياسة في حزم:
- بالتأكيد.. نحتاج إلى معرفة كل ما يمكن معرفته، عن ذلك الرجل، وأي شيء يمكن أن نعثر عليه، في سيارته هذه، سيقودنا

حتما إلى كشف جزء من الغموض المحيط به.. أي شيء.. بصمة إصبع.. شعرة رأس، أو حتى..
قبل أن يتم عبارته، انطلقت شهقة قوية من حلق ضابط شرطة أمن الميناء، فرفع مندوب الرياسة وجهه إليه بحركة حادة، ثم لم يلبث أن أطلق بدوره شهقة قوية، من أعمق أعماق صدره، وكلاهما يحدق في تلك البقعة المتألقة، التي بدت أكبر حجما، وأكثر تألقا هناك..
في قلب البحر..

☆ ☆ ☆

«اقفز..»
نطق (رأفت) الكلمة في هدوء صارم وعلى نحو مباغت، اقترن بظهور تلك الدائرة المتألقة، فالتفت إليه (ممدوح) بحركة حادة، مكررا بلهجة مستنكرة:
- أقفز؟!
كرر (رأفت) بنفس الهدوء العجيب، الذي بدا مخيفا للغاية، في تلك اللحظة:
- اقفز من السفينة، قبل فوات الأوان..
حدق (ممدوح) فيه بذهول، قبل أن يهتف في غضب:
- أي أوان هذا؟!
ما الذي يحدث بالضبط؟!
اتجه (رأفت) بالسفينة نحو الدائرة المتألقة مباشرة، وهو يقول بنفس الهدوء العجيب المستفز:
- النظرية الوحيدة الصحيحة، لتفسير كل حوادث الظهور والاختفاء الغامضة، كانت نظرية الأبعاد المتوازية، والعوالم المتماسة..
هتف (ممدوح) في دهشة:

- نظرية ماذا؟!
ثم انتفض، مستطردا في غضب:
- وما شأن هذا، بما نحن فيه الآن؟!
وكما حدث من قبل، تجاهل (رأفت) سؤاله تماما، وتابع في آلية:
- ولقد توصل ذلك العالم الفذ، الذي أخبرتك عنه، إلى هذه الحقيقة، بعد عشرين عاما من البحث والدراسة وأثبت أننا لسنا وحدنا في الكون، بل توجد حولنا عوالم أخرى، وأبعاد متوازية، وكلها تدور معنا في فلك كوني واحد، أو بمعنى أدق، كلنا نحتل الفراغ الفضائي نفسه تقريبا، ولكن بذبذبات وأطوال موجية مختلفة، وكل عالم وبعد منها يدور حول نفسه طوال الوقت، كما تفعل كل الأجرام في الكون المعروف، ومع الدوران المستمر، تلتقى العوالم في نقطة تماس واحدة، كل حين وآخر، وعندما يحدث هذا، تنفتح فجوة بين الأبعاد المتوازية، عند نقطة تماس العوالم، و...
هتف (ممدوح) في عصبية:
- رويدك يا هذا.. لست أفهم الكثير مما تقول! لقد أرهقت عقلي بعشرات المصطلحات المعقدة، حتى أنني لم أعد أستوعب شيئا.
صمت (رأفت) بضع لحظات، قبل أن يواصل:
- عندما تنفتح الفجوة، يعتمد الأمر على كثافة المادة الكونية، لكل من الأبعاد المتماسة، فالعالم صاحب الكثافة الأعلى، يمتص الأجسام، التي تتواجد في نقطة التماس، في العالم صاحب الكثافة الكونية الأقل.. وهذا يفسر حالات الظهور والاختفاء الغامضة عبر التاريخ، فعندما يكون عالمنا هو الأقل في الكثافة الكونية، تختفي منه الأشياء، التي تنتقل إلى العالم

المتماس معنا، والذي له الكثافة الأعلى، أما لو حدث العكس، فالأشياء تختفي من العالم الآخر، وتظهر في عالمنا.
اتسعت عينا (ممدوح)، وهو يشير بيده، قائلاً:
- رباه! هل تعنى أن هذه السفينة....؟!
قاطعة (رأفت) في حزم:
- نعم.. هذه السفينة من عالم آخر.. من أحد العوالم المتوازية، التي التقت مع عالمنا، في نقطة تماس واحدة، وكانت كثافتها أقل من كثافة عالمنا..
تمتم (ممدوح) بكل الدهشة والذهول:
- رباه! رباه!
ثم تساءل في توتر:
- ولماذا يمثل هذا خطرا على عالمنا؟!
أجابه (رأفت) في حزم، وهو يتجه بالسفينة، نحو الدائرة المتألقة في قلب البحر مباشرة:
- العالم الذي أتت منه، ليس عالما مماثلاً لعالمنا، بل يتكون من مادة مختلفة تماما، على الرغم من أن مخلوقاته تشبه البشر.. وتلك المادة تبدو هنا منيعة، نظيفة دائما، لأنها تتنافر مع مادتنا الأساسية.. ووفقا لأبحاث ذلك العالم الفذ، ستتفاعل مادة ذلك العالم الآخر مع مادة عالمنا ببطء شديد، ولهذا لم يظهر ركاب وبحارة السفينة، إلا بعد فترة من الزمن، فبالنسبة لهم ما زالت سفينتهم تبحر في بحرهم، ولا يرون ما يحيط بهم بالفعل.
قال (ممدوح) مبهورا:
- ولكن أجسادهم تتضح رويدا رويدا.
أجابه (رأفت) في سرعة:
- وهنا تكمن الخطورة.
وقبل أن يسأله (ممدوح) عما يعنيه، تابع في سرعة:

- ظهور أجسادهم التدريجي هذا، يعني أن تفاعل مادتهم مع مادة عالمنا يقترب من درجة الالتحام، فإذا ما تم هذا، ستتحول السفينة كلها إلى ما يشبه القنبلة النووية الاندماجية، ولكن بقوة تفوق قوة قنبلة (هيروشيما) ألف ألف مرة، مما يمكن أن يؤدى إلى فناء هذا العالم تماما..

امتقع وجه (ممدوح) بشدة، وزاغت عيناه في مقلتيهما، وهو يقول:

- مستحيل! مستحيل!

ثم خفض فوهة مسدسه، متمتما في ارتياع:

- لا بد من منع حدوث هذا بأي ثمن.

أجابه (رأفت) بنفس الهدوء:

- بالضبط.

لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع نداء قوى، من المدمرة البحرية، يقول في صرامة بالغة:

- الإنذار الثاني والأخير.. توقف فورا، أو نطلق النار مباشرة، دون إنذار آخر..

هتف (ممدوح):

- رباه.. سيطلقون صواريخهم على السفينة! هل يمكن أن يؤدي هذا إلى انفجارها..

التقى حاجبا (ممدوح)، وهو يتساءل:

- حقا؟!

أجابه (رأفت)، في هدوء عجيب:

- اطمئن.. كل قوة أسلحة عالمك، لا تكفي لخدش سفينة مصنوعة من هذه المادة.

أجابه (رأفت) وهو يلتفت إليه في هدوء:

- امنحني ثقتك..

تطلع إليه (ممدوح) في حيرة متوترة، وهو يكرر سؤاله السابق:
- من أنت بالضبط؟!
لم يكد يلقى سؤاله حتى أطلقت المدمرة صواريخها..
ودوى الانفجار..
انفجرت صواريخ المدمرة بدوي هائل، في جسم السفينة، و...
ولكنها حتى لم ترتَّج..
لقد واصلت سيرها بنفس الحزم، متجهة نحو تلك الدائرة، التي ازدادت تألقا، في قلب البحر، وكأنما لم يمسَّها طير صغير وعلى متن المدمرة البحرية، اتسعت عيون الكل في ذهول، وغمغم ربانها:
- مستحيل! من أية مادة صُنعت هذه السفينة؟!
هز ضابطه الأول رأسه في توتر، وغمغم في عصبية:
- هل نطلق صواريخنا نحوها مجددا؟!
صمت الربان بضع لحظات، وهو يدرس الموقف في ذهنه جيدا، قبل أن يقول في حزم، امتزج بلمحة من التوتر:
- كلا.. دعنا نبلغ القيادة العليا أولاً.
وصمت لحظة، ثم تابع:
- ولننتظر، حتى ندرك لماذا تتجه السفينة، نحو تلك البقعة المتألقة مباشرة.. أو ما الذي سيحدث عندئذ؟!
«ما الذي سيحدث الآن؟!»
هتف (ممدوح) بالسؤال، وهو يتطلع في توتر إلى الدائرة المتألقة، في قلب البحر، والتي تقترب منها السفينة أكثر وأكثر..
فأجابه (رأفت) بهدوئه العجيب، وهو ينطلق نحوها مباشرة:
- سأعيد هذه السفينة إلى عالمها، قبل أن تحدث الكارثة..
ثم التفت إليه، مستطردا:
- أما أنت، فلتقفز في البحر بسرعة، قبل أن نبلغ نقطة اللاعودة.

كرر (ممدوح) في انزعاج:
- نقطة اللاعودة؟!
أجابه (رأفت):
- نعم.. فبعد دقائق قليلة، سندخل نقطة التماس بين العالمين، وعندئذ لن يكون هناك مجال للفرار..
سأله (ممدوح) في توتر:
- ألا يمكننا أن نترك السفينة، لتندفع وحدها، نحو نقطة التماس هذه؟!
هز (رأفت) رأسه نفيا، وهو يقول:
- مستحيل! عالمك هنا أقل، في كثافة المادة الكونية، عن ذلك العالم الآخر، لذا فمن الضروري أن نستخدم كل طاقة الدفع في السفينة، للعبور عكس اتجاه الجذب الطبيعي لفجوة التماس، ولو تركنا المحركات وحدها، ستنحرف السفينة عن مسارها، وترتطم بحافة الفجوة، وعندئذ ستكون النتيجة أكثر فداحة، إذ يمكن أن يؤدي هذا إلى فناء العالمين معا، وإلى خلل تام، في نظام العوالم المتوازية كله..
اتجه (ممدوح) نحوه، وهو يقول في حزم:
- سنقوم بهذا معًا إذن.
أجابه (رأفت) في قوة:
- مستحيل!
ثم التفت إليه، مكملاً:
- مهمتي هنا هي أن أمنعك من تكرار هذا.
تجمد (ممدوح) في مكانه، وانتفض جسده كله، مع ارتجاف صوته، وهو يقول:
- تكرار هذا؟! ماذا تعنى؟!
أشاح (رأفت) بوجهه عنه، وهو يقول:

- أنت أنقذت عالمك فيما مضى، عندما أدركت ما يواجهه من خطر، فقدت السفينة بنفسك، عبر فجوة التماس بين العالمين، و...
قاطعه (ممدوح)، وهو يهتف في حدة:
- ماذا؟! ما الذي تقوله بالضبط يا رجل؟! ما الذي تعنيه بأنني قد فعلت هذا من قبل؟! إننا لم نر هذه السفينة سوى مرة واحدة!
أجابه (رأفت):
- بالضبط.. أنت رأيت هذه السفينة مرة واحدة، وأنا كذلك رأيتها مرة واحدة.. في هذا الزمن.
انتفض جسد (ممدوح) مرة أخرى في عنف، وهو يهتف:
- هذا الزمن؟!
استدار إليه (رأفت)، في بطء إلى، وهو يقول:
- نعم.. ففي الزمن الذي أتيت منه، تعتبر واقعة إنقاذك لعالمك مجرد تاريخ.
اتسعت عينا (ممدوح) عن آخرهما، وهو يقول ذاهلاً، غير مصدق:
- تاريخ؟!
أجابه (رأفت)، بهدوئه المثير:
- نعم يا سيادة العميد (ممدوح).. بطولتك وتضحيتك سجلها تاريخ عالمك، وإن ظلت ضمن الأسرار العليا للدولة، لعقدين كاملين من الزمان..
هتف (ممدوح) وكل ذرة في كيانه ترتجف انفعالاً:
- تاريخ؟!.. لست أفهم.. لا يمكنني أن أفهم!
أجابه (رأفت) والسفينة تواصل اقترابها من فجوة التماس المتألقة:

- الأمر عسير الفهم بالفعل، بالنسبة لزمنك، فالتكنولوجيا التي أمثلها، تفوق أعظم تكنولوجيا في زمنك بألف مرة على الأقل، لهذا لم يكن من العسير أن أصل إلى رصيف الميناء، دون أن يشعر أحد، وأن أستخدم شفرة الاتصالات، وأكواد القيادات العليا السرية، لتوجيه الأوامر والتعليمات للقوات البحرية، وقوات حرس السواحل، ورجال المعمل الجنائي، وكل أجهزة الأمن الأخرى.

ردد (ممدوح) بكل الذهول:

- مستحيل! مستحيل!

أجابه (رأفت):

- لا يوجد مستحيل، بالنسبة للتقدم العلمي يا سيادة العميد، فما يبدو مستحيلاً في زمن ما، يتحول إلى حقائق يومية بسيطة، في أزمنة تالية.. راجع أفلام الخيال العلمي منذ ربع القرن، وستجد أنك تحيا الآن فيما كانوا يتصورونه خيالا محضا فيما مضى.

وآلة الزمن ليست اختراعا حديثا، وإنما بدأت تجاربها الأولى بالفعل، في عام ١٩٩٧م، على يد العالم الروسي (تشيرنوبروف) ([7])، ولكنها ظلت تعطى نتائج محدودة، حتى قام عالمنا الفذ بتطويرها، وتحسينها، وصنع منها آلة زمن فعلية، نجحت في إعادتي إلى زمنك هذا، لأمنعك من تكرار ما فعلته، ولأتولى بدلا منك مهمة إنقاذ عالمك..

وصمت لحظة ثم تابع:

- بمعنى أدق.. مهمتي هي أن أحل محلك حتى لا تلقى مصرعك في هذه العملية.

ظل (ممدوح) جامدا ذاهلا بضع لحظات، قبل أن يتمتم:

- مستحيل! لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا..
أجابه (رأفت):
- إنه كذلك.. الآن أسرع بالقفز إلى البحر فلم يعد أمامنا الكثير من الوقت.
حدق فيه (ممدوح) بضع لحظات، في صمت ذاهل، وعقله يأبى تصديق ما سمعه!!
آلة زمن..
بطولة..
و...
«ولماذا أنت؟!»
هتف بالسؤال بغتة، في صرامة مستنكرة، قبل أن يلوح بيده مستطردا في حدة:
- لماذا تقوم أنت بالتضحية بنفسك، لإنقاذ عالمي؟
أجابه (رأفت) من برود:
- إنها مهمتي، التي عبرت من أجلها الزمن إلى هنا.
هتف به (ممدوح):
- أية مهمة تلك؟! ومن كلفك إياها؟!
أدار (رأفت) عينيه إليه، في بطء رهيب، قبل أن يجيب:
- ابنك.
وانتفض جسد (ممدوح) بمنتهى العنف والشدة هذه المرة..
فالجواب كان صاعقا..
بحق..

☆ ☆ ☆

٦- المهمة الأخيرة..

انعقد حاجبا مندوب رئاسة الجمهورية في قوة، وهو يدور مع ضابط الشرطة، المسئول عن الاستعلام الأمني، في ميناء (الإسكندرية)، حول تلك السيارة، الرابضة على رصيف الميناء، والتي وصل بها (رأفت) إلى المكان، ثم لم يلبث مندوب الرياسة أن توقف، هاتفا:

- مستحيل! لا يوجد مدخل واحد إلى هذه السيارة العجيبة!!

كيف خرج منها رجل المخابرات الزائف أمامكم إذن؟!

قلب ضابط الشرطة كفيه، في حيرة ما بعدها حيرة، وهو يقول:

- لست أدرى لقد رأيناه جميعا يدخل المكان بها، ثم يغادرها في بساطة، كما يغادر أي شخص عادي سيارته، ولم أتخيل لحظة واحدة، أن أبوابها وحقيبتها يمكن أن تكون كلها ملتحمة بجسمها، على هذا النحو.. إنها.. إنها..

ارتجَّ عليه بضع لحظات، من فرط حيرته، قبل أن ينتفض جسده لسبب ما، ويهتف في عصبية:

- لا يوجد تفسير لكل ما يحدث هنا..

ازداد انعقاد حاجبا مندوب الرياسة، وهو يتطلع إلى سيارة (رأفت) في غضب، ثم تراجع بحركة حادة، وسحب مسدسه من حزامه، وهو يقول في صرامة عصبية:

- فليكن.. لن يقف هذا الشيء عقبة، في سبيل معرفتنا للحقيقة، لو أن جسم هذه السيارة الزائفة مغلقا، فنوافذها ما زالت مصنوعة من الزجاج، الذي لن يصمد أمام رصاصات مسدسي هذه.

وقبل حتى أن تكتمل عبارته الأخيرة، كان يضغط زناد مسدسه، ويطلق النار..
ومع صمت الميناء في تلك الساعة، بدا دوى الرصاصات أشبه بالقنابل، على نحو استفز أعصاب كل من بالميناء، فسحب رجال الشرطة منهم أسلحتهم، واندفعوا نحو مصدر الطلق و..
وإلى أقصى حد..
وتوقف الجميع ذاهلين..
بل تجمدوا..
تجمدوا تماما..
فما حدث أمام عيونهم جميعا، إثر ارتطام الرصاصات بجسم سيارة رجل المخابرات (رأفت)، كان مذهلاً..
لقد ارتطمت الرصاصات بزجاج السيارة وجسمها، ثم ارتدت في عنف، كما لو أنها مصنوعة من أقوى عنصر في الكون، ودون أن تترك بها الرصاصات خدشًا واحدًا..
ولم يكن هذا هو سبب ذهول الجميع..
وإنما كان البداية..
فقط البداية..
ففي اللحظة التالية، التمع جسم السيارة، كما لو أن بقعة ضوء كبيرة، قد سقطت عليها مباشرة..
ثم راحت تتألق..
وتتألق..
وتتألق..
ومع تزايد تألقها، راح جسدها يرتفع عن الأرض في بطء..
ويرتفع..
ويرتفع..

وفي ذعر ذاهل، تراجع الجميع مبتعدين، وهتف مندوب الرياسة، في عصبية زائدة:
- مستحيل! ما الذي يحدث هنا؟! ما الذي يحدث؟!
مع آخر كلماته، ازداد تألق السيارة في قوة مباغتة، حتى أغشى تألقها الأبصار، فانطلقت شهقات ذاهلة مذعورة من الحلوق، وانطلق الكل يعدو مبتعدا، في هلع غير محدود، وقد وقر في أعماقهم جميعا أن السيارة ستنفجر فجأة، وستودى بهم..
ومن خلفهم، دوى صوت ما..
صوت مكتوم عجيب، أشبه بصوت هواء ينطلق، بضغط مرتفع، من وعاء ضيق ثم تلاشي التألق دفعة واحدة..
وعلى نحو مذهل..
للغاية..
وفي ذعر شديد، استدار الكل يحدقون في ذلك الموضع، الذي كانت تحتله سيارة (رأفت)، منذ لحظة واحدة..
ثم قفز الذهول إلى ذروته..
وكذلك الهلع..
فلقد كان ذلك الموضع خاليا..
خاليا تماما..

☆ ☆ ☆

لدقيقة أو يزيد، ظل (ممدوح) يحدق في وجه (رأفت) ذاهلاً، حتى قال هذا الأخير، دون أن يفارقه بروده:
- هيا.. لا تضع الوقت.. اقفز في البحر، وسيتم الأمر، كما قمت به أنت سابقا.. وعلى أكمل وجه، و....
قاطعه (ممدوح)، بكل توتر الدنيا:
- تقول: إن ابني هو من أرسلك من المستقبل!!
صمت (رأفت) لحظة، ثم أجاب:

- نعم.. أرسلني، مجازفا بوجوده نفسه، في سبيل إنقاذك من المصير الذي اخترته بنفسك، لإنقاذ عالمك.
ثم التفت إليه، متابعا:
- صدقني.. لقد افتقدك بشدة.. كان يحبك إلى حد الهوس، على الرغم من خلافاتكما المستمرة.. وحزنه لفقدك وفراقك لم يزايله قط، وكان الدافع الأول، الذي حفز كل عبقريته وهمته، ليتحول إلى أعظم عالم في عصره.. لقد فاق كل من سبقه من علماء، على نحو فذ.. وضع نظريات علمية جديدة، كسرت كل الثوابت الفيزيائية المعروفة، وتوصل إلى كشوف مذهلة، لم يحلم بنصفها أعظم وأعلم العلماء، الذين احتلوا مكانة رائعة، في تاريخ العلم.. وكل هذا من أجلك.. لقد ظل يؤمن لفترة طويلة أنه باستطاعته استعادتك، وإنقاذك من الفناء، مع هذه السفينة، مما جعله يبذل جهدا مضنيا لحل اللغز، ولتطوير آلة الزمن.. الواقع أنه ينبغي أن تفخر به يا سيادة العميد؛ فهو أعظم من عرفه زمني، وهو عميد علماء العالم كلهم.
وعلى الرغم من صعوبة الموقف ودقته، شعر (ممدوح) بفيض من الحنان والزهو يسري في عروقه، وذهنه يستعيد صورة ابنه الوحيد، وتمنى لو أمكنه أن يحيا بالفعل، حتى يرى تلك اللحظة، التي سيصبح فيها ابنه أعظم علماء عصره، وعميدهم، و....
وفجأة، انطلقت شهقات قوية من حولهما، وانبعثت أصوات عصبية قوية، انتزعت (ممدوح) من مشاعره، فتلفت حوله في توتر، ووقع بصره على البحارة والركاب، وضباط السفينة، وهم يحدقون فيه، وفي (رأفت)، عبر زجاج قمرة القيادة، على نحو جعله يهتف:
- رباه! إنهم يروننا الآن، ويشعرون بوجودنا!
أجابه (رأفت) في سرعة:

- إننا نثير ذهولهم وفزعهم للغاية يا سيادة العميد؛ فبالنسبة لهم، تغير عالمهم فجأة، وانتبهوا إلى وجودهم في عالمنا، وفي نفس اللحظة، التي أدركوا فيها هذا، فوجئوا برجلين غريبين، يرتديان ثيابا عجيبة، يحتلان قمرة القيادة، ويقودان سفينتهم، نحو بقعة متألقة عجيبة، تثير ذهولهم وذعرهم أيضا..

حمل صوت (ممدوح) كل توتره، وهو يواصل التلفت حوله، هاتفا:

- رباه.. سيقتحمون القمرة حتما، إن عاجلاً أو آجلاً..

أجابه (رأفت) في هدوء:

- اطمئن.. لن يمكنهم هذا.. القمرة محكمة من اتجاههم، وعلى الرغم من إدراكهم لوجودنا، إلا أن اختلاف مادتينا يمنعهم من الظفر بنا، أو حتى الإمساك بنا.

قال (ممدوح) في عصبية:

- ولكنك استطعت إزاحة قبطانهم عن دفة القيادة!

صمت (رأفت) بضع لحظات، قبل أن يجيب:

- أنا أختلف..

هتف به (ممدوح):

- وفيم تختلف؟!

صمت (رأفت) لحظة أخرى، ثم قال:

- اقفز يا سيادة العميد.. اقفز قبل فوات الأوان، اخرج من هنا، واتجه نحو حاجز السفينة مباشرة، واقفز في البحر دون تردد.. سيتابعونك بأبصارهم في ذعر وعدائية وتحفز ولكن أحدهم لن يمكنه أن يمنعك مما ستفعله.. اقفز بالله عليك، وغادر هذه السفينة، قبل أن يضيع الوقت، وتذهب تضحية ابنك هباء.

خفق قلب (ممدوح) في عنف، وهو يردد:

- تضحية؟! ماذا تعني؟!

صاح به (رأفت):
- اقفز يا سيادة العميد.. غادر السفينة فورا.
ولكن (ممدوح) لم يبال بصيحته، وهو يسأله في حدة:
- تحدثت من قبل عن مجازفة ابني بوجوده المستقبلي، في سبيل إنقاذي، ثم تتحدث الآن عن تضحيته.. ما الذي يعنيه هذا بالضبط؟! أفصح..
كرر (رأفت):
- غادر السفينة.. أمامنا ثلاث دقائق فحسب، وبعدها ستصبح مهمتي كلها عديمة الجدوى.
هتف (ممدوح):
- أغادر السفينة، وتقودها أنت إلى عالمها.. وإلى حتفك أيضا.. أليس كذلك؟!
قال (رأفت):
- المهم أن تنجو أنت.
صاح (ممدوح) متحديا:
- كلا.. لن تبذل حياتك في سبيل حياتي.. لن أسمح لك بهذا قط.
TH
أجابه (رأفت)، وهو يتجه بالسفينة، نحو الدائرة المتألقة تماما:
- لن أبذل شيئا يا سيادة العميد.. المهم حياتك أنت.
صاح به (ممدوح):
- وماذا عن حياتك أنت؟!
استدار إليه (رأفت)، في بطء مخيف، وهو يجيب:
- اطمئن.. ليست لي حياة.
انتفض جسد (ممدوح) - واتسعت عيناه عن آخرهما، وشمل الذهول كل لمحة من ملامحه، قبل أن يغمغم:
- ليست لك حياة!

تألقت تلك الدائرة أكثر وأكثر، في تلك اللحظة، وغمر ضوؤها العجيب وجه (رأفت)، على نحو مخيف، وهو يقول:
- نعم يا سيادة العميد.. أنا لست شخصا حيا، كما يبدو لكم جميعا.. أنا في الواقع أحد أعظم اختراعات ابنك في المستقبل، فآلة الزمن لا تزال عاجزة عن نقل البشر عبر الزمن.
غمغم (ممدوح)، بكل ذهول الدنيا:
- أنت.. أنت شخص آلي!!
هز (رأفت) رأسه في بطء، مجيبا:
- ليس بالمعنى المعروف في زمنك.. أو حتى بالمعنى الذي تحمله بعض الأفلام الخيالية؛ فجسمي يتكون من مجموعة الموصلات، ذات قدرة لا يمكن وصفها، أو شرحها، بالنسبة للتكنولوجيا المعروفة في زمنك، ولكنها تمنحني ذلك الذكاء الصناعي، الذي حلمتم به طويلاً، وإن كانت قاصرة في الجزء الخاص بالتفاعل الانفعالي مع الأحداث.
غمغم (ممدوح)، من قلب ذهوله:
- لهذا.. لهذا كنت هادئا طوال الوقت!
قال (رأفت):
- لدىَّ مجموعة محدودة من البرامج الانفعالية، أمكنني إظهارها في مناسبات قليلة فحسب.
هتف (ممدوح):
- ولكن لماذا كل هذا.. لماذا اتصالك بالبحرية، وقوات حرس السواحل، واستدعاء المعمل الجنائي.. لماذا كل هذه التمثيلية، ما دمت تعرف طبيعة مهمتك منذ البداية؟!
أجابه (رأفت)، بذلك الهدوء الآلي:
- لا بد أن يسير كل شيء وفقا لما سجله التاريخ بالضبط، حتى لحظة التغيير، فأي اختلاف، قبل اللحظة المنشودة، يمكن أن

يؤدى إلى مجموعة تداعيات زمنية، ربما تقود الأحداث إلى اتجاه آخر تماما، ولا أحد يدري ما الذي يمكن أن يحدث عندئذ.. ربما كارثة أكثر فداحة.
انعقد حاجبا (ممدوح)، وهو يتمتم:
- نعم.. أي اختلاف في الأحداث، قد يقود إلى كارثة أكثر فداحة.
أجابه (رأفت):
- بالضبط.
خفض (ممدوح) عينيه، اللتين غامتا على نحو عجيب، وبدا وكأنه غارق في تفكير عميق، فتابع (رأفت):
- والآن هيا.. غادر السفينة فورا يا سيادة العميد هيا..
التقط (ممدوح) نفسا عميقا، ثم أطلقه من أعمق أعماق صدره، في شكل زفرة ملتهبة، وهو يغمغم:
- معذرة يا (رأفت)، أو أيا كان اسمك.
ثم رفع فوهة مسدسه فجأة، وأطلق رصاصاته نحو ساقي (رأفت)، مستطردا بصيحة صارمة:
- ولكنني لن أغادر السفينة.
أصابت الرصاصات ساقي (رأفت)، فاختل توازنه، وسقط فجأة، فاختل توازن دفة القيادة لحظة، ولكن (ممدوح) وثب يلتقطها، ويحافظ على مسار السفينة، نحو الدائرة المتألقة، فقال (رأفت)، بنفس الهدوء المستفز:
- ولكن لماذا؟!
أجابه (ممدوح) في تأثر واضح:
- لأن ابني العبقري، فاته أن ينتبه إلى نقطة مهمة جدا، ربما تحتاج إلى عقل رجل أمن، بأكثر مما تحتاج إلى عالم فيزيائي فذّ.
سأله (رأفت):
- أية نقطة؟!

أجابه (ممدوح)، وهو يلتقط نفسا عميقا:
- لماذا فعلت أنا ما فعلت، وقدت السفينة عبر تلك الدائرة المتألقة، لأعيدها إلى عالمها، على الرغم من أن عقليتي، ومعلوماتي العلمية، وطبيعتي الأمنية، لا يمكن أن تقودني إلى هذا، دون أن أدرك بوضوح طبيعة الخطر الذي تمثله لعالمي؟!
سأله (رأفت) في آلية:
- الواقع أن هذا لم يرد ببرنامجي قط، ولكن دعني أسألك: لماذا فعلت؟!
التقط (ممدوح) نفسا عميقا آخر، وتأكد من أن السفينة تتجه نحو قلب الدائرة المتألقة مباشرة، قبل أن يجيب:
- لأنك أتيت إلى هنا.
قال (رأفت) في بطء:
- لم أفهم.
أجابه (ممدوح):
- الواقع أن ابني، عندما أرسلك عبر الزمن، إلى هذه الفترة، لم يكن في سبيله إلى تغيير الأحداث في الواقع، وإنما كان يبدأها، دون أن يدري، فوصولك هو الذي نبهني إلى خطورة هذه السفينة على عالمي، وهو الذي جعلني أقودها نحو فجوة التماس، لأعيدها إلى عالمها.. باختصار.. الزمن يسير في دورته الطبيعية، سواء استخدمت آلة زمن أم لا..
قال (رأفت):
- هل تعنى أننا ندور في دائرة مغلقة.. أنا آتي إلى هنا، وأرشدك إلى الخطر، فتقود السفينة إلى العالم الآخر، ويفتقدك ابنك، ويجاهد ويثابر، حتى يكشف اللغز، ويخترع آلة الزمن، ويصنعني، فأعود إلى هنا، في محاولة إنقاذك، ولكن عودتي ترشدك إلى الخطر، وهكذا؟!

أجابه (ممدوح) في حزم:
- بالضبط.
قال (رأفت)، بنفس الهدوء الآلي العجيب:
- ولكن كانت أمامك الفرصة للتغيير.. كان ينبغي أن تقفز إلى البحر، وتغادر السفينة، وتتركني أنا أقودها إلى عالمها.. كانت أمامك فرصة تغيير الزمن بالفعل.
هز (ممدوح) رأسه نفيا، وترقرقت الدموع في عينيه، وهو يقول:
- وما الذي كان يمكن أن يحدث عندئذ؟! أنت قلتها بنفسك: تداعيات زمنية، قد تؤدي إلى كارثة فادحة.. بل وقد تهدد وجود ابني في المستقبل.
قال (رأفت):
- هذا صحيح.
تابع (ممدوح)، ودموع حنان تسيل من عينيه، دون أن ينتبه إليها:
- لقد صنع ابني عظمته كلها، مع تأثره بفقدي.. إنني أشعر بالحزن والأسى لما سيصيبه، ولكن المأساة صنعت منه أعظم علماء عصره.. لا تنس هذا أبدا..
وتدفقت الدموع من عينيه أكثر، وهو يستطرد:
- إنني أسمع منذ طفولتي أن الشخص الوحيد، الذي يتمنى المرء تفوقه عليه، هو ابنه.. فقط ابنه.. والآن تيقنت من أن هذا القول حقيقي تماما، فما أن وضعت حياتي في كفه، ومستقبل ابني في الكفة الأخرى، حتى رجحت كفته لديَّ بلا تردد..
استنفر (رأفت) كل قواه الآلية، ونهض واقفا، على الرغم من إصابة ساقيه شبه الحيويتين، و(ممدوح) يكمل:
- لو نجوت أنا من الموت الآن، سيفقد ابني حافزه، الذي صنع منه أعظم علماء عصره.. ولا أحد يدري ما الذي سيحدث

عندئذ... ربما يؤدي وجودي إلى تهديد وجوده هو، فمن تختار، لو كنت مكاني؟
أجابه (رأفت):
- برنامجي لا يتيح لى مواجهة مثل هذه الاختيارات.
ابتسم (ممدوح)، على الرغم من الدموع، التي غمرت وجهه، وهو يقول:
- أما أنا، فما منحني إياه الله (سبحانه وتعالى)، يمنحني القدرة على التمييز، وتقدير الأمور، واتخاذ القرار، ومهما بلغت عبقرية البشر، لن يصنعوا ذرة مما يمنحه الخالق (عز وجل) لكل مخلوقاته.. إرادة القرار..
صمت (رأفت) بضع لحظات، قبل أن يلتقط الدفة، قائلاً:
- أظنني أستطيع قيادتها على نحو أفضل.
تشبث (ممدوح) بالدفة في قوة، وهو يقول في صرامة حازمة:
- لن تمنعني من تنفيذ ما قررته.
أجابه (رأفت) بهدوئه العجيب:
- اطمئن يا سيادة العميد.. لقد فات أوان التراجع.. السفينة ستعود إلى عالمها، بعد دقيقة واحدة.
تردد (ممدوح) لحظة، ثم لم يلبث أن ترك دفة القيادة، وهو يقول:
- نعم.. انطلق بها إلى بر الأمان.
وتراجع بضع خطوات، مغمغما:
- أمان عالمنا كله.
تسلم (رأفت) الدفة، واتجه بالسفينة نحو الدائرة، التي بدت هائلة الحجم وبدا تألقها رهيبا، إلى الحد الذي جعل ركابها وبحارتها وضباطها، وحتى قبطانها يصرخون في رعب، وهم يجهلون تماما أن عبورها سينقذ حياتهم، ويعيدهم إلى عالمهم..

ومن بعيد، هتف قبطان مدمرة القوات البحرية المصرية:
- رباه!! فليتوقف الكل فورا.. هذا الشيء يبدو رهيبا وخطيرا للغاية، ومن الواضح أن رجل أمن الميناء يقود السفينة نحوه لهدف ما.
وصمت لحظة، انعقد خلالها حاجباه، قبل أن يستطرد:
- شيء ما يحدثني أنه يفعل هذا من أجلنا.. من أجلنا جميعا..
في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كانت السفينة تعبر الدائرة المتألقة بالفعل، و (ممدوح) يلتقط نفسا عميقا آخر، ثم يغلق جفنيه على دموعه، التي أغرقت كيانه كله، وهو يهتف:
- كم أقدر ما فعلته من أجلي يا بني.. وكم تمنيت أن أخبرك كم أنا فخور بك، ومزهو بما ستصل إليه ولكن يكفيني أن يدرك قلبك، في وقت ما، أو زمن ما، أننى إنما فعلت ما فعلته من أجل العالم كله.. من أجل عالم أردتك أن تنعم فيه بالحياة والتفوق.. لقد فعلت هذا من أجلك يا ولدى..
ومع آخر حروف هتافه، الذي انطلق من أعمق أعماق خبايا قلبه، عبرت السفينة السوداء العجيبة، تلك الدائرة المتألقة..
وتجاوزتها إلى بُعْدٍ آخر..
إلى عالم آخر، ربما يكون العميد (ممدوح) هو أول من وقع بصره عليه، من بني البشر..
عالم يختلف..
يختلف تمام الاختلاف..
وأمام عيون الجميع الذاهلة، وفور اكتمال عبور السفينة، راح تألق فجوة التماس يخبو ويخبو، حتى تلاشي تماما..
تلاشى ليغلق إلى الأبد ملف السفينة الغامضة، الذي لم يُعلن رسميا أبدا..

وتلاشي ليضع كلمة النهاية، على ملحمة إنسانية رائعة، ربما لن يعلم أحد بأمرها، حتى آخر الزمان..

ومع التلاشي، عاد الظلام، والصمت، والسكوت، والهدوء إلى تلك البقعة..

إلى قلب البحر..

النابض..

إلى الأبد..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- السفينة..
٢- الأشباح..
٣- كل الغموض..
٤- ظهور واختفاء..
٥- عالم آخر..
٦- المهمة الأخيرة..

Notes

[←1]

تجربة حقيقية، لم تعترف الولايات المتحدة بإجرائها رسميا أبدا، ولكن المشاركين فيها كلهم أكدوا حدوثها، في ذلك التاريخ.

[←2]

حقيقة.

[←3]

معلومة صحيحة وواقعية.

[←4]

التاريخ يذخر بعشرات الأحداث للاختفاءات الغامضة، لأفراد ومعدات، في أماكن مختلفة، وفي أثناء بعض الحروب، وفي أماكن من البحار والمحيطات، ولعل مثلث (برمودا) هو الأشهر في هذا المضمار، لأن الاختفاءات قد تكررت فيه، عبر حقبة طويلة من الزمان، وارتبطت بأمور وأشياء مهمة جدا.

[←5]

واقعة مسجلة.

[←6]

واقعة مسجلة.

[←7]
حقيقة، ويمكن مراجعة تجارب آلة الزمن، على شبكة الإنترنت، بالبحث عن اسم (Chernoprove)، وهو العالم الذي وضع أول تصميمات عملية لآلة الزمن.

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الأمير

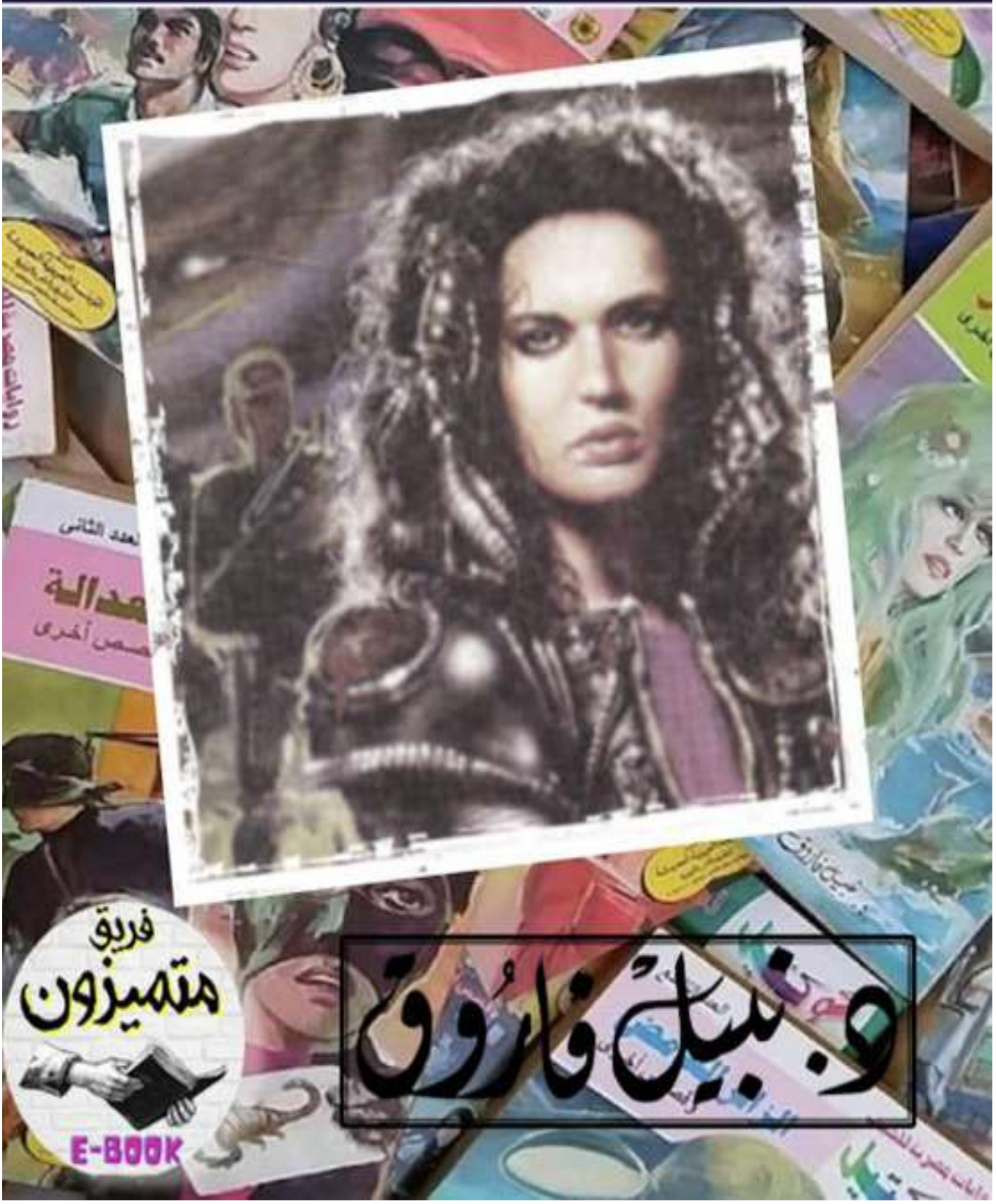

ونبيل فاروق

فريق متميزون

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

الأمير

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- الحلم..

«هل رأيت الطالب الجديد؟!»

هتفت (نجوى) بالعبارة، في شغف واضح، وهي تصفق بكفيها، كعادتها كلما بلغ حماسها ذروته، متجاهلة أنها تقف في ساحة الكلية، فتطلعت إليها صديقتها (مروة) في حيرة، متسائلة:

- وماذا عنه؟!

مالت (نجوى) نحوها، وأطل الانبهار من ملامحها وصوتها، وهي تجيب:

- إنه أشبه بنجوم السينما.. يا إلهي! ما أشد وسامته.

اتسعت عينا (مروة)، في دهشة حقيقية، مع كل ذلك الحماس المبهور، الذي يتفجر من كل خلية من خلايا صديقتها، وأثار هذا فضولها إلى أقصى حد، فوجدت نفسها تتساءل، في اهتمام شديد:

- أين هو؟!

أشارت (نجوى) بإبهامها إلى ما خلف ظهرها، مجيبة بنفس الحماس:

- في حجرة شئون الطلاب، يسجل أوراق التحاقه..

تساءلت (مروة) في دهشة:

- التحاقه؟! إننا في نهاية العام تقريبا.

أومأت (نجوى) برأسها موافقة، وقالت:

- أعلم هذا، ولكنهم يقولون: إن ظروف والده هي التي جعلته يصل متأخرا هكذا، فهو سفير في إحدى دول (أوروبا) على الأرجح، وزميلنا الجديد كان يدرس هناك، حتى عاد والده إلى الوطن، فنقل أوراقه إلى هنا، و..

قاطعتها (مروة) في حيرة:
- من أين أتيت بكل هذه المعلومات؟!
قلبت (نجوى) كفيها، قائلة في ثقة:
- إنه أمر بسيط كما تعلمين.
ضحكت (مروة)، وهي تشير إلى رأسها، قائلة:
- بل هو استنتاج، صنعه عقلك كالمعتاد.. أليس كذلك؟!
هزت (نجوى) كتفيها، قائلة:
- وماذا في هذا؟! أنت تعلمين أننى عبقرية في علم الاستنتاج.
أطلقت (مروة) ضحكة صافية، قبل أن تقول:
- بالطبع.. وكيف يمكنني أن أنسى؟! لقد أخبرت الكلية كلها بقصة زواج الدكتورة (وفاء)، ورويت لهم أدق تفاصيل قصة حبها، وإصرارها على أن يتم الزواج بسرعة، وفي حفل عائلي بسيط، ثم عادت الدكتورة من إجازتها، لنعلم أن غيابها كان بسبب مرض والدها؟!
انعقد حاجبا (نجوى)، وهي تقول:
- ولكنها كانت ترتبط بعلاقة حب، مع الدكتور (رجائي)، الذي حصل على إجازته في الفترة نفسها.. هل نسيت؟!
قالت (مروة):
- وماذا عن صديقنا (أشرف)، الذي يعمل في المخابرات؟!
هتفت (نجوى) محتجة:
- كان يكثر من الأسئلة.. هل يمكنك إنكار هذا؟!
ابتسمت (مروة)، وربتت على كتفها، قائلة:
- لا بأس يا (نجوى).. لا بأس.
ثم اتسعت ابتسامتها، وهي تستطرد:
- هل تعلمين ما الذي يجعلني أحتمل استنتاجاتك هذه؟
لوحت (نجوى) بسبابتها، مجيبة:

- إنها عبقرية.
مالت (مروة) نحوها، هامسة:
- بل لأنك من داخلك طيبة القلب بحق.
هتفت (نجوى)، بلهجة بدت أقرب إلى الاستنكار:
- أنا؟!
ضحكت (مروة) مرة أخرى، من أعمق أعماق قلبها، وتراجعت مع ضحكتها الصافية، و..
وفجأة، انتفض قلبها بين ضلوعها في قوة..
فقد وقع بصرها عليه..
على الطالب الجديد..
والواقع أنه كان وسيما بحق..
وإلى درجة مدهشة..
وتماما كما وصفته (نجوى)..
كان أشبه بنجوم السينما..
«ألم أقل لكِ؟!»
هتفت (نجوى) بالعبارة في خفوت، يحمل كل الحماس واللهفة، واستمعت إليها (مروة) جيدا، ولكنها لم تستطع النطق بحرف واحد..
فقد كانت مبهورة..
وبحق.
فذلك الطالب الجديد بدا أشبه بالحلم، الذي يمكن أن تحلم به أية فتاة، وهي تصنع بخيالها صورة لفتى أحلامها..
فهو وسيم، طويل، قوى البنية، جاد الملامح..
أما ثيابه، فقد كانت تجمع بين البساطة والأناقة، على نحو يوحي بأنه من أسرة اعتادت الثراء، حتى لم تعد تبالى كثيرا بالإسراف في المظاهر..

وبكل الحماس، همست (نجوى):
- إنه يشبه نجوم السينما.. أليس كذلك؟! يشبه الأمير، الذي يظهر في أفلام الأساطير، ليغامر طوال الوقت، من أجل البطلة ليفوز بها في النهاية..
وتنهدت مع نهاية عبارتها، قبل أن تكمل:
- يا إلهي! كم أحسد البطلة التي ستلعب الدور أمامه..
واختلج قلب (مروة) مرة أخرى، مع عبارة صديقتها، التي لمست، في تلك اللحظة، وترا شديد الحساسية، في غياهب قلبها..
فكم كانت تتمنى، لو أنها تلعب دور البطلة أمامه، في فيلم رومانسي طويل فيلم لا ينتهي..
أبدا..
وراح عقلها يحيا ذلك الدور.
وينسجه..
وينمقه..
وفجأة، انتفض شيء ما في أعماقها..
شيء صرخ يستنكر: ماذا دهاكِ يا (مروة)؟!
ماذا أصابكِ؟!
كيف تخدعكِ عيناكِ إلى هذا الحد؟!
كيف تسقطين في فخ الانبهار، بشكل خارجي فحسب؟!
إنه شاب وسيم.. أنيق..
ليس هناك أدنى شك في هذا..
ولكنه لا يعني أنه يناسبكِ..
ماذا لو كان تافها؟!
مغرورًا..
أو متعاليا..

ماذا لو أن الثراء، الذي يرفل فيه منذ نعومة أظافره، كما يبدو واضحا، قد دفعه إلى إهمال عقله وثقافته..
بل ماذا لو أنه يعاني من كل هذه النقائص مجتمعة؟!
«لا..»
نطقتها فجأة في حدة، جعلت (نجوى) تلتفت إليها، مكررة في دهشة:
- لا؟! ماذا تعنين بكلمة لا هذه؟!
لم تدر (مروة) بم تجيبها، فتخضب وجهها بحمرة الخجل، وهي تقول في توتر..
- لا يشبه أي أمير، من أمراء السينما..
غمغمت (نجوى)، في دهشة أكثر:
- وهل يستحق الأمر كل هذا الانفعال؟!
أجابتها (مروة) في عصبية:
- هو نفسه لا يستحق منك كل هذا الانبهار..
هتفت (نجوى):
- حقا؟!
ثم ابتسمت، مكملة في مرح:
- إنها واحدة من المرات القليلة، التي نختلف فيها إذن.
بدت (مروة) عصبية أكثر مما ينبغي، وهي تقول:
- فليكن.
قالتها، وهي تستدير، وتبتعد عن المكان كله، دون أن تضيف حرفا واحدا، كما لو أنها تفر..
تفر من عينيها اللتين تجاهدان؛ للنظر إلى ملامحه الوسيمة مرة أخرى..
كانت تفر، حتى إنها لم تكتف بمغادرة المكان فحسب، وإنما الكلية كلها، فانطلقت عائدة إلى منزلها، الذي وصلته في ساعة

مبكرة، جعلت أمها تستقبلها في دهشة، قائلة:
- (مروة)؟! ماذا حدث؟!
سألتها (مروة) في ضيق:
- وماذا يمكن أن يحدث؟!
هزت أمها كتفيها، قائلة:
- أخبريني أنت.. إنها أول مرة تعودين فيها من كليتك، في هذه الساعة المبكرة؛ فالنهار لم ينتصف بعد.
شعرت (مروة) بالحيرة، وهي تبحث عن جواب مناسب، ثم لم تلبث أن قالت في ضيق:
- لست أدرى.. كل شيء يبدو سخيفا وغريبا اليوم.
لم تكد العبارة تتجاوز شفتيها، حتى شعرت بسخافتها، وتمنت لو أنها تستطيع استرجاعها، قبل أن تلتقطها أمها، وتنغمس معها في نقاش عقيم طويل، و..
«أنت على حق..»
نطقتها أمها في ضيق مماثل، مع تنهيدة حارة ملتهبة، جعلتها ترفع عينيها إليها في دهشة، فتابعت الأم، في شيء من الأسى:
- والدكِ أيضا لم يبد طبيعيا، وهو يقطع إجازته، التي انتظرناها طويلا، ويعود إلى عمله اليوم.
حمل صوت (مروة) مزيجا من الدهشة، والاستنكار، وخيبة الأمل، وهي تقول:
- عاد إلى عمله؟! وماذا عن الإجازة؟! ورحلة (الإسكندرية)، التي خططنا لها، في عطلة نهاية الأسبوع؟!
تنهدت الأم في أسى، قائلة:
- يمكنك إضافتها إلى كل ما سبق إلغاؤه، منذ التحق والدكِ بعمله الجديد..

لم تكن أول مرة يحدث فيها هذا، إلا أنها كانت فرصة لإفراغ انفعالاتها، فألقت حقيبتها عبر الحجرة، وهي تصرخ:
- لا.. ليس في كل مرة!
تركتها أمها تعلن عن غضبها واستنكارها، وهي تهز كتفيها، وتعود لمواصلة عملها في المنزل، قائلة:
- أخبريه هذا عندما يعود.
كانت وسيلة بارعة من أمها، للهروب من مناقشة الأمر كله؛ فهي تعرف، مثل ابنتها الوحيدة، أنه في كل مرة يتم استدعاء والدها، على هذا النحو العاجل، لا يعود أبدا في اليوم نفسه..
أو حتى في الأسبوع نفسه..
بل ولم يفصح مرة واحدة عن سبب استدعائه..
أو طبيعة عمله..
أو أين قضى فترة اختفائه..
كل ما حدث، هو أنه ذات مرة، وبعد عودته من مهمة ما، عثرت أمها في جيب معطفه، على بقايا تذكرة حافلة، تحمل كلمات ألمانية..
ومرة أخرى، سمعته هي يتحدث عبر الهاتف بالإيطالية..
ولقد أبدت يومها دهشتها البالغة، من معرفته باللغة الإيطالية، فاكتفى هو بابتسامة هادئة، وتربيتة على كتفها، ثم لاذ بالصمت كعادته..
ولم يفصح عن الأمر أبدا..
وكان هذا يثير غضبها وتوترها دوما، حتى إنها باتت تبغض كل غامض، ومريب، ومجهول..
وكانت تصر على أنه من حقها، ومن حق أمها أن يعلمان، أي عمل يؤديه رب الأسرة بالضبط..

ففي طفولتها، كان يرتدي زيا عسكريا، يبدو فيه شديد الوسامة، إلى حد كبير..
ثم فجأة، وفي منتصف مرحلتها الثانوية، تخلى عن زيه العسكري، وأصبح يرتدى ثيابا مدنية..
وبدأت مرحلة الأسرار..
والغموض..
والتوتر..
كل هذا جال بخاطرها، وهي تأوي إلى فراشها، في منتصف النهار، على غير عادتها، وتدس جسدها تحت الأغطية..
وتذهب في سبات عميق..
ولكن يبدو أن ذلك الطالب الجديد الوسيم أبي أن يفارقها.
حتى في أحلامها..
فقد كان هناك، يحادثها، ويرافقها، ويراقصها في ساحة رخامية لقصر كبير منيف، يطير فوق السحاب..
وكان هو أمير هذا القصر..
أمير حقيقي..
ولقد استغرقت في الحلم، حتى إنها لم تستيقظ، إلا بعد منتصف الليل..
استيقظت على صوت والدها، وهو يتحدث عبر الهاتف، خارج حجرتها مباشرة..
ولقد أدهشتها بحق عودته السريعة هذه، على خلاف المعتاد، ودفعتها إلى القيام بعمل، لم تفعل مثله، في حياتها كلها..
لقد غادرت فراشها، وتسللت على أطراف أصابعها، لتلصق أذنها بالباب، وتنصت إلى ما يقوله والدها عبر الهاتف..
كان يتحدث بصوت خافت نسبيا، حجب سمك الباب معظمه عن أذنها، فلم تلتقط منه سوى كلمات قليلة..

جسم غريب..
الفضاء..
مطاردة بالمقاتلات..
كائن فضائي..
كلمات كانت تكفي؛ لتثير في نفسها خوفا مبهما، وتنسج في عقلها قصة مخيفة، تبدو أشبه بما تراه في أفلام الخيال العلمي، التي لم ترق لها أبدا.
مجرد ربط الكلمات، كان ينسج القصة العجيبة..
مخلوق من كوكب آخر..
رباه! أهذا ممكن؟!
جسم غريب أتى من الفضاء، وطاردته مقاتلاتنا، قبل أن يخرج منه مخلوق ما..
هل تتحول روايات الخيال العلمي إلى حقائق، بهذه البساطة المخيفة؟!
هل؟!
أم أن هذا مجرد جزء من الحلم؟!
حلمها!!
كانت تدرك تماما أنها قد استيقظت، وأن ما سمعته على لسان والدها حقيقة، إلا إنها، وعلى الرغم من هذا، عادت إلى فراشها، وأغمضت عينيها، وهي تتمنى أن يكون هذا حلما..
مجرد حلم..
وبكل ما يعتمل في نفسها، أغمضت عينيها..
وعادت تنام..
وبمنتهى العمق..
«أمي.. هل عاد أبي أمس؟!»

ألقت السؤال على أمها في اهتمام، فور مغادرتها فراشها، في الصباح المبكر، فتطلعت إليها أمها في دهشة، متسائلة:
- لست أدرى.. هل التقيتِ به؟!
هتفت بسرعة:
- بالطبع.. سمعته يتحدث في الهاتف، بجوار حجرتي.
حدقت أمها في وجهها بدهشة أكبر، وهي تقول:
- في الهاتف؟! ولكن الهاتف معطل منذ ظهر أمس يا (مروة).
هتفت (مروة) مستنكرة، وهي تلتقط سماعة الهاتف:
- معطل.. مستحيل! أنا واثقة أن..
بترت عبارتها دفعة واحدة، عندما وضعت السماعة على أذنها، وفوجئت بأن أمها على حق..
وفي حيرة حقيقية، هزت أمها رأسها، قائلة:
- لو أن والدك قد عاد أمس بالفعل، فسيدهشني هذا حقا؛ فستصبح أول مرة، لا أشعر فيها بعودته، في حياتي كلها.
بدت (مروة) حائرة متوترة، وهي تعيد سماعة الهاتف إلى موضعها، مغمغمة:
- ولكن.. ولكنني سمعته أمس.
واصلت أمها، وكأنها لم تسمعها:
- ثم إنه لم يترك أي أثر، يشف عن عودته، أو يبرر سبب قدومه، وخروجه دون أن نشعر به!
تضاعف توتر (مروة) وحيرتها، وهي تتمتم:
- ربما.. ربما كان مجرد.. حلم.

ابتسمت أمها ابتسامة حانية، وهي تقول:
- هو كذلك بالتأكيد.
لم تعلق (مروة) على كلمات أمها بحرف واحد..

ولكن حيرتها لم تفارقها أبدا..
لم تفارقها حتى وهي تستقل الحافلة الخاصة، في طريقها إلى كليتها، عبر الطريق الصحراوي الطويل..
فهي واثقة من أن والدها قد عاد مساء أمس..
ومن أنها قد سمعته يتحدث عبر الهاتف..
سمعته يتحدث عن الفضاء..
والجسم الغريب..
والمخلوق..
لم يكن حلما!
إنها واثقة بأنه لم يكن كذلك أبدا..
شغلتها الفكرة طوال الطريق، فبدت صامتة شاردة، على نحو أثار اهتمام صديقتها (نجوى)، التي مالت على أذنها، هامسة:
- أهو الطالب الجديد؟!
أدارت (مروة) عينيها إليها في ضيق، وهي تسألها في توتر:
- ألا يمكنكِ التفكير في أمور أخرى؟!
غمزت (نجوى) بعينها، قائلة في خبث:
- ألا يمكنكِ أنتِ؟!
قالتها، وأطلقت ضحكة قصيرة ماكرة، فأشاحت (مروة) بوجهها مرة أخرى، وغمغمت في شيء من الحدة:
- يا للسخافة! أنتِ لا..
بترت عبارتها بغتة، مع توقف الحافلة المفاجئ، واندفع جسدها مع أجساد الآخرين إلى الأمام لحظة، قبل أن تعتدل، وتقول في عصبية:
- ماذا هناك؟!
تركت (نجوى) مقعدها، واندفعت نحو مقدمة الحافلة، هاتفة:
- سأعود بالجواب فورا.

مالت (مروة) برأسها عبر النافذة، محاولة استطلاع السبب، قبل عودة صديقتها، وانعقد حاجباها، وهي تمد بصرها بعيدا..
بعيدا جدا
إلى منطقة تبعد عن الطريق مسافة نصف كيلومتر تقريبا..
في قلب الصحراء..
منطقة بدت أشبه بخلية نحل وسط الرمال..
فهناك، كانت كومة من السيارات تحيط بمنطقة ما..
سيارات عسكرية ومدنية..
صغيرة وكبيرة..
عادية ومجهزة..
وحول تلك السيارات وبينها، كان هناك عدد من العسكريين والمدنيين، يتحركون ويتناقشون، في اهتمام كبير..
وفي السماء، كانت هناك ثلاث طائرات هليكوبتر عسكرية، تمشيط المنطقة كلها، على نحو يوحي بأنها تبحث عن شيء ما..
شيء مهم جدا..
شيء ربما يرتبط بـ..
«سيفتشون الحافلة..»
هتفت (نجوى) بالعبارة في صوت خافت، وهي تلهث في انفعال شديد، فانتزعت (مروة) من أفكارها، وجعلتها تردد في توتر:
- يفتشون الحافلة؟! من هم؟! ولماذا؟!
أجابتها (نجوى)، وهي تستعيد مقعدها إلى جوارها:
- العسكريون.. لقد استوقفوا كل السيارات المارة، ويقومون بتفتيشها كلها.
ثم مالت نحوها، هامسة في حماس:
- إنهم يبحثون عن بعض الإرهابيين، الذين قاموا بعملية عنيفة أمس، و..

قاطعتها (مروة) في ضجر:
- كفى.
لم تكد كلمتها تنطلق، حتى برز ذلك الضابط داخل الحافلة، يتبعه جنديان مسلحان، وراح الثلاثة يسيرون في ممرها، وعيونهم ترصد وجوه الجميع، بنظرة شك متحفزة، ويتوقفون عند البعض، ليرموهم بنظرات صارمة، جعلت (نجوى) تهمس، في لهجة بدت أقرب إلى الجذل العابث:
- هل تعتقدين أنهم سيوقفون أحدا؟!
لم تكد تنتهي من همسها، حتى توقف الضابط إلى جوارها، وقال في صرامة:
- أوراقكِ.
لوهلة، تصورت (مروة) أنه يقصد صديقتها (نجوى)..
وكذلك تصورت (نجوى) أيضا.
ولكن الواقع أن نظراته الحادة كانت تتجه إلى المقعد الذي خلفهما مباشرة.
وبحركة آلية، استدارت الاثنتان إلى المقعد الخلفي..
وشملتهما دهشة واحدة..
فذلك الطالب الوسيم الجديد، كان يجلس هناك..
خلفهما مباشر..
وكان غارقا في نوم عميق..
عميق إلى حد مدهش..
وبكل دهشة وحيرة الدنيا، سألت (نجوى) نفسها: كيف لم تنتبه إليه، إلا في هذه اللحظة!!
أما (مروة)، فقد تطلعت إلى ملامحه الوسيمة، التي بدا عليها توتر شديد، مع ارتجافة جفنيه العصبية، التي توحي بأنه يعاني من حلم مزعج..

أو كابوس ثقيل..
ومرة أخرى، وبصرامة أكثر، صاح فيه الضابط:
- أوراقك من فضلك
انتفض الشاب بحركة عنيفة، وكأنه يستيقظ من سبات مضطرب، واعتدل في مقعده بحركة سريعة، وبدت عيناه محمرتين بشدة، وهو يتساءل:
- ماذا؟!
كرر الضابط، للمرة الثالثة:
- أريد مطالعة أوراقك.. هويتك وبطاقتك الطلابية، وكل ما يثبت شخصيتك.
بدت (نجوى) شديدة الاهتمام، وهي تتابع الموقف، وكأنما ترغب في معرفة ما سينتهي إليه، أما (مروة)، فكل ما شغل بالها هو ذلك الحلم، الذي جعله يستيقظ على هذا النحو المضطرب.
أما الشاب نفسه، فقد التقط حافظته في توتر، وناول الضابط أوراقه، فطالعها هذا الأخير في اهتمام، قبل أن يعيدها إليه، قائلاً:
- أنت طالب جديد في الكلية؟!
أومأ الشاب برأسه، دون أن يجيب، فسأله الضابط، وهو يميل نحوه:
- أليس الوقت متأخرا، للالتحاق بالكلية؟! لقد شارف العام نهايته!
أعاد الطالب أوراقه إلى حافظته، وأعادها إلى جيبه، وهو يجيب:
- والدي ديبلوماسي، ولقد عدنا إلى (مصر) مؤخرا.
جعلت إجابته الضابط يعتدل في احترام، ويتجاوزه، قائلاً:
- فليكن.

غمزت (نجوى) (مروة)، عند هذه النقطة، قائلة في حماس خافت:
- ألم أقل لكِ؟
«وماذا قلت لها؟!»
سألها الطالب الجديد فجأة، فارتبكت، وتخضب وجهها بحمرة الخجل، وعجزت عن إجابة سؤاله، إلا أن (مروة) أخرجتها من ارتباكها، وهي تسأله في اهتمام شديد، أخجلها فيما بعد:
- أكنت تعاني من كابوس ما؟!
ابتسم ابتسامة عذبة، وفرك عينيه، وهو يجيب:
- ليس إلى هذا الحد.. يمكنكِ اعتباره حلما مربكا فحسب..
ثم اتسعت ابتسامته، وهو يقول:
- معذرة.. نسيت تقديم نفسي.. أنا (أمير).
هتفت (نجوى) مبهورة:
- (أمير)؟! حقا..
أجابها في هدوء رصين:
- نعم.. (أمير محمود).. طالب جديد في الـ..
قاطعته في لهفة:
- نحن نعلم.
بدت عليه الدهشة لمقاطعتها، ولكن (مروة) سألته في اهتمام:
- لكنتك تبدو غريبة يا (أمير).. أليس كذلك!!
وافقها بإيماءة من رأسه، وهو يجيب:
- لم أولد أو أحيا صباي هنا.
هتفت (نجوى) في حماس:
- هذا أمر طبيعي؛ فوالدك ديبلوماسي، ومن الطبيعي أن..
قاطعتها (مروة) هذه المرة، وهي تسأله:
- وهل كان حلمك مزعجا بحق؟!

لم تدر هي نفسها سر اهتمامها الشديد بحلمه هذا، ولكنه بدا بسيطا وتلقائيا، وهو يجيب:
- الواقع أنه بدا غريبا فحسب..
غمضت في اهتمام:
حقا؟! وكيف؟!
بدا عليه التردد بضع لحظات، حتى إنها شعرت بالخجل، فتراجعت متمتمة في توتر وحرج:
- معذرة.. لم أقصد أن..
قاطعها بإشارة من يده، قائلاً بلهجة مهذبة:
- لا بأس.. ربما كان من الأفضل أن يشاركني أحد هذا الأمر المربك...

بدت (نجوى) أشد لهفة منها، وهي تسأله:
- أي أمر؟!
التقط (أمير) نفسا عميقا، وهو يعتدل في مقعده أكثر، ويقول:
- سأخبركما..
وبكلمات واضحة، واثقة، وأسلوب يشف عن ثقافة جيدة، وذهن شديد الترتيب، وراح يروى لهما حلمه..
فالواقع أن الحلم كان عجيبا..
عجيبا ومربكا بالفعل..
وإلى أقصى حد..
واتسعت عينا (نجوى) عن آخرهما، في دهشة كبيرة..
أما (مروة)، فقد انعقد حاجباها في شدة، وقلبها يخفق بمنتهى العنف..

☆ ☆ ☆

٢- المخلوق..

على الرغم من أن الضباب لا ينتشر في المعتاد، في المناطق الصحراوية، إلا أن تلك المنطقة أحاط بها ضباب عجيب..
ضباب ثقيل..
كثيف..
محدود..
ضباب بدا وكأن الغرض الوحيد من وجوده، هو إخفاء ذلك الجسم المستدير، الذي حلق بنعومة مدهشة، فوق رمال الصحراء، وراح يهبط نحوها، على نحو أشبه بسقوط قرص من الإسفنج، على أرضية ناعمة..
وفي هدوء شديد، استقر الجسم المستدير فوق الرمال، بوساطة ثلاثة أرجل معدنية، ذات قواعد واسعة، قبل أن تنفتح كوة مستديرة في جانبه، ويهبط منها سلم لامع، أشبه بالزجاج المضيء وعبر ذلك السلم، انزلقت ثلاثة كائنات فضائية كائنات من كوكب آخر، كوكب بعيد..
بعيد للغاية....
وفي اهتمام واضح، راح الثلاثة يتحدثون معا، بلغة لا يعرفها كوكب الأرض كله لغة ذات رنين مكتوم عجيب..
وبعدها ظهر الكائن الرابع ومع ظهوره، انحنى الثلاثة الآخرون في احترام وتبجيل، يوحيان بأنه أعلى شأنا منهم بكثير ولدقائق خمس، راح الأربعة يتحدثون، بنفس اللغة، ذات الرنين المكتوم العجيب، وبعدها عاد أحد الكائنات الأولى إلى الجسم المستدير وأغلقت الكوة خلفه ثم راح يرتفع عن الأرض ويرتفع..
ويرتفع..

حتى اختفى وسط الظلام والفضاء؟؟
وعندئذ، استدارت الكائنات الثلاثة المتبقية الأعلى شأنا، والآخران استدار ثلاثتهم نحوه..
نحو (أمير)..

☆ ☆ ☆

«إنه يبدو لي حلما مضحكا..»
نطقت (نجوى) العبارة، وثلاثتهم يسيرون في ساحة الكلية، فانعقد حاجبا (أمير) في توتر، في حين تساءلت (مروة) في ضيق:
- ولماذا يبدو مضحكا؟
هزت (نجوى) كتفيها، قائلة:
- لست أدرى، ولكنه يبدو لي أشبه بأفلام الخيال العلمي، ذات الدرجة الثالثة، التي نسخر منها دوما..
هتفت (مروة) معترضة:
- لكنه ليس كذلك.. إنه..
« أنا اتفق معك.. »
نطقها (أمير) في توتر، فالتفتت الاثنتان إليه في دهشة، ليتابع:
- سيبدو كذلك حتما، لو أنه فيلم سينمائي، ولكنه لم يبد لي كذلك أبدا
وصمت لحظة، شرد خلالها بصره، قبل أن يكمل، في توتر شديد:
- بل ولم يبد لي حتى أشبه بالحلم
تضاعفت دهشتهما، وهما تحدقان فيه، قبل أن تتساءل (مروة)، في شغف قلق:
- كيف بدا إذن؟!
تردد كثيرا هذه المرة، قبل أن يجيب في عصبية:
- كحقيقة.
تساءلت، في قلق أكثر:

- وكيف هذا؟!
بدت عليه الحيرة، وهو يبحث عن الجواب المناسب، قبل أن يقول:
- كنت وكأنني هناك. أراقبهم بنفسي.. أو.. أو
توتر أكثر وأكثر وهو يضيف:
- أو أقف بينهم
لثوان، حدقتا فيه؛ بمنتهى الدهشة، قبل أن تهتف (نجوى):
لا.. هذا يتجاوز الحد
التفتت إليها (مروة) بحركة حادة، وكأنما أغضبها أن تقول هذا أمام (أمير)، الذي هز رأسه، مغمغما:
- أنت على حق مرة أخرى.. هذا يتجاوز الحد
نطقها وهو يبدو بائسا، محبطا، على نحو أثار شفقة وتعاطف(مروة) إلى حد كبير ولكنها لم تنبس ببنت شفة فلسبب ما، كانت تتعاطف كثيرا مع (أمير)..
ليس بسبب وسامته، أو أناقته أو حتى بسبب ذلك الشعور الجارف، الذي تسلل على الرغم منها إلى قلبها، وراح يزحف ليهيمن عليه كله رويدا رويدا ولكن لأن جزءا غامضا من أعماقها، كان يؤمن بأن ما رآه(أمير) ليس مجرد حلم إنه يتجاوز هذا يتجاوزه على نحو ما..
فالحلم، مهما بلغت سخافته، لن يورث مثله ذلك الشعور البائس المضطرب أبدا ولقد ظل هذا الأمر يشغلها ويؤرقها، حتى بعد أن عادت إلى منزلها..
ولسبب ما أيضا، راحت تربط بين حلم (أمير)، وحلمها أو واقعها، الذي سمعت خلاله والدها، وهو يتحدث عن سفينة الفضاء، والكائن الفضائي و..
«أمي.. متى يعود أبي؟!»

كانّ سؤالاً مباغتاً منها، جعل أمها تتطلع إليها في دهشة بالغة، قبل أن تتساءل في حذر:
- ولماذا تسألين؟! إنك لم تحاولي أبدا معرفة هذا من قبل، في كل المرات الـ
قاطعتها (مروة) في توتر:
- ولكنني أريده بشدة هذه المرة
بدت والدتها حذرة قلقة، أكثر مما ينبغي، وهي تسألها:
- تريدينه بشدة؟! ولماذا؟! ماذا حدث؟!
ولم تحر (مروة) جوابا..
فهي لا تدرى كيف يمكن أن تخبر والدتها بما لديها!!
بل، ولا تدرى حتى لماذا تريد والدها هذه المرة!
ما الذي يمكنها أن تخبره به؟!
ماذا لديها لتقوله؟!
أحنقها كل ذلك الغموض، الذي يحيط بها طوال الوقت، والذي تبغضه أشد البغض، وحاولت أن تقاوم مشاعرها، وهي تقول في حدة:
- ينبغي أن يكون هنا.. إننا أسرته، وعليه أن يولينا رعايته وعنايته.. هذا واجبه..
تطلعت إليها أمها بقلق أكثر، قبل أن تميل نحوها، وتربت على شعرها، قائلة في حنان:
- بالطبع يا (مروة).. إنه واجبه تجاهنا، وهو يبذل قصارى جهده؛ للتوفيق بين واجبه تجاهنا، وواجبه تجاه وطنه ووطننا.. ومهما بلغت مشاغله، فهو يعود كل حين وآخر، ليطمئن علينا، وعلى أمننا وسلامتنا، و..
ولم تسمع (مروة) باقي كلمات أمها..
لقد توقف ذهنها كله عند كلمات بعينها

مهما بلغت مشاغله، فهو يعود كل حين وآخر.
يعود
يعود
«أمي.. لقد كان أبي هنا..»
نطقتها بمنتهى الحزم، وهي تواجه أمها، وتتطلع إلى عينيها مباشرة، فارتبكت الأم، وهي تغمغم مضطربة:
- هنا؟! ماذا تعنين؟!
بدت (مروة) صارمة، وهي تجيب:
- أبي كان هنا أمس.. لم يكن حلما.. لقد سمعته يتحدث في الهاتف..
وأطلت من عينيها نظرة غاضبة، وهي تضيف:
- لقد كان هنا يا أمي
وتطلعت الأم إلى عينى ابنتها مباشرة..
ولم تنبس ببنت شفة..
كان من الواضح أنها تعاني صراعا ما في أعماقها..
في أعمق أعماق قلبها..
وفكرها..
وعقلها..
صراع انحسم، وهي تجلس على أقرب مقعد إليها، قائلة في استسلام:
- وماذا في هذا؟! إنه منزله..
كانت (مروة) تنتظر الجواب بلهفة، وعلى الرغم من هذا، فلم تكد تنطقه أمها، حتى انتفض جسدها كله، وعجزت ساقاها عن حملها، فاستندت إلى الجدار، وهي تغمغم، بصوت منفعل مبحوح:
- إذن فقد كان هنا

تطلعت إليها الأم باستسلام بانس، قبل أن تنهض، وتلتقط سماعة الهاتف، وتطلب رقما غير مألوف..
رقم تابعته (مروة) ببصرها، ولكنها لم تتعرفه أبدا ولكن قلبها خفق في عنف، وعقلها يتوقع الجواب، قبل أن تقول أمها عبر الهاتف، بنفس الاستسلام:
- (فكرى).. (مروة) تعرف الحقيقة.. لم يعد بوسعي إخفاء الأمر عنها.. تعال فورا.. لو أمكنك هذا..
ثم أنهت الاتصال، وعادت تجلس على مقعدها في استسلام، فسألتها ابنتها، بنفس الصوت المبحوح:
- الهاتف لم يكن معطلاً.. أليس كذلك؟!
هزت الأم رأسها نفيا، وغمغمت في خفوت:
- والدك رفع سماعة هاتف حجرة النوم، وطلب مني أن أخبرك بأمر العطل.. كانت فرصتنا الوحيدة هي أن تتصورى أن الأمر كله مجرد حلم..
سألتها (مروة)، والمكان يدور حولها:
- وكيف عرف؟!
ابتسمت ابتسامة حانية على شفني الأم، وهي تجيب:
- والدك حاد السمع، ولقد التقط صوت عودتك إلى الفراش وأدرك أنك سمعت محادثته الهاتفية..
غمغمت (مروة):
- كنت تعرفين رقم هاتفه الخاص طوال الوقت.. أليس كذلك؟!
هزت الأم رأسها نفيا، وقالت:
- إنني لم أتحدث إليه، لو أنك تصورت هذا.. لقد اتصلت بجهاز إجابة آلى، وأمليته ما أريد.. ولست أدرى حتى ما إذا كان هذا الجهاز في مكتبه، أم أنه هناك ما يبلغه باتصالاتنا عند الضرورة..
تمتمت (مروة)، وقد بلغ خفوت صوتها منتهاه:

- المهم أنه سيعلم الآن
لم تنطق إحداها بعدها بحرف واحد، لأكثر من ربع ساعة كاملة..
كل ما حدث، هو أن (مروة) لم تعد قادرة على الوقوف
فاتخذت الأريكة المجاورة، وجلست عليها صامتة، و..
وفجأة، انفتح باب المنزل ودخل والدها وبكل لهفة الدنيا، هتفت الأم:
- (فكرى)؟! لقد كنت قريبا.. أليس كذلك؟!
أجابها، وهو يتجه ببصره إلى (مروة) مباشرة:
- كنت في طريقي إلى هنا، عندما أبلغوني بالأمر
تطلعت إليه (مروة) بعينين دامعتين، وهو يتجه نحوها، ويجلس إلى جوارها على الأريكة، ثم يقول:
- كنت أحاول حمايتكما فحسب.. ما تجهلانه لا يمكن أن يؤذيكما بالتأكيد..
خفضت عينيها، متمتمة: "
- أعلم هذا
ضمها إليه في حنان، وهو يقول:
- حياتي شديدة التعقيد، وأمك تعرف مدى خطورتها، ولم نشأ أن نقحم مشاعرك الرقيقة في الأمر، و..
قاطعته فجأة:
- أبي.. لدى ما أخبرك به
ابتسم ابتسامة أكثر حنوا، وهو يقول:
- كلي آذان مصغية يا بنيتي..
تردد لحظة، قبل أن تقول:
- إنه.. إنه يتعلق بما سمعتك تتحدث عنه
سألها، في شيء من الاهتمام:

- ألديك أية معلومات؟!
قالت في سرعة:
- ليس معلومات..
وترددت لحظة، قبل أن تضيف:
- إنه حلم..
تراجع رأس والدها، وهو يهتف في دهشة:
- حلم؟!
كانت تخشى أن يهزمها توترها وقلقها، فينعقد لسانها، وتعجز عن قول ما لديها أمام والدها، لذا فقد حسمت أمرها، واندفعت تروى له كل شيء وبكل التفاصيل..
في البداية، تصورت أن رد فعل والدها، لن يختلف عن رد فعل (نجوى)، وأنهما قد يشعران أن الأمر مضحك، بأكثر مما هو مهم، لذا فقد أدهشتها تلك النظرة الصامتة التي تبادلاها، قبل أن يسألها والدها بمنتهى الاهتمام:
ومتى حدث هذا؟! متى رأى زميلك (أمير) ذلك الحلم، الذي بدا له كالحقيقة..
أجابته في سرعة:
- في اللحظة التي استوقفنا فيها العسكريون.
انعقد حاجبا والدها في شدة، ونهض من مقعده، وتحرك في المكان بضع لحظات، قبل أن يغمغم، وكأنه يحدث نفسه:
. في نفس الدائرة إذن!! هذا قد يعني الكثير..
ثم التفت إليها، قائلاً في حزم:
أريد أن ألتقى بزميلك هذا.
سألته في لهفة واهتمام:
- هل تعتقد أن حلمه..
قاطعها، قبل أن تلقى سؤالها:

- إنها ليست أول حالة لدينا
اتسعت عيناها في دهشة، وهي تسأله:
- أهناك آخرون؟!
أومأ برأسه إيجابا، قبل أن يتطلع إلى عينيها مباشرة، ويجيب:
- ولكن ليس بهذا الوضوح.
اتسعت عيناها عن آخرهما، في حين انعقد حاجبا أمها، وهي ترمقه بنظرة عتاب، تجاهلها هو تماما، وهو يعود للجلوس إلى جوار (مروة)، قائلا:
- فلسبب ما، ربما يرتبط بتكنولوجيا شديدة التطور، أو بقدرات فوق طبيعية، نجهل كينونتها، استطاع زميلك هذا، بوضوح يفوق الآخرين، أن يلتقط موجات عقل بعض الكائنات الفضائية، التي هبطت منذ ما يقرب من شهر، في المنطقة التي استوقفكم العسكريون عندها ..
قالت (مروة) في دهشة:
- منذ شهر؟! ولكن شيئا لم يحدث، قبل صباح أمس..
تنهد الوالد، قائلاً:
- لم نكن نعلم أين حدث الهبوط بالضبط
تساءلت (مروة)، في حذر شديد:
- ثم علمتم؟!
أشار الوالد بيده، مجيبا:
- مع الهبوط الثالث، الذي رصدته وسائلنا الجديدة، التي عملنا على تركيزها حول المنطقة كلها، و..
توقف فجأة عن الاستطراد، والتفت إليها،، قائلا:
- ولست أظن أنه بإمكاني أن أخبركما بالمزيد..
حدقت (مروة) في وجهه بدهشة حائرة، وكأنما يعجز عقلها عن استيعاب هذا الأمر بأكمله، أو كأنه لا يبدو شبيها بالحقيقة من

قريب أو بعيد. فابتسم والدها، في شيء من التوتر، قائلاً:
- هذا يشبه أفلام الخيال العلمي، التي لا تحبينها أبدا.. أليس كذلك؟!
هزت (مروة) رأسها، وهي تغمغم بصوت مبحوح، من فرط الانفعال:
- لم أعد أدرى أين الفاصل، بين الحقيقة والخيال!
نهض والدها مرة أخرى، وتطلع إليها في صمت لبعض الوقت قبل أن يجيب في حزم شديد:
- زميلك (أمير).
تطلعت إليه حائرة، وكأنما لم تستوعب الموقف كله، فتابع بنفس الحزم الشديد:
- لا بد وأن ألتقى به، وأن يروى تفاصيل حلمه هذا لعدد من المتخصصين، و..
« مستحيل! »
قاطعته (مروة) بهذا الهتاف العصبي، الذي جعله ووالدتها يحدقان، فيها بمنتهى الدهشة، قبل أن يسألها هو:
- ولماذا مستحيل!
قالت بنفس العصبية:
- سيبدو الأمر كما لو أننى قد كشفت سره، الذي ائتمنى عليه أنا وزميلتي (نجوى) فقط..

انعقد حاجبا الوالد، وهو يقول في انتباه:
- (نجوى) تعلم أيضا
هتفت بعصبية أكثر:
- وماذا في هذا؟!

التقط والدها نفسا عميقا، وهو يتطلع إليها طويلاً في صمت، قبل أن يتبادل نظرة أخرى مع أمها، ثم يربت على كتفها قائلاً:
لا شيء يا (مروة).. لا شيء يا بنيتي.. اهدأي.. ربما كان الأمر كله مجرد حلم.
سألته في توتر بالغ:
- فماذا لو لم يكن كذلك؟!
دفع الأب ابتسامة هادئة إلى شفتيه، وهو يقول:
- لن يضار أحد يا (مروة).. صدقيني.. لن يضار أحد أبدا..
نطق كلماته في هدوء واثق إلا أنها لم تشعر أبدا بالهدوء أو بالثقة..
وطوال الليل، لم يغمض لها جفن لقد ظلت تتساءل عما يمكن أن يفعله والدها، مع (أمير) أو (نجوى)..
وتتساءل..
وتتساءل..
حتى أشرقت الشمس..
وفي الموعد اليومي المعتاد، استقلت الحافلة الخاصة بالكلية ولم تكد تلمح (أمير) و (نجوى) داخلها، حتى اندفعت نحوهما، وسألت الأول في اهتمام شديد:
- (أمير).. أأنت بخير؟!
أطلت الدهشة من وجهه وعينيه، وهو يقول:
- بالتأكيد.. لماذا تسألين؟!
انعقد حاجبا (نجوى)، وهي تشير بيدها، قائلة في خبث:
- ربما لأنها لم تشعر حتى بوجودي.
جلست (مروة) على المقعد المجاور لهما، وهي تغمغم في ضيق:
- ربما.
هتفت (نجوى) ضاحكة:

- هل سمعت ما قالته؟!
لم تتوقف عن التعليق على الأمر لحظة واحدة، بعد انطلاق الحافلة، وابتسم (أمير) ابتسامة هادئة راقية، وهو يستمع إليها في صمت، في حين بدت (مروة) واضحة الضيق والتوتر، والحافلة تنطلق عبر الطريق الصحراوي، و
لا.. ليس مرة أخرى..
هتفت (نجوى) بالعبارة، عندما لمحت من النافذة ذلك العسكري، الذي يستوقف الحافلة، قبل أن تضيف في غضب:
- ماذا يتصوروننا؟! مجموعة من الإرهابيين، أم طلاب كلية القتلة المحترفين..
غمغمت (مروة) في ضيق متوتر:
- لا عليك.. إنهم يؤدون واجبهم فحسب..
مع آخر حروف كلماتها، صعد الضابط والجنديان أنفسهم إلى الحافلة، ولكن أبصارهم مشطتها في سرعة هذه المرة، قبل أن يتجه الضابط نحو (أمير) مباشرة، ويقول في لهجة، أرادها مهذبة، إلا أنها حملت، على الرغم منه، الكثير من الصرامة:
- (أمير محمد روكان).. أليس كذلك؟!
ارتفع حاجبا (نجوى) في دهشة، في حين بدا الغضب على وجه (مروة)، و(أمير) يجيب في توتر:
- نعم.. هو أنا.
شد الضابط قامته، وهو يقول:
- أرجو أن تتبعنا من فضلك.. نريدك أن تجيب بعض التساؤلات البسيطة، وسنوصلك بعدها إلى كليتك سالما..
ردد الشاب، في اضطراب متوتر:
- تساؤلات؟! أية تساؤلات؟!

شد الضابط قامته أكثر، واكتسب صوته المزيد من الصرامة، وهو يجيب بلهجة عسكرية صرفة:
- ليست عندي أدنى فكرة.. إنني أنفذ أوامر رؤسائي فحسب..
بدت نظرات (أمير) عصبية مضطربة، وهو ينهض ويسير معهم، إلى خارج الحافلة، ورأتهم (نجوي) يقودونه إلى سيارة مدنية سوداء، ذات زجاج داكن، يمنع رؤية ما بداخلها، فهتفت بكل الدهشة:
- ماذا يريدون منه؟! إن والده ديبلوماسي!!
أما (مروة)، فقد عضت شفتيها، بكل غضب الدنيا، وهي تتمتم:
- لن أغفر لك هذا يا أبي.. لن أغفر لك أبدا
في نفس اللحظة، التي نطقت فيها عبارتها، كان (أمير) يدلف إلى المقعد الخلفي للسيارة السوداء الكبيرة، وهو يغمغم في اضطراب:
- ولكن ماذا فعلت؟! إنني لم..
قاطعه صوت هادئ، من داخل السيارة، يقول:
- اهدأ يا فتى.. لن يؤذيك أحد هنا..
حدق (أمير) في الرجل القوى، هادئ الملامح، أنيق الملبس، الذي يجلس داخل السيارة، والذي تابع:
- بل على العكس.. إننا سنعمل على حمايتك
لم يدر (أمير) ماذا يقول بالضبط، إلا أنه جلس إلى جوار ذلك الرجل، وهو يغمغم:
- ماذا تريدون منى؟!
أجابه الرجل في سرعة:
- تفاصيل حلمك..
هتف (أمير) في دهشة مذعورة:
- حلمي؟!

مال الرّجل نحوه، وهو يبتسم، قائلاً:
دعني أقدم لك نفسي.. العقيد (فكرى).. من الأمن المصري..
واتسعت ابتسامته، وهو يضيف:
- ووالد (مروة).. زميلتك (مروة).
هتف (أمير)، بأنفاس مبهورة:
حقا؟!
تراجع العقيد (فكري) في مقعده، وتابع بلهجة ودود، وبابتسامة كبيرة، توحى بالثقة:
- لم يكن من الصحيح أمنيا، أن أخبرك بهذا، فهل تعلم لماذا فعلت؟!
تمتم (أمير)، بنفس الأنفاس المبهورة:
- لماذا؟!
أجابه، وابتسامته تتسع أكثر وأكثر:
- لأثبت لك إننا لن نؤذيك أبدا..
كان أسلوبه المباشر هذا ناجحا إلى حد مدهش، فقد جعلت كلماته الشاب يسترخي في مقعده، والسيارة تنطلق بهما، وهو يغمغم:
- بالتأكيد.. بالتأكيد
ربت العقيد (فكرى) على كتفه، في هدوء شديد، قبل أن يسأله في جدية واهتمام:
والآن، قص على تفاصيل حلمك..
التقط (أمير) نفسا عميقا، قبل أن يسأله في توتر:
- أي حلم؟!
بدا الضيق في صوت العقيد (فكرى)، وهو يقول في شيء من الصرامة:
- هل ستبدأ العبث معنا؟!

هز (أمير) راسه في قوة، قائلاً:
- مطلقا يا سيدي.. ولم تراودني حتى هذه الفكرة، ولو لحظة واحدة.. الواقع أنني كنت أسألك: أي حلم ترغب في معرفته..
ذلك الذي راودني صباح أمس، أم صباح اليوم؟!
استدار إليه العقيد (فكرى) بحركة حادة، وحدق في وجهه لحظة بدهشة بالغة، قبل أن يسأله:
- أهناك حلم آخر؟!
أوما (أمير) برأسه بمنتهى التوتر، فانعقد حاجبا العقيد (فكرى)، وهو يسأله:
- أكان بنفس الوضوح؟!
تضاعف توتر (أمير) عدة مرات، وهو يجيب في صوت خافت، وكأنما يمنعه انفعاله من النطق:
- بل أكثر وضوحا
ثم ازدرد لعابه، وبدا صوته أقرب إلى البكاء، وهو يضيف:
ففي هذه المرة فهمت لغتهم..
وأدار عينين معذبتين إلى العقيد (فكرى) مكملاً:
فهمت كل ما يقولوه..
وتراجع العقيد (فكري) في حدة فما سمعه من الفتى كان مفاجأة. مفاجأة مدهشة..

☆ ☆ ☆

٣ - اختفاء..

«لا.. لا يمكن أن أروى النص الفعلي لحوارهم!!»
نطق (أمير) العبارة في توتر، ردا على سؤال أحد الخبراء، الذين أحاطوا به، داخل قاعة خاصة، في جهة أمنية عليا، ثم هز رأسه في قوة، وهو يتابع، في شيء من العصبية:
- ولكنني أعرف فحوى حديثهم..
سأله أحد الرجال، في لهجة بدت صارمة، على الرغم من محاولتهم تخفيف التوتر المحيط بالأمر كله:
- وكيف تعرف هذا، دون أن تفهم لغتهم؟!
بدت حيرة شديدة على وجه (أمير)، وهو يجيب:
- لست.. لست أدرى..
هتف رجل آخر، في شيء من الحدة:
- وكيف هذا؟!
تدخل العقيد (فكرى)، قائلاً في حزم
- من الواضح أيها السادة أنه هناك اتصال فكرى، قد حدث بوسيلة ما، بين تلك الكائنات الفضائية، وهذا الشاب، في لحظة مروره بمنطقة هبوطهم الأولى..
اعتدل رجل طويل، وقال في صرامة:
- ولماذا هو بالذات؟!
أجابه العقيد (فكري) في سرعة:
- لأنه كان نائما
التفت إليه (أمير) في دهشة، شاركه إياها الجميع، فتابع في حزم:
- لا توجد دراسة واحدة مؤكدة، حول قدرات العقل البشرى أثناء النوم، ولكن البعض يشير إلى أنه قد يصبح أكثر حساسية وأكثر

قدرة على استقبال المؤثرات العقلية الخارجية، لو أتيحت له الظروف المناسبة لهذا. ([1])
ظهر رجل أكبر سنا، يبدو من هيئته وأسلوبه الواثق، أنه أكبر رتبة ومكانة من الآخرين، وقال في هدوء عجيب:
- لو أن الأمر كذلك، فهذا يعني أنك مصدر معلوماتنا الوحيد أيها الشاب..

☆ ☆ ☆

تطلع إليه (أمير) في صمت قلق، فاتجه الرجل نحوه، وجلس المقعد المجاور له، وهو يقول في هدوء أكثر:
- وواجبك يحتم عليك، في هذه الحالة، أن تعتصر كل خلية في مخك، لتمنحنا ما نريد..
غمغم (أمير):
- سأفعل كل ما تطلبونه.
ابتسم الرجل، وتراجع في مقعده، في استرخاء مدهش، وهو يقول:
عظيم يا (أمير).. عظيم.. استعدادك للتعاون يثلج صدورنا بحق، ولكن هناك مشكلة..
ثم مال نحوه، وأشار إلى رأسه، مضيفا بابتسامة هادئة:
فعقلك الواعي لن يمكنه أن يتذكر ما هو أكثر من هذا..
انعقد حاجبا العقيد (فكرى)، وهو يتطلع إلى الرجل الهادئ في توتر حذر، في حين غمغم (أمير) في عصبية:
ماذا تعنى؟!
ابتسم الرجل ابتسامة أكبر، وهو يتراجع في مقعده مرة أخرى، ويعقد كفيه أمام صدره، قائلاً:
- التنويم المغناطيسي.
ازداد انعقاد حاجبي العقيد (فكري) في شدة، في حين انتفض

جسد (أمير) في عنف، هاتفاً:
- التنويم المغناطيسي؟! ماذا تعني يا سيدى؟!
اعتدل الرجل بحركة مفاجئة، انتفض لها جسد (أمير) مرة أخرى، ثم أجاب في صرامة مباغتة:
- الخضوع للتنويم المغناطيسي يحرر الذكريات المحتجزة في عقلك الباطن، ويسمح لك باسترجاعها، وبأدق التفاصيل، فإذا ما وافقت على الخضوع له، قد يمكنك أن تروى لنا ما دار بين تلك الكائنات الفضائية، في دقة ووضوح.
قال العقيد (فكرى)، عاجزا عن إخفاء توتره:
- ألا يمكننا أن نعرف ما لديه أولا يا سيدي؟!
أدار الأكبر رتبة عينيه إليه في صرامة، فازدرد لعابه، متمتما:- أعنى أننا قد نجد فيه ما يكفينا، فلا نحتاج إلى جلسات التنويم المغناطيسي هذه!
هتف (أمير) في سرعة، وكأنه يتشبث بالاقتراح:
- سأخبركم كل ما لدى.
انعقد حاجبا الرجل بضع لحظات في شدة، ثم عاد يعقد ساعديه
أمام صدره، قائلاً:
- فليكن
ازدرد (أمير) لعابه في صعوبة، من فرط توتره، قبل أن يقول:
- إنهم هنا من أجل الأمير
هتف أحد الرجال في دهشة:
من أجل من؟!
ازدرد (أمير) لعابه مرة أخرى، قبل أن يجيب:
- من أجل الأمير.. أمير كوكبهم
سأله أكبرهم رتبة، في اهتمام شديد:

- وماذا عنه؟!
بدا (أمير) حائرا متوترا، وهو يبلل شفتيه الجافتين بلسانه، قائلاً:
- قوة ما استعمرت كوكبه، ووسيلتها الوحيدة للوصول إلى شرعية الحكم، هي القضاء عليه؛ حتى تفنى العائلة الحاكمة كلها.
سأله أحد الرجال، في اهتمام شديد:
- هل تعنى أنه يختفي هنا؟!
شرد بصر (أمير)، على نحو عجيب، وهو يقول:
- جيشه المندحر صنع خلايا قوية للمقاومة، تتطور، وتزداد قوة في كل يوم يمضى، وينبغي له أن يختفى تماما، حتى تحين اللحظة المناسبة، ليعود إلى كوكبه، ويقود جيش المقاومة، في ثورة تحرير حاسمة.
كرر الرجل نفسه، في اهتمام أكثر:
- إنه يختفي هنا إذن..
واندفع آخر يتساءل، في لهفة بالغة:
- في أية هيئة يختفي؟! في أي شكل؟!
شرد بصر (أمير) أكثر وأكثر، وزاغت عيناه على نحو عجيب وراح عرق بارد يتصبب على جبينه، وهو يغمغم:
في شكل آدمى.. سكان كوكبه لهم قدرة خاصة على الـ.. الـ..
. ازداد العرق البارد غزارة، على جبين (أمير)، وتصبب على وجهه كله، وجسده يرتجف على نحو عجيب، وبدا من الواضح أنه يبذل جهدا رهيبا، لدفع الكلمات خارج شفتيه، ولكنها تجاهد للبقاء في حلقه، و..
فجأة، تجمد بصر أحد الرجال في المكان، واعتدل في وقفة صارمة مباغتة، جعلتا زميله المجاور يسأله في دهشة:
- ماذا دهاك يا رجل؟!

ولكن الرجل انتزع مسدسه، في سرعة كبيرة، وأداره نحو رأس (أمير) مباشرة، و
وهنا وثب العقيد (فكرى)..
وبكل خفته وقوته ومع وثبته، دوت فرقعة مكتومة في المكان، انقطع إثرها التيار الكهربي بغتة، وساد الظلام داخل القاعة الكبيرة، في قوة ذلك المبنى الأمني الشهير..
ثم دوت رصاصة وسط الظلام..
رصاصة تألق وميضها لحظة وسط الظلام، واقترن بصوت قتال عنيف، وبصرخة الأكبر رتبة:
- أغلقوا الأبواب فورا.. لا تسمحوا لأي كائن بالخروج من هنا.
لم تمض لحظات على صرخته، حتى أضيئت الأنوار الاحتياطية وغمر الضوء المكان..
واتسعت العيون كلها في ذهول..
فوسط القاعة، كان الجميع هناك فيما عدا ثلاثة..
الرجل الذي كان يطلق النار..
و (أمير)..
والعقيد (فكرى)..
فبوسيلة ما، وعلى الرغم من الأبواب المغلقة بإحكام، ورجال الأمن في كل مكان، اختفى الثلاثة تماما..
ودون أدنى أثر..

☆ ☆ ☆

«هيه.. نحن هنا..»
هتفت (نجوى) بالعبارة، في مرح باهت، وهي تلكز (مروة) بمرفقها، داخل حافلة الكلية، في الصباح التالي، فالتفتت إليها (مروة) بعينين محمرتين منتفختين، وهي تقول في حزن شديد:
لست في مزاج يسمح بالمرح اليوم..

تلفتت (نجوى) حولها، وكأنها تخشى أن يسمعها أحد، ثم مالت نحوها، هامسة:
- بسبب غياب (أمير).. أليس كذلك؟!
هتفت (مروة) في مرارة:
- بل بسبب هذا الأسلوب السخيف
بدا لحظة وكأنها ستكتفي بهذا القول، إلا أنها لم تلبث أن أضافت في عصبية:
- كيف يختفى (أمير) على هذا النحو، بعد اصطحابهم له أمس؟!
المفترض أننا بلد حر، وفي أي بلد حر، لا ينبغي أن يتم إلقاء القبض على مواطن، دون تحديد تهمته، ودون معرفة مكان احتجازه.
تراجعت (نجوى) في دهشة، لم تلبث أن تحولت إلى شيء من الخبث، وهي تقول:
- لا تحاولي إقناعي بأنك قد أصبحت شديدة الاهتمام بالأمور السياسية فجأة..
ثم عادت تميل نحوها، وتهمس في مرح:
- الأكثر منطقية هو أنه نداء قلب..
كلا..
هتفت (مروة) بالكلمة في حدة، ثم حاولت الاسترخاء في مقعدها، ومتابعة الطريق بنظراتها الخاوية، وهي تعض شفتيها في مرارة، ولسانها عاجز عن الإفصاح عما يعتمل في نفسها لماذا فعل والدها هذا؟!
وأين اختفى مع (أمير)؟!
أين؟!

وكان كل ما تعنيه بالاختفاء في ذهنها، هو أنها، ومنذ صباح الأمس، لم تسمع كلمة واحدة عن والدها، أو عن (أمير)..
وربما كان هذا من حسن حظها فهي لم تكن تعلم أن الأمر يتطور إلى اختفاء فعلى اختفاء غامض عجيب للغاية!

☆ ☆ ☆

«أريد أجوبة واضحة، بأي ثمن...»
ألقى رجل الأمن الأكبر رتبة العبارة، في صرامة بالغة، داخل تلك الجهة الأمنية العليا، وهو يزيح كل تقارير الفحص من أمامه في حدة، وقبل أن يضيف:
- إننا أعلى جهة أمنية في البلاد، ودخول مبنانا، أو الخروج منه، أمر يخضع لإجراءات مشددة، وتأكيدات قوية، فكيف يمكن أن يختفى ثلاثة رجال هكذا، فجأة، وأمام أعيننا جميعا، خلال ثوان معدودة، دون أن يتركوا خلفهم أدنى أثر..
تبادل الرجال أمامه نظرة متوترة، قبل أن يتنحنح أحدهم، قائلاً:
- خبراؤنا لم يعلموا حتى لماذا انقطع التيار الكهربي يا سيدي.. لقد فحصوا الشبكة كلها، ولم يجدوا سببا واحدا لهذا..
انعقد حاجبا الرجل، وتراجع في مقعده، وهو يحك ذقنه في توتر، قبل أن يتساءل:
- وماذا عن كاميرات المراقبة؟!
ماذا سجلت، في اللحظات التي سبقت انقطاع التيار، واختفاء رجلينا، وذلك الشاب الغامض؟!
عاد الرجال يتبادلون نفس النظرة المتوترة، ثم قال أحدهم وهو يشير بيده إشارة خاصة:
- الأفضل أن ترى بنفسك يا سيدي..

مع إشارته، أظلم آخر الحجرة، في حين ضغط ثالث زر تشغيل الفيلم، الذي التقطته كاميرات المراقبة للموقف كله..
وعلى الشاشة الكبيرة، ظهر الرجال، وهم يستجوبون (أمير)، حتى وصلوا إلى اللحظة، التي سيفصح فيها عن هوية ذلك الأمير..
وعندئذ، بدا وجه زميلهم (أنور) عجيبا!!
عجيبا للغاية!
، ودون سابق إنذار، تجمدت نظراته، وامتقع وجهه، وتراجع في وقفة ثابتة، في حين كان العقيد (فكرى) يحدق فيه بنظرات ثاقبة، توحي بأن ما يحدث قد جذب انتباهه بشدة بل بمنتهى الشدة..
ثم انتزع (أنور) مسدسه، وأداره نحو (أمير)..
وعلى الرغم من أن الشاب، الذي تملكه هلع رهيب، كان يجلس في منتصف المسافة، بين (أنور) و(فكرى)، فقد وثب هذا الأخير كالفهد، وثبة تتجاوز بمرونتها ما يمكن أن تصنعه سنوات عمره، التي تبلغ الأربعين، و..
وانقطعت الأضواء كلها بغتة..
ومع انقطاعها، لم تتوقف كاميرات المراقبة عن العمل؛ لأنها تتصل كلها بمصدر كهربي مختلف..
ولكنها لم تنقل سوى الظلام..
ظلام دامس، استغرق ثوان قليلة، قبل أن تعود الأضواء إلى العمل، وتظهر الصورة مرة أخرى.
ولكن دون الأفراد الثلاثة
(أنور)، و(فكرى).. و(أمير)..
وكان الموقف أكثر إثارة للحيرة والدهشة.
وبكل الحيرة، غمغم الأكثر رتبة:

- مستحيل!
ونقر بأصابعه سطح مكتبه بضع لحظات، قبل أن يتابع في حزم:
- من الواضح أننا نواجه أمورا تفوق إدراكنا وإمكانياتنا يا رجال أو أننا نواجه تكنولوجيا شديدة التطور، تتجاوز كل ما عرفناه أو حتى تخيلناه طوال عمرنا.
ثم نهض من مقعده، وشبك كفيه خلف ظهره، وهو يتحرك في الحجرة، مواصلاً، على نحو يبدو وكأنه يحدث نفسه وليس هم:
- فبوسيلة ما، التقط ذلك الشاب ما دار في عقول كائنات الفضاء، وأدرك ما أتوا من أجله.. بل ولو صدقنا قصته، فهو يعرف هوية أميرهم، الذي يختفى من غزاة كوكبه هنا.
وصمت لحظة، انعقد خلالها حاجباه في شدة، ثم استطرد:
واعتبارا من هذه النقطة، وبغض النظر عن فارق التكنولوجيا والتطور، فالأمور ستسير وفقا لما يحدث هنا، في أية ظروف مماثلة..
هناك من سيسعى خلف (أمير)؛ لكشف هوية الأمير..
غمغم أحد الرجال:
- ومن سيسعى خلفه، لمنعه من كشف هوية ذلك الأمير أيضا..
أشار كبيرهم بسبابته، قائلاً:
- بالضبط
اندفع آخر يقول:
- وهذا ما فعله (أنور).. أعنى ما حاول أن يفعله
أضاف ثالث، في شيء من الحماس:
- بالتأكيد؛ ففي اللحظة التي هم فيها ذلك الشاب، بالإفصاح عن هوية الأمير الفضائي، استيقظ جهاز إنذار، تم زرعه في عقل زميلنا (أنور) بوسيلة ما، فسحب مسدسه، كما رأينا جميعا منذ لحظات، وحاول القضاء عليه..

انعقد حاجبا كبيرهم، وهو يشير بيده، قائلاً:
- وهذا يعني أنهم قد نجحوا في اختراق عقولنا، وتجاوز نظم أمننا، على أعلى مستوى شخصي، بوسائل نجهل طبيعتها تماما، بحيث أصبحوا يمتلكون السيطرة الكاملة على الموقف، ويمكنهم تحريك الأمور، في الاتجاه الذي يحقق لهم أكبر استفادة ممكنة.
تبادل الرجال نظرة عصبية، قبل أن يقول أحدهم
- أيعني هذا أيضا أننا قد أصبحنا عاجزين عن مقاومتهم؟!
أشار كبيرهم بذراعيه كليهما، وهو يجيب في مرارة:
- إننا عاجزون حتى عن معرفة ما أصاب رجلينا، والشاب الذي كنا نستجوبه، و..
قاطعه رنين هاتفه الشخصي المباغت، فالتقطه بحركة سريعة ورفعه إلى أذنه، قائلاً:
- ماذا هناك؟!
انعقد حاجباه في شدة، وهو يستمع إلى محدثه، قبل أن يقول في حزم متوتر:
- سنصل على الفور.
ثم أنهى المحادثة، وأعاد الهاتف إلى جيبه، وهو يرفع عينيه إلى رجاله، في توتر مضاعف، قائلاً:
- لقد عثروا عليهم
وكانت مفاجأة قوية. للجميع..

☆ ☆ ☆

لم تدر (مروة)، لماذا انقبض قلبها بغتة، على هذا النحو العجيب.. كانت تستقل حافلة الكلية، عائدة إلى منزلها، مرورا بتلك المنطقة، التي ما زال العسكريون يقيمون حولها سياجا بشريا، عندما أصابتها فجأة تلك الحالة العجيبة الحالة، التي

جعلت جسدها كله ينتفض، ودفعت زميلتها (نجوى) إلى أن تسألها في دهشة قلقة:
- ماذا حدث؟!
هزت (مروة) رأسها في قوة، قائلة
- لست أدرى.. إنه.. إنه شيء ما..
لم تستطع إكمال عبارتها، وهي تشيح بوجهها عبر النافذة، فتمتمت بصوت مختنق، وهي تشير إلى صدرها:
- هنا..
كان صوتها شديد الخفوت، وعلى الرغم من هذا، فقد هتفت (نجوى) مستنكرة ومندهشة:
- هنا؟! في قلبك؟!
أومأت (مروة) برأسها إيجابا، دون أن تنبس ببنت شفة فتابعت (نجوى)، في شيء من الشغف:
- وما اسم ذلك الشيء؟! الحب؟!
غمغمت (مروة):
- كفى سخافة!
مالت (نجوى) نحوها، وهمست:
- ما زلت تفكرين في (أمير).. أليس كذلك؟!
انفرجت شفتا (مروة)، وهمت بقول شيء ما، وهي تتابع ببصرها ذلك النشاط المتزايد، في تلك المنطقة الصحراوية، البعيدة من الطريق الرئيسي، و..
وفجأة، انتفض قلبها بل انتفض كيانها كله..
وبمنتهى العنف..
هذا؛ لأن بصرها قد وقع عليهم هناك على (أمير) ووالدها..
وباقى الرجال..

لم تكن المسافة، التي تفصلها عنهم، تسمح برؤية التفاصيل أو حتى بالرؤية الواضحة ولكنها رأتهم وعرفتهم.
وميزتهم جيدا..
وبكل الانفعالات الجارفة، التي زلزلت كيانها، هتفت:
- إنهم هم!!
بدا وكأن (نجوى) قد وثبت إلى الأمام، وهي تهتف في لهفة:
- من؟!
ارتجف صوت (مروة) مع سبابتها، وهي تشير بعيدا، مجيبة:
- أبي.. (أمير).. والآخرون.. هل ترينهم؟!
حاولت (نجوى) أن تستنفر كامل بصرها، وهي تمده إلى أقصى مداه، قائلة في حيرة:
- كلا بالطبع.. إنهم بعيدون جدا.. أبعد من أن يمكنني رؤية وجوههم..
ثم التفتت إليها، مستطردة في حيرة أكثر
- كيف رأيتيهم أنت؟!
أجابتها (مروة) في توتر شديد:
- لقد رأيتهم في وضوح تام.. (أمير) كان مرهقا للغاية، أما أبي ورجل آخر، فكانت ثيابهما ممزقة، على نحو يوحي بأنهما قد قاسيا الكثير..
هتفت (نجوى):
- هل رأيت كل هذا؟!
وعادت تمد بصرها بعيدا، محاولة رؤية أية تفاصيل، إلا أنها لم تلبث أن هزت رأسها، في توتر حائر، مغمغمة:
- عجبا!
ولم تحاول (مروة) التعقيب على قولها هذا فبالنسبة لها، كانت واثقة مما رأته حتى وإن كانت تجهل كيف استوضحته ربما هو

قلبها بالفعل قلبها، الذي تجاوز حدود المسافة، ورأى ما رآه..
ولكن ما يشغل بالها، وعقلها، وكيانها كله الآن، ليس كيف على رأت ما رأت وإنما ما الذي يعنيه ما رأته!
ما يشغل بالها بالفعل، هو ما الذي حدث هناك؟!
في قلب الصحراء..
نعم.. هذا هو السؤال..
السؤال الغامض للغاية..

☆ ☆ ☆

٤- الأعداء..

«ما الذي حدث بالضبط؟!»
ألقى صاحب الرتبة الكبيرة سؤاله في حزم، لم يخل من ذلك التوتر الشديد، الذي يسري في أعماقه، فهز (أنور) رأسه في حيرة عصبية، وهو يجيب:
لست أدرى يا سيدي.. أقسم لك لست أدرى.. لقد كنا جميعا هناك.. في القبو.. نستجوب ذلك الشاب، عندما شعرت وكأن شيئا ما قد تفجر، في أعمق أعماق عقلي، ويخيل إلى أننى قد أغلقت عينى لحظة، ثم فتحتهما لأجد نفسي هناك، في قلب الصحراء، مع الشاب نفسه، وسيادة العقيد (فكرى)..
أدار صاحب الرتبة الكبيرة عينيه إلى (فكرى)، الذي أشار بيده، قائلاً في توتر:
- هذا نفس ما شعرت به، عندما وثبت، محاولاً منعه من إطلاق النار..
انعقد حاجبا الرجل، وهو يقول في عصبية:
- الشاب أيضا لم يشعر سوى بالأمر نفسه.. شيء ما يتفجر في عقله، ثم استعادة الوعي هناك.. في قلب الصحراء.
لم ينبس (أنور) أو (فكرى) ببنت شفة، وكأنما لا يجدان جوابا لما حدث، أو تفسيرا منطقيا له، فلوح الرجل بذراعيه، قائلاً في حدة:
- حتى التنويم المغناطيسي لم يسفر عن شيء.. هذا كل ما تحويه عقولكم الواعية، وعقولكم الباطنة أيضا..
قلب (أنور) كفيه في حيرة شديدة متوترة، في حين انعقد حاجبا (فكرى)، وهو يغمغم في حذر:

- يبدو لي أشبه بانتقال زمكاني مفاجئ..
هتف الرجل في عصبية:
- انتقال ماذا؟
أجابه (فكرى) في سرعة:
أومأ (فكرى) برأسه، مغمغما:
- إلى حد ما يا سيدي
- زمكاني يا سيدي.. إنه مصطلح يستخدم للانتقال عبر الزمان والمكان في آن واحد..
حدق الرجل فيه بضع لحظات، قبل أن يسأله في عصبية:
- هل كنت شديد الاهتمام بالعلوم في حداثتك، على هذا النحو؟!
ظل الرجل يتطلع إليه بضع لحظات في صمت، قبل أن يعود إلى ما خلف مكتبه، ويقول في حزم:
- اختيارك لهذه المهمة كان مناسبا بحق إذن..
ابتسم (فكري) ابتسامة باهتة، وهو يقول:
- أكثر مما تتصور بكثير يا سيدى..
وافقه الرجل بإيماءة من رأسه، قبل أن يتراجع في مقعده، ويقول في بطء:
- لقد راجعنا أوراق ذلك الشاب بمنتهى الدقة، خلال فترة اختفائكم..
غمغم (فكري) في هدوء:
- أنا واثق من أنها كلها سليمة يا سيدي
أوما الرجل برأسه مرة أخرى، قائلاً:
- هذا صحيح.
ثم شبك أصابع كفيه أمام وجهه، مضيفا في حزم:
- ولكن الأوراق يمكن تزييفها..

انعقد حاجبا (أنور)، في توتر شديد، في حين قال (فكرى) في دهشة، تحمل لمحة من الاستنكار:
- إننا نتحدث عن أوراق بالغة التعقيد يا سيدي..
أشار الرجل بيده، مجيبا في صرامة:
ونتحدث أيضا عن تكنولوجيا تفوقنا بكثير أيها العقيد..
تراجع (فكرى)، متمتما:
- هذا صحيح.
رمقه الرجل بنظرة طويلة، قبل أن ينهض من خلف مكتبه مرة أخرى، ويعقد كفيه خلف ظهره، طويلا:
- لهذا طلبت إجراء عملية فحص..
ردد (فكرى) في حذر:
- عملية فحص؟!
أومأ الرجل برأسه إيجابا، وقال في صرامة أكثر:
- نعم.. عملية فحص شاملة، وبالغة الدقة أيضا.. فحص طبي، بكل الوسائل المعروفة والممكنة.. فحص لا يترك خلية واحدة، في الجسد كله، يمكن أن تحمل نواة مجهولة الهوية..
غمغم (أنور) في توتر:
- ولكن ذلك الفتى ابن أحد الديبلوماسيين، وربما يستخدم والده نفوذه، و..
قاطعه الرجل، بكل صرامة الدنيا:
- ما من شخص أو شيء، يمكن أن يقف أمام الأمن القومي وسلامة الوطن..
ثم شد قامته، مضيفا بنفس اللهجة:
- لذا، فقد أمرت بإجراء الفحص الشامل، فور إتمام الاستعداد..
تبادل (أنور) و(فكري) نظرة متوترة، قبل أن يتساءل الأول:
ومتى سيستعدون لهذا؟!

- مع أول ضوء من صباح الغد..
غمغم (فكرى):
- هذا يعني أن الفتي سيقضي ليلته هنا، و..
قاطعه الرجل في حدة:
- ليس الفتى وحده..
ثم انعقد حاجباه مرة أخرى، وهو يضيف بكل الصرامة:
- الفحص سيشمل ثلاثتكم..
ارتفع حاجبا (أنور) في شدة، في حين هتف (فكرى) مستنكرا:
ثلاثتنا؟!
أجابه الرجل، في صرامة أكثر:
- نعم.. ثلاثتكم.. لقد مررتم معا بتجربة مذهلة، ولا بد من التيقن من أنها لم تترك فيكم أثرا..
وازداد انعقاد حاجبيه في شدة، وهو يكمل:
- أدنى أثر
وشمل التوتر جسد (أنور)، من قمة رأسه، وحتى أخمص قدميه أما (فكرى)، فلم ينطق بكلمة كلمة واحدة..

☆ ☆ ☆

لم يكن باستطاعتها نسيان المشهد أبدا الذعر والحيرة على وجه (أمير)..
وملابس والدها وزميله الممزقة وحالة التوتر في المنطقة انتصف الليل، ولم يعد والدها بعد..
هذا ما جال بخاطر (مروة)، وهي تنكمش في فراشها، وقلبها ما زال يخفق في توتر، مسترجعه كل لحظة مما رأته ظهر اليوم..
تُرى ما الذي يمكن أن يجمع بين كل هذا؟!
لم يكن السؤال قد فارق ذهنها بعد، عندما فتحت والدتها الباب، وهمست باسمها لم تكن لديها أدنى رغبة في التحدث إلى

أي مخلوق، في تلك اللحظة، لذا فقد ظلت صامتة، وهي تتطلع إلى والدتها، التي تقدمت نحوها، وجلست على طرف فراشها، قائلة:
- لا يمكنك النوم مثلي.. أليس كذلك؟!
أومأت برأسها إيجابا، دون أن تنبس ببنت شفة، فابتسمت أمها ابتسامة حانية هادئة، وتحسست شعرها، مغمغمة:
- لا تسمحي لهذا الشيء بالسيطرة على مشاعرك كلها..
تمتمت (مروة) في توتر:
- أي شيء؟!
اتسعت ابتسامة أمها، وحملت المزيد من الحنان، وهي تميل نحوها، وتقبلها في جبينها، قائلة:
- ذلك الشيء، الذي يشغل عقلك كله، منذ عودتك من الكلية.
كانت قبلة أمها أشبه بسحر عجيب، فلم تكد تنطبع على جبينها، حتى دار رأسها كله، وراحت في سبات عميق..
عميق للغاية وإلى أقصى حد..
وفي نومها، رأت نفسها هناك..
في تلك البقعة من الصحراء إلى جوار ذلك الجسم الفضائي المستدير ولم تكن وحدها كان والدها إلى جوارها وكذلك أمها كانت تقف وسطهما، متطلعة إلى الأفق البعيد، حيث راح قرص الشمس يغوص..
ويغوص..
ويغوص..
ثم فجأة، ظهر هذان المخلوقان مخلوقان شبيهان بالبشر في تكوينهما، ولكن لهما رأسان كبيران، وبشرة حمراء داكنة، و وانقض المخلوقان على ثلاثتهم في وحشية عجيبة..
واستل كل منهما سلاحا مخيفا، من طيات ثيابه..

وقبل أن تطلق هي صرخة رعب، أزاحها والدها جانبا، وهو يهتف بأمها:
- احميها بحياتك..
واستل سلاحا مماثلاً..
وأضيئت المنطقة كلها بضوء الأشعة القاتلة وانتفض جسد (مروة) في عنف..
واستيقظت..
ومع استيقاظها المفاجئ، فتحت عينيها عن آخرهما، وحدقت فيما أمامها ثم عاد جسدها كله ينتفض وبمنتهى القوة..
ومنتهى الرعب..
فأمامها مباشرة، في عالم الحقيقة، وليس في عالم الأحلام، كان يقف المخلوقان نفس المخلوقين، اللذين رأتهما في حلمها البشع الوجهان الكبيران والبشرة الحمراء الداكنة والأسلحة القاتلة، التي ارتفعت نحوها في صرامة، و..
وأضيئت الحجرة بالأشعة القاتلة الحجرة كلها..

☆ ☆ ☆

شبك رجل الأمن الأكبر رتبة، أصابع كفيه أمام وجهه، وهو غارق في تفكير عميق خلف مكتبه، مع تجاوز عقارب الساعة منتصف الليل، وكل لمحة من ملامحه تشف عن توتر لا محدود، وانزعاج تجاوز مداه الأقصى..
ففي أعمق أعماق عقله، كانت تشتعل فكرة غريبة..
غريبة ومخيفة إلى أقصى حد..
وعلى الرغم من غرابتها واستحالتها، فقد سيطرت على عقله تماما، واستولت على كيانه كله، حتى لم تترك فيه ذرة واحدة للهدوء أو التعقل ولقد استغرق فيها رجل الأمن حتى النخاع..

ثم فجأة، وبحركة حادة، اعتدل في معقده، وضغط زر الاتصال بمدير مكتبه، وهو يقول:
- أريد مشاهدة الفيلم مرة أخرى.
سأله مدير مكتبه في حذر:
- أي فيلم؟!
أجابه رجل الأمن في صرامة:
- الفيلم الذي سجل واقعة (أنور)، مع ذلك الفتى..
لم يكن من حق مدير المكتب أن يناقش رئيسه، لذا فقد قام بكل الإجراءات اللازمة، وأحضر الفيلم المطلوب، خلال عشر دقائق فحسب، وضغط رجل الأمن زر تشغيله، وراح يطالعه بمنتهى الاهتمام مرة..
وثانية..
وثالثة..
وفي كل مرة، كان يتوقف طويلاً، عند تلك اللحظة، التي أخرج فيها (أنور) مسدسه وصوبه ثم انقض (فكرى)..
توقف لمشاهدتها بحركة بطيئة وكمشاهد ثابتة ومتحركة ومع المرة الخامسة، لم يستطع مدير مكتبه تمالك نفسه، فسأله في اهتمام شديد:
- ما الذي تبحث عنه بالضبط؟!
أجابه الرجل في حزم:
الحقيقة..
تساءل مدير مكتبه، في حذر بالغ:
- أية الحقيقة؟!
استدار إليه رجل الأمن، ولوح بسبابته في وجهه، وهو يقول في حزم أكثر:

- نعم.. هذا هو السؤال الفعلي..
واعتدل ليميل نحوه، مضيفا:
- أية حقيقة بالضبط، تلك التي ينبغي أن نبحث عنها؟!
بدت الحيرة واضحة، على وجه مدير مكتبه، فعاد يتراجع في مقعده، ويتابع، وكأنه يحدث نفسه:
- صحيح أننا نواجه أمرا عجيبا، لا خبرة لنا في مواجهته، وربما لا قدرة لنا على مواجهته أيضا، ولكنه، وفي كل الأحوال، يخضع للقاعدة نفسها، التي وضعها (آرثر كونان دويل)، على لسان بطله (شيرلوك هولمز)، منذ قرن من الزمان تقريبا لو استبعدنا المستحيلات، فكل ما يتبقى هو الحقيقة، مهما بلغت غرابتها..
هز مدير مكتبه رأسه، مغمغما:
- وهذا يضعنا أمام سؤال آخر يا سيدي.. أين هي الحقيقة، وأين المستحيلات؟!
هتف رجل الأمن، في حماس مفاجئ:
بالضبط..
ثم التقط ورقة من مفكرته، وخط عليها اسم أحد رجاله، وهو يدفعها نحو مدير مكتبه، قائلاً:
- أريد الملف الكامل له.. سأراجعه بنفسي، ورقة بورقة بدت دهشة بالغة، على وجه مدير مكتبه، وهو يلقى نظرة على الاسم، وقال في توتر:
. ولكنه يا سيدى أحد الـ
قاطعه رجل الأمن في حزم:
- أريد أيضا فحص حجرته الاحتياطية فورا..
قال مدير مكتبه في توتر أكثر:

- إنه هناك حتما يا سيدي؛ فوفقا لأوامرك، يقوم بعض الزملاء على حراسته، و..
قاطعه رجل الأمن في صرامة:
افحص حجرته الاحتياطية
ثم تراجع مرة أخرى، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه، وهو يقول في تفكير عميق متوتر:
فمن يدرى، ما الذي يمكن أن تجدوه هناك؟! من يدرى؟!
وكان على حق
فمن يدري؟!
من؟!

☆ ☆ ☆

من المذهل أن ما رأته (مروة) كان حقيقة، وليس خيالاً..
المخلوقان الفضائيان في حجرتها كانا حقيقيين، ويصوبان سلاحيهما القاتلين نحوها، و..
وفجأة، اقتحمت أمها الحجرة..
اقتحمتها وهي تحمل سلاحا مماثلا، لذلك الذي يحمله مخلوقا الفضاء، اللذين استدارا نحوها في شراسة، فصرخت (مروة) في رعب:
- أمي..
ومع صرختها، أطلقت الأم أشعة سلاحها القاتلة، نحو أحد المخلوقين، فأضانت بها الحجرة كلها، قبل أن ترتطم بصدره، وتقتلعه من موضعه في عنف، وتطيح به عبر الحجرة، ليصطدم بالجدار بمنتهى القوة، ثم يسقط أرضا..
ولكن المخلوق الآخر أطلق أشعة سلاحه نحو الأم..
وأطلقت (مروة) صرخة أكثر رعبا، عندما أصابت الأشعة جانب أمها، واسقطتها أرضا، عند مدخل الحجرة.

وفي وحشية رهيبة، استدار المخلوق نحو (مروة)، وصرخ بكلمات غاضبة، بلغة لا مثيل لها على كوكب الأرض لغة بدت وكأنها لم تسمع مثلها، في حياتها كلها ولكنها، ولسبب ما، فهمتها وعرفت ما تعنيه..

أو ما يعنيه ذلك الجزء، الذي نطقه المخلوق منها..

« موتى أيتها الـ.. »

وقبل أن يكمل صرخته، ظهر والدها في الحجرة..

ظهر فجأة، وكأنما نبت من العدم، وهو يحمل سلاحا مماثلاً، يصوبه نحو المخلوق، قائلا بكل الصرامة:

- بل مت أنت أيها المستعمر

وتراجع المخلوق بحركة حادة..

واستدار نحو والدها..

وانطلقت الأشعة القاتلة..

وأطاحت بالمخلوق الفضائي بمنتهى العنف واتسعت عينا (مروة) عن آخرهما، وانعقدت الكلمات في حلقها، فلم تستطع النطق بحرف واحد أما والدها، فلقد ألقى عليها نظرة، ليتأكد من أنها بخير، قبل أن يندفع نحو أمها، ويفحصها بسرعة، وهو يسألها:

- هل أصابك؟

أجابته الأم، وهي تنهض في بطء:

أصاب الغلاف الخارجي فحسب، وهو يلتئم بسرعة كما تعلم..

واتسعت عينا (مروة) أكثر وأكثر..

ليس للكلمات التي تبادلاها..

ولكن لتلك اللغة التي استخدماها، والتي استخدمها الأب، في حديثه مع ذلك المخلوق الفضائي الأخير اللغة ذات الرنين المكتوم العجيب اللغة الفضائية ولكن الذي أفزعها أكثر وأكثر،

هي أنها فهمتها فهمت كل حرف منها، قبل حتى أن يتجه والدها نحوها، ويربت على كتفها، قائلا، بنفس اللغة العجيبة:
.. لقد حانت اللحظة
سألته (مروة) بكلمات مرتجفة:
- أية لحظة؟
ولم تكد الكلمات تتجاوز شفتيها، حتى سرت في جسدها كله قشعريرة باردة كالثلج. فقد نطقتها باللغة نفسها اللغة ذات الرنين المكتوم العجيب أما والدها، فقد ابتسم، وملامحه تتموج على نحو عجيب، وهو يجيب:
- لحظة العودة.
وصمت لحظة، ثم أضاف، في احترام بالغ، وقد اختفت ملامحه الأرضية، وحلت محلها ملامح كوكبه الأم
- يا سمو الأميرة.
ظهرت من خلفه الأم، بالملامح الفضائية نفسها، و..
واستعاد ذهن (مروة) الحقيقة كلها دفعة واحدة..
الحقيقة، التي أخفتها تكنولوجيا شديدة التطور والتقدم، في جزء مظلم من أعمق أعماق عقلها، حتى لا ينكشف أمرها، حتى لنفسها الحقيقة، التي قرأها عقل زميلها (أمير)، بوسيلة ما، وهو غارق في النوم، خلفها تماما في الحافلة..
وكأميرة الكوكب، وأمله الوحيد في استعادة حريته، بعد الخالق(عز وجل)، نهضت (مروة) من فراشها في رصانة، ووقفت شامخة، وهي تقول لحارسيها الشخصيين المخلصين:
- هل تم اتخاذ كل الإجراءات اللازمة، حتى لا يضار أحد هنا؟
أومأ الحارس القوى، الذي لعب دور والدها، لسنوات طوال برأسه في احترام، وهو يقول:

- كان كل شيء سينكشف حتما، مع الفحص الطبي الشامل، الذي قرروا إخضاعي له.. تركيبنا التشريحي الداخلي المختلف عنهم، كان سيقودهم إلى الحقيقة، وكذلك تركيبنا الخلوي، الذي يحوى طاقة إضافية، تتيح لنا إمكانيات، لا يمكن أن تتوافر في جنسهم بصورة طبيعية..
أضافت الحارسة، التي لعبت دور أمها على الأرض:
- والآن، سيكشفون اختفائه من حجرته، على الرغم من الحراسة المحيطة بها، داخل مبناهم الأمني، وسيزعجهم هذا بشدة؛ لأنه يتجاوز إدراكهم بكثير..

ابتسم الحارس الأب، متابعا:
- ولكن الخطاب الذي تركته خلفي، سيوضح لهم الحقيقة كلها، وسيكشف لهم أن (أمير) مجرد بشرى مثلهم، يمتلك عقلاً له إمكانيات خاصة، أتاحت له التوغل في ذكرياتك الخفية، في لحظة سمحت خلالها الظروف بهذا وعندما يراجعون فيلمهم الأمني سينتبهون إلى أن زميلهم (أنور) كان أسير سيطرة عقلية خارقة أمكنها أن تتوغل في عقل (أمير)، ومنه إلى عقلى، لتكشف أننى لست أرضيا، وسيدركون أنه، عندما دفعت تلك السيطرة (أنور)، إلى نزع سلاحه، كان ذلك ليطلق النار على أنا، ولكن وجود (أمير) بيني وبينه، أوحى بأنه كان يهم بإطلاق النار عليه هو..
رفعت (مروة) رأسها في اعتزاز، وهي تقول:
- ولهذا هاجمته، ودفعته مع (أمير)، عبر الحاجز الزمكاني باستخدام تكنولوجيتنا الخاصة..
أوما الحارس الأب برأسه، قائلاً:

- كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة؛ لتحرير (أنور) من السيطرة العقلية الفائقة، وتأكيد ما تصوره الجميع..
مع آخر حروف كلماته، ذات الرنين المكتوم، التقطت حواسهم شديدة التطور والقوة صوت إطارات السيارات، التي توقفت تحت منزلهم، فاعتدلت (مروة) في شموخ (أميرة)، وقالت:
- كنتما على حق.. حانت لحظة العودة؛ ليبدأ كوكبنا ثورة التحرير.
اقترب ثلاثتهم من بعضهم، و(مروة) تنتبه أخيرا إلى سر حواسها القوية المتطورة، التي طالما أدهشت أصدقائها، ووقفت بين حارسيها الشخصيين مرفوعة الرأس، والحارسة الأم تقول:
- سيكشفون الآن أن أوراقنا كلها مزورة، ولكن بتكنولوجيا لا يمكنهم كشفها قط..
غمغم الحارس الأب:
وتكنولوجيا جعلتني ألتحق بأكبر أجهزتهم الأمنية، دون أن ينكشف أمرى..
تمتمت (مروة)، وثلاثتهم يلتصقون ببعضهم:
- بالتأكيد
استعرض ذهنها، في تلك اللحظة صور زملائها وأصدقائها على رأسهم (نجوى) و(أمير)، فمالت الحارسة الأم، تهمس في أذنها، وكأنها علمت ما يدور في عقلها:
- هل ستفتقدينهم؟
أجابتها في حزم:
- بالتأكيد
كان وقع أقدام الرجال يقترب من المنزل، ثم لم تلبث قبضاتهم أن راحت تضرب بابه في قوة، فاستطردت في خفوت:
- ولكن الوطن فوق كل اعتبار..

. مع آخر حروف كلماتها، اقتحم الرجال المكان..
وهبط ذلك الشعاع غير المرئي، من مكان ما بالفضاء وفي نفس اللحظة، التي اقتحم فيها رجل الأمن وفريقه حجرة (مروة)، كان جسدها وجسدا حارسيها المخلصين يتلاشيان داخلها، وتنطلق ذراتهما عبر الفضاء.. عبر الزمان والمكان..
وبكل ذهول الدنيا، هتفت أحد الرجال:
- رباه! ما هذا؟!
حدق رجل الأمن في الحجرة الخالية بضع لحظات، قبل أن يلتقط نفسا عميقا، ويقول في حزم:
- الفصل الأخير
ولم يفهم رجاله ما يعنيه بقوله بالضبط!
ولكن أحدهم لم ينطق بكلمة واحدة..
على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

«ولكن لماذا؟!»
نطقت الأميرة السؤال، داخل الجسم الفضائي المستدير، الذي نقلهم الشعاع غير المرئي إليه، وهي تتطلع عبر نافذة سميكة في جانبه، إلى كوكب الأرض، الذي يبتعد بسرعة مدهشة، فمالت الحارسة الأم نحوها، متسائلة في حنان:
- ماذا تعنين بكلمة (لماذا؟!)؟!
قالت الأميرة في خفوت:
- لماذا تحدث (أمير) عن أمير الفضاء، وليس أميرة فضائية..
ابتسم الحارس الأب، قائلا:
- الكلمتان لهما المنطوق نفسه في لغتنا، والجنسان متساويان تماما في كوكبنا، أما هنا، فمازالوا يتعاملون مع الذكور،

باعتبارهم الأكثر مكانة؛ لذا فعقله التقط ما تصور معه أن الهدف هو أمير، وليس أميرة..
غمغمت الأميرة، وهي تقاوم حزنا دفينا في أعماقها:
- ربما كان هذا من صالحنا..
أومأ الحارس الأب، قائلاً في حنان:
- بالتأكيد
وفي تلك اللحظة، انتقل الجسم الفضائي المستدير إلى السرعة فوق الفائقة السرعة التي تكاد تبلغ سرعة الضوء نفسه ولأنه يعرف طريقه جيدا، فقد انطلق نحو مسار دورى خاص، يختصر المسافة الزمكانية إلى عالمه وكوكبه ذلك الكوكب، الذي يستعد لثورة عارمة على الطغاة المستعمرين، فور وصول رمز المقاومة والشرعية الأميرة..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

Notes

[←1]

* حقيقة

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

فارس المستقبل

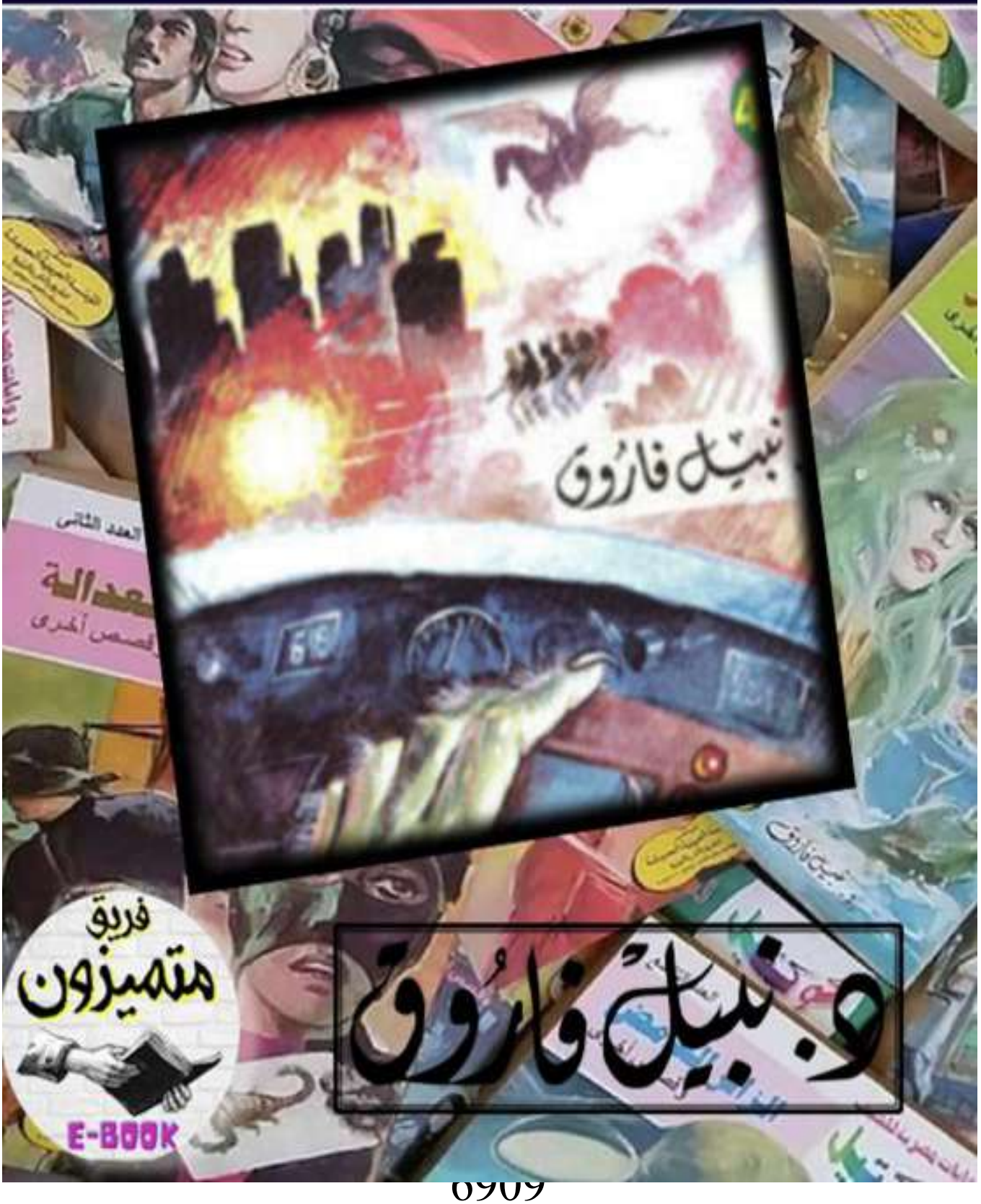

و. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

) كلمه مهمة (:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

فارس المستقبل

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- معلومات..

امتدت الظلال داكنة مخيفة، عبر الوادي الأزرق الكبير، مع هبوط قرص الشمس، الذي اكتسب لونا أحمر زاهيًا، خلف الجبال العالية، التي تفصل الوادي عن المدينة الكبيرة، ذات القبة الزجاجية الذهبية السميكة، التي يحيا تحتها المتحورون، الذين أكسبتهم الحرب النووية الطاحنة، في منتصف القرن الحادي والعشرين، صفات وسمات وحشية رهيبة، منحتهم تفوقا جسديا ملحوظا، على سكان الوادي الأزرق، الذين احتفظوا ببشريتهم ومشاعرهم الآدمية الراقية، على الرغم من ضعفهم..

ومع الغروب، انعكست أشعة الشمس على القبة، ذات البريق الذهبي، فضاعفت من تألقها، على نحو جعلها تبدو أشبه بشمس ثانية، تنبع من الأرض..

وفي ذلك اليوم بالتحديد، الذي بدأت فيه قصتنا هذه، شعر سكان الوادي الأزرق بقلق وخوف مبهمين؛ عندما لاحظوا أن تألق القبة الزجاجية قد زاد عن المألوف بمرتين أو ثلاث على الأقل..

ثم راح تألقها يتزايد..

ويتزايد..

ويتزايد..

ولأنهم فقدوا كل ذرة من الثقة، تجاه المتحورين، وأيقنوا من أن نواياهم ليست جيدة، ولا يمكن أن تكون كذلك، بأي حال من الأحوال، فقد ارتجفت قلوبهم بين صدورهم، مع هذا التطور

الجديد، وآثروا الكمون في كهوفهم الجبلية؛ خشية أن يكون هذا مقدمة لأمر رهيب، يضمر فيه المتحورون لهم الشر..
كل الشر..
أما في المدينة الكبيرة، وتحت القبة الزجاجية الذهبية، فقد كان قائد الأمن يقول لزعيم المتحورين، في حذر واضح:
- لقد نفذنا أوامرك بالضبط أيها الزعيم.. الطاقة الجديدة ستضيئ القبة، وكل المنطقة المحيطة بالمدينة، على نحو لا يسمح بتسلل أي مخلوق إليها..
وصمت لحظة في تردد، قبل أن يضيف في حذر أكثر..
- حتى ذلك الفارس.
مط زعيم المتحورين شفتيه، وانطلقت من حلقه زمجرة محدودة، قبل أن يقول، بصوته الخشن الغليظ:
- هذا بالنسبة للخارج.
سرت ارتجافة باردة، في جسد قائد الأمن، واعتدل في وقفة عسكرية قوية، لم تخف توتره، وهو يرهف سمعه للزعيم، الذي مال نحوه، مضيفا بلهجة وحشية مخيفة:
- فماذا عن الداخل؟!
كان قائد الأمن ينتظر هذا السؤال ويتوقعه؛ لذا فقد أجاب في سرعة وتوتر:
- لقد بذلنا كل جهدنا أيها الزعيم
صرخ الزعيم في وجهه، في غضب وحشي هادر:
- ليس كافيا
اندفع قائد الأمن، يجيب في توتر:
- لقد استخدمنا كل التكنولوجيا المتاحة لدينا، وفحصنا كل شبر في المدينة، دون أن نعثر على ذلك النفق المزعوم
صرخ الزعيم، في غضب هادر مستنكر:

- المزعوم!
انتفض جسد قائد الأمن، وقال بصوت، لم يستطع كتمان ارتجافته:
- أوامرك أيها الزعيم
لم يكن لدى الزعيم ما يمكنه إضافته، في هذا الصراع، الذي يستفز كل ذرة من كيانه الوحشي؛ لذا فقد اعتدل، ومط شفتيه وعقد حاجبيه الكثين في شدة، وشعر بمخالبه وأنيابه تبرز دون وعى منه، فبذل جهدا عنيفا لمنعهما، وهو يتحرك في قاعة عرشه الواسعة، التي تم إصلاحها مؤخرا، بعد قتاله العنيف فيها، مع الفارس السابق والحالي([1])، قبل أن يتوقف فجأة، قائلا:
- إنه يتفوق علينا.
تنحنح قائد أمنه في توتر، وغمغم:
- ليس إلى هذا الحد أيها الزعيم، ف
قاطعه الزعيم، في صرامة شديدة:
- كونه يعلم أين يجدنا، في حين نجهل نحن أين نجده، يعنى أنه يتفوق علينا
تنحنح قائد الأمن مرة أخرى، دون أن يجيب، في حين عاود الزعيم سيره، وتابع وكأنه يحدث نفسه:
- حتى من الناحية التكنولوجية، من الواضح أنه يبدو أكثر على الرغم من أنه رجل واحد.. من الواضح أنه يستفيد كثيرا من ميراث العالم القديم.. وبالذات في مجال الخداع البصرى، والـ.....

بتر عبارته دفعة واحدة، وانعقد حاجباه في شدة، وبدا وكأنه يشحذ اهتمامه وانتباهه كليهما في نقطة واحدة، حتى إن قائد

أمنه قد لاذ بالصمت التام، وهو يتطلع إليه مبهوتا في قلق، وواثقا من أنه سيخرج بعد قليل بفكرة جديدة عجيبة ومخيفة.....

ومن الواضح أنه يفهم زعيمه جيدا؛ ففجأة!

التفت إليه الزعيم، متسائلاً في حدة:

- أين تسجيلات المراقبة؟!

ارتجف قائد الأمن، دون سبب واضح، وهو يقول:

- أية تسجيلات؟!

زمجر الزعيم، قائلاً في شراسة

- تسجيلات آلات المراقبة، التي سجلت هجوم ذلك الفارس، على مقر الزعامة

هتف قائد الأمن في توتر:

- فورا أيها الزعيم

واندفع لتنفيذ الأمر، في حين اعتدل الزعيم، والتقى حاجباه الكثان على نحو مخيف، وهو يقول لنفسه:

- خطأ.. كل ما نفعله منذ البداية خطأ

ففي أعماقه، كانت تتكون خطة جديدة..

خطة جديدة تماما.....

☆ ☆ ☆

ربت الفارس الشاب، على عنق جواد معلمه الراحل، في حنان مشفق، ومال على أذنه، يحدثه وكأنهما صديقان قديمان:

- ماذا أصابك يا صديقي؟! لماذا امتنعت عن تناول الطعام، منذ رحل المعلم؟! ألم تر كيف أصابك الهزال إلى حد مقلق؟! إننى أتمزق حزنا على رحيله مثلك، ولكن دعنا نستعيد كلماته الحياة لا بد وأن تستمر.

أطلق الجواد صهيلا ضعيفا، فربت عليه الفارس الشاب مرة أخرى، وهمس:
-صدقني.. ما تفعله كان كفيلاً بخذلانه، لو أنه على قيد الحياة؛ فلم يكن يرضى بالتخاذل والانهزام أبدا
مال الجواد بعنقه، وخيل للفارس الشاب (أمل) أن عينيه حملتا حزن ومرارة الدنيا كلها، وكأنما يرغب في البكاء على سيده الراحل، فكتم مشاعره في صعوبة، وتمتم:
- لا بد أن نحيا يا صديقي.. وأن نقاوم.. ونقاتل.. صدقنى هذا ما كان سيخبرك به بنفسه، لو ظل على قيد الحياة.
أومأ الجواد برأسه، وكأنما فهم الأمر واستوعبه، إلا أنه لم يلبث أن أشاح بوجهه عن طعامه، فتنهد الفارس الشاب وقال:
- فليكن يا صديقي.. إنه قرارك
قالها، وانتقل إلى حيث تراصت عدة شاشات مراقبة، وراح يطالعها كلها في اهتمام، قبل أن يقول محدثا لنفسه:
- المتحورون يسعون لأمر، أو لعبة بحث هجوم وانتقام.. يبدو أن المرحلة القادمة ستشهد صراعا عنيفا وصمت لحظة، ثم أضاف في توتر:
- أول صراع أخوضه بمفردي
دار بصره، ليتوقف عند قبر أستاذه ومعلمه، قبل أن يتابع في حزن:
- وسأخوضه من أجلك
خيل إليه أن كلمات أستاذه تترد عندئذ في ذهنه:
- لا تقاتل إلا من أجل الحق والعدل.. الحق والعدل وحدهما.
وهنا شد قامته في قوة، وغمغم، وكأنما يجيب ما تردد في ذهنه:
- بالتأكيد

كان يدرك أن أمامه عشرات، بل مئات المعلومات، التي ينبغي أن يستوعبها جيدا، من أجل المرحلة القادمة معلومات عن المدينة الكبيرة، والمتحورين، وسبل القتال وتكنولوجيا الرصد، والتتبع، و
توقفت أفكاره دفعة واحدة، عندما لمح جواد المعلم وهو يقبل على طعامه، لأول مرة منذ رحيل سيده، فابتسم متمتما:
- نعم.. الحياة لا بد وأن تستمر
اتسعت ابتسامته، وهو يسترجع حديثه مع الجواد، والذي بدا وكأنه قد استوعبه على نحو ما، و
وفجأة! توقفت كل أفكار الفارس الشاب، وتجمدت في ذهنه واستدار بصره بحركة حادة، إلى حيث يقف ذلك المهر المجنح الذي منحه إياه معلمه وقفز التساؤل دفعة واحدة، إلى كل خلية في جسده!
كيف جاء ذلك المهر؟!
كيف نشأ؟؟
الحياة تنشأ في كل الكائنات العليا، من ذكر وأنثى، وهو لم ير في حياته كلها سوى جواد واحد مجنح!!
لم يدر كيف لم تخطر الفكرة في ذهنه من قبل، ولكنها دفعته دفعا إلى خزانة الملفات والمعلومات، التي تحتل واحدة من حجرات الوكر، وراح يبحث فيها في لهفة عن ملف الجواد حتى التقط الأسطوانة المدمجة الصغيرة، التي تحوى كل تاريخه وبياناته، وهو يغمغم:
- أظن أنه من الضروري أن أعرف الكثير عنك أولاً يا صديقى
أسرع إلى جهاز الكمبيوتر الصغير، ودس الأسطوانة، التي لا يتجاوز حجمها حجم عملة معدنية عادية، في تجويف خاص به، وانطلقت أصابعه تضغط أزراره في لهفة، حتى راحت

البيانات تتراص أمامه على الشاشة ومع تتابع المعلومات، اتسعت عينا (أمل) عن آخرهما فما عرفه، وما يراه أمامه، كان أمرا يفوق كل تصوراته!! بل كل إدراكه!! على الإطلاق!

☆ ☆ ☆

لاذ زعيم المتحورين بالصمت التام، لأكثر من ساعة كاملة، وهو يجلس على عرشه الذهبي الضخم كتمثال من الرخام، يتابع مشاهد هجوم الفارس على قصره مرة.

وثانية.

وثالثة.

ورابعة.

وبعد كل هذا الوقت، الذي لم يجرؤ خلاله قائد أمنه، على أن ينبس بحرف واحد، اعتدل الزعيم، وضغط أزرار شاشة العرض الجديدة، لتكبير المشهد أكثر.

وأكثر.

وأكثر..

وفي اهتمام وتركيز بالغين، مال نحو الشاشة، يفحصها بدقة متناهية، قبل أن يتمتم في غضب:

- لم تكن صورة هولوجرامية

غمغم قائد الأمن، بمنتهى الحذر:

- لم تكن ماذا؟!

استدار إليه الزعيم، وإن بدا وكأنه يتحدث إلى نفسه، دون أن يشعر بوجوده على الإطلاق، وهو يتابع في حدة:

- وأنا الذي تصورت في البداية، أنه مجرد خداع بصري أدار عينيه بعد العبارة، إلى قائد أمنه، فشد هذا الأخير قامته بحركة غريزية، وهو يهتف:

- أيها الزعيم

وهنا، أشار إليه الزعيم في شراسة، قائلاً:
- كانا فارسين، وليس فارسا واحدا
اتسعت عينا قائد الأمن، وخفق قلبه في عنف، وهو يهتف:
- فارسان!
فمنذ البداية، كان يشعر بثقل رهيب، يجثم على صدره؛ لأنه مضطر لمواجهة فارس كهذا فما بالك بفارسين؟!
أما الزعيم، فقد بدا وكأن غضبه قد بلغ ذروته، وهو مسند عرش الضخم بقبضته، صائحا:
- كنت أعلم أننا نخطئ منذ البداية
سيطر قائد أمنه على أعصابه بالكاد، واستجمع شجاعته ليقول:
- ولكن هذا لم يبد واضحا أبدا، في كل مواجهاتنا السابقة معه أيها الزعيم
كان قوله حقيقيا ومنطقيا تماما؛ لذا فقد انعقد حاجبا الزعيم الكثان بشدة، وبدا غاضبا متجهما بعض الوقت، قبل أن تلين أساريره بغتة، وهو يقول:
- هذا يعني أننى قد أرديت أحدهما على الأقل
لم يدر قائد الأمن، من أين أتى الزعيم بفكرته هذه، إلا أنه تمتم في سرعة:
- بالتأكيد أيها الزعيم.. بالتأكيد
شرد الزعيم ببصره لحظات، ثم هب واقفا فجأة، وهبط في درجات السلم القصيرة، إلى أرضية القاعة، قبل أن يقول في صرامة:
- هل تعلم فيم أخطأنا يا قائد الأمن؟
تردد قائد الأمن لحظة، وحار في البحث عن الجواب، وقبل حتى أن تكتمل حيرته، تابع الزعيم، وكأنه لم يكن ينتظر جوابه:

- إننا كنا نحاربه بالوسائل التكنولوجية الحديثة، التي يتفوق فيها.. كنا، دون أن ندرى، نمنحه الفرصة لخداعنا، وهزيمتنا، والسخرية منا.
تساءل قائد الأمن، في حيرة حذر:
- كيف نحاربه إذن أيها الزعيم؟
التفت إليه الزعيم، وتألقت عيناه على نحو مخيف، وهو يجيب:
- تماما كما كانوا يحاربون في (روما) القديمة.. في الماضي ولم يفهمه أبدا.....

☆ ☆ ☆

نصف ساعة كاملة مضت، والفارس الشاب (أمل) يراجع ملف ذلك الجواد المجنح، والانبهار يملأ نفسه، ويسيطر على جوارحه، ويهيمن على كيانه كله.. فعلى عكس ما تصور منذ البداية، لم يكن جواد المعلم مجرد حيوان متحور، من تلك التي تسللت آثار الحرب النووية الطاحنة إلى جيناتها، وأبدلتها وصنعت منها كائنات جديدة مختلفة..
تجربة في هندسة الجينات أو هندسة الوراثة لقد كان نتاج تجربة علمية جبارة..
تجربة نمت بذورها الأولى قبيل الحرب النووية ببضع سنوات وتطورت إلى حد ما مع بدايتها، ثم لم تلبث أن انهارت، مع انهيار الحضارة كلها من حولها وفي زمنها، أطلق على التجربة اسم (بيجاسوس)، وهو ذلك الجواد المجنح الأسطوري، الذي نبت من دماء (ميدوسا)، بعد أن قطع (برسيوس) رأسها، الذي تنبت منه الأفاعي، في الميثولوجيا الإغريقية القديمة ([2])
فمع تطور علم العبث بالجينات، في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين، سعى فريق من العلماء إلى إعادة إنتاج ذلك

الحيوان الأسطوري المبهر، عن طريق مزج جينات جواد، بجينات نسر عملاق، مع لمحة من جينات آدمية نعم.. آدمية
إنك لم تخطئ قراءة الكلمة...
ومع التكنولوجيا شديدة التطور آنذاك، نجح ما كان يتصوره العلماء قديما من المستحيلات، وامتزجت جينات الحيوان والطير والبشر
واكتمل العبث..
وخرجت نطفة أول جواد مجنح إلى الوجود ثم كان ما كان..
وتوقف كل شيء....
وبوسيلة ما، لم تسجلها ملفات المعلم، وصلت تلك النطفة المخصبة إليه وبقيت ونمت..
وأصبحت الأسطورة حقيقة، مع أقل القليل من الأخطاء والتشوهات....
وتلاحقت أنفاس (أمل)، وهو يتابع ما رواه المعلم بنفسه، حول نجاح التجربة الأولى نسبيا، وقيامه بتطويرها، في مرحلتها الثانية مع استخدام جيناته هو الشخصية، في محل الجينات البشرية وجاء ذلك الجواد...
الجواد، الذي يقف على قيد أمتار قليلة منه، والذي تدخل في تكوينه جينات المعلم نفسه
لهذا كان التفاهم والتفوق بينهما تماما ولهذا يستطيع أن يفهمه ويستوعبه ويتفاعل معه، على النحو الذي رآه وعهده!!
وأخيرا.. وبعد أن انتهى من الملف كله، التقط (أمل) نفسا عميقا، وأغلق عينيه، وهو يغمغم:
- رباه! ذلك المهر إذن هو الجيل الثالث
واستدار يتطلع إلى المهر القوى، الذي أهداه إليه معلمه مضيفا:
- الجيل الذي يحوى جيناتي أنا.

كانت الفكرة، على غرابتها، تبهره، وتحبس أنفاسه، وتدفع في عروقه مزيجا عجيبا، من التوتر والحماس والانفعال ولكنه العلم العلم الذي لا يعرف أية حواجز. ولا أية حدود.....
فما قرأه الآن، يتجاوز كل ما آمن به منذ طفولته، وما لقنه إياه والداه في حداثته، وكرراه حتى آخر مرة رآهما فيه، على قيد الحياة..
وفي خطوات مترددة قلقة، اتجه نحو الجواد والمهر، في مقرهما الفسيح، ووقف ينقل بصره بينهما، قبل أن يزدرد لعابه في صعوبة، ويقول في توتر:
- لو أنكما تفهمان حديثي، أومئا برأسيكما

وعلى الرغم من أنه كان يتوقع هذا إلى حد ما، فقد ارتجفت كل ذرة في كيانه، مع إيماءة الجواد والمهر، وتراجع خطوتين إلى الخلف بحركة حادة، واتسعت عيناه عن آخرهما، وخفق قلبه بمنتهى الانفعال، ثم راحت نفسه تهدأ تدريجيا، حتى ابتسم في النهاية، متمتما:
- ولكن هذا عظيم بحق.. ترى كيف يمكنني الاستفادة به إلى أقصى حد، كما كان ينصحني أستاذي دوما؟!
لم تكن الأفكار قد ترتبت حتى في ذهنه عندما شعر بتلك الهزة العجيبة، التي شملت المكمن كله، وكادت تفقده توازنه في عنف..
ومع صهيل الجواد والمهر، استعاد هو توازنه، وهتف وهويعدو نحو شاشات الرصد العديدة:
- أهجوم هو أم.....
بتر تساؤله دفعة واحدة، عندما وقع بصره على تلك المشاهدة، التي شملت عددا من شاشات الرصد..

فعلى نطاق واسع، لا مثيل له، كانت قوات المتحورين تشن هجوما شرسا وحشيًا، على جبال الوادي الأزرق.. على البشر وكان هجوما كاسحا، إلى أقصى حد ممكن.
المقاتلات تقصف الجبال والكهوف والمدرعات تحاصر الوادي وقاذفات اللهب تنطلق داخل الكهوف المنخفضة..
وآلاف من جنود المتحورين، ينتشرون في كل مكان كان هجوما أشبه بمحاولة للتصفية العرقية الشاملة، ذكر الفارس (أمل) بما أصاب والديه، فانتفض جسده، هاتفا:
- يا للأوغاد
لم يكن من الممكن أبدا أن يقف ساكنا، وهذا الدمار الشامل يحيق بكل ما حوله؛ لذا فقد تحرك في سرعة، وضغط أزرار تشغيل كل الأجهزة، وبرامج الأمن والدفاع، التي يمكن أن تعاونه، قبل أن يعدو نحو حجرة الملابس، هاتفا بالجواد الكبير:
- يبدو أن لحظة تعاوننا الفعلية قد حانت يا صديقي صهل الجواد في قوة، وانفرد جناحاه في تحفز حماسي، ولم تمض دقائق خمس، حتى كان الفارس الشاب يثب على متنه وهو يهتف به:
- فلننطلق يا صديقى
وهنا، انطلق الجواد بفارسه الجديد، دون أن يدرى أحدهما أنهما يندفعان نحو ما يدفعهما إليه زعيم المتحورين..

☆ ☆ ☆

- « هل تعتقد أنه سيسقط في الفخ، أيها الزعيم؟! »
ألقى قائد الأمن السؤال، في تردد وتوتر واضحين، أمام زعيم المتحورين، الذي تراجع في عرشه الضخم، والتقط نفسا عميقا، وأطلت من عينيه نظرة واثقة وحشية، وهو يقول:
- لن يمكنه مقاومة هذا

لم تكن العبارة مشبعة، إلا أن قائد الأمن لاذ بالصمت، ولم يحاول الاستزادة أو الاستفهام، في حين تابع الزعيم، وصوته يحمل جذلا وحشيًا عجيبا:
- إنه مصاب بوهم نفسي، يقنعه دوما بأن الهدف من حياته هو حماية الضعفاء والحمقى، والزود عنهم بأي ثمن، وعندما تهاجم البشر، في الوادي الأزرق، بكل هذا العنف، ستثور الدماء الحارة في عروقه، وتتفجر كل مشاعره، وينطلق لمواجهة كل شي....
هتف قائد الأمن في حماس:
- وعندئذ..
استوقفه الزعيم بإشارة صارمة من يده؛ ليقول هو:
- وعندئذ سنفاجئه بما لن يتوقعه.. على الإطلاق قالها، ثم انفجر يضحك بمنتهى القوة ومنتهى الظفر ومنتهى الشماتة ومنتهى.. منتهى الوحشية.....
أي متابع لما حدث هناك، في الوادي الأزرق، سيدرك فورا، ودون ذرة واحدة من الشك، أنه أمام وحوش، لا يشتركون مع البشر إلا في بعض المظاهر الخارجية فحسب
فبلا أدني رحمة أو شفقة، راح جنود المتحورين يقتحمون الكهوف، التي قبع فيها البشر، ساكنين مستكينين، ويطلقون فيها قاذفات اللهب، التي حولتها إلى قطع من الجحيم، تنطلق منها صرخات المعذبين، دون تفرقة بين رجال، ونساء، وأطفال. وشيوخ.....
ومع الموقف المأساوي الرهيب، انطلقت ضحكات الوحوش عالية، مجلجلة، جذلة، وكأن ما يحدث يملأ قلوبهم بهجة وظفرا ويطلق في عروقهم نشوة ما بعدها نشوة وفي زهو أشبه بالجنون، صرخ قائد فريق الهجوم في رجاله:

- احرقوهم.. اسحقوهم سحقا.. لا أريد أن يبقى منهم جرذ واحد على قيد الحياة
ومع صرخته، استعد جنوده لضربة ثانية وانكمش البشر وانهاروا.....
وفجأة، دوت تلك الفرقعة في سماء المعركة. أو بمعنى أدق: في سماء المذبحة فرقعة قوية عنيفة وساطعة.. فمع الفرقعة، انطلق في المنطقة كلها ضوء مبهر، أغشى أبصار المتحورين لثوان، بلغت ما يقرب من نصف دقيقة كاملة، قبل أن يبرز من وسط الضوء فارسنا الشاب..
وينقض
وبمنتهى العنف..
كانت انقضاضته مباغتة، مبهرة قوية، حتى إنها ألقت الرعب والفزع، في قلوب جنود المتحورين، فتشتتوا في المنطقة، وأصابهم ارتباك شديد، وهم يحاولون استعادة قدرتهم على الرؤية، وأسلحتهم تطلق طلقاتها في كل مكان حولهم، دون تحديد أو تمييز ولأنه تدرب جيدا، على استغلال عامل المفاجأة، إلى أقصى حد ممكن، تجاوز (أمل) كل الإصابات، واندفع على متن الجواد المجنح، يطلق أشعة مسدسه على الجنود كان يتمنى لو ينسف رءوسهم، ويمزق أوصالهم، ويشعل فيهم النيران نفسها، التي أشعلوها في الأبرياء المساكين، لولا أن تردد في ذهنه صوت معلمه، وهو يقول في حزم:
- من السهل أن يترك الإنسان نفسه للغضب والانفعال، وأن ينتقم من خصمه بكل الوحشية والثورة، التي ولدتها أفعال الخصم في عروقه، ولكن من الصعب جدا، والعظيم جدا، أن يصر المرء، مع كل غضبه، على أن يلتزم بما ينبغي أن يفعله.. هذا هو الجهاد الحقيقي.. جهاد النفس.....

ومع تردد قول المعلم في ذهنه، انطلقت أشعته نحو الأيدى، والأذرع، والسيقان، بحيث أسقط جنود المتحورين، وأبعدهم عن ساحة المعركة، دون أن يزهق منهم روحا واحدة.....
كان يتحرك بسرعة مدهشة، وبراعة منقطعة النظير، حتى إنه كاد يسيطر تماما على الموقف، في الدقائق الأولى للقتال، و..
- «الآن أيها الزعيم.. »
نطقها قائد الأمن، في توتر شديد، وهو يتابع ما يحدث في الوادي الأزرق، على شاشة الرصد الجديدة الكبيرة في قاعة الزعيم، الذي بدا شديد الاهتمام والتركيز، وهو يقول:
- كلا.. ليس الآن
هز قائد الأمن رأسه في قوة، وقال في عصبية، من موقع خبرته، كرجل عسكرى قديم:
- ولكن الانتظار يكلفنا الكثير.. إنه مقاتل واحد، ولكنه كاد يسيطر على الموقف تقريبا
زمجر الزعيم، في وحشية شديدة، وهو يكرر:
- ليس الآن.
انعقد حاجبا قائد الأمن في شدة، ولاذ بصمت متوتر عصبي، في حين واصل الزعيم مراقبته للموقف، بمنتهى الترقب والتحفز كان الفارس الشاب ينخفض بالجواد المجنح، إلى مستوى رءوس جنود المتحورين، متفاديا طلقاتهم المرتفعة، ثم يطلق في سماء المعركة قذيفتين جديدتين وفي هذه المرة، كان الانفجار أكثر سطوعا..

الضوء غمر الوادي الأزرق كله، كما لو أن الشمس قد أشرقت من جديد ثم انطلق الفرسان عشرات الصور الهولوجرامية المجسمة، للفارس وجواده، انطلقت في كل مكان من الوادي،

تهاجم المتحورين في كل الاتجاهات، حتى بات من العسير جدا، مع دقتها ووضوحها، أن يحدد المرء أيها مجرد صورة، وأيها هو الفارس الشاب الحقيقي.....

وبكل توتر الدنيا، هتف قائد الأمن:

- أيها الزعيم.. لقد سيطر على الأمر بالفعل

كان الزعيم النووي منفعلا بدوره، إلا أنه بدا قويا متماسكا، وهو يميل ليضغط زرا في ركن الشاشة، قائلاً:

- ليس بعد

مع ضغطة الزر، تحولت الشاشة كلها إلى لون أحمر هادئ، وبدا عليها جنود جيشه الوحشي، في لون أزرق داكن، في حين بدا فارس واحد، من المئات الذين يحلقون في سماء المعركة، بلون أحمر واضح..

أما كل الصور الهولوجرامية المجسمة الأخرى، فقد اختفت عن الشاشة تماما

وفي انبهار تام، غمغم قائد الأمن:

- آه.. إنه رصد حراري.. أليس كذلك؟!

تجاهل الزعيم سؤاله تماما، وهو يشير إلى الصورة الحمراء على الشاشة، قائلا في انفعال وحشي:

ها هو ذا.

ثم ضغط عدة أزرار أخرى مضيفا:

- والآن، حان دورنا؛ لنباغته نحن هذه المرة

مع ضغطاته الجديدة، انتقلت تلك الصورة الحرارية، إلى خوذات جنوده، في الوادي الأزرق، مع صوته الغليظ الشرس، وهو يقول:

- تذكروا ما أخبرتكم به منذ البداية.. أريد الجواد سليما، بأي ثمن هل تفهمون؟! بأي ثمن..

سرى التوتر في جسد قائد الأمن، وهو يقول:
- أيها الزعيم.. هذا الأمر بالتحديد، هو الذي..
قاطعه الزعيم بزمجرة وحشية:
اصمت
ثم ضغط زر الاتصال برجاله مرة أخرى، هاتفا:
- الآن
انعقد حاجبا قائد الأمن في شدة، عندما شاهد جنوده، على شاشة الرصد، وهم يتفرقون بسرعة، وكأنهم يفرون من ساحة المعركة، فهتف في هلع:
- ما الذي يفعله هؤلاء التعساء؟!
صرخ الزعيم، وهو يطلق زمجرة وحشية أخرى:
- قلت اصمت.
أطاع قائد الأمن الأمر، وابتلع لسانه في صمت، وترك وجهه يحتقن في شدة، وهو يشعر بخزى غاضب في أعماقه؛ لفرار رجاله من الساحة على هذا النحو، و..
وفجأة! ظهرت تلك الحوامات، على ارتفاع كبير عشر حوامات، صنعت بأجسامها المعدنية الضخمة دائرة هائلة وهمية، تحيط بالوادي كله وانحبست أنفاس قائد الأمن، وهو يتساءل عن هذا التكنيك الجديد، الذي تتبعه الحوامات وقبل أن تستقر أفكاره، انطلقت تلك الخيوط المعدنية من الحوامات العشرة..
انطلقت بتكنيك جديد مدهش، لتصنع مع تداخلها شبكة معدنية هائلة قوية، التصقت ببعضها بقوة رهيبة ثم هوت.
ومن موقعه، رأى فارسنا الشاب تلك الشبكة الهائلة تهوى فوقه، وأدرك ما ستفعله، فصاح مستحثا جواده المجنح:
- انطلق يا صديقى.. انطلق

وفرد الجواد جناحيه عن آخرهما، بكل قوته، ولكن الشبكة المعدنية القوية كانت هائلة..
هائلة أكثر مما ينبغى
لذا، فقد هوت فوق الفارس والجواد وجذبتهما معا إلى أرض الوادي..
وكان هذا يعني أن الفارس وجواده المجنح قد سقطا في الفخ..
فخ المتحورين الرهيب..

☆ ☆ ☆

٢ - قبضة العدو..

بكل لهفة وحماس الدنيا، قفز زعيم المتحورين من عرشه الضخم، ولوح بقبضته في الهواء، صارخا:
- لقد سقط أخيرا
كانت الشاشة تنقل مشهد الفارس الشاب، وجواده المجنح، وهما يسقطان على أرض الوادي الأزرق، تحيط بهما تلك الشبكة المعدنية الهائلة، على نحو يستحيل الإفلات منه، بأي حال من الأحوال وفى انبهار تام، راح قائد الأمن يلهث انفعالاً، وهو يهتف:
- أخيرا أيها الزعيم.. أخيرا
ضغط الزعيم زر الاتصال برجاله، في حماس وحشي، وهو يهتف:
- لا تقتربوا منه، ولا تحاولوا الإمساك به، مهما بدا هذا ممكنا أو مغريا.. أحيطوا به فحسب، وأطلقوا عليه أسطوانات الغاز، التي زودتكم بها.. ومن مسافة آمنة
ارتفع حاجبا قائد الأمن، وهو يتمتم:
أسطوانات غاز؟! إنك لم
استدار إليه الزعيم، بنظرة غاضبة وحشية، فتوقفت الكلمات في حلقه، وتراجع في شيء من الذعر، فعاد الزعيم ببصره وأفكاره إلى زر الاتصال، وهو يهتف:
- أكرر.. لا تحاولوا الاحتكاك به مباشرة.. أبدا.. هذا أمر
لم يلتقط الفارس الشاب هذه الأوامر، التي تم بثها على موجة جديدة تماما، ذات تردد خاص جدا، ولكنه كان يشعر بشيء من

الذعر لم يشعر بمثله قط، منذ طارده المتحورون في صباه؛ فلأول مرة، يبدو له إنه قد سقط في قبضة أعدائه..
وفي أول مواجهة منفردة له وكمحاولة يائسة، راح يضرب تلك الشبكة المعدنية بذراعيه، ويطلق على بعض أجزائها أشعته الليزرية، في حين راح جواده يضرب بقوائمه، ويطلق صهيله الغاضب والمذعور ولدقيقة أو يزيد، لم يحاول أحد المتحورين الاقتراب منه قط، بل اكتفوا بمراقبته ومتابعته، من مسافة آمنة، وفقا لأوامر زعيمهم..
وفي الوقت ذاته، ومع هول الموقف، وعلى الرغم من خسائرهم الفادحة، تسلل بشر الوادي الأزرق إلى مداخل كهوفهم، يطالعون في يأس مرير، سقوط فارسهم، الذي كان يمثل لهم الأمل الوحيد، بعد الله (سبحانه وتعالى)، في مواجهة وحوش المدينة الكبيرة ومقاومتهم وبعد تلك الدقيقة، وبعد أن أيقن المتحورون أنه لا فكاك للفارس، من الشبكة المعدنية الرهيبة، استعادوا شجاعتهم وحمل بعضهم أسطوانات الغاز، التي زودهم بها الزعيم سرا، وصوبوا فوهاتها نحو الفارس، من مسافة آمنة ثم أطلقوا الغاز ودفعة واحدة، فوجئ الفارس الشاب بغاز ثقيل، نفاذ الرائحة،) يحيط به من كل جانب وفي لحظة واحدة، استعاد كل ما لقنه أياه معلمه وكأنما يحيا لحظاته الأخيرة، والغاز ينتشر..
وينتشر..
وينتشر..
ثم سقط الجواد أولاً توقفت مقاومته دفعة واحدة، وتراخي جسده تماما وبعدها بثوان قليلة، تبعه فارسه
وعلى الرغم من توقف حركتهما، واصل المتحورون ضخ الغاز أكثرواكثر واكثر..

حتى نفدت الأسطوانات تماما وعندئذ.. وعندئذ فقط، توقفوا مضطرين، وإن ظلوا بعيدين عن الفارس والجواد، حتى غمغم الزعيم في مقره بعصبية:
- ماذا ينتظرون؟!
تمتم قائد أمنه:
- إنهم يخشونه.. ما زالوا يخشونه!
التفت إليه الزعيم في غضب، والتهبت عيناه على نحو مخيف جعل الرجل يستدرك في خوف:
- هذا ما يبدو لي
وبكل الغضب والثورة، عاد الزعيم يضغط زر الاتصال، صارخا:
- ماذا تنتظرون؟!
صرخته انتزعتهم من ذعرهم وجمودهم، فاندفعوا يتعاونون لرفع تلك الشبكة الهائلة السميكة، والزعيم يتابعهم بمنتهى اللهفة، وهو يتمتم في انفعال، لم يعهده فيه قائد أمنه قط:
- هيا.. هيا..
كان يتابع حركتهم بمنتهى الدقة والاهتمام، حتى أزاحوا الشبكة المعدنية عن جسدي الفارس وجواده تماما، فغمغم قائد أمنه في حماس:
- ها هو ذا في قبضتنا.. أخيرا
لم تكد عبارته تكتمل، حتى انتفض الفارس الشاب فجأة، وهو يهتف:
مفاجأة.. أليس كذلك؟!
انتفاضته، بدا وكأن المشهد كله قد انتفض بل المشاهد كلها جنود المتحورين وبشر الوادي الأزرق وقائد الأمن وحتى الزعيم نفسه الكل انتفض، من فرط المفاجأة، واتسعت عيرنهم عن

آخرها، فيما عدا زعيم المتحورين، الذي انعقد حاجباه في غضب هادر، وهو يطلق زمجرة وحشية رهيبة ومع زمجرته، هب الجواد أيضا، واقفا على قوائمه، في نشاط عجيب وقبل حتى أن يكتمل نهوضه، كان الفارس الشاب يثب على جواده وكانت أجنحته تنفرد بأقصى اتساعها وفي لحظة واحدة، كان يحلق في السماء، أمام العيون الذاهلة والمذعورة..

وبكل ذهول وغضب الدنيا، هتف قائد الأمن

- مستحيل! لقد خدعنا جميعا.. مستحيل!

كتم زعيمه غضبه في صعوبة، وهو يقول في وحشية:

- لست أدرى كيف فعلها، ولكن هذه ليست نهاية المطاف

وقسا صوته على نحو رهيب، وهو يضيف:

- ما زالت هناك خطة احتياطية

في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كان الفارس الشاب ينطلق على متن جواده المجنح، في سماء الوادي الأزرق، وذهنه يستعيد هذا الموقف الرهيب كله..

مصفاة الغاز الأنيقة الصغيرة، المعدلة إليكترونيا، وعبقرية الجواد المجنح، وتدريبه المتقن، كلها ساعدت على تجاوز الأزمة.. ففور شعوره بالغاز، أخرج من حزامه مصفاتين غازيتين إلكترونيتين دقيقتين، تم ابتكارهما وتطويرهما، خلال الحرب النووية الشاملة، ودسها في فتحتى أنفه بسرعة([3])

كانت مهمتهما استخلاص الأكسجين وثاني أكسيد الكربون فقط، من أية غازات يستنشقها، ولفترة طويلة من الزمن..

ومن الواضح أنهما قد قاما بعملهما خير قيام أما الجواد، فقد دربه معلمه، مستغلا الجزء البشرى منه، على كتمان أنفاسه لفترات طويلة جدا، عند شعوره بوجود غاز غريب من حوله،

كما أن جيناته المطورة تساعده على تحديد أية غازات غير طبيعية في الهواء، حتى ولو بلغت نسبتها واحد إلى كل عشرة آلاف العبقرية جاءت في افتعال حالة الغيبوبة، التي أقنعت جنود المتحورين برفع تلك الشبكة الثقيلة عنها، والتي كان من المستحيل أن ينجحا في رفعها وحدهما، من موقعهما فيها ولقد استوعب عندئذ الموقف كله فالأمر هو خدعة كبيرة منذ البداية..
خدعة وحشية، تعتمد على افتعال إبادة بشر الوادي الأزرق، بكل هذا العنف وكل هذه القسوة؛ لجذبه إلى ساحة القتال، وإيقاعه في هذا الفخ الرهيب..

السؤال الآن هو ما الذي سيفعله هؤلاء المتوحشون، بعد أن فشلت خطتهم؟!
هل سيواصلون عملية الإبادة الوحشية، أم يكتفون بمطاردته باعتباره الهدف الرئيسي والأساسي للعملية كلها؟!
وثب السؤال إلى ذهنه، وهو يرتفع بجواده المجنح..
ويرتفع..
ويرتفع..
ولكن الحوامات العشر بقيت ثابتة في مكانها، تصنع تلك الدائرة الوهمية الواسعة، التي تحيط بالوادي كله وبكل التحفز، استعد الفارس الشاب لمواجهة أية شبكة أخرى، قد تطلقها الحوامات، على غرار الشبكة الأولى وفي ذهنه، رسم المسار الجديد لانطلاقته؛ حتى يمكنه أن يتجاوز سقوط أية شبكة أخرى، و..
ولكن الحوامات العشر أطلقت مفاجأتها الأخيرة بغتة وكانت مفاجأة قوية بحق ومختلفة تماما ففي لحظة واحدة، وبتوجيه

إليكتروني رقمي دقيق، أطلقت كلها شحنة كهربية محدودة، نحو الفارس والجواد..
وبسرعة انتقال الشحنة الكهربية في الهواء، شعر الفارس وجواده المجنح بالصدمة صدمة مباغتة وبالغة العنف، ارتج لها جسداهما في قوة، وتجمدت بها أطرافهما، على نحو استحال معه أن يخفق الجناحان الكبيران.. لذا فقد هويا..
هوى الفارس الشاب، والجواد المجنح، كحجرين صلبين، من ارتفاع كبير، نحو وسادة هائلة، فردها جنود المتحورين، في قلب الوادي الأزرق، تنفيذا للخطة الاحتياطية، التي أمر بها الزعيم الوحشي هويا في قبضة عدو لا يرحم..
أبدا..

☆ ☆ ☆

هبط الضباب في الوادي الأزرق كله، وبدا أكثف كثيرا من المعتاد، وهو ينتشر
وينتشر
وينتشر
وفي توتر شديد، تلفت الفارس الشاب حوله، وقد انعدمت الرؤية تماما..
فلأول مرة يضل طريقه..
لم يعد يعرف إلى أين يذهب كل شيء بدا مختلفا عجيبا.
حتى الشمس، اختفت خلف ذلك الضباب الكثيف الوادي فقد معالمه المكمن لم يعد في مكانه كل شيء اختلف..
اختلف كثيرا..
وعلى متن جواده النبيل، تحرك الشاب بحثا عن أي مكان يمكنه أن يحتمى فيه، عندما يبدأ الهجوم..

ومن بعيد، تصاعدت أصوات آلات القتال الضخمة، التي خرجت من المدينة الكبيرة، متجهة نحو الوادي مباشرة المتحورون بدءوا القتال وانطلقوا..
وستبدأ المعركة حتما وهو لم يستعد لم يستعد بعد
وبسرعة تتجاوز حدود المنطق والعقل، راحت الأصوات المخيفة تقترب..
وتقترب..
وتقترب..
وتضاعف توتر الشاب أكثر..
وأكثر..
وأكثر..
وكان عليه أن يواجه الموقف الرهيب إنه يقف وحده، في الوادي الأزرق كله الضباب يحيط به من كل جانب والمتحورون قادمون
بكل قوتهم
وشراستهم
ووحشيتهم
ولأن القتال أصبح محتوما، امتدت يده، لتلتقط بندقيته الإشعاعية، من ذلك الغمد الدائم، في سرج جواده ولكن الغمد كان خاليا
ويا لها من مفاجأة!
إنه أعزل أيضا
أعزل في مواجهة آليات قتالية رهيبة أعزل تماما..
وبكل توتره وقلقه وخوفه، لكز جواده القوى، ليستحثه على فرد جناحيه، والانطلاق بعيدا عن الوادي كله ولكن الجواد لم يستجب..

جناحاه لم يبرزا.
بل ولم يكن لموضعهما أثر..
واتسعت عينا الشاب في ارتياع..
فالآليات صارت قيد خطوات ولا سبيل للقتال أو حتى الفرار..
أو..
«استيقظ»
انتزعته الكلمة، التي نطقها أحدهم، بصوت خشن جاف، في ذلك الكابوس الرهيب، الذي سيطر على كيانه كله، ففتح عينيه في بطء، وشعر بصداع رهيب يكتنف رأسه، وبضباب كثيف ينقشع عن مخه، قبل أن ينتبه فجأة إلى إنه يفيق من غيبوبة عميقة غيبوبة لم يسقط في مثلها من قبل قط
وبسرعة، أدرك موقفه كان حبيسا في زنزانة رطبة صغيرة، تشبه زنازين القرون الوسطى، كما وصفها له أستاذه الفارس العظيم وكان ذراعاه مقيدين إلى جدارها، بأغلال معدنية سميكة وأمامه مباشرة، كان يقف أحد المتحورين، يرمقه بنظرة عجيبة تجمع بين الظفر والوحشية والغضب نظرة جعلته يدرك مصيره المحتوم، وخاصة عندما قال ذلك المتحور، في صوت غليظ ولهجة قاسية:
- أخيرا وقعت في قبضتنا
استعاد ذهنه في تلك اللحظة، تعاليم أستاذه..
« لا تضعف أبدا أمام عدوك.. »
«الشجاعة تمنحك قوة، في لحظات الضعف، والخوف يهزمك بضعف، في لحظات القوة..»
« ما دام الموت آت لا ريب، فلتمت مرفوع الرأس.. »
استعاد كل العبارات في ثانية واحدة، فرفع رأسه في اعتداد، في مواجهة ذلك المتحور، وقال في صلابة:

- مؤقتا.
احتقن وجه ذلك المتحور، وانطلقت من حلقه صرخة غضب، بدت أشبه بمزيج غريب، من خوار الثور وفحيح الأفعى، قبل أن يقول في شراسة:
- يا لك من متحذلق.. إنها ليست لعبة أيها الدمية.. لقد دخلت وكر الأفاعي، ولا أحد يخرج منه حيا أبدا
أجابه الشاب في سرعة، ودون أن يفقد ثباته:
- ولكنكم تبقون على حياتي فيه.. أليس كذلك؟!
في هذه المرة، انطلق من حلق المتحور فحيح شرس، برز معه لسانه الطويل، المشقوق من طرفه، والشبيه بألسنة الثعابين، ووثب نحو وجه الشاب، الذي مال برأسه كله جانبا، متفاديا إياه، قبل أن يرتد إلى حلق المتحور، الذي قال:
لولا أن الزعيم أمرنا بالإبقاء عليك، لمزقت أوصالك، والتهمت كبدك على الإفطار..
الزعيم أمر بهذا!!
الزعيم يريده على قيد الحياة!
هذا ما استوعبه من العبارة كلها..
أو ما يهمه استيعابه
والسؤال هو لماذا؟!
لماذا يريده الزعيم على قيد الحياة، بعدما وقع في قبضته؟!
لماذا؟!
لماذا؟!
تطلع إلى عينى ذلك المتحور مباشرة، ولاحظ أنها تختلف إلى حد ما عن عيون البشر العاديين، وأنها تبدو أشبه بعيون الثعابين، إذا ما نظرت إليها عن قرب، مما يتفق مع اللسان المشقوق، والبشرة الشاحبة المبرقشة التحورات الجينية، التي

صنعتها به الإشعاعات النووية، والتلوثات البيولوجية، جعلت جيناته إذن أقرب إلى الثعابين، منها إلى بني البشر أستاذه كان على حق إذن..
هؤلاء القوم اشبه بالحيوانات والوحوش
ليس في تصرفاتهم وحدها، ولكن في تركيباتهم وتكويناتها أيضا
«فيم تفكر؟! »
قاطعه المتحور في شراسة وحشية، قبل أن يتابع:
- تفكيرك هذا لا طائل من ورائه، فلا توجد وسيلة واحدة للفرار من هنا.. ستبقى حتى يقتلك الجوع والعطش، وحتى ترى بعينيك، ما سنفعله بجوادك العجيب
لم يكد يأتي على ذكر الجواد، حتى تحفزت كل خلية في جسد الشاب، وانتبهت كل حواسه، وهو يقول في صرامة:
- لو مسستم شعرة واحدة من الجواد، فسوف..
قاطعه المتحور بضحكة ساخرة وحشية، قبل أن يقول:
- لو ماذا؟! تتحدث كما لو أننا نحن المقيدون إلى الجدار يا هذا؟! اننا نسيطر على الموقف تماما، وسنفعل كل ما يحلو للزعيم بجوادك..
سنمزقه إربا، إذا ما اقتضى الأمر، ولن يمكنك أن توقفنا لحظة واحدة
انعقد حاجبا الشاب في غضب هادر، دون أن يتفوه بحرف واحد، فابتسم المتحور في سخرية شامتة، وكأنما راق له هذا، ومال نحوه، مضيفا:
- الزعيم يريد أن يعرف كل شيء عنه، حتى لو اقتضى الأمر تشريحه، لفحص كل جزء منه..
قال الشاب، وهو يدفع أكبر قدر من السخرية إلى كلماته:

- خلية واحدة منه، يمكنها أن تمنحكم كل ما تريدون من معلومات.. هذا لو أنكم متفوقون بحق.
بدا الغضب على وجه المتحور، وهو يقول:
- ألا تعترف بتفوقنا، بعد كل ما فعلناه بك؟!
مط الشاب شفتيه، وقال في لا مبالاة:
- إنني ما زلت على قيد الحياة، والمعركة لم تنته بعد
لم يكد يتم عبارته، حتى اشتعلت عينا المتحور الثعبانيتان بلهيب الغضب، وقال:
- وإلى متى ستظل على قيد الحياة أيها المتحذلق؟!
أجابه الشاب في صلابة:
- لا أحد يمكنه أن يجيب هذا السؤال.
صرخ المتحور:
ثم انتزع من حزامه صاعقا كهربيا، وهو يضيف:
- أنا أستطيع إجابة السؤال
انعقد حاجبا الشاب، وضغط أسنانه في قوة، والمتحور يتجه نحوه بصاعقه الكهربي، متابعا بكل وحشية الدنيا:
- فستنتهي إجابة السؤال..
قالها، ودفع صاعقه الكهربي نحو عنق الفارس الشاب وانطلقت صرخة في الزنزانة الرطبة الصغيرة..
صرخة رهيبة جذا.

☆ ☆ ☆

تالقت عينا زعيم المتحورين، في ظفر وحشي مخيف، وهو يتطلع إلى ذلك الجواد الأصيل، الذي احتوى جناحيه في شقين خفيين في جانبيه، ووقف يضرب الأرض بحافريه في توتر شديد كان بيدو غاضبا، من وقوعه في الأسر، كما لو أنه يدرك تماما ما يحدث من حوله، ويرفض وجوده في ذلك المكان..

وبكل ظفره، قال الزعيم:
- أخيرا
حاول قائد أمنه أن يبتسم، وهو يقول:
- هذا ما كنت تحلم به أيها الزعيم
أشار الزعيم بيده، وهو يقول في شراسة، لم يكن لها ما يبررها:
- هذا جزء مما كنت أحلم به.
وتألقت عيناه مرة أخرى، وهو يضيف:
- فلا بد وأن يخضع لي هذا الجواد أولاً
بدأ القلق يتسلل إلى قلب قائد الأمن، وهو يقول في حذر:
- هذا أمر يحسمه الخبراء أيها الزعيم
هز الزعيم رأسه - نفيا - في بطء، وهو يقول:
- كلا.. هذا أمر أحسمه أنا
سقط قلب قائد الأمن بين قدميه، وتصور أن اللحظة التالية ستحمل غضب الزعيم وثورته، إلا أنه فوجئ به يعقد كفيه خلف ظهره، ويقول في اهتمام، وهو يبتعد عن قفص الجواد:
- لقد طلبت إعداد قاعة خاصة، منذ بعض الوقت، ومن قبل حتى أن توقع بالفارس وجواده.. قاعة يمكنني بواسطتها إخضاع ذلك الحيوان المدهش
تساءل قائد الأمن، في لهفة حقيقية:
- وكيف هذا؟
ابتسم الزعيم في غموض، وهو يقول:
- سترى بنفسك
وتألقت عيناه، وهو يضيف:
- ويمكنك اعتباره درسا عمليا، في كيفية السيطرة والتوجيه
سرى الخوف والقلق مرة أخرى، في جسد قائد الأمن، ولكنه حاول أن يخفى هذا في أعمق أعماقه، وهو يغمغم:

- بالطبع أيها الزعيم.. بالطبع.
أدار الزعيم عينيه الوحشيتين إليه، وكأنما استشف من لهجته ما يدور في أعماقه، وابتسم ابتسامة مخيفة، انتفض لها جسد قائد الأمن، قبل أن يقول بلهجة آمرة:
- سأنتظر الجواد في القاعة الخاصة.. وعندئذ سترى..
وخفق قلب قائد الأمن، وهو يغمغم مكررا:
- بالطبع أيها الزعيم
وفي أعمق أعماقه، دار تساؤل، لم يجرؤ على الإفصاح عنه قط
ترى هل يمكن بالفعل إخضاع ذلك الجواد المدهش؟!
هل؟!

☆ ☆ ☆

لم تكن هناك وسيلة منطقية واحدة، لمنع ذلك المتحور الوحشي، من القضاء على الفارس الشاب، في تلك الزنزانة الرطبة الصغيرة، في قاعة مقر الزعامة، في قلب المدينة الكبيرة..
فالشاب كان مقيدا إلى الجدار، بأغلال معدنية قوية، والمتحور كان حرا، غاضبا، ثائرا، يحمل في يده صاعقا كهربيا قاتلاً، ينقض به على عنقه..
كل ما كان يحتاجه الأمر هو لحظة واحدة، يضرب بها الصاعق، عنق الشاب، ويطلق في رأسه وجسده تيارا كهربيا عنيفا، و..
وينتهي كل شيء
ولكن فجأة، وبينما ينقض المتحور الوحشى بصاعقه، انفرجت شفتا الشاب، وبرز من بينهما سلاح ليزرى دقيق، كان يخفيه في ذلك الفراغ، بين اللثة والأسنان
وبضغطة من أسنانه، أطلق السلاح طلقة ليزرية طلقة أصابت ذلك المتحور، بين عينيه تماما وبكل ألم وذعر الدنيا، صرخ

المتحور، وهو يتراجع في عنف، والصاعق الكهربي يسقط من يده..
ودون أن يضيع لحظة واحدة، أدار الشاب رأسه جانبا، ورفع وجهه، ليصوب سلاحه الليزري الدقيق إلى الأغلال، التي تربط معصمه الأيسر إلى الجدار ومرة أخرى، ضغطه بأسنانه وبينما يترنح المتحور، محاولاً استعادة توازنه، كان الفارس الشاب يتحرر من أغلاله، ويستعد لمواجهته وبكل غضب وألم الدنيا، انحنى المتحور، محاولاً استعادة صاعقة الكهربى، وهو يصرخ:
- لن تفلت بهذا أبدا، أيها الـ
قبل أن يتم عبارته، وثب الفارس الشاب في رشاقة، وركله في فكه، ثم في أنفه..
وارتد المتحور في عنف، مرتطما بالجدار، وسالت دماء أرجوانية اللون من أنفه، إلا أنه وثب مستعيدا توازنه في سرعة، وهو يزمجر قائلا في غضب:
- تريد القتال إذن..
لم يكد يتم عبارته، حتى اكتست عيناه بلون الدم، واستطالت حدقتاهما، وبدتا كعيون الثعابين بالفعل، وبرزت في وجهه حراشيف مخيفة، تجمع بين اللونين، الأسود والبني، ثم فتح فكه، فبرزت داخله أنياب رهيبة، وهو يطلق فحيحا مخيفا، ولسانه المشقوق يتراقص ويمتد بينهما..
وتحفزت حواس الفارس الشاب، وهو يتراجع في حذر، متطلعا إلى خصمه الرهيب، داخل الزنزانة المغلقة كان يستعيد كل ما تعلمه وكل ما لقنه إياه أستاذه والعجيب أنه، في اللحظة نفسها، كان جنود الزعيم ينقلون الجواد إلى تلك القاعة الخاصة، إلا أنه تحفز فجأة في توتر، ثم أطلق صهيلاً عصبيا طويلاً، كما لو أنه شعر بما يدور تحته مباشرة..

ففي الثانية ذاتها، وثب المتحور الثعباني نحو الفارس، بكل غضبه وقوته..
كانت وثبة قوية مركزة، بأنياب حادة طويلة، وحشية..
ولكن الشاب تحرك بسرعة مدهشة..
تحرك، وهو يخرج ذلك السلاح الليزرى الدقيق من بين أسنانه، ويصوبه إلى خصمه..
ثم يطلقه وأصابت الأشعة الدقيقة المركزة عنق المتحور واخترقته ولكنها لم تقتله..
وبكل غضب ووحشية الدنيا، استدار إليه المتحور وفي هذه المرة، بدا فحيحه أشبه بفحيح ألف أفعى بل ألف ألف أفعى
وأطلق الشاب أشعة سلاحه الدقيق مرة
وثانية.
وثالثة.
ثم ارتطم به ذلك المتحور..
وأسقطه
وسقط فوقه
وبرزت أنيابه أكثر
وأكثر
وأكثر
وبدا فحيحه، من هذه المسافة القصيرة أعنف
وأخطر
وأشرس
ولكن عبارة أخرى وثبت إلى رأس الشاب، من تعاليم أستاذه..
«القتل أمر بغيض، إلا للدفاع الحتمى عن النفس.. »
لذا، ودون إضاعة جزء من الثانية، ضغط الشاب سلاحه الدقيق مرة رابعة..

وأخيرة.
كان خصمه الوحشى يفتح فكيه عن آخرهما، ويهم بغرز أنيابه السامة في عنقه، عندما انطلقت أشعته، لتخترق حلقه مباشرة..
وعلى الرغم من دقة خيط الأشعة، انتفض جسد المتحور وارتد بعنف شديد، ليسقط في نهاية الزنزانة الضيقة واتسعت عيناه عن آخرهما، وفيض من الدماء الأرجوانية يسيل من بين شفتيه، في غزارة مخيفة ولثوان، ظل الشاب ساكنا، يتطلع إلى جثة المتحور، وشعور عجيب يسرى في أعماقه، ويجثم على صدره بقوة..
لقد كان أستاذه على حق تماما لقد قتل دفاعا عن نفسه وحياته ولكن الأمر كله بغيض بغيض إلى أقصى حد فمهما سمع وتعلم، لا يمكنه أن يدرك هذا الشعور، الذي يملأ كيانه، في هذه اللحظة فانتزاع الروح، من جسد كائن آخر، أمر رهيب..
رهيب إلى أقصى حد
ولكن المعركة لم تنته بعد
بل بدأت
وفي حسم، نهض الفارس الشاب، محاولا نسيان ما حدث، وهو يلتفت إلى باب زنزانته الضيقة.
كان يتوقع أن يجده مفتوحا، ما داموا قيدوه إلى الجدار بإحكام إلا أنه فوجئ به مغلقا، برتاج إليكتروني قوى، لا يتناسب قط مع شكل الزنزانة ورطوبتها.
وبكل ما درسه وتعلمه، وتدرب عليه طويلا، فحص الشاب رتاج الزنزانة، وحدد نقطة ضعفه، ثم صوب إليها سلاحه الليزرى الدقيق، وهو يتساءل في قلق ترى هل تبقت فيه طاقة كافية، لنسف نقطة الضعف، وفتح باب الزنزانة السميك لم تكن هناك سوى وسيلة واحدة لمعرفة هذا، مع صغر السلاح ودقته؛ لذا

فقد ضغطه بكل قوته وانطلق خيط الأشعة الليزرية الدقيق وأصاب الرتاج ثم خبا فجأة وانعقد حاجبا الفارس الشاب بشدة لقد نفدت طاقة السلاح، ولم تعد هناك وسيلة للخروج من الزنزانة الرطبة الضيقة أية وسيلة...

☆ ☆ ☆

٣ - الأســير..

على عكس ما توقعه زعيم المتحورين، وقف الجواد الأبيض الأصيل صامتا ساكنا، فوق تلك الحافة الصغيرة، داخل القاعة الخاصة، متطلعا إلى السماء والجبال أمامه، دون أن يتحرك من مكانه خطوة واحدة..

وفي توتر ملحوظ، غمغم الزعيم، وهو يراقب المشهد، من حجرة جانبية، على شاشات رصد متعددة:

- لماذا يقف ساكنا هكذا؟! السماء أمامه كبيرة فسيحة، فلماذا لا يحلق هاربا؟!

أراد قائد أمنه أن يجيب تساؤله، إلا أنه لم يجد جوابا واضحا، فتمتم في خفوت، وكأنما يخشى الإفصاح عن رأيه:

- الجواد ذكى

زمجر الزعيم زمجرة شرسة، ارتجف لها جسد قائد الأمن قبل أن يقول في غلظة عصبية:

- مهما بلغ ذكاؤه، ينبغي أن نتفوق عليه

وصمت لحظة، ثم أضاف في حدة:

- إنه مجرد جواد

في هذه المرة، أثر قائد أمنه الصمت، وانكمش في موقعه، دون أن ينبس ببنت شفة، في حين ضغط الزعيم زر الاتصال بحجرة التحكم، وهو يقول بلهجة آمرة، صارمة، وحشية:

- فلننتقل إلى الخطة (ب).

لم يكد يلقى أوامره، حتى اشتعلت النيران فجأة، خلف الجواد مباشرة..

وهنا فقط، أطلق الجواد صهيلا قويا، بدا غاضبا، أكثر منه مذعورا، وتراجع نحو الحافة ولكن النيران تقدمت نحوه أكثر وأكثر..
وأكثر.
ولم تعد الحافة تكفي لتراجعه
وبكل انفعاله، ضم الزعيم قبضته، وهو يقول:
- هيا.. افرد جناحيك وانطلق.. هيا
خيل إليه أن الجواد قد سمع عبارته، عندما رآه يرفع عينيه إلى الشاشة، ثم يطلق صهيلا عصبيا وبانفعال أكثر، صرخ الزعيم:
- هيا..

قبل حتى أن تكتمل صرخته، فرد الجواد جناحيه الكبيرين وانطلق لحظتها، خيل لقائد الأمن أن الزعيم قد لهث، من فرط الانفعال، وأن عينيه قد أضاءتا بشدة، وهو يتابع المشهد المهيب على شاشته أما الجواد نفسه، فقد بدا أشبه بأسطورة حية، وهو يضرب الهواء بجناحيه القويين، مبتعدا عن الحافة، ومنطلقا نحو ما بدا أشبه بالسماء والجبال..
وتألقت عينا زعيم المتحورين..
وتألقت...
وتألقت...
ولكن فجأة، دار الجواد القوى حول نفسه، وضرب الهواء مرة أخرى بجناحيه، كما لو أنه يتفادي الاصطدام بشيء ما.
وبكل دهشته، هتف قائد الأمن:
- لقد أدرك الخدعة
انعقد حاجبا الزعيم بمنتهى الشدة، وهو يغمغم:
- مستحيل!

فالمساحة التي يحلق فيها الجواد المجنح، لم تكن سماء مفتوحة، كما يوحي مظهرها للعين المجردة، وإنما كانت قاعة هائلة واسعة، لها قبة رقمية كبيرة، تعكس صورة هولوجرامية شديدة الإتقان، للسماء والنجوم، على نحو يجعلها أشبه بالواقع الحي..

وبكل المقاييس، كانت تلك القاعة الرقمية قادرة، على خداع عيني أشد الرجال إبصارا ولكن العجيب أنها لم تخدع ذلك الجواد لم تخدعه أبدا...

ولأن هذا يتجاوز أي منطق علمي سليم، فقد كرر الزعيم وهو ينهض من عرشه الضخم الفخم:

مستحيل! لا يمكن أن يكون قد أدرك هذا

غمغم قائد أمنه، في توتر بالغ:

- ولكنه فعلها

استدار إليه الزعيم صارخا:

- مستحيل!

ثم ضغط زر الاتصالات، بكل غضبه وثورته، قائلاً:

- أوقفوه

مع أوامره، انطلق سهم مخدر قوى، من فجوة خفية، في أرضية القاعة، التي لم تحو حافة حقيقية، نحو الجواد مباشرة..

وبمناورة مذهلة، تفادي الجواد ذلك السهم، الذي استهدف عنقه، ومال جانبا، وارتفع جناحاه القويان، و..

وانغرس السهم المخدر، في جناحه الأيسر ألم محدود سري في الجناح..

وخدر شديد سرى، في الجسد كله..

ولأول مرة، منذ مولده، شعر الجواد القوى أنه ليس باستطاعته الخفقان بجناحيه.

ولأول مرة، ذاق طعم الخدر
والدوار..
والضعف
جناحاه تخاذلا..
وتباطا
وتهاويا
ولأن الحافة الوهمية ما زالت مشتعلة، بدا له أنه لا يوجد مهبط واضح، سوى تلك الفجوة الرهيبة، التي تطل عليها الحافة ولأنه ليس أمامه بديل آخر، هبط الجواد نحو تلك الفجوة المخادعة..
وهبط..
وهبط...
وقبل أن يكمل هبوطه، كما بدا لعينيه، ارتطم فجأة بأرضية القاعة الرقمية..
ثم هوى..
هوى فاقد الوعي والشعور، وتراجع جناحاه الكبيران، نحو الشقين الخفيين في جانبيه ولكنهما لم يختفيا حتى آخرهما.
فقد غاب وعيه تماما..
ولثوان، ران صمت رهيب، حيث يجلس زعيم المتحورين، الذي قطع ذلك الصمت، قائلاً:
- لن يمكننا ترويضه بهذه الوسيلة
لاذ قائد أمنه بالصمت التام، خشية أن يستفزه في هذا الموقف، واكتفى بالتطلع إليه، عندما تراجع في بطء، وعقد حاجبيه في شدة، قبل أن يكمل، في صرامة وحشية:
- سنلجأ إذن إلى المحاولة الأخيرة.. المحاولة التي إما أن تنجح في ترويضه وإخضاعه، أو يكون فيها مصرعه.. نهائيا..

وأيضا لم ينطق قائد أمنه بكلمة أية كلمة.

☆ ☆ ☆

لقد جردوه من كل أسلحته..

هذا ما جال بخاطر الفارس الشاب، وهو يقف داخل تلك الزنزانة الضيقة، بعد أن عجز سلاحه عن إخضاع رتاجها الإلكتروني، وإخراجه منها..

كان يدرك أن سلاحه الليزري الاحتياطي، قد أدى كل ما يمكنه، ولكن هذا يعني أنه لم تعد لديه وسيلة متطورة واحدة، للخروج من زنزانته هذه..

اللهم إلا إذا..

انتبه بغتة إلى أن خصمه المتحور أيضا، كان داخل الزنزانة وهذا يعني أن لديه وسيلة للدخول وللخروج

وبسرعة، راح يفتش ثياب المتحور الصريع؛ بحثا عن وسيلة سيطرة، على الرتاج الإلكتروني..

أية وسيلة

ولكن، باستثناء أسلحته، لم يكن المتحور يحمل شيئا!!

، وهذا بدوره يعني أنه كان يعتمد على نظام آخر للخروج. نظام، ربما يتناسب تماما، مع طبيعة الزنزانة ورطوبتها.

نظام بدائى

للغاية

لذا، فقد عاد الفارس الشاب إلى الباب، ودقه بقبضته في قوة، ثم كمن ينتظر ولثوان، لم يشعر بأية استجابة، ثم لم يلبث أن سمع وقع أقدام ثقيلة تقترب، فالتصق بالجدار البعيد عن الرؤية، حتى فتح بعضهم تلك الكوة الصغيرة، أعلى باب الزنزانة، وهو يقول، بصوت أجش غليظ:

- هل أنهيت مهمتك؟!

استعاد الشاب تلك الدروس والتدريبات المكثفة، التي تلقاها من أستاذه، حول لهجة المتحورين ولغتهم، وأسلوب تقليد الأصوات، وقال بخشونة شبيهة بخصمه الصريع:
- أجل
لم يكد يتم قوله، حتى صدر أزيز خافت، ثم انفتح باب الزنزانة، مع ذلك الصوت الغليظ، وهو يقول:
اخرج بسرعة إذن؛ فلم أكمل طعامي بعد، و..
كان ذلك المتحور الآخر يدلف إلى الزنزانة، وهو ينطق عبارته، إلا أنه لم يلبث أن بترها دفعة واحدة، وهو يحدق في زميله الصريع، قبل أن يسحب سلاحه الليزري في سرعة، هاتفا:
- اللعنة..
ومع هتافه، انقض عليه الشاب..
انقض بكل قوته، وفتوته، وبقوة تفوق أي تصور، دفعه ذلك المتحور بعيدا، ليضرب جسده في الجدار الرطب بمنتهى العنف، قبل أن يسقط أرضا وعندما اعتدل الفارس الشاب في سرعة، محاولاً استعادة توازنه، فوجئ بفوهة سلاح ليزري، مصوبة إلى وجهه مباشرة، وبصوت غليظ غاضب، يصرخ فيه:
- إنك تستحق القتل، لفعلتك هذه..
ثم انطلقت الأشعة القاتلة..
نحوه مباشرة..

☆ ☆ ☆

فجأة، انتفض الجواد القوى، داخل القفص الضيق، الذي وضعوه فيه، ثم هب واقفا، وأطلق صهيلاً عصبيا كان يستعيد وعيه، بعد فترة قصيرة من غيبوبة عميقة، تسبب فيها ذلك العقار، الذي يحويه السهم المخدر، الذي أصاب جناحه..

وعلى الرغم من أن الجرعة، التي يحويها ذلك السهم، كانت كافية لقتل رجل بالغ قوى، إلا أنها أفقدته الوعي لعشر دقائق فحسب كانت كافية لنقله إلى ذلك القفص، وتوصيل عنقه وجبهته وأطرافه بتلك الأسلاك الإلكترونية الدقيقة.
وفى عصبية، نفض الجواد رأسه، وحاول أن يحرر أطرافه، إلا أن زعيم المتحورين، الذي يجلس لمراقبته، أمام القفص مباشرة، هز رأسه في بطء، قائلاً في صرامة:
- لن يمكنك هذا أبدا.. إنها أسلاك خاصة، لا يمكن تمزيقها، إلا بسلاح محدود.
أدار الجواد عينيه إليه في حدة، على نحو يوحي باستيعابه الموقف كله، فتابع في وحشية متوترة:
- لا يوجد مخرج واحد من هنا.. إما أن تخضع لي، أو لا تخضع لأي شخص آخر
مع نهاية قوله، انتفض جسم الجواد في عنف، مع الصاعقة التي أصابته، عبر تلك الأسلاك الدقيقة، وانطلق منه صهيل ألم قوى، جعل الزعيم الوحشي يبتسم في تلذذ، قائلاً:
أظنها أول مرة يحدث فيها هذا، في التاريخ كله.. أن يعذب أحد جوادا، لضمان خضوعه واستجابته
مرة أخرى، مع نهاية عبارته، انتفض جسم الجواد، وانطلق صهيله القوى، لنصف دقيقة كاملة، قبل أن ينهار رأسه، في ألم رهيب، أطلق معه الزعيم ضحكة مخيفة، وهو يقول:
الصاعقة ستتضاعف قوتها في كل مرة، حتى تبلغ حدا قاتلاً فإما أن تخضع، أو تموت..
كان محقا تماما في قوله هذا، فالصاعقة التالية كانت من العنف، حتى إن الجواد لم يستطع إطلاق صهيله، وإنما سقط

على ركبتيه الأماميتين، ثم حاول النهوض في صعوبة. وانطلقت ضحكات الزعيم الوحشية أقوى
وأقوى.
وأقوى
وفي تلذذ عجيب قال:
في المرة القامة، ستنوب خلايا مخك، من فرط الألم، وسينهار كيانك كله.. ولأننى رجل عطوف مشفق، فسأمنحك مهلة معقولة لإبداء الخضوع والاستسلام، قبل، أن أطلق الصاعقة، في جسمك، من أقصاه إلى أقصاه وتراجع في عرشه، الذي يتنقل معه أينما ذهب، قبل أن يتابع:
- بعد دقائق قليلة، سيصلني تقريره، من مختبرى الخاص، محددا كل صفاتك الجينية، ومؤكدا أو نافيا احتمالات استنساخ جواد مشابه، ينشأ في حظائرى، ويدين لي بالوجود، والطاعة، والولاء.
نفخ الجواد الهواء من منخاريه، وضرب الأرض بحوافره، وخفض رأسه قليلاً، فتألقت عينا الزعيم، وقد بدا له هذا خضوعا واضحا،
وقال في صرامة ظافرة:
- عظيم
ثم أشار بيده، في غطرسة شديدة، قائلاً:
- اركع
أدار الجواد عينيه إليه في برود، كما لو أنه لا يفهم الأمر، فانعقد حاجبا الزعيم في غضب، وكرر في حدة:
- اركع أو تموت
ضرب الجواد الأرض بحوافره مرة أخرى، وأشاح بوجهه في لا مبالاة، كما سيفعل أي جواد عادى

ولأنه يدرك طبيعته المتميزة، هتف الزعيم في حدة:
- لا تتظاهر بعجزك عن استيعابي.. أنا أعلم أنك تفهم كل حرف أنطق به.. كل ما في الأمر، هو أنك تتظاهر بالغباء فحسب
وعاد حاجباه ينعقدان، على نحو مخيف، وهو يتابع:
- لقد أخبرتك أنه لا فكاك من هذا.. ستخضع حتما، أو تموت شر ميتة
مع الشق الأخير من تهديده، دلف قائد أمنه إلى المكان، وهو يحمل مظروفا صغيرا، وقال في توتر ملحوظ:
- نتائج الفحص الجيني للجواد.. رأيت أنه من الضروري أن تطالعها الآن
التقط منه الزعيم ذلك المظروف، وفضه في سرعة ولهفة، والتهم محتوياته في لمح البصر، قبل أن ينعقد حاجباه في شدة، مع هتافه:
- مستحيل!
وافقه قائد الأمن، بإيماءة من رأسه، وهو يقول في توتر:
- الخبراء أجروا الفحص ثلاث مرات، قبل أن يضعوا تقريرهم الرسمى
تألقت عينا الزعيم في وحشية شديدة، وبرزت أنيابه دون أن يدرى، وهو يرفع عينيه مرة أخرى إلى الجواد، قائلاً:
- جينات بشرية! من كان يتوقع هذا؟!
ثم تراجع في عرشه الضخم، متابعا:
- هذا يجعل الأمر أكثر إمتاعا بحق
قالها، وأشار بيده
وانطلقت الصاعقة الجديدة
وفي هذه المرة، بلغ صهيل الجواد حدا مخيفا حد الموت..

☆ ☆ ☆

من الواضح أن ذلك المتحور الآخر كان بارعا في إطلاق سلاحه، إلى حد مدهش فلقد أطلق أشعته، نحو صدر الفارس الشاب مباشرة وأمام عينيه، أصابت الأشعة هدفها وارتطمت بصدر الشاب ثم ارتدت وبمنتهى العنف

وفي دهشة غاضبة، هتف المتحور:

- أي عبث شيطاني هذا؟!

ومع هتافه، وثب الشاب

وثب وثبة قوية، تجاوز بها مساحة الزنزانة كلها، لينقض على المتحور انقضاضة عنيفة

قوية

باسلة

وبضربة مباشرة قوية، أطاح الشاب بسلاح المتحور، الذي أطلق زمجرة وحشية غاضبة، وقبض على عنق الشاب، ثم رفعه عن الأرض، كما لو أنه مجرد دمية صغيرة، وهو يصرخ:

- أتتصور نفسك نذا لي

شعر الشاب بآلام رهيبة في عنقه، وبالهواء يحتبس عن صدره، وذلك المتحور، الذي يفوق الثور قوة، يتابع بكل وحشيته وغضبه:

- سأعلق رأسك على باب حجرتي

هوى الشاب على عنقه بلكمة كالقنبلة، قائلاً

- ينبغي أن تحصل عليه أولاً

أصابت لكمته حنجرة المتحور مباشرة، فاتسعت عيناه عن آخرهما، وأراد أن يطلق سبابا غاضبا ساخرا، إلا أن كل ما خرج من حنجرته لم يتجاوز حشرجة خشنة، و..

وهوى الفارس الشاب بلكمة أخرى، أكثر عنفا وقوة.

واتسعت عينا المتحور أكثر وأكثر وأكثر

وبدت حشرجته عجيبة..
مكتومة..
قاتلة..
وعندما استعد الشاب، ليهوى على حنجرته بلكمة ثالثة، تراخت قبضة المتحور على عنقه، فسقط الشاب أرضا وسقط المتحور خلفه وفي مرارة خانقة، على الرغم من فوزه في معركته، نهض الشاب، وغمغم:
- رباه! ما الذي جعلوني أفعله؟! ما الذي فعلوه في العالم كله؟!
كان يحنقه أن اضطر إلى اللجوء لكل هذا العنف، حتى يخرج من مأزقه..
وكان هذا يشعره بالألم والأسى
والحزن..
والمرارة..
إلا أنه لم يوقفه
ففي سرعة، ألقى كل هذا خلف ظهره، ووثب خارج الزنزانة، وأسرع يعبر الممر الطويل، الممتد أمامها، وهو يبحث عن مخرج..
كان الممر فرعا من شبكة ممرات شديدة التعقيد، أشبه بالمتاهات، التي يلهو بها ال- فار، في مجلاتهم المصورة.
متاهة متشابكة
متداخلة
ومعقدة.
ولدقائق عشر، تحرك عبر المتاهة، في كل الاتجاهات، دون أن يجد مخرجا.
أي مخرج..
لذا، فقد توقف، وغمغم:

- عجبا! من الممكن أن يقضى المرء عمره كله هنا، دون أن يجد منفذا له، أو
قبل أن يتم عبارته، بلغ مسامعه صهيل جواده وانتفض جسده في عنف فالصهيل الرهيب، الذي سمعه داخل تلك المتاهة، كان يوحى بأن جواده المجنح القوى يلفظ آخر أنفاسه وبمنتهى القسوة..

☆ ☆ ☆

«الجواد يلفظ أنفاسه الأخيرة..»
نطق قائد أمن زعيم المتحورين العبارة في قلق، وهو يتطلع إلى الجواد الذي بدا متهالكا على نحو مخيف، إلا أن الزعيم أطلق زمجرة وحشية عنيفة، قائلاً:
- إما أن يخضع أو يموت
غمغم قائد الأمن في عصبية:
- بعد كل ما فعلناه للإيقاع به
مط الزعيم شفتيه، قائلاً في شراسة:
- لم نعد بحاجة إليه فعليا.. العلماء أكدوا قدرتهم على استنساخ مثله، بجزء قليل من خلاياه..
انتبه رأس الجواد، في هذه اللحظة، على نحو واضح، فزمجر الزعيم مرة أخرى، وهو يقول:
. إنه يفهمنا.
ثم ضغط زر جهازه مرة أخرى وانطلق صهيل الجواد المجنح المسكين انطلق حاملاً رنة عذاب عذاب بلا حدود..
وداخل تلك المتاهة الرهيبة، انتفض جسد الفارس الشاب، وهو يهتف:
- يا للأوغاد! يا للوحوش!!

كان ضائعا وسط تلك المتاهة، لا يدري طريقه فيها، وصهيل جواده المعذب يصم أذنيه، آتيا من مكان ما..
مكان قريب
قريب جدا
«لا تكن أبدا عبدا للتكنولوجيا..»
استعاد ذهنه عبارة معلمه، في تلك اللحظات الحرجة، وتذكر نصيحته الأساسية الدائمة..
«احرص دوما على أن تتدرب حواسك على التعامل مع الطبيعة وحدها.. دون أجهزة، أو تكنولوجيا.. فمن يدري.. ربما يكون في هذا خلاصك ذات يوم..»
وبكل الحزم في أعماقه، غمغم الفارس الشاب (أمل):
- نعم.. هذا اليوم المنشود يا معلمى
ومع صهيل الجواد التالي، أرهف سمعه وأنصت بأذنيه بل بكيانه كله ثم أغمض عينيه
وانطلق
انطلق عبر المتاهة، مسترشدا بصهيل الجواد وحده..
وكما كان يحدث، خلال التدريبات العديدة، التي أخضعه لها أستاذه الفارس، شعر وكأن الصوت يرسم أمامه خريطة خاصة جدا.
خريطة تراها أذناه، وتقوده عبر دروب خفية، لا يدركها سواه..
ثم أخيرا توقف وفتح عينيه ورفعهما إلى أعلى
وانطلق الصهيل مرة جديدة ورهيبة
وفي هذه المرة كان صهيل جواد يحتضر
بالفعل
وكان يأتي من فوقه مباشرة
جواده هناك إذن

في مكان ما، يعلوه مباشرة..
وهو يتعذب
ويحتضر
فارس المستقبل
وهو لن يقف هنا ساكناً
أيا كان الثمن
لقد جرده المتحورون من كل أسلحته التكنولوجية، ولكنهم أهملوا أهم أسلحته على الاطلاق
وبكل ما يملك من قوة وإرادة، أغلق (أمل) عينيه، ودفع عضلاته كلها للاسترخاء، ثم أطلق لعقله العنان وبكل طاقته
كان هذا أهم وأخطر ما تعلمه، على يد فارسه وأستاذه ومعلمه..
إطلاق طاقة العقل
لم يكن تدريبا وموهبة فحسب بل كان أيضا جزءا من تكنولوجيا المستقبل تكنولوجيا الاتصالات العقلي
فعبر جهاز خاص، مزروع في عقله، وعقل الجواد، تم اتصال خاص ودقيق..
خاص جدا
ودقيق جدا..
وبحركة حادة، وعلى الرغم من تهالكه الشديد، أطلق الجواد صهيلاً.
ونهض واقفا.
ومع نهضته المفاجئة، شهق قائد الأمن، وهنف:
- ولكن كيف؟!
قاطعه الزعيم بإشارة صارمة من يده، وقد انعقد حاجباه الكثان في شدة، وعيناه ترصدان ذلك التغير المباغت، في مسار الجواد

فلسبب ما، راح يطلق صهيلا متكررا قصيرا، ويضرب الأرض بحوافره في قوة، متطلعا إلى بقعة بعينها أسفله..
وفي توتر، غمغم زعيم المتحورين:
- هناك شيء ما
راح الجواد يدور حول نفسه، ويضرب الأرض بقوائمه في عصبية، ويطلق ذلك الصهيل المتقطع، فقال قائد الأمن في عصبية:
- أية طاقة تلك، التي تفجرت في هذا الجواد.. لقد كان يحتضر منذ لحظات قليلة!!
كرر الزعيم في شراسة:
- هناك شيء ما.
صمت بضع لحظات بعدها، وهو يراقب الجواد المتوتر، ثم استدار بحركة حادة، وضغط أزرار جهازه الخاص وبسرعة، راح الجهاز يرسم منحنيات سريعة على شاشته منحنيات راحت تتسارع..
وتتسارع..
وتتسارع
ومع تسارعها، راحت ترسم خريطة دقيقة خريطة لمتاهة الممرات، تحت قاعة الاستجواب الخاصة وتزايدت عصبية الجواد تزايد وهو يدور حول نفسه أسرع..
وصهيله المتقطع يعلو
ويعلو..
ويعلو..
وفي المتاهة السفلى، بدأ جسد الفارس الشاب يرتجف..
ويرتجف..
ويرتجف..

ثم بدأت الدماء تسيل من فتحتى أنفه
كان من الواضح أن ذلك الاتصال العقلي الرهيب يستنزف قواه، ويجهد خلايا مخه، وأوردته الدماغية إلى أقصى حد
وبكل غضب الدنيا، في قاعة الاستجواب، صرخ زعيم المتحورين، مشيرا إلى الأرضية:
- إنه يتلقى إشارة ما، من أسفل
هتف قائد أمنه منزعجا:
- إشارة ما؟!
ولم يكن هتافه قد اكتمل، عندما انهار جزء من أرضية القاعة بغتة انهار مع القفص، الذي وضعوا داخله الجواد المجنح.
ومع انهياره، أطلق زعيم المتحورين صرخة صرخة غاضبة، وحشية، شرسة، ثائرة.
صرخة لم يطلق مثلها، منذ زمن طويل
أما الفارس الشاب، فقد تراجع في سرعة، قبيل سقوط أرضية القاعة بلحظة واحدة، وشاهد القفص يسقط من أعلى، ويرتطم بالأرض، ويتحطم، ويخرج منه جواده..
ودون أن يضيع لحظة واحدة، وثب على متن جواده، هاتفا:
نجحنا يا صديقى
أطلق الجواد صهيلاً آخر، يحمل حماسه وفرحته، ثم وثب.. وثب ليعبر الفجوة مرة أخرى إلى أعلى، ثم يفرد جناحيه، وينطلق مع فارسه الشاب
ومع انطلاقتهما، صرخ زعيم المتحورين صرخة أخرى..
صرخة بدت أكثر شراسة ووحشية، وهو يهتف:
- أوقفه.. أوقفه بأي ثمن
سحب قائد الأمن مسدسه الإشعاعي بحركة حادة، هاتفا:
- أمرك أيها الزعيم

في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، أسرع الزعيم يضغط زرا آخر في جهازه.
زر أطلق قبة معدنية رقيقة، لتغطى القاعة كلها قبة غير قابلة للاختراق على الإطلاق

☆ ☆ ☆

٤ - صهيل..

فجأة، ودون مقدمات، أطلق ذلك المهر المجنح صهيلا قويا. داخل المنطقة الخاصة به، في مكمن الفارس فبوسيلة ما، وصلته رسالة قوية رسالة وثبت إلى أعمق أعماقه بغتة، لتنقل له صورة واضحة، لما يحدث هناك في داخل المدينة الكبيرة..

ومع الصورة، ارتسمت خريطة ومهمة مهمة تم زرعها في عقله مسبقا مهمة خاصة جدا

وفي نفس اللحظة، التي استقبل فيها المهر الرسالة، كان الفارس الشاب يندفع بجواده، نحو نافذة كبيرة في القاعة، في سباق مع الزمن، لبلوغها قبل أن تنسدل عليها تلك القبة المعدنية، المقاومة للاختراق

وعلى الرغم من إجهاده وتهالكه، خفق الجواد بجناحيه أكثر..

وأكثر..

وأكثر

والقبة المعدنية القوية تنسدل..

وتنسدل

وتنسدل

وأطلق قائد الأمن أشعة مسدسه..

ومال الجواد المجنح في مهارة

وتجاوزته الأشعة المدمرة..

وأصابت إطار النافذة الكبيرة.

وكان مشهدا مبهرا، تفجر كل غضب زعيم المتحورين

وبمنتهى العنف..

فمع تفجر الإطار، بأشعة مسدس قائد الأمن، انهارت النافذة كلها، في حين ضم الجواد المبهر جناحيه، ليقلل من حجمه، وهو ينطلق بفارسه عبرها.
وامتزج كل شيء..
بريق الأشعة
الإطار المنهار
والزجاج المتناثر
والجواد
وفارسه
وصرخة الزعيم
لقد أطلق صرخة هائلة
غاضبة
ثائرة..
شرسة
وحشية
وأكثر..
أطلقها قبل أن يثب إلى جهازه، وهو يهتف:
- أيها الغبي.. أيها الغبي
ومع ضغطته، انطلقت صفارة إنذار قوية، في المدينة الكبيرة كلها، وراحت قبتها السميكة تتألق أكثر
وأكثر.
وأدرك الفارس الشاب، بكل ما تعلمه من أستاذه، ما الذي يعنيه هذا بالضبط
فالقبة السميكة لم تعد مجرد قبة..
بل غلاف من طاقة هائلة، لا يمكن عبوره، إلا بثمن باهظ للغاية
غلاف سيفجر حتما كل ما يلمسه..

ومن يلمسه
وهذا يعني أنه قد أفلت بجواده من سجن صغير، إلى سجن كبير سجن المدينة الرهيبة كلها
وعبر جهاز اتصال قوى، صرخ زعيم المتحورين، في كل أنحاء المدينة:
- امنعوهما.. امنعوهما من القرار بأي ثمن.. حياتهما لم تعد تعنى أحدا.. انسفوهما
ومع صرخته، تأهبت كل قوات الأمن، في المدينة الكبيرة..
وانطلقت
انطلقت نحو هدف واحد..
وفارس واحد..
أما في قاعة الاستجواب، فقد استدار الزعيم إلى قائد أمنه، قائلاً بكل شراسة الدنيا:
- أنت فعلتها.. أنت ساعدتهما على الفرار
تراجع قائد الأمن، وهو يقول في عصبية:
- لقد.. لقد حاولت إيقافهما
صرخ به الزعيم، في شراسة أكثر، وأنيابه ومخالبه تبرزان، على نحو مخيف:
- وفشلت.. هل تعرف عقوبة الفشل هنا؟
انتفض جسد قائد الأمن، ورفع فوهة مسدسه الإشعاعي نحو زعيمه، في حركة دفاعية غريزية، وهو يقول:
- لا.. لن أكون لقمة سائغة كسلفى
زمجر الزعيم زمجرة وحشية، وهو يقول:
- وكيف سيمكنك منعي أيها المتحذلق؟!
تراجع قائد الأمن أكثر، وهو يقول في عصبية:

- لقد.. لقد قمت بتلغيم القبة، وكل مداخل ومخارج المدينة، وحتى عرشك أيها الزعيم، وكل تلك الألغام ترتبط بمنظم خاص في قلبي، ولو توقف هذا القلب، ستنهار المدينة كلها

توقف الزعيم، وأطلق زمجرة أكثر وحشية، وهو يقول:

- أنت خائن إذن!

صاح قائد الأمن

- لست خائنا، ولكنني حذر.. لقد خدمتك، وكنت سأخدمك مدى حياتي، بكل الوفاء والإخلاص، ولكن إذا ما قررت التخلص منى، فلا بد وأن يكون الثمن فادحا

زمجر الزعيم، بكل وحشية الدنيا، هاتفا:

- هكذا خطتت

حاول قائد الأمن أن يتماسك، وهو يقول:

- وهكذا نفذت

حدق الزعيم في وجهه بضع لحظات، قبل أن يطلق ضحكة قوية مجلجلة.. ضحكة وحشية، رددت صداها جدران قلعته كلها

ضحكة امتزجت بأزير خيوط وحزم الأشعة، التي انطلقت في سماء مدينته الكبيرة، في محاولة لاصطياد الفارس الشاب وجواده المجنح

كانت كل الفرق تحاول اصطيادهما، ولكن الجواد المجنح، كان يستنفد كل ما تبقى له من طاقة وقوة، ليناور..

ويحاور..

ويدور..

ويتفادى

وعلى متنه، هتف فارسه الشاب:

لا فائدة.. لن يمكننا اختراق قبة الطاقة هذه، ولقد سدوا كل الأنفاق، التي تقود إلى هنا.. سنقع في قبضتهم حتما يا صديقي لا فائدة..
«لا تيأس أبدا من رحمة الخالق (عز وجل)، ولا تستسلم لخصومنا قط، فالموت أشرف من الوقوع في أسرهم»
ترددت العبارة هذه المرة في ذهن الجواد، وليس في ذهن الفارس ومع ترددها، انطلقت في عروقه فورة خاصة وبرزت فكرة..
بل هو قرار..
قرار حاسم للغاية
قرار ينتظر اتصالا عقليا محدودا.
اتصالا واحدا
واضحا
ومباشرا.
وفي تلك اللحظة، التي ينتظر فيها القرار، كان الزعيم يواجه قائد أمنه، وهو يضغط أزرار جهاز اتصاله الخاص، قائلاً:
- أهذه خريطة ألغامك؟
اتسعت عينا قائد الأمن، في دهشة وارتياع، وهو يحدق في خريطة دقيقة للغاية لمواقع الألغام، التي زرعها في القبة، وفي مداخل ومخارج المدينة الكبيرة، في حين أطلق الزعيم ضحكة وحشية أخرى، وقال:
- لقد كشفت أمرها، فور زرعك لها، وتم انتزاعها كلها من مكامنها، وإبطال مفعولها، ولكنني تركتك تتصور أنها موجودة، حتى لا أفقد لذة اللعبة
اتسعت عينا قائد الأمن، حتى ذروة اتساعهما، وتملكه يأس بلا حدود، جعله يطلق أشعة مسدسه نحو زعيمه مرة..
وثانية

وثالثة..
أطلقها وهو يدرك أن جسده النووى لن يتأثر بها مطلقا، قبل أن تسقط ذراعه إلى جواره، ويسقط هو على ركبتيه، قائلاً في انهيار:
- الرحمة
ورمقه الزعيم بابتسامة ساخرة ظافرة، قبل أن يقول في وحشية:
- فيما بعد.. سننظر في أمرك فيما بعد
ثم عاد إلى جهازه، وضغط أزراره في سرعة، لترتسم على شاشته دائرة، يتقاطع قطراها الرأسي والأفقى، عند نقطة واحدة، حركها في سرعة ومهارة، لتستقر على الجواد المجنح وفارسه وهو يقول:
- طاقة القبة لا تحمى فحسب.. إنها تنطلق حيث أشاء أيضا
وأعقب قوله بضغطة زر جديدة ضغطة ستطلق كل طاقة القبة نحو هدف واحد الهدف البشرى الوحيد، في المدينة الكبيرة.. كلها.
لم يكن هناك مفر من سقوط فارس المستقبل هذه المرة.. فالطاقة التي تنبعث من القبة السميكة، المحيطة بالمدينة الكبيرة، كانت تمنع اختراقها، بأي حال من الأحوال..
وقوات المتحورين كلها كانت تهاجمه وزعيمها يهم بإطلاق كل طاقة القبة نحوه حتى سكان الجبال من البشر، في الوادي الأزرق، أدركوا أن الموقف يختلف تماما، عن كل ما عهدوه من قبل فعلى نحو غير مسبوق، تألقت قبة المدينة الكبيرة..
وتألقت
وتألقت
حتى صارت أشبه بشمس أخرى، حجبت مرحلة الغروب، وصنعت امتدادا نهاريا صناعيًا

وفي خوف شديد، لاذ البشر بكهوفهم
وسراديبهم
ورعبهم..
وانتظروا حدوث كارثة
كارثة رهيبة، على كل المستويات
وهذا بالضبط ما شعر به الفارس الشاب
وما أدركه جواده المجنح
ولكن العجيب أن ذلك الجواد المدهش، قد انحرف فجأة بزاوية حادة للغاية، دون سابق إنذار، وكأنما استشعرت غريزته خطرا ما
وفي نفس لحظة انحرافه، هوت حزمة الطاقة الرهيبة هوت لتضرب أحد مباني المدينة مباشرة، بعد أن تجاوزت الجواد
وأمام أعين الجميع، تبخر المبنى تماما..
وصرخ زعيم المتحورين
صرخ في غضب هادر؛ لأنه، ولأول مرة، أخطأ هدفه..
وبسرعة، حاول أن يعيد التصويب نحو الفارس وجواده، لولا أن نبهته شاشته الراصدة إلى أمر عجيب..
فقد أوقف انسدال القبة المعدنية العازلة، مع مغادرة الفارس.
وعبر النافذة المحطمة، كانت قاعته مكشوفة للجميع..
وكان الفارس وجواده يتجهان نحوها مباشرة..
وخلفهما كانت قواته، التي تواصل إطلاق النيران نحوهما..
وتواصل
وتواصل
ومع براعة المناورات، التي يقوم بها الفارس والجواد، كانت حزم الأشعة القاتلة تتجاوزهما، وتواصل طريقها، لترتطم بالجدار الخارجي للقاعة، وبأرضيتها، عبر النافذة المحطمة، والنوافذ الأخرى وبكل غضبه وثورته، صرخ الزعيم الوحشي:

- أوقفوا إطلاق النار أيها الأغبياء
أوقفت قواته إطلاق النيران على الفور، في نفس الوقت الذي عجز هو فيه عن إعادة التصويب بطاقة القبة؛ خشية أن تفلت الطاقة، فتبخره وقصره المنيع، وتمحوهما من الوجود
ولم يفهم لماذا يعود الفارس وجواده إلى قاعته لم يفهم أبدا لذا فقد انعقد حاجباه
وزمجر
وهب واقفا في تحد وحشي غاضب..
وعبر الفارس وجواده النافذة المحطمة، واستقرا على أرضية القاعة الكبيرة الباردة، وتراجع قائد الأمن، في توتر بلا حدود أما الزعيم الوحشي، فقد زمجر في قوة، هاتفا:
- عدتما إلى قبركما
صهل الجواد، وضرب أرضية القاعة بحافريه الأماميين وفارسه يقول في حزم صارم:
- أستاذي علمني أنه عندما تضيق الدائرة، يصبح الهجوم هو خير وسيلة للدفاع
زمجر الزعيم مرة أخرى، وهو يقول:
- أستاذك.. هه.. أتعنى ذلك الفارس الأحمق، الذي لقى مصرعه في قاعة العرش؟!
تفجر غضب هائل في أعماق الشاب
غضب كاد يدفعه إلى هجوم أحمق عصبي، لولا أن استعاد كلمات أستاذه.
«إياك والغضب.. إنه يعمي بصرك وبصيرتك، ويجعلك فريسة سهلة لأي خصم في مواجهتك.. إياك»
وصهل الجواد مرة أخرى..
صهل وهو يرمق ببصره ذلك الجهاز الدفاعي، إلى جوار الزعيم..

وعبر ذلك الاتصال العقلي الفائق بينهما، أدرك الشاب ما عليه أن يفعله..
وفي حركة رشيقة مرنة، وثب عن متن جواده، وهو يهتف:
تظن نفسك قويا يا هذا؟!
ابتسم الزعيم ابتسامة وحشية، وهو يقول:
- إننى قوى بالفعل
شد الشاب قامته، وتحرك إلى اليسار في حذر، قائلاً:
- دعنا نختبر هذا.
ارتسمت ابتسامة ساخرة وحشية، على شفتي الزعيم، وهو يبرز أنيابه ومخالبه، قائلاً:
- فليكن أيها البشرى.. أنت أردت هذا
كانت عيناه تشعان ببريق جهنمى مخيف، وهو يتابع حركة الشاب في استهتار، و..
وفجأة، وما إن ابتعدت عيناه، حتى فرد الجواد جناحيه، وأطلق صهيلا قويًا
ثم انقض
لم ينقض على الزعيم
أو حتى على قائد أمنه
بل انقض على جهاز التحكم الشامل مباشرة..
وبمنتهى العنف
وانتبه قائد أمن الزعيم
وصرخ
ورفع مسدسه الإشعاعي مرة أخرى..
ومع صرخته انتبه الزعيم
وأدرك الخدعة..
واستدار يحاول حماية جهازه، بمنتهى الوحشية والشراسة..

وأطلق قائد أمنه أشعته
وتداخلت كل المشاهد على نحو رهيب..
وتفجرت الدماء..
ولكن الجواد الأصيل انقض
ورفع قائمتيه
وهوى بحافريه الأماميين القويين على الجهاز
وهوى..
وهوي -
وتحطم جهاز التحكم الشامل بعنف، وتطايرت أجزاؤه في كل مكان،
وامتزج تطايرها بصرخة هادرة، أطلقها زعيم المتحورين
صرخة حملت كل غضبه..
ومقته
وثورته ووحشيته
وبوثبة جبارة، هبط إلى جوار الجواد، وأمسك عنقة بكل قوته، صارخا كأنما ألف وحش:
- أنت تستحق هذا
وبقوة هائلة رهيبة، رفع الجواد عاليا، ثم ألقى به نحو الجدار
وارتطم جسد الجواد بالجدار
وأطلق صهيلاً آخر
وسقط
وطار جسد الجواد عبر القاعة
ومعه طار جسد (أمل)؛ لينقض على قائد الأمن، ويلكمه لكمة كالقنبلة في فكه، ثم ثانية ساحقة في معدته، قبل أن ينتزع مسدسه الإشعاعي بحركة قوية بارعة
فارس المستقبل

ومع سقوطه، كان قائد الأمن ينقض على (أمل)، بكل وحشية الدنيا، صارخا كالمجنون:
- لن تهزمني أيها البشرى
كان الفارس الشاب يدرك أن قائد الأمن سيفوقه قوة بكثير وأن أية مواجهة قتالية. مباشرة بينهما، ستعنى هزيمته حتما وخاصة مع حالة الإجهاد الشديد، التي يشعر بها..
لذا فقد كان مضطرا لاستخدام الوسيلة الوحيدة، التي تبقى على حياته الوسيلة التي يبغضها كل البغض وفي حسم وحزم، رفع فوهة مسدس الأشعة وأطلقه
كان ذلك المتحور الضخم ينقض عليه بكل قوته، عندما ارتطمت الأشعة القوية بصدره، فاقتلعته من قفزته، ودفعته في الاتجاه العكسي ليطير عبر القاعة، وهو يطلق صرخة هائلة، قبل أن يسقط جثة هامدة.
وبكل وحشية الدنيا، استدار الزعيم يواجه الفارس الشاب وعلى نحو مدهش، راح جسده يتضخم ويتضخم
حتى بدا عملاقا، متألقا، رهيبا، وتردد صوته مخيفا في القاعة، وهو يقول:
- والآن، فلتذق ما ذاقه أستاذك
وبدا من الواضح أنه لم يعد هناك مخرج هذه المرة..
أي مخرج.

☆ ☆ ☆

٥- ختام..

من المؤكد أن كل حسابات الدنيا ستنفق، على أن الأمل في نجاة الفارس الشاب، من ذلك الموقف الرهيب، منعدم تماما
فقد فقد كل أسلحته
وكل حيله التكنولوجية
وجواده مصاب
محطم الضلوع
والدماء تنزف من عنقه..
والزعيم الضخم أصبح عملاقا متألقا
وتضاعفت وحشيته ألف مرة.
وفي توتر بالغ، راح الشاب يتحرك في حذر، والزعيم يتابعه في استهتار، قائلاً:
- لا يوجد مفر.. لن تجد مخرجا واحدا من هنا..
كان من الواضح أنه لا يبالي بمناورة الشاب، حتى إنه لا يتعجل القضاء عليه، وإنما يستمتع بالعبث به، كما يفعل القط بالفأر.
هذا لو أن القط والفئران ما زالت على حالها القديم، في ذلك الزمن العسير الرهيب
لذا، فبمنتهى الاستمتاع، راح يحاصر الفارس الشاب
ويحاصره..
ويحاصره..
ويدفعه نحو الركن الذي اختاره له تماما.
وفجأة! انتفض الجواد المجنح.
انتفض، واستعاد وعيه وانتباهه وإدراكه لما يحدث حوله
الجزء الجيني البشرى منه، أمكنه أن يفهم ويستوعب ذلك

الموقف الشائك الدقيق
ولكن المؤسف أنه كان أضعف من أن يقاتل أو يواجه ذلك الزعيم الوحشي

وبأية صورة من الصور ومن المستحيل، في الوقت ذاته، أن يتخلى عن الفارس الشاب..
الفارس الذي أوصاه به سيده السابق وكما تدرب طويلا، استعاد الجواد كل ما مر به ثم اتخذ قراره..
أصعب وأدق قرار، في حياته كلها
وبكل ما تبقى له من قوة نهض الجواد الأصيل
كانت الآلام تنتشر، في جسده كله، إلا أنه أبى أن يستسلم
فقد كانت لديه مهمة، لا بد وأن ينجزها
مهمة حاسمة
حازمة..
وأخيرا.
وبإرادة تفوق إرادة البشر، خفق الجواد بجناحيه وانطلق
لم ينطلق نحو الزعيم الوحشي أو حتى نحو فارسه
بل انطلق خارجا
انطلق على نحو أدهش الفارس والزعيم
وكل القوات في الخارج..
ولأنهم قد تلقوا أمرا صارما، بعدم إطلاق النار، لم يدر جنود المتحورين ماذا يفعلون!!
ويرتفع
لذا فقد تجمدوا تماما، واكتفوا بمراقبة الجواد، الذي راح يرتفع..
ويرتفع
نحو القبة المشحونة بالطاقة مباشرة..

وفي توتر وحشي، عقد الزعيم حاجبيه الكثين، وأبرز أنيابه ومخالبه، وهو يطلق زمجرة رهيبة، وعقله يبحث عن تفسير..
أي تفسير
أما الفارس الشاب، فقد أدرك ما يحدث ربما أدركه؛ لأنه يفهم الجواد جيدا أو لأنه هناك تكنولوجيا شديدة التطور، تربط بين عقليهما
أو ربما للسببين معا
المهم أنه قد فهم
واستوعب
وصرخ:
- لا.. لا تفعلها
ومع صرخته، أدرك الزعيم ما يراه.
واشتعلت عيناه بالغضب كل غضب الدنيا
وبكل الانفعال الوحشي، الذي تفجر في أعماقه، صرخ الزعيم:
.. أوقفوه.. أوقفوه بأي ثمن
ولكن صرخته ضاعت في فراغ القاعة..
وفي غياب أجهزة الاتصال..
أما الجواد، فقد وصل انطلاقته وارتفاعه أكثر
وأكثر
وأكثر
وعندما اقترب تماما من القبة، أطلق صهيلاً قويا صهيل اختلف عن كل صهيل سابق صهيل حاسم
حازم..
وأخير
صهيل ارتطم بعده بالقبة المشحونة بالطاقة الهائلة وبكل قوته ودوى انفجار رهيب..

شيء ما في جسده، تفاعل مع كل طاقة القبة، وصنع انفجارا هائلا مخيفا
انفجار لم يدو داخل المدينة الكبيرة وحدها، وإنما تردد صداه في الوادي الأزرق نفسه
ومع دويه، تهاوت القبة كلها
وتمزق هو تماما
ومع سقوط القبة، تهاوت مركبات قوات المتحورين، وصرخ زعيمهم بكل غضب وثورة الدنيا، وسادت موجة رعب هائلة بين السكان المتحورين
ووسط كل هذا، برز المهر المجنح جاء تلبية لنداء عقلي شامل، أطلقه الجواد الأول الجواد السابق
الراحل..
ووسط الهرج والمرج، اندفع نحو نافذة القاعة المحطمة..
وعلى الرغم من حزنه ومرارته، على مصرع الجواد الكبير الأصيل، استوعب الفارس الشاب الموقف كله، وأدرك أنها فرصته الأخيرة، فاندفع بأقصى سرعته نحو النافذة المحطمة..
ووثب منها بكل قوته
كانت ترتفع عشرين مترا عن سطح الأرض، ولكنه لم يتردد لحظة واحدة، مما جعل الزعيم يعدو محاولا اللحاق به، وهو يصرخ:
- أوقفوه.. أوقفوه
ولكن الموقف كان سريعا، متناسقا، مدروسا، وسط حالة هائلة من الفوضى، منعت اتخاذ أي إجراء عاجل، أو إطلاق أية استجابة سريعة قوية
فالمهر المدرب انخفض في براعة، وترك فارسه يسقط ممتطيا إياه بدقة مدهشة، قبل أن يضرب الفراغ بجناحيه، ويرتفع مرة

أخرى في سرعة، وطاقة الزعيم الرهيبة تنطلق نحوه وتنطلق وتنطلق
دون أن تنجح في إصابته مرة واحدة ومن جعبة المهر، التقط الفارس الشاب سلاحا صغيرا، وهو يقول في حزم:
- لقد قتلوا جيلك الأول، ولا يمكن أن ننصرف، دون أن نترك لهم ما يذكرهم بهذا
قالها، وأطلق سلاحه نحو النافذة المحطمة تماما ودوي انفجار آخر، في المدينة الكبيرة..
انفجار تهاوت معه أرضية القاعة، التي يقف وسطها الزعيم..
تهاوت لتضرب الطابق أسفلها
وراح المبنى كله ينهار
وبسرعة رهيبة
وعلى الرغم من أن هذا لم يحطمه، راح الزعيم يصرخ، بكل غضبه وثورته، قائلا:
- لن تفلت منى أبدا.. ربما تربح جولة، ولكنك لن تربح المباراة.. هل تفهم؟! لن تربحها أبدا
ولم يسمع الفارس صرخته هذه، وهو يبتعد عن المدينة الكبيرة ويبتعد
ويبتعد
ففي أعمق أعماقه، وعلى الرغم من فوزه في هذا الصراع،
كان يشعر بمرارة بلا حدود
مرارة ولدها إحساسه بأن كل مواجهة مع أولئك الوحوش، لا بد وأن تنتهى بخسارة فادحة، مهما بلغ انتصارها
فمرة خسر أستاذه
ومرة فقد جواده..

ومن يدرى، ما الذي يمكن أن يفقده، في المواجهة التالية المواجهة التي تعد أسوأ ما في ذلك الزمن..
وتواصلت تلك الفكرة في رأسه، مع ما يشعر به من مرارة وحزن، وهو يبتعد عن المدينة الكبيرة، التي تعالى منها وهج النيران، وأجنحة مهره تخفق
وتخفق
وتخفق
عبر سماء الوادي الأزرق. وعبر الزمن أصعب زمن على الإطلاق..

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

6983

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- معلومات..
٢ - قبضة العدو..
٣ - الأسـير..
٤ - صهيل..
٥- ختام..

Notes

[←1]
* لمزيد من التفاصيل، راجع الكتاب الأربعين، من سلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)، تحت عنوان (المتحورون).

[←2]

* راجع أسطورة (ميدوسا)، في الميثولوجيا اليونانية أو الإغريقية القديمة..

[←3]

*الاختراع حقيقي وموجود بالفعل، منذ أواخر القرن العشرين ولكن لم يتم تطويره إلى هذا الحد بعد.

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

طريق الأمل

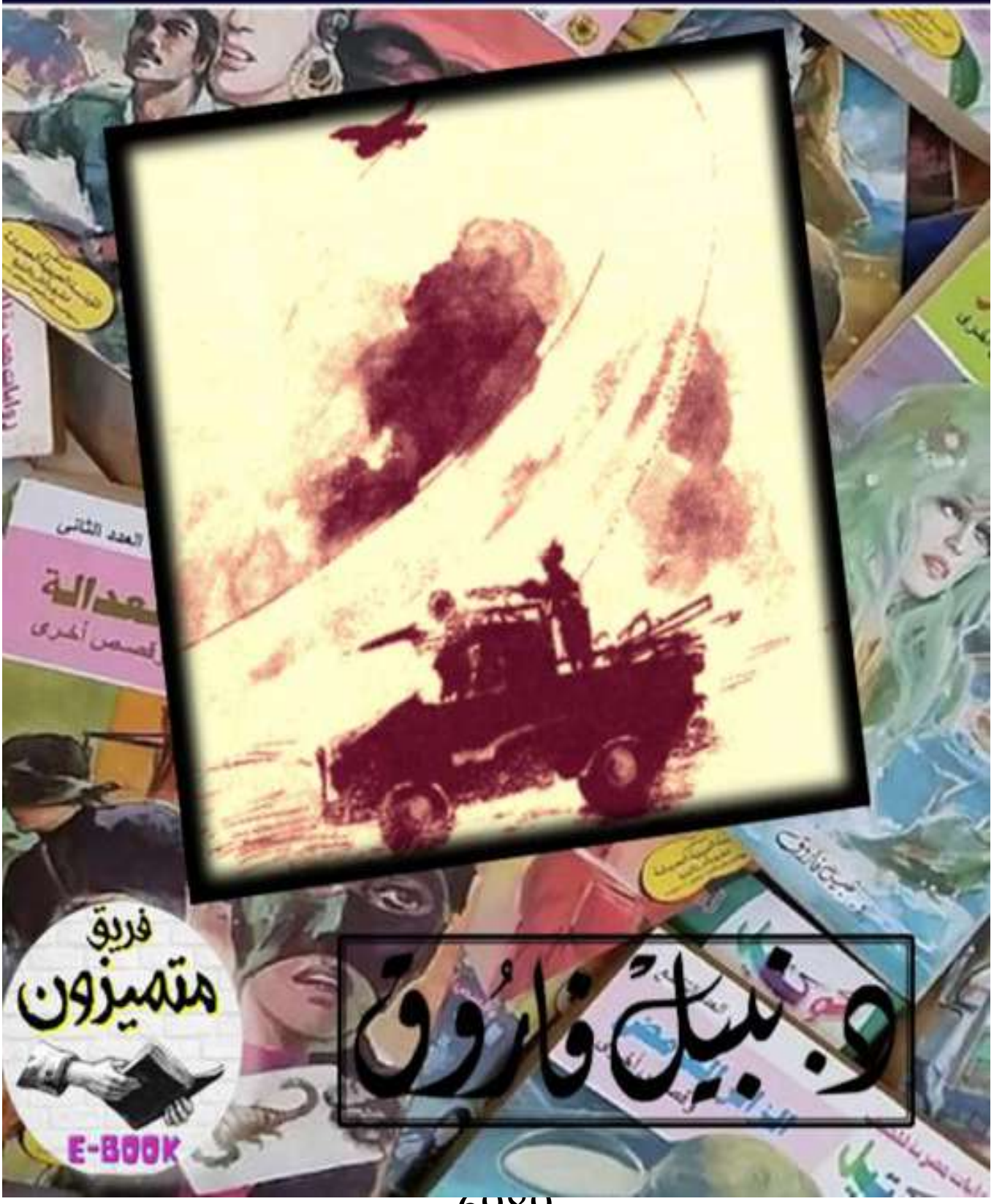

نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

) كلمه مهمة (:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

طريق الأمل

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- الهارب..

بدا مشهد شروق الشمس في الأفق مبهرا خلابا، في عيني (باسل)، وهو ينطلق بسيارته الرياضية الصغيرة، عبر الطريق الواسع، الممتد إلى مدى بصره، في قلب الصحراء، حتى إنه ابتسم في ارتياح غامر، مغمغما:

- سبحان الله (العلي القدير).. إنني أشاهد شروق الشمس كثيرا ولكن ما من شروق يشبه الآخر قط، وكل يزداد روعة عن سابقه..

كان يتجه في تلك الساعة المبكرة، إلى مطار صغير على مقربة من المدينة، لطائرات التدريب التي اعتاد التحليق بها، كل حين وآخر حتى لا يفقد مهارته..

وكانت هذه واحدة من أفضل المتع التي يشعر بها في حياته ولقد اعتاد التحليق بطائرات التدريب هذه، في ساعة مبكرة من الصباح، قبل أن يذهب إلى عمله في الجريدة، مرة واحدة أسبوعيا على الأقل..

وفي تمام السابعة، كان يوقف سيارته الرياضية داخل المطار، ويثب منها، قائلا لفني الإصلاح:

- صباح الخير يا (رشدي).. كيف حال طائرتي الصغيرة اليوم؟!

أجابه (رشدي) بابتسامة هادئة ودود:

في خير حال يا سيد (باسل).. لقد فحصتها بنفسي، وأشرفت على ضبط محركاتها وتغيير كل الزيوت الحيوية، وتزويدها بالوقود الكافي بادله (باسل) ابتسامته، قائلا:

. عظيم.. أشكرك يا (رشدي).. أشكرك كثيرا، ولم تمض دقائق عشر، على هذه المحادثة، حتى كان (باسل) يحلق بطائرته

الصغيرة فوق الصحراء الشاسعة، وهو يهتف في سعادة وحماس:
- يا للروعة! كم أعشق الطيران!
كان يشعر بارتياح غامر، كلما حلق بطائرته فوق منطقة الصحراء؛ فهو يعشق الاثنين
الطيران والصحراء..
وفي غمرة نشوته، التقط جهاز اللاسلكي، وقال بابتسامة كبيرة:
- إنك تستحق مكافأة اليوم يا (رشدي)، فالطائرة بالفعل على ما يرام و..
بتر عبارته بغتة وهو يحدق في المصباح الصغير الأحمر، في طرف جهاز اللاسلكي، ثم تابع في ضيق، واضح:
- كلا.. إنك لا تستحق أية مكافآت يا (رشدي)، فلقد راجعت كل شيء في الطائرة فيما عدا جهاز الاتصال باللاسلكي، فهو لا يعمل اليوم..
لم يكن يشعر بالارتياح أبدا، عندما يقود الطائرة بدون جهاز اتصال لاسلكي، على الرغم من أن كل شيء كان يسير على ما يرام؛ لذا فقد دار بطائرته نصف دورة، مزمعا العودة إلى المطار، و..
وفجأة، لمح ذلك المشهد، في قلب الصحراء.. كانت هناك سيارة صغيرة، تنطلق بأقصى ما يسمح به محركها، فوق رمال الصحراء، وخلفها تنطلق سيارة (جيب) ضخمة قوية، في مشهد بدا له أشبه بوحش مفترس، يطارد فريسة مسكينة، لينقض عليها أو ينهشها نهشًا..
وفي اهتمام شديد، تابع (باسل) المشهد، وهو يحلق بطائرته في دوائر متصلة، فوق الموقع..

وأمام عينيه، تجاوزت (الجيب) الضخمة تلك السيارة الصغيرة ثم انحرفت لتعترض طريقها في حركة عنيفة، حتى إن السيارة الصغيرة تفادت الارتطام بها بصعوبة، قبل أن تتوقف، ويقفز منها رجل نحيل، انطلق يعدو مبتعدا بأقصى سرعته، وكأنما تطارده شياطين الدنيا كلها، فوثب من الجيب ثلاثة رجال أقوياء، يحملون مسدسات كبيرة، وانطلقوا خلف النحيل في شراسة واضحة...

ولسبب ما، شعر (باسل) أن هؤلاء الرجال الثلاثة إنما يسعون لهدف واحد..

قتل النحيل..

وبلا رحمة..

ولم يضع (باسل) لحظة واحدة كالمعتاد..

لقد اتخذ قراره بسرعة مدهشة ووضعه في لحظة واحدة موضع التنفيذ...

هتف به زميله:

بل قل: ما الذي تستهدفه هذه الطائرة؟!

لم يكن يحمل سلاحا، إلا أنه قرر التدخل، وبأقصى سرعة لإنقاذ النحيل، وحمايته من مطارديه مهما كان الثمن وانخفض (باسل) بطائرته، وهو ينقض على الرجال الثلاثة الذين بدا عليهم التوتر، وهتف أحدهم في عصبية:

- من أين أتت تلك الطائرة؟!

لم يكد يتم عبارته، حتى هتف زميلهما الثالث، وهو يلقى نفسه أرضا:

- انبطحا.. إنها تهاجمنا.. وعلى الرغم من دهشة رفيقيه وحيرتهما، إلا أنهما أسرعا ينبطحان أرضا، في محاولة لتفادي

الطائرة، التي انخفض بها (باسل) على نحو بالغ الخطورة، حتى كادت ترتطم برءوسهم، خاصة وقد أنزل إطارات الهبوط، مما جعل أحد الرجال الثلاثة يهتف:
- هذا الطيار مجنون، أو

قاطعه زميله في حدة
- أو أنه يسعى لإنقاذ (ميلو).
انعقد حاجبا الثالث، وهو ينهض بسرعة، ويتابع ببصره حركة طائرة(باسل) التي دارت حولهما، ثم اتجهت بسرعة نحو النحيل، الذي توقف مذعورا، متصورا أن الطائرة تهاجمه، ورفع ذراعيه مستسلما في يأس، ولكن (باسل) هتف به، وهو يتوقف على مسافة ثلاثة أمتار فحسب منه:
- أسرع يا رجل، قبل أن يفيقوا من دهشتهم، اتسعت عينا النحيل في دهشة، وهو يحدق في وجه (باسل)، الذي كرر، مشيرا له بيده في انفعال:

- أسرع بالله عليك
انتزع النحيل نفسه من دهشته، وانطلق يعدو نحو الطائرة في حين صاح أحد الرجال الثلاثة في غضب:
- أنت على حق.. إنه يحاول إنقاذه..
لم تكد عبارته تكتمل، حتى كان يعدو بأقصى سرعته نحو الطائرة، وهو يطلق رصاصات مسدسه الآلى نحوها في غزارة وغضب وبلا أدنى تردد، أو حتى تفكير، انطلق زميلاه خلفه، وراحا يمطران الطائرة برصاصاتهما أيضا.. وبكل الذعر في أعماقه، وثب النحيل يتعلق بالطائرة، فصاح (باسل)، وهو ينطلق بها فوق الرمال:

- حاول أن تحشر نفسك في الفراغ الصغير خلف مقعدى، فسنقلع على الفور وليست لدينا ثانية واحدة لمنحك مجلسا مريحا.. كانت إطارات طائرته من الطراز العريض، المجهزة للإقلاع والهبوط، فوق الرمال الصحراوية؛ لذا فقد أمكنه الانطلاق بالطائرة بسرعة مناسبة، إلا أن القلق والتوتر كانا يعصفان بنفسه، مع دوي الرصاصات العنيف من خلفه، وصوت ارتطام بعضها بجسم الطائرة..

أما الرجال الثلاثة فقد انتابهم غضب هادر، عندما راحت الطائرة تبتعد وهتف أحدهم:

- سينجح في الفرار منا بعد كل هذا

أجابه أحد زميليه في صرامة

- ليس بعد

ثم ألقى نفسه على الرمال، وارتكن إليها بمرفقيه، وهو يصوب مسدسه بمنتهى الدقة إلى جزء خاص من الطائرة..

خاص جدا..

وفي نفس اللحظة، كان النحيل يهتف في عصبية:

- هيا.. ماذا تنتظر أيها العربي؟! أقلع يا رجل.. أقلع بأقصى سرعة بالله عليك، قبل أن يلحقوا بنا.. أجابه (باسل) في صرامة وهو يبذل قصارى جهده، للسيطرة على الطائرة، التي تنطلق فوق الرمال:

- رويدك يا رجل.. إننا فوق رمال الصحراء، والإقلاع في مثل هذه الظروف ليس سهلا أو بسيطا.. لا بد وأن نبلغ سرعة مناسبة حتى يمكن للهواء حمل أجنحة الطائرة، والارتفاع بنا.. هتف النحيل في ذعر واضح:

لست أدرى شيئا عن مصطلحاتك الفنية هذه، ولكنني أعلم أنه لا بد وأن نبتعد عن هنا بأقصى سرعة، فأنت لا تعرف هؤلاء

الرجال الذين أنقذتني منهم.. إنهم وحوش.. وحوش آدمية، لا تعرف الرحمة أو الشفقة، ولو وقعنا في أيديهم، لن يتورعوا لحظة عن تمزيقنا إربا.. هل تفهم؟!

انعقد حاجبا (باسل)، وهو يجذب عجلة القيادة إليه في رفق استعدادا للإقلاع:

اطمئن يا رجل.. سيسير كل شيء على ما يرام بإذن الله

زادت سرعة الطائرة فوق الرمال، وارتفعت مقدمتها بالفعل، و...

وفجأة! انطلقت كل رصاصات الرجال..

وأصابت هدفها، على نحو أدهشه هو نفسه وكان هذا الهدف هو الدفة..

الدفة الخلفية لذيل الطائرة، التي تحطمت بدوى عنيف، ثم طار جزء منها على نحو مخيف اختل معه توازن الطائرة دفعة واحدة، والرجل يثب واقفا، وهتف في انفعال:

- لقد فعلتها.. أصبت الطائرة.. لقد فعلتها

كان (باسل) يبذل جهدا خرافيا في تلك اللحظة، محاولا السيطرة على الطائرة، التي ارتجت في قوة، مع تحطم الدفة، فمالت مقدمتها إلى الأمام، ومال معها جناحها الأيسر نحو الرمال في عنف، ثم دارت حول نفسها، وصرخ النحيل في ذعر، وأخفى وجهه بكفيه، هاتفا:

- يا إلهى! لقد انتهينا.. انتهى أمرنا.. لم يعد هناك أمل وكان على حق إلى حد كبير...

فقد توقفت الطائرة في قلب الصحراء، ولم تعد قادرة على الإقلاع، ويندفع نحوها ثلاثة من الوحوش الوحوش الآدمية..

☆ ☆ ☆

٢ - مطـاردة..

لثوان انعقد حاجبا (باسل)، وهو يراقب الرجال الثلاثة، الذين يعدون بأقصى سرعتهم نحو الطائرة، وقد بدا لهم أن الفريسة قد وقعت في قبضتهم، في حين هتف النحيل في رعب هائل:

- لا فائدة.. لقد انتهينا.. لا فائدة.. ولكن (باسل) أجابه في صرامة شديدة:

- لا تسبق الأحداث يا رجل

ثم دفع بدال الوقود في قوة، وهو يدور بالطائرة، مبتعدا عن الرجال الثلاثة، فتوقف النحيل عن النحيب، وسأله في دهشة:

- ماذا ستفعل؟!

أجابه في حزم:

- ربما لم يعد باستطاعتنا الطيران، ولكننا نستطيع الابتعاد بأقصى سرعة على الأقل..

قالها، وهو ينطلق بالطائرة فوق رمال الصحراء، بأقصى سرعة ممكنة، فهتف أحد الرجال الثلاثة في غضب:

- ماذا يفعل هذا الأحمق؟!

أجابه أحد زميليه في صرامة:

- أيا كان ما يفعله، فمن الواضح أنه ليس أحمق أبدا وصمت لحظة ثم استطرد في حزم:

- إلى (الجيب).. هيا.. يبدو أننا سنواصل المطاردة..

رآهم (باسل) عبر نافذة خلفية، وهم يهرعون إلى السيارة(الجيب) القوية، وأدرك أن المطاردة ستحتدم في الدقائق التالية فزاد من سرعة الطائرة، التي تنطلق فوق الرمال، عاجزة عن الطيران، وهو يسأل النحيل:

- من أنت يا رجل؟! ولماذا يطاردك هؤلاء الرجال بهذا الإصرار؟!
ازدرد النحيل لعابه في صعوبة، وقال، وهو يتطلع خلفه في توتر:
- اسمى (ميلو).. مدير حسابات واحدة من الشركات التي تنقب عن البترول هنا.. لقد كشفت بالمصادفة البحتة عملية احتيال كبرى، تتم في أحد مواقع الشركة.. عملية يقوم بها رئيس العمال الإيطالي الجنسية، بحيث تحصل بعض الشركات على خام بترولي جيد للغاية ثم تتم محاسبتها باعتباره أحد الخامات العادية.. والأرباح في هذه الحالة تقدر بملايين الدولارات؛ لذا فهم لن يسمحوا لي بالبقاء على قيد الحياة، وكشف مؤامرتهم قط..
سأله (باسل):
- أتعنى أن هؤلاء الثلاثة يعملون لحساب رئيس العمال الإيطالي هذا؟!

ازدرد (ميلو) لعابه مرة أخرى بصعوبة أكثر، وهو يجيب:
- هؤلاء الثلاثة هم رئيس العمال ومعاوناه.. إنهم ينفذون كل شيء بأنفسهم.. حتى التخلص ممن يعترضون سبيلهم.. ثم انهارت مشاعره، فانفجر باكيا بغتة، وهو يقول:
- ومن الواضح أنهم قد ظفروا بي، وتحقق لهم ما أرادوا..
أجابه (باسل) في حزم:
- ليس بعد يا رجل.. إنهم لم يظفروا بنا بعد.. هتف الرجل في مرارة:
- وكيف الفكاك منهم؟! إنهم سيطاردوننا بسيارة قوية للغاية مؤهلة تماما للسير في الصحراء وفوق الرمال، وها أنت ترى المشهد أمامك.. لا يوجد مكان واحد، يمكننا الاختباء فيه منهم.. صدقني أيها العربي.. لا أمل في النجاة..

أجابه (باسل) في حزم أكبر:
- صدقني أنت يا رجل.. هناك دائما أمل في النجاة.. ما دمت تعتمد على الأقوى..
سأله (ميلو) في توتر:
- الأقوى! ومن هذا الأقوى، الذي أعتمد عليه؟!
بدا صوت (باسل) عجيبا، يجمع ما بين الحزم والقوة، والخشوع، وهو يجيب:
- الله يا رجل.. الله (سبحانه وتعالى).. إنه سندنا ومعيننا(عز وجل)، وسنواجه كل القوى بتوفيقه ورعايته ارتجف الرجل في رهبة، وانكمش في مكانه، متمتما:
- ومن أدراك أنه سيرعانا؟
أجابه (باسل) في صلابة:
- الله (سبحانه وتعالى) يرعى عباده الصالحين يا رجل.. اطمئن.
كان رئيس العمال ومعاوناه قد استقلوا سيارتهم الجيب القوية في تلك الحظة، وهو يقول لهما في عصبية:
- عندما نبلغ الطائرة، أطلقا عليها كل رصاصاتكما.. انسفاها نسفا.. المهم ألا أسمع اسم (ميلو) هذا ثانية قط..
أجابه أحد الرجلين في حزم، وهو ينطلق بالسيارة:
- اطمئن أيها الزعيم.. سنظفر بهما..
كان (باسل) ينطلق في تلك اللحظة بأقصى سرعة، تسمح بها محركات طائرته، فوق رمال الصحراء، ولكن (الجيب) كانت تنهب الأرض نهبًا خلفها، بحيث تناقصت المسافة بينهما في سرعة مخيفة، على نحو ضاعف من قلقه، وجعله يدرك أنه لو سارت الأمور على هذا النحو، فسيظفر به الرجال الثلاثة حتما، في حين هتف (ميلو) في انهيار:
- ألم أقل لك أيها العربي لا أمل؟!

صاح به (باسل) في صرامة:
اصمت يا رجل
صرخ (ميلو):
- أصمت! ولماذا أصمت أيها العربي المتحذلق؟! أيزعجك أن أطلق صرخة ألم، عندما تخترق رصاصاتهم رأسي، أم إنك تفضل أن ألقى مصرعي في صمت؟!
انعقد حاجبا (باسل) في شدة، وهو يقول:
- بل أفضل أن تبتلع لسانك، وتترك لي مساحة للتفكير كانت (الجيب) تقترب أكثر وأكثر، ورئيس العمال يهتف داخلها:
- أطلقا النار.. انسفاهما نسفا.. ومع هتافه، أطلق معاوناه النار نحو الطائرة، فأخفى (ميلو) رأسه بذراعيه، مع دوى الرصاصات، وصوت ارتطامها بجسم الطائرة، وراح يصرخ:
- لا أمل أيها العربي.. لا أمل
ازداد انعقاد حاجبى (باسل)، وهو يغمغم في توتر:
- ربما يا (ميلو).. ربما لا أمل في الفرار
ثم أدار عجلة القيادة في عنف مباغت، مستطردا في حزم صارم:
- ولكن ماذا عن المواجهة؟!
دارت الطائرة حول نفسها بحركة حادة، مال معها جناحها الأيسر على نحو مخيف، وارتطم طرفه بالرمال بالفعل، قبل أن تعتدل الطائرة، وتنطلق نحو (الجيب) مباشرة، في خط مستقيم ..
وفي ارتياع شديد وبعينين اتسعتا عن آخرهما، حتى كادتا تقفزان من محجريهما ذعرا ورعبا، صرخ (ميلو):
- ماذا ستفعل أيها المجنون؟!
لم يجب (باسل) وتجاهل الصرخة تماما، وهو يواصل اندفاعه نحو (الجيب)، التي اتسعت عينا قائدها في دهشة تمتزج بالتوتر

وهو يهتف:
- إنه مجنون.. مجنون حتما..
أما رئيس العمال، فقد جف حلقه، وهو يقول:
- لا.. لن يجرؤ.. لن يمكنه أن
ولم يحاول إتمام عبارته، وإنما رفع مسدسه نحو الطائرة، واعتصر زناده بسبابته بكل قوته وانطلقت الرصاصات نحو الطائرة وانهالت عليها كالمطر وعلى الرغم من هذا، لم يتوقف (باسل) قط..

لقد واصل الانطلاق نحو (الجيب)، وكأنما يصر على الارتطام بها بأي ثمن، والرصاصات ترتطم بجسم الطائرة، وتتطاير حول رأسه وانكمشت المسافة بين السيارة والطائرة بسرعة مخيفة..
وانكمشت..
و انكمشت..
وفي ذعر، أدار قائد (الجيب) عجلة قيادتها، هاتفا:
- إنه مجنون
وفي اللحظات نفسها، جذب (باسل) عجلة القيادة نحوه، فارتفعت الطائرة، وتجاوزت السيارة بعدة أمتار، قبل أن تعود للهبوط على الرمال، وتواصل انطلاقها مبتعدة، نحو الطريق الأسفلتي، الذي يبدو من بعيد..
وصرخ رئيس العمال في ثورة:
- لا.. لا تسمحوا له بالفرار
وبكل الغضب والتوتر في أعماق الرجال الثلاثة، راحوا يطلقون رصاصاتهم خلف الطائرة، و(ميلو) يهتف بعصبية بالغة:
- ماذا يحدث؟! ماذا سيفعلون بنا؟!

ومع آخر حروف عبارته، ارتفعت قعقعة رهيبة، ثم انهار ذيل الطائرة، واشتعلت فيه النيران بغتة وانعقد حاجبا (باسل) في شدة لقد أصيب خزان الوقود وهذا يعني أن الطائرة في سبيلها للانفجار وبعنف..

☆ ☆ ☆

٣- العربي..

بسرعة مذهلة، استرجع عقل (باسل) كل ما تعلمه عن طرق تأمين الطائرات، ووسائل مقاومة الحرائق، ودرس الموقف كله في ثانية واحدة..

لقد اشتعلت النيران في ذيل الطائرة، بالقرب من خزان وقودها، ولو استمر هذا لعشرين ثانية أخرى، ستنفجر الطائرة حتما ولو قفز مع الرجل منها، سيلحق بهما رئيس العمال ومعاوناه حتما، ولن يختلف مصيرهما كثيرا، فكل وجوه الموت واحدة إذن فمن المحتم أن يواصل الفرار، وأن يطفئ النيران في الوقت ذاته..

وقبل مرور الثواني العشرين.. وبمنتهى الحزم، ودون أن يضيع ثانية واحدة، اختطف (باسل) أسطوانة إطفاء الحريق، وهتف بالنحيل:

- أمسك عجلة القيادة جيدا، وواصل الانطلاق في خط مستقيم..

اتسعت عينا الرجل في ارتياع، وهو يسأله:

- لماذا؟! ماذا ستفعل؟! -

تحول ارتياعه إلى ذعر هائل، عندما ترك (باسل) مقعد القيادة، وأزاح غطاء الكابينة، وراح يزحف فوق جسم الطائرة، في اتجاه الذيل المشتعل، حاملا أسطوانة الإطفاء..

كان يحفظ توازنه بكل ما يملك من قوة، وهو يتحرك بسرعة حتى بلغ الذيل المشتعل، في حين مال النحيل إلى الأمام، حتى صنع جسده ما يشبه الزاوية القائمة، ليقبض على عجلة القيادة بكل قوته محاولا الحفاظ على توازن الطائرة، وعلى توازنه الشخصي أيضا أمام حالة لم ير مثلها في حياته قط..

ومن بعيد، رأى رئيس العمال ومعاوناه هذا المشهد العجيب فاتسعت عيونهم في دهشة، وانفغرت أفواههم في بلاهة، وغمغم أحد المعاونين ذاهلا:
- مستحيل! هذا الشاب مدهش للغاية، التفت إليه رئيس العمال بحركة حادة، وصاح غاضبا:
- بل هو عربي غبى
ثم صاح في الآخر:
- انطلق خلفه.. سنثبت لهذا العربي أن نيراننا ستناله حتما، حتى ولو اختفى في أعماق الأرض..
انطلقت (الجيب) مرة أخرى تطارد الطائرة، في نفس الوقت الذي بلغ فيه (باسل) الذيل المشتعل، وأطلق المادة الرغوية من أسطوانة الإطفاء نحو النيران، التي استجابت بسرعة، وانطفأت على الفور، فهتف في حماس:

- أرأيت يا (ميلو)؟! الله (سبحانه وتعالى) معنا، و..
وثبت الطائرة في تلك اللحظة، فوق رمال الصحراء، على نحو مباغت، فاختل توازن (باسل) وسقط سقط عن ذيل الطائرة إلى الصحراء، وارتطم بالرمال في عنف، وتدحرج فوقها بقوة، في حين واصلت الطائرة ابتعادها بسرعة كبيرة..
وفي ظفر، هتف رئيس العمال داخل (الجيب):
- مرحى.. لقد سقط ذلك الطيار المتحذلق.. سقط من الطائرة رفاق.. لقد ظفرنا به، ولكن (باسل) وثب واقفا على قدميه في سرعة مدهشة، وانطلق يعدو خلف الطائرة..
وفي عصبية، هتف قائد (الجيب)، وهو يضغط دواسة وقودها، محاولا زيادة سرعتها، التي بلغت حدها الأقصى بالفعل:

- لن يمكنه اللحاق بها.. هذا الشاب مجنون.. لن يمكنه اللحاق بها قط..
كان الرجل على حق تماما في قوله هذا، من الناحية النظرية، فالعدو فوق الرمال ليس بالأمر السهل أو الهين أبدا، كما أن سرعة البشر، مهما بلغت، لن يمكنها قط اللحاق بطائرة تنطلق فوق الرمال أو الفرار من (جيب) قوية، بها ثلاثة مجرمين، يسعون لقتل طريدهم بلا أدنى تردد أو أدنى شفقة..
ولكن (ميلو) المذعور شاهد ما حدث..
صحيح أن كل ذرة في كيانه كانت ترتجف خوفا، من هؤلاء المجرمين الثلاثة، وذعرا مما يمكن أن يفعلوه به، إلا أن وجوده وحيدا في مواجهتهم، كان يثير في أعماقه ذعرا أكبر ألف مرة..
خاصة وأن الدقائق السابقة، جعلته يدرك جيدا أن (باسل) يمكنه مواجهة الموقف معهم.. وأنه الخطة الأولى، في طريق الأمل للخلاص منهم؛ لذا، فقد أدار (ميلو) عجلة الطائرة، عائدا لالتقاط (باسل)..
وكان مشهدا رهيبا، في قلب الصحراء..
(باسل) يعدو بكل قوته، والطائرة تتجه نحوه من ناحية، في حين تنقض عليه (الجيب) بكل قوتها وشراستها، من الناحية الأخرى..
وفي هلع هتف (ميلو):
- أسرع أيها العربي.. أسرع بالله عليك.. لا تسمح لهم باللحاق بك بك..
وفي نفس الوقت، صاح رئيس العمال:
- لا تدعا ذلك الشاب يهرب.. أوقفاه.. أوقفاه بأى ثمن..
وأضيفت لقطة جديدة إلى المشهد لقطة للرصاصات، التي انهالت كالمطر، على (باسل) والطائرة، وشعر (باسل) بالرصاصات من حوله، وسمع دويها، وصوت ارتطامها بالرمال،

فزاد من سرعته، ووثب يتعلق بجناح الطائرة، وفي مشهد آخر رهيب ولجزء من الثانية خيل للنحيل أن (باسل) لن يفلح في هذا قط إلا أنه لم تكد تكتمل الثانية، حتى وجد نفسه يصرخ في انفعال جارف:

- رباه! لقد فعلها.. ذلك الشاب العربي المدهش فعلها، فلقد طار جسد (باسل) في الهواء، إثر وثبته المدهشة، وهبط فوق الجناح الأيمن للطائرة، فتشبث به بكل قوته.. ومع ذلك الثقل المباغت، مال الجناح في عنف، وارتطم بالرمال في قوة، فتحطم طرفه، وطار في الهواء، مع عاصفة من الرمال، في نفس الوقت الذي قفز فيه (باسل) داخل كابينة القيادة، وهو يلهث،، قائلاً:

- حمدا لله.. لقد نجحت، ولكنه لم يكد ينطق العبارة، ويعود للتشبث بعجلة قيادة الطائرة، حتى أدرك أن الموقف قد صار بالغ الخطورة إلى حد مخيف...

فالطائرة ما زالت تنطلق في الاتجاه العكسي، نحو (الجيب) تماما، والرصاصات ما زالت تنهال عليها كالمطر، وقد فقدت ذيلها، ونصف جناحها الأيمن، و

وصاح (باسل) بكل قوته:

- اخفض رأسك يا رجل

أطاعه (ميلو) بسرعة كبيرة، مبعثها الخوف والذعر، في نفس اللحظة التي انحرف فيها هو بالطائرة إلى اليسار، لينقض على (الجيب) مباشرة، ويلتقيان وجها لوجه أو بمعنى أدق، مقدمة الجناح وبكل الدهشة والذعر، صرخ رئيس العمال:

- إنه مجنون.. مجنون..

واتسعت عيناه في هلع، مع مرأى الجناح الأيسر الذي يندفع نحوهم بسرعة مذهلة، وغاص بجسده، مستطردا:

احترسا... إنه.

وقبل أن يتم عبارته، كان جناح الطائرة قد ارتطم بواجهة كابينة قيادة (الجيب)، وتحطم معها بدوى وعنف شديدين، وهو يقتلع قمتها، ويرتطم بأحد معاوني رئيس العمال، فينتزعه من مكانه ويقتلعه اقتلاعا، ليطيح به أربعة أمتار كاملة إلى الخلف، وهو يطلق صرخة مدوية، قبل أن يسقط على الرمال جثة هامدة..

ودارت الطائرة حول نفسها، من عنف الارتطام، فاصطدم نيلها بمقدمة (الجيب)، التي توقفت بدورها، وتصاعدت منها أبخرة كثيفة ولثانية أو ثانيتين، بدا المشهد كله ثابتا جامدا، وكأنما انمحت منه كل علامات الحيوية والحياة...

ثم أطل رئيس العمال برأسه من داخل (الجيب) التي فقدت قمتها، وهو يحمل مسدسه، صارخا:

- لقد قتل (ألفريد).. ذلك العربي قتل (ألفريد).

أطلق صرخته مع رصاصاته، التي دوت في المكان، وهي تخترق جسم الطائرة..

أو ما تبقى منه، لو شئنا الدقة..

ولكن (باسل) خفض رأسه بدوره، وهو يدير محركاتها مرة أخرى، ويدير عجلة قيادتها، ثم ينطلق بها مبتعدا، نحو الطريق الأسفلتي، ومن خلفه (ميلو) يصرخ، في ألم مذعور:

- لقد أصابوني.. رصاصة اخترقت ساقي...

لم يكن من الممكن أن يتوقف (باسل) أمام صرخات النحيل، فهو يعلم جيدا أن التوقف في تلك اللحظات يعني الموت.. والموت وحده...

وبكل غضب الدنيا، صرخ رئيس العمال في معاونه المتبقى:

- الحق بهما.. لا تجعلهما يفلتان.

أجابه الرجل في غضب مماثل، وهو يصوب مسدسه إلى الطائرة:

اطمئن أيها الزّعيم.. لن يمكنهما الذهاب بعيدا
وأطلق رصاصاته وفي هذه المرة، وكما حدث المرة السابقة، أصابت رصاصاته كلها الهدف المنشود وبمنتهى الدقة..

☆ ☆ ☆

٤-الأمل..

من المؤكد أن معاون رئيس العمال هذا كان يجيد التصويب إلى حد كبير، فقد أصابت رصاصاته دفة الطائرة وحطمتها، في المرة الأولى، ثم نجحت في إصابة هدفها في المرة الثانية أيضا وكان الهدف في تلك المرة أقوى تأثيرا...

كانت إطارات الطائرة العريضة، التي تسمح لها بالسير على الرمال..

لقد أصابت رصاصاته الإطار الأمامي، والخلفي الأيسر، فانفجرا في قوة، وفقدت الطائرة مع انفجارهما توازنها، وإن واصلت اندفاعها فوق الرمال لبضعة أمتار، قبل أن ينغرس القلب المعدني للإطار الأمامي في الرمال، فتوقف عن الحركة تماما...

وفي ظفر، صرخ رئيس العمال:

- مرحى يا رجل.. لقد فعلتها

وألقى الخزانة الفارغة للمسدس في الصحراء، قبل أن يضع مكانها خزانة جديدة، ممتلئة بالرصاصات، ويشير بيده، مستطردا في عصبية:

- هيا.. دعنا نذهب إليهما، وننهي هذه المهمة..

وفي نفس اللحظة، التي انطلقت فيها (الجيب) نحو الطائرة، كان (باسل) يعاون (ميلو) على الخروج منها، وهذا الأخير يصرخ في يأس مذعورا، وهو يمسك ساقه المصابة بيده:

- لا أمل.. لا أمل.. لقد انتهى أمرنا.. لا أمل

صاح به (باسل) في صرامة:

- قلت لك: لا تفقد الأمل أبدا يا رجل

صرخ فيه (ميلو):

- كفى أيها العربي.. كف عن فلسفتك الحمقاء الخرقاء هذه إنها لم تعد تفيد.. لقد انتهى أمرنا، وظفر بنا رئيس العمال انعقد حاجبا (باسل) في شدة، وهو يجذبه خارج الطائرة، قائلاً في حزم:
- من يدرى؟! الله (سبحانه وتعالى) وحده يملك حياة عباده..
صرخ (ميلو) في انبهار:
- فلسفة.. فلسفة.. لم يعد لديك سواها أيها العربي...

أجابه (باسل) في صرامة:
- فليكن يا رجل.. لن يمكنك أن تفهم هذا أبدا، ما دمت لا تمتلك الإيمان الكافي بالله (عز وجل).. المهم الآن أن نبتعد عن الطائرة بقدر الإمكان، فالوقود يسيل منها، بعد إصابة الخزان، وأية شرارة صغيرة سوف تؤدى إلى اشتعال النيران، و
قاطعه (ميلو) في حدة يائسة:
- وما الفارق أيها العربي؟! تعددت الأسباب والموت واحد لقد انتهى أمرنا على أية حال..
انعقد حاجبا (باسل)، وهو يستمع إلى عبارة (ميلو)، وعيناه مطلقنان بالسيارة (الجيب)، التي اقتربت كثيرا بالفعل، وبدا له لحظة أن الرجل على حق، وأن أمرهما قد انتهى، و...
وفجأة، ودون سابق إنذار، اشتعلت النيران في مقدمة (الجيب)، التي ضغط قائدها فراملها بأقصى قوته، ووثب منها، مع رئيس العمال، وراحا يعدوان مبتعدين عنها، والأخير يصرخ في انفعال:
- ماذا حدث؟! ماذا حدث؟!
صرخ رئيس العمال في غضب هادر:
أجابه معاونه في عصبية:
- إنه مبرد المياه.. لقد تحطم إثر ارتطامنا بذيل الطائرة على الأرجح، فتزايدت حرارة المحرك، و..

- لا أريد أية تبريرات.. دع التبريرات والتفسيرات لما بعد المهم أن نلحق بالطيار و(ميلو)..
بلغ صراخه مسامع (باسل)، فانعقد حاجباه بشدة، وأعاد عقله دراسة الموقف كله، قبل أن يندفع نحو الطائرة، ويلتقط من كابينتها مسدس إشارة صغير، وهو يقول في حزم:
- أرأيت يا سيد (ميلو).. ها هو ذا الله (سبحانه وتعالى)، يمنحنا فرصة أخرى للحياة!
اتسعت عينا (ميلو)، وفغر فاه مشدوها، قبل أن يقول في مرارة يائسة:
- فرصة لك وحدك أيها العربي.. يمكنك أن تعدو هاربا بأقصى عتك.. أما أنا، وبساقي
- اطمئن.. لن أتخلى عنك قط...
وراح يعدو به، بقدر استطاعتهما، مبتعدين عن الطائرة، فحدق فيه (ميلو) في دهشة، قبل أن يقول:
- ولكن لماذا؟! لماذا تفعل كل هذا من أجلي؟!
أجابه (باسل) في حزم:
- لا يمكنك فهم أو استيعاب الشهامة العربية في كلمات محدودة يا رجل، والوقت لا يسعفنا لشرح مستفيض...
- ولكن كل هذا لن يفيد.. سيلحقان بنا حتما، فهما أكثر قوة، كما أنهما يحملان مسدسات حقيقية، وليس مسدس إشارة بسيط كهذا
استوقفه (باسل)، قائلاً:
- من يدرى؟! ربما يفعل مسدس الإشارة هذا الكثير ثم استدار يواجه الطائرة، التي بلغها الرجلان، وهما يعدوان خلفهما، وصوب إليها مسدس الإشارة وأطلقه وانطلقت طلقة الإشارة

المشتعلة الصغيرة نحو الطائرة، فهتف رئيس العمال في عصبية ساخرة:
- ما الذي يتصور ذلك العربي إنه يفعله؟! هل يعتقد أنه يستطيع إيقافنا بهذا؟!
ولكنه لم يكد يتم عبارته، حتى أدرك أن (باسل) لم يكن يعبث أبدا..
لقد سقطت الطلقة المشتعلة إلى جوار الطائرة، حيث يتسرب الوقود، ولم تكد تلامسه، حتى اشتعلت النيران بغتة، في كل المساحة التي انتشر فيها الوقود، على الرغم من أن الرمال قد ابتلعت معظمه..
وفوجئ رئيس العمال بالنيران مشتعلة في سترته، في حين تحول معاونه، الذي كان واقفا على قدميه، إلى شعلة من اللهب، وراح يصرخ ويعدو كالمجنون وبكل غضبه، صرخ المجرم في ثورة:
- لن تفلت بهذا أيها العربي.. لن تفلت قط.
كانت صرخات معاونه قد توقفت، بعد أن لقي حتفه وسط النيران، ولكنه لم ينتبه إلى هذا، وهو يعدو بكل غضبه وقوته نحو (باسل)، ويطلق رصاصات مسدسه في ثورة ساخطة وأصابت إحدى الرصاصات (باسل) في كتفه، في حين اخترقت ثانية فخذ (ميلو)، الذي راح يصرخ ويولول على نحو مقزز، هاتفا:
- لا.. لا تقتلني.. لا أريد أن أموت.. لا أريد أن أموت.
لحق بهما رئيس العمال في تلك اللحظة، ولهث في عنف وهو يصرخ في انفعال:
- بل ستموت يا (ميلو).. ستلقى مصرعك؛ لأنك تصورت أنك تستطيع خداعنا، والفوز بالغنيمة كلها وحدك
هتف (باسل) في دهشة

- الفوز بالغنيمة! إذن فهم لا يطاردونك لأنك كشفت أمرهم يا رجل!
أطلق رئيس العمال ضحكة عصبية ساخرة، قبل أن يقول بنفس الانفعال اللاهث:
- كشف أمرنا! أهذا ما أوهمك به أيها العربي؟! ألهذا بذلت كل ما بذلت من أجله؟! كنت تتصور أنك تحمى بريئا.. أليس كذلك؟!
كلا أيها العبقرى.. (ميلو) هو الرأس المدبر لكل ما نفعله جعلنا نخدع الشركة لعام كامل، ثم استولى على الغنيمة كلها وحولها لحسابه في (سويسرا)، وأراد الفرار منا، ولكننا كشفنا أمره، وقررنا قتله، جزاء ما فعله بنا...
واشتعلت عيناه بالغضب، وهو يتابع:
- الفارق الوحيد هو أنك ستصحبه إلى الجحيم أيها العربي بل ستسبقه إليه، فقد قررت قتلك أولا...
أجابه (باسل) في صلابة:
- الجحيم لأمثالكم فحسب أيها المجرمون.
صوب الرجل مسدسه إلى رأس (باسل)، قائلا:
- عبارة أنيقة أيها العربي.. أعدك أن أنقشها على قبرك.. وداعا أيها المتحذلق وانطلقت الرصاصات في قلب الصحراء..
ولكنها لم تنطلق نحو (باسل)، وإنما انطلقت نحو رئيس العمال الذي تراجع مذعورا، وحدق في رجال الشرطة الذين يعدون نحوه، هاتفا:
- لا.. هذا مستحيل! مستحيل!
أما (باسل)، فقد لمح بين رجال الشرطة فني الإصلاح (رشدي) الذي هرع نحوه، هاتفا:
- أستاذ (باسل).. حمدا لله.. لقد وصلنا في الوقت المناسب

لقد كشفت تلف جهاز اللاسلكي، عندما تأخرت في العودة بطائرتك إلى المطار، وخشيت أن يكون قد أصابك مكروه، فأبلغت الشرطة، وخرجنا للبحث عنك، ومن حسن حظنا أننا قد وصلنا في الوقت المناسب قالها، وهو يصافح (باسل) في سعادة وحرارة، في حين تطلع هذا الأخير مبهورا إلى رجال الشرطة، الذين أحاطوا برئيس العمال و(ميلو)، ثم التفت إلى (رشدي)، قائلاً:

- هذا يثبت إنه لا ينبغي أن نفقد الأمل في الله (سبحانه وتعالى) يا رجل.. لا ينبغي أن نفقده أبدا.. مهما كانت الظروف

وعندما انطلقت بهم سيارات الشرطة، عائدة إلى المدينة، كان(باسل) يفكر في طائرة جديدة، و.. وأمل جديد...

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- الهارب..
٢ - مطاردة..
٣- العربى..
٤-الأمل..

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

المشهد الأخير

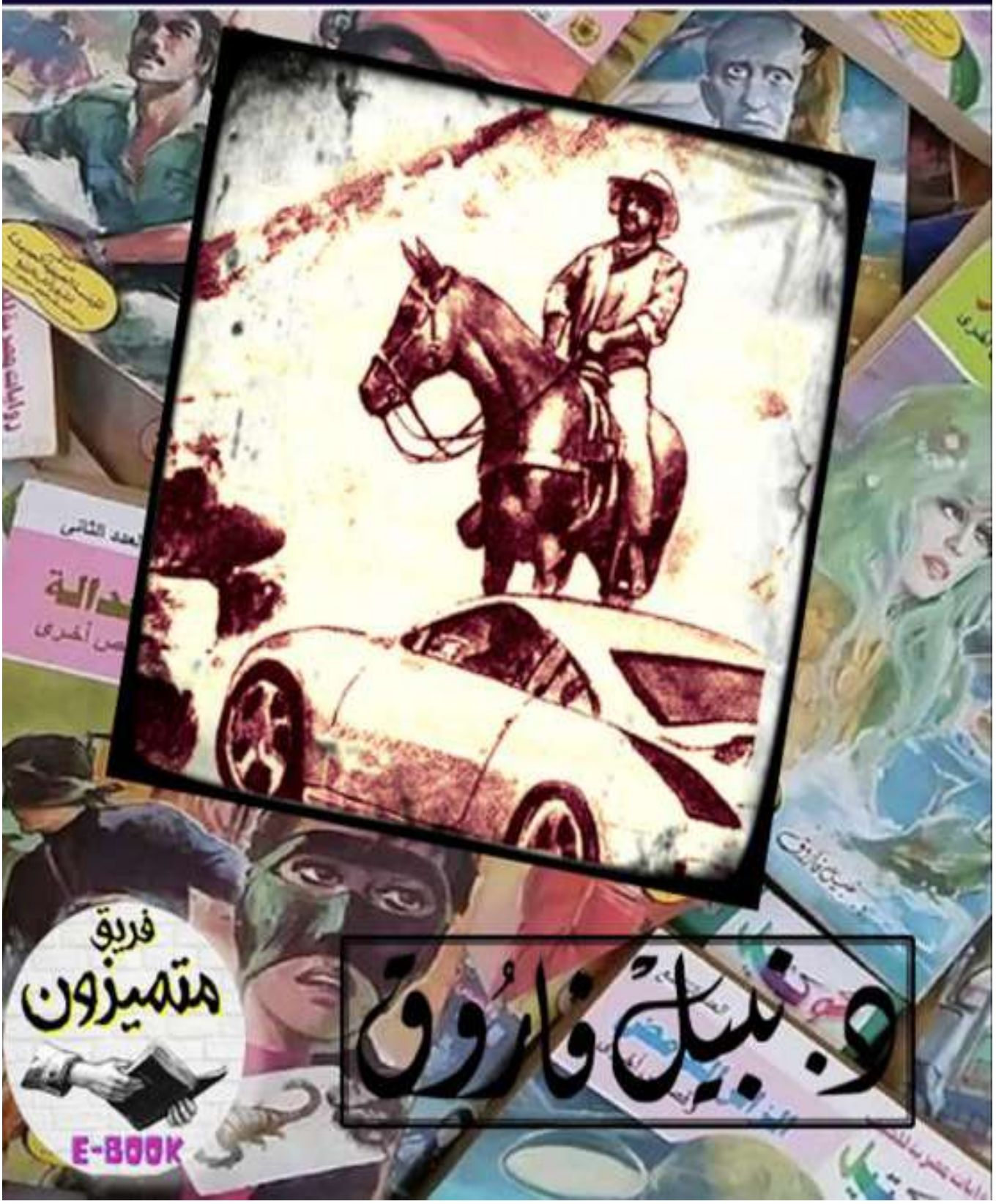

نبيل فاروق

فريق متميزون

E-BOOK

7021

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

المشهد الأخير

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

المشهد الأخير..

انطلقت سيارة (باسل) الرياضية الصغيرة، عبر طريق القيادة السريعة في ولاية (كاليفورنيا) الأمريكية، وتجاوز الطريق المؤدي إلى (لوس أنجلوس)، متخذا طريقا خاصا، حمل في بدايته لافتة كبيرة، ذات حروف بارزة ضخمة، تحمل اسم أشهر مدينة للسينما في العالم.. (هوليوود)..

ولم تمض نصف الساعة، منذ عبر (باسل) ذلك الطريق الخاص، حتى كانت سيارته الرياضية تجتاز بوابة واحدة من شركات الإنتاج الضخمة، ذات الشهرة العالمية، وهناك استقبله مندوب العلاقات العامة للشركة، وصافحه في حرارة، وهو يقول في مودة واضحة:

- أهلا بك في مدينة السينما يا (باسل).. أتمنى أن تمضي وقتا ممتعا، أثناء زيارتك لنا.

صافحه (باسل)، وهو يقول:

- سيسعدني هذا أكثر، لو أخبرتني سبب دعوتكم لي يا سيد...

أجابه الرجل في سرعة:

- (برنارد).. الأصدقاء ينادونني (برني).. وأنا مسئول العلاقات العامة هنا

قال (باسل):

تشرفنا يا سيد (برني).. ولكن هذا لم يجب عن سؤالي بعد

ضحك (برني) في مرح، وهو يقول:

- من الواضح أنك حازم ومباشر وصريح يا (باسل).. ومن الواضح أيضا أنك تحب دائما معرفة موضع قدميك

أجابه (باسل) في شيء من الضجر:

أظن هذا الأمر طبيعيا بالنسبة لأي شخص طبيعي
ربت (برني) على كتفه في حرارة، وهو يقول:
- هذا صحيح، ونحن نحتاج إلى هذه الصفة بالضبط، عندما تعمل معنا هنا.
هتف (باسل) في دهشة:
أعمل معكم؟! ماذا تعنى بالضبط؟
أجابه (برني) في حماس:
- الواقع أننا نستعد الآن لإنتاج فيلم سينمائي ضخم، حول تاريخ المنطقة العربية، ونحتاج إلى مستشار عربي، لتأكيد واقعية الفيلم.. ولقد وقع اختيارنا عليك
قال (باسل) في دهشة:
- ولماذا أنا بالذات؟

أجابه (برني) مبتسما:
- لقد قرأنا مقالاً لك، تقول فيه:
إن كل ما أنتج عن المنطقة العربية لا يمت بصلة لواقعها وتاريخها؛ لأن أحدا من المنتجين لم يجشم نفسه مشقة البحث والدراسة، قبل إنتاج الفيلم.. وأصارحك القول.. إنك على حق.. إننا لم نقرأ أو ندرس جيدا، بالنسبة لهذه النوعية من الأفلام، ولهذا قررنا الاستعانة بخبير مثلك
بدت الدهشة أكثر على وجه (باسل)، وهو يقول:
- خبير مثلي؟! ولكنني لم أعمل قط في مجال السينما
هتف (برني) في حماس:
- ولكنك خبير في شئون وتاريخ العرب.. أليس كذلك؟
فتح (باسل) شفتيه، وهم بمناقشة هذا الأمر، إلا أنه فوجئ بالسيد (برني) يقفز جانبا، ويهتف:

- احترس
استدار (باسل) في سرعة، واتسعت عيناه في دهشة كان هناك فارس من رعاة البقر، على متن جواد بني داكن، ينقض عليه بسرعة كبيرة، وهو يدير أنشوطته في الهواء، ويطلق صيحات قوية وبوثبة رائعة، عبر الفارس وجواده سيارة (باسل) الرياضية، ثم ألقى الفارس أنشوطته نحو (باسل)، هاتفا في سخرية:
- هناك صيد جديد
كان الفارس ماهرا في استخدامه أنشوطته بالفعل، ولكن (باسل) أيضا كان ماهرا في تفادي مثل هذا الهجوم، مهما كانت درجة المفاجأة؛ لذا فقد وثب جانبا في خفة، ومال متفاديا حلقة أنشوطة الفارس ثم تحركت يده بسرعة، لتقبض على الحبل، وجذبه بكل ما يملك من قوة..
وفي هذه المرة كانت المفاجأة من نصيب الفارس، الذي اختل توازنه، وسقط عن صهوة جواده، وهو يهتف ساخطا:
- ماذا فعلت أيها العربي؟
أطلق جواده صهيلا قويا، وتراجع بحركة حادة، في حين سقط هو أرضا وتدحرج لحظة، طارت خلالها قبعته، قبل أن يهب واقفا على قدميه، وهو يصرخ في ثورة عارمة:
- كيف جرؤت أيها العربي؟
عقد (باسل) ساعديه أمام صدره، وهو يقول:
- لم يكن الأمر يحتاج إلى الجرأة أو الشجاعة.. إنك أردت إثبات مهارتك كراعي بقر، فأردت أن أثبت لك أن أجدادي هم أول الفرسان

صرخ فيه الرجل:
- أيها السخيف الـ...

قالها وهو ينقض على (باسل) بلكمة عنيفة، تفادها (باسل) في مهارة، وتركها تتجاوزه، فاختل توازن الرجل، وكاد يهوى أرضا، ولكن (باسل) أوقفه بلكمة عنيفة في فكه، جعلته يرتد في عنف، ويسقط أرضا، وباسم يقول:

- وهذا تأكيد لقولي

تفجر غضب هادر، في وجه الرجل، وصرخ:

- كيف يجرؤ؟ من سمح له بالدخول إلى هنا؟

أسرع (برني) إليه، وقال في توتر:

- اهدأ يا (أدوين)؟ الفتى لم يقصد الإساءة.. ثم تذكر أنك أنت بدأت هذا

صرخ (أدوين) ساخطا:

- من هو؟ ومن سمح له بالدخول؟

هتف به (برنى):

- إنه مستشارنا الجديد

صاح (برنى) في سخرية عصبية:

- مستشاركم الجديد؟! ماذا؟ هل ستنتجون فيلما عن المهرجين؟

قال (باسل) ساخرا:

- من المؤكد أنهم سيفعلون، وأنت ستحصل على دور البطولة

احتقن وجه (أدوين)، وهتف:

- هل سمعت يا (برنى)؟ سأحطم أنفه

صرخ به (برنى):

كفى يا (أدوين).. كفى

ثم نفض يديه، وهو يلتفت إلى (باسل) مستطردا:

- معذرة يا (باسل)، ولكن (أدوين) هو فارسنا الأول في كل لقطات أفلام رعاة البقر.. هو الذي يقوم بالأدوار الصعبة، وأنت هزمته أمام الجميع، ومن الطبيعي ألا يحتمل هذا

صاح (أدوين):

- هزمنى؟! من قال هذا؟ إنها مجرد ضربة حظ فحسب.

قال (باسل) في سخرية:

- ضربة حظ؟! يا لك من مكابر! هل ترغب في إعادة الكرة؟

صاح (أدوين):

- نعم.. ولم لا؟

شعر (برني) بالموقف يتوتر أكثر وأكثر، فهتف:

- مهلا.. لسنا هنا في ساحة قتال

قال (أدوين) بلهجة استفزازية:

- ولكنه يقول:

- إن أجداده هم أوائل الفرسان.. دعه يثبت هذا إذن

أجابه (باسل) في صرامة

- أنا مستعد لإثبات هذا في أية لحظة

قال (برني) في توتر أشد:

- كفى.. إنكما تحولان الأمر إلى حرب حقيقية.

تجاهله (أدوين) تماما، وهو يقول ل- (باسم)، بنفس اللهجة الاستفزازية:

- لو أنك صادق في قولك، فدعنا نثبت الآن من منا يستحق عن جدارة لقب الفارس، الذي يتباهى به أجدادك

قال (باسل) في حزم:

- وأنا مستعد لهذا بأية وسيلة

صرخ (برنى):

- كفى.. لن أسمح بأي شيء هنا

صاح به (أدوين):
- اصمت يا (برني).. ستسمح بكل ما نطلبه منك، وإلا فلن تجدني في لقطة واحدة في أفلامك
صمت (برني) على مضض، في حين أضاف (أدوين)، وهو يشير إلى (باسم) في تحد واضح:
- سنتبارز الآن يا فتى.. وعلى طريقتنا نحن.. طريقة رعاة الأبقار
وفي حركة سريعة جذب مسدسه، وصوبه إلى (باسل) الأعزل
التقى حاجبا (باسل) في غضب صارم، وهو يواجه فوهة مسدس(أدوين)، وقال في حدة:
- أهذه هي وسيلة الفرسان التي تتحدث عنها؟! أن تطلق النار على شاب أعزل؟!
ابتسم (أدوين) في سخرية، وقال:
- ومن قال إننى سأطلق النار عليك؟
ثم ألقى المسدس إليه، مستطردا:
- إنني أهديه إليك.. هيا.. أبدل ثيابك، وارتد ثياب رعاة الأبقار، وسنمنحك جوادا قويا، وتبدأ المباراة
عقد (برنى) حاجبيه في توتر، وقال:
- لن أسمح بهذا.. إنكما تتجاوزان الحدود
هز (أدوين) كتفيه، وقال:
- ما الذي تخشاه يا عزيزى (برنى)؟ إننا سنستخدم رصاصات صوت غير قاتلة، ولن نتجاوز المنطقة الصحراوية الجبلية، التي يتم فيها تصوير أفلام رعاة البقر، وليس هناك ما يخيف إلا إذا كنت تخشى من أثر الهزيمة، على مستشاركم الجديد
قال (باسل) في حزم:
- لن تكون هناك هزيمة بإذن الله
ثم التفت إلى (برني)، وقال:

- أين يمكنني الحصول على الجواد، وزى رعاة الأبقار؟
وابتسم (أدوين) في خبث وفي شراسة
ماذا تريد بالضبط يا (أدوين)؟
نطق أحد الرجال الثلاثة، الذين جمعهم (أدوين) في حجرته بهذه العبارة، وتطلع ثلاثتهم في ترقب واهتمام إليه، وهو يقول في حدة:
- هناك عربي يتحداني، وسنتسابق حتى النهر الصغير، في نهاية صحراء التصوير، ونعود.. ولا أريده أن يعود إلى هنا قط.
سأله أحد الرجال الثلاثة:
- هل تريدنا أن نعطله؟
عقد حاجبيه في شراسة صارمة، وهو يقول:
- لم أقل إننى أريده أن يصل متأخرا.. بل قلت لا أريده أن يصل مطلقا.
سأله آخر في قلق:
- ماذا تعني بالضبط يا (أدوين)؟
ابتسم (أدوين) في وحشية، وقال:
أعنى أنه وحده سيحمل مسدسا يخلو من الرصاصات الحقيقية، أما مسدساتنا، فستنطلق منها نيران حية
تبادل الرجال الثلاثة نظرة قلق، وهمس أحدهم
- أتعنى أن نقتله؟
هتف (أدوين) في حنق:
- رائع.. لقد فهمتم أخيرا.. يا لكم من أذكياء! ثم ضم قبضته، وهو يستطرد في شراسة:
- لقد أهانني هذا العربي، وأذل ناصيتي أمام الجميع، سيدفع الثمن، سيدفعه من دمائه العربية.

☆ ☆ ☆

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي (أدوين)، وهو يتطلع إلى(باسل) الذي ارتدي زي رعاة الأبقار الأمريكيين، وتمنطق بجراب أنيق من الجلد، يحوى مسدسا من تلك المسدسات الأمريكية الشهيرة، ووضع على رأسه قبعة عريضة الأطراف، وقال (أدوين) ساخرا:

- من المؤكد أنك تشعر بالقوة، وأنت ترتدى هذا الزي

أجابه (باسل) في برود:

- إننى أرتديه لألقنك درسا، يقول: « إننا الأقوى دائما، أيًا كان الزي الذي نرتديه. »

عقد (أدوين) حاجبيه في غضب، وقال:

- فليكن.. لن نتحدث طويلا.. دعنا نبدأ السباق فعليا

غمغم (برني) في توتر:

- ما زلت أرى كل هذا سخيفا

امتطى (أدوين) جواده، وهو يقول:

- لا تتحدث عن السخافة يا عزيزى (برنى) وانتظر حتى تراها مجسمة، على وجه صديقنا العربي.

ثم التفت إلى (باسل)، وسأله ساخرا:

- قل لي أيها العربي: هل تجيد ركوب الخيل؟

ابتسم (باسل) ساخرا، وهو يجيب:

- أظن هذا.

قالها ووثب وثبة رائعة رشيقة، شهق لها معظم المحيطين بهما إعجابا وانبهارا، عندما استقر بعدها على متن جواده، ثم جذب عنانه، فارتفع الجواد مطلقا صهيله القوى، وضرب الهواء بقائمتيه الأماميتين

قبل أن يهبط في عظمة، و(باسل) يقول في هدوئه الواثق:

والآن متى نبدأ السباق؟

شعر (أدوين) بالغيظ يملأ نفسه، عندما انطلقت أكف الحاضرين بالتصفيق، إزاء إعجابهم بمرونة (باسل) ومهارته، فهتف في حنق، وهو يلكز جواده بقوة:
- الآن
وانطلق بالجواد عبر شوارع الأستوديو الواسعة، متجها نحو الصحراء الجبلية، في نهاية المكان، وانطلق خلفه (باسل) وتابعهما الجميع في انبهار، وهتف أحد الحاضرين:
- سيربح (أدوين) حتما، فهو خبير في هذا المجال
شاركه العديدون، فيما عدا (برني) الذي التقى حاجباه في شدة، وهو يتمتم:
- من يدري؟
وكان على حق
من يدري؟
لم يصدق (باسل) عينيه، وهو ينطلق بجواده عبر صحراء جبلية شاسعة تمتد إلى مدى البصر، بعد دقائق معدودة من عبوره شوارع مدينة السينما كان الأمر يبدو كما لو أنه قد قفز عبر الزمن قرنا كاملاً إلى الوراء.. كل شيء يوحى بهذا، حتى لافتات الطرق، وخطوط السكك الحديدية القديمة...

كان من الواضح أن هذا هو المكان الذي يتم فيه تصوير معظم أفلام رعاة الأبقار، وأن (أدوين) يحفظه عن ظهر قلب، وهو ينطلق فيه بكل قوته، محاولاً بلوغ النهر الصغير قبله..
ولكن (باسل) أيضا كان فارسا لا يشق له غبار لقد فهم جواده، وأجاد التعامل معه، فخضع الجواد، وأسلمه قياده، وأطاعه طاعة عمياء، وراح ينهب الصحراء الجبلية نهبا، مقتربا من جواد (أدوين).

وفجأة برز رجال (أدوين) الثلاثة، من خلف تل صخرى قريب، وانطلقوا بجيادهم خلف (باسل) الذي غمغم في قلق:
- ماذا يفعل هؤلاء هنا؟ أهم جزء من فيلم يجرى تصويره؟
امتلأت نفسه بمزيد من القلق، مع الجزء الثاني من سؤاله، وخاصة عندما استل الثلاثة - الذين يرتدون ثياب رعاة الأبقار - مسدساتهم، وراحوا يطلقون نيرانها نحوه في البداية، تصور (باسل) أنهم يستخدمون مسدسات صوتية، كما يحدث في كل أفلام رعاة الأبقار، إلا أنه فوجئ بإحدى الرصاصات ترتطم بالصخور إلى جواره، وترتد في عنف، فهتف:
- رباه! إنها مطاردة حقيقية
كان قد تجاوز (أدوين) بجواده، في هذه اللحظة، فسمعه يهتف في شماتة:
- هيا أيها العربي.. استعد للخسارة الحقيقية
واستل (أدوين) مسدسه بدوره، وصوبه إلى (باسل)، الذي صاح بجواده، وهو يلكزه بشدة:
- أسرع يا صديقي.. أسرع.. لقد وقعنا وسط عصابة من القتلة، وأحنى رأسه في اللحظة الأخيرة، قبل أن يطلق (أدوين) رصاصته، وسمع أزيز الرصاصة وهي تعبر فوق رأسه، وصوت (أدوين) يصرخ:
مت أيها العربي.. مت
وعندئذ أدرك (باسل) حقيقة الأمر..
لقد قرر (أدوين) قتله...
قتله بلا رحمة.
ولم يكد عقل (باسل) يستقر عند هذه النقطة حتى اتخذ في أعماقه قرارا حاسما، لا رجعة فيه.

قرر أن يواجه الجميع، بلا تردد وفي حزم جذب (باسل) عنان جواده، وأدار عنقه في مهارة فارس قدير، ودفعه إلى الدوران حول نفسه في قوة، ليواجه الرجال الأربعة، في نفس اللحظة التي ارتفعت فيها فوهات مسدساتهم نحوه، و...

حانت لحظة المواجهة القاتلة..

رأى (باسل) فوهات المسدسات الأربعة مصوبة إليه، والموت يطل منها متلهفا، إلا أنه لم يتراجع أو يتوقف، بل واصل انقضاضته، ومال جانبا على متن الجواد، حتى صار جذعه موازيا للأرض، وترك الرصاصات الأربع تدوى في الفراغ، وتعبر فوق جسده، ثم اعتدل، ووثب بالجواد نحو خصومه وكان مشهدا يستحق التسجيل حقاً

لقد امتزجت الجياد الخمسة ببعضها، واختلط الحابل بالنابل، وتصاعد صهيل الجياد وصياح الرجال، عندما انقض (باسل) في مهارة وحنكة، وهوى بقبضته على فك أحد الرجال الثلاثة، ثم دفع الثاني عن جواده، وسمعه يطلق سبابا ساخطا، وهو يسقط أرضا، ولكن (باسل) لم يتوقف ليسمع ذلك السباب، وإنما انطلق بكل سرعة جواده في الاتجاه العكسي

وصرخ (أدوين) في غضب:

- الحقوا به.. لا تسمحوا له بالقرار

ارتبك الرجال واضطربت الخيول، وساد شيء من الهرج، قبل أن يعود الرجلان اللذان أسقطهما (باسل) عن جواديهما، وينطلق الجميع خلف (باسل)..

وشعر (باسل) بالحيرة، وهو ينطلق وسط تلك الصحراء الجبلية، التي تبدو مترامية الأطراف، وكأنها لا نهاية لها. إنه يجهل دروب ومسالك المكان يجهل حتى إلى أين ينبغي أن

ينطلق ولكن الشيء الوحيد الذي يعلمه، هو أن أربعة من القتلة يطاردونه، بكل الوحشية والإصرار أربعة يسعون لقتله بلا رحمة ومن خلفه، تصاعدت صرخات (أدوين):
اقتلوه.. أطلقوا النار عليه
وسمع (باسل) الرصاصات تدوى في الصحراء، فانحرف بجواده جانبا، وانطلق نحو ممر ضيق بين جبلين، وسمع وقع الجياد الأربعة خلفه، فغمغم:
- ترى كيف يمكنني التخلص منهم؟
اندفع داخل الممر بكل سرعته، وراح جواده ينهب الأرض نهبا، محاولا بلوغ نهايته، ولكن كل الأمور تنقلب رأسا على عقب، عندما ترتطم بهذه الكلمة..
كلمة (لكن)..
لقد كان كل شيء يسير على ما يرام، فهو يسبق خصومه بمسافة معقولة، والممر أضيق من أن يسمح لهم باللحاق به، ولكن يا للخسارة.. كانت هناك كومة من الصخور، تسد نهاية الممر، وتضع (باسل) بين المطرقة والسندان وتوقف جواد (باسل)، وهو يطلق صهيلاً عصبيا، وكأنما أدرك دقة الموقف، في حين أطلق (أدوين) ضحكة ساخرة من بعيد، وهو يهتف:
- لقد وقع في أيدينا.. لا تطلقوا عليه النار الآن.. أريد أن أرى الهزيمة على وجهه قبل أن يلقى مصرعه
إلا أن (باسل) ظل، على الرغم من كل هذا، محتفظا بهدوء أعصابه، وهو يعود بجواده إلى الخلف، قائلاً له:
- لا تجعل هذه الصخور تخيفك أو تربكك يا صديقي.. إنك جواد قوى، وسيمكنك عبور هذه الكومة.. فقط حاول ثم لكزه بركبتيه بقوة، هاتفا:
- هيا.. انطلق

خيل إليه أن الجواد قد فهم، وأطاعه، وشاركه محنته وانفعاله، فقد انطلق بكل قوته نحو كومة الصخور، ولم يكد يبلغ موضعا مناسبا منها، حتى هتف به (باسل):
- الآن يا صديقي
ووثب الجواد
ما من شك في أن وثبته جاءت رائعة، مدهشة، حتى إن أدوين) ورجاله أصابهم الوجوم، واتسعت عيونهم في دهشة، وسقطت فكوكهم السفلي فى بلاهة، والجواد يجتاز كومة الصخور ويهبط فوق تبة قصيرة، ثم يثب منها مرة ثانية إلى الجانب الآخر للممر، ويواصل طريقه عدوا
وهتف (أدوين):
- مستحيل!! كيف فعل هذا؟ كيف دفع الجواد إلى ذلك؟
غمغم أحد رجاله:
- من الواضح أنه فارس عظيم
صرخ به (أدوين):
- اخرس.. لا تقل هذا.. أنا أعظم الفرسان.. لا يوجد من يفوقني قوة وخبرة، في هذا المجال.
تمتم رجل آخر:
- ولكنك رأيت ما فعله.. إننى لم أر في حياتي كلها.
صرخ (أدوين) مقاطعًا:
- حظ.. مجرد حظ حسن
تبادل الرجال الثلاثة نظرة دهشة، قبل أن يقول أحدهم مجاملاً ومنافقا:
- نعم.. هو حظه الحسن بالتأكيد
جذب (أدوين) عنان جواده في عصبية، وقال:

- ولكنه لن يذهب بعيدا، فبعد الممر لن يجد سوى الجبل الكبير، ووادي الموت.. ونحن سنحاصره في الوادي، وندفعه دفعا إلى المدينة القديمة، وهناك نحيط به، ويلقى مدرعه..
سأله أحد الرجال:
- وكيف سنبرر مقتل
هتف في حدة:
- لن نكون في حاجة إلى هذا أيها الغبي.. إنه ليس أول من يلقى مصرعه هنا، وتختفى جثته إلى الأبد.. هيا.. سنبدأ الجولة الثانية، وفي هذه المرة لن يكون الفوز من نصيبه أبدا.. أبدا

☆ ☆ ☆

عبر (باسل) بجواده الممر الجبلي، وانطلق عبر واد فسيح تفترش الأشواك والنباتات الجافة أرضه، ويحده من بعيد جبل هائل، يبدو وكأنه حاجز منيع، يحول بينه وبين العودة إلى مدينة السينما وانطلق (باسل) بجواده طويلا، محاولا البحث عن مخرج ثم لم يلبث أن مسح عرقه الغزير، وتمتم: -
- من الواضح أننا لن نجد مخرجا من الناحية الغربية.. سنتجه إلى الشرق
استعد للانطلاق بجواده، عندما دوت رصاصة في المكان، وأصابت الأرض أمام الجواد، الذي أطلق صهيلاً عاليا، امتزج بضحكة ساخرة، انطلقت من بين شفتي (أدوين) الذي وقف بجواده على قمة تل صخرى قريب، وهو يقول:
- خسرت هذه المرة أيها العربي.. الآن ينبغي أن تعترف بأنك لن تبلغ أبدا تلك المرتبة، التي بلغتها أنا في عالم الفروسية. ومع كلماته، برز رجاله الثلاثة من خلف التل، واتجهوا وأسلحتهم مشهورة نحو (باسل)، الذي قال:
- وما الذي تعرفه أنت عن الفروسية؟

قال (أدوين) في زهو مغرور:
اعرف أن الفروسية تساوي النصر يا فتى.. النصر في كل موقف وكل معركة.
- هز (باسل) رأسه نفيا، وهو يقول:
- خطأ يا (أدوين).. الفروسية ليست مجرد النصر في المعارك.. ولكنها النصر الشريف..
- أطلق (أدوين) ضحكة ساخرة أخرى، وقال:
النصر لا يحمل تسمية يا فتى.. لا يوجد نصر شريف ونصر غير شريف.. يوجد فقط نصر وهزيمة.
استل (باسل) مسدسه، وهو يقول:
- هل تظن هذا؟
ابتسم (أدوين) في سخرية، وهو يقول:
- ما الذي ستفعله بهذا المسدس يا فتى؟ هل نسيت أنه لا يحوى سوى رصاصات صوتية فحسب؟
قال (باسل):
- ربما كان مفيدا
ضحك رجال (أدوين) في سخرية، وهم يحيطون ب- (باسل)، في حين قال (أدوين) في استهتار شامت:
- وفيم يمكن أن يفيد.. في إخافة الصغار؟
قال (باسل) في هدوء:
- أو في هزيمة الكبار
هز (أدوين) كتفيه، وقال:
- كم سيروق لي أن أرى هذه الأعجوبة!
ثم أشار إلى رجاله، مستطردا:
- هيا يا رجال.. دعونا نحول جسد صديقنا العربي إلى مصفاة.
لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفعت فوهات المسدسات الثلاثة

نحو رأس (باسل) فأردف (أدوين) في شماتة:
- الوداع يا فارس العرب ودوت رصاصة في أعماق الوادي وادى الموت.....

☆ ☆ ☆

فرك (برني) يديه في عصبية، وهو يقف أمام (ليوناردو)، مدير الأستديوهات بمدينة السينما، الذي بدا شديد الغضب والثورة وهو يهتف:
- أي عبث هذا؟ كيف تسمح لشاب مختل مثل (أدوين)، بتحدى ومبارزة مستشارنا العربي الجديد؟ ألا تذكر ما فعله (أدوين) هذا في المرة السابقة.. لقد كلفنا الأمر مليوني دولار، لنقنع أهل ضحيته بالسكوت
أجابه (برني) في توتر:
- لم أستطع منعهما يا سيدي.. لقد استثار (أدوين) الشاب العربي باسل)، عندما تحداه لإثبات مهارته في عالم الفروسية، و...
صرخ (ليوناردو):
- وماذا؟ وتركته يصحبه إلى وادي الموت.. أليس كذلك؟
غمغم (برني) في اضطراب:
- سيدي.. إننى
قاطعه (ليوناردو) بإشارة من يده، وقال:
- كفى.. اتخذ إجراءاتك بسرعة، وحاول منع المذبحة الجديدة، التي يسعى إليها (أدوين) أرسل فريق بحث، أو حتى هليكوبتر المهم أن تعود بالفتي العربي سالما.. هل فهمت؟
تمتم (برنى):
فهمت يا سيدي.. ولكن المشكلة هي أن نصل في الوقت المناسب

وكان (برني) على حق.. المشكلة أن يصلوا في الوقت المناسب..

☆ ☆ ☆

كانت فوهات المسدسات الثلاثة مصوبة إلى رأس (باسل) مباشرة، وأصابع أصحابها متأهبة ومتحفزة للضغط على الأزندة، وإطلاق الرصاصات الحقيقية، وكان (باسل) وحده يحمل مسدسا صوتيا، ولكن..

فجأة، وبلا مقدمات، انحنى (باسل)، وألصق مسدسه بأذن أحد الجياد، وضغط زناده وعلى الرغم من أن رصاصات المسدس كانت صوتية فحسب إلا أنها تفجرت بدوى شديد، أفزع الجواد، الذي جفل في عنف، وأطلق صهيلا قويا، وارتفع نصفه الأمامي في وجل، وهو يتراجع في حدة مباغتة، أفقدت قائده توازنه، فصرخ وهو يهوى عنه، ومسدسه يطلق رصاصة طائشة، استقرت في كتف زميله، الذي صرخ بدوره:

- آه لقد أصبتني أيها الغبي

وقبل أن يضيع أثر المفاجأة، لكز (باسل) جواده، وجذب عنانه صائحا:

- انطلق يا صديقي.. سنربح هذه الجولة أيضا بإذن الله.

صرخ (أدوين) من أعلى التل:

.. لا تسمحوا له بالفرار

وصاح الرجل الثالث، وهو يصوب مسدسه إلى (باسل):

اطمئن.. إنه لن يذهب بعيدا

ولكن (باسل) مال في مهارة، وركل المسدس من يد الرجل، وهو على صهوة جواده، فألقاه بعيدا، ثم انطلق نحوه هاتفا:

- ألم تتسرع في هذا القول يا رجل؟

صرخ (أدوين) في ثورة وغيظ:

- لا تتركوه.. انطلقوا خلفه.

قالها وهو يهبط التل بجواده في غضب، ويستل مسدسه بدوره، ولكن عينيه اتسعتا فجأة في انبهار كامل، عندما رأى (باسل) يميل على صهوة جواده بشدة، وعلى نحو هائل ومخيف، حتى يصبح جسده موازيا للأرض تقريبا، ثم يلتقط المسدس الذي سقط من الرجل الثالث، ويعتدل في مرونة مدهشة، ليواصل انطلاقه بجواده..

وفي ذهول هتف الرجل الثالث:

- لم أر في حياتي كلها شيئا كهذا.. هذا الفتى فارس بحق

صرخ به (أدوين):

صه يا رجل.. لا يوجد فارس سواى.. هيا.. سننطلق خلفه

أجابه المصاب:

- لن يمكننى يا (أدوين).. لقد أصابتني الرصاصة، وأنا أنزف بشدة، وأحتاج إلى إسعاف

وهتف الثاني:

- وأنا أشعر بآلام مبرحة في عمودى الفقرى.. لقد تحطم بسبب سقوطى.

صرخ (أدوين) غاضبا:

- تبا لكما.. سألحق به وحدى.. ولكنه أردف:

- هيا يا (فرايد)

انطلق الاثنان خلف (باسل)، وقال (فرايد) في توتر

- هذا الشاب ليس سهلا يا (أدوين).. هل رأيت كيف يتعامل مع جواده، وكيف يقاتل بحنكة وذكاء؟

أجابه (أدوين) في حدة:

- مجرد حظ.. هذا الفتى العربي لن يملك خبرتنا قط، في هذا المجال، ثم إنه يتجه إلى حيث أردنا تماما.. إلى المدينة القديمة، ونحن نحفظ كل شبر فيها عن ظهر قلب، وسنصطاده هناك

غمغم (فرايد)
- الحقيقة يا (أدوين) أنني أخشى أن..
قاطعه في صرامة:
- لا تخش شيئا يا رجل.. إننا سنظفر بهذا العربي.. سنظفر به.....
وتقاطرت الكراهية مع كلماته.....
بدا (باسل) مبهورا تماما، وهو يلج تلك المدينة القديمة، في قلب وادى الموت كانت تشبه تماما تلك المدن، التي يراها في أفلام رعاة الأبقار القديمة، ولكنها مهجورة تماما منازل خشبية من طابقين، وحوار، وإسطبل للخيول، وكل ما تحويه تلك المدن التقليدية، التي اعتاد رؤيتها.. حتى مكتب مأمور البلدة، بتلك النجمة الخماسية التي تزينه وفي انبهار، تقدم (باسل) من مكتب المأمور، ورأى الغبار يكسو نوافذه، ولكنه هبط عن جواده، وهو يقول لنفسه:
- رباه! يخيل إلى أننى قد انتقلت عبر الزمن، إلى تلك الحقبة من التاريخ الأمريكي
دفع باب مكتب المأمور في حذر، وأدار بصره في المكان، قبل أن يستطرد:
- تماما كما يبدو في الأفلام القديمة
جذبت انتباهه نجمة نحاسية غطتها الأتربة، ملقاة على سطح مكتب المأمور، فمد يده يلتقطها وهو يغمغم:
- آه.. ها هي ذي شارة رجال الأمن، في تلك الحقبة.. كم تمنيت في طفولتي تعليق مثلها على صدري!
التقط منديله، وأزال به الأتربة عن شارة المأمور، فبدت صفراء لامعة، أشبه بالذهب، مما جعله يبتسم، مستطردا:

- من الواضح أنها لا تستخدم إلا في القليل من اللقطات، فهي جديدة تقريبا
تأملها في ارتياح، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه في شدة، عندما ارتفع صوت صارم يقول:
- وقعت أيها العربي.. من سوء حظك وعدم خبرتك أنك قد اخترت مكتب المأمور بالذات، فهو في موقع تسهل محاصرته، ويصلح كهدف للتصويب الجيد..
وضع (باسل) الشارة في جيبه، واعتدل في تحفز، في حين استطرد (أدوين) في صفاقة واضحة:
- إننى أمنحك خمس دقائق للاستسلام، دون قيد أو شرط وإلا فسنطلق النار عليك، حتى نحيلك إلى مصفاة، وبالمناسبة، لا تحاول الخروج من الباب الخلفي، فصديقي (فرايد) يصوب مسدسه إليه
لم يقتنع (باسل) بتهديد (أدوين) وتحرك صوب الباب الخلفي، ودفعه بكفه في خفة، ولم يكد يفعل حتى دوت رصاصة، ارتطمت بالباب، وغاصت في سمكه الخشبي، فتراجع (باسل)، وهو يقول:
- إنه لا يمزح.. لقد حاصراني بالفعل
سمع (أدوين) يطلق ضحكة ساخرة عالية، ويقول:
- أظنك أدركت حقيقة موقفك الآن أيها العربي.. إنك محاصر تماما، ولكن محاولتك هذه جعلتني أغير رأيي.. لن أمنحك دقيقة واحدة، بل سأترك لك الخيار بين الموت برصاصات مسدسي، أو... بالنيران.
لم يكد يتم عبارته، حتى سقطت زجاجة من البنزين المشتعل داخل مكتب المأمور، وتحطمت في عنف، واشتعلت النيران في المكتب، و(أدوين) يهتف شامتا في الخارج:

- اختر أيها العربي.. الرصاص أم النّيران؟!
وانطلقت ضحكته الوحشية في المكان.....

☆ ☆ ☆

ارتفع أزيز الهليوكوبتر، التابعة لمدينة السينما، وهي تجوب وادي الموت، والتقط قائدها مسماع جهاز اللاسلكي يقول للمصور الجالس إلى جواره:
هل رأيت شيئا؟
كان المصور يفحص المكان بعدسته المقربة، وهو يقول:
- لا.. لا يوجد أي أثر لهم
هز الطيار رأسه متفهما، وقال عبر جهاز اللاسلكي:
- لم نجد أدنى أثر.. ما المطلوب منا الآن؟
صاح به (ليوناردو) في غضب:
- واصل البحث.. لا تعد دون الفتى العربي، مهما كان الثمن
تنحنح (برني)، وقال:
- هل لي أن أقترح شيئا؟
صاح به (ليوناردو):
المهم ألا يزيد الطين بلة
تنحنح مرة أخرى، وقال:
- إننى أفهم طريقة تفكير (أدوين) إلى حد ما، وأعتقد أنه جذب الفتى إلى المدينة القديمة.. إنه يعشق تمثيل دوره التقليدي هناك
عقد (ليوناردو) حاجبيه، واختطف مسماع جهاز اللاسلكي، هاتفا:
- انطلق إلى المدينة القديمة بأقصى سرعة
فوجئ (باسل) بأنه محاصر بين النار والرصاصات، إلا أنه نجح في السيطرة على أعصابه جيدا، وهو يقول لنفسه:

- ترى أيهما أكثر رحمة.. النيران أم رصاصات (أدوين)؟
وفجأة هتف وقد أشرق وجهه:
- لا هذا ولا ذاك.. سأختار الباب الخلفي
قالها وحمل مقعد مكتب المأمور، واندفع نحو الباب الخلفي، وألقاه بكل قوته على زجاج الباب، فتحطم بدوى هائل، وسقط في الخارج، فأطلق (فرايد) عليه نيرانه في توتر وجذع وفجأة وثب (باسل) عبر نافذة المكتب الخلفية، وانقض كالليث على (فرايد)، الذي تراجع صائحا في ذعر:
- لا.. لا.. ابتعد عنى
حاول أن يدير فوهة مسدسه نحو (باسل) ولكن هذا الأخير ركل المسدس في قوة، وهوى بقبضته على فك (فرايد) كالقنبلة، وأعقب هذا بلكمة أخرى في معدته، وثالثة في أنفه، فهوى فاقد الوعي..
وراحت النيران تلتهم مكتب المأمور، و(أدوين) يصرخ:
- (فرايد).. أين أنت؟ ماذا حدث؟ لماذا أطلقت النيران عندك؟
ولما لم يسمع جوابا، توترت أعصابه في شدة، وراح يطلق النيران عشوائيا، صارخا:
- أجب يا (فرايد).. أجب.. أين أنت؟
وفجأة ارتجف جسده كله، وانتفض على نحو عجيب، عندما سمع صوت (باسل) من خلفه، يقول في هدوء:
- لن يجيب يا (أدوين).. إنه فاقد الوعى
التفت (أدوين) خلفه بسرعة كبيرة، وصوب مسدسه إلى(باسل)، الذي بدا هادئا متماسكا، يعقد ساعديه أمام صدره،
ويرمقه بنظرة صارمة، فهتف:
- هل تتصور أنك قد فاجأتني أيها العربي؟ هراء.. لو أنك ترغب في هزيمة (أدوين)، فلا تقف هكذا معقود الساعدين، بل دع

مسدسك يتحدث عنك
وصوب المسدس إلى رأس (باسل) مباشرة، وهو يستطرد:
- لقد درت حول المكان كله لتلقى حتفك.. هيا اذهب من هنا..
وضغط الزناد في حزم..
ولم يتحرك (باسل) قيد أنملة
لقد بقى هادئا، عاقدا ذراعيه، أمام صدره، في حين لم يصدر مسدس (أدوين) سوى تكة معدنية مكتومة، فشحب وجه الرجل، وانكمش في مكانه، وهو يتمتم:
- لقد.. لقد نفدت رصاصاتى
أجابه (باسل) في هدوء:
- كنت أعلم هذا يا (أدوين).. فأنت لم تحص رصاصاتك، في حين فعلت أنا.. لقد أطلقت تسع رصاصات، وهي كل محتويات خزانة مسدسك، الذي هو نسخة طبق الأصل من مسدسى.
بدا غضب شديد على وجه (أدوين)، وهو يهتف:
فليكن.. اقتلني إذن أيها العربي.. اقتل رجلاً أعزل.
هز (باسل) رأسه نفيا، وقال:
- كلا يا (أدوين).. أنت مريض نفسيا، ومن غير المنطقى أن أقتل رجلا مريضا.. بل ليس من الرحمة أن أفعل
صرخ (أدوين):
- بل أنت جبان.. عربى جبان
قال (باسل) في صرامة:
- كنت أعلم أن صفاقتك ستقودك إلى هذا؛ لذا فقد أعددت بنفسي سيناريو المشهد الأخير في هذا السباق.
وفي هدوء، خفض ساعديه عن صدره، فتألقت عليه نجمة المأمور للامعة، في حين ألقى هو مسدس (فرايد) إلى (أدوين)، قائلاً في حزم:

- خذ يا (أدوين).. سيشبع العقدة النفسية الكامنة في أعماقك، وسننهي الأمر على طريقة رعاة الأبقار
التقط (أدوين) المسدس، وارتجفت أصابعه وهو يدسه في جرابه، قائلاً:
- فليكن أيها العربي.. ستعلم الآن من الفارس في هذا المجال
أجابه (باسل) في برود:
- أطبق شفتيك، واستعد للقتال
تراجع (أدوين) عدة خطوات إلى الخلف، وتراقصت أصابعه وهو يستعد لالتقاط مسدسه، في حين اتخذ (باسل) وقفة
مماثلة، على طريقة أفلام رعاة الأبقار القديمة، وقال في هدوء:
- هيا يا (أدوين).. سأترك لك فرصة البدء
في هذه اللحظة بالذات، ظهرت الهليكوبتر في سماء المدينة، وهتف الطيار:
- ها هما.. يا للعجب! إنهما سيتبارزان على الطريقة القديمة.
هتف المصور في حماس:
يا له من مشهد! (أدوين) يواجه عربيا، بأسلوب رعاة الأبقار.. إنه مشهد العمر
أعد آلة التصوير، وراح يلتقط المشهد في لهفة، في حين قبض (أدوين) عضلاته كلها، وقال:
- إنها نهايتك أيها العربي
تمتم (باسل) في هدوء صارم:
- بل هو مشهدك الأخير يا (أدوين).
مضت لحظات من الصمت، ثم صرخ (أدوين):
- مت أيها العربي
وسحب مسدسه في سرعة، ولكن (باسل) كان الأسبق، فقد جذب مسدسه كالبرق، وأطلق منه رصاصة واحدة..

رصاصة أصابت مسدس (أدوين) وأطاحت به بعيدا، قبل أن تنطلق منه رصاصة واحدة
وهتف المصور في انبهار:
- لقد هزمه.. هزم (أدوين).. يا للروعة! لقد حطم غرور فارسنا تماما
أما (أدوين)، فقد اتسعت عيناه في ذهول، لم يلبث أن امتزج بالغضب، وهو يهتف:
- أين تعلمت هذا أيها العربي؟
أجابه (باسل) في هدوء:
في ناد للرماية يا (أدوين).. كانت لعبة، أمارسها منذ صباى.
تفجر الغضب في وجه (أدوين) وانقض على (باسل)، صارخا:
- لن تهزمني أيها العربي.. لن تهزمنى
ولكن (باسل) استقبله بلكمة كالقنبلة، ألقته أرضا فاقد الوعي، وصرخ المصور:
- لقد فعلها.. العربي فعلها
تردد هتافه مع هبوط الهليكوبتر، إلى جوار (باسل)، وصاح به الطيار:
- أأنت بخير يا فتى.. هل أتصل بمستر (ليوناردو) ليطمئن؟
أجابه (باسل) في حزم:
- بل اتصل بالشرطة
تبادل الطيار نظرة متوترة مع المصور، وقال:
- الشرطة! ولكن (أدوين) هو شقيق مستر (ليوناردو)،
قاطعه (باسل) في صرامة:
- لا يعنيني شقيق من هو.. إنه بالنسبة لي مجرد مجرم قاتل وأنا مصر على تسليمه للعدالة.. لقد أخطأ (أدوين) كثيرا، ومن العدل أن يلقى جزاءه

ابتسم المصور، وقال:
- صدقت أيها العربي.. من العدل أن يسدل الستار أخيرا على جنون (أدوين) وعقده.. إنه المشهد الأخير بحق.

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

ذلك اليوم

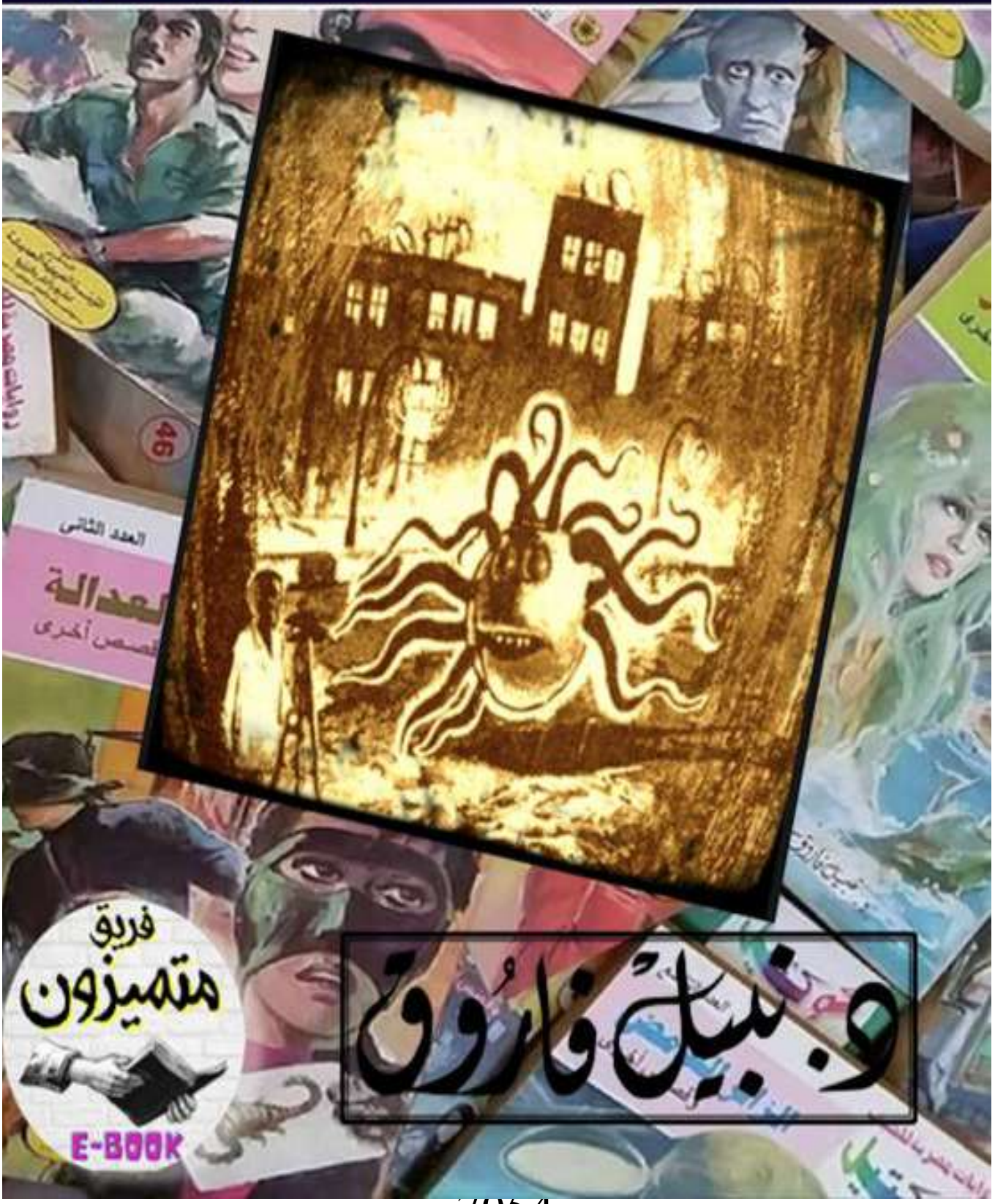

وَنبيل فارُوق

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

) كلمه مهمة (:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

ذلك اليوم

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

ذلك اليوم

كل شيء كان يسير على النمط المعتاد في الحي..
حتى ذلك اليوم..
دخان عجيب، تصاعد عبر شق كبير، في منتصف الشارع..
دخان أثار موجة من التساؤلات..
والقلق..
والخوف..
ولكن ذلك الدخان كان مجرد بداية..
فما حدث بعدها، كان الرعب بعينه..
في ذلك اليوم..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- الشق..

لا أحد يدري كيف بدأ ذلك الأمر..
لا أحد رصد علاماته الأولى..
كل ما يذكره سكان ذلك الحي الفقير، شبه المنسي، عند أطراف العاصمة، هو أن الطريق فجأة لم يعد صالحا لمرور السيارات..
شق صغير ظهر في منتصفه ذات يوم، ثم راح يتسع..
ويتسع..
ويتسع..
لم يحدث هذا بسرعة ملحوظة حتما، وإلا لأثار ألف ألف علامة استفهام..
ولكن الشق بدأ كضربة معول في منتصف الشارع القديم، ثم لم يلبث بعد شهر كامل، أن أصبح حفرة باتساع عشرة سنتيمترات، ولم يمض العام، حتى كان طرفيه قد هاجرا إلى الجانبين، فقطع الشارع كله..
عندئذ، أصبح مرور السيارات عسيرا
كان الأطفال يعبثون بذلك الشق، ويلهون عنده، ويمتعهم أن يلقوا حصاة داخل ظلمته، ويرهفون أسماعهم، فلا يبلغهم صوت ارتطامها بالقاع قط حول الشق الكبير..
وفي كل مرة، كان انتظارهم يطول ويطول، ثم لا يلبث أن يتحول إلى ضحكات طفولية مرحة، وصفقات بأكف صغيرة،، جذب الأمر انتباه بعض شباب الحي، فأشعلوا من القماش، مبللة بالبنزين، وألقوها في الشق، وراحوا يتابعون سقوطها، وهي تبتعد، وتبتعد، وتبتعد، وضوؤها يخبو، ويخبو، ويخبو ولم

يتوقف ابتعادها أبدا ولم ينطفئ ضوء لهيبها إلا بعد وقت طويل..
ومن هنا، بدأ الكل يتحدث عن ذلك الشق، الذي يبدو وكأنه يغوص حتى أعمق أعماق الأرض وبدأ الخوف منه. أو حتى من المرور به..
كل المارة كانوا يتجنبون محاولة القفز عبره، على الرغم من أن اتساعه لم يكن قد زاد عن عشرين سنتيمترا، وإنما كانوا يلتصقون بجدار أحد المنزلين على الجانبين، ويعبرون على جواره، وهم يتطلعون إليه في شيء من الخوف والرهبة، وكأنما سيقفز الشيطان نفسه خارجه بغتة دون سابق إنذار..
ومع الفكرة، بدأت الأمهات لعبة إرهاب الصغار، التي نمارسها كلنا في عالمنا، دون أن نقدر عواقبها وتبعاتها..
فإذا ما أساءوا التصرف، سيخرج الشيطان من شق الشارع، ويأخذهم معه إلى الأعماق
كلهن رددن هذا..
وكلهن أرهبن صغارهن..
وأصبح الصغار يخافون الشق، ويرهبونه، ويخشون مجرد المرور إلى جواره.. و
لا أحد يدري متى أو كيف حدث هذا!!
المهم أنهم وجدوه هكذا وتحول الخوف إلى فزع.
وفي الوقت نفسه، وذات ليلة من ليالي الشتاء الباردة، ازداد اتساع الشق دون مقدمات أوى الناس إلى أسرتهم واتساع جانبيه لا يزيد عن السنتيمترات العشر، واستيقظوا ليجدوها قد زادت عشرا
فزع من ذلك الشق الغامض، ومن وقوع الصغار المحتمل فيه، ومما قد يجلبه من باطن الأرض..

ومع الفزع، انهالت الشكاوى على إدارة الحي، تطالبه بسرعة إغلاق وسد ذلك الشق، قبل أن يزداد اتساعا، ويؤدى فى المستقبل إلى كارثة وكالمعتاد، تباطأت إدارة الحي في تنفيذ إرادة سكانه، واكتفت بإرسال مهندس، ألقي نظرة على الشق، ثم دون بضع كلمات في كراس كبير معه، ورحل في سيارة الحكومة ولم يحدث أي شيء بعدها..

ولأن الناس أصبحت تخاف ذلك الشق بالفعل، تطوع الحاج(عوض)، وهو مقاول بلدى من سكان الحي، يعمل في كار المعمار منذ نعومة أظافره، دون أن يجيد القراءة والكتابة، وأحضر على نفقته الخاصة عدة أجولة من الأسمنت والرمل، وفريق من العمال؛ لسد ذلك الشق..

ولقد عمل الكل حقا بمنتهى النشاط، وبذلوا أكبر جهد ممكن، وأفرغوا أكثر من عشرة أجولة من الأسمنت والرمال في الشق ولكنها لم تكف ليس هذا فحسب، ولكنها حتى لم تحدث أدنى أثر، وكأن الأعماق قد ابتلعت كل هذا، وتجشأته، دون أن تصاب حتى بعسر الهضم..

وهنا وقف الحاج (عوض) حائرا، أمام ذلك التحدى، الذي لم يواجه مثله في حياته كلها، ثم توصل أخيرا إلى فكرة جديدة، فبدلا من محاولة ردم الشق، قام بتغطيته بألواح سميكة من الصلب، وصب فوقها الأسمنت المسلح، وأخفى الشق تماما وتنفس الحي كله الصعداء، وقضى ليلة دافئة هانئة، لأول مرة منذ زمن طويل بل ثلاث ليال كاملة..

ولكن في الليلة الرابعة، وبعد منتصف الليل بقليل، ارتج الحي كله، على نحو أصاب الجميع بالفزع، فهرعوا خارج منازلهم، هربا مما تصوروه زلزال عنيف..

وكانت المفاجأة أكثر عنفاً

أربعون سنتيمترا، فيها كل الخوف وكل الرعب..

الحديد الذي يغطي الشق، والأسمنت المسلح فوقه، كلها تحطمت، طبقة بعد الأخرى، وظهر الشق من تحتها، وقد زاد اتساعه عشر سنتيمترات أخرى..
أربعون سنتيمترا أصبحت تفصل بداية الشارع عن نهايته ولدقائق كاملة، لا يدرى عددها إلا الله (سبحانه وتعالى)، وقف الكل يحدقون في ذلك الشق الرهيب، وقد راودتهم فكرة السعي للبحث عن سكن آخر، على الرغم من أزمة المساكن الطاحنة..
وعلى الرغم من تأخر الوقت، اجتمع كبار الحى مع بعضهم البعض يتباحثون بشأن الموقف، الذي أعلن الحاج عوض عجزه عن إيجاد حل منطقى له، ووعد باستشارة أولى الأمر ولأنه يدرك عقم اللجوء إلى الحكومة، المنشغلة طوال الوقت بحماية القادة وكبار الشخصيات فقط، فقد اتجه الحاج(عوض) بتفكيره إلى ابن شقيقه الأصغر الدكتور (محمود)، أستاذ الجيولوجيا بكلية العلوم، والذي لا يمل الحديث دوماً عن الأرض وطبقاتها، مما لا يستوعب منه الحاج (عوض) سوى أنها مثل البشر، طبقات فوق طبقات..
ولقد استقبل الدكتور (محمود) عمه (عوض) بكل الترحاب بل التقدير، فعلى الرغم من أن مظهر الأخير وأسلوبه، وحتى نمط حديثه، كلها تشف عن طبقته، التي تتعارض حتما مع أستاذ جامعي له مكانته المرموقة مثل الأول، إلا أن (محمود) لم ينس أبذا أن نقود عمه هي التي ساعدته على إكمال تعليمه، بعد رحيل والده، وأنه لولاه لما أصبح ذلك الأستاذ الجامعي، صاحب المؤلفات الشهيرة، في علم الجيولوجيا وطبقات الأرض..

وفي اهتمام شديد، استمع (محمود) إلى عمه (عوض)، ودون بعض الأرقام في ورقة أمامه، قبل أن يسأله:
- ماذا عن الشوارع الموازية لشارعكم؟!
سأله الحاج (عوض) في حيرة:
- ماذا عنها؟!
- هل ظهرت فيه أية آثار مماثلة؟!
لم يتردد الحاج (عوض) لحظة واحدة، وهو يجيب في سرعة:
- مطلقا.
تطلع إليه (محمود) مندهشا، فتابع موضحا:
- كان هذا أول ما خطر ببالي، عندما ظهر الشق، ولكنني لم أجد أي امتداد له، في أي من الشوارع الأخرى
سأله في سرعة:
- وماذا عن جدران المنازل عند الجانبين.
هز الحاج (عوض) رأسه نفيا، مجيبا:
- كلها سليمة.
تراجع الدكتور (محمود) في مقعده، وراح يفكر بضع لحظات في عمق، ويحاول تطبيق ما لديه من بيانات على ما درسه طوال حياته، عن الأرض وطبقاتها، إلا أن المعطيات لم تتفق مع كل النتائج، لذا فقد اعتدل، قائلا في حزم:
- فليكن.. دعنا نلقي نظرة على ذلك الشق أولاً..
كان هذا ما يأمله الحاج (عوض) بالضبط؛ لذا فقد اصطحب ابن شقيقه إلى سيارته الفاخرة، وانطلق به فورا إلى شارعهم، وطوال الطريق لم يتوقف عن إعادة سرد القصة كلها من أولها، وكأنما يؤكد كل معلومة للدكتور (محمود)، الذي استمع في صبر وصمت، حتى بلغا بداية الشارع، فأوقف الحاج (عوض) سيارته، وقال:

- لا يمكننا التقدم بالسيارة أكثر من هذا؛ فذلك الشق يقطع الطريق كما أخبرتك..
غمغم الدكتور (محمود)، وهو يرتجل من السيارة:
- بالتأكيد
سار إلى جوار عمه، وعقله ما زال يدرس الموقف، ويعيد حساباته، و..
وفجأة، استوقفهما أحد رجال الحاج (عوض)، وهو يعدو لاهثًا مذعورا، وهاتفا:
- الشق.. الشق يا (حاج)
انعقد حاجبا الدكتور (محمود) في توتر، في حين تساءل الحاج (عوض) في شيء من الذعر:
- ماذا أصابه؟! هل.. هل اتسع؟!
هز الرجل رأسه نفيا في قوة، قبل أن يجيب بكل الرعب:
- بل.. اشتعل. و
وتضاعفت دهشة الدكتور (محمود) وحيرته..
في حيرة شديدة، وقف الدكتور (محمود)، مع عمه الحاج(عوض)، وعدد من سكان الحي، يحدقون في ذلك الشق المتسع، الذي يتصاعد منه دخان أسود، في كثافة عجيبة كان دخانا داكنا، له رائحة مخيفة، يوحي بأن شيئا فاسدا يحترق هناك في الأعماق في أعمق الأعماق..
شيء نجس
عفن..
شرير..
وفي رعب شديد، غمغم أحد السكان، وهو يبتعد عن الشق:
- إنه الشيطان.. الشيطان نفسه..

رمقه الدكتور (محمود) بنظرة استنكار، وعقله يدور، بحثا عن تفسير علمى منطقى، لما يحدث أمامه إنه أمام شق متسع عميق، عجز الكل عن سبر غوره، وتتصاعد منه الآن أدخنة كثيفة، ذات رائحة مزعجة ماذا يمكن أن يكون تفسير هذا؟!
أهو شق يمتد حتى باطن الأرض؟!
ربما هذا هو التفسير العلمي الوحيد باطن الأرض، حيث الحمم، والغازات، التي يمكن أن تصنع هذا الدخان الكثيف، نفاذ الرائحة ولكن، أيمكن حدوث هذا علميا؟!
أيمكن أن يحدث شق ما، في قلب المدينة، فيبلغ أعماق الأرض، ويخترق كل طبقاتها، حتى يبلغ طبقة الحمم؟!
أيمكن هذا؟!
راح عقله يجد، ويدرس، ويفكر، ويحلل، قبل أن يقاطعه عمه (عوض)، متسائلا:
- ماذا سنفعل؟!
كان هذا هو السؤال الذي يخشاه بحق؟!
ماذا سيفعلون؟!
الكل شخصوا بأبصارهم وأفكارهم وآمالهم نحوه، باعتباره أكثرهم علما ومعرفة، في حين أنه يجهل تماما كل ما ينبغي...
موقف لم يمر به من قبل...
أو يتصور حتى مروره به من قبل وربما الأفضل أن يجرى اتصاله بالمسئولين أن يبلغهم مدى خطورة الأمر، وحتمية سرعة إنجازه نعم.. هذا هو أفضل ما يفعله.....
لم يكد عقله يستقر على الفكرة، حتى قال في شيء من الحماس:
لابد وأن نبلغ المسئولين..

أدرك على الفور، صدى الإحباط، الذي ولدته عبارته في وجوههم ونظراتهم، من قبل حتى أن يقول عمه:
. المسئولون لا يفعلون شيئا
أجابه في حماس:
- الأمر يتجاوز قدرات الأفراد.. إنه يحتاج إلى تدخل جهة عليا
سأله أحد السكان:
- مثل من؟!
- أي مسئول!
جاء السؤال ليلطمه في عنف، ويدفعه إلى التساؤل أيضا نعم.. من يبلغ، في هذا الشأن؟!
من؟!
أهي الشرطة؟!
أم الجيش؟!
أم وزارة البيئة؟!
أم حتى إدارة الحي؟!
من المسئول عن مواجهة مثل هذا الموقف العسير العجيب حار الجواب في رأسه، فهزه في قوة، وهو يقول، في شيء من العصبية:
من يمكن ان يقول لهم..
تضاعفت الحيرة في وجوههم، قبل أن يندفع أحدهم، مقترحا في حماس:
- فلنبلغ الشرطة، ولتبحث هي عن الجهة المسئولة عن هذا
استحسن الكل الاقتراح، وأيدوه بصوت مرتفع، باستثناء الحاج (عوض)، الذي بدا متشككا، وهو يغمغم:
- فليكن، ولكن يوم الحكومة بسنة. و

كان هذا مخرجا، ارتاح الدكتور (محمود) للعثور عليه، حتى يمكنه العودة إلى مكتبه، ومطالعة مراجعه، والبحث فيها عن حالة مماثلة مسجلة، تشرح له ما حدث، وتمنحه وسيلة التعامل معه، وفق خبرات الآخرين ولأنه لم يشأ أن يمضى، دون أن يحدث تأثيرا دون أن يحدث تأثيرا ما، فقد أشار بيده في حزم، قائلاً:

- حتى تأتى الشرطة لتقوم بعملها، سنضع كردونا حول الشق، ونمنع الكل من الاقتراب منه مؤقتا

تحمس الكل لأمره، وأسرعوا يتعاونون؛ لصنع حاجز بدائي، منع الاقتراب من الشق، في حين ألقى الدكتور (محمود) خطبة عصماء، خالية من أي مضمون، قبل أن يحمله عمه في سيارته؛ لإعادته إلى الكلية، وهو يهز رأسه، قائلاً:

الشرطة لن تصنع شيئا.

غمغم الدكتور (محمود):

- إنهم المسئولون..

لوح عمه بيده في الهواء، قائلاً:

- هذه مشكلتكم أيها المثقفون.. تنشغلون بأمور سطحية عن الوقائع.. كل ما يقلقكم هو المسئولية، ومن سيتحملها..

غمغم الدكتور (محمود) في حذر:

- هذا أمر طبيعي.

أجابه في حدة:

- كلا بالطبع.. المهم هو حل المشكلة، وليس البحث عمن تلقى عليه المسئولية

غمغم الدكتور (محمود) في عصبية:

- وكيف يمكن حلها؟!

صاح عمه في غضب:

- أتسألني أنا؟!!
شعر (محمود) بخجل حقيقي، مع عبارة عمه الأخيرة، وأقسم في أعمق أعماقه أن يجد الحل، حتى ولو قضى ليلته كلها بحثا وفي مكتبه، جمع كل المراجع الممكنة، وراح يبحث فيها عن الأسباب العلمية، التي يمكن أن تؤدي إلى حدوث شق كهذا، في منطقة سكنية
بحث في كل الكتب
والمراجع..
وعبر شبكة الإنترنت..
وجاءت النتائج كلها سلبية..
الواقعة كما حدثت، لا مثيل لها في كل المراجع قط..
فقد يظهر شق كهذا، عقب زلزال عنيف، أو بعد انفجار بركاني قوى..
ثم إنه، في كل الأحوال، لا يمكن أن يمتد إلى هذا العمق العميق!
توقف طويلاً عند الكلمة، وانتبه إلى أن كل معلوماته عن عمق ذلك الشق، استقاها من تجارب شبان الحي..
إنه لم يجر بنفسه تجربة علمية واحدة، لكشف هذا..
ولا تجربة..
بسرعة، بحث وسط معداته عما يصلح لهذا، وانتقى مقياس عميق، يستخدم في الأخاديد، وجهاز قياس صوتى ارتدادى، وقرر أن يقيس بنفسه عمق الشق لم يدر، لماذا سرت في جسده تلك القشعريرة الباردة كالثلج عندما راودته فكرة العودة إلى ذلك الشق ولا لماذا شعر بكل هذا الخوف!! -
ولكنه قاوم
وقاوم..
وقاوم

واستقل سيارته هذه المرة، عائدا إلى ذلك الحي، الذي يقيم فيه عمه (عوض)
كان يقترب من الحي، وجسده كله ما زال يرتجف، عندما ارتفع رنين هاتفه المحمول بغتة، فانتفض جسده كله في عنف، وهو يلتقطه من جيبه، قائلاً في لهجة عصبية، لم يستطع السيطرة عليها:
- نعم يا عمي.. أنا في طريقي إليك، وأمامي..
قاطعه عمه (عوض)، بصوت شديد الذعر والارتجاف:
- الأمور تطورت بسرعة.. لقد عرفنا إلى أين يقود ذلك الشق.
سأله في توتر:
- إلى أين؟!
أتاه الجواب ليفجر في أعماقه الدهشة..
كل الدهشة..

☆ ☆ ☆

«عالم الجن؟!»
هتف الدكتور (محمود) بالعبارة، بكل استنكار الدنيا، فتلفت الحاج (عوض) حوله في توتر شديد، وهو يشير إليه بالصمت هاتفا في رعب:
- حذار
صاح به في غضب
- مم؟! ما تقوله لا ينطبق على أي علم في الوجود يا عماه جان ماذا وكلام فارغ ماذا؟!
هتف عمه في ذعر:
- لا تكفر يا ولدي.. الجان مذكور في القرآن.
صاح الدكتور (محمود) في حدة:

- لا يعني هذا أن ننسب إليهم كل ما نعجز عن فهمه.. هناك جان، وهناك أيضا علم، ومعرفة، وثقافة، و..
قاطعه عمه مرتجفا:
- إنهم الجان هذه المرة
هتف محنقا:
أي قول
قاطعه عمه، قبل أن يكمل هتافه:
ولدينا شاهد على هذا
توقف الدكتور (محمود)، ليهتف في مزيج من الدهشة والغضب:
- شاهد؟!
أمسك عمه ذراعه، وجذبه إلى حارة جانبية، قريبة من ذلك الشق حيث التف الناس في دائرة كبيرة، انفرطت فور قدومهما، فرأى في وسطها شاب نحيل، شاحب إلى درجة تقارب الموت، ويرتجف بشدة على مقعد خشبي، وهو يهتف:
- لقد رأيته.. رأيته بنفسي
أمسك الدكتور (محمود) كتفيه، وسأله بمنتهى الصرامة:
- ما الذي رأيته؟!
اتسعت عينا الشاب في رعب هائل، يؤكد أنه عاش بالفعل تجربة قاسية، وارتجف صوته على نحو لم يحدث من قبل، وهو يجيب:
- الجني.. لقد رأيته بنفسي.. لقد صعد من الشق، واختطف صديقه (هيثم).. الجنى خطفه، وعاد به إلى القاع..
قالها، وانهار تماما، وراح يبكي في هستيريا، تاركا خلفه قنبلة من الدهشة والحيرة قنبلة رهيبة
بلا حدود

☆ ☆ ☆

٢ - الجنى..

حدق ضابط الشرطة في وجوه الواقفين أمامه، في مزيج من الدهشة والقلق والاستنكار، قبل أن يهز رأسه في قوة، ويلتفت إلى ذلك الشق، قائلاً في عصبية:

- هل تتوقعون أن أصدق قصة سخيفة كهذا؟!

غمغم الدكتور (محمود):

. هناك شاهد، و

قاطعه الضابط في حدة:

- حتى لو ألف شاهد

غمغم الدكتور (محمود) في إصرار:

- هناك شاهد

ثم لوح بيده في غضب، مضيف:

- ما من عاقل يمكن أن يصدق قصة كهذه.. جني يخرج من باطن الأرض، ويختطف شابا، ثم يعود به إلى الأعماق!! أية حماقة هذه؟!

صرخ الضابط:

- أي شاهد؟! هل ستكذب عينك، وتصدق مثل هذه الحماقات يا رجل؟! انظر إلى ذلك الشق الذي تتحدث عنه.. إنه لن يتسع حتما لجسد شاب ناضج، فكيف بالله عليك يخرج منه جنى ويغيب فيه شخص ما..

بدت الحيرة على وجه الدكتور (محمود)، وهو يحدق في الشق بدوره، ويطرح على نفسه الأسئلة ذاتها، في حين قال الحاج (عوض) في توتر:

كيف تفسر اختفاء الشاب إذن؟!

التقط الضابط نفسا عميقا، وألقى نظرة أخرى على الشق، ثم أجاب في حدة:
- جريمة قتل.
ونقل بصره إلى الشاب الآخر، الذي شاهد ما حدث، وأضاف في صرامة:
وقصة في منتهى الحماقة؛ لتغطية هذا.
امتقع وجه الشاهد، وهو يهتف:
- أقسم بالله..
قاطعه الضابط في غضب:
- إياك أن تقسم..
التقط الدكتور (محمود) نفسا عميقا، وقال:
- في هذه الحالة يبقى لدينا سؤال شديد الأهمية والخطورة أين القتيل
أشار الضابط إلى الشق، قائلا في حزم:
- هنا
هتف الحاج (عوض):
- ولكنك قلت منذ لحظات..
قاطعه الضابط في عصبية:
- يمكنك أن تحشرها فيها؛ فالموتى لا يقاومون، ولا يشعرون بالألم
امتقع وجه الشاهد أكثر، وهو يهتف:
أتقصد أنني قتلته، وحشرت جثته في الشق.
التمعت عينا الضابط، وهو يقول في انفعال:
- أنت قلتها
هتف الشاب:
- ومتى فعلت هذا؟!

انعقد حاجبا الضابط،: وبدا تساؤله على ملامحه؛ فتابع الشاهد في توتر:
- الناس كانت تسير في الشارع، ولم نبق وحدنا سوى لحظات قليلة، فمتى قتلته، وحشرت جثته في الشق، وحتى لو فعلت فأين هو؟!
بدت الحيرة أكثر وضوحا، على وجه الضابط، والكل يتطلع إليه، في انتظار جواب، ولكنه عجز عن منحهم أية أجوبة فهتف بجنوده في عصبية:
- ألقوا القبض عليه
انقض الجنود على الشاهد، وكأنما وجدوها فرصة لإنهاء الموقف، والانصراف بعيدا عن ذلك الشق، الذي يثير في أعماقهم رعب مبهم، منذ وصلوا إلى الحي وفي ذعر، صرخ الشاهد:
- لم أقتله.. أقسم أنني لم أفعل
صاح به الضابط:
قلت لك: لا تقسم.
اقتاده الجنود إلى سيارة الشرطة، والدكتور (محمود) يقول في غضب متوتر:
- أنت مخطئ
قال الضابط في حدة:
- ربما.
وألقى نظرة عصبية أخرى على الشق، قبل أن يضيف:
- ولكن هذا هو المنطق الوحيد هنا...
حاول سكان الحي إقناعه بالعكس، إلا أنه واصل إصراره على اعتقال الشاهد، وانصرف مع رجاله من الحي كله، فهتف الحاج (عوض) في غضب:

- لم يهتم حتى بوجود الشق.
غمغم الدكتور (محمود):
- أو ربما شعر بالخوف منه
أجابه أحد السكان مرتجفا:
- كلنا هذا الرجل
رمقه الدكتور (محمود) بنظرة جانبية، ثم أدار عينيه إلى الأفق، حيث راحت الشمس تختفي، وقال:
- لو أن الشرطة تجاهلت الأمر، فلا ينبغي أن نفعل نحن هذا..
سأله عمه:
.. وماذا يمكننا أن نفعل؟! لقد حاولت سده، ولكن هيهات..
أشار بيده، قائلاً:
- هذا لأننا نفتقر إلى أهم سلاح في مواجهته
تطلع إليه الكل في تساؤل، فتابع في حزم:
- المعلومات
كرر عمه في حيرة:
- المعلومات؟
أجابه الدكتور (محمود) في حماس:
- بالطبع.. سأعود إلى مكتبي، وسأحضر بعض المعدات المتقدمة، وأجهزة التصوير المتطورة، وسنحاول أن نعرف أولاً ماهية ذلك الشق، وبعدها سنعرف تلقائيا، كيف نتعامل معه
سأله عمه في قلق:
ومتى ستفعل هذا؟!
كان الظلام يزحف بالفعل، فقال في حزم:
- مع أول ضوء من صباح الغد.
التقط عمه (عوض) نفسا عميقا، وأجاب بمنتهى الحزم:
- لست أظننا نستطيع الانتظار إلى الصباح

تردد الدكتور (محمود) لحظات، فأضاف عمه في حزم أكثر:
- سأرسل سائقا معك، لإحضار كل ما يلزمك، ولتبدأ عملك الليلة.. ما زال الليل طويلا..
لم يكن الدكتور (محمود) يرغب في الاقتراب مجرد الاقتراب من ذلك الشق، بعد هبوط الليل، إلا أنه لم يكن يستطيع معارضة عمه وولي نعمته أيضا، لذا فقد وافقه، وعاد مع سائق من الحي بالفعل، لإحضار معداته، في حين أحاط الحاج (عوض) الشق برجاله، مع إضاءة قوية، خشية أن يتكرر ما حدث، وقد وقر في نفوسهم جميعا، أن ذلك الشق يقود بالفعل إلى عالم الجان في الأعماق..

ولقد أحضر الدكتور (محمود) الكثير من المعدات بالفعل، مع آلة تصوير أعماق حديثة، وعاد إلى الشق، وقد أسدل الليل أستاره، وبدا الأمر كله مخيفاً أكثر..
وفي قلق حذر، التف الكل حوله، يراقبون ما ينصبه من معدات، على جانبي الشق، وأثار انتباههم بشدة ما بدا أشبه بونش صغير، له بكرة ضخمة من الأسلاك، ثبت الدكتور (محمود) آلة تصوير الأعماق في نهايتها، وقال وهو يشرح ما يفعله، منتقيا أبسط الكلمات، ومتحاشيا أية مصطلحات علمية معقدة:
- سننزل الكاميرا في الشق، والكابل سينقل لنا صورة ما يحدث هناك..
غمغم الحاج (عوض)
- في هذا الظلام؟!
أجابه الدكتور (محمود):

- هناك مصباح في قمتها.. ثم إنها كان يريد أن يضيف أنها مجهزة بالأشعة دون الحمراء؛ للرؤية الليلية، إلا أنه خشي أن أحداً لن يفهم، فصمت لحظة ثم أضاف في حزم:
- لا تقلق نفسك يا عمى.. ستقوم بعملها على خير وجه.
تمتم الحاج (عوض):
- أتعشم هذا.
تعلقت العيون كلها بالدكتور (محمود)، وهو ينزل الكاميرا في أعماق الشق، ثم يشعل شاشة صغيرة أمامه، نقلت ما تلتقطه أثناء رحلتها..
في البداية، بدا كل شيء عاديا جدا.. شده رشته مجرد طبقات أرضية، متراصة على النحو نفسه، الذي درسه ويدرسه لطلبته، و..
وفجأة، ارتجت الكاميرا في عنف، وارتجت معها الصورة على الشاشة، واصطبغت كلها بلون أحمر زاه، ثم عاد كل شيء إلى طبيعته..
وبكل رعبه، هتف الحاج (عوض):
- أرأيت؟!
استغرق هذا ثانية واحدة، ولكنه أثار في أعماق الكل رعبا ما بعده رعب.
هتف الدكتور (محمود) في حدة:
- وماذا رأيت؟! عطل لحظي في الكاميرا.. مجرد عطل لقد عادت للعمل فورا.. أليس كذلك؟!
لم يحاول أحدهم إجابته، وكلهم يحدقون في الشاشة، فأضاف في حدة أكثر: -
- دعونا نطرح هذه الخزعبلات جانبا، حتى لا نوهم أنفسنا بما لا يوجد فعليا..

مرة أخرى، لم يجب أحدهم بحرف واحد، وظلوا يحدقون في تلك الشاشة، والكاميرا تغوص في الأعماق..
وتغوص..
وتغوص
وفجأة، ارتجت مرة أخرى..
واصطبغ كل شيء بذلك اللون الأحمر القاني وفي هذه المرة، انطلقت من حلوق الجميع شهقة رعب هائلة حتى حلق الدكتور (محمود) نفسه فما ظهر على الشاشة، في اللحظة التالية، كان رهيبا..
رهيبا بحق..
الكل رأى ما رأه..

☆ ☆ ☆

منتصف الليل بالضبط..
جسد الدكتور (محمود) ما زال يرتجف ويرتجف، كلما أعاد مشاهدة ذلك الشريط، الذي سجلته كاميرا الأعماق، داخل ذلك الشق والكل أصيب بالفزع والرعب أما هو، فأصابه الذهول..
فما ظهر على الشاشة، وسجله شريط الفيديو، لم يكن أمرا عاديا أو مألوفا، أو حتى متوقعا لا داخل ذلك الشق، ولا حتى خارجه فخلال غوصها في الأعماق، مرت أمام الكاميرا، وللمحة استغرقت نصف ثانية على الأكثر، أنياب. نعم.. أنياب حادة، مسنونة، مشرشره، أشبه بأسنان سمكة القرش، تحيط بها بشرة حمراء كالدم وعلى الرغم من أن المشهد لم يستغرق سوى لمحة، فقد سقطت القلوب بين الأقدام، وشاع الرعب في كل من شاهده وفور ظهوره على الشاشة، انطلقت الصرخات من الحلوق وراح الكل يعدون في كل مكان، مرددين:
- الجني.. الجني..

ولم تمض ثوان، حتى بقى (محمود) وعمه (عوض) وحدهما عند الشق، يحدقان في الشاشة، ثم في وجهي بعضهما البعض، دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة أو حتى يجرؤ على هذا..
وبدون تبادل كلمة واحدة، انفصل كل منهما عن الآخر، فعاد الحاج (عوض) بخطوات سريعة إلى منزله، واستقل الدكتور محمود) السيارة، بعد أن لملم أجهزته، وانطلق عائدا إلى مكتبه وهناك، في مكتبه أعاد مشاهدة الشريط مرة..
وثانية..
وثالثة..
ورابعة..
شاهده مائة مرة على الأقل، قبل أن يثبت المشهد، ويقترب من الشاشة، حتى كاد يلتصق بها، محاولاً التيقن مما شاهده نعم..
إنها أنياب.. أنياب كائن ما.. أو حيوان ما..
تراجع في عصبية، والتقط أحد مراجعه، وراح يبحث عن أي كائن يمكن أن يحيا في أعماق الأرض كائن له تلك الأنياب..
أو حتى كائن عادي، ربما تحور من الزمن، ونبتت له تلك الأنياب الحادة المخيفة..
ولكن كل مراجعه لم تشر إلى ذلك الشيء قط..
لا توجد كائنات على هذا النحو، تحيا في أعماق الأرض..
لا توجد أية كائنات طبيعية هناك..
شعر بالانفعال والانبهار، عندما بلغ هذه النقطة، وبدا له أنه أمام كشف علمي بالغ الخطورة، وأن تلك المراجع، التي تملأ مكتبه، لن تلبث أن تضم اسمه، باعتباره مكتشف حياة جديدة، تحت سطح الأرض ويا له من كشف!!
إنه لن يغير تصنيف الممالك البيولوجية فحسب، ولكنه سيغير أيضا مفهوم الحياة، التي يبحث عنها العلماء، في الكواكب

الأخرى..
عشرات الكواكب تم رصدها، ولم تظهر أية حيوات عاقلة على سطحها، فاستبعد العلماء وجود الحياة عليها..
ولكن كشف حياة أرضية، تحيا في أعماق الصخور، سيعيد النظر حتما في تلك الأمور، وسيدفعهم لإعادة البحث عن مخلوقات حية، في كواكب تصوروا خلوها منهم..
وبكل انفعاله، راح يعيد دراسة المشهد، على ضوء تلك الفكرة المبهرة الجديدة
إنه كائن أحمر البشرة، مما يوحي بأن قشرته الخارجية ملتهبة أو أن لديه مصدرا قويا للأكسجين هناك، في الأعماق راح يجرى حساباته، ودراساته، ويحاول استنباط التركيبة البيولوجية لذلك الكائن، وفكر جديا في الاستعانة بواحد من زملائه، في قسم البيولوجيا، و...
وفجأة، اقتحم عمه (عوض) مكتبه..
كانت عقارب الساعة قد تجاوزت الثانية والنصف صباحا، مما أفزعه، وأدهشه، فهتف في توتر بالغ:
- عمي؟! كيف سمح لك الأمن بـ..
قاطعه عمه في عصبية:
- ولماذا تعمل أنت حتى هذه الساعة؟!
أشار (محمود) إلى الشاشة، قائلاً:
- كنت أراجع الشريط
مال عمه نحوه، وقال في انفعال، وكل حروف كلماته ترتجف:
- هذا نفس ما منعني من النوم
ثم مال أكثر، وهمس في حزم منفعل:
- لقد وجدت الحل..
وعلى الرغم من معرفته بما يعنيه، سأله الدكتور (محمود):

- حل ماذا؟!
تلفت عمه حوله، وكأنما يخشى أن يسمعه أحد، وهمس بكل التوتر والانفعال:
- سأستخدم الديناميت
تراجع الدكتور (محمود)، وحدق فيه بمنتهى الدهشة، فتابع بكل الانفعال:
- سأنسف ذلك الشيء هناك.
حاول (محمود) لثوان استيعاب الموقف، إلا أنه بدا له شديد التهور والحماقة، وقادر على نسف ذلك الكشف، الذي حلم بأن يضعه في مصاف العلماء المعدودين في العصر الحديث، فهتف:
- هل جننت؟!
تراجع عمه (عوض) مندهشا وتطلع إليه بنظرة منكسرة معاتبة، مما دفعه إلى أن يستدرك في سرعة:
- معذرة يا عماه، ولكن الفكرة يمكن أن تسبب كارثة
أجابه عمه في عصبية:
- سيقتل ذلك الشيء على الأقل
هتف (محمود):
- وربما يتسبب في تصدع نصف منازل الحي أيضا - إننى أتحدث عن كارثة حقيقية.. تفجير تحت الأرض، في منطقة سكنية.. هل تدرك ما الذي يمكن أن يؤدي إليه هذا
اتسعت عينا الحاج (عوض) في ارتياع، وترك جسده يسقط على أقرب مقعد إليه، وهو يغمغم:
- لم يخطر هذا الاحتمال ببالي قط
واصل (محمود) في حزم:
- إننا لا ندرى حتى أين يمتد ذلك الشق بالضبط، فماذا لو أحدثنا التفجير في عمقه، ففوجئنا بالحي كله يغوص في أعماق

الأرض
اتسعت عينا الحاج (عوض) أكثر، وهتف في عصبية بالغة، وتوتر بلا حدود:
- هل سنقف ساكنين إذن؟!
لم يكن لدى (محمود) جواب لهذا، إلا أنه اندفع قائلاً في حماس:
- بل سنواصل عملنا.
فسأله عمه في حيرة:
- أي عمل؟!
أجابه بكل حماسه:
- سنعيد الأجهزة والأدوات، ونضع الكاميرا مرة أخرى في الشق..
بدت الحيرة على وجه الحاج (عوض)، وهو يغمغم:
- ولماذا؟!
لم يكن باستطاعة (محمود) أن يخبره عن دوافعه الحقيقية لذا فقد مال نحوه، وكأنه يخبره بسر خطير، وهو يقول:
- نحتاج إلى صور أكثر وضوحا؛ حتى يمكننا إقناع المسئولين.
حدق فيه الحاج (عوض) بضع لحظات، وكأنما لم يقنعه هذا.. الدافع، وتمتم في شيء من الإحباط:
- المسئولون!
أجابه (محمود) في سرعة:
- لن يمكننا أن نتولى الأمر وحدنا..
حاول الحاج (عوض) أن يهضم الموقف، ثم لم يلبث أن هز رأسه، مغمغماً:
- فليكن..
اعتدل الدكتور (محمود)، وهو يشعر بمنتهى الارتياح، لنجاح خطته، ولم تمض دقائق، حتى كان ينطلق مع عمه، في سيارة

هذا الأخير، عائذا إلى حيث الشق..
كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحا، وخلا الشارع تماما من المارة، الذين لم يخشوا الاقتراب من الشق فحسب، وإنما خشوا حتى فتح نوافذهم، فقبعوا في بيوتهم، وخفضوا أصواتهم واكتفوا باختلاس النظر من خلف شيش النوافذ، في خوف مذعور، وهم يتعجلون شروق الشمس، حتى ينتهى الليل، وما يصحبه من خوف وقلق وذعر..
والواقع أن الشق كان رهيبا بالفعل، في تلك الفترة، فعلى الرغم من الظلام المحيط به، كانت تنبعث منه إضاءة حمراء خافتة، مع تلك الأبخرة السوداء، وكأنه يمتد بالفعل إلى قلب الجحيم..
ولم يستطع الحاج (عوض) كتمان انفعاله، ولا منع جسده من الارتجاف، وهو يقترب منه، مغمغما:
- ألن ينتهي هذا الكابوس؟!
غمغم الدكتور (محمود) بدوره:
. من يدري؟! ربما يحمل شيئا من الخير..
كان يشير إلى تلك الشهرة، التي يحلم بها، والتي يمكن أن يحققها له هذا الشق، في كل المحافل العلمية، إلا أن الحاج (عوض) لم يستوعب المنطق، فهتف مستنكرا:
- خير؟! من هذا؟!
غمغم الدكتور (محمود)، وهو يعيد رص وتركيب أجهزته:
من يدري؟!
ابتعد الحاج (عوض)، واكتفى بمراقبته، وهو يوصل أجهزته، ويبدأ خفض آلة تصوير الأعماق في الشق..
والواقع أن الدكتور (محمود) لم يكن يستطيع كتمان لهفته أيضا، وهو يراقب الشاشة في شغف، متمنيا أن يحصل على صورة جديدة، أكثر وضوحا وتأكيدا..

لم يكن، بحكم طبيعته العلمية، يؤمن بفكرة الجنى والعفاريت، ووجودهما في باطن الأرض، وإنما كان واثقاً من أنه سيعثر هناك على كائن ما..
كائن لم يعرفه البشر من قبل قط..
كائن سيمنحه شهرة واسعة، هائلة، بل وربما يمنحه جائزة(نوبل) في العلوم أيضا
ومع انفعال كل منهما بعالمه، الذي يدور في أعماقه، تعلق بصرهما بشاشة الجهاز، التي تنقل ما تسجله الكاميرا وراحت الكاميرا تغوص وتغوص، وتنقل طبقات الأرض،
واحدة بعد الأخرى، و..
وفجأة، تحرك جسم ضخم أمامها تحرك لحظة، ثم اختفى بسرعة، بزاوية توحي بأنه في طريقه إلى أعلى الشق..
وبكل رعبه، صرخ الحاج (عوض):
- سيهاجمنا..
وحدقا في ذلك الجسم بذهول بمنتهى الذهول.
لم يكد يتم صرخته، حتى وثب ذلك الجسم من الشق، الذي اتسع أكثر وأكثر، وسقط عند قدمي الحاج (عوض) مباشرة.
واتسعت عينا الرجلين عن آخرهما

☆ ☆ ☆

٣ - بالعقل..

ساد الوجوم كل الحاضرين من سكان الحي، وهم يحدقون في مزيج من الرعب والذهول، في تلك الكتلة من اللحم والشحم والدم، التي وثبت عبر الشق إلى الشارع كانت كتلة ممزقة، مهترئة، توحي بأنها بقايا شيء ما أو شخص ما وفي تردد وهلع، غمغم أحد الشباب:

- إنه.. إنه (فكرى).

كان (فكرى) هذا، هو الشاب نفسه، الذي قيل أن المخلوق تحت الأرض قد اختطفه، في ساعة سابقة من ذلك اليوم، لذا فقد التفت الكل إلى الشاب، الذي نطق العبارة، في دهشة بالغة، قبل أن يقول الدكتور (محمود) في عصبية:

- دعونا لا نقفز إلى استنتاجات بعيدة، بهذه السرعة

ارتجف صوت الشاب أكثر، وهو يقول:

- ليس استنتاجا

وبسبابة أكثر ارتجافا من صوته، أشار إلى جزء من كتلة اللحم والدم، مكملا:

- هذا يخص (فكرى).

اتجهت الأبصار كلها إلى حيث يشير، وانتفضت الأجساد كلها في رعب ما بعده رعب..

فهناك، في قلب كتلة اللحم والدم، كان يطل إصبع وسطى به خاتم فضي مميز..

خاتم، عرفه الكل فورا..

خاتم (فكرى)..

وانطلقت الصرخات من الحلوق، وهتف الحاج (عوض)، بكل الرعب والتوتر:
- إنه الجني.. الجني قتل (فكرى)، و...
قاطعه صوت صارم غاضب:
- خطأ.
استدار الكل إلى الشيخ (حسن)، خطيب الجامع، الذي بدا شديد الغضب، وهو يقول:.
الجن ليسوا مسوخا أو وحوشا أو شياطين.. إنهم قوم مثلنا.. فيهم المؤمن والكافر، والطيب والشرير، وليس كل ما نعجز عن فهمه جنى
هتف الدكتور (محمود):
- إننى أتفق معك تماما في هذا يا شيخ (حسن).. إننا نواجه مخلوقا ما.. كائنا لم نر مثله من قبل، ولكنه ليس جنى حتما..

أضاف الحاج (عوض) في توتر:
- أو أننا لا نستطيع الجزم بهذا.
زفر الدكتور (محمود)، قائلاً:
- وتحتاج إلى إبلاغ الشرطة أيضا.
انتفض الحاج (عوض)، هاتفا:
- الشرطة؟!
- فليكن.. المهم أننا، في كل الأحوال، أمام ظاهرة غريبة، تستحق البحث والدراسة..
واجهه الشيخ (حسن)، قائلاً في حزم:
- ولماذا نطقتها بكل هذا الاستنكار يا حاج (عوض)؟! ما أمامنا هو، على الأرجح، بقايا جسد (فكرى)، الذي أبلغنا باختطافه ومن الطبيعي أن نبلغ الشرطة والطب الشرعي عما حدث هنا..

بدا التردد على وجه الحاج (عوض)، فقال الدكتور (محمود) في عصبية واضحة:
- ليس الآن على الأقل..
التفت إليه الشيخ (حسن)، متسائلا:
- ولم لا؟!
لم يستطع أن يخبره أن هذا يتعارض مع طموحه وآماله المستقبلية، وفرصته في سبر أغوار ذلك الشق، وتسجيل المخلوق الجديد؛ إذ أن وصول رجال الشرطة سيوقف أبحاثه حتما
وبسرعة، بحث عقله عن جواب، وقال:
- الشرطة ستزيد من تعقيد الموقف، قبل أن نفهم ما يحدث
هتف الحاج (عوض) في حماس:
- هذا رأيي أيضا
نقل الشيخ (حسن) بصره بينهما في استنكار، وقال في صراحة: -
- أي قول هذا.. لا يصح إلا الصحيح.. هناك عمل غير مفهوم ولابد وأن نبلغ الشرطة
كان الدكتور (محمود) يعرف الشيخ (حسن) جيدا، ويثق تماما في أنه لن يتراجع عن إبلاغ الشرطة قط، لذا فقد عقد ساعديه أمام صدره، وقال في حزم:
- فليكن.. أبلغ الشرطة
انتفض الحاج (عوض)، وهتف:
ولكن كيف.. و
مال الدكتور (محمود) على أذنه، يقاطعه هامسا:
- الشرطة لن تصدقه فورا، وقبل أن تقتنع بروايته، وتصل إلى هنا، سنكون قد أنجزنا عملنا..

لم يكن الحاج (عوض) يدري، أي عمل هذا بالضبط، إلا أنه وافق ابن شقيقه، وقال:
. فليكن.. أبلغ الشرطة يا شيخ (حسن).
مط الشيخ (حسن) شفتيه، وكأنما لا يروق له الموقف كله ثم استدار متجهاً نحو أقرب هاتف، في حين أسرع الدكتور (محمود) يكمل رحلة آلة التصوير، في عمق الشق، وعمه (عوض) يقول في عصبية:
- ما الذي تتعشم الوصول إليه بالضبط؟! -
أجابه الدكتور (محمود) في حماس:
- ما يكمن هناك.
تلفت الحاج (عوض) حوله، وألقى نظرة عصبية على كتلة اللحم والدم، قبل أن يهمس:
- إنه ليس جنيًا..
هز الدكتور (محمود) رأسه نفيا في قوة، قائلاً:
- ليس كذلك!
لهث الحاج (عوض)، وكأنما بذل جهدا خرافيا، وقال:
- هو عفريت إذن
رمقه (محمود) بنظرة مستنكرة، ثم قرر أن يدخر وقت المناقشة العقيمة، وركز اهتمامه على متابعة الكاميرا.. ر
وفجأة، ارتجت الكاميرا في قوة، وأظلمت شاشتها تماما وانجذبت في عنف، وكأنما يجذبها شيء ما من أسفل..
وبكل لهفته، وثب الدكتور (محمود) يمسك سلك الكاميرا، الذي راح ينسحب بسرعة داخل الشق.
وشعر بألم شديد في عضلاته..
فهناك قوة كبيرة، كانت تجذب الكاميرا من أسفل..

قوة تفوق قوته عشر مرات على الأقل، حتى أنها راحت تجذب جسده كله نحو الشق..
وعلى الرغم من هذا، لم يتخل (محمود) عن السلك، وظل متشبثا به في استماتة، حتى إن عمه جذبه من ساقه، صارخا:
- اتركه.. اتركه يذهب إلى الجحيم بالله عليك
ولكن الدكتور (محمود) لم يستطع التخلي عن حلمه بهذه السهولة
وكان مشهدا عجيبا بحق
وبمنتهى القوة، راح شيء ما يجذبه نحو الشق أكثر وأكثر..
وصرخ عمه مرة أخرى، وهو يجذبه بكل قوته:
- اتركه.
اندفع بعض شبان الحى، يمسكون الدكتور (محمود) من ساقيه، ويحاولون جذبه بعيدا، وذلك الشيء يجذبه نحو الشق الرجل متشبث بالسلك، الذي يجذبه نحو الجحيم، وخمسة أو ستة رجال يجذبونه، ولكنهم غير قادرين على مواجهة ذلك الشيء في الأعماق..
وهو لم يحاول التخلي عن السلك قط حتى بلغت يداه الشق نفسه عندئذ، شعر بلفح نيران رهيبة، لم تحتمل أصابعه وهجه فأفلت السلك مضطراً إفلاته، انسحب السلك، مع شاشة الرصد، وكل الأجهزة المتصلة بها إلى الأعماق..
وصرخ الدكتور (محمود) في يأس:
- لا.. ليس هكذا
اختفت الأجهزة المتطورة كلها في الشق، الذي انبعث منه صوت مخيف، أشبه بفحيح ألف ألف أفعى، ثم ارتفع منه وهج برتقالي ممتزج بالحمرة، كما لو أن النيران قد تأججت فجأة في أعمق أعماقه.. وتراجع الكل في هلع..

فهتف الحاج محمود:
- إنه جنى ولا شك.
ظهر الشيخ (حسن) مرة أخرى، وهو يهتف:
- ليس جنيا.. لا تقحموا جهلكم فيما لا تعلمون.
نهض الدكتور (محمود)، وهو يلهث، قائلاً:
- كل ما نستطيع قوله، هو أننا نواجه شيئا لا قبل لها به.
قال الشيخ (حسن) في حزم:
- ولكنه ليس جنيا.
زفر الدكتور (محمود) في يأس، ثم سأله:
- هل أبلغت الشرطة؟!
أجابه الشيخ (حسن) في سرعة:
- نعم
سأله الدكتور (محمود)، في شيء من العصبية:
- وهل صدقوك؟!
قبل أن يجيبه الشيخ (حسن)، ارتفع صوت سارينة سيارة شرطة تقترب، فابتسم الشيخ (حسن)، دون أن يجيب، في حين هتف الحاج (عوض) بكل الدهشة:
- بهذه السرعة.
أوما الشيخ (حسن) برأسه، في شيء من الزهو، وتوقفت سيارة الشرطة أمامهم مباشرة، وهبط منها ضابط المباحث، قائلاً
- أين ذلك الشيء، الذي أخبرتنا عنه يا شيخ (حسن)..
أشار الشيخ (حسن) إلى كتلة اللحم والدم، قائلاً:
- ها هو ذا.
حدق ضابط المباحث، وكل أفراد الطاقم المصاحب له، في تلك الكتلة، بمزيج من الدهشة والاشمئزاز، قبل أن يهتف هو في استنكار:

- هل تريد إقناعي أن كتلة اللحم المفرى هذه هي ذلك الشاب الذي أبلغتم باختطافه، منذ بضع ساعات؟!
أشار الشيخ (حسن) إلى الإصبع ذي الخاتم، قائلاً:
- نعم.. إنه هو.
حدق ضابط المباحث في الإصبع بذهول، ثم أشاح بوجهه ربما ليخفى اشمئزازه، وهو يغمغم:
- فليكن.. خبير البصمات سيحسم الامر.
هتف الحاج (عوض):
- الجن قتلوه.
رمقه ضابط المباحث بنظرة مستنكرة، ورماه الشيخ (حسن) بنظرة غاضبة، وابتسم أفراد الطاقم الأمني، في شيء من السخرية وفجأة، ارتجت الأرض في قوة..
ثم حدث ذلك الأمر الرهيب..
الرهيب للغاية..
فجأة، انطلق عمود من النار، من قلب الأرض.. لسان من اللهب، صعد من الشق، وارتفع في خط مستقيم، أشبه بضوء شمعة هائلة، ليتجاوز أسطح العمارات، ويعلو في قلب السماء وللحظة، أضيء الحي كله بضوء أحمر رهيب ضوء له وهج أشبه بالموت أو هو الموت نفسه ضوء غمر كل شيء.
وكل شخص..
ومع انطلاق عمود اللهب، شهق ضابط المباحث..
وصرخ رجال القوة المصاحبة له..
وانهار كل الموجودين من سكان الحي..
واتسعت عينا الدكتور (محمود).. وسقط الحاج (عوض) على ركبتيه.. وبسمل الشيخ (حسن) وحوقل كل هذا في لحظة واحدة لحظة عاد بعدها اللهب إلى قلب الأرض..

إلى أعماق الشق..
وبكل رعب الدنيا، راح الكل يحدق في ذلك الشق، حتى ضابط المباحث نفسه، الذي كان أول من كسر صمت الرعب، وهو يغمغم:
- مستحيل!
هتف الحاج (عوض) في انفعال:
- أرأيت بنفسك؟!
ظل ضابط المباحث يحدق في الشق مبهورا مأخوذا، لنصف دقيقة أخرى، قبل أن يغمغم:
- الأمر يتجاوز كل ما تخيلته بالفعل..
تنحنح الدكتور (محمود)، وقال؛ محاولاً الحفاظ على سر كشفه الجديد المنتظر:
- إنها ظاهرة طبيعية، و..
قاطعه عمه في غضب:
- كفى يا دكتور. -
ثم التفت إلى الضابط، قائلاً في حدة:
إنه جني.. جني في الأعماق. أ
رمقه الشيخ (حسن) بنظرة غاضبة قاسية، وهو يقول:
- ماذا قلنا..
نقل ضابط المباحث نظرة بين الثلاثة، قبل أن يقول في عصبية شديدة:
- أعلم أنه ليس جنيا يا شيخ (حسن).
ثم رمق الدكتور (محمود) بنظرة نارية، مضيفا:
- وهو ليس ظاهرة طبيعية في الوقت نفسه.
شعر الدكتور (محمود) بقبضة باردة كالثلج تعتصر قلبه، وتحطم حلمه، وهو يغمغم:

- إنني أحاول دراسة الأمر.
قاطعه ضابط المباحث في صرامة:
- هذا لا يكفي.
امتقع وجه الدكتور (محمود)، وبدا وكأنه قد انكمش على نفسه، والضابط يتابع في حزم:
- ما رأيته الآن يتجاوز قدرات رجل واحد.
هتف الدكتور (محمود)، في محاولة يائسة: -
- إننى لست رجلا عاديا.
هنا وقد صاح الضابط، وقد امتزجت صرامته بعصبية: -
- وإن يكن.. ما رأيته الآن ليس مهمة رجل واحد، ولا حتى فرقة أمن مركزي كاملة.
وعاد يحدق في الشق لحظة، في عصبية شديدة، قبل أن يتابع في حدة:
- إنه يحتاج إلى تدخل كل سلطات الدولة.. وزارة الدفاع، والأمن القومي، والبحث العلمي، و
انتفض الدكتور (محمود) بشدة، عندما أتى الضابط على ذكر البحث العلمي، وخشي أن يكتظ المكان بالعلماء، الذين يحللون ويدرسون، ويستعينون بأحدث الأجهزة والأدوات، حتى يتوصلوا إلى نتائج وينسب إليهم الفضل وبكل هلعه من الفكرة، هتف:
- هناك تفسير علمى بسيط.
استدار إليه الكل بنظرة مستنكرة، وشعر هو أنه قد تورط بالقول، فبحث عقله بسرعة عن جواب ما، وقبل أن يدركه تماما، وجد لسانه يندفع هاتفاً:
- انفجار ماسورة غاز.
انعقد حاجبا الضابط، وبدا وكأنه يفكر في الاحتمال، فخشى الدكتور (محمود) أن يضيع الفرصة، وتابع في شيء من الحماس

المفتعل:
- ماسورة انكسرت في عمق الأرض، أو انفجرت على الأرجح، مما سبب الشق في البداية، واشتعال الغاز في الأعماق جعله يتسع أكثر.. وأكثر.. وعندما بلغ مصدرا رئيسيا، انفجر وكان ما رأيناه.
وعلى الرغم من أن التفسير قد وثب إلى عقله دون إعداد مسبق، إلا أنه بدا منطقيا إلى حد كبير فلو صح هذا، سيصبح الأمر كله مجرد خلل في توصيلات الغاز، بلا جنى أو ألغاز أو...
«وماذا عن تلك الأنياب، التي رأيناها؟!»
هتف الحاج (عوض) بالسؤال، ليقطع أفكارهم جميعا،
فعادوا يتلفتون إلى بعضهم البعض في ذعر، في حين تساءل الضابط في عصبية:
- أية أنياب؟!
حاول الدكتور (محمود) أن يبتسم، وهو يقول:
- آه.. إنه تكوين صخري طبيعي، في باطن الأرض، بدا أشبه بالأنياب، و..
والواقع أنه لم يكن بحاجة إلى هذا، فما أن بلغ هذا الجزء، حتى قال الضابط في عصبية، وكأنما يتمنى إغلاق الموقف كله:
- إذن فهو تكوين طبيعي..
ثم استدار متجها إلى سيارته، وتسابق أفراد الفرقة المصاحبة له إليها، وهو يتابع:
- سنبلغ قسم طوارئ الغاز على أية حال، ومع أول نسمات الصباح الباكر، سيكونون هنا بإذن الله. -
غمغم الدكتور (محمود) في ارتياح:
- بإذن الله.
أما الحاج (عوض)، فهتف مستنكرا:
- وهل سننتظر هكذا حتى الغد؟!

التفت إليه الضابط في صرامة، ولكنه تابع في حدة:
- لو أن ماسورة غاز انفجرت في الأعماق، فهذا يعني أن لكل دقيقة ثمنها..
لم يشعر الدكتور (محمود)، في حياته كلها بالغيظ، مثلما شعر به في تلك اللحظة، والضابط يقول:
- أنت على حق..
ثم وثب داخل سيارته، مضيفا:
- سأرسلهم فورا.
شعر الدكتور (محمود) بتوتر شديد، يسرى في أعماقه، وبدا له أن تهور سكان الحي، وضابط مباحث القسم، سيفقده حلما لم يستقر في وجدانه بعد ومن أعمق أعماقه، تمنى لو أن هذا لا يحدث..
لو أن شيئا ما يعوق ضابط المباحث، والطاقم المصاحب له..
تمنى أن يمتلك المزيد من الوقت..
كل ما يكفي في الوقت..
وبمنتهى اليأس، تابع ببصره سيارة الشرطة، وهي تبتعد
وتبتعد..
وتبتعد..
وفجأة، ارتجت الأرض مرة ثانية..
وفي هذه المرة، كان الارتجاج أعنف..
وأقوى..
وأكثر رعبا..
فمعه، امتد الشق فجأة في الأرض، أمام عيون الجميع واندفع عبر الشارع في سرعة، نحو سيارة الشرطة امتد بسرعة مدهشة، كما لو أنه يطارد السيارة، ويحاول اللحاق بها، قبل أن تبلغ نهاية الحي..

هذا ما بدا للجميع، على الرغم من أنهم قد كذبوا عيونهم وعقولهم، وحاولوا طرح الفكرة بعيدا عن رءوسهم..
ولكن الشق بلغ سيارة الشرطة بالفعل..
وبسرعة خرافية وقبل أن يدرك ركابها ما حدث، كان الشق قد امتد أسفلهم، وتجاوزهم، وراح يتسع أسفلهم في سرعة وبكل قوته، ضغط سائق سيارة الشرطة فراملها، عندما شاهد الشق يتسع أمامه ولكن فرملته هذه جاءت بعد الأوان وفي مرحلة شديدة الخطورة.
فما أن أوقف السيارة بهذه القوة، حتى صرخ فيه ضابط المباحث، بكل انفعال الدنيا:
- ماذا فعلت أيها التعس؟!
ومع صرخته، انزلقت السيارة بحركة حادة، ومالت على جانبها، وسقط إطاراها الأيسران في الشق، وسمع الكل صوت ارتطام عنيف.. و..
وبكل ذعرهم، حاول الضابط وطاقمه الوثب من السيارة.. ولكن الأرض ارتجت مرة ثانية..
وثالثة..
ورابعة..
وبسرعة خرافية، اتسع الشق أكثر وأكثر، أسفل السيارة فقط، وامتزجت صرخات ركابها بصرخات متابعي ذلك المشهد الرهيب، والشق يبتلع السيارة أمام عيونهم..
بكل ما عليها ومن عليها سقطت كلها في قاع الشق، قبل أن ترتج الأرض مرة أخرى..
وفي هذه المرة، أدى الارتجاج إلى أن يضيق الشق دفعة واحدة، ليسمع الكل صوت تحطم جسم السيارة، وعظام ركابها، وصرخات الألم والرعب، التي انبعثت من حلوقهم. وبعدها، ران

على الحي كله صمت رهيب فلم ينبس أحد من سكانه بحرف ولا حرف واحد..

☆ ☆ ☆

٤ - الحصار..

شعور هائل بالرعب، اجتاح الحي كله..
كانت عقارب الساعة تقترب من الرابعة والنصف صباحا، وعلى الرغم من هذا فقد استيقظ الكل، وحملوا أبناءهم ونفائسهم، وبدءوا يستعدون لمغادرة المكان كله لم يكن من الممكن أن يبقى فيه مخلوق واحد، بعد أن ابتلع الشق سيارة الشرطة، وسحقها مع ركابها، في لحظات معدودات..
وبكل هلعهم، حاول بعض السكان إجراء الاتصال بأقاربهم ومعارفهم، في هذه الساعة المتأخرة؛ لتأمين محل إقامة، خلال ما تبقى من ساعات الليل القليلة ولكن كل الهواتف الأرضية لم تكن تعمل!
لسبب ما، انقطعت الحرارة عنها جميعا، ولم يعد يصدر منها سوى صوت عجيب، أشبه بأنين متصل، ينبعث من أعمق أعماق الأرض..
«الشق حطم كابلا أرضيا حتما..»
هتف الدكتور (محمود) بالعبارة، محاولاً تفسير الظاهرة، ولكن الحاج (عوض) أجابه في عصبية:
- الهواتف في هذه المنطقة كلها هوائية، وليست أرضية..
بدت الحيرة على وجه أستاذ الجيولوجيا، ولم يدر بما يجيب وخاصة عندما أضاف أحد شباب الحي:
الهواتف المحمولة أيضا لا تعمل.
وهنا، كان الأمر يتجاوز أي تفسير علمي أو منطقي، وعلى الرغم من هذا، فقد غمغم الدكتور (محمود)، في لهجة متخاذلة:
- ربما هي موجة كهرومغناطيسية

لم يستطع إتمام عبارته، مع النظرة الحائرة المذعورة، التي أضافها المصطلح إلى العيون، فزفر متمتما:
- إنه مجرد اقتراح. -
أمسك الحاج (عوض) ذراعه في قوة، وهو يقول في حزم صارم:
- هل نرحل أم نبقى؟!
كان يرغب في أن يطالبهم بالبقاء، إلا أن لسانه هتف، قبل أن يدرس عقله الموقف:
- ارحلوا..
لم يكد ينطقها، حتى خيل إليه أنه قد فجر قنبلة في المكان، دون سابق إنذار..
لقد هرع كل من تبقى من السكان إلى منزله، وقد اعتبروا قول الدكتور (محمود) أمرا بالرحيل..
قالها وفجأة، حدث ما كانوا يخشونه كانوا يتحركون في سرعة وعصبية وتوتر، خشية أن تتطور الأمور، قبل أن ينجحوا في مغادرة الحي، و..
فبدون سابق إنذار، وبدون حتى ارتجاج إضافي، راح الشق يمتد بغتة، في كل الاتجاهات، وبسرعة خرافية، امتزجت بصرخات الكل وخلال ثوان قليلة، كان قد أحاط بالحي كله، في شكل غير منتظم، ولكنه حاصر المكان على نحو بالغ الدقة..
ثم ارتفعت تلك الأدخنة..
في هذه المرة، كانت أدخنة حمراء حارة..
ساخنة..
وراح سكان الحي يصرخون..
ويصرخون..
ويصرخون..

الدكتور (محمود) وحده بدا ذاهلاً، لم ينبس ببنت شفة، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما، وحدق في ذلك الشق بكل الذهول..
ليس لأنه امتد..
ولا لأنه حاصر الحي
بل؛ لأنه يشف، ولأول مرة، عن عمل منظم دقيق..
ومقصود هناك شيء ما يعزل الحي..
يحاصره.
يسلخه عما يحيط به من أحياء شيء غامض شرير..
مخيف..
وبكل الرعب والهلع، هتف أحد السكان:
- ماذا سنفعل؟! كيف سنغادر هذا المكان؟!
صاح فيه آخر في انفعال:
- سأغادره، مهما كان الثمن..
قالها، وهو يحمل حقيبة صغيرة، ويعدو نحو أحد جوانب الشق..
ثم وثب عبره..
لم تكن المسافة بين جانبي الشق كبيرة، بل لا تتجاوز الستين سنتيمترا على أكثر تقدير ولكن الساكن عبر وسط الدخان الأحمر..
ثم انطلقت منه صرخة رهيبة أقوى صرخة ألم سمعها الكل، في حياتهم كلها..
صرخة، انخلعت لها القلوب، وانفطرت معها الأفئدة، وبلغ بعدها الرعب ذروته وفي لحظة واحدة، أو ربما أقل، تحول ذلك الساكن المسكين إلى شعلة من اللهب شعلة راحت تعدو وتصرخ عشوائيا، قبل أن تسقط وتذوب، أمام العيون المذعورة..
وفي المكان كله، ارتفعت رائحة شواء..

شواء بشرى..
وشهق الرجال..
وصرخ الأطفال..
وانهارت النساء..
وهتف الحاج (عوض):
- ماذا يحدث يا دكتور؟! ماذا يحدث؟!
وفي هذه المرة، لم يستطع الدكتور (محمود) حتى تلفيق حل ما..
وراح عقله يعمل بسرعة خرافية، في محاولة مذعورة لفهم ما يحدث..
إنه أمام هجوم منظم..
شامل..
دقيق..
تشنه حتما مخلوقات عاقلة..
ليس جنا حتما، ولا أي كائن آخر معروف..
إنها وحوش..
وحوش ذكية، خبيثة، تحيا في أعماق الأرض..
«دابة الأرض..»
غمغم الشيخ (حسن) بالكلمة، فالتفت إليه الدكتور (محمود) متسائلاً في انفعال، فأضاف:
- إننا نشهد بداية النهاية..
غمغم الدكتور (محمود):
- هناك حتما تفسير علمي.. كل شيء له حتما تفسير علمي..
تمتم الشيخ (حسن):
- ليس كل شيء يا ولدى..
صرخ الدكتور (محمود):

- بل كل شيء..
صرخته جعلته يدرك كم هو ثائر منفعل، فاستنفر كل قواه؛ للسيطرة على أعصابه، قبل أن يكمل:
- ربما يثير الأمر رعبنا، ويفقدنا هذا بصيرتنا، وقدرتنا على فهم الأمور، ولكن هذا لا يعني أنه بلا تفسير..
غمغم الشيخ (حسن)، بصوت مرتجف:
- من التفسيرات ما لا يخضع للعلم يا ولدى
هتف الدكتور (محمود): -
- مستحيل!
اتسعت عينا الشيخ (حسن)، وهو ينظر إليه في استنكار فاستدرك بسرعة:
- أعنى أن القليل جدا كذلك.. حالات نادرة فحسب..
مال الشيخ (حسن) نحوه، وهو يقول:
- وبم تصف حالتنا هذه؟!
امتقع وجه الدكتور (محمود)، ولم يستطع النطق بحرف واحد، وراح ينقل بصره في عصبية، بين وجهى عمه، والشيخ (حسن)، وذلك الشق وفي عقله، راح يبحث عن كل جواب..
كل جواب..
وكل احتمال..
وكل تفسير ممكن..
ولكن ما من شيء انطبق على ما يحدث..
وفي الوقت ذاته، كانت تلك الأبخرة الحمراء تتصاعد..
وتتكثف
وتتزايد..
«انظروا..»

هتف أحد سكان الحي في ذعر، وهو يشير إلى جزء من الشق، فالتفتت العيون كلها إلى حيث يشير..
ثم تجمدت القلوب في الصدور
وهوت في الأقدام
فهناك، من ذلك الجانب، كان جسم ما يصعد، من قلب الشق.. جسم تخفيه الأبخرة الحمراء، التي صارت داكنة كثيفة، على نحو مخيف...
وضاقت كل العيون، والكل يحاولون رصد ذلك الجسم، الذي راح كل منهم يرسم له في خياله هيئة مخيفة وفي بطء، تحرك ذلك الجسم..
وتجاوز الأدخنة الحمراء وظهر لعيونهم جميعا..
وهنا، بلغ ذهولهم المدى..
أقصى مدى...

☆ ☆ ☆

مع دقات الخامسة فجرا، اندفع مسئول الأمن القومي إلى قاعة اجتماعات جهة أمنية عليا، وغمغم في توتر، وهو يتخذ مقعده، حول مائدة الاجتماعات، التي اكتظت بالجالسين حولها:
- كل ما بلغنا صحيح
اعتدل رئيس الجلسة، وسأله في انفعال:
- الحي محاصر إذن؟!
لوح مسئول الأمن القومي بيده، مجيبا:
- الأمر لا يمكن وصفه؛ لذا فقد فضلنا أن نلتقط فيلما مصورا له، حتى تصلكم الصورة كاملة.....
أشار بيده، فتم إطفاء أنوار القاعة، وبدأ عرض الفيلم على الفور، وهو يقول:

- كما ترون، الحي كله محاصر بشق عجيب، تتصاعد منه أبخرة سامة حارقة، يسعى رجال القسم الفني لتحديد ماهيتها الآن، ولاستبعاد كونها نوع من الحرب الكيماوية الحديثة، أو تجربة تجريها جهة أمنية عسكرية أجنبية على أرضنا..
غمغم شخص ما في عصبية:
- إنه ليس فيلماً من أفلام الخيال
أجابه مسئول الأمن القومي في جدية:
- ونحن لم نتعامل معه من هذا المنطلق، ولكن عقولنا مؤهلة لاستيعاب كل ما هو غير مألوف، وخاصة في زمننا هذا.
سأله رئيس الجلسة:
- هل أرسلتم من يتحرى الأمر مباشرة؟!
أومأ مسئول الأمن القومي برأسه مجيبا:
- بالتأكيد يا سيدي، ولدينا فريق عمل كامل، يدرس كل ما يتعلق بالأمر، ويراجع كل البيانات والمعلومات القديمة، ولقد تعاون معنا سلاح الطيران، وحصلنا على صور جوية أيضا...
بإشارة أخرى من يده، تواصل عرض جزء آخر من الفيلم، يبدو فيه الحي من أعلى، وقد اشتعلت حدوده كلها، بذلك الدخان الأحمر ولثوان، ساد القاعة صمت مبهور متوتر، قبل أن يغمغم رئيس الجلسة:
- يبدو لي من أعلى أشبه برسم منتظم.
أشار مسئول الأمن القومي بيده، قائلا:
بالضبط.. إنه يرسم حدود الحي كله، ولكن مع شكل شديد الانتظام، وإن بدا للوهلة الأولى عشوائيا، إلا أنه يعيد إلينا مشهد غامضة، تم رصدها في الحقول البريطانية، عقب بتر عبارته دفعة واحدة في تردد، فهتف به رئيس الجلسة في حماس:
- أكمل يا رجل..

التقط نفسا عميقا، قبل أن يجيب:
- عقب ظهور أجسام طائرة مجهولة الهوية.
ألقي العبارة، فتفجر ذهول مستنكر في كل الوجوه، وراح الجميع ينظرون إلى بعضهم البعض، قبل أن يقول أحدهم في خوف:
- هل سننتقل من الحقائق إلى الخزعبلات؟!
التقط مسئول الأمن القومي أنفاسه؛ للسيطرة على أعصابه قبل أن يقول:
- تقاريرنا تعتمد على وثائق رسمية، ومشاهدات تمت مراجعتها، وتقارير صدرت عن سلاح الجو البريطاني، ولا يمكن وصف كل هذا بالخزعبلات.
قال آخر في عصبية:
- اسمع يا رجل.. نحن لم نجتمع هنا للعبث.. إننا أمام اعتداء خطير، لابد من حسمه ومواجهته بمنتهى الشدة
قال مسئول الأمن القومي:
في عالمنا، نقول: إنه ينبغي لنا أن نفهمه أولاً؛ فلا أحد ينتصر في حرب، دون أن يمتلك أخطر أسلحتها
ثم مال إلى الأمام، مضيفا في حزم:
- المعلومات
عاد الكل يتبادلون تلك النظرة المستنكرة المستهجنة، ثم قال أحدهم صارخا:
- فليكن.. دعنا نبدأ بمناقشة الاحتمالات الأخرى أولا.
صمت مسئول الأمن القومي لحظات، ثم أجاب:
- في الوقت الحالي.. لا توجد احتمالات أخرى
وهنا، بلغ الاستهجان ذروته أو تجاوزها..

☆ ☆ ☆

ولو أننا قسمنا حالة الذهول، بين جميع سكان الحي، على نحو يتفق مع تباين مشاعرهم، فسنستطيع القول، دون تردد، أن نصيب الدكتور (محمود) منه كان سبعين في المائة على الأقل..
فما رآه أمامه كان يفجر كل ذرة من الذهول في أعماقه وعلى المستويين، الإنساني والعلمي...
فذلك الشيء، الذي خرج من الشق، وراح يتجه نحوهم، كان الدليل الحي، على أنهم يواجهون مخلوقات عاقلة ومتطورة،
كان جسما آليا، أشبه بكرة من المعدن اللامع، تبرز فيها عدة زوائد منتظمة، تختلف في أطوالها، وتتفق في تألق أطرافها إن ذلك الجسم لم يكن يلمس الأرض..
كان يطير..
نعم.. يطير على ارتفاع نصف المتر تقريبا
بالإضافة إلى هذا، كان يتحرك في بطء حذر، وكأنما يرصد ل ما حوله..
وعلى الرغم من ذهولهم، تجمد الجميع في أماكنهم، كتماثيل من الشمع، واتسعت عيونهم عن آخرها، وهم يحدقون في ذلك الجسم، الذي لم يزد حجمه عن حجم كرة قدم عادية، وهو يسبح في الهواء، ويتحرك بينهم والواقع أن أحدهم لم يجرؤ على إتيان حركة واحدة؛ ربما لأنهم يجهلون تماما ما الذي يمكن أن يؤدي إليه هذا..

وبمنتهى البطء والحذر، راح ذلك الجسم المعدني اللامع يتجول بينهم، حتى غمغم الدكتور (محمود) ليكسر حاجز الصمت فجأة:
- مستحيل!

لم تكد الكلمة تتجاوز شفتيه، حتى توقف ذلك الجسم المعدني فجأة، وكأنما تلقى إشارة ما، ثم أدار أطول زوائده نحو الدكتور (محمود)، وتألق طرفها بوميض أكثر وفجأة، اندفع ذلك الجسم نحو الدكتور (محمود)..

وعلى الرغم منه، شهق الحاج (عوض) مذعورا، وحاول أن يبعد ابن شقيقه عن مسار الجسم الغريب، الذي توقف بغتة، وبدا وكأنه متردد بين الرجلين، فاتسعت عينا الدكتور (محمود) عن آخرهما، وهو يفكر ذلك الجسم ينجذب لمصادر الصوت هذا هو التفسير الوحيد..

لقد اتجه نحوه، عندما غمغم بكلمته، وتردد بينه وبين عمه، عندما شهق هذا الأخير الصوت يجذبه حتما وهو الآن حائر بين مصدرين السؤال هو.. ما سبب حيرته؟! ما الذي كان سيفعله، عندما يصل إليه؟!

لم يجرؤ بالطبع على تحويل أفكاره إلى صوت مسموع، بل وربما خشي حتى أن يتنفس، وهو يجهل ما يمكن أن يفعله به هذا الجسم ولكن عمه لم يدرك هذا..

عقله المحدود جعله يغمغم في عصبية

- ما هذا الشيء يا (محمود)؟!

سقط قلب (محمود) بين قدميه، عندما نطق عمه العبارة، وحاول أن يحذره من الاستطراد، إلا أن ذلك الجسم لم يمهله؛ فما أن انبعثت عبارة عمه، حتى انقض عليه على الفور..

وتراجع الحاج (عوض) في ذعر، وصرخ:

- (محمود).. النجدة!

لم يدرِ (محمود) ماذا يفعل بالضبط، وحاول أن يندفع لإنقاذ عمه، إلا أن ساقيه تيبستا وعجزتا عن الحركة تماما بالضبط كما حدث لكافة سكان الحي كلهم تجمدوا من شدة الرعب كلهم

اكتفوا بالتحديق فيما يحدث، في رعب أما ذلك الجسم المعدني، فقد دار حول الحاج (عوض) دورتين كاملتين، صرخ الرجل خلالهما:

- أنقذوني.. أغيثوني ا

ثم فجأة، أطلق ذلك الجسم نحوه سائلا ما سائل لزج، كثيف، لم يكد يلمس جسده، حتى راح ينتشر حوله في سرعة، كما لو أنه كائن حي طفيلي وخلال ثوان قليلة، كان قد زحف على جسده كله، واتجه نحو وجهه، وهو يصرخ في يأس:

- (محمود).

وهنا فقط، تحرك (محمود)..

اندفع نحو عمه، وحاول أن يزيح ذلك السائل عن جسده بيديه ولكن هيهات ذلك السائل كان شديد اللزوجة والقوة..

والمرونة...

ولقد أكمل زحفه، على الرغم من كل محاولات (محمود) المستميتة، حتى غطى وجه الحاج (عوض) كله وفي هدوء، ارتفع ذلك الجسم، تاركا خيطا من تلك المادة اللزجة، يربطه بالشرنقة الهلامية، التي حوت جسد الحاج (عوض) وارتفع معه جسد الحاج (عوض)..

وفي انفعال جارف، غمغم الشيخ (حسن):.

- سلام.. قولا من رب رحيم

واختفى كلاهما في الأعماق تماما..

ومع آخر حروف عبارته، غاص ذلك الجسم في أوسع مناطق الشق، جاذبا معه جسد الحاج (عوض)..

☆ ☆ ☆

٥ - خبير..

« الأمر أخطر من كل توقعاتنا أيها السادة.. »
نطق مسئول الأمن القومي العبارة، في حزم متوتر، وهو يراجع آخر التقارير، التي وصلته من قيادته، ثم وضع الأوراق أمامه على مائدة الاجتماعات، مضيفا:
- الحي كله محاط بجدار من الطاقة الكهرومغناطيسية، يعوق حتى مسار الطائرات في مجاله الجوي، وتلك الغازات، التي تنبعث من الشق مجهول المصدر، لا مثيل لها، من حيث التركيبات الطبيعية والكيماوية المعروفة، في كل معامل كوكب الأرض..
غمغم أحد الحاضرين في عصبية:
. هل سنعود للحديث عن مخلوقات الفضاء وخزعبلاتهم..
تجاهل مسئول الأمن القومي التعليق تماما وتابع وكأنه لم يسمعه:
- ثم إننا لم نرصد الظاهرة وحدنا، بل تم رصدها أيضا بالأقمار الصناعية، في عدد من البلدان الأخرى..
صاح آخر معترضاً:
- أتعنى أننا مراقبون؟!
هتف أحدهم:
- هل تكرر هذا في أماكن أخرى؟!
صمت مسئول الأمن القومي لحظة، ثم قال في توتر:
لقد رصدوه هنا
وصاح البعض الآخر:
- ماذا يفعلون بنا بالضبط؟! ا

لم يبد أحدهم موقفا من العبارة، وتجاهلها مسئول الأمن القومي تماما، وهو يقول في حزم:
- الواقع أن بعضهم كان يتوقع ما حدث، على نحو أو آخر.
كانت عبارته الأخيرة أشبه بقنبلة مدوية، انفجرت وسط الاجتماع، فصرخ بعضهم:
يتوقعه؟! ماذا تعني؟!
وصرخ آخر في غضب:
- أأصبح وطننا منتهكا إلى هذا الحد؟!
زفر مسئول الأمن القومي في توتر بالغ، ورفع كفيه؛ محاولاً تهدئة الجميع، قبل أن يقول:
- عندما أقول إنهم يتوقعونه، لم أكن أعنى أنهم صنعوه ولكنه نوع من التنبؤ العلمي.. كانوا يعلمون أن شيئا ما سيحدث هنا.. في منطقة الشرق الأوسط، ولكن لم يكن أحدهم يعلم متى وأين بالتحديد..
ساد الهرج والمرج مرة أخرى، فتدخل رئيس الجلسة؛ لحسم الأمر في صرامة، قبل أن يسأل مسئول الأمن القومي:
- هل لك أن تفسر لنا ما يعنيه قولك هذا، قبل أن ينفرط عقد المجلس
هز مسئول الأمن القومي رأسه، قائلاً:
- لست أعتقد أنه بإمكاني شرح الأمر بصورة جيدة
تراجع الرئيس في دهشة مستنكرة، فاستدرك مسئول الأمن القومي في سرعة:
- ولكن هناك من هو أقدر منى على هذا.
تطلع إليه الكل في تساؤل قلق متوتر، مما جعله يتابع:
- في الواقع إن هناك خبيرا أمريكيا، من وكالة الفضاء والطيران كان في مهمة خاصة، في بلدة مجاورة، في انتظار رصد ما

سيحدث، وفور أن سجلت الأقمار الصناعية الحدث، قام المسئولون بالاتصال به، وهو في طريقه إلى هنا الآن..
تضاعفت نظرات الاستنكار والاستهجان، وتعالت همهمات الحاضرين الغاضبة، قبل أن يقول أحدهم في غضب عصبي ثائر:
- هل بلغ بنا الأمر هذا الحد؟! هل سيأتي أجانب غرباء، لحل شئوننا الداخلية؟!
أثارت عبارته غضب وتوتر الحاضرين، واندفع كل منهم يلقى تصريحا حماسيا، ولكن مسئول الأمن القومي استوقفهم جميعا بإشارة صارمة من يده، قبل أن يقول:
- لو صح ما رصدته وكالة الفضاء والطيران الأمريكية، فسيعني هذا أن الأمر يتجاوز كونه مشكلة محلية، إلى حدث علمي شديد الخطورة، لن تكفى إمكانياتنا العلمية لمواجهته..
هتف آخر في غضب:
- نفس الحجج الاستعمارية القديمة.. إننا غير قادرين على حماية أنفسنا.
انعقد حاجبا مسئول الأمن القومي في صرامة، وهو يقول في غضب:
- مهلا أيها السادة. !!!!!!
صمت الكل، وتطلعوا إليه في قلق، فتابع في شيء من الحدة والصرامة:
- أحاديثكم وتعليقاتكم تلمح إلى أننا قد فقدنا الولاء للوطن، والخوف على مصالحه، وهي اتهامات نرفضها تماما، حتى ولو جاءت مبطنة بنوايا طيبة.. إننا نتحدث هنا عن مواجهة علمية.. مواجهة تحتاج إلى تكنولوجيا بالغة التطور، وخبراء في شئون الطاقة والفضاء، ولا أحد يمكنه رفض يد المساعدة في

مثل هذه الظروف.. ألم يسأل أحدكم نفسه، ما البديل لعدم تدخل الأمريكيين؟! ما الذي يمكن أن تتطور إليه الأمور، لو أننا أصررنا بعناد جاهل على عدم تدخلهم، وعدم استغلال إمكانياتهم وخبراتهم الفضائية، في مواجهة خطر.. ربما أتى من الفضاء الخارجي.

اندفع رجل يقول:

- وربما كان حجة لتدخلهم..

شد مسئول الأمن القومي قامته، وجلس بمنتهى الاعتدال، وهو يقول في حزم:

- بل إنه كذلك.

- ولو أنهم يمتلكون مثل هذه القوة، فأية حجة يحتاجون؟!

كان يكفيهم تجاوز واحد من الجماعات المتطرفة، ليفعلوا نفس ما سيفعلونه، حتى لو اعترض المجتمع الدولي كله.. تاريخهم يؤكد هذا.

ران على قاعة الاجتماعات صمت مهيب، بعد أن أنهى عبارته، وراح الكل يتطلعون إلى بعضهم البعض، قبل أن يغمغم أحدهم في تخاذل:

- ربما لم يكن الأمر كما نتصور.

دخل أحد معاونيه في هذه اللحظة، ومال على أذنه، يهمس بكلمات سريعة، وقال:

- على أية حال، لقد وصل الخبير الأمريكي وسيشرح لكم الأمر بنفسه

مع قوله، تعلقت العيون كلها بشاب أشقر ضئيل الجسد، دلف إلى القاعة مرتبكا، وعدل منظاره الطبي على أنفه، وهو يقول بالأمريكية:

- (جون فيليب).. وكالة الفضاء والطيران (ناسا)

وفي هذه المرة لم ينبس أحدهم ببنت شفة
لقد ساد بعد عبارته صمت...
صمت تام...

☆ ☆ ☆

لثوان، ظل الكل يحدق في تلك البقعة، التي اختفى عندها جسد الحاج (عوض)، في رعب بلا حدود..)
فما حدث، كان هولا..
ويا له من هول
ذلك الشيء في الأعماق، لم يعد يكتفي بمحاصرة الحي وإنما بدأ مرحلة الهجوم
وبكل الذعر، غمغم أحد السكان:
- سيصطادوننا واحداً بعد الآخر
ذلك الجسم الغريب اقتنص أهم وأشهر سكان الحي، أمام عيون الجميع بلا رحمة
غمغم آخر:
- من هم؟!
ردد الشيخ (حسن) في خشوع:
- بل قل ما هم؟!
ظل الدكتور (محمود) يحدق في منطقة الشق، حيث اختفى جسد عمه، والدموع تسيل من عينيه في صمت، قبل أن يقول:
- إنها مخلوقات عاقلة
هتف أحدهم مستنكرا:
- عاقلة؟!
تمتم الشيخ (حسن) في دهشة:
- أي قول هذا يا أستاذ؟!
أشار بيد مرتجفة، قائلاً:

- ذلك الشيء، الذي اختطف عمى، هو آلة صناعية.. آلة صنعتها عقول ذكية.. عقول تفوق عقولنا
ردد بعض السكان في هلع:
- غزو؟!.. الأمريكيون؟!
هتف (محمود) في انفعال:
- قول العلم يا شيخ (حسن).. نحن نواجه غزوا..
صاح أحد الرجال:
- وستقتلنا واحداً بعد الآخر
- بل غزو من عالم آخر.. أو ربما من كيان آخر.. لسنا ندري من أين أتى، ولا حتى كيف أتى، ولكنه هنا
هز الدكتور (محمود) رأسه، قائلاً:
- لا داع للمبالغة.. إننا لم..
قبل أن يتم عبارته، صرخت امرأة، وشهق رجل، ورأى العديدين يفرون من أمامه، فاستدار إلى حيث ينظرون وانتفض جسده كله بمنتهى العنف...

☆ ☆ ☆

مع بدء عرض ذلك الفيلم، الذي أحضره (جون فيليب) معه من (هيوستن)، ران على حجرة الاجتماعات صمت مهيب وبكلماته الهادئة، التي لا تتفق مع طبيعة الموقف، راح(جون) يشرح لهم ما يرونه:
- هذا أيها السادة هو كوكب (الزهرة)، كما رصده تليسكوب(هابل)، حتى شهر واحد مضى، وهو كما تعلمون، ثاني كوكب في منظومتنا الشمسية، ويعتبر أكثر الكواكب قربا من الأرض، وعلى الرغم من هذا، فمعلوماتنا عنه تقل كثيرا عن معلوماتنا عن (المريخ)، بسبب أنه محاط بغلاف غازي يحجب الرؤية عن سطحه تماما، ويؤدي في الوقت ذاته إلى

حبس الحرارة عليه، بحيث تقترب على سطحه من درجة الانصهار، ولا تدور حوله أية أقمار أو توابع، أو....

قاطعه أحد الحاضرين، في شيء من العصبية:
- لست أظننا هنا؛ لسماع محاضرة عن الكواكب، في السادسة إلا الربع صباحا..
لم يفهم (جون) ما تعنيه العبارة، التي نطقها صاحبها بالعربية، إلا أن اللهجة أوحت إليه أنه قد أسرف في الشرح فانتقل إلى النقطة التالية في سرعة، قائلا:
- ومنذ شهر تقريبا، رصد علماؤنا ظاهرة عجيبة(الزهرة)، لم يمكنهم فهمها في حينها..
ضغط زرا، فتبدل العرض، وظهرت صورة للكوكب، تنفصل عنه قطع ملتهبة صغيرة، سرعان ما تختفي في الفضاء المحيط، و(جون) يتابع:
- تلك الأجسام الملتهبة كانت تنفصل عن كوكب الزهرة، في إيقاع منتظم، ثم تبدو وكأن نيرانها تخبو، وتبرد، ثم لا تلبث أن تتلاشي في الفضاء.. العلماء رصدوا الظاهرة، وفسروها في لحظتها بأنها نوع من الانفجارات، حدثت تحت الغلاف الغازي للكوكب، واندفعت خارجه، على الرغم من أن جاذبيته شديدة القوة، وشبهوا هذا بالانفجارات الشمسية..
غمغم أحدهم بالإنجليزية: -
- تفسير معقول..
مط (جون) شفتيه، وتابع:
- ولكن الظاهرة كان لها جزء ثان...
انتبه الكل لقوله، واعتدل رئيس الجلسة في اهتمام بالغ، فتابع (جون)، وجزء جديد من الفيلم يعرض:

- فجأة، ودون سابق إنذار، ظهرت تلك الأجسام الملتهبة، خارج الغلاف الجوي الأرضي، وبدأت اشتعالها، قبل حتى أن تلمسه، على عكس ما تحتمه قوانين الطبيعة، وبعدها دخلت الغلاف الجوي، وعلى الرغم من أن المفترض أن ترتفع درجة حرارتها، مع الاحتكاك بالهواء، إلا أن العكس هو الذي حدث...
صمت لحظة، وكأنه ينتظر تأثير كلماته عليهم، قبل أن يتابع في حزم:
- لقد بردت تلك الأجسام، فور دخولها الغلاف الجوي الأرضي، و....
ازدرد لعابه، قبل أن يضيف متوترا:
- واختفت...
هنا فقط، سرت همهمات عصبية بين الحضور، وبدا الكل شديد التوتر، قبل أن يقول مسؤول الأمن القومي:
- (ناسا) تعتقد أن تلك الأجسام، الآتية من كوكب (الزهرة)، قد اختفت هنا، في منطقة الشرق الأوسط.. لم تكن البقعة محددة بالضبط، حتى حدث ما حدث هنا..
اتسعت العيون كلها في هلع، وغمغم رئيس الجلسة:
- أيعني هذا أننا بالفعل نواجه غزوا، كما يحدث في أفلام الخيال العلمي..
أومأ مسئول الأمن القومي برأسه إيجابا، وقال بكل توتر الدنيا:
- من كوكب (الزهرة).
هنا، تبادل الكل نظرة صامتة، لم يجرؤ أحدهم على أن يضيف إليها همسة واحدة، حتى تمتم واحد في حذر:
- هذا أمر يفوق إدراكنا..
أضاف مسئول الأمن القومي في سرعة:
- وإمكانياتنا..

التقط مسئول الأمن القومي نفسا عميقا، وتراجع في مقعده، قائلاً:
- الآن.. اتفقنا..
وبدأت المناقشات..

☆ ☆ ☆

كان من الواضح أن الغزو الشامل قد بدأ فعبر ذلك الشق، الذي يحاصر الحي تماما، ارتفعت عشرات الأجسام المعدنية اللامعة نسخ مطابقة لذلك الجسم الذي اختطف عمه، خرجت من الشق، واتجهت في بطء نحو سكان الحي وفي هذه المرة، لم يقف أحدهم ساكنا..
بعد ما رأوه يحدث للحاج (عوض)، سرى فيهم جميعا رعب هائل، وراحوا يعدون في كل الاتجاهات، في محاولة للفرار الدكتور (محمود) وحده تجمد في مكانه، وحدق فيما أمامه، في ذهول ما له من مثيل وعبر الجميع، انطلقت تلك الأجسام وعلى الرغم من حالة الفزع، والهرج والمرج، والارتباك بلا حدود، فإنها لم تنقض على شخص واحد فقط راحت تسبح في الهواء بينهم، وكأنها ترصد وتسجل كل ما تراه أمامها ثلاثة منها على الأقل، دارت حول الدكتور (محمود)، ثم تجاوزته، وراحت تجوس بين الجميع وفي القلوب، راح الرعب يتصاعد ويتصاعد..
نساء فقدن الوعي.
أطفال أصابتهم حالة هستيرية..
كبار سقطوا على ركبهم ضارعين متوسلين..
والشيخ (حسن) هرع إلى المسجد، يستعيذ بالله (سبحانه وتعالى)، من هذا الشر المستطير ولم تتوقف الصرخات لحظة واحدة الكل راحوا يصرخون..
ويجرون..

ويتخبطون وينهارون..
والأجسام المعدنية تجول بينهم، وترصدهم، وتسجل انفعالاتهم واضطراباتهم..
ثم فجأة، صرخ الدكتور (محمود):
- كفى..
مع صرخته، تجمد المشهد كله فجأة...
الناس توقفت عن العدو...
العيون كلها التفتت إليه...
القلوب خفقت في عنف...
والأجسام تجمدت..
نعم.. تجمدت فجأة في الهواء، وكأنها قد تلقت الأمر منه..
وبكل انفعاله، الذي يوشك على الانهيار هتف متابعا:
- ماذا تفعلون بنا؟! ماذا تريدون منا.. نحن لم نفعل لكم شيئا.. اتركونا لحالنا.. اتركونا.. اتركونا
راح يكرر الكلمة الأخيرة على نحو هستيري، وصوته يعلو.....
ويعلو..
ويعلو..
أما تلك الأجسام المعدنية، فقد بدا وكأنها تصغى إليه في انتباه، وراحت أطراف زوائدها تتألق، في إيقاعات مختلفة ولكنها منتظمة كان الأمر يبدو كما لو أنها تتشاور فيما بينها، بلغة الضوء والإشارات فحسب ثم استجمع الدكتور (محمود) كل ما تبقى من قوته، وصرخ صرخة أخيرة:
- ارحلوا.
وقبل حتى أن تكتمل صرخته، انطلقت تلك الأجسام كلها انطلقت عائدة إلى الشق وأمام العيون الذاهلة، راحت تختفي داخله، واحداً بعد الآخر، وتغوص وسط الدخان الأحمر الداكن

وخلال أقل من دقيقة واحدة، كان الحي قد خلا منهم تماما وفي ذهول، خرج الشيخ (حسن) من المسجد، مغمغما:
- لقد أطاعوك ..
ثم رفع يديه إلى السماء، والأفق يصطبغ بأضواء الفجر الأولى، مضيفا:
- القادر (عز وجل) أزاح الغمة.
حدق الدكتور (محمود) في الأبخرة الحمراء، التي ما زالت تتصاعد من الشق، وتمتم:
- هل جن الرجل؟!
أجابه آخر همسا:
- ليس بعد..
تبعه الجميع بأبصارهم في توتر بالغ، وهو يتجه في خطوات بطيئة نحو الشق، وغمغم أحدهم في ذعر:
- موت عمه الوحيد أمام عينيه، لم يكن هيئا..
هز ثالث رأسه في شفقة، قائلاً:
- لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

لم يسمع الدكتور (محمود) حرفا واحدا من كل هذا، وهو يتجه نحو الشق، وبقى على قيد خطوات منه، حتى يكاد يستنشق الأبخرة..
كان مشهدا رهيبا بحق، لم يفهمه أي من الحاضرين، الذين ارتجفوا جميعا بلا استثناء، عندما قال فجأة، في حزم قوى واثق شديد:
- لماذا أتيتم؟!
اتسعت عيون سكان الحي، وراحوا يضربون كفا بكف، وقد بدا لهم أن أستاذ طبقات الأرض قد جن فعليا، إلا أنه تابع بنفس

اللهجة::
- لماذا كل هذا؟! لماذا؟!
- لقد أخطأتم في أسلوبكم.. كان ينبغي أن تأتوا مسالمين..
كنا سنحسن استقبالكم.. لم يكن هناك داع لكل هذا العنف..
هتف الشيخ (حسن):
دكتور (محمود)؟! ماذا أصابك؟!
ي مع نهاية صرخته، انطلقت شهقات وصرخات، من حلوق الجميع.. فعند الشق، ظهر كفان في حمرة الدم، لهما أظافر طويلة مخيفة، يمسكان طرف الشارع كان مخلوق ما يخرج من الشق مخلوق غير أرضى على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

٦- لقاء..

لو أن سكان ذلك الحي، من أحياء (القاهرة)، قد شاهدوا ألف فيلم، من أفلام الخيال العلمي، فمن المؤكد أنهم لن يتخيلوا تواجدهم في موقف كهذا قط، مهما طال بهم العمر بل إن المشهد نفسه، لم يشبه أي مشهد رأوه، في أكثر الأفلام إغراقا في الخيال أو هكذا تصوروا...

فأمام عيونهم الذاهلة، المذعورة، الملتاعة، المتسعة عن آخرها، تسلق مخلوق رهيب حافة الشق مخلوق له تكوين ضخم نسبيا، وبشرة حمراء في لون الدم، يحيط بها رداء شفاف، بدا أشبه بتلك المادة اللزجة الكثيفة التي أحاطت بالحاج (عوض)، قبل أن يختفي داخل الشق أما الملامح، فقد كانت صورة مجسمة للرعب..

ملامح ذات تقسيم بشرى بحت، لها أنف، وفم، وعينان وأذنان، ولكن كل لمحة منها تختلف الأنف غليظ، مفلطح عريض والفم أشبه بشق في منتصف الوجه، يبرز منه زوجان من الأنياب الحادة، الشبيهة بأنياب أسماك القرش والعينان واسعتان، ضخمتان، تحتلان ربع مساحة الوجه تقريبا، ولهما لون أسود ممتزج، دون بياض محيط أما الأذنان، فهما أشبه بقرنين.....

خلقة بشعة، رهيبة، جعلت الكل يتراجعون في رعب هائل، وذلك المخلوق يصعد وسط الدخان الأحمر، الذي لم يؤثر فيه على الإطلاق، ثم يتجاوزه، ويتقدم عشر خطوات إلى الأمام وفي كل خطوة يخطوها، كان الدكتور (محمود) يتراجع ويتراجع ويتراجع..

ثم توقف الاثنان..
الدكتور (محمود)..
وذلك المخلوق...
ومن المؤكد أن ذلك الحي لم يشهد صمتا كهذا، في عمره كله حتى المقابر، يمكن أن تسمع فيها شيء ما..
أما هناك، فقد بدا الأمر أشبه بصورة جامدة، تم حذف الصوت منها تماما ولدقيقة كاملة تقريبا، ظل الوضع جامداً، قبل أن يرفع ذلك المخلوق يده، وهو يمسك شيئا أشبه بالمصباح اليدوي، وجهه نحو وجه الدكتور (محمود) تماما، فسرت ارتجافة باردة كالثلج، في جسد هذا الأخير، وهو يحدق فيه في قلق شديد لم يدر ماهية ذلك الشيء بالضبط، ولكنه خشي أن يكون سلاحا ما..
سلاح موجه إلى رأسه.. مباشرة..
وارتجف جسده أكثر..
وفي محاولة يائسة، تطلع إلى عينى ذلك المخلوق، محاولاً أن يقرأ ما يدور في ذهنه فالعينان بديتا أكثر إثارة للرعب، مع سوادهما الداكن، المكون من كيان واحد، لا تتوسطه قزحية كعيوننا..
عينان بديتا أشبه ببئر عميقة بلا قرار..
بئر باردة...
مظلمة..
مخيفة..
ثم فجأة، ضغط ذلك المخلوق ما يحمله..
وانتفض جسد الدكتور (محمود) انتفاضة عنيفة ولكن شيئا لم يصبه كل ما حدث، هو أن ذلك الشيء، الذي يحمله المخلوق، ويصوبه نحو رأسه، راح يتألق، في إيقاع بدا منتظما، وأشبه

بالإشارات الضوئية، التي تتبادلها السفن في عرض البحر كان الإيقاع سريعا للغاية، حتى إن أستاذ علم طبقات الأرض يستطع استيعابه، فهتف:
- إنك تحاول التواصل.. أليس كذلك؟!
توقف المخلوق لحظة، تطلع خلالها إليه، وهو يخفض يده إلى جواره، ثم لم يلبث أن عاد يصوب جهازه، الذي واصل تألقه شبه المنتظم..

☆ ☆ ☆

كانت الشمس تبدأ رحلتها، من خلف البنايات المرتفعة، والضوء يتسلل ليغمر الحي، ويعيد لمحة من الاطمئنان إلى القلوب، إلا أن السكان كلهم ظلوا جامدين، صامتين، يحدقون فيما يحدث أمامهم في ذهول مذعور وذلك الجهاز في يد المخلوق يتألق...
ويتألق....
ويتألق....
ومرة أخرى، هتف الدكتور (محمود):
- لو أنها وسيلة للتواصل، فلسنا نفهمك هنا.
ثم انخفض صوته، وهو يضيف:
- ربما لو أنه لدينا المزيد من الوقت.
قاطعه الشيخ (حسن) مستنكرا:
المزيد؟!
أجابه (محمود)، دون أن يرفع عينيه عن ذلك المخلوق:
- ألم تفهم يا شيخ (حسن)؟! إنه مخلوق عاقل، يحاول التواصل معنا، ولكنه يتحدث حتما لغة نجهلها.. وهو أيضا يجهل لغتنا، لذا فهو يحاول استخدام الإشارات..
غمغم الشيخ (حسن):

- ألم أقل لكم؟! الجن يفهموننا
شعر الدكتور (محمود) بالغيظ؛ لأن الرجل ما زال يفكر في الجن، وذلك المخلوق يقف أمامه، وحاول أن يتماسك، وأن يستعيد حلمه، وهو يقول:
- أظنكم لم تقصدوا شرا، على الرغم من كل ما فعلتموه كنتم تحاولون فهمنا.. أليس كذلك؟!
لم يتحرك المخلوق، وهو ما زال يصوب أداته إلى رأس الدكتور(محمود)، فغمغم أحد السكان، في توتر لا محدود:
- أما من نهاية لكل هذا؟!
أدار المخلوق عينيه السوداوين إلى ذلك المتحدث، فانكمش في موضعه رعبا، وهو يتمتم:
- لم أقصد هذا.. لم أقصده..
غمغم الدكتور (محمود) في عصبية: -
- تماسك يا رجل.
عاد المخلوق إليه بحركة حادة، وخفض أداته، وكأنما أدرك عدم جدوى التعامل بها..
ثم اتجه نحو الدكتور (محمود)..
كان يتحرك في حذر، وهو يرصد الجميع، ويتقدم خطوة تلو أخرى، في حين تجمد الدكتور (محمود) في مكانه، ولم ينبس ببنت شفة، أو يحرك ساكنا واقترب المخلوق أكثر..
اقترب، حتى صار على مسافة خطوة واحدة من أستاذ الجيولوجيا، ثم مال برأسه نحو وجهه مباشرة كان طوله يناهز المترين، لذا فقد انحنى على نحو مخيف، ليحدق في وجهه البشرى مباشرة...
وارتجف جسد الدكتور (محمود)، كما لم يرتجف من قبل ارتجف، وهو يتطلع إلى العينين السوداوين اللامعتين الكبيرتين،

والأنياب الشبيهة بأسماك القرش..
ومرة أخرى، راوده شعور بأن ذلك الشيء سينقض عليه بغتة، ويلتهمه بلا رحمة ثم إنه لم يشعر بأنفاسه ذلك الشيء لا يتنفس..
أو أنه يستخدم وسيلة تنفس مختلفة، لا تشبه وسيلتنا المباشرة..
وربما أن ذلك الغلاف المحيط به، يحجب أنفاسه داخله ولو أن الاحتمال الأخير هو الصحيح، فلا ريب في أنها أنفاس ملتهبة مثل جسده..
أنفاس نارية، تتفق مع حياته في الأعماق..
المهم أن الدكتور (محمود) قد تجمد تماما..
ساقاه تحولتا إلى كتلتين من الخشب، تسمرتا في موضعه، فبدا وكأنما تصلب كله دفعة واحدة وفي بطء شديد الحذر، رفع ذلك الشيء يده، وراح يتحسس جسد الدكتور (محمود) في بطء ودقة..
ومرة أخرى، غمغم الشيخ (حسن):
- سلام.. قولاً من رب رحيم
أما سكان الحي، فقد حبسوا أنفاسهم، وعقولهم تسترجع مشاهد رهيبة سابقة مشهد كتلة اللحم المفرية.
وسيارة الشرطة، وهي تسقط في الشِق...
واختطاف الحاج (عوض)..
وكلهم تساءلوا، ماذا سيكون مصير الدكتور (محمود)؟!
ماذا؟!
وبعدما يقرب من دقائق ثلاث، تحسس ذلك المخلوق خلالها جسد الدكتور (محمود) ووجهه، اعتدل واقفاً أمامه، ثم تراجع

خطوتين إلى الخلف، ووقف ثابتا لدقيقة كاملة، لم يحرك ساكنا، وهو يقف كالتمثال، والكل يحدق فيه في حيرة قلقة مذعورة..
ثم فجأة، فهم الدكتور (محمود) الموقف..
وفي انفعال مفاجئ، هتف:
- رباه! إنه يمنحني الفرصة لفحصه، كما فحصني..
هتف الشيخ (حسن) مستنكرا:
- هل ستلمس ذلك الشيء؟!
أجابه بنفس الانفعال:
- هذا ما ينتظره..
ثم تقدم نحو المخلوق، مضيفاً:
- وهذا ما لن أفقد فرصته.
رفع يده، وراح يتحسس جسد ذلك المخلوق، الذي ظل جامداً، مفسحاً له مجال الفحص، وعيناه السوداويان تتابعان حركته..
أما الدكتور (محمود)، فقد راح يخزن كل المعلومات في ذاكرته، ويمني نفسه بنشر تجربته هذه، في أكبر مرجع علمي معروف، وشعر بالارتياح؛ لأن هناك عشرات الشهود على ما حدث لن يمكن أن يشكك أحد في روايته وهو سيكتبها على نحو علمي....
أول لقاء مع مخلوقات عاقلة، من كوكب آخر..
أول حقيقة فضائية على الأرض، لا تقبل الجدل ..
رباه.. ستفوق شهرته الآفاق حتما ..
وهذا يفوق أحلامه بريقا
- ألا يمتلك أحدكم آلة تصوير؟!
قبل حتى أن يكتمل سؤاله، تراجع ذلك المخلوق، ووقف عند طرف الشق، ثم رفع يده إلى أعلى بحركة حادة..
حركة أفزعت كل الواقفين..
وعقبها مباشرة، جاءت المفاجأة..

أكبر مفاجأة....

☆ ☆ ☆

بدا (جون فيليب)، خبير وكالة الفضاء والطيران الأمريكية(ناسا) شديد التوتر، وهو يجلس إلى جوار مسئول الأمن القومي في سيارة هذا الأخير، وغمغم في عصبية:

- هل تعتقد أننا سنصل في الوقت المناسب؟!

انعقد حاجبا مسئول الأمن القومي، وهو يقول في صرامة:

- هذا يتوقف على ما تعنيه بالوقت المناسب.

زفر (جون) في عصبية، وقال:

- إنهم لن يبقوا إلى الأبد

قال مسئول الأمن القومي في سرعة:

- من أدراك؟!

ارتبك (جون) أكثر، وهو يقول:

- إنه مجرد تصور

ضغط مسئول الأمن القومي فرامل سيارته بغتة، على نحو مفاجئ، فاندفع جسد (جون) إلى الأمام، وهتف في عصبية وحدة:

- ماذا دهاك يا رجل؟!

استدار إليه مسئول الأمن القومي، قائلاً في صرامة أكثر:

- ماذا تخفى أنت؟!

امتقع وجه (جون)، وهو يهتف:

- أخفى؟!

مال مسئول الأمن القومي نحوه، قائلاً:

- نعم.. تخفى.. اسمع يا هذا.. قد تكون أحد العلماء المعدودين في العالم، وربما كنت أفضلهم، في مضمار الفضائيات، والاتصال

بالذكاء غير الأرضي، إلا أنك، من الناحية الاستخباراتية، لن تقارن بأضعف واحد منا.
ازداد امتقاع وجه (جون)، وهو يغمغم:
- لست أفهم.
قاطعه الرجل في صرامة شديدة:
- بل تفهم.. وأنا في انتظار سماع ما لديك، وإلا...
انكمش (جون) في مقعده، هاتفا في ذعر:
- وإلا ماذا؟!
مال الرجل نحوه أكثر، وقال:
- وإلا فلن تذهب إلى ذلك الحي أبدا.
بدا (جون) شديد الامتقاع والشحوب، وهو ينكمش أكثر وأكثر في مقعده، ويتمتم:
- ولكن.. ولكن ..
اعتدل مسئول الأمن القومي، قائلا في حزم:
- فليكن.. سنجلس أنت وأنا هنا، ويذهب الجيش لمحاصرة الحي، و..
قاطعه (جون) مذعورا:
- لا.. لا وقت لهذا.
كرر الرجل في حدة:
- ومن أدراك؟!
بدا (جون) يائساً، وهو يغمغم:
- فليكن.. إنه سر يتعلق بالأمن القومي الأمريكي، وهم أمروني بإخفائه، و..
قاطعه الرجل في حزم:
- لقد تلقيتم اتصالاً منهم.. أليس كذلك؟!

صمت (جون)، وتجمد على مقعده تماما، وبدا وكأنه قد فقد كل دماء الحياة، وهو يحدق أمامه بعينين زائغتين، فتابع مسئول الأمن القومي:
كنتم تعرفون أنهم سيهبطون هنا.. ولكنهم لم يهبطوا حيث توقعتم..
بدا صوت (جون) أقرب إلى البكاء، وهو يقول:
- لا يمكنهم احتمال ضوء الشمس.. لو اكتمل شروقها لن نعثر عليهم أبدا.
قال مسئول الأمن القومي في حذر:
- ربما غداً.
هتف (جون):
- لا يوجد غد
وبدا أقرب إلى الانهيار، وهو يكمل:
- سيرحلون خلال أقل من ساعة
امتزج حاجبا مسئول الأمن القومي، وهو يقول في غضب:
- من الواضح أنكم تعرفون الكثير
قال (جون) في ضراعة:
- لا يمكننا أن نكرر الاتصال، قبل اثنى عشر عاما على الأقل، عندما تصبح كل الظروف الكونية ملائمة.. لو رحلوا دون أن نلتقي بهم، سنخسر الكثير.. الكثير جدا

سأله الرجل:
- من تقصد بصيغة الجمع؟! الأمريكيون أم البشر.
ازدرد (جون) لعابه، دون أن يجيب، فتمتم مسئول الأمن القومي في حنق:
- هذا ما توقعته

وعاد يدير محرك سيارته، وهو يضيف:
ربما كان ينبغي أن نتولى الأمر بأنفسنا
وانكمش (جون) في مقعده أكثر وأكثر

☆ ☆ ☆

في هذه المرة، لم يخرج من الشق مخلوق واحد..
بل خمسة..
خمسة مخلوقات، متشابهة فيما بينها، تسلقت طرف الشق، وخرجت تقف عند حافته، وتتطلع إلى سكان الحي كلهم في صمت واشترك الكل في ذلك الصمت..
صمت مهيب رهيب، سيطر على المكان كله، وكل طرف يتطلع إلى الآخر..
كان الأمر أشبه بحدائق الحيوانات المفتوحة
مخلوقات مختلفة التكوين، تتأمل بعضها البعض في فضول ومن خلف الأبنية، بدأت الشمس تشرق ومن بعيد، تعالى صوت المدرعات ودبابات الجيش، وهي تحاصر الحي كله..
وعلى الرغم من الاضطراب، الذي شعر به سكان الحي، مع صوت الدبابات والمدرعات، ظلت تلك المخلوقات هادئة، وكأن ما يحدث أمرا لا شأن لها به، من قريب أو بعيد..
كل ما جذب انتباهها، هو أن قرص الشمس بدأ يلقى الضوء على المكان..
الأشعة الذهبية راحت تنعكس على النوافذ والأسطح، فتطلعت إليها تلك المخلوقات في قلق، وتبادلت فيما بينها نظرة صامتة، راحت تثب بعدها، واحداً بعد الآخر، داخل الشق..
المخلوق الأول وحده بقي في النهاية، ورفع سبابته، ولوح بها في الهواء، فغمغم الدكتور (محمود):
- أظنها تحيتهم.

وبعدها وثب ذلك الأخير أيضا إلى الشق، واختفى هناك تماما فتواصل الصمت لحظات، قبل أن يقول الشيخ (حسن) في حذر:
- هل.. هل انتهى الأمر؟!
غمغم الدكتور (محمود) في حيرة:
- لست أدرى
مع آخر حروف عبارته، ارتجت الأرض مرة أخرى في قوة، ثم وثب عبر الشق جسم ما سقط عند قدمي الدكتور (محمود)، وانزاح من حوله غلاف لزج هلامي حيوى، فهتف الرجل:
- عمى (عوض).
كان الحاج (عوض) يسعل بشدة، وذلك الغلاف الحيوي ينزلق عنه، ويزحف كثعبان ضخم نحو الشق، ثم يختفي داخله، والكل يهرع نحو الحاج (عوض)، احتضنه (محمود) في لهفة وسعادة، وهو يقول:
- أنت بخير يا عماه.. لقد أعادوك.. وهذا يكفي.. حمداً لله على سلامتك.. حمداً لله
- ماذا حدث؟! أين أنا؟!
اندفع سكان الحي يهنئون الحاج (عوض) على العودة، وربت أحدهم على كتفه، قائلاً:
- أنت رجل مبروك يا حاج.
وهمس آخر لرفيقه:
- الجن أعادوه.
هتف الشيخ (حسن) في غضب:
- قلنا ليس جنا
ومع هتافه، ارتجت الأرض مرة أخرى بمنتهى العنف، ثم سمع الكل هدير قوى، أشبه بمرور قطار تحت أقدامهم، وفقد

بعضهم توازنه، واستمر الهدير والارتجاج دقيقة كاملة، ثم انتهى كل شيء بغتة.
فجأة، عاد الهدوء إلى الحي، وتوقفت الأدخنة الحمراء عن التصاعد من قلب الشق، وغمر ضوء الشمس الحي، في نفس اللحظة التي أوقف فيها مسئول الأمن القومي سيارته، عند الحافة الخارجية للشق، فوثب منها (جون)، وقفز يعبر الشق وهو يهتف:
- أين هم؟!
التقط الدكتور (محمود) نفسا عميقا، وقال في ارتياح:.
وصلت متأخراً يا رجل.. لقد رحلوا.
كان (جون) ينفجر مرارة، وهو يهتف:
- رحلوا؟!
أجابه الدكتور (محمود)، في شيء من الزهو، لم يستطع كبحه:
- يمكنني أن أخبرك كل التفاصيل.. لقد التقيت بهم، وسأنشر تجربتي كلها، و..
قاطعه مسئول الأمن القومي في هدوء، في نفس اللحظة التي بدأ فيها رجال الجيش ينتشرون في الحي:
- لست أظن هذا ممكناً يا صديقي.
التفت إليه الدكتور (محمود) في حدة:
- ولماذا؟!
وضع مسئول الأمن القومي يده على كتفه، كما لو أنهما صديقان قديمان، وقال:
- مسألة أمن قومي يا صديقي.. صحيح أن الحي كله شهد ما حدث، ولكن دعنا نبقى الأمور داخله.. الناس سيفسرونه على هواهم.. لا داع لإثارة موجة من الفزع العالمي.
هتف الدكتور (محمود) في غضب:

- ولكنه كشف العمر -
بدا صوت الرجل صارما، وهو يقول:
- عجبا! هل ستجازف بسمعتك العلمية كلها، مقابل قصة أشبه بالخزعبلات يا رجل
هتف الدكتور (محمود):.
- إنها حقيقة، وأنتم تعلمون هذا.
هز مسئول الأمن القومي كتفيه، قائلاً:
- ومن سيصدقها؟!
هم الدكتور (محمود) بالاعتراض، ولكن الحاج (عوض)، أسرع يقول في انفعال:
- لا أحد
صاح (محمود) مستهجنا:
- عماه!
أشار عمه بسبابته في عصبية، قائلاً:
- لو أنك شاهدت ما شاهدته أنا، لما أشرت إلى هذا الأمر مرة أخرى قط
جذبت العبارة انتباه مسئول الأمن القومي، فترجمها إلى(جون)، الذي سأله في لهفة:
- وما الذي شاهدته بالضبط؟!
انعقد حاجبا (محمود) في غضب، وتطلع عمه إلى (جون) لحظة، ثم قال في صرامة:
- لا شيء..
ابتسم مسئول الأمن القومي، وغمغم الشيخ (حسن):
- ليس مهما ما رأيت يا حاج (عوض)، ولا أنت يا دكتور(محمود).. ليس المهم حتى ما رأيناه وعشناه جميعا، وما سيستجوبوننا بشأنه لأسابيع.. المهم أن المحنة قد ولت

وانتهت، فنحن لا نسأل الله (سبحانه وتعالى) رد القضاء، ولكن نسأله اللطف فيه..
ولم يعلق أحد على عبارته ..
فالشمس أصبحت تغمر الحي كله الآن، معلنة النهاية نهاية ذلك اليوم العصيب للغاية..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
ذلك اليوم
١- الشق..
٢ - الجنى..
٣ - بالعقل..
٤ - الحصار..
٥ - خبير..
٦- لقاء..

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

بذور

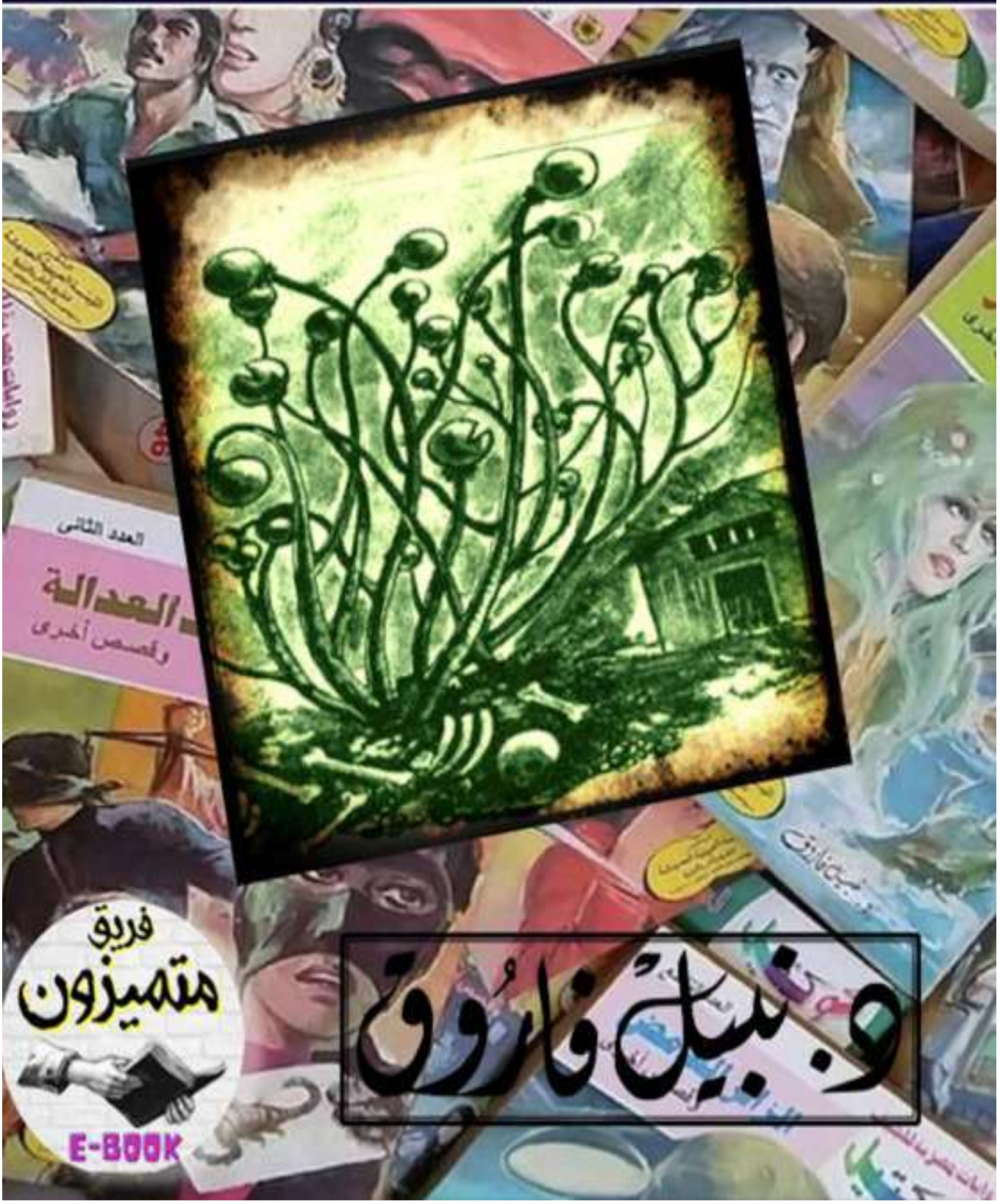

نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

بذور

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

بذور..

من أعمق أعماق الفضاء جاءت..
وفي تربة الأرض زُرعت..
وفي غفلة من الزمان نمت..
وترعرعت..
وبدأت مرحلة جديدة، في أرض غريبة..
مرحلة، جعلت نموها يزرع الرعب، في تلك المنطقة الريفية الهادئة..
رعب جديد..
ورهيب..
بلا حدود..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١ - الأزل..

هناك.. في أعمق أعماق الكون، ومنذ ملايين ملايين السنين، حدث ذلك الانفجار..
انفجار رهيب..
عنيف..
شامل..
وصامت ([1])..
جسم صناعي هائل، جاب الكون لسنوات وسنوات، سقط أخيرا في فخ نيزكي رهيب..
انهالت عليه النيازك الهائلة في كل صوب..
أصابته..
وحطمته..
وسحقته..
ثم انفجر..
ومع انفجاره، انمحت آخر سلالة حضارة راقية مدهشة، سادت الكون يوما، ووضعت بصمتها على مكان من كواكبه، قبل أن تتعرض إلى كارثة رهيبة، انتهت بفرار النخبة المنتقاة، من حكماء وعلماء ذلك الكوكب، في مركبة فضائية هائلة، راحت تبحث، عبر الكون كله، عن كوكب بديل، يصلح لاستمرارها، وإعادة نموها..
ولقد رصدت ذلك الكوكب بالفعل..
رصدته على مسافة عشر سنوات ضوئية..
وانطلقت نحوه..

كان كوكبا بدائيا، بسيطا، لم يشهد في صفوف الحياة سوى طراز من الزواحف الهائلة، وأنواع ضخمة من نباتات وحشية مفترسة، ومتوغلة..
ووفقا لتقديراتهم، كانوا سيصلون إلى ذلك الكوكب، عندما يبدأ خطواته الأولى، في سلم الحضارة..
وكانت خطتهم تعتمد على تبنِّي تلك الحضارة..
ورعايتها..
وشق طريق النماء أمامها..
وفي سبيل هذا، راح علماء تلك الحضارة القديمة، يسعون لاستنباط أنواع وأنماط حيوانية ونباتية جديدة، تتوافق مع مناخ وطبيعة ذلك الكوكب الأزرق، الذي يحتل الموقع الثالث من شمسه، التي يقل حجمها عن حجم شمسهم..
وعبر الكون السرمدي، انطلقت مركبتهم العملاقة..
وانطلقت..
وانطلقت..
واقتربت من تلك المجرة، التي انتقوا من بينها كوكبهم البديل..
كل شيء في رحلتهم كان محسوبا بمنتهى الدقة..
السرعة..
والمسافة..
والمسار..
و..
ولكن فجأة، اختل توازن إحدى المجموعات الشمسية النجمية، التي اقتربوا منها..
ومع اختلال التوازن، اختل مسار كواكبها..
وارتطم أحد الكواكب بآخر..
وانفجر..

ومع انفجاره، انطلقت في الفضاء مئات من القطع الصخرية، من مختلف الأحجام..
انطلقت بسرعة الانفجار..
وإلى ما لا نهاية ([2])
وفي المركبة العملاقة، ثم رصد ذلك المطر المنهمر بلا حدود..
ولقد حاول قادتها المناورة، أو زيادة السرعة؛ للإفلات من ذلك الوابل الرهيب..
ولكن مساحة الانتشار كانت كبيرة..
أكبر مما ينبغي..
لذا، فكل المناورات والمحاولات لم تفلح..
وانهالت تلك الصخور الهائلة على المركبة..
أصابتها في موضع..
وثان..
وثالث..
ثم أصابت خزان الطاقة الرئيسي..
وحدث الانفجار..
ومعه، تحطمت المركبة العملاقة إلى ألف ألف قطعة..
وتناثرت في كل الاتجاهات..
أجساد العلماء، والحكماء، والقادة، تناثرت في الفضاء، وانتفخت مع غياب التوازن في الضغط، ثم انفجرت..
وغرق الفضاء بموجة من الأشلاء..
أشلاء حضارة سادت..
ثم بادت..
ومن بين كل الحطام والأشلاء والمتناثرات، كان ذلك الوعاء..

وعاء من معدن قوى، مقاوم للانفجار، قذفته قوة الدفع إلى أعمق أعماق الفضاء..
ولسنوات وسنوات، ربما بلغت الآلاف، أو حتى الملايين، كان ذلك الوعاء ينطلق في الفضاء اللانهائي، بسرعة محدودة نسبيا، حتى بلغ أخيرا مجموعة شمسية بعينها..
ولقد تجاوز كواكبها الثماني الأولى ([3])، دون أن يسقط في المجال الجذبي لأحدهما..
ثم بلغ الكوكب الثالث، بعدا عن شمسها..
ومع سرعته الهائلة، ارتطم بسطح القمر الأوحد لذلك الكوكب، ثم ارتد عنه، واتجه بسرعة أقل نسبيا، نحو الكوكب نفسه، ودخل مجاله الجذبي والجوي..
ومع دخوله المجال الجوي لكوكب الأرض، واحتكاكه به بتلك السرعة، التي ضاعفتها الجانبية، راحت درجة حرارة الوعاء ترتفع..
وترتفع..
وترتفع..
أي معدن آخر، كان سينصهر حتما، في مثل تلك الحرارة الهائلة الرهيبة..
ولكن ذلك الوعاء احتمل..
وصمد..
وبقي..
حتى ارتطم بالأرض..
وكأنما أصرَّ ذلك الوعاء العجيب، على أن يكون وصوله إلى أرضنا علامة على ما سيفعله بها وبنا، فلم يهبط في أرض فضاء، وإنما

اختار السقوط فوق منطقة ريفية هادئة، في الساعات الأخيرة من ليلة شتاء..
ومع سرعته الهائلة، كان الارتطام عنيفا..
قاسيا..
مخيفا..
إلى أقصى حد..
ففي قلب تلك المنطقة الآمنة، دوى انفجار رهيب..
انفجار أطاح بثلاثة منازل متجاورة، وأشعل النيران في أربعة أخرى محيطة بها، وأيقظ المنطقة كلها، في فزع وارتياع، ما لهما من مثيل.
ولقد استمرت النيران مشتعلة، حتى صباح اليوم التالي
على الرغم من تآزر الجميع لإطفائها..
وعبر كل الطرق، المؤدية إلى تلك المنطقة، دوت صفارات سيارات الإطفاء، وراحت تصرخ..
وتصرخ..
ومع انبلاج الصباح، تمت أخيرا السيطرة على النيران..
وبدأ رجال المعمل الجنائي يعملون، بحثا عن الأسباب، التي أدت إلى انفجار هائل كهذا، ونيران مقاومة كتلك، خاصة وأن المكان الوحيد، الذي كان يحوي مواد قابلة للاشتعال أو الانفجار، كان مزرعة المهندس (وليد عزمي)، والتي تبعد كيلو مترين كاملين..
وكان من الطبيعي أن يتواجد (وليد) في منطقة الكارثة، منذ بداية الموقف، وحتى تمت السيطرة عليه..
وكان وجوده هو البداية..
بداية أكبر قصة شهدتها تلك المنطقة..
قصة الرعب..
الشامل.

☆ ☆ ☆

«هل توصلتم إلى شيء؟!»

ألقى المهندس (وليد) سؤاله هذا في عصبية، على مسامع(سامح)، ضابط المباحث في المنطقة، فهز هذا الأخير كتفيه مجيبا:

- ليس بعد.

قال (وليد) في حدة:

- ماذا تعنى بليس بعد هذه؟! إننا نتحدث عن كارثة، وينبغي أن تبذلوا أقصى جهدكم، للعثور على تفسير، وإلا فلن يغمض لأحد هنا جفن، والكل يتوقع أن تتكرر الكارثة، في أية لحظة.....

بدا (سامح) أكثر توترا، وهو يقول:

- إننا نبذل قصارى جهدنا.

عبدا فانا لماما زيد ذلك.....

قال (وليد) بنفس الحدة:

- من الواضح أن هذا غير كاف

استدار إليه (سامح) بحركة حادة، وبدا لحظة وكأنه سينفجر في وجهه، قبل أن يمسك يده، ويجذبه جانبا، بعيدا عمن يفحصون المكان، وهو يقول في صرامة:

- تعال.

شعر (وليد) بدهشة عارمة، منعته من الاعتراض أو المناقصة، حتى صارا وحدهما، فاستدار إليه (سامح)، قائلا في عصبية شديدة:

- اسمعني جيدا.. ما حدث هنا يقلق (القاهرة) بشدة، وهم يضغطون بشدة؛ للوصول إلى نتائج، ونحن نعمل فعليا، بضعف الجهد المعتاد، وفي الطريق إلى هنا فريق من الخبراء، من مختلف التخصصات؛ في محاولة لمعرفة تفسير ما حدث..

شعر (وليد) بأنفاسه تتلاحق، وهو يسأله:
ألا يوجد حتى تصور أولى؟!
هز (سامح) رأسه نفيا، بنفس العصبية، وهو يقول:
- للأسف.. كل ما لدينا يبدو أقرب إلى الخزعبلات والشعوذة، منه إلى التفسير العلمي أو المنطقي، فهناك مزارع يقول: إنه رأى جنيا يهبط من السماء، على بساط من نار، ويشعل ذلك اللهب في المنازل، وخفير المنطقة أيد قوله، وأقسم أنه شاهد ذلك الجني بنفسه، قبيل الانفجار مباشرة...
انعقد حاجبا (وليد)، وهو يقول:
- جنى من السماء؟!
لوح (سامح) بذراعيه، قائلاً في عصبية:
- أرأيت ما نواجهه؟!
مال (وليد) نحوه، وهو يسأله في لهفة:
- أرأيت أنت أنه لديكم الكثير، ولكنكم لم تدركوا هذا؟!
فغر (سامح) فاه ذاهلاً، وهو يكرر:
- الكثير؟!
أشار (وليد) بيده، قائلاً:
- بالتأكيد.. لديكم شاهدان، تحدثا عن نيران هبطت من السماء ربما دفعهما جهلهما، وضعف ثقافتهما، وموروثاتهما الريفية، إلى ربط هذا بالجنى والعفاريت، إلا أنهما، وبلا شك، اتفقا على رواية واحدة..
سأله (سامح)، في فضول يفوق العصبية:
- وما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟!
مال (وليد) نحو أكثر، مجيبا بابتسامة واثقة:
- نيزك؟!
حدق فيه (سامح)، مرددا، في شك حذر:

-- نيزك؟!
أومأ (وليد) برأسه إيجابا، وقال:
- نعم.. نيزك هبط من السماء، كما تهبط آلاف النيازك سنويا على الأرض، ولكنه كان أكبر حجما، أو أوفر حظا، فلم تحترق مادته بالكامل، مع احتكاكها بالغلاف الجوي، كما يحدث طوال الوقت منذ الأزل.
بدا الشك على وجه (سامح)، وهو يقول:
- ولماذا ينفجر؟!
أجابه (وليد) في سرعة:
تنهال سنويا مئات النيازك الصغيرة، على كوكب الأرض، في مختلف، بقاعه، إلا أنها تحترق بالكامل، أثناء احتكاكها بالغلاف الجوي، ومن النادر أن يصل بعضها إلى سطح الأرض، إلا أن هذا ليس مستحيلا، وهناك عشرات المشاهدات لهذا، منها حجم هائل، ترك فجوة شديدة الضخامة، في صحراء (أمريكا) درجة حرارته، القريبة من درجة الانصهار، وسرعة وعنف ارتطامه بالأرض، يصبح أشبه بالقنبلة، و....
قاطعه (سامح)، وهو يكمل في انفعال:
- ويتفتت.
تطلع إليه (وليد) في دهشة، فلوح بذراعه، مستطردا في عصبية وانفعال أكثر:
- هذا هو التفسير الوحيد، الذي يمكن أن يقنعني بما تفترضه، فمع كل البحث، الذي قمنا به، طوال ثلاثة أيام كاملة، لم نعثر على أي شيء، أو أي جزء، من ذلك النيزك الوهمي..
ابتسم (وليد)، وهو يعتدل، قائلاً:
- ومن المستحيل أن تعثروا عليه هنا..
هتف في حدة:

- ولماذا؟!
أجابه (وليد) في حزم:
- لأنه انفجر.. والانفجار يعني موجة تضاغط شديدة العنف، ستلقى أية بقايا من ذلك الشيء، إلى مسافات طويلة، ومع عنف الانفجار، الذي شعرته به في فيلتي، التي تبعد كيلومترين عنا، والتي ارتجت كلها تقريبا، لن يدهشني ألا تعثر على بقايا، إلا على مسافة كيلو متر على الأقل.
انعقد حاجبا (سامح)، وهو يستمع إليه، قبل أن يلتقط هاتفه المحمول، ويضغط أزراره في عصبية، قائلاً:
- مساء الخير يا سيادة اللواء.. أنا (سامح).. (سامح النوتي).. كلا يا سيدي.. لم نعثر على أي شيء بعد.. الواقع أننى أطلب زيادة رقعة البحث، ولدى مبرراتى..
ابتسم (وليد)، عندما رآه ينقل كل ما سمعه منه إلى رؤسائه، وانسحب في هدوء، متجها إلى سيارته، ولم يكد يدير محركها، حتى اتجه خفير المنطقة نحوه، وهمس في توتر:
- (وليد) بك.. لدى شيء، أظنه سيثير اهتمامك.
التفت إليه (وليد) بنظرة متسائلة، فتلفت الخفير حوله، في توتر ملحوظ، قبل أن يدس يده داخل جلبابه، ويخرج منه وعاءً معدنيا صغيرا، ناوله إليه، هامسا:
- هذه قطعة أثرية.. أليس كذلك؟!
التقط (وليد) ذلك الوعاء الصغير، وقلبه بين أصابعه في حيرة، وهو يحاول فهم ماهيته كان له ملمس بارد ناعم، ووزن شديد الخفة، على نحو لا يتناسب مع حجمه، إذ كان أسطواني الشكل، يبلغ قطر قاعدته سبعة سنتيمترات تقريبا، وطوله خمسة سنتيمترات، وكان مغلقا من كل الاتجاهات، إلا أنه مجوف حتما، وبداخله أشياء صغيرة، يمكنك أن تسمع صوتها،

عندما ترجه في يدك أما سطحه، فكان يحوي بعض النقوش غير المألوفة، والتي لا تشبه اللغة الهيروغليفية، أو أية لغة مألوفة..
وفي حيرة، سأل (وليد) الخفير:
- أين عثرت على هذا الوعاء؟!
همس الرجل بمنتهى الحذر:
- في حقلي.. كنت أحدثه صباح اليوم، فعثرت عليه تحت تربته
ما أن سمع (وليد) هذا، حتى قفزت إلى ذهنه فجأة، ضرورة أي يبلغ (سامح) بأمر ذلك الوعاء، إلا أن شيئا ما، بين فضوله وشغفه، جعله يعدل عن هذا، وهو يقول للخفير:
. إنها ليست قطعة أثرية، ولكنني أعتقد أنها قد تساوى شيئا..
سأله الخفير في لهفة:
- أكثر من خمسين جنيها؟!
ابتسم (وليد)، وهو يقول:
- ربما مائة جنيه أيضا..
برقت عينا الخفير في لهفة أكثر، وهو يهتف:
- حقا؟!
وتمت الصفقة، خلال دقائق ثلاث..
الخفير حصل على ورقة بمائة جنيه، و(وليد) حصل على ذلك الوعاء الصغير، وعاد به إلى فيلته...

عندما أعلنت عقارب الساعة تمام الخامسة فجرا، لم تكن عينا المهندس (وليد) قد شهدتا النوم لحظة واحدة بعد لقد قضى ليلته كلها يقلب ذلك الوعاء المعدني بين يديه، بحثا عن أية وسيلة للنفاذ داخله، ومعرفة ما يحويه، وما يصدر ذلك الصوت الواضح، عندما يرجه رجا أما تلك النقوش العجيبة، التي تراصت على إطار الوعاء، فلم يجد لها مثيلاً قط، في كل القواميس، التي

تحويها مكتبته، التي ورثها عن والده الراحل.. حتى شبكة الإنترنت، لم يعثر فيها على رمز واحد، يشبه أي من تلك الرموز العجيبة...
لذا، فقد راح عقله يضع عشرات الاحتمالات..
احتمالات علمية..
ومنطقية..
وحتى جامحة..
وعندما سمع الساعة الكبيرة، في بهو المنزل، تدق تمام الخامسة، بدأ ينتقل إلى الاحتمالات الخرافية والمجنونة تذكر ذلك الزئبق الأحمر، الذي يتحدثون عنه، ويشيرون إلى وجوده في مقابر الفراعنة، وينسبون إليه كونه طعام الجان، والوسيلة المثلى لتسخيرهم، وفرض إرادة البشر عليهم..
إنه لم ير يوما خرطوشة، من خراطيش ذلك الزئبق المزعوم، إلا أن ما يرددونه عنها، هو أنها مغلقة تماما، ولا توجد وسيلة لفتحها إلا بتحطيمها..
ربما كان هذا الوعاء هو أحدها إذن..
ولكنه يبدو أحدث من أن يتواجد من أيام الفراعنة..
ثم إن هذا المعدن يختلف، عن أي معدن آخر، رآه في حياته كلها؛ إذ أن حجم الوعاء لا يتناسب قط مع وزنه البالغ الخفة
هذا بالإضافة إلى أن ما بداخله ليس سائلا حتما.. لا..
إنها قطع صلبة أو شبه صلبة..
أعاد عقله المجهد مراجعة كل ما دار به، منذ أعطاه الخفير الوعاء، وحتى الفجر، ثم توقف عند نقطة واحدة، بدت له وكأنها آخر أمل، لحل هذه المعضلة أن يحطم الوعاء من الواضح أن السبيل الوحيد، لمعرفة محتواه، هو كسره..

وقبل حتى أن تستقر الفكرة في رأسه، كان ينتقل بحذائه ويسرع إلى كشك صغير، ملحق بالمنزل، يمارس فيه هواياته اليدوية المتعددة..

كان يملك كل الأدوات اللازمة، لفتح أي وعاء، مهما بلغت صلابته؛ لذا فقد بدأ عمله، وهو واثق من أنه ما أن تشرق الشمس، حتى يكون قد انتصر على ذلك الوعاء، وسبر غوره ولكن الساعة بلغت الثامنة، عندما بلغ إرهاقه مبلغه ولم ينكسر الوعاء.

لقد استخدم معه كل الوسائل المتاحة..

مطرقة ثقيلة من الصلب..

منشار فولاذى..

مثقاب كهربي..

وكلها تحطمت وفشلت..

كلها بلا استثناء..

وعندئذ فقط، وثب ذلك الاحتمال في ذهنه.. لا ذلك الوعاء ليس أرضيًا..

إنه لا ينتمي إلى أي شيء عرفه كوكب الأرض..

لا يوجد معدن واحد معروف، يجمع كل هذه الخواص الفيزيائية دفعة واحدة..

فهو منيع..

وخفيف الوزن، إلى درجة مذهلة..

ناعم..

إنه وعاء قادم من بعيد..

من الفضاء..

وفي لحظة واحدة، وفور أن وثب الاحتمال إلى رأسه، تداعت..

في ذهنه كل الأحداث الماضية..

النّار التي هبطت من السماء..
الانفجار..
الحرائق..
إنه ذلك الوعاء حتما..
لقد سقط من السماء، ومع احتكاكه بالغلاف الجوي، بدا أشبه بكرة من اللهب، ومع ارتطامه العنيف بالأرض دوى الانفجار واشتعلت الحرائق..
ومع الانفجار، قفز ذلك الوعاء أفقيا حتما، وسقط بعيدا بعيدا جدا...
سقط في ذلك الحقل..
وفي كل ذرة من جسده، سرت قشعريرة باردة كالثلج، مع تلك الفكرة، التي تفوق كل خيال..
ولساعة كاملة بعدها، جلس على مقعد خشبي صغير، في الكشك، يتطلع إلى الوعاء بعينين متسعتين، وعقل خلا من ذلك أية مقترحات أو تصورات مستقبلية..
ثم راح ذهنه يهدأ رويدا رويدا، ويعيد دراسة الموقف، من منظور مختلف تماما..
ذلك الوعاء هو سبب كل ما حدث؛ لذا فمن الضروري أن يسلم إلى الضابط (سامح)، آملا أن يستوعب الفكرة المذهلة إنه واجبه..
وفي شيء من التردد، نهض يلتقط الوعاء، وأمسكه بيديه معا، وشعر بنقوشه البارزة في انتفاخ راحتيه، وفجأة، تحرك الوعاء في يده..
دار نصفه العلوي إلى اليسار، ونصفه السفلي إلى اليمين وعلى أرضية الكشك، أكمل الوعاء حركته..

ومع الحركة المباغتة، انتفض جسد (وليد) في عنف، وأفلت الوعاء وتراجع بحركة حادة، واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحدق فيه ذاهلا مذعورا..
ثم انتفخ..
هكذا، بكل بساطة، وبعد المجهود الشاق الرهيب، الذي بذله طوال الليل..
لا ريب في أنه قد ضغط، دون أن يدري، على أحد النقوش، ا لتي يكمن فيها مفتاح الوعاء العجيب..
المهم أنه قد انفتح..
وبكل الذهول، حدق (وليد) في تلك البذور، التي يحويها الوعاء..
كمهندس زراعي، كان يمكنه أن يدرك، من النظرة الأولى، أنها بذور نبات ما..
وكمهندس زراعي أيضا، كان يدرك أنها لا تشبه أية بذور عرفها من قبل، أو حتى رآها في أي مرجع
وبأصابع مرتجفة مترددة، مد يده، يلتقط تلك البذور، ويتطلع إليها عن قرب كانت أشبه بحبات اللؤلؤ، إلا أنها تحوي براعم واضحة؛ في أحد أطرافها..
أما ملمسها، فقد بدا مخمليا، على نحو مدهش وشعر (وليد) بالانبهار، يغمره، حتى ليكاد يسيطر على كل مشاعره بلا استثناء..
إنه أمر مذهل، لا يمكن أن يصادف الكثيرين، في الزمان كله..
ومصادفة، لا يمكن أن تأتى عبثا..
بذور فضائية، تقع في يد مهندس زراعي أرضى يا له من سبق مدهش!!
ولكن ماذا ينبغي أن يفعل بها؟!
هل يقوم بتسليمها إلى الدولة؟! ا

أم...
توقف طويلاً عند كلمة (أم) هذه، وراح عقله يرسم صورة، لم يستطع مقاومتها قط..
ترى أي نبات يمكن أن تنمو إليه هذه البذور، لو زرعها في مناخ كوكب الأرض؟!
ماذا لو أنه حوى مادة، قادرة على شفاء الأمراض كل الأمراض بل أية فائدة، يمكن أن تعود على العلم، إذا ما استنبط نباتا جديدا، لم تعرفه الأرض قط؟!
التمعت عيناه، وهو يتخيل النتائج، والشهرة، والأضواء..
وجائزة (نوبل) في العلوم..
وتوقف طويلاً عند صورة جائزة (نوبل)..
والتمعت عيناه أكثر..
وأكثر..
وأكثر..
ثم اتخذ أخطر قرار، في حياته كلها..
لقد قرر إخفاء الأمر، وإجراء التجربة فورا..

☆ ☆ ☆

٢ - نمو....

«لقد صدر القرار بإغلاق ملف القضية»
نطق الضابط (سامح) العبارة في ضيق واضح، وهو يجلس مع المهندس (وليد)، في حديقة فيلا هذا الأخير، الذي مال نحوه، يسأله في لهفة واهتمام:
- حقا؟!
بدت الدهشة على (سامح)، وهو يقول:
- ولماذا يثير الأمر اهتمامك، إلى هذا الحد؟!
اعتدل (وليد)، وهز كتفيه، قائلا، وهو يتظاهر باللامبالاة ليس اهتماما، ولكنه فضول.. مجرد فضول..
أراد عبارته لا مبالية، ولكنها حملت، على الرغم منه، لمحة من التوتر، ضاعفت من دهشة (سامح)، إلا أنه لم يلبث أن ألقى كل هذا خلف ظهره، وهو يتثاءب، قائلا:
- إنه أمر طبيعي؛ فبعد شهر كامل من التحقيقات، والدوران في دوائر مغلقة، لم نعثر على شخص واحد، من صالحه أن يحدث ما حدث؛ لذا فقد تم قيد الواقعة ضد مجهول، باعتبارها ناشئة عن إهمال، لم يتم تحديده بدقة..
تنهد (وليد) في ارتياح، وهو يسترخي في مقعده، قائلاً:
- هذا أفضل بالتأكيد..
تطلع إليه (سامح) مرة أخرى في دهشة، قبل أن يطلق ضحكة متوترة، وينهض، قائلاً: -
- الواقع أنني لم أعد أفهمك يا (وليد)..
حاول (وليد) أن يبتسم، وهو يسأله:
- ماذا تعنى؟!

أشار (سامح) بيده، قائلاً:
لست أدرى.. منذ ما يقرب من الشهر، لم تعد (وليد) الذي أعرفه.. لم نعد نلتقي، أو حتى نتحدث، وكل العاملين هنا يقولون إنك تقضي معظم وقتك في تلك الصوبة، التي أمقتها في الحديقة الخلفية....
بدا صوت (وليد) متوترا في وضوح، وهو يقول:
- إنها ليست صوبة، بل مجرد كشك خاص، أجرى فيه بعض التجارب...
ردد (سامح) في حيرة:
- تجارب؟!
أسرع (وليد) يقول، في توتر أكثر:
- نعم.. تجارب لاستنباط بعض الفصائل النباتية الجديدة.. أمر يفيد مزرعتي، على المدى الطويل..
تطلع إليه (سامح) متسائلاً، ثم لم يلبث أن هز كتفيه، قائلاً:
- إنها أمور لا أفقه فيها شيئا يا صديقي، ولكن كل ما أريدك أن تعرفه، هو أننى دوما هنا، إذا ما احتجت إلى شيء.. أي شيء..
ابتسم (وليد) ابتسامة باهتة، وهو يتمتم:
- أعلم هذا.. أعلم هذا..
تصافحا، وغادر (سامح) المكان، مع غروب الشمس، فتابعه (وليد) ببصره حتى اختفى عن ناظريه، ثم أسرع إلى ذلك الكشك الجديد، وفتح القفل الضخم، الذي يضعه على بابه ثم دلف إليه في سرعة، وكأنما يخشى أن يراه أحد، وأغلق رتاجه من الداخل في إحكام، ثم وقف يتطلع إلى ذلك النبات الفضائي، بانبهار لم يفارقه قط، منذ بدأت التجربة الرهيبة...
ففي أول الأمر، كان يخشى ألا تنبت تلك البذور أبدا، وألا تناسبها تربة الأرض، أو مياهنا، أو مناخنا ولكن تلك البراعم

تفتحت في تربة الأرض ونمت..
نمت بسرعة مذهلة، لا ينافسها فيها أي نبات معروف فخلال أسبوع واحد، بلغ ارتفاعها نصف المتر..
وفي الأسبوع الثاني، راحت تلتف حول بعضها، وبلغ ارتفاعها مترا كاملاً..
وعندما مر الأسبوع الرابع تقريبا، لم تكن تشبه أي نبات رأه في أي مرجع علمى معروف لقد أصبحت أشبه بكرات مغلقة..
كرات ضخمة، يبلغ قطرها مترا ونصف المتر، ولها لون وردى، وملمس مخملي مدهش..
وردود فعل مذهلة...
فعندما جرؤ لأول مرة، على أن يربت عليها، انكمشت تحت أصابعه لحظة، ثم لم تلبث أن اقتربت منه تماما كما تفعل هرة، داعبتها في طريق عام..
إنها تتمسح في قدمك، وتلتصق بك، وكأنما تنشد شيئا من دفئك وحنانك..
تلك النباتات أيضا كانت تفعل هذا.. كانت تتمسح فيه، كما لو أنها تعرفه بل إنه ما أن يدخل ذلك الكشك، حتى تلتف كلها إليه، كما لو أنها تشعر بقدومه وتدركه
وكان هذا يسعده بشدة، ويبعث في نفسه نشوة، ما بعدها نشوة، حتى إنه يقضى نصف يومه في العناية بها، والتربيت عليها بل والتحدث إليها أيضا..
ساعات طويلة، كان يقضيها في التحدث مع نباتاته الفضائية وكأنها أطفاله أو تلامذته..
وعندما يأوي إلى فراشه، في نهاية كل يوم، كان يستعيد حلم(نوبل) والشهرة، والمجد، ويحلم طوال الليل بنباتاته، وهي تنمو..

وتنمو..
وتنمو..
ولكن في تلك الليلة بالتحديد، لم يمكنه أن ينعم بنوم هادئ، مثل لياليه السابقة..
فقد كان الكلاب تعوى بشدة لوقت طويل؛ ثم لم يلبث عواؤها أن تحول إلى أنات، لاذ بعدها بصمت مطبق، مع انبلاج الفجر، مما سمح له بالنوم حتى العاشرة..
وعندما استيقظ، كان يشعر بإرهاق شديد، وصداع عنيف، جعله يغمغم:
- يا له من يوم!!
تثاءب في تهالك، ونهض يرتدي ثيابه في تكاسل، وهبط إلى حديقة الفيلا، وما أن فعل، حتى شعر بحركة غير عادية، بين العاملين في المزرعة، فهتف بأحدهم:
- ماذا حدث يا رجل؟!
بدا الرجل مضطربا، وهو يجيب:
- يبدو أن بعضهم تسلل إلى المزرعة ليلا، يا (وليد) بك.
سأله (وليد) في توتر:
- هل سرق شيئا؟!
تردد الرجل لحظة، قبل أن يجيب في عصبية:
- فقط أحد كلاب الحراسة
بدت دهشة عارمة على وجه (وليد)، وهو يحدق في الرجل قائلاً:
- كلاب الحراسة؟! لص يدخل المزرعة، ويسرق كلب حراسة؟!
أي قول أحمق هذا يا رجل؟!
نطق عبارته الأخيرة في عصبية، ضاعفت من ارتباك الرجل وهو يقول:

- ليس لصا يا (وليد) بك.. ليس لصنا
صاح (وليد) في غضب:
- من سرق كلب الحراسة إذن؟!
تلفت الرجل خلفه في رعب عجيب، وكأنما يخشى أن يسمعه شبح خفي، وبدا شديد التردد والخوف، حتى أن (وليد) صرخ فيه مكررا:
- من سرق الكلب؟!
مرة أخرى، تطلع إليه الرجل في رعب عجيب، ثم تحول صوته إلى الهمس، وهو يقول:
- الأفضل أن تسأل (عوضين) بنفسك.
قال (وليد) في حدة:
(عوضين)؟! ولماذا (عوضين)؟!
كرر الرجل، في صوت مرتجف:
- سله بنفسك..
قالها، وتحرك فورا، دون أن ينتظر رد فعل (وليد)، الذي تبعه في توتر، حتى وصلوا إلى حيث يجلس أحد خفراء المزرعة، شاحب الوجه، زائغ العينين، وحوله عدد من العمال، يحاولون تهدئته..
وفي عصبية، سأل (وليد):
- ماذا حدث يا (عوضين)؟!
تطلع إليه الخفير بعينيه الزائغتين، ولوح بيده، قائلاً:
- (وليد) بك.. لقد.. لقد كانت هنا.. أنا رأيتها بنفسي.
سأله (وليد) في دهشة:
- من هي؟!
مال الرجل نحوه، وأجاب، وكل ذرة في كيانه وصوته ترتجف:
- النداهة ([4])..

وتراجع (وليد) في دهشة بالغة دهشة بلا حدود..
لنصف دقيقة كاملة تقريبا، ظل (وليد) يحدق في وجه الخفير (عوضين) الشاحب المذعور، غير مصدق ما سمعه منه، قبل أن يقول في حدة، تحمل رنة غضب:
- أي قول أحمق هذا؟! النداهة مجرد خرافة.
اكتسب صوت(عوضين) شحوبا أكثر، وهو يقول، في لهجة حملت لمحة من الضراعة والاستسلام:
- ولكنني رأيته أمس.
تمالك (وليد) أعصابه، وأمسك كتفي (عوضين)، وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة، قائلا في حزم:
صف لي ما رأيته بالضبط..
ارتجف صوت (عوضين) بشدة، وهو يقول:
- كانت كلاب الحراسة تنبح بشدة، فخرجت لاستطلاع ما يحدث وأطلقت أحد الكلاب، لتعقب ما ينبحون عليه، ولكن نباح الكلاب تحول إلى عواء مذعور، كما لو أنها تكاد تموت رعبا، من شيء ما، ودفعني هذا إلى التحفز ببندقيتي، وأنا أتبع ذلك الكلب الذي أطلقته، ولكنني فوجئت به يعوي في ألم وذعر، فأسرعت إليه، و..، و....
ارتبك حديثه بشدة، عند هذه النقطة، وانخفض صوته إلى ما يفوق الهمس، وهو يكمل:
- وعندئذ رأيتها...
هتف به (وليد)، وهو يهزه في كتفيه في انفعال:
- ماذا رأيت بالضبط؟
لوح (عوضين) بيديه، كما لو أنه عاجز عن وصف ما رأه، ثم لم تلبث الكلمات أن خرجت من حلقه مختنقة عصبية، وهو يجيب:

- في البداية، تصورت أن الكلب قد علق في شجرة ما، ثم انتبهت إلى أن تلك البقعة خالية من الأشجار، ثم لاحظت فجأة أنها تمسك به، وأنه يجاهد لتخليص نفسه منها..
وعلى الرغم من معرفته للجواب، سأله (وليد) في عصبية:
- ممن؟!
أجابه (عوضين) في سرعة:
- النداهة.. كانت تمسك به، وتلتف حوله، كما لو أنها نبات متسلق حي، ثم لم تلبث أن انقضت عليه، و..، و.. والتهمته نطق الكلمة الأخيرة، وجسده كله ينتفض في عنف، فحدق فيه (وليد) بمنتهى الدهشة، قبل أن يقول في حدة:
- ولماذا لم تطلق عليها النار؟!
بدا وكأن الرجل نفسه يجهل الجواب تماما، وهو يلوح بكفيه في الهواء، قائلاً:
- لست أدرى.. المشهد كان مخيفا، حتى إننى رحت أتراجع، وأتراجع، وعواء الكلب المسكين يخفت بين فكيها، ثم وجدت نفسي أجرى بكل قوتي مبتعدا، وهأنذا..
كان من الواضح أن الرجل لا يكذب، وأنه مقتنع فعلاً بأنه قد رأى ما يضعه، حتى ولو أخطأ تفسيره..
ولكن روايته كانت عجيبة..
ومفزعة..
ومخيفة.
ثم إن كلب الحراسة مفقود بالفعل، وهذا ما ينبغي أن يركز عليه كل اهتمامه..
وبكل الحزم، اعتدل (وليد)، قائلاً:
- ابحثوا عن ذلك الكلب المفقود.. ابحثوا عنه، أو حتى عن بقاياه.. أريد أن أعرف ما الذي حدث هنا ليلة أمس بالضبط

وعلى الرغم من خوفهم وتوترهم، انطلق رجاله لتنفيذ الأمر، وراحوا يجوبون المزرعة كلها، بحثا عن بقايا كلب الحراسة، في حين اتجه هو إلى المكان الوحيد، الذي يشعر فيه بالراحة والهدوء إلى ذلك الكشك الخشبي، حيث نباتاته العجيبة..
وكما يحدث دوما، استقبلته تلك النباتات بالتفاتة عجيبة، كما لو أنها تشعر بقدومه ووجوده، وجلس هو بينها صامتا لبعض الوقت، قبل أن يقول، وكأنه يحدث نفسه.. أو يحدث نباتاته:
- ذلك الرجل خرف حتما.. ما يقوله غير قابل للتصديق النداهة خرافة.. مجرد خرافة
تمايلت كرات النبات الكبيرة في نعومة، وكأنها تستجيب لكلماته أو تحاول مواساته، فتابع موليا حديثه إليها:
- إنه يشعر بمسئوليته عن فقد كلب الحراسة، وعقله الباطن يحاول تبرئته من هذا، عبر قصة وهمية، عن كائن خرافي.. لا..
لا يمكنني تصديق هذا.. لا يمكنني تصديق حرف واحد منه
تمايلت كرات النبات مرة أخرى، ومالت كلها نحوه، فابتسم ابتسامة شاحبة، وغمغم وهو ينهض:
- نعم.. أعلم أنكم تتعاطفون معي، ولكن الأمر لا يقلقني إلى هذا الحد.. اطمئنوا.. إنه كلب حراسة.. مجرد كلب حراسة
استدار لينصرف من المكان، وهو يلوح بيده، مضيفا:
- أنتم أهم عندي من كل هذا الهراء، الذي..
قبل أن يتم عبارته، ارتطمت قدمه بشيء ما، كاد يفقد توازنه بسببه، فالتفت ينظر إليه، و..
وتجمدت مشاعره كلها دفعة واحدة
واتسعت عيناه، حتى بلغتا أقصاهما.. فذلك الذي تعثرت قدمه به، داخل كشك نباتاته الفريدة، غير الأرضية، كان كومة من العظام عظام كلب..

☆ ☆ ☆

«لا يمكن أن يكون هذا منطقيا يا (وليد)..»

نطق الطبيب البيطري العبارة بابتسامة كبيرة، وهو يمسك في عظمة من العظام، التي عثر عليها (وليد) في كوخه الخشبي الخاص، ثم أعادها إلى سطح مكتبه، مستطردا:

- إنها بالفعل عظام كلب، من نفس النوع، الذي تستخدمه لحراسة مزرعتك، إلا أنها ليست حديثة العهد كما تتصور إنها عظام كلب لقى مصرعه، منذ عام على الأقل...

تراجع (وليد) في مقعده، وحمل صوته كل توتره، وهو يقول:

- أأنت واثق من هذا؟!

أومأ الطبيب البيطري برأسه إيجابا، وقال:

- إلى حد كبير.. لو أنها عظام كلب مات حديثا، لحوت ولو بقايا مجهرية من اللحم والعضلات، إلا أن هذه العظام نظيفة تماما، كما لو أن كل ما يتصل بها قد ذاب منذ فترة طويلة، أو التهمته الديدان أو بعض الحشرات أو القوارض.

سأله (وليد) في اهتمام:

- هل من وسيلة لحسم الأمر تماما؟!

تنهد الطبيب، وسأله:

- ألا يمكنك أن تخبرني ما الذي يدور في رأسك بالضبط؟! فأنت تبدو غامضا وشديد العصبية الليلة..

تطلع إليه (وليد) بضع لحظات في صمت، ثم نهض في مقعده، وبدا شاردا بضع لحظات، قبل أن يقول:

- لقد وجدت هذه العظام في مكان، لا يمكن أن يدخله سواي

وصمت لحظة أخرى، ثم التفت إلى الطبيب البيطري، مكملاً؛ في عصبية واضحة:

- مكان بنيته منذ أقل من ذلك العام، الذي قدرت به عمر هذه العظام.
بدت الدهشة على الطبيب البيطري، وهو يتساءل:
- من أين أتت إذن؟!
أشار (وليد) بيده، في عصبية أكثر، وهو يقول:
- هذا هو السؤال.
ثم عاد إلى شروده، مستطردا:
- من أين أتت؟!
- معذرة.. لم أقصد أن قاطعه (وليد) في عصبية:
- ألا تسمع هذا؟!
سأله الطبيب البيطري، وهو يرهف سمعه:
- أسمع ماذا؟!
تطلع إليه الطبيب البيطري لحظات في صمت، قبل أن ينهض إليه، ويضع يده على كتفه، متسائلا:
- ماذا يدور في رأسك؟!
جفل (وليد) بشدة، مع لمسة الطبيب البيطري، الذي تراجع بحركة حادة، وقال مرتبكا:
ارتجف صوت (وليد) في شدة، وهو يجيب:
- الكلاب.. كلاب الحراسة في مزرعتي تعوي.. بفزع ولم يفهم الطبيب البيطري ما يمكن أن يعنيه هذا..
لم يفهم أبدا..

☆ ☆ ☆

في تلك المرة، لم يختف أحد كلاب الحراسة..
كانت كلها هناك..
خائفة..
مذعورة..

منكمشة..
كانت تتصرف على نحو لا يمكن أن يتفق مع سمات نوعها، الشهير بالقوة والشراسة والعنف ولقد أصاب هذا كل عمال المزرعة بحالة من الفزع، لا مثيل لها؛ لأن ما يحدث أمر عجيب، مناف تماما لطبيعة الأمور والناس أعداء ما يجهلون والمجهول هو مصدر كل مخاوف البشر..
بلا استثناء..
وكعادة أهل الريف، عندما يحيط بهم أمر غامض أو مخيف، في قلب الليل، أشعل عمال المزرعة بعض المشاعل، وراحوا يجوبون المكان على أضوائها المتراقصة، بحثا عن أي تفسير لما يحدث وعلى الرغم من أن (وليد) لم يخبرهم قط بأمر العظام، التي عثر عليها في كوخه الخشبي الخاص، إلا أنهم كانوا يشعرون جميعا أن ما يحدث وثيق الصلة، بما حدث من قبل..
وبكل رعبهم وانفعالهم، راحوا يتهامسون بتلك الخرافة، التي وجدت صدى في نفوسهم جميعا خرافة النداهة..
ولم يكن موقفه بأقل منهم توترا
وعندما وصل (وليد) إلى المزرعة، كانت أعصابهم جميعا مشدودة، على نحو لم يره من قبل قط..
ولكن توتره كله هدأ كثيرا، عندما تيقن من أن كلاب الحراسة كلها سليمة وكاملة العدد، فأسرع إلى كوخ النباتات يفحصه ووجد بابه مغلقا من الخارج، بذلك القفل المزدوج، الذي وضعه عليه، إلا أن هذا لم يمنعه من فتحه، ودخول المكان، و..
وتمايلت كرات النباتات لرؤياه كالمعتاد، فتوقف مبهورا مبهوتا، وغمغم في عصبية، لم يستطع كتمانها:
- كيف خطرت ببالي فكرة حمقاء كهذه؟! |

رصدت عيناه في سرعة، كل جدران الكوخ، بقوائمها الخشبية وزجاجها المانع للرؤية، واطمئن قلبه إلى أنها جميعها سليمة، ثم تنهد، متمتما:
- لو أنك بشر، لكنت أدين لك بالاعتذار.
خيل إليه أنه قد سمع حفيفا خافتا، يحمل ما يشبه الكلمات كلمات غير واضحة أو محددة..
ولكنه لم يتوقف كثيرا عند خياله هذا..
النباتات لا يمكن أن تصدر أصواتا..
صحيح أنها كائنات حية، إلا أنها تمتلك سمات خاصة، تختلف تماما عن سمات الكائنات الحية الأخرى..
فهي لا تسمع، ولا ترى، ولا تتكلم..
إنها لا تملك أحبالاً صوتية، أو نسيجا عصبيا، أو أية حواس تمتلكها الكائنات المتحركة..

ربما لهذا، اعتاد أن يتحدث إليها طوال الوقت..
كانت بالنسبة إليه أكثر كاتم أسرار، يمكن أن يطمئن إلى خباياه معه..
كاتم أسرار له جذور ثابتة، لا تسمح إليه بالحركة أو الانتقال فكيف راودته تلك الفكرة الحمقاء إذن، ولو لجزء من الثانية والواقع أن الفكرة لم تبد له حمقاء سخيفة، بقدر ما بدت في تلك اللحظة بالذات، وهو يقف بين كرات النبات الهادئة، التي تتمايل من حوله في رقة ونعومة فمع غرابة الوقائع، وجهله التام بطبيعة البذور غير الأرضية، التي زرعها في كوخه السري الخاص، تصور أنها هي المسئولة عن كل ما يحدث..
تصور أنها، بوسيلة ما، غادرت مستقرها، وجابت مزرعته، وهاجمت كلب حراسته، والتهمته

خياله صور له أنها قادرة على الحركة، وشرهة مثل النباتات الاستوائية المفترسة، التي تتغذى على الحشرات، في قلب الأحراش المتشابكة ([5])
ولكن حتى تلك النباتات المفترسة، لا تملك القدرة على الحركة..
جذورها القوية تربطها بالتربة تماما مثل كل النباتات..
وهذا يعني أن خياله كان شديد الحماقة والسخافة بالفعل..
توقفت أفكاره عند هذه النقطة، والتقط نفسا عميقا، قبل أن يغمغم، وكأنه يتحدث إلى أحد أصدقائه:
- أنا آسف..
نطقها، ثم غادر الكوخ، وأغلق ذلك القفل المزدوج في إحكام، ثم هتف بأحد رجاله:
- هل عثرتم على شيء ما؟!
أجابه الرجل، والتوتر يتقاطر، من كل حرف من حروف كلماته:
- ليس بعد..
التقط نفسا عميقا آخر، وقال وقد تمالك أعصابه عن ذي قبل:
- لست أظنكم ستجدون شيئا
رمقه الرجل بنظرة صامتة، حملت شكا بلا حدود، قبل أن يغمغم في خفوت:
- ربما يا (وليد) بك.. ربما..
تركه (وليد) ينصرف، وربت على باب الكوخ، ثم ابتعد عنه في خطوات سريعة، وفجأة، تناهى ذلك الصوت إلى مسامعه..
صوت شيء ما، يزحف على التربة، في قوة وسرعة..
واتسعت عيناه عن آخرهما..
وفي حذر شديد التوتر، قبضت أصابعه على مقبض مسدسه المرخص، الذي يحمله دوما، وتحرك ليدور حول الكوخ، بحثا

عن ذلك الشيء، الذي أصدر مثل هذا الصوت لم يكن هناك أي شيء، عند الجدارين اليساريين للكوخ، و ولكن هناك، عند الجدار الأيمن، توقف (وليد)، وسرت في جسده قشعريرة باردة كالثلج، وهو يحدق في التربة فهناك، عند قاعدة الكوخ، كان الأثر واضحا للغاية أثر جسم ما، زحف حتى بلغ الجدار جسم ضخم، في حجم ثعبان كبير..

ثعبان قادر على ابتلاع كلب حراسة كامل..

كان هذا أول ما جال بخاطره، وهو يحدق في الأثر، قبل أن يميل بمنتهى الحذر، ليفحص التربة، عند قاعدة الجدار وعلى الرغم من أن آثار الزحف تنتهي هناك، لم يعثر (وليد) على أية فجوات، تسمح بعبور جسم بهذا الحجم..

وزاد هذا من دهشته وحيرته وتوتره أكثر..

وأكثر..

وبكل انفعاله، راح جسده يرتجف، وهو يحاول البحث عن أي تفسير، يمكن أن يجعل ذلك المشهد منطقيا أي تفسير..

وقبل أن ينطلق ذهنه، للبحث عن تفسير ما، انبعث من بعيد فجأة صوت سارينة سيارة شرطة قوية..

وانتفض جسده في عنف..

السارينة تعنى أن الشرطة تهرع إلى القرية؛ بسبب أمر طارئ مفاجئ..

أمر يستحق التدخل بهذه السرعة

أمر قد يكون....

لم يستطع عقله حتى إكمال الفكرة، وهو يعيد مسدسه إلى غمده، ويبتعد بسرعة عن كوخ نباتاته، وكأنما يخشى أن تأتى الشرطة إليه، وتكشف سره الخطير.. ان سر كوخ النباتات.. غير الأرضية..

وبكل لهفته وقلقه، أرسل أحد خفرائه لاستطلاع الأمر في القرية، ومعرفة سر قدوم الشرطة على هذا النحو ولم تمض نصف الساعة، حتى عاد إليه الخفير بوجه شاحب، جعله يسأله في لهفة:

- ماذا حدث؟!

أجابه الخفير بصوت مرتجف:

- لقد فعلتها مرة أخرى..

امتقع وجه (وليد) وصوته، وهو يقول:

- من التي فعلتها؟ وما الذي فعلته؟!

ارتجف صوت الخفير أكثر، وهو يجيب، بعينين ملؤهما الذعر:

- النداهة.. لقد ظهرت في القرية، واختطفت هذه المرة طفلاً.. طفلا صغيرا

وسقط قلب (وليد) بين قدميه..

بمنتهى العنف..

☆ ☆ ☆

٣ - الرعب..

منذ تم العثور على الهيكل العظمي لذلك الصغير، بعد يومين من اختفائه الغامض، سرت في البلدة كلها حالة من الرعب لا مثيل لها الحديث عن النداهة تناقلته الألسن، ووجد آذانا مصغية، وتهامس به الكل خلف الأبواب المغلقة، بعد أن خلت الشوارع الضيقة من المارة، بعد غروب الشمس..

لم يعد هناك من يسير في الطرقات، مع هبوط الظلام، سوى الضابط (سامح) ورجاله، الذين أصابهم الجنون، وهم يبحثون في استماتة عن ذلك القاتل الغامض الرهيب، الذي قتل طفلاً صغيرا، دون شفقة أو رحمة، وانتزع كل ذرة لحم من عظامه، التي وجدوها بيضاء نظيفة، على نحو غير طبيعي وعندما تم إرسال تلك العظام إلى الطب الشرعي، جاءت النتيجة بعد أسبوع واحد، لتفجر المزيد من الدهشة والحيرة..

مع ألف ألف سؤال..

فالتقرير أكد أنه من المستحيل أن تكون العظام للصغير المختفي حيث إنها تبدو قديمة، خالية من البقايا تماما، كما لو أنها ظلت نهبا لديدان الأرض لعام كامل!!

ثم إن نخاعها كان يحوي مادة عجيبة..

مادة عضوية، إلا أنها لا تشبه أية مادة عضوية معروفة..

هذا لا يعني بالنسبة إليه، سوى تفسير واحد.

نباتاته..

النباتات التي خرجت من تلك البذور الفضائية، مجهولة الهوية كان ذلك الأسبوع، الذي مر عليه أشبه بدهر كامل، بين اختفاء

الطفل ووصول التقرير، قد أصاب مظهره وأعماقه على نحو عجيب..
لقد بدا محطما، ذاهلاً، زائغ العينين، وأهمل هندامه وحلاقة لحيته تماما، حتى بات أشبه بالمجذوبين، أو المصابين بالهلاوس العقلية الشديدة، و..
«ما الذي تفعله بنفسك بالضبط؟!»
ألقى (سامح) السؤال عليه في حدة، فرفع (وليد) عينيه الزائغتين إليه، وهو يردد على نحو آلى:
- ما الذي فعلته بنفسي؟!
صاح به (سامح) في عصبية:
لست مسئولا عما أصاب ذلك الصغير، فاطرح عن نفسك هذا البؤس، الذي لم أعتده فيك، حتى عندما لقي والدك مصرعه..
هيا.. اذهب لتستحم، وتحلق لحيتك، لتبدو كما اعتدتك دوما..
ظل (وليد) ذاهلا شاحبا، وهو يتمتم:
- سأفعل.. سأفعل..
مال (سامح) نحوه، وقال في صرامة:
- الآن..
نظر إليه (وليد) في شرود، ثم نهض، قائلا:
- نعم.. الآن
تابعه (سامح) ببصره في قلق، قبل أن يشير إلى أحد رجاله، ويهمس في أذنه:
- لا أريدك أن تغفل عنه.. إنه ليس طبيعيا على الإطلاق أخشى أن يؤذى نفسه، على نحو أو آخر
ولكن (وليد) لم يسمعه..
لم يكن عقله حتى منشغلاً بما يمكن أن يقوله (سامح) أو يفعله.. كل ما كان يقلقه، هو ما يحدث في البلدة..

لقد أطاعه في آلية، فاستحم، وحلق لحيته، وارتدى ثيابا نظيفة، ثم اتجه مباشرة إلى ذلك المكان، الذي كان يشعر فيه قديما بالراحة، والذي صار بالنسبة إليه أشبه بجحيم جحيم من عالم آخر..

فتح رتاج الكوخ الخشبي في حذر، ودفع بابه بأصابع مرتجفة، ثم راح يلهث في انفعال عجيب، عندما تمايلت تلك الكرات الفضائية نحوه، على نفس النسق المعتاد كان حجمها قد تضاعف، خلال ذلك الأسبوع، فبدت هائلة عملاقة، حتى اقتربت من سقف الكوخ، مما أشعره وسطها بالضآلة، وهو يتخذ مقعده المعتاد، ويتطلع إليها بوجه شاحب قبل أن يهمس، في صوت تجاوز شفتيه بالكاد:

- لماذا؟!

بدا وكأن النباتات كلها قد اعتدلت، وراحت تنصت إليه جيدا، فكرر بصوت أعلى، حمل تعبيرا عن غضبه وتوتره:

- لماذا تفعلون هذا؟! لماذا؟!

لم يحصل على جواب بالطبع، فهب من مقعده، وراح يلوح بذراعيه في غضب شديد، صائحا:

- إننى أرعاكم، وأمنحكم الدفء والغذاء، وأخفى أمركم عن الجميع، حتى لا تتبادلكم وتعبث الأيدي، فلماذا تفعلون بي هذا؟! لماذا؟!

كان يهم بمواصلة صيحاته، لولا أن سمع طرقا قويا مفاجئا، على باب الكوخ، مع صوت خشن متوتر، يتساءل:

- سيد (وليد).. أأنت بخير؟!

انتفض جسده في عنف، لسماع ذلك الصوت الآدمي المباغت، والتفت إلى الباب، صائحا في حدة:

- من أنت؟!

تنحنح صاحب الصوت الخشن، قبل أن يجيب:
- أنا المخبر الخاص ل- (سامح) بك، لقد أمرني بـ.....
قاطعه (وليد) صارخا:
- لا شأن لك بي.. اذهب من هنا.. هل تسمعني؟! اذهب..
تردد المخبر لحظة، ثم قال في حسم:
- ولكن أوامر (سامح) بك.
قاطعه (وليد) مرة أخرى، في ثورة شديدة:
- قلت اذهب؟! هذه مزرعتي، ولا أريدك هنا.. اذهب.. اذهب
انتبه فجأة إلى أن النباتات العملاقة قد مالت كلها نحو الباب، في تحفز واضح، وأن كرة إحداها تبدو كما لو أنها تنفتح، فتوقف مبهوتا، وحدق فيها في لهفة وفضول وخوف ولكن تلك الكرة لم تلبث أن أغلقت في هدوء، مع وقع أقدام المخبر وهو يبتعد، وعادت النباتات كلها تعتدل وتهدأ.
وهنا خفق قلب (وليد) في عنف أكثر وأكثر، واتسعت عيناه عن آخرهما، وقد بدا له أنه قد شاهد رد فعل جديد، لم يتصوره من قبل قط..
ولم يكن بإمكانه أن يشاهده، لولا ما حدث وفي تلك اللحظة بالذات، قفزت الفكرة إلى رأسه فكرة مراقبة نباتاته طوال الوقت..
وبينما يتطلع إلى النباتات العملاقة، راحت الفكرة تختمر في رأسه أكثر وأكثر..
وفي تلك الليلة، قضى ساعتين كاملتين في حجرته، يدون كل ما يحتاج إليه، للقيام بما عزم عليه..
وبينما يفعل، كان (سامح) يستمع إلى المخبر في دهشة، قبل أن يعقد حاجبيه في شدة، مغمغما:

- يتحدث إلى شخص ما، داخل ذلك الكوخ؟! يا لها من مفاجأة؟!
حمل صوت المخبر الخشن كل جديته، وهو يضيف:
- كان يسأل ذلك الشخص هناك، لماذا فعل هذا، على الرغم من أنه يرعاه، ويخفيه عن الأعين.
اتسعت عينا (سامح) في ارتياع، وهو يقول:
- هل سمعت هذا بنفسك؟!
أومأ المخبر برأسه إيجابا، وقال في حزم:
سمعته جيدا يا سيدي.
تراجع (سامح) في مقعده، وغرق لحظات في تفكير عميق، قبل أن يقول في حزم، شابته لمحة من التوتر:
- فليكن اتركني وحدي، وواصل مراقبته..
رفع المخبر يده بالتحية العسكرية، قائلاً:
- أوامرك يا (سامح) بك..
هم بالانصراف، فاستوقفه (سامح)، قائلا بكل الصرامة:
- وأريد معرفة ما يحدث في ذلك الكوخ.. الليلة.
غادر الرجل مكتب (سامح)، الذي بدا شديد الدهشة والتوتر وهو يدير الأمر في رأسه، مغمغما في حيرة:
- يخفى شخصا ما؟! ولكن من؟! من؟!
بينما يدور التساؤل في ذهنه، في الثانية بعد منتصف الليل، كان المخبر يستقل دراجة عادية إلى المزرعة، حيث تسلل إليها في خفة،، الذين منعهم الرعب من التجول فيها كالمعتاد، واتجه مباشرة إلى ذلك الكوخ..
ولدقيقة أو يزيد، جلس إلى جواره صامتا؛ ليطمئن إلى أن أحدا لم يلمحه، ثم لم يلبث أن أخرج من جيبه أداة رفيعة، راح يعالج بها رتاج باب الكوخ، في عنف وخشونة..

كان رتاجا قويا، إلا أن محاولة المخبر لم تلبث أن أفلحت، وأمكنه أن يفتح باب الكوخ، ثم يتسلل إليه في خفة، ويغلق الباب خلفه في البداية، منعه الظلام من رؤية ما حوله، إلا أنه كانت هناك رائحة نفاذة قوية رائحة أشبه برائحة المستنقعات..
ثم فجأة، شعر المخبر بتلك الحركة..
حركة أشبه بحفيف شيء ما، يزحف على مقربة منه..
وبكل توتر الدنيا، أخرج من جيب معطفه مصباحا يدويا بدائيا، وضغط زره، وهو يوجهه نحو مصدر الحركة.
وهناك، في حجرته، قفز المهندس (وليد) من فراشه، مع صوت صرخة رهيبة صرخة رعب وألم وذهول، وموت..

☆ ☆ ☆

عندما وصلت سيارة (سامح) إلى المزرعة، كان كل الخفراء تقريبا هناك، يحيطون بجثة المخبر، الملقاة على مسافة مائة متر من ذلك الكوخ الخشبي وكانت وجوههم الشاحبة تعكس حالة الرعب والفزع، التي أصابتهم ليلتها..
كما أن أضواء الفيلا كانت كلها مضاءة و(وليد) يجلس إلى جوار جثة المخبر، التي تمت تغطيها بأوراق الصحف، كعادة المصريين..
ولقد كان (سامح) شديد التوتر والغضب، وهو يسأل (وليد):
- ماذا حدث بالضبط؟!
بدا (وليد) شديد الشحوب، وهو يهز رأسه نفيا، مجيبا:
- لا أحد يدري.. لقد أيقظتنا صرخته من نومنا، فهرعنا إلى هنا لنجده و.. و...
كان من الواضح أنه يحاول قول شيء ما، إلا أنه لم يلبث أن استبدله بقوله العصبي:
- وهكذا وجدناه..

مال (سامح) نحوه، يسأله:
- كيف وجدتموه؟!)
حدق (وليد) في وجهه بعينين زائغتين، وبدا وكأنه يعجز عن نطق الجواب، ثم لم يلبث أن همس في ذعر واضح:
- هكذا..
انعقد حاجبا (سامح)، وهو يحاول أن يفهم ما يعنيه هذا، ثم لم يلبث أن مال نحو جثة المخبر، ورفع أوراق الصحف عن وجهه، و..
وانتفض جسده كله، وهو يرتد في عنف...
فطوال عمله في الشرطة، وعلى الرغم من معالجته لست حالات قتل على الأقل، إلا أنه لم ير، أو يتصور أن يرى، في حياته كلها، جثة حملت ملامحها كل هذا الرعب..
لقد كانت عينا المخبر متسعتين عن آخرهما، كما لو أنهما ستثبان من مقلتيهما، وفمه مفغور عن آخره، وسحنته كلها مقلوبة على نحو رهيب.. أما عنقه، فقد حوى علامة زرقاء واضحة للغاية..
علامة تعنى أنه قد تعرض للخنق، على نحو عنيف، بجسم ناعم متصل سميك جسم لم يكتف بخنقه، وإنما اعتصر عنقه اعتصارا...
وبكل انفعاله وتوتره، أخفى (سامح) وجه المخبر مرة أخرى، وهو يهتف:
- من فعل به هذا؟!
كان وجه (وليد) يزداد شحوبا، وهو يختلس النظر إلى كوخه الخشبي، في حين تبادل الخفراء نظرة رعب واضحة، جعلت (سامح) يستدير إلى الكوخ بنظرة حادة، ثم يقول في عصبية:
- ما الذي تخفيه هناك؟!

وهنا، انتفض جسد (وليد)، واتسعت عيناه في رعب، وهو يرفعهما إليه، هاتفا:
- أخفيه؟!
أمسك (سامح) كتفيه في قوة وخشونة، وهو يصيح به:
- أي قاتل تخفيه هناك؟!
الرعب الذي ملأ وجه (وليد) وملامحه، كان أشبه باعتراف صريح بالتورط في الأمر، فانعقد حاجبا (سامح) في شدة وهب واقفا، واتجه في حزم نحو الكوخ، ولكن (وليد) قفز يمسك ذراعه، هاتفا:
- ليس هذا من حقك..
جذب (سامح) ذراعه من يده في حدة، مكررا في غضب:
- من الذي تخفيه هناك؟!
صرخ (وليد):
- لست أخفى شيئا.
تراجع الخفراء كلهم في خوف، وهم يشاهدون ويتابعون ذلك الصراع، الذي لم يشاهدوا مثله من قبل، بين صديقين قديمين أما (سامح)، فقد هم بقول شيء ما، لولا أن توقف فجأة، وحدق في شيء ما، بمنتهى التوتر..
ولأن (وليد) قد رأى ذلك الشيء أيضا، فقد امتقع وجهه على نحو عجيب، وتلاحقت أنفاسه بشدة..
وبحركة عصبية، انحنى (سامح) يفحص ذلك الأثر على الأرض أثر يدل على أن شيئا ما قد سحب جثة المخبر، من الكوخ، إلى حيث تم العثور عليه..
وبحركة غاضبة ثائرة، سحب (سامح) مسدسه، ورمق(وليد) بنظرة حادة، ثم اندفع نحو الكوخ..
وبعد وهلة من الجمود، لحق به (وليد)، وهو يهتف:

- أرجوك يا (سامح).. أرجوك. -
كرر (سامح) في ثورة:
- أخبرني ما الذي تخفيه هناك، قبل أن أكشفه بنفسي.
ارتجف صوت (وليد)، وهو يقول:
- إنها نباتات.. نباتات استوائية نادرة..
بلغ (سامح) الكوخ، عند هذه النقطة، ولحق به (وليد)، الذي انتفض قلبه بين ضلوعه في عنف، عندما لاحظ الرتاج المكسور، وانطلقت من حلقه شهقة، امتزجت بصوت قدم (سامح)، وهي تضرب باب الكوخ، وتفتحه، و..
ولم تتجاوب النباتات العملاقة هذه المرة، كما اعتادت أن تفعل مع (وليد)..
(سامح) هو الذي تجاوب، واتسعت عيناه عن آخرهما، في دهشة بالغة، وهو يرفعهما إلى سقف الكوخ، حيث امتدت تلك النباتات..
وبكل ذهوله، غمغم:
- نباتات استوائية؟!
بدا (وليد) منهارا، وهو يقول:
- ألا تبدو لك كذلك؟!
لم يدر (سامح) ما ينبغي أن يقول؛ فهو لم يكن أبدا خبيرا بالنباتات، إلا أنه حتما لم ير في حياته كلها، أو حتى في برامج التلفاز، أية نباتات يمكن أن تشبهها، هيئة أو حجما ولدقيقة كاملة، ظل يحدق في تلك النباتات العجيبة، ورائحة المستنقعات تملأ أنفه..
لم تكن تلك الرائحة المعتادة للمستنقعات، إلا أنها رائحة عضوية قوية، أدهشه أنها لم تتسرب إلى المنطقة كلها..

وفي توتر، حاول (سامح) أن يخترق تلك النباتات المتشابكة ببصره، إلا أنه أدرك، منذ اللحظة الأولى، أنه من المستحيل أن يبقى شخص ما وسط هذه الأدغال ساعة واحدة!!

من المستحيل تماما!!

ومرة أخرى، غمغم ذاهلاً:

- نباتات استوائية؟!

ثم تراجع في حركة سريعة، وغادر الكوخ، وكأنما لا يشعر بداخله بأدنى قدر من الارتياح..

أما (وليد)، فقد بقي في الكوخ لحظات، يحدق في نباتاته العملاقة، التي ما أن غادر (سامح) الحجرة، حتى مالت نحوه في نعومة إلا أنه، وفي هذه المرة، شعر بالنفور والتوتر الشديد، مع ميلها الناعم هذا.. وفي حركة حادة، وثب خارج المكان، وأغلق بابه خلفه، وهو يقول في عصبية:

- يبدو أننا نحتاج إلى رتاج جديد..

لم ينبس (سامح) ببنت شفة، إلا أن شيئا ما في أعماقه، أو في حاسته البوليسية المكتسبة، كان يؤكد أن سر مصرع مخبره يكمن هنا..

في قلب ذلك الكوخ..

وعلى الرغم من هذا، فقد ابتعد بحركة حادة، وهو يقول:

- سأرسل رجال الطب الشرعي والمعمل الجنائي مع سيارة لحمل جثة الخفير.

لاحظ، وهو يبتعد، أن (وليد) يتعمد السير بأسلوب خاص، بحيث يمحو بقدميه آثار جر المخبر، من الكوخ إلى حيث وجوده، إلا أنه لم يعلق، أو يحاول أن يمنعه، وكأنما يرغب بدوره في أن يبتعد بالتحقيقات عن ذلك الكوخ المخيف..

وعندما انصرف (سامح) بسيارته، كانت الشمس تشرق بالفعل، من خلف الفيلا وكان (وليد) أكثر إصرارا، على تنفيذ خطته..

☆ ☆ ☆

وعلى الرغم من وصول رجال المعمل الجنائي والطب الشرعي. فقد استدعى نجارا؛ لتغيير رتاج باب الكوخ، واستخدم هذه المرة رتاجا أكثر قوة وتعقيدا، ثم استقل سيارته، وانطلق بها إلى المدينة القريبة..

لم يكن ما يطلبه ميسرا، في المدينة الصغيرة، فواصل رحلته إلى (القاهرة)، حيث ابتاع كل متطلباته، وعاد إلى مزرعته، مع مغيب الشمس كان رجال المعمل الجنائي والطب الشرعي قد انتهوا من عملهم، وحملوا جثة المخبر خارج المزرعة، وانتشر الخبر في البلدة كلها، وبدأ الخفراء يتهامسون حول ترك العمل بالمزرعة ولكن (وليد) لم يبال بكل هذا.. "

لقد اتجه فور عودته إلى كوخه الخشبي، وانهمك في عمل متصل، حتى الثالثة صباحا، وبعدها رأه بعض الخفراء يمد أسلاكا طويلة، من الكوخ إلى الفيلا، التي لم يستقر فيها سوى من انبلاج فجر اليوم التالي..

أما (وليد) فلم يكد ينتهي من توصيل آلات المراقبة في الكوخ، بالتلفاز الكبير في حجرته، حتى شعر بإرهاق ما بعده إرهاق فغمغم، وهو يتطلع إلى الصورة، على شاشة تلفازه الكبير:

- الآن لا يمكنكم أن تغيبوا عن نظري لحظة واحدة..

قالها، وتثاءب في تهالك، ثم ألقى نفسه على فراشه، وأسبل جفنيه، مضيفا:

- اعتبارا من الغد.

نطقها، وغلبه النوم، فغرق في سبات عميق سبات منعه من متابعة ما نقلته شاشة تلفازه الكبير فما يحدث في كوخه الخشبي كان عجيبا ومخيفا إلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

لليوم الثاني على التوالي، لم تسجل أجهزة (وليد) أية أحداث مريبة، داخل كوخه الخشبي الخاص، الذي استبدل رتاجه المكسور بآخر جديد، أكثر قوة ومتانة، وأحاط قاعدته بإطار من الأسمنت المسلح القوى؛ لمنع أي شيء من الخروج، مهما بلغت قوته وفي الوقت ذاته، ساد الهدوء البلدة، إلى حد ما..

صحيح أن حالة الرعب المبهم ظلت سائدة، والكل يتهامس، في مجالسه الخاصة، حول تلك الأحداث المخيفة، التي لم تبرد نيرانها بعد، إلا أن غياب أية وقائع جديدة صنع حالة من السكون النسبي..

(وليد) نفسه بدأ يهدأ، إلى حد كبير، ويتساءل عما إذا كان مخطئا في تصوراته، بشأن نباتاته الفضائية، وهو يتابع نموها البطيء الهادئ، على شاشة ذلك التلفاز الكبير، في حجرة نومه، ويسجل كل هذا على شرائط فيديو طويلة المدى، يستبدلها بنفسه كل ست ساعات..

والواقع أن النفس البشرية عجيبة الشأن، في كل ما يتعلق بالخوف؛ إذ أنها تحيا فيه مرتجفة، وهي تتمنى زواله، فما أن تلوح لها لمحة توحي بأنه في سبيله إلى الزوال، حتى تتشبث بها، وتتعلق بأهدابها، وتحاول إقناع مخاوفها بأن كل شيء قد مضى، حتى تهدأ، وتستعيد مسارها العادي وهذا ما فعله (وليد)، دون أن يدرى..

تناسى الأمر، وتجاهله، وانغمس في عمله بمزرعته؛ حتى يلقى كل هذا خلف ظهره وفي اليوم الثالث، بدأ يتجاهل تغيير الأشرطة

وتجديدها، ويتكاسل عن تسجيل ما يدور داخل الكوخ، بل إنه لم يعد يتابع شاشة تلفازه الكبير إلا لماما..
ورويدا رويدا، راح خفراء المزرعة أيضا يتناسون الأمر أو يحاولون تجاهله، وهم يمارسون أعمالهم المعتادة، وإن ظلوا يتحاشون مجرد الاقتراب من ذلك الكوخ، إلا للضرورة القصوى، وبأقدام مرتجفة مترددة..

وفي اليوم الرابع، استيقظ (وليد) منتعشا، على غير العادة، وفتح نافذة حجرته، في الطابق الثاني من فيلته واستنشق الهواء النقي، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة، مغمغما:
- يا له من صباح جميل!
لم يكد يتم عبارته، حتى لمع ذلك الشيء، على سقف كوخه الخشبي.. شيء أشبه بحيوان نافق أو بقايا حيوان نافق..
كومة من العظام، وبقايا اللحم والدم، مكومة على سطح الكوخ، ويحيط بها شيء ما شيء أشبه بنبات ضخم عملاق..
وتجمدت ابتسامته على وجهه، وارتجفت شفتاه على نحو عجيب، واتسعت عيناه حتى كادتا تقفزان من محجريهما، وفجأة، امتد بصره إلى ما خلف سطح الكوخ..
وانتفض جسده بمنتهى العنف..
كانت سيارة ضابط المباحث، وصديقه العزيز (سامح)، تدخل حدود مزرعته، وتتجه نحو الفيلا مباشرة وفي هلع، خشى (وليد) أن يرى (سامح) ما رأه هو، فأسرع يغلق النافذة، ثم هرع إلى أسفل، وهو يغمغم بكل توتر الدنيا:
- هذا ما يحدث دوما.. المصائب لا تأتي فرادًا.
كان يسرع لاستقبال (سامح) أمام الفيلا، خشية أن يصعد إلى حجرته كما اعتاد، فيلمح ذلك الشيء، الذي لم يتبينه هو نفسه

جيدا وفي نفس اللحظة، التي أوقف فيها (سامح) سيارته أمام باب الفيلا، كان هو يندفع خارجها، هاتفا:
- ما هذه الزيارة المفاجئة اللطيفة؟!
أراد أن تأتي عبارته مرحة مرحبة، إلا أنها خرجت، على الرغم منه، عصبية مضطربة، فالتقى حاجبا (سامح)، وهو يخرج من سيارته، قائلا في صرامة:
- ماذا يحدث هنا بالضبط؟!
وعلى الرغم منه أيضا، امتقع وجه (وليد)، وهو يتساءل بصوت أكثر شحوبا منه:
- وما الذي يحدث هنا؟!
هتف (سامح)، وهو يغلق باب سيارته في عنف:
- أخبرني أنت..
ثم لوح بمظروف كبير، أمام وجه (وليد)، مستطردا في حدة:
- هذا هو تقرير الطب الشرعي، الخاص بمصرع ذلك المخبر الذي لقي حتفه في مزرعتك..
تمتم (وليد)، وهو يزداد شحوبا:
- تقرير الطب الشرعي؟!
صاح به (سامح) في غضب:
- نعم يا (وليد).. الرجل مات مختنقا.. شيء ما اعتصر عنقه، بعد أن أصابه برعب هائل.. شيء لزج رطب، يفرز مادة، لم يمكن تمييزها، ولكنها تركت آثارا واضحة على عنقه ثم استدار ببصره إلى ذلك الكوخ، مضيفا في غضب ومقت:
- شيء أشبه بغصن نبات ما.
انتفض جسد (وليد) في عنف، وهو يهتف:
- نبات؟!
بدا وكأن (سامح) يهم بالانقضاض عليه، وهو يقول في شراسة:

- نعم.. نبات.. نبات غير معروف.. نبات مثل تلك الّتي تحتفظ بها في كوخك.
صاح (سامح) في حدة:
- ما الذي تحاول حمايته بالضبط؟!
قالها، واندفع نحو الكوخ في حدة، فاعترض (وليد) طريقه، وهو يقول في عصبية:
- أية أفكار حمقاء هذه؟!
قبل أن يقول في يأس:
هتف (وليد)، بلهجة أقرب إلى الانهيار:
- أنت لا تفهم شيئا..
صاح (سامح):
- حاول أن تفهمني إذن
اضطربت نظرات (وليد)، وهو ينقلها بين (سامح) والكوخ، وهو يقول:
- لن تفهم..
صرخ فيه (سامح)، وهو يزيحه؛ ليواصل اندفاعه نحو الكوخ:
- جربني..
حاول (وليد) أن يتشبث به، إلا أن (سامح) دفعه في عنف هذه المرة، وهو يصرخ مكررا:
- ما الذي تحاول أن تخفيه.. أخبرني..
صاح (وليد)، في محاولة يائسة أخيرة:
- ليس هذا من حقك..
سحب (سامح) مسدسه، وهو يقول في حدة:
- يمكنك أن تتقدم بشكوى.
قالها، وهو يصوب مسدسه إلى رتاج باب الكوخ الجديد ويجذب إبرته في تحفز، يوحي بأنه لا شيء في الوجود يمكن أن

يمنعه، مما قرر أن يقدم عليه، و..
وفي داخل الكوخ، راحت تلك النباتات العملاقة تتمايل في عنف.. وغضب وتحدٍ..
وقبل أن يضغط (سامح) زناد مسدسه، لينسف باب الكوخ الخشبي، سقط ذلك الشيء من أعلى في عنف..
بقايا بقرة كاملة، تحول ثلاثة أرباعها السفلية إلى هيكل عظمى نظيف تماما، في حين تبقى الربع العلوى مع الرأس، وقد تآكلا على نحو عجيب، وكأنما يلتهمها حمض قوى..
سقطت بحركة مباغتة، بين (سامح) و(وليد)، فاستدار إليها الأول بحركة غريزية، وأطلق عليها رصاصات مسدسه ثلاث رصاصات متتالية، دوت في المزرعة كلها، وبلغ صداها البلدة نفسها، فأثار موجة من التوتر، ودفع كل الخفراء إلى أن يهرعوا إلى المكان في عصبية، وهم يشهرون أسلحتهم (وليد) وحده رفع عينيه إلى أعلى؛ فور سقوط تلك البقايا ولمح فرع النبات القوى، الذي انسحب إلى السقف، فانتفض جسده في عنف، وسقط قلبه بين قدميه..
أما (سامح)، فقد ظل ممسكا بمسدسه، الذي يتصاعد الدخان من فوهته، وهو يحدق في تلك البقايا، في مزيج مدهش من الغضب والذهول والخوف، قبل أن يرفع عينيه إلى أعلى بحركة حادة، ثم يخفضهما بحركة أكثر حدة إلى (وليد)، الذي لم يمكنه مواجهته مخفض عينيه في مرارة، وهو يقول بصوت شديد الخفوت:
- سا.. سأشرح لك كل شيء..
كان الخفراء قد التقوا حولهما، واستعادوا كل ذعرهم وخوفهم، وهم يحدقون في تلك البقايا، التي بدت عجيبة بشعة الخلقة، عندما قال (سامح)، في صوت شديد الارتجاف: -

- أتعشم أن يكون الأمر قابلاً للّشرح.. ا
غمغم (وليد):
- وأنا أيضا..
ظل (سامح) يحدق فيه لحظة، قبل أن يتمالك نفسه، ويعيد مسدسه إلى غمده، ويصيح بالخفراء:
- هل ستواصلون التحديق هكذا.. هيا.. احملوا هذا الشيء بعيدا، وعودوا إلى عملكم..
بدا التردد والقلق واضحين في أعينهم، وكلهم يخشون مجرد لمس تلك البقايا، وهمس أحدهم:
- أهي بقرة (حمدان)، التي يبحث عنها منذ مساء أمس؟!
بلغ الهمس مسامع (سامح)، إلا أنه تجاهله تماما، وهو يدفع (وليد) أمامه نحو قائلا:
- هيا.. إننى متشوق لسماع ما لديك.
لم ينتبه أحدهما، أو أحد من الخفراء، إلى ذلك الفرع النباتي القوى، الذي زحف على سقف الكوخ، ثم امتد منه إلى شجرة قريبة، ثم هبط عبر جذعها، ليزحف بين الأعشاب، حتى بلغ الفيلا، قبل حتى أن يبلغها (سامح) و (وليد) وكان من الواضح أن الأمور ستتطور أكثر، في الساعات القليلة التالية ستتطور إلى حد مخيف للغاية..

☆ ☆ ☆

٤ - آخـرون....

حدق (سامح) في وجه (وليد) في ذهول، عندما نطق عبارته هذه، ثم تراجع في مقعده في بطء، وانعقد حاجباه وهو يتمتم:
«إنها نباتات من عالم آخر..»
- (وليد).. أأنت بكامل وعيك؟
هز (وليد) رأسه في توتر، قائلاً:
- أخبرتك أنك لن تستطيع استيعاب الأمر.
حدق (سامح) في وجهه مرة أخرى، محاولاً التيقن من أنه جاد وعاقل، ثم أطلق من أعماق صدره زفرة، متمتما:
- إما أنك قد أصبت بلوثة عقلية، لا شفاء منها، أو أنك مؤمن تماما بما تقول..
عض (وليد) شفته السفلي، مغمغما:
- لو أنك مررت بما عانيت منه أنا، لأصبحت مؤمنا بالأمر مثلي..
قالها، والتقط نفسا عميقا، ثم راح يروى له الأمر كله..
بكل وقائعه..
وكل تفاصيله..
وبكل الذهول، ظل (سامح) يستمع إليه، في صمت تام، حتى انتهى من روايته، وغمغم:
- ولست أدرى الآن ما أفعله.
قال (سامح) في حدة وغضب:
- لست تدري؟!
ثم انتفض واقفا، وهو يضيف:

- لقد ارتكبت كل أخطاء الدنيا، من أجل تلك البذور يا رجل أخفيت الأمر منذ البداية، وتركتنا نبحث في يأس عن أسباب حريق مجهول، ثم ساعدت بذورا مجهولة، على النمو في، دون أدنى شعور بالمسئولية، وبما يمكن أن يسفر عنه هذا.. ألم يخطر ببالك أن تحوي تلك البذور مرضا نادرا مثلاً، يمكن أن يقضى على الثروة الزراعية، ليس في (مصر) وحدها، ولكن في العالم أجمع؟!

غمغم (وليد)، في انهيار مرير:

- لم يخطر هذا ببالي...

صاح (سامح) في غضب:

- ليس هذا وحده.. أمور كثيرة أخرى لم تخطر ببالك.. هناك سلطات مسئولة، كان ينبغي إبلاغها بأمر خارق للمألوف كهذا سلطات قادرة على التعامل مع الأمر، عبر نظام آمن دقيق سلطات لا يمكن أن تقدم على زراعة بذور فضائية مجهولة، إلا تحت ظروف مشددة، وبإشراف فريق من العلماء، و..

قاطعه (وليد) في عصبية:

- وهل تعتقد أنه باستطاعة سلطاتنا أن تفعل هذا؟! أنت ضابط مباحث، فهل ترى أنهم يتبعون الإجراءات السليمة، بشأن أي أمر كان؟! ألا يغرق كل شيء في بحر الإهمال والاستهتار واللا مبالاة؟!

هل تعرف ما الذي كان سيحدث، لو أنني منحتهم ذلك الوعاء؟! كان سيبقى مغلقا إلى الأبد، وربما اتهمني بعضهم بالخلل النفسي، لو أشرت إلى أن مصدره من خارج الأرض.. الصحف نفسها كانت ستسخر مني، ولن يستمع إلى أحد، وسيفقد العلم فرصة ذهبية نادرة، لمعرفة أمر ما عن الآخرين.. أقصد عن مخلوقات العوالم الأخرى..

قال (سامح) في حدة:
- وماذا فعلت أنت أيها العبقري؟! زرعت بذورا فضائية مجهولة، في تربة الأرض، لتنبت نباتات مفترسة، لا ندري عنها شيئا؟! ماذا لو أن حبوب لقاح فضائية منها قد حملها الهواء إلى نباتاتنا؟! هل يمكن أن ينشأ في هذا جيل كامل من خضراوات وفواكه مفترسة؟! هل ستنقلب الآية، فتلتهمنا مزروعاتنا، بدلا من أن نلتهمها نحن.
حاول (وليد) أن يعترض، وهو يلوح بيده، قائلا:
- لا يوجد دليل واحد على....
قاطعه (سامح) في ثورة:
- دليل؟! لا يوجد دليل؟! كيف تسمى ما حدث حتى الآن إذن؟! كيف تجد التهامها لذلك الكلب، وللطفل الصغير، وقتلها للمخبر؟! بل كيف تفسر تلك البقايا، التي سقطت علينا من سقف كوخك؟!
كيف ترى كل هذا؟!
تمتم (وليد):
- إنها مجرد نباتات.
سحب (سامح) مسدسه، وهو يقول:
- بل هي قاتل.. قاتل مفترس.
قالها، ثم رفع سماعة التليفون المجاور له، وهو يطلب رقما في عصبية، مضيفا:
- قاتل، لابد من اتخاذ كافة الإجراءات لمواجهته.
سأله (وليد) مضطربًا
- ماذا ستفعل بالضبط؟!
أجابه (سامح) في صرامة وحزم:
- ما ينبغي.

انكمش (وليد) في مقعده، واتسعت عيناه في ارتياع عجيب، في حين أمسك (سامح) سماعة الهاتف في حزم، وهو يقول لمحدثه عبرها:

- (إسماعيل).. اسمعني جيدا.. أريد عشرين لترا من البنزين وثلاثة رجال أشداء، في مزرعة المهندس (وليد).. كلا كلا.. أريد كل هذا فورا.. لا تضيع لحظة واحدة.

اتسعت عينا (وليد) عن آخرهما، وهتف، عندما أنهى (سامح) المحادثة:

- ماذا ستفعل؟!

أجابه (سامح) في صرامة:

- سأعدم القاتل.

قفز (وليد) من مقعده، صارخا:

- ليس هذا من حقك.

صاح به (سامح):

- كيف تقول هذا؟! كيف تجرؤ على قوله؟! بذورك اللعينة تعبث في الأرض فسادا، وتقتل كل كائن حي لتتغذى به، دون أن تفرق بين بشرى أو حيوان منزل.. ماذا ستفعل، لو أنها انتشرت في عالمنا، من خلال كوخك؟! هل سنعاني من عدو جديد، قادم من مكان ما، من أعماق الفضاء، نجهل ماهيته، أو كيفية مقاومته؟

هتف وليد :

- إصدار الأحكام وتنفيذها ليس من حقك.. أنت ضابط مباحث جزء من السلطة التنفيذية.. لست مشرعا أو قاضيا.. كل ما تملكه هو إبلاغ السلطات، لتتخذ قرارها بشأن النباتات، أما أن تعدمها، فهذا ليس من حقك.

قاطعه (سامح) في حدة:

- هل جننت، أم أن تلك البذور قد أصابتك بخلل عقلي دائم؟! لو أننى أبلغت السلطات الآن، لتورطت أنت في الأمر، ولألقوا القبض عليك فورا، بتهمة المساعدة في جريمة، وإخفاء مجرم.
صاح (سامح):
- أعلم أننا لسنا داخل فيلم من أفلام الخيال العلمي، ولكن المسئولين في عالم الواقع ليسوا بالسذاجة والغباء اللذين تفترضهما.. ربما يكون من الصعب استيعاب الأمر، إلا أن النباتات موجودة، وأي عالم نبات يمكنه إثبات أنها غير أرضية، وأبسط ما سيتم اتهامك به، هو إخفاء الأدلة، وتضليل السلطات.
ثم اندفع خارج الفيلا، مضيفا:
- إننى أحاول حمايتك أيها الأحمق.
عدا (وليد) خلفه، حتى ذلك الكوخ الخشبي، وهو يقول:
أرجوك يا (سامح).. لا تتسرع.. إنني مستعد لتحمل الاتهامات، ولكن من الخطأ أن نفني نباتا كهذا، دون أن نبحث وسائل الاستفادة منه.. ماذا لو أنه يحوى مادة شافية من الأمراض السرطانية مثلاً؟
هتف (سامح) في غضب، وهو يصوب مسدسه مرة أخرى، إلى رتاج الباب، وينظر إلى بقايا البقرة، التي لم يرفعها الخفراء من مكانها، وإنما اكتفوا بتغطيتها بأوراق الصحف:
- مقابل ماذا.. التهام البشر؟!
هتف (وليد) في انهيار يائس:
- أرجوك يا (سامح).
تجاهله (سامح) تماما، وهو يجذب إبرة مسدسه، و.. وفجأة، هبطت تلك الأفرع النباتية من فوق الكوخ.. هبطت بحركة

سريعة، ليلتف أحدها حول معصم (سامح)، في حين التفت الأفرع الأخرى على وسطه وذراعيه، وعنقه..
وتراجع (وليد) بكل رعب الدنيا..
لقد بدأت النباتات هجومها الصريح..
وبدأت حربها..

☆ ☆ ☆

لساعة أو يزيد، انكمش (وليد) في فراشه الكبير، عاجزا عن السيطرة على تلك الارتجافة، التي شملت جسده كله، من قمة رأسه، حتى أخمص قدميه وفي إصرار عجيب، ظل ذلك المشهد الرهيب محفورا في ذهنه، يأبى أن يفارق رأسه، ولو لحظة واحدة..
مشهد تلك الأفرع الوحشية، وهي تكمم (سامح) وتكبله، ثم تجذبه إلى سطح ذلك الكوخ الخشبي في قوة(سامح)، صديق صباه وحياته، ورفيقه الوحيد في البلدة كلها، رأى تلك النباتات الفضائية تقتنصه، وهو عاجز عن إنقاذه، أو مد يد المساعدة إليه..
والواقع أنه قد حاول..
رأى تلك الأفرع الوحشية تنتزع منه صديقه، فاندفع إلى باب الكوخ، وحاول أن يفتحه، وأن يدخل لإنقاذ (سامح) ولكن الباب لم يستجب كان هناك ما يضغط الباب من الداخل في قوة، تفوق كل ما يمكنه من دفع وبأس ولقد أصابه الذعر، ولكنه حاول وحاول..
وحاول..
ولكنه لم يستطع..
كان بإمكانه أن يصرخ أن يستنجد بخفراء المزرعة..
أو بأي شخص من البلدة..

إلا أنه لم يفعل..
شيء ما، منعه من أن يفعل..
ربما هو خوفه من تلك النباتات القاتلة، أو شعوره بأنه شارك في ارتكاب الجريمة زراعته لهذه النباتات، كان بداية ما حدث..
بداية الرعب..
كل الرعب..
إنه لا يدري حتى مصير (سامح)..
فما أن عجز عن انتزاعه، من بين تلك المتوحشات، حتى أصابه رعب ما بعده رعب، فانطلق يعدو، عائدا إلى حجرته، حيث انكمش في فراشه يرتجف..
ويرتجف..
ويرتجف..
ثم فجأة، تذكر آلات المراقبة، التي زرعها في الكوخ الخشبي ومع تذكرها، وثب يضغط زر تشغيل التلفاز الكبير، الذي يتصل بأجهزة وكاميرات المراقبة، وأضيئت الشاشة وانتفض جسده بعنف بمنتهى منتهى العنف..
فهناك، على الشاشة الكبيرة، نقلت له كاميرا المراقبة وجه(سامح) كان يملأ الشاشة كلها، كما لو أنه قريب للغاية من موضع العدسة، على الرغم من وجودها على ارتفاع كبير، بالقرب من السقف ولكن وجهه كان يختلف صحيح أن عينيه كانتا تحدقان في العدسة مباشرة، إلا أنهما كانتا جامدتين ثابتتين، فاقدتين للبريق والحيوية، والحياة..
ومرة أخرى، انتفض جسد (وليد)..
انتفض أعنف من انتفاضته السابقة، مرتين على الأقل..
وبأصابع مرتعدة مذعورة، ضغط أزرار جهاز التحكم عن بعد، ليزيد من اتساع زاوية الرؤية واتسعت الزاوية وبدت الصورة أكثر

وضوحا.. وأكثر تفاصيلاً وصرخ (وليد)..
صرخ بكل رعبه، وهو يثب من فراشه، ويلتصق بالجدار ويشهق هاتفا في انهيار:
- لا.. ليس (سامح).. ليس (سامح)..
فالصورة التي نقلتها آلة المراقبة، من تلك الزاوية المتسعة كانت مثالاً للبشاعة، بأقصى صورها..
كان رأس (سامح) مقطوعا، وأحد تلك الأغصان يلتف حول بقايا عنقه، الذي ما زال الدم يتقاطر منه، ويرفعه ليضعه أمام عدسة آلة المراقبة، وكأنما تتباهى تلك النباتات القذرة بما أنجزته وعلى الرغم من بشاعة المشهد، لم يستطع (وليد) أن يرفع عينيه عنه لحظة واحدة..
(سامح) كان على حق..
لقد أخطأ..
أخطأ خطأ رهيبا، عندما أخفى أمر تلك البذور لقد ظل يحدق في رأس صديق عمره المقطوع، وذهنه المذعور يسترجع القصة كلها منذ بدايتها..
إنه المسئول عن كل ما حدث وعندما زرعها في كوخه الخشبي أخطأ عندما سمح لفضوله بالتغلب على حكمته، ودفعه إلى القيام بأمر يجهل تماما عواقبه، وما يمكن أن يئول إليه.
وأخطأ عندما لم يتراجع، بعد أن أدرك هذا..
كان لابد له أن يدمر تلك النباتات كلها، بعد الجريمة الأولى كان من الضروري أن يفنيها، قبل أن تتطور، وتتوحش وتتجاوز كل الحدود، حتى حدود كوابيسه
مسئول عن مصرع كل من لقي حتفه بسببها..
مسئول عن مقتل (سامح)..
(سامح).. صديق العمر..

انتفض جسده مرة أخيرة، ثم انطلقت فورة من الحزم والحماس في عروقه كلها، فاعتدل بحركة حادة، قائلاً:
- سيدفعون الثمن.
نطقها، واندفع يغادر حجرته، واتجه من فوره إلى مرآب المزرعة، فحمل ثلاثة صفائح من البنزين، واندفع بها إلى الكوخ..
وبكل غضبه، أفرغ الصفيحة الأولى على باب الكوخ وحوله، ثم دفع الباب بقدمه، وهو يتوقع المقاومة نفسها ولكن الباب استجاب في بساطة..
وانفتح..
ولوهلة، وقف (وليد) عند الباب عصبيا متوترا، يمسك صفيحتى البنزين، ثم غمغم في لهجة تجمع بين العصبية والصرامة والغضب:
- انتهت اللعبة أيها الأوغاد..
تقدم خطوتين إلى الداخل، و..
وأغلق الباب خلفه في عنف..
ولأنه لم يغلقه بنفسه، فقد انتفض للموقف، واستدار يحدق في الباب المغلق في رعب، ورأى غصنان قويان ينسحبان منه بعد أن أغلقاه في إحكام..
وبمنتهى العصبية، التفت إلى النباتات، التي صارت هائلة عملاقة، وصاح:
- كل هذا لن يجدي.
ألقى إحدى الصفيحتين أرضا بالفعل، فانسكب منها البنزين بين النباتات، وهمَّ بإلقاء الثانية، و..
«هل ستقتل أبناءك؟!»
بدا الصوت أشبه بفحيح عميق، أتي من باطن الأرض، حتى أن جسده كله ارتجف لسماعه، وراح يتلفت حوله في عصبية

مذعورة، بحثا عن مصدره، قبل أن يسمعه مرة ثانية، يقول:
- ما من زارع يقتل زرعه.
صرخ في رعب، وهو يلتصق بالباب:
- من؟! من يتحدث؟!
بدا الصوت أكثر عمقا وفحيحا:
- عجبا! ألا تعرفنا؟!
تمايلت النباتات العملاقة في نعومة عجيبة، مع ذلك القول الأخير، وبدت وكأنها تتلاقى كلها عند قمة الكوخ، بكراتها الضخمة، التي تكورت أكثر وأكثر، وبدا وكأنها قد تحولت إلى كواكب خضراء مخيفة، في سماء الجحيم ومرة أخرى، وفي رعب أكثر، هتف (وليد):
- من أنت؟!
اعتدلت النباتات العملاقة عندئذ، وامتدت أفرعها الطويلة، تحيط بالسقف والجدران، وسرت في جسده قشعريرة مخيفة، عندما لاحظ أن بعضها يحمل أشلاء صديق عمره ورأسه، ولاحظ أن الأفرع قد تعمدت أن تحجب الرؤية تماما عن كاميرا المراقبة، وأن تغلق الباب، وكل المنافذ، قبل أن ينبعث ذلك الصوت الرهيب مرة أخرى، قائلاً:
- أنت على حق.. حان الوقت لنلتقي.
مع نهاية القول، تمايلت النباتات مرة أخرى..
ثم اتسعت عينا (وليد) عن آخرهما فما حدث أمامه، كان يفوق كوابيسه كل كوابيسه..
كل النباتات لها جذور..
حقيقة حفظها (وليد) عن ظهر قلب، منذ حداثته، على يد والده المزارع، وتيقن منها مع دراسته للهندسة الزراعية، وفنون الإنبات فيما بعد.. النبات يعني الأرض..

كل نبات يمد جذوره في التّربة، ويمتص منها الماء والغذاء، لينمو، ويترعرع، ويتعمق في مكانه..
وفي كل يوم تمتد جذوره، وتتعمق أكثر وأكثر..
وحتى لو حاولت اقتلاعها، فستجدها، مهما بلغت ضآلة النبات، قوية، متماسكة، تتشبث بالتربة، وتقاتل للبقاء فيها وتدرك أن انتزاعها منها يعني الجفاف، والضياع. والموت..
كل النباتات كذلك..
إلا تلك التي يراها أمامه، في ذلك الكوخ الخشبي..
وحدها كانت تختلف..
تختلف تمام الاختلاف..
تختلف عن كل ما عرفه ودرسه، في حياته كلها ففي بطء وهدوء، تفتحت تلك الكرات الضخمة، في قمة النباتات العملاقة، وبرز داخلها ذلك الشيء..
شيء أخضر، مخيف، له تكوين شبه آدمي، بوجه، وجسد، وذراعين، و....
هذا ما انتفض له جسده كله بمنتهى العنف، عندما خرجت تلك الأشياء من كراتها، وهبطت أرضا، واتجهت نحوه وبكل رعب الدنيا، التصق بالجدار، وهو يحدق فيها كلها كانت أول مرة في حياته، وربما في حياة البشر كلهم، يرى نباتا يسير نباتا بلا جذور..
نباتا تقدم نحوه، وأحاط به.. وثب في كيانه كله رعب ما بعده رعب..
وجوه خضراء رهيبة، أشبه بأوراق شجر كبيرة مفلطحة، راحت كلها تحدق فيه، بعيون حمراء كالدم، ونظرات كالشيطان نفسه..
وحاول أن ينطق..

حاول أن يقول شيئا..
أي شيء..
ولكن الرعب ألجم لسانه، وجمده في حلقه، فلم يستطع التفوه بحرف واحد، وهو يحدق في تلك الوجوه الخضراء، التي راحت تحدق فيه بدورها، بملامح لا يدري، ما إذا كانت تحمل له الامتنان، أم الغضب.. كل الغضب..
وبذلك الصوت الفحيحي العميق، قالت النباتات:
- هل راق لك ما رأيته؟!
استنفر كل ما تبقى من إرادته وقوته، ليقول بصوت شاحب مبحوح مختنق:
- لست.. لست.. لست نباتا.
أجابه ذلك الصوت، الذي ما زال يحمل مصدره:
- في عالمنا لا نعرف ما يعنيه هذا.. فكلنا على هيئتنا هذه كلنا ننمو متشابهين، ونعتمد على كائنات أدني في تغذيتنا ونمونا كائنات لم نجدها في هذا العالم، فبحثنا عن بديل لها.
غمغم:
- البشر!
أجابه الصوت نفسه:
- ما زلنا نجهل ما يعنيه المصطلح.. لسنا ندرى حتى كيف جئنا من عالمنا إلى هنا، ولكننا سندافع عن وجودنا.. سنقاتل من أجل البقاء، حتى لو أفنينا عالمك كله.
غمغم في عصبية:
- ليس هذا بمقدوركم.
- حقا!
استعادت ذاكرته لحظة تلك الأهوال، التي عانتها البلدة كلها، منذ زرع تلك البذور، ثم غمغم في مرارة:

- أنا المسئول عن هذا..
بدا له الصوت ساخرا، وهو يقول:
- أنت أعدتنا إلى وعينا.. لهذا أبقينا عليك.. أنت منحتنا القوة..
مزقته الكلمات في عنف، فغمغم:
- أنا؟!
نطقها وكأنه يستنكرها، أو كأنه يلوم نفسه ألف مرة؛ لأنه فعل هذا بعالمه، دون أن يفكر في عواقبه أو يتصورها الآن فقط فهم كل ما حدث فهم حديث الخفير عن رؤية النداهة فهم ما أصاب الكلب، والطفل، وغيرهما عرفت ما الذي التهم تلك البقرة..
ومرة أخرى، اتجه تفكيره إلى صفائح البنزين، التي أحضرها معه، والتي سكب بعضها بالفعل، وتحسس جيبه، بحثا عن قداحته، فقال ذلك الصوت في صرامة:
- إياك حتى أن تفكر.
بهت للقول، فأبعد يده عن جيبه بحركة سريعة، وتواصل الصوت بنفس الصرامة:
- ما تسمعه لا ينتقل إلى أذنيك، فلغتنا أصعب من أن تتعلمها أو تستوعبها، ولغتك كذلك عسيرة الفهم بالنسبة لنا؛ لذا فنحن نتخاطب عبر العقول وحدها..
اتسعت عيناه في ارتباع شديد..
تلك النباتات ليست وحشية فحسب، بل تقرأ الأفكار أيضا!!
وهذا يعني أنها ستسيطر على الموقف كله، دون فرصة واحدة للفوز أو النجاة..
إنها ستقرأ أفكاره، وستدرك نواياه، وتتوقع كل خطواته التالية لن يمكن مباغتتها قط لن يمكنه مهاجمتها من حيث لا تتوقع..
وبكل يأسه، هتف:
- أنا صنعتك.

أجابه الصوت في عمق أكثر:
- ومن قال إنه من حق الصانع أن يقني ما صنعه؟! ربما كنت مخيرا في أن تأتي بنا أو تتركنا، ولكننا، وبعد أن أصبحنا كيانا واقعيا، لم تعد لديك إرادة القضاء علينا، بل ولم يعد يحق لك أن تفعل.
غمغم في انهيار:
- لقد صنعت وحشا..
أجابه الصوت في صرامة:
- وستتحمل وزر ما صنعت.. إلى الأبد.
عربد غضب عارم في جوانبه، وجالت بخاطره فكرة إشعال البنزين، حتى لو أدى هذا إلى مصرعه مع تلك النباتات، وما أن راودته الفكرة، حتى تحركت أفرع النباتات في سرعة، فكبلت حركته، وانتزعت القداحة من جيبه، وألقتها بعيدا إلى أقصى ركن من الكوخ.
وكم شعر هو بالمرارة والعجز، وذلك الصوت الفحيحى العميق يقول:
- كان ينبغي أن تدرك عقم المحاولة..
وصمت لحظة، ثم أضاف:
- ولكن هذا يستوجب عقابا..
وصرخ (وليد)..
مع نهاية الصوت، الذي خاطب عقله مباشرة، انحنى أحد تلك الأشياء نحوه، وانسكب منه سائل ما على ذراعه..
سائل وردي اللون، ما أن لامس جسده، حتى اشتعلت فيه نيران رهيبة من الألم..
لم يختبر في حياته كلها مثل ذلك الألم لقد بدا أشبه ببؤرة، لمست جلده، وبعثت فيه حرارة كالنيران، راحت تنتشر بسرعة

مخيفة، وعلى نحو أشبه بشبكة العنكبوت في ذراعه كلها..
صرخ..
وصرخ..
وصرخ..
وعلى صراخه، تجمع الخفراء، والتفوا حول الكوخ الخشبي مذعورين، متسائلين، قلقين، إلا أن أحدهم لم يجرؤ على لمس باب الكوخ، أو المجازفة بفتحه..
وبذلك الصوت العقلي الفحيحي العميق، قال النبات:
- منذ هذه اللحظة، ستعاودك هذه الآلام، أينما وحينما أردنا سنقرأ أفكارك طوال الوقت، وما تركناه في جسده لن يتلاشى قط، ولا علاج له لديكم.. إنه أسلوب سيطرتنا عليك.. ستنفذ أوامرنا، أو تذوق العذاب ألوانا.
كان العذاب والألم رهيبين بالفعل، حتى أنه أمسك ذراعه قائلاً في استسلام:
- سأفعل كل ما تريدونه.. أقسم لكم..
بدا الارتياح في الصوت الفحيحي، وهو يقول: أجابه الصوت، بمنتهى العمق:
- نعم.. اللحم.. لحم البشر..
انتفض جسده مرة أخرى..
بمنتهى منتهى العنف..
- عظيم.. اعتبارا من هذه اللحظة إذن، ستؤمن لنا الغذاء..
انتفض جسده، وهو يغمغم:
- الغذاء!!
ماذا سيفعل في هذا المأزق؟!
هذا هو التساؤل الوحيد، الذي سيطر على عقل (وليد)، وهو يعود إلى حجرته لاهثا، وكأنما دار حول الأرض كلها جريا لم يدر

كيف غادر ذلك الكوخ الخشبي، ولا ما الذي قاله لخفراء مزرعته، الذين التفوا حوله، تبريرا لصرخاته داخله كل ما يذكره هو أنه وجد نفسه يعدو بكل قوته، ليصعد إلى حجرة نومه، في الطابق العلوي وهناك، وقف صامتا لاهثا، يحدق في شاشة التلفاز الكبير، في رعب ما بعده رعب، دون أن يجرؤ حتى على لمسه ما يحدث في ذلك الكوخ كان رهيبا وبكل المقاييس..

لقد ساهم في صنع وحش، لا يعلم إلا الخالق - عز وجل - إلى أي مدى يمكن أن يتمادى تلك الكائنات قد تبدو أشبه بالنباتات، وتنمو مثلها من بذور إلا أنها حتما لا تنتمي لأي فصيلة نباتية عرفها في حياته إنها ليست نباتات حتما إنها مخلوقات عاقلة..

ذكية..

وشريرة..

أو على الأقل، هي شريرة من وجهة نظره، ونظر كل كائن أرضى فحسب..

ومهما كان الثمن..

وهو أتى بها إلى عالمه..

أما في عالمها، فهي مجرد كائنات، لها الحق في أن تحيا وأن تقاتل من أجل حياتها، مهما كانت الصعاب..

هو زرعها في تربتنا، ورواها بمياهنا، وأجبرها على النمو في عالم غريب..

عالم تجهل كل شيء عنه، وستقاتل لتحيا فيه وتبقى..

حتى لو التهمت البشر..

كل البشر..

ارتجف جسده، وسرت فيه قشعريرة باردة كالثلج، عندما بلغ تفكيره هذه النقطة، واتسعت عيناه عن آخرهما، عندما تذكر ذلك المطلب البشع، الذي طالبته به تلك الكائنات..

اللحم..
اللحم البشري..
لقد كشفت أوراقها، وأسفرت عن وجوهها وأنيابها، وعن شراهتها لبني جنسه وعليه هو أن يشبع نهمها وجوعها وإلا..
مرة أخرى، ارتجف جسده في عنف، فألقى نفسه على طرف فراشه، ودفن وجهه بين كفيه، وراح ينتحب، قائلا:
- ماذا فعلت؟! رباه! ماذا فعلت؟!
- «أتيت بنا..»
وبكل رعبه وعصبيته، هتف:
- ماذا تريدون هذه المرة؟! ماذا تريدون؟!
عقب هتافه، ظهر فرع ثان.. ا
وثالث..
ورابع..
أتاه الجواب، بذلك الصوت العقلي الفحيحي العميق، فانتفض على نحو أكثر عنفا، ووثب من فراشه، وحدق في النافذة، بكل رعب وذهول الدنيا..
فهناك، كان أحد أفرع النبات يتسلل داخل الحجرة، ويزحف متجها إلى حيث وضع التلفاز الكبير عشرة أفرع على الأقل، زحفت داخل حجرته، والتفت حول التلفاز الكبير، ثم سحبته نحو النافذة، فتراجع هو مذعورا، وهو يتساءل عما ستفعل به!!
وعبر النافذة، حملت الأفرع القوية التلفاز الكبير، ثم غابت به عن عينيه..
وانتفض جسده مرة أخرى..
«مزيد من اللحم في الطريق..»
مرة أخرى، تسلل ذلك الصوت كالفحيح في رأسه، فاتسعت عيناه في رعب، وغمغم مكررا:

- مزيد من اللحم
لم يحصل على جواب هذه المرة، ولكن آخر الأفرع اختفى عبر النافذة، خلف التلفاز الكبير، في نفس اللحظة التي التقطت فيها أذنا (وليد) سارينة سيارة شرطة تقترب هنا فقط تذكر صديقه (سامح) وما أصابه، فسرت في جسده قشعريرة أخرى، وأسرع يلقى نظرة من النافذة..
كانت الأفرع تختفي داخل الكوخ الخشبي، في نفس اللحظة التي توقفت فيها سيارة الشرطة أمام فيلته الصغيرة، وهبط منها رجل أصلع متوسط الحجم، نظر إليه بعينين صارمتين، وهو يقول:
- المهندس (وليد)؟!
ازدرد (وليد) لعابه في صعوبة، وهو يشير برأسه إيجابا، فخفض الأصلع عينيه إلى الباب، وتقدم وحده، وكأنما لا يحتاج إذنا للدخول..
وفي لهفة وتوتر، أسرع (وليد) يهبط إلى الطابق السفلي ليلتقي به، وما أن فتح الباب، حتى بادره الأصلع، قائلاً:
- أين (سامح)؟!
ارتجف جسد (وليد) وصوته، وهو يقول:
- (سامح)؟!
كان من الواضح أن ارتجافته لم تخف على الأصلع، الذي رمقه بنظرة صارمة متشككة، وتساءل في لهفة هجومية:
- لماذا أقلقك ذكر اسمه إلى هذا الحد؟!
تمالك (وليد) أعصابه في سرعة، وهو يجيب:
- لأنه كان المفترض أن يأتي لزيارتي مساء أمس، إلا أنه لم يأت، وهاتفه المحمول لا يجيب أي اتصال، مما أقلقني بشأنه..
رمقه الأصلع بنظرة صارمة أخرى، قبل أن يسأله:
- متى رأيت (سامح) آخر مرة؟!

بحث عقل (وليد) عن جواب منطقي للسؤال، حتى لا يتورط في جواب يكشف أمره، ثم لم يلبث أن قال في عصبية:
- من أنت أولا؟! ولماذا تطرح على كل هذه الأسئلة؟!
مط الأصلع شفتيه، وقال:
- آه.. نسيت تقديم نفسي.. أنا العقيد (مدحت).. رئيس(سامح)، الذي اختفى تماما، دون أن يترك خلفه أي أثر أو ينجح أي مخلوق في العثور عليه..
جف حلق (وليد)، وهو يقول:
- (سامح) اختفى؟!
مرة أخرى رمقه الأصلع بتلك النظرة القاسية، وقال، وهو يتفحص ملامحه جيدا:
- آخر ما سجله، في دفتر الأحوال، هو أنه قادم إلى مزرعتك؛ لفحص كوخٍ ما...
ثم مال نحوه، مضيفا، وكأنما يرصد كل ردود أفعاله عن قرب:
- كوخ خشبي؟!
وعلى الرغم من إدراكه لما يفعله الأصلع، لم يستطع (وليد) كبح تلك الارتجافة، التي شملت جسده كله في وضوح، ولا الشحوب الشديد، الذي أصاب وجهه وصوته، وهو يتمتم:
- أي كوخ خشبي؟!
ابتسم الأصلع في ثقة، وكأنما يدرك أنه قد وقع على صيد ثمين، وأدار رأسه نحو الكوخ الخشبي، قائلاً:
- ربما هذا.
ثم أشار إلى الرجلين المصاحبين له، دون أن يضيف حرفا واحدا، واتجه ثلاثتهم نحو الكوخ والعجيب أن (وليد) لم يحاول منعهم لم يحاول حتى تحذيرهم كان يبدو وكأنه قد استسلم للموقف كله، وأدرك عدم جدوى المقاومة..

وتركهم يقتحمون الكوخ..
ترك اللحم البشرى الطازج يتجه بقدميه إلى حتفه..
ولقد اقتحم ثلاثتهم الكوخ دون أدنى مقاومة، واندفعوا داخله، وهم يشهرون مسدساتهم، متصورين أنهم سيجدون داخله مجرما خطيرا، أو أحد السفاحين المطلوبين لذا، فقد أدهشهم للغاية أن يجدوا داخله نباتات عملاقة هائلة وبينما يحدقون في المشهد، بكل الدهشة والذهول، أغلق باب الكوخ خلفهم بحركة حادة.. واستدار الثلاثة إلى الباب المغلق، ثم اعتدلوا مرة أخرى.. وعندئذ، رأوا أمامهم ذلك المشهد الرهيب..
ومن موقفه، خارج الكوخ، سمع (وليد) دوى الرصاصات، وشاهد وميضها، إلا أنه لم يحرك ساكنا..
فقد انتظر، حتى هدأ كل شيء، ثم أدار عينيه في بلادة واستسلام إلى السيارة، التي تحمل لوحات الشرطة..
لقد ازداد الموقف تعقيدا. إلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

٥ - الفرع الأخير..

لم يعد هناك أمل..
الموقف صار أكثر تعقيدا من أن يكون له مخرج..
أي مخرج..
تلك النباتات الفضائية المفترسة قتلت مفتش الشرطة ومساعديه..
تجاوزت كل الحدود، ولم تعد تبالى حتى بكشف أمرها.. إنها تقاتل الآن بوجوه سافرة..
أو بيأس واضح..
وهو لا يدري ما الذي ينبغي أن يفعله..
بل ولا ما الذي يمكن أن يفعله
إنه لا يدري حتى ما الذي فعلته بجثث المفتش ومساعديه، ولكن ما يعرفه هو أن سيارتهم، التي تحمل أرقام الشرطة، ما زالت تقف أمام فيلته، وكل الخفراء يهرعون إليها، إثر دوى الرصاصات..
لقد بذل جهدا خارقا؛ لإخفاء سيارة (سامح) بعد مصرعه، أما هذه السيارة، فلا سبيل لإخفاء أمرها..
ها هم أولاء الخفراء، يلتفون حول الكوخ الخشبي، وما زالوا يخشون مجرد لمسه، على الرغم من ثقتهم في أن دوى الرصاصات قد انبعث من داخله لا يمكنه أن يصمت أو أن يتجاوز الأمر لقد تحول الموقف كله، من تجربة متهورة، إلى مأساة شاملة، جعلت منه - شاء أم أبي - مجرما آثما رهيبا، وشريكا في أكبر رعب يمكن أن تواجهه البشرية، في تاريخها كله..
رعب بذور أتت من هناك من قلب الفضاء..

أتت حاملة معها الموت والفناء للبشر..
كل البشر..
بل كل الكائنات..
ولا يمكن أن يتجاوز هذا..
لا يمكن أن يتجاوزه، ويمضي في حياته، حتى ولو عجزت يد القانون عن إثبات تورطه في الأمر..
تذكر في تلك اللحظة أن صفيحتي البنزين ما زالتا هناك، داخل ذلك الكوخ الخشبي، وأن المناخ الرطب، لن يسمح بتبخر ما أسكب من الصفيحة الثالثة بسرعة..
إنها فرصته إذن..
فرصة القضاء عليها..
انتبه فجأة إلى أن تلك الأشياء تستطيع الغوص في عقله، وقراءة أفكاره، فسعى لتشتيتها، وراح يتذكر الأحداث السابقة وهو يتجه في حزم نحو السلم..
تذكر مقدم تلك البذور، وما سبقته من انفجارات ودمار..
بالقرية، وتذكر زراعتها، ونموها، وشراستها..
و(سامح)..
مع تلك اللمحة الأخيرة، كان قد بلغ الكوخ الخشبي، فهتف به أحد الخفراء في توتر:
- سمعنا دوى رصاصات هنا يا بك..
ألقى عليه نظرة خاوية، دون أن ينبس ببنت شفة، خشية أن يتحرك لسانه، فينطلق معه عقله، وتكشف تلك الكائنات المتوحشة ما ينتويه..
كائنات متوحشة.. توقف طويلاً عند الوصف، وراح يتساءل في أعماقه: أهي فعلاً كائنات متوحشة، أم مجرد كائنات مسكينة، وجدت نفسها في بيئة مختلفة، محرومة من غذائها الرئيسي،

فسعت للبحث عن غذاء بديل، بأي ثمن ماذا لو أنه هو تعرض للموقف ذاته؟!
ماذا لو أن كائنات أخرى حملته إلى بيئة مختلفة، عجز عن التكيف فيها، والبقاء حيا داخلها، إلا لو قتل بعض سكانها الأصليين هل كان سيتردد عندئذ؟!
من أدراه؟!
لا أحد يمكنه الجزم، ما لم يوجد في المناخ والظروف نفسها..
لا أحد..
كاذب هو من يدعى العكس؛ فغريزة البقاء، في أعماق كل كائن حي، تدفعه للحفاظ على حياته بأي ثمن حتى لو كان الثمن هو حياة الآخرين..
لهذا يرتكب الإنسان كل موبقات الدنيا..
يكذب.. يسرق.. وحتى يقتل، للحفاظ على نفسه أولاً..
دارت كل هذه الأفكار في ذهنه، وهو يدفع باب الكوخ بيده، ويدلف إليه، ويغلق بابه خلفه، أمام عيون خفرائه المندهشة والمستنكرة، والمعذورة أيضا..
وفي الداخل، بدا له الموقف مختلفا..
لم تكن تلك النباتات قد انتهت من التهام طعامها بعد، وما زالت تمزق أجساد ضحاياها، والدماء متناثرة في كل مكان، وبقايا الأشلاء تذوب، بفعل حامض عجيب تفرزه أفرعها وعند دخوله، توقف كل هذا..
التفتت النباتات كلها إليه، في تحفز واضح هذه المرة، كما يفعل القط، إذا ما حاول أحدهم سلبه طعامه..
«لن تجرؤ..»
تسلل ذلك الصوت الفحيحي الرهيب إلى رأسه، إلا أنه لم يحدث به التأثير نفسه، فقال في هدوء عجيب:

- ولماذا؟!
أجابه ذلك الصوت:
- لأن مصرعنا سيعني مصرعك أيضا.. لقد ارتبط مصيرك بمصيرنا، ودراستنا لجنسكم تؤكد أن التضحية بالنفس ليست جزءا من طبيعتكم الأصلية..
غمغم بنفس الهدوء العجيب:
- أهذا ما توصلتم إليه؟
وعلى الرغم من أن الصوت يتسلل إلى عقله مباشرة، فقد بدا أقل عمقا وثقة، وهو يقول هذه المرة:
- ألديك رأى آخر؟!
لاحظ أن عملية التهام الأشلاء قد توقفت في تلك اللحظة، وكأن النباتات كلها تنتظر جوابه ورد فعله، ولقد تطلع هو إليها كلها بنظرة خاوية تماما، ثم أجاب بمنتهى الهدوء:
- إنها بالطبع تتعارض مع غريزة البقاء في البشر..
بدا وكأن جوابه قد أراحها كلها، فعادت تلتهم الأشلاء، إلا أنه أخرج قداحته، وأشعلها، وهو يضيف بمنتهى الحزم:
- ولكن الضرورات تبيح المحظورات..
مع نهاية عبارته، وربما حتى قبل أن تكتمل، ألقى القداحة المشتعلة فوق البنزين المنسكب، ودفع الصفيحة الثانية بقدمه في قوة..
واشتعلت النيران..
اشتعلت، وانتشرت، وتأججت في سرعة مخيفة، حتى بدا وكأن الكوخ كله قد اشتعل دفعة واحدة، أو أن ذلك الحامض، الذي تفرزه النباتات، لاتهام ضحاياها، والذي يجعل عظامها تبدو نظيفة لامعة، موصل جيد للنيران وعلى الرغم من أن أفرع

النباتات قد أغلقت الباب في إحكام، وذلك الصوت الفحيحي يصرخ في مخه:
- ستقضى معنا.. ستقضى معنا..
وعلى الرغم من صراخ الخفراء في الخارج، ومحاولتهم اليائسة لإطفاء النيران، إلا أن (وليد) لم يحرك ساكنا، وترك أفرع النبات تلتف حول جسده وعنقه وتعتصر منه الحياة، وهو صاغر مستسلم، مدرك أنه يدفع حياته كلها، ثمنا لبقاء البشرية..
وقبل السيطرة على النيران، كان الكوخ كله قد تحول إلى كتلة من اللهب، ثم لم يلبث سقف الكوخ أن انفجر، وانطلقت منه شرارات رهيبة، أشبه بالألعاب النارية، صنعت مظلة هائلة، فوق البلدة كلها، قبل أن تتساقط في كل مكان منها تقريبا وبكل ذعر الدنيا، انطلق الخفراء مبتعدين في رعب، وراحوا يراقبون تلك الألعاب النارية الشيطانية، وهي تتناثر، وتتناثر وتتناثر..
-
وبعد نصف ساعة على الأكثر، وعند وصول سيارات الإطفاء كان الحريق قد خمد تقريبا، ولم يبق خلفه أثر لأي شيء أي شيء على الإطلاق..
لا تلك النباتات، ولا أشلاء الضحايا..
ولا حتى جثة (وليد)..
ولشهر أو يزيد، تهامس الكل في القرية عن النداهة، التي قتلت رجال الشرطة، وأحرقت الكوخ، وحملت صاحبه معها إلى أعماق الأرض
ثم راح الهمس يخفت، ويخفت
وبعد شهرين تقريبا، لم يعد أحد يتحدث عن هذا الأمر وذات ليلة مقمرة، بعد مرور الشهرين، تسلل فأر حقل بين أعواد

البرسيم، ثم توقف حائرا، أمام عود مختلف، بدت في قمته كرة غريبة الشكل..
وفجأة، انفتحت تلك الكرة، وانقض منها كائن ما على ذلك الفأر..
وصرخ الفأر.. وصرخ.. وصرخ.. ولكن صراخه لم يجذب انتباه أحد، خاصة وأن هذا الصراخ قد تكرر أكثر من عشر مرات، في أماكن مختلفة من البلدة ووسط حقول مختلفة.. نفس الحقول التي تساقطت فيها تلك الألعاب النارية وحتى مع العثور على هياكل عظمية نظيفة تماما، لتلك الفئران، لم يتصور مخلوق واحد أنه يشهد البداية..
بداية النهاية..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
بذور..
١ - الأزل..
٢ - نمو....
٣ - الرعب..
٤ - آخرون....
٥ - الفرع الأخير..

Notes

[←1]

الصوت لا ينتقل عبر الفراغ علميا.

[←2]

مع غياب المقاومة في الفضاء، يكتسب الجسم سرعته، على نحو شبه دائم حيث لا توجد عوامل لتقليل السرعة

[←3]

في أواخر التسعينات، تم كشف الكوكب العاشر، في مجموعتنا الشمسية، وأطلق عليه العلماء اسم (سي. دى)، ومؤخرا، تم رصد ما يؤكده العلماء أنه الكوكب الحادي عشر والأخير في المجموعة.

[←4]

النداهة: عفريت خرافي، يجوب الحقول، في الروايات الريفية الشعبية، وينادي اسم من يعبر به، فإذا ما التفت إليه، أصابه جنون، لما تبقى له من العمر وهي خرافة شائعة، في الريف المصري

[←5]

(*) النباتات المفترسة: أو النباتات آكلة الحشرات؛ هي نوع من النباتات، التي تنمو في تربة معدنية، تفتقر إلى الأملاح، خاصة النيتروجين؛ لذا ففيها أعضاء خاصة، يمكنها أن تقتنص الحشرات، ثم تغمرها بسوائل هاضمة خاصة، بحيث تحصل على كل ما تحويه أجسامها من أملاح مختلفة، لتعويض النقص في التربة.

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

المتحورون

نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

) كلمه مهمة (:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

المتحورون

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- الفارس..

عام ألفين ومائة وواحد..
بداية القرن الثاني والعشرين..
الأرض لم تعد أبدا كما كانت..
الحروب التي أشعلتها قوة عظمى، مع بدايات القرن الحادي والعشرين، تعاظمت، وتضخمت، واتسعت، وراحت تنشر الخراب والدمار في كل ركن من الأرض..
في البداية، كانت تلك القوة تفوق الجميع، وتملك من أسلحة الفناء ما دفعها إلى التعالي والغطرسة، والسعي إلى فرض سيطرتها وهيمنتها على الكل، مدفوعة بالأغراض الخفية لدولة صغرى غير عربية، نمت في غفلة من الزمن، في منطقة الشرق الأوسط القديمة..
ومع انتصاراتها المتوالية، تضاعف شعورها بذاتها..
وبقوتها..
وتفوقها..
وتمادت أكثر..
وأكثر..
وأكثر..
وهنا بدأت عمليات مقاومة عنيفة، وشرسة، ومتواصلة..
وعشوائية..
وبدلاً من أن تدرك تلك القوة العظمى فداحة الأمر، وسخافة أحلامها الاستعمارية الوحشية، راحت تواجه المقاومة بشراسة وغضب، وتضرب تواجدها في كل موقع، حتى ولو ضم آلاف المدنيين، وأريقت فيه أنهار من الدماء البريئة الطاهرة..

وهنا أدركت فرق المقاومة فداحة الموقف فتآزرت..
واتحدت...
واندمجت...
وتضافرت قوتها، في جيش عظيم باسل، راح يوجه الضربات القاصمة إلى القوات المحتلة والمعتدية، واحدة تلو الأخرى وقبل مرور أعوام خمسة، كانت القوة العظمى قد أدركت حقيقة ما تواجهه، وفداحة ما ينتظرها، وقررت أن تواجه جيوش المقاومة بهجمات أكثر عنفا، مهما كان الثمن..

وبدأ القتال يتطور..
ويتطور..
ومع تصاعد حدته، كانت تلك القوة العظمى تلقي في الميدان أسلحة جديدة، وخطيرة، وشاملة إلى أقصى حد..
ومع كل سلاح جديد، يدخل إلى ساحة المعركة، كان التلوث يزداد.
ويتضاعف..
وينتشر أكثر..
وأكثر..
وأكثر..
وعلى الرغم من هذا لم تنته المقاومة أبدا لم تتوقف..
أو تتراجع..
أو تستسلم..
بل كانت تزداد قوة وعنفا وفداء، في كل يوم يمضي، وتعدادها يتزايد في كل ساعة، وإيمانها يتعاظم في كل لحظة وفي ضربة

مذهلة، فجرت المقاومة أول قنبلة نووية، في قلب تلك القوة العظمى مباشرة، لتطيح باثنتين من ولاياتها دفعة واحدة..
وردت تلك القوة العظمى بقنبلة نووية مماثلة..
وثانية..
وثالثة..
ولكن العجيب أنها لم تربح المعركة، ولم تنتصر في قتالها في النهاية..
الغبار النووي، والسحب الذرية، التي انتشرت عقب ذلك الخضم من التفجيرات، لم يمكن منعهما من بلوغ أرض تلك القوة العظمى نفسها ولأن سكانها يعيشون في ظروف صحية أفضل، جعلت مناعتهم في مواجهة الملوثات الطبيعية أقل، راحوا يتساقطون أولاً تساقطوا بالعشرات، وبالمئات، وبالآلاف ثم بالملايين..
كل هذا والتلوث يزداد..
ويزداد..
ويزداد..
وانهزمت القوة العظمى، أمام قوى أخرى، برزت في(أوروبا) و(آسيا)، ومن قلب الشرق الأوسط نفسه..
ثم راحت تلك القوى نفسها تنهزم وتتحطم وتندحر..
كلها انهزمت أمام التلوث النووي الرهيب، الذي ساد العالم كله، وانتشر على نحو مخيف الكل انهزم، حتى لم يعد هناك منتصر..
الأمراض انتشرت بشكل مفزع..
الأطفال تهالكوا وتساقطوا..
الأجنة تشوهت..
حتى الطقس تغير..

السماء باتت تمطر معظم أيام السنة، وعلى الرغم من هذا فالمزروعات ندرت أو انعدمت، والسماء فقدت لونها الأزرق الصافي الجميل، واكتست بسحب حمراء قاتمة، اختفت خلفها الشمس أو كادت..

أما الحيوانات والطيور، فقد تطورت، وتحورت، وظهرت بينها أنواع وفصائل جديدة، بعضها يجمع صفات مملكتين أو ثلاث، من ممالك الحيوان والطير، وبعضها اكتسب سمات وحشية، أو صفات لم يكن لها وجود من قبل قط.....

وتلك التحورات أصابت البشر أيضا، حتى صار من النادر أن تجد بشريا عاديا، لم يضف إليه التلوث النووي سمة ما، هنا أو هناك..

ولم يمض نصف قرن من الزمان، حتى تغير وجه الأرض تماما، ولم تعد أبدا كما كنا نعرفها وهنا، بدأت حروب جديدة تبرز إلى السطح حروب قادها فريق من البشر، للسيطرة على باقي الفرق الأخرى، وفرض هيمنته عليها كالمعتاد..

وفي هذه المرة، ومع التلوث النووي، الذي راح يتراجع ويتركز في مناطق بعينها دون أخرى، انقسم البشر إلى قسمين:

قسم متحور، اكتسب طبيعة وحشية رهيبة، وقدرات حيوانية مخيفة، ورغبة شرسة في الهيمنة والسيطرة، من منطلق إحساسه بالقوة والتفوق..

وقسم بشرى، ظل محتفظا بسماته الطبيعية، وغرائزه السوية ورغبته القوية في الحرية والاستقلال..

لذا، كان للحرب مذاق آخر..

مذاق الدم..

وبلا حدود..

وعندما أعلن التاريخ مولد القرن الجديد، كان العالم قد انقسم مرة أخرى إلى قوة عظمى، تتمثل في المتحورين، الذين تضاعفت قوتهم أكثر وأكثر وتضاعف معها سعيهم للسيطرة والهيمنة والتفوق.....
وإلى غالبية بشرية، تتناقص باستمرار وبسرعة، على يد قتلة المتحورين، الذين انتشروا في كل مكان كالجراد..
وفي ذلك اليوم، من بدايات القرن الثاني والعشرين، كان صبي من البشر يتسلل في حذر مذعور، عبر كومة من الصخور الزرقاء. محاولاً بلوغ الكهوف البعيدة، التي اختفى داخلها قومه، بعد أن غابت الشمس أو كادت، وراء الأفق الملبد بالغيوم..
كان يدرك جيدا، كما يدرك الآخرون، أن أولئك المتحورين ينشطون مع هبوط الظلام، وينطلقون للبحث عن ضحاياهم، ولاقتناص كل من يقع في براثنهم من البشر..
كان يفصله عن الكهوف ثلاثمائة متر فحسب، من أرض وعرة، مغطاة بالصخور والأحجار الصغيرة المدببة، والشمس تغرب في سرعة، وتختفي في الأفق، و..
«إلى أين يا هذا؟!»
صكت العبارة مسامعه بغتة، بذلك الصوت الخشن الغليظ، فانتفض جسد المسكين في رعب هائل، واتسعت عيناه حتى بلغتا ذروتهما، وهو يتراجع أمام المتحورين، اللذين برزا أمامه، على متن جوادين ضخمين، لهما لون أحمر ناري، وهتف في ارتياع مذعور:
. لا.. لا.. الرحمة
ثم دار على عقبيه، وانطلق يعدو بكل قواه، على الرغم من الصخور الصغيرة المدببة، التي أورمت قدميه وأدمتهما، وهو يدرك أنه وقع في قبضة هذين المتحورين، فسيجعلان منه

عشاء ليلتهما، ر صيدا يضاف رأسه إلى رءوس من سبقه من ضحاياهما وفي سخرية عجيبة، تبعه المتحوران ببصرهما، دون أن يتحرك أحدهما قيد أنملة، ثم غمغم أحدهما:
- الآن
لم يكد يتم قوله، حتى انطلق مع رفيقه خلف الصبي، الذي تضاعف رعبه وذعره، فراح يطلق صرخات رهيبة مذعورة، والظلام من حوله ينتشر.. وينتشر..
وينتشر..
ومع فارق القوة، كان من الطبيعي أن يقترب منه المتحوران وأكثر.. وأكثر، حتى أيقن من السقوط في قبضتيهما، اهتز كيانه كله، و....
وفجأة، برز ذلك الفارس
فارس ملثم، قوى البنية، ممشوق القوام، يمتطى جوادا أبيض اللون، من فصيلة عربية نادرة، لم بيد أن التحور قد شملها أبدا..
ولقد برز هذا الفارس فجأة، من خلف كتلة ضخمة من الصخور الزرقاء، وانقض على المتحورين كالليث وكانت مفاجأة للصبى ومفاجأة أكثر للمتحورين، اللذين أوقفا جواديهما بحركة عنيفة واستل كل منهما مسدسه الليزري من غمده.
ولكن ذلك الفارس كان أكثر سرعة..
ألف مرة..
فقبل أن يكمل أيهما سحب مسدسه الليزرى، كان هو يبرز مسدسه، في سرعة مذهلة ويطلقه..
وأمام عيني الصبي الذاهلتين، أطاحت طلقات مسدس الفارس بمسدسي المتحورين، قبل أن تنطلق مرة ثانية، نحو أحزم سرجى جواديهما، فتمزقت، واختل توازنهما، وسقطا من علي متن جواديهما، سقطة قوية عنيفة..

وبسرعة، وقبل أن يسترد المتحورين توازنهما، مال الفارس يلتقط الصبي، ويرفعه إلى متن جواده، ثم ينطلق به نحو منطقة الكهوف القديمة.. وفي غضب هادر، نهض المتحوران، وصوبا مسدسيهما خلفه، وأحدهما يصرخ في ثورة:

- لن تفعلها وتقلت بهذه البساطة..

جذب الفارس معرفة جواده، ومال به بحركة سريعة، تجاوزت طلقة مسدس الليزر، قبل أن ينحرف به، في براعة مدهشة ويختفى مع الصبي، خلف كتل الصخور الزرقاء العملاقة..

وفي حدة، هتف المتحور الثاني:

- إنه ذلك الفارس المجهول مرة أخرى..

انتزع الأول جهاز اتصال من حزامه بحركة حادة، وهو يقول في غضب شديد:

في هذه المرة، نعرف أين هو على الأقل.. وضغط جهاز الاتصال، وهو يقول في عصبية:

- من رقم (١٠٠) إلى القاعدة.. الفارس هاجم مرة أخرى..

لدينا إحداثيات واضحة.. أكرر.. لدينا إحداثيات واضحة..

في نفس اللحظة، التي نطق فيها قوله، كان الصبي يهتف بالفارس مبهورا:

- كيف.. كيف فعلتها؟! كيف هزمت خصمين قويين وحشيين مثلهما؟!

أجابه الفارس في هدوء، وهو يواصل الانطلاق نحو منطقة الكهوف:

- ما من خصم لا يمكنك الانتصار عليه، لو علمت أين ومتى ينبغي أن تضرب ضربتك..

سأله الصبي في لهفة:

- ولماذا لم تقتلهما، عندما كان بمقدورك هذا؟!

أجابه الفارس في حزم:
- لم تكن هناك ضرورة لهذا.
هتف الصبي:
- لو أنهما في موضعك، لما ترددا لحظة في قتلك..
أجابه الفارس في صرامة:
. أنا لست مثلهما
وصمت لحظة، قبل أن يضيف:
- ولهذا انتصرت عليهما.
غمغم الصبي مبهورا:
- حقا؟!
استدار الفارس إليه نصف استدارة، وهو يقول، في لهجة بدت أبوية صافية، وإن لم تخل من الحزم:
- هذا درس ينبغي أن تتعلمه.. لا تنحدر أبدا إلى مستوى حقارة خصمك؛ فأنت تنتصر عليه دوما بمبادئك وعقيدتك وتقاليدك، قبل أن تبرز أسلحتك في المعركة..
صمت الصبي لحظة، قبل أن يقول بصوت مرتجف:
- ولكن لو أنك قتلتهما، لما واجهنا هذا.
سأله الفارس في اهتمام قلق:
- واجهنا ماذا؟!
أشار الصبي إلى أعلى، قائلاً بصوت أكثر ارتجافا:
- هذا!
وتتبع الفارس سبابة الصبي، إلى حيث تشير، قبل أن ينعقد حاجباه بمنتهى الشدة والتوتر..

فهناك، في السماء المظلمة، ووراء منطقة الكهوف، كانت هناك ثلاث حوامات آلية صامتة، مزودة بمدافع ليزر قوية، تنطلق

نحوهما مباشرة..
وكان هذا يعني أن تلك الليلة لن تمضي دون إراقة دماء.. أبدا..
☆ ☆ ☆
انعقد حاجبا زعيم المتحولين في شدة، على نحو زاد ملامحه قبحا ووحشية، وهو يطالع تقرير الأمن الأخير، قبل أن يتراجع في عرشه الضخم، وهو يقول في شراسة ظافرة:
- إذن فقد عثرتم عليه أخيرا
أوما رئيس أمنه برأسه إيجابا، وقال:
- إنها أول مرة يتم رصده فيها، في منطقة معروفة؛ ففي كل مرة، كان يظهر على نحو مباغت، ويهاجم في عنف وقوة، وبسرعة تمنع رجالنا حتى من رصد ملامحه، أو تحديد هويته، ثم يضرب ضربته، ويفر على متن جواده القوى، دون أن نظفر به.. بخلاف هذه المرة..
ازداد انعقاد حاجبي الزعيم الكثين، وهو يقول في صرامة:
- إنكم لم تظفروا به بعد..
قاوم رئيس الأمن ابتسامته في صعوبة؛ ليحافظ على مظهره القوى المتماسك، وهو يقول:
- حواماتنا تحاصره في منطقة مكشوفة هذه المرة.. وهي مسألة وقت..

اعتدل الزعيم على عرشه، ولوح بقبضته في وجهه بشراسة قائلاً:

- هذا ما سمعته منك، في آخر مرة..
شد رئيس الأمن قامته في حزم صارم، وهو يجيب:
اطمئن أيها الزعيم.. سنظفر به هذه المرة.. حتما..
التقط زعيم المتحورين قطعة أشبه بالمطاط اللدن، واعتصرها بقبضته بضع مرات، وهو يرمق رئيس أمنه بنظرة نارية، قبل أن

يقول بصوت مخيف:
- سنرى.. سنرى..
وازدرد رئيس الأمن لعابه بمنتهى الصعوبة فهو يعلم ما يعنيه هذا القول يعلمه تماما..

☆ ☆ ☆

انتفض الصبي في عنف، وامتلأت نفسه بالرعب والفزع حتى النخاع، وهو يحدق في الحوامات الصامتة الثلاث، التي انقضت عليهما في شراسة، وهتف في انهيار:
- انتهى أمرنا.
أجابه الفارس، بمنتهى الحزم:
- ليس بعد.
هتف الصبي، وهو يلتصق به في قوة، وكأنما ينشد لديه حماية غامضة، بدت له في تلك اللحظة بعيدة المنال، إلى حد مخيف:
- إنها مسألة دقائق.. لقد شاهدت هذه الأشياء الطائرة تهاجم فريقا من أقاربي، وتبيده في لحظات..
انعقد حاجبا الفارس، وهو يكرر في غضب:
- أشياء طائرة؟! من الواضح أن جيلك ما زال يفتقر إلى أقوى سلاح في مواجهة خصومه يا فتى..
ثم لكز جواده في قوة، هاتفاً
- المعرفة.
مع هتافه، أطلق جواده صهيلاً قويا، واستدار بحركة سريعة، تشف عن قوته، ومهارة فارسه في وقت واحد، ثم انطلق يعدو براكبيه وسط صفين من الصخور الزرقاء الكبيرة..
وبسرعة تشف عن المهارة والاحتراف، انطلقت خلفه الحوامات الثلاث وانطلقت مدافعها الليزرية القوية ودوت الانفجارات..
دوت أمام الجواد..

وخلفه..
وعلى عكس كل الجياد، التي عرفها الصبي، منذ نعومة أظافره، لم يثر كل هذا فزع الجواد شاهق البياض، والذي واصل الانطلاق بهما دون توقف، مطيعا أوامر وإرشادات صاحبه، دون أن يتردد لحظة واحدة..
وبكل دهشته وانفعاله، هتف الصبي:
- كيف؟! كيف يفعلها؟!
أجابه الفارس، وهو يجذب عنان جواده مرة أخرى، في سرعة ومهارة عاليتين:
- إنه ليس جوادا عاديا
هتف الصبي:
- هذا يبدو واضحا
كان الفارس ينطلق بجواده المميز، في مهارة مدهشة، نحو ممر ضيق، بين جبلين ضخمين، متفاديا في براعة مذهلة طلقات الليزر المتتالية، التي تمطره بها الحوامات الثلاث في شراسة وانتبه قادة الحوامات إلى خطته وعبر جهاز اتصال خاص محدود، هتف قائد فريق الحوامات بزميليه:
- لو بلغ ذلك الممر، لن يمكننا اللحاق به أبدا
أجابه أحدهما في حزم:
- لا يمكننا أن نسمح له بهذا.. لقد سمعت تحذيرات القائد بنفسك..
قال الأول في حدة:
- ولا يمكننا أن نتحرك بعشوائية أيضا.. هذا ما سمح له بالفرار في كل المرات السابقة
وهنا انبعث صوت الثالث، عبر جهاز الاتصال الخاص المحدود، وهو يقول في صرامة:

- استمعا إلى إذن.. فلدى خطة
في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كان الصبي يهتف مكررا:
- جوادك هذا مدهش يا سيدي.. إنني لم أر جوادا مثله، في حياتي كلها..
سأله الفارس، وهو يستحث جواده على الإسراع أكثر:
- هل تجيد التعامل مع الجياد؟!
حمل صوت الصبي الكثير من الأسى، وهو يجيب:
- عشيرتي لم تمتلك جيادا قط.. أرى الآخرين يمتطونها فحسب..
انفرجت شفتا الفارس، ليقول شيئا ما، إلا أنه عاد يطبقهما في سرعة، وهو يتابع في اهتمام حركة الحوامات الثلاثة، فلسبب ما، توقفت كلها عن إطلاق أشعة الليزر فجأة وانفصلت عن بعضها، وتفرقت في ثلاثة اتجاهات، فبقيت واحدة خلفه، وحلقت الثانية فوقه، في حين تجاوزته الثالثة، وانطلقت مباشرة نحو ذلك الممر الجبلي، الذي يتجه إليه وبمنتهى الحزم، هتف الفارس بالصبي:

- هناك حزام قوى، مثبت في مؤخرة السرج.. أحكم رباطه حول وسطك جيدا
لم يفهم الصبي ما الذي يمكن أن يعنيه هذا، إلا أنه، ومع شدة رعبه وهلعه، أطاع الأمر في سرعة، وتشبث أكثر وأكثر بالفارس، في نفس اللحظة التي هتف فيها بمنتهى الشراسة، قائد فريق الحوامات:
- الآن.

وقبل حتى أن يكتمل قوله، بدأت الحوامات الثلاث مرحلة الهجوم الثانية على الفور:
- الحوامة التي خلفه، أطلقت نحوه حزمة كبيرة من أشعة الليزر القاتلة، وتلك التي تعلوه ألقت على رأسه عبوة ناسفة قوية، أما تلك التي تجاوزته، فقد أطلقت صاروخها نحو أحد الجبلين، أعلى مدخل الممر مباشرة..
وفي اللحظة المناسبة تماما، وكأنما يقرأ أفكارهم بدقة مذهلة، لكز الفارس بطن جواده، وجذب عنانه في قوة، و..
ووثب الجواد..
وعلى الرغم من دوى الانفجارات العنيف، في الموضع الذي كان يحتله الجواد، منذ لحظة واحدة، وعند مدخل الممر، فقد اتسعت العيون كلها بذهول..
بمنتهى الذهول..
حتى الصبي، انطلقت من حلقه شهقة قوية، وهو يحدق فيما أمامه، وقد خيل إليه أنه في حلم عجيب، وليس في واقع يحيط به من كل جانب..
فصحيح أن الجواد الأبيض يبدو عربيا، قويا، متينا، إلا أن الوثبة التي قام بها، كانت تتجاوز كل ما يمكن أن يستوعبه أي عقل بشري.
تتجاوزه بكثير..
كثير جدا..
فالصخور، التي تحيط به من الجانبين، كانت ضخمة هائلة، تتجاوز المترين ارتفاعا، وعلى الرغم من هذا، فقد تجاوزها كلها بوثبة جانبية مذهلة ومبهرة، جعلته يبدو كما لو أنه لا يثب، وإنما يطير عاليا، لأربعة أمتار كاملة، في خفة ورشاقة مذهلتين،

قبل أن يهبط على قوائمه، ثم يعاود الانطلاق مرة أخرى بسرعة مدهشة..
وبكل ذهول الدنيا، هتف قائد فريق الحوامات:
- مستحيل.. هل رأيتما هذا؟! هل رأيتماه؟!
هتف آخر، في انبهار مماثل:
- لابد وأن نبلغ القيادة بما رأيناه فورا.. هذا سيغير حساباتهم كلها حتما، و..
بتر عبارته بغتة، عندما انتبه إلى أن حوامة زميله تندفع نحوه بحركة عشوائية، وكأنما لم يفارقه ذهوله بعد، فصرخ به، عبر جهاز الاتصال الخاص المحدود:

- ماذا تفعل يا رجل؟! انتبه!
نبهت الصرخة زميله بالفعل، وانتزعته في ذهوله، ففوجئ باندفاعه غير المدروس نحوه، فهتف في ارتياع، وهو يحاول السيطرة على حوامته بسرعة:
- اللعنة! كيف؟!
ولم يكتمل هتافه أبدا
فالمسافة التي تفصله عن زميله كانت قليلة للغاية بل أقل مما ينبغي..
لقد جذب عصا القيادة بكل قوته وكذلك فعل زميله ولكن غياب التناسق بينهما، اشترك مع حالة الذعر والتوتر، وامتزجا معا بعامل المفاجأة والانفعال، فاندفع كلاهما نحو الآخر بدلاً من أن ينخفض أحدهما ويرتفع الآخر، كما كان ينبغي وأمام عيني زميلهما الثالث، ارتطمت الحوامتان وتحطمت مراوحهما في عنف وتطايرتا على نحو مخيف ثم هوتا معا في سرعة..
وارتطما بالصخور الزرقاء الضخمة وكان الانفجار رهيبا..

رهيبًا بحق..
انفجار سحق الحوامتين تماما، وارتفعت معه كرة هائلة من اللهب، أضاءت سماء الليل المظلمة، وجعلت الصبي يهتف مبهورا مبهوتا:
- رباه.. لقد سقطتا.. لقد انتصرت عليهم.
أجابه الفارس، وهو يواصل انطلاقه، عبر الأرض الواسعة التي تنتشر فيها الصخور الزرقاء الحادة:
- درس آخر، ينبغي أن تتعلمه يا فتى.. لا تفرح بالنصر، قبل أن تظفر به فعلاً، فأضعف اللحظات بالفعل، هي التي تتملكك فيها نشوة النصر، فتتجاوز حذرك، وتهمل أمنك وسلامتك، وتمنح عدوك فرصة الانقضاض عليك، واستعادة النصر منك، في دقائق قليلة بدا الصبي مبهورا، وهو يغمغم:
- هل يمكن أن يحدث هذا حقا؟!
أجابه الفارس، وهو يثب بجواده العجيب، عبر شق كبير في الأرض:
نكرني أن أقص عليك يوما قصة (طروادة)، والجواد الخشبي الذي انتزع منها أمنها ونصرها. ([1])
ارتجف صوت الصبي، وهو يقول في رعب:
- جواد خشبي، أم حوامة قاتلة؟
ومع قوله، رفع الفارس عينيه إلى أعلى، ووقع بصره على الحوامة الثالثة..
الحوامة، التي أطلقت أحد صواريخها القوية نحوه مباشرة..
ومع الزاوية التي ينطلق بها، كان أي انحراف، إلى اليمين أو اليسار، غير كاف للإفلات من الانفجار..
غير كاف على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

لم يستطع رئيس الأمن كتمان توتره الملحوظ، وهو يشد قامته في وقفة عسكرية عصبية، داخل كابينة الأمن، عند مدخل مقر زعيم المتحورين، وسمع ذلك الصوت الآلي البارد، وهو يقول:
- اكتم أنفاسك لنصف الدقيقة، حتى يتم التحقق من الشخصية تماما..
بصماته..
درجة حرارية..
توزيع مسامه العرقية..
كتم رئيس الأمن أنفاسه في قوة، في نفس اللحظة التي انبعثت فيها مجموعة من خيوط الليزر الفاحصة، من عدة أماكن داخل الكابينة، وراحت تفحص كل مكان في جسده بسرعة مواصفاته الجسدية ملامحه..
وأخيرا نقوش قزحيته، ودرجة لونها حتى وقبل أن تكتمل نصف الدقيقة، انبعث ذلك الصوت الآلي البارد مرة أخرى، وهو يقول:
- تم التحقق من الشخصية.. رئيس دائرة الأمن.. يمكنك الدخول..
مع نهاية العبارة، انفتح الباب الخلفي من الكابينة، والمطل على قاعة الزعيم مباشرة، فالتقط رئيس الأمن نفسا عميقا، وحاول أن يخفف به من توتره، وهو يعبر القاعة في خطوات واسعة سريعة، قبل أن يقف أمام الزعيم، الذي واصل العبث بذلك الجسم شبه المطاطي، وهو يرمقه بنظرة صارمة مخيفة، جعلته يتساءل في عصبية:
- لماذا طلبت مقابلتي فورا أيها الزعيم؟!
أجابه الزعيم، بصوته الخشن الجاف:
- رجالك فاشلون-
انعقد حاجبا رئيس الأمن، وهو يتساءل في قلق:

- ولماذا أيها الزعيم؟!
مال الزعيم إلى الأمام، وهو يقول، في لهجة وحشية قاسية:
- حواماتهم ارتطمت ببعضها البعض، وسقطت في الوادي الأزرق..
واتسعت عينا رئيس الأمن عن آخرهما، وهو يحدق فيه بكل ذهول الدنيا..
فسقوط الحوامتين حدث منذ ثوان قليلة، قبيل استدعائه مباشرة!!
بل لقد بلغه الخبر، من قائد الحوامة الثالثة، في نفس الوقت، الذي استدعاه فيه الزعيم تقريبا!!
فكيف علم بالأمر؟!
كيف أدركه، بهذه السرعة المذهلة؟!
كيف؟!
«إنك لا تحسن اختيار رجالك»
انتزعه الزعيم بعبارته الوحشية من ذهوله، فسعل مع توتره، وحاول أن يشد قامته مرة أخرى، وهو يقول:
- لقد سقطت حوامتان فحسب أيها الزعيم.. والثالثة ما زالت تطارده، وقائدها هو أفضل مقاتلينا على الإطلاق..
مال الزعيم على عرشه أكثر وأكثر، وهو يقول:
- وماذا عنك؟!
نطقها بقدر هائل من الوحشية، جعل برودة قاسية تسري في أطراف رئيس الأمن، وهو يتساءل:
- ماذا عنى؟! ماذا تعني أيها الزعيم؟!
نهض الزعيم من عرشه بحركة حادة، انتفض معها جسد رئيس الأمن، وتراجع بحركة حادة، امتزجت بصوت الزعيم الوحشي الجاف، وهو يقول:

- إنني أتساءل: ماذا عنك؟! أأنت أيضا أفضل مقاتلينا.. أم أنك لا تستحق المنصب، الذي منحتك إياه؟!
كان يهبط درجات عرشه، وهو ينطق كلماته، فتراجع رئيس الأمن أكثر وأكثر، وهو يغمغم:
- إنني.. إنني أخدمك بمنتهى الإخلاص أيها الزعيم..
عقد الزعيم كفيه خلف ظهره، وهو يدور حوله، ويرميه بنظرات نارية وحشية، قائلاً:
- وماذا عن الكفاءة؟! هل تتصور أن الإخلاص وحده يكفيني؟!
تضاعفت عصبية رئيس الأمن، وهو يقول:
- كفاءتى ليست موضع شك أيها الزعيم..
قال الزعيم، في بطء وحشي مخيف:
- حقا؟!
تحفزت كل حواس وغرائز رئيس الأمن، وخيل إليه أن رائحة وحشية مخيفة تنبعث من الزعيم، الذي واصل دوراته حوله، في حركة لا توحي بالارتياح أبدا، فارتفعت حرارة الدماء في عروقه، وبرزت أنيابه ومخالبه، على الرغم من محاولته كبحهما، و..
وهنا، انطلقت زمجرة وحشية من الزعيم، وهو يبتسم ابتسامة مخيفة، برزت خلالها أنيابه الطويلة، على نحو جعله أشبه بوحش مفترس، وخاصة عندما تطلع إلى وريد عنق رئيس الأمن، قائلاً:
آه.. مشاعرك تبدو عدوانية يا رجل..
أجابه رئيس الأمن، في عصبية أكثر:
ومشاعرك أيضا أيها الزعيم..
بعد قوله، ران على القاعة الرخامية صمت رهيب،، وتوقف الزعيم عن الدوران حوله، وتطلع في اهتمام أكثر إلى وريده العنقي، وانبعثت منه تلك الرائحة الوحشية الفواحة، و..

وفجأة، انقض على رئيس الأمن واستدار هذا الأخير لمواجهته، في عنف شرس وحشي..
ولثوان، انطلقت داخل القاعة الرخامية الواسعة زمجرات رهيبة، وأصوات أشبه بعواء الذئاب، أو خوار الثيران، وامتزج كل هذا بصرخات ألم قوية وتفجرت الدماء بمنتهى العنف..
وفي صرامة وحشية، نهض الزعيم، ومسح الدماء عن فمه بحركة حادة، قبل أن يقول في شراسة:
- كان ينبغي أن تنسحب، عندما كان هذا متاحا..
وفي هدوء شديد، عاد إلى عرشه المرتفع، وأنيابه ومخالبه تقصر وتعود إلى شكلها الطبيعي، وما إن استقر على العرش الضخم حتى ضغط زرا أمامه، فأضيئت شاشة كبيرة، ظهرت عليها صورة كبير معاونيه، فأشار بيده، وهو يقول له في لهجة آمرة صارمة:
- أظننا سنحتاج إلى رئيس أمن جديد؟
أجابه كبير المعاونين في سرعة:
- إنه ينتظر أوامرك ببدء عمله أيها الزعيم..
زمجر الزعيم، قائلاً:
- فليبدأ فورا.. ليس لدينا وقت نضيعه..
أجاب كبير المعاونين في امتثال:
- أمرك أيها الزعيم.
أوما الزعيم برأسه في زهو، ثم ألقى نظرة لا مبالية، على جثة رئيس أمنه السابق، الغارقة وسط بركة من الدم، وقال في سخرية:
- أرسل أيضا من ينظف القاعة
التقط نفسا عميقا، قبل أن يتابع بنفس السخرية:
فأنا أبغض رؤية الدماء.

قالها، وأطلق ضحكة عالية قوية ضحكة تموج بالسخرية والشراسة..
والوحشية..
بلا حدود..

☆ ☆ ☆

وفقا لكل القواعد القتالية المعروفة، وللمسار الذي يتخذه الفارس وجواده، والزاوية التي تنقض بها الحوامة الأخيرة، كان من المستحيل تماما أن يخطئ المقاتل المتحول هدفه لقد استنفر كل قوته وخبراته، ودار دورة صامتة واسعة، في سماء المعركة، ثم هبط بزاوية حادة مباشرة، وكشف الغطاء عن زر إطلاق صاروخه الوحيد، وأحكم التصويب على الهدف وغمغم في شراسة:
- فلنر كيف تنجو هذه المرة، أيها الفارس المتحذلق..
ولأنه واثق تماما من الفوز هذه المرة، فقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة، وهو يضغط زر إطلاق الصاروخ، و..
وهنا فقط، تحرك الفارس..
كان الصبي يتوقع منه أن يدفع جواده الخاص إلى وثبة قوية، تنافس تلك التي نجا بها من الممر ولكن الفارس كان يخطط لدفاع مختلف.. مختلف تماما..
ففي اللحظة المناسبة تماما، مال على عنق جواده، وضغطه براحته، دون أن ينبس ببنت شفة..
وانطلقت من حلق الصبي شهقة أخرى..
شهقة أكثر قوة..
وأكثر انبهارا..
ألف مرة..

فمع ضغطة الفارس على العنق، برز من جانبي الجواد جناحان صغيران، تمددا وانفردا في سرعة، ثم رفرفا في قوة؛ ليحملاه مع راكبيه عاليا في سماء المعركة..
وبكل ذهول الدنيا، وفي نفس اللحظة، التي انطلق فيها صاروخه، هتف قائد الحوامة الأخيرة في ذهول:
- مستحيل!
ومع آخر حروف هتافه، ارتطم الصاروخ بالأرض..
ودوى الانفجار..
انفجار قوى، عنيف، رهيب، لم تكد نيرانه ترتفع، حتى بدا وكأن الفارس وجواده يقتحمانها في بسالة، وينقضان منها على الحوامة مباشرة واتسعت عينا قائد الحوامة في ذهول وانفغر فاهه في انبهار وأطلق الفارس مسدسه الليزري..
أطلقه على المروحة العلوية للحوامة، فتحطم أحد أطرافها. وطار بعيدا، ليرتطم بالجبال القريبة، في نفس اللحظة التي راحت فيها الحوامة تهوى..
وتهوى.
وتهوى..
وبكل ما يملك من قوة ومهارة، راح قائد الحوامة يتعامل معها، ويقاتل للسيطرة عليها، حتى لا ترتطم بالأرض في عنف..
ومن بعيد، وعلى متن الجواد، الذي يحلق في السماء، مبتعدا عن المنطقة، رأى الصبي الهليوكوبتر ترتطم بالأرض، في عنف محدود، ويتحطم جانبها، دون أن تنفجر، فغمغم مبهورا:
- سيدى. لك أسلوب فريد في القتال، وهذا الجواد أشبه..
بدا لحظة وكأنه يحار في البحث عن الوصف المناسب، قبل أن يندفع، هاتفا بكل انبهاره:
- بالمعجزة!

أجابه الفارس في هدوء، وهو يهبط بجواده، في منطقة جبلية أخرى:
- لا توجد معجزات في زمننا هذا يا فتى
هتف الصبي:
- بعد كل ما رأيته، لا يمكنك إقناعي بهذا أبدا.. لقد روى لي جدى روايات عن الجياد الطائرة، وأكد لي أنها كلها مجرد أساطير لا صلة لها بالواقع.. وها أنا ذا أراها.. بل وأمتطى أحدها بالفعل كيف ترفض - بعد كل هذا - تسمية ما يحدث بالمعجزة؟!
أجابه الفارس في حزم، وجواده يستقر على الأرض:
- هناك دوما تفسير علمي، لكل ما يبدو لك كالمعجزة، في هذه الأزمنة الحديثة..
تطلع الفتي في انبهار، إلى جناحي الجواد، اللذين عادا ينكمشان مع هبوطه، ويختفيان في صدره القوى، وهو يتساءل:
- وما تفسير هذه الأمور المذهلة؟!
ولم يجب الفارس تساؤله..
فلسبب ما انعقد حاجباه في شدة، وبدا عليه توتر عجيب،
وهو يحدق في الفراغ، بنظرة هوى لها قلب الصبي بين قدميه وبمنتهى العنف..

☆ ☆ ☆

٢ - المذبحة..

مع سقوط الحوامة الأخيرة وتحطمها، انطفأت آخر شاشة رصد، مثبتة في عرش زعيم المتحولين، فانعقد حاجباه الكثان في شدة، وانطلقت من حلقه زمجرة وحشية، قبل أن يقول في خشونة:

- أغبياء..

ضغط زر إلغاء الاستقبال، عبر الكاميرات، التي تم تثبيتها في مقدمة الحوامات، وهو يتابع في غضب:

- فارس واحد، على متن جواد طائر، أصابهم جميعا بالذعر والارتباك..

ضغط أزرار استعادة المشاهد، وتراجع في عرشه، يتابع تفاصيل القتال، كما نقلتها إليه آلات التصوير الخفية، التي يضيفها إلى كل الحوامات المقاتلة في جيشه، دون علم قادته أنفسهم، وأوقف العرض مرتين، عند مشهد وثوب ذلك الجواد عبر الصخور، وطيرانه بجناحيه الكبيرين، في مواجهة الحوامة الأخيرة ولدقائق، راح يستعيد المشهدين مرة.

وثانية..

وثالثة..

ورابعة..

وفي النهاية، راح يحك نقنه بمخالبه في عصبية، وهو يغمغم:

- جواد مدهش بحق.. ولكن كيف حصل عليه ذلك الفارس؟!

كيف ظفر بتحفة فنية مثله؟!

اعتدل على عرشه، وهو يفكر في عمق شديد وعلى نحو ما، تألقت عيناه، وانبعثت منه تلك الرائحة الوحشية الرهيبة..

انبعثت..
وانبعثت..
وانبعثت..
ثم فجأة، استدار يضغط زر الاتصال الداخلي، وهو يغمغم في وحشية:
- ما زال ذلك الفارس يعاني من نقطة ضعف.. نقطة ضعف خطيرة للغاية..
ظهر وجه كبير معاونيه على الشاشة، وهو يقول:
- أوامرك أيها الزعيم
مال الزعيم نحو شاشة الاتصال، وتألقت عيناه في وحشية رهيبة، وهو يقول:
- استنفر القوات كلها.. سنشن هجوما شاملاً
سأله كبير معاونيه في اهتمام:
- والهدف أيها الزعيم؟
صمت الزعيم لحظة، ثم أجاب بكل وحشية الدنيا:
البشر
ثم عاد يطلق تلك الضحكة الرهيبة الضحكة العالية المجلجلة والوحشية.

☆ ☆ ☆

يا للبشاعة!
هتف الفارس بالعبارة في توتر شديد، مخفق قلب الصبي في ارتياع، وهو يهتف به:
- ماذا هناك؟! هل تشعر بهجوم جديد؟!
إلا أنه لم يلبث أن أحجم عن هذا، وعاد يجذب عنان جواده، قائلا في صرامة شديدة:
تشبث جيدا.

هتف به الصبي في ارتياع:
- إلى أين؟
صاح به في صرامة، امتزجت بالكثير من الحزم هذه المرة:
- سنبتعد عن هنا بقدر الإمكان
هتف الصبي:
- ولماذا؟! عشيرتي في الجانب الآخر
انعقد حاجبا الفارس في شدة، وهو يحث جواده العجيب على الانطلاق بسرعة أكبر
وأكبر..
وأكبر..
وارتجف قلب الصبي بين ضلوعه في عنف فصمت الفارس كان يعني أن الأمر خطير..
خطير إلى أقصى حد..
ثم أن السرعة، التي يطلق جواده بها، فوق الوادي الأزرق، كانت توحي بأنه هناك خطر داهم، يسعى للابتعاد عنه لأكبر مسافة ممكنة وبأقصى سرعة..
ولم يكن من الممكن أبدا أن يكتفى الصبي بهذا الصمت، لذا فقد صاح في إصرار عصبي:
- ماذا سيحدث؟!. مم نفر بهذه السرعة؟!
ومرة أخرى، لاذ الفارس بالصمت المطبق، وحث جواده على الإسراع أكثر
وأكثر
وأكثر
كان يدرك أن الخطر قادم من خلفهما وبأقصى سرعة أيضا
ومرة ثالثة، صرخ الصبي:
- ماذا سيحدث؟!

وقبل حتى أن تكتمل صرخته هذه المرة، دوى الانفجار انفجار بدأ مكتوما، وارتجت معه الأرض كلها بمنتهى العنف، ثم أضيئت السماء كلها بعمود هائل من النار، ارتفع من موقع الجبال، التي تحتلها عشيرة الصبي، قبل أن تتكون في قمة العمود كرة مخيفة من اللهب، راحت تمتد..

وتمتد..

وتمتد..

وعندما أدار الصبي رأسه إلى الخلف، انتفضت كل ذرة من كيانه وبمنتهى العنف فكل ما وقع بصره عليه، وسط الوهج الرهيب، هو كرة من اللهب، تتجه نحوهما بسرعة مخيفة..

أما الموضع، الذي كانت تحتله جبال عشيرته، فكان يقع في قلب الوهج.

في قلبه تماما..

وبكل الأسى، واللوعة، والرعب، والمرارة، صرخ الصبي..

صرخ..

وصرخ..

وصرخ..

أما الفارس، فقد أدرك أن النيران تندفع نحوهما، فحث جواده على الإسراع أكثر وأكثر، ثم لم يلبث أن مال على عنقه، وضغطه في قوة، وهو يهتف في انفعال:

- هيا يا صديقي.. هيا..

ومع ضغطته، برز جناحا الجواد، وامتدا، وبدأ أشبه بطائر هائل عملاق، وهو يحلق عاليا، والصبي يهتف في مرارة:

- أهلي! عشيرتي.. ماذا أصابهم؟! ماذا أصابهم؟!

ومع تلك الغصة المريرة في حلقه، لم ينبس الفارس ببنت شفة، وهو يستحث جواده على التحليق أكثر وأكثر؛ للإفلات من كتلة

اللهب الهائلة، التي تمتد في سرعة مخيفة، حتى أنهم باتوا يشعرون بلفحاتها ولأن الجواد من نوع خاص جذا، فقد راح يضرب الهواء بجناحيه بمنتهى القوة، ويبتعد..
ويبتعد..
ويبتعد..
وامتزجت دموع الصبي بذلك العرق الغزير، الذي غمر وجهه، وجسده كله، مع لفح النيران، وراح يبكي وينتحب، ويغلق عينيه في قوة، وكأنما يحاول إبعاد ذهنه عن ذلك المصير الرهيب، الذي لاقاه كل من يعرفهم ويحبهم..
أما الفارس، فقد تضاعفت في أعمق أعماقه كراهية المتحولين تضاعفت ألف مرة..

فبلا ذرة واحدة من الرحمة أو الشفقة، أعادوا استخدام أسلحة التدمير الشامل، التي أوصلت العالم إلى ما هو عليه الآن؛
ليبيدوا عشيرة بأكملها..
إبادة تامة، وحشية، رهيبة، سحقت نصف الجبل على الأقل، ورفعت درجة حرارة صخوره إلى آلاف الدرجات المئوية، بحيث لا تصلح لإيواء أي كائن حي، على الإطلاق..
صحيح أنهم قد استخدموا قنابل غير مشعة، إلا أنها تؤدى إلى قوة تدميرية رهيبة
رهيبة إلى أقصى حد..
وتلك الكرة من اللهب، التي تطاردهم في شراسة، هي أكبر دليل على هذا الكرة التي جعلت جسده كله يتصبب عرقا.. وتوترا.. و.. تشبث جيدا!
هتف الفارس بالعبارة، وهو ينخفض بجواده المجنح فجأة، وكرة اللهب تواصل امتدادها وتنقض..

وتنقض..
وتنقض..
ومع كل المشاعر المتضاربة في أعماقه، راح الفتى يصرخ:
- عشيرتي! لماذا فعلوا هذا بعشيرتي؟! لماذا؟! لماذا؟!
عض الفارس شفته السفلى، وهو لا يدري بم يجيب الصبي فالجواب الوحيد هو أنهم يواجهون خصوما من نوع خاص نوع قاس وحشي..
مفترس.
خصوم هم نتاج تحولات وتحورات جينية، عبر جيلين من البشر، نشئوا في عالم شمله التلوث النووي حتى النخاع خصوم يحملون هيئة شبه بشرية وأعماق حيوانية أعماق وحشية مفترسة.
خصوم، لا تحوي قلوبهم ذرة واحدة من الآدمية أو الرحمة أو الشفقة..
فقط الأنانية، والعنف، والشهوة، الرغبة في التفوق والاستحواذ وبأي ثمن
ولأنهم كذلك، ولأنهم خسروا معركتهم معه، في هذه البقعة من الوادي الأزرق المنبوذ، كما يطلقون عليه، فقد عاقبوا المنطقة كلها، بكل ما فيها ومن فيها بالفناء الفناء التام وبمنتهى العنف..
وفي أعمق أعماقه، شعر وكأنه مسئول عما حدث..
مسئول عن هذه المذبحة الرهيبة
مسئول عن فناء أهل الصبي..
وأقاربه..
وعشيرته..
عشيرته كلها..
وبكل ما يعتمل في أعماقه، هتف:

- سيدفعون الثمن
وانخفض بجواده أكثر، وأكثر. وتضاعف لفح النيران وصرخ الصبي صرخ بكل المرارة، والخوف، والفزع، والرعب ثم جذب الفارس عنان جواده..
وانحرف الجواد المجنح نحو جبل هائل آخر وامتدت كرة اللهب أكثر وأطلق الصبي صرخة أخيرة، قبل أن يفقد الوعي من شدة الرعب..
وبعدها، غمرت كرة اللهب المنطقة..
المنطقة كلها بلا استثناء..

☆ ☆ ☆

تألقت عينا زعيم المتحولين، في جذل وحشي عجيب، وهو يطالع على شاشته ذلك الانفجار الرهيب، الذي سحق الجبل سحقا، وأفنى كل ما فيه ومن فيه في لحظات، وارتسمت على شفتيه ابتسامة جعلته أشبه بوحش مفترس، وهو يراقب امتداد كرة اللهب، التي غمرت المنطقة كلها بلا استثناء، قبل أن يقول لقائد أمنه الجديد:
- هل رصدتم المنطقة بعد الانفجار؟!
أومأ قائد الأمن الجديد برأسه إيجابا، وقال في حزم:
- الفناء امتد في دائرة قطرها ستة كيلو مترات أيها الزعيم، ومن المستحيل أن يبقى مخلوق واحد على قيد الحياة، في المنطقة كلها، بعد ما حدث، ولكن..
بتر عبارته بغتة، في تردد شديد، فانعقد حاجبا الزعيم في غلظة، وهو يسأله:
- ولكن ماذا؟!
تردد قائد الأمن الجديد بضع لحظات أخرى، قبل أن يحسم أمره، ويندفع، قائلاً:

- ولكن العسكريين يعترضون على استخدام قنبلة كهذه، في عملية محدودة النتائج؛ لأن مخزوننا من القنابل الشاملة محدود للغاية، ولم تعد لدينا الطاقة الكافية؛ لإنتاج المزيد منها..

تراجع الزعيم في عرشه الضخم، ولوح بذراعه، قائلاً في ازدراء:

- هؤلاء العسكريون أغبياء

ارتبك قائد الأمن، ولم يحر جوابا، فتابع الزعيم في مزيج من السخرية والاشمئزاز:

- يتصورون أنهم على دراية بكل شيء، في حين أنهم حمقى في كل ما لا يتعلق بالعسكرية الصرفة..

تردد قائد الأمن لحظة أخرى، قبل أن يقول في حذر زائد:

- ربما يخشون أن

قاطعه الزعيم، وهو يتابع، وكأنه لم يسمعه:

- ذلك الفارس، الذي كبدنا عشرات الهزائم من قبل، ظهر لأول مرة، وكشف لنا نقاط قوته، ونقاط ضعفه أيضا.. ومن أبرز ما كشفه، هو أنه يعاني من نقطة ضعف كبيرة، تجاه البشر، الذي يتكبد ويتجشم الكثير، في سبيل حمايتهم وإنقاذهم..

ثم اعتدل بحركة حادة، وتألقت عيناه ببريق مخيف، وهو يضيف:

- وبضربتنا هذه، أصبنا نقطة ضعفه في مقتل

غمغم قائد الأمن الجديد في حذر أكثر:

- لقد أفنينا عشيرة بأكملها..

أشار الزعيم بيده، هاتفا في انفعال:

- وسيدفعه هذا إلى التيقن من أننا قادرون على إبادة عشائر أخرى وأخرى، بل وعلى إفناء كافة البشر لو أردنا..

هم قائد الأمن الجديد بإبداء رأيه فيما حدث، إلا أنه استرجع ما أصاب سلفه، فآثر التراجع، وهو يقول:
- من المؤكد أنه كانت لديك رؤية مستقبلية، تفوق إدراكهم أيها الزعيم..
تألقت عينا الزعيم مرة أخرى، بذلك البريق المخيف، وهو يقول:
- بالطبع
ثم نهض من عرشه بغتة، حتى أن قائد الأمن تراجع في حركة عصبية، إلا أنه لاحظ أن الزعيم يكاد لا يشعر بوجوده، وهو يتابع، وكأنه يحدث نفسه:
- لو نجا من انفجار القنبلة البروتونية المحدودة، وأظنه قد فعل، فسيعي الدرس جيدا، وعندما نهدده بقتل وإفناء عشيرة أخرى، في المرة القادمة، سيوقن من أننا سنفعل، دون ذرة واحدة من التردد، ولن يكون أمامه عندئذ، سوى أن يمنحنا ما نريد..
هتف قائد الأمن في سرعة:
- حياته..
تضاعف بريق عيني الزعيم هذه المرة، وهو يجيب في لهفة وحشية عجيبة:
- بل جواده
خيل لقائد الأمن أن أذنيه لم تستوعبا الأمر جيدا، فتساءل في حذر مضاعف:
- جواده؟!
هتف الزعيم بكل اللهفة:
- نعم.. جواده الطائر.. جواده المجنح.. تلك التحفة الفنية، التي لا تحوي متاحفي كلها مثلها..

- هل أفنينا عشيّرة كاملة من أجل جواد؟!
كان قائد الأمن يرغب في إطلاق هذا التساؤل المستنكر المستهجن، بكل ما يملك من قوة، في وجه الزعيم، إلا أنه لم يستطع نطق حرف واحد منه، فكتمه في أعماقه تماما، وهو يحدق في وجهه، الذي حمل كل وحشية وانفعال الدنيا، مما جعل قائد الأمن الجديد يدرك أنه، وعلى الرغم من اشتراكه في العديد من الصفات الجينية المتحورة مع الزعيم، إلا أن هذا الأخير يعاني حتما من الجنون.. الجنون المطبق..

☆ ☆ ☆

اشتعلت النيران في كل مكان..
اشتعلت وتصاعدت..
والتهبت..
وتأججت..
وبكل رعب الدنيا، تلفت الصبي حوله..
النيران تحيط به من كل جانب..
صرخات أهله وعشيرته تصم أذنيه..
العذاب يسرى في كل مكان من جسده..
بل في كيانه كله..
المتحورون يحاصرونه، خلف حاجز النيران..
يبتسمون..
يسخرون..
يستهزءون..
ينتظرون أن تنقض عليه النيران، وتلتهمه بلا رحمة ولقد حاول هو أن يجد منفذا للفرار أي منفذ..
ولكن طوق النيران كان محكما إلى أقصى حد.
وكان يقترب..

ويقترب..
ويقترب..
وشعر الصبي بلفح النيران..
وصرخ.
وصرخ..
و..
واستيقظ
استيقظ وهو يلهث في قوة، وكأنما كان يعدو لمسافات طوال..

أما قلبه فكان يخفق بمنتهى القوة.
ومنتهى العنف..
وإلى أقصى مدى، اتسعت عيناه..
اتسعتا ليحدق بهما فيما حوله
في البداية، لم يستوعب الأمر كله؛ فقد كان يرقد داخل ما بدا له كقاعة واسعة، تحوي عشرات من شاشات الرصد، وعدد كبير من الأجهزة والمعدات، التي لم ير مثلها في حياته القصيرة قط..
وهناك، في نهاية القاعة، كان يقف ذلك الجواد الأبيض القوى، داخل مساحة أخرى كبيرة، يلتهم طعامه في هدوء وبساطة..
واعتدل الصبي جالسا، وهبط عن ذلك الفراش الصغير الوثير الذي يرقد فوقه، وراح يتحرك داخل القاعة في حذر، ويتطلع إلى شاشات الرصد في انبهار شديد..
فكل شاشة، كانت تنقل مشهدا لمنطقة مختلفة، من مناطق (الوادي الأزرق)، وبعضها ينقل مشاهد من حول المدينة الكبيرة وداخلها أيضا..

أما الآلات، فكانت كلها تعمل طوال الوقت؛ لتسجل بيانات وإحصاءات، وأرقاما، لم يفهمها الصبي أبدا..
- استيقظت أخيرا
انبعث الصوت من خلفه، فوثب من مكانه مذعورا، واستدار إلى ذلك الفارس، الذي منحه ابتسامة هادئة؛ كمحاولة لامتصاص توتره، قبل أن يتابع في مودة واضحة:
- إنك فاقد الوعي، منذ ما يقرب من عشر ساعات..
هتف الصبي بأنفاس مبهورة:
- عشر ساعات!
اقترب منه الفارس، وربت على كتفه، قائلاً:
- كنت في أمس الحاجة إلى هذا
تطلع إليه الصبي بضع لحظات، في احترام وتوقير شديدين، ثم تلفت حوله في انبهار، متسائلاً:
- ما هذا المكان بالضبط؟!
رفع الفارس عينيه بدوره، وأدارهما في المكان، قبل أن يجيب في هدوء، حمل لمحة واضحة من الزهو والارتياح:
- إنه منزلي
هتف الصبي، بأنفاس أكثر انبهارا:
- منزلك؟!
التقط الفارس يده في رفق، وقاده في هدوء إلى مقعدين قريبين، وهو يقول بابتسامة رقيقة:
- لا أعرف مستقرا سواه.
عاد الصبي يتلفت حوله مبهورا، وهو يغمغم:
- ولكن.. ولكنني لم أر شيئا مثله قط!
شرد الفارس ببصره بضع لحظات، قبل أن يقول:
- ما زال أمامك الكثير لتتعلمه

العبارة أعادت إلى ذهن الصبي ذكرى قريبة، فاكتسى وجهه بكل حزن الدنيا، وهو يخفض عينيه، مغمغما في مرارة:
وأسرتي وعشيرتي.. هل..
لم يستطع إكمال عبارته، مع المرارة التي أغلقت حلقه وأصابته بجفاف شديد، فالتفت إليه الفارس بنظرة متعاطفة مشفقة، ثم ربت على كتفه، قائلاً في خفوت:
- إنها حرب دائمة يا فتى.. بيننا وبينهم.. ولكل حرب ضحاياها
احتقن وجه الصبي بشدة، وحاول لبضع لحظات أن يكتم مشاعره، إلا أنه لم يلبث أن انفجر باكيا، وانهمرت دموعه في غزارة، لتغرق وجهه كله.. وفي صمت وتعاطف، راقبه الفارس، وربت على كتفه مرتين في حنان، تاركا له الفرصة كاملة لإفراغ عواطفه، التي استغرقت ما يقرب من نصف الساعة كاملة، قبل أن يجفف دموعه، قائلا بكل مرارة الدنيا:
- يا إلهي! كم سأفتقدهم
ربت عليه الفارس مرة أخرى، قائلاً في حزم:
- أعدك أن من فعلوا هذا سيدفعون الثمن
هز الصبي رأسه نفيا، وهو يقول بمرارته وحزنه:
- لا أحد يمكنه هزيمتهم، أو حتى الوصول إليهم.. إنهم يقيمون هناك، داخل تلك المدينة الكبيرة المضاءة، التي تحيط بها الأسوار العالية، والتي لا يدخلها سواهم، ويعود منها حيا أبدا..
تطلع إليه الفارس في حزم، قبل أن يقول في صرامة:
- تعلم هذا الدرس جيدا يا فتى.. عدوك قوى ومنيع، بقدر ما تعتبره أنت كذلك، أما لو قررت أن تقاومه، وعقدت العزم على هذا، فستجد فيه حتما نقطة ضعف.. بل نقاط ضعف، تصلح كل منها لتوجيه ضربة قاصمة إليه، وإضعافه، وزلزلة كيانه، حتى يمكنك أن تعد نفسك، وتنقض عليه في الوقت المناسب.

أشار الصبي إلى شاشة الرصد، التي تحمل صورة المدينة الكبيرة، وهو يتساءل في توتر:
- وهل تعتقد أن لهم نقاط ضعف؟!
شد الفارس قامته، مجيبا في حزم:
- الكمال لله سبحانه وتعالى وحده يا فتى.. كل مخلوق حي له حتما نقطة ضعف.. كل ما عليك هو أن تبحث عنها، وتكشفها، لتملك زمام أمره تماما..
هز الصبي رأسه، قائلاً:
- ربما من السهل عليك أن تقول هذا، فأنت تملك جوادا فريدا، وحاسة سادسة قوية، و..
قاطعه الفارس في دهشة:
- حاسة سادسة؟! من منحك هذا الانطباع.....
قال الصبي، في شيء من العصبية:
- لقد كنت تشعر بهجومهم طوال الوقت..
ابتسم الفارس، وهو يقول:
- سبق وأن أخبرتك أنه لكل ظاهرة تفسير علمي منطقي، وما بدا لك أشبه بحاسة إضافية خارقة، هو في واقعه أمر علمي تماما.
وحدق فيه الصبي بكل دهشة الدنيا فما فعله في اللحظة التالية كان مذهلاً..
مذهلا بحق وبكل المقاييس..

☆ ☆ ☆

داعب زعيم المتحولين ذقنه بمخالبه، في تفكير عميق، وهو يدير عينيه في الخريطة الكبيرة، لمنطقة الوادي الأزرق، قبل أن يسأل قائد أمنه الجديد:
- إذن فقد فحصتم المنطقة كلها، ولم تجدوا أدني أثر لذلك الفارس المجهول.. أليس كذلك؟!

شد قائد الأمن قامته، وهو يجيب:
- عندما تم التفجير، كان ينطلق على متن جواده الطائر، في سماء المنطقة، ولقد انتشر رجالنا في نطاق التدمير بأكمله وبحثوا تحت كل حجر، فلم يعثروا على أدنى أثر لجثته، أو جثة جواده العجيب هذا..
أوما الزعيم برأسه متفهما، وهو يتمتم:
- آه.. إذن فهو لم يمت.. تماما كما توقعت..
حاول قائد الأمن أن يقول شيئا ما، إلا أنه أشار إليه بالصمت، وهو يعاود التطلع إلى الخريطة الكبيرة، وعقله منشغل بتفكير أكثر عمقا، قبل أن يعتدل، قائلاً في صرامة شرسة:
- مع أقصى سرعة، يمكن أن يطير بها ذلك الجواد المجنح بحمله، لن يمكنه أبدا أن يخرج من دائرة التدمير، قبل أن تبلغه موجة الانفجار.. هذا يعني إذن أنه هنا..
ورسم بسبابته دائرة وهمية، حول منطقة جبال (الوادي الأزرق)، قبل أن يضيف:
ردد قائد الأمن في حذر:
- في مكان ما هنا
شد قائد الأمن قامته أكثر، وهو ينتظر أوامر زعيمه، الذي غرق في الصمت بضع لحظات أخرى، قبل أن يرفع رأسه، ويقول في شراسة:
سنحاصر المنطقة كلها، ونبحث عن وكره.
- وكره؟!
لوح الزعيم بيده، قائلاً بنفس الشراسة:
- نعم.. لديه وكر في تلك المنطقة حتما.. وكر لجأ إليه لاتقاء موجة التدمير.. وكر يحوي سر قوته..

وصمت دقيقة أخرى، لم يجرؤ قائد الأمن على مقاطعته خلالها بحرف واحد، ثم لم يلبث أن قال بمنتهى الشراسة:
- سنحاصر المنطقة، وتنبش كل شبر منها.. أريد كتيبة من النهاريين، الذين يمكنهم احتمال ضوء وحرارة الشمس، وثلاث كتائب من قواتنا الخاصة.. لا أريد منحه ثغرة واحدة للفرار..
أراد قائد الأمن أن يشير إلى قدرة جواد الفارس على الطيران، إلا أنه خشي إغضاب الزعيم، فآثر الصمت، واكتفى بالاستماع إليه، وهو يضيف:
- سأدفع مائة ألف قطعة ذهبية، لمن يأتيني برأس ذلك الفارس المجهول.. وخمسمائة ألف قطعة، لمن يأتي بجواده الطائر حيا..
وتألقت عيناه على نحو مخيف، وهو يضيف:
- أريد ذلك الجواد حقا.. أريده بأي ثمن..
وتألقت عيناه أكثر..
وأكثر..
وأكثر..

☆ ☆ ☆

اتسعت عينا الصبي عن آخرهما، بمنتهى الدهشة والتوتر عندما انتزع الفارس أذنه اليسرى، ووضعها أمام عينيه، قائلاً في هدوء:
- انظر إليها جيدا
شعر الصبي بقشعريرة باردة كالثلج، تسري في أوصاله، وهو يحدق في تلك الأذن، التي استقرت في راحة الفارس لم تكن أذنا حقيقية، كما تبدو للوهلة الأولى، وإنما جهازا إلكترونيا، يشبهها تمام الشبه، ويتصل بعدد من الأسلاك الدقيقة، وتتراص داخله وحدات بالغة الصغر، ابتسم الفارس، وهو يشير إليها، قائلاً:

- لقد فقدت أذني، في معركة مع أولئك المتحورين، منذ عدة أعوام، فاستبدلتها بهذه القطعة الإلكترونية، التي تحوى أجهزة استقبال خاصة، قمت بضبطها على موجات اتصال قوات المتحورين..

هتف الصبي مبهورا:

- كنت إذن تلتقط اتصالاتهم وخططهم طوال الوقت..

ابتسم الفارس، قائلاً:

- بالضبط

وفي هدوء، أعاد الأذن الصناعية إلى موضعها، مضيفا:

- الأذن الخارجية في واقعها مجرد حلية ووسيلة حماية للأذن الداخلية، التي تحوي أجهزة السمع الربانية الحقيقية، وكل ما فعلته هو أن صنعت شكلا خداعيا، واستفدت بمميزات إضافية، ليس من السهل أن يدركها العدو..

ظل الصبي يحدق فيه مبهورا بعض الوقت، فربت على كتفه في حنان، قائلا:

- هذه حقيقة، ينبغي أن تدركها وتتعلمها جيدا يا فتى.. كل شيء له تفسير علمي ومنطقي، مهما بدا غامضا ومبهرا وعجيبا.. كل شيء بلا استثناء..

حمل صوت الصبي كل انبهاره ولهفته، وهو يقول:

- وصور المدينة الكبيرة.. كيف حصلت عليها؟!

ابتسم الفارس، وهو يقول:

- إنها أجهزة رصد قوية.. سالقتك كل هذا، فادخر دهشتك لما بعد..

تضاعف انبهار الصبي ولهفته، وهو يهتف:

- هل ستلقنني كل هذا حقا؟!

التقط الفارس نفسا عميقا، وهو يتطلع إليه مباشرة، قبل أن يمد يده إليه، ويقوده إلى منطقة جلوس قريبة، ثم يلتفت إليه، قائلاً:
- المواجهة مع أولئك المتحورين ليست سهلة أو بسيطة يا فتى، ولقد استغرقت سنوات طوال فيما مضى، وستستغرق سنوات عديدة تالية.. والأمر يحتاج دوما إلى مقاتل يؤمن بضرورة أن تستمر البشرية الحقيقية، وحتمية أن ينمو الإنسان ويتطور بآدميته، ومشاعره، وكل الحب الذي يملأ قلبه، ويدفعه دوما للتقدم والنماء..
ووضع يده على كتفه:
- يجب أن يبقى الإيمان في القلوب، حتى يعلن الخالق عز وجل فناء الكون كله، ومولد يوم البعث والحساب
هز الصبي رأسه، متمتما:
تتحدث تماما كما كان يفعل أبوي..
مال الفارس نحوه، وسأله في حنان دافق:
- بم أسمياك؟!
- (أمل)؟! اسمك (أمل)؟!
ازدرد الصبي لعابه، قبل أن يجيب، في شيء من الخفوت وكأنما يخشى لسبب ما الإفصاح عن اسمه:

ولأول مرة منذ التقيا، وثبت الدهشة إلى وجه الفارس، وهو يغمغم:
- (أمل).
أوما الصبي برأسه في حيرة، متمتما:
- أجل يا سيدي.. والداى اسمياني كذلك.. قال: إن هذا فأل حسن للأيام القادمة!

نهض الفارس، واتجه نحو منطقته الخاصة، ووقف يتطلع إلى الصبي بضع لحظات في شرود، قبل أن يغمغم:
- إنه كذلك بالفعل
كان من الواضح أن ذهنه يدور حول أمر ما، يحاول حسمه تماما، وهو يتطلع إلى الصبي مباشرة، و..
وفجأة، انطلق أزيز حاد داخل المكان..
أزيز، انتفض له جسد الصبي في عنف، واستدار معه الفارس بحركة حادة حاسمة، نحو شاشات الرصد، قبل أن ينعقد حاجباه في شدة..
فهناك، على إحدى شاشات الرصد، بدا اثنان من المتحورين يخفيان وجهيهما بخوذتين داكنتين منيعتين، ويتحركان في حذر متحفز، داخل الممر الذي يقود إلى مكمن الفارس..
وبكل الرعب، هتف الصبي:
- إنهما.. إنهما في طريقهما إلينا..
انطلق هتافه، وهو يحدق مذعورا في السلاحين القاتلين الضخمين، اللذين يحملهما المتحوران، فأشار إليه الفارس إشارة صارمة قائلاً في حزم:
- الوصول إلى هنا ليس بالأمر السهل
ثم وضع سبابته على شفتيه، مضيفا بصوت هامس:
- فقط لا تدعهما يسمعانك
حبس الصبي أنفاسه تماما، وهو يتابع حركة المتحورين عبر الممر، على شاشة الرصد الكبيرة، وعقله ما زال يتساءل: ترى هل يمكنهما الوصول إلى هذا الوكر العجيب؟!
هل؟!
وفي الممر، تحرك المتحورين بمنتهى الحذر والتحفز، وأحدهما يغمغم:

- لا شيء هنا يوحي بوجود أي مخلوق حي..
زمجر الآخر، قائلاً:
لا تعتمد على حواسك.. هذا ما أمرنا به القائد..
مط الأول شفتيه الغليظتين، وهو يتمتم:
- فليكن
قالها، وأخرج من جعبته جهازا صغيرا، له شاشة تحتل نصف مساحته تقريبا، وضغط أزراره في سرعة، قبل أن يتطلع إلى شاشته بكل الشغف والاهتمام، وهو يواصل السير عبر الممر الطويل..
ومع جزعه، حاول الصبي أن يقول شيئا ما، إلا أن الفارس استوقفه بإشارة صارمة، وتحرك في خفة مدهشة؛ ليجذب ذراعا، قطعت التيار عن كل الأجهزة في المكان، الذي غرق في ظلام دامس، باستثناء ضوء أخضر باهت، ينبعث من مصباح ضخم، مثبت في السقف، وشاشة رصد واحدة، تنقل ما يدور في الممر..
وبنفس الخفة، دنا الفارس مرة أخرى من الصبي، وانحنى يهمس في أذنه:
- أجهزتهم بالغة الدقة
أوما الصبي برأسه، دلالة على الفهم، وواصل حبس أنفاسه، وهو يتابع حركة المتحورين عبر الممر، حتى بلغا نهايته الصخرية، فتمتم أحدهما في حنق:
- كنت أعلم أن هذا ما سيقودنا الأمر إليه!
زمجر الآخر، قائلاً:
- ليس بالضرورة أن نعثر على أي شيء.. إننا نبحث فحسب..
قال الأول في عصبية:
- الزعيم لن يرحمنا، لو عدنا إليه خاليي الوفاض..

عاد الآخر يزمجر، مجيبا:
ولن يرحمنا أيضا، لو عدنا إليه بما لا ينشده..
مط الأول شفتيه، واستدار يغادر المكان، وهو يغمغم في سخط:
- تمن أن نجد ما ينشده إذن.. وإلا
زمجر الآخر، دون أن يجيب، واستدار يتبع رفيقه بدوره..
وبكل توتر الدنيا، راقبهما الصبي، وهما يعودان عبر الممر، حتى بلغا مدخله، فانطلقت من أعمق أعماقه زفرة، كتمها في صدره طويلاً، وهو يهتف:
- حمدا لله
لم يكد ينطقها، حتى انعقد حاجبا الفارس في شدة، وتوقف المتحورين عند مدخل الممر دفعة واحدة، وحامل ذلك الجهاز الإلكتروني يهتف:
- مهلاً
استدار إليه زميله، في تساؤل متوتر، فأضاف في انفعال:
- هناك بشرى هنا
مال زميله، يلقي نظرة على شاشة الجهاز الصغير، التي ارتسمت فوقها منحنيات حادة، لها لون أحمر قان، قبل أن يشهر سلاحه في تحفز، ويدير عينيه فيما حوله في عصبية، هاتفاً:
- ولكن أين؟!
أدار الأول عينيه في المكان بدوره، قبل أن ينتزع جهاز الاتصال الخاص من حزامه، وهو يزمجر في وحشية، قائلاً:
- من الواضح أن هذا الأمر يتجاوز حدودنا منفردين..
قالها، ثم ضغط أزرار جهاز الاتصال، وهتف في صرامة عصبية:
- من المجموعة (ب) إلى القيادة.. تم رصد تواجد بشري غامض.. نريد إمدادات كافية.. وبأقصى سرعة..

ومع قوله، انعقد حاجبا الفارس في شدة..
أما الصبي، فقد هوى قلبه بين قدميه..
بمنتهى العنف..

☆ ☆ ☆

٣- كل الخطر..

- إنه هنا..
نطق زعيم المتحورين الكلمة في وحشية ظافرة، وهو يشير على الخريطة، إلى الموضع الذي يكمن فيه الفارس تقريبا، قبل أن يلتفت إلى قائد قواته، مستطردا:
- قنبلتنا محت كل صور الحياة، في تلك المنطقة، ولو أن رجالنا قد التقطوا موجة صوت بشرية، داخل أحد الممرات الجبلية، فهي لن تعود حتما لسواه..
أراد القائد أن يقترح شيئا.. أي شيء.. إلا أن معرفته الوثيقة بطبيعة زعيمه وجنونه، جعلته يكتفي بالقول:
- أوامرك أيها الزعيم
تألقت عينا الزعيم، وهو يقول في شراسة:
- أريد حصارا كاملاً.. رجال، وأسلحة، ومعدات رصد إليكترونية فائقة.. مر الرجال بالتحرك في نطاق متناقص، بحيث يحكمون الحصار عليه تماما في النهاية..
هتف القائد، متظاهرا بالحماس:
- حتى يستسلم..
رمقه الزعيم بنظرة استخفاف، ذاب لها جلده على جسده، قبل أن يقول في صرامة مخيفة:
- إنه لن يستسلم أبذا
وعاد يلتفت إلى الخريطة لحظة في صمت، ثم تابع في شراسة:
- طبيعته ستدفعه للقتال، حتى آخر رمق.. سيواجههم بصدر عار، إذا ما اقتضى الأمر، ولكنه لن يستسلم أبدا.
تطلع إليه القائد في حذر، وهو يسأل:

- وهل سيقاتلونه لو فعل؟!
أجابه الزعيم في سرعة، وهو يلتفت إليه بحركة حادة
- بل سيقتلونه
ثم رفع سبابته، مستطردا في شراسة:
- ولكن حذار أن يمسوا الجواد بسوء.
ومال نحو قائد أمنه، حتى شعر هذا الأخير بأنفاسه النارية ترتطم بوجهه، وهو يتابع في قسوة:
- أريده حيا.. سليما.. معافى.. وسأقتل كل من يصيبه بخدش واحد.. هل تفهم؟!
ازدرد القائد لعابه في صعوبة، وحاول أن يتجاوز الموقف كله إلا أنه خشي ما يمكن أن يسفر عنه هذا، فاستجمع شجاعته، وحاول أن يشد قامته، وهو يقول:
- معذرة أيها الزعيم، ولكنك بهذا تضع الرجال في مأزق حرج، و..

قاطعه الزعيم بزمجرة وحشية، وهو يهتف:
- ماذا تقول يا قائد الأمن؟! هل بدأت تخاذلك مبكرا أم ماذا؟!
امتقع وجه قائد الأمن، وحاول عبثا أن يشد قامته، وهو يتمتم:
مطلقا أيها الزعيم.. مطلقا
بدا له الزعيم أشبه بوحش كاسر عملاق، في تلك اللحظة بالتحديد، وهو يصرخ:
- نفذ الأوامر إذن..
هتف قائد الأمن، وكأنما يفرغ توتراته كلها في هتافه:
- كما تأمر أيها الزعيم.. كما تأمر..
قالها، واستدار على عقبيه، يغادر قاعة العرش، وعقله يتساءل بكل حيرة وتوتر الدنيا:
ترى إلى أين ستقودهم هذه الأوامر السخيفة؟!

إلى أين؟!..

☆ ☆ ☆

لم يعد هناك سوى حل واحد..
هذا ما دار في ذهن الفارس، وهو يراقب ما يحدث، حول الوكر الذي صنع بنفسه كل ركن فيه، واستقر داخله لسنوات وسنوات..
لقد حاصره المتحورون تماما..
المتحورون..
حاصروه برجالهم، وعتادهم..
وأجهزتهم الإلكترونية الدقيقة..
وفي كل ساعة تمضي، كان نطاق الحصار ينكمش..
وينكمش..
وينكمش..
وهذا يعني أنه لن يمضي يومان على الأكثر، حتى يكونوا قد كشفوا أمره، وتوصلوا إلى وكره، و..
سيقتلونه..
ويمزقونه..
تطلع في قلق إلى الصبي، وهو يتصور ما يمكن أن يصيبه، إذا ما ظفر به أولئك الوحوش، قساة القلوب، غلاظ المشاعر لن يمنحوه حتما ذرة واحدة من الرحمة أو الشفقة..
ويسحقونه سحقا..
ولا يمكنه أن يسمح بحدوث هذا أبدا....
إنه لا يدري لماذا يهمه أمر الصبي إلى هذا الحد؟! لماذا غزا قلبه، بضعفه ووهنه، كما لو أنه الابن، الذي لم ينجبه أبدا؟!
ما الذي وجده فيه؟!
ما الذي جذبه إليه؟!

أهي لمحة من أبوة افتقدها دوما؟!
أم هو شعور مستقبلي غامض؟!
رؤيا، رآها منذ عام أو يزيد، تربطه بصبي ضعيف صبي يتيم، فقد أسرته بل عشيرته كلها..
أم هو مزيج من هذا وذاك؟!
لا أحد يدري..
كل ما يعرفه، أنه هناك دافع غامض قوى، في أعمق أعماقه يدفعه لحماية هذا الصبي، والزود عنه، حتى آخر قطرة في دمه وآخر نفس يتردد في صدره..
وبكل انفعالاته هذه، أمسك كتف الصبي في قوة..
وفي مرارة وأسى بلا حدود، التفت إليه الصبي..
لم ينبس ببنت شفة، ولكن وجهه كان يحمل كل ما يعتمل ويلتهب في أعماقه.. الندم.....
الندم، وتأنيب الضمير، لأن عبارته كانت السبب في كل هذا السبب في كشف الأمر..
والحصار.....
والخطر المحيط بهما من كل جانب..
كل الخطر..
بلا استثناء.....
ولقد أدرك الفارس هذا على الفور، وهو يتطلع إلى دمعتين ساخنتين، انحدرتا على وجنتي الصبي، فمال نحوه، وهمس في أذنه، في حنان دافق:
- أتعشم أن تكون قد تعلمت الدرس هذه المرة..
تطلع إليه الصبي، في دهشة حائرة متوترة، فأضاف بنفس الهمس، مع ابتسامة هادئة متعاطفة:

- لا تفرح بانتصارك، أو تأمن لعدوك، إلا بعد أن يتحقق لك النصر الكامل عليه..
واتسعت ابتسامته الهادئة، وهو يداعب شعر الصبي، مضيفا:
- لقد تعجلت..
- لا تتسرع بالنتائج..
ثم رفع سبابته، مضيفا:
- وهذا درس جديد..
همس الصبي، وهو يخفض عينيه، وصوته يختنق بالبكاء:
- بل.. لقد أفسدت كل شيء
صمت الفارس بضع لحظات، ترك الفتى خلالها يفرغ دموعه وانفعالاته، قبل أن يربت على كتفه، هامسا:
وبكل الذعر، همس:
- ألن يرصدوا أحاديثنا هذه؟!
أشار الفارس إلى شاشة الرصد، وهو يقول:
- لقد رصدوها بالفعل..
لم يفهم الصبي ما يعنيه هذا، فاستدار يحدق في الفارس بحيرة قلقة، ثم ينقل بصره منه إلى شاشة الرصد الوحيدة الباقية والتي تنقل صورة كتيبة المتحورين، التي أحاطت بالجبل كله، وراحت ترصد كل حركة أو همسة داخله..
نطقها بصوته العادي، دون همس أو خفوت، فانتفض جسد الصبي، وأدار عينيه في هلع إلى الشاشة، التي نقلت صورة بعض ضباط المتحورين، وهم يراجعون شاشات أجهزتهم، ثم يهتفون بالجنود، للهجوم على الجبل، ثم لم يلبث أن هتف في ارتياع:
- وماذا سنفعل؟
أدهشه أن بدا الفارس شامخا قويا، وهو يتجه نحو أجهزته، قائلاً في صرامة:

- سنمنحهم ما يريدون
وصمت لحظة، ثم استدرك في حزم:
- وتذكر دوما، وإلى الأبد، أن الضرورات تبيح المحظورات..
فقط الضرورات.....
قالها، ودفع الذراع المعدنية، فعادت الأجهزة كلها تعمل دفعة واحدة، وانطلقت منها ذبذبات قوية، رصدتها الأجهزة الإلكترونية الدقيقة للمتحورين، فهتف أحد ضباطهم في انفعال:
- هنا.. إنه هنا.. أبلغوا القيادة.. سنشن الهجوم الشامل فورا
استعد الرجال كلهم بأسلحتهم، واندفعوا خلف قائدهم، الذي استرشد بجهاز رصد الذبذبات، وهو يلوح بمسدسه الليزري، صائحا في شراسة:
- من هنا.. أسرعوا
رآهم الصبي، على شاشة الرصد، يندفعون جميعا عبر الممر، فشهق هاتفا في ذعر:
- هل سنستسلم لهم؟!
أجابه الفارس بمنتهى الحزم
- الاستسلام لعدو بلا مبادئ أو أخلاقيات، أشبه بالانتحار الأكرم إذن أن تقاتل حتى آخر رمق..
سأله الصبي بأنفاس مبهورة:
- أهذا ما سنفعله؟!
التفت إليه الفارس بابتسامة هادئة، دون أن يجيب بحرف واحد، وهو يضغط زرا خفيا في الجدار، انزاح معه جزء منه، ليكشف فجوة كبيرة تختفي خلفه واتسعت عينا الصبي عن آخرهما فما رآه أمامه، خلف ذلك الجزء المنزاح من الجدار، كان أمرا لا يمكن أن يتوقعه على الإطلاق..
☆ ☆ ☆

بدت كلمات ضابط المتحورين أشبه بلهاث منفعل، وهو يتوقف أمام نهاية الممر، قائلاً:
- هنا.. إنه يختفي هنا
غمغم أحد رجاله في توتر:
- إنه جدار صخري أيها الضابط، ولا يمكن أن..
قاطعه الضابط، في صرامة غاضبة:
- إنه هنا.
ثم رفع الجهاز الإلكتروني من الصغير في راحته، ودفعه أمام عيني الجندي مباشرة، وهو يضيف في حدة:
- هذا ما تؤكده الأجهزة.. هل ستنكر نتائجها؟!
نقل الجندي بصره، بين الجدار الصخري، وشاشة الجهاز، التي ترسم مجموعة من المنحنيات العصبية المتداخلة، قبل أن يغمغم في توتر:
- كلا أيها القائد
المتحورون
وهنا، تراجع الضابط، وأشار إلى الجدار الصخري في حزم، هاتفا:
انسفوا هذا الجدار..
انعقد حاجبا الجندي في صرامة، وارتفعت فوهات سلاحه، وأسلحة رفاقه المحيطين به، نحو الجدار الصخري، الذي يخفى وكر الفارس وانطلقت أشعتهم المدمرة نحوه، و..
ودوى الانفجار.....
بمنتهى العنف..
طوال ما يقرب من سبع دقائق كاملة، لم ينبس زعيم المتحورين ببنت شفة، وهو يراقب شاشات الرصد، التي تنقل إليه ما يحدث هناك، في منطقة جبال (الوادي الأزرق)، حيث حاصرت قواته وكر الفارس، وانقضت عليه بمنتهى العنف كانت

الشاشة تنقل مشهد الجنود، الذين يقتحمون الممر، متجهين نحو ذلك الجدار الصخري في نهايته وفي تلك اللحظة بالذات، دخل قائد الأمن إلى قاعة العرش،
قائلا في حماس شديد:
مولاي الزعيم.. لقد حدد الرجال موقع ذلك الـ..
استوقفه الزعيم بإشارة صارمة من يده، قبل أن يشير بمخلبه إلى شاشة الرصد أمامه، والتي بهت القائد لمرآها، فتوقف يحدق فيها بضع لحظات، قبل أن يتنحنح، ثم يلوذ بالصمت التام وبمنتهى الاهتمام والانتباه، راح يتابع بدوره ما يحدث على كان الجنود يصوبون فوهات مدافعهم نحو الجدار الصخري، ويطلقون أشعتهم المدمرة ثم دوى الانفجار..
انفجار أعنف بكثير مما يمكن أن تحدثه مدافعهم ومما يمكن أن يحدثه انهيار ذلك الجدار الصخري مهما بلغ سمكه ومع دوى الانفجار، انتفض الزعيم في عنف على عرشه، ووثب قائد أمنه من مكانه، صائحا:
- ما هذا بالضبط؟!
بدا الزعيم شديد الغضب والثورة، وهو يضغط أزرار إعادة عرض المشاهد الأخيرة، قائلاً:
- إما أنه فخ، أو..
لم يتم عبارته...
أو يحاول حتى إتمامها..
فقط حدق في شاشة الرصد، وهي تعيد مشهد الانفجار مرة أخرى ففي نفس اللحظة، التي أطلق فيها الجنود أشعة مدافعهم انفجر الجدار الصخري بمنتهى العنف..
انفجر لتنطلق منه كتلة هائلة من اللهب، التهمت أمامها ضباط المتحورين وجنودهم، وأسلحتهم، وأجهزتهم كلها، قبل أن

تتفجر عبر مخرج الممر، ككرة مشتعلة رهيبة وعلى الرغم من بشاعة المشهد العنيف، راح الزعيم يضغط أزرار جهازه؛ ليعيد عرضه مرة ثانية.
وثالثة..
ورابعة..
وفي كل المرات، فغر قائد الأمن فاه ذاهلاً ملتاعا، متسائلاً عن سر إعادة الزعيم للمشهد الرهيب مرات ومرات..
أما الزعيم نفسه، فلم يكتف بإعادة العرض عدة مرات، وإنما راح يعرضه بسرعات أبطأ.....
وأبطأ..
وأبطأ..
ثم فجأة، اعتدل على مقعده بحركة حادة، وقال بمنتهى الشراسة والصرامة:
- أرسل كتيبة أخرى
انتفض جسد القائد، وهو يهتف:
- أرسل ماذا؟!
هب الزعيم عن مقعده بمنتهى الحدة، وصاح في وجهه بشراسة منقطعة النظير:
- أرسل كتيبة أخرى.. لا تمنحوه فرصة للقرار.
هتف القائد في توتر، وكأنما انتزع هول الموقف هيبة الزعيم من قلبه ومشاعره:
- أي فرار؟! لو أن هذا وكره بالفعل، فمن المستحيل أن يبقى فيه مخلوق حي واحد، بعد انفجار كهذا.....
احمرت عينا الزعيم على نحو مخيف رهيب، وبرزت مخالبه وأنيابه، وانطلقت من حلقه زمجرة وحشية مرعبة، وهو يصرخ:
- أرسل كتيبة أخرى.. فورا.

في هذه المرة، انتفضت كل خلية في جسد القائد، وهو يتراجع بكل رعب الدنيا، هاتفا:
- فليكن.. فليكن أيها الزعيم.. سأرسل كتيبة أخرى.. فورا..
قالها، وهرع يعدو عبر قاعة العرش الواسعة، والزعيم يطلق من خلفه زمجرة أكثر قوة، ارتجت معها جدران القاعة كلها..
زمجرة غاضبة..
ثائرة..
ساخطة..
عدوانية..
ووحشية.....
وعندما غادر قائد الأمن القاعة، وأغلق بابها خلفه في إحكام، وكأنما يخشى أن يلحق به الزعيم، عاد هذا الأخير يجلس على عرشه، ويضغط أزرار شاشة الرصد، مزمجرا في وحشية:
- لن يربح معركته المخادعة هذه.. لن يربحها أبدا
ومع الشق الأخير من عبارته، هوت قبضته بكل قوتها على مسند عرشه الذهبي الضخم وبمنتهى العنف، تحطمت مقدمة المسند، وطارت عبر القاعة لترتطم بأرضيتها الرخامية، وتتدحرج فوقها لمترين كاملين ولكن الزعيم لم يبال بهذا لم يبال به على الإطلاق فكل ما كان يملأ ذهنه لحظتها، هو أن يظفر بذلك الجواد الطائر النادر وبأي ثمن على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

لم تكد الكتيبة المتحورة الثانية تبلغ منطقة التفجير، حتى بدأت انتشارها على الفور، وفقا للتعليمات التي تلقتها من الزعيم شخصيا..
لم يكن من المعتاد أو المألوف أن تصدر التعليمات، من مقر الزعامة مباشرة؛ لذا فقد أدرك الجنود وضباطهم مدى أهمية

وخطورة هذه المهمة، دون مهامهم السابقة جميعا! ومن هذا المنطلق، راحوا يتحركون بمنتهى السرعة ومنتهى التوتر ومنتهى الحذر أيضا..
كانت آثار الانفجار تبدو واضحة عبر الممر، الذي تحول إلى نفق ضيق مزعج، تناثرت الأحجار والصخور في كل ركن منه..
ولكنهم واصلوا تقدمهم نحو الفراغ الكبير، الذي بدا واضحا في نهايته، والذي اكتظ ببقايا أجهزة محطمة، وشاشات رصد مسحوقة، تتطاير من أطرافها شرارات كهربية عشوائية..
وبصوت خافت، حمل كل توتره وانفعاله، أشار قائد الكتيبة الجديدة إلى ذلك الفراغ، قائلا:
- تقدموا بمنتهى الحذر، وأطلقوا النار عند أول بادرة شك أومأ الجنود برءوسهم مؤيدين، وهم يتحركون عبر الممر في حذر أكثر، و..
وفجأة، انطلق ذلك الفارس، عبر الفراغ الكبير..
ظهر فجأة، وكأنما نبت من العدم، وانطلق بجواده المجنح نحوهم مباشرة، على الرغم من ضيق الممر ومع المفاجأة، والصيحة المباغتة، التي أطلقها الفارس مع ظهوره، ساد الاضطراب بين صفوف الجنود، ووثب قائدهم يحمى رأسه بذراعه، وخيل إليه أن جناحي الجواد القويين قد عبرا فوقه مباشرة، قبل أن يواصل اندفاعه عبر الممر، ثم ينطلق من مخرجه، ويحلق عاليا..
ولكن أشعتهم لم تصب الفارس قط..
وبعد ثانيتين فحسب، استعاد الجنود جأشهم وتماسكهم واستداروا يطلقون أشعتهم القاتلة خلف الفارس، باذلين قصارى جهدهم؛ لتفادي إصابة الجواد..
كانت خيوطها تبدو في بعض الأحيان وكأنها قد أصابته.....

واخترقته..
بل وتجاوزته..
إلا أنها لم تسقطه أبدا..
لذا، فقد تآزرت قواهم كلها لمواجهته وانطلقت خلفه حواماتهم المقاتلة..
ورصدت شاشة الزعيم كل هذا، فصرخ في ثورة عارمة:
- أغبياء! حمقى
لم تكن شاشته ترصد الأحداث فحسب، وإنما تعمل على تقييمها، وتحليلها، وفرز نتائجها أولا بأول لهذا كان يستشيط غضبا وسخطا..
وحنقا..
وثورة..
وبكل انفعالاته الجارفة، وثب إلى جهاز الاتصال، وصرخ:
- ماذا يفعل رجالك الحمقى يا قائد الأمن؟! ماذا يطاردون؟!
وعلى الرغم من الوحشية البالغة، التي نطق بها الزعيم عبارته، لم ينبس قائد أمنه ببنت شفة، وهو يتابع الموقف بدوره، على شاشة الرصد الخاصة به فقد كان ما يحدث عجيبا..
عجيبا حقا..
لقد طارد رجال الكتيبة ذلك الفارس الطائر باستماته، وداروا حوله، وحاصروه، وصوبوا نحوه أسلحتهم، و..
وفجأة، اختفى الفارس
تلاشي في الهواء دفعة واحدة، كما لو أنه قد عاد إلى العدم، الذي نبت منه، أو إلى الفراغ الذي أتى عبره..
وفي اللحظة التي شملتهم فيها حيرة بلا حدود، وراحوا يدورون حول أنفسهم، محاولين فهم ما حدث، انطلق الفارس مرة أخرى.

تماما كما انطلق في المرة الأولى لقد انقض عبر الممر، وضرب جواده الهواء بجناحيه القويين، ثم انطلق عبر المخرج، وحلق في السماء..
وفي آلية غريزية، انطلق الجنود يطاردونه، وضابطهم يصرخ:
- لا تسمحوا له بالإفلات هذه المرة.. لا تسمحوا له بالإفلات أبدا.
ومرة أخرى، أطلق الجنود أشعتهم
أطلقوها بمنتهى القوة
والبراعة..
والمهارة.
والغضب أيضا
وأمام عيونهم جميعا، رأوا الأشعة تصيب هدفهم وتضربه وتخترقه إلا أنها لم توقفه
لقد واصل مناوراته الجوية البارعة، على متن جواده النادر،
وأفلت من كل الإصابات، وحاول الابتعاد
ولكن الجنود فعلوا تماما ما فعلوه في المرة الأولى
لقد طاردوه..
وحاصروه..

☆ ☆ ☆

أغبياء!! حمقى!!
هتف الزعيم بالعبارة، بكل غضب الدنيا، في وجه قائد أمنه، الذي بدا حائرا مرتبكا، على الرغم من عصبيته البالغة، وهو يقول:
- الرجال يفعلون ما بوسعهم أيها الزعيم..
صرخ الزعيم في ثورة:
- ليطاردوا ماذا؟!

قالها، وهو يدير شاشته نحو قائد الأمن، الذي التهمت عيناه في سرعة تلك التحليلات العلمية فوقها، قبل أن ينتفض جسده بمنتهى العنف..

فما أعلنته الشاشة كان يبرر بالفعل غضب الزعيم يبرره تماما للمرة الثالثة، انطلقت كتيبة المتحورين تطارد ذلك الفارس وجواده المجنح، وتحيط به في سماء المعركة وتحاصره..

كيف يمكنك أن تتواجد هنا وهناك، في وقت واحد؟!

ألقي الصبي سؤاله، بمنتهى الدهشة والانبهار، وهو يتابع ما يحدث، على شاشة رصد كبيرة، في وكر ثان، يبعد بعدة جبال، عن موضع الوكر الأول، فابتسم الفارس، وهو يعد طعاما بسيطا، وأجاب في هدوء:

- لا تجعل هذا يخدعك كما خدعهم.. ما تراه أمامك هو صورة هولوجرامية مجسمة، يمكن صنعها بأشعة ليزر خاصة، بحيث تبدو ثلاثية الأبعاد، وتامة الوضوح، كما لو أنها حية..

هتف الصبي بأنفاس مبهورة:

- هل.. هل اخترعت هذا؟!

هز الفارس رأسه نفيا، وهو يضع الطعام أمامه، في حنان أبوي عجيب، ثم داعب رأسه في مودة، قبل أن يجيب:

- الهولوجرام خدعة قديمة أكثر مما تتصور يا فتى؛ فقد ابتكرها لأول مرة مهندس من أصل نمساوي، يدعى (دينيس جابور)، عام ١٩٤٧م، أي في نهايات النصف الأول من القرن العشرين ولكن العالم لم يدرك أهميته في ذلك الحين، حتى نال (جابور) عنه جائزة (نوبل) في الفيزياء، عام ١٩٧١م ([2])

كل ما فعلته أنا هو أن طورت الفكرة فحسب، بالاستعانة بالتقنيات الحديثة، حتى منحت الصورة الهولوجرامية ذلك

المظهر الواقعي الحي..
سأله الصبي في لهفة:
- وما جائزة (نوبل) هذه؟!
ابتسم الفارس، وهو يقول:
- تناول طعامك أولاً، وسأجيب كل أسئلتك فيما بعد.. إنك تحتاج إلى الطعام، في هذه الفترة من العمر، ليساعدك على النمو، ويمنحك القوة اللازمة..
سأله الصبي بمنتهى الشغف:
- ولكن هناك أمر لا أطيق الانتظار لمعرفته.. لماذا أعددت هذا الوكر الاحتياطي؟! هل كنت تعلم أنهم سيكشفون أمر الوكر الآخر؟!
تنهد الفارس في عمق، وشرد ببصره وأفكاره بضع لحظات، قبل أن يجيب الصبي في صوت خافت، حمل لمحة من الحزن:
- بل كنت أتوقع حدوث هذا، في يوم ما.. ولقد تعلمت ضرورة أن يكون هناك مخبأ احتياطي، يلجأ إليه المرء، إذا ما تعرض لكشف أمره، في لحظة ما..
سأله الصبي في لهفة:
- من علمك هذا؟!
صمت الفارس بضع لحظات أخرى، بنفس الحزن والشرود، قبل أن يلتفت إلى الصبي بابتسامة هادئة، مجيبا:
- الثعلب
هتف الصبي بدهشة:
- الـ.. ماذا؟!
ابتسم الفارس، مجيبا:
- الثعلب.. حيوان تواجد في زمن ما قبل الانهيار، ولست أدرى ما إذا كان مستمرا، أم قضت عليه التطورات النووية.. أو ربما

بقي، وأصابته بعض التحورات الجينية، حتى صار على هيئة أخرى، لن يمكننا معرفتها، لو رأيناها الآن رأى العين.
تساءل الصبي مبهورا:
- وكيف علمك الثعلب هذا؟!.
هز الفارس كتفيه، مجيبا:
- كان يشتهر، في الكتب العلمية القديمة، بالذكاء والمكر والدهاء، حتى أنه كان يجعل لوكره عدة مخارج مختلفة، بحيث يمكنه الفرار من أحدها، لو تم إغلاق الآخر أو محاصرته..
غمغم الصبي:
- وتعلمت منه؟!
أومأ الفارس برأسه إيجابا، وقال:
أعظم ما في الدنيا، هو أنها تمنحك المعرفة من كل ما حولك، ومن حولك.. كل ما عليك هو أن ترهف حواسك، وتفتح عقلك، وتلتهم المعرفة والخبرة، من كل ما يحيط بك.. من إنسان.. أو حيوان، أو حتى نبتة صغيرة، ولن يمضي وقت طويل، حتى تجد نفسك وقد اكتسبت حصيلة هائلة، تكفيك لمواجهة الحياة، ومناورة خصومك وأعدائك أيضا..

حدق فيه الصبي بانبهار شديد، قبل أن يغمغم:
- أريد أن أصبح مثلك
ابتسم الفارس، فأضاف الصبي بأنفاس مبهورة:
- وأن اكتسب ما اكتسبته
تطلع إليه الفارس بضع لحظات في صمت، قبل أن يهز رأسه في حزم، قائلاً:
كلا..

ارتجف قلب الصبي بين ضلوعه في عنف، وارتجفت شفتاه في هلع، ولكن الفارس مال نحوه، واتسعت ابتسامته أكثر، وهو يستدرك:
- أريدك أن تصبح أفضل منى..
تهللت أسارير الصبي، وعاد قلبه يرقص بين ضلوعه..
فأضاف الفارس، وهو يعتدل:
- وهذا يحتاج إلى فترة إعداد طويلة، تجعلك قادرا على مواجهة المستقبل وتحدياته..
هتف الصبي، بكل فرحة الدنيا:
ـ حقا؟!
التقط الفارس أسطوانة مدمجة، عالية الكثافة، وهو يجيب بابتسامة أكبر:
- وستبدأ مرحلة الإعداد فورا..
وشعر الصبي بالدماء تتدفق أكثر وأكثر في عروقه بل وبأنه لم يعد صبيا..
بعد اليوم..

☆ ☆ ☆

لم يشعر قائد أمن الزعيم، في حياته كلها بالقلق والتوتر، مثلما شعر بهما، وهو يدخل إلى قاعة العرش، في ذلك اليوم بعد مرور ثلاثة أشهر كاملة، على تلك المواجهة العنيفة، عند وكر الفارس..
كان الزعيم يجلس على عرشه الضخم، الذي فقد مقدمة مسنده، وقد انشغل تماما في التطلع إلى شاشة كمبيوتر كبيرة أمامه، ومخالبه المنكمشة تمس أجزاء منها، بين كل لحظة وأخرى..

وفي توتر لا محدود، وبأقدام مضطربة متخاذلة، راح قائد الأمن الجديد يقترب منه..
ويقترب..
ويقترب..
- هذا يكفي.
زمجر الزعيم بالكلمة، دون أن يلتفت إليه، فتسمر قائد الأمن في مكانه، وشد قامته على نحو غريزى بحث، وراح قلبه يخفق في عنف، وهو يتطلع إلى الزعيم، الذي لاذ بالصمت التام لبعض الوقت، وهو يواصل عمله على جهاز الكمبيوتر الخاص به، قبل أن يلتفت إليه بحركة حادة، جعلت جسده كله ينتفض في عنف، والزعيم يقول، بصوت هادر رهيب:
- ما الذي توصلتم إليه؟!
كانت هذه هي اللحظة التي يخشاها القائد تماما، لذا فقد جف حلقه، وارتجفت أطرافه، والتقط نفسا عميقا، في محاولة عابثة، للسيطرة على توتره الشديد، قبل أن يجيب بصوت خافت:
- لا شيء أيها الزعيم.
صاح الزعيم في وحشية
- لا شيء؟!
انتفض جسد القائد في عنف، وتراجع بضع خطوات، قائلاً في سرعة لاهثة:
- لقد أعدنا تفتيش بقايا الوكر، خمس مرات أيها الزعيم، واستعنا بخبراء في كل المجالات، كما أمرت تماما، وكلهم لم يعثروا على شيء.. لقد استخدم ذلك الفارس نظام تفجير ناسف حارق، لم يترك أية بقايا يمكن فحصها.. لا ألياف، أو خلايا، أو أنسجة بشرية أو حيوانية.. الشيء الوحيد، الذي تم العثور عليه سليما، هو جهاز البث الهولوجرامي شديد التطور، الذي مده

عبر الممر، وحتى مخرجه، والذي نجح في خداع كتيبتنا، ودفعها إلى..
قاطعه الزعيم في سخط شديد:
كفى..
كان القائد يتوقع منه ثورة هائلة، إلا أنه فوجئ به يتراجع في عرشه، ويغمض عينيه في قوة، قائلاً في سخط:
- المشكلة أنه يفكر في كل خطوة، ولا يترك أمرا للمصادفات أبدا.
استجمع القائد شجاعته، أو ما تبقى منها، ليغمغم:
- إننا نبذل قصارى جهدنا
لم يبد حتى أن القائد قد سمعه، وهو يواصل بنفس السخط:
- هناك وكر آخر.. أو ربما عدة أوكار أخرى.. إنه يقلد أسلوب الثعالب..
انعقد حاجبا القائد، وهو يتمتم:
- الـ.. ماذا؟!
مرة أخرى لم يبد أن القائد قد سمعه، وهو يتابع:
- هناك شبكة من الممرات حتما، تربط تلك الأوكار ببعضها البعض.. شبكة تمتد وسط الجبال، أو ربما تحت الأرض شبكة يدرك جيدا أننا لن نتوصل إليها قط.. لقد نسف الوكر الذي كشفناه كله، حتى يخفى أحد مداخل تلك الشبكة..
تصور القائد أنها فرصته لإثبات وجوده، فانتفض قائلاً، في حماس فرضه الموقف:
- يمكننا أن ننبش المنطقة كلها، و..
« الخرائط القديمة.. »
قاطعه الزعيم بهذا الهتاف المباغت، قائلاً في لهفة، ندر أن يشاهده أحد عليها:
الحل يكمن في برنامج الخرائط القديمة..

ثم هب من مقعده، وراح يدور حوله، متابعا في شراسة عجيبة:
- مهما بلغ ذلك الفارس المجهول، من مهارة وحنكة، فهو مجرد رجل واحد.. قد يمكنه كشف عدة كهوف، في جبال متجاورة، وأن يجعل منها أوكارا له، ويزودها بتكنولوجيا، يحصل عليها من هنا أو هناك، ولكنه لن يمتلك أبدا التقنية اللازمة، لحفر ممرات جبلية، أو تحت أرضية، تربط بعضها ببعض..
غمغم القائد في اضطراب:
- كيف إذن؟
قبل أن يتم تساؤله، قاطعه الزعيم مرة أخرى، مستطردا في انفعال:
لذا، فهو يستخدم شبكة أنفاق موجودة بالفعل.. شبكة قامت الحضارة السابقة ببنائها، وربطها ببعضها البعض.. شبكة أنفاق مترو..
هتف القائد، الذي لم يسمع بهذا المصطلح في حياته قط:
- أنفاق ماذا؟!
تجاهله الزعيم تماما، وهو يعود إلى عرشه، ويلمس شاشة جهازه بأطراف مخالبه مرة أخرى، قبل أن يعتدل مرة واحدة، وتبرق عيناه على نحو وحشي رهيب، وهو يقول:
- لقد ظفرنا به.
وقفز انفعال القائد إلى الذروة..
بل إلى ما فوق الذروة
بكثير..

☆ ☆ ☆

٤- أنفاق..

ساد هدوء مهيب ذلك المكان المقفر، في قلب الوادي الأزرق، وبدا وكأن المكان قد تحول كله إلى صورة جامدة جافة، لولا السحب التي تتحرك في السماء، أمام قرص الشمس، الذي بدأ رحلة الغروب، و..

وفجأة، شق أزيز حوامة ضخمة سكون وهدوء المنطقة، قبل أن يظهر فارس شاب، على متن مهر صغير، وهو ينطلق وسط الوادي، ثم تظهر خلفه الحوامة، التي تطارده في شراسة وتطلق خلفه حزم الليزر القاتلة..

وفي مهارة مدهشة، راح الشاب يحاور ويناور، ومهره الصغير يستجيب لقيادته، على نحو يؤكد أنه قد تم تدريبه بمنتهى البراعة والدقة وعلى الرغم من كفاءة الشاب، وخفة وبراعة مهره، ارتفع أمامه، في نهاية المنطقة، جدار صخري هائل، يوحي بأن المطاردة ستنتهي هناك حتما، شاء أم أبى..

لذا فقد قام الشاب بمناورة أخيرة، فجذب عنان مهره، واستدار به استدارة مفاجئة، وهو يسحب بندقيته الليزرية، من جراب خاص معلق بالمهر، ويصوبها نحو الحوامة، التي واصلت إطلاق حزم الليزر القاتلة نحوه وعلى الرغم من حساسية ودقة وصعوبة الموقف، اعتدل الشاب على متن المهر القوى، وصوب بندقيته جيدا وأطلق المهر صهيلاً..

وضغط الشاب زناد بندقيته..

ولكن حزمة ليزرية قوية، انطلقت من الحوامة، قبل أن يضغط زناد بندقيته بلحظة واحدة..

وارتطمت بصدر الشاب

وانتزعته من على متن مهره..
هل أدركت الخطأ؟!
انبعث صوت الفارس حازما صارما، وهو يلقى سؤاله هذا، فنهض الشاب من سقطته، واعتدل واقفا، وهو يقول:
- لقد بذلت قصارى جهدي، و..
- «كلا.»
نطق الفارس الكلمة، الأخيرة، في صرامة أكثر، وهو يضغط زرا صغيرا أمامه، فتلاشى المشهد كله دفعة واحدة، واختفى الوادي، والجبل، والجدار الصخري الهائل، وحتى السماء بسحبها وشمسها المائلة للغروب.

ومع تلاشي الحوامة، بدا المكان عبارة عن قاعة صخرية هائلة انتشرت فيها مجسات حسية عديدة، وأجهزة بث هولوجرامية، ونظم صوتية وبصرية شديدة التطور..
ومن خلف حاجز سماوي اللون، برز الفارس، وهو يواصل حديثه:
- لقد بذلت جهدا.. هذا ما أتفق معك بشأنه، ولكنه ليس قصارى جهدك حتما؛ فأنت لم تتخذ المسار الصحيح ولا رد الفعل السريع المناسب..
هز الشاب كتفيه، قائلاً:
- لا تنسى أنني كنت أواجه حوامة عسكرية..
أجابه الفارس، في صرامة قاسية:
- ولا تنسى أنت أنه لو كانت هذه المواجهة حقيقية، لكنت في عداد الأموات الآن..
التقط الشاب نفسا عميقا، إلا أنه لم يلبث أن خفض عينيه متمتما في خفوت:

- هذا صحيح
تطلع إليه الفارس لحظة، قبل أن يتجه إليه، ويضع يده على كتفه، قائلاً في حنان، يتناقض تماما مع صرامته السابقة:
- دعني أذكرك مرة أخرى أننا نواجه خصما لا يرحم.. ولا يكل أو يمل.. وأي خطأ، ولو بسيط، يجعلنا نقع في قبضته.. أو نلقى مصرعنا.. هل تدرك هذا؟!
شد الشاب قامته، وهو يقول في حزم:
- أدركه تماما، وأحفظه عن ظهر قلب
وصمت لحظة، قبل أن يضيف:
- وأعدك أن أبذل جهدا مضاعفا، في المرة القادمة ابتسم الفارس، قائلاً:
- لا تعدني أنا.. عد نفسك؛ فستفعله من أجلك وليس من أجلى.
قال الشاب في سرعة:
- بل من أجل البشرية.
ثم استدرك في حذر:
- هذا ما لقنتني إياه، طيلة ما يقرب من عامين.
اتسعت ابتسامة الفارس، وهو يقول:
- كنت صبيا حينذاك، والآن صرت شابا يافعا.
غالب الشاب عواطفه، وهو يقول:
- بفضلك.
هز الفارس رأسه نفيا في قوة، ورفع سبابته أمام وجهه، وهو يقول في حزم:
- بل بفضل الله (سبحانه وتعالى).. لا تنسى هذا أبدا..
أجابه الشاب في سرعة:
- لا أحد ينسى ما يؤمن به
أشار الفارس بسبابته مرة أخرى، قائلاً:

- بالضبط
تنهد الشاب في ارتياح، وتساءل في اهتمام:
- هل سنعيد الكرة؟!
أجابه الفارس، وهو يصحبه إلى قاعة صغيرة:
- كلا.. سنكتفي بهذا اليوم، فأنت لم تتوقف عن التدريب منذ الصباح..
ابتسم الشاب، وهو يقول:
- هذا لا يرهقني، بل يسعدني
ربت الفارس على كتفه، وهو يشعل شاشات الرصد، قائلاً:
- أعلم هذا
تابع الشاب في اهتمام شاشات الرصد المتعددة، التي تنقل كل ما يحدث حول المكمن، وفي أماكن شتى من الوادي الأزرق، والمدينة الكبيرة، قبل أن يتساءل:
- أما زالوا يواصلون البحث، في أنفاق المترو القديمة؟!
ابتسم الفارس، مجيبا:
- نعم.. لقد ابتلعوا الطعم، ويسيرون خلف الأدلة الزائفة، التي أضعها أمامهم، كل حين وآخر..
غمغم الشاب في حيرة:
- إلى الحد الذي يهدرون فيه عامين كاملين، داخل شبكة من الأنفاق المعقدة؟! _
أجابه الفارس في هدوء، وهو يواصل متابعة الشاشات:
- هذا أكثر ما ينبغي أن تتعلمه عن عقلية الطغاة..
وصمت لحظة، قبل أن يضيف:
- إنهم لا يتنازلون عن رغباتهم ونزواتهم.. أبدا
ولم يدر لحظتها كم كان قوله صادقا..
وبمنتهى الدقة..

☆ ☆ ☆

مستحيل!

صرخ زعيم المتحورين بالكلمة، في غضب ثائر هادر، وهو يواجه قائد أمنه، الذي ارتجف أمامه رعبا، وهو يغمغم:

- إننا نبذل جميعا قصارى جهدنا أيها الزعيم، بناء على خطة وضعتها أنت، وخرائط سلمتنا إياها، و..

وماذا؟!

صرخ فيه الزعيم مرة أخرى صرخة هادرة، وأطل شرر الدنيا كله من عينيه، وهو يهب من عرشه الضخم، ويهبط في درجات السلم القليلة أمامه، على نحو دفع قائد أمنه إلى التراجع في ارتياع، والزعيم يصرخ متابعا:

- كل ما تقوله ليس مبررا.. أنتم محترفون.. محترفون وتتقاضون أجورا باهظة، من أجل تحقيق كل ما أنشده، وليس من حقكم إضاعة عامين كاملين، دون منحى نتيجة واحدة.. بل على العكس.. لقد شن علينا ذلك الفارس المجهول أكثر من عشر غارات ناجحة، جشمنا خلالها خسائر جسيمة، دون أن تظفروا به، أو توقعوه في شراككم..

لم يدر قائد الأمن بم يجيب، وهو يتطلع إليه في توتر، حتى صرخ فيه الزعيم مرة أخرى:

- إنك لا تجيبني.

انتفض جسد الرجل في عنف، إلا أن تلك الصرخة الأخيرة جعلته يستجمع ما تبقى منه، ويهتف في عصبية:

- لقد مشطنا كل المناطق والأنفاق، التي أرشدتنا إليها أيها الزعيم، ونحن في انتظار أوامرك..

انعقد حاجبا الزعيم الكثين في شدة، وهو يرمقه بنظرة نارية غاضبة، قبل أن يفرد قامته، ويقول في حزم:

.. إذن فهو لا يستغل تلك الأنفاق
أجابه قائد الأمن، في سرعة وتوتر:
- هذا صار يقينيا أيها الزعيم..
ازداد انعقاد حاجبي الزعيم أكثر، وعاد يجلس على عرشه في بطء وآلية، ويغرق في التفكير بضع لحظات، قبل أن يقول، وكأنما يتحدث مع نفسه:
- ولكن هذا مستحيل! وغير منطقي أيضا.. إنه لا يستطيع الانتقال من وكر إلى آخر، إلا عبر أنفاق ما، ولو أنها ليست أنفاق المترو، فما هي؟!
صمت قائد الأمن تماما، ولم ينبس ببنت شفة، مفسحا المساحة كلها لأفكار الزعيم، التي غرق فيها حتى النخاع، قبل أن يشعل جهاز الكمبيوتر الخاص به، ويواصل حديثه مع نفسه:
- أية أنفاق يستخدم إذن؟! إنه لم ينشئها حتما.. إنها موجودة هناك على نحو ما.. موجودة منذ أيام الـ..
بتر عبارته بغتة، وبدا وكأن عقله قد اشتعل بفكرة جديدة مدهشة، قبل أن تتألق عيناه ببريق رهيب، ويغمغم في شراسة:
- خطة الاستمرار.
اعتدل قائد أمنه في انتباه، وراقبه وهو غارق في التفكير للحظة أخرى، قبل أن يلتفت إليه، قائلا في صرامة أمرة وحشية:
- أريد ملفات الكمبيوتر السرية القديمة.
لم يبد لقائد الأمن أنه قد استوعب الموقف كله، على نحو جيد، لذا فقد مال إلى الأمام، متسائلاً في حذر:
- أية ملفات؟!
هب الزعيم واقفا بحركة حادة، جعلت قائد أمنه يثب إلى الخلف في توتر، وهو يقول في حدة:

- الملفات السرية القديمة، التي كانت تحتفظ بها حكومات العهد السابق.. كل ما يمكن الحصول عليه، من تلك الملفات القديمة..
شعر قائد الأمن بحيرة شديدة تسري في عروقه، وهو يقول:
- وبم يمكن أن تفيدنا تلك الملفات السرية القديمة؟! لقد فقدت أهميتها بالتأكيد، بعد أن..
قاطعه الزعيم في شراسة، وعيناه شاردتان، وكأنما يحدث نفسه:
- تلك الملفات ستقودنا مباشرة إليه، وستعاوننا على كشف الأمر والقضاء تماما على ذلك الفارس.. الفارس المجهول نطقها، ثم تألقت عيناه في ظفر..
وزهو..
ووحشية..
بلا حدود..

☆ ☆ ☆

ابتسم الفارس في إعجاب وارتياح، وهو يقول:
- لم أشك لحظة في أن هذا سيحدث.
تماسكت أصابع الشاب، على نحو مدهش، وهو يمسك أداة دقيقة رفيعة، اقترب بها في ثبات من جهاز إليكتروني بالغ الصغر، وراح يثبت أحد أجزائه، قبل أن يلتقط الجهاز كله، ثم يضعه على أذنه، وينصت في اهتمام، ويتنهد، مغمغما:
- إنه يعمل بكفاءة.
تهللت أسارير الشاب، وهو يقول:
- أيعني هذا أنني قد اجتزت الاختبار بنجاح؟!
هز الفارس رأسه نفيا في بطء، فامتقع وجه الشاب، وهو يغمغم:
- ولكنني..

باغته الفارس بابتسامة كبيرة، وهو يقول في حسم:
- بل اجتزت فترة تدريبك كلها بنجاح..
تألقت عينا الشاب لحظة، ثم لم يلبث أن وثب صارخا، بكل فرحة الدنيا:
- لقد فعلتها.. لقد فعلتها
اتسعت ابتسامة الفارس، وهو يتقدم نحوه، ويحتويه بين ذراعيه، قائلاً:
- الآن أصبحت مؤهلا للمواجهة.. ولكن
انتفض جسد الشاب، مع كلمة (لكن) هذه، فتراجع في هلع، إلا أن الفارس استدرك في سرعة، محافظا على ابتسامته:
- ينبغي أن تخوض مرحلة تدريب عملية أولاً
لم يصدق الشاب نفسه، وهو يهتف:
- رباه! أتعنى أننى سأخوض مواجهة حقيقية؟
أومأ الفارس برأسه، قائلاً:
- بالتأكيد.. لابد وأن نختبر قدراتك الفعلية، على أرض معركة..
تساءل الفتى، بكل لهفة الدنيا:
ومتى؟! متى يمكنني أن أفعل هذا؟!
هز الفارس كتفيه، مغمغما:
- هذا يتوقف في الواقع على..
قبل أن يتم عبارته، قاطعه فجأة أزير متصل، ارتبط بضوء متقطع صدر عن مصباح أحمر صغير، يعلو شاشة رصد خاصة بالطوارئ، التفت إليها الاثنان بحركة حادة، ليطالعهما مشهد مجموعة من عربات المتحورين المتطورة القوية، التي راحت تحيط بالمنطقة التي تضم المكمن الرئيسي، في نفس الوقت الذي حملت فيه السماء فرقة من الحوامات المقاتلة، تدور حول المكان وفي حزم، هتف الشاب:

- لقد توصلوا إلينا..
انعقد حاجبا الفارس، وهو يغمغم:
- إنهم يستعدون للبحث فحسب.
تساءل الشاب في توتر:
- هل سيمكنهم التوصل إلينا هذه المرة؟!
صمت الفارس بضع لحظات، ثم أجاب في حزم:
- لو توصلوا إلى المدخل الرئيسي، لن يصبح هذا عسيرا.
راقب الشاب شاشة رصد الطوارئ بضع لحظات، قبل أن يتساءل في اهتمام حازم:
- سيدي.. ألم يحن الوقت بعد، لتخبرني أين نحن بالضبط؟!.
صمت الفارس لحظة، وكأنما يدير الأمر في رأسه، قبل أن يجيب:
- في مخبأ الطوارئ..
هز الشاب رأسه، قائلاً:
- أعلم هذا، ولكنني أتساءل عن..
تابع الفارس في حزم، دون أن ينتظر إكمال العبارة:
- ليس بالنسبة لنا، ولكن بالنسبة لحكومة الدولة، التي كانت تحتل موقع الوادي الأزرق، قبل معركة الفناء..
حدق الشاب فيه، مغمغما:
- لست أفهم.
أشار الفارس بيده، والتفت إليه، قائلاً:
- قديما، وفي زمن الاستقرار النسبي، كانت لدى كل حكومة في العالم خطة للطوارئ، تعرف باسم (خطة استمرار الحكومة)، وتستهدف هذه الخطة حماية الحكومة والقيادات السياسية والعسكرية للدولة، في حالة حدوث هجوم شامل عنيف، إذ يتم نقلهم جميعا عندئذ إلى مكان آمن، يطلق عليه اسم المقر

الاحتياطي، وهو هذا المكان، الذي نقف فيه الآن، والذي تربطه شبكة من الأنفاق بوحدات أخرى أصغر حجما، كان ينبغي أن تحتل كل منها قيادة من قيادات الدولة، بحيث يمكن إدارة حرب عامة شاملة من هنا. حتى لو أصيبت كل مرافق ووحدات الدولة على السطح..

تساءل الشاب مبهورا:

- وكيف كشفت أمرا كهذا؟!

قاده الفارس إلى حجرة صغيرة، اكتظت بآلاف الأدراج المعدنية الصغيرة، وهو يقول داخله:

- جدي كان أحد كبار رجال الحكومة، ولقد عثرت بين ما تركه خلفه على سر هذا المخبأ، وعلى هذا الكم الهائل من المعلومات

ثم استدار إلى الشاب، مضيفا:

- وسأترك كل هذا لك

انتفض جسد الشاب، وهو يقول في هلع:

- تتركه لي؟! ماذا تعنى؟!

رمقه الفارس بنظرة صامتة، قبل أن يعود إلى القاعة الرئيسية، ويشير إلى شاشة رصد الطوارئ، مجيبا:

- إن لم توقفهم الآن، فلن يكون لدينا أمل في النجاة

شد الشاب قامته في حزم، قائلاً:

- إنها الفرصة التي تنتظرها إذن.. المواجهة الحقيقية الأولى دعنا نخرج إليهم معا.. دعنا نريهم أن الاتحاد قوة، وأننا معا سنذيقهم من الهزائم، أضعاف أضعاف ما كنت تفعله بهم وحدك.

نطقها، واتجه في حزم نحو زيه الخاص، الذي طال شوقه لارتدائه، وراقبه الفارس لحظة، ثم التقط كرة معدنية صغيرة، وهو يغمغم:

- ربما يبدو قولك هذا منطقيًا
كان الشاب يهمّ بالتقاط زيه الخاص، عندما ألصق الفارس تلك الكرة المعدنية بكتفه، مستطردا، في شيء من المرارة:
- ولكنه لا يناسب خططي المستقبلية.
وانتفض جسد الشاب في عنف، مع تلك الصاعقة المحدودة، التي سرت في جسده، والتي ألقته شبه فاقد الوعي..
كان يرى ويسمع ما حوله، إلا أن أطرافه ولسانه كانت كلها ترفض الاستجابة له تماما وأمام عينيه، تحرك الفارس ليلتقط زيه القتالي، قائلاً في حزم، يحمل لمحة من الحزن:
- خبرتي السابقة تؤكد أن هذا أدق موقف واجهناه، وأن القوات المحيطة بنا، والتي يبدو من الواضح أنها تعرف هدفها جيدا، لن تلبث أن تظفر بنا حتما، طال الزمن أم قصر.. وهذا يعني أن البشر سيفقدون أحد أهم أسلحتهم، في مواجهة الظلم والوحشية والطغيان
تمتم الشاب في صعوبة، وهو يحاول عبثا تحريك أطرافه:
- أنت
خرجت الكلمة ثقيلة بطيئة، إلا أنها مست شغاف قلب الفارس مباشرة، فارتجفت شفتاه، وشد قامته بقوة، وكأنما يحاول السيطرة على مشاعره، وهو يجيب بمنتهى الحزم:
- بل أنت
واستدار وهو يرتدي زيه القتالي؛ ليواجه الشاب الراقد أرضا ويقول في مزيج عجيب، من الحزن والزهو والحزم والأمل:
- أنت أمل المستقبل، بعد الله سبحانه وتعالى..
وحاول الشاب أن ينطق كلمة ما..
أية كلمة..
حاول..

وحاول...
وحاول..
ولكن لسانه لم يستجب هذه المرة أبدا..
وفي أعمق أعماقه، شعر بكل مرارة وقهر الدنيا، وهو يرى الفارس الذي لقنه كل ما يعرفه، وهو يسحب أسلحته، ويسمعه يقول في صلابة:
- ما أفعله الآن ليس رد فعل عشوائي.. فمهما تعقدت الأمور أو تداخلت، لا تقدم على رد فعل عشوائي قط.. الأفضل أن تكون لديك دوما خطط بديلة.. خطط للطوارئ، والطوارئ القصوى أيضا وما أفعله الآن أحد الدروس المستفادة من الحكومات القديمة.. إنها خطة الاستمرار.. استمرار كفاحنا ضد جبروت وطغيان المتحورين فعندما تبلغ الأمور ذروتها، كان ينبغي أن أحافظ على بقائك أنت.. على استمراريتك؛ باعتبار أنك الأمل.. يا (أمل).
والتقط نفسا عميقا، وهو يرسم على شفتيه ابتسامة، حملت على الرغم منه، لمحة حزن واضحة، قبل أن يقول:
- وهذا آخر درس ألقتك إياه يا ربيبي
وعلى الرغم من جمود أطرافه، راح الشاب يقاتل باستماته في كل ذرة من كيانه، وعيناه تتابعان الفارس وهو ينصرف..
ويستعد للمواجهة..
وعلى الرغم منه أيضا، ومن الكراهية المعتادة في مثل عمره، لكل مظاهر الضعف والتراخي، انحدرت من عينيه دمعة.. دمعة ساخنة، كادت تلتهم وجنتيه، وهي تنحدر عليهما، لتستقر على أذنيه..
ومن جذور أعماقه، وبدون أن ينطق لسانه حرفا واحدا، صرخ:
لا..

لا تقاتل وحدك أيها المعلم
لا
أما الفارس نفسه، فقد امتطى في حزم، وضغط جواده المجنح أزرار جهاز مثبت على متنه، وهو يقول في حزم، مربتا على عنقه:
- استعد يا صديقي.. لقد شاركتني حروبا ومواجهات عديدة، وكنا ننتصر دوما بتآزرنا، وفهم كل منا للآخر.. الجزء البشري في جيناتك المركبة، كان خير عون لي، في كل قتال.. ويبدو سنخوض اليوم ذلك القتال، الذي خططنا له طويلا.. القتال الاحتياطي
ثم شد قامته، مضيفا بمنتهى الصرامة:
- والأخير
قالها، ثم ضغط زرا في حزامه، فانزاح جدار صناعي أمامه كاشفا نفقا طويلاً واسعا، فهتف:
- الآن
حتى وقبل أن يكتمل هتافه، كان الجواد الأصيل يفرد جناحيه، في مشهد رهيب مهيب، ويطلق صهيلاً قويا
ثم ينطلق
ينطلق مع فارسه، لخوض معركتهما العنيفة والوحشية والأخيرة..

☆ ☆ ☆

على نحو لم يحدث من قبل، تألقت عينا زعيم المتحورين، في وحشية رهيبة، وهو يتابع شاشة الرصد الخاصة به، هاتفا:
- سنفعلها هذه المرة.. سنظفر به حتما..
ثم استدار إلى قائد أمنه، مكملاً في شراسة:

- هذه فائدة الاحتفاظ بأكوام الأسرار القديمة.. لقد انتزعنا من وثائقهم خطة استمرار الحكومة، وخرائطها، وأنفاقها، وسيقودنا إليه هذا، دون أدنى شك..
بدا قائد القوات شديد التوتر، وهو يغمغم:
- ولكننا دفعنا معظم قواتنا لحصار تلك المنطقة أيها الزعيم، حتى أننا لم نترك ما يكفي لحماية المدينة الكبيرة..
ابتسم الزعيم في سخرية، قائلاً:
- حماية ماذا؟! ومن يمكن أن يهاجم المدينة الكبيرة أيها الصغير؟!
أنا موقن هذه المرة من أن خصمنا الوحيد هناك، في قلب تلك المنطقة، التي تحاصرها قواتنا، وما دمنا لم نترك ثغرة واحدة للفرار، فما الذي يمكن أن نخشاه هنا؟!
مط القائد شفتيه، متمتما:
- من يدري؟!
صرخ فيه الزعيم في قسوة:
- أنا؟!
انتفض جسد القائد في عنف، وهو يحدق فيه بدهشة مذعورة، فهب هو من عرشه الضخم، متابعا:
- أنا أدرى كل شيء.. كل ما حدث، ويحدث، وما يمكن أن يحدث أيضا..
انتفض جسد قائد الأمن مرة أخرى، وهو يقول في عصبية:
- لا يملك هذه القدرة سوى إله..
برقت عينا الزعيم، على نحو وحشى جنوني، وهو يقول، رافعا ذراعه بشكل مسرحي قديم:
- أو من يسند إليهم مهامه على الأرض..
اتسعت عينا قائد الأمن، وهو يحدق فيه بذهول..

العبارة الأخيرة أزالت من أعماقه كل لمحة شك.
الزعيم مجنون..
مجنون حتما..
مجنون ووحشي وخطير..
ربما يحكم بالفعل أقوى قوة ضاربة، تبقت على الأرض كلها، بعد حرب الفناء، إلا أنه ليس سليم العقل حتما وهذا يعني أن الحضارة المتبقية أصبحت كلها في خطر..
خطر الانهيار..
والدمار..
والفناء مرة أخرى..

☆ ☆ ☆

«هذه المرة أيضا، دع جنودك ينتبهون جيدا..»
قطع الزعيم أفكاره بهذه الصيحة الوحشية الهادرة، قبل أن يلوح بسبابته أمام وجهه، مستطردا:
- إياكم أن يمس الجواد بسوء.
مط قائد الأمن شفتيه، وهو يدرك عدم جدوى مناقشة الأمر وغمغم في استسلام:
- فليكن أيها الزعيم.. فليكن
تألقت عينا الزعيم مرة أخرى، وتراجع على عرشه الضخم، وأدار عينيه مرة ثانية إلى شاشة رصده الخاصة، التي نقلت اتخاذ قواته لمواقعها، واستعدادها الكامل لشن الهجوم الشامل، في أية لحظة يصدر فيها أمره بذلك، وقال في زهو وحشي:
- والآن، دعنا نشعل النيران الأخيرة
قالها، وانحنى نحو جهاز الاتصال الزعامي، وضغط زره، و...
ودوى الانفجار دوى بمنتهى العنف والقوة، حتى أن كل ذرة في كيان قائد الأمن قد ارتجفت بشدة والتعبير هنا ليس مجازيا على

الإطلاق، بل هو تعبير واقعي. واقعي تماما فالانفجار الذي دوى، لم يكن هناك، حيث تحاصر قوات المتحورين مكمن الفارس
بل كان في الداخل
داخل المدينة الكبيرة
مباشرة..
انفجار ارتجت له قاعة العرش كلها، واختل معه توازن قائد الأمن، فسقط أرضا، وهو يصرخ:
- ماذا حدث أيها الزعيم؟! ماذا حدث؟!
انطلق من عيني الزعيم، كل شرر الدنيا، وهو ينهض، قائلاً في غضب هادر ثائر:
- إنه هو.
ومع آخر حروف كلماته، وربما حتى قبل أن تكتمل، ومن خلف الجدار الزجاجي الضخم السميك للقاعة، والذي يطل على المدينة كلها، ظهر الفارس ظهر على متن جواده المجنح، وهو يحلق في سماء المدينة الكبيرة، وتحت قبتها الواقية الضخمة، مشهرا سلاحه الليزري القوى، ليطلق أشعته في عدة اتجاهات، انتقاها بعناية فائقة وفي عدة أماكن من المدينة، دوت انفجارات..
وانفجارات..
وانفجارات..
كان من الواضح أن الفارس ينفذ خطة قديمة، أعدها واستعد لها، منذ فترة من الزمان

خطة تعتمد على غطرسة وغرور جبابرة المدينة الكبيرة، الذين تصوروا أنه لا قبل لأحد بهم، فاهتموا بحماية مدينتهم من الخارج، وأهملوا هذا إلى حد كبير في الداخل..

وبكل غضب وثورة الدنيا، زمجر الزعيم الوحشي، صارخا:
- لقد فعلها.. أحد أنفاقه السرية كان يقود إلى هنا.. إلى قلب مدينتنا!!
صاح قائد الأمن، وهو يلتقط جهاز اتصاله الفائق، للاستنجاد برجاله:
- إنه ينسف الدفاعات الداخلية.. حتى الخفية منها.. إنه يعرف أهدافه جيدا
زمجر الزعيم بوحشية بلا حدود، وهو يصرخ:
- مر قواتنا بالعودة.. أريد الكل هنا فورا
امتقع وجه قائد الأمن، مع الانفجارات المتوالية، التي تقترب وتقترب..
وتقترب..
وبكل ذعره، حدق في الجدار الزجاجي الضخم لقاعة العرش صارخا:
- إنه.. إنه يتجه إلى هنا
كان الفارس ينطلق بالفعل نحو الجدار الزجاجي السميك للقاعة والمطل على المدينة الكبيرة، وهو ينتزع من جراب جواده المجنح مدفعا صغيرا، صوبه نحو الجدار، فصرخ قائد الأمن في رعب:
. ابتعد أيها الزعيم
وأطلق الزعيم زمجرة وحشية، و..
ودوى الانفجار
انفجار قوى، حطم الجدار الزجاجي، ونسفه في عنف، وأطاح بجسد قائد الأمن، عبر القاعة الواسعة، ليرتطم بالجدار، ثم يسقط على وجهه فاقد الوعي، محطم الأنف والكرامة..

أما الزعيم، فالعجيب أن جسده القوى، وقدميه الراسختين في الأرض، جعلته يقاوم الانفجار، ويطلق زمجرة أكثر قوة وعنفا وشراسة، في نفس اللحظة التي عبر فيها الفارس بجواده المجنح، تلك الفجوة، المتخلفة عن الجدار، وانقض عليه مباشرة..

وعلى الرغم من أن انقضاضة الفارس كانت رهيبة قوية، كافية لبث الرعب والرهبة، في أشد القلوب شجاعة وقوة، إلا أن الزعيم الوحشي استقبلها بزمجرة هائلة رهيبة، ارتجت لها جدران قاعة عرشه كلها، في نفس اللحظة التي رفع فيها الفارس بندقيته الليزرية، وصوبها نحوه، و..

وفجأة، انطلقت صاعقة ما..

صاعقة نبتت من مكان، لم يميزه الفارس جيدا، وانطلقت لترتطم بصدره، وتنتزعه من على متن جواده المجنح في عنف، وتلقى به أرضا

وبسرعة، هب الفارس واقفا على قدميه، على الرغم من الآلام الرهيبة التي يشعر بها، في حين واصل جواده المجنح التحليق داخل القاعة الواسعة بضع لحظات، قبل أن يضرب هواءها بجناحيه، ويهبط في نهايتها، منتظرا أوامر فارسه..

أما الزعيم الوحشي، فقد فرد قامته في زهو، وأطلق ضحكة رهيبة مجلجلة، رددت جدران قاعة عرشه صداها، قبل أن تبرق عيناه ببريق مخيف، وهو يقول:

- لو أنك تتصور أنك ستفاجئني بهذا الهجوم، فاسمح لي أنا أن أفاجئك.

أدار الفارس عينيه في المكان في سرعة، واستقر بصره لحظة على شاشة الرصد الخاصة، وجهاز الكمبيوتر الملحق بها، والتي استقرت إلى جواره حقيبة الملفات الإلكترونية السرية، مستندة

إلى العرش الضخم، قبل أن يرفع فوهة بندقيته الليزرية القوية قائلاً:
- ولو أنك تتصور أن قواتك ستعود لمشاركتك ومؤازرتك، فلا داع لأن تضيع وقتك، إذ أنها منشغلة كلها في قتال وهمى، ينطلق في منطقة بعيدة عن هدفها الحقيقي
أدار الزعيم الوحشي رأسه في بطء؛ ليلقي نظرة على شاشة راصده الخاص، والتي نقلت مشهد طلقات ليزرية قوية، تنطلق نحو قواته، من جبل بعيد عن مكمن الفارس، وقواته كلها تتجه لقتالها، والرد عليها، دون أن يبدو لها عدوا واضحا، ثم عاد ببصره إلى الفارس، قائلاً في استهتار وحشي:
- ومن يحتاج إلى مشاركة أو مؤازرة قوات حمقاء كهذه؟!
قالها، ثم بدا وكأنه يلتقط نفسا عميقا ولكن حاجبي الفارس انعقدا في شدة فمع ما فعله الزعيم، راح جسده يتضخم..
ويتضخم..
ويتضخم..
ومع تضخمه، تألقت خلاياه والتمع جسده وبرقت عيناه وسرت في الهواء المحيط به كله ذبذبة كهرومغناطيسية قوية امتزجت بضحكته الوحشية الرهيبة، وهو يقول، بصوت بدا وكأنه يأتي من أعمق أعماق بئر سحيقة هذه المرة:
- مفاجأة حقيقية.. أليس كذلك؟!
توترت أصابع الفارس، الممسكة ببندقيته الليزرية القوية، في حين راح شعر الزعيم يتطاير، مع الدوامة الكهرومغناطيسية الرهيبة، التي أحاطت بجسده، وهو يتابع:
- هل تصورت أنني أحتل منصب الزعيم هنا بإرادة الآخرين، أو بمشيئتهم الحرة؟! واهم أنت لو تصورت هذا، على الرغم من كل ما نفعله، لإقناعهم به.. إنها مسألة قوة بالدرجة الأولى يا

هذا.. مسألة قدرات وسطوة.. الطاقة النووية، التي حورت أجزاءهم، وصنعت منا جميعا جنسا أرقى وأقوى، منحتني أكثر مما منحتهم.. منحتني القدرة على إطلاقها في خلاياي وأعماقي.
ثم مال نحو الفارس، وتألقت عيناه أكثر وأكثر، وهو يضيف:
- ولهذا يطلقون على هنا لقب (النووي)..
وتراجع مطلقا ضحكة وحشية رهيبة، انتفضت لها كل خلية في جسد الفارس، الذي رفع فوهة بندقيته الليزرية القوية وأطلق (النووي) زمجرة هائلة ومعها أطلق صاعقة أخرى نحو الفارس ودوى انفجار جديد وعنيف..

☆ ☆ ☆

هي - البداية..
كل شيء له حل..
كل مأزق له مخرج..
ترددت العبارتان في رأس الشاب، وهو يستعيد قدرات أطرافه على الحركة رويدا رويدا..
لقد رددهما الفارس على مسامعه طويلاً، وهو يلقنه أسس الحياة والصراع ودربه على التعامل معهما هناك إذن وسيلة لاستعادة حركته وسيلة في مكان ما حوله..
وكل ما عليه هو أن يعثر عليها، وأن يجيد استغلالها وربما كانت هذه مواجهته الأولى..
في نفس اللحظات، التي دارت فيها هذه الأفكار، في ذهن الشاب، في المكمن الرئيسي، كانت بندقية الفارس الليزرية تنطلق في قاعة عرش زعيم المتحورين، الشهير باسم (النووي)، في الوقت الذي تصيب فيه صاعقة هذا الأخير صدر الفارس، وتنتزعه من مكانه وتلقى به أرضا في عنف..
ودوى الانفجار..

طلقة بندقية الفارس النووية أصابت هدفها بمنتهى الدقة، قبل أن تقتلعه صاعقة (النووي) من مكانه أصابت تلك المنطقة، التي تحوي شاشة الرصد، والكمبيوتر الخاص، وكل الملفات السرية القديمة ونسفتها نسفاً..

وعلى الرغم من أن الزعيم قد أصاب هدفه بنجاح، إلا أن الغضب الصارم كاد يعصف بنفسه، عندما فقد أشياءه الخاصة، فزمجر في وحشية، وصرخ:

- أيها التعس.

كان الفارس يبذل قصارى جهده، في محاولة للنهوض، مع الآلام الرهيبة المبرحة، التي انتشرت في جسده كله، ومزقت كيانه بأكمله على الرغم من الزي الواقي المنبع الذي يرتديه، عندما اتجه الزعيم نحوه بمنتهى الوحشية، وأجبره على النهوض، وهو يصرخ في وجهه:

- إذن فقد فعلتها

ابتسم الفارس في سخرية، على الرغم من تهالكه، وهو يقول:

- هذا عيب احتفاظك بالأسرار كلها لنفسك، وعدم مشاركتك الآخرين فيها..

أطلق (النووي) زمجرة رهيبة، وهو يصرخ:

- ما فقدته مجرد ملفات سرية، لن تعود لها أية فائدة، بعد أن أقضي عليك، وأستولي على جوادك المجنح هذا..

غمغم الفارس، وهو يستنفر كل ما تبقى من قواه؛ ليتماسك أمام (النووي) الوحشي:

- الأمر ليس بهذه السهولة

جذبه (النووي) إلى أعلى، حتى ارتفعت قدماه عن الأرض بمتر كامل على الأقل، وهو يصرخ في وجهه، وشعره الكثيف يتطاير أكثر وأكثر، وقد أحاطت به هالة زرقاء متألقة:

- أهذا ما تظنه؟! فلنر إذن كيف ستحلق وحدك، دون جوادك المجنح، الذي سيصبح ملكا لي بعد لحظات، عندما ألقيك عبر الجدار الزجاجي، الذي حطمته منذ قليل..
وانطلقت من خلفه ضحكة وحشية رهيبة، وهو يتجه بحمله نحو الجدار المحطم،
وفجأة، امتزجت ضحكته بصهيل قوى، وبخفقان جناحين قويين، يضربان هواء القاعة بمنتهى القوة..
وقبل أن يستدير (النووي).. بل وقبل حتى أن يستوعب الموقف هوى الجواد المجنح بقائمتيه الأماميتين على منتصف ظهره تماما..
ومع عنف الضربة ومباغتتها، اختل توازن (النووي)، وأفلت(الفارس)، في محاولة للحفاظ على توازنه، وهو يسقط أرضا..
وانطلق صهيل آخر من الجواد الأصيل، وهو ينطلق نحو فارسه الذي حاول النهوض بصعوبة..
حاول..
وحاول..
وحاول..
ولكنه لم يستطع أبدا..
الصاعقة التي أصابته، والطاقة التي انتزعتها منه هالة(النووي)، كلها استنفدت كل قواه، وجعلت حتى نهوضه يحتاج إلى طاقة، لا قبل له بها..
وبزمجرة وحشية رهيبة، اعتدل (النووي) واقفا، وقد تحولت الهالة المحيطة به إلى اللون الأحمر من شدة الثورة والغضب، وصرخ بكل انفعالاته:

- (النووي) لا يهزمه هجوم سخيف كهذا.. إنك لن تفلح في النهوض.. لن تغادر قاعتي حيا.. أبدا..
مرة أخرى، بدا وكأنه يلتقط نفسا عميقا، وراحت الهالة المحيطة به تتألق أكثر وأكثر، حتى تحولت إلى لون الدم..
كان من الواضح أنه يستعد لإطلاق طاقة ساحقة رهيبة، نحو الفارس؛ ليمحوه من الوجود تماما
ولكن الجواد الأصيل لم يكن قد استنفد كل ما لديه بعد لذا، فقد أقدم على تصرف، غاية في الغرابة لقد اندفع نحو فارسه، ودفعه برأسه في قوة، نحو الجدار المحطم، وكأنما فضل أن يقتله، عن أن يظفر به ذلك النووي الوحشي..
وانعقد حاجبا النووي في شدة، وهو يراقب هذا الموقف متسائلاً عما يمكن أن يعنيه
ولسبب ما، لم يشأ اعتراض ما يفعله الجواد كان يرغب في دراسة ذكائه، وقوته، وتلك الرابطة العجيبة، التي تربطه بفارسه، و..
ودفع الجواد الفارس عبر الفجوة..
وتركه يهوي من حالق..
ثم فجأة، ضرب الهواء بجناحيه، واندفع خلفه وفي انبهار، غمغم النووي، وهو يندفع نحو الحافة:
- لو أنه سيفعل ما أتوقعه، فهو يستحق كل ما بذلته للحصول عليه حتما..
ومن أعلى، تطلع (النووي) إلى الجواد الأصيل، الذي انخفض بسرعة مدهشة، حتى تجاوز فارسه، ثم اعتدل، وراح يضرب الهواء بجناحيه في قوة، ليلتقطه على متنه..
وبعدها اعتدل..
وبكل ذهول وانبهار الدنيا، هتف النووي:
- مستحيل!

وتابع الجواد، وهو يرتفع بحمله، وعيناه تتألقان أكثر وأكثر، وهو يهتف:
- سأظفر به.. لابد وأن أظفر به
قالها، ورفع يده، التي تدفقت إليها من جسده طاقة هائلة، مع استطرادته:
وبأي ثمن
كان واثقا من قدرته على إصابة هدفه، وتدميره، وذهنه يدرس كيفية الاستفادة من أشلاء الجواد فيما بعد، ليستنسخ علماؤه منها نسخة جديدة، لجواد مجنح آخر، يدين له بالطاعة والولاء والانتماء، مثلما يرتبط هذا الجواد بفارسه، و..
وفجأة، خيل إليه أن بصره قد اختل..
ففي سماء المدينة الكبيرة، لم يعد هناك جواد مجنح بل اثنان..
جواد يحمل الفارس، الذي يقاوم غيبوبته بصعوبة، ومهر مجنح آخر، يحمل فارسا جديدا ملثما، ينطلق نحوه هو مباشرة..
وبكل دهشة الدنيا، غمغم النووي:
- ولكن كيف؟!
وقبل حتى أن تكتمل غمغمته، أطلق ذلك الفارس الآخر قذيفة ما نحوه..
قذيفة شقت سماء المدينة الكبيرة لثوان قليلة، ثم انفجرت ومع انفجارها، سطع ضوء مبهر، حتى أنه أغشي الأبصار كلها، بما فيها عينى (النووي) نفسه، الذي صرخ في ثورة هادرة:
- ما الذي يحدث هنا؟!
كان المفترض أن يغشى ذلك الضوء المبهر المباغت كل الأبصار لعشر ثوان على الأقل، إلا أن طاقة (النووي) الهائلة جعلته يستعيد قدرته على الرؤيا بعد ثلاث ثوان فحسب، وهو يصرخ:
- لا.. لا يمكن أن..

ثم بتر عبارته دفعة واحدة
ولم يكمل قوله أبدا، من فرط ما يشعر به من غضب وذهول.
وفي الوقت الذي أعلن فيه (النووي) حالة الطوارئ القصوى في المدينة الكبيرة؛ لأول مرة في تاريخها، والذي أطلق فيه كل قواته؛ للبحث عن مدخل النفق السري، الذي قاد الفارس من وإلى قلب المدينة، وإيجاد تفسير لما أسماه بالصورة الوهمية المصغرة له، كان الشاب يثب من على متن مهره المجنح ويلتقط أستاذه وفارسه من فوق جواده، ثم يعدو به إلى حجرة الإسعافات الخاصة، ويحاول في توتر لا محدود، ربط جسده بأدوات الإسعافات والجراحات الآلية المبرمجة، ولكن الفارس ابتسم في ضعف وتهالك، مغمغما:
- لا فائدة يا (أمل).. لن تفلح التكنولوجيا هذه المرة..
ولأول مرة في حياته، تجاهل الشاب قول أستاذه تماما، وواصل مد الأجهزة إليه، في حين تابع هو، وابتسامته تحمل كل وهنه وانهياره:
- إنه نزيف داخلي.. أمر لن يمكنك السيطرة عليه.. إنني أشعر به جيدا.. برودة الأطراف، وتسارع نبضات القلب.. صدمتني.. لا أمل يا (أمل).
غالب الشاب دموعه وتأثره، وهو يقول:
- لا ينبغي أن نستسلم أبدا.. هذا ما علمتني إياه دوما
غمغم الفارس، وصوته يزداد ضعفا في كل لحظة:
- إلا أمام الموت
حاول الشاب أن يواصل عمله، إلا أن الفارس أمسك أصابعه في تهالك، وتطلع إلى عينيه مباشرة، وهو يقول:
- اسمعني جيدا، قبل أن يضيع الوقت
هتف الشاب:

- سيدي.. لابد وأن..
حمل صوت الفارس كل ما تبقى من صلابته، وهو يقول:
- اسمعني..
توقف الشاب، وتطلع إليه مباشرة، وترك دموعه تنساب على وجنتيه، والفارس يقول:
- لقد لقنتك كل ما أعرفه تقريبا، ودربتك على كل ما أمتلكه من مهارات، ولكن لا تكتف بهذا أبدا.. البشرية لن تتقدم، إذا ما اكتفى كل جيل بما وصله من الجيل السابق.. أضف إليك جديدا في كل يوم.. بل في كل ساعة.. اكتسب مهارات جديدة، ومعلومات جديدة.. ابحث في خزانة المعلومات عن كل ما ينقصك، وأضف إليها كل ما تحصل عليه وتفوز به.. اجعل منها معاونا كبيرا لك، وهذا لجيلٍ تالٍ،.. وقاتل دوما من أجل البشرية.. من أجل المبادئ، ومن أجل الحق.. من أجل كل ما تؤمن به.. فقط ما تؤمن به.
تمتم الشاب، ودموعه تغرق وجهه:
- سأفعل..
هز الفارس رأسه في ضعف، ثم عاد يرفع عينيه إليه، متسائلاً، بآخر ابتسامة في جعبته:
- وبالمناسبة.. كيف فعلتها؟! كيف تخلصت من حالة الجمود، التي وضعتك فيها؟!
غمغم الشاب في حزن:
- استخدمت جهاز امتصاص الطاقة.. زحفت إليه، والتصقت به، وأشعلته؛ فسحب من جسدي كل ما دفعته فيه، واستعادت أطرافي مرونة حركتها.
تهالكت ابتسامة الفارس، وأسبل جفنيه، متمتما:
- أحسنت.

ثم تراخت أصابع الفارس، وتخلت عن أصابع الشاب، وحملت ابتسامته نزعه الأخير، وهو يتمتم في خفوت:
- أنت الأمل القادم.. الفارس القادم.. فارس المستقبل..
وكانت هذه آخر كلماته..
وسقط الشاب على ركبتيه إلى جواره، وانهمرت دموعه غزيرة كالفيض لقد رحل أستاذه ومعلمه رحل الفارس..
انتهى زمنه وجيله..
ولكن الصراع لم ينته..
فقد بقي جيل آخر..
وفارس آخر..
جيل ما زال يحمل لمحة أمل..
وفارس لن يوقفه عن مواصلة الصراع سوى الموت..
فارس المستقبل..
كل المستقبل..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

Notes

[←1]

طروادة: مدينة قديمة شرق (هلسرليك) في (تركيا)، ذكرها الشاعر العظيم(هوميروس) في ملحمته (الإلياذة) واستعان الأثري الألماني (هينيريش شليمان) بما ورد في تلك الملحمة، ليقوم بعدة حفريات متتابعة (١٨٧٤ - ١٨٨٢م)، حتى عثر عليها بالفعل، وعلى آثار الحرائق والدمار، التي تثبت أن (طروادة) كانت حقيقة، وأنها كانت من أهم مراكز الحضارة، حول بحر أيجه.

[←2]

* حقيقه

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الزهرة القرمزية

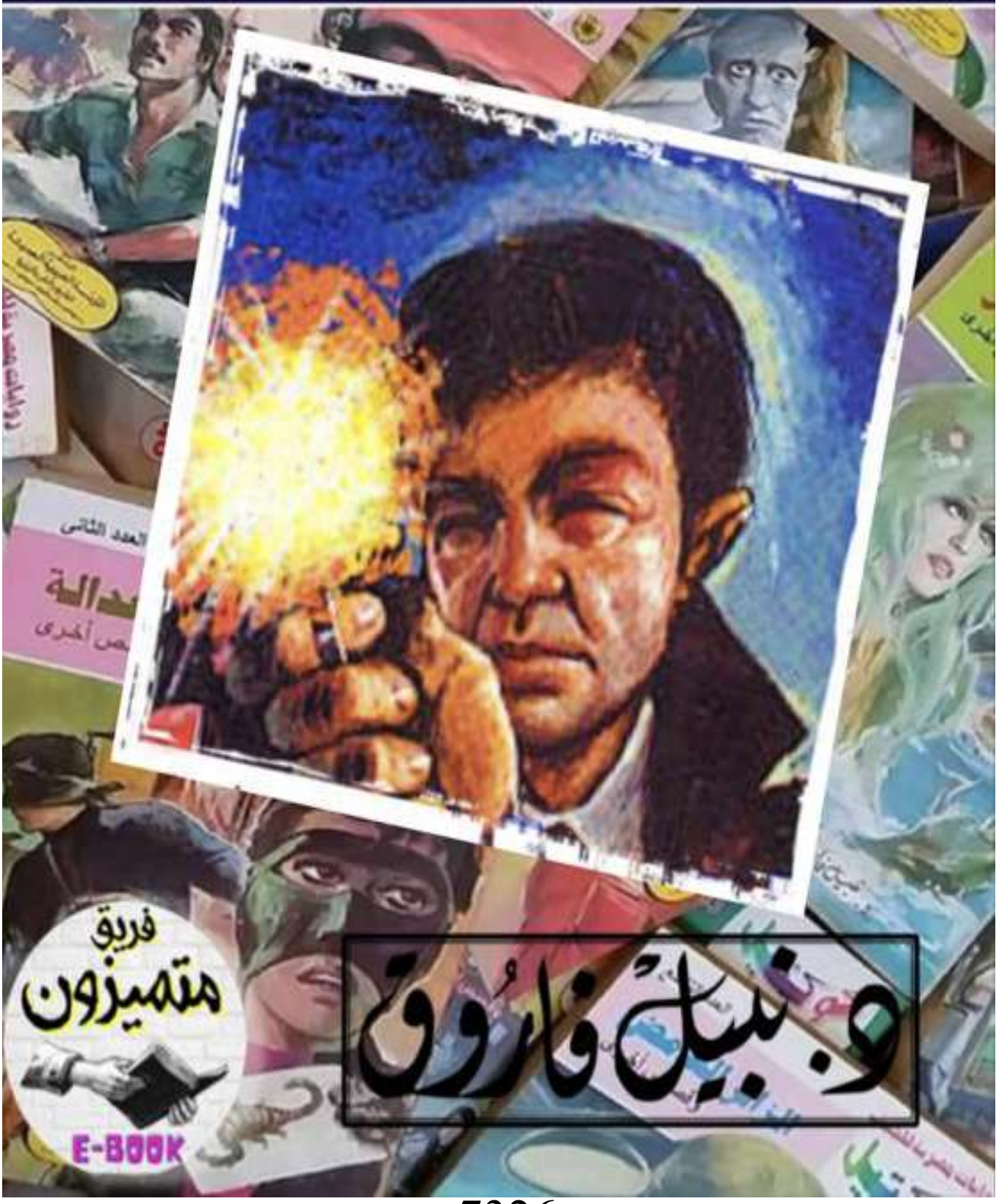

نبيل فاروق

فريق متميزون

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

) كلمه مهمة (:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

الزهرة القرمزية

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- الزهرة..

كان يوما رائعا بالتأكيد، فالشمس مشرقة، والأشجار وارقة، والطيور الصغيرة الجميلة تتنقل بين أغصانها مرحة مغردة، والنسيم جميل عليل..

وفي سعادة جمة، استنشقت هي الهواء النقي في استمتاع، قبل أن تلتفت إليه، هاتفة في مرح:

- أسرع يا (مدحت).. نريد أن نستمتع باليوم من أوله.

ابتسم (مدحت) في هدوء كعادته، وحمل حقيبة الشطائر الصغيرة، وهو يتجه بها نحو السيارة، قائلاً:

- اليوم ما زال في بدايته.

راقت لها ثيابه البسيطة، التي تتناسب كثيرا مع ألوان الربيع المحيطة بهما، وقالت في حب:

- اليوم كله لا يكفي للتنزه معك.

مرة أخرى، ابتسم تلك الابتسامة العنبة الهادئة، وهو يتحسس خذها الناعم برفق، هامسنا في حب:

- ولا الدهر كله يكفي معك.. إنني لا أشبع منك أبدا.

قبلت يده، وارتفع حاجباها في تأثر، وهي تتطلع إليه، وراودتها فكرة لم يكن من الممكن تنفيذها في الشارع، فطردتها من رأسها في سرعة، وأخفتها بضحكة، وهي تقول:

- هيا بنا إذن.

أخرج من جيبه مفاتيح السيارة، ولوح بها، قائلا بابتسامة:

- من سيقود هذه المرة؟!

هزت كتفيها في دلال، قائلة:

- أنت الرجل..

- يا إلهي.. كم أحبه!
كان أحب إنسان إليها، في الوجود كله..
وأول حب، في حياتها كلها..
وكم تمنت في تلك اللحظة أن تلقى نفسها بين ذراعيه..
كم تشتاق لحبه
وحنانه..
ورقته..
ورجولته..
اتسعت ابتسامته في حب وحنان، جعلها تهتف في أعماقها:
بدا وكأنه يقرأ أفكارها، عندما مال على أذنها، هامسا:
- أحبكِ.
اختلج قلبها في عنف، وكادت تصرخ في وسط الشارع بأنها تحبه..
تحب كل ذرة منه..
كل لمحة..
كل همسة..
ولكنه قالها، واتجه نحو السيارة..
ووقفت هي تتابعه في سعادة، قبل أن تتجه بدورها نحو السيارة، وبينما تفتح بابها، لاحظت تلك السيارة القديمة، التي تتجه نحوهما في سرعة..
ولمحت فوهة المدفع الآلي، التي تبرز من نافذتها الخلفية..
وبكل ما اعتمل في نفسها، صرخت:
- احترس يا مدحت!
ودوت الرصاصات..
بمنتهى العنف..
وانتفض جسدها كله..

انتفض، وهي تهب من نومها، مطلقة صرخة حادة..
ولنصف دقيقة تقريبا، راحت تتلفت حولها في توتر شديد، وأنفاسها تتلاحق في شدة، كما لو أنها كانت تعدو بكل قوتها في نومها..
ثم لم تلبث أن دفنت وجهها في كفيها، مغمغمة في أسى:
- رباه!.. هذا الكابوس يتكرر ويتكرر.. لم أعد أحتمله..
بقيت في فراشها عدة دقائق، محاولة السيطرة على أعصابها، واستعادة تماسكها، ولكن فجأة، انطلق رنين الهاتف المجاور للفراش، فانتفضت مرة أخرى في عنف، ووثبت يدها تلتقط سماعته، وهي تقول في حدة:
- من؟!
سمعت صديقتها (رنا)، تقول في دهشة:
- ماذا بك؟!.. هل أجريت الاتصال في وقت غير مناسب؟!
اعتدلت مجيبة:
- كلا.. لقد استيقظت للتو فقط.. أهلا بكِ.
صمتت (رنا) لحظة، ثم قالت:
- هل نسيتِ أننا اتفقنا على الذهاب للمبنى التجاري اليوم؟!
نهضت من فراشها، وهي تجيب:
- كلا.. لم أنس.. امنحيني نصف ساعة فحسب، وسألحق بكِ هناك.
أجابتها (رنا):
- لا بأس.. أنا هناك بالفعل.. سأنتظرك.
أنهت المحادثة، ونهضت تستعد للخروج.
وعندما ارتدت ملابسها، امتدت يدها إلى علبة مخملية صغيرة، وفتحتها في اهتمام، وتطلعت لحظة إلى حلية صدر، على شكل

زهرة، ذات نصوص قرمزية اللون، ثم مدت أصابعها، والتقطتها في رفق، وثبتتها على صدرها..
وبينما تفعل، بدأ عقلها ينطلق نحو ذكريات بعيدة..
بعيدة نسبيا..
ولكنها هزت رأسها في عنف، قائلة في حدة:
- كلا..
ودون أن تترك لعقلها فرصة الانغماس في الذكريات مرة أخرى، اندفعت تغادر منزلها..
بمنتهى السرعة..

☆ ☆ ☆

«ياسمين..»
ارتسمت ابتسامة عذبة هادئة، على شفتي (ياسمين)، وهي تلتفت إلى صديقتها (رنا)، التي ظهرت عند مدخل ذلك المبنى التجاري الكبير، ولوحت لها بيدها، فأسرعت (رنا) نحوها، وهي تهتف بصخب كعادتها:
- أعلم أنني قد تأخرت عن موعدنا، ولكنني لست مستعدة لسماع كلمة عتاب واحدة.
ضحكت (ياسمين) في رقة، قائلة:
- ومن المستعد لقولها؟!
ثم غمزت بعينها، مستطردة في مرح هادئ:)
- إنها لا تجدى أبدا
أطلقت (رنا) ضحكة عالية، وهي تدلف مع صديقتها إلى المبنى التجاري، قائلة في مرح:
- جميل أنه هناك أمر نتفق عليه
كانت أول زيارة لهما، إلى ذلك المبنى الفاخر، الذي تتحدث عنه العاصمة المصرية كلها، ولقد بدا في حلة مبهرة، حتى إن (رنا)

هتفت في حماس:
- يا إلهى!.. هذه الأماكن تتطور كل يوم
هزت (ياسمين) كتفيها، قائلة:
- هذا أمر طبيعي.. كل شيء يتطور بسرعة هذه الأيام..
وافقتها (رنا) في حماس، وراحت كلتاهما تتفقدان المعروضات الأنيقة الحديثة، وتوقفتا معا عند ركن أدوات التجميل، والتقطت رنا) زجاجة صغيرة من طلاء الأظافر، وهي تهتف بحماسها المعهود:
- انظرى.. من يصدق أن يتواجد هذا النوع هنا؟.. إنه فاخر وباهظ الثمن للغاية.
تلفتت (ياسمين) حولها، قبل أن تقول في اهتمام:
- كل شيء هنا باهظ الثمن، وكأنه مكان للأثرياء فقط
ثم تطلعت إلى صديقتها، التي انهمكت في طلاء أحد أظافرها بذلك الطلاء الفاخر:
- ترى كم تبلغ المبيعات اليومية، لمكان كهذا؟

☆ ☆ ☆

«نصف مليون جنيه..»
نطق (صفوت) العبارة، في جشع واضح، وهو يجلس داخل سيارته عتيقة الطراز، مع أفراد عصابته الثلاثة، أمام ذلك المبنى التجارى وعلى الرغم من الجشع الواضح، الذي أطل من عيونهم جميعا، تساءل (وليد)، وهو أصغرهم سنا، وأكثرهم عبقرية، في التعامل مع أجهزة الكمبيوتر والإلكترونيات، في توتر ملحوظ:
- اقتحام مكان كهذا لا يكون سهلا أبدا؛ فهو مجهز بوسائل تكنولوجية أمنية عديدة، فالبوابات كلها تحوى أجهزة كشف أسلحة، وهناك نظام إلكتروني خاص، يغلق كل الأبواب، في حالة

الخطر، بحيث يمنع الدخول إلى المكان، أو الفرار منه، كما أن الطوابق كلها مراقبة بشبكة تصوير إلكترونية، و..
قاطعه (صفوت) في ضجر:
أظننا نعلم كل هذا، وراجعناه أكثر من مرة
وزمجر (أشرف)، خبير الأسلحة السابق، وهو يضيف في خشونة:
- ولهذا أضفناك إلى الفريق.
مط (وليد) شفتيه، وهو يقول في توتر:
ما زلت أجد الأمر معقدا.
أجابه (باسل)، إخصائي الخزائن في غلظة:
- قم بدورك فحسب، واترك لنا الباقي
مط (وليد) شفتيه مرة أخرى، وهز كتفيه، قائلاً:
- فليكن

راح الأربعة يراجعون خطتهم في سرعة، قبل أن يعتدل(صفوت)، ويقول في صرامة:
- هيا.. ابدأ التنفيذ
مع قوله، وعلى الرغم من توتره، دفع (وليد) باب السيارة المجاور له، وضم ياقتى سترته، ودس كفيه فيها، وهو يتجه في خطوات عصبية، نحو المدخل الرئيسي للمبنى التجاري،
فتمتم (أشرف) في خشونة: -
- أتظنه سينجح في أداء دوره.
تراجع (صفوت) في مقعده بكل هدوء، وأسبل عينيه في ثقة، قائلا:
- بكل تأكيد. -

في نفس اللحظة، التي نطق فيها كلمته، كان (وليد) يعبر المدخل الرئيسي، فانطلق أزيز كاشف الأسلحة الإلكتروني، على نحو جعل حارس الأمن يتحفز، ويده تسرع نحو مسدسه، فأخرج (وليد) يده من جيب معطفه، حاملة جهاز كمبيوتر يدوى صغير، وهو يقول في توتر:
- اهدأ يا رجل.. إنه جهازي فحسب
قال الحارس، دون أن يفقد تحفزه:
- اتركه هنا، واعبر البوابة مرة أخرى يا سيدى

نفذ (وليد) أوامره، وصمتت البوابة هذه المرة، وعبرها هو إلى داخل المبنى، ثم أخرج ذلك الكمبيوتر اليدوى، وراح يضغط أزراره في لهفة، قبل أن يهتدى بالخريطة المرسومة على شاشته؛ لبلوغ هدفه الرئيسي ولم تمض دقائق خمس، حتى كان يقف أمام هدفه لوحة تحكم إلكترونية فرعية، في الطابق الأرضي من المبنى..
وبسرعة تليق بمحترف، راح يوصل أقطابا دقيقة، من جهاز الكمبيوتر اليدوى، إلى لوحة التحكم الإلكترونية.
وبسرعة أكثر، أصبح داخل الدائرة الرئيسية..
وفي قفزات سريعة دقيقة، تعرف طريقها جيدا، راحت أصابعه تجرى على أزرار الكمبيوتر اليدوي الصغير، الذي رسمت شاشته مجموعة من المنحنيات المتداخلة، قبل أن ينطلق أزيز خافت، انتفض له جسد (وليد) في انتعاش، وانتقلت معه أصابعه إلى هاتفه المحمول، وضغط أزراره، ولهث في انفعال وهو يقول لزعيمه (صفوت):
أجهزة كشف الأسلحة توقفت عن العمل، ونحن نمتلك الآن السيطرة الكاملة، على دائرة الأمن الإلكترونية للمبنى..

تألقت عينا (صفوت)، عند سماعه العبارة، وقال لرفيقيه في حزم:
- هيا بنا
هبط الثلاثة من سيارتهم، مرتدين معاطفهم الثقيلة، وكل منهم يخفى تحت معطفه مدفعا آليا قصيرا، وعبروا البوابات الإلكترونية في تتابع هادئ، دون أن تطلق إنذاراً واحدا، وما إن أصبحوا داخل المبنى، حتى اتجهوا في حزم، نحو الخزانة الرئيسية، التي تتجمع فيها حصيلة إيرادات اليوم كله، وملامحهم تشف عن قسوة لا محدودة، و..

☆ ☆ ☆

«ما رأيك في هذا الثوب؟!..»
ألقت (رنا) السؤال، بذلك الحماس، الذي بدا جزءا من شخصيتها، فابتسمت (ياسمين)، التي تقف عند الطرف الآخر للمتجر، وقالت:
- أظن المكان كله يمكن أن يخبرك برأيه، مع صوتك المرتفع هذا؟!
لوحت (رنا) بذراعيها، وهي تهتف في غضب طفولى:
- لماذا لا تقولين رأيك ببساطة.. أمن الضروري أن يصبح كل شيء معقدا معك؟!
اتسعت ابتسامة (ياسمين)، وهي تقول:
- إنه جميل، ولكنني أحتاج إلى رؤيته في ضوء أفضل..
تهللت أسارير (رنا)، واندفعت حاملة الثوب الأنيق، وهي تعبر به باب متجر الثياب، هاتفة:
- هل يناسبك هنا؟!
كانت تتحرك في سرعة وعشوائية، حتى إنها لم تنتبه إلى(أشرف)، فارتطمت به في عنف، وهو يسير أمام متجر الثياب ومع

اصطدامهما سقطا معا..
وانعقد حاجبا (ياسمين) في شدة..
ليس لأن صديقتها قد سقطت أرضا ولا لأن طرف الثوب قد تمزق أثناء سقوطها ولكن لأن سقوط (أشرف) معها، قد أزاح طرف معطفه عن مدفعه الآلى، فانكشفت فوهته في وضوح ولمحتها (ياسمين)..
وانعقد حاجباها واستعاد عقلها ذكرى بعيدة ومؤلمة..
وشعرت بغضب..
وثورة..
ولمح (صفوت) نظرة (ياسمين)..
وحاجبيها المعقودين وتلك الانتفاضة، التي سرت في جسدها كله ولأنه محترف، فقد أدرك أن الأمر قد انكشف وقبل أن يبدأ..
وفي سرعة استجابة مدهشة، قرر (صفوت) أن هناك حلاً واحدا فحسب، لهذا الموقف غير المتوقع..
الانتقال إلى الخطة البديلة.
الخطة (ب)..
ودون ذرة واحدة من التردد، سحب مدفعه الآلى، وأطلق رصاصاته في الهواء، وهو يجذب إليه (رنا) من شعرها، قبل أن يكتمل نهوضها، صائحاً:
- المكان تحت السيطرة
وقبل أن تتحرك (ياسمين)، كانت الصرخات تنطلق، في كل مكان من المبنى التجارى، والجميع يعدو دون أدنى نظام وانطلقت صفارات الإنذار قوية في المكان وأغلقت الأبواب آليا..
وتحول المبنى الشهير، في لحظة واحدة، إلى مصيدة ..مصيدة موت..

☆ ☆ ☆

اندفع العقيد (ياسر برهان)، رئيس قسم مكافحة الإرهاب داخل ذلك الفندق الفاخر، المجاور للمبنى التجاري الكبير، وهو يسأل ضباط المباحث، الذين احتشدوا هناك:

- ما الموقف بالضبط؟! -

أجابه أحدهم في توتر:

- إرهابيون احتلوا المبنى التجارى يا سيادة العقيد.. ليست لدينا معلومات كافية بعد.. لا أحد يدرى حتى كيف نجحوا في إدخال الأسلحة إلى المكان، مع وجود كل وسائل الكشف الإلكترونية هذه.

تساءل:

- وماذا لديكم من معلومات غير كافية؟

تبادلوا نظرة متوترة، قبل أن يغمغم أحدهم:

- الواقع هو أنه ليست لدينا معلومات على الإطلاق.

زمجر العقيد (ياسر)، قائلاً:

- أكره عندما أعمل كالأعمى.. لا يوجد ما يسمى بالغياب التام للمعلومات، في أية قضية.. هناك حتما شيء ما.. طرف خيط يمكن أن نلتقطه، وننطلق منه إلى حقيقة صغيرة، تقودنا إلى حقيقة أكبر.. وهكذا..

بدا مزيج من الحيرة والتوتر، على وجوه رجال المباحث مما أورثه مزيدا من الغضب، وهو يقول في حدة:

- أين المسئول عن تأمين المبنى؟!

أجابه أحد الضباط في سرعة:

- إنه هنا يا سيادة العقيد.. لقد استدعيناه فور وقوع الحادث.

أدار (ياسر) عينيه إلى حيث يشير الضابط وفرز ذلك الأنيق الذي يقف هناك في سرعة، قبل أن يسأله في صرامة:

- أي منطق هذا، الذي يدفعك إلى تصميم نظام أمن إلكتروني، تغلق فيه كل الأبواب، دون مدخل احتياطي واحد، عند حدوث أية طوارئ؟!.. ماذا لو شب حريق ما؟!.. هل سيشوى رواد المكان في الداخل.

أجابه الرجل في هدوء مستفز:

- حالات الحريق تختلف، فالدخان يشعل نظام أمن مختلف، تفتح فيه جميع الأبواب، حتى الأبواب الاحتياطية

انعقد حاجبا (ياسر)، وهو يقول في لهفة:

- أتعنى أنه لو أشعل أحدهم حريقا ما بالداخل، فستفتح الأبواب تلقائيا..

أومأ المهندس برأسه إيجابا، وقال:

هذا صحيح.. ولكن كيف نبلغهم هذا؟!

-تراجع العقيد (ياسر) بحركة متوترة، وهو يقول:

- ألا توجد وسائل اتصال بداخل المكان؟!

انتقل بعينيه مع سؤاله، إلى أكبر الضباط رتبة، فتنحنح هذا الأخير في توتر، وهو يقول:

- من الواضح أنهم يسيطرون على الشبكة الإلكترونية للمكان وهذا يتضمن آلات المراقبة، ونظم الاتصالات.

تساءل (ياسر):

- وماذا عن اتصالات الهواتف المحمولة؟!

تنحنح المهندس في توتر، وهو يقول:

- لقد تم تزويد المبنى بجهاز خاص، لقطع كافة اتصالات الهواتف المحمولة، في حالات الـ.. الطوارئ.

شعر (ياسر) بغضب هادر، يعربد في أعماقه، وتمنى لو أنه باستطاعته أن يجز عنق ذلك المهندس الواقف أمامه، وهو يقول في حدة:

- هل لك أن تخبرني كيف كنت تفكر بالضبط، عندما وضعت نظامك الأمني السخيف هذا؟!
غمغم المهندس:
في حماية المكان والممتلكات.
قاطعه في حدة:
- وماذا عن البشر.
بدا المهندس مصدوما، وكأنما لم يخطر هذا الاحتمال بباله قط، فكظم (ياسر) غيظه في صعوبة، وهو يطلق من أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة، ويسأل في عصبية:
- وماذا عن تسجيلات المراقبة السابقة؟!
كانت الدهشة هذه المرة من نصيب ضباط المباحث، الذين تبادلوا نظرات متوترة، حسمها المهندس بقوله:
- كلها متوفرة، في المركز الرئيسي
قال (ياسر) في حنق:
- داخل المبنى التجاري بالطبع
هز المهندس رأسه نفياً، وهو يجيب:
- بل هنا.. في الفندق
اتسعت عينا (ياسر)، وهو يهتف:
- هنا؟!
ثم صرخ بكل الغضب:
- ماذا تنتظر إذن؟!.. اذهب لإحضارها يا رجل.. أريد مشاهدة كل ما حدث داخل المبنى التجاري، خلال نصف الساعة، التي سبقت الاقتحام...
أسرع المهندس لإحضار شرائط المراقبة، في حين اندفع ضابط في زي أسود نحو العقيد (ياسر)، وأدى التحية العسكرية، قائلاً:

- فرقة مكافحة الإرهاب مستعدة لتلقى أوامرك، يا سيادة العقيد..
مط (ياسر) شفتيه، وألقى نظرة عبر النافذة المجاورة على جنود فرقة مكافحة الإرهاب، الذين تراصوا بملابسهم السوداء أمام المبنى التجاري، وهم يؤدون تمارين الإحماء، وأصواتهم ترج المكان، ثم غمغم في توتر:
- وما الذي يمكن أن تفعله فرقة مكافحة إرهاب، في موقف كهذا؟!
أجابه الضابط، الذي بدت عضلات ساعديه منتفخة، أكثر من اللازم:
- يمكننا أن نحاصر المبنى، ونستخدم سيارة مدرعة، في اقتحام مدخله، في نفس الوقت الذي يتم فيه تنظيم هجوم شامل، من السطح
كتم (ياسر) توتره في أعماقه، وهو يسأل:
- وأي أسلحة ستستخدمونها في الهجوم؟!
شد الضابط قامته، وهو يجيب في حزم:
- كل أنواع الأسلحة، التي تؤمن نجاح المهمة يا سيدى طلع إليه (ياسر) بنظرة خاوية، وهو يحاول تخيل المبنى التجاري شديد الازدحام، وفرقة مكافحة الإرهاب مقتحمة على هذا النحو وبعين الخيال، رأى الهجوم.. والاقتحام.
والانفجارات..
والرصاصات التي تتطاير في كل مكان..
ورأى ما هو أخطر الدم..
أنهارا من الدم، تسيل في طوابق المبنى، مع عشرات الضحايا من رواده الأبرياء المسالمين، الذين سيجدون أنفسهم محاصرين بين

نيران المجرمين وتفجيرات مكافحة الإرهاب ولقد بدت الصورة مفزعة..
مفزعة للغاية..
لذا، فقد التقط نفسا عميقا، وهو يقول للضابط، منتفخ الساعدين:
- دعونا لا نتعجل الأمور.. الاقتحام العنيف سيكون له ضحايا حتما..
وعاد يلقي نظرة على الجنود، قبل أن يشيح بوجهه، مضيفا:
- ثم إننا لم نعرف مطالب الإرهابيين بعد
أجابه الضابط في صرامة:
- مطالبهم لن تصنع فارقا يا سيدى
حاول (ياسر) التذرع بالصبر، وهو يسأله:
- هل ترى هذا؟!
قال الضابط في لهجة قوية، وبأسلوب يبدو وكأنه تدرب عليه؛ ليلقى كلمات محفوظة، عن ظهر قلب:
- سياسة الوزارة تعتمد على عدم التفاوض مع الإرهابيين وعدم التهاون معهم؛ حتى لا يغرى هذا آخرين بتقليدهم سياسة الوزارة..
وسياسة الدولة..
فهو زمن التطرف.
والغضب.
والإرهاب.
كم يمقت (ياسر) هذه المصطلحات الكبيرة، عندما يتم استخدامها في مواقف شديدة الحساسية كهذه
المفترض في سياسة أي وزارة، أن تعتمد على إنقاذ حياة الأبرياء..
وأن يكون هذا هو الهدف الأول لها بلا منازع.. وبلا مساومة..

ولكن الزمن يختلف عن أي زمن آخر، مارس فيه مهنته ومعطيات الموقف، حتّمت وجود سياسة جديدة سياسة تستهدف القضاء على الإرهاب، بالدرجة الأولى أيا كان الثمن..
ومهما كانت التضحيات.
ولكنه لن يقبل بهذا أبدا.
لن يقبل التضحية بالأبرياء، مهما كانت الظروف..
ضميره لا يكن أن يقبل بهذا..
ومن حزم وحسم، شد (ياسر) قامته بدوره، وقال:
- مهما كانت سياسة الوزارة.. سننتظر..
في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كان شحوب(رنا) قد بلغ ذروته، وهي في قبضة (صفوت)، الذي ألصق فوهة مدفعه الآلي بصدغها، وهو يقول لرفيقيه (باسل) و(أشرف):
- أبلغا رقم أربعة أننا نعمل وفقا للخطة (ب).. وأننا نسيطر على الموقف حتى الآن، ثم أسرعا بتنفيذ عملية الاقتحام، حتى لا تتأخر عن التوقيت

كان الرعب مرتسما، بأجلى صوره، على ملامح (رنا)، و(صفوت) يبتسم في ظفر، ويكشر عن أسنان قذرة، غير منتظمة..
ولقد أعاد هذا ذكرى أخرى، إلى عقل (ياسمين).. ذكرى تبغضها كل البغض..
ذكرى، جعلتها تمد يديها في تلقائية، لتتحسس حلية الصدر المصنوعة على شكل زهرة، ذات فصوص قرمزية.. ما حولها ومع ملمس زهرتها القرمزية، شعرت بالغضب..
غضب شامل..
غضب، لم تشعر بمثله، منذ سنوات..
سنوات ليست بالكثيرة وليست بالقليلة

وبكل الغضب والمقت في أعماقها، تطلعت إلى (صفوت)، الذي زمجر في شراسة واضحة، وصاح بها:
- ابتعدى.
أشارت إليه (ياسمين)، وهي تقول محذرة:
. إياك أن تمس شعرة واحدة من (رنا)، وإلا..
قاطعها في سخرية شرسة:
- وإلا ماذا أيتها المتحذلقة.. هل ستحطمين أنفى؟
لوهلة، أطلت من عينيها نظرة صارمة، قبل أن تعقد ساعديها أمام صدرها، قائلة:
- من يدرى؟!.. ربما.
انفجر ضاحكاً..
ضاحكا في سخرية، وهو يجذب (رنا) المذعورة إلى حافة الشرفة، التي تطل على فراغ المبنى الفسيح، قائلاً:
- وماذا لو ألقيتها من هنا أمام عينيك؟
شهقت (رنا) في ارتياع، وهي تلوح بكفيها، هاتفة بصوت مختنق:
- (ياسمين).. أرجوك..
انعقد حاجبا (ياسمين) في شدة، في حين كرر (صفوت) ضحكته الساخرة، وهو يقول:
- (ياسمين).. اسمك (ياسمين)؟!.. الأفضل يا صغيرتي أن تدخري جهدك لاختبار أدوات التجميل، بدلاً من أن تطلقي تهديدات جوفاء، لن تجدى شيئا
ازداد انعقاد حاجبيها في توتر، في حين التفت هو إلى رفيقيه، صارخا:
- ماذا تنتظران؟!
وجذبت العبارة انتباه (ياسمين)..
بشدة..

صرخته انتزعتهما من توترهما، وجعلتهما يسرعان نحو خزانة الطابق الأرضى، و(أشرف) ينقل الأوامر إلى (وليد)، عبر جهاز اتصال لاسلكي محدود.. أما (ياسمين)، فقد حاولت أن تلتزم الصمت، إلا أنها وجدت نفسها تسأل (صفوت)، في شيء من التحدى:

كيف تصورتم خروجكم من هنا؟!

ألقى نظرة ساخرة على رواد المكان، الذين تجمعوا مذعورين، يحدقون فيه في رعب، وقال متحديا بدوره:

- لا تقلقي نفسك بشأننا يا صغيرتي.. نحن نعرف طريقنا جيدا هنا.

ومع عبارته، كان العقيد (ياسر) يطالع شرائط المراقبة ويستعرضها في سرعة، قبل أن يتوقف عند مشهد بعينه، وأشار إلى الشاشة أمامه، قائلاً في صرامة وغضب: -

- كيف فات رجال الأمن هذا؟!.. هؤلاء الثلاثة يرتدون معاطف لا تتناسب مع حالة الطقس الفعلية.. وهذا الانتفاخ يوحي بأن الشخص في مقدمتهم يخفى بندقية، أو مدفعاً آليا تحت معطفه.

قال المهندس في عصبية:

- مدفع آلي.. مستحيل!.. لو فعل هذا، لانطلقت صفارات أجهزة كشف الأسلحة

حك (ياسر) ذقنه، قائلاً:.

- ولكنها لم تنطلق.. وهنا يكمن التساؤل!

بدا المهندس حائرا مرتبكا، وانتقلت حيرته إلى وجوه الضباط المحيطين به، والذين راحوا يتابعون الشاشات بدورهم، حتى

أوقف العقيد (ياسر) المشهد فجأة، وهو يقول في شيء من اللهفة:
- أهذا معقول؟!
ومال نحو الشاشة، يتطلع عن قرب، إلى ذلك المشهد، الذي ارتطمت فيه (رنا) بـ(أشرف)، ثم قال في اهتمام:
- هل يمكن تقريب الصورة؟!
أسرع المهندس يضغط الأزرار أمامه، وهو يقول:
- بالتأكيد..
ومع تكبير الصورة، تألقت عينا العقيد (ياسر)، واعتدل قائلاً، في لهجة حملت قدرا هائلاً من الارتياح:
- عظيم.. مصادفة مدهشة، ولكنها تضمن لنا إنهاء هذا الموقف بأدنى خسائر ممكنة..
شعر الجميع بالدهشة؛ لذلك التحول الذي طرأ عليه، وتساءل أحد ضباط المباحث، وهو يشير إلى شاب مفتول العضلات، يظهر في ركن الشاشة:
- أتتحدث عن هذا يا سيادة العقيد؟!
أدهشتهم أكثر ابتسامة (ياسر)، والثقة التي بدت واضحة في صوته، وهو يقول:
.. بل عن هذه.
قالها، وهو يشير إلى آخر شخص يمكن أن يتخيله الجميع إلى حاملة الزهرة القرمزية إلى (ياسمين)..
مباشرة....

☆ ☆ ☆

٢ - الخطة..

«كل شيء يمكن تعويضه..»
ترددت العبارة في رأس زعيم العصابة (صفوت)، وهو يقترب من سور الطابق، داخل المبنى التجاري، وذراعه اليسرى تحيط بعنق (رنا) في قسوة، في حين تدير يمناه فوهة مدفعه الآلي فيما حوله، في تحفز وحشي..
فمن أسوأ صفاته، أنه يعتبر نفسه دوما عبقرية نادرة..
ولم يبال يوما بأنها عبقرية شريرة..
إجرامية ووحشية..
عثوره على (وليد) كان، في حد ذاته، لمحة عبقرية لقد التقى به في مقهى من مقاهي الإنترنت، وأدرك براعته منذ اللحظة الأولى، مما أوحى إليه بالخطة كلها..
خطة أول سرقة إلكترونية، في تاريخ مصر..
ولأنه شديد الحذر، فقد استعان بمحترفين..
(أشرف) خبير الأسلحة..
و(باسل) خبير الخزائن.
ومع عبقرية (وليد)، في التعامل مع النظم الإلكترونية، كانت الخطة محكمة بحق.. على الرغم مما حدث..
فبينما كان يضع خطته، وكلاعب شطرنج قديم، وضع كل الاحتمالات في الحسبان. حتى احتمال فشل الخطة الرئيسية..
وحضور قوات الشرطة..
كل شيء مدروس بدقة..
بمنتهى الدقة...
«إذن فلن تتركها..»

قطعت (ياسمين) أفكاره بتلك العبارة، التي نطقتها في صرامة أدهشت صديقة عمرها، واستفزت (صفوت) بشدة وجعلته يقول في شراسة وحشية:
- كلمة إضافية واحدة، وأنسف رأسها أمام عينيك...
دارت عينا (رنا) في محجريهما، من شدة الرعب، مع عبارته الأخيرة، وكادت تبكى، وهي تهتف:
- (ياسمين).. أرجوك.
تطلعت إليها (ياسمين) بعينين خاويتين، على نحو عجيب قبل أن تعيد بصرها إلى (صفوت)، وكأنها تقيمه ببصرها، بطريقة ما، انتبه هو إليها، فقال في شراسة:
نظراتك لا تروق لي..
هزت كتفيها في هدوء، قائلة:
- ولكنك أنت من يحمل السلاح ·
لم ترق له عبارتها قط، على الرغم من أنه الذي يحمل السلاح بالفعل، فتراجع أكثر، حتى التصق ظهره بالحاجز الزجاجي للطابق الذي يطل على فراغ طابقين تحت أرضيين، وقال في حدة:
أظنك تحتاجين درسا قاسيا..
قالها، ثم رفع يده عن عنق (رنا) لحظة، ليجذب إبرة مدفعه الآلي..
كانت لحظة واحدة
ولكنه لم يكد يفعلها، حتى تحركت (ياسمين).. كالبرق...

☆ ☆ ☆

تبادل رجال المباحث، حول العقيد (ياسر) نظرة صامتة متوترة، قبل أن يتطلعوا جميعا إلى صورة (ياسمين)، وملامحها الرقيقة،

التي تملأ الشاشة بعد تكبيرها، ثم يكسر أحدهم حاجز الصمت، متسائلاً:
- وما الذي تساويه تلك الفتاة بالضبط؟!
التقط العقيد (ياسر) نفسا عميقا، قبل أن يجيب باقتضاب:
- الكثير..
مرة أخرى، راح الجميع يحدقون في ملامحها، ثم تساءل آخر في حذر:
- وكيف هذا؟!
أشار العقيد (ياسر) إلى الشاشة، مجيبا في لهجة، حملت كل الفخر والزهو والاعتزاز:
- إنها تلميذتي..
وصمت لحظة، ثم أضاف: -
- أفضل تلامذتي، على الإطلاق
هتف أحدهم مستنكرا:
- ولكنها مجرد فتاة
رمقه العقيد (ياسر) بنظرة مستهجنة، قبل أن يقول في صرامة:
- من تراها بنظرك المحدود مجرد فتاة، أراها أنا مقاتلة فريدة الطراز، في قوات مكافحة الإرهاب..
اتسعت عيون الجميع بمنتهى الدهشة، وهتف أحدهم مستنكرا:
- مكافحة الإرهاب؟!.. تلك؟!
ثم أضاف آخر في عصبية:
- وما الذي يمكن أن تفعله فتاة واحدة، مهما بلغت براعتها، مع ثلاثة من العمالقة، كالذين رأيناهم على الشاشة..
بدا العقيد (ياسر) هادئا واثقا، إلى حد مدهش، وهو يجذب مقعدا، ويجلس عليه، قائلاً:

- قد ترونها مجرد فتاة رقيقة جميلة، وهي كذلك بالفعل، ولكن لو حاول أحدكم مس شعرة واحدة منها، فستتحول فورا إلى وحش كاسر..
هتف أحد الضباط مستنكرا:
- هذه؟!
ابتسم (ياسر)، وهو يجيب في هدوء، لم يخل من رنة إعجاب واضحة:-
- نعم..
وصمت لحظة، وكأنه سيكتفي بهذا القول، إلا انه لم يلبث أن تابع عندما كانت تلميذتي، تعرضت وزوجها لمحاولة اغتيال، من قبل بعض من كنا نطاردهم من الإرهابيين، ولكنها نجت من المحاولة بأعجوبة.
تمتم أحدهم:
- وماذا عن زوجها؟!
تطلع إليه (ياسر)، دون أن يجيب تساؤله، وأكمل وكأنه لم يسمعه:
- لقد خرجت من المستشفى مباشرة؛ لتطارد الذين خططوا ودبروا، ونفذوا العملية، ولم تنعم بلحظة واحدة من الراحة إلا بعد أن رأت معظمهم خلف القضبان، ينتظرون حكماً بالإعدام.
تساءل آخر:
- وماذا عن بعضهم الآخر؟!
شرد العقيد (ياسر) ببصره لحظة، قبل أن يجيب في خفوت:
- لم تكتب لهم النجاة..
تبادل الضباط نظرة دهشة، جعلته يكمل، وكأنه يحدث نفسه:
- كانت قد تزوجت من أقل من أسبوعين، عندما حدث هذا..
تمتم بعضهم بكلمات مبهمة، ثم قال أحدهم في توتر:

- ما زلت غير مقتنع بأنها قادرة على مواجهة الموقف وحدها.
تنهد (ياسر)، وغمغم في حزم:
- سترون
وعلى الرغم من دهشتهم، فقد بدت كلمته واثقة إلى أقصى حد...
لا أحد يدري كيف بدأ هذا بالضبط..
(صفوت) ترك عنق (رنا) لحظة واحدة...
ووثبت (ياسمين)..
وفي لحظة أخرى، وجد الجميع (رنا) تسقط جانبا، و(صفوت) يرتد إلى الخلف بمنتهى العنف، ويرتطم بالحاجز ثم يهوى من ارتفاع طابقين تحت أرضيين.. بعض شهود العيان قالوا: إن (ياسمين) قد لكمته في فكه وبعض آخر أكد أنها ركلته في صدره لا أحد يمكنه الجزم بهذا أو ذاك المهم أن (صفوت) قد سقط وارتطم بالأرض في عنف وبكل الغضب، الذي اشتعل في أعماقه، وعلى الرغم من آلامه، وثب (صفوت)، محاولاً استعادة مدفعه الآلي..
ولكن (ياسمين) كانت قد وثبت بدورها.. و....
وبكل ذهول الدنيا، رأت (رنا) صديقة عمرها، تقفز من ارتفاع طابقين كاملين، دون ذرة واحدة من التردد، وفي رشاقة مذهلة بحق، فتهبط على قدميها، على نحو بالغ من المرونة والخفة، وعلى بعد متر واحد من (صفوت)..
وكانت مفاجأة قوية للرجل مفاجأة لم تمنعه من أن يهتف:
- مستحيل!
وهو يستل خنجرا ماضيا، من غمد خفى، ملتف حول ساقه..
وبزمجرة وحشية، وقف يواجه (ياسمين)، قائلاً:

- لست أدرى كيف فعلت هذا، ولكن لا شيء في الوجود يمكن أن يمنعني، من تمزيقك إربا بلا رحمة
هزت (ياسمين) كتفيها، في هدوء عجيب، وهى تدور حوله، قائلة:
- في البداية، منعتني من مهاجمتك، بسيطرتك على صديقتي.
ثم دار جسدها بغتة حول نفسه، وهو يرتفع في الهواء، لتركل(صفوت) في أنفه مباشرة، مستطردة:
- فما الذي يمنعني عنك الآن؟
كانت ركلة قوية..
رشيقة..
مفاجئة..
ركلة جعلت (صفوت) يدرك على الفور، أنه لا يواجه فتاة عادية..
بل يواجه محترفة وعلى أعلى مقياس، من المهارة والقوة..
أما (رنا)، التي رأت ذلك المشهد من أعلى، فقد تملكها ذهول، ما بعده ذهول
مستحيل!..
مستحيل أن يكون ما تراه حقيقة..
على الرغم من أنها تراه..
وتسمعه.
ولكنها ما زالت عاجزة عن تصديقه...
من الصعب، بل من المستحيل أن تتخيل أن هذه (ياسمين)..
من المستحيل تماما!!..
إنها ترى أمامها امرأة أخرى..
امرأة تبدو وكأنها لم تعرفها أبدا..
امرأة قوية

جريئة.
ماهرة..
وشجاعة..
شجاعة إلى حد مذهل.
إلى حد أذهلها هي..
وأذهل كل رواد المبنى..
إلى أقصى حد..
وأربكها تماما..
فهي تعرف (ياسمين) منذ زمن طويل منذ دراستهما الابتدائية وكثيرا ما سمعتها تتحدث في لهفة، عن رغبتها في الالتحاق بأكاديمية الشرطة ولكنها أبدا لم تتصور أنها جادة، في رغبتها هذه..
ربما تصورتها مجرد نزوة طفولية.. أو حلم من أحلام المراهقين خاصة وأن كلتيهما قد التحقتا بكلية العلوم هي التحقت بقسم البيولوجيا..
و (ياسمين) التحقت بقسم الكيمياء.. وتخرجتا معًا وبعد التخرج، سافرت هي للحصول على درجة الماجستير، لمدة عامين كاملين، انقطعت خلالهما اتصالاتها بصديقتها، أو إنها قد انخفضت إلى درجة كبيرة..
ولكن هذا لم يقلقها ربما لأنها تعلم أن صديقتها لا تميل أبدا إلى كتابة الرسائل ولا إلى كشف ما يدور في أعماقها وانقطعت أفكارها بغتة، عندما فوجئت بفردين من العصابة يعودان مسرعين إلى المكان، وهما يطلقان رصاصات مدفعيهما في الهواء في غضب وهوى، قلبها بين قدميها في عنف..، فمهما بلغت مهارة صديقتها أو قوتها، فقد اختل ميزان القوى الآن..

أما (ياسمين) نفسها، فقد أعاد إليها دوى الرصاصات تلك الذكرى البغيضة ذكرى محاولة الاغتيال..
ذكرتها بذلك اليوم الربيعي..
اليوم الذي كانت تحلم فيه بنزهة منعشة، مع زوجها (مدحت)..
والتي حولتها محاولة الاغتيال إلى مأساة ..مأساة رهيبة للغاية...
ومع الذكرى، استدارت تواجه القادمين وبحركة تلقائية، تحسست حليتها.. وتحفزت
وانهار قلب (رنا) داخل جسدها..
فمع ما يحدث، بدت لها المواجهة محسومة..
وقاتلة..

☆ ☆ ☆

اندفع أحد ضباط المباحث، داخل الحجرة، التي يقف فيها العقيد (ياسر برهان)، وهتف في توتر:
- دوى رصاصات يتردد، داخل المبنى التجاري..
رفع (ياسر) إليه عينين هادئتين، وهو يقول:
- مساكين..
هتف ضابط آخر:
- بالفعل.. المجرمون يسيطرون عليهم، و..
قاطعه (ياسر) في هدوء:
- لم أكن أقصد الرهائن، بمصطلحي هذا.
بدت الدهشة على وجوه الجميع، وتبادلوا نظرة حائرة، قبل أن يتساءل أحدهم متوترا:
- من كنت تقصد إذن؟!
أشار إلى الشاشة باسترخاء، مجيبا: ان اللي
- الخاطفين.. فدوى الرصاصات يعني أن (ياسمين) قد تحركت..

والتقط نفسا عميقا، قبل أن تشمل وجهه كله ابتسامة واثقة مع استطرادته الحاسمة:
- وأصبح الأمر مسألة وقت.. مجرد وقت يا سادة.
وتضاعفت دهشتهم ألف مرة..

☆ ☆ ☆

كان الموقف دقيقا بحق...
المدفع الآلي أقرب إلى زعيم المجرمين (صفوت)، بأكثر مما هو بالنسبة ل- (ياسمين)، و(أشرف) و(باسل) يهرعان إلى المكان، في غضب هادر، بعد أن انتبها إلى ما يحدث، وهما يطلقان نيران مدفعيهما في عشوائية وعصبية....
والمكان مكتظ بالرواد، الذين أصابهم دوى الرصاصات بحالة من الرعب التام، جعلتهم يطلقون صرخات رهيبة، وهم يحاولون الاحتماء بأي شيء...
وصديقتها (رنا) تصرخ في هستيرية من أعلى:
- اهربي يا (ياسمين).. اهربي.
واتخذت (ياسمين) قرارها في سرعة وبأقصى سرعتها، اندفعت نحو (صفوت)، ووثبت وثبة مدهشة، لتركله في أنفه بطرف حذائها، ثم تدور حول نفسها دورة رأسية فوق رأسه، وتهبط خلفه..
ومع الركلة، أطلق (صفوت) صرخة غضب وألم، وسقط على ظهره في عنف، ثم لم يلبث أن نهض في سرعة، واندفع على يديه وركبتيه، بأسرع ما يمكنه، حتى استعاد مدفعه الآلي واستدار يصوبه نحو (ياسمين)، صارخا:
- ستدفعين الثمن، أيتها الـ..
اختنقت العبارة في حلقه دفعة واحدة، وانعقد حاجباه في غضب هادر، وهو يبحث بعينيه عنها فيما حوله. ولكنها كانت قد

اختفت..
لم يدرك كيف، ولكنها اختفت وقبل أن يكتمل ذلك السباب الحانق، الذي انطلق من حلقه برز زميلاه من خلف الحاجز العلوي، وهتف (باسل):
- ماذا يحدث؟!
وهتف (أشرف:
- لقد سمعنا قتالاً، فعدنا بأقصى سرعتنا.
وتساءل (باسل) في توتر:
- هل اقتحم رجال الشرطة المكان؟!
شعر (صفوت) بغصة في حلقه مع السؤال، وهتف في عصبية، وهو ينهض واقفا:
- هل تراهم حولنا؟!
بدا الجواب محيرا للرجلين، فتساءل (أشرف): -
- مع من كنت تتقاتل إذن؟!
ازداد انعقاد حاجبى (صفوت)، وهو يقول في حدة:
- مع فتاة..
اتسعت عيون الاثنين في ذهول، وغمغم (باسل)، وهو يحدق في خيط الدم، الذي يسيل من أنف (صفوت):
- فتاة، فعلت بك هذا؟!
لم يحتمل (صفوت) السؤال، وهو يشعر بكل الغضب في أعماقه، فصرخ في ثورة:
- سأقطع عنقها، قبل أن نغادر المكان.
تبادل (باسل) و(أشرف) نظرة قلقة متوترة، ثم غمغم الثاني في توتر:
- أعتقد أنه من الأفضل أن نغادر المكان، قبل أن تتعقد الأمور أكثر، ونفقد فرصة النجاة

ورفع (باسل) حقيبة كبيرة؛ ليريه إياها، وهو يقول:
- خاصة أننا قد فزنا بالغنيمة بالفعل. يتم بها هنا أنها
كانت الحقيبة تحوى أكثر من نصف مليون جنيه.. ولكنه لم يرها..
ولم يشعر بالسعادة...
كان الغضب يعربد في أعماق (صفوت) بشدة، ورغبته في الانتقام من تلك الفتاة، التي أذلت ناصيته أمام الجميع، تكاد تعصف بنفسه، إلا أن عقله لم يلبث أن سيطر على مشاعره، وأدرك أن الخطة ما زالت ناجحة، حتى هذه اللحظة، وأنه باستطاعتهم جميعا مغادرة المكان، وفقاً لخطة الطوارئ، التي وضعها مسبقا، ويفوزون باللعبة كلها وعلى الرغم من غضبه وتوتره، انتزع جهاز الاتصال اللاسلكي المحدود من حزامه، وضغط زره، قائلاً:
- (وليد).. ابدأ في إعداد طريق الهروب.
التقط (وليد) الرسالة، في حجرة التحكم، فاعتدل بحركة أشبه بالعسكريين، وقال في سرعة:
- فورا أيها الزعيم.
قالها، وأسرعت أصابعه تضغط أزرار الكمبيوتر اليدوي الذي يحمله، والذي أوصله بشبكة التحكم الإلكترونية؛ ليفتح مجموعة من الأبواب، التي تقود إلى مخازن المبنى، ومنها إلى شارع صغير خلفه، حيث تنتظرهما سيارة كبيرة، تشبه تماما سيارات الشرطة، ليفروا بها من المكان، وسط الحصار المضروب حول المبنى..
كان الأمر دقيقا، ويعتمد على مجموعة من الخرائط الدقيقة للمبنى، أمكنه الحصول عليها، باختراق الكمبيوتر الرئيسي لشركة

الإنشاءات، التي أقامت المبنى، وأخرى التقطها من كمبيوتر شركة الأمن، التي صنعت نظام حراسة وتأمين المنشأة كلها..
ولقد استغرق الأمر منه دقيقة واحدة، ضغط بعدها زر الاتصال في جهاز اللاسلكي المحدود، وهو يقول في حماس:
- الطريق مفتوح أيها الزعيم.
تألقت عينا (صفوت)، عندما سمع العبارة، وقال عبر جهاز الاتصال المحدود:
- عظيم يا (وليد).. كنت أعلم أنك قادر على فعلها.. هيا استبدل ثيابك، وانضم إلينا في سرعة.
قالها، وأنهى الاتصال، ثم استدار يصوب مسدسه إلى رواد المكان، وعلى رأسهم (رنا) قائلاً في قسوة متعمدة:
- لقد وزعنا عددا من القنابل في المبنى، ولو تحرك أحدكم، أو أطلق صرخة واحدة، قبل دقائق عشر من انصرافنا، سيتم نسف المبنى بكل ما فيه ومن فيه، بواسطة ريموت كنترول بعيد المدى.. هل تفهمون؟
أومأ الجميع بوجوه شاحبة مذعورة، انحبست أنفاسها، واختنقت في أعماقها، في حين صعد هو إلى رفيقيه، وكرر عبارته في الطابق العلوي، ثم أشار إلى (باسل) و(أشرف)، قائلا:
- هيا بنا.
لم تكن كلمته قد اكتملت بعد، عندما ظهرت (ياسمين) فجأة..
ظهرت على نحو لم يتوقعه أحد ولم يكن من الممكن أن يتوقعه أحد...
ففي مبادرة جريئة مدهشة، هبطت معلقة بحبل سميك، من الطابق العلوي، وانقضت على الرجال الثلاثة مباشرة وعلى الرغم منها، ودون أن تعي، أطلقت (رنا) شهقة قوية، جمعت بين دهشتها وذعرها، وهي تحدق في (ياسمين)، التي بدت لها أشبه

بالبطل الأسطوري القديم (طرازان)، وهي تهبط بالحبل السميك ومع شهقتها، استدار الرجال الثلاثة إلى حيث تنظر بعينين متسعتين..
ومع استدارتهم، ارتطمت بهم (ياسمين)..
وأسقطتهم
ولكن، ولأنهم تدربوا طويلا، قبل القيام بعمليتهم استعادوا توازنهم في سرعة، و...
«الحقيبة؟!..»
صرخ (باسل) بالكلمة، في هلع غاضب، فأدار (صفوت) و(أشرف) عيونهما إلى حيث تواصل (ياسمين) اندفاعتها بذلك الحبل، حاملة حقيبة الأموال، لتثب داخل الطابق الذي يعلوهم مباشرة...
وبكل غضب وثورة الدنيا، صرخ (صفوت):
- يا للحقيرة!
وانطلق مع زميلته، يصعدان في درجات السلم، إلى الطابق الذي اختفت فيه (ياسمين)، مع حقيبة الأموال التي سرقوها أما (رنا)، فقد ظلت مفغورة الفاه في ذهول، وهي تتمتم:
- هذا مستحيل!.. حتما مستحيل! -
أما المجرمون الثلاثة، فقد بلغوا ذلك الطابق، الذي يحوى قسم أدوات التجميل النسائية، وصرخ (صفوت):
- حاصروا الطابق كله.. مدخله ومخرجه.. لا تمنحوها أية فرصة للفرار...
اندفع (باسل) نحو مخرج الطابق، وتوقف (أشرف) عند مدخله، في حين تحرك (صفوت) داخله، وهو يصرخ في غضب:
- لا يوجد سبيل واحد للخروج من هنا أيتها الحقيرة.. ستعيدين إلينا أموالنا، إما بإرادتك، وإما أن ننتزعها من جثتك فيما بعد،

و....
بتر عبارته، ليطلق دفعة من رصاصات مدفعه الآلي، نحو منطقة اكتظت فيها زجاجات العطور، ومساحيق التجميل، فتحطمت وتناثرت شظاياها في كل مكان وعلى نحو عجيب، امتزجت رائحة العطر والمساحيق، بدخان الرصاصات، ودموع المذعورين، وغضب وشراسة المجرمين..
ولكن (ياسمين) لم تتحرك قيد أنملة لم تكن ترى الإرهابيين، ولكن أذنها المدربة، أدركت أنهم يصوبون رصاصاتهم، إلى ركن آخر.
ركن بعيد عنها..
بعيد تماما..
إنها وحيدة..
منعزلة..
بلا سلاح..
وبلا مخرج..
وربما أيضا.. بلا أمل وكانت تدرك طبيعة موقفها بالضبط..
ولكنها تمتلك أثمن ما في اللعبة كلها..
الغنيمة...
حقيبة النقود، التي من أجلها فعل المجرمون ما فعلوه..
وهم لن يتنازلوا عنها مهما حدث..
من أجلها، سيقاتلون بمنتهى الشراسة والعنف والوحشية وربما كان هذا ما تخشاه..
ففي موقفهم هذا، لن يترددوا في فعل أي شيء..
وكل شيء.
حتى قتلها وقتل كل كائن حي، في المبنى التجاري كله خطر هذا في ذهنها، في نفس اللحظة، التي توقف فيها (صفوت) عن

إطلاق النار، وقال في عصبية:
- إنها ليست هنا..
غمغم (باسل)، وأعصابه توشك على الإفلات:
- مستحيل!.. لا يمكن أن نسمح لها بهذا.. لو أمكنها الفرار بالمال، فسوف
قبل أن يتم عبارته، صرخ (أشرف):
- إنها هناك..
قالها، وهو يشير إلى قسم أدوات التجميل..
ودون حتى أن تكتمل صرخته، كانت أصابعهم العصبية المتوترة تضغط أزندة مدافعهم الآلية..
وانطلقت الرصاصات في المكان..
كالمطر

☆ ☆ ☆

٣ - رائحة الياسمين...

«هناك قتال ما، يدور في الداخل..»
هتف أحد ضباط المباحث بالعبارة، في عصبية شديدة، قبل أن يلوح بذراعه كلها، مكملاً في حدة:
- ونحن نقف هنا ساكنين..
التفت إليه العقيد (ياسر)، متسائلا في حسم هادئ:
- وما الذي ينبغي أن نفعله؟!
أجابه في حدة:
- نقتحم المكان.. على الأقل.
سأله (ياسر) في صرامة:
- وكم ستبلغ الخسائر في اعتقادك، مع عملية اقتحام عنيفة هكذا؟
أجابه الرجل متوترا:
- لن تتجاوز الخمسة في المائة
مال (ياسر) نحوه، قائلاً في صرامة أكثر:
- وماذا لو أنه باستطاعتنا خفض تلك الخسائر، إلى أقل من واحد في المائة..
تساءل الرجل في عصبية:
- وكيف هذا؟!
اعتدل (ياسر)، وقال في حزم:
- باستخدام سلاحنا السرى
تمتم أحد الواقفين في دهشة:
- سلاح سرى..

مرة أخرى، شرد العقيد (ياسر) ببصره وأفكاره، وبدا وكأنه خارج هذه الدنيا لحظات، قبل أن يقول بنفس الشرود، وكأنه يحدث نفسه:

- عند زواجهما، أهداها زوجها حلية صدر بسيطة، على شكل زهرة، ذات فصوص قرمزية.. لم تكن غالية الثمن، ولكنها كانت تحبه.. فأحبتها مثلما تحبه.. ومنذ ذلك الحادث، لم تغادر منزلها من دونها قط..

ابتسم في شروده، وبدا وكأنه يستعيد ذكرى ما، قبل أن يلتفت إليهم، قائلاً:

- لهذا، كنا نطلق عليها اسم (الزهرة القرمزية).

لم يفهم الرجال صلة هذا بالأمر، فتبادلوا كلهم نظرة صامتة دون أن ينطق أحدهم بحرف واحد، في حين تابع هو وابتسامته تتسع:

- كان الأمر يبدو طريفاً، أن نراها في زي مكافحة الإرهاب وعلى صدرها تلك الزهرة القرمزية.. بعض اللواءات أرادوا إجبارها على نزعها، ولكنها فضلت الاستقالة على أن تفعل.

تساءل أحد الرجال في حذر:

- وهل.

قبل أن يتم تساؤله، أجاب العقيد (ياسر): ا

- نعم.. لقد استقالت بالفعل.

هز رأسه في أسف، قبل أن يضيف:

- كانت استقالتها أكبر خسارة، لقوات مكافحة الإرهاب..

تجرأ أحد الرجال، وتساءل في شيء من التوتر:

- وما علاقة هذا بسلاحنا السري يا سيدى؟!

التفت إليه (ياسر) بحركة حادة، وهو يقول:

- ألم تفهموا بعد..؟

بدت الحيرة على الوجوه، فاستدار يشير إلى صورة (ياسمين)، التي ما زالت تحتل الشاشة، مضيفا:
. هذه هي سلاحنا السري
نطقها بحزم وثقة..
بكل الحزم..
وكل الثقة..

☆ ☆ ☆

كانت سيطرة (صفوت) ورجليه على قسم أدوات التجميل؛ حيث تختفى (ياسمين) كاملة بكل المقاييس.
لقد سيطروا على مدخله..
ومخرجه..
وعندما انطلقت رصاصاتهم، نحو المنضدة الخشبية، التي تضم أدوات التجميل، بمختلف أنواعها، كانت (ياسمين) تختفى خلفها بالفعل
لذا، فقد انبطحت أرضا، وألصقت جسدها كله بالأرضية الباردة، ورفعت ذراعيها تحمى بهما رأسها ووجهها، كما تدربت تماما ومن فوقها وحولها، تطايرت شظايا الزجاج وأدوات التجميل والرصاصات أيضا..
ولقد استمر هذا لدقيقتين كاملتين، قبل أن تسمع صرخة(صفوت):
- انقضوا عليها.
ومع صرخته، تعالى وقع أقدامهم الثقيلة، وهم يندفعون إلى حيث تختفى إلا أنها لم تتردد لحظة واحدة..
كانت عزلاء، بلا أسلحة، في مواجهة ثلاثة من الأشداء، يحملون مدافع آلية قاتلة ووثبت تواجههم..

وفي مبادرة سريعة، رفعت علبة مسحوق تجميل وردية مفتوحة أمام وجهها، ونفخت المسحوق في وجه (أشرف)، ثم استدارت بسرعة مدهشة، وهي تضغط قمة زجاجة من رشاشات العطر، في وجه (صفوت) ومع صرخة الرجلين، اللذين فقدا بصرهما مؤقتا، مع مبادرتها المباغتة، وثبت هي في رشاقة، تتجاوز منضدة أدوات التجميل، لتركل (باسل) في وجهه وصدره، بركلتين متعاقبتين سريعتين، تراجع معهما الرجل بحركة عنيفة..

ولكنها لم تتوقف لقد ركلته في صدره مرة ثانية.. -

وثالثة..

ورابعة..

كانت تبدو أشبه بمروحة بشرية، وهي تدور حول نفسها، وتركل (باسل)، الذي تراجع مع ركلاتها، وهو يصرخ:

- أيتها الـ

وقبل أن تكتمل صرخته، ركلته ركلة أخيرة في فكه، تراجع معها جسده بحركة عنيفة، ليرتطم ظهره بحاجز الطابق، ويفقد توازنه، و..

ويهوى..

ومع فقدان بصريهما، ومحاولتهما استعادته في سرعة، سمع (صفوت) و(أشرف) صرخة زميلهما خبير الخزائن وهو يهوى من ارتفاع ثلاثة طوابق، ليرتطم بالأرض في عنف، ويخمد صوته تماما..

وبكل الغضب والثورة، وعلى الرغم من صعوبة الرؤية أمامه، راح (صفوت) يطلق رصاصاته فيما حوله، في عنف شديد، صارخا:

- (باسل).. ماذا أصابك؟!.. أجبني يا (باسل).. أجبني ولكنه لم يتلق جوابا، في حين صرخ (أشرف)، وعيناه محمرتان بشدة:

- دعنا نخرج من هنا.. العملية فشلت.. دعنا ننجو بحياتنا..

صرخ (صفوت) في ثورة:
- لا.. ليس بسبب فتاة حقيرة كهذه.
انطلقت صرخته، وهو يدور حوله، محاولاً العثور على(ياسمين).
أو حتى على حقيبة النقود ولكن (ياسمين) لم تكن هناك وكذلك الحقيبة..
ومرة أخرى، صرخ (أشرف)، وهو يحدق في جثة (باسل)، الملقاة أسفل المكان، في وضع يوحي بأنه قد فارق الروح:
- لا داعي للمكابرة أيها الزعيم.. لقد فشلت العملية.. دعنا نهرب من هنا، قبل أن نفقد كل شيء..
صرخ (صفوت):
- ليس دون النقود.
صاح (أشرف)، وهو يعدو نحو المخرج، الذي أعدوه للهروب:
- النقود يمكن تعويضها، أما الحرية، فلا...
صرخ به (صفوت)، وهو يصوب مدفعه الآلي نحوه:
- تجاوز أوامري بخطوة أخرى، وأقسم أن أنسف رأسك بلا رحمة.
توقف (أشرف) في عصبية، وهو يقول:
- ولكننا نخسر بالفعل كل شيء
صرخ فيه (صفوت)، وهو ينتزع جهاز الاتصال المحدود من حزامه:
- (وليد).. حدد موقعك بالضبط..
أتاه صوت (وليد) العصبي، وهو يقول:
- أنا في طريقي للخروج.
ثم قال بمنتهى الصرامة، عبر جهاز الاتصال:
- ليس بعد..

سأله (وليد)، في عصبية أكثر:
- ألم تنته بعد؟!
صاح به في حدة:
- لا خروج، قبل أن تنتهى المهمة..
- لا أسئلة.. عد إلى حيث كنت، واستخدم نظام المراقبة؛ لتبحث عن فتاة حقيرة، استولت على نقودنا.
هتف (وليد) في توتر بالغ:
- فتاة؟!
صرخ فيه:
- نفذ الأوامر.. هيا..
وأنهى الاتصال في حدة، فغمغم (وليد) بمنتهى العصبية وهو يعود أدراجه:
- عم يتحدث بالضبط؟!.. فتاة وسط كل رواد المكان؟!..
شق طريقه في سرعة، عبر ممرات المكان، حتى بلغ حجرة التحكم الإلكتروني مرة أخرى، وما أن دخلها، حتى فوجئ بـ(ياسمين) داخلها، تبتسم في هدوء، قائلة:
- كنت أعلم أنك ستعود إلى هنا..
اتسعت عيناه في ذهول مذعور، وحاول أن يتراجع في سرعة، إلا أن قبضتها كانت أكثر سرعة، وهي تهوى على أنفه، بلكمة جعلته يرتطم بالجدار في عنف، ثم يسقط على وجهه فاقدا الوعي..
وفي هدوء وسرعة، استخدمت بعض الأسلاك الهاتفية لتشل حركته تماما، ثم انتزعت من جيبه جهاز الكمبيوتر اليدوي، مغمغمة:
- إذن فهكذا أفسدتم نظم الأمن كلها

استعادت بعقلها في تلك اللحظة، كل ما تعلمته في هذا الشأن استعادت تدريباتها الأولية، في قوات مكافحة الإرهاب والتدريبات، التي تلقتها في الخارج..
وما دربها عليه (مدحت)..
زوجها..
دربها على كل هذا، قبل حتى أن يتزوجا..
كان رقيقا..
هادئا
واثقا..
وحنونا..
لهذا أحبته
لهذا عشقته..
وتزوجته
كانت تتصور أن مثلها لا ينبغي أن يحب.. ا
لا ينبغي أن يربط قلبه بقلب آخر فهذا يجعلها أكثر ارتباطاً بالحياة وأكثر خوفا من الموت
ولا يمكنها أن تزاول عملها بهذه المشاعر..
ولقد حاولت أن تقاوم..
حاولت..
وحاولت
وحاولت
ولكن الحب كان أقوى منها
كان أقوى من عقلها وقلقها وخوفها.. _
أقوى من كل مشاعرها الأخرى..
تذكرت هذا في لحظة، ثم سرعان ما طردت هذا من ذهنها حتى لا تعوق الذكريات مهمتها..

تلك المهمة، التي فرضت نفسها على وجودها، دون سابق إنذار وبسرعة ومهارة، أوصلت أسلاك الكمبيوتر اليدوي بشبكة التحكم الإلكترونية، وراحت أصابعها تتحرك على أزراره..
بمنتهى الثقة ومنتهى البراعة..
في اللحظة نفسها، كان (صفوت) يدور في المكان، في غضب شديد، وقد استعاد بصره، وتضاعفت ثورته، وعاد يضغط زر جهاز الاتصال المحدود، قائلاً في حدة:
- ألم تعثر عليها بعد؟!
كان يتوقع سماع جواب من صديقه عبقري الكمبيوتر (وليد)، إلا أنه فوجئ بصوت (ياسمين)، يقول في سخرية:
- لن يرهقه العثور على، على الرغم من فقدانه وعيه، فأنا أحتل موقعه الآن، ولقد أغلقت أمامكم طريق الهروب تماما وسأعيد نظم الأمن كلها للعمل، خلال دقيقة واحدة.
اتسعت عينا (أشرف)، في رعب هائل، وهو يقول: -
- رباه!.. كنت أخشى هذا.. كنت أخشى هذا.. لقد فشلنا.
أما (صفوت)، فقد انعقد حاجباه، بكل غضب الدنيا، وهتف:
- ليس بعد.
ثم وثب فجأة، إلى الطابق أسفله، وانقض على (رنا)، وجذبها من شعرها بمنتهى القسوة، وألصق فوهة مدفعه الآلي أسفل ذقنها، ثم صرخ، عبر جهاز الاتصال المحدود:
- أهنئك على براعتك أيتها الحقيرة، ولكنني سأمهلك تلك الدقيقة فحسب، فإما أن تستسلمي، وتعيدي إلينا نقودنا، أو أنسف رأس صديقتك بلا رحمة وشهقت (رنا) بمنتهى الرعب..
أما (ياسمين)، فقد انعقد حاجباها في شدة، وأدركت، من صوت الرجل وأسلوبه، أنه يعني ما قاله هذه المرة..
وهذا يعني أنها قد تنجح في مهمتها ولكن الثمن سيكون غاليا..

إلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

لم تشعر (رنا) في حياتها كلها بالرعب، مثلما شعرت به في تلك اللحظات الرهيبة ف- (صفوت) يقبض على عنقها، بمزيج من الغضب والقسوة، وفوهة مدفعه الآلي ملتصقة بأسفل ذقنها، ومتحفزة لإطلاق الرصاصات لتنسف رأسها، عند أي توتر أو استفزاز..

أما زميله (أشرف)، فقد بدا شديد العصبية، وهو يقول:

- ماذا تفعل بالله عليك.. لقد فشلت العملية.. لابد وأن نعترف بهذا، قبل فوات الأوان.

صرخ فيه (صفوت)، بصوت حمل دوى جنون هادر:

- اخرس، وإلا أفرغت رصاصات مدفعي في صدرك..

صرخ (أشرف) بدوره، في عصبية بلغت ذروتها.:

- يبدو أنك قد نسيت من المتخصص هنا.

ولوهلة، بدا أن كليهما سيفرغ رصاصات مدفعه في صدر الآخر، مما جعل عينا (رنا) المسكينة تتسعان عن آخرهما، وهي تنهار، قائلة:

- لا تفعلي بي هذا يا (ياسمين).. أرجوك.

ومن موقعها، سمعت (ياسمين) عبارة صديقة عمرها وتمزق قلبها في ألم..

فواجبها، كضابطة سابقة في إدارة مكافحة الإرهاب الدولية يحتم عليها ألا تقف ساكنة، وهؤلاء المجرمون يسعون لسرقة المكان..

وصداقتها لـ (رنا) تحتم عليها ألا تتركها في محنتها أما (صفوت)، فقد صرخ مرة أخرى، وسبابته، تتحفز بحق على زناد مدفعه عشر ثوان تبقت..

وأقسم أن أنفذ ما قلته، وسأبعثر مخ صديقتك الحقيرة هذه، في المكان كله.....
انهارت (رنا) تماما، عند هذه النقطة، وبدا لها أن نهايتها آتية لا ريب، و..
أنا قادمة..
انبعث صوت (ياسمين)، عبر مكبرات الصوت في المكان، بنبرة هادئة أكثر من اللازم، حتى أن (أشرف) قال في عصبية:
- لست أشعر بالارتياح لهذا.
صرخ فيه (صفوت) مرة أخرى:
- اصمت
ثم ارتفع صوته في حدة وعصبية، وهو يتابع:
- أما أنت أيتها الحقيرة، فأمامك دقيقة أخرى فقط للظهور هنا، ومعك حقيبة النقود.. إياك والحضور دونها..
لم يتلق جوابا من (ياسمين) هذه المرة، فصرخ في حدة:
- هل تسمعينني؟!
أجابه (أشرف) في عصبية:
- إنها في الطريق إلى هنا حتما..
تلفت (صفوت) حوله في توتر عنيف، وضغطت ذراعه القوية عنق (رنا) أكثر، وهو يقول:
- ومن أدراك؟
انتقلت عدوى قلقه إلى (أشرف)، الذي تلفت حوله بدوره، قائلا:
- أسرع بالله عليك.. لو أنها سيطرت على (وليد)، فسيقتحم رجال الشرطة المكان حتما، إن عاجلاً أو آجلاً، أو..
قاطعه (صفوت) في حدة:
- صوب مدفعك إلى رواد المكان..

انطلقت صرخات الرواد المذعورين، عند هذه النقطة، في حين أدار (أشرف) فوهة مدفعه إليهم في آلية، وهو يقول:
- الموقف سيزداد تعقيداً.
ولكن (صفوت) تجاهله تماما، وهو يصرخ:
- ستظهرين خلال ثلاثين ثانية فحسب، وإلا فسأنسف رأس زميلتك، ولو حاولت الشرطة التدخل، أو منعنا من الفرار، سنقتل الجميع بلا رحمة.
وعبر أجهزة المراقبة، التي أعادت (ياسمين) تشغيلها، التقط رجال الشرطة ما يحدث، وقال أحدهم في توتر:
- الأوغاد ما زالوا يسيطرون على الموقف.
اندفع آخر، يقول في حماس:
- في رأيي، ينبغي أن نقتحم المبنى التجاري الآن.. لقد عادت آلات المراقبة والرصد للعمل، وهذا يعنى أن الطريق أصبح مفتوحا للهجوم..
أضاف ثالث في حزم:
- أنا أتفق معك في هذا.
قالها، وأدار عينيه إلى العقيد (ياسر)، كما فعلوا جميعا وكأنما يسألونه الرأي والمشورة..
وصمت هو طويلاً
طويلا جدا.
صمت ليدير الأمر في رأسه مرة..
ومرتين
وثلاث
كان يدرك، وفقا لتعاملاته السابقة معها، أن (ياسمين) قادرة وحدها، على السيطرة على الموقف كله وبأقل خسائر ممكنة..
أقل حتما، مما سيسببه اقتحام المكان..

أقل بكثير..
لقد دربها..
ولقنها..
ورآها تعمل..
وتقاتل
ويدرك، هذا..
ولكنه يدرك أيضا أن الثقافة الشرقية ستحول بين المسئولين الكبار، وبين استيعابهم للأمر تلك الثقافة، التي تضع المرأة دوما، في الموقع الأدنى والتي لا تتصور أنها قادرة على القتال والنضال والتفوق والنصر..
ثقافة عقيمة، تحول بين (ياسمين)، وبين عقولهم ولكنه يختلف..
يختلف؛ لأنه يعرفها..
ويثق بها..
ولابد وأن يحاول الموازنة، بين هذا وذاك ...
وأخيرا، قال في حزم، وهو يراقب شاشة الرصد بكل الاهتمام:
- فليكن.. سنمنحها تلك الدقيقة.. ثم نقتحم المكان..
ومع نهاية قوله، أو حتى قبل أن يكتمل، كان رجاله يصدرون أوامرهم، بالاستعداد لاقتحام المبنى..
وفي ذلك الطابق، شعرت (رنا) بأنفاسها تختنق، وبأنها على وشك أن تلقى مصرعها، و(صفوت) يضاعف من ضغط ذراعه على عنقها، مع شدة توتره، صارخا:
- ثوان وتنتهى المهلة.. أين أنت أيتها الـ..
قبل أن تكتمل صرخته، قاطعه صوت (ياسمين) الصارمة، وهي تقول:
- أنا هنا.

كان ظهورها مفاجئا، حتى إن أحدا لم يدر، من أين أنت ولا كيف وصلت إلى المكان، وهي تحمل حقيبة النقود الكبيرة وبحركة عصبية، استدار (أشرف) بفوهة مدفعه الآلي كالصاعقة نحوها وضغط زناد المدفع بالفعل ولكن (ياسمين) تحركت أولا..

أو انقضت أولاً

فمع استدارة (أشرف)، والنظرة الشرسة المتحفزة في عينيه، أدركت هي ما سيفعله بالضبط..

وبسرعة، وثبت نحوه.. التفاتته، وضغطه الزناد، ضربت مدفعه الآلى بحقيبة النقود، بكل ما تملك من قوة..

ومالت فوهة المدفع إلى أعلى..

وانطلقت الرصاصات

ودوت معها صرخات رعب هائلة.. أ

كل الحناجر أطلقت صرخاتها..

فيما عدا (أشرف)..

فالضربة الأولى من (ياسمين) أبعدت فوهة مدفعه، والثانية لطمت وجهه بمنتهى القوة..

وسقط (أشرف)..

سقط ليرتطم بالأرض، ويزحف فوقها لمترين، قبل أن يستقر عند قدمي صفوت، الذي صرخ بعصبية بلغت ذروتها ستدفعين ثمن ما فعلته غاليا.

استعادت هدوءها بسرعة مدهشة، وهي تقول:

- لم أكن لأقف ساكنة، وهو يحاول قتلى.

صاح بها في ثورة: -

أخرج من هنا.

- أمره لا يهمني.. أعطيني النقود، وسأترك صديقتك، عندما اريد

أجابته بمنتهى الصرامة:
اتركها أولا، أو لن تحصل على قرش واحد.
زمجر بكل ثورة الدنيا، صارخا:
- وماذا لو أخذتها من فوق جثتك؟!
حملت لهجتها كل سخرية الدنيا، وهي تقول:
- ينبغي أن تكون هناك جثة أولاً، ولست أراك بالمهارة الكافية، لبلوغ هذه المرحلة.
صرخ (صفوت):
- الأمر لا يحتاج إلى مهارة أيتها المتحذلقة.. بل إلى هذا قالها، وأدار فوهة مدفعه الآلي نحوها بسرعة وضغط زناده وانطلقت الرصاصات..
ولكن (ياسمين) كانت تتوقع هذا؛ لذا فقد رفعت حقيبة النقود، التي وضعت داخلها قطعة معدنية سميكة، من قسم الصيانة، لتتلقى عليها كل الرصاصات، التي أطلقها (صفوت)، وهى تندفع نحوه بكل سرعتها وكل قوتها.
كان كل ما تنشده هو أن يزيح فوهة المدفع عن رأس صديقتها ولقد فعل
ولكنه انتبه إلى الأمر، وأدار فوهة مدفعه بسرعة، لينسف رأس (رنا)، قبل أن تبلغه (ياسمين) ولم تكن المسافة التي تفصلهما تسمح بمنع هذا، في الوقت المناسب.. أبدا.
لذا، فقد تخلت عن حقيبة النقود، ووثبت تختطف مدفع(أشرف)، الملقى إلى جواره، ودارت حول نفسها، وأطلقت منه رصاصة..
رصاصة واحدة، اخترقت منتصف جبهة (صفوت)، على بعد سنتيمترات قليلة من رأس (رنا)، التي أطلقت شهقة رهيبة، وارتجف جسدها كله في عنف، عندما جحظت عينا (صفوت)،

وهوى عند قدميها جثّة هامدة وساد في المكان صمت رهيب وصنعته الصدمة..
وفي اللحظة نفسها، اقتحمت قوات مكافحة الإرهاب المكان، ولكن صوت العقيد (ياسر) تردد عبر أجهزة الصوت في المبنى التجاري، وهو يقول في حزم:
- لا إطلاق نار.. انتشروا في المكان فحسب.
والتقط نفسا عميقا، وابتسامته تملأ وجهه، مع استطرادته:
- لقد تمت السيطرة على الموقف.. تماما..
قالها، وكأنه يكافئ نفسه على ثقته
لقد كان الوحيد الواثق. وربما الوحيد، الذي يعرف قدرات (ياسمين) الحقيقية..

وفي لحظة، استعادت ذاكرته مواجهاتها السابقة، مع مجرمين أكثر قوة..
وأكثر شراسة
وعنفا.
ولكنها هزمتهم
هزمتهم جميعا، وهي تحمل على صدرها تلك الزهرة، التي أهداها إياها زوجها زهرتها القرمزية..
«لن أسامحك على هذا أبدا..»
هتفت (رنا) بالعبارة في غضب، وهي تجلس إلى جوار(ياسمين)، في طابق أدوات التجميل بالمبنى التجاري، الذي انتشر فيه رجال مكافحة الإرهاب، فتوقفت الأخيرة عن حديثها مع العقيد (ياسر)، لتلتفت إليها، متسائلة:
- ولماذا؟!
هتفت (رنا) في حدة:

- كيف تخفين عنى أمرا كهذا؟!
سألتها (ياسمين) في براءة وبساطة:
- أي أمر؟!
هتفت (رنا):
- مهنتك..
ضحك العقيد (ياسر)، وهو يقول:
- وماذا عن مهنتها؟!.. إنها موظفة محترمة، في الإدارة المالية لمديرية أمن القاهرة، و..
قاطعته (رنا):
- هل ستواصلون السخرية منى؟!
أطلق ضحكة أخرى، وأشار إلى (ياسمين) بيده، قائلاً:
- فليكن يا زهرتي.. سأتركك الآن مع صديقتك، وسأنتظرك غدا في مكتبي، لتقدمي تقريرا وديا عن الموقف.
ومال نحوها، ليغمز بعينه، مكملاً:
- المالي.
ابتسمت (ياسمين) دون تعليق، ولوحت له بيدها في رقة، وهو ينصرف مبتعدا، وما إن اختفى، حتى سألتها (رنا) في توتر:
- ألن تصارحيني بالأمر؟!
استدارت إليها (ياسمين)، في صمت استغرق دقيقة كاملة قبل أن تقول في جدية شديدة:
- الواقع أنني أحتاج إلى رأيك هذه المرة. -
سرت موجة من الحماس في جسد (رنا)، وهي تقول:
- كلي آذان مصغية..
وهنا، التقطت (ياسمين) طلاء شفاه، وسألتها في اهتمام:
- هل يناسب هذا اللون بشرتي؟! هل تعتقدين أنه سيروق له؟!
وصرخت (رنا) معترضة..

ولكن (ياسمين) ابتسمت فقط ابتسمت..

☆ ☆ ☆

كان ذلك المستشفى يرفل في صمت تام، في تلك الساعة المتأخرة من الليل، عندما تعالى وقع أقدام نسائية، يشق جدار الصمت، في إيقاع منتظم ثابت ودون أن ترى وجه القادمة، ابتسمت ممرضة القسم، وتركت مكانها، لتستقبلها، قائلة:

في موعدك بالضبط يا سيدتي.

غمغمت (ياسمين):

- لن يعوقني أي شيء في الوجود، عن القدوم إليه..

ابتسمت الممرضة، في حنان وإعجاب، تشوبهما لمحة إشفاق وهي تشير بيدها إلى إحدى حجرات الطابق، قائلة:

- لا شك لدي في أنه ينتظرك

لمحت ابتسامة حانية، على وجه (ياسمين)، التي اتجهت إلى الحجرة، وتوقفت أمام بابها لحظة، لتعدل ثيابها، وشعرها في اهتمام، ثم دلفت إليها وفي حيرة، تساءلت ممرضة جديدة:

- من هذه؟!

أجابتها ممرضة القسم في إعجاب:

- إنها أعظم مثال على الحب، والتفاني، والتضحية

ثم التفتت إليها، متابعة في حماس:

- زوجها فاقد الوعي، منذ أكثر من ثلاث سنوات، ولكنها تزوره كل يوم، ولم تنقطع عن زيارته يوما واحدا، وفي كل مرة، تأتيه متألقة عطرة، وكأنه يشعر بوجودها ويترقبها.

قالت الممرضة الجديدة في دهشة:

- ثلاث سنوات؟!.. ولكن الأطباء يقولون: إنه لن يستيقظ من غيبوبته أبدا، بل وينصحون بنزع أجهزة الإعاشة عنه، و..

قاطعتها ممرضة القسم:

- لقد رفضت، ولم تفقد الأمل في عودته إلى وعيه أبدا
ثم هزت رأسها، واستطردت في وجد:
- ويا له من حب!
في نفس اللحظة، التي نطقت فيها عبارتها، كانت (ياسمين) تنحني، لتطبع قبلة حانية، على جبين زوجها الغارق في غيبوبته، وهي تقول في حب وحنان:
- كيف حالك اليوم يا حبيبي؟!
لم تتلق جوابا بالطبع، ولكنها جلست إلى جواره، وسألته مصطنعة المرح:
- قل لي: هل راق لك طلاء الشفاه هذا؟!.. وبالمناسبة.. لن تصدق ما حدث لي، عندما ذهبت لشرائه
راحت تروى له تفاصيل ما حدث، في ذلك المبنى التجاري، وأصابعها لا تتوقف عن مداعبة تلك الزهرة التي لا تنزعها عن صدرها قط..
الزهرة القرمزية.....

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

7382

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- الزهرة..
٢ - الخطة..
٣ - رائحة الياسمين...

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الزهايمر

نبيل فاروق

فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

) كلمه مهمة (:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

الزهايمر

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

الزهايمر..

فجأة، دوت تلك الرصاصة، في ذلك المستشفى الكبير..
رصاصة تردد صداها في المكان كله، وهي تنبعث من حجرة كبير الأطباء في المستشفى، الدكتور (ثروت شاكر)..
وبسرعة كبيرة، ووسط حالة من الذعر والهلع، أسرع رجال أمن المستشفى إلى الحجرة، واقتحموها، ليجدوا أمامهم ذلك المشهد الرهيب..
الدكتور (ثروت) ملقي في منتصف الحجرة، جثة هامدة، مصابة برصاصة في منتصف الجبهة، والدماء تحيط برأسه في شكل بركة قرمزية مخيفة، وباب الشرفة المطل على الحديقة الغارقة في الظلام مفتوح على مصراعيه..
وهناك، في الركن، كان يجلس (مندور)..
رجل أعمال شهير، سقط منذ ما يقرب من ستة أشهر، في براثن مرض (الزهايمر) الشديد، والدكتور (ثروت) يسعى لعلاجه، منذ شهر كامل..
كان يجلس صامتا، محدقا في جثة طبيه المعالج، بتلك النظرة الشاردة الذاهلة، التي اعتادها منه الجميع، في الأشهر الأخيرة..
أما المسدس، سلاح الجريمة، فكان ملقى في الركن البعيد، على نحو يوحي بأن القاتل قد ألقاه للتخلص منه، بعد أن ارتكب جريمته..
ووسط حالة الذعر الشديد، التي أصابت الجميع، تقدم (أمجد)، مدير أمن المستشفى نحو رجل الأعمال السابق، وسأله في توتر:
- ماذا حدث؟!.. من فعل هذا؟!
رفع (مندور) عينيه إليه بنظرة شاردة، وسأله في خفوت حائر:

- من.. من أنت؟!
هتف به (أمجد) في عصبية
- أنا (أمجد).. مدير أمن المستشفى.. هل نسيتني يا أستاذ (مندور)؟!
ظلت عينا (مندور) تحملان الحيرة نفسها، وهو يغمغم:
- أهلا يا (أمجد).. كيف حالك؟!
هتف (أمجد):
- أخبرني بالله عليك.. ماذا حدث؟!
حدق (مندور) فيه بنظرة خاوية، وكأنه لا يفهم السؤال، ثم تمتم في حيرة:
- حدث لمن؟!
صاح (أمجد)، وقد نفد صبره:
- من قتل الدكتور (ثروت)؟
كان عدد من أطباء المستشفى قد أسرع يفحص جثة القتيل ويحاول عبثا إسعافه، قبل أن يرفع أحدهم رأسه، قائلاً في مرارة:
- لا تحاول يا سيد (أمجد)
كان المتحدث هو الدكتور (نادر) إخصائي المخ والأعصاب بالمستشفى؛ لذا فقد أولى (أمجد) عبارته اهتماما بالغا، وهو يسأله في عصبية:
- ولماذا؟!
أشار (نادر) بيده، قائلاً:
- السيد (مندور) مصاب بمرض (الزهايمر)، إنه يعاني من حالة فقدان ذاكرة عشوائي، أي إنه قد يتذكر حدثا قديما جدا، وينسى ما رآه منذ لحظات قليلة..
هتف (أمجد)، وقد تضاعفت عصبيته:
- مستحيل أن يكون قد نسى ما حدث.. إنها مسألة دقائق!

تنهد (نادر)، قائلاً:
- ها هو ذا أمامك.. هل يبدو متذكرا؟
أدار (أمجد) عينيه إلى (مندور) في عصبية، ورأى تلك الملامح الخاوية الحائرة، فعض شفتيه في غضب، قبل أن يلتفت إلى (نادر)، ويسأله في شيء من الحدة:
- من سواك يعرف هذا؟!
بدا السؤال عجيبا، بالنسبة ل- (نادر)، إلا أنه أجاب، في حذر لم يذر سببه:
- أي طبيب متخصص، يمكن أن
قاطعه (أمجد)، في حدة أكثر:
- مَن مِن العاملين في هذا المستشفى؟!
تردد الدكتور (نادر) لحظة، قبل أن يتضاعف حذره، وهو يجيب:
- الدكتور (جلال)، والدكتور (عرابي)، والدكتور (سمير).
التقط (أمجد) نفسا عميقا، وهو يعتدل، ويشد قامته، قائلاً بمنتهى الحزم: -
- أريد ثلاثتهم هنا معك.. فورا. -
انبعث صوت غاضب، من بين الموجودين، يقول:
- ولماذا؟!.. هل تتهمنا بارتكاب الجريمة؟!
استدار إليه (أمجد) في صرامة، قائلاً:
ليس من سلطتي أن أتهم أحدا يا دكتور (جلال).. ولكن من الواضح أن القاتل شخص يعرف جيدا طبيعة مرض السيد (مندور)، بدليل أنه قد تجاهل وجوده بالحجرة، ولم يحاول التخلص منه؛ لإخفاء ما يدينه..
قال الدكتور (جلال) في حدة:

- وفي رأيك أن هذه القرينة تجعل أطباء المخ والأعصاب الأربعة بالمستشفى متهمين!
هز (أمجد) رأسه نفيا في صرامة، مجيبا:
- بل مشتبه فيهم فحسب يا دكتور (جلال).. هذا هو المصطلح الصحيح..
ودون أن يمنحه فرصة للتعليق، التفت إلى أحد رجال الأمن المصاحبين له، قائلاً بلهجة آمرة صارمة:
- هذه الحجرة أصبحت الآن مسرح جريمة.. احرص على إخراج الجميع منها، وعدم المساس بأي شيء داخلها..
ثم التفت إلى آخر، متابعا:
- أما أنت، فأحضر السيد (مندور) إلى مكتبي، وكذلك الأطباء الأربعة، لحين وصول رجال الشرطة..
قالها، واندفع مغادرا الحجرة، وكأنما يعلن أنه ليس مستعدا لسماع أية تعليقات أو مداخلات ولم تمض دقائق خمس، حتى كانت أوامره كلها قد نفذت..
وفي توتر شديد، وقف الأطباء الأربعة أمامه، في حجرة مكتبه، في حين جلس (مندور) على مقعد متحرك في الركن، وعيناه ما زالتا تحملان تلك النظرة الخاوية الشاردة..
ولثوان، اكتفى (أمجد) بالتحديق في وجوه الجميع، في صمت تام، قبل أن يسأل فجأة:
- ما علاقتك بالدكتور (ثروت)؟!
تبادل الرجال الأربعة نظرة متوترة، قبل أن يقول الدكتور(عرابي) في عصبية واضحة:
- أي سؤال هذا؟!
أجابه (أمجد) في صرامة:

- سؤال واضح وصريح يا دكتور (عرابي)، ولست أدرى لماذا استفزك إلى هذا الحد!
احتقن وجه الدكتور (عرابي) في شدة، في حين غمغم الدكتور (سمير) في خبث مستفز:
- ربما بسبب الخلافات القديمة..
التفت إليه (عرابي) بنظرة غاضبة، في حين تساءل (أمجد) في سرعة:
- أي خلافات؟!
هز (عرابي) رأسه في عصبية، قائلاً:
- لا توجد أية خلافات..
هز (سمير) كتفيه، وغمغم بنفس الخبث:
- ربما!
نقل (أمجد) بصره بينهما، ثم عقد ساعديه أمام صدره،- وهو يقول في صرامة شديدة:
- فليكن.. لو أنك تعرف شيئا، عن أية خلافات، بين الدكتور(عرابي) والدكتور (ثروت)، فهذا هو الوقت المناسب للإفصاح عنها..
تضاعفت عصبية (عرابي)، على نحو واضح، في نفس الوقت الذي اتسعت فيه ابتسامة (سمير) الخبيثة، وهو يقول:
- إنه ليس خلافا خفيا، فالجميع يعلم أن الدكتور (عرابي) كان غاضبا بشدة، عندما حصل الدكتور (ثروت) على منصب كبير الأطباء بالمستشفى، وأنه أعلن أكثر من مرة أنه الأحق بالمنصب..
قال الدكتور (عرابي) في حدة:
- هذا أمر طبيعي.. أنا الأقدم في تاريخ التخرج، وحتى في الخبرة الميدانية، و..

قاطعه (أمجد) في صرامة:
. - وهل يمنحك هذا الحق في قتله؟
انتفض (عرابي) في حدة، وهو يقول مستنكرا:.
قتله؟!.. ومتى كانت خلافات المناصب مبررا للقتل وسفك الدماء؟!
اندفع (نادر) يقول:
- لماذا إذن أشرت، في حديثك الأخير معنا، إلى أن فرصتك الوحيدة في نيل المنصب، هي موت الدكتور (ثروت)!
اعتدل (أمجد) في انتباه، وبدت له تلك الواقعة شديدة الخطورة، ولكن الدكتور (عرابي) صاح في ثورة:
على الأقل، أنا لم أهدده بالقتل صراحة، كما فعلت أنت!
وامتقع وجه الدكتور (نادر) في شدة..
وكانت مفاجأة..

☆ ☆ ☆

«قناع.. قناع..»
هتف رجل الأعمال المريض (مندور) بتلك الكلمات فجأة في تلك اللحظة، التي توتر فيها الموقف كله، فاستدارت العيون كلها إليه في توتر، وسأله (أمجد) في لهفة:
- أي قناع يا سيد (مندور)؟!
بدا الرجل يقظا تماما، وهو يجيبه في حماس:
- دخل الحجرة، وهو يرتدى ذلك القناع.. قناع العمليات الجراحية.. قناع الـ
بتر عبارته بغتة، قبل أن تعود تلك النظرة الحائرة الشاردة إلى عينيه، وهو يتلفت حوله، متسائلا:
- أهذه حجرتي؟!
اتجه (أمجد) نحوه، وربت على كتفه، قائلاً:

- كلا يا سيد (مندور).. إنها ليست حجرتك
غمغم الرجل في حيرة:
- ولماذا لست في حجرتي؟!
أجابه (أمجد) مشفقا:
- ستعود إليها قريبا يا سيد (مندور).. اطمئن
هز الرجل رأسه، بنفس الحيرة والشرود، قبل أن يرفع عينيه إليه، متسائلا بابتسامة مرتبكة:
- أشكرك يا.. بالمناسبة.. ما اسمك؟
زفر (أمجد) في توتر، والتفت إلى (نادر)، وسأله، متجاهلاً سؤال (مندور) الحائر:
- ما قصة التهديد بالقتل هذه يا دكتور (نادر)؟!
لوح (نادر) بذراعه في عصبية، قائلاً:
- لم أكن أقصد هذا فعليا.. كانت لحظة غضب فحسب..
عاد (أمجد) يعقد ساعديه أمام صدره، متسائلا:
- والسبب؟
بدا (نادر) شديد التوتر، وهو يقول:
- لست أذكره
هم (أمجد) بإلقاء سؤال آخر، عندما اندفع الدكتور (جلال)، يقول في استنكار:
- أي جواب سخيف هذا؟!
تضاعف توتر (نادر)، وأشاح بوجهه في عصبية، في حين تساءل (أمجد) بمنتهى الاهتمام:
- ولماذا تعتبره كذلك؟!
هتف الدكتور (جلال):
- لأننا جميعا نعرف السبب، فكيف يمكن أن ينساه الدكتور(نادر)؟!

وهنا، أضاف (سمير)، بنفس الخبث:
- خاصة وأنه كان يتعلق بمسار حياته كله. -
بدا ارتياح عجيب، في عيني الدكتور (عرابي)، وكأنما أسعده أن يلقى الاتهام على سواه؛ مما جعل (أمجد) يقول في حدة:
- يبدو أنكم قد أثرتم فضولي، دون أن يحاول أحدكم إشباعه
عاد الجميع يتبادلون نظرة متوترة، ثم اندفع (نادر) يقول بمنتهى العصبية:
- فليكن.. لقد أراد إنهاء تعاقدي مع المستشفى، في منتصف الموسم
سأله (أمجد) بسرعة:
- ولماذا؟
أجابه (نادر) بنفس السرعة والعصبية:
- بسبب خطأ بسيط
قال (سمير) في سخرية:
بسيط؟!.. لقد أصاب مريضا شابا بشلل رباعي دائم..
هتف (نادر):
- كل عمليات المخ لها مضاعفات محتملة.
قال (سمير) في سرعة:
- وأخطاء بشعة أيضا..
احتقن وجه (نادر) في شدة، واحتبست الكلمات في حلقه وفي اهتمام بالغ، اتجه نحوه، يسأله:
لا اعتقد.....
وفجأة، اندفع (مندور) يقول:
- عمليات.. قناع العمليات..
استدار إليه الجميع مرة أخرى في توتر، في حين انتبه(أمجد) فجأة إلى ما يعنيه هذا..

- القاتل كان يرتدي قناع عمليات جراحية يا سيد (مندور).. أليس كذلك؟
تطلع إليه (مندور) بشروده التقليدي، وهو يقول:
- عمليات.. طبيب.. قناع..
كلمات متفرعة، فهم منها (أمجد) الكثير..
والكثير جدا..
وفي ثقة، عاد يواجه الأطباء الأربعة، قائلاً:
- الأمر واضح للغاية.. الذي ارتكب الجريمة طبيب، كان يرتدي زي العمليات الجراحية
غمغم الدكتور (جلال) في عصبية:
- عديدون يرتدون ذلك الزي، في هذا الطابق بالذات، حيث توجد ثلاث حجرات للعمليات الجراحية
ابتسم (أمجد)، قائلا:
- الأمر ليس بالبساطة التي تصفها.. صحيح أنه ربما ترى العديدين في الزي الجراحي، في هذا الطابق، ولكننا نبحث عن طبيب محدد، يعرف الكثير عن مرض (الزهايمر) وكان يجرى عملية جراحية، قبل الجريمة مباشرة..
وعاد يدير عينيه في وجوههم، مضيفا في صرامة: -
- السؤال إذن هو: من منكم تنطبق عليه هذه الأوصاف؟
لم يكن بحاجة إلى جواب مباشر، فقد اتجهت العيون كلها مباشرة إلى الدكتور (جلال)، الذي قال في عصبية:
- هذا ليس دليلا..
سأله (أمجد) في صرامة:
- هل تعتقد هذا؟!
هتف (جلال) في حدة:

- بالطبع.. عمليات المخ لا يجريها طبيب واحد، أو حتى طاقم جراحي بسيط، وهذا يعني أن لدى أكثر من عشرة شهود، على تواجدي في حجرة العمليات
هز (أمجد) كتفيه، قائلاً:
- وماذا بعد خروجك منها؟!
أجابه في عصبية:
- لقد عدت إلى حجرتي مباشرة
قال (أمجد)، ملوحا بسبابته في وجهه:
- الجريمة لم تستغرق سوى لحظات قليلة، وحجرتك في نفس مستوى حجرة الدكتور (ثروت)، ويمكنك أن تنتقل منها إليه عبر الشرفة المشتركة، فتطلق النار على رأسه، وتعود إلى مكتبك في أقل من نصف دقيقة، دون أن يشعر أحد بغيابك
احتقن وجه الدكتور (جلال) في شدة، وهو يقول:
- والدافع.. ماذا عن الدافع أيها العبقرى؟!
وهنا، اندفع (سمير) يقول في حماس:
- أنا أعرف الدافع
تضاعف احتقان وجه الدكتور (جلال)، وأطلت من عينيه نظرة مذعورة، و(أمجد) يتساءل في لهفة:
- وما هو؟!
أشار (سمير) بسبابته، قائلاً في حماس أكثر:
- المستشفى الخاص..
هتف الدكتور (جلال):
- أي سخف هذا؟!
ولكن (سمير) تجاهله تماما، وهو يواصل:
- الدكتور (ثروت) كان غاضبا للغاية، عندما عرف أن الدكتور (جلال) يمتلك مستشفى خاصا، وأنه يسعى طوال الوقت

للاستيلاء على مرضى المستشفى هنا، ونقلهم للعلاج في مستشفاه الخاص..
تألقت عينا (أمجد)، وهو يتساءل:
- وماذا كان رد فعله؟
هز (سمير) كتفيه، قائلاً:
- لقد قرر إبلاغ الجهات القانونية...
والتقط (أمجد) نفسا عميقا فمع معلومة كهذه، بدا الأمر كأن الجريمة قد انكشفت في وضوح وأن القاتل قد سقط..

ولكن الدكتور (جلال) قطع سير أفكاره، وهو يقول في عصبية شديدة:
- مجرد تهديد أجوف.. للاستهلاك الداخلي فحسب.. من المستحيل أن يبلغ الدكتور (ثروت) الجهات القانونية بهذا
قال (سمير) في حماس:
- لأنك فتاته
أجابه الدكتور (جلال) في حدة:
- بل لأنه كان شريكي السرى في ذلك المستشفى الخاص وكانت مفاجأة جديدة أكثر عنفا...
اتسعت العيون كلها، في ذهول مستنكر، والجميع ينظر إلى الدكتور (جلال)، والشك يسيل مع النظرات وبكل الغضب، هتف الدكتور (سمير):
- كذب.. هذا كذب
أجابه الدكتور (جلال) في عصبية:
- هل تحب الاطلاع على الأوراق، التي تثبت قولي هذا؟!
هتف (عرابي) في غضب:
- ليس قولاً، بل هو اتهام حقير

صاح الدكتور (جلال):
- الأوراق في مكتبي، لمن يرغب في مطالعتها، وأنا مستعد لتحويلها إلى الطب الشرعي؛ لإثبات صحة توقيع الدكتور (ثروت) عليها.
أشار (أمجد) بيده للجميع، يدعوهم إلى الصمت، وهو يسأل(جلال) في صرامة:
- لماذا تشاجر معك الدكتور (ثروت) إذن بشأن هذا، ما دام متورطاً فيه؟!
أجابه (جلال) في عصبية:
- لأن أحدهم هدده بكشف السر، وأراد تبرئة نفسه، وإلقاء التبعة كلها على كاهلي
قال (أمجد) في صرامة:
- ولهذا قتلته
صرخ جلال :
- إنني لم أقتل أحدا
رفع (مندور) سبابته، في هذه اللحظة، وهو يقول:
- طبيب.. قناع.. قتل..
كلماته هذه فجرت كل ما تبقى من أعصاب الدكتور (جلال)، فاندفع نحو (مندور)، صارخا:
- أنت.. أنت المسئول عن كل هذا..

تراجع رجل الأعمال السابق في مقعده المتحرك، وانقض عليه (جلال) في شراسة شديدة، ودفع المقعد، صارخا:
- أنت السبب..
أسرع (مندور) يضغط الفرامل اليدوية لإطارى مقعده المتحرك، حتى لا يسقط أرضا، أو يندفع بمقعده، وهو يصرخ:

- النجدة.. النجدة!
وهنا، وثب (أمجد) نحو الدكتور (جلال)، وجذبه من ياقته، هاتفا:
- أهذا اعتراف صريح أم ماذا؟!
استدار إليه (جلال) في شراسة، وكال له لكمة كالقنبلة وهو يصرخ في انهيار:
- ابتعد أنت أيضا
سقط (أمجد) أرضا، مع عنف الضربة، ولم ينتظر (جلال) سقوطه، وهو يثب نحو (مندور)، ويقبض على عنقه بكفيه، صارخا:
- لولاك ما حدث كل هذا.. مت.. مت!
ولكن الدكتور (سمير) اندفع نحوهما، وهوى على مؤخرة عنق الدكتور (جلال) بضربة قوية، ارتج لها جسد هذا الأخير، قبل أن يسقط أرضا فاقدا الوعى، وسعل (مندور) في شدة، وهو يغمغم:
- أش.. أشكرك يا دكتور (سمير).
نهض (أمجد) في هذه اللحظة، وهو يدعك ذقنه في موضع الضربة، قائلاً:
- أظن هذا يحسم الأمر
تساءل الدكتور (عرابي)، في شيء من اللهفة:
- هل.. هل تعتقد أنه القاتل؟!
تساءل (أمجد):
- ألا يبدو هذا واضحا؟
استعاد (سمير) ابتسامته الخبيثة، وهو يقول:
- بالتأكيد
وهنا اندفع (نادر)، يقول في عصبية:

- ليس بالضرورة.
سأله (أمجد):
- ماذا تعنى؟
أجابه، وعصبيته تتزايد:
- أعنى أن الرجل وجد نفسه متهما، في جريمة قتل، ففقد أعصابه، وفعل ما فعل، وهذا ليس دليلاً على أي شيء.
قال (سمير) في خبث:
- هذا من وجهة نظرك، ولكن..
قاطعه (نادر) في حدة:
- لماذا تتحدث طوال الوقت، وكأنك برىء من التهمة، براءة الذئب من دم ابن (يعقوب)؟!.. ألست جزءا من هذه المشكلة؟!
انتفض جسد (سمير)، وهو يقول:
- أنا؟!
أجابه الدكتور (عرابي) في غضب:
- بالتأكيد.. أتظننا نجهل من هدد الدكتور (ثروت) بكشف الأمر؟!
قال في حدة:
- أنا لم أفعل هذا
صاح به (نادر):
- بل فعلت.. لقد شاهدتك تتحدث معه، قبل ساعات قليلة من مصرعه.. صحيح أنني لم أسمع حديثكما، ولكن وجه الدكتور(ثروت) احتقن بشدة، مما يوحي بأن ما سمعه منك لم يرق له أبدا..
لوح (سمير) بذراعه، هاتفا:
- هراء.. مجرد استنتاج سخيف.
قال الدكتور (عرابي)، في صرامة عصبية:

- وماذا عن تواجدك في مكتبه، قبيل مصرعه مباشرة؟!
احتقن وجه (سمير)، وهو يقول:
- مجرد مصادفة..
أجابه (أمجد) في صرامة:
- ولكنه يجعلك آخر من رأه حيا.
ارتبك (سمير) بشدة، وقال:
- ولكنني لم أقتله.. أقسم إننى لم أفعل..
سأله (أمجد):
- ماذا قلت له إذن؟
ازدرد (سمير) لعابه في صعوبة، وهو يدير عينيه في وجوههم، قبل أن يقول:
- لقد أخبرته أننى أعلم بأمر المستشفى الخاص، وبأن بعض رجال الأعمال يمولونها سرا، كوسيلة لغسيل أموالهم القذرة ([1])، و..
بتر عبارته دفعة واحدة، فسأله (أمجد) في حزم، لم يخل من رنة لهفة:
- وماذا؟!
تردد (سمير) لحظة، ثم قال:
وبأنه يساعد بعض رجال الأعمال، بوسائل غير مشروعة؛ ليتهربوا من أحكام قضائية، أو ديون باهظة
هتف (سمير):
- بالطبع
انعقد حاجبا (أمجد)، وهو يقول:
- إنها اتهامات بالغة الخطورة.
ثم استدرك في عصبية:

- ولكنها لا تبرر واقعة قتل.
- ما الذي تعنيه بهذا؟
أجابه في سرعة:
- حديثي أخافه، وجعله يسعى لإرضائي بأية وسيلة، فلماذا أقتله؟!.. المفترض والحال هكذا، أن تكون حياته أكثر فائدة لى من موته..
انبرى (مندور) يقول فجأة:
- موت.. طبيب.. قناع.
انعقد حاجبا (أمجد) أكثر، وهو يشير إليه، متسائلاً: -
أحالته بهذا السوء بالفعل؟!
- هز (نادر) رأسه، قائلاً:
- إنها لم تكن أبدا بهذا السوء.. ربما هي صدمة وقوع جريمة القتل أمام عينيه؛ فهو يتصرف كمعتوه، وليس كرجل مصاب بفقدان ذاكرة عشوائي.
سأله (أمجد) في اهتمام:
- هل تعتقد أنه لو تجاوز الصدمة، سيمكنه إرشادنا إلى ما يفيد في كشف القاتل؟
صمت (نادر) بضع لحظات مفكرا، قبل أن يجيب في حذر:
- ربما!
انفرجت شفتا (أمجد)، ليلقى سؤالا آخر، ولكن فجأة، وكما يحدث في أفلام السينما، تداعت في رأسه مجموعة من المشاهد والكلمات..
ثم تركز ذهنه على كلمة كلمة واحدة، لم يدر كيف لم ينتبه إليها في حينها كلمة كشفت أمامه اللغز كله ودفعة واحدة..
☆ ☆ ☆

لثوان، تجمد (أمجد) تماما، وهو يستعيد الأحداث كلها مصرع الدكتور (ثروت)..
مسرح الجريمة.
المتهمين...
واتضحت.
واتضحت.
أقوالهم..
خلافاتهم.
دوافعهم..
ثم توقف عند كلمة واحدة.
ومشهد واحد.
واتضحت الصورة أمام عينيه.
اتضحت.
ومع وضوحها، انزاحت أمامها كل الشكوك، واحدا بعد الآخر، حتى بدت جلية، على نحو لا يمكن أن يتطرق إليه..
وبعد نفس عميق، أدهش الجميع، قال (أمجد) بمنتهى الارتياح، وقد حملت عيناه بريقا عجيبا:
- لقد توصلت إليه!
سأله (نادر) في حيرة:
- إلى من؟!
التفت إليه، مجيبا بكل الحزم:
- القاتل.
اتسعت عينا (سمير) في ارتياع، في حين انكمش الدكتور(عرابي) في مكانه، وكأنه يتمنى أن يتلاشى من الوجود في حين هتف (نادر)، في عصبية شديدة، ولهجة غير مصدقة:
- ومن هو؟!.. من؟!

أشار (أمجد) بسبابته، مجيبا:
شخص حاد الذكاء، نجح في خداع الجميع، وتصور أنه سيفلت بفعلته، كالشعرة من العجين
هتف الدكتور (نادر) مرة أخرى:
- من بالله عليك؟!
وهنا، أدار (أمجد) عينيه في وجوههم، ثم قال في حزم:
- هذا الرجل.
واتسعت العيون كلها بكل دهشة الدنيا بل بكل ذهولها فسبابة (أمجد) كانت تشير إلى آخر شخص بالحجرة، يمكن أن يخطر ببال الجميع.. إلى (مندور)..

وبنفس النظرة الخاوية، تطلع (مندور) إلى السبابة المشيرة إليه، دون أن ينبس ببنت شفة، في حين قال الدكتور (عرابي) في عصبية:
- هل جننت؟!.. إنه مريض، ولا يمكنه تنفيذ خطة محبوكة مسبقا..
قال (أمجد) في ثقة:
وليس كمريض (الزهايمر)..
قال (سمير) في ذهول:
- إنه تأثير الصدمة!
- ولكن الدكتور (نادر) أكد منذ قليل، أنه يتصرف كمعتوه،
هز (أمجد) رأسه نفيا، وهو يقول:
- بل هو فقدان للمرشد، الذي كان يوجهه إلى كيفية تمثيل دور مريض الزهايمر
وعاد ببصره إلى (مندور)، مضيفا:
- الدكتور (ثروت).

استقبله (مندور) بنفس النظرة الخاوية الشاردة، ولكنه واجهه بحزم هذه المرة، وقال وكأنه يتحدث إليه مباشرة:
- الجريمة كانت واضحة للغاية، ولكن تمثيليتك خدعتنا جميعا الدكتور (ثروت) أصيب بطلق ناري، داخل حجرة مكتبه، التي لم يكن فيها سواه وسواك.. فلماذا لم تتجه إليك أصابع الاتهام منذ اللحظة الأولى؟! ! !
لم تتغير نظرة (مندور)، فتابع (أمجد)، وكأنه لا ينتظر تعليقه:
- بسبب لعبة مرض (الزهايمر) هذه
انتفض الدكتور (عرابي)، وهو يقول:
- استنتاجك هذا يبدو أكثر ما سمعت في حياتي حماقة!
هز (أمجد) كتفيه، وقال مبتسما:
- ربما.. ولكن حاول أن تتخيل الصورة التي سأرويها لك..
وأشار بيديه موضحا، وهو يتابع:
- السيد (مندور) كرجل أعمال، له أرباح كثيرة غير مشروعة مما يدفعه إلى التعاون مع الدكتور (ثروت)؛ لإنشاء مستشفى خاص، يمكن عبره تمرير الأرباح غير المشروعة، بوسيلة غسيل أموال مبتكرة، وفي الوقت ذاته، يساعد الدكتور (ثروت) (مندور)، على الفرار من بعض المسئوليات الجنائية. عن طريق ادعاء الإصابة بمرض (الزهايمر).. وكان من الممكن أن يسير كل شيء على ما يرام، وأن يفلت (مندور) من العقوبة، ثم يتظاهر بالشفاء من المرض بوسيلة ما وتوقف ليلتقط أنفاسه، قبل أن يواصل:
- ولكن (سمير) ظهر فجأة، ليفسد كل شيء.
غمغم (سمير) في عصبية:
- أنا؟!
تابع (أمجد)، وكأنه لم يسمع:

ظهر ليهدد الدكتور (ثروت) بكشف سره؛ مما أصابه بموجة ذعر، جعلته يتشاجر مع الدكتور (جلال)، الذي يشاركه المستشفى الخاص، ثم دفعته لاستدعاء (مندور)؛ لكي يخبره أن أمرهما كاد ينكشف، ويطالبه بترك المستشفى في الحال.

ظلت ملامح (مندور) خاوية جافة، وهو يستمع إليه، إلا أنه واصل بمنتهى الثقة:

- ولأن التراجع، في هذه المرحلة، كان يهدد بإفساد كل شيء، لم يكن أمام (مندور) سوى أن يقتل (ثروت)، معتمدا على أن أحدا لن يشك بارتكابه الجريمة قط..

هز (سمير) رأسه، قائلاً:

- قصة لا يمكن أن يصدقها أحد..

أشار إليه (أمجد)، قائلاً:

- قل لي إذن، لماذا يستدعى كبير الأطباء مريض (الزهايمر) إلى مكتبه، وهو يعلم أن كل ما سيناقشه معه، سينساه حتما، خلال ساعات قليلة؟!

صمت الجميع، وتبادلوا نظرة حائرة مرتبكة، فتابع (أمجد):

- (مندور) أطلق النار، ومسح بصماته عن المسدس، وألقاه في الركن البعيد، وجلس متظاهرا بالشرود والحيرة، والجميع يقتحم المكتب..

غمغم الدكتور (عرابي):.

مستحيل!.. إنه مريض ب- (الزهايمر)، و

قاطعه (أمجد) في حزم:

- راجع المشاهد يا دكتور (عرابي)، وستدرك أنه مخادع تماما.. لقد هاجمه الدكتور (جلال)، وكاد يفتك به، واتهمه بأنه المسئول عن كل ما يحدث؛ لأنه يعرف، كشريكه الدكتور (ثروت)، دوره في اللعبة، وعندما هاجمه، تحرك (مندور) بحركة

غريزية، وضغط فرامل مقعده، أي إنه كان يذكر موضعها وكيفية عملها تماما، على الرغم من إصابته بفقدان ذاكرة عشوائي، وحتى بعد أن أنقذه الدكتور (سمير)، قام بشكره رسميا، مما يتعارض مع عجزه المزعوم عن تذكري منذ الحادث..

حملت عينا (مندور) لمحة مختلفة هذه المرة، في حين غمغم الدكتور (عرابي):

- كل هذه ليست أدلة حاسمة..

هز (أمجد) كتفيه، وهو يقول، متطلعا إلى (مندور) مباشرة:

- فليكن.. سأتهمه رسميا، وأطلب عرضه على لجنة من، الأطباء، وستقوم الشرطة بمراجعة سجلاته، وفحص ملفاته وأراهنكم أن الأمر سيحتاج إلى أقل من أسبوع واحد، لكشف حقيقته كاملة. و....

ظلت العيون تحمل الشك وعدم التصديق، حتى قال (مندور) فجأة، بلهجة تخالف كل ما اعتادوه منه:

- كان ينبغي أن أقتلك أنت!

واتسعت العيون كلها في ذهول، وعقد (أمجد) ساعديه أمام صدره، وهو يبتسم في ثقة.. ومن بعيد، تعالى صوت أبواق سيارات الشرطة، وهي تقترب..

وتقترب..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

Notes

[←1]

(*) غسيل الأموال: مصطلح يطلق على عملية إدراج الأموال، التي تم جنيها بوسائل غير شرعية، في قنوات شرعية رسمية، بحيث تبدو كأنها أموال قانونية تماما

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

جريمة رقمية

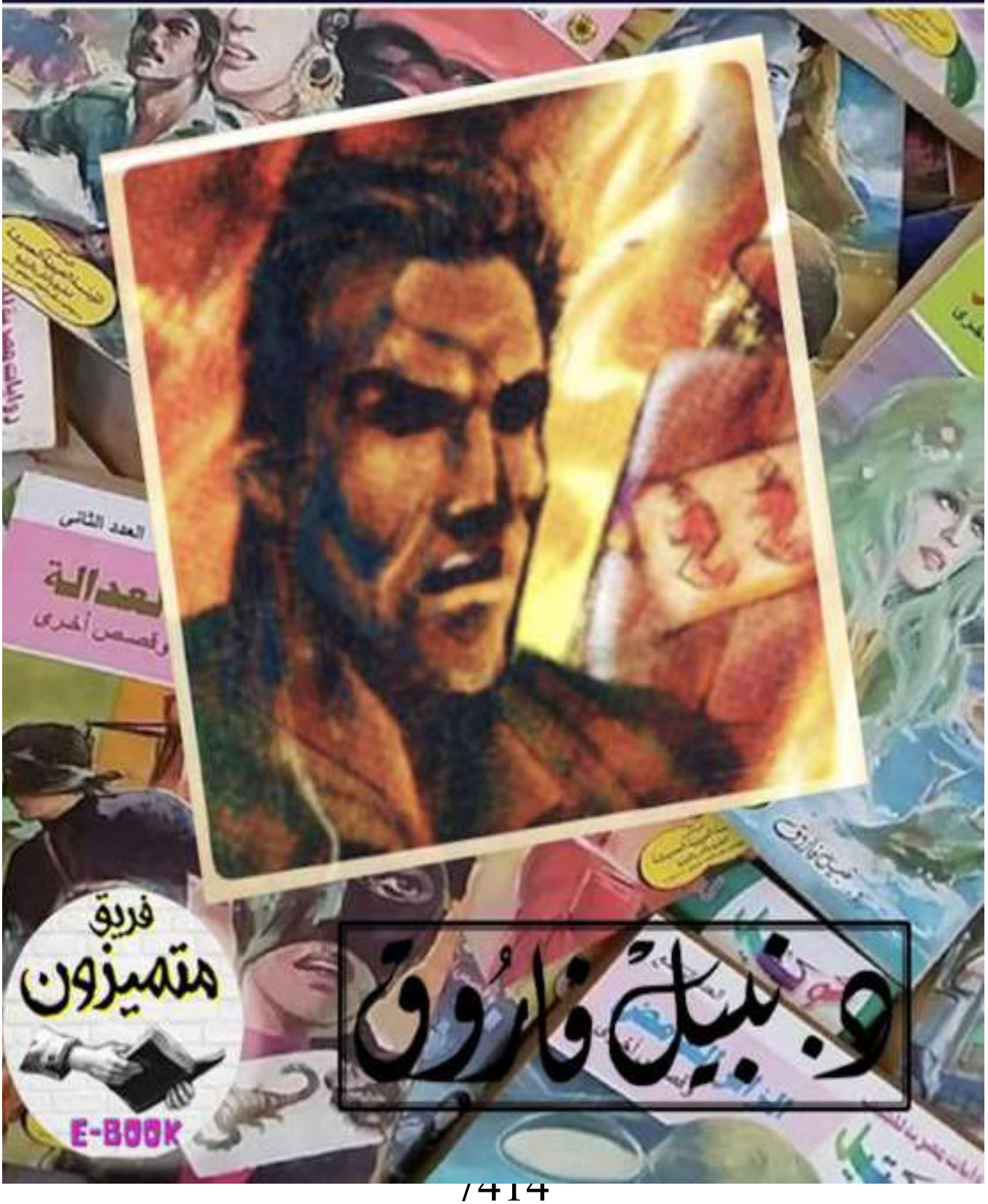

ونبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

الزهرة القرمزية

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- الزائر..

بدأ ذلك الصباح عاديا كأي صباح..
استيقظت تعبا مجهدًا كالمعتاد، وكأنني كنت أعدو طوال الليل، وبذلت جهدا خرافيا، كالمعتاد أيضا، حتى انتزع نفسي من فراشي، وأدس قدمي المكدودتين في ذلك الشبشب القديم، الذي أنوي تغييره، منذ فترة طويلة للغاية، ولا أضع هذا القرار أبدا موضع التنفيذ، ورحت أزحف معه وبه، حتى وصلت إلى حمام شقتي الصغيرة وأنا ألهث، على الرغم من أن مساحتها كلها لا تزيد عن مساحة صالة الانتظار، في شقة الأستاذ (حازم)..
وفي تكاسل هو سمة من سمات شخصيتي، رحت أحلق لحيتي، التي يصر الأستاذ (حازم) على أن يراها ناعمة كل صباح، وكأننا جنود في ثكنة عسكرية، ثم وضعت جسدى بالكاد في ملابسي، التي يفترض أن تبدو أنيقة، بما يتناسب مع مكانة المكتب، ثم دفعت نفسي دفعا إلى الخارج، لأبدأ يومي المعتاد المملّ..
والطريق من حيث أقيم إلى المكتب، يستغرق ساعة من السير على الأقدام، ولكن بالنسبة لشخص نحيل مثلي، يعاني من حساسية صدرية، منذ كان في الخامسة من عمره، هو أشبه بحكم إعدام، مع سبق الإصرار والترصد، فأنا أستقلّ ذلك الشيء المتهالك، الذي يقوده شخص هستيري، نصف مختل، وحتما مسجل خطر، والمعروف باسم (الميكروباص)، وأظل أدعو الله سبحانه وتعالى طول الوقت أن أصل بأمان..
وأخيرا، وبعد حرب أعصاب، تستغرق عشرين دقيقة، نظرا للزحام المروري المعتاد، أصل إلى المكتب..
ويبدأ العذاب اليومي..

الأستاذ (حازم) يصرخ ويأمر طوال الوقت..
والآنسة (حنان) باردة كالثلج، وطلباتها لا تنتهي أبدا..
و(حسن) عامل البوفيه لا يتوقف عن الحديث لحظة واحدة..
و(حلمي) زميلي الوحيد بالمكتب، يتصرف طوال الوقت وكأنه (شيرلوك هولمز) في زمانه..
كلهم يبدءون بحرف الحاء كما ترون..
فيما عداي أنا..
آه.. معذرة.. كنت أتحدث طوال الوقت مثل(حسن)، ونسيت تقديم نفسي لكم، كما تحتم أصول اللياقة الواقع أننى أزيد عن كل من في المكتب أزيد عنهم بنقطة كلهم يبدءون بحرف الحاء، وأنا وحدى، أبدأ بحرف الخاء اسمى هو (خالد)..

(خالد خيرى)، أو(خ خ).. كما أحب أن أسمى نفسي وكما أحب و أتمنى أن يناديني الآخرون وكلهم ينادونني به أحيانا من باب السخرية فقط(حلمي) يقولها باعتبار أنها اختصار (خالد خايب)، وحنان تقولها (خايب خيابة)، و(حسن).. (حسن) عامل البوفيه، يسألني دوما إذا ما كنت أرغب في شرب (خروب خشن)، وهو يبتسم في خبث سخيف أما الأستاذ (حازم) نفسه، فيستخدم مصطلحا، أكره حتى أن أكتبه، لما له من صلة بالفضلات الإنسانية، و..
المهم أن اسمي الرسمي هو (خالد خيري)، وهذا يكفي..
وأنا أعمل منذ سنوات في مكتب الأستاذ (حازم)، المحامي الجنائي المعروف، والذي لم يخسر في حياته كلها سوى ثلاث قضايا، كنت أنا المسئول عن واحدة منها للأسف وأنا في الواقع لست محاميا لدى الأستاذ (حازم)، ولكنني مساعده..

وكيل محامى لو شئنا استخدام المسميات الشعبية المعتادة..
ولكن دعونا من كل هذا، ولنعد إلى ذلك اليوم، الذي بدأت فيه هذه القصة كان كما أخبرتكم يوما عاديا ككل يوم، ولكنني عندما وصلت إلى مكتبي، كانت هناك مفاجأة في انتظاري..
فعلى سطح المكتب، وسط الملفات العديدة، كانت هناك علبة مكعبة، وردية اللون، كتب عليها بحروف كبيرة أنيقة، ذلك اللقب الخاص بي..
حرفى خاء منفصلين وتوقفت أحدق في العلبة، وأنا أدرك أنها مزحة من أحد العاملين في المكتب وبالأخص لأنهم جميعا تظاهروا بأنهم حتى لم يلحظوا وصولى إلى المكتب...
(حنان) كانت تبدو منشغلة بجهاز الكمبيوتر أمامها، على الرغم من أن العمل لم يبدأ بعد و (حلمي) يتظاهر بالانشغال في مراجعة بعض الملفات القديمة و(حسن) في المطبخ، الذي تفوح منه رائحة الخروب المغلى ولكن أحدهم حتما أحضر تلك العلبة والسؤال هو من منهم؟!..
من؟!..
على الرغم من أنني لست ممن يتميزون بالجرأة في المعتاد، فقد حسمت أمرى في سرعة لم أعتدها في تعاملاتي، واتجهت نحو الآنسة (حنان)، وقلت، محاولاً التظاهر بالثقة:
- أعجبتني هديتك
التفتت إلى، وبراءة الأطفال في عينيها، متسائلة:
- أية هدية؟!
ملت نحوها، قائلا بابتسامة، أظنها تشبه ابتسامه (أحمد عز)، في أفلامه:
العلبة الوردية.. من سواك يختار اللون الوردي والحرفين الكبيرين لهديته؟!.. (حلمي) سيختار حتما شيئا أكثر تعقيدا من

مجرد علبة مكعبة، و(حسّن) لن يختار اللون الوردي حتما، لأن هذا لا يتناسب مع ثقافته، فمن تبقى؟!
أجابتني في سرعة
- الأستاذ (حازم).
مرة أخرى، حاولت أن أبتسم ابتسامة (أحمد عز)، وأنا - أنظر في عينيها مباشرة، على الرغم من أنني لا أشبه (أحمد عز) على الإطلاق، وعلى الرغم من أنها لن ترى منى شيئا عبر عدسات نظارتي السميكة ولكن المدهش أن هذا قد أفلح.
لقد أطلقت الآنسة (حنان) ضحكة، عجزت عن كثمانها طويلاً، وهي تقول:
- هل أعجبتك حقا، أم.. ؟!
سألتها، في أسلوب لا يشبه أسلوب (عز) حتما:
- ما رأيك أنت؟!
ضحكت مرة أخرى، وهي تجيب:
- أم..
لم ترق لى إجابتها..
ولا حتى ضحكتها...
ولكن من أنا لأفصح عن مشاعري وضيقي، خاصة أننى قد ورطت نفسي في تلك الهدية الإجبارية والاستفزازية، فبعد أن شكرت الآنسة (حنان)، لم يكن من التهذيب أن أتخلص منها، ولا مناص من رؤيتي لها على سطح مكتبى طوال الوقت كل ما استطعت فعله هو أن أتحاشي النظر إليهم، وأدفن وجهي في كومة الملفات أمامي، وألعن تلك الهدية المستفزة في كل لحظة، وأضع الخطط للتخلص منها بأية وسيلة المشكلة أنها مصنوعة من البلاستيك اللين، الذي يصعب كسرة..

ولكن ماذا لو سقطت سهوا في سلة المهملات، قبل أن يفرغ(حسن) محتوياتها بلحظات؟!
لابد في هذه الحالة أن أكتسب موهبة (خالد صالح) في التمثيل، وأتظاهر بالارتياع لفقدان الهدية!..
ولكن دعونا من كل هذا، ولندخل في صلب القصة..
لقد باءت كل محاولاتي لتحاشي النظر إلى الزملاء بالفشل، وخاصة عندما وصل الأستاذ (حازم)، وبدأ عملية الصراخ والمطالب، مما طوال الوقت لتلبية مطالبه، ونحن جعلنا نعدو لا ندرى حتى لماذا هو غاضب ويصرخ باستمرار!!
وفجأة، وبينما تنهمك في العمل، اندفع إلى المكتب رجل أنيق.
لم يكن من زبائن المكتب المعتادين، ولكن كل لمحة منه كانت تؤكد أنه أحد ذوى الشأن....
كان يرتدي حلة رمادية بالغة الأناقة، ومن الواضح أنه لم يشتريها من العتبة، التي اشتريت منها حلتى السوداء اليتيمة، فقماشها من النوع السميك اللافت للنظر، وأناقتها وفخامتها واضحتان، على الرغم من أن أحد أزرار كمها الأيسر مفقود وفي خنصر يده اليسرى خاتم ذهبى، به فص أسود، وقميصه يلمع تحت ضوء المكتب، ومن جيب سترته يطل منديل قرمزى حريري، أكمل أناقة زيه أما حذاؤه، فقد جعلني أكره ذلك الحذاء الذي أرتديه، الذي اشتريته من العتبة أيضا المهم أننا في نفس اللحظة، التي التفتنا إليه فيها، كان يهتف في توتر بالغ الشدة:
الأستاذ (حازم).. أريد مقابلة الأستاذ (حازم) فورا..
أين هو؟!
أسرعت إليه محاولا تهدئته، وأنا أقول
- الأستاذ (حازم) هنا، ولكن أخبرني لماذا تريده، حتى أ..
قبل أن أتم عبارتى، صرخ في وجهى:

- لا.. لن أخبر أحدا.. أريد مقابلة الأستاذ (حازم) الآن..
أريد مقابلته شخصيا..
التف الجميع حولنا صامتين، وأنا أحاول تهدئته(حلمي).. و(حسن).. والآنسة (حنان).. ولكنه صرخ بمنتهى العصبية:
- لماذا لا يقابلني الأستاذ (حازم) بنفسه؟ سأدفع له كل ما يطلبه.. أين هو؟!
قبل أن أجيبه هذه المرة، فتح الأستاذ (حازم) باب مكتبه وأطل منه بكرشه الضخم، الذي يجعلني دوما أتذكر معدتي، التي تلتصق بعمودي الفقري من شدة نحولي، كما يتندرون، وصرخ كالمعتاد:
- ماذا هناك؟!.. من يصرخ؟!
كدت أخبره أنه الوحيد الذي يصرخ طوال الوقت، ولكن ذلك الزائر سبقني، وهو يندفع نحوه، ويتشبث به، هاتفاً:
- أستاذ.. أنقذني يا أستاذ.. أنقذني..
وهنا حدث أمر عجيب جدا..
على الرغم من أن الأستاذ دائم الصراخ، إلا أنه ما إن يرى زبونا، تفوح منه رائحة الثراء، حتى يتحول فجأة إلى حمل وديع، وتعلو شفتيه ابتسامة لا نراها في غير تلك المناسبات أبدا، لذا فقد استقبل زائره الثرى الملهوف في وداعة، وهو يقول:
- اهدأ يا أستاذ.. اهدأ.. كل مشكلة لها حل.. كل مشكلة..
أجابه الرجل في عصبية شديدة:
أنا (منير).. (منير صفوان) صاحب مصانع(صفوان) للملابس..
شهقت الآنسة (حنان) مبهورة، ومط (حلمى) شفتيه، وكأنه قد فهم ما يحدث في حين مال عليه (حسن)، يسأله عما يعنيه هذا، أما أنا، فقد أدركت عظمتها فقط، لماذا بدا لى وجه الرجل مألوفا منذ البداية إنه (منير صفوان)، صاحب مصنع الملابس الشهير

وصاحب أكبر وأشهر فضيحة لهذا العام لقد لقيت سكرتيرته السابقة مصرعها في حادث سيارة، بعد إشاعتها وجود علاقة بينها وبينه، واتخذته الصحف عندئذ مادة دسمة للتوزيع، حتى إن الشرطة نفسها قد أجرت تحقيقا معه، ثبت خلاله تواجده بعيدا عن مسرح الجريمة عند حدوثها (هذا لو أنها جريمة، وليست حادثة المهم أنه قد تجاوز الاتهام، وإن لم ينجح في فضيحة علاقته بسكرتيرته، ولكن مثله سرعان ما يتجاوزون هذا وسرعان ما يتورطون أيضا في فضيحة جديدة..

المهم أن الأستاذ (حازم) قد اصطحبه إلى مكتبه، وهو يردد عبارته السابقة، أنه لكل شيء حل، ولكن قبل أن يدخل مكتبه، التفت إلينا، وقال في صرامة متجهمة:

تعال...

لم نفهم ساعتها من منا المقصود بالطلب؟!..

من؟!..

وهل يمكنكم أن تتصوروا أن الأستاذ (حازم) كان يقصدني أنا بندائه هذا؟!..

كيف لم أدرك هذا في اللحظة الأولى كيف؟!..

لو أنه أراد الآنسة (حنان)، لتحدث بلهجة أقل صرامة، أو لما تجهم على الأقل، ولو أنه أراد (حسن)، لطلبها بلهجة آمرة..

وهو بالطبع لن يدعو (حلمي هولمز) إلى المكتبة، في وجود زبون..

إنه سيختار حتما أقل الموجودين بالمكتب شأنا، فقط لتدوين ما سيقوله الزبون سيختارني أنا ولأنني أخشاه طوال الوقت، فقد لبيت النداء في سرعة، وربما دخلت إلى المكتب قبل حتى أن يدخله هو أو ربما بعده..

لست أذكر بالضبط المهم أن حجرته، بعد أن أغلقنا بابها، أصبحت تضم ثلاثة فحسب.. هو والزبون.. وأنا....
وفي نفس اللحظة، التي أغلقنا فيها المكتب، تشبث الأستاذ(منير) بالأستاذ (حازم) هاتفاً:
سأدفع لك كل ما تطلبه، لو أخرجتني من هذه الورطة..
جلس الأستاذ (حازم) بكرشه الضخم خلف مكتبه، وقال بفخامة كعادته:
- لابد لي من معرفة الورطة أولا.
التقط الأستاذ (منير) لعابه في صعوبة، على نحو يوحى بتلك الصحراء القاحلة في حلقة، قبل أن يقول:
إنهم يتهموني بقتله..
انتبهت حواسى كلها للعبارة، واعتدل الأستاذ (حازم) على مقعده، وهو يسأله في اهتمام، مشوب بالتوتر:
- قتل من؟!
كان الأستاذ (منير) يلهث، كما لو أنه قد قطع نصف العالم جريا، وهو يقول:
شقيق تلك السكرتيرة.. لقد عثروا عليه مقتولاً في شقته، أمام جهاز الكمبيوتر ووجدوا إلى جواره أحد أزرار سترتي وفي مكتبه رسالة أرسلتها إليه في ساعة غضب، أطلب منه فيها أن يتركني وشأني، وإلا فهو الجاني على نفسه...
وبلا وعى، وجدت نفسي أنقل بصرى، إلى وجه الأستاذ(منير) الشاحب، إلى زر كم سترته الناقص، وودت لو أقول شيئا، ولكن الأستاذ (حازم) سبقني وهو يسأله في اهتمام:
- هل يمكنك أن تروى لي الأمور من البداية؟!.. من هي تلك السكرتيرة؟!.. وما الذي لم يتركك شقيقها فيه وشأنك؟!

باختصار، أريد أن أعرف القصة منذ بدايتها التقط الأستاذ (منير) نفسا عميقا، وبدأ يروى..
وبمنتهى الاهتمام، استمعت إليه صامتا كانت قصة نمطية، أشبة بالأفلام العربية القديمة، الأبيض والأسود، حتى إننى تخيلت الأستاذ (منير) أشبه بالراحل (زكي رستم) وهو يرويها، القتيل هو شقيق تلك السكرتيرة، التي ألقيت مصرعها قديما في ذلك الحادث الغامض، ومنذ حدوثه، وهو كباقي المجتمع يتهم الأستاذ (منير) بقتلها، وتلفيق الحادث، ومثل باقي المجتمع أيضا، لا يثق بتبرئه الشرطة له، ويصر على أنهم عجزوا عن إثبات التهمة عليه فحسب ومنذ ذلك الحين، والشقيق (صفوت)، يطارد الأستاذ (منير) في كل مكان.. وكل زمان..
في مكتبه وبيته وناديه باختصار، لقد أحال حياته إلى جحيم، وجعله يكره استيقاظه كل صباح عجبا!!..
هناك تشابه إذن، بين حياة الأثرياء وحياة الفقراء، مع اختلاف الدافع المهم.. لقد استمر (صفوت) في مطاردته للأستاذ (منير)، حتى أرسل إليه الأخير تلك الرسالة، التي وجدوها في درج مكتبه بعد مقتله وكان من الطبيعي أن يصبح الأستاذ (منير) هو المشتبه فيه رقم واحد، ولكن من الواضح أنهم لم يلقوا القبض عليه بعد لأنه يجلس هنا.. يا للذكاء!..
«قل لي يا أستاذ (منير).. أين كنت ساعة ارتكاب الجريمة؟! »
ألقى الأستاذ (حازم) هذا السؤال في اهتمام، فبدت حيرة متوترة على وجه الرجل، وقلب كفيه قائلا:
- ومن أدراني ما هي ساعة الجريمة؟!.. أخبروني فحسب أنه قتل، وأننى المشتبه فيه رقم واحد..
«من أبلغك بالضبط»؟!..

كنت أنا من اندفع ملقيا السؤال هذه المرة، فأدار الأستاذ(حازم) عينيه إلى في غضب، وبدأ لحظة وكأنه سينفجر في وجهي، حتى إننى انكمشت في مكاني، وتراجعت ملتصقا بالجدار، ولكن من الواضح أن الأستاذ (منير) لم ينتبه إلى هذا، فقد التفت إلى، قائلا بنفس توتره:

- لست أدرى.. لقد كان.. كان..

وصمت لحظة، قبل أن يضيف مرتجفا:

- كان مخيفا.

تنحنح الأستاذ (حازم)، قبل أن يسأله في خشونة، كنت المقصود بها:

- رجل أم امرأة.

بدا الأستاذ (منير) حائرا، وهو يجيب:

- ليس رجلاً.

قال الأستاذ (حازم)، بلهجة توحي بالاستيعاب:

- هي امرأة إذن

أدار (منير) عينه إليه في سرعة، قائلاً:

- وليس امرأة

وهنا اتسعت عينا الأستاذ في شدة ودهشة، وهو يقول، مستعيدا صراخه المعتاد:

- ليس رجلا وليس امرأة؟!.. ماذا يكون إذن؟!

وقفز السؤال نفسه إلى ذهني؟!..

نعم.. ماذا يكون؟!..

☆ ☆ ☆

٢ - مسألة رقمية..

على الرغم من أن كل هذا الجيل يعشق الكمبيوتر، ويعشق إلى حد الجنون التعامل معا، وعلى الرغم من أننى المسئول الرئيسي، عن تحويل كتابات الاستاذ حازم، بذلك الخط الشهير، الشبيه بنبش الدجاج، إلى شاشة الكمبيوتر فإننى أعترف، أننى وحتى هذه اللحظة، تور الله في برسيمه، في هذا الشأن كل ما أعرفه عن الكمبيوتر، هو أن أضغط زر تشغيله، فور وصولي إلى مكتبى ثم أفتح برنامج (الأوفيس) وبعدها أبدأ عملية الترجمة ترجمة المذكرات، من نبش الدجاج، إلى اللغة العربية ولا يمكنكم أن تتصوروا مدى العذاب الذي لاقيه، في هذا الشأن..

ولا مدى الغضب، الذي يواجهني به الأستاذ حازم، إذا ما نسيت حرفا، أو إذا أخطأت في ترجمة كلمة، يستحيل حتى على خبراء الآثار قرأتها، إلى العربية المهم أنه، وعلى الرغم من ضعفي الشديد في الكمبيوتر، كنت قد سمعت منذ أيام (حلمي هولمز) وهو يتحدث مع الآنسة (حنان) عن أجهزة رقمية حديثة، يطلق عليها أسم مغيرات الأصوات، يمكنها تشويه الصوت البشرى، أو تحويله إلى أية طبقة مخالفة إلى صوت امرأة أو طفل..

أو شيخ طاعن في السن..

بل لقد أكد (حلمي) أن باستطاعة الأجهزة الغالية منها، أن تحاكى صوت أي إنسان تشاء من الواضح أنني بعيد تماما عن عالم الكمبيوتر أو ربما عن القرن الحادي والعشرين كله..

«مغير أصوات»..

تساءلت لحظة، من نطق هذه العبارة، ولكنني وجدت الأستاذ حازم يلتفت إلى، قائلاً:

- أهذا ممكن؟!
عندئذ فقط، أدركت من نطق العبارة لقد كان أنا..
حماسي الداخلي جعله تفلت منى، دون أن أدرى ومع سؤال الأستاذ (حازم)، ارتبكت، ووقفت لحظة أحدق فيه كالأبله، مما رسم الغضب المعتاد على وجهه أما الأستاذ (منير) فقد أتى رد فعله مختلفا تماما....
لقد التفت إلى في لهفة لهفة غريق، وجد قشة أكثر نحولا منى؛ ليتعلق بها.
وهنا، لم يعد هناك بد من الإجابة وقبل أن ينتقل الأستاذ (حازم) إلى حالة الصراخ، اندفعت أخبرهما بكل ما سمعته من (حلمي)، عن مغيرات الأصوات، التي علمت فيما بعد أن اسمها بالانجليزية هو (voice changers) والحقيقة انهما استمعا إلى في اهتمام شديد اهتمام، ربما يكون أكثر بكثير من فهمي للأمر وعندما انتهيت، قال الأستاذ (حازم) في جدية:
- إذن فهناك من استخدم مغير صوتي رقمي، لكي يبلغك بالجريمة..
بدا الأستاذ (منير) حائرا، وهو يقول:
- ولكن لماذا؟!
كان المفترض أن آلم لساني داخل حلقي، أو ابتلعه وأصمت تماما، ولكن عقلى المريض جعلني أندفع، قائلا:
- لأنه شخص يمكنك تمييز صوته.
رمقني الأستاذ (حازم) بنظرة نارية، كادت تشعل حلتى الوحيدة المسكينة، التي لو أحترقت، لاحتجت إلى عام ونصف، ببدل الجوع، الذي نتقاضاه من المكتب؛ حتى يمكنني شراء حلة أقل جودة منها..
ولكن الأستاذ (منير) بدا شديد الأهتمام، وهو يقول:

- فكرة معقولة جدا.
اختفت نظرة الأستاذ (حازم) فجأة، وقال في حسم، مع شيء من التباهي:
- كل موظف في مكتبي يجد أفكارا معقولة.
ثم لوح بيده، في حركة مسرحية، مكملاً:
- إننى ألهمهم.
نطقها بنرجسيته المعتادة، ولكن الأستاذ (منير) لم ينتبه إليها، وربما لم يسمعه من الأساس، وهو يقول:
- ولكن لماذا؟!
بدا لي أنه يكرر سؤاله السابق، فقلت:
- أخبرتك أنه حتما شخص.
قاطعني في توتر:
- لماذا أخبرني بوقوع الجريمة أصلاً؟!
بدا لى سؤاله منطقيا للغاية وبدا لي أنه لا جواب منطقى له وقبل أن أندفع لألقى سؤالا جديدا، بنفس أسلوبي الغشيم قال الأستاذ (حازم) في صرامة، ليس لها في المعتاد ما يبررها أبدا:
- ماذا فعلت بعد أن وصلك الخبر يا أستاذ (منير)؟
شحب وجه الأستاذ (منير)، وارتبك، وهو يقول:
- شككت في الامر
كرر الأستاذ (حازم)، في لهجة أكثر صرامة:
- وماذا فعلت؟!
ازداد ارتباك الأستاذ (منير)، وهو يقول في خفوت، وكأنه بخشى ما سينطق به:
- كان لابد أن أتأكد!
قال الأستاذ (حازم):
- وذهبت إلى مسرح الجريمة

أعجبني المصطلح، وربما لأنني من هواة التمثيل والمسرح والسينما، وتخيلت الأستاذ (حازم) على خشبة مسرح، يؤدى دور (عبد الفتاح القصري) وأمامه (محمود المليجي) في دور الأستاذ (منير)، الذي بدا كأنه سينكمش في مقعده، وهو يغمغم في اضطراب:

- كان لابد أن أتأكد.

مط الأستاذ (حازم) شفتيه، فبدا أشبه ب- (علاء ولي الدين) رحمه الله، في فيلم (الناظر)، وهو يقول:

- خطأ.

اندفع الأستاذ (منير)، وهو يقول في توتر شديد:

- ولكنه كان قتيلاً، عندما ذهبت إلى هناك.

مط الأستاذ (حازم) شفتيه مرة أخرى، وقال في صرامة، وكأنه يؤنب طفلاً في العاشرة، ارتكب شقاوة كبيرة:

- ولكنك تركت آثارك في مسرح الجريمة..

هتف الأستاذ (منير)، كتلميذ يدافع عن نفسه:

لم ألمس شيئا.. لقد وجدته صريعاً، فهربت من المكان فورا.

سألته أنا بنفس الاندفاع الطائش، الذي سيكون وثيقة فصلي من المكتب ذات يوم:

- وماذا عن زر سترتك؟!

هتف، في لهجة أقرب إلى البكاء:

- لم أره هناك.. ولم أفقده هناك أيضا.. هناك من دسته في مسرح الجريمة حتما..

غمغم الأستاذ (حازم)، وكأنه يفكر في عمق:

- نفس الشخص، الذي استخدم مغير الصوت الرقمي، ليخبرك بالجريمة ثم ضرب سطح مكتبه بقبضته، هاتفاً:

- القاتل الحقيقي..

بدا لي هذا أشبه بمشهد من فيلم بوليسي قديم، والفنان الراحل (سراج منير) يلعب دور المحامي، وابتسمت دون أن أدرى ثم أفقت من ابتسامتي على نظرة قاتلة من الأستاذ (حازم)، فتنحنحت في ارتباك، وقلت أيضا بذلك الاندفاع العبيط:

- وهل رآك أحدهم، وأنت تفر من مسرح الجريمة..

شحب وجه الأستاذ (منير) في شدة، وانكمش أكثر وأكثر في مقعده، وهو يجيب بهمهمة غير مفهومة، فمال الأستاذ (حازم) نحوه متسائلاً:

- عفوا؟!

ارتفع صوت الأستاذ (منير) قليلاً، وهو يغمغم في توتر:

- البواب.

وتراجع الأستاذ (حازم) في حركة حادة، في حين اتسعت عيناي أنا حتما فبالنسبة لما سمعته، يبدو أن هذه ستكون القضية الرابعة، التي سيخسرها المكتب..

☆ ☆ ☆

لم يكن من السهل على أبدا، في أية مرحلة من عمري، أن أعرف ما يفكر فيه الآخرون وبالذات الأستاذ (حازم)، الذي كلما تحدث أحدهم عن عقلي، وصفني ساخرا بأنني أمتلك مخ البازلاء وهذا المصطلح يدهشني دوما، لأنني كنت أقرأه من لسان عم (دهب)، وهو يصف به (بطوط)، على صفحات مجلة (ميكى)، التي أداوم على قرأتها بانتظام، وتستنزف جزءا من دخلي المحدود واستخدام الأستاذ (حازم) لهذا المصطلح، يعني أنه يداوم على قرأتها مثلى، ولعله يدستها بين صفحات المراجع القانونية الضخمة، التي نراه يطالعها طوال الوقت آه.. لئيم هو (حازم) بك هذا لنيم كمحام عقر...

المهم أنه، عندما أكد الأستاذ (منير) أن بواب عمارة(صفوت) قد رآه، انكمش هو في مقعده، أمام الأستاذ (حازم)، الذي كاد يحترق جسده بنظرة كأشعة الليزر، وأنا في الواقع أجهل ما يمكن أن تفعله أشعة الليزر هذه، سوى أنها تصلح عيوب الإبصار، كما سمعت في التليفزيون، ثم لم يلبث أن هدأ، وتراجع في مقعده، وضم راحتيه أمامه؛ ليمنح نفسه ذلك المشهد الوقور، قبل أن يقول:

- إنها قضية صعبة يا أستاذ (منير).

ولأن الأستاذ (منير) لا يعرف من هو الأستاذ (حازم)، ولا يدري شيئا عن أساليبه، فقد ازداد انكماشه في مقعده، وهو يغمغم، في صوت أشبه بالضياع:

- أعلم هذا.

وهنا تنحنح الأستاذ (حازم).

وما أدراك ما هي نحنحة الأستاذ (حازم) أنها ليست نحنحة عادية بل نحنحة سوبر..

أنها تنفخ فيه كل شيء وجنتاه تنتفخان، ليصبح وجهه كبالون من بالونات الأعياد..

وينتفخ كرشه، ليفسح مكانا لما سيطالب به وينتفخ لسانه حتما، لمنحه ذلك الصوت الفخم الغليظ، والذي سمعته يقول به:

- سيكلفك دفاعي ثروة..

بدا الأستاذ (منير) أشبه بفأر في مصيدة، وهو يقول:

- أعلم هذا أيضا..

انطلقت الكلمات من بين شفتي الأستاذ (حازم) كالرصاصة:

- مليون جنيه.

بدا كأنه قد أفرغ في الكلمة كل انتفاخه، حتى خيل إلى أنه قد أطلق عاصفة هوائية، في وجه الأستاذ (منير)، وأن كرشه الضخم قد انخفض بعدها..

أما الأستاذ (منير)، فقد غمغم في انكسار:

- أنا مستعد.

تألقت عينا الأستاذ (حازم)، وهو يضيف في ظفر:

- ومثلها بعد البراءة بإذن الله.

اعتدل الأستاذ (منير)، وكأنما أعاد إليه لفظ البراءة الأمل وقال في حماس:

- اتفقنا.

وهنا انتفخ الأستاذ (حازم) مرة أخرى، وقال:

- بقي إجراء واحد.

كنت أعلم ما يقصده، قبل أن يسأله الأستاذ (منير):

- وما هو؟!

أجابه في حزم:

- أن تسلم نفسك للقانون

وعاد الأستاذ (منير) ينكمش وبشدة..

☆ ☆ ☆

نفذ الأستاذ (منير) تعليمات الأستاذ (حازم) بمنتهى الدقة فبعد ساعة واحدة من المقابلة، سلم نفسه للشرطة، التي عملت على اتهمته رسميا بقتل صفوت، وألقت القبض عليه وعمل تسليمه للنيابة وطبعاً لا يوجد في المكتب كله من يدور في كل الدوائر ويدوخ السبع دوخات في هذا الامر، سواى أنا فالآنسة (حنان) سكرتيرة و(حسن) ساع..

و(حلمي هولمز) هو الذي يراجع كل ملفات القضايا، ويكتب كل المذكرات القانونية والأستاذ (حازم) هو البك صاحب المكتب

وأنا.. أنا طبعاً مرمطون المكتب وهكذا سرت وراء الأستاذ (منير)، من القسم، إلى الترحيلات، إلى النيابة وهناك فقط، ظهر الأستاذ (حازم) بكرشه الضخم، الذي يبدو أنه يمنحه شيئا من الأهمية والوقار، يجبر رجال النيابة والقضاء على معاملته باحترام كبير..

ولقد جلس أمام وكيل النيابة في وقار وفخامة، وطالبه بالإفراج عن موكله، بضمان محل إقامته، وكيانه كعضو بارز في المجتمع وعلى الرغم من رصانته، ابتسم وكيل النيابة في سخرية، وهو يقول:

- انه اتهام شبه كامل يا أستاذ.. عشرات سمعوا الشجار بين القتيل والأستاذ (منير)، وتهديدات كل منهما للآخر والمعمل الجنائي أكد وجود بصمات حديثة له، على باب شقة القتيل، ووجود زر منتزع من كم سترته في مسرح الجريمة أضف إلى هذا شهادة البواب، الذي رآه يعدو خارجا، عقب الحادث مباشرة، وأمكنه تعرفه بمنتهى الدقة...

فنفخ الأستاذ (حازم) أوداجه مرة أخرى، وقال في فخامة:

- الناس تتشاجر كل يوم، وانفلات الأعصاب يجعل كلاً كلا منهم يوجه إلى الآخر ألف تهديد وسباب ووعيد، ولكن كل هذا ليس مبررا للقتل...

اعتدل وكيل النيابة يقول:

- وماذا عن ملاحقة القتيل المستمرة له.. أليست مبررا كافيا، لتخلص الأستاذ (منير) منه...

ابتسم الأستاذ (حازم)، وأشار بيده في حركة مسرحية، قائلا:

- حتى لو كانت مبررا، هل سيعجز مليونير، مثل (منير صفوان)، عن.. استئجار من يقوم بالمهمة بدلا منه؟!

قال وكيل النيابة، في لهجة بدت لى أقرب إلى التحدى:

- وربما دفعته ثقته بنفسه، إلى تنفيذ جريمته ذاتيًا، حتى يشاركه أحد.. سره.
مال نحوه الأستاذ (حازم) قائلا
- وهل سيخطط لهذا، ولتنفيذه بنفسه، ثم لا يرتدي قفازين ببضعة جنيهات؛ ليخفى بصمات أصابعه؟!
تراجع وكيل النيابة، وبدا كأن منطق الأستاذ (حازم) قد أثار داخله موجة من التفكير، وغمغم مرتبكا:
- لم يحدث أبدا، أن تم الإفراج عن متهم، في جناية قتل بضمان محل إقامته، أو حتى شخصيته في المجتمع....
قال الأستاذ (حازم) في سرعة:
- ربما بكفالة مالية...
هز وكيل النيابة رأسه، وهو يقول في خفوت:
- ومع كل هذه الأدلة؟!.. مستحيل!
دون أن أدرى، وجدت نفسي أندفع، قائلاً:
أستاذ (منير)، ألا يوجد شاهد واحد، على وجودك بعيدا عن مسرح الجريمة، وقت حدوثها؟!
استدار إلى الأستاذ (حازم) بنظرة غاضبة صارمة، والتفت إلى وكيل النيابة في دهشة، في حين هز الأستاذ (منير) رأسه قائلاً في أسى:
- لست أدرى حتى متى حدثت الجريمة
مال وكيل النيابة نحوه، يقول:
- ما بين الثالثة والخامسة ظهرا
هز الأستاذ (منير) رأسه مرة اخرى، ثم فجأة، تألقت عيناه وهتف:
- ما بين الثالثة والخامسة؟!.. بالطبع...
- ليس شاهدا واحدا.. بل شهودا

وهنا تألقت عينا الأستاذ (حازم) بدوره، واعتدل في مقعده، وأشار إلى قائلا:

- (خالد).. سأعطيك عشرين جنيها مكافأة

وهنا أيقنت من أنه يتابع مجلة (ميكى)، ويتأثر بشخصياتها أيضا، لأنه في هذه الاحظة، كان يلعب دور أحد شخصياتها عم (دهب).

☆ ☆ ☆

٣ - الشهود..

منذ بدأت عملي مع الأستاذ (حازم)، بمرتب أخجل أن أذكره، أو حتى أتذكره، تعلمت حقيقة مهمة جدا، خالفت كل ما كنت اتصوره، عن المحاكم والقضايا وعن السينما أيضا ففي الأفلام القديمة، كنت أشاهد (حسين رياض) (عماد حمدى)، وهو يترافع في قضية ما، مرافعة بليغة ثم يأتي بشاهد إثبات في اللحظة الأخيرة، فيقلب الأمور كلها رأسا على عقب، ويدفع حكم البراءة إلى فم القاضي دفعا، وتلتهب عيوننا بالبكاء، وأكفنا بالتصفيق، و. وينجح الفيلم...

وفي آخر فيلم شاهدته، كان أحمد عز يحل اللغز في المحكمة، ويبرئ (غادة عادل)، ويضع نور في السجن، ونحن محتارون، هل نفرح لأنه برأ (غادة) الرقيقة، أم نبكي لأنه أدخل نور الجميلة السجن؟!..

ولكن في المحاكم الحقيقية، تعلمنا أن الصورة تختلف تماما وبالذات في الجنايات فرجال القانون يؤكدون دوما، أن القضاء المدنى قضاء مستندات، في حين أن القضاء الجنائي قضاء وجدان وبالطبع لم أفهم هذا في البداية لم أفهم بالضبط ما يعنيه وخصوصا أن لي جارة اسمها (وجدان)، تنتظر عودتي كل ليلة، وأنا منهك مهدود ومكدود؛ من العمل المضني في مكتب عم (دهب)، الشهير بالأستاذ (حازم)، فقط لتلقى على تحية المساء، وهي تبتسم ابتسامة واسعة، كما أخبرني أهل الخير؛ لأنه لا نظرى، ولا الحالة التي أعود عليها، يسمحان لي برؤية أي شيء، عندما يأتي المساء ولقد أدهشني في البداية أن يكون ل-

(وجدان) صلة بالقضاء، ولكن (حلمي هولمز) أفهمني في صبر، ما تعنيه العبارة..
ففي القضاء الجنائي، قد يأتي المتهم بعشرات الشهود، الذين يحلفون ألف يمين، على أنهم يشهدون بالحقيقة، ولكن وجدان المحكمة، المتمثلة في القاضي، لا يطمئن لشهادتهم، فلا يأخذ لهذا، فأي محام قديم، مثل الأستاذ (حازم)، لا يمكن أن يلقى ثقله أبدا على أقوال الشهود فقط..
ولكن في حالة الأستاذ (منير)، لم يكن هناك سبيل آخر وجاء الشهود إلى النيابة والشهود كانوا في الواقع سكرتيرته الجديدة (ماسى)، وبعض عملاء مكتبه، الذين كانوا موجودين في حجرة السكرتيرة، في نفس الموعد، الذي حدده الطبيب الشرعي، لوقوع الجريمة ما بين الثالثة والخامسة ظهرا ولقد استمعنا جميعا لأقولهم.. بمنتهى الدقة السكرتيرة (ماسي) أكدت بشدة أن الأستاذ منير لم يغادر مكتبه في ذلك اليوم، من منتصف النهار حتى الخامسة والنصف، على الرغم من أنه كان شديد العصبية طوال الوقت، ورفض أن يقابل مخلوقا واحدا...

«هذا يعني أن أحدا غيرك لم يره، في ذلك اليوم..»
ألقى عليها وكيل النيابة السؤال على نحو مفاجئ، فقالت مصدومة:
- كلا بالطبع...
ثم استدركت، في سرعة وعصبية:
- ولكنهم جميعا سيشهدون بأنه كان هناك
لم أفهم سر تأكيدها، ومن الواضح أن الأستاذ حازم ووكيل النيابة أيضا لم يفهماه، فقد سألها الأخير في صرامة:

- وكيف هذا؟!..
أشارت بيدها في حماس سينمائى، قائلة:
لقد اتخذ قرارات حاسمة، في كل ما يخصهم، وبعضهم سمعه بنفسه، وهو يصرخ في؛ لإغلاق الباب خلفي، و...
استفاضت في الدفاع عن موكلها، الذي ظل صامتا منكسرا طوال الوقت، حتى اكتفى منها وكيل النيابة، واستدعى باقى الشهود، الذين أكدوا كلهم ما قالته، وأضاف إليه بعضهم أنهم يعرفون صوت الأستاذ (منير جيدا، وأنه من المستحيل ألا يكون هو من سمعوه، حتى مابعد الخامسة بقليل وبناء عليه، صار "الأمر متأرجحا، بين جهات أمنية، تصر على اتهام الأستاذ (منير)، وشهود يؤكدون براءته، ولم يعد أمام وكيل النيابة عندئذ، سوى أن يصدر قراره بالإفراج عنه بكفالة مالية كبيرة، وتحويل الأمر برمته للقضاء.....
«لست أدرى ماذا أقول!!.. هذا أفضل ما كنت أتمناه»..
هتف بها الأستاذ (منير)، فور خروجنا من النيابة، بعد أن دفعت (ماسى) كفالته، فرسم الأستاذ (حازم) على وجهه ملامح الصرامة والرصانة، وهو يقول:
- الأمر لم ينته بعد ياأستاذ (منير)؛ فمازالت هناك قضية ومازالت الجهات الأمنية تصر على اتهامك...
اندفعت (ماسى) قائلة في حماس حار:
- أنا واثقة من براءة الأستاذ (منير).
بدا لي حماسها زائدا عن الحد، ولكنني أعزيته لحظتها للظروف، ولأنه مخدومها، في وظيفة جديدة، ولكنني وكالمعتاد، اندفعت أقول:
- هذا لا يهم...

توقف الأستاذ حازم، والتفت إلى بتلك النظرة النارية، التي تبدو لي دوما، كأنها تقول «كيف لتافه مثلك أن يتدخل، في عمل أساتذة؟؟!!..»، مما جعلني أبحث ببصرى عن أقرب بالوعة، يمكنني أن أختبئ فيها؛ لأن ما سأجده داخلها، سيكون حتما أفضل مما سأجده، في المكتب، عند عودتي..

ولكن العجيب أن الأستاذ (منير) سألني في اهتمام بالغ، ودون أدنى ضيق:
- لماذا تقول هذا؟!..
اختلست نظرة إلى الأستاذ (حازم)، الذي أشاح بوجهه عني في ازدراء، وهو يركب سيارته، التي فتح الأستاذ (منير) بابها الآخر، وهو مازال ينظر إلى في اهتمام؛ منتظرا الجواب، مما جعلني أجيب في خفوت:
- لأنه ليس المهم أن تثق سكرتيرتك في برائتك.. المهم أن يثق فيها القضاة..
ركب السيارة، في المقعد الخلفي، وهو يهز رأسه مفكرا ومتفهما، وركبت إلى جواره (ماسى)، في حين ترددت أنا لحظات، حتى قال الأستاذ (حازم)، في لهجة صارمة أعرفها، وأدرك تبعاتها جيدا:
- اركب
وركبت..
وبعد أن رحل الأستاذ (منير) وسكرتيرته، وصعدنا إلى المكتب، استقبلنا الجميع بنظرات فضول وتساؤل، حولتهما الآنسة (حنان) وحدها إلى لغة مسموعة، وهي تقول:
- إذا تم في النيابة؟!..
أجابها الأستاذ (حازم) في صرامة، وهو يتجه مباشرة إلى مكتبه:
- كيف يمكنك أن تقلقي؟..

ثم استدار إلينا، قبل أن يغلق باب المكتب خلفه مباشرة، وأكمل:
- لقد كان الأستاذ (خالد) معى هناك...
قالها، وصفق الباب بكل قوته
وران على المكان كله صمت رهيب صمت نطقت خلاله العيون بألف ألف اتهام ثم فجأة تحولت كل هذه الاتهامات الصامتة، إلى صوت مسموع. بل متفجر...
«ماذا فعلت أيها التعس؟!..»..
هتف بها (حلمي) في استنكار، في نفس اللحظة التي صاحت فيها الآنسة (حنان)، في لهجة مدرسة، تؤنب تلميذا خائبا:
.. كنت أعلم أنك ستفسد الأمر!.. غمغم (حسن) إعدام؟!
- قلت في سخافة متعمدة:
- إفراج بكفالة
- هز (حلمي هولمز) رأسه في رصانة، وهو يقول:
- هذا يعني أن هناك قضية
أجبته في شيء من الإحباط، أردته معبرا:
- وهل كنتم تتصورون غير هذا؟!..
مالت الآنسة حنان نحوي، قائلة:
المهم ماذا فعلت بالأستاذ؟..!
قبل أن أفتح فمي لأجيب، فتح الأستاذ باب مكتبه، وقال في هدوء شديد:
- تعال.
وامتقع وجهي، وأنا أنهض إليه؛ فمن طبيعة الأستاذ، أنه إذا ما تحدث بهدوء شديد، إلى شخص يغضب منه، فهي دلالة على أنه أعد له انتقاما رهيبا- وبقدمين مرتجفتين، دخلت مكتبه، ولم أنطق بحرف واحد..

- ونطق هو..
- وعندئذ أدركت أنني كنت على حق فيما توقعته- الأستاذ (حازم) لم يعد يلعب دور عم (دهب) - إنه يلعب الآن دور (عادل أدهم).. - في فيلم (المنتقم).
من باب التأديب والتهذيب والإصلاح، أعطاني الأستاذ (حازم) ملف قضية (منير صفوان) كله، وهو يقول بنظرة قامتة، وابتسامة كبيرة متشفية:
- أريدك أن تراجع كل شيء بنفسك.. ادرس الملف حرفا بحرف، وليس كلمة بكلمة، وراجع شهادات الشهود وشهادة السكرتيرة (ماسى)، واذهب إلى مسرح الجريمة، واستجوب كل من تجده هناك.. أريد أية معلومات، يمكن أن تقودنا إلى دليل براءة.. هل تفهم؟!.. أية معلومات..
خرجت من مكتب الأستاذ، وأنا أحمل الملف كله، ونظرة يأس مريرة تطل من عيني بوضوح حتما، لأننى وجدت الجميع يحدقون في، وسمعت الآنسة (حنان) تغمغم في أسى:
- يا للمسكين!
وسألني (حلمي) في توتر
- ماذا ستفعل بهذا الملف؟!..
أجبته في يأس:
- كل شيء
بدا عصبيا وهو يسألني:
هل أسنده إليك الأستاذ كله؟!..
قلت، وأنا أجلس خلف مكتبي في إحباط:
للأسف...
هتف في غضب:

- وماذا عنى أنا؟!.. هل سأكتفي بكتابة مذكرات الدفاع فحسب...
غمغمت الآنسة (حنان) في خبث:
- هذا ما تجيده...
صاح بها محتدا:
- هل نسيت من أنا؟!.. أنا (حلمي).. (حلمى هولمز).. أنا العقل النشط في هذا المكتب.
أجابته بنفس الخبث:
- حسنا أيها العقل النشط، لا ترهق عقولنا معك بهذا الصراخ. أكمل مذكراتك في صمت.
قالتها، والتفتت إلى بنظرة مشجعة، ربما لأشاركها هذا العبث، ولكنني أشحت بوجهي، مع ما أشعر به من إحباط ونفور شديد من فكرة المزاح، في نفس الوقت الذي انحنى فيه (حسن) على أذنى، وسألني:
- أترغب في كوب خروب خشن؟
التفت إليه بحركة حادة، وأنا أنوي الانفجار في وجهه، ولكن نظرى ارتطم بوجه الأستاذ (حازم) وكرشه الضخم، وهو يزمجر كغوريلا غاضبة، هاتفا:
- أما زلت تجلس هنا؟!..
قفزت من خلف مكتبى، واختطفت الملف، وأنا أعدو نحو الباب، هاتفا:
- كنت في سبيلي للانصراف فورا.
خرجت من المكتب مهرولاً، وكأن الأستاذ (حازم) سيعدو خلفي، على الرغم من ثقتي في أنه لن يستطيع هذا، مهما كانت لديه الرغبة فيه، فمع كرش كمنطاد صغير، سيعد المشي في ذاته مغامرة، غير مأمونة العواقب كل ما فعلته هو أننى تشبثت

بالملف، حتى لا أفقده، أو أفقد ورقة واحدة منه، حتى وصلت إلى الشارع، فوقفت أمام المبنى ألهث لبضع لحظات، قبل أن أسترد أنفاس، وأغمغم في حنق شديد:

- ألا يوجد سواى في هذا المكتب؟!..

لم يجبني أحد بالطبع، ولا حتى نفسي، فالتقطت أنفاسي مرة أخرى، وبدأت أحسبها مسرح الجريمة في (مصر الجديدة)، ومكتبنا في المهندسين، وهذا يعني أنني أحتاج إلى مواصلة خاصة وهذه مشكلة...

فعم (دهب).. أقصد الأستاذ (حازم)، يمكن أن يكلف السفر إلى المريخ، والعودة في اليوم نفسه، ولكن من رابع المستحيلات أن يدفع ولو حتى ثمن تذكرة أتوبيس، المفترض إذن أن أحصل على أقل القليل، وأنفق نصفه على الانتقالات في الوقت ذاته وبحسبة بسيطة، قررت أن أستقل الميكروباص، من المهندسين إلى محطة رمسيس، ثم أنتقل إلى مترو (مصر الجديدة) من هناك كان هذا كفيل بتوفير نصف جنيه، يكفي لشراء باكو بسكويت، إذا ما قرصني الجوع هذا لأننا لا نحصل على بدل تغذية أيضا..

المهم أنني، تحت الشمس الحارقة، قطعت هذه الرحلة، التي جعلتني أشبه بالرحالة (إنديانا جونز)، وهو يبحث عن الكنوز الأثرية المفقودة، وإن كنت أتمنى طبعا ألا أواجه تلك الأهوال التي يواجهها في أفلامه فمن ناحية النشاط والحركة، ولقطات الأكشن، أنا أقرب إلى (إسماعيل ياسين)، في فيلم (ابن حميدو)، على أقصى تقدير المهم أنني في النهاية، سواء كنت (ابن بطوطة) أو (بطوط) نفسه، وصلت إلى مسرح الجريمة كان المكان مغلقا، والبواب يتابعني بنظرة شك، وكأنه يدرسني جيدا، وأنا أتجه إلى شقة (صفوت) القتيل، ومن الواضح أنه قد استشف من

مظهرى أننى ضئيل الشأن، إلى حد يستحيل معه أن أكون أحد ضباط الشرطة، أو حتى أحد خبراء المعمل الجنائي، فقد هتف بي في خشونة:
- ماذا تريد يا أستاذ؟!..
أجبته، محاولاً وضع أكبر قدر ممكن من الغطرسة والتعالي والصرامة في صوتي:
- هذه شقة القتيل.. أليس كذلك؟!..
واضح أن أسلوبي لم يفلح قط، فقد أجابني في خشونة أكثر
- ماذا تريد منها؟!..
أجبته في سرعة:
- أنا محامي المتهم
كنت أتصور أن هذه العبارة ستكفي؛ لكي يمنحني شيئا، ولو قليلا من الاحترام، ولكنه زمجر زمجرة أشبه بزمجرة وحيد القرن (وإن كنت لم أسمع زمجرة وحيد القرن) وهتف:
- اذهب إلى النيابة إذن، واحصل على إذن بدخولها..
وقفت حائرا مرتبكا:
- كيف فاتني هذا؟!.. كيف فاتني أن دخول شقة، كانت مسرحا لجريمة قتل سيستلزم حتما تصريحا من النيابة وهذا التصريح يحتاج إلى يوم كامل للحصول عليه، مما يعني أن هذا اليوم، مع كل رحلة العذاب فيه، قد ضاع هباءً إلا إذا...
قفزت الفكرة إلى رأسي فجأة، فسألت الرجل في اهتمام:
- قلت إنك رأيت الأستاذ (منير) يخرج من هنا مسرعا، قبل اكتشاف الجريمة.. أليس كذلك؟
زفر في توتر، وكأنه مضطر لتكرار أمر يبغضه، وقال:
- كان يجرى وكأنه قد فعلها للتو..
سألته:

- ومتى تم كشف الجريمة بعدها؟
هز كتفيه، قائلاً:
- الأستاذ ترك باب الشقة مفتوحا، مع سرعة فراره، ولقد أقلقني هذا، فطرقت الباب، ورننت الجرس عدة مرات، ولم يستجب أحد، جعلني أدخل في حذر، ففوجئت بالحال..
أدهشني قوله، فسألته، في اهتمام أكبر:
- هذا يعني أنك قد دخلت الشقة، قبل حضور رجال الشرطة..
أشار إلى صدره، قائلاً:
- أنا أبلغت رجال الشرطة..
فسألته، وكأنني أحاول الإيقاع به:
- ولكنك اتهمت الأستاذ (منير) مباشرة، فهل أمكنك تعرفه بهذه السرعة، على الرغم من أنها أول مرة تراه فيها؟!..
بدت عليه الحيرة، وهو يقول
- أول مرة؟!.. كلا.. إنها ليست أول مرة.
انتقلت حيرته إلى أنا، وأنا أسأله:
- هل رأيته قبلها؟!..
أجاب في سرعة:
بالطبع.. إنه يدفع إيجار شقة الأستاذ (صفوت) منذ أكثر من عام..
ومن المؤكد أن ملامحي صارت صورة مجسمة للبلاهة حينذاك فقد كانت المفاجأة مدهشة إلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

٤ - المفاجأة..

ليست هناك ذرة واحدة من الشك، في أن بواب البناية قد تأكد، في تلك اللحظة من أنني شخصية بلهاء؛ فهذا ما أقوله لنفسي كل صباح، عندما التقى بوجهي في مرآة الحمام ذات الزاوية المكسورة فما بالك بملامحي، في موقف كهذا..

لقد حدقت في وجه الرجل على نحو عجيب، جعله يسألني في قلق:

- ماذا بك يا أستاذ؟!

حاولت بسرعة استعادة ملامحي القبيحة، متصورا أن هذا حتما أفضل من ملامحي البلهاء، وأنا أقول، في شيء من الحدة:

- ولماذا لم تقل هذا لرجال الشرطة؟!

قلب كفيه، مجيبا في بساطة:

- لم يسألني أحد.

ثم استعاد شعوره بالحذر وعدم الاحترام، وهو يضيف:

- أأنت محامي الأستاذ (منير)، أم عائلة المرحوم.

أجبته في سرعة، محاولا اكتساب لمحة من احترامه:

- محامي الأستاذ (منير)...

بدت عليه دهشة حقيقية، وهو يسألني:

- لماذا تطلب منى إبلاغ الشرطة بهذا إذن؟!

أربكني سؤاله، وجعلني أفيق من أوهامي، وأدرك أننى مجرد وكيل محام، لكرش الأستاذ (حازم)..

أو لجزء منه على الأقل هناك نقاط عديدة تغيب عن ذهني نقاط حيوية للغاية نقاط جعلتني أجيبه في عصبية:

- لم أطلب منك إبلاغهم.. فقط سألتك إذا كنت قد فعلت مال نحوى، متسائلاً في شيء من الخبث:
- وهل تريد منى ألا أفعل؟!!
أدهشني أسلوبه هذا، ولكنه أعطاني لمحة عمن يكون هذا حتى قبل أن يعتدل، مكملاً بلهجة خاصة:
- أنا رهن إشارتك.
كان من الواضح أنه يطلب رشوة، مقابل إغلاق شفتيه، وإخفاء المعلومة رشوة لم أكن بقادر على منحه إياها، حتى لو أردت..
ففي جيبي الهزيل، لم أكن أملك سوى أجر العودة إلى منزلي، بالإضافة إلى جنيهات قليلة، تكفي بالكاد للأيام الثلاثة المتبقية، قبل موعد قبض أجر الشهر التالي، وكمحاولة لمحاورته، سألته في حذر:
- وماذا عن العدالة؟
قلب شفتيه في غضب، وقال
- أية عدالة؟!.. (صفوت) هذا كان يستحق القتل ألف مرة.
أدهشني رد فعله، ودفعني إلى سؤاله:
- لماذا بالضبط؟!
أشار بيده إشارة حادة، وهو يجيب:
- كان يحيا على نفقة الأستاذ (منير)، وعلى الرغم من هذا، لم يدفع أجرى منذ شهور
بدت لي هذه نقطة تستحق التوقف، فسألته:
- ولماذا لم تطلبها من الأستاذ (منير)؟!
- رفض أن يدفعها..
بدا لى الأمر عجيبا حقا..
الأستاذ (منير) يدفع أجر الشقة، ويرفض أن يدفع جنيهات قليلة أجرا للبواب فلماذا؟!..

لماذا؟!...
وفجأة، خطرت ببالي فكرة..
فكرة جعلتني أسأل البواب، في لهفة لم أستطع مداراتها:
- منذ متى يقيم الأستاذ (صفوت) هنا؟!
مط شفتيه، وهز كتفيه، قائلاً:
- منذ ثلاثة عشر شهرا
ثم استطرد في حدة
- ولم يدفع أجرى، إلا خمسة أشهر منها فحسب..
اعتقد أن عبارته الأخيرة دخلت عقلى الباطن فقط، فقد كان عقلى الواعي منشغلاً للغاية ثلاثة عشر شهرا، أي نفس الموعد، الذي لقيت فيه السكرتيرة السابقة للأستاذ (منير) مصرعها السكرتيرة، التي هي في الواقع شقيقة (صفوت)..
الأستاذ (منير) إذن يدفع إيجار شقة شقيق السكرتيرة، التي اتهموه بقتلها وذلك الشقيق يطارده، ويتهمه بقتل أخته ثم يموت!!...
فما الذي يعنيه كل هذا؟!..
ما الذي يعنيه؟!...

☆ ☆ ☆

«أنت شخص غبي..»
صدمني الأستاذ (حازم) بهذه الصرخة، بعد أن رويت له كل ما حدث، وازداد احتقان وجهه على نحو جعلني أشبهه بثمرة بطيخ بدون قشرة، وهو يكمل:
- لماذا لم تنبه البواب أيضا أن يفعله، حتى يضمن خسارتنا لقضيتنا...
غمغمت، محاولاً منع ارتجافتي:
- إنه لن يخبر الشرطة؟!..

هتف في غضب
- ومن أدراك؟!..
أجبته مرتبكا
- هو قالها؟!..
صرخ، وهو يضرب سطح المكتب في قوة، جعلته يبدو أشبه بالرجل الأخضر.. أو الأحمر على وجه الدقة:
- وماذا عن محامى الخصم.. هل سيعده أيضا بأن يتحدث..
اتسعت عيناي، وأنا أغمغم مصدوما:
- محامي الخصم؟!
صرخ في ثورة:
- ألم أقل لك إنك غبي هل تصورت أن عائلة(صفوت) لن توكل محاميا، لأدانة من قتل ابنها؟!
سألته في توتر:
- ومن هو؟!
كاد يشد شعر رأسه، أو ما تبقى منه، وهو يصرخ:
- غبى...غبى.. غبي.
أدركت أن كل حرف أنطق به، يأتيني برد فعل صارم غاضب، لذا فقد آثرت الصمت، وانكمشت في ركن المكتب، وهو يكمل كعاصفة ذات كرش ضخم:
- لا يهم من هو المحامي بالضبط.. المهم أنه سيكون هناك حتما واحد يقف ضدنا، ولابد أن نمنعه من معرفة ما قاله البواب، الذي رفضت أن تعطيه رشوة، أيها البخيل الأحمق..
بخيل.. وأحمق؟!.. أنا؟!..
فكرت جديا، في هذه اللحظة، في أن ألقى نفسي من نافذة المكتب، لأتخلص من هذه الحياة البائسة أو إلقاء نفسي تحت أول سيارة مسرعة، فور خروجي من هنا..

وماذا عن أسطوانة الغاز نصف الفارغة في مطبخي أو ذلك السكين اليتيم الوحيد الذي أمتلكه أو الـ..
«هل تسمعني؟!»...
انتزعتني صرخة الأستاذ (حازم) من أفكاري الانتحارية، فأومأت إليه برأسي إيجابا، دون أن أنبس ببنت شفة، فأخرج من جيبه رزمة نقود، ألقاها في عنف على سطح مكتبه، وهو يقول في حدة:
- هيا.. عد إلى البواب، واشتر سكوته ...

أحنقني المبلغ الضخم، الذي سيرش به البواب، وإن كنت أعلم أنه سيأخذ ضعفه من الأستاذ (منير)، ولكنني عدت مستسلما إلى ذلك البواب، الذي استقبلني في برود عجيب، وهو يسألني:
- خيرا.
ناولته المبلغ، وأنا أقول في حقد واضح:
- أهذا يكفي؟!..
تفقد المبلغ في لا مبالة واضحة، وكأنه اعتاد التعامل بمبالغ كبيرة، ثم قال في استهتار:
- هل تريد معرفة أي شيء آخر؟!..
قلت في حزم غاضب:
- هذا لكي تغلق فمك
دس المبلغ في جيب جلبابه، وهو يقول:
- أنا رجل كريم.
أحنقني أسلوبه أكثر، وسألته، من باب الاستفادة بكل قرش من المبلغ:
- هل كان هناك من يتردد على (صفوت) في انتظام؟!
أجاب في سرعة:

- فقط تلك الفتاة.
سألته في دهشة:
- أية فتاة؟
شمله حماس، ليس له ما يبرره، وهو يصف تلك الفتاة في دقة مدهشة، كان وصفها ينطبق على فتاة أعرفها جيدا (ماسى).. سكرتيرة (منير صفوان) الجديدة....
وفقا لما رواه لي بواب البناية، فالسكرتيرة (ماسى) كانت تتردد بانتظام على (صفوت)، مرة واحدة شهريا على الأقل وتقضى معه ما يقرب من نصف الساعة، ثم تنصرف وخلال الشهرين الماضيين، زادت نسبة ترددها عليه، على نحو ملحوظ، فقد أصبحت تزوره مرة أسبوعيا، ولمدة ساعة كاملة، ثم تنصرف بعدها مسرعة، متحاشية أن يراها أحد ولقد كانت آخر زيارة لها، قبل مقتل (صفوت) بيوم واحد بالضبط وعلى الرغم من أنني لم ألق على البواب سؤالاً آخر، فقد أطلق ما عرفته في ذهني سؤالا خطيرا للغاية ما علاقة (ماسى) بالقتيل بالضبط؟!..
وهل يعلم الأستاذ (منير) بهذه العلاقة؟!..
هل؟!...
تركت البناية، وعدت أستقل مترو (مصر الجديدة)، متجها إلى محطة (رمسيس)، وذهني يموج بأسئلة فرعية، كادت تلتهم رأسي بلا رحمة ثم، هل أخبر الأستاذ (حازم) بهذا الجديد، وأحتمل اتهامه لي بالغباء مرة أخرى، أم أخفى هذا في أعماقي؟!..
لم يكن الجواب عسيرا، فور أن تذكرت كيف كنت أقف أمامه مرتجفا كالفأر المذعور، الذي ينكمش أمام أكبر قط بكرش، في الدنيا كلها، مرتجفا مذعورا، ينتظر لحظة التهامه وأنا نحيل للغاية، لن يشبع التهامي أحد، اللهم إلا كلبا من الكلاب الشرهة،

التي تهوى قرقشة العظام انتفض جسدى، وأنا أتخيل صوت قرقشة عظامي، ووجدت نفسي أهتف:
- يا للبشاعة!
التفت إلى كل ركاب المترو في دهشة مستنكرة، وشعرت أنهم جميعا يرددن الكلمة نفسها، وهم ينظرون إلى وجهي القبيح وجسدي النحيل غير المتناسق ولأننى قوى العزيمة شديد الحساسية، فقد تركت المترو، قبل أن يصل إلى محطة (رمسيس)، قبل أن تخترقنى نظرات الركاب، وتصم أذنى همهماتهم الساخطة وعلى مسار محطتى مترو، رحت أسير في الطريق، وأنا ألعن تلك الكلمة،، التي أفلتت منى، دون أن أشعر ولكن هذه التمشية الإجبارية، كان لها تأثير كبير على ترتيب أفكاري في هذا الشأن...
الأستاذ (منير) لا يعلم حتما علاقة (ماسى) ب- (صفوت) شقيق سكرتيرته الراحلة، والذي ظل يبتزه بتهديداته المستمرة، بأن يشوه سمعته، عن طريق اتهامه المستمر بقتل شقيقته، ولكي يتفاداه الأستاذ (منير) ويحافظ على سمعته، استجاب لتهديداته، وراح يسدد عنه إيجار شقته في انتظام وفقاً للاتفاق لهذا رفض دفع راتب بواب البناية؛ لأنها خارج الاتفاق أما (ماسى)، فقد دستها (صفوت) على (منير)، حتى تنقل إليه أخباره أولا بأول، فيظل تحت سيطرته طوال الوقت....
تحليل ممتاز، جعلني أشعر وكأننى (ماجد المصرى)، بجسده الضخم، وعضلاته المفتولة، وهو يلعب دور مخبر سرى عبقرى، و...
وفجأة، ارتطم ذهني بسؤال، حولني من (ماجد المصرى) إلى (ماجد الكدواني) دفعة واحدة كل هذا جميل، ولكنه لا يجيب السؤال الأساسي من قتل (صفوت)؟!...

من صاحب المصلحة من قتله؟!...
الأستاذ (منير) لديه شهود عديدون، على أنه كان بعيدا عن مسرح الجريمة، عند ارتكابها و(ماسى) كانت معه، ولا مصلحة لها في مقتل (صفوت)..
والبواب....
لحظة.. لماذا لم يتهم أحد البواب؟!...
إنه يكره (صفوت)، وتشاجر معه أكثر من مرة، وبصماته ستتواجد حتما في مسرح الجريمة، وهو برزها بدخوله إلى هناك، عقب انصراف الأستاذ (منير) مباشرة.. فلماذا نفترض أنه صادق في هذا؟!..
الأستاذ (منير) قال إن (صفوت) كان صريعا، عندما وصل إليه، فلماذا لا يكون البواب قد قتله قبلها؟!..
لماذا؟!..
انتبهت فجأة إلى أننى قد تجاوزت محطة (رمسيس)، وأصبحت قريبا من ميدان التحرير، دون أن أنتبه إلى هذا، في غمرة انشغالي بالتفكير في الأمر وفور انتباهي إلى هذا، شعرت بآلام مبرحة في ساقي النحيلتين، وبدت الرؤية مشوهة عينى، فتوقفت فتوقفت مستندا إلى جدار قديم، وأنا أسب الأستاذ (حازم) في اعماقي؛ لأن لولا تقمصه لشخصية عم (دهب)، لوجدت ما يكفي لأستقل سيارة تاكسي إلى منزلي وعلى الرغم منى، أكملت السير حتى ميدان التحرير، ومن هناك استقالت ميكروباصا إلى منزلي ونمت...
لا أستطيع أن أصف إلا بأنني قد نمت، فما أن وصلت إلى منزلي، حتى ألقيت ملابسي، وقفزت إلى السرير ونمت وعندما استيقظت في الصباح التالي، شعرت بثقل كبير يجثم على

صدرى، ويرهق أنفاسي لم يكن مرضا والحمد الله، وإنما كان شعورى بأنه يجب أن أبدأ كل شيء من جديد....
وبمنتهى الإرهاق، أنهيت الروتين اليومي، وغادرت منزلي في تكاسل معتاد، وانتظرت الميكروباص التقليدي، وركبته، وأنا أقاوم رغبتي الشديدة في استمرار النوم، حتى لاأفقد نقطة نزولى، وقررت التركيز على الطريق، حتى وصلت إلى قرب المكتب، فاتجهت إليه، وأنا أشعر بضيق شديد؛ لأننى سأواجه الأستاذ (دراكيولا)..
أقصد الأستاذ (حازم) مرة ثانية، و...
وفي بلاهة، كادت تصبح سمة من سمات شخصيتى، وقفت أحدق في باب المكتب المغلق إنها التاسعة إلا ست دقائق، ومن غير الطبيعي أن يكون الباب مغلقا حتى هذه اللحظة..
صحيح أن (حلمي) والآنسة (حنان) يصلان في التاسعة أو بعدها بقليل.. أو كثير، ولكن (حسن) يصل دوما في الثامنة؛ ليقوم بتنظيف المكتب، وترتيبه، وإعداده لوصولنا،توقفت أفكاري دفعة واحدة، عندما وقع بصرى على تلك اللوحة الصغيرة، المعلقة على باب المكتب اللافتة التي تحوى مواعيد العمل الرسمية وشعرت في أعمق أعماقي بغضب، ما بعده غضب المكتب، كمعظم مكاتب المحامين، يحصل على إجازته الأسبوعية يوم الخميس، باعتبار أن الجمعة إجازة محاكم والسبت يوم عمل، ومعظم العملاء لا يحضرون المستندات المطلوبة لقضيتهم، إلا في آخر لحظة، مما استتبع أن تكون مكاتب المحامين، في أغلبها مفتوحة أيام الجمع، ومغلقة أيام الخميس وأنا لم أنتبه إلى هذا، وانتزعت نفسي من فراشي، وتحملت زحمة وضوضاء الميكروباص، وجئت إلى مكان

أبغضه.. في يوم الإجازة مرة أخرى، شعرت أننا داخل مجلة (ميكى)، وأننى واحد من أهم وأشهر شخصياتها (بندق)..

☆ ☆ ☆

أرجوكم، لا تسألوني كيف حدث هذا، ولا كيف قادتني قدماى إلى هناك، ولكنني وجدت نفسي فجأة، في مكتب الأستاذ (منير)، في شارع جامعة الدول العربية ولقد استقبلتني السكرتيرة (ماسي) في دهشة، وهي تقول:

- أستاذ (خليل).. يالها من مفاجأة!

قلت مصححا:

- (خالد).. أسمي (خالد) يا آنسة (ماسى).

ألقت نظرة طويلة على، من أعلى إلى أسفل، قبل أن تمط شفتيها، قائلة:

- (خليل) يناسبك أكثر.

لم أفهم بالضبط ما تعنيه بهذا، واشتممت فيه رائحة سخرية من نوع ما، ولكنني كتمت هذا في أعماقي، وأنا أقول:

- والداي لم يوافقاك الرأي.

ابتسمت ابتسامة غامضة، وهي تقول:

- ربما لم يتوقعا ما ستكون عليه..

هضمت هذا أيضا في صعوبة، وشعرت أنه أصابني بشيء من عسر الهضم، وهي تضيف، في لهجة أشبه بالتحذير:

- هل تريد مقابلة الأستاذ (منير)؟!..

تجاهلت سؤالها تماما، وأنا أسألها مباشرة:

- منذ متى تعملين هنا يا آنسة (ماسى)؟!

بدا كأن السؤال قد فاجأها، فتراجعت بحركة حادة، وهي تقول في عصبية:

- وما شأنك بهذا؟!

كنت أهم باختراع جواب ما، عندما سمعت صوتا هادرا يهتف في غضب:

- ماذا تفعل هنا؟!

وكاد قلبي يتوقف بالفعل فالصوت كان صوت (دراكيولا). الأستاذ (حازم).. شخصيا....

☆ ☆ ☆

٥ - دراكيولا..

الأستاذ (حازم)، الذي كنت أنوي أن أروى لكم ما فعله ذهب لمقابة الأستاذ (منير)؛ ليحصل على شيك من شيكاته، عندما فوجئ بي هناك، ولكن كرامتي تأبى على أن أروى هذا...
أو هي تلك الإصابة في فكي أو كلاهما المهم أنني لن أروى ما حدث، وسأكتفي بأن أقول إن المواجهة مع مصاص الدماء (دراكيولا)، كانت ستبدو أشبه بفيلم كوميدى، مقارنة بما حدث المهم أننى غادرت مكتب الأستاذ (منير)، وأنا أجر أذيال الخيبة، وساق مصابة بركلة مباشرة، وركبت الميكروباص اللعين، الذي لا يحترم أي قاعدة من قواعد المرور، ولا حتى قاعدة (أرشميدس)، والذي يسير في الطرقات في سرعة، متصورا أنه(موتوسيكل) المهم أنه قد أوصلني إلى منزلي، الذي لم أكد أدخله، حتى أطلقت العنان لتأوهات الألم، التي كتمتها في أعماقي طوال الطريق، وتركت دموعي تنهمر على وجهي، من شدة القهر والألم، وحاولت أن أصنع لنفسي كوبا من الشاي،ولكنني واجهت عقبتين رئيسيتين لم يكن لدى سكر ولم يكن لدى شاى لذا، فقد اكتفيت بالاستلقاء على فراشي، الذي لم أغير ملاءاته منذ ستة أشهر، وأنا أسترجع كل شيء بالطبع لم أسترجع ما فعله بطبعي أكره الخوض في الأمور المحزنة والمؤلمة بى..
لقد استعدت فقط تفاصيل قضية الأستاذ (منير) واستوقفتني بضع نقاط أساسية لماذا لم يوجه أحد أي اتهام للبواب ولماذا انزعجت (ماسى)، عندما سألتها متى بدأت عملها، عند الأستاذ (منير)؟!..

وهنا أدركت أننى قد أخطأت، عندما وجهت هذا السؤال إلى الآنسة (ماسى)، فقد كان ينبغي أن أوجهه إلى الأستاذ (منير) نفسه، ولكن أسلوبها الاستفزازي معي، هو الذي دفعني إلى توجيه هذا السؤال إليها ثم إن وصول (دراكيولا) أفسد كل شيء وما فعله معى سيمنعني من دخول مكتب الأستاذ (منير) مدى الحياة أو ربما بعد هذا أيضا..

غرقت طويلاً في هذه الأفكار، وأنا راقد على فراشي، واسيقظت فجأة..

لم أدر حتى متى استغرقت في النوم، ولكنني استيقظت على رنين هاتفي المحمول الصغير جدا، صاحب الرنين المرتفع جدا، فقفزت من فراشي مذعورا، وصرخت صرخة عالية؛ لأننى هبطت على ساقي المصابة، ولكنني تحاملت على نفسى، والتقطت الهاتف، قائلا في صوت امتزج فيه الألم بالفضول:

- من؟!..

وجاءني آخر صوت أتخيل سماعة في الدنيا، وهو يقول:

- أستاذ (خالد)..

خيل إلى في البداية إنني لم أميز الصوت جيدا، ثم لم ألبث أن تعرفته، فقلت في لهفة وحماس:

- الأستاذ (منير)؟!

قال في هدوء، لا يتناسب مع شخص متهم بارتكاب جريمة قتل:

- دعني أولا أعتذر عما حدث في مكتبي.. لقد حاولت منع الأستاذ (حازم)، ولكنه كان ثائراً للغاية، ولست أدرى لماذا؟!

غمغمت في مرارة، مسترجعاً العلقة كلها:

- أنا أعرف.

لم يبد لى أنه حتى قد سمع ما قلته، وهو يقول:

الأستاذ (حازم) لا يعرف لماذا جئت إلى مكتبي، ولعل هذا سبب ثورته، فهل تسمح لي بسؤالك عن هذا، دون أن أسبب أي حرج؟!
أدهشني أسلوبه شديد الاحترام والتهذيب، ربما لأننى لم أعتده لا منه، ولا من أي شخص آخر، فهتفت في حماس:
- بالطبع
سألني في اهتمام شديد:
- لماذا زرت مكتبي، يا أستاذ (خالد)؟!
خيل إلى أن لهجته قد فرغت من ذلك التهذيب اللطيف اكتسبت رنة شرسة إلى حد ما، فأجبت في تردد:
- أردت فقط أن أسألك، منذ متى تعمل الآنسة (ماسي) لديك؟!
جاوبني صمت مطبق لعدة ثوان، قبل أن يقول الأستاذ(منير)، في شراسة واضحة هذه المرة:
- ولماذا أردت هذا؟!
قلت مرتبكا:
- أردت فقط أن أعرف، لو أن...
قاطعني في توتر عصبي:
- فيم تفكر؟!
من المؤكد أن صمتى قد أصابه بالمزيد من التوتر، فقال في حدة:
- هل تشك في (ماسي)؟!
أدهشني بشدة ذلك التحول الشديد في أسلوبه، فقلت مرتبكاً بشدة:
- أستاذ (منير).. أنا أدرس كافة الاحتمالات فحسب
قال في حدة:
- لا يوجد أي احتمال (ماسى) كانت معى هنا في المكتب، في الموعد الذي حددتموه لوقوع الجريمة.

قلت مندهشا:
- ولكنني لم أتهمها قط بارتكابها
سألني في لهجة، أقرب إلى الصراخ:
- فيم تشك فيها إذن؟!
لم أجد بدأ من أن أصارحه بالموقف، وأنا أقول أستاذ (منير)، هل كنت تعلم بوجود علاقة بين سكرتيرتك والأستاذ (صفوت)؟!
طال صمته هذه المرة، قبل أن يقول، في صوت واضح الغضب:
- من أخبرك بهذا؟!
أجبته مترددا:
- بواب بناية (صفوت).
طال صمته، وطال، وطال، حتى إننى سألته في قلق:
- أستاذ (منير).. أمازلت هناك؟!
أجابني بصوت مختنق
- أشكرك يا أستاذ (خالد).. أشكرك كثيرا
وقبل أن أسأله عما يعنيه، أنهى الاتصال دفعة واحدة..
وانعقد حاجباى فى توتر لقد كان الأستاذ (منير) يتحدث من تليفون مكتبه، وعندما أنهى المحادثة، ظل الخط بعدها مفتوحا لحظة، سمعت بعدها صوت إغلاقه وكان هذا يعني شيئا واحدا....
هناك من كان يستمع إلى المحادثة ومن داخل مكتب الأستاذ (منير) وكرد فعل غريزي، قفز إلى اسم واحد(ماسى)..
وشعرت بقلق شديد..
فلو أنها من كان يستمع إلى حديثي مع الأستاذ (منير)، فهذا يعني أنها تعرف أمرين مهمين الآن أولهما أننى قد كشفت علاقتها

بالقتيل (صفوت)..
وثانيهما أننى أخبرت الأستاذ (منير) بهذا فكيف سيكون رد فعلها إذن؟!..
كيف؟!...
شغلني الأمر كثيرا، حتى إن الوقت من سريعا، وهبط الليل وتوغل، حتى بلغت الساعة منتصف الليل تقريبا ولسبب ما، شعرت برغبة عارمة في شرب كوب من الشاي، في هذا الوقت المتأخر، على الرغم من معرفتي أنني لا أمتلك السكر، أو حتى الشاي...
فكرت أن أقترض بعض الشاى والسكر، من جاري الأستاذ(على)، ولكنني تذكرت كيف ترمقني زوجته بنظرات نارية ملتهبة، كلما رأتني على السلم، وتصورت ما يمكن أن تفعله بى، لو دققت بابهم، في هذه الساعة....
ولما كانت رغبتي في شرب الشاي ملحة، قررت أن أتحامل على نفسي، وأهبط إلى ذلك المقهى، عند ناصية الشارع، لتناول كوب من الشاي، وصل ثمنه إلى جنيه كامل، وأمرى إلى الله...
فعلتها، وغادرت المنزل، وبدأت أهبط في درجات السلم، لخمسة طوابق كاملة، و..
التقيت بهذين الرجلين على السلم اثنان ليسا من سكان البناية، ويبدوان أشبه بالمصارعين، رمقاني بنظرة شرسة، وأحدهما يسألني خشونة:
- أتعرف أين شقة (خالد خيري)؟!
أدهشني سؤالهما، فقلت في تردد:
- أنا (خالد خيري).. من يريدني؟!
لم ينطق أحدهما بحرف واحد. فقط انقضا على، وحملاني كورقة شفافة، ودون أية مناقشة، ألقياني في بئر السلم من

الطابق الرابع....

☆ ☆ ☆

منذ طفولتي، وأنا مصاب بهلع مرضى من المرتفعات، حتى أننى أعجز عن مجرد النظر من مكان مرتفع وعندما بدأت رحلة البحث عن شقة صغيرة، في قلب القاهرة، كنت أبحث باستمامة عن شقة في الطابق الأرضي، أو حتى تحت الأرضى، ولكن من العصوبة ، بل من المستحيل، في بلد مثل (مصر)، وفي عاصمة تعد من أكثر عواصم العالم ازدحاما، مثل (القاهرة)، أن تسكن في شقة تناسبك، وخاصة لو كنت مثلي، تبحث عن شقة صغيرة، تناسب إمكانياتك، شبه المنعدمة وللأسف، لم أجد سوى شقة صغيرة (جدا)، من حجرة واحدة، في الطابق الخامس من بناية نصف قديمة، ارتفاعها خمسة طوابق فحسب..

ولا أصف الشقة بالطبع، فهي مجرد حجرة واحدة ودورة مياه، وقليل جدا جدا من الأثاث، ولها نافذة واحدة، لم أفتحها منذ ما يقرب من ثلاثة أعوام، هي كل فترة إقامتي في الشقة تصور الآن حال شخص مثلي، يلقيه مصارعان قويان، من الطابق الخامس!!..

الأمر كله لم يتجاوز لحظات، بدت بالنسبة لي أشبه بدهر كامل، وأنا أسقط وأسقط...

وأسقط...

ويمكنك أن تكرر هذا السطر الأخير، إلى ما لا نهاية وتضيف إليه أنني كنت أصرخ.. وأصرخ، ويمكنك تكرار الكلمة إلى أبد الآبدين..

كنت واثقا من أنني أشهد آخر لحظات حياتي البائسة، ولم أدر لحظتها هل ينبغي أن يفرحني هذا؛ لأننى سأنهي عمرا من الفشل

والإحباطات المتتالية، أم يحزنني؛ لأنني لم أحظ بكوب الشاي بعد؟!...
وعلى أية حال، فالوقت لم يكن يكفي للشعور بهذا أو ذاك؛ فقبل حتى أن أتخذ قراري ارتطم جسدى...
ولم أصدق نفسي حينذاك...
لقد كان أشبه بما يحدث في أفلام السينما المانجة، التي تمتلئ بالمصادفات المدهشة، دون أى تبرير منطق فأنا لم ارتطم بالأرض بل بكومة كبيرة من الأثاث والمفروشات، التي أحضروها لفرش شقة العروس الجديدة، في الطابق الأول فجأة، شعرت بجسدي يرتطم بمرتبة أسفنجية سميكة، ثم يرتفع بضعة سنتيمترات، ويرتطم بها مرة ثانية، ثم ينزلق عنها إلى كنبة كبيرة، ومنها إلى الأرض، كانت صدمتي بالأرض مؤلمة، ولكنها لن تقارن طبعا بما يمكن أن تكون عليه، لو ارتطمت بالأرض، في غياب هذا الأثاث..
المهم أننى، وأنا ملقى أرضا، سمعت صوت المصارعين يهبطان في درجات السلم في سرعة، فمنحنى هذا قوة مدهشة، جعلتني أقفز واقفا على قدمي، وأعدو بكل قوتي خارجا ولأن الشارع الذي أسكنه صغير، وفي حي شعبى معروف / متاخم لمنطقة المهندسين، فقد هب الجميع إلى في دهشة وقلق، والتفوا حولى يه مألونني عن سبب كل هذا الذعر الذي يملؤني. وبكل رعب وارتجاف الدنيا، أخبرتهم، ولثوان، حدق في الجميع، كما لو كنت مجنونا، ثم فجأة وكما يحدث في الأحياء الشعبية كلها، اندفع الجميع في حماسة وشهامة نحو منزلي؛ بحثا عن المصارعين والمدهش أنهم لم يعثروا لهم على أدنى أثر!!!..
من الواضح أنهما قد استغلا حالة الهرج والمرج في الحي ولاذا بالفرار بأقصى سرعة ولكن عملية البحث استغرقت ما يقرب من

ثلاث ساعات كاملة، في المبنى والمباني المجاورة، قبل أن يقول المعلم (ماجد)، صاحب المقهى في استخفاف:
- يبدو أنه كان كابوسا يا أستاذ (خالد).
كان ينطقها دوما بتفخيم حرف الخاء، على نحو مستفز، جعلني أقول، في شيء من الحدة:
- وهل سيلقيني الكابوس من الطابق الخامس؟!..
نظروا إلى بعضهم في حسرة، كما لو أنهم يسمعون قصة مجنونة كصاحبها، ثم ربت المعلم (ماجد) على كتفى قائلا:
- عد إلى منزلك يا أستاذ (خالد)، وتأكد من إحكام الغطاء حولك هذه المرة
لم أحاول حتى مناقشته، أو معاتبته على ما قاله، ونسيت حتى أن أتناول كوب الشاي، وأنا أعود إلى شقتى، وأغلق بابها على في إحكام، وأضع خلفه المنضدة اليتيمة التي أملكها والتي سيزيحها هذان المصارعان كلعبة صغيرة حتما، إذا ما عادوا مرة أخرى..
كانت الساعة قد تخطت الثالثة صباحا، فحاولت أن أنام، حتى يمكنني القيام بالواجبات المعتادة، وتحمل سخافات كرش الأستاذ (حازم)، عندما أذهب إلى المكتب، بعد بضع ساعات ولكن هيهات أن يزور النوم عينا رأت ما رأيته أنا، في هذه الليلة الليلاء..
هيهات..
هيهات..
ولخمس ساعات كاملة، ودن أن أرفع عيني عن باب الشقة، رحت ألعن ذلك الذي تورطت فيه صحيح أننى أسعد كثيرا بلعب دور (شيرلوك هولمز)، إلا أنني لست مستعدا أبدا للعب دور (جيمس بوند) مهما كانت الأسباب صحيح أن (شون كونورى) يمتلك جاذبية خاصة، وكذلك، (روجر مور) و(ثيموثى

دالتون)، و(بيرس برسنان)، وحتى (دانيال كريج)، إلا أن أحدا منهم لا يشبهني قط كلهم لديهم لحم يكسى عظامهم على الأقل ثم لماذا حاول هذان المصارعان قتلى؟!..
لا ريب في أنني قد عرفت سرا، لم يكن ينبغي أن أعرفه سر عرفوا أننى أعرفه...
أهي علاقة (ماسى) بالقتيل؟!..
أم إن الأستاذ (منير) كان يدفع إيجار شقة صفوت؟!...
بحسبة بسيطة، أدركت أن الاحتمال الأول هو الأكثر منطقية خاصة أننى واثق من أن (ماسى) قد سمعت حديثي مع الأستاذ (منير)، عندما أخبرته بهذا ولكن هل يمكن أن تمتلك (ماسى) هذه العقلية الإجرامية التي تدفعها إلى استنجار قاتلين محترفين؛ لقتل شخص ضئيل مثلى، كان يكفيه كلبا من نوع اللولو، لأداء المهمة نفسها بكفاءة؟!..
أم إن لها شريكا آخر؟!
كانت الساعة تدق تمام الثامنة، عندما قفزت إلى ذهني هذه الفكرة، وقفزت أنا بدوري من فراشي، وانا أرتجف حماسا...
نعم.. هذا يفسر كل شيء....
(ماسى) لها شريك..
شريك قتل (صفوت)، في نفس الوقت الذي كانت فيه هي تثبت وجودها في المكتب، مع الأستاذ (منير) لهذا أكدت حجة غيابه في حماس فحجة غيابه، تعتبر في الوقت ذاته، حجة غيابها هي ولكن من هذا الشريك؟!..
من؟!...
كان صباحا مرهقا منذ بدايته..
الميكروباص صدم سيارة شرطة، والتف المخبرون حوله، وسمعنا صوت رنين أكفهم على قفا السائق، واضطررنا للنزول،

وإيقاف ميكروباص آخر، ووصلت إلى المكتب متأخرا نصف ساعة كاملة، والأسوأ أننى وجدت الأستاذ (حازم) هناك، بكرشه الضخم، ووجهه البطيخي الغاضب، وصراخه الذي كاد يلقيني خارج المكتب كعاصفة من النار، فور دخولى.
وعلى غير المعتاد، وبخني الأستاذ (حازم) أمام الجميع ولكنه لم يستخدم يديه أو قدميه كالمعتاد، والحمد لله، ثم طردني تقريبا من المكتب، ليس بصفة دائمة، ولكن لكي أكمل جمع ما يريد من معلومات، وهو يصرخ في وجهى:
- نريد معلومات لصالح الموكل، وليس ضده أيها الغبي..
خرجت من المكتب مسرعا، حتى أهرب من نظرات الزملاء وما إن أصبحت في الشارع، حتى شعرت براحة عجيبة...
راحة جعلتني أستقل أول ميكروباص صادفني، واتجه به إلى محطة (رمسيس)، في طريقي إلى (مصر الجديدة)، حيث منزل القتيل وعندما وصلت إلى المكان، وقبل أن أتجه إليه مباشرة، رأيت مشهدا جعلني أتسمر في مكاني لحظة، ثم أسرع بالاختفاء لقد كانت (ماسى) هناك، تقف مع البواب، وتتحدث إليه في مودة مدهشة مودة جعلتني أدرك الحقيقة حقيقة شريك (ماسى)..

☆ ☆ ☆

٦ - الشريك..

ربع الساعة، قضتها (ماسى) تتحدث إلى بواب البناية، في مودة شديدة، توحي بأنهما يعرفان بعضهما منذ زمن، وفي نهاية المحادثة، رأيتهما يتصافحان لم تكن مصافحة بالمعنى المعروف، ولكن (ماسى) كانت تضع في يده رزمة مالية، من فئة المائتي جنيه، التقطها هو متظاهرا بمصافحتها، قبل أن يدس الرزمة في جيبه في سرعة، وتنصرف هي زمن طويل مضى، منذ أن رأيت ورقة مالية من فئة المائتي جنيه، فما بالك برزمة كاملة منها؟!...

ثم إننى، ودون أن أشعر، وجدت نفسي أحقد على ذلك البواب، وأتساءل لماذا أخطأت في اختيار مهنتي؟..

لماذا؟!...

كانت (ماسى) تقرب من حيث أختبئ، وهي تتحدث عبر هاتفها المحمول، فتواريت خلف كشك صغير، وشعرت بها تمر إلى جوارى، وهي تقول عبر الهاتف:

- إنه يعلم، ولكنه لن يخبر أحدا.. اطمئن، ...

أدهشتني تلك العبارة تماما، فمنذ لحظات، تصورت أننى قد حللت اللغز، وعرفت من هو شريك (ماسى) كنت أتصور أنه البواب، ثم انسحق هذا التصور سحقا بعبارتها هذه، والتي تشير إلى أنها كانت ترشيه، ولا تتحدث فقط معه هناك شريك آخر.. شريك خفي. تبعتها سرا في حذر، في محاولة لمعرفة شيء عنها أي شيء..

وهناك.. عند الناصية التالية، كانت هناك سيارة تنتظرها وبداخلها شاب وسيم قوى، مفتول العضلات، يحاول إخفاء

ملامحه بنظارة شمس ضخمة...
وفي خطوات سريعة، اتجهت (ماسي) نحو السيارة، وقفزت داخلها، فانطلقت بها السيارة على الفور وكما ينبغي أن يفعل أي مخبر يقظ، أسرعت ألتقط وأدون رقم السيارة، قبل أن تختفي عند نهاية الشارع..
ودون إضاعة ثانية واحدة، استقللت ميكروباصا آخر، إلى إدارة المرور مباشرة لم تكن السيارة مسجلة في إدارة مرور القاهرة، ومشكلة الأرقام الجديدة، ذات الحروف الثلاثة والأرقام الثلاثة، أنها لا تحدد إلى أية إدارة مرور تنتمي السيارة...
والمشكلة في أنها لا تتبع إدارة مرور (القاهرة)، أننى مضطر لركوب ميكروباص آخر، حتى إدارة مرور(الجيزة).
كان الامر يستلزم دفع إكرامية، التهمت تقريبا كل ما تبقى من راتبي، حتى أحصل على اسم وعنوان مالك السيارة (أحمد منصور شوكت) ...
كان الاسم يظهر لأول مرة في القضية، ولكنني حملت الورقة، التي تحمل اسمه وعنوانه، وعدت إلى المكتب؛ لأستدين خمسة جنيهات من الآنسة (حنان)، التي رمقتني بنظرة ساخرة، وهي تسألني:
- ماذا أصابك؟.. هل تلعب القمار هذه الأيام؟!..
أجبتها في حسرة:
- بمرتب كالذي نتقاضاه هنا، يمكن أن يفلسنا إدمان الفول السوداني واللب....
ضحكت بشدة، وراقت لها عبارتي، على الرغم من مرارتها، ولكن الأهم هو أنها قد أعطتني الجنيهات الخمسة، التي اختطفتها من يدها اختطافا، وأنا أعدو خارجا كالمجنون كان الأمر قد سيطر

على تماما، حتى لم يعد بالنسبة لي مجرد قضية، من قضايا المكتب، بل صار قضية شخصية..
وشخصية جدا أيضا..
فبعد محاولة قتلى أمس، أصبح حل لغز القضية بالنسبة لي، مسألة حياة أو موت، فما داموا قد فعلوها مرة، لن يمنعهم أي شيء من فعلها مرة ثانية، أو حتى ثالثة، حتى يضمنوا سكوتى إلى الأبد...
مرة أخرى حقدت على ذلك البواب؛ لأنهم اكتفوا برشوته، حتى يغلق فمه، ولم يحاولوا رشوتى، بدلاً من قتلى!!!..
ياللأوغاد!!..
خرجت من البناية، ورأيت لحسن الحظ سيارة ميكروباص تتجه نحوي، فأسرعت أعبر الطريق، وأنا أهتف بسائقها وفجاة، سمعت صرير إطارات قوية يقترب منى...
ثم شعرت بالصدمة، صدمة عنيفة، طار معها جسدي في الهواء بمعنى الكلمة ودون أدنى مبالغة، وارتطم بذلك الميكروباص، ثم سقط على الأرض.. «لقد فعلوها مرة أخرى»..
كان هذا آخر ما جال بخاطري، قبل أن تظلم الدنيا من حولي تماما..

☆ ☆ ☆

للمرة الأولى في حياتي، أعرف ما هي الغيبوبة، التي تحدث كثيرا لأبطال معظم الروايات التي أقرؤها طوال عمري....
للمرة الأولى أمر بها، وأفقد وعيى فجأة، وأفتح عينى، وأحدق في الوجوه التي مالت تتطلع إلى، وأنا ما زلت أرقد على أرض الشارع، مما يعني أنني لم أستغرق وقتا طويلاً، بين فقدان الوعي واستعادته...

كانت هناك وجوه عديدة مجهولة بالنسبة لي، وبينها وجهان فقط أعرفهما..
حسن وحلمي ....
كانا مذعورين حقا، ولقد هتف الثاني في لهفة، في نفس اللحظة، التي فتحت فيها عيني:
- أأنت بخير؟!
سألته في دهشة
- ألم أمت بعد؟!
ابتسم (حلمي) وهو يقول:
- للأسف!
وأضاف (حسن)، في لهفة متوترة:
- لقد كنت تعبر الشارع مسرعا، فصدمك ميكروباص آخر...
هتفت في دهشة:
- ألم يحاولوا قتلى؟!..
سمعت صوتا يهتف في غضب
- ولماذا نحاول قتلك يا أستاذ؟!.. أنا لا اعرفك أصلاً! كان سائق الميكروباص الذي صدمنى، يدافع عن نفسه؛ فقلت في سرعة، وأنا أحاول النهوض:
- لا بأس.. أنا المخطئ.. لقد عبرت الشارع في سرعة ودون أن أنظر...
عاوننى (حلمى) على النهوض، وهو يقول للسائق مهددا:
- نحن مكتب محام، وسنلاحقك قضائيا..
راح السائق يحاول الدفاع عن نفسه، وعن رعونة قيادته واستهتاره بكل قوانين المرور، وتجاهلته أنا تماما، وأنا أستند إلى ذراعي (حسن) و(حلمي)، الذي هتف بنفسي اللهجة التهديدية، ونحن نتجه إلى البناية:

- لقد حصلنا على رقمك، وستبيع هذا الميكروباص؛ لتسدد التعويض الذي سنطلبه..
هتف السائق بعبارتين ساخطتين، كل ما فهمته منهما هو أن كل الركاب قد غادروا الميكروباص بعد الحادث، دون أن يدفعوا الأجرة، و..
وفجأة قفزت إلى ذهني فكرة، بدت لي آنذاك عبقرية فتملصت من ذراعي (حسن) و(حلمي)، وأنا التفت إلى السائق، قائلاً:
- إلا إذا.
رمقني (حلمى) بنظرة صارمة غاضبة، و(حسن) بنظرة مندهشة حائرة، في حين تساءل السائق في لهفة:
- إلا إذا ماذا؟!
أجبته في حزم، تقمصت خلاله شخصية (رشدي أباظة):
- إلا إذا أوصلتني إلى شارع الثورة في (مصر الجديدة)..
وتفجرت دهشة الجميع.
بلا استثناء..
ولكنه فعلها...
وأوصلني إلى هناك...
إلى عنوان (أحمد منصور شوكت) ...
كان يقيم في الطابق الثالث من بناية جديدة، في منتصف شارع الثورة تقريبا، وأسفله مطعم شهير، آلمت الروائح المنبعثة منه معدتي، وذكرتها بالجوع الذي أعانيه منذ الأمس وبأن الجنيهات الخمس في جيبي، لن تكفي حتى ثمن ساندويتش صغير منه..
المهم أننى قاومت جوعي، وسددت أنفي، وأنا أسرع إلى البناية وأتجه مباشرة إلى مصعدها الفاخر، وحارس البناية يلاحقني، هاتفاً:
- إلى أين يا أستاذ؟!

تظاهرت بالدهشة، وأنا أقول
- ألم يخبرك (أحمد بك شوكت)، بأنني قادم إليه؟!..
لقد طلب منى الحضور على وجه السرعة...
أجابني في صرامة:
- لابد أن أتصل به أولاً
أتجه نحو الهاتف الداخلي، فأسرعت أستقل المصعد إلى الطابق الثالث، وأنا أسمعه يهتف خلفى:
- انتظر يا أستاذ
لم يكن العثور على شقة (أحمد) عسيرا، في الطابق الذي يضم أربع شقق؛ فقد كانت تحمل لافته باسمه، فأسرعت أضغط جرس الباب، وسمعت خطوات تقترب، و...
وفتح الباب...
وكدت أشهق بمنتهى القوة فالذي فتح الباب لم يكن (أحمد) كان (ماسى)...
السكرتيرة (ماسى).

☆ ☆ ☆

لو أنك لم تر أبدا ذلك الذهول المصدوم، الذي تقرأ عنه في الروايات البوليسية، لكان ينبغي أن تشاهد الآنسة(ماسى)، عندما فتحت الباب، فوجدتني أمامه لقد اتسعت عيناها على نحو، لم أتصوره أبدا ممكنا، ومال عنقها برأسها إلى الأمام، وسقطت شفتها السفلى على نحو مضحك، في حين سمعت صوتا شابا من الداخل، يسألها:
- هل وصل؟!
ابتسمت وأنا أقول
- مساء الخير يا آنسه (ماسى)..

لم تنطق (ماسى) بحرف واحد، من شدة صدمتها، في حين ظهر ذلك الشاب، الذي كان ينتظرها في السيارة خلفها، وتطلع إلى في دهشة حذرة، وهو يقول:
- من أنت؟!
أجبته، محاولاً بث أكبر قدر من الحزم في صوتي:
- أنا (خالد) يا أستاذ (أحمد).. (خالد) من مكتب الأستاذ (حازم).
انعقد حاجباه في توتر شديد، وهو يهتف:
- من؟!
أجابته (ماسى)، في عصبية شديدة:
- (خليل) يعمل في مكتب المحامي، الذي حدثك عنه
قلت في غضب:
- (خالد) يا آنسه (ماسى).. (خالد).
عادت تحدق في وجهي على نحو عجيب، في حين هتف(أحمد) في غضب:
- وماذا تفعل هنا؟!
أشرت إليه، قائلاً:
- هل تحب أن أتحدث هنا، أم في الداخل؟
بدا من الواضح أنه سينفجر في وجهي غضبا، ولكن(ماسى) استوقفته بحركة صارمة، تشف عن مدى سيطرتها عليه، وهي تقول في عصبية:
أستاذ (خليل).. لا يمكننا استقبالك الآن، فنحن في انتظار قريب لنا، و..
قاطعتها وأنا أقول في صوت، تعمدت أن يبدو مرتفعا:
- كنت هنا فقط لسؤالك هل يعلم الأستاذ (منير) بعلاقتك بالقتيل (صفوت)، وببواب بنايته؟!.. وهل يعلم أساسا بوجود الأستاذ (أحمد)، وبأنه..

قاطعتني هي هذه المرة، وهي تفسح أمامي المدخل، قائلة في عصبية شديدة:
- ادخل.
كانت فرصة، يصعب أن أضيعها، لذا فقد أسرعت أدخل الشقة، التي أغلق (أحمد) بابها خلفي، وهو يقول في صرامة:
- من الواضح أنك تعرف الكثير؟!
قلت، محاولاً أن أبدو صارما:
- ألهذا حاولتما قتلى أمس؟!
كنت أريد عبارتي صارمة، إلا أنها جاءت مرتعشة مرتجفة، ناقلة ما أشعر به، في كل خلية من جسدى، فانعقد حاجبا (ماسى) في شدة، في حين هتف (أحمد) مستنكرا:
- قتلك؟!!
ثم التفت إلى (ماسى)، أجابته في بطء أقلقني جدا:
- إنه مجنون.
ثم أمسكت هاتفها المحمول، وضغطت أزراره، قائلة:
- سأتصل بالشرطة.
حاولت أن أبدو هادئا، وأنا أقول:
- افعلى؛ فلدى الكثير لأخبرهم به.
هتفت عبر الهاتف في توتر:
- الشرطة.. أرجوكم، احضروا بأقصى سرعة.
ثم أنهت المحادثة، وهي تقول لي في عصبية:
- لست تملك ما تقوله لهم...
قلت، محاولاً التظاهر بالقوة، وكل ذرة في كياني ترتجف في رعب:
- يكفي أن أخبرهم ما أعرفه..

راح (أحمد) ينقل بصره بيني وبينها في عصبية، في حين هتفت هي:
- كل شيء له أكثر من تفسير.. ما ستقوله لهم مجرد معلومات، يستحيل عليك تأكيدها، وحتى لو فعلت، فلديّ تفسير لكل لمحة منها...
هتف (أحمد) عندئذ، في عصبية شديدة:
- أريد أن أفهم ما يحدث هنا...
سمعنا في تلك الفترة طرقا قويا على الباب، فاعتدلت وبدا كأنها قد اكتسبت فجأة قوة وثقة، وهي تعقد ساعديها أمام صدرها، قائلة:
- لقد وصلوا.
قالتها، واتجهت نحو الباب لتفتحه، و...
وفجأة، انتبهت إلى أمر، لم أدر كيف لم أنتبه إليه لحظتها إنها لم تخبر من أجرت اتصالها بهم، بعنوان منزلها وهذا يعنى أمرا واحدا إنهم يعرفون المكان ويعرفونها وهذا يعني بالتبعية أنهم ليسوا من رجال الشرطة حتما..
قفزت من مكاني، وتلفت حولي في توتر، بحثا عن مهرب، في حين فتحت هي الباب، وهي تقول، في شيء من الارتياح:
- وصلتم في الوقت المناسب...
وعند الباب ظهر المصارعان، اللذان ألقياني من الطابق الخامس بلا تردد..
واتجها نحوي مباشرة..
وبدون تفكير، وعلى الرغم من جهلي بالمكان، انطلقت أعدو فيه بكل قوتى والمدهش أننى، من فرط رعبى، نسيت حتى ساقى المصابة، أو أنني لم أبال بها، وأنا أسعى للحفاظ على ما هو أهم...

على حياتي....
ولقد كان المشهد، على الرغم من كل الرعب الذي أشعر به، أشبه بمشهد هزلي، في فيلم من أفلام (شارلي شابلن) القديمة..
كنت بحجمي الضئيل أجرى داخل المكان، ومصارعان قويان يطارداني كما لو كنت فأرا صغيرا، يطارده قطان ضخمان لافتراسه، وأنا أقفز من مكان إلى آخر، بالضبط كما لو كنت ذلك الفأر..
أما (أحمد)، فقد راح يصرخ:
- ماذا يحدث هنا؟!
وعلى الرغم من حالة الذعر والهلع الشديدين، التي كنت أمر بها، انتبهت إلى حقيقة مهمة جدا (أحمد) لا يعرف شيئا عما يحدث و(ماسى) متورطة فيه حتى النخاع...
وهذا جعل الحقيقة تضيء في ذهني واضحة جلية(ماسى) هي التي دبرت كل شيء منذ البداية، وبمعاونة بواب البناية، ومن الواضح أن كليهما كان يكره (صفوت) بشدة وكان من الطبيعي أن يتعاونا على قتله (ماسى) أقامت علاقة ما معه، حتى اطمأن إليها، وحصلت على كل أسراره، ثم دبرت الأمر بإحكام، مستغلة عملها في مكتب (منير).. علمت البواب كيف يستخدم مغير الصوت الرقمي، وأثبتت وجودها في مكتب (منير)، عندما كان البواب يقتل (صفوت)..
ولأنها تعرف (منير) جيدا، بحكم عملها معه، كانت تعرف سيهرع إلى شقة (صفوت)، فور تلقيه الاتصال ومن المؤكد أنها قد حصلت على زر كم سترته مسبقا وجعلت البواب يضعه هناك، في مسرح الجريمة، ثم يشهد بوجود(منير)، فيصبح المشتبه فيه رقم واحد....

كنت أرغب في الاستطراد في لشرح، لولا أن المطاردة الداخلية وصلت لما كان متوقعا لها لقد وقع الفأر في براثن القطين الضخمين هل سمعتم في حياتكم عن فأر نحيل، استطاع الفرار من قطين هائلين؟!..

بالطبع مستحيل...

ولقد كنت ألهث في شدة، عندما وضعاني عنوة على الأريكة، في مواجهة (ماسي)، و(أحمد) مازال يصرخ:

- أريد أن أعرف ماذا يحدث؟!

أجابته (ماسى) في برود مخيف:

- مجرد مشكلة، سننتهي منها خلال لحظات..

قال في صرامة:

- دعيني أفهم أولاً.

استدارت إليه في شراسة مخيفة، جعلتها أشبه بالأفعى (سونيا جراهام) في روايات (رجل المستحيل)، وهي تصرخ:

- اخرس.

تراجع (أحمد) مصعوقا، في نفس اللحظة التي سمعت فيها صوت دوران مفتاح في الباب...

وتحركت (ماسي) في عصبية، في نفس الوقت الذي فتح فيه الباب، ودخل منه شخص يقول:

- ماذا يحدث؟!

وانتفض جسدى بمنتهى، منتهى العنف فذلك القادم كان آخر شخص يمكنني توقعه على الإطلاق...

☆ ☆ ☆

٧ - ختـام..

الأستاذ (منير)...
ذلك الذي فتح باب الشقة بمفتاحه، ودخلها في بساطة وكأنه اعتاد هذا طويلا، كان الأستاذ (منير) ولقد وقع بصره على، ووقع بصري عليه، وانتفض كلانا في قوة، وألجمت المفاجأة لساني، في حين هتف (منير) ذاهلا:
- أنت؟!..
أجابته (ماسي) في عصبية:
- لقد كشف تقريباً كل شيء..
هتف وهو يشير إلى مستنكرا:
- هذا؟!
أحنقنى استنكاره هذا، خاصة أن وصوله قد أضاء الحل الحقيقي في ذهني دفعة واحدة الأستاذ (منير) هو المدبر الحقيقي لكل هذا..
ربما قتل سكرتيرته السابقة أو لم يقتلها، ولكن شقيقها(صفوت) كان يبتزه في كل الأحوال، ويجبره على أن يدفع له مبالغ مالية شهرية، بالإضافة إلى تهديداته المستمرة بالإساءة إلى سمعته في السوق، حتى سئم هو كل هذا، وقرر التخلص من (صفوت)..
وعلى عكس ما فهمت، كان (منير) هو الذي دس(ماسي) في شقة (صفوت)، حتى تنقل إليه تفاصيل حياته، ثم اختار لحظة رتباها معا، ليضرب ضربته..
لم يكن هناك مبلغ مجهول، أو أجهزة تغيير صوت رقمية أو غيره، فقد ذهب (منير) إلى (صفوت) في شقته، وهناك، وأثناء عمل هذا الأخير على جهاز الكمبيوتر، باغته بضربة قاتلة، سقط

معها زر قميصه في مسرح الجريمة، قبل أن يفر منها، ويراه البواب، مما استلزم اعترافه بالذهاب إلى هناك، معتمدا على خطة رقمية، أثبت بواستطها وجوده في مكتبه، ساعة ارتكاب الجريمة، وبشهادة عدد من الشهود وهنا تكمن اللعبة الشهود جميعهم سمعوا صوت (منير) فقط، وهو يتفاعل معهم و(ماسى) وحدها شهدت بأنها قد رأته. ولكن الواقع أنه لم يكن في مكتبه من الأساس كان يرتكب جريمته، التي ما أن ارتكبها، حتى أجرى اتصالاً بكمبيوتر مكتبه، عبر شبكة الإنترنت، وباستخدام أحد برامج التخاطب والرؤية المباشرة، وهي كثيرة، كما تقول الآنسة (حنان) دوما، راح يتحدث مع (ماسى) ويتفاعل معها، وسماعات الكمبيوتر الكبيرة تنقل صوته في وضوح للجالسين في الخارج، والذين تصوروا أنه داخل مكتبه، يتفاعل معهم مباشرة...
أما البواب، فهو مجرد رجل طماع، وجد لديه فرصة لابتزاز أحد رجال الأعمال الكبار، فاغتنمها...

«ماذا سنفعل به؟!.. »
ألقى (منير) السؤال في توتر، فقالت (ماسي) في عصبية:
- لن يفسد كل ما فعلناه.
صرخ (أحمد) هذه المرة في عصبية شديدة:
- أخبروني ماذا يحدث هنا..
صرخت فيه (ماسى) في غضب مماثل:
- هل تتظاهر بالغباء؟!.. ألم تفهم كل شيء منذ البداية؟!..
هل تصورت أن (منير) سيعطينا مائة ألف جنيه، فقط لنراقب(صفوت)..
امتقع وجهه، وهو يقول:

أتعنين أنني شاركت في....
قاطعته بنفس الغضب:
في قتل (صفوت).. نعم.. سواء كنت تعلم أم لا، فأنت شريك متضامن معنا، ولقد قبضت الثمن مقدما...
تذكر هذا؟!
ازداد امتقاع وجه (أحمد)، وتراجع مرتجفا مصدوما، حتى سقط على مقعد كبير، وأخفى وجهه بين كفيه، وراح ينتحب بصوت مكتوم وهو يردد:
- ماذا فعلت بنفسي.. ماذا فعلت ...
قال (منير) في عصبية:
- شقيقك هذا يمكن أن يكشف أمرنا بضعفه..
قالت في عصبية:
- ليس شقيقي...إنه أخي من أمي فحسب....
أشار إلى، قائلاً:
- وماذا عن هذا؟!
انعقد حاجباها في شدة، وأشارت إلى المصارعين، قائلة في لهجة شرسة:
- أريد أن يبدو الأمر كحادثة
لم تكن حتى قد أتمت عبارتها، حتى انتزعنى المصارعان من مكاني في عنف، واتجها بي نحو الشرفة، و...
عاودنى رعب المرتفعات...
بعنف حتى في أفلام السينما التي عشقت متابعتها منذ طفولتي، لم تسير الأمور بدقة على هذا النحو المدهش ففي نفس اللحظة، التي هم فيها المصارعان بإلقائي من شرفة المنزل، سمعنا تلك الطرقات العنيفة على باب الشقة...

وعلى نحو أجمل مما يحدث على شاشة السينما، اقتحم رجال الشرطة المكان، وهتف ضابطهم بكل الصرامة:
- ارفعوا أيديكم جميعا
وصرخ (أحمد) واتسعت عينا (منير) عن آخرهما، في حين امتقع وجه (ماسي) في شدة، وهي تهتف:
- مستحيل!.. مستحيل!!!
أما (حلمي هولمز) فقد اندفع نحوى، من بين رجال الشرطة، وهو يهتف:
- (خالد).. أأنت بخير؟!
وعندئذ، وللمرة الثانية في حياتي فقدت الوعي...
☆ ☆ ☆
«(خالد) لعبها بعبقرية يا أستاذ (حازم)..»
عقد الأستاذ (حازم) كفيه خلف ظهره في صعوبة، ومد كرشه إلى أقصى الأمام، وعقد حاجبيه في صرامة، وهو يستمع إلى (حلمي)، الذي وضع يده على كتفي في فخر شاركته إياه بالطبع، مكملاً في حماس:
- قبل أن يذهب إلى شقة (أحمد) هذا أعطاني عنوانها وطلب مني أن أنتبه طوال الوقت، وعندما بدءوا مطاردته هناك، طلب رقمي من هاتفه المحمول، وترك الخط مفتوحا وكنت أنتظره في أول الشارع كطلبه، فسمعت كل ما حدث، وأبلغت الشرطة فورا.....
قالت الآنسة (حنان)، ما بين الانبهار والحيرة:
- وكيف وصلت الشرطة بهذه السرعة؟!.. بل وكيف أقنعتهم باقتحام شقة (أحمد)، على هذا النحو الذي وصفته؟..
ضحك، قائلاً:
- أخبرتهم أن بها إرهابيين، يستعدون لتفجير المبنى.

وقفت صامتا طوال الوقت، مكتفيا بابتسامة زهو، باعتبارى، ولأول مرة في حياتي، ألعب دور البطولة، بعد سنوات طوال من لعب دور الكومبارس الصامت ولقد بدا (حسن)، ولأول مرة مبهورا بما يسمعه عني، في حين ربت (حلمي هولمز) على كتفى، قائلاً:

- الواقع أن (خالد) كان عبقريا هذه المرة....

غمغمت الآنسة (حنان):

- ولآخر مرة.

لم أفهم تعليقها، وأنا أنظر إلى الأستاذ (حازم) في لهفة منتظرا رد فعله، خاصة أن وجهه بدا منتفخا محمرا كالمعتاد وهو يقول بصوته الضخم الفخم:

- ما فعلته يا (حلمي) أنقذ حياة (خالد)، ولكنه سيعرضك لتهمة البلاغ الكاذب، ولما كان بلاغك الكاذب يتعلق بالإرهاب فأعتقد أن هذا سيعرضك للمساءلة، في مباحث أمن الدولة..

أمتقع وجه (حلمي)، وشعرت بيده ترتجف، وهو يرفعها عن كتفي، في حين التفت إلى الأستاذ (حازم)، قائلاً:

- أما بالنسبة إليك، أتعلم ماذا فعلت بالمكتب؟!..

سألته، وابتسامتي ما زالت تملأ وجهى:

- جعلته شهيرا؟!..

صرخ بكل الغضب:

- بل جعلته يخسر أكثر من مليون جنية ...

والآن، ومنذ ذلك اليوم، مازلت أطمح في شرب كوب من الشاى، ومازلت لا أملك السكر أو الشاي فهل لدى أحدكم وسيلة، لإقناع الأستاذ (حازم)، بإعادتي إلى عملي، قبل أن أمتهن التسول، أمام جامع الحسين؟!

هل؟!..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- الزائر..
2 - مسألة رقمية..
3 - الشهود..
4 - المفاجأة..
5 - دراكيولا..
6 - الشريك..
7 - ختـام..

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد القادم

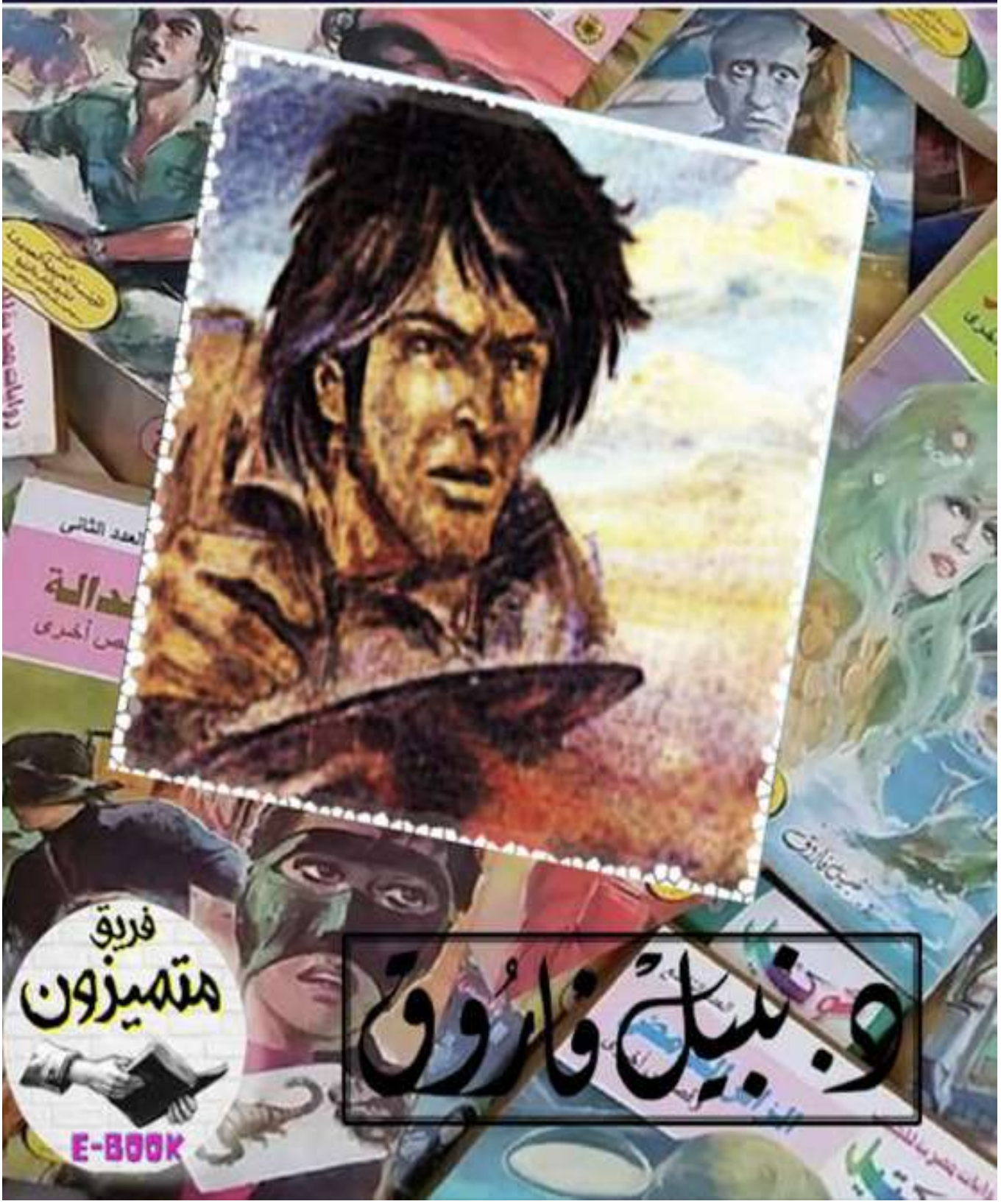

ونبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد

المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

القادم

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

من أجمل سمات العلم، أنه إهانة مستمرة للذكاء البشرى الذي كلما تصور أنه قد قبض بأصابعه عليه، فوجئ به يفلت من بين يديه، ليلكمه بلغز آخر، ومعرفة جديدة..
مخيفة..

د. نبيل فاروق

١- دويٌّ..

فجأة، دوت تلك الفرقعة القوية، في سماء مدينة (الرحاب)، المصرية، ومعهما ارتجت البنايات، لأول مرة منذ فترة طويلة ارتجاجة عنيفة نسبيا، حتى إن (جو) وثب من فراشه منزعجا هاتفا:

- ما هذا؟!

التفتت إليه زوجته (إيناس)، في هدوء لا يتفق مع انفعاله، وهي تبتسم قائلة:

- إنها تلك الدوريات الجوية المعتادة.. المفترض أنك قد ألفتها..

اعتدل جالسا على فراشه، وهو يقول، في صوت يوحي بأنه لم يستيقظ كلية بعد:

- دوريات جوية؟!

واجهته، قائلة:

- تلك الطلعات الجوية، التي تقوم بها المقاتلات المصرية لحماية سماء (مصر).. ألم تخبرني بهذا أكثر من مرة؟!

قال في ضيق:

- لم تكن أبدا بمثل هذه القوة.

غمغمت:

- هذا صحيح.

ثم أضافت في اهتمام:

- ألم تخبرني من قبل، باعتبارك خبير صوتيات، أن هذه الفرقعة تحدث، عندما تخترق المقاتلات حاجز الصوت؟!

أجابها، وهو ينهض من الفراش:

- هذا صحيح.

ثم أضاف في كسل، وهو يدس قدميه في شبشب منزلي بسيط:
- ولكنها لم تكن بهذه القوة.
ابتسمت هذه المرة، دون أن تجيب، في حين أضاف هو في صرامة:
- ثم أنني لست خبير صوتيات.. أنا خبير في نغمة الأصوات.
سألته في دهشة:
- وما الفارق؟!
أجابها، متجها نحو الحمام الملحق بحجرة النوم:
- فارق كبير.. رسالة الدكتوراه التي قدمتها، وكل الأبحاث التي قمت بها، كانت تستهدف تحديد ما يرغب أي كائن في قوله من دراسة صوته فحسب.
ابتسمت، وهي تقول معابثة:
- أي كائن؟!
أجاب في صرامة أكثر:
- نعم.. أي كائن.. حتى الكلاب والقطط.. كلها تعبر عن نفسها وعما تريد، باستخدام أصوات ذات نغمات خاصة، ودراستي تعتمد على تحديد تلك النغمات، وربطها ببعضها البعض؛ لتحديد متطلباتها.
بدا عليها اهتمام حقيقي، وهي تقول:
- أمر شيق بالفعل.
بدت عليه السعادة لقولها، وقال في لهجة، تحمل شيئا من الزهو:
- هذا يختلف كثيرا، عن خبراء الصوتيات العاديين.
غمغمت، وهي تلتقط قطتها، وتداعبها في حنان:
- بالتأكيد.

كان يهم بدخول الحمام، عندما دوت فجأة فرقعة أخرى، أكثر عنفا من سابقتها، حتى أن المنزل كله ارتج في قوة، وأطلقت القطة مواء مذعورا، وهي تثب من بين يدي (إيناس)، وتعدو لتختفي أسفل الفراش، في حين تشبث (جو) بقائم الباب خشية السقوط، وشهقت (إيناس) هاتفة:

- رباه!.. إنها قوية للغاية..

انعقد حاجبا (جو)، وهو يغمغم، في قلق شديد:

- هذا يتجاوز كل المعتاد.

امتزجت غمغمته بصمت طائرات تنطلق، محلقة على ارتفاع منخفض، فقالت (إيناس) مذعورة:

- ماذا حدث؟!.. هل يشن الإسرائيليون علينا حربا مفاجئة؟!

تنازل (جو) عن فكرة دخول الحمام، وهو يسرع نحو النافذة، قائلاً في توتر:

- وفقا لمعلوماتي الفيزيائية، لا يمكن حدوث هذا، إلا إذا..

لم يكن قد أتم عبارته بعد، عندما تراجع فجأة بحركة حادة، وهو يطلق شهقة قوية، جعلت (إيناس) تثب من مكانها، هاتفة:

- ماذا حدث؟!

فوجئت بعينيه متسعتين، على نحو لم تعهده من قبل، وبصوته يرتجف، في انفعال غامر، وهو يشير إلى النافذة بأصابع مرتجفة هاتفاً:

- هناك..هناك..

كان من الواضح أن انفعاله يعرقل خروج كلماته من بين شفتيه، فاندفعت (إيناس) بدورها نحو النافذة، محاولة رؤية ما أثار انفعاله إلى هذا الحد، ولكنها لم تلمح في السماء سوى مجموعة من المقاتلات، تبتعد عنه الأفق، على ارتفاع منخفض، لم تشهد مثله من قبل، فالتفتت إليه، تسأله في حيرة:

- هل كانت قريبة للغاية؟!
ظل لحظات يلوح بذراعة في انفعال، قبل أن يهتف:
- لقد كانت تطارد ذلك الشيء.
عادت تلقى نظرة مندهشة عبر النافذة، ولكن حتى تلك المقاتلات كانت قد اختفت في الأفق، فسألته، وقد شملتها حيرة كبيرة:
- أي شيء؟!
ارتجف صوته هذه المرة، من فرط الانفعال، وهو يقول:
- الطبق.
غمغمت، ودهشتها تتصاعد:
- طبق؟!
التفت إليها، وقد حملت عيناه ذعرا حقيقيا، وهو يجيب مفسرا:
- طبق طائر.
لم تصدق أذنيها في البداية، فهتفت به:
- طبق ماذا؟!.. هذا مستحيل!
بدأ شديد العصبية، وهو يلوح بسبابته نحو النافذة، كما لو أنه هناك شبح يقف عندها، وهتف:
- لقد رأيته.. طبق طائر، كالذي تتحدث عنه الروايات الخيالية:
ثم حملت ملامحه حيرة شديدة، وهو يكمل، فى لهجة شخص، ارتبكت كل المعارف في ذهنه:
- ولكنه يختلف.
كانت عاجزة عن مناقشته، في أمر لم تؤمن بوجوده يوما، ولكن تلك الحالة الانفعالية التي كان عليها، جعلتها تغمغم، وقد انتقل إليها انفعاله:
- فيم؟!

راح يلوح بذراعيه، وكأنما يحاول رسم صورة لذلك الشيء في الهواء، قبل أن يجيب، ولم يفارقه انفعاله بعد:
- إنه يبدو في البداية. مستديرا، تماما كما يرسمونه في الكتب الهزلية، ولكنه عندما اقترب، بدا شكله مختلفا، لم يكن مستديرا، وإنما كان عبارة عن مجموعة من الأضلاع، بينها فراغات، وتندفع بسرعة كبيرة، بحيث تبدو بالفعل أشبه بـ.. بـ..
صمت دفعة واحدة، فأومأت برأسها، تستحثه على الاستمرار، فغمغم، في لهجة أشبه بيأس ذاهل:
- بطبق.
لم يكن بوسعها أبذا استيعاب هذا..
ولم تحاول حتى فيما مضى..
تلك الروايات الخيالية عن الفضاء، ومخلوقاته، والأطباق الطائرة، والأجسام عديمة الهوية، كانت دوما بالنسبة لها أشبه بنكتة كبيرة..
نكتة سخيفة جدا..
نكتة لم تصدقها أبدا، ولم تمنح نفسها، ولو لحظة، فرصة التفكير فيها، أو الشك في احتمال كونها حقيقية..
ولكن ها هي ذي الحقيقة تصل إلى بيتها..
إلى زوجها..
وإلى عقلها..
وفي محاولة منها للدفاع عما تؤمن به، قالت في حذر:
- ربما هي طائرة جديدة، مازالت في طور التجريب.
هز رأسه في قوة، قائلاً:
- ليست طائرة.
سألته في سرعة، وبنفس اللهجة الدفاعية:
- ومن أدراك؟!..

بدا حائرا لحظة، قبل أن يجيب، في تردد شديد:
- تلك الذبذبة.
لم يكمل عبارته
ولم يحاول حتى إكمالها..
ربما لأنه لم يستطع شرح الأمر لها بالتحديد، حتى مع خبراته في الفيزياء وذبذبات الصوت
لقد مر ذلك الشيء أمامه، وسرت مع مروره قشعريرة قوية في جسده، في اتجاه اندفاع ذلك الشيء..
لم تكن قشعريرة خوف، أو من أثر المفاجأة، بل كانت أشبه بما شعر به، وهو يجرى تجاربه الأولى، عندما أخضع معمله كله لموجات كهرومغناطيسية قوية..
نفس الشعور مر بجسده، مع مرور ذلك الشيء أمامه، ثم ذهب مع ابتعاده..
وهذا قد يعني أن ذلك الشيء ينطلق باستخدام طاقة كهرومغناطيسية قوية، لم تستخدم بعد في عالمنا..
حتى آخر معرفته على الأقل
«ما تلك الذبذبة يا (جو)؟!.. »
ألقت (إيناس) سؤالها في توتر بالغ، فالتفت إليها في حيرة كبيرة، دون أن يدري ماذا يقول، فبدت عصبية، وهي تضيف:
- لا تتركني دون تفسير..
أراد أن يخبرها..
أراد حقا أن يفعل، ولكن قبل أن يقدم على هذا، دوت فرقعة أخرى..
فرقعة أكثر قوة، امتزجت بدوىّ آخر عنيف..
دوى انفجار..
رهيب.

☆ ☆ ☆

«هل سمعت ما يرددونه؟!.. »

همس (أشرف) بالعبارة، في أذن (جو)، وهما يجلسان في مقهى شهير، في سوق المدينة، فسأله (جو) في توتر لم يفارقه بعد:

- وما الذي يرددونه؟!

مال (أشرف) نحوه أكثر، وخفت المزيد من صوته، وهو بهمس:

- طائرة مقاتلة سقطت صباح اليوم، بالقرب من (الرحاب).

حدق (جو) في وجهه، بنظرة خاوية، قبل أن يردد:

- مقاتلة؟!

أوما (أشرف) برأسه تأكيدا، وقال في حماس:

- كانت دورية نمطية، ثم أصيب مقاتلة منها بعطب مفاجئ فهوت.

ثم تراجع، متسائلاً في اهتمام:

- ألم تسمع دوى سقوطها؟!

التقط (جو) نفسا عميقا، قبل أن يقول: في لهجة شابتها العصبية:

- بالتأكيد

ثم استطرد في سرعة:

- ومن أدراك أنها مقاتلة؟!

هز (أشرف) كتفيه، وقال في ثقة:

- هذا أمر واضح..

أراد (جو) أن يصرخ في وجهه بأنه أحمق، ولا يعلم شيئا عما حدث، إلا أن هذا كان سيستلزم منه وصف ما رآه في الفجر، وما يستتبعه هذا من سخرية (أشرف) والباقين منه، فاكتفى بأن يغمغم مكررا:

-بالتأكيد

ابتسم (أشرف)، وكأنما حقق انتصارا، وراح يصف في حماس موقفا لم يشهده، ويبالغ في وصف ما فعلته القوات الجوية؛ لانتشال المقاتلة، وما أحاطت به المنطقة كلها من إجراءات أمنية مشددة، بلغت حد منع السيارات من السير، ومنع المارة من المرور، بالإضافة إلى عدد السيارات الكبير، الذي وصل إلى المنطقة، وبينه سيارة هائلة، تكفى لحمل مقاتلة كاملة على متنها، كما امتلأ المكان بضباط القوات الجوية وضباط الجيش، وحتى بعدد كبير من الرجال، الذين يرتدون ثيابا مدنية، ويخفون وجوههم بمناظير شمسية داكنة.

ولم يسمع (جو) نصف حوار (أشرف) هذا

كان ذهنه منشغلاً طوال الوقت بالتفكير فيما حدث فعليا..

لقد شاهد بنفسه ذلك الطبق الطائر..

شاهده، وشاهد المقاتلات تطارده ثم دوى الانفجار..

وحدث ما وصفه (أشرف)..

فما الذي يمكن أن يعنيه هذا، لقد سقط ذلك الطبق الطائر، كما يحدث في أفلام الخيال العلمي، التي لم ترق له يوما.

سقط، وأحاطته القوات الجوية بالسرية التامة، وطوقت المنطقة كلها بنطاق أمنى قوى، حتى لا يتسرب الخبر وأولئك الذين يرتدون الثياب المدنية، هم من رجال المخابرات حتما.

أما تلك السيارة هائلة الحجم، فقد حملت ذلك الطبق الطائر على متنها، وذهبت به إلى مكان ما..

ولسبب ما، شعر بشيء من الغضب في أعماقه

لماذا تخفى الحكومات دوما مثل هذه الأمور؟!..

لماذا ترفض أن تعلم شعوبها بوجود مخلوقات غيرها، فى هذا الكون الفسيح؟!..

لماذا؟!..

تضاعف غضبه، ولكن من نفسه هذه المرة، وليس من الموقف نفسه ما الذي أصابه؟!..
لماذا يفكر بأسلوب لم يؤمن به قط من قبل؟!..
مخلوقات أخرى في الكون بخلاف البشر؟!..
وقادرة على الوصول إلينا؟!..
« (أشرف).. هل تؤمن بوجود كائنات غيرنا في الكون؟!.. »
غضب أكثر، عندما انطلق السؤال من بين شفتيه، دون أن يدرى، وبخاصة عندما التفت إليه أشرف في دهشة، قائلاً:
كائنات ماذا؟!..
ثم تضاعف ذلك الغضب، عندما انفجر (أشرف) ضاحكاً عقب سؤاله، وهو يقول:
- من أين جاءتك هذه الفكرة؟!
- لقد شاهدت فيلما، و..
قاطعه (أشرف) بدهشة مستنكرة:
انعقد حاجبا (جو) في توتر، وأشاح بوجهه، وهو يغمغم في عصبية:
- فيلم؟!..

ثم عاد يطلق ضحكة أكبر، قبل أن يضيف:
- حاول ألا تشاهد هذه النوعية من الأفلام الهزلية، إنها تستخف بعقول المشاهدين
وأشار إلى رأسه بسبابته، مستطردا:
. اعقلها يا رجل.. كيف يمكن أن تكون هناك مخلوقات غيرنا، في هذا الكون؟!.. كيف يمكن أن يخلق الله (سبحانه وتعالى) غيرنا؟
قال (جو) في عصبية:

- الخالق يمكنه أن يخلق ملايين غيرنا، في كل أنحاء الكون لقد خلق في البحار والمحيطات وحدها آلاف، بل عشرات الألوف من المخلوقات، من الكائنات الدقيقة، وحتى الحيتان الهائلة، والحبار العملاق..
سأله (أشرف) في تحد:
- وأين هم إذن؟!
أجابه في سرعة:
- وأين كان الهنود الحمر، قبل أن يصل إليهم(كولومبوس).
قال (أشرف) في دهشة:
- من (كولومبوس)؟!
أجابه في عنف:
- (كريستوفر كولومبوس)، ذلك البحار الإيطالي المولد، البرتغالي الجنسية، الذي كشف قارة (أمريكا).. أيامها أيضا كانوا يصرون على أنه لا يوجد بشر خلف المحيط
بدت دهشة أكثر على (أشرف)، وهو يغمغم:
- رباه!.. أنت مثقف بحق.
عاد يسأله متحديا:
- ولكن لو أنه هناك مخلوقات أخرى في الكون، فلماذا لم نصل نحن إليهم؟!
أجابه في تحد أكبر:
- ولماذا لم يصل الهنود الحمر إلى (أوروبا)؟!
تراجع (أشرف)، وبدا وكأنه يعمل السؤال في رأسه، إلا أنه لم يلبث أن هز هذا الراس، وكأنما ينفض عنه تلك الأفك والتساؤلات، قبل أن يقول في حدة:
- أي عبث نناقشه؟!..

التقط (جو) نفسا عميقا، انتهى بزفرة استعاد معها عصبيته، قبل أن يغمغم:
- صدقت.. هذا عبث بالفعل
كان العبث بالنسبة إليه أن يناقش أمرا كهذا، مع شخص لا يؤمن بأية أمور عقلانية، وليس مستعدا لتغيير أفكاره ومعتقداته، مهما بدت أمامه أدلة أو براهين شخص عنيد وأحمق..
نهض على نحو متوتر، وقال بنفس العصبية:
- سأنصرف..
سأله (أشرف) في دهشة:
- في هذا الوقت المبكر؟!..
أجابه، في شيء من الحدة:
- أشعر ببعض التعب..
لم ينتظر سماع إجابة (أشرف)، ولكنه ابتعد بخطوات مسرعة، وهو يشعر بتوتر بالغ في أعمق أعماقه..
ما حاول إقناع (أشرف) به، هو في الواقع ما يحاول إقناع نفسه هو به..
أن تكون هناك كائنات عاقلة غيرنا، في هذا الكون الشاسع أمر يبدو مخيفا، إذا ما أمعنت التفكير فيه مخلوقات غيرنا.. تصل إلينا.. وتطاردها مقاتلاتنا أي رعب هذا؟!..
وجود مخلوقات عاقلة، قادرة على الوصول إلينا، أمر مخيف بحق، فهذا يعني أنها أقوى منا، وأنها لو أرادت، لكانت قادرة على احتلالنا..
اتسعت عيناه في رعب، عندما جالت بخاطره فكرة الاحتلال وبحركة غريزية، راح يتلفت حوله، وكأنما يتوقع أن تهاجمه مخلوقات فضائية، في أية لحظة، وبأسلوب غير أرضى.

استعاد ذهنه عدة مشاهد، من أفلام سينمائية خيالية، وقع بصره عليها مصادفة..
مخلوقات مخيفة، وقدرات خارقة، وأحداث رهيبة ولأول مرة، منذ أقام بمدينة (الرحاب)، يبدو له هذا السكوت عجيبا ومخيفا، مع تلك الإضاءة الخافتة كانت هذه الصورة تبدو له قديما رومانسية، حتى أنه كان يعشق السير وسط الحدائق، تحت هذه الإضاءة الخافتة، مع زوجته (إيناس) وكانا يسيران دوما الهوينا أما الآن، فها هو ذا يسرع الخطى؛ لتجاوز هذه المنطقة والوصول إلى منزله، في أسرع وقت ممكن..
وكمحاولة لتهدئة نفسه، أخرج هاتفه المحمول؛ ليجرى اتصالاً مع زوجته..
ولكن هاتفه لم يستجب يستقبل أية إشارات، وكأنما أصابه عطب ما، أو توقفت أفكاره دفعة واحدة، واتسعت عيناه في رعب، عندما وقع بصره على ثلاثة أجسام، تقترب منه، وتقترب منه، وزادت سرعة الأجسام الثلاثة ثم انقضت عليه مباشرة..

☆ ☆ ☆

٢- مفقود..

لم تشعر (إيناس) في حياتها كلها بالقلق، مثلما شعرت بهما في ذلك اليوم، عندما استيقظت في الصباح الباكر، فلم تجد (جو) إلى جوارها لقد انتظرته طويلاً في الليلة السابقة، ولكنها لم تشعر بالقلق؛ ربما لأنه اعتاد السهر مع أصدقائه، في ليالي صيف (الرحاب) الهادئة..

ولكنه أبدا، ومنذ زواجهما، وحتى قبل هذا، لم يبت خارج منزله..

ولقد اتصلت على هاتفه عشرات المرات وما من مجيب..

في البداية، كانت تسمع رنين الهاتف، عند الطرف الآخر ثم صارت تسمع تلك الرسالة الآلية المزعجة، التي تخبرها أن الهاتف قد يكون مغلقا وبعدها صمت تام..

لا إجابة..

ولا رنين..

ولا حتى رسائل إليكترونية..

فقط صمت..

صمت مخيف..

صمت لم يعد يمنحها أي جواب، بل ويتجاوز حتى سياسة شركات الهاتف المحمول الثلاث..

صمت حول قلقها إلى رعب شديد، جعلها تجرى اتصالها بكل من يعرفهما؛ لتسأله عن زوجها الجميع استيقظوا على رنين الهاتف، على غير عادتهم والجميع أجابوها والجميع أبدوا دهشتهم من غياب (جو)..

وقبل أن تبلغ الساعة العاشرة صباحا، كان عدد من أصدقائهما ينتشر في مدينة (الرحاب) كلها لم تكن المدينة كبيرة. ولم يكن

بها سوى نقطة شرطة واحدة، ومركز طبى واحد وكلاهما لم يسجل أية حوادث في الليلة السابقة أو أية أحداث عجيبة..
« أين ذهب إذن؟!.. »
هتفت (إيناس) بالسؤال في ارتياع، وبلهجة أقرب إلى البكاء، فقال (أشرف) في توتر، على الرغم من محاولة تهدئتها:
- ربما خرج لتفقد شيء ما.. أنت تعرفين (جو)..
الرغبة في المعرفة هاجسه الأول..
هزت رأسها نفيا في قوة، وهي تقول:
- لا.. الأمر ليس طبيعيا.. لو أراد هذا، لأرسل لي رسالة على هاتفي المحمول على الأقل.
غمغم (عماد) في حيرة قلقة:
- أين يمكن أن يذهب إذن؟!..
بكت (إيناس) بالفعل، وهي تقول:
- ليتني أعلم.. ليتني أعلم.
ران عليهم صمت شديد، قبل أن يتنحنح (أشرف) في توتر، قائلا، في مزيج من الحذر والحرج:
- أظن أنه ينبغي أن نحرر محضرا بالواقعة
هتفت (إيناس) في ارتباع:
- أية واقعة؟!
تمتم، في حذر أكثر:
- واقعة الاختفاء
رددت في ذهول مذعور:
- اختفاء
تنحنح (عماد) بدوره، وقال في تردد:
- نعم.. ينبغي أن نشرك الشرطة معنا في البحث رسميا.

بدت ذاهلة، غير مصدقة لما يقولانه.. بل ولا حتى للموقف نفسه، فقال (أشرف) في حسم:
- هيا.. نقطة الشرطة قريبة
قالت من وسط دموعها:
- وبم سنخبرهم؟!..
صمت الاثنان لحظات، ثم أجاب (عماد) في بطء متوتر:
- بأنه مفقود
تفجرت دموعها في غزارة وحرقة، منذ نطق (عماد) عبارته، وحتى وصلوا إلى قسم الشرطة، وجلسوا أمام أمين الشرطة، الذي استقبلهما ببرود من اعتاد مثل هذه الأمور وهو يسألهم:
- متى وأين اختفى المذكور؟!.
أجابته (إيناس) في حدة:
- لو أننا نعرف إجابة سؤالك، لما أتينا إليك..
زمجر أمين الشرطة في شراسة، هاتفا:
- أجيبي سؤالي فحسب..
صرخت فيه، من فرط انفعالها:
- أجب أنت سؤالي أولا.. من وضعك على هذا المقعد وجعلك مسئولاً عن التعامل مع المواطنين، وأنت تمتلك كل هذا الصلف والغرور..
احمرت عيناه، وكاد يصرخ في وجهها، ولكنه تراجع فجأة واتكمش في مقعده على نحو أدهش ثلاثتهم، ولكن دهشتهم سرعان ما تلاشت، عندما ارتفع صوت ضابط شاب، يقول في صرامة:
- ماذا يحدث هنا؟!..
ارتبك أمين الشرطة في شدة، وهو يقول:
- إنهم يتحدثون بأسلوب فظ يا سيدى..
استدارت (إيناس) إلى الضابط الشاب، هاتفة في انفعال:

- كاذب.. لقد أتيت أبلغ عن اختفاء زوجي، فراح يلقى على الأسئلة في عجرفة، وكأنني متهمة ولست مبلغة..
تراجع (أشرف) و(عماد) في مقعديهما، وامتقع وجههما، وتصورا أن الضابط الشاب سيثور في وجه (إيناس)؛ بسبب الأسلوب الذي هتفت به في وجهه، ولكنهما فوجئا به يتطلع إليها لحظات في هدوء، قبل أن يقول في صرامة، تختلف كثيرا عن صرامته الأولى:
- سيدتي.. اصحبيني إلى مكتبي.. أريد أن أسمع منك القصة كلها..
قالت في مرارة، وقد عادت دموعها تغرق وجهها:
- لا توجد قصة من الأساس.. (جو) لم يعد إلى المنزل منذ أمس، ولا يجيب اتصالاتي.. بل إن هاتفه لا يعطى أية استجابة، وكأنه.. وكأنه..
لم تستطع إكمال عبارتها، فقال يستحثها:
- وكأنه مغلق، أو خارج نطاق الخدمة؟!
هزت رأسها نفيا في قوة، وقالت:
- كلا.. وهذا هو العجيب.. ففي كل الأحوال، لو كان الهاتف مغلقا، أو خارج نطاق الخدمة، أو حتى غير موجود بالخدمة، نتلقى رسالة ما، تخبرك عن موقفه، أما هاتف (جو)، فكل ما يعطيه هو الصمت.. الصمت التام.
انعقد حاجبا الضابط الشاب، وهو ينظر إليهما في حيرة، قبل أن يمد يده إليها، قائلاً:
- هل يمكنني تجربة هذا؟!
أسرعت تناوله هاتفها، وهي تقول في لهفة:
- بالتأكيد.. (جو) هو أول اسم في القائمة.
ضغط الضابط الشاب أزرار الهاتف، وانتقى اسم (جو)، ثم ضغط زر الاتصال.. وانتظر انتظر لحظات طوال، دون أن يتلقى

أي جواب، تماما كما أخبرته (إيناس) من قبل.. وهنا، التقط هاتفه هو، وطلب عبره رقم هاتف (جو) وحصل على النتيجة نفسها الصمت.. صمت مطبق، تام، عجيب.. ومخيف..
ولثوان، وقف الضابط ساكتا شاردا، وكأنما يحاول دراسة الأمر كله، قبل أن يقول في حزم:
- الأمر عجيب بالفعل.. سنسجل محضرا رسميا بهذا، ثم نبدأ البحث فورا..
توتر صوت أمين الشرطة، وهو يقول:
- المفترض أن ننتظر أربع وعشرين ساعة، قبل بدء البحث، ولابد لنا من سؤال المرأة عن مشكلاتها مع زوجها، فربما..
قاطعه الضابط الشاب في صرامة حادة:
- ربما قتلته، ورشت شركات الهاتف الثلاث؛ لتضع هاتفه في هذه الحالة الغامضة؟!..
تراجع أمين الشرطة منكمشا، على نحو يوحي بقوة الضابط الشاب ومهابته، وغمغم:
إنه القانون..
قال الضابط الشاب في قوة:
- بل هي القواعد وليس القانون، ورجل الأمن العاقل لا يسجن نفسه داخل القانون، متجاهلا الحقائق..
ثم مال نحوه، صائحا بمنتهى الصرامة:
- قم بعمل المحضر
انكمش أمين الشرطة أكثر، وسحب دفتره؛ ليبدأ في كتابة المحضر الرسمي، في حين التفت الضابط الشاب إلى (إيناس) وقال في لهجة مهذبة، تخلو تماما من الصرامة:
- سأمر بإعداد فريق البحث فورا

قبل أن يستدير، متجها إلى مكتبه، ارتفع رنين هاتفه المحمول فجأة، فالتقطه بحركة غريزية، قائلاً:
- النقيب (أحمد عبد العال).. من المتحدث؟
اعتدل بحركة عسكرية، عندما سمع الجواب، مما يوحي بأنه يتحدث إلى شخص يفوقه رتبة بكثير، وبدا عليه التوتر، وهو يستمع إليه في اهتمام مندهش، عبر عنه بغمغمة:
- نعم.. (جوزيف).. (جو) كما يسمونه.. وكيف علمت أنهم هنا يا سيدي..
اعتدلت (إيناس) في توتر شديد، وهي تحدق فى وجهه مذعورة، قبل أن يسقط قلبها بين قدميها، مع الذهول الذي ارتسم على وجه الضابط الشاب، وكأن ما يسمعه مفاجأة مذهلة للغاية..
أضواء ساطعة، ضربت عينى (جو)، وهو يعبر تلك الحدائق، المحيطة بمنزله في مدينة (الرحاب)..
أضواء بهرت بصره لحظات، فأغلق عينيه في قوة، وهو يتراجع، محاولاً الفرار من عدو مجهول وقبل أن يغلقهما بلحظة واحدة، شاهد أولئك الذين انقضوا عليه في سرعة..
تحت ذلك الضوء الساطع، لم يتبين ملامحهم جيدا ولكن أجسادهم كانت تشبه أجساد البشر تقريبا أو ربما كانوا بشرا.
ولكن الوقت لم يمهله للتيقن لقد انقض عليه ثلاثة منهم، وشعر بأحدهم ينتزع منه هاتفه المحمول، وبآخر يمسك معصمه في قوة، فصرخ:
- ماذا تريدون منى؟!..
مع صرخته، اندفع ذلك الرزاز القوى في وجهه وعلى الرغم منه، استنشقه في قوة ودار رأسه في عنف..
ثم راحت الدنيا تظلم من حوله، وبدت تلك الأجساد أكثر تشوها، وهو يهتف في ضعف:

- من أنتم؟!..
وضع أحدهم يده على رأسه، وتمتع بكلمات لم يفهمها أو أنها بدت مشوشة تماما..
مثل صورتهم..
وبعدها، أظلمت الدنيا في سرعة ثم غاب عن الوعى
من الواضح أنه لم يفقد وعيه تماما، فقد شعر بهم يحملونه ويضعونه في مركبة ما وانطلقت بهم تلك المركبة ومع انطلاقها، اكتمل الظلام وفقد وعيه تماما ثم فجأة، وبلا مقدمات، استعاده هـ..
استعاده بانتفاضة قوية، شملت جسده كله، مع قشعريرة باردة، شملت كيانه، من أقصاه إلى أقصاه، مع تلك البرودة المحيطة به..
وبلا مقدمات أيضا، فتح عينيه..
وحدق فيما حوله في ذعر وذهول للوهلة الأولى، بدا له أنه ليس في مكان مألوف كان تكوين المكان كله يشبه تكوينات الأثاث المعتادة..
ولكنه كان يتكون كله من كتلة واحدة..
فراش صغير، ومقعد، ومنضدة، وشاشة كبيرة، كلها بدت وكأنها مصنوعة من قطعة واحدة، من معدن لامع للغاية ومصقول إلى أقصى درجة ذلك المشهد ذكره مرة أخرى بروايات الخيال العلمي وبمشاهد سكان الفضاء ومشاهد الرعب أيضا تماما، مثلما يحدث في تلك النوعية من الأفلام سكان كواكب أخرى، جاءوا في ذلك الطبق الطائر الذي رآه ورصده بنفسه ولأنه رآه ورصده..
اختطفوه..
وها هو ذا الآن بين أيديهم..

داخل مركبتهم الفضائية، أو سفينتهم الأم، كما يقولون في تلك الأفلام، التي طالما رأى أنها مغرقة في الخيال سرى خوف شديد في ذهنه، مع مرور الفكرة في كيانه هل اختطفه سكان كوكب آخر بالفعل؟..

أيعني هذا أنهم سيأخذونه معهم إلى كوكبهم؟!..

ألن يرى زوجته (إيناس) مرة أخرى؟!..

ألن يعود إلى بيته في (الرحاب)؟!..

بل ألن يعود ثانية إلى كوكب الأرض؟!..

كان هذا فحسب ما يدور في ذهنه، حتى قفزت إليه فجأة فكرة أخرى مرعبة، جعلت عيناه تتسعان عن آخرهما ماذا لو أنهم لا يفكرون أبدا في حمله إلى كوكبهم؟!..

وماذا لو أنهم سيجرين تجاربهم عليه هنا؟!..

على الأرض؟!..

انتفض جسده مرة أخرى في رعب، وهو يتصور نفسه فار تجارب، في يد مخلوقات عجيبة، تجرى عليه اختباراتها وتجاربها أو ربما تسعى لفحص سماته التشريحية..

وهذا يعني تشريحه!!..

اتسعت عيناه في ارتياع بالغ، وقفز من فوق ذلك الفراش المعدني، الذي يرقد عليه، وراح يتحرك فى تلك الحجرة المعدنية الضيقة في عصبية، بحثا عن مهرب ما لم يكن هناك، في الحجرة كلها، سوى باب واحد، أشبه بأبواب الغواصات القديمة، التي يراها في السينما، له رتاج من نفس مادة الحجرة، وغير مزود بأية فتحات لأية مفاتيح حاول أن يفحص الرتاج في سرعة، بأصبعه شديدة الارتجاف، ولكن حتى هذا لم يكن بالأمر اليسير كما لم تكن هناك أية فتحات في هذا الرتاج، لم تكن هناك أيضا وسيلة لفحصه..

- أية وسيلة!!..
كان وكأنه صنع مع باقي أثاث الحجرة..
من كتلة واحدة..
هو إذن رتاج إليكتروني على الأرجح أو هو رتاج بلازمي، أو هولوجرافي، أو أي من تلك المسميات التي يغرقون بها قصص وأفلام الخيال العلمي المهم أنه يسجنه، داخل تلك الحجرة ولقد تراجع مبتعدا عن الباب، واستدار إلى الشاشة الكبيرة المظلمة، وصرخ بكل قوته:
- من أنتم؟!..
صمت لحظة، وكأنما يتوقع جوابا، ثم صرخ مرة أخرى:
- ماذا تريدون مني؟!..
جاوبه في هذه المرة أيضا صمت مطبق، أثار أعصابه أكثر، فراح يصرخ، على نحو هيستيري:
- لماذا تخفون أنفسهم؟!.. أأنتم بشعون إلى هذا الحد؟!..
لماذا تخفون أنفسكم؟!..
كان ذلك الصمت العجيب مستفزا للغاية، ولكنه فجأة تحطم بأزيز مباغت قوى أزيز جعل (جو) يقفز من مكانه مذعورا، ثم يلتفت في حركة حادة إلى الشاشة الكبيرة، التي انبعث من عندها ذلك الأزيز ثم فجأة، ظهرت صورة على الشاشة الكبيرة وارتد (جو) في عنف فتلك الصورة لم تكن صورة تلك المخلوقات الفضائية بل صورته هو..
آلة تصوير خفية كانت ترصده، وتنقل ملامحه إلى الشاشة بكل ما عليها من انفعالات وعلى نحو مكبر للغاية..
ولثوان، حدق في صورته ذاهلاً، قبل أن يصرخ، في مزيج من الغضب والخوف والعصبية:
- ماذا تريدون مني؟!..

ردد صوت آلي عبارته بالضبط، مع إيقاع معدني عجيب، جعله يستعيد مرة أخرى ذكرى تلك الأفلام الخيالية إنهم يدرسونه يدرسون طبيعته وانفعالاته..
ويدرسون أيضا كلماته..
حاول أن يختبر هذا، فهتف:
- اسمي (جوزيف صبحي).. مهندس صوتيات..
ردد ذلك الصوت الآلي عبارته، بنفس الإيقاع المعدني، فقال في عصبية:
- أعلم ماذا تفعلون.
ردد الصوت الآلي عبارته مرة أخرى، فتابع في عصبية أكثر:
- إنه نفس تخصصه.. تحديد ما يريده كائن ما، عبر الأصوات التي يستخدمها هذه المرة، لم يردد الصوت الآلي عبارته، وإنما ساد صمت شديد، حتى صورته المكبرة على الشاشة، لم تعكس أية أصوات ولثوان صمت (جو) بدوره ولكن عصبيته تضاعفت..
وتضاعفت..
وتضاعفت..
ولكنه لاذ بالصمت الحائر القلق هذه المرة..
لقد تصور لحظة، أنه يفهم ما يسعون إليه، ولكنهم أفسدوا تصوره هذا تماما، في اللحظة التالية فماذا يريدون منه؟!..
ماذا؟!..
مع آخر خاطر جال بذهنه، انفتح رتاج الباب فجأة بصوت مسموع والتفت (جو) بحركة حادة إلى الباب، الذي انزلق في نعومة لينفتح..
وخفق قلب (جو) بقوة.
بمنتهى القوة..

ثم فجأة، عبر جسد ما الباب.
وشهق (جو) بكل قوته..
فذلك الجسد، الذي عبر الباب، كان آخر شيء يمكنه توقعه على الإطلاق.....

☆ ☆ ☆

٣- من؟!..

«ماذا حدث؟!.. أين (جو »
ألقت (إيناس) سؤالها في لهجة عجيبة، جمعت بين القلق والخوف والتوتر، مع شيء من الشراسة، وعلى الرغم من هذا، لم يلتفت الضابط الشاب إليها، ولم يبد حتى أنه يسمعها وهو يغلق هاتفه، ويحدق أمامه في الفراغ، ووجهه يحمل كل الذهول..
وفي عنف، كررت (إيناس) سؤالها، فانتفض الضابط، وكأنها قد انتزعته من حلم ما، والتفت إليها في عصبية، قائلاً:
- هذا لا يخص زوجكِ.
- بل يخصه.. لقد كنت تتحدث عنه، مع...
قاطعها في حدة:
- مع من؟!..
نطقها في خشونة شديدة، ولكن هذا لم يوقفها، وهي تقول في عنف أكثر:
- مع من اتصل بك؟!
تراجعت في حركة حادة، وهي تقول:
- مع من اتصل بك؟!
انعقد حاجبا الضابط الشاب، وقال في شراسة عصبية:
- قلت لك: هذا لا يخص زوجك
لم تبال (إيناس) بثورته أو شراسته، في حين انكمش(أشرف) و(عماد)؛ خشية رد فعله، وهي تقول في حدة:
- بل يخصه.. ما الذي تخفونه؟!.. وما شأن محدثك بزوجى؟!.. ومن هو؟!..

قال الضابط الشاب، في عصبية أكثر:
سيدتى.. لا يمكنك الحصول على أجوبة لأسئلتك هذه
هتفت في شبه انهيار:
- لماذا؟!
صرخ، وقد انفلتت أعصابه:
- لأنه أمر يخص الأمن القومي.
اتسعت عينا (أشرف) و(عماد)، مع سماع الكلمة، وكادا يسقطان فاقدي الوعي، من شدة الرعب، في حين تراجعت (إيناس) كالمصعوقة، وهي تغمغم بوجه وصوت شاحبين:
- أمن قومي؟!
بدا الضابط الشاب وكأنه نادم على ما أفلت من لسانه، فراح يهز رأسه في عصبية، هاتفا:
- غادرى يا سيدتى.. أرجوك.. غادرى فورا
كاد (أشرف) و(عماد) يعدوان خارجين، مع قوله هذا، وهتف الأول في صوت مرتجف:
- أظن هذا أفضل ما يمكن فعله
وغمغم (عماد)، بصوت يشارف الانهيار:
- سأرحل
ولكن (إيناس) كانت أول من استعادت رباطة جأشها، وهي تهتف، في عصبية شديدة:
- لن يرحل أحد من هنا
كانت فرصة مثالية لأمين الشرطة، الذي نهض يقول في صرامة:
- هل أطردهم سيادتك؟!..
التفت إليه الضابط الشاب بنظرة عصبية، دون أن يقول شيئا في حين استطردت (إيناس) بنفس العصبية:
- لن يرحل أحد، حتى أعرف مصير زوجي..

أشار الضابط إلى أمين الشرطة، وقال في حدة:
- كل ما يمكن أن نفعله لك، هو عمل محضر رسمى، وبدء البحث، بعد مرور أربع وعشرين ساعة، و
قاطعته في حدة شديدة:
- أنت تعرف.
ثم انهار صوتها فجأة، وهي تضيف، في مرارة باكية:
- فلماذا لا تخبرني؟!..
حملت ملامح الضابط، الشاب اضطرابا واضحا، وهو يجيب خفوت، أدهش الجميع بانكساره:
- صدقينى يا سيدتي.. لست أعلم شيئا..
.- اتسعت عيناها في دهشة مذعورة، وهي تقول:
- وماذا عن تلك المحادثة؟!..
قلب كفيه، مجيبا:
- علمت منها فقط أنه أمر يخص الأمن القومي، وهذا يعني أنه لم يعد من شأن الشرطة، بأي حال من الأحوال.
سألته ذاهلة:
- وما علاقة (جو) بالأمن القومي
هز رأسه في قوة، وجذب مقعدا قريبا، جلس عليه وهو يقول، في توتر شديد:
- هذا ما أحاول فهمه!.. فلو أنه من العناصر المعادية، أو حتى من المتطرفين، لصدر أمر باعتقاله، أو لتولت أجهزة أمن الدولة التعامل معه.. أما الأمن القومي
لم يكمل عبارته، ولكن الجميع فهموا ما يعنيه، فامتقع وجه(إيناس) في شدة، وشغم (أشرف) منهارا:
- أهو جاسوس؟!..
وهتف (عماد) في خفوت، وهو يتراجع إلى الخلف في توتر:

- سأرحل
ولكن الضابط الشاب أجاب بنفس الحيرة المتوترة:
- ليس جاسوسا بالتأكيد..
سأله (أشرف)، في صوت شاحب:
- ولم لا؟!
أشار بيده، قائلاً:
- لو أنه كذلك، لألقوا القبض عليه في منزله، ولبحثوا عن أدلة اتهام.. إنهم دوما يفعلون هذا..
رفع (أشرف) سبابته، وقال بنفس الشحوب:
- ربما أرادوا أن..
التفتت إليه (إيناس) بحركة حادة، وقاطعته في عصبية:
- شكرا على ثقتك في (جو) يا (أشرف).
انكمش أمام نظراتها الغاضبة، وهمس في توتر:
- لماذا يسعى الأمن القومي خلفه إذن؟!
بدت (إيناس) شديدة التوتر، وهي تقول:
- ربما بسبب ما رآه.
التفت الجميع بأبصارهم المتوترة إليها، حتى أمين الشرطة، فأضافت في صوت شديد الارتجاف:
- ذلك الطبق الطائر..
اتسعت العيون، وارتجفت الأجساد، وحدق فيها الكل، وأمين الشرطة يتراجع، قائلاً:
- سلام قولا من رب رحيم..
تابعت هي في عصبية، وبنفس الصوت المرتجف:
- هو أخبرني.. (جو) قال هذا.. الحكومات تحاول دوما إخفاء مثل هذه الأمور، حتى لا تثير فزع العامة، أو حتى تحتفظ لنفسها بأية تكنولوجيا مفيدة، قد تجدها هناك..

غمغم الضابط الشاب ذاهلاً:
- هناك أين؟!..
أجابته، مشيرة بسبابتها المرتجفة:
- حيث سقط ذلك الطبق الطائر.. لقد رأى (جو) المقاتلات تطارده في ذلك الصباح.. عندما دوت الفرقعات القوية.. هل تصدقون أن طائرة سقطت هنا، تستحق كل ما فعلوه؟!.. إنه ذلك الطبق الطائر.
نهض الضابط الشاب، قائلاً في توتر:
- سيدتي.. أرجوك
تراجعت مبتعدة عن يده، وهي تصرخ في عصبية:
- لقد أخذوا (جو)؛ لأنه رأى ما لا يريدون أن يعلم به أحد أنا واثقة من هذا
كان الضابط الشاب يهم بقول شيء ما، عندما جاء من مدخل المكان صوت صارم، يقول:
- لا تكوني بهذه الثقة يا سيدتي
التفت الكل إلى مصدر الصوت، ووقع بصرهم على رجل قوى البنية، متين البنيان: يرتدى حلة كاملة ورباط عنق، على الرغم من دفء الجو. ويخفى عينيه خلف منظار داكن، لم يتناسب مع دخوله إلى المكان وفي صرامة عصبية، سأله الضابط الشاب:
- من أنت بالضبط؟!..
أجابه الرجل في هدوء:
- أظنهم أخبروك منذ قليل، أنني قادم إليك
امتقع وجه الضابط الشاب، واعتدل في وقفة عسكرية، قائلاً:
- سيدى.
لم يلتفت إليه الرجل، وهو يدير عينيه إلى (إيناس)، التى هتفت، في شيء من الشراسة:

- أين زوجي؟!.. أين (جو)؟!..
تجاهل الرجل سؤالها تماما، وهو يتفحص الموجودين، متسائلاً بنفس ذلك الهدوء:
- من غيركم هنا؟!..
أجابه أمين الشرطة في سرعة:
- نحن فقط.. مازلنا في أول النهار، و..
قاطعه في صرامة:
- أعد أوراقك، فسيأتي زميل لك؛ ليتسلم العمل هنا، بعد عشر دقائق
اتسعت عينا أمين الشرطة، وهو يقول:
- ولكن
قاطعه الرجل بإشارة من يده، وهو يلتفت إلى الضابط الشاب قائلا:
- هذا ينطبق عليك أيضا
هتف (عماد) في ذعر، في نفس اللحظة التي اتسعت فيها عينا الضابط الشاب دهشة:
- سأرحل.
التفت إليه الرجل في حركة حادة صارمة، قائلاً:
- لن يرحل أحد
ظهر عدد من الرجال، يرتدون زيا مماثلاً، عند مدخل نقطة الشرطة، وهو يضيف، في صرامة شديدة:
- نحن مضطرون لاحتجازكم جميعا.. بلا استثناء
شهقت (إيناس) في قوة، واتسعت عينا الضابط الشاب أكثر وكاد (أشرف) و(عماد) يفقدان وعيهما، في حين سقط أمين الشرطة بالفعل، على مقعد قريب فقد كانت المفاجأة مفزعة إلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

لثوان، حدق (جو) ذاهلاً، في ذلك الواقف أمامه كان ذهنه، في الثانية التي مضت، بين تحرك رتاج الباب ودخوله، قد رسم له ألف صورة وصورة..

رسمها خياله المذعور..

ورسمتها عشرات من أفلام الخيال العلمي، التي تجعل كائنات الفضاء تبدو دوما في صورة مخيفة تصوره أشبه بحشرة هائلة أو بديناصور مفترس..

أو كشيء أشبه بالبشر..

شيء أزرق..

أو أحمر..

أو أخضر..

له ثلاثة أرجل..

أو ست عيون..

أو مخالب وأنياب..

لذا، فقد اتسعت عيناه عن أخرهما، عندما وجده شديد الشبه بنا.. بالبشر..

كان رجلاً هادئ الملامح، قوي البنية، له رأس أصلع، إلا من شريط من الشعر، يمتد من منتصف رأسه المستديرة إلى ما خلفها وكان يرتدى حلة سوداء أنيقة، على ياقتها بطاقة، تحمل صورته، مع رقم بحروف كبيرة، وفي ركنها شريط أحمر قان باختصار، كان يبدو كرجل رسمي، يلتقي به في مكتب من مكاتب الأمن ولثوان، وقف ذلك الرجل صامتا، و(جو) يحدق فيه ذاهلاً حتى بدأ هو الحديث، هاتفا بصوت مبحوح:

- ماذا تريدون مني؟!..

أجابه الرجل في صرامة:

- اهدأ يا (جوزيف).
حدق فيه(جو) بذهول أكثر..
لقد كان يتوقع منه أية لغة، إلا تلك اللغة، التي نطق بها عبارته..
كان يتوقع صوتا كالصفير..
أو كفحيح الثعابين..
أو زمجرة الوحوش..
كان يتوقع لغة غير أرضية..
ولكن ما جاءه وما سمعه كان لغة أرضية تماما..
اللغة العربية..
وبلهجة مصرية خالصة..
ولقد تراجع (جو) بحركة حادة، عندما سمع الكلمة فاستطرد الرجل في هدوء، حاول أن يخفف فيه من صرامته:
- أصدقاؤك يخاطبونك ب- (جو).. أليس كذلك؟!..
شحب وجه (جو)، وهو يسأله:
- هل تعرفني؟!..
أجابه الرجل في سرعة:
- بالتأكيد
ازدرد (جو) القليل من لعابه في صعوبة، قبل أن يقول، في صوت أشد شحوبا من وجهه:
كنتم تراقبون كوكبنا منذ زمن طويل إذن..
حدق الرجل فيه لحظة، ثم انفجر ضاحكا ومع ضحكاته، انتفض جسد (جو)..
انتفض..
وانتفض..
أما الرجل، فقد أنهى ضحكاته، وهو يردد:
- كوكبكم؟!.. ألست من كوكب الأرض مثلنا يا (جو)؟

ارتجف صوت (جو)، وهو يغمغم:
- مثلكم؟!.. هل تعني؟!..
قاطعه الرجل، وهو يتجه نحوه، في خطوات رصينة:
- نعم.. مثلنا.. ما الذي تصورته بالضبط؟!.. هل تدمن مشاهدة الأفلام الخيالية أم ماذا؟!..
تراجع (جو)، في حركة غريزية، وهو يغمغم:
- على العكس
مرة أخرى قاطعه الرجل، وهو يواصل اتجاهه نحوه:
- آه.. نسيت.. ملفك يقول: إنك واقعي للغاية
اتسعت عينا (جو)، وهو يغمغم:
- واقعي؟!..
كان يواصل تراجعه، حتى التصق بالجدار البارد، فابتسم الرجل، وتوقف لحظة، ثم جلس على طرف الفراش، قائلا:
- لدينا ملف كامل عنك.. وعن كل الشخصيات المتميزة مثلك..
غمغم (جو) في دهشة مذعورة:
- مثلي أنا؟!..
أشار إليه الرجل، قائلاً:
- أنت خبير في التوجيه الصوتي.. أليس كذلك؟!..
قال(جو)، في بطء حذر:
- ليس هذا اسمه العلمي
هز الرجل كتفيه، وهو يقول:
المهم أنه كيفية تحديد مطلب أي كائن، من خلال ما يصدره من أصوات.. أليس هذا هو المعنى؟!..
غمغم (جو)، في حذر أكثر:
- إلى حد ما..
التقط الرجل نفسا عميقا، وقال في ارتياح:

- عظيم..
حدق فيه (جو)، دون أن يجرؤ على سؤاله عما يعنيه ولكن جسده انتفض مرة أخرى، عندما عاد الرجل ينهض واقفا، وهو يسأله، وقد استعادت لهجته صرامتها:
- أخبروني أنك قد رأيت ذلك الشيء يا (جو)
واتسعت عينا (جو) عن آخرهما..
وسقط قلبه بين قدميه..
إذن فلهذا اختطفوه..
لقد رآهم..
وأدرك وجودهم..
استعاد مرة أخرى ثقته، في أن الواقف أمامه ليس أرضيًا إنه كائن من كوكب آخر كائن يتخذ هيئة البشر لقد رأى هذا كثيرا، في أفلام الخيال العلمي الهزلية دوما ما تنتحل الكائنات الفضائية هيئة البشر؛ حتى يمكنها خداعهم..
وكمحاولة للدفاع عن كيانه، تمتم (جو)، في صوت نافس وجهه شحوبا:
- لم أر شيئا
عاد الرجل يقترب منه، قائلاً بنفس الصرامة:
- بل رأيت..
حاول (جو) أن يتراجع، ولكن هذا كان شبه مستحيل؛ لأنه يلتصق بالجدار بالفعل، لذا فقد انكمش في مكانه، والرجل يواصل الاقتراب منه، حتى صار أمامه مباشرة، وتطلع إلى، مضيفا:
رأيت المركبة الفضائية.
واتسعت عينا (جو) أكثر وأكثر
مركبة فضائية!!..

إذن لقد كان ما رآه صحيحا
هناك مركبة فضائية، أو طبق طائر، طاردته القوات الجوية في سماء مدينة (الرحاب)، وأسقطته. لقد كان ما رآه صحيحا تماما..
ودون أن يدري، وجد نفسه ينقل ما يدور في ذهنه إلى لسانه، وهو يغمغم:
- إذن فهي مركبة فضائية بحق!
ابتسم الرجل ابتسامة ظافرة، توحي بأنه قد حصل على ما أراد، ومد يديه نحو (جو)، فازداد هذا الأخير انكماشا ولكن الرجل ألصق راحتيه بالجدار، على يمين ويسار رأس (جو)، ومال نحوه أكثر، حتى كاد يلتصق به، وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة، قائلاً:
- نعم.. كانت مركبة فضائية بحق وقد سقطت على مسافة ثلاثة كيلو مترات فحسب، من مدينة (الرحاب) حيث تقيم، ولكننا نجحنا في السيطرة على الموقف في سرعة..
غمغم (جو) في شحوب:
- قالوا: إنها طائرة سقطت و..
قاطعه الرجل:
- أنت تعلم ما يحدث، في مثل هذه الأمور.. الحكومات دوما تخفى ما يحدث..
وصمت لحظة، ثم عاد يكرر:
- أنت تعلم هذا.. أليس كذلك؟!..
غمغم(جو):
- بلى..
تراجع الرجل، وعيناه تتألقان، ثم أدار ظهره، وهو يقول:
- ولكننا نحتاج إليك
سأله (جو) في سرعة، ودون تفكير:

- أنتم من؟!..
صمت الرجل لحظات، وهو يوليه ظهره، ثم أخرج من جيبه شيئا صغيرا، في حجم أصبع اليد، ضغط عليه، وهو يلتفت إلى (جو) قائلاً:
نحن.. ألم تدرك بعد من نحن؟!..
واتسعت عينا (جو) عن آخرهما فما حدث بعدها، كان هو الدهشة بعينها..

☆ ☆ ☆

٤- علامة استفهام..

انكمش (عماد) و(أشرف) على نحو مثير للشفقة، في مقعدين كبيرين، داخل تلك الحجرة الواسعة، في مبنى يجهلان ماهيته بالضبط، وبدا وجهاهما شاحبين ممتقعين، وهما يحدقان بعيون متسعة إلى الرجال الصامتين: الذين وقفوا داخل الحجرة جامدين، كما لو أنهم تماثيل من الصلب، ترتدى حللا سوداء متشابهة، ومناظير شمسية داكنة، على الرغم من وجودهم داخل حجرة مغلقة، بعيدا عن الشمس تماما ثم انتفض جسداهما في شدة، عندما انفتح الباب فجأة ودخل منه ذلك الرجل، الذي اعتقلهم جميعا في نقطة شرطة (الرحاب)..

كان هادئ الملامح، كما ظل طوال الوقت، يتحرك في ثقة واعتداد، وينظر إليهما بنظرة خاوية، لا تحمل أية انفعالات واضحة..

وعندما تحدث، كانت لهجته هادئة كملامحه، وهو يقول:

- هل أحضر لكما ما تتناولاه؟!..

حدقا فيه في شيء من الذعر، وبدا لهما الموقف كله غير متناسب مع عبارته، وخاصة عندما أردف، مع ابتسامة هادئة:

- الساعة شارفت على الثالثة، ولا ريب في أنكما جائعان، ولدينا هنا مطعم صغير، ولكنه يقدم وجبات شهية..

غمغم (أشرف)، في لهجة أقرب إلى البكاء:

- هنا؟..

تجاهل الرجل تعليقه هذا تماما، والتفت إلى (عماد)، يسأله:

- ما رأيكما؟!..

غمغم (عماد) في صوت مرتجف:

- أريد العودة إلى منزلى..
لم تبد على الرجل أية انطباعات للكلمة، واتجه في هدوء إلى مقعد يواجههما، وجلس عليه قائلاً:
- هل أساء إليكما أحد هنا؟!
غمغم (عماد):
- وجودنا هنا، في حد ذاته، إساءة..
اندفع (أشرف) يضيف في توتر:
- إننا محتجزان على الرغم من إرادتنا ا..
أوما الرجل برأسه متفقا ومتفهما، وهو يقول
- للأسف
لم يفهما بالطبع ما يعنيه أسفه، ولكن (عماد) استجمع شجاعته، وسأله في حذر:
- هل تعنى أنه باستطاعتنا الرحيل؟!
استدار إليه الرجل، بنفس النظرة الخاوية، وتطلع إليه بضع لحظات، ثم قال في هدوء:
- بالتأكيد
انفرجت أساريرهما في فرحة لهفة، ولكنه استدرك في صرامة:
- ولكن ليس الآن
عادا ينكمشان، و(أشرف) يقول، وقد ترقرقت عيناه بالدمع فعليًا:
- متى إذن؟!..
صمت لحظات طوال هذه المرة، ثم بدا صوته شديد الصرامة وهو يجيب:
- عندما أتلقى الأوامر بهذا..
«أوامر من بالضبط؟!..»

هتفت (إيناس) بالسؤال في عصبية، عندما كرر الأمر عليها، في الحجرة التي يحتجزونها فيها وحدها، بعد دقائق قليلة، فعقد ساعديه أمام صدره، وبدا شديد الصرامة، وهو يجيب:

- حتى هذا، لا يمكنني أن أخبرك به..

شعرت (إيناس) بغضب شديد في أعماقها، إلى الحد الذي جعلها تصرخ في وجهه:

- ماذا تخفون بالضبط؟!..

من الواضح أن سؤالها أتي في الصميم مباشرة، فقد اتسعت عينا الرجل، وتخلى عن ملامحه الجامدة فجأة، وهو يقول:

- نخفى؟!..

صاحت فيه:

- من الواضح أنكم تفعلون كل هذا؛ لإخفاء شيء ما.

شيء يتعلق بـ..

بترت عبارتها دفعة واحدة، في توتر بالغ، فمال الرجل نحوها في غلظة:

- بماذا؟!..

ترددت لحظة، ثم اندفعت قائلة:

- بالطبق الطائر..

تراجع في حركة حادة، وهو يردد مندهشاً:

- طبق طائر؟!..

أدركت أنها قد بلغت نقطة اللا عودة، وأنه لا جدوى من محاولة التراجع، فتابعت في توتر شديد:

- ذلك الشيء، الذي رآه (جو)، والذي طاردته المقاتلات الحربية فوق (الرحاب)، والذي صنع هذه الفرقعة القوية، التي تجاوزت المعتاد..

انعقد حاجباه، وهو يتراجع محدقا فيها، مما ضاعف من توترها، فأردفت في عصبية:
- لقد اعتقلتم كل من وصله الأمر، حتى ضابط الشرطة نفسه..
خفض الرجل عينيه، وبدا لحظات وكأنه يدرس الأمر كله..
قبل أن يرفع بصره إليها في حركة حادة، قائلاً:
- ماذا تعرفين أيضا؟!..
نظرته هذه المرة حبست الكلمات في حلقها، وعقدت لسانها فتمتمت في خفوت متوتر:
- لا شيء..
مال نحوها، على نحو جعلها تتراجع في خوف، وهو يسألها في صرامة:
- من أخبرت أيضا بهذا؟!.. والديك، أم والدي(جو)؟!..
ارتجفت بشدة، وهي تهتف:
- لم نخبر أحدا.. أقسم لك.
بدا الشك المطل من عينيه واضحا، وهو يحدق في عينيها مباشرة، قبل أن يتراجع، ويهدأ صوته، وهو يقول:
- هل رأيت ذلك الشيء بنفسك؟!..
ارتبكت في توتر، وهي تجيب في حذر:
- (جو) رآه.
كرر في حزم:
- هل رأيته بنفسك؟
صمتت لحظات، ثم أجابت في إصرار:
- لو قال (جو) إنه رآه، فقد رآه.
هز رأسه في بطء، قائلاً:
- أو توهم أنه رآه..
غمغمت، وقد تضاعف حذرها:

توهم؟!..
أشار بيده، قائلاً:
- سأخبرك بالحقيقة كلها..
أدهشها قوله هذا، فتمتمت، وحذرها يتزايد:
- هل ستخبرني بها حقا؟!..
هز كتفيه، قائلاً:
- لن يحدث هذا فارقا.
وصمت لحظة، ثم أضاف في صرامة:
- فلن تغادروا هذا المكان، حتى ينتهي الأمر..
اتسعت عيناها في ذعر، لم يلبث أن تحول، إلى غضب شديد، جعلها تهتف في حدة:
- ماذا فعلتم ب- (جو)؟!..
تجاهل الرجل سؤالها تماما، وهو يقول:
- ما رآه (جو) في الواقع هو طائرة تجريبية جديدة نجرى تجاربنا عليها في سرية بالغة..
هتفت في حدة مكررة:
- ماذا فعلتم به؟!
مرة أخرى، تجاهل سؤالها تماما، وواصل، وكأنه لم يسمعها:
- إنها طائرة تسير بخمسة أضعاف سرعة الصوت، وهذا يعني أن تخترق حاجز الصوت في عنف، يصنع هذه الفرقعة القوية...
قالت في حدة شديدة:
- هذا لا يجيب سؤالي..
أحنقها أن تجاهل عبارتها على نحو تام، وواصل:
- ومن الخطر أن نعلن عن هذه الطائرة الآن، و..
صاحت تقاطعه في غضب:

- هراء.. كل ما تقوله كذب.. الأقمار الصناعية تراقب(مصر) طوال الوقت، وطائرة كهذه لا يمكن صنعها أو اختبارها، دون أن يشعر أحد.
توقف يلتفت إليها في صرامة، فتابعت، وهي تتراجع بحركة غريزية متوترة:
- ومن المؤكد أن (جو) ليس الوحيد الذي رصد ما حدث ولا أحد يجرى تجاربه على طائرة سرية، فوق مدينة سكنية كبيرة.. ربما فوق الصحراء، أو..
قاطعها ذلك البريق الذي تألق في عينيه فجأة، وذلك الصوت شديد الاختلاف، الذي خرج من بين شفتيه، وهو يتجه نحوها قائلا:
- من الواضح أنك شديدة الذكاء.. وهذا خطر كبير واكتسبت لهجته قساوة مخيفة، وهو يضيف:
- كبير جدا..
وبكل رعبها وذعرها، أطلقت (إيناس) صرخة مدوية صرخة هزت كيانها كله..
ولم يسمعها أحد على الإطلاق...

☆ ☆ ☆

فجأة، وبلا مقدمات، ومع التفاتة ذلك الرجل، اختفت تلك الشاشة الكبيرة..
وشهق (جو)، وهو يتراجع في حركة حادة..
واتسعت عيناه في ذهول..
وبكل ما تفجر في أعماقه من انفعالات، حدق (جو) في ذلك الممر الطويل، الذي انكشف خلف الشاشة الكبيرة، فور اختفائها...
كان ممرا طويلاً، يبدو وكأنه بلا نهاية....

وفي ذهول مذعور، التفت (جو) إلى ذلك الرجل، بنظرة ملؤها التساؤل والتوتر، فأشار الرجل إلى الممر، وهو يقول:
- من بعدك يا سيد (جو)؟
هز (جو) رأسه نفيا في قوة، وقال:
- أنت أولا يا سيد..
تردد منتظرا أن يجيبه الرجل، إلا أن هذا الأخير تجاهل هذا التلميح تماما، وهو يقول:
- لا بأس
اتجه في خطوات واثقة إلى الممر، وهو يقول في حزم:
- اتبعنى.
تردد (جو) بضع لحظات، إلا أنه لم يبد له هناك أي مخرج من الأمر، فتبع الرجل في خطوات مترددة، وما أن وضع قدمه على أرضية الممر، حتى انتفض جسده في قوة.
لقد كانت أرضية متحركة ...أرضية حملتهما عبر الممر، و(جو) يقول في توتر:
- أين نحن بالضبط؟!..
أجابه الرجل في بساطة، دون أن يلتفت إليه:
- في (مصر)..
هتف في توتر:
- (مصر).. أهذه (مصر)؟!..
لم يشاهد ملامح الرجل، وهو يجيب في هدوء:
- ولماذا لا تكون كذلك؟!..
أجابه (جو)، في شيء من الحدة:
- ألدينا أشياء مثل هذه في (مصر)؟!..
أوما الرجل برأسه إيجابا، دون أن يلتفت إليه، وأجاب:

- إنها ليست تكنولوجيا متقدمة.. والمفترض أن مثلك يمكنه استيعاب هذا في سهولة...
غمغم (جو):
- حقا!!..
حملت غمغمته من الاستنكار، أكثر مما حملته من التساؤل، فتابع الرجل بنفس الهدوء:
- الحجرة التي كنت بها، مصنوعة من معدن مصقول ومضغوط؛ لتفادي تلوث أثاثها بالبكتريا، وهذا مجرد سير متحرك، و..
قاطعه (جو)، في شيء من العصبية:
- والشاشة الكبيرة التي اختفت، دون أن تترك أي أثر؟!..
أجابه في بساطة:
- إنها شاشة هولوجرامية جديدة، أنتجتها شركة (سونى)، ولو تابعت موقع (يوتيوب) بضعة أيام في تركيز، ستجد ما هو أكثر غرابة...
غمغم (جو) في تردد:
- إذن فتلك الشاشة..
قاطعه الرجل، مجيبا:
- لم تكن موجودة أبدا.. إنها مبتكرة؛ لإخفاء مدخل الممر فحسب....
سأله (جو)، وتوتره يتزايد:
- وإلى أين يقودنا هذا الممر؟!..
أجابه في حزم:
- إلى القاعة
سأله (جو) في سرعة:
- أية قاعة؟!..

سكت الرجل طويلاً، قبل أن يجيب في صرامة:
- ستعرف بعد قليل..
عقد (جو) حاجبيه في شدة، ولم يرق له هذه الجواب الصارم أبدا، ولكنه كتم غضبه هذا في أعماقه، واكتفى بتأمل ذلك الممر الطويل، الذي تحمله الأرضية المتحركة مع الرجل عبره..
كان ممرا مصنوعا من ذلك المعدن المصقول ذاته، توزعت فيه مصابيح صغيرة على امتداده، بحيث تضيئه إضاءة متوسطة، لا هي بالهادئة، ولا هي بالشديدة، وباستثناء هذه المصابيح الصغيرة، لم تكن جدران الممر تحوى أي شيء آخر..... أي شيء على الإطلاق.....
ولقد كان الممر طويلاً بحق..
طويل، حتى إنه استغرق منهما اثنتي عشرة دقيقة كاملة قبل أن تتوقف أرضيته فجأة، وهما يقفان أمام باب كبير مصنوع من المعدن نفسه..
وفي هدوء، مال الرجل، وحدق في دائرة صغيرة، انطلق منها شعاع ليزر دقيق، فحص قزحية عينه، قبل أن ينفتح الباب في بطء..
كان (جو) ينوى سؤاله عن تلك التكنولوجيا أيضا، ولكن ما رآه خلف هذا الباب الكبير، جعل عينيه تتسعان في شدة لقد كان على حق..
كان على حق تماما....
وذلك المشهد أمامه، كان يثبت هذا..
فهناك، وفي منتصف القاعة تماما، ووسط جمع كبير من العلماء، الذين يتحركون في نشاط واهتمام كبيرين، ولم ينتبهو حتى لدخولهما، كان ذلك الشيء يستقر...
ذلك الطبق الطائر، الذي رآه بنفسه...

الطبق الذي أسقطته المقاتلات المصرية، على مقربة من مدينة (الرحاب)..
وكان أثر إصابته واضحا، في الجزء الأيسر الخلفي منه المدهش أنه لم يكن، على الرغم من إصابته، يستقر على أرضية القاعة..
بل كان يسبح فوقها...
بوسيلة تكنولوجية ما، كان الطبق يسبح على نحو مضاد للجاذبية، على ارتفاع متر ونصف المتر من الأرضية.
وكان من الواضح أن ذلك الجيش من العلماء، كان يحاول فحص ذلك، أو فهمه على الأقل..
وبكل انفعاله، هتف (جو):
- إذن، فقد كنت على حق..
أجابه الرجل في هدوء، لم يخل من الحزم:
- أنت على حق منذ البداية...
التفت إليه (جو) في دهشة، هاتفا:
- لماذا إذن..
لم يمنحه الرجل فرصة لإتمام تساؤله، وهو يقول:
- كان لابد من منعك من نشر الخبر...
اتسعت عينا (جو)، وهو يقول:
- ماذا تعنى؟!..
جلس الرجل في هدوء، على مقعد قريب، وقال:
. اطمئن.. رؤيتك لتلك المركبة الفضائية العجيبة، ليست سبب إحضارنا لك هنا..
سأله (جو)، في تردد وتوتر:
- لماذا إذن؟!..
ظل الرجل يتطلع إليه لحظات في صمت، قبل أن يجيب في حزم:

- لست أنا من سيخبرك بهذا
سأله في عصبية:
- من إذن؟!..
أجابه في صرامة:
- انتظر
التقط (جو) نفسا عميقا في عصبية، وأشاح بوجهه؛ ليراقب ذلك الطبق الطائر العجيب....
المفترض علميا، ألا يطلق عليه ذلك الاسم البدائي، الذي بطل استخدامه منذ عقود من الزمن إنه ليس طبقا طائرا، بل جسم مجهول الهوية..
جسم وصل إلى كوكبنا...
وطاردته مقاتلاتنا...
وأسقطته...
كان يشك في هذا في البداية، والآن هو واثق..
واثق تماما مما رآه...
ومما يراه أمام عينيه الآن....
لكن حتى هذا لا يجيب تساؤله الأساسي لماذا أحضروه إلى هنا؟!..
لماذا؟!..
«السيد (جو)..»
أتي الصوت من خلفه حازما، فالتفت إلى صاحبه في حركة حادة، وللوهلة الأولى بدا له الرجل مألوفا بشدة، ثم تذكر أنه رأه أكثر من مرة، في برامج تليفزيونية علمية عديدة إنه مستشار رئيس الجمهورية...
المستشار العلمي للرئيس...

كان يتطلع إلى عينيه مباشرة، وهو يقول في هدوء رصين، وفي صوت قوى، أضفى عليه مهابة عميقة:

- مرحبا بك هنا

سأله (جو) في توتر:

- وما هو هنا هذا بالضبط؟!..

أشار الرجل بيده حوله، وهو يقول:

- إنه مقر خاص للطوارئ، لم يخطر ببالنا قط، أن نستخدمه في أمر كهذا...

سأله (جو) بفراغ صبر:

- ولم أحضرتمونى إليه بالضبط؟!

أجابه الرجل في بساطة:

- لأننا نحتاج إليك.

سأله في سرعة متوترة:

- فيم؟!..

ولم يجب المستشار العلمي، وإنما أشار بيده إلى ركن بعيد فأدار (جو) بصره معه، إلى الركن نفسه واتسعت عيناه عن آخرهما في ذهول، أقرب إلى الصدمة فما رآه هناك، في ذلك الركن، كان أمرا مذهلا..

وبكل المقاييس....

☆ ☆ ☆

٥- مفاجأة....

«لماذا أطلقت هذه الصرخة؟!...»
ألقى الرجل سؤاله، في صراحة غاضبة، على (إيناس) التي واصلت تراجعها بعينين متسعتين، وهي تقول في خوف عصبى:
- ملامحك.
سألها، وقد غلب غضبه صرامته:
- ماذا عنها؟!
ارتجف صوتها في شدة، وهي تقول:
- تصورت أنك.. أنك..
صاح فيها:
- أنني ماذا؟!
صرخت في عصبية:
- أنك ستقتلني..
اتسعت عينا الرجل، في دهشة كبيرة، وحدق فيها لحظات غير مصدق.
وهو يغمغم مستنكرا:
- أقتلك!
واصلت تراجعها في خوف، في حين خفض هو عينيه، وبدا مستغرقا في التفكير لحظات، قبل أن يقولا في لهجة، استعادت الكثير من الهدوء والحزم:
- سيدة (إيناس).. من الواضح أنك قد أسأت فهم ما يحدث هنا.
قالت في حدة:
- وهل حاول أحدكم تفسيره لي؟!
- هز رأسه لحظات، وتمتم:

- أنت على حق
ثم رفع عينيه إليها مرة أخرى، وقال متابعا:
أظن أن ما ننشده من زوجك، يعطيك الحق في معرفة الحقيقة.. أو جزءا منها على الأقل..
سألته في توتر شديد:
- وماذا تريدون حقا من (جو)؟!
صمت لحظات، وكأنه يجرى بعض الحسابات في ذهنه، ثم لم يلبث أن قال في حزم:
- سأخبرك..
«لست أصدق هذا!!!..»
غمغم (جو) بالعبارة في اللحظة نفسها، في تلك القاعة التي حوت المركبة الفضائية الطائرة، وهو يحدق فيما بدا أنه حجرة زجاجية كبيرة، وضع بها ما يشبه بعض الأثاث، واستقر فيها ذلك الكائن وكان أشبه كثيرا بالبشر..
ولكنه لم يكن حتما بشريًا
وكانت له ملامح عجيبة، أشبه بملامح إنسان نايندرثا ([1])
مع عينين واسعتين، وجبهة عريضة بارزة.
وكان يبدو يائسا بائسا، يرتدي شيئا، أشبه بحلة فضائية من قطعة واحدة، ذات لون برتقال زاه، ولقد استدار إليه في بطء، وحدق فيه وفي ذلك الرجل لحظات "، قبل أن تتحرك شفتاه بشيء ما شيء لم يسمعه (جو)، ولم يهتم حتى بمعرفته، وهو يسأل الرجل في دهشة شديدة التوتر:
- ما هذا؟!
أشار الرجل بيده، مجيبا:
الناجي الوحيد من الحادث.

غمغم (جو) وكأنه لم يفهم ما قيل:
الحادث؟!..
أشار الرجل بيده مرة أخرى، وقال:
- الحادث الذي شاهدته أنت.. أو الذي شاهدت بداياته على الأصح..
إنهم حتى لا يعلمون بوجود هذا الكائن أو حتى مركبته الفضائية..
غمغم (جون) في لهجة تجمع بين الذهول واللهفة:
أتقصد ذلك الـ..
قاطعه الرجل قبل أن يكمل، وقال في حزم:
- لقد طاردته قواتنا، ونجحت في إسقاطه على الرغم من مناوراته المدهشة، وعند سقوطه لقى اثنان من طاقم الثلاثى مصرعهما، وبقي هذا..
اتسعت عينا (جو) وهو يقول:
- أتعنى أن هذا..
قاطعه الرجل مرة أخرى:
- كائن من الفضاء الخارجي.. أجل..
مرة أخرى، حدق (جو) في ذلك الكائن، غير مصدق ما تراه عيناه..
أهذه حقيقة؟!
أما رفض طيلة عمره تصديقه، هو حقيقة فعلية؟!..
أتوجد بالفعل كائنات عاقلة أخرى في الكون؟!..
كائنات ذكية..
متقدمة..
تستطيع الوصول إلينا أهذه حقيقة؟!

ظل يردد ذلك التساؤل الأخير في أعماقه، وهو يواصل التحديق في ذلك الكائن، الذي نهض من مكانه والتصق بالجدار الزجاجي لغرفته، مسندا راحتيه شبه البشريتين عليه، وهو يواصل تحريك شفتيه بكلمات، لم يسمح بها الجدار الزجاجي بالعبور..

«لهذا نحتاج إليك..»

قالها الرجل، فانتفض (جو) وكأنما أيقظته العبارة من غيبوبة ما، وقال في توتر:

- تحتاجون إلى؟!

أجابه الرجل:

- نعم.. نحتاج إلى تخصصك النادر، ودراساتك المتميزة في عالم الصوتيات..

غمغم (جو)، ولم يستوعب عقله الأمر بعد:

- ولماذا؟!

عاد الرجل يشير إلى ذلك الكائن، قائلاً:

- حتى يمكننا التفاعل معه، وفهم ما يحاول قوله طوال الوقت..

غمغم (جو):

- هل تعنى..

مرة أخرى قاطعه الرجل، وكأنما يعرف كل أسئلته مسبقا، وقال:

- دراساتك حول كيفية استخدام الأصوات، التي يصدرها أي كائن، لمعرفة متطلباته، جعلتنا ندرك أنك الشخص الوحيد هنا الذي يستطيع مساعدتنا في هذا..

بدا ذاهلاً غير مصدق لحظات، وهو ينقل تحديقه من ذلك الكائن إلى الرجل، قبل أن يغمغم:

- وهل تعلمون عنها؟!

أجابه الرجل في حسم:

- بالتأكيد.. دراسات مهمة كهذه، لا يمكنها أن تمضى مرور الكرام.. إننا نتابع عملك منذ البداية..
ثم ابتسم، قائلاً:
- ولكنني أصدقك القول، إننا لم نتوقع قط أن نستخدمها في أمر كهذا..
وصمت لحظة، ثم لوح بذراعه كلها، مضيفا:
- بل لم نتوقع قط حدوث الأمر نفسه.
- وأين الأمريكيون؟!
سأله الرجل في دهشة:
ظل (جو) يحدق فيه لحظات، في صمت ذاهل، ثم لم يلبث أن أدار عينيه إلى ذلك الكائن مرة أخرى، قائلاً:
- وما شأن الأمريكيين بهذا؟!
هز (جو) كتفه، قائلاً في تردد وتوتر:
- المفترض أن لديهم خبرة كبيرة في هذا المجال..
سأله الرجل في اهتمام:
- مجال علم التمييز الصوتي؟!
هز (جو) رأسه نفيا في بطء، وهو يقول في خفوت:
- بل في التعامل مع الكائنات الفضائية..
بدت دهشة كبيرة على وجه الرجل، قبل أن تتحول إلى ضحكة رصينة، وهو يقول:
- من أين جئت بهذا؟!
أجابه (جو)، في تردد أكثر:
- من.. من أفلامهم
أطلق الرجل ضحكة صاخبة، قبل أن يميل نحوه، قائلاً:
- أستاذ (جوزيف).. إنها مجرد أفلام
غمغم (جو) وكأن المعلومة أدهشته:

- حقا؟!
اعتدل الرجل، وهو يقول مبتسما:
- حقا.. إنهم حتى لا يعلمون بوجود هذا الكائن هنا، أو حتى مركبته الفضائية..
قالها بكل الثقة، دون أن يدرى أن عبارته لم تكن حقيقية في الواقع..
وأن تطورات الأمور ستفوق كل توقعاته كلها.. على الإطلاق..
على الرغم من تصورها، أنها قادرة على استيعاب أية مفاجآت، بعدما حدث، عجزت ساقا (إيناس) عن احتمال ثقلها، فتراجعت؛ لتجلس على أول شيء صادفها، وهي تحدق فى وجه الرجل في ذهول..
مركبة فضائية..
كائنا فضائيا..
لقد شاهدت آلافا من أفلام الخيال العلمي في حياتها، وقرأت أعدادا هائلة من رواياته، وعلى الرغم من هذا، فلم يدر بخلدها لحظة، طوال عمرها، أنها يمكن أن تواجه شيئا من هذا أبدا.
رباه.. إذن فهي حقيقة..
توجد بالفعل مخلوقات عاقلة أخرى غيرنا، في هذا الكون الفسيح مخلوقات قادرة على الوصول إلينا تماما كأفلام الخيال العلمي ولكنها في هذه المرة، جزء من واحدة من بطلاته..
وهذا ما بدا لها دوما، من رابع المستحيلات..
جلست صامتة، تحدق ذاهلة في الفراغ، والرجل يقف أمامها، محترما صمتها، متطلعا إليها في اهتمام، قبل أن يقطع حبل الصمت هذا، مضيفا:
- الحقائق دوما أغرب من الخيال
غمغمت، وهي ترفع بصرها إليه:

- الحقائق؟!
أوما برأسه إيجابا، وقال:
- صدقيني يا سيدتي.. نحن أيضا لم نتصور حدوث شيء كهذا أبدا..
تمتمت في شيء من الحذر:
- ولكنكم استعددتم له
قال في دهشة:
- مطلقا.. من وضع هذه الفكرة العجيبة في رأسك!..
أشارت إلى ما حولها، متمتمة في توتر، لم تحاول حتى السيطرة عليه:
- لقد أعددتم كل هذا
جلس على مسافة قريبة منها، وهو يقول:
- إنه مقر للطوارئ، لم يخطر ببال مخلوق واحد استخدامه في هذا المضمار..
صمتت لحظات، قبل أن تسأله:
- أين نحن بالضبط؟!
صمت هو أيضا لحظات، ثم قال في صرامة:
- في مكان ما من أرض (مصر).
همت بإلقاء سؤال آخر، فأضاف في صرامة أكثر:
- لقد عرفت كل ما يمكنك معرفته
ونهض من المقعد، الذي لم يستقر عليه طويلاً، وهو يردف:
- وهو أكثر مما ينبغي.
بدا وكأنه يهم بالانصراف، فهتفت في حدة:
- وماذا عن (جو)؟!
ثبت في مكانه لحظات، ثم التفت إليها، قائلاً في صرامة:
- ماذا عنه؟!

في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كان مدير المخابرات العامة المصرية يستقبل مندوبا خاصا، من السفارة الأمريكية في (القاهرة)، طلب مقابلته على نحو عاجل، وكان يصافحه، قائلاً في حذر هادئ:

- ترى ما سر إلحاح السفارة على هذه المقابلة العاجلة؟!..

جلس مندوب السفارة أمامه، وفتح حقيبته الديبلوماسية الأنيقة، وهو يقول:

- دولتى تطلب تفسيرا لأمور تتجاوز المألوف هنا

تراجع مدير المخابرات في مقعده، وهو يقول فى صرامة حازمة:

- أظن أن ما يحدث هنا، أيا ما كان، هو شأن مصرى خالص..

أشار مندوب السفارة بسبابته، قائلاً:

- هذا لو أنه شأن مصرى.

ثم أخرج من حقيبته الأنيقة مجموعة من الصور، وضعها أمام مدير المخابرات، وهو يضيف:

- ولكنه يبدو لنا شأنا عالميا..

في صمت تام، وبوجه خال من الانفعالات تماما، تطلع مدير المخابرات إلى الصور في اهتمام كان من الواضح أنها مجموعة من صور الأقمار الصناعية، تم التقاطها لمنطقة مدينة (الرحاب)، في توقيت سابق و صور تنقل، وبكل وضوح، تلك المطاردة، التي دارت فى سماء المدينة الجديدة، بين المقاتلات المصرية، وتلك المركبة الفضائية ثم تنقل مشهد سقوطها ومحاصرة المنطقة، بواسطة قوات الجيش ومرحلة نقل المركبة..

☆ ☆ ☆

«أين أخفيتموها يا سيادة الوزير؟!...» ([2])

قطع مندوب السفارة انتباه مدير المخابرات بالسؤال، فرفع المدير عينيه إليه في صمت، دام بضع لحظات، قبل أن يقول في صرامة:
- أترى ما يدور على أرض (مصر) شأنا عالميا؟!..
حاول مندوب السفارة أن يبادله صرامة بصرامة، وهو يقول:
- عندما يأتى جسم ما من الفضاء، فهو شأن عالمى
مال مدير المخابرات نحوه، وهو يقول بمنتهى الصرامة:
- بالنسبة لأي قانون؟!..
تراجع الرجل بحركة حادة مصدومة، وهو يردد مستنكرا:
- قانون؟!
أجابه مدير المخابرات، بنفس الصرامة:
- تدعون دوما أنكم دولة تحترم القانون، ومادمتم قد جرؤتم على دس أنفكم في أمور مصرية بحتة، فلا ريب أنكم تستندون إلى قانون ما.. قانون دولي، أو حتى مصرى..
وزاد من ميله نحوه، وصرامته تكتسب رنة خطيرة، وهو يضيف، متطلعا بعينين قاسيتين إلى الرجل:
- وإلا فسيعني هذا أنكم تتدخلون بلا أي سند، ومن غير الممكن طبعا أن تتصوروا أننا سنخضع، أو نقبل بهذا، على أي نحو كان، فقط لأنكم دولة عظمى..
احتقن وجه مندوب السفارة، وهو يقول في عصبية:
- لسنا مجرد دولة عظمى يا سيادة الوزير.. إننا الدولة العظمى الأولى في العالم.. نحن زعماء العالم الجديد..
تراجع المدير قائلاً في حزم:
- هذا لا يعطيكم أي حق، في دس أنفكم في شئوننا..
ازداد احتقان وجه المندوب، وهو يقول:

- اسمعنى جيدا يا سيادة الوزير.. ما حدث لم يكن مفاجأة تامة لنا.. لقد رصدت أقمارنا الصناعية تلك المركبة الفضائية منذ اقترابها من كوكب الأرض، ولكننا كنا نتوقع هبوطها في الولايات المتحدة.

قال المدير، في لهجة صارمة:

- لأنها زعيمة العالم الجديد

قال المندوب في حدة:

- كلا، ولكن لأن أية مخلوقات عاقلة، تقترب من كوكب الأرض، سترصد حتما أننا أكثر مناطق الأرض تطورا وتحضرا وهذا سيدفعها للهبوط لدينا حتما.

واصل المدير لهجته الساخرة، وهو يقول:

- من الواضح أنها كانت تبحث عن أمر آخر..

بدا وجه المندوب وكأنه سينفجر، من فرط الاحتقان، وهو يقول:

- دعنا نكن صرحاء يا سيادة الوزير.. بغض النظر عن هبوط تلك المركبة هنا، فكلانا نعلم جيدا أن (أمريكا) وحدها تملك المعرفة والتكنولوجيا اللازمتين؛ للتعامل مع أمر كهذا...

غمغم مدير المخابرات في هدوء:

- حقا؟!..

بدت الكلمة ساخرة تماما، بالنسبة لمندوب السفارة، فقال في عصبية شديدة:

- هل يمكنكم إنكار هذا؟!..

طال الصمت هذه المرة، وكلاهما يتطلع إلى عينى الآخر فى تحد، قبل أن يقول مدير المخابرات في صرامة:

- عندما سقطت مركبة فضائية، عام 1947 م، في بلدة(روزويل) في (نيو مكسيكو)، تكتمتم الأمر تماما، وحاولت،

طوال ما يزيد عن نصف القرن، إنكار حدوثه من الأساس ([3])
هل تعلم لماذا؟!..
لم ينطق مندوب السفارة بحرف واحد، وهو يتطلع إلى المدير في عصبية، فتابع هذا الأخير في حزم:
- لأن التكنولوجيا التي حوتها المركبة الفضائية، كانت تفوق كل التكنولوجيا المعروفة في كوكب الأرض بقرن كامل على الأقل صحيح أنكم لم تستطيعوا فهم معظمها حتى الآن، ولكن ما كشفتم ألغازه، ساعدكم على ربح سباق الوصول إلى القمر قبل السوفيت، الذين سبقوكم في الدوران حوله.....
قال المندوب، في عصبية شديدة:
- ما الذي ترمي إليه بالضبط يا سيادة الوزير؟!..
أجابه الوزير في صرامة:
- إن السبب نفسه هو الذي دعاكم إلى هذا التدخل السافر التكنولوجيا.. تخشون لو استأثرنا بهذا، أن نتطور تكنولوجيا، أو نمتلك شيئا لم تتوصلوا إليه، ولا يملكه الإسرائيليون.....
كان من الواضح أن استنتاجه، وخاصة الجزء الأخير منه، قد أصاب كبد الحقيقة مباشرة، لذا فقد انتفض المندوب في عنف، وهو يقول في حدة:
- مادمنا قد بلغنا هذا الحد، فاسمح لي أن أنقل الجزء التالي من رسالتنا إليكم، والذي كنت أدخره للنهاية ثم نهض بحركة حادة، واستند براحتيه على سطح مكتب المدير، وهو يضيف، بكل ما أمكنه من صرامة:
- إننا سنبذل كل جهودنا، للحصول على تلك المركبة الفضائية، حتى لو اضطررنا للحصول عليها.....
واشتعلت عيناه، وهو يضيف في غلظة:

- بالقوة.
وضاقت عينا مدير المخابرات في شدة...
وانعقد حاجباه في غضب....
فقد كان هذا يعني أن الأمور تتطور على نحو خطير...
خطير للغاية...
وإلى أقصى حد....

☆ ☆ ☆

٦- بالقوة...

تماما كما طلب (جو)، تم نقل ذلك الكائن إلى حجرة خاصة مجهزة بكل الأجهزة السمعية المتطورة..
أجهزة يعرفها، ويقرأ عنها.
ولكنه لم يتصور، حتى أن يلمسها أبدا.
أجهزة يتجاوز ثمن الواحد منها مقدار ما ربحه، في السنوات الخمس الأخيرة على الأقل..
وعلى مقعد صغير، في الركن البعيد، جلس صاحب الحلة السوداء يراقبه في صمت، وهو عاقد ساعديه أمام صدره، فتطلع إليه (جو) لحظات، ثم التفت إلى ذلك الكائن، وتطلع إليه لحظات في صمت مماثل..
كان من الواضح أنه يألف الأجهزة التكنولوجية، ويدرك أنهم يحاولون إيجاد وسيلة ما للاتصال معه...
كان يقف في اهتمام، متطلعا إلى (جو)، وناقلاً بصره كل بضع لحظات، بينه وبين ذلك الجالس في الركن وفي بطء وتركيز، أشار (جو) إلى صدره، قائلاً، دون أن يرفع بصره عنه لحظة:
- (جو).. اسمي (جو).
انتبه الكائن، وقال على الفور، ودون لحظة تفكير:
- (موجال).
قالها، وضرب على صدره براحته، واعتدل في حزم، مكررا:
- (موجال).. (ميروز).
انعقد حاجبا (جو)، وهو يسأله في اهتمام، وبنفس البطء:
- اسمك (موجال ميروز).

هز الكائن رأسه نفيا، وكأنما فهم العبارة تماما، وعاد يشير إلى صدره قائلاً:
- (موجال).
ثم رفع يده وبصره إلى أعلى، مردفا:
- (ميروز).
اعتدل (جو)، مغمغما في اهتمام:
- فهمت.
بدا الرجل متوترا متحفزا، وهو ينهض من مقعده، متسائلاً، في لهجة حملت من الصرامة، أكثر مما حملته من التساؤل:
- ماذا فهمت بالضبط؟!..
أجابه (جو)، دون أن يلتفت إليه، ودون أن يرفع عينيه عن ذلك الكائن:
- أظنه شديد الوضوح.
وأشار إلى الكائن، مكملاً:
- يقول إن اسمه (موجال).
ثم رفع يده إلى أعلى، مضيفا:
- وجاء من كوكب يدعى (ميروز).
تألقت عينا الكائن، عندما فعل (جو) هذا، وقال في حماس:
وهو يرفع يده إلى أعلى:
- (ميروز).. (ميروز).
ثم تبع هذا بكلمات حماسية سريعة، لم يفهم الرجل منها حرفا واحدا، وإن رصدها (جو) كلها على أجهزته، ثم راح يتابع المؤشرات في اهتمام بالغ، والرجل يكرر في توتر:
- ماذا فهمت؟!
التفت إليه (جو)، في حدة لا تناسب طبيعته، وهتف في غضب:

اصمت..
تراجع الرجل كالمصعوق، وانقلبت دهشته، بعد لحظة واحدة إلى حالة من غضب عارم، وهو يهم بقول شيء ما، ولكن (جو) صاح مكملاً:
- إنك تفسد كل ما ينبغي عمله هنا.. لو أنك تريد المراقبة فاجلس صامتا في الركن، أو راقب من الخارج.
انتفض الرجل في غضب، وهو يقول:
- إنها مسألة أمن قومي.
صاح فيه (جو):
- هذا بالضبط ما قصدته.. إنك تخيفه بأسلوبك السخيف هذا ولو شعر بالخوف أكثر، سيتوقف عن التجاوب، وسنخسر كل شيء.. ألا يتعارض هذا، مع ما تسميه بالأمن القومي؟
صمت الرجل لحظات، ثم عاد إلى مقعده، وجلس عليه، وعقد ساعديه أمام صدره في قوة، وإن لم تفارق علامات الغضب ملامحه عندئذ فقط، التفت (جو) إلى شاشة أحد الأجهزة.
ثم انعقد حاجباه في شدة..
فما نقله إليه الجهاز على الشاشة، كان حقا مدهشاً وإلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

بدا الغضب الشديد على وجه رئيس الجمهورية، وهو يستمع إلى مدير المخابرات، قبل أن يقول:
- أية وقاحة هذه.. لقد تجاوز هؤلاء الأمريكيون كل مدى ممكن...

قال مدير المخابرات في اهتمام:

- من الواضح أن الأمر شديد الأهمية والخطورة، بالنسبة لهم، ثم إن الحادثة كلها أثبتت أنهم يراقبوننا طوال الوقت، عبر أقمارهم الصناعية.....

قال الرئيس في ضيق عصبى:

- هذا صحيح.

وصمت لحظة، ثم أضاف في حزم:

- ولكنني سأتقدم باعتراض مباشر على ما حدث...

قال مدير المخابرات في تردد:

- لقد أبلغت مندوبهم أن هذا ما سنفعله، ولكن...

صمت قبل أن يتم عبارته، فسأله الرئيس في صرامة:

- ولكن ماذا؟!..

أجابه في حذر:

- ولكنه قال: إن هذا لن يوقفهم.

انعقد حاجبا الرئيس في غضب، ولكنه لم يعلق بحرف واحد وهو يتجه نحو مكتبه، ويجلس خلفه مفكرا، ثم يقول:

- ما الذي تعتقد أن يعنيه هذا؟!..

أجابه مدير المخابرات على الفور:

- أنه لا شيء سيمنعهم، من الحصول على تلك التكنولوجيا القادمة من الفضاء.

تراجع الرئيس في مقعده، مغمغما في قلق:

- هل تعتقد هذا حقا؟!

أوما مدير المخابرات برأسه إيجابا، وقال:

- ليس هذا فحسب يا سيادة الرئيس، بل أعتقد أن الأمر لن يقتصر على الأمريكيين وحدهم...

اعتدل الرئيس في انفعال، متسائلا:

- ماذا تعني؟!

أجابه في قلق واضح:
- قوى كثيرة في العالم، تسعى الآن لقهر الزعامة الأمريكية، وتبحث عن قوة ما، ترفعها درجة في سلم السيطرة، ولو أنها علمت بأمر المركبة الفضائية، فستتحول مصرنا إلى ساحة قتال رهيبة...
انعقد حاجبا الرئيس مرة أخرى، ونهض من خلف مكتبة، وعقد كفيه خلف ظهره، وهو يتحرك في عصبية مفكرا، قبل أن يسأل مدير المخابرات:

- هل تم تأمين مقر استمرار الحكومة جيدا ([4])؟!
اعتدل مدير المخابرات، في وقفة عسكرية، وهو يجيب في حزم:
- على نحو تام يا سيادة الرئيس.
ظل الرئيس معقود الحاجبين بضع لحظات، قبل أن يسأل:
- وماذا عن المقر الآخر...
أجابه مدير المخابرات في سرعة:
اطمئن يا سيادة الرئيس
التقط الرئيس نفسا عميقا، قبل أن يقول:
- في هذه الحالة، يتعين عليكم، وعلى جهاز مباحث أمن الدولة، تأمين البلاد من الداخل، و..
قبل أن يتم عبارته، ارتفع رنين هاتف أحمر خاص، على سطح مكتبه، فالتفت إليه في حركة سريعة متوترة، وغمغم في قلق عارم:
- إنه وزير الدفاع..
أسرع يلتقط سماعة الهاتف، ويسأل في توتر:
- ماذا هناك يا سيادة الوزير؟!..

أجابه الوزير في لهجة عسكرية، حملت الكثير من التوتر:
- سيدي الرئيس.. إنهم الإسرائيليون...
سأله الرئيس، وقد تضاعف توتره:
- ماذا عنهم؟!
أجابه الوزير في سرعة:
- قواتهم يا سيادة الرئيس.. قواتهم تتحرك في تشكيل هجومى.. (سيناء).
نحو حدودنا .....
وفي هذه المرة، انعقد حاجبا الرئيس في منتهى الشدة..
فقد كان هذا تطورا خطيرا إلى أقصى حد...

☆ ☆ ☆

لثوان، لم يتمالك (جو) نفسه من الدهشة، وهو يحدق في تلك الشاشات عالية التكنولوجيا أمامه لقد درس علم التعريف الصوتي لسنوات درسه نظريا وحاول جاهدا تطبيقه عمليًا حاول مع حيوانات بسيطة وثدييات أكثر تعقيدا.....
بل لقد أجرى بعض تجاربه على بعض الصم والبكم، لمحاولة لبدء اللعبة وفي كل مرة، كان يحصل على نتائج محدودة محدودة للغاية..
نتائج كانت تحتاج منه إلى ساعات من الفحص والتمحيص والدراسة والتحليل، قبل أن يتوصل إلى ما يعنيه أي شيء من الأصوات التي يصدرها ثم فجأة، يجد نفسه أمام هذه الحالة، كائن قادم من الفضاء، من كوكب آخر.. وربما مجرة أخرى ولكنه يستجيب بشكل مدهش بل بشكل مذهل!!..
الإشارات التي أمامه تقول هذا..
«أنا كائن عاقل مثلكم، فلماذا تسجنونني في قفص من الزجاج، كالحيوانات الدنيا؟!»

هذا ما نقلته الشاشة في وضوح..
هذا ما قاله الكائن، بلغته غير المعروفة، بين كل لغات الأرض، القديمة أو الحديثة.. الحية أو الميتة هذا ما قاله أو ما فهمته الأجهزة وبكل وضوح..

☆ ☆ ☆

«ماذا قال؟!..»
ألقي الصارم الجالس في الركن السؤال، في شيء من العصبية، ولكن (جو) لم يلتفت إليه، مع شدة انتباهه لما رسمته الشاشة، فكرر سؤاله في عصبية أكثر، وهو ينهض من مقعده بحركة شبه حادة عصبية حركة جعلت ذلك الكائن يتراجع في توتر، وهو يطلق غمغمة، جعلت (جو) يلتفت إلى الرجل، قائلاً فى حدة وصرامة:
- عد إلى مقعدك.
قالها (جو)، دون أن يهتم بكون ذلك الرجل هو حارسه..
بل دون حتى أن يشعر بهذا..
كانت تلك اللحظة، التي يحقق فيها ما بدا له أشبه بالمعجزة، في علم التعريف الصوتي، تطلق رجفة علمية قوية، في كل ذرة من كيانه، حتى إنه لم يكن مستعدا للتخلى عنها مهما كان الثمن ولكن أسلوبه هذا أغضب الرجل أغضبه، وجعله يندفع أكثر نحو (جو)، وجعل ذلك الكائن يتراجع أكثر، وجعل (جو) يصرخ في عصبية:
- قلت: عد إلى مقعدك.
وللعجب، توقف الرجل دفعة واحدة، وهو يتطلع إليه بعينين مشتعلتين توقف، وبدا شديد الانتباه والاهتمام توقف في الواقع؛ لأنه تلقى تعليمات بهذا ليس عبر صرخة (جو) أو عصبيته، ولكن عبر سماعة دقيقة للغاية، مغروسة في فراغ أذنه اليسرى

تعليمات صارمة، أتته من مصدر ما، وجعلته يتراجع ويجلس مرة أخرى على مقعده...
وهنا فقط، استدار (جو) إلى ذلك الكائن، وقال محاولاً تهدئته:
- لن يحدث هذا ثانية.. أعدك.
تطلع إليه ذلك الكائن في شك واضح، ولكنه كرر عبارته، وهو يرسم على وجهه ابتسامة ما ابتسامة بدت مضطربة متوترة، ولكنها جعلت ذلك الكائن يعتدل، ويلقى نظرة حذرة على الرجل، الذي عقد ساعديه أمام صدره، وزم شفتيه، ولاذ بالصمت التام، قبل أن يشير إليه ويهمهم بلغته غير المعروفة وبسرعة، نقل (جو) بصره إلى شاشة الجهاز:
«أهو القائد؟!..»
بدت العبارة واضحة للغاية، فأسرع (جو) بدفع برنامج الأجهزة لدراستها وتخزين مفرداتها، قبل أن يرفع عينيه إلى الكائن، مغمغما:
- إنه مجرد حارس..
لم يرق هذا للرجل بالتأكيد، إلا أنه اكتفى بعقد حاجبية، وزم شفتيه أكثر، ودون أن ينطق بحرف واحد...
وفي قلق، نظر إليه ذلك الكائن لحظة، ثم لم يلبث أن عاد ببصره إلى (جو)، وبدأ يتحدث بلسانه وذراعيه، في سرعة كبيرة، أربكت الأجهزة تماما، فهتف به (جو):
- أبطئ أرجوك.. أبطئ.
ولكن الكائن واصل حديثه في حماس، وكأنه لم يسمعه فهتف (جو):
- أبطئ يا هذا.
التفت إليه الكائن بحركة حادة، وحدق فيه لحظة، أجبر(جو) خلالها شفتيه على الابتسام، وهو يقول:

- لا أستطيع متابعتك.
قالها، وهو يشير إلى شفتيه، ويحرك أصابع كفيه أمامهما محاولاً أن يقرن قوله بحركات تحمل المعنى نفسه..
ولثوان، ظل ذلك الكائن يحدق فيه، ثم لم يلبث أن اقترب من الجدار الزجاجي، حتى كاد يلتصق به، ثم رفع يده، مشيرا إلى أعلى، وهو يتحدث ببطء بمنتهى البطء، وفي هذه المرة، سجلت الأجهزة كلماته..
وحللتها..
ونقلتها إلى الشاشة..
وانعقد حاجبا (جو) بشدة...

☆ ☆ ☆

«ماذا طلب بالضبط؟!..»
ألقى المسئول الأول هذا السؤال على (جو)، في اهتمام بالغ، فبدأ هذه الأخير شديد الحماس، وهو يجيب:
خريطة فلكية.. يريد أن يحدد لنا موقع كوكبه...
تطلع المسئول، في شك وحذر، إلى المنحنيات التي طبعها(جو) عن شاشة أجهزته، وهو يتساءل:
- وأين هذا بالضبط؟!..
أشار (جو) إلى سطر من المنحنيات، وهو يقول بنفس الحماس:
- هنا..
نظر المسئول، في شك وحذر أكثر، إلى المنحنى المعقد، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يحاول فهمه، قبل أن يعتدل، قائلاً في صرامة:
- لست أرى سوى منحنيات غير منتظمة.
حدق (جو) فيه، في دهشة مستنكرة، قبل أن يقول:

- ليست مجرد منحنيات إنها كلمات.
سأله الرجل في صرامة:
- بأية لغة؟..
شعر (جو) بصدمة علمية، جعلته يجيب في عصبية:
- بلغة العلم.
تراجع الرجل، وهو يغمغم في توتر
- لغة ماذا؟!..:
أجابه في حدة:
اللغة التي أحضرتموني هنا من أجلها.. اللغة القادرة على تحويل أية أصوات مسموعة، إلى معان واضحة، بغض النظر عن مصدرها.. اللغة الوحيدة، التي مكنتنا من فهم ما يقوله ذلك الكائن الـ..
قاطعه المسئول في صرامة:
- هذا ما تقوله أنت
توقف (جو) ليحدق فيه بدهشة أكبر، قبل أن يردد مستنكرا:
- ما أقوله أنا؟!..
هز المسئول كتفيه، وقال:
- ما أراه أنا، وما سيراه رؤسائى، مجرد منحنيات، لا توجد أية مراجع لترجمتها، وأنت المرجع الوحيد لها، وتتعامل معنا بصفتك الممثل لذلك الكائن، وليس لنا..
بدا (جو) شديد الدهشة والاستنكار، وهو يقول:
- أي قول هذا؟!..
شد المسئول قامته، وهو يجيب في صرامة:
- القول الأمنى.. مهمتي الأولى، هي الحفاظ على أمن(مصر) القومي، وهذا يتعارض مع اتخاذ أي إجراء، دون دراسته جيدا..
قال (جو) في حدة:

- وما الذي يتعارض مع الأمن القومي، في محاولة ذلك الكائن، تحديد موقع الكوكب الذي أتى منه!!
مال المسئول نحوه بحركة مباغتة، جعلت (جو) يتراجع في حدة، والمسئول يقول في صرامة:
- ومن أدراك أن هذا ما يستهدفه؟!..
حدق فيه (جو) لحظة أخرى، وقال حائرا، متوترا:
- وما الذي يمكن أن يستهدفه سوى هذا؟!
أجابه في صرامة:
- تحديد موقع كوكبنا نحن.
بدا الجواب سخيفا للغاية، حتى أن (جو) عجز عن الكلام لحظات، قبل أن يقول في توتر:
- لقد وصل إلينا.. أليس كذلك؟!
هز المسئول كتفيه، وقال:
- ربما هو مجرد طليعة استكشافية، وسيرسل الآن موقع الكوكب، الذي وجد عليه مخلوقات عاقلة لقيادة كوكبه..
غمغم (جو) ذاهلاً
- طليعة استكشافية؟!.. هل تتصور أن مركبة فضائية بهذا الحجم، يمكن أن تقطع الفضاء، من كوكب مأهول إلى هنا بمفردها؟!
انعقد حاجبا المسئول، وهم بقول شيء ما، لولا أن اندفع مساعده إلى الحجرة، هاتفا:
- الإسرائيليون يا سيدي.
التفت إليه الاثنان، وكان (جو) أول من هتف في انزعاج:
- ماذا عنهم؟
شهق الرجل لسبب ما، قبل أن يهتف، في صوت ارتجف كل حرف منه:

- إنهم يهاجموننا
واتسعت عينا (جو) في ذعر وذهول بلا حدود..

☆ ☆ ☆

٧- وسائل الضغط..

على عكس ما اعتاده، وصل السفير الأمريكي إلى قصر الرئاسة منتفخ الأوداج، ودخل مكتب الرئيس مشدود القامة، ومد يده يصافح الرئيس، قائلاً:

- يسعدني أن أبلغك في البداية تحيات الرئيس الأمريكى يا سيادة الرئيس..

تجاهل رئيس الجمهورية اليد الممدودة إليه، وهو يقول فى صرامة:

- أقماركم الصناعية رصدت ما يحدث في (سيناء) بالتأكيد..

رفع السفير رأسه، وأعاد يده إلى جواره، وهو يجيب:

- أمر طبيعي.

سأله الرئيس في صرامة، دون أن يدعوه للجلوس:

- أي أمر هو الطبيعي.. ما يحدث في (سيناء)، أم رصد أقماركم الصناعية له؟!..

صمت السفير لحظات، قبل أن يجيب، وهو يضغط كل حرف من حروف كلماته:

- ربما كلاهما

ردد الرئيس في غضب:

- ربما؟!..

اكتسب صوت السفير بعض الصرامة، وهو يقول:

- أقمارنا الصناعية تراقب المنطقة كلها طوال الوقت؛ باعتبارها من أكثر المناطق سخونة في العالم، والإسرائيليون عندما يهاجمون، فهم يحاولون دوما حماية حدودهم، و..

قاطعه الرئيس بضربة قوية من قبضته على سطح مكتبه، قبل أن يهتف في غضب شديد:
- كفى.
تراجع السفير في دهشة مصدومة، وحدق في الرئيس، الذي واصل بنفس الغضب:
- لسنا هنا أمام مؤتمر صحفى، حتى تتلاعب على هذا النحو كلانا يعرف جيدا حقيقة ما يحدث هناك.. في (سيناء) الإسرائيليون لا يهاجمون لحماية حدودهم.. وعلى الرغم من اتفاقية السلام، بيننا وبينهم، فجيشنا مستعد دوما لصد هجومهم، والتعامل معهم، على نحو مناسب، وأنتم تعلمون أن ما حدث عام 1967م، لا يمكن أن يتكرر أبدا..
انعقد حاجبا السفير الأمريكي، وهو يقول في عصبية:
- لماذا إذن يهاجم الإسرائيليون في رأيك، يا سيادة الرئيس؟!..
أجابه الرئيس في صرامة:
- محاولة للضغط علينا..
قال السفير في سرعة:
- من أجل ماذا؟!..
تراجع الرئيس في مقعده، وهو يقول بنفس الصرامة:
- من أجل ما تزعمونه، عن وجود مركبة فضائية غير أرضية هنا..
صمت السفير لحظات، ثم قال في بطء:
- ما نزعمه، أم ما رصدناه يا سيادة الرئيس؟!..
عاد الرئيس يضرب سطح مكتبه بقبضته، وهو يقول:
- أيا كان الأمر، فأنتم تدسون أنفكم في شئون داخلية.
صمت السفير لحظات أطول هذه المرة، ثم مال نحو الرئيس، وقال في حزم، يتنافى مع أصول اللياقة والديبلوماسية:

- هبوط مركبة فضائية على الأرض، ليس من الشئون الداخلية يا سيادة الرئيس.. إنها مسألة أمن قومي أمريكي..
قال الرئيس في صرامة غاضبة:
- وماذا عن الأمن القومي المصري؟!..
اعتدل السفير بحركة حادة، وقال في صرامة:
- أظنكم تتعرضون لهجوم إسرائيلي، يهدد أمنكم القومي يا سيادة الرئيس..
قال الرئيس صارما:
- وأنتم تستطيعون إيقاف هذا الهجوم..
هز السفير كتفيه، وقال في ثقة:
- ليس لدى أدنى شك في هذا يا سيادة الرئيس.
قال الرئيس:
والثمن طبعا أن نسلمكم تلك المركبة الفضائية؟!..
أجابه في سرعة وحزم:
- والكائنات التي كانت داخلها.
بدا الرئيس أكثر غضبا، وهو يقول:
- وماذا لو رفضنا.. رسميا؟!..
أجابه السفير في صلف:
- سيتعرض أمنكم القومي للخطر..
قال الرئيس في صرامة شديدة:
- وماذا عن السيادة؟!..
ردد السفير في حذر، وكأنه لم يفهم ما تعنيه الكلمة:
- السيادة؟!..
نهض الرئيس بحركة حادة، وقال بمنتهى الصرامة:
- سيادتنا على أرضنا أيها السفير.. أمننا القومي نحن أهل لحمايته والزود عنه، وسيادتنا هي أساس وجودنا، ولن نسمح لأية قوى،

مهما كانت، أن تهددها.. لو أراد الإسرائيليون الحرب، فهي الحرب.. سنخوضها بكل قوتنا، وكل قطرة دم في عروقنا، وسندافع عن وجودنا وكياننا وسيادتنا على أرضنا، مهما كان الثمن.. أنتم والإسرائيليون فقط ستخسرون أنتم ستخسرون حليفا قويا، وهم سيخسرون اتفاقية سلام ساعدتهم على الاستقرار لسنوات.. فلتكن الحرب أيها السفير أبلغ رئيس الولايات المتحدة بهذا.. وليندم الخاسرون في النهاية..

احتقن وجه السفير، وهو يقول في عصبية

- أهذا جواب نهائي؟!..

شد الرئيس قامته، وعقد كفيه خلف ظهره، وهو يقول في صرامة شديدة، وحزم بلا حدود:

- دون ذرة من التردد..

ازداد احتقان وجه السفير، على نحو يوحي بأنه قد تلقى جوابا يخالف كل ما توقع الحصول عليه، وتراجع وهو يقول في صوت محتقن كوجهه:

- سأخبر الرئيس بهذا.. فورا

ظل الرئيس على وقفته، حتى غادر السفير الأمريكي المكان ثم التفت إلى باب جانبى، مغمغما:

- لقد سمعت كل شيء.

خرج مدير المخابرات من خلف الباب، وهو يغمغم في قلق:

- هذا ما توقعناه يا سيادة الرئيس.

أوما الرئيس برأسه، قائلاً

- لهذا أصدرت أوامرى للجيش، بالالتحام مع الإسرائيليين فورا.

صمت مدير المخابرات لحظات، ثم غمغم:

- وهل تعتقد أن الأمر يستحق إشعال حرب يا سيادة الرئيس؟!..

أجابه الرئيس في حزم:
- نحن ندافع عن سيادتنا على أرضنا، وليس عن مركبة أتت من الفضاء يا مدير المخابرات..
عاد مدير المخابرات إلى صمته بضع لحظات، قبل أن يهز رأسه، قائلاً:
- كجزء من عملنا، وضعنا أكثر من تصور، عن انتهاك الإسرائيليين لاتفاقية السلام، ومبادرتهم بالهجوم، ووضعنا عدة سيناريوهات محتملة لكل تصور، ولكنا في الواقع لم نتخيل لحظة واحدة، ذلك الذي حدث.
تنهد الرئيس، قائلاً:
- ومن كان يتوقعه؟!..
ران الصمت على كليهما بعد عبارته، وطال بعض الوقت قبل أن يقول الرئيس في حزم:
- متى يصل وزير الدفاع؟!..
أجابه مدير المخابرات:
- إنه في الطريق إلى هنا.. كان عليه أن يتواجد في غرفة العمليات الرئيسية، فور وقوع الهجوم..
صمت الرئيس لحظات أخرى، ثم قال في صرامة:
- لقد كنت أعنى كل كلمة قلتها للسفير.. هم الذين سيخسرون بسبب هذا
غمغم مدير المخابرات:
- بالتأكيد.
أضاف، وهو يلتفت إلى الرئيس:
- ولكن خبرتنا مع الأمريكيين، تؤكد أنهم لن يكتفوا بهذا . ولن يتوقفوا عن التهديد.
التفت إليه الرئيس بدوره، يسأله في اهتمام وقلق:

- ماذا تتوقع أن يفعلوا؟!..
أجابه في حزم:
- عملية مخابرات..
انعقد حاجبا الرئيس، وهو يقول مرددا:
- عملية مخابرات..
واصل مدير المخابرات في حزم:
- عملية مخابرات.
سيسعون بكل السبل، لمعرفة موقع المركبة الفضائية، ثم سيعدون خطة انتحارية للاستيلاء عليها..
تساءل الرئيس:
- من داخل حدودنا؟!..
أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابا، وقال:
- ربما كان الهجوم الإسرائيلي مجرد تحويل انتباه، عن الهدف الفعلى، أو.....
ارتفع رنين هاتفه الخاص في هذه اللحظة، فبتر عبارته، وقال:
- هل تأذن لي يا سيادة الرئيس.. هذه الهاتف لا يتصل به أحد، إلا عند حدوث أمر جلل..
أشار إليه الرئيس أن يجيب الهاتف، فالتقطه في سرعة واستمع إلى محدثه في اهتمام، قبل أن ينعقد حاجباه في شدة وتوتر، سرعان ما انتقلا إلى الرئيس نفسه..
هذا لأن انفعاله كان يعني أن ما يتلقاه أمر بالغ الخطورة..
إلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

لم يشعر (جو)، في حياته كلها بالغضب، مثلما شعر به في تلك اللحظة، وهو يجلس أمام رجل الأمن، الذي يرفض وبإصرار،

فكرة إحضار الخريطة الفلكية لذلك الكائن، القادم من أعماق الكون..
وبكل غضبه هذا، وجد نفسه يهتف في حدة:
- ما تفعله يتعارض تماما مع الأمن القومي.
ارتسمت على شفتي الرجل ابتسامة ساخرة، وتراجع في مقعده، قائلاً في لهجة، حملت الكثير من ابتسامته:
- وما أدراك أنت بالأمن القومي؟!..
أجابه بنفس الحدة:
- ما أعلمه هو أن ضرورات الأمن القومي.. أي أمن قومي هي حماية المجتمع، وتأمين الأفضل له.
مط الرجل شفتيه، وقال:
- مفهوم ساذج محدود.
تابع (جو)، متجاهلاً تعليقه المستفز:
- وعدم تعريض البلاد للخطر.
انعقد حاجبا الرجل، وزالت ابتسامته الساخرة، واعتدل مائلاً نحو (جو)، في حركة حادة، وهو يقول في غلظة:
- ما تطلبه أنت، هو ما يعرض البلاد للخطر.
هتف (جو) في ثورة:
- هذا ما تراه بعيون الأمن العمياء.
بدا الرجل لحظة، وكأنه سينفجر في وجهه، إلا أنه لم يلبث أن تراجع في بطء، وهو يقول في صرامة:
- دعنى أتفق معك على أن عيون الأمن عمياء، لأنها لا ترى سوى الحقيقة، ولا شيء سواها.. تماما مثل ذلك الرمز الأمريكي للعدالة العمياء، وهو يعني لديهم أن القانون لا يفرق بين البشر.. كلهم عنده سواء..
واصل (جو) حديثه بنفس الحدة:

- أما أنتم فعيونكم عمياء؛ لأنكم لا ترون الدنيا إلا بمنظور أمنى بحت.. وحتى في هذا، لا تحسنون منظوركم، فالأمن ليس قوة وسيطرة فحسب.. الأمن هو خدمة وحماية أيضا كما يقول الأمريكيون، وكما يؤكد دستورنا هنا ولكنكم مصابون بلوثة أمنية، تجعلكم فى حالة دائمة من الوسواس القهري، تكاد تبلغ حد الهلوسة..

قال الرجل في صرامة شديدة:

- احترس لما تقوله يا هذا.

ولكن (جو) واصل على النحو نفسه، غير مبال بما سمعه:

- لقد أخرستم داخلكم صوت العلم والمنطق تماما، وصرتم تتعاملون بتشنج عجيب، وكأن كل من يحيطون بكم من الأعداء، حتى نسيتم أنكم جزء من هذا الشعب، و..

قاطعه الرجل بمنتهى الصرامة، وهو يرفع راحته في وجهه:

- كفى..

ثم تراجع في مقعده أكثر، وظل يحدق في وجهه لحظات، قبل أن يسأله في صرامة:

- لماذا في رأيك يطلب هذا الشيء خريطة كونية؟!..

أجابه في سرعة ولهفة:

- ليحدد لنا موقع كوكبه على الأرجح.

عاد حاجبا الرجل ينعقدان بعض الوقت، في تفكير عميق هذه المرة، قبل أن يعتدل، قائلاً في حزم:

- لابد من تأكيد هذا الرأي

قال (جو) في حماس:

- أنا واثق منه تماما، وما سجله الجهاز يقول..

قاطعه الرجل في صرامة:

- نحتاج إلى تأكيد آخر..

تراجع (جو) في توتر، وهو يقول:
- يمكنني أن أطرح عليه السؤال مرة أخرى.
مال الرجل نحوه كثيرا هذه المرة، وقال في صرامة أكبر:
- عندما قلت: إننا نحتاج إلى تأكيد آخر، كنت أعنى مصدرا آخر.
سأله (جو)، وقد بدأ يستعيد عصبيته:
- مثل ماذا؟!..
ضرب الرجل سطح المكتب الذي يفصلهما بقبضتاء في حزم وهو يجيب:
- بل مثل من؟
ثم عاد يعتدل، مضيفا في قوة:
- نحتاج إلى مصدر علمى موثوق به.
شعر (جو) بشيء من الإهانة في العبارة، ولكنه ابتلعها، وهو يقول في توتر:
- من تقترح؟!..
أجابه في سرعة، توحي بأن الجواب حاضر لديه منذ البداية:
- دكتور (أحمد زهير).. المستشار العلمي لسيادة الرئيس.
تضاعف توتر (جو)، وهو يقول:
الدكتور (زهير) شخصية عالمية معروفة، ولكنه ليس عالما فلكيًا.
أجابه الرجل في صرامة:
- ولا أنت كذلك.
ثم عاد يميل، مضيفا في حزم:
- ولكنه المستشار العلمي للرئيس، وهو الذي اقترح اسمك في البداية، وقراره وحده، يمكن أن يحسم هذا الأمر..
وعلى الرغم من التوتر الشديد، الذي يشعر به (جو)، أو بسببه، صمت بضع لحظات طوال، وهو يتطلع إلى الرجل، قبل أن

يقول في خفوت، وهو يبذل جهدا خارقا، للسيطرة على توتره:
- ومتى يمكن هذا؟!..
هز الرجل كتفيه، قائلاً:
- وما وجه السرعة؟
جاء الدور على حاجبى (جو)، لينعقدا في قوة، وهو يقول في صرامة:
- وتقول إن أقصى ما يهمك هو الأمن القومي؟!
تراجع الرجل في حركة عجيبة، وكأنه تلقى إهانة عنيفة، في حين واصل (جو) غاضبا:
- إنك حتى لا تتبع أبسط قواعد الحفاظ على الأمن القومي، الذي تدعى فهمك له..
هتف الرجل في غضب:
- احترس يا هذا.
ولكن (جو) تابع، وغضبه يتزايد حدة:
- هل تعتقد أيها العبقرى، أن مكان كهذا يمكن أن يخفي سرا بالغ الخطورة، مثل سقوط مركبة فضائية، وأسر مخلوق حى منها؟!.. هل تعتقد أن هذا قد يحدث طويلاً، بما يكفي لإضاعة الوقت؟!..
قال الرجل في صرامة غاضبة حادة:
- أنت لا تعرف أي مكان هذا؟!..
صاح فيه (جو) في غضب:
- وأنت لا تعلم ما الذي يمكن أن تفعله أية دولة، للفوز بما تحتفظون به هنا؟!..
لوح الرجل بقبضته في وجه (جو)، هاتفاً:
- أتحداك أن..

قبل أن يتم عبارته، دوت فجأة صفارات إنذار قوية في المكان وأضيئت حواف السقف كلها بلون أحمر، على نحو متقطع وارتفع صوت خشن، يهتف:
- إنذار عام.. إنذار عام.. المكان يتعرض للهجوم.. إنذار عام.
بدا (جو) شديد الغضب والانفعال، وهو يهتف:
- في أي شيء كنت تتحداني.
هبَّ الرجل من مقعده، وألقى عليه نظرة عصبية، ثم وثب نحوه، وجذبه من مقعده، هاتفاً:
- أسرع.
راح (جو) يعدو خلفه، دون أن يعلم ماذا سيحدث، ولكنه هتف في جزع:
وماذا عن (موجال)؟!..
هتف الرجل، دون أن يلتفت إليه:
- من؟!..
أجابه في ارتياع:
- ذلك الكائن القادم من (ميروز).. هل سنتركه هنا خلفنا؟
صاح الرجل، وهو يجذبه إلى ما بدا أشبه بمصعد كبير:
- كلا بالطبع.. سيلحق بنا
صرخ (جو)، وهو يدلف معه إلى المصعد:
- كيف؟!
صاح الرجل، في لهجة تشف عن شدة توتر وحساسية الموقف:
- اترك هذا لنا..
ومع آخر كلماته، سمع (جو) دوى الانفجار وارتجفت كل خلية في جسده.. بمنتهى العنف..

☆ ☆ ☆

٨- البديل..

بدا وجه مدير المخابرات شاحبا للغاية، وهو يمسك سماعة الهاتف في قوة تشف عن مدى خطورة ما تلقاه عبرها:

وبكل التوتر، هتف به الرئيس:

- ماذا هناك يا رجل؟!

استدار مدير المخابرات محدقا فيه لحظة، قبل أن ينتفض وكأنه ينتزع نفسه من صدمة عنيفة شفت عن نفسها في صوته الشديد التوتر وهو يقول:

- مقر الطوارئ السري.

خفت صوت الرئيس وهو يسأله:

- ماذا عنه؟!

ازدرد مدير المخابرات لعابه في صعوبة قبل أن يجيب:

- إنهم يقتحمونه.

ارتد الرئيس المصدوم وهو يهتف مستنكرا:

- يقتحمونه؟!.. من؟!.. وكيف؟!

أجابه مدير المخابرات في سرعة:

- الإسرائيليون.

ثم تراجع في سرعة أكبر مستدركا:

- وربما الأمريكيون

اتسعت عينا الرئيس، وهو يغمغم:

- مستحيل!

ثم استحالت دهشته إلى غضب شديد، وهو يستطرد هاتفا:

- أيا كانت ماهيتهم؛ فهذا أمر شديد الخطورة إلى أقصى حد، يا مدير المخابرات.

غمغم مدير المخابرات في توتر شديد:
- أعلم هذا يا سيادة الرئيس
ولكن الرئيس واصل وكأنه لم يسمعه:
إننا نتحدث عن مقر الطوارئ السري.. أعظم سر في أية دولة.. المقر الذي ينبغي أن يلجأ إليه النظام كله، في حالات الطوارئ القصوى.. المقر الذي كان يمكن أن أكون فيه أنا الآن، لو حدث هجوم شامل على (مصر).
اعتدل مدير المخابرات وهو يقول في حزم:
- هناك حل بديل يا سيادة الرئيس.
صاح الرئيس في غضب:
- ليست هذه هي المشكلة.. المشكلة الرئيسية والأساسية والأكثر خطورة هي أنهم يعلمون أين هو المقر السري.. هذا يعني أن هناك اختراقا داخليا، وعلى أعلى المستويات يا مدير المخابرات.. اختراق كشف أدق وأخطر أسرار الدولة كلها..
انعقدا حاجبا مدير المخابرات في شدة، وشد قامته في وقفة عسكرية صارمة اعتادها منذ زمن طويل وهو يقول في حزم عسكرى:
- سيدي الرئيس إنني أتقدم باستقالتي فورا و..
صاح فيه الرئيس في غضب:
- ليس في مثل هذا الموقف.
ازداد انعقاد حاجبى مدير المخابرات، ومط شفتيه في توتر وأسف؛ في حين عقد الرئيس كفيه خلف ظهره وشد قامته بدوره، وقال في صرامة قائد يقود معركة شديدة الخطورة:
- إننا نواجه حربا مزدوجة الآن تقودها أكبر دولة في العالم مستعينة بترسانتها العسكرية الجبارة وتكنولوجيتها التي لا ينافسها فيها أحد ومخلبها المتمثل في (إسرائيل)، وكل من

يتعاون معها، وعلينا أن نواجه هذه الحرب التي امتدت على الرغم منا، وربما منهم أيضا إلى الجبهة الداخلية..
غمغم مدير المخابرات:
- مقر الطوارئ خارج الحدود السكنية يا سيادة الرئيس.
أجابه الرئيس في صرامة:
- ولكنه في عمق (مصر).
وصمت لحظات بعدها فلاذ مدير المخابرات بالصمت بدوره ليمنح الرئيس فرصة التفكير واتخاذ القرار، وطال صمتهما قرابة الدقيقتين قبل أن يلتفت إليه الرئيس، قائلا في حزم:
- مادامت الحرب فستنتقل حالا وفورا إلى غرفة العمليات، وسننضم إلى وزير الدفاع والقادة لنواجه معهم ذلك الخطر الذي يواجه مصرنا..
قال مدير المخابرات في سرعة وحزم:
- فورا يا سيادة الرئيس..
ثم تردد لحظة قبل أن يستطرد:
- ولكنني ما زلت أطرح السؤال نفسه..
واقترب خطوتين من الرئيس قبل أن يضيف:
- هل يستحق الأمر كل هذا؟!
هتف رجل الأمن بالكلمة وهو يعدو مع (جو) عبر ممر طويل، ثم أضاف وقد بدأ يلهث من فرط الانفعال:
- صحيح أن هذا المكان يعد من أخطر أسرار الدولة؛ ولكنه ليس آخر محطة سرية هنا..
هتف (جو) في انفعال أكثر ولهث أكثر:
- ولكنهم يقتحمونه، وهذا يعني أنهم توصلوا إليه فكيف يكون أخطر أسرار الدولة؟!
انعقد حاجبا الرجل في توتر وهو يقول:

- لديهم حتما تكنولوجيا شديدة التطور يمكنها عبر أقمارهم الصناعية سبر أغوار الأرض..
توقف (جو) دفعة واحدة حتى إنه كاد يسقط على وجهه ويقول:
- أغوار الأرض؟!.. هل تعنى أننا هنا في....
قاطعه الرجل في صرامة وهو يجذبه إلى ممر جانبي آخر:
- إنك تلقى الكثير من الأسئلة.
قال (جو):
- لست العدو.. العدو هناك.. يقتحم المكان...
بدا صوت الرجل شديد الغضب وهو يقول:
- إنه يسعى خلف ذلك الكائن الفضائى.
اتسعت عينا (جو) وعاد يتوقف دفعة واحدة وهو يهتف في عصبية ملتاعة:
- وتركناه خلفنا؟!
صاح به الرجل وهو يجذبه مرة أخرى نحو ذلك الممر الجانبي:
- لا تقلق نفسك بشأنه.
جذب (جو) يده في حدة وهو يصرخ:
- هل جننت؟
ثم استدار يعدو عائدا وهو يواصل صراخه:
- لن نتركه خلفنا أبدا.. أبدا.
صرخ الرجل خلفه في صرامة غاضبة:
- إياك أن تفعلها.
كان (جو) يعدو بكل قوته عبر الممر ولكن رجلان قويان اعترضا طريقه وحاول هو تفاديهما ولكنهما كبلا حركته في قوة وهتف الرجل الأول في غضب صارم:
- أعيداه إلى هنا.
راح (جو) يقاومهما في عنف وهو يصرخ:

- لا.. لا ينبغي أن نتخلى عنه.. إنه أكبر اكتشاف علمي في التاريخ.
أجابه الرجل في صرامة وهو يستقل عربة أشبه بعربات ملاعب رياضة الجولف:
- إنه أكبر كارثة عرفتها مصر.
قال (جو) وهم يضعونه داخل العربة بالقوة:
- وهل تعتقد أنهم سيفعلون كل هذا للفوز بكارثة؟!.. إنه يحمل لنا من التكنولوجيا ما يسمح لنا بالتفوق عليهم يا هذا، وهذا بالضبط ما يسعون لمنعنا من الوصول إليه...
انطلق الرجال بالعربة ورجل الأمن يقول في صرامة:
- يمكنهم الحصول عليه.
اتسعت عينا (جو) في ذهول وهو يهتف:
- ماذا تقول يا هذا؟!
صمت الرجل لحظات وهو ينطلق بالعربة في سرعة تفوق ضعف سرعة مثيلاتها عبر الممر الطويل ثم لم يلبث أن قال في حزم:
- ولكنهم لن يحصلوا على أي شيء منه.
وانعقد حاجباه في شدة مع إضافته الصارمة:
- أي شيء.
اتسعت عينا (جو) أكثر للعبارة فهتف وهو يرتجف انفعالا:
- لماذا؟!.. لماذا لن يحصلوا منه على أي شيء؟!
تجاهل الرجل سؤاله تماما وهو يضغط أزرار شاشة صغيرة في لوحة قيادة العربة فهتف (جو) بكل توتر الدنيا:
- لماذا يا هذا؟!
مع آخر حروف كلمته الأخيرة دوى من خلفه انفجار قوى انفجار دفع العربة كلها إلى الأمام لتتجاوز الممر إلى ساحة

واسعة لها نفس تكوين تلك القاعة القديمة وبكل ذعره التفت (جو) خلفه ورأى..
وانتفض في قوة..
لقد كان الممر الذي تجاوزوه على التوّ ينهار ويحترق وعلى نحو بشع مخيف ولقد واصل الرجل انطلاقه بالعربة متجاوزا تلك الساحة الواسعة إلى ممر آخر أغلق خلفهم فور عبورهم فاتسعت عينا (جو) مرة أخرى وهو يغمغم في ذهول:
- أأنت واثق في أنه لدينا هذا في (مصر)؟!
أجابه الرجل في صرامة وهو يخفض سرعة العربة:
- التكنولوجيا متاحة لكل من يمكنه دفع ثمنها...
حدق فيه (جو) لحظة محاولاً استيعاب الأمر ثم لم يلبث أن هز رأسه في قوة، ثم عاد يسأل في إلحاح:
- لماذا لن يحصلوا منه على شيء؟!
أوقف الرجل السيارة والتفت إليه قائلاً في حزم:
- لا أحد يمكنه الحصول على شيء.
ثم مال نحو (جو) مضيفا:
- من جثة.
وانتفض جسد (جو) انتفاضة قوية عنيفة، وهو يحدق فيه بعينين بلغتا أقصى اتساعهما فما سمعه كان صدمة.. صدمة مدمرة..

☆ ☆ ☆

انتفض جسد (إيناس) في عنف شديد، مع دوى الانفجار الثاني، وتضاعف انهمار الدموع من عينيها، وهي تسأل الرجل، الذي يقود عربتهما الصغيرة، عبر ممر طويل:
- ماذا حدث؟!.. ماذا أصاب (جو)؟!..
كان الرجل يبدو متوترا، وهو يجيب:

- اطمئنى.. كل شيء تحت السيطرة....
هتفت منهارة:
- أية سيطرة؟!.. إنه الانفجار الثاني، والكل يعدو مبتعدا..
والخطر يحفر ملامحه في وضوح، على وجوه الجميع، وأولهم أنت، فكيف يتفق هذا مع كلمة سيطرة؟!..
بدا أكثر صرامة، وهو يقول:
- لا تجعلي المظاهر تخدعك يا سيدتي.. الأمور بالفعل تحت السيطرة...
سألته، في لهجة أشبه بالضراعة:
- وماذا عن (جو)؟!
سألها، مستعيدا توتره:
- ماذا عنه؟!
انهمرت الدموع من عينيها، وهي تسأله، وقد خفت صوتها وكأنها تخشى الإفصاح عما بها:
- أهو بخير؟!..
صمت الرجل لحظات، قبل أن يجيب في حزم:
- أنا واثق من أنه كذلك.
سألته بلهجة باكية:
- ومن أين تستمد ثقتك هذه؟!
أجاب في سرعة هذه المرة:
- لأنه يمثل أهمية كبيرة لنا، وفي هذه الحالة، تكون الأولوية لحمايته، والحفاظ على حياته...
غمغمت مرتجفة:
- ولكنهم يقتحمون المكان...
أجاب في صرامة:
- هذا لا يهم.

قالت في توتر أكثر:
- ولكنك أخبرتني أنه أكثر الأماكن أمنا في (مصر)...
أجاب في حزم وحسم وثقة:
- إنه كذلك.
رمقته بنظرة شك كبيرة، فلم يزد عن أنه قال في حزم أكبر:
- اطمئنى
«وكيف أطمئن؟!..»
ألقى رئيس الجمهورية السؤال، فشد مدير المخابرات قامته وقال:
- على الرغم من أن ما حدث كان مفاجأة يا سيادة الرئيس، وعلى الرغم من أن ذلك الهجوم يخالف كل القوانين والأعراف الدولية، إلا أنه من العسير القول بأنه لم يكن متوقعا..
التقى حاجبا الرئيس، وهو يسأله:
- وهل كنتم تتوقعونه؟!
هز الرجل كتفيه، مجيبا:
- لم يكن احتمالاً قريبا، إلا أننا وكعادتنا في جهاز المخابرات نضع دوما سيناريوهات مسبقة، لكل الاحتمالات، حتى النادر والضعيف منها...
سأله الرئيس في توتر:
- كنتم تضعون سيناريو لهذا إذن؟!
أومأ مدير المخابرات برأسه، قائلاً:
- بالتأكيد يا سيادة الرئيس.. سيناريو الهجوم على المقر السري الاحتياطي موضوع، من أيام الرئيس السابق.
تطلع إليه الرئيس لحظات في صمت، ثم اتجه إلى مكتبه، وجلس خلفه، يسأله في صرامة:
- ولماذا لم يتم إطلاعي عليه مسبقا؟!..

أجابه مدير المخابرات في سرعة:
- لقد أكدنا لفخامتكم أن المقر السري آمن تماما، ولم نشا إرهاق ذهنكم بالتفاصيل، فنحن نعرف مدى مشغولياتكم الدائمة.
صمت الرئيس لحظات؛ لاستيعاب الأمر، ثم عاد يسأل فى اهتمام صارم:
- ماذا سيحدث الآن إذن؟!..
أجابه في حزم، وهو يشد قامته أكثر:
- سيتم الانتقال إلى مقر سرى بديل فورا..
مال الرئيس إلى الأمام، وسأل:
- وماذا عنه؟!..
مال مدير المخابرات برأسه جانبا، وعيناه تحملان نظرة متسائلة، فتابع الرئيس في صرامة:
- ماذا عن ذلك الكائن؟!..
قال مدير المخابرات في حذر:
- لقد شنوا الهجوم من أجله
سأله الرئيس، في صرامة أكثر:
- وهل سيحصلون عليه؟!..
أوما مدير المخابرات برأسه، مجيبا:
- بالتأكيد.
تراجع الرئيس بحركة حادة مستنكرة، فاستدرك مدير المخابرات في سرعة كبيرة:
- ولكن جثة هامدة.
اتسعت عينا الرئيس، وهتف مستنكرا:
- بعد كل هذا؟!

تراقصت ابتسامة باهتة، على ركن شفتي مدير المخابرات وهو يقول:
- اطمئن يا سيادة الرئيس
وصمت لحظة، ثم أردف في حسم:
- كل شيء تحت السيطرة..

☆ ☆ ☆

«إذن فقد نجحتم..»
ألقى الرئيس الأمريكي السؤال في اهتمام بالغ، عبر جهاز اتصال فائق التطور، فأجابه رئيس فريق الاقتحام، من داخل المقر السري:
- بالطبع يا سيادة الرئيس.. تكنولوجيتنا تفوق كل ما لديهم من تكنولوجيا ألف مرة على الأقل.. أقمارنا الصناعية الاستكشافية حددت الفراغ تحت رمال الصحراء في وضوح، وأساليب التعمية والشوشرة جعلتنا نفاجئهم بالهجوم، وأسلحتنا..
قاطعه الرئيس الأمريكي بنفاد صبر:
- أعرف كل هذه التفاصيل يا رجل.. السؤال هو: هل حصلتم على ما نبتغيه من وراء كل هذا..
وقف رئيس فريق الاقتحام يتأمل الشظايا الكبيرة، التي انتشرت على مساحة واسعة، داخل تلك القاعة نصف المتهدمة، وقال في غضب واضح:
- من الجلى أنهم قد نسفوا المركبة الفضائية مع الاقتحام حماقتهم جعلتهم يفضلون تدميرها، على وقوعها في قبضتنا.
هتف الرئيس الأمريكي في حنق:
- أغبياء.
ثم حاول تمالك أعصابه، وهو يستطرد:
- وماذا عن ذلك الكائن الفضائي؟!..

أدار رئيس الفريق عينيه في المكان، توقف بصره عند كومة شبه بشرية، داخل ما بدا وكأنه بقايا قفص زجاجي، وغمغم في توتر:
- إنه هنا.
ثم تقدم نحو بقايا القفص الزجاجي في خطوات سريعة، قبل أن ينعقد حاجباه في شدة، ويقول في عصبية:
- ولكنه...
لم يتم عبارته، فهتف به الرئيس الأمريكي، عبر جهاز الاتصال الفائق:
- ولكنه ماذا؟!..
مضت لحظات من الصمت، ثم أجاب الرجل، في مرارة عصبية:
- ولكنه جثة هامدة..
بدا الرئيس الأمريكي كالمصعوق، وهو يهتف:
- جثة ماذا؟!..
انحنى رئيس فريق الاقتحام يفحص جثة الكائن الفضائي وهو يقول في غضب:
- من الواضح أنه كائن غير أرضى، ومن الواضح أن ذلك الانفجار، الذي نسف المركبة الفضائية، قد أطاح به أيضا..
بدا الرئيس الأمريكي شديد الغضب، وهو يقول:
- أية حماقة هذه؟!.. يدمرون أعظم اكتشافات القرن، خوفا من وقوعها في أيدينا؟!..
غمغم رئيس فريق الاقتحام، وهو يلتقط بضعة صور لجثة الكائن الفضائي، ويرسلها عبر جهاز الاتصال نفسه إلى الرئيس:
- كان ينبغي أن نتوقع هذا، من قوم يجهلون قيمة التكنولوجيا والكشوف الحديثة، و..

لم يستطع إتمام عبارته، مع ذلك الدوار الذي شعر به، فصمت لحظات، قبل أن يقول في عصبية:

- شيء ما يحدث هنا يا رجل

قالها، وهو يستدير إلى رجاله، قبل أن ينتفض جسده، وتتسع عيناه عن آخرهما فما رآه أمامه، لم يكن أبدا ما يتوقعه، أو حتى يتخيله أبدا..

☆ ☆ ☆

٩- أسرى..

على عكس موقفه السابق، بدا السفير الأمريكي شديد التوتر والعصبية، وهو يجلس في انتظار مقابلة الرئيس هذه المرة ولقد طال انتظاره لساعة كاملة، بلغ خلالها توتر أعصابه مبلغه، حتى أنه تجاوز حدوده الديبلوماسية، وسأل مدير مكتب الرئيس في عصبية:

- هل سأنتظر طويلاً؟!..

أجابه مدير مكتب الرئيس في صرامة:

- حتى يأمر فخامة الرئيس بدخولك

سأله السفير في عصبية:

- ومتى يفترض أن يحدث هذا؟!..

أجابه مدير المكتب، في صرامة أكثر مكررا:

- عندما يأمر فخامة الرئيس

فقد السفير أعصابه، على عكس ما تقتضيه الديبلوماسية وقال في شيء من الحدة والتوتر:

- لقد طلب منى الرئيس الأمريكي

قاطعه مدير مكتب الرئيس، في صرامة قاسية هذه المرة:

- أنت هنا في مكتب الرئيس المصرى

أطبق السفير شفتيه، فور سماعه العبارة، وغمغم في خفوت:

- مع احترامي لفخامة الرئيس، ولكنكم تعلمون أن الأمر عاجل.

أبعد مدير المكتب بصره عنه، وقال بنفس الصرامة:

- عليك أن تصبر، حتى يأمر فخامة الرئيس.

عض السفير الأمريكي شفتيه، في محاولة للسيطرة على توتره، وهو يغمغم:

- فليكن.. سأصبر.
مضت سبع دقائق أخرى، قبل أن يرتفع أزيز جهاز الاتصال الخاص، أمام مدير المكتب، الذي التقطه في سرعة، وهو يقول:
- أوامرك يا فخامة الرئيس.
انتبه السفير في توتر، في حين استمع مدير المكتب لحظات ثم أشار إليه، قائلاً:
سيستقبلك فخامة الرئيس الآن..
نهض السفير في سرعة، وعدل ملابسه في عجالة، وهو يندفع نحو مكتب الرئيس، ولم يكد يعبر بابه، حتى توقف في توتر مضاعف، يتطلع إلى مدير المخابرات في قلق، فابتسم هذا الأخير، وقال:
- تفضل يا سيادة السفير
رفع الرئيس عينيه إلى السفير، وقال في صرامة:
- أتيت بشأن رجالكم.. أليس كذلك؟!..
كان السفير يشعر بتوتر شديد، وهو يقول:
- لا يوجد رسميا ما يثبت أنهم رجالنا يا سيادة الرئيس..
تراجع الرئيس في مقعده، وهو يقول:
- حقا؟!..
قال السفير، في توتر أكبر:
- لست أظنهم يرتدون الزي الرسمي لقواتنا، ولا يحملون أية أوراق، تثبت أنهم...
قاطعه الرئيس في صرامة:
- فليكن.. لقد هاجمونا، وأمكننا أسرهم، وربما قضوا نحبهم، أثناء محاولة إلقاء القبض عليهم
هتف السفير مذعورا:
- هل أعدمتموهم؟!..

أجابه مدير المخابرات هذه المرة:
- ماداموا ليسوا رجالكم، فلا شأن لكم بهذا.
قال السفير في عصبية:
- ولكن معاهدة (جينيف) للأسرى، تحتم ألا....
قاطعه الرئيس في صرامة قاسية:
. لا يوجد ما يثبت أنهم قد وصلوا إلى أرضنا.
ثم مال إلى الأمام في حركة حادة، مستطردا:
- أليس كذلك أيها السفير؟!..
نقل السفير بصره، في توتر بالغ، بين الرئيس ومدير المخابرات، قبل أن يقول، في انكسار واضح:
- لقد أوقفنا الهجوم الإسرائيلي، دلالة على حسن النوايا..
أشار الرئيس إلى مدير المخابرات، الذي قال في صرامة:
- قدرتكم على إيقاف الهجوم، تعنى قدرتكم على إشعاله، وكان ينبغي أن تدركوا أن (مصر) قادرة على صد هجوم الإسرائيليين، وأن شعبها ليس مستعدا لفقدان شبر واحد من أرضه مرة أخرى، وسيدافع عن كيانه، مهما كانت التضحيات..
نظر إليه السفير لحظات في مقت، ثم التفت إلى الرئيس، قائلاً بكل توتر الدنيا:
- سيادة الرئيس.. لقد فهمت الرسالة، وسأعاود الحوار بأوراق مكشوفة ودون مواربة هذه المرة
أشار إليه الرئيس، قائلاً:
- هات ما عندك.
سأله السفير في توتر:
- دعنى أطمئن أولاً على أحوال رجالنا.
انعقد حاجبا الرئيس في صرامة، وهو يقول:
- تعترف إذن أنهم رجالكم.

شد السفير قامته وقال، دون أن يفارقه توتره:
- وعدت أن أتعامل بأوراق مكشوفة يا سيادة الرئيس..
ابتسم مدير المخابرات في ظفر، وشد قامته على نحو عسكرى، وقال في حزم:
- رجالكم بخير.. لقد اقتحموا أحد مواقعنا السرية..
وحاولوا العبث بأمننا القومي، ولكننا، على عكس توقعاتهم كنا نتوقع هذا، بل وننتظر حدوثه..
سأله السفير، بنفاد صبر:
- ماذا أصابهم؟!..
صمت مدير المخابرات لحظة، قبل أن يجيب في حزم ظافر:
- فقدوا وعيهم.
تراجع السفير كالمصعوق، وهو يهتف مستنكرا:
- رجالنا؟!..
تابع مدير المخابرات، وكأنه لم يسمعه:
خدرناهم داخل المقر، بغاز عديم اللون والرائحة.. غاز استنشقوه، دون حتى أن يشعروا بهذا.
أشار إليه الرئيس، فابتسم، متابعا:
- وما زلنا نحتفظ بذلك الفيلم، الذي نقل لنا ذهول قائدهم عندما استدار؛ ليجدهم فاقدي الوعى.. ومن حسن حظه أن ذهوله لم يستغرق كثيرا، فقد لحق بهم بعد لحظات قليلة..
مال السفير الأمريكي نحوه، محاولاً بث شيء من الحزم فى صوته، وهو يقول:
- ليس قبل أن يخبرنا بما فعلتموه
صمت مدير المخابرات والرئيس لحظات، ثم كان الرئيس هو من تحدث، قائلاً:
- ربما لم نحسب قدراته جيدا.

استعاد السفير شيئا من الحزم، وهو يقول:
- هذا مؤكد
ثم شد قامته، مستطردا:
- ولقد علمنا أنكم قررتم ألا يحصل أحد على ذلك الكنز الفضائي، بعد أن عجزتم عن حمايته، و.. ونسفتموه.
غمغم مدير المخابرات:
- لم يكن أمامنا سوى هذا.
لم يستطع السفير كتمان غضبه، وهو يقول:
- لا تدركون أية حم..
بتر عبارته دفعة واحدة، قبل أن يستطرد:
- أية خسارة خسرتموها.. ذلك الشيء كان سيدفع بالعالم عشر خطوات إلى الأمام على الأقل.
تمتم مدير المخابرات:
- العالم أم أنتم؟!..
هتف السفير في عصبية:
- ومن سوانا يمكن أن يستوعب تكنولوجيا متقدمة كهذه؟!..
من سوانا كان يمكنه استخدامها؛ لتطوير برنامج فضائي، تكلف مليارات المليارات؟!..
قال الرئيس في صرامة:
- وبرنامج تسليح، تكلف أكثر من هذا.
قال السفير، في شيء من الحدة:
- وماذا في هذا؟!.. حتى القانون الدولي لا يمنع أية دولة من السعى لتقوية تسليحها
ضرب الرئيس سطح مكتبه بقبضته، وهو يقول في غضب:
- باحتلال أراضي الغير؟!..
احتقن وجه السفير، وأشاح به، وهو يجيب في عصبية:

- لم تتركوا لنا من سبيل سوى هذا.
قال الرئيس في صرامة:
- وكذلك أنتم.
التقط السفير نفسا عميقا؛ في محاولة لليسطرة على أعصابه، قبل أن يتساءل في خفوت:
- والآن، ماذا سنفعل؟!..

☆ ☆ ☆

«ستواصل عملك..»
قالها رجل الأمن في حزم، عندما ألقى (جو) سؤالاً مماثلاً فسأله هذا الأخير في توتر:
- كيف؟!.. قلت لي إن الأمريكيين يعلمون أنكم نسفتم المركبة الفضائية، وقتلتم الكائن الـ...
قاطعه الرجل في صرامة:
- هذا ما يعلمونه.
سأله في توتر أكثر:
- ما الذي تشير إليه بالضبط؟!..
أخرج الرجل بطاقة معدنية، دسها في تجويف جدار آخر لامع، وهو يقول:
- الأمر ليس صعبا كما تتصور..
انفتح الجدار منزلقا في نعومة، وتعلق بصر (جو) بما خلفه، و..
وعلى الرغم منه، انتفض جسده كله، واتسعت عيناه عن آخرهما..
فخلف هذا الجدار اللامع، كانت تنتظره مفاجأة مذهلة..

☆ ☆ ☆

استمع الرئيس الأمريكي إلى سفير بلاده في القاهرة، في اهتمام، عبر جهاز اتصال رقمى خاص مؤمن، قبل أن يتنهد في توتر،

قائلاً:
- من الواضح أننا قد أسأنا إدارة هذه الأزمة، على نحو كبير..
أجابه سفيره من (القاهرة):
- هذا صحيح يا سيادة الرئيس.. منطق القوة لم يفلح هذه المرة مع المصريين.. لقد دفعنا الإسرائيليين إلى اقتحام (سيناء) بالقوة، وكسر معاهدة (كامب ديفيد)، وتجاوزنا كل المواثيق الدولية، وهاجمنا الأراضي المصرية، واقتحمنا مقارهم السرية واستخدمنا أحدث أسلحتنا وتكنولوجيتنا، ووسائلنا للرصد الجوى والفضائي؛ حتى يمكننا الاستيلاء على المركبة الفضائية وذلك الكائن، ولكن المصريين كانوا أكثر حنكة وخبثا..
زفر الرئيس الأمريكي في توتر، وغمغم:
- نسفوا المركبة، وقتلوا الكائن، وخدروا وأسروا رجالنا..
أضاف السفير، في شيء من العصبية
- وأجبرونا على إيقاف القتال، ودفع الإسرائيليين للانسحاب الفوري، وتقديم اعتذار رسمى أيضا.
قال الرئيس الأمريكي بنفس التوتر:
الإسرائيليون أنفسهم كانوا يتمنون حدوث هذا
وصمت لحظات، قبل أن يسأل، في توتر أكثر:
- وماذا عن رجالنا؟!..
أجابه السفير محنقاً:
- سيعيدونهم إلى الديار، فور اكتمال انسحاب الإسرائيليين وإعلان اعتذارهم الرسمي.
غمغم الرئيس الأمريكي:
- وكيف سيتم تبرير الأمر للمصريين؟!.. أقصد الشعب وليس الحكومة.
صمت السفير لحظات، ثم أجاب في خفوت:

- حكومتهم لديها أساليب عديدة لطمس الحقائق.
بدا صوت الرئيس الأمريكي أشبه بالزمجرة، وهو يجيب:
- كل الحكومات لديها وسائل مشابهة.
وصمت لحظة، ثم أضاف:
- تختلف في سبلها فحسب.
تمتم السفير في توتر:
- بالضبط يا سيادة الرئيس.. بالضبط..
جمعت بينهما لحظة من الصمت، وكأن كل منهما يعيد ترتيب أفكاره، أو كأنهما يبحثان عن وسيلة لإدارة دفة الحديث، قبل أن يقول الرئيس، في لهجة حملت الكثير من الغضب والغيظ:
- ما يدهشني حقا هو ما فعلوه.. كيف يدمرون كشفا علميا عظيما كهذا؟!.. كيف؟!..
«سنكون حمقى حقا، لو كنا قد فعلنا..»
نطق رجل الأمن العبارة في ثقة، مع ابتسامة كبيرة، جعلت(جو) يهتف في انبهار:
- إذن فقد كان الأمر كله..
قاطعه رجل الأمن، مكملاً عبارته:
- خدعة.. بالضبط.. لقد رتبنا الأمر منذ البداية.. كنا نعلم أنهم لن يتورعوا عن فعل أي شيء في سبيل الحصول على تلك الطفرة التكنولوجية الهائلة، الهابطة من الفضاء، لذا فقد وضعنا أحد أكثر سيناريوهاتنا تعقيدا.. نقلنا ذلك الكائن ومركبته إلى هنا، وسربنا إليهم هذا، بل وجازفنا بتسريب موقع مقر الطوارئ السرى إليهم، على نحو جعلهم يتصورون أن شراء ذمم رجال الأمن هنا، ليس بالأمر العسير، ولأنهم يعيشون غطرسة القوة، منذ سقوط الاتحاد السوفيتي، فقد راحوا يرصدون الموقع الذي أخبرناهم به، أو سربناه إليهم بأقمارهم الصناعية، المختصة

بالأبحاث الجيولوجية، والتي نعلم أنها قادرة على كشف ما في أعماق الأرض، ولكي نقودهم إلينا في سهولة، رفعنا الحاجز المانع للاختراق، من سطح المقر، وهكذا أمكنهم رصده.
ارتفع حاجبا (جو) في انبهار، وهو يقول:
- وخاطرتم بجلبهم إلى هنا؟!..
رفع الرجل سبابته، قائلاً في حزم:
- عندما أكمل، ستدرك أنه سيناريو عبقرى
أشار إليه (جو) في لهفة، قائلاً:
- أكمل..
تنحنح الرجل، وقال، مواصلاً حديثه السابق:
- في نفس الوقت، استعددنا لاستقبالهم، ولنقل كل شيء إلى المقر الاحتياطي، الذي تربطه بالمقر الأول شبكة من ممرات تحت أرضية معقدة، معدة بحيث يتم نسفها، وإخفاء معالمها تماما، عقب مرور آخر شخص منها، وهذا ما شاهدته بنفسك.
سأله (جو) بأنفاس مبهورة:
- إذن فقد كنتم قادرين على منعهم؟!..
أشار الرجل بسبابته مرة أخرى، قائلاً:
- ومنذ اللحظة الأولى.
بدت دهشة عارمة على وجه (جو)، وهو يسأله:
- لماذا تركتموهم ينسفون كل شيء إذن؟!..
اتسعت ابتسامة الرجل، وهو يجيبه:
- هذا هو الجزء الأساسي من الخطة.
ثم مال نحو (جو)، متابعا في نشوة ظافرة:
- لقد اقتحموا المكان، وكلهم ثقة فى قوتهم وبأسهم وتكنولوجيتهم، وسمعوا بعد اقتحامهم انفجارات مدوية، ثم

عثروا على شظايا المركبة المنفجرة، وجثة الكائن، فما المفترض أن ينقلوه إلى قيادتهم فورا؟!..
تألقت عينا (جو) في انبهار، وهو يهتف في حماس:
- أنكم، في غمرة إحساسكم بالهزيمة، نسفتم كل شيء، واتخذتم خيار (شمشون ([5])
هتف الرجل، مشيرا إليه:
- بالضبط.. ولقد انتظرنا هذه اللحظة بالتحديد، التي أبلغوا فيها قيادتهم، بأننا قد ضحينا بكل شيء وبعدها أفقدناهم وعيهم، وأسقطناهم في أسرنا.. هل فهمت اللعبة؟!..
ظل (جو) يحدق فيه بضع لحظات مبهورا، قبل أن يغمغم في صوت مبحوح، من فرط الانبهار:
- لعبة.. ما فعلتموه ليس لعبة
ثم ارتفع صوته، وهو يكمل هاتفا:
- إنها عبقرية!..
ابتسم الرجل ثانية، وهو يقول:
- ألم أقل لك؟!..
ظل (جو) يهز رأسه لحظات، عاجزا عن النطق، قبل أن يهتف:
- الشظايا يمكنني فهمها؛ فهي مجرد شظايا، ولكن كيف يمكنكم خداعهم بشأن كائن غير أرضي؟!..
أشار رجل الأمن، إلى القاعة، التي هي نسخة طبق الأصل من القاعة السابقة، حيث تسبح مركبة الفضاء في منتصفها وحولها طاقم العلماء نفسه، في حين يوجد ذلك الكائن الفضائي داخل قفص زجاجي مماثل في نهايتها، وقال مفسرا:
- عندما سقطت المركبة، كان فيها ثلاثة كائنات، اثنان لقيا حتفهما مع الاصطدام، والثالث هو ما كنت تتحدث إليه منذ

البداية..
انعقد حاجبا (جو)، وهو يندفع نحو الكائن، قائلاً:
- من كنت أتحدث إليه يا رجل.. من وليس ما.. إنه عاقل مثلي ومثلك.
وتوقف عندما بلغ جدار ذلك القفص الزجاجي، وهو يلهث من فرط الانفعال، مكملاً:
- بل ربما كان أكثر عقلاً منا..
اعتدل الكائن في لهفة واضحة، عندما رآه، واتجه في سرعة إلى الجدار الزجاجي من ناحيته، ولمسه بأطراف أصابعه و(جو) يضيف، ولهاثه يتصاعد مع انفعاله:
- بكثير.
- بدت نظرة مودة وارتياح واضحة، في عيني الكائن، وغمغم بكلمات خافتة، فابتسم (جو)، وقال في حنان عجيب، وكأنه يحدث ابنه:
- (موجال).. كم أصابني القلق والحزن بشأنك..
كان من الواضح أن الكائن لم يستطع فهم كلماته، ولكنه استوعب ملامحه وانفعاله، وذلك الدف وانفعاله، وذلك الدفء في صوته، الي أن قال:
- (جو).. (جو)..
انعقد حاجبا رجل الأمن، وقال في توتر:
- لقد تعرفك!..
أجابه (جو)، دون أن يلتفت إليه:
- إنه كائن عاقل.. وذكى.. للغاية..
لم يحاول رجل الأمن التعليق على العبارة، وخاصة عندما أشار (موجال) إلى أجهزة، تشبه تماما الأجهزة السابقة وكأنه يطلب من (جو) استخدامها، فابتسم (جو) وأضاف في خفوت:

- ألم أقل لك.. إنه يفهمنا.
واتجه نحو الأجهزة البديلة، وهو يسأل في اهتمام:
- ماذا عن الخريطة الفلكية؟!..
تنحنح رجل الأمن، وقال في حزم:
- هذا يتوقف على رأي الخبير الثاني
التفت إليه (جو) في دهشة، متسائلاً:
- أي خبير ثان؟!..
وعندما أخبره رجل الأمن، ارتفع حاجباه، واتسعت عيناه عن آخرهما..
فهذا آخر ما يمكنه أن يتوقعه على الإطلاق.

☆ ☆ ☆

١٠- حـــوار..

اتسعت عينا (إيناس) في دهشة بالغة، وهي تحدق في وجه الرجل الواقف أمامها، قبل أن تسأله في انفعال:

- أتعنى أن كل ما حدث لم.

قاطعها في حزم:

- ثقى يا سيدتي في أن (مصر) مازالت تحكم قبضتها على الموقف، على عكس ما يتراءى خارجيا.

غمغمت ذاهلة:

- إذن فكل هذا كان مجرد خدعة!!..

أومأ برأسه إيجابا، وقال:

- وكل شيء يسير على ما يرام.

غمغمت متسائلة:

- ولماذا كل هذا؟!..

صمت طويلاً هذه المرة، قبل أن يجيب في صرامة:

- سيدتي.. أنت تعلمين الكثير بالفعل، حتى هذه اللحظة وربما أكثر مما ينبغى

ارتجفت شفتاها، ولاذت بالصمت بضع لحظات، قبل أن تتساءل في خفوت، وفي لهجة عالية التأثر:

- هل لي على الأقل أن أطمئن إلى أن (جو)..

قاطعها مرة أخرى، قبل أن تكمل سؤالها:

- بخير حال.. الجميع على ما يرام.

تنهدت في ارتياح، وأغمضت عينيها، متمتمة:

- شكرا للرب.

ثم عادت تفتحهما، وهي تتساءل في حذر:

- وأين هو الآن؟!..
شد الرجل قامته، وصمت لحظة، ثم أجاب في حزم وصرامة:
- يؤدي واجبه.
سرت في جسدها ارتجافة سريعة، عندما سمعت إجابته وعادت تغمض عينيها ولم تعلق بحرف واحد أي حرف..

☆ ☆ ☆

«خطتكم كانت عبقرية»
نقلت الأجهزة الحديثة العبارة، أو ترجمتها عن كلمات(موجال)، فحدق (جو) في الشاشة ذاهلاً، على نحو جعل رجل الأمن يتجه إليه في سرعة، متسائلاً:
- ماذا يقول؟!..
أجابه (جو)، في صوت خافت منفعل:
يتحدث عن خطتكم
سرى توتر عنيف في جسد الرجل، وسأل في عصبية
- وماذا يعرف عن خطتنا؟!..
نقل (جو) التساؤل في سرعة، عبر الأجهزة نفسها، إلى الكائن، فبدت على شفتي هذا الأخير ابتسامة باهتة، وراح يتحدث في لهجة شبه حماسية، دون أن يرفع عينيه عن رجل الأمن وكأنه يوجه حديثه إليه مباشرة، في حين راح (جو) يبذل جهدا مضاعفا، في محاولة لتفسير وترجمة تلك الإشارات والترددات، التي راحت تتراص على الشاشة في سرعة، مما جعل لهجته مضطربة، وهو ينقلها إلى رجل الأمن:
- الأمر كان واضحا.. أعداؤكم هاجموكم.. خدعتموهم نقلتم كل شيء.. مركبتنا.. أنا.. خدعتموهم.
اتسعت عينا رجل الأمن في صدمة، ثم انعقد حاجباه فوقهما وهو يتمتم في عصبية شديدة الوضوح:

- يعرف كل هذا؟!..
غمغم (جو) في توتر، وهو مازال يحاول فهم الإشارات التي راحت تتوالى في سرعة أكبر، وتتشابك على نحو فاق قدرته على استيعابها، و(موجال)، الكائن الفضائي يواصل حديثه في حماس، ملوحا بيديه معا:
- إنه عبقرى، كما يبدو واضحا..
ازداد انعقاد حاجب رجل الأمن، وهو يغمغم في عصبية أكثر:
- بل هو شديد الخطورة..
التفت إليه (جو) في دهشة مستنكرة، قائلاً:
- الخطورة؟!..
أجابه الرجل في حدة:
- بالطبع.. كيف تصف كائنا، يجهل كل اللغات الأرضية المعروفة القديمة منها والحديثة، ويمكنه استيعاب خطة معقدة بهذا الوضوح؟!..
قال (جو) في حدة:
- بالعبقرية؟!..
هز الرجل رأسه نفيا في حدة، وقال في صرامة عصبية:
- العبقرية وحدها لا تكفي، في مثل هذه الأمور.. لابد له من خبرة طويلة وعميقة
ثم ألقي نظرة حذرة على الكائن، قبل أن يميل على أذن(جو)، مستطردا في همس:
- خبرة أمنية.
تراجع (جو) في دهشة مصدومة، وهتف مستنكرا:
- لعلك لا تتصور أن..
قاطعه الرجل في قسوة صارمة:
- لست أتصور شيئا..

انعقد حاجبا (جو) في غضب متوتر، وانعقدت الكلمات على لسانه بضع لحظات، قبل أن يقول في حدة:
- أظننا بحاجة إلى عالم آخر بالفعل..
وصمت لحظة قصيرة، ثم أضاف في حدة أكثر:
- عالم عربى.
ألقى عليه رجل الأمن نظرة صارمة، وقال:
- مازلت ترفض ذلك الروسي.. أليس كذلك؟!
أجابه (جو) في عصبية:
- بل أعجز عن استيعابه.. أو بمعنى أدق، أعجز عن استيعاب أنكم قد استعنتم به.
أولاه الرجل ظهره، وابتعد عن القفص الزجاجي، وهو يجيب في صرامة:
- ماذا كنت تتوقع إذن؟!.. (مصر) لم تدخل أبذا عصر الفضاء، ومحاولتها الوحيدة لإنتاج الصواريخ لم يكتب لها الاستمرار؛ بسبب تحالف القوى العالمية، والمخابرات الإسرائيلية ضدها ([6]) وليست لدينا أية خبرة عالمية في مجال ارتياد الفضاء أو علومه،.. حتى قمر الاتصالات (نايل سات)، استعنا فيه بخبرة فرنسية، فكيف لنا أن نتعامل مع موقف كهذا، على الوجه الأمثل، دون الاستعانة بالخبرات اللازمة، وخاصة بعد أن اتضح موقف الأمريكيين من الأمر؟!
قال (جو) في توتر:
- ولماذا ليست خبرة فرنسية، كما فعلنا مع (نايل سات) ؟!..
بدا رجل الأمن شديد العصبية، وهو يقول:
- وما عيب (تروتسكي)؟!..
لوح (جو) بذراعه كلها، وهو يحاول اللحاق به، به، هاتفا:

لست أعرف (إيفان تروتسكي) هذا إلى حد انتقاده، أو حتى الاعتراض على علمه.. إننى مندهش من الاستعانة بسوفيتي في أمر شديد الحساسية والسرية كهذا.
قال رجل الأمن في خشونة، وهو يواصل الابتعاد:
- لم يعد هناك سوفيت، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي يا رجل انه روسى عالم فضاء روسي، أولى اهتماما كبيرا لدراسة كيفية إجراء اتصالات، مع مخلوقات في كواكب أخرى، لا تتحدث اللغات الأرضية، وأظن هذا يتفق مع عملك.. أما بخصوص الحساسية والسرية، فاترك الأمر لنا..
وزاد من سرعته لحظات، انحرف خلالها خلف جهاز كبير، وهو يكمل، في خشونة أكثر، وصرامة أقسى:
- إنه عملنا
دار(جو) حول ذلك الجهاز الكبير ليلحق به، وفجأة، التفت إليه رجل الأمن، وبدا شديد الغضب إلى حد مخيف، وهو يمسك معصمه، ويجذبه إليه جعلت (جو) يطلق شهقة مكتومة، وخاصة عندما وجد وجهه على قيد سنتيمترات من وجه رجل الأمن، الذي انعقد حاجباه في شدة لم يشهدها من قبل قط، وهو يقول في عنف قاس:
اسمعنى جيدا.. أنت هنا فقط لتجد وسيلة تواصل مع ذلك الكائن، الذي لم تتضح نواياه، ولا نوايا من أرسلوه إلينا بعد، حتى هذه اللحظة، وليس لكي تناقش وتنتقد أساليب عملنا، ولا إجراءات حفظ الأمن التي نتخذها هنا، على الأخص ليس أمام هذا الشيء.
امتقع وجه (جو) وصوته، وهو يغمغم:
- هذا الشيء له اسم.

جذبه رجل الأمن، في عنف أكثر، وهو يقول في شراسة بلغت حدا يوحى بنفاد الصبر:
- هذا الشيء، وفقا لقواعدنا نحن، سيعتبر شديد الخطورة حتى يثبت العكس..
كان (جو) يرتجف، إلا أنه قال في عصبية:
- ومن سيثبت هذا؟!.. الروسي؟!
أتاه الجواب من خلفه، بصوت بارد، ولغة عربية، ذات لكنة شديدة القوة:
- معذرة لمقاطعتى حديثكما الودي هذا، ولكن يبدو أن أحدكما يشير إلى، على نحو ما.
جذب (جو) نفسه من قبضة رجل الأمن في حدة، والتفت إلى صاحب الصوت البارد واللكنة، وارتطم بصراهما وتجمد الوقف كله تماما..

☆ ☆ ☆

رفع الرئيسي الأمريكي رأسه، يستقبل مدير مخابراته في مكتبه، وانعقد حاجباه على الرغم منه، وهو يسأله في شيء من التوتر:
- ما الجديد؟!..
وضع مدير المخابرات ملفا صغيرا، أمام الرئيس الأمريكي وهو يقول:
- الرجال وضعوا نظرية جديدة، بشأن ما حدث في مصر يا سيادة الرئيس.
ازداد انعقاد حاجبي الرئيس الأمريكي، وهو يقول في عصبية:
- ألن تنتهي هذه القصة أبدا؟!..
انتقل توتره إلى مدير مخابراته، وهو يجيب:
خبراؤنا يتصورون أنه من المحتمل أن المصريين قد خدعونا
هتف الرئيس الأمريكي في حدة واستنكار:

- خدعونا؟!.. نحن؟!..
أومأ مدير المخابرات الأمريكية برأسه إيجابا، ثم عاد يشير إلى الملف، وهو يندفع قائلا:
- قبل سقوط رجالنا في قبضة المصريين بدقائق قليلة أبلغونا أنهم قد رصدوا شظايا المركبة الفضائية، بعد سماعهم دوى انفجار عنيف، ثم فحصوا جثة كائن غير أرضى، فلماذا هذا التوقيت بالتحديد؟!..
أجابه الرئيس الأمريكي في عصبية:
- لأن المصريين لم يمنحوهم دقيقة أخرى.
أشار مدير المخابرات بيده، متسائلاً:
- ولماذا ليس قبل أن يرصدوا كل هذا؟!..
تطلع إليه الرئيس الأمريكي لحظات في توتر، قبل أن يسأله:
- ما الذي ترمى إليه يا رجل؟!
عاد مدير المخابرات الأمريكية يشير إلى الملف، قائلا:
- خبراؤنا يقولون إنه من المحتمل أن تكون كل هذه مجرد خدعة..
هتف الرئيس الأمريكي في استنكار:
- خدعة؟!.. هل يتصور خبراؤك أن المصريين سيضحون بأعظم أسرارهم، من أجل خدعة
مال مدير المخابرات نحوه، حتى استند براحتيه على سطح مكتبه، مجيبا:
- سيفعلونها.. لو أن الأمر يستحق..
حدق الرئيس الأمريكي في عينيه،، قائلاً:
- وهل يستحق هذا؟!..
اعتدل مدير المخابرات في حركة حادة، مجيبا في حزم:
- بالتأكيد.

عاد حاجبا الرئيس الأمريكي ينعقدان في توتر، وهو يستغرق في التفكير بضع لحظات، قبل أن يقول في شك:
- لست أعتقد أن المصريين قد بلغوا هذا الحد من الذكاء والبراعة..
حان دور مدير المخابرات ليعقد حاجبيه، وهو يقول:
- هذا بالضبط ما قاله الإسرائيليون، قبيل أكتوبر 1973م مباشرة.
حدق فيه الرئيس الأمريكي كالمصدوم لحظات، ثم تنحنح في توتر، وسأله في صرامة، أراد بها أن يخفى عصبيته:
- ألديكم أية أدلة على هذا؟!..
أجابه مدير المخابرات في سرعة:
- بالتأكيد.
ثم عاد يميل على مكتب الرئيس الأمريكي، مكملاً في لهجة خاصة:
- (إيفان تروتسكي).
سأله الرئيس الأمريكي في عصبية:
- من (تروتسكي) هذا؟!..
اعتدل مدير المخابرات، وقال بلهجة من ربح المعركة:
- عالم فضاء وفلك روسي، تخصص في احتمالات الحياة على كواكب أخرى، ولديه شهادة خاصة، في علم اللغات النادرة والقديمة...
سأله الرئيس الأمريكي، في عصبية أكثر:
- وماذا عنه؟!..
انعقد حاجبا مدير الخابرات، وهو يجيب في صرامة حازمة:
- لقد أحضروه إلى (مصر).. وبطائرة خاصة..

اتسعت عينا الرئيس الأمريكي، وكأنه قد استوعب الأمر، ثم عاد حاجباه ينعقدان في شدة، وهو يقول:
- وماذا يقترح خبراؤك، في هذا الشأن؟!..
تنفس مدير المخابرات الامريكية الصعداء، قبل أن يقول في حزم:
- السيطرة.
كانت كلمة موجزة، ولكنه استغرق في شرح مضمونها ما يقرب من ساعة كاملة والواقع أنها كانت تعنى الكثير...
والخطير..
جدا..

☆ ☆ ☆

«أظن أنه من الأفضل أن نتفق..»
قالها العالم الروسي في برود، جعل (جو) يقول في توتر:
- إننا لم نختلف..
ابتسم الروسي ابتسامة باهتة باردة، والتفت يتطلع إلى(موجال)، داخل قفصه الزجاجي، قبل أن يقول بلكنته المستفزة:
- ما أقصى ما توصلت إليه معه؟!
راقب رجل الأمن حوارهما في اهتمام، و(جو) يجيب، في لهجة أشبه بالتحدى:
- إننا نتحاور.
ارتفع حاجبا الروسي في دهشة، وهو يقول:
- تتحاوران؟!.. هل يتحدث إحدى اللغات المعروفة؟!
لتقط (جو) نفسا عميقا، وقال في زهو:
- ليست مسألة لغات.
ثم راح يشرح له ما يفعله، من تحويل أصوات الفضائي وحركات جسده، إلى معان لغوية واضحة، واستمع إليه الروسى في اهتمام

شديد، في حين راح الفضائي (موجال) يتابع حديثهما في قلق واضح، وهو يرمق الروسي بنظرات لا تشف عن أي ارتياح، ثم لم يلبث أن يتراجع إلى الجدار، و(جو) ينهى حديثه، قائلاً:
- إنه ذكي كما ترى.
التفت الروسي إلى (موجال)، وحدجه بنظرة طويلة، قبل أن يغمغم:
- هذا يبدو واضحا.
تبادل معه (موجال) نظرة عصبية، قبل أن يشير إليه، ثم ينظر إلى (جو)، ويتحدث على نحو عصبى، جعل (جو) يلتفت فيّ لهفة إلى شاشات جهازه، ورجل الأمن يسأله في اهتمام شديد:
- ماذا يقول؟!..
ترجم (جو) تلك الإشارات، وهو يقول:
- قال إنه لا يشعر بالارتياح تجاهه..
قالها، وهو يشير إلى الروسي، الذي لم يبد أي اهتمام للأمر على الرغم من فهمه للعربية، وإنما هتف:
- دعه يقولها مرة أخرى..
التفت إليه (جو) في استنكار، قائلاً:
- إنه ليس مهرجا في سيرك فقير.
هتف به الروسي، مكررا في انفعال:
- دعه يقولها مرة أخرى.
انعقد حاجبا (جو) في غضب، والتفت إلى رجل الأمن بنظرة مستاءة، ولكن هذا الأخير قال في اهتمام متوتر:
- دعه يكررها.. لن نخسر شيئا.
أشار(جو) إلى (موجال)، وطلب منه أن يعيد ما قاله، فنقل الفضائي بصره، بين الرجال الثلاثة في حذر، قبل أن يكرر ما قاله في بطء، فاتسعت عينا الروسى، على نحو عجيب، وهو يحدق

في الفضائي بنظرة مخيفة، حتى إن هذا الأخير تراجع بحركة أشبه بحيوان مذعور، والتصق بالجدار، وهو يدير عينيه إلى (جو) بنظرة مستنجدة، فقال هذا الأخير في عصبية:
- لم يضف شيئا.
هتف به الروسي، في انفعال جارف:
- خطأ.
ثم عاد يحدق في الفضائي، بتلك النظرة العجيبة، مردفا:
- لقد أضاف الكثير.. والكثير جدا..
اللهجة التي نطق بها عبارته، أثارت دهشة وقلق (جو) ورجل الأمن معا، ولكن الأخير وحده ترجم مشاعره لغة مسموعة، وهو يقول:
- ماذا أضاف بالضبط؟!..
أجاب الروسي بنفس الانفعال، دون أن يرفع عينيه عن الفضائي:
- اللغة..
تبادل (جو) ورجل الأمن نظرة دهشة كبيرة، ثم قال الأول في تردد:
- إنها لغة كوكبه، و..
قاطعه الروسي، في انفعال حاد:
- هراء..
ارتد (جو) في دهشة، في حين هتف رجل الأمن، في توتر بالغ:
- ماذا تعنى يا رجل؟!.. أفصح عما لديك؟!..
التفت إليهما الروسي، وقال دون أن يفارقه انفعاله:
- تلك اللغة، التي تحدث بها، ليست لغة فضائية.
جف حلق رجل الأمن، وهو يسأله:
- كيف؟!..

ألقى (جو) السؤال، في الثانية التالية، وكأنه لم يسمع رجل الأمن، فتضاعف انفعال الروسي، وهو يجيبهما:

- إنها لغة أرضية بالغة الندرة.. لغة أرضية، وليست فضائية.. على الإطلاق...

واتسعت عيون (جو) ورجل الأمن عن آخرهما فالمفاجأة كانت قاسية للغاية...

☆ ☆ ☆

١١- مشكلة لغة....

لما يقرب من دقيقة كاملة، ران على تلك القاعة صمت رهيب، على الأقل في ذلك الجزء منها، و(جو) مع رجل الأمن يحدقان في وجه (تروتسكي)، الذي لم يبد أقل منهما صدمة وذهولاً، ثم لم يلبث رجل الأمن أن اخترق هذه الصورة الصامتة، وهو يهتف في انزعاج:

- هو ليس فضائيا إذن؟!..

التفت الثلاثة مع قوله إلى (موجال)، الذي تراجع في توتر وراح ينقل بصره بين ثلاثتهم في عصبية، والروسي يجيب في انفعال:

- الهيئة التي أراها أمامي ليست فضائية.. ولكنها ليست أرضية أيضا.. إنه يبدو أشبه بـ

اندفع (جو) يكمل عبارته:

- بالإنسان القديم.

استدار إليه (تروتسكي)، وهتف في حماس، مشيرا بسبابته:

- بالضبط.

ثم راح يحرك ذراعيه كليهما في انفعال جارف، وهو يكمل:

- إنه أشبه بما يطلق عليه الجيولوجيون اسم (إنسان نايندرئال) وهو أول مخلوق يمشي على قدميه، تم العثور على بقاياه، بعد انقراض الديناصورات..

انعقد حاجبا (جو)، وهو يقول، في لهجة شبه حادة:

- التشابه لا يعني أنه ليس فضائيا.

أجابه (تروتسكي) بنفس الانفعال:

ذلك الرداء الذي يرتديه لا يشبه أردية أرضية معروفة.. إنه يبدو لي معدنيا، ولكنه يتحرك على جسده في مرونة شديدة.. أخبرني:

هل يحوي أية أسلحة، أو وسائل اتصال متطورة؟!..
انعقد حاجبا رجل الأمن في توتر، والتفت إلى (موجال) بحركة حادة، وحدق في زيه اللامع في عصبية، وهو يتساءل:
- أهذا ممكن؟!
أجابه الروسي في سرعة وانفعال:
- ولم لا؟!..
ازداد انعقاد حاجبى رجل الأمن، والتقط جهاز اتصاله في عصبية بالغة، وهو يقول عبره في صرامة:
- كود (ج).
مع قوله، أو بعد ثوان خاصة، داخل القفص الزجاجي، فانتفض (موجال) في شدة، قليلة منه، انبعث غاز من فتحات وتلفت حوله في ذعر، ثم اندفع نحو الحاجز الزجاجي، وراح يضربه بكفيه في انفعال، وهو يهتف بكلمات واضحة الانزعاج موجها حديثه إلى (جو) مباشرة، فاندفع هذا الأخير نحو أجهزته، وهو يهتف برجل الأمن:
- ماذا فعلتم به؟!..
أجابه الرجل في صرامة:
- مجرد إجراء وقائي..
ألقى (جو) نظرة عصبية على شاشات الأجهزة، ثم هتف في غضب:
- أهو غاز قاتل؟!
أجابه الرجل بنفس الصرامة:
- بل غاز مخدر.. لابد من فحص ذلك الزى، بوساطة خبرائنا.
قال الروسي في حماس:
- إجراء سليم.
رمقه (جو) بنظرة غاضبة، وهو يهتف في مرارة:

- ولماذا لم تطلب منه نزعه فحسب؟!..
أجابه رجل الأمن في حزم صارم:
- وماذا لو استخدم أسلحته عندئذ؟!
التفت إليه (جو) غاضبا:
- أية أسلحة؟!.. لو أنه يمتلك أسلحة، فلم لم يستخدمها حتى هذه اللحظة، على الرغم من كل ما واجهه؟!
أجابه الروسي في حسم:
- لا يمكنك المخاطرة
هتف (جو) محتدا:
- وأفقداه الوعي.. أليس مخاطرة؟!.. هل نعلم تأثير هذا الغاز على أجهزته الحيوية؟!.. هل سيثق في تعاونه معنا بعدها؟!.. فليجب أكثركما عبقرية.. هل سيفعل؟!..
تبادل الرجلان نظرة متوترة، وغمغم الروسي:
- لست أعتقد أن...
قاطعه رجل الأمن في صرامة شديدة:
- كما سمعت من قبل.. لا يمكننا المخاطرة.. سيتم تجريده من هذا الزي؛ ليتم فحصه بمنتهى الدقة، وبعدها سيعود رهن إشارتك، ولكن في زي أرضى آمن...
قال (جو) في مقت:
- هل تعتقد هذا؟!
ولم يجب رجل الأمن.....
بل لم يجب أيهما ولا حتى بحرف واحد..

☆ ☆ ☆

لم ينطق الرئيس الأمريكي بحرف واحد، وهو يستمع إلى خبراء المخابرات الأمريكية، الذين يشرحون وجهة نظرهم بشأن الخدعة المصرية، ويحاولون طرح كافة الأدلة عليها وعندما

انتهى الشرح، ساد المكان صمت طويل، بدا خلاله الرئيس الأمريكي شديد الاستغراق في التفكير، والكل يتطلع إليه حتى تنحنح مدير المخابرات وسأله في خفوت:
- والآن ماذا يا سيادة الرئيس؟!
بدا الرئيس الأمريكي وكأنه يستيقظ من حلم ما، وهو يرفع عينيه إليه، متسائلاً:
- ماذا تقترح أنت؟!
أجابه مدير المخابرات في حماس:
- سننتظر عودة رجالنا، ثم...
قاطعه الرئيس الأمريكي في حزم صارم:
- ثم ماذا؟!
صدمت لهجته مدير مخابراته، فانخفض صوته مرة أخرى، وقال:
- نضرب ضربتنا..
بدا الرئيس الأمريكي شديد العصبية، وهو يقول:
- أية ضربة؟!
بدا لحظة وكأنه سيكتفي بالعبارة، إلا أنه انتفض بعدها في غضب، وهب من مقعده، وهو يقول في حدة:
- ما أخبرتمونى به لم يتعد استنتاجات محضة، ممتزجة بغضب شخصى من انتصار المصريين في الجولة الأولى، ولكن القليل مما عرفته وخبرته، عن نظم الأمن الرئاسية، في فترة رياستى، جعلني أندهش من تصوركم أن المصريين يمكن أن يجازفوا بكشف أخطر أسرارهم الأمنية، فقط من أجل خدعة...
قال مدير مخابراته، محاولا تهدئته:
- ليست مجرد خدعة، إنها سيطرة على تكنولوجيا حديثة...
صاح الرئيس الأمريكي في غضب:

- وكيف سيمكنهم الإفادة منها، حتى لو بذلوا كل حياتهم من أجل الاحتفاظ بها؟!.. أليست تقاريركم نفسها هي التي أكدت، منذ شهور قليلة، أن العرب سيعجزون عن استخدام التكنولوجيا، حتى لو توافرت لديهم؛ بسبب غياب القاعدة العلمية في عالمهم، وابتعادهم عن المنطق العلمي في التفكير؟!.. ألم تذكر لي أنت شخصيا، يا مدير المخابرات، أنك تعلم أن المصريين قد حصلوا على ثلاث قنابل ذرية، من الاتحاد السوفيتي المنهار ولكنك لا تخشى شيئا منها؛ لأنهم لا يمتلكون وسيلة لإطلاقها؟!..

ألم يكن مصدر ثقتك هذه، كما أخبرتنى، أنهم انفعاليون يفتقرون إلى الفكر العلمي المنظم؟!.. كيف تعود فتخبرني بعدها أنهم قد خدعونا بأكثر خدع التاريخ مهارة؟!.. كيف؟!

أجابه مدير مخابراته في توتر:

- لا تنس يا سيادة الرئيس، أن الخدعة التي استخدموها في حرب (كيبور)([7]) كانت....

قاطعه الرئيس الأمريكي في غضب:

- لا تحدثني كل مرة عن حرب (كيبور) هذه؛ فحديثك عنها يذكرني دوما بأنك تنتمي إلى قومك، بأكثر مما تنتمي إلينا..

احتقن وجه مدير المخابرات في شدة، وهو يقول:

- سيدي الرئيس.. ربما كنت يهودي الديانة، ولكنني أمريكي الجنسية، وانتمائي دوما لوطنى...

مال الرئيس الأمريكي نحوه، وهو يقول في صرامة قاسية:

- أي وطن منهما؟!

ازداد احتقان وجه مدير المخابرات الأمريكية، وانطبقت شفتاه في توتر شديد، في نفس اللحظة التي ارتفع فيها رنين هاتف

الرئيس الأمريكي المؤمن، فالتقطه قائلاً، ولم تفارقه لهجته الصارمة بعد:
- ما الجديد؟
انعقد حاجباه في شدة، وهو يستمع إلى محدثه، وانقلبت ملامحه على نحو عجيب، يوحي بأن ما يسمعه أمر خطير وربما لأقصى حد...

☆ ☆ ☆

لم يشعر الرئيس المصرى بالارتياح على الإطلاق، وهو يستقبل السفير الأمريكي في مكتبه مرة أخرى، ولقد بدا هذا واضحا، في صوته ولهجته وأسلوبه، وهو يقول في جفاف شديد الوضوح:
- ماذا هناك هذه المرة؟!
بدا السفير واثقا إلى حد الغرور، وهو يقول:
- لدى حكومتي مطلب خاص يا سيادة الرئيس..
ثم مال نحو الرئيس، مضيفا، بلهجة لا تثير أدنى قدر من الارتياح:
- لتأكيد الصداقة بين حكومتينا.
أجابه الرئيس في صرامة:
- الصداقة التي دفعتكم لمهاجمة بلدنا؟!
اعتدل السفير بحركة حادة، وقال في سرعة:
- الصداقة التي ستعود أقوى مما كانت، يا فخامة الرئيس..
صمت الرئيس بضع لحظات، وتأمله خلالها في صرامة واضحة، قبل أن يقول:
- وما مطلب حكومتك بالضبط؟!..
التقط السفير نفسا عميقا، قبل أن يجيب في حزم:
- قطعة...

تبادل الرئيس المصرى نظرة مع مدير مخابراته، قبل أن يسأل هذا الأخير، وهو يعرف الجواب مسبقا:
- قطعة من ماذا؟!
أجاب السفير في سرعة، وكأنه كان ينتظر السؤال بالفعل:
- قطعة من مركبة الفضاء التي نسفتموها..
عاد الرئيس ومدير مخابراته يتبادلان النظر، وإن حملت نظراتهما معنى شديد الاختلاف هذه المرة، قبل أن يقول الرئيس في صرامة شديدة:
- أي مطلب هذا؟!
أجابه السفير، بالسرعة نفسها:
- مطلب علمى يا فخامة الرئيس..
والتقط نفسا عميقا؛ للسيطرة على انفعاله، قبل أن يتابع في رصانة، بذل جهدا كبيرا لتصنعها:
- تلك المركبة قادمة من الفضاء السحيق على الأرجح، وهذا يعني رحلة فضائية طويلة، وطاقة لا حصر لها، ومن أجل القيام برحلة كهذه، لابد من صنع مركبة فضائية، تجمع بين أمرين أساسيين.. متانة هيكلها، وخفة وزنه، وهذا حتما يحتاج، إما إلى سبيكة معدنية من نوع خاص جدا، أو معدن غير معروف على الأرض، وكلاهما أمر يمكن أن يصنع فارقا كبيرا، في صناعة الطائرات والصواريخ...
صمت الرئيس لحظات، ثم مال نحوه، متسائلا في حزم:
- لو أن هذا صحيح، فلماذا نسلمكم قطعة من المركبة؟!
بدا السفير وقحا إلى حد ما، وهو يجيب:
- لأننا الدولة التي تمنحكم طائراتكم، يا فخامة الرئيس..
انعقد حاجبا مدير المخابرات في غضب، في حين قال الرئيس في صرامة:

- تقصد تبيعوننا إياها..
اعتدل السفير في حركة حادة، مجيبا:
- لا يوجد فارق كبير يا فخامة الرئيس.. أنتم تحصلون على طائراتكم منا في كل الأحوال..
قال الرئيس في صرامة أكثر:
- وكذلك الإسرائيليون.
انعقد حاجبا السفير، وهو يقول في عصبية:
- ماذا تعنى بالضبط يا فخامة الرئيس؟!
مال الرئيس نحوه هذه المرة، وبدا شديد الحزم والصرامة وهو يقول:
- أعنى أنكم المصدر الوحيد لطائرات الطرفين، حتى هذه اللحظة، ولكن الأمر المدهش أنكم شديدو الحرص على أن يسبقنا الإسرائيليون دوما بخطوة أو خطوتين، في مقياس التسلح، وكأنكم تحرصون على تفوقهم عسكريا طوال الوقت..
اندفع مدير المخابرات، يقول في صرامة مماثلة:
- ولعلكم لاحظتم، في هجومهم الأخير هذا، أن قوة السلاح ليست المقياس الوحيد للتفوق العسكري؛ فالرجال خلف السلاح هم المعيار الحقيقي..
ثم انتبه إلى اندفاعه، فتراجع مغمغما:
- معذرة يا فخامة الرئيس..
ابتسم الرئيس، وأشار بيده، قائلاً:
- لا عليك.. إنهم يعلمون.. حروبنا معهم جعلتهم يدركون هذا، منذ زمن طويل..
وهز كتفيه، وهو يشير بيده مرة أخرى، مضيفا:
- ولعل هذا ما يخيفهم منا..
بدا السفير الامريكي عصبيا، وهو يقول:

- مازلت عاجزا عن فهم ما ترمون إليه، يا فخامة الرئيس..
اعتدل الرئيس في مقعده، وقال في صرامة:
- باختصار.. أية دولة في العالم مستعدة لمنحنا كل ما نبتغيه من سلاح وطائرات، مقابل تلك القطعة التي تطالبون بها..
احتقن وجه السفير، وهو يقول في حدة:
أتعلم ما يعنيه أن تفعلوا هذا، يا فخامة الرئيس؟!
أجابه الرئيس بنفس الصرامة:
- بكل تأكيد..
هتف في حدة أكثر:
- إنه شبه إعلان الحرب على الولايات المتحدة.
ضرب الرئيس المصرى سطح مكتبه براحته في قوة، وهو يقول في غضب:
- أهذا تهديد رسمي أيها السفير؟!
تراجع السفير في سرعة، وهو يقول في توتر:
- بل تحذير غير رسمى فحسب يا فخامة الرئيس.
أؤكد لفخامتكم، أن كل حرف قيل هنا، سيتم نقله إلى الرئيس الأمريكي، خلال دقائق قليلة، من مغادرتي مكتب فخامتكم..
أجابه الرئيس في صرامة:
- سأنتظر رد فعله..
وصمت لحظة، وكأنه سيكتفي بالقول، إلا أنه أضاف، في صرامة أكثر:
- وأخبره أن التكنولوجيا، التي تتباهون بها، قد أوجدت وسائل عديدة للاتصال المباشر، وأنني لن أقبل بالاتصال عبر السفراء، في شأن شديد الحيوية والأهمية كهذا..
تمتم السفير، في عصبية واضحة:

- سأفعل..
وعندما غادر مكتب الرئيس، كان وجهه شديد الاحتقان إلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

«إنك لم تتحدث، منذ ما يقرب من الساعة»
نطقها الروسي في هدوء بارد، وهو يبتسم ابتسامة أكثر برودا فالتفت إليه (جو) في غضب، قائلا:
- وماذا تنشد من حديثي؟!
هز (تروتسكي) كتفيه، وقال:
- أن نتشاور علميا على الأقل.
قال (جو) في غضب:
- علميا أم أمنيا..
واصل الروسي ابتسامته الباردة، وهو يقول:
- في حالتنا هذه، لا يوجد فارق كبير..
هتف (جو) في حدة:
- من وجهة نظر من؟!
صمت الروسي بضع لحظات، قبل أن يميل نحوه، قائلاً في جدية:
- اسمع أيها المصرى.. من الواضح أنك قد قضيت عمرك كله في حياة مدنية خالصة، لم تواجه فيها من المخاطر إلا ما يهدد أمنك الشخصي فحسب، أما أنا، فقد نشأت في الاتحاد السوفيتي، قبل انهيار الشيوعية، وتحولنا إلى تابع غير صريح لأمريكا، ومنذ حداثتي، تعاملت مع مشكلات أمنية عديدة..
حتى عندما اتجهت للعلم، كنا نتعامل معه كأمر أمني بحت؛ لأننا كنا دوما في صراع معلومات لا ينتهي، مع أمريكا، التي كانوا يصفونها لنا باعتبارها رمزا للإمبريالية العالمية..

سأله (جو) في عصبية:
- وما علاقة كل هذا بما نحن بصدده..
أجابه، في شيء من الصرامة تجاوز بروده التقليدي:
- علاقته أنك عاجز عن رؤية الموقف على نحو كامل أو متكامل، على الرغم مما يحدث حولك، فحتى هذه اللحظة، مازلت تتعامل مع الموقف، باعتباره أمرا علميا محضا.
سأله (جو) بنفس العصبية:
- أوليس كذلك؟!
تراجع الروسي في بطء، وهو يهز رأسه نفيا، قائلاً:
- لا.. ليس كذلك..
ثم استطرد في حزم:
- ذلك الكائن، صار سلاحا تكنولوجيا، يتنافس الجميع للفوز به، وهذا يعني أنه لم يعد مجرد لغز علمى فحسب، بل مشكلة أمنية ينبغي التعامل معها بمنتهى الحذر..
قال (جو) في غضب:
- وهل سيحل تخديره المشكلة؟!
هز (تروتسكي) كتفيه، وأجاب:
- ربما لا، ولكنه سيوضح بعض الأمور فحسب..
لم ينطق أيهما العبارة، وإنما جاءت على لسان رجل الأمن الذي دخل إلى المكان، وملامحه توحي بخطورة وأهمية ما أتى من أجله، فالتفت إليه كلاهما، وسأله الروسي في لهفة:
- هل من جديد؟!
لوح رجل الأمن بملف في يده، وهو يقول في حزم متوتر:
- بل هناك مفاجأة.. مفاجأة لم تتوقعاها أبدا.. أبدا..
والواقع أنه كان على حق فالمفاجأة غير متوقعة مطلقا..

☆ ☆ ☆

١٢- المفاجأة الكبرى..

لأكثر من خمس دقائق كاملة، لم يستطع (جو)، أو(تروتسكي) النطق بكلمة واحدة، بعد أنهى رجل الأمن قراءة التقرير، الذي أصدره الخبراء، ثم لم يلبث الأول أن هز رأسه في توتر شديد، وكأنما يحاول أن ينفض عنه ما سمعه منذ لحظات، وقال في شيء من العصبية:

- هل يمكنك ان تعيد ما قلته مرة أخرى؟!..

أزاح رجل الأمن التقرير جانبا، وهو يقول في حزم:

- الأمر واضح، إلى الحد الذي تعجزان معه عن استيعابه ذلك الزي، الذي كان يرتديه الكائن، يحوى بالفعل أكثر بكثير مما أمكنا أن نكشفه في المرة الأولى.. إنه ليس مجرد زى فضائي، يمده بالهواء والغذاء، ويضبط معدلات الضغط وقياساته الحيوية.. إنه يحوي أيضا شبكة من وسائل الاتصال، موزعة عبر نسيجه غير التقليدي، والذي تم تصنيعه على نحو يصعب حتى أن تتوصل إليه أرقى تكنولوجيا، قبل ثلاثين عاما من العمل الدءوب على الأقل، ثم إنه يقوم بتخزين كل ما يشبه قرص التخزين المعروف لدينا، ولكنه رخو ونسيجى، بحيث يكون جزءا من الزي نفسه..

ثم هز رأسه في غضب، مستطردا:

- هذا الوغد كان يجمع المعلومات عنا طوال الوقت

همَّ الروسي بقول شيء ما، ولكن (جو) اندفع يقول في حدة:

- ليس بالضرورة.

التفت إليه رجل الأمن في غضب شديد، وكاد ينفجر فى وجهه، بمحاضرة طويلة قاسية، عن خطأ النظر إلى كل الأمور من

منطلق حسن النوايا، وعن ضرورة وضع الأمن فوق كل اعتبار، و..
ولكن الروسي أجهض المحاضرة قبل أن تبدأ، وهو يقول في صرامة:
- وأنا أتفق معك تماما.
التفت إليه رجل الأمن في دهشة مستنكرة، فأضاف بنفس الصرامة:
- لو أنك رائد فضاء، وتنطلق في مهمة كونية طويلة، فمن الطبيعي أن يحوي زيك أو مركبتك وسيلة لتسجيل كل ما تمر به، وحفظ كل لمحة، يمكن دراستها وتحليلها، والإفادة منها بعد عودته إلى كوكبه الأم..
اندفع (جو) يكمل في انفعال:
- ثم إننا لو افترضنا أنه يرتدى هذا الزي للتجسس علينا، فهذا سيعني أن سقوطه في قبضتنا كان متعمدا، حتى يمكنه القيام بمهمته..
بدا رجل الأمن شديد الصرامة والقسوة، وهو يجيب:
- ولا يمكننا استبعاد هذا الاحتمال أيضا..
تبادل (جو) و(تروتسكي) نظرة مستنكرة، قبل أن يقول(جو)، في غضب واضح:
اسمع يا هذا.. أنا كنت طيلة عمري، أكثر تزمتا منك، في هذه الأمور، ولم أكن أؤمن، ولو لحظة واحدة، باحتمال وجود أية مخلوقات عاقلة غيرنا في الكون، وكنت أستنكر بشدة أية محاولة لإقناعي بالعكس.. حتى أفلام الخيال العلمي، التي أشارت إلى هذا، كنت أراها مجرد أفلام هزلية سخيفة، ولكن هأنذا أقف في مواجهة كائن من عالم آخر، كائن ذكى، أكثر تطورا وتقدما منا، من الناحية التكنولوجية على الأقل، وهذا يعني صدمة

عنيفة، لكل ما آمنت به طيلة عمري، ربما لأننى أدركت أننى أمام أعظم كشف علمي، منذ بدء الخليقة، وكان هذا يحتم على، أن أطرح أفكاري القديمة جانبا، وأن أتعامل مع الأمور بفكر جديد، وروح جديدة..

هز رجل الأمن رأسه في عناد، قائلاً بنفس الصرامة:

- هذا يتعارض تماما مع الأمن، والفكر الأمني.

قال الروسي في برود مستفز:

- هراء.

التفت إله الرجل مرة أخرى، على نحو حاد، ولكنه استطرد بلا مبالاة:

- الأمن الجامد هو أمن فاشل وعاجز، ويسهل للغاية تحطيمه واختراقه، وإزاحته من الساحة.. الأمن الحقيقي هو أمن التغيير، والتطوير، والتعامل مع كل أمر جديد بمفهوم جديد، وفكر جديد.

هتف به رجل الأمن، في لهجة اكتسبت شيئا من الشراسة هذه المرة:

- إنك تتحدث عن أمن قومي يا رجل

جاء دور (جو) ليقول في غضب:

- هراء أيضا.

بدأ رجل الأمن شديد العصبية والغضب والاستنكار، وهو ينقل بصره إليه، ولكن (جو) تابع بنفس اللهجة:

- لو أن هذا القادم من كوكب آخر، هو جاسوس، قطع ملايين الأميال، عبر فضاء سرمدى لا نهائي، فقط ليتجسس علينا، أو ليجمع معلومات عنا، بغرض الاستعمار أو الاحتلال، أو أي من تلك الأفكار الخزعبلية، التي ملئت بها قصص الخيال العلمي رءوسكم، فنحن حتما لسنا أمام مشكلة أمن قومي، أو حتى أمن

إقليمي.. إننا أمام مشكلة أمن عالمي.. أمن يحمي البشرية كلها، وليس مصر أو العالم العربي فحسب..
قال (تروتسكي) مكملاً:
- ولو أن الأمر كذلك، فمن الأمريكيين، ومع كل دولة في العالم؛ لأن الخطر يشملها كلها..
هز رجل الأمن رأسه في عنف، وقال في حدة:
- لم نتيقن من هذا بعد..
سأله (جو) مندفعا كعادته:
- وكيف ستتيقنون؟!.. هل ستستجوبون (موجال)؟!..
انعقد حاجبا رجل الأمن، وهو يجيب في شراسة:
- ولم لا؟!
سأله (تروتسكي):
- وكيف ستفعلونها؟!..
نقل رجل الأمن بصره في عصبية، دون أن يجيب، فمال(جو) نحوه، وأجاب بكل صرامة:
- بالعلم.
بدا واضحا، من خلجات الرجل، أن الموقف كله قد أصابه بتوتر شديد، جعله يقول في عصبية:
- ما الذي ترميان إليه بالضبط؟!
كان الروسي هو من أجابه، ببروده المستفز:
- إنه لا سبيل لكم، لبلوغ الحقائق، سوى من خلالنا..
وأضاف (جو) مندفعا:
- أم إنكم ستبحثون عن عالم ثالث، يخبركم ما تريدون سماعه بالضبط؟!
كان من الواضح أنها مواجهة صريحة، لم تحدث على نحو مباشر من قبل مواجهة بين فكرين..

فكر أمني..
وفكر علمي..
الفكر الأمني، كان يبحث حتما عن أسلوب السيطرة على الموقف..
أيا كان هذا الموقف
والفكر العلمي، كان يبحث عما هو أرقى عن المعرفة..
والحقيقة..
عن العلم..
فكر يسعى للسيطرة..
وفكر يسعى للمعرفة..
والسؤال في مثل هذه المواجهة، لا يكون من الأفضل ولكن من الأقوى؟!..
من يملك السلطة؟!..
والقرار؟!..
والاتجاه؟!..
لذا، فقد اعتدل رجل الأمن، وفرد صدره، وشد قامته، واتخذ وقفة عسكرية صارمة، وهو يقول بكل الغلظة:
- ستؤديان عملكما، كما يطلب منكما..
عقد (تروتسكي) ساعديه أمام صدره، وهو يقول:
- وماذا لو لم نفعل؟!..
ساد الصمت على ثلاثتهم لحظات، تبادلوا خلالها نظرات حادة، ملؤها الصرامة والتحدى، قبل أن يقول رجل الأمن، في لهجة عسكرية، توحى بأنها غير قابلة للنقاش:
- ستنفذان الأوامر؛ لأنكما تجهلان كافة تعقيدات الأمر.
قال (جو)، وهو يعقد ساعديه أمام صدره بدوره:

- المشكلة أننا لكي ننفذها، لابد لنا من معرفة وفهم كافة تعقيدات الأمور..
نطق الجزء الأخير من العبارة، مقلدا أسلوب رجل الأمن ولهجته، فاحتقن وجه هذا الأخير في غضب، في حين ابتسم (تروتسكى) ابتسامة باردة، وقال في هدوء مستفز:
- يبدو أننا سنتفق على أمور كثيرة هذا المساء يا صديقي..
نقل رجل الأمن بصره بينهما في غضب بضع لحظات، ثم لم تلبث نظراته أن تحولت إلى صرامة شديدة، وهو يقول في تحد:
- هل تعلمان إذن، أن كافة الخبراء، يتفقون على أنه من المحتمل، والمحتمل جدا، أن يكون كل هذا مجرد خدعة
ابتسم (جو) في سخرية عصبية، وقال
- إذن فقد قطع (موجال) كل هذه الأميال في الفضاء، لكي..
قاطعه في صرامة غاضبة:
- هنا تكمن الخدعة..
انعقد حاجبا (تروتسكي) وهو يسأله في قلق:
- ماذا تعنى بالخدعة يا رجل؟!
التقط رجل الأمن نفسا عميقا، وبدا شديد الثقة والقوة، وهو يجيب في صرامة:
- لقد فحصنا أنسجة هذا المدعى، وجاءت النتيجة حاسمة ثم مال نحوهما، في لهجة بدت أشبه بالتشفى:
- هذا المخادع بشرى.. مجرد بشرى..
وتراجع الاثنان كالمصعوقين لقد كانت بالفعل مفاجأة كبرى جدا..

☆ ☆ ☆

ران صمت مهيب على حجرة مدير المخابرات العامة المصرية، وهو يتطلع مع عدد من كبار معاونيه، إلى شاشة كبيرة، تنقل

إليه ما التقطته كاميرات المراقبة الثابتة، في صالة الوصول بمطار (القاهرة)، ثم لم يلبث أحد معاونيه أن أشار إلى رجل غربى الملامح، وهو يقول:
- (إيتان كرينهال).. أسترالي، ويعمل سرا لحساب المخابرات المركزية الأمريكية، وصل على متن الطائرة، القادمة من من (بلغاريا)، حاملاً جواز سفره الأسترالي، وفحص حقائبه يؤكد أنه لا يحمل أية أسلحة ثم أشار إلى آخر، مكملاً:
- (ريكاردو لوبيز).. برازيلى، قاتل محترف لحساب قسم التصفيات، بالمخابرات الإسرائيلية، وصل على متن الطائرة القادمة من (النرويج)..
قال مدير المخابرات، في تفكير عميق:
- هذا يجعلهم خمسة أفراد.
أوما معاون آخر برأسه، قائلاً:
- بالضبط، وملفاتهم كلهم تشير إلى أنهم يعملون من خلف الستار، إما لحساب المخابرات الأمريكية، أو الإسرائيلية وكلهم لم يحملوا أية أسلحة..
أشار مدير المخابرات بيده، قائلاً:
- الأسلحة ليست مشكلة، فكل سفارة تقريبا تنقل إليها بعض الأسلحة للحماية، عبر الحقائب الديبلوماسية، التي لا يجوز تفتيشها.. حتى نحن نفعل هذا، ورجالنا في عملياتهم الخارجية يحصلون على أسلحتهم، عبر هذا السبيل..
قال معاون ثالث في اهتمام:
- وصولهم على هذا النسق المتزامن، يؤكد أنهم هنا لأمر ما.
وافقه مدير المخابرات بإيماءة من رأسه، وقال:
- ووصولهم في هذا التوقيت بالتحديد، يجعلنا نتوقع هذا الأمر.
سأله المعاون الأول:

- ولكن ماذا يستطيعون فعله، في أمر نحيطه بكل هذه السرية، وبكل وسائل الأمن والتأمين الممكنة
صمت مدير المخابرات بضع لحظات، قبل أن يقول في حزم:
- هم سيحملون الجواب إلينا
ثم اعتدل في مقعده، واستطرد بلهجة قائد حاسم:
- سنضع خمستهم تحت رقابة دائمة، وسنتبعهم كظلهم.. أريد تسجيل كل محادثتهم، وحواراتهم، وحتى همسات نومهم والأهم ألا ينتبه أحدهم لحظة واحدة، إلى أننا نفعل هذا.
وعاد يتراجع في مقعده، ويحك ذقنه بأصابعه، مكملاً وكأنه يحادث نفسه:
- لابد وأن نعلم لماذا أتوا، ولأى شيء يخططون.. لابد ولم ينطق أحد معاونيه بحرف واحد.
على الإطلاق...

☆ ☆ ☆

ساعة كاملة، قضاها (جو) و(تروتسكي)، يتفحصان نتائج تلك الفحوص المدهشة.....
ساعة كاملة، راجعا فيها كل ما درساه وكل ما عرفاه منذ مولدهما..
راجعا الدراسات التشريحية..
والبيولوجية..
وعلوم الإنسان..
وعلم الخلايا..
والجينات..
وحتى أمراض الدم.
وطوال تلك الساعة، لم يتفوه رجل الأمن بحرف واحد لقد لاذ بصمت عجيب صمت كامل تام، لم ينبس خلاله ببنت شفة

ولكن عيناه تابعتهما، بمنتهى الدقة..
وأذناه أنصتتا لكل حرف نطقاه..
ولو يحاول مقاطعتهما قط
ولا حتى بحرف واحد..
وفي النهاية، أطلق (تروتسكي) زفرة طويلة، وهو يقول:
- إنه بشرى بالفعل.
وهنا فقط، حل رجل الأمن عقدة ساعديه، وهو يسأل متوترا:
- حقا؟!..
أشار (جو) بسبابته، قائلاً:
- مع فارق جوهرى.
نهض رجل الأمن، يسأله في صرامة:
- أي فارق؟!..
أجابه الروسي في اندفاع:
- إنه لا يتفق مع بشر هذا الزمان..
انعقد حاجبا رجل الأمن في شدة، وهو ينقل بصره بينهما في عصبية، قبل أن يقول في حدة:
- ما الذي يعنيه هذا؟!..
أجابه الروسي في حماس:
- حتى الجينات الوراثية تتطور مع الزمن، فهناك صفات تكتسب، وتنتقل إلى الأجيال التالية، بحكم سلسلة التطور الطبيعية، وجينات هذا الكائن بشرية بالفعل، ولكنها تبدو أشبه بجينات الإنسان الأول، من حيث سماتها الوراثية..
سأله رجل الأمن، في توتر ملحوظ:
- من أي جانب؟!
تبادلا نظرة صامتة، ثم أجاب (جو) في خفوت:

- نفضل أن نضع هذا في تقرير رسمي؛ لأنه ليس أمرا سهل الاستيعاب..
بدا الغضب على وجه رجل الأمن، وهو ينقل بصره بينهما مرة أخرى، قبل أن يقول في صرامة، لم تنجح في إخفاء غضبه:
- لن تقولا إنه جاء عبر الزمن، أليس كذلك؟!
تبادل (جو) و(تروتسكي) نظرة أخرى، قبل أن يقول الأخير:
- إنه احتمال ليس مستبعدا، نظرا للتشابه الوراثي، والتشابه الشكلي أيضا.
هم رجل الأمن بقول شيء ما، ولكن (جو) اندفع يضيف:
- ولكنه ليس ما نعتقده..
سأله رجل الأمن في عصبية:
- وما الذي تعتقدونه؟!
قال (جو) في حزم:
- الأمر لا يتوقف على ما نعتقده، وإنما على ما نريده..
سأله في عصبية أكثر:
- وماذا تريدان؟!..
أجابه (تروتسكي) هذه المرة في حزم:
- خريطة فلكية.
ابتسم (جو) ابتسامة شاحبة، في حين احتقن وجه رجل الأمن، بمزيج من الدهشة والغضب والاستنكار، وقال في حدة:
- هل سنعود إلى هذا الحديث؟!
أجابه (جو) في تحد:
- إننا لم نتجاوزه أبدا..
شعر الروسي أن الأمور ستتوتر، فضغط على يد (جو)، محاولاً تهدئته، وقال لرجل الأمن:

- مهما كانت تصوراتكم، فذلك الكائن، أيا كانت ماهيته، لن يحتاج إلى الخريطة لتحديد موقعنا، ببساطة لأنه هنا بالفعل وكان يمكنه إرسال إشارة تحديد موقع، عبر زيه شديد التطور والذي يحوي كل ما أشرت إليه..
بدت علامات التفكير على وجه رجل الأمن، في حين أضاف(جو) ولهجته مازالت تحمل تلك الرنة العصبية:
- إنه يحتاج إليها حتما، ليرشدنا إلى المكان الذي جاء منه عاد حاجبا رجل الأمن ينعقدان، في تفكير عميق، و(تروتسكي) يقول:
- وهذا حتما سيصنع فارقا كبيرا..
نقل رجل الأمن بصره بينهما، في شك حذر، ثم قال في بطء:
- الأمر يحتاج إلى قرار، من جهة أكبر:
سأله (جو):
- هل ستعود إلى رؤسائك؟!
أجابه في سرعة:.
- بالتأكيد.
قال (جو) في بطء:
- عظيم.. لدي في هذه الحالة رسالة، أريدك أن تبلغهم إياها
سأله رجل الأمن في اهتمام:
- وما هي؟!
مال (جو) نحوه، وقال في حدة:
- أخبرهم أن أفضل وسيلة، لضمان فشل أية دراسة علمية، هي أن تضعها في يد الأمن..
احتقن وجه رجل الأمن، وهو يتراجع بحركة حادة كالمصعوق، وتابع (جو)، وحدته تتصاعد:

- وأن الولايات المتحدة نفسها، كادت تفقد تفوقها النووى، عندما وضعت أحد جنرالاتها على رأس المشروع ([8])

ازداد احتقان وجه رجل الأمن، وكاد يهم بالهجوم على (جو)، لولا ما حدث..

لقد ألصق (موجال) وجهه بالزجاج، وقال شيئا ما، وهو ينقل بصره بين ثلاثتهم

ونقلت الأجهزة المتطورة ما قاله إلى الشاشات واتسعت عينا (جو) في ذهول، وهو يقرأ ما تعنيه الكلمات والواقع أن الأمر كان يستحق منه هذا الذهول..

بكل معنى الكلمة..

☆ ☆ ☆

١٣- عبر الكون..

على الرغم من حالة التوتر، التي سادت المكان، مع انفعال(جو)، لم يستطع هذا الأخير، لأكثر من دقيقة كاملة، إجابة تساؤلات (تروتسكى) ورجل الأمن، حول ما شاهده على الشاشة..

كان الأمر بالنسبة إليه مذهلاً بحق..

وعندما نجح أخيرا، في تجاوز هذه الحالة، التفت إليهما بوجه شاحب، وهو يغمغم:

- لن تصدقا هذا!.

زادتهما عبارته انفعالاً، فتساءل (تروتسكي) في لهفة:

- ماذا قال بالضبط؟!..

أما رجل الأمن، فقد بدا عصبيا، على نحو يخالف المعتاد منه، وهو يمسك ذراع (جو) في قسوة، قائلا في عصبية صارمة:

- ما الذي أذهلك إلى هذا الحد؟!

عاد (جو) يلتفت إلى (موجال)، الذي تراجع في ثقة عجيبة، فعاد (جو) بعينيه إلى الرجلين، قائلاً

- كان يتحدث عنا..

انعقد حاجبا رجل الأمن في شراسة، وأمسك مسدسه على نحو غريزي، قائلاً في عصبية:

- عنا؟!

أومأ (جو) برأسه إيجابا، وقال بصوت متهدج:

- لقد سألني: أأنت رجل أمن، ونحن عالمان؟!

اتسعت عينا الروسي في انبهار، والتفت إلى (موجال) بحركة حادة، مغمغما في دهشة:

- حقا؟!

أما رجل الأمن، فقد ازداد انعقاد حاجبيه، وبدا أكثر شراسة وهو يسحب مسدسه، قائلاً في حدة:
- قال: إننى رجل أمن؟!
بدا (جو) غاضبا، وهو يهتف به:
- هل ستطلق عليه النار؟!..
صوب رجل الأمن مسدسه إلى الحاجز الزجاجي، مجيبا في قسوة:
- لو اقتضى الأمر.
أمسك الروسي معصم رجل الأمن، وهو يقول:
- لست أظنك سترتكب هذه الحماقة.
ولكن رد فعل رجل الأمن جاء سريعا..
وعنيفا لقد سحب معصمه من يد (تروتسكي) في عنف، ثم دفع هذا الأخير في صدره بمنتهى القوة، ووثب إلى الخلف، مصوبا مسدسه إليه، وصارخا:
- إياك أن تفعلها مرة أخرى.
سقط الروسي أرضا، وحدق فيه لحظات فى دهشة، نهض، قائلاً في غضب:
- إياك أنت أن تكررها.
بدا الأمر لحظة، وكأنهما سيشتبكان معا، لولا أن حدث أمر عجيب..
لقد تحدث ذلك الفضائي مرة أخرى..
تحدث في هدوء عجيب، وهو يشير إلى مسدس رجل الأمن وعلى شفتيه بدت ابتسامة..
أو هو شبح ابتسامة..
وبكل عصبية الدنيا، التفت إليه رجل الأمن أما (جو) و(تروتسكي)، فقد اندفعا نحو الشاشات في لهفة.

وبينما يصوب رجل الأمن مسدسه إلى الكائن في غضب، ترجم (جو) الرسالة، وهو يقول في انفعال:
- أهذا السلاح البدائي ما يستخدم رجال الأمن هنا؟!..
لم يكد رجل الأمن يسمع العبارة، حتى قال في غضب:
- بدائي؟!.. هل يصف مسدسي بأنه بدائي؟!..
لم يبد على (موجال) أدنى تأثر، من المسدس المصوب إليه، في حين قال (جو) في توتر:
- ربما هو كذلك، من حيث أتى!
لوح رجل الأمن بالمسدس، وهو يقول في غضب:
- أخبره أن هذا السلاح البدائي، قادر على قتله في لحظة واحدة، برصاصة بدائية بسيطة.
قال (تروتسكي) في قلق، وهو ينقل بصره بين الفضائي ورجل الأمن:
- من المؤكد أنه لا يقصد السخرية منك..
صاح به رجل الأمن في حدة:
- انقل إليه ما قلته
قال (جو) في عناد:
- اخفض المسدس أولاً..
صاح رجل الأمن في غضب صارم:
- انقل إليه ما قلته.. الآن..
بذل (جو) جهدا حقيقيا؛ للسيطرة على توتره، وهو ينقل العبارة للكائن..
ولدهشة الجميع، ابتسم (موجال)
ابتسم وكأنه يسخر مما سمعه..
وبنظرة تنافس ابتسامة سخرية، تطلع إلى المسدس، ثم رفع بصره إلى رجل الأمن، الذي احتقن وجهه بشدة، وغمغم في

غضب:
- أيها الوغد..
نطق (موجال) شيئا آخر، ترجمه (جو) في سرعة وتوتر:
- هذا حال رجال الأمن دوما.. حتى في وطني كانوا كذلك.
غمغم (تروتسكي) في اهتمام:
- كانوا؟!..
أجاب (موجال)، عبر شاشات الترجمة:
- كانوا مغترين بقوتهم، متغطرسين بسطوتهم، متعالين بأسلحتهم، ولكن الشعب طور وسيلة للقضاء على كل هذا.
لم يكد (جو) ينقل العبارة، حتى قال رجل الأمن في غضب حاد:
- أخبره أنني سأطلق النار على فمه، لو نطق بحرف آخر
قال (جو) في حدة:
- وتخسر كل ما فعله رؤساؤك، للحفاظ عليه؟!
لم يجبه رجل الأمن، ولكنه صوب مسدسه إلى (موجال) في إحكام شديد، في حين واصل هذا الأخير نظرته اللا مبالية، وإن بدأ بصره شديد التركيز على زناد المسدس وفجأة، احتقن وجه رجل الأمن احتقن على نحو مباغت..
وراح يحتقن..
ويحتقن..
ويحتقن..
أما يده الممسكة بالمسدس، فقد ارتجفت..
ارتجفت على نحو عجيب..
وفي كل مرة، كانت الارتجافة أكثر عنفا..
وقوة..
وسرعة

ثم أخيرا، أقلت مسدسه، وكأنه لم يعد قادرا على الإمساك به وهو يهتف في عصبية بالغة:
- أيها الوغد.
سقط مسدسه أرضا، فتألقت عينا (موجال) لحظة، ثم خبتا وهو يتراجع في هدوء، مع ابتسامة ظافرة، في حين بدت دهشة عارمة، على وجهي (جو) و(تروتسكي)، قبل أن يهتف الأخير برجل الأمن:
- ماذا حدث؟!..
صرخ رجل الأمن، في عصبية شديدة، وهو ينحني ليلتقط سلاحه:
- أخبرني أنت.
كان يلمس سلاحه في حذر شديد، وكأنه يخشى شيئا ما به ثم لم يلبث أن أطمئن إليه لسبب ما، فالتقطه بحركة حادة، و(جو) يسأله:
- ماذا أصاب سلاحك؟!..
قال رجل الأمن، وهو يعتدل في تحفز:
- ذلك الوغد فعل به شيئا ما..
سأله (جو):
- مثل ماذا؟!..
أجابه في حدة:
.. أشعله..
تساءل (تروتسكي) مندهشا:
- أشعله.. أشعل ماذا؟!..
بدا رجل الأمن شديد العصبية، وهو يجيب:
- لقد ارتفعت درجة حرارته، حتى لم أعد قادرا الإمساك به..
ثم هتف مستطردا:

- لقد فعلها بوسيلة ما..
هتف (جو) مبهورا:
- كيف؟!..
صرخ رجل الأمن، وهو يلوح بمسدسه في وجه (موجال):
- اساله..
حدق فيه (جو) لحظات في دهشة، ثم أدار عينيه إلى موجال، الذي بدا شديد الصرامة، وهو يقول شيء ما..
جملة قصيرة، قالها في حزم صارم، ثم تراجع إلى الجدار في بطء..
وبسرعة، نقل (جو) بصره إلى الشاشات ثم ارتجف جسده في عنف فقد كانت الترجمة تعنى عبارة قصيرة ومخيفة..
«سيفنى كوكبكم..»
وكانت العبارة تكفي ليرتجف الثلاثة على الرغم منهم في عنف..
بدا غضب واضح، على وجه رئيس الجمهورية، وهو يتابع تلك الأفلام والصور التي التقطتها كاميرات المخابرات العامة المصرية سرا، ومدير المخابرات إلى جواره، يقول:
- ذلك الذي يسلمهم الأسلحة، موظف في السفارة الأمريكية في (مصر)، ويحمل جواز سفر ديبلوماسى..
غمغم الرئيس، وصوته مع لهجته يشفان عن ذلك الغضب في أعماقه:
- كلهم كذلك.
ثم اعتدل في مجلسه، وسأل مدير المخابرات في حزم:
- هل تبينتم هدفهم؟!..
أوما مدير المخابرات برأسه مجيبا:
- بالتأكيد يا سيادة الرئيس..
ثم اتخذ وقفة عسكرية، على نحو غريزى، اعتاده من عمله السابق، وهو يضيف في اهتمام:

- إنهم يستهدفون ذلك الفضائي..
انعقد حاجبا الرئيس في شدة، وهو يتساءل في توتر:
- وكيف يمكنهم معرفة مكانه، أو حتى إنه على قيد الحياة؟!..
قال مدير المخابرات في سرعة:
- الأمريكيون ليسوا هينين يا سيادة الرئيس..
أوما الرئيس برأسه، وغمغم في خفوت، شف عن الاستغراق في التفكير:
- نحن أيضا لسنا كذلك..
استغرق في التفكير بضع لحظات، لاذ خلالها مدير المخابرات بالصمت التام، ثم لم يلبث أن تمتم في حذر:
- إننا نتابع خطواتهم، ونحكم سيطرتنا عليهم، و..
رفع الرئيس عينيه إليه فجأة، وهو يقول في حزم:
- كلا.
تراجع مدير المخابرات خطوة في دهشة، فمال الرئيس نحوه، مكملاً في حزم أكبر:
- لن نسمح لهم بالعمل على أرضنا على هذا النحو..
تردد مدير المخابرات، قبل أن يقول:
- لابد لنا من أدلة كافية يا سيادة الرئيس، قبل أن نوقفهم..
فكما يعلم سيادتكم، توجيه الاتهام إلى جهاز مخابرات، يعنى توجيه الاتهام بالتبعية إلى دولة كاملة، يعمل جهاز المخابرات عبرها، واتهام دولي كهذا يحتاج إلى أدلة قوية حاسمة.
سأله الرئيس:
- وماذا عن حملهم أسلحة غير شرعية؟!
تردد مدير المخابرات لحظة أخرى، ثم أجاب في حذر:
- ليست بالتهمة الكافية.
أشار الرئيس بسبابته، مجيبا:

- يمكننا أن نعتبرها مجرد بداية..
غمغم مدير المخابرات:
- بداية؟!
أجابه الرئيس في صرامة:
- عندما يصبحون في قبضتنا، سأجري اتصالي بالرئيس الأمريكي..
انعقد حاجباه في شدة، وهو يضيف في صرامة، امتزجت بالكثير من الغضب:
- وسيكون اتصالا حاسما.. للغاية..
واعتدل مدير المخابرات مرة أخرى..
وتألقت عيناه..
في شدة..

☆ ☆ ☆

لدقيقة كاملة أو يزيد، ران على تلك القاعة صمت رهيب، والرجال الثلاثة يحدقون في ذلك الفضائي، بعيون اتسعت عن آخرها عين تحمل ذلك المزيج العجيب من الدهشة..
والفزع..
والخوف
والتوتر..
وبشدة..
أما (موجال) نفسه، فقد بدا هادئا أكثر مما ينبغى، وهو ينقل بصره بين ثلاثتهم في بساطة، كما لو أنه قد ألقى عبارة عادية للغاية..

☆ ☆ ☆

«إنه جاسوس.. تماما كما توقعت..»
هتف رجل الأمن بالعبارة، وهو يلوح بمسدسه فى وجه(موجال) في عصبية شديدة، فقال الروسي في توتر:

- اخفض هذا السلاح.. إنك تزيد من توتر الموقف كله..
وهم (جو) بقول شيء ما، ولكن الفضائي أشار إلى رجل الأمن، وهو يقول عبارة أخرى صارمة، جعلت (جو) يبقى كلماته في حلقه، ويلتفت في لهفة إلى شاشات الأجهزة، وهو يقول في انفعال، مترجما العبارة:
- هكذا سيفنى كوكبكم.
قال رجل الأمن في عصبية، وهو يواصل التلويح بمسدسه:
- ماذا يقصد بقوله هذا؟!.. ماذا؟!..
لم يبال (جو)، وهو يسأل (موجال)، عبر الأجهزة..
- ماذا تقصد بقولك هذا؟!..
بدا الفضائي صارما، وهو يشير إلى رجل الأمن، قائلاً:
أمثاله أفنوا كوكبى..
ثم التفت إلى (جو)، مستطردا في لهجة، بدت مريرة للغاية:
- وسيفنون كوكبكم أيضا..
ترجم (جو) العبارات، فاتسعت عينا (تروتسكي) في انبهار، في حين قال رجل الأمن في عصبية:
- ماذا يعني بأمثالنا؟!.. ماذا يعني؟!
غمغم (تروتسكي)، وصوته مازال يحمل ذلك الانبهار:
- رجال الأمن..
التفت إليه رجل الأمن بحركة حادة، وارتفع حاجباه في لحظة، ثم عادا ينخفضان مع مسدسه، وهو يتمتم، وقد انكسر صوته، على نحو ملحوظ:
- نحن.. نحن سنفني كوكبنا.
تابع (موجال) حديثه في حزم عجيب، يمتزج برنة غضب وراح (جو) يترجم كلماته في انفعال:

- إنهم يبدءون بفكرة الحفاظ على الأمن، تماما كما فعلوا في عالمي، ثم يصابون بعدها بحالة من الوسواس القهرى، فيتعاملون مع كل ما حولهم باعتباره مسألة أمنية، ويبالغون في هذا المنظور رويدا رويدا، حتى يصابوا بلوثة أمنية، تجعلهم يسعون لمنع أي شيء وكل شيء، خشية أن يكون فيه خطر ما، ومع هذه اللوثة تتوقف كل معايير الحياة، أو تسير في بطء قاتل حتى المشكلات الكبيرة، لا يتم حسمها بالسرعة الكافية؛ لأن الأمن يحكم كل شيء..

صمت ليلتقط أنفاسه، ولهث (جو) بدوره، مع شدة انفعاله، في حين غمغم (تروتسكي)، وانبهاره يتصاعد:

- رباه!.. إنه صاحب فكر ثورى.

أدار الفضائي عينيه إلى رجل الأمن في مقت، قبل أن يتابع:

- على كوكبى، تفاقمت لوثتهم الأمنية يوما بعد يوم، وصار كل شيء بالنسبة لهم عدوا، حتى الهواء الذي تنظمها حتى يعد قومي يحتملون هذه اللوثة، فبدأت الاضرابات والثورات والانقلابات، وأريقت الدماء أنهارا، وسادت الفوضى العالم كله، وصار العدو الأول هو رجال الأمن، الذين لم يستوعبوا الموقف كعادتهم، وتعاملوا معه بنفس المنظور الأمني الهستيرى، ثم انتبهوا، بعد فوات الأوان، إلى أنهم وفقا للتعداد، أقلية، مهما كان لديها من وسائل القمع والبطش.. وقبل أن يستوعبوا الدرس، كانوا قد انسحقوا وبادوا، وتصاعدت الفوضى إلى حد يستحيل قمعه أو السيطرة عليه، في غياب الأمن..

صمت (موجال) لحظات أخرى، فهتف الروسي في حماس وانفعال:

- إنه ثورى بحق.. رباه!.. يالها من نظرية اجتماعية مدهشة.

أما رجل الأمن، فلم ينطق بحرف واحد، وإن خفض يده أكثر حتى صار مسدسه محاذيا لامتداد ذراعه وساقيه، وبدا مصدوما وهو يغمغم:
- الأمن؟!
بدا (جو) شديد الانفعال، وهو يواصل ترجمة كلمات(موجال)، الذي عاود حديثه، في مرارة واضحة:
- من تبقوا على كوكبي، أدركوا أنها النهاية، فمولوا هذه الرحلة، حتى يعثروا على كوكب آخر، يمكن الحياة على سطحه، وخاصة بعد أن بدأ الفوضويون في استخدام أسلحة شاملة تدمر كل شيء..
سأله (تروتسكي) في انفعال:
- وهل كان هذا الكوكب قريبا؟!..
زفر الفضائي في توتر، عندما ترجم له (جو) العبارة، وأجاب في مرارة شديدة:
- كان المفترض أنه أقرب كوكب إلينا، ولم تنشأ الحياة عليه بعد، وكان المفترض أن نصل إليه خلال شهور قليلة.. كنا سبع مركبات، وفور خروجنا من كوكبي، شاهدنا انفجارات رهيبة على سطحه وخفض عينيه، وحمل صوته كل مرارة الدنيا، وهو يتابع:
- انفجارات تكفي لإفناء الحياة على سطحة تماما..
ران على الجميع صمت مهيب بعد أن ترجم (جو) العبارة الأخيرة، وعلى عكس كل التوقعات، كان رجل الأمن هو أول من تحدث، متمتما في صوت كسير وكأنما أصابته قصة الفضائي بطعنة مؤلمة:
- ألم تجدوا ذلك الكوكب صالحا للحياة؟!..
ترجم (جو) العبارة، فهز (موجال) رأسه، وأجاب في أسى:

- لست أدرى.. لقد كانت مركبتنا الأخيرة في الركب، وذلك الانفجار أحدث ظاهرة عجيبة..
راح يحرك كفيه وذراعيه على نحو انفعالي، وكأنه يصف أمرا مخيفا، ويقول في انفعال شديد:
- فقاعة كبيرة، بدت وكأنها تطارد الركب الفضائي، ولقد حاولنا الفرار منها، ولكنها أحاطت بنا، و...
صمت، ولهث معه الجميع تقريبا، قبل أن يكمل في مرارة:
- ووجدنا أنفسنا هنا.. وأنتم تطاردوننا..
غمغم (تروتسكي) في انبهار شديد:
- فجوة زمنية مكانية..
تمتم (جو):
- أو فجوة بين الأبعاد..
لم يستوعب رجل الأمن هذا أو ذاك، فنقل بصره بينهما، قبل أن يسأل في خفوت، لا يتناسب مع شخصيته:
- ما تفسير ما قاله بالضبط؟!
تمتم (تروتسكي) مبهورا:
- من الصعب حسم الأمر..
وأضاف (جو):
- إلا إذا اتخذنا خطوة حاسمة..
سأله رجل الأمن في اهتمام:
وما هي؟!
أجابه (جو) في حزم:
- أحضر خريطة فلكية
وفي هذه المرة، لم يعترض رجل الأمن على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

١٤- هزيمة..

فركت (إيناس) كفيها بمنتهى التوتر، وهى تتحرك في عصبية، داخل تلك الحجرة، التي وضعوها داخلها، منذ انتقلت إلى هذا المكان..

كانت الحجرة شديدة الأناقة، جيدة التهوية والتأثيث، وعلى الرغم من هذا لم تشعر داخلها بأدنى قدر من الارتياح..

هذا لأنها، من وجهة نظرها، مجرد محبس..

سجن..

وبالنسبة لامرأة مثلها، فالسجن، حتى ولو كان من ذهب خالص، هو سجن.. مكان لا يمكنها أن تغادره أو تتجاوز حدوده..

أضف إلى هذا أنه مكان مجهول تماما بالنسبة إليها على الأقل

مكان لا تدري أين هو بالضبط؟!..

أين يقع، على خارطة (مصر)؟!..

بل وهل يقع بالفعل، ضمن حدودها؟!..

كان هذا الغموض يزيدها عصبية، حتى إنها توقفت بحركة حادة، وصرخت وسط الحجرة:

- ماذا تفعلون بنا؟!

لم تتلق جوابا بالطبع، فكررت في عصبية شديدة:

- أخبروني أين نحن، وماذا تفعلون بنا بالضبط؟!

لم يمض على تكرار صرختها دقيقة واحدة، حتى لنفتح الباب ودخل منه ذلك الهادئ، وهو يقول:

- ماذا أصابك سيدتي؟!

صرخت في وجهه بكل عصبيتها:

- لماذا تسجنوننا هنا؟!

ارتفع حاجباه في دهشة حقيقية، وهو يقول:
- نسجنكم؟!.. من أعطاك هذه الفكرة العجيبة؟!
هتفت في عصبية أكثر:
- أية فكرة عجيبة؟!.. إننى محتجزة هنا، فماذا تسمى هذا إن لم يكن سجنا؟!
استمرت دهشته تغمر ملامحه، وهو يجلس على مقعد مجاور للباب، قائلاً:
- أسميه أسلوب حماية..
صرخت:
- من ماذا؟!..
تطلع إليها الرجل لحظات في صمت، دون أن يفارقه هدوءه، ثم قال:
سيدتي.. هل يمكنك الجلوس قليلاً؟!
أجابته في عناد، وهي تعقد ساعديها أمام صدرها:
- ليس قبل أن تشرح لي ما يحدث..
أشار بيده، قائلاً بنفس الهدوء:
- ليس بإمكاني أن أشرح لك كافة التفاصل يا سيدتي؛ فمعظمها يندرج تحت قائمة سرى للغاية، وهي سرية مطلقة؛ لأنها تتعلق بالأمن القومي المصري..
صرخت وتوترها يتضاعف:
- لقد سئمت هذه العبارات..
انعقد حاجباه فجأة، وهو يقول في صرامة شديدة:
- اجلسى يا سيدتى..
وعلى الرغم من توترها الشديد، وجدت نفسها تطيعه بلا مناقشة، وتجلس على مقعد في مواجهته، وأدهشها أن انخفض صوتها، واكتسب نبرة أشبه بالضراعة، وهي تقول:

- أخبرني.. أرجوك..
ابتسم الرجل ابتسامة هادئة، أزالت الكثير من صرامته، واستعادت ملامحه هدوء صوته، وهو يقول:
- سأخبرك يا سيدتي.. سأخبرك كل ما في استطاعتي.
التقطت أنفاسها، محاولة السيطرة على مشاعرها، في حين مال نحوها، وراح يخبرها بكل ما في استطاعته..

☆ ☆ ☆

بدا الرئيس الأمريكي شديد التوتر والعصبية، وهو يستقبل مدير مخابراته في مكتبه البيضاوي في البيت الأبيض، ويشير إليه، قائلاً:
- لقد أنهيت لتوى محادثة سرية خاصة، مع الرئيس المصرى، ولم يرق لى معظم ما تبادلناه خلالها..
انعقد حاجبا مدير المخابرات الأمريكي، وهو يقول في صرامة:
- كيف يجرءون؟!.. يمكننا أن نوقف صفقات الأسلحة الجيدة لهم، و..
قاطعه الرئيس الأمريكي، في عصبية أكثر:
- لقد ألقوا القبض على فريقك
احتقن وجه مدير المخابرات، وارتجفت الكلمات على شفتيه وهو يهتف في صوت مختنق:
- ماذا؟!.. مستحيل؟!.. ومتى حدث هذا؟!.. لقد أرسلوا تقريرا عبر الأقمار الصناعية، منذ أقل من..
قاطعه الرئيس الأمريكي، مكملاً:
- اثنتي عشرة دقيقة..
غمغم مدير المخابرات الأمريكية، وقد عقدت الدهشة لسانه:
- بالضبط..
مال الرئيس الأمريكي نحوه، وقال في غضب:

- يبدو أنه من الضروري أن تراجعوا ما لديكم من معلومات عن قدرات المصريين، وعن قدراتكم أيضا؛ ففي الأيام الأخيرة بدا لي أن (مصر) أشبه بفخ جرذان كبير، كلما أرسلنا إليها رجالنا، وحتى أفضل العناصر منهم، كان علينا أن نتفاوض ونتنازل لاستعادتهم..

لم تحتمل ساقا مدير المخابرات الأمريكي حمله، فترك جسده يسقط على أقرب مقعد إليه، وهو يسأل في صوت مختنق:

- ماذا طلب المصريون؟!

أجابه الرئيس الأمريكي في عصبية:

- أن نكف عن التدخل في شئونهم..

غمغم مدير المخابرات:

- فقط؟!..

هتف الرئيس الأمريكي في حدة:

- أكنت تريد ما هو أكثر من هذا؟

صمت مدير المخابرات الأمريكي لحظات، ثم غمغم في توتر:

- لو أننا في مكانهم لفعلنا..

غمغم الرئيس الأمريكي في إحباط:

- بالتأكيد..

حاول مدير المخابرات الأمريكية أن يستعيد حبل الثقة، وهو يقول:

- مازال بإمكاننا أن نمنع صفقات الأسلحة الجديدة عنهم

أشار الرئيس الأمريكي بيده، قائلاً في حدة:

- هراء.

احتقن وجه مدير المخابرات، وهو يقول:

- ولم لا؟!..

أجابه الرئيس في حدة:

- لأن الصينيين ينتظرون هذه الفرصة، ويطمحون لها، ولو توقفنا مرة واحدة عن تزويد (مصر) بصفقات الأسلحة المتفق عليها، سيهرع الصينيون لمنحهم أضعافها، وربما بلا مقابل أيضا، فقط ليربحوا ما سنخسره كهذه نحن بحركة..

تراجع مدير المخابرات الامريكي كالمصعوق، وهو يقول:

- حمقاء؟!

أجابه الرئيس الأمريكي في صرامة غاضبة:

- بالتأكيد.. فعلناها مرة، عندما سحبنا تمويل مشروع السد العالي، فانقض السوفيت متلهفين، وغاصوا في المجتمع المصرى لسنوات، ربحوا خلالها المنطقة كلها تقريبا ([9])

وانعقد حاجباه في شدة، وهو يميل نحو مدير المخابرات، مستطردا:

- هل ترغب في تكرار هذا مع الصينيين؟!

أجابه مدير مخابراته في عصبية:

- مطلقا بالتأكيد.

صمت لحظات في إحباط، ثم عاد يرفع عينيه إلى الرئيس، قائلاً:

- لكن، أيعني هذا أننا سنتخلى عن تلك العملية؟

زفر الرئيس الأمريكي في ضيق، وقال:

- يبدو أننا قد أسأنا التصرف في هذا الموقف كله منذ البداية..

سأله مدير مخابراته في دهشة:

- وكيف هذا؟!

لوح الرئيس الأمريكي بيده، مجيبا:

- لقد استخدمنا غطرسة القوة، منذ اللحظة الأولى، ولم نحاول استخدام لغة العقل والتفاهم لحظة واحدة المصريون لا خبرة لديهم بشئون الفضاء، ولكن تلك المركبة سقطت عندهم،

ونحن خبراء في هذا المضمار، ولكن المركبة لم تسقط عندنا، وفي موقف كهذا، كان ينبغي أن نلجأ إلى وسيلة واحدة..
ومال نحو مدير مخابراته أكثر، وهو يضيف في حزم:
- التعاون.. التعاون السلمي الإيجابي..
مضت لحظات من التعنت، قبل أن يومئ مدير المخابرات الأمريكي برأسه موافقا، وهو يغمغم:
- هذا صحيح.
تراجع الرئيس الأمريكي في ضيق، في حين تمتم مدير مخابراته مكملاً:
- ولكن السؤال الآن هو: ماذا يفعل المصريون الآن بما لديهم؟!
وكان هذا هو السؤال بالفعل
ماذا يفعلون الآن؟!..
ماذا؟!

☆ ☆ ☆

لم يتمالك (جو) نفسه من الارتجاف في انفعال، عندما أحضر رجل الأمن تلك الأسطوانة، التي تحوى الخريطة الفلكية الرقمية.
كانت خريطة ثلاثية الأبعاد، يمكنك أن تتجول عبرها، باستخدام منظار خاص، وكأنك داخل مركبة فضائية، تجوب عباب الكون والأهم، أنك تستطيع رؤية كل ما فيها، من أية زاوية تشاء وفي حالتهم هذه، كان هذا شديد الأهمية إلى حد لا يمكن تصوره..
فذلك الفضائى جاء من كوكب آخر..
وربما من مجرة أخرى..
ووفقا لما رواه، هناك احتمال أن يكون قد أتى من بعد آخر..
أو ربما حتى من زمن آخر!!..
والوسيلة الوحيدة، لحسم هذا الأمر، هي تلك الخريطة.

وفي انفعال، هتف (جو):
- دعنا نريه إياها فورا
غمغم (تروتسكي):
- لست أظن هذا سهلاً
التفت إليه (جو)، يسأله في انفعال:
- ولم لا؟!
أجابه في حزم بارد:
- لأنه حتما لا يفهم أجهزة الكمبيوتر في عالمنا، فكيف سيمكنه التعامل معها؟
انعقد حاجبا رجل الأمن، وهو يقول في عصبية:
- ولم تنتبها إلى هذا سوى الآن؟!..
غمغم (جو) في توتر:
- هناك حتما وسيلة ما.
قال رجل الأمن، وعصبيته تتزايد:
- اسمعا.. لقد اتخذت هذا الإجراء على مسئوليتي الخاصة.
قبل أن يكمل عبارته، قاطعه (موجال) بعبارة ما عبارة بدت هادئة..
حاسمة..
وحازمة..
وفي عصبية، هتف رجل الأمن:
- ماذا يريد هذا الشيء؟!
انتقل (جو) في سرعة إلى الشاشات، وترجم في دهشة:
- لماذا لا تشركونني فيما تتجادلون فيه؟!
هتف (تروتسكي)، في دهشة وانفعال:
- هل يريد أن يشترك معنا؟!
وهتف رجل الأمن في حدة:

- مستحيل!
أحنقه أن تجاهله (جو) و(تروتسكى) تماما، والأول يقول عبر الأجهزة المتطورة:
- لدينا مشكلة خاصة بنظم التشغيل
أشار الفضائي إلى الأسطوانة، التي يحملها (جو)، وتساءل في اهتمام:
- أهذه الأسطوانة البدائية، تحوي المعلومات المطلوبة؟
قال (تروتسكي) في دهشة:
- بدائية؟!
ثم بدا شديد اللهفة والحماس، وهو يستطرد:
- ما الذي يستخدمونه إذن في كوكبه؟!
نقل (جو) السؤال إلى (موجال)، الذي أجاب في سرعة:
نوع من الجيلاتين الحيوى.. علماؤنا كشفوا أن سرعة انتقال البيانات، عبر الخلايا الحيوية، أسرع بألفي ضعف على الأقل، من انتقالها عبر الجوامد (*)
كان الانبهار يبدو واضحا، على وجهي (جو) و(تروتسكى)، فهتف رجل الأمن في توتر غاضب:
- هل سيستخدم البرنامج الفلكي أم لا؟!
لم يترجم (جو) هذه العبارة، أو لم يمهله (موجال) وقتا لترجمتها، وهو ينظر إلى رجل الأمن، قائلاً:
- أخبر رجل أمنك أننى قد درست كيفية التعامل، مع تلك الأشياء البدائية..
ثم استطرد، وملامحه تحمل لمحة ساخرة:
- رجال الأمن لا يختلفون في طبيعتهم، مهما اختلفت عوالمهم..
لم يحاول (جو) ترجمة العبارة، وهو يعاون بعض الرجال فى المكان، على نقل شاشة كبيرة، مع جهاز كمبيوتر حديث، إلى

قفص (موجال) الزجاجي، وترك الأسطوانة أمامه، وهو يقول:
- أتعشم أن تفيدنا..
ربما لم يفهم الفضائي العبارة جيدا..
أو لم يستوعبها..
أو ربما تجاهلها تماما..
ولكنه، وفي كل الأحوال، تحسس الأسطوانة في حذر، ثم التقطها، ووقف يتأمل جهاز الكمبيوتر قليلا، في شيء من الامتعاض، قبل أن يسأل:
- أيها زر التشغيل بالضبط؟!
أرشده (جو) إلى كيفية ومكان وضع الأسطوانة، وهو يغمغم:
- بعد إدخالها، سيقوم الكمبيوتر بالعمل كله..
بدأ البرنامج عمله تلقائيا بالفعل، وارتسمت الخريطة الفلكية الرقمية على شاشة الكمبيوتر الكبيرة ولثوان، بدا الفضائي مندهشا لرؤيتها، ثم لم يلبث أن تحسس أزرار الكمبيوتر في حذر، ثم راح يستخدمها لتحريك المشهد، والغوص عبره..
ولقد بدا، في تلك اللحظات، شديد الذكاء بالفعل فعلى الرغم من أنه يتعامل مع جهاز ينتمي إلى كوكب آخر وحضارة أخرى، فقد نجح في فهمه واستيعابه، في سرعة كبيرة..
وبسرعة، اكتسبت أصابعه الثقة والمهارة..
وفي صمت تام، راح الرجال الثلاثة يتابعونه، ويتابعون شاشة الكمبيوتر الكبيرة، وحركة الفضائي عبر الكواكب..
والمجرات..
والفضاء..
ولقد بدا، وهو يفعل هذا، شديد التوتر..
شديد الارتباك..
وشديد العصبية..

ثم فجأة، وبكل انفعاله، التفت إلى (جو)، متسائلاً:
- أين كوكبك هنا؟!
ترجم (جو) العبارة، فهتف رجل الأمن في صرامة:
- إياك أن تخبره.
ولكن (تروتسكي) قال في سرعة:
- هل ترى ذلك النجم في الركن؟!..
يدور حوله كوكب..
هتف رجل الأمن في غضب:
- أيها الأحمق!
قال (جو) في عصبية:
- أتظنه يجهل هذا؟!
صاح رجل الأمن في حدة:
- لقد سأل أيها العبقريان.
كانت صيحته مثيرة للاهتمام بالفعل..
لقد سأل (موجال) عن موضع الأرض، وكأنه يجهله أو كأنه يريد التيقن من شيء ما وهذا بالفعل مثير للاهتمام إلى أقصى حد..
ولكن المثير للاهتمام أكثر، هو رد فعل الفضائي..
لقد حدق في الأرض، على تلك الخريطة الرقمية الفضائية لبضع لحظات، حملت ملامحه خلالها مزيجا عجيبا، من الدهشة والاستنكار، قبل أن يهز رأسه في قوة، هاتفا:
- مستحيل!
بدا (تروتسكي) شديد الاهتمام، وهو يسأل:
ولماذا مستحيل؟!
واصل الفضائى دهشته واستنكاره لبضع لحظات، قبل أن يقول في عصبية واضحة:
- إننى أحفظ تلك الخريطة عن ظهر قلب..

سأله (جو):
- وماذا في هذا؟!
عاد (موجال) يهز رأسه في حدة، وهو يقول:
- لا توجد أية حياة عاقلة، على ذلك الكوكب، الذي تشيرون إليه.
قال (جو) في دهشة:
- بم تصفنا إذن؟!
التفت إليه الفضائي في اضطراب شديد، وعاد يحدق فى الخريطة الفلكية على الشاشة، ويقول، وكأنما يحادث نفسه:
- إننى أعرفه جيدا.. أعرفه منذ طفولتي.. هناك فقط مخلوقات ضخمة، وطبيعة ثائرة غير مستقرة..
غمغم رجل الأمن، في عصبية شديدة:
- أي قول أحمق هذا؟!
أجاب (جو)، ما بين الدهشة والانبهار:
- إنه يصف كوكب الأرض، كما كان منذ ملايين السنين!
قال رجل الأمن، في عصبية أشد:
- هذا مستحيل!
وهنا قال (تروتسكي):
- بل إنه منطقي تماما.. ولدى تفسير علمي له أيضا..
والتفت إليه (جو) ورجل الأمن في سرعة..
فقد كانت عبارته مدهشة..
بحق..

☆ ☆ ☆

١٥- من هناك جاء..

علت ابتسامة واثقة شفتي مدير المخابرات المصرية، وهو يقول لرئيس الجمهورية:

- أظنها أسرع عملية كبيرة في تاريخنا، يا سيادة الرئيس.

وافقه الرئيس المصري بإيماءة من رأسه، وأشار بيده، قائلاً:

- لم يكن ذلك سهلاً..

ابتسم مدير المخابرات، وقال:

- بالتأكيد يا سيادة الرئيس.. أحداث عديدة توالت، في وقت قصير للغاية، حتى أن معظم المواطنين قد لا يشعرون حتى بحدوثها، ولقد أصدرنا بيانات رسمية، تتوافق مع الأحداث وعلى نحو قادر على خداع الصحافة نفسها.

سأله الرئيس في اهتمام:

- وماذا عن الهجوم الإسرائيلى؟!

أجابه مدير المخابرات في سرعة:

- البيان الرسمي قال إنها تحركات إسرائيلية محدودة؛ لمطاردة بعض الفدائيين الفلسطينيين، وحدث خلالها تجاوز للحدود المصرية الفاصلة.

قال الرئيس:

- ولقد أرسلنا برقية احتجاج رسمية للإسرائيليين.

أومأ مدير المخابرات برأسه، قائلاً:

- هذا ما تضمنه البيان الرسمي أيضا يا سيادة الرئيس.

هز الرئيس رأسه في ارتياح، ثم استعاد شيئا من توتره، وهو يقول:

- في حديثي مع الرئيس الأمريكي، أخبرني أن مخابراته قد أبلغته معلومة مؤكدة، تقول: إننا لم نتخلص من الفضائي والمركبة الفضائية حقا، ولكننا مازلنا نحتفظ بهما..

سأله مدير المخابرات في قلق:

- وبم أجبته يا سيادة الرئيس؟!

أجابه الرئيس، مشيرا بيده:

- لم أجب بأي شيء.. فقط طلبت منه في غضب أن يكفوا عن دس أنفهم في شئوننا.

قال مدير المخابرات:

- هذا قد يعني ردا بالإيجاب.

أجابه الرئيس في صرامة:

- أو ردا بالسلب أيضا..

غمغم مدير المخابرات:

- بالتأكيد..

ثم شد قامته، وهو يضيف في حزم:

- ولكن هذا يعني إغلاق الموقف.. مؤقتا على الأقل..

اعتدل الرئيس، ومال نحوه، يسأله:

- ولكن ماذا عن رجالنا؟!.. ما الذي توصلوا إليه، بشأن تلك المشكلة الفضائية؟!..

التقط مدير المخابرات نفسا عميقا، وأجاب:

- وفقا لآخر ما بلغني من معلومات، يبدو أننا نوشك على تلقى مفاجأة يا سيادة الرئيس.. مفاجأة لم نتوقعها.. أبدا..

☆ ☆ ☆

«هذا الفضائي أتي إلينا، من كوكب يبعد عنا ملايين السنوات الضوئية..»

ألقى (تروتسكي) العبارة في ثقة، في تلك اللحظة نفسها، فحدق فيه (جو) ورجل الأمن في دهشة، وقال الأول:
- أي قول عجيب هذا؟!.. السنة الضوئية هي مقدار ما يقطعه الضوء في سنة كاملة، ولو علمنا أن المسافة التي يقطعها الضوء، في الدقيقة الواحدة هي 299792458 مترا، فما بالك بما يقطعه في الساعة الواحدة، أو اليوم الواحد.. هل يمكنك والحال هكذا، أن تتخيل المسافة التي يقطعها خلال عام كامل؟!
أجابه (تروتسكي)، في لهجة تفوح برائحة التحدى:
- وهل يمكنك أنت أن تتخيل، أن تلك الفقاعة، التي تحدث عنها هذا الكائن، قد نقلته عبر الزمان والمكان إلينا..
قال (جو)، في تحد مماثل:
- وحتى لو افترضنا هذا، فكيف تفسر رصده لكوكبنا، ووصفه له على نحو، انتهى منذ ملايين السنين؟!
هز (تروتسكي) رأسه في وقار، وقال:
- لاحظ أنهم على كوكبه، كانوا يرصدون الصور التي تصلهم عبر عدة سنوات ضوئية، أي أنهم في الواقع، يرون عندهم ما خرج من الأرض منذ ملايين السنين، ومن الطبيعي أن هذا ما يرصدونه، في هذه الحالة كان التفسير علميا تماما، ولكن رجل الأمن عجز عن استيعابه، فقال في عصبية:
- أريد تفسيرا يمكنني أن أورده في تقريري..
التفت إليه الاثنان في آن واحد، وهتفا في حدة:
- هذا ما ينبغي أن تورده في تقريرك.
قال رجل الأمن في صرامة:
- تقاريرنا لا تحوي استنباطات واستنتاجات.. إنها تحوى الحقائق فقط..
أشار (جو) بسبابته، قائلاً:

- وهذا ما نحاول التوصل إليه..
عقد (تروتسكي) كفيه خلف ظهره، وقال في حزم:
- إنه الحقيقة.. خذها منى واثقا..
كان الفضائي ينقل بصره بينهما طوال حديثهما، فى توتر ملحوظ، ثم لم يلبث أن تدخل قائلا في حزم:
- لماذا لا تشركونني في محاوراتكم؟!..
ترجم (جو) العبارة، ثم قال في توتر:
- أظنه على حق.
بدا رجل الأمن شديد التوتر والعصبية، وهو يقول:
- هل سنستعين به؟!
سأله (تروتسكي):
- ولم لا؟!
أجابه في سرعة:
- لأنه الـ...
بتر عبارته دفعة واحدة، وانعقد حاجباه في شدة، فأكمل(جو) في عصبية وضيق:
- لأنه الخصم أليس كذلك؟!
أشاح رجل الأمن بوجهه في عصبية، في حين قال (تروتسكي) في دهشة:
- خصم؟!.. المفترض أنه لا خصوم هنا..
أجابه (جو)، وهو يرمق رجل الأمن بنظرة مقت:
- هكذا رجال الأمن دوما.. من لا يعمل لحسابهم فهو خصم فما بالك بكائن قادم من الفضاء الخارجي.
قال (تروتسكي) في حدة:
- هذا تفكير مرضى..
بدا رجل الأمن محنقا، وهو يلتفت إليهما، قائلاً في حدة:

- هل سنواصل الحديث فحسب، أم سنفعل شيئا في هذا الشأن؟!
تبادل (جو) و (تروتسكي) نظرة صامتة، ثم قال الأول في حزم:
- لقد أخبرك زميلي أنه من المفترض ألا يوجد خصوم هنا..
سأله رجل الأمن في توتر:
- ماذا تعنى بهذا؟!
أجابه بنفس الحزم:
- أن نستعين بصديق.
وقبل أن يستوعب الرجل ما يعنيه (جو)، كان هذا الأخير يقول للفضائي، عبر وسائل الاتصال:
- زميلي لديه تفسير لموقفك، أردت أن أمره عليك..
والعجيب أن رجل الأمن لم يعترض، و(جو) يشرح للفضائي نظرية (تروتسكي)، و(موجال) يستمع إليه في انتباه واهتمام شديدين، ثم لم يلبث أن هز رأسه نفيا، في قوة وعصبية..
فغمغم رجل الأمن، في لهجة أقرب إلى الشماتة والسخرية:
- يبدو أنه يرفض نظريتك.
قال الروسي في عصبية:
- إنها التفسير الوحيد
ولكن (موجال) كان يتحدث على نحو عجيب في هذه اللحظة كان يتحدث في انفعال وفى عصبية وكان من الواضح أن ما سمعه قد أثاره بشدة وأنه ينفيه أيضا وبمنتهى الشدة...
وفي اهتمام قلق، سأله (جو):
- ما تفسير ما رصدته في كوكبك البعيد إذن؟!
هز الفضائي رأسه نفيا في قوة، وهتف:
- كوكبى ليس بعيدا كما تتصورون...
انعقد حاجبا (تروتسكي) في شدة، وتساءل في شيء من العصبية:

- هل تعنى أن كوكبك قريب منا؟!
ترجم (جو) الكلمات للفضائي، فأجاب في عصبية:
- لقد أثارني هذا وأدهشني، مثلما أثاركم وأدهشكم، فقد كنت مثلكم، أتصور أن كوكبي بعيد للغاية عنكم، خاصة وأنكم أول وجود عاقل نرصده، ولكن تلك الخريطة أصابتني بارتباك شديد، فكوكبي في الواقع هو هذا...
قالها، وهو يشير بسبابته إلى كوكب ما وبمنتهى اللهفة، اتجهت كل العيون إلى حيث أشار ثم اتسعت عن آخرها في ذهول فقد كان من المستحيل تماما أن يأتى من ذلك الكوكب، الذي أشار إليه من المستحيل تماما...

☆ ☆ ☆

«مستحيل!!..»
هتف (تروتسكي) بالعبارة في ذهول مستنكر، وهو يحدق في ذلك الكوكب، الذي أشار إليه (موجال)، في حين اتسعت عينا (جو) عن آخرهما، وهو يغمغم في انبهار:
- المريخ؟!..
هز رجل الأمن رأسه نفيا في عصبية، وهو يقول:
- كاذب.. لا توجد حياة عاقلة على المريخ.. هذا ما أثبتته كل الدراسات.....
غمغم (تروتسكي)، ولم يفارقه ذهوله بعد:
- في أي زمن؟!..
التفت إليه رجل الأمن في حركة حادة، ولكن (جو) قال، وكأنه يحدث نفسه الذاهلة:
- المريخ.. (مارس) كما يسميه القدامي.. أو (ميروز) كما أسماه هو.. المريخ الذي رصده راصدوه تمثال لوجه شبه بشرى على

سطحه، والذي تشير قنواته إلى أنه كان يوما مأهولاً بمخلوقات عاقلة، لم يكتب لها الاستمرار...
غمغم(تروتسكي) مضيفا:
أقرب الكواكب إلينا، في مجموعتنا الشمسية..
كان من الواضح أن (موجال) يتابع حديثهما، ويستوعب جزءا كبيرا منه، فقد قال عبر أجهزة الاتصال:
- عندما خرجت بعثة الإعمار من كوكبي، كانت تستهدف كوكبكم، باعتباره أقرب الكواكب إلينا، وكانت لدينا خطة لجعله صالحا لحياتنا، خاصة وأنه كان يبرد تدريجيا، ويحوى غلافا جويا مناسبا...
قال (تروتسكي) يحاوره:
- ولكن تلك الفقاعة الزمنية المكانية، قفزت بكم ملايين السنين إلى المستقبل..
أشار (تروتسكى) بيده مكملاً:
- ولكن المركبات الباقية وصلت إلى ...
تمتم (جو) مضيفا:
- إلى حاضرنا...
بدا (جو) محتقن الوجه، وراح عرق بارد يتصبب على وجهه، وهو يقول، في كلمات مرتجفة:
- من هنا كان التشابه، بينك وبين ما وصفناه بالإنسان الأول على الأرض.. وتشابه صفاتك الجينية، مع الصفات البشرية القديمة.
بدا رجل الأمن شديد الاضطراب، وهو يقول:
- مستحيل!.. ما تقولانه مستحيل!.. الحياة على الأرض لم تأت من كواكب أخرى
أجابه (جو) كالحالم:
- ولكنها امتزجت بحياة من كواكب أخرى.

هتف رجل الأمن في عصبية:
- لا يوجد دليل واحد على هذا.
أشار (تروتسكي) إلى (موجال)، وقال:
- وماذا عن هذا الواقف أمامك؟!
تضاعف اضطراب رجل الأمن وتوتره، وهو يحدق في(موجال)، قائلاً:
- لا يمكنني أن أورد هذا في تقريري.
قال (جو) في خفوت:
- أهذا كل ما يهمك؟!..
تمتم رجل الأمن، وقد بدا كرجل بائس ضائع:
- لن يصدقني أحد
غمغم (تروتسكي):
- هذه مشكلتهم..
ولم يجب رجل الأمن هذه المرة..
فقط اتسعت عيناه عن آخرهما..
وجف حلقه في شدة..
وسرت برودة قاسية في أطرافه..
ولما يزيد عن دقيقة كاملة، بدا كالتمثال الرخامي البارد وهو يحدق في (موجال)، ويتساءل في أعماقه:
- أهذا ممكن؟!..
وظل تساؤله حائرا في أعماقه طويلاً بلا جواب..

☆ ☆ ☆

«ومن يمكن أن يصدق هذا..»
غمغم بها مدير المخابرات المصرية، في حضرة رئيس الجمهورية، الذي هز رأسه، قائلاً:
- وأنا الذي كنت أتصور أننى قد واجهت كل عجائب الحياة

أشار مدير المخابرات بيده، قائلاً:
- من الواضح أن الحياة لن تكف عن إدهاشنا أبدا يا سيادة الرئيس
أوما الرئيس برأسه إيجابا، وقال:
- هذا صحيح.
ثم اعتدل يسأل مدير المخابرات في اهتمام:
- ولكن ماذا سنفعل بذلك الفضائي؟!
أجابه مدير المخابرات في سرعة، وكأنه أعد الجواب مسبقا:
- من الواضح، شئنا أم أبينا، أنه أحد أسلافنا، وعلى الرغم من هذا، فنحن مضطرون إلى إخفاء هذه الحقيقة، وكتمانها عن الجميع بلا استثناء..
قال الرئيس في حزم:
- هذا لا يجيب سؤالي.. ماذا سنفعل به؟!..
صمت مدير المخابرات لحظة، ثم أجاب في بطء..
- سنحتفظ به..
اعتدل الرئيس، يسأله في صرامة:
- أتعنى أن نعتقله؟!..
تردد مدير المخابرات لحظة، ثم قال:
- ليس اعتقالاً بالمعنى المعروف، ولكنه سيتعاون مع فريق من كبار العلماء؛ لينقل إليهم كل معلوماته، وكل ما يعرفه عن زمنه، وتاريخه، وتكنولوجيا عصره.. وحتى عن كوكبه، قبل أن يصيبه ما أصابه..
لوح الرئيس بيده، قائلاً:
- وما سيصيبنا، لو واصلنا التفكير بهذا الأسلوب....
ثم مال إلى الأمام، مضيفا في صرامة:
- أليس هذا ما حذرنا منه؟!..

صمت مدير المخابرات طويلاً، قبل أن يجيب في بطء:
- حتى لو علمنا يا سيادة الرئيس، فمع التحديات والمخاطر، التي تحيط بنا، لست أظننا نمتلك الخيار.. لا سبيل أمامنا سوى مواصلة أسلوبنا، بغض النظر عما قد يقودنا إليه زفر الرئيس في توتر، وهز رأسه، وكأنه مضطر لقبول هذا الجواب، ثم عاد يسأل في اهتمام:
- وماذا عن أولئك المدنيين الذين استعنا بهم؟!..
أجابه مدير المخابرات في حسم:
- لقد وقعوا إقرارا، يمنعهم من البوح بحرف واحد يا سيادة الرئيس.
قال الرئيس في ضيق:
المدنيون لا يجيدون كتمان الأسرار..
قال مدير المخابرات في حزم:
- وحتى لو باحوا يا سيادة الرئيس..
صمت لحظة، ثم أضاف بابتسامة هادئة واثقة:
- فمن سيصدقهم؟!..
قالها، واتسعت ابتسامته كثيرا....

☆ ☆ ☆

ثلاثة شهور مرت على ذلك اليوم، عندما سارت (إيناس) مع (جو) في شوارع مدينة (الرحاب)، وهي تتأبط ذراعه وتتشبث به في قوة، وكأنها تخشى أن تفقده، ولاذ هو بصمت تام، وهو يسير معها إلى منطقة المطاعم، حيث جلس لفيف من أصدقائهما يتسامرون وفور رؤيتهما، هتف أحد الأصدقاء في ترحاب:
- (جو).. (إيناس).. أين أنتما؟!.. افتقدناكما كثيرا في الفترة الماضية.. هل سافرتما إلى مكان ما أم ماذا؟!..
لم تجب (إيناس)، وهي تزداد تشبثا ب- (جو) الذي غمغم:

- تقريبا..
كانت أول مرة ينضمان فيها إلى أصدقائهما، في تلك النزهات الليلية، منذ عادا من ذلك الموقف، ولقد لاذ كلاهما بصمت حتى بعد حضور (عماد) و(أشرف)، الذين شاركاه صمتهما في حين راح الآخرون يضحكون ويتسامرون كالمعتاد، حتى هتفت إحدى الصديقات في حماس:
انظروا.. إنه شهاب كبير.. والدتى أخبرتني أن أتمنى أمنية، كلما رأيت واحدا..
أطلق صديق آخر ضحكة كبيرة، وقال:
- وماذا لو أنهم غزاة من كوكب آخر؟!.. ألم تشاهدي فيلم يوم الاستقلال.. أو حرب الكواكب..
انفجر الجميع ضاحكين لدعابته، فيما عدا (جو) و(إيناس)، و(عماد) و(أشرف). فقط أربعتهم تبادلوا نظرة صامتة متوترة، وفي عقل كل منهم يدور سؤال واحد في إلحاح..
تُرى هل هناك من يمكن أن يصدق روايتهم؟!.. هل؟!..

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- دويٌّ..
٢- مفقود..
٣- من؟!..
٤- علامة استفهام..
٥- مفاجأة....
٦- بالقوة...
٧- وسائل الضغط..
٨- البديل..
٩- أسرى..
١٠- حـــوار..
١١- مشكلة لغة....
١٢- المفاجأة الكبرى..
١٣- عبر الكون..
١٤- هزيمة..
١٥- من هناك جاء..

Notes

[←1]

(*) اسم يطلق على إنسان ما قبل التاريخ، والذي تمت العثور على بقاياه وجمجمته وبعض أدواته، منذ أكثر من قرن من الزمان، لتشير إلى ما كان عليه التكوين البشري، في عصور ما قبل التاريخ..

[←2]

(*) مدير المخابرات العامة في منصب وزير سيادى

[←3]

(*) واقعة حقيقية.

[←4]

(*) مقر استمرار الحكومة: منطقة سرية، تعد من أرقى أسرار أية دولة حيث تختفى فيها الحكومة، في حالات الطوارئ القصوى أو الاحتلال لضمان استمرارها، على الرغم من الموقف، حتى انهاء الأزمة

[←5]

(*) خيار (شمشون): مصطلح يطلق على مرحلة يطلق عليها اسم التضحية بالجميع، وهو مأخوذ من قصة (شمشون)، الذي أفقدته(دليلة) في التوراة قوته، عن طريق قص شعره، فطلب من الله أن يعيد إليه قوته لحظة، هدم خلالها المعبد، على راسه وهتف بعبارته الشهيرة (على وعلى أعدائي).

[←6]

مشروع إنتاج الصواريخ المصرية (القاهر والظافر والرائد) بدأ في مصر عام 1960 م، ثم تدخلت المخابرات الإسرائيلية لمنعه، ولكنه تواصل، حتى توقف العمل فيه، عامي 1967 - 1968 م، عقب نكسة يونيو 1967 م

[←7]

(*) حرب (كيبور): هو الاسم الذي يطلقه الإسرائيلية في حرب أكتوبر 1973 م؛ لأنها اندلعت يوم عيد الغفران لديهم...

[←8]

* حقيقة

[←9]

السد العالي: أكبر سدود (أفريقيا) يوجد جنوبي (أسوان)، لتخزين الماء، وموازنة الفيضانات المرتفعة والمنخفضة، وتوليد الكهرباء، وتحسين الملاحة في النيل، وضع الرئيس (جمال عبد الناصر) لحجر الأساس 19 يناير1960م، وبلغت تكاليف بنائه 213 مليون لما يترتب عليه 415 مليون جنيه..

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

ذاكرة الغد

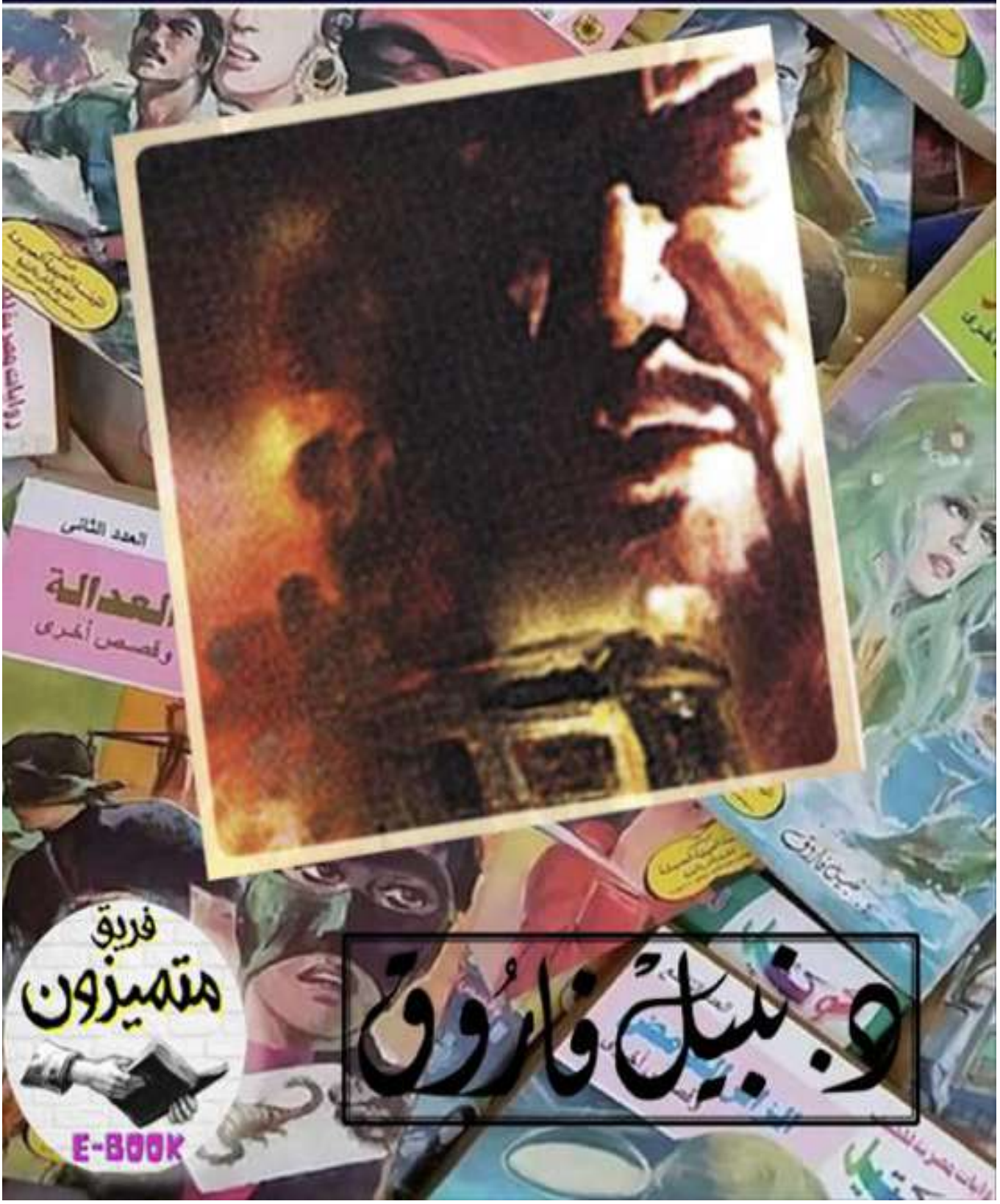

وَنبيل فارُوق

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

ذاكرة الغد

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- رؤيا..

كل شيء كان يسير كالمعتاد..
السيارات تنطلق بسرعة صاروخية، عبر طرقات واسعة طويلة..
المارة كلهم يسيرون داخل تلك الأنابيب الكبيرة الشفافة مكيفة الهواء.. الأطفال يلعبون في حدائق واسعة مغطاة بقبة زجاجية كبيرة، تقيهم تلوث الهواء، ولا تمنع عنهم أشعة الشمس الدافئة، التي يخفف من شدتها لون الزجاج نصف الداكن، وتلك المادة في تركيبه، والتي تمتص الأشعة فوق البنفسجية، وتمنع مرورها، وتعكس في الوقت ذاته الأشعة دون الحمراء..
البيوت متراصة على نحو جمالي متناسق، ولا يزيد ارتفاع كل منها عن خمسة طوابق على الأكثر.
وفي هدوء، وقف هو يتطلع إلى كل هذا، وهو يرتدي رباطي عنقه، اللذين يتميزان بلونيهما المعكوسين، كومضة زمنه، و..
وفجأة، ظهرت تلك السيارة الصاروخية من بعيد..
كانت تتجاوز كل ما أمامها من سيارات في سرعة جنونية غير مألوفة في هذا الزمن، وصفارات التحذير والإنذار تنطلق من كل خط مروري تعبره، دون أية استجابة من ناحيتها..
لم يكن هذا مألوفا في عصره، ولكن ذلك الشعور الذي راوده، لم يكن يرتبط بأية عصور..
لقد تفجر في أعماقه لمرآها شعور عجيب..
شعور بالخوف..
والفزع..
والانزعاج..
شعور جعله يريد أن يركض..

ويركض
ويركض
ولكن ساقيه لم تسمحا له بهذا..
كانتا ثقيلتين
جامدتين..
باردتين..
ولقد غيرت تلك السيارة مسارها؛ لتنطلق نحوه مباشرة..
واتسعت عيناه عن آخرهما..
وبلغ فزعه مبلغه..
وأراد أن يصرخ..
ويصرخ..
ويصرخ..
ولكن تلك السيارة زادت من سرعتها، وانقضت عليه مباشرة، و..
انتفض (حاتم) انتفاضة قوية، وهب جالسا على طرف فراشة، وهو يلهث في شدة، وشلال من العرق البارد يسيل على وجهه، وتثاءبت زوجته (لميس)، وهي تنهض بدورها، متسائلة، في لهجة من اعتادت الأمر:
- أهو ذلك الكابوس مرة أخرى؟!..
أوما برأسه إيجابا، وهو يلتقط كوب ماء من جواره، في محاولة لتهدئة لهاثه العنيف، واعتدلت هي تمسح وجهها في إرهاق، وهي تقول في صوت، لم يفارقه نعاسه بعد:
- وأيضا في ذلك العالم العجيب..
هز رأسه، وهو ينهض من الفراش، قائلاً: -
- ليس عالما عجيبا.. إنه المستقبل..
التفتت إليه في بطء، وهي تسأله في مزيج مدهش، من الصرامة والاستنكار:

- أي مستقبل؟!..
أجاب في بساطة، وكأنه يقر حقيقة واقعة:
- مستقبلنا.
هزت رأسها في استنكار ساخر، وهي تكرر إجابته:
- مستقبلنا!!
ثم حمل صوتها صرامة شبه غاضبة، وهي تضيف مستنكرة:
- هل تتصور أن (مصر)، وحتى بعد ألف عام، يمكن أن تصبح على تلك الصورة، التي تراها في كابوسك.. جميلة نظيفة.. منظمة؟!
سألها، وهو يجلس على مقعد مجاور للنافذة:
- ولم لا؟!..
كررت إجابته مرة أخرى، ولكن في لهجة شديدة الاستنكار، وبصوت مرتفع غاضب:
- لم لا؟!.. ألا ترى ما يدور حولك، أم أنك تقيم في عالم آخر؟!.. ألا تمر بإناس مكتئبين، وتعاني من فوضى مرورية ومن الفساد، الذي صار سمة من سمات البلد، والمحسوبية؟ التي صارت السبيل الوحيد؛ للحصول على ما يفترض أنه حق لكل مواطن؟!..
رفع كفه يدعوها للكف عن حديثها، وقال، وقد تملك نفسه إلى حد ما:
- لا داعي لتكرار هذه الأسطوانة يوميا.
قالت في حدة:
- لو أنك مللت سماعها، فقد مللت أنا ترديدها أكثر.
زفر في توتر، واتجه نحو دولابه، وأخرج ملابسه، وهي تتابعه بعينيها في عصبية، قبل أن تقول، في لهجة لم تفارقها حدتها بعد:

- الساعة لا تزال الخامسة والنصف صباحا
أجابها، محاولاً السيطرة على أعصابه:
- سأقوم بالتمشية قليلاً، قبل الذهاب إلى العمل
قالت في سخرية محتدة:
- التمشية؟!.. أين؟!.. في الشوارع التي أغرقتها مياه أمطار الأمس؟، أم على الأرصفة، التي يندر أن تجد بها نصف متر خاليا، أو سليما؟!..
التفت إليها بنظرة صامتة، وراح يرتدى ثيابه، متحاشيا الدخول معها في منازلة كلامية، إلا أنها لم تصمت، وإنما قالت في توتر:
- مازلت أنصحك باستشارة خبير نفسي.
قالت، وقد عاودتها حدتها:
- هذا لو أنها كوابيس، ولكنه مجرد كابوس واحد، يتكرر طوال الوقت، وربما يعبر عن شيء ما في أعماقك..
راح يرتدى ثيابه في سرعة، مغمغا:
- سأفكر في الأمر..
واصلت، وكأنها لم تسمعه:
- شقيقتى (ماهيتاب) أعطتني رقم تليفون عيادة طبيب نفسى معروف.. حاول الاتصال به.. ربما..
أوما برأسه في آلية، ومد يده يلتقط الورقة من يدها، ويدسها في جيبه، وهو يقول:
- ولكنه كابوس يبدو شديد الوضوح، وكأنني عشته من قبل بالفعل
أطلقت ضحكة عصبية قصيرة، وقالت:
- ألم تنتبه إلى ذلك التناقض في حديثك؟!.. تقول: إنك تسقط في كابوس مستقبلي، ثم تشير إلى أنك قد عشته من قبل!!!..
ثم نهضت من الفراش، مضيفة:

- لا أحد يعيش المستقبل؛ لأنه ببساطة، لم يحدث بعد..
قال في لهجة تشف عن حيرته الطبيعية:
- لماذا إذن يبدو كل شيء واضحا، كما أنه ذكرى قديمة؟
هتفت مستنكرة:
- ذكرى؟!.. من الغد؟!.. ألم تر كيف يزداد تناقصك مع الوقت.. الذكريات تأتى مما عشناه، وليس مما لم نعايشه بعد.
انعقد حاجباه، وهو يقول في ضيق:
- كان مجرد مصطلح؛ لتوضيح ما أعنيه..
قالت، وهي تسير في خطوات عصبية نحو الحمام:
- مصطلح جانبه الصواب..
زفر مرة أخرى، وغمغم، وهو يتجه نحو الباب:
- أنت على حق.
غادر المنزل، هاربا من ذلك الجدل الصباحي، ووقف أمام الباب لحظات في حيرة..
أين يمكن أن يذهب، في هذه الساعة المبكرة؟!.. ضوء النهار بالكاد يتسلل إلى الطرقات، وعمله يبدأ في التاسعة، وعقارب الساعة لم تعلن السادسة بعد!!..
وقف لحظات متوترا، ثم ألقي نظرة على ساعة يده، وكأنما يتمنى أن تسرع عقاربها في سيرها ثم قال:
- لا بأس من تمشية صباحية بالفعل..
هبط في درجات السلم، وتوقف لالتقاط صحيفة اليوم، التي اعتاد عم (محمد) تركها بعد صلاة الفجر، وألقى نظرة سريعة على عناوينها الرئيسية، وهو يواصل الهبوط في درجات السلم ومر بنظرة عابرة على التاريخ في أعلى الصفحة الأولى..
تاريخ الثالث من ديسمبر
قرأ رقم العام، ثم انعقد حاجباه في شدة..

لماذا يبدو له هذا التاريخ مألوفاً؟!..
لماذا؟!..
عاد يقرأ التاريخ كله، ثم طوى الصحيفة، ووضعها تحت ابطه، وهو يغادر المنزل إلى سيارته الصغيرة
ما الذي يعنيه الثالث من ديسمبر؟!..
أو ما الذي يمكن أن يعنيه؟!..
أي شيء سيحدث اليوم؟!..
مضى في تساؤلاته لحظات، ثم لم يلبث أن هز رأسه في قوة، وقال لنفسه في حدة:
- يبدو أنك تحتاج بالفعل إلى طبيب نفسي..
واتسعت عينا (حاتم) في ذهول، وهو يسمع الخبر لقد كان الثالث من ديسمبر يعني شيئا بالفعل وليته ما عناه..
ليته..
هز رأسه مرة أخرى، واستقل سيارته؛ ليقودها إلى تلك الحديقة الكبيرة، المجاورة لمقر عمله، وأدار الراديو، وراح يستمع إلى بعض الموسيقى الهادئة، و..
وفجأة قطع المذيع الإرسال، ليذيع خبرا عاجلاً..

☆ ☆ ☆

«لماذا عدت بهذه السرعة؟!.. »
هتفت زوجة (حاتم) بالعبارة في دهشة، عندما فوجئت به يعود إلى المنزل، بعد أقل من نصف الساعة من خروجه، وأدهشتها أكثر علامات الانفعال الشديد على وجهه، وذلك اللهاث العنيف الذي يكاد يلتهم أنفاسه، والارتجافة العجيبة التي شملت جسده، الممتقع..
- هل أصابك حادث ما؟!..

ألقى جسده على مقعد قريب، وراح يلوح بذراعيه لحظات، قبل أن يجيب بأنفاس لاهثة مبهورة:
- لقد رأيتها.. رأيت ذلك الحادث من قبل..
ارتجف قلبها بين ضلوعها، وهي تضرب صدرها بكفها هاتفة:
- الحادث؟!.. أي حادث؟
عاد يلوح بذراعيه لحظات، قبل أن يهتف:
- حادث القطار..
لم تفهم الكلمة، فرددت في دهشة، تمتزج بالحيرة:
- أي قطار؟!.. منزلنا بعيد للغاية عن محطة القطارات..
هتف بنفس الأنفاس اللاهثة:
- قطار الصعيد.. لقد انفجرت قاطرته، فخرج عن القضبان، وانقلب، واحترق بالكامل.. الضحايا بالمئات..
ثم أخفى وجهه بين كفيه، وبدا وكأنه يبكي، وهو يضيف:
- مئات النساء والأطفال
لطمت صدرها مرة أخرى، وامتقع وجهها، وهي تقول في لوعة مذعورة:
يا إلهي!.. وكيف هذا؟!
بدا لحظات وكأنه ينتحب، ثم رفع رأسه فجأة، وهو يقول في انفعال:
- لقد رأيته..
تراجعت بحركة حادة، متسائلة:
- رأيت ماذا؟!..
عاد يلوح بذراعيه في انفعال عجيب، وهو يجيب:
- ذلك القطار.. رأيت الحادث قبل ان يقع.. إننى أعرف حتى كيف وأين وقع..

حدقت فيه بدهشة متوترة، ورأت عينيه تتسعان، وهو يكمل، وعيناه تحدقان في الفراغ، وصوته يكتسب رنة فزع:
- رأيت حتى ما لم تذكره وسائل الإعلام..
تراجعت مواصلة التحديق فيه، وهي تسأله في توتر شديد:
- (حاتم).. أأنت بخير..؟
لم يبد حتى أنه قد سمعها، وهو يتابع كالمأخوذ:
- أعرف عدد الضحايا.. ذووهم.. بل إننى أعرف.. أعرف.. والتعويضات التي سيحصل عليها..
قالت في حذر قلق:
- ماذا؟!
ردد الكلمة الأخيرة عدة مرات، قبل أن تتسع عيناه عن آخرهما، على نحو عجيب، ويشملهما ذعر شديد، ثم يلتفت إليها، مكملاً في خفوت ملؤه الانفعال:
- أعرف سبب الحادث..
قلت.. إن القاطرة قد انفجرت..
هتف فجأة، وهو يرفع سبابته امام وجهه:
- ليس تلقائيا..
تراجعت في حدة مذعورة، واتسعت عيناها في ذعر، وهي تحدق فيه، قبل أن تسرع إلى الهاتف، قائلة بكل توتر الدنيا:
- سأستدعى طبيبك..
اندفع نحوها، وأمسك معصمها، قبل أن ترفع سماعة الهاتف، وقال في لهجة عجيبة، وكأنه قد أصيب بجنون فعلى:
- ليس الطبيب..
حاولت أن تفلت معصمها في ذعر، وهي تهتف به:
- حاتم.
مال نحوها، يقول في صرامة أخافتها:

- بل الشرطة..
انتفض جسدها في ذعر، وهي تردد:
- الشرطة؟!
بدت عيناه عجيبتين، وهو يقول، وقد عاد يحدق في الفراغ.
- بالتأكيد.. فما حدث لقطار الصعيد ليس مجرد حادث قدرى..
وانتفض جسدها مرة اخرى، وهو يضيف بصوت عجيب:
- إنها جريمة مدبرة.. جريمة قتل..
عاد جسدها ينتفض..
وينتفض..

☆ ☆ ☆

انعقد حاجبا ضابط الشرطة في شيء من الغضب، وهو يميل بكيانه كله نحو (حاتم)، قائلاً في حدة:
- رأيت ماذا يا أستاذ؟!..
أجابه (حاتم) في انفعال:
- رأيت الحادث كله.. لقد زرعوا قنبلة أسفل المقطورة، عند مؤخرتها بالتحديد، وأخرى أسفل القضبان، على مسافة ستة كيلو مترات من مدينة (قنا)، وتم تفجير القنبلتين بوساطة جهاز تحكم عن بعد، وكل هذا لأن..
قاطعه الضابط بصرخة غاضبة:
- هل فررت من مستشفى للمجاذيب أم ماذا؟!..
تراجع (حاتم) كالمصدوم، وهو يردد في ذهول:
- مستشفى ماذا؟!..
التفت الضابط الغاضب إلى امين الشرطة، وهتف به:
- احتجز هذا المختل، حتى نتحرى أمره..
تراجع (حاتم) في صدمة أعنف، وهو يهتف في غضب ذاهل:

- يحتجزني؟!.. وبأية تهمة؟!.. لقد أتيت لأبلغكم بما حدث!.. أهكذا تتعاملون مع المواطنين؟!..
صاح فيه الضابط في حدة:
- تبلغنا بماذا أيها المختل؟!.. لقد صدر بيان رسمي بشأن الحادث، منذ عدة دقائق إنه خطأ السائق، الذي لقي نحبه في الحادث.. زاد من السرعة، و..
قاطعه (حاتم)، وجسده كله ينتفض انفعالا:
- أنت كاذب.
توتر الموقف كله، فور نطقه العبارة، واتسعت العيون كلها غير مصدقة أن مواطنا عاديا يجرؤ على الهتاف بها، في وجه ضابط شرطة، في بلد يسيطر فيه الفكر الأمني على حرية المواطن وحقوق الإنسان نفسها، وانعقد حاجها الضابط المصدوم في غضب شرس، وتحرك المخبرون وأمناء الشرطة نحو (حاتم)، وعيونهم مع قبضاتهم المضمومة تحمل نية التنكيل به، فتراجع هو في عصبية، هاتفا:
- ليس هذا ما حدث..
صرخ فيه الضابط الغاضب، وهو يندفع نحوه، ملوحا بقبضته:
- إنه بيان الحكومة الرسمي.. هل تجرؤ على تكذيب بيان رسمي، أيها الـ..
«كفى..»
انطلق الأمر فجأة بمنتهى الصرامة، من ناحية السلم، فتوقف الكل دفعة واحدة، وكأنما ارتطم الأمر برءوسهم مباشرة وتراجع المخبرون وامناء الشرطة، وبدا عليهم كلهم اضطراب واضح، في حين خفض الضابط قبضته، وبدا أشبه بتلميذ مشاغب، ضبطه مدير المدرسة متلبسا، وقال في اضطراب، لم فارقه عصبية بعد:
- إنه يسخر من بيان الحكومة يا (رشدي) بك..

التفت (حاتم) في دهشة وتوتر، إلى شخص وقور، قوى البنية والملامح والنظرات، وخط فوقه الشيب، على الرغم من أن ملامحه توحي بأنه بالكاد في منتصف الثلاثينات من عمره، يهبط في الدرجات الأخيرة من سلم الطابق الثاني، وهو يقول في صرامة غاضبة:

- أهذه جريمة؟!..

اضطرب الضابط أكثر، وهو يقول مكررا في خفوت:

- لقد سخر من بيان الحكومة..

وصمت لحظة، ثم اندفع قائلاً في غضب:

- ونعتني بالكذب.

شد الوقور قامته، وهو يقول في صرامة أكثر:

- هذه أيضا ليست جريمة.

احتقن وجه الضابط في غضب، والتفت بنظرة حادة إلى(حاتم)، وكأنه يلومه على ما يحدث، ولكن (حاتم) لم ينتبه على هذا، وهو يسأل الوقور في دهشة مبهورة:

- من أنت؟!..

هتف الضابط في حدة:

- أرأيت يا (رشدي) بك!

التفت إليه (رشدي) هذا بنظرة قاسية، وهو يقول في بطء في لهجة أشبه بلهجة من يلقن غيره درسا:

- أنت إذن تفترض أننا لا ينبغي للكل أن يعرفنا، ومن العار أن يسألنا أي مواطن عن هوياتنا ومن نكون!..

ارتبك الضابط، وهو يقول:

- ليس هذا يا (رشدي) بك، ولكن

قاطعه (رشدي)، وهو يلتفت إلى (حاتم) ويمد يده إليه قائلا في هدوء، يحمل نبرة مودة واضحة:

- المقدم (رشدي عبد الهادي).. أمن الدولة..
وعلى الرغم من أن العبارة تمثل لدى الغالبية العظمى من الشعب، كل الخوف والقهر، فقد شعر (حاتم) بارتياح لم فهمه، وهو يمد يده إليه بدوره، قائلاً:
- (حاتم مبارك).. مهندس و..
امتقع وجه ضابط الشرطة، وتراجع المخبرون وأمناء الشرطة في ذعر، في حين هتف الضابط في صوت مختنق:
- (حاتم) من؟!..
أشار (حاتم) بيده، قائلا:
- لست أمتّ إليه بأية صلة.. إنه تشابه أسماء فحسب..
تنفس الجميع الصعداء على نحو ملحوظ، فرمقهم (رشدي) بنظرة استياء، ثم التفت إلى (حاتم) مبتسما، وهو يقول:
- لو أنك تمت إليه، ولو حتى بصلة قديمة، لغسلوا قدميك بماء الورد، قبل أن يرسلوا موكباً لحراستك، حتى باب منزلك..
هز (حاتم) كتفيه، دون ان يجيب، وابتسم ابتسامة شاحبة فمال المقدم (رشدي) نحوه، وقال في صوت خافت:
- لقد كنت أعلم أنك ستأتي..
وانتفض جسد (حاتم) في عنف..
فقد كانت مفاجأة حقيقية..

☆ ☆ ☆

2- جنون..

لهثت زوجة (حاتم) على نحو ملحوظ، وبدت زائغة العينين، أشبه بمن عانى صدمة عنيفة، وهي تقول لأمها، التي تحدق فيها مذعورة:

إنه مجنون.. أنا واثقة من هذا.

حاولت أمها تهدئتها، وهي تربت عليها بيد مرتجفة، قائلة:

- تمالكي أعصابك، وأروِ لي ما حدث.

لوحت الزوجة بيديها، في عصبية بالغة، وهي تجيب:

- يزعم أنه يستطيع معرفة ما سيحدث.. وفي كل مرة يسمع فيها خبرا ما، يؤكد أنه كان يعرفه من قبل..

اتسعت عينا أمها، وهي تغمغم في صوت مبحوح:

- حقا؟!..

هزت الزوجة رأسها في قوة، قائلة:

- كنت أحتمله في البداية، متصورة أنه توتر عصبي، من إجهاد العمل، فقد مروا في شركته بفترة عصيبة، إثر الأزمة الاقتصادية الماضية، ورأيت أنه من واجبي كزوجة أن أحتمله، حتى تمر الأزمة، وينصلح الأمر، إلا أنه تمادي، إلى حد أعجز عن احتماله..

سألتها أمها في جزع:

- هل أساء إليك؟!..

هتفت في عصبية:

- ليس بدنيا، ولكن لم تتم عبارتها بل ولم تحاول حتى هذا..

لقد عادت تهز رأسها في قوة، وكأنها تحاول أن تنفض عنه الأمر كله، ثم نهضت بحركة حادة، أفزعت أمها، وراحت تدور في

المكان، في عصبية بالغة، قائلة:
- مع حادث القطار هذا الصباح، تحولت حالته إلى جنون حقيقي.. إنه يصر على أنه ليس مجرد حادث، بل جريمة قتل..
شهقت أمها، هاتفة في ذعر:
- قتل.. يا ستَّار..
أكملت الزوجة، وكأنها لم تسمعها:
- بل جريمة اغتيال سياسي..
أطلقت الأم شهقة أكبر، ونهضت من مقعدها، تضرب صدرها براحتها، هاتفة:
- الرحمة يا إلهي!..
التفتت إليها الزوجة، وهي تكمل في عصبية:
على الرغم من البيان الحكومي الرسمي، يؤكد في هستيريا أنها جريمة اغتيال مديرة؛ لافتعال حادث قطار، يودي بحياة زعيم سياسي معارض، قبيل الانتخابات الرئاسية القادمة..
ارتجف جسد الأم، من قمة رأسها، وحتى أخمص قدميها وهي تقول:
- لقد جن.. من المؤكد أنه جن.
مالت الزوجة نحوها، وبدت عيناها زائغتين، وهي تقول:
- ولم يكتف هذه المرة بهستيريته.
بدا صوت أمها منفعلاً مبحوحا، وهي تقول:
- ماذا فعل أيضا؟!..
اتسعت عينا الزوجة، وهي تجيب، وكل حرف من كلماتها يرتجف على شفتيها:
- ذهب لإبلاغ الشرطة..
انتفض جسد الأم في عنف، من ذهول الصدمة، ونافست عيناها عينى ابنتها في اتساعهما، وكل منهما تحدق في وجه الأخرى

ذاهلة، قبل أن ينتفض جسد الأم مرة أخرى، هاتفة بكل الانفعال:
الطلاق.. ليس هناك من حل سوى الطلاق..
تراجعت الزوجة في بطء، وبدا على ملامحها أن ذلك الحل لم يدر بخلدها قط، على الرغم من كل ما حدث، ورددت في بطء مذعور مستنكر:
. - الطلاق؟!
هتفت امها:
- لا يوجد حل سوى هذا.. جنونه ليس من النوع الشخصي الذي يمكن احتماله، أو حتى السعي لعلاجه. إنه جنون شديد الخطورة، سيورطه، وربما يورطك معه، في مشاكل سياسية وأمنية، نحن في غنى عنها..
على الرغم من تحديق ابنتها فيها، بعينين شديدتي الاتساع، بدا وكأنها لم تسمع حرفا واحدا من عباراتها الاخيرة، وهي تردد في خفوت:
- الطلاق؟!
سألتها أمها في عصبية:
- ألديك حل آخر؟!
مرة أخرى، حدقت فيها الزوجة، بعينين زائغتين ذاهلتين ولم تنطق بحرف واحد
أي حرف. على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

«خبرتي علمتني أن الصمت نوع من الاعتراف..»
حدق (حاتم) في ضابط أمن الدولة أمامه في حيرة، وأدهشته ابتسامته الهادئة الواثقة، التي لا تتفق مع عبارته، فسأله في شيء من الحذر:

- اعتراف بماذا؟!..
مال الرجل نحوه، وقال، دون أن يتخلى عن ابتسامته:
- كنت تعرف ما حدث.. أليس كذلك؟!..
تطلع إليه (حاتم) لحظات في دهشة، قبل أن يهز رأسه، قائلا:
- (رشدي) بك.
قاطعه الرجل وقد اكتسب صوته لمحة من الصرامة:
- كنت تعرف الحقيقة، وليس ما أعلنه البيان الرسمي سرت قشعريرة باردة في جسد (حاتم)، وهو يحدق فيه، مغمغما في انفعال واضح:
- الحقيقة!!.. تقول الحقيقة!.. إذن فلم يكن حادثا..
تراجع (رشدي) في بطء، دون أن يرفع عينيه عنه، ولاذ بالصمت بضع لحظات، فيما بدا وكأنه يتفحصه في اهتمام، قبل أن يسأله:
- إنه أمر يتعلق بأمن الدولة، فكيف أمكنك معرفته؟!..
لم يبد أن (حاتم) قد استوعب السؤال، أو حتى سمعه، وهو يسأله بدوره في انفعال:
- كان اغتيالاً سياسيا.. أليس كذلك؟!
صمت (رشدي) لحظات، وهو يتطلع إليه، ثم لم يلبث ان هز كتفيه، وأجاب في بطء:
- ربما هذا ما تطلقونه عليه..
ثم مال نحوه بحركة مباغتة، وبدا صارما قاسيا، وهو يضيف:
- أما نحن، فنطلق عليه اسم (العمل الإرهابي).
تراجع (حاتم) بحركة حادة، واتسعت عيناه في دهشة مستنكرة، وهو يقول:
- عمل إرهابي؟!.. نحن؟!.. أين ذهب تفكيرك بالضبط؟!
بدا (رشدي) أكثر قساوة، وهو يقول:

- بل أين ذهب تفكيركم أنتم، عندما خططتم لهذا؟!
انتفض (حاتم)، وهو يهتف في عصبية:
- ماذا تقصد بصيغة الجمع هذه؟!
لم يجبه الضابط، وهو يتطلع إليه في صرامة، فسأله في حدة:
- ولماذا قلت: إنك كنت تنتظرني؟!
صمت الضابط لحظات أخرى، ثم اعتدل يجيب في صرامة:
- لم أكن أنتظرك بالتحديد، ولكنني كنت أنتظر من سيأتي؛ ليعترف بما فعله الباقون..
هتف (حاتم) في حدة:
- أي باقين؟!
صاح (رشدي) في وجهه، في غضب صارم:
- لا تحاول إقناعي بأنك علمت فحسب مثل تلك لا يمكن أن نعلمها فحسب، إلا لو كنا جزءا منها..
هتف (حاتم)، وهو يلوح بيده: -
- ولكن هذا بالفعل ما..
قاطعه (رشدي) بحركة مباغتة، قبض بها على معصمه بأصابع من فولاذ، وهو يميل نحوه بشدة، قائلاً في غضب:
- هل تفضل الأسلوب الأصعب؟!
حدق فيه (حاتم)، في مزيج من الدهشة والذعر، وغمغم في صوت مبحوح:
- تصورت في أسفل أنك أكثر تحضراً..
قال الضابط في صرامة:
- إننا نتحدث عن أمن الدولة، لا عن علاقة ودية..
هز (حاتم) رأسه، قائلاً في عصبية:
- ولكنكم ستدركون فيما بعد، أن هذا الأسلوب يستحيل أن يوصلكم، إلى الحقائق التي تنشدونها؛ لأنكم بالعنف ستحصلون

على ما تريدون سماعه فحسب..
صرخ (رشدي)، في غضب هادر:
- لست هنا لتلقى محاضرة، في فن الاستجواب، أنت هنا لتجيب أسئلتي فحسب..
لا أحد سيستمع إليه..
لا أحد..
لقد كانت تخشى أن يظنوه مجنونا وليس أبدا إرهابيا..
شعر (حاتم) بتوتر شديد يسري في كيانه، وبعصبية تسيطر على مشاعره، وهو ينكمش في مقعده لقد كانت زوجته على حق وياليته استمع إليها!!..
إنه يجلس الآن في مواجهة الوزير، الذي تجمد ذهنه كله دفعة واحدة، وحدق في وجه ذلك الضابط، واتسعت عيناه عن آخرهما الوزير.. نعم.. لقد أدرك الآن فقط لماذا شعر بالمودة، مع أول لقاء بينهما؟!..
ولكنه لا يستطيع الإفصاح؛ فلو فعل، فإنه سيبدو للجميع أكثر جنونا ألف مرة..
فما أدركه الآن أمر مذهل وبكل المقاييس..

☆ ☆ ☆

انهمك ذلك المسئول السياسي في مراجعة عدة ملفات شديدة الأهمية، تتعلق بترشيحات فترة الانتخابات القادمة، وراح يؤشر بقلمه تأشيرات سريعة، على تلك الورقة، أو ذلك الملف، عندما دخل رئيس طاقم أمنه الخاص مكتبه، وهو يقول:
- سيدي، هل تسمح لي بمقاطعتك قليلاً.
- سيدى
رفع المسئول عينيه إليه في عصبية، وهو يقول
- ألم أخبرك أننى منشغل للغاية

بدا رئيس الأمن شديد التوتر، وهو يقول:
- ولكن الأمر هام للغاية
تطلع إليه المسئول في دهشة قلقة، قبل أن يسأله:
- إلى أي درجة من الأهمية؟!
رفع رئيس طاقم الأمن يده، إلى أقصى ارتفاع يمكنها بلوغه قبل أن يخفض صوته، مجيبا:
- إنه أمر يتعلق بحادث القطار
تفجر توتر عنيف مباغت، في وجه المسئول، قبل أن يقول في عصبية:
- لقد صدر بيان رسمي، في هذا الشأن
قال رئيس الطاقم بنفس التوتر:
- إنه مجرد بيان رسمي
وضع المسئول قلمه على الأوراق في توتر، وهو يسأله:
- هل من جديد؟!..
تقدم منه رئيس طاقم الأمن، وهو يحمل ورقة صغيرة، مجيبا:
- تطور لم يكن في الحسبان
وضع الورقة أمامه، وتراجع عدة خطوات، فجذبها المسئول إليه، وطالعها في سرعة متوترة، قبل أن يغمغم في صوت مختنق، من فرط التوتر والانفعال:
- متى حدث هذا؟!..
أجابه رجل الأمن، وهو ينافسه توترا:
- منذ ساعتين تقريبا، وهو يجلس مع (رشدي) الآن
انعقد حاجبا المسئول، وهو يردد متسائلاً في توتر:
- (رشدي)؟!..
أجابه رجل الأمن في سرعة:

(رشدي عبد الهادي).. المقدم (رشدي)، ضابط أمن الدولة، في قسم شرطة الـ
قاطعه المسئول في عصبية:
- ولماذا انتظر (رشدي) هذا ساعتين كاملتين، قبل أن يخبرنا بالأمر؟!..
أجابه رجل الأمن:
- إنه لم يخبرنا حتى الآن..
تراجع المسئول في مقعده بحركة حادة، هاتفا في غضب مستنكر:
- لم يخبرنا؟!..
أسرع رجل الأمن يفسر الموقف، قائلاً:
ضابط القسم هو من أبلغ الأمر، فالرجل ذهب ليتقدم ببلاغ رسمي، وبدا أشبه بالمجنون، ثم تدخل (رشدي)، واصطحبه إلى مكتبه في الطابق الثاني، ولما طال بهما الوقت، أبلغ الضابط الأمر، ليخلي مسئوليته..
انعقد حاجبا المسئول في شدة، وراح يحدق في الورقة أمامه في دهشة بالغة، قبل أن يرفع عينيه إلى رجل الأمن ثانية قائلا:
- ومن أين أتى ذلك الرجل بما لديه؟!..
هز رجل الأمن رأسه، قائلاً:
- لم نعلم بعد.. لقد قال للضابط إنه يعلم فحسب..
عقد المسئول حاجبيه أكثر، وهو يقول في حدة:
- هراء..
ثم التقط نفسا عميقا، في محاولة فاشلة لتهدئة أعصابه، قبل أن يتابع في صرامة:
- أجر اتصالك بضابط أمن الدولة هذا، واطلب منه أن يغلق ذلك الملف لديه، ويحيل الأمر كله إلى..

لم يكمل عبارته، وبدا شديد الاستغراق في التفكير والحيرة، فتساءل رجل الأمن في حذر:
- إلى من؟!..
تطلع إليه المسئول في شيء من الحيرة، وتراجع يحك ذقنه بأصابعه في عصبية شديدة، قبل أن يسأل:
من من أمن الدولة يتعاون معنا في هذا الأمر؟
تلفت رجل الأمن حوله، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد، قبل أن يميل نحو المسئول، مجيبا في صوت، أقرب إلى الهمس:
- العقيد (هشام).
تساءل المسئول، في اهتمام متوتر:
- (هشام حمزة) ؟!..
أومأ رجل الأمن برأسه إيجابا، وغمغم:
- بالضبط
التقط المسئول نفسا آخر أشد عمقا، ثم قال في حزم، أراد عبثا أن يخفي به توتره:
- اتصل برقمه الخاص.. فورا
وتحرك رجل الأمن في سرعة..
وتوتر..
وقلق..
الكثير من القلق..

☆ ☆ ☆

فرك (رشدي عبد الهادي) عينيه في إرهاق واضح، وفرد ذراعيه إلى أقصاهما على جانبيه، قبل أن يعتدل مواجها (حاتم)، الذي بدا أكثر منه ارهاقا، وهو يغمغم في توتر:
- هل يمكنني العودة إلى منزلي؟!..
هز (رشدي) كتفيه، وقال:

- أخبرني ما أريد معرفته، وستعود إليه فورا..
قال (حاتم) في عصبية:
- ليس لدى ما أخبرك به.
سأله (رشدي) في اهتمام:
- وماذا عن واقعة الاغتيال؟!..
أجابه (حاتم) في عصبية أكثر:
- إنه مجرد حادث قطار..
تراجع (رشدي) في دهشة، وهو يقول:
- ولكنك قلت إن...
قاطعه (حاتم) في حدة:
- هوس.. مجرد هوس وهلوسة.. لقد أصدرت حكومتكم بيانا رسميا، فمن أنا لأخالفهم..؟!
تطلع إليه (رشدي) لحظات في صمت، ثم مال نحوه كثيرا، وهو يقول في بطء:
- عجبا.. ولكن (رمزي الجيار، كان ضمن ركاب القطار بالفعل
ردد (حاتم) وكأنه يسمع الاسم لأول مرة:
- (رمزي الجيار)؟!
اعتدل (رشدي)، وهو يقول في حزم:
- لقد سافر دون إعلان، على الرغم من أنه أكبر زعيم للمعارضة في (مصر)، والمنافس الأخطر للرئيس، في الانتخابات القادمة..
ردد (حاتم) في شرود، وكأنه يستعيد ذاكرة ما:
- (رمزي الجيار) ؟!..
ثم رفع عينيه إلى (رشدي)، مستطردا في هلع:
- لقد اغتالوه لهذا السبب..
عاد (رشدي) يميل نحوه في حركة حادة، قائلا في صرامة:
- قلت (اغتالوه).

هز (حاتم) رأسه في قوة، وهو يقول في انفعال:
- لقد تذكرت فجأة أن...
ثم بتر عبارته دفعة واحدة، واتسعت عيناه، وهو يحدق في عيني (رشدي) اللتين حملتا التماعة ظافرة، جعلت (حاتم) يتراجع، ويطبق شفتيه بشدة، فابتسم (رشدي) وقال:
- أخبرني بالضبط ما تذكرته..
صمت (حاتم) بضع لحظات، وهو يلعن تسرعه، الذي جعله ينطق العبارة، ثم لم يلبث أن هز رأسه، قائلاً في عصبية:
- ليس أمرا تذكرته بالفعل، ولكن..
انعقد حاجبا (رشدي)، وهو يقول في صرامة:
- هل سنعاود ذلك الحديث السخيف عن الرؤى؟!
زفر (حاتم) في عصبية، وهو يقول:
- ما الذي تريد سماعه بالضبط؟!
أجابه (رشدي) في صرامة:
- الحقيقة..
قال (حاتم) في حدة:
- إنها لا تروق لك..
أجابه (رشدي) في غضب:
- لأنها ليست الحقيقة..
تراجع (حاتم)، وقلب كفيه في استسلام، وهو يقول:
- ليس لدى سواها..
بدا الغضب واضحا، على وجه (رشدي) وهو يقول:
- اسمع يا أستاذ (حاتم)، على الرغم من أنك تبغض كل حرف انطق به معك، فإنني أحد أهدأ رجال أمن الدولة، وأكثرهم صبرا واحتمالاً، ولو انتقلت هذه القضية إلى ضابط آخر، فلن يمكنني أن أضمن لك أي شيء..

ومال نحوه بشدة، عبر مكتبه، مضيفا بكل الحزم والصرامة:
- أي شيء على الإطلاق..
امتقع وجه (حاتم)، وهو يحدق فيه في ارتباع، قبل أن يغمغم:
- ولكنك ترفض أساليب القهر والضغط..
اعتدل (رشدي) في حركة حادة، وهو يقول:
- ومن أدراك؟!..
أجابه في سرعة:
- انا أعرف تاريخك كله، و..
قبل أن يتم عبارته، انعقد حاجبا (رشدي) في شدة وسحب مسدسه في حركة حادة سريعة، وصوبه إلى رأسه ومع المفاجأة، أطلق (حاتم) شهقة قوية للغاية..

☆ ☆ ☆

ارتجفت كل ذرة من كيان (حاتم)، وهو يحدق في فوهة المسدس، المصوبة إليه، و..
وفجأة، انطلق شيء ما، من أعمق أعماق عقله..
فوهة أخرى كانت مصوبة إلى رأسه.
فوهة تختلف..
في زمن يختلف
فوهة مغطاة بزجاج قرمزي داكن، وخلفها وجه قاس شبه آدمي..
ثم انطلقت من تلك الفوهة حزمة من الاشعة، وسطع الضوء في شدة، و..
حزمة لها نفس اللون الأرجواني، مع صوت أشبه بفحيح أفعى هائلة..
انتفض جسده في عنف، وعاد عقله إلى زمنه، وهو يحدق في فوهة مسدس (رشدي)، الذي أكمل في صرامة أكثر:

الجماعات المتطرفة وحدها تجمع تاريخنا؛ سعيا وراء الانتقام منا يوما..
انفرجت شفتا (حاتم) لحظة، موحية بأنه سيقول شيئا ما، إلا أنه لم يلبث أن أطبقهما في قوة ربما لأنه وجد أنه ما من جدوى مما سيقول لا أحد سيصدقه..
لا أحد حتما..
«كيف عرفت تاريخي؟!»
«أجب..»
هتف بها (رشدي)، بكل ما لديه من صرامة، وهو يجذب إبرة مسدسه، فقال (حاتم) في عصبية:
- لن تصدقني.
أجابه (رشدي) في حدة:
- هات ما لديك، واترك لي مهمة تقييمه
التقط (حاتم) نفسا عميقا، وحاول في صعوبة أن يزدرد لعابه الجاف، قبل أن يقول في توتر:
- يوما ما، سيصبح تاريخك معروفا للجميع..
زمجر (رشدي)، قائلاً:
تحدث عن الآن.
أكمل (حاتم)، وكأنه لم يسمعه:
لأنك ستصبح وزيرا
على الرغم مما في القول من روح عبثية، تراجع (رشدي) بحركة حادة، وخفض فوهة مسدسه، وهو يغمغم في دهشة:
- وزير؟!..
أوما (حاتم) برأسه إيجابا، وعاود عبثا محاولة ازدراد لعابه وهو يقول:
- نعم.. وزيرا للأمن.

غمغم (رشدي)، في حذر متوتر:
- تقصد وزيرا للداخلية؟!..
هز (حاتم) رأسه نفيا، وهو يجيب:
- بل للأمن.. المسمى نفسه سيتغير، بعد عشرة أعوام من الآن..
حدق فيه (رشدي) بضع لحظات، في دهشة مستنكرة، قبل أن يرفع فوهة مسدسه في وجهه مرة أخرى، قائلاً في غضب:
- أهذه وسيلتك للإفلات؟!..
غمغم (حاتم) في دهشة:
- الإفلات؟!..
اجابه في حدة:
- نعم تفلت من التهمة..
. التظاهر بالجنون؛ حتى
هتف (حاتم) في توتر شديد:
- أية تهمة؟!.. لقد جئت إلى هنا لتحذيركم، فاعتبرتونى جميعا متهما، ولم يحاول أحد منكم التحقق مما قلته..
ثم هز رأسه في شدة، هاتفا
- لهذا الأسلوب العقيم، سيتغير نظام الأمن كله..
انعقد حاجبا (رشدي) في شدة، وحدق فيه لحظات، بوجه لا يحمل أية انفعالات واضحة، إلا أنه لم يلبث أن خفض فوهة مسدسه، وأعاده إلى غمده، وهو يقول:
- هل تعلم؟!.. إنك على حق في بعض ما تقول..
تنفس (حاتم) الصعداء، وسأله في لهفة:
- هل صدقتني اخيرا؟!
أجابه (رشدي) في صرامة:
- ليس للأمر علاقة بتصديقك أو تكذيبك.. إنني أتحدث عن التحقق مما تقول..

رفع سماعة الهاتف، وهو يسأله في اهتمام:
- قلت إنهم صنعوا كل هذا لاغتيال (رمزي الجيار،.. أليس كذلك؟!..
هز (حاتم) رأسه نفيا، وقال:
- لم أذكر اسم الرجل، ولست حتى اعرفه.. كل ما قلته إنه لم يكن حادثا عرضيا، وإنما كان نوعا من الاغتيال السياسي..
انعقد حاجبا (رشدي)، وهو يقول:
- لم تكن تقصد (رمزي الجيار) بالتحديد إذن.
أجابه (حاتم) في حزم:
- أكرر انني أجهل اسم الشخص المقصود
أدار (رشدي) رقم الهاتف، ثم اعتدل يقول لمحدثه عبره:
صباح الخير يا (حازم).. أخبرني.. من من المعارضة كان يستقل ذلك القطار؟!..
استمع في اهتمام، وراح يدون بضع كلمات على ورقة امامه، قبل أن يعتدل في حركة حادة، هاتفا:
- (أمين ضياء) ؟!.. أأنت واثق؟!
اصطدم الاسم بأذن (حاتم)، وترك صدى هائلاً..
صدى دوى في مخه كله نعم.. إنه (أمين ضياء).. الرئيس السابق لحزب المستقبل المعارض..
لقد اغتالوه، حتى لا يكشف ما لديه من أدلة ومستندات، على تورط عدد من كبار رجال الحزب والحكومة، في فضيحة فساد كبرى..
«إنه هو..»
هتف (حاتم) في انفعال جارف، فالتفت إليه (رشدي) بنظرة مندهشة متوترة، بدا توترها واضحا في أصابعه، التي تمسك الهاتف، وهو يقول لمحدثه:

- لا يا (حازم).. شكرا.. هذا يكفي..
انهي المحادثة، وازداد انعقاد حاجبيه، وهو يفكر في عمق.
في حين قال (حاتم) في انفعال:
- كان يستكمل بعض المستندات؛ لإدانة شبكة فساد كبرى، عندما قرروا التخلص منه، و..
التفت إليه (رشدي) في حركة حادة، يقاطعه:
- (أمين ضياء) لم يعلن أي شيء عن هذا.
نهض (حاتم) نصف نهضة، متشبثا بإطار المكتب، ومال نحو (رشدي) قائلاً في انفعال:
- كان يهم بإعلان هذا، ولكنهم..
قاطعه (رشدي) في حدة:
- كفى.
ثم نهض من خلف مكتبه، مكملاً في غضب:
- من أنت حتى تحضر إلى هنا، متظاهرا بأنك تعرف ما لا يعرفه الآخرون..؟
قال (حاتم)، وجسده وصوته يرتجفان في انفعال:
- ليس ما لا يعرفونه، ولكن ما لم يعرفوه بعد.
صرخ فيه (رشدي) في غضب:
- وكيف تعرفه أنت؟!..
امتقع وجه (حاتم)، وتراجع في مقعده، وبدأ شديد الحيرة، وهو يغمغم في خفوت:
- لست اعلم.. صدقني.. لست أعلم.
صرخ (رشدي)، وهو يلوح بسبابته في وجهه، في انفعال جارف:
- وتريدني ان أصدقك..؟!
تضاعفت علامات الحيرة على وجه (حاتم)، وهو يغمغم:
- ربما..

قاطعه (رشدي) في انفعال حاد:
.لا يوجد ربما.. إما أنك تعلم ما تعلمه؛ لأنك جزء من مؤامرة الاغتيال المزعومة، أو أنك مصاب بنوع من جنون الاضطهاد، أو انفصام الشخصية..
انفرجت شفتا (حاتم)، ليجيب بعبارة ما، لولا أن ارتفع فجأة صوت صارم، يقول:
- انا العقيد (هشام حمزة)، من امن الدولة.
مد (رشدي) يده يصافحه في توتر، قائلاً:
- أنا أرجح الاحتمال الثاني
أدار (رشدي) عينيه في حركة حادة، إلى مصدر الصوت، والتفت إليه (حاتم) في توتر، فوقع بصراهما على رجل أنيق المظهر، صارم الملامح، استطرد في لهجة صارمة:
- أعرفك جيدا بالطبع يا سيادة العقيد..
نقل (حاتم) بصره بينهما في توتر، في حين رمقه (هشام) بنظرة صارمة، وقال:
- معذرة يا سيادة المقدم.. لقد تمت تنحيتك عن هذه القضية..
تفجرت الدهشة في وجه (حاتم)، في نفس اللحظة التي هتف فيها (رشدي) في استنكار:
- تنحيتي؟!.. ولكنها ليست قضية بعد.. إنني أستمع فحسب إلى المهندس (حاتم)، و..
قاطعه (هشام) بمنتهى الصرامة:
- لقد أصبحت قضية، منذ هذه اللحظة.. قضية امن دولة عليا، وتحت إشرافي شخصيا..

وهنا.. هنا فقط، أدرك (رشدي) انه أمام مؤامرة.. مؤامرة أمن دولة.. عليا..

☆ ☆ ☆

«لا يا أمي.. لن أطلب الطلاق..»

هتفت زوجة (حاتم) بالعبارة في حدة، وهي تواجه أمها التي تراجعت في دهشة مستنكرة، هاتفة بدورها:

- لن تطلبيه؟!.. ولكنه الحل الوحيد لما يحدث يا بنيتي..

هتفت الزوجة في عصبية:

الحل الوحيد هو أن اتخلى عن زوجي في محنته؟!.. أي حل هذا؟!.. حل تقوم به زوجة جاحدة خائنة؟!.. ماذا تطلبين منى بالضبط يا امي؟!

ثم ارتفع حاجباها في تأثر، وهي تواصل، وقد اختلفت لهجتها تماما:

- (حاتم) كان دوما رفيقا حنونا مهذبا منذ عرفته، ولقد عشت معه أياما مفعمة بالسعادة، قبل أن..

صمتت لحظة، فهتفت أمها:

- قبل أن يصاب بالجنون.

انتفضت الزوجة في غضب، هاتفة:

- قبل ان يمر بهذه الازمة.

ثم هزت رأسها، وكأنها تحاول اقناع نفسها بما تقوله، وهي تردف:

- إنه ضغط العمل.. بالتأكيد هي ضغوط العمل المتواصل انعقد حاجبا أمها، وهي تتطلع إليها بعدم رضى، قبل أن تقترب منها، قائلة، وكأنها تحاول استمالتها:

- ماذا تعرفين عن (حاتم) هذا؟!..

التفتت إلى أمها في دهشة واستنكار، ولكن الأم تابعت في إصرار:

- لقد التقيت به في (شرم الشيخ)، وبهرك أسلوبه وتهذيبه وتطورت علاقتكما في سرعة، وعاندت الأسرة كلها حتى،

تتزوجيه..
ثم هتفت مكملة في عصبية
- إننا حتى لم نلتق أسرته أبدا..
بدا صوت الزوجة مترددا متوترا، وهي تغمغم:
- حاتم أخبرني أن أسرته كلها قد..
قاطعتها أمها في عصبية:
- لقيت مصرعها في حادث.. أليس كذلك؟!
أومأت برأسها في صمت شاحب، فتابعت الأم بنفس العصبية:
- وماذا عن باقي الأسرة؟!.. ماذا عن أعمامه، واخواله، وحتى أقاربه من الدرجة الخامسة؟!.. أين هم؟!.. لماذا لم نلتق بواحد منهم، منذ عرفناه، ولو بالمصادفة؟!..
بدا صوت الزوجة شديد التردد والتوتر، وهي تقول:
- لقد أخبرني أن...
عادت امها تقاطعها في حدة:
- ارأيتِ؟!.. لسنا نعلم عنه إلا ما أخبرنا به.. فقط ما أخبرنا هو به.. من أدرانا ما هو السبب الحقيقي، الذي يخفى من اجله أسرته؟
امتقع وجه الزوجة في شدة، وهي تتساءل، في صوت أشد شحوبا من وجهها:
- هل تعنين انهم ربما كانوا في السجن مثلاً؟!.
مالت أمها نحوها بشدة، مجيبة:
- أو في مستشفى للأمراض العقلية
- وتراجعت الزوجة بعينين متسعتين، وقد ازداد وجهها امتقاعا وشحوبا- وبشدة..

☆ ☆ ☆

لم يصدق (حاتم) أبدا ما يحدث له..

لم يصدق كيف تطورت الأمور على هذا النحو، بسبب زيارة بسيطة لقسم الشرطة..
ربما لم يصدقوه
وربما تصوروا أنه مجنون..
ولكن لماذا يتحول كل هذا إلى قضية أمنية؟!..
لماذا؟!..
لماذا؟!..
لو أنهم تصوروا أنه مجنون؛ لأصبحت هذه قضية طبية
قضية فحص..
وتشخيص
وحسم..
وربما نقل إلى مستشفى الأمراض العقلية
ولكن لماذا الأمن؟!..
«لماذا؟!»
هتف بالكلمة الأخيرة في عصبية، وهو يجلس أمام مكتب (هشام حمزة)، في مبنى مباحث أمن الدولة الرئيسي، فرفع هذا الاخير عينيه إليه في برود قاس، وهو يقول:
- من أجل الحقيقة..
هتف (حاتم) في توتر وانفعال:
- أية حقيقة؟!.. لقد تصورت أننى أعلم شيئا، فأخطأت وتصورت أن الأمن يهتم بمعرفة ما لدى، وقمت بدوري كأي مواطن شريف، لينتهي الأمر بي إلى هذه المأساة!!!.. |
فأية حقيقة هي التي تتحدث عنها؟.
مال (هشام) نحوه، وهو يقول في صرامة شديدة:
- الحقيقة التي تعرفها، وترفض الإفصاح عنها..
انتفض جسد (حاتم) من فرط الانفعال، وهو يقول:

- أية حقيقة بالضبط؟!.. ما أخبرتكم به في البداية لم تصدقوه، وما قلته بعدها رفضتموه، فعن أية حقيقة تبحثون؟ وعن..
قاطعه (هشام) بان ضرب سطح مكتبه براحته في قوة، وقد انقلبت سحنته على نحو مخيف، وهو يصرخ في شراسة عجيبة:
- الحقيقة.
انكمش (حاتم) في مقعده، واتسعت عيناه في خوف، في حين نهض (هشام) من خلف مكتبه في حركة حادة، ودار حوله ليواجهه، وهو يردف في لهجة مخيفة:
- قصة الرؤيا المستقبلية هذه لن تخدع طفلاً صغيرا يا هذا هناك حقيقة أخرى، أوصلتك لما قلته.. أمور تعرفها، وتدور حولها، حتى لا تفصح عنها..
ثم جلس على طرف مكتبه، ومال نحو (حاتم)، حتى كاد يلتصق به، وهو يقول:
- حقيقة سأعرفها، وسأنتزعها منك، شئت أم أبيت وانعقد حاجباه، حتى بدا أشبه بشيطان آدمي، وهو يضيف:
- وبأية وسيلة ممكنة..
حدق (حاتم) في وجهه لحظات، و.. وفجأة، بدا له أن هذا الوجه مألوف لقد رآه من قبل رآه قبل أن يلتقي به هناك في مكتب (رشدي عبد الهادي)..
رآه في..
«سيحاكمونك بتهمة إساءة استخدام السلطة..»
تراجع (هشام) بحركة حادة، وقد أدهشه ذلك التحول المباغت، وانتزعه من ذلك الدور الشيطاني الذي يلعبه، في حين تلاشي كل أثر للخوف والتوتر والانفعال، من وجه (حاتم) وبدا شديد الحماس، وهو يكمل:

- تجاوزاتك ستبلغ حداً تعافه النفوس، وستبلغ حد وقتل من تستجوبه، ولكن نظام الأمن سيحمي فسادك لأعوام، تتمادى خلالها في غيك، ثم..
بدا (هشام) شديد العصبية، وهو يسأله:
.. ثم ماذا؟!..
أجابه (حاتم) في سرعة، وبنفس الحماس:
- ثم ستكشف هذه القضية فسادك وتجاوزاتك.. وستكشف فساد الجهاز الامني كله، وبسببها سيتم عزلك من منصبك، وستحاكم مع عدد من المسئولين الفاسدين محاكمة علنية، و..
صرخ فيه (هشام) فجأة:
ثم عاد يميل نحوه، قائلاً في شراسة وحشية:
- لا تطلق لأحلامك وتمنياتك العنان.
قال (حاتم)، دون ان يبدو عليه أثر للخوف:
- ليست أحلاما.. إنه مستقبلك..
وصمت لحظة، قبل ان يضيف في حزم:
- هل تريدني ان اخبرك التوقيت بالتحديد؟!..
وعلى الرغم من موقفيهما، وما يوحيان به، من حيث ميزان القوى، عاد (هشام) يتراجع بوجه شاحب، لم يلبث أن استعاد احتقانه، وهو يقول في شراسة غاضبة:
- أي دور تحاول لعبه بالضبط يا هذا؟!..
أجابه (حاتم)، في صرامة لا تتناسب مع موقفه:
- الحقيقة..
انقض عليه (هشام) فجأة، وقبض على مقدمة سترته، وجذبه منها في عنف وقسوة، وهو يصرخ، على بعد سنتيمترات من وجهه:
- الحقيقة سأنتزعها منك الآن، وسأجعلك تتوسل لتخبرني بها..

استعاد (حاتم) خوفه وتوتره، وهو يغمغم:
- هذا بالضبط ما ستحاكم عليه..
والشراسة والوحشية، و..
ضم (هشام) قبضته في عنف، وحملت ملامحه كل القسوة..
«هذه البطاقة تثير حيرتنا يا سيادة الحقيق..»
دخل أحد الضباط إلى الحجرة بهذه العبارة، قبل ثانية واحدة من اندفاع قبضة (هشام) نحو أنف (حاتم)، فتراجع وهو يسأل في عصبية:
- ولماذا تثير حيرتكم؟!.. إنها إما صحيحة أو مزيفة..
تطلع (حاتم) في توتر إلى بطاقة الرقم القومي الخاصة به، والتي يمسكها ذلك الضابط في يده، وهو يجيب (هشام):
- المدهش أنها صحيحة تماما، وحتى الخبراء لم يجدوا بها لمحة تختلف عن أية بطاقة عادية، ولكن...
سأله (هشام) في توتر، شاركه فيه (حاتم):
- ولكن ماذا؟!..
أجابه الضابط في ارتباك شديد:
- لا وجود لبياناتها عبر نظام الكمبيوتر كله.. لا شهادة ميلاد، او شهادات تخرج أو غيرها.. باختصار، هذه بطاقة رجل لا وجود له.. إطلاقا..
وكان من الطبيعي والحال هكذا، أن تتسع عيون (هشام) و(حاتم)..
معا

☆ ☆ ☆

٤- مخابرات..

امتقع وجه ذلك المسئول الكبير في شدة، وهو يطالع تلك الرسالة العاجلة، التي أرسلها إليه العقيد (هشام)، ورفع وجهه إلى رئيس امنه، متسائلاً في هلع، لا يتناسب مع منصبه الرفيع:

- ما الذي يعنيه هذا؟!..

هز رئيس أمنه كتفيه في حيرة مضطربة، وهو يقول:

- نظم صنع بطاقات الرقم القومي عسيرة وشديدة التعقيد، بالإضافة إلى أن أجهزتها رفيعة المستوى التكنولوجي، ومن المستحيل أن يستطيع مزور عادى مجرد الحصول عليها..

سأله المسئول في توتر:

- ألا يمكن تزويرها؟!

تردد رئيس أمنه لحظات، قائلا:

- أهذا ممكن أم غير ممكن؟!

واصل رئيس أمنه تردده لحظات أخرى، قبل أن يقول في توتر:

- غير ممكن على المستوى الشعبي.

انعقد حاجبا المسئول في غضب، مع ذلك الجواب الهلامي فتابع رئيس أمنه في تردد واضح:

- وليس على المستوى الدولي..

تراجع المسئول بحركة حادة، متسائلاً في انزعاج:

- ماذا تعنى؟!..

أجابه في سرعة:

- أعنى انه أمر مستحيل، لمزور عادي؛ لأنه لا يحتاج إلى براعة فائقة فحسب، ولكن إلى مهارة تكنولوجية غير عادية وإلى أموال

طائلة، يستحيل أن يحصل عليها، ولا تساوى النتائج هذا في النهاية، ولكن بالنسبة لدولة أخرى..
قاطعه المسئول، وهو يشهق في ذعر:
- دولة أخرى؟!
تابع رئيس أمنه، دون أن توقفه الشهقة:
- الدول تمتلك تلك التكنولوجيا بطبيعة الحال، وهذا يجعلها قادرة على تزييف كل الهويات الرسمية، و..
عاد المسئول يقاطعه في هلع:
- هل تعنى أن ذلك الرجل، يعمل لحساب دولة أخرى؟

تزايد تردد رئيس أمنه هذه المرة، قبل أن يقول في خفوت:
- ليس من الضروري ان تكون أخرى..
اتسعت عينا المسئول في ارتياع، وسأله بصوت شاحب:
- ماذا تعنى؟!..
هز الرجل كتفيه، وقال:
- ربما يعمل لحساب مخابراتنا.
امتقع وجه المسئول بشدة، وهو يتراجع منكمشا في مقعده الفخم الكبير هذه المرة.
يعمل لحساب المخابرات؟!..
هذا يعني انهم قد كشفوا أمره، وهذه كارثة لو كشفوا أمره، وأمر ما فعله، فسيعني هذا نهايته، وفتح كل ملفاته القديمة، و
«لا.. مستحيل!!..»
هتف بها في قوة، وكأنه يحاول إقناع نفسه بها، فتطلع إليه رئيس أمنه في دهشة، وهو يردد متوترا:
- مستحيل؟!..
صاح فيه المسئول في عصبية:

- نعم.. مستحيل!.. المخابرات لا شان لها بالشئون الداخلية.. إنها ليست مسئوليتها..
أجابه رئيس امنه في حذر:
- المخابرات جهاز سيادي، يتبع رئيس الجمهورية مباشرة، وسينفذ أوامر فخامته، في أي شأن كان..
عاد وجه المسئول يمتقع، وهو يغمغم:
- ولكن.. لو أنها مخابراتنا، فلماذا..؟!
أسرع رئيس طاقمه يهتف منزعجا:
- أنا لم أجزم بهذا يا سيدي.. كان مجرد احتمال فحسب..
هتف المسئول:
- ولكنه تفسير مثالي لتلك البطاقة التي يحملها..
انعقد حاجبا رئيس أمنه لحظات، قبل أن يغمغم:
- ربما كان هذا صحيحا..
وصمت لحظة أخرى، قبل أن يشد قامته، مضيفا في حزم:
- ولكننا لا نعلم هذا..
سأله المسئول في اضطراب:
- ماذا تريد أن تقول؟!

مال رئيس أمنه، مستندا براحتيه على سطح مكتبه، وهو يقول:
- من الناحية الرسمية، نحن نستجوب مشتبها فيه، في واقعة إرهاب، ووفقا لقانون الطوارئ، حتى مع تعديلاته، الأخيرة، نحن نسير على منهج قانونيا..
قال المسئول في عصبية:
- لست أفهم..
اعتدل رئيس امنه، وهو يقول:
- (هشام حمزة) سيفهم..

نطقها في غموض..
كل الغموض..

☆ ☆ ☆

«ماذا تريد أن تقول بالضبط يا (رشدي)؟!.. »
ألقى الطبيب الشرعي الشاب السؤال، في فضول واهتمام شديدين، على المقدم (رشدي)، الذي انعقد حاجباه، وتراجع في مقعده، وهو يغمغم في توتر:
- لست أقول شيئا.. فقط أريد أن أعرف..
ابتسم الطبيب الشاب، متسائلاً:
- تعرف ماذا؟!..
أجابه في جدية متوترة:
- سبب وفاة (أمين ضياء).
ارتفع حاجبا الطبيب الشباب في دهشة، وهو يحدق في وجه(رشدي)، قبل أن يطلق ضحكة قصيرة، ويقول:
- يمكنك ان تسأل أي رجل شارع في (مصر)، وسيخبرك أن سبب الوفاة هو حادث القطار
انعقد حاجبا (رشدي)، وهو يقول في عصبية:
- حادث القطار هو الوسيلة، ولكنني أسأل عن أسباب الوفاة..
ارتفع حاجبا الطبيب الشاب، وابتسم، وهو يقول:
- مدهش.. ثقافة لا تتناسب مع ضابط امن دولة..
سأله (رشدي) في ضيق:
- وكيف يفترض أن تكون ثقافة ضباط أمن الدولة..
ضحك الطبيب الشاب، قائلا:
- ثقافة اعتقال
لم ترق الدعابة له، فقال في شيء من الصرامة:

ضابط أمن الدولة، بحكم سعة تعاملاته وتنوعها، يفترض فيه ان يمتلك ثقافة واسعة..
حاول الطبيب الشاب أن يقول شيئا، ولكن (رشدي) واصل في صرامة:
- وهذا لا يجيب سؤالي..
تراجع الطبيب الشاب، وتطلع إليه لحظة، قبل أن يقول:
- أنت على حق، فحادث القطار وسيلة، يمكن ان يحدث الموت معها بسبب اصطدام الرأس بجسم صلب، أو السقوط عليه، أو على جسم حاد، أو من سقوط الركاب على بعضهم البعض، أو حتى بأزمة قلبية، من جراء الصدمة..
سأله (رشدي) في اهتمام:
- وأيها ينطبق على (أمين ضياء).
صمت الطبيب الشاب لحظة في تردد، قبل ان يجيب في خفوت:
- لست أدرى.
انعقد حاجبا (رشدي) في دهشة، وهو يقول:
- ليس هذا الجواب الذي توقعته.
اعتدل الطبيب الشاب، وقال في سرعة، وكأنه يدافع عن نفسه:
- هل تدرك عدد ضحايا حادث القطار هذا؟!.. هل تدرك عدد القتلى والمصابين؟!.. إننا في مثل هذه الكوارث لا تفحص كل قتيل على حدة، ولا نحدد أسباب وفاة كل منهم متفردا إننا نكتب الحادث في خانة سبب الوفاة فحسب، وإلى جوارها عبارة تقول: عن سبب الوفاة إصابة، نتج عنها هبوط حاد في الدورة الدموية..
مال (رشدي) نحوه، يقول في صرامة:
- وماذا لو أن سبب الوفاة يخالف هذا؟!..

قلب الطبيب الشاب كفيه، وقال في توتر:
- ولماذا؟!..
كلهم أصيبوا، ولقوا حتفهم نتيجة للإصابة..
صمت (رشدي) لحظات، وهو يرمقه بنظرة غامضة، قبل أن يقول:
- وماذا؟!.. كلهم أصيبوا، ولقوا حتفهم نتيجة للإصابة..
- وماذا لو طلبت منك إعادة فحص جثة (أمين ضياء)، على نحو منفرد، وتحديد أسباب وفاته بدقة؟!..
بدت الدهشة على وجه الطبيب الشاب، قبل أن يتساءل في حذر:
- بصفة قانونية؟!..
هز (رشدي) رأسه نفيا في بطء، وهو يجيب في حزم:
- بل بصفة شخصية..
ظل كلاهما يتطلع إلى عينى الآخر لحظات في صمت، قبل ان يغمغم الطبيب الشاب في خفوت:
- هذا قد يكلفني وظيفتي..
غمغم (رشدي) بدوره:
- قانون العمل في (مصر) لا يسمح بفصل أحد..
مضت لحظات أخرى من الصمت، قبل أن ينهض الطبيب الشاب من مقعده ويقول في حزم:
- ينبغي ان نسرع إذن، فسيتم تسليم الجثث كلها لذويها صباح الغد.
وتنهد (رشدي) في ارتياح عجيب، تشوبه لمحة من التوتر، في مزيج مدهش عجيب وفي أعماقه تفجر سؤال كبير ترى هل سيسفر هذا عن جديد؟!..
هل؟!..

☆ ☆ ☆

لم يشعر (حاتم) في حياته كلها، بذلك المزيج من الإرهاق والتوتر، مثلما شعر بهما في تلك اللحظة، وهو يغلق عينيه في ركن مكتب (هشام حمزة)، وذلك الضخم يقف إلى جواره ويمسك كتفه في قوة، وكأنه يحاول منعه من الفرار، على الرغم من وجوده داخل المبنى الرئيسي لأمن الدولة، في مدينة (نصر)..

كان (هشام) منهمكا في حديث تليفوني هامس، وكل ملامحه تشف عن خطورة هذا الحوار السري، فحاول هو على الرغم من سخافة الموقف كله أن يسترخى، وأن يحظى ولو بدقيقة أو دقيقتين من النوم..

«وجودك هنا لم يعد آمنا..»

نطقها حارسه الخاص في حزم، وهما يقفان على قمة ذلك النصب التذكاري الكبير، الذي أقيم في نهاية النصف الأول من القرن الحادي والعشرين، فرفع عينيه إليه في توتر، وقال بلهجة تشوبها نبرة عصبية:

- لن أتخلى عن مسئولياتي بهذه السهولة..

قال الحارس الخاص، في حزم أكثر:

ولكن ابتعادك صار ضرورة حتمية..

تزايدت عصبيته، وهو يجيب:

هذا بالضبط ما ينشدونه بمحاولاتهم هذه.. أن أشعر بالخطر، وبالخوف على حياتي، وأن أبادر بالفرار..

قال الحارس في صرامة:

- وهذا ما ينبغي أن تفعله بالفعل لوح بذراعيه في حدة، هاتفا:

- وأتخلى عن كل هذا؟!.. هل نسيت لماذا أُقيم هذا النصب الخاص، الذي نقف فوقه؟!.. لقد أقيم لتمجيد ثورة الحرية تلك الثورة التي استعاد بها هذا الشعب كرامته وحريته، بعد ما يقرب

من قرن من الزمان، رزح خلاله تحت نير الظلم والجبروت.. إنه رمز الحرية يا رجل.. الحرية التي يحاولون سلبها من هذا الشعب ثانية، بل ويستحيل، وهذا ما لا يمكن أن أقبل به أبدا أمسك حارسه الخاص ذراعه، هاتفا:

- وجودك هو الدعامة الأساسية لهذه الحرية، ولهذا يجب ان جذب يده في حدة، هاتفا:

- خطأ.. وجود الشعب وإرادته هو الدعامة الأساسية والرئيسية والوحيدة للحرية.. الأفراد زائلون، ولكن الشعب والوطن باقيان.. فكرة ارتباط الحرية بفرد واحد هي قمة الديكتاتورية هتف الحارس الخاص، وقد تحولت صرامته إلى عصبية واضحة:

ولكنك لم تكمل برنامجك بعد، ووجودك مازال ضروريا وإلا فلماذا يحاولون اغتيالك الآن لماذا؟؟

«هذا ليس فندقا..»

انتزعته صرخة (هشام) الصارمة من عالمه الخاص، واخرجته من نومه، لتلقى به في عنف في عالم الواقع فانتفض جسده، وهو يفتح عينيه في سرعة، فوجد (هشام) يقف أمامه مباشرة، وهو يكمل في شراسة:

- من سمح لك بالنوم؟!

تنحنح في توتر، واعتدل في مجلسه، مجيبا في صوت أشبه بالغمغمة:

- جسدي المنهك..

صرخ فيه، في شراسة أكبر:

. لم يحن وقت النوم بعد..

قالها، ورمقه بنظرة وحشية، قبل أن يعود إلى ما خلف مكتبه، ويضيف في قساوة:

ستنام عندما تخبرني بكل ما لديك..

قال (حاتم) في توتر:
- لقد اخبرتك به بالفعل..
ابتسم (هشام) ابتسامة شديدة العصبية، وهو يقول:
- أنت لم تستوعب ما يمكننا ان نفعله بك.. أليس كذلك؟!..
زفر (حاتم) في إرهاق، وسأله في عصبية:
- ما الذي تريد معرفته بالضبط؟!..
أشاح (هشام) بوجهه عنه، وهو يقول في صرامة:
- ما علاقتك بذلك التنظيم الإرهابي بالضبط؟!.. ومن يمولكم ويعاونكم من خارج البلاد؟!..
حدق فيه (حاتم) في دهشة مستنكرة، وهو يقول:
- تنظيم إرهابي، وخارج البلاد؟!.. من أين أتيت بهذا؟!..
أجابه (هشام) في صرامة شديدة:
- من اعترافاتك.
كاد يهب من مقعده، وهو يهتف مستنكرا:
- اعترافاتي؟!..
دفعه الضخم من كتفه في قوة وغلظة، في حين تابع (هشام) بنفس تلك الصرامة الوحشية:
- الاعترافات التي ستوقعها بنفسك هنا..
«هل جننت؟!.. »
صرخ بالعبارة في غضب مستنكرا، فهوى ذلك الضخم على فكه بلكمة قوية، قبل حتى ان تنتهي صرخته، و..
ولدهشته هو شخصيا، ارتفعت يده في سرعة خرافية لتمسك قبضة الضخم، قبل أن تلمس فكه وعلى الرغم من ضخامة ذلك الضخم وقوته الظاهرة، ارتطمت يده براحة (حاتم) التي لم تتحرك من مكانها، كما لو أنها حائط من الصلب، وشهق

الضخم في ألم، واتسعت عيناه في شيء من الذعر، وهو يتراجع في حركة غريزية حادة، فصرخ فيه (هشام) في غضب:
- ماذا أصابك؟!
بدا صوت الضخم مهتزا مضطربًا، وهو يقول:
- ألم تر سيادتك ما حدث؟!..
صاح به (هشام):
- لقد لكمته في رعونة..
هتف الضخم، في صوت أكثر اضطرابا:
- بل أقسم أننى لكمته بكل قوتي..
انعقد حاجبا (هشام) في شدة، وحدق في الضخم لحظة، ثم لم يلبث أن نقل تحديقه إلى (حاتم)، الذي بدا أكثر منه دهشة وهو يقلب راحته؛ ليحدق فيها ذاهلا، خاصة وأنه لم يشعر بقوة اللكمة بالفعل، وفي غضب غلب دهشته، غادر (هشام) مكتبه، واتجه في خطوات عصبية نحو (حاتم)، وهو يقول للضخم:
- لو أنك نسيت كيف تلكم..
ثم هوى بقبضته على فك (حاتم)، مردفا في انفعال عنيف:
- فدعني أذكرك..
وللمرة الثانية، ارتفعت قبضة (حاتم) في سرعة خرافية..
وصد لكمة (هشام) في راحته
وفي هذه المرة، كان هناك صوت..
صوت ارتطام قبضة ضابط أمن الدولة براحة المتهم بمنتهى العنف وبعد ذلك الصوت مباشرة، وثب (هشام) إلى الخلف وثب في حركة غريزية حادة، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما وبدا أشبه بالمذعور، وهو يمسك قبضته براحته الأخرى في ألم.
ومع تراجعه، وتلك الملامح التي ارتسمت على وجهه..
تراجع الضخم أكثر..

وأكثر..
وفي كل خلجة من خلجاته، ارتسم رعب
وفزع..
وذهول..
إنه لم يواجه، في حياته كلها، أمرا كهذا..
لقد اعتاد دوماً أنه الأقوى..
فهو ضخم الجثة، قوى البنية، مفتول العضلات..
ثم انه يحمل رتبة رقيب، وفي امن الدولة وهذا دوما يجعل أقوى بحكم بنيته..
وبحكم سلطته..
وبحكم حماية الكبار له..
ولكنها أول مرة يشعر فيها بالخوف
أول مرة يكون فيها المتهم أكثر قوة..
أول مرة، على الإطلاق
أقوى من كل من يتم احتجازه هناك..
أما (هشام) والذي لم تختلف مشاعره كثيرا، فقد غمغم في ذهول:
- كيف تفعل هذا؟!..
حدق (حاتم) لحظة في راحته، قبل أن يرفع عينيه إليه في حيرة حقيقية، قائلا:
- لست أدري!!..
ردد (هشام) ذاهلا ومستنكرا:
- لست تدري؟!.. كيف؟!..
عاد (حاتم) يحدق في راحته، مغمغما في حيرة أكبر:
- حقيقة لست أدرى!!..

حدق فيه (هشام) عدة لحظات، في دهشة أكبر، ثم لم يلبث أن تراجع نحو مكتبه في حذر، وهو يقول:

- هل فقدت الذاكرة؟!..

هز (حاتم) رأسه نفيا في بطء، وهو يجيب في صوت، لم تفارقه تلك الحيرة بعد:

- على العكس.. إنني أحمل ذكريات لم أعشها بالفعل...

عاد (هشام) يحدق فيه، غير مستوعب لإجابته، ثم مد يده في حذر، يضغط زرا خفيا، في غطاء مكتبه، وهو يغمغم:

- في هذه الحالة

فور نطقه للعبارة، اقتحم ثلاثة جنود، مدججين بالأسلحة المكان، وكل منهم صوب مدفعه الآلي نحو (حاتم)، فصرخ فيهم (هشام)، بكل عصبية الدنيا وانفعالها:

- اقضوا عليه

واتسعت عينا (حاتم) بمنتهى الشدة..

☆ ☆ ☆

5 - تقرير..

«لقد كنت على حق..»
نطقها الطبيب الشرعي الشاب بصوت ووجه ممتقعين، وهو يخلع قفازيه الجراحيين، وجسده كله يرتجف من فرط الانفعال حتى انه احتاج إلى بعض الوقت، قبل أن يتابع:
العظم اللامي مكسور...
مال (رشدي) برأسه قليلاً، في حيرة متسائلة، فلوح الطبيب الشاب بيده، مستطردا في صوت مبحوح، من فرط الانفعال:
- هذا يعني أنه قد تم خنق (أمين ضياء)، قبل حادث القطار...
تراجع (رشدي) في حركة حادة، هاتفا في ذهول:
- خنقه؟!..
انعقد حاجبا الطبيب الشاب، وهو يغمغم في عصبية:
- تصورت أنك كنت تتوقع هذا.
هز (رشدي) رأسه بضع لحظات، قبل أن يستطيع النطق ليقول في انفعال لم يستطع كتمانه:
- كنت أتوقع مفاجأة، ولكن ليس على هذا النحو.....
تراجع الطبيب الشرعي الشاب، يحدق فيه قليلاً، قبل أن يقول في خفوت:
- الواقع أنني لم أكن اتوقع هذا مطلقا.. لقد كنت أجاريك فحسب، وتصورت أنكم تحاولون تأكيد مصرعه في الحادث، ثم..
لم يتم عبارته، فمال (رشدي) يسأله في انفعال:
- ألا يحتمل أن يكون هذا قد حدث من جراء الحادث؟!..
صدمة في العنق مثلاً...

هز الطبيب الشاب رأسه نفيا، وقال:
- كانت ستظهر علامات لذلك..
اعتدل (رشدي) وهو يقول، مستعيدا حزمه:
- هي جريمة قتل صريحة إذن..
أومأ الطبيب الشاب برأسه إيجابا، وهو يقول:
- وكان يمكن أن تتوارى في الحادث، لولا..
مرة أخرى لم يتم عبارته، أو لم يبد له أنها بحاجة إلى إتمامها، ومن الواضح أن (رشدي) قد استوعبها؛ فقد انعقد حاجباه في شدة، وهو يقول في بطء:
- نعم.. لولا الحادث..
وفجأة، اتسعت عيناه، وهو يضيف، مستعيدا انفعاله:
- رباه.. هل تعلم ما يمكن ان يعنيه هذا؟!..
هز الطبيب الشاب رأسه نفيا في حيرة متوترة، فأمسك(رشدي) كتفيه فجأة، على نحو جعله يرتجف في عنف، وهذا الأخير يقول، في انفعال جارف:
- يعني أن (حاتم) كان على حق.. على حق تماما..
وعلى الرغم من مواصلة جسده للارتجاف، اتسعت عينا الطبيب الشاب عن آخرهما، وهو يغمغم:
- (حاتم) من؟!..
ترك (رشدي) كتفيه، وإن ظل على انفعاله، وهو يقول:
- لا عليك.. أخبرني أولاً: هل يمكنك أن تعطيني تقريرا رسميا بما كشفته؟!..
اتسعت عينا الطبيب الشاب أكثر، وبدا صوته مفعما بالفزع، وهو يهتف منتفضا:
- مستحيل!!..
وكانت مفاجأة..

جديدة..

☆ ☆ ☆

الأمر الذي أطلقه (هشام)، بكل انفعال الدنيا، كان يعني- حرفيا - إطلاق النار على (حاتم) مباشرة...

ولقد انتفض جسد هذا الاخير في عنف؛ عندما بدا له هذا، وتراجع في مقعده بحركة حادة، وكل فوهات المدافع الآلية مصوبة نحوه..

ولكن أحدا لم يطلق النار..

فقط التف الرجال حوله، و(هشام) يواصل صرخاته:

- إنه شديد الخطورة.. اقضوا عليه

دخل رجل مهيب الحجرة، عند هذه النقطة، وقال في صرامة شديدة، امتزجت بالكثير من الغضب:

- ماذا يحدث هنا؟!..

صاح (هشام) في انفعال، وهو يلوح بسبابته في وجه(حاتم) المذعور:

- هذا ليس شخصا عاديا.. إنه جاسوس.. جاسوس من طراز متطور...

ردد (حاتم) ذاهلا ومستنكرا:

- جاسوس؟!..

نقل ذلك المهيب نظره، بنفس الصرامة، إلى (حاتم)، وبدا وكأنه قد تفحصه ودرسه بنظرة واحدة خبيرة، وهو يقول في غضب:

- وهل نطلق النار على الجواسيس هنا؟!..

هتف (هشام) متراجعا:

- إنه ليس جاسوساً عاديا..

قال المهيب، في صرامة شديدة للغاية:

- هذا أدعى للحفاظ على حياته.

ونقل بصره إلى (هشام) ثانية، مستطردا:
- على الأقل لمعرفة لحساب من يعمل..
ارتبك (هشام)، وهو يقول:
.. ولكنه..
قاطعة المهيب، في صرامة قاسية:
- هذا ما تعلمتموه.. أليس كذلك؟!..
أومأ (هشام) برأسه إيجابا، وبدا منكسرا لحظات، ثم لم يلبث أن انتفض فجأة، هاتفا في حدة:
- وجوده هنا شديد الخطورة.
شد المهيب قامته، وهو يسأله:
- أليس كل من تستجوبه كذلك؟!..
هتف (هشام)، وهو يلوح بسبابته في وجه (حاتم)، في انفعال شديد:
- لا.. ليسوا كذلك.. هذا خارق...
ارتفع حاجبا المهيب في دهشة بالغة، وهو يردد مستنكرا:
- خارق؟!..
ثم عاد حاجباه ينعقدان، وهو يردف في صرامة:
- هل أصابك خلل ما أيها العقيد؟!..
هز (هشام) رأسه نفيا في حدة، وهو يجيب:
- سل الحاضرين يا سيادة اللواء.. لقد صد لكمة (فرج) في سهولة مخيفة، وعندما حاولت أنا أن ألكمه، اصطدمت قبضتي براحته، فشعرت وكأنني أضرب جدارا من الصلب، حتى ما زالت تؤلمني، حتى هذه اللحظة.
نقل المهيب بصره بين وجوه الجميع لحظات، فأومأ الضخم برأسه إيجابا، وكأنه يؤيد أقوال (هشام)، في حين بدت الحيرة على وجوه الباقين، لأنهم لم يشاهدوا ما يرويه هذا الاخير..

أما (حاتم) فقد بدا منكمشا مذعورا، على نحو لا يتناسب ما يرويه (هشام) ويؤيده الضخم، فتفرسه المهيب مع لحظات في صمت، ثم قال في لهجة آمرة صارمة:

- فليغادر الجميع الحجرة، ولتبق هنا يا سيادة العقيد، حتى نستجوب هذا الرجل معا..

اطاعه الباقون على الفور، وعلى نحو يوحي بمدى سلطاته في المكان، وكان الضخم أول من هرع خارجا، في حين هتف هشام) مستنكرا:

- هل سنبقى معه وحدنا؟!..

أجابه المهيب في صرامة، وهو يجلس على مقعد قريب من(حاتم):

- نعم..

تحسس (هشام) مسدسه في توتر شديد، وهو يراقب الموقف في حذر عصبي، في حين التفت المهيب إلى (حاتم) وقال في هدوء عجيب بعد كل هذا القدر من الانفعالات:

- تقبل اعتذارنا، لو ان بعضنا أساء إليك هنا..

غمغم (حاتم) في حذر:

- أنا لم أفعل شيئاً

ابتسم المهيب، وقال:

- وأحد لم يوجه إليك أية اتهامات

اعتدل (حاتم)، وهو يقول مستنكرا:

- حقا؟!.. لقد اتهمتموني بالإرهاب، والجنون، والكذب والتجسس، في غضون ساعات قليلة، فماذا تبقى؟!..

ضحك المهيب، مجيبا:

- الكثير..

ثم مد يده إليه، قائلاً

- اللواء (سامي رفعت).
صافحه (حاتم) في حذر، وهو يغمغم:
- وأنا (حاتم الـ..)
قاطعه اللواء بابتسامة عريضة:
الاسم الاول يكفيني
لم يرق ما يحدث للعقيد (هشام حمزة)، فاندفع يقول في حدة:
- سيادة اللواء.. هذا الرجل يحمل بطاقة رقم قومي مزورة بإتقان مذهل، يحتاج إلى تكنولوجيا عالية، وتقنية يستحيل أن يمتلكها رجل واحد..
بدا الاهتمام على وجه اللواء، وهو يسأل:
- حقا؟!..
واستدار مع تساؤله إلى (حاتم)، الذي هز رأسه في خوف قائلا:
- أقسم أننى أجهل كيف حدث هذا.
صاح فيه (هشام):
- كما تجهل كيف اكتسب جسدك هذه القوة..
أجابه (حاتم) في سرعة، وحيرته تتقاطر مع كلماته:
- بالضبط..
نقل اللواء (سامي) بصره بينهما في صمت وشك، ثم اعتدل في مجلسه، واستعاد مهابته الشديدة، وهو يقول:
- اريد ان أسمع القصة، من بدايتها..
وقبل ان ينطق أحدهما بحرف واحد، ارتفع رنين هاتف اللواء، فالتقطه في حركة سريعة، وهو يقول في صرامة:
- ماذا هناك؟!..
لم يكد نطقها يكتمل، حتى ارتفع حاجباه عن آخرهما، ووثب او كاد من مقعده، وهو يهتف:
- مستحيل!!..

وكان من الواضح أنه لم يتلق خبرا، وإنما صدمة..
صدمة قوية.
للغاية..

☆ ☆ ☆

تراجع ذلك الطبيب الشرعي الشاب في توتر بالغ، مع الانفعال الغاضب، الذي كسا وجه (رشدي)، وهو يسأله في حدة:
- لماذا مستحيل؟!..
لوح الطبيب الشاب بيده، قائلاً في عصبية:
- لأن هذا ليس من حقي..
هب (رشدي) من مقعده، وهو يقول في حدة:
أنت تعلم أنها جريمة اغتيال سياسي..
هتف الطبيب الشاب:
- وهذا يجعل موقفي أكثر صعوبة.
بدا (رشدي) وكأنه سيهاجمه، وهو يصيح فيه، في غضب مستنكرا:
- أكثر صعوبة؟!
تراجع الطبيب الشاب في خوف، وهو يقول، ملوحا بذراعيه:
- اهدأ يا سيد (رشدي).. أرجوك.. دعني اوضح لك.
بدا وجه (رشدي) المحتقن، وبدت قبضته المضمومة وكأنهما تحملان تهديدا عنيفا، إلا أنه لم يلبث أن سيطر على أعصابه، وعاود الجلوس، وهو يقول في عصبية:
- كلي آذان صاغية..
ازدرد الطبيب الشاب لعابه، قبل أن يقول، والتوتر يتقاطر من كل حرف من كلماته:
- اولاً: تقرير وفاة (أمين ضياء) صدر بالفعل، وبتوقيع كبير خبراء الطب الشرعي..

قال (رشدي)، محاولاً تمالك أعصابه:
- ولكنك كشفت أمرا جديدا..
هتف الطبيب الشاب، في لهجة أقرب إلى البكاء:
- بأية صفة؟!
لم يفهم (رشدي) ما يعنيه، ولقد بدا هذا واضحا، في نظرة التساؤل العصبية المطلة من عينيه الحائرتين، فتابع الطبيب الشاب مفسرا:
- كل ما فعلناه هنا تم على نحو ودي تماما، دون أية مكاتبات رسمية، أو تكليف من النائب العام، وهذا لا يمنح ما فعلناه أية صفة رسمية، فكيف والحال هكذا يمكنني أن أصدر تقريرا رسميا..
بدا كلامه شديد الإقناع، حتى أن (رشدي) تراجع في مقعده، وبدا حائراً بعض الوقت، قبل أن يقول في حماس مفاجئ:
- وماذا لو أنك أبديت بعض الشكوك؟!
اتسعت عينا الطبيب الشاب في هلع، وهو يهتف مستنكرا:
- شكوك في ماذا؟ وفي من؟!.. هل تريد تدمير مستقبلي؟!
انعقد حاجبا (رشدي) في صرامة، وهو يقول:
- بل أريد أن أصنع مستقبلك.
ثم مال نحوه، مستطردا في حزم:
- ستكون الطبيب الشرعي، الذي كشف أكبر مؤامرة سياسية في (مصر).
اتسعت عينا الطبيب الشاب، وهو يحدق فيه بدهشة، قبل أن يقول في تردد:
- هل تظن هذا؟!
عاد (رشدي) يعتدل، وهو يقول بنفس الحزم:
- بل أنا واثق منه..

بدت علامات تفكير متوتر، على وجه الطبيب الشاب لبضع لحظات، قبل أن يهز رأسه في قوة، قائلاً:
- لا.. لست أظنني أستطيع هذا.
بدا الغضب على وجه (رشدي)، فاستدرك الطبيب الشاب في سرعة:
- ولكن هناك وسيلة أخرى.
سأله (رشدي) في سرعة ولهفة:
- وما هي؟!
مال الطبيب الشاب نحوه، وهو يقول في خفوت، وكأنه بخشى أن يسمعه أحد:
- بلاغ من مجهول، إلى النائب العام، يشير إلى أن (أمين ضياء) تم اغتياله، قبل حادث القطار.. هذا سيدفعهم إلى طلب إعادة فحص الجثة على الأقل، و..
اندهش (رشدي) للفكرة، وتساءل في أعماقه، كيف لم يخطر هذا بباله، في حين تابع الطبيب الشاب في حماس هامس:
قاطعه (رشدي)، وهو يهب من مقعده، صائحا في حماس:
- بالضبط!..
وتألقت عيناه في شدة فقد كان هذا يعني أنه قد التقط بالفعل طرف الخيط..
الخيط الذي سيقوده إلى كشف الحقيقة..
حتما..

☆ ☆ ☆

«ماذا حدث بالضبط؟!..»
ألقى (هشام حمزة) السؤال نفسه، الذي لم يجرؤ (حاتم) على نطقه، وهو يحدق في اللواء (سامي) في توتر، فانعقد حاجبا هذا

الأخير، وهو يقول عبر الهاتف، في صرامة تتناقض مع دهشته الاولى:
- وكيف علمت سيادتكم بهذا الأمر؟!..
ازداد انعقاد حاجبيه، وهو يستمع إلى محدثه في غضب واضح، قبل أن يقول، وقد تضاعفت صرامته:
ليس من المفترض أن أتلقى أوامري معذرة يا سيدي، مع احترامي لرفيع منصبكم، إلا..
ارتفع صوت محدثه الغاضب، دون أن يتبين (حاتم) أو (هشام) ما يقال، وإن بدت ملامح (هشام) أكثر فضولا منها قلقا، ولكن اللواء (سامي) بدا فقط غاضبا صارما، وهو يقول:
- إننى أتلقى أوامري فقط من وزير الداخلية، وأعلم جيداً مدى علاقتكم به، فلو أمرني، سأتنحى عن الموقف كله، وربما أتقدم باستقالتي أيضا، وحتى هذا الحين، سيسير كل شيء كما يسير..
قالها، وأنهى المحادثة في عنف واضح، قبل أن يلتفت إلى هشام)، قائلا في صرامة شديدة الغضب:
- كيف علم؟!
بدا صوت (هشام) شديد التوتر، وهو يتساءل في خفوت:
- علم بماذا؟!
صاح فيه اللواء (سامي) في حدة:
- كيف علم المسئول بما يدور هنا؟!
امتقع وجه (هشام)، وارتبك على نحو ملحوظ، وهو يقول:
- رباه!. هل..
اندفع اللواء فجأة نحو (هشام)، وجذبه من سترته في عنف، وهو يصرخ في وجهه، مكررا:
- كيف علم؟!
هتف (هشام) محاولاً التملص منه:

- وكيف لي ان أعلم؟!
انكمش (حاتم) في مقعده، وهو يتابع ما يحدث في توتر في حين واصل اللواء صراخه، قائلاً:
- لقد دخلت مكتبك هذا، دون أي ترتيب مسبق.. فقط مع صرخاتك وأنت تطالب طاقم الامن بالقضاء على هذا الرجل، ولم يمض على دخولي هنا دقائق، ولكن ذلك المسئول يتصل بهاتفي مباشرة، ويطالبني بعدم التدخل في هذه القضية، مع انه، مع كامل الاحترام لمنصبه، ليست له أية صلاحيات أمنية، على أي مستوى، فكيف علم على هذه الحماقة، التي تشف عن توتر شديد..
انفرجت شفتا (هشام) ليقول شيئا ما، لولا أن اندفع (حاتم) قائلاً في توتر:
- أنه قتل (أمين ضياء)..
اتسعت عينا (هشام) في ارتباع، في حين انعقد حاجبا اللواء (سامي) في شدة، ومضت لحظات، قبل أن يلتفت إلى(حاتم) في بطء، متسائلاً فيما يشبه الصدمة:
قتل من؟!
كان (حاتم) يدرك أن ما يفعله هو قمة الحماقة، وعلى الرغم من هذا، لم يمكنه كبح نفسه من ان يندفع، قائلا:
- لقد أصدر أوامره باغتيال (أمين ضياء)، قبل أن يعلن تلك المستندات، التي حصل عليها، والتي ستدمر مستقبله السياسي تماما، و..
تلك النظرة الذاهلة، المستنكرة، التي حدَّجه بها (سامي)، جعلته يبتر عبارته دفعة واحدة، ويعاود الانكماش في مقعده، قائلاً:
- ولست أعلم كيف عرفت كل هذا!!!

تنفس (هشام) الصعداء، مع العبارة الاخيرة، ثم هتف في عصبية شديدة:
- هل رأيت يا سيادة اللواء؟!.. هذا الجنون يتكرر منذ وصوله إلى هنا!!..
التفت إليه اللواء، وقال في صرامة قاسية:
- ولهذا أردت أن تقتله؟!
ارتبك (هشام)، واضطرب، وامتقع وجهه في شدة، وبدا كتلميذ خائب، ضبطه أستاذه في وضع مخل ولم يفت هذا عن عيني اللواء، الذي رمقه في بطء، ثم قال في صرامة:
- سأتولى هذه القضية، من هذه النقطة.
اتسعت عينا (هشام) في هلع، وهتف:
- ولكن..
قاطعه اللواء، في صرامة شديدة:
- ما لم أتلق أوامر أخرى.
ثم التفت إلى (حاتم)، وقال في لهجة هادئة، لا تتفق مع صرامته السابقة:
- اصحبني يا سيد (حاتم)
ألقى (حاتم) نظرة متوترة على هشام، ثم لحق باللواء(سامي)، ولم يكد يغلق الباب خلفه، حتى اختطف (هشام هاتفه اختطافا، وطلب رقما بأصابع مرتجفة، ولم يكد يسمع صوت محدثه، حتى هتف بكل انفعاله وشحوبه:
- سيدي.. الأمور تفلت من أيدينا، وعلينا أن نتحرك في سرعة، وإلا خسرنا كل شيء.. ولدى حل سريع.. خطير ومجازف، ولكنه سريع، وحاسم.. تماما.
وعندما نطق عبارته الأخيرة، كان جسده كله ينتفض بالغضب كل الغضب

☆ ☆ ☆

٦- اختفاء..

بدت زوجة (حاتم) شديدة العصبية، وهي تقف في مواجهة ضابط شرطة القسم، قائلة:

- زوجي لم يعد إلى منزله، منذ أتى إلى هنا؛ للإبلاغ عن.. عن.

ترددت طويلاً، حائرة فيم تسمى سبب البلاغ، حتى سألها الضابط في ضجر:

- ما اسم زوجك هذا؟

أجابته في سرعة وعصبية:

- المهندس (حاتم الـ..)

قاطعها هاتفا:

- المجنون؟!

تراجعت كالمصعوقة، ورددت خلفه، في ذهول مستنكر مجنون؟!

بدا شديد الانفعال، وهو يقول:

- لقد أتى إلى هنا بالفعل، ليبلغ عن حادث جنونى تماما، ولقد صعد به (رشدي) باشا إلى مكتبه، و..

حان دورها لتقاطعه هي، مستفسرة في توتر:

- (رشدي باشا)؟!

أشار بسبابته إلى أعلى، قائلاً:

- المقدم (رشدي عبد الهادي).. ضابط أمن الدولة.. لقد صعد به إلى مكتبه، حتى جاء العقيد (هشام حمزة)، وتسلمه منه

هوى قلبها بين قدميها، وهي تغمغم، في صوت شديد الارتجاف:

- أمن دولة؟!.. لماذا؟!.. ماذا فعل (حاتم) بالضبط؟!

مال الضابط نحوها، وانعقد حاجباه في صرامة شديدة، وهو يجيب:
- زوجك يا سيدتي متهم بتهمة بالغة الخطورة..
كاد قلبها يتوقف، وهي تسأله بصوت مبحوح، في صعوبة شديدة:
- أية تهمة؟!
مال نحوها أكثر، وحمل صوته صرامة قاسية، وهو يجيب، بلهجة من يوجه إليها الاتهام شخصيا:
- الإرهاب..
انطلقت من حلقها، على الرغم منها، شهقة قوية، وهي تتراجع في حركة حادة عنيفة، هاتفة في ذعر مستنكرة:
- إرهاب؟!.. (حاتم)؟!
اعتدل الضابط في صرامة أكثر قسوة، وهو يقول:
- أظنهم الآن يجبرونه على الاعتراف هناك.. في أمن الدولة.
امتقع وجهها في شدة، وتراجعت أكثر، وبدت لحظات وكأنها ستفقد الوعي، من شدة الذعر، إلا أنها لم تلبث أن اعتدلت، واستعادت حزمها في سرعة، وتنحنحت؛ لتطرد عنها بعض توترها، وهي تقول:
- وأين مبنى أمن الدولة هذا؟!
حدق فيها الضابط لحظة في دهشة، وتبخرت صرامته كلها دفعة واحدة، وهو يغمغم:
- هل ستذهبين..؟!
قاطعته في حزم، يشف عن قوة شخصيتها:
- أين هو؟!
بدا صوته أكثر خضوعا، وهو يجيبها:
- في مدينة (نصر).

ثم عاد يسألها، في قلق ليس له ما يبرره:
- هل ستذهبين إليه؟!
شدت قامتها في اعتداد، وهي تجيب في حزم:
- بالطبع.
قالتها، واستدارت لتنصرف، ولكنها توقفت لحظة، التفتت خلالها إلى الضابط؛ لتكمل:
- إنه زوجي.
نطقتها بكل الحزم..
كل كل الحزم..

☆ ☆ ☆

دقائق طويلة مضت، واللواء (سامي) متراجع في مقعده، يتطلع إلى (حاتم) في صمت، حتى أن هذا الأخير شعر بالتوتر يكاد يلتهمه، فهتف في عصبية:
- وماذا بعد؟!
واصل اللواء (سامي) صمته بضع لحظات، قبل أن يعتدل في حركة مفاجئة، ويقول في اهتمام مباغت:
- حالتك كلها عجيبة أيها المهندس.
زفر (حاتم) في عصبية، وتراجع بدوره في مقعده، وهو يغمغم:
- أعلم هذا.
واصل اللواء، وكأنه لم يسمعه:
- لقد بدأت ببلاغ عجيب، تؤكد فيه، وبمنتهى الثقة، ان ما اعلنته الدولة في بيان رسمي، عن حادث القطار، ليس صحيحا، وأنه هناك جريمة اغتيال سياسي خلف هذا، وبعدها راحت المفاجآت تتوالى..
غمغم (حاتم) في عصبية:
- لم يكن هذا بإرادتي.

مرة أخرى، تابع اللواء، متجاهلاً تعليقه:
- بطاقة رقم قومي مزورة بإتقان مذهل، يتجاوز حدود قدرات أي مزور منفرد، مهما بلغت براعته، وبيانات لا وجود لها عبر شبكة المعلومات كلها.. بصمات غير مسجلة، وجه غير معروف.. وهذا ليس كل شيء..
صمت (حاتم) هذه المرة، وكأنما أدرك عدم جدوى الحديث، في حين استطرد اللواء، في مزيج من الاهتمام والحيرة:
- أضف إلى هذا تلك التطورات غير الطبيعية، في التعامل مع حالتك بالذات.. من القسم، إلى المقدم (رشدي عبد الهادي)، وهو أحد أكفأ وأنزه ضباط أمن الدولة، ثم التدخل المفاجئ للعقيد (هشام حمزة)، وهو ضابط ليس فوق مستوى الشبهات، وعنفه الشديد مع عصبيته البالغة، يشيران إلى وقوع ضغط شديد عليه، من جهة أعلى..
صمت عند هذه اللحظة، ومال نحو (حاتم)، قائلاً في لهجة مختلفة:
- وهي ذلك المسئول على الأرجح.
تطلع إليه (حاتم) لحظة في توتر، و..
وفجأة، تقمصته تلك الحالة العجيبة فجأة، شعر أنه في مكان آخر وزمن آخر..
كان يجلس أمام (هولوفيزيون) كبير، في صالة منزله يتابع تلك الأخبار ثلاثية الأبعاد، والتي تروى تفاصيل المؤامرة، عبر برنامج (ذاكرة التاريخ) الاسبوعي، و..
«لماذا لم يرد اسمك في القضية؟!.. »
ألقى السؤال فجأة على اللواء (سامي)، فتراجع هذا الأخير في دهشة بالغة، وهو يتساءل:
- أية قضية؟!..

اعتدل (حاتم)، وشمله حماس مباغت، وهو يجيب:
- قضية حادث القطار.. لقد صار (رشدي عبد الهادي) بعدها شخصية شهيرة، وبعد سنوات قليلة، تولى منصب وزير الأمن، وذلك المسئول حوكم وأدين، مع عدد كبير من صغار المسئولين، والمعاونين، ورجال الأمن، فيما عرف بأنه أكبر مؤامرة سياسية جنائية، في تاريخ (مصر) كلها، حتى أن نظم الأمن ومفاهيمه، وحتى القوانين التي تحكمه، تغيرت كلها بعدها
صمت لحظة، بدا خلالها شديد الحيرة، وكأنه لم يفهم حرفا واحداً مما قاله، ثم غمغم:
- ولكن اسمك لم يرد..
كان اللواء (سامي) يحدق فيه بدهشة لا محدودة، وقد ارتفع حاجباه عن آخرهما، على نحو منح وجهه سحنة عجيبة، أصابت (حاتم) بشيء من التوتر، جعله يضيف، وهو ينكمش في مقعده:
- ماذا قلت؟!
أجابه اللواء، في بطء شديد:
- كنت سألقى عليك السؤال نفسه..
امتزجت حيرة (حاتم) بحالة من الذعر والاضطراب، وهو يتمتم:
- ولكنني لست أدرى؟.. هذا يقفز إلى ذهني بغتة كأنني.. كأنني...
اتسعت عيناه في ذعر عجيب، وهو يضيف، في صوت بالغ الخفوت:
- كأنني على اتصال بروح، من زمن آخر..
حدق فيه اللواء لحظات، في دهشة بلا حدود، ثم لم يلبث أن هز رأسه في قوة، وكأنما ينفض عنه دهشته، واعتدل يقول في حزم:

- أية روح، من أي زمن، لم يكن بإمكانها أن تمنحك هذه البطاقة المزورة.
قالها، ونهض من خلف مكتبه في حركة حادة، أصابت (حاتم) برجفة محدودة، واتجه نحو نافذة حجرته، وأزاح ستائرها، وتطلع إلى المباني عبر الشارع، وإلى ألوان الشفق خلفها وبدا من الواضح أن الفجر ينبلج، فراقبه في صمت استغرق ما يقرب من دقيقة، قبل أن يقول:
- اسمع أيها المهندس.. هذا لو أنك بالفعل مهندس.. أنا رجل واقعي، لا يؤمن بالخرافات والخزعبلات، والاتصال بالأرواح ليس جزءاً من اهتمامي أو قناعاتي..
صمت لحظة أخرى، ثم التفت إليه في حدة، مستطردا في صرامة، هي أقرب إلى الغضب:
- هناك حتما تفسير منطقي لكل هذا في الظروف الطبيعية، كان المتهم سيرتعد، أو يفزع، أو يضطرب، أو حتى يعترف ولكن (حاتم) لم يمر بأي من هذا.
لقد سأل، بكل الاهتمام والتوتر واللهفة:
- مثل ماذا؟!
وفي نفس اللحظة، التي حدق فيها اللواء فيه، في دهشة مستنكرة متسائلة، كان هناك أمر شديد الخطورة، يحدث مع نسمات الفجر الأولى هناك.. في المشرحة..

☆ ☆ ☆

لم يفارق التوتر الشديد ذلك الطبيب الشرعي الشاب لحظة واحدة، منذ غادر (رشدي عبد الهادي) المشرحة، مع فكرة تقديم بلاغ إلى النائب العام كان يدرك أن الأمر لن يكون بسيطا وأن ما يحدث هو أمر كبير..
كبير جدا..

جدا..
كبير، حتى أنه يتجاوزه بألف مرة..
على الأقل..
إنه اغتيال سياسي، يحدث عبر كارثة رهيبة، وعلى نحو لم تشهده (مصر) من قبل، في تاريخها الحديث على الأقل..
أو ربما حدث، ولكن أحداً لم يعلم به..
تماما مثلما حدث هذه المرة، ولكن أحدا أيامها لم يشك أو يبحث، أو يعيد التحقيق في الأمر وفي كل الأحوال، فهي سابقة غاية في الخطورة، تورط فيها حتما مسئولون كبار، وربما قيادات أمنية كبيرة، تتجاوز رشدي نفسه بكثير...
لهذا كان رجل أمن الدولة متوترا ولهذا كان يبحث عن حل.
لا ريب في أنه هناك قيادات له، متورطة في الامر، وكلها لن تسمح بكشفه قط مهما كانت الأسباب ومهما كان الثمن وهو مجرد طبيب شاب، لم يواجه مثل هذه الأمور من قبل قط بل، ولم يتخيل حتى أن يواجهها لقد تربى مثل كل شباب (مصر)، وسط شعب يحمل خوفا غريزيا من رجال الأمن والمسئولين، أيا كانت مناصبهم أو مواقعهم إنه مازال، على الرغم من عمله، يخشى رؤية شرطي عادى فماذا عن مواجهته لقيادات أمنية..؟!
ولقد أخطأ كثيرا، عندما وافق (رشدي) على ما طلبه وأعاد فحص جثة (أمين ضياء) لم يكن له أن يفعل هذا بصفة شخصية ابدأ من المحتمل إذن أن يتورط في الأمر، عندما يتم إبلاغ النائب العام..
يا إلهي!!.. ليس من المحتمل.. بل من المؤكد أصابه هلع شديد، عندما بلغ بتفكيره هذه النقطة، وهب من مقعده في ارتياع، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحول أفكاره إلى صوت مسموع، قائلاً لنفسه، في اضطراب شديد:

- لن تكون هناك وسيلة للإبلاغ، ما لم يتم فحص جثة (أمين ضياء) مرة أخرى؛ لتحديد سبب الوفاة.. وحتى لو لم يبلغهم (رشدي) بأننا قد فعلناها، فالطبيب الذي سيعيد فحص الجثة سيكشف الامر حتما.. يا إلهي!.. يا إلهي!..
بدأ رعبه يرسم له سيناريو مخيفا للأحداث القادمة طبيب شرعي جديد يفحص الجثة، ويؤكد أنه قد تم فحص هذه المنطقة من قبل، ثم يعودون إلى السجلات، ويشرون على اسمه، كطبيب نوبتجي، في نفس الفترة التي تم فيها الفحص السابق، وينتقمون منه..
و..
تجمدت أفكاره وكلماته عند هذه النقطة، ورسم الهلع ملامحه على كل خلجة من خلجاته، وراح جسده ينتفض انتفاضات متوالية، وهو يهتف بالتومرجي المناوب:
- (سيد).. (سيد)..
لم يكن يدري لماذا يناديه، ولكنه كان يرغب بشدة في الشعور بأنه ليس وحده، في تلك اللحظات الأولى في الفجر، والتي تبعث في المعتاد نسمات النوم، في أية جفون مجهدة، فاندفع خارجا، وهو يواصل النداء، في عصبية شديدة للغاية:
- أين أنت يا (سيد)؟.. أيها الـ....
تجمدت قدماه، واتسعت عيناه على نحو فاق الطبيعي، وهو يحدق في جسد التومرجي الساقط أرضا، والتقط أنفه تلك الرائحة النفاذة، وهو يصرخ:
- ماذا يحدث هنا؟!..
تنامى إلى مسامعه وقع أقدام تتحرك نحوه في خفه، فالتفت نحوها، وهو يطلق شهقة رعب، ووقع بصره على رجل متشح بالسواد، يندفع نحوه، وهو يخفى وجهه بمنديل كبير، يمسكه

بيسراه، في حين تحمل يمناه علبة من الصفيح، ضغط فوهتها، فاندفع منها رذاذ، حمل تلك الرائحة النفاذة في قوة وعلى الرغم منه، ومع أثر المفاجأة، استنشق الكثير من ذلك الرذاذ القوى، الكثير جدا..

ولقد حاول أن يطلق صرخة ما حاول..

وحاول...

وحاول..

ثم انهارت محاولته دفعة واحدة.

وأظلم كل شيء من حوله..

تماما..

☆ ☆ ☆

«هناك حتما تفسير منطقي لكل هذا..»

نطقها اللواء (سامي) للمرة العاشرة، وهو يتطلع إلى السماء، التي أضاءتها أشعة الشمس منذ لحظات، فتمتم (حاتم)، وهو يفرك عينيه في إرهاق شديد، ويقاوم رغبة مسعورة في النوم:

- إنني أحاول البحث عنه، منذ راودتني تلك الذكريات العجيبة..

التفت إليه (سامي)، وهو يقول في توتر ملحوظ:

- الأمر لا يقتصر على مجرد ذكريات

فرك عينيه بدوره في إرهاق مماثل، قبل أن يتابع في توتر أكثر:

- هناك بطاقة رقم قومي، مزورة بإتقان مذهل، وبصمات ليس لها مرجع.

صمت لحظة، قبل أن يضيف في حدة:

- وليس هناك أقارب، يمكن الرجوع إليهم؛ لتأكيد هويتك حتى...

ارتفع حاجبا (حاتم)، والعبارة تخترق رأسه ليس هناك أقارب!!..

كيف هذا؟!..

لا أشقاء..

أو أعمام..
أو أخوال..
أو حتى أصدقاء قدامى لا أحد على الإطلاق!!..
إنه لا يذكر شخصا واحدا، يمكن أن يذكره لهم!!..
شخص واحد، يمكن الرجوع إليه؛ لتأكيد هويته..
«زوجتي..»
هتف بالكلمة في لهفة، فانعقد حاجبا اللواء، وهو يعود للجلوس خلف مكتبه، مرددا:
- زوجتك؟!..
أجابه (حاتم) في لهفة:
- نعم.. زوجتي وعائلتها، يمكنهم تأكيد هويتي..
تراجع اللواء في مقعده، وغمغم وهو يفكر:
- زوجتك وعائلتها؟!..
ثم اعتدل في حركة حادة، مكملاً:
- وهل يمكنهم تحديد أي قريب أو صديق لك؟!.. هل حضر بعضهم حفل زفافك، ويمكن الرجوع إليه؟!..
اتسعت عينا (حاتم)، وهو يتراجع في مقعده، قائلاً:
- كلا.
هتف به اللواء، في دهشة مستنكرة:
- كلا؟!.. هل تعنى أنهم قد قبلوا زواجك بابنتهم، دون أن يعلموا شيئا عن عائلتك أو أصدقائك.. ودون أن يحضر حفل زفافك شخص واحد من طرفك؟!.. أي زواج هذا؟!..
غمغم (حاتم)، وهو ينكمش أكثر في مقعده، وصوته يزداد خفوتا:
- لقد حضر أصدقاء وزملاء العمل
انعقد حاجبا اللواء، وهو يقول:

- العمل، الذي التحقت به، ببطاقة رقم قومي زائفة؟!..
ارتبك (حاتم)، وغمغم، وكأنه يحدث نفسه:
- ولكنني أجيده بشهادة الجميع.. إنه مهنتي الأصلية تحت أي مقياس.
تراجع اللواء في مقعده، وقال في صرامة:
- هذا سيحتاج إلى شهادة زملاء عملك..
رفع (حاتم) عينيه إليه، قائلاً في لهفة:
- كلهم سيؤكدون هذا.
تنهد اللواء (سامي)، وهو يقول:
- ولكن أحداً منهم لن يمكنه إرشادنا إلى قريب أو صديق قديم يخبرنا عن ماضيك..
الماضي؟!..
كيف لم يخطر بباله هذا قط؟!..
إنه لا يذكر بالفعل شيئا عن ماضيه أي شيء..
وهذا أمر غير طبيعي على الإطلاق..
انتزعه من أفكاره رنين مفاجئ لهاتف اللواء، الذي التقطه في سرعة، وهو يقول في توتر:
- ماذا هناك، في هذه الساعة المبكرة؟!..
انعقد حاجباه في شدة، وهو يستمع إلى محدثه، ثم قال في صرامة شديدة التوتر:
- أرسل عربة المعمل الجنائي فوراً، وسأتى خلال لحظات..
أنهى المحادثة في حدة، والتقت عيناه بعيني (حاتم) القلقتين المتسائلتين، فقال، وهو ينهض في توتر:
- جثة (أمين ضياء) اختفت من مشرحة (زينهم) ودون أدنى أثر
وكانت مفاجأة جديدة..
وعنيفة للغاية..

☆ ☆ ☆

7 – المؤامرة..

لم يكن جسد الطبيب الشرعي الشاب، قد توقف بعد عن الارتجاف، عندما وصل (رشدي عبد الهادي) مندفعا إلى المشرحة، وهو يهتف به:

- كيف حدث هذا؟!

رفع الطبيب عينيه إليه في بؤس عجيب، وهو يجيب:

- لست ادري!!.. لقد هاجمني شخص مقنع، وأفقدني الوعي، و...

قاطعه (رشدي) في عصبية:

- هل بلغوا هذا الحد؟!

بدا صوت الطبيب الشاب أقرب إلى البكاء، وهو يقول:

- لقد حذرتك

انعقد حاجبا (رشدي) في ضيق، وهو يقول:

- هل سرقوا جثة (أمين ضياء) وحدها؟!

أومأ الطبيب برأسه إيجابا في يأس، فقال (رشدي) في غضب:

- من الواضح أنهم كانوا من العجلة، بحيث لم يهتموا حتى بإخفاء أو تمويه هدفهم الحقيقي..

«ماذا تفعل هنا؟!.. »

اخترق ذلك الصوت الصارم الموقف فجأة، فاتسعت عينا الطبيب الشاب في ذعر، في حين التفت (رشدي) إلى مصدره في حركة حادة، ليقع بصره على (هشام حمزة)، الذي تألقت عيناه في ظفر شامت، وهو يضيف:

- هذا التحقيق يخصني وحدي.

ثم عقد ساعديه أمام صدره في تحد، مكملاً:

- القيادة السياسية كلفتني إياه
رمقه (رشدي) بنظرة مقت، لم يحاول تجميلها وهو يقول:
- تسلسل طبيعي للمؤامرة.
هز (هشام) كتفيه، في استهتار واثق، قائلاً:
- هذا ما يصوره لك خيالك المريض، ولكن حتى هذا، لا يمنحك حق التواجد هنا
اقترب (رشدي) منه، وبادله نظرة التحدى، قائلا:
- كلانا يعلم أن جثة (أمين ضياء) تمت سرقتها، لإخفاء اغتياله المتعمد..
عاد (هشام) يهز كتفيه، قائلاً:
- التحقيقات لم تسفر عن شيء بعد.
قال (رشدي) في حدة:
- أية تحقيقات؟!.. التي تجريها أنت؟!
انعقد حاجبا (هشام) في غضب واضح، وقال في حدة مماثلة:
- قلت لك.. إنه لا يحق لك التواجد هنا، خلال هذا التحقيق الذي يهم أعلى مستويات القيادة السياسية، وإن لم ترحل فورا فسأضطر إلى اتخاذ إجراء، يتنافى وكرامة رجال الشرطة..
ساد الصمت لحظات، وكل منهما ينظر إلى عيني الآخر، في تحد سافر، قبل أن يقول (رشدي) في بطء:
- سأبغ النائب العام بما لدى..
ابتسم (هشام) في سخرية، وهو يقول:
- بدون جثة؟!.. أشك أن يستمع إليك أحد..
مضت لحظة أخرى من الصمت، ثم قال (رشدي) في صرامة:
- سنرى.
قالها، والتفت يلقى نظرة أخيرة، على ذلك الطبيب الشرعي الشاب، قبل أن يندفع مغادرا المكان..

وبعينين متألقتين، تبعه (هشام) ببصره، ثم التفت إلى الطبيب الشاب، وقال في صرامة قاسية مخيفة:
- والآن استعد، فستقص على قصة حياتك، منذ ان عملت في هذا المضمار، وحتى هذه اللحظة، دون أن تهمل تفصيلا واحدا، وإلا..
وانكمش الطبيب الشاب في مقعده في خوف..
خوف شديد..
للغاية..

☆ ☆ ☆

كل شيء كان يسير على ما يرام..
السيارات الصاروخية تقطع الطرقات في انتظام الدوريات الطائرة تحفظ النظام والأمن، وتراقب انسياب الحركة المرورية وفجأة، انحرفت تلك السيارة، دون سابق إنذار انحرافها المباغت أربك الحركة المرورية كلها، مما تسبب في أول حادثة مرورية داخل المدينة، منذ عقد كامل على الأقل ولكن تلك السيارة لم تبال بما حدث لقد انحرفت؛ لتندفع نحو سيارته مباشرة ولقد رآها تقترب.
وتقترب..
وتقترب..
ثم اندفعت تلك السيارة القوية، بين سيارته وتلك المهاجمة و..
«أين ذهبت؟!..»
ألقى اللواء (سامي) سؤاله في عصبية، وهو يهز (حاتم في قوة، فانتفض هذا الأخير، واندهش لاستغراقه في أحلامه في مثل هذه الظروف، وهتف في صوت عصبي:
- ماذا حدث؟!..
صاح فيه اللواء (سامي) في حدة:

ماذا حدث؟!.. يا له من سؤال!.. أخبرك أن جثة (أمين ضياء) قد سرقت من المشرحة، فتستغرق في النوم!!
هز (حاتم) رأسه في قوة، وهو يقول:
- لم يكن نوما..
سأله في غضب:
- ماذا كان إذن؟!
أطلت حيرة واضحة، من عينى (حاتم) وملامحه، وهو يجيب:
- لست أدرى..
انعقد حاجبا اللواء (سامي) في غضب، فاستطرد (حاتم) في توتر:
- أقسم أننى لست أدري؟!..
وعاودته تلك الحيرة الشاردة، وهو يكمل:
- إنها تبدو أشبه برؤيا، تهاجم عقلي فجأة، أو كذاكرة من زمن آخر، أرسلها أحدهم إلى عقلي بوسيلة ما..
قال اللواء (سامي) في حدة:
- أخبرتك أنني لا أؤمن بهذا.
قلب (حاتم) كفيه في حيرة، قائلا:
- ومن اخبرك أننى أؤمن به؟!.. إننى أصف لك ما يحدث لي فحسب، ولست أحاول إقناعك به..
انعقد حاجبا اللواء (سامي) أكثر، وهو يتأمله في دهشة..
أمجنون هو؟!..
أم واهم؟!..
أم هستيري؟!..
أم..؟!
تردد كثيرا، عند تلك النقطة، قبل أن يهتف بها عقله..
أم أنه صادق؟!.. وأنه هناك رؤيا تأتيه لسبب ما؟!..
احتمال ليس علميا أو منطقيا.. ولكنه وارد..

لقد كشف حقيقة غامضة، تؤيدها كل الاحداث التي تلتها وظهوره على الساحة قد يعني أن..
ولكن لا..
ماذا عن بطاقة الرقم القومي، المزيفة بإتقان؟!..
ماذا عن تاريخه الغامض؟!..
وماذا عن..
قبل أن يتم تساؤله الاخير، دوى ذلك الانفجار فجأة انفجار نسف جزءا من جدار مكتب اللواء، ودفعه إلى الأمام، ليرتطم ب (حاتم) ويسقط كلاهما أرضاً...
وفي اللحظة التالية، وقبل حتى أن يطرح أحدهما تساؤلاً واحدا، حدث أمر مذهل إلى أقصى الحدود...

☆ ☆ ☆

«أريد رؤية زوجي..»
نطقتها زوجة (حاتم) في صرامة عصبية، وهي تقف أمام ضابط أمن الدولة، في ذلك المبنى الرئيسي في (مدينة نصر)، فنظر إليها الضابط في دهشة، قبل أن يسألها، في صرامة اعتادها:
- ومن أخبرك أن زوجك هنا؟!
أجابته في حزم شديد العصبية:
- إنه هنا..
تراجع الضابط في دهشة، وتطلع إليها بضع لحظات قبل أن يسألها:
- سيدتي.. هل تعلمين أين أنت بالضبط؟!
أجابته في حدة، لم تخل من التوتر الشديد:
في مبنى أمن الدولة، الذي يخشاه كل فرد في (مصر)؛ لأن ما يحدث فيه ليس قانونياً، ولأنه صورة حديثة من البوليس السياسي القديم، الذي لم يكن يعترف بحق، أو حرية، أو قانون

أو دستور.. أعلم جيدا أين أنا، وعلى الرغم من انني أتمتع بكامل قواي العقلية، إلا أنني لا اخشاكم...
ارتفع حاجبا الضابط في دهشة عارمة، وتراجع كالمصدوم، في حين انخفض صوتها هي، وهي تتابع في مرارة شديدة:
- ولكن خوفي على مصير زوجي، يفوق خوفي منكم ألف مرة.
لم تكد تنتهي من حديثها، حتى بدأ جسدها ينتفض في عنف، فمال الضابط نحوها في إشفاق، قائلاً:
- ما اسم زوجك يا سيدتي؟!
أجابته في لهفة:
- (حاتم الـ..)
قبل أن تتم عبارتها، دوى ذلك الانفجار ومع دويه، حدثت تلك الظاهرة الخارقة وعلى نحو مباغت..

☆ ☆ ☆

غصة كبيرة، تلك التي ضاق بها حلق (رشدي)، وهو يقود سيارته، من مشرحة (زينهم)، إلى مكتب النائب العام إنها مؤامرة محكمة بحق مؤامرة، أحكموا آخر خيوطها، عندما سرقوا جثة (أمين ضياء) من المشرحة، بهذه الخطة الانتحارية لقد كان (هشام) على حق في غياب الجثة، لا يوجد دليل واحد تقرير التشريح الرسمي، يقول: إن سبب الوفاة هو حادث القطار..
والشاهد الوحيد هو الطبيب الشاب، الذي قام بإعادة تشريح الجثة، على نحو غير قانوني..
والحادث أتلف أية أدلة مادية، قد تتواجد في القطار وشهادة (حاتم)، حتما لن يأخذ بها مخلوق واحد، بل وسيتم بناء عليها، التشكيك في قواه العقلية أيضا لم تعد هناك وسيلة لكشف الحقيقة أية وسيلة..

وهذا يعني أن المتآمرين قد نجحوا، وتخلصوا من خصمهم، قبل أن يكشف تلك الوثائق، التي تدينهم وهذا يشعره بالاختناق اختناق شديد..
لقد تخلصوا من كل ما يدينهم، في شخص واحد..
(أمين ضياء)..
أوقف سيارته، إلى جانب الطريق، ودفن وجهه بين كفيه وهو يغمغم في مرارة بلا حدود:
- كيف يمكنني تجاوز هذا؟!.. كيف؟
لم يدر كيف يمكن ان يقاوم تآمرهم، ويكشف أمرهم!!..
كيف؟!..
كيف؟!..
كيف؟!..
أدار الأمر من كل الوجوه، وتوقف طويلاً عند واقعة سرقة جثة (أمين ضياء).
لقد انتهت معه أدلة الإثبات كل الأدلة..
ولكن لا..
توقف عند نقطة بعينها، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يغمغم:
مازالت هناك الوثائق.. لقد تخلصوا من (أمين)، ولكن هل تخلصوا من الوثائق التي جمعها أيضا؟!..
تراجع في مقعده، وعاد يدرس الموقف مرة أخرى
(أمين ضياء) توصل إلى شيء ما يدينهم، ولهذا تخلصوا منه..
فما هو هذا الشيء؟!!
وما الوثائق التي جمعها؟!..
نعم.. هذه هي وهذا هو السبيل الأصح البداية..
أن يبدأ بحثه منذ البداية.
الأسئلة الصحيحة..

سيسعى خلف نفس ما سعى إليه (أمين ضياء).. ويكشف ما كشفه.. ويعرف ما الذي توصل إليه هذا هو السبيل الوحيد..
اعتدل في حماس، عندما بلغ هذه النقطة، وأدار محرك سيارته، وهو يقول في نبرة جديدة:
- فليفعلوا كل ما بوسعهم يمكرون ويمكر الله.. والله (سبحانه وتعالى) خير الماكرين..
كان قد بدأ الانطلاق بسيارته، عندما تناهى إلى مسامعه من بعيد، دوى ذلك الانفجار ثم أعقبته تلك الظاهرة العجيبة، التي جعلته يضغط فرامل سيارته في قوة، وهو يوقفها مرة أخرى إلى جانب الطريق وقد اتسعت عيناه عن آخرهما..
أأنت واثق من هذا؟!..
المؤامرة..
ألقى ذلك المسئول سؤاله، على رئيس طاقم امنه، في توتر ملحوظ، فشد هذا الاخير قامته، وقال في حسم:
- تمام الثقة يا سيدي.. لقد دمرت حقيبة الوثائق بنفسي بعد أن وصلتني..
تراجع المسئول في مقعده، وهو يقول في عصبية:
- كان ينبغي أن تطلعني عليها أولاً
ثم اعتدل في حركة حادة، مستطردا:
- وأن يتم تدميرها امامي شخصيا
بدت الدهشة على وجه رئيس أمنه، وهو يقول مرتبكا:
- ولماذا يا سيدى؟!
ضرب المسئول سطح مكتبه بقبضته في قوة، وهو يهتف:
- حتى أطمئن إلى تدميرها بالفعل
احتقن وجه رئيس الامن، وهو يقول:
- سيدى.. هل تراودك الشكوك بشأني؟!

لوح المسئول بذراعه كلها، وهو يهتف:
الشكوك تراودني، بشأن كل مخلوق
اتسعت عينا رئيس الامن، وهو يقول مصدوما:
- ولكنني مشارك في كل ما حدث يا سيدي، وأطيع أوامرك في كل ما تأمر به، و..
قاطعه المسئول بإشارة من يده، ثم أعاد تلك اليد؛ ليخفى بها وجهه لحظات، قبل أن يرفعها، ويرفع عينيه معها إلى رئيس الامن، قائلاً:
- معذرة يا رجل، ولكن الموقف كله يصيبني بتوتر لا حدود له
خفض رئيس الأمن عينيه وصوته، وهو يغمغم:
- اعلم هذا يا سيدي.. أعلم هذا.
نهض المسئول من خلف مكتبه، ودار حوله؛ ليضع يده على كتف رئيس الأمن، قائلاً في توتر، بذل جهدا عبثيا لإخفائه:
- أنت تعلم أن تلك الوثائق تعني نهايتي سياسيا، ومعظمها يعني نهايتك أيضا، وما فعلناه لمنع نشرها، يعنى نهايتنا جنائيا أيضا، وهذا أمر بالغ الخطورة.
لم يجب رئيس الأمن، وإن ظل يتطلع إليه في حذر، فتابع المسئول:
- كثيرون متورطون معنا في هذا الامر، وكل منهم مستعد لدفع الملايين للخروج منه
وتوقف دفعة واحدة؛ ليضيف في شراسة:
- ومنهم من سيدفع ملايين أخرى، بلا تردد؛ لشراء تلك الوثائق، والاحتفاظ بها..
امتقع وجه رئيس الامن، وهو يقول:
- ما الذي يعنيه قولك هذا يا سيدي؟!
التقط المسئول نفسا عميقا، وربت على كتفه، قائلاً:

- يعني أنه كان من الضروري أن أرى تلك الوثائق بنفسي، قبل أن يتم تدميرها..
ثم أولاه ظهره، وهو يعود إلى مكتبه، مكملاً في صوت حمل كل شك الدنيا:
- كان من الضروري.. جدا.
ازدرد وجه رئيس أمنه امتقاعا، وهو يغمغم:
- أقسم أننى قد دمرتها..
ابتسم المسئول ابتسامة أشبه بالذئاب، وهو يقول:
- بالتأكيد..
شعر رئيس الأمن باضطراب شديد، وهو يتطلع إلى ابتسامة ذلك المسئول، الذي صمت بضع لحظات، ثم قال في هدوء عجيب:
- ولكن عليك أن تنتبه إلى هذا، في المرات القادمة..
انخفض صوت رئيس الأمن، وهو يتمتم:
- سأفعل يا سيدى.. سأفعل..
أشار إليه المسئول، قائلاً في صرامة:
- والآن.. اتركني وحدي قليلاً..
تراجع رئيس الامن، وهو يقول:
- كما تأمر يا سيدي.. كما تأمر..
وما أن غادر رئيس الأمن المكتب، حتى انعقد حاجبا المسئول في شدة، وغمغم بمنتهى المقت:
- ومن أدراني أنك قد فعلت؟!..
ثم التقط هاتفه الخاص، وطلب رقماً، وما أن استمع إلى محدثه، حتى قال في صرامة عصبية:
(هشام).. لدينا مشكلة جديدة.. بوق يرغب في أن ينطلق لحسابه.. وعلينا أن نخرسه.. وإلى الأبد..

وأنهى المحادثة، وعيناه تحملان المقت.. كل المقت..

☆ ☆ ☆

ظاهرة عجيبة، تلك التي حدثت عند مقر امن الدولة، في ذلك الصباح المبكر كان كل شيء عاديا، والسماء صافية صحوة، و.. وفجأة، تكونت تلك الفقاعة في السماء..

فقاعة نصف شفافة، تكونت على مسافة متر واحد، من نافذة حجرة مكتب اللواء (سامي)، ثم اندفعت منها حزمة من الاشعة فجأة؛ لتضرب الجدار في قوة مباغتة ومع دوى الانفجار، اختفت تلك الفقاعة تماما..

ولقد طار جسد اللواء (سامي) مع الانفجار، وارتطم بجسد(حاتم)، وسقط كلاهما أرضاً، قبل أن..

يهتف اللواء:

- ماذا..؟!

لم يكتمل هتافه، مع تألق عجيب داخل ما تبقى من حجرته، فالتفت إليه مع (حاتم) واتسعت عيونهما معا..

في شدة وذهول..

عنيفين..

☆ ☆ ☆

8 - الذاكرة..

فوجئ وزير الداخلية في مكتبه، بحالة من اضطراب غير طبيعي، جعله يسأل مدير المكتب في حدة، وعبر وحدة الاتصال الداخلي:

- ماذا يحدث بالضبط؟!

اندفع إليه مدير مكتبه، وهو مضطرب بشدة، وهتف:

- هجوم يا سيادة الوزير، هجوم إرهابي، على مقر أمن الدولة، في مدينة نصر.

ارتفع حاجبا الوزير في دهشة، وقال في لهجة آمرة، صارمة:

- أرسل قوات مكافحة الإرهاب إلى هناك فورا..

تردد مدير مكتبه لحظة، جعلته يصرخ فيه:

- ماذا هناك؟!! تحرك..

أجابه الرجل في سرعة واضطراب:

- إنه ليس هجوما تقليديا يا سيادة الوزير، وإلا لكان أمن المبنى هناك كفيلا بصده.

نهض الوزير في توتر شديد، متسائلا:

- أهجوم بالدبابات هو؟!

هز مدير مكتبه رأسه في قوة، وهو يهتف:

- بل هجوم بقوة مجهولة.. قوة لا يدرك أحد حتى ماهيتها قوة اخترقت الجدران المصفحة، وكأنها قالب من الزبد..

وتراجع الوزير كالمصدوم، واتسعت عيناه عن آخرهما..

وبشدة...

لم تكن عيناه وحدهما ما اتسعتا على هذا النحو، وإنما عينا اللواء (سامي) أيضا، وهو يحدق ذاهلا فيما أمامه لقد انفجر

جدار مكتبه، ودفعه الانفجار نحو (حاتم)، وسقط كلاهما أرضا، ثم حدث ما حدث..
فقاعة كبيرة، تكونت داخل الحجرة، ثم تلاشت فجأة، وبرز من وسطها رجل شرس الملامح، يروي فيه مضراء اللون لامعة، من قطعة واحدة، ويحمل في يده شيئا أشبه بالمسدس ولكن تكوينه يختلف تماما..
كان رجال أمن المبنى يعدون نحو حجرة اللواء (سامي)، عندما هتف هذا الأخير بكل ذهول:
- ما هذا بالضبط؟!
وفي حركة باردة، رفع الرجل سلاحه نحوه، دون أي تبدل في ملامحه، و...
وأطلق النار...

كرات عجيبة من الطاقة، انطلقت من سلاحه، وأصابت اللواء(سامي)، فانتفض جسده في عنف رهيب، وكأنما أصابته ألف ألف صاعقة، وانطلقت من حلقه شهقة، هي مزيج من الدهشة والألم، قبل أن يتألق جسده كله، ثم ينهار، وقد احترقت معظم أجزائه.....
وبنفس البرود، أدار ذلك الرجل سلاحه نحو (حاتم) وتراجع (حاتم)، وهو يطلق شهقة محدودة مختنقة ومن أعمق أعماق ذاكرته، وثب شيء ما شيء جعله يدرك أنه يعرف ذلك الرجل يعرفه جيدا وفجأة، اقتحم رجال الأمن الحجرة..
وفورا، أطلقوا النار على ذلك الرجل أطلقوا عشرات الرصاصات وأصابت كلها هدفها ولكن الهدف لم يتحرك قيد أنملة بل لم يبد عليه حتى، أنه قد تأثر بالرصاصات..

لقد تلاشت كلها، قبل سنتيمتر واحد من وصولها إليه بصوت أشبه بأعواد ثقاب متتالية تشتعل وفي برود، التفت هو إلى رجال الأمن، وصوب إليهم سلاحه..
وبكل قوته، صرخ (حاتم):
- ابتعدوا.
صرخ بها، وهو يزيح جثة اللواء (سامي) المحترقة من فوقه، ويهب من مكانه، في مرونة مدهشة، لم يتصور هو نفسه أنه يمتلكها..
وفي نفس اللحظة، التي انطلقت فيها كرات الطاقة، نحو رجال الامن، كان (حاتم) ينقض على ذلك القادم بكل قوته ولقد كانت انقضاضة بالغة العنف بحق....
انقضاضة جعلت لارتطام جسديهما دويا عنيفا، أشبه بدوي ارتطام جسمين معدنيين قويين ومع سقوط رجال الأمن، كان القتال يبدأ...
انقضاضة (حاتم)، على الرغم من عنفها، حركت ذلك الرجل خطوتين فحسب إلى الخلف ثم بدأ هو ينقض..
بضربة واحدة، ألقي (حاتم) عبر الحجرة، ليرتطم بالجدار المقابل في عنف، ثم يسقط ارضا وبنفس البرود العجيب، رفع ذلك سلاحه نحوه..
وأطلق كرات الطاقة..
كان من الطبيعي، مع هذه السرعة، أن تصيب تلك الكرات حاتم) في مقتل، إلا أن ما فعله جسده كان عجيبا بحق لقد وثب من مكانه، وضرب الجدار بقدمه، ثم طار منه عبر الحجرة، إلى الجدار المجاور، وكأنه يمشي على الجدران، ثم هبط ارضا، وانزلق إلى الجدار المقابل، قبل أن يدور حول نفسه، في مرونة

يحسده عليها أمهر رجال أشهر سيرك في العالم، وتعلق برقبة الرجل من الخلف، وأدار ذراعيه حولها في قوة..
كان إيقاعه مدهشا، حتى أن من رأوه من رجال الامن الآخرين، الذين يعدون نحو المكان، من نهاية الممر، بدا أشبه بخداع بصري، أو بضرب من ضروب السحر، ولكن ذلك الرجل، ذا الثوب الأخضر، أدار يده خلف ظهره بحركة سريعة وانتزع (حاتم) من مكانه، في قوة خارقة، وألقى به عبر الحجرة، فعبر جسده الباب المفتوح، وطار لأربعة أمتار في الممر الطويل، قبل أن يسقط في عنف، أمام رجال الأمن، الذين توقفوا مبهوتين، وتراجعوا على نحو غريزي، وهم يصوبون له أسلحتهم....
وبنفس الهدوء المخيف، غادر ذلك الرجل الحجرة إلى الممر، وصوب سلاحه العجيب كان كل رجال الامن أمامه، ولكنه صوب سلاحه نحو هدف واحد لا غير (حاتم)..
ولكن فجأة، تكررت الظاهرة وبعنف أكثر فرقعة عنيفة دوت في المكان، وارتج لها المبنى كله، والتفت معها ذلك الأخضر في حدة، قبل أن يبرز من وسط فقاعة أكبر حجما، رجل مفتول العضلات، يرتدي زيا مشابها للأول، ولكنه أزرق اللون، شديد اللمعان وكان أيضا يحمل سلاحا عجيبا وبكل شراسة الدنيا، استدار إليه الاخضر، وأطلق زمجرة وحشية، لعلها كل ما أطلقه من صوت، ثم أطلق كرات الطاقة من سلاحه وبدون أن يبتعد أو يتأثر، أو يحاول حتى تفادي تلك الكرات، رفع مفتول العضلات سلاحه، وأطلق منه كرات طاقة أخرى كرات أكبر حجما، وأكثر قوة..
بكثير.
وتراجع رجال الامن مذعورين، أمام ذلك الصراع الرهيب وانطلقوا يعدون مبتعدين، وهم يطلبون الدعم والعون وعبر

الممر، اصطدمت كرات الطاقة في عنف، ودوت في المكان انفجارات شديدة القوة، وارتج المبنى كما لم يرتج من قبل، وتألق الممر كله بضوء رهيب...
والعجيب أن (حاتم)، على الرغم من عنف الموقف، نهض في هدوء، يتابع ما يحدث، وكأنه أمر اعتاد رؤيته منذ زمن أو في زمن مغاير للزمن ومن عينيه، كانت تطل لمحة ثقة..
ثقة كبيرة..
وعجيبة..
وفي مكتب رئيس جهاز امن الدولة، كان الكل شديد الاضطراب وكان هو يهتف، في عصبية شديدة:
- ماذا يحدث هنا بالضبط؟!
اجابه أحد قياداته، في توتر واضح:
- شيء ما يهاجمنا.. ليس شيئا تقليديا بالتأكيد، فما وصفه رجال الامن، يبدو أشبه بفيلم حرب الكواكب..
صاح فيه رئيس الجهاز في غضب:
- رجالنا لم يفهموا سلاحا جديدا، ابتكره الإرهابيون ولكن علينا مواجهتهم، مهما كان ما يستخدمونه من سلاح.....
قال القيادي بنفس توتره:
- أنهم ليسوا حتما إرهابيين يا سيدي
صاح به في غضب:
- لقد هاجموا المبنى، وقتلوا رجالنا، فكيف تجزم بأنهم ليسوا كذلك، بهذه السرعة؟!
أجابه الرجل، وصوته يرتجف، من فرط الانفعال:
- لأنه من الواضح أن رجالنا اعترضوا طريق هدفهم الأصلي فحسب..
سأله رئيسه، وقد حل قلقه وفضوله محل غضبه:

- وكيف يمكنك الجزم؟!
هز القيادي رأسه، قائلاً:
- لأنهم الآن يتقاتلون فيما بينهم..
تراجع رئيس الجهاز في دهشة، في حين أكمل القيادي، بكل توتر الدنيا:
- إننا لسنا الهدف.. بل ساحة المعركة فحسب..
في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كان الضوء المبهر في الممر ينقشع، ليكشف ذلك الأخضر الشرس، الذي سقط ارضا جثة هامدة، دون ان تفقد ملامحه برودها، في حين تقدم الازرق مفتول العضلات من (حاتم)، وهو يسأله، في مزيج من القلق والاحترام والتوقير:
- أأنت بخير؟..
وهنا.. وفي لحظة واحدة، استعاد (حاتم) ذاكرته...
كل ذاكرته...

☆ ☆ ☆

كل شيء كان يسير على خير ما يرام..
السيارات الصاروخية تنطلق، عبر الشوارع الواسعة، والجسور الهوائية المعلقة، وفي نظام وانسيابية واضحين، وفجأة، انحرفت تلك السيارة..
كانت هذه أول مرة، تتجاوز فيها إحدى السيارات خطوط السير، منذ عدة عقود وانطلقت نحوه مباشرة ة..
ومن داخلها، بدا وجه قائدها في وضوح وجه وحشى بارد..
قاسٍ..
جامد..
وجه يحمل انطباعا وأحدا الموت..

وأدرك هو الأمر على الفور أدرك أن قائد تلك السيارة يستهدفه مباشرة..
وفي حركة سريعة، وثب جانبا، متفاديا اندفاعة السيارة القوية وألقى نفسه ارضا، وهو يستل مسدس الطاقة من حزامه وبلا تردد.. أطلقه..
أصابت كرات طاقته تلك السيارة مباشرة، ودوى انفجار عنيف، لم يعرف ذلك الزمن مثله، منذ فترة طويلة..
ولكن سيارة ثانية انحرفت نحوه..
وثالثة
ورابعة..
كان من الواضح أنها مؤامرة لاغتياله مؤامرة لإيقاف برنامجه الثوري الإصلاحي وعلى الرغم من مهارته وخبراته، وتلك التدريبات الطويلة تلقاها، لم يكن باستطاعته أبدا، مواجهة ثلاث سيارات، في آن واحد..
كان هناك وجه مماثل، يقود كلا منها وجه له نفس السمات الوحشية.. والبرود.. والقسوة.. والجمود..
وكلهم كانت لهم الملامح نفسها وبمنتهى الدقة..
لم يكن هناك مكان، يمكنه أن يذهب إليه، وتلك السيارات الصاروخية الثلاث تنقض عليه، من ثلاث زوايا مختلفة، في حصار محكم، و..
وفجأة، دوى انفجار..
وثان..
انفجرت سيارتان، بكرتي طاقة، أتتا من قريب وبقيت سيارة واحدة، واصلت انطلاقها نحوه في قوة وبوثبة مدهشة، أطلق هو مسدسه ودوى الانفجار الرابع والاخير ودوت معه صفارات الإنذار القوية..

☆ ☆ ☆

«أأنت بخير؟!..»

هتف بها حارسه الخاص في لهفة، وهو يندفع مع رجاله نحوه، لاهثاً في انفعال، فنهض هو، وتطلع في توتر إلى السيارات الأربع المحترقة، وشاهد حوامات الإطفاء والاسعاف، وهي تنطلق في سماء المكان، وتهبط حول النيران، وحارسه الخاص يضيف بنفس الانفعال:

- أخبرتك أن خروجك منفردا، أمر في غاية الخطورة.

نظر إليه لحظة في خواء، قبل أن يعيد مسدسه إلى غمده، قائلا:

- كيف يمكنني إجراء الإصلاحات المنشودة، دون أن أرصد أحوال (مصر) عن قرب..

هز حارسه الخاص رأسه في عصبية، وهو يقول:

- يمكننا أن ننقل لك الصورة كاملة، وثلاثية الأبعاد، بحيث تشعر وكأنك تسير وسط طرقات المدينة بالفعل..

انعقد حاجباه، وهو يجيب في صرامة:

- خطأ.. لقد فشلت النظم السابقة، وانتشر فيها الفساد؛ لأن حكامها اكتفوا بالتقارير المكتوبة والمصورة، وعزلوا أنفسهم عن هذا الشعب تماما..

قال حارسه، وهو يقوده إلى سيارة الرياسة، حاملاً مسدسه لحمايته، من أي هجوم إضافي محتمل:

- ولكنهم عاشوا طويلاً..

أجابه في صرامة، وهو يدس جسده داخل السيارة.

- لو أنك تسمى هذه حياة.

ركب حارسه الخاص إلى جواره، وهو يقول في حزم:

- مازال خروجك منفردا بالغ الخطورة، على الرغم من كل نظم التنكر التكنولوجية؛ فمن الواضح أن للمستنسخين جاسوس

نشط، في مقر الرياسة..
قال في حزم:
- هذا مؤكد.
وصمت لحظات مفكرا، قبل أن يعتدل، مضيفاً في حزم:
- ولكن لدى خطة مدهشة؛ لكشف ذلك الجاسوس.
التفت إليه حارسه الخاص، متسائلاً في لهفة:
- وما هي؟!
ظل السؤال يدوي في رأسه، وهو يزيح الأنقاض عن جسده في سهولة، وينهض في زمننا الحاضر، ويستعيد لهجته القيادية الحازمة، قائلا:
- هل كشفتم أمره؟!
أجابه بابتسامة باهتة:
- هو كشف نفسه، عندما أجرى اتصاله بالمستنسخين؛ ليخبرهم أين أخفيناك..
ثم مال نحوه، مضيفا في حزم متوتر:
- ولكن ينبغي أن نعود إلى زمننا فورا.. لن نفسد هذا الزمن، عندما يدركون ماهيتنا..
كان وقع أقدام رجال أمن الدولة يتصاعد، وهم يعدون نحو المكان بأعداد غفيرة، فشد هو قامته، وقال:
- نعم.. دعنا نعود..
أمسك حارسه الخاص بيده، وضغط زرا كبيرا في حزامه ودوت في مبنى أمن الدولة فرقعة قوية وارتج المبنى كله مرة أخرى وعندما وصل فريق أمن الدولة بأسلحته، إلى حجرة اللواء (سامي) المدمرة، كانت جثة هذا الأخير شبه المحترقة ترقد هناك وحدها..

فلم يكن هناك أثر ل- (حاتم) أو حارسه الخاص لم يكن هناك أدنى أثر على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

ارتجف صوت زوجة (حاتم) مع جسدها في قوة، وارتبكت الكلمات على لسانها، وهي تقول في ارتياع:

- ما حدث لم يكن طبيعيا.. لم يكن كذلك أبدا..

احتضنتها أمها، في محاولة لتهدئة روعها، وهي تقول ملتاعة:

- اهدئى يا بنيتى.. اهدئى.. أخبريني كل ما حدث..

راحت زوجة (حاتم) تلوح بذراعيها، هاتفة:

- شيء لا يمكنني أن أصفه.. فقاعات عجيبة، تتكون في الهواء، وانفجارات، واضطراب عنيف في مقر أمن الدولة هناك شيء غير طبيعي حدث هناك يا أمي.. شيء لا يمكنني وصفه؛ لأنني لم أر مثله من قبل قط

تسرب الخوف إلى أمها، وهي تغمغم:

- أهو سلاح جديد؟!..

☆ ☆ ☆

«هذا لا يهم..»

ألقى (هشام حمزة) العبارة، في اللحظة نفسها، وهو يتحدث إلى ذلك المسئول عبر هاتفه المحمول، قبل أن يتابع في حزم:

أيا كانت ماهية ما حدث، فهو في صالحنا تماما..

سأله المسئول في توتر:

- وكيف هذا؟!.. ألم تتول الأمور هناك.. في المشرحة؟!

أجابه (هشام) في ثقة:

- أطمئن يا سيدي.. كل شيء يسير وفقاً للخطة.. جثة (أمين ضياء) احترقت بالكامل، وتم دفنها وسط الجير الحي ولن يتبقى منها سنتيمتر واحد صالح للفحص، أما ذلك الطبيب الشرعي

الشاب هناك، فلست أظنه سيجرؤ على البوح بحرف واحد مما لديه، ولكن الأهم، هو أن ما حدث في مقر مدينة نصر، سيصرف الأنظار عن قضية (أمين ضياء) كلها.
صمت المسئول لحظة، ثم قال في توتر:
- لا يمكنك الاعتماد على هذا.. عندما تهدأ الأمور، سيعاودون بحث الامر، و(رشدي) هذا لن يتوقف عن نبشه.. ملفه يؤكد أنه عنيد ومثابر إلى أقصى حد.
أجابه (هشام) في استهتار:
- وماذا سيكون بيده ليفعل؟!
قال المسئول في حدة:
- يمكنه أن يلجأ إلى الصحافة، وأنت تعلم مثلى أن هذا سيثير قضية صحفية طويلة، وخاصة بين صحف المعارضة، وهذا قد يغرس الشك، في قلوب بعض المسئولين القياديين..
انعقد حاجبا (هشام)، وهو يدرس هذا الاحتمال، الذي بدا له منطقيا وممكنا، فقال في حزم:
- لكي تكتمل الخطة إذن، لابد من اتخاذ خطوة، تحسم كل ملف (أمين ضياء) نهائيا..
سأله المسئول في لهفة:
- وما هي؟!
ازداد انعقاد حاجبى (هشام)، واكتسب صوته الصارم رنة قاسية، وهو يجيب:
القضاء على (رشدي عبد الهادي).. فورا.
وارتجف المسئول.. بقوة..

☆ ☆ ☆

٩- النفق..

«لماذا كل هذا؟!..»

نطقها الحارس الخاص ل- (حاتم) في توتر، وهو يتطلع في قلق إلى هذا الأخير، الذي جلس على مقعد هوائي بسيط، وقد ارتكن بوجهه على كفيه في أسي، ولقد رفع رأسه إلى حارسه الخاص، استجابة للسؤال، وهو يكرره في استنكار حزين:

- لماذا كل هذا؟!.. تسألني لماذا كل هذا؟!.. بل أخبرني أنت لم كان كل هذا؟!.. لماذا انتزعتموني من زمني، وعدتم نصف قرن إلى الوراء، متخلياً عن مهامي، وعن خطتي الإصلاحية الجديدة، التي مات الآلاف في سبيلها؟!.. لماذا؟!

أجابه حارسه الخاص في توتر:

- لأنها كانت الوسيلة الوحيدة لأنقاذك يا سيدي.. الحزب القديم، المعارض للإصلاح، يحاول اغتيالك بشتى الطرق، منذ توليت منصبك هذا، وكنا نكشف أمرهم، ونحبط مخططاتهم طوال الوقت، حتى توصلوا إلى استنساخ جيش صغير من بشر تم امدادهم بهندسة وراثية، بحيث يفقدون المشاعر والعواطف تماما، ويطيعون الاوامر طاعة عمياء، ويمتلكون في الوقت ذاته قدرات خرافية.. ولقد كادوا بوساطة جيشهم هذا، ينجحون في اغتيالك مرتين، ولما كنا نحتاج إلى تركيزنا بالكامل حتى نكشف أمرهم، ونقضي على خطتهم، فقد رأينا أن حمايتك تفسد هذا التركيز، وأن أفضل وسيلة، لتأمين الحماية لك، هي إبعادك عن هنا.

قال في غضب:

- إلى زمنٍ ماض..

هز الحارس الخاص رأسه، وقال:
- لم تكن هذه هي الخطة في البداية، ولكن أستاذك ومستشارك رأى أنك، بعنادك وإصرارك، لن تتوقف عن ممارسة مهامك الرياسية أبدا، حتى ولو أيقنت من أنك تواجه خطة لاغتيالك، مما سيكشف أمرك، ويحبط كل خطتنا، ولهذا كان اقتراحه باستخدام تقنية نفق الزمن، في نقلك إلى زمن ماض، لا يمكنهم الوصول إليك فيه، حتى نتم عملنا..
سأله في حيرة:
- ولكنني لم أكن أذكر شيئا عن زمني الفعلي..
أجابه حارسه الخاص في اهتمام، وقد لاحظ تغير انفعاله:
- محو ذاكرتك مؤقتاً، كان وسيلة حتمية لحمايتك، فمنذ أن استقرت تكنولوجيا السفر عبر الزمن، وهم يراقبون التاريخ مثلنا، ولو أنك، في الزمن الماضي، قد قمت بتصرف ما، يشف عن هويتك، وسجل التاريخ هذا، ولو في صفحة حوادث، ولو نشرت صورتك مرة واحدة، كانوا سيكشفون الأمر ويرسلون من يسعى للقضاء عليك..
بدا من الواضح أن (حاتم) يدرس الامر في ذهنه، وأنه يشرحه لنفسه، وهو يغمغم:
- لهذا تم تزوير بطاقة الرقم القومي، بتكنولوجيا عصرنا، ولهذا كنت أرى أعمالهم الهندسية بالغة البساطة؛ لأنني درستها بالفعل في المرحلة الأولية..
ابتسم حارسه الخاص، وهو يقول:
-- ولهذا بدوت لهم دوما عبقريا..
بدت علامات تفكير شارد بضع لحظات، على وجه (حاتم)، قبل أن يلتفت إليه، متسائلا:
- كم بقيت هناك؟!

أشار إليه حارسه الخاص، مجيبا:
- عشرة أيام، بمقياس زمننا..
سأله في اهتمام صارم:
- وبمقياس زمانهم؟!..
صمت حارسه الخاص لحظات، ثم أجاب في خفوت، وكأنما يخشى رد الفعل:
- بقيت عامين تقريبا..
انعقد حاجبا (حاتم) في شدة، والأفكار تتداعي في ذهنه بسرعة البرق عماه..
زوجته..
اللواء (سامي)..
(هشام حمزة)
(رشدي عبد الهادي)
وقضية اغتيال (أمين ضياء)
«أريد أن أعود..»
نطقها في حسم صارم، وبلهجة آمرة قوية، وهو ينهض من مقعده، فارتجف حارسه الخاص، على الرغم منه، وهو يقول:
- تعود؟!.. إلى أين؟!
أجابه في صرامة:
- إلى الزمن الذي وضعتموني فيه..
تراجع حارسه الخاص، في دهشة كبيرة، وهو يقول:
- ولماذا؟!
أجابه بمنتهى الحزم:
- هناك أمور، تحتاج إلى تعديل.
بدا حارسه الخاص مذعورا، وهو يقول:

- لا يا سيدي.. لا.. تعديل الزمن محظور تماما، وبالغ الخطورة أيضا ألم تدرس في طفولتك ما يسمى بتأثير الفراشة؟!.. اننا لو عدلنا لمحة واحدة من الماضي، لاختلف حاضرنا كله، وربما انهار أيضا..

قال (حاتم) في صرامة:

.. ولكننا قمنا بهذا التعديل بالفعل، عندما اعدتموني لأحيا في الماضي..

لوح بذراعه كلها، هاتفا:

هذا لم يكن جزءا من التاريخ، ولكنك لا تستطيع منع اغتيال (أمين ضياء) مثلا؛ لأن اغتياله كان شرارة التغيير، الذي أوصلك إلى خطتك الإصلاحية الشاملة..

انعقد حاجبا (حاتم)، وهو يفكر في عمق، قبل أن يغمغم:

- ولكنني أظن أننا قد تدخلنا في التاريخ بالفعل..

سأله حارسه الخاص في دهشة:

- وكيف؟!..

ابتسم، قائلا:

- (رشدي عبد الهادي) كشف المؤامرة، ولكنه لم يعلن أبدا من أين أتى بأدلة الإدانة الدامغة..

سأله حارسه الخاص، في حذر متوتر:

- ماذا تعني يا سيدى؟!..

تجاهل (حاتم) سؤاله تماما، وهو يشد قامته، متكررا بلهجة قوية آمرة:

- أريد أن أعود وفي هذه المرة، لم يعترض حارسه الخاص أبدا..

☆ ☆ ☆

تطلع النائب العام إلى وجه (رشدي عبد الهادي)، في تشكك واضح، قبل أن يعتدل، ويسأله:

- أنت ضابط أمن دولة، أليس كذلك؟!
أجابه (رشدي) في توتر واضح:
- بلى يا سيدى..
سأله النائب العام، وهو يحاول أن يستشف انفعالاته جيدا:
- لماذا لم تبلغ رؤساءك بشكوكك إذن؟!
صمت (رشدي) لحظات، زفر خلالها في توتر ملحوظ، قبل أن يجيب:
- أشك في تورط بعضهم في الامر..
ارتفع حاجبا النائب العام، في دهشة مستنكرة، ثم تراجع في مقعده، وقضى ما يقرب من دقيقة كاملة، في التحديق في وجه (رشدي)، قبل أن يقول في صرامة:
.. ما تقوله بالغ الخطورة للغاية أيها المقدم.. أنت تتحدث عن مؤامرة كبرى بكل المقاييس.. مؤامرة تورط فيها عدد من كبار مسئولين الدولة، ولست تملك حتى الأدلة المادية التي تؤيد روايتك..
قال (رشدي)، وتوتره يتصاعد:
- لقد قمنا بإعادة تشريح جثة (أمين ضياء)، و....
قاطعه النائب العام في صرامة:
- على نحو رسمي؟!
تراجع (رشدي) في عصبية، وهو يجيب:
- بل ودي..
قال النائب العام، في صرامة أكثر:
- ألم تدرس قانون الإجراءات أيها المقدم؟!
صمت (رشدي) لحظات، ثم اندفع قائلاً في انفعال:
- أنا أعمل في أمن الدولة منذ سنوات، وتقاريري كلها تؤكد أننى ضابط كفء، ولقد تعلمت أن المؤامرات الكبيرة يصعب فيها

الحصول على الأدلة.. لقد نفذوا جريمتهم بلا رحمة، وحطموا قطاراً كاملاً، بكل من فيه؛ فقط لإخفائها، ثم لم يتورعوا عن سرقة جثة (أمين ضياء)؛ عندما أوشكت مؤامرتهم أن تنكشف.
قال النائب العام:
- وانا تعلمت، في نصف قرن، أن قضية بلا أدلة، هي قضية فاشلة..
ثم مال نحوه، مضيفا:
- احصل على الأدلة، وسنفتح التحقيق فورا..
وعاد يتراجع في مقعده، مكملاً بكل صرامة:
- وأمامك أربع وعشرون ساعة.. أربع وعشرون ساعة فقط لا غير..
وأسقط في يد (رشدي)..
وفي عقله..
في أعمق أعماق عقله..
كيف؟!..
كيف؟!..

☆ ☆ ☆

لم يدر (رشدي) ماذا يفعل بالضبط..
كان يقود سيارته بلا هدى، طوال الساعة الماضية، منذ غادر مكتب النائب العام، وذهنه كله مشغول بأمر واحد كيف يمكنه أن يحصل على الأدلة؟!..
كيف؟!..
بكل المقاييس، كان هذا مستحيلاً تماما..
الكبار الذين خططوا لتلك العملية القذرة، أخفوا كل دليل يمكن ده وأخفوا كل ما يمكن أن يدينهم..

حتى جثة (أمين ضياء) سرقوها، وما من أدنى شك في أنهم قد تخلصوا منها تماما، وعلى نحو يؤمنهم مائة في المائة وذلك الطبيب الشرعي الشاب، لن ينبس حتما ببنت شفة لن يجرؤ أبدا، على الاعتراف بأنه قد أجرى عملية تشريح غير رسمية.
وحتى لو اعترف، فمن سيصدقه، دون دليل؟!..
من؟!..
شعر بغصة مؤلمة في حلقه، مع وصوله إلى طريق مسدود؛ فمن المستحيل أن يحصل، ولو على دليل واحد، خلال تلك المهلة ولا حتى خلال عمره كله لقد ارتكبوا جريمتهم، واغتالوا (أمين ضياء)، وسيفلتون من العدالة ويا لها من مأساة!..
ركاب قطار كامل، راحوا ضحية عملية الاغتيال، دونما ذنب جنوه رجال، وشباب، ونساء، وشيوخ، وأطفال، كلهم لقوا حتفهم، فقط إخفاء جريمة اغتيال شخص واحد..
ومرتكبو الجريمة سيفلتون هذا هو المستحيل بعينه..
فرك وجهه بكفه في عصبية يائسة، وهتف بلا وعى:
- لماذا أخبرتني يا (حاتم)؟!.. لماذا؟!..
وعلى الرغم منه، انحدرت من عينيه دمعة، وهو يتمتم:
- كنت سأواصل حياتي في هدوء، لو لم أعلم، أما الآن فكيف سيغمض لي جفن، وصرخات مئات الضحايا، تطالبني كل يوم بالثأر لأرواحها المهدرة، كيف؟!..
واصل طريقه بلا هدى، غير منتبه إلى تلك السيارة رباعية الدفع، والتي ظلت تتبعه لربع ساعة كاملة، حتى بلغ تلك المنطقة شبه المقفرة، فالتقط قائدها هاتفه المحمول، وقال في حزم:
- الصيد بلغ نقطة مثالية..
أجابه صوت (هشام حمزة) في صرامة قاسية آمرة:

- نفذ العملية.. فورا..
أضاء سائق السيارة الرباعية مصباح سيارته ثلاث مرات متتالية، فظهرت من خلفه سيارة ضخمة، زادت من سرعتها لتتجاوزه، ثم انطلقت مباشرة نحو سيارة (رشدي)..
كان هو قد انتبه إلى إضاءة مصابيح السيارة، وشاهد تلك الضخمة في مرآة سيارته، وأدرك ما يحدث، وحاول الانحراف بسيارته بعيداً، ولكن تلك السيارة الضخمة كانت تندفع على نحو جنوني، لم يمهله لحظة من الوقت لتفاديها، وهي تنطلق بكل قوتها وسرعتها نحو سيارته.. مباشرة..

☆ ☆ ☆

استمع وزير الداخلية في ذهول، إلى ما يقوله ضباط أمن الدولة، عما حدث في المبنى الرئيسي، في مدينة (نصر). وأدار عينيه في وجوههم جميعاً، قبل أن يسألهم:
- هل تم تسجيل هذا؟!..
أوما أكبرهم برأسه إيجابا، وهو يقول:
- بمنتهى الدقة، يا سيادة الوزير.. كاميرات المراقبة، المحيطة بالمبنى، صورت كل شيء..
طلب الوزير عرض ما التقطته كاميرات المراقبة والحراسة وراح يطالعه في دهشة أكبر، ثم لم يلبث أن هز رأسه، قائلاً:
- كيف يمكنني أن أنقل هذا للقيادة السياسية؟!..
لم ينبس أحد ببنت شفة، على الرغم من أن الوزير قد انتظر إجابتهم طويلاً، ولما أدرك أنهم لا يملكون أية إجابة، التقط نفسا عميقا، وقال في حزم:
- فليكن.. سنمحو أشرطة المراقبة
نظر إليه الجميع في دهشة، فتابع في صرامة:

- السجلات الرسمية لن تذكر شيئا مما حدث، والأضرار سيتم إصلاحها من المصروفات السرية، والبيان الرسمي سيتحدث عن هجوم إرهابي تم إحباطه..
تساءل أحد القيادات في تردد حذر:
- وماذا عن منفذي الهجوم؟
تعلقت كل العيون بالوزير، الذي انعقد حاجباه في صرامة صامتة بضع لحظات، قبل أن يقول في خشونة:
- سيتم تقديمهم للعدالة بالطبع..
وتبادل الجميع نظرة صامتة متوترة ولم ينطق أحدهم بحرف واحد قط.. النجاة من هذا الموقف العصيب، كان ضربا من المستحيل..

☆ ☆ ☆

الطريق ضيق..
والسيارة الضخمة تنطلق بكل قوتها وسرعتها
ولا يوجد سبيل للفرار..
أي سبيل..
ولوهلة، تصور (رشدي) أنه هالك لا محالة وكرد فعل غريزي، أغلق عينيه وسمع صوت الارتطام القوى، بدويه العنيف وانتفض جسده كله..
انتفض بمنتهى الدهشة؛ لأنه لم يشعر بذلك الارتطام أبدا..
ولهذا بالتحديد، فتح عينيه..
في البداية، فتحهما في حذر، إلا أنهما باغتتاه باتساع مندهش، وهو يحدق فيما نقلته إليه مرآة سيارته الجانبية، قبل أن يلتفت لينظر إليه مباشرة، وقد استحالت دهشته ذهولاً كانت تلك السيارة الضخمة منسحقة تماما، كما لو أن صخرة المقطم قد سقطت فوقها مباشرة، ثم ارتدت إلى موضعها وكانت النيران

تشتعل في بقاياها المسحوقة لم تكن نيرانا قوية، وإنما هي بقع منتشرة من النيران، وسط البقايا المسحوقة..
وعند نهاية الطريق، كانت السيارة رباعية الدفع تتراجع في سرعة، محاولة الفرار من خطر ما وكان هناك شخص ما، يسير في الطريق في هدوء،، مرتديا زيا لامعا، من قطعة واحدة، ويعمل سلاحا عجيبا، يصوبه نحو السيارة، التي يحاول قائدها الفرار..
وبنفس الهدوء، صوب ذلك الشخص سلاحه إلى السيارة، التي انطلقت مبتعدة بأقصى سرعتها وضغط زنادا ما..
واتسعت عينا (رشدي)، وقد بلغ ذهوله مبلغه.
فمن ذلك السلاح، خرجت كرة من الطاقة، شقت طريقها نحو السيارة رباعية الدفع، في سرعة خرافية، حتى لحقت بها..
ودوى صوت ارتطام عنيف آخر..
وأمام عينى (رشدي) الذاهلتين، طارت السيارة رباعية الدفع في الهواء، وارتفعت عن الأرض قرابة الأمتار الثلاثة ثم هوت منسحقة براكبها وعلى الرغم من عنف الموقف، توقف صاحب الزي اللامع في هدوء، يراقب ألسنة النيران المحدودة، التي اندلعت من حطام السيارة المسحوقة، ثم التفت إلى حيث سيارة (رشدي)..
وبحركة غريزية، وبمنتهى التوتر، انتزع (رشدي) نفسه من ذهوله، واستل مسدسه، وصوبه نحو صاحب الزي اللامع وهو يهتف:
- لن يكون دمى رخيصا كدمائهما..
كان ذلك الشخص يسير نحوه في هدوء، وقد خفض ذراعه بامتداد جسده، على نحو يوحي بأنه لا ينوى استخدام سلاحه على الإطلاق..

وكانت النيران كلها تأتى من خلفه، وتحجب معظم ملامحه وعلى الرغم من هذا، فقد بدا مألوفا له وبكل توتر الموقف، صوب (رشدي) مسدسه نحو القادم وهو يهتف في عصبية، حاول عبثا أن يجعلها صارمة:

- أفصح عن هويتك يا هذا..

واصل ذلك الشخص سبره، دون ان يجيب، فانتفض جسد(رشدي) من فرط الانفعال، وهو يصرخ:

- قلت: أفصح عن هويتك..

آتاه صوت مألوف للغاية، يقول:

- عجبا!!.. ألم تتعرفني بعد؟!

شعر (رشدي) وكأن لطمة قوية قد أصابته في صدره، فانتفض في عنف، وعادت عيناه تتسعان، وهو يقول في انفعال:

- مستحيل!

دخل ذلك الشخص منطقة الضوء، وابتسم، قائلا:

- لا يوجد مستحيل أيها المقدم..

حدق (رشدي) في وجهه بذهول، مغمغما:

- (حاتم)؟!.. كيف فعلت هذا؟!

رفع (حاتم) إليه يده، بعلبة من البلاستيك، تحوي عددا من الأسطوانات المدمجة التقليدية، وهو يقول بنفس الابتسامة:

- يمكنك أن تقول: إننى قد عدت خصيصاً؛ لأعطيك هذا.

تراجع (رشدي) خشية ان يمس تلك العلبة، وهو يغمغم في عصبية:

- وما هذا؟!..

أجابه (حاتم)، في هدوء حاسم:

- الدليل..

وعاد جسد (رشدي) ينتفض وبمنتهى القوة..

☆ ☆ ☆

١٠- ختـام..

لدقيقة كاملة تقريبا، جلس (رشدي) يحدق في وجه (حاتم)، الذي ابتسم في هدوء، وهو يقول:

- ما الذي لم تفهمه بالضبط؟!..

هز (رشدي) رأسه، وتطلع إلى ما حوله في توتر، قبل أن يقول، في عصبية عجز عن كتمانها:

- كل شيء تقريبا

عقد الحارس الخاص ل- (حاتم) حاجبيه دون تعليق، في حين ابتسم هذا الأخير، وهو يقول:

- فلنبدأ بأكبر شيء..

لم يكد (رشدي) يسمع السؤال، حتى اندفع يقول في عصبية:

- أين نحن بالضبط؟!..

أجابه (حاتم) في هدوء:

- داخل فقاعة مكانية.. شيء ما يفوق تكنولوجيا شيء ما، عصرك بنصف قرن، وهو منطقة بين الزمان والمكان، يستحيل رصدها، أو معرفتها..

فغر (رشدي) فاه، وهو يقول:

- تفوق عصري بنصف قرن؟!..

أوما (حاتم) برأسه إيجابا، وقال:

- هذا أمر يطول شرحه يا صديقي، ولكن أعدك بأن يستوعبه أحفادك في يسر.. المهم الآن أنك تمتلك كل ما يكفيك، لتفجير أكبر قنبلة في هذا الزمن.. تسجيلات حية بالصوت والصورة، لاتفاقيات المسئول الكبير، الذي دبر حادث القطار؛ لاغتيال (أمين ضياء)، وكل ما يثبت تورط عدد من القيادات الأمنية في

هذا، وعلى رأسهم (هشام حمزة).. باختصار يا صديقى، ما لديك يكفي، لكي يفتح النائب العام ملف أضخم قضية فساد سياسي في القرن..
نظر (رشدي) في دهشة، إلى الأسطوانات التي يحملها في يده، فغمغم الحارس الخاص، في صوت أشبه بالزمجرة:
- لا يمكنك ان تدرك كم عانينا، لكي نحصل على أسطوانات بدائية كهذه، ونظام لتشغيلها..
رفع (رشدي) عينيه إليه بنظرة حادة، ثم قال في عصبية:
.. كلها تسجيلات غير قانونية.. لم تحصل على موافقة النيابة، وهذا يسقطها كدليل..
ابتسم (حاتم)، وهو يقول:
- لن يمكنهم إثبات هذا أبدا..
حدق (رشدي) في وجهه، غير مستوعب لما قاله، فتابع(حاتم) في هدوء:
- نصف القرن، الذي يفصلنا عن زمنكم، منحنا تكنولوجيا، يصعب على عقولكم حتى استيعاب نظرياتها، ولكن ثق أنك ستجد، في المستندات الرسمية، ما يثبت حصولك على موافقة النيابة العامة، على إجراء هذه التسجيلات، وستجد من رجالها من تحوي ذاكرته، بوسيلة ما، أنك قد التقيت به من قبل وحصلت منه على الموافقة..
بدا (رشدي) مبهورا، وهو يقول:
- ولكن كيف؟!..
زمجر الحارس الخاص مرة أخرى، وتمتم في خشونة:
- اخبرك أنه سيصعب عليك استيعاب هذا..
نقل (رشدي) بصره بينهما في دهشة بالغة، قبل أن يغمغم:
- لست واثقا.

نهض (حاتم) وهو يقاطعه في حزم:
- بل كن واثقا.
ثم وضع يده على كتفه، وابتسم، وهو يكمل:
- واستعد لنيل شرف الانتصار.. يا سيادة الوزير..
وحتى في تلك اللحظة، لم يستوعب (رشدي).. _
أبدا..

☆ ☆ ☆

ارتجف جسد (هشام حمزة) ارتجافة واضحة، وهو يقف أمام ذلك المسئول الكبير، مغمغما:
لست أدري كيف حدث هذا يا سيدي.. لقد انسحقت السيارتان، اللتان كان من المفترض أن تسحقا (رشدي عبد الهادي)، وكل خبراء الوزارة لم يستوعبوا حتى كيف حدث هذا؟!..
هتف به المسئول الكبير في حدة:
- هل جننت؟!
انتفض جسد (هشام) أكثر، وهو يقول:
- أقسم لك أن هذا ما حدث، ولقد...
قاطعه المسئول الكبير، في حدة أكثر:
- هل جننت، حتى تأتى إلى مكتبي مباشرة؟!.. ألم يكن من لمفترض ألا يعلم مخلوق واحد، بالعلاقة التي تربطني بك؟!
حدق (هشام) في وجهه بكل الدهشة، وهو يقول مستنكرا:
- أهذا كل ما يقلقك؟!..
صرخ فيه المسئول الكبير:
. غادر مكتبي فورا.. عد إلى مكتبك، قبل أن....
قاطعه هذه المرة رئيس طاقم أمنه، وهو يدخل مكتبه، في توتر بالغ، قائلاً بصوت مرتجف:

- سيدى.. النائب العام شخصيا هنا.
التفت إليه (هشام) بكل الذعر، في حين حان دور المسئول الكبير، لينتفض جسده في عنف، وتتسع عيناه عن آخرهما، قائلاً:
- شخصيا؟!..
أوما رئيس طاقم الحراسة برأسه إيجابا، فسأله المسئول الكبير، وهو يسقط جالساً على مقعده، وقد شحب صوته بشدة:
- وماذا يريد؟!..
أجابه رئيس طاقم أمنه، في صوت مبحوح:
- مقابلتك فورا يا سيدى.
أشار (هشام) بيده، قائلا:
- سأعود إلى مكتبي، و..
قاطعه المسئول الكبير في حدة:
- ابق هنا.
ثم التقط نفسا عميقا، في محاولة لتهدئة أعصابه الثائرة، قبل أن يشير إلى رئيس طاقم حراسته، قائلاً في توتر:
- لا يجوز أن ينتظر النائب العام في الخارج.. دعه يدخل فورا أيها الأحمق..
تراجع رئيس طاقم حراسته في سرعة، ولم تمض دقيقة واحدة، ربما أقل، حتى دخل النائب العام شخصيا، وبصحبته رشدي عبد الهادي)، الذي ما أن لمح (هشام) حتى قال مبتسما:
- (هشام حمزة) أيضا.. هذا سيوفر الكثير من الوقت..
امتقع وجه (هشام)، وحملته ساقاه في صعوبة، في حين بذل المسئول الكبير أقصى طاقته، ليغمغم في توتر بالغ:
- لا يمكنني في الواقع فهم سبب الزيارة الكريمة..
أشار إليه النائب العام، قائلاً:

- الواقع أنها زيارة غير مألوفة، ولهذا قمت بها بنفسي بعد استئذان السيد رئيس الجمهورية بالطبع..
امتقع وجه المسئول الكبير، وشحب صوته بشدة، وهو يسأل:
- ولماذا كل هذا؟!..
شد النائب العام قامته، وقال في حزم صارم:
- بكل الأسف، أنت متهم بتدبير حادث القطار الاخير، كجزء من مؤامرة اغتيال زعيم المعارضة (أمين ضياء).
صرخ المسئول الكبير:
- كذب.
أكمل النائب العام، بنفس الصرامة الحازمة، وكأنه لم يسمعه:
ولدينا كل التسجيلات، بالصوت والصورة، التي تثبت المؤامرة، وأنها تمت بناء على اوامرك الشخصية..
ردد المسئول الكبير، في صوت، خفف انهياره من ارتفاعه:
- كذب.
تابع النائب العام بنفس اللهجة:
- وكلها تسجيلات قانونية، تمت بعلم ومعرفة النيابة العامة.
بدا المسئول الكبير منهاراً بضع لحظات، قبل أن يهتف فجأة:
- ولكن لا يمكنك اعتقالي بهذا الأسلوب، هناك إجراءات خاصة؛ لاعتقال من في منصبي هذا..
أجابه (رشدي) هذه المرة، في هدوء صارم:
- سيادة رئيس الجمهورية أصدر قراراً بإقالتك، قبل أن نأتي إلى هنا..
ثم التفت إلى (هشام)، وأضاف:
- وهذا ينطبق عليك أيضا..
انهار المسئول الكبير على مقعده، ودفن وجهه بين كفيه، وانفجر باكيا في ألم، في حين تراجع (هشام حمزة) بضع

خطوات، ثم قال في حدة مفاجئة:
- ليس بهذه السهولة.
ثم استل مسدسه في سرعة، و.. أطلق النار.. مباشرة..
☆ ☆ ☆
بدموع من الدم، بكت زوجة (حاتم)، كما لم تبك من قبل وانهمرت دموعها تغرق وجهها كله، مع صدر أمها، التي ربتت عليها في حنان مشفق، قائلة:
- من المستحيل أن يكونوا قد اعتقلوه.. البلد مازال به قانون، ولا يمكن أن...
قاطعتها زوجته، وهي تعتدل بحركة حادة.:
- أي قانون؟!.. هذا البلد لا قانون له.. الكبار يتحدثون فيه عن القانون، ولكن القانون الفعلي الوحيد، الذي يسود الساحة، هو قانون القوة.. أي شخص يمكن أن يختفي، إذا ما أرادوا هذا.. وهناك عشرات الوسائل.. أضفاها قانون الطوارئ المطاطي، الذي يمنحهم الحق في اعتقال من يشاءون، وقتما يشاءون.. أمي.. لا قانون لهذا البلد..
نظرت إليها أمها في فزع، وتلفتت حولها في اضطراب؛ وكأنها تخشى أن يسمعها أحد، ثم غمغمت في توتر:
- سيعود.. صدقيني يا بنيتي.. سيعود.
عادت تدفن وجهها في صدر أمها، وهي تبكي قائلة:
- ليته يفعل.. إنني أحبه حقا.. أحبه، حتى أنني أقسم ألا أضايقه بحرف واحد، لو عاد إلى..
عقب كلمتها، سمعت فرقعة قصيرة، أعقبها صوت باسم، يقول:
- أهذا وعد؟!..
التفتت مع أمها في ذعر إلى مصدر الصوت، وشهقت أمها في قوة، في حين حدقت هي في زوجها، الذي بدا عجيب، في زيه

اللامع، وابتسامته المشرقة، إلا أن لهفتها جعلتها تطرح كل الدهشة خلف ظهرها، وتندفع لتلقى نفسها بين ذراعيه، هاتفة:
- (حاتم).. حمدا الله.. حمدا الله..
قبلها في حنان، وتحسس شعرها في رفق، هامسا بابتسامة كبيرة:
- أوحشتني..
دفنت وجهها في صدره، وهي تقول في لهفة:
- كدت أموت خوفا عليك..
غمغم في أذنها، دون أن تفارقه ابتسامته:
- لا توجد في هذا الزمن، شهادة وفاة باسمك.
رفعت رأسها عن صدره، وهي تسأله في دهشة:
- ما الذي يعنيه هذا؟!..
ابتسم وضمها إليه مرة أخرى، وهو يهمس في أذنها:
- إنها قصة طويلة، تحتاج منك إلى الاستيعاب، ومنحى كل ثقتك..
هتفت بكل حبها:
- لا حدود لثقتي بك..
وهتفت أمها، في نفس الوقت تقريبا:
- كيف دخلت إلى هنا؟!..
وابتسم هو..
ولم يجب..
إطلاقا..

☆ ☆ ☆

أول من تحرك، كان (رشدي عبد الهادي).. لقد استل مسدسه، ودفع النائب العام جانبا، ثم وثب هو إلى الجانب الآخر.. وأطلق النار..

وانطلقت من حلق (هشام) صرخة ألم، عندما أصابت رصاصة (رشدي) يده، وأطاحت بمسدسه، ووثب (رشدي) نحوه، ليكتم صرخته بلكمة، أودعها كل قوته، وهو يهتف:
- وهذه جريمة جديدة.
كانت اللكمة من القوة، حتى أنها اطاحت ب- (هشام)، ليسقط فوق مكتب المسئول الكبير، ويزحف به وبأوراقه، حتى يسقط على هذا الأخير، فينقلب مقعده، ويسقطان معا أرضا..
وفي ثبات، التفت النائب العام إلى رئيس طاقم حراسة المسئول الكبير، فشد هذا الاخير قامته، وسحب مسدسه، وناوله للنائب العام، وهو يقول في استسلام بائس:
- رهن إشارتك يا سيدي..
اندفع رجال حراسة النائب العام، داخل حجرة المسئول الكبير، إثر سماع صوت الرصاصة، فأشار النائب العام إلى المسئول و(هشام)، وقال بكل الحزم والصرامة:
- بأمر فخامة رئيس الجمهورية، ألقوا القبض عليهما..
وهنا، وفي مشهد عجيب مؤسف، انفجر المسئول الكبير باكيا.
في مرارة..
وأسف..
وندم..
بلا حدود..

☆ ☆ ☆

طالع رئيس الجمهورية ملف القضية كله، قبل أن يغلقه في غضب واضح، وهو يرفع عينيه إلى وزير الداخلية، قائلاً:
- أيحدث كل هذا خلف ظهورنا؟!
شد وزير الداخلية قامته، وهو يقول:
- كل من تورط في الأمر سيلقى جزاءه يا سيادة الرئيس.

هز الرئيس رأسه في قوة، قائلاً في غضب:
هذا لا يكفي.. تلك المؤامرة تثبت وجود خلل كبير في المنظومة الأمنية في (مصر)، وخلل أكبر في علاقتها بمؤسسة الرياسة، وكل هذا يحتاج إلى تعديل كبير في النظام بأكمله..
غمغم وزير الداخلية في توتر:
- يمكننا أن..
قاطعه الرئيس في صرامة:
- كلا.. هذه ليست مهمة وزارة الداخلية..
شد الوزير قامته مرة أخرى، في توتر ملحوظ، وأطبق شفتيه تماما، في حين قال الرئيس، مكملا حديثه:
- هذا امر يخص الأمن القومي ل- (مصر)، ويحتاج إلى لجنة كبيرة؛ لدراسة هذه الأوضاع المتردية، ووضع خطة إصلاحية شاملة لها.
غمغم الوزير:
- أنا رهن إشارتك يا فخامة الرئيس.
أشار إليه رئيس الجمهورية، قائلاً:
- أريد هذا المقدم.. (رشدي عبد الهادي).
قال وزير الداخلية، وتوتره يتزايد:
- فورا يا فخامة الرئيس.
أشار إليه الرئيس مرة أخرى، وقال في صرامة شديدة:
- وفي طريق خروجك من هنا، لا تنس ترك استقالتك لدى مدير مكتبى..
امتقع وجه الوزير في شدة، وغمغم:
- فورا يا فخامة الرئيس.. فورا.
والتقى حاجبا الرئيس، وهو يتابع مغادرته لمكتبه ولقد أدرك، عقب هذه الواقعة، أن الامور تحتاج إلى تغيير وإلى إصلاح..

إصلاح كبير.. للغاية..

☆ ☆ ☆

بدت زوجة (حاتم) مبهورة، وهي تلتصق بزوجها في شدة وحب، مغمغمة في سعادة:

- لم أكن أتصور أن مستقبل (مصر) مشرق إلى هذا الحد...

غمغم، وهو يضمها إليه في حب:

- إنها ليست جنة بعد

قالت في خفوت حالم:

- ولكنها أجمل كثيراً، مما كانت عليه في زمني.

ابتسم، وضمها إليه في حنان أكثر، وطبع قبلة على جبينها، وهو يقول في حب:

ألا تشعرين بالندم، على أنك قد غادرت ومنك من أجلي؟!

غمغمت في حب:

- زمني حيث يوجد من أحب.

ابتسم، وقال مداعبا:

- تاريخ مولدك يعود إلى أكثر من نصف قرن مضى..

ضحكت، قائلة:

- وهل رأيت امرأة في مثل عمرى، مازالت تتمتع بالحيوية والشباب؟!..

غمغم:

- العلم يصنع المعجزات.

التصقت به أكثر، وقبلت صدره، قائلة:

- والحب يصنع أكثر.

ثم هزت كتفيها، مضيفة:

- والاعجب أن تاريخ مولد ابنتنا، سيأتي بعد نصف قرن، من تاريخ زواجنا..

التفت إليها في لهفة وسعادة، فأكملت، وهي تدفن وجهها في صدره حياء:

- ماذا تحب تسميتها؟!

ضمها إليه، وهو ينظر من نافذة مقر الرئاسة، إلى شروق شمس المستقبل، وأجاب في خفوت:

- أمل..

وغرقت في صدره أكثر، مع مشرق الشمس..

شمس الغد..

تمت بحمد الله

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

النجم

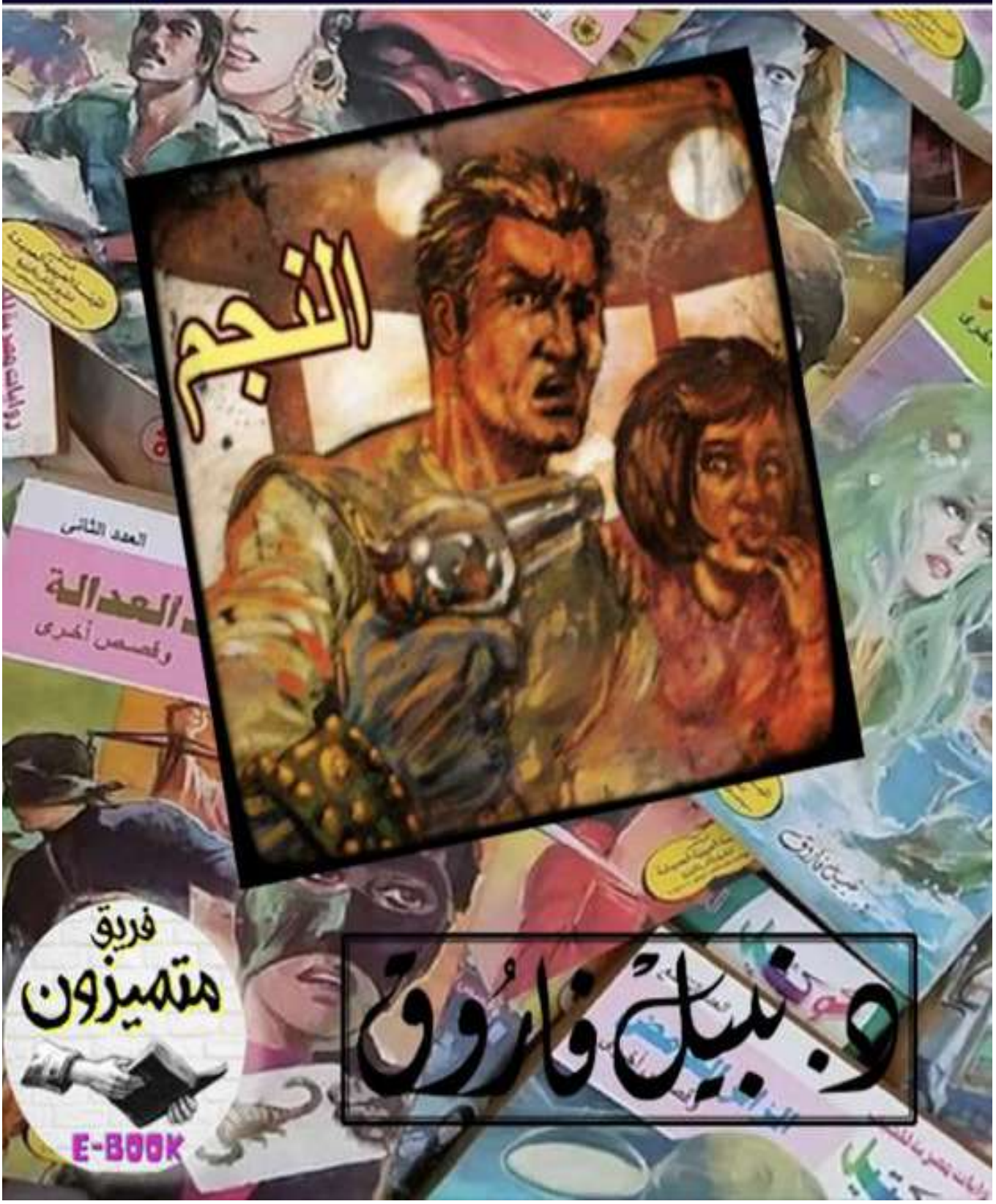

وبنبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

النجم

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- بلا أمل..

*انساب جسدى، في سرعة وهدوء، عبر الفضاء السرمدي اللا نهائي، وسط ملايين النجوم، التي تناثرت هنا وهناك، والتي انعكس ضوءها على خوذة الزي الفضائي المتطور الذي أرتديه، وقد أحاط بي صمت وسكون مهيبان رهيبان، بعد أن توقفت كل أجهزة الاتصال عن العمل، وحاصرني الفراغ، الذي لا تنتقل فيه الأصوات أبدا، مما زاد من شعوري باليأس والإحباط، وضاعف من قناعتي بأنه لا أمل في النجاة من هذا الموقف..

أدنى أمل..

وبنظرة يائسة، رحت أتطلع إلى النجوم البعيدة، وأرسم في ذهني صورة لما يحيط بها من كواكب وأقمار، ومؤشر الأكسجين الرقمي، المنعكس على الواجهة الداخلية للخوذة يشير إلى انخفاض الهواء التدريجي، مع إشارة إلى أنه لم يتبق لدى ما يكفي، إلا لسبع دقائق فحسب، ثم وبسرعة، استرجعت كل ما تعلمته ودراسته، من وسائل خفض معدلات استهلاك الأكسجين، التي يمكن أن تمنحني دقيقة أو دقيقتين أكثر....

الأكسجين.. ذلك العنصر الغازي، عديم اللون والطعم والرائحة، الذي لا يشتعل، ولكنه يساعد على الاشتعال، كما درسنا في المرحلة الابتدائية، والذي يمثل خمس الهواء الجوى ونعتمد عليه كأساس لتنفسنا، دون أن نشعر بهذا، أصبح الآن شيئا قليلا نادرا، أتشبث بأنفاسي وأحتبسها في صدري، حتى أدخر منه ما يكفي لدقيقة أو دقيقتين إضافيتين من الحياة ولأن أجهزة الدفع في الزي الفضائي قد تم إفسادها عمدا، فلم تعد أمامي أية وسيلة للمقاومة، أو حتى لمنع جسدى من الانطلاق في الفضاء

الشاسع دون هدف، لذا فقد أغلقت عينى، وحاولت أن أتشاغل عن المصير الرهيب، الذي ينتظرني هنا، على بعد آلاف الكيلومترات من كوكبي الأرضى، باستعادة تلك الأحداث التي انتهت بي إلى هذا الموقف اليائس، البائس، المرير...
والعجيب أن كل هذه الأحداث بدأت منذ يوم واحد....
يوم أرضى واحد..
ويا له من يوم!..
يوم بدأ بداية مثيرة
مثيرة للغاية!..

☆ ☆ ☆

«اليوم تبدأ إجازتي..»

نطقت العبارة بابتسامة كبيرة، وبمزيج من الارتياح والاسترخاء، وأنا أحلق ذقني، أمام المرآة الإليكترونية الجديدة التي تحوى في ركن منها شاشة صغيرة، أتابع عليها أخبار الدنيا أولا فأولاً، خاصة وأن العالم كله يستعد لاستقبال القرن الثاني والعشرين، مع نهايات الأسبوع، حيث ستتم إضاءة سلسلة من الأقمار الصناعية الخاصة، التي اشتركت معظم الدول في صنعها وتمويلها وإطلاقها؛ لتصنع حلقة من الضوء حول كوكب الأرض، يمكن رؤيتها من ملايين الكيلومترات في الفضاء اللا نهائي..
حلقة صناعية، تشبه تلك الحلقات الطبيعية، التي تحيط بكوكبى (زحل) و(أورانوس)، ولكنها ستوفر إضاءة طبيعية متصلة خلال الليل، وستعمل على شحن أجهزة الطاقة الشمسية التي يتم الاعتماد عليها الآن، كمصدر أسبايس التشغيل بتشغيل الآلات والمعدات، كما أنها ستثير حتما انتباه

واهتمام أية حضارة أخرى عاقلة في الكون، وستدفعها إلى محاولة الاتصال بنا يوما ما..
اتسعت ابتسامتي، وأنا أنهى حلاقة ذقني، وأتخيل شكل كوكب الأرض، وقد أحاطت به حلقة من الأقمار المضيئة وفجأة، وقبل أن تسترسل أفكاري، انطفأت شاشة الأخبار الإليكترونية بغتة..
بل توقف كل شيء إليكتروني من حولي دفعة واحدة. الأضواء انقطعت، وكذلك مكيف الهواء توقف، وساعة الحائط، وحتى آلة الحلاقة الكهرومغناطيسية الصغيرة..
ولوهلة، لم أستطع استيعاب ما حدث!!..
فمنذ ما يقرب من نصف القرن، ومع الانتقال إلى الشبكة الإليكترونية النووية للكهرباء، أكد الخبراء أن عصر انقطاع التيار قد ولى وانتهى، وأنه في وجود الشبكة الذكية، سيتم إصلاح أية أعطال، فور كشفها، وقبل ظهورها فعليا وهذا ما حدث بالفعل، طوال نصف قرن كامل، لم ينقطع خلاله التيار الكهربي، ولو لجزء من الثانية ثم إن هذا ليس انقطاعا للتيار الكهربي؛ فحتى الآلات، غير المتصلة بالكهرباء، والتي تعتمد على بطاريات الليثيوم النووية توقفت أيضا عن العمل!..
هناك إذن أمر غير طبيعي، وغير مألوف وغير مريح أيضا..
ثم فجأة، وثب ذهني خارج حالة الدهشة والتوتر والاضطراب وعاد يعمل بكل نشاطه الفائق دفعة واحدة..
ما حدث ليس أمرا عاديا إنه أمر خطير..
خطير للغاية..
وبأسلوب غريزي تلقائي، وعلى الرغم من أنه أول أيام إجازتي، اندفعت نحو حجرتي، ورحت أرتدى زيي الرسمى باعتبار أن موقف كهذا يحتم تواجدي في موقع أداء الواجب ودون إبطاء..

وبينما أرتدي الزي، وأتأكد من أن مسدسي مشحون بالطاقة كان عقلي يبحث عن وسيلة لبلوغ مقر قيادة الأمن الفضائي بعد أن توقفت كل الأجهزة عن العمل، ولم يكن التساؤل قد اكتمل في ذهني، عندما سمعت صوتا أشبه بالفرقعة المكتومة، أعقبه عودة كل الأجهزة، دفعة واحدة، إلى العمل..

وعلى الفور، وفي سرعة تتناسب مع إيقاع العصر، راحت الشاشات الإخبارية الإليكترونية، الموزعة في منزلي تذيع خبر ذلك الانقطاع الإليكتروني المفاجئ والعالمي، الذي أصاب جميع أنحاء العالم في آن واحد، مما يؤكد حقيقة ذلك الشعور، الذي راودني كمحترف، بأهمية وخطورة ما حدث، و...

«النقيب (هيثم ذهني).. أجب فورا..»

انبعث النداء بغتة، عبر ساعتي الذرية الصغيرة، فرفعتها إلى شفتي في سرعة، قائلا:

- النقيب (هيثم) رهن إشارتك يا سيدى

بدا لي صوت قائد الأمن الفضائي مفعما بتوتر لا محدود، وهو يقول:

- احضر إلى مكتبى على الفور.. اتخذ المسار(ب - 10).. الأمر عاجل وخطير للغاية..

امتلأت كل ذرة في كياني بالانفعال، وأنا أهتف، عبر جهاز الاتصال الفائق:

- أنا في الطريق يا سيدي.

أصبحت موقنا من خطورة الأمر، مع تحديد المسار (ب – 10) لانطلاقي؛ إذ إنه ومنذ اعتماد تقنية الانتقال الآني الفائقة، لا يتم استخدام تلك المسارات الذرية، إلا للضرورات القصوى فحسب..

ودون إضاعة لحظة واحدة، اندفعت نحو جزء من جدار منزلى، ولمست طرفه بأصابعي، فتألق مستطيل كبير في منتصفه، وتألقت فوقه علامة تشير إلى التحقق من هويتي، قبل أن يتموج ذلك المستطيل، كما لو أنه صورة على سطح الماء، ثم يتلاشي تماما، ليكشف خلفه فجوة محدودة، استقر داخلها جهاز الانتقال الآني الفائق، الذي يحمل أعلاه شعار إدارة الأمن الفضائي..

دلفت إلى جهاز الانتقال الآني الفائق، وأنا أراجع كل معلوماتي عن الانتقال، عبر المسار (ب - 10)..

إنه حلم العلماء منذ عشرات السنين..

انتقال الجسد عبر الفراغ، وعبر الزمان والمكان معا، عن طريق تفكيك جزيئاته، عند محطة الانطلاق، وإعادة تجميعها عند محطة الوصول، أو محطة الهبوط، كما يطلق عليها العلماء....

عملية دقيقة معقدة، تحتاج إلى منتهى الإتقان والبراعة وإلى حسابات شبه مستحيلة؛ حتى لا تمتزج جزئيات المرء بثيابه، أو تتبعثر في الفراغ إلى الأبد، ولهذا وضع لها العلماء عدة قواعد صارمة للغاية، وأخضعها المسئولون إلى رقابة شديدة، مع قصر استخدامها على الحالات القصوى فحسب..

راجعت كل هذا في ذهني، قبل أن أضغط ذلك الزر، في قلب الجهاز، الذي أصدر صوتا أشبه بفحيح مكتوم، قبل أن يتوهج قلبه بوهج تصاعد تدريجيا، وأنا أضبط إحداثيات محطة الهبوط وفقا للجدول الذي أحفظه عن ظهر قلب، باعتبارى واحدا من أفراد فريق الأمن الفضائي الخاص، ثم شددت قامتي، في وقفة عسكرية صارمة، مع تحول الصوت الأشبه بالفحيح إلى أزيز متصل، تضاعف معه توهج الجهاز ودوت فرقعة مختنقة وبدأ الانطلاق..

كنت أحفظ أيضا ذلك الشعور بالانطلاق، فأنت تشعر وكأن جسدك كله يتمدد ويستطيل، ويندفع عبر أسطوانة مضيئة، بسرعة تتجاوز أية سرعة يمكن أن يستوعبها العقل، و...
ولكن ما يحدث هذه المرة كان يختلف، عن كل خبراتي السابقة، في الانطلاق عبر المسار (ب - 10) جسدي لم يكن يندفع بسرعة ونعومة، في اتجاه واحد فحسب كانت هناك ارتجاجات عنيفة غير مفهومة هناك خلل ما..
خطأ ما..
وأعترف هنا بأن كل ذرة في كياني المفكك قد شعرت بالرجفة..
جسدى كله كان يرتج في عنف، كما لو أننى داخل سيارة قديمة، تنطلق بما يفوق سرعتها القصوى، فوق طريق وعر غير ممهد... بالرعب بلا حدود..
فما مصيرى، مع خلل كهذا؟!..
هل ستفقد جزيئاتى تماسكها إلى الأبد؟!..
أم ستتلاشى وتتبعثر في الفراغ؟!..
هذه الأسئلة، وعشرات غيرها عربدت في رأسي، ومزقت كياني أكثر وأكثر...
ثم فجأة، شعرت بجسدى ينجذب إلى أسفل..
نفس الشعور الذي يراودني، عندما أبلغ محطة الهبوط في المعتاد..
ترى هل انتهت عملية الانتقال الآني في سلام، على الرغم من حدوث هذا الخلل غير المفهوم؟
لم يكن السؤال قد اكتمل حتى في ذهني، عندما استعاد جسدى تماسكه دفعة واحدة، على نحو يؤكد أننى قد بلغت بالفعل محطة الهبوط ولثانية واحدة، كما يحدث في المعتاد، حجبت

عيني غشاوة داكنة، لم تلبث أن انزاحت في سرعة، وانجلت، لتبدو الصورة أمامي واضحة..

وعندئذ، اتسعت عيناي عن آخرهما فما رأيته أمامي كان مذهلاً!!..

وبكل المقاييس....

☆ ☆ ☆

٢ - مهمة فضائية..

لثوان لم أستطع استيعاب موقفى بالضبط، وأنا أدير عيني فيما حولى، في مزيج من التوتر والرهبة والحيرة..
ففي كل المرات السابقة، التي خضت فيها تجربة الانتقال الآني، عبر المسار الفائق (ب - 10)، كانت الرحلة تنتهي بي في مكتب السيدة (فدوى)، القائد الأعلى لإدارة الأمن الفضائي أما في هذه المرة، فالأمر يختلف تماما..
لقد هبط جسدى وسط قاعة كبيرة، لها جدران زجاجية تطل مباشرة على الفضاء اللا نهائي، وعلى كوكب الأرض بلونه الأزرق الجميل، وتضاريسه التي يحفظها كل رائد فضاء عن ظهر قلب...
وتضاعف توترى، وأنا أفحص كل ما حولي، في توتر حذر وأتساءل عما إذا كانت عملية الانتقال الآني، عبر مسار فضائى، هى المسئولة عن ذلك الارتجاج العنيف، الذي تعرضت له، أم أن...
«مرحبا بك على المحطة الأمنية (فجر - 3) أيها النقيب»
انتزعنى صوت السيدة (فدوى) الهادئ الحازم، من أفكارى وتساؤلاتي، عندما برزت فجأة داخل القاعة، عبر فتحة غير ملحوظة في الجدار، فالتفت إليها بمنتهى السرعة، وشددت قامتي في وقفة عسكرية، تحمل كل الحزم والاحترام، وأنا أؤدى التحية الرسمية في قوة، ولكن السيدة (فدوى) أشارت إلى، قائلة في توتر ملحوظ:
- استرح أيها النقيب.. الموقف لا يحتمل هذه الرسميات...

كلماتها وأسلوبها بعثا في نفسي قلقا عارما؛ فهذا ما اعتادت أن تقوله، كلما تعقدت الأمور، أو واجهت إدارة الأمن الفضائي أزمة خطيرة، ولكنني، وعلى الرغم من اشتعال رأسي بعشرات الأسئلة، لذت بالصمت التام، مكتفيا بالاستماع إليها، وهي تتابع بهدوئها الحازم:

- لقد عدلنا المسار (ب - 10)، حتى ينقلك إلى هنا مباشرة، بدلا من ذلك المهبط في مكتبي؛ لأنني كنت أشرف على الترتيبات الأخيرة، لمشروع حلقة الضوء، عندما حدث ما حدث، ورأيت أنه لا ينبغي أن نضيع لحظة واحدة.

سألتها في حذر:

- لماذا توقفت كل الأجهزة الإليكترونية عن العمل يا سيدتي؟!

زفرت في توتر ملحوظ، قبل أن تجيب:

- بعضهم سيطر على وحدة التحكم الرئيسية، لمشروع حلقة الضوء...

كان الجواب مفاجئا بالنسبة لي، فهتفت بكل دهشة الدنيا:

سيطر على ماذا؟!.. ولكن هذا مستحيل!!.. كل العاملين في وحدة التحكم الرئيسية (نجم - ألفا)، تم انتقاؤهم بمنتهى الدقة والعناية، وولاؤهم مضمون مائة في المائة...

لوحت بيدها، قائلة:

- من الواضح أن عملية استبدال قد تمت، في اللحظات الأخيرة، بحيث تم زرع جاسوس، في قلب المحطة الفضائية..

تساءلت في حيرة، وأنا أعتصر كل خلية في مخي؛ بحثا عن تفسير منطقي للموقف كله:

- حتى لو تم زرع جاسوس في قلب محطة التحكم الرئيسية(نجم - ألفا)، فكيف يمكنه وحده السيطرة على المحطة كلها بكافة أجهزتها وأسلحتها، في وجود تسعة أشخاص آخرين؟!

أجابني القائد الأعلى، في صرامة عصبية:
- ليست لدينا تفاصيل كافية بعد، ولكن من الواضح أن بعضهم قد عدل برنامج الطاقة في أسلحة (نجم - ألفا)، ليطلق شعاعا بالأرض، على نحو أوقف عمل كل الأجهزة الإليكترونية على كوكبنا....
وزفرت مرة أخرى، قبل أن تضيف، في عصبية أكثر:
- ولقد أبلغونا أن هذا مجرد إنذار..
هتفت بكل دهشتى واستنكارى:
- مجرد إنذار؟!.. ما الذي يعنيه هذا بالضبط؟!..
أجابتني في مرارة:
- الطاقة التي استخدموها، لإيقاف كل الأجهزة الإليكترونية في الأرض عن العمل، تساوى واحد في المائة فحسب، من الطاقة الكلية، التي يمكن أن تطلقها (نجم - ألفا)، وهم يهددون بإطلاق الطاقة كلها نحو الأرض، عبر سلسلة أقمارنا الصناعية، لو لم ننفذ مطالبهم، خلال أربع وعشرين ساعة فحسب....
ثم هزت رأسها، لتضيف في أسى:
- تصور.. سلسلة الأقمار الصناعية، التي اعتبرناها إشارة إلى الأمل والتفاؤل، أصبحت خطرا يهدد العالم كله بالفناء...
أومأت برأسي في صمت، وذهني يستعيد الآية الكريمة، التي تحذرنا من أن نحب شيئا، وهو شر لنا، ثم لم ألبث أن رفعت عينى إليها، متسائلاً في اهتمام بالغ:
- ولكن من هم، وما مطالبهم؟!
تطلعت إلى السيدة (فدوى) بضع لحظات في صمت، قبل أن تتنحنح، وتشد قامتها، قائلة:
- حتى هذه اللحظة، لا أحد يجيب رسائلنا أو اتصالاتنا، أو أية محاولة منا للتواصل، مع (نجم - ألفا).. فقط نتلقى تهديدات

وإنذارات وتحذيرات، عبر شبكة الكمبيوتر الفضائية، وهذا يعني أننا ما زلنا نجهل من هم!
وصمتت لحظة، ازدردت خلالها لعابها في صعوبة حلقها الجاف، من فرط التوتر والانفعال، قبل أن تتابع:
- أما عن مطالبهم، فهم يطلبون الاستسلام التام، والسيطرة الكاملة...
سألتها في حذر يفيض بكل قلق الكون:
- السيطرة على ماذا؟!
التقطت نفسا عميقا، ثم أجابت في توتر عنيف:
- على كوكب الأرض.. كله ...
اتسعت عيناي عن آخرهما في دهشة مستنكرة مرتاعة، قبل أن أهتف:
- مستحيل!..
استعادت مرارتها، وهي تجيب:
- إما هذا، أو سحق ملايين الأبرياء، دون شفقة أو رحمة.
انعقد حاجباي في غضب شديد، وأنا أقول في صرامة:
- لا يمكن أن نستسلم لهذا الاحتلال البغيض.. الموت أشرف ألف مرة، من تسليم الأرض لطغمة من المجرمين الأشرار.
أشارت بيدها، قائلة:
- هذا حديث سابق لأوانه.
قلت في حزم:
- بل هو مبدأ، غير قابل للمساومة.
تطلعت إلى السيدة (فدوى) طويلاً، ووجهها لا يحمل أية انفعالات يمكنني فهمها، قبل أن تقول، وقد استعادت حزم القائد، الذي عرفته فيها دوما:

- لو أنك قلت غير هذا، لافترضت أنهم قد استبدلوك أيضا إننى أتفق مع كل ما تتحدث عنه، ولكننا كرجال أمن، ندرك جيدا أنه من الخطأ أن نتحرك، دون معلومات كافية عن الخصم هويته.. قوته.. تسليحه.. قدراته.. كل معلومة تساعدنا على مواجهته، والتصدى له.. وفي ظروف كهذه، ومع مهلة محدودة إلى هذا الحد، يصبح من العسير الحصول على المعلومات اللازمة....

قلت في غضب:

- وهم يعلمون هذا بالتأكيد، ويبذلون قصارى جهدهم لجعل الأمر مستحيلاً بالنسبة لنا.. لهذا لا يجرون أية اتصالات، ولا تظهر وجوههم على شاشاتنا، أو نسمع حتى أصواتهم..

إنهم يعلمون أن الوسائل التكنولوجية لدينا ستمكننا من معرفة هويتهم، لو رصدنا أي شيء يتعلق بهم.. ولهذا أيضا جعلوا المهلة أقصر مما يكفي، للقيام بأي عمل دفاعى...

صمتت السيدة (فدوى) بضع لحظات، وهي تتطلع إلى مباشرة، قبل أن تشد قامتها في حزم صارم، قائلة:

- لم يتركوا لنا سوى وسيلة واحدة

سألتها في سرعة ولهفة:

- وما هي؟!

صمتت بضع لحظات أخرى، قبل أن تجيب:

- عملية انتحارية؛ للحصول على المعلومات...

أدركت ما تعنيه على الفور، وعلمت لماذا تم استدعائي بهذه السرعة، فعدت إلى وقفتي العسكرية الحازمة، وأنا أقول في قوة:

- أنا رهن إشارتك يا سيدتي.. حياتي فداء لوطني ولكوكبى الأم كله..

ارتسمت ابتسامة باهتة على ركن شفتيها، وهي تقول في خفوت:

- لم تكن لدى ذرة من الشك، في أن هذا هو الموقف الذي ستتخذه، عندما انتخبتك من بين أقرانك؛ للقيام بهذه المهمة....

سألتها في اهتمام:

- السؤال هو: كيف سيمكنني الوصول إلى (نجم - ألفا)، دون أن ينتبه المسيطرون عليها إلى هذا؟!

هتفت:

لدينا وسيلة...

تنهدت السيدة (فدوى)، القائد الأعلى لإدارة الأمن الفضائي، وتطلعت بضع لحظات إلى كوكب الأرض، عبر جدار القاعة الزجاجي، قبل أن تعود بعينها إلى، قائلة في حزم:

- ولكنها تنطوى على مجازفة خطيرة.. خطيرة إلى أقصى حد

- حقا؟!

أومأت برأسها إيجابا، ثم قالت في خفوت، فاحت منه رائحة التوتر:

- نعم..

وخفق قلبي في عنف..

☆ ☆ ☆

٣ - نجم الرعب..

كل شيء كان هادئا صامتا في الفضاء، عندما انطلق جسدى للمرة الثانية، عبر جهاز الانتقال الآني، في مسار سرى جديد مسار ينبغي أن ينقلني، من المحطة الفضائية الأمنية (فجر - 3) إلى محطة التحكم الرئيسية، في حزام الأقمار الصناعية (نجم - ألفا)...

وعلى الرغم من الارتجاج العنيف، الذي تشعر به جزئيات جسدى المفككة، في رحلتها عبر المسار الفائق، كان عقلي يستعيد كل المخاطر، التي أشارت إليها السيدة (فدوى)، القائد الأعلى لإدارة الأمن الفضائي، قبل أن تبدأ مهمتي الخطيرة..

فالمهبط الذي ستنتهى إليه رحلتي، داخل (نجم - ألفا)، يختفي في قاعها، ويحاط بسرية بالغة، باعتباره مهبطا أمنيًا احتياطيا، معدا لمثل هذه الظروف ولكننا ما زلنا نجهل هوية المسيطر على (نجم - ألفا)، ومدى إمكانياته، والنطاق الذي بلغته معلوماته عن المكان ومن المحتمل جدا أن يكون من الفئة الخاصة، التي تعلم بأمر المهبط السرى، مما يعني أنه سيكون في انتظاري، عندما أصل إلى هناك..

أو أنه، وهذا هو الأكثر خطورة، سيمنع إتمام عملية الهبوط، ويترك جزئيات جسدي تضيع في الفضاء.. إلى الأبد الأدهى أن جهاز الانتقال الآني، على الرغم من تطويراته، لا يصلح لنقل أية أسلحة، عبر الفضاء والزمان والمكان..

وهذا يعني أنني سأصل إلى (نجم - ألفا)، وأنا أعزل تماما من السلاح، لأواجه شرا لست أدرى أبعاده بالتحديد وهنا يكمن الخطر كل الخطر..

امتلأت ذاتي بتلك الأفكار والتساؤلات، خلال الثواني المعدودة، التي استغرقها انتقال جزئيات جسدى، عبر الزمان والمكان، وعبر الفراغ والفضاء، من المحطة الأمنية (فجر - 3) وحتى ذلك المهبط السرى، المختفى في أعماق (نجم - ألفا)..
ثم بدأت أشعر بذلك الانجذاب إلى أسفل....
وبدأ جسدى يهبط، ويستعيد تماسكه وذاته..
وتضاعفت مخاوفى ألف مرة، وتساؤلاتي تتزايد ألف ألف مرة، وخيل إلى أن نبضات قلبي قد ارتفعت وتعالت، إلى الحد الذي يكفي لجذب انتباه أي مخلوق حي، على مسافة سنة ضوئية كاملة ولثانية، حجبت تلك الغشاوة الداكنة بصرى، و
وفجأة، اخترقت أذنى شهقة قوية..
شهقة توترت لها كل ذرة في كياني؛ فقد كانت تعنى أننى لست وحدى، داخل المهبط السرى، في أعماق (نجم - ألفا)..
لست وحدي أبدا..

☆ ☆ ☆

ست دقائق تبقت، قل أن ينفد الأكسجين تماما كل المحاولات التي بذلتها، وكل الأنفاس التي حبستها في
صدرى، لم تمنحنى سوى دقيقة وسبع ثوان فحسب..
ولا يوجد من حولي أي شيء، يمكن أن يوحي بالأمل أي شيء..
أو أي أمل...
جسدى ما زال ينساب في الفضاء الشاسع، دون هدف أو أمل....
ست دقائق، وبعدها سينتهي أمرى...
وسيواصل جسدى انسيابه عبر الكون، حتى يقع في المجال الجذبي لكوكب ما..
أو نجم ما..
أو حتى أحد الأقمار التابعة لأي كوكب..

عندئذ سيسقط جسدى على ذلك الشيء، الذي أجتذبه وربما يحترق، بتأثير الاحتكاك، لو أنه أحد الكواكب، ذات الغلاف الجوى، مثل كوكب الأرض أو ربما يسقط فوق سطحه فحسب..

المهم أن أمرى سينتهي في كل الأحوال، على بعد ملايين الكيلومترات من كوكبي، لأصبح مجرد ذرة في الكون، ربما لا يذكر أمرها أحد، بعد عام أو عامين على الأكثر....

من يدري؟:..

تملكني شعور باليأس، عندما بلغت هذه المرحلة من التفكير وبدا لي أن حبس أنفاسي لن يجدي، في موقف كهذا، فملأت صدري بالأكسجين، وأنا أفرد ذراعي عن آخرهما، وكأننى أسبح على بحر من الزئبق، تاركا العنان لأفكاري وذكرياتي؛ في محاولة لاستعادة ما حدث هناك داخل النجم النجم -- ألفا) ...

☆ ☆ ☆

من الأمانة هنا أن أعترف، بأن تلك الشهقة، التي اخترقت أذني، قبل أن تستعيد عيناي قدرتهما على الإبصار، قد أصابتني بذعر حقيقي، وبصدمة إحباطية، جعلتني أتصور أن مهمتي قد فشلت، قبل حتى أن تبدأ.. -

ثم انتبه عقلى بغتة إلى حقيقة عجيبة!..

تلك الشهقة، كانت تحمل نبرة أنثوية..

ومذعورة..

وبسرعة، كما يحدث في كل مرة، استعدت بصرى، ووجدت نفسي أقف أمامها....

أمام فتاة ضئيلة الحجم، رقيقة الملامح، ترتدي الزي المميز لطاقم محطة التحكم الرئيسية (نجم - ألفا)، وقد انكمشت على نفسها، وراحت تحدق في برعب هائل، جعل ذعرى الأولى

يتحول إلى حالة من الشفقة والتعاطف، دفعتني إلى أن أهمس بمنتهى الهدوء، وأنا أغادر المهبط السرى في حذر:
- لا تفزعي.. أنا أحد ضباط الأمن الفضائي. ....
كل قواعد العقل والمنطق، كانت تؤكد أنه من الحماقة أن أكشف عن هويتي، بكل الوضوح والصراحة، قبل أن أتأكد من هويتها أولا، إلا أن شيئا ما في أعماقي، أو ربما في ذلك الرعب المحفور على ملامحها الرقيقة، جعلني أثق في أنها ليست واحدة من أولئك المسيطرين على (نجم - ألفا) بالتأكيد..
وأكبر دليل على هذا هو شهقتها الثانية، التي أطلقتها بكل رعب الدنيا، وجسدها ينتفض كعصفور مبتل، مع اقترابي منها وهي تهتف:
- لا.. أنت واحد منهم...
سألتها في اهتمام:
- ممن؟!
أطلت من عينيها حيرة غامرة، وهي تجيب في ارتياع:
- منهم.. من أولئك الـ..
كان من الواضح أنها لا تجد جوابا لسؤالي، لذا فقد رسمت على وجهي كل الود والهدوء، وأنا أبتعد عنها قليلاً، في محاولة لامتصاص ذعرها وانفعالها ولبث بعض الأمن والطمأنينة في نفسها، وقلت بصوت خافت:
- من الواضح أن كلينا يجهل من هم.
تطلعت إلى في شك، خاصة وأننى أرتدى زيا مشابها لزيها وليس زى جهاز الأمن الفضائي التقليدي، فابتسمت، متابعا:
- كان من الضروري أن أرتدى زيا مشابها لزيكم، حتى لا أبدو واضحا، كنقطة سوداء، على سطح ناصع البياض..

ظلت تتطلع إلى بضع لحظات أخرى في ريبة، ثم لم تلبث أن أطلقت زفرة مفعمة بالتوتر، من أعمق أعماق صدرها، وهي تقول:
- حمدا لله.
غمغمت في سرعة:
- له (سبحانه) كل الحمد والشكر..
أومأت برأسها مؤيدة، ثم جلست على مقعد قريب، أو فلنقل أنها قد تركت جسدها المنهك، من فرط الذعر والانفعال، يسقط فوقه، وهي تقول:
- لقد سيطروا على المكان كله.
جذبت مقعدا صغيرا، وجلست أمامها، متسائلا:
أخبريني عن كل ما تعرفينه عنهم؟!

هزت رأسها، وكأنها تنفض ذكرى مخيفة عن رأسها هاتفة:
- إنه أسوأ موقف واجهته، في حياتي كلها.
وبدأ صوتها يرتجف، وهي تتابع في هلع:
- كان كل شيء يسير على ما يرام، عندما فوجئنا بزميلنا(شوقى) يهاجم مسئول الأمن بغتة، ويستولى على سلاحه، ثم يطلق أشعته عليه بلا رحمة..
انسالت الدموع من عينيها، وهي تهتف:
- لقد كان أمرا بشعًا.. بشعا للغاية..
راجعت في ذهني كل المعلومات، التي حفظتها عن ظهر قلب عن العاملين بالمحطة (نجم - ألفا)، وأنا أقول:
- آه.. إنه مساعد الطيار.. أليس كذلك؟!
هزت رأسها مرة أخرى، قائلة:
- كلنا كنا نتصور أنه هو، حتى واجهنا بالحقيقة المخيفة

قلت في حزم:
إنه شخص آخر، ينتحل شخصية (شوقي).. أليس كذلك؟!
استعادت ذعرها ودهشتها، وهي تحدق في وجهي، هاتفة:
- كيف عرفت؟!..
قلت في حزم:
- هذا لا يحتاج إلى استنتاج عبقرى.. لقد افترضنا حدوث عملية الاستبدال هذه، قبل حتى أن أبدأ المهمة..
ثم ملت نحوها أكثر، مستطردا في اهتمام:
- والآن، ماذا فعله بديل (شوقى) هذا، بعد أن استولى على سلاح مسئول الأمن وقتله؟!..
ارتجف صوتها مرة أخرى، وهي تجيب:
هددنا بالمصير ذاته، لو حاولنا مقاومته، ثم بدأ يفعلها..
سألتها في اهتمام أكثر:
- يفعل ماذا؟
اتسعت عيناها عن آخرهما، وكأنها تستعيد ذكرى مخيفة للغاية، وهي تقول، بصوت أكثر ارتجافا ورعبا:
- يفعل أمرا رهيبا.. رهيبا للغاية قالتها، وعيناها تحملان الهلع والرعب كل الرعب..

☆ ☆ ☆

٤ - الغزاة..

الواقع أن الشعور الوحيد، الذي امتلأت به نفسي هناك، في قاع (نجم - ألفا)، في تلك اللحظات، هو الإشفاق على الفتاة المسكينة، التي راحت ترتجف كعصفور صغير مبتل، في ليلة باردة، لذا فقد وضعت أكبر قدر ممكن من الهدوء والمودة في صوتي، وأنا أسألها:

- وماذا فعل بديل (شوقي) بالضبط؟!

ارتجف جسدها أكثر، وهي تجيب بصوت، حمل كل علامات الارتياع:

- استعاد هيئته الأصلية.

تساءلت مرددا في حيرة حذرة:

هيئته الأصلية؟!

هتفت بسرعة:

- نعم.. فهو ليس مثلنا.. ليس مثلنا أبدا.

انكمشت على نفسها، على نحو محزن، مضيفة بصوت خافت، حمل كل ذعر الدنيا:

- إنه ليس آدميا

وكانت هذه مفاجأة حقيقية..

وعنيفة جدا..

فعلى الرغم من كل ما توصلنا إليه، في السنوات الأخيرة، من القرن الحادي والعشرين، وكل ما بلغناه من تكنولوجيا وتقدم، في علوم الفلك والفضاء والاتصالات، لم يمكننا أبدا أن نجري اتصالا مؤكدا، مع أية مخلوقات عاقلة أخرى في الكون لذا، فطوال عقود القرن، كان وجود مخلوقات أخرى، في عوالم

أخرى، مجرد فكرة افتراضية علمية، تستند إلى وجود آلاف الكواكب والمنظومات الشمسية النجمية، التي تصلح ظروفها لنمو حياة عاقلة على سطحها ومنذ سنوات طوال، وربما منذ منتصف القرن العشرين يسعى آلاف العلماء، إلى إثبات وجود حياة عاقلة، على أي كوكب آخر، وإجراء أية اتصالات ممكنة معها.. وطوال تلك الفترة، التي قاربت القرن ونصف القرن من الزمان - دارت مناقشات شتى، بين عدة فرق من العلماء حول الاحتمالات التي يمكن أن يكون عليها سكان الكواكب الأخرى، من ناحية ميلهم إلى العنف أو السلم، وحكمة أو حماقة السعي للاتصال بهم، وغيرها من الأمور، التي تعتمد عليها طبيعة العلاقة ين عالمين مختلفين، في كل الظروف ثم فجأة، ودون مقدمات، يظهر هؤلاء الغزاة، ويحتلون حزام أقمار صناعية، يحيط بكوكبي كله، ويمكنه التأثير عليه على نحو يذعرني مجرد تصوره..

وعلى الرغم من أنني قد استوعبت ما تعنيه الفتاة على الفور، فقد تساءلت في حذر، وكأنني أحتاج إلى تأكيد آخر:
- ماذا تعنين بأنه غير آدمى؟!
بدا عليها الذعر أكثر، وهي تلوح بكفيها في الهواء، قبل تقول في هلع:
- تكوينه الخارجي آدمى تماما، ولكن وجهه الحقيقي ليس كذلك أبدا.. لقد انتزع القناع البشري، الذي يحمل وجه (شوقى)، وفوجئنا تحته بوجه مخيف.. مخيف للغاية. -
أمسكتها من كتفيها في قوة، محاولا السيطرة على انفعالها الجارف، وأنا أقول في حزم:
- صفيه لى..

ازدردت لعباها، قبل أن تجيبني بصور مرتجف:
- وجهه له نفس ملامحنا.. أنف وفم وعينين، ولكن بشرته زرقاء اللون، وقزحيتا عينيه حمراوان كالدم، ومشقوقتان طوليا كالثعابين..
ثم أخفت وجهها بين كفيها، هاتفة:
- إنه مخيف.. مخيف للغاية..
التقى حاجباي في شدة، محاولاً استيعاب ما قالته، وإن انبعثت صرخة مستنكرة من أعماقي، ترفض تصديق هذا الوصف، الذي يبدو أشبه بما نراه على شاشات سينما الخيال العلمي القديمة، منه إلى تكوين حقيقي ولنصف دقيقة تقريبا، ظللت ممسكا بكتفيها، ومتطلعا إليها وكأنما أحاول التيقن من ثقتها فيما تقول، قبل أن أسألها:
- أهو وحده هناك؟!
هزت رأسها في قوة، قائلة:
- كلا.. لقد استخدم جهاز الانتقال الآنى، لإحضار الآخرين..
سألتها:
- أكلهم مثله؟
أومأت برأسها إيجابا في رعب، فالتقطت نفسا عميقا، وأنا أسألها، بكل الاهتمام:
- وكم يبلغ عددهم؟!
استغرقت في التفكير بضع لحظات، قبل أن تجيب:
حتى لحظة فراري، كان هناك سبعة منهم.. بخلافه هو بالطبع..
قادني قولها إلى سؤال مهم آخر، ألقيته عليها فورا.
وكيف نجحت في الفرار؟!
هزت رأسها، قائلة:

- كنت الأقرب إلى الباب، واستغللت انشغاله بإحضار الآخرين، وتسللت خارجا، دون أن يشعروا بي..
تراجعت أدرس الموقف كله في ذهني، وأرتب المعطيات على نحو منطقى دقيق، كعادتي في كل مهمة أقوم بها، ثم لم ألبث أن سألتها في حزم:
- هل تحملين أية أسلحة؟!
هزت رأسها نفيا، قائلة:
- لقد استولوا على كل الأسلحة
لذت بالصمت بضع لحظات أخرى، ثم حسمت أمرى وسألتها:
-- هل يمكنك تحديد مواقعهم تقريبا؟!
أجابتني في سرعة:
- بالتأكيد.
وهنا، بدأت أضع خطتى الجديدة..
خطة مواجهتهم..
مواجهة الغزاة..

☆ ☆ ☆

على الرغم من حالة الذعر الشديدة، التي كانت عليها(نورهان)، الفتاة التي وجدتها في قاع (نجم - ألفا)، إلا أن ذهنها ظل مرتبا منظما، وهي تراجع معى تصميمات محطة التحكم في حزام الأقمار الصناعية، ومواقع الغزاة على سطحها، بمنتهى الدقة، وعلى نحو جعلني على دراية تامة بتحركاتهم تقريبا، قبل أن أسألها:
- أتعتقدين أنهم قد وضعوا حراسة ما، عند محولات الطاقة الرئيسية؟!
خيل إلى أنها لم تفهم سؤالي في البداية، إلا أنها لم تلبث أن هتفت في حماس:

- آه.. ربما.. ولكنني أتمنى أن يكون غرورهم قد منعهم من هذا.
سألتها:
- وكم تستغرق عملية إيقاف محولات الطاقة في رأيك؟!
أجابتني في سرعة وحماس:
- يمكنني فعل هذا، خلال نصف الساعة فحسب..
هتفت وأنا أنهض:
عظيم.. إنها مهمتك إذن..
عاد صوتها يرتجف، وهي تقول:
- مهمتي أنا؟!.. وحدى؟!.. وماذا عنك؟!
أجبتها بمنتهى الحزم:
سأبذل قصارى جهدي، لمنحك فرصة القيام بها..
لم نتبادل كلمة واحدة بعدها، فقد نطقت عبارتي، ثم خرجت معها من قاع المحطة، إلى الممرات السفلية الخارجية؛ في محاولة منا لبلوغ حجرة محولات الطاقة الرئيسية، التي لو نجحنا في إيقاف عملها، فلن يعود بوسع الغزاة تهديد الأرض بأي حال من الأحوال، إذ أن هذه المحولات تتحكم في أجهزة الانتقال الآني، ونظم إطلاق الأشعة الكهرومغناطيسية، وغيرها..
المشكلة الوحيدة، هي أن المحولات نفسها تتحكم في الأمور الأخرى أيضا، مثل التوازن الحراري، وعمليات تجديد الهواء، وضبط الضغط الجوي..
باختصار، كان إيقاف المحولات يعني هزيمة الغزاة ومصرع كل مخلوق داخل محطة التحكم الرئيسية في حزام (نجم - ألفا) أيضا وهذا يشملنا، (نورهان) وأنا، إلا أننا، ودون اتفاق مسبق، أو إعلان صريح، لم تكن لدينا ذرة واحدة من التردد في التضحية بحياتنا كلها، من أجل كوكبنا (الأرض). لو أن هذه هي الوسيلة الوحيدة..

وفي حذر كامل، تحركنا عبر ممرات الطابق السفلي، حتى بلغنا مصعد طوارئ صغير، فغمغمت (نورهان) في توتر:
- أين هم؟!.. كيف لم يقوموا بحراسة الطابق السفلي؟!..
هل بلغت ثقتهم بأنفسهم هذا الحد؟!
التقطت نفسا عميقا، قبل أن أقول في حذر:
- الواقع أن هناك أمرا لا يمكنني استيعابه، في الموقف كله؛ فالأمور تسير دون أية معوقات، على الرغم من قبل أن أتم عبارتي، لمحت فجأة تلك الحركة الخفيفة، في ركن السقف حركة آلة المراقبة الرقمية الدقيقة وامتلأت نفسي بمزيج متناقض من مشاعر شتى، على رأسها الغضب والحيرة والتساؤل الغضب من نفسي، لأنني لم أنتبه إلى هذا، منذ اللحظة الأولى، أما الحيرة والتساؤل فقد ارتبطا بما طرحته على نفسي في اللحظة التي أدركت فيها وجود آلة المراقبة لماذا تركونا نمضي في طريقنا إذن؟!..
إذن فهم يتابعوننا، ويدركون وجودنا، منذ اللحظة التي خرجنا فيها إلى الممر..
لماذا؟!..
لماذا؟!..
لم يكد تساؤلي يطرح نفسه على ذهني، حتى سمعت رنينا خافتا من خلفى فجأة، على نحو جعلني ألتفت إلى مصدره بأقصى سرعة..
وانعقد حاجباى بمنتهى الشدة، عندما ارتطم بصرى بفوهتى مسدسين ليزريين، مصوبين إلى رأسي مباشرة، وخلف كل منهما، وجه يشبه تماما ما وصفته لي (نورهان) في روايتها وجه أزرق، له عينان حمراوان كالدم، وقزحيتان مشقوقتان طوليا كالثعابين

وكان هذا يعني أن خطتى قد فشلت، قبل حتى أن تبدأ. وأن النصر كان من نصيبهم هم..
من نصيب الغزاة..

☆ ☆ ☆

٥- المواجهة الرهيبة..

أول ما نتعلمه، عندما نلتحق بإدارة الأمن الفضائي، هو سرعة الاستجابة وحسن التصرف، في مواجهة الأمور المفاجئة غير المتوقعة وعندما وجدت نفسي فجأة، في مواجهة اثنين من غزاة الفضاء، في قاع محطة (نجم - ألفا)، استعاد عقلى وجسدى كل التدريبات، والتعليمات، والخبرات السابقة، و...

وتحركت فورا..

وثب جسدى، بكل مرونة اكتسبتها في حياتي، لأركل المسدس من يد أقرب الاثنين إلى، ثم انحنيت بسرعة، متفاديا طلقة الليزر، التي أطلقها الثاني نحوى، وسمعت أزيزها يعبر فوق رأسي مباشرة، قبل أن ترتطم بباب المصعد من خلفي، في نفس اللحظة التي اعتدلت فيها، لألكم الثاني لكمة أودعتها كل قوتي، في أنفه مباشرة، ثم أدور حول نفسي في سرعة لأضرب الأول بقدمي في معدته مباشرة، وأدفعه إلى الخلف مترين على الأقل، وصرخات (نورهان) تدوي، في الممر كله..

وبغضب عارم، صرخ الثاني، وأنفه ينزل في غزارة:

- أيها الـ.....

وثبت نحوه، قبل أن تكتمل صرخته، وحطمت أسنانه بلكمة كالقنبلة، جعلته يتراجع مرتطما بالجدار في عنف، ثم يرتد إلى لأستقبله بلكمة أخرى، أسقطته أرضا كالحجر، وهو يطلق ما يشبه خوار ثور جريح، و..

«حركة واحدة إضافية، وأنسف رأسها بلا تردد..»

انطلق ذلك الصوت الخشن الغليظ فجأة، بلغة عربية، ذات لكنة لم تخطئها أذنى، مما جعلني ألتفت إلى مصدر الصوت في

سرعة، قبل أن يسرى التوتر في كل ذرة من كياني، وتنتشر قشعريرة مؤلمة، في جسدي كله فما شاهدته كان رهيبا بحق..

☆ ☆ ☆

لم يعد هناك أمل..

الأكسجين سينفد، بعد ثانية أو ثانيتين على الأكثر، من هذا الزي الفضائي، الذي أسبح به بعيدا عن كوكبى، وكل ما عرفته ومن عرفته على سطحه حتى محاولة اجترار الذكريات، لم تعد تكفى لحبس الأنفاس واتاحة القليل من الوقت والأمل..

وكل ما يمكنني أن أفعله الآن، هو أن أسترخي بجسدى أكثر وأكثر، وهو يسبح في فضاء سرمدى لانهائي، لا يحوي بين نجومه وشموسه ومجراته، أدنى أمل في النجاة، من موقف يستحيل أن يتواجد فيه شخص آخر..

وعلى الرغم من دقة الموقف، التقطت نفسا عميقا من الهواء، وكأنما أرغب في الاستمتاع بآخر لحظات في الحياة قبل أن أكتمه في صدري، وأحاول الاسترخاء أكثر، تاركا ذهني يسبح مرة أخرى، مع ذكرياتي هناك في وحدة (نجم - ألفا) الرئيسية. هناك، حيث كانت المواجهة وحيث كان الصراع..

واستعاد ذهني تلك الملامح المخيفة للغزاة، بوجوههم الزرقاء، التي تشبه وجوه الموتى، وعيونهم الحمراء كالدم وحدقاتهم المشقوقة طوليا كالثعابين استعدت تلك اللحظة الرهيبة لحظة المواجهة الأولى....

أول مواجهة مع الغزاة...

وأول تحد كامل...

كل خلية في جسدى تجمدت تماما في تلك اللحظة، التي لم تفارق ذاكرتي أبدا.. -

كل نفس في صدرى توقف..

بل كل نبضة في قلبي..
وفي ذلك الممر، في قاع وحدة (نجم - ألفا) الرئيسية سرت رعدة مؤلمة في كل كياني وفي كل جزء من وجودي بلا استثناء..
فهناك، على مسافة ثلاثة أمتار منى فحسب، كان الأول يحيط عنق (نورهان) بساعده القوى، وهو يلصق فوهة مسدسه الليزرى بصدغها، وقد حملت ملامحها كل رعب الدنيا وذعرها ويأسها..
وعلى الرغم من توترى الشديد، تماسك كياني تماما، كما تعلمت في إدارة الأمن الفضائي، وشددت قامتي، وأنا أقول في حزم:
- ولماذا هذا التعقيد؟.. كان يمكنك أن تطلق النار على مباشرة، فأنا أعزل من السلاح تماما..
نطقت عبارتي بلغة غير عربية، لم تعد شائعة الاستخدام في زمني هذا، وعلى الرغم من عدم شيوعها، فقد فهم الأول ما قلته تماما، على نحو انعقد معه حاجباه، وهو يقول بنفس الصرامة الغليظة:
- الزعيم يريدك حيا..
نقلت (نورهان) بصرها بيني وبينه في ذعر، مع اللغة التي استخدمها كلانا، وهتفت في ارتياع:
- هل.. هل تتحدث لغة غزاة الفضاء؟!
ارتسمت على شفتى ابتسامة ساخرة، وأنا أقول لها بالعربية:
- إنهم غزاة، ولكن لا صلة لهم بالفضاء على الأرجح
همت بإلقاء سؤال آخر، لولا أن زمجر الأول في وحشية هاتفا:
- كفى..
نطقها بالعربية هذه المرة، وهو يتراجع نحو المصعد، قائلاً:
- ستتبعنى معها إلى حيث ينتظركما الزعيم.. إنه يصر على رؤيتكما فورا..

اتجهت نحوه في بطء، وأنا أقول:
- ويريدنا على قيد الحياة.. أليس كذلك؟!
أجابني بمنتهى الغلظة والشراسة:
- هذا ينطبق عليك وحدك، أما هي، فمجرد تأمين، لضمان طاعتك للأوامر..
كانت المسافة، التي تفصلني عنه، لا تزيد على المتر عندما توقفت فجأة، لأسأله في حزم:
- وهل تعتقد أن هذا ممكن؟!
بدت عليه الحيرة، وهو يسألني في عصبية:
- وما هذا؟!
أجبته بمنتهى الحزم، وأنا أدرس الموقف كله بمنتهى الدقة:
- أعنى أنكم تهددون مصير الأرض كلها، وتضعون حياة هذه الفتاة، التي عرفتها منذ أقل من ساعة، في كفة واحدة، وحياة كوكبى وكوكبها كله في الكفة الثانية، فأية كفة تختار، لو أنك في مكاني؟!
صمت لحظة، وكأنما أربكه السؤال، ثم لم يلبث أن قال في توتر:
- الكفة التي تحوي حياتي أنا..
هززت رأسي، وأنا أقول، في هدوء أدهشه حتما:
- هذا هو الفارق الجوهري، بيني وبينكم.
ثم وثبت نحوه بغتة، بكل ما أملك من قوة وخبرة، مستطردا في صرامة:
- فأنا اخترت حياة الأرض.
كانت تلك الوثبة مباغتة له بحق، حتى أن أصابعي أمسكت معصمه بمنتهى القوة، قبل أن يستوعب الأمر تماما، فصرخ وهو يضغط زناد مسدسه الليزري:
- خسرت يا هذا ...

وانطلقت أشعة مسدسه الليزرى بالفعل، وانطلقت معها صرخة رعب هائلة، من حلق (نورهان) ولكن أصابعي كانت قد جذبت يد المجرم بالفعل، فانطلقت أشعة الليزر على مسافة سنتيمترات قليلة من رأس (نورهان) دون أن تصيبها بأدنى سوء، في حين انطلقت قبضتي كالصاعقة، تنسف أنف المجرم، قبل أن يعاود الكرة ومع سقوط المجرم، تراجعت (نورهان)، وهي تطلق صرخات ذعر متصلة، وخاصة عندما رأتني أنحنى، وألتقط مسدس الليزر، الذي سقط من يده، فصاحت في رعب شديد:

- لا.. لا تقتله..

أجبتها، وأنا أنهض في حزم، وأرفع مسدس الليزر عاليا:

- اطمئني.. إننى أبغض القتل وإراقة الدماء، أكثر مما أبغض أي شيء آخر

ومع كلماتي، ضغطت زناد مسدس الليزر، لتنطلق أشعته، وتنسف آلة المراقبة في ركن السقف، قبل أن ألتفت إليها، قائلاً:

- الآن لم يعد بإمكانهم معرفة أين نحن، وما الذي نفعله؟!

استوعبت الأمر على الفور، وهتفت:

- رباه!.. وما الذي ينبغي أن نفعله الآن؟! -

أجبتها في سرعة وحزم:

- الآن يعرفون أننا هنا، وسيبذلون كل جهد ممكن، لمنعنا من إفساد خطتهم، لذا فلم يعد أمامنا سوى إيقاف عمل المحولات الرئيسية بأي ثمن..

أجابتني في حماس، كشف نقاء معدنا:

- أنا رهن إشارتك..

سألتها في اهتمام:

- أيوجد سبيل آخر، بخلاف المصعد، لبلوغ حجرة المحولات الرئيسية؟!

أجابت في سرعة:
- يوجد سلم طوارئ صغير، يصل من هنا إلى الطابق الثاني، ومن هناك، يمكن استخدام الممر الخلفي، لبلوغ حجرة المحولات، في الطابق العلوي..
ثم صمتت لحظة، لتستطرد في توتر عنيف:
- ولكن هل تعتقد أنهم سيسمحون لنا ببلوغها؟!
أجبتها في حزم:
- يمكنك بلوغها، لو أنهم يجهلون أنك تستهدفينها أو لو انشغلوا بمطاردة هدف آخر
سألتني في حيرة متوترة:
- ألديك خطة ما؟!
أجبتها في سرعة وحسم:
- بالتأكيد.
قلتها، ثم شرحت لها خطتى القصيرة البسيطة، وعندما انتهيت، كان وجهها قد امتقع على نحو مخيف، كما كانت عيناها تحملان الذعر كل ذعر الدنيا..

☆ ☆ ☆

٦ - الخطة..

بدأت أنفاسي تختنق بالفعل، دلالة على نفاد الأكسجين، من زيي الفضائي، وجسدي يسبح هناك، وسط الفضاء اللانهائي على بعد آلاف الكيلو مترات من كوكب الأرض..

لم يعد هناك أمل..

أدنى أمل..

لا أحد يمكنه أن ينقذني من هذا المصير البشع؛ لأنه لا أحد يعلم حتى أين أنا، ولا كيف وصلت إلى هنا!!

كل شيء حدث بسرعة تفوق التوقعات، حتى أنني أنا نفسي أشعر بالدهشة، وأنا أستعيد ذكريات يوم واحد مضى، تغير خلاله مصيرى تماما، وانتهيت فيه من الحياة إلى العدم..

من يصدق أننى، ومنذ يوم واحد فقط، كنت أستعد لبدء إجازتي، على كوكب الأرض؟!

من يمكن أن يصدق هذا؟!..

أنا نفسي لم أكن أتوقع أن تتحول إجازتي إلى مهمة كهذه.

بل إلى أغرب وأعنف مهمة قمت بها، في حياتي العملية كلها وأغرب ما فيها أنني ما زلت أجهل، وأنا أسبح في الفضاء هكذا كالحجر، ما إذا كنت قد نجحت في مهمتي أم لا!!..

كل ما أملكه هو ذكريات مواجهتي للغزاة هناك، في وحدة التحكم الرئيسية، في مشروع حزام الأقمار الصناعية (نجم - ألفا)..

ذكريات العنف والتوتر والغموض..

والخطر....

ويا لها من ذكريات!..

☆ ☆ ☆

على الرغم من ثقتي التامة، في أن الغزاة قد أعلنوا حالة الطوارئ القصوى، داخل وحدة التحكم الرئيسية، بعد هزيمتي لمندوبيهما، وتحطيم آلة المراقبة في الممر ومن معرفتى بوجود آلة مراقبة أخرى داخل المصعد، الذي يقود إلى الصعود حيث ينتظر الأعداء، فقد دلفت إليه دون تردد إلى الطابق العلوي، قبل أن أرفع فوهة مسدس الليزر نحو آلة المراقبة، وأنسفها نسفا وقبل حتى أن يبدأ المصعد رحلته، كنت أعلم أنهم قد حددوا موقعى، واتخذوا كل ما يلزم، لاستقبالي والسيطرة على تماما عندما أصل إليهم..

ولكن (نورهان) كانت تحتاج إلى نصف الساعة، لإيقاف عمل المحولات الرئيسية وكان ينبغي أن أمنحها ما تحتاجه من وقت لإفساد خطة الغزاة، وإنقاذ كوكبنا الأرضى..

لذا، فما أن بدأ المصعد رحلته، حتى وثبت أتعلق بإطار فتحة الطوارئ في قمته، ودفعت بابها براحتي، ثم دفعت جسدى عبرها، إلى سقف المصعد الصغير كانت المسافة التي تفصلني عن الطابق العلوي صغيرة بحيث يحتاج الأمر منى إلى منتهى السرعة، ومنتهى المرونة معا، حتى أستقر هناك، فوق سقف المصعد، وألتصق به بشدة وأنا أغلق فتحة الطوارئ..

وعندما بلغ المصعد الطابق العلوي، وانفتح بابه، سمعت وقع أقدام ثقيلة تندفع داخله، مع زمجرة غاضبة، قبل أن يرتفع صوت قاس، يقول بتلك اللغة غير الشائعة في زمني:

- إنه ليس هنا.

أجابه صوت آخر، يحمل كل الغضب:

- أين يمكن أن يذهب إذن؟!.. لقد رأيناه على شاشات المراقبة، يستقل المصعد إلى هنا..

قال الصوت الأول:

- ربما غادره قبل صعوده.
وهنا برز صوت ثالث، يقول:
- هذا مستحيل!.. الكمبيوتر لم يسجل أي توقف للمصعد، في منتصف الطريق إلى هنا..
هتف صاحب الصوت الثاني، بمنتهى الشراسة:
- هذا لا يدع أمامنا سوى احتمال واحد.
ولم أسمح له بإتمام عبارته هذه أبدا، وأنا أجذب باب الطوارئ، ثم أثب داخل المصعد، وأنقض عليهم بلا هوادة...
كانت مفاجأة حقيقية لهم، عندما لكمت الرجل داخل المصعد لكمة ساحقة، في أسنانه مباشرة، ثم لويت معصمه في سرعة وقوة، لأجبره على إفلات سلاحه، وأنا أتخذ من جسده درع أندفع به خارج المصعد....
وارتفعت فوهات أسلحتهم كلها في وجهي، في حركة واحدة تنبئ بقتال شرس عنيف، تراق فيه الدماء أنهارا، و.
«هل ستجرؤ حقا على إطلاق النار هنا؟»
انطلق السؤال فجأة، بلهجة هادئة واثقة وحشية، من ركن المكان، على نحو جعلني ألتفت إلى مصدره في سرعة وتحفز و...
وتجمد شيء ما في أعماقي..
فهناك، في الركن البعيد كان أفراد طاقم وحدة (نجم - ألفا) الرئيسية يرتجفون رعبا، بوجوه شاحبة منهارة، داخل قفص زجاجي سميك، تطل من أركانه العلوية الأربعة عبوات أسطوانية سوداء، تحمل علامة خاصة، تشير إلى محتواها من الغاز السام القاتل، في حين يجلس، على مسافة متر واحد من القفص، شخص متين البنيان، له نفس ملامح الغزاة، بوجهه الأزرق، و، وعينيه الحمراوين، ونظراته القاسية الباردة.

أما يده، فكانت تحمل جهاز تحكم كروي الشكل، تكفي ضغطة واحدة منه، لتتفجر أسطوانات الغاز القاتل داخل القفص الزجاجي، وتقتل أفراد الطاقم في لحظات..

كان الموقف دقيقا إلى حد مخيف، وهو يعلم هذا جيدا؛ فلو أطلقت النار نحوه، ستضغط يده تلقائيا على الكرة، وينطلق الغاز القاتل أما لو لم أفعل، فسيلقى الآخرون القبض على، وأخسر المعركة كلها إلا إذا استطعت أن أربح بعض الوقت، حتى تتم (نورهان) مهمتها لذا، فقد أدرت فوهة مسدسى الليزرى نحو ذلك الشخص، وأنا أقول في صرامة:

- هل يمكنني أن أفترض أنك الزعيم هنا؟

وعلى الرغم من مسدسي المصوب إلى رأسه، بدا صوته شديد الثقة والهدوء، وهو يقول:

- افتراض صحيح.

قلت متحديا:

- وماذا سيحدث في رأيك، لو افترضنا أننى أطلقت النار على رأسك مباشرة؟!

ابتسم في ثقة وحشية، قائلاً:

- ليست لدى ذرة واحدة من الشك، في أنك لن تفعلها

قلت في تحد:

- هل تعتقد أنني سأحافظ على حياتي وحياتهم، مقابل مصير الأرض كلها؟!

هز رأسه نفيا في بطء، وقال:

- كلا بالطبع، ولكننى واثق من أنك لن تضحى بهم، قبل أن تتيقن من أنه ما من سبيل آخر سوى هذا.

قلت، محاولاً إضافة الوقت:

- وهل يمكن أن يكون هناك سبيل آخر؟!

تألقت عيناه على نحو عيناه على نحو عجيب، وهو يقول:
- سل ما يدور في أعمق أعماق ذهنك..
كان يبدو وكأنه يقرأ الأفكار، التي تدور في أعماقي بالفعل، ولكنني كنت أحتاج إلى مزيد من الوقت، حتى تنجح (نورهان) في مهمتها، فقلت في إصرار:
- وماذا لو عقدنا اتفاقا؟!
التقط نفسا عميقا، قبل أن يقول:
- لا بأس.
تصورت أنه سيسعى لعقد اتفاق بالفعل، إلا أنه استدرك في سرعة، وهو يميل إلى الأمام فجأة في شراسة:
سأمنحك ثلاثين ثانية فحسب، فإما أن تلقى مسدسك الليزرى، وتسلم نفسك لرجالي، دون قيد أو شرط، أو أضغط جهاز التحكم هذا، ويلقى الكل مصرعهم أمام عينيك....
قلت في صرامة، وأنا أسدد فوهة مسدسي إلى رأسه:
- حتى لو كانت حياتك هي الثمن؟!
تراجع في مقعده، وتجاهل سؤالي تماما، وهو يبدأ العد التنازلي بالفعل:
- ثلاثون.. تسعة وعشرون.. ثمانية وعشرون...
كنت قد اتخذت قراري بالفعل، إلا أنني لم أتحرك قيد أنملة أو أعلن موقفى، وأنا أواصل التصويب نحوه، وهو يواصل العد التنازلي، بمنتهى الحزم والثقة والشراسة، وعقلى يتساءل:
- ترى أي قدر بلغته (نورهان) الآن؟!..
أي قدر؟!..
«سبعة.. ستة.. خمسة.. أربعة..»
ولم يعد هناك مجال للانتظار، بعد أن بلغ هذا القدر، من العد التنازلي، فالتقطت نفسا عميقا، ملأت به صدرى،، قبل أن ألقى

مسدسّي فجأة، هاتفا:
- فليكن.
لم يكد المسدس يسقط أرضا، حتى ارتفعت فوهات أسلحتهم كلها نحوى، في حين ابتسم زعيمهم ابتسامة كبيرة، قائلا:
- لم أشك لحظة واحدة في هذا!..
هتف أحد رجاله في غلظة:
- أكنت تعلم أنه سيستسلم أيها الزعيم؟!
تراجع زعيمهم في مقعده، وهو يقول:
- بكل تأكيد، فلم يكن ليسمح بمصرعهم أمام عينيه، خاصة وأن لديه خطة بديلة بالفعل..
سألته، وأنا أبتسم في سخرية:
- أية خطة بديلة أيها العبقرى؟!
مال نحوى بقدر الإمكان، قائلاً:
- هل تحب أن تعرف حقا؟!
ثم أشار بسباته إشارة خاصة، وعيناه تتطلعان إلى بقعة ما خلفى، على نحو جعلني ألتفت إليها، و...
وسرت في جسدى كله قشعريرة باردة كالثلج فما شاهدته، عند البقعة التي أشار إليها، كان آخر شيء أتوقع رؤيته، في هذه اللحظة بالذات..
آخر شيء على الإطلاق....

☆ ☆ ☆

٧ - الخطة البديلة..

من المؤكد أن تلك القشعريرة الباردة كالثلج، التي سرت في جسدي كله، وأنا أحدق في تلك البقعة، التي أشار إليها زعيم الغزاة، فأمام عيني مباشرة، كانت توجد شاشة كبيرة ملحوظة تماما، تحمل صورة (نورهان)، التي بلغت بالفعل حجرة محولات الطاقة الرئيسية وبدأت عملها لإفسادها...

وبصوت غليظ، ولهجة واثقة ساخرة، قال زعيم الغزاة:

- أكنتم تتوقعون نجاح هذه اللعبة بالفعل؟!

الواقع أنني كنت أشعر بآلام نفسية مبرحة، تسرى في كياني وبغصة تسد حلقي، وبخوف شديد على مصير(نورهان) المسكينة، بعد أن انكشف أمرها على هذا النحو، إلا أنني كتمت كل مشاعري في أعمق أعماقي، وأنا ألتفت إلى زعيم الغزاة، قائلا:

- أكنتم أنتم تتوقعون أننا لن نكشف حقيقتكم؟!

نطقت عبارتي بتلك اللغة القديمة، على نحو انعقد معه حاجبا زعيم الغزاة، في حين هتف أحد رجاله في غلظة، مستخدما اللغة نفسها:

- لقد عرفوا بوسيلة ما...

رمقه زعيمه بنظرة نارية، قبل أن يلتفت إلى مرة أخرى ويميل نحوى في بطء، قائلاً في صرامة، تحمل لمحة غضب واضحة:

- أعترف أنك عبقرى إلى حد ما، ولكن هذا لن يفيدك هنا...

قلت، محاولاً التظاهر بالهدوء بقدر الإمكان:

- من يدرى؟!

بدا عليه غضب أكثر، فاستطردت، مضيفا السخرية إلى صوتى:

- قل لي يا هذا: هل ستواصل ارتداء هذا القناع السخيف لوقت أطول؟
نطقت عبارتي، فران على المكان صمت رهيب والزعيم تراجع في مقعده بمنتهى البطء، قبل أن يقول بكل صرامة وغضب:
- آه.. عبقري وساخر أيضا!
قالها، وظل يتطلع إلى وجهي بغضب هادر، قبل أن يشير إلى رجاله، قائلاً:
- سنلعب بأوراق مكشوفة يا رجال
مع عبارته، انتزع ذلك القناع المخيف عن وجهه، وألقاه جانبا، وكذلك فعل رجاله، وأفراد طاقم (نجم - ألفا) يحدقون فيهم بمنتهى الدهشة، من داخل ذلك القفص الزجاجي، الذي تم سجنهم فيه..
وما أن وقع بصري على وجه الزعيم، حتى بان هويته على الفور....
وجه صارم ملامح قاسية..
شعر أسود فاحم وأنف معقوف...
كانت ملامحه مثالية تماما، بالنسبة لبني جنسه...
أضف إلى كل هذا صوت غليظ خشن، خرج من بين شفتيه صارما غاضبا، وهو يقول:
- من حسن الحظ أن هذا استنتاجك وحدك، وأنك لم تبلغ به زعماء كوكبك بعد...
قلت في هدوء، لم أدر حتى لماذا ملأ كياني:
- إنه كوكبكم أيضا، على الرغم من أن هذا لا يشرفه، ولقد كنتم يوما الدولة غير العربية الوحيدة، في الشرق الأوسط كله، لولا ما حدث، عندما أخذتكم غطرسة القوة، وتماديتم أكثر مما ينبغي، فهب العرب، و...

قاطعني في خشونة:
- لسنا هنا لسماع محاضرة، عن تاريخ منطقتك
قلت، متجاهلاً عبارته:
- تصورت أنكم قد انقرضتم، بعد هزيمتك الساحقة في...
قاطعني مرة أخرى في حدة:
- لا يمكن أن ننقرض.. لقد عدنا للتشتت في الأرض فحسب....
قات ساخرا:
والآن قررتم نقل تشتتكم إلى الفضاء؟!
أطل غضب وحشى من عينيه، وهو يقول:
بل قررنا أن نستعيد السيطرة والقوة يا رجل الأمن| الفضائي.. لقد تخلصنا من رجلكم (شوقى)، قبل يوم واحد من رحلته إلى هنا، واتخذت أنا هيئته ومكانه، وصعدت بدلاً منه إلى هنا...
سألته في اهتمام:
- وماذا عن وسائل فحص البصمات، وقزحية العين؟!
تراجع في مقعده بزهو، مجيبا:
كل تكنولوجيا لها تكنولوجيا مضادة يا رجل الأمن الفضائي ألم تتعلم هذا أثناء تدريباتك..
شددت قامتى، وأنا أقول في حزم:
أشياء كثيرة تعلمتها، أثناء تدريباتي، في مركز الأمن الفضائي.. أشياء أكثر مما تتصور...
رمقني بنظرة غاضبة أخرى، قبل أن يقول في حدة:
- سنرى.
ثم أشار إلى الشاشة الكبيرة، قائلا لرجاله:
- أحضروا هذه الفتاة إلى هنا.
أسرع الرجال لتنفيذ أوامره، في حين التفت هو إلى، قائلاً في شماتة واضحة:

- هذا يعني أن خطتك قد فشلت أيها العبقرى.
كان قوله أقرب إلى الواقع بالفعل، إلا أنني قلت في حزم:
- ليس بعد.
أطلق ضحكة ساخرة عالية، قبل أن يقول:
- يا لك من مغرور!.. ألا يمكنك قراءة ما يدور حولك؟!..
لقد نسفنا جهاز الانتقال الآني في الأعماق، حتى نسد الثغرة، التي قادتك إلينا، على غفلة منا، أما زميلتك، فستصبح في قبضتنا خلال عشر دقائق على الأكثر، مما يعني أنها لن تفلح في إيقاف عمل محولات الطاقة الرئيسية أبدا....
قلت في صرامة، محاولاً إخفاء توترى:
- خطتنا كانت تعتمد على إغلاق الحجرة من الداخل، وهذا يعني أن الوصول إليها لن يكون سهلا أبدا....
أجابني في صرامة ساخرة:
- ربما، ولكنه لن يحتاج إلى نصف الساعة، التي تحتاجها لإفساد المحولات..
كان قوله صحيحا تماما هذه المرة....
الوقت يمضي بسرعة..
لصالحهم وحدهم...
وبكل القلق والتوتر في أعماقي، على مصير كوكب الأرض وبكل خشيتي من وقوعه تحت سيطرة أمثالهم، راح عقلى ينطلق كالصاروخ، محاولا إيجاد حل لذلك المأزق الرهيب، و...
«لا تحاول..»
قاطعني زعيم الغزاة بالعبارة، وكأنما قرأ أفكارى، وتابع ساخرا:
- خطتنا محكمة، ولن تفلت منا أبدا.
قلت بسرعة:
- لا توجد خطة تامة الإحكام.. هناك حتما ثغرات.

قال في غلظة:
- لا توجد أية ثغرات هنا.
ألقيت نظرة شديدة التوتر، على الشاشة الكبيرة، التي تنقل صورة (نورهان)، التي تواصل عملها، غير مدركة بالخطر الذي يندفع نحوها، فتابع الزعيم:
دقيقة واحدة ويصل الرجال إليها، ويحضرونها إلى هنا ثم صمت لحظة، ليضيف بكل صرامة:
- ولكنك لن تدرك أبدا ما سنفعله بها..

استدرت إليه بنظرة متسائلة، فقال بلهجة آمرة، لمن تبقى من رجاله في وحدة القيادة:
- أحضروا أحد الأزياء الفضائية
أسرع رجلان لتنفيذ الأمر، في حين تساءل ثالث في عصبية:
- ماذا سنفعل به؟!
رمقني الزعيم بنظرة أخرى، قبل أن يجيب في بطء:
- سنرسله إلى الأرض..
خيل إلى أنني لم أستوعب الأمر جيدا، فانعقد حاجباي في شدة، وأنا أتطلع إليه، في حين هتف رجله:
- الأرض؟!.. ولكنه سيخبرهم كل ما لديه عنا، وهذا يمكن...
قاطعه الزعيم بكل صرامة:
- اصمت.
ثم التقط نفسا عميقا، ليضيف:
- جهاز الانتقال الآني لن يستخدم إلا عبر قنواتنا ومساراتنا الفضائية الفائقة وحدها، لذا فلن يمكننا استخدامه لنقله إلى الأرض، ولهذا طلبت زيا فضائيا....

أدركت ما يعنيه على الفور، وسرت في جسدى موجة توتر عنيفة، في حين تساءل الرجل في جدة:
- ماذا سنفعل إذن؟!
أجابه الزعيم، في سخرية شامتة:
سنلقيه من هنا، بوساطة جهاز دفع عادى، نحو كوكب الأرض....
بدت الحيرة في عيني الرجل، فتابع الزعيم، وهو يسترخي بزهو في مقعده:
- ربما يكفيه الأكسجين، حتى يصل إلى هناك المشكلة أن الزي الفضائي يمكن أن يحميه من الفضاء، وليس من الغلاف الجوى الأرضى، فما أن يجذبه كوكب الأرض إليه حتى يهوى بفعل الجاذبية الأرضية، بسرعة رهيبة، مخترقا الغلاف الجوى، مما سيؤدي إلى ارتفاع درجة حرارة من حوله إلى درجة هائلة، تكفي لإذابة زيه الفضائي، وحتى جسده ليتحول في النهاية إلى كتلة من اللهب، أو نيزك بشرى، قد يتلاشى في سماء الأرض، قبل أن يبلغ سطحها....
هتف الرجل في دهشة:
- وما الحكمة في هذا؟!
أجابه الزعيم في سرعة:
- أن يلقى حتفه ببطء يا رجل...
وفي نفس اللحظة، التي بدت فيها (نورهان) مذعورة على الشاشة، مع بدء محاولات الغزاة، لاقتحام حجرة محولات الطاقة الرئيسية، وانتزاعها منها، كان الزعيم يطلق ضحكات ساخرة عالية، تتردد في المكان كله، بعد أن أصدر قراره الرهيب....
قرار إعدامي ببطء...

وبلا رحمةٍ....

☆ ☆ ☆

٨ - الضربة..

أعترف أنني لم أشعر، في حياتي كلها، بالضعف والعجز والمرارة، مثلما شعرت بهما في تلك اللحظة، وأنا أرتدى الزي الفضائي، داخل حجرة قيادة (نجم - ألفا)، وأمسك خوذتي والشاشة أمامي تنقل صورة (نورهان) التي غلبها ذعر لا محدود، وهي ترتجف بشدة، داخل حجرة محولات الطاقة الرئيسية، التي لن تمضى دقائق معدودة، حتى يقتحمها الغزاة، لتفشل خطة إنقاذ الموقف تماما..

كان عقلي ما زال يبحث عن مخرج، أو ثغرة في خطة الغزاة، على الرغم من توتر الموقف، عندما سمعت زعيمهم يقول في ظفر شامت:

- قل لي يا رجل الأمن الفضائي المتحذلق: هل يمكن أن يفيدك ما تدربت عليه هنا؟!

لم أجب تساؤله، فقهقه ضاحكا، وتابع في شراسة:

- ما داموا قد أرسلوك من الأرض، فلابد وأن يدفعوا الثمن، حتى يتعلموا عدم مقاومتنا بعد الآن، لذا فما أن نطلق جسدك الفضاء، حتى أطلق عليهم موجة كهرومغناطيسية عنيفة، تكفى لنسف كل أجهزتهم دفعة واحدة، بحيث لا يعود لهم حول أو قوة في مواجهتنا

غمغمت:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، والله وحده

هتف في خشونة:

- ادخر مواعظك هذه، حتى تبلغ العالم الآخر، الذي ستصل إليه قريبا

قلت في حزم:
- عزائي الوحيد هو أننا لن نلتقي فيه أبدا
تراجع في مقعده، قائلاً في حدة وحشية:
- لم يكن ينبغي أن نلتقي، في هذا العالم أيضا، لولا أن الزمن قد صنع أوضاعا معكوسة، فأصبحتم أنتم الأقوى وصرنا نحن الأضعف...
أوضاع معكوسة!!...
تفجر المصطلح في أعمق أعماق عقلي وكياني، ليشعل داخلى فكرة مدهشة وليكشف لي ثغرة، ربما لم ينتبه إليها أحد قط ثغرة رهيبة، جعلتني أهتف فجأة:
- هل لاحظت موقفكم الآن، يا زعيم المجرمين؟!
أجابني في سرعة وسخرية
- بالتأكيد.. إنه موقف المنتصر..

تجاهلت عبارته السخيفة، وأنا أتابع في حماس:
- طاقم (نجم - ألفا) كله داخل قفص زجاجى مغلق و(نورهان) داخل حجرة المحولات المغلقة، وهذا يعني أننى وأنتم نتصل داخل فراغ المحطة كله
التقى حاجباه، وهو يقول في حذر متوتر:
- وما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟!
انعقد حاجباي في شدة، وأنا أجيبه:
- الثغرة.
قلتها، ثم وثبت فجأة، لألكم أقرب رجاله إلى لكمة كالقنبلة، ثم أتجاوز انقضاضة الثاني، صائحا بكل قوتي، وأنا أضغط زر الاتصال، مع حجرة المحولات، التي حاصروا فيها (نورهان):

- (نورهان).. الانتقال الآني.. اعكسى الأقطاب...
كانت خطتى كلها تعتمد على سرعة فهمها واستجابتها مع الموقف...
ولقد فهم الزعيم خطتى على الفور، وصرخ، وهو يثب من مقعده، بكل ذعر الدنيا:
- لا.. لا يمكن أن يحدث هذا
ولكن (نورهان) سمعت صيحتي.. وفهمت.. واستوعبت. ونفذت..
وبوثبة واحدة، بلغت أزرار التحكم الرئيسية، ولهثت في انفعال، وهي تضغط أزرار عكس الأقطاب، هاتفة:
- سأفعل.. سأفعل
وانقض على الغزاة من كل صوب..
ولكن جهاز الانتقال الآني انطلق يعمل فجأة بكل قوته وعلى نحو معكوس.
فبدلاً من أن تتركز أشعته الناقلة داخل وحدته، انطلقت كلها، بفضل الأقطاب المعكوسة، إلى ما خارجه...
وبأقصى سرعة، ارتديت خوذتى ثم دوت تلك الفرقعة في المكان كنت أعلم جيدا ما سيحدث الآن، فباستثناء طاقم (نجم - ألفا) السجين، و(نورهان) المحاصرة، ستشمل الأشعة الناقلة كل الأحياء، في كل مكان من المحطة، وهذا يعني كل الغزاة، وزعيمهم وأنا أيضا ولكن الأشعة الناقلة ستشملنا، وستعمل على أو بمعنى أدق.. على تشتيتنا ولأن الجهاز يعمل بأقطاب معكوسة، فلن يمكنه أبدا أن يرسلنا إلى نقطته النهائية الطبيعية وهذا ما حدث بالفعل لقد التقطت أذناي صرخات الغزاة المذعورة، وأنا أشعر بارتجاجات عنيفة، تشمل جسدي كله،

وأدرك أن جهاز الانتقال الآني سيلقي بكل منا في مكان عشوائي من الفضاء اللا نهائي وأنا وحدى أرتدى زيا فضائيا واقيا..

الغزاة إذن سيجدون أجسادهم فجأة في الفضاء، في ظروف ضغط وحرارة لا تناسب البشر أبدا. أو أية كائنات أخرى يا إلهى!..
إنني أشعر بالبشاعة، عندما أتخيل مصيرهم هذا..
يا للهول!....
أما مصيرى أنا، فلم يعد خافيا عنى.
لقد نفد الأكسجين من زيي الفضائي تماما، كما أعلن الكمبيوتر الصغير في الخوذة، وجسدي ما زال يسبح في فراغ فضائى سرمدى، وربما يظل يسبح فيه لسنوات لا يعلم عددها إلا الله (سبحانه وتعالى) وحده، حتى تجذبه جاذبية كوكب ما أو نجم ما، فيهوى إليه، ويمتزج بترابه إلى أبد الآبدين ولكن هذا لم يؤلمني أو يفزعني، ما دمت أدفع حياتي ثمنا لحرية وبقاء كوكب الأرض كله.. _
كل ما أتمناه هو أن تكون خطتى قد أفلحت، وقضت على كل الغزاة، وحررت (نجم - ألفا) من محتليه..
وفي استسلام، أغلقت عينى، وانتظرت مصيرى، و..
وفجأة، شعرت أن جسدى قد توقف عن الاندفاع، وأنه يهتز على نحو عجيب، فعدت أفتح عينى، وأحدق بذهول فيما أمامي!!..
إنها (نورهان)!!..
هنا في الفضاء!!..
مستحيل!.. مستحيل وألف مستحيل!!..

كانت ترتدي زيا فضائيا، وتبتسم ابتسامة ارتياح، وهي توصل أسطوانة أكسجين جديدة بزيي، هاتفة، عبر جهاز الاتصال الداخلي المحدود:

. أنت حي.. حمدا الله.. حمدا الله.

شعر صدرى بالأكسجين، فأطلقت شهقة، قبل أن أهتف بها:

- (نورهان).. أأنت هنا حقا، أم أنه هذيان نقص الهواء؟!

هتفت، وعيناها تدمعان ملتمعتين في سعادة:

- بل أنا هنا.. لقد نجحت خطتك العبقرية، وحررت(نجم - ألفا)، وأنقذت كوكبنا من احتلال رهيب طويل.. وفور تحررنا، أعدنا الاتصال بكوكب الأرض، ونقلنا إليهم بيانات جهاز الانتقال الآني، الذي عمل بأقطاب معكوسة، ولقد عملوا على تحليلها بأسرع ما لديهم من وسائل، حتى علموا أين ألقى بك الجهاز بالضبط، وقرروا استعادتك فورا..

غمغمت:

- ولماذا أنت؟!

ضحكت على الرغم من دموعها، قائلة:

- كانت فرصتي، لأرد لك الجميل

سألتها:

- أي جميل؟!

اتسعت ابتسامتها، وهي تجيب:

- إنقاذ كوكب الأرض

هتفت، وقد استعدت نشاطى، مع سريان الأكسجين في خلايا جسدى المنهك:

- إنه واجبي

ضحكت، قائلة:

- أعلم هذا.. أعلم هذا

ثم هتفت في حماس:
عشر ثوان فحسب هيا.. تشبث بي جيدا فسيعملون على إعادتنا معا، بعد تشبثت بها كما طلبت، وذهني يستعيد الأحداث كلها والدهشة تملأ كياني؛ لأن كل هذا حدث في يوم يوم واحد فقط..
وبإيقاع منتظم ارتج جسدى كله، ثم راودني ذلك الشعور العجيب، الذي لن يمكنني اعتياده أبدا شعور الانتقال عبر المسارات الفضائية الفائقة ثم انتابني شعور الهبوط والاستعادة ولثوان، غشى الضوء بصرى كالمعتاد، قبل أن أسمع صوتا يهتف في حرارة وتقدير:
- حمدا لله على سلامتك ونجاحك يا بطل
كان صوت السيدة (فدوى)، القائد الأعلى لإدارة الأمن الفضائي، والتي ما أن استعادت عيناي قدرتهما على الإبصار حتى رأيتها تتجه نحوى، وحولها مجموعة من القادة، وملامحهم جميعا تحمل كل الاحترام والتقدير، في حين همست (نورهان)، عبر جهاز الاتصال المحدود:
- حمدا لله على سلامتك.. أظنها نهاية الأحداث
تطلعت إليها بنظرة صامتة، وابتسامة هادئة، والكل يستقبلنا في حرارة وسعادة، بعد أن نجت الأرض من الغزاة بحمد الله (سبحانه وتعالى) ورحمته..
ولكنني في أعماقي، كنت أختلف تماما مع ما قالته (نورهان).
وما يظنه الجميع....
ففي نقطة ما، من أعمق أعماقي، كان هناك هتاف صامت يتردد، معلنا لى أنها ليست النهاية حتما إنها البداية البداية الحقيقية..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- بلا أمل..
٢ - مهمة فضائية..
٣ - نجم الرعب..
٤ - الغزاة..
٥- المواجهة الرهيبة..
٦ - الخطة..
٧ - الخطة البديلة..
٨ - الضربة..

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

جدي الحبيب

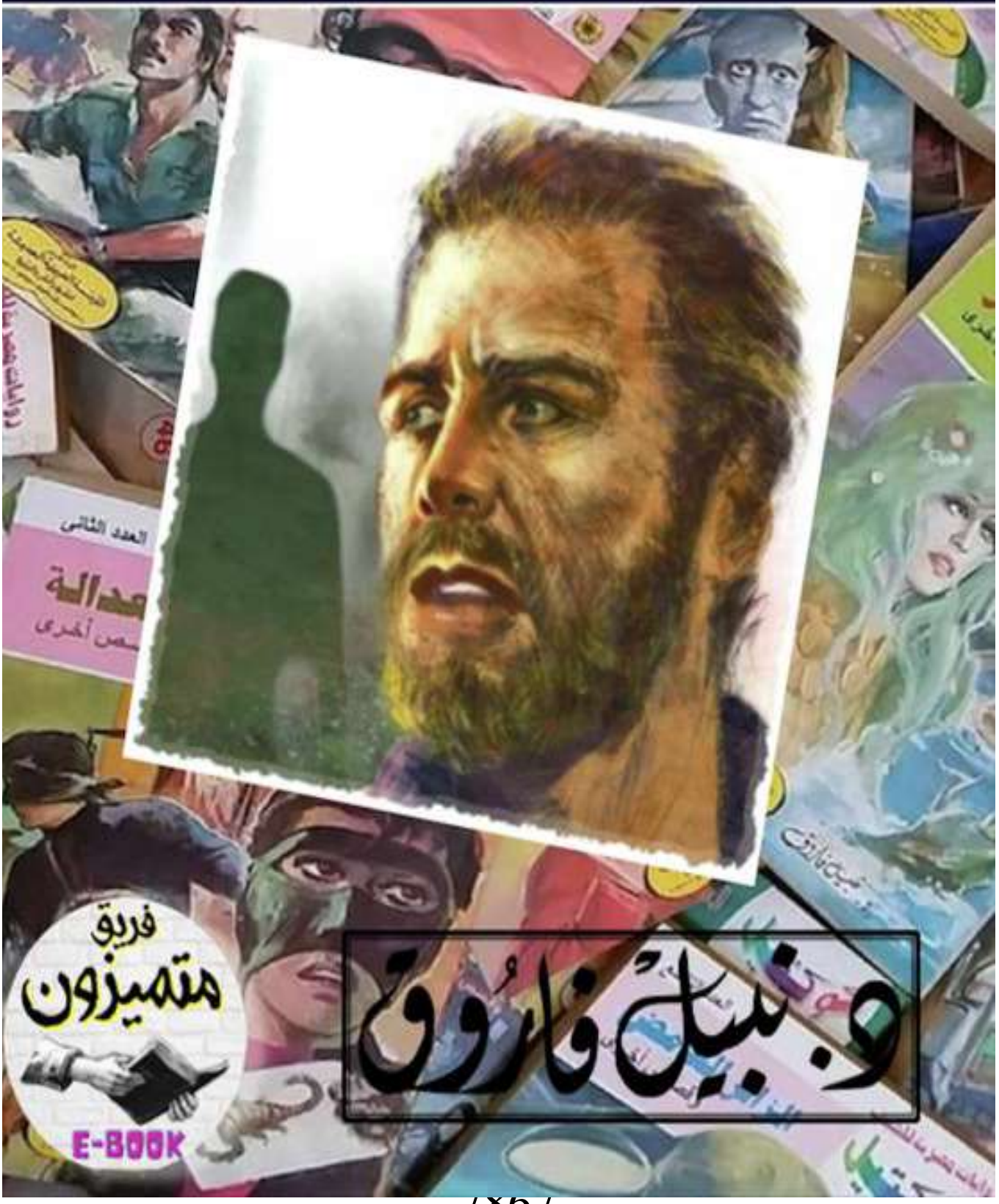

د. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

جدي الحبيب

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- ميراث..

«جدك توفى أمس... احضر لتسلم الميراث...»
برقية قصيرة، وصلتني حاملة تلك الكلمات المختصرة، من بلدة بسيطة، على الحدود السورية اللبنانية...
ولقد أدهشتني تلك البرقية في الواقع...
هذا لأنني لم ألتقِ بجدي لأمي هذا قط، منذ وعت عيناي الدنيا...
كل ما عرفته عنه، هو تلك الصورة الكبيرة، التي كانت تحتفظ بها أمي له، والتي كانت تثير خوفي منذ طفولتي؛ بسبب نظراته القوية القاسية فيها، وشاربه الضخم، الذي يحتل نصف وجهه، ويمنحه مظهرا يناسب بدايات القرن العشرين، بأكثر مما يناسب زمننا هذا، وخاصة مع تلك الحلة الثمينة النمطية، التي يرتديها في الصورة، مستندا إلى عكاز ضخم، من الواضح أنه كان يتكئ عليه من باب الوجاهة، لا من باب العجز، وكانت أمي، اللبنانية المولد والجنسية، تتحدث عنه دوما بفخر واعتزاز، وتحكى الكثير عن قوته وشهامته وبطولاته في مواجهة المحتلين..
وفي مرة أو مرتين فحسب، تحدثت عن غضبه منها ومقاطعته لها؛ عندما تزوجت من مصري، وأقامت معه في (مصر)، حيث ولدت أنا ونشأت ولكن جدي هذا لم يحاول الاتصال بي قط، على الرغم من أن أمي كانت تؤكد دوما أننى حفيده الوحيد؛ نظرا لأنها ابنته الوحيدة، وأنا ابنها الوحيد ولم تذكر شيئا أبدا عن ثرائه.. أو حتى عن مهنته ولقد توفيت أمي منذ سنوات قليلة، وانقطع بوفاتها الحديث عن جدي، وانقطعت كل صلة سماعية لي به تماما ثم فجأة، تصلني تلك البرقية!!...

لم أكن قد زرت (لبنان) قط، ولم تكن تلك الزيارة ضمن مخططاتي القريبة، أو حتى البعيدة، حتى وصلت تلك البرقية كانت تحمل توقيعا لشخص يدعى (عدنان الموالي)..
واسم تلك البلدة، التي أرسلت منها ولكن الحديث عن الميراث، جعلني أعد حقيبتي، وأستقل أول طائرة إلى (بيروت)، وأنا أحلم بذلك الميراث، الذي لا أعلم مقداره أو حدوده، ولكنه أثار في نفسي خيالات عديدة، وأمل في الخلاص من الأزمات المالية، التي أمر بها، منذ وفاة والدي، وضياع ثروته، مع الأزمة الاقتصادية العالمية وفي مطار (بيروت) وقفت أنتظر وصول (عدنان) هذا والذي أبلغته برقيا بموعد وصولي ولقد وصل بالفعل، بعد عشر دقائق فحسب، من خروجي من المطار ولم أشعر بالارتياح قط، وأنا أصافحه للمرة الأولى...
لقد جاء في سيارة قديمة للغاية، ولكنها نظيفة ومعتنى بها جيدا، والعجيب أنها مازالت تعمل بكفاءة، على الرغم من أن عمرها يتجاوز نصف القرن، والرجل نفسه كان يتجاوز هذا العمر أيضا كان لديه شعر أشيب كثيف، وشارب يماثل شارب جدي ضخامة، ووجه كثير التجاعيد، وعينان ضيقتان، تكاد تتبين لونهما في صعوبة بالغة، من شدة ضيقهما، كما كان صوته خشنا غليظا، إلى حد يدهشك وكان قليل الكلام، إلى حد مستفز ولقد صافحني (عدنان) في برود عجيب، ثم اصطحبني إلى سيارته القديمة، التي قطعنا بها رحلة طويلة مجهدة، لم أتصور قدرتها على قطعها، قبل أن نصل إلى تلك البلدة الصغيرة، التي عاش بها جدي ومات وأول ما لاحظته، عندما وصلنا إلى تلك البلدة، هو ذلك النفور العجيب، الذي يصيب كل من نمر به، عندما يتبين السيارة، وهوية قائدها كان نفورا يمتزج بلمحة من الخوف والتوتر ولكن (عدنان) هذا لم يبال، وهو يواصل طريقه، إلى

درب ضيق، يقود إلى أحد الجبال اللبنانية، التي شاهدتها في أفلام السينما فحسب وعبر ذلك الدرب الضيق، تواصلت رحلتنا، و(عدنان) يجيب تساؤلاتي العديدة بكلمات غاية في الاقتضاب، مشيرا إلى أنني سرعان ما أعرف كل شيء وأخيرا، توقفت بنا السيارة، عند قمة الجبل تقريبا، أمام منزل من طابقين، له طراز قديم، مشيد وحده، في تلك البقعة، التي تطل على الحدود السورية اللبنانية مباشرة ، وهنا، أشار (عدنان) إلى المنزل الخشن قائلا بصوته الغليظ:

- هذا هو ميراثك

أدهشني أن تنتهي بي الرحلة الشاقة إلى هذا، فغمغمت معترضا:

- فقط؟!

رمقني (عدنان) بنظرة عجيبة دون تعليق، ثم حمل حقيبتي الوحيدة، واتجه بها نحو ذلك المنزل، فتتبعته دون مناقشة، ودخلت معه، ولأول مرة، المكان الذي عاش به جدى...

لم يكن المنزل من الداخل يختلف كثيرا عن طرازه من الخارج؛ إذ كان كل شيء فيه عتيق، يعود إلى قرن من الزمان على الأقل... الأثاث، والتحف، وتلك المدفأة القديمة كل شيء..

وكان هناك غبار خفيف، يكسو كل شيء فيه تقريبا، حتى لتتصور أن يدا لم تمتد إليه بالعناية، منذ زمن ليس بقليل...

وكانت الإضاءة فيه خافتة، إلى حد مستفز، حتى إننى سألت(عدنان) هذا، فور رؤيتي له:

- كم يبلغ ثمن هذا المنزل؟!

أجابني في غلظة:

- إنه ليس للبيع.

أجبته في غلظة مماثلة:

- لو أنه ميراثي، فهذا شأني أنا.....

رمقني بنظرة لم ترق لي إطلاقا، وهو يصعد بحقيبتي إلى الطابق الثاني، مكررا:
- إنه ليس للبيع.
أغاظني قوله هذا كثيرا، ليس لتدخله في شئونى فحسب، ولكن لأنني، ومنذ النظرة الأولى، اتخذت قرارا بعدم الاحتفاظ بهذا المنزل الكئيب، أيا كانت الظروف وفي سرعة، ومن خلال خبرتي في العمل التجاري، رحت أقيم تلك التحف الكثيرة، التي تملأ كل الأركان، وقدرت أنها وحدها تساوي ثروة، تكفي لإخراجي من أزمتي المالية تماما وبغض النظر عن موقف (عدنان) المتعنت، اتخذت قرار البيع، قبل حتى أن أصعد خلفه إلى الطابق الثاني، الذي يحوى ثلاث حجرات، وضع (عدنان) حقيبتي في واحدة منها، تحوى حجرة نوم عريقة الطراز، تشبه تلك التي نراها في الأفلام التاريخية، بفراشها الضخم ذي الأعمدة، وقطع الأثاث الكبيرة، والإضاءة شديدة الخفوت، والتي قررت استبدالها بإضاءة قوية في الصباح التالي مباشرة..
ولقد وضع (عدنان) حقيبتي، ثم استدار لينصرف، دون كلمة إضافية، فسألته في لهجة قاسية بعض الشيء:
- وماذا عن الحجرتين الأخريين؟!
تجاهل سؤالي تماما، وهو يغادر الحجرة، فعدوت خلفه أسأله في خشونة حادة:
- ماذا بهما؟!
التفت إلى في بطء مستفز، وهو يجيب:
- أشياء خاصة
قلت في حدة:
- لقد ورثت المنزل بكل ما فيه... أليس كذلك؟!

صمت لحظات، متطلعا إلى بعينيه شديدتي الضيق، قبل أن يجيب في بطء:
- يفترض هذا
أغاظتني إجابته، فقلت في شيء من العصبية:
- ماذا يعني هذا؟!... إما أنه ميراثي أو لا.
واصل صمته لحظات أخرى، ثم أجاب، وهو يشيح بوجهه، مكملاً انصرافه:
- إنه كذلك
وتوقف قليلاً، قبل أن يلتفت إلى نصف التفاتة، مضيفا:
- لو أنك تستحقه
بدا لي شديد الوقاحة بقوله هذا، فأمسكت كتفه في غضب، صائحا في وجهه:
- إنك لم تخبرني بعد، ما شأنك بكل هذا..
وعلى الرغم منى، سرت في جسدي قشعريرة عجيبة، عندما أمسكت كتفه...
لقد كانت كتفه لينة، على نحو عجيب.
أو مخيف، لو شئت الدقة كانت كأنها، على الرغم من نحوله، لا تحوي أية عظام على الإطلاق...
كانت رخوة، حتى لتشعر كأنك قد أمسكت قطعة من المطاط اللدن، المستخدم لصنع ألعاب الأطفال وبحركة حادة، أبعدت يدي عنه، وتراجعت خطوتين إلى خلف، وأنا أحدق فيه في مزيج من الدهشة والذعر وبكل توتري هتفت:
- من أنت بالضبط؟!..
وهنا، لمحت على شفتيه شبح ابتسامة ساخرة، وهو يجيب في بطء، وبنفس اللهجة الغليظة والصوت الخشن:
- تستطيع أن تقول: إننى مدير هذا المنزل

سألته في عصبية، وأنا أحاول تجاهل ملمس كتفه:
- ومن وضعك في هذا المكانة؟!
أجابني في حسم:
- جدك
ثم مال نحوي، على نحو مخيف، وهو يضيف، في شيء من الصرامة:
- وهذا أحد شروط الميراث
كانت أول مرة أشتم فيها رائحة أنفاسه الكريهة وسرت في جسدي قشعريرة أخرى لقد كانت أنفاسه أشبه برائحة قبر، انفتح بعد طول إغلاق رائحة تحمل هواء الموت الفاسد، وأنفاس مئات السنين من النسيان..
وتراجعت في خوف حقيقي، وأنا أتساءل: لماذا فعل جدي بي هذا؟!
لماذا؟!...
وبكل عصبيتي وانفعالي، سألته:
- وأين وصية جدي، التي قالت هذا؟!
أجابني بغلظته وخشونته في برود:
- سآتيك بها، في الصباح الباكر.
وقفت لحظات أتطلع إليه، وأتبادل معه نظرة عصبية، قبل أن أشير إلى الحجرتين المغلقتين، قائلاً بكل ما استطعت استكماله في نفسي من صرامة:
افتح الحجرتين... أريد أن أنظر ماذا بهما
وقف يتطلع إلى بعينيه شديدتي الضيق لحظات، قبل أن يجيب في بطء:
- لست أدرى أين وضع جدك مفتاحيهما.
قلت في حدة:

- أي قوّل هذا؟!

أجاب في برود، وهو يبتعد عنى:
- سأبحث عنهما في الصباح..
تابعته ببصرى، وهو يهبط إلى الطابق الأرضي، ويختفى داخل حجرة وحيدة فيه، ولم أشعر بالارتياح على الإطلاق، وأنا أتطلع إلى الحجرتين المغلقتين، وبذلت جهدا حقيقيا في محاولة فتحهما، إلا أنني لم ألبث أن شعرت باليأس، فتركتهما واتجهت نحو حجرة النوم الخاصة بي، و و.
وفجأة، سمعت ذلك الأنين أنين شخص يتعذب بشدة...
أو يحتضر...
وفي هذه المرة، لم تسر في جسدي قشعريرة.
بل انتفض كله
وبمنتهى العنف...
فقد كان ذلك الأنين ينبعث من إحدى الحجرتين المغلقتين مباشرة..

☆ ☆ ☆

٢- عدنان..

لم يغمض لي جفن لحظة واحدة، في ليلتي الأولى، في منزل جدى..
صحيح أن ذلك الأنين، الذي انبعث من الحجرتين المغلقتين، لم يستغرق سوى دقيقة واحدة على الأكثر، إلا أنه أصابني بتوتر لا مثيل له ولقد حاولت جاهدا فتح باب تلك الحجرة، التي انبعث منها الأنين..
حاولت..
وحاولت..
وحاولت..
ولكن كل محاولاتي باءت بفشل ذريع..
كان الباب مصنوع من خشب ثقيل، جعله أشبه بالفولاذ وأكثر صمودا من باب قلعة منيعة... ولكن ما أثار توتري أكثر هو أنني لم أستطع العثور على (عدنان) هذا أبدا....
لقد شاهدته بنفسي يدخل الحجرة، أسفل سلم الطابق الثاني ولم أشاهده يغادرها، أو يغادر المنزل قط بعدها، وعلى الرغم من هذا، فقد اختفى تماما، دون أن يترك خلفه أدنى أثر ولقد هبطت إلى الطابق السفلي، وناديته أكثر من مرة، دون ان أحصل على جواب، لذا فقد اتجهت إلى تلك الحجرة، التي رأيته يدخلها، وفتحت بابها، و...
وكانت مفاجأة عجيبة.....
الحجرة خالية تماما لم تكن خالية من (عدنان) فحسب، ولكن من كل شيء وأي شيء....

كانت مجرد حجرة صغيرة، بلا نوافذ، وليس لها سوى باب واحد، وهو ذلك الذي رأيته يعبره...
وبخلاف هذا، لم يكن هناك شيء على الإطلاق ولأكثر من ساعة كاملة، رحت أفحص الحجرة، وأدق عليه بقبضتي؛ محاولا كشف أية فجوات سرية خلفها ولم يكن هناك شيء ولقد ضاعف هذا من توتري ألف مرة.
بل ربما ألف ألف مرة وعلى ذلك الضوء الخافت المزعج، رحت أتأمل منزل جدي مرة أخرى...
ومع تلك العراقة الواضحة، في كل ما حولي، وجدت عقلي يطرح تساؤلا محيرا ماذا كان يعمل جدي بالضبط؟!...
أية مهنة كان يمتهن؟!...
أمي لم تذكر هذا في أحاديثها قط كل ما ذكرته هو بطولاته، التي أظن أن معظمها من صنع خيالها، أو رغبتها في التباهي بوالدها، الذي قاطعها طيلة عمرى ولا شيء عن تاريخه أو مهنته بل لا شيء حتى عن أمها!!...
انتبهت فجأة، إلى أن أمي لم تحدثني عن أمها قط، طوال حياتها فقط عن أبيها فلماذا؟!...
هل توفيت والدتها، وهي بعد أصغر من أن تذكرها؟!.
أم إنها كانت تمتهن مهنة، تخجل من ذكرها؟!...
استغرقتني الأفكار والذكريات، وأنا أجلس في صالة منزل جدي الواسعة، المليئة بالتحف الأثرية، والتي جعلها الضوء شديد الخفوت، تبدو في صورة مخيفة، إلى الحد الذي قررت معه أن يكون أول ما أفعله في الصباح، هو النزول إلى تلك البلدة الصغيرة، عند سفح الجبل، وشراء مصابيح قوية، تحل محل تلك المصابيح القديمة المزعجة وعندما بدأت الشمس رحلة الشروق، وأرسلت دفعات ضوءها الأولى، عبر النوافذ الضيقة،

بدأ رأسي يدور نسبيا، وشعرت وكأنني نصف نائم، قبل أن أنتبه فجأة، إلى صوت حركة ما في المكان...
وبحركة حادة متوترة، اعتدلت وأنا أفتح عينى عن آخرهما وشعرت بجسدي ينتفض انتفاضة خفيفة، عندما وقع بصري على (عدنان)، بوجهه شديد التغضن، وهو يضع أمامي صينية طعام صغيرة، عليها رغيف صغير من الخبز، وبيضة مسلوقة، وطبق يحوي القليل من اللبنة اللبنانية الشهيرة...
وبكل توتري، هتفت به:
- من أين جئت؟!
غمغم في خشونة:
- أنا لم أغادر قط
حدقت فيه في دهشة مستنكرة، قبل أن أهتف:
- ولكنني بحثت عنك في كل مكان، ولم أعثر لك على أدنى أثر...
أجابني بنفس الخشونة، وفي اقتضاب مستفز:
- أنا هنا طوال الوقت
حدقت فيه مرة أخرى، وكأنني أراه للمرة الأولى..
تجاوزت عن سؤاله عن أين أمضى ليلته، وأنا أسأله في توتر:
- وماذا عن ذلك الأنين؟!
رفع عينيه الضيقتين إلى في بطء، وهو يسألني في حذر:
- أي أنين؟!
أشرت إلى الطابق الثاني، وأنا أقول في شيء من الحدة:
- أمس، وعندما صعدت إلى الطابق الثاني، كان هناك أنين ينبعث من إحدى الحجرتين المغلقتين هناك...
بدا لي كأنه يتطلع إلى في إمعان، إذ كان من الصعب الجزم، مع ضيق عينيه الشديد، ولكنه استغرق لحظات، قبل أن يجيب في بطء:

- من الواضح أن رحلتك أرهقتك كثيرا أمس، فتصورت أن....
قاطعته في حدة:
- لم أكن واهما... كان هناك أنين واضح، ينبعث من إحدى الحجرتين..
صمت لحظات أخرى، ثم أجاب بنفس البطء:
- ليس أنينا... إنه صوت الهواء، عبر أنابيب التهوية..
تطلعت إليه في شك، جعله يضيف:
- جدك كان يسبق زمانه بزمان، ولقد أضاف إلى تصميمات منزله شبكة من أنابيب التهوية، تمر بكل الحجرات وفي بعض الليالي، يمر الهواء عبر تلك الأنابيب، فيصدر ذلك الصوت الشبيه بالأنين..
واصلت نظرة الشك لحظات، فأشار بيده إلى الطابق العلوي متابعا:
- ستجد واحدة من تلك الفتحات، بالقرب من أسفل فراشك..
لم يقنعني قوله أبدا، فملت نحوه، أقول في صرامة:
- أريد فتح الحجرتين... اليوم.
هز كتفيه، قائلاً في خشونة:
- أخبرتك أنني سأبحث عن مفتاحيهما، بين متعلقات جدك.
قلت في صرامة، محاولاً تقليد خشونته:
- لن أنتظر حتى تفعل.
رفع رأسه بحركة تساؤل، فأضفت في صرامة وخشونة أكثر
- سأهبط إلى البلدة، وأحضر من يفتحهما بالقوة.
مضت لحظات، وهو يتطلع إلى في صمت، ثم أشاح بوجهه وقال في لهجة، اشتممت منها رائحة سخرية:
- يمكنك أن تحاول.
كان قد أولاني ظهره تقريبا، عندما قلت في عناد:

- سأذهب فورا
صمت لحظة أخرى، قبل أن يلتفت إلى في بطء، وهو يخرج مفاتيح تلك السيارة القديمة، ويناولني إياها، قائلا:
- افعل... ولكن تناول طعام إفطارك أولاً.
قلت، وأنا أنهض في حدة:
- لست أشعر بالجوع.
فوجئت بسحنته تنقلب على نحو مخيف، وهو يقول، في لهجة أقرب إلى الشراسة:
ستتناول طعام إفطارك أولاً... من الضروري أن تظل بصحة جيدة.

كان يمكنني القول هنا أننى قد واجهت لهجته ونظراته المخيفة في شجاعة، ولكن الواقع أنني لم أفعل، بل شعرت في أعماقي بشيء من الخوف، جعلني أعاود الجلوس، وأبدأ في تناول طعام الإفطار بالفعل، ثم لم يلبث ذلك العناد أن عاودني، فقلت في شيء من العصبية:
- سأستبدل كل هذه المصابيح أولاً... إننى أبغض هذا الضوء الخافت..
أشاح بوجهه مرة أخرى، وهو يكرر:
- يمكنك أن تحاول.
قالها، ثم اتجه في هدوء نحو باب المنزل، وغادره دون أن يضيف كلمة واحدة...
كنت قد انتهيت من تناول إفطاري الصغير بالفعل، عندما اختفى خارج المنزل، فاختطفت مفاتيح السيارة، واندفعت خلفه وأنا أتساءل:
- هل سأذهب وحدي؟!

فتحت باب المنزل بحركة حادة، وأنا أنطق عبارتي هذه، ثم ارتفع حاجباى بعدها، في دهشة كبيرة..
لقد شاهدت (عدنان) يغادر المنزل، قبلي بدقيقة واحدة وعلى الرغم من هذا، فلم يكن له أي أثر خارجه فقط كانت تلك السيارة القديمة تستقر، على بعد أمتار قليلة تحت ضوء الشمس، وحولها المكان خاليا تماما درت حول المنزل أبحث عنه مرة...
ومرتين..
وثلاث...
ولكنه كان قد اختفى تماما، كما لو أن الأرض قد انشقت وابتلعته ضاعف هذا من توتري كثيرا، وضاعف أيضا من إصراري على إحضار من يفتح الحجرتين المغلفتين، ويستبدل تلك المصابيح الخافتة وفي حزم وإصرار، ركبت السيارة القديمة، وأدرت محركها، وأدهشتني قوة المحرك، في سيارة عتيقة مثلها، ولكنني قدتها في يسر، هابطا عبر الممر الضيق، إلى حيث تلك البلدة الصغيرة ولقد أدهشني رد فعل سكان تلك البلدة، كما أدهشني في المرة الأولى لقد كانوا يتحاشون السيارة، كما لو أنهم يتحاشون حيوانا مفترسا، وعندما توقفت؛ لأسأل أحدهم عن نجار قريب، انطلق يعدو مبتعدا، كما لو أن شياطين الأرض كلها تطارده وأخيرا توقفت عند ما بدا لي أشبه بمقهى صغير، وهبطت من السيارة، التي يرمقها الكل بنظرة خوف واضحة، وسألت صاحب ذلك المقهى عن نجار، فتطلع إلى لحظات في توتر، قبل أن يسألني في خفوت:
- لأي غرض؟!
أشرت بيدي إلى منزل جدي أعلى الجبل، وأنا أجيبه:
- هناك أبواب مغلقة، أعجز عن فتحها

قال الرجل مستنكرا:
- هناك؟!
أجبته في حيرة:
- هناك نعم.
صمت لحظات أخرى، قبل أن يجيب في حزم، غلب عليه توتر شديد:
- لو دفعت كل ما تملك، لن تجد شخصا واحدا، في البلدة كلها، يقبل بالصعود إلى هناك.
أدهشتني إجابته في شدة، فسألته في توتر:
- ولماذا؟!
مال نحوي، في توتر يفوق توتري ألف مرة، وهو يجيب:
- لأن من يذهب إلى هناك، لا يعود... أبدا.
وكانت إجابته أشبه بالصدمة.....
صدمة بلا حدود....
على الإطلاق....

☆ ☆ ☆

٣- القصر..

طوال طريق عودتي إلى منزل جدي، لم أتوقف لحظة واحدة عن التفكير، في موقف أهل تلك البلدة الصغيرة منه وأقصد من منزل جدي، وليس من جدي نفسه...

هذا لأنه من العجيب أن أحدا، في البلدة كلها، لم ير جدي في حياته قط...

والأعجب أنه لا هو، ولا حتى (عدنان) هذا، قد تعاملا مع أي مكان في البلدة كلها، منذ عهد طويل للغاية وحديث ذلك الرجل، عن أن أحدا لا يعود من منزل جدي، كان حديثا عجيبا، مازلت أذكر كل حرف منه، عندما سألته:

- وما الذي يعنيه هذا بالضبط؟!

أشار بيده، وهو يجيب في حذر:

- لست أدرى، جدي أخبرني هذا، عندما كنت صغيرا.

تطلعت إليه في دهشة كبيرة، عندما نطق الجزء الأخير من عبارته فوفقا لملامحه، كان يبدو في منتصف الخمسينيات من عمره، فكيف روى له جده ذلك، عن منزل جدي، عندما كان صغيرا؟!..

إننا نتحدث عن نصف قرن من الزمان!!...

عن خمسين عاما دفعة واحدة!!..

فكيف؟!..

التفسير الوحيد، الذي جال بذهني، هو أن هذا المنزل ليس منزل جدي منذ البداية، بل هو ميراث عائلي، يعود إلى عهد بعيد هذا يفسر عراقته الواضحة وذلك الكم الكبير من التحف فيه والإضاءة الخافتة...

زاد تذكر تلك الإضاءة الخافتة من توتري، فتحسست الحقيبة الصغيرة، التي تستقر على المقعد المجاور، والتي تحوي أقوى مصابيح كهربية وجدتها في البلدة؛ حتى أتجاوز تلك الإضاءة المستفزة...

أما فيما يتعلق بالباقي، فقد كان (عدنان) على حق لم يرض مخلوق واحد بالصعود معي إلى المنزل؛ لفتح البابين المغلقين، على الرغم من المبلغ شديد الإغراء، الذي عرضته...

كانوا يخافون الذهاب إلى هناك على نحو عجيب بل يخشون حتى مجرد الحديث عن ذلك المنزل وكلهم، بلا استثناء، يجهلون تماما أي شيء عن جدي لا أحد رآه. أو سمعه أو علم حتى بوجوده...

الوحيد الذي يعرفونه، هو (عدنان)...

وحتى هو، كانوا يجهلون اسمه تماما...

كل ما يعرفونه عنه، هو أنه ذلك الشيخ المخيف، الذي يهبط بسيارته العريقة، من (منزل الشر)، وهو الاسم الذي يطلقونه على منزل جدي، ويعبر بلدتهم في بطء، دون أن يلقى نظرة واحدة على أهل البلدة، الذين لا يرفعون أبصارهم عنه وعن سيارته، حتى يختفي في الوادي وطوال دهر كامل، لم يتوقف في البلدة مرة واحدة ولا مرة واحدة!!...

توقفت ذكرياتي، عندما أوقفت السيارة أمام منزل جدي، وحملت مفاتيحهما، مع حقيبة المصابيح إلى الداخل، وأنا أنادي(عدنان)..

ومن تلك الحجرة الخالية، في الطابق السفلي، رأيته يخرج ويغلق الباب خلفه في إحكام، فسألته، دون أن أنجح في كتمان عصبيتى وتوتري:

- ماذا كنت تفعل هناك؟!

سألني في برود:
- أين؟!
كان السؤال مستفزا، حتى إنه زاد من عصبيتي، وأنا أشير إلى الحجرة، التي خرج منها، صائحا في حدة:
- في الحجرة الخالية.
ارتفع حاجباه الكثان على نحو عجيب، وهو يقول مستنكرا:
- خالية؟!
اندفعت نحو الحجرة، وأنا أواصل بنفس الحدة:
- نعم... خالية... لقد بحثت عنك فيها أمس، و...
فتحت باب الحجرة بحركة عصبية، وأنا أنطق عبارتي هذه...
ثم توقفت الكلمات في حلقي دفعة واحدة واتسعت عيناي عن آخرهما فتلك الحجرة، التي رأيتها خالية بالأمس، إلا من أربعة جدران، صارت فجأة ممتلئة بالأثاث، الذي ينتشر في كل ركن منها.....
فراش قديم..
ومنضدة طعام صغيرة..
وعدة مقاعد...
ودولاب شبه متهالك..
وقطعة أثاث ذات أدراج..
وسجادة صغيرة...
هذا بالإضافة لبعض الملابس، التي ألقيت في إهمال، على المقاعد والفراش ورف لكتب قديمة..
صرخت بكل دهشتي:
- مستحيل!
سألني (عدنان) في برود:
- ما المستحيل بالضبط؟!

هتفت، وأنا أشير إلى تلك الحجرة:
- هذه الحجرة كانت خالية تماما أمس.
عاد يرفع حاجبيه في دهشة مستنكرة، وهو يقول:
- خالية؟!... أأنت واثق من أنه لم يكن حلما.
انعقد حاجباى في غضب، وأنا أهتف به:
- لماذا تفعل هذا بالضبط؟!
صرخت فيه:
أفعل ماذا بالضبط؟!
ردد:
- لماذا تحاول إرباكي إلى هذا الحد؟!
بدا باردا إلى حد مستفز، وهو يقول:
- ولماذا أحاول هذا؟!
فجأة، ومع سؤاله، قفزت فكرة عجيبة إلى رأسي..
فكرة لست أدرى لماذا لم تخطر ببالي من قبل!!...
فكرة جعلتني أصرخ فيه، بكل ما في نفسي من انفلات:
- للاستيلاء على ميراثي..
بدت عليه دهشة عجيبة، ممتزجة بلمحة ساخرة، وهو يقول:
- أهذا ما تتصوره؟!
واصلت صراخي، قائلاً:
- نعم... إنك، ومنذ قدومي إلى هنا، تحاول إثارة الخوف في نفسي من المكان، وإثارة ارتباكي وحيرتي مما يحدث فيه؛ في محاولة لدفعي إلى الفرار منه، أو التخلي عنه؛ لكي تفوز أنت به، وربما بما يحويه..
تصاعدت السخرية، في ملامحه وصوته، وهو يقول:
- يا له من خيال جامح!...
صرخت كطفل عنيد:

- ليس خيالاً، بل هو حقيقة... هل يمكنك أن تفسر لي اختفاءك العجيب أمس؟!... أو مراوغتك بشأن فتح الحجرتين المغلقتين؟!... ثم أين وصية جدي، التي نص فيها على أنك ينبغي أن تدير المنزل من بعده؟!... أين؟!...

ظل يرمقني بنظرة عجيبة، من خلف عينيه الضيقتين، قبل أن يتجه نحو الحجرة، التي أقف ببابها، وهو يقول في بطء:

- سيدهشك أنه لدى إجابات واضحة لكل هذا.

تجاوزني إلى داخل الحجرة، واتجه إلى قطعة الأثاث ذات الأدراج، وهو يقول:

- انظر هنا.

كان يشير إلى قطعة الأثاث، فترددت قليلاً، ثم اتجهت إليه، وألقيت نظرة على سطح قطعة الأثاث في حذر كانت هناك طبقة رفيعة من الغبار، تغطى سطحها، على نحو يوحي بأنها هناك منذ زمن ليس بالقصير وفي توتر، غمغمت:

- من يدري؟!... ربما..

قبل أن أتم عبارتي، رفع (عدنان) قطعة الأثاث عن الأرض، وأزاحها قليلاً، ثم أشار إلى الموضع، الذي كانت فيه...

ولم أملك جوابا في الواقع فقد كان توزيع الغبار، الذي ترك أثرا واضحا، خاليا منه في الموضع الذي كانت تحتله قطعة الأثاث، قبل أن يزيحها(عدنان)، دليلا آخر على أنها كانت هنا منذ زمن مند زمن.

وشعرت بذاتي تكاد تنفجر، من فرط التوتر

فما أراه أمامي مستحيل!!...

ألف مرة!!!...

لقد فتحت هذه الحجرة بنفسي أمس، وكانت خالية تماما ولم يكن هذا وهما أو حلما أو خيالا. ولكن ما أراه أمامي الآن

فكيف؟!...
كيف؟!...
وقفت أحدق في موضع الغبار كالأبله، و(عدنان) يقول في لهجة واضحة السخرية:
- هذا الدليل الأول فحسب
سألته في عصبية:
- أهناك أدلة أخرى؟!
أشار بيده، قائلاً:
- بالتأكيد.
وفي هدوء، أخرج من جيب سترته القديمة مظروفا، من ورق سميك، لست أظنه لا يزال مستخدما، في زمننا هذا وناولني إياه، وهو يقول في هدوء:
- وصية جدك.
بدت على دهشة واضحة، وأنا أمد يدي لألتقط المظروف في حذر، وكأنني أخشى أن تلوثه أصابعي وبأصابع مرتجفة، فضضت المظروف، لأخرج منه ورقة من ذلك النوع البائد الثقيل نفسه، بدت كأنها مكتوبة بريشة قديمة...
ورقة بها كلمات قليلة مختصرة، تمنحني ميراث المنزل وكل ما فيه، مع شرط أن يبقى (عدنان) مديرا له مدى حياته وفي توتر، قلت:
- ومن أدراني أنها وصية جدي بالفعل؟!... لماذا لا تكون أنت كتبتها؟!... إنها لا تحمل أية أختام، أو توقيعات رسمية ولا يوجد شهود عليها أيضا...

أجابني في هدوء:

- إنها نسخة تركها جدك لك، وهناك أخرى تم توثيقها في بيت العدل، ويمكنك الرجوع إليها لو أردت...

طويت الورقة، وأعدتها إلى المظروف القديم، ودسستها في جيبي، وأنا أقول في توتر ملحوظ:

- هذا لا يعد دليلاً، بالنسبة لي.

دس يده في جيبه مرة أخرى، وأخرجها وهو يقول:

- وماذا عن هذين؟!

في هذه المرة، ارتفع حاجباي في شدة...

فما أخرجه من جيبه كان حقا عجيبا للغاية...

☆ ☆ ☆

٤- المفاجأة..

لدقيقة كاملة أو يزيد، لم أنبس ببنت شفة، وأنا أقف أمام(عدنان)، محدقا في ذلك الشيء العجيب، الذي أخرجه من جيبه..

مفتاحان من الكريستال، لهما تكوين مفاتيح الأبواب القديمة مع فارق مدهش كانا يتألقان ببريق عجيب، يبدو كأنه ينبعث من داخلهما..

ولقد انعقد لساني لمرآهما طويلاً، قبل أن أتساءل:

- ما هذا بالضبط؟!

أجابني (عدنان) في هدوء:

- مفتاحا الحجرتين المغلقتين...

إجابته جعلتني أعاود التحديق في المفتاحين لحظات، قبل أن أقول بكل الدهشة:

- مستحيل!!

سألني، ولهجته تحمل رنة، بدت لي ساخرة:

- ولماذا؟!..

أجبته في توتر:

- البابان ثقيلان للغاية، والمفتاحان من الكريستال، و....

قاطعني، مغادرا الحجرة:

- ولم لا تختبرهما بنفسك؟!

لحقت به على السلم، وأنا أقول، في توتر أكثر:

- سينكسران، فور إدارتهما في الرتاج.

قال، وهو يواصل صعوده، دون أن يلتفت إلى:

- لن يفعلا.

بلغنا معا الطابق الثاني، وتوقفنا أمام البابين المغلقين فناولني أحد المفتاحين، وهو يشير إلى أحد البابين، قائلاً:
- هيا..
التقطت المفتاح في حذر، وترددت لحظة، قبل أن أدسه في الثقب الخاص به في الباب، ثم توقفت لأنظر إلى (عدنان) مرة أخرى، فقال في حزم:
- أدره..
ترددت لحظة أخرى، ثم حسمت أمري وأدرت المفتاح.
ولدهشتي الكبرى، دار المفتاح في سهولة، وسمعت صوت الرتاج ينفتح، قبل أن يتحرك الباب في هدوء، دون حتى أن أفتحه وتراجعت كالمصعوق...
كانت الحجرة التي بدت أمامي مخيفة مخيفة بكل ما تحمله من معان...
لم يكن بها حقا ما يخيف بل لم يكن بها أي شيء على الإطلاق..

وعلى الرغم من هذا، فقد كانت مخيفة...
هذا لأنها كانت حجرة سوداء..
حجرة خالية....
بلا أثاث..
أو نوافذ..
وكل شيء فيها أسود...
الجدران...
والسقف...
وحتى الأرضية...
كانت أشبه بكتلة مخيفة من السواد....
وبكل توتر الدنيا، هتفت:

- ما هذا بالضبط؟!
أجابني بكل هدوء:
جدك له مزاج خاص.... خاص جدا.
هتفت منزعجا:
- أي مزاج هذا؟!
أجاب بنفس الهدوء، وإن امتزج هذه المرة بلمحته الساخرة المستفزة:
- مزاج جدك
تطلعت إليه لحظات في غضب، ثم تراجعت، وأنا أغلق باب الحجرة السوداء، ثم اتجهت إلى الباب الآخر، وأنا أقول في عصبية:
- وماذا عن الحجرة الأخرى؟!
لم يجب سؤالي، وإنما ناولني المفتاح الثاني، فترددت كثيرا، وأنا أتطلع إليه في راحته، فقال في برود، وبلهجة لمحت فيها نبرة آمرة:
- أدره.
التقطت المفتاح من يده، في حركة عصبية، واستدرت أدسه في ثقب الباب في حزم، ولكنني ترددت مرة أخرى، وأنا أتساءل عما يمكن أن أجده فيها، حتى سمعته يقول من خلفي:
- هل تخشى أن تفتحه؟!
أغضبتني عبارته، فأدرت المفتاح في الباب، وشعرت بالباب ينفتح، دون حتى أن ألمسه وعلى الرغم من أنني كنت أتوقع أمرا عجيبا، إلا أننى وعلى الرغم منى، تراجعت في حركة حادة عنيفة، وأنا أطلق شهقة مكتومة...

الحجرة كانت أيضا خالية تماما.....

ولكنها لم تكن سوداء...
كانت قرمزية داكنة....
بلون الدم..
تماما كما لو أنها قد طليت بالدم..
دم البشر...
وعلى الرغم منى، هتفت:
- يا للبشاعة!
رأيت (عدنان) يبتسم ابتسامته المستفزة، وهو يقول بهدوئه الأكثر استفزازا:
- مزاج جدك
استدرت إليه بحركة حادة، وأمسكت معصمه في قوة مفاجئة وأنا أقول في صرامة شديدة العصبية:
- مهلاً..
وفي هذه المرة أيضا، انتفض جسدي في عنف مع ملمسه لقد أمسكت معصمه في قوة. وتلامست أصابعي لم يكن معصمه شديد النحول فحسب بل كان مثل كتفه تماما بلا عظام..
وفي ذعر، تراجعت، وارتطمت على الرغم منى بباب حجرة، فاندفعت مبتعدا في اشمئزاز، وأنا أصرخ فيه:
- ما أنت بالضبط؟!
رأيت شبح تلك الابتسامة المستفزة على شفتيه، وهو يسحب معصمه، قائلا بنفس الهدوء:
- بشرى مثلك، ولكنني مصاب بمرض وراثي نادر، يجعل عظامي لينة للغاية..
حدقت فيه لحظات غير مصدق، قبل أن أهتف:
- مستحيل!... لو أن عظامك بهذه الليونة، لما أمكن لساقك أن تحملانك!

صمت لحظات، قبل أن يقول:
- هذا صحيح.
ثم رفع سرواله عن أحد ساقيه، وهو يضيف:
- لذا فأنا أرتدى هذا دوما.....
حدقت في الجهاز الذي يحيط بساقه، والذي يشبه تلك الأجهزة الطبية، التي يستخدمها ذوي الإعاقة، وغمغمت في توتر:
.- هذا تفسير منطقى
أعاد إنزال سرواله، وهو يقول:
- والآن، ماذا أردت أن تقول؟
تذكرت ما أردت قوله، عندما أمسكت يده، فاستعدت صرامتي، وأنا أقول:
- لماذا تتحدث عن جدي بصيغة الحاضر، وليس بصيغة الغائب.
أجابني في سرعة:
- لأنه حاضر.
تراجعت في دهشة، فاستدرك، وهو يشير إلى رأسه:
في رأسي على الأقل..
حدقت فيه لحظات في شك، ثم لم ألبث أن قررت طرح هذا الأمر عن ذهني مؤقتا، وأنا أغلق الباب الثاني، قائلاً:
- يبدو أنه هناك الكثير، مما أود معرفته عن جدي.
انعقد حاجباي، وأنا أضيف في صرامة:
- وعن هذا المنزل.
اعتدل، وهو يقول في برود:
- سل ما بدا لك.
تذكرت حقيبة المصابيح، وأنا أشير إلى السقف، قائلاً:
- لماذا هذه الإضاءة شديدة الخفوت؟!

كرر تلك العبارة المستفزة:
- مزاج جدك.
قلت في حدة:
- وهل كان مزاجه سوداويا إلى هذا الحد؟!
هز كتفيه اللينين، وقال:
- من وجهة نظرك؟!
قلت في حدة أكثر:
- يبدو أنك تشاركه مزاجه هذا!..
أجاب في حزم:
- بالتأكيد.
استعدت صرامتي، وأنا أقول:
- ولكن مزاجي يختلف.
غمغم:
- هذا واضح.
قلت بنفس الصرامة:
- ولأن مزاجى مختلف... ولأننى المالك الحالي لهذا المنزل، فكل شيء فيه سيتغير؛ ليناسب مزاجي أنا..

وقف يتطلع إلى لحظات في صمت بارد، قبل أن يقول:
- يمكنك أن تحاول
صرخت فيه:
- لا تكرر هذه العبارة مرة أخرى
ابتسم تلك الابتسامة الشبحية الساخرة، وهو يكرر في عناد:
- يمكنك أن تحاول..
قالها، واستدار منصرفا، على نحو استفز كل مشاعرى فصرخت فيه، وهو يهبط في درجات السلم:

- وسأبدأ باستبدال تلك المصابيح الضعيفة... وفورا..
لم يجب صراخي هذه المرة، وهو يصل إلى الطابق الأرضى ويختفي في حجرته، فاندفعت إلى حيث حقيبة المصابيح والتقطت منه مصباحا بقوة مائتي وات، وجذبت مقعدا كبيرا أسفل أحد مصابيح الصالة، واستخدمت منديلي لأحل المصباح القديم من مكانه، ثم وضعت المصباح القوى بدلا منه وأضأت المصباح وفي هذه المرة، قفزت دهشتي إلى الذروة ودفعة واحدة....

☆ ☆ ☆

٥ - صدمة..

هذا المنزل يكاد يصيبني بجنون مطبق لقد اختبرت تلك المصابيح بنفسي مرتين، في المتجر الذي ابتعتها منه، وكانت في كل مرة قوية حتى في وضح النهار أما هنا، فهي ليست كذلك... على الإطلاق...

في كل مكان، استبدل فيه المصابيح، يفاجئني نفس الضوء شديد الخفوت!!...

حاولت..

وحاولت...

وحاولت...

وفي كل مرة، وكل مكان، احصل على النتيجة نفسها...

ضوء مستفز، شديد الخفوت، أصابني بحالة عصبية جعلتني أصرخ في (عدنان):

- ماذا أصاب مصابيح هذا المنزل المجنون؟!.

أجابني في برود، وكأنه يتعمد أن يستفزني:

- هكذا إرادة جدك.

التفت إليه بنظرة نارية، فأشاح بوجهه، ربما ليخفى ابتسامة مقيتة، وهو يضيف:

- وهكذا سيبقى.

صحت به في تحد:

- المنزل سيكون كما أريده أنا، حتى لو اضطررت إلى إحضار فنى خاص من (سوريا)؛ لاستبدال شبكة الكهرباء كلها.....

كرر تلك العبارة، التي استفزتني دوما:

- يمكنك أن تحاول.

ودون أن أدرى، وجدت نفسي أقفز من مكاني، وقد أفقدني الغضب صوابى، مع أعصابي الثائرة، وانقض عليه في عنف أدهشني أنا شخصيا ولكن الذي أدهشني أكثر، هو ما حدث بعدها فالمفترض أن (عدنان) هذا يعاني من مرونة عظام شديدة وعلى الرغم من هذا، فعندما ارتطمت به، شعرت كأننى أرتطم بجدار من صخر وكانت الصدمة قوية، أشعرتني بآلام في كل عظمة في جسدي، وجعلتني أرتد عنه، وأسقط على مسافة مترين منه أما هو، فلم يهتز بمقدار أنملة فقط أدار عينيه إلى، وقال في لهجة عجيبة، تجمع بين الصرامة والسخرية والشماتة:

- لم يكن هذا تصرفا متحضرا.

تراجعت زاحفا، وأنا أحدق فيه في رعب، تملكنى لأول مرة.

ما هذا الرجل بالضبط؟!...

بل ما هذا الشيء؟!... أيعاني من مرونة عظام، أم صلابة جسد؟!.. أهو بشر مثلنا، أم...؟!

قبل حتى أن يكتمل الجواب في ذهني، وجدت نفسي أهتف بلا وعى:

- اخرج

استدار بجسده كله نحوي، وتطلع إلى في تحد، فصرخت بكل انفعالى:

- اخرج... لا أريدك في هذا المنزل لحظة واحدة.

ظل واقفا مكانه، يرمقني بنظرة مخيفة، قبل أن يقول في بطء وصرامة:

- وصية جدك تمنعك من إخراجي.

صرخت بقوة أكبر:

غادر المنزل أو أقتلك

تألقت تلك الضحكة الساخرة في عينيه، وإن لم تنتقل لمحة منها إلى ملامحه، وهو يقول بكل غلظة:
يمكنك أن تحاول..
نطقها، ثم استدار، واتجه نحو حجرته الصغيرة في هدوء، وانا أصرخ من خلفه، بكل عصبيتي:
- أقسم أن أقتلك إن لم تفعل.... أقسم..
شاهدته يفتح باب حجرته الصغيرة، ويدخل الحجرة، التي بدا أثاثها القديم واضحا، أشبه بصورة كئيبة موروثة، ثم أغلق الباب خلفه، وسمعت صوت رتاجه ينزلق، فقفزت من مكاني، وأنا أواصل صراخي:
- لا يمكنك أن تتحداني... أنا مالك المنزل الحالي، و...
كنت أندفع نحو حجرته الصغيرة وأنا أصرخ، وفتحت بابها بحركة حادة، مع الجزء الأول من آخر العبارة السابقة، و...
وانتفض جسدي كله في عنف وفي كياني، وليس في جسدى وحده، سرت قشعريرة باردة كالثلج أو أشد برودة منه ولست أدرى كم اتسعت عيناي، ولكنني أتصورهما قد التهما وجهي كله، من شدة اتساعهما، وأنا أحدق فيما أمامي ولست أدرى حتى، هل تكفي كلمة الذهول؟ أم أنها غير كافية لوصف ما أصابني فقد كانت الحجرة التي أمامي، والتي شاهدت أثاثها القديم بنفسي، عبر بابها المفتوح، منذ ثوان قليلة، تماما كما رأيتها في المرة الأولى خالية تماما...
فقط جدران وسقف وأرضية بلا نوافذ...
أو أثاث
أو حتى (عدنان)..
وبلا وعي أيضا، وجدت نفسي أصرخ:
- مستحيل!.... مستحيل!...

تراجعت في رعب بلا حدود...
وشعرت أنني قد ارتطمت بشيء ما واختل توازنى وسقطت لم يبد لي أنني أسقط أرضا، بل في بئر عميقة عميقة...
وبلا قرار...
ومن بعيد، سمعت صوت جدى يناديني باسمى وكان الصوت يأتي من أعماق البئر فجأة، استيقظت....
«هل غفوت قليلا؟!...»
ألقى على (عدنان) السؤال، وهو منحن فوقي، فانتفض جسدي في عنف، وصرخت:
- أنت؟!
تراجع في شيء من الدهشة، وهو يقول:
- نعم... هو أنا!..
حدقت في وجهه، بنظرة تجمع بين الدهشة والخوف والاستنكار، استقبلها هو في هدوء مستفز، وهو يشير إلى شيء ما أمامي، متسائلاً:
- هل أنهيت فطورك؟!
حدقت فيه مرة أخرى، مستنكرا عبارته، ثم انتبهت فجأة إلى أنني أجلس في الطابق السفلي من المنزل، وأمامي صينية طعام صغيرة، عليها بقايا رغيف من الخبز، وقشر بيضة مسلوقة وبقايا لبنة في طبق صغير وفي هدوء مستفز، رفع هو صينية الطعام، وهو يقول:
جدك كان يرى دوما، أن الإفطار هو أهم وجبات اليوم.....
هتفت به:
- من أين جئت؟!
أجاب، دون أن يلتفت إلى:
- أنا هنا طوال الوقت

شعرت بقوة أننى قد مررت بهذا الموقف من قبل....
نفس الكلمات!..
نفس السؤال!!...
ونفس الجواب!!!..
شعرت بحيرة شديدة، وأنا أنتزع نفسي عنوة، من المقعد الذي أجلس عليه، وقلت في عصبية:
- سأستبدل كل هذه المصابيح... إننى أبغض هذا الضوء....
لم أكد أنطقها، حتى أيقنت من أني أكرر شيئا فعلته من قبل، وخاصة عندما أشاح هو بوجهه، وكرر عبارته الاستفزازية:
- يمكنك أن تحاول.
ضاعف هذا من عصبيتي وتوتري، فقلت وأنا أتلفت حولي و قلت في حدة:
- أين حقيبة المصابيح؟!
توقف ليلتفت إلى، متسائلا:
- أية مصابيح؟!
قلت في حدة :
- تلك التي ابتعتها من البلدة؛ لاستبدال هذه المصابيح القديمة.
بدت دهشة حقيقية على وجهه، وهو يحدق في وجهي، قائلاً:
- من البلدة؟!
نطقها في استنكار شديد، قبل أن يضيف في حذر وتفكير:
ولكنني لست أذكر أننا قد توقفنا لشراء شيء، عندما مررنا بها!.
قلت في حدة أكثر:
- أنت تعلم أننى قد ذهبت وحدى بالسيارة، و...
قاطعني في دهشة أكبر، بدت لي طبيعية وحقيقية للغاية:
- وحدك؟!... كيف؟!...
سرى الغضب والانفعال في كياني، وأنا أجيب:

- أنت تعلم كيف.... لقد أعطيتني مفتاح السيارة، و.
قاطعني مرة أخرى:
- مهلاً... أنا لم أعطك مفاتيح السيارة، ولا يمكنني أن أفعل، فأنا وحدى أعرف أسلوب قيادتها....
صحت فيه:
- ولكنني قدتها بالفعل إلى البلدة، وسكانها شهود على هذا... لقد ابتعت المصابيح من متجر صغير، يمكنني أن أصف لك عنوانه بمنتهى الدقة..
أشار بيده، قائلاً في قلق:
- أكان حلمك واضحا إلى هذا الحد؟!
صرخت، وقد استنفدت الأحداث أعصابي:
- لم يكن حلما... لماذا تفعل هذا بي؟!
هز كتفيه العجوزين، وهو يقول:
- لست أحاول أن أفعل شيئا، وها هي مفاتيح السيارة أرنى كيف ستقودها....
اختطفت المفاتيح من يده اختطافا، واندفعت خارج المنزل إلى حيث تقف السيارة، ودفعت جسدى داخلها، و...
وتوقفت...
ليست هذه هي السيارة نفسها، التي قدتها إلى البلدة أمس إنها تبدو كنسخة طبق الأصل منها ولكنها ليست هي حتما...
التابلوه يختلف تماما..
بل كل شيء في آليات القيادة يختلف عصا السرعة متصلة بعجلة القيادة، وليست مزروعة بين المقعدين الأماميين والمفتاح في المنتصف، وليس إلى اليمين حتى المذياع، يبدو أكبر حجما...
«أين السيارة، التي أحضرتني بها من المطار؟!...»

هتفت بالسؤال في عصبية، فأجابني (عدنان) في بطء وكأنه يحاول تهدئة طفل صغير:
- أنت تجلس داخلها.....
قلت في ذروة العصبية:
- كلا ليست هذه هي السيارة، التي ذهبت بها إلى البلدة صباح أمس
مال نحوى، وهو يقول في بطء
- من المستحيل أن تكون قد ذهبت إلى البلدة صباح أمس، لا في تلك السيارة، ولا في غيرها.....
صحت به:
- ولماذا مستحيل؟!..
مال على أكثر، بأنفاسه الكريهة، وهو يجيب:
- لأن طائرتك القادمة من (القاهرة)، هبطت في مطار(بيروت) ظهر الأمس فحسب...
وكان جوابه صدمة قوية، جعلت رأسي يدور مرة أخرى...
وبمنتهى العنف....

☆ ☆ ☆

٦- كابوس..

«عن أية مصابيح تتحدث يا أستاذ؟!..»
حدق صاحب متجر الأدوات الكهربائية، في تلك البلدة الصغيرة، في وجهي بدهشة حقيقية، عندما سألته عن المصابيح، التي ابتعتها منه بالأمس، وهز رأسه في حيرة واضحة، وهو يردف:
- إنها أول مرة أراك هنا.
زادت عبارته من عصبيتي، وأنا أقول:
- ألا تذكرني يا رجل... لقد ابتعت منك تلك المصابيح أمس، و...
قاطعني في ضيق:
- البلدة صغيرة يا أستاذ، ومبيعاتنا ليست كبيرة، حتى أنسى غريبا ابتاع ذلك القدر الذي تذكره من المصابيح...
ومال نحوى بشاربه الكبير، متسائلاً:
- ثم أين تلك المصابيح؟!
وهنا جاء دوري لأحدق في وجهه في صمت ن فأنا لم أعثر على تلك المصابيح قط، منذ استيقظت في منزل جدى..
حتى ذلك المصباح، الذي غيرته بنفسي، لم يكن له وجود ومن المستحيل أن يكون كل ما مررت به حلما!!...
مستحيل!!...
وألف مستحيل!!...
الأحلام لا تكون أبدا بهذا الوضوح ولا بكل تلك التفاصيل أبدا...
« ما تاريخ اليوم يا هذا؟!... »
ألقيت السؤال فجأة على صاحب المتجر، فالتفت يشير إلى نتيجة حائط، ذات أرقام كبيرة، معلقة على جدار متجره وخفق

قلبي في عنف...
هذا أيضا مستحيل!...
التاريخ يقول: إن طائرتي قد وصلت إلى (بيروت) أمس فقط!!... وهذا يعني أن كل ما مررت به لم يكن حقيقة كل ما رأيته وسمعته... وخبرته وشعرت به كل هذا لم يكن حقيقة مستحيل!...
شعرت برأسي يدور بعنف حقيقى، حتى إننى كدت أسقط أرضا، فأسرع صاحب المتجر يمسك يدي، وهو يقول:
- هل أحضر لك مقعدا يا أستاذ؟! |
لوحت بيدى، قائلاً:
- كلا... إنه مجرد دوار بسيط..
سألني في اهتمام:
- هل تناولت طعام إفطارك؟
أومأت برأسي إيجابا، وتحاملت على نفسي، حتى عدت إلى السيارة القديمة، التي يتعامل معها الكل في البلدة، وكأنها كائن من عالم آخر، وقررت العودة إلى المنزل لم أستطع قط فهم ما يحدث..
ان الرجل الآخر، الذي روى لي كل شيء، في المقهى الصغير أذكر ملامحه جيدا، وأسلوبه في الحديث، وحتى اسمه، وعلى الرغم من هذا فهو لا يذكر أنه قد التقى بي، أو تحدث معي!!!...
ومن المستحيل أن يكون كل هذا حلما!
لن أذكر ملامح وصوت ومكان الرجل بهذه الدقة، في حلم عادى!...
هناك شيء ما...
شيء لا أفهمه...
ولا أستطيع فهمه....

حيرتي جعلتني أقود تلك السيارة القديمة في بطء، متأملاً ذلك المشهد، للمنطقة الفاصلة بين الحدود السورية اللبنانية وتساءلت: لماذا اختار جدي هذه البقعة بالتحديد؛ ليشيد فيها منزله هذا؟!...
أم إنه ورثه عن أجداده، كما قالت الروايات؟!..
هذا لو أنها قيلت بالفعل..
ولم تكن حلما...
أو وهما...
أخرجت هاتفي المحمول من جيبي، محاولاً معرفة التاريخ الحقيقي عليه لم يكن يلتقط أية إشارات، لأية شبكة، منذ قدومي إلى هذه البلدة، ولكن برامجه كانت تواصل عملها، وتشير في وضوح إلى أن الجميع على حق لقد وصلت بالأمس فقط!!..
فكيف يحمل رأسي كل هذه الذكريات؟!...
وماذا عن كل ما رأيته؟!...
ماذا عن الحجرتين المغلقتين، والمفتاحين المصنوعين من الكريستال العجيب؟!...
أهما حقيقة؟!...
أم جزء من الحلم؟!...
أو من الكابوس؟!...
واصلت القيادة في بطء، حتى وصلت إلى منزل جدي، قمة الجبل، ومن هناك بدت لي الصورة عجيبة كان المنزل يطل على مساحة هائلة من الدولتين (سوريا) و(لبنان). تماما كما لو كان مركز مراقبة مثالي وعندما وصلت، كانت الشمس قد بلغت المغيب، وكان المفترض أن يبدو لي مشهدها، وهي تلقى أشعتها الأخيرة على الربوع الخضراء، مشهدا رومانسيا جميلاً، يستحق

تسجيله في لوحة فنية، أو صورة ضوئية ولكنني، وفي تلك اللحظة بالذات، رأيته...
فمع زاوية غروب الشمس، ألقى منزل جدي ظلالاً طويلة في المكان وكانت ظلالاً مفزعة وإلى أقصى حد...
فمن موضعي، كان المنزل، ببرجيه الصغيرين على جانبيه، يلقى ظلاً أشبه برأس شيطان، كما رآه خيال الأدباء عبر العصور...
وجه طويل، وقرنان قصيران على جانبيه..
«هل عدت؟!..»
اخترق صوت (عدنان) أفكارى، فوجدت نفسي أرتجف على الرغم منى، وأستدير إليه في حركة حادة...
كان يقف في ظل المنزل، والشمس تغرب من خلاله، مما جعله يبدو أشبه بشبح أسود نحيل مخيف...
وفي توتر عصبى، قلت:
- نعم عدت... ولكنني لا أفهم
تقدم نحوى، وهو يسألني في هدوء:
- لا تفهم ماذا؟!...
قلت في عصبية:
- كل ما يحدث... عقلي يحمل ذكريات يوم ضائع... وهي ذكريات واضحة، ودقيقة، بها كل التفاصيل، التي لا تجعل منها حلما أو وهما...
قال في اهتمام حقيقى:
- ربما هي رؤية إذن.
رؤيا؟!...
لم يخطر هذا الاحتمال في ذهني قط...
ولم يكن من الممكن أن يخطر ربما لأنه ليس هناك من سبب؛ لتصور هذا...

أو لأنه لم يحدث معي من قبل قط....
ولقد أردت أن أقول هذا، أو أن أستنكر ما قاله (عدنان).
إلا أنني وجدت نفسي أتطلع إليه في صمت فحسب، دون أن أنطق حرفا واحدا، فواصل هو تقدمه نحوى، وهو يقول:
. جدك كانت تراوده رؤى عظيمة.
ثم مال نحوى، حتى شممت رائحته الكريهة، وهو يكمل في حماس:
- وكانت كلها تتحقق
أشحت بوجهي عن أنفاسه، وأنا أسأله في عصبية:
- هل عثرت على مفتاحي الحجرتين المغلقتين؟!
اعتدل، وهو يقول في هدوء:
- لا توجد هنا حجرات مغلقة.
صحت فيه، وقد انفلتت انفعالاتى:
أنت تعلم أنه هناك حجرتين مغلقتين، إلى جوار حجرة نومى تماما.....
وقف يتطلع إلى لحظات في صمت، ولسان حاله يقول: «يا للمسكين»، قبل أن يشير إلى، قائلاً:
اندفعت إلى داخل المنزل، وصعدت في درجات السلم عدوا من فرط الانفعال، ثم عدوت نحو حجرة نومي، في الطابق الثاني، وفجأة، توقفت بحركة حادة، حتى إننى قد فقدت توازني، وسقطت أرضا، أمام باب الحجرة، المجاورة لحجرتي وكان هذ سبب سقوطي بالفعل فإلى جوار حجرة نومي، لم تكن هناك حجرتان مغلقتان بل حجرة واحدة فحسب ولم يكن هناك أي أثر لحجرة أخرى على الإطلاق..
حدقت في الجدار ذاهلاً، باحثا عن أي أثر لتلك الحجرة الثانية حتى وجدت (عدنان) يمد يده إلى؛ ليعاونني على النهوض، وهو

يغمغم في قلق:
- ماذا أصابك؟!
تجاهلت يده الممدودة، وأنا أتذكر طراوة جسده، المثيرة للتوتر، وعاونت نفسي على النهوض، وأنا أغمغم:
- أين الحجرة الثانية؟
حمل صوته دهشته، وهو يقول:
- لم تكن هناك أبدا حجرة ثانية... هذا جناح جدك الخاص به حجرة نومه، وحجرة مخطوطاته...
نهضت واقفا، وحدقت في الحجرة لحظات، ثم مددت يدي أدفع بابها في حذر، وبكل هدوء وسلاسة، انفتح باب الحجرة وبلغت دهشتي ذروتها...
لقد كانت حجرة واسعة، بها مكتبة تحتل كل جدرانها، من الأرض إلى السقف، وتشبه تماما تلك المكتبات، التي كنت أراها في أفلام السينما القديمة، والتي بها سلم خشبى، يدور حولها؛ للوصول إلى الكتب في الأرفف العالية وكلها كانت تكتظ بالكتب والمخطوطات كم هائل من الكتب والمخطوطات، يستحيل نقلها إلى المكان خلال الفترة التي غبتها في البلدة ولم يحتمل رأسى كل هذه الصدمات...
وبينما أشعر بدوار شديد، غمغمت:
- ما يحدث هنا ليس طبيعيا... ليس طبيعيا على الإطلاق...
سمعت صوت (عدنان)، وكأنه يأتى من بئر سحيقة، قائلاً في قلق شديد:
- ماذا بك؟!... هل.....
وبعدها لم أسمع شيئا ولم أشعر بأي شيء أظننى قد فقدت الوعى على الأرجح أو أنه قد أصابتني حمى ما.

فلقد شعرت وكأنني أطير على وسادة هوائية دافئة، إلى داخل أسطوانة كبيرة مظلمة، أضيئت بضوء أزرق باهت، فور استقراري داخلها، ثم تحول ذلك الضوء إلى الأحمر الدموي، وفجأة، استعدت وعيي و....

كنت أرقد على فراشي، في حجرة نوم جدي القديمة، وكان الجو في الخارج عاصفا، ببرق ورعد ومطر ثم، ومع سطوع البرق، رأيت ذلك الشخص، الذي يقف عند طرف فراشى، متطلعا إلى بنظرة صارمة، أحفظها جيدا منذ طفولتى وانتفض جسدى، كما لم ينتفض من قبل فذلك الواقف، عند طرف فراشي، كان جدي... جدي الحبيب الراحل.....

☆ ☆ ☆

٧ - سجين...

إرهاق شديد، ذلك الذي شعرت به، منذ استيقظت هذا الصباح...
إرهاق، ربما لم أشعر بمثله، في حياتي كلها فذلك الكابوس، الذي هاجمني أمس، زلزل كياني...
كياني كله....
كابوس رؤية جدي الراحل، واقفا إلى جوار فراشي....
أو فراشه، لو صح القول والعجيب أنني، في كابوسي، شاهدته في وضوح تماما مثلما كنت أشاهده طيلة حياتي نفس الشارب الضخم والملامح الصارمة القاسية وتلك النظرة..
نظرة قاسية مخيفة، كانت دوما تثير رعبي، منذ وعت عيناي الدنيا...وفي الكابوس، كان يرتدي نفس تلك الحلة النمطية القديمة التي كان يرتديها في صورته، التي أحفظها عن ظهر قلب ولكن أعجب ما في هذا الكابوس، هو أنني لم أستيقظ بعده، كما يحدث مع كل الكوابيس رأيته فيه واقفا، يتطلع إلى في صمت، وضوء البرق ينعكس على وجهه المخيف وانتفض جسدي كله ثم غرقت في نوم عميق أعمق نوم حظيت به، في حياتي كلها....
ومع أول ضوء من أضواء النهار، استيقظت فجأة.. كان الجو صحوا، بخلاف ما كان عليه في الليلة الماضية والشمس مشرقة، في سماء خالية من السحب وعلى ضوء الشمس، الذي ملأ الحجرة، بدت لي الأمور مختلفة تماما، حتى إنني جلست على طرف فراشي، اتطلع إلى الحجرة في حيرة، وكأنني أراها لأول مرة، وأنا أشعر بهذا الإرهاق، الذي جعلني أحتاج إلى ربع ساعة كاملة، قبل أن أستطيع النهوض، وارتداء ثيابي.....

وكالمعتاد، كان (عدنان) قد أعد لي طعام الإفطار بيضة مسلوقة، وقليل من اللبنة، ورغيف صغير من الخبز والعجيب أن رؤيته لم تستفزني، كما كان يحدث سابقا، كما لو أنني قد اعتدت وجوده، وأسلوبه المستفز وبينما أتناول إفطارى، سألته:

- متى تحسن الطقس؟!

نظر إلى في دهشة، وهو يقول:

- أنه على الحال نفسه منذ أمس...

أشرت بيدي، قائلاً:

- وماذا عن الرعد والبرق والمطر أمس؟!

توقف (عدنان) بغتة، وتطلع إلى في حيرة، وهو يقول:

- أي رعد وبرق ومطر؟!

شعرت بالتوتر، وأنا أقول:

- ألم تشعر بكل هذا أمس؟!

وعلى الرغم من عينيه شديدتي الضيق، شعرت كأنه يتطلع إلى بنظرة حائرة مشفقة، قبل أن يقول:

- هل راودك حلم آخر أمس؟!

انعقد حاجباى في شدة، دون أن أجيب:

- ما الذي يعنيه بسؤاله هذا؟!...

هل كان ذلك الطقس الرهيب جزءا من كابوسي؟!..

ولكن كيف؟!...

إننى لم أشاهد، في حياتي كلها، كابوسا بهذه الدقة!!...

تطلعت إلى (عدنان) في صمت، دون أن أجيب سؤاله...

ماذا يحدث في منزل جدى؟!...

«أريد أن أزور قبر جدي..»

لست أدرى حتى لماذا نطقت تلك العبارة فجأة، ولكن تلك الدهشة العجيبة، التي ارتسمت على وجه (عدنان)، جعلتنى

أضيف في إصرار:
- واليوم بالتحديد..
تأملني (عدنان) لحظات، ثم قال:
- لماذا؟!..
قلت في حدة:
- ولماذا لا؟!...
هز كتفيه، مجيبا:
- ربما لأننا هنا لم نعتد هذا..
سألته في تحد:
- ألا يزور اللبنانيون قبور موتاهم؟!
قال في بطء:
- ربما يفعلون، ولكننا لا نفعل....
سألته في دهشة:
- أليس من المفترض أنكم منهم؟!
هز رأسه في بطء، دون أن يرفع عينيه عن وجهي، وهو يقول:
- إنهم لا يعتبروننا كذلك..
تصاعدت دهشتي، وأنا أقول:
- ولماذا؟!...
هز كتفيه اللينين، وهو يجيب:
- يمكنك أن تسألهم..
قلت في عناد:
- سأفعل.
خيل إلى أننى ألمح شبح ابتسامة على شفتيه، فكررت في حدة:
- أريد أن أزور قبر جدي.
صمت لحظات، ثم قال في هدوء:
- إنك تجلس فوقه

عبارته جعلتني أثب من مقعدي، في حركة غريزية، وأحدق في الأرضية، قائلاً في انزعاج حقيقي:
- فوقه؟!
حملت شفتاه ابتسامة ساخرة واضحة هذه المرة، وهو يقول:
- ليس بالمعنى اللفظي..
حدقت فيه متسائلاً، فأضاف:
- جدك لم يُدفن... لقد أوصى بحرق جثمانه، ووضع رماده في قبو المنزل..
ازداد تحديقي في وجهه، فأشار بيده إلى الأرضية، قائلاً:
- هل ترغب في رؤية رماده؟!
قلت في توتر:
- بالتأكيد.
صمت لحظات، وكأنما يحسم أمرا ما في ذهنه، ثم أشار إلى، قائلاً:
- اتبعني..
فوجئت به يتجه إلى حجرة المكتب الصغيرة، في الطابق الأرضي، فلحقت به وكلي فضول يلتهم كياني، وعندما دخلنا حجرة المكتب، لم أجد سوى المكتب القديم، ومكتبة صغيرة خلفه، ومقعدين أثريين أمام المكتب وعندما رآني أتلفت حولي، قال في لهجة شبه ساخرة:
- لا تتعجل.
اتجه مباشرة نحو المكتبة الصغيرة، وجذب كتابا قديما فيها وقفزت دهشتي مرة أخرى...
فمع جذب الكتاب، دارت المكتبة حول محورها في بطء كاشفة مدخل سريا خلفها، ذكرني بالأفلام الأسطورية القديمة فغمغمت في توتر:

- أية أسرار أخرى، يخفيها هذا المنزل؟!
أجابني في هدوء مستفز كعادته، وهو يعبر ذلك المدخل السرى:
- الكثير.
لحقت به، ووجدت أمامي درجات سلم دائرية، تهبط إلى أسفل، حيث ينبعث ضوء خافت، وقال (عدنان)، وهو يهبط في درجات السلم القديمة:
- كن على حذر...
هبطت خلفه في درجات السلم، حتى بلغنا بابا آخر، يعلوه مصباح خافت، هو مصدر الضوء الذي شاهدته، وأمسك هو مقبض الباب، ثم التفت إلى، وهو يقول:
استعد..
لم أدر ما الذي ينبغي أن أفعل أستعد له، ولا كيف، حتى أدار هو المقبض، وفتح الباب وانطلقت من حلقي شهقة كبيرة.....
فبعبور هذا الباب الأخير، كنت كمن قفز فجأة، من عالم إلى آخر..
أو من زمن إلى آخر لقد عبرته، وكأنني أعبر آلة زمن، من القرن الثامن عشر إلى القرن الثاني والعشرين دفعة واحدة فعلى عكس المنزل كله، كانت أمامي قاعة مضاءة بضوء ساطع قوى، لم أتبين مصدره بالضبط...
قاعة حديثة، أو أنها حتى تسبق الزمن الذي أعيش فيه كانت قاعة واسعة، بمساحة المنزل كله تقريبا، جدرانها من مادة تشبه البلاستيك، ذات لون أبيض ناصع، يزيد من سطوع الضوء في المكان، وقد تراصت فيها أجهزة حديثة، ذات شاشات رقمية كبيرة، تتصل كلها بمجموعة من أحدث أجهزة الكمبيوتر، التي لم أر مثيلا لها من قبل، وفي منتصف القاعة، كانت هناك مائدة كبيرة، أشبه بالموائد الجراحية، يعلوها جسم مستدير ضخم،

تراصت فيه مجموعة من المصابيح الكبيرة، وإلى جوار المائدة، كانت هناك أخرى صغيرة، استقر فوقها جهاز عجيب، لم أفهم طبيعته بالضبط...

وهناك، في نهاية القاعة، كان هناك صندوق من زجاج سميك، في منتصفه وعاء زجاجي أنيق، يحوى كمية من الرماد رماد جدي على الأرجح وقفت ذاهلاً مشدوها، أدير عيني في القاعة، وسمعت (عدنان) يقول، بذلك الهدوء، الذي كاد يفقدني أعصابي:

- جدك أوصى بعدم إطلاعك على قاعة أبحاثه الخاصة، إلا عندما تطلب بنفسك زيارة قبره.....

غمغمت بكل انفعالى:

- هل كان جدي جراحا؟!

أجابني في احترام واضح:

- جدك رجل عظيم.

التفت إليه، أكرر في عصبية:

- أكان جراحا؟!

قال في فخر:

جدك عالم وباحث، يسبق زمانه بقرن من العلم على الأقل.....

سألته، وأنا أدير عيني مرة أخرى في القاعة:

- وفيم كان يبحث بالضبط؟!

أجاب بغموضه المعتاد:

- يبحث في أمور شتى

ثم اتجه إلى دولاب من زجاج، حوى عددا من الملفات وأسطوانات الكمبيوتر، وهو يكمل:

- وستجد هنا كل التفاصيل

حدقت في ذلك الدولاب الزجاجي، وقد انعقد لساني، من فرط الدهشة والمفاجأة والانفعال، في حين أضاف هو في حزم:
- لكى تكمل أبحاثه
انتفض جسدي، وأنا أهتف في دهشة مستنكرة:
- أنا؟!
بدت لهجة شديدة الصرامة، وهو يقول:
- هكذا أوصى جدك
قلت في حدة:
- فليوصِ كما يشاء، ولكنني لست أدرى شيئا عن مثل هذه الأمور!
أشار إلى الدولاب الزجاجي، قائلا بنفس الصرامة:
- هنا ستجد كل ما تريد
حدقت في الدولاب الزجاجي، وأنا أقول:
- مستحيل!... هذا أمر يحتاج إلى دراسة طويلة، وعلم كبير، و و..
بترت عبارتي فجأة، عندما سمعت صوت الباب من خلفي يغلق، فالتفت إليه في ذعر، تضاعف عندما وجدت أن (عدنان) قد أغلق الباب بعد انصرافه، فاندفعت نحو الباب، وأنا أهتف:
- ماذا تفعل؟!
ثم اتسعت عيناي في ذعر أكثر فباب المعمل، المغلق في إحكام، لم تكن به وسيلة لفتحه من الداخل وهذا يعني أننى قد أصبحت سجينا سجين في معمل منزل جدى الحبيب....

☆ ☆ ☆

٨ - الرمـاد..

بعد خمس ساعات، من الحبس الانفراداي الإجباري، في معمل جدى، صرت أجزم بأنه كان عبقرية، سبقت زمانه بقرن على الأقل ولكن قراءة أبحاثه أرعبتني بعض الشيء هذا لأن جدي كان يبحث في ذلك الحلم، الذي رواد مئات العلماء والكيمائيين، عبر قرون وقرون حلم إكسير الشباب، ذلك العقار الأسطوري، الذي يتناوله المرء، فيبقى شابا لقرون وقرون، دون أن تبلى خلاياه، أو يصيبها التلف وتواجه أعراض الشيخوخة ولست أدرى لماذا ذكرتني أبحاثه برواية (مارى شيلى) الشهيرة (فرانكنشتاين)، والتي لم أتقبلها كفكرة علمية أبدا في حداثتي وشبابي؛ إذ إنها تتحدث عن إحياء جثث الموتى، باستخدام الكهرباء، التي كانت طاقة رهيبة إبان كشفها، حتى إنها أثارت خيال العديدين، فلم يتصوروا حدودا لها تماما كما فعلت الطاقة النووية بخيالنا بعدها وكما ستفعل أية طاقة جديدة فيما بعد..

ثم إن رواية (مارى شيلى) كانت تحمل من الفلسفة، أكثر مما تحمل من الخيال؛ إذ تتحدث، من خلال إطار خيالي، عن مسئولية الخالق عن المخلوق، أو المبدع عن إبداعه، أو حتى الأب عن أبنائه.....

أما أمامي، عبر الملفات والوثائق، التي تركها جدي، فهو نظريا - واقع جديد، يثير ألف خيال وخيال لقد تعامل مع الأمر، على نحو علمى تماما درس لسنوات طويلة تلك التغيرات، التي تصيب الخلية البشرية، مع تقدم الإنسان في العمر، وتوصل، منذ ما يقرب من نصف القرن، إلى أن سر الشيخوخة، هو تراكم سموم مؤكسدة، على الغلاف الخارجي للخلية، تمنعها من

الاستفادة بالأكسجين، الذي يضخه الدم، فتهلك، وتتداعى، ويصعب تجديدها بالمقدار نفسه...
ولقد سبق العلم الحديث بنصف قرن، في هذا المضمار، إذ لم يتم كشف علاقة الأكسدة بضعف الخلية، وظهور عوامل الشيخوخة على البشر وباقي الكائنات، إلا في السنوات الأخيرة فحسب ([1])
وطوال نصف القرن التالي، أجرى جدي الراحل آلاف التجارب، التي تستهدف منع أكسدة الخلية، أو إزالة الأكسدة عنها..
كان يتعامل مع الأمر، كما لو أنه صدأ، تكون عبر السنين، ووسائل تجاوز تأثيره، تعتمد على منع تكونه، أو إزالته بمزيل للصدأ...
والعقار، الذي ظل يعمل عليه طويلاً، يمكن تشبيهه بمزيل الصدأ هذا...
وثائقه وأوراقه حوت الكثير من المعلومات، عن العقار الذي حاول ابتكاره والقليل جدا عن عينات البحث، التي استخدمها ففي كل أوراقه ووثائقه، وحتى أسطواناته الرقمية، لا توجد إشارة واحدة، إلى من أجرى عليهم تجاربه أو ما أجرى عليه تجاربه أكانت حيوانات تجارب معملية معتادة....
أم....
توقف ذهني في خوف حقيقى، عندما بلغت كلمة (أم) هذه....
فماذا لو أنه كان يجرى تجاربه على البشر؟!...
أمن الممكن أن تتجاوز معه الأمور، إلى هذا الحد؟!...
هل يمكن أن يكون هذا تفسير العبارة، التي قالت: إن من يحضر إلى هذا المنزل، لا يعود قط؟!...
هذا لو أنها قيلت بحق!!...

عادت الأمور ترتبك في ذهني مرة أخرى، وعاد ذلك الصداع العجيب يهاجم رأسى، ويجعلني راغبا بشدة في النوم، فأرحت رأسي على سطح ذلك المكتب الصغير، في ركن المعمل وتطلعت لحظات إلى الوعاء الأثرى الأنيق، داخل ذلك الصندوق الزجاجي، والذي يحوى رماد جدي الحبيب، وغمغمت، وأنا أسبل جفني، في إرهاق عجيب:

- ماذا تريد منى يا جدى؟!... بل ماذا تتوقع منى؟!...

سمعت صوت رتاج باب المعمل يتحرك، وصوت الباب يفتح إلا أنني لم أستطع حتى الالتفات إليه وعلى الرغم من أن عقلي كان قد فقد معظم إدراكه فعليا إلا أنني أكاد أقسم، أننى قد سمعت شخصين يتحدثان، قبل أن أسقط في ظلام عميق...

إلى أقصى حد...

وفي هذا الظلام، عاودني كابوس مشابه للأول كابوس رأيت فيه جدي، يرتدي معطف معمله الأبيض ويحملني مع (عدنان) إلى تلك المنضدة الجراحية، في منتصف معمله..

وكان هناك دخان كثيف، يخرج من ذلك الوعاء، الذي يحوى رماده...

دخان كثيف للغاية....

وكان لذلك الدخان لون الدم.....

وفي كابوسي، بدا جدي أكثر قسوة، مما يبدو عليه في صورته..

وعندما قيدنى، بمعاونة (عدنان)، على منضدة الجراحة صرخت:

- لا يا جدى... لا تفعل بي هذا..

وبكل قسوته، أجاب:

- هذا لصالحك

قالها في كابوسي، دون أي شعور أو انفعال، حتى لقد بدا كأنه شخص بلا حياة... أو أنني رأيته في كابوسي هكذا؛ لأنني أعلم أنه

فعليا بلا حياة هذا..
وعلى الرغم من عبارته، فقد واصلت صراخي، وأخذت أصرخ..
وأصرخ..
وأصرخ...
استيقظ.... إنه كابوس...
كان صوت (عدنان)، هو الذي أخرجني من كابوسي، أو انتزعني منه انتزاعا، وهو يهزني في قوة، هاتفا بعبارته السابقة، ففتحت عيني دفعة واحدة، وحدقت فيه برعب حقيقى، جعله يتراجع مغمغما:
- لم أقصد أن أفزعك، ولكنك كنت تصرخ، و.
لم يحاول إتمام عبارته، باعتبار أن نصفها الثاني واضحا ولكنني انتبهت إلى أننى لست داخل معمل جدي، وإنما في حجرة نومه، فهتفت في عصبية:
- لماذا نقلتني إلى هنا؟!
تراجع في دهشة، مغمغما في استنكار:
- نقلتك؟!
لم أعد أحتمل هذا الأسلوب، لذا فقد صحت به في حدة:
- اسمع يا (عدنان)... لقد سئمت هذه الألاعيب... لقد غلبني النوم، من شدة الإرهاق، في معمل جدى، و...
قاطعني بهتاف، يحمل كل الدهشة والاستنكار:
- معمل جدك؟!... أي معمل؟!
كان هذا كفيلاً بأن تتفجر كل انفعالاتي، لأصرخ في ثورة:
- كفى هذا لم يعد يحتمل... لقد قضيت خمس ساعات كاملة، أقرأ وثائق جدي، وأطالع أسطواناته الرقمية، ومازلت أذكر كل ما جاء بها، من أبحاث ونتائج، حول إكسير الشباب، وأذكر، وبمنتهى الدقة، تفاصيل كل ركن في معمل جدي، من أجهزة

الكمبيوتر، وحتى ذلك الوعاء، الذي يحوى رماده مرورا بالمنضدة الجراحية، و...
تلك النظرة الذاهلة، التي حدق بها (عدنان) في وجهي، جعلتني أبتر عبارتي دفعة واحدة، وجعلت صوتي ينخفض في يأس، وأنا أقول في عصبية:
- لا تقل لي: إن كل هذا لم يحدث....
ظل صامتا، يتطلع إلى لحظات، قبل أن يهز رأسه، مغمغما:
- لن أقول شيئا
نطقها في إشفاق، جعل قلبي يرتجف بين ضلوعي، في انتظار الخطوة التالية، فقلب هو كفيه، مستطردا:
- ولكنني سأتبعك، إلى حيث تشاء..
قلت في عصبية:
- ما الذي يعنيه هذا؟!..
قلب كفيه مرة أخرى، وزفر في أسى، مجيبا:
- صحيح أن جدك رجل عظيم، ولكنه لا يتعامل بتلك الأجهزة الحديثة، التي تتحدث عنها....
اندفعت أصيح فيه:
- لا تحاول أن...
قاطعنى، محاولاً تهدئتى:
- قلت: إننى سأتبعك إلى حيث تشاء، بغض النظر عن أي شيء
هتفت في حدة:
- وأنا سألتك عما يعنيه هذا
هز رأسه في أسى، قائلاً:
- لست أدرى ماذا أصابك، منذ وصلت إلى هنا، ولكنك تتحدث عن معمل وأجهزة حديثه... قدني إليها إذن..

استرجع عقلي في لحظة، كل الخطوات التي قام بها فاندفعت أغادر الحجرة، وأنا أهتف في تحد:
- نعم... سأقودك إليها.
سمعت وقع قدميه، وهو يسرع للحاق بي، فتابعت، وأنا أسبقه، في الهبوط في درجات السلم:
- كل هذا هناك، خلف تلك المكتبة الصغيرة، في الطابق الأرضى، حيث المدخل السرى، إلى معمل جدي..
سمعته من خلفي، يقول مشفقا:
معمل حديث، ومدخل سرى؟!!... هل تكثر من قراءة روايات المغامرات؟!
أغاظتني عبارته الأخيرة، فاندفعت نحو مكتب الطابق الأرضى حيث تلك المكتبة الصغيرة، وقفزت يدى إلى نفس الكتاب، الذي استخدمه لفتح المدخل السرى، وجذبته بالوسيلة نفسها، و...
ولم يحدث شيء.....
تراجعت كل الدهشة، وأنا أحدق في الكتاب، ثم في الفراغ الذي انتزعته منه، ثم انقضضت بكل غضبي على المكتبة أحاول زحزحتها من مكانها، فهتف هو منزعجا:
- حذار أن تسقط الكتب.
صرخت بكل انفعالى:
- المدخل السري خلف هذه المكتبة..
قال بنفس اللهجة المشفقة:
- اهدأ، وسنتعاون معا في دفعها..
تعاون معي بالفعل، ورحنا نزيح تلك المكتبة الصغيرة معًا كانت ثقيلة للغاية، شأن كل أثاثات زمنها، إلا أنها راحت تنزاح رويدا رويدا، وكلما انزاح جزء منها، شعرت نفسى باليأس، مع الجدار،

الذي يظهر خلفها وكمحاولة يائسة أخيرة، رحت أطرق الجدار بقبضتي في قوة، في محاولة لأن استشف أي فراغ خلفه.
ولم يكن هناك أي فراغ ولا أي مدخل سري بالتالي وانهرت على أقرب مقعد صادفني، وقد تحول كياني إلى كتلة من اليأس ولم يعد هناك مفر من أن أعترف، بأن (عدنان) على حق هذه المرة شيء ما أصابني، منذ وضعت قدمي في هذا البيت...
شيء مزعج، غامض، عجيب...
ومخيف...
للغاية..
«ماذا الآن؟!...»
ألقى (عدنان) سؤاله في حذر، فغمغمت، دون أن أرفع عيني إليه:
- لست أدرى.
صمت لحظات، ثم سألني في حذر:
- أمازلت تذكر كل شيء في وضوح، كما لو أنك قد عشته بالفعل؟!
أومأت برأسي إيجابا في يأس، وأنا أكاد أبكى، من شدة الحيرة، فصمت لحظة أخرى، ثم قال في صوت خافت:
- العجيب أنك قد ذكرت أمرا، لم أخبرك به بعد.
رفعت عينى إليه متسائلاً، فتابع في حذر:
- رماد جدك.... لست أدرى كيف علمت بشأنه.
سألته في دهشة، وجسدي يرتجف من المفاجأة:
- أهو موجود بالفعل؟!
أومأ برأسه إيجابا، وأشار بيده، قائلا:
- في ذلك الوعاء في حجرتك، على المائدة الصغيرة، إلى جوار النافذة..
هتفت في دهشة منزعجة:

- أيحوى رماد جدى؟!
أومأ برأسه إيجابا في بطء، قبل أن يغمغم:
- وهذا يضعنى أمام تفسير واحد..
سألته في توتر:
- وما هو؟!
أجابني في سرعة:
- إنها محاولة اتصال..
كررت في دهشة حذرة:
- محاولة اتصال؟!
أومأ برأسه إيجابا مرة أخرى، بنفس البطء، قبل أن يقول في مهابة:
- نعم... محاولة اتصال من جدك
بدت الدهشة على ملامحى، فأضاف في رهبة:
- أو بمعنى أدق، من روح جدك..
وخيل إلى أن الموقف كله ينقصه سطوع البرق، حتى يكتمل المشهد...

☆ ☆ ☆

٩- روح جدي..

ليلة عصيبة، تلك التي قضيتها، بعد ما قاله لي (عدنان)، عن محاولة روح جدي الاتصال بي، على هذا النحو ذلك الوعاء الأنيق، المجاور للنافذة، والذي كنت أراه، مع شروق كل شمس، صورة مبدعة للجمال، قضيت ليلتي أتطلع إليه في رعب، متصورا أن تخرج منه روح جدي في أية لحظة وعلى الرغم منى، رحت أفكر في هذا الاحتمال ماذا لو أن روح جدي تحاول الاتصال بي حتما؟!...

ماذا لو أن لديه ما يريد إخباري به؟!...

لقد قرأت وشاهدت أعمالاً كثيرة، تتحدث عن هذا عن روح هائمة، تريد إيصال رسالة إلى عالم الأحياء.

أو تحذير ما..

وفي قلق شديد، رحت أتساءل: ما الذي يمكن أن تحاول روح جدي الحبيب إبلاغى به بالضبط، عبر هذا الاتصال؟!...

أهو أمر يتعلق بموته؟!...

هل مات قتيلاً مثلاً؟!...

أم إن هناك ما يريدني بالفعل أن أكمله؟!...

قضيت شطرا طويلاً من الليل أفكر في هذا، قبل أن يغلبني النوم في النهاية، قبيل الفجر بساعة واحدة.

ثم هاجمني ذلك الكابوس مرة أخرى..

كابوس تصورت فيه أننى أفتح عينى، فأجد جدي واقفا عند طرف فراشي، يتطلع إلى بنظراته الصارمة، وهو يرتدي حلته التقليدية القديمة ثم فجأة، تحولت الحلة إلى معطف معامل

أبيض وتحولت حجرة النوم إلى ذلك المعمل في القبو وإلى جوار جدي، وقف (عدنان)، يتطلع إلى بدوره...
كانت دائرة المصابيح الضخمة كلها مضاءة، تصب على وجهي وجسدي، وكل أجهزة الكمبيوتر الحديثة في المعمل تعمل وشاشاتها ترسم آلاف الرموز العجيبة ولأول مرة في كابوسى، سمعت صوت جدي الخشن، وهو يقول:
- خلاياه الأصلية بدأت تستيقظ
أجابه (عدنان) في اهتمام:
- يبدو هذا، ولكنني كنت أتوقع وقتا أطول...
هز جدي رأسه في صرامة، وهو يقول:
- خلاياه البشرية ليست في قوة الخلايا الأصلية....
كنت أتطلع إليهما بنظرة خاوية، وبلا أية انفعالات تقريبا ورأيت جدي يميل نحوى، ويسألني:.
- هل تراني في وضوح؟!
أردت أن أجيب بشيء ما، ولكن، وكما يحدث في الكوابيس، انعقد لساني، ولم أستطع قول شيء أي شيء..
وفي غضب، اعتدل جدي، وقال (عدنان)، بنفس هدوئه المستفز:
- أخبرتك أنه سيحتاج إلى وقت أطول
هز جدى رأسه نفيا في قوة، وقال في صرامة شديدة:
- كلا...
ثم عاد يميل نحوى في شدة، وتطلع إلى عيني المفتوحتين مباشرة، وهو يقول في صرامة غاضبة:
- لقد حان الوقت... استيقظ
وانتفض جسدي في عنف...
واستيقظت..

كانت الشمس تغمر حجرتي عندما فتحت عيني، وشعاع منها ينعكس على ذلك الوعاء، ثم يتجه نحو وجهي مباشرة ولأول مرة ألاحظ هذا شعاع الشمس، أظهر بريقا خاصا في ذلك الوعاء بريق يعكس كل ألوان الطيف مجتمعة...
لست أدرى كيف لم أنتبه إلى هذا في المرات السابقة، ولعل السبب هو رؤيتي الشخصية لذلك الوعاء في السابق، ورؤيتي له اليوم...
ربما!!...
نهضت من فراشي، واقتربت في شيء من الحذر، من ذلك الوعاء إنه وعاء جميل المظهر ولا شك، ولكنه مصنوع من مادة غير عادية، أو من قطع صغيرة من مواد مختلفة، لكل منها نوعه وبريقه والأضواء، التي تبعث، من انعكاس أشعة الشمس عليه تمتزج مع بعضها البعض، لتبعث في نفسك شعورا عجيبا شعور هو مزيج من الرهبة، والخوف، مع استرخاء لا يناسب كليهما.....
وبمنتهى الحذر والتوتر، مددت يدى، ألمس ذلك الوعاء للمرة الأولى ثم تراجعت في ذعر الوعاء معدني تماما، كما يوحى شكله وبريقه، ولكن ملمسه ناعم إلى حد مدهش، أشبه بملمس مخملى رقيق ثم إنه بارد إلى درجة عجيبة، كما لو كان مصنوعا من الثلج وليس من المعدن وعلى بعد مترين منه، رحت أتأمله في توتر، وعقلى يطرح على عشرات الأسئلة...
من أي شيء صنع هذا؟!...
وكيف؟!...
وهل يحوى بالفعل رماد جدى؟!...
ولماذا هو هنا؟!...
لماذا؟!...

لماذ؟!...
لماذا؟!...
ملت نحو الوعاء في حذر، وأمسكت غطاءه البارد، وجذبته في رفق؛ لألقى نظرة على رماد جدى...
ولم يرتفع الغطاء..
جذبته مرة ثانية...
وثالثة...
ورابعة...
وفي كل مرة كنت أجذبه بقوة أكبر...
وأكثر...
ثم بدت لي الحقيقة واضحة...
الغطاء مثبت في الوعاء، على نحو ما، بحيث لا يمكن رفعه عنه أبدا، وكأنما حرص جدي، أو حرص (عدنان)، على ألا يفتحه أحد؛ خشية أن يتناثر رماد جدى؛ جراء خطأ ما، أو هفوة ما.
دفعت أكبر قدر من الشجاعة إلى جسدى، وحاولت أن أطغى به على كل مشاعري، ومددت يدى ألتقط الوعاء، وأرفعه عن تلك المنضدة الصغيرة وهنا انتفض جسدى مرة أخرى وبمنتهى العنف...
الوعاء كان مثبتا أيضا بالمنضدة حقيقة كشفتها، عندما حاولت رفعه أولا في رفق، ثم في قوة تحولت بعدها إلى إصرار، بل وعنف، على الرغم من ملمسه البارد، الذي صار يؤلم يدى وهنا تراجعت، ورحت أحدق فيه مرة أخرى أي وعاء هذا؟!...
والسؤال الأهم: أهو بالفعل وعاء لحفظ الرماد، أم إنه شيء آخر؟!...
استمر تحديقى فيه لحظات، انتقلت خلالها مشاعرى كلها من الخوف إلى الضيق، ثم إلى غضب، جعلني أهتف في حدة:

- (عدنان)... أين أنت؟!..
لم يجب سؤالي، الذي كررت النداء به عدة مرات، فاندفعت خارج الحجرة، وأنا أهتف به مرة أخيرة، قبل أن أهبط للبحث عن (عدنان) هذا
كان المنزل هادئا ساكنا، تغمره أشعة الشمس، عبر كل نوافذه المفتوحة، وكان مرتبا نظيفا للغاية، وتلك السيارة عتيقة الطراز تقف أمامه، في نفس موضعها، ولكن لم يكن هناك أثر لـ (عدنان)...
أي أثر!!...
قضيت ما يقرب من نصف الساعة، في البحث عنه، وفحصت خلال هذا تلك المكتبة الصغيرة مرة أخرى، ولكنه كان قد اختفى تماما...
وعلى نفس المقعد، الذي اعتدت تناول طعام إفطاري عنده، جلست أدير عقلي في كل ما حدث، منذ وصلت إلى هذا المكان كل شيء، وكل حدث، وكل موقف، كان يدعو لحيرة لا حدود لها، كما لو أنني أحيا في فيلم سينمائي، من أفلام الرعب الأمريكية، وليس في عالم الواقع أغمضت عيني، وتساءلت: أمن الممكن أن يكون كل هذا حلما؟!...
أو حتى كابوسا، من نوع لم أمر به من قبل؟!...
ولكن الأحلام، وحتى الكوابيس، لا تأتى بهذا الوضوح، وبكل هذه التفاصيل الدقيقة، والمشاعر الواضحة المميزة ولو أنه ليس حلما، فما هو؟!..
لو لم أجد جوابا، فهذا لن يعني أن ما يحدث في منزل جدي الحبيب أمرا عاديا، بأي مقياس عملي، أو علمي أو حتى منطقى ما يحدث هو أمر عجيب...
عجيب...

عجيب إلى أقصى حد..
ثم فجأة، قفزت تلك الفكرة إلى رأسى، إنه (عدنان) ولا شك عدنان) يريد إصابتي بالجنون، أو بالرعب، ودفعي لمغادرة المنزل؛ حتى يمكنه الاستيلاء عليه لنفسه...
ثروة كبيرة...
ثروة، ربما تقدر بالملايين فالمنزل، بكل ما يحويه من تحف نادرة، يساوى ثروة بلا شك نعم... هو (عدنان) هذا هو التفسير الوحيد، نهضت في حزم، عند هذه النقطة، أناديه مرة أخرى في قوة.
على الرغم من ثقتي في أني لن أتلقى جوابا ومع الصمت والسكون، اللذين أجابانى، طرح عقلي علىَّ سؤالا جديدا لو أن (عدنان) هو من يفعل هذا حقا، فكيف يفعله؟!...
كيف يدس كل هذا في عقلي، ويقنع به مشاعرى؟!...
كيف؟!...
«إنه الوعاء...»
هتفت بالكلمة في انفعال، عندما بدا لي أنه يستخدم ذلك الوعاء العجيب، الذي يعكس أشعة الشمس على وجهي كل صباح؛ لكي يضعني في حالة أشبه بالتنويم المغنطيسى، يمكن معها أن أحيا في عالم من الوهم، متصورا أنه كل الحقيقة..
مع هذا الاستنتاج، اندفعت أصعد إلى أعلى، عائدا إلى حجرة النوم، وإلى ذلك الوعاء مباشرة...
وأمام الوعاء توقفت متوترا، وأنا أتطلع إلى بريقه العجيب، ثم غمغمت في عصبية:
- سامحنى يا جدى الحبيب، لو أن رمادك داخل هذا الوعاء بالفعل..

اعتمدت على المنضدة بقدمي اليمني، واستنفرت كل قوتي وجذبت الوعاء...
كان ملتصقا بالمنضدة في قوة، إلا أن أصابعي شعرت ببدء حركته، فوجدت نفسي، ودون أن أشعر، أصرخ بكل قوتى:
ساعدنى يا جدى.
ومع نهاية صرختي، انفلت الوعاء، وفقدت مع، قدت مع انفلاته توازني، وتراجع جسدي في عنف، وأنا أتشبث بالوعاء، بكل ما أملك من قوة وعلى الرغم من قوة ارتطامي بالأرض، لم أشعر بأي ألم، وكأن مشاعرى كلها قد توقفت عند ضرورة الحفاظ على الوعاء وبأي ثمن ولكن ارتطامي بالأرض، أطار غطاء الوعاء، الذي بدا لي شديد الإحكام، فصرخت بكل ارتياعى:
- لا.... رماد جدى...
وعبر الوعاء المفتوح، تناثر رماد جدي الحبيب في هواء الحجرة، وتساقط بعضه على وجهي، فسعلت في قوة، وأغلقت عيني في شدة....
وسمعت تلك الأصوات من حولي ومع عن آخرهما، في رعب ذاهل خفقات الرعب في قلبي، فتحت عيني، اللتين اتسعتا فما رأيته أمامي كان مخيفا ومذهلاً بكل المقاييس..

☆ ☆ ☆

١٠- جدي.. أنا...

مستحيل!!... لا يمكن أن يكون ما أراه حقيقيا!!...
إننى لم أعد في حجرة نوم جدي لم أعد ممسكا بذلك الوعاء، ولا يحمل وجهي أثر رماده!!...
لقد فتحت عيني، لأجد نفسي مقيدا إلى تلك المنضدة الجراحية، في معمل جدي، الذي أكد (عدنان) أنه لا وجود له وأمامي مباشرة يقف (عدنان) مبتسما ابتسامة هادئة، خلف آخر شخص يمكن أن أراه في عالم الحقيقة...
جدى..
كان حيا تماما، ويحمل تلك النظرة الصارمة، التي حفظتها من صورته الكبيرة في منزلنا، ولكنه لم يكن يرتدي حلته العتيقة النمطية كان يرتدي معطفا أبيض اللون، يشبه معاطف الأطباء ويرتكن بيده على جهاز عجيب، لم أشاهد مثيلا له في حياتي كلها من قبل...
حدقت فيهما ذاهلا، قبل أن أغلق عيني في قوة، وأغمغم بكل توتري:
- ليس هذا حقيقي... إنه حلم... كابوس..
شعرت بملمس يد جدي على وجهي، وهو يقول في صرامة خشنة:
- بل هو حقيقة... أنت لست نائما..
وأضاف (عدنان) في ارتياح:
- لقد استيقظت.
فتحت عيني أحدق فيهما مرة أخرى في ذهول، قبل أن أقول بصوت مرتجف:

- ولكن جدي مات بالفعل..
اعتدل جدي، وهو يقول في صرامة:
- كانت هذه هي الوسيلة الأفضل؛ لجذبك إلى هنا...
حدقت في جدي مرة أخرى، غير مصدق أنه على قيد الحياة وقلت بنفس الصوت المرتجف:
- إذن فأنت لم تمت..
مط شفتيه، وهو يقول:
- ليس بعد..
هززت رأسي في قوة، وأنا أقول:
- ولكنك تبدو كصورتك تماما، التي أحفظها منذ طفولتي لا أحد يبقى على الهيئة نفسها، لأكثر من ثلاثين عاما.
أجاب، وهو يتحسس شاشة جهازه:
- إنها هيئتي، منذ جئت إلى هنا..
لم أفهم ما الذي تعنيه عبارته، ولا لماذا يقيدانني إلى المنضدة، التي تكاد دائرة الضوء فوقها تغشى بصري، فقلت بكل توتري:
- لست أفهم شيئا.
أجابني (عدنان) هذه المرة، بنفس هدوئه المستفز:
- أنت في نصفك واحد منا، وكان من الضروري أن تصل انفعالاتك إلى ذروتها، حتى تبلغ خلاياك الحد الأقصى؛ لإيقاظ النصف الخاص بنا، على حساب نصفك البشري...
حدقت فيه ذاهلاً، وأنا أحاول التخلص عبثا من قيودي مكررا:
- لست أفهم شيئا... لست أفهم شيئا!!..
تحسس (جدي) وجهي مرة أخرى، قبل أن يقول:
- الواقع أننا جنس يحيا على الأرض، منذ ملايين السنين، ولكننا لم نفصح عن وجودنا قط، منذ بدأت الحضارة البشرية على وجه الأرض... وهذا المنزل هو النقطة الرئيسة، التي يمكننا

عندها الاتصال المباشر بعالم البشر.. وستتعلم الكّثير عن جنسك الحقيقي، مع مرور الوقت...
رددت ذاهلاً:
- جنسي الحقيقي؟!
مط شفتيه، وهو يقول بصرامته الخشنة:
أمك خالفت القواعد، وفرت من هنا، وتزوجت بشريا وكنت أنت نتاج هذا الزواج... لم نكن نعلم إذا ما كنت تحمل في جيناتك خلايانا أم لا، وكان من الضروري أن نحضرك إلى هنا؛ حتى نكشف هذا.....
استرخى جسدي، من فرط ذهولى، وعقلى يسترجع كل ما مر بي، منذ وصولي إلى منزل جدي، وما بدا لي كأمور يستحيل فهمها، وغمغمت مستسلما:
- إذن فكل ما رأيته وواجهته هنا كان....
قاطعنى جدى، قائلاً:
- مجرد وهم... وهم صنعته واحدة من آلاتنا المتطورة، تجعلك تحيا فيه بكل حواسك، كما لو كان حقيقة ملموسة.....
وأضاف (عدنان)، بابتسامة باهتة:
- الواقع أنك لم تعد في وعيك، منذ وضعت قدميك في السيارة، أمام مطار (بيروت) أجهزتنا أفقدتك وعيك مباشرة، ثم سيطرت على عقلك؛ لتحيا في عالم افتراضي صنعناه لك.....
قال جدي، وهو يشد جسده في صرامة:
- كان الهدف هو إنهاك عقلك بمتناقضات لا حصر لها تجهد مشاعرك وخلاياك البشرية، حتى تتغلب عليها خلايا بني جنسك.
ثم مال نحوي بشدة، مضيفا:
- ولقد نجح هذا تماما....
أشار (عدنان) إلى الجهاز، وهو يقول:

. جهازنا أكد أن خلايا جنسنا قد انتصرت أخيرا، وأنك قد صرت بالفعل واحدا منا..
أضاف جدي بصرامته الخشنة:
- ولقد عملنا على ألا تستيقظ خلاياك البشرية، إلا بالقدر الذي لا يسمح لها بالسيطرة على كيانك مرة أخرى....
غمغمت في مرارة:
- أتعنى أنني لم أعد بشريا؟!
أجابني في حزم:
- في الجزء الأعظم منك...
ثم بدأ في حل قيودي مع (عدنان)، وهو يضيف:
والواقع أن هذا سيضيف إليك قوة جديدة، تؤهلك لاحتلال موقعي، بعد أن حان وقت عودتي..
سألته في استسلام عجيب:
عودتك إلى أين؟!
أجاب في صرامة:
- ستعرف كل هذا مع مرور الوقت
كانا قد حلا قيودي كلها، فنهضت في بطء، أتطلع إليهما في استسلام كامل، في حين خلع جدي معطفه الأبيض، وناوله إلى (عدنان)، وهو يقول:
سألته بنفس الاستسلام:
- أي لقاء؟!
أجاب، دون أن يلتفت إلى:
- ستعلم في حينه
- هذا المنزل صار ملكا لك، منذ هذه اللحظة، و(عدنان) سيبقى معك لرعايتك، وليشرح لك كل ما تريد معرفته، حتى موعد اللقاء..

ثم اتجه نحو ذلك الصندوق الزجاجي، الذي يحوي الوعاء، الذي أخبرني (عدنان) أنه يحوي رماده، عندما كنت أحيا في ذلك العالم الوهمي الافتراضي، وهو يضيف:
- وعليك أن تعلم، ومنذ هذه اللحظة، أنه لم يعد مسموحا لك بمغادرة هذا المنزل بعد الآن... أبدا..
كان هذا القول كفيلا بإثارة كل غضبي وتوترى فيما مضى ولكن العجيب أنني قد استقبلته في استسلام عجيب، وأنا أردد بلا انفعال:
- أبدا؟!
لمس الصندوق الزجاجي بيده، وهو يجيب في صرامة:
- أبدا.
وما أن لمس ذلك الصندوق، حتى بدا وكأن جسده كله يتلاشى، ثم يتحول إلى ما يشبه الدخان الأزرق الكثيف، الذي عبر زجاج الصندوق، مخالفا كل قواعد الطبيعة، ثم غاص في قلب الوعاء الأنيق في منتصف الصندوق، وتلاشى بدوره وللحظات، جلست أحدق في الصندوق الزجاجي بلا مشاعر، حتى قال (عدنان) في هدوء شديد:
- هذا يشبه ما تطلقون عليه، في العلم الأرضى، اسم الانتقال الآني..
غمغمت متسائلاً:
- وإلى أين ينقله؟!
أجاب بنفس الهدوء:
- إلى عالمنا.
وقفت أمام نافذة منزل جدي، أراقب غروب الشمس، وأنا أستعيد في ذهني كل هذا، وأسترجع كل تفاصيل ذلك العالم الافتراضي، الذي عشت فيه كان المنزل يشبه تماما ما رأيته فيه

كل شيء فيه قديم عريق، ويمتلئ بالتحف الثمينة، فيما عدا عدة فروق أساسية الطابق العلوى كان يحوى حجرة نوم واحدة، ولا وجود للحجرتين الأخريين على الإطلاق.
وحجرة (عدنان) لم تعد خالية، ولا حتى مؤثثة بذلك الأثاث العريق لقد كانت تحوى حجرة مكتب، تضم العديد من الوثائق الأصلية، والكتب الثمينة والمعمل كان موجودا بالفعل، خلف تلك المكتبة الصغيرة ولكن الأهم أن الإضاءة لم تكن خافتة على الإطلاق وفي داخلى تولد شعور عجيب..
شعور بأنني لم أعد بشريا...
ولم أكن كذلك على الإطلاق...
ومن خلفي، جاء (عدنان) يسألني، في احترام شديد:
- هل ترغب في أي شيء... يا سيدى؟!
كانت أول مرة يخاطبني فيها بهذا اللقب، على الرغم من أنه بدا لي معتادا، وأنا أقول:
- كلا... يمكنك الانصراف
تساءلت، والشمس تختفي في الأفق، عن ذلك اللقاء، الذي لم يخبرني أحدهم شيئا عنه بمن سألتقي؟!...
وكيف؟!...
ولماذا؟!...
ومع غياب الشمس، ابتعدت عن النافذة الكبيرة، ووقفت أمام مرآة عريقة في أحد جدران المنزل، لألقى نظرة على ملامحي الجديدة...
الملامح التي هي نسخة طبق الأصل من ملامح جدى الحبيب..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- ميراث..
٢- عدنان..
٣- القصر..
٤- المفاجأة..
٥ - صدمة..
٦- كابوس..
٧ - سجين...
٨ - الرمـاد..
٩- روح جدي..
١٠- جدي.. أنا...

Notes

[←1]

حقيقة

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الهدف أنت

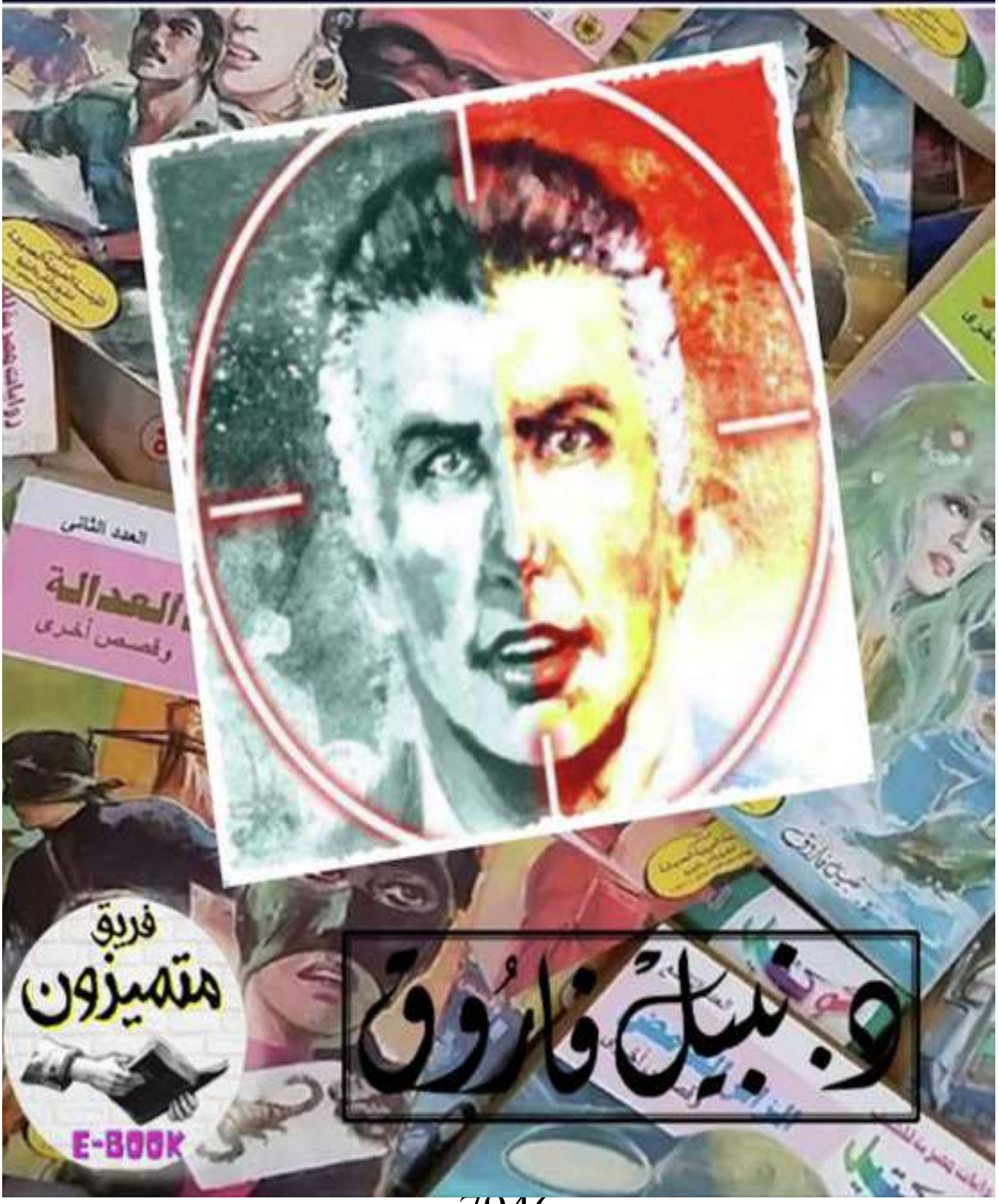

و. نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

الهدف أنت

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

الفصل الأول..

ارتفعت أبواق سيارات الشرطة، وهي تندفع من كل الاتجاهات، نحو ذلك المبنى الكبير، الذي يتوسط ساحة واسعة، في قلب (القاهرة)، حيث اشتعلت النيران في طابقه العلوي، الخامس والستين، إثر انفجار قوى، رج ذلك الجزء من العاصمة المصرية، قبل هذا بعشر دقائق فحسب..

وما أن توقفت سيارات الشرطة، حول ذلك المبنى؛ لتنضم إلى سيارات الإطفاء، التي يحاول رجالها إيجاد وسيلة مناسبة؛ لبلوغ ذلك الطابق المرتفع، حتى خرج من إحداها المفتش (رياض)، الذي بدا غاضبا، وهو يقول لمساعده الرائد (على):

- لقد فعلها مرة ثانية..

تطلع (على) إلى سماء المنطقة، بحثا عن طائرات الهليوكوبتر، التابعة لإدارة الإطفاء، وهو يقول في توتر:

- لست أدرى كيف يسبقنا بخطوة في كل مرة!... إنه يتحدانا على نحو سافر..

بدا (رياض) عصبيا، وهو يقول:

- إنه أكثر مكرا وخبثا من كل توقعاتنا... لقد وضع أمامنا كل الأدلة، التي تشير إلى أن ضربته التالية ستكون في مبنى البث التليفزيوني، وبعد أن قمنا بكل احتياطاتنا هناك، ضرب ضربته هنا.

غمغم (على) بنفس توتره:

- ولكن لماذا؟!... هذا المبنى يحوي مجموعة مكاتب لشركات خاصة، و...

قاطعه (رياض)، في حزم عصبي:

- غير صحيح.

التفت إليه (على) في دهشة، فتابع بنفس الحزم العصبي:
- ذلك الطابق الذي فجره، يحوي مكاتب تابعة للأمن الجنائي العام.
هتف (على) بكل دهشته:
- ولكن..
قاطعه (رياض) مرة أخرى، في عصبية أكثر:
- ليس من المفترض أن يعرف أحد هذا... حتى رجال الأمن العاديين.. ولست أدرى في الواقع كيف توصل هو إلى هذا؟!..
هز (على) رأسه، مواصلًا دهشته، ثم غمغم في توتر شديد:
- مازال السؤال هو: لماذا؟!.. حتى ولو توصل إلى هذا فلماذا يسعى إلى تفجير المكان؟!... ما الذي يبتغيه من هذا؟!
وصلت طائرات هليوكوبتر الإطفاء في هذه اللحظة، وتعالى هديرها، وهي تصب مسحوق إطفاء الحريق على الطابق العلوي المشتعل، مما اضطر (رياض) إلى أن يرفع صوته، وهو، هاتفا:
- هنا تتجمع كل الملفات الرقمية، لإدارة الأمن الجنائي العام ومن الواضح أنه يسعى إلى محو كل الملفات وتدميرها؛ حتى يختفي ملفه بينها، فنفقد كل ما لدينا عنه..
كان يكمل هتافه، عندما اندفع نحوه أحد رجال الأمن، قائلًا في انفعال:
- سيادة المفتش... لا بد أن ترى هذا.....
وضع أمام عينيه لوحا رقميا، ينقل ما تلتقطه آلات المراقبة، من داخل المبنى، الخالي تماما من العاملين، في يوم الإجازة، ثم مس إحدى الشاشات الفرعية، فتعاظمت صورتها؛ لتملًا اللوح كله دفعة واحدة وانعقد حاجبا (رياض) في شدة...
فاللوح الرقمي، كان ينقل صورة لرجل وسيم الملامح، ممشوق القوام، يرتدي زيا لامعا، من مادة مضادة للنيران، ويتحرك في

خفة، داخل الطابق المشتعل..
وقبل أن ينبس (رياض) ببنت شفة، على الرغم من أن شفتيه قد انفرجتا بالفعل، هتف الرائد (على) في انفعال:
- إنه هو.
انتفض جسد المفتش (رياض)، على الرغم منه، وهتف بكل رجاله:
- الجاني مازال داخل المبنى... حاصروا المكان... لا تتركوا له ثغرة واحدة للفرار.....
غمغم (على) بنفس الانفعال:
- أخيرا... وقع في أيدينا.
انعقد حاجبا (رياض) مرة أخرى، وهو يقول في صرامة عصبية:
- ليس بعد.
هتف (على) معترضا:
- ولكننا...
عاد (رياض) يقاطعه، وكأنه أمر اعتاده:
- لقد حاصرناه مرانين من قبل
وتزايدت عصبيته، وهو يضيف:
- وأفلت..
هتف (على) مرة أخرى:
- كيف يمكن أن يفلت من مكان كهذا؟!...
صاح به (رياض)، وهو يعمل على توزيع رجاله حول المبنى:
- سيجد وسيلة..
التفت إلى مساعده، وبدا مشتعلًا بالعصبية والغضب.
وهو يضيف:
- إنه ثعلب..

هر (على) رأسه غير مقتنع، وهو يعاود النظر إلى اللوح الرقمي، مغمغما:
- أية وسيلة؟!... إنه محاصر من كل الاتجاهات، والمبنى تحيط به ساحة واسعة خالية، و...
بتر عبارته فجأة، وهو يحدق في شاشة اللوح الرقمي هاتفا بكل دهشته:
- رباه!!... ماذا يفعل؟!
اندفع (رياض) عائدا إليه، وألقي نظرة على اللوح، الذي بدا على شاشته ذلك الرجل، وهو يندفع مخترقا المكتب، الذي خبت فيه النيران بعض الشيء، وهتف وهو يرفع عينيه إلى أعلى في ذعر:
- الهليوكوبتر.
في نفس اللحظة التي نطقها، اخترق ذلك الرجل زجاج نافذة من نوافذ الطابق الخامس والستين، وسبح في الهواء لحظة قبل أن يتعلق بواحدة من طائرات هليوكوبتر الإطفاء، ثم يطوح جسده المرن في رشاقة مدهشة، ليثب داخل كابينة قيادتها في خفة مذهلة..
وعض المفتش (رياض) شفته السفلي في غضب هادر....
لم يكن يستطيع، من موقعه هذا، أن يرصد ما يحدث، داخل كابينة الهليوكوبتر، إلا أنه كان يعرف قدرات خصمه جيدا، مما جعله يرسم في خياله صورة لما يحدث هناك..
الرجل سيهاجم قائد الهليوكوبتر، ورجل الإطفاء المصاحب له، وسرعان ما يفقدهما الوعي، بلكماته القوية الشهيرة، ويسيطر على الهليوكوبتر، و... ويبتعد...
وهذا ما كان...
وبينما يراقب الهليوكوبتر تنطلق هتف (على) في انفعال شديد:

- مستحيل!!... إنه يقودهما في مهارة شديدة... كيف لمجرم عادي، أن يجيد هذا... أين تلقى تدريباته هذه
لم يشعر (رياض) بأنه قد أدمى شفته السفلى، من شدة عضه لها، وهو يجيب، في مزيج من الغضب والقهر والعصبية:
- في المخابرات العامة المصرية.
التفت إليه (على) غير مصدق، وهو يهتف:
- في ماذا؟!
أشار (رياض) بسبابته إلى الهليوكوبتر، التي تكاد تختفي في الأفق، وهو يجيب في مقت، ودماء شفته السفلى تسيل على ذقنه:
- هذا الذي نصفه بأنه أخطر مجرمي القرن، كان ذات يوم رجل المخابرات العمومية رقم واحد... لقد كانوا يلقبونه بلقب (قاهر المستحيل).
سقطت فك (على) السفلى، من فرط ذهوله، وارتفعت عيناه تراقبان الهليوكوبتر، وهي تبتعد وتبتعد حتى اختفت في الأفق تماما..

☆ ☆ ☆

كان (أكرم صدقى)، رجل المخابرات المصرية، قد انتهى من جولته اليومية، في الركض حول المبنى الذي يقيم فيه عندما فوجئ بزميله (حسام) ينتظره، عند مدخل المبنى وملامحه تحمل ابتسامة كبيرة، فابتسم بدوره، وهو يجفف عرقه، هاتفا في ترحاب:
- (حسام)... كيف حالك يا صديقي... مضت فترة طويلة منذ التقينا لأول مرة.
اتسعت ابتسامة (حسام)، وهو يقول:
- أتريد أن تقول: إنك قد اشتقت إلى؟!
ربت (أكرم) على كتفه، وهو يقول في مرح:

- ألديك شك في هذا؟!
جذبه من ذراعه في رفق؛ ليصطحبه إلى حيث يقيم و(حسام) يقول:
- هل تريد جوابا صريحا؟!
ضحك (أكرم)، قائلا:
- بل أفضل جوابا مجاملًا.
ضحك (حسام) بدوره، وهو يشير بيده:
- هذا يتوقف على سرعة إعداد كوب من الشاي الأخضر الجيد.
أشار له (أكرم) بيده، هاتفا:
ابدأ في إعداده إذن، حتى أنتهى من حمامي، ثم أنضم إليك؛ لنتناوله سويا في الشرفة....
لم تمض دقائق خمس، حتى جمعتهما الشرفة معا، في جلسة ودية هادئة، بدأ (حسام) الحديث فيها،، قائلا:
- ألم تشعر بالاشتياق للعودة إلى العمل بعد؟!
هز (أكرم) رأسه نفيا، وارتشف رشفات من الشاي في استمتاع، قبل أن يجيب في هدوء:
- ليس بعد... العملية الأخيرة في (موسكو) كانت مرهقة للغاية، وسيادة الوزير منحنى بعدها إجازة استجمام لمدة شهر، أنوي الاستمتاع بكل ساعة منه..
ثم اعتدل، يسأله في اهتمام:
- ولا تقل لي إن هناك عملية جديدة..
هز (حسام) كتفيه، مجيبا:
- أنت تعلم مثلي، أن عملياتنا لا تتوقف لحظة واحدة.
ثم أشار بيده، مستطردا:
- ولكنني أخبرتك أنها زيارة ودية تماما..
عاد (أكرم) يتراجع في مقعده، وهو يقول في ارتياح:

- وهذا يسعدني..
سأله (حسام) في اهتمام:
- ولكنك تقضي إجازتك في منزلك، فلماذا لا تسافر إلى مكان آخر، يمكنك أن تحصل فيه على متعة أكثر.
ضحك (أكرم)، قائلًا:
- قد يدهشك أن تعلم إننى أشتاق إلى منزلي كثيرا؛ فعملي يضطرني إلى الابتعاد عنه معظم الوقت، و...
قبل أن يتم عبارته، ارتفع رنين جرس الباب، فالتفت إليه الاثنان في دهشة، وتساءل (حسام) في حذر:
- هل تنتظر أحدا؟!
أجابه (أكرم) في حزم، وهو ينهض من مقعده:
- كلا.
التقط مسدسه، من بين كومة من الصحف، ودسه في حزامه من الخلف، وهو يتجه نحو الباب، وفتحه في حركة سريعة ثم التقى حاجباه، وهو يتطلع إلى الرجل الذي تراجع في ارتباك مع فتح الباب بهذه السرعة، ثم تنحنح، وتطلع إلى وجه (أكرم) في عصبية، قبل أن يتساءل في توتر:
- السيد (أكرم صدقى) ... أليس كذلك؟!
أدار (أكرم) يده خلف ظهره، وأمسك مقبض مسدسه في تحفز، وهو يسأله:
- من أتشرف بمواجهته؟!
تنحنح الرجل مرة أخرى، قبل أن يجيب:
- المفتش (رياض سالم)، من الأمن الجنائي العام المصرى.
ظهر (حسام) من خلف (أكرم)، وهو يقول في صرامة:
- ليس لدينا ما يعرف باسم الأمن الجنائي العام في (مصر).
مرة ثالثة، تنحنح المفتش (رياض) في توتر، مجيبا:

- ربما ليس هنا، ولكنه جهاز قوى معروف، في العالم الذي أتيت منه.
تراجع (حسام) في دهشة بالغة، وتساءل (أكرم) في حذر، وهو يقبض على مقبض مسدسه، في قوة أكبر:
- العالم ماذا؟!..
أجابه (رياض)، وتوتره يتزايد:
- العالم يا سيد (أكرم)... العالم الذي أتيت منه، والذي يلجأ إليك كأمل أخير؛ لاصطياد هدف، رأى خبراؤنا أنه لن يظفر به سواك.
التقى حاجبا (أكرم) في شدة، وهو يتساءل:
- أي هدف هذا؟!
ازدرد المفتش (رياض) لعابه في صعوبة، قبل أن يجيب في صوت متحشرج:
- أنت.
وكانت مفاجأة..
هائلة.

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

قبل المضي في الأحداث، لابد لنا من العودة إلى الوراء قليلا؛ حتى تستقيم الأمور...

وبالتحديد إلى تلك اللحظة، التي مثل فيها المفتش (رياض)، أمام رئيسه المباشر، بعد نجاح من أطلقوا عليه اسم (مجرم القرن) في الفرار من ذلك المبنى الشاهق، عقب تفجيره مكتب معلومات الأمن الجنائي العام اسمه (أكرم صدقى)..

قالها المفتش (رياض) في توتر واضح، وهو يشير بيده، قبل أن يتابع في حنق ملحوظ:

- كان رجل مخابرات عمومية سابق، قبل أن ينحرف به المسار، إلى ذلك الاتجاه الإجرامي... وكما كان رجل مخابرات فذ، لا يشق له غبار، تحول أيضا إلى مجرم فذ، لا سبيل لمواجهته..

قال رئيسه - في صرامة:

- لست أؤمن إطلاقًا بكلمة (لا سبيل) هذه... إنه، ومهما بلغت قدراته، مجرد رجل واحد، في مواجهة دولة، بكل نظمها وأجهزتها الأمنية.

هز (رياض) رأسه، قائلًا في توتر:

- لهذا كانوا يطلقون عليه لقب (قاهر المستحيل)؛ فهي ليست أول مرة يواجه فيها أنظمة أمنية كاملة، وينتصر عليها كلها رفاقه مازالوا يذكرون كيف هزم وحده مخابرات الولايات المتحدة السوفيتية، ولا انتصاراته المذهلة، على نظم أمن الاتحاد الأمريكي... حتى عندما واجه منظمة (مافيوزا) كان بالنسبة إليهم شوكة كبيرة، لم ينجحوا قط في انتزاعها.

بدا رئيسه غاضبا، وهو يقول:

- وكأني بك تحدثني عن واحد من أبطال الروايات الخيالية، أو من خارقي الروايات المصورة!!... أفق يا رجل... إنه رجل واحد... مجرد رجل واحد.
زفر المفتش (رياض) في توتر، قائلًا:
- رجل عجزت كل أجهزتنا عن الظفر به، لأكثر من شهر كامل.
صاح رئيسه في حدة:
- لدينا قصور كبير إذن... قصور ينبغي أن نبحث عنه ونكشفه، ونسعى لمعالجته، وإلا فكيف سنواجه الشعب، ونحن عاجزون عن مواجهة رجل واحد؟!
هز (رياض) كتفيه، دون أن يجيب، فتراجع رئيسه في مقعده، وسأله بكل صرامة:
- هل تريد ان تقول: إنك عاجز عن معالجة هذا الأمر، وعلينا أن نسند المهمة إلى آخر؟!
بدا وكأن السؤال قد أصاب مفتش الشرطة بطعنة نجلاء في كرامته، فشد قامته، قائلا في صرامة مماثلة، بغض النظر عن فارق الرتب:
- دعني أذكرك يا سيدي، بأنني قد توليت هذه القضية، بعد فشل ثلاثة من الزملاء في الإيقاع به، وأننى الوحيد الذي نجح في كشف هويته...
لوح رئيسه بذراعيه، صائحا:
- وما الذي أسفر عنه هذا حتى الآن؟!
انعقد حاجبا (رياض) في ضيق، وشد قامته أكثر، وهو يقول:
- هل لي أن أقترح أمرا خارجا عن المألوف يا سيدى؟!
هتف رئيسه في حدة:
- لن يضيرنا هذا... افعل.
أجابه (رياض) على الفور:

- وفقا لما قرأته، في ملف ذلك الرجل، قبل أن يمحوه تماما من قاعدة المعلومات، لن تنجح الوسائل التقليدية في التعامل معه، أو الإيقاع به أبدا..
قال المدير في عصبية:
- لم أسمع اقتراحك بعد.
واصل (رياض)، وكأن المدير لم يقاطعه:
- إننا نحتاج إلى وسيلة غير تقليدية... وسيلة تتجاوز كل الأمور المألوفة.
ثم مال نحو رئيسه، مضيفا بكل الحزم:
- وسيلة تتجاوز حتى حدود العقل.
تطلع إليه رئيسه بضع لحظات في دهشة مستنكرة، وكأنه يتطلع إلى مجنون، قبل أن يغمغم بكل حيرته:
- هل يبدو لك أننا في فيلم من أفلام الخيال العلمي؟!
هز (رياض) رأسه نفيا في بطء، وقال في حزم:
- بل نحن في عالم الواقع يا سيدي، ولكن في زمننا هذا، تطور العلم إلى درجة فاقت كل خيال.
صمت رئيسه بضع لحظات في دهشة، ثم مال نحوه، يسأله في شيء من العصبية:
- وما الذي يمكن أن يفعله العلم، الذي فاق كل خيال، في حالتنا هذه؟!
أجابه (رياض)، في سرعة واقتضاب:
- الكثير.
تراجع رئيسه، متطلعا إليه في دهشة، باعتبار أن الكلمة التي نطقها، لا تحمل أي جواب، فعاد (رياض) يشد قامته، وهو يتابع:

- سيادتك تعلم أن شقيقي الاكبر (راضي)، هو أحد أشهر علماء الفيزياء، في هذا القرن، وأنه حاصل على جائزة (زويل)، عن أبحاثه حول الأكوان المتوازية، والتي أثبتت من خلالها أنه هناك عوالم موازية لنا، تحيا معنا، في نفس الزمان والمساحة، ولكننا لا نشعر بها، ولا تشعر بنا ([1])

غمغم رئيسه، بنفس العصبية:

- أذكر أننى قد قرأت شيئا عن هذا، ولكنني عجزت عن استيعابه.

أشار (رياض) بيده، قائلًا، في شيء من الحماس:

- النظرية باختصار تقول: إن عالمنا واحد من عدة عوالم أخرى، في كل منها يحيا نفس البشر، أي أنك ستجد هناك شبيها لك، وشبيها لي.. ولكن (رياض) الآخر قد لا يكون مفتشا للأمن هناك، بل قد يكون مجرما، وأنت قد....

قاطعه رئيسه في عصبية:

- أذكر هذا... ولكن السؤال مازال كما هو: كيف يمكن أن يفيدنا؟!...

شد (رياض) قامته أكثر، وهو يجيب بكل الحزم:

- الأفضل ألا تسمع هذا منى يا سيدى.

ثم عاد يميل نحو رئيسه، مردفا في قوة:

- بل من صاحب النظرية والاقتراح الأصلي... من شقيقي (راضى)... شخصيا وتضاعفت دهشة رئيسه ألف مرة...

«لا يفل الحديد إلا الحديد..»

نطق (راضي) العبارة في هدوء حازم، وهو يقف داخل معمله الفيزيائي الكبير، فهز رئيس المفتش (رياض) رأسه في عصبية، قائلا:

- هل رباكما والدكما - رحمه الله - على ترديد عبارات وحكم قديمة.. فحسب.
مط (رياض) شفتيه، دون أن يجيب، في حين هز (راضى) رأسه نفيا، دون أن يتخلى عن هدوئه، وهو يقول:
- ما أريد قوله هو: إن خصمكم من طراز خاص جدا ويمتلك كومة من المهارات والقدرات، تجعل الإيقاع به، بالوسائل النمطية، أمرًا أشبه بالمستحيل ليس فقط قدراته، ولكن بسبب عبقريته وسعة حيلته، في وضع الخطط غير المعتادة، والإفلات من كل مأزق أو حصار، بوسائل ثعلبية غير متوقعة.
بدا رئيس (رياض) نافذ الصبر، وهو يقول:
- ما الذي تريد قوله بالضبط؟!
قادهما (راضي) إلى شاشة كبيرة، قائلًا:
- شاهد هذا أولًا.
ضغط زرا صغيرا في الشاشة، فظهرت عليها صورة (أكرم صدقى)، وهو يثب من طائرة بدون مظلة، خلف رجل يرتدى مظلة نجاة، ثم يشتبك معه وهما يهويان من حالق، بسرعة الجاذبية الأرضية، قبل أن يفقده الوعي، ثم يفتح مظلته، وهو يتشبث به في قوة، ليهبطا معا بالمظلة إلى حقل أخضر واسع..
وبكل انفعاله، هتف رئيس (رياض):
- إنه مجرم القرن... كيف حصلت على هذا الفيلم؟!
ابتسم (راضي) ابتسامة هادئة، وهو يقول:
- إنه ليس من تتصوره
هتف الرئيس في انفعال:
- إنه هو... (أكرم صدقى) ... كل رجل أمن هنا يحفظ ملامحه عن ظهر قلب.

تبادل (راضى) نظرة صامتة مع شقيقه الأصغر، قبل أن يقول، في زهو لم يستطع كبحه:
- إنه (أكرم صدقى) بالفعل، ولكن ليس هذا الذي تعرفه.
ثم مال عليه، مضيفا بابتسامة:
- هذا (أكرم صدقى) آخر، كل ما يربطه بالذي تعرفه، هو الاسم والملامح فحسب... وربما البصمة الجينية أيضا
حدق الرئيس في وجهه لحظات في استنكار، قبل أن يقول في حدة:
- ولكنه رجل آخر؟!... أي عبث هذا؟!
أجابه (راضي) في سرعة، وبابتسامة أكبر:
- عبث علمى مائة في المائة يا رجل... ما تراه هو حدث سجلته، عبر جهاز خاص، من عالم آخر.
ثم مال نحوه بشدة، مضيفا:
- عالم مواز.
حدق فيه رئيس (رياض) بمنتهى الدهشة، وعجز لسانه عن النطق، و(راضي) يعتدل، متابعا في اهتمام، وهو يشير إلى الشاشة:
- في ذلك العالم، مازال (أكرم صدقى) يعمل في جهاز المخابرات، ولكنهم يطلقون عليه هناك اسم (المخابرات العامة)، وليس العمومية، كما نطلق عليها هنا... بل هو يعد من أفضل رجالهم هناك... ولقد تابعت بعض عملياته، على شاشة جهازي هذا، ولست أبالغ لو قلت: إنه شخصية فذة، لم أر مثيلا لها في حياتي كلها من قبل، ولا حتى على شاشات السينما..
انتزع رئيس (رياض) نفسه من ذهوله، وهو يقول في عصبية:
- لم أستوعب فكرتك بعد.

شد (رياض) قامته مرة أخرى، وتنحنح في توتر، في حين أشار (راضي) إلى شاشة جهازه، وهو يجيب:
- وفقا لكل ما أخبرني وأطلعني عليه شقيقي الأصغر.. الشخص الوحيد، الذي يمكنه مواجهة (أكرم صدقى)، مجرم القرن عندنا، هو الشخص الذي يمتلك نفس مهاراته وقدراته، والوحيد الذي يمكنه فهم أساليب تفكيره، بنسبة مائة في المائة لا يمكن اقتناص (أكرم صدقى) إلا بوساطة قرينه، في العالم الآخر.
قالها، فران على معمله الكبير صمت عميق، استغرق ما يقرب من دقيقة كاملة، قبل أن يقطعه رئيس (رياض) في عصبية:
- هل تتوقع الحصول على جائزة (زويل) مرة أخرى، بهذه النظرية الخرقاء؟!
ارتفع حاجبا (راضي) في دهشة، وحملت ملامحه كل الاستنكار، الذي انتقل إلى صوته، وهو يهتف:
- خرقاء؟!
صاح رئيس (رياض) في حدة:
- لا يمكن أن توصف إلا بأنها كذلك... إثبات وجود تلك العوالم المتتالية شيء، والمزج بينها شيء آخر
هتف (راضى) معترضا:
- متوازية وليست متتالية
لوح رئيس (رياض) بذراعه كلها، صائحا:.
- أيا كانت... إنها مجرد نظرية، وربما شاشة تنقل إلينا أحداثا تدور في أحد تلك العوالم فحسب، ولكن الحديث عن التعاون بين العالمين، هو أمر أقرب إلى الخرافات.
بدا (راضي) محتدا، وهو يصيح فيه بدوره:
- كل ما كانوا يعتبرونه مجرد خرافات في الماضي، صار اليوم حقيقة علمية معروفة... السفر عبر الزمن... رداء الإخفاء...

تصغير البشر، و...
قاطعه رئيس (رياض) في حدة:
- وماذا؟!.. السفر عبر الأبعاد لم يصبح بعد حقيقة، حتى...
بتر عبارته، مع يد (رياض) التي أمسكت بكتفه، فاستدار إليه بحركة حادة، فتنحنح (رياض) وكأن هذا يلازمه دوما، وقال في توتر:
- الواقع يا سيدي أنه قد صار كذلك بالفعل واتسعت عينا رئيسه عن آخرها بدهشة بكل الدهشة...

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث

اتسعت عينا (حسام)، بكل الدهشة، في نفس الوقت الذي انعقد فيه حاجبا (أكرم صدقي)، وهو يحدق في وجه المفتش (رياض)، الذي تنحنح كعادته، وهو يقول:

- أنتما لا تصدقان ما أقوله... اليس كذلك؟!

لم يحاول (حسام) التعليق، في حين قال (أكرم) في حذر:

- هل كنت لتصدقه، لو تبادلنا الأدوار؟!

هز (رياض) رأسه في بطء، مجيبا في خفوت:

- مستحيل!

ثم استدرك في سرعة:

- ولكنه حقيقة.

مال (أكرم) نحوه، يقول في حزم:

- حقيقة تحتاج إلى برهان قوى.

صمت (رياض)، بضع لحظات، قبل أن يقول:

- لك كل الحق.

ثم أخرج شيئا من جيبه، وهو يضيف:

- ولقد توقع شقيقي (راضي) هذا؛ لذا فقد سمح لي بإحضار شيء من عالمي إلى عالمكم.

وضع لوحا صغيرا شفافا، أمام (أكرم) و(حسام)، مع استطراداته:

- فوفقا لمشاهداته، عالمنا يتفوق على عالمكم تكنولوجيا بخمس سنوات من التطور، ومع سرعة إيقاع التطور التكنولوجي سيصنع هذا فارقا تكنولوجيا ملحوظًا.

تطلع (حسام) و(أكرم) إلى ذلك اللوح في حذر، و(حسام) يتساءل:

وماذا يفعل هذا الشيء بالضبط؟!

التقط (أكرم) ذلك اللوح، مع إجابة (رياض):
- اختبره بنفسك
رفع (أكرم) ذلك اللوح الشفاف، أمام عينيه، ثم تراجع في دهشة فاللوح، مع شفافيته، كان ينبغي أن ينقل إليه صورة ما خلفه...
إلا أن هذا لم يحدث!!
لقد نقل إليه صورة مختلفة تماما..
صورة منزل آخر..
منزل يختلف..
يختلف في تقسيمه...
وحتى ديكوراته..
وبكل دهشته، خفض (أكرم) اللوح من أمام عينيه، فعاد منزله للظهور في وضوح، و(رياض) يقول، في توتر لم يستطع إخفاءه:
- ما تراه عبر هذا اللوح، هو عالمي وليس عالمك؛ فهو بوسيلة ما، لا أستطيع حتى فهمها أو استيعابها، يخترق الحاجز بين عالمينا، مما يجعله أشبه بنافذة بين عالمين..
مال (حسام) يلتقط اللوح من (أكرم)، وهو يقول:
- ومن أدرانا أنها ليست خدعة تكنولوجية؟!
هز (رياض) كتفيه، مغمغما في توتر:
- لست أدرى في الواقع كيف يمكنني إثبات هذا، فأنا رجل أمن في عالمي، وقع الاختيار على، للعبور إلى عالمكم، وتقديم العرض للسيد (أكرم صدقى)، وكنت أعلم مسبقا إننى سأواجه بكل هذه الشكوك؛ لأنني في عالمي رجل أمن محترف ولو جاء أحدهم، ليخبرني بأنه من عالم آخر، لأحطته بقيد من الشك والاستنكار أيضا..
رفع (أكرم) اللوح إلى عينيه مرة أخرى، ودار به فيما حوله في اهتمام، قبل أن يخفضه، وهو يقول في هدوء:

- من حسن حظكم أن إجازتي لم تنته بعد.
هتف (حسام) مستنكرا:
- هل يعني هذا أنك تنوى قبول العرض؟!
هز (أكرم) كتفيه، وأجاب بنفس الهدوء:
- ولم لا؟!... إنها تجربة جديدة، أجد في نفسي شغفا للقيام بها.
حدق فيه (حسام) مستنكرا، في حين بدا (رياض) شديد الترقب، والأول يقول:
- ولكنك تعرف القواعد جيدا... لا يمكنك التعاون مع أية جهات أخرى، دون الحصول على موافقة الجهاز.
أجابه (أكرم) بكل هدوء:
- أعرف القواعد جيدا يا عزيزى (حسام).
ثم التفت إليه بابتسامة عجيبة، مضيفا:
- ولكن لا توجد قاعدة تتعلق بالتعاون مع عالم آخر..
تراجع (حسام) بنفس الدهشة المستنكرة، في حين تابع(أكرم)، وابتسامته تتسع:
- وتذكر أنك أنت من أقنعتنى بقضاء إجازتي في مكان ما.
انعقد حاجبا (حسام)، وهو يقول في عصبية:
- هذا لو أنك ستطلق على هذا اسم إجازة..
أما (رياض)، فهتف في لهفة:
- أيعني هذا أنك توافق على قبول عرضنا؟!
هز (أكرم) كتفيه، وهو يجيب:
- ليس في كل مرة، يجد المرء نفسه في مواجهة نفسه..
غمغم (حسام) في توتر، وهو يشيح بوجهه:
- سأتظاهر بأنني لم أسمع هذا.
حاول (رياض) أن يبتسم، إلا أن شيئا في أعماقه جعله يقول في تردد:

- في هذه الحالة، هناك ما ينبغي أن أخبرك به يا سيد(أكرم).
ابتسم (أكرم)، وهو يقول:
- أما زال هناك المزيد؟!
أومأ (رياض) برأسه إيجابا، قبل أن يقول بنفس التردد:
- في مواجهتك مع... (أكرم صدقى) عالمنا، لا بد أن تعلم إنه من الضروري أن يتم حسم المواجهة خلال ثلاثة أيام فحسب...
التقى حاجبا (أكرم)، في حين التفت إليهما (حسام) مرة أخرى، متسائلًا في توتر:
- ولماذا ثلاثة أيام بالتحديد؟!
هز (رياض) كتفيه، وبدا تردده أكثر وضوحا، وهو يقول:
- الواقع أن تقنية الانتقال بين العالمين، لم تصل بعد إلى مرحلة الكمال.
سأله (أكرم) في اهتمام:
- وهذا يعني؟!
تردد لنصف دقيقة على الأقل، قبل أن يجيب:
- لو بقيت في عالمنا، أكثر من هذه المدة، ستضيع الفرصة في...
بتر عبارته في ارتباك، فسأله (حسام) بكل القلق:
- ستضيع الفرصة في ماذا؟!
ازدرد لعابه في صعوبة، وتنحنح مرتين، قبل أن يجيب:
- في أن يعود السيد (أكرم) إلى هنا..
وتنحنح مرة أخرى، قبل أن يتابع في صوت منخفض:
- وسيكون عليه أن يبقى في عالمنا... إلى الأبد
ألقى قنبلة، فران على المكان صمت رهيب مهيب فتلك المعلومة الأخيرة، كادت تقلب كل الأمور رأسا على عقب وبمنتهى العنف..

☆ ☆ ☆

ارتفعت يد ضابط الأمن، في مدينة البحوث العلمية بتحية عسكرية قوية، وهو يواجه الرجل الواقف أمامه في احترام قائلًا:
- مرحبا بك في مدينة البحوث يا سيادة اللواء... تقبل اعتذاري مقدما، ولكن لم تردني أية معلومات بشأن زيارتك لنا اليوم..
شدّ اللواء قامته، وهو يقول في صرامة:
- أنا الذي أصدر تلك المعلومات والتعليمات أيها الضابط وها أنذا أقف أمامك بشحمي ولحمي، فماذا تريد أكثر من هذا؟!
ارتبك الضابط، وهو يقول:
- ولكن جرت العادة يا سيادة اللواء على أن...
قاطعه اللواء بكل صرامة:
- أفسح الطريق.
تنحى الضابط جانبا، وهو يغمغم:
- هل يمكنك على الأقل أن توقع في دفتر الزائرين يا سيادة اللواء؟!
قال اللواء في استنكار:
- دفتر الزائرين؟!
ثم استدرك، مع امتقاع وجه الضابط:
- ولكن لا بأس على أية حال... لن أكون أنا من يخرق تعليمات الأمن..
وانعقد حاجباه الكثيفان في صرامة، وهو يضيف:
- التي وضعتها بنفسي.
ناوله الضابط دفتر الزائرين بيد مرتجفة، وهو يغمغم:
- رجال الأمن هم أول من ينبغي أن يلتزموا بقواعد وتعليمات الأمن... هكذا تعلمنا يا سيادة اللواء.
التقط اللواء قلما إليكترونيا رفيعا، ووقع باسمه في دفتر الزائرين، ثم عبر بوابة مدينة البحوث في تعال، والضابط يؤدي له التحية

العسكرية مرة أخرى، ولكنه ما أن ابتعد، حتى التقط الضابط هاتفه، وطلب رقما مختصرا، قبل أن يقول في خفوت، وكأنه يخشى أن يسمع اللواء:
- سيادة اللواء (فتحى جابر) وصل إلى المدينة، دون أية معلومات مسبقة، وأظنه تفتيشا أمنيا مفاجئا..
فاجأه صوت غاضب صارم:
- أي قول أحمق هذا يا رجل؟!... أنا اللواء (فتحى جابر)، ولم أغادر مكتبى منذ الصباح.. من هذا الذي انتحل شخصيتي ونجح في خداع حمقى مثلكم؟!
وكاد الهاتف يسقط من يد ضابط الأمن المصعوق فالشخص الوحيد، الذي يمكنه انتحال هيئة آخر، بحيث يعجز الآخر نفسه عن كشفه، هو الرجل الذي تبحث عنه كل جهات الأمن، في هذا العالم الموازي.
(أكرم صدقى) ...
مجرم القرن..
الوحيد.

☆ ☆ ☆

«هكذا يكون التحدى...»
قالها (أكرم صدقى)، في هدوء عجيب، قاطعا حالة الصمت الرهيب، التي خيمت على المكان، فارتفع حاجبا (حسام) قبل أن يهتف مستنكرا:
- هل ستقبل هذه المهمة العجيبة، بعد ما قاله هذا الـ... الرجل؟!
التفت إليه (أكرم)، قائلا:
- اهدأ قليلًا يا صديقي، ودعنا نعيد دراسة الموقف كله، على نحو مختلف... إننا أمام موقف، لم يمر به بشرئ من عالمنا من

قبل... أو أن هذا ما أعتقده على الأقل... موقف يستعين فيه عالم بشخص من عالم آخر، ليواجه نفسه بنفسه....
قال (حسام) في حدة:
- تتعامل مع الأمر كما لو كان لعبة مسلية..
هز (أكرم) رأسه نفيا، وهو يقول:
- ليس لعبة بالتأكيد، ولكنه حالة عجيبة، لم يخطر ببالي أن أواجهها، حتى في أبشع كوابيسي.. ولكنه تحد من نوع جديد.. تحد أن أواجه شخصا، يتمتع بكل ما أحمله من صفات، وما اكتسبته من مران وخبرات، طوال سنوات وسنوات من الصراع، مع أجهزة مخابرات، ومنظمات جاسوسية وإرهابية، وحتى إجرامية.. ومن الناحية المنطقية فهذا أكثر خطورة بكثير، وخاصة عندما يكون الزمن محدودا إلى هذا الحد... ولكنني، ولسبب ما في أعماقي، لست أرغب في قبول التحدى وخوض التجربة فحسب، ولكنني شديد الشغف أيضا؛ لمعرفة الأسباب الحقيقية، التي دفعت شخصى عالمهم، إلى نبذ كل ما نذر حياته من أجله؛ لينتقل من مجال حماية الوطن وأمنه، إلى مجال الجريمة، وتقويض أركان المجتمع... أريد أن أعرف... وأن أفهم... فلو أنه تربى كما تربيت، ونشأ كما نشأت، فسيكون من المستحيل أن ينقلب لمائة وثمانين درجة على هذا النحو، إلا لو كانت لديه دوافع شديدة القوة.
وصمت لحظات، عاد خلالها ذلك الصمت المهيب يسيطر على المكان، قبل أن يضيف في حزم:
- أريد أن أعرف يا (حسام)... صدقني... أريد أن أعرف..
تطلع إليه (حسام) في صمت لبضع لحظات أخرى، ثم تراجع مغمغما:
- هذا حقك..

شعر (رياض) بالارتياح، وهو يتساءل:
- إذن فأنت تقبل.
مد (أكرم) يده إليه، وهو يقول مبتسما:
- فقط عندما تخبرني، كيف ومتى سننتقل إلى عالمك؟!
اندفعت يد (رياض) نحو يده، وهو يقول في لهفة:
- الآن.
وتصافح الرجلان..
أو تصافح العالمان..
وبقوة...
فاعتبارا من تلك اللحظة، سيبدأ (أكرم صدقى) أغرب مهامه وأخطرها على الإطلاق....

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع

ارتفعت صفارات الإنذار عالية، في مدينة البحوث العلمية وانتشر رجال الأمن في كل مكان منها، وفقا لخطة طوارئ. تدربوا عليها طويلًا، في نفس الوقت الذي انطلق فيه اللواء (فتحى جابر) الحقيقي بسيارته، في طريقه إلى المكان، وهو يهتف بضابط أمن المدينة، في توتر صارم شديد:

- أشعلوا كل نظم الأمن، وأغلقوا كل منافذ المبنى الرئيسي ولا تنس تفعيل جدار النار الفائق؛ لحماية كل المعلومات، التي تحويها أجهزة الكمبيوتر، في المدينة كلها..

أجابه ضابط أمن المبنى، وهو يشير لفريق من رجاله بالالتفاف حول المبنى الرئيسي:

- قمت بتفعيل كل هذا بالفعل يا سيادة اللواء، ولدينا فريقان من الحرس الخاص، داخل المبنى الرئيسي، يقومان بتفتيش كل ركن منه.

هتف به اللواء (فتحي) في صرامة:

- سأصل إليك خلال ثماني دقائق على الأكثر، وهليوكوبترات الأمن ستصل خلال دقيقة واحدة..

وانعقد حاجباه في شدة، وهو يضيف في غضب، امتزج بصرامته:

- لقد أخطأ مجرم القرن بوضع نفسه في هذا الفخ المحكم سنوقع به هذه المرة، بفضل غطرسته وغروره.

لم يشعر الضابط بنفس الثقة، وهو يغمغم:

- بالتأكيد يا سيادة اللواء... بالتأكيد.

قالها، منهيا الاتصال، ثم تطلع إلى المبنى الرئيسي، مستطردا بعد زفرة حارة:

- لو أنه منحنا الفرصة لهذا.

في نفس اللحظة التي نطقها، كان رجاله داخل المبنى قد انقسموا إلى عدة فرق صغيرة، اتجهت كل فرقة منها إلى أحد أجزاء المبنى، مسلحة بأحدث المدافع الآلية، والسترات والخوذات المضادة للرصاص، وأجهزة البحث والرصد الحراري، بحثا عن (أكرم صدقي) عالمهم وفي عنف مدروس، اقتحمت إحدى الفرق معمل الدكتور (راضى)، كجزء من المبني، وعلى الرغم من أن المعمل بدا خاليا من البشر في وضوح، إلا أن الفرقة، المكونة من خمسة رجال، انتشرت في المكان، تفحص كل ركن، يمكن الاختفاء فيه، وبمنتهى الدقة، حتى أعلن كل منهم خلو المكان، فتوقف قائد الفرقة الصغيرة، وقال عبر جهاز اتصاله الخاص، وبلهجة عسكرية تقليدية:

المعمل (ف) خال ونظيف...

أتاه صوت ضابط أمن المدينة، يقول في حزم:

اعمل على إغلاقه بالحواجز الأمنية؛ لضمان عدم اللجوء إليه فيما بعد، وقم بتشغيل نظام رصد دائم هناك؛ حتى يمكننا مراقبته من خارج المبنى.

أجاب قائد الفرقة الصغيرة، بنفس اللهجة العسكرية:

- علم وينفذ.

أنهى الاتصال، وهو يرفع عينيه إلى رجاله الأربعة، قائلًا في صرامة:

- سننفذ خطة إغلاق هذا المعمل....

ليس بعد....

أتاه الصوت في لهجة ساخرة من أعلى، فرفع عينيه وسلاحه إلى سقف المعمل، حيث ممرات التهوية المركزية، و...

وانقض (أكرم صدقى) وبمنتهى العنف..

☆ ☆ ☆

دوامة ألوان عجيبة، أحاطت بكل شيء..
دوامة تدور في سرعة كبيرة، تدور معها أعتى الرءوس...
ومع ذلك الطنين، الذي كاد يخترق خلايا المخ، بدا الأمر شاقا ومؤلما، إلى حد كبير...
«أغلق عينيك...»
قالها المفتش (رياض)، وهو يغلق عينيه في قوة، قبل أن يضيف، في ألم ملحوظ:
- هذا يجعل الأمر أقل عنفا...
أغلق (أكرم) عينيه في قوة أيضا، إلا أن ذلك الدوار الذي أصابه، منذ بدأت رحلته مع (رياض) عبر الأبعاد، ظل يلازمه، مع ذلك الشعور العجيب بأنه يهوى من حالق، في بطء متواصل ثم دوت فرقعة عجيبة ومع دويها، سقط جسده أرضا فجأة، ففتح عينيه، مغمغما:
- يا له من هبوط سيئ!
أدهشه أن وجد نفسه مع (رياض)، على سطح مبنى، تطل عليه نجوم السماء من أعلى، فاعتدل ممسكا برأسه في شيء من الإرهاق، وقال وهو يقاوم آثار ذلك الطنين المؤلم:
كنت أتصور أننا سنصل إلى معمل علمي، أو قاعدة عسكرية مثلًا.
أمسك (رياض) رأسه، على نحو مماثل، وهو يغمغم:
- لا تسلني عن التفاصيل العلمية، ولكن شقيقي أكد ضرورة الهبوط في مكان مفتوح؛ حتى لا تنحصر الطاقة في مكان محدود..
استجمع (أكرم) قوته، ونهض واقفا، وأدار عينيه فيما حوله، وهو يقول:
- إذن فهذه قاهرة عالمك.

أومأ (رياض) برأسه، على الرغم من أن (أكرم) يوليه ظهره، وقال وهو ينهض بدوره:
. إنها تشبه قاهرتك إلى حد كبير، ولكن مع بعض الاختلافات بالطبع.
كانت عينا (أكرم) قد توقفتا عند نقطة بعينها، وهو يغمغم:
- أرى اختلافا واضحا
استدار (رياض) إلى حيث يشير، وابتسم ابتسامة تمتزج بآلام رأسه، وهو يقول:
- آه... برج الثورة.
انعقد حاجبا (أكرم) وهو يقول:
- نطلق عليه في عالمى اسم برج (القاهرة).
أومأ (رياض) برأسه مرة أخرى، مغمغما:
- أعلم هذا.
ثم اعتدل مضيفا:
- لقد بدأ لدينا كما بدأ لديكم، ولكننا قمنا بتطويره منذ خمسة أعوام، وارتفع لثلاثين مترا أخرى، وأضيفت إليه ثلاثة مطاعم مختلفة دوارة، وقاعة للأفراح والاحتفالات، وتمت تغطية الإضافة بالخلايا الشمسية، التي تضيئه ذاتيا ليلا كما ترى..
هز (أكرم) رأسه، وابتسم قائلًا:
- ربما أطرح هذه الفكرة، عندما أعود إلى عالمي.
لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع رنين هاتف (رياض) المحمول، فالتقطه في سرعة، وهو يقول في حماس:
- لقد أتيت به يا سيدى.
أتاه صوت رئيسه، وهو يهاف:
- في الوقت المناسب يا (رياض)، فنحن الآن في مواجهة عنيفة مع نظيره، مجرم القرن.

انعقد حاجبا (رياض) في شدة، وهو يستمع إلى التفاصيل، ثم رفع عينيه إلى (أكرم) مع إنهاء المحادثة، وهو يقول في توتر:
- يبدو أن المواجهة ستبدأ... الآن..
وعلى الرغم من اعتياده المواجهات، مهما كان عنفها شعر (أكرم) في أعماقه بشعور عجيب، مع بدء مواجهته مع نفسه... شعور لا يمكنه أن يصفه أبدا..
استفادة من المواجهة السابقة، راحت هليوكوبترات الأمن تحوم حول مدينة البحوث العلمية، دون الاقتراب منها إلى درجة تسمح لأي كائن بالقفز إليها، مهما بلغت قوته أو جرأته...
وعبر أجهزتها المتطورة، راحت ترصد كل جزء ظاهر من المدينة، يمكن أن يختبئ عنده أي كائن حي في نفس اللحظة التي وصلت فيها سيارة اللواء (فتحى جابر)، والذي قفز منها، قبل حتى أن تتوقف بالكامل، وهو يهتف بضابط الأمن:
- هل توصلتم إليه؟!
أجابه ضابط الأمن في توتر:
- ليس بعد... الرجال منتشرون في المبنى، ولكنهم لم يجدوا له أدنى أثر، على الرغم من تفتيش وإغلاق معظم معامله.
سأله اللواء في توتر:
- وهل وضعوها كلها قيد المراقبة المستمرة؟!
أومأ الضابط برأسه إيجابا، وهو يقول:
- كلها تحت المراقبة يا سيادة اللواء.
انعقد حاجبا اللواء مفكرا، وهو يتساءل:
- ألا يمكن أن يكون قد غادره، قبل تفعيل إجراءات الأمن؟!
هز الضابط رأسه نفيا في قوة، وهو يقول:
- مستحيل يا سيادة اللواء... لقد قمنا بتفعيل إجراءات الأمن بعد أقل من دقيقة واحدة، من دخوله المبنى..

صاح فيه اللواء في غضب:
- لم يكن ينبغي أن تسمح له بالدخول، مادامت ليست هناك تعليمات مسبقة بهذا..
ارتبك الضابط في شدة، وهو يقول:
- لقد... لقد كان أنت يا سيادة اللواء..
صاح فيه اللواء، في غضب أكثر:
- التعليمات هي التعليمات أيها الضابط..
بدا الضابط شديد التوتر والارتباك، وهو يغمغم:
- أنت على حق يا سيادة اللواء..
شد اللواء (فتحى) قامته، وانعقد حاجباه في صمت، بضع لحظات أخرى، قبل أن يقول في حزم:
- إذن فهو بالداخل حتما، حتى ولو لم يعثر عليه رجالك!
غمغم الضابط:
- هذا ما يبدو يا سيادة اللواء..
أومأ اللواء (فتحى) برأسه إيجابا مرتين، قبل أن يستعيد صرامته، قائلا:
- في هذه الحالة، سننتقل إلى خطة الطوارئ القصوى رقم واحد..
- الغاز؟!
أجابه اللواء بنفس الصرامة:
اعتدل الضابط بدوره، وقال في صوت مبحوح، من فرط الإثارة:
- نعم... سنخلي المبنى من رجالنا، ونغلق كل منافذه، ثم نطلق فيه اسطوانات الغاز المخذر ليوم كامل..
صمت لحظة، ثم أضاف في صرامة أكثر:
- لن يمكنه أن ينجو من هذا أبدا..
غمغم الضابط في تردد:

- أتعشم هذا يا سيادة اللواء..
رماه اللواء بنظرة غاضبة، فاستدرك في سرعة:
- أعنى أن هذا أكيد يا سيادة اللواء..
بدا اللواء شديد الغضب، وهو يواصل رميه بتلك النظرة الغاضبة، ثم شد قامته أكثر، وهو يقول بلهجة آمرة:
- مُر بإخلاء المبنى..
أصدر الضابط أوامره لكل الفرق، داخل المبنى الرئيسي، بإخلاء المبنى على الفور، في حين غمغم اللواء في صرامة:
- سيقع مجرم القرن في أيدينا هذه المرة... حتما.
وفي هذه المرة، صمت الضابط تماما دون تعليق ففي أعماقه، مازال الشك يتصاعد في سرعة وفي قوة... شديدة..

☆ ☆ ☆

«أهذا جزء من إجراءات الأمن، المتبعة هنا....»
ألقى (أكرم صدقى) السؤال على (رياض)، وهما داخل واحدة من هليوكوبترات الأمن، تنقلهما إلى مدينة البحوث العلمية، فأومأ هذا الأخير برأسه إيجابا، وقال في انفعال:
- ليس إجراء عاديا، ولكنه يستخدم فقط في محاولات الطوارئ القصوى.
التقى حاجبا (أكرم) في تفكير عميق، قبل أن يقول فجأة:
- اطلب منهم عدم إخلاء المبنى من رجالهم...
التفت إليه (رياض) في دهشة، وهو يغمغم مستنكرا:
- وكيف أطلب منهم هذا؟!... إنه إجراء أمني رسمي، قاطعه ("أكرم) في حزم:
- ولهذا ينبغي ألا يتبعوه دعهم يطلقون الغاز على الجميع.
اتسعت عينا (رياض)، وهو يهتف:
- على رجالنا أيضا؟!

أجابه (أكرم)، قبل حتى أن يكمل عبارته المستنكرة:
- هذا هو المقصود.
فغر (رياض) فاه، دون أن ينبس ببنت شفة، وهو يحدق فيه ذاهلًا، فصاح به (أكرم):
- كل ثانية تمضي، ستصنع فارقا كبيرا هيا..
ومرة أخرى لم يفهم (رياض)...
أبدا..

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس

«تم إخلاء المبنى تماما يا سيادة اللواء...»

نطق ضابط أمن مدينة الأبحاث العلمية العبارة، في لهجة عسكرية تقليدية، وهو يؤدي التحية للواء (فتحى)، الذي شد قامته، وهو يقول في صرامة:

- أطلقوا اسطوانات الغاز..

رفع ضابط الأمن جهاز الاتصال، إلى شفتيه؛ ليلقى أوامر إطلاق الغاز، ولكن هاتفه المحمول انطلق في هذه اللحظة فانعقد حاجباه، وهو يلقى نظرة على شاشته، مغمغما في توتر:

- إنه المفتش (رياض)... المسئول عن عملية مجرم القرن.

أجابه اللواء (فتحي) في صرامة:

- لقد وصل متأخرا... أطلق اسطوانات الغاز أولا، ثم أجب اتصاله.

غمغم الضابط في تردد:

- ولكن ربما...

قاطعه اللواء بصيحة هادرة:

- أطلق الغاز..

أسرع الضابط يصدر أوامره إلى رجاله بإطلاق اسطوانات الغاز، داخل المبنى الرئيسي، ثم ضغط زر الاتصال في هاتفه، وهو يقول في توتر:

- سيادة المفتش.

هتف به (رياض) عبر الهاتف:

- أوقفوا عملية إخلاء المبنى فورا.

بلغ صوته المرتفع مسامع اللواء (فتحى)، فانعقد حاجباه في شدة، في حين ارتفع حاجبا الضابط في دهشة، وهو يقول في

اضطراب:
- ولكن الإخلاء قد تم بالفعل يا سيادة المفتش.
فوجئ بالمفتش (رياض) يصرخ فيه:
- أيها التعس... لقد أفسدت كل شيء!
لم يدر الضابط ماذا يقول، وهو يدير عينيه في ارتياع إلى اللواء (فتحى) الذي انعقد حاجباه أكثر، وهو يتمتم في صوت خافت، يموج بالانزعاج:
- أي قول هذا؟!
تغير صوت (رياض)، عندما اختطف (أكرم) جهاز الاتصال من يده، هاتفا:
- هل انفصل أحد رجالك عن الفريق، دون مبرر واضح؟!
أدار الضابط عينيه فيما حوله، وهو يغمغم في توتر:
- كيف علمت هذا؟!... أحدهم انفصل بالفعل، متجها نحو واحدة من السيارات المدرعة، التابعة لـ....
قاطعه (أكرم) في سرعة وحزم:
- لا تدعه يصل إليها... من رجالك بإيقافه فورا..
لم يستوعب الضابط أو اللواء الأمر، وعندما انتزعا نفسيهما من دهشتهما، كان ذلك الذي انفصل على بعد خطوة واحدة من السيارة المدرعة، فأشار إليه اللواء، هاتفا:
- أوقفوا هذا الرجل.
لم يستوعب رجاله أيضا هذا الأمر، الذي يطالبهم بإيقاف أحد زملائهم وأضاعوا ثانية ثانية واحدة فقط وبالنسبة إلى أي شخص عادي، تعتبر الثانية زمنا قصيرا للغاية ولكن ما فعله فيها ذلك الرجل، الذي انفصل عن الباقين جعلها تبدو أشبه بدهر كامل!!...

لقد استوعب الموقف قبل الباقين، فوثب في خفة مذهلة يفتح باب السيارة المدرعة، ويلكم سائقها، ثم يدفعه خارجها وهو يدير محركها في الوقت نفسه وعندما تحرك الرجال، بعد استيعاب الموقف، كان هو ينطلق بالسيارة المدرعة، بأقصى سرعة تسمح بها محركاتها وعلى الفور، انطلقت الرصاصات خلفه كالمطر، وارتطمت كلها بدروع السيارة، وارتدت عنها في عنف، دون أن تنجح في إيقافها، في حين اندفعت هي تخترق الأسوار القوية المكهربة، المحيطة بالمدينة، وتنطلق مبتعدة عنها وعبر جهاز اتصاله الخاص، صرخ اللواء في طائرات الهليوكوبتر، المحيطة بالمكان:

- طاردوا هذه السيارة الهاربة... أوقفوها بأي ثمن..

دارت طائرات الهليوكوبتر كلها، واندفعت تطارد السيارة التي واصلت طريقها، عبر المنطقة الخالية، المحيطة بمدينة البحوث العلمية، متجهة نحو منطقة سكنية تحت الإنشاء، تبعد كيلو مترين فقط عن المكان..

وعبر جهاز الاتصال، تساءل أحد قائدى طائرات الهليوكوبتر:

سيادة اللواء... هل نكتفي بمطاردتها، أم...

قاطعه اللواء، في توتر صارم:

قلت أوقفوها بأي ثمن... أطلقوا عليها النار... انسفوها لو اقتضى الأمر، ولكن لا تسمحوا لها، أو لقائدها بالفرار أبدا.

مع هذا الأمر، وعلى الرغم من ثقة الطيارين، بأن رصاصات مدافعهم لن تكفى لنسف سيارة مدرعة الطراز الحديث شديد التصفيح، إلا لو تواصلت على نحو متصل، راحوا يمطرون السيارة برصاصاتهم، وهي تواصل انطلاقها، في مسار شديد التعرج، يشف عن براعة قائدها وحنكته وجرأته، على الرغم من الرصاصات، التي ترتطم بجسمها في قوة، حتى بلغت تلك المباني

الجديدة، التي لم يكتمل إنشاؤها بعد ولأن قائد طائرات الهليوكوبتر الأمنية، كان يدرك صعوبة مواصلة المطاردة؛ إذا ما بلغت السيارة المدرعة تلك المباني فقد هتف عبر جهاز الاتصال:

- سيادة اللواء... أطلب الإذن بقصف السيارة بالصواريخ.

صاح به اللواء (فتحى):

- وهل تنتظر الإذن بهذا؟!... قلت: أوقفوها بأي ثمن..

حمل صوت قائد الهليوكوبتر كل توتره، وهو يقول:

لابد من أمر مباشر يا سيادة اللواء، فالقانون يمنع استخدام الصواريخ داخل المدن، و...

قاطعه اللواءفي حده هادرة:

اقصفها يا رجل، قبل أن تضيع الفرصة... اقصفها هذا أمر..

كان قائد الهليوكوبتر متحفزا للقصف بالفعل، كما أن الهليوكوبتر كانت على مشارف تلك المدينة الجديدة بالفعل، لذا فما أن أتاه الأمر المباشر، حتى ضغط زر الإطلاق على الفور.

وانطلق الصاروخ نحو السيارة المدرعة..

وأصابها مباشرة، و...

ودوى الانفجار...

وبمنتهى القوة...

« لقد نسفوه!!!..»

تراجع (رياض) بحركة حادة، وهو يهتف بالعبارة، ذلك الوهج، الذي بدا واضحا، للهليوكوبتر التي تحمله مع (أكرم صدقى)، الذي انعقد حاجباه، وهو يغمغم:

- حقا؟!

كانت طائرات الهليوكوبتر الأمنية تدور حول السيارة، التي نسفها الصاروخ نسفا؛ للتيقن من تمام تدميرها، وارتفع صوت، قائدها،

عبر جهاز الاتصال، في هليوكوبتر (رياض)، وهو يقول في صرامة:
- إلى قائد الهليوكوبتر القادمة... عرف عن نفسك.
التقط (رياض) جهاز الاتصال في سرعة، وهو يقول في صرامة:
- المفتش (رياض).... من الأمن العام... أبلغني فورا ماحدث.
أتاه صوت قائد طائرات الهليوكوبتر، يجيب في ارتياح:
- مرحبا يا سيادة المفتش.... ننتظر قدومك بالفعل. أظن أن مهمتك قد وضعت أوزارها يا سيدى... لقد نسفنا مجرم القرن على التوّ..
انعقد حاجبا (أكرم) في شدة، وسرت في جسده، وربما لأول مرة في حياته، قشعريرة باردة، لم يختبر مثلها من قبل قط..
نسفوه!!...
نسفوا قرينه، في هذا العالم الموازي!!...
يا له من شعور عجيب، أن يسمع المرء بنفسه خبر مصرعه!!...
وبينما يتراجع في مقعده مفكرا، سمع (رياض) يجيب قائد طائرات الهليوكوبتر في توتر:
- تيقن أولًا، قبل أن تجزم يا رجل..
بدت دهشة قائد طائرات الهليوكوبتر الأمنية واضحة، وهو يقول:
- ولكنني أطلقت الصاروخ نحو السيارة، وهي تنطلق بالفعل يا سيادة المفتش، ورأيته بنفسي ينسفها نسفا..
صاح به (رياض) في صرامة:
- تيقن أولًا.
اعتدل (أكرم) يقبض على معصمه فجأة، وهو يقول في حزم:
- ليس بعد.
التفت إليه (رياض) في دهشة، يسأله:
- ماذا تعنى؟!

أجابه (أكرم) بنفس الحزم:
- مُر طائرات الهليوكوبتر بالتراجع فورا...
في هذه المرة، اتسعت عينا (رياض) عن آخرهما، وهو يحدق فيه بكل الدهشة، قبل أن يقول في حدة:
- هل تعلم بم سيتهمونني، لو أننى أمرت بهذا؟!
حمل صوت (أكرم) كل صرامته، وهو يقول:
- هل تعلم أنت، إن لم تنفذ ما أطلبه منك، فلن تكون هناك جدوى من تركى عالمي، والحضور معك إلى عالمك؟!
تطلع إليه (رياض) بضع لحظات في صمت، ثم قال في توتر:
- أفلت معصمي ....
حلَّ (أكرم) أصابعه، من حول معصم (رياض)، الذي تنحنح في توتر شديد، ثم ضغط زر الاتصال، وهو يقول في توتر أكثر:
- ابتعدوا عن المكان فورا
هتف قائد طائرات الهليوكوبتر بكل دهشته:
- ماذا؟!
أجابه (رياض)، في حدة صنعها توتره الشديد:
- هل سمعت ما أمرتك به؟!
سادت لحظة من الصمت، قبل أن يجيب قائد طائرات الهليوكوبتر:
- كما تأمر يا سيادة المفتش....
شاهد اللواء (فتحى)، عبر منظاره المقرب، طائرات الهليوكوبتر تتراجع، فهتف في قائدها، عبر جهاز الاتصال:
- ماذا تفعلون؟!... ابقوا في المكان، حتى نصل إليكم.
أجابه القائد بكل توتره:
- سيادة المفتش (رياض)، المسئول عن ملف مجرم القرن، أمر بأن يتراجع الجميع، عن منطقة الانفجار.

كان اللواء ينطلق بالفعل، على رأس فريق رجاله الخاص، نحو منطقة المدينة الجديدة؛ للتيقن من مصرع مجرم القرن، لذا فقد عقدت الدهشة لسانه لحظة، قبل أن يغمغم:

- أمر بالتراجع؟!... لماذا؟!

لم يجد قائد طائرات الهليوكوبتر الأمنية، سوى أن يقول بكل توتره:

- هو المسئول عن الملف كله، يا سيادة اللواء:

في نفس الوقت، الذي كان اللواء يحاول فيه استيعاب الموقف، أشار (أكرم صدقي) إلى سطح أحد مباني المدينة الجديدة، وهو يقول بلهجة آمرة:

- انخفض نحو هذا السطح...

أطاعه قائد الهليوكوبتر على الفور، بعد أن أدرك من محادثته مع المفتش (رياض)، أنه من يقود المهمة، في حين تساءل (رياض) في توتر:

- ماذا تنوى أن تفعل؟!

تطلع إليه (أكرم) لحظة في صمت، قبل أن يجيب:

- سترى.

لم يرض هذا الجواب (رياض)، فهتف في عصبية:

- المفترض أننى المسئول الأول عن هذا الملف.

أجابه (أكرم) في صرامة:

- قم بما ينبغي عليك فعله إذن.

تراجع (رياض) معقود الحاجبين في غضب متوتر، في حين تساءل قائد الهليوكوبتر، وهو يقترب من السطح:

- هل تريد مني أن أهبط هناك؟!

أجابه (أكرم) في حزم:

- اقترب فحسب.

تساءل (رياض) في توتر، عما ينتوي (أكرم) فعله، وعقد ساعديه في عصبية، وهو يتابع اقتراب الهليوكوبتر من ذلك السطح، الذي أشار إليه (أكرم)، والذي قال بكل الحزم:
لا تتوقف لحظة واحدة... واصل التحليق حول المكان بضع لحظات، كما لو أنك تتفقد موضع الانفجار فحسب، ثم ابتعد كما فعل أقرانك..
اعتدل (رياض)، يسأله في عصبية:
- ثم ماذا؟!
ولكنه لم يحظ منه بجواب مباشر..
هذا لأن (أكرم) قد ألقى أمره الأخير، ثم وثب من الهليوكوبتر نحو السطح.
مباشرة.

☆ ☆ ☆

الفصل السادس

في خفة مدهشة، تحرك مجرم القرن في ذلك العالم، بين الطرقات غير الرصوفة، والتي لم تكتمل بعد، لتلك المدينة الجديدة؛ محاولًا الابتعاد بقدر الإمكان، عن الساحة الخالية التي تفصله عن مدينة البحوث العلمية كان، بحكم عمله السابق، في جهاز المخابرات العمومية في عالمه، يعلم جيدا كيف تتعامل الجهات الأمنية، في موقف كهذا...

صحيح أنه قد وثب من تلك السيارة المدرعة، فور وصوله إلى أطراف المدينة الجديدة، بحرفية تمنع طائرات الهليوكوبتر من كشف خروجه منها، وتركها تواصل اندفاعها، مدركا أنهم، إن عاجلًا أو آجلا، سيلجأون إلى قصف السيارة بصواريخهم؛ كوسيلة أخيرة لمنعه من الفرار...

إلا أنهم حتما لن يتوقفوا عند هذا فلابد، وفقا لأبسط قواعد الأمن، أن يتيقنوا من مصرعه، قبل إعلان هذا رسميا وهذا يعني أنهم سيسرعون، بكل قواتهم الأرضية؛ لفحص المكان وتفتيشه، أو لفحص بقايا السيارة المدرعة، والتيقن من وجود جثته المحترقة داخلها ولأنه يعلم كل هذا، فقد وضع خطته منذ البداية، مفترضا كل الاحتمالات الممكنة..

وكل ما عليه الآن، هو أن يسبقهم في الوصول إلى نهاية المدينة الجديدة...

هناك تنتظره سيارته، التي أخفاها في مهارة وخبرة، وتركها في موضع، يتيح له الانطلاق بها في سرعة، وبلوغ الطريق العمومية، خلال دقيقتين فحسب وهناك سيمتزج بالسيارات العابرة، ويصير من العسير، إن لم يكن من المستحيل، أن يتم تمييزه، أو العثور عليه.

ولكل هذا فقد تحرك في سرعة، عاونه عليها إدراكه لطريقه جيدا، بعد أن درس المنطقة كلها في اليوم السابق، ووضع خريطة تحركه مسبقا وعلى الرغم من ثقته الشديدة في كل ما خطط له، فقد توقف فجأة، وانعقد حاجباه في شدة...
طائرات الهليوكوبتر تتراجع!!...
فما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟!...
المفترض، وفقا لأبسط القواعد، أن تواصل حومها حول المكان كله؛ حتى تتيقن من أن المكان نظيف تماما ولكنها تتراجع!!...
إجراء طبيعيا....
وهذا ليس طبيعيا أبدا.
وخبرته الطويلة، في عالم المخابرات العمومية، تشير إلى أن أي تغير في إجراءات الأمن، يعني وجود خطة غير تقليدية..

انطلق عقله بسرعة الصاروخ يحاول استنتاج ماهية تلك الخطة الجديدة تراجع طائرات الهليوكوبتر، يعني أن هناك خطة تستهدف الإيحاء بالثقة في مصرعه، حتى يفقد حذره الزائد، ويتحرك في ثقة؛ ليقع في فخ ما، تم إعداده له بدقة فما هي طبيعة هذا الفخ؟!..
هل كشفوا سيارته، على الرغم من براعته في إخفائها؟!...
هل يكمنون له هناك؟!...
هل؟!..
راح عقله يعمل في كل الاتجاهات، ويدرس كل الاحتمالات، وكأنه أمام رقعة شطرنج كبيرة، يواجه عليها بطل العالم في اللعبة، في مراحلها الأخيرة.
وعليه أن يستخدم كل براعته وخبراته وقدراته، في تحريك قطعة، و...

«لا توجد خطة بديلة..»
ارتفع الصوت من خلفه فجأة، وصدم أذنيه في شدة فاستدار إلى مصدره في سرعة مدهشة، وارتفع مسدسه نحوه..
ثم، وعلى الرغم من اعتياده المفاجآت والصدمات، ومن قدرته المدهشة على استيعابها وتجاوزها، في سرعة تفوق الوصف، فقد تجمد في موقفه، واتسعت عيناه عن آخرهما فما رآه امامه كان مذهلًا وبكل المقاييس..

☆ ☆ ☆

«مستحيل..»
هتف قائد هليوكوبتر المفتش (رياض) بالكلمة، وكل لمحة من لمحات وجهه تشف عن ذهوله وانفعاله الشديد...
وفي انفعال مماثل، على الرغم من محاولة إخفائه، غمغم (رياض):
- إنه ليس رجلًا عاديا..
هتف قائد الهليوكوبتر:
- بالتأكيد... لقد وثب من الهليوكوبتر، بلا ذرة واحدة من التردد، ودون أن تتوقف، وعلى الرغم من هذا، فقد هبط على السقف في رشاقة مذهلة، وكأنه يملك جسد فهد، وقلب أسد.
غمغم (رياض)، محاولا كتمان انفعاله:
- إنه كذلك.
صمت قائد الهليوكوبتر لحظة، ثم تساءل في حذر:
- ولكن كيف جعلتموه يشبه مجرم القرن، إلى هذا الحد المذهل؟!
انعقد حاجبا (رياض)، وهو يجيب في صرامة:
- هذه معلومات سرية للغاية.

هز قائد الهليوكوبتر رأسه، وكأنما يعلن اكتفاءه بهذا، إلا أنه عاد يسأل في اهتمام:
- لا بد أن لديه خطة قوية... أليس كذلك؟!..
لم يكن (رياض) يدري ما الذي ينتويه (أكرم صدقي) بالضبط ولا كيف سيواجه بديله في هذا العالم أو كيف وماذا سيحدث بينهما كل ما كان يثق به، هو أنها لن تكون مواجهة عادية، بأي حال من الأحوال ولأنه لا يدري شيئا، فقد كرر في عصبية مقتضبة:
- سرية للغاية.
وازداد انعقاد حاجبيه...
كثيرا...
في نفس اللحظة، التي فعل فيها هذا، كان اللواء (فتحى) ورجاله قد وصلوا إلى أطراف تلك المدينة الجديدة، وكان هو يقول لرجاله في صرامة، عبر أجهزة الاتصال:
- حاصروا المكان كله، وليبدأ الفريق (أ)، والفريق (ب)، في تمشيط كل شبر منها، دون إهمال شبر واحد..
بدأ رجاله عملية الانتشار على الفور، واندفع الفريقان المشار إليهما؛ لتمشيط المكان وفقا للأوامر، ووفقا لما تدربوا عليه في هذا الشأن، إلا أن أحد قائدي الفرقتين تساءل:
- لو افترضنا أنه لم يلق مصرعه بصاروخ الهليوكوبتر يا سيادة اللواء، فماذا ينبغي أن نفعل، إذا ما عثرنا عليه؟!... هل نلقى القبض عليه، أم...
قاطعه اللواء (فتحي) في صرامة:
- أطلقوا النار على الفور... لن نجازف بمحاولة إلقاء القبض عليه مرة أخرى.
حمل صوت الرجل ارتياحه، وهو يقول:

- كما تأمر يا سيادة اللواء.
التقط جهاز اتصال (رياض) هذه المحادثة القصيرة، فهتف في غضب:
- ماذا تفعل يا سيادة اللواء؟!.. لقد طلبت منك في وضوح الابتعاد تماما عن هذه المنطقة..
صاح به اللواء (فتحى)، عبر جهاز الاتصال:
- ما طلبته يعد خيانة عظمى أيها المفتش..
صاح (رياض) بدوره:
- مع اعتذاري لفارق الرتب، فأنا المسئول عن هذا الملف أيها اللواء، ووحدى أقرر ما ينبغي، في هذا الشأن.
بدا اللواء (فتحى) شديد الغضب، وهو يصرخ:
- يمكنك أن تتقدم بشكوى رسمية.
ثم أضاف قبل أن ينهي الاتصال:
- بعد أن أحظى بجثة مجرم القرن.
احتقن وجه (رياض) في شدة، مع قطع الاتصال، ورسم عقله صورة لفرق الأمن، وهي تطلق النار على (أكرم صدقى)؛ باعتباره مجرم القرن، فسرت في جسده قشعريرة عجيبة، جعلته يقول لقائد الهليوكوبتر في عصبية صارمة:
- اهبط إلى جوار سيارة اللواء (فتحى)، في حين أجرى اتصالا هاما..
وتراجع بنفس العصبية، وهو يجرى ذلك الاتصال برئيسه المباشر...
أما داخل تلك المدينة الجديدة، فقد راح أفراد الفريقين (أ) و(ب)، يمشطون المدينة مبنى بعد آخر، وعبر خطة ممنهجة، تضمن عدم إفلات فأر صغير من بين أيديهم وعبر جهاز الاتصال الداخلي المحدود، قال قائد الفرقة (أ) لرجاله:

- اعملوا على تأمين كل مبنى يتم تمشيطه، حتى لا يعود إليه الهدف، بعد أن نفرغ منه
وانعقد حاجباه دون أن يدري، وهو يضيف:
- في حال أنه لم يلق مصرعه بالفعل.
لم يكد يتم اتصاله، حتى جاءه صوت اللواء (فتحى)، يقول في صرامة:
- انتهت المهمة... لقد لقى الهدف مصرعه بالفعل، عثرنا على جثته المحترقة، داخل السيارة المدرعة.
قفز حاجبا قائد الفرقة (أ) يرتفعان، وهو يغمغم في دهشة:
- حقا؟!
ثم عاد حاجباه ينعقدان، وهو يضيف في توتر:
- ولكن كيف تم هذا الاتصال يا سيادة اللواء؟!... المفترض أن موجة الاتصال هذه موجة مغلقة، محدودة بأفراد الفرقة وحدهم!!...
أتاه من خلفه صوت خافت، يحمل رنة ساخرة، وهو يقول:
- ربما لأنه لم يأت فعليا من لوائك.
استدار قائد الفرقة (أ) في سرعة، ليواجه صاحب الصوت، وهو يرفع مدفئه الآلى، ولكن كل ما رآه في تلك اللحظة هو قبضة قوية، تتجه نحو أنفه مباشرة...

☆ ☆ ☆

ارتسم مزيج من الغضب والعصبية، على وجه اللواء(فتحى)، عندما هبطت هليوكوبتر المفتش (رياض) إلى جواره، فشد قامته، وشبك أصابع كفيه خلف ظهره، في وقفة صارمة متعالية، وهو يتابع المفتش، الذي قفز من الهليوكوبتر واندفع نحوه قائلا:

- ستصلك أوامر من الوزير شخصيا يا سيادة اللواء، لتؤكد لك أنني وحدى المسئول عن هذا الملف.
أجابه اللواء في غطرسة عصبية:
- جهاز الاتصال الخاص بي أصابه عطب مفاجئ، ولن يمكنني تلقى هذا الاتصال المزعوم.
ناوله (رياض) جهاز اتصاله، وهو يقول:
- يمكنك استخدام هذا..
التقط اللواء جهاز اتصال (رياض) في هدوء، وقلبه بين يديه، ثم رفع عينيه إلى هذا الأخير، قائلًا في برود:
- وماذا عن الرصاصة التي أصابته؟!
تساءل (رياض) في دهشة مستنكرة:
- أية رصاصة؟!
ألقى اللواء (فتحى) جهاز اتصال (رياض) أرضا، وسحب مسدسه في سرعة؛ ليطلق عليه رصاصة، ثم يعيده إلى جيبه بنفس السرعة، مبتسما في شراسة، وهو يجيب:
- هذه.
احتقن وجه المفتش (رياض)، وهو يقول في غضب:
- لن يفلت هذا دون عقاب.
اتسعت ابتسامة اللواء (فتحى)، وهو يشيح بوجهه، مغمغما:
- يمكنك أن تحاول.
قالها، ثم انعقد حاجباه في شدة؛ عندما لمح رجال الفرقتين(أ) و(ب)، وهم يعودون من المدينة الجديدة، فهتف بهم في حدة:
- لماذا عدتم؟!... المفترض أن تبقوا في مواقعكم!
أجابه أحدهم في دهشة:
- ولكنهم أخبرونا أنكم قد عثرتم بالفعل على جثة مجرم القرن محترقة، داخل السيارة المدرعة.

صرخ فيه اللواء بكل غضبه:
- أي أحمق أخبركم هذا؟!... لقد أطفأنا نيران السيارة منذ لحظات فحسب، ولم نبدأ عملية فحصها بعد.
اعتدل المفتش (رياض)، وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة، امتزجت بالتماعة عينيه، ورجل الفرقة يغمغم حائرا مرتبكا:
- قائدو فرقنا أخبرونا بهذا يا سيادة اللواء!!
سمع (رياض) من خلف صوت (أكرم) يهمس:
- هيا بنا.
كان اللواء (فتحى) يصرخ:
- إنها خدعة أيها الحمقى... عودوا إلى مواقعكم، حتى أصدر لكم شخصيا الأمر بالعودة.
تجاهل المفتش (رياض) غضب اللواء (فتحى)، وهو يلتفت إلى الواقف خلفه، والذي يرتدى زى أفراد الفرقة (أ)، وغمغم، وهو يعود إلى الهليوكوبتر:
- هيا.
استقل كلاهما الهليوكوبتر، التي ارتفع قائدها على الفور، فهتف أحد أفراد الفرقتين:
- لماذا اصطحب زميلنا؟!
استدار اللواء (فتحى) إلى الهليوكوبتر في سرعة، وكاد يشتعل غضبا، وهو يصرخ:
- أوقفوا هذه الهليوكوبتر... أطلقوا عليها النار.
ارتبك الرجال، فلم يطلقوا النار على الفور، وغمغم أحدهم متوترا:
- على المفتش (رياض)؟!
لم يجبه اللواء (فتحى)، وهو يتابع بكل غضبه الهليوكوبتر التي راحت تبتعد في سرعة، جعلتها بعيدة عن متناول رصاصات

رجاله، وضاعف من غضبه أنه لا يستطيع أن يأمر طائرات الهليوكوبتر، التي ابتعدت بالفعل، بمطاردة هليوكوبتر، بداخلها المسئول الرسمي عن ملف مجرم القرن فغمغم بكل ما يشتعل في أعماقه:

أما في داخاء الهليوكوبتر، فقد هتف (رياض) في انبهار:

- كيف فعلتها؟!

صمت (أكرم) لحظات، قبل أن يغمغم في بطء:

- بالطريقة المعتادة.

لم تكن إجابة شافية، فتساءل (رياض) في حذر:

- هل واجهته؟!

خلع (أكرم) خوذة الفريق (أ)، وهو يجيب بنفس البطء:

- كانت مواجهة مدهشة.

كانت شفتاه تحملان ابتسامة ساخرة، وهو يلقى إجابته الأخيرة، فتراجع (رياض) في حركة حادة، وهو يهتف:

- لست (أكرم صدقى).

التفت إليه (أكرم)، وهو يقول، وقد اتسعت ابتسامته الساخرة:

- هذا هو ما يطلقونه على، منذ مولدى.

صاح (رياض)، وهو يستل مسدسه:

- أنت مجرم القرن.

وقبل أن يرتفع مسدسه، هوت قبضة مجرم القرن على فكه بقوة..

☆ ☆ ☆

الفصل السابع

نفثت (صوفيا جريشام) دخان سيجارتها الرفيعة، في بطء واستمتاع، قبل أن تخفض عينيها إلى مستر (زد)، قائلة في ثقة ظافرة:

- هذا حقيقى يا مستر (زد)... (أكرم صدقى) صار اليوم تحت سيطرتي الكاملة.

بدا عليه الشك وعدم التصديق، وهو يتطلع إليها في صمت، طال حتى وجدت نفسها تضيف:

- الفكرة قفزت إلى ذهني، عندما وقع في يدي ذلك الاختراع الفذ، لشريحة إليكترونية دقيقة، في حجم ميكروسكوبي، يمكن دفعها عبر إبرة محقن عادي، في عنق أي فرد عادي، فتصدر ذبذبات خاصة، تجعل عقله ملك يمينك، يطيع أوامرك، وينفذ ما تدفعه إليه، دون أن يدرك حتى أنه يفعل.

واصل مستر (زد) صمته لحظات، ثم تساءل في حذر:

- لماذا إذن مازال يحتفظ بكل قدراته ومهاراته؟!

ابتسمت، وهي تنفث دخان سيجارتها مرة أخرى، ثم أجابت:

- وما حاجتي إليه، لو لم يملك كل هذا؟!

ثم مالت نحوه، مضيفة في حزم:

- العبقرية ليست في أن تقضى على (قاهر المستحيل)، بل في أن تجند كل قدراته لصالحك....

تراجع في مقعده، وهو يقول في اهتمام:

- وهذا ما يبدو لي ناجحا، حتى هذه اللحظة..

رفعت حاجبيها الجميلتين وخفضتهما، وهي تقول:

- أرأيت!!...

عاد يعتدل في حركة حادة، متسائلا في حزم:

- ولكن ماذا تستهدفين في النهاية؟!... أن يصير مجرما؟!
هزت كتفيها، قائلة:
- لقد صار بالفعل... ولقد رأيت بنفسك، كيف أنه قد صار مجرم القرن) كما يصفونه، وليس مجرد مجرم عادى.
غمغم:
- هذا صحيح.
ثم استدرك في صرامة:
- ولكن هذا الهدف لا يفيدنا بشيء.
ابتسمت في ثقة، ولوحت بيدها الممسكة بسيجارتها، وهي تجيب:
- لقد أفادنا بالفعل.
وعادت تميل نحوه، مضيفة في ثقة:
- وستدرك هذا، بعد أقل من ساعة واحدة.
انعقد حاجباه في شدة، وهو يكرر في حذر:
أقل من ساعة واحدة؟!
إعتدلت في مقعدها، ونفثت دخان سيجارتها في بطء، وكأنها تتعمد أن تلهب أعصابه، قبل أن تقول:
منذ قليل، نجح (أكرم صدقى) في اقتحام مدينة البحوث العلمية، وحصل على تصميمات أحدث سلاح إليكتروني ابتكرته العقول المصرية، وهو قادر على إيقاف عمل كل الأجهزة الرقمية، في لحظة واحدة، بحيث يصبح عدوهم أعمى لا يملك ردارا، أو أجهزة توجيه رقمية، أو حتى نظم تصويب إليكترونية، فلا يعود قادرا على رصد طائرات تتجه نحوه، أو التصدى لها... باختصار، هذا السلاح سيحول أية مواجهة بين المصريين وأي عدو لهم، إلى مواجهة بين القرن الحادي والعشرين، والقرن التاسع عشر..
سألها مستر (زد) في انبهار:

- وهل خرج به من مدينة البحوث العلمية بالفعل؟!
ابتسمت ابتسامة كبيرة، وهي تقول:
- إننا نتحدث عن (قاهر المستحيل) سابقا، و(مجرم القرن حاليا..
سألها في لهفة:
ومتى نستطيع الحصول على تلك التصميمات؟!
أجابته في سرعة:
- لقد أخبرتك.
وعادت تنفث دخان سيجارتها الرفيعة، قبل أن تلقى ما تبقى منها إلى ركن الحجرة، مكملة، وعيناها الجميلتان تتألقان في ظفر:
- بعد أقل من ساعة واحدة:
وتضاعف انبهار مستر (زد)...
ألف مرة...

☆ ☆ ☆

«هرب؟!..»
صرخ رئيس (رياض) بالكلمة، في غضب رهيب، في وجه المفتش (رياض)، الذي بدا في حالة مزرية، يمسك أنفه، الذي لم يتوقف عن النزيف، إلا منذ قليل، بعد لكمة (أكرم) القوية، فغمغم هذا الأخير، في ألم واضح:
- المفاجأة كانت أكبر من كل توقعاتى يا سيدى....
الرجلان نسخة طبق الأصل من بعضهما البعض، وعندما غادرت ساحة القتال، مع مجرم القرن، كنت أتصور أننى أغادرها مع (أكرم صدقى) الآخر، الذي أحضرناه من عالمه!
هتف رئيسه في غضب:
- بهذه البساطة؟!

هز (رياض) رأسه، مغمغما في أسى:
- للأسف.
انقلبت سحنة رئيسه في غضب شديد، وحدجه بنظرة نارية ثم دفع قدميه دفعا؛ للعودة إلى خلف مكتبه، قبل أن يقول في عصبية:
- وماذا عن الآخر؟؟
التقط (رياض) نفسا عميقا، قبل أن يقول:
- لا أحد يدري!
هتف به رئيسة مرة أخرى:
- ما الذي يعنيه هذا؟!... رجلان داخل مدينة جديدة يواجهان بعضهما البعض، وكلاهما في مثل قدرات الآخر وأحدهما عاد ظافرا، فأين ذهب الآخر؟!.... أهذا سؤال بهذه الصعوبة؟!
صمت (رياض) لحظات، قبل أن يجيب:
- قوات اللواء (فهمي) أعادت تمشيط المدينة الجديدة، وكل ما يحيط بها، مترا مترا، وشبرا شبرا، دون أن يسفر هذا عن العثور على أي مخلوق حيّ.
ضرب رئيسه سطح مكتبه براحته، وهو يقول في عصبية:
.. هذا يتعارض مع المنطق.
غمغم (رياض)، وكأنه يحادث نفسه:
- ومع الوقائع أيضا..
ران على كليهما صمت مهيب، قبل أن يسأل رئيسه مرة أخرى:
- وماذا عن قائد الهليوكوبتر؟!.... هل استجوبته بشأن ما حدث، بعد أن أفقدك مجرم القرن وعيك..
أومأ (رياض) برأسه إيجابا، قبل أن يقول:
- كل ما يعلمه هو أن مجرم القرن قد أجبره على الهبوط بالهليوكوبتر، خارج حدود تلك المدينة الجديدة، ثم استولى على

الهليوكوبتر، وفر بها من المكان..
سأله رئيسه - في سرعة:
- وماذا عن تقارير وحدات الرادار، ووحدات الدفاع الجوي؟!
أجابه (رياض) بنفس السرعة:
الهليوكوبتر هبطت على بعد خمسة كيلومترات، من المدينة الجديدة، وتم العثور عليها قبل قليل، ولكن دون أن يعثروا على أي أثر لمجرم القرن، باستثناء بصماته داخلها..
تراجع رئيسه في مقعده، ولاذ بالصمت والتفكير لحظات، قبل أن يقول في عصبية:
- مهما كان أو حدث، فمازال السؤال الأساسي مطروحا.
وعاد يميل إلى الأمام، مضيفا:
- أين ذهب الآخر؟!
وكان هذا هو السؤال بالفعل..
أين ذهب (أكرم صدقى)؟!
(أكرم) عالمنا؟!...
أين؟!..

☆ ☆ ☆

انطلقت تلك السيارة الرياضية الصغيرة، عبر شوارع(القاهرة)، متفادية مواقع أكمنة الشرطة، التي انتشرت في العديد من الشوارع، مسترشدة بجهاز تحديد موقع عالمى (GPS)، من نوع خاص، تمت برمجته مسبقا؛ ليقودها إلى نقطة بعينها، على أطراف مدينة(القاهرة) وفي داخلها بدا (أكرم صدقى) هادئا واثقا، وكأنما هو في نزهة جميلة، وليس شخصا مطلوبا، على أعلى درجة من الأهمية والخطورة، على مستوى (مصر كلها...
وأمام منزل من طابقين، توقفت سيارة (أكرم)، وهبط هو منها بنفس الهدوء، وتلفت حوله، ثم اتجه نحو باب المنزل، وأخرج

من جيبه بطاقة ممغنطة، مررها في جهاز صغير، إلى جوار الباب، فانفتح الباب في هدوء، ليعبره هو، ثم يغلق خلفه في إحكام ومع انغلاق الباب، أضيئت الأنوار على نحو تلقائي، وظهر رجل أصلع، ضخم الجثة، يقف في منتصف قاعة كبيرة استقبل (أكرم) بابتسامة كبيرة، وهو يقول:

- نجحت كالمعتاد.

اكتفى (أكرم) بابتسامة هادئة، دون أن يجيب، فمدّ إليه الأصلع يده، قائلًا:

- هل أحضرت المطلوب؟!...

أجابه (أكرم) في هدوء:

- ومن أنت لأعطيك إياه؟!

بدا الأصلع غاضبا، صارما، وهو يقول في حدة:

- أنا من ينبغي أن تعطيني إياه

ابتسم (أكرم) ابتسامة ساخرة، وهو يقول:

- وماذا لو رفضت؟!... هل ستحاول الحصول عليه بالقوة؟!

قالها (أدهم)، وهو يضم قبضته، فتطلع إليها الأصلع لحظات، مستعيدا كل ما سمعه عن قدرات (أكرم)، وساد صمت ثقيل لحظات، ثم التقط الأصلع هاتفه الخاص، وطلب رقما قصيرا، ثم قال في صرامة وعصبية:

- إنه يرفض منحى ما جئت لأجله.

استمع إلى الطرف الثاني لحظات، ثم غمغم:

- فليكن.... سأنتظر.

قالها، وأعاد هاتفه إلى جيبه، ثم عقد كفيه أمامه، وتطلع إلى (أكرم) في اهتمام، فعاد (أدهم) يبتسم في سخرية، قائلًا:

- هل تنتظر نجدة من السماء؟!

حاول الأصلع أن يبتسم، وهو يقول:

- بل من رأسك.
مع نهاية عبارته، انعقد حاجبا (أكرم)، وبدا وكأنه يعاني ألمًا ما، ثم لم يلبث أن رفع كفيه إلى رأسه، يمسكه بكلتيهما وكأنه يحاول منعه من الانفجار، فاتسعت عينا الأصلع، وهو يقول:
- استسلم يا مجرم القرن... لن تستطيع المقاومة طويلًا بدا وكأنه على حق في قوله هذا، فقد تضاعفت ملامح الألم على وجه (أكرم)، وأحنى رأسه، وهو مازال يمسكه بكفيه، وندت من بين شفتيه أهة ألم، جعلت الأصلع يقول في ظفر:
- ما رأيك في الحديث عن القوة الآن؟!
وفي هدوء، اتجه نحو (أكرم)، مضيفا:
- كان الأفضل لك أن تعطيني ذلك الشيء بنفسك، بدلًا من أن أنتزعه من جثتك....
تعالت آهات الألم، من بين شفتي (أكرم)، والأصلع يقترب منه ويقترب...
ويقترب...
ومع ابتسامة واسعة كبيرة، مد يده إلى جيب (أكرم)، و...
وفجأة، قبضت يد (أكرم) على معصمه بأصابع من فولاذ على نحو جعل الأصلع يرتجف في قوة، وتتسع عيناه عن اخرها، مع ابتسامة (أكرم) يعتدل بكل الحيوية والنشاط، قائلًا:
- بمناسبة الحديث عن القوة.
وكانت مفاجأة...
مذهلة.

☆ ☆ ☆

الفصل الثامن

«أين اختفى (أكرم)؟!...»

كاد عقل المفتش (رياض) يشتعل، وهو يطرح السؤال على نفسه للمرة الألف، بعد أن انتهى اللواء (فتحى) ورجاله، من تفتيش كل شبر في المدينة الجديدة، القريبة من مدينة البحوث العلمية، وفحص كل ما يحيط بها، دون العثور على أدنى أثر للمفقود..

(أكرم صدقى) عالمنا...

ومجرم القرن عالمهم، لم يعثر له أحد على أدنى أثر، ولم يقدم على أية خطوة جديدة، منذ فر بهليوكوبتر الشرطة وبهذا تضاعف الغموض ألف مرة أو يزيد..

وبينما هو غارق في أفكاره، وأسئلته، طرق مساعده (على) الباب ثلاث مرات، فلما لم يتلق جوابا، دفع الباب في حذر وارتفع حاجباه في دهشة، عندما شاهد (رياض) يجلس بالقرب من نافذة حجرته، دون أن يشعر حتى بقدومه، فتنحنح مرتين، قبل أن يقول في صوت خافت، وكأنه بخشى اقتحام خلوته:

- سيدي المفتش.

انتفض جسد (رياض) انتفاضة خافتة، لم تخطئها عينا(على)، قبل أن يلتفت إلى هذا الأخير، قائلًا في توتر:

- ماذا هناك؟!

غمغم (على)، وهو يدخل إلى الحجرة، في خطوات مترددة:

- يبدو أن مجرم القرن قد قرر التحول إلى العالمية يا سيادة المفتش.

أثارت العبارة (رياض) في شدة، فاستدار إليه بجسده كله، وهو يقول في عصبية:

- من أين جئت بهذا؟!...
أشار (على) بيده، مجيبا:
- لقد غادر إلى (روما)، في طائرة السابعة صباحا
هتف المفتش (رياض) بكل انفعاله:
- ماذا؟!... أي قول أحمق تقوله بهذه البساطة يا (على)؟!... كيف يمكن لرجل، يحفظ كل رجل أمن في(مصر) صورته، عن ظهر قلب، أن يغادر البلاد، دون أن يستوقفه شخص واحد؟!
أجابه (على)، في سرعة وتوتر:
- لم يكن من الممكن أن يوقفه أحد يا سيدي.
صرخ (رياض):
- ولماذا؟!... هل اختطف الطائرة بالقوة؟!
تراجع (على) خطوة، وكأنه يخشى غضبه، وهو يجيب متوترا:
- كلا بالتأكيد يا سيادة المفتش، ولكنه غادر بهوية شخص آخر.
هبَّ (رياض) من مقعده، هاتفًا:
- مستحيل!... لا يمكن لشخص أن يغادر، دون فحص بصماته، و...
قاطعه (على) بكل توتره:
- لقد اجتاز كل إجراءات الأمن يا سيدي.
صدم الجواب (رياض)، فتجمد في مكانه لحظة، قبل أن يكرر في ذهول:
- مستحيل!!...
ازدرد (على) لعابه، قبل أن يقول، وقد تضاعف توتره:
- الأهم أنه قد غادر بهوية شخص، ليس من السهل استيقافه، أو الشك في أمره...
تساءل (رياض) في صوت مبحوح:
- رئيس الجمهورية؟!...

ازدرد (على) لعابه مرة أخرى، قبل أن يجيب بكل التوتر:
- بل أنت يا سيادة المفتش غادر بهويتك أنت....
واتسعت عينا (رياض)، بكل ذهول الدنيا وعلى الرغم من هذا، كان اتساع عينيه هو أقل مما يشعر به في أعماقه بكثير....

☆ ☆ ☆

انعقد حاجبا (صوفيا جريشام) في توتر شديد، وهي تحاول للمرة العاشرة، الاتصال برجلها الضخم (ريكو)، الذي كان من المفترض أن يتسلم برنامج الشلل الكهرومغنطيسي، الذي استولى عليه (أكرم)، من معامل مدينة البحوث العلمية في (مصر)..
كان آخر ما تعلمه، هو أنه قد التقى ب- (أكرم) بالفعل، في مكان اللقاء المتفق عليه وأن (أكرم) كان يرفض تسليمه البرنامج حتى أطلقت هي تلك الإشارة، التي تتصل بالشريحة الميكروسكوبية، المزروعة في جسد (أكرم)، والتي تجبره على طاعة أوامرها، على الرغم منه بعدها انقطع الاتصال، بينها وبين هاتف (ريكو) تماما وهذا يثير قلقها وتوترها وبشدة...
وعلى الرغم من أنها تبغض هذا في شدة، إلا أنها، ومع توترها الشديد، التقطت هاتفها المحمول، وطلبت رقما خاصا لم تكد تسمع صوت صاحبته، حتى قالت، محاولة التظاهر بالتماسك:
- دونا (كاترينا)... كيف أنت اليوم؟!
أتاها صوت دونا (كاترينا)، زعيمة (المافيوزا) الإيطالية محملًا برئة ساخرة تبغضها، وهي تقول:
- لست أظنك تجرين هذا الاتصال، فقط لسؤالي عن يومى يا (صوفيا)...
حاولت كتمان ذلك الغضب، الذي يشتعل في أعماقها، إلا أنها خلفت بعض التوتر في نبراتها، وهي تقول:
- هل من أخبار عن (ريكو)؟!... هل عاد من (مصر)؟!

صمتت دونا (كاترينا) لحظات، قبل أن تسأل في جدية:
- لم أتلق منه أية اتصالات، منذ بدأ العمل لحسابك يا (صوفيا)... ولست أدرى حتى لماذا أرسلته إلى (مصر)...
ولا ماذا يفعل هناك... فوفقا لاتفاقنا، المفترض أن تكون اتصالاته معك فقط، مقابل ما اتفقنا عليه..
لم تجب (صوفيا) تساؤلاتها، فأضافت دونا (كاترينا)، في شيء من الصرامة:
- ومازلت أتساءل: لماذا استعنت بأحد رجالي، دون أي شخص من رجالك، الذين يفترض أنهم أكثر احترافا؟!...
أجابتها (صوفيا)، في شراسة نابعة من عصبيتها:
- اتفقنا على أن أخبرك بكل شيء، فور انتهاء العملية ثم إنك قد تقاضيت ما يكفي؛ للامتناع عن السؤال.
هتفت بها دونا (كاترينا) في غضب:
- ماذا كنت تتصورينني يا (صوفيا)؟!... زعيمة وكالة لتأجير العملاء والقتلة المحترفين، مقابل أجر مجز؟!... إننى لم أتعاون معك: مقابل حفنة من ملايين الدولارات، يمكنني حصدها، عبر مئات المشاريع، التي تديرها (المافيوزا)، في مختلف أنحاء العالم، خلال أسبوع واحد... لقد تعاونت معك؛ لأن تعاوننا سيصنع منا قوة، لا قبل لأي كيان بالوقوف أمامها أو التصدى لها.
أجابتها (صوفيا) في عصبية:
- وهذا ما أسعى إليه أنا أيضا يا دونا... صدقيني صدقيني... ولكن العملية تمر الآن بأدق مراحلها، واختفاء (ريكو)، في هذه المرحلة بالتحديد، يورثني حالة من العصبية، ربما كانت المسئول الأول عن طريقة حديثي معك.

ران الصمت لحظات على خطوط الهاتف، قبل أن تقول دونا(كاترينا)، وقد استعادت تماسكها:
- فليكن يا (صوفيا)... سأواصل اتفاقنا بنفس الشروط ولكنني سألزمك بكل التفاصيل، عقب انتهاء تلك العملية، التي تتحدثين عنها.
سألتها (صوفيا)، عاجزة عن كتمان توترها:
- (ريكو)؟!...
وماذا عنه..
مضت لحظة صمت أخرى، قبل أن تجيب دونا:
- سأحاول معرفة أية تفاصيل بشأنه..
أجابتها (صوفيا) في توتر:
- فليكن.
ثم أنهت المحادثة على الفور، وهي تغمغم في مقت:
- فلتتم العملية أولا، ثم لتذهبي بعدها إلى الجحيم، أنت ومنظمتك كلها يا (كاترينا).
قالتها، وألقت هاتفها المحمول على المائدة، وتراجعت في مقعدها، والتوتر مازال يملأ كل خلية من خلاياها، والسؤال مازال يطرح نفسه على عقلها في إلحاح مؤلم...
أين (ريكو) الآن؟!...
أين؟!...

☆ ☆ ☆

«غادر (القاهرة) صباح اليوم..»
قالها نائب مدير المخابرات العمومية، في العالم الموازي، فرفع إليه مدير المخابرات العمومية عينيه، وهو يتساءل:
- هل حصلتم على معلومات كافية بشأنه؟!...
أومأ النائب برأسه إيجابا، وهو يجيب:

- اسمه (ريكو باريللي)، عضو نشط، في منظمة(المافيوزا) الإيطالية، ولكنه يعمل لحساب جهة أخرى بأوامر من دونا (كاترينا)، زعيمة المنظمة... ومعلوماته عن تلك الجهة الأخرى محدودة، ولا يملك سوى رقم هاتف، ينبغى الاتصال به عند الضرورة..

تراجع مدير المخابرات في مقعده، واستغرق في التفكير لحظة، قبل أن يقول، وكأنه يحادث نفسه:

- مازال هناك ما ينقصنا إذن...

أجابه نائبه في اهتمام:

- ولكننا نسير في خطوات سليمة يا سيادة الوزير.

أومأ المدير برأسه، قائلًا:

- سليمة ولكن بطيئة.

غمغم النائب:

- المهم أن تكون ناجحة يا سيادة الوزير.

مرة أخرى، أومأ المدير برأسه إيجابا، قبل أن يعتدل جالسا وهو يقول في حزم:

- الأمر هذه المرة شديد الأهمية والخطورة، والهدف يستحق الجهد والعرق والتضحيات... ولكننا إذا ما بلغناه، فسيساوى هذا الثمن الذي ندفعه بالتأكيد..

عاد النائب يغمغم:

- بالتأكيد يا سيادة الوزير... بالتأكيد.

غرق مدير المخابرات العمومية في صمته وتفكيره بعض الوقت، قبل أن يقول:

- عموما، أنت تعرف القواعد في المرحلة التالية سنلتزم تماما الصفتيين اللذين نؤمن بهما... الصمت... والصبر...

ابتسم نائبه، دون أن يجيب، ولكن المدير لم يبادله الابتسام وإن هم بقول شيء ما، عندما ارتفع رنين الهاتف المجاور له، فالتقطه بحركة آلية، قائلا:

- ماذا هناك؟!...

أتاه صوت مدير أمن مبنى المخابرات العمومية، وهو يقول:

- هناك زائر بلا موعد، يصر على مقابلتك شخصيا يا سيادة الوزير، ويقول إنه أمر عاجل، يخص الأمن القومي انعقد حاجبا المدير، وهو يتساءل:

- ومن يكون هذا الزائر؟!

ازداد انعقاد حاجبيه، عندما أخبره مدير الأمن باسم الزائر فبكل المقاييس، كانت زيارة غير متوقعة على الإطلاق...

☆ ☆ ☆

ألقت (صوفيا جريشام) سيجارتها الرفيعة أرضا، وسحقتها بقدمها في حدة، قبل أن تنفث دخانها في عصبية، وتقول لقائد حراسها:

- كيف لم تعثروا على هذا الخرتيت؟!... المفترض أنكم مدربون على عمليات البحث والاستطلاع، فكيف تعجزون عن العثور على شخص بهذا الحجم؟!

أجابها قائد حراسها في توتر:

- هاتفه لا يعمل أيتها الزعيمة.... والوسيلة الوحيدة لتعقبه عبر الأقمار الصناعية، هي أن يعمل، ولو لحظة واحدة.

قالت في عصبية:

- المفترض أنكم تستطيعون هذا، حتى ولو أغلق هاتفه...

أجابها، في توتر أكثر:

- إلا لو انتزع البطارية منها أيتها الزعيمة.

أشعلت سيجارة أخرى، في توتر مضاعف، ونفثت دخانها بكل العصبية، قبل أن تقول:
- هل فقدنا أثره إذن؟!...
قلب الرجل كفيه في استسلام عصبى، ثم قال في سرعة، عندما لمح الغضب في عينيها:
- ربما لو...
قاطعته في حدة:
- لا يوجد ربما..
تراجع قائد الحراس في قلق، فصرخت فيه:
- اعثروا عليه... وبأي ثمن.
أسرع ينصرف، وهو يتساءل: كيف يمكنهم العثور على رجل، لا توجد أية وسيلة لتحديد موقعه؟!... أما هي، فقد عادت تنفث دخان سيجارتها، في مزيد من العصبية والغضب وعقلها يشتعل في شدة وفي أعماق عقلها الملتهب، انطرح سؤال مخيف ماذا لو أن (ريكو) قد حصل على البرنامج بالفعل، ولكنه لا ينوى العودة به إليها؟!...
ماذا لو أنه أدرك قيمته، وقرر الاحتفاظ به، والمقايضة عليه؟!...
برنامج كهذا يساوى المليارات هذا لو أدرك خرتيت مثل (ريكو) ماهيته وأهميته وخطورته ووفقا للتقييم الخاص به، فمن المستحيل أن يدرك هذا وحده...
ولكن ماذا لو أن دونا (كاترينا) هي من وراء هذا؟!..
ماذا لو أنها أخلت بالاتفاق، و...
قبل أن تتم تساؤلها الأخير، ارتفع رنين هاتفها الخاص، فالتقطته في سرعة، ورأت اسم دونا على شاشته، فأسرعت تضغط زر الإجابة، وهي تقول في حذر:

- هل من جديد يا دونا؟!
أتاها صوت دونا (كاترينا) حازما، وهي تقول:
- (صوفيا)... لقد عثرنا على (ريكو).
وانتفض جسد (صوفيا جريشام) في قوة فقد حطم هذا كل تصوراتها تماما..

☆ ☆ ☆

الفصل التاسع

لثوان، وفي هدوء شديد، لا يعكس ما يعتمل في أعماقه جلس مدير المخابرات العمومية، للعالم الموازي، يتطلع إلى المفتش (رياض)، الذي بدا - على عكسه - شديد التوتر يفرك كفيه في عصبية، وإن ظل مثله صامتا، حتى قطع مدير المخابرات حالة الصمت المهيبة، وهو يقول:

- ليس من التقليدي أن أستقبل بنفسى زائرا، دون موعد سابق، ولكن دعني أسألك: بم يمكن أن أخدمك، أيها المفتش (رياض)؟!...

تنحنح المفتش (رياض) كعادته، قبل أن يقول، في لهجة عكست توتره:

ما جئت من أجله ليس تقليديا يا سيادة الوزير، ولكنني أؤمن بأنني لن أجد الجواب سوى هنا..

تراجع مدير المخابرات العمومية في مقعده ببطء، وهو يسأله بنفس الهدوء:

- وعن جواب أي سؤال تبحث بالضبط؟!...

بدا وكأن هذا السؤال الأخير قد أطلق لسان المفتش (رياض) من عقاله، فاندفع يقول في انفعال:

- صباح اليوم، نجح مجرم القرن في مغادرة (مصر)، منتحلا شخصيتى.

قال المدير في خفوت، وهو يشبك أصابع كفيه أمام وجهه:

- علمنا هذا.

تابع (رياض)، وكأنه لم يسمعه:

- العجيب أنه قد تجاوز كل إجراءات الأمن، حتى فحص ومراجعة البصمات، وكان تنكره متقنًا إلى حد مذهل

صمت المدير لحظة، ثم قال:
- نحن على معرفة كاملة بقدراته؛ فقد كان أحد رجالنا كما تعلم.
هز (رياض) رأسه بلا معنى، وتنحنح مرتين، وكأن هذا وسيلته لمقاومة توتره، ثم قال:
- هذا أعلمه جيدا، ولكنني أعلم أيضا أن بعض الأمور لا يمكن لفرد وحده القيام بها، و...
بتر عبارته في ارتباك شديد، فران على مكتب المدير صمت جديد، استغرق بضع ثوان، قبل أن يتساءل المدير في بطء:
- وماذا؟!..
اندفع (رياض) مرة أخرى، يقول في توتر:
- ولا بد أن تدعمه جهة ما، بكل ما تملك من إمكانيات...
مرة ثالثة، خيم صمت مهيب على المكان، رمق المدير خلاله المفتش (رياض) بنظرات ثاقبة، قبل أن يعتدل بحركة مفاجئة متسائلًا في صرامة:
- ما الذي ترمي إليه بالضبط أيها المفتش؟!
تنحنح (رياض) بكل توتره هذه المرة، وهو يقول:
- كنت أبحث عن الجواب هنا يا سيادة الوزير.
عاد المدير يتراجع في مقعده، ويرمقه بنفس النظرات الثاقبة التي زادت من توتره، وجعلته يسعل بدلا من أن يتنحنح، فقال المدير في صرامة:
- لست أظنك تجد جواب سؤالك هنا أيها المفتش.
قال (رياض) في عصبية:
- بل أظن الجواب هنا بالفعل يا سيادة الوزير، ولكن أحدًا لا يريد الإفصاح عنه...
بدا المدير أشد صرامة، وهو يقول:
- عملنا هنا لا يعتمد على منح الأجوبة أيها المفتش.

ثم نهض واقفا، وهو يضيف، وكأنما يعلن انتهاء المقابلة:
- ولكننا قد نجيب تساؤلك، عندما نتوصل إلى الجواب تشرفنا بزيارتك...
نهض (رياض) بدوره، وهو يتنحنح على نحو متصل، قبل أن يقول في عصبية:
- قبل أن أنصرف، أحب أن أنقل لسيادتك شعورا يعتريني يا سيادة الوزير.
سأله المدير في صرامة:
- أي شعور هذا؟!
استند (رياض) براحتيه على سطح مكتب المدير، ومال نحوه، قائلًا في حزم، لم يخل من لمحة عصبية:
- فكرة تحول (أكرم صدقي)، من رجل مخابرات فذ، إلى مجرم القرن، لم تنجح في إقناعي قط....
قالها، واعتدل في حزم، متبادلا نظرة قوية مع مدير المخابرات العمومية، قبل أن يستدير ويغادر المكتب في خطوات ثابتة ومع انصرافه، عاد نائب المدير إلى المكتب، وتبادل مع المدير نظرة صامتة، حملت الكثير من المعاني والكثير جدا. جدا...

☆ ☆ ☆

انعقد حاجبا (صوفيا جريشام) الجميلين في شدة، وهي تتطلع إلى (ريكو) الراقد على فراش طبي، في المستشفى الذي تملكه دونا (كاترينا) في (روما)، وقد بدا زائغ النظرات إلى حد كبير، ودونا (كاترينا) تقول في اهتمام:
- عاد من (مصر)، على هذا النحو الذي ترينه، وبقي جالسا في مطار (روما)، لا يدرى من هو، ولا أين ينبغي أن يذهب..
سألتها (صوفيا)، وهي تشعل سيجارتها في عصبية، على الرغم من اللافتات، التي تمنع التدخين في المكان:

- ماذا أصابه بالضبط؟!..
هزت دونا (كاترينا) رأسها نفيا، وهي تمد يدها، لتنتزع السيجارة من بين شفتى (صوفيا)، وتناولها إلى أحد رجالها، مجيبة:
- كل ما يذكره أنه قد فقد وعيه، داخل المنزل الذي أرسلته إليه في (مصر)، وعندما استعاده، وجد نفسه وحيدًا هناك وفي جيبه جواز سفره، وتذكرة عودة إلى (روما)، وفي الصباح التالي، الذي كان قد اقترب بالفعل، فما كان منه إلا أن استقل سيارة أجرة إلى المطار، وعاد إلى هنا، وهو لا يذكر ما الذي ينبغي أن يفعله بعد وصوله!
سألتها (صوفيا)، وهي تحاول إشعال سيجارة أخرى:
- وماذا عن البرنامج؟!
استوقفتها دونا (كاترينا) في صرامة:
- ألا تجيدين قراءة الإيطالية؟!
أجابتها (صوفيا) في عصبية شديدة:
- التدخين يساعد على تهدئة أعصابي، والمفترض أنك تملكين المكان، و..
قاطعتها دونا في صرامة شديدة:
- ولكنني لست مستعدة للدخول في مشكلات تافهة، مع الإدارة الصحية التابعة للحكومة
مطت (صوفيا) شفتيها في حنق، فأردفت دونا في صرامة:
- ثم عن أي برنامج تتحدثين؟!
أشاحت (صوفيا) بوجهها، قائلة في حدة:
- اتفقنا على أن أخبرك بكل شيء، بعد أن تنتهي العملية.
قالت دونا بنفس الصرامة:
- وماذا لو أن هذا لم يعد يرضيني؟!
قالت (صوفيا) في حدة أكثر:

- عليك التعايش مع هذا إذن... الاتفاق هو الاتفاق.
نطقتها، ثم دفعت الباب الزجاجي لحجرة (ريكو)، واندفعت نحو هذا الأخير، تسأله في غضب:
- أين البرنامج؟!
تطلع إليها (ريكو) في ذعر يمتزج بالحيرة، وهو يتساءل:
- أي برنامج؟!
صاحت به في حدة:
- البرنامج الذي أرسلتك لإحضاره من (مصر).
تواصلت الحيرة المطلة من عيني (ريكو) لحظات، قبل أن يغمغم:
- أذكر شيئا عن هذا... ولكن..
قاطعته بنفس الحدة:
- لا يوجد (لكن)... هذا البرنامج يساوى حياتك... هل تفهم؟!
تضاعف الذعر، في ملامحه وعينيه، وهو يقول:
- ولكنني لست أذكر شيئا... أقسم لك....
اعتدلت في حركة حادة، قائلة:
- لست أصدقك.
هتف في ذعر:
- ولكنني أقسم.
قاطعته دونا (كاترينا) هذه المرة، وهي تقول في صرامة:
- لا تحاول يا (ريكو)... لن تصدقك، مهما قلت أو فعلت.
امتزج ذعره بحيرته، وهو ينقل بصره بين المرأتين فأضافت دونا بكل صرامة:
- ولكن هناك وسيلة لحسم هذا.
سألتها (صوفيا) في عصبية:
- وكيف يمكن حسم أمر كهذا؟!

أجابتها دونا في حزم:
- جهاز كشف الكذب ألديك أي اعتراض على هذا يا (ريكو)؟!...
واتسعت عينا (ريكو)، وتضاعف الذعر في ملامحه وعينيه ولكن دون أن يجيب على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

«هذا خيالا..»
قالها الدكتور (راضى) شقيق (رياض)، في توتر شديد، جعل هذا الأخير يسأله في عصبية واضحة:
- ماذا تعني؟!... ألا توجد وسيلة واحدة؛ للتفرقة بين سكان هذا العالم، وسكان العالم الموازي، الذي أحضرنا منه (أكرم) الآخر؟!
تطلع إليه (راضي) بضع لحظات في حيرة، وكأنه لم يفهم السؤال، قبل أن يهز رأسه في قوة، مجيبا:
- بالطبع توجد وسيلة.
وتحولت لهجته فجأة إلى الحماس العلمي الشديد، وهو يضيف:
- العوالم المتوازية السبع، تشترك كلها في مساحة كونية واحدة، ولكن لكل منها ذبذبة خاصة، تجعله غير مرئى وغير محسوس، بالنسبة للعوالم الأخرى تماما مثل الموجات الرقمية الفائقة، التي تحتل كلها حزمة ترددات واحدة، ولكن لا تتداخل موجة منها مع الأخرى أبدا.
لم يستوعب (رياض) كل هذه المصطلحات العلمية، فقال بنفس العصبية:
- ثم ماذا؟!
لوح (راضي) بيديه في حماس، متابعا:
- وباستخدام مقياس طيفى ذبذبى، ذى طبيعة خاصة، يمكنك أن ترى أي مخلوق، قادم من عالم مواز، وكأنما تحيط به هالة

خاصة، يتغير لونها، كلما اقترب موعده...
ردد (رياض) في عصبية حائرة:
- موعده؟!..
أومأ (راضي) برأسه إيجابا، وهو يقول:
- بالطبع عند وصوله إلى عالمنا، تحيط به هالة بيضاء اللون، تتحول بعد أربع وعشرين ساعة إلى اللون البرتقالي ثم تتحول إلى اللون الأحمر، خلال الأربع والعشرين ساعة التالية، وهذا يعني أن ذرات جسده ستتفكك، إن لم يعد إلى عالمه، قبل مضى ثلاث ساعات، وإلا لتحول لون الهالة إلى الرمادي، وانهارت خلاياه دفعة واحدة....
اتسعت عينا (رياض) لحظات، قبل أن يتساءل:
وأين هو ذلك المقياس الطيفي الذبذبي؟!
أشار (راضي) إلى جهاز كبير، وهو يجيب:
- ها هو ذا.
حدق (رياض) في الجهاز الضخم لحظة، قبل أن يستعيد عصبيته، قائلا:
- وكيف يمكن أن يفيدني جهاز في حجم ثور؟!
أومأ (راضي) برأسه، قائلًا:
- آه... تقصد وسيلة صغيرة متنقلة.
قال (رياض) في عصبية:
- بالضبط....
أومأ (راضي) برأسه متفهما، واستدار يلتقط منظارا كبيرا داكن العدسات، ويناوله إياه، قائلا:
- هذا سيؤدي الغرض... فقط اضغط الزر الأصفر، وسيعمل بكفاءة..
اختطف (رياض) المنظار في لهفة، وهو يقول:

- فقط اضغط الزر الأصفر؟!..
ابتسم (راضي)، وهو يقول:
- بالضبط.
تهللت أسارير (راضي) لحظات، ثم عاد إليها التوتر، وهو يسأل:
- ولكن مهلًا... إنك تتحدث عن ثلاثة أيام، وليس أربعة كما أخبرتني في البداية!
عقد (راضى) حاجبيه، وهو يقول:
- بل يومين وثلاث ساعات بالتحديد... هذا هو الخطأ، الذي كنت أخبرك عنسه، قبل أن تجرني إلى الحديث عن المقياس الطيفي الذبذبي... أيا كان ما نحضره إلى عالمنا، من عالم مواز يتفكك كيانه تماما، لو بقي في عالمنا، لأكثر من خمسين ساعة....
واتسعت عينا (رياض) عن آخرهما..
فما قاله شقيقه، يعني أن ساعات (أكرم صدقى) عالمنا تتناقص في سرعة وأن حياته صارت في خطر خطر بلا حدود....
☆ ☆ ☆

الفصل العاشر

سعل (ريكو) مرتين في توتر، ورجال دونا (كاترينا) يوصلون أسلاك جهاز كشف الكذب بصدره ورأسه وسبابته، ونفثت (صوفيا) دخان سيجارتها، وهي تسأله في صرامة:

- متوتر... أليس كذلك؟!

أجابها في عصبية واضحة:

- أكنت ستبقين هادئة، في موقف كهذا؟!

سحبت نفسا كبيرا من سيجارتها الرفيعة، ونفثته في الهواء:

في قوة، قبل أن تجيب:

- لو أننى لا أخفى شيئا..

مط شفتيه الغليظتين، مغمغما:

- هراء!

رمقته بنظرة غاضبة، ثم أشارت إلى الفني، الذي يجلس أمام الجهاز، والذي سأله في هدوء:

- اسمك (ريكو)؟!

سحب (ريكو) نفسا عميقا، وأجاب:

- نعم..

أشارت مؤشرات الجهاز إلى صدق إجابته، فأضاف الفني:

- وجنسيتك فرنسية؟!

أجاب (ريكو) في سرعة:

- بل إيطالية.

مرة أخرى أشارت المؤشرات إلى صدق الإجابة، فصمت الفني لحظة، ثم قال في حزم:

السؤال التالي أريدك أن تجيب عنه إجابة خاطئة...

بدا التوتر على وجه (ريكو)، ورفع عينيه إلى دونا(كاترينا)، التي أومأت برأسها إيجابا، فقال الفني بعدها:
- أيبلغ طولك مترا واحدا؟!
بدا الغضب على وجه (ريكو)، وتطلع مرة أخرى إلى دونا التي عاودت الإشارة برأسها إيجابا، فأجاب هو في توتر:
- نعم.
أشارت مؤشرات الجهاز إلى خطأ الإجابة، فالتقطت (صوفيا) نفسا آخر من سيجارتها، وسألته في صرامة:
- هل حصلت على البرنامج من المصرى؟!
أجاب (ريكو) في اندفاع:
- لا... أقسم أن..
قاطعته دونا بإشارة صارمة من يدها، في حين أشارت المؤشرات إلى صدق الإجابة، فانعقد حاجبا (صوفيا) في شدة، وهي تغمغم في عصبية:
- مستحيل!
رفع الفني عينيه إليها، قائلًا في حزم:
الجهاز لا يخطئ..
ازداد انعقاد حاجبيها، وعادت تنفث دخان سيجارتها قوة، فهتفت بها دونا في حدة:
أطفئي هذه السيجارة فورا...
ألقت (صوفيا) سيجارتها في حدة، وسحقتها بقدمها في عنف، وهي تقول في غضب:
- الأمر أخطر من أن نأخذ قوله على علاته، على هذا النحو من الاستسلام..
كرر الفني في شيء من الغضب:
- الجهاز لا يخطئ.

صاحت به في حدة:
- هذا ما تتصوره.
كانت تهم بإطلاق المزيد من الصراخ في وجهه، عندما ارتفع رنين هاتفها الخاص فجأة، فالتقطته في سرعة، وعاد حاجباها ينعقدان في شدة، وهي تلقى نظرة على شاشته، قبل أن تلتفت إلى (ريكو) في حدة، قائلة:
- إنه هاتفك.
انعقد حاجبا (ريكو)، في توتر شديد، في حين ضغطت هي زر الاتصال، دون أن تنبس ببنت شفة، فأتاها صوت ساخر مألوف، يقول:
- كنت واثقا من أنك ستجيبين يا (صوفيا).
كاد حاجباها الجميلان يلتحمان، من شدة انعقادهما، ووجهها الفاتن ينفجر، من شدة ما أصابه من احتقان فصاحب الصوت كان هو نفسه (أكرم)...
(أكرم صدقى) ...
مجرم القرن...
شخصيا....

☆ ☆ ☆

«إنه (أكرم صدقى)..»
قالها خبير المعمل الجنائي في حسم وحزم، فانعقد حاجبا المفتش (رياض) في شدة، وهو يسأله في توتر:
- أأنت واثق من هذا؟!
أجابه خبير المعمل الجنائي في ثقة:
- دون أدنى شك... البصمة الجينية لبقعة الدم، التي عثر عليها رجال اللواء (فتحى)، في الطرف البعيد للمدينة الجديدة، تنطبق بنسبة مائة في المائة، مع تلك الموجودة في ملف العميد (أكرم

صدقى)، والتي زودتنا بها المخابرات العمومية صمت (رياض) لحظات لاستيعاب الأمر، قبل أن يسأل في قلق:
- أن يشير إليه هذا؟!
هز الخبير كتفيه، مجيبا:
- إن بقعة الدم تخصه.
هتف (رياض) مستنكرا:
- أي جواب هذا؟!
أجابه الخبير في سرعة:
- آه... لو أنك تقصد سبب وجودها، فهذا أمر قد يجيب عنه خبراء مسرح الجريمة، الذين يفحصون المكان، ويلتقطون الدلالات منه، أما بالنسبة لنا، فكل ما يعنيه هذا، هو أن عميد المخابرات العمومية السابق، قد نزف بعض الدم هناك...
استعاد (رياض) تقرير خبراء مسرح الجريمة، والذي أشار إلى حدوث مشاجرة ما، في نفس المكان، الذي تم العثور على بقعة الدم فيه، وهو يغمغم متوترا:
- إذن فأحدهما قد نزف دمه.
لم يفهم خبير الآلة الجنائية ما يعنيه هذا، فمال برأسه متسائلا:
- أحدهما؟!
أشار إليه (رياض) بيده في صرامة، وهو يقول:
- ربما أخطأت المصطلح يا هذا.
مع قوله، قفزت إلى ذهنه فكرة مخيفة، فلاذ بالصمت لحظات، ثم قال في حزم:
- هل يمكنني رؤية الدم، الذي قمت بتحليل بصمته الجينية؟!
مرة أخرى لم يفهم خبير الأدلة الجنائية، ولكنه هز كتفيه قائلا:
- بالتأكيد.... ولكنها كمية قليلة، ولن تختلف نتائج فحصها عن النتيجة التي توصلنا إليها هنا.

كرر (رياض) في حزم وصرامة:
- هل يمكنني رؤيتها؟!
مط الخبير شفتيه، وهز كتفيه، ثم اتجه إلى براد ذي واجهة، والتقط فيها قنينة صغيرة، وضعها أمام (رياض)، الذي أسرع يفتح حقيبته، ويلتقط منها ذلك المنظار، ذا العدسات الداكنة والذي أعاره إياه شقيقه (راضي)، ووضعه على عينيه، فسأله الخبير في حيرة:
- تعنى أنه يتطلع إلى دماء (أكرم صدقى) الحقيقي..
(أكرم صدقى) عالمنا مباشرة....
- ما هذا الشيء بالضبط؟!
ولم يجبه (رياض)..
أو لم يستطع إجابته..
فحول القنينة الصغيرة، ومن خلال عدسات المنظار الخاص، كانت هناك هالة حمراء نصف داكنة لثوان، ألجمت المفاجأة لسان (صوفيا)، وبدا الأثر واضحا على ملامحها، حتى أن دونا (كاترينا) سألتها في قلق:
- ماذا هناك؟!
أشارت إليها (صوفيا) بالصمت، وهي تحل في صعوبة عقدة لسانها، قائلة:
- كان المفترض أن تقوم بتسليم البرنامج لعميلى يا (أكرم).
نقل إليها الهاتف ضحكة ساخرة، طالما استفزتها، قبل أن تسمعه يقول:
- بهذه البساطة؟!... برنامج دفاعي يساوى المليارات تريدين الحصول عليه بكبسة زر...
قالت في حدة شرسة:
أنت تعلم أنك غير قادر على مخالفة أوامرى...

أجابها بنفس السخرية:
- هراء أعلم أنك تستطيعين التحكم في عقلي من بعيد يا (صوفيا)، ولكنك، عندما قمت بحساب الأمر، تجاهلت نقطة شديدة الأهمية لم تحر جوابا، في انتظار أن يكمل حديثه، وأدرك هو هذا فتابع في صرامة، خلت من السخرية:
- الإرادة يا (صوفيا)... الإرادة البشرية، التي تفوق أي جهاز إليكتروني، مهما بلغت قوته..
قالت في حدة:
- مستحيل!
استعاد ضحكاته الساخرة، قبل أن يقول:
- لماذا إذن كانوا يلقبونني ب- (قاهر المستحيل)، أيام دفعتني الحماقة إلى المجازفة بحياتي طوال الوقت، من أجل راتب هزيل؟!...
عضت شفتها السفلى لحظة، ثم قالت في غل:
- يبدو أنني قد صنعت وحشا.
أجابها في استهتار:
- بل صنعت منافسا قويا يا عزيزتى (صوفيا)... والمنافس القوى، لا يتنازل عن صفقة العمر لمنافسيه... أليس هذا ما تقتضيه أصول اللعبة؟!
عادت تعض شفتيها في حنق، قائلة في عصبية:
- لا توجد منافسة من الأساس يا (أكرم)... برنامج كهذا ليس من السهل بيعه، دون أن تلاحقك مخابرات العالم كله..
مرة أخرى أطلق ضحكة ساخرة، قبل أن يقول:
- ولكنني عثرت على مشتر بالفعل يا (صوفيا)..
وقسا صوته، وهو يضيف في صرامة:
- مستر (زد) شخصيا..

كادت أصابعها تعتصر الهاتف، وهي تصرخ:
- مستحيل!!...
جاوبتها ضحكة ساخرة عالية، قبل أن ينهي المحادثة، تاركًا عقلها ملتهبا كالحمم أو أكثر لهيبا ألف مرة.

☆ ☆ ☆

«لا يوجد تفسير آخر...»
قالها رئيس (رياض) في توتر شديد، جعل جسد هذا الأخير يرتجف، مع تلك القشعريرة الباردة كالثلج، والتي سرت في جسده كله، من قمة رأسه، وحتى أخمص قدميه، وعندما حاول أن يقول شيئا، اختنقت الكلمات في حلقه، فسعل وتنحنح، ثم قال في صوت مبحوح، يموج بكل الانفعال:
- ربما هناك تفسير آخر.
ضرب رئيسه سطح مكتبه براحته، قائلًا:
- إلَيَّ به..
قلب (رياض) كفيه في حيرة وتوتر، دون أن يحر جوابا فتابع رئيسه بكل توتره:
- الأمر أوضح من أن تجد له تفسيرا آخر.. (أكرم صدقي) العالم الآخر، وثب من الهليوكوبتر؛ ليواجه مجرم القرن، ثم عاد مجرم القرن إليك، واستولى على الهليوكوبتر، وفر بها ولم يعثر أحد على (أكرم صدقي) الآخر، فكيف يمكن أن تفسر هذا؟!
ظل (رياض) صامتا متوترا، فتابع رئيسه في صرامة امتزجت بتوتره:
- لقد واجه القرينان بعضهما البعض، بكفاءة متساوية ولكن قرين عالمنا كانت له مزية كبيرة إنه منعدم الأخلاق، ومجرم لا يشق له غبار.
غمغم (رياض) في حنق:

انعقد حاجبا (رياض)، وهو يتطلع إليه، في انتظار الجواب، فأردف رئيسه:
- أتراها مزية يا سيدى؟!
أجابه في حدة:
- على الأقل، ستدفعه نحو خطوات، لا يتوقعها قرينه.
ثم لوح بيده مضيفا:
- وبقعة الدم تثبت هذا.
شعر (رياض) بألم حاد في ضميره؛ لشعوره بأنه هو من أحضر (أكرم) الحقيقي إلى عالمه، وتمتم في توتر:
- ولكننا لم نعثر على جثته.
أجابه رئيسه في حدة:
- لأن أحدا لا يعلم أين وكيف أخفاها مجرم القرن ازدرد (رياض) لعابه في صعوبة، مغمغما:
- سنواصل البحث، و...
قاطعه فجأة رنين هاتفه المحمول، فالتقطه من جيبه في سرعة، وقال عبره في اهتمام متوتر:
- ما الجديد يا (على)؟!
ثم انعقد حاجباه في شدة، وهو يستمع إلى مساعده، الذي ينقل إليه خبرا لم يتوقعه على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

الفصل الحادي عشر

«إذن فالأمر كذلك!!...»

قالتها دونا (كاترينا) في بطء وخبث، وهي تستمع إلى(صوفيا)، التي نفثت دخان سيجارتها في عصبية، وهي تقول:

- إننى أنشد تعاونك لا سخريتك يا دونا.

لم ترق لها ابتسامة دونا، وهي تقول في بطء:

- فقط عندما تعقدت الأمور.

هتفت بها (صوفيا) في حدة:

- هل ستتعاونين معى أم لا؟!...

مالت دونا نحوها، وهي تقول:

- لا بد أن أثق بك أولا يا عزيزتى (صوفيا).

نفثت (صوفيا) دخان سيجارتها مرة أخرى، في عصبية أكثر:

- لقد أخبرتك كل شيء يا دونا.

تطلعت إليها دونا بضع لحظات في صمت، وكأنها تحاول سبر أغوارها، قبل أن تقول في حزم:

- إذن فأنت تعرفين مخبأ مستر (زد) هذا.

أشارت (صوفيا) بيدها، وهي تجيب:

- إنه شديد الحذر، ولكن تعاوننا لفترة طويلة، ساعدني على الالتقاء به شخصيا.

سألتها دونا في حذر:

- وما الذي يمنعك من الالتقاء به مرة أخرى؟!

أجابتها في عصبية:

- لا يوجد ما يمنعنى.

ثم مالت نحوها، مضيفة في غضب:

ولكن لو أنه على اتصال مباشر مع (أكرم صدقى)، فاللقاء به لن يكون عاديا..
صمتت دونا لحظات، قبل أن تسألها:
- ماذا تعتزمين بالضبط يا (صوفيا)؟!
انعقد حاجبا (صوفيا)، وهي تقول في شراسة:
- ألا أسمح له بتجاوزي.
تطلعت إليها دونا لحظات أخرى في صمت، ثم أطلقت ضحكة قصيرة مستفزة، قبل أن تقول:
عزيزتي (صوفيا)... وفقا لما سمعته منك، فذلك الـ... مستر (زد)، رجل شديد السريه والشك خفي عن الأعين، وحتى عن الأقمار الصناعية المتطورة وهو لا يسمح لأحد بالاقتراب منه، ورجاله لديهم أوامر بإطلاق النار، فور الشعور بلمحة من الشك، فكيف تتوقعين الوصول اليه...
نفثت (صوفيا) آخر دخان سيجارتها الرفيعة، ثم ألقتها بعيدا، وهي تجيب في صرامة:
- لقد فكرت في هذا.
ثم أشعلت سيجارة ثانية، قبل أن تكمل:
- سأخبره أننى قد حصلت على البرنامج بالفعل.
دونا فيها لحظة في دهشة، قبل أن تندفع قائلة:.
- وكيف له أن يصدقك، لو أنه يتعامل بالفعل مع (أكرم صدقى)؟!
أشارت بيدها، مجيبة:
- لن يصدقني.
ثم استدركت في سرعة، وهي ترفع السيجارة إلى شفتيها:
- ولن يصدق (أكرم صدقى) أيضا.

جذبت دونا السيجارة من بين أصابعها، وألقتها بعيدا، وهي تقول في صرامة:
- التدخين سيقتلك يوما.
هتفت (صوفيا) في غضب:
- هذا شأنى وحدي.
أجابتها دونا بنفس الصرامة:
- عندما تدخنين في الهواء الطلق، أو في مكتبك، وليس في مكتبى.
بدا لحظة وكأن (صوفيا) ستنفجر في وجهها، ثم لم تلبث أن تماسكت، وتراجعت قائلة:
- فليكن.
أشارت إليها دونا في ارتياح، قائلة:
- أكملي ما كنت تقولين، - وسيدعوك لمقابلته فورا.
هزت (صوفيا) كتفيها، قائلة:
- فليكن.
صمتت (صوفيا) لحظة، ثم اندفعت تقول:
مستر (زد) شديد الشك والحذر كما أخبرتك... وحتى لو أتم الصفقة مع (أكرم)، فهو لن يلتقي به أبدا، ولن يسمح له بمعرفة مقره السرى... وما استشفيته من حديث (أكرم) عبر الهاتف، هو أنه لم يتم الصفقة بعد... ولهذا فعندما أخبر مستر (زد)، أننى قد حصلت على البرنامج بالفعل، سينتابه شك كبير، وسيدفعه حذره إلى التيقن من هذا أولًا، قبل أن يتعامل مع (أكرم)...
أطل الإعجاب من عيني (كاترينا)، وهي تقول:
- وهل لديه سبيل سوى هذا؟!
تراجعت دونا في مقعدها، وهي تفكر مليا فيما سمعته منها قبل أن تعتدل بحركة حادة، وتسألها في حزم:
- وفيم تنشدين تعاوني بالضبط؟!

صمتت (صوفيا) بدورها لحظة، ثم أجابت في بطء:
- أنت تملكين العديد من الرجال.
انعقد حاجبا دونا، وهي تقول:
- هل تقصدين ما أفكر فيه؟!
أشارت (صوفيا) بيدها، مجيبة:
- بالضبط.
ثم مالت هي نحو دونا، مكملة في حزم:
- عندما أصبح داخل مقر مستر (زد) السري، سأعمل على تدمير وسائل التعمية الإليكترونية لديه، في نفس الوقت الذي يكون فيه رجالك على أهبة الاستعداد لتلقى إشارتي، التي ما أن أطلقها، حتى ينقضوا على المقر، و..
لم تكن بحاجة إلى إكمال عبارتها، فتراجعت مبتسمة، تاركة دونا معقودة الحاجبين في شدة، تتطلع إليها بمزيج من الدهشة والاستنكار، قبل أن تغمغم:
- هل تدركين مدى قوة مستر (زد) هذا؟!
أجابتها (صوفيا) في صرامة:
- سبق وأن سحقت من هو أكثر منه قوة.
تراجعت دونا مرة أخرى مفكرة، قبل أن تغمغم في قلق:
- إنها مخاطرة كبيرة.
أجابتها (صوفيا)، في صوت كالفحيح:
- البرنامج يساوى المليارات، ومبلغ كهذا يستحق المخاطرة
صمتت دونا لحظات، ثم تألقت عيناها، وهي تقول في حزم:
- أنت على حق.
انتقل التألق إلى عينى (صوفيا)، وهي تقول:
- إذن فقد اتفقنا.
اتسعت ابتسامة دونا، وهي تجيب:

- بالتأكيد..
والتقت أيديهما الناعمة، في تآزر وحشى للغاية....
انعقد حاجبا المفتش (رياض) في شدة، وهو يتطلع إلى الجسد الملقى أمامه، قبل أن يغمغم بكل توتره:
- أين عثرتم عليه؟!
أجابه أحد رجال الشرطة:
- حيثما تقف يا سيادة المفتش
ظل (رياض) يتطلع إلى ذلك الجسد لحظات أخرى، ثم هز رأسه، مغمغما:
- عجيب!
مد مساعده (على) يده إليه بورقة كبيرة، وهو يقول:
- كان مقيدا في إحكام، وهذه الورقة معلقة بصدره..
عاد حاجبا (رياض) ينعقدان، وهو يقرأ الكلمات القليلة على الورقة، قبل أن يتنحنح، ويمط شفتيه، قائلا:
- هل تستطيع فهم هذا؟!
هز (على) رأسه نفيا، وهو يجيب:
- حاولت يا سيادة المفتش.
قرأ المفتش (رياض) المكتوب على الورقة مرة أخرى وعاد يهز رأسه، مغمغما:
- أظنهم سيفهمون.
لم يستوعب (على) معنى العبارة، فتساءل في حذر:
- من هم يا سيادة المفتش؟!
تطلع إليه (رياض) في صمت، دون أن يجيب، وبدا وكأنه شارد تماما بتفكيره، حتى أنه لم يسمع السؤال، فكرره (على) بصوت أكثر ارتفاعا:
- من هم؟!

خيل إليه أنه قد انتزع المفتش من شرود عميق، عندما أدار هذا الأخير عينيه إليه في صمت، استغرق ثوان قليلة، قبل أن يستعيد حزمه التقليدي، قائلًا:
- قم بكل الإجراءات الرسمية المعتادة يا (على).
لم يكن هذا يجيب سؤاله، بأي حال من الأحوال، ولكن(على) اكتفى به، وهو يقول:
- فورا يا سيادة المفتش.
أسرع ينفذ الأمر، في حين التقط (رياض) هاتفه المحمول وطلب رقما خاصا، وما أن سمع صوت محدثه، حتى قال في احترام، لم يخل من لمحة توتر:
- سيادة الوزير... أنا المفتش (رياض)... لدى هنا لغز يتحتم أن تكونوا الجهة الوحيدة، القادرة على فهمه قالها، وهو يشعر بتوتر لا محدود في أعماقه هذا لأنه كان يتحدث إلى مدير المخابرات العمومية شخصيا....

☆ ☆ ☆

ارتسمت كل الصرامة على وجه (صوفيا جريشام)، وهي تتطلع إلى (ريكو) بجسده الضخم، والذي وقف في احترام خانع، أمامها وأمام دونا، التي سألته في هدوء:
- ماذا تريد يا (ريكو)؟!
بدا شديد التوتر، وهو يجيب:
- كنت أنشد موافقتك يا دونا.
سألته في حذر:
- على ماذا؟!
التمعت عيناه في غضب، وهو يجيب:
- الانتقام.
تطلعت دونا إليه في دهشة متسائلة، فأردف في انفعال:

- ذلك المصرى أذل ناصيتي، وأساء إلى صورتي، ولن تهدأ لى نفس، حتى أنتقم منه..
قلبت (صوفيا) شفتيها في امتعاض، وهي تقول:
- إنها ليست لعبة انتقام يا هذا.
اندفع فجأة نحوها، وتشبث بثيابها، وهو يهتف:
- أرجوك يا سيدتي... أرجوك.... الرجال هنا يعيرونني بما حدث، فإما أن أنتقم، أو أصبح سخريتهم إلى الأبد
دفعته بعيدًا عنها في قسوة، وهي تقول:
- قلت لك ليست لعبة.
بدا عليه انكسار عجيب، جعل دونا تقول:
- ولم لا؟!
هتفت بها (صوفيا) في غضب:
- ماذا تقولين يا دونا؟!
أشارت دونا بيدها، قائلة:
- ستحتاجين إلى حارس خاص، أثناء لقائك مع مستر(زد).
أجابتها (صوفيا) في شراسة:
- كلا.
وعندما شاهدت الاستنكار على وجه دونا، استدركت في صرامة:
- حتى لو وافقت أنا، لن يقبل مستر (زد) بهذا..
انعقد حاجبا دونا في ضيق، فتابعت (صوفيا) في حدة:
- أنا وحدي أعلم كيف سيدور الأمر... وأنا وحدي أتخذ القرار في هذا الشأن..
قالت دونا في صرامة:
- ورجالي هم من سيقاتلون...
مالت (صوفيا) نحوها، قائلة في مزيج من الشراسة والصرامة:
- وأنا من سيفتح لهم الطريق

وفي أعماقها، ودون أن يفصح لسانها، اكتملت العبارة:
- وأنا من سيفوز بالغنيمة... وحدي فقط...
وكان هذا إيذانا بخوض الجولة الأخيرة من المعركة الجولة الأكثر حساسية والأكثر خطورة.
ألف مرة.

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني عشر

في توتر ملحوظ، دفع المفتش (رياض) صورة كبيرة أمام عيني مدير المخابرات العمومية، في العالم الموازي، وعلى الرغم من توقعه رد فعل عنيف، إلا أن مدير المخابرات ظل هادئًا قائلًا:

- وربما إلى حد مثير للشك، وهو يلقي نظرة على الصورة.

- ما هذا بالضبط؟!

تنحنح المفتش (رياض)، كعادته كلما شعر بالتوتر، وقال في شيء من العصبية:

- كنت أنتظر جواب السؤال منكم.

ألقى المدير نظرة أخرى على الصورة، قبل أن يقول بنفس الهدوء:

- وأى جواب تتوقع؟!

ترك (رياض) العنان لعصبيته، وهو يقول:

- الجواب الصحيح.

دفع المدير الصورة إليه، قائلًا في صرامة:

- ابحث عنه في مكان آخر إذن.

احتقن وجه المفتش (رياض)، وأخرج من جيبه تلك الورقة الكبيرة، بما تحويه من كلمات، ووضعها أمام المدير في حدة، قائلا:

- وماذا لو أضفت هذا إلى الصورة؟!

التهم المدير تلك الكلمات القليلة على الورقة بعينيه في سرعة،، دون أن يتخلى عن هدوئه ثم قال:

- سيظل الجواب كما هو.

هتف (رياض) في عصبية محتدة:

- اسمعنى جيدا يا سيادة الوزير.

ضرب المدير سطح مكتبه براحته، قائلًا في صرامة شديدة:
- اسمعنى أنت أيها المفتش.
تراجع (رياض) في دهشة متوترة، فتابع الوزير بنفس اللهجة:
- إنك تتجاوز حدود صلاحياتك على نحو واضح، عندما تأتى إلى هنا؛ لتطرح مثل هذه الأسئلة، وسماحي لك بمقابلتي لا تعنى السماح لك بالتدخل في شئون تفوق حدود منصبك.
تنحنح (رياض) أكثر من مرة، قبل أن يقول، في مزيج من الارتباك والعصبية:
معذرة يا سيادة الوزير، ولكنني المسئول رسميا أمام الشعب، عن ملف مجرم القرن، و...
قاطعه المدير، في صرامة أكثر:
- ونحن مسئولون عن حماية الأمن القومي للبلاد، ووقتنا يسمح بالدخول في مهاترات كهذه..
تراجع (رياض)، وهو يقول مصدوما:
- مهاترات؟!
نهض المدير بحركة حادة، وهو يقول في صرامة:
- تشرفت كثيرا بمقابلتك أيها المفتش.
احتقن وجه (رياض) في شدة، ونهض في عصبية، وهو يشير إلى الورقة والصورة، قائلًا:
- أهذا يعني أنكم لا تريدونه؟!
بدا المدير شديد الصرامة، وهو يجيب:
- لقد حصلنا عليه بالفعل
اتسعت عينا (رياض) في دهشة، وهو يغمغم:
حصلتم عليه؟!
كان ينتظر جوابا ما من المدير، إلا أن نائب المدير دخل المكتب، في هذه اللحظة بالتحديد، وهو يشير بيده، قائلًا:

سيارتك تنتظرك يا سيادة المفتش....
ازداد احتقان وجه (رياض)، وقال بكل توتره، وهو يتجه إلى خارج المكتب:
- على كل الأحوال، هناك أمر ما تخفونه، بشأن هذا الأمر..
ثم التفت إلى المدير، مستطردا في حدة:
- وأعدكم بأنني سأكشف ما تخفونه، حتى ولو كان هذا يتعارض مع الأمن القومي للبلاد
ظل المدير صامتا، حتى غادر نائبه المكان بصحبة (رياض)، ثم لانت ملامحه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة، وهو يغمغم:
- يمكنك أن تحاول..
وكانت ابتسامته تحمل الغموض كل الغموض..

☆ ☆ ☆

«الهدف يقترب....»
تلقى مستر (زد) تلك الإشارة، من وحدة الرادار الخاصة، في جزيرته الصغيرة، التي اتخذ منها وكرا سريا، أحاطه بكل سبل التأمين الأحدث في العالم، وكل نظم الدفاع شديدة التطور وزودها بوحدات قتالية، استقدمها من كل مكان في العالم وعلى شاشة كبيرة أمامه، رأى تلك الهليوكوبتر المدنية تقترب من جزيرته، فضغط زرا أمامه، وهو يقول بلهجة أمرة:
- تبادل معهم شفرة الاتصال..
مضت لحظات، استمع خلالها إلى نداء خاص متبادل، بين وحدة الرادار والهليوكوبتر، قبل أن يرتفع صوت قائد وحدة الرادار، عبر جهاز الاتصال المحدود، وهو يقول بلهجة عسكرية:
- تم التأكد من الهوية.
أجاب في صرامة:

- أبلغ فرقة الأمن (ب)؛ لاتخاذ اللازم...
كانت الهليوكوبتر تستعد للهبوط على الجزيرة، عندما ارتفع جزء من شاطئها، واندفع عبره عشرة رجال مسلحين بمدافع آلية متطورة، اصطفوا صفين، وهم يشهرون أسلحتهم في تحفز، حتى استقرت الهليوكوبتر على الرمال، مثيرة عاصفة منها، قبل أن تهبط منها (صوفيا)، مرتدية زيا ينافس نجمات السينما العالمية، وتوقفت في هدوء تشعل سيجارتها الرفيعة...
وهي تدير عينيها في صفي الرجال، مغمغمة في سخرية:
- مازال مستر (زد) يميل إلى المبالغة!
تقدم منها أحد الرجال، وأدى ما يشبه التحية العسكرية، وهو يقول:
- الزعيم في انتظاركِ يا سيدتي.
تطلعت إليه في استهتار، ونفثت دخان سيجارتها في وجهه، قائلة:
- لا يمكنني الانتظار.
وفي نفس اللحظة، التي عبرت فيها ذلك المدخل السري على الشاطيء، يحيط بها الرجال ضخام الجثة، كانت هناك قطعة خشبية قديمة، من بقايا زورق غارق، تقترب من الجانب الآخر للجزيرة، في الناحية الصخرية منها..
وما أن بلغت تلك القطعة منطقة الصخور الوعرة، حتى انفصل عنها جسد بشري، تحرك في خفة مدهشة، ليختفى بين الصخور، ذات الأطراف الحادة كان هناك ثلاثة من رجال مستر (زد) الأشداء، يجوبون المنطقة الصخرية بأسلحتهم، في تحفز متواصل، وراح هو يتابع تحركاتهم في دقة وصبر، قبل أن يلتقط صخرة في حجم قبضة اليد، تلاعب بها بين أصابعه لحظات، ثم رفع جسده قليلا؛ ليلقى بها بكل قوته، نحو الأشجار، التي تبعد

ثلاثة أمتار فحسب، عن الرجال الثلاثة المسلحين ومع ارتطام الصخرة بالأشجار، التفت الرجال الثلاثة نحوهم في تحفز وارتفعت فوهات مدافعهم الآلية نحو مصدر الصوت وفي نفس اللحظة، وثب ذلك الرجل من مكانه..
وانقض كالفهد أو أن انقضاضته كانت أكثر خفة وأكثر رشاقة.. وأشد قوة ألف مرة...

☆ ☆ ☆

التقى حاجبا المفتش (رياض)، في توتر مشوب بالحذر عندما لبى استدعاء رئيسه له، وفوجئ بذلك الرجل هناك...
في مكتب رئيسه...
كان رجلًا قوى البنية، أنيق الملبس، مشدود القوام استقبله بنظرة، خيل إليه أنها اخترقت كيانه كله وربما كان هذا سر توتره وبكل الحذر، الذي ملأ نفسه، سأل رئيسه:
- تُرى ما سر هذا الاستدعاء العاجل يا سيدى؟!
زاد من حذره وتوتره أن رئيسه لم يجب سؤاله، وإنما أشار بيده إلى ذلك الرجل الذي قال في حزم:
- أتعشم أن تكون مستعدا يا سيادة المافتش؛ فلابد لنا من التحرك خلال دقيقة واحدة.
ارتفع حاجبا (رياض) بكل الدهشة، وقفز توتره في عنف، وهو يقول:
- دقيقة واحدة؟!... لماذا؟!... وإلى أين سنتحرك؟!
أجابه الرجل بنفس الحزم، وهو يتجه إليه، ويمسك ذراعه:
- ستعلم عندما نصل إلى هناك.
حاول (رياض) أن يدفع يد الرجل عن ذراعه، إلا أن الأصابع القوية، التي كانت تحيط بذراعه لم تنفلت، والرجل يجذبه نحو الباب، مكملا:

- الأوامر لدى أن نتحرك فورا.
مرة أخرى حاول (رياض) مقاومته، وهو يلتفت إلى رئيسه، هاتفا:
- ما الذي يعنيه هذا؟!
ومرة أخرى لم يجب رئيسه..
فقط قلب كفيه في استسلام، وكأنما يعلن عجزه عن مقاومة ما يحدث، مما حدا بالمفتش (رياض) إلى أن يسلم قياده لذلك الرجل، وإن لم يمنعه من سؤاله في عصبية:
- هل تتبع المخابرات العمومية؟!
لم يحاول الرجل حتى إجابة السؤال، وهو يقوده إلى آخر مكان توقعه إلى سطح المبنى وفي هذه المرة، لم يحاول (رياض) إلقاء أي سؤال آخر على الإطلاق.....

☆ ☆ ☆

حدق مستر (زد) في وجه (صوفيا جريشام)، في دهشة مستنكرة، وأحنقه أن تقف أمامه هادئة، على الرغم من خطورة ما تقول، فهتف بها في غضب:
- أي قول أحمق هذا يا (صوفيا)؟!... لا يوجد أي اتصال، مباشر أو غير مباشر، لي مع (أكرم صدقي) هذا.
رفعت أحد حاجبيها وخفضته، في حركة مستفزة، جعلته يضيف في حدة:
- ثم إنك أخبرتني أنك قد حصلت على ذلك البرنامج بالفعل.
هزت كتفيها بلا مبالاة، قائلة:
- كانت الوسيلة الوحيدة؛ لدفعك إلى مقابلتي هنا.
كرر في دهشة:
- الوسيلة الوحيدة؟!
ثم صاح بها في غضب:

ماذا أصابك يا (صوفيا)؟!... المحترفون أمثالنا لا يتعاملون بهذا الأسلوب الصبياني السخيف!
تخلت عن هدوئها بغتة، وصاحت في غضب يفوق غضبه:
ولكنني تحدثت مع ((أكرم صدقى) شخصيا، وأخبرني أنه يجرى تفاوضه معك، بشأن ذلك البرنامج..
تراجع مستر (رد) في مزيج من الدهشة والصدمة، وهو يغمغم:
- تحدثت معه؟!
أجابته في حدة:
- أجل.
انتقد حاجباه، وهو يسألها توترا:
- ولكنك أكدت أنك تسيطرين على عقله تماما!
قالت في عصبية:
- كنت أتصور هذا، ولكنه استخدم قوة إرادته، لمقاومة تأثير تلك الشريحة الرقمية، التي زرعناها في رأسه..
كرر مرة أخرى، في دهشة مستنكرة:
- قوة إرادته؟!
ثم نهض من خلف مكتبه، وهو يقول في صرامة، اكتست بشيء من العصبية:
- لا دور لقوة الإرادة هنا يا (صوفيا)... إنها سيطرة فيزيقية بحتة، من الشريحة إلى خلايا المخ مباشرة.
أورثها هذا القول المزيد من العصبية، فقالت، محاولة إشعال واحدة من سجائرها الرفيعة:
- ولكنه تخلص من التأثير على نحو أو آخر.
اتجه نحوها، وهو يلتقط شيئا ما من سطح مكتبه، قائلًا:
- مستحيل.
تراجعت في حذر، وهو يكمل متجها إليها بذلك الشيء:

- لا يمكنه التخلص من تأثير تلك الشريحة دون معاونة.
واصلت تراجعها، فصاح بها بكل صرامة:
- توقفى.
قاومت توترها، وهي تقف في مكانها، فرفع هو ذلك الشيء، الذي يمسك به، ومرره أمامها لحظة، فأضىء مصباح صغير أحمر في قمته، مطلقا أزيزا تسمعه بالكاد، مما جعل مستر (زد) يقول في شراسة:
- من عاونك على ارتداء ثيابك هذه يا (صوفيا)؟!
ولم تجب (صوفيا)، ولكنها فهمت واشتعل كيانها كله بالتوتر.. بلا حدود....

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث عشر

«ما هذا بالضبط؟!...»

قالها مراقب الرادار، في جزيرة مستر (زد) الصغيرة، وهو يحدق في شاشة الرادار، التي ظهرت عليها عدة نقاط صغيرة متناثرة، تتحرك كلها في اتجاه الجزيرة، فمال رئيسه يلقي نظرة على الشاشة، مغمغما في دهشة متوترة:

- لم أرصد شيئا كهذا، من قبل قط.

قال مراقب الرادار في حيرة:

- الصورة التي تعطيها، توحي بأنها أجسام معدنية، ولكنها أصغر من أن تكون طائرات

قال رئيسه في اهتمام:

وحركتها المنتظمة تؤكد أنها أجسام موجهة.

التفت إليه مراقب الرادار، متسائلًا في قلق:

- هل نقوم بتشغيل نظام الدفاع الجوى؟!

صمت رئيسه لحظات مفكرا، قبل أن يقول:

صواريخ الدفاع الجوى لن تكون فعالة، مع أجسام بهذا الصغر... نحتاج إلى تفعيل درع الليزر؛ فلا شيء يمكنه اختراقه، عندما يحيط بالجزيرة

صمت لثوان أخرى، ثم أضاف في حزم متوتر:

.. ولكن هذا يحتاج إلى قرار من الزعيم شخصيا:

في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كان مستر (زد) ينتزع جهاز تعقب دقيق، في حجم رأس الدبوس، من ثياب (صوفيا)، وهو يقول في غضب:

... هل تجلبينهم إلى وكرى السري يا (صوفيا)؟!

حققت (صوفيا) في ذلك الجهاز الدقيق، الذي يمسكه بين سبابته وإبهامه، وهي تهتف:
- جلبت من؟!... وما هذا الشيء؟!... وكيف وصل إلى ثيابي؟!..
رفع الجهاز الجديد إلى وجهها، وهو يقول في شراسة:
- المفترض أن تجيبي أنت هذه الاسئلة يا (صوفيا).
انعقد حاجباها الجميلان في شدة، وهي تستعيد كل ما مر بها، منذ استعدت للقدوم إلى جزيرة مستر (زد) ثم توقفت أفكارها عند حدث بعينه..
حدث واحد..
(ريكو) وهو يتشبث بثيابها....
وعند هذا الحدث، اتسعت عيناها، وهي تقول مشدوهة:
- مستحيل!
قبل أن تسمع رد فعل مستر (زد)، ارتفع صوت رئيس قسم الرادار، عبر جهاز الاتصال الخاص، في مكتب مستر (زد)، وهو يقول، في لهجة توحي بخطورة الأمر:
- سيدي.... نحتاج إلى تفعيل درع الليزر فورا.
عض مستر (زد) شفته السفلي في غضب، وهو يندفع نحو جهاز الاتصال الخاص، هاتفا:
- ماذا يحدث عندك؟
نقل إليه رئيس قسم الرادار الصورة، في كلمات موجزة سريعة، قبل أن يضيف في توتر ملحوظ:
- تلك الأجسام الصغيرة تقترب في سرعة أيها الزعيم، ولابد من تفعيل درع الليزر، قبل فوات الأوان.
صاح به مستر (زد) في انفعال:
- وماذا تنتظر؟!
أنهى الاتصال، وهو يلتفت إلى (صوفيا) في شراسة هاتفا:

- أنت المسئولة عن هذا.
تجاهلت ثورته، وهي تندفع نحو شاشة كبيرة في مكتبه، قائلة:
- فلندع الحديث، عن مسئولية الحدث لما بعد... المهم الآن أن نعرف من يهاجمنا بالضبط
هتف في عصبية، وهو يضغط أزرار تفعيل كل دفاعات الجزيرة:
- أيا كان من يهاجمنا، فهو غير قانوني... الجزيرة تقع في المياه الدولية، بعيدا عن كل خطوط الطيران والملاحة، و...
قاطعته في صرامة:
- وهل تعتقد أنهم يبالون بهذا؟!
اعتدل يقول في وحشية:
- حتى وإن تجاهلوا كل القواعد... هذه الجزيرة تحوي من الدفاعات، ما لا تمتلكه بعض الدول فعليا، ومن يفكر في مهاجمتها، يقود نفسه إلى انتحار حقيقي و..
قبل أن يتم عبارته، قاطعه هذه المرة أمر آخر تماما انفجار..
انفجار قوى، هز كل أركان الجزيرة وارتجت معه حجرة مكتبه المنيعة بمنتهى العنف....

☆ ☆ ☆

في خفة مدهشة، تحرك ذلك الرجل، مرتديا زى أحد رجال الحراسة، الذين صرعهم عند الجانب الصخري للجزيرة...
وفي جرأة أكثر إدهاشا، اتجه نحو قائد الحراسة، الذي يقف مع خمسة من رجاله من رجاله، عند المدخل الخفى للمقر، فالتفت إليه القائد، وهو يقول في صرامة:
- ماذا تفعل هنا؟!... لا ينبغي أن تترك موقعك، دون أمر مباشر.
رفع الرجل سبابته إلى شفتيه، مشيرا له بالصمت، ثم رفع سبابته إلى السماء، وكأنه يلفت انتباهه إلى شيء ما...

وبحركة غريزية، رفع القائد ورجاله الخمسة رءوسهم إلى أعلى، بحثا عما يشير إليه وقبل أن تنخفض رءوسهم، كان الرجل قد انقض ولم يستغرق القتال سوى عشر ثوان فحسب فالرجل كان يتحرك في سرعة خرافية، ويوزع لكماته وركلاته على الرجال الستة، في قوة وعنف، قبل حتى أن يتبينوا طبيعة ما يحدث وعندما توسد الرجال الستة رمال الجزيرة فاقدي الوعي تحرك الرجل بنفس السرعة كان يعلم أنهم لم يجتمعوا لحراسة أكوام من الرمال هناك حتما شيء ما هنا حيث كانوا يقفون وبعينين خبيرتين، راح يفحص الرمال من حوله في سرعة ودقة.

ثم التقطت عيناه ما يبحث عنه انتظام غير طبيعي للرمال، في منطقة بعينها انتظام يشف عما تخفيه...

أسرع يتحسس تلك المنطقة، قبل أن يكشف ذلك الغطاء المعدنى أسفلها، والمغلق في إحكام شديد...

ولأنه خبير في مثل هذه الأمور فقد كشف، في سرعة، أن ذلك الغطاء هي مدخل المقر السري لمستر (زد)، الذي يتخذ من قلب الجزيرة وكرا له وفي نفس اللحظة، التي كشف فيها هذا، بدأ درع الليزر عمله...

غلاف أشبه بقبة كاملة من أشعة الليزر، تألق فجأة حول الجزيرة، ليصنع درعا منيعا، يستحيل اختراقه درع قادر على سحق كل جسم يقترب من الجزيرة، لمسافة خمسمائة متر..

وانعقد حاجبا الرجل، وهو يلتفت إلى المشهد المخيف وفي نفس اللحظة، كانت الأجسام المعدنية الصغيرة تقترب في سرعة، من درع الليزر وما أن لمسته، حتى تلاشت كلها في لحظة واحدة، تاركة عشرات البقع المضيئة، في درع الليزر...

وانعقد حاجبا الرجل، وهو يشاهد هذا، قبل أن يخفض عينيه إلى تلك الهليوكوبتر، التي مازالت تقف على بعد أمتار من

المدخل السري للوكر، وبداخلها يجلس قائدها صامتا والتقت نظرات الرجلين لحظة، قبل أن يغادر قائد الهليوكوبتر طائرته، ويقف إلى جوارها، متطلعا إلى الرجل بدوره في صمت ولثوان بدا وكأن المشهد قد تجمد عند هذه الصورة..

الرجلان ثابتان، يتطلع كلاهما إلى الآخر في صمت ثم، وفي هدوء، مد الطيار يده أسفل مقعد قيادة الهليوكوبتر، وانتزع حزاما كبيرا، يحوي عدة جيوب منتفخة...

وبعدها بأقل من دقيقة واحدة، دوى ذلك الانفجار، الذي رج مكتب مستر (زد) رجا وبمنتهى العنف..

☆ ☆ ☆

«إلى أين نتجه بالضبط؟!....»

ألقى المفتش (رياض) سؤاله في عصبية، والهليوكوبتر التي يجلس داخلها، وإلى جواره ذلك الرجل، الذي اصطحبه من مكتب رئيسه، والذي أجاب في اقتضاب:

- إلى حيث تنتهى المهمة.

سأله في غصبية أكثر:

- أية مهمة؟!

صمت الرجل لحظات، ثم التفت إليه، قائلا:

- ألست المسئول رسميا، عن ملف مجرم القرن؟!

امتزجت عصبية (رياض) بدهشته، وهو يقول:

- وما شأن هذا بتطيقنا فوق المحيط؟!

عاد الرجل ينظر إلى الأمام، مجيبا بنفس الاقتضاب:

- هناك ستنتهي العملية.

انعقد حاجبا المفتش (رياض)، وهو يقول في حدة:

- أية إجابة هذه؟!...

ثم انتفض جسده في عصبية زائدةهاتفًا:

- ولماذا كل هذا الغموض؟!
أجابه الرجل، دون أن يلتفت إليه:
- الغموض أساس عملنا.
تراجع (رياض) بكل دهشته، وهو يقول مبهوتا:
- أنعنى أنك...؟
قاطعة الرجل في صرامة:
- يمكنك أن تدعوني بالاسم الذي يروق لك.
ثم استدار إليه، مضيفا بنفس الصرامة:
- وأيًّا كان الاسم، الذي لا يعني شيئا، في مثل هذا الموقف، فيكفي أن تعلم أننا نعمل على الملف نفسه.
غمغم (رياض)، وهو يتنحنح في انفعال:
- أنتم؟!
أجابه الرجل بكل الحزم:
- نعم... نحن أيها المفتش... كلانا يعمل من أجل الوطن الفارق الوحيد، هو أننا نعمل على نحو مختلف. كما تعلم
قالها، وهو يشير بيده خارج الهليوكوبتر، فاستدار (رياض) بحركة تلقائية إلى حيث يشير واتسعت عيناه عن آخرهما، وجسده ينتفض من فرط الدهشة...
فما رآه من حوله، كان يفوق أقصى ما يمكنه تخيله على الإطلاق....

☆ ☆ ☆

قبل حتى أن يتلاشي دوى الانفجار، ارتفع صوت آلى، في حجرة مكتب مستر (زد)، يقول على نحو متكرر:
- دخول غير مشروع... دخول غير مشروع.
وأعقبه صوت مراقب الأمن، يهتف في انزعاج شديد:
- مدخل المقر تم نسفه أيها الزعيم إننا نتعرض لهجوم..

امتقع وجه مستر (زد)، وهو يصرخ:
- مستحيل!
ثم ضغط زر جهاز الاتصال الخاص، وهو يهتف بكل انفعاله:
- كيف حدث هذا أيها الأغبياء؟!.... وأين أطقم الحراسة الخارجية؟!
أجابه مراقب الأمن، وقد استحال انزعاجه إلى خوف واضح:
- لا أحد منهم يجيب أيها الزعيم أخشى أنه ربما...
لم يستطع إتمام عبارته، فهتف مستر (زد):
- ادفع كل الرجال لديك لصد ذلك الهجوم، الذي لست أدرى كيف وصل من يشنونه إلى هنا... وماذا عن درع الليزر؟!
أجابه الرجل في اضطراب:
- مازال يعمل بكفاءة أيها الزعيم.
صاح مستر (زد) في توتر صارم:
- قم بتصفية الهجوم الداخلي إذن... وبأي ثمن..
أنهى الاتصال، والتفت إلى (صوفيا)، مواصلًا بنفس التوتر، الذي اكتسب رنة شرسة:
- أنتِ فعلتها يا (صوفيا).
صاحت به بدورها:
- هل جننت يا (زد)؟!... إنها خدعة... خدعة لست أدرى كيف صنعوها!!... من المؤكد أنهم قاموا بتجنيد (ريكو) الحقير..
صاح بها، وهو يسحب مسدسه:
- هذا لو أنه بالفعل (ريكو).
صرخت في انفعال:
- لا يمكن أن يكون سوى هذا... شخص واحد، في الكون كله، يمكنه أن ينتحل هيئة ما بهذا الإتقان، ولقد تحدثت إليه هاتفيا بنفسي، و (ريكو) على قيد خطوة واحدة مني..

رفع مسدسه نحوها، صائحا:
- هراء.... لقد خنتني يا (صوفيا).
وفي مكتب مستر (زد) دوت رصاصة أصابت هدفها بمنتهى الدقة..

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع عشر

«ولكن كيف؟!....»

هتف المفتش (رياض) بالعبارة، وهو يدير عينيه بين عشرات من طائرات الهليوكوبتر، تنطلق في نفس مسار الهليوكوبتر التي يستقلها، مع رجل المخابرات العمومية، الذي أجاب في صرامة:

- لست مخولا بإجابة مثل هذا السؤال.

عاد (رياض) يهتف في حدة:

- لماذا كل هذا التكتم؟!

أدار الرجل عينيه إليه في بطء، مجيبا بنفس الصرامة:

- لأننا هكذا نعمل.

ثم اعتدل مرة أخرى، مضيفا:

- طوال الوقت.

صمت (رياض) بضع لحظات محتقنا، قبل أن يسأل في حذر:

- تستعدون لشن هجوم شامل؟!

أجابه الرجل:

- بالتأكيد.

حاول (رياض) أن يصمت مرة أخرى، إلا أنه عجز عن هذا، فتساءل في توتر:

- ولهذا علاقة بمجرم القرن؟!

صمت رجل المخابرات لحظات، ثم أجاب في بطء:

- لماذا أنت هنا إذن؟!

هتف (رياض) معترضا:

- هذا ليس جوابا..

أجابه الرجل في سرعة:

- بل هو كذلك.

تراجع (رياض) في مقعده، وعقد ساعديه أمام صدره في قوة، وهو يعاود التطلع إلى سرب طائرات الهليوكوبتر من حوله، وهو يتساءل في أعماقه:
هل يحتاج الظفر بمجرم القرن، إلى شن حرب كاملة؟!...
أم أن هناك سرا آخر، خلف كل هذا؟!...
راح التساؤل يعربد في أعماقه في عنف، ولكن. بلا جواب على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

راجع نائب مدير المخابرات العمومية، كل ما أمامه من تقارير، ثم رفع عينيه إلى المدير، قائلًا في قلق واضح:
- لم تنجح قنبلة طائرة واحدة، في الوصول إلى جزيرة مستر (زد).
رفع المدير عينيه إليه في قلق، متسائلًا:
- والسبب؟!...
من النائب رأسه، قبل أن يجيب:
- إنهم يحيطون الجزيرة بدرع ما، تتفجر عليه كل الاجسام التي تقترب من الجزيرة، لمسافة نصف الكيلومتر.
انعقد حاجبا المدير، وهو يتراجع في مقعده، قائلًا:
- وما رأى خبرائنا في هذا؟!
التقط النائب أحد التقارير، وراح يقرأه بصوت مسموع:
- يرجحون أنه درع من الليزر، يحيط الجزيرة على شكل كرة تامة الاستدارة، بحيث يستحيل أن تصل إليها قطعة بحرية أو تحت مائية، أو أية مقاتلة جوية.
ازداد انعقاد حاجبي المدير، وهو يغمغم:
- سيمزقهم درع الليزر تمزيقا، دون حتى أن يدركوا أنهم يعبرونه.

تراجع المدير في مقعده أكثر، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه مفكرا بضع لحظات، قبل أن يعتدل، قائلا بلهجة أمرة:
- مُر الرجال بعدم الاقتراب من الجزيرة، لمسافة ستمائة متر، حتى يصدر إليهم الأمر بالهجوم.
تطلع إليه نائبه، وسؤال متردد يطل من عينيه، فأضاف المدير، مجيبا سؤاله، الذي لم ينطقه:
- وسنصدر الأمر بالهجوم، فور تلقينا الإشارة.
ثم اعتدل مردفا في حزم:
- من داخل الجزيرة.
وهنا أطل من عيني النائب ألف سؤال على الأقل..

☆ ☆ ☆

أغلقت (صوفيا) عينها في قوة، وجسدها ينتفض في عنف، متصورة أن ما سمعته هو صوت رصاصة مستر (زد)، التي أطلقها نحوها...
ولكنها لم تشعر في جسدها بأية آلام..
كل ما شعرت به وسمعته، هو صرخة ألم أطلقها مستر(زد)، مع صرخته، التي تجمع ما بين الصدمة والذعر والذهول:
- مستحيل!!
فتحت عينيها في سرعة، وشاهدت مستر (زد) يتراجع في ذعر، ومسدسه ملقى أرضا، وقد أصابته رصاصة، حطمت جزءا من مقبضه، وهو يحدق في شيء ما خلفها، فالتفتت في سرعة، إلى حيث ينظر وتراجعت بدورها في عنف، وهي تكرر كلمة مستر (زد):
- مستحيل!
كانت تحدق مباشرة في (أكرم صدقى)، الذي يصوب إليها وإلى مستر (زد) مدفعا آليا، ويقول في سخرية:

- مفاجأة.... أليس كذلك؟!
حدقت فيه ذاهلة، ومستر (زد) يهتف مرتجفا:
- أنتِ السبب يا (صوفيا)... أنت جِلبته إلى هنا.
استدارت إليه بكل حنقها، صارخة:
- اصمت أيها الغبي المتعجرف.
ثم التفتت مرة أخرى إلى (أكرم)، الذي هز كتفيه، قائلًا:
- إنه لم يخطئ يا (صوفيا).. أنت جلبتني إلى هنا بالفعل.
كررت في حنق عصبى:
- مستحيل!
هز (أكرم) رأسه نفيا في بطء، وهو يقول:
- ليس مستحيلًا كما تتصورين... انتِ جلبتني إلى هنا.
عندما قدت بكِ الهليوكوبتر بنفسي، إلى الوكر السري لمستر(زد)، والذي عجزنا عن كشفه لسنوات...
تراجعت كالمصعوقة، هاتفة:
- الهليوكوبتر؟!... ولكن هذا مستحيل!... قائد الهليوكوبتر هو أقرب رجالي إلى، وأكثرهم إخلاصا، و...
قاطعها، وهو يقول، مقلدا صوت الطيار بدقة بالغة:
- إلى أين هذه المرة أيتها الزعيمة:
اتسعت عينا (صوفيا)، وهي تغمغم ذاهلة:
- ولكن كيف؟!
هز كتفيه مرة أخرى، قائلًا:
- لا ريب في أنك قد أدركت، بذكائك المعهود، أننى كنت انتحل هيئة ذلك الخرتيت (ريكو)، عندما حاولت استجوابي في روما.
انعقد حاجبا مستر (زد)، وهو يتراجع في حذر، نحو لوحة الأزرار الكبيرة، على سطح مكتبه، في حين غمغمت وهي مبهوته:
- ولكن اختبار كشف الكذب...

أشار بيده اليسرى، قائلًا:
- كان هذا أسهل جزء في اللعبة يا عزيزتي (صوفيا)، جهاز كشف الكذب ما هو إلا جهاز رقمي، يعتمد على التغيرات الفسيولوجية لدى من يتم استجوابه...
وتلك التغيرات تحدث بساب، توتره، وخشيته من افتضاح أمره... ولكن حتى رجال (المارينز) مدربين على خداع هذا الجهاز.... ولعل هذا ما جعله غير معتمد، كوسيلة لإثبات الجريمة، في كل المحاكم العالمية..
قالت في توتر، يموج بالشك:
- ولكنني تحدثت إليك شخصيا، و(ريكو) يرقد على قيد خطوات مني، فكيف؟!
مال قليلا، وهو يقول في خبث:
- سأترك هذا لخيالك يا عزيزتي (صوفيا).
اقترب مستر (زد) من لوحة الأزرار أكثر، وهو يقول في توتر:
هل سنضيع الوقت في هذه الترهات دون أن تخبرني لماذا أنت هنا يا مستر (أكرم)؟؟
مال (أكرم) بقوهة مدفعه إلى أعلى، وهو يجيب:
- أي سؤال هذا يا مستر (زد: الشهير انتي هنا للتفاوض بالطبع...
راحت يد مستر (زد) تزحف في حذر من خلف جسده، نحو لوحة الأزرار، وهو يسأل:
- التفاوض بشأن ماذا؟!
أطلق (أكرم) ضحكة عالية ساخرة، قائلًا:
- وتتحدث عن الهراء؟!.... إنني هنا؛ للتفاوض بشأن ذلك البرنامج الدفاعي يا رجل.
تحول غضب وذهول (صوفيا) إلى نوع من الشراسة، وهي تقول:
- تقصد برنامجى.

ابتسم في سخرية، قائلًا:
- منذ متى؟!
هتفت، كنمرة شرسة:
- منذ قررت الحصول عليه.
بدا أكثر شراسة منها، وهو يقول:
- ولكنكِ لم تحصلى عليه.
صرخت ثائرة:
- لأنك خدعتني.
قال في صرامة شرسة:
- وبهذا صار ملكي أنا...
تراجعت بوجه محتقن، وغمغمت بكل مقت الدنيا:
- كان ينبغي أن أقتلك، وأنت في هيئة (ريكو)؟!
ضحك قائلًا:
- لقد حاولت إقناعك باصطحابي إلى هنا، في هيئة (ريكو)، ولكنك رفضت هذا، فرأيت أنه من الأفضل أن أنتحل هيئة طيارك الخاص ثم ارتفع صوته، واكتسب قساوة وصرامة، وهو يضيف، دون أن يرفع عينيه عنها:
- الأفضل أن تتوقف أصابعك عند هذا المستوى يا مستر(زد)؛ فلو أنك ضغطت زرا واحدا، من لوحة أزرارك ستكتسب في اللحظة نفسها ثقبا خاصا، في منتصف جبهتك أبعد مستر (زد) أصابعه عن لوحة الأزرار بحركة غريزية وهو يقول في عصبية:
- ملفك يقول: إنك لا تقدم على القتل قط، في غير ظروف الدفاع عن النفس.
غمغمت (صوفيا) في مقت:
- هذا صحيح.

أطلق (أكرم) ضحكة عالية ساخرة، قبل أن يستعيد صرامة صوته وقسوته، وهو يقول:
أظنكما تتحدثان عن ذلك الأحمق الذي كنته، والذي كان يهدر كل قدراته وإمكاناته وطاقاته، من أجل مبادئ وقيم لا تسمن، ولا تشبع من جوع.
دست (صوفيا) يدها، في جيب سترتها الأنيقة، وهي تقول:
- إذن فكل ما يشغل (أكرم صدقي) الجديد الآن هو المال.
أجابها في رصانة عجيبة:
- لا.... ليس مجرد المال.
ثم أضاف في شراهة:
- بل الكثير منه... والكثير جدا..
فوجئ بها مستر (زد) تتماسك فجأة، وهي تقول في صرامة:
- وما أدراك أنه ليست لدي خطة بديلة؟
عاد يطلق ضحكته الساخرة العالية، قبل أن يقول ساخرا:
- لو أنك تشيرين إلى خطة تحالفك مع دونا (كاترينا) فأنصحك أن تحذفيها من عقلك تماما؛ فالبلاغ الذي تلقته المخابرات الإيطالية بشأنها، ستجعلها ورجالها منشغلين بمحاولة تبرئة أنفسهم، لشهر على الأقل.
بدت شديدة القسوة والصرامة، وهي تقول:
- ليس هذا ما كنت أقصده بالخطة البديلة.
وأخرجت يدها من جيب سترتها، وهي تحمل ما يشبه الهاتف المحمول، ضغطت زرا كبيرا فيه، وهي تضيف:
- بل هذا.
ارتد (أكرم) بحركة عنيفة، وأمسك جانبي رأسه بكل قوته وحملت ملامحه آلاما رهيبة، وهو يفلت مدفعه الآلى، الذي سقط أرضا..

وقبل أن يرتطم بالأرض، وثبت (صوفيا) نحوه، نحوه، وثبة رشيقة طويلة؛ لتركل (أكرم) في وجهه مباشرة وبمنتهى منتهى العنف...

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس عشر

اتسعت عينا مستر (زد) في دهشة، عندما انهار (أكرم) أمام (صوفيا)، التي وثبت نحوه في حركة سريعة رشيقة لتركله في وجهه بمنتهى منتهى العنف ولكن دهشته هذه لم تلبث أن تحولت إلى ذهول، عندما اعتدل (أكرم) فجأة في رشاقة وحيوية مدهشتين، وأمسك قدم (صوفيا)، قبل أن تبلغ وجهه، وهو يقول ساخرا:

- هل تصورت الأمر بهذه البساطة؟!

فقدت توازنها، مع المفاجأة وعرقلة حركة قدمها، فسقطت أرضا، مطلقة سبابا غاضبا ساخرا، في نفس اللحظة التي استعاد فيها (أكرم) سلاحه بحركة سريعة، وهتف في مستر (زد) في قسوة:

- مازال عرضي ساريا.... المس زرا، أمنحك ثقبا.

هتفت (صوفيا) في غضب شديد التوتر:

- مستحيل!... لا يمكنك أن تقاوم إشارة الجهاز.

تحركت يده في سرعة؛ لتنتزع منها ذلك الجهاز، الشبيه بالهاتف المحمول، فقاومته هي في عنف، صارخة:

- إننى أفضل الموت..

جذبه من بين أصابعها، في قوة عجزت عن مقاومتها، وهو يقول:

- ولكنني أريدك على قيد الحياة.

وألقى نظرة سريعة على الجهاز، قبل أن يدسه في جيبه، مضيفا:

- بهذا نكون قد حصلنا على سلاح جديد.

حاولت أن تنهض، وهي تقول في عصبية شديدة:

- تكونون؟!... من تقصد بصيغة الجمع هذه؟!

أضيئت الشاشة الكبيرة في حجرة مستر (زد)، قبل أن يجيب سؤالها، وظهر عليها وجه مسئول أمنه، وهو يهتف في انهيار:
- كل دفاعاتنا تم تدميرها يا مستر (زد)... ذلك الشيطان المصرى دمر كل شيء... لم يعد لدينا سوى درع الليزر ووحدك تملك التحكم فيه.
انعقد حاجبا (صوفيا) في شدة، في حين هتف مستر (زد) في انفعال بالغ:
- أي شيطان مصرى تقصد؟!.. الشيطان المصري الوحيد الذي أعرفه، يقف أمامي هنا.
انبعث صوت ساخر من مدخل الحجرة، يقول:
- إنه يقصدني أنا.
ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي (أكرم)، في حين التفت مستر (زد) و(صوفيا) إلى مدخل الحجرة، في حركة سريعة ارتدت (صوفيا) بعدها مصعوقة، وهاتفة:
- مستحيل!
أما مستر (زد)، فقد فغر فاه في ذهول، وعجز لسانه عن النطق تماما فما رأياه أمامهما كان مذهلًا بكل المقاييس...

☆ ☆ ☆

«ماذا ننتظر؟!...»
غمغم المفتش (رياض) بالسؤال في عصبية، فأجابه رجل المخابرات العمومية في هدوء، ودون أن يلتفت إليه:
- الإشارة.
سأله في توتر:
- أية إشارة؟
أشار رجل المخابرات بسبابته، مجيبا:
- الإشارة التي تعلن أن الاستمرار قد صار آمنًا..

عاد يسأله، في توتر أكثر:
- ومن أين ستأتي تلك الإشارة؟!... من القيادة؟!
صمت رجل المخابرات لحظات، وكأنما يدرس ما إذا كان ينبغي له أن يجيب أم لا، ثم لم يلبث أن حسم أمره، وأشار بيده، مجيبا:
- بل من قلب جزيرة مستر (زد)...
اتسعت عينا (رياض) عن آخرهما، وهو يهتف:
- مستر (زد)؟!... زعيم الإرهاب العالمي الشهير؟! أنحن بصدد الهجوم على مقره الآن؟!
ابتسم الرجل، دون أن يجيب، فهتف (رياض) في انبهار:
- هل نجحتم في تجنيد شخص ما بين صفوفه؟!
اتسعت ابتسامة الرجل، وهو يجيب في بطء:
- بل فعلنا ما هو أكثر براعة من هذا..
والتفت إليه بنفس البطء، مضيفًا:
- لقد استعنا بملفك..
انعقد حاجبا (رياض)، وهو يغمغم:
- ملفي؟!... ماذا تعنى يا رجل؟!
قفز الجواب فجأة إلى رأسه، فعادت عيناه تتسعان، وهو يهتف:
- هل تعنى؟!...
اتسعت ابتسامة الرجل أكثر، وهو يجيب:
- بالضبط.
لحظتها فقط، أدرك (رياض) مع من يتعامل بالضبط وتضاعف انبهاره.. ألف ألف مرة...

☆ ☆ ☆

لم يكن من السهل أبدا، أن يستوعب مستر (زد)، أو تستوعب (صوفيا جريشام) ما رأياه أمامهما ففي منتصف الحجرة، كان

(أكرم صدقى) يصوب إليهما سلاحه وعند مدخل الحجرة، كان (أكرم صدقى) يقف مبتسما في سخرية، حاملًا سلاحا آخر... وفي حين انعقد لسان مستر (زد) تماما، غمغمت (صوفيا) في بطء ذاهل:

- أحدكما زائف ولا شك.

تقدم (أكرم)، الذي جاء مؤخرا، نحوهما وهو يقول:

- الواقع أن كلينا حقيقي تماما يا عزيزتى (صوفيا)..

هتفت في ذهول:

- مستحيل!... لا بد أن يكون أحدكما زائفا!

قال (أكرم) الآخر، الذي يصوب إليهما سلاحه منذ البداية:

- قلت لك: سأترك هذا لخيالك.

انتفض جسدها في عصبية شديدة، وهي تهتف:

- لست ساذجة؛ لتحاول إقناعي بأنكما نسختان من رجل واحد!

واصل (أكرم) تقدمه نحوها، وتجاوزها في هدوء، وهو يقول ساخرا:

- لا أحد يحاول إقناعك.

تسللت أصابع مستر (زد) مرة أخرى في حذر متوتر، نحو لوحة الأزرار، وهو يغمغم:

- إنها على حق يا رجل... هذا يستحيل أن يحدث، ولا حتى في أفلام الخيال العلمي.

اتجه إليه (أكرم) مباشرة، وهو يقول في هدوء:

- هل تريد لمحة من عالم الواقع؟!

قالها، ثم تحرك في خفة مدهشة، وكال لمستر (زد) لكمة كالقنبلة، في أنفه مباشرة، أطاحت بزعيم الإرهاب العالمي لثلاثة أمتار كاملة، ليرتطم بالجدار قبل أن يسقط أرضا فاقدا الوعي..

وبكلمات هادئة، ابتسم (أكرم) الآخر، وهو يقول:

- أحسنت... كم أتمنى لو استطعت فعل هذا، بمستر (زد) عالمى.
اتسعت عينا (صوفيا) مرة أخرى، وهي تغمغم ذاهلة:
- عالمك؟!... ما الذي يعنيه هذا؟!
أجابها (أكرم) العالم الآخر، دون أن يلتفت إليها:
- لا يمكنني أن أخبرك.
ثم تبادل نظرة وابتسامة مع قرينه، قبل أن يضيف:
- إنها مسألة أمن قومي.
ومد سبابته نحو أحد الأزرار، سائلًا (أكرم) عالمنا:
- هل تسمح لي؟!
أشار إليه (أكرم) عالمنا بيده، مجيبا:
- هذا حقك... إنه عالمك.
اتسعت ابتسامة (أكرم) العالم الآخر، وضغط زر درع الليزر ثم أطلق الإشارة..
وبدأ الهجوم..

☆ ☆ ☆

في انبهار شديد، وقف المفتش (رياض)، ينقل بصره بين (أكرم) و(أكرم)، في حجرة مدير المخابرات العمومية، قبل أن يهتف:
- إذن فكل هذا كان مدبرا...
ابتسم الأكرمان، في حين قال مدير المخابرات في رصانة:
- كان من الضروري إقناع مستر (زد)، ومن قبله (صوفيا جريشام)، بأن قاهر المستحيل قد تحول إلى مجرم القرن، كما أرادا وخططا، ولكن الواقع أن (أكرم)... وأقصد (أكرم) عالمنا بالطبع، قد أدرك منذ البداية أن أحدهم يعبث بعقله، وكان من الطبيعي، والحال هكذا، أن يلجأ إلى القسم الفني هناك؛ لعلاج هذه المشكلة.

قال (رياض) مبهورا:
- وانتزعتم أنتم تلك الشريحة الرقمية من مخه...
ابتسم مدير المخابرات، وأشار إلى نائبه، الذي أجاب
- الواقع أن الوحيد، الذي كانت لديه الكفاءة ليفعل هذا، دون أن يفشي السر، هو شقيقه، أستاذ جراحة المخ والأعصاب (أيمن صدقى).
قال (رياض) في لهفة:
- المهم أنكم قد انتزعتموها.
أومأ المدير برأسه إيجابا، وقال:
- انتزعناها، ووضعناها داخل هاتفه، بحيث يصدر ذبذبة خاصة، كلما استخدمت (صوفيا) جهاز التحكم عن بعد، حتى يتمكن (أكرم) من أداء دوره جيدا.
قال (رياض)، بشيء من الفخر:
- ولكنكم لم تتوقعوا ظهور (أكرم صدقى) آخر لمعاونته.
هز (أكرم) عالمهم كتفيه، قائلًا بابتسامة خفيفة:
- ليس كما تتصور... لقد تركني أواجه طاقم الحراسة على شاطئ الجزيرة وحدي، ولم يتعاون في هذا الشأن
أشار (أكرم) عالمنا بكفه، وهو يقول بابتسامة مماثلة:
- أظنني أكثر من يتعلم أنك لم تكن بحاجة إلى المساعدة هناك.
ثم هز كتفيه، مضيفا قليلًا:
- كانوا خمسة أو ستة رجال فحسب..
هز (أكرم) عالمهم كتفيه، على النحو نفسه، وهو يغمغم:
- أنت على حق... لم يكن الأمر يستحق لم يكن الأمر يستحق .
نقل (رياض) بصره بينهما مرة أخرى، قبل أن يهتف في لهفة:
- ولكننا أحضرنا قرينك من عالم مواز؛ ليتصدى لك لا ليتعاون معك... فكيف أقنعته بهذا؟!...

مط (أكرم) عالمهم شفتيه، مجيبا:
- إنه أنا يا رجل... أكثر من يعرفني... في الكون كله...
لست أنكر أننى قد ذهلت، عندما رأيته أمامي، ولكنه، وفي كلمات موجزة سريعة، أخبرني بالأمر، وذكر لي أمورا يستحيل أن يعرفها سواى، وقبل مضى دقيقة واحدة، كنا نتصافح، وكنت أشرح له اللعبة كلها
هز نائب مدير المخابرات رأسه، وهو يغمغم:
- يدهشني أن تمنحه ثقتك بهذه السرعة.
تبادل الأكرمان نظرة وابتسامة مرة أخرى، ثم هز (أكرم) عالمنا كتفيه، قائلًا:
- إن لم تثق بنفسك، فبمن يمكن أن تثق.
بهرت العبارة (رياض)، الذي غمغم:
- ولكن ماذا عن كل الوثائق الرسمية التي أتلفت؟!
أجابه مدير المخابرات في حزم:
- اطمئن أيها المفتش... كلها تم نسخها، قبل أن يتم إتلافها... كل شيء في أمان، وسيعود كما كان..
غمغم (رياض):
- والمقار التي تم نسفها..
أجابه نائب المدير هذه المرة:
- لا يمكنك أن تربح حربا بلا خسائر يا رجل... لقد أسقطنا أقوى شبكة إرهابية عالمية، وظفرنا، ولأول مرة بتلك الأفعى (صوفيا جريشام)، ودونا (كاترينا) في سبيلها للسقوط.. ألا ترى أن كل هذا الربح، يساوى ما تكبدناه من خسائر؟!
صمت (رياض) بضع لحظات، قبل أن يجيب:
- بالتأكيد.

رفع (أكرم) عالمنا سبابته، وكأنه يهم بقول شيء ما، ثم امتقع وجهه فجأة، وغمغم في إعياء واضح:

- رباه!

ثم سقط أرضا، فاندفع الكل نحوه، في حين أسرع (رياض) يضع منظاره الخاص على عينيه، قبل أن يخفق قلبه في عنف فوفقًا لما يراه، كان (أكرم) عالمنا قد استنفد كل ما لديه للبقاء في ذلك العالم الموازي والآن هو يحتضر، ويلفظ طاقته الأخيرة وبسرعة...

☆ ☆ ☆

الفصل الأخير

«تأخرنا كثيرا أيها السادة..»

قالها الدكتور (راضي) في أسف، انخلعت معه قلوب من يحيطون به، فخيم عليهم وعلى المكان صمت رهيب، وانعقدت الألسن في حلوق الجميع، على نحو يدعو إلى الرثاء.

مدير المخابرات العمومية..

ونائبه..

والمفتش (رياض)..

ورئيسة..

و(أكرم صدقى) عالمهم..

«كلا..»

نطقها (أكرم) عالمهم بمنتهى الصرامة والحزم، فالتفت إليه الجميع في تساؤل، جعله يكمل بنفس اللهجة والشعور:

- سنبدأ إجراءات إعادته على الفور، مادام في صدره نفس واحد يتردد.

غمغم الدكتور (راضي) في توتر:

- ولكن جسده لن يحتمل الـ....

قاطعه (أكرم) عالمهم، وهو يندفع نحو (أكرم) عالمنا الفاقد الوعي:

- أنا أدرى بجسدي... لا تضيع ثانية واحدة يا هذا، وابدأ إجراءات النقل على الفور..

بدا الدكتور (راضي) وكأنما تجمد في موضعه، فصرخ فيه(أكرم) عالمهم، وهو يحمل جسد (أكرم) عالمنا:

- ابدأ فورا.

انتزعت الصرخة الدكتور (راضي) من جموده، فاندفع نحو آلة النقل، وخلع المفتش (رياض) سترته بدوره، وهو يلحق به، هاتفا:

- لقد راقبت ما فعلته، في المرة السابقة.

وخلال ثانية واحدة، كان كل الموجودين يتعاونون، في سرعة وحماس، على نقل (أكرم) عالمنا، إلى آلة الانتقال بين العوالم المتوازية وعلى الرغم من سرعته ولهفته، أرقد (أكرم) عالمهم قرينه، داخل آلة النقل، في عناية ورفق، وهو يصرخ مرة أخرى:

- هيا يا رجل... هيا

كان جسد (أكرم) عالمنا يتحول تدريجيا، إلى حالة نصف شفافة، دلالة على تفكك خلاياه، عندما هتف الدكتور (راضي):

- لست مسئولًا عما يحدث.

صرخ فيه (أكرم) عالمهم في لهجة أقرب إلى الشراسة:

- أبدأ يا رجل... ابدأ..

صاح فيه الدكتور (راضى) بدوره:

- أغلق الباب إذن.

اندفع المفتش (رياض) نحو الجهاز، وهو يهتف:

- سيحتاج إلى من يرافقه إلى عالمه، حتى يمكنه...

التفت نحوه (أكرم) عالمهم في شراسة واضحة، صارخا:

- قف مكانك يا هذا.

واتسعت عيون الجميع، مع ما حدث بعدها بثانية واحدة ومع الفرقعة المكتومة، التي نشأت مع تشغيل جهاز النقل، تراجع الكل في حركة عصبية، وران عليهم جميعا صمت مهيب رهيب، وهم يحدقون في الجهاز، الذي بدا خاليا تماما، قبل أن يقطع نائب المدير ذلك الصمت، مغمغما:

- تُرى هل؟!!

ولم يكمل تساؤله..
ولم يجبه أحدهم..
على الإطلاق...
كل شيء عبر رأسه في لحظة واحدة..
كل شيء..
طفولته..
تدريبات والده..
صباه..
أيام الحرب..
هدير الطائرات..
أزيز القنابل..
صوت الرصاصات..
دوى الانفجارات..
أول يوم في المخابرات..
(صوفيا جريشام)..
دونا (كاترينا)..
مستر (زد)...
ذلك العالم الآخر..
ثم شعرت عيناه بذلك الضوء القوى..
ضوء أبيض نقي، يغمر وجهه، ويخترق جفنيه، و....
«إنه يستعيد وعيه...»
بلغ ذلك الصوت المألوف مسامعه، فتحامل لحظة، وتساءل في أعمق أعماق عقله: كيف يمكن أن يسمع هذا الصوت؟!
كيف؟!...
إنه صوته هو..

فتح عينيه في بطء، فبهره ذلك الضوء القوى، على نحو جعله يرفع ذراعه؛ ليحمى عينيه، وهو يغمغم:
- أين أنا؟!
أتاه صوته مرة أخرى، يقول في ارتياح:
- أنت في وطنك.
ابتعد ذلك الضوء المبهر إثر العبارة، فعاد يفتح عينيه، ويحدق لحظة في ذلك الوجه الذي ينحني نحوه، والذي حمل كل ملامح الارتياح، مما جعله يحاول أن يبتسم، وهو يغمغم في إعياء:
- تقصد وطننا..
اعتدل (أكرم) العالم الآخر، وهو يقول في ارتياح أكثر:
- حمدا الله على سلامتك يا... يا أنا..
فتح (أكرم) عينيه أكثر، واستعاد عقله في سرعة شعوره بما حوله...
كان يرقد في حجرة صغيرة، على فراش طبي، وأمامه يقف قرينه من العالم الآخر..
ومدير المخابرات العامة...
ونائبه..
و(حسام) رفيق عمره..
و(مها)...
توقف لحظات عند وجه (مها)، زميلته وحب حياته وابتسم..
ومع ابتسامته، تخضب وجهها بحمرة الخجل، وغمغمت في حب واضح:
- حمدا لله على سلامتك..
ثم ألقت كل خجلها خلف ظهرها، وهي تردف في لهفة:
- في المرة القادمة، لا تثر رعبي إلى هذا الحد.
ابتسم مدير المخابرات بدوره، وغمغم

- أنا متشوق لقراءة تقريرك عن هذه المهمة يا (م - 1) ...
وإن كنت أجهل كيف يمكننا تصنيفها!
ابتسم (أكرم) العالم الآخر بدوره، وهو يغمغم:
- ستواجهنا المشكلة نفسها في عالمي.
هز مدير المخابرات العامة رأسه، وهو يقول:
لن يمكنك أبدا تخيل شعوري، وأنا أقف إلى جوارك وأتطلع إليك في فراش المرض، في الوقت ذاته.
اتسعت ابتسامة (أكرم) العالم الآخر، مع قوله:
- حاول إذن أن تتخيل موقفى، عندما فوجئت بنفسي أقف أمامي، وسط تلك المدينة الجديدة في عالمى!!
أطلق (أكرم) ضحكة قصيرة، وهو يقول:
- أظنني الوحيد، الذي يمكنه فهم شعورك هناك بدقة.
ثم غمز بعينه، مضيفا:
- فدون أدنى شك، أنا أكثر من يعرف ماهية مشاعرك.
ابتسم (أكرم) العالم الآخر، وهو يقول:
- أظن مهمتي في عالمك قد بلغت نهايتها يا أنا... وعلى الآن أن أستعد للعودة إلى عالمي.
أجاب مدير المخابرات في حزم:
- ليس بعد.
التفت إليه (أكرم) العالم الآخر في دهشة متسائلة، فأضاف بنفس الحزم:
- لديك الكثير من المعلومات عن خصوم وقعوا في قبضتكم في عالمك، ولكنهم مازالوا يؤرقون عالمنا، وأظن أن معرفة ما لديك ستفيدنا كثيرا.
تردد (أكرم) العالم الآخر قليلا، ثم غمغم:
- ليس بالضرورة..

قال (حسام) في حزم:
- ولماذا تفترض هذا؟!
صمت لحظة مترددا، ثم أجاب في حذر واضح:
- هناك شيء ما حدث حتما، في مرحلة قريبة؛ لأن الأمور في عالمكم، لم تعد تسير على الوتيرة نفسها، التي تسير بها في عالمى.
تساءل مدير المخابرات:
- أتعنى بالنسبة لانتقال (م - 1) إلى عالمك؟
تطلع (أكرم) العالم الآخر إلى (مها)، لجزء من الثانية قبل أن يجيب:
- هناك ما هو أكثر من هذا..
لم تفت هذه اللمحة عن عينى (أكرم)، الذي نقل بصره بين قرينه و(مها)، ثم غمغم في خفوت، حاول أن يجعله هادئا:
- أنت تعلم مثلى، أن أية معلومة صغيرة ستكون مفيدة يا صديقى..
وقبل أن يعلق أحدهم على عبارته، التفت إلى (مها)، يسألها بابتسامة:
- هل حضر (قادر) معكم؟!
أشارت (مها) بيدها، مجيبة
- بالطبع...
لقد كان أول الحاضرين... ولقد كان مذعورا من أجلك، حتى أنه لم يتناول شيئا، وظل جالسا إلى جوار فراشك طوال الوقت..
سألها بنفس الابتسامة:
- وهل ذهب يتناول شيئا؟!
أجابته مشفقة:

- بل غلبته مشاعره كالمعتاد، عندما رآك تستعيد وعيك فغادر الحجرة مسرعا، حتى لا نرى دموعه
أشار إليها بيده، قائلا:
- أحضريه بالله عليكِ... إننى أشتاق لرؤيته.
أسرعت (مها) تلبي طلبه، وما أن غادرت الحجرة، حتى التفت إلى (أكرم) العالم الآخر، يسأله:
- التغيير يتعلق بها... أليس كذلك؟!
شعر بتلك الدمعة، التي تقاتل حتى لا تفارق عينى (أكرم) العالم الآخر، وهو يغمغم:
- أنت محظوظ لأنها لاتزال إلى جوارك... في عالمي، لم تعد إلى جواري... إلى الأبد..
إثر عبارته، ساد المكان صمت مهيب، استغرق لحظة واحدة عادت بعدها (مها)، بصحبة (قادر)، الذي جفف دموعه، وهو يهتف في سعادة:
- حمدا لله على سلامتك يا صديق العمر..
ثم اندفع يعانق (أكرم) في حرارة، فابتسم (أكرم)، وهو يسأل قرينه:
- إنه صديقكم في عالمك، أليس كذلك؟!
أشار قرينه بيده، وقال:
- أعظم صديق.
هتف (قادر) في مرح:
- أرأيت... صداقتي تمتد إلى عالم آخر أيضا.....
ضحك الجميع لعبارته، ثم تقدم (أكرم) العالم الآخر من(أكرم) عالمنا، وهو يقول في حزم:
- أنت على حق... سأخبرهم كل ما لدى، فمن يدري، ماذا يمكن أن يفيد

ثم مد يده إلى (أكرم) عالمنا، مضيفا:
- كانت أعظم تجربة في حياتي، أن أعمل مع... نفسي.
مد (أكرم) عالمنا يده إليه، قائلًا:
- وأنا أيضا يا... نفسي..
وتصافح القرينان..
وكانت أول مصافحة في التاريخ بين قرينين وعالمين وهدف واحد (مصر).

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
الفصل الأول..
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر
الفصل الثاني عشر
الفصل الثالث عشر
الفصل الرابع عشر
الفصل الخامس عشر
الفصل الأخير

Notes

[←1]

(*) نظرية علمية حقيقية، أثبتتها الأبحاث التجريبية

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

صدمة

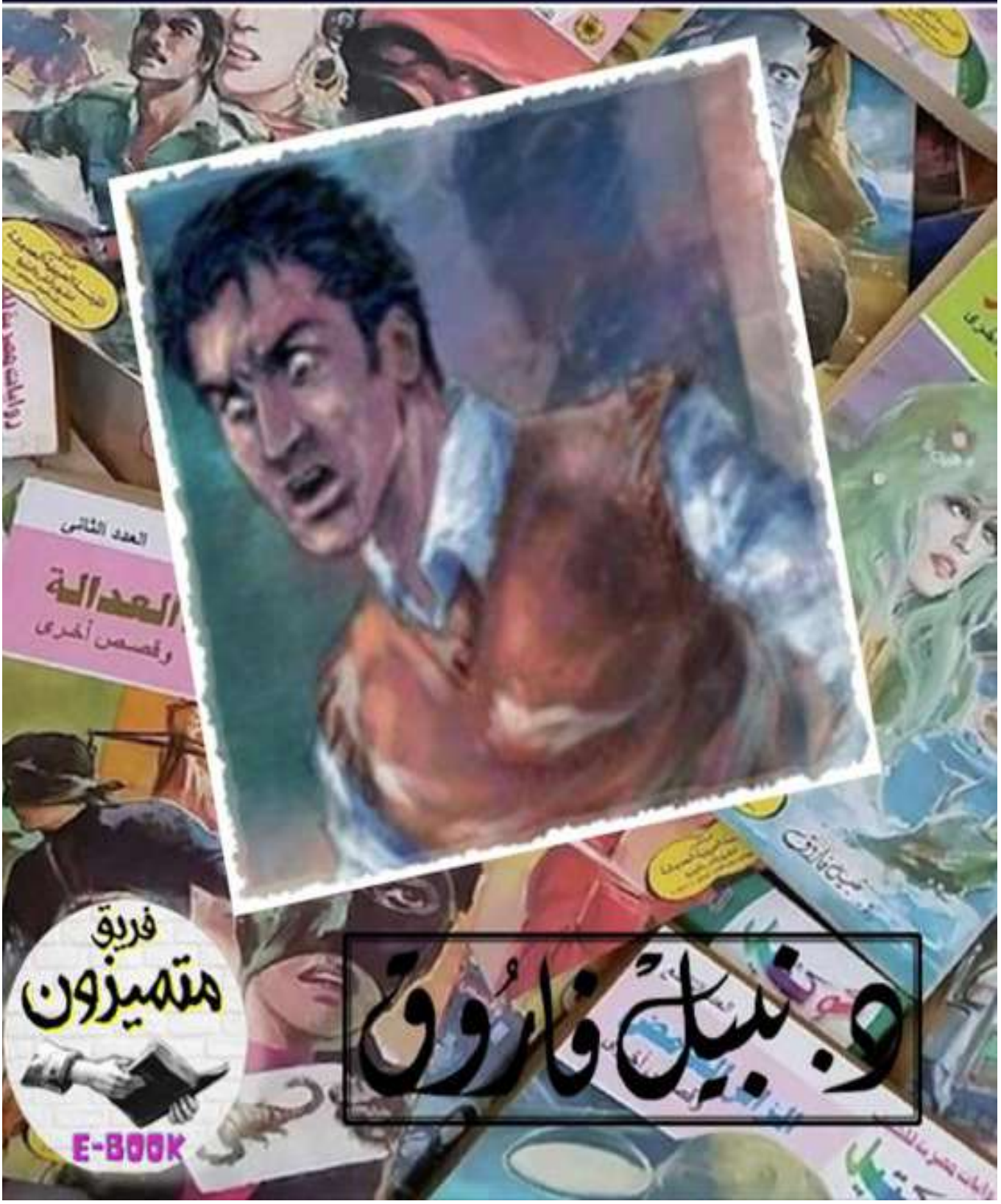

د. نبيل فاروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

صدمة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

صدمة

* الحياة تسير بنا على وتيرة واحدة.
* حتى تحدث الصدمة.
* صدمة واحدة، قادرة على تغيير مسار حياتنا
* إلى الأبد

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

الفصل الأول

بدأت تلك الليلة عنيفة للغاية..

ليس من الناحية الدرامية، ولكن من حيث ذلك الطقس العنيف، الذي هاجم البلاد فجأة..

كانت الشمس دافئة مشرقة، عندما اكتظت السماء بالسحب الرمادية الكثيفة، في سرعة مدهشة، ثم سرعان ما دوى هزيم الرعد، وسطع البرق وسط السحب، ثم انهمرت الأمطار دفعة واحدة..

وبمنتهى العنف..

- عجيب هذا الطقس!!...

قالها (أسامة)، الطبيب الشاب، في ذلك المركز الطبي، في أحد الأحياء الشعبية، وهو يغلق نافذة عيادته البسيطة، ويلتفت إلى زميله (عادل)، مستطردا:

- لست أدرى كيف أعود إلى المنزل، في هذا الطقس الرديء.

ابتسم (عادل) ابتسامة مشفقة، وهو يغمغم:

- ألم تحسم أمرك بعد، بشراء سيارة مستعملة؟!

أطلق (أسامة) ضحكة صافية:

- وما شأن السيارة بعودتي إلى المنزل؟!.. يمكنني ببساطة أن أستقل سيارة أجرة..

هز (عادل) كتفيه:

- على الأقل، ستكفيك مشقة البحث عن سيارة أجرة، قد لا تجدها في مثل هذا الطقس.

هز (أسامة) كتفيه بدوره:

- هل تعلم.. الإنجليز لديهم مقولة تقول: - لست ثريا بما يكفى لشراء سيارة مستعملة.

تنهد (عادل)، ونهض يربت على كتفه:
- إذن فأنت تنتظر، حتى تبتاع سيارة جديدة.
أومأ (أسامة) برأسه إيجابا، وغمغم:
- كدت أدخر قيمة مقدم شراء السيارة.
سأله (عادل) في اهتمام:
- ولماذا لا تعمل لفترة إضافية، في عيادة المركز.. أنت طبيب قلب محبوب، ويمكنك أن تضاعف إيراداتك، بالعمل هنا لفترتين
بدت لمحات من الحزن على وجه (أسامة):
- ومن يرعى والدتي المريضة؟!
لاحظ (عادل) دمعة، تجاهد للانسكاب من عيني أسامة، وأدرك أنه يقاوم موجة من الحزن، ارتطمت بشاطئ مشاعره، فأسرع يقول:
- السيدة الفاضلة والدتك أهم من ذلك بكثير بالطبع.
لم تنجح كلماته في إزالة لمحات الحزن، من ملامح (أسامة)، الذي عاد يجلس خلف مكتبه، بعد أن خلع معطفه الطبي، وقال في حزن واضح:
- إنها مريضة منذ زمن، بضمور عضلى عصبى، يتزايد مع الوقت وكل الأطباء أجمعوا على استحالة علاجه.
ثم نجحت تلك الدمعة الحزينة في أن تنسكب من عينيه، وتجرى على خديه، وهو يضيف في مرارة:
- أشاهدها تضمر وتذوى أمامي كل يوم، وأنا عاجز عن فعل أي شيء لإنقاذها.
ازدرد (عادل) غصة، ضاق بها حلقه، وهو يسأله في خفوت:
- من يرعاها، خلال تواجدك هنا؟!
غمغم (أسامة)، وهو يمسح دموعه:

- جارتنا ولاء.. هي وابنتها ياسمين ترعيانها وكأنها من عائلتهما.
اعتدل (عادل)، يتساءل في حذر:
- (ياسمين)؟!.. أتقصد تلك الشابة البيضاء الرقيقة؟!
غمغم (أسامة):
- إنها من الداخل أجمل منها من الخارج.
قال (عادل) في خبث:
- أهكذا تراها؟!
حمل صوت (أسامة) شيئا من عصبيته، وهو يقول:
- ماذا تعني بالضبط؟!
ابتسم (عادل) في خبث، وهو يتراجع في مقعده:
- أتظن أننى أعني شيئا؟!
رمقه (أسامة) بنظرة حادة، دامت عشرين ثانية، قبل أن ينهض، قائلاً في حزم:
- سأنصرف.
لم يكد ينطقها، حتى فتحت الممرضة (نوال) باب العيادة، دون استئذان كعادتها، وقالت في آلية اعتادها الكل منها:
- مريض عاجل يا دكتور (أسامة).
بدأ التوتر على (أسامة)، وهو يقول:
- كنت أهم بالانصراف.
انعقد حاجبا (نوال)، وهي تقول في خشونة:
- لقد دفع مقابل كشف عاجل بالفعل..
غمغم (عادل)
- ولماذا عاجل.. المركز يخلو من المرضى!!
تنهد (أسامة)، وقال في استسلام:
- لا بأس.. دعيه يتفضل
نهض (عادل)، واتجه نحو الباب، مغمغما:

- فليكن.. سأنتظرك في عيادتى حتى تنتهي..
قبل أن يصل إلى الباب، أفسحت (نوال) المجال للمريض، الذي عبر الباب في هدوء شديد، لا يتناسب مع مريض عاجل كان رجلاً نحيلا، طويل القامة، شاحب الوجه إلى حد ملحوظ، وملامحه كلها منمنمة، تبدو وكأنها قد تركت مساحة الوجه كله، وتركزت في منتصفه فحسب..
ومع انصراف الدكتور (عادل)، والممرضة (نوال)، صار (أسامة) منفردا بذلك المريض، الذي ظل صامتا، ينظر إليه مبتسما، على نحو أشعره بنوع غريب من التوتر، انعكس على صوته وهو يسأله:
- مم تعانى يا سيدى؟!
أشار المريض إلى قلبه، فغمغم (أسامة) في عصبية:
- هل يعاني قلبك ضعفا؟!
مرة أخرى اكتفى المريض بإشارة إلى قلبه، فالتقط (أسامة) نفسا عميقا؛ في محاولة للسيطرة على أعصابه، وهو يسأله:
- لماذا لا تجيب؟!
أشار المريض إلى فمه، وهز رأسه نفيا، فهتف (أسامة) في خجل:
- أنت أبكم.. معذرة يا سيدي.. تقبل أسفي واعتذاري.. تفضل سأقوم بالكشف عليك فورا.
ابتسم المريض ابتسامة، تفوق وجهه شحوبا، واتجه نحو (أسامة) مباشرة، والذي عاوده ذلك الشعور بالتوتر، وهو يشير إلى سرير الكشف:
- هنا يا سيدى.. ارقد هنا.
ولكن المريض واصل الاتجاه نحوه، متجاهلا إشاراته تماما، حتى صار يقف أمامه، لا تفصله عنه سوى سنتيمترات قليلة..
- سيدى هل تفهم ما أقول؟!...

خفض الرجل نظره إليه في هدوء، وبدا له في تلك اللحظة أطول مما تصور، وأكثر شحوبا مما شعر في البداية، فاستطرد في عصبية:
- أأنت عربى...
رفع الرجل يده الشاحبة في هدوء، ووضعها على كتف أسامة، و..
- دكتور (أسامة) ألم ترحل بعد؟!...
انتفض جسده مع سؤال (نوال)، وشعر وكأنه يستيقظ من حلم طويل، أو كابوس رهيب، فتلفت حوله في توتر، هاتفا:
- أين المريض؟!
حمل صوت (نوال) كملامحها كل الدهشة، وهي تتلفت حولها بدورها:
- أي مريض؟!.. المركز لم يحضر إليه مريض قلب واحد الليلة!!
هتف بها في عصبية:
- ذلك المريض الأبكم.. لقد رآه الدكتور (عادل) بنفسه..
سألته في حيرة:
- متى؟!.. أمس؟!
تزايدت عصبيته، وهو يقول:
- بل اليوم.. منذ أقل من ربع الساعة..
حدقت في وجهه، على نحو استفزه، فصاح بها:
- يمكنك أن تسأليه.
تراجعت خطوتين في توتر، وهي تغمغم:
- أسأله؟!.. الدكتور (عادل) لم يحضر اليوم..
صاح، وقد تضاعفت عصبية:
- كيف لم يحضر؟!.. لقد...
قاطعته، قبل أن يتم صيحته:

- الدكتور (عادل) لا يحضر أبدا أيام السبت..
صدمة قولها في عنف، فهتف بها:
- السبت؟!.. إننا يوم الأحد..
تراجعت في خوف:
- اليوم هو السبت يا دكتور (أسامة).
جاء دوره؛ ليحدق في وجهها ذاهلاً، قبل أن يلتفت في حركة حادة إلى نافذة العيادة المفتوحة، ويقفز سؤال إلى رأسه، ثم ينتقل في سرعة إلى لسانه:
- متى توقف المطر؟!
كادت (نوال) تفر من الحجرة، وهي تقول بصوت مرتجف:
- أي مطر يا دكتور.. إنها لا تمطر في هذا الموسم في المعتاد!!
حدق فيها بكل دهشة الدنيا لحظات، ثم لم يلبث أن أغلق عينيه وهز رأسه، مغمغما:
- أعتقد أنني سأعود إلى المنزل..
تمتمت هي في خوف وقلق:
- هذا أفضل!!
لاحظ أنه يرتدي معطفه الطبي، فخلعه وهو يتساءل، عما إذا كان قد خلعه بالفعل من قبل، واتجه نحو باب المركز، وترك (نوال) تغلق باب العيادة، وسار بضع خطوات، قبل أن يسمعها تهتف باسمه، فالتفت إليها، وقد صار على مسافة أربعة أمتار من المركز، وسمعها تقول:
- هل ستترك سيارتك هنا يا دكتور؟!
تجمد في مكانه، وهو يغمغم بكل توتره ودهشته واستنكاره:
- سيارتي؟!
أشارت إلى سيارة فاخرة، من طراز (مرسيدس)، سوداء اللون تقف أمام المركز الطبي مباشرة، وهي تجيب متوترة:

- هل نسيتها أيضا؟!
استدار وسار عائدا إلى حيث السيارة، وتوقف يتأملها لحظات، قبل أن يسأل (نوال)، التي جمعت بين الحيرة والخوف معا:
- منذ متى أمتلك هذه السيارة؟!
أجابت مرتجفة:
- لست أدرى متى، ولكنك تأتى بها إلى هنا، منذ أنشأت هذا المركز الطبي
هتف ذاهلاً:
- أنا أنشأته؟!
رفع عينيه إلى لافتة المركز، وهو يطلق هتافه، وشعر بصدمة في اعماقه..
(مركز الدكتور أسامة الطبي) .. ليس هذا هو اسم المركز، الذي يعمل به منذ سنوات.. إنه نفس المبنى، في نفس الحي، ولكنه أكثر فخامة، ويحمل لافتة مختلفة..
انتبه في هذه اللحظة فقط، إلى أنه يرتدى حلة أنيقة فخمة، تفوق ما يمتلكه ويرتديه طيلة عمره، وفجأة، وثب سؤال مخيف إلى ذهنه أهو في حلم؟!..
إنه يحيا وسط كل ما حلم به طيلة عمره..
ولكن هذا لا يحدث في يوم وليلة بل في لحظات!!
إنه حتما يحلم حتما..
- أسامة.. استيقظ يا ابنى...
تسلل الصوت إلى أذنيه دافئا حنونا، مع تلك اللمسات الرقيقة من أمه ففتح عينيه في صعوبة، وحدق في وجهها..
- أمي.. أنت تقفين على قدميك..
تراجعت أمه في دهشة، وهي تتساءل في خوف:
- وماذا يدهشك في هذا؟!

اعتدل بحركة حادّة، جالسا على طرف فراشه، وحدق فيها مرة أخرى إنها أمه، ولكن ملامحها أكثر نضارة مما يذكر، وجسدها ما زال يحمل حيويته المعتادة، دون أي أثر لضمورها العضلي العصبي و..

- هل كنت تحلم؟!...

ألقت أمه السؤال عليه في قلق، فحدق فيها بضع لحظات أخرى، قبل أن يفرك عينيه، مغمغما في حيرة متوترة:

- لم أعد أدرى.. صدقيني يا أمي.. لم أعد أدرى.

ظلت تلك الحيرة القاتلة تلتهم مخه وأعصابه، وهو يقف أمام مرأة الحمام؛ لحلاقة لحيته..

إنه يرى نفسه في مرآة الحمام في وضوح إنه نفس الشخص الذي يعرفه ومنزله نفس المنزل ولكن ما الذي شعر به، وعايشه بكل أحاسيسه، في الفترة الماضية؟!

- أمي.. هل أمتلك سيارة؟!...

فاجأ أمه بالسؤال، وهي تضع طعام الإفطار أمامه على المائدة، فرفعت عينيها إليه مشفقة، وغمغمت:

- (أسامة)!!.. ماذا أصابك؟!

كان يدرك أنها محقة تماما في سؤالها، وعلى الرغم من هذا فقد كرر سؤاله:

- هل أمتلك سيارة؟!

اعتدلت مجيبة، في صوت أقرب إلى البكاء:

- بالطبع يا حبيبى تمتلك سيارة منذ عامين تقريبا..

مال إلى الأمام، يسألها بكل الاهتمام:

- ما طرازها؟!

بدت أكثر دهشة وحيرة، وهي تجيب:

- من طراز فيات؟!.. هل نسيت طراز سيارتك؟!

شعر برأسه يدور، فأمسك شوكة أمامه، وغرس أحد أسنانها في ظهر كفه، فشهقت أمه صارخة:
- (أسامة)؟!.. ماذا تفعل؟!.. هل جننت؟!
الألم الذي شعر به، من سن الشوكة، جعله يدرك أنه مستيقظ، فأجاب في عصبية:
- كلا يا أمي.. أنا مستيقظ..
مالت نحوه، تسأله في جزع:
- هل أتصل بالدكتور (عادل)؟!
هز رأسه نفيا في توتر:
كلا يا أمي.. أنا بخير... اطمئنى..
جلست إلى جواره، وربتت على كفه:
- ما رأيك لو تحصل على إجازة اليوم؟!.. أظنك بحاجة إلى الراحة
هز رأسه نفيا مرة أخرى، مغمغما:
- لا أستطيع الغياب عن المركز، دون إبلاغ مسبق
سألته والدته في حيرة:
- أي مركز؟!
رفع عينيه إليها، قائلاً في توتر:
- المركز الطبي.. حيث أعمل
غمغمت بكل الحيرة:
- المركز الطبي؟!
ثم نهضت، مستطردة بكلمات مرتجفة:
- سأتصل بالدكتور (عادل).
لم يحاول أن يعترض، أو أن يثنيها عن الاتصال هذه المرة..
ربما لأنه يحتاج بالفعل إلى (عادل)..
يحتاج إلى من يحدثه..

وإلى من يفهمه..
أو يصدقه..
أو..
- الأمر محير... أليس كذلك؟!...
ذلك المريض الطويل الشاحب الأبكم قالها، دون أن تنفرج شفتاه..
ودون أن ينطق كلمة واحدة..
قالها بعقله، وهو ما زال يقف أمامه، في قلب عيادته البسيطة، داخل المركز الطبي، واضعا يده على كتفه، فحدق (أسامة) في وجهه الشاحب لحظات، قبل أن يهتف:
1 2- من أنت؟!
لم يجب المريض السؤال
فقط أفترت شفتاه الرفيعتان عن ابتسامة شاحبة ثم حدثت أغرب ظاهرة علمية فيزيائية، يمكن أن يرصدها أي مخلوق حى ·
كرة من البرق، حطمت نافذة العيادة المغلقة، في دوى هائل، واندفعت نحو (أسامة) مباشرة وفي سرعة، رفع المريض يده عن كتف (أسامة) وارتطمت به كرة البرق، في اللحظة نفسها وستفض جسد (أسامة)، في عنف فاق كل تصور..
فالصدمة كانت قوية، عنيفة، قاسية
وإلى حد لا يوصف..
على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

البرق يحيط به من كل جانب، دون أن يصدر أي صوت..
وجسده ينطلق في سرعة مخيفة، عبر ذلك النفق العجيب..
نفق طويل..
طويل..
طويل بلا نهاية..
جدرانه تسطع مع البرق، فيتألق ضوءها في النفق كله فقط بالقلق..
وعلى الرغم من سرعة اندفاعه، وغرابة النفق، لم يكن يشعر بالخوف..
والحيرة..
والتساؤل
أين هو بالضبط؟!..
وماذا يحدث لجسده؟!..
هل مات؟!..
أهذا هو البرزخ، الذي يتحدثون عنه، والذي يربط عالم الأحياء بعالم الموتى؟!
هل قتلته تلك الصدمة؟!
هل؟!..
واصل جسده اندفاعه مع تساؤلاته، وتضاعف قلقه مع حيرته، وخاصة عندما بدأ الهواء أمامه يصير كثيفا، كما لو أن ضبابا ينتشر فيه أو أنه صار كله ضبابا..
ضباب يتشكل على نحو عجيب، ليرسم هيئة وجه..
وجه شاحب، نحيل..
وجه ذلك المريض..

ثم فجأة، انتزعه من أفكاره شعور بأنه يهوى..
يهوى..
ويهوى..
ويهوى..
- إنه يستعيد وعيه...
سمع الكلمات في صعوبة، بصوت يألفه جيدا، فغمغم في ضعف:
- أمي
شعر بيد أمه الحانية على جبينه، وسمع صوتها تقول في لوعة:
- حمدا لله على سلامتك يا حبيبي
فتح عينيه في صعوبة، ورآهم كلهم أمامه..
أمه..
(نوال)..
الدكتور (عادل)
وحتى ذلك المريض..
لا... إنه ليس المريض.. إنه الدكتور (وفيق)، صاحب المركز الطبي ومديره..
وفي حركة تلقائية، أمسك كف أمه، ومال ببصره إلى ذلك المقعد المتحرك، الذي تجلس عليه، قبل أن يتمتم:
- لماذا أتيت يا أمي؟!
احتضنت أمه يده، مجيبة ودموعها تغرق وجهها:
كيف كان يمكن ألا آتي؟!!
استدار إلى زميله (عادل)، قائلاً في ضعف يذخر بالعتاب:
- أنت أحضرتها؟
قبل أن يجيب عادل، قالت الأم:
- (ياسمين) أحضرتني
أدار عينيه في الوجوه، التي تتطلع إليه في إشفاق، وتمتم:

- وأين هي؟!
ابتسمت الأم ابتسامة شاحبة، وهي تجيب:
- أوصلتني، وذهبت إلى عملها.
تطلع إلى الضوء المتسلل من النافذة، وهو يغمغم في توتر:
- هل ظللت فاقد الوعي طيلة الليل.
تبادل الكل نظرة مفعمة بالتوتر، قبل أن يدس الدكتور (وفيق) يديه في جيبي معطفه الطبي، وهو يتنحنح، قائلاً:
- دكتور (أسامة).. أنت فاقد الوعي لأكثر من هذا
تساءل في توتر:
- كم من الوقت؟!
سمع صوت (نوال) من يساره، تجيب في توتر:
- ستة أيام..
التفت إليها في حركة حادة، هاتفا:
- كم؟!
قال الدكتور (عادل) في سرعة:
- فلتحمد الله - سبحانه وتعالى - على بقائك على قيد الحياة.. ذلك البرق اخترق عيادتك، في سابقة طبيعية، هي الأولى من نوعها، ودمر العيادة كلها تماما..
شعر بغصة في قلبه، مع سماعه هذا، وغمغم بكل توتره:
- والمريض؟!.. هل..
تساءلت (نوال) في حيرة:
- أي مريض؟!
قال في ضعف، وهو يشعر وكأنه يوشك على فقدان وعيه مرة أخرى:
- ذلك المريض الشاحب الطويل
هز (عادل) كتفيه، وهو يقول:

- ربما انصرف قبل هذا، فلقد عثرنا عليك وحدك في العيادة، عقب الانفجار
اعتدل مرة أخرى، متسائلاً:
- إذن فأنت تذكره؟!
بدت الحيرة على وجه (نوال)، في حين أجاب (عادل):
- بالطبع.. لقد أتى وأنا معك في عيادتك.
أدهشتهم جميعا بتنهيدة حارة، وهو يسترخي على فراشه، مغمغا:
- الحمد لله..
رفعت أمه عينيها إلى الدكتور (وفيق)، متسائلة في جزع:
- ماذا يحدث؟!
أجابها الطبيب الكهل، في هدوء وثقة:
- أمر طبيعي، بعد صدمة عنيفة كهذه.. سيصفو ذهنه مع الوقت...
أغلق عينيه في ارتياح، وتركهم يتبادلون الحديث من حوله، وهو سابح مع أفكاره إذن فكل شيء عادي إنه لم يكن يحلم لقد التقى ذلك المريض العجيب بالفعل.
وكرة البرق كانت حقيقية إنه لم يكن يحلم..
- لم يكن حلما...
سمع الصوت، أو شعر به إذا شئنا الدقة؛ لأنه وصل إلى مخه، دون أن يعبر أذنيه نفس الصوت الذي سمعه عقله، قبل الصدمة وانتفض جسده، وهو يفتح عينيه في حركة حادة مستحيل!!..
إنه هنا إلى جوار فراشه!!..
ذلك المريض النحيل الطويل الشاحب يجلس بكل هدوء، وسط قاعة كبيرة خاوية، يستقر فراشه في منتصفها..

ليست حجرته في المركز الطبي..
أمه والآخرون اختفوا تماما..
والقاعة نفسها عجيبة للغاية!!..
قاعة واسعة، جدرانها كلها مع سقفها من قطعة واحدة، من معدن فضي اللون، لا توجد به فتحة واحدة..
وهناك ضوء ينبعث..
من مصدر مجهول..
كان الجدران كلها تومض بلا وهج..
أو أنها تعكس ضوءا ما..
- ما تراه من حولك حقيقة..
مرة أخرى تسلل الصوت إلى عقله مباشرة، فاعتدل متمتما في عصبية:
- من أنت؟!.. وكيف تفعل هذا؟!
ظل المريض محتفظا بتلك الابتسامة، التي تبدو وكأنها محفورة على وجهه، وصوت ما ينبعث من عقله مباشرة:
- لست هنا لأجيب الأسئلة.
قال في عصبية:
- لا بد وأن أعرف، كيف نقلتني إلى هنا.
جاءه الجواب على الفور:
- أنت لم تنتقل إلى أي مكان
أدار عينيه فيما حوله، وقال في عصبية:
- هل تريد إقناعي بأن ما أراه من حولي ليس حقيقيا؟!!
سبح الجواب إلى عقله في نعومة:
- وماذا حولك؟!.. من المبكر أن تحاول الفهم التجربة لم تبلغ هذه المرحلة بعد
تساءل بكل عصبية:

- التجربة.. أية تجربة؟!
بدأ المريض يتلاشى من أمامه، على نحو أشبه بما يحدث، في أفلام الخيال العلمي، فصرخ مكررا، وجسده كله يرتجف:
- أية تجربة؟!
- دكتور (أسامة).. ماذا يحدث؟!...
انتفض جسده، وهو يفتح عينيه عن آخرهما، ويحدق في وجه أمه التي أجهشت البكاء، و(عادل) يحاول تهدئتها، والدكتور (وفيق) يمسك به، محاولاً السيطرة على انتفاضات جسده، و(نوال) تعد محقنا واتسعت عيناه عن آخرهما أهو حلم مرة أخرى؟!..
أم كابوس؟!..
هل تأثر بذلك المريض إلى هذا الحد؟!
وكيف يرسم عقله هذه الصورة العجيبة؟!..
قاعة، وإضاءة، والمريض، و..
شعر بإبرة المحقن تخترق ذراعه، فاستسلم لها تماما إنها حقنة مهدئة حتما وهو يحتاج إليها وبشدة..
ولقد سرى المخدر في جسده بسرعة مخيفة، ودار رأسه، وتشوشت الرؤية أمام عينيه، وراح جسده يسترخي في هدوء آخر ما وقع عليه بصره كان جارته الرقيقة (ياسمين)، وهي تدلف إلى الحجرة، ونظرة قلق تطل من عينيها، وهي تحمل علبة شيكولاتة ثم انقطعت علاقته بعالم الوعي تماما...
- (أسامة).. حبيبي... هل كنت تحلم؟!...
ذلك الصوت المألوف داعب أذنيه، مع رائحة عطر رقيقة، ففتح عينيه في بطء، وتطلع إلى ذلك الوجه الحسن، المطل عليه، بعينين ملؤهما القلق وفي أعماقه، تفجر بركان من الدهشة إنها (ياسمين)..

جارته (ياسمين)..
ولكن ما هذا الذي ترتدينه؟!..
ثوب نوم هفهاف نصف شفاف وفي حركة حادة، اعتدل هاتفاً:
- ماذا تفعلين هنا؟!
فزعت (ياسمين) لانتفاضته، وتراجعت بحركة حادة، مكررة قوله في دهشة مذعورة:
- ماذا أفعل هنا؟!
هتف بها:
- نعم.. ماذا تفعلين هنا، في حجرة نومي؟!
أطل ذعر الدنيا كله من عينيها، وهي تقول مرتجفة:
- تقصد غرفة نومنا؟!
غرفة نومنا؟!
انتبه فجأة، مع عبارتها الاستنكارية، إلى أنه ليس في حجرته التي يعرفها، في بيت أمه..
إنها حجرة نوم مختلفة تماما..
أوسع.
أحدث.
وأفخم أثاثا بكثير..
ولكن ما جعل عينيه تتسعان عن آخرهما، هو صورة صورة كبيرة، معلقة في مكان متميز على الجدار، يبدو فيها في حلة أنيقة، وإلى جواره (ياسمين)، في ثوب زفاف أبيض وعلى الفور، استوعب هذا الحلم الجديد..
- ماذا بك يا حبيبى...
قالتها (ياسمين) بكل القلق، وهي تمس كتفه بأناملها الرقيقة فاغمض عينيه، وغمغم:
- كابوس مجرد كابوس

انحنت تطبع قبلة على خده، ثم تعتدل قائلة:
- سأعد لك كوبا من النعناع الدافئ؛ لتهدئة أعصابك
كانت تهم بالخروج من الحجرة، عندما قفز سؤال قلق إلى ذهنه، نقله إلى لسانه في سرعة:
- (ياسمين).. أين أمي؟!
أجابته (ياسمين)، وهي تواصل طريقها:
- في منزلها يا حبيبى.
ثم التفتت إليه مبتسمة:
لقد دعوتها لتتناول طعام الغداء معنا غذا، هي وعم (وفيق)
غمغم في دهشة:
- عم (وفيق)؟!
قالت في مرح خفيف:
- لا يمكنها أن تأتى دون زوجها بالطبع
كاد يصرخ بكل ذهوله زوجها؟!
أمه تزوجت الدكتور (وفيق)!!!!!
مستحيل طبعا!!..
هز رأسه في قوة؛ ليخرج من هذا الحلم السخيف..
هز..
هز..
وهز..
ولكن الحلم لم ينته..
وعندما عادت (ياسمين) بكوب النعناع، تطلع إليها في خواء، وهو يقنع نفسه بأنها ليست حقيقة مجرد جزء من حلمه أو من كابوسه ولكنه شعر بملمس كوب النعناع الدافئ في وضوح وطعم النعناع أيضا كان حقيقيا للغاية هذا إذن ليس حلما ولكنه من المستحيل أن يكون حقيقة أيضا!!..

إنه يحب (ياسمين) منذ زمن ولكنه حتما لم يتزوجها المرء لا يتزوج دون أن يشعر وأمه مقعدة، فكيف تتزوج؟!..
ومن؟!..
الدكتور (وفيق)!!..
- كيف تزوجت أمي؟!...
ألقى السؤال، وهو يرتشف كوب النعناع الدافئ، فأطلقت (ياسمين) ضحكة عذبة رقيقة:
- كما يتزوج كل الناس يا حبيبى.
قال، محاولا السيطرة على أعصابه:
- ظروفها ليست ككل الناس
تساءلت في دهشة:
- وفيم تختلف عنهم؟!
أجاب، في شيء من خشونة لم يتعمدها:
- كونها مقعدة..
كادت (ياسمين) تقفز من الفراش، من فرط دهشتها، وهى تهتف مستنكرة:
- مقعدة؟!.. هل تعتبر أمك مقعدة؛ لمجرد أنها اقتربت من الستين..
توقفت رشفة النعناع في حلقه، وهو يلتفت إليها، متسائلاً:
- ألم تكن؟
أخرسته نظرة الفزع في عينيها، فلم يتم تساؤله، ولاذ بصمت جعلها تسأله في قلق:
- أهذا كان كابوسك؟!
غمغم:
- يبدو هذا.

لاذ بعدها بالصمت، وهو يرسم على شفتيه ابتسامة زائفة، و(ياسمين) تتحدث إليه، وهو يتطلع إليها، دون أن يسمع حرفا مما تقول، حتى استسلمت للنوم أخيرا بين ذراعيه، وتركته يسبح مع أفكاره وحيرته..

- أيهما تفضل؟!..

فجأة، اختفت حجرة زواجه من حوله، وعادت تلك القاعة العجيبة تحيط به، وذلك الشاحب النحيل يجلس إلى جواره، مبتسما كعادته وكلماته تتسلل إلى عقله مباشرة، وتثير كل توتره..

- أنت الشيطان.. أليس كذلك؟!..

هتف بها (أسامة) في غيظ، لم يفقد المريض الشاحب ابتسامته، وهو يقول عبر عقله:

- أهذا أقصى ما توصل إليه عقلك؟!

صرخ (أسامة) بكل عصبيته:

- ماذا تفعل بي؟!.. ولماذا؟!

بكل هدوء، ودون أن يفقد ابتسامته، أو تنفرج شفتاه، كرر الشاحب:

- أيهما تفضل؟!

هتف (أسامة) في عصبية:

- ماذا تعنى؟!

أتاه الجواب مربكا:

- أي الحياتين تفضل؟!

حدق فيه (أسامة) لحظات، كأنه لم يفهم السؤال أو يستوعبه، ثم غمغم في عصبية:

نعم.. أنت الشيطان.. من المؤكد أنك قد صنعت ذلك العالم الوهمي الذي تحققت فيه أحلامي، حتى أبيع روحي لك..

خيل إليه أنه قد سمع تنهيدة في رأسه، أعقبتها رسالة ذهنية عجيبة:
- هل أخطأنا اختيار العينة؟!
هتف في حدة:
- أية عينة؟!.. وما معنى سخافاتك هذه؟!.. أنا لست عينة، ولست مارا معمليا في تجربة.. أنا إنسان.. هل تفهم؟!.. إنسان..
راح يردد الكلمة الأخيرة صارخاً ويردد..
وبردد..
- دكتور (أسامة)... ماذا بك؟!...
قالها (عادل) في صرامة، جعلته ينتفض مرة أخرى، ويحدق فيما حوله ذاهلاً لم يعد في تلك القاعة العجيبة ولا في حجرة زواجه ولا حتى في المركز الطبي..
لقد كان يقف داخل عيادة فاخرة، تطل على نيل (القاهرة)، والثراء يبدو واضحا، في كل ركن فيها..
المكتب..
الأثاث..
اللوحات الغالية..
قطع الكريستال الفاخرة.
كل شيء..
أما الدكتور (عادل)، فقد كان يبدو صارما، على غير عادته..
وملامحه كانت تحمل شيئا، لم يره فيها أبدا..
القسوة..
- ماذا بى يا دكتور (عادل)؟!...
قالها في ارتباك، فأجابه (عادل) في صرامة:
- أتحدث معك عن عملية الغد، فلا أجد منك ردا..

هز رأسه في قوة، وقرر أن يجاري الموقف، على الرغم من غرابته وهو يقول:
- معذرة.. شردت لحظات..
رماه الدكتور (عادل) بنظرة نارية، قبل أن يقول:
- هذا غير مسموح به، وخاصة أثناء العملية.. الأمير لن يقبل بهذا.
غمغم في حيرة:
- الأمير؟!
قال (عادل) في حدة صارمة:
- ماذا أصابك؟!.. هل نسيت أننا سنجري الجراحة لزوجة الأمير هذا؟!.. إياك أن تكون قد نسيت تحضير حقيبتك..
غمغم حائرا:
- حقيبتى؟!
صاح (عادل) في غضب:
- حقيبة السفر يا دكتور (أسامة).. لا تقل لي: إنك نسيت أننا سنسافر فجر الغد أيضا..
هتف:
- نسافر؟!.. وماذا عن والدتي؟!.. هل سأتركها وحدها..
حدق فيه (عادل) ذاهلاً، على نحو أصابه بحالة ارتباك عنيفة، جعلته يتراجع عدة خطوات إلى الخلف، وهو يتمتم:
- ما سر دهشتك؟!
سأله (عادل) في حذر:
- دكتور (أسامة).. هل تتناول أية عقاقير مخدرة؟!
هتف في توتر:
- تعلم أنني لا أفعل، ومن المستحيل أن أفعل ثم صرخ في غضب:

- من أو ماذا وضع هذه الفكرة العجيبة في رأسك؟!
غمغم (عادل)، وهو ما زال يتطلع إليه في توتر:
- حديثك عن والدتك..
هتف في حدة:
- وهل صارت المشاعر عيبا؟!
قال (عادل) مشفقا وقلقا:
دكتور (أسامة)... والدتك توفيت، منذ أكثر من عام وبكل العنف، انتفض جسده فقد كانت هذه بالفعل صدمة..
صدمة عنيفة.. للغاية...

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث

ماذا يحدث له؟!..
في أي كابوس يحيا؟!..
مستحيل أن يكون كل ما يمر به حقيقة!!..
المرء لا يحيا الشيء ونقيضه في آن واحد!!..
يحدث شيء يعجز عن فهمه
شيء عجيب
غريب
خيالى
ومخيف
- دكتور (أسامة)...
انتزعه ذلك الصوت غير المألوف من أفكاره، فالتفت إلى صاحبه، ورأى أمامه شابا وسيما، في معطف أطباء، فغمغم متسائلاً في توتر:
- من أنت؟!
هناك شيء ما..
ثم انتبه إلى أنه يجلس على طرف فراش معدنى صغير، داخل حجرة خالية، إلا من ذلك الفراش، ومنضدة خشبية عادية، والحجرة لها نافذة واحدة، مغلقة بقضبان أشبه بقضبان السجن، وباب معدنى، له نافذة صغيرة ذات قضبان، فهتف متابعا في ذعر:
- أين أنا؟!
حافظ الطبيب الشاب على ابتسامته، وهو يجلس إلى جواره، مجيبا:

- أنا الدكتور (وحيد وصفى).. تسلمت العمل هنا منذ أسبوع واحد، وجذبتني حالتك في شدة، فتقدمت بطلب؛ لوضعك تحت رعايتى.
قال في عصبية:
- أية رعاية؟!.. ولماذا؟!
ثم تضاعفت عصبيته، وعلا صوته، وهو يستطرد صارخا:
- وما هذا المكان؟!
ربت الطبيب الشاب على كتفه في حذر، وهو يجيب في تردد:
اهدأ يا دكتور (أسامة).. اهدأ.. هذا المكان آمن تماما، ويسعى لتخليصك من مشكلتك..
صرخ، وقد بلغت عصبيته ذروتها:
- أية مشكلة؟!.. وما هذا المكان؟!
انتفض الدكتور (وحيد)، ووثب مبتعدا عنه، وهو يجيب في توتر:
- أنت في مصحة (المقطم) للأمراض النفسية..
وانتفض جسد (أسامة) هذه المرة....
مصحة أمراض نفسية؟!..
كيف؟!..
ولماذا؟!..
والسؤال الأخطر.. منذ متى؟!
نقل السؤال الأخير إلى شفتيه، وهو يحدق في الدكتور (وحيد) ذاهلاً مستنكرا، فتنحنح الطبيب الشاب في ارتباك، وهو يغمغم:
- ليس المهم منذ متى.. المهم هو
هب من فراشه في حركة شرسة، صارخاً:
- منذ متى؟!.. أجب..

مع صرخته، التي امتزجت بصرخة ذعر من الطبيب الشاب، اقتحم ممرضان قويان حجرته، وانقضا عليه، ودفعاه نحو الفراش الصغير، وكبل أحدهما ذراعيه، للسيطرة على مقاومته، والدكتور (وحيد) يهتف بهما:

- كفى.. لم يكن يقصد هذا.. كفى..

هتف به أحد الممرضين:

- الإجراءات تحتم حقنة مهدئة، في مثل هذه الظروف..

حاول هو أن يتكلم..

أن يصرخ..

أن يعترض...

ولكن ذلك الضخم، الذي كان يجثم على صدره، كان يمنعه حتى من النقاط أنفاسه..

وبكل غضبه، صرخ الدكتور (وحيد):

- قلت كفى..

تراجع الممرضان دون اقتناع، وغمغم أحدهم في توتر:

- لو ساءت الأمور، فهي مسئوليتك الشخصية..

هتف في حدة:

- وأنا أتحملها.. غادرا الحجرة فورا..

تساءل الآخر، وهو يتجه نحو باب الحجرة بالفعل:

- وماذا لو أصابته نوبة الهياج مرة أخرى؟!

صرخ فيه:

- قلت: غادرا.

غادر الممرضان الحجرة، وأغلقا بابها خلفهما، فاعتدل هو، جالسا على طرف فراشه، والتقط نفسا عميقا، وكأنما يستعيض به عن كتمان أنفاسه، واختلس نظرة متوترة إلى الدكتور (وحيد)، الذي رمقه بدوره بنظرة حذرة، قبل أن يعاود الاقتراب

منه في تردد، وجلس مرة أخرى على الفراش، فالتقط (أسامة) نفسا عميقا، في محاولة للسيطرة على أعصابه، وهو يغمغم في عصبية:
- لم تجب سؤالي بعد..
صمت الدكتور (وحيد) لحظات، ثم غمغم بدوره:
- ما يقرب من عام.
التفت إليه (أسامة) في حركة حادة أفزعته، فتراجع إلى طرف الفراش، متحفزا للهروب، و(أسامة) يهتف:
- عام؟!.. مستحيل!!
قال الدكتور (وحيد) في حذر:
- فقدان الوقت والمكان، سمة أساسية في حالتك..
غمغم (أسامة)، وهو يكاد يبكي:
- حالتى؟!
أومأ الدكتور (وحيد) برأسه إيجابا، وقال في خفوت، وكأنه يخشى إثارة أعصابه:
- تعدد الشخصيات.. هذا اسم الحالة التي تعاني منها..
شعر (أسامة) بغصة في حلقه، وهو يغمغم:
- تعدد الشخصيات؟!.. هل تعنى..
منعته غصة من إكمال سؤاله، فقال الدكتور (وحيد)، وكأنه يكمل حديثه:
الحالة واحدة من حالات السكيزوفرانيا.. انفصام الشخصية، ولكنها النوع شديد التعقيد منها، حيث يعيش الشخص وكأنه عدة أشخاص في جسد واحد، لكل منها مشاعره وأفكاره وأحاسيسه، التي قد تتعارض أحيانا مع بعضها البعض نعم..
هذا ما مر به بالضبط..
تعدد الشخصيات..

هو إذن مصاب بمرض ذهانى..
هذا تفسير لكثير من الأمور...
وبداية لعدد أكثر من التساؤلات..
- من الواضح أن ضغوط حياتك، كانت أكبر من قوة احتمالك لها..
غمغم، ودمعة مريرة تنحدر من عينيه:
- هذا صحيح..
تابع الدكتور (وحيد)، وقد لان صوته كثيرا:
- لهذا خلق عقلك شخصيات، تفر بها من واقعك، إلى واقع ترتاح إليه وترضاه، مثل الشخصية الثرية، التي تمتلك المركز الطبي، والتى زوجت فتاة أحلامه نعم.. إنه على حق لقد حقق أمنيات حياته كلها، في عالمه الوهمي أو عوالمه الوهمية ولكن مهلاً ماذا عن كل شيء آخر؟!..
ماذا عن تعامل الآخرين مع شخصياته المتعددة..
أمه..
(ياسمين)..
الدكتور (عادل).
وحتى (نوال) والدكتور (وفيق)
اندفع يطرح السؤال على الدكتور (وحيد)، الذي ظهرت على ملامحه علامات مشفقة، وهو يقول متعاطفاً:
ولكنهم ينكرون أنهم قد فعلوا هذا.
بدأت دموعه تنسال، دون أن يملك القدرة على كبحها أو لم يشعر حتى بها..
على الرغم من أن كيانه كله شعر بكل ثانية مما صادفه، إلا أنهم ينكرون أن هذا حدث....
- ماذا عن أمي؟!...

طرح السؤال في لهفة، فأجابه الدكتور (وحيد) في خفوت:
- ما زالت تعاني من ضمور عضلى عصبى
كان هذا يكفيه؛ ليدرك ماهية شخصيته الحقيقية..
كل ما عدا ذلك كان وهما..
ولكن كيف شعر به هكذا؟!
كيف؟!..
هل يمكن للوهم أن يمتزج بالواقع، فيسقط الحاجز الفاصل بينهما، ويبدو حتى الوهم واقعا؟!
لم يكن يبحث عن جواب؛ لأن هذا لم يكن في الواقع سؤالاً كان حديثا مع النفس..
حديث لا بد وأن يعترف في نهايته بأنه مريض بالفعل كل الشواهد تقول هذا كلها بلا استثناء ولابد له وأن يستسلم للحقيقة..
الحقيقة التي...
لم يكن قد أتم العبارة في ذهنه، عندما شعر فجأة بكيانه يهوى ينزلق كسائل لزج، عبر أنبوب ضيق ومع هول المفاجأة صرخ.
أنه أراد ذلك..
ولكنه لم يفعل!!..
شيء ما حبس صرخته في أعماقه هذا لو بقيت لديه أعماق كل ما استطاع فعله هو أن أغلق عينيه، وترك جسده ينسكب وينسكب.. وينسكب ثم فجأة أيضا، هوى جسده في عنف، ثم توقف تماما..
ولثوان، بعد أن استقر جسده، ظل يغلق عينيه، دون أن يجرؤ على فتحهما..
- لماذا تغلق عينيك؟!...

فتح عينيه مصدوما، عندما صدم السؤال عقله، وحدق ذاهلا في ذلك الشاحب، الذي يجلس أمامه في هدوء، وابتسامته المستفزة على شفتيه، وسط تلك القاعة العجيبة، التي تثير الرجفة في أوصاله دوما وبكل ذهوله واستنكاره، حدق في ذلك الشاحب، قبل أن يقول في توتر:

- أنت لست حقيقيا... أنت وهم..

ثم علا صوته، وهو يستطرد:

- وكل ما حولي وهم.

ظل الشاحب هادئا، وهو يقول، دون أن يفتح شفتيه:

أهذا ما أوهموك به؟!

عاد يغلق عينيه، هاتفا:

- لن أجيب سؤالك.. أنت مجرد وهم

عبر عقله جاءت العبارة:

- مشكلتهم أن عقولهم أعجز من أن تستوعب هذا

ضغط جفنيه في قوة، صارخا:

- اذهب.. أنت وهم.

في هدوء، تسئل الحديث إلى تلافيف مخه:

- المقاومة لن تجدي نفعا؛ لأننى لست وهما..

صرخ، مشيحا بوجهه:

- أنت وهم.. وهم.. وهم

واصل الصراخ، دون أن يتلقى جوابا، حتى أفرغ كل طاقته، فجاء الجواب إلى عقله:

- لماذا لا تنهض، وتلمس الجدران بنفسك؛ لتتيقن من أنك لست واهما؟!

قال في لهجة أقرب إلى البكاء:

عقلى سيخدعنى، ويوهمني بملمس حقيقى..

الجواب أربكه..
- عقلك يخدعك الآن، وأنت تجاهد لإثبات وهم ما حولك..
بدا منكسرا، وهو يغمغم باكيا:
- لا يمكن للإنسان أن ينتقل، من مكان إلى آخر، على هذا النحو المفاجئ، إلا في عالم الوهم.
ضاعف الجواب توتره وارتباكه:
- هذا نسبة إلى ما بلغتموه من علم.
صدمته العبارة، ففتح عينيه، وحدق في وجهه الشاحب، متسائلاً بصوت مرتجف:
- ماذا تعنى؟!
ظل الشاحب مبتسما ابتسامته ذاتها، وهو يقول عبر عقله:
- علومنا تفوق علومكم بسنوات من التطور، وما تراه أنت مستحيلا،
هو بالنسبة لعلومنا لعبة
اتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يسأل بصوت مبحوح:
- من أنت؟!.. أو ماذا أنت؟!
قبل أن يحصل على جواب، عاد يشيح بوجهه في سرعة، ويغلق عينيه في قوة، وهو يهتف بكل انفعاله:
- لا.. أنت وهم.. لا يمكن أن تكون سوى هذا.. مستحيل!..
مستحيل!
جاوبه صمت طال دقيقة كاملة، قبل أن تتسلل عبارة مقلقة إلى رأسه:
- تريد دليلاً إذن..
هتف:
- لا يوجد دليل على الوهم.
سمعه عبر عقله يقول:

- هل يكفيك هذا؟!
شعر بألم شديد في ذراعه، عقب تلك الرسالة العقلية، فرفع ذراعه إلى مستوى بصره، وصرخ:
- ماذا فعلت؟!.. لماذا جرحت ذراعي على هذا النحو؟!
استقبل عقله رسالة من كلمة واحدة:
- الدليل..
مع الرسالة، شعر بجسده ينسكب مرة أخرى وفي عنف يفوق المرة السابقة ثم انتفض جسده في قوة وبلا مقدمات، وجد نفسه داخل حجرته في المصحة، ولكن الدكتور(وحيد) لم يعد إلى جواره..
كان هناك، عند باب الحجرة، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما، في ذعر وذهول، وجسده كله يرتجف، وهو يحدق فيه وبكل توتره، هتف (أسامة):
- ماذا أصابك؟!
لم يجب الدكتور (وحيد)، من فرط ارتجافه، ولكن عيناه كانتا تحدقان في ذراعه هو مباشرة، مما جعله يرفع ذراعه إلى عينيه..
وهنا انتفض جسده انتفاضة أكثر قوة وعنفا فلقد كان ذلك الجرح واضحا في ذراعه وكان هذا بمثابة صدمة جديدة..
وعنيفة..
إلى أقصى حد..

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع

- ما تقوله جنون يا دكتور (وحيد)...

قالها الدكتور (لويس)، مدير المصحة النفسية في صرامة، جعلت الدكتور (وحيد) يهتف بكل انفعاله:

- أقسم لك إن كل ما رويته لك حقيقة يا دكتور (لويس).. حدثت أمام عيني، ولست أجد لها تفسيرا علميا.. لقد كنت أجالس المريض ظهر جرح في ذراعه، دون أن يتحرك، أو يلمس شيئا..

بدا صوت الدكتور (لويس) أشبه بالزمجرة، وهو يقول:

- التقرير الذي أمامي يقول: إنه جرح قطعي، طوله ثلاث سنتيمترات ونصف السنتيمتر.. أيمكن أن يحدث هذا، دون إصابة خارجية؟!

هتف الدكتور (وحيد):

- حدث.. حدث وأقسم أنه حدث..

ضرب الدكتور (لويس) سطح المكتب براحته، صائحا:

- كف عن هذا، وإلا وضعتك في قسم المرضى الخطرين، وتصرف كطبيب محترف، وليس كشيخ طريقة..

أطلق الدكتور (وحيد) زفرة ملتهبة، من أعمق أعماقه، وهو يقول في يأس:

- من الواضح أنه مستحيل إقناعك يا دكتور .

تراجع المدير في مقعده، قائلاً في حزم:

- لأن كلامك غير علمي.

ضم (وحيد) شفتيه في قوة بضع لحظات، قبل أن يقول في صرامة:

- فليكن.. ماذا إذن عن الإجراء الذي طلبته؟!

بدت ابتسامة ساخرة، على شفتي الدكتور (لويس)، وهو يقول:
كاميرات مراقبة في حجرة مريض؟!.. هل سبق وأن حدث أمر مشابه يا دكتور (وحيد)؟!
قال (وحيد) في حزم:
- ربما لأنه لم يحدث أن أصيب مريض بجرح قطعى تلقائي من قبل..
ظل كلاهما يتطلع إلى عينى الآخر لحظات، قبل أن يقول الدكتور(لويس):
فليكن يا دكتور (وحيد).. سأسمح بهذا، ولكن بصفة استثنائية ولمدة ثلاثة أيام فحسب..
غمغم (وحيد) في ارتياح:
- وهذا يكفيني.
- وهل تعتقد أن هذا سيفيد؟!...
سأله الدكتور (أسامة) بلهجة خاوية، وهو يراقب الفنيين، وهم يثبتون كاميرات المراقبة في زنزانته الصغيرة، فأجابه وحيد في توتر:
- هذا هو كل ما باستطاعتي فعله..
وصمت لحظات، قبل أن يضيف في توتر:
- لابد وأن أعلم كيف حدث هذا.
غمغم (أسامة):
- وأنا أيضا.
التفت إليه (وحيد)، يتطلع إليه لحظات، قبل أن يسأله في حذر:
- أما زلت تصر على تلك القصة العجيبة غير المترابطة، التي رويتها لى؟!
قلب (أسامة) كفيه، مجيبا:
- هذا كل ما لدى.

تنهد الدكتور (وحيد)، وقال في يأس:
- إنها قصة يصعب حتى استيعابها.
ابتسم (أسامة) ابتسامة مريرة، وهو يغمغم:
- أليس لديك تفسير جنوني لها؟!
التقط (وحيد) نفسا عميقا، وهو يقول في يأس:
- كان يمكنني أن أعطيك عشر تفسيرات، لولا ذلك الجرح القطعى، الذي رأيته ينشأ في ذراعك أمام عيني..
تردد (أسامة) لحظات، ثم غمغم:
- أخبرني أنه الدليل على صحة روايتي..
تساءل الدكتور (وحيد) في خفوت:
- ذلك الطويل الشاحب؟!
أومأ (أسامة) برأسه إيجابا، فاستغرق الدكتور (وحيد) في التفكير لحظات، وهو يتطلع إليه مباشرة، وكأنما يحاول قراءة شيء من ملامحه، قبل أن يقول في حذر:
- هل سألته مرة، عن تفسير ما يحدث؟!
أوما (أسامة) برأسه، وقال فيما يشبه الهمس:
- أجاب بأن هذا يفوق إدراكي..
كرر (وحيد) في إصرار:
- هل سألته على نحو مباشر؟!
اعتصر (أسامة) ذهنه؛ محاولاً تذكر كل شيء، عن مقابلاته العجيبة مع ذلك الشاحب، قبل أن يغمغم:
- ليس على نحو مباشر..
اعتدل الدكتور (وحيد)، وهو يقول في حزم:
- سله إذن.
حدق فيه (أسامة) لحظات، وهم بقول شيء ما، عندما قال رئيس الفنيين في توتر:

- انتهينا يا دكتور (وحيد)
أشار إليه (وحيد)، وهو يقول:
- انصرفوا، وأغلقوا الباب
انصرف الفنيون بالفعل، ولكن قبل أن يغلقوا الباب، ظهر ذلك الممرض القوى، وهو يقول في صرامة:
- زيارة للدكتور (أسامة) يا دكتور (وحيد)
نهض (وحيد)، وهو يقول في توتر:
- فليكن.. سنكمل حديثنا بعد انصراف زوارك
اتجه نحو الباب، وقبل أن يبلغه، التفت إلى (أسامة)، مكررا:
- سله.
ظلت الكلمة تتردد في عقل (أسامة)، وهو يجلس مع أمه و(ياسمين) والدكتور (عادل)، حتى أنه بدا لهم شاردا، فسألته (ياسمين) في حنان:
- ماذا بك اليوم يا (أسامة)؟!
ثم ارتبكت، وهي تستدرك في سرعة:
- يا دكتور (أسامة).
ربتت أمه على كتفها في حنان، ودفعت عجلات مقعدها في صعوبة حتى تقترب منها أكثر، وهي تقول:
- لست تبدو طبيعيا اليوم بالفعل يا (أسامة) وسأله (عادل) في قلق:
- هل تتناول دواءك بانتظام؟!
حاول (أسامة) أن يبتسم، وهو يغمغم:
- أنا بخير.. مرهق الذهن بعض الشيء فحسب، ولم يكن قد أتم عبارته بعد، عندما انسحب جسده فجأة وعلى نحو بالغ العنف هذه المرة..

شعر بارتجاج عنيف في رأسه، وبعينيه تكادان تنفجران، مما جعله يهتف، وهو يمسك جانبي رأسه في قوة:
- ليس هكذا.
فجأة، ومع هتافه، تلاشي كل شيء من حوله وظهرت القاعة الواسعة..
وظهر الشاحب...
كان يجلس هادئا، مبتسما، على مسافة متر واحد منه، وعقله يرسل رسالة كالمعتاد:
ما زلت حائرا.
حدق (أسامة) فيه لحظات، ودوت كلمة الدكتور (وحيد) في رأسه فنقلها في سرعة، من عقله إلى لسانه:
ماذا يحدث بالضبط؟!.. أريد أن أعرف.. وبوضوح..
صمت الشاحب لحظات، وهو يتطلع إليه:
- أشك في قدرتك على الاستيعاب.
استقبل عقل (أسامة) الرسالة، فهتف في عصبية:
- جربنى.
- القرار ليس قرارى...
هتف (أسامة)، وقد تضاعفت عصبية:
- قرار من هو إذن؟
- قرارهم.
بكل الحيرة والتوتر، غمغم (أسامة):
- قرارهم؟!.. من تقصد؟!..
- وبم أجابك؟!...
ألقى عليه الدكتور (وحيد) السؤال، في لهفة وشغف، فهز (أسامة) رأسه، الذي ما زال يشعر بثقله، وأجاب في توتر:
- لم يجب.

تراجع (وحيد) في إحباط، وهو يتساءل متوترا:
- تجاهل الإجابة؟!
لوح (أسامة) بذراعيه في الهواء، هاتفا:
- اختفى.. فجأة، وجدت نفسي أجلس مع أمي و(ياسمين) والدكتور(عادل)، وكلهم يحدقون بي في دهشة، ويسألونني أين ذهبت.
هتف (وحيد):
. أين ذهبت؟!.. هل تعنى..
قاطعه (أسامة) بإشارة من يده، قائلاً في سرعة:
- يقصدون حالة شرود، انتابتنى لنصف دقيقة حسب وصفهم.
انعقد حاجبا (وحيد)، وهو يغمغم في تفكير:
- نصف دقيقة؟!.. هل استغرق لقاؤك به نصف دقيقة فقط؟!
هز (أسامة) رأسه في توتر:
- استغرق أكثر من هذا بالتأكيد
بدا الدكتور (وحيد) شاردا، وهو يغمغم:
- ولكنه كان بالنسبة لهم نصف دقيقة.. نصف دقيقة فحسب!!
- هذا أمر طبيعي.
قالها الدكتور (لويس) بنفاد صبر، وقلب كفه، وهو يتراجع في مقعده كعادته، مع استطرادته:
- المصابون بانقسام الشخصية المتعدد، يعانون دوما من خلل الشعور بالزمان والمكان، وهذا المريض يحيا بخياله في عوالم وهمية، لا يستطيع تقدير زمانها ومكانها..
غمغم الدكتور (وحيد)
- أهذا ما تقوله المراجع الطبية؟!
هز الدكتور (لويس) كتفيه، مجيبا في رصانة:
- كلها بلا استثناء.

مال الدكتور (وحيد) نحوه، متسائلاً فيما يشبه التحدى:
- وماذا عن باقي المراجع؟!
بدت الدهشة على وجه الدكتور، (لويس)، وهو يقول مستنكرا:
- أية مراجع؟!
اعتدل (وحيد) بحركة حادة، مجيبا في لهجة أكثر حدة:
- المراجع الفيزيائية وما فوق الفيزيائيات.. ماذا تقول عن الحالة التي نواجهها؟
قال الدكتور (لويس)، في صرامة غاضبة:
- نحن هنا أطباء فحسب.
رفع (وحيد) يده، وهو يهتف:
- هذه هي المشكلة
تراجع الدكتور (لويس) في دهشة مستنكرة، فعاد (وحيد) يميل نحوه، مكملا:
- نحن نحصر تفكيرنا في الطب وأعراضه فحسب، ولا نستطيع استيعاب أن الطب ليس العلم الوحيد، الذي يحكم حياتنا.
هتف الدكتور (لويس) في صرامة:
- الحالة التي تتحدث عنها هنا، في مصحتنا النفسية، وهذا يجعلها حالة طبية فقط.. حاول استيعاب هذه الحقيقة..
ضرب الدكتور (لويس) سطح مكتبه براحته كعادته، وهو ينهض في حركة حادة، هاتفا في غضب:
- دكتور (وحيد).. من الواضح أنك لم تعد تصلح للعمل هنا ولهذا..
قبل أن يتم عبارته، اندفع ذلك الممرض الضخم إلى الحجرة، هاتفا في توتر شديد:
- دكتور (لويس).. دكتور (وحيد).. دكتور (وحيد).. المريض الـ.. الـ... مريضك يا دكتور (وحيد).

التفت إليه وحيد بنصف دورة سريعة، متسائلا، وقلبه ينبض في قوة:
- ماذا به؟!
هز الممرض رأسه في قوة، وهو يقول، وكل حرف من كلماته يحمل ذروة التوتر:
- لا بد وأن ترى بنفسك.. لا بد..
- منذ متى وهو كذلك؟!...
ألقى الدكتور (لويس) السؤال بصوت مرتجف، فأجاب الممرض، في صوت ينافسه ارتجافا:
- لست أدرى.. ألقيت نظرة المراجعة المعتادة، عبر نافذة الباب الصغيرة، فوجدته هكذا..
غمغم (وحيد) مبهورا:
- ألم أقل لك؟!.. إننا أمام حالة خاصة.. خاصة جدا..
قالها، وثلاثتهم يحدقون في جسد (أسامة)، الراقد فوق فراشه وبالتحديد فوق فراشه، وليس على فراشه..
فقد كان جسده يرتفع عن فراشه ثلاثين سنتيمترا على الأقل
- لقد وافقوا...
تسللت تلك الرسالة إلى عقل (أسامة)، وهو راقد على فراشه، وسط تلك القاعة الواسعة الكبيرة، والشاحب يجلس على مسافة متر منه، غمغم:
- وافقوا على ماذا؟!
- على منحك جزءا من الحقيقة...
بدا وكأنه قد اعتاد هذا النوع، من التخاطب العقل، وهو يتساءل في استرخاء:
- جزء من الحقيقة؟!.. لماذا ليست الحقيقة كلها؟!

- لأنه هناك جزء من الحقيقة، لا يمكنك ولا يمكن لجنسك كله استيعابه ليس بعد..
- متى إذن؟!
لم يشعر بأي توتر، لما تحمله الرسالة العقلية من عبارات، ينبغى أن تستوقفه، وإنما تساءل في اهتمام:
- بعد جيلين من الآن..
غمغم (أسامة)، وجسده يسترخى أكثر وأكثر:
- سأكتفي بالمتاح حاليا...
- ما سر مرض والدتك؟!...
شعر بدهشة شديدة، جعلته يتساءل:
- ما شأن والدتي بهذا؟!
- ما سر مرضها؟!...
كررها الشاحب في إصرار، فهز (أسامة) رأسه في قوة، وأجاب بكل توتر، على نحو سحق استرخاءه تماما:
- كانت تعاني من ضعف شديد، وحقنها طبيب سويسرى بعقار جديد، المفترض أن يعيد النشاط والحيوية للجسد، ولكن اتضح أنها مصابة بحساسية مفرطة للعقار.. تم إسعافها من النتائج المباشرة بمعجزة، ولكن حالة الضمور بدأت تصيب عضلاتها وأعصابها، منذ ذلك الحين..
- وماذا لو أنه لم يتم حقنها بذلك العقار الجديد؟!...
زفر (أسامة) في ألم وتوتر، وهو يجيب في حزن مرير:
- منذ سنوات، أحاول استبعاد الاحتمال عن ذهني؛ لأننى أشعر بالمسئولية عما أصابها، وضميري لا يحتمل التفكير في هذا؛ فأنا من اتخذ قرار حقنها..
وانهمرت الدموع من عينيه، وهو يضيف:

- كنت أتصور أننى أصنع ما يفيدها، ولم أتصور أن... أن أجهش بالبكاء دفعة واحدة، فلم يستطع إكمال عبارته..
- قرار واحد إذن، غيّر مسار حياتك كلها...
هتف في انهيار:
- قرار خطأ.
- وماذا لو أنك، في عالم آخر، اتخذت قرارا عكسيا؟!.. كيف سيكون مسار حياتك عندئذ؟!...
شعر باختناق، وهو يهتف في ضيق:
- لماذا تصر على الاستمرار في هذه النقطة؟!
- لأنها موضوع التجربة كلها...
انتفض جسده، وهو يهتف:
- أية تجربة؟!
لم يكد ينطقها، حتى شعر بجسده ينسحب وينسكب في سرعة وقوة، ويهوى، ثم يرتطم بجسم لين، له ملمس فراشه....
ومع آهة ألم قوية، فتح عينيه، لتصدمه عدة عيون تحدق فيه، في رعب وذهول
- كيف فعلتها؟!..
هتف الدكتور (لويس) بالسؤال، في توتر ما بعده توتر، وأضاف الدكتور (وحيد)، وصوته يرتجف من فرط الانفعال:
- ما هذه الظاهرة الجديدة؟!
اعتدل محاولاً الجلوس، وهو يتساءل بكل التوتر:
- أية ظاهرة؟!
هتف الممرض الضخم، وهو يرتجف مثل كتكوت مبتل:
- ألم تدر ماذا فعلت؟!.. لقد كنت تطير يا رجل..
واتسعت عينا (أسامة) عن آخرهما فقد كانت صدمة جديدة وعنيفة..

جدا..

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس

- ما رأيك يا دكتور (لويس)؟!...

قالها الدكتور (وحيد)، في هدوء يحمل نبرة تحد، فرفع إليه الدكتور(لويس) عينين محمرتين، مغمغما في إحباط:

- لست أدرى!!.. حقا لست أدرى!!

فرد (وحيد) قامته، وهو يقول في حزم:

- هل ستستمر في التعامل مع الحالة، باعتبارها مرض نفسى فحسب؟

خفت صوت الدكتور (لويس)، وهو يهمس:

- كلا.

ثم استدرك بعد نوبة سعال قصيرة:

- لقد أبلغت المسئولين

كادت عينا الدكتور (وحيد) تقفزان من محجريهما، وهو يهتف في لهجة جمعت ما بين الاستنكار والغضب:

أبلغت من؟!

أجابه الدكتور (لويس) في عصبية:

- المسئولين يا دكتور (وحيد).. نحن مجرد أطباء في مصحة نفسية.. هذا الأمر يفوق إدراكنا بكثير..

هتف (وحيد) في مرارة:

وإدراكهم أيضا.. ألم تستوعب هذا؟!

فقد الدكتور (لويس) أعصابه، وهو يضرب سطح مكتبه براحته على عادته، صائحا:

ولكنهم يمتلكون ما لا نمتلكه هنا

ضرب (وحيد) سطح المكتب بدوره، صارخا:

- لو جاءوا، سأنكر كل ما حدث هنا

- فات أوان هذا أيها الطبيب..
صدمة صوت خشن من خلفه بالعبارة، فاستدار إلى صاحبه في حركة حادة سريعة، ورأى أمامه رجلاً أسمر، نصف أصلع، يكمل في صرامة:
- لقد وصلنا بالفعل.
ومن خلفه، لمح (وحيد)، عبر الباب المفتوح، عددا من الجنود في ملابس الميدان، يتحركون في كل الاتجاهات، وسط فزع واضطراب العاملين في المصحة، فهتف في غضب محتد:
- إنها ليست حربا، تلك التي تشنونها هنا أيها المسئول....

ابتسم الأسمر ابتسامة ساخرة، وهو يقول بنفس الصرامة الخشنة:
- من بدري؟!
ثم أدار عينيه إلى الدكتور (لويس)، مستطردا في صرامة خلت من اية لمحة ساخرة:
- أين ذلك الـ.. الشيء؟!
اندفع (وحيد) في حدة:
- ذلك الشيء طبيب زميل، واسمه الدكتور (أسامة)
كرر الأسمر في خشونة قاسية:
- من يدري؟!
قبل أن يندفع (وحيد) مرة أخرى، نهض الدكتور (لويس) من خلف مكتبه، وهو يقول في توتر شديد:
- سأقودك إليه يا سيدي..
كانا يسيران معا في خطوات سريعة، عبر ذلك الممر، الذي يقود إلى حجرة (أسامة)، والدكتور (وحيد) يعدو تقريبا خلفهما، وهو يهتف في عصبية:

- ما تفعلونه خطأ.. أوكد لكما أنه خطأ.
تجاهله كلاهما تماما، والأسمر يسأل في صرامة:
- أهذه هي؟!
أجابه الدكتور (لويس) في توتر يتزايد:
- هذه هي..
ثم أشار إلى ذلك الممرض الضخم:
- افتح الحجرة..
تردد الممرض لحظات، وجسده يرتجف على نحو ملحوظ، فصاح به الأسمر:
- افتحها..
حسمت صيحته الموقف، فاندفع الممرض نحو الحجرة، وفتحها، ثم تراجع في سرعة، وكأنه يفر من شبح، في حين تقدم الأسمر والدكتور (لويس) من الحجرة، ثم تسمرا في مكانيهما، على نحو جعل (وحيد) يندفع؛ لرؤية ما سبب لهما هذا وانتفض جسده كله في عنف، مع اتساع عينيه عن آخرهما فالمفاجأة كانت صدمة..
مذهلة..
- ما هذا المكان؟!..
قالها (أسامة) في توتر شديد، وهو يدير عينيه فى تلك القاعة الواسعة، التي يجلس مع ذلك الشاحب في منتصفها، وكل خلية في جسده تنتفض..
- ما تراه من حولك، ليس حقيقة ما يحيط بك....
هتف (أسامة) في عصبية:
- أخبرتني من قبل إنه حقيقي
- إنه الحقيقة، التي يستطيع عقلك البشرى استيعابها...
صدم الجواب (أسامة)، فارتعد جسمه، وهو يغمغم:

- أيعني هذا أنك لست بشريا؟!
- كلا.. لست كذلك.. ولست كائنا من عالم آخر أيضا، حتى لا ينطلق لك الخيال
هز (أسامة) رأسه في قوة، صائحا:
- ماذا أنت إذن؟!
- تعليماتي أن تصل إليك الحقيقة تدريجيا، حتى لا ينهار عقلك..
عاد يهز رأسه في قوة، ويهتف في إحباط:
- ما تفعلونه كفيل بتدمير عقلي تماما.
توقفت الرسائل العقلية بضع لحظات، أصابت (أسامة) بتوتر بالغ جعله يهتف:
- الصمت ليس جوابا، أيا كانت ماهيتك
- ماذا تعرف عن الكون المحيط بك؟!..
أدهشه السؤال، فقال في عصبية:
- أهذا امتحان معلومات عامة أم ماذا؟!
- ماذا تعرف عن الكون المحيط بك؟!..
مع تكرار السؤال، بنفس النبرة الخالية من الانفعال، زفر (أسامة) في قوة، وأجاب في عصبية:
- أعرف عنه ما درسته في المرحلة الثانوية فحسب..
- لا وجود للكون الذي تعرفه
رجه الجواب من الأعماق، فحدق في وجه الشاحب طويلاً، قبل أن يهتف في حدة:
- لا يمكنني استيعاب هذا
- أي عبث سخيف هذا؟!
- مصطلح الكون غير صحيح..
المصطلح الحقيقي هو الأكوان

كل رسالة عقلية كانت تزيد من دهشته وتوتره، فعاد يحدق في وجه الشاحب، قبل أن يغمغم، وقد انكسرت حدته كثيرا:
- العلماء عندكم توصلوا إلى هذه الحقيقة، حتى أنهم استبدلوا مصطلح Universe بمصطلح Multivers، وإن لم يدركوا أبعاد كشفهم هذا..
شعر (أسامة) بعقله يكاد ينفجر، وهو يغمغم في انكسار:
- وما الذي يعنيه هذا بالضبط؟!
- أنه توجد عدة أكوان متوازية، كلها تحتل المساحة نفسها، ولكن كل منها لا يشعر بوجود الآخر..

هز (أسامة) رأسه في قوة:
- هذا يفوق إدراكي.
- ولكنه حقيقة علمية، أثبتها علماؤكم حقيقة تحكم سلسلة من القوانين الفيزيائية، لم تكتشفوا أكثر من ربعها بعد، على الرغم من تصوركم أنكم قد بلغتم ذروة العلم..
احمرت عينا (أسامة)، ودارتا في محجريهما، دلالة على تلك العاصفة العاتية، التي انطلقت في عقله، وعجز عن التفوه بحرف واحد...
- ألم تسأل نفسك يوماً لماذا تتحدثون دوما عن سبع سماوات وسبع أراض؟!..
غمغم (أسامة)، وهو يشعر أنه يخوض بحرا متلاطم الأمواج:
- إنه مصطلح دارج، و..
- بل هو حقيقة، نقلها الأقدمون، ورددها من بعدهم، دون أن يدركوا فحواها ومعناها..
غمغم (أسامة)، وقد شعر أنه على وشك فقدان الوعي:
- سبع سماوات.. سبع أراضي!!!

- هناك سبعة أكوان متوازية، تسير فيها الأمور على النحو نفسه، وكأنها مستنسخة، من بعضها البعض، بنفس التاريخ والأحداث والشخصيات..
كاد يبكي، وهو يغمغم:
- هذا يفوق إدراكي... يفوقه بكثير... جدا.
- هذا يعني أنه توجد سبع نسخ من كل شيء هنا.. أنت نفسك، توجد منك سبع نسخ، كلها تسير على النحو نفسه، وتفعل الشيء نفسه، في اللحظة نفسها..
أمسك (أسامة) جانبي رأسه بكفيه في قوة، وهو يخفض عينيه، ويقول في صوت، أصابه الدوار كرأسه:
سبع نسخ منى؟!.. هذا أكثر جنونا، حتى من أفلام الخيال العلمي..
- وهذا هو موضوع التجربة...
استقبل عقله الرسالة، فرفع عينيه إلى الشاحب في حركة حادة.. وخفق عقله في قوة..
- أين ذهب؟!..
ألقى الأسمر السؤال في صرامة قاسية، وهو يواجه الدكتور (وحيد)، والدكتور (لويس) وذلك الممرض الضخم، فامتقع وجه الدكتور (لويس) في شدة، وهو يقول في صوت فاض ذعرا:
- أقسم أننى لست أدرى حتى كيف حدث هذا.. الحجرات كلها يتم إغلاقها، ولا يوجد لكل حجرة سوى مفتاح واحد، والممر نفسه مؤمن بأبواب مغلقة من الجانبين، والحجرة كما رأيتها، ليست بها سوى واحدة، ذات قضبان فولاذية، تأكدتم أنها سليمة لم تمس، و..
لم يمهله الأسمر حتى يكمل حديثه، وهو يستدير إلى الممرض الضخم، ويسأله في قسوة:

- والمفتاح الوحيد تحمله أنت.. أليس كذلك؟!
تراجع الضخم في ذعر شديد، وهو يهتف ملوحا بيديه:
- لم أقترب من الحجرة.. أقسم لكم.. لقد أغلقتها في إحكام، منذ رأينا ذلك الرجل يطير فوق فراشه.
زمجر الأسمر، قائلاً في حدة:
- هل تسلل من بين القضبان إذن؟!
تضاعف ذعر الضخم، وهو يهتف:
- من يدري كيف فعلها يا باشا؟!.. لقد ألقيت نظرة عبر نافذة الباب الصغيرة، وتأكدت من وجوده في الحجرة، عندما وصلتم إلى هنا
صاح الأسمر في غضب عصبى:
- لا تحاولوا إقناعي أنه تبخر!!
قال الدكتور (وحيد) في توتر:
- لو أنك لست مقتنعا، فلماذا أنت هنا؟!
أدار الأسمر عينيه إليه، وهو يصيح في تحفز:
- مقتنع أنه تبخر؟!
قال الدكتور (وحيد) في شيء من الحدة:
- مقتنع بأن ما يحدث لذلك المريض بالذات، يفوق قوانين الفيزياء المعروفة.
انعقد حاجبا الأسمر في شدة، وهو يقول في صرامة، تسلل إليها شيء من الشك:
- ليس إلى حد أن يتبخر..
استعار (وحيد) أسلوبه، وهو يقول في تحد:
- من يدري؟!
ازداد انعقاد حاجبي الأسمر في شدة، وهو يزمجر، قائلاً:

- الحالة كانت في عهدتكم، وسجلات المصحة تثبت هذا، وعندما تختفي، فهي مسئوليتكم تماما
هتف الدكتور (لويس) في هلع:
- كيف؟!.. الاختفاء كان أشبه بألعاب السحرة والحواة، فكيف نحاسب عليه؟!
زمجر الأسمر مرة أخرى، وهو يقول بكل صرامة:
- هناك من لا بد وأن يتحمل المسئولية.. ولن يكون أنا
فجأة، انفجر الدكتور (وحيد) مقهقها، على نحو أدهش الدكتور (لويس) والممرض الضخم، واستفز الأسمر، الذي صاح فيه بكل الغضب:
- ما الذي يضحكك؟!
واصل (وحيد) ضحكاته، التي حملت سخرية واضحة، وهو يقول:
- ألا ترى السخرية في هذا؟!.. نواجه ظاهرة فوق طبيعية مذهلة وكل ما يشغلك هو المسئولية!!
احتقن وجه الأسمر، وهو يصيح فيه:
- ألا تشغلك أنت؟!
هز الدكتور (وحيد) رأسه نفيا في بطء، مجيبا في صرامة:
- مطلقا.
غمغم الدكتور (لويس) في عصبية:
- لأنك لست مسئولا.
بدا الدكتور (وحيد) شرسا، وهو يقول:
- بل لأنني رجل علم، كل ما يهمه هو الوصول للحقيقة، وليس الفرار من مسئولية سخيفة
حدق الأسمر فيه بضع لحظات، في شراسة شديدة، ثم صاح فيه:

- أنت تعلم أين هو.
أطلق (وحيد) ضحكة ساخرة قصيرة، قائلاً:
- أهذه وسيلتك للفرار من المسئولية؟!
بدا وكأن الأسمر لم يسمع تعليقه، وهو يندفع نحوه، صائحا بكل شراسة وقسوة:
- أنت ساعدته على الفرار من هنا.
ارتسمت ابتسامة ساخرة، على ركن شفتي الدكتور (وحيد)، وهو يقول:
- متى أيها العبقري.. الممرض أكد أنه كان موجودا، عندما اقتحمتم المكان، فمتى فعلتها؟!
بدت حيرة متوترة، على وجه الأسمر، وارتبك الدكتور (لويس) بدوره، وغمغم:
- هذا صحيح.
صمت الأسمر لحظات، ثم التفت إلى الممرض الضخم فى شراسة هاتفا:
- التفسير المنطقى الوحيد، هو أنك كاذب.
فوجئ بالممرض الضخم يطلق شهقة رعب قوية، وتتسع عيناه عن آخرهما، وهو يتراجع في حركة حادة، جعلته يرتطم بأحد مقاعد الحجرة، ويسقط معه أرضا، فالتفت الكل إلى حيث يحدق بكل رعبه، واتسعت عينا الأسمر عن آخرهما، ويده تقفز إلى مسدسه بحركة غريزية، وصرخ الدكتور (لويس)، في حين فغر الدكتور (وحيد) فاه في ذهول فأمام ثلاثتهم، كانت هناك صدمة مذهلة جديدة....

☆ ☆ ☆

الفصل السادس

- من أنتم؟!.. ما هذا المكان؟!.. وماذا أفعل هنا؟!..

ألقى (أسامة) هذه الأسئلة الثلاثة، وهو يحدق في وجوه الرجال الأربعة، في مكتب الدكتور (لويس)، الذي راح جسده يرتجف مع صوته، وهو يتراجع في رعب ذاهل، مرددا:

- مستحيل!!.. مستحيل!!

كان الأربعة يحدقون في (أسامة) ذاهلين، معقودي الألسن، وأول من تجاوز هذه الحالة منهم كان ذلك الأسمر، الذي هتف في توتر بالغ:

- أي عبث شيطاني هذا؟!.. كيف وصلت إلى هنا؟!

هتف به (أسامة) في عصبية:

- أتسألني؟!.. السؤال لكم أنتم.. كيف أتيتم بي إلى هنا؟!

كان صوت الدكتور (وحيد) يرتجف، وهو يسأله، محاولاً السيطرة على أعصابه بقدر ما استطاع:

- دكتور (أسامة).. هل تعلم من أنت بالضبط؟!

تضاعفت عصبية (أسامة)، وهو يهتف:

- ماذا يحدث هنا؟!.. هل جننتم جميعا؟!.. ألا تعلمون من أنا؟!..

أنا الدكتور (أسامة عزت)، طبيب القلب الخاص بالسيد رئيس الوزراء..

أجروا اتصالكم به، وسيخبركم بنفسه من أنا..

شهق الممرض الضخم، واندفع يغادر الحجرة عدوا، دون أن ينتظر إذنا من أحد، في حين غمغم الدكتور (لويس):

- إنه يتقمص شخصية أخرى.

استفزت العبارة الدكتور (أسامة) أكثر، فهتف في حدة:

- أية شخصية أيها المأفون؟!.. أنا الدكتور (أسامة عزت)، صاحب مركز (أسامة) الطبي.. اتصلوا بأمي، أو بزوجها الدكتور (وفيق).. اتصلوا بزوجتي (ياسمين)، وستخبركم من أنا
تراجع الدكتور (وحيد) بدوره، وهو يغمغم في توتر:
- يا إلهي!.. يا إلهي.
أما الأسمر، فقد قال في صرامة، حملت كل عصبيته:
- أنت كاذب، ملفك لا يحوى شيئا مما قلت سوى اسمك، لو شئنا الدقة.. أنت لا تملك المركز الطبى، بل تعمل فيه فحسب، ولست متزوجا ولا أمك كذلك.. بكل بساطة، لأنها مقعدة بمرض لا شفاء منه..

اتسعت عينا (أسامة) في ذهول، وهو يحدق فيه، قبل أن يهتف بكل عصبيته:
- من الواضح أنك تخلط بيني وبين آخر.. اتصل برئيس الوزراء هيا افعل.. أو بشريكي الدكتور (عادل).
مال عليه الأسمر، وهو يقول، في عصبية نافست عصبيته:
- لست بحاجة للاتصال بأحد؛ فلو أنك حتى تصافح رئيس الوزراء، لكان لدينا ملف كامل المعلومات عنك.. وهل تعلم شيئا.. لا وجود لهذا الملف على الإطلاق..
اتسعت عينا أسامة عن آخرهما، وراح يهز رأسه في قوة، مغمغما بكل توتر الدنيا:
- هذا جنون.. أهو كابوس.. نعم.. حتما هو كابوس، سأستيقظ منه بعد قليل، و..
قاطعته صفعة قوية، هوت على وجهه، وجعلت الدكتور (وحيد) يصرخ في الأسمر في غضب:

- ليس هذا من حقك.. الاستجواب شيء، والعنف شيء آخر وغير مقبول إطلاقا..
تجاهله الأسمر تماما، وهو يميل على (أسامة)، قائلاً في حدة قاسية:
- هل أيقنت الآن من أنه ليس كابوسا؟!
على الرغم من قوة الصفعة، رفع (اسامة) عينيه إليه في هدوء عجيب، وقال في صوت حمل حزما مخيفا:
- ستدفع ثمن هذا غاليا..
اعتدل الأسمر بحركة حادة، وخاصة عندما بدا صوت (أسامة) أشبه بالصدى، وهو يضيف:
- في هذا الكون أو في غيره.
- حسمت كثيرا من الأمور، بعبارتك الأخيرة..
انتفض جسده، كما لو أنه يستيقظ من كابوس عجيب، والتفت في دهشة إلى الشاحب، الذي يجلس هادئا إلى جواره، في تلك القاعة العجيبة لم يشعر أنه يستيقظ من كابوس فحسب، وإنما من عقل رجل آخر أيضا مما جعله يهتف في توتر:
- ماذا حدث؟!.. للحظات تصورت أننى...
شخص آخر.. أليس كذلك؟!..
حدق (أسامة) فيه، وهو يغمغم، في دهشة متوترة:
- كيف خمنت هذا؟!
التخمين ليس سمة من سماتي.. أتعامل مع الحقائق فقط..
هز (أسامة) رأسه في قوة، وهو يهتف:
- فسر لي ما حدث إذن، في ضوء الحقائق وحدها.
- المشكلة أن الحقائق تحمل بعض التفاصيل، التي ليس باستطاعتك استيعابها بشكل واضح بعد...
شعر بغضب شديد، جعله يصرخ:

- لماذا التعالى والغطرسة على هذا النحو؟!.. لماذا تتصور أنه ليس باستطاعتي فهم أو استيعاب أي شيء؟!
- هذا ليس عيبا.. حتى أعظم أساتذة الهندسة، قد يعجز عن فهم واستيعاب بعض الأمور البسيطة، في جراحة المخ مثلاً، و...
قاطعه في عصبية:
- كفاك تحليلات علمية.. أريد فهم ما يحدث.. ابحث عن وسيلة بسيطة لشرحه فحسب...
- لا توجد وسيلة بسيطة للشرح، ولكنني سأحاول...
أجابه في عصبية:
- هذا يكفي.
- الرجل الذي كنته، ليس غريبا عنك، فهو أنت..
هتف بكل الدهشة:
- أنا؟!
غمغم (أسامة) في إحباط:
- ولكن من كون مواز..
قال في عصبية بالغة:
- أهذا هو التبسيط، من وجهة نظرك؟!
لم يبد أن عبارته قد تركت أي أثر عند الشاحب، الذي تواصلت رسالته العقلية دون انقطاع..
- فعلى عكس العلماء في زمنك، اعتبرنا الأكوان المتوازية أعظم كشوف الحياة، خاصة وأننا لم ندرك في البداية الغرض أو الحكمة من وجودها، وأنشأنا مؤسسة علمية كاملة؛ لدراستها ومحاولة كشف أسرارها..
- يبدو أنه من الأفضل أن أكتفى بالاستماع فحسب.

- أخبرتك من قبل أن الأحداث كلها تسير متوازية، في الأكوان السبعة..
غمغم (أسامة):
- أجل.. لقد فعلت.
- تجربتنا كانت تعتمد على كسر هذا التوازي.
اعتدل (أسامة) في حركة حادة، هاتفا بكل الدهشة:
- ما الذي يعنيه هذا؟!
لم يكد يلقى سؤاله، حتى شعر بجسده ينسكب في عنف، فأغلق عينيه في قوة، وهو يهتف في توتر وألم:
- لا.. ليس ثانية!!
- ما هو الذي ليس ثانية؟!..
حدق (أسامة) في وجه الأسمر، الذي يميل عليه في شدة، وقال فى دهشة متوترة:
- من أنت؟!
ثم تلفت حوله، مستطردا في دهشة أكثر توترا:
- وماذا أفعل هنا، في حجرة الدكتور (لويس)؟!
غمغم (لويس) في عصبية:
- شخصية جديدة
وتساءل (وحيد) في حذر:
- دكتور (أسامة هل عدت إلينا؟!
سأله (أسامة) في دهشة:
عدت من أين؟!.. وكيف جئت إلى هنا؟!
التقط الأسمر نفسا عميقا، في محاولة للسيطرة على أعصابه، وهو يتساءل في صرامة، أراد أن يخفي بها توتره:
- كيف تفعل هذا؟!
أدار (أسامة) عينيه إليه، قائلاً في توتر:

- لم تخبرني بعد من أنت!!
شد الأسمر قامته، وهو يقول في توتر، لم يستطع كبحه:
- أنا انتمى إلى جهة سيادية..
مال (أسامة) نحوه، قائلاً في عصبية:
وماذا تريد مني جهتك السيادية؟!
شد الأسمر قامته أكثر، وقال في صرامة:
- دكتور أسامة.. أنا رجل شاهد الكثير، واختبر الأكثر في حياته وألعاب الحواة، التي تقوم بها هنا، لن تنجح في إبهاري، كما تفعل مع الآخرين.
تطلع إليه (أسامة) بضع لحظات، قبل أن يقول في بطء:
- ألعاب حواة؟!..
مرت لحظة، بدا خلالها أنه سيكتفي بالقول، قبل أن يكرره فى حدة غاضبة:
- ألعاب حواة؟!.. أهذا آخر ما يتفتق عنه ذهنك المحدود، يا من تنتمي إلى جهة سيادية؟!
زمجر الأسمر، قائلا في صرامة:
- هذا هو التفسير المنطقى الوحيد لما يحدث..
هتف به (أسامة) في حدة:
- وماذا عن التفسير العلمي؟!
انعقد حاجبا الأسمر، وهو يتطلع إليه في شك حذر متوتر، فتابع(أسامة) بنفس الحدة:
- هل سمعت يوما عن الأكوان المتوازية؟!
انتبه الدكتور (وحيد) على نحو ملحوظ، مع سماعه السؤال الأخير، واعتدل يسأل في لهفة:
- ماذا عنها؟!

بدت الحيرة على وجه (أسامة)، وتراجع في مقعده، وهو يفقد حدته متمتما:
- لها علاقة بما يحدث، على نحو أو آخر!!
ران الصمت على الحجرة، عقب عبارته، وتطلع الكل إليه، وكل منهم يحمل شعورا مختلفا، قبل أن يشد الأسمر قامته، ويقول في حزم صارم:
- دكتور (أسامة).
أسامة).. ارتد ملابس لائقة، فمنذ هذه اللحظة، صرت ملكا لنا، وستصحبني إلى جهة ما.
تراجع (أسامة) في مقعده، وهو يقول في عصبية:
- وماذا لو رفضت؟!
انتزع الأسمر مسدسا، من جراب تحت إبطه، وهو يقول في صرامة:
- في هذه الحالة...
قبل أن يكمل عبارته، اندفع (أسامة) يقول في غضب:
ستقتلني؟!.. هيا إذن... أطلق النار..
بدا الأسمر عصبيا، وهو يقول:
- ما الذي يعنيه هذا؟!.. هل ستقول لي إنه لديك وسيلة للإفلات من رصاصة؟!
أجابه (أسامة) في حذر:
- وماذا لو أجبتك بالإيجاب؟!
صوب الأسمر مسدسه إليه، وهو يقول في صرامة:
ستجبرني على اختبار هذا.
أدار (أسامة) عينيه فيما حوله، وبدا وكأنه يتحدث إلى شبح خفي وهو يتساءل في اهتمام، حمل لمحة من القلق:
- أهناك وسيلة لهذا؟!

تطلع إليه (وحيد) في اهتمام بالغ، وهو يسأله في خفوت ملهوف:
- هل تسأله؟!
التفت إليه الدكتور (لويس)، بنظرة دهشة مستنكرة، في حين تساءل الأسمر، وهو مازال يصوب مسدسه إلى رأس (أسامة):
- يسأل من؟!.. ماذا تعرف عن هذا الأمر؟!
تجاهل (وحيد) نظرة الدكتور (لويس)، وتساؤلات الأسمر، وهو يكرر، وقد التهم فضوله العلمي إلتهاما:
- هل تسمعه يا دكتور (أسامة)؟!.. هل تراه من حولنا؟!
صاح به الأسمر في صرامة:
- أنت شريكه فيما يحدث يا هذا.. أنت تدبر معه لعبة الظهور والاختفاء، على نحو ما.
رماه الدكتور (وحيد) بنظرة استهجان، ثم عاد يلتفت إلى (أسامة):
- أهو ذلك الشاحب؟!
أومأ (أسامة) برأسه إيجابا في حذر، وغمغم:
- ولكنني لا أراه هنا.. إنه ليس شبحا.
هتف (وحيد) بكل لهفته:
- ما هو إذن؟!
أطلت نظرة حائرة، من عينى (أسامة)، وهو يهز رأسه نفيا في بطء فهتف الأسمر في صرامة:
- الآن اتضحت اللعبة.. أنتما شريكان.
مط (أسامة) شفتيه، وهو يقول في ازدراء:
- أنت لا تفهم شيئا.
التفت إليه الأسمر بنظرة غاضبة، وهتف به محتدا:
- وهل تفهم أنت؟!

غمغم (أسامة):
- ليس بما يكفي.
رفع الأسمر مسدسه إلى رأس (أسامة) مرة أخرى، وهو يهتف به:
- هذا يعيدنا إلى التجربة الأولى.
صاح (وحيد) في غضب:
- هذه وحشية.. سأبلغ النائب العام، لو أطلقت هذه الرصاصة.
أجابه الأسمر مزمجرا:
- يمكنك اعتبارها تجربة علمية.
ومع آخر حروف عبارته، ضغط الزناد.
وانطلقت الرصاصة وأغلق (أسامة) عينيه في قوة فالصدمة ستكون حتما قوية..
وقاتلة..

☆ ☆ ☆

الفصل الأخير

- لقد رأيت الأمر بعيني يا سيادة اللواء!!.. رأيت ما يعجز عقلي عن تفسيره وتصديقه!!..

هتف الأسمر بالعبارة، أمام رئيسه المباشر، الذي تراجع في مقعده، وهو يقول في صرامة:

- ماذا أصابك أيها العقيد؟!.. أهذا ما تدربت عليه؟!.. أن تنفعل إلى هذا الحد، أمام خدعة متقنة..

هز الأسمر رأسه في قوة، قبل أن يقول:

- ما رأيته لم يكن خدعة يا سيادة اللواء.. لقد أطلقت رصاصة مباشرة، نحو رأس ذلك المدعو (أسامة)، وسيادتك تعلم أنه من المستحيل أن أخطئ إصابة هدف بهذا الحجم، من مسافة كهذه..

قال اللواء بنفس الصرامة:

- ولكن هذا لا يعني أنك لم تخطئ.

هتف الأسمر:

- لقد أصبت أهدافا أدق، من مسافات أبعد..

صاح فيه اللواء في غضب:

- لم تكن أهدافا حية، يعد إطلاق النار عليها جريمة، حتى لمن يعمل في مجالنا..

واحمرت عيناه، وهو يضيف في حدة:

- ولقد حدث هذا أمام شهود..

رفع الأسمر سبابته، وهو يقول في انفعال:

- وجود الشهود كان إيجابيا، في هذه الحالة بالذات؛ لأنهم رأوا ما رأيته..

ثم مال، مستندا براحتيه على سطح مكتب رئيسه، مكملا وانفعاله يتزايد:
- الرصاصة اتجهت نحو منتصف جبهته بالضبط، وهو لم يتحرك من مكانه، وعلى الرغم من هذا، فقد تجاوزته الرصاصة، وأصابت الجدار من خلفه مباشرة.
زمجر رئيسه، قائلاً:
- هذا من حسن حظك.. لو أصابته، لكنت خلف القضبان الآن..
هتف الأسمر في حنق:
- أهذا كل ما في الأمر؟!.. الرجل اختفى لجزء من الثانية، عندما بلغت الرصاصة جبهته، ثم عاود الظهور بعدها، عندما تجاوزت موضعه.
قال مديره في حدة:
- شاهدت بعض حواة التليفزيون، يفعلون ما هو أكثر من هذا.

هز الأسمر رأسه في قوة مرة أخرى، وهو يقول:
- كلها خدع، يتم الإعدد لها، وتجهيز مسرحها مسبقا، أما ما شاهدناه جميعا، فكان حقيقة.
قال اللواء بكل الصرامة:
- من المستحيل أن أصدق هذا.
أطلق الأسمر زفرة حارة للغاية، وهو يقول في حنق:
- لأنك لم تر بنفسك..
قال اللواء في حدة:
- وأنت تصورت أنك رأيت..
ثم نهض مستندا إلى مكتبه، ومتابعا في لهجة آمرة قاسية:

- لقد أصدرت أمرا بالقبض على الفريق كله.. الدكتور (أسامة)، والدكتور (وحيد)، والدكتور (لويس)، وحتى ذلك الممرض..
قال الأسمر في عصبية:
- أنت تحاول دفن الأمر فحسب..
قصة العدد.. (صدمة)
صاح فيه اللواء في غضب:
- بل أريد الوصول للحقيقة.. ما يحدث هو خدعة متقنة، يقوم بها الكل، عبر مسرحية يلعبونها، ويفترضون أن نكون نحن شهودها البلهاء.
شعر الأسمر باليأس، وهو يقول:
- إننا بهذا نهدر فرصة نادرة، لدراسة ما قد يكون أهم كشوف العصر..
قال اللواء في صرامة غاضبة:
- هذا ما أرادونا أن نتصوره.
هز الأسمر رأسه مرة ثالثة في يأس، ثم قال كمحاولة أخيرة:
- لو أن الأمر يفوق إدراكنا، ويتجاوز حدود صلاحيتنا، فلماذا لا نستعين بطاقم من العلماء المتخصصين، و....
قاطعه في حدة ثم أدار ظهره له، وهو يضيف في عصبية بة:
- الأمر يفوق صلاحياتك أنت أيها العقيد، أما أنا، فقد تلقيت أوامر عليا بهذا الشأن
غمغم الأسمر، في دهشة مصدومة:
- أوامر عليا؟!
تابع اللواء، وكأنه لم يسمعه:
- لقد تم استبعادك من القضية، ونقلك إلى مكتب (السويس)، على أن تتسلم عملك فيه هذا المساء، أما فريق المحتالين هذا، فسيتم نقلهم إلى سجن خاص، في الصحراء الغربية.

قال الأسمر في توتر:
- هذا غير قانوني.
صمت رئيسه لحظة، قبل أن يقول في صرامة:
- رسميا، سيتم نقلهم إلى جهة تحقيق فحسب، ولكنهم سيسعون للفرار، وهنا..
لم يتم حديثه، ولكن عينا الأسمر اتسعتا عن آخرهما..
فقد كان الجزء، الذي لم ينطقه رئيسه واضحا..
وربما أكثر مما ينبغي...
- ولكن لماذا؟!..
ألقى (أسامة) السؤال على الشاحب، وهما يجلسان أمام بعضهما البعض، داخل تلك القاعة الكبيرة، وهو يشعر بتوتر ما بعده توتر..
- لأن من أصدر الأوامر، يعرف ما يحدث جيدا..
أدهشت العبارة (أسامة) في شدة، فتراجع في مقعده، قائلاً في عصبية:
- يعرف؟!.. وكيف يعرف؟!.. أنا نفسي لا أستطيع أن أزعم أننى أعرف.
- نحن ساهمنا في وصوله إلى ذلك المنصب، الذي يتيح له إصدار الأوامر..
صمت (أسامة) لحظات، من فرط ذهوله، وهو يحدق في ذلك الشاحب، بارد الملامح والانفعالات..
شعر (أسامة) أنه سيواجه لغزا جديدا، وهو يسأل في حذر:
- من كان إذن؟!
- بديله في كون مواز..
طال الصمت بينهما هذه المرة، وشعر (أسامة) وكأن مخه يغلى فى جمجمته، مما جعله يعتدل، قائلاً في توتر ملحوظ:

- اسمع.. أنت تفترض دوما أنني لن أستطيع فهم أو استيعاب ما يحدث، ولكنني سئمت سلسلة الألغاز هذه، وأطلب شرحا مباشرا، وقابلاً للفهم.. أهذا واضح؟!
شملهما الصمت بضع لحظات أخرى، قبل أن يعتدل الشاحب بدوره..
- دراستنا للأكوان المتوازية، أوصلتنا إلى حقائق مذهلة، عن الزمان والمكان.. أهمها القدرة على نقل الإدراك، من شخص في كون ما، إلى شبيهه في كون آخر، بحيث يشعر أنه قد تبادل الأدوار والمشاعر معه..
غمغم (أسامة):
- هذا ما فعلتموه معى.. نقلتم إدراكي إلى كون مواز؟!
- بل إلى عدة أكوان متوازية..
تراجع في دهشة مستنكرة، هاتفاً:
- ولكن لماذا؟!
- في تجربتنا السابقة، لم نتمكن من نقل الإدراك إلا من كون إلى آخر فحسب، وعندما درسنا النتائج، أدركنا أن الأمر يحتاج إلى وجود جين خاص، لم يتوافر إلا في عد محدود جدا من البشر.. أنت أقواهم تأثيرا..
حاول (أسامة) أن يستوعب الأمر، وهو يغمغم:
- وماذا عن الآخرين؟!
- تدخلنا في أحد الأكوان، لمنع شبيهك من اتخاذ قرار حقن والدته بذلك العقار، الذي أدى إلى إصابتها بالضمور العضلي العصبي، وفي كون آخر ساعدناه على اختيار عقار آخر، أعاد إليها نشاطها وحيويتها.
غمغم (أسامة):
- ولهذا تزوجت الدكتور (وفيق).

- بالضبط.. قرار واحد، يمكن أن يبدل حياة كائن ومساره إلى الأبد.
تراجع (أسامة) في مقعده، وهو يتمتم:
- هذا صحيح.. لقد خبرت هذا بنفسي.. شبيه لي شيد المركز الطبي وآخر تزوج حبيبة عمري، وأنا..
لم يكمل عبارته، فظل الشاحب صامتا، لا يرسل أية رسائل عقلية مما جعل (أسامة) يتساءل:
- وماذا عن الآخر؟!.. ماذا عمن أصدر ذلك القرار الوحشي؟!
- - كان فاشلا في حياته، بسبب قرار خاطئ، اتخذه في مرحلة دراسته الثانوية، ولكننا منعنا شبيهه من اتخاذ ذلك القرار الخاطئ، في كونكم هذا، وكانت النتيجة أن ظل هو فاشلاً في كونه، وبلغ شبيهه في كونك شأنا كبيرا.
صمت (أسامة) لحظات، محاولاً استيعاب هذا، قبل أن يغمغم:
- هذا لا يبرر اتخاذه لقراره.
- علمونا لا تسمح لنا بنقل الإدراك مرحليا فحسب، ولكن يمكننا جعله انتقالا دائما أيضا...
هتف (أسامة) بكل انفعاله:
أتعنى أن مصدر القرار في عالمنا..
هو فاشل الكون الآخر.. نعم.. لقد اختار أن يبقى وعيه هنا، حتى يفيد من التقدم، الذي حققه شبيهه
قال (أسامة) في عصبية:
ويعاني من كافح حياة الفشل؟!
- لن يدرك هذا... سيحيا بعقل الآخر وإدراكه وكيانه..
هتف (أسامة):
- ولماذا لم يحى من في كوننا بعقل وإدراك شبيهه؟!

- لأنه مر بالتجربة مباشرة، وما زالت علومنا عاجزة، عن محو التجربة من عقل العينة الأساسية..
لم يرق مصطلح (العينة) هذا للدكتور (أسامة)، فقال في حنق:
- ومصرعي هنا ينهى الأمر.. أليس كذلك؟؟
نظر إليه الشاحب بنظرة خاوية، و..

☆ ☆ ☆

- ترى أين يذهبون بنا؟!
ألقى الدكتور (لويس) السؤال في توتر شديد، فزفر الدكتور (وحيد) في عصبية، وهو يغمغم:
- يقولون: إنهم سيستجوبوننا..
فتح (أسامة) عينه في دهشة، يحدق فيما حوله..
كان يجلس مع طبيبي المصحة والممرض الضخم، في صندوق سيارة ترحيلات مغلقة، في جو شديد الحرارة، اشترك مع التوتر والخوف، في سيل من العرق، غمر وجه وجسد الممرض الضخم، وهو يقول في شبه انهيار:
- إنهم يعتقلوننا.. أستطيع فهم هذا جيدا.
هتف الدكتور (لويس) في رعب:
- ولماذا يعتقلوننا؟!.. ماذا فعلنا؟!
- لن يعتقلونا..
قالها هو في هدوء عجيب، لم يستطع استيعابه شخصيا، على الرغم من أنه أضاف به:
- إنهم سيقتلوننا.
دوت كلماته كقنبلة، داخل سيارة الترحيلات، فاتسعت عيون الكل في رعب شديد، وتساءل الدكتور (وحيد)، في صوت مرتجف:
- أهذا مجرد رأى يا دكتور (أسامة)، أم...

تطلع إليه (أسامة) لحظات في صمت، قبل أن يجيب بذلك الهدوء، الذي يدهشه هو نفسه في شدة:
- أعلم أنهم سيفعلون..
صرخ الدكتور (لويس) في انهيار:
- ولماذا يقتلوننا؟!.. إننا لم نفعل شيئا... لم نرتكب أية جريمة.
كان الرعب قد بلغ منهم مبلغه، في حين ظل (أسامة) على هدوئه العجيب، وهو يقول:
- ربما يرون أن معرفتكم ما يحدث، هو جريمة في حد ذاته..
تراجع الدكتور (وحيد) في رعب هائل، وهو يردد:
- يا إلهي!.. يا إلهي!
مع قوله، توقفت سيارة الترحيلات فجأة، فصاح الممرض في ذعر:
- سيفعلونها الآن.. سيفعلونها الآن..
انفتح الباب الخلفي لسيارة الترحيلات بالفعل، وظهر عنده جنديان، يحملان مدفعين آليين، قال أحدهما في صرامة:
- اهبطوا من السيارة.
تشبث الدكتور (لويس) بمقعده، صارخا:
- لن أهبط.. لن أهبط..
وبدأ ذلك الممرض الضخم يصرخ في انهيار، في حين اتسعت عينا الدكتور (وحيد) عن آخرهما في رعب..
- ما دمتم تريدون أن تبقوا فلا بأس..
قالها أحد الجنديين في قسوة، وهو يصوب مدفعه إليهم، فأغلق(أسامة) عينيه في قوة، وانتفض جسده مع دوى الرصاصات، و..
ولكن مهلاً إنه ليس دوى رصاصات مدافع آلية..
إنه دوى رصاصتين منفصلتين..

أأنتم بخير؟!..
أطل الأسمر عبر باب سيارة الترحيلات، وهو يلقى السؤال في لهفة قلقة، سرعان ما حملت نبرة ارتياح واضحة، عندما رآهم جميعا سالمين:
- حمدا لله..
هتف به الدكتور (وحيد):
- أنت؟!.. تصورت أنك وراء هذا!!
لم يجب الأسمر، وهو يفسح لهم الطريق، قائلاً:
- هيا.. أسرعوا.
كان الجنديان ملقيين أرضا مع مدفعيهما، وقد أصابت كلاً منهما رصاصة، وسيارة الأسمر على مقربة، ولقد ناولا مفاتيحها للدكتور (أسامة)، وهو يقول في حزم:
- ابتعدوا في اتجاه الغرب بقدر الإمكان.. لا أريدهم أن يعثروا عليكم قبل أن يتحرك المسئولون.
سأله (أسامة) في اهتمام:
- ماذا فعلت؟!
أجابه الأسمر في حزم:
- ما يمليه على الواجب.. والضمير..
وصمت لحظة، ثم أضاف في خفوت:
- لقد أبلغت النائب العام، والسيد رئيس الجمهورية..
تطلع إليه (أسامة) لحظات في صمت، قبل أن يضع يده على كتفه، قائلاً في تأثر:
- علمتني درسا.. الانطباعات الأولى، كثيرا ما تكون خاطئة..
لم يجب الأسمر، وإنما ناوله هاتفه المحمول، قائلا:
- أظنك ستحتاج إليه.

قبل أن يمد (أسامة) يده، ليلتقط الهاتف، تناهى إلى مسامعه صوت سيارات قوية تقترب، فالتفت ليرى سيارتين مدججتين بالجنود، تنطلقان نحوهم مباشرة.
وفي حزم، أزاحه الأسمر جانبا، وهو يشهر مسدسه،، قائلاً:
- سادافع عنكم بحياتي.
ولكن الجنود شهروا مدافعهم الآلية، وأطلقوا النار..
شاهد الدكتور لويس يسقط، والممرض الضخم ينهار مستسلما والدكتور وحيد يصاب برصاصة، والأسمر يتبادل إطلاق النار مع الجنود..
«حياتك تعقدت بشدة..»
استقبل عقله تلك الرسالة، عندما وجد نفسه فجأة داخل تلك القاعة الواسعة، فهتف:
- الآخرون هناك. يواجهون الموت.
ولكنك نجوت..
هتف (أسامة) في مرارة:
- لسوء حظي.
- وفقا للمنطق الطبيعي، ينبغي أن يكون هذا لحسن حظك..
هتف (أسامة) في غضب:
- وماذا عن الإنسانية، والكرامة والشهامة؟!.. هل أنج بنفسى وأتركهم يواجهون الموت من أجلي؟!.. كيف سأحيا بهذه الفكرة البشعة؟!
- ليست هناك ضرورة لأن تحيا بها على الإطلاق
حدق (أسامة) فيه، متسائلاً في عصبية:
- ما الذي يعنيه هذا؟!
- يعني أنك قد حصلت على امتياز خاص؛ لقبولك خوض هذه التجربة..

هتف (أسامة) فيه، متسائلا في عصبية:
- لم يطلب أحد موافقتى قط..
تتابعت الرسالة العقلية، وكأن تعليقه لم يكن..
- يمكنك اختيار الحياة التي تريدها، وسيتم نقل إدراكك إليها، على نحو دائم..
- أي قول هذا؟!
تواصلت الرسالة العقلية، متجاهلة تعليقه للمرة الثانية..
- سيتم نقل إدراكك إلى كون مواز، وعند عودتك من هذه المنطقة التي تتوسط الأكوان السبعة، ستصبح الدكتور (أسامة عزت)، صاحب مركز (أسامة) الطبي، المتزوج من جارته الرقيقة (ياسمين)، ويمتلك عيادة على نيل (القاهرة)، يشاركه فيها زميل عمره الدكتور (عادل)، ووالدته سليمة معافية، و...
قاطعه (أسامة) في حدة:
وهل تصورت أن أقبل هذا؟!
- المنطق يقول: إنها فرصة العمر.. كل مشاكلك سيتم تجاوزها، وكل أحلامك ستتحقق في لحظة واحدة...
- منطق الآلة المجردة من المشاعر فحسب.. كيف أتهرب من مسئولياتي، أمام الله سبحانه وتعالى، وأمام ضميرى؛ للفرار من مسئوليات قرارات اتخذتها بإرادتي؟!.. كلا يا هذا.. لست ذلك الرجل، الذي يفر من مسئولياته، بهذه الأنانية البغيضة..
- إذن فقد قررت أن تبقى، على الرغم من كل ما تعانيه في كونك..
قال (أسامة) في حزم:
- ما أعانيه نتاج قرارات اتخذتها، وليس من الشهامة أن أفر من مسئولياتها وتبعاتها..
- أهذا قرار نهائى؟!..

شد (أسامة) قامته، وهو يقول في حزم:
- بكل تأكيد
- ألن تشعر بالندم؟!.. هذه الفرصة متاحة لمرة واحدة فقط
هز (أسامة) رأسه:
- ومن ذا الذي يندم على قرار يريح ضميره؟!
ثم حمل صوته حزنا عميقا، وهو يضيف:
- ولكن ما الفائدة؟!.. الآخرون سيدفعون ثمن تجربتي أنا.
- ليس بالضرورة..
رفع (أسامة) عينيه إليه في دهشة وتساؤل:
- دراستنا للأكوان المتوازية، منحتنا الكثير من المعرفة، حول الزمان والمكان، والتعامل معهما، كما سبق أن أخبرتك..
تساءل (أسامة) في توتر:
- وما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟!..
- أأنت بخير؟!.. - دكتور (أسامة).. أأنت بخير؟!.
سمع صوت الممرضة (نوال)، وكأنه يأتي من أعماق سحيقة، ففتح عينيه في بطء، ليراها منحنية فوقه، ومعها الدكتور (عادل)، الذي هتف في انفعال:
- لقد استعدت وعيك.. حمدا لله..
أدار عينيه فيما حوله في دهشة، ورأى نفسه داخل عيادته القديمة البسيطة، فغمغم في تهالك:
- أين أنا؟!
أجابته (نوال)، وهي تكاد تبكي:
- في المركز الطبى يا دكتور (أسامة).. تلك الصاعقة صدمتك، ففقدت الوعي.
غمغم، وهو يحاول النهوض:
- صاعقة؟!

مد الدكتور (عادل) يده إليه، يعاونه على النهوض، وهو يقول:
- كرة برق يا دكتور (أسامة).. ظاهرة طبيعية، قرأت عنها الكثير، ولكنها أول مرة أختبرها.. إنها تنشأ عن تفريغ كهربى هوائى، خلال العواصف حسبما أذكر
أكملت (نوال) في توتر:
- كنت تقف مع ذلك الزائر الشاحب، عندما سمعنا القرقعة
اتسعت عيناه، وهو يقول:
- الزائر؟!.. هل تذكرينه؟!
أجابته بكل الدهشة:
بالطبع يا دكتور (أسامة).. هذا كان منذ دقائق فحسب..
تلفت حوله في انفعال، وهو يتساءل:
- وأين هو؟!... أين ذهب؟!
أجابه (عادل)، وهو يشعر بالحيرة لموقفه:
- لقد انصرف، عندما فقدت الوعي، وترك لك ذلك الدواء، الذي طلبته منه، وأحضره من الخارج.
انعقد حاجبا (أسامة)، وهو يقول في توتر:
- دواء؟!.. أي دواء؟!
تبادل (عادل) و(نوال) نظرة مشفقة، ثم ناوله (عادل) لفافة صغيرة، وهو يقول:
- ها هو ذا.. قال إنه لوالدتك، شفاها الله ل- سبحانه وتعالي وعافاها.
فض (أسامة) اللفافة في سرعة، ووجد داخلها علبة تحتوى قنينة صغيرة، بها سائل أرجواني شفاف، ومعها ورقة تقول:
- حقنة واحدة، ستعيد كل شيء، إلى ما كان عليه.. مع تحياتنا..
خفق قلب (أسامة) في قوة، وراح عقله المشتعل يتساءل، وهو يلقى نظرة على النتيجة الورقية، المعلقة على الجدار، والتي تشير

إلى أنه لم يتحرك من مكانه قط:
هل حدث ما حدث فعلاً، أم أنها الصدمة؟!
هل؟!

☆ ☆ ☆

- اختار تحمل نتائج مسئولياته؟!..
وقف الشاحب أمام شخص غارق في الظل، وهو يجيب، عبر الاتصال العقلي:
- ودون أدنى تردد..
- عظيم.. إنه يستحق المنصب المرشح له بالفعل.. سأرسل تقريرى إلى المجلس فورا؛ فآخر موعد هو نهاية ٢٠٣٠م..
- بهذا تكون مهمتي قد انتهت يا سيدى..
- يمكنك إنهاء برنامجك، والعودة إلى حالة التخزين يا (ص-761)، س حتى تحين مهمتك التالية..
- (أسامة).. أين ذهبت؟!..
سمع صوت أمه، ينتزعه من أفكاره، فابتسم وهو يتطلع إليها، وقد استعادت حيويتها، عقب حقنها بذلك العقار الأرجواني، وغمغم:
- استرجع بعض الأمور فحسب يا أمي..
مالت عليه، هامسة:
الليلة حفل خطبتك على (ياسمين)، فلا تفسدها بالتفكير في غيرها إنه اليوم الذي حلمت به طيلة عمرى..
ربت على كتفها في سعادة، ونقل بصره إلى الدكتور (عادل) و(نوال) والدكتور (وفيق)، وقد راح الأخير يختلس النظر إلى أمه في حب واضح، ثم شعر بحبيبة عمره (ياسمين) تمسك أصابعه، هامسة في سعادة:
- أأنت سعيد يا حبيبى؟!

أمسك كفها الرقيقة في حب، وهو يهمس:
- أكثر سعادة مما تتصورين يا حبيبتى.
قالها، وعيناه تتطلعان إلى ثلاثة رجال، جمعتهم مائدة واحدة، في القاعة التي يقيم فيها حفل خطبته، وقد راحوا يتناقشون حول سبب دعوته لهم إلى حفلة خطبته، وإصراره على حضورهم، على الرغم من أن أحدهم لم يلتق به من قبل قط..
ذلك الأسمر..
والدكتور (لويس)..
والدكتور (وحيد)..
وابتسم في ارتياح، عندما شاهد الدكتور (عادل) يتجه نحو مائدتهم؛ للترحيب بهم، وليروى لهم قصة الظاهرة العجيبة، التي حدثت في المركز الطبي ظاهرة الصدمة..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

صدمة
الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل الأخير

روايات مصرية

كوكتيل ٢٠٠٠

قصص الأعداد

الغضب

(عدد خاص)

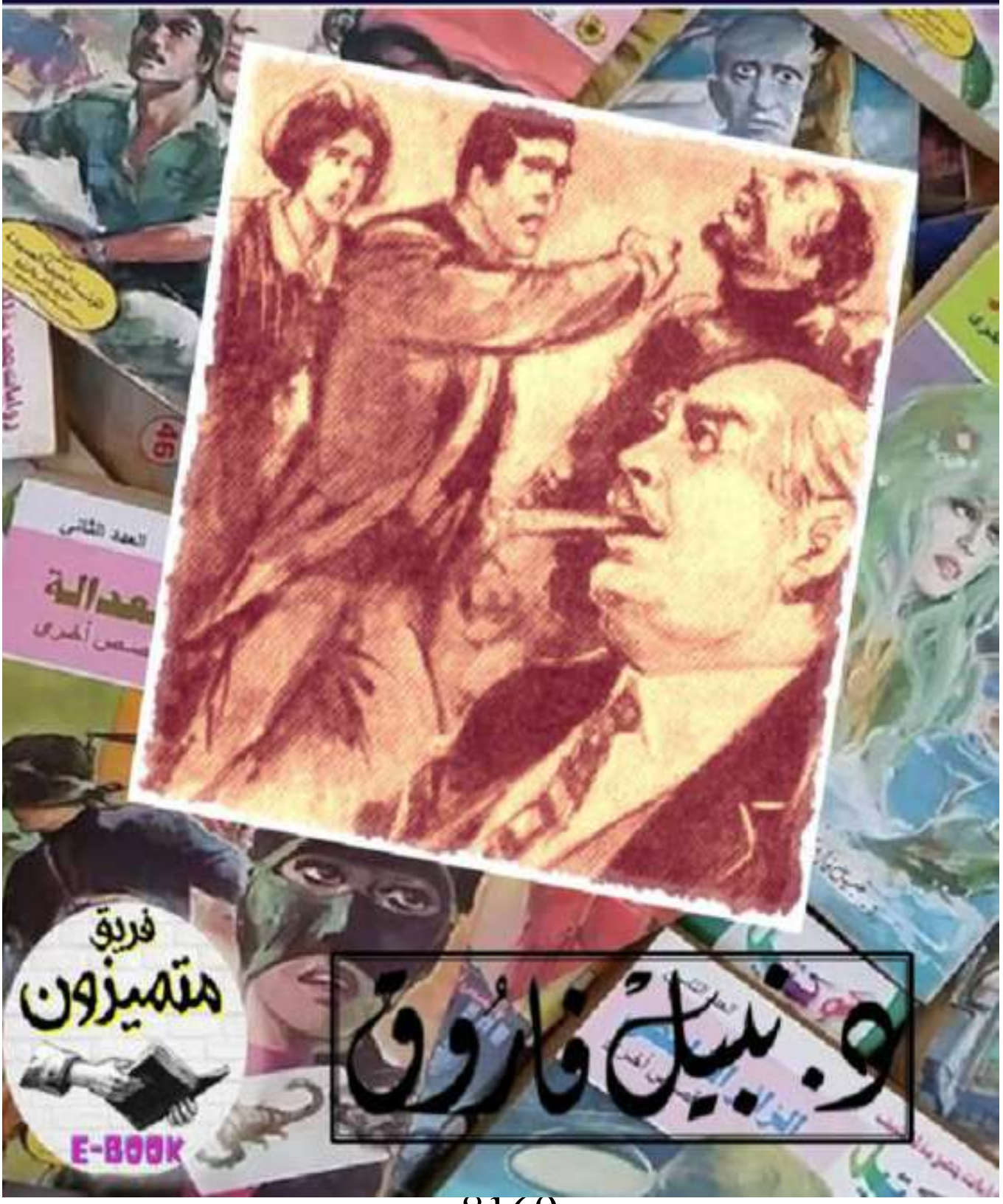

نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لقصص العدد
المنشورة بسلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل قصص العدد المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠
قصص العدد

من روائع د. نبيل فاروق
المنشورة بسلسلة
كوكتيل ٢٠٠٠

الغضب..
(عدد خاص)

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..

مع بدء العدّ التنازلي، نحو القرن الحادي والعشرين..
مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب..
مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء..
مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠، بمثابة باب الى المعرفة..

د. نبيل فاروق

☆ ☆ ☆

١- الأب والابن..

«إنها فوضى.. فوضى واستهتار..»
أطلق أحد العملاء تلك الصيحة الغاضبة، وسط ممرات شركة المقاولات العصرية، وراح يلوح بذراعيه في ثورة، وهو يستطرد:
- أسبوع كامل أحضر فيه إلى هنا كل يوم، دون تقدم واضح.. أي استهتار هذا؟.. بل أي سخف وفوضى؟!
انعقدت حواجب الموظفين في غضب، وصاح بعضهم في وجه الرجل:
- سل نفسك أي سخف هذا.. أوراقك ناقصة يا رجل، ومازالت تحتاج إلى موافقات، وتوقيعات.
صرخ الرجل، وقد بلغ غضبه مبلغه:
- موافقات وتوقيعات.. موافقات وتوقيعات.. إنني أكاد أجن من كل هذه الموافقات والتوقيعات.. ماذا تريدون لإتمام العمل؟ رشوة؟!.. أنا مستعد لدفع أية رشوة.. فقط أنهوا أوراقي..
صاح موظف في غضب:
- رشوة؟!.. يا للوقاحة!.. حديثك هذا سب علني تعاقب عليه..
وصاح آخر:
- اطردوا هذا الرجل من هنا.
وهتف ثالث:
- هيا.. انقع أوراقك هذه واشرب منقوعها، فلن تحصل على توقيع واحد منا..
صرخ الرجل في ثورة عارمة:
- هل رأيت؟!.. إنها محاولة لتعقيد الموقف.. تعسف واضح.. سأتقدم بشكوى.. سأبلغ النيابة الإدارية.. سوف....

بتر حديثه فجأة، عندما برز أمامه رجل في أوائل الأربعينات، ممتلئ الجسد إلى حد ما، طفولي الوجه، له ابتسامة عذبة ودود، تكاد تحتل وجهه كله، وقال الرجل في بساطة وطيبة واضحتين:
- اهدأ يا أستاذ.. اهدأ وأخبرني بمشكلتك، وستجد لها حلا بإذن الله.
كان الرجل يهم بالثورة في وجه هذا القادم الجديد، إلا أن تلك الابتسامة العذبة، والطيبة الواضحة، جعلتاه يخفض صوته بغتة، على الرغم من رنة الغضب الواضحة فيه، وهو يقول:
- من أنت بالضبط؟
أجابه صاحب الابتسامة في هدوء لطيف:
- أنا (إسماعيل حسني).. محاسب الشركة، والمسئول المالي فيها بصفة مؤقتة.
صمت الرجل لحظة، وهو يتطلع إلى وجه (إسماعيل) الطفولي الهادئ، ثم انفجر فجأة:
- إذن فأنت المسئول المالي.. أنت سبب كل ما يحدث لى.. أنت المجرم الحقيقي.
لم تتلاش ابتسامة (إسماعيل) الهادئة، وهو يقول:
- أنا المسئول المالي منذ يومين فحسب، بسبب وفاة الأستاذ (حسني) - رحمه الله. المسئول المالي السابق.
صاح الرجل:
- فليكن.. المهم أنك الآن سبب المشكلة كلها.
ربت (إسماعيل) على كتف الرجل في هدوء، وهو يقول:
- لا توجد مشكلة بلا حل.. هيا.. اهدأ، وتناول قدحًا من (الينسون)، واشرح لى الأمر كله، وأعدك أننا سنجد له حلا.. هيا.
قالها واصطحب الرجل إلى مكتبه، وهو يهتف بنفس الابتسامة:
- عم (خليل).. أحضر قدحين من الينسون.

تابعة الموظفون في دهشة، وهو يدخل مكتبه مع الرجل، وضرب أحدهم كفا بكف، وهو يقول:
- عجيب هو الأستاذ (إسماعيل).. أرأيت كيف امتص غضب الرجل وثورته في لحظات.
قال موظف آخر:
- وأراهنك أنه سيحل مشكلته.
ابتسمت (سعاد)، موظفة الحسابات الجديدة، وهي تقول:
- إنه رجل رائع.. لست أدري كيف يحافظ على هدوئه وابتسامته، في هذا العالم، الذي لم يعد فيه مكان للابتسام.
أجابتها زميلتها:
- الأستاذ (إسماعيل) هو أكثر من عرفت في حياتي كلها حلما وطيبة.. إنني أعمل هنا منذ ثلاث سنوات، ولم أره غاضبا مرة واحدة.
رفعت (سعاد) أحد حاجبيها، وقالت:
- لا تجعلي هذا يخدعك.. يقولون في الأمثال: «اتق شر الحليم إذا غضب»
ضحكت زميلتها، وقالت:
- إلا الأستاذ (إسماعيل).. إنه لا يغضب أبدا.
هزت (سعاد) كتفيها، وانهمكت في عملها بعض الوقت، حتى سمعت صوتا عذبا يقول:
- أرأيت؟.. لكل مشكلة حل.
رفعت عينيها إلى مصدر الصوت، ورأت الأستاذ (إسماعيل) بابتسامته العذبة، وهو يصافح العميل، على باب مكتبه، وقد انتقلت عدوى الابتسام إلى العميل نفسه، وهو يصافحه في حرارة، قائلا:

- أشكرك يا أستاذ (إسماعيل).. أشكرك كثيرًا.. أكثر الله من أمثالك..
قال (إسماعيل) ببساطته وابتسامته:
- لا شكر على واجب.. فقط أحضر هذه الورقة، التي طلبتها منك، وستحصل على الشيكات كلها غدا بإذن الله.. هذا وعد.
صافحه العميل مرة أخرى، وغادر المكان وهو يلهج بالثناء عليه، ويبتسم ابتسامة عريضة، يستحيل معها أن يصدق إنسان واحد أنه هو نفسه، الذي ملأ الدنيا ثورة وصراخا، منذ نصف ساعة على الأكثر..
وتطلعت (سعاد) إلى (إسماعيل) في إعجاب.
كانت تشعر نحوه بالكثير من الاحترام والإعجاب، منذ التحقت بالعمل في الشركة..
وطوال الشهرين اللذين قضتهما هنا، كان احترامها وإعجابها يتضاعفان ويتضاعفان..
إنه الصورة التي رسمها خيالها منذ حداثتها، لفارس أحلامها..
الصورة التي تصورتها مجرد خيال مستحيل، لا يمكن تحقيقه في الواقع..
ثم وجدته..
وجدته ووقعت في هواه، بعد أسبوعين لا أكثر، من عملها معه..
ولكن هذا الهوى ظل حبيسًا في صدرها..
إنه متزوج..
هذا ما لاحظته، من تلك الدبلة الذهبية، في يده اليسرى، ومن لهفته الشديدة، في موعد الانصراف، للحاق بموعد خروج ابنه (محمد) من المدرسة..
كان من الواضح أن ابنه هذا هو أحب مخلوقات الله (عز وجل).. إلى قلبه..

صحيح أن كل الآباء يحبون أبناءهم، ولكن حب (إسماعيل) لابنه، كان يفوق كل ما سمعته ورأته (سعاد)، في حياتها كلها حتى أنها ذات مرة شعرت بالغيرة من (محمد)..
ربما يبدو هذا مضحكًا، ولكنه ما شعرت به بالضبط..
كانت قد انتهزت فرصة للحديث معه، والاستمتاع بصحبته عندما ألقي نظرة على ساعته، وقال دون أن تفارقه ابتسامته:
- معذرة يا (سعاد).. ولكنه موعد خروج (محمد).
يومها لم تجد أمامها، لتنعم بصحبته أكثر، سوى أن تعرض عليه توصيله إلى مدرسة ابنه، بسيارتها الصغيرة..
ولقد قبل عرضها في بساطة أدهشتها..
وخفق لها قلبها..
وطوال الطريق، من الشركة إلى المدرسة، كان حديثه كله عن (محمد).. عن طرائفه، ونوادره، وتفوقه..
وعند باب المدرسة، تعانق الأب والابن في لهفة مدهشة.. تعانقا وكأن كلا منهما لم ير الآخر لسنوات..
وعندما عادا إلى سيارتها، بعد إصرارها على توصيلهما إلى منزلهما، ظلا يتحدثان ويتناقشان ويتمازحان، وكأنهما نسيا وجودها تماما..
ولقد أحنقها هذا حينذاك..
أحنقها حتى أنها رفضت قبول دعوة (إسماعيل)، لتناول قدح من الشاي في المنزل، وأصرت على الانصراف، بحجة أن أمها تنتظرها في المنزل، على الرغم من أنها تقيم وحدها منذ أكثر من ثلاثة أشهر، بعد سفر أمها لقضاء بعض الوقت مع شقيقتها في (ليبيا)، بعد أن أنجبت هذه الشقيقة طفلها الأول..
ولكنها ازدادت تعلقا ب (إسماعيل)..

بساطته وطيبة قلبه وهدوئه، كلها أشياء وجدت وقفا رائعا في قلبها، فاستسلمت لعواطفها نحوه، وشعرت بالارتياح لها..
وفي ذلك اليوم، لم تكد تلمح العميل ينصرف، حتى حملت أحد الملفات، وأسرعت إلى حجرة (إسماعيل)، الذي استقبلها بابتسامته الساحرة، وهو يقول:
- أهلا يا (سعاد).. كيف حالك؟.. وكيف حال سيارتك الصغيرة؟
أجابته في سعادة:
- كلنا بخير..
ثم سألته في لهفة:
- كيف أزلت غضب هذا الرجل؟ لقد كان ثائرا للغاية!

جلس خلف مكتبه، وهو يجيب في بساطة:
- كل ما يحتاجه هؤلاء الثائرون هو أذن تسمعهم، ويد تربت عليهم، ولسان يقنعهم بأنه مقتنع بموقفهم، ومؤيد لحقوقهم.. ثم إن لكل مشكلة حلا بالفعل، ومشكلة هذا الرجل كانت تحتاج لخطاب من البنك فحسب.

تطلعت إليه مبهورة، وهتفت:
- أستاذ (إسماعيل).. لم أتصور قط أنك..
قاطعها بغتة:
- ذكي.. أليس كذلك؟
قالها ببساطة أدهشتها، دون أن تفارق ابتسامته فره، فارتدت مغمغمة:
- لم أقصد أن....
قاطعها ببساطة:
- بل هذا ما كنت تقصدينه، وما يقصده الجميع عادة.. وهذا في الواقع قصور في التفكير، فالناس تتصور أن الشخص الطيب القلب، لابد وأن يكون ساذجا وغبيا، فلو أبدى لمحة من الذكاء، هتفوا بأنه خبيث وماكر، وكان يتظاهر بالطيبة فحسب..
ثم ضحك، مستطردا:
- وأنا أتركهم لأفكارهم المتخلفة.
كانت ضحكته رائعة في رأيها، مفعمة بالثقة والطيبة والبساطة والحنان، ففتحت فمها لتهتف مبهورة:
- أأنت دائما مرح هكذا؟
كان هذا ما أرادت قوله، ولكن ما قالته بالفعل هو:
- أأنت دائما رائع هكذا؟
رفع عينيه ونظر إليها بدهشة، فتخضب وجهها بحمرة الخجل، ولكنه استعاد ابتسامته بسرعة، وهو يقول:
- معذرة.. شرد ذهني لحظة، فلم أسمع ما قلتِ..
أدركت أنه يمنحها فرصة للتراجع، فتنحنحت وقالت:
- احم.. كنت أسأل.. أأنت حليم وهادي هكذا دائمًا؟
هز كتفيه، واتسعت ابتسامته، وهو يقول:
- وماذا في الدنيا يستحق أن نغضب من أجله؟!

تطلعت إليه دهشة، والسؤال نفسه يتردد في أعماقها.. ماذا يستحق الغضب؟

☆ ☆ ☆

«الطفل (محمد إسماعيل)..»

تطلع وكيل المدرسة لحظات، إلى الطويل القامة، المتين البنيان، الذي يطلب (محمد)، ثم سأله في حذر:

- ولماذا تريد (محمد)؟

أجابه الرجل في هدوء:

- والده لن يتمكن من اصطحابه اليوم..

سأله وكيل المدرسة:

- لماذا؟.. الأستاذ (إسماعيل) يحضر يوميا، ويأخذ (محمد)، في موعد الانصراف بالضبط.

بدا الحزن على وجه الرجل، وهو يقول:

- هذا صحيح للأسف، ولكنه أصيب اليوم في حادث سيارة، في أثناء عبوره الطريق، وتم نقله إلى المستشفى، وهو يطلب رؤية ابنه في إلحاح.. أنت تعرف كم يغرم كل منهما بالآخر.

هز الوكيل رأسه، وقال:

- هذا صحيح.. يا للمسكين!.. كيف نبلغ (محمد) بمثل هذا الخبر.. قد ينهار الصبي.

أجابه الرجل:

- أعلم هذا، ولذلك أتيت إليك؛ لأطلب منك التعاون معي، لأصطحب الصبي إلى المستشفى، دون إثارة قلقه..

قال الوكيل، وهو يعقد حاجبيه في شك:

- نعم.. ولكن.. ولكن..

ثم اعتدل، وقال في حزم:

- هل يمكنني رؤية بطاقتك الشخصية؟

ابتسم الرجل، وقال:
- نعم.. هذا حقك.
وناوله بطاقة شخصية، ألقى الوكيل نظرة طويلة متأنية عليها، وقرأ اسم الرجل، ووظيفته، واسم الشركة التي يعمل بها، ثم قال وهو يعيدها إلى الرجل:
- معذرة.. إنها مسئولية جسيمة كما تعلم.
قال الرجل متفهمًا:
بالتأكيد.. أنا أفهم ذلك.. وصدقني.. أنا أعتبر (محمد) محظوظًا؛ لأن مدرسته تهتم بأبنائها إلى هذا الحد.
تنهد الوكيل، وقال:
- بالطبع.. إننا نهتم بكل تلميذ هنا.. المهم الآن هو أن تحمل الصبي بسرعة إلى المستشفى، وأرجوك.. بلغ سلامي وتحياتي للأستاذ (إسماعيل)، وتمنياتي له بالشفاء العاجل.
قال الرجل بسرعة:
- اطمئن.. سأبلغه..
ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة، وهو يستطرد:
- بالتأكيد سأبلغه..

☆ ☆ ☆

تطلع (إسماعيل) بسرعة إلى ساعته، وهو يغادر الشركة في خطوات واسعة، ولحقت به (سعاد)، وهي تقول في لهفة:
- أستاذ (إسماعيل)، هل تحب أن أوصلك إلى مدرسة (محمد)؟
أجابها (إسماعيل) بابتسامة واسعة، تقطر طيبة وحنانا:
- لا يا آنسة (سعاد).. أشكرك.
قالت في إلحاح:
- ولكنه وقت انصراف، ولن تجد سيارة أجرة بسهولة، وسيارتي معي، ولدي وقت كاف.

بدا الخجل على وجهه، وهو يغمغم:
- أخشى أن أعتاد هذا.
هتفت في سعادة:
- ليتك تفعل..
تحركا نحو سيارتها، عندما اعترض طريقهما رجل ضخم الجثة، يرتدي حلة أنيقة، وقال في برود عجيب:
- أستاذ (إسماعيل).. هل يمكنني التحدث إليك لدقيقة؟
قال (إسماعيل) بسرعة:
- معذرة، ولكنني على عجل، و...
قاطعه الرجل في حزم:
- لن يستغرق هذا دقيقة واحدة.
ثم رمق (سعاد) بنظرة جانبية، مستطردا:
- سنتحدث وحدنا.
تنحنحت (سعاد)، وقالت
- فليكن.. سأذهب لإحضار السيارة..
ابتعدت في خطوات سريعة، في حين ألقى (إسماعيل) نظرة على ساعته، وقال بابتسامته العذبة:
- أرجو أن يكون الحديث قصيرا بالفعل، فموعد انصراف ابني (محمد) من المدرسة سيحين بعد...
قاطعه الرجل بغتة:
- (محمد) عندنا.
خيل ل (إسماعيل) أنه لم يسمع العبارة جيدا، وتلاشت ابتسامته لأول مرة، وهو يقول:
- ماذا؟
كرر الرجل في صرامة:
- (محمد) عندنا.

قال (إسماعيل) في لهجة أقرب إلى الذهول:
- عندكم؟!
ثم أطل الذعر والهلع من عينيه، وهو يستطرد:
- ماذا أصابه؟.. ماذا بالضبط؟
أجابه الرجل في برود:
- اطمئن.. (محمد) بخير.
ثم أضاف في قسوة:
- حتى هذه اللحظة.
اتسعت عينا (إسماعيل) في ارتياع، وهو يقول:
- ماذا تعني؟
أشعل الرجل سيجارته في بطء، وهو يقول:
- باختصار ووضوح.. لقد اختطفنا أبنك (محمد)..
ردد (إسماعيل) في ذهول:
- اختطفتموه؟!
أومأ الرجل برأسه إيجابا، وقال:
- نعم.. اختطفناه، وسنعيده إليك، بعد دفع الفدية المطلوبة..
ارتجفت شفتا (إسماعيل)، وهو يقول:
- فدية؟!.. أنا مستعد لدفع أية فدية.. ماذا تريدون بالضبط؟
نفث الرجل دخان سيجارته في بطء وعمق، ثم تطلع إلى (إسماعيل)، وقال:
- مليون جنيه.
وارتجف جسد (إسماعيل) في هلع.

☆ ☆ ☆

٢- الفدية..

جلست (سعاد) أمام عجلة قيادة سيارتها، وقلبها يرقص طربا.
إنها ستوصله إلى مدرسة (محمد) مرة أخرى.
وستنعم بحديثه، وعذوبته، وابتسامته..
إنها تكاد تصرخ معلنة سعادتها وفرحتها معلنة حبها..
ولكن فجأة، وهي تدير محرك سيارتها، وقع بصرها على (إسماعيل)..
واتسعت عيناها في دهشة..
بل في ذهول..
إنه لم يكن (إسماعيل) الذي عرفته، بابتسامته وطيبته وهدوءه..
بل كان شخصا آخر..
شخصا يطل من عينيه وملامحه هلع الدنيا كلها، وهو يتطلع إلى الرجل الواقف أمامه، والذي يتحدث إليه في هدوء عجيب..
وكادت تدفع نصف عمرها، لتعرف ما قاله الرجل، حتى يفعل كل هذا بالأستاذ (إسماعيل)..
بل عمرها كله..
وفي لهفة، أدارت محرك سيارتها، واتجهت إليهما..
وفي هذه اللحظة بالذات، كان (إسماعيل) يرتجف انفعالا، وهو يقول للرجل:
- أنت مجنون.. حتما مجنون.. إنني أشك في صحة أقوالك..
هز الرجل كتفيه في برود، وقال:
- يمكنك أن تتأكد بنفسك.. اذهب إلى المدرسة، وسيخبرونك أن (محمد) ليس هناك.

انعقد حاجبا (إسماعيل) في غضب، ولوح بسبابته في وجه الرجل، وهو يقول:
- اسمع يا هذا.. لو مسستم شعرة واحدة من رأس (محمد)، فسوف....
قاطعه الرجل، وهو يزيح سبابته في برود:
- اطمئن.. سيظل ابنك بخير، وسنعامله أفضل معاملة ممكنة حتى صباح الغد، عندما تسلمنا المليون جنيه، فتسلمك إياه.
هتف (إسماعيل) في خفوت وغضب:
- ألم أقل لك: إنك مجنون.. من أين لي بمبلغ كهذا؟
أجابه على الفور:
من خزانة الشركة.
أجابه في حدة عصبية:
- خزانة الشركة لا تحوي حتى عُشر هذا المبلغ.
ابتسم الرجل، ونفث دخان سيجارته مرة أخرى، وقال:
- سيكون بها هذا المبلغ صباح الغد، عندما تتسلم بنفسك مليون جنيه نقدًا، من حساب الشركة ببنك (القاهرة)، فرع (طلعت حرب) ... المفروض أن تسدد هذا المبلغ كتأمين، لعملية مساكن (مدينة نصر).. كل ما تريده منك هو أن تتجاهل عملية (مدينة نصر)، وتهتم بعملية ابنك (محمد).. ستسحب المبلغ من البنك، ثم تسلمه لنا في عنوان سنبلغك به صباح الغد: وتستعيد ابنك، وإلا..
نطق الكلمة الأخيرة وهو يعقد حاجبيه، ويرمقه بنظرة صارمة قاسية.. وفهم (إسماعيل) ما يعنيه.. فهمه، وارتجف قلبه بين ضلوعه..
وفي نفس اللحظة، وصلت (سعاد) بالقرب منهما، وأطلقت نفير سيارتها، وهي تقول:

- هل أنت مستعد يا أستاذ (إسماعيل)؟
التفت إليها الرجل، وقال بابتسامة باردة:
- بالطبع.. إنه مستعد.
ثم استدار إلى (إسماعيل)، وقال في صرامة:
- لا تحاول أن تتبعني.. هناك رجل آخر يراقبك من بعيد.. ولا داعي لأن تعرف زميلتك هذا الأمر.. وبالمناسبة.. لا تبلغ الشرطة، إلا لو أردت رؤية رأس ابنك المقطوع، في صندوق صغير.
انتفض قلب (إسماعيل) في عنف، مع العبارة الأخيرة، وأغلق عينيه في قوة، حتى سمع نفير سيارة (سعاد) مرة أخرى، ففتح عينيه، وتطلع حوله في ذعر ودهشة، ولكن الرجل كان قد اختفى، وغاب وسط الزحام، في حين هتفت به (سعاد):
- أستاذ (إسماعيل)..
تلفت حوله في توتر، ثم أسرع نحوها، فسألته:
- هل أغضبك هذا الرجل؟
سألها في لهفة:
- أين ذهب؟
أجابته وهي تشير:
- من هذا الاتجاه.. أتحب أن نتبعه؟!
هم بإجابتها بالإيجاب، ولكن الكلمة اختنقت في حلقه، فغمغم:
- كلا.. كلا.. لن نتبعه.. اذهبي بنا إلى مدرسة (محمد) بسرعة.. أرجوك.
انطلقت بالسيارة، والدهشة تملأ نفسها، ومنعها فضولها من الصمت، فسألته:
- ماذا حدث بالضبط؟!.. الأمر يبدو كما لو أن هذا الرجل قد ضغط زرًا خفيا في نفسك، فانقلبت رأسا على عقب.. إنك تبدو

شديد الذعر والتوتر والأسى.. ماذا حدث؟
كان يتمنى لو يجد من يشاركه مأساته، ولكنه تذكر قول الرجل وتحذيره، فقال:
- لا شيء يا آنسة (سعاد).. لا شيء..
لاذ بالصمت التام طوال الطريق، وهو يتطلع عبر النافذة المجاورة، فاشتعل فضولها أكثر وأكثر، حتى بلغ ذروته، مع وصولهما إلى المدرسة، فهتفت به:
- أستاذ (إسماعيل).. ماذا حدث بالضبط؟
التفت إليها، وحدجها بنظرة شاردة زائغة، ثم قال:
- أنسة (سعاد).. هل يمكنك تقديم خدمة لي؟
هتفت في حماس:
- بالتأكيد.
قال في لهجة أقرب إلى الضراعة
- اذهبي أنت للسؤال عن (محمد).. ولكن لا تقلقي، لو أنك لم تجديه.. فربما اصطحبه شخص آخر.
سألته وهي تفتح باب السيارة:
- والدته مثلا.
حدق في وجهها لحظة، قبل أن يجيب في أسي:
- والدة (محمد) توفيت عقب ولادته.
كان من المفروض أن تشعر بالأسف، من أجل (محمد)، ولكنها - والحق يقال - شعرت بسعادة جارفة، عندما أخبرها هذا الأمر، فأسرعت تغادر السيارة، قبل أن تكشفها ملامحها.
أما هو، فقد جلس يرتجف داخل السيارة..
كان يتمنى من أعماق قلبه لو أن ذلك الرجل كان مجنونا أو مخرفا..
يتمنى أن تعود (سعاد)، وهي تصطحب (محمد)..

لذا فقد خفق قلبه في قوة، وهوى بين قدميه، عندما رآها تعود وحدها، وتنحني في نافذة السيارة لتقول:
- إنه ليس هنا، ويقولون إن أحد زملائه في الشركة اصطحبه إليك في المستشفى، بسبب إصابتك بحادث سيارة.. ولقد أخبرتهم أنهم مجانين؛ فهأنذا أمامي، ولا يوجد موظف واحد بالشركة، يحمل الاسم الذي ذكروه.
فوجئت به ينهار، ويخفي وجهه بكفيه، ثم ينتحب في مرارة، فصرخ قلبها، قبل أن يهتف لسانها في جزع:
- أستاذ (إسماعيل).. ماذا حدث بالضبط؟.. أخبرني بالله عليك.
بدا وكأنه يختنق، وهو يقول:
- أرجوك يا آنسة (سعاد).. اذهبي بنا بعيدا عن هنا.. أرجوك.
أسرعت إلى مقعد القيادة، وانطلقت بالسيارة على الفور، وهى تقول في ارتياع:
- بالتأكيد يا أستاذ (إسماعيل).. سأفعل كل ما تطلبه مني.
انطلقت بالسيارة وهو ينتحب دون دموع، حتى توقفت في شارع هادي، خلف دار الأوبرا، وهتفت به:
- أستاذ (إسماعيل).. ماذا حدث بالضبط؟.. أخبرني.. أرجوك.
كان الرجل قد حذره من البوح بالسر، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ به أكثر من هذا..
إنه يحتاج حتما إلى من يشاركه سره.. إلى من يخفف عن كاهله الامه.. لذا فقد اندفع يتحدث..
وروى لها كل شيء..

☆ ☆ ☆

لم تستغرق رواية القصة كلها أكثر من دقائق خمس، اتسعت بعدها عينا (سعاد) في ذهول، وهي تقول:

- كأنني أستمع إلى تفاصيل رواية سينمائية!!.. أهذا معقول؟!.. أتحدث مثل هذه الأمور حقا، في العالم الذي نعيش فيه؟!.. أتحدث في (مصر)، ببساطة شعبها، وأزماتها ومشاكلها؟!..

أجابها (إسماعيل) في مرارة:

- نعم.. تحدث.. والدليل أمامك الآن..

- فلنبلغ الشرطة إذن.

صاح في ارتياع، ملوحًا بكفه:

- كلا..

ثم استطرد في اضطراب شديد:

- نحن نجهل من نواجه، ولا يمكننا استنتاج أو تخمين ردود أفعالهم.. من المستحيل أن أخاطر بحياة (محمد).. مستحيل.. مستحيل.

سألته في حيرة مشفقة:

- ماذا ستفعل إذن؟

ترقرقت عيناه بالدموع، وهو يغمغم:

- خياران أحلاهما مر.. إما أن أضحي بسمعتي وشرفي وكرامتي، وأشاركهم جريمتهم، وأسلمهم المليون جنيه، وإما أن أضحي بإبني.

قالت في حنان:

- ولكنني سأشهد لصالحك.. سأقول إنهم أجبروك على تسليمهم المبلغ.

هز رأسه نفيا، وهو يقول:

- لن يصدقك أحد.. كل ما سيحدث هو أنهم سيتصورون أنك شريكة في الجريمة.

وعض أصابعه في ألم، مردفا:

- لا أستطيع التفكير.. لا يمكنني اتخاذ القرار.

أدارت محرك سيارتها، وهي تقول:
- اسمع يا أستاذ (إسماعيل).. سأذهب بك إلى منزلك، فربما يمكنك التفكير على نحو أفضل هناك.
هتف بسرعة:
- لا.. أرجوك.. لا يمكنني الذهاب إلى المنزل دون (محمد).. لا يمكنني تخيله خاليا منه.. سينفطر قلبي لهذا.
ترددت لحظة، ثم قالت:
- تعال إلى منزلي إذن.
قال في مرارة:
- أشكرك، ولكن هذا سيسبب لك مشاكل كثيرة.
أجابته في تعاطف:
- لا تقلق من هذا الأمر.. إنني أقيم وحدي حاليا.
قال في خفوت:
- هذا يجعل المشاكل مضاعفة.
. أين نذهب إذن؟.. لا يمكننا البقاء في الشارع حتى الصباح.
زفر في مرارة، قبل أن يقول:
- اتركيني إذن.. سأجد وسيلة مناسبة.

انطلقت بالسيارة بغتة، وهي تقول:
- كلا.. الوسيلة المناسبة عندي أنا.
سألها في قلق:
- وما هي؟
أجابته في حزم:
- شقة صغيرة، في الهضبة الوسطى للمقطم.. إنها شقة زوج شقيقتي، وهي خالية الآن، لأن شقيقتي وزوجها يعملان في (المملكة العربية السعودية)، ويمكننا الذهاب إليها، وستجد فيها كل ما تحتاج إليه.. حتى الهاتف.. صحيح أن المنطقة ليست مأهولة بعد، ولكنها آمنة..
أراد أن يعترض، ويكتفي بشكرها على اهتمامها.. ولكنه لم يفعل.. كان يحتاج بالفعل إلى مكان آخر.. مكان يمكنه فيه التفكير بهدوء أكثر.. وبمنطق أكثر..
ولم تمض ساعة واحدة، حتى كانا داخل الشقة، يراقبان غروب الشمس، وقالت (سعاد):
- سأنصرف الآن، وأعود إليك في السادسة من صباح الغد..

هل تحتاج إلى أي شيء آخر؟.. لقد وضعت الطعام في المبرد، ولديك هنا شاي وسكر..
قال في خفوت:
- أشكرك يا آنسة (سعاد).. لست أدري كيف أرد لك هذا الجميل.
قالت في إشفاق وتعاطف:
- لا تقل هذا.
ثم زفرت في حرارة، مستطردة:
- صدقني.. كنت أتمنى لو أمكنني أن أفعل ما هو أكثر من هذا، ولكنني لست أدري حتى ماذا يمكنني أن أفعل!.. يا لهؤلاء الأوغاد.. لماذا أنت بالذات، دون البشر أجمعين؟.. لماذا اختاروا أكثر الناس طيبة وحنانا؟!.. كيف عرفوا أنك ستحمل مليون جنيه.
اعتدل (إسماعيل) فجأة، مع عبارتها الأخيرة، وانعقد حاجباه في شدة، وبدا وكأنه يتطلع إلى الأفق في شرود عجيب، فغمغمت مرتبكة:
- معذرة.. لم أكن أقصد..
قاطعها بغتة:
- تقولين إنه يوجد هاتف هنا.. أين هو؟
أشارت إلى الركن البعيد، قائلة:
- ها هو ذا.. أظنه ما يزال يعمل.
اتجه بخطوات سريعة إلى الهاتف، ورفع سماعته، ووضعها على أذنه لحظة، ثم قال في ارتياح:
- نعم.. إنه يعمل
وبدأ يدير القرص في حماس، فسألته في حيرة:
- هل قررت الاتصال بالشرطة؟

أجابها دون أن يرفع عينيه إليها:
- بل بأحد الزملاء في الشركة.
انتظر لحظات، حتى جاءه صوت محنثه، فقال:
- مساء الخير يا (ثروت).. كيف حالك؟.. قل لى.. هل يمكنني أن أراك الليلة؟.. نعم.. إنه أمر هام.. هام جدا.. نعم.. يتعلق بالشركة.. لا.. لا يمكنه أبدا الانتظار للغد.. أرجوك يا (ثروت).. لابد أن أراك بعد ساعات.. لا.. لست أتحدث إليك من منزلي.. بل من المقطم.. أريد أن ألتقي بك هنا.. أمام الـ..
واصل حديثه مع زميله بعض الوقت، ثم أنهى المحادثة، ورفع عينية إلى (سعاد)، التي قالت في فضول:
- أهو (ثروت حسين)؟
أومأ برأسه إيجابا، ثم قال:
- أنسة (سعاد).. آسف لإثقالي عليك، ولكن هل يمكنك البقاء، حتى يصل (ثروت)؟
أجابته بسرعة:
- بالتأكيد.. أنا رهن إشارتك، حتى تستعيد (محمد).
صمتت لحظة، ثم استدركت في فضول:
- ولكن لماذا؟
تطلع إليها لحظات، وكأنه لا يراها، ثم أجاب:
- لأنني أعتقد أن الأمور ستتغير.
وشرد ببصره، مستطردا في حزم عجيب:
- ستتغير كثيرا..

☆ ☆ ☆

٣ - الخيط الرفيع

بدأ البرد ينتشر، في تلك الليلة، بعد ساعتين من غروب الشمس، وأغلقت (سعاد) نوافذ سيارتها الصغيرة في إحكام، وضمت ساعديها إلى صدرها، في محاولة لبث الدفء في جسدها وهي تقول:

- الليلة باردة بحق.

أتاها صوت (إسماعيل)، وهو يقول في حزن ومرارة:

- ترى ماذا يفعل (محمد) الآن؟.. هل اهتم هؤلاء الأوغاد بتدفئته، أم تركوه يعاني البرد والجوع؟!

التفتت إليه مشفقة، وقالت في حنان متعاطف:

- لقد وعدوك بأنهم سيحسنون معاملته.

قال في ألم:

- ومن يصدق وعود المجرمين؟

قالها وأطلق زفرة حارة، تفيض بالمرارة، من أعمق أعماق قلبه، ثم تطلع إلى الطريق الطويل المظلم، الممتد أمامها في صمت، فسألته هي:

- لماذا طلبت من الأستاذ (ثروت) أن يقابلنا هنا، في هذا الشارع المقفر في (المعادي)؟!.. لماذا لم ترشده إلى عنوان منزل شقيقتي مباشرة، في هضبة المقطم؟

تطلع إليها بنظرة خاوية لحظة، ثم عاد ينظر إلى الطريق مغمغما:

- هنا أفضل.

قالت معترضة:

- ولكن هذا الطريق مقفر، ويمتد إلى ما لا نهاية، وأنا أشعر بالخوف، من توقفنا فيه هكذا..
صمت لحظة، ثم أجابها
- هنا تضمنين أن أحذا لا يراقبك، ويمكنك رؤية أية سيارة قادمة من بعيد.
هتفت في دهشة
- ولماذا كل هذه الاحتياطات؟
ثم مالت نحوه، مستطردة:
- هل تشك في أن يتبعوا (ثروت) إلى هنا؟
غمغم في خفوت:
- ربما.
ثم اعتدل فجأة، مستطردا:
- ها هو ذا.
أدارت عينيها إلى الطريق، ورأت ضوء مصباحي سيارة تقترب، وراحت تتابعهما في قلق، حتى توقفت السيارة على قيد أمتار قليلة منهما، وهبط منها (ثروت)، وهو يقول في حذر:
- (إسماعيل).. أهو أنت؟
التقط (إسماعيل) نفسا عميقا، وقال لها في حزم:
- لا تغادري السيارة.
ثم غادرها هو، وقال بصوت هادي أدهشها:
- نعم يا (ثروت).. هو أنا.
تهللت أسارير (ثروت)، وتقدم نحوه، قائلا:
- أخيرا.. ما هذا الأسلوب البوليسي يا رجل؟. عهدنا بك دائما عاقلا متزنا، فلماذا خالفت القاعدة هذه المرة؟!
اجابة (إسماعيل) في خفوت:
- لكل مقام مقال.

هر (ثروت) رأسه، وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء، وقال:
- نعم.. بالفعل.
ران عليهما الصمت لحظات، ثم سأله (ثروت):
- من يقود السيارة؟!.. أنا أعلم أنك لا تجيد القيادة.
تجاهل (إسماعيل) السؤال تماما، وقال:
- لقد اختطفوا (محمد).
هتف (ثروت):
- اختطفوه.. وهل طلبوا فدية؟
وفجأة، ودون مقدمات، بوغتت (سعاد) بانقضاض (إسماعيل) على (ثروت)، الذي تراجع هاتفا في ذعر:
- ما.. ماذا حدث؟
ولكن (إسماعيل) لكمه فجأة في معدته، لكمة قوية إلى حد ما، وعندما انثنى (ثروت) من فرط الألم، كال له (إسماعيل) لكمة أخرى في فكه، وثالثة في أنفه، فأسقطه فاقد الوعي..
وقفزت (سعاد) خارج السيارة، وهي تهتف:
- أستاذ (إسماعين).. لماذا فعلت هذا؟؟
بدا شديد الاضطراب والتوتر، وهو يقول بصوت مختنق مبحوح:
- الحبل.. أعطيني الحبل الذي أحضرناه.
حذقت في وجهه بدهشة، ثم أسرعت تناوله الحبل، فانحنى يقيد يدي (ثروت) خلف ظهره، ثم قدميه، وبعدها حمله، وألقاه على الأريكة الخلفية للسيارة، وراح يلهث في شدة، وهو يجلس على المقعد المجاور لها، قائلا:
- أسرعي.. هيا.
انطلقت بالسيارة دون تفكير، ونافس كل منهما الآخر في الارتباك والاضطراب والتوتر، وهتفت هي:

- لماذا فعلت هذا؟!.. لم أتصّورك أبدا تلكم شخصا بهذه القسوة.
بدا صوته أقرب إلى البكاء، وهو يقول:
- أنا أيضا لم أتصور نفسي أفعل هذا.. ولكن.. ولكن.. وخفض عينيه، وهو يستطرد في أسى:
- للضرورة أحكام، كما يقولون.
كان يرتجف، من فرط الانفعال والتوتر، ولم تكن هي تختلف عنه كثيرا، حتى لقد أدهشها أن نجحت في قطع الطريق، من (المعادي) إلى الهضبة الوسطى بالمقطم، وهناك حمدت الله (سبحانه وتعالى)، على أن المنطقة ما تزال مقفرة إلى حد ما، وعدد القاطنين فيها محدود، خاصة عندما حمل (إسماعيل) جسد (ثروت)، وراح يصعد به إلى حيث شقة شقيقتها وهناك وضعه (إسماعيل) فوق مقعد ثقيل، وحل قيوده، ثم عاد يقيده في إحكام إلى المعقد، بحيث أصبحت كفاه أمامه، مقيدتين إلى مسندي المقعد الجانبيين، وقدماه موثوقتان بشدة وإحكام.
وجلس (إسماعيل) يلهث..
كان يلهث في شدة، من فرط التعب والانفعال، فقالت (سعاد) مشفقة:
- هل أحضر لك بعض الماء؟
أومأ برأسه إيجابا، فأسرعت تحضر الماء، وتناوله هو منها بأصابع مرتجفة، وجرعه في بطء، ثم التقط نفسا عميقا؛ ليسيطر على أعصابه، قبل أن يقول:
- معذرة يا (سعاد).. أنا أورطك معي في الأمر، ولكن..
قاطعته هاتفة:
- لا عليك.. لست آسفة أو نادمة.

أرادت أن تخبره أنها من أسعد مخلوقات الأرض، لوجودها إلى جواره في هذه المحنة، إلا أنها لم تجد الوقت مناسبا لهذا، فلاذت بالصمت، وتركته ينهض، ويضرب (ثروت) برفق على وجنتيه، ثم يسألها:

- ألا يوجد هنا بعض النشادر، أو العطر؟

هتفت:

- توجد زجاجة عطر.

أسرعت تحضر زجاجة العطر، فسكب بعضها على يده، وبلل به أنف (ثروت) وفمه، فعل هذا الأخير، وانتفض، وفتح عينيه مغمغمًا:

- أين أنا؟.. ماذا حدث؟!

ثم حدق في وجه (إسماعيل)، وصاح في غضب:
- أنت؟!.. أي جنون أصابك.. ماذا فعلت بي؟
وانتبه إلى قيوده، فتحول غضبه إلى ثورة، وهو يستطرد:
- حل هذه القيود.. هيا.. سأبلغ الشرطة بما فعلت بي.
مال (إسماعيل) نحوه، وقال:
. لست أظنك ترغب حقا في تدخل الشرطة يا (ثروت).
توقف (ثروت)، وتطلع إلى عينيه لحظة في اضطراب، ثم لم يلبث أن قال في حدة:
- أي قول أحمق هذا؟!.. ما الذي تعنيه بالضبط؟
جذب (إسماعيل) معقدا، وجلس أمامه، وهو يقول:
- المليون جنيه.
استمعت (سعاد) إليه في فضول ولهفة، في حين ألقي (ثروت) نظرة عليها، وقال في عصبية زائدة:
- أي مليون جنيه؟!.. ثم ما الذي تفعله هذه الموظفة هنا؟
قال (إسماعيل) في صرامة:
- المليون جنيه، التي من المفروض أن أسحبها من البنك غدا وأسلمها كتأمين لعملية مساكن (مدينة نصر).. من يعرف هذا؟
قال (ثروت) في حدة:
- الجميع.. الجميع يعلمون أننا سندفع مليون جنيه، كتأمين للعملية.
هتف (إسماعيل):
- نعم.. ولكن من يعلم أن هذا سيحدث غدا بالتحديد.. أنت تعلم كم نتكتم مثل هذه الأمور في الشركة، حفاظا على الأمن والسرية..
إننا نتكتمها في شدة، حتى أنه لم يكن هناك سوى ثلاثة، يعرفون هذا الأمر.. أنت، وأنا، والأستاذ (فاضل) صاحب الشركة..

واليوم، وجدت أخرين يعلمون.. بل ولقد اختطفوا ابني؛ لإجباري على تسليمهم المبلغ غذا.. من أخبرهم برأيك.. أنا، أم الأستاذ (فاضل)، صاحب النقود التي يريدونها، أم أنت؟!.
بدا الاضطراب والتوتر على وجه (ثروت) لحظات، ثم قال في حدة:
- لست أنا من أخبرهم
قال (إسماعيل) في صرامة:
- كاذب.. إنك تثير حيرتي وتساؤلاتي منذ زمن، بشأن الحياة التي تحياها، والتي تحتاج فعليا إلى ما يفوق مرتبك بكثير، وأشك في أنك تتقاضى بعض الرشاوى من المنافسين.. واليوم، وعندما درست الأمر، وجدت أنه من المحتم أن تكون وراء حادث اختطاف (محمد).. إنك حتى لم تستطع تمثيل دورك جيدا، والتظاهر بدهشة مناسبة، عندما أخبرتك بأمر اختطاف (محمد).. وهذا ما حسم الأمر.
انعقد حاجبا (ثروت) في حدة، وهو يقول:
- إذن فأنت تفكر.. يا لك من خبيث!!.. كنا نتصورك جميعا طيب القلب، سليم الطوية.
تذكرت (سعاد) حديث (إسماعيل) السابق عن الطيبة والخبث، وراح قلبها يخفق في قوة، أمام ذلك الموقف، في حين قال (إسماعيل) في حزم:
- أهذا اعتراف؟
صاح (ثروت) في وجهه:
- فليكن.. اعتبره اعترافا.. ماذا ستفعل إذن.. اختطافك لي لا يدل على الذكاء كما تتصور، بل على منتهى السذاجة والغباء..
ماذا ستفعل بي الآن؟.. هل ستنقذ ولدك؟.. مستحيل!.. أنت لا تدرك من تواجه.

مال (إسماعيل) نحوه، وقال:
- اسمع يا (ثروت).. لقد وضعتموني جميعا في موقف لا أحسد عليه، ومنحتوني ليلة واحدة، لأقرر ما إذا كنت سأصبع شريكا في عمل إجرامي، أو أخسر ابني إلى الأبد.. ولن يمكنني التضحية بأيهما، وكذلك فقد توصلت إلى حل وسط.. سأستعيد ابني منكم، وينتهي الأمر.
أطلق (ثروت) ضحكة عصبية ساخرة، وهو يقول:
- هكذا.. وبكل بساطة؟!.. ألم أقل لك إنك ساذج غبي؟!.. هل تصورت أنهم سيعيدون إليك ابنك، ويعتذرون عن فعلتهم ويتنازلون بكل بساطة، عن مليون جنيه؟
جذبه (إسماعيل) من سترته في عنف، وهو يقول:
- من هم يا (ثروت)؟.. من هؤلاء المجرمون الأوغاد؟
قال (ثروت) في حدة:
- هل تنتظر مني أن أخبرك؟!.. هيهات يا رجل.. لن تحصل منى على حرف واحد.
أجابه (إسماعيل):
- إنه ابني يا (ثروت).. ابني الوحيد، ولن أتردد في إتيان أي أمر كان، في سبيل استعادته.
قال (ثروت) في عنف:
- أتحداك؟!.. أنت أضعف من أن تقدم على أي شيء.. أتظننا نجهل طبيعتك؟.. لا يا رجل.. لن يمكنك خداعي قط.. قلت لك: لن تحصل على حرف منى.
تراجع (إسماعيل) في بطء، وقال في أسف:
- فليكن يا (ثروت).. أنت أجبرتني على هذا ثم أخرج منديله، وكمم به فم (ثروت) في قوة، إلا أن هذا الأخير استقبل ذلك

الإجراء بابتسامة ساخرة، تألقت في عينيه، فاعتدل (إسماعيل)، وقال لـ (سعاد):
- راقبيه حتى أعود.
أومأت برأسها إيجابا في انفعال، وسألته:
- إلى أين تذهب؟
قال في هدوء:
- إلى المطبخ.
أدهشها الجواب، وتابعته ببصرها في حيرة، حتى رأته يعود حاملا مطرقة ثقيلة، وهو يقول:
- معذرة.. سأستعير هذه من زوج شقيقتك.
تمتمت مبهورة:
- لا بأس.
عاد إلى مقعده، في مواجهة (ثروت)، وقال:
- (ثروت).. لا تجبرني على عمل أكرهه.. هل ستخبرني ما لديك أم لا؟
تألقت نفس الابتسامة الساخرة في عيني (ثروت)، وهز رأسه نفيا في ثقة..
وفي اللحظة التالية، انتفض جسد (سعاد) في عنف، وانطلقت من حلقها صرخة ذعر..
لقد هوى (إسماعيل) بالمطرقة على يد (ثروت)، وهشم سبابته اليسرى..
ودارت عينا (ثروت) في محجريهما، من فرط الألم، واحتقن وجهه في شدة، مع الصرخة الرهيبة، التي كتمتها الكمامة، فتفجرت في أعماقه..
وفي ألم وحزن شديدين، قال (إسماعيل) بصوت مرتجف:

- هذا يؤلم.. يؤلم بشدة.. أعلم هذا.. إنه يؤلمني بأكثر مما يؤلمك.. صدقني.. ولكن ماذا أفعل؟!.. إنني أحتاج بشدة إلى معرفة ما لديك.. وأنت لم تترك لى الخيار.

ترقرقت الدموع في عينيه، وهو ينطق العبارة، فمسحهما بكفه، وعاد يرفع المطرقة، قائلا في أسى:

- والآن، أنا مضطر لتكرار الأمر.. هل ستخبرني ما لديك أم لا؟

اتسعت عينا (ثروت) في رعب وارتياع، وهو يتطلع إلى المطرقة، ثم هز رأسه في سرعة وعنف، معلنا قبوله ورضوخه، فتنهد (إسماعيل) في ارتياح، وخفض المطرقة، مغمغما:

- أشكرك يا رجل.. هذا أفضل للجميع.

تطلعت (سعاد) في ذعر إلى سبابة (ثروت) المحطمة المتورمة، ورأت (إسماعيل) يرفع الكمامة عن فم (ثروت)، ويسأله:

- والآن ماذا لديك؟

بدا (ثروت) منهارا، وهو يجيب:

- (صالح).. (صالح وهدان) هو الذي اختطف ابنك.

هتف (إسماعيل) في دهشة:

- (صالح وهدان) المقاول؟!.. ولماذا يفعل هذا؟.. أمن أجل المليون جنيه؟

قال (ثروت)، في لهجة أقرب إلى البكاء:

- ليس من أجل المليون جنيه وحدها.. بل ولأن عدم وصول هذا المبلغ في موعده، يعني ضياع عملية مساكن (مدينة نصر)، وربما يعني إفلاس شركتنا، وهي كما تعلم الشركة المنافسة لشركة (وهدان) في الأسواق.

اتسعت عينا (سعاد)، وهتفت:

- يا للحقارة!.. كيف تخون الشركة، التي منحتك كل هذا؟

خفض (ثروت) عينيه في مرارة، وراح يتأوه في ألم، في حين سأله (إسماعيل):
- وأين يحتفظ (صالح وهدان) بابني؟
هز (ثروت) رأسه، قائلا:
- لست أدري.
ثم كرر في توتر شديد:
- أقسم لك.. أقسم لك إنني لا أعلم.
ربت (إسماعيل) على كتفه بحنان أدهش (سعاد)، وهو يقول:
- لا بأس.. أنا أصدقك.
ثم التفت إلى (سعاد)، قائلا:
- أريد بعض الأربطة، وقطعة من الخشب، لعمل ضمادة مناسبة لإصبع (ثروت) المكسورة.. إننا لن نتركه يتألم.. أليس كذلك؟
تطلعت إليه (سعاد) في دهشة، ثم قالت:
- بالطبع.
وأسرعت لإحضار الأشياء، في حين مسح (إسماعيل) عرق (ثروت) بيده، وهذا الأخير يقول باكيا:
- سامحني.. أرجوك.
سأله (إسماعيل):
- أين أجد (صالح وهدان) الآن؟
أجابه بسرعة:
- في (شاليه) خاص بالهرم.. إنه ينتظر عودتي، فقد أبلغته بأمر اتصالك بي، وهو يعلم أنني أت لمقابلتك.
تمتم (إسماعيل):
- كنت أتوقع هذا.
ثم التقط نفسا عميقا، قبل أن يستطرد:
- وسأنتقل على الفور إلى الخطوة التالية.. إلى (صالح وهدان).

وبدا من الواضح أن الليلة ستطول..
ستطول أكثر مما ينبغي.

☆ ☆ ☆

٤- رمال الصحراء

التقط (صالح وهدان) نفسا عميقا، من سيجاره الفخم، ونفث دخانه في الهواء بقوة، قبل أن يتطلع إلى ساعته، مزمجرا:
- تأخر (ثروت).. ماذا يفعل مع ذلك الأحمق؟
قال أحد رجاله في لامبالاة:
- أنت تعلم أن (إسماعيل) هذا مخبول، ومن المؤكد أن اختفاء ابنه أطاش صوابه، وسيبكي طويلا بين ذراعي (ثروت).
مط (صالح) شفتيه، وقال:
- وما أخبار الصبي؟
أجابه الرجل:
- يقولون: إنه يبكي طوال الوقت، ويطلب رؤية والده، ويرفض تناول أي طعام أو شراب.
قال (صالح) في ضجر:
- غبي كوالده.
سأله رجل آخر:
- هل تتوقع أن يسلمنا النقود؟
لوح (صالح) بكفه، وقال:
- بالتأكيد.. لن يجرؤ على الرفض.. نحن نعلم شدة ارتباطه بابنه.
سأله الرجل:
- ألن يبلغ الشرطة؟
ابتسم (صالح) في ثقة، وقال:
- مستحيل!
ولكن ابتسامته تلاشت بأسرع مما ولدت، وهو يعاود التطلع إلى ساعته، مستطردا:

- أين ذلك الغبي (ثروت)؟.. لقد أكدت عليه ضرورة العودة بسرعة، أو الاتصال.
بدا القلق على وجه أحد رجاله، وهو يقول:
- (ثروت) يطيع الأوامر عادة بكل دقة، وغيابه هذه المرة يثير القلق.
انعقد حاجبا (صالح) في شدة، ورسم القلق - لأول مرة - خطوطه على وجهه، وهو يقول:
- هل تعتقد هذا؟
أجابه رجل آخر:
- بالطبع.. (ثروت) يعرف عنوان هذا (الشاليه) ورقم هاتفه.. فلماذا لم يحضر أو يتصل هاتفيا؟
ازداد انعقاد حاجبى (صالح)، وهو يقول:
- أمر مقلق بحق.
ثم أشار إلى أحد الرجال الأربعة، الذين يحيطون به، وقال:
- اتصل ب (حليم) فورًا، وقل له أن ينقل الصبي من الفيلا، إلى العزبة.. ومره بأن يقتله دون تردد، لو لم يتلق مكالمة منا، كل ساعتين، من الآن، وحتى العاشرة من صباح الغد.. هيا.. نفذ ما أمرت به..
أسرع الرجل لتنفيذ الأمر، في حين نفث (صالح) دخان سيجاره مرة أخرى، وقال في حزم صارم:
- (صالح وهدان) لا يخسر عملية أبدا.
وبدا كالشيطان، وهو يعقد حاجبيه الكثين مرة أخرى، مضيفا
- أبدا..

☆ ☆ ☆

ظل (إسماعيل) صامتا، طوال الطريق من (المقطم) إلى الهرم، و (سعاد) ترمقه، بين لحظة وأخرى، بنظرة قلقة مشفقة، ثم لم

تستطع التزام الصمت بدورها، فقالت:
- أستاذ (إسماعيل).. لم لا نبلغ الشرطة الآن؟!.. لقد اعترف (ثروت)، وهم أفضل منا، بالنسبة للجزء المتبقي من العمل.
هز رأسه في أسي، وقال:
- وماذا يمكن للشرطة أن تفعل؟!.. سيعيدون استجواب (ثروت)، فينكر كل ما قاله، بل ربما يتهمنا باختطافه، وتحطيم إصبعه.. وحتى لو اعترف، فسيكون عليهم ضبط وإحضار (صالح وهدان)، ثم استجوابه، وعرضه على النيابة لسماع أقواله.. هذا لو عثروا عليه.. وقبل أن يتم اتخاذ أي إجراء رسمي، لإنقاذ (محمد)، تكون المهلة قد مضت، وربما.. ربما..
لم يطاوعه لسانه على الاسترسال، فأشاح بوجهه، وتمتم:
- أرأيت؟!
قالت متوترة:
- ولكن ماذا يمكننا نحن أن نفعل؟.. هل نواجه (صالح وهدان) بكل رجاله وحدنا؟!.. هل تختطفه من بينهم؟.. أم تقنعه بتسليم نفسه للشرطة، وإعادة (محمد)؟
لم يجبه (إسماعيل) تساؤلاتها
كل ما فعله، بعد فترة طويلة من الصمت، هو أن غمغم:
- آسف يا آنسة (سعاد).. لقد ورطتك معي في هذا الموقف، وسببت لك الكثير من المشكلات.
هتفت مخلصة:
- لا تقل هذا.. إنني مستعدة لفعل أي شيء ممكن من أجـ ..
كادت تكمل.. «ومن أجلك».. إلا أن حياءها جعلها تستبدل بها عبارة:
- من أجل (محمد).
خفض عينيه، وهو يقول:

- ولكن الوقت متأخر، و..
قاطعته في حرارة:
- لا تقلق نفسك.. إنني أقيم وحدي حاليا.. ولن ينتظر أحد عودتي.
تطلع إليها لحظة، بنظرة ذاب لها قلبها، وامتزج بضلوعها، قبل أن يعود ليخفض عينيه، متمتما في صوت متهدج:
- لن أنسى تعاونك هذا قط.
وارتبك وهو يستطرد:
- لو أنني بقيت على قيد الحياة.
هتفت وقلبها يخفق بقوة:
- لا تقل هذا.
وعادت تقود السيارة، وأصابعها ترتجف انفعالا، ثم سألته، في محاولة لتغطية مشاعرها:
- كيف أمكنك أن تحطم إصبع (ثروت)؟
أشاح بوجهه، متمتما:
- كنت مضطرا.
قالت:
- ولكنها لم تكن الوسيلة الوحيدة، لإجباره على الاعتراف.
تنهد لحظة، التزم بعدها الصمت لحظات، ثم قال:
- مازلت صغيرة على استيعاب العالم من حولك يا آنسة (سعاد).. أما أنا، فقد عشت ما يكفي لأتأمل، وأرى، وأفهم..
ولقد علمتني تجاربي أن البشر، كل البشر، يصطفون في مجموعتين لا غير.. مجموعة تؤمن بالمبادئ والقيم، والأخرى تؤمن بمبدأ القوة فحسب.. ومن الخطأ، كل الخطأ، أن تعامل إحدى المجموعتين، بأسلوب لا يناسب سوى المجموعة الأخرى.. فلو أنك عاملت أصحاب المبادئ بالقوة، لازدادوا

عنادا وإصرارا وتمسكا بمبادئهم، ولو عاملت أصحاب القوة بالمبادئ فيسخرون منك، ويزدادون غيا وبغيا.. الوسيلة الوحيدة إذن للتعامل مع القوة، هي القوة نفسها.. وكما قال القدامى: «لا يفل الحديد إلا الحديد..».. هل فهمت؟

غمضت مبهورة:

- فهمت..

ثم تنهدت، مستطردة:

- أستاذ (إسماعيل).. أنت أعظم رجل، قابلته في حياتي.

خفض عينيه، مغمغما في شيء من الحياء:

- أشكرك.

عاودها الانفعال، وتمنت لو أن هذه الظروف تنتهي بسرعة، حتى يمكنها أن تبتسم، وتصرخ من الفرح، دون أن يسيء هذا إليه..

ولكن الابتسامة ملأت كيانها كله..

احتلت أعماقها حتى النخاع..

بل لقد شغلتها عن الخوف والقلق، وهي تنطلق بسيارتها إلى الهرم.

وفجأة، عادت إليها كل المشاعر الطبيعية، في مثل هذا الموقف المتوتر.. الخوف والقلق..

عادا إليها عندما لاح ذلك (الشاليه) من بعيد، وسط رمال الصحراء، فضغطت فرامل سيارتها، وقالت في توتر:

. لقد وصلنا.

تمتم (إسماعيل) في انفعال:

- أعلم هذا.

غادرا السيارة، واختفيا خلف تبة رملية، وراحا يراقبان المكان من بعيد..

كان هناك أربعة أشخاص، يبدون واضحين أمام (الشاليه)..
رجل ضخم الجثة، يجلس على مقعد جلدي كبير، وثلاثة انهمكوا في شي بعض اللحوم..
وقال (إسماعيل) في صوت عصبي:
- هذا الضخم هو (صالح وهدان).
غمغمت متوترة:
- وهؤلاء الأفيال الثلاثة من حوله هم رجاله.. هل تظن أنه بإمكاننا مواجهتهم
التفت إليها، وقال في حزم:
- لا تستخدم كلمة (بإمكاننا) هذه.. إنك سترحلين، أو تنتظرين داخل سيارتك، وسأحاول أنا القيام بالعمل وحدي.
هتفت مستنكرة:
- من تظن نفسك؟!.. (رامبو) أم (سوبرمان)؟.. لن يمكنك أبدًا مواجهة أربعة رجال دفعة واحدة.
قال في حزم شديد:
- إنني مستعد لمواجهة العالم أجمع، من أجل (محمد).

انحدرت الدموع من عينيها، وتشبثت بيده، قائلة:

- أرجوك.

التفت إليها بعينين عطوفتين مشفقتين، تفيضان بحنان لا حدود له، وغمغم:

- عودي إلى سيارتك يا آنسة (سعاد)..
انفجرت باكية بغتة، وأسندت رأسها إلى كتفه، فتردد هو لحظة، ثم رفع يده، وتحسس شعرها في حنان، وهو يهمس:
- أرجوك.
تراجعت تتطلع إليه بأنفاس مبهورة، وتمنت لو احتواها بين ذراعيه، وداعب شعرها أكثر وأكثر، إلا أنها لم تلبث أن هزمت هذه المشاعر في أعماقها، وأومأت برأسها مستسلمة، وعادت بخطى متعثرة إلى سيارتها..
أما هو، فبقي لحظات يتطلع إلى (الشاليه)، ثم غمغم:
- الحيلة.. لابد من الحيلة.
فوجئت به (سعاد) يعود إليها، وهو يسألها:
- ألبيك بنزين كاف، في خزان سيارتك؟
أجابته في دهشة:
- نعم.. لدى الكثير.. لقد ملأت الخزان هذا الصباح.
تمتم:
- عظيم.
وبعدها أدهشها ما فعله.. أدهشها بشدة..

☆ ☆ ☆

التقى حاجبا (صالح وهدان) في غضب، وهو يتطلع إلى ساعته، وقال في حنق:
- هذا الغبي (ثروت) يثير قلقي بالفعل.. كان المفروض أن يتصل منذ ساعتين.. ما الذي يعنيه هذا؟
قال أحد الرجال في قلق:
- هل تعتقد أن (إسماعيل) هذا قد أبلغ الشرطة، وأوقعوا (ثروت) في كمين؟!
هز (صالح) رأسه نفيا في حزم، وقال:

- قلت لكم: لن يجرؤ على إبلاغ الشرطة.. ثم كيف سيربط بين اختطاف ابنه وبين (ثروت).. المفروض أنه لا صلة بينهما قط.
ابتسم الرجل في ارتياح، وقال:
- هذا صحيح.
ثم عاد يهتم بالشواء، الذي تصاعدت رائحته الشهية، حتى بلغت أنف (صالح)، فقال في عصبية:
- ألم تنته من الشواء بعد؟
قال الرجل:
- لقد نضج تقريبا يا سيدي.. هل تحب تناوله الآن؟
هتف (صالح):
- بالطبع.. إنني أحب تناول الطعام طازجا وساخنا.. هيا يا رجل.. ماذا تنتظر؟! أنا أتضور جوعا؟!
قطع الرجل قطعة كبيرة من الشواء، وأسرع بها إلى (صالح)، الذي تلمظ في شراهة، وهو يلتقط الطبق، مغمغما:
- إنه شواء شهي بالفعل.
فتح فمه عن أخره، ليلتهم قطعة من الشواء.. ولكن الجحيم فتح أبوابه، في اللحظة ذاتها.. لقد سقطت فجأة زجاجة من البلاستيك، وسط نيران الشواء وانفجرت..
وقفز (صالح) من مقعده مذعورا، وترك قطعة اللحم الكبيرة تسقط بين قدميه، أمام النيران، التي التهبت في شدة، وتطايرت في كل مكان، وأمسكت بأحد رجاله، فراح يعدو، وهو يطلق صرخات ذعر وألم، قبل أن يلقى نفسه أرضا، ويتقلب فوق الرمال حتى أطفأ النيران، فهوى في غيبوبة عميقة أما الرجلان الباقيان، فقد تحركا في توتر وجزع، وهتف (صالح):
- ماذا يحدث بالضبط؟

رأى رجلا يعدو من خلف المنزل، حاملا مقعدا خشبيا، هوى به فوق رأس أحد الرجلين، فتحطم المقعد في عنف، وسقط الرجل أرضا..

وصرخ (صالح):

- من هذا؟.. ما الذي يحدث هنا؟

لم يستطع تمييز شخصية الرجل، الذي اشتبك مع من تبقى من رجاله، وراحا يتشاجران في استماتة، ولكنه أدرك أن رجله أكثر قوة وحنكة، من ذلك المعتدى، فقد لكمه في معدته، وفي صدره وعنقه، وألقاه أرضا، وبعدها انتزع مسدسه، وصوبه إليه..

وهتف (صالح) في توتر شديد:

- اقتله.. اقتله يا رجل

وجذب الرجل إبرة مسدسه بالفعل..

ولكن فجأة، ظهرت تلك السيارة.. سيارة صغيرة، انطلقت فوق الرمال بسرعة مدهشة، فالتفت إليها الرجل، ورفع مسدسه نحوها، وأطلق رصاصة.. واصطدمت به السيارة..

اصطدمت به في عنف، وألقته فوق الرمال فاقد الوعي، في حين قفز الآخر، والتقط المسدس، ثم وثب نحو (صالح)، وصوبه إليه، وهو يهتف بصوت مرتجف:

- قف يا (صالح)، وإلا أطلقت النار.

اتسعت عينا (صالح) في ذهول، وهو يحدق في وجه (إسماعيل)، وهتف:

- مستحيل!.. أهو أنت؟

كان (اسماعيل) يرتجف بشدة، وكأنه هو الذي خسر القتال والتفت إلى السيارة، هاتفا في قلق عنيف:

- أنسة (سعاد).. آنسة (سعاد).. هل أصابك مكروه؟!

ألقت (سعاد) نظرة مذعورة على تلك الثقب، الذي تركته الرصاصة في زجاج سيارتها، وقالت بصوت مبحوح:
- كلا.. أنا بخير..
صاح بها في عصبية:
- لماذا أتيت؟
قالت متوترة:
- لن أكتفي بمقعد التفرجين، وأنت تواجه هؤلاء القتلة.
نقل (صالح) وجهه بينهما في دهشة بالغة، ثم قال في حدة:
- إنك ترتكب أكبر خطأ في حياتك يا (إسماعيل).
قال (إسماعيل) في توتر بالغ:
- بل أنت ارتكبت آخر خطأ في حياتك يا (صالح).. أين ابني؟!.. أين (محمد)؟
أجابه صوت خشن جاف:
- عندنا.
- التفت (إسماعيل) بسرعة إلى مصدر الصوت، في نفس اللحظة التي انطلقت فيها رصاصة، أطاحت بمسدسه، وظهر رجل رابع من رجال (صالح وهدان)، وهو يقول في صرامة:
- كان ينبغي أن تتأكد من العدد أولًا..
ارتسمت مرارة لا حد لها، على وجه (إسماعيل)، وهوى قلب (سعاد) بين قدميها، وهي تهتف:
- يا لها من ليلة سوداء!
أما (صالح وهدان)، فقد برقت عيناه في ظفر، واعتدل في وقفته، وهو يقول:
- هل رأيت يا (إسماعيل)؟.. أنت خسرت اللعبة.. خسرت كل شيء.

☆ ☆ ☆

لو أنه من الممكن تجسيد الفشل والخيبة والمرارة والألم، في هيئة واحدة، لكان وجه (إسماعيل)، في تلك اللحظة، هو أكثر ما يصلح لهذا التجسيد..
كان يشعر أنه قد خسر كل شيء بالفعل.. حياته، ومستقبله وابنه..
ابنه (محمد)..
وكان هذا أكثر ما يؤلمه..
ولقد شعر بمقت لا حدود له، تجاه (صالح وهدان)، الذي عاد إلى مقعده الجلدي الضخم، وأشعل سيجارًا آخر، وهو يقول:
- والآن ماذا تقترح أنت يا (اسماعيل)؟!.. ما الذي تستحقه بعد كل ما فعلته؟!.. لقد أصبت ثلاثة من رجالي، وحرقت وجبة عشائي، وأفسدت ليلة جميلة من ليالي.. فما الذي أفعله بك؟.. هل أقتلك، أنت وتلك الموظفة، التي تبعتك إلى حتفك؟
شحب وجه (سعاد)، وعقد (إسماعيل) حاجبيه، دون أن ينبس ببنت شفة، فمال (صالح) إلى الأمام، وتابع في شماته واضحة:
- أم أصدر أوامري بقتل ابنك؟
ارتجف جسد (إسماعيل) كله، وقال بصوت مبحوح:
- لا.. ليس (محمد).
ابتسم (صالح) في ظفر، وكأنه كان واثقا من النتيجة، وتراجع في مقعده، وقال:
- ابنك (محمد).. هل تعلم أنك كنت ستتسبب في مصرعه؟.. ثم تطلع إلى ساعته، وقال للرجل، الذي يصوب مسدسه إلى (إسماعيل) و (سعاد):
- أعطني الهاتف.
ناوله الرجل هاتفا لاسلكيا، فضغط (صالح) أزراره، وهو يقول:

- كان رجالي سيذبحونه ذبح النعاج، لو لم أتصل بهم، في هذا الموعد بالذات.
صمت لحظة، حتى سمع صوت محدثه، فقال:
- أنا (صالح) يا (نجيب).. كيف حال الصبي؟.. لا.. استمروا في معاملته بشكل جيد، ولكن لا تتردد في ذبحه بلا رحمة، لو لم تتلق مكالمة مني شخصيا، بعد ساعتين من الآن.. هل تفهم؟
سرت قشعريرة باردة في جسد (إسماعيل)، و (صالح) يعيد الهاتف إلى رجله، ويبتسم ابتسامة ظافرة شامتة، ثم ينفث دخان سيجاره، قائلا:
- هل أدركت دقة موقفك الآن؟
لم ينطق (إسماعيل)، فتابع (صالح):
- كان يمكنني أن أطلب من هذا الرجل قتلكما بلا رحمة، ولكنني لست الرجل الذي يطلق العنان لعواطفه.. إنني رجل عقلاني للغاية.. ماذا سيفيدني موتكما؟.. هذا هو السؤال، الذي ألقيته على نفسي.. ومن حسن حظكما أن حياتكما بدت أفضل من موتكما.
واسترخي في مقعده، قبل أن يستطرد:
- أنت الآن تعرف من وراء العملية بالضبط.. ولكن هذا لا يهم.. سنواصل العمل، وكأنك لم ترتكب حماقتك هذه.. ستسحب المبلغ غذا من البنك، ثم تسلمه لى شخصيا، وتستعيد ابنك، و...
رمق (سعاد) بنظرة جانبية، قبل أن يستطرد في خبث:
- وهذه الجميلة..
شهقت (سعاد) في هلع، فقال (إسماعيل) في صرامة:
- لن تمس شعرة واحدة من رأسها.
أطلق (صالح) ضحكة عالية بغيضة، قبل أن يقول:

- هذا ما توقعته تماما.. أنت غارق في حبها.. عظيم.. هذا يجعل قيمتها أكبر.. سنحتفظ بها معنا، و...
قاطعه (إسماعيل) في حدة:
- قلت لك: لن تمس شعرة واحدة من رأسها.
رفع (صالح) أحد حاجبيه، وقال:
- حقا؟!.. من الواضح أنك لم تستوعب الدرس جيدا يا رجل.
ثم أشار إلى الرجل الممسك بالمسدس، قائلا:
- أحضرها.
اتجه إليها الرجل في حزم، وجذبها من يدها، فهتفت مذعورة:
- لا.. اتركني.
وهنا انقض (إسماعيل) على الرجل فجأة، وأمسك معصمه الأيمن بيسراه، ليبعد المسدس بعيدا، وهو يهتف:
- لن تمسها بسوء.
كانت انقضاضة مباغتة، غير متوقعة، فمالت يد الرجل يمينا وضغطت سبابته على زناد المسدس، و..
وانطلقت الرصاصة..
انطلقت لتستقر في جسد (صالح)..
وفي قلبه مباشرة.

☆ ☆ ☆

هـ- وتعقدت الأمور

جحظت عينا (صالح)، ونهض من مقعده في بطء، ولوح بكفه لينطق شيئا ما، ثم هوي أمام المقعد..
وفي الوقت نفسه، كان (إسماعيل) يلكم الرجل مرتين، في أنفه وفكه، وهو يصرخ في انفعال:
- أيها المجرمون.. لن تنالوا منا شيئا.. لن تنتصروا.
ومع صرخته، كال للرجل لكمتين أخريين، فتحطم أنف الرجل وانكسرت أسنانه، وغامت الدنيا أمام عينيه..
ثم سقط مع اللكمة الخامسة..
سقط فاقد الوعي..
واتسعت عينا (سعاد) لحظات، ثم اندفعت نحو (إسماعيل)، الذي يلهث في شدة، وهتفت:
- أنت صرعته.. أنت فعلت هذا من أجلي.
ربت عليها في توتر، ثم أسرع نحو (صالح)، وفحصه بسرعة، ورفع وجهه الشاحب إلى (سعاد)، وهو يهتف في ذعر شديد:
- لقد.. لقد مات
هتفت (سعاد):
- كان يستحق هذا.
قال (إسماعيل) في رعب وارتياع:
- ولكن (محمد).. نحن لا نعرف أين هو، ولقد سمعت بنفسك ما قاله (صالح).. إنهم سيذبحون (محمد)، لو لم يتصل بهم (صالح) بنفسه بعد ساعتين.. أي في تمام الثانية صباحا.
شحب وجهها، وهي تقول:

- رباه!.. هذا صحيح.
ثم استطردت بسرعة:
- ولكنني أعرف الرقم الذي اتصل به (صالح).. لقد راقبت أصابعه، وحفظت الرقم عن ظهر قلب.
هتف (إسماعيل) في أمل:
- حقا؟!
أجابته في حماس:
- بالتأكيد.. الرقم هو..
ذكرت الرقم في سرعة، فهب وافقا، وهو يقول في انفعال:
- عظيم.. مازال هناك أمل.. كل ما تحتاجه هو دليل الهاتف وبعض الوقت.
واندفع داخل (الشاليه)، وبحث عن الهاتف في لهفة، وإلى جواره وجد ثلاث نسخ ضخمة، تحمل اسم هيئة المواصلات السلكية واللاسلكية، فقال:
- هيا يا (سعاد).. ابحثي معي عن الرقم، وسنجد العنوان أسفله واضحًا.
أسرعت إليه في لهفة وسعادة، بعد أن خاطبها باسمها مجردًا لأول مرة، والتقطت أحد أجزاء الدليل الثلاثة، وهي تقول:
- هذه الأجزاء ضخمة للغاية.. هل يمكننا أن نعثر فيها على الرقم المنشود، قبل مرور ساعتين؟
أجابها في انفعال
- الأرقام الثلاثة الأولى، تشير إلى أن الرقم هنا.. في منطقة (الهرم).. ابحثي عنها فقط، وتجاهلي الأرقام الأخرى، وسيوفر هذا كثيرا من الوقت.
راحا يبحثان في سرعة ولهفة، و (إسماعيل) يلقي نظرة على ساعته، كل لحظة وأخرى، في توتر شديد.. ومضت ساعة

كاملة، وهما يبحثان..
ساعة مضت بسرعة البرق، وكأنها ثوان معدودة..
فهكذا الزمن..
يزحف كالسلحفاء عندما تتعجله، وينطلق كالصاروخ كلما احتجته..
ثم صاحت (سعاد) فجأة:
- ها هوذا..
قفز إليها (إسماعيل) في لهفة، وهو يقول:
- أين هو؟
قرأ الرقم بعينيه، والعنوان إلى جواره، وهتف:
- إنها عزبة خاصة، بالقرب من هنا.. على مسافة خمسين كيلو مترا فحسب.
قالت في توتر:
- سيحتاج هذا إلى نصف الساعة على الأقل.
هب واقفا، وهو يقول:
- دعينا لا نضيع وقتا إذن.
أسرعا يغادران المكان، ولكن استقبلتهما فجأة فوهة مسدس، ومن خلفها وجه أحد رجال (صالح)، الذي استعاد وعيه، وبدا شديد الغضب، وهو يلوح بالمسدس في وجهيهما، ويقول:
- إلى أين؟.. لقد قتلتها الزعيم، وستدفعان الثمن.
ثم جذب إبرة المسدس..
وضغط الزناد..

☆ ☆ ☆

لم يفكر (إسماعيل) لحظة واحدة في نفسه..
لم يفكر في مصيره أو حياته، أو حتى موته..
كل ما فكر فيه لحظتها هو (محمد).. و (سعاد)..

وبهذا التفكير، لطم حامل المسدس، بكل ما يملك من قوة.. وكانت اللطمة في موضعها تماما.. وتراجع الرجل في عنف، وسقط على ظهره، وانطلقت رصاصته في الهواء..
وقبل أن ينهض الرجل مرة ثانية. انقض عليه (إسماعيل)، وكال له لكمتين متعاقبتين، أفقدتاه الوعي مرة أخرى..
وهتف (إسماعيل):
- هيا بنا.. ليس لدينا وقت نضيعه.
قفزا داخل السيارة، وانطلقا بها بأقصى سرعة، نحو الطريق الصحراوي..
وفي هذه المرة، سار الوقت باعتدال، فلهفة (إسماعيل) لرؤية ولده، كانت تجعل الوقت يمضي كالسلحفاء، في حين كانت خشيته من فوات المهلة المنشودة تدفعه للانطلاق كالصاروخ..
وشعرت (سعاد) بدورها بالتوتر، فسألته:
- ألم يكن من الأفضل أن نبلغ الشرطة هذه المرة؟
غمغم في توتر:
- لا وقت لهذا.
لم تحاول مناقشته هذه المرة، بل اكتفت بضغط دواسة الوقود بكل قوتها، وتركت سيارتها تنطلق على الطريق، كما لو كانت سيارة سباق جديدة..
وقبل مضي نصف الساعة، لاحت العزبة من بعيد..
وتضاعف انفعال (إسماعيل)، وهما يقتربان أكثر وأكثر..
ثم أوقفت (سعاد) السيارة، على بعد عشرة أمتار من مدخل العزبة، وغمغمت:
- مازلت أرى أنه من الأفضل أن تتصل بالشرطة.
تطلع إليها لحظة في صمت، ثم قال:

- أنسة (سعاد).. أرجوك ألا تقحمي نفسك هذه المرة.. إنني أجهل عبد الموجودين بالداخل، أو مدى شراستهم وعنفهم، وأرجوك.. أرجوك ألا تقتربي..
ترقرقت الدموع في عينيها، وتمتمت:
- سأحاول.
تنهد في ارتياح، واعتدل ليتجه إلى المبنى الصغير، الذي يتوسط حديقة واسعة، ولكنها هتفت به في لوعة:
- (إسماعيل).
التفت إليها في بطء، وبدا لها حزينا أسفا، واختنق حلقها بالدموع، وهي تقول:
- لا تجازف كثيرا.
أومأ برأسه في بطء أكثر، ثم أشاح بوجهه، والتقط نفسا عميقا، واتجه في حزم إلى سور العزبة..
دار حوله دورة واحدة، ثم حسم أمره، وقفز يتعلق بأعلى السور، ولهث وهو يدفع جسده إلى أعلى، ثم عبر السور، ووثب داخل الحديقة، واستند إلى السور من الداخل، وهو يلتقط أنفاسه في توتر وصعوبة..
وبدا المكان ساكنا صامتا أكثر مما ينبغي، حتى أنه غمغم في قلق:
- أخشى أن نكون قد أخطأنا المكان.
تحرك من مكانه، واقتربا من المبنى الصغير، وراح يفحص أبوابه ومداخله، وهو يتطلع إلى ساعته في قلق..
لم يعد أمامه سوى ربع الساعة، وينفذ المجرمون جريمتهم وتوترت أعصابه في شدة..
ومن أعماقه، هتف:
- لابد من وجود مدخل ما.. لابد.
ارتجف جسده، عندما سمع صوتا من خلفه بغتة، يقول:

- وما شأنك أنت بهذا؟
استدار في سرعة، فوجد فوهة مسدس مصوبة إلى رأسه، وسمع الرجل الغليظ الملامح، الواقف خلفه، يقول في خشونة:
- هيا.. أجب.. من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟
ارتبك (إسماعيل) لحظات، ثم أجاب
- أنا لص؟!
ابتسم الرجل في سخرية، وقال:
- لص؟!.. هل تظنني ساذجا يا رجل؟.. ما الذي يأتي بلص إلى مكان مقفر كهذا؟
أجابه (إسماعيل) متوترا:
- كنت أظن العزبة خالية.
رمقه الرجل بنظرة شك، ثم قال في غلظة:
- فليكن.. ادخل معي، وسننظر في أمرك بالداخل.
شعر (إسماعيل) بالارتياح، عندما فتح الرجل أحد الأبواب ودفعه إلى الداخل، ثم قاده عبر ممر طويل إلى حجرة في منتصف المبنى، يجلس داخلها رجل واحد، هب واقفا عند رؤيته، وصاح بزميله:
- من هذا يا (عبيد)؟.. وكيف تأتي به إلى هنا؟
انقلب ارتياح (إسماعيل) إلى قلق بالغ، عندما لم ير ابنه بالداخل، ولكنه لاذ بالصمت، وحاول السيطرة على أعصابه، و (عبيد) يقول:
- إنه لص.. ضبطته يحوم حول المكان، فألقيت القبض عليه يا (نجيب).
صاح (نجيب) في غضب:
- لص؟!.. أأنت غبي أم مجنون يا (عبيد)؟.. هل نسيت أوامر (صالح) بك؟..

لا ينبغي أن يشعر مخلوق واحد بوجودنا هنا.
اختلج قلب (إسماعيل) بشدة، عند سماعه حديث (نجيب).. إذن فقد بلغ هدفه..
إنهم يحتفظون بابنه هنا..
وسرى انفعال قوي في جسده، و (عبيد) يقول:
- ولكنه مجرد لص.
صاح به (نجيب):
- ومن أدراك؟
جذب (عبيد) إبرة مسدسه، وقال في صرامة:
- لا تترك نفسك نهبة للقلق.. سنقتله، وندفنه في الحديقة.
قال (إسماعيل) في توتر:
- تقتلني؟!.. من أنتما بالضبط؟
رمقه (نجيب) بنظرة صارمة، وقال:
- كلا.. لابد من استشارة (صالح) بك. قالها والتقط سماعة الهاتف، وأدار رقم (الشاليه)، واستمع طويلا إلى الرنين المتصل، في الجانب الآخر، ثم قال في توتر:
- عجبا!.. لا أحد يجيب، على الرغم من أن (صالح) بك قد أكد أنه لن يغادر (الشاليه)، قبل صباح الغد.
قال (عبيد) في قلق:
- اتصل به مرة أخرى.
أجرى (نجيب) الاتصال مرة ثانية، وثالثة، ورابعة..
وفي كل مرة، كان الرنين يستمر، حتى ينتهي الاتصال..
وأخيرا، أعاد (نجيب) سماعة الهاتف إلى موضعها، واستل خنجره، قائلا:
- الأمر مثير للشك.
سأله (عبيد):

- وماذا سنفعل الآن؟
قال (نجيب) في وحشية:
- أول ما سنفعله هو أن نذبح الصبي.
اتسعت عينا (إسماعيل) في هلع، في حين قال (عبيد) في قلق:
ولكن الوقت لم يحن بعد.. أمامنا ست دقائق، قبل أن ينتهي الوقت المتفق عليه.
قال (نجيب) في إصرار:
- سأذبحه على أية حال.
وهنا، لم يعد (إسماعيل) يحتمل..
وبكل الانفعالات المتفجرة في أعماقه، صرخ:
- لا.. لن تفعل.
ثم استدار بسرعة عجيبة، لم يعهدها هو في نفسه من قبل ولطم المسدس الذي يمسك به (عبيد)، ثم كال لهذا الأخير لكمة كالقنبلة، جعلته يرتطم بالجدار، ثم يرتد في عنف، في نفس اللحظة التي صرخ فيها (نجيب):
- كنت أعلم هذا.. إنك هنا من أجل الصبي.
نطقها وهو ينقض بخنجره على (إسماعيل)، الذي تفادى الطعنة، وهتف:
- لن تمس شعرة واحدة من رأس (محمد).
ثم ركل (نجيب) في معدته بقدمه اليمنى، ولكمه في أنفه بقبضته..
وسقط (نجيب) أرضا، في حين وثب (عبيد)، يتعلق بعنق (إسماعيل) من الخلف، وهو يصرخ:
- لن تخدعنا أبدا.
أمسك (إسماعيل) ذراعي (عبيد) بكفيه، وحاول إزاحتهما عن عنقه، ولكن (عبيد) تشبث به بكل قوته، وراحا يدوران حول

بعضهما البعض، وصرخ (نجيب) في ثورة:
- أتظن نفسك أقوى منا؟!
ثم قفز ليطعن (إسماعيل) في قلبه.. ودوت صرخة رهيبة.. صرخة تلقى صاحبها طعنة خنجر قاتلة..

☆ ☆ ☆

عندما وثب (نجيب) إلى الأمام، كان خنجره مصوبا إلى قلب (إسماعيل) مباشرة..
ولكن (إسماعيل) دار حول نفسه فجأة.. كان يقاتل ليتخلص من (عبيد)، المتعلق بعنقه..
وانغرس الخنجر.. انغرس حتى مقبضه في ظهر (عبيد).. في موضع القلب تماما..
وصرخ (عبيد) صرخة رهيبة، وجحظت عيناه في شدة، وتراخي ذراعاه من حول عنق (إسماعيل)، و..
وسقط جثة هامدة..
وقبل أن يسقط تماما، استعاد (نجيب) خنجره من قلبه، وحدق لحظة في وجه (إسماعيل)، ثم انطلق يعدو مغادرا الحجرة، وأغلق الباب خلفه..
وصرخ (إسماعيل) هذه المرة..
صرخ في لوعة، وهو يعلم أن (نجيب) في طريقه حتما لذبح ابنه (محمد)..
وبكل قوته، انقض (إسماعيل) على باب الحجرة.. انقض عليه مرة، وثانية، وثالثة.. وفي الرابعة، تحطم الرتاج..
وانطلق (إسماعيل) يبحث عن ابنه، وهو يصرخ:
- (محمد).. أين أنت؟!.. أين أنت يا ولدي؟!
أتاه صوت ابنه من بعيد، وهو يصرخ في رعب:
- النجدة يا أبي.. إنه سيقتلني.

قاده قلبه وقادته قدماه إلى مصدر الصوت، ووجد أمامه بابا مغلقا، ينبعث من خلفه صوت (نجيب)، وهو يصرخ:
- قف أيها الصبي اللعين.. قف.
و (محمد) يستنجد في رعب:
- النجدة يا أبي.. النجدة..
وشعر (إسماعيل) بطاقة هائلة، تتفجر في أعماقه.. طاقة لا حدود لها، جعلته يتراجع مترًا أو مترين، ثم ينطلق بكل قوته نحو الباب.. وانهار الرتاج من ضربة واحدة..
انهار تحت ثقل مشاعر أبوة طاغية، أبت أن تتخلى عن مبعثها، في أية لحظة، مهما كان الثمن..
واستدار (نجيب) يواجه (إسماعيل)..
وانقض عليه هذا الأخير كالليث..

وصرخ (محمد) في سعادة:
- أبي.. كنت أعلم أنك ستأتي.
ويكل عنف وشراسة، راح (إسماعيل) و (نجيب) يتقاتلان..
كان (نجيب) يقاتل بوحشية مخيفة، و (إسماعيل) يقاتل بعاطفة من أسمى عواطف البشر.. عاطفة أب يدافع عن ابنه

الوحيد..
ودفعهما القتال عبر ردهات المنزل، حتى بلغا بابه الخارجي، فدفع (نجيب) (إسماعيل) نحوه، وهو يصرخ:
- هل أتيت لإنقاذ ابنك؟!.. فليكن.. سأدفنكما في قبر واحد.
اصطدم (اسماعيل) بالباب، الذي انفتح في عنف، وألقاه خارجه، فسقط على ظهره، أمام عتبته تماما.. وانقض عليه (نجيب)..
انقض عليه كذئب مفترس، ورفع خنجره عاليا، وهو يصرخ:
- ستموت يا رجل.. ستموت ميتة الكلاب.
وهنا دوت رصاصة..
رصاصة اخترقت جبهة (نجيب)، فاتسعت عيناه في ذعر وذهول، ثم هوى جثة هامدة..
ومن بعيد، سمع (إسماعيل) (سعاد) تهتف:
- أستاذ (إسماعيل).. حمدًا لله.. لقد وصلنا في الوقت المناسب.
رآها تعدو نحوه، وخلفها عدد من رجال الشرطة، وما إن بلغته، حتى قالت في لهفة:
- إنها دورية من دوريات الشرطة.. لقد استوقفتهم، وأخبرتهم بكل شيء.. أين (محمد).. هل أنقذته؟
هتف (إسماعيل):
- (محمد).. ابني.
رأت (سعاد) (محمد) يعدو عبر المنزل، وهو يصرخ بفرحة عارمة:
- أبي.. أبي.
وعانق كل منهما الآخر بلهفة عجيبة..
بل بطوفان من المشاعر، لا مثيل له في الدنيا كلها..
وسالت دموع (إسماعيل)، وهو يغمر وجه ابنه بالقبلات، هاتفا:

- حمدا لله على سلامتك.. حمدا لله على سلامتك.
وبكى (محمد) في فرح.
وانهمرت دموع (سعاد) كالشلال..
وصمت رجال الشرطة للموقف، حتى لم يعد يسمع، في المكان كله سوى صوت البكاء والدموع..
دموع الفرح..

☆ ☆ ☆

الختام..

- الأستاذ (إسماعيل) يفعل كل هذا؟!
هتف أحد الموظفين بهذه العبارة، في دهشة بالغة، و (سعاد) تروي لهم ما حدث في حماس، فصاحت به (سعاد) في لهجة أقرب إلى الزهو:
- وأكثر من هذا.. إنكم لم تروه وهو يضرب المجرمين، ويقاتل كالأسد.. إنه رائع، وعظيم.
ابتسمت إحدى الموظفات في خبث، وهي تقول:
- وأرمل.
رمقتها (سعاد) بنظرة غاضبة، ثم تابعت متجاهلة إياها:
- أتعلمون؟ أنا مصرة على الاحتفاظ بزجاج سيارتي، بثقب الرصاصة التي اخترقته.. إنه بالنسبة لي أشبه بوسام الشجاعة.
سألها أحد الموظفين في لهفة:
- ولكن أين ذهب الأستاذ (إسماعيل)، بعد محضر الشرطة؟..
هل عاد إلى منزله لينام؟
هتفت مستنكرة:
- ينام؟!
ثم أضافت في فخر:
- لقد ذهب ليسحب الميلون جنيه من البنك، ويسلمها كتأمين لعملية مساكن (مدينة نصر)، في الموعد المحدود تماما.
تألقت نظرات الإعجاب في عيون الجميع، وهتف أحدهم:
- يا له من رجل!
فأجاءهم صوت (إسماعيل) الهادي الرقيق، المفعم بالحنان والطيبة، وهو يقول:

- صباح الخير.
التفت إليه الجميع في لهفة، وأدهشهم أن يروه باسما هادئا حنونا كعادته، وإلى جواره ابنه (محمد)، يلتصق به في فخر، و (إسماعيل) يضمه إليه في سعادة..
واندفع الجميع إليه، والتفوا حوله، وراحوا يصافحونه ويهنئونه، دون أن يخفوا دهشتهم لما فعله..
والواقع أن (سعاد) كانت أكثرهم دهشة..
كانت تتوقع تغيرا ضخما في شخصية (إسماعيل)، بعد كل ما واجهه وعاناه ليلة أمس..
ولكنه أبدا لم يتغير..
لقد عاد كما كان، هادي النفس، سليم الطوية، حلو المعشر، باسم الثغر..
بل كان أكثر حلما وطيبة وحنانًا..
وفي دهشة، سألته إحدى الموظفات:
- ولكن كيف فعلت كل هذا بأولئك المجرمين يا أستاذ (إسماعيل).
بحث لحظة عن جواب مناسب، ثم ابتسم ابتسامته العذبة، وهو يقول:
- لقد أغضبوني، عندما اختطفوا (محمد).
هتفت بدهشة أكثر:
- أغضبوك؟
لم يبد لها الجواب كافيا شافيا، ولكنه لم يمنحها سواه، وقال:
- هيا.. دعونا لا نضع مزيدا من الوقت.. فليعد كل منكم إلى مكتبه.
عاد الجميع إلى مكاتبهم، وهم يتحدثون عن بطولته وعظمته، وخفضت (سعاد) عينيها، ولكنها سمعته يقول:

- أنسة (سعاد).. لحظة لو سمحت.
قالها وهو يبتسم ابتسامته البسيطة الحنون، ثم دفع ابنه أمامه إلى مكتبه، فلحقت به (سعاد)، وسألته في حياء:
- ماذا تطلب يا أستاذ (إسماعيل)؟
كان (محمد) يبتسم لها ابتسامة، لا تقل طيبة وعذوبة عن ابتسامة أبيه، عندما قال هذا الأخير:
- هل تعرفين لماذا اصطحبت (محمد) معي اليوم؟
قالت في حذر:
- لأنك تخشى أن يختطفه شخص آخر.
ضحك وقال:
- لا.. ليس هذا هو السبب
سألته:
- ما هو إذن؟
ابتسم لحظة في صمت، ثم أجاب:
- اعتدنا (محمد) وأنا، أن نتشاور، بشأن كل ما يتعلق بحياتنا وأن نتخذ القرار معا.. وهو هنا ليبلغك قرارنا.
تطلعت إلى (محمد) في دهشة، وغمغمت:
- قراركما؟!
أومأ (محمد) برأسه إيجابا، وقال على نحو مباشر:
- هل يمكنني أن أخاطبك بلقب (أمي)؟.. أعني من الآن فصاعدًا.
وثب قلبها بين ضلوعها، وهي تقول:
- ما الذي يعنيه هذا؟
اتسعت ابتسامة (إسماعيل)، وهو يقول ببساطة مدهشة:
- إنه عرض زواج.. هل توافقين؟
رقص قلبها طربا، وهي تهتف في سعادة واضحة:
- هل تسألني؟

ومن المؤكدّ أن تلك الليلة ستغير الكثير في حياة كل من شارك فيها.
إنها ستكون بالنسبة إليهم بداية جديدة..
بداية حياة سعيدة بلا أحزان..
وبلا غضب..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠..
١- الأب والابن..
٢- الفدية..
٣ - الخيط الرفيع
٤- رمال الصحراء
هـ- وتعقدت الأمور
الختام..

د. نبيل فاروق

فريق
متميزون
E-BOOK

FOCUS

العقرب

رواية

المجموعة الكاملة

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لسلسلة (العقرب)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة العقرب للراحل د. نبيل فاروق إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها، كما ننوه بأن د. نبيل فاروق كتب، عبر حسابه على موقع التدوينات القصيرة «تويتر»:

«أعلن أنا د. نبيل فاروق عن تنازلي التام ودون أي مقابل مادي عن الحقوق الأدبية والمادية عن تحويل جميع مؤلفاتي وكتاباتي المطروحة والمستقبلية للطباعة بطريقة برايل للمكفوفين لأي جهة يمكنها تقديمها لهم دون استهداف الربح المادي».

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

العقرب..

البداية كانت في نهاية الثمانينيات. وبداية التسعينات من القرن العشرين..

الفساد كان قد بدأ يضرب جذوره في المجتمع بعمق، والقانون كان يقف عاجزًا عن مواجهته في الكثير من الأحيان، ومن هنا، ابتكرت شخصية (العقرب)..

شخصية أسطورية. تحمل خلف قناع صاحبها بحثًا عن جواب لسؤال محيّر..

أيهما أكثر أهمية؟ القانون؟ أم العدالة؟

وكانت أول سلسلة تهاجم الفساد، من خلال رمز واحد. رمز (العقرب)..

وعندما جاءت فكرة جمعها في كتابين كبيرين وجدت أن أسلوب بداياتها يمكن تعديله، أو إعادة صياغته لغويًا. دون الإخلال بالمعنى والهدف والمضمون..

ولكنني استقريت، على أنه من الأفضل أن يتم تقديمها كما هي..

كما تمت كتابتها، منذ أكثر من عقدين من الزمن..

وهكذا ظهرت إلى الوجود..

فـ (العقرب) ليس مجرد سلسلة.. إنه تاريخ..

والتاريخ لا يصح تعديله، أو حتى تحسينه..

ولست أدري ما إذا كان قراري صائبًا أم لا..

احكموا أنتم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العقرب:

سيف العدالة

(الرواية الأولى - مجمعة)

عندما يعجز القانون البشري عن القصاص..

عندما تحيط العدالة عينيها بعصابة سميكة..

حينما يرتفع ذلك الحاجز بين العدالة والقانون..

عندئذ يهب هو للقتال، حاملا ذلك الاسم، الذي يثير الرجفة في قلوب أعتى المجرمين..

اسم (العقرب).

جزيرة القدر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

1-المجرم..

- خطأ ايها الرائد... خطأ..

صاح وزير الداخلية المصري بهذه العبارة وهو يضرب سطح مكتبه في قوة وغضب موجها حديثه الى شاب طويل القامة، نحيل، وسيم الطلعة، قصير الشعر، يقف امامه هادئًا حازم القسمات، صارم الملامح، تطل من عينيه العسليتين نظرة صلبة، تشف عن قوة شكيمته وشدة عناده واصراره، وهو يستمع الى وزير الداخلية الذي استطرد ثائرا:

- إنك ترتكب الاخطاء القانونية في سرعة تجعلك تفوق المجرمين أنفسهم.

قال الشاب في برود حازم:

- القانون يقف حائلا بيني وبين العدالة يا سيدي.

صاح وزير الداخلية:

- خطأ ايها الرائد.. من الضروري ان تنتزع تلك الفكرة الحمقاء من راسك، وتلقي بها جانبا، فالقانون هو العدالة، والعدالة في القانون.

قال الشاب في حدة واضحة:

- كيف يا سيدي؟ اننا نقضي عدة أشهر في جمع التحريات عن جريمة ما، وبعد ان يعمل رجالنا ليل نهار يتضح لنا ان شخصا ما خلف كل هذه الجرائم، وعلى الرغم من ذلك فنحن نعجز عن الايقاع به، والقاء القبض عليه؛ لأننا لم نضبطه متلبسا، أو لأنه يحوز حصانة قانونية، او حتى لأنه شديد الحرص والحذر، وعلى

الرغم من ثقتنا في انه قاتل او تاجر سموم فإننا نترك له مطلق الحرية، ونكتفي بمراقبته، ونحن ندعو الله سبحانه وتعالى ان يوقعه في ايدينا.. اية عدالة هذه؟

عقد وزير الداخلية حاجبية، وهو يقول في شدة:

- العدالة التي كفلها القانون ايها الرائد..

ثم لوح بكفه في حنق، وراح يقلب عدة اوراق في ملف ضخم امامه وهو يستطرد محنقا:

- ماذا افعل بك؟ ان ملفك يؤكد تفوقك في كلية الشرطة، ونجاحك بدرجة جيد جدا، وتقاريرك كلها تشير الى ذكائك ومهارتك، الا ان أيا منها لم يمنحك تقديرا ممتازا لسبب واحد..

عاد يضرب سطح مكتبه بقبضته مستطردًا:

- إنك لا تحترم الاجراءات القانونية..

غمغم الشاب في برود:

- ولكنني احترم الحق والعدالة.

بدا الغضب على وجه وزير الداخلية وهو يقول في حدة:

- يا للفلسفة السفسطائية!!

ثم اشار الى صدر الشاب الذي يرتدي حلة مدنية، وهتف:

- اسمع ايها الرائد.. انت تتمادى كثيرا وتتجاوز حدودك على نحو بالغ الخطورة.. اتعلم ما الذي فعلته الليلة؟ لقد هاجمت عضوا بارزا بمجلس الشعب، وهددته بالقتل امام شهود.

قاطعه الشاب في صرامة:

- انه واحد من أكبر تجار المخدرات في (مصر)، ولقد تسببت سمومه في قتل طفل في العاشرة.

صرخ وزير الداخلية:

- لا شان لك في هذا.

وعاد يلوح في وجه الشاب بسبابته في حنق، مستطردًا:

- اسمع ابها الرائد.. هذا اخر انذار لك.. ستتبع القوانين واللوائح بمنتهى الدقة، تماما كأي موظف حكومي محترم والا فسأعمل على فصلك من سلك الشرطة كله.. هل تفهمني؟

ران الصمت لحظة، أطلّت خلالها صرامة الدنيا كلها من عين الشاب، قبل ان يقول في برود:

- افهمك يا سيدي.

اعتدل وزير الداخلية، وهو يقول في حدة:

- حسنا انصرف.

ادى الشاب التحية العسكرية في هدوء شديد، ثم دار على عقبيه، وغادر مكتب وزير الداخلية في خطوات سريعة، ولم يكد يغلق بابه خلفه حتى سمع صوتا انثويا يقول في سخرية:

- كيف حال البطل الهمام؟ هل كان العرض المسرحي جيدا؟

التفت الى مصدر الصوت في هدوء، وتطلع لحظة الى صاحبته، ذات القوام المتناسق، والوجه الجميل، التي ترتدي زيا رسميا، يحمل رتبة رائد، وقد انسدل شعرها الاسود من أسفل القبعة الرسمية لرجال الشرطة، وبدت عيناها الخضراوان تحملان طنًا من السخرية، وقال في جدية:

- الا تكفين عن هذا العبث ابدا ايتها الرائد (غادة)؟

اجابته في سخرية، وهي تعقد حاجبيها على نحو مشابه له:

- وانت.. الا تبتسم أبدا ايها الرائد (نديم)؟

اتاها صوت ضاحك من خلفها، يقول:

- لقد ألقيت هذا السؤال على امه فأكدت لي انه قد ابتسم ذات مرة..

التفت الاثنان الى صاحب الصوت الذي لم يكن سوى اللواء (حلمي)، مدير المباحث الجنائية، التي ينتمي اليها الاثنان، وهو يستطرد في لهجة ابوية:

- كان ذلك وهو بعد في الثانية من عمره.

اعتدلت الرائد (غادة)، وأدّت التحية العسكرية في احترام، وان لم تستطع منع نفسها من

الابتسام، وهي تقول:

- اظنه خداع بصري اصاب عين الام يا سيدي.

اعتدل (نديم) بدوره، وادي التحية العسكرية لرئيسه، وهو يقول في صرامة:

- لست أستسيغ هذا اللون من الدعابات ايتها الرائد.

اجابته (غادة) في سرعة وسخرية:

- كما تامر يا سيادة الرائد العبوس.

ابتسم اللواء (حلمي)، وهو يسأل (نديم):

- قل لي يا ولدي: ماذا فعلت مع سيادة الوزير؟

هز (نديم) كتفيه وهو يقول في هدوء:

- نفس الحوار المتكرر يا سيدي.. لقد صرخ في وجهي، واتهمني بمخالفة القانون، ثم هددني بالفصل.

تنهد اللواء (حلمي وهز كتفيه في اسفه وهو يقول:

- اظنه سينفذ تهديده يوما يا ولدي، فعلى الرغم من اخلاصك الشديد لعملك، وكراهيته للجريمة بكل صورها، فان حماسك يدفعك دوما الى خرق اللوائح والقوانين، وهذا لا يتناسب مع عمل الشرطة.

سأله (نديم) في حزم:

- كيف يا سيدي؟ اليس عملنا هو ان نقيم العدالة؟

اجابه اللواء (حلمي):

- بالقانون يا ولدي.. بالقانون.

ابتسمت (غادة) في سخرية، وهي تقول:

- اطمئن يا سيدي.. انه لن يتغير ايدا، ثم انه لا يخشى الفصل، فوالده مليونير كما تعلم.

في صرامة التفت اليها (نديم) قائلا:

- لا شان لهذا بعملي ايتها الرائد..

رفعت كفها بمحاذاة وجهها، وفردت راحتها، قائلة بنفس السخرية:

- سمعا وطاعة يا مولاي.

بدا انه لم يقبل دعابتها، وهو يشيح بوجهه عنها مغمغما:

- يا لك من عابثة..

انعقد حاجباه فجأة في شدة، وهو يتطلع الى رجل ضخم الجثة، أشيب الفودين، يرتدي حلة تشف عن الثراء وفساد الذوق في الوقت ذاته، غادر مكتب الوزير على التو، واتجه نحوه، والتقت عيناه بعيني الرجل في صرامة، قبل ان يقول الرجل في غضب واضح وشماتة لا تقبل الشك:

- إذن فانت الرائد (نديم فوزي)، الذي يتجاوز حدوده دوما.

اجابه (نديم) في صرامة:

- نعم.. وانت الرجل الخطير (نعمان والي)، الذي يتستر خلف عضوية مجلس شريف ليرتكب اعمالا ابعد ما تكون من الشرف.

احتقن وجه (نعمان) في غضب، وهتف:

- إنك تتجاوز حدودك حقا يا رجل الشرطة.

اجابه (نديم) في برود:

- وانت تحتاج الى من يجدع انفك يا تاجر المخدرات.

ازداد احتقان وجه (نعمان)، وتألقت عينا (غادة)، وهي تتابع الموقف في حماس شديد، في حين هتف اللواء (حلمي) في توتر:

- (نديم).. انت تتجاوز حدودك حقا.

بدا وكان (نعمان) قد انتبه على التو الى وجود اللواء (حلمي)، وان هذا قد زوده بقوة اضافية، جعلته ينقض على (نديم)، ويجذبه من سترته في قوة هاتفا:

- اسمعت ايها الشرطي؟ إنك تتجاوز حدودك، و.

وفجأة، وقبل ان يتم نعمان عبارته ارتفعت قبضة (نديم) في سرعة، وهوت على فك الرجل كالقنبلة..

وتراجع جسد (نعمان) في عنف، وارتطم بحائط المعمار المقابل في قوة، ثم سقط ارضا واندفعت الدماء مع واحدة من اسنانه خارج فمه، في حين اتسعت عينا اللواء (حلمي) في ذهول واستنكار، وازداد تألق عيني (غادة)، وبقي (نديم) هادئًا باردا، وكأنما لم يفعل شيئا.

واندفع حارسا مكتب وزير الداخلية نحو (نديم)، وراح (نعمان) يحدق في وجهه في ذهول، قبل ان يصرخ:

- كيف تجرؤ.. كيف تجرؤ..

وهب واقفا، واندفع عائدا الى مكتب وزير الداخلية، وهو يحاول منع الدماء النازفة من فمه، على حين هتف اللواء (حلمي) في ذهول واستنكار:

- ماذا فعلت يا (نديم)؟

اجابه (نديم) في حزم:

- لقد كان يستحق هذا.

غمغمت (غادة)، وهي تبتسم في جدلا:

- صدقت.

التفت اليها اللواء (حلمي) في دهشة، ثم لم يلبث ان عقد حاجبيه، قال في صرامة:

- حسنا.. سبق السيف العزل.. هيا.. غادر هذا المكان، وعد الى منزلك، وسأرى انا ما سيفعله السيد الوزير بشأنك.

قال (نديم) في هدوء

- اسمح لي يا سيدي.. قد...

قاطعه اللواء (حلمي) هاتفا:

- قلت لك عد على منزلك.

ثم التفت الى (غادة)، مستطردًا في حدة:

- دعيه يذهب من هنا.

غمغمت (غادة) في سخرية، وهي تتجه الى حيث يقف (نديم):

- هل ألقي القبض عليه؟

صاح بها اللواء (حلمي) في حدة:

- كفى عبثا.. هيا.. اذهبا.

امسكت بيد (نديم)، وقالت في لهجة تهكمية:

- أتتبعني في هدوء؟ ام احيط معصميك بالأغلال؟

تطلع اليها (نديم) بنظرة باردة، ثم تبعها في هدوء الى الخارج، وأطلق اللواء (حلمي) من اعماق صدره زفرة قوية، قبل ان يغمغم:

- فليرحمنا الله.

غمغم أحد حارسي الوزير:

- كان ينبغي ان تستبقيه يا سيدي.

التفت اليه اللواء (حلمي)، قائلا في صرامة:

- لا شأن لك بهذا.

ثم عاد يزفر في قوة، مستطردًا:

- لم يعد لأينا شأن بهذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوقفت (غادة) سيارة (نديم) امام البناية التي يقيم فيها هذا الاخير، والتفتت اليه قائلة في سخرية:

- اخر محطة ايها الراكب الوحيد.

اجابها في صرامة:

- أأغادر السيارة؟ ام ان اوامرك لا تقتضي ذلك؟

هزت كتفيها، قائلة في استهتار:

- هذا امر يتعلق بك وحدك.

قال في حدة:

- حقا؟! ظننت انني لم اعد املك من امري شيئا، فانت صحبتني الى خارج مبنى الوزارة، وانت قدت سيارتي.

ابتسمت وهي تهز كتفيها، قائلة:

- لقد أمرني اللواء (حلمي) باصطحابك الى خارج الوزارة، ثم إنك تملك سيارة رائعة، تمنيت دوما قيادتها، ولا علاقة لهذا بالقوانين.

غادر السيارة وهو يقول:

- حسنا.. الى اللقاء..

سألته مبتسمة:

- الن تدعوني لتناول قدح من الشاي؟

توقف لحظة، ثم قال دون ان يلتفت اليها:

- انني اقيم وحدي.

هتفت ضاحكة

- يا لها من مصادفة انا ايضا اقيم وحدي..

صمت لحظة، ثم قال:

- حسنا.. قدح واحد من الشاي.

هتفت في جذل:

- اوافق.

صعد الاثنان الى شقته، وما ان دخلتها (غادة)، حتى القت جسدها فوق اول مقعد وثير، وهي تهتف:

- يا إلهي.. اروع ما في الدنيا هو الراحة.

سألها في هدوء، وهو يجلس على المقعد المقابل لها:

- الم يحذرك افراد اسرتك ابدا من الذهاب مع شاب عزب الى شقته؟

أومأت برأسها ايجابا، وهي تقول:

- لقد فعلوا، ولكنني اثق بك.

ثم اعتدلت مستطردة في جدية:

- ثم انني اريد التحدث معك.

سألها في هدوء:

- عن ماذا؟

صمتت لحظة، قبل ان تسأله في اهتمام:

- لماذا فعلت هذا

سألها في بساطة:

- ماذا فعلت؟

قالت في مزيد من الاهتمام:

- لماذا لكمت (نعمان)؟

تطلع اليها لحظة في صمت، قبل ان يقول في حزم:

- انني أكره المجرمين..

لم تنبس ببنت شفة، وهي تتطلع اليه، فأضاف:

- سترين انني مخطئ.. اليس كذلك؟

ظلت تتطلع اليه في صمته ثم ابتسمت هاتفة:

- بل انت رائع.

ثم اعتدلت مستطردة في جدية:

- انا ايضا أكره المجرمين..

وانعقد حاجباها في بغض، وهي تتابع:

- لقد قتلوا امي.

رفع حاجبيه في دهشة، وهم يقول شيء ما، عندما ارتفع رنين الهاتف المجاور له، فالتقط سماعته بحركة الية، ووضعها على اذنه، قائلا:

- هنا (نديم فوزي).. من المتحدث؟

اتاه صوت اللواء (حلمي)، وهو يقول في حزن:

- (نديم).. يا ولدي.. لقد صدر قرار وزير الداخلية بشأنك.

سأله في هدوء:

- هل سيخفض رتبتي؟

اجابه صوت اللواء الحزين

- كلا يا ولدي.. لقد انتزعها تماما.

عقد (نديم) حاجبيه مغمغما:

- ماذا تعني يا سيدي؟

اجابه اللواء (حلمي) في صوت يقطر حزنا:

- لقد فصلك يا ولدي.. إنك لم تعد تنتمي الينا.. لم تعد تنتمي الى جهاز الشرطة كله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- رجال الشر..

ارتفع حاجبا (غادة) في دهشة، وارتسمت ابتسامة اعجاب على شفتيها، عندما وقع بصرها على (نديم)، وهو يدلف الى مبنى مديرية امن القاهرة، بعد ثلاثة ايام فقط من الموقف السابق، فاندفعت نحوه هاتفة:

- (نديم).. مرحبا بك هنا.. لقد تصورت إنك.. إنك...

ارتج عليها، فعجزت عن اتمام عبارتها مما جعله يسألها في هدوء:

- تصورت انني ماذا؟

ضحكت قائلة:

- تصورت في الواقع إنك لن تطأ هذا المكان بقدميك مرة اخرى.

مط شفتيه، قائلا:

- لأنهم فصلونني؟؟ لا يا عزيزتي.. صدقيني.. هذا لا يؤلمني قط.

هتفت:

- هذا هو (نديم) الذي اعرفه.

ثم سألته في اهتمام بالغ:

- ولكن ما سر قدومك؟ لقد انتهت اجراءات فصلك تماما، ويقال انها أسرع اجراءات تمت هنا، في ظروف مماثلة.

اجابها في هدوء:

- جئت للحصول على ترخيص.

سألته في دهشة:

- ترخيص بماذا؟

صمت لحظة، ثم اجابها في هدوء:

- ترخيص بافتتاح مكتب تحرٍ خاص.

حدقت في وجهه لحظة في دهشة، ثم لم تلبث ان أطلقت ضحكة عالية، وهي تقول:

- تحرٍ خاص؟ اين تظن نفسك؟ في امريكا؟

اجابها في حزم:

- بل في (مصر)، ولست اول من يحصل على ترخيص كهذا، أتحبين ان اذكر لك اسماء بعض المكاتب؟

ضحكت قاتلة:

- لا داعي.. انني احفظها عن ظهر قلب.

ثم سألته مبتسمة:

- ولكن ما الذي تتوقع ان تفعله بمكتب تحرٍ خاص هنا؟

رفع راسه في شموخ، وهو يقول:

- ان اقيم العدالة.

تنهدت وهزت راسها مغمغمة:

- يا لك من رجل!

ثم عادت تبتسم، قائلة:

- ولكن هل تعلم من المسئول عن منح مثل هذه التصاريح؟

اجابها في هدوء

- العقيد (مجدي).

ضحكت قاتلة

- وهل تتوقع ان يمنحك اياه؟

صمت لحظة، ثم لم يلبث ان هز كتفيه، وهو يقول في بساطة:

- ولم لا؟

ثم اتجه في ثبات نحو مكتب العقيد (مجدي)، وتتبعته (غادة) بعينيها لحظات، ثم لم تلبث ان هزت راسها مرة اخرى، مغمغمة:

- يا لك من رجل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"مكتب تحر خاص؟! "

لفظ العقيد (مجدي) هذا التساؤل، في مزيج من الامتعاض والاستنكار والدهشة والسخرية، قبل ان ترتسم على شفتيه ابتسامة متهكمة عريضة، ويقول:

- ولم لا تطلب ترخيصا بإنشاء لواء مشاة؟

اجابه (نديم) في هدوء:

- ليس هذا من حقي يا سيدي، فألوية المشاة من اختصاص القوات المسلحة.

انعقد حاجبا العقيد (مجدي)، وهو يقول في حده:

- هل تسخر مني ايها الرائد؟

اجابه في برود:

- لم اعد احمل هذه الرتبة ايها العقيد.

احتقن وجه العقيد (مجدي)، وقال في حدة:

- مطلبك مرفوض يا (نديم).

عقد (نديم) حاجبيه، وهو يقول:

- لماذا؟ ان اوراقي كلها سليمة، فانا مصري، من ابوين مصريين وصحيفتي الجنائية نظيفة و.

قاطعة في شماتة:

- وعنيف الى حد يكفي لعدم منحك الترخيص.

انعقد حاجبا (نديم) أكثر، فاستطرد العقيد (مجدي) في سرعة:

- وهذا مسجل في اوراق رسمية، مع قرار فصلك من الشرطة.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة شامتة، وهو يردف:

- انه رفض قانوني تماما.

اجابه (نديم) في برود صارم:

- ولكنه ليس عادلا.

وازدادت ابتسامة العقيد (مجدي) اتساعا وسخرية وشماتة، وهو يقول:

- انه قانوني، وهذا يكفي.

حدجه (نديم) بنظرة باردة كالثلج، قاسية كالفولاذ، وهو يقول:

- هكذا؟

ثم نهض من مقعده، مستطردًا في صرامة مخيفة!

- اذن فانت ايضا تفصل ما بين القانون والعدالة.

ارتبك العقيد (مجدي، وشعر بتوتر عجيب في اعماقه، وهو يقول في حدة:

- هل تهددني؟

اجابه (نديم) في برود:

- وهل تحوي عبارتي كلمة تهديد؟

ثم استدار في هدوء، واتجه نحو باب المكتب، وقد ساد المكان صمت رهيب، قطعه العقيد (مجدي)، وهو يقول في عصبية:

- اسمع يا (نديم).

توقف (نديم)، والتفت اليه في هدوء، فأردف في عصبية زائدة:

- لقد اصدرت قرارا بسحب ترخيص السلاح الذي تحمله.

لم ينبس (نديم) ببنت شفة، وهو يتطلع اليه في برود، فأضاف العقيد في حدة:

- وهذا يعني أنك أصبحت ممنوعا من حمل السلاح.

وفي حركة سريعة اندفعت بيد (نديم) الى جيب سترته، وانتزع مسدسه، وصوبه الى العقيد (مجدي)، الذي شحب وجهه، وتراجع هاتفا:

- ماذا تفعل؟ هل.. هل جننت؟

مط (نديم) شفتيه في برود، ثم القى مسدسه فوق مكتب العقيد (مجدي)، فارتطم المسدس الثقيل بزجاج المكتب، وهشمه، فاحتقن وجه العقيد (مجدي)، وتطلع في مزيج من الذهول والاستنكار الى (نديم)، الذي فتح باب الحجرة في هدوء، وخطا الى الخارج، فصاح به غاضبا:

- سأعمل على ان تتحول الى سجين.. هل تسمعني؟ سأوقع بك عند اول فرصة.. حذار..

قاطعه (نديم) بإغلاق الباب في قوة وهو يغادر المكان في خطوات سريعة، واسرعت (غادة) تلحق به، قائلة:

- لقد رفض.. اليس كذلك؟

اجابها وهو يواصل سيره المسرع:

- بلى.

هتفت:

- وماذا ستفعل؟

توقف بغتة، حتى انها ارتطمت به في قوة وهو يقول:

- لن أعدم وسيلة.

وانعقد حاجباه في قوة، وهو يقول وكأنه يحدث نفسه:

- لقد استأجرت مكتبا انيقا في وسط المدينة، واثثته بأثاث فاخر، و.

قاطعته في سخرية

- ليس هذا مستبعد، بالنسبة لابن مليونير.

التفت اليها في حدة، وقال:

- قلت لك انني أبغض ذلك اللون من العبث.

هزت كتفيها، قائلة:

- لا باس.. ماذا ستفعل بهذا المكتب الانيق ذي الرياش الفاخر؟

عقد حاجبيه طويلا في صمت، ثم قال في جدية بالغة:

- ما رأيك في مكتب محاماة؟

ابتسمت قائلة:

ولكن هذا يتعارض مع مبادئك تماما.

سألها في دهشة:

- كيف؟

اجابته ضاحكة:

- المحامي يلتزم بالقانون تماما، وانت ترفض هذا.

مط شفتيه، وهو بقول:

- من قال انني ارفض القانون؟

قالت ضاحكة:

- قرار فصلك من جهاز الشرطة.

اجابها في برود

- دعاية سخيفة.

قالت ساخرة:

- لم لا تحاول الاتيان بمثلها؟

قال في حزم:

- لست متفرغا لهذه التفاهات.

ثم استطرد في قوة:

- انني اسعى الى العدل وحده.

تطلعت اليه لحظة في صمت، وبدت له عيناها الخضراوان وكأنهما حقل فسيح من العشب الرطب، قبل ان تغمغم:

- اظن مكتب المحاماة يناسبك.

وعندما تركها وانصرف، كان قلبها ينبض في قوة...

وفي حب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انعقد حاجبا (نعمان والي) في غضب ووحشية، وهو يقول من بين اسنانه:

- اذن فقد استأجر ذلك الرائد السابق مكتبا في أحد أرقى احياء وسط المدينة.. يا له من مغرور.

وضرب راحته اليسرى بقبضته اليمنى في سخط، وهو يستطرد:

- أيتصور ذلك الحقير انه سيجد مجالا للعمل وللربح، بعد ان لكم (نعمان والي)؟

أجابه أحد رجاله:

- لقد رفضوا منحه ترخيصا بفتح مكتب تحر خاص ايها الزعيم.

هتف (نعمان) مستنكرا:

- مكتب تحر خاص؟! هل اصابه الجنون؟

اجابه الرجل:

- يبدو ان رفضهم قد دفعه الى تغيير خططه، فلقد وضع على باب مكتبه اليوم لافتة محاماة.

هتف (نعمان):

- محاماة؟!

ثم أطلق ضحكة عالية، قبل ان يستطرد:

- يا له من سخيف.

ووضع يده على كتف الرجل، مستطردًا في شراسة:

- اسمع يا (سيد).. خذ معك خمسة رجال، واذهبوا الى مكتب ذلك المغرور.. اريد منكم ان تحولوا المكتب الى اطلال.. هل تفهم؟

تألقت عينا (سيد) بجذل وحشي، وهو يقول:

- وماذا لو وجدنا ذلك الرائد السابق هناك؟

ابتسم (نعمان) ابتسامة جعلته اشبه بوحش مفترس، وهو يقول:

- ستكون فرصة طيبة لضرب عصفورين بحجر واحد، ولإضافة كومة من اللحم المفرى الى جوار الاطلال..

ثم انعقد حاجباه في شدة، وهو يستطرد في انفعال:

- لن يبقى على قيد الحياة من اهان (نعمان والي).. لن يبقى ابدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس (نديم فوزي) على مقعده الوثير، خلف ذلك المكتب الانيق، في منتصف حجرته الخاصة، يراجع بعض الاوراق، التي يحتاج اليها لبدء نشاطه في مهنة المحاماة، واستغرقه ذلك العمل في شدة، حتى تجاوزت عقارب الساعة الحادية عشرة

مساء، وساد هدوء شديد في تلك البناية، التي اختار فيها مكتبه، بعد ان انصرف موظفو كل المكاتب المحيطة به، وسكن الباقون في شققهم.

وفجأة تناهى الى مسامع (نديم) وقع اقدام ثقيلة تقتحم مكتبه، فرفع عينيه في دهشة، وعقد حاجبيه مغمغما:

- ما كل هذا الضجيج الامر يبدو كما لو ان قطيعا من الافيال يلج المكان.

غادر موقعه، واتجه نحو باب حجرته الخاصة، وهو يسمع وقع الاقدام الثقيلة يزداد قربا...

وفجأة اقتحم الحجرة خمسة عمالقة، دفع أحدهم (نديم) امامه في عنف، فهتف هذا الاخير في مزيج من الدهشة والاستنكار والغضب:

- ما هذا؟ من أنتم؟

دلف الى الحجرة رجل سادس ابتسم في سخرية، وهو يقول في شماتة:

- لا عليك ايها الرائد السابق.. لن تلبث ان تجد جواب اسئلتك كلها في الجنة.

عقد (نديم) حاجبيه وهو يقول في توتر:

- اين؟

رفع الرجل قبضته، التي التف حولها إطار حديدي ذو نتوءات بارزة، وكرر في سخرية صارمة:

- في الجنة.. حيث يذهب كل الاغبياء امثالك..

ولم يكن هناك احتمال واحد لسوء الفهم..

ولم تكن هناك ذرة شك فيما سيتعرض له (نديم)..

وبسرعة لم تسبقها ذرة واحدة من التفكير، قفزت قبضته اليمنى تحطم فلك الرجل الممسك به..

وصرخ (سيد):

- اهجموا يا رجال.. اريد ان يستغرق تمييز بقايا هذا المغرور من بين اطلال مكتبه دهرا.

وانقض الرجال على (نديم)..

وبكل ما يملك من قوة، لكم (نديم) أحد الرجال في معدته، وحطم اسنان الثاني، ولكنه تلقى لكمة فولاذية في صدقه، ألقته أرضا، وقبل ان ينهض، كانت هناك قدم تغوص في معدته واخرى تحطم احدى اضلاعه..

وعلى الرغم من ذلك، فقد نهض، واصاب رجلا بلكمة في عنقه..

ثم انهالت عليه الركلات واللكمات في عنف لم ير له مثيلا ابدا..

كانت كل لكمة وكأنها تنتزع معدته من جسده، وتحيل فكه الى فتات..

واخيرا سقط (نديم) متهالكا، وشعر بمذاق الدم في فمه، ومن بين جفنيه المتورمين، رأى (سيد) يتجه اليه، ثم يبرز مدية ذات نصل حاد، وهو يبتسم في شراسة، قائلا:

- لا تتألم ايها الرائد السابق.. سأنهي كل آلامك بطعنة طريفة في سويداء قلبك..

ورفع (سيد) مديته..

وأيقن (نديم) من ان ضعفه يمنعه من المقاومة..
وأنها النهاية...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- المولد..

انعكس بريق مصابيح المكتب على نصل المدية الحادة والتمع في عيني (نديم) وهو يرى الموت على قيد خطوة واحدة منه، ينقض عليه في وحشية وشراسة و.

وفجأة ارتفع صوت هادئ يقول:

- هل قطعت لهوكم؟

ميز هو ذلك الصوت الانثوي على الفور، وان منعه تهالكه من رفع عينيه الى مصدره، في حين التفت المجرمون الستة نحو (غادة)، التي وقفت بباب الحجرة، ومسدسها مصوب إليهم:

وغمغم (سيد) في توتر:

- ماذا تريدين؟

اجابته ساخرة:

- عجبا!! يا له من سؤال؟ من منا ينبغي ان يجيب عنه؟

قال في حدة:

- ابتعدي.. هذا امر يخصنا معه.

قالت في برودة

- ويخصني ايضا فانا أنتمي الى جهاز الشرطة.

هتف أحد الرجال الستة في عصبية:

- هراء.. انها كاذبة.

لوحت بمسدسها، قائلة في سخرية:

- الم تر بطاقتي يا رجل؟

اشار (سيد) الى أحد الرجال إشارة خفية، وهو يقول لها:

- حتى ولو كنت من جهاز الشرطة، فلا شان لك بما يحدث هنا.

ثم استطرد مبتسما في دهاء:

- ولكل شيء ثمنه.

رفعت حاجبيها، وقالت ساخرة:

- حقا؟!

ثم هزت كتفيها مستطردة:

- لن اعترض على هذا، سأحصل على الثمن.

وجذبت ابرة مسدسها، مردفة في صرامة:

- حياتك.

وفجأة صرخ (سيد):

- اهجموا...

وانقض الرجال الستة دفعة واحدة على (غادة).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تتردد (غادة) لحظة واحدة في إطلاق النار على أقرب المهاجمين اليها، واستدارت الى التالي في سرعة، ولكن قدم الثالث ركلت مسدسها في قوة، وانقض عليها الرجال الخمسة يكبلون حركتها في عنف وقسوة، و (سيد) يقول في شماتة:

- لقد حذرتك، والان من سينقذك من بين ايدينا؟

ارتفع صوت حازم صارم قوي، يقول:

- انا.

تجمد الجميع لحظة، واتسعت عينا (غادة) بين ايديهم في دهشة، خالطها الكثير من الاعجاب والتقدير، عندما رات (نديم) واقفا، مستندا الى مكتبه في صعوبة، وفي قبضته مسدس ضخم وعيناه تحملان صلابة الدنيا كلها، وهو يقول:

- انا سأقتلكم بلا رحمة، لو مسستم شعرة واحدة منها.

التفت اليه (سيد)، وحاول ان يخفي توتره وعصبيته بابتسامة، وهو يقول في بطء:

- وهل ستقتلنا كلنا؟

اجابه (نديم) في صرامة

- ربما ليس كلكم، ولكن واحدا او اثنين منكم على الاقل.. هل تحب ان تنال هذا الشرف؟

شحب وجه (سيد)، وهتف في حدة:

- لن تجرؤ.

جذب (نديم) ابرة المسدس، وهو يقول في حزم:

- حاول.

كانت عيناه تحملان قدرا هائلا من الصلابة والعتاد، جعل (سيد) يتجمد في مكانه، ويفقد السيطرة على تفكيره، لولا ان هتف أحد رجاله في غضب، وهو يجذب (غادة) من شعرها، ويضع نصل خنجره على رقبتها:

- أطلق رصاصة واحدة، وسأحيل صديقتك الى جزأين.. راس وجسد.

انعقد حاجبا (نديم) في شدة، وارتسمت ابتسامة متشفية على وجه (سيد)، وهو يقول:

- الان تعادل الموقف.

هتفت (غادة):

- محال.

ثم دفعت برأسها الى الخلف في قوه، وضربت معدة الرجل الممسك بشعرها، ورفعت قدمها في الوقت ذاته، فركلت خنجره، وهي تستطرد في حزم:

- أطلق النار يا (نديم).. أطلق النار.

ولكن (نديم) لم يطلق النار، بل هتف محنقا:

- اللعنة..

والقى المسدس في وجه (سيد)، ثم قفز نحو هذا الاخير، وكال له لكمة اودعها كل قوته..

ولكن (سيد) تفادي لكمة (نديم) المتهالك، وحوي على معدته بلكمة كالقنبلة، وهو يقول:

- خطا ايها الرائد.. لا تقاتل قبل ان تتعافى من قتال سابق.

وأدرك (نديم) صحة هذه الحكمة، واللكمات تنهال عليه كالمطر، ورأى (غادة) تتلقى لكمة في مؤخرة راسها، فتسقط فاقدة الوعي، فهتف في ثورة:

- ايها الاوغاد.

منحته ثورته قوة اضافية، فحطم أسنان أقرب المهاجمين اليه بلكمة قوية، ودفع الثاني في عنفه واندفع نحو (غادة)، هاتفا:

- لا.. لا تلمسوا شعرة واحدة من....

انقطعت عبارته، وانطلقت من اعماق صدره شهقة قوية، عندما قفز (سيد) نحوه وغرس نصل مديته في معدته...

وجحظت عينا (نديم) من فرط الالم، وتراجع هاتفا:

- ايها الحقير.

ثم سقط على ظهره، والدماء تنزف من موضع المدية في غزارة، وهتف (سيد) في وحشية:

- سأذبحه كالنعاج.. سأذبحه.

ولكن يد نديم أدركت مسدسه، الذي القاه من قبل في وجه (سيد)، فامسك مقبضه واداره نحو هذا الاخير، قائلا في حدة:

- حاول ايها الوغد.. حاول، وستخترق رصاصتي راسك.

قبل ان يقدم (سيد) على خطوة واحدة، ارتفع صوت بوق سيارات، الشرطة المميز، فانعقد حاجيا هذا الاخير، وقال في حنق:

- فيما بعد.. سنلتقي مرة اخرى فيما بعد.

واشار الى رجاله، وهو يستطرد في سخط:

- وعندما نفترق حينذاك، سيكون أحدنا جثة هامدة.

أسرع رجاله يحملون زميلهم، الذي اصابته رصاصة (غادة): وانطلقوا يغادرون المكان في سرعة، دون ان بطلق (نديم) خلقهم

رصاصة واحدة، وصوت ابواق سيارة الشرطة يزداد قربا، وتطلع هو الى (غادة)، الفاقدة الوعي، ثم الى مسدسه، وغمغم:

- اللعنة.

وسقط فاقد الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يدر (نديم) كم بقي فاقد الوعي، ولكنه عندما استعاد وعيه حدث ذلك بغتة، كحجرة مظلمة اضيئت فيها الانوار على حين غرة..

فجأة، وجد نفسه يشعر بكل ما حوله، ففتح عينيه، لتواجهه اضواء خافتة، عجز- على الرغم من خفوتها - من التطلع اليها لحظات، وان ميز وجها انثويا ينحني نحوه، فغمغم:

- (غادة).. اهو انت؟

اتاه صوتها، وهي تقول في حنان:

- نعم.. هو انا.. استرح.. حمدا لله على سلامتك.

فتح عينيه ليتطلع الى وجهها لحظة، قبل ان يسألها:

- ماذا حدث؟ اين نحن؟

اجابته في خفوت

- اطمئن.. لقد نجونا.. الرصاصة التي أطلقتها انا جعلت بعض ساكني البناية يستدعون رجال الشرطة، الذين وصلوا في الوقت المناسب، ولقد اصابك أحد هؤلاء الاوغاد بطعنة نافذة في

معدتك، استدعت ان تظل في حجرة العمليات لساعتين كاملتين، ولكنك الان بخير والحمد لله..

ثم تحسست شعره، مستطردة:

- ولقد كنت شجاعا رائعا، ولقد نقلك رجال الشرطة الى المستشفى هنا بأقصى سرعة.

سألها في اهتمام

- وهل القوا القبض عليهم؟

هزت راسها نفيا، قبل ان تقول في اسف:

- لقد نجحوا جميعا في الفرار.

هتف محنقا:

- انهم رجال (نعمان والي).. اعلم ذلك.

اتاه صوت من الناحية الاخرى لفراشه، يقول في صرامة:

- الديك دليل على قولك هذا؟

التفت الى مصدر الصوت، وعقد حاجبيه في ضيق، وهو يقول:

- لا يا سيادة العقيد (مجدي).. ليس لدي دليل على هذا.

اجابه العقيد (مجدي) في صرامة:

- لا تتهمهم اذن.

تطلع اليه (نديم) في برود، فاستطرد العقيد (مجدي):

- لقد كان سيادة اللواء (حلمي) هنا، ولقد توقع ان تتهم رجال (نعمان)، وأنك لن تملك دليل على هذا.

قال (نديم) في برود:

- ولكن القانون يمنحني كمواطن حق اتهامهم، ومهمتكم أنتم يا رجال الشرطة ان تجدوا الدليل.

ابتسم (مجدي) في سخرية، وهو يقول:

- القانون؟! هل اصبحت تؤمن الان بسيادة القانون؟

ران الصمت لحظة، قبل ان يقول (نديم):

- بل، بسيادة العدالة..

لوح (مجدي) بكفه، قائلا في صرامة:

-لا فارق.

اجابته(غادة)في حزم:

- بل هو فارق رهيب.

التفت اليها في حدة، ثم لوح بكفه مرة اخرى، قائلا:

- لا باس. لم اعد املك سلطانا عليك..

تم سأل (نديم) في صرامة:

- اسمع يا (نديم).. هل لك ان تحتمل اتهاما؟

رفع (نديم) حاجبيه في دهشة، وقال في غضب:

- احتمل اتهاما؟؟ كنت أظنني المجني عليه لا المتهم.

ابتسم (مجدي) في شماتة، وهو يقول

- ولكنك كنت تمسك مسدسا، عندما عثر عليك رجال الشرطة، ولقد حدرتك من هذا.

تطلع اليه (نديم) لحظة في صمت، ثم قال:

- هل فحص رجال المعمل الجنائي المسدس؟

اجابه (مجدي) في صرامة:

-لا فارق... محظور عليك حمل كل الاسلحة النارية.

قال (نديم) في برود

- ولكن هذا المسدس ليس سلاحا ناريا.

عقد (مجدي) حاجبيه، وهو يقول:

- هل تعلمت المزاح؟

اجابه (نديم) بنفس البرود؛

- مطلقا، ولكنني كنت احمل مسدسا صوتيا، وليس حقيقيا..

أطلقت (غادة) ضحكة ساخرة طويلة، احتقن لها وجه (مجدي) في شدة، قبل ان يقول في غضب:

- لا باس.. سنلتقي مرة اخرى.

واندفع خارج الحجرة، واغلق الباب خلفه في قوة...

وابتسمت (غادة)، وهي تلتفت الى (نديم)، قائلة:

- لقد افحمته..

مط شفتيه، قائلا:

- انه يفكر بمنطق معكوس.. لقد ترك المجرمين الفعليين، واخذ يبحث عن سبب حملي مسدسا..

صمتت لحظة، ثم قالت:

- هل تعلم انني بدأت اؤيدك في هذا الشأن؟

فسألها في هدوء:

- اي شان؟

قالت:

- في وجود فارق هائل، بين العدالة والقانون.

سألها في اهتمام:

- والى اي جانب تميلين؟

ابتسمت قائلة:

- الى جانب العدالة بالطبع.

سألها بغتة:

- أخبريني يا (غادة).. كيف تصادف ان وصلت الى مكتبي، في هذا اليوم بالذات؟ ولماذا قال (مجدي) انه لم يعد لديه سلطان عليك؟

اجابته مبتسمة:

- سأجيب على السؤال الثاني قبل الاول، (مجدي) لم يعد لديه سلطان علي؛ لأنني استقلت من الشرطة..

رفع حاجبيه، وهو يهتف في دهشة:

- استقلتِ؟!

اجابته بنفس الابتسامة:

- نعم.. تصورت أنك قد تحتاج الى شريكة في عملك الجديد، و.

تضرج وجهها بحمرة خجل خفيفة، قبل ان تستطرد:

- ولقد اتيت الى مكتبك لهذا السبب، ولأنه كان عيد ميلادك.

هتف في مزيد من الدهشة:

- عيد ميلادي انا؟

أومأت برأسها ايجابا، ثم اخرجت من جيبها حافظة مفاتيح ذهبية تنتهي بتمثال دقيق لعقرب من الذهب، وهي تتابع:

- ولقد اتيت لأقدم لك هذه الهدية، فانت من مواليد برج العقرب.. اليس كذلك؟

مد يده يتناول الحافظة منها، وتطلع الى العقرب الذهبي طويلا، قبل ان يرفع عينيه اليها، قائلا في حزم:

- نعم يا (غادة).. انا من مواليد برج العقرب.

وتألقت عيناه ببريق عجيب، وهو يستطرد:

- وسأحتاج في المرحلة القادمة لشريك بالطبع، وانتِ اروع من ان ارفض مطلبك في هذا الشأن.

ثم عاد يرفع العقرب الذهبي الى عينيه، مستطردًا:

- وسيكون هذا شعار المرحلة القادمة.

والتمعت عيناه في شدة، مردفا:

- العقرب...

وفي تلك اللحظة، أعلن القدر مولد محارب جديد من محاربي الجريمة.

مولد من سترتجف له قلوب أعتى المجرمين، ويرتفع له سيف العدالة عاليا..

مولد (العقرب)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جزيرة القدر
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

4- الحفل..

تألق ذلك القصر الفاخر المنيف المطل على نيل القاهرة الساحر، بأضواء مبهرة في تلك الامسية من امسيات اغسطس الدافئة، وخيل لجيرانه ومشاهده ان القصر القديم، الذي يعود الى عهد أحد أمراء الأسرة العلوية، قد استعاد مجده ومباهجه، بعد ان ابتاعه منذ أشهر قليلة المليونير المعروف (نعمان والي)، بمبلغ تبلغ الاصفار المتراصة على يمينه ستة اصفار بالتمام والكمال..

وكانوا على حق..

لقد كان (نعمان) يقيم في قصره الجديد حفلا ضخما، تكلف مبلغا باهظا بكل المقاييس، واحتشدت فيه نخبة من صفوة رجال المجتمع، والفن، والسياسة، وانهمك (نعمان) في الاحتفاء بالجميع، وابراز اهتمامه بكل من الحاضرين، وتقديم مختلف صنوف الطعام والشراب لهم، في بذخ شديد، بهر ضيوفه تماما، فاقتصرت كل أحاديثهم تقريبا عنه؛ مما جعل

اوداجه تنتفخ، ودفع رجله الاول (سيد)، الى ان يهمس في اذنه:

- لقد اسلت لعابهم حقا ايها الزعيم..

حافظ (نعمان) على ابتسامته امام الحاضرين، وهو يهمس في صرامة:

- لا تستخدم لفظ (الزعيم) هذا ابدا والا قطعت لسانك يا (سيد).. انني هنا (نعمان) بك فقط.

ابتسم (سيد) قائلا

- بل انت (نعمان) باشا ايها الزعيم..

ادار (نعمان) عينيه اليه في صرامة غاضبة، فاستطرد في سرعة،

- اقصد يا سعادة البك.

كان من الواضح ان (نعمان والي) سيسب الرجل، او ينفجر في وجهه، لولا ان أتى أحد الحاضرين في تلك اللحظة، وسأل (نعمان)، والانبهار مازال يملا جوانحه:

- قل لي يا (نعمان بك).. هل ستعمد الى ترشيح نفسك في الدورة القادمة؟

اجابه (نعمان)، وهو يرسم على وجهه ابتسامة مناسبة:

- بالطبع.

هتف الرجل:

- ستريح حتما..

رفع (نعمان) أحد حاجبيه، وهو يقول:

- لابد. والا فلن ادفع باقي المبلغ.

ازدرد الرجل لعابه مرة اخرى، وغمغم مضطربا:

- بلا شك يا (نعمان) بك.. بلا شك.

استدار (نعمان) الى خزانته، وعالج ارقامها السرية في سرعة، تم فتحها، وتناول منها خمس رزم اوراق نقدية، وهو يقول:

- سأعطيك خمسة الاف جنيه تحت الحساب، و.

بتر عبارته بغتة، عندما سقطت بطاقة صغيرة من بين الرزم المالية، واستقرت فوق سطح المكتب، وانعكست الاضواء على

رسم لعقرب ذهبي يتوسطها، فحدق فيها (نعمان) في دهشة واستنكار، قبل ان يلقي رزم اوراق النقد جانبا، ويهتف محنقًا، وهو يلتقط البطاقة:

- ما هذه بحق السماء؟

ازداد اضطراب الرجل، وهو يغمغم:

- ما هذه يا (نعمان) بك؟

رفع (نعمان) عينيه اليه في حدة، ثم التقط رزم الاوراق النقدية والقاها في وجهه، هاتفا:

- لا شان لك بهذه.. خذ نقودك، وانصرف من هنا..

انحنى الرجل يلملم النقود في سرعة، ثم أسرع يغادر الحجرة وهو يهتف متلعثما مرتبكا:

- كما تامر يا (نعمان) بك.. كما تامر..

لم يكد الرجل يغادر الحجرة، حتى هتف (نعمان) في غضب:

- (سيد).

أسرع اليه (سيد)، هاتفا:

- بم تامر ايها الزعيم؟

صرخ (نعمان) ثائرا:

- قلت لك الا تستخدم هذا المصطلح ابدا..

ثم رفع البطاقة امام وجهه، مستطردًا في غضب:

- ما هذه؟

تطلع (سيد) الى البطاقة في حيرة، وهو يغمغم:

- ما هي ايها الز... أعني يا سيدي؟

صاح (نعمان) في وجهه:

- انا اسأل ايها الغبي.

عاد (سيد) يتطلع الى البطاقة في اهتمام مبالغ فيه، ويعقد حاجبيه على نحو مثير للسخرية، وهو يقول:

- انها بطاقة بيضاء لامعة يا سيدي.. تحمل رسما لعقرب ذهبي اللون في منتصفها، و.

قاطعه (نعمان) في ثورة:

- وهل طالبتك بوصفها ايها الغبي؟؟ لقد وجدت هذه البطاقة في خزانتي، فكيف وصلت اليها؟

حدق (سيد) في وجهه في ذهول، مرددا:

- في خزانتك؟

ثم استطرد حائرا:

- ولكن خزانتك من نوع خاص يا سيدي، وذات طراز فريد، فهي مصنوعة من صلب مدرع، يستحيل اختراقه بالوسائل التقليدية، ومزودة بجهاز انذار بالغ التعقيد، ورقم سري مركب معقد.. لا يعلمه سواك، فكيف تصلها هذه البطاقة، دون ان تعلم عنها شيئا؟

لوح (نعمان) بذراعيه في قوة، وهو يهتف:

- لست أدري كيف، ولكنها وصلت بالفعل، وهذا يعني ان أحدهم قد اخترق حاجز سرية خزانتي الخاصة.

هتف (سيد):

- مستحيل يا سيدي مستحيل..

قال (نعمان) في حدة:

- ولكن البطاقة هنا..

امسك (سيد) البطاقة مرة اخرى، وتطلع في رهبة الى العقرب الذهبي الذي يتوسطها، ثم غمغم:

- وما الذي تعنيه تلك البطاقة؟

هتف (نعمان):

- فلتعن ما تعنيه.. هذا لا يهمني.. المهم ان اعلم كيف بلغت خزانتي الخاصة!

اتاه صوت من خلفه، يقول في صرامة:

- انا وضعتها.

استدار (نعمان) في سرعة الي مصدر الصوت. ثم تراجع في حركة حادة عنيفة كالمصعوق، وقفزت يد (سيد) الى جيب سترته، حيث يخفي مسدسه، لولا ان ارتفع نفس الصوت الصارم يقول في لهجة قاسية:

- حذار يا رجل.. ستخترق رصاصة مسدسي راسك، قبل ان تلمس مقبض مسدسك.

ابعد (سيد) يده عن سترته في بطء، وهو يتطلع في دهشة بالغة الى ذلك الشاب المتشح بالسواد، الذي يرتدي سروالا وقميصا مغلق العنق، من اللون الاسود القاتم، وقفازين من اللون نفسه، وقد اخفى وجهه ومن منتصف جبهته، حتى انفه بقناع اسود كبير، انسدلت فوقه خصلة من شعره الاسود الفاحم، وفي يد الشاب، كان هناك مسدس ضخم مصوب الى الرجلين..

وهتف (نعمان والي) في عصبية:

- من انت؟ واي زي سخيف هذا الذي ترتديه؟

اجابه الشاب في برود:

- بطاقتي تحمل اسمي ايها الوغد..

غمغم (نعمان):

- اي اسم؟

بدا صوت الشاب قاسيا كالفولاذ. وهو يقول:

- العقرب يا رجل.. اسمي العقرب.

ران الصمت على الحجرة للحظات، و (نعمان) و (سيد) يحدقان في وجه (العقرب) ذي القناع، قبل ان يهتف (نعمان) في عصبية:

- يبدو أنك وصلت الى هنا من باب الخطأ، فالزي الذي ترتديه يوحي بانك كنت في طريقك الى ستوديو سينما، لا الى هنا.

اجابه (العقرب) في برودة قاسية كثلوج القطبين:

- بل الى السيرك، ولقد بلغته حتما، فها هو ذا المهرج امامي، الى جوار دب غبي.

عقد (نعمان) حاجبيه، وهو يقول في حدة:

- ماذا تقصد؟

اجابه (العقرب في هدوء:

- ايهما تفضل؟ المهرج ام الدب؟

احتقن وجه (نعمان (لحظات، قبل ان يقول في حدة:

- اسمع يا رجل، لو أنك لص فانا...

قاطعه (العقرب):

- اطمئن.. لست لصًا.

هتف (نعمان) في عصبية:

- لِمَ هذا الزي اذن؟ وماذا تريد؟

ارتجف جسد (نعمان) في رعب، مع ذلك الصوت المخيف، الذي خرج من بين شفتي

الشاب المقنع ومغمغما بالبغض والكراهية، وهو يقول:

- انت يا (نعمان).. اريدك انت.

بدا التوتر على وجه (سيد)، في حين تراجع (نعمان)، هاتفا في رعب:

- هل.. هل ستقتلني؟؟

اجابه الشاب المقنع في صرامة مخيفة:

- لا.. لن اقتلك ايها الوغد.

هتف (نعمان):

- ماذا تريد مني اذن؟

اجابه بصوت كالفولاذ:

- ان ادمرك.

ردد (نعمان) في ذهول:

- تدمرني؟

اجابه (العقرب) في كراهية:

- نعم يا (نعمان).. ان مبتغاي هو تدميرك، فانت تمثل كل الشر الذي أكرهه في الدنيا..

انت القوة الغاشمة، التي تتخذ من ثغرات القانون البشري فجوة للنفاذ الى عالم لا خير فيه ولا رحمة؛ لتعيث في الارض فسادا بلا حدود.. انت رمز كل قذارات البشر يا (نعمان والي).

صمت المقنع لحظة قصيرة، ثم اضاف في صرامة، تجمدت لها الدماء في عروق (نعمان):

- ولهذا سأدمرك.

قال (نعمان) في توتر:

- ربما انت مخطئ في تصورك هذا عني، فانا رجل شريف، و.

قاطعة المقنع في حزم:

لا تحاول يا وغد الاوغاد، فانا لست قاضيا يستمع الى دفاعك ليبني عليه حكمه، ولست محاميا يسعى للعثور على ثغرة قانونية تدينك.. معي ستختلف كل الامور، وستنقلب كل المعايير.. معي لن يحتاج الامر الى ادلة او قرائن، ولن تصلح الحصانة الدستورية التي تحملها.. معي سيكون طريق العدالة واضحا منبسطا، بلا تعقيدات.

قال (نعمان) متوترا؛

- اسمع.. انني مستعد لـ...

قاطعه مرة اخرى:

- لا فائدة ايها الحقير.. لقد صدر الحكم بشأنك، وانا اعمل على تنفيذه فحسب.

وعاد صوته قاسيا كالفولاذ، وهو يستطرد:

استدر ايها الوغد.. انت وذلك الدب الذي يجاورك..

استدار (نعمان) وهو يرتجف، قائلا:

- هل.. هل ستقتلني؟

اجابه (العقرب):

- لا.. لست حقيرا مثلك، لاطلق النار على رجل في ظهره، ثم انني لا اسعى الى قتلك، بل الى تدميرك، وهناك فارق كبير بين الامرين، فقتلك الان قد يمنحك صورة الشهيد، ويدفع الالاف للبكاء عليك، اما ما سأفعله بك فسيجعلهم يبصقون على وجهك، وانت خلف قضبان سجنك.

ارتعد صوت (نعمان)، وهو يغمغم في انهيار:

- ولكن.. انا لست.....

هتف (سيد) بغتة، وهو يقفز جانبا، ويدفع زعيمه الى الجانب الاخر:

- ابتعد ايها الزعيم.

وانتزع مسدسه من جيب سترته، بسرعة خرافية، واستدار الى حيث وقف (العقرب) وأطلق النار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- التحدي..

كان وقع دوي الرصاصة في الحفل اشبه بسباب سوق بذيء ها انطلق وسط قاسة نادٍ اجتماعي انيق، يقتصر ارتياده على علية القوم، فلقد كان قصر (نعمان) مكتظا بأكبر حشد ممكن من نجوم المجتمع، من مختلف الطوائف، وكان دوي الرصاصة كافيا لان يسود المكان صمت تام، مفعم برهبة مبهمة، واشبه بالهدوء التقليدي، الذي يسبق اية عاصفة.

ولعل الوصف الاخير هو الاكثر دقة، فلم تلبث لحظة الصمت ان تفجرت بغتة، على هيئة عاصفة من التوتر، والصياح والفزع واندفع عدد من الحاضرين يحاولون الفرار من خطر مجهول، في حين التف البعض الاخر حول بعضه البعض، وهتف أحد ذوي الحيثية، من رجال السياسة:

- ما هذا؟ اهو هجوم ارهابي؟

هتف اخر في توتر:

- ينبغي ان نتصل برجال الشرطة على الفور.

وصاح ثالث:

- ولكن اين (نعمان) بك؟ اين هو؟

هتف رابع:

- في مكتبه.. لقد انطلقت الرصاصة من هنا.

انطلق عدد من الرجال نحو حجرة المكتب، على نحو غريزي، وراح بعضهم يدق بابها، هاتفا:

- (نعمان) بك.. ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ اجب، ماذا حدث؟

في نفس اللحظة، كان (سيد) يحدق في نافذة حجرة المكتب، حيث كان يقف المقنع منذ لحظات وهو يهتف ذاهلا:

- مستحيل.. لقد كان يقف هناك.. لقد أطلقت النار حيث كان يقف مباشرة.. اتلاشى ام اننا كنا...؟

صاح به (نعمان) في غضب وثورة:

- ماذا فعلت ايها الغبي؟ اتطلق النار في حفل؟

انتبه (سيد) بغتة لما فعل، فامتقع وجهه، وهو يخفي مسدسه في جيب سترته في سرعة:

- معذرة ايها الزعيم.. انني لم انتبه.

هتف به (نعمان)، وقد بلغ توتره ذروته:

- فلنعمل على تهدئة الحضور اولا، ثم حاول ان توقع بتلك المقنع قبل ان يفر من هنا.

قالها واندفع نحو باب حجرة مكتبه، وهو يرسم على شفتيه ابتسامة دبلوماسية مناسبة وفتح الباب وهو بقول ملوحا بذراعيه:

- لا داعي للتوتر ايها السادة.. لا داعي للتوتر.. انما هي تجربة جهاز امن جديد.. لم تحدث اية اضرار.. اطمئنوا.

تنفس الجميع الصعداء، وهتف أحدهم:

- يا إلهي يا (نعمان) بك.. لقد ارعبتنا حقا.

اطمئن الجميع لظهور (نعمان) وسط الحفل مرة اخرى..

وراح توترهم يتلاشى، ويذوب تدريجيا مع بذخ موائد الطعام وابتسامة (نعمان) المدروسة المرسومة، في نفس الوقت الذي

كان (سيد) يستشيط فيه غضبا، وهو يهتف في وجه أحد رجال امن القصر الخاص:

- كيف لم يره احدكم؟ ما مهمتكم هنا اذن؟ لقد تسلل ذلك المقنع الى حجرة مكتب نعمان بك، وكاد يقتلنا، دون ان ينتبه اليه احدكم.. يا لخسارة ما تتقاضونه من مرتبات باهظة؟

اجابه رجل الامن في حدة:

- اننا نقوم بعملنا جيدا يا سيدي، وأستطيع ان اجزم بان احدا لم يلج بوابة السراي، دون ان يحمل بطاقة دعوة رسمية، وبمجرد ولوج الضيوف الى القصر، تنتهي مهمة مراقبتهم فانت تعلم ان (نعمان) بك يكره ان يشعر ضيوفه انهم تحت المراقبة.

عقد (سيد) حاجبيه في توتر، وهو يقول:

- اتعلم ما يعنيه قولك هذا يا رجل؟ انه يعني ان هذا المقنع قد ولج القصر حاملا بطاقة دعوة اي انه أحد ضيوف (نعمان) بك.

غمغم الرجل في حذر:

- ولكن احدا من الضيوف لم يكن يرتدي قناعا، و.....

قاطعه (سيد) في حنق:

- تبا لغبائك هذا.. أتتصور انه دخل مرتديا قناعه؟! كلا.. بالتأكيد ايها الغبي.. لقد ارتدي القناع في الداخل.. ربما جاء مرتديا سروالا وقميصا اسودين، واضاف اليهما القناع والقفازين فيما بعد... او...

بدا له لحظة ان حديثه لا يعني شيئا، فبتره ليلوح بكفه، هاتفا في حنق:

- لا عليك.. دعك من هذا.

وغادر ركن الحراسة، وهو يستطرد في سخط:

- اراهن اننا لن نعثر على أثر لذلك المقنع.. لقد ربح جولته هذه المرة.. اللعنة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطلقت (غادة) ضحكة جذلة عالية، وهي تجلس الى جوار (نديم)، في سيارة هذا الاخير، التي ينطلق بها مبتعدا عن قصر (نعمان)، وهتفت في سعادة ونشوة غامرتين:

- رائع يا (نديم).. بداية رائعة بحق.. لقد أدركت الان لماذا لم تحتمل ابدا العمل في صفوف الشرطة، فانت لم تخلق لذلك، بل خلقت محتالا حقيقيا.. لقد احسنت اللعبة كما لم يفعلها أحد من قبل.

اجابها في هدوء وبساطة، وهو ينزع عن وجهه شاربا مستعارا:

- لم يكن الامر متقنا الى هذا الحد.

هفت ضاحكة:

- كيف؟ إنك تدير اللعبة في براعة منقطعة النظير.

واعتدلت في مجلسها، وهي تضيف في حماس:

- لقد درست كل شيء في هدوء واتقان احسدك عليهما، فحصلت على واحدة من بطاقات الدعوة الى حفل (نعمان)، وقمت بطباعة نسخة طبق الاصل منها، ساعدتنا على ان ننضم الى ضيوف الحفل، ونحن نحمل صفة الدكتور (برهان سالم) وزوجته، وكان تنكرك بسيطا وفعالا، فلقد اكتفيت بصبغ شعرك

ليبدو أشيب اللون، وارتديت شاربا أشيب مستعارا، ومنظارا طبيا، ونظرا لان احدا لم يكن ينتظر حدوث اية مفاجآت، فلم تكن تحتاج الى اكثر من هذا التنكر البسيط، وفي الوقت نفسه كنت تبدو انيقا في حلتك، ذات السروال والقميص الاسودين والسترة البيضاء، ورباط العنق الابيض، فلم يكن هناك جهد يذكر، في ان ننتحي ركنا قريبا من حجرة المكتب، فتنزع رباط العنق والسترة، وترتدي بدلا منهما القناع والقفازين..

قال في هدوء:

- كان هذا هو ابسط جزء في اللعبة كلها.

قالت موافقة في حماس:

- بالتأكيد، فالجزء الاهم هو الوسيلة التي دسست بها بطاقتك الخاصة في خزانة (نعمان).

قال في بساطة:

- لا ريب انه لن يذوق طعم النوم الليلة، وهو يحاول ايجاد تفسير لوجود البطاقة داخل خزانته، ولكنه لن يتصور ابدا انه هو من وضعها بنفسه.

أطلقت ضحكة مرحة اخرى، وهي تقول:

- من الطبيعي الا يخطر هذا بباله، فهو لا يمتلك مثل ذكائك ايها العبقري.. فلقد تعمدت انت ان ترسل اليه رجلا، قبيل الحفل بقليل، يعرض عليه شراء صفقة كبيرة من مزرعة الدواجن الخاصة به، ثم ينقده عربونا مناسبا، وكان من الطبيعي، وسط انشغال (نعمان) بالإعداد للحفل، ان يضع النقود في خزانته الخاصة، دون ان ينتبه الى انها تحوي بطاقتك فيما بينها.

تألقت عينا (نديم)، وهو يقول:

- من الطبيعي الا ينتبه الى ذلك، فالأوغاد مثل (نعمان) هذا اعتادوا ان ترتبط الحيل دوما بسلب النقود، لا بمنحها، لذا فهم لا يشكون فيمن يمنحهم نقودا، مهما بلغت درجة ثراءهم.

ران عليهما الصمت لحظة، قبل ان تلتفت اليه (غادة)، وتقول في اهتمام جاد:

- اتعلم ان اسلوبك هذا يدهشني يا (نديم)؟

سألها:

- لماذا؟

تنهدت قبل ان تجيب:

- انا واثقة تماما من وجود بركان ثائر في اعماقك، فغضبك مما فعله بك رجال (نعمان) من ثلاثة أشهر، لم يتلاش بعد، وعلى الرغم من ذلك، فانت تخطط للأمر، وتعده، وتنفذه في هدوء عجيب، وكأنك تضع سيناريو رواية بعيدة عن عالمك الحقيقي.

صمت لحظات، وهو يقود السيارة ثم اجاب في صوت قوي حازم:

- هذا ما عاهدت نفسي عليه، منذ تم شفائي من طعنة خنجر رجال (نعمان) يا (غادة)... فقد أدركت وانا ارقد هناك، في المستشفى، انني اواجه واحدا من أكثر الاوغاد العالم استهتارا بالقيم، وانه قد اعتاد التلاعب بالقوانين واللوائح، مستغلا ثغراتها، ومثل هذا الشخص يحتاج الى خصم يتجاهل القانون بدوره، ويتجاوز كل القواعد، في سبيل هدف واحد.

صمت وهلة، ثم اضاف في حسم:

- في سبيل العدالة.

ابتسمت في اشفاق. وهي تملا عينيها بوجهه النحيل الوسيم، مغمغمة:

- سيتطلب منك هذا جهدا فائقا، فانت تلعب دورا بالغ الخطورة، محاولا تقليد (زورو)، وهذا يجعلك تواجه خصمين في ان واحد، كلاهما يمتلك القوة والباس.

قال في هدوء:

- كنت أظنني أواجه خصما واحدا، هو (نعمان والي).

قالت في حسم:

- وتواجه الشرطة ايضا.

ران عليهما الصمت لحظات، ثم قال في هدوء:

انني اواجه الشرطة دوما، حتى وانا اعمل في صفوفها.

قالت في هدوء مماثل:

- المواجهة ستكون أكثر صعوبة هذه المرة، فعملك أقرب الى عمل الخارجين عن القانون، وسيستثير هذا رجال الشرطة.

مضت لحظات من الصمت، قبل ان يقول:

- ولكنني لست اظن (نعمان والي) يبلغ الشرطة هذه المرة.

قالت في حزم:

- وما الذي يمنعه؟

اجابها في بساطة:

- خوفه على سمعته.

ادهشها الجواب، فقالت في حيرة:

- هل لك ان تفسر لي هذه النقطة؟

اجاب في هدوء:

- هل تذكرين رد فعلك، عندما اخبرتك بعد مغادرتي المستشفى، أني سأتحول الى شخصية (العقرب)؟

قالت في اهتمام:

- بالطبع، فلقد أدهشني ذلك في شدة، وقلت لك ايامها إنك تحاول تقليد الافلام السينمائية، وان الفارس المقنع لا وجود له في الحياة الحقيقية.

- عظيم.. لو أنك الليلة في موضع (نعمان والي)، ورأيت شخصا مقنعا، يشبه فرسان السينما، هل ستبلغين الشرطة بذلك؟

ترددت لحظة، قبل ان تبتسم مجيبة:

- لا.. لست أظنني سأفعل.

سألها في اهتمام:

- لماذا؟

اجابته ضاحكة:

- لان احدا لن يصدقني، وسيتصورونني واهمة..

قال في ارتياح:

- لهذا بالذات اخترت ذلك الزي الاسود ذا القناع.

ابتسمت في حنان، وهي تتأمل ملامحه الوسيمة مرة اخرى، قبل ان تسأله في خفوت:

- حسنا.. ما خطوتك التالية؟

اجابها في حزم:

- لقد واجهت اليوم (نعمان والي)، وتحديته على نحو سافر صريح، وهو يعلم الان ان رجلا مقنعا يسعى خلفه، وان شعار هذا الرجل هو (العقرب)، وسيربكه هذا كثيرا، خاصة وان المعركة هذه المرة ستكون اشبه بحرب عصابات، لا مجال فيها لثغرات القانون، التي ينفذ منها دوما، ولا فائدة لحصانته القانونية الخاصة.

قالت في شغف:

- إنك لم تجبه سؤالي بعد.

واصل في هدوء، وكأنه لم يشعر بمقاطعتها:

- وهناك مبدا تعلمته في حلبة الملاكمة، الا وهو ان أفضل وسيلة للنصر هي إنهاك الخصم اولا، قبل توجيه الضربة القاضية اليه، وهذا ما سنفعله مع (نعمان)، فسأحيل حياته الى جحيم، قبل ان يتلقى اللسعة الاخيرة..

وصمت لحظة، ثم اضاف في صوت حمل قوته وصلابته وحزمه:

- لسعة (العقرب)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- حلبة النزال..

على الرغم من تلك الابتسامة الدبلوماسية، التي لم تفارق شفتي (نعمان والي) حتى نهاية الحفل، الا ان عروقه كانت تنتفض طيلة الوقت في غضب وتوتر، وعقله لم يهدا عن التفكير لحظة واحدة

ومع نهاية الحفل، وانصراف المدعوين، مال نحو الرجل الذي تقاضي منه رشوة الانتخابات، وقال في صرامة:

- انتظر يا (فؤاد).. اريدك وحدك..

شحب وجه (فؤاد) في شدة، وان لم يملك سوى ان يغمغم في صوت اشد شحوبا من وجهه:

- كما تأمر يا (نعمان) بك.. كما تأمر.

انتحي الرجل جانبا، وهو يرتجف، حتى انتهى (نعمان) من وداع ضيوفه، ثم التفت اليه، وحدجه بنظرة صارمة طويلة، قبل ان يقول:

- اتبعني..

قالها واتجه الى حجرة مكتبه، فتبعه الرجل وساقاه تصطكان رعبا، وخلفه (سيد) بقامته المديدة وجسده الضخم، المفتول، حتى وصل الموكب الصغير الى حجرة مكتب (نعمان)، فاغلق (سيد) باب الحجرة في احكام، ووقف امامه عاقدا ساعديه امام صدره، في حين جلس (نعمان) خلف مكتبه، وشبك اصابع كفيه امام وجهه، وراح يتطلع الى (فؤاد) في برود صارم..

فازدرد (فؤاد) لعابه في صعوبة، وغمغم والعرق البارد يغمر وجهه:

- هل هناك شيء ما يا (نعمان) بك؟

ظل (نعمان) يحدجه بنفس النظرة الباردة الصارمة الصامتة لحظات، قبل ان يميل نحوه، قائلا بغتة:

- ما رأيك الشخصي في (نعمان والي) يا (فؤاد)؟

ازدرد (فؤاد) لعابه في عمر، وابتسم ابتسامة عصبية متوترة، وهو يغمغم:

- لماذا يا (نعمان) بك؟

هب (نعمان) من مقعده بغتة، وضرب سطح مكتبه براحته في قوة، وهو يهتف في غضب:

- لأنني أكره ان يخدعني أحد.

غابت الدماء من وجه (فؤاد) تماما، وهو يقول في همس يفيض بالرعب:

- يخدعك؟

صاح (نعمان):

- نعم يا (فؤاد) ٠، يخدعني.

انكمش (فؤاد) في مقعده، وراح يرتجف كعصفور مبتل في مهب الريح، وتجمعت دمعة كبيرة في عينيه، وهو يقول:

- (نعمان) بك.. انني..

قاطعه (نعمان) وقد هدأ فجأة:

- اتعلم كيف بلغت انا كل ما بلغته يا (فؤاد)؟ لقد فعلت لأنني أفكر..

واشار الى راسه، هاتفا في حدة:

- أفكر جيدا..

وعاد صوته الى هدوئه بغتة، وهو يتابع:

- ربما لا تدرك قيمة التفكير، ولكنه حقا شيء رائع، فانا ادرس كل امر يواجهني، وامحصه بمنتهى الدقة، حتى يقتنع به عقلي..

ولوح بذراعه مردفا:

- تماما كما فعلت الليلة..

تمتم (فؤاد)، وقد شارف الانهيار:

- (نعمان) بك.. صدقني.. انني..

اوقفه (نعمان) بإشارة صارمة من يده، وهو يتابع:

- الليلة بدا لي كل ما حدث عجيا، مثيرا للدهشة والحيرة، فلقد تحدثت الىّ انت حول الانتخابات القادمة، ودفعتني بحديثك الى محاولة اتمام صفقة قذرة معك على الفور، وكان هذا يستتبع بالضرورة ذهابنا معا الى حجرة مكتبي، وفتحي خزانتي، وعندها فعلت، وجدت داخل الخزانة بطاقة تحمل رسما لعقرب ذهبي، وفجأة ظهر في مكتبي رجل مقنع، متشح بالسواد، هددني بتحطيم حياتي تماما، واختفى ذلك المقنع بغته.. سيناريو رائع، يشبه كثيرا أحد افلام (والت ديزني) الشهيرة، ولكن..

بتر عبارته، وهو يميل نحو (فؤاد)، مستطردًا في صرامة:

- لم يقنع عقلي بهذا ابدا..

وعاد يجلس خلف مكتبه، ويشبك اصابع كفيه امام وجهه متابعا:

- كان من المحتم ان يكون هناك تفسير منطقي لكل هذا، ولقد قضيت السهرة كلها أفكر، وابحث عن تفسير الاحداث، وبعد كل هذا الجهد العقلي، وجدت تفسير الكثير من الاحداث، فالبطاقة يمكن دسها في رزمة اوراق نقد، بحيث اضعها انا بنفسي في الخزانة، دون ان انتبه الى ذلك، والمقنع يمكنه ان يتسلل الى قصرى ببطاقة دعوة مزيفة، وهو يخفى زيه أسفل حلة سهرة انيقة، ويمكنه ايضا ان يقفز مغادرا المكان، قبل ان تصيبه رصاصة (سيد)، فينزع قناعه وقفازيه في سرعة، ويرتدي سترة انيقة، ورباط عنق طريف، ويختفي بين المدعوين.. كل هذا ممكن ومنطقي..

وانعقد حاجباه في شدة، وهو يستطرد:

- فيما عدا نقطة واحدة.

بدا (فؤاد) أقرب ما يكون الى الانهيار، وهو يغمغم:

- (نعمان) بك....

قاطعه (نعمان) في غضب:

- هذه النقطة هي المصادفة العجيبة، التي جعلتك تدفعني الى حجرة المكتب، والى منحك النقود، في نفس التوقيت الذي ظهر فيه ذلك المقنع، الذي يظن نفسه بطلا من ابطال روايات السينما الامريكية

ولوح بذراعيه، مستطردًا في حدة:

- وانا رجل معقد في الواقع، لا اميل ابدا الى الايمان بالمصادفات، حتى انني اتساءل الان، ماذا كان سيفعل هذا المقنع، لو انني لم اذهب معك الى حجرة المكتب.. كيف كان سيواجهني بهذه الصفاقة؟

انهار (فؤاد) تماما، وانحدرت دموعه عي وجنتيه، وهو يهتف:

- الرحمة يا (نعمان) بك!! الرحمة!!

صاح به (نعمان) في ثورة:

- اذن فقد خنتني ايها القذر!! كيف جرؤت؟ كم تقاضيت مقابل هذا؟

هتف (فؤاد) في انهيار:

- لم اتقاض قرشا واحدا يا (نعمان) بك.. صدقني.. لقد عثر ذلك (العقرب) على ادلة تدينني، في واقعة رشوة سابقة، وهددني بتقديم الادلة الى النيابة، ما لم ادفعك الى دخول مكتبك وسط الحفل، في توقيت محدود، ولم.. ولم أجد ضيرا في ذلك.. اقسم لك ان هذه كل الحقيقة.

انعقد حاجبا (سيد) في توتر، في حين انقض (نعمان) على (فؤاد)، وجذبه من ياقة سترته في عنف، لينتزعه من مقعده في قسوة، وهو يهتف به:

- وكيف يبدو هذا (العقرب)؟ من هو؟ من يشبه؟

هتف الرجل منهارا:

- لست أدري اقسم لك لست أدري.. لقد فوجئت به في حجرة نومي، مرتديا ذلك القناع المخيف، ولست أدري من هو.. اقسم لك..

دفعه (نعمان) الى مقعده مرة اخرى، وهو يهتف:

- ايها الحقير..

ثم اعتدل، مستطردًا في توتر بالغ، موجها حديثه الى (سيد):

يبدو اننا نواجه خصما مختلفا هذه المرة يا (سيد)، فمن الواضح ان هذا (العقرب) يجيد التخطيط الى درجة مخيفة، وانه مثلى، لا يترك مجالا في عمله للمصادفات، ثم انه يمتاز بجرأة نادرة، حتى يواجهني في قصرى على هذا النحو، وهو في الوقت ذاته ذكي، حيث أدرك ان الحفل في القصر سيعقيني عن مواجهته كما ينبغي، وسيسمح له بالإفلات مني في سهولة، ثم انه يملك عقلية تقليدية، تأثرت كثيرا بأفلام الخيال، مما يدفعه الى اتخاذ زي مثير كزيه هذا، وقناع غامض، أضف الى هذا انه - كما أعلن بنفسه - لا يتبع قانونا ولا قواعد..

وصمت لحظة، ثم اضاف في حزم:

- اننا نواجه خصما مخيفا بحق هذه المرة.. نواجه عقربا..

وصمت لحظة اخرى، قبل ان يضيف في توتر ملحوظ:

- ويا له من عقرب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تثاءب حارس مزرعة الثعالب، التي يمتلكها (نعمان والى) وهو يقول لزميله في ضجر:

- يا لها من مهنة سقيمة!! اننا نقضي ليلنا كله لحراسة عدد من الثعالب القذرة الجائعة..

ابتسم زميله، وهو يقول:

- هذه الثعالب القذرة يباع فراؤها بمئات الجنيهات يا رجل، ويقال ان الجوع هو الذي يجعل فراء الثعلب أكثر جودة، ثم اننا نتقاضى راتبا محترما لقاء هذا.

ابتسم الاول في ملل، وهو يقول:

- تصور انني لم اسمع في حياتي كلها عن مزارع الثعالب هذه، قبل ان التحق بالعمل في خدمة (نعمان والي) هذا، وحتى بعد ان عملت بها، ما زلت اشعر بالدهشة لوجودها في (مصر)..

هر زميله كتفيه، وقال:

- انها ليست الاولى من نوعها في (مصر)، ثم إنك مع (نعمان والى) تلتقي دوما بالجديد، فهو يمتلك العديد من المنشآت: مزرعة الثعالب هذه، ومزرعة ضخمة للدواجن، وشركة هندسية كبرى للمقاولات، وملهى ليليا..

هتف الاول ذاهلا:

- ملهىً ليليا!! هل يمتلك (نعمان والى) ملهىً ليليا؟

ابتسم زميله ابتسامة العالم ببواطن الامور، وقال:

- انه يمتلكه فعليا، ولكن الملهي مسجل باسم (سيد)، الرجل الاول بعده..

هز الاول راسه، مغمغما:

- عجيب هو (نعمان) هذا.. انه..

بتر عبارته بغتة، على نحو اثار دهشة زميله، فاعتدل يسأله:

- ماذا هناك؟

اشار الى اضواء سيارة قريبة، وهو يقول:

- هناك سيارة توقفت الى جوار سور المزرعة.

ابتسم زميله وهو يقول:

- وماذا في هذا.. المزرعة مقامة على الطريق مباشرة، ثم من يفكر في سرقة ثعالب؟!

قال الاول في صرامة:

- من يدري؟

ثم امسك مسدسه، مستطردًا:

- سأتحرى الامر..

هز زميله كتفيه، مغمغما:

- كما يحلو لك.. سأبقى انا هنا..

استرخي في مقعده، يراقب زميله، الذي غادر بوابة المزرعة، واتجه نحو سيارة النقل الضخمة، ذات الصندوق الخلفي المغلق، وهو يضع كفه فوق عينيه، متلاشيا ضوء مصباحي السيارة المبهر، وهاتفا:

- هل لديك مشكلة ايها السائق؟

اتاه صوت انثوي يقول:

- بل عدة مشاكل ايها الزميل..

انتبهت حواس الحارس كلها، مع سماع الصوت الانثوي، وقال في دهشة:

- أأنتِ امرأة؟

شاهد مع الضوء المبهر ظل انثى تغادر كابينة قيادة السيارة الضخمة، وسمع صوتها تقول في لهجة أقرب الى السخرية:

- يقولون سيدة ايها الوقح..

لم يدر لماذا رفع مسدسه، وهو يهتف في دهشة:

- ماذا؟

وفجأة تحركت قدم الانثى في مرونة انيقة، وركلت مسدسه في قوة، فأطاحت به بعيدا، ثم عادت الى موقعها، وهو. يتراجع هاتفا:

- من انتِ؟

لم يكد يتم عبارته، حتى قفزت قدمها الاخرى الى فكه، لتخرسه تماما، فهوى عند قدميها فاقد الوعي، فهب زميله من مكانه، وهتف في حدة:

- اللعنة! ما هذا؟

اندفع خارج كشك الحراسة، وهو يشهر مسدسه صالحا في لهجة صارمة حازمة:

- قفي والا..

قبل ان يتم عبارته، قفز جسد متشح بالسواد من فوق صندوق سيارة النقل الضخمة)، واستقر على قدميه امامه تماما.

وتراجع الحارس في دهشة، وهو يرى امامه رجلا مقنعا، أطلت صرامة الدنيا كلها من عينيه، ورفع فوهة مسدسه اليه في سرعة وخوف، ولكن المقنع تحرك في سرعة مدهشة، فاحني راسه، ورفع ساعده الايسر ليدفع ذراع الحارس، الممسكة بالمسدس، الى اعلى، ثم انقضت قبضته اليمنى على فك الحارس كالقنبلة..

وتراجع الحارس في عنف، إثر اللكمة، وقبل ان يعتدل مرة اخرى، غاصت قدم المقنع في معدته، وقفزت قبضته اليسرى تحسم الصراع بلكمة ساحقة..

وسقط الحارس الثاني فاقد الوعي، وهتفت (غادة):

- رائع.. من الواضح أنك قد استفدت كثيرا من عملك بالشرطة.

قال (العقرب) في هدوء، وهو يجذب الحارس الى كشك الحراسة:

- هل تحتاجين الى مكبر صوتي لإعلان هذا؟

ضحكت مغمغمة:

- ربما فيما بعد.

ثم جذبت الحارس الاخر الى الكشك، وهي تستطرد:

- لقد فاجأتني بهذه العملية في الواقع، فلقد تصورت اننا سنخلد للنوم، بعد عملية الحفل.

قال في هدوء:

- أفضل وسيلة لتشكيل الحديد، هي طرقه ساخنا، ثم ان لعبة الليلة تروق لي كثيرا، وستكون أفضل وسيلة للإعلان عن (العقرب).

راحا يقيدان الحارسين، ويكممان فمهما في احكام، ثم اخرج هو من جيبه واحدة من بطاقاته، وثبتها في ياقة أحد الحارسين، وهو يقول في فخر:

- (العقرب) فعل هذا.

- هيا بنا فسيحتاج منا الجزء الاول من اللعبة بعض الوقت.

واتجه نحو سيارة النقل الضخمة في هدوء.

ثم التفت الى زميلته، مستطردًا:

كان قد اختار اول حلبة لنزاله مع (نعمان والي)..

واول اعلان لمولد سيف العدالة المسلط على رءوس المجرمين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- اعلان ميلاد..

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت السادسة صباحا بعد، عندما ارتفع رنين الهاتف المجاور لفراش (نعمان والي) مباشرة، فنهض هذا الاخير هاتفا في حنق:

- اللعنة!! انني لم احصل على قدر كاف من النوم بعد..

القى نظرة محنقة على ساعة معصمه، ثم رفع سماعة الهاتف، وهو يقول في حدة:

- اتعشم ان يكون سبب اتصالك، في مثل هذه الساعة، مناسبا، والا فإنني اقسم ان..

بتر عبارته بغتة، وانعقد حاجباه، وهو يقول في توتر:

- من؟! لماذا تتصلون بي في هذا الوقت المبكر؟

قفز من فراشه، وقفز حاجباه الى اعلى، في مزيج من الدهشة والذعر والاستنكار، وبدا وكأنهما سيتجاوزان فروة راسه، من شدة ارتفاعها، وهو يصرخ:

- كيف؟! اللعنة!! كيف حدث هذا؟

استمع لحظات، والغيظ يملا كل خلجة من خلجاته، قبل ان يعاود الصراخ:

- أأبلغتم الشرطة؟! ولماذا فعلتم؟! مهما كان الامر، كان من الضروري استشارتي اولا..

واعاد سماعة الهاتف في قوة كادت تحطمها، وهو يقفز من فراشه، هاتفا في سخط:

- (العقرب)!! (العقرب) مرة اخرى؟

ثم ارتفع حاجباه مرة ثانية، وهو يواصل صراخه:

- ايها الاغبياء وكيف يفعل بكم هذا.. ايها الحمقى؟

واتسعت عيناه في ذعر، مستطردًا:

- يا للأغبياء!! يا للأوغاد!! يا للحمقى!!

ارتدي ثيابه في عجلة شديدة، ثم اندفع خارج حجرة نومه، وصرخ في رئيس خدمه، الذي استيقظ قلقا لحركة سيده، في هذه الساعة المبكرة من الصباح:

- اتصل بـ (سيد)، واطلب منه ان يحضر الى هنا على الفور، وأيقظ ذلك السائق الكسول، واطلب منه اعداد السيارة الكبيرة..

أشعل واحدة من سجائره، وراح ينفث دخانها في عصبية وهو يردد محنقا:

- ماذا يريد مني هذا المقنع اللعين.. ماذا يبتغى مما يفعله بي؟

لم يكد ينتهي من سيجارته حتى وصل (سيد) الذي يقيم بجناح ملحق بالقصر، وهو يقول في قلق وتوتر:

- ماذا حدث ايها الزعيم؟ لماذا استيقظت مبكرا هكذا؟

صرح به (نعمان):

- سأقطع لسانك إذا ما خاطبتني بذلك اللقب مرة اخرى..

تراجع (سيد)، مغمغمًا:

- معذرة يا (نعمان) بك.. معذرة..

هتف (نعمان) في حنق:

- هيا بنا.. ينبغي ان ننطلق على الفور الى مزرعة الدواجن.

سأله وهو يتبعه في قلق:

- لماذا؟ ماذا حدث هناك؟

قال (نعمان) في سخط، وهو يقفز الى المقعد الخلفي لسيارته الفاخرة، التي أعدها سائقه الخاص للانطلاق على الفور:

- لقد ضرب (العقرب) ضربته الثانية هناك.

لم يكد (سيد) يقفز الى جواره، حتى انطلقت بهما السيارة، وهو يهتف في ذهول:

. ضرب ماذا؟!وماذا فعل؟ هل قتل الدجاج كله؟

ضرب (نعمان) فخذه براحته في ثورة، وهو يقول:

- بل.. لقد نفذ ضربة مزدوجة، فذهب بسيارة نقل ضخمة الى مزرعة الثعالب، وهزم حارسيها، وحمل كل الثعالب الجائعة في صندوق السيارة الضخم، ثم تسلل الى مزرعة الدواجن، وفتح كل الاقفاص، وبعدها اقتحم المزرعة بسيارة النقل الضخمة، وأطلق سراح الثعالب، وتركها تقتنص الدجاجات في شراهة..

استمع اليه (سيد)، وهو يفغر فاه ذهولا، قبل ان يتمتم:

- يا له من رجل!

ثم اضاف في غضب:

- انني لم اتوقع ابدا ان يضرب ضربته الثانية في الليلة ذاتها..

قال (نعمان)، وهو بعض نواجذه غضبا وغيظا:

- ولا انا.. ولكن من الواضح ان هذا (العقرب) اذكى منا جميعا.

ثم اضاف، وهو يلوح بذراعه في سخط:

- والادهى ان حراس مزرعة الدواجن الاغبياء قد ابلغوا رجال الشرطة، ولم يعد بإمكاننا اخفاء امر هذا اللعين..

عقد (سيد) حاجبيه مفكرا، وهو يقول:

- وماذا في هذا يا (نعمان) بك؟ انني أجد هذا أفضل كثيرا، فعندما نتحالف مع الشرطة، ستزداد فرصة الايقاع بهذا المتجبر كثيرا، فمن المستحيل ان ينجح رجل واحد في هزيمتنا نحن والشرطة معا.

تطلع اليه (نعمان) في صمت لحظات، ثم هز راسه، مغمغمًا:

- نعم.. ربما كان هذا أفضل؛ لقمع ذنب (العقرب).

ثم ضم قبضته في شدة، مستطردًا:

- وبعدها سأسحقه بنفسي.. سأسحقه سحقا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عقد العتيد (مجدي) حاجبيه في شدة، وهو بدير عينيه في ارجاء مزرعة (نعمان والي) للدواجن، قبل ان يقول في حدة:

- أي شيطان فعل هذا؟ لقد أطلق الثعالب الشرهة على الدجاج، وترك قانون الطبيعة يعمل..

ابتسم اللواء (حلمي)، وهو يقول في هدوء:

- انها فكرة لا تخلو من الطرافة على اية حال..

تطلع اليه (مجدي) في دهشة واستنكار، فأضاف في رصانة:

- ولكنها جريمة على كل الأحوال.

ثم التفت الى رئيس حراس مزرعة الدواجن، يسأله:

- كيف بدا كل هذا؟

قال كبير الحراس، في انفعال واضح:

- لقد حدث كل شيء في سرعة، فلقد كنا نستبدل نوبة حراسة ليلية، عندما ارتفعت اصوات الدجاج، كما لو ان اقفاصها قد فتحت، وهذه الاقفاص تفتح بوسيلة اليكترونية بحيث يكفي الضغط على زر واحد لفتحها كلها.. المهم ان صوتها جعلني اطلب من اثنين من رجالنا تفقد الامر، وعندما ذهبا الى حيث الاقفاص، فوجئا برجل مقنع، متشح بالسواد يقفز متجاوزا سور المزرعة الى الخارج.

عقد العقيد (مجدي) حاجبيه في شدة، وهو يقول في استنكار:

- بالسواد؟!!

اشار اليه اللواء (حلمي) ان يصمت، وهو يسأل كبير الحراس:

- الم يطلق عليه رجلاك النار؟

قال الرجل منفعلا:

- لقد اخرجا مسدسيهما بالفعل، وقبل ان يطلق أحدهما رصاصة واحدة، اقتحمت سيارة النقل الضخمة بوابة المزرعة، وانفتح صندوقها الخلفي، واندفع منه مئات الثعالب الشرهة.

وارتجف جسده، وهو يستعيد ذكرى الموقف، قبل ان يستطرد في شحوب:

- وكان موقفا رهيبا، فقد راحت الثعالب تعدو في كل الاتجاهات، مما اصابنا بالرعب، فرحنا نطلق النيران عليها، ولكن الجزء الاكبر منها انطلق نحو اقفاص الدجاج، وراح يلتهم الدواجن في شراهة..

وانتفض جسده مرة اخرى، قبل ان يردف:

- كان موقفا رهيبا بحق..

سأله اللواء (حلمي) في اهتمام:

- وماذا فعل المقنع؟

قال الرجل في ضيق:

- لحق بسيارة النقل، التي تقودها زميلته، وانطلقا مبتعدين، دون ان ننجح في ملاحقتهما، بسبب الاضطراب الهائل، الذي اصاب المكان.

هتف العقيد (مجدي) في دهشة:

- زميلته؟! ومن أدراك ان من كان يقود السيارة الضخمة فتاة؟

تطلع اليه الرجل في حيرة، وهو يقول:

- انني لم ارها في الواقع، ولكن زميلينا في مزرعة الثعالب قالا انها فتاة.

قال اللواء (حلمي):

- حسنا.. انني افهم ذلك، فلقد أخبرنا زميلاك في مزرعة الثعالب ما لديهما، بعد ان أطلقنا سراحهما، ولقد وجدنا في ياقة أحدهما بطاقة تحمل رسمًا لعقرب ذهبي.

هتف كبير الحراس:

- يا إلهي!! لقد وجدنا مثلها مثبتة عند زر التحكم في فتح اقفاص الدجاج.

قال العقيد (مجدي) في حدة:

- اية سخافة هذه؟ من ذلك المجرم التافه، الذي يحاول تقليد (ارسين لوبين)؟

غمغم اللواء (حلمي):

- ربما هو ليس تائها كما تتصور يا رجل، ثم شرد بذهنه، مستطردًا في خفوت، وكأنما يحدث نفسه:

- رجل وفتاة!! يا للعجب!

قال (مجدي) في ضيق:

- هذا الامر يبدو لي سخيفا..

اشار (حلمي) الى نهاية مزرعة الدواجن، قائلا:

- يبدو أنك ستجد من يشارك في هذا الشعور، فلقد وصل (نعمان والي)..

غادر (نعمان والي) سيارته في هذه اللحظة، وراح يتلفت حوله كالمجنون، وهو يردد في غضب هائل:

- لقد أطلق الحراس الاغبياء النار على ثعالبي.. لقد أفسدوا الفراء الثمين..

قال اللواء (حلمي) في هدوء:

- يمكنك ترحيل هذا الى بند الخسائر يا سيد (نعمان).

هتف(نعمان) بحنق:

- بند الخسائر؟! لا يا سيادة اللواء.. انني رجل اومن بنظرية الثأر، ولن يهدا لي بال حتى توقعوا بذلك المجرم اللعين، الذي حطم مزرعتين من مزارعي في ليلة واحدة..

قال اللواء (حلمي)، دون ان يفارقه هدوءه:

- ثق اننا سنبذل اقصى جهدنا يا سيد (نعمان).. قل لي اولا: الديك فكرة عمن فعل بك هذا؟

فكر (نعمان) لحظة في اخفاء ما لديه، الا انه لم يلبث ان اندفع قائلا:

- بالتأكيد.. انه (العقرب).

عقد (مجدي) حاجبيه استنكار، هاتفا:

- من؟!

ادار (نعمان) عينيه اليه، قائلا في حدة:

- (العقرب).. شاب وقح مقنع، يترك خلفه دوما بطاقة، تحمل رسما لعقرب من الذهب.

ردد (مجدي) في استهجان:

- مقنع وعقارب ذهبية؟! أي هراء هذا؟! اننا في (مصر)، ولسنا في أحد افلام المغامرات الهزلية الامريكية!!

اشار اليه اللواء (حلمي) ان يصمت، ثم سأل (نعمان) في اهتمام:

- وما الذي يجعلك واثقا من امر (العقرب) الى هذا الحد..

اجابه في حدة:

- لأنه هاجمني في قصري، وترك لي بطاقته؟

ارتفع حاجبا (مجدي) في دهشة، وهو يهتف:

- في قصرك؟!

اما اللواء (حلمي)، فقد ابتسم، وكأنما راق له الامر، وهو يقول بنفس الهدوء:

- في قصرك، ووسط رجالك وامنك؟! يا له من جريء!

هتف (نعمان) في حنق:

- انه وقح، لقد وقف على نافذة حجرة مكتبي، يحدثني عن الفارق بين العدالة والقانون.

ابتسم اللواء (حلمي) أكثر، وسأله:

- قل لي يا سيد (نعمان) هل يمكنك ان تصف ذلك الشاب؟

قال (نعمان في عصبية:

- انه نحيل، ممشوق القوام، طويل، ولقد كان يرتدي قناعا اسود اللون وزوجا من القفازات السوداء، و.

قاطعه اللواء (حلمي) في اهتمام:

- هل يمكنك تعرفه؟

حدق (نعمان) في وجهه بدهشة، قبل ان يلوح بكفه، هاتفا في حنق:

- قلت لك انه كان يخفي وجهه بقناع اسود.

قال اللواء (حلمي) في هدوء:

- اذن فانت تعجز عن تعرفه.

التفت العقيد (مجدي) الى رئيسه في دهشة، فقد خيل اليه انه قد نطق عبارته الاخيرة في ارتياح، وان لم ينتبه (نعمان) الى هذا، وهو يهتف محنقا:

- بالطبع..

ابتسم اللواء (حلمي) في ارتياح، وهو يقول:

- حسنا يا سيد (نعمان)، سأرسل في طلب رجل المعمل الجنائي، لفحص المكان، وسأرسل إليهم البطاقات، للبحث عن اية بصمات فوقها، كما سأقوم بتوزيع نشرة بأوصاف المقنع..

غمغم (نعمان) في سخط:

- لست اظن ذلك يفيدنا شيئا..

قال اللواء (حلمي) في هدوء:

- من يدري يا سيد (نعمان)؟ من يدري؟

وعندما اتجه الى سيارة الشرطة، كان يضيف في همس:

- حان الوقت لنتجرع من نفس الكاس..

سأله (مجدي)، وسيارة الشرطة تنطلق بهما مبتعدة:

- الا يبدو لك كل هذا مثيرا للدهشة والحيرة يا سيدي؟! شاب مقنع، وفتاة، وبطاقات تحمل عقربا ذهبيا.. هذه الامور لم تحدث ابدا في (مصر).

ابتسم اللواء (حلمي) ابتسامة غامضة، وهو يقول:

- لكل شيء بداية يا ولدي، ومن الواضح اننا نشهد لحظة ميلاد..

واتسعت ابتسامته، وهو يضيف:

- ميلاد (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- بلا كلل..

في الوقت الذي وقف فيه (نعمان) برغي ويزيد، وسط مزرعة الدواجن، توقفت سيارة من طراز قديم، امام اسطبله الخاص، على بعد كيلومترات قليلة من (القاهرة)، وهبط منها كهل أشيب الشعر، يرتدي منظارا طبيا كبيرا، وقد أطلق لحيته الشهباء، وتبعته ممرضة حسناء، في زيها الابيض التقليدي، واتجه الاثنان نحو حارس الاسطبل، وقال الكهل في لهجة تحمل الكثير من نفاد الصبر:

- أهذا اسطبل (نعمان والي)؟

اجابة حارس الاسطبل في حذر:

- نعم.. هذا اسطبل (نعمان بك والي)، ماذا تريدان؟

قال الكهل في ضيق:

- انا الطبيب البيطري الجديد، هلا افسحت لنا الطريق لفحص ذلك الجواد، الذي سيشارك في سباق اليوم.

عقد الحارس حاجبيه، وهو يقول:

- مستحيل! انني أجهل من انت، فهذه الجياد يرعاها الدكتور (بدران)، وهذا الجواد بالذات يمنع سيدي اقتراب أي كائن منه، في ايام السباق بالذات، فهو جواده المفضل..

قال الكهل في غضب:

- هل تتهمني بالكذب أيها الوقح.. انني الطبيب البيطري الجديد، فلقد ترك (بدران) العمل أمس، ورئيسك أمرني شخصيا بفحص الجواد، وهذه ورقة موقعة باسمه..

القى الحارس نظرة على توقيع (نعمان)، ثم قال في حزم:

- ولكن السيد لم يرسل اية اوراق من قبل.. انه يتحدث عبر الهاتف عادة.

قال الكهل في حنق:

- هاتفكم معطل، وليس لدي الوقت الكافي لهذا العبث، هل افحص الجواد قبل السباق، ام تتحمل انت المسئولية امام رئيسك؟

تردد الحارس لحظات، وعاد يلقي نظرة على توقيع (نعمان)، ثم قال وهو يدس الورقة في جيبه:

- لا باس: يمكنك فحصه..

ثم استدرك في حزم:

- ولكنني سأحتفظ بالأمر المكتوب..

ابتسمت الممرضة، وقالت:

- بالطبع يا فتى.. احتفظ به..

هتف الحارس بغتة:

- مهلا.. لحظة..

والتقط سماعة الهاتف، ووضعها فوق اذنه لحظات، ثم اعادها الى موضعها مغمغما:

- انه معطل بالفعل.. يمكنكما فحص الجواد.

ابتسم الكهل قائلا:

- شكرا يا ولدي.. لن تندم على قرارك هذا.. لن تندم ابدا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد (نعمان) الى قصره في التاسعة والنصف، والغضب يعصف بنفسه، وراح يسب ساخطا طيلة الوقت، وهو يقول لـ (سيد):

- يبدو انها لن تكون ابدا معركة هينة يا (سيد)، ولكم يحنقني هذا، انا الذي قاتلت على كل الجبهات، ولم اخسر معركة واحدة قط.

غمغم (سيد):

هذه المعركة تختلف يا سيدي..

هتف محقنا:

- بالتأكيد، فنحن لا نقاتل جهازا قانونيا، برع محامي في مراوغته، والافلات منه.. اننا نواجه فردا واحدا، يبغضني اشد البعض، ولا يتبع اية قواعد معروفة.

اضاف (سيد):

- ثم انه يتحرك في سرعة مربكة..

زفر (نعمان) في قوة، وهو يقول:

- وهذا ما يقلقني.

واستطرد وهو يدور حول مكتبه في توتر..

- ترى أين سيضرب ضربته القادمة؟ أين؟

لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع رنين الهاتف، فاختطف سماعته في سرعة، ووضعها على اذنه، قائلا:

- هنا (نعمان والي)، من المتحدث؟

ارتجف جسده في قوة، حينما جاءه الجواب بكلمة واحدة:

- (العقرب)..

عجز لنصف الدقيقة عن التفوه بحرف واحد، ثم هتف في صوت متحشرج يموج بالغضب والانفعال:

- ماذا تريد؟

اتاه الصوت الصارم القوي يقول:

- لا شيء.. اردت ان اخبرك انني قد قمت بزيارة لجوادك المفضل (روان)، الذي يستعد لخوض سباق اليوم..

اتسعت عينا (نعمان)، واشتدت قبضته على سماعة الهاتف، وهو يقول في حدة:

- ماذا فعلت به؟

اجابه الصوت الصارم:

- اطمئن.. مجرد منوم قوى.. لن يشارك جوادك العزيز في سباق اليوم حتها، ولكنني علقت في اذنه بطاقتي.

صرخ نعمان):

- ايها الوغد.. ايها الحقير..

اجابه صوت حازم، تتجمد له الدماء في العروق:

- انت هو الوغد الحقير يا (نعمان)، وما هي الا البداية، لقد سبق ان اخبرك انه لن يهدا لي بال حتى ادمرك تدميرا.. هل تذكر؟

اعاد (نعمان) سماعة الهاتف في عنف، وقد احتقن وجهه في شدة، فسأله (سيد) في قلق:

- اكان هو؟

اجابه في توتر واضح:

- نعم.. كان هو..

ثم لوح بيده مستطردًا كان هو في ثورة:

- لقد دس منوما قويا لـ (رهوان).

ارتفع حاجبا (سيد) في دهشة، وهو يهتف:

- يا إلهي!! وكيف توصل اليه؟

أشعل (نعمان) سيجارته في عصبية، وهو يقول:

- من الواضح انه يعلم كل شيء عني.

ونفث دخان السيجارة في قوة، وهو يستطرد:

- وانه يجيد اللعبة..

هتف (سيد) فيغضب:

- وهل سنتركه يلعبها حتى النهاية؟

عقد (نعمان) حاجبيه في قوة، وبدا من الواضح انه يفكر في عمق، وهو يقول:

- من الواضح انه يسعى الى إنهاكي بضربات سريعة متتالية، قبل ان يضرب ضربته الكبرى، ومن الواضح ايضا ان هذه الضربات السريعة تتجه كلها الى ممتلكاتي المعروفة.

سأله (سيد) في اهتمام:

- وماذا يمكننا ان نفعل؟

جذب (نعمان) نفسا قويا من سيجارته، وتألقت عيناه في شراسة، وهو يجيب:

- نستعد للضربة القادمة بالتأكيد..

ثم التفت الى (سيد)، مستطردًا في حماس:

- مر رجالنا بتشديد الحراسة على كل ممتلكاتي، وأخبرهم انني سأمنح كل من يعمل بإذني بطاقة خاصة، عليهم ان يطالبوا الجميع بإبرازها، على الا يشاع الامر، وفي هذه الحالة سيكون (العقرب) وحده هو الذي لا يحمل البطاقة الخاصة، لأنه يجهل وجودها..

قال (سيد) بنفس الحماس:

- هل اطلب منهم القاء القبض عليه، فور كشفهم امره؟

اجابه (نعمان) في حزم:

- الم تسمع ما قاله (العقرب) بنفسه يا رجل؟! اننا نتبع قواعد القانون هذه المرة، ولهذا لن نطالب رجالنا بإلقاء القبض عليه..

وعادت عيناه تتألقان بنفس الشراسة، وهو يستطرد:

- بل بقتله.. قتله على الفور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عملية صقر
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

9- الشك..

تهللت اسارير (غادة)، وارتسمت على شفتيها الجميلتين ابتسامة ترحاب، عندما شاهدت اللواء (حلمي) يخطو داخل مكتب المحاماة، الذي يحمل اسم (نديم فوزي)، واسرعت اليه هاتفة:

- مرحبا يا سيادة اللواء، اي ريح طيبة ارسلتك الينا؟

ابتسم اللواء (حلمي)، مدير المباحث الجنائية، تلك الابتسامة الحنون، التي تحمل الكثير من ملامح الابوة في اعماقه، وهو يقول:

- بل قولي اية نسمة رقيقة يا بنيتي؟ فانت تشبهينها كثيرا.

أطلقت ضحكة مرحة صافية، وهي تقول:

- ايمكنني اعتبار هذا نوعا من الغزل؟

ابتسم أكثر، وهو يقول:

- ولم لا؟ انني لم ابلغ من الكبر عتيا بعد، ثم إنك لم تعودي تعملين تحت امرتي.

ضحكت قائلة:

- لعل هذا أفضل حسنات الاستقالة..

تلفت بعينيه في ارجاء المكتب في اهتمام، وهو يسألها:

- أين (نديم)؟

اشارت الى باب يحمل اسم (نديم فوزي)، وهي تقول:

- في حجرته بالطبع..

ابتسم في حنان، وهو يقول:

- هذا من حسن الحظ، فربما قتلته الغيرة، لو شاهدك تضاحكينني هكذا.

سرت نبرة ضيق في صوتها، على الرغم من ابتسامتها العريضة، وهي تقول:

- اطمئن، هذا الامر لا يشغل باله ابدا..

سألها بغتة:

- أبسبب (العقرب)؟

كان اسلوبه بوليسيا بحتا، الا انه - للأسف - كان يواجه محترفة باردة الاعصاب، لم تختلج في راسها شعرة واحدة، وهي تحافظ على ابتسامتها، قائلة:

- أي عقرب؟!

تنهد قائلا:

- لا عليك.. انما هي عبارة فرت من لساني دون قصد، ثم اتجه نحو حجرة مكتب (نديم)، مستطردًا:

- امن الضروري ان يحصل المرء على موعد سابق لمقابلته؟

قالت في هدوء:

- ليس بالنسبة اليك يا سيدي.

دفع اللواء (حلمي) الباب، وتطلع الى (نديم)، قائلا:

- صباح الخير يا ولدي.

لوهلة خيل اليه ان (نديم) لم ولن يسمعه، فقد كان شاردا، يشبك اصابع كفيه امام وجهه، ويتطلع الى سقف الحجرة، الا انه لم يلبث ان ادار عينيه اليه، وقال في ترحاب

- مرحبا يا سيادة اللواء..

لم يبتسم كالمعتاد، وان حملت عيناه كل مشاعره، وهو ينهض ليصافح رئيسه السابق، مستطردًا:

- كم تسعدني زيارتك لمكتبي..

صافحه اللواء (حلمي) في هدوء، وهو يتفرس في ملامحه، على نحو غير عادي، ثم جلس على مقعد مقابل المكتب، وهو يقول:

- بل تسعدني انا رؤيتك يا ولدي..

جلس (نديم) على مقعد مواجه له، وهو يقول:

- هل اعجبك مكتبي يا سيدي؟

أومأ الرجل برأسه ايجابا، وهو يقول:

- انه جيد التأثيث، وشديد الاناقة، ولكنه يخلو من العملاء..

اجابة (نديم) برصانته المعهودة:

- سيأتون فيها بعد يا سيدي..

ران عليهما الصمت لحظات، ثم بدا وكان اللواء (حلمي) قد قرر عدم اضاعة الوقت، فقد سأله بغتة:

- قل لي يا (نديم)، ما الذي تعرفه عن (العقرب)؟

اجابة (نديم) في هدوء:

- اعرف انه حشرة سامة، من القشريات، ينتشر في المناطق الجبلية والصحراوية، و....

قاطعه وهو يميل نحوه في حدة:

- لست اقصد هذا..

سأله (نديم) في بساطة متناهية:

- ماذا اتقصد اذن يا سيدي؟

تطلع اللواء (حلمي) الى عينيه مباشرة، وهو يقول:

- انني اقصد (العقرب).

قال (نديم) في براءة:

- اتوجد عقارب اخرى، غير التي نعرفها؟

تراجع اللواء (حلمي) في مقعده، وقال دون ان تفارق عيناه وجه (نديم) الجامد:

- بالتأكيد.. هناك عقرب بشري، يسعى خلف (نعمان والى)، خصمك اللدود، وهذا (العقرب) البشرى شاب متشح بالسواد، يرتدي على وجهه قناعا اسود اللون، على غرار ابطال الروايات الهزلية، ويرتدي قفازين من اللون نفسه، ويترك خلفه دوما بطاقة تحمل رسما لعقرب ذهبي..

صمت لحظة، ثم اضاف في حزم:

- وتصحبه فتاة..

قال (نديم) في هدوء:

- اهو فيلم سينمائي هذا يا سيدي؟

. هتف اللواء (حلمي)، وقد نفد صبره:

- بل هو حقيقة يا (نديم).. حقيقة تعلمها انت جيدا. اجابة (نديم) بنفس الهدوء:

- لست اعلم شيئا عن هذا يا سيدي.

ثم مال نحوه مستطردًا:

- ما رأيك في كوب من عصير الليمون؟ اظنك تحتاج اليه، فأعصابك ثائرة للغاية.

حدق اللواء (حلمي) في عينيه لحظات، ثم تراجع مغمغما:

- نعم. أظنني احتاج اليه بالفعل..

ضغط (نديم) زرا يجاور مكتبه، فظهر ساعي المكتب الخاص عند باب الحجرة، وامره (نديم) بإحضار كوبين من الليمون، ولم يكد الساعي يغلق الباب خلفه، بعد احضار كوبي العصير، حتى قال اللواء (حلمي)، وقد هدأت اعصابه:

- اتعلم ان (العقرب) هذا ينفذ سياستك يا (نديم)؟

سأله في هدوء:

- كيف يا سيدي؟

قال اللواء، وهو يتفرس في ملامحه جيدا:

- انه يسعى العدالة، مخالفا بذلك القانون..

قال (نديم):

- ومن قال ان هذه سياستي؟! انني محام، ومهنتي هي الدفاع عن القانون.

تمتم اللواء (حلمي)، وقد احنقه ان يتخذ الحديث هذا المسار:

- نعم.. انت على حق..

واشاح بوجهه الى الناحية الاخرى، مستطردًا:

- ولكن ذلك (العقرب) البشري يحطم كل منشآت (نعمان) بلا رحمة، واظنه سيضرب ضربته القادمة في الملهى الليلي..

سأله (نديم):

- وهل يمتلك (نعمان والى) ملهى ليليا؟

اجابه اللواء (حلمي)، وهو يتحاشى النظر الى عينيه:

- تحرياتنا تقول انه يمتلكه، ولكنه يسجله رسميا باسم (سيد)، الرجل الاول في كل شركاته، ولقد أبلغنا أحد مرشدينا بان احدى قاعات الملهى الداخلية، تدار للعب القمار، على نحو غير مشروع..

واختلس نظرة الى (نديم)، وكأنما يرغب في معرفة رد فعله، قبل ان يعود فيشيد بوجهه، مستطردًا:

- اتعلم كم من الاموال يخسرها الاغبياء، على موائد القمار؟ انه مبلغ باهظ بالفعل.

واختلس النظر الى وجه (قديم) مرة اخرى، قبل ان يضيف:

- انه يكفي لإعالة عشرة ملاجئ للأيتام، لمدة عام على الاقل...

ظل (نديم) صامتا، يتطلع اليه، وكأنما يحاول ان يستشف ما يدور في عقل رئيسه السابق بدوره، فنهض اللواء (حلمي)، قائلا:

- حسنا.. ألف مبروك على المكتب، وسأنصرف انا، فلدى بضعة اعمال يتعين انجازها..

نهض (نديم) بدوره، وهو يقول:

- الن تبقى قليلا؟

اجابه وهو يتطلع اليه مليا:

- لا، فانا احتاج الى بعض النوم، خاصة وانه من المحتمل ان يتم استدعائي ليلا، إذا ما قرر (العقرب) مهاجمة الملهى الليلي..

قال العبارة الاخيرة في نبرة بطيئة نسبيا، الا ان ملامح (نديم) وصوته ظلا جامدين، وهو يقول:

- من يدري يا سيدي؟ من بدري؟

لم يكد اللواء (حلمي) ينصرف، حتى اندفعت (غادة) الى حجرة (نديم)، هاتفة:

- انه يعلم الامر.. فليقطع ذراعي ان لم يكن كذلك؟

التفت اليها (نديم)، وقال في هدوء:

- اذن فقد كنت تسترقين السمع كعادة كل النساء!!

تجاهلت عبارته، وهي تستطرد في انفعال:

- هل لاحظت كيف كان يتحدث اليك؟ لقد أدركت انه يشك في امرنا، منذ سألني بغتة عن (العقرب)، وكأنه ينوي الايقاع بي.. انه يعلم أنك (العقرب).

- قال (نديم) في بساطة:

- ولكنه لا يملك دليلا.. اطمئني..

هتفت في حنق:

أتتحدث عن الدليل؟

وعلى الرغم من هدوء ملامحه الشديد، لمحت ضحكة ساخرة في عينيه، وهو يقول:

- بالطبع، لقد حان دورنا لنتشبث بالقانون.. اليس كذلك؟

حدقت في وجهه لحظة في دهشة، ثم لم تلبث ان ارتسمت على شفتيها ابتسامة، وهي تلقي جسدها، على المقعد المقابل له مغمغمة:

- الا يقلقك الامر؟

هز راسه نفيا، وهو يقول:

- مطلقا..

ثم مال نحوها، وتطلع الى عينيها الجميلتين مباشرة، مستطردًا:

- ان كل ما يملكه اللواء (حلمي) هو مجرد شكوك، ورغبة في تأكيد الامر لنفسه، واقناعها بانه يعرف من هو (العقرب)، وكل ما علينا هو ان نواصل التظاهر بعدم الفهم، وسينتهي كل شيء لصالحنا.

تطلعت اليه لحظات في صمت، ثم هدا صوتها كثيرا، وهي تقول:

- ولكنه كان يحاول ان يقودك الى فخ، بحديثه عن الملهى الليلي، وقاعة القمار السرية..

قال في هدوء:

- او انه ينقل الينا معلومة ما.

هتفت مستنكرة:

- ينقل الينا معلومة؟ اية فكرة حمقاء تلك؟

قال هادئا:

- ربما انها ليست حمقاء الى هذا الحد..

واضاف وقد عاد الى نظرته الشاردة:

- وهناك وسيلة بسيطة للتيقن من ذلك..

سألته في فضول ولهفة:

- كيف؟

اجابها وهو يواصل نظرته الشاردة:

- بان نقبل التحدي خفق قليها في عنف وقلق، قبل ان يلتفت بعينيه اليها، مضيفا في حزم:

- وان بضرب (العقرب) ضربته الليلة، في ملهى (نعمان والى) الليلي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- احتيال..

ليس من المألوف، في اماكن اللهو الليلية، ان ترتاد المكان سيدة محترمة وحدها، لذا فقد اتجهت انظار كل رواد الملهى الليلي، الذي يملكه (نعمان والي) سرا، الى تلك الشقراء، ذات العينين الخضراوين، التي دلفت الى المكان منفردة وهي تسدل على كتفيها فراء ثعلب نادرا، يشي بثراء لا حد له، والتقطت عيون البعض تلك الاوراق المالية، من فئة الجنيهات العشرة، التي دستها الشقراء في يد رئيس الخدمة في الملهي، الذي انحني امامها في احترام ملحوظ، ثم قادها في حماس الى مائدة خالية، تواجه المسرح تماما..

وراحت الشقراء تتابع عروض اللهي في ضجر ملحوظ وهي تشعل سيجارة تلو الاخرى في نهم، حتى اشارت الى رئيس الخدم في عصبية، فأسرع اليها، وانحنى امامها انحناءة كبيرة، خشي البعض معها ان ترتطم راسه بحافة مائدتها، وهو يقول في احترام شديد، صنعته رزمة الاوراق المالية، التي استقرت في جيبه منذ قليل:

- بم تامر سيدتي؟؟

سألته في ملل، وهي تنفث دخان سيجارتها في قوة:

- الا يوجد شيء من الاثارة لديكم؟

اعتدل رئيس الخدم، وهو يردد وراءها:

- الاثارة؟! ماذا تقصد سيدتي؟

مالت نحوه، وهي تسأله في لهفة:

- الا توجد لديكم موائد خضراء هنا؟

ردد في دهشة مصطنعة:

- موائد خضراء؟!

ثم استطرد مبتسما في خبث:

- سيدتي تعلم اننا مجرد ملهى ليلي، ومن المحظور ان...

قاطعته في شغف:

- هذا المحظور هو ما ابحث عنه..

رمقها بنظرة فاحصة، وهو يقول:

- هل تميل سيدتي الى هذا النوع من الاثارة؟

رفعت أحد حاجبيها، ثم غمزت بالعين الاخرى، قائلة:

- الذ الاخذِ ما سلب.. اليس كذلك؟

ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة، وهو يقول.

- بلى، لقد فهمت يا سيدتي..

ثم انحني مرة اخرى انحناءة كبيرة، واضاف:

- هل تسمح لي سيدتي بلحظة؟

تألقت عيناها ظفرا، وهي تقول:

- بالطبع

تركها رئيس الخدم، واتجه نحو ملاحظ القاعة، وتحدث اليه بضع لحظات، واشار الى حيث تجلس الشقراء، ثم عاد يتحدث في حماس، قبل ان ترتسم على شفتيه ابتسامة كبيرة، ثم يتجه الى حيث تجلس الشقراء، ويقول:

- هل تسمح سيدتي بمصاحبتي؟

نهضت الشقراء في حماس، وجمعت اشياءها في حقيبتها الذهبية، وسارت الى جوار رئيس الخدم، حتى باب جانبي دلفا اليه معا، واغلقه الرجل خلفهما في احكام..

وبين رواد الملهى، كان هناك رجل أشيب الفودين، له شارب كث، يجلس وحيدا على مائدة بعيدة، يتابع الشقراء ورئيس الخدم في هدوء، حتى دلفا خلف الباب، واغلقه رئيس الخدم خلفهما، فغمغم الرجل محدثا نفسه:

- رائع..

لقد ربحنا الجولة الاولى لهذه الليلة..

ثم اخرج من جيب سترته البيضاء بطاقة يتوسطها رسم العقرب ذهبي، مستطردًا:

- وفي الجولة الثانية يضرب (العقرب) ضربته..

ولم يكن هذا الأشيب الفودين سوي (نديم فوزي)..

العقرب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استقبل (سيد) الشقراء، التي لم تكن سوى (غادة)، وصافحها بابتسامة عريضة، وهو يتفحص ملامحها، قائلا:

- مرحبا يا سيدتي.. سمعت أنك تبحثين عن بعض الاثارة..

ابتسمت في سخرية، وهي تقول:

عجبا!! الاخبار تنتقل بسرعة كبيرة هنا.

غمغم وهو يتفرس في ملامحها في دقة:

- صحيح

ثم سألها بغتة:

- سيدتي.. هل التقينا من قبل؟؟ أعني هل رايتك مسبقا؟

هزت كتفيها، قائلة:

- ربما، فصوري تملا صفحات الاجتماعيات، في معظم الصحف..

أومأ برأسه، متمتمًا:

- نعم ربما..

ثم اشار الى باب جانبي كبير، مستطردًا:

- تفضلي يا سيدتي.. هنا الاثارة الحقيقية..

وفتح الباب على مصراعيه، فارتفع حاجبا (غادة) في دهشة..

لقد كانت هناك قاعة اخرى خلف الباب.. قاعة يبلغ حجمها ربع حجم قاعة الملهى الرئيسية، وتنتشر فيها عشر موائد قمار خضراء، التف حولها عدد من الاثرياء ممن يروق لهم بعثرة اموالهم على تلك الموائد..

وتغلبت (غادة) على دهشتها في سرعة، وهي تقول:

- رائع..

وسرعان ما انضمت الى احدى الموائد..

ولم تمض ربع الساعة، حتى كانت قد خسرت متعمدة ما يقرب من الفي جنيه، فنهضت هاتفة في عصبية:

- اي حظ سيء هذا؟ لقد خسرت كل أموالى..

ابتسم (سيد) في خبث، وهو يقول:

- لو أنك تحملين دفتر شيكات، فيمكننا ان...

قاطعته في حدة:

- لا..

ثم اتجهت نحو الباب، مستطردة:

- سأذهب لإحضار بعض النقود، واعود على الفور.

هز كتفيه، وقال بابتسامة ساخرة:

- سننتظر..

ثم التفت الى أحد اللاعبين، مستطردًا:

- هكذا النساء..

انفجر بعض الرابحين ضاحكين، في حين عقد الخاسرون وهم الاغلبية العظمى، حواجبهم حقا، و (غادة) تغادر المكان، وتهبط الى صالة الملهى الرئيسية في توتر واضح،

وبدا لحظة انها ستغادر الملهى كله، الا انها لم تلبث ان يممت نظرها شطر مائدة بعيدة، وهتفت:

- (مروان) بك.. حمدا لله..

واسرعت الخطا نحو المائدة التي يجلس عندها (نديم)، وصافحته في حرارة، قائلة:

- (مروان) بك.. من حسن حظي ان اجدك هنا، فانا احتاج الى بعض المال.

قال (نديم) في صوت مرتفع:

- كل ما املك رهن اشارتك يا (نوال) هانم..

واخرج من جيبه رزمة اوراق مالية، ناولها اياه، هامسا:

- أين؟

اجابته في هدوء:

- الطابق الثاني.. لا توجد اية نوافذ، وهناك باب واحد، يقود الى حجرة المدير، بخلاف باب الدخول الرئيسي..

تمتم في اهتمام:

- اذن يمكن الدخول الى القاعة عبر حجرة المدير..

- بالتأكيد.

ثم دست رزمة الاوراق المالية في حقيبتها، هاتفة في صوت مرتفع:

- شكرا لك يا (مروان) بك.. سأنقدك المبلغ في الصباح..

وعادت الى رئيس الخدم في خطوات سريعة، وهي تقول له في حماس:

. هيا يمكنني مواصلة الاثارة لساعات اخرى..

تابعها (نديم) ببصره، حتى اختفت مع رئيس الخدم خلف الباب، ثم نهض من معقده، واتجه نحو باب جانبي اخر، وقال للواقف امامه:

- أين حجرة المدير؟

رمقه الرجل بنظرة جانبية، وهو يقول في صرامة:

- لماذا تسأل؟

قال (نديم) في هدوء:

- لدي ما يهمه الاطلاع عليه..

تطلع اليه الرجل طويلا في شك وحذر، ثم سأله:

- من انت؟

اجابة (نديم):

- أخبر المدير انني (مروان منصور)، المسئول الجديد عن ضريبة الملاهي.

عقد الرجل حاجبيه، وهو يحدق في وجهه بدهشة، ثم قال:

- انتظر لحظات..

قالها واستدار يدفع الباب، ويعبره الى ردهة صغيرة خالية، وعندما هم بإغلاقه خلفه، فوجئ بـ (نديم) يدلف الى الداخل في سرعة، فقال في صرامة:

- قلت لك انتظر..

رفع (نديم) قبضته اليه، قائلا:

- لو أنك تعلم ما الذي احمله في قبضتي هذه، ما تحدثت على هذا النحو الىّ..

اغلق الرجل الباب، وهو يسأله في حذر:

- وما الذي تحمله؟

انقضت قبضة (نديم) على فك الرجل كالقنبلة، وهو يقول:

- هذا..

انفجرت اللكمة في فك الرجل، فدفعته الى الخلف في عنف، وضربته بالحائط، الا انها لم تفقده الوعي، بل جعلته يهتف في الم وسخط، وهو يمد يده نحو جيب سترته، لينتزع مسدسه..

- اللعنة!! إنك..

قبل ان يتم الرجل عبارته، كانت قبضة (نديم) اليسرى تغوص في معدته، ثم تقفز القبضة اليمنى، لتكتم شهقته في حلقه، وتحطم زوج اسنانه الامامية العلوية..

وفي هذه المرة سقط الرجل فاقد الوعي..

واعتدل (نديم) يلهث بضع لحظات، ثم خلع سترته البيضاء، والقاها فوق الرجل، وبقي بسرواله وقميصه الاسودين، واضاف اليهما قفازين من اللون نفسه، ثم نزع الشعر المستعار الأشيب الفودين عن راسه، وهو يقول:

- الان انتهى دور (مروان منصور)..

وبدت الصرامة في عينيه وصوته، وهو يرتدي قناعه الاسود، مستطردًا:

- وحان دور (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- لسعة العقرب..

على الرغم من ان الوقت كان متأخرا حقا، الا ان اللواء (حلمي) لم يكن قد غادر مكتبه بعد، فقد شغله امر (العقرب) عن الدنيا كلها، فراح يخط كل ما لديه من معلومات، على ورقة بيضاء امامه، ثم يضيف اليها اسمي (نديم) و (غادة)، قبل ان يغمغم:

- اكاد اقسم انهما..

لم يتم عبارته، واكتفي بهز راسه في ضيق وحيرة، ثم رفع عينيه الى باب مكتبه، عندما سمع فوقه طرقات غليظة، جعلته يقول في ضيق:

- ادخل يا (مجدي).

دفع العقيد (مجدي) الباب، ودخل الى الحجرة مبتسما، وهو يقول:

- فراسة رائعة يا سيادة اللواء.. إنك لا تخطيء تعرفي ابدا.

قال اللواء (حلمي)، وهو يشير الى الباب:

- إنك الوحيد الذي..

كان ينوي ان يخبره انه الوحيد الذي يطرق بابه بهذه الغلطة، الا انه فضَّل الا يفعل في اللحظة الاخيرة، فبتر عبارته، ثم غمغم:

- الوحيد الذي أتعرفه في يسر..

جلس (مجدي) على المقعد المقابل لمكتب اللواء (حلمي) وهو يقول:

- هذا يسعدني يا سيادة اللواء.

تنهد اللواء (حلمي) في ضيق، وقال:

- قل لي يا (مجدي): لماذا انت هنا، حتى هذه اللحظة المتأخرة؟

عقد (مجدي) حاجبيه، وهو يقول:

- هناك امر يقلقني، ويشغل عقلي كثيرا يا سيدي..

سأله (حلمي) في ملل:

- ما هو؟

قال (مجدي) في لهجة تشف عن خطورة الامر:

- العقرب.

جذبت الكلمة انتباه اللواء (حلمي) كثيرا، فسأله في اهتمام:

- ماذا عنه؟

لوح (مجدي) بكفه، قائلا:

- انه ليس لصًا بالتأكيد، فهو لم يسرق شيئا، على الرغم من كل ما فعله، وكل ما ارتكبه من مخالفات قانونية، وهذا يبدو لي عجيبا... فهو يبدو اشبه بشخص يثار لنفسه من (نعمان والي) شخصيا، وعلى الرغم من ذلك فهو يتخذ لنفسه هيئة عجيبة، ويرتدي قناعا كأبطال الروايات الخيالية، ويتعمد ترك بطاقته خلفه اينما ذهب، ثم...

صمت بغتة، وكأنما يستعد لإلقاء قنبلة، قبل ان يضيف:

- ثم انه هناك الفتاة..

سأله (حلمي) في قلق:

- ماذا عنها ايضا؟

هز (مجدي) راسه، ولوح بكفه، قائلا:

- ليس عنها بصفة شخصية، ولكن الامور كلها تتجمع في راسي، وترسم صورة عجيبة.

سأله (حلمي)، في مزيد من القلق:

- اية صورة؟

تنهد (مجدي) في عمق، وقال:

- حاول ان ترسم الصورة مثلى يا سيدي .. شاب وفتاة، ليسا لصين، ولكنها يعملان ضد القانون، وضد (نعمان والي) بالذات.. بم يذكرك هذا؟ ... بل بمن يذكرك؟

جمع (حلمي) تلك الورقة، التي خط عليها اسمي (نديم) و (غادة)، وكورها في قبضته، ثم القاها في سلة المهملات، وهو يقول في صوت، حاول ان يجعله هادئا:

- بمن؟

مال (مجدي) نحوه، وهو يقول في حزم:

- بـ (نديم) و (وغادة)..

ردد (حلمي) خلفه في توتر:

- نديم) و (غادة)؟!

ثم أطلق ضحكة عالية، بدت واضحة العصبية، قبل ان يستطرد:

- يبدو ان الخيال قد جمح بك كثيرا.

عقد (مجدي) حاجبيه في شدة، وهو يقول:

- بل هذا هو أقرب ما يمكن الى الواقع يا سيدي، على الرغم من غرابته..

قال (حلمي) في حدة:

- كيف ايها العقيد؟! ان (نديم) محام محترم، ولن يخاطر بسمعته ونفسه من اجل هذا..

قال (مجدي) في حنق:

- بل هو مجنون بما يكفي ليفعل..

ونهض مستطردًا في حزم صارم:

- وسأبذل اقصى جهدي لإثبات ذلك يا سيدي..

لم ينبس اللواء (حلمي) ببنت شفة، حتى غادر (مجدي) حجرته، ثم ادار عينيه الى سلة المهملات، حيث القى الورقة، التي تحمل اسمي (نديم) و (وغادة)، وقال في اسف:

- يبدو ان مهمتك تزداد تعقيدا... ايها (العقرب)..

برقت عينا (سيد) كعادته، وهو يتطلع الى محتويات خزانة الملاهي، المتخمة برزم اوراق وبعض الحلى والمجوهرات، التي خسرها اصحابها على موائد القمار، وغمغم وهو يلتقط ثلاث رزم نقدية، ويدسها في جيب سترته:

- من حسن الحظ ان زبائن الموائد الخضراء لا يطالبون بإيصالات رسمية، مقابل ما خسروه بغبائهم..

وارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة، وهو يستطرد في خبث:

- والزعيم لا يطالب بذلك ايضا..

ارتفع من خلفه صوت جامد يقول:

- وماذا عني انا؟

انتفض جسد (سيد) في قوة، ولما كان موقنًا من انه وحده في حجرته، وان لهذه الحجرة بابين فحسب، أحدهما يقود الى قاعة القمار السرية، ولا يمكن فتحه من خارجها، دون استخدام الارقام السرية الخاصة، والاخر يقف على حراسته (ادوارد) بجسده الضخم، ومسدسه المتحفز، فقد امتلأت نفسه بمزيج من الدهشة والحيرة والذعر، وهو يستدير الى مصدر الصوت في سرعة كبيرة..

ثم تحولت دهشته الى ذهول..

وحيرته الى سخط..

وذعره الى هلع..

كل هذا عندما اصطدم بصره بذلك الشاب القوى البنية، على الرغم من نحوله، الذي اتشح بالسواد، وأخفى عينيه بقناع كبير، وصوب اليه مسدسا..

نفس مسدس (ادوارد) الضخم المتحفز..

وبلهجة خرجت من لسان جف لعابه، هتف (سيد):

- انت؟!

اجابه (العقرب) في برود:

- هل ادهشتك رؤيتي؟

بقي (سيد) لحظات صامتا، يحدق في الوجه الصارم ذي القناع، ثم غمغم في حنق:

- كيف دخلت الى هنا؟

رفع (العقرب) قبضته امام وجهه، وهو يقول:

- ابرزت بطاقتي لحارسك، فافسح لي الطريق على الفور..

ثم لوح بالمسدس، مستطردًا في هدوء مثير:

- بل لقد أصر على منحى مسدسه..

عاد (سيد) يحدق في وجهه في حنق وذهول، ثم هتف:

- ماذا تريد؟

قال (العقرب) في هدوء:

- هذا هو السؤال المناسب حقا..

ثم جذب ابرة مسدسه، مستطردًا في صرامة:

- فلنقل في البداية انني اريد كل ما لديكم هنا من اموال.

سرت موجة توتر قوية في جسد (سيد)، قبل ان يقول في حدة:

- انت لص اذن!! مجرد لص!

هز (العقرب) كتفيه في لامبالاة، وهو يقول في برود:

- لست اظن عقلك التافه يصلح لفهم الامور على نحو أكثر عمقا..

قال (سيد) في عصبية:

- ما الذي تحاوله يا فتى؟ ان تلعب دور (روبين هود)؟! ([1])

قال (العقرب) في هدوء مثير:

- بل دور (الماتادور) يا رجل.. اتعلم من هو (الماتادور)؟ انه مصارع الثيران الاسباني الشهير، الذي يقضي جل وقته في الحلبة، في ملاعبة الثور، وانهاكه الى اقصى حد، وبعد ان ينهكه تماما،

يتوقف عن منازلته، ثم ينتزع سيفه من غمده، ويصيب به الثور في مقتل..

ومال نحو (سيد)، مستطردًا في صرامة:

- وفي لعبتنا هذه، يلعب سيدك (نعمان والى) دور الثور ايها الوغد..

وبدلا من ان تغضب العبارة (سيد)، ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، وهو يقول في هدوء مباغت عجيب:

- هكذا؟! أيعني هذا أنك تلعب دور (الماتادور)؟!

وقبل ان يدرك (قديم) ما يعنيه ذلك التحول المفاجئ، شعر بفوهة مسدس باردة تلتصق بمؤخرة عنقه، وسمع صوت (ادوارد) الغاضب، وهو يقول:

- لقد انتهت المباراة مبكرا ايها المتحذلق، هيا.. انزع قناعك هذا، فلست أحب ان اقتل مقنعا..

وأردف عبارته بجذب ابرة مسدسه في حزم ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- الطعنة..

صحيح ان (نديم فوزي) قد عجز تماما عن التكيف مع اسلوب الشرطة، فيما يتعلق بالقوانين واللوائح، الا ان التحاقه بأكاديمية الشرطة، وبجهاز الشرطة فيما بعد، كان يتطلب اجتياز اختبارات ليست باليسيرة، واكتساب مهارات وقدرات ليست بالعادية..

أضف الى هذا شخصية (نديم) القوية، وقلبه الذي اعتاد مواجهة الصعاب والشدائد، دون ان تختلج خلاياه، او تتزايد نبضاته..

ولهذا لم يشعر (نديم) بالخوف، عندما التصقت فوهة المسدس بمؤخرة عنقه، ولم يرتبك، او يفقد سيطرته على عقله واعصابه..

انه - على العكس – امتلأ فجأة بحماس وقوة غير عاديين..

وعلى نحو مفاجئ - بالنسبة لي (ادوارد)، دفع (نديم) راسه الى الامام، ثم مال بها جانبا، ليتفادى انطلاق اية رصاصة من مسدس المجرم، ودار على عقبيه في سرعة ومهارة، وامسك معصم (ادوارد) بقبضته اليسرى، ورفع يد هذا الاخير، الممسكة بالمسدس، عاليا، ثم هوى بقبضته اليمنى، وبالمسدس الذي اغتصبه من (ادوارد) بالذات، على فك هذا الاخير..

وجاءت اللكمة كقنبلة مباغتة، انفجرت في فك الحارس الضخم، قبل ان يدرك حتى ما حدث..

ودون ان تنطلق من مسدس (ادوارد) رصاصة واحدة، اندفعت راسه الى الخلف في حدة وعنف، وارتطمت بحافة الباب

المفتوح، واصدرت دويا قويا، ثم عادت تندفع الى الامام، لتسقط مع جسده كله ارضا..

وقفز (قديم) جانبا، ليفسح المجال لسقوط جسد (ادوارد) الضخم، ولكنه لم يكد يستقر في مكانه، ويرفع عينيه الى (سيد)، حتى رأى هذا الاخير ينقض عليه في شراسة، وفي قبضته خنجر حاد يلتمع..

وقفز (نديم) جانبا، متفاديا نصل الخنجر الحاد، وهو يهتف:

- لا ايها الوغد.. ليس ثانية.

وامسك معصم اليد الممسكة بالخنجر في سرعة، ثم ثنى الساعد في مهارة، واستقبله بساعده هو، مما اجبر (سيد) على ترك الخنجر، وهو يطلق صرخة الم، كتمتها لكمة (نديم) الساحقة في حلقه، وهذا الاخير يقول:

- لا ترفع صوتك يا رجل..

كان لالتقاء قبضة (نديم) بفك (سيد) صوت مكتوم، اشبه بانفجار لغم قديم، وسط كومة من رمال الصحراء، ثم جحظت عينا (سيد)، وسقط عقد قدمي (نديم) فاقد الوعي..

وفي هدوء، التقط (قديم) من جيب قميصه واحدة من بطاقاته، التي تحمل رسم (العقرب) الذهبي، ووضعها فوق جسد (سيد)، وهو يقول:

- بلغ تحياتي الى زعيمك ايها الوغد، وقل له ان يستعد لطعنة السيف الاخيرة.

وجذب مشط المسدس، واتجه نحو الباب، الذي يفصل ما بين حجرة المدير، وقاعة القمار السرية، ودفع الباب بقدمه في

عنف، ثم قفز داخل القاعة، بزيه الاسود الغامض الرهيب، وقناعه المخيف، وهتف:

- لا يتحرك احدكم ايها السادة، انه سطو..

انطلقت شهقات البعض، وصرخات البعض الاخر، واشترك الجميع في القاء نظرة رعب على ذلك المقنع الاسود، وهم يتراجعون في ذعر، رافعين ايديهم في استسلام، في حين أسرع أحد رجال (نعمان) ينتزع مسدسه، لولا ان هوت على عنقه ضربة قوية، اسقطته ارضا كلوح من الخشب، مع صوت (غادة)، وهي تقول في سخرية:

- الم تسمع ايها الغبي؟

واخرجت من حقيبتها الذهبية الصغيرة مسدسا، صوبته بدورها الى الحاضرين، مستطردة في لهجة جذلة:

- هذا سطو..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتسعت عينا (نعمان والي) وقفزت الكلمات من بين شفتيه كالقنبلة، وهو يصرخ في ثورة وغضب وسخط:

- سطو؟! سطو على الملهى الليلي؟!

اجابه (سيد) في حنق، وهو يتحسس ضمادات فكه:

- نعم ايها الزعيم، سطو مسلح لقد خدعنا ذلك (العقرب) اللعين مرة اخرى، بمعاونة سيدة شقراء، ونجحا في الاستيلاء على نصف مليون من الجنيهات تقريبا..

صرخ (نعمان):

- ايها الاغبياء.. ايها الحمقى.. الم امركم باتخاذ كل وسائل الحذر!! الم اطلب منكم مضاعفة الحراسة على كل منشاتنا؟!

قال (سيد) في ضيق:

- لقد فعلنا ايها الزعيم، ولكننا لم نتوقع هجوما على الملهى الليلي، ولا على قاعة القمار السرية بالتحديد، فالملهى ليس مسجلا باسمك، بل باسمي انا، ثم ان معرفة امر القاعة السرية ليس بالمهمة اليسيرة.

هتف (نعمان):

- وهذا ما يثير جنوني..

وضرب سطح مكتبه بقبضته، مستطردًا في ثورة:

- كيف يعلم ذلك الرجل كل هذا؟

ورفع عينيه الى (سيد)، مردفا بمزيد من الثورة:

- ثم كيف امكنه ان يغادر الملهى الليلي بهذه البساطة، وهو يحمل نصف مليون جنيه من اموالنا؟

قال (سيد) في مرارة:

- كنت انا فاقد الوعي، وكذلك (ادوارد)، ولقد دفع هو وزميلته زبائن القاعة السرية الى تقييد كل رجالنا فيها، وبعدها حملا الاموال في حقيبة كبيرة، وغادرا المكان من مكتبي، حيث ارتدى هو سترة بيضاء فوق ثوبه الاسود وتأبطت الشقراء ساعده، ونزع قناعه، ووضع على راسه شعرا مستعارا اشبب الفودين، و...

قاطعه (نعمان) في حنق:

- هكذا؟! بكل بساطة.. من المؤكد انني احيط نفسي بثلة من الحمقى الاغبياء.. أنتم السبب في كل ما يحققه ذلك العقرب) من انتصار تلو الاخر.. أنتم السبب؛ لأنه يتعامل مع مجموعة من الاغبياء.. كيف يغادر الملهي بهذه البساطة؟ الم يوقفه أحد.. الم يصرخ أحد رواد صالة القمار مستنجدا؟ الم يتعرفه مخلوق؟

زفر (سيد) في قوة، وقال:

- ليس من الطبيعي ان يوقف العاملون في ملهانا زبونا ينصرف، وقتما يحلو له، وليس من المنطقي ان يتعرفه أحد، ما دام أحد لا يشك في امره، او يحاول التفرس في ملامحه، ثم ان احدا من رواد قاعة القمار السرية لم يكن ليطلق صرخة واحدة، مهما كانت خسائرهم، فكلهم من علية القوم، ولن يفضحوا أنفسهم ابدا، ولاحظ انهم كانوا يمارسون لحظتها نشاطا يحظره القانون..

القى (نعمان) جسده على ذلك المقعد الوثير، خلف مكتبه وهو يهتف في حنق:

- اعلم ذلك..

ثم عاد يضرب سطح مكتبه بقبضته في عنف، مستطردًا:

- هذا (العقرب) يعرف كيف يضرب ضربته، ويترك لي في كل مرة بطاقته اللعينة، التي كادت تصيبني بالجنون..

عقد (سيد) حاجبيه، وهو يقول:

اننا على الاقل نعلم اين سيضرب ضربته القادمة؟

التفت اليه (نعمان) في حدة، وهو يقول:

- أين؟

اجابة في حزم:

- في المنشاة الوحيدة الباقية لك ايها الزعم..

هتف (نعمان) في حنق:

- قلت لك الا تخاطبني بهذا اللقب.

زفر (سيد) في ضيق، وقال:

- حسنا.. اقول انه سيضرب ضربته حتما في المنشاة الباقية، فهو قد هاجم مزرعة الثعالب ومزرعة الدواجن، والاسطبل، ثم الملهى الليلي، فماذا بقي له؟

قال (نعمان) في توتر:

- شركة المقاولات..

هتف (سيد):

- تماما.. وهذا يعني انه سيضرب ضربته القادمة هناك، وكل ما علينا هو ان نحشد كل رجالنا وقوتنا في ساحة المعركة القادمة، ونملا رءوسهم جميعا بأمر واحد..

وامتلأت لهجته بصرامة وحشية، وهو يستطرد في بطء:

- بقتل (العقرب فور ظهوره.. وبلا رحمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استرخي (نديم) في مقعد ضخم وثير، في ردهة منزله، وتطلع في تكاسل وتراخ الى (غادة)، التي راحت تصب له قدحا كبيرا من

الشاي، وسألها في هدوء، وقد لاحظ تقطيبة حاجبيها:

- ماذا يقلقك؟

قالت في ضيق:

- ما فعلناه..

وناولته قدح الشاي، وهو يسألها في بساطة:

- وما الذي فعلناه؟

جلست على المقعد المقابل له، وزفرت في ضيق، وهي تقول:

- بل قل ما الذي تفعله؟ اننا نضيع الوقت في معابثة (نعمان والى)، واثارة غيظه وغضبه، دون ان نتجه الى الهدف الرئيسي، الا وهو الايقاع به، بتهمة الاتجار في المخدرات..

قال في هدوء:

- بل نحن نتجه الى الهدف يا (غادة)، ولكن بأسلوب جديد، سيصيب (نعمان) بالجنون والغضب، بحيث يصبح مؤهلا لتلقي الطعنة القاضية..

قالت في عصبية:

- وهل يتضمن هذا الاسلوب ان نتحول الى لصوص، يدبرون ويخططون لسرقة خزانة ملهى ليلي؟!

قال في صرامة:

- انت تعلمين ان السرقة ليست الهدف، فلقد تبرعنا بالمبلغ كله لصالح عدد من الجمعيات الخيرية وملاجئ الايتام والعجزة، ولكنني امارس مع (نعمان) لعبة مدروسة، تستهدف دفعه الى

خطوة عصبية، توقع به في الفخ، وتدفعه الى تقديم نفسه الى العدالة، على طبق من فضة..

ثم اعتدل، مستطردًا في اهتمام:

- ان معركتي مع (نعمان والي) لا تهدف الى مجرد التخلص منه يا (غادة) بل ان اجعل منه عبرة لكل مجرم يحتمي بثغرات القانون، ليهرب من سيف العدالة.. انت تعلمين مثلي ان (نعمان) يتمتع بحصانة قانونية..

- اعلم ذلك.

تابع وكأنه لم يسمعها:

- وهذه الحصانة تمنع القاء القبض عليه بأية تهمة، الا في حالة واحدة..

وصمت لحظة، ثم اضاف في حزم:

- التلبس.

قالت في توتر:

- ولكن الجميع يعلمون ان (نعمان والي) رجل شديد الحرص والحذر، وان هذا سرّ قوته، وانه من المستحيل تقريبا الايقاع به متلبسا.

قال في حزم:

- وانا العب لعبتي لتحطيم هذا المستحيل.

قالت محنقة:

- ولكنني شريكتك في كل هذا، فلماذا تحتفظ بخطتك في راسك وحدك؟

تطلع اليها لحظة، قبل ان يقول في صدق:

- لأنني لم اضع بعد خطة نهائية..

حدقت في وجهه بدهشة بالغة، قبل ان تهتف مستنكرة:

ماذا؟! لم تضع بعد خطة نهائية.. اعبث هذا؟

قال في هدوء:

- صدقيني - لم اضع بعد خطة نهائية، كل ما افعله الان هو ان اثير اعصاب (نعمان) الى اقصى حد، بحيث يصبح القضاء على (العقرب) هو هدفه الاول والأسمى، وعندما تحين اللحظة الحاسمة، ويجد امامه فرصة ذهبية للتخلص من المقنع الغامض، الذي احال حياته الى جحيم، فانه لن يتردد في الاندفاع نحوها، متخليا عن حرصه وحذره الاسطوريين..

وفرقع اصبعه، مستطردًا في حزم

- وعندئذ تحين لحظة الطعنة القاضية..

وانعقد حاجباه في قوة، وهو يضيف:

- طعنة العقرب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- حصار..

أطلقت (غادة) من بين شفتيها صغيرا منغوما، يشف عن مزيج من السعادة والجذل، وهي تهبط في درجات سلم منزلها، في الصباح التالي، ولم تكد تغادر البناية التي تقطنها، وتتجه شطر سيارتها الصغيرة، الرابضة على بعد أمتار من بوابة البناية، حتى وقع بصرها على وجه جعلها تعقد حاجبيها في ضيق، مغمغمة:

- يا له من صباح!!

واتجهت الى حيث سيارتها في هدوء، وهي تقول للرجل الذي ارتكن بجسده على مقدمة السيارة، وراح يطالع احدى صحف الصباح في تراخ:

- صباح الخير يا سيادة العقيد (مجدي)..

اعتدل (مجدي)، والتفت اليها، وهو يجيب في لهجة متحفزة، تنذر بجدل عنيف:

- صباح الخير هل اعتدت الاستيقاظ متأخرا هكذا، منذ تركت العمل في سلك الشرطة؟!

قالت في برود، وهي تفتح باب سيارتها:

- انني استمتع بذلك في الواقع..

قال في خبث، وهو يراقبها تدير محرك السيارة:

- وكيف حال (نديم)؟ هل يستيقظ متأخرا ايضا؟

هزت كتفيها، وهي تقول بنفس البرود:

- ريما

قال بنبرة غامضة:

- لعلكما تقضيان ليلكما في عمل شاق.

عقدت حاجبيها في شدة، وهي تقول في حدة:

- ماذا تقصد؟

- لم اقصد الاشارة الى اية نقيصة اخلاقية، اقسم لك.

قالت في غضب صارم:

- ماذا تقصد اذن؟

مال نحو نافذة السيارة، وتطلع الى عينيها مباشرة، وهو يقول:

اقصد عملكما الليلي..

حدجته بنظرة اشد برودة من الثلج، وهي تقول:

- أي عمل؟

اجابها وهو بدرس ملامحها كلها:

- عمل (العقرب)..

ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة احنقته، وهي تقول:

- (العقرب)؟! اي عقرب هذا.. عقرب الساعات ام عقرب الدقائق؟ عقد حاجبيه في سخط، وهو يقول: - أتسخرين مني ايتها الـ..

قاطعته في صرامة:

- ال ماذا؟

لوح بيده، هاتفا:

- اعلم انه ليس من حقي قانونا ان اوجه لك اية اتهامات، ما دمت لا املك ادلة..

ثم انحنى نحوها مرة اخرى، مردفا في غلظة:

- ولكنني اعلم انه (العقرب)، وأنك رفيقته.

تطلعت الى ملامحه في سخرية، وهي تقول:

- قل لي ايها الشرطي، هل اعتدت تناول المخدرات في الصباح؟

قال في غضب:

- هذا الشرطي كان رئيسك فيما مضى ايتها السخيفة، وكان يمكنه ان يوقع عليك جزاءا صارما، و٠٠٠.

قاطعته ساخرة:

- فلنحمد الله انه لم يعد كذلك..

احتقن وجهه غضبا، وقال في حدة:

- لا باس ايتها المتحذلقة.. اسخري ما شئت، فلقد وضعت يدي على اول الخيط، ولن اتركه حتى ألقي بك وبرفيقك المغرور خلف القضبان، وكل ما اريده منك هو ان تنقلي له رسالة صغيرة..

ومال ليحدق في عينيها مباشرة، مستطردًا في صرامة:

- اخبريه انني اعلم انه (العقرب)، وانني لن اهدا بالا حتى اوقع به اخبريه هذا فحسب.. فكلانا يفهم الاخر جيدا.. انه لن...

انطلقت بالسيارة بغتة، على نحو أخل بتوازنه، فبتر عبارته، ليحفظ توازنه، ثم لوح بقبضته خلفها صائحا في غضبا:

- سأوقع به حتما.

زادت من سرعة سيارتها، وهي تقول في توتر بالغ:

- لقد احكموا الحصار تماما حولك يا (نديم).. لقد حاصروك حتى النخاع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هز (نديم) كتفيه في لامبالاة، عندما قصت عليه (غادة) القصة، وقال بهدوئه التقليدي المثير:

- دعيه يضرب راسه بالحائط.. لقد حان الوقت ليدفع ثمن ثغرات القانون، فلابد له من ان يجد دليلا ماديا ضدي، قبل ان يوقع بي.

قالت في ضيق:

- الامر ليس هينا الى هذا الحد يا (نديم)، فعلى الرغم من ضيقنا بـ (مجدي)، الا اننا نعلم كم هو عنيد مثابر، ثم انه مخلص في عمله كثيرا، وما دام قد قرر الايقاع بك، فلن يهدا له بال حتى ...

مال نحوها بغتة، وقاطعها في هدوء:

- لابد ان يجد دليلا ماديا اولا يا عزيزتي.. هذا هو القانون

تطلعت اليه لحظة في صمت، ثم ابتسمت متمتمة:

- قل لي: الم يكن أحد اجدادك انجليزيا؟

هز راسه نفيا، وهو يقول:

- لا اعتقد ذلك.. لماذا تسألين؟

اتسعت ابتسامتها، وهي تقول:

- لان أحدهم اورثك ذلك البرود الانجليزي الشهير..

ثم هزت راسها متمتمة في اسف:

- كم كنت اتمنى لو ان أحد اجدادك كان فرنسيا..

سألها في دهشة:

- لماذا ايضا؟

مالت نحوها وتطلعت الى عينية، وهي تجيب:

- لان الفرنسيين يولدون بقلوب دافئة.. هل تفهم؟

مضت لحظة من الصمت، وهو يتطلع الى عينيها الخضراوين، قبل ان يقول في هدوء شديد:

. ليس كفرسان العرب، الذين أنجبوا (قيس بن الملوح) و (ابا فراس الحمداني) و ....

قالت في خفوت:

- و (نديم فوزي)

خيل اليها لحظة انه سيبتسم، وان عينيه تنطقان بما لم تتصور ان ينطق به لسانه، الا ان كل هذا لم يلبث ان ذاب وتلاشى، مع صوته الهادئ، وهو يقول:

- أخبريني يا (غادة).. لو أنك في موضع (نعمان والى)، فاين تتوقعين ضربة (العقرب) التالية؟

ضايقها ان أبدل الامر على هذا النحو، وطغي بعقله على نبض قلبها المحب الولهان، الا انها اجابت في جدية:

- في شركة المقاولات بالفعل..

سألها في اهتمام:

- لماذا؟

اجابته:

- لأنها المكان الوحيد الذي يملكه (نعمان)، ولم يهاجمه (العقرب) بعد..

تراجع في مقعده، واستند برأسه الى مسنده، وشبك اصابع كفيه امام وجهه، وهو يقول كمن يتحدث الى نفسه:

- اذن فهذا هو المكان الذي يتوقعه الجميع، وهز راسه، مغمغما:

- لو انهم ينتظرون من (العقرب) ان يضرب ضربته، حيث يتوقع الجميع، فهم حمقى ولا شك..

سألته في شغف:

- اين سيضرب ضربته اذن؟

التفت اليها، والتمعت عيناه في جذل، وهو يقول:

- خمني؟؟

وخيل اليها ان عينيه تحملان ابتسامة..

ابتسامة كبيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ازاح الرائد (شريف) منظاره المقرب عن عينيه، وهو يقول للعقيد (مجدي)، الذي يجلس على مقعد مجاور له:

- الامور تسير على نحو تقليدي مثير للملل يا سيادة العقيد، (نديم) و (غادة) يتحدثان معا طوال الساعة الماضية، وكأنما لا تنفد أحاديثهما ابدا.

قال (مجدي) في غلظة:

- واصل مراقبتهما ايها الرائد، فلن يلبث (نديم) ان يغادر مكتبه، ويتجه الى شركة (نعمان والي) للمقاولات.

سأله الرائد (شريف) في حيرة:

- ولماذا يفعل؟

عقد (مجدي) حاجبيه في شدة، وهو يقول:

- ليضرب (العقرب) ضربته القادمة هناك.

رفع الرائد (شريف) حاجبيه في دهشة، وهو يهتف:

- (العقرب)؟!

قال (مجدي) في حدة

- راقبهما ايها الرائد..

شعر الرائد (شريف) بحيرة بالغة، ازاء موقف رئيسه وعباراته المبهمة، الا انه لم يملك سوى اعادة المنظار المكبر الى عينيه، ومعاودة مراقبة نافذة حجرة مكتب (نديم)، من البناية المقابلة للمكتب، عبر الشارع الواسع..

وكان (نديم) في هذه اللحظة يتحدث الى (غادة) في حماس، وهي تجلس الى جوار النافذة، ثم انتقل هو الى داخل الحجرة، بحيث اختفى عن انظار (شريف)، ولكن نظرات (غادة) وحديثها،

وتلويحها بكفها، كانت توحي بانها مازالت تواصل حديثها مع (نديم)..

ولكنها لم تكن تفعل في الواقع..

لقد كانت تلعب دورها في براعة منقطعة النظير فحسب..

اما (نديم) فقد انصرف..

انصرف ليلعب دور (العقرب)..

برغم انف القانون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14 - الفخ..

تطلع حارس قصر (نعمان والي) طويلا، الى وجه ذلك الكهل الأشيب، الكث الشارب، الغليظ الحاجبين، قبل ان يقول في حذر:

- تقول إنك رجل شرطة؟

اجابه الكهل في صرامة:

- قلت لك انني العميد (مختار حسن)، من المباحث الجنائية، وانني اريد مقابلة السيد (نعمان) لأمر بالغ الاهمية.

سأله الحارس:

- أي امر هذا؟

عقد الكهل حاجبيه، وهو يقول:

- ليس هذا من شانك يا رجل.. اوصلني الى رئيسك فحسب..

عاد الحارس يتطلع اليه طويلا، قبل ان يقول:

- انتظر لحظة..

ورفع سماعة هاتف صغير، مثبت الى جوار البوابة، وقال:

- صلني بـ (نعمان) بك..

مضت لحظات من الصمت، قبل ان يعتدل في وقفته، ويقول في احترام:

- صباح الخير يا (نعمان) بك.. انا حارس البوابة.. هناك رجل يرغب في مقابلتك، ويدعى العميد (مختار حسن)، من المباحث الجنائية..

انتبه الكهل، في هذه اللحظة بالذات، الى وجود الة تصوير تليفزيونية، بين اغصان شجرة قريبة، ولاحظ ان عدستها قد مالت قليلا، لتركز على وجهه لحظات، قبل ان يقول الحارس:

- كما تامر يا (نعمان) بك.

واعاد سماعة الهاتف الى موضعها، وهو يفتح البوابة، قائلا:

- تفضل يا سيادة العميد

عبر الكهل البوابة، وقطع المسافة الطويلة عبر الحديقة، التي تفصله عن القصر، قبل ان يصل الى باب القصر، حيث استقبله (نعمان) بابتسامة عريضة، وهو يقول في لهجة عجيبة:

- مرحبا يا سيادة العميد اي ريح طيبة اتت بك الى قصرى التواضع؟

صافحه الكهل في هدوء، وهو يقول:

- التواضع هو اخر صفة تطلق على قصرك يا سيد (نعمان).. او عليك شخصيا..

اتسعت ابتسامة (نعمان) أكثر، وهو يقول:

- يا لها من بداية! لا باس يا سيادة العميد سنتحدث في مكتبي..

قاده عبر ردهة القصر الفاخرة الى حجرة المكتب الاكثر فخامة، والتي ازيل حائطها الايسر كله تقريبا، لتحتل موضعه نافذة زجاجية هائلة، تطل على حديقة وارفة، تنتهي بميناء صغير، على شاطئ النيل، استقر فيه زورق بخاري أنيق، واتخذ العميد مجلسه على مقعد وثير، يواجه النافذة

وهو يقول في برود:

- يبدو أنك تريح كثيرا هذه الايام يا سيد (نعمان).

حافظ (نعمان) على ابتسامته، وهو يتخذ مقعده خلف مكتبه، قائلا:

- افي المباحث الجنائية تعمل، ام في ادارة التهرب من الضرائب يا سيادة العميد؟

قال العميد بنفس البرود:

- انني اعمل لحساب الدولة على اية حال، ويقلقني كثيرا ان أجد صاحب شركة مقاولات عادية، يحيا بكل هذا البذخ.

سأله (نعمان) في لهجة أقرب الى السخرية:

- لماذا؟ هل انت شيوعي؟!

اجابه العميد:

- بل رجل يجيد الحساب، ويجد ان ارباح كل شركاتك لا تكفي لمثل هذه الحياة، التي تنافس ملوك (اوروبا) في العصور الوسطى.

وصمت لحظة، ثم قال في حزم:

- ما لم..

سأله (نعمان)، وهو يرفع حاجبيه مبتسما:

- ما لم ماذا؟

عقد العميد حاجبيه، وقال في صرامة:

- ما لم تكن أحد المتاجرين في تلك السموم، التي تبلغ ارباحها حدا خرافيا..

ران الصمت لحظات على المكان، ثم أطلق (نعمان) بغتة ضحكة قوية عالية، استمرت طويلا، على نحو أدهش العميد، قبل ان يقول (نعمان) في لهجة أقرب الى الجذل:

- لعبة طريفة حقا يا رجل.. كنت اتمنى ان اواصل لعبها معك طويلا، لولا ان وقتي اضيق من ان افعل.

وضغط زرا فوق مكتبه، وهو يستطرد:

- لذا سأرسل في طلب من يهوى مثل هذه الالعاب..

لم يكد يضغط الجرس، حتى اقتحم الحجرة (سيد)، مع رجل اخر، يحمل مدفعا اليا، و (نعمان) يضيف في مزيج من السخرية والشماتة:

-- ويسعدني ان اخبرك أنك قد وقعت اخيرا..

ونهض من خلف مكتبه، مستطردًا في صرامة:

- ابها (العقرب).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زفر الرائد (شريف) في ضجر، وهو يزيح المنظار عن عينيه، هاتفا:

- الا يشبعان من الحديث قط؟

رفع العقيد (مجدي) عينيه اليه، وهو يقول في توتر مباغت:

- اما زالا يتحدثان؟

اجابه (شريف) في ضيق:

- بالتأكيد..

التقط (مجدي) المنظار المقرب، وازاح (شريف) عن النافذة، وهو يضع المنظار فوق عينيه، وينظر الى نافذة مكتب (نديم)، ثم قال في حدة:

- لست ارى (نديم)! اين ذهب؟

اجابه (شريف):

- انه يقف في الركن المقابل منذ ساعة تقريبا

رفع (مجدي) المنظار عن عينيه، وهتف:

- منذ ساعة؟!

ثم القى المنظار، وهو يندفع خارجا، مستطردًا في حنق:

اللعنة!! لقد خدعنا ذلك الثعلب..

اندفع عبر الشارع كقذيفة، وكاد يسقط تحت اطارات سيارتين مسرعتين على الاقل، قبل ان يبلغ بناية مكتب (نديم)، ويقفز درجاتها صاعدا، وهو يهتف:

- اللعنة.. اللعنة..

انقض على المكتب في عنف، واقتحم حجرة (نديم) في غلظة، وادار عينيه فيها في غضب، قبل ان يصيح في وجه (غادة)، التي ابتسمت في سخرية:

- لقد هرب .. اليس كذلك؟

رفعت حاجبيها في دهشة مصطنعة، وهي تقول ساخرة:

- هرب؟! لماذا؟ انه ليس مجرما او سجينا انه مواطن حر، لا يوجد ما يمنعه من مغادرة مكتبه وقتما يشاء.

صاح محنقا:

ولكنك ظللت تخدعيننا بالتظاهر بالتحدث اليه طيلة اوقت..

قاطعته في سخرية:

- كنت استرجع كل اغنيات (عبد الحليم حافظ)، التي احفظها، ولا شان لي بانكم قد تصورتم انني اتحدث اليه، ثم ان قولك هذا يعني أنك كنت تراقبنا، اتملك تصريحا من النيابة بذلك، ام انها مراقبة غير قانونية؟!

انعقد حاجباه في غضب هائل، ثم هتف:

- لا باس سأسمح لكها بخداعي هذه المرة.

قالت ساخرة:

- تسمح لنا؟!

تجاهل سخريتها، مستطردًا في غضب:

- ولكنني سأوقع بكما في المرة القادمة..

اغلق الباب خلفه في ثورة وعنف، فتلاشت ابتسامتها الساخرة، وهي تغمغم في قلق:

- هذا لو انه هناك مرة قادمة

وزفرت في عمق، قبل ان تستطرد:

- لو عاد (العقرب) سالما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ران الصمت لحظات، على حجرة مكتب (نعمان) الفاخرة، قبل ان ينهض الكهل في بطء، ويقول في هدوء:

- هل تتهمني بأنني (العقرب) يا (نعمان)؟

لوح (نعمان) بكفه، على نحو مسرحي، وهو يقول:

- بالتأكيد يا عزيزي.. كنت اعلم أنك اذكى من ان تضرب ضربتك حيث نتوقعك، وقدرت أنك لن تهاجم شركة المقاولات.. الان على الاقل، ورحت ادرس الامر بكل دقة فوجدت انه من غير المنطقي ان تهاجم مزرعتي الثعالب والدواجن مرة اخرى، فلم يعد فيهما ما يغرى بالمداهمة، وكذلك الملهى الليلي، الذي سيحتاج الى بعض الوقت، ليستعيد زبائنه ثقتهم فيه مرة اخرى، وهكذا لم يبق لك سوى القصر، وكانت الوسيلة الوحيدة لدخولك اياه – في رأيي - هي ان تنتحل صفة رجل شرطة..

واتسعت ابتسامته، وهو يستطرد في زهو ظافر:

- باختصار، كنت انتظرك..

ساد الصمت لحظات اخرى قبل ان يعتدل الكهل، ويقول في هدوء:

- حسنا يا (نعمان).. لقد ربحت هذه الجولة..

هتف (نعمان):

- الجولة؟! لا يا عزيزي (العقرب). لقد ربحت المعركة كلها.. سينتزع (سيد) تنكرك الان، ونكشف وجهك الوسيم، وبعدها سنحبط جسدك بحجر ضخم، ونلقي به في النيل..

ظل (نديم) هادئا صامتا، لا تشف ملامحه عما يدور في اعماقه، في حين ابتسم (سيد) في شماتة، وهو يقول:

- هذا يسعدني..

واتجه نحو (نديم)، ومد يده لينتزع الشعر المستعار عن راسة، وهو يضيف:

- انني متشوق بالفعل، لرؤية وجه (العقرب)..

وفجأة سقط برود (نديم) كله حين غرة بشعلة من النشاط، واشتعل جسده على حين غرة بشعلة من النشاط..

وبغتة، انقض هو على (سيد)، وقبض على معصيه في قوة، ثم ادار جسده في عنف وضغط سبابته عنوة على زناد مسدسه..

وانطلقت رصاصة (سيد)، على الرغم من انفه، لتستقر في معدة زميله، الممسك بالدفع الرشاش امامه، وأطلق الرجل صرخة الم، وهو ينثني ممسكا معدته، ويسقط ارضا، في حين ادار (نديم) جسد (سيد) مرة اخرى، ليواجهه، وهوى على فكه بلكمة كالقنبلة، جعلت جسد (سيد) يقفز الى الخلف ككرة مطاطية، و (نعمان) يتراجع في رعب وذهول..

ثم اندفع (نديم) نحو الحائط الزجاجي، وقفز يخترقه بجسده في دوى هائل، ويسقط بجسده وسط الحديقة التي تفصل القصر عن شاطئ النيل....

وصرخ (نعمان):

- اوقفوه.. لا تسمحوا له بالفرار..

قفز (سيد) واقفا على قدميه، والتقط مسدسه، وهو يندفع نحو النافذة، هاتفا في سخط:

- لن ينجو هذه المرة ابدا..

كان (نديم) يعدو بأقصى سرعته نحو الزورق البخاري، فقد وقع في الفخ الذي أعده له (نعمان)، وأصبح محاطا برجال هذا الاخير من كل جانب..

فيما عدا جانب النيل..

وكان هذا هو المخرج الوحيد في رايه..

ومن خلفه سمع دوي رصاصة، ثم شعر بخيط من النار يخترق ذراعه، الا ان هذا لم يوقفه، بل زاد من سرعته، في حين راح (سيد) يهتف:

- لقد اصبته.. لقد اصبته..

صاح به (نعمان):

- اقتله.. لا تسمح له بمغادرة القصر حيا.

صوب (سيد) مسدسه مرة اخرى في احكام، وضغط زناده..

وفي اللحظة التي بلغ فيها (نديم) ميناء القصر الصغير، شعر بألم شديد في عنقه، فترنح جسده، وسقط..

سقط في النيل..

وصرخ (سيد) في ظفر:

- قتلت (العقرب)

وعندما بلغ الميناء مع رجاله، لم يكن جسد (نديم) قد طفا الى السطح..

كان قد اختفى في مياه النيل..

نيل (مصر)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- اختفاء..

اقتحم العقيد (مجدي) حجرة مكتب اللواء (حلمي) والغضب يتقافز من كل لمحة من لمحات وجهه، وهو يهتف محنقا:

- مر بإلقاء القبض عليه يا سيادة اللواء.. مُر بوضعه في السجن على الفور..

رفع اللواء (حلمي) حاجبيه، في مزيج من الدهشة والاستنكار، وهو يقول:

من هذا يا (مجدي)؟

ضرب (مجدي) يا سطح مكتب اللواء (حلمي) بقبضته في غضب وهو يقول:

- (نديم) ٠٠ (نديم فوزي) وزميلته السخيفة المتحذلقة (غادة).. انهما يتلاعبان بالقانون يتلاعبان بنا..

خفق قلب اللواء (حلمي) في قلق، وهو يقول:

- يتلاعبان بالقانون.. ماذا تعني؟

القى (مجدي) جسده على المقعد المقابل لمكتب اللواء (حلمي)، وهو يقول في حدة:

- هل تعلم من هو (العقرب) يا سيدي؟ انه (نديم فوزي) بشحمه ولحمه، و (غادة) هي مساعدته، التي شهد بوجودها الجميع.. مُر بإلقاء القبض عليه على الفور..

قاطعه (حلمي) في توتر:

- ولكنه اتهام خطير يا (مجدي)، هل تملك اية ادلة على اقوالك؟

احتقن وجه (مجدي)، واتسعت عيناه، وتراجع في دهشة، وكأنما لم يكن يتوقع هذا السؤال، وهو يغمغم:

- ادلة!

كان الاسلوب الذي القى به الكلمة كافيا، ليتلاشى نصف القلق من نفس اللواء (حلمي)، وهو يقول:

بالطبع انسيت قواعد العمل هنا ام ماذا؟

إنك تتهم ضابط شرطة سابق بمخالفة القانون، وتطالبني بإصدار امر بإلقاء القبض عليه، على الرغم من ان اوامر القاء القبض من اختصاص النيابة وحدها، وهذا يعني بالضرورة ان لديك ادلة قوية ضده..

ردد (مجدي) مرة اخرى في توتر:

- ادلة!

تم عقد حاجبيه في شدة، وهو يستطرد في عناد:

- بالطبع لدى ادلة

عاد قلب اللواء (حلمي) يهبط بين اضلاعه وهو يقول:

- ما هي؟

اعتدل (مجدي)، وتنحنح في قوة، قبل ان يقول في صلابة:

- الوصف ينطبق عليه وعلى زميلته تماما..

سأله اللواء (حلمي) في دهشة:

- أي وصف؟

اجابه في صرامة:

- الم يتفق الشهود كلهم في انهم قد راوا شابا وفتاة و . . .

قاطعه (حلمي) في حدة:

- وماذا؟

ردد (مجدي) في حيرة:

- و. ولا ريب انهما (نديم) و (غادة).. والا.. والا فمن غيرهما؟

هتف اللواء (حلمي) في غضب:

- من غيرهما؟! أهذا هو دليلك الوحيد ضدهما.. انت لا تجد من تتهمه بسواها؟!

احتقن وجه (مجدي) في شدة، ثم مال نحو المكتب بغتة في حزم، وهو يقول:

- هناك قرينة على الاقل، فلقد راقبت مكتب (نديم)، في محاولة لتتبعه، واثبات انه هو نفسه ذلك المدعو (العقرب)، ولكنه تعمد خداعي، بمعاونة (غادة)، و.

قاطعه اللواء (حلمي)، هاتنا في استنكار:

- راقبته.. وهل حصلت على اذن من النيابة بمراقبته؟

ارتبك (مجدي) وتلعثم، وهو يقول:

- في الواقع.. انا لم انت تعلم كم هي معقدة اجراءات..

قاطعه اللواء (حلمي) مرة اخرى في غضب:

- اذن فقد كنت تراقبه دون موافقة، ودون اذن بذلك اتعلم اية جريمة ارتكبت يا رجل!

هتف (مجدي)

- ولكنه (العقرب).. ليست لدي ذرة من الشك في هذا..

صاح به (حلمي):

- أعطني الدليل المادي واحتفظ لنفسك بكل ذرات الشك - هل تفهم؟ دليل مادي او لا شيء..

عاد وجه (مجدي) يحتقن في شدة، وهو ينهض قائلا:

- حسنا يا سيدي.. سآتيك بالدليل المادي.. وسأجعل هذا هو هدف حياتي كلها..

واتجه الى الباب في حدة، قبل ان يستطرد مضيفا:

- ولن ينعم (نديم) هذا بلقب (العقرب) طويلا.

ثم اغلق الباب خلفه في عنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غمر الارتياح (نعمان والى)، وهو يرتدي ثيابه هذا المساء، استعدادا لقضاء مسيرته في حفل اقامته احدى السفارات الاجنبية في (القاهرة)، فراح يطلق من بين شفتيه صفيرا منغوما، ويهز راسه على ايقاع اللحن، وهو يعقد رباط عنقه الفاخر، الزاهي الالوان، الا انه لم يلبث ان توقف عن كل هذا بغتة، عندما سمع طرقات منتظمة على باب حجرته، وقال في صرامة، لم يكن لها ما يبررها:

- ادخل يا من تطرق الباب..

دخل رئيس خدمه، وانحني انحناءة خفيفة في احترام، وهو يقول:

هناك صحفية شابة تطلب مقابلتك يا سيدي.

عقد (نعمان) حاجبيه في غضب، وهو يقول:

- صحفية؟! هنا؟! ومن سمح لها بالدخول؟

ارتبك رئيس الخدم، وقال:

- الواقع اننا لم نشا اعتراضها يا سيدي، بناءً على اوامرك بحسن التجاوب والتعامل الصحافة..

قاطعه (نعمان) في حدة:

- ولكن الوقت غير مناسب لمقابلة صحفيين.

أسرع رئيس الخدم يقول:

- لقد اكدت انها لن تأخذ الكثير من وقتك يا سيدي، وأنها ستطرح عليك سؤالا واحدا فحسب..

ظل (نعمان) يعقد حاجبيه طويلا في صمت، ثم قال في حزم:

- حسنا.. سألتقي بها.. دعها تنتظر في حجرة الجلوس الزرقاء..

تنحنح الخادم، قبل ان يقول في خفوت:

- انها هناك بالفعل يا سيدي.

رمقه (نعمان) بنظرة طويلة، ثم أكمل عقد رباط عنقه في سرعة، وارتدى سترته ذات الياقات اللامعة وأسرع يهبط في درجات قصيرة الى الطابق السفلى، حيث جلست فتاة ذات شعر احمر متناثر، ومنظار طبي ضخم انيق، وترتدي قميصا بسيطا، وسروالا أمريكيا ازرق..

وخيل (نعمان) ان وجه الفتاة مألوف، وهو يتجه اليها ويصافحها، قائلا:

- (نعمان والي) هل يمكنني تعرفك؟

اجابته في هدوء:

- (سلوى عثمان).. صحفية بمجلة (النهار)..

اشار اليها بالجلوس، وهو يقول في لهجة تشف عن الضجر والتعجل:

- يقولون ان لديك سؤالا لي.. ما هو؟

جلست وهي تقول في لهجة تحمل نبرتي التحفز والتوتر:

- انهما سؤالان في الواقع.. الاول هو..

صمتت لحظة قصيرة، ثم اكملت في اسلوب هجومي حاد:

- ابن العميد (مختار حسن)؟

كان السؤال مباغتا، الى حد جعل جسد (نعمان) ينتفض فوق مقعده في شدة، وجعل عينيه تحدقان في الفتاة الجالسة امامه، في مزيج من الدهشة والذعر، قبل ان يهتف بلا وعي:

- العميد (مختار)؟!

قالت الفتاة بنفس اللهجة الهجومية الحادة:

- نعم.. اين هو؟ انني اعلم علم اليقين انه قد زارك هذا الصباح، ومصادري تؤكد انه لم يغادر قصرك بعد الزيارة، ولقد تحريت الامر، فأخبرني بعض جيرانك انهم قد سمعوا صوت تبادل إطلاق نيران هنا، او صوت رصاصات على الاقل، فاين العميد (مختار)؟ وماذا فعلت به؟

ظل (نعمان) يحدق في وجه الفتاة لحظات في دهشة، ثم لانت ملامحه بغتة، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، وهو

يقول:

- اذن فانت تبحثين عن العميد (مختار حسن).. يا لها من فرصة طيبة ان تأتي بقدميك الى هنا!!

قالت الفتاة في صرامة:

- أين هو يا سيد (نعمان)؟

اتسعت ابتسامته الساخرة، وهو يقول:

- انه ليس هنا.. اقسم بشرفي على ذلك.

قالت في سخرية عصبية:

- بشرفك؟! هل توحي لي بعدم تصديقك؟

عقد حاجبيه في غضب، وهو يقول:

- لم تعد هناك فائدة لهذا.. كلانا يعلم انه ما من داع لاستمرار ذلك العبث، فنحن نعلم انه لا وجود لعميد شرطة بهذا الاسم، وان ذلك الذي انتحل تلك الصفة، لم يكن سوى زميلك.. وازداد انعقاد حاجبيه، وهو يضيف في غلظة:

- العقرب

ارتكنت على مقعدها في برود، وهي تقول:

- ومن قال انني ازامل العقارب؟

قفز من مقعده بغتة، وهو يهتف في غضب:

- انا اقول هذا..

وانتزع الشعر الاحمر المستعار عن راسها في حركة مباغتة، مستطردًا:

- وهذا هو الدليل..

انسدل شعرها على كتفيها، فور انتزاع الشعر المستعار عنه، وان بدت هي شديدة البرود، وهي تقول ساخرة:

- اي دليل يا سيد (نعمان).. هل يوجد عاقل واحد في هذه الدنيا، يمكنه ان يعتبر ارتداء الشعر المستعار دليل اتهام، بالنسبة الى اية سيدة؟ إنك لو فعلت هذا لألقيت القبض على ثلاثة ارباع نساء العالم.

جلس (نعمان) على المقعد المواجه لها، وهو يقول في صرامة:

- ومن يحتاج الى دليل.. لقد وضع زميلك المقنع القواعد لها، فهو بنفسه قال انها حرب بغير ادلة ولا قانون، ولقد كشفت انت نفسك بسؤالك عن العميد (مختار)، الذي تأكدنا من انه ذلك (العقرب)، قبل ان نورده حتفه..

اتسعت عيناها في ذعر، وهي تهتف:

- هل قتلتموه؟

لوح بيده في حركة مسرحية، مجيبا:

- لا جواب يا عزيزتي الصغيرة.. انت تعلمين بالطبع ان العقارب تكره الماء، وانه من المستحيل ان يسبح عقرب مصاب برصاصة قاتلة..

هتفت في بعض:

- ايها الوغد.

صرخ في وجهها بغتة:

- اخرسي..

ثم عاد يلوح بكته في عصبية هذه المرة، مستطردًا:

- انت وعقربك لعبتها لعبة أكبر من حجمكما... وتحديتما من يمكنه سحقكما بأطراف اصابعه، دون ان تقدرا عواقب الامور، وغركما ذلك النجاح التافه السريع، الذي حققتماه بمهاجمة منشاتي، فرحتما تسعيان الى المزيد من النجاح، واردتما مهاجمة قصري للمرة الثانية، ولكن هيهات.. انكما أتفه من ان تتحديا (نعمان والي) انكما..

انقضت عليه بغتة، وتعلقت بياقة سترته اللامعة، وهي تهتف في غضب:

- ايها الوغد الحقير.. ايها الـ..

دفعها بعيدا في حدة، وهو يصرخ:

- شوقي..

اندفع نحوه رجل ضخم من رجاله، إثر النداء، فاستطرد وهو يشير الى الفتاة، التي لم تكن سوي (غادة):

- اوقفها..

انقض (شوقي) بجسده الضخم على (غادة)، وكبل معصميها بقبضتيه في قوة، وهي تقول:

- هل ستقتلني يا (نعمان)؟ هل ستأمر رجالك بالتخلص مني هنا؟

اخرج (نعمان) علبة سجائره، ودس بين شفتيه سيجارة، وهو يقول:

- لا.. ليس هنا.. انني رجل حذر في الواقع، ولا يمكنني المخاطرة بقتل فتاة هنا..

قالت في حدة:

- هل ستحتجزني اذن؟

ابتسم وهو يهز راسه نفيا، قائلا:

- ولا هذا ايضا..

وأشعل سيجارته، والتقط منها نفسا عميقا، وهو يقول:

- ان لدي حلا أفضل، فهناك اماكن في هذه المدينة، يجهل حتى رجال الشرطة انني امتلكها، ومنها فيلا صغيرة انيقة في المقطم.. سأرسلك اليها الان، حيث..

لم يتم عبارته، وانما مرر سبابته على عنقه، بها يحمل المعنى المقصود، فهتفت (غادة) في غضب:

- ايها الوغد

تجاهل (نعمان) غضبها تماما هذه المرة، وهو يشير الى (شوقي)، قائلا في حزم:

- اريد ان تختفي.. تماما..

وهنا كمم (شوقي) غم (غادة)، وحملها عنوة الى الخارج، وهي تقاومه في عنف، في حين نفث (نعمان) دخان سيجارته مرة اخرى، وهو يقول مبتسما في ظفر، وعيناه تتألقان ببريق عجيب:

- الان يمكنني ان اغلق ملف (العقرب)..

وسحب نفسا عميقا اخر من سيجارته، ونفثه في قوة مستطردًا في حزم:

- الى الابد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16- هجوم...

اوقف (شوقي) سيارته امام تلك الفيلا الصغيرة، فوق جبل المقطم، وغادرها وهو ينادي زميليه داخلها:

- (انور).. (صالح). هلما الى هنا

أسرع اليه الرجلان، وسأله أحدهما في لهفة:

- اهو طرد جديد؟

ابتسم (شوقي) قائلا:

- نعم.. هو طرد جديد، ولكنه ليس أحد الطرود المعتادة.. انه طرد خاص

غمغم (انور) في حيرة:

- طرد خاص؟! اتمنى انه نوع جديد من المخدر..

أطلق (شوقي) ضحكة ساخرة، وهو يقول:

- بل من البشر

ثم فتح حقيبة السيارة الخلفية، فحدق (انور) و (صالح) في جسد (غادة)، المقيدة المعصمين والكاحلين، والمكممة الفم، والتي تتطلع اليهما في غضب، وهتف (صالح):

- انها فتاة..

قال (شوقي)، وهو يخرج (غادة) خارج السيارة:

- نعم.. انها رفيقة ذلك (العقرب).

غمغم الرجلان في دهشة:

- العقرب؟! لقد أخبرونا ان الزعيم قد تخلص منه.

أومأ (شوقي) برأسه ايجابا، وقال:

- وبالتخلص من زميلته تنتهي العملية كلها.

حمل (صالح) و (انور) (غادة) الى داخل الفيلا، حيث حلَّ (شوقي) وثاق قدميها، وازال الكمامة عن فمها، وهو يقول ساخرا:

- ما رأيك الان؟ هل نجح صديقك (العقرب)؟

ادهشها ان ارتسمت على شفتيها ابتسامة تجمع بين السخرية والظفر، وهي تقول:

- بالتأكيد.

ولم تكد تتم حروف كلمتها حتى بدا الهجوم..

اخر هجوم يتوقعه الرجال الثلاثة..

هجوم (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدا (نعمان) شديد التأنق والابتهاج، في حفل تلك السفارة الاجنبية، وراح كعادته يوزع ابتساماته ونكاته على الجميع، على الرغم من ركاكة لغته الاجنبية، حتى انفرد بالملحق الثقافي للسفارة، وانتحى به جانبا، وهمس له بالعربية:

- مرحبا يا صديقي (دافيد).. كيف حالك؟ وكيف حال الشحنة الجديدة؟

ابتسم (دافيد)، وداعب خصلات شعره الاشقر الناعم بأصابعه، وهو يقول:

- في خير حال يا عزيزي (نعمان).. انها ستصل في موعدها تماما.

نطق (دافيد) العبارة في لغة عربية سليمة، فقال (نعمان):

- ارجو ان يكون رؤساؤك قد اتخذوا الاحتياطات اللازمة هذه المرة، فانت تعلم انها أكبر شحنة منذ تعاملنا معا.. لقد كلفتني مائتي مليون دولار، وهي تقريبا كل ثروتي..

قال (دافيد) في هدوء:

- لا تقلق يا عزيزي انعمان).. اننا نتخذ الترتيبات اللازمة دوما، ولم يحدث ان تم الايقاع بك ابدا.. اليس كذلك؟

زمجر (نعمان)، قائلا:

- ليس الفضل في هذا لترتيباتكم يا دافيد، وانما لحذري الشديد.

ابتسم (دافيد) في سخرية، وهو يقول:

- هكذا؟!

هتف (نعمان) في حنق:

- دعك من اسلوبك هذا، الذي امقته، وأخبرني مرة اخرى.. الا توجد اية تعديلات في الخطة؟ هل سيتم التسليم مساء الجمعة القادم كما اتفقنا؟

هز (دافيد) راسه نفيا، وقال في حسم:

- بالطبع ستصل الشحنة - كما اتفقنا على متن بخت خاص، وستتسلمها مع رجالك على بعد عشرين كيلومترا، شرق مصيف (العجمي)، والشحنة سيبلغ وزنها طنا كاملا، من الهيروين البالغ النقاوة، وعليك اعداد السيارات اللازمة لحمله.

تمتم (نعمان):

- سأفعل.

رفع (دافيد) كأسه عالية، وهو يقول:

- ولا تنس عمولتي يا عزيزي، فانت ستربح من هذه الصفقة خمسمائة مليون دولار على الاقل.. اليس كذلك؟

التمعت عينا (نعمان) ببريق شره عجيب، وهو يرفع كأسه بدوره، قائلا في شبق:

- نعم.. انها صفقة العمر..

وتقارعت الكأسان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الهجوم خاطفا، مباغتا، قويا، مخيفا..

لم تكد (غادة) تتم حروف كلمتها، التي نطقتها في سخرية وحزم، حتى فوجئ الاوغاد الثلاثة (شوقي) و (صالح) و (انور)، بزجاج نافذة الفيلا، المطلة على (القاهرة)، يتهشم في عنف، وتتناثر قطعة في وجوههم، مع شبح اسود يعبر النافذة كالصاعقة..

وصرخ (انور) في رعب، وتراجع (صالح)، وهو يشهق مذعورا، في حين قفزت يد (شوقي) الى مسدسه، وهو يهتف:

- ما هذا؟

وهوت قبضة (العقرب) على فك (انور)، ثم قفز هو يواجه (صالح)، في نفس اللحظة التي رفع فيها (شوقي) مسدسه اليه، صارخا:

- لن تربح ابها (العقرب)..

ولكن (شوقي) لم يطلق رصاصة واحدة.. فعلى الرغم من يديها الموثقتين خلف ظهرها، قفزت قدم (غادة) تركل المسدس من

بد (شوقي)، وهي تهتف:

- لا تتجاهلني ايها الوغد..

ثم اندفعت قدمها الثانية تغوص في معدته، مستطردة:

- صحيح انني امرأة، ولكن..

قفزت قدمها الاولى تركل فكه كقنبلة، وهي تكمل جملتها:

- للنساء قوتهن ايضا..

اما (نديم)، فقد واجه (صالح) في برود كعادته، وهو يقول:

- ما قولك يا صديقي؟ أبارادتك تستسلم، ام على الرغم عن انفك؟

تردد (صالح) بضع لحظات، الا ان مشهد القناع الاسود، واسلوب الهجوم الخاطف المباغت، وتلك النبرة الصارمة الباردة في صوت (نديم)، كلها عوامل جعلت ارادة (صالح) تتفتت، وجعلته ينهار متمتما:

- انني استسلم..

اشار (نديم) الى (غادة)، وهو يقول في هدوء، وكأنما كان يتوقع هذا الاستسلام غير المشروط:

- حل وثاق زميلتي اذن.

نفذ (صالح) الامر صاغرا، فأسرعت (غادة) تلتقط مسدس (شوقي)، وهي تامر (صالح) في صرامة:

- والان ستقوم بتوثيق زميليك في احكام.. هيا..

ثم التفتت الى (نديم)، الذي اتخذ مقعدا وثيرا في هدوء، وراح يتابع المشهد على نحو يوحي باللامبالاة، وسألته في تعاطف:

- كيف حال جراحك يا عزيزي؟

هز كتفيه، وهو يقول في هدوء:

- في خير حال.. ومن حسن الحظ ان صديقنا (سيد) لا يجيد التصويب، فلقد جاءت الاصابات كلها سطحية، يسهل علاجها، ولكن اصابة ذراعي تعوقني عن القتال الجيد بالتأكيد، ولهذا فلقد كان من الافضل ان يستسلم ذلك الوغد، فلست أدري ماذا كان سينتهي اليه الامر، لو انه قرر القتال..

احتقن وجه (صالح) في حنق، في حين أطلقت (غادة) ضحكة ساخرة، وهي تقول:

- هذا من حسن الحظ..

ثم استطردت في حنان مباغت:

- ومن حسن تدبيرك للأمور ايضا، فلقد كنت رائعا بالتأكيد، عندما غصت في النيل ورحت تسبح تحت الماء بذراع مصابة، وعنق ينزف، حتى بلغت ذلك الموضع، الذي تركت عنده سيارتك و..

لوح بكفه، قائلا:

- لا داعي لكشف كل الاوراق، امام هذا الوغد يا عزيزتي..

ثم التفت الى (صالح)، قائلا:

- والان اجلس يا رجل، فستجيب عن بعض الاسئلة..

جلس (صالح)، وهو يقول في توتر حانق:

- لو أنك تهدف الى معرفة بعض اسرار الزعيم، فثق أنك لن تجد لدي اية اجوبة، ولن..

قاطعه (نديم) في هدوء:

- من قال انني ارغب في معرفة اي شيء عن زعيمك الحقير هذا؟

تطلع اليه الرجل في دهشة، وهو يقول في حيرة:

- اية اسئلة ستلقيها اذن؟

اعتدل (نديم) في مجلسه، وحمل صوته كل وقوته وصرامته، وهو يسأله في حزم:

- اريد معرفة ما تخفيه هذه الفيلا.. ولو اردت مزيدا من التحديد، فانا ابحث عن شيء واحد..

وبدا أكثر صرامة، وهو يضيف في حزم:

- المخدرات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما عاد (شعبان) من ذلك الحفل في الرابعة صباحا، كان جسده كله يتراقص بهجة وسعادة، بعد ان حقق في ليلته انتصارين ساحقين..

تخلص من اخر ما يتهدده بشأن (العقرب)، واكد صفقة عمره ..

ولهذين السببين بالذات، شعر (نعمان) بدهشة بالغة، عندما وصل الى قصره المنيف، وشعر بتلك الروح القلقة التي تحيط به وأدهشه أكثر وجود (سيد) في القصر، في تلك الساعة المبكرة، فسأله في توتر:

- ماذا حدث؟ لماذا اتيت الان؟

كان (سيد) يبدو اشد قلقا وحنقا وتوترا، وهو يجيب:

- العقرب.

كانت كلمة واحدة، من ستة حروف لا غير، الا انها كانت كافية لان ينتفض جسد (نعمان) كله في قوة، كمن اصابته صاعقة، وتتسع عيناه حتى تقاربا الجحوظ، وهو يحدق في وجه (سيد)، مرددا:

- (العقرب)؟ أي عقرب؟

لوح (سيد بكفه في سخط، وهو يقول:

- وهل يوجد غيره؟ ذلك العقرب الاسود القاتل ذلك الشبح الذي يطاردنا في كل مكان وزمان... ارتجف جسد (نعمان) وصوته، وهو يقول في توتر:

- ولكن.. الم يلق مصرعه.. الم تطلق عليه النار بنفسك؟

اجابه (سيد) في مرارة: - هذا ما تصورته، وما تصورناه جميعا، ولكن يبدو ان هذا العقرب كالأشباح.. ولا يموت ابدا.

القى (نعمان) جسده على أقرب مقعد اليه، وهو يقول في شحوب:

- وكيف.. كيف علمت انه حي؟

عقد السيد) حاجبيه، قائلا:

- لقد ضرب ضربة جديدة..

ردد (نعمان) كالذهول:

- ضربة جديدة؟! كيف؟

اجابه (سيد) في صوت يزخر بالحنق والمرارة والغضب:

- لقد هاجم فيلا المقطم، وحرر زميلته..

هتف (نعمان):

هاجم الفيلا، وحرر زميلته؟! وكيف له ان يتوصل اليها..

زفر (سيد) في حنق، قبل ان يجيب:

- من الواضح انه قد تتبع سيارة (شوقي)، حتى وصل الى الفيلا، وهناك هاجم (شوقي) و (صالح) و (انور) على نحو مباغت، وحرر زميلته، و.

بتر عبارته بغتة، على اثار قلق (نعمان)، فهتف به:

- وماذا؟

زفر (سيد) مرة اخرى في سخط، واجاب:

- وسرق كيلوجرامين من الهيروين.

هب (نعمان) من مقعده، صارخا:

- ماذا؟! سرق الـ . . . .

لم يستطع اتمام عبارته، من فرط انفعاله، فاختنقت الحروف في حلقة، وسعل في عنف، قبل ان يستطرد محتدا:

- أي هراء هذا.. كيف كشف مخبأ الهيروين.. من أرشده اليه؟

اجابه (سيد) في جدة:

- (صالح).. ولقد قمت باللازم معه، ونال جزاء فعلته و (انور) و (شوقي) يعملان على اخفاء جثته الان، ولكن ما يثير غضبي هو لماذا يفعل ذلك العقرب كل هذا؟ انني واثق من انه ليس مجرد لص.

انعقد حاجبا (نعمان) في شدة، وهو يقول في عصبية:

- انت على حق يا (سيد).. السؤال الحقيقي هو:

- لماذا يفعل كل هذا؟

وشرد ببصره بضع لحظات في صمت، قبل ان يستطرد في انفعال، وكأنه يفكر بصوت مرتفع:

- من الواضح ان زميلته كانت تعلم بنجاته، قبل ان تأتي الى هنا، فلماذا خاطرت بالمجيء، ربما لأنها تعلم انني سأكشف امرها، وانني سأرسلها الى مكان لا يعلمه سوأى، نظرا لحذري الشديد، وحرصي على الا اتخلص منها في قصرى، وكانت وزميلها (العقرب) يعلمان جيدا انه من الضروري ان يجدا بعض المخدرات، في ذلك المكان السري) ما دمت احرص على سريته،

وهذا يعني انهما انما رسما كل هذه الخطة لهدف واحد، الا وهو التوصل الى المخدرات وسرقتها.. ولكنني واثق مثلك - في الوقت ذاته – من انهما ليسا الصين عاديين.. فما الذي يبتغيانه اذن؟

غمغم (سيد) في حنق:

- لقد عجزت عن التوصل الى ذلك ايها الزعيم.

صاح به (نعمان)، مفرغا ثورة انفعاله:

- صه ايها الغبي.. قلت لك ألف مرة الا تنطق ذلك اللقب، والا قطعت لسانك.. هل تفهم؟ سأقطع لسانك لو نطقت به مرة اخرى..

عقد (سيد) حاجبيه، مغمغما:

- لن افعل ايها الزعيم. لن افعل..

تابع (نعمان) ثورته:

- ولن يمكنك ابدا التوصل الى ما يهدفان اليه من لعبتهما.. اتعلم لماذا؟ لان عقلك لا يبلغ المستوى المطلوب لهذا.. انهما يلعبان لعبة ذكاء كبرى، وانت لا تستخدم من جسدك سوى عضلاتك فحسب ولست تجيد حتى استخدامها.. هل فهمت؟

همهم (سيد) محتجا، بكلمات غير مفهومة، فتابع (نعمان) متوترا:

- انهما يهدفان الى امر أكبر كثيرا مما تتصور.. اراهن انهما يلعبان لعبة محبوكة للغاية.. ولكن لماذا؟ ما الهدف؟

وضرب قبضته اليمني في راحته اليسرى، وهو يستطرد في سخط:

- اه لو اعلم من هو (العقرب) هذا!!

تمتم (سيد):

- ان صوته يبدو لي مألوفا، ولكنني لست اذكر متى ولا اين سمعته، ولا من صاحبه.. ولكنني ابذل اقصى جهدي و.

قاطعه (نعمان) في حدة:

- لن تنجح ابدا..

ثم تابع في غيظ:

- لكن من الضروري ان انجح انا.. من المحتم ان أدرك طبيعة لعبتهما، فهذه هي الوسيلة الوحيدة للنصر..

وللظفر بـ (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17- الاعداد..

لم تكد (غادة) تدلف الى مكتب (نديم)، في الصباح التالي، حتى وقع بصرها على العقيد (مجدي) الذي جلس في الردهة الخالية، يتصفح جريدة الصباح، وقد وضع قدمه فوق ساقه الاخرى، وحل رباط عنقه قليلا، فابتسمت ابتسامة باهتة ضجرة، وهي تقول:

- صباح الخير ايها العقيد.. قل لي: انبغي ان ننتظر زيارتك كل صباح؟

طوى (مجدي) الجريدة، والقاها على المنضدة امامه، وحدج (غادة) بنظرة باردة قاسية، وهو يقول:

- الى حد ما، فزيارتكما تروق لي كثيرا..

جلست على المقعد المقابل له، وهي تقول في سخرية:

-كنت اتمنى ان يكون هذا الشعور متبادلا، ولكنني لم اعتد النفاق..

عقد حاجبيه في شدة، وهو يقول:

- ولا انا.. أخبريني.. اين (نديم)؟ الا يحضر الى مكتبه مبكرا ابدا؟

اتاه الجواب بصوت (نديم)، وهو يقول:

- هأنذا..

التفت الاثنان الى باب المكتب، حيث ظهر (نديم)، وابتسمت (غادة) في حنان، وهي تقول:

- صباح الخير يا (نديم).

اما (مجدي)، فقد قال محتدا:

- اهلا.. هل تهوى المباغتة دوما؟

هز (نديم) كتفيه في هدوء وهو يقول:

- فقط عندما يستلزم الامر ذلك..

اشار (مجدي) الى قطعة من مشمع الجروح اللاصق، تغطي جزءا من عنق (نديم)، وقال:

- ما سبب هذا؟

اجابه (قديم) في لا مبالاة، وهو يتجه نحو حجرته الخاصة:

- مجرد جرح بسيط..

قفز (مجدي) من مقعده، وامسك ذراع (نديم) في قوة، وهو يقول في حدة:

- اسمع يا هذا.. إنك لن تخدعني ابدا.. اراهنك أنك قد اصبت بهذا الجرح، في اثناء مغامراتك غير القانونية، في شخصية (العقرب)، وان ..

فجأة انتزع (نديم) ذراعه من قبضة (مجدي)، والتفت اليه في حركة حادة، وهو يقول في صرامة:

- اسمع يا (مجدي).. لقد سئمت تلك التفاهات..

قل لي اولا: أبصفة رسمية انت هنا ام شخصية؟

بهت (مجدي) للسؤال، ثم لم يلبث ان عقد حاجبيه، قائلا في تحدٍّ:

- وهل يهمك هذا كثيرا؟

اجابة (نديم) بنفس الصرامة:

- نعم.. فلو أنك هنا بصفة رسمية، فانا أصر على ان تبرز امر تفتيش، او امر قبض، او اي شيء من هذا القبيل، اما لو كان الامر بصفة شخصية فانا اعتذر عن مقابلتك، فلقد اعتدت مقابلة عملائي بعد العاشرة، والساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف بعد، ولست اسمح بالمقابلات الشخصية في اوقات العمل أهذا مفهوم؟

احتقن وجه (مجدي) في شدة، وهو يتطلع اليه، ثم قال

- مفهوم.. ولكنني اردت ان اخبرك بأمر ما، وهو انني اعلم أنك (العقرب)، وانني سأوقع بك حتما، ان عاجلا او اجلا..

قال (نديم) في برود:

- أهذا كل شيء؟

ازداد احتقان وجه (مجدي)، وهو يهتف:

- نعم.. هذا كل شيء.

واندفع نحو باب الخروج في حدة، ثم توقف ليستطرد:

- في الوقت الحالي

وأكمل طريقه في عنف، فزغرت (غادة) قائلة:

- انه مزعج للغاية..

اضاف (نديم):

- وفاشل ايضا..

ثم اشار الى مكتبه، مستطردًا:

- اكانت حجرتي مغلقة طيلة الوقت؟

أدركت مغزى سؤاله، فابتسمت قائلة:

- نعم، ويمكنك ان تطمئن، فلن يمكنه دس اية اجهزة تسجيل..

دفع باب حجرته في ارتياح، وهو يقول:

- اتبعني.

تبعته الى حجرته، فاغلق بابها خلفهما في احكام، وهو يسألها في اهتمام:

هل جمعت التحريات اللازمة عن ذلك الشخص؟

هزت كتفيها، قائلة:

- ليس بعد بالتأكيد، فهو ليس مواطنا مصريا، وسيكون من العسير جمع تحريات كافية عنه.

أومأ برأسه متفهما، واتجه ليجلس خلف مكتبه، وشبك اصابع كفيه امام وجهه، قائلا:

- لقد كنت على حق لحسن الحظ، عندما استنتجت انه هناك صلة مريبة، تربط (نعمان) بأحد موظفي هذه السفارة..

ابتسمت (غادة)، وهي تقول:

- بل كانت عبقرية منك ان تستنتج ذلك!

هز كتفيه، قائلا في هدوء:

- لم يكن الامر يحتاج الى اي نوع من العبقرية، فلقد أدهشني ان يقبل (نعمان) الدعوة لحضور حفل هذه السفارة بالذات، على الرغم من رفضه دعوات سفارات دول اخرى، ودفعني هذا الى التفكير في انه سيلبي الدعوة ليلتقي بشخص ما، يشاركه اعماله

المريبة.. ولقد كنتِ انتِ شديدة البراعة، عندما تشبثت بياقة سترته وغرست فيها جهاز الارسال الصغير هذا، الذي نقل الينا حواره مع (دافيد)

تنهدت قائلة:

- اننا نعلم الان ان (نعمان) ينتظر اتمام صفقته الكبرى، مساء يوم الجمعة القادم، على بعد عشرين كيلومترا، شرقي (العجمي)، وانه قد خاطر بثروته كلها تقريبا، في هذه العملية، ويكفي ان نبلغ الشرطة، و.

قاطعها في هدوء:

- خطا يا عزيزتي.. لو اننا أبلغنا ادارة مكافحة المخدرات بالأمر، فسيقتصر الموضوع على احباط الصفقة، وخسارة (نعمان) لثروته..

هتفت في دهشة:

- مطلقا.. الاوغاد امثال (نعمان) ينهارون بالطبع، عندما يخسرون ثروتهم، الا ان ذلك الانهيار يتلاشى في سرعة، مع اصرارهم على تعويض خسارتهم بعمليات اخرى ومن المؤسف انهم يجدون من يمولهم، اعتمادا على سمعتهم فحسب، وطمعا في ربح وفير.. لا يا عزيزتي.. لست اسعى هذه المرة لإفساد صفقة المخدرات، وافلاس (نعمان)..

- الا يكفيك هذا؟

هز راسه نفيا، وقال:

- بل اسعى الى انهاء المباراة بالضربة القاضية، او بطعنة سيف (الماتادور).. اسعى الى تحطيم (نعمان) تماما، بحيث لا تقوم له

قائمة بعدها ابدا..

سألته في لهفة:

- كيف؟

بدا هادئا، باردا، جامدا، على نحو احنقها كثيرا، وهو يقول:

- ستعلمين فيما بعد يا عزيزتي.. ستعلمين كل شيء في الوقت المناسب تماما..

وفي هذه المرة ايضا، لم يبتسم (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راح (سيد) يسير في ارجاء حجرته الخاصة، في الملهى الليلي، محنقا، غاضبا، بعد ان اتهمه زعيمه بالغباء، وبعدم القدرة على فهم الامور، وراح يضرب مكتبه بقبضته في سخط، وهو يهتف:

- لماذا يتصور انني غبي؟ لماذا يظنني ساذجا ابله.. لماذا؟

وضغط اسنانه في غيظ، وهو يستطرد:

- اه لو أمكنني ان اعرف من هو (العقرب) عندئذ سيقدر الزعيم ذكائي، وسيحترم عقلي.!

غمغم حارسه الخاص، الضخم الجثة، (ادوارد):

- لماذا يحنقك الامر على هذا النحو يا سيدي؟ كلنا نعلم ان الزعيم يتصور نفسه الذكي الوحيد هنا، و.

صاح (سيد). ليوقفه:

- كفي.. لست احتمل هذا الحديث..

ثم استطرد في لهجة أقرب الى الضراعة:

- قل لي يا (ادوارد).. الا تذكر أين رأيت ذلك (العقرب) من قبل؟

هز (ادوارد) راسه نفيا، وهو يقول:

- والواقع يا سيدي انني لست اذكر ابدا انني قد رايته من قبل.

هتف (سيد محنقا:

- ولكنني واثق من انني قد رايته.. شيء ما في صوته او في لهجته او كلماته، يؤكد لي انني قد التقيت به من قبل شيء قاله، او..

بتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه في شدة، وهو يهتف:

- يا للشياطين!!

اعتدل (ادوارد) في دهشة، وهو يسأله:

- هل تذكرت شيئا يا سيدي؟

التفت اليه (سيد) في حركة حادة، وامسك ذراعيه في قوة، واساريره تتهلل ظفرا، وهو يهتف:

- بل تذكرت كل شيء يا (ادوارد).

وقفز الى مكتبه في انفعال، واختطف مسدسه من درجه وراح يحشو خزانته بالرصاصات، و (ادوارد) يهتف به:

- ما الذي تذكرته يا سيدي؟ ما الذي جال بخاطرك؟

دفع (سيد) مسدسه في جيب سترته، والتمعت عيناه ببريق شرس، وهو يهتف:

- لقد عرفت من هو يا (ادوارد)..

وتضاعف بريق عينيه الشرس، وهو يضيف:

- عرفت من هو (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18- المباغتة...

كانت (غادة) منهمكة في تدوين بعض المعلومات، على جهاز كمبيوتر صغير في مكتب (نديم)، عندما يسقط امامها ظل ضخم، جعلها ترفع عينيها الى صاحبه في هدوء، ولكن لم يكد بصرها يقع على جسد (ادوارد) الضخم، وابتسامته الوحشية، التي تكشف عن اسنان قذرة صفراء من كثرة التدخين، وذلك المسدس الكبير في قبضته، حتى تلاشى هدوءها، وهبت من مقعدها هاتفة:

- من انت.. وماذا...؟

قبل ان تتم عبارتها، برز (سيد) فجأة من خلف (ادوارد)، وألصق فوهة مسدسه برأسها، وهو يقول في شراسة:

- الصمت يا ذيل (العقرب).. حرف واحد وأفرغ مسدسي كله في راسك.. هل تفهمين؟؟

كان من الواضح انه يعني تماما ما يقول، ولمحت هي رجلين مسلحين اخرين، اغلق أحدهما الباب، ثم انتزع من طيات ثيابه مدفعا رشاشا، و (سيد) يستطرد):

- أين (نديم فوزي)؟ اهو في مكتبه؟ حذار ان تجيبي باي صوت كان.. تكفيني ايماءة راس فقط..

هزت راسها نفيا، فأشار الى (ادوارد)، قائلا في حزم:

- تأكد من اجابتها..

اتجه (ادوارد) الى حجرة (نديم) في خفة، على الرغم من ضخامته، وانحنى يختلس النظر من ثقب بابها، ثم رفع راسه،

قائلا في هدوء هامس:

- انه هنا..

دفع (سيد) فوهة مسدسه في راس (غادة) في عنف، وهو يقول في حدة:

- هل تكذبين.. هل تحاولين حمايته؟

تمتمت في خفوت:

- ماذا تريدون منا؟

اجابها وهو يبتسم في شراسة:

- ستعلمين..

ثم دفعها امامه في عنف، وهو يهتف:

- اهجموا يا رجال.

اندفع الجميع بغتة داخل حجرة مكتب (نديم)، الذي هبَّ من مقعده متحفزا، لولا ان لمح (غادة) بين يدي (سيد)، ومسدس هذا الاخير الضخم يلتصق برأسها فقال في صرامة:

- ماذا تريدون؟

أفتر ثغر (سيد) عن ابتسامة وحشية شامتة، وهو يقول:

- نريدك انت يا رجل.. نريد (العقرب).

قال (نديم):

- (العقرب)!! أي عقرب يا رجل؟ هذا مكتب محاماة محترم، و.

قاطعه (سيد) في حزم:

- لا تحاول يا رجل.. لقد اتيت الى هنا، لأنني لا املك ذرة شك واحدة في كونك (العقرب)، وهذا بعد ان تذكرت كلمة نطقتها في حجرتي بالملهى الليلي، عندما هاجمتني هناك، في زيك الاسود المخيف هل تتذكر ما حدث.. عندما هاجمتك انا بمديتي.. لقد صحت انت عندئذ: ليس ثانية.. فما الذي يعنيه هذا القول.. انه يعني في بساطة انه قد سبق لي ان طعنتك بمديتي.. اليس كذلك؟ انت ينطبق عليك هذا، وتنطبق عليك كل الشروط.. وهذا يعني أنك انت (العقرب)..

ران الصمت لحظات على المكان، قبل ان يعتدل (نديم) في وقفته، ويقول في برود:

- حسنًا.. سنفترض انني كذلك.. ماذا تريد الان؟

هتف (سيد):

- كنت اريد ان اقتلك على الفور في الواقع، الا انني أحب ان افاجئ بك زعيمي، فهو لن يتصور ابدا انني استطعت تعرف (العقرب)، والقاء القبض عليه ايضا، وسيدهشه أنك انت خصمه اللدود، الذي يبحث عنه بكل جوارحه.

قال (نديم) في هدوء:

- وهل يمكن دفع ثمن عدم فعل هذا؟

صاح (سيد):

- مطلقا..

التفت (نديم) في بساطة الى الرجال الثلاثة، الذين يصحبون (سيد)، وقال:

- وماذا عنكم أنتم يا رجال.. ما رأيكم بمليون جنيه دفعة واحدة، مقابل قتل (سيد) بدلا مني، وعدم ذكر حرف واحد مما حدث لزعيمكم.

شعر (سيد) بحنق هائل، عندما لمح التردد في عيون رجاله، وهتف:

- ايها الاوغاد لا تجعلوه يخدعكم.. انه لا يملك حتى هذا المبلغ..

قال (نديم) في برود:

- امتلكه بالفعل ابها الوغد، انسيت ان ابى أحد أكبر اثرياء (مصر).

خشي (سيد) ان يؤثر الاغراء على رجاله، فهتف في صرامة:

- لا ابها (العقرب)، لن يمكنك شراء رجالنا قط..

ثم جذب مشط مسدسه، وهتف في حزم:

- هيا.. اقتلوهما يا رجال.

وزال تردد الرجال مع الامر المباشر، فارتفعت فوهات اسلحتهم نحو (نديم)..

وحانت لحظة الحسم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19- كل الاحتمالات..

كانت النهاية اتية لا ريب، وكانت كل الاصابع متحفزة للضغط الازندة، وإطلاق عشرات الرصاصات على (نديم) و (غادة)، عندما ارتفع بغتة صوت هادئ من خلف (سيد) ورجاله، يقول:

- اخطأت ايها الوغد.. انما انا العقرب كانت مفاجأة عنيفة حقا، جعلت الرجال الاربعة يلتفتون الى مصدر الصوت في سرعة وتحفز ...

ثم اتت المفاجأة الحقة..

لقد كان المكان خلفهم خاليا..

خالية تماما..

وقبل ان تعود رؤوسهم وابصارهم الى موضعها الاول كان (نديم) و (غادة) قد شنا هجومهما المضاد..

قفز (نديم) من فوق مكتبة، وركل مسدس (ادوارد) في قوة، ثم هوى بقبضته على اسنان هذا الاخير كالصاعقة، اما (غادة)، فقد اندفعت نحو (سيد)، وغاصت بقبضتها في معدته، ولم تنتظر حتى ينثني جسده، بل عاجلته بركلة في انفه، سقط لها ارضا، والدماء تلوث وجهه..

والتفت الرجلان الآخران في سرعة، ولكن واجههما مسدسا (نديم) و (غادة)، والاول يقول في صرامة:

- من يحب ان يتلقى الرصاصة الاولى؟

كان لذلك الانقلاب المفاجئ، وللهجة (نديم) الصارمة ومباغتته، الاثر الكافي، فألقى الرجلان سلاحيهما في سخط، وارتفعت ادرعتهما فوق راسيهما، في حين راح (ادوارد) يخور كثور جريح، ونهض (سيد) محلقا، يحاول ايقاف النزيف الدموي، المنهمر من انفه، وهو يقول:

- اللعنة! ماذا فعلت بي؟

اجابته (غادة) في سخرية:

- انها لعبة طريفة يا رجل، فلقد توقع (نديم) حدوث محاولة هجوم ذات يوم، فزود إطار الباب بأسطوانة صغيرة، تحمل تلك العبارة التي سمعتموها، ويمكن تشغيلها بزر صغير في إطار مكتبه.. ما رأيك؟ اليس هذا دليلا على الذكاء والعبقرية، وبعد النظر الى الامور؟

هتف (سيد) في حنق:

- ولكن هذا لن يجدي، فلن يمكنكما ابدا اثبات اننا حاولنا ان..

قاطعه (نديم) في برود:

- اطمئن ايها الوغد.. اننا لن نحاول ذلك ابدا، فلقد وعينا الدرس، وقررنا ان نلعب اللعبة بقواعدكم أنتم.

غموم (سيد) في قلق وتوتر:

- ماذا تعني؟

اجابه في هدوء:

- أعني اننا لن نبلغ الشرطة هذه المرة.

تطلع اليه الرجال في دهشة وحذر، فاستدرك:

- ولن نطلق سراحكم في الوقت ذاته.

قفز الى اذهانهم احتمال دموي مخيف، لولا ان اضاف هو في حزم:

- سنحتفظ بكم هنا، حتى مساء الجمعة.. اي ليومين فحسب..

بدا (سيد) يتوتر في شدة، وهو يقول على نحو عصبي:

- لن يمكنك هذا..

قال (نديم.) في برود مخيف

- هل تراهن؟

حاول (سيد) ان يلجا الى الخداع، فقال في حدة:

- أتظن ان الامور ستسير على هذا النحو الهين؟ ان الزعيم يعلم أين نحن، وهو لن يسمح به..

قاطعه (نديم):

- محاولة فاشلة ايها الوغد، فلقد قلت بنفسك – منذ قليل - إنك تريد ان تفاجئ زعيمك بالأمر، وانه لن يتوقع ابدا كوني (العقرب)، وهذا يعني انه لا يعلم حتى اين أنتم..

- بدت المرارة ممتزجة بخيبة الامل، على وجه (سيد)، في حين اضاف (نديم) في حزم رجل لم يعتد الهزيمة:

- سنحتفظ بكم سالمين، حتى ليل الجمعة، وبعدها سيكون على الشرطة الرسمية ان تتولى امركم، وامر زعيمكم..

وصمت وهلة، قبل ان يضيف في صرامة:

- لقد حانت الجولة الاخيرة ايها الاوغاد.. جولة (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غادر وزير الداخلية مكتبه، وراح يقطع الممر الطويل لذلك الطابق، في خطوات سريعة كالمعتاد، حتى استوقفه ضابط برتبة عقيد، وهو يقول في توتر:

- لحظة يا سيادة الوزير..

التفت اليه الوزير، وتوقف يسأله في صرامة:

- ماذا تريد ايها العقيد؟

اجابه العقيد(مجدي) في عصبية واضحة:

- اريد امرا باعتقال رجل.

عقد وزير الداخلية حاجبيه، وهو يسأله:

- اي رجل.. اهو سيأسى مشاغب.. ام متعصب؟ ام..

قاطعه (مجدي):

- بل هو رجل يتحدى القانون يا سيدي..

رفع الوزير حاجبيه في دهشة، مرددا:

- يتحدى القانون؟

ثم عاد يعقد الحاجبين، مستطردًا في غضب وصرامة:

- ومن ذا الذي جرؤ على تحدي القانون؟

اجابه (مجدي) بنفس عصبيته:

- (العقرب) يا سيدي.

حدق الوزير في وجهه بدهشة، ثم قال في حيرة:

- الم تؤكد انت ورؤساؤك، في تقريركم عن هذا الشأن، انكم تجهلون تماما شخصية ذلك المقنع؟

اجابه (مجدي) في لهفته:

. لقد عرفته يا سيدي..

هتف الوزير:

- ولماذا امر الاعتقال اذن؟ الق القبض عليه فورا..

تنحنح (مجدي)، وهو يقول:

- المشكلة انني لا املك دليلا رسميا، و

قاطعه الوزير:

حسنا.. من هو ذلك (العقرب)؟

اعتدل (مجدي)، وتنحنح في شدة، وقال في حزم:

- انه (نديم) يا سيدي (نديم فوزي)..

عاد الوزير يعقد حاجبيه للمرة الثالثة، وهو يقول:

- (نديم فوزي)؟! اليس هذا هو ضابط الشرطة الذي...؟

قاطعه (مجدي) في لهفة عجيبة:

- نعم.. انه هو الذي فصلته يا سيادة الوزير..

تطلع الوزير الى (مجدي) في شك، وقد بدت له تلك اللهفة الزائدة اشارة الى ان (مجدي) يعالج الامر بانفعال شخصي، او انه يضمر روحا انتقامية لـ (نديم) هذا، فقال في حزم:

- حسنا.. الامر يحتاج الى بعض الدراسة..

هتف (مجدي) مستنكرا:

- ولكن يا سيدي!!

قال الوزير في صرامة:

- قلت لك انه يحتاج الى الدراسة.. انه امر اعتقال.

ثم واصل انصرافه بنفس خطواته الواسعة، تاركا (مجدي) خلفه يقول في غيظ:

- فليكن ايها (العقرب).. سأحتمل الانتظار هذه المرة، وبعدها سأسحقك سحقا.. هذا هو الاحتمال الوحيد لنهايتك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20- يوم المعركة..

لم تكد تشرق شمس الجمعة، حتى بدا (نعمان والي) شديد التوتر والعصبية، حتى انه راح يسب كل من حوله، بغض النظر عن استجابتهم وخدماتهم له من عدمها..

وبكل ثورته وقلقه، راح يصرخ:

- أين (سيد)؟ اين ذلك الحقير؟ لماذا لم ار وجهه منذ أمس الاول؟

اجابه رئيس خدمه في حذر:

- ربما سافر الى (الاسكندرية) يا سيدي، فرجال ملهاه الليلي يقولون انه قد اصحب معه ثلاثة رجال، وانصرف منذ مساء الاربعاء.

ضرب (نعمان) مائدة الافطار بقبضته في حنق، وهو يقول:

. ذلك الغبي الحقير.. كيف يسافر دون المرور على القصر؟

كان يعلم ان ثورته ليس لها ما يبررها، وان (سيد) قد اعتاد اتمام كل الصفقات الكبيرة بنفسه، دون الرجوع اليه.. وانه يعلم جيدا موعد ومكان اتمام صفقة الليلة، ولكن شعوره بان هذه الصفقة تمثل نقطة تحول هائلة في حياته، كان يبعث في عروقه رجفة مخيفة..

انه، لو نجحت هذه الصفقة، فسيصبح واحدا من اثرياء العالم المعدودين، الذين يمكنهم تحريك اقتصاديات دول كاملة..

اما لو فشلت فستدمره تدميرا ..

والاحتمالات يرجفان مشاعره تماما..

ثم انه يعتبر هذه الصفقة الكبرى نهاية لعمله في تجارة المخدرات..

لقد اعد عدته ليجعل منها كذلك..

لقد ابتاع قصرا في (سويسرا)، ويستعد لبناء مصنع ضخم هناك، وسيترك كل اتباعه خلفه.. وبخاصة (سيد) اللعين هذا..

سيترك (مصر) كلها، ويبدأ هناك حياة جديدة نظيفة..

تضاعف توتره، عندما تذكر (العقرب)، واصراره على تحطيم حياته، الا انه لم يلبث ان هز راسه في قوة، قائلا:

- لا.. ليس لذلك (العقرب) شان هذه المرة..

ولم يدرك لحظتها ان لـ (العقرب) شانا كبيرا الليلة..

انها ليلته..

على عكس (نعمان)، بدا (دافيد) شديد المرح، وهو يغادر مبنى سفارته، ويدلف الى سيارته الفارهة الانيقة، التي يندر وجود مثلها في (مصر)..

ان مخطط دولته يسير على نحو ممتاز.. لقد انتقى (نعمان والي) بالذات، وراح يمده بالمخدرات، طيلة اعوام، وصنع منه واحدا من اقوى تجار المخدرات في الشرق، ليدمر بواسطته شباب (مصر)، ويدفعهم الى الغرق في نهر من السموم..

وبعد اعوام قليلة، ستكون (مصر) قد انهارت داخليا وتكون دولته هي الاقوى بلا منازع، في الشرق الاوسط..

راح يطلق من بين شفتيه صفيرا مرحا منغوما، وهو يقود سيارته مبتعدا عن السفارة، ومال جانبا بالسيارة، في شارع ضيق، عندما

تجمدت عيناه بغتة، وتسمرت قدماه على عجلة القيادة في توتر عصبي ..

لقد راي في مرآة سيارته شبحا يتشح بالسواد، ويخفى وجهه بقناع اسود، وقد برز من المقعد الخلفي، وصوب الى راسه مسدسا، وهو يقول في صرامة:

- لا تتوقف ايها الوغد.. انطلق..

اطاعه (دافيد) في استسلام، وهو يقول بالإنجليزية:

- ماذا تقول ايها السيد؟! لست افهمك..

قال (العقرب) في صرامة:

- بل تفهم، فلدى تسجيل لك، يؤكد أنك تتحدث العربية كاهلها..

كان من الواضح ان ذلك المقنع يعلم عنه الكثير؛ لذا فقد تخلى (دافيد) عن التظاهر بجهل اللغة العربية، وقال بها مباشرة:

- ماذا تريد مني.. ومن انت؟

الصق (العقرب) فوهة المسدس بمؤخرة عنق (دافيد)، وهو يقول في صرامة:

- ليس من حقك ان تلقي اية اسئلة.. انطلق الى حيث سأرشدك فحسب..

سأله (دافيد) في توتر:

- هل تريد مالا؟

اجابه (العقرب):

- بل اريدك انت..

ارتجف (دافيد)، وهو يقول في هلع:

- هل ستقتلني!

اجابة (العقرب) في برود:

- لا ايها الوغد، سأحتفظ بك فحسب، فانا اريد الساحة خالية الليلة، وانا اواجه خصمي اللدود.. والان انطلق، فانت أحد خطوات الخطة..

وبدا شديد الصرامة، وهو يستطرد:

- خطة (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع اقتراب الوقت، راحت عصبية (نعمان) تتضاعف، حتى انه لم يحاول مغادرة قصره، بل فضل البقاء فيه حتى تصله مكالمة هاتفية، تخبره بنجاح الخطة، وعلى الرغم من ان المساء لم يكن قد حان بعد، الا انه لم يكد يسمع رنين هاتفه الخاص، حتى قفز يختطف سماعته، وضعها على اذنه ما هاتفا:

- هنا (نعمان والى)، من المتحدث؟

اتاه صوت اثار الرجفة في اوصاله، وهو يقول:

- العقرب..

شحب وجه (نعمان) وهو يغمغم:

- (العقرب)!!

اجابه صوت (نديم) الصارم:

- نعم يا عزيزي.. انا (العقرب).. لقد اتصلت بك لأخبرك انني اعلم كل ما سيتم الليلة..

هوى قلب (نعمان) بين ضلوعه، وهو يقول بصوت مرتجف:

- انت مخادع.

اجاب (العقرب):

ـ اخطأت الاستنتاج هذه المرة يا رجل..
هل تذكر زميلتي، التي تشبثت بياقة سترتك، ليلة حفل السفارة؟

لقد دست في باقتك جهاز نقل صوتي بالغ الدقة، نقل الىَّ حديثك مع ذلك الوغد (دافيد)، وموعد اتمام صفقة عمرك.

تحولت كل مخاوف (نعمان) وعصبيته الى صرخة هادرة:

- انت كاذب..

ولكن صوت (العقرب) اتاه هادئا واثقا، وهو يقول:

- لا تتسرع.. اصعد اولا الى حجرتك، وستجد الجهاز خلف ياقة السترة اللامعة.

انهار (نعمان) تماما، و (نديم) يستطرد:

- انها نهايتك ايها الوغد..

لم يرفع (نعمان) السماعة عن اذنه لحظات، حتى بعد ان انتهت المحادثة، وراح الهاتف ينقل اليه ذلك الصوت الرتيب، الذي ينشا من هاتف شاغر، ثم لم يلبث ان ألقى السماعة في ثورة هاتفا:

- مستحيل!

وانطلق بعدو الى حجرته الخاصة، وانتزع السترة ذات الياقات اللامعة من الصيوان، وقلب باقتها في عنف، ثم تجمدت اطرافه، واتسعت عيناه في ذهول..

لقد كان الناقل الصوتي يستقر مثبتا خلفها، بواسطة لاصق بسيط..

وترنَّح (نعمان)، وكاد يهوى ارضا..

لقد انتهى كل شيء..

فسدت صفقة العمر..

خسر حياته وثروته وسطوته..

خسر كل شيء ..

ثم امتلأت عروقه بغتة بحزم مفاجئ..

لا..

لم يخسر كل شيء بعد..

قفز يلتقط سماعة الهاتف، وراح يطلب رقم (سيد) عشرات المرات، ثم طلب السفارة الاجنبية، فأخبروه ان (دافيد) لم يعد منذ الصباح..

وراحت عروق (نعمان) تنبض في عنف لابد من الغاء الصفقة، قبل ان يضبطها رجال الشرطة..

لابد من محاولة انقاذ ثروته..

ولكن كيف؟

انه لا يجد (سيد) ولا (دافيد)، وما من سواه يستطيع ايقاف الصفقة..

وهنا برقت عيناه في حزم وعزم، وهتف:

- سأوقفها انا.

واختطف سترته، وانطلق الى الخارج، مستطردًا:

- لن يحطمني ذلك (العقرب) ابدا..

ولم يدرك لحظتها انه يفعل بالضبط ما ينشده غريمه، وانه ينفذ الخطة دون وعى خطة (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21- من يربح؟..

هتفت (غادة) في اعجاب، وهي تجلس في سيارة (نديم) على جانب الطريق، في ركن يطل على قصر (نعمان):

- يا إلهي!! لقد انطق (نعمان) بسيارته بالفعل، وشكله وسرعته يوحيان بانه ينطلق نحو (العجمي)، في محاولة لمنع اتمام الصفقة، كيف امكنك ان تثق في انه سيفعل ذلك؟

اجابها (نديم) في هدوء:

- لم يكن امامه حل بديل..

ثم اضاف وهو يطلب رقما اخر من هاتف سيارته:

- انها أخطر صفقة عقدها في حياته، ولقد خاطر فيها بكل ثروته، ومن الطبيعي انه لن يمنح العديدين سلطة اتخاذ القرار فيها، وهذا يعني ان الغاء الصفقة، وهو ما صار امرا حتميا، بعد ان أدرك ان عدوه اللدود قد كشف سرها، لا يمكن ان يتم الا بواسطة ثلاثة، هو، او (سيد) ذراعه الايمن، او (دافيد)، ونحن نحتفظ بالثاني والثالث، فلن يوجد اذن سواه، ولن يكون امامه سوى ان يخاطر بإقحام نفسه لأول مرة، في عملية من عملياته، او يخسر كل ما بناه في عمره كله.. ماذا تفعلين لو كنت مكانه؟

قبل ان تجيب، كان قد بدا محادثته الهاتفية قائلا:

- صباح الخير يا سيادة وزير الداخلية.. لا.. لست أحد رجالك.. لقد اتصلت بك في منزلك، لأبلغك بأمر صفقة مخدرات ضخمة، ستتم بعد ساعات، على بعد عشرين كيلومترا شرقي (العجمي).. نعم يا سيادة الوزير.. اعلم تماما انه كان ينبغي ان اتصل برجال مكافحة المخدرات، ولكن هذه الصفقة كانت

تحتاج اليك شخصيا؛ لان صاحبها يحوز حصانة قانونية خاصة.. نعم.. انه (نعمان والى)، عضو مجلس الشعب.. اتريد حقا معرفة من انا؟ لا باس يا سيدي.. انا (العقرب)...

قالها وأنهى المحادثة في هدوء، ثم التفت الى (غادة) قائلا:

- أتظنين ان هذا يكفي؟

هتفت ضاحكة:

- يكفي؟! اراهنك ان الوزير قد انطلق الى مكتبه الان، وان ادارة الامن كلها ستشتعل توترا وحماسا، حتى صباح الغد على الاقل..

رفع سبابته امام وجهه، وهو يقول:

- ولكن هذا لا يعني اننا قد ربحنا المعركة.

والتقط قناعه من حقيبته مستطردًا:

- بقيت خطوة واحدة..

الخطوة الحاسمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تطلع (مجدي) في غيظ، الى باب مكتب (نديم) المغلق، وهتف محنقا، وهو يلهث:

- اللعنة! ابعد ان اصعد خمسة طوابق على قدمي، لتلف ذلك المصعد اللعين، أجد المكتب مغلقا؟!

توقف لحظات يلهث في صمت، امام الباب المغلق، ثم غمغم كمن يتشبث بأمل اخير:

- ربما انهما هنا.. من يدري؟

طرق الباب عدة طرقات في ياس، ودق الجرس مرتين، ثم زفر متمتمًا:

- لا.. لا داعي لان اخدع نفسي.. لا أحد هنا..

استدار لينصرف، لولا ان تناهى الى مسامعه بغتة صياح مكتوم، يأتي من خلف باب المكتب المغلق، فعاد يلتفت اليه، هاتفا في انفعال:

- هناك شخص هنا.. اراهن بحياتي على هذا..

طرق الباب مرة اخرى في عنف، فتصاعد الصياح، دون ان يفتح أحدهم الباب، فهتف (مجدي)، وهو يتراجع مخرجا مسدسه:

- الامر يستحق الهجوم حقا.

اندفع نحو الباب، وحطمة بضربة قوية من كتفه، وقفز الى داخل المكتب شاهرا مسدسه، وبدا له ان الصياح المكتوم يأتي من خلف باب حجرة (غادة) هاتفا:

- من الذي...؟

تجمدت الكلمات في حلته، واتسعت عيناه ذهولا، وهو يحدق في خمسة رجال، اصطفوا على ارض الحجرة، التي اخليت من اثاثها، وقد تم تقييد ايديهم خلف ظهورهم، واقدامهم، وتكميم افواههم وفي دهشة، حل (مجدي) كمامة (دافيد)، وهو يسأله:

- من أنتم؟ وماذا تفعلون هنا؟

هتف (دافيد) في سخط وتوتر:

- انني أحد رعايا دولة اجنبية، ولقد اختطفني رجل مقنع، واتى بي الى هنا.. سأشكوكم لمجلس الامن، والامم المتحدة، و.

قاطعة (مجدي) هاتفا:

- رجل مقنع؟! اهو (العقرب)؟!

لوح (دافيد) بكفه في حنق، وهو يهتف:

- انه لم يخبرني اسمه بالطبع..

هتف (مجدي) في لهفة:

- ولكنه صاحب هذا المكتب.. اليس كذلك؟

قلب (دافيد) كفيه معلنا عجزه عن اتيان الجواب، في حين راح (سيد) يتقافز في قيوده، ويطلق صرخات مكتومة، من خلف كمامته، فانحنى (مجدي) ينزع الكمامة في حركة حادة، ولم يكد يفعل حتى هتف (سيد):

- انه هو.. انه (العقرب).. هو نفسه (نديم فوزي)..

اختلجت كل عضلة في جسد (مجدي)، وهو يهتف:

- كنت اعلم هذا.. كنت واثقا منه..

وأطلق ضحكة عصبية عالية، قبل ان يستطرد:

- لقد ارتكب خطا قانونيا هذه المرة لقد احتجز خمسة رجال دون وجه حق، وبينهم واحد من رعايا دولة اجنبية..

لقد وقع هذه المرة، ثم امسك كتفي (سيد)، وهزه في قوة، وهو يهتف:

- انكم ستشهدون بما فعل.. فستفعلون هذا.. اليس كذلك؟

اجابه اسيد) في مزيج من اللهفة والحماس والشماتة:

- بالطبع.. اننا سنفعل هذا دون تردد..

تألقت عينا (مجدي) ببريق ظافر، وهو يقول في شماتة واضحة:

- رائع..

انه المسمار الاول في نعشك.

ثم استطرد في مرح عصبي:

- ايها (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلق (نعمان والى) بسيارته كالصاروخ، غير مبال بقوانين السرعة، وقد امتلأ عقله بفكرة واحدة..

بضرورة وصوله الى (العجمي) بأقصى سرعة ممكنة قبل ان يخسر كل شيء ..

كان يعلم انه يخاطر بالذهاب الى حيث الصفقة، ولكنه كان - كما قال (نديم) تماما، لم يعد لديه ما يخسره ..

وبينما تنطلق سيارته، راح عقله يرتب وسيلة للنجاة..

ان (العقرب) يعرف موعد الصفقة، ولكنه لا يعلم ان اليخت نفسه يستقر في موضعه في هدوء، مع تصريح خاص حصل هو بنفسه عليه، من قائد حرس السواحل شخصيا، دون ان يدري هذا الاخير ان قاع اليخت يحوي فجوة سرية، تم فيها تخزين كمية الهيروين كلها..

انه - لو استطاع الوصول في موعد مناسب – سيمنع اتمام الصفقة، وبالتالي لن يتهمه مخلوق واحد بمعرفة امرها..

بل لن يمكنهم حتى القاء القبض عليه..

القانون يمنعهم من هذا، الا في حالة التلبس الصحيح..

انه يملك حصانة قانونية..

وسيستغل هذا الى اقصى درجة..

ولم يكد يعبر مدخل (الاسكندرية)، حتى تضاعف توتره، وشعر لأول مرة بحنق شديد على ازدحام المرور والمواصلات، وبات شديد العصبية، يسب ويلعن كل من يعترض طريقه) حتى انه لم يكد يبلغ طريق (العجمي)، حتى عاد ينطلق بكل سرعته، وقد بلغ توتر اعصابه اقصاه..

وعندما بلغ الموضع المنشود، على بعد عشرين كيلومترا من (العجمي)، كان قد احترق تماما، ولم يكد يلمح قائد اليخت، وهو يقف الى جوار زورق مطاطي، عند الشاطئ، حتى اوقف سيارته في حدة، وهتف به محنقا:

- ماذا تفعل هنا ايها الاحمق؟ ان موعد اتمام الصفقة لم يحن بعد!

تطلع اليه قائد اليخت في دهشة، وقال في حيرة:

- ولكن هذه هي الاوامر يا سيدي.. لقد اتصل بي شخص ما، على الموجة الخاصة، وأبلغني كلمة السر، ثم أخبرني ان موعد التسليم قد تقدم ساعتين كاملتين، وطلب منى احضار عينة من البضاعة الى الشاطئ، ولما كنت انت ومستر (دافيد) وحدكما

تعرفان كلمة السر، فقد افترضت ان احدكما صاحب الامر، واطعت بلا مناقشة..

شحب وجه (نعمان) في شدة، وقد أدرك الفخ الذي وقع فيه ..

لقد اعد (العقرب) خطته في براعة منقطعة النظير..

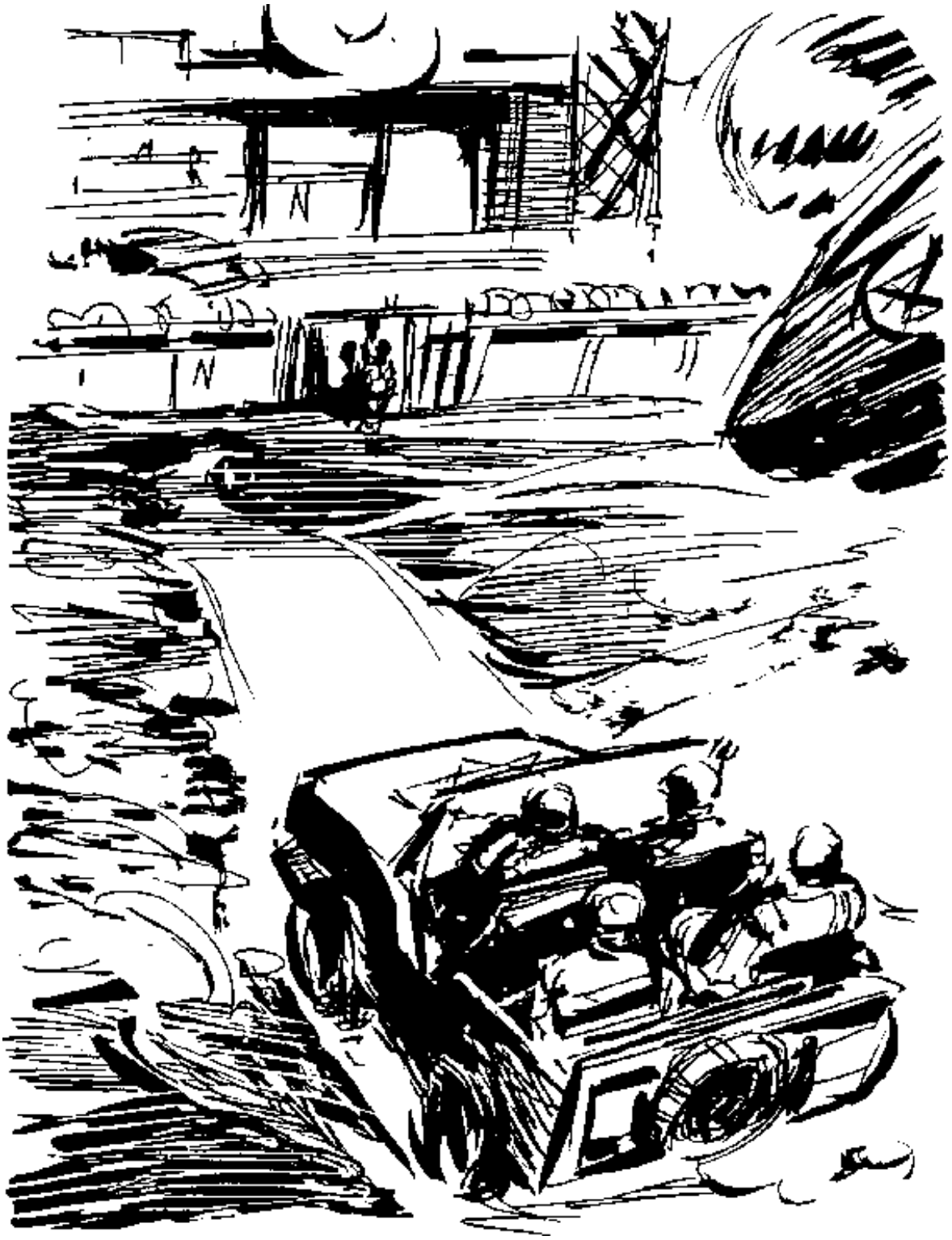

لهذا لم يعثر على (دافيد) في سفارته..

لقد اوقع به (العقرب) حتما، واجبره على البوح بكل ما لديه..

وها هو ذا (نعمان والى) يجد نفسه في موقف يبيح للشرطة القاء القبض عليه، على الرغم من حصانته..

في حالة تلبس..

لقد اتقن (العقرب) اللعبة بحق..

وفجأة، قفز (نعمان) داخل سيارته، وهو يهتف:

- عد الى اليخت بسرعة..

ارتبك قائد اليخت، وهو يقول في توتر:

- لماذا؟ ماذا حدث؟

قبل ان يجيب (نعمان)، كان قائد اليخت قد أدرك الحقيقة..

أدركها عندما برز رجال الشرطة من كل جانب، وارتفع صوت وزير الداخلية نفسه، وهو يقول في صرامة:

- لقد انكشف امركما، استسلما او..

ودون وعي اعتصر (نعمان) دواسة وقود سيارته بقدمه وانطلق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22- الجولة الاخيرة.

كانت مبادرة (نعمان) مباغتة حقا لرجال الشرطة، الذين اعتادوا ان يستسلم المجرم عادة، عندما يفاجأ بكمين غير متوقع، الا ان هذا لم يمنعهم من ان يطلقوا رصاصات اسلحتهم خلف سيارة (نعمان)، الذي انطلق في مسار متعرج، وتجاوز الحصار كالبرق، وانطلق مبتعدا، مثيرا خلفه عاصفة من الغبار، وهتف أحد ضباط الكمين:

- لقد خدعنا ذلك الوغد..

عقد وزير الداخلية حاجبية، وهو يقول في حزم:

- لن يفلت ولن يذهب بعبدا.. لقد تعرفته.. انه (نعمان والي)، الثري المعروف، ولقد التقطت رقم سيارته، وسأبلغها لكل نقاط المرور في (مصر).

قال الضابط في تردد:

- ولكننا لم نلق القبض عليه متلبسا، و.

قاطعه الوزير:

. أتظنني اشارك في هذه الحملة بنفسي عبثا؟! ان القانون يحتم ضبط اصحاب الحصانة في حالة تلبس، ولكنها ليست الحالة الوحيدة التي يمكننا القاء القبض عليهم فيها..

ثم التفت الى ضابط اخر، واستطرد في صرامة:

- اطلب من جندي الاتصال ان يصلني بالخط الساخن، واعتدل مردفا:

- بالسيد رئيس الجمهورية مباشرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم ينطلق (نعمان) الى (القاهرة) على الفور، بل عرج على فيلا انيقة، على شاطئ (العجمي)، وأخفى سيارته داخل (جراج) خاص بها، ثم استقل سيارة اخرى، من طراز ولون مختلفين، وانطلق بها في توتر بالغ، وهو يقول لنفسه:

- إنك في موقف لا تحسد عليه حقا يا (نعمان)، ولكن عزاك الوحيد هو انهم لم يضبطوك متلبسا.. إنك بهذه النقطة فقط تستطيع ان تنجو سأعود الى (القاهرة) وسيشهد كل رجالي انني لم اغادر القصر لحظة واحدة هذا المساء)، وسيتصور الجميع انه شخص ينتحل شخصيتي و.

راح يعد خطته الدفاعية طيلة الطريق، الا انه لم يكد يبلغ قصره، بعد ساعتين كاملتين، حتى قال له حارس البوابة في توتر:

- سيدي.. هناك لواء شرطة يدعى اللواء (حلمي) ينتظرك في الداخل، مع بعض رجال الشرطة.

حدق (نعمان) في وجه الرجل ذاهلا، وردد:

- لواء شرطة!!

ثم عاودته طبيعته الذئبية، فسأل الرجل في سرعة:

- ماذا اخبرتهم عني؟

اجابه الحارس مرتبكا:

- لم أخبرهم شيئا يا سيدي.. فقط سمحت لهم بالدخول.

هتف (نعمان) في حنق:

- حسنا.. سأرى ماذا يريدون.

انطلق الى الداخل، عبر حديقة القصر الضخمة، وقلبه ينبض في توتر، وراح يعدل خطته، ويبحث عن تبرير لخروجه، حتى بلغ القصر، فاستقبله اللواء (حلمي) بابتسامة واسعة، وهو يقول:

- مرحبا يا سيد (نعمان) اننا ننتظرك منذ فترة طويلة.

قال (نعمان) في خشونة، ولدها توتره:

- وماذا تريدون؟

هز (حلمي) كتفيه، وقال في لهجة لم تخف شماتته وسخريته:

- ماذا تريد انت يا سيد (نعمان)؟ محاميا؟

صاح (نعمان) في غضب:

- كيف تتحدث الى بهذه اللهجة ابها اللواء؟ انني عضو مجلس شعب، واحمل حصانة قانونية و.

قاطعه (حلمي) في حزم:

- اننا هنا بناء على امر من السيد رئيس الجمهورية، وبموافقة السيد رئيس مجلس الشعب، وبتصريح خاص من النائب العام

بهت (نعمان)، واتسعت عيناه في ذهول، وهو يتمتم:

- كل هؤلاء؟!

ثم لم يلبث ان استعاد رباطة جأشه في سرعة، واضاف:

- فليكن.. انكم لن تجدوا شيئا هنا..

اتسعت ابتسامة اللواء (حلمي)، وهو يقول:

- بالطبع.. اننا لن نجد شيئا..

بدا الارتياح يرتسم على وجه (نعمان)، لولا ان استدرك اللواء احلمي) في حزم مباغت:

- لأننا قد وجدنا ما نحتاج اليه بالفعل.. كيلوجرامين من الهيروين النقي، أسفل فراشك الخاص يا سيد (نعمان).

كان هذا أكثر مما يمكن ان يحتمل (نعمان)..

لقد اجاد (العقرب) اللعبة حقا..

اجادها أكثر مما تصور هو بكثير..

الان فقط فهم (نعمان) لماذا سرق (العقرب) الهيروين من فيلا المقطم...

الان فقط أدرك انه يواجه ثعلبا وثعبانا، وليس عقربا فحسب.

وفي هذه المرة لم يحاول (نعمان) ان يقاتل..

لقد انهار..

انهار تماما..

وربح (العقرب) الجولة الاخيرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبر وزير الداخلية بوابة مديرية الامن بخطواته الواسعة كالمعتاد، وراح الجميع يهرعون اليه، وهم الذين لم يعتادوا زياراته، في مثل هذا الوقت المتأخر، وهتف به مدير الامن:

- سيادة الوزير؟! يا لها من زيارة مفاجئة، و ...!

قاطعه الوزير:

- استعد الليلة لاستقبال مجرم بالغ الخطورة، اريد منكم ان تبدؤوا تحرياتكم معه على الفور، فالسيد رئيس الجمهورية يريد نتائج واضحة صباح الغد..

شعر مدير الامن بالرهبة، عندما ورد اسم رئيس الجمهورية، وتمتم:

- اهو مجرم خطير الى هذا الحد يا سيادة الوزير؟

اجابه الوزير في اقتضاب:

- انه (نعمان والي).

شهق مدير الامن في دهشة، ثم لم يلبث ان قال في حزم:

- سأتخذ كل الاجراءات اللازمة يا سيدي..

ارتفع في هذه اللحظة صوت (مجدي)، وهم يهتف:

- سيادة الوزير؟ يا لها من مصادفة سعيدة! لقد اتيت بالدليل..

التفت اليه الوزير، يسأله في دهشة:

- أي دليل؟

اجابة (مجدي) في سعادة:

- الدليل على ان (نديم فوزي) هو (العقرب).. لقد احتجز خمسة رجال في مكتبه، و

قاطعه الوزير في حسم:

- من هؤلاء الرجال؟

اجابه (مجدي) في سرعة:

- لقد احتجز (سيد)، الذراع الايمن لـ (نعمان والي) وحارسه (ادوارد)، ومواطنا من رعايا دولة اجنبية يدعى (دافيد) و.

هتف الوزير:

- وهل ستعتمد على شهادة هؤلاء الاوغاد؟

غمغم (مجدي) في دهشة:

- اوغاد؟!

اجابه الوزير في حدة:

- نعم.. اوغاد ولصوص.. لقد ألقينا القبض منذ قليل على (نعمان والي) نفسه، ولقد اعترف باشتراك كل هؤلاء معه في الاتجار بالمخدرات، ومن حسن الحظ انهم هنا، فلقد اصدرت قرارا بإلقاء القبض عليهم، وأصدر رئيس الجمهورية قرارا بطرد (دافيد) هذا من البلاد؛ نظرا لأنه يملك حصانة ديبلوماسية خاصة..

بقي (مجدي)) فاغرا فاه لحظات، ثم قال في توتر:

- ولكن (نديم) هو (العقرب) يا سيدي، حتى مع هذه الظروف، و...

قاطعه الوزير مرة اخرى:

- دعك من امر (العقرب) هذا الان.. اننا امام قضية ضخمة، ثم ان قاضيا واحدا لن يصدق كلمة واحدة منهم، عندما يعلم انهم مجرد تجار مخدرات اوغاد.. هل تفهم؟

اطرق (مجدي) برأسه، وهو يقول في مرارة:

- نعم يا سيدي افهم.

وظل صامتا، حتى ابتعد الوزير، ثم استطرد في حقد:

- ولكن معركتي معك لم تنته بعد يا (نديم)، ولن تنتهي حتى اثبت للجميع أنك العقرب.. لم تنته المعركة بعد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ابتسم اللواء (حلمي) ابتسامة واسعة، وهو يدلف الى مكتب (نديم)، في الصباح التالي، ونهض (قديم) يستقبله في حرارة،

قائلا:

- صباح الخير يا سيدي.. مرحبا بك في مكتبي..

صافحه (حلمي) في قوة، وهو يملا عينيه بوجهه.. قبل ان يقول:

- هل قرات صحف الصباح؟

أطلقت (غادة) ضحكة مرحة، وهي تقول:

- بالطبع.. لقد قرأنا كل كلمة فيها، لو أنك تقصد ما يتعلق ب (نعمان والي)..

وقال (نديم) في هدوء كعادته:

- لقد وقع ذلك الوغد اخيرا.

جلس (حلمي)، وهو يبتسم قائلا:

- لقد ذكرت الصحف كل التفاصيل، ولكنها لم تشر الى البطل الحقيقي، بعد ان اخفى الجميع دوره..

ابتسمت (غادة) في فرح، في حين سأله (نديم) في هدوء:

- ومن هو هذا البطل الحقيقي؟

تأمله (حلمي) لحظات اخرى، ثم قال في اعجاب واضح:

. العقرب.

ثم اضاف في سرعة:

- هو وحده قام بالعمل كله، وهو الذي حطم صرح (نعمان والى)، الذي تصور الجميع انه لن يسقط ابدا الا بمعجزة..

والتفت الى (غادة)، واستطرد في حنان:

- ليس وحده تماما بالطبع.

ضحكت (غادة) في حياء، وقالت:

- الواقع ان (العقرب) هذا عبقري..

ضحك (حلمي) بدوره، وهو يقول:

- بالتأكيد، ولكنه وقع في خطا واحد..

عقد (نديم) حاجبيه، وهو يسأله في اهتمام:

- أي خطا هذا؟

اخرج (حلمي) من جيبه بطاقة بيضاء انيقة، تحمل في منتصفها رسما لعقرب ذهبي، وقال وهو يبتسم:

- لقد وضع بطاقته نوق الهيروين، الذي عثرنا عليه في منزل (نعمان)، والذي يعد اقوى دليل اتهام ضد هذا الاخير، ولقد كان من الممكن ان يستغل (نعمان) هذا، ليدعي ان (المقرب) هو الذي دس له الهيروين.. اليس كذلك؟

بدا الضيق على وجه (نديم)، وهو يقول:

-- بلى. انت على حق يا سيدي..

لوح (حلمي) بكفه، وقال وهو يبتسم:

- من حسن الحظ انني قد اخفيت البطاقة، قبل ان ينتبه اليها أحد، والا فسدت العملية كلها..

ثم نهض، وهو يضع البطاقة امام (نديم)، قائلا:

- أخبره الا يقع في هذا الخطأ مرة اخرى..

ابتسم (نديم)، وهو يقول:

- سأفعل..

هتفت (غادة):

- يا إلهي! إنك تبتسم يا (نديم).. هذه هي المعجزة الحقة...

التفت اليها، واتسعت ابتسامته، وهو يقول:

- ومن ذا الذي لا يبتسم، امام حسنك وفتنتك؟

حدقت في وجهه مبهوتة، ثم ارتفع حاجباها في حنان، وهي تهمس في حب:

- احقا؟!

نقل اللواء (حلمي) بصره بينهما في حنان، وقال:

- يبدو انه من الافضل ان انصرف انا..

أسرع يضع اقتراحه موضع التنفيذ، و (غادة) تقول لـ (نديم) في حب واضح:

- اتعلم أنك أكثر وسامة عندما تبتسم؟

اجابها وقد استعاد رصانته وهدوءه:

- ربما، ولكنني اشعر الان فقط ان لحظة ميلادي الحقيقية قد اتت، وان (العقرب) قد أعلن عن وجوده كمحارب الجريمة..

وشرد ببصره، مستطردًا في نشوة:

- ولن يتوقف عن محاربتها ابدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس (نعمان) في زنزانة الحبس الاحتياطي منهارا، بعد ان ضاع كل ما فعله طيلة عمره، وانهمرت الدموع من عينيه امام رجاله،

الذين مادت بهم الارض بدورهم، عندما خسروا كل شيء..

وفجأة تراجع (نعمان)، هاتفا في رعب:

- (العقرب).. (العقرب)...

رفع (سيد) عينيه اليه في دهشة، مغمغمًا:

- اين هو؟ ... اننا في زنزانة مغلقة ايها الزعيم.

صرخ (نعمان)، وهو يلوح بيده في ذعر:

- انه هناك، عند النافذة.. انظروا.. انه يبتسم لي ساخرا.. انه يسخر مني، بعد ان هزمني ٠٠ انظروا.

تطلع الرجال في حيرة الى النافذة الخالية، ثم غمغم (سيد) في حنق:

- لقد فقد الرجل عقله..

غمغم (ادوارد) في مرارة:

- لعل هذا هو أفضل ما يحدث له، فلن يشعر بما ينتظرنا من مصير مظلم على الاقل..

وراح نعمان يصرخ:

- (العقرب)!! (العقرب)!! ابعدوه.. أنقذوني..

صاح به (سيد):

- اصمت يا رجل، والا قطعت لسانك.. هل تفهم؟

ولم يصمت (نعمان)..

لم يعد لديه ما يخسره..

لقد خسر كل شيء..

خسر كل ما بناه في حياته كلها..
وكان يعلم ان من حطمه لن يتوقف ابدا..
وان هذا الزمن لم يعد زمنه..
لقد صار زمن ارتفاع سيف العدالة فوق الجريمة..
زمن (العقرب).

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

8469

Link – لينك القنـــــاة

العقرب:

ملك الجريمة

(الرواية الثانية - مجمعة)

عندما يعجز القانون البشري عن القصاص..

عندما تحيط العدالة عينيها بعصابة سميكة..

حينما يرتفع ذلك الحاجز بين العدالة والقانون..

عندئذ يهب هو للقتال، حاملا ذلك الاسم، الذي يثير الرجفة في قلوب أعتى المجرمين..

اسم (العقرب).

ملك الجريمة

1-قضية جديدة..

ارتفعت حرارة الجو كثيرا، في ذلك الصيف، الذي لم تشهد (مصر) مثيلا له منذ سنوات طويلة، واكتست وجوه المارة، في شوارع وسط (القاهرة)، بقناع من التوتر والعرق، وبدا الجميع في حالة يرثى لها من شدة القيظ، حتى أن أحدا لم ينتبه إلى تلك السيدة، التي تجاوزت الخمسين من عمرها بعام أو عامين، والتي توقفت مترددة، عند إشارة عبور مشاة، في تقاطع شديد الازدحام، تلتقي فيه ثلاثة شوارع رئيسية كبيرة، في ميدان صغير، يتوسطه تمثال لواحد من زعماء (مصر) الوطنيين، الذين كان لهم كل الفضل في إذكاء جذوة الوطنية المتقدة، في النصف الأول من القرن العشرين..

وبدت السيدة النحيلة شديدة الارتباك والتردد، مما يؤكد أنها المرة الأولى تقريبا، التي تهبط فيها من الأقاليم إلى (القاهرة)، أو تواجه زحام وسط العاصمة، خاصة وقد كانت تحمل بيدها ورقة صغيرة، دونت عليها اسم وعنوان محامٍ شاب، لم ينل الكثير من الشهرة بعد.. وكان اسم هذا المحامي هو (نديم) ..

(نديم فوزي)، الذي نعرفه نحن بلقب آخر..

لقب (العقرب)..

وعندما بلغت السيدة تلك البناية القديمة، التي يحتل مكتب (نديم فوزي) للمحاماة إحدى شقتها الواسعة، كانت تتصبب عرقا، من حرارة الجو والانفعال معا، حتى لقد بدت على شفا الانهيار، عندما بلغت مكتب (نديم) مما دعا (غادة) زميلة (نديم) وشريكته، إلى الإسراع إليها، قائلة في إشفاق:

- رويدك يا اماه.. يمكنك الاستناد إلى ذراعي، فمظهرك يوحي بأنك ستسقطين فاقدة الوعي.

تمتمت السيدة في إعياء:

- لم يخطئ ظنك كثيرا يا بنيتي..

عاونتها (غادة) على اتخاذ مقعد يجاور حجرة (قديم)، وهي تقول في تعاطف:

- اجلسي يا سيدتي، والتقط أنفاسك أولا..

اتخذت السيدة مجلسها، وسط المقعد الوثير، وراحت عيناها تجوبان مقاعد المكتب الخالية في قلق واضح، على الرغم من لهاثها، المسموع، فابتسمت (غادة)، وهي تقول:

- المكتب لا يزدحم بالزبائن عادة..

رمقتها السيدة بنظرة أكثر قلقا، فأضافت (غادة):

- لأن السيد (نديم) يربح قضاياه في سرعة..

أطلقت السيدة زفرة حارة، وهي تهمهم:

- آه!!

نطقتها في لهجة تحمل الكثير من الارتياح والأمل، ثم مالت نحو (غادة)، تسألها في لهفة:

- وهل السيد (نديم) هنا؟

اجابتها (غادة)، وهي تبتسم في تعاطف:

- إنه هنا اطمئني التقطي انفاسك أولا، ثم..

قاطعتها السيدة، وهي تغادر مقعدها في انفعال:

- دعك من أنفاسي أريد مقابلته على الفور..

رفعت (غادة) حاجبيها في دهشة، إلا أنها لم تعترض، بل نهضت من مقعدها بدورها، وطرقت باب مكتب (نديم)، ثم دفعت بابه، وقالت:

- سيدة تطاب مقابلتك..

ولم تدر السيدة لماذا خامرها شعور بالارتياح والاطمئنان، عندما سمعت صوت (نديم) الهادئ الرصين من الداخل وهو يقول:

- فلتتفضل..

تقدمت السيدة داخل حجرة مكتب (نديم) الفاخرة في حذر، وهي تقدم قدما وتؤخر أخرى، وقد بهرتها فخامة الكتب والأثاث والقت في قلبها شيئا من التوتر والحذر، ازالتهما ابتسامة هادئة من (نديم) وهو يصافحها قائلا، بلهجته الرصينة الدافئة:

- مرحبا بك في مكتب يا سيدتي.. أنا (نديم فوزي)، في خدمتك..

أدارت السيدة عينيها حولها مرة أخرى، وركزت بصرها لحظات على ابتسامة (غادة)، ثم ملأت عينيها بوجه (نديم) الجاد الوسيم، قبل أن تقول في تردد:

- اسمي (نوال)، وأنا أقيم وحدي في (المنصورة).

صمتت لحظة، تنتظر تعليقا أو تعقيبا، فلما لم تجد، تابعت:

- لقد توفي زوجي منذ عشرة أعوام، وترك لي ولدا واحدا، كافحت لأجعل منه مهندسا ناجحا، كرغبته، وكأمل والده (رحمه الله).

ازدردت لعابها على نحو ملحوظ، عند هذه النقطة، ثم، أضافت في توتر:

- ولقد تخرج من كلية الهندسة منذ ثلاثة أعوام، ولا يمكنكما تصور مدي فرحتي في ذلك اليوم، ولكن.. لكن..

تفجرت الدموع من عينيها دفعة واحدة، وراحت تبكي في حرارة ومرارة، جعلتا (غادة) تتطلع إليها في مزيد من العطف والإشفاق، في حين دفعتا (نديم) إلى أن يربِّت على كفها بيده في حنان، وهو يقول:

- رويدك يا سيدتي.. ماذا أصاب ابنك؟

هتفت السيدة من وسط دموعها:

- إنه بريء اقسم لك انه بريء. ذلك الحقير هو المسئول، هو الذي دفع بايني في ذلك..

قال (نديم) في اهتمام:

- اهدئي يا سيدتي، واشرحي لي الأمر كله...

جففت السيدة (نوال) دموعها، وإن بدا صوتها اشبه بالنحيب وهي تروي:

- فور تخرج (أحمد) ابني، التحق بالعمل في واحدة من شركات المقاولات الكبرى، التابعة لذلك المجرم، وراح يمنح عمله كل اهتمامه، حتى أنه قد انتقل للعيش هنا في (القاهرة)، ولم أعد أراه إلا لماما، ومنذ أسبوعين تقريبا، فوجئت به يعود إلى (المنصورة)، شاحب الوجه، زريّ الهيئة، وأخبرني بكل الذعر والفزع أن الشرطة تبحث عنه، وتتهمه بارتكاب جريمة لم يرتكبها، وأقسم لي بروح ابيه الراحل أنه بريء من تلك التهمة، وأن مرتكبها الحقيقي هو ذلك المجرم، صاحب الشركات..

سألها (نديم) في هدوء، لا يخلو من الاهتمام:

- وما نوع التهمة يا سيدتي؟

ارتجف صوت السيدة، وهي تقول:

- جريمة قتل.

رفعت (غادة) حاجبيها، على نحو يوحي بأنها لم تتوقع هذا الأمر، في حين بدا (نديم) - كعادته - شديد الجدية والاهتمام، وهو يسألها:

- ومن هذا المجرم، صاحب الشركات العقارية؟

تطلعت إلى عينيه طويلا في تردد، ثم أجابت بصوت خافت، وكأنما تخشى مجرد ذكر الاسم:

- (صالح عثمان).

ارتفع حاجبا (غادة) على نحو أعنف هذه المرة، وانطلق من بين شفتيها هتاف:

- (صالح عثمان) بنفسه؟

اندفعت السيدة (نوال) تقول في توتر:

- نعم.. هو بنفسه.. هو قتل مدير مكتبه، واتهم ابني بقتله، على الرغم من أن ابني ليس بقاتل وليس..

قاطعها (نديم) في اهتمام:

- وما دليلك على هذا يا سيدتي؟

بدت الحيرة في وجهها وهي تقول:

- الدليل؟! أي دليل؟

مال نحوها، يسألها:

- ما دليلك على أن ابنك لم يرتكب الجريمة؟

قالت في عصبية:

- قل لي أولا: هل تخشى (صالح عثمان)، كما يخشاه الجميع؟

أجابها في هدوء:

- الدليل يا سيدتي.. لا يمكننا إدانة رجل مثل (صالح عثمان)، دون دليل مادي قوي..

هتفت في حدة:

- كنت أتوقع هذا، فالجميع يخشون (صالح عثمان) هذا.. رجال الشرطة والقضاء والجميع يخشون سطوته..

عقد (نديم) ساعديه امام صدره، وقال:

- الأمر لا يتعلق بـ (صالح عثمان) أو سواه يا سيدتي، إنها عملية قانون وإجراءات، و.

أجهشت السيدة بالبكاء بغتة، ودفنت وجهها في راحتيها، وهي تقول في مرارة:

- لا فائدة إذن.. لقد كنت أملى الأخير، بعد أن أحكم هؤلاء الأوغاد الطوق حول رقبة ابني.. كنت أملي الأخير والوحيد..

تطلعت (غادة) إلى (نديم) في حيرة، في حين عقد هذا الأخير حاجبيه، وهو يسأل السيدة في اهتمام:

- املك الأخير والوحيد؟! من دفعك إلى هذا الاعتقاد يا سيدتي؟

رفعت عينيها المبللتين بالدموع إليه، وقالت في لهجة باكية:

- ضابط كبير من ضباط الشرطة، برتبة لواء، كان يتابع التحقيق منذ بدايته، ومن المؤكد أنه قد أيقن من براءة ابني؛ على الرغم

من أن كل الأدلة تدينه، فلقد أنتحى بي جانبا، ومنحنى ورقة تحمل اسمك وعنوانك، وأخبرني أنك الوحيد الذي يمكنه إثبات براءة ابني، وإدانة (صالح عثمان)..

بدا الاهتمام على وجه (نديم) في شدة، وهو يسألها:

- ومن هذا اللواء؟

اجابته في خفوت، وهي تواصل تجفيف دموعها:

- اسمه (حلمي).. اللواء (حلمي)، من المباحث الجنائية..

التقت نظرات (نديم) و (غادة)، وبدا لحظة أن ومضة من البرق قد سرت بين نظرتيهما، قبل أن تبتسم (غادة) ابتسامة غامضة، ويتراجع (نديم) في مقعده، قائلا في هدوء:

- حسنا، اطمئني يا سيدتي.. سأتولى هذه القضية.

وفي تلك اللحظة بالذات استعاد خيال (غادة) صورة لـ (نديم) في زي وقناع من اللون الأسود الحالك، وأدركت ان ساعة العودة قد حانت..

عودة (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- العودة..

جلس (نديم) في مكتبه شاردا، يسترجع ذكرياته عن ماضيه في الشرطة..

كان فيما مضى ضابطا بالشرطة، يبذل قصارى جهده لإحقاق الحق والعدل، دون أن يلتزم بالقانون المكتوب..

ولكن هذا كان - في حد ذاته - مخالفة للقانون..

وهكذا فقد (نديم) وظيفته، وتم فصله من الشرطة، بسبب احتكاكه بواحد من أعضاء مجلس الشعب، يتجر سرا في المخدرات..

ورفض جهاز الشرطة منحه ترخيصا بافتتاح مكتب خاص للتحري، فما كان منه إلا أن افتتح مكتبا للمحاماة، لم يلبث أن تحول إلى واجهة تخفي شخصيته السرية، التي اتخذها لمكافحة الجريمة، التي تعجز عنها يد القانون..

وولدت شخصية (العقرب).

ولأول مرة في تاريخ محاربة الجريمة في (مصر)، ظهر (العقرب) بقناعه الأسود، وزيه القاتم، وبطاقته البيضاء، التي يتوسطها عقرب ذهبي..

وانقسم موقف الشرطة تجاهه.. كان اللواء (حلمي) واثقا من أن (نديم فوزي) هو (العقرب)، وكان يتعاطف مع موقفه على نحو غير رسمي، محاولا التظاهر بجهله لحقيقة الأمر في حين كان العقيد (مجدي) على النقيض، يبغض (نديم) أشد البغض، ويسعى للإيقاع به، وإثبات أنه ذلك المقنع، وإن افتقر بدوره إلى الدليل..

وبانتقامه من (نعمان والي)، تاجر المخدرات وعضو مجلس الشعب، هدأت ثورة (نديم)، وخلع زي (العقرب)، وراح يبذل أقصى جهده للنجاح في عمله كمحام..

حتى برزت قضية (صالح عثمان)..

أفاق من شروده وذكرياته على صوت (غادة)، وهي تدلف إلى حجرته، هاتفة:

- كانت مهمة شاقة بحق..

رفع عينيه إليها، واعتدل يسألها في اهتمام:

- هل حصلت على المعلومات المطلوبة؟

أجابته وهي تلقى جسدها فوق المقعد المواجه لمكتبه:

- كلها.

والتقطت نفسا عميقا، ثم اعتدلت تستطرد:

- لقد تمت الجريمة على نحو تقليدي، لم يعد يصلح حتى للأفلام السينمائية الهابطة، فلقد تشاجر (أحمد) مع (سالم زين)، مدير مكتب (صالح عثمان)، بسبب جزاء أوقعه (صالح) على (أحمد)، حاول الأخير أن يلتقي بالأول، ليسأله عن سببه، فمنعه (سالم) من الدخول، مما أدى إلى حدوث المشاجرة، وفي المساء التالي، قتل (سالم) في مكتبه، بفتاحة الخطابات الخاصة بـ (أحمد)، وادلى أربعة من أقرب الرجال إلى (صالح) بشهادة حاسمة، تدين (أحمد) على نحو لا يتطرق إليه الشك، ولم يكن لدي (أحمد) دليل براءة واحد، لذا فقد أمر وكيل النيابة بحبسه حبسًا مطلقا، لحين تقديمه إلى المحاكمة..

سألها في اهتمام:

- وماذا عن (صالح عثمان)؟

- مطت شفتيها، وهزت سبابتها أمام وجهها، قائلة:

- رجل خطير بحق.. إنه واحد من أكبر رجال المقاولات في (مصر)، وفي الوطن العربي كله، وله اتصالات رهيبة تجعله من أقوى الرجال في هذا المجتمع، وثروته غير محدودة، على الرغم من أن ضرائبه لا تزيد عادة على رقم ذي ثلاثة أصفار - وهو صديق شخصي لرئيس الوزراء ووزير الداخلية، و.

قاطعها في شيء من الضجر:

- اريد المعلومات غير الصالحة للنشر..

ابتسمت وهي تقول:

- لقد زرت صديقنا اللواء (حلمي) في مكتبه، وقضيت معه بعض الوقت، وهو مؤمن تماما ببراءة (أحمد) والسبب بسيط، إلا وهو أنه يعلم لماذا قتل (صالح عثمان) مدير مكتبه؟

مال (نديم) إلى الأمام، وهو يسألها في اهتمام بالغ:

- لماذا؟

اجابته في حماس:

- لان اللواء (حلمي) بنفسه عثر على ما يدين (سالم)، وهدده بتقديم كل ما لديه إلى النائب العام، ما لم يعمل (سالم) لحساب الشرطة، الإيقاع بـ (صالح عثمان) نفسه؛ لأن (صالح عثمان) هو ملك الجريمة في (مصر)، على حد قوله..

ثم استدركت في سرعة:

- وكانت هذه مبادرة فردية من اللواء (حلمي) بالطبع لأن سيادة وزير الداخلية لم يكن ليوافق على الإيقاع بأصدق أصدقائه، على هذا النحو، لذا فلن يمكن تبرئة (أحمد) اعتمادا على هذا..

تراجع (نديم) في مقعده، وشرد ببصره، مغمغما في صرامة:

- دائما هناك مجرم تعجز عنه يد القانون..

غمزت (غادة) بعينها، قائلة:

- ودائما هناك من يتصدى له..

تطلع إليها لحظات في صمت، قبل أن يقول بلا أدنى انفعال:

- كنت اتصور ان (العقرب) شخصية محدودة، ظهرت للانتقام من (نعمان والى) فحسب، وبعدها ينبغي أن تتوارى خلف الستار، لتفسح الطريق لـ (نديم فوزي).

ابتسمت في هدوء، ونهضت من مقعدها، واتجهت إلى ركن من اركان مكتبه الفاخر، وضغطت زرا خفيا في الجدار، فانزاحت مكتبة صغيرة في بطء، وظهرت خلفها فجوة منيرة، تتسع لقميص وسروال وقفاز وقناع من اللون الأسود، وعلبة أنيقة تحوي بطاقات بيضاء يتوسط كل منها رسم لعقرب ذهبي، وقالت:

لماذا احتفظ (نديم فوزي) بكل هذه الأشياء إذن؟

قال في هدوء:

- على سبيل الذكرى..

هزت راسها نفيا، وقالت:

- او لأنه كان يخشى أن يظهر (نعمان والي) آخر..

وبدت لهجتها صارمة حاسمة، وهي تضيف:

- ولقد ظهر بالفعل.

تمتم هو، وهو ينهض من خلف مكتبه، وقد تعلقت عيناه بزيه السري:

- وهو يحمل هذه المرة اسم (صالح عثمان) شعرت بالارتياح، عندما رأته يتحسس زي (العقرب) في حنان، وقال في خفوت:

- هل سيمكننا تبرئة (أحمد)؟

أجابها في هدوء، يحمل كل حسمه:

- لست أدري، ولكن القضية لم تعد مجرد قضية تبرئة متهم، فحتى لو سلبنا الثعبان فريسته، فلن يمنعه هذا من بث سمومه

في كل مكان.. الوسيلة المثلى لمنع السم، هي تحطيم رأس الثعبان نفسه..

قالت في حماس:

- ورأس الثعبان هذه المرة رجل يتزعم كل نظم الجريمة، من تهريب عملات ومخدرات، إلى قتل وسلب، إلى..

قاطعها في حزم:

- فليكن حتى امبراطورا لعالم الجريمة في الكون كله..

والتقط القناع الأسود مضيفا:

- إنه سيواجه (العقرب) هذه المرة.

وخفق قلب (غادة) في قوة..

لقد أدركت أن (العقرب) قد عاد..

وأن هذا الصيف سيزداد سخونة..

أو سيشتعل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- الملك..

جلس (صالح عثمان) بقامته الضخمة، وراسه نصف الأصلع، وذلك السيجار الكوبي الكبير الذي قلما يفارق شفتيه، في حجرة مكتبة البالغة الفخامة، التي تحتل الجانب الشمالي كله، من قمة بناية شاهقة، تحمل اسمه واسم شركته بحروف هائلة مضيئة، تسمح لنصف سكان القاهرة بمشاهدتها ليلا ونهارا، وراح يراجع بضع أوراق امامه، قبل أن يسأل مدير مكتبه الجديد في لهجة تشف عن الاستهتار واللامبالاة:

- هل من جديد بشأن ذلك المهندس التافه يا (عزت)؟

انحنى (عزت) أمامه، وهو يقول مبتسما في خبث:

- إنه سيقدم للمحاكمة صباح الغد يا سيدي..

مط (صالح) شفتيه في ازدراء، وهو يقول:

- لقد تأخروا كثيرا، كان ينبغي أن يعدموه على الفور..

قال (عزت)، بنفس الابتسامة الخبيثة:

- بالتأكيد كان ينبغي أن يفعلوا يا سيدي لقد سلمناهم قضية مكتملة..

عقد (صالح) حاجبيه، وهو يقول في صرامة:

- تقصد أن القضية كانت سليمة..

هتف (عزت):

هذا ما أقصده بالتأكيد يا سيدي.

اومأ (صالح) برأسه علامة على ارتياحه للأمر، قبل أن يضيف (عزت):

- ولكن (طومان) يطالب بمكافأة إضافية..

عاد (صالح) بعقد حاجبيه، وهو يقول في حدة:

- لماذا؟ الم يحصل على عشرة آلاف جنيه؟

قال (عزت) في دهاء واضح:

- إنه يقول إن المبلغ غير كاف؛ لأنه بذل جهدا كبيرا لسرقة فتاحة الخطابات، واستدراج (سالم) إلى حيث أمرته، وطعنه في قلبه، و...

قاطعه (صالخ) في حنق، وهو يلوح بكفه:

- لا بأس.. لا بأس.. امنحه عشرة آلاف اخرى..

ثم استدرك في حدة:

- على ألا يعود للمطالبة بقرش واحد..

انحنى (عزت) انحناءة كبيرة، ثم عاد يعتدل قائلا:

- هناك أمر آخر يا سيدي.

سأله في ضجر ونفاد صبر:

- ما هو؟

مال (عزت) نحوه، كعادته كلما هم بالإدلاء بأمر بالغ الخطورة، وقال:

- هناك فتاة تجمع التحريات عنك منذ يومين كاملين..

رفع (صالح) عينيه إليه في دهشة، وهو يقول:

- فتاة؟! أية فتاة؟

اعتدل (عزت، وأجاب:

- إنها محامية شابة، تدعي (غادة).

مط (صالح) شفتيه، ولوح بكفه، قائلا:

- لا ريب أنها من كلفها المهندس الدفاع عنه..

عاد (عزت) يميل نحوه مرة أخرى، هامسا:

- ولكنها لا تجمع التحريات عن (صالح عثمان)، رجل المقاولات الشهير، بل عن زعيم العالم السفلى.

رفع (صالح) عينيه إليه في حدة هذه المرة، وهو يقول:

- العالم ماذا؟

كرر (عزت):

- العالم السفلى..

ثم أضاف في حزم:

- أعنى أنها تتحرى عن زعيم أكبر شبكات التهريب حاليا، وملك تجارة العملة وإمبراطور المخدرات، و.

رفع (صالح) كفه في عنف، هاتفا:

- كفي..

وأشعل سيجاره - المشتعل فعلا وهو يقول في عصبية:

- وكيف نبتت هذه الفكر في رأسها؟ إن وزير الداخلية نفسه لا يشك في امري بمقدار خردلة..

قال (عزت):

- يبدو أن لديها خيطا ما..

ران الصمت على الحجرة شديدة الفخامة، بعد أن ألقى (عزت) عبارته الأخيرة، وراح (صالح) ينفث دخان سيجاره في عمق وقوة، ثم لم يلبث أن أطفأ السيجار في منفضة السجائر في عنف، وهو يقول:

- فليكن.. هي جنت على نفسها..

ثم استطرد في صرامة:

- اتصل بـ (طومان)، وأبلغه اسم وعنوان تلك المتحذلقة، وأخبره أنني أريد أن أقرأ خبر مصرعها في صحيفة الغد.

وأشعل سيجارا آخر، وهو يضيف في حدة:

- إنني أكره من يدسون أنوفهم في شئوني.. أكرههم للغاية.

وراح ينفث دخان سيجارة في ثقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكد عقارب الساعة تشير إلى الثامنة وعشر دقائق مساءً، حتى كان المبنى الرئيسي لإدارة شركات (صالح عثمان) قد خلا تماما من كل العاملين به، إلا من رجال امن المبنى، الذين راحوا يراجعون قوائم الانصراف، ويفحصون الحجرات، للتأكد من خلوها، قبل أن يتم تشغيل جهاز الإنذار الإلكتروني، الذي يحيط بالمكان كله..

وفي الثامنة واثنتي عشرة دقيقة، عبر بوابة المبني، التي لم يتم إغلاقها بعد، رجل نحيل، عريض المنكبين، له شعر اكرت كث،

وشارب ضخم، يكاد يخفي النصف السفلي من وجهة تماما، ويرتدي ذلك الزي الأزرق، ذا العلامة الحمراء المستديرة في موضع القلب، الذي يميز رجال أمن المبنى، فاستوقفه حارس البوابة، وهو يسأله في شك:

- من أنت؟ إنني لم أرك هنا من قبل..

رفع الحارس الجديد حاجبيه في دهشة مصطنعة، وهو يقول:

- لم ترني من قبل؟! عجبا! الم نلتق أمس يا (سعيد)؟

عقد الحارس حاجبيه، وهو يتفرس في ملامح الحارس الجديد، محاولا تذكر ملامحه، وهو يتمتم:

- أمس؟!

أمسك الحارس الجديد ذراع القديم، وجذبه إلى الداخل في رفق، وهو يقول مبتسما:

- دعني اذكرك لقد التقينا أمام الصعد و.

وفجأة هوت قبضة الحارس الجديد على معدة (سعيد) في قوة، انثني لها هذا الأخير المًا، وهو يهتف في صوت مكتوم:

- إنك لست..

وقبل أن يكمل عبارته، قفزت قبضة الحارس إلى فكه، فأجبرته على الاعتدال مرة أخرى، قبل أن يندفع إلى الخلف مرغما، ويرتطم رأسه بالحائط، والحارس الجديد يقول في برود:

- بالطبع أنا لست...

سقط (سعيد) فاقد الوعي، فانحنى الحارس الجديد، وجذبه في قوة إلى ركن قصي، بعيد عن الأعين، ثم اعتدل مغمغما، وهو يلقى بطاقة صغيرة على صدر الحارس:

- كان ينبغي أن تتخذ قرارك على الفور، فالتردد ليس من سمات الحارس الناجح..

وفي هدوء، اتجه نحو البوابة، وأوصدها في إحكام، ثم يمم وجهه شطر المصعد، واستقله في بساطة إلى الطابق الثلاثين، حيث حجرة (صالح عثمان) الخاصة..

وبلغ المصعد الطابق المنشود في دقيقة أو نحوها، وغادره (نديم)، الذي يرتدي زي حراس المبني، في هدوء عجيب، وخطا في بساطة نحو حجرة مكتب (صالح)، ولكنه لم يكد يمد يده إلى مقبضها، حتى ارتفع صوت صارم قاس يقول:

- مكانك يا رجل.. سأطلق النار عند أول حركة مريبة..

وفي بساطة وهدوء، أدار (نديم) عينيه إلى مصدر الصوت، ورأى امامه فوهة مسدس قاتلة، وخلفها سبابة متحفزة لإطلاق النار،

في حين ارتفع صوت صاحبها يستطرد في غلظة:

أنت لست أحد رجال الأمن هنا.. أنا أحفظهم جميعا عن ظهر قلب..

قال (نديم) في هدوء:

- إنني حارس جديد..

ابتسم الحارس ابتسامة شرسة، وهو يقول:

- خطأ يا رجل.. إنما أنت مجرد لص حقير..

وسرت إلى ابتسامته الشرسة موجة جذلة، وهو يجذب إبرة بمسدسه، مستطردًا:

- ولدينا هنا أو امرنا بقتل كل متسلل ٠٠ وبلا رحمة.

وضغط زناد مسدسه....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست (غادة في حجرتها الخاصة، في مكتب (نديم)، تدوِّن المعلومات التي جمعتها عن (صالح عثمان) في جهاز الكمبيوتر، الذي اقتناه (نديم) حديثا، وعقلها منقسم ما بين تدوين المعلومات، والتفكير فيما يفعله (نديم) في هذه اللحظة، في مبنى شركات (صالح)، ولكن ذلك التفكير المزدوج لم يلبث أن أرهقها، فتوقفت عن تدوين المعلومات، وهي تزفر في قوة، وتقول في حنق:

- يا لها من حياة! لماذا ينعم الجميع بحياة هادئة سوانا.

تطلعت مرة أخرى إلى شاشة الكمبيوتر، قبل أن تغمغم:

- ربما لأننا نحن اخترنا هذا النوع من العمل، أو لأن..

بترت حديثها بغتة وانعقد حاجباها في شدة وهي تحدق في شاشة الكمبيوتر، التي عكست صورة باهتة لأضواء الحجرة و..

ولجسم يتحرك خلف (غادة)، وفي حركة حادة، استدارت (غادة) بمقعدها الدوار لتواجه ذلك الشيء المتحرك خلفها..

وشهقت في قوة..

كان ذلك الشيء عبارة عن رجل ضخم الجثة، أصلع الرأس تماما، مفتول العضلات على نحو مخيف، غليظ الملامح، تطل من عينيه نظرة أشبه بنظرة كلب مسعور، أو ذئب متعطش للدماء..

وكان يمسك بيسراه خنجرا حادا ضخما..

ومع التفاتتها، زمجر ذاك الضخم (طومان) وانقض عليها..

وهوى الخنجر على قلبها مباشرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- وبدأ القتال..

من المؤكد أن حياة (نديم)، وعمله السابق في الشرطة لم يذهبا هباء، فالالتحاق بالشرطة يتطلب لياقة بدنية خاصة والتدريبات داخلها تنمى هذه اللياقة، وتضيف إليها الكثير من المهارات والقدرات الجديدة..

ثم إن (نديم) لم يكتف بكل هذا، لأنه أيضا لم يكتف بحياة تقليدية.. لقد أضاف لمهاراته ولياقته الكثير، مما يؤهله لخوض حياة الخطر ومكافحة الجريمة، التي انتقاها لنفسه، وهو يحمل اسم (العقرب)..

وعندما تتأزم الأمور، كانت هذه المهارات الخاصة تبرز إلى السطح.. كما حدث في تلك الليلة..

لقد صوب الحارس مسدسه إلى (نديم) وأطلق النار بالفعل، إلا أنه أضاع عامل المفاجأة بحديث مسرحي طويل، لا فائدة منه، سوى أنه سمح ل (نديم) بالتفكير في الأمر، والاستعداد له..

وهكذا لم يكد الرجل يضغط زناد مسدسه، حتى انزلق (نديم) بجسده إلى أسفل، وترك الرصاصة تتجاوزه، ثم اندفع بجسده نحو الحارس، قبل أن يستعد هذا الأخير لإطلاق رصاصة أخرى.. وركل المسدس من يده، وهو يقول:

- دعنا نتخلى عن الألعاب النارية أولا يا رجل..

ثم هوى على فكه بلكمة عنيفة، مستطردًا:

- ودعنا نختبر مهارتك اليدوية..

استشاط الحارس غضبا؛ لفقدانه مسدسه، واعتدل وهو يدعك فكه، محاولا إزالة آلام اللكمة، وهو يقول في غيظ:

- ربما تشعر بالندم، عندما تختبرها أيها الحقير..

بدا (نديم) شديد الهدوء والثقة، وهو يقول:

- من يدري..

أطلق الحارس صرخة غضب، وهو ينقض على (نديم)، ويكيل له لكمة كالقنبلة في فكه، تفاداها (نديم) بانحناءة رائعة، وهو يقول:

. انقضاضة خاطئة..

ثم هوى بدوره على فك الحارس بلكمة ساحقة، مستطردًا:

- لو أنك درست فنون القتال بحق..

وأعقبها بثانية في أنف الرجل، متابعا:

- لأدركت أنه ينبغي أن تهاجم من اليسار..

وهوى بثالثة على معدة الحارس، وهو يقول:

- لأن الحائط إلى يميني..

وانتهت المعركة بلكمة كالقنبلة، هوت على رأس الحارس، وضربته بالحائط، ليسقط فاقد الوعي و (نديم) يردف:

- وكنت سأرتطم به هكذا..

ترك الحارس يسقط فاقد الوعي في هدوء، كما لو أن الأمر لا يعنيه، ودفع باب مكتب (صالح)، ودلف إليه في بساطة..

كان مكتبا شديد الفخامة بحق، ولكن ما لفت انتباه (نديم) فيه هو الضخامة المبالغ فيها، لحجم المكتب الخشبي الذي يحمل اسم (صالح عثمان) بحروف من ذهب..

كان من الواضح أن (صالح) فاحش الثراء، شديد الثقة بنفسه، حتى أنه لم يحاول إغلاق حجرته الخاصة بنظام أمني محكم..

وفي هدوء، أتجه (نديم) نحو المكتب الضخم، وراح يفحصه في روية وإمعان، حتى تمتم:

- لماذا كل هذا السمك يا (صالح)، ما دامت ادراج مكتبك نحيله إلى هذا الحد؟

ضاعف هذا من اهتمامه بفحص الكتب، حتى انتبه إلى ذلك الشق الرفيع، المصنوع بحيث يبدو كجزء من نقوش المكتب البارزة، فمرر اصابعه عليه، وقال:

- هذا السبب إذن.. مخبأ سري خاص في أعماق المكتب.. لماذا يحتاج رجل مثلك إلى مخبأ خاص يا (صالح) أنك تحتفظ فيه بمستندات غاية في الخطورة.. مستندات قد تدينك مثلا، أو.

قبل أن يتم عبارته، دوى فجأة صفير إنذار في المبنى كله، وارتفع صوت عبر المكبرات المنتشرة يقول:

انتباه الجميع.. هناك دخيل في المبني، ويرجح انه قد صعد إلى حجرة الرئيس.. أغلقوا كل الأبواب اليكترونيا، وابحثوا عن الدخيل بأقصى سرعة.

وقبل أن يتحرك (نديم) من مكانه، رأى رتاجا اليكترونيا يندفع ليغلق باب حجرة (صالح) من الداخل، وسمع صوتا مشابها من الخارج..

لحظتها أدرك أن (صالح) ليس غرا او مبتدئا وانه لقد أصبح هو سجينا في وكر غريمه..

وأطبقت عليه المصيدة أبوابها بلا رحمة.

كانت انقضاضة (طومان) على (غادة) أشبه بانقضاضة ثور هائج على غزال شارد صغير، إلا أن (غادة)، على الرغم من حجمها، لم تكن لتوصف أبدا بالغزال الشارد المسكين..

ولقد أدرك (طومان) هذا جيدا..

لقد انقض عليها بجسده الضخم، وهوى بخنجره على قلبها بكل الوحشية والقسوة والشراسة، ولكن (غادة) استقبلته بركلة كالقنبلة في وجهه، وهي تقول، في لهجة لها طعم ساخر لاذع:

- هلا أيها الدب الغبي.. ليس من اللياقة أن تهاجم امرأة..

ثم قفزت من مقعدها، ودفعت قدمها الأخرى في معدته، مستطردة:

- خاصة وان احذية النساء لها كعب حاد مؤلم..

صرخ (طومان) في غيظ والم:

- لا أحد يهزم (طومان).

قالها وهو يهوي بخنجره على عنقها، ولكنها أفلتت منه في رشاقة، وتركته يطعن الهواء بخنجره؛ فيختل توازنه، ويرتطم بمنضدة الكمبيوتر فيسقط معها أرضا، وهتفت هي في حدة:

- أيها الوغد.. لقد أفسدت عمل يوم كامل..

قفز (طومان) واقفا على قدميه، وقد بلغ غضبه ذروته، ولم يحتمل أن تهزمه امرأة وتسخر منه، وهو الذي قطع أعناق أعتى

الرجال، فصرخ وهو يركل شاشة الكمبيوتر ويحيلها إلى شظايا وفتات:

- فليذهب عملك إلى الجحيم..

صاحت به في غضب:

- ستدفع ثمن هذا الجهاز الجديد..

أحاله استهتارها به إلى وحش ثائر مفترس، انقض عليها، وهو يصرخ ويزمجر كليث جريح..

ولكن (غادة) انحنت في خفة، وقفزت جانبا في رشاقة، وقالت ساخرة:

- مستحيل يا رجل.. الثيران لا تقتنص الغزلان بهذه البساطة..

التفت إليها، وقلب خنجرة، ليمسك نصله، ويرفع يده عاليا، وقال في شراسة مخيفة:

- من قال هذا.. هناك عشرات الطرق للقنص والقى الخنجر في مهارة مذهلة، واخترق الخنجر هواء الحجرة، بصرير حاد مخيف، وهو يتجه كالرصاصة نحو عنق (غادة)..

وفجأة أثبتت (غادة) أنها ليست ذلك الغزال الصغير..

لقد انتزعت مسدسها من جيب ثوبها، وأطلقت منه رصاصة محكمة، أصابت الخنجر الطائر، واجبرته على تغيير مساره على الرغم من نصله

واتسعت عينا (طومان) في ذهول، وهو يحدق في المسدس والفتاة، التي ابتسمت في سخرية، وهي تصوب مسدسها إليها قائلة:

- مفاجأة.. اليس كذلك؟

بقي الوضع ثابتا صامتا لحظة، كصورة فوتوغرافية جامدة، قبل أن يلتقط (طومان) مقعدا بغتة، وهو يقول في حدة:

- إليك مفاجأتي أيضا..

قفزت (غادة) جانبا، لتتفادى المقعد، الذي القاه أطومان)

نحوها بغتة، وهتفت في حزم:

- لا تتحرك وإلا..

ولكن (طومان) كان قد تحرك بالفعل، واندفع نحو الباب كالصاروخ، وغادر الحجرة والمكتب كله ركضا، فاندفعت (غادة) خلفه هاتفة:

- انتظر..

ولكن هيهات..

لقد كان الرجل ينجو بحياته

ويفر من هزيمته..

ولقد صوبت إليه هي مسدسها بالفعل، وهو يعدو هابطا، وكادت تطلق النار على راسه مباشرة، لولا أن رسم عقلها صورة للنتائج المتوقعة، فانكمش على نفسه، وجعلها تغمغم:

- لست أظننا نسعى لجلب متاعب الشرطة الآن..

وأعادت مسدسها إلى جيبها، وهي تتابع (طومان)، الذي غادر المبنى مندفعا، وابتسمت في سخرية، مستطردة:

- فمن الواضح أننا قد أثرنا غضب (صالح عثمان) حتى الجنون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت المصيدة محكمة حول (نديم) تماما..

الأبواب كلا مغلقة إلكترونيا..

الحراس ينتشرون في كل ركن..

أجهزة الإنذار متحفزة للعمل..

كل الظروف ضد نجاحه...

ولكنه بقي هادئا..

كانت هذه أهم مميزاته..

الهدوء والشجاعة..

حتى في أحلك اللحظات، وأشدها خطرا..

وفي بساطة، وكأنما يشاهد فيلما هزليا، راح (نديم) يدير عينيه فيما حوله، حتى توقف بصره عند النافذة، فقال:

- هناك ثغرة على الأقل..

حمل مقعدا صغيرا، واتجه به نحو النافذة، وهو يستطرد:

- ومن حسن الحظ أننا في الطابق الأخير..

حطم زجاج النافذة بضربة قوية من المقعد، ثم أطل برأسه منها، وتطلع إلى أسفل، حيث بدا له الأشخاص والأشياء كنقاط صغيرة، وعاد يرفع راسه إلى أعلى في هدوء، ورأى حافة رفيعة للسطح، تبعد عنه بمتر واحد، فغمغم:

- نعم.. هناك فرصة للنجاة..

وقفز واقفا على حافة النافذة، التي ترتفع ثلاثين طابقا عن الأرض، وراح يقيس المسافة التي تفصله عن تلك الحافة الرفيعة..

وفجأة انفتح باب حجرة مكتب (صالح)، واندفع عبره رجلان مسلحان، هتف أحدهما، وهو يرفع مسدسه نحو (نديم):

- ها هو ذا الدخيل..

وأطلق النار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- السقوط..

كانت عملية دقيقة للغاية..

وبالغة الخطورة..

لقد تحفزت عضلات (نديم) كلها، عندما اقتحم الرجلان الحجرة..

وفي نفس اللحظة التي أطلق الرجل فيها الرصاص، قفز (نديم)..

قفز إلى أعلى، نحو الحافة الرفيعة، وسمع أزيز الرصاصة، وهي تمرق بين قدميه، وجسده معلق بين السماء والأرض على ارتفاع ثلاثين طابقا..

ولامست أصابعه الحافة الرفيعة، وتشبثت بها..

وصرح الحارس:

- قف أيها الدخيل.. لا مهرب لك..

ولكن (نديم) تجاهله تماما، ودفع كل عضلاته إلى الانقباض، ليرفع جسده إلى أعلى..

إلى سطح المبنى..

واندفع الحارسان نحو النافذة، وأطلقا رصاصتين بلا هدف، نحو البقعة التي اختفى فيها (نديم)، ثم صاح أحدها برفيقه:

- لقد وضع نفسه في فخ أكثر إحكاما اتجه مع مندور إلى باب السطح، ولا تسمحا لذلك الدخيل بمغادرة السطح أبدا، وسأرسل أنا كل الرجال إلى هناك..

هتف رفيقه، وهو يعدو لتنفيذ الأمر:

- وماذا لو وجد مخرجا؟

صاح به الأول في غلظة:

- كف عن حماقتك هذه.. كلنا نعلم أن المخرج الوحيد من السطح هو بابه، وهليكوبتر السيد (صالح) ليست هنا، ولن يتبقى أمام ذلك الدخيل إلا أن يقفز من ارتفاع ثلاثين طابقا..

وابتسم في سخرية، مردفا:

- وسيكون هذا من سوء حظه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قفز (عزت)، مدير مكتب (صالح عثمان) من مقعده، مع رنين هاتفه، والتقط سماعة الهاتف في لهفة، وهو يقول:

- أنا (عزت)، من المتحدث؟

انعقد حاجباه في غضب، عندما سمع صوت محدثه، وقال في عصبية:

- ماذا تريد يا (جابر)؟ إنني أنتظر محادثة هامة من باريس..

بدا التوتر في ملامحه، وهو يستمع إلى (جابر)، قبل أن يقول في حدة:

- دخيل؟! ماذا تعني؟ كنت أظن أن المبنى محصن تماما ضد أي دخيل، وأي..

قاطعه (جابر) في انفعال:

ولكننا أوقعنا به يا سيدي، وحاصرناه في السطح.

قال (عزت) في حدة:

- ماذا تريد مني إذن.. تخلصوا منه على الفور

سأله (جابر) في تردد:

- إنني أسأل عما إذا كان ينبغي أن نقبض عليه حيا ام..

قاطعه (عزت) في عصبية

- القوا به من اعلى المبنى أيها الغبي، وأخبر الشرطة فيما بعد أنه قد ألقى نفسه خوفا من الاعتقال ينبغي أن يتعلم الجميع أن هذا مصير كل من تسول له نفسه اقتحام صومعة (صالح عثمان).

وأنهى الاتصال في حنق، وهو يستطرد:

- هؤلاء الأغبياء.. إنني أنتظر اخبار صفقة بنصف مليون دولار..

وبدا انفعاله ممتزجا بتوق إلى الشهوة للمال، وهو يستطرد:

- صفقة خاصة..

وبدت ابتسامته اشبه بابتسامة ذئب..

ذئب مفترس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اجتمع رجال أمن مبنى (صالح عثمان) عند الباب المؤدى للسطح، وقال رئيسهم (جابر)، وهو يجذب مشط مسدسه، ويتحفز للقتال:

- سنهاجم جميعا دفعة واحدة، ولكن حذار من إطلاق النار عليه.. ينبغي أن نلقي القبض عليه حيا، قبل أن نلقي به من فوق

المبني..

ثم ابتسم في سخرية، مستطردًا:

- فمن الضروري الا يجد الطبيب الشرعي أية إصابات في الجثة، سوى إصابات السقوط من ارتفاع ثلاثين طابقا.

قالها وجذب في صدره نفسا عميقا، ثم أشار بكفه، قائلا في حزم:

- هيا..

اقتحم الرجال كلهم السطح، وشهروا مسدساتهم..

ولكن كان السطح خاليا تماما، إلا من الهيلوكوبتر الصغيرة، التي تحمل شعار شركات (صالح عثمان)، فالتفت الرجال إلى (جابر) في حيرة، وقال هذا في توتر، وهو يشير إلى الهيلوكوبتر:

- إنه يختفي هناك حتما

اندفع الرجال نحو الهيلوكوبتر، وراحوا يدورون حولها، وقد تضاعفت حيرتهم، وراحوا يتبادلون نظرات الدهشة والتوتر، وغمغم (مندور):

- اقسم إنه قد صعد إلى السطح، لقد رأيته بنفسي، أنا و.

بتر عبارته، وكأنما لم يجد ما يضيفه إلى عبارته، في حين تمتم (جابر) في توتر:

- مستحيل!! الوسيلة الوحيدة للفرار من هنا هي الطيران، ووسيلة الطيران الوحيدة هنا ما زالت على الأرض..

وتطلع في حيرة إلى الأرض، من ذلك الارتفاع الشاهق، وهو يضيف:

- أم يهتك ذلك الرجل جناحين؟!

وبدت عبارته هذه عجيبة ومخيفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انهمكت (غادة) في ترتيب المكتب، الذي قلبه صراعها مع (طومان) رأسا على عقب، حتى انها لم تكد تشعر بوقع أقدام خلفها، حتى قفزت واقفة على قدميها ودارت على عقبيها في حدة، ثم لم تلبث أن زغرت في قوة، عندما وقع بصرها على (نديم)، وهتفت:

- كدت أطلق النار على رأسك..

أدار عينيه فيما حوله، قبل أن يسألها في هدوء:

- ماذا حدث هنا.. معركة؟!

تطلعت إليه (غادة) في دهشة، ثم قلدت أسلوبه ولهجته، وهي تكرر:

- ماذا حدت.. معركة.. يا له من برود فاق البرود الإنجليزي التقليدي! ألا ترى كل ذلك الدمار؟ هل تتصور أن هذا قد حدث؟ لأنني عطست بقوة مثلا؟

ابتسم ابتسامة باهتة، وهو يجلس على أقرب مقعد إليه، ولكن ابتسامته الشحيحة هذه لم تلبث أن تلاشت، وهو يسألها في جدية:

- هل تشاجرت مع أحد؟

أطلقت ضحكة قصيرة، وهي تقول:

- بل مع فيل..

وراحت تقص عليه تفاصيل ما حدث لها مع (طومان)، وهو يستمع إليها في اهتمام، حتى انتهت، فقال:

- هذا يعني أن جمع المعلومات حول (صالح عثمان) قد أثار حنق هذا الأخير، ودفعه إلى التخلص منك..

قالت مكملة:

- ويعني أيضا أن ما يخفيه (صالح) يفوق حتى ما يعلمه عنه العالم السفلي.

ثم بدا وكأنها قد تذكرت أمرا ما بغتة، وهي تسأله في اهتمام مفاجئ:

- قل لي أنت: ماذا فعلت في مبنى (صالح عثمان)؟

ابتسم ابتسامته الشاحبة، التي تتلاشي بأسرع مما تولد:

- كانت مغامرة طريفة..

راح يقص عليها كل ما حدث، حتى بلغ نقطة هجوم (جابر) و (مندور) عليه في حجرة (صالح)، وقفزه إلى السطح، فهتفت به في انفعال:

- يا إلهي! وماذا فعلت؟

اجابها في هدوء:

- هربت..

هتفت في سخرية:

- هربت؟! يا للبساطة... إن من يحصل على رغيف طازج من الخبز، يمتلك قصة مثيرة أفضل من قصة فرارك هذه.. هل تجد

أن هروبك من ذلك المأزق أمرا بسيطا، حتى تكتفي في شرحه بتلك الكلمة المقتضبة السخيفة؟

قال في بساطة:

- الواقع أن الفرار كان أبسط مما تتوقعين، ومما تصور هؤلاء الأوغاد..

هتفت في دهشة:

- كيف؟ لقد كنت محاصرا على السطح، وليست امامك وسيلة للفرار، وكل رجال (صالح) تقريبا يقطعون الطريق الوحيد للفرار، فكيف تهرب؟

هز كتفيه في لامبالاة، وقال:

- خمني!

تطلعت إليه في حيرة، ولم تنبس ببنت شفة..

وخيل إليها - على الرغم من هدوء ملامحه أن عينيه تحملان ضحكة..

ضحكة ساخرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- يا له من ثعلب!

تنطقها (صالح عثمان) في هدوء، يخفي الكثير من ثورة أعماقه، وهو يتابع شاشة تليفزيون كبيرة ملونة، تعرض فيلما تم التقاطه

ل (نديم) دون أن يشعر هو نفسه، وتابع وهو ينفث دخان سيجاره في قوة:

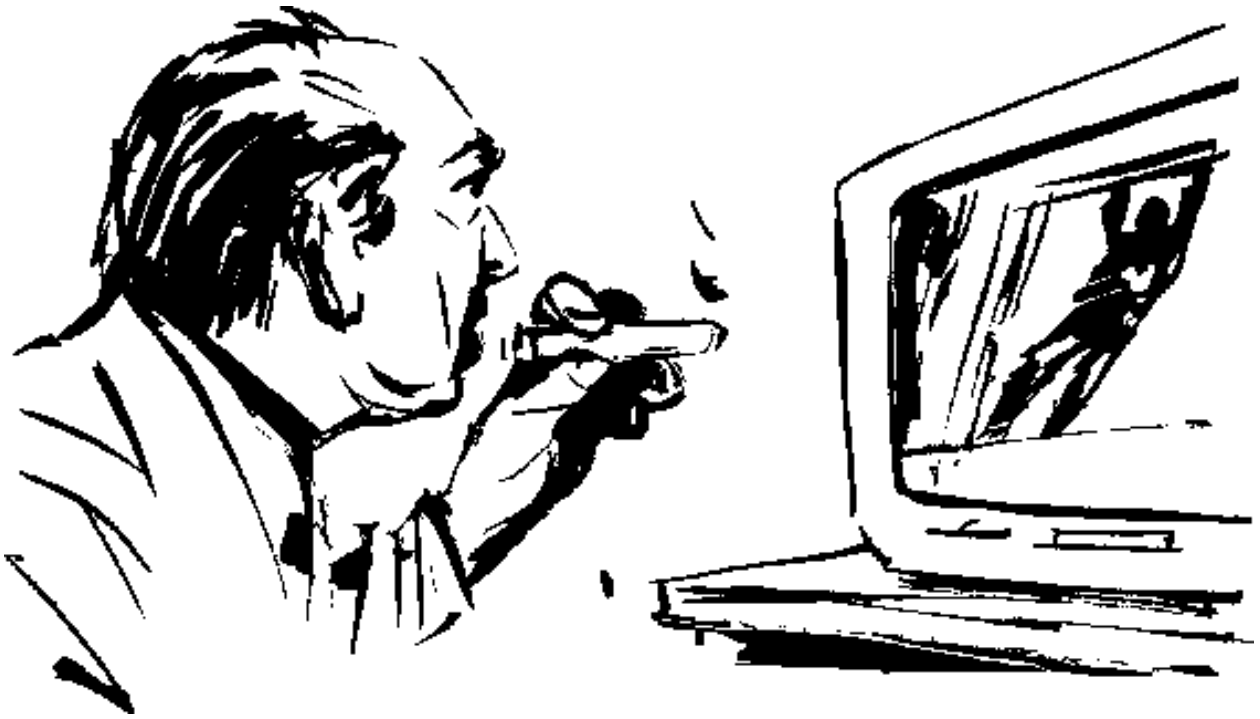

- انظر يا (عزت).. لقد انتظر حتى غادر (جابر)

و (مندور) الحجرة، ثم عاد إليها، وها هو ذا يترك تلك البطاقة فوق مكتبي، وينصرف في هدوء مثير للأعصاب، دون أن يعترضه أحد، حتى يبلغ الباب السفلى، فيعطل أجهزة الإنذار، وينصرف في بساطة، كما لو أنه يغادر منزله الخاص..

عقد (عزت) حاجبيه وهو يقول:

- إنه وغد جريء..

قال (صالح) في توتر:

- وطاقم حراسي من الأغبياء الحمقى، وكل ما فعله هو أن استغل حماقتهم، وتركهم يندفعون جميعا إلى السطح بلا ترو، في حين عاد هو أدراجه إلى المكان الوحيد، الذي لا يتصورون عودته إليه، ليجد الطريق أمامه خاليا إلى الخارج.

ونفث دخان سيجاره مرة أخرى في حدة ما قبل أن يضيف:

- ومن حسن حظنا أنه لم يكن يعلم بوجود آلات التصوير السرية، التي تعمل فور فتح الباب..

جلس (عزت)، وهو يقول في قلق:

- ولكن لماذا فحص المكتب ومستحيل أن يكون على علم بوجود المخبأ السري أسفله!

محل (صالح) شفتيه، وقال:

- من يدري..

ثم أضاف في حزم:

- اسمع يا (عزت). اريد نسخ كل ما لدينا. بجهاز نسخ الكمبيوتر، وعمل اسطوانة كمبيوتر تحوي صور كل الوثائق، ثم إعدام الوثائق كلها..

ابتسم (عزت) ابتسامة خبيثة، وهو يقول:

- فكرة رائعة يا (صالح) بك..

ثم أضاف وهو ينحني على نحو مبالغ فيه:

- معذرة يا (صالح) بك، ولكن لدى خبر سيء..

عقد (صاح) حاجبيه، وهو يقول في عصبية:

- اسوأ مما حدث؟

تنحنح (عزت، وقال:

- لست أدري في الواقع، ولكن (طومان) فشل في القضاء على المحامية الشابة..

هتف (صالح) في غضب:

- فشل؟! هل أصبح فاشلا إلى حد العجز عن القضاء على امرأة؟

قال (عزت):

- إنه يقول إنها قد فاجأته بكونها امرأة غير عادية، وبأنها مقاتلة شرسة، حتى أنها قد أطاحت بخنجره برصاصة واحدة من مسدسها، من بعد ثلاثة أمتار، ولقد دفعني هذا إلى طلب بعض التحريات عنها، ولقد علمت أنها شرطية سابقة، وأنها شريكة في مكتب محاماة يملكه شرطي سابق أيضا، يحمل اسم (نديم فوزي).

صمت (صالح) تماما، وهو يستمع إلى (عزت)، ثم هز رأسه، وكأنما يحاول استيعاب كل كلمة، وقال:

- شرطية سابقة؟ هذا يعني أن (طومان) الغبي لا يصلح للتخلص منها.

وابتسم ابتسامة مخيفة، وهو يضيف:

- إنها تحتاج إلى (لوسي).

تألقت عينا (عزت)، وهو يقول:

- بالتأكيد يا سيدي إنها تحتاج إلى (لوسي)، التي ندخرها لمثل تلك المهام..

هز اصالح) كتفيه، وقال:

- إنها صاحبة أسلوب متميز، لم تألفه (مصر) من قبل؛ ولم تألفه شرطتها، مما يجعل مهماتها ناجحة دوما.. إنها في الواقع تستحق ذاك الأجر الباهظ الذي تتقاضاه..

أومأ (عزت) برأسه موافقا، ثم عاد يسأل رئيسه في اهتمام:

- ولكن ماذا عن ذلك الدخيل المجهول؟

تطع (صالح) إلى شاشة التليفزيون، التي تعرض للمرة العشرين صور (نديم) بزيه التنكري، وهو يقتحم الحجرة، ثم نقل بصره إلى تلك البطاقة البيضاء، التي تحمل في منتصفها رسما لعقرب ذهبي، وعاد يرفع عينيه إلى (عزت)، قائلا:

- سنفعل ما يفعله أي مواطن شريف، في مثل هذه الأمور يا (عزت)..

وابتسم ابتسامة تحمل كل خبث الثعالب و، وشراسة الذئاب، وهو يستطرد في سخرية:

- سنبلغ الشرطة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- حصار..

تألقت عينا العقيد (مجدي)، وهو يتطلع إلى البطاقة البيضاء، التي تحمل رسم العقرب الذهبي، وقال في حدة تحمل كل انفعالاته:

- إذن فقد عاد..

سأله (صالح عثمان) في اهتمام:

- من هذا الذي عاد؟

أجابه (مجدي) في انفعال:

- (العقرب)..

عقد (صالح) حاجبيه، وهو يقول في حيرة:

- (العقرب)؟!، من هذا (العقرب)؟

قال (مجدي) في حدة، وهو يلوح بالبطاقة:

- إنه شاب يظن نفسه أقوى من الشرطة كلها، (زورو) المصري، حامي حمى الحق والفضيلة..

ثم أردف وهو يضم قبضته في غضب:

- ولكنني سأوقع به هذه المرة أقسم أن افعل..

واندفع يستطرد في حماس:

- قل لي يا سيد (صالح): هل يمكنني رؤية شريط الفيديو، الذي سجلته أجهزتك السرية لحادثة الاقتحام؟

قال (صالح):

- بالتأكيد.. إنني دوما في خدمة القانون والعدالة..

صحبه إلى حجرة جانبية، احتشدت بأجهزة إليكترونية معقدة، وقال للشاب يجلس أمام أحد هذه الأجهزة:

- أدر الشريط..

أدار الشاب الشريط كله، وراح (مجدي) يتابعه في انفعال شديد، وهو يقول:

- إنه هو.. لقد تعرفته على الرغم من الشعر المستعار والشارب.. إنه هو.

سأله (صالح) في عصبية هذه المرة:

- من هذا؟

أشار (مجدي) إلى صورة (نديم) على الشاشة وهو يقول:

. (العقرب).. ها هو ذا..

أمسك (صالح) معصم (مجدي) بغتة، وهو يقول بلهجة تكشف عن نفاذ الصبر:

- اسمع أيها العقيد: إنني أكره الغموض، وأكره أكثر أن أستمع إلى الأحاديث المبهمة.. من الواضح أنك تعرف من (العقرب) هذا، فلماذا لا تخبرني عن اسمه؟

تطلع إليه (مجدي) لحظات في دهشة، ثم لم يلبث أن قال في انفعال:

- معذرة يا سيد (صالح).. كان ينبغي أن أخبرك بالفعل.

ثم مال نحوه، مستطردًا:

- إنه شرطي سابق يدعى (نديم).. (نديم فوزي).

تألقت عينا (عزت)، عندما سمع الاسم، وتبادل مع (صالح) نظرة مفعمة بالانفعالات، قبل أن يسأل (مجدي) في اهتمام بالغ:

- أتقصد المحامي (نديم فوزي)؟

قلب (مجدي) شفتيه في ازدراء، ولوح بكفه، قائلا

- هو نفسه.. لقد فصله السيد وزير الداخلية من صفوف الشرطة، لأنه يدس أنفه دوما فيما لا يعنيه، ويتجاوز القواعد والقانون، ولقد حاول أن يحصل على ترخيص بافتتاح مكتب خاص للتحري، ولكنني رفضت طلبه، فما كان منه إلا أن افتتح مكتبا للمحاماة، وصنع لنفسه زيا أشبه بزي (زورو) الأسطوري، وراح يقحم نفسه على عالم مكافحة الجريمة..

سأله (صالح) في انفعال:

- ولماذا لم تلقِ الشرطة القبض عليه؟

قال (مجدي) في حنق:

- لأننا لا نملك دليلا يثبت أن (نديم فوزي) هو (العقرب).

ثم التفت إلى (صالح)، مستطردًا في لهفة:

- ولكنك صديق شخصي للسيد وزير الداخلية يا سيد (صالح)، ويمكنك إقناعه باعتقال (نديم) هذا.. اليس كذلك؟

تمتم (صالح)، وهو ينفث دخان في بطء:

- بالتأكيد يمكنني ذلك..

ولكنه لم يلبث أن استدرك في مسرعة:

- ولكنني أفضل الأسلوب القانوني بالطبع..

عقد (مجدي) حاجبيه في ضيق، وهو يردد مرغما:

- بالطبع.

ثم أضاف في برود:

- هل يمكنني الحصول على صور ثابتة من هذا الفيلم؟

اجابة (صالح):

- بالتأكيد.

ثم أشار إلى الشاب الجالس أمام الأجهزة، فضغط الشاب زرا صغيرا، وانتظر بضع لحظات، حتى برزت صورة فوتوغرافية ملونة، من تجويف خاص أسفل جهاز العرض تحمل لقطة واضحة لوجه (نديم) المتنكر، فالتقطها الشاب وناولها إلى (مجدي)، الذي حدق فيها بدهشة، جعلت (عزت) يغمغم:

- إنها التكنولوجيا..

التقط (مجدي) الصورة، ودسها في جيبه، قائلا:

- نعم إنها التكنولوجيا..

وارتسمت على شفتيه ابتسامة تشف، وهو يستطرد:

- ويمكنك أن تطمئن يا سيد (صالح).. سأوقع هذه المرة بـ (العقرب).. حتما...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ركضت والدة المهندس المتهم (أحمد) خلف (نديم)، وهو يغادر قاعة المحاكمة، في ثوب المحاماة الأسود الفضفاض، وتشبثت بذراعه، قائلة في توتر:

- لماذا طلبت تأجيل المحاكمة في الجلسة الأولى؟

توقف (نديم)، والتفت إليها، قائلا في هدوء:

اطمئني يا سيدة (نوال) والتأجيل لصالحنا هذه المرة، فلا بد لي من دراسة ملف القضية جيدا، والبحث عن ثغرة يمكن استغلالها لتبرئة ابنك..

قالت في انفعال:

- ولكن التأجيل يعني أن يبقي ابني وقتا أطول خلف القضبان.

تطلع (نديم) إلى عينيها مباشرة، وهو يقول:

- هذا أفضل من أن يتدلى من حبل المشنقة كذلك؟

ارتجفت لمجرد تصور الأمر، وتهتمت في حزن:

- اعذرني يا سيد (نديم)، ولكنني ام...

ربَّت على كتفها في حنان وهو يقول في حزم:

- اطمئني..

لم تكن الكلمة تعني الكثير، في مثل هذه الظروف، ولكن اللهجة الواثقة، التي نطقها بها (نديم) ملأت قلب السيدة، وبعثت فيه شيئا من الدفء، جعلها ترفع عينيها وتتطلع إلى عيني (نديم) لحظة..

وفي هذه اللحظة قرأت في عينيه الكثير..

وفجأة خامرها شعور قوي بأن ابنها في أمان..

وبأنه لن يُدان ابدا..

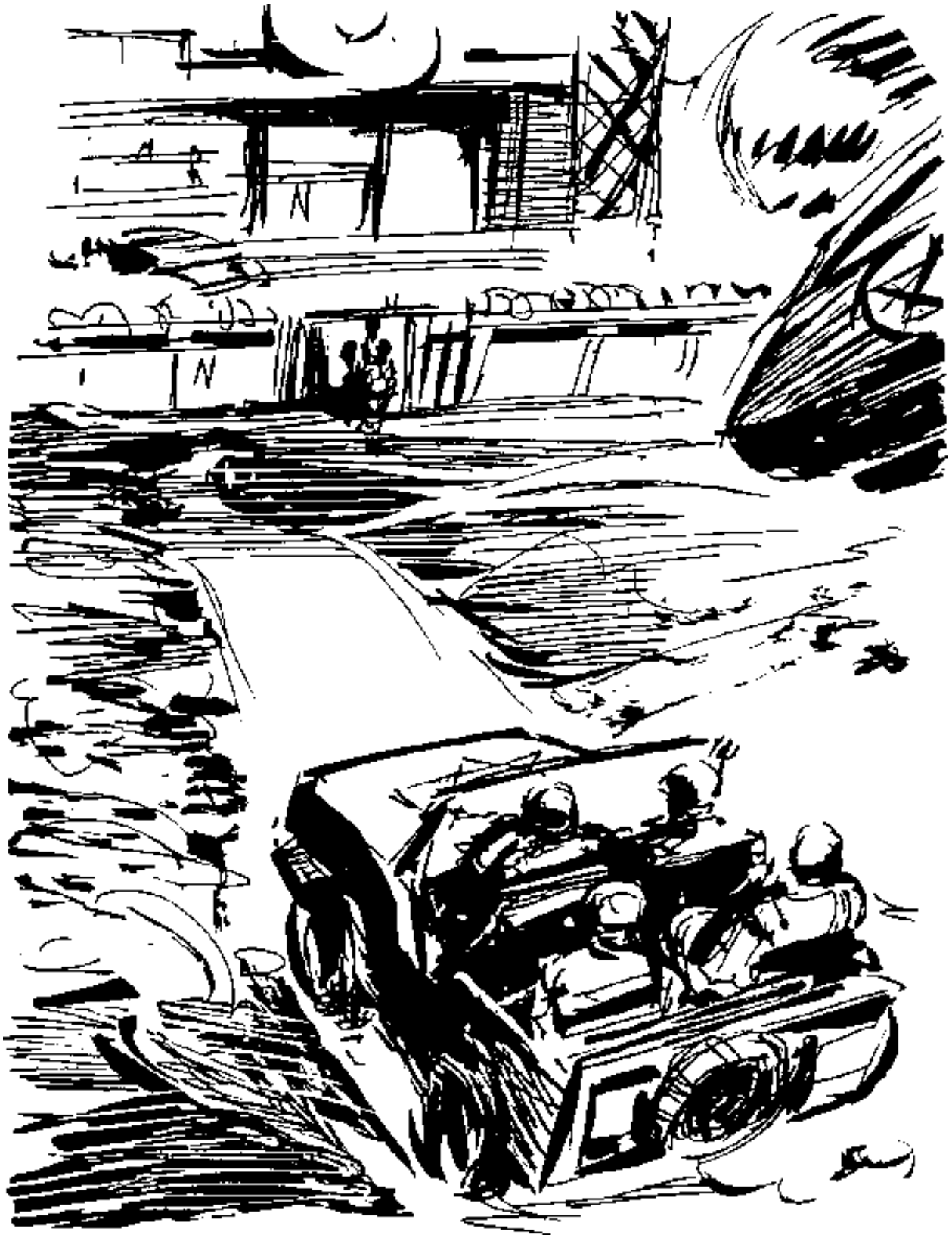

وفجأة أيضا ارتفع من خلف كتفي (نديم) صوت حنون يقول:

- اطمئني بالفعل يا سيدي، ف (نديم) ليس مجرد محام.

التفت (نديم) يتطلع إلى وجه اللواء (حلمي)، الذي تابع في هدوء:

- أعني أنه محام من نوع خاص.

لم يبتسم (نديم) كعادته، ولكن السعادة بدت واضحة في عينيه، وهو يقول:

- سيدي كم يسعدني أن أراك هنا..

ربت اللواء (حلمي) على كتفه، وهو يقول:

- يسعدني دوما ان التقي بك يا ولدي.. قل لي: كيف حال قضيتك هذه؟

اجابة (نديم) في هدوء:

- صعبة.. ولكنها ليست مستحيلة..

أشار إليه اللواء (حلمي)، وهو يقول:

انت الوحيد الذي يمكنه ربح مثل هذه القضية يا (نديم)..

وصمت لحظة، ثم أردف في خفوت:

- خاصة لو استعنت بصديقك (العقرب)..

قال (نديم) في هدوء، دون أن يحمل وجهه أدنى انفعال:

- لقد استعنت به بالفعل يا سيدي..

التمعت عينا اللواء (حلمي) لحظة، قبل أن يقول في ارتياح:

- كنت واثقا من أنك ستفعل..

نقلت السيدة (نوال) بصرها بينهما في حيرة، ثم سألت اللواء (حلمي). في قلق:

- هل سينجو ولدي يا سيدي؟

قبل أن تنفرج شفتا اللواء (حلمي) عن حرف واحد..

ارتفع صوت صارم يقول في غلظة:

- مطلقا..

اجفلت السيدة (نوال)، وهي تدير عينيها في جزع إلى (مجدي)، الذي تابع في حدة، وهو يتجه نحوهم:

- ألقى القبض على هذا الشاب يا سيادة اللواء، فهو مجرم يقتحم الأماكن الخاصة عنوة..

نقل اللواء (حلمي) بصره بين وجه (مجدي) الظافر الشامت، ووجه (نديم) الهادئ، الذي لا يشف أبدا عما يعتمل داخله، وغمغم:

- حقا؟!

أما (نديم)، فقال في برود:

- أي قول هذا ايها العقيد؟

قال (مجدي) في صرامة:

- القول الفاصل.. إنني أحمل دليلا هذه المرة.

وأخرج من جيبه الصورة، وهو يقول:

- لقد زود السيد (صالح عثمان) حجرته بآلات تصوير خاصة، تعمل فور فتح الباب، وتلتقط فيلما كاملا للمقتحم، حتى لو راح يعمل في الظلام..

تطلع (نديم) واللواء (حلمي إلى الصورة، وقال (نديم) في هدوء:

- أهذا هو الدليل؟

هتف (مجدي):

- إنه دليل قاطع.. يكفي أن نأتي بصورة لك، ونضيف إليها شاربا كثا، وشعرا غزيرا خشنا، وستجد أنك صورة طبق الأصل من هذا المقتحم، الذي ترك خلفه بطاقة (العقرب).

أعاد إليه (نديم) الصورة في هدوء، وهو يقول:

- إنه مجرد تشابه، واي وكيل نيابة مبتدئ هنا سيخبرك أن هذه الصورة لا تعد دليلا، بأي حال من الأحوال، حتى ولو كانت صورتي انا، لا صورة ذاك السيد الذي يشبهني؛ لأن ملتقطها لم يحصل على إذن من النيابة بالتقاطها، ثم إن الصورة توضح أن ذلك السيد يرتدي نوعا من القفازات المطاطية، التي يرتديها الجراحون، وهذا يعني أنك لن تجد بصمة واحدة في مكان الاقتحام.

ومال نحوه، مستطردًا في برود مثير:

- وهذا يعني أنه ما من دليل قانوني يدين أي مخلوق.

احتقن وجه (مجدي) وهتف:

- ولكنك أنت (العقرب)، وسأثبت يوما أنك ذلك المجرم.

قال (نديم) في هدوء شديد، وإن التمعت عيناه فيما يشبه الجذل:

- إذن فأنت تهددني على نحو واضح، وفي وجود شاهدين.. اتعلم أن هذا يمنحني الحق في أن أقاضيك بتهمتي السب العلني واستغلال السلطة؟

ازداد احتقان وجه (مجدي) وهو يقول:

- اسخر ما شئت أن تفعل ايها (العقرب)، ولكن لتعلم أنك لا تواجه خصما عاديا هذه المرة، وإنما تواجه (صالح عثمان)، أكبر رجل أعمال في (مصر)، والصديق الشخصي للسيد وزير الداخلية، ولقد تقدم السيد (صالح) بشكوى رسمية، بخصوص اقتحام مكتبه، ولقد أخبرته أنا أنك المشتبه فيه رقم واحد، ولست أظنه سيقف موقفا سلبيا في هذا الشأن.

بدا القلق على وجه اللواء (حلمي)، في حين قال (نديم) في هدوء:

- لا لست أظنه سيفعل..

هتف مجدي) في لهجة أقرب إلى الشماتة، وهو يبتعد:

- صدقني أيها (العقرب) لقد وقعت هذه المرة.. سيحاصرك (صالح عثمان) حصارا لا فكاك منه.. لقد وقعت بحق..

وارتجف قلب اللواء (حلمي) قلقا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- زائر غامض..

دلف (عزت) إلى مكتب (صالح) وهو يحمل اسطوانتي كمبيوتر رفيعتين سلمهما إلى (صالح)، وهو يقول:

- ها هي ذي كل الوثائق يا سيدي.. لقد قمت بتخزينها على أسطوانة كمبيوتر، صنعت منها نسختين متماثلتين؛ لضمان عدم إتلاف المعلومات تحت أية ظروف، كما قمت بتدمير الوثائق الأصلية.

تناول (صالح) الأسطوانتين، وقال:

- عظيم.. والآن ماذا لديك عن (نديم فوزي) هذا؟

أجابه وعيناه تحملان تلك النظرة الشبيهة بالثعالب:

- معلومات بالغة الخطورة يا سيدي.. إنه مقاتل شرس، جريء، لا يبالي بقوة خصمه أو سطوته، وهو الذي أوقع بـ (نعمان والي).

عقد (صالح) حاجبيه في شدة، وهو يقول:

- هو نفسه؟!

- ويقولون إنه يرتدي أحيانا زيا أسود اللون، مع قناع وقفازين، كما لو كان شخصية أسطورية، وهو شريك للفتاة التي فشل (طومان) في قتلها، ويبدو أنهما يعملان معا ضدنا..

مط (صالح) شفتيه، قائلا:

- ضدي انا؟! يا للسخافة!

ثم رفع عينيه إلى (عزت)، مستطردًا في حزم:

- أريد هذا الفتى حيًا يا (عزت).

انحنى (عزت)، وهو يقول في خبث:

- امرك مطاع يا سيد (صالح).

ثم اعتدل مستطردًا:

- وماذا عن (لوسي)؟

عقد (صالح) حاجبيه مرة أخرى، وهو يقول:

- ماذا عنها؟

اجابه (عزت):

هل تتم مهمتها بشأن الفتاة؟

هتف (صالح) في حزم:

- بالطبع.. دعها تخلصنا من الفتاة، في حين نعمل نحن على اقتناص الفتى..

قال (عزت) في خفوت:

- ولكنها تطلب خمسين الفا هذه المرة.

أجابه (صالح)، وهو يلوح بكفه في حزم:

- امنحها ما تطلبه

ثم زمجر مستطردًا:

- على ألا تفشل هي أيضا..

ابتسم (عزت)، وهو يقول:

- إن (لوسي) تملك أسلوبا خاصا، ثم إنها لم تفشل في عملياتها ابدا..

غمغم (صالح) في سخرية:

- هناك مرة أولى دائما..

قال (عزت) في خبث:

- لن تكون هذه المرة..

ثم أضاف بلهجة جادة:

- وبالمناسبة، سيصل (سوريال) الليلة..

رفع (صالح) عينيه إليه، وامتلأت كل خلجاته بالاهتمام، وهو يقول:

- (سوريال) بنفسه؟!

قال (عزت) مبتسمًا:

- بشحمه ولحمه..

قال (صالح) في اهتمام:

- لا ريب أن حجم الصفقة رهيب هذه المرة..

مال (عزت) نحوه، وهو يقول:

- بالتأكيد، فهو يتعلق بمشكلة الجنوب في (السودان) وبعملية تقسيم (لبنان)، و...

قاطعه (صالح):

- اعلم هذا.. اعلمه..

ثم أضاف في حزم، وهو يتراجع بمقعده:

- وهذا يعني انه من الضروري أن ننهي عملية (العقرب) هذه.. وبأقصى سرعة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استمعت (غادة) إلى حديث (نديم) في انفعال، ثم قالت في حماس:

- إذن فقد أخبر (مجدي) (صالح عثمان) بأمرك، وصار اللعب بأوراق مكشوفة.

قال في هدوء:

- هل يخيفك هذا؟

ابتسمت في جذل، وهي تقول:

- بل يجعلّ الأمر أكثر ّمتعة..

أضاف في هدوء:

- وخطورة.

ثم شبك اصابع كفيه أمام وجهه، مستطردًا:

- ثم إن هذا يفسد الكثير من عمل (العقرب)، الذي يعتمد على السرية والغموض..

ضحكت وهي تقول:

- اطمئن، ما دام (صالح) قد حصل على كل معلوماته من العقيد (مجدي)، فسيظل الشك جزءا من معرفته هذه، ويمكننا أن نضاعف هذا الشك في أعماقه، وتزيد من حيرته، مما يربكه ويمنحنا نقطة تفوق..

هز رأسه في هدوء، وهو يقول:

- أمثال (صالح عثمان) لا يرتبكون بسهولة يا عزيزتي، ليس لأنهم شجعان صناديد، بل لأن ثقتهم بقوتهم تجعلهم يظنون أنه ما من أحد يمكنه هزيمتهم، وأن لا داعي للخوف

من أي مخلوق، ولكن هذه الثقة المفرطة في حد ذاتها تعد نقطة ضعف كبيرة، إذا ما أحسن المرء استغلالها

ضحكت (غادة) مرة أخرى، وهي تقول:

- يا لك من فيلسوف..

تابع في هدوء، وكأنه لم يسمعها:

- ولكنني أشعر أن (صالح عثمان) هذا يخفي امرا رهيبا، هو سر ثروته المفرطة، التي لم يبلغها مثله من قبل.. أمر يفوق العمل

بالمقاولات والتهريب، وحتى المخدرات..

سألته في حيرة:

- وما الذي يفوق أرباح تجارة المخدرات؟

تطلع إليها لحظة، ثم اجاب في حزم واقتضاب:

- السلاح.

وشعرت (غادة) في أعماقها بارتجافه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هبطت الطائرة القادمة من باريس)، في ميناء القاهرة الجوي، وغادرها رجل أشقر الشعر، أزرق العينين، توحي كل ملامحه وحقائبه بأنه فرنسي، على الرغم من أن لهجته الفرنسية كانت تشف عن أنه ليس فرنسي الأصل، أو أنه من سكان شرقي (فرنسا)، إلا أن كل هذا لم يعن شيئا، عندما تم استقبال ذلك الفرنسي في قاعة استقبال كبار الزوار بصفة استثنائية، حيث كان ينتظره (عزت)، الذي ابتسم ابتسامة واسعة، وهو يرحب به، قائلا:

- مرحبا يا مسيو (سوريال).. كيف حالك، وكيف حال الرجال هناك؟

أجابه (سوريال) بلغة عربية، وبلهجة مصرية خالصة:

- جميعهم بخير يا مسيو (عزت) المهم كيف حال الرجل هنا؟

ابتسم (عزت) ابتسامته التي تحمل الكثير من الخبث، وهو يقول:

- اطمئن يا رجل.. إنني أسيطر عليه سيطرة تامة..

وأطلق ضحكة قصيرة، قبل أن يضيف:

- ثم إنه يعبد المال، وهذا يجعل الأمر أكثر سهولة..

ابتسم (سوريال) في ارتياح، وقال:

- بالتأكيد.. إنني أميل إلى التعامل إنني أميل إلى التعامل مع أولئك الذي يعبدون المال.

استقلا معًا سيارة فاخرة، تحمل شعار شركات (صالح)، و (سوريال) يقول:

- هذه المرة ستكون الصفقة بالغة الضخامة..

قال (عزت) في شراهة:

- لقد وعدتني بعمولة تبلغ نصف مليون دولار..

ابتسم (سوريال)، ورمقه بنظرة جانبية، وهو يقول:

- لقد وافق الرجال على رفعها إلى مليون دولار دفعة واحدة، لو تمت الصفقة كما ينبغي..

فرك (عزت) كفيه في لهفة، وسال لعابه لسماع المبلغ، وهو يقول:

- ومن سيحمل السلاح هذه المرة؟ المتمردون في جنوب (السودان) أم ميليشيا الكتائب في (لبنان)، ام..

قاطعه (سوريال) في حزم:

- بل المصريون..

حدق (عزت) في وجهه بدهشة، وهو يقول:

- المصريون؟! ولماذا يحمل المصريون السلاح؟! وضد من؟!

ابتسم (سوريال) ابتسامة غامضة، وهو يقول:

- ضد عدوهم التقليدي، عبر ما يقرب من نصف القرن يا عزيزي..

ثم مال نحوه، مستطردًا بابتسامة أكثر غموضا:

- ضد الإسرائيليين..

وكانت مفاجأة بحق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- صفقة الموت...

عقد (صالح عثمان) حاجبيه في شدة، وهو يستمع إلى (سوريال)، قبل أن يغمغم في شك:

- حرب مصرية إسرائيلية؟! وكيف يمكن أن تشتعل هذه الحرب.. الا تعلم يا رجل أنه هناك معاهدة سلام مصرية إسرائيلية، وأن..

قاطعه (سوريال) مبتسما في هدوء:

- المعاهدات والأوراق مجرد أشياء يمكن تمزيقها وتجاهلها يا مسيو (صالح)، عندما تبدأ الاضطرابات على الحدود..

ازداد انعقاد حاجبي (صالح): وهو يقول:

- وكيف تحدث هذه الاضطرابات؟

اتسعت ابتسامة (سوريال)، وهو يقول:

- إنها مهمتك يا مسيو اصالح).

هتف (صالح) مستنكرا:

. مهمتي انا؟!

اعتدل (سوريال) بغتة، ومال نحو (صالح)، قائلا في حزم:

- اسمع يا مسيو (صالح) وعندها قبلت العمل، كواحد من كبار تجار السلاح في الشرق الأوسط، الذين نسبغ عليهم حمايتنا، كان هذا يعني التخلي عن كل عواطفك وانتماءاتك، وأن تبذل دوما أقصى جهدك لتفعل كل ما نطلبه منك، وكل ما يكفل لنا النجاح، ولتعلم أن الحرب المصرية الإسرائيلية كانت دوما الممول الأكبر لنا في تجارة الأسلحة، في منطقة الشرق الأوسط

كلها، وبانتهائها فقدنا موردا كبيرا للمال في المنطقة، وحتى الحروب والصراعات الجانبية التي دفعنا الشعوب إليها دفعا لم تمنحنا ما يعوض ذلك، لذا فقد رأى الرؤساء، بعد دراسة الأمر من كل الوجوه، أنه من المحتم أن تشتعل الحرب المصرية الإسرائيلية مرة اخرى..

ثم تراجع في مقعده، ولوح بكفه مستطردًا:

- ثم إنك ستربح من هذا ما يقرب من ملياري دولار..

جاء دور (صالح) ليميل نحو (سوريال)، قائلا في صرامة:

- ينبغي أن تعلم أولا أنني بالفعل أقوى رجالكم في الشرق الأوسط، وأنكم لا تستطيعون تعويضي، فلقد بلغت شأنا يصعب أن يبلغه رجل يعمل بعيدا عن لعبة السياسية، حتى أنني أكاد أكون الوحيد من المدنيين، غير السياسيين، الذي يمتلك طائرة خاصة، بتصريح مميز من وزير الدفاع المصري نفسه، وهليكوبتر خاصة لتنقلاتي عبر مواقع عمل شركاتي المختلفة، ولقد نجحت باتصالاتي في منحكم حجم تعاقدات يبلغ عشرة مليارات دولار، خلال عامين فحسب، ولكنني في النهاية مصري، وليس من السهل أن أسعى لإشعال حرب مصرية إسرائيلية..

ابتسم (سوريال) ابتسامة أقرب إلى السخرية، وهو يقول:

- العاملون بتجارة السلاح لا ينتمون إلى أية دولة يا مسيو (صالح)، إنهم ينتمون للمال وحده، هو وطنهم وسيدهم وهدفهم لقد عقدت أنا نفسي صفقتين رائعتين في (باريس)، إحداهما مع حكومة جنوب إفريقيا البيضاء، والثانية مع الثوار السود في جنوب إفريقيا) نفسها.. إننا لا نهتم بمن الرابح أو الخاسر في كل الحروب، المهم أن تمتد الحرب لأطول مدى

ممكن، وأن نبيع الأسلحة بمليارات الدولارات.. وحتى عندما تشتعل الحرب المصرية الإسرائيلية، فإننا سنبيع الأسلحة للطرفين على حد سواء، المهم هو أن نربح المهم هو الأوراق الخضراء يا رجل.. أوراق البنكنوت.

قال (صالح) في حدة:

- وهذا ما اقصده أنا ايضا، فلست أرفض الحرب بسبب عواطف وطنية، وإنما لأن الحرب ستفقدني الكثير من امتيازاتي..

أسرع (سوريال) يقول:

- وستمنحك ملياري دولار دفعة واحدة..

صمت (صالح) يفكر في الأمر، وراح ينفث دخان سيجاره في عمق، قبل أن يقول:

- وكيف يمكن إشعال حرب كهذه، بعد أن هدأت الأمور؟

ابتسم (سوريال) ابتسامة رجل بلغ مأربه، وقال:

- فقط عليك أن تدفع بعض المهربين، الذين يعملون لحسابك، لزرع بعض القنابل على خط الحدود، في (طابا) او (غزة)، أو غيرهما، وعندما تنفجر القنابل سنتكفل نحن بالباقي..

صمت (صالح) دقيقة اخرى، ثم غمغم:

- مقابل ملياري دولار؟

أجابه (سوريال) في إغراء:

- على الأقل..

اعتدل (صالح) دفعة واحدة، وقال:

- اتفقنا.. متى نوقع العقد الخاص..

اتسعت ابتسامة (سوريال)، حتى كادت تلتهم وجهه كله، وهو يقول:

- في (باريس) كالمعتاد، مساء الغد..

قال (صالح) في ارتياح:

- لا بأس.. سيمنحني هذا فرصة كافية لسحق (العقرب) أولا.

عقد (سوريال) حاجبيه، وهو يقول:

- أي عقرب هذا؟

ابتسم (مالح) قائلا:

- لا تقلق نفسك بشأنه يا مسيو (سوريال).. إنه مجرد عقرب، وسينتهي أمره تماما..

واتسعت ابتسامته، وهو يردف:

- الليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وضعت (غادة) الكمبيوتر الجديد في موضع القديم، وهي تقول في حدة:

- أقسم أن يدفع (صالح عثمان) هذا ثمن الكمبيوتر القديم، الذي حطمه ذاك الدب، الذي أرسله لقتلى..

قال (نديم) في هدوء:

- عندما نوقع به ستكون فاتورته ضخمة للغاية..

ثم استطرد في بساطة:

- هل ستعودين إلى منزلك.. إنها الحادية عشرة..

قالت في اهتمام: يمكنك أن تنصرف انت، فسأبقى أنا؛ لإعداد الكمبيوتر الجديد للعمل..

قال وهو يتجه إلى الباب:

- لا بأس، ولكن انتبهي جيدا هذه المرة.

ابتسمت قائلة:

- اطمئن..

سمعته ينصرف، ويغلق الباب خلفه، فغمغمت مبتسمة:

- يا لك من رجل يا (نديم)!! إنك من ذلك النوع النادر، الذي يحيا وسط المخاطر في هدوء، كما لو كان يسبح في مسبح خاص، وهو يرقد فوق مرتبة غير قابلة للغرق..

وارتفع حاجباها في حنان، وهي تستطرد:

- ولعلني لهذا احبك.

ثم زفرت في قوة، وهي تداعب أزرار الكمبيوتر مستدركة:

- دون أن تشعر أنت بنبض قلبي..

راحت تختبر الكمبيوتر الجديد في اهتمام استغرق كل حواسها، حتى أنها قد انتفضت عندما ارتفع رنين جرس الباب بغتة، وتمتمت:

- أي زائر سخيف هذا؟

اتجهت نحو الباب في سرعة، إلا أن موجة من القلق ملأت نفسها بغتة، وجعلتها تتساءل عما إذا كان من المحتمل أن يكون الطارق أحد رجال (صالح عثمان)؛ لذا فقد انحنت تتطلع عبر

العين السحرية التي تتوسط الباب.. وملأتها دهشة بالغة.. كانت هناك سيدة بالغة الجمال والأناقة، في منتصف الثلاثينيات تقريبا، تقف أمام الباب في هدوء..

وفي حيرة فتحت (غادة) الباب، وراحت تتطلع إلى تلك الشقراء الفاتنة، التي ترتدي ثوبا أنيقا غالي الثمن، وقفازين حريريين، وتبتسم بشفتين ساحرتين وعينين زرقاوين رائعتين وهي تقول:

- أهذا مكتب (نديم فوزي)؟

اشارت (غادة) إلى اللافتة التي تحمل اسم (نديم)، والتي تتوسط الباب، وهي تقول:

- حتما، ولكن (نديم) نفسه قد انصرف منذ قليل، و ...

قاطعتها تلك الفاتنة قائلة:

- اعلم ذلك، لقد رأيته ينصرف.

لم ترق ابتسامتها (غادة)، وهي تستطرد:

- إنني أريدك أنت..

عقدت (غادة) حاجبيها، وهي تقول في دهشة:

- تريدينني أنا؟ لماذا؟

بدت ابتسامة الفاتنة أشد غموضا، وهي تجيب:

- سأخبرك كل شيء بالتأكيد، ولكن أعتقد أنه ينبغي أن نتعارف أولا، واتسمت ابتسامتها، وهي تضيف:

- اسمي (لوسي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غادر (نديم) البناية التي تضم مكتبه، واتجه في هدوء إلى سيارته، التي تستقر على بعد خطوات، وقد خلا الشارع تقريبا من المارة، ولكن رجلا برز من خلفه فجأة، وهو يقول في صرامة:

- السيد (نديم فوزي)..

التفت (نديم) إلى مصدر الصوت في هدوء، وتطلع إلى الرجال الثلاثة، الذين أحاطوا به على نحو مريب، هو يقول:

- نعم أظنني هو..

ابتسم الرجل ابتسامة مريبة، وهو يقول:

- عظيم.

وهنا أدرك (نديم) أنه لا مجال للتردد، وانه عليه أن يتحرك في سرعة، أو...

أو يخسر كل شيء..

وتحرك (نديم) بغتة..

وبكل قواه، لكم الرجل الواقف أمامه في فكه، وسمع صوت إحدى أسنان الرجل تتحطم، ولكنه لم يتوقف ليتأكد من ذلك، بل دار على عقبيه في سرعة، ولكم الرجل الثاني في أنفه..

وفجأة برز من مدخل البناية ثلاثة رجال آخرين، انقضوا على (نديم)، الذي وجد نفسه بغتة يواجه أربعة رجال..

وقبل أن يشتبك (نديم) مع الرجال بضربة عنيفة على مؤخرة عنقه..

ودارت به الأرض..

وحاول أن يتشبث بشيء..

أي شيء..

ولكنه سقط..

سقط فاقد الوعي بين خصومه..

الكذاب
المؤسسة العربية الحديثة

ونهض الرجل الأول، الذي فقد اثنتين من أسنانه الأمامية، وهو يقول في حنق:

- سأقتل هذا الحقير.. لقد حطم أسناني..

اوقفه رجل آخر في صرامة، وهو يقول:

- لا.. لقد طلبه (صالح) بك على قيد الحياة..

ثم ابتسم في سخرية، مستطردًا:

- إنه يفضل قتله بنفسه..

مط الرجل الأول شفتيه في سخط، وقال:

- حسنا.. دعونا نحمله إليه إذن، فأنا أتعجل موته..

وحمل الرجال (نديم) الفاقد الوعي إلى سيارة تنتظر قريبا..

وانطلقوا به إلى حيث ينتظره مصيره..

إلى حيث الموت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدت (لوسي) شديدة الجمال والغموض، في عين (غادة)، وهما تجلسان في مواجهة بعضهما البعض، في حجرة (غادة)، حتى أن هذه الأخيرة قد شعرت بشيء من القلق، وهي تتطلع إلى ابتسامة (لوسي)، وتك السيجارة المشتعلة بين أصابعها، وقالت محاولة دفع أكبر قدر من الهدوء إلى صوتها:

- حسنا يا سيدة (لوسي)، ما سر هذه الزيارة الغامضة، قبيل منتصف الليل؟

أجابتها (لوسي) في هدوء. وهي تطفئ سيجارتها في بطء:

- الواقع أنني أفضل دوما التعامل مع الرجال يا عزيزتي (غادة)، ولكنهم أخبروني أنك قوية الشكيمة، وصلبة...

قاطعتها (غادة) بنفاد صبر:

- وماذا؟

اتسعت ابتسامه (لوسي)، وكأنما يروق لها إثارة أعصاب محدثها، وقالت في هدوء:

- الواقع ايضا انني قد انتظرت انصراف السيد (نديم)، لأنني أريدك وحدك، فلقت أتيت هنا لمهمة محدودة..

سألتها (غادة) في اهتمام:

- ما هي؟

وفجأة، دون سابق إنذار، قفزت قدم (لوسي) تركل (غادة) في وجهها بقوة وعنف، على الرغم من صوت (لوسي) الهادئ، وهي تقول:

- قتلك.

سقطت (غادة) أرضا، ودارت الأرض أمام عينيها، من عنف الضربة والمفاجأة، ورأت بعينين زائغتين (غادة) وهي تنهض، وتقول بنفس ابتسامتها:

- ويبدو أن ذلك الأمر ليس بالصعوبة التي أوحوا لي بها..

قالتها، وركلت (غادة) في معدتها بكل القسوة والقوة، فتأوهت (غادة) في الم، ثم دفعت جسدها جانبا، وهي تقول:

- هذا ما يبدو ظاهريا، ولكن..

قبل أن تتم عبارتها، هوت قبضة (لوسي) على معدتها في عنف، وهذه الأخيرة تقول في سخرية:

- ولكن ماذا؟

كان تأثير المفاجأة عنيفا بالنسبة إلى (غادة)، التي لم تتوقع أبدا من تلك الفاتنة، كل هذه الشراسة والعنف، حتى أنها لم تستطع استعادة سيطرتها على نفسها بالسرعة المطلوبة..

ولم تكن (لوسي) لتمنحها حتى الفرصة لذلك..

لقد احتملت (غادة) آلام الضربات بالفعل، وحاولت أن تنهض، وان تقاتل..

ولكن (لوسي) أخرجت من حقيبتها بخاخة صغيرة، وأخفت انفها بقفازها الحريري، وهي تضغط قمة البخاخة، وتدفع الكثير من رذاذ بارد في وجه (غادة)، قائلة:

- هيا يا عزيزتي استسلمي للنوم، لا أحد يقاوم (لوسي) كثيرا.

عبر ذلك الرذاذ البارد انف (غادة)، وتصاعد إلى راسها في سرعة، وراح مخها يدور في فراغ جمجمتها، وخفتت الأضواء أمام عينيها، وهي تقاوم للنهوض، هاتفة:

- أيتها اللعينة!

ثم انهارت مقاومتها دفعة واحدة..

وسقطت عند قدمي (لوسي)...

وفي شيء من الزهو، ابتسمت (لوسي)، وهي تعيد البخاخة إلى حقيبتها، قائلة:

- قلت لك لا أحد يمكنه أن يهزم (لوسي)..

وانحنت تجذب جسد (غادة)، مستطردة:

- إنني فريدة في أسلوبي..

جذبت (غادة) حتى مطبخ المنزل، وتركتها تستلقي أرضا، ثم اتجهت نحو ماسورة الغاز، وفتحت صمامها، وهي تقول في سخرية:

- سيبدو الأمر كما لو كان حادثا.. مجرد فتاة نسيت اغلاق صمام الغاز..

قالتها وفتحت الموقد؛ ليتسرب الغاز، وهي تخفي انفها بقفازها الحريري، قبل تستطرد:

- الوداع أيتها الشرطية السابقة..

وفي هدوء وبساطة، غادرت المكتب كله، وأغلقت الباب خلفها في إحكام..

لقد انتهت مهمتها..

ونجحت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خيل لـ (نديم) أنه يهوي في بئر عميقة، لا قرار لها..

ويهوي..

ثم راحت سرعة السقوط تنخفض، واستيقظ عقله دفعة واحدة..

وفي بطء فتح عينيه، وهو يشعر بصداع رهيب، وطالعه مشهد السماء بنجومها المتلألئة، فتمتم تلقائيا:

- أين أنا؟

رأى وجها يميل نحوه، ويقول في سخرية:

- أنت هنا.. على سطح مبنى (صالح) بك..

ميز (نديم) وجه (عزت)، وأدار عينيه قليلا، فتوقفتا عند الهيلوكوبتر الخاصة، التي تحمل شعار شركات (صالح عثمان)، وفاجأه صوت هذا الأخير، وهو يقول:

- إذن فأنت هو (العقرب).

وعلى الرغم من ذهنه شبه المشوش، غمغم (نديم:

- أي عقرب؟

تطلع (صالح) إلى (عزت) في شيء من الشك، قبل أن يقول في صرامة:

- لا تحاول الإنكار كلنا نعلم أنك ذلك المتحذلق، الذي يطلق على نفسه اسم (العقرب)، والذي يقتحم مكاتب الناس بكل صفاقة ويترك خلفه بطاقته السخيفة..

أغلق (قديم) عينيه في قوة، وكأنما يحاول التغلب على الصراع العنيف، الذي يكتنف رأسه، وغمغم:

- إنني مجرد محام..

قال (صالح) في ضيق:

- لست هنا للاستجواب والمناقشة لقد أصدرت الحكم بالفعل..

شعر (نديم) بـ (عزت) يكشف ذراعه، ويدفع فيه إبرة محقن ما، فغمغم:

- ما هذا؟

اجابة (صالح):

- إنه عقار خاص، سيجعلك في حالة شبه غيبوبة، بحيث تعجز عن القتال، وإن كنت ستشعر بكل ما حولك..

ثم أشار إلى الهيلوكوبتر، مستطردًا:

- هل ترى هذه الهيلوكوبتر الأنيقة، الفريدة من نوعها في مصر؟ إنها هيلوكوبتر خاصة، من النادر أن يحصل عليها رجل أعمال هنا، ولكنني حصلت عليها بتصريح خاص اعتمادا على انتشار مشروعات العقارية على نحو كبير، وبعض هذه المشروعات يقبع في قلب الصحراء، حيث ستحملك الهيلوكوبتر بعد قليل..

وأشعل سيجاره الفاخر، وهو يتابع في سخرية:

- ولن تحملك الهيلوكوبتر إلى موقع المشروع بالطبع، فهناك الكثير من العمال، الذين سيريبهم الأمر..

واتسعت ابتسامته، وهو ينفث دخان سيجاره، مردفا:

- إنهم سيلقونك في الصحراء.

توترت اعصاب (نديم)، ولكنه شعر بتراخ في عضلاته، يمنعه من المقاومة، وهو يغمغم:

- لماذا؟

هز (صالح) كتفيه، ونفث دخان سيجاره، وهو يجيب:

- الواقع أنني رجل أكره المشاكل، واميل دوما إلى التخلص من كل ما يسبب لي الأرق والقلق..

وانعقد حاجباه، وهو يضيف في حزم:

- وأنت تسبب لي هذا

ارتسمت ابتسامة ثعلبية على شفتي (عزت)، في حين برز رجلان من رجال (صالح)، حملا (نديم) إلى الهيلوكوبتر، وأجلسا جسده المتراخي على المقعد المجاور لمقعد الطيار، وثبتاه بحزام المقعد في قوة، و (صالح) يضيف مبتسما:

- رحلة سعيدة يا سيد (نديم). اطمئن.. لقد أمرت طيار الهيلوكوبتر بإلقائك من ارتفاع كبير، وسيتكفل ارتطامك بالأرض بالباقي..

غمغم (نديم) في غضب:

- أيها الوغد..

أطلق (صالح) ضحكة ساخرة

- وغد؟! يا له من لقب؟

ثم التفت إلى شاب قوي البنية، واستطرد:

- هيا.. أريد أن ينتهي الأمر، قبل أن تنطلق طائرتي إلى (باريس)..

أومأ الشاب برأسه إيجابا، وقال:

- سيحدث هذا بالتأكيد يا سيدي.

واتجه إلى الهيلوكوبتر، وأدار محركها، وصالح يكرر في سخرية:

- الوداع ايها (العقرب)..

وارتفعت الهليكوبتر بـ (نديم) وانطلقت به الى الصحراء..

إلى حيث ينتظره الموت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ملك الجريمة

9- ابتسامة الموت..

ازاح العقيد (مجدي) منظاره المقرب عن عينيه، وغمغم في حنق، وهو ينفث دخان سيجارته:

- لقد اخطأنا حتما كان ينبغي أن نراقب مكتب (نديم) من الجانب الآخر، حيث باب البناية، فمن هذه الزاوية لن ننتبه أبدا إلى مغادرته مكتبه، ما دامت الأنوار مضاءة هكذا..

قال الرائد (حسن)، الذي يجلس على مقربة منه:

- أنت قلت إنه لا ينبغي أن نفعل يا سيدي؛ لأننا لم تفلح في هذا، في المرة السابقة..

عقد (مجدي) حاجبيه، وقال في حدة:

- كنت مخطئًا..

ثم أضاف وهو يلوح بكفه في توتر:

إنك لا تفهم (نديم) هذا ما افهمه أنا.. لقد أطلق على نفسه اسم (العقرب)، ولكنه يستحق في الواقع لقب (الثعلب)، أو (لوح الثلج)؛ فهو ماكر شديد الدهاء كالأول، بارد جامد كالثاني، ولقد خدعني في مرة سابقة، عندما كشف أنني أراقبه بمنظاري المقرب من بناية تواجه مكتبه عبر الشارع، لذا فلقد تصورت أن مراقبتي له من هنا، من ذلك الشارع الجانبي ستخدعه، وستمنحنا مشهدا جانبيا واضحا لحجرة مكتبه، وحجرة مكتب (غادة)، وكنا سنعلم بلحظة انصرافهما حتما، عندما تنطفئ الأنوار، ولكن..

انتزع بقايا سيجارته من بين شفتيه، والقاها أرضا، وداسها بقدمه في عنف، قبل أن يستطرد:

- ربما خدعنا هذا الثعلب بترك الأنوار مضاءة ليتسلل خارجا، ويلعب دور (العقرب).

تمتم (حسن) في تردد:

- لا يوجد دليل واحد على كونه العقرب..

صاح (مجدي):

- دع آراءك لنفسك.

والتقط سترته، وراح يرتديها في عصبية، وهو يستطرد:

- سأثبت لك انه وعد مخادع.. سنذهب معا إلى تلك البناية المقابلة، ونصعد إلى مكتب (نديم)، واراهنك اننا لن نجد احدا هناك، على الرغم من الأنوار.. هيا بنا.

التقط (حسن) سترته بدوره، وتبعه في استسلام إلى مكتب (نديم)، وما إن صعد الاثنان إلى المكتب، حتى أشار (مجدي) إلى اللافتة الأنيقة، التي تحمل اسم (نديم)، وقال وهو يدس سيجارة جديدة بين شفتيه:

- انظر كم يتأنق هذا الوغد..

ورفع قداحته إلى السيجارة، واتجه إصبعه إلى زر إشعالها...

والغاز يملا المكان..

ويتأهب للاشتعال..

والانفجار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلقت الهيلوكوبتر التي تحمل شعار شركات (صالح عثمان)، في طريقها إلى الصحراء، وبداخلها قائدها، و (نديم) الذي يعاني حالة، لا هي باليقظة ولا هي بالغيبوبة..

كان يشعر بكل ما حوله، ولكن عضلاته كلها كانت تعاني استرخاء عجيبا، جمل مقاومته شبه متلاشية، وإن لم يلغِ تفكيره الهادئ المنظم..

كان يعلم أنه في طريقه إلى حتفه، وأن قائد الهيلوكوبتر ينتظر وصولها إلى قلب الصحراء، ليدفعه خارجها، ويلقي به من حالق..

وحاول ان يقاوم..

بذل أقصى جهده ليفعل..

ولكن هيهات..

كانت عضلاته مرتخية بشدة..

وأنفاسه ثقيلة بطيئة..

والهليكوبتر تنطلق..

وبابتسامة خبيثة ساخرة شامتة، قال قائد الهيلوكوبتر:

انت خائف.. اليس كذلك؟

لم ينس (نديم) ببنت شفة..

لم يشعر حتى بالرغبة في ذلك..

واتسعت ابتسامة الطيار، وهو يتابع:

- كان ينبغي أن تفكر في هذا الموقف عندما قررت أن تتحدى (صالح عثمان) بنفسه..

أدار (نديم) كرتي عينيه ناحية الطيار، وود لو استعاد قدرته على التحكم في عضلاته، ليلكمه على انفه، أو ليحطم اسنانه، ويخرس كلماته القميئة، ولكن الطيار تابع:

- كان ينبغي أن تعلم أن (صالح عثمان) هو أقوى رجل في البلاد، في هذه الآونة بالذات، وان...

قاطعه ازيز جهاز الاتصال اللاسلكي، قبل أن ينبعث منه صوت (عزت)، مدير مكتب (صالح)، وهو يقول:

- هل أتممت المهمة؟

ابتسم الطيار، وضغط زر الإرسال، مجيبا:

- ليس بعد.

أتاه صوت (عزت) متوترا، يقول:

- وماذا تنتظر؟

قال الطيار في ثقة:

- ان نبلغ بقعة مناسبة.

قال (عزت) في حدة:

- لا تنتظر ستقلع طائرة الرئيس بعد قليل، وهو يريد التأكد من نجاح المهمة، قبل أن تقلع الطائرة.

قال الطيار في حزم:

ابلغه أنها قد تمت بنجاح.

ثم أنهى الاتصال، والتفت إلى (نديم)، قائلا:

- لقد سمعت بنفسك.. إنهم يتعجلون النتائج.. وداعا ايها البائس..

وبضغطة زر، فتح باب الهيلوكوبتر المجاور لـ (نديم) ثم دفعه بيده قائلا في سخرية:

- هيا.. مت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- في اللحظة الأخيرة..

فجأة، قفزت يد الرائد (حسن) تمسك قداحة العقيد (مجدي)، قبيل نصف ثانية من اشتمالها، وعلى نحو جعل (مجدي) يجفل في شدة، ويهتف في حنق غاضب:

- كيف تجرؤ ايها الرائد!

هتف به (حسن):

- الغاز يا سيدي.. الا تشتم رائحة الغاز؟

خفض (مجدي) قداحته، وعقد حاجبيه، متمتما:

- الغاز؟! هذا صحيح.. كيف لم أنتبه إلى رائحته المميزة.

ثم هتف بغتة، وكأنما استيقظ جزء من عقله على حين غرة:

- يا إلهي... الغاز.

وأشار إلى الباب، مستطردًا في توتر:

- حطم هذا الباب يا (حسن).. أسرع.. ولا تستخدم مسدسك، والا انفجر المكان كله.. هيا.. ادفع الباب بكتفك..

واشترك كتفاهما في ضربة قوية للباب، انكسر لها رتاجه، فاندفعا معا إلى الداخل، و(مجدي) يهتف:

- سارع بفتح النوافذ.. أراهنك انها محاولة قتل.

أسرع (حسن) يفتح النوافذ، في حين اندفع (مجدي) نحو المطبخ، وهو يخفي انفه بكفه، وتجاوز جسد (غادة)، الفاقدة الوعي ارضا، وقفز نحو صمام الغاز، واغلقه في إحكام، ثم راح يفتح نافذة المطبخ، هاتفا:

- إنها محاولة قتل ولا شك.

وفي نفس اللحظة اقتحم (حسن) المطبخ، وهو يقول في انفعال:

- لقد فتحت النوافذ كلها، ولكن لا أثر لـ (نديم)..

ولم يكد بصره يقع على (غادة)، حتى استطرد في جزع:

- يا إلهي.. هل لقيت مصرعها؟

اجابه (مجدي)، وهو بلصق أذنه بصدر (غادة):

ليس بعد، ولكنها استنشقت كمية كبيرة من هذا الغاز القاتل.. ومن الضروري أن نسارع بنقلها إلى أقرب مركز إسعاف.

أسرع (حسن) إلى الهاتف؛ لاستدعاء سيارة إسعاف، في حين نهض (مجدي) يتأمل المكان مرة أخرى، قبل أن يهز راسه، مغمغما:

- نعم.. هي محاولة قتل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك لحظة تختل فيها كل الموازين..

وكل الحقائق..

لحظة يتجاوز فيها الجسد البشري قدراته التي اجتمع عليها العلماء...

علميا وعمليا..

إنها لحظة الخطر..

تلك اللحظة التي تهب فيها كل خلايا الجسد للدفاع عن نفسها..

وتبرز فيها غريزة البقاء..

في تلك اللحظة، وعندما يتعرض الجسم لخطر الموت والفناء، تنشط الغدة فوق الكلوية بغتة، وتدفع في مجرى الدم كمية إضافية من مادة (الأدرينالين).

و (الأدرينالين) هذا يرفع ضغط الدم، ويؤدي إلى انقباض الشرايين، وزيادة عدد النبضات، و.

وينشط القشرة المخية ايضا..

ويوقظها.

وفي اللحظة التي دفع فيها قائد الهيلوكوبتر يده، ليلقي جسد (نديم) من حالق، امتلأت عروق هذا الأخير بمادة (الأدرينالين)، واستيقظت فيه غريزة البقاء..

بل بلغت ذروتها..

وبحركة باغتت الطيار، تراجع (نديم) بجسده، وهو يهتف:

- لا.

اختل توازن الطيار، وارتبك، وهتف:

- ايها اللعين

وبذل (نديم) جهدا خارقا ليركز أفكاره، وهو يقول في وهن:

- بل انت الوغد اللعين.

ودفع يده إلى حيث مسدس الطيار، الذي يبرز من طرف سترته، وجذب المسدس من غمده المثبت أسفل ابط الطيار، ودفع فوهته في وجه هذا الأخير، وهو يستعيد توازنه، فارتفع حاجبا الطيار في دهشة، وغمغم محنقا:

- ايها الثعلب..

قال (نديم) في لهجة، حاول أن يدفع فيها كل صرامته، وهو يقاوم ذلك الوهن، الذي يسري في عروقه:

ـ سأطلق النار عليك، لو حاولت دفعي مرة ثانية.

عقد الطيار حاجبيه في شدة، واعتدل جالسا في مقعده، وامسك عصا القيادة في قوة؛ ليعيد إلى الهيلوكوبتر توازنها،

وهو يقول في حدة:

- لن تجرؤ على قتلي، ونحن نحلق على هذا الارتفاع، فأنت تجهل قيادة الهيلوكوبتر، وسنلقي مصرعنا معا، لو قتلتني..

غمغم (نديم):

- وهل يصنع هذا فارقا بالنسبة لي؟

تتم الطيار في لهجة أقرب إلى السخرية:

- لا..

ثم أضاف، وهو يرقب أصابع (نديم) الواهنة، وجفنيه اللذين يقاومان التهالك في صعوبة:

- ولكنك لن تقاوم طويلا.. لن تلبث أصابعك أن تعجز عن حمل هذا المسدس الثقيل، فيسقط من بينها.

قال (نديم) في فصعوبة:

- سيكون لدى ما يكفي من الوقت لإطلاق رصاصة واحدة، على راسك...

مط الطيار شفتيه، وقال:

- ربما..

اجابة (نديم)، بكل ما أمكنه من حزم:

- اتصل بذلك الوغد (عزت)..

سأله الطيار في برود:

- ولماذا افعل؟

قال (نديم):

- لتخبره أنك قد تخلصت مني بالفعل..

ابتسم الطيار في استهتار، وقال:

- لا بأس.. ستكون مجرد إشارة سابقة للفعل..

وضغط زر الاتصال، وهو يقول:

- تمت المهمة في نجاح.

أتاه صوت (عزت)، يسأله في لهفة:

- هل ألقيته من الهيلوكوبتر؟

أجابه الطيار في هدوء:

- لقد انتهى أمره تماما..

هتف صوت (عزت) في ارتياح:

- رائع.. لقد سافر الرئيس بالفعل.. عد على الفور.

أجابه الطيار، وهو ينهي الاتصال:

- انا في طريق العودة.

ولم يكد يضغط زر إنهاء الاتصال، حتى مال بالهيلوكوبتر جانبا في حدة، وهو يهتف ساخرا:

- وسأعود وحدي..

مالت الهيلوكوبتر في عنف، واختل توازن (نديم)، وارتطم بجانب باب الهيلوكوبتر، وسقط المسدس من يده، والطيار يهتف:

- أرأيت ايها الساذج.. إنك لن تحتمل طويلا..

شعر (نديم) بجسده يترنح، وأدرك أن هذا الطيار القاتل لن يرحمه، ولن يمنحه فرصة واحدة للنجاة..

ولكن اصابع (نديم) تشبثت بسترة الطيار في قوة، وهو يقول في وهن:

- لن أسقط وحدي..

راح الطيار يدفعه في قوة، هاتفا:

- اتركني ايها التافه.. العقار الذي تناولته لن يمنحك القدرة على المقاومة..

ثم مال يلتقط المسدس، ورفع فوهته في وجه (نديم)،

مستطردًا في حدة:

- وسينتهي امرك برصاصة واحدة.

وأطلق النار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- فرصة..

اعتدل طبيب مركز الإسعاف، بعد أن انتهى من توقيع الكشف الطبي على (غادة)، وهز راسه قائلا:

- لقد نجت بأعجوبة، كانت قد استنشقت كمية كبيرة من الغاز، ولكنكما أنقذتماها في الوقت المناسب، ولقد اجرينا نحن لها تنفسا اصطناعيا، باستخدام الأكسجين المخلوط بخمسة في المائة من ثاني أكسيد الكربون، وتحت ضغط يعادل ضعف الضغط الجوي تقريبا، وهذا ما أنقذ حياتها، بعد عناية الله (سبحانه وتعالى) بالطبع.

سأله (مجدي) في اهتمام بالغ:

- اهي محاولة قتل؟

ابتسم الطبيب، وهز راسه قائلا:

- وكيف لي ان اجزم بذلك.. ربما كانت محاولة انتحار.. او حتى مجرد حادث عرضي..

أشار (مجدي) إلى كدمة صغيرة في وجه (غادة)، وقال:

- وماذا عن هذه؟

تأمل الطبيب الكدمة، وقال:

لست أدري ربما نشأت من السقوط أرضا، عند فقدان الوعي على أية حال، إنها مهمة الطبيب الشرعي وحده.

مط (مجدي) شفتيه، وقال:

- لست أظن أننا سنبلغ هذه النقطة..

ومضت لحظة، وهو يفكر في صمت، ثم سأل الطبيب في اهتمام:

- ومتي تستعيد وعيها؟

هز الطبيب كتفيه، وقال:

- لا يمكنني التحديد بمنتهى الدقة، ولكنني اظنها ستستعيد وعيها بعد ساعتين أو ثلاث على الأكثر..

أدهشه ان ابتسم (مجدي) وهو يقول:

- عظيم.

وأدهشه أكثر آن اندفع (مجدي) خارجا كقذيفة مدفع، فغمغم في حيرة:

- يبدو انني لن أفهم رجال الشرطة هؤلاء ابدا.

وعاد يولي اهتمامه لمريضته الفاقدة الوعي..

اما (مجدي)، فقد أسرع إلى حيث ينتظره (حسن) خارج حجرة الكشف الطبي، ووضع يده على كتف هذا الأخير، وهو يقول في حماس:

- إنها فرصتنا.. (نديم) غير موجود، و (غادة) فاقدة الوعي، ولقد اقتحمنا المكتب لإنقاذها، ويمكنك الآن استصدار أمر عاجل بتفتيش مكتب (نديم)، بحجة الشك في كون الحادث محاولة قتل، واريد منك، بناء على أمر التفتيش هذا، أن تفتش كل شبر في مكتب (نديم)، عسى أن تجد ما يثبت كونه (العقرب).. بطاقات تحمل رسم العقرب الذهبي، أو قناع أسود، أو أي شيء آخر.. هيا.. انطلق الآن.

والتمعت عيناه ببريق شره، وهو يردف:

- إنها فرصتنا الذهبية....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكد فوهة المسدس ترتفع في وجه (نديم)، حتى عادت غريزة البقاء تدفع الغدة فوق الكلوية لإفراز مزيد من (الأدرينالين)، الذي جعل (نديم) يضرب عصا القيادة بقدمه، هاتفا:

- لم تنته المعركة بعد..

اختل توازن الطيار في شدة، وانطلقت رصاصة تتجاوز راس (نديم)، وتخترق سطح الهيلوكوبتر، التي مالت في عنف، واتجهت إلى أسفل في سرعة، وصرخ الطيار:

- ايها الغبي.. إنك ستقتلنا معا.

قال (نديم)، وهو يدفع جسده في صعوبة، ليتشبث بجسد الطيار:

- اليس هذا أفضل من أن ألقى حتفي وحدي؟

دفعه الطيار جانبا في قوة، وحاول استعادة سيطرته على الهيلوكوبتر، وهو يهتف:

- ابتعد يا رجل.. إننا نسقط.. الا تفهم؟

ولكن الهيلوكوبتر كانت قد مالت في شدة، واقتربت من التلال المطلة على البحر الأحمر، على نحو خطر، وصرخ الطيار:

- إننا نهوي.

لم يكد يتم عبارته، حتى ارتطمت مروحة الهيلوكوبتر بقمة أحد التلال، وانكسرت بدوي عنيف، وتطايرت في شدة، وهوت الهيلوكوبتر كجلمود صخر، والطيار يصرخ:

- إننا نسقط..

وارتطمت الهيلوكوبتر بالأرض في عنف..

واخترقت عصا القيادة صدر الطيار.

واندفع جسد (نديم) عبر الباب المفتوح..

ثم تدحرجت الهيلوكوبتر على الأرض المنحدرة، وصوت الطيار ينبعث من داخلها محملا بحشرجة الموت:

- إنني أموت.. اللعنة!! إنني اموت!!

وشعر (نديم) بآلام في صدره وضلوعه، وخيل إليه أنه يفقد وعيه، وصوت الطيار يأتيه من بعيد، والهليكوبتر تتدحرج مبتعدة في سرعة..

ثم دوي الانفجار

انفجرت الهيلوكوبتر..

ولمح (نديم) وهج الانفجار، ثم تراخي جسده..

وفقد الوعي..

وعلى ضوء نيران الهيلوكوبتر المشتعلة، برز عقرب اسود قاتل من شق بين الصخور، وراح يزحف مبتعدا عن النيران..

وبلغ جسد (نديم) الفاقد الوعي..

وكانت المواجهة بينهما..

بين عقربين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- صفقة الموت..

لم يكد (صالح عثمان) يغادر مطار (أورلي) في (باريس)، حتى استقبله رجل فارع الطول، متين البنيان، انحنى أمامه في احترام، وهو يقول:

- مسيو (صالح).. مرحبا بك في (باريس).

ناوله (صالح) حقيبته، كمن اعتاد هذا الاستقبال، وقال في لهجة رجل أعمال عجول:

- هل تحدد موعد المقابلة؟

انحنى الرجل مرة أخرى، وهو يقول:

- نعم يا مسيو (صالح).

سأله (صالح)، وهو يتجه نحو سيارة فاخرة، تنتظر أمام المطار مباشرة:

- متى؟

فتح له الرجل باب السيارة الخلفي، وابتسم ابتسامة غامضة، وهو يقول:

- الآن يا مسيو (صالح)..

كاد (صالح) يسأله عما يعنيه بكلمة (الآن)، لولا أن وقع بصره على وجه ذلك الكهل الأشيب، الذي يجلس داخل السيارة، وهو يشعل سيجارا ضخما في هدوء ورصانة..

فهتف:

- مستر (ماك)؟! انت هنا؟!

قال الأشيب في برود، دون أن يدير عينيه إلى (صالح):

- ادخل واغلق الباب..

أسرع (صالح) يدلف إلى السيارة، وهو يتطلع إلى (ماك) في مزيج من الدهشة والرهبة، في حين اشار (ماك) إلى الرجل الفارع الطول، الذي انتقل ليحتل مقعد القيادة في السيارة:

- إنه اجتماع مغلق يا (فرناند).

أومأ (فرناند) برأسه إيجابا، وهو يبتسم نفس الابتسامة الغامضة، وضغط زرا أمامه، فانسدلت أستار سوداء على نوافذ السيارة كلها، فيما عدا الزجاج الأمامي لها، وهبط حاجز أسود مزدوج، بفصل المقعد الخلفي، حيث يجلس (صالح) و (ماك)، عن مقعد القيادة الأمامي، فازدرد (صالح) لعابه، وهو يتمتم:

- هل سنتحدث هنا؟

اجابه (ماك) في برود:

- إنه أكثر الأماكن آمنا..

وأشعل مصباحا في سقف السيارة، ثم فتح بابا جانبيا الثلاجة صغيرة، وهو يستطرد:

- هل تتناول شيئا من الخمر؟

ازدرد (صالح) لعابه مرة أخرى، وهو يجيب:

- ليس الأن.

قال (ماك):

- كما يحلو لك..

ونفث دخان سيجاره في صمت، وكأنما ينتظر من (صالح) بدء الحديث، فقال هذا الأخير في خفوت:

- لقد أتيت بشأن صفقة الحرب.

ابتسم (ماك) ابتسامة باهتة، وهو يقول:

- أظنها صفقة عمرك يا رجل.. اليس كذلك؟

تمتم (صالح):

- بلى، فلم اربح ابدا مليارين من الدولارات دفعة واحدة.. إنها ميزانية دولة صغيرة، ولكن..

عقد (ماك) حاجبيه، قائلا:

- ولكن ماذا؟

تردد (صالح) لحظة، وقال:

- الحرب.. أعني كل ما تجره الحرب من ويلات و.

قاطعه (مالك) في صرامة:

- الحرب لا تجر لأمثالنا إلا النقود والشراء، وكلما اشتد لهيبها ازددنا نحن ثراء.. هذا كل ما اعرفه عن الحروب.

ازدرد (صالح) لعابه، وغمغم:

- بالطبع.. فلتشتعل الحرب بين (مصر) و (إسرائيل) إذن، ما دمنا سنربح منها الملايين.

ابتسم (ماك) وقال:

- بل المليارات.

ونفث دخان سيجاره مرة أخرى، وهو يضيف:

- ثم إننا لا نفعل أكثر من أن نعجل بفعل ما كان سيحدث حتما، فأنت لا تعرف اليهود كما أعرفهم. إنهم.. إنهم لم يحترموا معاهدة قط، في تاريخهم كله، ومن المحتم انهم كانوا سيخرقون معاهدة السلام هذه إن عاجلا أو آجلا، اليس كذلك؟

غمغم (صالح):

- ربما..

ثم تنحنح ليستعيد صوته الصارم، وهو يقول:

- والآن هل نوقع العقد؟

ابتسم (مالك)، وقال:

- بالتأكيد، لأنك ستعود إلى (القاهرة) في الطائرة القادمة، بعد ساعة واحدة.

هتف (صالح) في دهشة:

- ماذا؟ ولكن هذا سيثير الكثير من الشكوك، و.

قاطعة (ماك) في حزم:

لقد صرت أكبر من أن تحيط بك الشكوك يا (صالح) ومهمتنا هذه المرة ضخمة وعاجلة، وعليك أن تبدأ في إعداد الرجال، الذين سيشعلون فتيل الحرب، باقتحام الحدود المصرية الإسرائيلية.. وعليك ايضا أن تلتقي بمندوبنا الجديد (دارك).

قال (صالح):

ـ (دارك)، وماذا عن...؟

قاطعه (ماك) بنفس الحزم:

- (دارك) هو همزة الوصل الجديدة بيننا وبينك، منذ هذه اللحظة.. إننا نبدأ عهدا جديدا، وكل عهد جديد يحتاج إلى رجال جدد تمتم (صالح):

- بالتأكيد.

اطفا (ماك) سيجاره، وهو يقول:

- حسنا.. هيا.. اذهب؛ لتلحق بطائرة (القاهرة).

غادر (صالح) السيارة، التي لم تتحرك قيد أنملة منذ دلف إليها، وقال في توتر:

وماذا عن العقد؟

ابتسم (ماك) في سخرية وهو يقول:

- أي عقد يا رجل؟! وهل تصلح العقود لمثل هذه الصفقات؟

امتقع وجه (صالح)، إزاء هذه العبارة الأخيرة، ورأى (فرناند) ينحني أمامه بنفس الابتسامة الغامضة، وهو يعيد إليه حقيبته، فالتقطها في حدة، وهو يقول في عصبية:

- إلى لقاء آخر يا مستر (ماك).

لوح (ماك) بكفه في برود، قبل أن يغلق (فرناند) الباب، ويلتفت إلى (صالح) قائلا بنفس الابتسامة الغامضة، وهو يمد يده إليه بتذكرة طائرة:

- إلى اللقاء يا مسيو (صالح).

رمقه (صالح) بنظرة محنقة، وانتزع التذكرة من يده، وعاد أدراجه إلى المطار، في حين اتجه (فرناند) في هدوء الي مقعد القيادة، وسأل (ماك):

هل سننتظر يا سيدي؟

تنهد (مالك)، وقال:

- بالطبع يا عزيزي (فرناند)، فلقد انتهى عملنا مع عميلنا المصري، وبقي أن نتم العمل مع عميلنا الإسرائيلي، الذي سيصل بعد قليل..

وز فر مرة أخرى في عمق، قبل أن يضيف:

- آه يا عزيزي (فرناند).. إن لعبة إشعال الحروب هذه مرهقة بحق.

اتسمت ابتسامة (فرناند) الغامضة، وهو يقول:

- بالطبع يا سيدي.. بالطبع...

وكانت ابتسامته مقيتة..

ومخيفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- النجاة..

لم تطل غيبوبة (نديم) طويلا..

لقد عاون ذلك المجهود الذي بذله، وهو يدافع عن حياته، على ازدياد سرعة دوران الدم في دورته الدموية، وسرعة تخلص جسده من ذلك العقار، الذي كان يسلبه قدرته على التركيز، وقدرة عضلاته على العمل..

وعندما استعاد (نديم) وعيه، لم تكن الشمس قد اشرقت بعد، وكان هو يرقد على فراش نظيف، داخل حجرة انيقة بسيطة، جعلته يغمغم في حيرة:

- اين انا؟

أطلت عليه عدة وجوه باسمة، تحمل الكثير من الارتياح، وقال أحدها في اهتمام:

حمدا لله على سلامتك انت هنا في شركة التنقيب عن البترول (مالكو).

انقبضت عضلاته لدى سماعه الاسم، فشركة (مالكو) هي إحدى الشركات التابعة لـ (صالح عثمان)، ولكن شيئا ما في الوجوه الباسمة جعل عضلاته ترتخي مرة أخرى، وهو يسأل:

- ماذا حدث؟

اجابه أحد الرجال:

يبدو أنك كنت تستقل إحدى طائراتنا، فلقد دوى انفجار جعلنا نهرع إلى موضعه، فوجدنا هيلوكوبتر مشتعلة، تحمل شعار شركاتنا، ووجدناك على قيد أمتار عديدة منها، فاقد الوعي..

هتف رجل آخر:

- لقد تجمدت دمائي عندما رايتك، فلقد كنت فاقد الوعي، ساكن الحركة تماما، وكان هناك عقرب أسود قاتل فوق جسدك، حتى لقد خلت انه قتلك..

قال (نديم) في هدوء:

- العقرب لا يقتل أو يهاجم جسدا ساكنا يا رجل إنه - كمعظم بني جنسه من الحشرات - لا يهاجم إلا لدى شعوره بالخطر؛ لأن هجومه هو نوع من الدفاع عن النفس فحسب.

قال أحد الرجال ضاحكا:

- يبدو أنك تعلم الكثير عن العقارب.

ابتسم (نديم) ابتسامة غامضة، وهو يقول:

- أكثر مما تتصور..

ونهض من فراشه، على الرغم من الآلام التي تملأ جسده، وهو يقول:

- هل يمكنني العودة إلى (القاهرة)؟

هتف أحد الرجال في دهشة:

- الآن؟! ولكنك تحتاج إلى بعض الراحة.

قال (نديم) في حزم:

- لابد لي من العودة بأقصى سرعة، فلدى مهمة عاجلة في (القاهرة).

ربت رجل آخر على كتفه، قائلا:

- اطمئن.. لقد أبلغنا المقر الرئيسي لاسلكيا بما حدث..

قال:

- هذا يجعل عودتي أكثر ضرورة.

هزوا رءوسهم في حيرة، ثم قال رئيسهم:

- كما يحلو لك.. سنرسل معك سيارة خاصة، تنقلك على الفور إلى (القاهرة)، وستبلغها في منتصف النهار بإذن الله..

بدا شديد الغموض، وهو يقول:

- هذا رائع.. شكرا لكم.. أراهن أن رئيسكم (صالح عثمان) سيمنحكم مكافأة كبيرة لإنقاذكم حياتي.. مرة اخرى شكرا لكم.

قال رجل في قلق:

- ولكن السيد (عزت) قال إنه سيرسل بعض الرجال لاصطحابك.

قال (نديم) في هدوء:

- أخبره انني لا احتاج إليهم، وأنني سأذهب إليه بنفسي، وسيسعده هذا..

وعلى الرغم من أنه لم يبتسم، فقد خيل للجميع أن عينيه قد أطلقتا ضحكة مجلجلة، وهو يكرر:

- سيسعده كثيرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انعقد حاجبا (مجدي) في شدة، وهو يصرخ في وجه (حسن) في غضب:

- ماذا تعني بأنك لم تجد شيئا؟ من المحتم ان يكون هناك دليل في مكان ما.. أي دليل بدين (نديم فوزي)، ويثبت أنه (العقرب).

هز (حسن) كتفيه، وقال في ضيق:

- ولكنني لم أجد شيئا يا سيدي.. وها هو ذا المكتب كله امامك لقد فتشنا معا كل شبر فيه، ولم نعثر على دليل واحد.. كلها اوراق قضايا عادية.

ضرب (مجدي) قبضته في راحته الأخرى، وهو يقول:

- انا المخطئ..

لقد كان الدليل في يدي يوما، ولكنني..

ولوح بكفه، مستطردًا:

- تصور.. لقد عثرت يوما على رجال مقيدين بالحبال هنا، واعترفوا جميعا أن (العقرب) أتي بهم إلى هذا المكتب، وكان هذا يكفي لإدانة (نديم فوزي)، ولكن..

سأله (حسن) في دهشة:

ـ ولكن ماذا؟ لماذا لم تستغل هذا؟

قال (مجدي) في مرارة:

- لم اتخذ الإجراءات القانونية.. كان ينبغي أن أتركهم مقيدين هنا، حتى يتم إثبات الحالة قانونيا، وبعدها أطلق سراحهم، ولكن السيد وزير الداخلية فاجأني - حينذاك - بأنهم من المجرمين، وكنت انا من شدة لهفتي قد أطلقت سراحهم، و.

زفر في حنق، مستطردًا:

- وتعقدت الأمور، وتاهت مع إلقاء القبض على (نعمان والي) ([2]).

ارتفع صوت (غادة) الغاضب فجأة، وهي تقول:

- ومع حقدك الشديد على (نديم)..

التفت الاثنان إليها في دهشة، وهتف (مجدي):

- هل استعدت وعيك؟

اجابته في غضب:

- نعم.. وما أن أخبرني الطبيب انكما تركتماني وغادرتما المكان على عجلة، حتى أدركت ما ستفعلانه، وهرعت إلى هنا...

ولوحت بكفها مستطردة:

ـ لقد قلبتما المكتب رأسا على عقب..

قال (مجدي) في حدة:

- أهذه مكافأة إنقاذنا لحياتك؟

اشارت إلى محتويات الكتب المبعثرة، هاتفة:

- وهل هذا ثمنها؟

اندفعت في غضب تعيد الملفات والأوراق إلى مواضعها، في حين أشعل (مجدي) سيجارته في عصبية، وهو يقول:

ـ حسنا.. أعلم أنك من النوع الجاحد، الذي لا يعترف بالجميل لأحد، حتى ولو كان هذا الجميل هو إنقاذ حياتك، ولكن وجودنا هنا أمر رسمي، ومعنا إذن من النيابة بتفتيش المكان..

قالت في سخرية:

- أأصفق مبهورة، أم أسقط فاقدة الوعي مرة أخرى، من شدة الإعجاب؟

عقد حاجبيه في شدة، وهو يقول:

- لا هذا ولا ذاك فقط اريد معرفة ما حدث.. من حاول قتلك؟

اعتدلت تحدق في وجهه صامتة، قبل أن تجيب في هدوء:

- ومن أوحي إليك بانها محاولة قتل؟

أشار إلى وجهها، قائلا:

- هذه الكدمة في ذقنك.

ابتسمت في سخرية، وهي تقول:

- إنها إصابة عمل..

قال في حدة:

- يمكنني اعتبارها محاولة انتحار، وأنت تعلمين أنها جريمة.

قالت ساخرة:

- المهم أن تثبت ذلك، فسأقول: إنها مجرد حادث عارض..

قال وهو يتفرس في ملامحها في حدة:

- هكذا؟

ثم أشار إلى (حسن)، وقال وهو يتجه معه إلى الخارج:

- لا بأس.. لن أهزم محامية بارعة مثلك، ولكن تذكري دوما انه لولاي لكنت الآن جثة هامدة.

قالت في هدوء:

- لن أنسي هذا أبدا.

ثم سألته بغنة في اهتمام:

- ولكن لماذا لم تبلغ (نديم) بما حدث؟

اجابها في عصبية:

- واين هو (نديم)؟ لقد بحثنا عنه، فلم نعثر له على أثر.. أراهنك أنه يلعب دور (زورو) في مكان ما..

تطلعت إلى ساعة معصمها، وهي تقول في توتر وقلق:

- ولكنها السابعة صباحا.. أين يمكن أن يذهب الآن؟ اين؟

لم تكن تعلم أن (نديم)، في هذه اللحظة بالذات، كان يجلس داخل واحدة من سيارات (الجيب)، التي تحمل شعار شركات (صالح عثمان)، وتنطلق عائدة إلى (القاهرة)..

حيث يتخذ الصراع وجها جديدا..

وجه (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- الجولة الثانية..

ارتفع حاجبا (عزت) في دهشة، وهو يحدق في وجه (صالح عثمان)، هاتفا:

- سيدي؟! هل اصاب طائرتك عطب؟

قال (صالح) في حدة:

- بل سافرت إلى (باريس)، وأتممت مهمتي، وعدت..

هنف (عزت):

- بهذه السرعة؟!

قال (صالح):

- لا شأن لك بهذا.. قل لي أولا: لماذا تستخدم جهاز اللاسلكي في مكتبي؟

أجابه (عزت) في توتر:

- كنت اتحدث مع المهندس المسئول في (مالكو)، فيبدو ان لدينا مشكلة..

عقد (صالح) حاجبيه، وهو يسأله:

- أية مشكلة؟ الم يتم القضاء على ذلك (العقرب) بعد؟

تردد (عزت) لحظة، ثم قال:

- اظن ذلك يا سيدي.

هتف (صالح) في غضب:

- تظن ذلك؟! ماذا تعني بأنك تظن ذلك؟ في مثل هذه الأمور لا تصلح الأجوبة المانعة كهذه.. الجواب المنطقي هو إما نعم او لا.

تردد (عزت) لحظة اخرى، ثم أجاب:

- الواقع يا سيدي أن الهيلوكوبتر قد سقطت في الصحراء، بالقرب من حقل (صالكو) الجديد، وانفجرت، وعشر المهندسون هناك على رجل فاقد الوعي.

سأله (صالح) في انفعال:

- ومن هذا الرجل؟

هز (عزت) كتفيه، وقال:

- اظنه طيارنا. فلقد أبلغني قبل الانفجار انه قد اتم المهمة، وقتل ذلك المحامي..

صاح (صالح) محنقا:

- تظن!! تظن!! أي اسلوب هذا؟ كان ينبغي أن تتيقن من الأمر.

قال (عزت) في حيرة:

- كيف؟ لقد كان الرجل فاقد الوعي، ولقد أخبرتهم انني سأرسل بعض رجالنا للإتيان به، ولكنه لم يكد يستعيد وعيه حتى أصر على الرحيل، ولم يكن منهم إلا أن منحوه سيارة، ستصل به إلى هنا بعد ثلاث ساعات..

هتف (صالح)، وهو يلوح بكفه محقنا:

- ليس هذا هو المهم.. المهم هو من هو هذا الشخص؟ الطيار ام (العقرب)؟

قال (عزت) في تردد:

- المنطق يقول إنه الطيار، فقد أبلغني أنه قد قتل المحامي، وربما وقع حادث طارئ للهليكوبتر بعدها، ثم إن الشخص الذي عثر عليه المحامون سليم معاني، ولو انه ذلك المحامي، ما كان كذلك ابدا، بعد سقوطه من هيلوكوبتر.

عقد (صالح) حاجبيه مفكرا في الأمر، ثم لم يلبث أن هز راسه، قائلا:

- لا بأس.. إنني أميل إلى هذا التفسير، ثم إننا لن نلبث أن نتيقن من الأمر كله، بعد سويعات.

ثم عاد يسأل في اهتمام:

- ماذا عن (لوسي) إذن؟ هل أتمت مهمتها بنجاح؟

ابتسم (عزت)، وهو يقول:

- بالتأكيد، فهي لم تفشل قط من قبل.

هتف (صالح) في عصبية:

. اظن.. بالتأكيد.. اعتقد ذلك.. يا للردود السخيفة!!

إنك لا تصلح للعمل معي ابدا.. إنني أحتاج إلى شخص حاسم حازم..

غمغم (عزت) في ضيق:

- انت شديد العصبية يا سيدي.. هل حدث شيء ما في (باريس)؟

ضرب (صالح) سطح مكتبه بقبضته في قوة، وهو يقول:

- عملنا كله شديد الحساسية يا (عزت)، وكل صفقاتنا بالغة الخطورة والأهمية، وهذه الصفقة بالذات أخطرها، وعلى الرغم من ذلك يتصرف الجميع في خنوع، وسخافة، ويظهر ذلك المحامي، الذي يحب لعب أدوار البطولة الأسطورية.

قال (عزت) محاولا تهدئته:

- لقد انتهى أمره يا سيدي.

رمقه (صالح) بنظرة نارية صارمة، وهو يقول:

- من يدري؟! هل يمكنك الجزم؟

احتقن وجه (عزت)، وهو بجيب:

- إلى حد ما.

أطلق (صالح) ضحكة عصبية ساخرة، ولوح بذراعه كله، وهو يقول:

- أرأيت؟ إنك لم تجب حتى على نحو حازم.

ثم أطلق من أعماق صدره زفرة نارية، دون أن ينتظر جوابا او تعليقا، ولوح بكفه هذه المرة، وهو يستطرد:

- فليكن.. لن نضيع الوقت في الجدل والنقاش، هيا.. اتصل بـ (ماهر)، واطلب منه أن يحضر إلى مكتبي بأقصى سرعة، ثم أحضر لي خريطة للحدود المصرية الإسرائيلية.

وعقد حاجبيه، مضيفا بكل ما تموج به نفسه من توتر وانفعال:

سنبدأ في التخطيط للعبة..

لعبة الحرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطلقت (غادة) تنهيدة ارتياح قوية، وتهللت أساريرها، وهتفت وهي تملأ عينيها بوجه (نديم)، الذي دلف إلى مكتبه هادئا كعادته:

- يا إلهي!! حمدا لله.. كدت أقضي نحبي قلقا عليك.

جلس خلف مكتبه، وهو يقول في هدوء:

- كان ذلك سيبدو مناسبا..

هتفت به في لهفة:

- أين كنت؟ لقد قلبت الأرض كلها بحثا عنك دون جدوى..

تراجع بمقعده، قائلا في بساطة:

- لن يمكنك تخمين الجواب ابدا.

قالت في انفعال:

- ولن يمكنك انت ايضا تخمين ما حدث في غيابك..

قص كل منهما على الآخر ما اصابه، وما مر به من أحداث، وقال (نديم) في حزم:

- من الواضح أن (صالح عثمان) قد كشف أمرنا على نحو ما، وانه يسعى للتخلص منا.

قالت في سخط:

- وأنه هناك سيدة مجتمع فاتنة، شديدة التأنق، تلعب دور القاتل المحترف في (مصر)..

تطلع إليها لحظة في هدوء، ثم قال:

- (صالح) هو رأس (الأفعى).

وتراجع بمقعده مرة أخرى، وشرد بصره قليلا، وهو يتابع:

- هذا الرجل يخفي امرا أخطر مما يظن الجميع يا (غادة).. انا واثق من هذا.

قالت في اهتمام:

- ما زال يمكننا كشف امره..

رفع سبابته أمام وجهه، قائلا:

- لو أمكننا استعادة جهاز التسجيل، الذي اخفيته أسفل مكتبه.

مطت شفتيها، قائلة:

- كان الأفضل أن تخفي ناقلا صوتيًا صغيرا، ينقل إلينا كل ما يدور في مكتبه لاسلكيا، بدلا من أن نحتاج إلى مخاطرة جديدة، لاستعادة التسجيلات..

هز راسه نفيا، وقال:

- الإرسال اللاسلكي عملية محفوفة بمخاطر شتى، لو تمت من داخل مبنى يزخر بالأجهزة الاليكترونية المتطورة، كمبنى (صالح)، فمن السهل في هذه الحالة كشف وجود الناقل الصوتي.. كان لابد من المخاطرة..

ونهض من خلف مكتبه، مستطردًا:

- ثم إن كل ما يحتاج إليه الأمر مجرد زيارة أخرى..

والتمعت في عينيه ابتسامة كبيرة، لم تنعم بها شفتاه، وهو يضغط ذلك الزر الخفي، في حائط المكتب، مردفا:

- وعلى الرغم من تفتيش صديقنا (مجدي) للمكتب، إلا أنه لم يكشف أمر هذا..

انزاح جزء من الحائط، كاشفا تلك الفجوة السرية، حيث زي (العقرب) الأسود، وعلبة بطاقاته، ذات الرسم الذهبي الأنيق، وتابع (نديم)، وهو يلتقط القناع الأسود:

- الليلة يا عزيزتي سيعود (العقرب).. وستبدأ الجولة الثانية..

واحاط عينيه بالقناع الأسود..

قناع (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- التحدي..

فرك (صالح عثمان) كفيه في عصبية، وهو يتطلع إلى (ماهر)، البالغ الطول والنحافة، قبل أن يشير إليه بالجلوس، قائلا:

- هل تعرف الحدود المصرية الإسرائيلية جيدا؟

اجابه (ماهر):

- بالتأكيد ايها الرئيس.. لقد اجرينا عدة صفقات عند هذا الخط..

اعتدل (صالح)، وهو يقول:

لدينا صفقة ضخمة هناك هذه المرة.

سأله (ماهر) في اهتمام:

- مخدرات ايضا؟

هتف به (صالح) في غضب:

- لا تنطق هذا المصطلح هنا ابدا.

تهتم (ماهر):

- آه.. معذرة ابها الرئيس.

اعتدل (صالح) في مقعده، وقال:

ـ حسنا دعنا من هذا الآن.. ستحتاج إلى ترتيبات خاصة.

سأله (ماهر):

- مثل ماذا؟ ...

صمت (صالح) لحظات، وهو يتطلع إليه، وبدا وكأنما يتردد عن الإفصاح بما لديه، قبل أن يحسم أمره، ويميل إلى الأمام، ليقترب بوجهه من (ماهر)، قائلا:

- إننا نحتاج إلى عشرة رجال، يرتدون الأزياء العسكرية المصرية، الخاصة برجال الصاعقة، ويحملون أسلحة من نفس النوع المستخدم في الجيش المصري هذه الأيام، ونحتاج ايضا إلى..

صمت وهلة، و (ماهر) يتطلع إليه في دهشة، ثم أضاف:

- إلى دبابة.

تحولت دهشة (ماهر) إلى ذهول، وهو يهتف:

دبابة؟!

ثم انعقد حاجباه في شدة، مستطردًا:

- اهي صفقة مخدرات، أم بداية حرب؟

تراجع (صالح) في مقعده مرة أخرى، وراح يتطلع إلى (ماهر) وذهوله لحظات اخرى في صمت، قبل أن يقول:

- يمكنك أن تعتبرها مزيجا من هذا وذاك.

تطلع إليه (ماهر) لحظات في شك، ثم قال في بطء:

- ما المطلوب بالضبط يا سيدي؟

أشعل (صالح) سيجاره، ونفث دخانه في عمق، وكأنما ينفث معه توتره وعصبيته، وهو يقول:

- مطلوب أن تقتحم دبابة، ترفع العلم المصري، الحدود المصرية الإسرائيلية، على نحو سافر، أشبه بالتحدي، ثم يشن عشرة رجال، يرتدون زي قوات الصاعقة المصرية هجوما عنيفا

على مركز مراقبة وحراسة إسرائيلي، ويقضون على كل من فيه قضاءً مبرما.

قال (ماهر) بنفس البطء:

- هذا كفيل بإشعال الموقف على الحدود يا سيدي.

لوح (صالح) بكفه، قائلا:

- لا شأن لك بالنتائج..

لم ينبس (ماهر). ببنت شفه لحظات، ثم لم يلبث أن اعتدل في مقعده، وأشعل سيجارته بدوره، قائلا:

- حسنا.. لا شأن لي بالنتائج، ولكن ماذا عن اجري هذه المرة؟

نفث (صالح) دخان سيجاره، وقال:

- مائة ألف.

هز (ماهر) راسه نفيا، وابتسم في دهاء، قائلا:

- بل نصف مليون يا سيدي.

عقد (صالح) حاجبيه في شدة، وهتف:

- نصف مليون؟! هل جننت؟

قال (ماهر) في خبث:

- إنه اقل مبلغ يمكن دفعه يا سيدي؛ لاستئجار عشرة من الانتحاريين، وتحويل دبابة خردة إلى واحدة صالحة للعمل، و.

قاطعه (صالح):

- حسنا.. حسنا.. ستحصل على ما تريد.

قال (ماهر) في سرعة:

- بالإضافة إلى عمولتي.

اجابه (صالح) في حنق:

- بالتأكيد.

بدا الارتياح على وجه (ماهر) وسأل وهو ينفث دخان سيجارته في عمق:

- حسنا.. هذا عظيم.. والآن، متى واين تحتاج إلى الرجال؟

اجابه في اهتمام بالغ:

- بعد شهر بالتحديد، وسيكون الهجوم هنا، في هذه النقطة على الخريطة.. في (الكنتلة)....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكد (ماهر) بنصر ف، بعد أن تزود بالتعليمات اللازمة، وبمبلغ نقدي ضخم، لبدء العمل، حتى عاد ذلك التوتر العنيف بملأ عروق (صالح)..

لم يكن ذلك لأنه يرتكب عملا غير مشروع، فليست اول مرة يفعل فيها هذا..

لقد بنى إمبراطوريته المالية كلها بأعمال غير مشروعة، وبالذات من تجارتي المخدرات والسلاح.. إنهما أكثر تجارات العالم ربحا ماديا.. وأحقرها. ولكن توتر (صالح) كان يعود إلى طبيعة العمل هذه المرة كانت اول مرة يضطر فيها إلى إشعال فتيل الحرب، من أجل المال.. وكانت النتائج تقلقه.

ونجاة انتزعه صوت (عزت) من استغراقه، عندما قال هذا الأخير في جزع، وهو يقتحم المكتب:

- سيدي.. لقد فشلت (لوسي) في مهمتها...

انتفض جسد (صالح)، وهو يهتف:

- ماذا؟!

اندفع (عزت) يقول كالرصاصة:

- هي نفسها لم تعلم بعد بفشلها، ولكنني علمت لقد ارسلت رجلين من رجالنا للاطمئنان على مصرع المحامية الشابة، ولكنهما عادا ليبلغاني أنه قد تم إنقاذها في اللحظة الأخيرة.

ردد (صالح) في حنق:

- في اللحظة الأخيرة؟!

ثم لوح بكفه، هاتفا:

- أي حمق هذا.. كيف تفشلون في القضاء على مجرد فتاة.. كيف يفشل قتلها مرتين..

بدا وجه (عزت) شديد الامتقاع، وهو يقول:

- ليست هذه هي المشكلة الوحيدة يا سيدي..

قال (صالح) في غضب:

- ماذا لديك ايضا؟

تردد (عزت) لحظات، قبل أن يتمتم:

- لقد وصلت سيارة (مالكو) منذ قليل.

هتف (صالح):

- لا تقل لي إنها لم تكن تقلّ طيارنا.

تمتم (عزت) في شحوب:

- لم يكن هو يا سيدي.. ان الرجل الذي اقلته سيارتنا قد أرسل إليك بطاقته..

ورفع أمام وجه (صالح) بطاقة بيضاء انيقة، تحمل في منتصفها رسما لعقرب ذهبي..

واحتقن وجه (صالح) في شدة، واختطف بطاقة (العقرب)، وسحقها بقبضته في غضب، وهو يهتف:

- لا أحد يتحدى (صالح عثمان) على هذا النحو.. لا أحد..

ثم استدار إلى (عزت)، مستطردًا على نحو جعله اشبه بوحش مفترس شرس، تواق للدماء:

- إنني أمنحك يوما واحدا يا (عزت).. ليلة واحدة، وبعدها أريد جثتي هذا (العقرب) ورفيقته في قبو قيلتي..

وبرقت عيناه في وحشية، وهو يردف:

- مسحوقين سحقا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16- في ظلام الليل..

عقدت (لوسي) حاجبيها، وضمت شفتيها الجميلتين، وهي تنفث دخان سيجارتها في قوة، قائلة:

- نجت! كيف؟ كان المبني خاليا ساكنا تقريبا، ولم..

قاطعها (صالح) في غضب:

- ولكنها نجت، وأنت فشلت..

أطلت ابتسامة ساخرة من عينيها، وهبطت لتستقر على شفتيها، وهي تقول في استهتار:

- (لوسي) لا تفشل أبدا يا عزيزي.. كل ما في الأمر هو أن تلك اللعينة محظوظة كثيرا، وان لحظة مصرعها لم تحن بعد..

قال في حدة:

كان ينبغي أن تتيقني من مصرعها، قبل أن تنصرفي.

أجابته في استهتار ساخر:

- كيف.. انت اردت ان يبدو الأمر كحادث عرضي، وما كنت لانتظر والغاز يملأ المكان، حتى يشعل أحمق عودا من الثقاب، ينفجر له المبني كله.

قال محنقا:

- كان يمكنك اختيار وسيلة أخرى.

مطت شفتيها قائلة:

- ربما.

ثم نفثت دخان سيجارتها مرة أخرى في عمق، قبل ان تضيف في حزم:

- الشيء الوحيد المؤكد هو أنك لن تجد مثلي في (مصر) كلها؛ فأسلوبي فريد جديد، وحتى وزير الداخلية نفسه لن يتصور لحظة واحدة، أن (لوسي) سيدة المجتمع، وسليلة ارقي العائلات واعرقها، وصاحبة الباع الطويل في الجمعيات الخيرية والنوادي الاجتماعية، هي اول قاتلة محترفة في (مصر)، تستخدم ارقي وسائل وأساليب القتل..

ابتسم ابتسامة باهتة، وهو يقول:

- حتى انا لم أكن لأتخيل هذا، لولا أن احتجت إلى خدماتك.

رفعت سبابتها أمام وجهها الفاتن، قائلة:

- ولم اخذلك مرة واحدة.

والقت سيجارتها من النافذة، وهي تنهض مستطردة:

- حتى هذه المرة.

سألها في حزم:

- ماذا ستفعلين؟

ابتسمت في سخرية، وهي تقول:

ـ اطمئن لقد نلت أجري، مقابل القضاء على هذه الفتاة، ولم أعتد ابدا عدم الوفاء بعهودي..

وفرقعت سبابتها وإبهامها، مستطردة في حزم:

- سأقتلها.. الليلة.

وأطلقت ضحكة مستهترة عالية، وهي تغادر الفيلا الخاصة لـ (صالح)، وتنطلق بسيارتها الأنيقة الفاخرة في سرعة..

وهز (صالح) رأسه، وهو يقول في خفوت:

- يا لها من إمراه!

برز (عزت) من حجرة مجاورة، وهو يقول:

- إنها أجمل امرأة عرفتها في حياتي..

تمتم (صالح):

- واكثرهن شراسة.

اتجه إلى بار صغير، في ركن ردهة الفيلا، وصب لنفسه كأسا من الخمر، ارتشف منه رشفة، وهو يقول في انفعال:

- ماذا فعلت بشأن (نديم) هذا؟

قال (عزت):

- رجالنا يراقبون مكتبه، وسيتخلصون منه فور ظهوره، و...

بتر عبارته بغتة، وأطلت نظرة عجيبة من عينيه، وهو يميل برأسه إلى الأمام نحو نافذة الفيلا، مما جعل (صالح) يلتفت في حركة حادة إلى النافذة، ويحدق فيها لحظات، قبل أن يعود فيلتفت إلى (عزت)، هاتفا في عصبية:

- ماذا هناك؟ تبدو كما لو أنك قد رايته شبحا..

أشار (عزت) إلى النافذة، وهو يقول في توتر:

- لقد رايته بالفعل.

التفت (صالح) مرة أخرى إلى النافذة في حدة، وهو يهتف:

- ماذا رأيت؟

وعاد بوجهه إلى (صالح)، صائحا:

- هل جننت؟

اندفع (عزت) نحو النافذة، وهو يقول في توتر:

- أتمنى لو أنني كذلك

أسرع (صالح) خلفه، يسأله في حدة:

- ماذا رأيت بالتحديد؟

تطلع (عزت) إلى حديقة الفيلا المظلمة في توتر، وهو يقول:

- لقد لمحت شبحا يتشح بالسواد، يعبر أمام النافذة في سرعة.

قال (صالح) في توتر:

ـ لا ريب أنك واهم، فحتى الأشباح لا يمكنها التسلل خلسة إلى فيلا الهرم هذه، مع وجود مختار) و (سليم)..

إنهما أفضل وأشرس حارسين خاصين في الشرق كله.

اعتدل (عزت)، وهو يقول:

ـ على ذكر حارسيك.. اين هما؟ الم يعتادا أن يهرعا إلى هنا، كلما أطل أحدنا من النافذة؟

عقد (صالح) حاجبيه في قلق، وهو يقول:

- حقا.. اين هما؟

تبادل الاثنان نظرة مفعمة بالقلق، ثم ارتفع صوت (صالح)، وهو يهتف:

ـ (مختار).. (سليم).. اين انتما؟

جاوبه صمت تام، زاد من قلقه وتوتره، فانتزع (عزت) مسدسه، وهو يقول في حزم:

- سأذهب للبحث عنهما..

انتزع (صالح) مسدسه بدوره، وهو يقول:

ـ سنذهب معا.

خرج الاثنان إلى الحديقة في حذر، واتجها إلى حيث يقف الحارسان عادة، وهتف (عزت) في جزع:

- يا إلهي!! ها هو ذا (سليم)، فاقد الوعي هناك.

أسرعا نحوه، وانحنى (عزت) يفحصه، قبل أن يقول في توتر بالغ:

- لقد تلقى لكمة عنيفة، حطمت اثنتين من اسنانه، والتقط بطاقة صغيرة من فوق صدر (سليم)، وهو يستطرد في حدة:

- انظر يا سيد (صالح).

اتسعت عينا (صالح) في مزيج من الذعر والذهول، وهو يحدق في العقرب الذهبي، الذي يتوسط البطاقة البيضاء الأنيقة، ثم هتف بصوت مختنق متحشرج:

- (العقرب).

وتراجع في ذعر، وهو يتلفت حوله في رعب، و (عزت) يهتف:

وها هو ذا (مختار) هناك.. لقد فقد وعيه أيضا..

لم يلتفت إليه (صالح)، وإنما هتف في ذعر:

- سأبلغ الشرطة.. ذلك (العقرب) هنا..

اندفع عائدا إلى الفيلا، و (عزت) يعدو خلفه هاتفا:

ـ انتظر يا سيدي الشرطة تجهل أنك تملك هذه الفيلا.. لا تكشف ذلك السر الذي..

بتر عبارته بغتة، وابتلع ما تبقى من كلماتها في ذعر، مع شهقة قوية انطلقت من بين شفتي (صالح)، عندما عبر الاثنان باب الفيلا، ووقع بصراهما على ذلك الشبح الأسود المقنع، الذي يجلس هادئا على مقعد وثير، في مواجهة باب الفيلا تماما، ومسدسه مصوب إليهما..

لقد كانت مواجهتهما الأولى معه..

مع (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17- المحترفة..

اوقفت (لوسي) سيارتها الرياضية الحمراء الأنيقة، امام باب البناية، التي تحوي مكتب (نديم فوزي)، وهبطت منها في رشاقة، وهي تلقي نظرة سريعة على ساعة يدها الذهبية، التي أشارت عقاربها إلى الحادية عشرة مساء، وارتسمت على شفتيها الجميلتين ابتسامة شبه ساخرة، تحمل شيئا من البرود، وهي تقول:

- طريف هو قرار إغلاق المحال التجارية مبكرا.. إنه يمنح المرء فرصة إنهاء عمله، واللحاق بسهرة مناسبة في الوقت ذاته..

قالتها وهي تتجه إلى المصعد، وتستقله إلى الطابق الذي يضم مكتب (نديم)، وتوقفت أمام باب المكتب، تتطلع إلى الضوء المنبعث من فرجته السفلى، وهي ترتدي قفازا رقيقا من المطاط، وتتمتم في استهتار:

- رائع.. هذه المحامية المحظوظة هنا.. سنتم العمل في سرعة.

أخرجت من حقيبتها الصغيرة سلكا مفلطحا رفيعا، دسته في ثقب الباب، وراحت تحركه في مهارة، حتى تناهى إلى مسامعها صوت لسان الرتاج يسقط، فابتسمت في ثقة، وهي تقول لنفسها في زهو:

- رائعة انت يا (لوسي).. فريدة من نوعك...

أخرجت مسدسا انيقا صغيرا من حقيبتها، ودفعت الباب في حرص، ودلفت إلى الداخل في سرعة..

وعبر ممر طويل، رأت النور ينبعث من حجرة (غادة)، فتمتمت:

ـ عظيم.. ستنتهي المهمة في سرعة.

خلعت حذاءيها في حرص، ثم اتجهت على أطراف أصابعها إلى حجرة (غادة)، وقفزت داخلها، هاتفة:

- انتهيت أيتها المحظوظة..

تسمرت في مكانها بغتة، عندما بدت لها الحجرة خالية، واعتدلت في حدة، هاتفة:

ـ تلك الخبيثة.

التصقت فجأة فوهة مسدس (غادة) بمؤخرة راسها، وارتفع من خلفها صوت هذه الأخيرة، تقول في لهجة تجمع ما بين الحزم والسخرية:

- هل فاجأتك؟

ارتسم مزيج من الحنق والغضب والثورة على وجه (لوسي)، إلا أنه لم يستمر أكثر من ثانية واحدة، عاد بعدها وجهها إلى بروده واستهتاره، وهي تقول:

- لم تكن مفاجأة سارة على أية حال.

قالت (غادة ساخرة:

- كم يسعدني انها لم تكن كذلك بالنسبة لكِ.. والآن هلا ألقيت ذلك المسدس الصغير، قبل أن تخترق رصاصتي الكبيرة راسك؟

فتحت (لوسي) اصابع كفها، وتركت المسدس يسقط عند قدميها في هدوء، وهي تقول:

- من يدري؟

قالت (غادة)، وهي تتأمل المسدس الساقط ارضا:

ـ مسدس من الذهب الخالص؟! اية قاتلة انتِ؟

ابتسمت (لوسي) في سخرية، وهي تقول:

- إنه هدية من تاجر اسلحة أمريكي، لواحدة من ارقي سيدات المجتمع.

قالت (غادة) ساخرة:

- انتِ من أرقى سيدات المجتمع؟

اجابتها (لوسي) في هدوء:

- بالتأكيد.

ثم اضافت في بساطة:

- وبالمناسبة.. هل يمكنني الجلوس وتدخين سيجارة؟

ترددت (غادة) لحظة، ثم اجابت في حزم:

- ناوليني حقيبتك الصغيرة، وسأعطيكِ أنا السيجارة..

ناولتها (لوسي) حقيبتها في هدوء، فقالت (غادة):

- الآن اتجهي إلى ذلك المقعد المجاور للكمبيوتر، واجلسي في بطء، ووجهك إلى.

اطاعتها (لوسي) في بساطة مثيرة للدهشة، وجلست تتطلع إليها في سخرية عجيبة، وسألتها (غادة) في حيرة، وهي تتفرس في ملامحها في اهتمام:

- الم نلتقِ من قبل؟

- اجابتها (لوسي) ساخرة:

- بالتأكيد.. لقد حاولت قتلكِ مرة.

عقدت (غادة) حاجبيها في ضيق، وهي تقول:

- أعني قبل هذا..

هزت (لوسي) كتفيها في لا مبالاة، وهي تقول:

- ربما في صفحة الاجتماعيات بإحدى الصحف، او المجلات المعروفة، فأنا سيدة مجتمع، كما سبق أن اخبرتك.

غمغمت (غادة) في استنكار:

- سيدة مجتمع قاتلة؟!

أطلقت (لوسي) ضحكة عابثة، وهي تقول:

- إنها أروع تركيبة ممكنة... من يمكنه أن يشك في سيدة مجتمع فاتنة مرحة مثلي؟

مطت غادة) شفتيها في ازدراء، قائلة:

- يا له من زمن!!

أطلقت (لوسي) ضحكة عابثة أخرى، وهي تقول:

- إنه زمن مختلف بالتأكيد.. والآن هل يمكنني تدخين سيجارة؟

فتحت (غادة) حقيبة (لوسي) الصغيرة في حذر، والتقطت منها علبة سجائر أجنبية الصنع، قلبتها بين اصابعها في حرص، دون أن ترفع عينيها عن (لوسي)، ثم القت بها إلى تلك الأخيرة، قائلة:

- ها هي ذي علبة سجائر كاملة، ولكن لا ننسى أن التدخين ضار بالصحة.

أطلقت (لوسي) ضحكة ساخرة، وهي تلتقط من العلبة سيجارة، وتدسها بين شفتيها الجميلتين، قائلة:

- سأذكر ذلك. ثم استطردت في هدوء:

- هل يمكنني الحصول على القداحة ايضا؟

مدت (غادة) يدها داخل الحقيبة، لتلتقط القداحة الذهبية، إلا انها توقفت بغتة، وعقدت حاجبيها، وهي تقول في حزم:

- لا.. يمكنك استخدام أعواد الثقاب فقط..

والتقطت من جوارها علبة أعواد ثقاب، وألقتها إلى (لوسي)، التي التقطتها وهي تضحك قائلة:

- ولماذا لا استخدم القداحة؟

قالت (غادة) في حزم:

- من يدري أي سلاح سري يمكن أن تحتويه قداحة قاتلة محترفة؟

ابتسمت (لوسي) في سخرية، وقالت وهي تشعل سيجارتها بعود من الثقاب في بساطة:

- انت شديدة الحرص إذن.

قالت (غادة):

- أظن هذا حتميا، مع الأفاعي امثالك.

هزت (لوسي) كتفيها، وهي تطفئ عود الثقاب، وتلقيه ارضا، وتنفث دخان السيجارة في عمق، ثم تقول:

ـ الحذر لا يمنع القدر.. واي شيء يمكنه أن يحوي سلاحا سريًا.

التقطت نفسا عميقا من سيجارتها، قبل أن تضيف:

- هذه السيجارة مثلا، قد لا تكون مجرد سيجارة عادية، على الرغم من أنها تشتعل، وتنفث الدخان، فربما لو ضغطت بأسناني على مبسمها هكذا..

قالتها وهي تضغط المبسم بأسنانها بالفعل..

وفجأة تناثر التبغ المشتعل خارج السيجارة، ومن قلب اللفافة تماما، وإثر ضغطة أسنان (لوسي)، انطلق سهم دقيق رفيع، يحوي نوعا رهيبا من السم الزعاف..

وكان ينطلق نحو (غادة)..

نحو قلبها تماما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18- وجها لوجه..

تجمد الموقف لحظة، في ردهة فيلا (صالح) الخاصة، و (العقرب) بصوب مسدسه إلى الرجلين، على الرغم من أن كليهما يحمل سلاحه..

ثم هتف (صالح) فجأة بصوت مختنق متوتر:

- من انت؟

اجابه (العقرب) في هدوء:

_ انت تحمل بطاقتي يا رجل.

اندفع (عزت) يقول بغتة في انفعال:

- وانا أحمل مسدسي.

هنف (صالح)، وكأنما انتبه فجأة إلى هذه الحقيقة:

- أنا أيضا أحمل مسدسي.

بدا وجه (نديم) جامدا باردا، وبدا صوته قاسيا صارما، وهو يقول:

هذا يجعلنا نتساوى جميعا في هذه النقطة.. ما رايكما لو نجري اختبارا صغيرا، فيطلق كل منا النار، ولنرَ من الخاسر؟

قالها وهو يجذب إبرة مسدسه في هدوء مخيف، بعث رجفة قوية في جسد (صالح)، دفعته إلى إلقاء مسدسه ارضا، ورفع يديه عاليا، وهو يهتف:

- لا.. لست أصلح لهذا الاختبار.

اما (عزت)، فقال في عصبية:

- ومن أدراني أنك لن تكون الخاسر؟

هز (نديم) كتفيه في لا مبالاة، وهو يصوب مسدسه إلى رأس (عزت)، قائلا:

- إطلاق النار وحده بحسم الأمر.

تردد (عزت) لحظة، ثم لم يلبث أن القى مسدسه ارضا في حنق، هاتفا:

- اللعنة!

وقال (صالح)، وهو يزدرد لعابه في صعوبة:

اسمع يا سيد (نديم).. إنني..

قاطعه (العقرب) في صرامة:

ـ اخطأت ايها الوغد.. إنني لست (نديم فوزي) كما تتصور..

ازدرد (صالح) لعابه بمزيد من الصعوبة هذه المرة، وغمغم بصوت متحشرج:

- لا باس ايها (العقرب).. إنني مستعد لشراء حياتي بأي ثمن.

مط (العقرب) شفتيه، قائلا:

- ومن قال إنني انوي قتلك؟

هتف (عزت) في دهشة:

- ماذا تستهدف من هذا الاقتحام الإجرامي إذن؟

اعتدل (العقرب)، وهو يقول في حزم:

- فقط اريد من السيد (صالح) ان يجري اتصالا هاتفيا صغيرا.

ارتبك (صالح)، وهو يغمغم:

- أي اتصال هاتفي هذا؟

التقط (العقرب) سماعة الهاتف، وهو يقول:

ـ اريد منك ان تتصل بمكتبك الخاص، وتخبرهم أن لديك عطلا في جهاز اتصال خاص بمكتبك، وأنك سترسل شخصا لإصلاحه.

حدق (صالح) في وجهه لحظة في دهشة، في حين قال (عزت):

- لن يفيدك هذا كثيرا.. لقد نقلنا كل الوثائق والأوراق، من خزانة المكتب السرية، التي كشفت أنت أمرها في المرة السابقة..

قال (العقرب) في برود:

- ليس هذا من شانك.

ثم التفت إلى (صالح)، مستطردًا في حزم:

- هيا يا سيد (صالح).. أجر الاتصال.

تبادل (صالح) نظرة قلقة مع (عزت)، ثم تناول سماعة الهاتف بيد مرتجفة، وهو يتمتم:

ـ (عزت) على حق.. إنك لن تجد شيئا في المكتب.

اجابه في برود:

- هذا شأني.

تردد (صالح) لحظة، ثم تجمد بصره لحظة، وهو يتطلع في دهشة إلى نقطة ما خلف (العقرب)، وشاركه (عزت) النظرة نفسها، على نحو جعل ز العقرب) يدير رأسه إلى حيث ينظران في حدة..

ولكن استدارته لم تكتمل..

لقد التصقت فوهة مسدس باردة بصدغه، وارتفع من خلفه صوت بارد صارم، يقول بالعربية الركيكة:

انتهت اللعبة ايها المقنع.. هيا.. انزع قناعك الطريف هذا، ودعنا نلقي نظرة على ملامحك..

هتف (صالح):

- ولكن من انت؟

اجابه صاحب الصوت الصارم البارد:

- اسمي (دارك) يا مستر (صالح).. (چون دارك).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فجأة..

وبلا مقدمات..

وعلى نحو مباغت مباشر عنيف، تحرك (العقرب)..

كانت فوهة المسدس القاتلة تلتصق بصدغه، ولكنه مال جانبا، وانحنى في سرعة، ودار على عقبيه، ثم دفع ساعده ليرفع يد (دارك) الممسكة بالمسدس، وأطلق قبضته الأخرى في وجه هذا الأخير كالقنبلة..

وانطلقت رصاصة من مسدس (دارك)، اصابت سقف الردهة، وهو يسقط ارضا، في حين قفز (عزت) نحو مسدسه هاتفا:

- ابتعد يا سيد (صالح).. إنها فرصتنا.

ولكن (العقرب) دار على عقبيه مرة أخرى في سرعة، وأطلق النار على مسدس (عزت)، فقذف به بعيدا، وعاد يلتفت إلى (دارك)، ويطلق النار على مسدسه، ليطيح به بدوره، ولكن (عزت) انقض عليه من الخلف، هاتفا:

- إلى اين؟

اختل توازن (صالح) وسقط على ظهره ارضًا، وهو يهتف في حنق والم وغيظ:

- اتركني.. اتركني..

قفز نديم الى موقع يمنحه السيطرة الكاملة على المكان، وصوب سلاحه مره أخرى الى الرجال الثلاثة قائلا:

- هيا أيها الاوغاد.. انتهت اللعبة بحق هذه المرة.

نهض الثلاثة في حنق وغيظ، وغمغم (دارك) بالإنجليزية:

- يا لك من محظوظ!

تجاهله (نديم) تماما، واشار إلى الهاتف الملقى ارضا، وهو يقول في حزم صارم:

- هيا يا سيد (صالح).. أجر الاتصال..

قال (صالح) في عصبية:

- ليس قبل أن أعلم ما الذي تريده من مكتبي؟

أجاب (نديم) في صرامة:

- سنعلم فيما بعد.

وفجأة اقتحم الباب رجلان مسلحان، هتف أحدهما، وهو يصوب سلاحه إلى الجميع:

- شرطة.. لا يتحرك أحد..

اما الثاني، فقد صوب مسدسه إلى (العقرب)، والتمعت عيناه ببريق شامت ظافر، وهو يقول:

- كنت اعلم اننا سنلتقي اخيرا.

وكان هذا الأخير هو (مجدي)..

العقيد (مجدي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19- القتال..

في هذه المرة كانت (غادة) حذرة.. بل شديدة الحذر..

وربما يمكننا أن نضيف إلى هذا الحذر شيئا من غريزة النساء، وشعورهن المسبق بالخطر.. المهم انها قد تحركت في سرعة، فور أن ضغطت (لوسي) مبسم السيجارة بأسنانها..

وانطلق السهم القاتل..

ولكنه لم يصب قلب (غادة)..

لقد أصاب باب الحجرة خلفها..

وهتفت (غادة) في حنق:

- ايتها القاتلة!

ولكن (لوسي) تحركت ايضا في سرعة مدهشة، وقفزت تركل المسدس من يد (غادة)، وتطيح به بعبدا، وهي تقول:

- الآن أصبحنا متعادلتين..

وطوحت راحتها نحو رقبة (غادة) التي مالت جانبا، وهي تهتف:

- إذن فأنت تجيدين رياضة الكاراتيه..

اعتدلت (لوسي)، وقالت في سخرية:

- بل أنا أستاذة في هذا المجال.

وأطلقت فجأة صرخة قتالية رهيبة، وقفزت لتحطم ضلوع (غادة) بقدمها، إلا أن (غادة) قفزت جانبا في مهارة، فأصابت قدم (لوسي) شاشة الكمبيوتر، واخترقتها في دوي شديد، جعل (غادة) تهتف في حنق:

- لا.. ليس ثانية.. هل تصرون على منعنا من الدخول إلى عصر الكمبيوتر؟

انحنت (لوسي) أمامها، قائلة في سخرية:

- معذرة يا سيدتي الجميلة، الذي سأسمح لك بدخوله هو القبر..

هزت (غادة) كتفيها، قائلة:

- يمكنك المحاولة على الأقل.

تطلعت إليها (لوسي) بنظرة ساخرة مستهترة، وهي تقول:

- ما رأيك في قتال أنيق؟

اتخذت (غادة) وضعا قتاليا، وهي تقول:

- لا بأس..

اتخذت (لوسي) وضعا مشابها، قائلة:

- والموت للمهزوم.

ثم قفزت نحو (غادة)، ورفعت قدمها لتركلها، هاتفة:

ولن تكون الهزيمة من نصيبي انا.

امسكت (غادة) قدم (لوسي) بغتة، فاختل توازن هذه الأخيرة، وسقطت على ظهرها ارضا، و (غادة) تقول في سخرية:

- ماذا كنت تقولين عن الهزيمة؟

ولكن سقطة (لوسي) القتها إلى جوار مسدسها الصغير تماما، فالتقطته بحركة سريعة، وهي تهتف:

- كنت أقول إنها ليست من نصيبي..

وأطلقت النار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اول شيء تعلمه (نديم)، عندما قرر أن يقتحم عالم محاربة الجريمة، حاملا اسم وقناع (العقرب)، هو أن (نابليون بونابرت) كان محقا تماما، عندما قال: «إن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع»

والواقع أن (نديم) رجل يتعلم في سرعة.

ويطبق ما يتعلمه في إحكام..

وعندما اقتحم (مجدي) و (حسن) الفيلا، كان الأول بتصور أنه قد باغت (نديم)، وهو في شخصية (العقرب)، وامكنه أخيرا إثبات كون الاثنين رجلا واحدا..

ولم يكن يفصله عن تحقيق هذا النصر سوى نزع قناع (العقرب).

وكان (نديم) يعلم هذا..

ولم يكن مستعدا للهزيمة..

أو لإضاعة الوقت..

وعندما واجه (مجدي) (العقرب) متشفيا، كان هذا الأخير يبتلع أثر المفاجأة في سرعة ثم يبدا هجمته المرتدة..

ولم يكد (مجدي) يتم عبارته، حتى تحرك (العقرب) في سرعة، وكأنما لم يفاجئه هذا الهجوم المباغت قط، وقفزت قدمه تركل مسدس (مجدي)، وتلقى به بعيدا، ثم ارتفع مسدسه بطلق رصاصة محكمة على مسدس (حسن)، ويطيح به بعيدا..

وصرخ (مجدي) في حنق:

- لن تفلت.

وقفز نحو (العقرب)، ولكن هذا الأخير انحنى على نحو مباغت، وأفلت من انقضاضة (مجدي) في رشاقة، ثم دفع (مجدي) في ظهره دفعة ألقته على وجهه أرضا، في حين قفز (العقرب) نحو النافذة المطلة على حديقة الفيلا، وعبرها بوثبة مرنة إلى الحديقة المظلمة..

واندفع (حسن) نحو النافذة، في حنق، وهو ينهض من سقطته:

- الحقوا به.. أوقفوه قبل أن يفر..

ارتفع في اللحظة ذاتها صوت محرك سيارة تنطلق، مختلطا بصوت (حسن)، الذي هتف في مرارة:

ـ لقد هرب بالفعل..

صاح (مجدي):

ـ فلنلحق به بسيارتنا.. أسرع.

تردد (حسن) جزءا من الثانية، ثم قال في توتر:

- ولكنه هرب في سيارتنا يا سيدي.

اتسعت عينا (مجدي)، وهتف في ذهول:

- في سيارتنا؟!

ثم صرخ في عصبية:

- هل تركت المفاتيح داخلها مرة أخرى؟

ارتبك (حسن)، وهو يقول:

- لقد سمعنا الرصاصة، وهرعنا إلى هنا، ولم٠٠.

قاطعه صارخا:

- لا ينبغي أن تترك مفاتيح السيارة داخلها أبدا..

تدخل (صالح عثمان)، قائلا في حدة:

- لقد حدث ما حدث، ولن نجلس لنتشاجر هنا تاركين الفرصة أمام ذلك (العقرب) للفرار..

التفت إليه (مجدي) في دهشة، وكأنما يراه لأول مره، وقال:

- السيد (صالح عثمان)؟! أأنت صاحب هذا المكان؟

ارتبك (صالح) وقال في توتر:

- - لا.. لست صاحبه إنه ملك (عزت)، مدير مكتبي، وكنت في زيارته مع عميلنا الأوروبي مستر (چون دارك)، عندما هاجمنا ذلك المقنع

ثم لوح بكفه، مردفا:

ولكن هذه ليست المشكلة.. المهم الآن أن نتصل برجال الشرطة، ونبلغهم برقم واوصاف سيارتكما، ليتمكنوا من اعتقال ذلك (العقرب) متلبسا..

اندفع (مجدي) نحو الهاتف، وهو يقول:

- صدقت يا سيدي.. هذا هو الإجراء الصحيح..

وطلب رقم إدارة الشرطة، وهو يستطرد في حنق:

لقد وقع (العقرب) هذه المرة.. إنه لن يذهب بعيدا بهذه السيارة.. هذا وعد..

وكان على حق..

إن (العقرب) لن يذهب بعيدا هذه المرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20- الهجوم..

أطلقت (لوسي) رصاصتها، وهي تهدف إلى رأس (غادة)، ولكن (غادة) مالت جانبا برد فعل غريزي، وسمعت الرصاصة تمرق على قيد سنتيمترات من رأسها، ورأت مسدسها الملقى على بعد متر واحد، فقفزت نحوه، في نفس اللحظة التي أطلقت فيها (لوسي) رصاصة ثانية شعرت بها (غادة) كخيط من نار يخترق ذراعها اليسرى، قبل ان تلتقط مسدسها، وتدير جسدها إلى (لوسي)، هاتفة:

- ايتها اللعينة!

وانطلقت من مسدسها رصاصة، أطاحت بمسدس (لوسي)، التي هتفت في دهشة:

- إنك تجيدين إصابة الهدف!

ثم قفزت واقفة على قدميها، وتفادت رصاصة أخرى من مسدس (غادة)، وهي تندفع نحو الباب مستطردة:

- هذا يدفعني إلى تأجيل هذا اللقاء الممتع.

صاحت بها (غادة):

- انتظري أيتها الحقيرة.

جاوبتها ضحكة (لوسي) العابثة الساخرة، وهي تهبط في درجات سلم البناية قفزا في رشاقة، ثم تناهى إلى مسامعها صوت سيارتها الرياضية الحمراء تنطلق مبتعدة..

وهتفت (غادة) في مرارة:

- تلك الأفعى!!

ثم وضعت مسدسها أمام شاشة الكمبيوتر المحطمة، وأمسكت ذلك الجرح النازف في ذراعها اليسرى، وتمتمت:

- أظنني بحاجة إلى إسعافات أولية..

كانت الدماء تنزف من جرحها في غزارة..

وكان جسدها منهكا بسبب الصراع..

وانتابها شعور بضعف شديد وتهالك..

وفجأة مادت بها الأرض.. وتمتمت في إعياء:

- يبدو أنني قد فقدت الكثير من الدماء..

حاولت أن تستند إلى مكتب الكمبيوتر أو تبلغ الهاتف..

ولكن بغتة أظلمت الدنيا أمامها..

وسقطت فاقدة الوعي..

وراح جرحها ينزف بغزارة أكثر..

وسالت روحها مع نهر الدم المنسكب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكد (نديم) يبتعد قليلا عن الفيلا، حتى اوقف سيارة الشرطة على جانب الطريق، وانتزع قناعه وقفازيه، ودسهما في جيبي سرواله، ثم غادر السيارة، وراح يسير في هدوء نحو سيارته، مرتديا قميصه وسرواله الأسود اللون، حتى بلغ سيارته، فانطلق بها هادئا..

وعبرت إلى جواره سيارتا شرطة، تطلقان بوقهما المميز، فغمغم وكأنما الأمر لا يعنيه:

- اراهن انهما في طريقهما لضبط مقنع متهم بسرقة سيارة من سيارات الشرطة.

واصل طريقه في هدوء وبساطة، وهو يطلق من بين شفتيه لحنا شعبيا شهيرا، حتى بلغ مكتبه، فتوقف متسائلا:

ـ ترى أعادت (غادة) إلى منزلها، أم أنها لا تزال تصر على تسجيل كل ما لدينا من بيانات في الكمبيوتر؟

صعد إلى مكتبه في بساطة، ولم يكد يبلغه، حتى عقد حاجبيه، وقال في قلق:

- لماذا تركت الباب مفتوحا؟

اندفع داخل المكتب، ولم يكد بصره يقع على (غادة) الفاقدة الوعي، وسط بركة من الدماء، حتى هتف في جزع:

- يا إلهي... (غادة).

وانحنى بسرعة يلصق اذنه بصدرها، ويقيس نبضها، ثم استطرد:

- نبضها ضعيف للغاية.. لقد فقدت الكثير من دمائها، ودون أن يضيع لحظة واحدة في التفكير، حمل جسد (غادة)، وأسرع يهبط في درجات السلم كالصاروخ، وانطلق إلى أقرب مركز إسعافي..

ومع انطلاقه، كان قلبه ينتفض كطير ذبيح..

ولم يكد يبلغ المركز، حتى حمل (غادة) إلى الداخل، وهتف بالطبيب (النوبتجي):

- أسرع أبها الطبيب.. أسرع.

أسرع إليه الطبيب المعالج، وهتف وهو ينظر إلى وجه (غادة):

- يا إلهي! هي مرة أخرى!

هتف به (نديم):

- أسرع يا رجل.

انحنى الطبيب يفحص (غادة) في اهتمام، ثم لم يلبث أن اعتدل، وهز راسه في اسف، قبل أن يلتفت إلى (نديم) قائلا:

- لقد تأخرت ايها الشاب.. تأخرت كثيرا.

وارتجف قلب (نديم) في لوعة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكد (مجدي) و (حسن) ينصرفان، حتى التفت (چون دارك) إلى (صالح عثمان)، وقال في حدة:

- لم أكن أعلم أن لديكم هذا الطراز من المجرمين المقنعين هنا.

قال (صالح) في حنق:

- إنه ليس مجرما.. إنه شخص أحمق، يتصور نفسه حاميا للعدالة، مثل (زورو) و(الرجل الوطواط).

عقد (چون دارك) حاجبيه، وقال في قلق:

- وما الذي يدفعه إلى مهاجمتك؟

هز (صالح) راسه، وقال وهو بشعل سيجاره في عصبية:

- لست أدري..

تدخل (عزت) قائلا:

- إنه يسعى لإثبات براءة مهندس قاتل، كان يعمل لحساب السيد (صالح)، ثم ارتكب جريمة قتل.

بدا الاهتمام على وجه (دارك)، وهو يسأل:

- اكل هذا من أجل إثبات براءة شاب؟

قال (صالح) في حزم:

- لا يوجد سبب آخر، فما من مخلوق سوانا يعلم بأمر صفقتنا واسرارها.

سأله (دارك) في هدوء:

- أأنت واثق؟

اجابه في صرامة:

- تمام الثقة.

أتجه (دارك) نحو البار الصغير، وصب لنفسه كأسا من الخمر، وهو يقول:

ـ وما الذي فعلته للتخلص من مضايقات هذا المقنع؟

قال (صالح) في حدة:

- سأقتله.

التفت إليه (دارك) في حدة، قائلا:

- خطأ.

ردد (صالح) في دهشة:

- خطأ؟! ماذا تعني؟!

أجابه في حسم، وهو يرتشف كأس الخمر:

- مواجهة العنف بالعنف أمر مطلوب، في مثل مهنتنا، ولكن ليس في مثل هذه الظروف، فالمهمة التي نحن بصددها الآن تحتاج إلى الكثير من التكتم والسرية، واشتعال حرب جانبية كفيل بإحاطتها بالخطر.

سأله (صالح) في حيرة:

- ماذا نفعل إذن؟

اجابه في هدوء:

- نفاوضه

هتف (عزت) مستنكرا:

- ماذا؟ مستحيل!

التفت إليه (دارك) بنظرة صارمة قاسية، جعلته يتمتم في خفوت:

- إنه لن يقبل المفاوضات.

ابتسم (دارك) في دهاء، وقال:

- سيقبل..

سأله (صالح) في عصبية:

- كيف يمكنك الجزم بهذا؟

اجابه في هدوء:

- لأننا سنمنحه ما يسعى إليه.

تطلع إليه (صالح) في حيرة، في حين عقد (عزت) حاجبيه، وهو يسأله في صوت بحمل انفعالات الدنيا كلها:

- ماذا تعني؟

التمعت ضحكة مزهوة في عيني (دارك)، وارتشف رشفة كبيرة من كأسه، وهو يتطلع إلى وجهي (صالح) و (عزت) في جذل، وكأنما يروق له رؤية حيرتهما ولهفتهما، قبل أن يقول في بطء:

- سنمنحه براءة المهندس..

حدقا في وجهه في ذهول، قبل أن يهتف (عزت):

- أي هراء هذا؟

عقد (دارك) حاجبيه، قائلا:

- لا شأن لك أنت بهذا.

احتقن وجه (عزت) واشاح بوجهه في حنق، في حين قال (صالح) في عصبية:

ولماذا نمنحه هذه الهدية؟

اجابة (دارك) في ضجر:

- لأننا لا نرغب في إشعال حروب جانبية.

تدخل (عزت)، قائلا في حدة:

- أظن أن الوقت لتفادي ذلك قد انتهى..

التفت إليه (دارك)، يسأله في حدة:

- ماذا تعني؟

أجابه فيما يشبه الشماتة:

- أعني أن رجالنا يراقبون مكتب المحامي، الذي اعتاد ارتداء القناع، وإطلاق اسم (العقرب) على نفسه، ولديهم أوامر بقتله فور رؤيته، و...

قبل أن يتم عبارته، ارتفع رنين الهاتف المجاور له، فالتقط سماعته في حركة غريزية، وقال:

- من المتحدث؟

احتقن وجهه، وهو يستمع إلى محدثه في اهتمام، ثم قال في حدة:

- لا بأس.. المهمة الغيت.. راقبوا المحامي، وأبلغونا بأمره فحسب..

وأعاد السماعة في عنف، وهو يقول:

- لقد وصل المحامي إلى مكتبه، ولكنه غادره في سرعة، قبل أن يقدم رجالنا على اتخاذ خطوة واحدة للقضاء عليه..

سأله (صالح) في دهشة:

- ولماذا فعل؟

أجابه في صوت خافت:

- كان يحمل زميلته، والدماء تنزف من ذراعها.

التمعت عينا (صالح)، وهو يقول في ابتهاج:

- إذن فقد نجحت (لوسي) في مهمتها هذه المرة.

ثم اتجه نحو البار، وصب كأسا من الخمر، رفعها بيده عاليا، وهو يقول:

- نخب نجاح مهمة (لوسي)..

ابتسم (دارك)، وهو يقول:

- ونخب بدء مهمتنا الكبرى.

قال (عزت) في حدة:

- الواقع أن صفقتكم الجديدة هذه تبدو لي خاسرة.

التفت إليه (دارك) في حدة، في حين قال (صالح) في عصبية:

- أي قول هذا؟

اجاب (عزت) في عصبية:

- إن خطتكم كلها تعتمد على اختراق الحدود، وليس من السهل أن تنشب حرب بين دولتين بسبب حادثة يمكن تفسيرها والاعتذار عنها ديبلوماسيا..

بدا القلق على وجه (صالح)، وادار عينيه إلى (دارك) في شك، وهو يغمغم:

- هذا صحيح إلى حد ما.

ابتسم (دارك) في سخرية، وجرع ما تبقى في كأسه دفعة واحدة، ثم قال:

- هذا لأنكما تجهلان الجزء الإسرائيلي من الخطة

سأله (عزت) بنفس العصبية:

- وهل سنبقى على جهلنا هذا طويلا؟

قال (دارك) في زهو:

- وما فائدتي إذن؟

وجلس على مقعد وثير، واضعا ساقا فوق ساق، وأشعل سيجارته في هدوء، ونفث دخانها في عمق، وكأنما يروق له دوما إشعال لهفة الآخرين، قبل أن يستطرد:

- إن إشعال حرب بين دولتين أمر يحتاج إلى خبرة ومهارة، وإلى خطط شديدة التعقيد، وخاصة في عصرنا الحالي.. ونحن خبراء في هذا المجال، وخبرتنا تقول إن الوسيلة المثلى لإشعال فتيل الدمار، هي أن يكون حادث البداية متوقعا.

سأله (صالح) في حيرة:

- ماذا تعني؟

نفث (دارك دخان سيجارته مرة اخرى في عمق، وأجاب:

- إن مندوبنا في إسرائيل هو أحد رجال (الموساد)، وبواسطته وصلت لـ (الموساد) معلومات تقول: إن (مصر) تستعد للهجوم

على (إسرائيل)، وشن حرب شعواء مفاجئة ضدها، وإنها ستبدأ هذه الحرب بهجوم من قوات الصاعقة، على إحدى نقاط المراقبة، على الحدود المصرية الإسرائيلية، وستنتظر (إسرائيل) هذا الهجوم في تحفز..

واتسعت ابتسامته، وهو يستطرد في زهو:

- ويمكنكما القول إن (إسرائيل) قد أعدت خطة هجومية بالفعل، ستبدأ فور حدوث الهجوم على نقطة مراقبة الحدود..

تمتم (عزت) في رهبة:

- يا للداهية!

لم يكد ينهي آخر حروف كلمته، حتى ارتفع رنين الهاتف مرة أخرى، فالتقط (عزت) سماعته أيضا، وقال:

- أنا (عزت).. ماذا لديكم هذه المرة؟

صمت لحظات، يستمع في اهتمام، ثم ابتسم قائلا:

- عظيم.. واصلوا مراقبته حتى صدور أوامر اخرى.

أعاد السماعة، وعيناه تتألقان في شدة، مما جعل (صالح) يسأله في اهتمام:

- ماذا حدث؟

اجابه (عزت) في نشوة:

- لقد حمل المحامي زميلته المصابة إلى مركز الإسعاف، ولكنها كانت قد فقدت الكثير من الدماء و.

هتف (صالح):

- وماذا حدث؟ هل تم إسعافها؟

اتسعت ابتسامة (عزت)، وهو يقول في سخرية:

- إسعافها؟!

سأله في لهفة:

- ماذا حدث إذن؟

ازدادت عينا (عزت) تألقا، وبدا أشبه بوحش مفترس، وهو يقول في ارتياح:

- لقد ماتت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ملك الجريمة

21- الدليل..

قفز اللواء (حلمي) من فراشه في توتر، عندما ارتفع رنين جرس باب منزله، ليختلط بدقات الساعة، وهي تعلن منتصف الليل تماما، واستيقظت زوجته بدورها، وهي تسأله في فزع:

- ماذا هناك؟ من يزورنا في مثل هذه الساعة؟

التقط (حلمي) مسدسه، وهو يقول في حزم:

- لا داعي للقلق.. ربما هو استدعاء عمل..

رددت في دهشة، لم تلغ شيئا من ذعرها:

- استدعاء عمل؟! ولكنهم يستدعونك - عادة - بواسطة الهاتف..

قال في صرامة:

- ربما كانوا بالقرب من هنا.. هيا.. عودي إلى فراشك.

كانت قد اعتادت دائما، بحكم المنشأ، طاعة زوجها بلا مناقشة، إلا أنها عجزت هذه المرة عن العودة إلى فراشها، وإن اكتفت باختلاس النظر إلى باب الشقة، الذي يتجه إليه زوجها ممسكا بمسدسه، وهي تدعو الله أن يكون هذا مجرد استدعاء بالفعل..

وارتفع صوت اللواء (حلمي)، وهو يقول في حزم:

- من الطارق؟

هتف العقيد (مجدي) من خلف الباب:

- إنه أنا يا سيدي.. (مجدي).

هبط الجواب على قلب زوجة (حلمي) كالبلسم الشافي، فتنهدت في ارتياح، وقد اطمأنت نفسها إلى أن القادم صديق، ورددت بصوت يحمل سكينتها:

- (مجدي)!!

أسرع اللواء (حلمي) يفتح الباب، ويسأل (مجدي) في دهشة:

- ماذا حدث؟! لماذا تطرق الباب بهذا العنف والتوتر؟

اندفع (مجدي) إلى الداخل، والتي جسده فوق اول مقعد صادفه، وراح يلهث في شدة، وهو يقول في انفعال:

- لقد عثرت عليه أخيرا يا سيدي..

سأله (حلمي) في دهشة، وهو يعيد مسدسه إلى جيبه، ويغلق باب منزله:

- ما هذا الذي وجدته؟

لوح (مجدي) بكفه، وهو يقول في حماس:

الدليل يا سيدي... الدليل..

اقترب منه (حلمي)، وهو يسأله في حيرة:

- أي دليل؟

اعتدل (مجدي)، وملأ الانفعال كل خلية من خلاياه، وهو يجيب:

الدليل على أن (نديم) هو (العقرب).

امتقع وجه (حلمي)، وردد في خفوت:

- (العقرب).

بذل أقصى جهده للسيطرة على مشاعره، وهو يدير عينيه إلى زوجته، قائلا:

- أعدي لنا فنجان قهوة مركزين

أسرعت زوجته تعد القهوة، في حين جلس هو إلى جوار (مجدي) وسأله في اهتمام:

- ما الدليل الذي لديك؟

اندفع أمجدي) يقول في انفعال:

- كنت اراقب (نديم)، منذ عثر (صالح عثمان) على بطاقة (العقرب) في مكتبه، وكنت أعلم أنه سينتحل شخصية المقنع، إن عاجلا أو آجلا، والليلة تحقق لي ما أصبو إليه.

سأله (حلمي) في لهفة:

ماذا حدث الليلة؟

ازدرد (مجدي) لعابه، قبل أن يتابع في انفعال:

- الليلة رأيته يغادر مكتبه، ويستقل سيارته، فتسللت خلفه أنا والرائد (حسن)، ورأيناه يوقف سيارته، ثم يتجه في حذر إلى فيلا في الهرم، وكان يرتدي قميصا وسروالا أسود اللون، ولقد اختفى خلف الفيلا، وبعدها بنصف الساعة تقريبا، تناهى إلى مسامعنا صوت إطلاق نيران، فأسرعنا نقتحم الفيلا، ووجدته امامي..

هتف (حلمي):

- وجدت (نديم)؟؟

لوح (مجدي) بذراعيه في حماس ملتهب، وهو يقول:

- بل وجدت (العقرب).. (العقرب) بزيه الأسود) وقناعه، وقفازيه.. وجدته في صراع مع (صالح عثمان)، ومدير مكتبه (عزت)، ورجل أجنبي..

هوى قلب اللواء (حلمي) بين قدميه، وهو يسأله:

- وهل نزعت عنه قناعه؟

بدا الغضب والسخط على وجه (مجدي)، وهو يقول:

- لم أجد الوقت لذلك.. لقد هاجمني ذلك اللعين، ونجح في الفرار..

سرت رجفة خافتة في جسد (حلمي)، وتمتم في ارتياح:

- نجح في الفرار؟!

وعلى الرغم منه، ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة، وهو يسترخي في مقعده، قائلا:

- اين الدليل إذن؟

حدق (مجدي) في وجهه في دهشة، ثم هتف مستنكرا:

- الدليل واضح يا سيدي.. لقد تتبعنا (نديم) إلى الفيلا، وعندما اقتحمناها كان (العقرب) داخلها، و.

قاطعه (حلمي) في حزم:

- هل رايته انت و (حسن) يبدل ثيابه؟

قال (مجدي) في توتر:

- لا.. ولكن..

قاطعه مرة أخرى في مراية:

- ولكن ماذا.. إن كل ما لديك مجرد قرائن وشبهات، لن تكفي حتى لاحتجاز محام مثل (نديم) لأربع وعشرين ساعة.. إنكما لم ترياه يبدل ثيابه، ولم تنزعا قناعه، فماذا لديكما ضده؟

زاغت عينا (مجدي)، وهو يقول معترضا:

- ولكن يا سيدي.. من الواضح أن..

قاطعه (حلمي) مرة ثالثة، بمزيد من الصرامة:

- الواضح بالنسبة لمن؟! أنسيت أن القانون لا يعترف بوجهات النظر، وإنما بالأدلة والثوابت والاعترافات؟ الم تلحظ أنك

ترتكب نفس ما هاجمت (نديم) من اجله، عندما كان يعمل في صفوف الشرطة.. إنك تطلب إدانة رجل بلا سند قانوني واحد.

احتقن وجه (مجدي) في شدة، ونهض في حركة حادة، وهو يقول:

- يبدو أنك تتعاطف معه كثيرا يا سيدي..

أجابه (حلمي) في قسوة:

- كلانا رجل قانون ايها العقيد، وليس من حقنا أن نتعاطف أو نضطهد.. جئني بدليل إدانة واحد ضد (نديم)، وسأكون أول من يضع القيود في معصميه.. هيا.

وقف (مجدي) صامتا، يتطلع إلى رئيسه محتقن الوجه، ثم لم يلبث أن قال في حنق:

- فليكن يا سيدي سأعود يوما وبيدي الدليل.. أقسم لك.

واندفع يغادر المنزل كالقذيفة، فهتفت زوجة اللواء (حلمي) وهي تحمل فنجان القهوة:

- وماذا عن القهوة؟

ابتسم اللواء (حلمي)، وهو يقول:

- لا عليك.. سأتناول أنا الفنجانين، فأظنني أحتاج إليهما كثيرا..

وتلاشت ابتسامته في بطء، وهو يستطرد:

- واظن (نديم) يحتاج إلى ما هو أكثر منهما.. أكثر كثيرا.

ولم يدرك لحظتها كم كان صادقا..

ففي تلك اللحظة بالذات، كانت دماء (نديم) تسيل..

تسيل حقا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22- المأزق..

تنهد طبيب مركز الإسعاف في ارتياح، وهو يستمع إلى دقات قلب (غادة) هذه المرة، وأعتدل وهو يبتسم، قائلا لـ (نديم):

- أظنها قد نجت..

اغلق (نديم) عينيه، وهو يتمتم:

- حمدا لله

كان يرقد على منضدة طبية، إلى جوار أخرى ترقد فوقها (غادة)، وكانت هناك أنابيب دقيقة تربط أوردتهما بعضها ببعض..

وكان دمه يسيل عبر تلك الأنابيب الشفافة الدقيقة وينتقل إلى عروقها..

وتابع الطبيب وهو يمسك معصم (غادة)، ويقيس نبضها:

- إنها معجزة بحق، لقد تصورنا جميعا أنها قد انتهت، ولكن التدليك القلبي الخارجي أنعش قلبها المحتضر مرة أخرى، والدماء التي تنقلها أنت إليها ستضمن لها النجاة بإذن الله..

تهتم (نديم):

- هذا أفضل

ابتسم الطبيب في حنان، وهو ينقل بصره بين وجهي (نديم) و (غادة)، قبل أن يقول:

- من حسن الحظ ايضا أن فصيلتي دمكما متشابهة..

قال (نديم) في هدوء:

- إننا نتشابه في أمور عدة.

بقيت ابتسامة الطبيب على شفتيه لحظات، ثم لم تلبث ان تلاشت، وهو يقول:

- بقيت النقاط القانونية..

صمت الطبيب، منتظرا تعقيبا من (نديم)، إلا أن هذا الأخير بقي صامتا، مما حمل الطبيب على أن يتابع:

- لقد اصيبت الفتاة برصاصة، والقانون يقتضي إبلاغ الشرطة في هذه الحالة..

سأله (نديم) في هدوء:

- هل استخرجتم الرصاصة؟

هز الطبيب راسه نفيا، وأجاب:

- لا.. لقد اخترقت الذراع من الأمام إلى الخلف، ومزقت جانب الوريد العضدي، وهذا سبب النزيف الشديد، ولقد خرجت الرصاصة بالطبع.

وان الصمت لحظة، ثم قال (نديم) في هدوء اثار دهشة الطبيب:

- اتخذ الإجراءات القانونية إذن.. أبلغ رجال الشرطة.

مط الطبيب شفتيه، وقال:

- لقد ابلغتهم بالفعل.

ارتفع صوت صارم حانق يقول:

- من سوء حظك يا (نديم).

ادار (نديم) عينيه إلى مدخل حجرة جراحات الطوارئ، وقال في هدوء

- كيف حالك يا (مجدي)؟

اندفع (مجدي) داخل الحجرة، وهو يقول في شماتة:

- لقد تلقيت أنا البلاغ مصادفة، وأسرعت إلى هنا، فور قراءتي اسم زميلتك، وأنا أعلم أنها فرصة مثالية للإيقاع بك ايها الوغد..

عقد الطبيب حاجبيه، وهو يقول في دهشة:

- الإيقاع به؟! أهو مجرم هارب؟

قال (نديم) في هدوء، لا يخلو من حزم وصرامة:

- حذار مما تنطق به يا (مجدي)، فبشهادة هذا الطبيب، يمكنني أن أدينك بتهمتي: السب العلني والتشهير.

هتف (مجدي):

- هراء.. أراهن أنني سأوقع بك هذه المرة.. إنني أتخيل ما حدث بالضبط.. لقد سرقت سيارة الشرطة، وانتقلت بها إلى حيث تركت سيارتك، وفيها نزعت قناعك وقفازيك، وعدت إلى مكتبك، ولكنك فوجئت هناك بزميلتك المصابة، فهرعت بها إلى هنا، دون أن تتخلص من القناع والقفازين على الأرجح، وسأعثر عليهما حتما بتفتيشك.

سأله (نديم) في برود:

- هل تحمل إذنا بالتفتيش؟

ابتسم (مجدي) في سخرية عصبية، وهو يقول:

- لا حاجة لي به هذه المرة، فأنا هنا استجابة لبلاغ عن فتاة مصابة بطلق ناري، بصحبها رجل، ومن الطبيعي والقانوني في هذه الحالة أن أقوم بتفتيش هذا الرجل، بحثا عن السلاح الذي ارتكب به الحادث..

ومال نحو (نديم) في عنف، قائلا في شماته:

- إجراء قانوني اليس كذلك؟

اعترضه الطبيب بغتة، قائلا في صرامة:

- خطأ.

التفت إليه (مجدي) في دهشة، وهتف في حدة عصبية:

- ماذا تعني؟ كيف تعترض على جزء يخص عملي؟

اجابه الطبيب في قوة:

- بل أنت الذي يعتدي على عملي.. إننا نجري عملية نقل دم الآن، واي تدخل منك قد يفسد الأمر، والقانون يمنحني حق

منعك من استجواب أي بتهم، في مثل هذه الظروف..

عقد (مجدي) حاجبيه في شدة، وبدا من احتقان وجهه، وانفراجة شفتيه، أنه سينفجر بغتة في وجه الطبيب، إلا أنه لم يلبث أن تراجع، واستند إلى الحائط، وعقد ساعديه امام صدره، وهو يقول في عصبية:

- فليكن.. سنحافظ على قانونية الأمر تماما هذه المرة، حتى لا تفسد العملية.. سأنتظر، ولن أبارح هذه الحجرة لحظة واحدة، حتى تنتهي عملية نقل الدم..

وفرد اصابع كفه أمام وجهه في حركة حادة عنيفة وهو يضيف:

- وعندئذ ينتهي امرك أيها العقرب..

وأطبق اصابعه في قوة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدت العصبية واضحة في أصابع (صالح عثمان)، وهو يشعل سيجاره الكوبي، وينفث دخانه بعيدا، ثم يلتفت إلى (جون دارك)، قائلا:

- خطة شيطانية بالفعل يا مستر (دارك)، ولكنني ما زلت أشعر بالتوتر بشأنها..

هز (دارك) كتفيه، وقال:

- ألأنك مصري؟

صمت (صالح) طويلا، وبدت نظراته شاردة، قبل أن يقول:

- لست أدري.. إن ما يقلقني بالفعل هو أن هذه اول عملية من عملياتي تتعرض للأمن القومي على نحو صريح، ولن يرحمني أحد في حال كشف أمرها، فهي تندرج تحت صفة (الخيانة العظمى) ...

ابتسم (دارك في سخرية، وهو يقول:

- إذن فأنت لم تعتبر المخدرات إضرارا بأمن دولتك القومي ابدا.. اليس كذلك؟

عقد (صالح) حاجبيه في غضب، وقال:

- الأمران يختلفان..

أطلق (دارك) ضحكة ساخرة، وقال:

- هكذا!

ثم أضاف في سرعة، وقبل أن تنشأ في نفس (صالح) اية انفعالات جديدة:

- ولكن مليارين من الدولارات يكفيان لإخماد صوت الضمير هذا بالطبع.

مط (صالح) شفتيه، وتمتم:

- إلى حد ما..

ثم أضاف في عصبية:

- ولكن هذا لا يمنع شعوري بالتوتر..

والتفت بغتة إلى (عزت)، قائلا في حدة:

- اسمع لقد كان مستر دارك) على حق.. من الضروري أن ننهي عملية المحامي الشاب هذه على وجه السرعة، فلن أحتمل

القتال على جبهتين، في الوقت الحالي..

قال (عزت) في حنق:

- ولماذا لا نقتله؟

أجابه (دارك) في حزم:

- لأننا لا نعلم ما الذي يختفي خلفه، ولا من يسانده..

شحب وجه (عزت)، وهو يتمتم:

- يسانده؟!

أجابه (دارك) في لهجة قاسية:

- بالطبع.. أتتصور أن شابا وحيدا، يمكنه أن يجرؤ على إتيان تلك الأفعال، في بلد يمر بمرحلة طوارئ امنية مثل (مصر)، دون أن تكون هناك قوة تسانده؟

تمتم (صالح) في خفوت:

- إنني لم ادرس هذا الاحتمال قط..

التفت إليه (دارك)، وقال في حزم:

- اسمع يا مستر (صالح).. أنت على حق في أننا ينبغي أن نتفادى المعارك الجانبية في الوقت الحالي، لذا فمن الضروري أن نتفاوض مع هذا المحامي الشاب، وأن نزيحه عن طريقنا في سرعة.

قال (صالح) في حسم:

- صدقت.

ثم قال لـ (عزت):

- اسمع يا (عزت).. مُر الرجال بإحضار ذلك المحامي إلى مكتبي غدا، مهما كانت الظروف..

وأضاف في حزم:

- ومرهم بإحضاره سليما معافى..

وشرد بصره مرة أخرى، وهو يضيف:

- أريد أن أتفرغ للعبة الكبرى..

وبرقت عيناه في شبق، مع استطرادته:

- لعبة الحرب والمال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

23- الاستدعاء..

لم تكد عملية نقل الدم تنتهي، حتى اعتدل (مجدي) في وقفته، وحلَّ ساعديه من أمام صدره، وقال في لهفة وظفر:

- من يمنعك مني الآن؟

عقد الطبيب حاجبيه في ضيق، وهو يقول:

- أنا.. فمن المحتم أن يحصل ذلك الفتى على قدرٍ من الراحة، قبل أن تبدأ في استجوابه وتفتيشه، خاصة وقد فقد لترا من دمه منذ لحظات..

مط (مجدي) شفتيه، وهو يقول:

- وماذا في هذا؟ لقد كان دمه ثقيلا..

قال (نديم) في برود:

- دعاية سمجة..

بدا الغضب على وجه (مجدي)، وهتف، وهو يندفع نحو (نديم):

لدى ما هو أكثر سخافة منها..

هتف الطبيب في غضب:

- قلت لك إنه لم يستعد بعد للاستجواب أو التفتيش.

صاح (مجدي):

- فليذهب قولك هذا إلى الجحيم، ما إن انتزع القناع والقفازين من جيبه، حتى ينسي الجميع كل التجاوزات.

ارتفع صوت (غادة) بفتة، وهي تقول:

- فيما عداي..

التفت إليها الجميع في دهشة، ومنحها (نديم) واحدة من ابتساماته النادرة، وهو يقول في حنان اثار نشوتها:

- حمدا لله على نجاتك يا عزيزتي.. هل استعدت وعيك؟

تمنت لحظتها لو انه يضمها إلى صدره، و.

نفضت الفكرة من رأسها قبل أن تكتمل، وقالت:

- لقد استعدت وعيي منذ دقائق، واقتضى منى الأمر هذه الدقائق حتى استوعبت الموقف..

قال (مجدي) في حدة:

- هذا لا يمنع من تفتيش المشتبه فيه..

ابتسمت (غادة) في وهن، وهي تقول:

- لا يوجد مشتبه فيه.. إنه حادث عرضي..

هتف (مجدي) مستنكرا:

- حادث عرضي؟! أي هراء هذا؟

اجابته في حزم:

- إنني أملك مسدسا مرخصا كيا تعلم، ولقد كنت اعمل على تنظيفه، عندما انطلقت منه رصاصة، أصابت ذراعي..

ران الصمت تماما على المكان، بعد أن نطقت عبارتها، ثم لم يلبث (مجدي) أن قطعه في حدة:

- فلنؤجل ذلك حتى يتم تفتيش الـ..

قاطعه (نديم) في صرامة:

حذار أن تمتد اصابعك إلى ملابسي.. لقد أعلنت (غادة) أمام الطبيب أن إصابتها مجرد حادث عرضي، وهذا ينفي احقيتك في تفتيشي دون إذن من النيابة، ويمكنني مقاضاتك لو فعلت، بالإضافة إلى أن كل ما ستجده مع التفتيش لن يعد دليلا؛ لأن العثور عليه لم يتم على نحو قانوني..

أضاف الطبيب في حسم:

- وانا شاهد على هذا.

احتقن وجه (مجدي)، وهو بدير عينيه المحمرتين في وجوه الجميع، ثم لم يلبث أن قال في حدة:

- هناك مرة قادمة هناك فرصة أخرى حتما.

واتجه نحو باب الحجرة في حنق، ومرخ تبل أن يغادرها:

- ولكنني أراهن بعمري أن القناع والقفازين معك

أجاب (نديم) في برود:

- ربما..

أغلق (مجدي) الباب خلفه في غضب، فهز الطبيب رأسه في أسف، وقال:

- يا له من رجل!

والتفت إلى (غادة)، وهو يبتسم قائلا:

- لقد نجوت بأعجوبة في الواقع يا آنستي، والفضل يعود إلى هذا الشاب وإلى دمه، الذي يجري الآن في عروقك..

ابتسمت في حنان، وهي تنظر إلى (نديم)، قائلة:

- هذا ما أنتظره منه دوما.

تطلع إليهما الطبيب في حنان، ثم لم يلبث أن تنحنح في حرج، وقال:

- سأذهب لأتم اعمالي..

غادر الغرفة في خطوات سريعة، وما إن أغلق الباب خلفه، حتى التفتت (غادة) إلى (نديم)، وقالت في حنان:

- أنت أنقذت حياتي

أجابها في هدوء:

- وأنت أنقذت حياتي فيما مضى.. أتذكرين؟

ضحكت وهي تقول:

- إذن فأنت ترد الجميل فحسب..

هز راسه نفيا، وقال:

- ليس فقط..

وقبل أن تسأله عما يعنيه، اعتدل جالسا على طرف المنضدة الطبية، وقال في جدية:

- لقد تأكدت الليلة من أن (صالح عثمان) يلعب لعبة كبيرة.

سألته في ضيق، ولده تغييره للحديث:

- لماذا؟

أجابها في اهتمام:

- لقد هاجمني في فيلته الخاصة أجنبي يدعى (دارك).. (چون دارك)، وكان من الواضح أن (صالح) لم يلتق به أبدا من قبل، وعلى الرغم من ذلك فقد كان ينتظره، ثم إن (دارك) هذا كان يحمل مسدسا، ويقاتل كما يفعل شخص اعتاد القتال، وكل هذا لا يتفق مع صفات رجال الأعمال..

جذب الأمر انتباهها في شدة، وأثار فضولها كثيرا، فسألته بكل ما أثاره الانفعال في صوتها:

- ما الذي تفكر فيه بالضبط؟

أجابها في اهتمام شديد:

- يبدو لي أن (صالح عثمان) هذا متورط في لعبة جاسوسية..

هتفت في مزيج من الدهشة والاستنكار:

- لعبة جاسوسية؟! ولكن كيف؟ ولماذا إنه رجل ثري وشهير، و.!!

قاطعها:

- ربما يبحث عن مزيد من الثراء.. او القوة، المهم انه يلعب لعبة تضر حتما بمصلحة (مصر)..

وتنهد في قوة، قبل أن يضيف في حزم:

- من الضروري أن تستعيد جهاز التسجيل الصغير، فبدونه ستبدو لنا العملية كلها مبهمة.

لم يكد يتم عبارته، حتى انفتح باب الحجرة بفتة، ودلف منه رجلان ضخما الحجم، تبدو الشراسة وكأنها محفورة في ملامحهما، فهب (نديم) متحفزا للقتال، على الرغم مها فقده من دمه منذ قليل، ولكن أحد الرجلين أشار إليه قائلا:

- مهلا. لسنا هنا لنتقاتل.. إننا ننقل إليك رسالة من السيد (صالح) فحسب.

كان هذا أفضل، بالنسبة لـ (نديم)، في الوقت الحالي

لذا فقد استرخت عضلاته، وهو يعاود الجلوس على طرف المنضدة الطبية، ويقول في هدوء:

- وماذا يريد (صالح عثمان) مني؟

أجابه الرجل:

- يريد أن بلقاك في مكتبه، في العاشرة من صباح الغد

ران الصمت لحظات، وإن بدت ملامح (نديم) جامدة، كما لو أنه تمثال من الصلب، على عكس ملامح (غادة)، التي حملت الكثير من القلق والترقب، إلى أن أجاب (نديم) بذلك الهدوء الخرافي، الذي يتسم به:

- فليكن.. سأذهب إلى مكتبه في الموعد تماما.

لم تكد تنتهي عبارته، حتى تحرك الرجلان، كما لو أنهما مجرد رسالة مسجلة، وغادرا المكان دون كلمة إضافية، ومضت لحظة اخرى من الصمت، قبل أن تهتف (غادة):

- هل جننت.. إنه كمين ولا شك..

هز راسه نفيا في هديه، وقال:

- لست أظن هذا، (صالح عثمان) أذكى من أن يقتلني في مكتبه.. الأرجح انه يتخذ سياسة جديدة.

هتفت:

- أية سياسة؟

أجاب في بساطة:

- ربما قرر أن يلجا إلى التفاوض لإزاحتي عن طريقه دون مشاكل، وهذا يؤكد نظريتي، في كونه متورطا في أمر أضخم من عملية قتل مدير مكتبه..

صمت لحظة، ثم أضاف:

- إنها أيضا فرصة مثالية للذهاب إلى مكتبه، ومحاولة استعادة جهاز التسجيل الصغير، دون أن يتورط المرء في معركة

بالرصاصات..

قالت في حسم:

- لنذهب معا إذن..

اجابها في هدوء، يحمل نبرة آمرة قوية:

- لقد قرر الطبيبة ضرورة بقائك هنا تحت الملاحظة، الأربع وعشرين ساعة قادمة، وهذا يحتم أن أذهب وحدي..

فتحت فمها؛ لتعترض، إلا أنها لم تلبث أن أطبقت عليه شفتيها، وقد تذكرت أن (نديم) ليس من ذلك النوع الذي يتراجع عن قرار اتخذه، وتنهدت متمتمة:

- كن على حذر..

ربَّت على كتفها في رفق، وهو يقول:

- سأحاول..

وعندما غادرها، انتفض قلبها في قلق، وقد بدا لها أن (نديم) يسير إلى هدف مخيف..

إلى حتفه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

24—المواجهة..

هب (جابر جبريل)، أكبر وأشهر تاجر خردة في (مصر)، واقفا، وتحول وجهه كله إلى ابتسامة واسعة عريضة يعلوها شاربه الكث، وهو يفتح ذراعيه عن آخرهما، هاتفًا:

- يا صديقي (ماهر).. كم مضى منذ آخر لقاء لنا؟

تعانقا في حرارة تحمل رائحة نفاق فجَّة، وجلسا إلى جوار بعضهما البعض، كما لو أنهما صديقان حميمان، وقال (ماهر):

- كيف حال تجارتك مع مخلفات الجيش؟

لوح (جابر) بذراعه، وهو يقول في اسف مصطنع:

- لم تعد مريحة كثيرا هذه الأيام.. إننا نبتاع منهم اسلحة تالفة، لم تعد تصلح للعمل، وندفع فيها أثمانا خرافية، ثم تبيعها بعدئذ كقطع من الحديد..

أكمل (ماهر) ساخرا:

- مقابل ملايين الجنيات

رمقه (جابر) بنظرة جانبية، قبل أن يتنهد قائلا:

- الضرائب والمصروفات تمتص كل الربح تقريبا..

الزائر الغامض
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

كان مظهرهما يدعو للضحك، وهنا يجلسان إلى جوار بعضهما البعض، بذلك التناقض الرهيب بين (ماهر) بنحوله وطوله الفارع، و (جابر) بقامته القصيرة، وجسده المكتنز ذي الكرش البارزة، ولكن الناظر إليهما كان يتبين على الفور ان (ماهر) هو الأكثر خبثا ودهاء وهو يسأل (جابر):

- وهل من الضروري أن تتحول تلك الأسلحة القديمة إلى قطع من الحديد؟

رمقه (جابر) بتلك النظرة الجانبية مرة أخرى، ثم سأله:

- ماذا تقصد؟

مال (ماهر) نحوه، وقال في حزم:

- أقصد أنني أحتاج إلى قطعة سليمة..

سأله (جابر) في هدوء:

- وما نوع تلك القطعة؟

أجاب (ماهر) على الفور:

- دبابه.

عقد (جابر) حاجبيه في شدة، وهو يتمتم في خفوت:

- لماذا؟

أجاب (ماهر) في حزم:

- لا شأن لك هذا.. فقط أحضر لي دبابة صالحة للسير..

تطلع إليه (جابر) طويلا، في حيرة واهتمام، ثم مال نحوه بدوره، يسأله:

- هل تعلم كم يتكلف هذا؟

ظل (ماهر) صامتا، يتطلع إليه في برود، فأضاف:

- لكي تحصل على دبابة سليمة، من أطنان الخردة، التي يبيعنا إياها الجيش، ينبغي أن تستعين بكل جزء سليم، في عشر دبابات على الأقل، وهذا يعني...

قاطعه (ماهر) في برود:

- كم تطلب؟

تراجع (جابر) معتدلا، وقال:

- ربع مليون.

عقد ماهر حاجبيه، وقال في حدة:

- أنت مجنون!!

ابتسم (جابر) في خبث، وقال:

- المجنون هو من يسعى لشراء دبابة، لا من يبيعها..

تبادلا نظرة باردة قاسية، ثم قال (ماهر):

- سأدفع مائة وخمسين ألفا..

هز (جابر) كتفيه المكتظتين بالشحم، وهو يقول:

- لن أقبل أقل من مائتي ألف، و.

قاطعه (ماهر) في حزم:

- اتفقنا..

ثم دفع إليه حقيبة مكتظة بأوراق النقد، مستطردًا:

- ها هو ذا العربون.. متى أتسلم البضاعة؟

فتح (جابر) الحقيبة، وسال لعابه على مرأى أوراق النقد المكدسة داخلها، وبرقت عيناه وهو يجيب:

- أسبوع.. أسبوع على الأكثر وتتسلمها صالحة للعمل..

ابتسم (ماهر) في ارتياح، وقال:

- هذا يعني أنه من الممكن أن نبدأ مبكرا.

وطاف بذهنه طيف وجه (صالح عثمان)، وصورة خريطة الحدود المصرية الإسرائيلية، وهو يضيف كالحالم:

- وان يقفز رصيدنا إلى مصاف الأرقام الستة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضاقت عينا (لوسي) الجميلتين، وهي تستمع إلى (صالح عثمان) في مكتبه، قبل أن تقول في غضب:

- نجت من الموت؟! يا لها من محظوظة!

شاركها (صالح) غضبها، وهو يقول:

- لقد أخبرني (عزت) أمس أنها قد لقيت مصرعها، ولكن الرجلين، اللذين نقلا رسالتي إلى زميلها، أخبراني أنها قد نجت من الموت بأعجوبة، وأنها سليمة معافاة.

اشعلت (لوسي) سيجارة بين شفتيها، ونفثت دخانها في ضيق واضح، وهي تسأله:

- واين هي الآن؟

اجاب ملوحا بكفه:

- في مركز الإسعاف ستبقى هناك تحت الملاحظة، حتى مساء اليوم..

برقت عيناها ببريق لم يخف عنه مغزاه، وهي تكرر:

- حتى المساء، هه!!

عقد حاجبيه، وهو يقول في صرامة:

- لا تقدمي على ما تفكرين فيه يا (لوسي)، لا اريد مزيدا من المشاكل..

أجابته في شراسة:

- لقد رأت تلك اللعينة وجهي، وكشفت سرى، الذي حافظت عليه طيلة عمري..

قال في حدة:

- انتِ المسئولة عن هذا الخطأ.

ابتسمت في سخرية، ونفثت دخان. سيجارتها عاليا، وهي تقول:

- هكذا!

ثم حملت حقيبتها الصغيرة، واتجهت إلى الباب في لهجة ظاهرها الاستهتار واللامبالاة:

- إلى اللقاء فيما بعد يا صغيري..

زمجر وهو يقول:

- (لوسي).. إنني أحذركِ..

أطلقت ضحكة عابثة، وأغلقت الباب خلفها، ثم انقلبت ملامحها على نحو مخيف، وهي تقول في شراسة:

- لا يا عزيزي (صالح)، لن يبقى على وجه الأرض مخلوق واحد، يكشف سر (لوسي).

وعربد شيطان الإثم داخلها حتى الأعماق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدا (نديم) بسيطا هادئا، وهو يغادر مكتبه، في التاسعة والنصف صباحا، في طريقه للقاء (صالح عثمان)، وبينما كان يستقل سيارته، ظهرت أمامه بغتة السيدة (نوال)، وهي تتطلع إليه في قلق وتساؤل، دفعاه إلى أن يسألها في هدوء:

- صباح الخير يا سيدة (نوال).. ما الذي يقلقك هكذا في الصباح؟

قالت في صوت يحمل انفعالها كله:

- ابني يا أستاذ (نديم).. هل نسيته؟

بدا لها صوت (نديم) واثقا حازما، وهو يقول:

- اطمئني سيدة (نوال).. سيحصل ابنك على البراءة..

لم تدر لماذا تسلل الارتياح إلى قلبها، مع صوته الهادئ الواثق، ونظراته القوية، على الرغم من ذلك الجمود التقليدي، الذي يشمل ملامحه كلها، فاكتفت بأن تمتمت:

- حقا؟!

أدار محرك سيارته، وهو يقول:

- حقا يا سيدتي.. حقا..

وانطلق بالسيارة إلى موعده..

وفي العاشرة تماما، كان المصعد يتوقف به في الطابق الثلاثين، حيث مكتب (صالح) الخاص.. واستقبله (مندور) رئيس الحراس بنظرة قاسية، جاوبها (نديم) بعبارة باردة يقول فيها:

- لدى موعد مع السيد (صالح)..

أجابه (مندور) في غلظة:

- اعلم ذلك.

ثم أضاف وهو يوجه فوهة مسدسه إليه:

- ارفع ذراعيك..

رفع (نديم) ذراعيه إلى أعلى في هدوء، فراح (مندور) يفتشه في دقة واهتمام، قبل أن ينهض، ويقول في لهجة تحمل نبرة ضيق:

- إنك لا تحمل أسلحة.

قال (نديم) في هدوء:

- هل أصابك هذا بخيبة أمل؟

حدجه (مندور) بنظرة قاسية، قبل أن يقول في حدة:

- تقدم أمامي..

أزاحه (نديم) جانبا، وهو يقول:

- إنني أعرف طريقي..

اتجه في هدوء إلى حجرة مكتب (صالح)، وأسرع (مندور) يفتح الباب أمامه، فاستقبله الثلاثة.. (صالح) و (عزت) و (دارك)..

(صالح) بدا شديد العصبية، ينفث دخان سيجاره في توتر..

و (عزت) كان غاضبا محنتا، ألقي نظرة ساخطة على (نديم). ثم أشاح بوجهه في حدة..

اما (دارك) فقد بدا هادئا، ولقد ابتسم وهو يستقبل (نديم)، قائلا بعربية ركيكة:

- مستر (نديم).. مرحبا بك هنا..

وقال (صالح) في عصبية:

- اجلس يا سيد (نديم)

جلس (نديم) على أقرب مقعد لمكتب (صالح)، وهو يقول في بساطة:

- هل سينفجر المقعد، أم تنطلق من المكتب رصاصة إلى صدري؟

قال (صالح) في توتر:

- لا هذا ولا ذاك أنت اخترت مقعدك.. ثم مال إلى الأمام، وسأل (نديم) في حدة، وكأنه يرفض إضاعة لحظة واحدة:

- كم تطلب يا سيد (نديم)؟

لم يجب (نديم) بحرف واحد، فتابع (صالح):

- كم تقاضيت في قضية المهندس (أحمد) هذه؟

قال (نديم) في هدوء شديد:

- كم تتصور؟

لوح (صالح) بكفه، وقال:

- لا يهمني ذلك، فلن يبلغ أبدا ما سأعرضه عليك، ومال نحوه أكثر وهو يقول في توتر:

- ما رأيك في مليون جنيه؟

قال (نديم) في برود:

- مليون دفعة واحدة؟!

قال (صالح) بنفاذ صبر:

- مليونان.. ثلاثة.. قل لي كم تطلب؟

أجابه (نديم) في حزم:

- أطلب براءة المهندس (أحمد).

تراجع (صالح في مقعده بحركة حادة، في حين تدخل (دارك)، قائلا:

- فليكن يا سيد (نديم) أهذا كل ما تطلبه لتبتعد عن طريق السيد (صالح)؟

ران صمت تام على الحجرة لمدة نصف دقيقة، قبل أن يقول (نديم) في حزم:

- نعم.

اجابة (دارك) في حزم:

- ستحصل على براءة المهندس إذن.

سأله (نديم):

- متى؟

أجاب (دارك) في ثقة:

- اليوم.

اعتدل (نديم) وهو يسأله:

- كيف يا سيد (دارك).. لقد شهد أربعة رجال انهم قد رأوا (أحمد) يرتكب الجريمة..

قال (صالح) بعصبيته المفرطة:

- لقد سافر هؤلاء الشهود الأربعة إلى (أوربا) هذا الصباح، وسيختفي أثرهم هناك تماما، ولقد وصل خطاب إلى النائب العام هذا الصباح، يتهم الأربعة بشهادة الزور، ويعلن اسم القاتل الحقيقي..

بدا الاهتمام على وجه (نديم)، وهو يسأل:

- ومن القاتل الحقيقي؟

نفث (صالح) دخان سيجاره في حدة، وهو يقول:

- إنه أحد رجالي، ويدعى (طومان).

استرخي (نديم) في مقعده لحفلة، وقال:

- وما الذي يدعوك إلى التضحية بأحد رجالك؟

قال (عزت) في سخط:

- هذا شأننا..

تطلع (نديم) إليهم لحظة في صمت، ثم قال:

- هذا أيضا لا يكفي لتبرئة موكلي..

قال (دارك) في برود:

- سيدلي (طومان) باعتراف تفصيلي، وسيدعي أنه قد قتل مدير المكتب السابق في ثورة غضب، وانه خشي أن يعترف في البداية، وأنت تعلم انه سيدان - في هذه الحالة بتهمة ضرب أدى إلى موت، وهذا يعتبر أقل كثيرا من القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد، ومع وساطة (صالح) بك، وتخفيف الحكم لاعتراف المتهم، لن تزيد العقوبة على خمس او عشر سنوات، مع احتمال الإفراج عنه مبكرا، لحسن السير والسلوك، و.

قاطعه (نديم):

- من أين لك بكل هذه المعلومات القانونية يا مستر (دارك)؟

ابتسم (دارك)، وهو يقول:

- من المستشار القانوني للشركة يا مستر (نديم).

قال (نديم):

- ولا ريب أن (طومان) هذا قد حصل على مليون أو مليونين مقابل هذه السنوات الخمس.

قال (عزت) في حنق:

- بل خمسة ملايين..

رفع (نديم) حاجبيه في دهشة، ثم لم تلبث ملامحه أن استعادت برودها التقليدي، وهو يشبك أصابع كفيه أمام وجهه، وبدا وكأنه يركز بصره وانتباهه على نقطة محدودة، في مكتب (صالح)، قبل أن يقول في هدوء:

- في هذه الحالة نتفق..

ولكنه هب واقفا بغتة، واستند بكفيه إلى سطح مكتب (صالح)، الذي تراجع في حركة حادة، وذعر حقيقي، قبل أن يقول (نديم) في صرامة:

- ولكن لو خالفتم هذا الاتفاق..

شحب وجه (صالح)، وهو يهتف مقاطعا:

- لن نخالفه.

ظل (نديم) مستندا إلى حافة المكتب لحظات، ثم تراجع في هدوء، ودس كفيه في جيبي سرواله، وهو يقول:

- اتفقنا إذن..

ثم اتجه إلى الباب، قائلا:

- إلى اللقاء..

استوقفه (دارك)، وهو يقول في حزم:

- هذا ينهي الصراع يا سيد (نديم).. اليس كذلك؟

التفت إليه (نديم)، وحدجه بنظرة باردة، ثم أكمل طريقه، وغادر المكتب في هدوء، وأغلق بابه خلفه، فلوح (عزت) بذراعه، وصاح محنقا:

- كان الأفضل أن نقتله.

أجابه (صالح) في صرامة:

- اخرس.

ثم أضاف وهو ينهض من مقعده، وينفث دخان سيجارته في زجاج النافذة في عنف:

- لقد انتهت اللعبة بأسلوبنا، ولكنه لم يكن مصيبا..

لقد بدأت اللعبة..

وبدأت الجولة الأخيرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

25- وبدأت النهاية...

ابتسم طبيب مركز الإسعاف، وهو يتطلع إلى وجه (لوسي) الفاتن، قائلا في انبهار: نعم يا سيدتي الآنسة (غادة) هنا.. إنها نائمة الآن، فقد اعطيناها عقارا مهدئا..

ابتسمت (لوسي) ابتسامة جذابة، وهي تقول:

- الا يمكنني رؤيتها إذن؟

هتف الطبيب:

- بالطبع يا سيدتي.. بالطبع..

أسرع يقودها إلى حجرة (غادة)، التي استغرقت في نوم عميق، ثم اعتذر، بانشغاله في العمل، وانصرف تاركا الذئب وحده في بيت الحمل..

وابتسمت (لوسي) ابتسامة ظافرة، وهي تقول:

- أخيرًا أيتها المحظوظة..

وفتحت حقيبتها الصغيرة، والتقطت منها محقنا يحوي مادة بها، وهي تستطرد:

- هكذا ستنتقلين إلى العالم الآخر في هدوء، ودون حتى أن تستيقظي..

كشفت ذراع (غادة) في هدوء، وادنت منه إبرة المحقن، وهي تتمتم:

- الوداع يا فقيدة المحاماة.

وفجأة أحاطت قبضة فولاذية بمعصمها، مع صوت (نديم)، يقول في صرامة:

- لم يحن وقت وداعها بعد..

التفتت إليه (لوسي) في حركة حادة، وهتفت:

- ابتعد.

ولكن (نديم) لوي ذراعها خلف ظهرها في حركة سريعة عنيفة، جعلها تتأوه في قوة، وتهتف:

- أيها الوغد..

دفعها أمامه في عنف، وهو يقول في صرامة:

- اسمعي يا سيدة المجتمع القاتلة.. إنني أحذرك من الاقتراب من زميلتي مرة أخرى، وإلا فسأجعلك تندمين على اللحظة التي سمعت فيها اسمها..

قالت في ثورة:

- لن يمكنك أن تقتلني.. إنني سيدة مجتمع..

أجابها في برود:

- سأضيف إلى ذلك كلمة (سابقة)، إذا ما التقينا مرة أخرى، في ظروف مماثلة..

وفتح باب الحجرة، ودفعها خارجا في عنف، فصرخت:

- أيها الحقير.. ما من رجل يفعل هذا بـ (لوسي).

وفجأة.. وامام كل العاملين في قسم الطوارئ تقريبا، انتزعت (لوسي) مسدسا صغيرا من حقيبتها، في ثورة غضبها، وصرخت:

- ما من رجل يجرؤ..

وأطلقت النار نحو (نديم)....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن هناك مجال لصراع غير متكافئ، في هذه اللحظة بالذات..

إن (لوسي) قاتلة محترفة و (نديم) يعلم أنها كذلك..

وكانت تحمل سلاحا وهو أعزل..

وعندما أطلقت (لوسي) النار، لم يكن أمام (نديم) إلا أن يقفز داخل حجرة (غادة)، ويغلق الباب، الذي اخترقته رصاصة (لوسي)، وعبرت على قيد سنتيمترين من أذن (نديم)..

وفتحت (غادة) عينيها، وتبخر أثر العقار المهدئ من رأسها، مع دوي الرصاصة، وهتفت:

- ماذا حدث؟

أجابها (نديم)، وهو يغلق الباب في إحكام:

- إنها (لوسي)..

هتفت في دهشة:

- (لوسي)!!

وفي نفس اللحظة اخترقت الباب رصاصة أخرى، مع صرخة (لوسي) من الخارج:

- لن تنجو مني....

هتفت (غادة)، وهي تنهض في توتر:

- لقد أصيبت بالجنون حتما، حتى تطلق النار علنا هكذا الجنون!!

قفزت الفكرة إلى راس (لوسي) في نفس اللحظة، حينما تلاشت ثورتها وعصبيتها بغتة، مع دوي الرصاصة الثانية..

واتسعت عيناها في ذعر، وهي تتطلع إلى مسدسها الصغير، ثم تنقل بصرها في ارتياع إلى طاقم التمريض والأطباء والعاملين في المركز الإسعافي، الذين راحوا يحدقون فيها في فزع وذهول، حين اقترب منها طبيب المركز في حذر، ومد يده إليها، قائلا:

- رويدك يا سيدتي رويدك أعطيني هذا المسدس، وسننسى جميعا ما حدث.

تواترت الأفكار في راسها في سرعة مخيفة، إنها تحمل مسدسا غير مرخص، ولقد أطلقت النار على محامٍ.. إنها جريمة حمل سلاح بدون ترخيص.. وشروع في قتل..

أضف إلى هذا أن فحص الطب الشرعي سيثبت أن رصاصات هذا المسدس بالذات قد أودت بحياة البعض، ممن قيدت حوادث مصرعهم ضد مجهول..

حتى فرارها لن يفيد.. إنها شخصية شبه عامة.. واحدة من سيدات المجتمع الشهيرات..

لقد انفضح السر، الذي حافظت عليه طيلة عمرها.. لقد انكشف امرها..

وارتفع صوت الطبيب مرة أخرى:

- المسدس يا سيدتي....

وعندما أدارت عينيها إليه، وقع بصرها على رجلي شرطة يتدفعان إلى المكان، وقد جذبهما دوى الرصاصتين.. لقد انتهى كل شيء.

إنهم سيلقونها في السجن..

وراء القضبان..

وسط مجتمع الأفاقين واللصوص والمحتالين..

وسيذوى جمالها... ويموت.

أرعبتها الفكرة، فصرخت في هياج:

- ابتعد

تراجع الطبيب في خوف، عندما رفعت فوهة مسدسها إليه، وصرخ أحد رجلي الشرطة، وهو ينتزع مسدسه من غمده:

- القى مسدسك يا سيدتي..

صرخت:

- لا.. لن ينتهي أمري على هذا النحو..

تصور الجميع لحظة انها ستطلق النار على الطبيب، أو على رجل الشرطة، إلا أن يدها استدارت بغتة، والتصق مسدسها بصدغها، وصرخ الطبيب:

- لا يا سيدة (لوسي).. لا..

ولكن صرخته امتزجت بدوي الرصاصة، وفرقعة جمجمة تنفجر..

.. وسقطت (لوسي) وسط بركة من الدماء..

وتلاشى جمالها، تاركا خلفه جمجمة مشوهة، وهتفت (غادة) في ارتياع، وهي تراقب المشهد من ثقب الباب:

- يا البشاعة!! لقد قتلت نفسها..

أجابها (نديم) في هدوء، وهو يفتح الباب:

- نهاية طبيعية بالنسبة لأمثالها..

تراجعت تخفي عينيها في اشمئزاز، وهي تقول:

- مشهد بشع.

قال في حسم:

- سنبتعد عنه.. هيا.. أبدلي ثيابك.. فسنرحل من هنا..

- إلى أين؟

أجاب في هدوء:

- إلى المكتب، فلدينا ما نستمع إليه.

سألته في لهفة، وقد أنساها الأمر مصرع (لوسي)، وذلك الهرج الذي يملأ المكان:

- هل استعدت التسجيل؟

أومأ برأسه ايجابا، وقال:

- لقد استندت إلى حافة مكتب (صالح)، وانتزعت التسجيل بأطراف أصابعي، من أسفل الحانة، حيث أخفيته في المرة

السابقة، ثم وضعته في جيبي، امام عيون الجميع..

هتفت في جذل:

- أنت رائع.. انت ...

قاطعها صوت طبيب المركز يتنحنح، ويقول:

- معذرة، ولكن أظن أن رجال الشرطة سيطلبون رؤيتك، فلقد كانت المنتحرة تطلق النار عليك، قبل أن..

قاطعه (نديم) في هدوء، وهو يناوله بطاقة أنيقة، طبع عليها اسمه:

- سيهرع العقيد (مجدي) إلى هنا حتما، وسيدرك كل شيء، عندما تعطيه بطاقتي..

والتمعت في عينيه ابتسامة، وهو يضيف:

- لقد اعتادوا ذلك..

وقبل أن يستوعب الطبيب الأمر، كان (نديم) و (غادة) قد انصرفا.

وكانت المعركة الفاصلة قد بدأت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

26- زيارة ليلية..

امتقع وجه (غادة) في شدة، بعد أن انتهت من سماع ما سجله الجهاز الصغير، من حديث (صالح) و (سوريال) وحديث (صالح) و (ماهر)، والتفتت إلى (نديم)، الذي بدا صامتا، وإن لم تخل ملامحه من غضب مكتوم صارم، وهتفت في ذعر:

- حرب مصرية إسرائيلية؟! الأمر أخطر مما كنا نظن بكثير يا (نديم).

قال في صرامة:

- بل هو أخطر أمر في الدنيا يا (غادة).. هذا التسجيل يقول إن (صالح عثمان) تاجر اسلحة بالغ الخطورة، وانه يتعامل في هذا الشأن مع منظمة عالمية، دفعته إلى التخلي عن مصريته ووطنيته.. بل عن آدميته وبشريته، إلى الدرجة التي تسمح له بإشعال نيران حرب ضروس، قد تلتهم نصف شباب هذا الجيل، لمجرد الربح المادي ضربت (غادة) كفا بكف، وهي تقول:

- من يتصور أن كل هذا قد بدأ بمحاولة تبرئة مهندس شاب من جناية قتل؟!

أجابها وهو ينهض في حسم

- لقد تبدلت الأمور يا (غادة)، أظننا نحتاج إلى تحرك حاسم وسريع و ...

قاطعه صوت العقيد (مجدي)، وهو يقول في حدة:

- وارتداء زي (العقرب).. أليس كذلك؟

التفت إليه (نديم) و (غادة)، وقال الأول في برود:

- لماذا لم تقرع الباب قبل دخولك يا (مجدي)؟

صاح (مجدي) في حنق:

- كيف تجد القدرة على مثل هذا القول، بعد ما فعلته في مركز الإسعاف؟

قال (نديم) في هدوء:

- وما الذي فعلته؟

أجابه (مجدي) في حدة:

- لقد تركت خلفك جثة سيدة من أكثر سيدات المجتمع شهرة.

عقد (نديم) ساعديه أمام صدره، وقال:

- لقد اصيبت سيدة المجتمع الشهيرة هذه بحالة من الجنون المفاجئ، جعلتها تطلق الرصاص على، أمام أعين كل العاملين في مركز الإسعاف، من أطباء وممرضات وعمال، وحتى مرضى، وعندما هرع رجال الأمن إلى المكان، أطلقت سيدة المجتمع الشهيرة النار على راسها، وانتحرت أمام أعين الجميع، في حين كنت أنا داخل حجرة مغلقة، والقانون يعتبرني - في هذه الحالة المجني عليه، أو حتى مجرد شاهد عيان، والآن دعني أكرر السؤال.. ما الذي فعلته؟

احتقن وجه (مجدي)، وقال في حدة: - من الضروري أن تدلي بشهادتك..

أجابه في بساطة:

- سأفعل، عندما انتهى من أعمال مكتبي.

بدا الحنق والسخط على وجه (مجدي)، وهو يقول:

- وماذا عن الأعمال الأخرى؟

أجابه (نديم) في تحد:

- هل يمكنك إثبات اتهامي بها؟

صاح (مجدي):

- اقسم لك إنني سأفعل يوما.

واندفع خارج المكتب في عنف، فغمغمت (غادة):

- يبدو أنه يكرهك للغاية.

أجابها في اهتمام:

- دعينا من أمره الآن، فهناك عمل حاسم، ينبغي إتمامه الليلة:

- سأفعل.

ابتسمت ابتسامة جذلة، وهي تقول:

- عمل لمن؟ لـ (نديم فوزي)، أم لـ (العقرب)..

اطال النظر إلى عينيها، قبل أن يقول في حزم:

لمن يمكنه إتمام العمل على نحو جيد.. لـ (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استغرق النائب العام في نوم عميق، في حجرته الخاصة، التي تحتل مكانا متوسطا، بين حجرة نوم زوجته، وحجرة أولاده، وراحت ساعة الحائط الكبيرة في الردهة توزع دقاتها على

حجرات المنزل، معلنة تمام منتصف الليل، عندما شعر النائب العام بيد تهزه في رفق، ففتح عينيه في بطء، وفجأة هب جالسا، وراح يحدق في وجه صاحب اليد في ذهول ..

كان يجلس على طرف فراشه شاب مقنع، يتشح بالسواد، ويخفي كفيه بقفازين من اللون الأسود، قبض أحدهما على مسدس متوسط الحجم، اتجهت فوهته إلى النائب العام تماما، وهتف النائب العام:

- من أنت؟ وكيف دخلت إلى هنا؟

أجابه المقنع في هدوء:

- يمكنك أن تدعوني (العقرب) يا سيدي.

هتف النائب العام:

- أنت؟! أهو أنت ذلك المقنع، الذي منعت أنا نفسي نشر أية أخبار عنه؟ -

أجاب (العقرب) في بساطة:

- نعم.. أنا هو..

كرر النائب العام سؤاله:

- وكيف دخلت إلى هنا؟

أثار (نديم) إلى النافذة، قائلا:

- من هنا.. الجو شديد الحرارة، وأنت ترفض استخدام اجهزة تكييف الهواء، وتفضل ترك النافذة مفتوحة...

قاطعه في دهشة:

- وماذا عن طاقم الحراسة؟

أجابه في بساطة، وكأنما يتحدث عن أمر طبيعي:

- إنني لم ألتق بهم، لقد هبطت من السطح..

حدق النائب العام في وجهه بحيرة بالغة، قبل أن يقول:

- وماذا تريد؟ إنهم يؤكدون أنك لست لصا..

وضع (نديم) أمامه جهازا صوتيا صغيرا، وهو يقول:

- اريد منك أن تستمع إلى هذا التسجيل، وأدار الشريط.

وبذهول تام، راح النائب العام يستمع إلى حديثي (صالح عثمان) المسجلين، مع (سوريال) و (ماهر)، حتى انتهى التسجيل، فهتف النائب العام:

- مستحيل!! (صالح عثمان) تاجر أسلحة وخائن.. من يصدق هذا؟ مستحيل!!

خفض (العقرب) مسدسه، وهو يقول:

- الدليل بين يديك يا سيدي.. (صالح عثمان) لا يبالي بإشعال حرب مصرية إسرائيلية، تسيل فيها دماء شبابنا، بهدف مضاعفة

ثروته مرات ومرات..

انتفض النائب العام في غضب، وهو يقول:

- لابد من إلقاء القبض على هذا المجرم الآثم..

قال (العقرب) في هدوء:

- على الرغم من صداقته للوزراء والمسئولين؟

عقد النائب العام حاجبيه، وهو يقول في حزم:

- القانون لا يعترف بالصداقات والعواطف.. ولن يسمح السيد رئيس الجمهورية أبدا بتجاوز ما فعله (صالح عثمان)، حتى ولو كان صديقا شخصيا له، .....

بتر عبارته بغتة، وهز رأسه، قبل أن يضيف في سخط:

- ولكن هناك عقبة أخرى.

سأله (العقرب) في اهتمام:

- ما هي؟

اجابة النائب العام في ضيق:

- لابد من دليل قاطع.. التسجيل الذي أحضرته انت ليس دليلا قانونيا؛ لأنه لم يتم بإذن النيابة صحيح انه قد يكفي لبث الشبهات حول (صالح عثمان)، أو إضعاف موقفه وسط الوزراء والمسئولين، ولكنه لن يكفي ابدا لإدانته، والسيد رئيس الجمهورية يصر دائما على الالتزام بالقانون.

ران عليهما الصمت لحظات، قبل أن يقول (نديم):

- وماذا لو أحضرت دليلا؟

اجابه النائب العام في حزم:

- في هذه الحالة لن أتردد في استصدار أمر بإلقاء القبض على (صالح عثمان)، وسيحمل هذا الأمر توقيع السيد رئيس الجمهورية نفسه..

نهض (نديم) واقفًا، وهو يقول:

- سأحضر الدليل إذن..

سأله في اهتمام:

- كيف؟ ومتي؟

اجابة (نديم) في هدوء واثق:

- دع لي هذا الأمر يا سيدي..

وتعلق بحاجز النافذة، فهتف به النائب العام:

- لم لا تغادر المنزل من بابه.. إنني لا اتهمك بشيء.

اجابة (نديم) في بساطة:

- لم يحن الوقت بعد..

ابتسم النائب العام، وقال:

- ليكن سأترك لك تحديد الوقت المناسب، ولكن ينبغي أن تلتزم، ولو قليلا بالقانون المدني فمن الخطأ أن يبدأ لقاؤك معي بتصويب مسدسك إلى رأسي.

هز (نديم) كتفيه، وقال في هدوء:

- وماذا في ذلك؟

ثم ألقى مسدسه فوق فراش النائب العام، مستطردًا:

- أنه مجرد مسدس صوتي..

حدق النائب العام في وجهه لحظة في دهشة، ثم لم يلبث أن انفجر ضاحكا، وهو يربت على كتف (نديم) في حرارة، ويعيد إليه مسدسه:

- رائع يا ولدي!! رائع!!

تمتم (نديم):

- إلى اللقاء يا سيدي..

تركه النائب العام يتعلق بحبل مدلى من سطح البناية، ويستخدمه في الصعود، ثم هز راسه، متمتما في دهشة لم تفارقه بعد:

- (صالح عثمان)؟! من كان يتصور هذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما عاد (عزت) إلى منزله، كانت عقارب ساعته تشير إلى الثانية وعشر دقائق صباحا، ولم يكن حنقه قد غارقه بعد، منذ ذلك اللقاء مع (نديم) في الصباح، حتى أنه لم يكد يغلق الباب خلفه حتى ألقى سلسلة مفاتيحه فوق منضدة قربيه في سخط، وهو يقول:

- اللعنة! كل الأمور تسير على نحو سخيف..

ارتجف جسده ارتجافة قوية عنيفة، عندما انبعث من خلفه صوت صارم يقول:

- لأول مرة نتفق على أمر ما.

استدار (عزت) إلى مصدر الصوت في سرعة، واسرعت يده إلى مسدسه، المختفي في جيب سترته، ولكن ملامحه وعضلاته كلها تجمدت بغتة، عندما وقع بصره على (العقرب)، بقناعه الأسود ونظراته الثاقبة الصارمة..

وفي هدوء مثير مخيف، قال (نديم):

التقط مسدسك يا سيد (عزت) ما دمت ترغب في هذا، ولكن في بطء شديد، وباستخدام سبابتك وإبهامك فحسب، والق المسدس أسفل قدميك.

أطاعه (عزت) في ذعر بالغ، وهو يتطلع إلى فوهة مسدس (العقرب)، الذي أضافه بنفس الهدوء:

- رائع، والآن أجلس على ذلك المقعد.

جلس (عزت) وهو يرتجف ارتجافة واضحة، وقال في توتر:

- ماذا تريد مني.. ألم ينته الأمر كله.. لقد القت الشرطة القبض على (طومان)، الذي أدلى باعتراف تفصيلي كالمتفق عليه، وستصدر النيابة أمرها غدا بالإفراج عن المهندس (أحمد)..

قال (العقرب) في هدوء:

- لا شأن لي بقضية (أحمد) هذا.. إن أمرها يخص (نديم فوزي) المحامي.

حدق (عزت) في وجهه في ذهول، قبل أن يقول:

- ماذا تعني؟ ألست انت (نديم فوزي)؟

اجابه (العقرب):

- لو أنكم تتصورون هذا فأنتم على خطأ! إنني لست (نديم فوزي)، وكل منا يسعى لهدف يختلف عن الآخر، ولقد نال بغيته، أما أنا فلا.

سأله في عصبية:

- وماذا تريد انت؟

أجاب (العقرب) في مراية:

- (صالح عثمان).

عقد (عزت) حاجبيه في شدة، وهو يقول في توتر:

- ماذا تريد منه؟

أجابه:

- اريد تحطيمه.

حدق (عزت) في وجهه مرة اخرى في ذهول، وهو يقول:

- تحطيمه؟! تحطيم (صالح عثمان)!!

ثم لوح بذراعيه، مستطردًا في حدة:

- وما شأني انا بذلك؟

أجاب (نديم) في برود:

- أريد كل ما لديك من مستندات تدينه.

هتف (عزت) في دهشة:

- مستندات!

اجاب (نديم):

- نعم.. المستندات التي أمرك بنسخها على أسطوانة كمبيوتر، ثم تدميرها.. لقد قمت أنت بنسخها، ولكنك احتفظت بالمستندات والوثائق الأصلية.

كان ذهول (عزت) عارمًا هذه المرة، وهو يهتف:

- كيف علمت كل هذا؟

رفع (نديم) أمام عينيه جهاز التسجيل الصغير، وهو يقول:

- كنت قد زرعت هذا أسفل حافة مكتب (صالح)، ولقد نقل إلىَّ حديثكم كله عن المستندات..

قال في ذهول:

- وكيف علمت أنني احتفظت بالمستندات والوثائق، بدلا من تدميرها؟

أجابه بنفس البرود:

- لأن الذئاب والثعالب تحتفظ دوما بجحر احتياطي، وكان من الطبيعي أن تتحفظ بما يدين (صالح عثمان)، حتى يمكنك المساومة به وقت اللزوم.

عقد (عزت) حاجبيه في صرامة، وهو يقول:

- ومن قال إنني سأمنحك هذه الوثائق؟

أجابه (نديم) في هدوء:

- لن يكون أمامك سوى أن تفعل.

هتف (عزت) في حدة وعناد:

- اراهنك.

اتجه (نديم) في هدوء إلى الهاتف، ورفع سماعته، ووضعها جانبا، ثم ضغط ازراره في تتابع مألوف، جعل (عزت) يقول في توتر:

- إنه رقم (صالح) الخاص..

أجابه (نديم) في برود:

- أعلم هذا..

هتف في عصبية:

- ماذا تريد منه؟

قال (نديم) في صرامة:

- ستعلم بنفسك

انتظر لحظات، ثم قال:

- (صالح عثمان).. جميل أن وجدتك.. الا تعرف من أنا؟ إنني (العقرب).

انكمش (عزت) في متعده، وهو يتطلع في مزيج من الذعر والدهشة إلى (العقرب)، الذي تابع:

- لا.. لا شأن لي بقضية المهندس (أحمد).. إنني أتحدث إليك لأبلغك أنني قد علمت بأمر مشروع إشعال الحرب المصرية الإسرائيلية..

اتسعت عينا (عزت) في رعب، عندما أكمل (نديم):

- نعم.. (عزت) أخبرني بها.. لقد اعترف بكل شيء..

وأنهى الاتصال على الفور، ورفع عينيه إلى (عزت)، الذي بدا أشبه بصورة مجسمة للرعب، واستطرد في هدوء:

- ما رأيك.. من منا ربح الرهان؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

27- انهيار...

انكمش (عزت) في مقعده في شدة، حتى كاد يمتزج بنسيجه، وساد الرعب وجهه كله، من حاجبيه إلى ذقنه، وهو يقول في صوت شاحب مرتعد:

- ماذا فعلت أيها التعس؟

قال (نديم) في برود:

- من منا التعس.. إن (صالح عثمان) بعلم الآن أنك قد كشفت سره الكبير، وفضحت أمره، وهو رجل لا يغفر لمن يفعل به هذا، ولا ريب أنه سيقتلك بلا رحمة..

ترقرقت عينا (عزت) بدموع الرعب، وهو يهمس:

- ماذا فعلت بي؟

جلس (العقرب) على طرف مقعد قريب، وهو يتابع:

- ورجل مثل (صالح عثمان)، بكل نفوذه واتصالاته، لن يعدم وسيلة للقضاء عليك، وتحطيمك، وقتلك شر قتله..

سالت الدموع من عيني (عزت) بالفعل، و (نديم) يردف:

- إلا إذا.

اعتدل (عزت) بحركة حادة، وقال:

- إلا إذا ماذا؟

هز (نديم) كتفيه، وقال:

- إلا إذا فقد (صالح عثمان) نفوذه واتصالاته، وقوته.

عاد (عزت) ينكمش في مقعده، قائلا:

- كيف؟

لوح (العقرب) بمسدسه، قائلا في هدوء:

- بما لديك من وثائق ومستندات..

ازداد انكماش (عزت) في مقعده مرة أخرى، وبدا من ملامحه انه شديد الحيرة، وأنه يدرس الأمر في عمق، ولكن فجأة اعتدل (عزت)، وتألقت في عينيه نظرة عجيبة، وهو يقول في حزم:

- لن افعل.. لن تحصل على شيء.

وفي نفس اللحظة، برز (چون دارك) من باب جانبي، وهو يصوب مسدسه إلى (نديم)، قائلا:

- يبدو أن هناك تجاذبا قويا بيننا ايها (العقرب)..

وبسرعة لا يتصورها عقل، مال (نديم)، وقذف مسدسه الصوتي نحو (چون دارك)، قائلا في حزم:

- بالتأكيد..

ارتطم المسدس بوجه (دارك) في عنف، وألقى هذا الأخير سبابًا ساخطا، في نفس اللحظة التي قفز فيها (العقرب) نحوه، وقبض على معصم اليد الممسكة بالمسدس، ولواه في قسوة، اجبرت (دارك) على ترك مسدسه، وهو يتأوه في شدة، فهوى (العقرب) على فكه بقبضة كالفولاذ، وهو يقول:

- إنك تفسد الأمور دوما أيها الأجنبي.

وأعقب لكمته بأخرى كالقنبلة، حطمت أنف (دارك) تماما، و (العقرب) يضيف:

- وأنا أكره تدخل الأجانب في شئوننا..

قفز (عزت) من مقعده في محاولة لاستعادة مسدسه، وإطلاق النار على (العقرب)، ولكن هذا الأخير استدار يركل المسدس بعيدا، هاتفا:

- ليس الآن أيها المجرم.

ثم ارتفعت قبضته تركل وجه (عزت)، وهو يضيف:

ليس بعد أن بلغت هذه النقطة.

سقط (عزت) على ظهره أرضا، وأمسك ذقنه، وهو يتأوه في الم، في حين اتجه (العقرب) نحو مسدس (دارك)، وحمله في هدوء، وقال:

- والآن يا سيد (عزت)، ماذا عن الرهان؟

انهار (عزت) تماما، وقال:

- سأسلمك كل شيء.. كل الوثائق.. كل المستندات.

قال (العقرب) في احترام:

- الم اقل لك، إنه لن يكون أمامك سوى هذا؟

نهض (عزت) في انهيار، واتجه وخلفه (نديم) إلى حجرة نومه، وأزاح مرتبة السرير، وجزءا من قائمة، وانتزع الأوراق كلها من مخبر خاص، وناولها إلى (العقرب) في استسلام..

وفحص (العقرب) الأوراق في سرعة، وغمغم:

- رائع.. هنا ما يكفي لإدانة (صالح عثمان)، وتسليمه إلى حبل المشنقة رأسا.

سأله (عزت)، وقد اقشعر بدنه لسماع الجملة الأخيرة:

- وماذا عني؟

قال (نديم) في برود:

- ماذا عنك؟

قال في توتر زائد:

- لابد من حمايتي، حتى يتم إلقاء القبض على (صالح)، وإلا فسيقتلني قبلها.

اجابة (نديم) في هدوء:

- اطمئن.. إنه حتى لن يحاول..

هتف (عزت):

- مستحيل! إنني أعرفه أكثر مما تعرفه كثيرا.. إنه لن يرحمني، بعد أن أخبرته هاتفيا انني..

قاطعه (نديم):

- اطمئن.. إنه لم يسمع شيئا لقد قطعت اسلاك الهاتف قبل أن تصل انت..

حدق (عزت) في وجهه بذهول، ثم هتف وهو ينقض عليه في جنون:

- ايها الوغد المخادع.

استقبله (نديم) بلكمة كالقنبلة، ألقته فوق فراشه، ثم اعتدل، ودس الأوراق كلها في حزامه، وهو يقول في ارتياح:

- انتهت اللعبة يا رجل.. انتهت لصالح (العقرب)..

وبدت على شفتيه ابتسامة باهتة، وهو بضيف:

- كالمعتاد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ابتسم النائب العام في هدوء، عندما رأى (العقرب) يدلف إلى حجرته، عبر النافذة المفتوحة، ويقف أمامه هادئا، فقال:

- كنت أعلم أنك ستعود الليلة.. وكنت انتظرك..

ثم سأله في اهتمام:

- هل أحضرت الدليل؟

ناوله (نديم) الأوراق كلها، وهو يقول:

- بالطبع.

اختطف النائب العام الأوراق في لهفة، وجلس على طرف فراشه، يتفحصها في اهتمام زائد للغاية، وهتف في ذهول:

- يا إلهي!! يا لها من وثائق بالغة الخطورة.. إنها ستطيح بـ (صالح) كالقنبلة...

ورفع عينية إلى (العقرب)، يسأله في انفعال:

- كيف حصلت على هذه الوثائق؟

ثم اعتدل يستطرد في صدق:

- إننا نحتاج إلى رجال مثلك أيها العقرب).. صدقني..

لو أن لدينا عشرة مثلك، لقضينا على نصف الفساد في مجتمعنا..

أجابه (نديم) في هدوء:

- إن لدى اسلوبي الخاص..

ردد النائب العام في جذل:

- اسلوبك الخاص؟! يا الطرافة!!

ووضع كفيه على كتفي (نديم)، مستطردًا في حماس:

- ما رأيك في العمل لحسابنا؟ انزع قناعك هذا، واعمل بوجه مكشوف، وسأبذل أقصى جهدي لمنحك كل السلطات القانونية، و.

قاطعه (نديم) في هدوء:

- معذرة يا سيدي، ولكن هذا يخالف اسلوبي، فانا اعمل فقط، عندما يقف القانون عاجزا..

مط النائب العام شفتيه في أسف، وهو يقول:

- يا للخسارة!

ابتسم (نديم) ابتسامة باهتة، لم تلبث أن تلاشت بأسرع مما ولدت، وهو يقول:

- هناك نقطة اخرى يا سيدي.. لو أنك ارسلت رجال الشرطة إلى منزل (عزت)، مدير مكتب (صالح عثمان) الحالي، فسيجدون هذا الوغد هناك، فاقد الوعي وموثق اليدين والقدمين، وإلى جواره جاسوس أجنبي، يدعى چون دارك)، هو مندوب الاتصال بين (صالح) ومنظمة تجار الأسلحة.

ابتسم النائب العام، وهو يقول في حماس:

سأله (نديم) في اهتمام:

- والآن يا سيدي، وبعد أن حصلت على كل الأوراق، التي تدين (صالح عثمان)، ماذا سيكون مصير ذلك المجرم؟

اجابة النائب العام في حزم:

- لقد وعدتك.. لن تشرق شمس الغد، حتى يكون الأمر قد انتهى..

تنهد (العقرب) في ارتياح، وقال:

- لا يا سيدي.. لن يكون قد انتهى تماما..

تطلع إليه النائب العام في حيرة..

ولكنه لم يفهم ما الذي يعنيه (العقرب) بهذا..

لم يفهمه أبدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

28- النهاية..

عم الذهول ثلاثة أرباع (مصر) على الأقل، عندما أذيع نبأ إلقاء القبض على (صالح عثمان) بتهمة الخيانة، في النشرات الإخبارية المبكرة، وتهافت الناس على باعة الصحف، لمعرفة التفاصيل، وزاد من حيرتهم ودهشتهم أن الصحف قد خلت تماما من أية إشارة إلى الأمر؛ لأن إلقاء القبض على (صالح عثمان) تم بعد أن طرحت الصحف للبيع بالفعل..

ولم يصدق الناس آذانهم في البداية، إذ كان (صالح عثمان) يبدو دوما وكأنه أقوى رجل في الدولة، على الرغم من أنه لم يحتل أبدا أية مناصب رسمية أو سياسية..

ووسط كل هذا الخضَّم، كانت (غادة) تجلس في حجرة مأمور السجن، وأمامها (طومان) الذي بدا شديد التوتر والعصبية، وهو يقول:

- لست اوافق على الاستمرار في هذه اللعبة، وخاصة بعد أن سقط الرئيس سأخبرهم أنني لم أقتل مدير المكتب السابق.. لن أنقذ عنق ذلك المهندس.

قالت (غادة) في سخرية:

إنك لا تنقذ عنقه.. إنك تنقذ عنقك انت.

تطلع إليها في شك، وهو يقول:

- عنقي أنا؟!

أجابته في تهكم:

- بالتأكيد.. إنك تواجه أمرين، لا ثالث لهما، فإما أن تصر على اعترافك، الذي يمنح البراءة للمهندس (أحمد)، او نقدم نحن من الأدلة ما يدينك بالتورط في تهمة الخيانة العظمى، تضامنا مع رئيسك.. ماذا تختار؟

راح (طومان) يفرك أصابعه في عصبية، قبل أن يقول:

- وهل هناك مجال للاختيار؟

قالت في سخرية:

- هل رأيت؟

ثم نهضت مستطردة في حزم:

- صدقني كنت أتمنى أن أقدمك بنفسي إلى حبل المشنقة، ولكن حياتك القذرة لن تساوي لحظة من حياة رجل بريء.

انهار ا طومان) مغمغما:

- أعلم هذا.. صدقيني..

كان (نديم) ينتظرها في سيارته، خارج السجن، ولم تكد تستقر إلى جواره، حتى سألها في هدوء:

- ماذا فعلتِ؟

قالت في ارتياح:

- إنه لن يتراجع عن اعترافه.. سيحصل (أحمد) على البراءة.

انطلق بالسيارة مغمغما:

- عظيم.

سألته مبتسمة، وهما يبتعدان عن السجن:

- وماذا عن الكمبيوتر؟

قال في هدوء:

- سنبتاع واحدا جديدا.

ضحكت قائلة:

- إنه الثالث أليس كذلك؟

أجاب:

- بلى، ولكنه هذه المرة من نوع جديد، له شاشة غير قابلة للكسر.

تطلعت إليه في حنان، وهي تقول:

- إذن فهو مصفح مثلك.

لم يجب، ولكن عينيها قالتا الكثير، وهو يتطلع إليها..

الكثير جدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتسعت عينا (ماك)، زعيم منظمة تجار الأسلحة العالمية، وهو يتطلع إلى معاونة (فرناند) في دهشة بالغة، هاتفا:

- القوا القبض على (صالح)؟! مستحيل!

انحنى (فرناند) يشعل له سيجاره، وهو يقول في حنق:

- لقد كشفوا أمره، وامر اتصالاته بنا، وخطة إشعال الحرب المصرية الإسرائيلية، وأذاعوا كل هذا.. لقد القوا القبض على (دارك) أيضا.

نفث (ماك) دخان سيجارته في حدة، وهو يقول:

. يا للمصريين!! إنهم يبدون كالطيور النائمة، حتى ليخيل إليك، انهم مجرد عصافير رقيقة، ثم إذا بهم ينقلبون إلى نسور جارحة، ثم بمجرد أن تمتد ايديك إليهم..

ثم هز راسه في اسف، مستطردًا:

- لقد خسرنا صفقة رهيبة يا (فرناند) .

قال (فرناند):

- وخسرنا رجلنا في (مصر) أيها الزعيم..

هز (ماك) رأسه نفيا، وقال:

- لست أهتم كثيرا بخسارة البشر يا (فرناند)، فمن الممكن أن تجد بديلا (صالح عثمان)، ما دامت شهوة البشر للمال موجودة، ولكن خسارة المال هي الخسارة الحقة.

ونفث دخان سيجاره مرة أخرى، قبل أن يضيف في قلق:

- ولكن (صالح) و (دارك) يعلمان الكثير عن منظمتنا، وهذه مشكلة أخرى..

صمت طويلا، وهو ينفث الدخان، ويفكر في عيق، ثم لم يلبث أن تال في حنق:

- لو أنهما في (أمريكا)، لأرسلت من يقتلهما في سجنهما، ولكن (مصر) هذه تكتظ بالقوانين السخيفة..

ونهض مستطردًا:

فليذهب (صالح) و (دارك) إلى الجحيم.. لقد أغضبني هذا الأمر بشدة، وأظنني أحتاج إلى إجازة في جزيرتي الخاصة يا (فرناند)

على الأقل حتى يمكنني تدبير صفقة ضخمة أخرى، تعوض الصفقة التي خسرناها..

وتنهد في عمق، ثم التفت إلى (فرناند)، يسأله في بساطة:

- قل لي يا (فرناند)!! ايهما تفضل هو حرب بين (الهند) و (باكستان)، أم احتلال سوفيتي لـ (تركيا)؟؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتسعت ابتسامة اللواء (حلمي)، وهو يتطلع إلى (مجدي)، الذي راح يلوح بكفيه في حنق، هاتفا:

- اقسم لك يا سيدي إن (نديم فوزي) هو (العقرب).. صحيح انني افتقر إلى الدليل حتى الآن، ولكنني سأعثر عليه يوما..

سأله (حلمي) وهو يبتسم:

- لماذا تسعى إلى إثبات هذا بكل العناد والعنف يا (مجدي)؟

صاح (مجدي):

- إنني رجل قانون يا سيدي، و (العقرب.) هذا مجرد مجرم أفاق.

رفع (حلمي) حاجبيه في دهشة مصطنعة، وهو يقول:

- مجرم آفاق؟! عجبا!! إنه لم يرتكب منذ ظهوره جرائم رهيبة إلى هذا الحد.. لقد تسبب في الإيقاع بعملاقين من عمالقة الجريمة، ما كنا لنوقع بهما دون تدخله..

قال (مجدي) في حدة:

ومن أدارك أنه لا يخلى الساحة لنفسه يا سيدي، وأنه يسعى لاحتلال عرش الجريمة وحده..

ضحك (حلمي)، وهو يقول:

- من يدري؟

أخرج (مجدي) منديله من جيبه، وجفف به عرقه في عصبية، وهو يقول:

- سأثبت هذا يوما.. سأثبت أن (العقرب) مجرد..

بتر عبارته بغتة، عندما سقطت من منديله بطاقة أنيقة، استقرت بين قدميه، فانحنى يحدق فيها بذهول، وسأله اللواء (حلمي)، وهو يدور حول مكتبه لرؤيتها:

- ما هذه البطاقة!

عقد مجدي) حاجبيه في غضب، وهو يهتف:

- ذلك اللعين.

ولم يكد بصر اللواء (حلمي) يقع على البطاقة، التي يتوسطها رسم لعقرب ذهبي، حتى انفجر ضاحكا، على نحو آثار حنق (مجدي) وغضبه، فصرخ:

- سأوقع به يوما.

واندفع يغادر مكتب اللواء (حلمي) كقذيفة من الغضب، في حين انحني هذا الأخير يلتقط البطاقة، ويتطلع إليها في ارتياح، قبل أن يبتسم في حنان ويقول:

اطمئن ايها (العقرب).. إن الله سبحانه وتعالى) يرعاك.

وعندها دس البطاقة في جيبه، كان يشعر بارتياح..

ارتياح عميق..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

العقرب:

الإمبراطـــورة

(الرواية الثالثة - مجمعة)

عندما يعجز القانون البشري عن القصاص..

عندما تحيط العدالة عينيها بعصابة سميكة..

حينما يرتفع ذلك الحاجز بين العدالة والقانون..

عندئذ يهب هو للقتال، حاملا ذلك الاسم، الذي يثير الرجفة في قلوب أعتى المجرمين..

اسم (العقرب).

الإمبراطورة

1- صـورة..

أطلقت (غادة) زفرة ارتياح قوية، وهي توقف سيارتها الصغيرة، إلى جانب الإفريز المواجه للبناية الشاهقة، التي اتخذ (نديم فوزي) من إحدى شققها مكتبا للمحاماة، وغادرت السيارة وهي تقول في سخرية:

- من الطريف أن يحسدك الكثيرون، على حصولك على مكتب في وسط المدينة، وأنت تلعن هذا كل صباح، في أثناء حك عن مكان توقف فيه سيارتك..

اتجهت في نشاط إلى البناية، واستقلت مصعدها إلى الطابق الذي يحوي المكتب، ودلفت إلى المكان في سرعة كعادتها، وهي تهتف:

- صباح الخير يا عم (احمد).. هل وصل الأستاذ (نديم)..

ابتسم عم (احمد)، عامل المكتب العجوز، وهو يقول:

- في الثامنة تماما كالمعتاد

أطلقت ضحكة مرحة، وهي تتجه إلى حجرة مكتب (نديم)، قائلة:

- ماذا سيفعل عندما يمتلئ المكتب بالعملاء؟

قالتها وهي تفتح باب حجرة (نديم)، الذي رفع عينيه إليها في هدوء، وأطلت منهما ابتسامة ترحيب كبيرة، لم تنتقل إلى شفتيه ابدا، و (غادة) تقول:

- صباح الخير يا محامي الضعفاء، الم تأتك بعد قضية مثيرة؟

هز كتفيه في هدوء، وهو يقول:

- كلها مجرد قضايا عادية..

جلست على المقعد المقابل لمكتبه، وهي تقول مبتسمة:

- هذا أمر طبيعي، فلن تواجه دائما رجالا مثل (نعمان والي) و (صالح عثمان)..

قال في هدوء:

- هذا صحيح..

التقطت من حقيبتها عددا من الصحف والمجلات، دفعتها امامه، وهي تقول:

- ها هي ذي كل صحف ومجلات اليوم كالمعتاد، ما دمت تصرّ على قراءة كل حرف مطبوع في (مصر) كلها.

التقط صحيفة يومية شهيرة، وهو يقول:

- من الضروري أن يتابع المرء ما يدور حوله اولا فأول.

غمغمت مبتسمة:

- ربما.

والتقطت واحدة من المجلات الفنية المعروفة، وراحت تتصفحها في صمت، في حين راح هو يلتهم أسطر الصحيفة بعينيه في سرعة واهتمام، حتى سمعها تقول:

- طريقة هي أخبار اهل الفن اتصدق أن تلك النجمة السينمائية، التي صارت رمزا للجمال هذه الأيام، تقيم حفلا للاحتفال بعيد ميلادها للمرة الثانية خلال ستة أشهر؟

تمتم في ضجر:

- إنها تبدو لي أخبارا سخيفة..

ضحكت قائلة:

- الأسخف من هذا أنها قد أقامت الحفل في الصحراء المتاخمة للهرم، داخل خيمة كبيرة، اشبه بليالي ألف ليلة وليلة، وحضر الحفل لفيف من رجال المجتمع وسيدات الـ..

بترت عبارتها بغتة، مع شهقة قصيرة، جعلت (نديم) يلقي صحيفته جانبا، ويتطلع إليها في حيرة، لم تلبث أن تحولت إلى مزيج من الدهشة والقلق، عندما رآها تحدق في واحدة من الصور الملونة الأنيقة، التي نشرتها المجلة لحفل النجمة السينمائية الجميلة، وقد اتسعت عيناها في شدة، فمال نحوها، يسألها:

- ماذا هناك يا (غادة)؟

أدهشته ارتجافة أصابعها، ونبرة البعض الشديدة في صوتها، وهي تشير إلى إحدى الصور، قائلة:

- هذه السيدة.

مال أكثر يتطلع إلى السيدة التي تشير إليها (غادة)، ورأى أمامه وجها مألوفًا، لسيدة في الأربعينات من عمرها، ولكنها تحتفظ بجمال واضح، وحيوية تنقص من عمرها عشر سنوات على الأقل، وقد بدت في الصورة مبتسمة، يتألق شعرها الأشقر فوق راسها كتاج من الذهب الناعم، وينسدل بعضه على كتفيها، اللذين يحيط بهما معطف من الفراء الثمين، ويتدلى من أذنيها قرطان كبيران، يشف تألقهما على أنهما من الماس الخالص..

كان كل شيء في الصورة يؤكد ثراء تلك السيدة الفاحش، وموقعها المتميز في المجتمع..

وعلى نحو غريزي انخفض بصر (قديم) إلى التعليق أسفل الصورة، وقرا ما يشير إلى أن اسم هذه السيدة هو (چيلان شوكت)، وأنها واحدة من أكثر سيدات المجتمع القاهري شهرة وثراء، وأنها صاحبة عدة متاجر شهيرة في (مصر)، تختص كلها بأزياء السيدات والمجوهرات وأدوات الزينة..

وفي مزيد من الحيرة، عاد (نديم) يرفع عينيه إلى (غادة) ويسألها:

- ماذا عن هذه السيدة؟

تقاطر البغض مع حروف كلماتها، وهي تغمغم:

- لعنة الله عليها..

ودفعت المجلة جانبا، ونهضت في حدة، واتجهت نحو نافذة الحجرة، وهي تقول في مرارة وكراهية:

- لا تجعل جمال تلك المرأة واسمها يخدعانك، فهذا الشعر الأشقر مصبوغ، وتلك العيون الزرقاء مجرد عدسات ملونة، واسمها ليس (چيلان شوكت)، ولم يكن أبدا كذلك.

سألها في اهتمام مشوب بالحيرة والفضول:

- وما الذي يدفعك إلى بعضها على هذا النحو؟

قالت في غضب وحزن شديدين:

- لقد قتلت أحب مخلوقات الدنيا إلى قلبي..

وخفضت عينيها، وسال الدمع من كلماتها، وهي تستطرد:

- قتلت أمي

وجاء دور (نديم)، لتتسع عيناه عن آخرهما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مضت فترة طويلة من الصمت الثقيل، و (نديم) يحدق في (غادة)، التي توليه ظهرها، متطلعة عبر نافذة الحجرة إلى الخارج، ثم تجاوز (قديم) مكتبه، واتجه إليها في هدوء وصمت، ووضع يده على كتفها، يقول في حنان:

- (غادة)..

استدارت إليه في بطء، وهاله مرآي فيض الدموع، الذي يسيل من عينيها الجميلتين، ويغرق وجهها الصبوح، فهتف مرة اخرى:

- (غادة)؟!

تمنت هي - في تلك اللحظة - لو أنه احتواها بين ذراعيه، وضمها إلى صدره في حنان، ولكنها كانت واثقة من أن طبيعته الرصينة ستمنعه من فعل هذا، لذا فقد أزاحت كفه عن كتفها في رفق، ومسحت دموعها بأناملها، مغمغمة في شيء من الخشونة

- ماذا تريد؟

أجابها في هدوء. يحمل الكثير من حزمه التقليدي:

- اريد معرفة كل شيء.

غمغمت:

- عن ماذا؟

أجاب في حزم:

- عن القصة كلها.. قصة (أمك) و (چيلان).

تنهدت في حزن، واتجهت مرة أخرى نحو المقعد المجاور لمكتبه، والقت جسدها فوقه، وهي تقول في انفعال:

- كان هذا منذ عشر سنوات، عندما كانت أمي أشهر صحفية في (مصر)، وكانت تشتهر بحزمها الشديد في معالجة الأمور، وكراهيتها الشديدة للجريمة والمجرمين.. ولقد بدأت أمي - حينذاك - سلسلة من المقالات، تتحدث فيها عن جريمة بشعة، في حق الاقتصاد المصري، وصفتها أيامها بأنها خيانة عظمى للوطن وأمنه الاقتصادي، وجريمة تفوق الاتجار في المخدرات، الا وهي تزوير النقد المصري والأجنبي، وغمر الأسواق الاقتصادية في مصر بملايين الجنيهات والدولارات المزيفة، التي تضعف قيمة النقد وتؤدي إلى حدوث تضخم مالي وانهيار اقتصادي و.

بترت عبارتها، والتقطت أنفاسها اللاهثة في فرط الانفعال ولوحت بذراعها مستطردة:

- أنت تفهم هذا بالطبع. اومأ برأسه في هدوء، وقال:

- نعم..

التقطت نفسا عميقا، ملأت به صدرها، ثم تابعت

- كشفت امي كل ما يحدث، في عالم التزوير والتزييف، واعلنت في مقالاتها أنها ستكشف اسم الزعيمة الغامضة الشرسة، التي تختفي خلف كل هذا، مها ألهب حماس القراء، فراحت اسئلتهم ورسائلهم تنهال على أمي هاتفيا وبرقيا وبريديا، والجميع يناشدونها كشف الاسم وإزاحة الستار، ولكنها أصرت على أن تحتفظ بالاسم سرا، حتى المقال الأخير.. ورفضت الجهر به،

حتى لرئيس التحرير ورئيس قسم مكافحة التزييف والتزوير في مديرية الأمن نفسها.

ازدردت لعابها مرة أخرى، ثم أضافت في مزيد من الانفعال:

- وفي الوقت نفسه تلقت أمي عدة تهديدات بالقتل، لو أنها أصرت على المضي في نشر مقالاتها هذه، ولكنها استقبلتها في عناد، وبعثت فيها التهديدات مزيدا من الإصرار على مكافحة زعيمة هذه العصابة المدمرة للاقتصاد..

صمتت لحظة، از دردت خلالها لعابها، واغرورقت فيها عيناها بالدموع مرة أخرى، قبل أن تستطرد:

- وذات يوم، كانت أمي توصلني بسيارتها إلى مدرستي الثانوية، قبل أن تنطلق إلى جريدتها، عندما اعترضت طريقنا سيارة فارهة، قفز منها أربعة رجال، صوبوا إلينا أسلحتهم، وأجبرونا على التوقف، قبل أن تغادر السيارة سيدة أنيقة، سوداء الشعر والعينين، تطلعت إلى امي بنظرة ساخرة شامتة، وهي تقول:

- لقد حذرتك..

ووجدت أمي تهتف في وجهها:

- لن يمنعني شيء من فضح كل جرائمك يا (فوقية) لقد كشفت كل اوراقك، و.

صمتت (غادة) بغتة، وراحت تمسح دموعها في عصبية، وهي تعض شفتها السفلى حتى تكاد تدميها، فربَّت (نديم) على كتفها مهدئا، وهو يقول:

- وماذا؟

هزت راسها، وكأنها تنفي شيئا ما، ثم قالت:

- لم تزد أمي حرفا واحدا.. لقد اخرجت تلك اللعينة (فوقية) من معطفها مسدسا صغيرا، وأطلقت ضحكة ساخرة شامتة، ثم أطلقت منه رصاصة غادرة اخترقت راس أمي مباشرة..

انخرطت فجأة في بكاء حار، وراحت تنتحب في شدة، وهي تدفن وجهها في راحتيها، وكأنما تحاول منع عقلها من استعادة الذكريات الحزينة المؤلمة، فتنهد (نديم)، وعاد يلتقط المجلة، ويتطلع إلى صورة (چيلان شوكت) في اهتمام، قبل أن يقول:

- إذن فأنت تعنين أن (چيلان) هذه هي نفسها (فوقية)، التي قتلت أمك؟

أومأت برأسها إيجابا، فقال في اهتمام:

- أأنت واثقة تماما؟

قالت في حدة:

- لن أنسى ابدا وجه المرأة التي قتلت أمي امام عيني.

تطلع إليها لحظات في إشفاق، ثم القى المجلة على سطح مكتبه.. وهو يسألها:

- ولكن كيف لم تنتبهي إلى هذا من قبل؟ إن اخبار (چيلان شوكت) تملأ صفحات الاجتماعيات، منذ خمس سنوات على الأقل.

هزت رأسها، قائلة:

- لست أتابع تلك الصفحات..

والتفتت إليه مستطردة في حدة:

- ثم إنه من المفروض أن (فوقية رضوان) هذه قد لقيت مصرعها بعد أشهر قليلة من قتل أمي..

رفع حاجبيه هاتفيا:

- لقيت مصرعها؟!

أومأت برأسها إيجابا، وقالت:

- هذا ما تم إعلانه رسميا، فلقد اصابتني حالة من الانهيار العصبي الشديد، عندما رأيت امي تلقي مصرعها أمام عيني ورحت اصرخ في رعب وهلع، مما دفع المجرمين إلى الفرار، ولست أدري كيف لم تقتلني تلك الأفعى الوحشية - آنذاك - تخلصا من دليل إدانتها، ولكنني لم أكد استعيد وعيي في المستشفى، حتى أبلغت رجال الشرطة بكل ما حدث، وكل ما أمكنني وصفه من ملامح المرأة واسمها.. وبذلت الشرطة مساعيها كلها للبحث عنها، حتى أعلنت الصحف خبر وفاتها..

ازدردت لعابها مرة أخرى، وأضافت في انفعال:

- طالعني وجهها في صفحة الوفيات، واسفله اسمها بالكامل، وبعض البيانات عنها، فأسرعت أبلغ رجال الشرطة الذين تحروا الأمر، وعلموا أنها قد لقيت مصرعها في حادث سيارة، ولكنني أعربت عن شكوكي في موتها، فاستخرج رجال الشرطة إذنا من النيابة باستخراج جثتها وفحصها..

سألها في اهتمام: - وهل فعلوا؟

تنهدت قائلة:

- نعم، ولكن هذا لم يسفر عن الكثير، فلقد كانت الجثة مشوهة الوجه، محطمة الأطراف، بفعل الحادث، إلا أن الطبيب الشرعي

قد استند إلى تطابق المقاييس والعمر، وأعلن أن الاحتمال الأرجح هو أن الجثة لـ (فوقية).. وهكذا اغلقت الشرطة ملف العملية كلها..

تردد لحظة، قبل أن يقول في خفوت:

- اليس من المحتمل أنها قد لقيت مصرعها بالفعل؟

التفتت إليه بنظرة غاضبة، واندفعت نحو المجلة، والتقطتها في حدة، وصاحت مشيرة إلى الصورة:

- هذا ما استكنت إليه أنا أيضا، طيلة السنوات العشر الماضية، إلا انني لم أكد أرى صورتها حتى فهمت اللعبة كلها.. صدق او لا تصدق أيها المحامي العنيد، ولكن هذه الشقراء الفاتنة هي نفسها زعيمة أكبر شبكة تزوير وتزييف نقد في مصر سابقا، والله سبحان وتعالى اوحده يعلم، أي عمل قذر تتزعمه هذه الأيام!

تطلع إلى وجه (غادة) لحظات في صمت، ثم تنهد في عمق، وقال:

- لا بأس.. معرفة الحقيقة هذه المرة تحتاج إلى أساليب قد لا يقرها القانون المكتوب.

واتجه في هدوء نحو جانب من الحائط، وضغط زرا خفيا فيه، فانزاح جزء منه، كاشفا فجوة خاصة استقر داخلها زي العقرب، وقناعه الأسود المخيف، و (نديم) يضيف في حزم:

- إنه يحتاج إلى هذا الزي.. إلى (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- المناورة الأولى..

- (نديم فوزي)!!

رددت (چيلان شوكت) هذا الاسم في حيرة، وهي تلقي نظرة طويلة على بطاقة (نديم) الأنيقة، التي حملها إليها سكرتيرها الخاص (هاني)، قبل أن تستطرد في تساؤل، وهي ترفع عينيها إلى (هاني):

- وماذا يريد (نديم) هذا؟

أجابها (هاني) في هدوء:

- يقول إنه يطلب مقابلتك لأمر عاجل وخاص للغاية..

رددت مرة اخرى:

- عاجل وخاص؟!

ثم سألت (هاني) في اهتمام:

- هل أخبرته بضرورة تحديد موعد سابق للمقابلة؟

اومأ (هاني) برأسه إيجابا، وقال:

- نعم، ولكنه قال إن ما لديه أخطر من أن يحتمل الانتظار..

عقدت حاجبيها في توتر، وهي تستمع إلى العبارة الأخيرة، وراحت أظفارها المصبوغة تنقر سطح مكتبها في عصبية، ولم تلبث أن التقطت من علبة سجائرها سيجارة إنجليزية الصنع، اشعلتها بقداحة تحمل الحرف الأول من اسمها، ونفثت دخانها في قوة، قبل أن تقول:

- فليكن.. سألتقي به..

قال (هاني) في روتينية:

- كما تأمرين يا سيدتي..

استدار ليغادر حجرة مكتبها، ولكنها استوقفته: لتسأله في اهتمام:

- قل لي: كيف يبدو (نديم فوزي) هذا؟

هز كتفيه في هدوء، وقال:

- إنه نحيل بعض الشيء، وسيم، حازم القسمات، يبدو صلبا، قوى الشكيمة، على الرغم من هدوئه الشديد..

ابتسمت ابتسامة عصبية، وهي تقول:

- هل لاحظت كل هذا من النظرة الأولى؟

أجابها في بساطة:

- إنه عملي.

اومأت برأسها متفهمة، وقالت:

- لا بأس.. دعه يدخل؛ فأنا في غاية الشوق لسماع ما لديه..

غادر (هاني) الكتب، ونفثت هي دخان سيجارتها مرات اخرى في قلق، حتى رأت (نديم) يعبر باب مكتبها بقامته الممشوقة، ووسامته الواضحة، فتركز بصرها عليه، وكأنما تحاول سبر غوره بنظراتها، ثم لم تلبث أن رسمت على شفتيها ابتسامة جذابة، وهي تمد يدها إليه، قائلة:

- صباح الخير يا استاذ (نديم).. هل لي أن أفهم سر هذه الزيارة المفاجئة، ومعنى وصفك ما لديك بأنه بالغ الخطورة؟

صافحها (نديم) في هدوء، وهو يقول:

- سأخبرك بكل شيء يا سيدتي:

ثم جلس على المقعد المقابل لمكتبها، وهو يضيف:

- الواقع أن مهمتي محرجة بعض الشيء..

جلست على المقعد الفاخر، خلف مكتبها، وهي تسأله في قلق:

- ماذا تعني بقولك هذا؟

سألها بغتة:

- أخبريني أولا: هل (چيلان شوكت) هو اسمك الحقيقي؟

كان من الواضح أن السؤال قد جاء مباغتا إلى أقصى حد، وأنها لم تكن تتوقع حرفا واحدا منه، فقد فغرت فاها، وازدادت عيناها اتساعا في ذهول، وتجمدت أطرافها كلها دفعة واحدة،

واحتبس دخان سيجارتها في حلقها لحظات، حتى أنها سعلت بعدها في قوة، وحاولت أن تبتسم في عصبية وهي تقول:

- أي سؤال هذا يا سيد (نديم)؟ اجابها في هدوء:

- يمكنك ان تقولي إنه السؤال الرئيسي في لقائنا يا سيدتي..

سحبت أنفاس سيجارتها في قوة، ولفظتها نافورة من الدخان، قبل أن تقول في عصبية واضحة:

- لاحظ أنني لم أعرف بعد سبب هذا اللقاء، وان وقتي أضيق من ان اضيعه دون ان..

قاطعها في هدوء أقرب إلى البرود:

- الواقع أنني هنا لرفع قضية ضدك..

مرة أخرى جاءت عبارته مفاجئة لها، فاتسعت عيناها كثيرا، ثم أطفأت سيجارتها في عنف، وقالت في جدة:

- اسمع يا استاذ (نديم).. إنني أبغض تلك الأساليب الملتوية السخيفة، وأكره أكثر الاعيب المحامين الصغار أمثالك، ولهذا وذاك سأمنحك دقيقة واحدة تشرح لي خلالها ما لديك في كلمات موجزة، وإلا فأمر رجالي بإلقائك خارجا، حتى ولو كنت قاضي القضاة نفسه.

لم يبد عليه أدنى اهتمام بتهديدها، وهو يقول في هدوئه التقليدي:

- الأمر لا يحتاج إلى كل هذا التوتر يا سيدة (چيلان).. كان يمكنك أن تصبري لحظات، وكنت سأشرح لك كل شيء، فلقد اخبرتك انني هنا لمقاضاتك، لحساب واحدة من عميلاتي، تؤكد أن لديها من الوثائق ما يثبت أنكِ..

صمت لحظة، وراقب تلك اللهفة الشديدة، التي ارتسمت على وجهها، قبل أن يضيف في حزم:

- إنكِ لستِ في الواقع (چيلان شوكت)..

بدا التوتر على وجه (چيلان)، وإن حاولت أن تخفيه بضحكة عصبية، وهي تقول بصوت أجش منفعل:

- ما أطرف هذا!! من أنا إذن؟

اتاها الجواب من بين شفتيه كالرصاصة، وهو يقول:

- فوقية.. (فوقية رضوان).

كان من الواضح أن المفاجأة أقوى مما تحتمل هذه المرة، فقد انتفض جسدها لها في قوة، واتسعت عيناها في شدة، وهي تحدق في وجه (نديم) بعينين كادتا تجحظان او تقفزان من محجريهما، وتصرخ:

- من؟!

وبسرعة لم يكن يتوقعها (نديم)، تلاشى كل هذا، واستعادت (چيلان) هدوءها كله دفعة واحدة، وقالت:

- أي سخف هذا؟! إنني لم اسمع هذا الاسم قط، في حياتي كلها.

قال (نديم) في هدوء:

- موكلتي تؤكد أن..

قاطعته في حدة:

- قل لها: أن تلقي بنفسها في البحر..

رفع عينيه إليها، وهو يقول في صرامة:

- كنت أظننا سنتوصل إلى اتفاق..

لوحت بذراعها هاتفة:

- بشأن ماذا؟

هز كتفيه، قائلا:

- بخصوص هذه الوثائق

صرخت غاضبة:

- إنها لا تعنيني في شيء.. قل لها: أن تفعل بها النيران، وتستخدمها لعمل قدح من الشاي.. ربما كان هذا أجدى.

نهض في هدوء، وقال:

- في هذه الحالة أجد نفسي مضطرا للانصراف.

قالت في غضب:

- هذا أفضل من أن ألقي بك خارجا..

حملت عيناه إليها ابتسامة ساخرة، لم تفصح عنها شفتاه، وهو يقول:

- إنه أفضل بالتأكيد..

انصرف في هدوء، ولم يكد يغلق الباب خلفه، حتى التقطت سماعة الهاتف، وضغطت ازراره في عصبية، ولم تكد تسمع صوت محدثها حتى قالت:

- إنه أنا يا (أكرم).. اسمعني جيدا.. لقد ارتفع صوت من الماضي، يهدد بهدم الحاضر، ومن الضروري أن نخرسه، إذا أردنا أن يكون لنا مستقبل.. وانا انتظرك لتباحث في هذا الشأن، ولنحسم أمر صوت الماضي هذا الليلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استمعت (غادة) إلى (نديم) في اهتمام، وهتفت في حدة:

- إنها تناور ولا شك.. من المؤكد أنها تشعر بقلق شديد لما أخبرتها به، ولكنها تتظاهر بعدم الاهتمام، حتى تقتل الشكوك داخلك..

قال (نديم) في هدوء:

- أعلم هذا..

حدقت في وجهه لحظة، وهتفت في ارتياح:

- إذن فأنت تصدق قصتي..

اومأ برأسه إيجابا، وقال:

- إنني لم اشك في قصتك لحظة واحدة يا (غادة)، ولكنني أضع دائما كل الاحتمالات أمامي، ومنها احتمال الخطأ البشري، والتشابه بين امرأة وأخرى، وهما احتمالان يعنيان أننا سنواجه امرأة بريئة، ونقاتلها بلا رحمة، لمجرد انها تشبه قاتلة قديمة، ولهذا السبب بالذات ذهبت لمقابلة (چيلان شوكت)، وواجهتها بذلك الأسلوب المفاجئ الهجومي، حتى أرى ردود أفعالها، وأتيقن مما نحن بصدده، ولقد كان من الواضح انها تخفي أمرا ما، وانفعالها العنيف، عند ذكر اسم (فوقية رضوان) يكفيني لتحديد موقفي منها..

ابتسمت في ارتياح، وقالت:

- إنه لا يكفي كدليل قانوني.

أجاب في حزم:

- إننا هنا بصدد العدالة لا القانون..

تطلعت إليه لحظات في هدوء، ثم قالت:

- وما الذي يمكن أن يفعله (العقرب) مع (چيلان شوكت)؟

قال في هدوء:

- الكثير..

قبل أن يستطرد في حديثه، سمع الاثنان دقات (احمد) على باب حجرة مكتب (نديم)، فرفع هذا الأخير عينيه إلى الباب، وقال:

- ادخل يا عم (أحمد).

دخل العامل العجوز، وارتسمت على شفتيه ابتسامة حانية، وهو يقول:

- زميل لك يطلب مقابلتك يا استاذ (نديم).

سأله (نديم) في هدوء:

- زميل لي انا.. من هو؟

فجأة اقتحم رجل ممتلئ الحجرة، وبدا شعره الأشيب متناقضة تماما مع حاجبيه السوداوين الكثين، وهو يهتف:

- (أكرم منصور) يا أستاذ (قديم).. المحامي الخاص لمجموعة شركات السيدة (چيلان شوكت).

بدا الضيق على وجه عم (أحمد)، لاقتحام الرجل الحجرة على هذا النحو، وعقدت (غادة) حاجبيها في توتر، وهي تتطلع إلى وجه (أكرم)، في حين بدا (نديم) شديد الهدوء، إلى حد مثير للأعصاب، وهو يقول لعم (احمد):

- شكرا يا عم (احمد).. لقد أصبح الزميل في الحجرة بالفعل، ويمكنك ان تعد له قدحا من الشاي، حتى ننتهي من حديثنا..

تراجع عم (احمد)، وأغلق الباب خلفه في هدوء، في حين عقد (أكرم) حاجبيه، وهو يتطلع إلى (غادة) في اهتمام بالغ، حتى سأله (نديم):

- في أي شأن أرسلتك السيدة (چيلان) يا استاذ (أكرم)؟

ادار (أكرم) عينيه بسرعة عن وجه (غادة)، وابتسم ابتسامة مدروسة منمقة، وهو يقول:

- إنه أمر يحتاج إلى حديث خاص يا أستاذ (نديم).

أثار (نديم) إلى (غادة) وقال:

- الآنسة (غادة) هي شريكتي، وزميلتي في العمل..

التفت (أكرم) مرة أخرى إلى غادة)، وسألها:

- (غادة) ماذا؟ أجابته في صرامة:

- (غادة) فقط.. لست تحتاج إلى معرفة الباقي..

أبتسم (أكرم) ابتسامة غامضة، وقال: بالتأكيد..

ثم اعاد بصره إلى (نديم)، مستطردًا:

- هل يمكننا أن نتحدث أمامها؟

قال (نديم):

- وبكل الوضوح والصراحة..

اتسعت ابتسامة (أكرم) الغامضة، وهو يقول:

- هذا أفضل.

وجلس على المقعد المقابل لمكتب (نديم)، متابعا:

- قل لي يا استاذ (نديم): كم تطلب مقابل الإفصاح عن شخصية عميلتك، التي تزعم انتحال موكلتي لاسم وشخصية مختلفين؟

قال (نديم) في هدوء:

- إنني أفضل الاحتفاظ باسم عميلتي سرا..

قال (أكرم) في خبث:

- أيا كانت قيمة المبلغ؟

أجاب (نديم) في برود:

- أيا كانت؟؟

كان هو و (غادة) يتوقعان مساومة طويلة فعالة، تكشف عن مدى اهتمام (چيلان) بمعرفة شخصية من تحمل دلائل إدانتها، إلا انهما فوجئا بـ (أكرم) ينهض على الفور، ويقول في لهجة غامضة:

- لا فائدة من المساومة إذن.

قال (نديم) في بساطة:

- أظن هذا..

حمل (أكرم) حقيبته، واتجه على الفور إلى باب الحجرة، قائلا:

- إلى اللقاء إذن..

ولم يكد يفتح الباب حتى توقف، والتفت إلى (غادة) وابتسم ابتسامة أكثر غموضا، وهو يستطرد:

- وأنا واثق من أننا سنلتقي قريبا جدا يا آنسة (غادة).. أقرب مما تتصورين..

واغلق الباب خلفه في ضجيج..

والتفتت (غادة) إلى (نديم) تقول في توتر:

- هذا الرجل يثير في نفسي خوفا مبهما.

أجابها (نديم) في حزم:

- وشيئا من الاشمئزاز..

ثم نهض إلى حيث يخفي زي العقرب، مستطردا:

- واظن انه من الضروري ان يبدا (العقرب) عمله، قبل أن تنفتح الأبواب.

وأضاف وهو يضغط زر الخزانة الخفية:

- ابواب الجحيم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- شبح الماضي..

احتقن وجه (چيلان)، وشملها انفعال شديد، وهي تهتف في وجه (أكرم):

- هل أنت واثق؟ هل تأكدت من هذا؟

ابتسم (أكرم) في ثقة، وهو بنفث دخان سيجارته، قائلا:

- تمام الثقة، ثم إنني لم أكن بحاجة للتأكد، فالابنة صورة طبق الأصل من أمها، حتى انني لم أكد أراها حتى خيل إلىّ أن الصحفية العنيدة قد عادت من قبرها.

شردت ببصرها قائلة:

- ومن أدراك أنها لم تعد؟

وزفرت في قوة، مستطردة:

- إذن فتلك العميلة الغامضة هي (غادة)، ابنة تلك الصحفية المغرورة، التي تصورت يوما قدرتها على تحطيم الإمبراطورة.

قال (أكرم) في هدوء:

- لقد نالت جزاءها..

لوحت بكفها، قائلة:

- والابنة الآن تنبش تاريخ امها، وتسعى لانتقام اسطوري أنيق، يشفي غليلها..

اعتدل (أكرم) يسألها في اهتمام:

- أتظنين أنها تملك وثائق بالفعل؟

هزت راسها نفيا، وقالت:

- لا.. لست أظن هذا.. لقد كانت محاولة من ذلك المحامي الشاب، لمعرفة رد فعلى، عندما يخبرني بها لديه..

واشعلت سيجارتها بدورها، ونفثت دخانها في قوة، وهي تستطرد:

- كانت لعبة ذكية، أتقن (نديم) هذا لعبها، ولكنني لن اسمح له بالمضي فيها إلى النهاية..

سألها في اهتمام اشد:

- ماذا تفعلين؟

ابتسمت ابتسامة شرسة، وقالت في لهجة حادة:

- ماذا تتوقع أن أفعل؟ لقد دس هذا المحامي أنفه في شئوني، ويسعى هو ورفيقته لتدمير الإمبراطورية التي اقمتها في عشر سنوات كاملة، ومن الطبيعي أن اسعي للدفاع عن إمبراطوريتي، و.

صمتت لحظة، ثم أضافت في وحشية مخيفة، ارتجفت لها الدماء في عروق (أكرم) في شدة:

- وسحق أعدائي سحقا..

وكان هذا إعلانا لبدء الحرب..

وفتح أبواب الجحيم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتح (هاني)، سكرتير (چيلان) الخاص، باب شقته،

وهو يحمل على شفتيه ابتسامة حالمة، بعد أن قضى سهرة جميلة مع خطيبته الحسناء، وتمتم في هيام، وهو يغلق باب الشقة خلفه:

- كم هو جميل هذا الحب!!

لم يكد يضغط زر الإنارة، حتى انتفض جسده انتفاضة عنيفة، وانطلقت من حلقه شهقة قوية، واتسعت عيناه في شدة، وتفز جسده كله إلى الخلف، وارتطم بباب الشقة، وقفزت يده نحو جيب سترته الداخلي في سرعة..

لقد رأى امامه شبحا يتشح بالسواد، ويخفي عينيه بقناع اسود سميك..

وقبل أن تبلغ يد (هاني) جيب سترته الداخلي، حيث يرقد مسدسه الخاص، أحاطت اصابع الشبح الأسود، داخل قفاز جلدي رقيق، بمعصم (هاني)، الذي سمع صوتا صارما قاسيا، يقول:

- اهدا يا رجل إننا نتحدث قليلا فحسب..

ولكن (هاني) دفع (العقرب) الأسود في صدره، وصاح:

- ابتعد عني..

ومرة أخرى قفزت يده نحو جيب سترته، في محاولة لالتقاط مسدسه الخاص، ولكن..

هذه المرة هوت قبضة (العقرب) على ذقنه، في لكمة عنيفة، ألقته أرضا، وامتدت اصابع العقرب تنتزع منه مسدسه في هدوء، والصوت الصارم يقول:

- قلت لك اهدا يا سيد (هاني)، ولن يصيبك أدني ضرر.

نهض (هاني) في توتر، وهو يتحسس موضع اللكمة في ذقنه، وجلس على أول مقعد صادفه، وهو يقول في عصبية:

- ماذا تريد مني بالضبط؟ لست أحتفظ بنقود كافية هنا، ولست أمتلك..

قاطعه (العقرب) في صرامة:

- لقد اخطأت تفسير الموقف، فلست لصًا..

أشار إليه (هاني)، وهو يقول:

- ما معنى الزي والقناع إذن؟

أجابه (العقرب):

- دعك منهما، وانتبه إلى اسئلتي.

قال (هاني) في عصبية

- ما الذي تريد معرفته بالضبط؟

مال (العقرب) نحوه، وقال في صرامة:

- كل شيء عن (چيلان شوكت).. كل ما يمكنك إخباري عنها..

مط (هاني) شفتيه، وقال:

- إنه تجسس مهني إذن..

هز (العقرب) راسه نفيا، وقال:

- بل هو أكثر خطورة.. هيا.. هات ما لديك..

ارتسمت الصرامة على وجه (هاني)، وقال في حدة:

- ومن قال لك إنني أستطيع كشف اسرار المرأة، التي أعمل لحسابها؟

رفع (العقرب) مسدس (هاني) في وجه هذا الأخير،

وجذب ابرته في بساطة، وهو يقول في صرامة مخيفة..

- ومن قال إنك تملك الخيار؟

ازدرد (هاني) لعابه في صعوبة، وحاول أن يبدو شجاعًا متماسكا. إلا أن شحوبه، وصوته المختنق قد خدعاه وكشفا امره، وهو يقول:

- لن يفيدك ما سأخبرك به كثيرا، فلست أعرف أكثر مما نشرته الصحف عنها عدة مرات.. لقد بدأت عملي معها منذ عامين فحسب، ووجدت أنها سيدة أعمال من الطراز الأول، تجيد اختبار المشاريع الناجحة، وتربح منها الكثير، ثم إنها سيدة مجتمع أيضا، ولها العديد من المعارف والأصدقاء من ذوي النفوذ في مختلف المجالات..

سأله (العقرب):

- كم تبلغ ثروتها في رأيك؟

هز (هاني) راسه، وقال:

- لست أدري بالتحديد، ولكنني اظنها بالغة الثراء، فهي تمتلك خمس شركات الأزياء وادوات الزينة، وفيلا فاخرة في (القاهرة)، وأخرى في شاطئ (المعمورة) بـ (الإسكندرية) وثالثة في أرقى أحياء (باريس)، وطائرة خاصة في (روما) ومصنع لأدوات التجميل والزينة في (تركيا)..

قال (العقرب) في اهتمام:

- إنها تملك امبراطورية اقتصادية إذن؟

أجابه (هاني):

- إنها تستخدم المصطلح نفسه لوصف ممتلكاتها، ويروق لها أحيانا أن تطلق على نفسها اسم (الإمبراطورة).

ردد (العقرب) في خفوت:

- الإمبراطورة؟!

ثم ارتفع صوته الحازم، وهو يستطرد:

- كيف كونت هذه الثروة الهائلة في رأيك؟

ازدرد (هاني) لعابه مرة أخرى، وأجاب:

- يردد البعض أنها كانت متزوجة من مليونير تركي، اورثها كل ثروته، التي استغلت بعضها لبدء نشاطها هنا.

غمغم (العقرب):

- تغطية جيدة.

ثم سأله مرة أخرى في حزم:

- أهذا كل ما تعلمه عنها؟

أجابه (هاني) في حدة:

- الباقي مجرد امور تتعلق بالعمل، ولن أكشفها لك..

مال (العقرب) نحوه، وتطلع إلى عينيه مباشرة، وهو يقول:

- أتعني أنك لا تعلم حقيقة المرأة، التي تعمل لديها؟

عقد (هاني) حاجبيه، وقال في عصبية:

- ماذا تعني بالضبط؟

اعتدل (العقرب)، والتقط من جيبه بطاقة بيضاء انيقة، يتوسطها رسم لعقرب ذهبي، وناولها لـ (هاني) مجيبا:

- ستعرف ما الذي أعنيه يوما ما يا رجل.. المهم أن تسلم هذه البطاقة لرئيستك، وتخبرها انني الآن خلفها.

حدق (هاني) في البطاقة في دهشة، وقال:

- ما الذي تعنيه هذه البطاقة؟ وما معنى رسم العقرب الذهبي في منتصفها و.

شعر فجأة أنه يتحدث إلى نفسه، فرفع عينيه إلى حيث

يقف (العقرب)، وقال:

- إنك لا تجيبني على..

بتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه في ذهول، فقد كانت الردهة خالية تماما، وباب الشقة ما زال مغلقا، فهتف (هاني) ذاهلا:

- رباه!! اهو شبح!!

انتبه إلى أن باب حجرته مفتوح، فقفز من مقعده، واندفع نحو الحجرة، ولكنها كانت خالية بدورها، إلا من مسدسه الموضوع في منتصف فراشه، والنافذة مفتوحة على مصراعيها..

وعندما تطلع (هاني) عبر النافذة، كان الظلام يسود في الخارج تماما، فغمغم في حنق:

- يا للثعلب!

وتوقف لحظات يتطلع إلى بطاقة (العقرب)، ثم قال في حزم:

- ولكنه لن يصمد أمام القانون..

وبحركة حاسمة، رفع سماعة الهاتف المجاور لفراشه، وادار قرصه ثلاث مرات متوالية، وقال:

- شرطة النجدة؟ أنا (هاني عبد الله).. السكرتير الخاص لمجموعة شركات (چيلان شوكت).. اريد ان ابلغ عن جريمة...

وتنهد في حرارة، قبل أن يستطرد:

- جريمة من نوع غريب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اوقفت (غادة) سيارتها أسفل البناية، التي تقيم فيها، وغادرتها شاردة الذهن، تسترجع في ذاكرتها كل ما حدث، منذ مصرع أمها، وتتساءل في أعماقها عن الوسيلة التي سيتبعها (نديم) هذه المرة، ليواجه امرأة قوية في المجتمع، ويكشف أمرها للجميع، وخيل إليها أن هذه العملية ستكون أكثر تعقيدا من عمليتيه السابقتين..

ولم تدر لماذا جال هذا بخاطرها، على الرغم من أن (العقرب) قد انتصر على عملاقين سابقا؟؟

ربما لأنها لم تكن تبغض الخصمين السابقين، مثلما تبغض هذه المرأة!

أو ربما لأنها تنظر إلى هذه القضية بالذات، من منظور شخصي بحت!

او هي غريزة المرأة في اعماقها!

انتزعها من شرودها فجأة صوت خشن، يقول:

- الانسة (غادة)؟

استدارت إلى مصدر الصوت في حركة حادة، ورأت أمامها ضابط من ضباط الشرطة برتبة (نقيب) وإلى جواره شرطي عادي، فقالت في عصبية:

- لقد أفزعتني أيها الضابط.. نعم.. أنا هي (غادة) ماذا تريد مني؟؟

وقبل أن تفهم ما يحدث ارتفعت يد الضابط إلى رأسها بمسدس كبير، وسمعته يقول في سخرية، مصوبا إليها كاتم الصوت، في نهاية المسدس:

- حياتك أيتها الجميلة..

وضغط الزناد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- وبدأت المعركة..

لا أحد يمكنه أن يفسر كيف يحدث هذا..

إن المرء يتعرض لخطر ما، فيشحذ هذا الخطر حواسه وأعصابه، ويدفع كميات هائلة من (الأدرينالين) عبر عروقه، وتنشط ذاكرته لفحص الخطر المواجه، ومقارنته بالمخاطر التي تعرض لها الجسم مسبقا، ثم تنطلق غريزة البقاء من عقالها، وتشارك مع كل العوامل السالف ذكرها، لدفع المرء إلى اتخاذ وسيلة الدفاع المناسبة.. وهذا ما حدث مع (غادة)..

لقد رأت ذلك الضابط برفع مسدسه في وجهها، وسبابته تضغط الزناد، فانحنت على نحو غريزي، وسمعت ازيز الرصاصة فوق راسها، وفي أذنيها، فصرخت في غضب:

ـ ايها الوغد...

ومما لا شك فيه أن الرجل لم يكن يتوقع أبدا ما حدث في اللحظات التالية، فقد اندفعت قدم (غادة) إلى معدته، وغاصت فيها كالقنبلة، و (غادة) تهتف:

- إنك تستحق هذا..

ثم قفزت قدمها الأخرى إلى انفه، وهشمته بركلة عنيفة، جعلته يتأوه في شدة، وهو يسقط على وجهه أرضا..

وانتزع الجندي المصاحب له بندقيته، وهو يقول:

- محاولة جيدة، ولكن..

غاصت (غادة) بجسدها إلى أسفل، وهوت بقبضتها على معدته، وقالت:

- ولكن ماذا؟

تراجع الرجل خطوة، ثم ضربها بكعب بندقيته في معدتها، وهو يهتفا:

- ولكنكِ امرأة.

شعرت بآلام شديدة في معدتها، ولكنها قاومتها، وهي تمسك ماسورة بندقيته، وتقفز بقدميها، لتركل صدره، صائحة:

- النساء يُجدن القفز..

وقبل أن يسقط، كانت تركل أنفه أيضا، مستطردة:

- وتحطيم الأنوف.

سقط الجندي أرضا، وراح يصرخ في الم، وهو يمسك انفه المحطم، الذي سال منه الدم غزيرا، في حين صوبت هي بندقية الجندي إلى الرجلين، قائلة في حزم:

- والآن.. من منكما سيبدأ في إبلاغي بما وراءكما؟

ارتفع فجأة صوت يموج بالدهشة والاستنكار من خلفها، هاتفا:

- ماذا تفعلين؟

اقترن الصوت بصرير إطارات سيارة تتوقف، مما جعلها تلتفت خافها في مسرعة، فوقع بصرها على سيارة من سيارات الشرطة، وقد هبط منها ضابط برتبة نقيب، وثلاثة جنود، وكلهم يصوبون إليها أسلحتهم، والضابط يستطرد:

- هل جننتِ؟!.. ألقِ سلاحك أو نطلق النار.

قالت (غادة) في حدة:

- لا تجعل المظاهر تخدعك ايها الضابط.. إنهما ليسا زميلين لكم، فلقد حاولا قتلى منذ قليل..

نقل الضابط بصره بينها وبين الضابط والجندي، اللذين نهضا من سقطتهما، فقال الضابط المزيف:

- لا تصدقها أيها الزميل.. لقد ضبطناها متلبسة، ولكنها نجحت في انتزاع سلاحنا، وحاولت التخلص منا.

هتفت (غادة) في غضب:

- هل تصدقهما؛ لمجرد انهما يرتديان زيا رسميا؟

أجابها الضابط في حزم:

- لن أبدأ عملية التصديق أو النفي، إلا بعد أن أتسلم سلاحك يا سيدتي..

القت البندقية ارضا، وهي تقول:

- فليكن.. إنني شرطية سابقة، واعلم القواعد في مثل هذه الظروف، و.

قاطعتها ابتسامة ساخرة، ارتسمت على شفتي الضابط، الذي يصوب إليها مسدسه، فهتفت غاضبة:

- إذن فأنت أيضا..

قاطعها ساخرا:

- نعم كلنا من فريق واحد

قفزت محاولة التقاط البندقية مرة أخرى، ولكن الضابط المزيف قفز نحوها بدوره، وهوى على راسها بكعب مسدسه:

وأظلمت الدنيا فجأة أمام عيني (غادة).. وسقطت فاقدة الوعي..

وفي ارتياح بالغ، أطلق الضابط المزيف الأول زفرة حارة، وهتف:

- لقد وصلتم في اللحظة المناسبة.. لقد فاجأتنا تلك اللعينة بقدرتها الفائقة على القتال، حتى أننا لم نصمد أمامها، وكادت تهزمنا بالفعل، لولا وصولكما..

ثم التقط مسدسه من الأرض، وهو يستطرد في حزم:

- ولكنها ستدفع الثمن..

سأله زميله:

- ماذا ستفعل؟

صوب الرجل فوهة المسدس إلى راس (غادة) الفاقدة الوعي، وهو يقول:

- هل تسألني.. سأنفذ الأوامر بالطبع..

وأردف في شراسة، وهو يجذب إبرة المسدس:

- سأقتلها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تألقت عينا العقيد (مجدي) وهو يقلب بطاقة (العقرب) الأنيقة بين أصابعه، ثم مط شفتيه، وهو يقول لضابط شرطة النجدة في انفعال:

- احسنت صنعا باستدعائي ايها النقيب.. إنها قضية تهمني بالفعل..

اجابه نقيب الشرطة في ارتياح:

- كنت أنفذ الأوامر يا سيدي، وهي تقتضي ضرورة ابلاغك شخصيا بكل قضية نعثر فيها على مثل هذه البطاقة.

أومأ (مجدي) برأسه، قائلا:

- هذا صحيح

ثم اتجه إلى حيث يقف (هاني)، وفحصه بنظرة واحدة سريعة، قبل أن يقول:

- إذن فقد زارك (العقرب) هذا المساء..

عقد هاني) حاجبيه، وهو يقول في عصبية:

- نعم لقد فعل، وكانت هذه أول مرة اسمع فيها بوجود مجرم مقنع شهير مثله..

تجاهل (مجدي) الجزء الثاني من عبارة (هاني)، وسأله في لهفة واضحة:

- ماذا كان يريد بالضبط؟

اشار (هاني) إلى نقيب الشرطة، قائلا:

- لقد اخبرت ذلك النقيب بكل ما حدث، و.

قاطعه (مجدي) في حدة:

- وستقص عليّ الأمر كله منذ البداية.. هل تفهم؟

هتف (هاني) في عصبية:

- لا لست أفهم.. افهمني انت من المخطئ هنا، أنا أم ذلك المقنع!!

التقط (مجدي) أنفاسه في عمق، في محاولة للسيطرة على أعصابه، وهو يقول:

- معذرة لتوتر أعصابي، ولكن هذا المجرم يقلقنا منذ زمن، والمفروض أن يعاوننا كل مواطن شريف، ثم لان صوته، وهو يستطرد:

- والآن هلا قصصت على الأمر كله؟

وأمام هذا الأسلوب المنمق، راح (هاني) يقص كل ما حدث على مسامع (مجدي)، الذي استمع إليه في اهتمام، ثم سأله:

- ولكن لماذا يسعى (العقرب) لجمع المعلومات عن (چيلان شوكت)؟

اجابة (هاني) في انفعال:

- لا ريب أنه يزمع سرقتها..

مط (مجدي) شفتيه، مغمغما:

- ليس هذا أسلوبه.

ثم أخرج من جيبه صورة ملونة لـ (نديم فوزي)، وضعها امام عيني (هاني)، وسأله:

- قل لي: هل يشبه هذا الرجل؟

تطلع (هاني) إلى الصورة طويلا، ثم هز رأسه، قائلا:

- لست أدري..

فسأله (مجدي) في حسم:

- ماذا تعني بأنك لست تدري؟ إنني ألقي عليك سؤالا لا يحتمل سوى جواب من اثنين: نعم، او لا..

هز (هاني) راسه مرة أخرى، وهو يقول في حدة:

- ليس في هذه الحالة.. لقد رأيت رجلا مقنعا، وهذا ليس كذلك، ولا يمكنني الجزم بأنهما رجل واحد..

أعاد (مجدي) الصورة إلى جيبه في حدة، وهو يقول في غيظ:

- إنها نفس النقطة التي يفلت بها ذلك اللعين دوما.. نقطة أن الشك دائما في صالح المتهم..

ثم ضم قبضته، مستطردا في غضب:

- ولكنه لن يفلت من يدي هذه المرة.. أبدا..

والعجيب أن مشكلة (مجدي) لم تكن أبدا معرفة الشخص المسئول..

أو حتى العثور عليه..

كانت المشكلة دائما هي إدانته..

ولكن مشكلته هذه المرة ستكون - بالفعل - هي العثور على (نديم فوزي)..

على قيد الحياة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد (نديم) مباشرة، من منزل (هاني) إلى مكتبه، حيث أخفى زي (لعقرب) في خزانته السرية، وجلس خلف مكتبه، يراجع ما لديه من معلومات، ثم لم يلبث أن غمغم في حيرة:

- عجبا!! الأمور تبدو كلها محيرة بالفعل، على الرغم من شعوري الداخلي، الذي يؤكد لي ان (چيلان شوكت) هذه تخفي أمرا يخالف القانون..

تنهد في عمق، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه، وهو يتابع في خفوت، متحدثا إلى نفسه:

- (غادة) تؤكد أن (چيلان) هي نفسها (فوقية رضوان)، إمبراطورة تزوير النقد السابقة، ولكن أعمال (چيلان) كلها تبدو قانونية، على الرغم من ردود أفعالها المريبة، و.

بتر عبارته بغتة، عندها تناهى إلى مسامعه صوت خافت، جعله يهب واقفا، ويعقد حاجبيه في قلق، ثم يتحرك في خفة نحو باب المكتب، ويفتحه في حركة حادة، ولكن الردهة كانت خالية تماما، مما جعله يتمتم في حيرة:

- خيل إلى لحظة ان..

عندما بتر عبارته هذه المرة، كان السبب يختلف لقد لمح بطرف عينيه رجلا ضخم الجثة، ينقض عليه من خلف ستار الممر الداخلي، وهو يرفع خنجرا حادا، تأهبا لإغماده في قلبه..

وبسرعة مدهشة، ورد فعل رائع، مال (نديم) جانبا، ورأى الخنجر يطعن الهواء، ويهوي أمام عينيه، فتحركت قبضته في سرعة كالقنبلة، وهوت على فك الرجل الضخم وبقفزة إلى الخلف، بدا المشهد كله واضحا أمام عيني (نديم)..

إنه لم يكن يواجه رجلا واحدا..

بل ثلاثة رجال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد سقط أولهم ارضًا، إثر لكمة (نديم)، وطار خنجره من يده، في نفس اللحظة التي برز فيها الرجلان الآخران من خلف الستارة نفسها، وكلاهما يحمل خنجرا ماضيا.. ودون تبادل كلمة واحدة، انقض الرجلان على (نديم).

وتلقى (نديم) ذراع الأول على مساعده، ثم حطم أنفه بلكمة ساحقة، وهو يضرب الثاني بقدمه، ولكن الرجل الساقط أرضا

التقط خنجره مرة أخرى، وانقض على (قديم)، وهوي عليه بخنجره الحاد..

ومزق الخنجر كُم سترة (نديم)، وجرح ذراعه، وأسال دمه، ولكن (نديم) تراجع في رشاقة، وكال للرجل لكمة ساحقة في أسنانه تماما..

أعجب ما في هذا الصراع، هو أنه قد دار في صمت تام، كما لو كان مشهدا صامتا في فيلم سينمائي قديم.. إلا من صوت اللكمات والقبضات..

وكان (نديم) باسلا قويًا شجاعا..

ولكن..

قال الحكماء قديمًا: «الكثرة تهزم الشجاعة»..

وهذا صحيح..

لقد أحاط المجرمون الثلاثة ب (نديم)، وارتفعت خناجرهم من حوله، و...

وابتسم الموت....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- قواعد اللعبة.

ثانية واحدة وتلقى (غادة) مصرعها، وهي فاقدة الوعي.. فوهة المسدس المزود بكاتم للصوت مصوبة إلى رأسها، وسبابة الضابط المزيف تهم باعتصار الزناد، وإطلاق رصاصة الموت، و.

وفجأة أمسك الضابط المزيف الآخر معصم زميله، وأبعد فوهة المسدس جانبًا، وهو يقول:

- رويدك يا رجل.. ليس الآن.

هتف به الأول في غضب:

- ماذا تفعل.. الأوامر تقتضي قتلها، والفرصة سانحة، والشارع خال و...

قاطعه زميله في حزم:

- لقد تغيرت الأوامر؛ ولهذا نحن هنا.

سأله في حدة:

- ماذا تعني بأن الأوامر قد تغيرت؟

اجابه بنفس الحزم، وهو ينتزع منه المسدس:

- أبدلت الإمبراطورة رأيها، وقررت الحصول على الفتاة، على قيد الحياة أولا..

هتف الأول محنقا:

- لماذا؟

اجابه في خشونة:

- ليس هذا من شأننا.

ثم التفت إلى الجنود المزيفين حوله، واستطرد:

- هيا.. احملوها إلى السيارة، قبل أن يشير وجودنا فضول البعض، أو تصل دورية شرطة حقيقية.. هيا.

أسرع الرجال يحملون (غادة) إلى سيارتهم، وانطلقوا بها مبتعدين..

نحو مصير مجهول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الخناجر الحادة ترتفع عاليا، والوحشية التي تنبض بها قلوب المجرمين تزأر في شراسة، والموت يبتسم متلهفا لانتزاع روح جديدة..

وفجأة تبدل كل شيء..

اقتحم المكان ضابط شاب، انتزع مسدسه في صرامة، وهو يهتف:

- كلٌ في مكانه، سأطلق النار على اول من يتحرك منكم..

ولكن أحد المجرمين الثلاثة دار على عقبيه في سرعة، وألقى خنجره نحو القادم الجديد..

وأطلق الضابط رصاصة مسدسه، وأسقط المجرم..

وانغرز الخنجر في إطار الباب، على قيد سنتيمترات من راس الضابط، في نفس اللحظة التي تحرك فيها (نديم) هاتفًا

- شكرا.

حطمت قبضته فك أقرب الرجلين الباقيين إليه، ثم استدار يواجه الثالث، الذي دفع خنجره نحو رقبة (نديم) صارخا:

- لن تربح.

ولكن راس (نديم) تحرك جانبا، وتفادي النصل القاتل، ثم طارت قدمه لترتطم بمعدة الرجل، ووثبت الأخرى تحطم اسنانه..

وسقط المجرم الثالث أرضا..

واندفع (نديم) نحو الضابط، هاتفا:

- هل انت بخير؟

اعتدل الضابط، الذي لم يكن سوى العقيد (مجدي)، وقال في حدة، وهو يهندم زيه الرسمي في عصبية:

- المفروض أن ألقي أنا هذا السؤال، الا يكفي انني قد لاحظت العراك الصامت؟

ثم أشار إلى الرجال الفاقدي الوعي، مستطردا:

- من هؤلاء بالله عليك؟

اجابه (نديم) في هدوء:

- دعني أستعير عبارتك السابقة، فالمفروض أن ألقي انا هذا السؤال..

قال (مجدي) في حدة:

- اسمع يا (نديم).. إنني أبغض اسلوب الثعلب هذا، الذي تتعامل به مع الجميع، واؤكد لك أنك لن تخدعني ابدا، ولن تقنعني أنك تجهل هوية ثلاثة رجال، أرادوا قتلك في عقر مكتبك..

قال (نديم) في برود:

- عليك أن تجد الدليل على معرفتي لهم

صاح (مجدي) في غضب:

- أهذا ما تفعله دوما.. ان تستغل ثغرات القانون؟

هز (نديم) راسه نفيا، وقال:

- على العكس ايها العقيد.. إنني أرتق تلك الثغرات.

رمته (مجدي) بنظرة حادة، وقال:

- في شخصية (العقرب).. اليس كذلك؟

هز (نديم) كتفيه، وقال في برود:

- ربما..

التقت نظراتهما طويلا في عناد وصرامة وحزم، قبل أن يردف (نديم):

- ولكنك أنقذت حياتي على أية حال..

مط (مجدي) شفتيه، وقال:

- للأسف.. ولكنك مصاب بجرح في ذراعك، يحتاج الى ضمادة.

وألقى جسده على أقرب مقعد إليه، وهو يستطرد:

- قل لي: هل تعرف (چيلان شوكت)؟

أجابه (نديم) في بساطة:

- بالتأكيد.. إنها سيدة مجتمع شهيرة.

- وماذا ايضا؟

- وسيدة أعمال ايضا.

- رائع.. لماذا - في تصورك - بسعي (العقرب) خلف سيدة مثلها؟

- يمكنك أن تطرح هذا السؤال عليه مباشرة.

- إنني أفعل..

ـ ولكننا وحدنا هنا..

عقد (مجدي) حاجبيه في غضب وتوتر، وقال:

- اسمع يا (نديم).. كلانا يعرف شخصية (العقرب) الحقيقية، وذلك الهوس الذي يملأ عقله، بشأن الفارق بين العدالة والقانون، وكلانا يعلم ايضا انه - على الرغم من مخالفته للقانون - لا يطارد إلا أولئك الذين يعبثون بالقانون.. أهذا صحيح؟

أومأ (نديم) برأسه موافقا، دون أن يلفظ حرفا واحدا، فتابع (مجدي)، وكأنه لم يكن ينتظر جوابا:

- نبشه حياة (چيلان شوكت) إذن، واقتحامه لمنزل سكرتيرها الخاص عنوة، بحثا عن المزيد من المعلومات عنها، يعنيان ان (چيلان) - في رابه - تخالف القانون، فما نوع هذه المخالفة؟

ران عليهما الصمت طويلا، ثم قال (نديم) في بطء:

- لم لا تنبش ماضيها بدورك، بحثا عن الجواب؟

بدا الحنق على وجه (مجدي)، وخيل ل (نديم) لحظة انه سينفجر ساخطا، إلا أنه لم يلبث أن غمغم:

ـ سأفعل..

ثم نهض من مقعده في حدة، وأشار إلى المجرمين الثلاثة الفاقدي الوعي، مردفا:

- بعد أن اتخلص من اكوام القمامة هذه.

وكان من الواضح أن الصراع ما زال يواصل انحرافه الحاد..

نحو نقطة مجهولة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استعادت (غادة) وعيها مع صداع شديد، جعلها تتأوه في الم، هاتفة في صوت واهن ضعيف:

- اين انا؟

ارادت أن ترفع يدها إلى راسها، ولكن شيئا ما كان يكبل معصمها، مما جعلها تفتح عينيها في حيرة، قبل أن تهتف، وقد اتسعت عيناها عن آخرهما بغتة:

- أنتِ؟!

كانت تجلس أمامها في هدوء، (چيلان شوكت)، تنفث دخان سيجارتها في بطء، وتتطلع إليها بعينين زرقاوين، وابتسامة ساخرة شامتة..

وبكل الغضب الكامن في اعماقها، صرخت (غادة):

- ايتها القاتلة الحقيرة..

جاوبتها ضحكة ساخرة، انطلقت من بين شفتي (چيلان)، قبل أن تميل نحوها، وتقول ساخرة:

- الديك دليل؟

. قالت (غادة) في غضب:

- بالتأكيد..

تراجعت (چيلان) في هدوء، وهي تقول:

- انت كاذبة.

قالت (غادة) في حدة:

- أتراهنين؟

أجابتها في برود:

- نعم.. اراهن بحياتك مقابل ما لديك من وثائق.. ما رأيك؟

ترددت (غادة) لحظة، فقد كانت العبارة - على الرغم من صرامتها - تحمل معنىً خفيًا بأن (چيلان) تحمل بعض الشك في صحة وجود مثل هذه الوثائق، وكان من الضروري أن تلعب (غادة) بهذه الورقة، حتى آخر رمق.. هذه هي قواعد اللعبة..

وفي حزم، قالت (غادة):

- اقتليني لو أردت، ولكنني لن أمنحك سلاح هدمك ابدا.

قالت (چيلان) في هدوء:

- هكذا!

ثم امالت راسها نحو (غادة)، لتلتقي عيونهما، وهي تردف:

- أهذا رأي زميلك ايضا؟

- لم تجب (غادة) على الفور..

كانت تتطلع إلى عيني (چيلان) في اهتمام بالغ، وحيرة شديدة، ثم لم تلبث أن تطلعت إلى وجهها كله، وهي تغمغم في شرود:

- لست أدري.

ثم انتفضت فجأة، وكأنها تفيق من حلم عميق، وأضافت في حزم:

- إنه سيتفق معي في الرأي حتما.

أطلقت (چيلان) ضحكة ساخرة أخرى، وهي تتراجع في مقعدها مبتعدة، وقالت في تهكم لاذع:

- هذا لو أنه ما زال ينتمي إلى عالمنا..

لم تكد تتم عبارتها، حتى ارتفع رنين الهاتف المجاور لها، فالتقطت سماعته في سرعة، ووضعتها على اذنها، قائلة:

- من المتحدث؟

رأتها (غادة) تعقد حاجبيها في شدة، وتبدو – عبر ملامحها - كما لو أن ما تسمعه لم يرق لها أبدا، قبل ان تقول في حزم:

- لا بأس.. عُد على الفور.. عد على الفور.. لديَّ خطة بديلة.

وأعادت سماعة الهاتف إلى موضعها، وهي تلتفت إلى (غادة)، قائلة:

- يبدو أن رفيقك هذا ليس بالرجل السهل...

ابتسمت (غادة) في ثقة، وهي تقول:

ـ أكثر مما يمكنك تصوره..

تطلعت إليها (چيلان) لحظة في صمت، ثم قالت في هدوء وهي تنفث دخان سيجارتها في عمق:

- لم يحن الوقت بعد للجزم بهذا.

وعادت تميل نحو (غادة): متابعة في حزم:

- لكل مخلوق في هذه الدنيا نقطة ضعف..

ثم اعتدلت بغتة، مستطردة:

- فيما عداي.

غمغمت (غادة) في مقت:

- يا للغرور!

ابتسمت (حبلان) في سخرية، وقالت:

- بل قولي: يا العبقرية!!

وفي هذه المرة كانت ابتسامتها تحمل شيئا أكثر من مجرد السخرية..

كانت تحمل صورة قاتمة مخيفة..

صورة الموت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- المساومة..

وصل (نديم) إلى مكتبه، في تمام الثامنة صباحا كالمعتاد، وسأل عم (احمد)، وهو يدلف إلى مكتبه:

- صباح الخير يا عم (احمد).. الم تصل الآنسة (غادة) بعد؟

أجابه (أحمد)، وهو يبتسم في حنان:

إنها تصل بعدك بنصف الساعة تقريبا.

ثم أشار إلى أرضية ردهة المكتب، مستطردا في حيرة:

- ولكن أخبرني يا سيدي.. الديك فكرة عن سر تلك البقع الحمراء على الأرضية؟ إنها تبدو لي أشبه ببقع دموية متجمدة.

قال (نديم) في هدوء:

- إنها كذلك بالفعل..

ارتم مزيج من الذعر والدهشة على وجه (احمد) في حين تابع (نديم) بنفس الهدوء:

- لقد اصيب أحد عملاء المكتب بنزيف انفي غزير.

هتف (أحمد):

- متى؟ لقد غادرت المكتب بعد التاسعة..

قاطعه (نديم):

لقد حدث هذا في منتصف الليل تقريبا.

عاد (احمد) يحدق في بقعة الدم، مغمغما:

- عجبًا!!

تركه (نديم) في حيرته، ودلف إلى حجرة مكتبه الخاصة، واغلقها خلفه، ثم جلس خلف مكتبه، يتحسس الضمادة الصغيرة على ذراعه كان جرحه سطحيا بسيطا، وكان من الممكن ان يصبح غائرا شديدا، لولا الزجاج نصف الشفاف، الذي يكون ثلث باب الشقة تقريبا، والذي سمح لـ (مجدي) برؤية ما يحدث في ردهتها، والتدخل في الوقت المناسب..

إنها عناية الله سبحانه وتعالى) ولا شك..

تنهد في عمق، وهو يستعيد الذكري، قبل أن ينطلق رنين الهاتف بغتة، فمد يده في هدوء يلتقط سماعته، وقال:

- هنا مكتب (نديم فوزي) المحامي.. من المتحدث؟

أتاه صوت أنثوي مألوف، يقول:

- من الطريف أن أجدك خلف مكتبك، في هذه الساعة.. هذا يؤكد أنك تميل حقا إلى النشاط.

تعرّف صوت (چيلان شوكت) على الفور، فأجاب في هدوء:

- هذا ينطبق عليك أيضا يا سيدة (چيلان).

جاوبته ضحكة عابثة طويلة، على الطرف الآخر للهاتف، قبل أن تقول (چيلان):

ـ رائع.. ألمعيتك هذه تجعل اللعبة أكثر إمتاعًا.

قال دون مبالاة:

- اية لعبة!

وبدلا من أن تجيبه، سألته:

- قل لي: هل وصلت زميلتك العزيزة إلى المكتب؟

استشعر قلقا خفيا في أعماقه، لم يمنعه من أن يقول في هدوء:

- ليس بعد.

اجابت في أسف ساخر مفتعل:

- يا للخسارة! اردت تعزيتها في مصرع أمها الصحفية اللامعة، منذ عشر سنوات تقريبا..

توترت عضلاته كلها، وهو يستمع في انتباه، دون أن ينبس بحرف واحد، في حين تابعت هي:

- ولقد سرت شائعة بأنها تملك بعض الوثائق، التي تدين القاتلة، ولكنني تأكدت منها بأنها لا تحمل شيئا من تلك الوثائق.

ضغطت حروف كلمة (منها)، وكأنها تتعمد إرسال رسالة خاصة إلى (نديم)، الذي استقبل المعني بالتأكيد، وكادت قبضته تعتصر سماعة الهاتف، على الرغم من أن صوته لم يفقد نبرته الهادئة، وهو يسألها:

- واين (غادة) الآن؟

بدا له صوتها جدلا، ساخرا، وهي تقول:

- حاول ان تخمن.

سيطر على اعصابه في شدة، وهو يقول لها:

- لقد أسعدني حديثك كثيرا يا سيدة (چيلان)، وأرجو منك إبلاغ (غادة) أنني أنتظر حضورها إلى المكتب في سرعة، وإلا..

قاطعته (چيلان) في حزم:

- لست اظنها ستحضر إلى مكتبك اليوم.. او حتى في الأيام القادمة، وإلى الأبد، إلا إذا حملت انت تلك الوثائق، التي اشك في

وجود مثلها، وأتيت لتسليمها إلى (أكرم)، محاميّ الخاص.

ران عليهما الصمت لحظات طوالا، شعر خلالها (نديم) بمقت شديد تجاه (چيلان شوكت) وأسلوبها الشبيه بالأفعى، ثم لم يلبث أن قال في اقتضاب:

- متى وأين؟

أجابته في اقتضاب مماثل:

- الثانية عشرة من مساء الليلة، في مكتب (أكرم).. سأكون هناك...

وقبل أن يلقى سؤالا إضافيا واحدا، كانت قد انهت الاتصال دفعة واحدة....

وبقي (نديم) لحظات ممسكا سماعة الهاتف، وذلك الصوت الهاتفي الرتيب ينتقل منها إلى أذنه، معلنا انتهاء المحادثة، قبل أن يعيد هو السماعة إلى موضعها في بطء، ويعقد حاجبيه في شدة..

لقد كشفت (چيلان) امر (غادة)، وخطفتها بوسيلة ما، التساوم من اجل الحصول على الوثائق، التي لا وجود لها بالفعل..

ولكن (چيلان) تشك في وجود مثل هذه الوثائق حتما..

وهذه هي الورقة الباقية في اللعبة..

الورقة الأخيرة..

لا.. ما زالت هناك ورقة أخرى..

قفزت العبارة الأخيرة إلى ذهنه فجأة، فمد يده يضغط زرا خفيا في مكتبه، انفرجت على إثره فرجة صغيرة في المكتب، التقط

منها بطاقة بيضاء انيقة، تحمل رسما لعقرب ذهبي، واضاف عقله..

هناك تلك الورقة..

ورقة (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس اللواء (حلمي) منهمكا في قراءة ملف ضخم، من ملفات تحريات إدارة المباحث الجنائية، التي يرأسها، عندما سمع دقات عنيفة على باب حجرته، فزفر في ضجر، وقال:

- ادخل يا (مجدي).

دفع العقيد (مجدي) الباب، ودخل إلى حجرة اللواء (حلمي)، وهو يقول:

- يدهشني دائما تعرفك إياي يا سيدي، عندما أطرق بابك.

ابتسم (حلمي)، وقال:

- يمكنك ان تقول: إن لك أسلوبا متميزا يا (مجدي). ثم أشار إلى المقعد المقابل لمكتبه، مستطردا: اجلس، وأخبرني ماذا تريد؟

جلس (مجدي)، وهو يحك مؤخرة رأسه، كعادته كلما وجد صعوبة في بدء حديث ما، فأضاف (حلمي):

- هات ما لديك، فكلي آذان صاغية.

التقط (مجدي) نفسا عميقا، وقال:

- لقد ظهر (العقرب) مرة أخرى.

شحذت العبارة حراس (حلمي) كلها، فترك الملف من يده، ومال بجسده كله تقريبا نحو (مجدي)، وهو يردد في انفعال:

- ظهر؟

اومأ (مجدي) برأسه ايجابا، وقال:

- نعم.. لقد بدا يلعب لعبته التقليدية، حول واحدة من سيدات الأعمال والمجتمع هذه المرة.

سأله (حلمي) في اهتمام:

- من هي؟

أجابه (مجدي) على الفور

- (چيلان).. (چيلان شوكت).

مضت لحظات من الصمت بعد الجواب، إلى أن قال (حلمي) في خفوت:

- وما رأيك انت؟

تنهد (مجدي) في عمق، وبدا مترددا لحظات، ثم قال:

- أنت تعلم رأيي بشأن (العقرب) واسلوبه يا سيدي، فـ (نديم) يخالف القانون بهذا، و...

قاطعه (حلمي) في حزم:

- ليس لدينا دليل على أن نديم) هو (العقرب)..

زفر (مجدي) مرة أخرى، وقال:

فليكن.. إنني أرى أن (العقرب) هذا، أيا كانت هويته، يخالف القانون بسعيه وراء الجريمة والمجرمين، دون صفة رسمية او

قانونية، ولكن..

توقف لحظات، تضاعف خلالها تردده، مما جعل اللواء (حلمي) يغمغم، محاولا تشجيعه على المضي في حديثه:

- ولكن ماذا؟

تردد (مجدي) لحظة أخرى، ثم اندفع بقول:

- ولكن (العقرب) لا يهاجم عادة إلا المجرمين..

تراجع (حلمي) في مقعده، وسأله:

ـ وما الذي يعنيه هذا بالنسبة لك؟

هز (مجدي) رأسه قائلا:

ـ يعني ان (چيلان شوكت) تخفي أمرا ما يخالف القانون، وهو اول ما دار بخلدي، فور معرفتي سعي (العقرب) خلفها، مما دفعني إلى جمع أكبر قدر من المعلومات عنها.. ولم يكن ذلك عسيرا، فلقد وجدت لها ملفا بإدارة الجوازات، حيث إنها كانت زوجة لمليونير تركي وتملك مصنعا لأدوات التجميل في (اسطنبول)، وتحمل الجنسيتين: التركية والمصرية، وتستورد أدوات التجميل التي ينتجها مصنعها، وهذا يضيف إليها ملفا في إدارة الاستيراد، و...

قاطعه (حلمي) في فضول:

المهم ما الذي توصلت إليه؟

لوح (حلمي) بذراعيه هاتفا:

- لا شيء...

رفع (حلمي) حاجبيه في دهشة، قائلا:

- لا شيء؟! مطلقا؟

لوح (حلمي) بذراعيه مرة اخرى، مجيبا في حنق:

- مطلقا.. كل اوراقها رسمية، قانونية، سليمة، واعمالها تسير على خير ما يرام، وبشكل قانوني سليم، فلا توجد حتى مخالفة جمركية او ضربة واحدة.. إنها باختصار نظيفة تماما..

بدا هذا الأمر محيرا بالنسبة للواء (حلمي)، الذي اعتاد أن يكون خصوم (العقرب) دائما من عتاة الجريمة، الذين يغفل عنهم القانون، او يعجز عن الإيقاع بهم، ولم يستطع إقناع نفسه بأن (نديم) قد أخطأ اختيار خصمه هذه المرة، وهو صاحب الشخصية الرصينة المتأنية، و.

قفزت إلى ذهنه فجأة فكرة، جعلته يسأل (مجدي):

- الم تراودك فكرة الا تكون (چيلان) ذاتها هي المقصودة؟

عقد (مجدي) حاجبيه، وهو يسأله في دهشة:

- ماذا تعني يا سيدي؟

أجابه في حماس:

- أعني أنه من المحتمل أن (العقرب) بسعي خلف أحد رجال (چيلان)، وليس خلف (چيلان) نفسها..

هز (مجدي) راسه نفيا، واجاب:

. لقد درست هذا الاحتمال يا سيدي، ولكن الأسلوب الذي اتبعه (العقرب)، والأسئلة التي القاها كلها، تؤكد انه يسعى خلف (چيلان) دون سواها.

عاد (حلمي) إلى حيرته، وهو يغمغم:

- لا ريب أن لديه مبررات نجهلها إذن.

وصمت لحظات مفكرا، ثم رفع عينيه إلى (مجدي)، وقال في حزم:

- لا بأس يا (مجدي).. أترك لي هذا الأمر حتى الغد، وستجد لدي جوابا بإذن الله..

وخفت صوته حتى لم يعد يسمعه سواه، وهو يستطرد:

- من (العقرب) نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صاحت (چيلان)، في وجه سكرتيرها الخاص (هاني) في غضب:

- أبلغت الشرطة؟! من سمح لك أن تفعل؟

أجابها (هاني) في دهشة:

- لم يكن هذا يحتاج إلى استئذان أي شخص يا سيدة (چيلان).. لقد اقتحم ذلك المقنع منزلي عنوة، واجبرني على الإدلاء ببعض المعلومات، وكان من الطبيعي بعد انصرافه أن أبلغ الشرطة، كما ينبغي أن يفعل أي مواطن شريف.

نفت دخان سيجارتها في عصبية، وهي تقول:

- إنني أبغض تدخل الشرطة في شئون شركاتي؛ هذا يعرض سمعتنا للقيل والقال..

قال (هاني) في ضيق:

- ولكنه أمر شخصي تماما يا سيدتي..

هتفت في حنق:

- فليكن.. كان ينبغي أن تستشيرني أولا.

ولوحت بذراعها في حدة، مستطردة:

- ثم ما معنى القناع والزى الأسود؟! أفي (شيكاغو) نحن، أم في فيلم سينمائي هزلي؟

عقد محاميها (أكرم)، الذي بقي صامتا طيلة الوقت حاجبيه، وحك ذقنه في قلق، وهو يتمتم:

- إنه أسلوب غريب بالنسبة لمجتمعنا بالتأكيد..

نفثت دخان سيجارتها في عصبية، قائلة:

- ومقلق.

ثم التفتت إلى (هاني)، مستطردة في حزم:

- لقد حدث ما حدث.. عد إلى مكتبك وأبلغني بكل تطورات الأمر أولا فأولا.

غادر (هاني) مكتبها، دون أن ينطق بحرف واحد، في حين اتجهت هي إلى (أكرم)، وقالت في توتر:

- ما معنى هذا الأسلوب العجيب؟ ولماذا يتفق ظهور ذلك المقنع، ومحاولته الحصول على معلومات عنى، مع ظهور ابنة تلك الصحفية اللعينة؟

رفع بصره إليها، وهو يقول:

- إنها ليست أول مرة يظهر فيها هذا المقنع..

ضاقت عيناها، وهي تتطلع إليه قائلة في حدة:

- ماذا تعني؟ هل ظهر رجل مقنع في المجتمع المصري من قبل؟

أجابها وهو يلتقط سماعة الهاتف:

- ليس على نحو علني، ولكن الأوساط السفلية تردد شائعة عن هذا المقنع، الذي يتشح بالسواد، ويطلق على نفسه اسم (العقرب)، والذي تسبب في الإيقاع بـ (نعمان والي) منذ ما يقرب من عام..

وضغط أزرار الهاتف، مستطردا:

- وقبل أن يحين موعدنا مع ذلك المحامي المغرور (نديم فوزي)، سأكون قد جمعت لك أكبر قدر من المعلومات عن هذا الـ... (العقرب)..

قالت في حدة:

- هذا أفضل، فانا ارغب في أن أنهي كل شيء قبل ان ينتصف الليل، بحيث تشرق شمس الغد، وانا احمل اللقب بلا منازع.

ورفعت راسها في شموخ، مستطردة:

ـ لقب (الإمبراطورة).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- الفخ..

دق (احمد) باب حجرة مكتب (نديم) في رفق، وسمع صوت (نديم) من الداخل يقول:

- ادخل يا عم (أحمد)..

دفع العجوز باب المكتب في هدوء، وارتسمت على شفتيه ابتسامة حانية مشفقة، وهو يقول:

- إنها العاشرة مساء الآن يا ولدي.. ألم يحن الوقت بعد لتعود إلى منزلك؟

هز (نديم) راسه نفيا في هدوء، وقال:

- انصرف انت يا عم (احمد).. سأنهي بعض اعمالي وأرحل..

سأله في حنان:

- أتحب ان أبقى لخدمتك؟

أجابه في حزم:

- لا.. سأبقى وحدي.. انصرف انت.

برز وجه آخر حنون، من فوق كتف (احمد)، يقول:

- وحدك تماما..

التفت (احمد) في دهشة إلى صاحب الصوت، في حين نهض (نديم) من خلف مكتبه، قائلا في ترحاب:

- مرحبا يا سيادة اللواء (حلمي).. كم يسعدني دائما أن أراك!!

ارتسمت على شفتي (احمد) ابتسامة كبيرة مرحبة، وهو يقول بدوره:

- مساء الخير يا سيادة اللواء، تفضل.. هل أعد لك قدح القهوة كالمعتاد؟

صافح (حلمي) (نديم) في حرارة، وهو يقول لـ (أحمد):

- لا يا عم (احمد) انصر ف أنت وعد إلى منزلك.. سأتحدث مع (قديم) قليلا، ثم نرحل معا..

أطاعه (احمد)، وحمل أشياءه القليلة، وانصرف عائدا إلى منزله، في حين قاد (نديم) رئيسه السابق إلى داخل حجرة مكتبه، وجلسا على مقعدين متقابلين، و (حلمي) يغمغم:

- اتعشم الا اكون قد أتيت في وقت غير مناسب.

قال (نديم):

ـ على الرحب والسعة دائما يا سيدي.

خيم عليهما الصمت لحظات، وكان كلا منهما ينتظر أن يبدأ الآخر الحديث، ثم قال اللواء (حلمي):

- أنت تعلم بالطبع أن (العقرب) قد ظهر مرة ثانية..

قال (نديم) في هدوء:

ـ تقصد ثالثة يا سيدي.. فهناك قضيتي (نعمان والي) و (صالح عثمان).

ابتسم اللواء (حلمي)، وقال:

- نعم أقصد أنه قد ظهر للمرة الثالثة.. وهو يسعى هذه المرة خلف (چيلان شوكت)، سيدة المجتمع والأعمال

الشهيرة.

أومأ (نديم) برأسه إيجابا، فتابع (حلمي):

العجيب أن (چيلان) هذه تبدو نظيفة تماما، من كل النواحي القانونية الرسمية، وحتى غير الرسمية، على عكس من يتخذهم (العقرب) خصوما له عادة.

قال (نديم) في هدوء:

- هذا لو أنها حقا (چيلان شوكت).

انعقد حاجبا اللواء (حلمي) في شدة، وهو يقول:

- أتعني أنها ليست كذلك؟

هز (نديم) كتفيه، وقال:

- ربما لم تكن كذلك منذ عشر سنوات فقط.. بل ربما لم يكن هناك وجود قط لمن تدعي (چيلان شوكت) قبل هذا التاريخ.

هتف (حلمي):

- إنه اتهام بالغ الخطورة يا (نديم).

بدا (نديم) جامدا، وهو يقول:

- إنني لم أتهم أحدا يا سيدي.

التقت نظراتهما لحظات، بدت خلالها ملامح (نديم) كقناع من الصلب، لا يعكس اية انفعالات، مما جعل اللواء (حلمي) يميل نحوه، قائلا:

- قل لي يا (نديم): ما شكوك (العقرب) تجاه (چيلان شوكت)؟

قال (نديم) في هدوء شديد:

- لقد اخبرتك كل ما لدي بالفعل يا سيدي..

تراجع اللواء (حلمي) في مقعده، وقد أدرك أنه لن يحصل من (نديم) قط على حرف زائد، فتنهد قائلا:

- لا بأس.. يمكننا أن نجري تحرياتنا.

ثم سأله بغتة:

- ولكن اين (غادة)؟

خيل إليه أن (نديم) كان يتوقع هذا السؤال، أو ينتظره؛ فقد أجاب على الفور:

- في مهمة خاصة بالمكتب..

ردد (حلمي):

- مهمة خاصة؟!

وهز راسه متفهما، ثم نهض مستطردا:

- سأتركك أنا إذن، فربما احتاجتك في مهمتها..

نهض (نديم) يصافحه، وهو يتمتم:

- إنها تحتاج إلى بالفعل يا سيدي.

وعندما انصرف اللواء (حلمي)، اضاف (نديم) في خفوت:

- تحتاج إلى كثيرا.

وادار عينيه إلى الخزانة السرية..

إلى حيث الزي..

زي (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكد (چيلان شوكت) تدلف إلى حجرة مكتب (أكرم منصور)، في تمام الحادية عشرة مساء، حتى هب هذا الأخير من خلف مكتبه، وهتف:

- مرحبا يا عزيزتي (چيلان).. إنني أحمل لك مفاجأة.

جلست على المقعد المواجه لمكتبه، وأشعلت سيجارتها، ونقشت دخانها في قوة، وهي تقول:

- بشأن ماذا؟

مال على أذنها، هامسا:

- بشأن (العقرب)

عقدت حاجبيها، وقالت في توتر ملحوظ:

- ماذا لديك عنه؟

عاد يجلس خلف مكتبه، وهو يبتسم في زهو، قائلا:

- لقد التقطت طرف الخيط، من قضية (نعمان والي)، وطلبت مقابلة رجله الأول (سيد) في السجن، فقد أصيب (نعمان والي) نفسه بالجنون، بعد هزيمته على يد (العقرب).. ولقد استصدرت تصريحا خاصا بزيارة (سيد)، والتقيت به بالفعل بعد الظهر، ولقد أخبرني بكل ما يعرفه عن (العقرب)، الذي حطم انف زعيمة، وألقاه في السجن، على الرغم من اتصالاته وسطوته، و...

قاطعته في عصبية:

- انت تعلم أنني أكره المقدمات الطويلة يا (أكرم).

صمت لحظه، دون أن يفقد ابتسامته المزهوة، ثم قال:

- لا بأس.. لن تحتاج إليها..

ومال نحوها، وهو يقول في صوت، حرص على أن شحنه بأكبر قدر ممكن من الإثارة:

- لقد توسلت إلى معرفة الشخصية الحقيقية لـ (العقرب).

وعاد يجلس في وضعه الأول، مستطردا في حزم:

- إنه نفس المحامي الشاب.. إنه (نديم فوري)..

انتفض جسدها في قوة، وهتفت:

ـ أأنت واثق؟

قال في حزم:

ـ تمام الثقة..

نهضت من مقعدها على نحو غريزي، وأطفأت سيجارتها في حدة، وهي تقول:

- ذلك الوغد!!

ولوحت بذراعها مستطردة:

- إذن فذلك المحامي الشاب متيم بقصص البطولات السينمائية والرسوم المتحركة، ويتصور نفسه النسخة المصرية من (زورو) و (الرجل الوطواط).. يا للسخافة! أيظن أن قناعه هذا سيكفل له النصر.

ابتسم (أكرم) ساخرًا، وهو يقول:

- دعيه يتصور هذا..

هتفت في سخط

- سأسحقه سحقا..

أجابها في هدوء:

- لم تختلف.. سنعمل على أن نسحقه سحقا، حتى يصبح عبرة لكل من يفكر في دس أنفه في شئوننا.

قالت في حدة:

- ولكن بعد أن تنتزع منه الوثائق..

أطلق (أكرم) ضحكة ساخرة طويلة، جعلتها تلتفت في حنق، هاتفة:

- لماذا تضحك؟

أجابها ضاحكا:

- ماذا أصابك أيتها الإمبراطورة.. أصدقت حقا انه وزميلته يملكان مثل هذه الوثائق..

قالت في حدة:

من أدراك أنهما لا يملكانها؟

قال في ثقة:

- لأن الفتاة التي تلقى امها مصرعها قتلا أمام عينيها، لن تتردد لحظة واحدة في تسليم عنق قاتلة أمها إلى السلطات، لو انها تملك ولو قرينة واحدة لإدانتها.. اليس كذلك؟

بدت الدهشة على وجه (چيلان)، وكأنما لم تفكر في هذا الاحتمال قط، ثم لم تلبث أن غمغمت:

- انت على حق.

ثم ضمت قبضتها في حنق، هاتفة:

- وانا التي ابقيت على حياة تلك المحامية اللعينة.

وانقضت على الهاتف، مستطردة في شراسة:

- سآمر الرجال بقتلها..

قبض (أكرم) على معصمها، قبل أن تلتقط سماعة الهاتف، وقال:

- ليس الآن..

صاحت به في حدة:

- ولماذا الانتظار؟

اجابها في حزم:

- لأننا لم نختبر بعد قوة رفيقها، الذي يطلق على نفسه اسم (العقرب)، ومهما كان رأيك عما يفعله، فقد نجح بالفعل في تحطيم واحد من عمالقة عالم الجريمة، وتحقيق هذا ليس بالأمر الهين او السهل، وإن كان يعني شيئا فإنما يعني انه ليس من المفضل أن نستهين بخصمنا هذه المرة...

أبعدت يدها عن سماعة الهاتف، قائلة في توتر:

- أريد أن أفهم أكثر..

اجابها في اهتمام:

- ما ينبغي أن نفعله أولا هو أن نتخلص من (العقرب).

وبعدها سيسهل تخلصنا من الفتاة، وإلا فإننا سنستخدمها كورقة للمساومة، لو عجزنا عن التخلص منه.

قالت في حزم:

- لن نعجز.

وأشعلت سيجارة أخرى، قبل أن تتابع:

- سيصل ذلك المحامي الشاب في تمام منتصف الليل؛ للتفاوض معنا بشأن رفيقته..

وابتسمت ابتسامة شرسة، وهي تنفث دخان سيجارتها، مستطردة:

- واراهنك أنه لن يشهد فجر الغد....

لن يشهده أبدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- ليلة (العقرب)..

درس (نديم) الموقف كله، وهو يقف على سطح البناية المجاورة لتلك، التي تضم مكتب (أكرم)..

كانت المنطقة كلها هادئة ساكنة، في ذلك الوقت المتأخر من الليل، وقد غاب القمر خلف بعض السحب المخففة فساد ظلام كثيف، أضاف إلى الصورة الكثير من الرهبة والغموض..

وكان من الواضح ان (چيلان) قد وضعت بعض رجالها لحراسة مدخل البناية الأخرى، حيث مكتب (أكرم)، فلقد لع (نديم) رجلين، يوحي مظهرهما بالشراسة، يحومان حول المدخل..

وتطلع (نديم) إلى ساعته، التي أشارت عقاربها إلى الثانية عشرة إلا الثلث: قبل منتصف الليل: وغمغم:

- حان الوقت ليبدأ (العقرب) عمله.

وفي هدوء انتزع سترته البيضاء، وارتدي سترة جلدية سوداء، فوق قميصه وسرواله الأسودين. ثم راح يرتدي قفازيه المطاطين في سرعة، ويخفي وجهه بقناع (العقرب) الأسود..

كان قد قرر ان يخوض المعركة بصفته (العقرب)، محارب الجريمة، وحامي العدالة، لا بصفته (نديم فوزي) المحامي ورحل القانون..

لم يكن قد تنازل بعد عن رأيه في الفارق الكبير بين القانون والعدالة، فالقانون - في رأيه - بطيء، تعترضه الروتينات والتعقيدات والإجراءات، في حين تنطلق العدالة حرة حاسمة..

هذا هو منطق (العقرب)..

لو انه يعمل بصفته (نديم فوزي)، كان من المحتم أن يبحث عن أدلة قانونية، ودلائل قوية، تكفي لإقناع هيئة المحكمة بإدانة (چيلان شوكت)..

أما بصفته (العقرب) فهو يحتاج فقط إلى المعرفة..

ثم بضرب ضربته..

وفي خفة، ترك (نديم) حقيبته الصغيرة، التي تحوي زي المحامي الشاب الأنيق، وتحرك نحو الحائط الذي يفصل البنايتين، في زي (العقرب) الأسود، والقى حبلا متبنا إلى سطح بناية مكتب (أكرم)، وراح ينزلق فوقه إلى هناك..

واستقرت قدماه على سطح بناية مكتب (أكرم)، فتلفت حوله في حذر: ثم تحرك في خفة القط نحو مدخل السطح..

كان واثقا من أنه قد اتخذ الطريق الوحيد الذي لن يتوقع (أكرم) أو (چيلان) قدومه منه، ولكنه لم يكد يفتح باب السطح، حتى وقع بصره على رجل يوليه ظهره، وهو يتطلع إلى أسفل، وكأنما يتوقع صعود شخص ما إلى السطح..

لقد حاصرت (چيلان) المكان حقا، واتخذت الحذر ضد كل احتمالات فرار (نديم)، حتى ولو حاول الصعود إلى السطح.. وليس الهبوط منه لحسن الحظ..

وكفهد قوي، انقض (نديم) على الرجل، وأحاط عنقه بذراعه اليسرى، ثم لوي ذراع الرجل اليمني خلف ظهره في قوة، وهو يقول في صرامة:

- لا تنبس بحرف واحد..

كاد الرجل يصرخ من فرط الألم والمفاجأة، إلا أن صوت (نديم) الصارم جمله يكتم صرخته في أعماقه، ويقول في صوت مختنق:

- ماذا تريد؟

شدد (العقرب) في ضغط ذراعه على عنق الرجل، وهو يقول في صرامة:

- كم رجلا وضعتهم رئيستك؛ لحراسة المكان؟

أجابه الرجل في الم، وهو يكاد يختنق:

- ثمانية رجال غيري.. اثنان عند باب البناية، وواحد في المصعد، واثنان في الدور الرابع أمام الكتب، واثنان يختفيان داخل المكتب نفسه، وواحد على السطح..

سأله (العقرب):

- على السطح؟! اين هو؟

شعر فجأة بفوهة مسدس باردة تلتصق به خرة عنقه
مع صوت ساخر خشن يقول:
- هأنذا..
وسمع صوت إبرة المسدس تتحرك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تطلعت (چيلان) الى ساعة يدها، وقالت في عصبية:
- الثانية عشرة إلا الربع المفروض أن تكون في طريقه إلى هنا الآن.
ابتسم (أكرم) في هدوء، وهو يقول:
- لا داعي لكل هذا التوتر.. إننا سنستقبله جيدا.. أيا كان موعد وصوله..
قالت في غضب:
- انت تعلم أنني أكره الانتظار.
ضحك قائلا:
ـ حقًا؟!
رمقته بنظرة غاضبة. وقالت في توتر:
- اسمع يا (أكرم).. صحيح انني صورة فيما يختص بالعمل، ولكنني أمضيت عشر سنوات كاملة دون متاعب أو مشاكل، وكل اعمالي تسير على خير ما يرام، ولقد استقر بي المقام هذه المرة، ويمكنني أن أمارس عملي إلى الأبد ودون أن يحمل مخلوق واحد

ذرة من الشك في امري: لذا فمن الطبيعي أن يقلقني ويثير أعصابي تدخل شخص مثل هذا (العقرب) في شئوني. وتعرض أعمالي للخطر بغتة..

ابتسم قائلا:

- المشني يا عزيزتي (چيلان).. لن يربح هذا (العقرب) المعركة.. ثم إن أوراقنا كلها سليمة، ولا يوجد ما يقلقنا..

شردت ببصرها مغمغمة:

- أتمنى ذلك يا (أكرم).. اتمنى ذلك..

ولكن أعماقها كانت تحمل شيئا من الخوف..

الخوف المبهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فجأة تحرك العقرب)..

كان المجرم بلصق فوهة مسدسه براس (العقرب)، عندما انحنى هذا الأخير فجأة، ودفع بساعده إلى أعلى، ليرفع اليد الممسكة بالمسدس عاليا. ثم دار على عقبيه في سرعة مدهشة.

وهوى بقبضته على فك الرجل كالقنبلة، ولم ينتظر سقوطه. بل استدار مرة أخرى، وضم قبضتيه، لهوى بهما على مؤخرة عنق الرجل الآخر.. وفي صوت مكتوم، سقط الرجلان ارضا..

وفي سرعة، راح (العقرب) يقيد معصميهما خلف ظهر بهما، ثم ألصق على فميهما شريطا لاصقا، وغمغم:

- بقي سبعة رجال، قبل أن أنفرد بالأفعى ومستشارها.

هبط في درجات السلم في خفة وسرعة، حتى بلغ الطابق الخامس، فتوقف هناك لحظة، وضغط زر المصعد، واختفي إلى جوار بابه، حتى صعد المصعد إليه، وانفتحت أبوابه آليا..

وكعاصفة هوجاء، قفز (العقرب) داخل المصعد، ورأى الرجل الذي وضعته (چيلان) هناك يحدق فيه في ذهول.

فأضاع ذهوله بلكمة كالقنبلة، تحطمت لها اسنان الرجل الأمامية، وسقط بين ذراعي (العقرب)، الذي قيده وكمم فمه بدوره، ودفعه خارج المصعد، بعد أن استولى على مسدسه، وضغط زر المصعد في هدوء إلى الطابق الرابع..

وفي الطابق الرابع توقف المصعد، وانفتحت أبوابه، وقفز (العقرب) خارجه..

وانتزع الرجلان اللذان يحرسان الطابق مسدسيهما، ولكن قدم (العقرب) أطارت مسدس أولهما، وهوت قبضته على فك الثاني، ثم حطمت قبضته الأخرى انف الأول..

وربح (العقرب) هذه الجولة ايضا، بنفس السرعة والصمت المطلوبين، وراح يقيد هذين الرجلين ويكمم فمهما، وهو يفكر في الخطوة التالية..

لقد تخلص حتى الآن من خمسة رجال وبقي أمامه اربعة..

اثنان عند مدخل البناية، واثنان داخل المكتب..

وقرر - منطقيا أن يقتحم المكتب، ويتخلص ممن داخله اولا.

ولكن أين يجد هذين الرجلين؟

توقف لحظات بدرس الأمر، ثم لم يلبث أن غمغم:

- (چيلان) هذه أفعى سامة بالفعل، ولا توجد سوى وسيلة واحدة لهزيمة الأفاعي..

وعاد يصعد إلى السطح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هتفت (چيلان) في حدة:

- الثانية عشرة تماما، ولم يصل ذلك المحامي بعد..

قال (أكرم):

- سيصل بين لحظة واخرى حتما.

أشعلت واحدة من سجائرها، ونفثت الدخان في حدة، قائلة:

- لماذا تبدو واثقا هكذا؟

تطلع إليها وهي تنفث دخان سيجارتها، وقال:

-(چيلان).. انت تسرفين كثيرا في التدخين هذه الأيام.

قالت في عصبية:

- هذا شأني.

هز كتفيه قائلا:

- كما يروق لك..

ثم اتجه نحو نافذة مكتبه، مستطردا:

ـ على أية حال، أظن أن هذا المحامي سيصل بسيارته الآن، و.

تراجع بغتة في ذهول، واتسعت عيناه في شدة، وهو يهتف:

ـ يا للشيطان!!

التفتت (چيلان) إلى حيث ينظر وتراجعت في حركة حادة، ثم اتسعت عيناها بدورها، وتراجعت وهي تطلق شهقة قوية..

لقد كان امامهما آخر شخص يتوقعان رؤيته من النافذة..

كان أمامهما (العقرب) ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- هزيمة..

بذلت (غادة) أقصى جهدها لتبدو هادئة، وهي مقيدة إلى مقعد ثقيل، داخل حجرة كبيرة، وأمامها بحلس رجل ضخم الجثة، شرس الملامح، انهمك في تنظيف مدفع رشاش، في عناية بالغة، وقد رفع قدميه فوق مائدة صغيرة في مواجهتها، وراح يطلق من بين شفتيه صغيرا منغوما، لأغنية رديئة، انتشرت في الآونة الأخيرة بين أوساط الحرفيين، ونالت بينهم شهرة واسعة..

وعلى الرغم من الهدوء، الذي ترسمه على وجهها، كانت أصابعها تعمل في همة ونشال، في محاولة للتخلص من قيودها، حتى ندت منه تنهيدة بأس، جعلت الرجل يتوقف عن العناية بمدفعه الرشاش، ويتطلع إليها بابتسامة مقيتة، قائلا في سخرية وخشونة

- هل اصابك الملل؟

أجابته ساخرة:

- وهل يمل المرء رؤية وجهك الوسيم؟

عقد حاجبيه في غضب، وقال:

- هل كل المحاميات سخيفات هكذا؟

أجابته بنفس اللوحة الساخرة:

- أخبرني أولا.. هل كل المجرمين على نفس القدر من الغباء والبشاعة؟

هب من مقعده في غضب، واندفع نحوها، وجذب شعرها في قسوة ألمتها، وهو يقول:

- هل يروق لك أن أذبحك الآن؟

قالت في تهكم، على الرغم من آلامها:

- وهل سيحرمني هذا رؤية جمالك الفتان؟

دفعها في غلظة، وهتف:

- اراهن أن سخريتك هذه ستتحول إلى ضراعة وتوسلات، عندما يلمس نصل خنجري الحاد عنقك..

ثم أشار إلى الهاتف، مستطردا في حدة:

- أتعلمين ماذا انتظر؟ إنني انتظر محادثة من الزعيمة، تبلغني فيها بالتخلص من رفيقك، وبتنفيذ المهمة التي اوكلتها إليّ..

ومال نحوها مضيفا في شماتة:

- أتعلمين طبيعة هذه المهمة؟

غمغمت في خفوت، وهي تتطلع إلى وجهه البشع:

- يمكنني أن أخمن.

نهض قائلا في شماتة وتشفّ:

- أن أذبحك..

وأخرج خنجرا حادا، وغرس نصله في سطح المائدة بحركة سريعة، وابتسم ابتسامة وحشية شرسة، مستطردا:

- وسأنتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر..

وارتجف قلب (غادة) في رعب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مضت لحظات من صمت ثقيل وكل من (أكرم) و (چيلان) يحدقان في وجه (العقرب) في ذهول، قبل أن يتحول ذهول (چيلان) إلى غضب جارف، وهي تهتف:

- كيف فعلت هذا؟

قبل أن يفتح (العقرب) فمه، اقتحم رجلان حجرة المكتب، وكل منهما يحمل مسدسه، فقفز (العقرب) إلى جوار (چيلان) وصوب مسدسه إلى صدرها، قائلا في صرامة:

- سأطلق النار على رأسها مباشرة، لو تحرك احدكما خطوة واحدة.

تجمد الرجلان في مكانيهما، وشحب وجه (أكرم)، وهو يهتف:

- لا.. لن يفعل أحدنا أي شيء.

وعادت (چيلان) تسال في غضب:

- كيف فعلت هذا؟

أشار (العقرب) إلى أعلى، قائلا:

- لقد أتيت من حيث لا ينتظرني أحد..

قالت في حدة:

أتعلم أنني أستطيع أن آمر رجالي بقتلك هنا؟

هز راسه في برود، وقال:

- لن يحدث هذا فأنت رأس الأفعى بالنسبة لرجالك، ولن يجرؤ أحدهم على إطلاق النار عليّ، وأنا أهدد رأسه.. عقدت حاجبيها في غضب، وهي تقول:

- هكذا!

ثم استدارت تواجهه بصدرها، قائلة في حدة:

- أطلق النار إذن.

أدهشته جرأتها الشديدة حقا، ولكنه قال في صرامة:

- إنك تغريني بأن أفعل..

تقدمت بصدرها نحوه، وهي تقول في تحدث:

- هيا.. افعل.. إنني اتحداك..

وفجأة أطلقت صرخة قتالية، وقفزت قدمها تضرب المسدس من يده، وتطيح به بعيدا..

كانت تجيد القتال اليدوي حقا..

وكانت المفاجأة هذه المرة من نصيب (العقرب)..

وصرخت (چيلان):

- إنه لكم يا رجال.

ثم تراجعت في حركة حادة، ووجد (العقرب) مسدسي رجليها مصوبين إليه، وسمعها تطلق ضحكة ساخرة عالية وتقول:

- هيا.. اعترف أيها المقنع لقد خسرت معركتك هذه.

بدا (العقرب) هادئا جامدا، وكان ما حدث لا يعنيه كثيرا أو قليلا، في حين ارتسمت ابتسامة ارتياح على وجه (أكرم)، وهو يقول:

- رائع يا (چيلان).. هل يطلق الرجال النار عليه؟

هزت رأسها نفيا، وقالت:

- لا.. ليس هنا.

ثم تقدمت نحو (العقرب)، وانتزعت قناعه بحركة مفاجئة، وابتسمت في ظفر، قائلة:

- إذن فهو انت يا سيد (نديم).

أجابها (نديم) في هدوء:

- نعم.. هو أنا.

قالت في سخرية:

- تشرفنا.

وفجأة تحركت يدها في سرعة، وهوت على مؤخرة عنقه بضربة فنية مباشرة، شعر معها (نديم) بالأرض تميد تحت قدميه، والأضواء تخفت أمام عينيه..

وسقط فاقد الوعي..

وفي سخرية. ابتسمت (چيلان). وقالت:

- ها هي ذي اسطورة أخرى تتحطم.

ثم أشارت إلى رجليها، قائلة:

- احملوه إلى منطقة بعيدة، عند كورنيش النيل، واربطا حجرا ضخما إلى عنقه، ثم ألقياه في المياه الباردة، مع تحياتي..

قالتها وعيناها تتألقان في جدل وحشي، فحمل الرجلان (نديم) وغادرا المكان؛ لتنفيذ الأمر، في حين سألها (أكرم):

- وماذا عن الفتاة؟

ابتسمت قائلة:

- أمرها أبسط مما تتصور..

ورفعت سماعة الهاتف، وأدارت رقما ما، ولم تكد تسمع صوت ذلك الضخم القبيح، الذي يقوم على حراسة (غادة) حتى قالت:

- أنا (چيلان شوكت).. نفذ الأمر..

تألقت عينا الضخم، وأعاد سماعة الهاتف إلى موضعها وافترّ ثغره عن ابتسامة وحشية، وهو يلتفت إلى (غادة)، التي ارتجف جسدها من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها، عندما رأته ينتزع والخنجر الحاد من سطح المنضدة، ويتجه إليها، وايقنت انها النهاية..

- نهاية ليلة (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تطلع العقيد مجلي) إلى وجه رئيسة اللواء (حلمي) في حيرة، قبل أن يزدرد لعابه في صوت مسموع، وسأله في حيرة تحمل نبرة إنكار:

- ماذا تعني يا سبدي؛ بأنه من المحتمل أن (چيلان شوكت) لم تكن هي نفسها (چيلان شوكت)، منذ عشر سنوات؟!

أجابه اللواء (حلمي في هدوء:

- لقد درست ما ناقشناه معًا، بشأن اهتمامات (العقرب) الأخيرة بـ (چيلان شوكت)، وتوصلت إلى انه ما دمنا لم نجد شيئا يدين (جلان) منذ ظهورها على ساحة المجتمع وعالم الأعمال، فمن المحتمل أنها لم تكن تحمل هذا الاسم من قبل.

عقد (مجدي حاجبيه طويلا وهو يفكر في هذا الاحتمال، وقلبه على كل الوجوه، ثم قال في حزم:

- لا يا سيدي.. هذا الاحتمال غير وارد تقريبا..

سأله في اهتمام:

- لماذا؟

قلب (مجدي) الملفات التي أمامه، وانتزع من بينها واحدا، وهو يقول:

- لأنني أرسلت اطلب معاونة السلطات التركية، وها هو ذا الملف، الذي ارسلوه من (اسطنبول) ظهر اليوم.

فتح الملف في سرعة وانفعال، مستطردا:

- إنهم يقولون إن (چيلان شوكت) شخصية معروفة لديهم، وأنها مصرية الجنسية، تزوجت منذ خمسة عشر عاما من ثري تركي، يدعى (عاصم شوكت)، ومنه حصلت على اسمها الثاني، ولقد كانت إحدى سيدات المجتمع في (اسطنبول)، حتى وفاة زوجها، منذ أحد عشر عاما تقريبا، حيث خاضت سلسلة من القضايا والمشكلات المعقدة مع أسرته، بشأن نصيبها من الميراث، خاصة وأنها لم تنجب منه أطفالا، وفي النهاية حصلت على مائة ألف دولار، وعادت إلى (القاهرة) منذ عشر سنوات وما يقل قليلا عن نصف السنة، حيث بدأ نجمها يلتمع، في عالم الأعمال، ودنيا المجتمع.

استمع إليه اللواء (حلمي) في اهتمام بالغ، ثم غمغم:

- مائة ألف دولار؟! فقط؟!

ومال نحو (مجدي)، مستطردا:

- قل لي: كيف يمكن لرجل اعمال، مهما بلغ من الذكاء والحنكة والحكمة، أن يصنع إمبراطورية اقتصادية هائلة، كالتي صنعتها (چيلان شوكت) في عشرة أعوام، برأس مال لا يزيد على مائة ألف دولار؟

هز (مجدي) كتفيه، وقال:

- لست أدري، فمعلوماتي عن الاقتصاد أضعف مما يمكن ان تتصور يا سيدي، ولكن يمكننا استشارة الزملاء في إدارة الأموال العامة، أو التهرب الضريبي، او..

قاطعه (حلمي) بإشارة من يده، وقال في حزم:

- إنه مجرد تساؤل..

وصمت لحظة، ثم أضاف في تفكير عميق:

- او طرف خيط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ابتسم المجرم الضخم الجثة في شماتة، وتألقت عيناه في شراسة، وهو بشحذ خنجره، ويتطلع إلى (غادة) قائلا:

- كم يسعدني أن أتت الأوامر بقتلك، سيروق لي كثيرا ان اذبحك..

اجابته في سخرية، على الرغم من الدماء التي ترتجف في عروقها:

- كان ينبغي أن تستدعي بعض رجال الصحافة، لتسجيل هذه اللحظة التاريخية، فإنها اول مرة يذبح فيها الخروف واحدة من البشر، على عكس المألوف..

كشر عن أنيابه، وهو يقول:

- إنني أكره أن تسخر مني امرأة، ولكنني سأغفر لك هذا، وسأعتبره مجرد هذيان امرأة تحتضر..

قالت متهكمة:

- بل هو نوع من الغزل الساخر، مثلما يحدث بين أي شخص وحماره.

زمجر في غضب، وجذبها من شعرها في قوة، ورفع خنجره هاتفا:

- لن أغفر المزيد.. هيا.. أخبريني: ما الوسيلة التي تختارينها للموت؟

صاحت في سخرية:

- الشيخوخة..

قالتها وانثنى جسدها في سرعة ومرونة مذهلتين، ووثبت قدميها إلى أعلى؛ لتر كل وجه الرجل في عنف، وتلقيه ارضا..

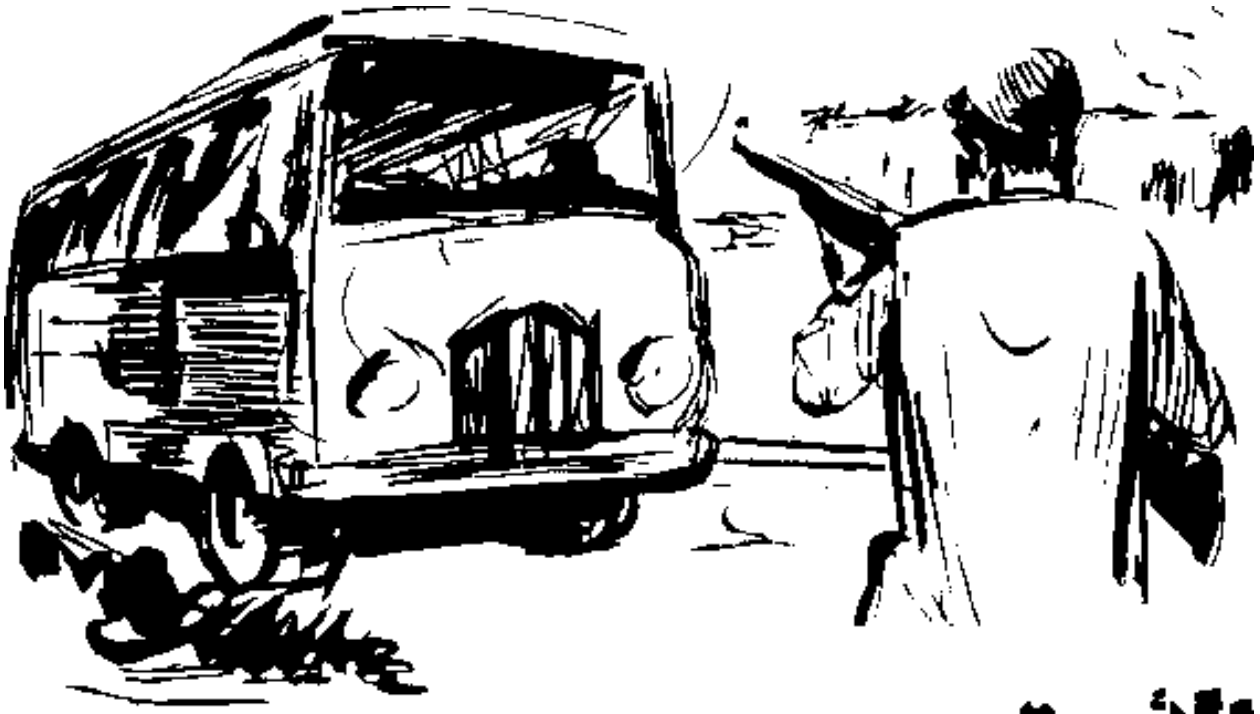

الأوتوبيس

وسقط الرجل كالثور، وارتطم بالأرض في قوة، ثم صرخ:

- ايتها اللعينة!

ولكنه لم يكد يعتدل واقفا، حتى وجد نفسه، على الرغم منه، يحدق فيها في ذهول، فلم تكن تجلس على المقعد، الذي قيدها بنفسه إليه، وإنما كانت تقف أمامه بابتسامة ساخرة، وقيودها ملقاة عند قدميها..

وهتف المجرم ذاهلا:

- ولكن القيود!!

اجابته (غادة):

- من حسن حظي وسوء حظك أنني نجحت في حلها منذ دقيقة واحدة.

تقافز الغضب من كل خلية من خلايا وجهه، وهو يرفع خنجره، وينقض عليها، صارخا:

- لن تفلتي..

على الرغم من أن حجمه كان يفوق ثلاثة أمثال حجمها.. او لهذا السبب بالذات.. قد تفادت (غادة) انقضاضته في مرونة، وتركته يتجاوزها، ثم هوت على مؤخرة عنقه بحافة يدها، وهي تقول:

ـ تماما مثلما يحدث في مصارعة الثيران..

وقفزت لتركل عموده الفقري بقدمها، مستطردة:

- لابد من إنهاك الثور أولا..

وجمعت قيضتيها، لتهوي بهما على عنقه، وهي تختم عبارتها:

- قبل القضاء عليه.

أطلق الرجل خوارا جعله اشبه بالثور فعلا، قبل أن يسقط على وجهه، ويفقد وعيه تماما..

وبابتسامة ساخرة، قالت (غادة):

- لماذا يصرون دائما على العمل مع ثيران غبية؟

وفي هدوء، انحنت تلتقط سلسلة مفاتيح المجرم، وهي تقول:

- اتعشم أن تكون من نوع الثيران المنظمة، التي تحتفظ بكل مفاتيحها في سلسلة واحدة.

ابتسمت عندما وجدت مفتاحي المنزل والسيارة في حلقة المفاتيح، ولوحت بيدها للمجرم الملقي ارضا، وهي تقول:

- وداعا يا ملك الثيران..

غادرت المنزل في هدوء، واستقلت السيارة، ولم تكد تدير محركها حتى وجدته أمامها..

ذلك المجرم الضخم الجثة، وقد استعاد وعيه، ولحق بها، وبدا وجهه أشبه بلوحة مثالية للغضب، وهو يصوب إليها مسدسه، ويصرخ:

- قلت لن تفلتي..

وضغط الزناد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوقف رجلا (چيلان) سيارتهما في منطقة خالية، عند كورنيش النيل، وتلفتا حولهما في حذر، ثم فتحا حقيبة السيارة الخلفية، وأخرجا منها جسد (نديم) الفاقد الوعي، وأرقداه أرضا، ثم تعاونا على إخراج حجر ضخم، وضعاه إلى جوار (نديم)، وقال أحدهما وهو يلهث:

- أسرع يا رجل.. حاول أن تنتهي من المهمة في سرعة، قبل أن ينتبه أي عابر سبيل لما نفعل..

قال زميله، وهو ينحني؛ ليربط الحجر بحبل سميك) في رقبة (نديم):

- اطمئن، لن يستغرق الأمر دقيقة واحدة.

سمع فجأة صوتا يقول في برود:

- هل تراهن؟

اعتدل الرجل في حركة حادة، وهو يحدق في وجه (نديم)، الذي لفظ العبارة السابقة، في حين قفزت يد زميله نحو مسدسه، وهو يهتف:

- يا له...!!

قبل أن ينطق ما كان ينتوى نطقه، انطلقت قبضة (نديم) نحو فكه كالقنبلة، وسمع المجرم الآخر صوت ارتطام مكتوم، وشاهد زميله يسقط أرضا، والدماء تندفع من أنفه وفمه في غزارة، فقفز واقفا، وصاح:

- أي شيطان انت؟

وثب (نديم) واقفا على قدميه، وهو يقول:

- ما رأيك انت؟

وقبل أن ينتهي آخر حرف من حروف عبارته، كانت قدمه تركل وجه المجرم في عنف، ثم ترتفع في مهارة مدهشة، لتركل انفه، في تتابع فائق السرعة..

وكحجر أصم، سقط المجرم فاقد الوعي..

وفي هدوء شديد، اتجه (نديم) نحو السيارة، وانطلق بها مبتعدا، وهو يقول لنفسه:

- لقد نجوت هذه المرة أيضا يا (نديم)، ولكنك فقدت سرية شخصيتك.. فقدتها إلى الأبد..

وامتلأت نفسه بالمرارة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكد (غادة) ترى ذلك المسدس الصوب إلى رأسها، عبر زجاج السيارة الأمامي، حتى ضغطت دواسة الوقود، ورفعت قدمها من الكامح في مهارة، اكتسبتها من عملها بالشرطة، وقيادتها سيارتها الخاصة لسنوات..

وأطلق المجرم النار..

وانحنت (غادة) على نحو غريزي..

واخترقت الرصاصة زجاج السيارة الأمامي، ومرقت فوق راس (غادة)، وارتطمت بالزجاج الخلفي، في نفس اللحظة التي اندفعت فيها (غادة) بالسيارة نحو المجرم، الذي اتسعت عيناه في رعب، وصرخ:

- لا.. ليس..

وارتطمت به مقدمة السيارة، وأطاحت به بعيدا، وهو يطلق صرخة ألم مدوية، و(غادة) تنطلق بعيدا..

لقد نجت هذه المرة..

تقريبا...

الإمبراطورة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثالثة وعشر دقائق صباحا، عندما اندفعت (غادة) إلى حجرة (نديم)، في مكتبه الخاص، وهتفت:

كنت أعلم أنني سأجدك هنا.

تألقت عيناه في ارتياح وسعادة، وإن بدا شديد الهدوء، وهو ينهض من خلف مكتبه، ويلتقط كفها في راحته، قائلا:

- (غادة)... لقد نجوت إذن.. حمدا لله.

سألته في جزع:

- قل لي أولا ماذا أصابك.. إنك تبدو شاحبا؛ على نحو يثير القلق..

عاد يجلس خلف مكتبه، وشبك اصابع كفيه امام وجهه وقال:

- لقد خسرت سرية شخصيتي

أطلقت شهقة قوية، وهي تلقي نفسها على أقرب مقعد لمكتبه هاتفة:

- يا إلهي! كيف حدث هذا؟

روى لها ما حدث في اقتضاب، واستمعت هي إليه في توتر بالغ، ثم هتفت:

- يا للعينة! كأنما تعلم فعلا من أنت؟

أومأ برأسه إيجابا، وشرد بصره قليلا، وهو يقول:

- يبدو أننا نفتقر إلى الخبرة الكافية، في لعبة الشخصية المزدوجة هذه..

هزت راسها في عنف، وقالت:

- لا ولست أعتقد هذا فلقد عدت انت من هناك واستبدلت ثيابك في سرعة، وحافظت على هدوء أعصابك، بحيث يستحيل أن يثبت مخلوق وأحد أنك و(العقرب) شخص واحد، او...

قاطعها رنين مباغت لجرس الباب، جعلها تعقد حاجبيها،

وتقول في توتر:

- ترى من يأتي في مثل هذه الساعة؟

نهض من خلق مكتبه في هدوء، وألقى إليها مسدسه، وهو يقول في حزم:

- الوسيلة الوحيدة لمعرفة الجواب، هي فتح الباب..

أتجه نحو الباب، وهي تتابعه ببصرها في حذر وتحفز، ثم فتح الباب في حركة سريعة، وقال في هدوء:

- مرحبا ايها العقيد.. ترى ما سر هذه الزيارة العجيبة؟

شعرت (غادة) بالدهشة، عندما وقع بصرها على العقيد (مجدي)، الذي ازاح (نديم) جانبا، ودلف إلى الداخل، وهو يقول في لهجة تحمل نبرة شماتة واضحة:

. إنها زيارة عمل..

دست (غادة) مدسها في جيبها، وهي تغادر حجرة مكتب (نديم)، وتعقد ساعديها أمام صدرها، وتقول ساخرة:

- زيارة عمل في الثالثة والنصف صباحا!

أجابها في خشونة:

- وهل هناك مواعيد لعمل الشرطي النشط؟

قالت متهكمة:

- اين هو ذلك الشرطي النشط؟ لست أرى هنا سواك!

عقد حاجبيه، وهو يقول في حدة:

- اراهن آن سخريتك هذه ستتحول إلى بكاء وضراعة؛ عندما تعلمين لماذا أنا هنا..

قالت ساخرة:

- حقا؟!

اما (نديم)، فقد سأله في هدوء:

- حسنا يا (مجدي).. لماذا انت هنا؟

التفت إليه (مجدي)، وقال في لهجة تقطر شماتة:

- أتحب أن تعرف حقا؟ لا بأس أيها المحامي النابه انا هنا لإلقاء القبض على (العقرب).

سأله (نديم) في برود:

- واين هو هذا العقرب؟

أشار إليه (مجدي)، وقال:

- ها هو ذا؟

لم يبد القلق على وجه (نديم)، وهو يقول:

- اتعلم يا عزيزي (مجدي).. إنك تغريني برفع قضية تشهير ضدك و...

قالعه (مجدي) في حزم:

- رويدك يا زعيم الأذكياء.. الأمر يختلف هذه المرة، فلدى دليل لا يقبل الشك.

غمغمت (غادة) في دهشة:

- دليل؟!

اجابها (مجدي) في ظفر وشماتة:

- نعم وشهادة شهود ايضا.. إنني هنا بناء على بلاغ من السيدة (چيلان).. (چيلان شوكت)..

واتضحت معالم اللعبة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- وراء القضبان..

تنهد اللواء (حلمي) في حرارة، وقال لـ (نديم) مشفقا:

ـ لست أدري ماذا اقول هذه المرة يا ولدي.. يبدو أن چيلان) قد أجادت اللعبة هذه المرة، فلديها اربعة شهود، أقسموا إن رجلا مقنعا قد هاجمهم مع (چيلان): في مكتب محاميها الخاص (أكرم منصور)، وإنهم قد نجحوا في نزع قناعه قبل فراره، وإن وجهه هو وجهك انت بالذات.

قالت (غادة) في حدة:

ليس هذا دليلا كافيا، فربما كان ذلك المقنع يشبه (نديم) فحسب.

ابتسم اللواء (حلمي) مشفقا، وقال:

- لا تنسى أن محاميها (أكرم) هذا داهية.. لقد احتاط لهذا، فأضاف إلى بلاغها أن حديثا قصيرا دار بينه وبين (نديم)، أكد له شخصية هذا الأخير، قبل نزع قناعه.

هتفت محنقة:

- سنلعب لعبتها إذن.. إنني اتهمها باختطاف، والشروع في قتلى، و.

قاطعها في هدوء:

الديك دليل على هذا؟

بدا السخط على ملامحها، وهي تقول:

- لا.. للأسف..

ربت (نديم) على كفها مهدئا، وقال:

- ليست هذه الوسيلة المناسبة يا (غادة).. أظن أن أفضل ما نفعله مع (چيلان) هو نبش ماضيها، و...

قاطعته في ضيق:

- لا تعتمد على هذا

تطلع إليها في شيء من الدهشة والحيرة، قبل أن يسألها:

- لماذا؟

اشاحت بوجهها عنه، وكأنها تخشى مواجهته، وهي تجيب:

- إنني واثقة من أن عيني (فوقية)، التي قتلت أمي، كانتا سوداوين، ولكن عيني (چيلان) زرقاوان.

سألها في خفوت:

- الا يحتمل أنها ترتدي عدسات لاصقة؟

هزت رأسها نفيا في ضيق، وقالت:

- لا.. لقد تطلعت جيدا إلى عينيها. إنها لا ترتدي أية عدسات..

كانت صدمة حقيقية لـ (نديم)، جعلته يغمغم في توتر:

- أتعنين اننا كنا طوال الوقت نطارد...

بتر عبارته على نحو حاد، وتظاهر اللواء (حلمي) أنه لم يستمع إلى الجزء الأخير من الحديث، وهو يقول:

- لو ان لديك دليلا ينفي هجومك على مكتب (أكرم)..

قاطعه صوت خشن يقول:

- إنه لا يملك دليلا واحدا.

التفت الجميع في حدة إلى (مجدي)، الذي استطرد في شماتة:

- لقد وقع حقا هذه المرة.

بدا الضيق على وجه اللواء (حلمي)، في حين قال (نديم) لـ (مجدي) في هدوء:

- يبدو أنك نسيت أهم مبدا قانوني يا زميلي السابق، فالبينة على من ادّعى، وعلى (چيلان) أن تثبت كوني (العقرب)..

قال (مجدي) في خشونة:

- شهادة الشهود تكفي.

أجابه (نديم) بكل برود:

- ليس إذا ما دافعت انا عن نفسي..

قال (مجدي) ساخرا:

- وهل تجرؤ؟

أجابه (نديم):

- بالتأكيد، فأنت لم تسأل (چيلان) مثلا عن سبب مهاجمتي لها، في مكتب (أكرم).

قال (مجدي) في سرعة:

- لسرقتها.

- سرقت ماذا؟

- حلى واموال..

- وكم مرة فعل (العقرب) هذا؟

ران الصمت على المكان لحظة، ثم اجابت (مجدي) في حدة:

- ولا مرة واحدة.

ابتسمت (غادة) في ظفر، وقالت:

- الا يعد هذا دليل نفى قويا؟

اجابها (مجدي) في حدة:

- لا.

قال (نديم) في هدوء:

- ولكنه يكفي للإفراج عني بكفالة على الأقل.

وصمت لحظة، ثم استطرد في حزم:

لسوء حظ (چيلان)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أفرجوا عنه بكفالة؟

أطلقت (چيلان) هذه العبارة كصرخة غاضبة ساخطة، قبل أن تستطرد في ثورة:

- وكيف سمحت لهم بفعل هذا؟

عقد (أكرم) حاجبيه، وقال:

- وهل لي الحق في أن أسمح او امنع؟ إنه وكيل النيابة الذي فعل هذا.

أشعلت سيجارتها في توتر، وقالت:

- ولكن هذا سيعني أن يواصل (العقرب) دس انفه في شئوننا.

قال (أكرم) في هدوء:

- لقد كشفنا أمره، وسيحد هذا من حركته كثيرا.

نفت دخان سيجارتها، وهي تقول في عصبية:

- هل تظن هذا حقا؟

ابتسم (أكرم)، ولوح بكفه في هدوء، وهو يقول:

- اطمئني يا عزيزتي.. حتى لو دس (العقرب) انفه في شئوننا، فلن يجد شيئا.. إن عملنا نظيف تماما.

قالت في جدة:

- أتسخر مني، أم أنه نوع من المزاح السخيف؟

قهقه ضاحكا، وهو يقول:

- لا هذا ولا ذاك، ولكنك في الواقع تبدين أكثر جمالا، في لحظات الغضب..

ومال نحوها، مستطردا في لهجة ذات مغزى:

- ثم إنه لا يسعى في الواقع خلف (چيلان)، بل خلف (فوقية).

حدجته (چيلان) بنظرة ناقمة طويلة، ثم أشاحت بوجهها، قائلة:

- لقد ماتت (فوقية) منذ عشر سنوات، في ذلك الحادث..

غمغم:

- أعلم هذا.

ثم استطرد في حزم:

- ولكنه هو يجهل الحقيقة.

التفتت إليه مرة أخرى، وتطلعت إليه طويلا قبل أن تسأله:

- ماذا تقصد؟

ابتسم وهو يتراجع في مقعده، وقال ملوحا بكفه كالمعتاد:

- اقصد أنه ما دام هذا ما يقلقه، وما دام لا يسعى إلا لمحاولة إثبات أن (چيلان) هي نفسها (فوقية)، فلنرخ له العنان في هذا الشأن، فهو لن يصل فيه إلى أية نتائج، مهما فعل.

استمعت إليه في اهتمام، ثم سألته:

- الا ينطوي هذا على بعض الخطورة؟

هز كتفيه، وقال:

مطلقا. لقد احرقت اصول كل الوثائق بنفسي.. اطمئني.

تنهدت وقالت:

- أتمنى أن أثق في رأيك هذه المرة.

أضاف مبتسما:

- كما تفعلين دائما.. أخبريني: هل سبق أن خذلتك...

. ابتسمت قائلة:

- لا.

وصمتت لحظة، ثم أضافت:

- فليكن سنلعب اللعبة بأسلوبك هذه المرة، فإما أن ننجح في إبعاد هذا (العقرب) عن لعبتنا الكبرى، او...

فرفعت سبابتها وإبهامها، وهي تقول في حزم:

-- او نسحقه سحقا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تثاءبت (غادة) في إرهاق شديد، ودعكت عينيها وهي تقول:

- كم هو جميل!

سألها (نديم) في شرود، وهو ينهمك في مراجعة ملف ضخم:

- ما هو هذا الجميل؟

ابتسمت في تهالك، قائلة:

- النوم.

رفع عينيه عن الملف، وسألها:

- ولم لا تخلدين بعض الوقت للنوم؟

قالت مداعبة:

- وهل ينعم بالنوم من يعمل معك؟

تثاءبت مرة أخرى، ثم هزت رأسها، وكأنما تنفض عنه رغبتها الشديدة في النعاس، وقالت في اهتمام:

- قل لي: هل توصلت إلى شيء من جيل الأوراق هذا؟

اجابها في اهتمام مشابه:

- تقريبا.

اعتدلت في مجلسها، ورفعت سبابتها أمام وجها، قائلة:

- لحظة إذن..

وهتفت:

- احضر لنا قدحين من القهوة المرَّكزة يا عم (أحمد).

ابتسم العامل العجوز، وهو يقول:

ـ حالا يا سيدتي.

التفتت هي إلى (نديم)، وقالت:

- هيا.. هات ما لديك.

اشار إلى بعض الأوراق امامه، وهو يقول:

- كل الوثائق هنا تؤكد أن (چيلان) ليست (فوقية)، بأي حال من الأحوال، فقد كانت هناك انشطة واضحة لكلتيهما، في آن واحد، في (القاهرة) و (اسطنبول)، ثم إن (چيلان) لم تغادر (تركيا)، منذ زواجها، وحتى ما بعد مصرع (فوقية).

- عجبا!

تنهد وقال:

- العجيب في هذا الموضوع هو انفعال (چيلان) العنيف، عندما تحدثت معها عن (فوقية) لأول مرة.. إنه يؤكد انها تعرف من هي (فوقية).. تعرفها جيدا.

ران عليهما الصمت لحظات، وكل منهما يعمل عقله بحثا عن جواب، ثم لوحت (غادة) بكفها، وقالت:

- حسنا، فلنؤجل بحث هذه النقطة لما بعد..

قال في هدوء:

- فليكن لقد راجعت ملف (چيلان) هنا، وذلك الملف الذي نسخه لنا اللواء (حلمي)، عن إقامتها في (اسطنبول)، ومن واقعهما يتضح أن (چيلان) عادت من (تركيا)، وهي تملك مائة

الف دولار فحسب، أي ما يساوي مائة وثمانين الفا من الجنيهات، في ذلك الحين، وبعد عام واحد، أنشأت أربع متاجر للأزياء وادوات الزينة، في مواقع رائعة بقلب العاصمة، وابتاعت فيلا فاخرة في قلب القاهرة، واسست في الوقت ذاته مصنعا لأدوات الزينة في اسطنبول)، وكانت هذه المنشآت تتكلف أربعة ملايين جنيه على الأقل، في ذلك الوقت، فمن اين اتت بكل هذا المال، في عام واحد؟

قالت (غادة) في اهتمام:

- من اين اتت به حقا؟

مط شفتيه، وتابع:

- الملاحظ هنا أن (چيلان) لا تستورد أدوات الزينة إلا من مصنعها في (اسطنبول) فقط، وهي تستورد كميات كبيرة، تسدد عنها الرسوم الجمركية على نحو منتظم، كما تسدد ضرائب مبيعاتها بكل امانة، وعلى الرغم من مصروفاتها الباهظة، وتبرعاتها الضخمة للجمعيات الخيرية وما يشبهها، فقد ابتاعت منذ عدة أعوام متجرا بالغ الضخامة، في واحد من أرقى احياء العاصمة، لبيع مستلزمات التجميل والزينة، وفيلا على شاطئ (المعمورة)، واخرى في (باريس)، وطائرة خاصة في (روما).

قالت (غادة) مبهورة:

- هل تبلغ أرباح أدوات التجميل كل هذا القدر؟

أجابها في هدوء:

- ربما..

ثم شرد بصره، مستطردا:

- وربما كان كل هذا مجرد ستار التجارة أكثر ربحا بكثير..

سألته في اهتمام:

- تجارة ماذا؟

اجابها في حزم:

- المخدرات

وبدأت اللعبة تتضح اكثر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- زيارة ليلية..

كانت ليلة باردة بحق، خلت فيها الشوارع من المارة، قبل منتصف الليل بساعتين كاملتين، وتوارى فيها القمر خلف عدد من السحب السوداء الثقيلة، التي تنذر بسقوط امطار، عندما غادر (نديم فوزي) مكتبه، وتدثر بمعطفه، واتجه نحو سيارته، فقال الرائد (حسن) للعقيد (مجدي)، وهما يجلسان داخل سيارة، على بعد أمتار قليلة من سيارة (نديم):

- ها هو ذا يا سيدي، إنه سيستقل سيارته.

قال (مجدي) في انفعال:

- اراهنك انه سيتجه بها إلى شركة (چيلان)، او فيلتها، فلابد له من أن يواصل لعبته، في شخصية (العقرب).

راقبا (نديم) معا، وهو يرفع باقتي معطفه، ويضع على رأسه قبعة سميكة، لتقيه البرد، ثم يخرج سلسلة مفاتيحه، و . . .

وسقط شيء ما من سلسلة المفاتيح، ارتطم بالأرض، وصدر عنه رنين معدني، قبل أن يتدحرج عائدا إلى مدخل البناية، فأسرع (نديم) خلفه، وغاب داخل البناية لحظة، ثم عاد إلى سيارته، واستقلها، وانطلق..

وهتف (مجدي) في (حسن):

- انطلق خلفه.. لا تدعه يغيب عن عينيك أبدا..

انطلق (حسن) بالسيارة خلف سيارة (نديم)، التي سارت في بطء، وهي تعبر الطرقات في تراخ، حتى هتف (مجدي) في عصبية:

- ماذا يفعل هذا الأحمق؟ هل يتنزه بسيارته، في مثل هذا الجو

تردد (حسن) لحظة، ثم قال:

- الواقع بسيدي إنه يبدو كما لو أنه يعلم اننا نطارده.

عقد (مجدي) حاجبيه في توتر، وغمغم:

- يعلم؟!

ثم لوح بكفه في عصبية، وأضاف:

- لا.. مستحيل.

اجابه (حسن) في تردد:

ـ ولكن قيادته السيارة بهذا البطء لا تعني سوى هذا.

تمتم (مجدي):

- هل تعني أنه ربما؟

قفز الخاطر إلى راسه بغتة، فأضاف في ذعر:

- يا إلهي!! لو أن هذا حقيقة..

ثم لكز (حسن) بكفه، هاتفا:

- أسرع يا رجل.. اعترض طريقه واوقفه.

قال (حسن) في دهشة:

- هل تعني اننا لن نتبعه ولن ...؟

قاطعه في جدة:

- لا.. سنغير المهمة هذه المرة..

ضغط (حسن) دواسة الوقود، وزاد من سرعة سيارته، وعبر إلى جوار سيارة (نديم)، ثم انحرف؛ ليعترض طريقها في حدة..

وتوقفت سيارة (نديم) في عنف، وقفز (مجدي) من سيارته، هاتفا في عصبية:

- هيا.. غادر السيارة.

اتسعت عيناه في ذهول، لم يلبث أن استحال إلى غضب جارف، وهو يهتف:

أنتِ!

ابتسمت (غادة)، التي غادرت السيارة، مرتدية معطف (نديم) وقبعته، وقالت في سخرية:

- من كنت تتوقع؟

اندفع نحو السيارة، وازاحها عن طريقه، وانحنى يفحص داخل السيارة في غضب، قبل أن يعتدل صائحا:

- ولكن كيف؟ لقد شاهدناه بأنفسنا يرتدي القبعة، وكانت ملامحه واضحة، و.

بتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يسترجع مشهد تلك القطعة المعدنية، التي سقطت من (نديم)، فعاد خلفها إلى داخل البناية، وهتف محنقا:

- إذن فقد تم الاستبدال في تلك اللحظة..

سألته (غادة)، وهي تبتسم ساخرة:

- اية لحظة!

رمقها بنظرة غاضبة صارمة، وصاح:

- اسمعي ايتها اللعينة.. لن يمكنك انت وزميلك خداع القانون إلى الأبد.

هزت كتفيها، وقالت:

- ومن قال إننا نرغب في هذا؟ إن أعمالنا كلها قانونية

صاح في غضب:

- وماذا عن خدعة السيارة هذه؟

قالت ساخرة:

- اية خدعة؟ لا يوجد قانون يمنعني من قيادة سيارة (نديم)، فهو بدفع تأمين سائق خاص، وأنا أمتلك رخصة قيادة، و.

قاطعها في حدة:

- كفى.

وعاد إلى السيارة، وقفز داخلها صائحا:

- هيا بنا يا (حسن).

راقبتهما (غادة) بابتسامة ساخرة، وهما ينطلقان مبتعدين، ثم غمغمت:

- لن يمكنكما إيقاف (العقرب)، إذا ما أراد أن ينطلق..

لن يمكنكما مطلقا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حجب ظلام تلك الليلة ذلك الشبح الأسود، الذي تسلل في خفة، من سطح بناية عالية، إلى سطح بناية أقل ارتفاعا، وهبط على سطحها في هدوء، ثم اتجه إلى سلمها في صمت وسكون، وعالج باب السطح في مهارة، ودلف منه إلى السلم..

وفي خفة فهد، راح يهبط في درجات السلم، حتى الطابق الثاني، حيث بداية مخازن (چيلان)، التي تحتل الطابقين: الأول والثاني، وقبو البناية..

وفي براعة، تمكن (العقرب) من فتح باب المخزن، ثم دخله واغلق الباب خلفه في هدوء، وأشعل مصباحا ضوئيا صغيرا، اداره في المكان، وتمتم في خفوت:

- كل شيء يبدو أشبه بمخزن أدوات تجميل عادي..

اتجه نحو أحد صناديق المخزن، وراح يفتحه في حنكة، حتى از ال غطاءه، والتقط من داخله علبة تحمل شعار أدوات (چيلان) للتجميل، وقال:

- مجرد علبة أدوات زينة بريئة، لا يمكنها أن تثير شكوك أحد و.

بتر عبارته بغتة، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يقول:

- يا إلهي... ربما كان هذا هو المقصود.

فتح العلبة في سرعة، ودس إصبعه في المادة الجيلاتينية) ذات الرائحة العطرة، وعبث به في قاع العلبة، ثم انتزعه مغمغمًا:

- لا يوجد شيء هنا.

عاد يلقي نظرة على محتويات المخزن في حيرة، ثم قال:

- أي لغز تتقمصه (چيلان) هذه؟

بدت له محتويات المخزن قليلة، بما لا يتناسب مع شركة ضخمة لتوزيع ادوات الزينة والتجميل، فتنهد قائلا:

- انا واثق من أنك تخفين شيئا يا (چيلان)، ولكن ما هو؟

التصقت فوهة مسدس فجأة بمؤخرة راسه، مع صوت خشن يقول:

- هل تحب ان تسألها بنفسك؟

وتناهى إلى مسامعه صوت إبرة المسدس تتراجع استعدادا للانطلاق..

والقتل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من المؤكد أن ذلك الرجل، الذي يصوب مسدسه إلى راس (نديم)، لم يكن يتصور أبدا أنه يواجه واحدا من أقوى وأعتى محاربي الجريمة على الإطلاق، ولكنه أدرك ذلك ولا شك..

لقد الصق فوهة مسدسه بمؤخرة رأس (نديم)، وألقى سؤاله الساخر، ثم انقلبت الدنيا كلها على راسه كالإعصار..

لقد انحنى (نديم) في سرعة مدهشة، ورفع ساعده يضرب به ساعد الرجل، ويزيح فوهة المسدس عاليا، ثم دار على عقبيه، ولكم معدة الرجل بيسراه في قوة، وهوى على فكه بيمناه في سرعة البرق.

وسقط مسدس الرجل، وهوى هو نفسه خلفه فاقد الوعي..

وفي هدوء، التقط (نديم) مسدس الرجل، وفحصه، ثم القاه إلى جوار صاحبه، مغمغما:

- كنت اتوقع هذا.

وقف في وسط المخزن، وادار عينيه فيه في اهتمام بالغ، ثم زفر قائلا:

- من الواضح إنك شديدة الحرص والحذر والذكاء يا (چيلان)، ولكنني أو من تماما بأنه ما من مجرم، مهما بلغت عبقريته، لا

يرتكب ولو خطأ تافها ضئيلا، يكون طرف الحيل، الذي يشنق به نفسه في النهاية، ثم غادر المخزن، وقد اتضحت في رأسه خطة العمل وخطة القتال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فركت (چيلان) كفيها في عصبية، وهي تقول لـ (أكرم) متوترة:

- إنها ليست مشكلة (فوقية) و (چيلان) حتما.. لقد هاجم ذلك (العقرب) مخزني أمس، وفحص إحدى علب مستحضرات التجميل.. إنه يعلم شيئا عن عملنا بالتأكيد..

شبك (أكرم). اصابع كفيه أمام وجهه، وهو يقول في بطء:

- او انه يبحث عن شيء ما.

هتفت متوترة:

- لن يفعل، ما لم تكن لديه شكوك خاصة.

واشعلت سيجارتها في عصبية، مستطردة:

- اسمع يا (أكرم).. إننا في طريقنا لإتمام أكبر صفقة في عمرنا كله، ولن يمكنني أن أخاطر بوجود مثل هذا الخصم، الذي حطم اثنين من عمالقة عالمنا من قبل..

قال في بطء

- ولكن أحدا لم يكشف أمرنا أبدا، وكل صفقاتنا تتم على خير ما يرام، و....

قاطعته في حزم:

- لن أخاطر..

ثم اندفعت نحوه، ونفثت دخان سيجارتها في وجهه، وهي تستطرد:

- أتعلم قيمة الصفقة القادمة يا (أكرم)؟ إنها تتجاوز الملياري دولار.. هل تدرك كم يساوي هذا المبلغ بالجنيهات المصرية؟

اعتدل يسألها في هدوء:

- ماذا تعتزمين؟

اجابته في حدة:

- قتله.

ثم اعتدلت بدورها، مردفة في صرامة:

- سأقتل كل من يعترض طريق صفقتي الأخيرة..

غمغم (أكرم) في دهشة:

- الأخيرة؟!

قالت في عصبية:

- نعم.. الأخيرة يا (أكرم)..

هب من مقعدها هاتفا:

- ولكن لا يمكنك التراجع الآن...

صرخت ثائرة:

- سأفعل ما يحلو لي.

سقطت سيجارتها من بين شفتيها، وهي تطلق تلك الصرخة الأخيرة، فسحقتها بقدمها في غضب، واشعلت سيجارة أخرى،

قبل أن تستطرد:

- لقد اقحمتني في هذه اللعبة منذ عشرة أعوام، ولقد سئمت مواجهة الخطر في كل لحظة، وقررت التقاعد..

قال في حدة:

- ومن سيسمح لك؟

قالت غاضبة:

ـ أتصورت أنني سأطلب رأيك؟

قال في صرامة:

ـ بل موافقتي..

صرخت:

- من تظن نفسك؟

أشار إلى خزانته، وهو يقول في غلظة:

أتسألين من أظن نفسي؟ إنني محاميك، والرجل الذي يدير كل العمل عنك، منذ عشر سنوات، هل ترين هذه الخزانة، ذات الأرقام السرية؟ إنها تحوي عددا من الوثائق التي تكفي لإلقائك في غياهب السجون، وقتما يحلو لي، واينما اشاء.

هتفت في غضب:

ـ ايها الحقير..

استند إلى سطح مكتبه براحتيه، ومال بوجهه نحوها، وقال:

- لا معنى الآن لكلمة الحقير هذه، فكلانا يشترك في الصفة نفسها، ثم إنه ينبغي أن تعلمي أن التقاعد في عملنا هذا

مستحيل، فلست وحدك المستفيدة بما نربح، ولكن الجميع يربحون أيضا، ولن يسمح لك أحدهم بسحب ارباحك دفعة واحدة هكذا..

غمغمت في مرارة:

- اللعنة!

تراجع مبتسما، وهو يقول:

- ستشملنا اللعنة جميعا، ولكنها عندما تبدأ في التهامنا، فستنتقيك أولا..

تطلعت إليه في بغض واضح، ثم نفثت دخانها في عنف، وقالت:

- ما لهم التهمك أنا أولا..

قهقه ضاحكا، وقال:

- لست أظنك تفعلين.

قالت في حدة:

- ولم لا؟

إجابها ساخرا:

لأنك في هذه الحالة ستخسرين كل شيء، فكما يقولون في الأفلام السينمائية: لقد وضعت نظاما يضمن وصول هذه الأوراق والوثائق إلى ايدي الشرطة، إذا ما لقيت مصرعي على نحو غير طبيعي.

احتقن وجهها، وهي تقول:

- ايها الوغد!!

ارتفع في تلك اللحظة صوت سكرتيرة (أكرم)، من جهاز الاتصال الداخلي، وهي تقول:

- هناك رجل يطلب مقابلتك، ومقابلة السيدة (چيلان) يا سيدي.

سألها في اهتمام:

- وما اسمه؟

ارتجفت (چيلان)، عندما أجابت السكرتيرة:

- اسمه (نديم).. (نديم فوزي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13 - كشف الأوراق..

ساد الصمت التام، داخل حجرة مكتب (أكرم)، وشحب وجه (چيلان) في شدة، واحتبس دخان سيجارتها في طقها، ثم لم تلبث أن سعلت، وهي تقول:

- ما الذي جاء به؟

هز (أكرم) رأسه، وقال:

- لست أدري

ثم ضغط زر جهاز الاتصال الداخلي، وقال لسكرتيرته:

- دعيه يدخل..

هتفت به (چيلان):

- هل ستسمح له بالدخول؟

قال في حزم:

- سيقتلني الفضول؛ لمعرفة ما الذي جاء من أجله، لو انه انصرف دون أن التقى به.

أطفأت سيجارتها في عصبية، وراحت تتطلع إلى الباب متوترة، حتى عبره (نديم)، فقالت في حدة:

- ماذا تريد؟

اتجه (نديم) في هدوء إلى مقعد قريب، وجلس واضعا إحدى ساقيه فوق الأخرى، وقال:

- كم تبدو لي هذه المقابلة شديدة الجفاف، بعد أن قضيت ليلتي كلها اطالع كل ورقة أمكنني الحصول عليها بشأنك..

قالت في عصبية:

- بشأني انا؟!

أما (أكرم)، فقد سأله في هدوء:

- وفي اية شخصية فعلت هذا؟ في شخصية (نديم) ام (العقرب)؟

هز (نديم) كتفيه، وقال:

- أظن أن هذا يناسب (نديم) أكثر.

قالت (جلان) في حدة:

- ولماذا يطالع (نديم فوزي)، المحامي التافه أوراقي؟

اعتدل (نديم) نجاة، وقال:

كان هناك أمر يثير حيرته في شدة.

تبادل (أكرم) و (چيلان) نظرة متوترة، ثم سأله (أكرم):

- اما زلت تبحث عما يثبت أن (چيلان) هي نفسها (فوقية)؟

لوح (نديم) بسبابته، قائلا في هدوء:

- مطلقا..

ثم رمق (چيلان) بنظرة باردة، مستطردا:

- وإن كنت اعلم الصلة التي تربطهما..

اندفعت (چيلان) تقول في عصبية:

- لن يمكنك إثبات هذا..

تألقت ابتسامة ظافرة في عيني (نديم)، لم تفصح عنها شفتاه، مما جعل (أكرم) يهتف بـ (چيلان):

- اصمتي.

ثم التفت إلى (نديم)، وسأله:

- أي شان اقلقك إذن؟

استرخي (نديم) في مقعده، وهو يقول في هدوء:

- امر خاص بمساحيق التجميل.

شحب وجه (چيلان) في شدة، على نحو أقنع (نديم) بأنه قد أصاب الهدف بالفعل، ثم أشعلت هي سيجارتها في عصبية، دون أن تنبس ببنت شفة، في حين تطلع (أكرم) إلى (نديم) طويلا، وكأنما يحاول سبر غوره، ثم لم يلبث أن قال:

- وماذا بشأن مساحيق التجميل؟

أخرج (نديم) من جيبه ورقة، راح يقرا ما بها، قائلا:

- لقد راجعت كل الأرقام الخاصة بعملكما في هذا المجال، فوجدت ما يدهش حقا، فلقد استوردتما، في السنوات العشر الأخيرة، كمية هائلة من أدوات ومساحيق التجميل، من مصنع (چيلان) في (تركيا)، وعلى الرغم من كثرة المبيعات، وسداد الضرائب المستحقة عليها، إلا أن الفارق بين حجم المستورد والمبيع ضخم، بما يكفي لأن يكون لديكما عشرة مخازن هائلة، لما لم يتم بيعه بعد..

ثم أزاح الورقة جانبا، وهو يستطرد:

- فما تفسير هذا؟

تضاعفت عصبية (چيلان)، في حين سأله (أكرم) في بطء وحذر:

- ما رأيك أنت؟

نهض (نديم)، وهو يعيد الورقة إلى جيبه، قائلا:

- رأيي أن كمية ضخمة من المساحيق المستوردة لم يتم بيعها على نحو طبيعي، ولا حتى عبر منافذ البيع المألوفة.

سأله (أكرم)، بنفس البطء والحذر:

- لماذا؟

قال (نديم):

- بسبب ما تحويه.

ثم هبّ من مقعده بغتة، على نحو أفزع (چيلان)،

وأمسك حافة مكتب (أكرم) في قوة، مستطردا في صرامة:

- المخدرات!

وعلى الرغم منه، انتفض جسد (أكرم) انتفاضة خفيفة، وهو يردد:

مخدرات؟!

مضت لحظة، قبل أن يتمكن من السيطرة على اعصابه،

ويبتسم ابتسامة باهتة، قائلا في خفوت:

- أي هزل هذا يا سيد (نديم)؟

اعتدال (نديم)، وقال:

- أتراه كذلك؟

ثم اتجه نحو الباب، مستطردا:

- سنلتقي إذن في قاعة المحكمة..

وبسرعة غادر الحجرة، وأغلق بابها خلفه في قوة، فحدقت (چيلان) في الباب في ذعر، قبل أن تندفع نحو (أكرم)، هاتفة:

- إنه يعلم كل شيء..

صاح بها في خشونة:

- اصمتي..

ونهض من خلف مكتبه، وراح يحك ذقنه بيده في توتر، قبل أن يقول:

- من المستحيل أن يكون لديه أية أدلة، وإلا فما جاء إلى هنا، بل يذهب مباشرة إلى الشرطة.

هتفت (چيلان):

- قلت لك إنه يعلم كل شيء.

واصل وكأنه لا يشعر بوجودها:

- او ربما يحاول استفزازنا، للحصول على معلومة ما.

امسكت (چيلان) كفه في قوة، وقالت:

- اسمع يا (أكرم).. من المحتم أن نعمل على إلغاء صفقة الغد، حتى لا نخسر كل شيء.

دفعها بعبدا في خشونة، وهو يقول:

- هل جننت؟ لقد وضعنا ثروتنا كلها في هذه الصفقة، ولا يوجد ما يمكن أن يتسبب في فشلها، فكل شيء سيسير كالمعتاد.. ستصل الشحنة إلى ميناء الإسكندرية، ويتم فحص العينات، ولقد اتخذت التدابير اللازمة لمرور ذلك دون مشاكل، وبعدها

سيتم الإفراج عن الشحنة، ويتسلم تجار (مصر) حصصهم، ونربح نحن ملياري دولار..

قالت في انهيار:

- وماذا لو تسبب ذلك الرجل في كشف أمرنا هذه المرة؟

دار حول مكتبه، وهو يقول في توتر:

- لن نمنحه الفرصة لهذا.

القى نفسه على مقعد مواجه لمكتبه، مستطردا:

- سنحاول منعه او ...

أطلق شهقة مباغتة، بترت حديثه، وجعلت (چيلان) تهتف في فزع:

- ماذا حدث؟

أشار إليها بالصمت، وهو يقفز نحو المكتب، وينحني لفحص أسفل حافته، فكتمت توترها، ومالت نحو النقطة التي يفحصها، واتسعت عيناها في ذعر، عندما وقع بصرها على جهاز الناقل الصوتي الصغير، المثبت أسفل الحافة..

وفي توتر، انتزع (أكرم) الجهاز، وأسرع نحو خزانته، وألقاه داخله، ثم قال في حدة:

- هل رأيت هذا؟ لقد وضعه ذلك (العقرب) حتما..

هتفت به في ذعر:

- لقد استمع إلى حديثنا كله، وعلم ما نحن بصدده.

قال في شراسة:

- لم يعد هناك مجال للتراجع، لا يمكننا أن نترك (العقرب) وزميلته على قيد الحياة..

واعتدل مستطردا في حزم:

- لابد من التخلص منهما.. الليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لقد كشفوا وجود الجهاز..

قالتها (غادة) في قلق، إلا أن (نديم) لم يبد اهتماما بهذا، وهو يقول:

- فليكن لن يمكنهم التراجع الآن، فالصفقة – كما سمعنا - ستتم غدا، وإبلاغ شرطة مكافحة المخدرات يكفي لإفسادها.

سألته في اهتمام:

- هل نتصل بهم؟

اجابها في هدوء:

- ليس الآن، فلقد أدركت (چيلان) اننا قد علمنا بخطتها، والأرجح أنها قد تعمد إلى مغادرة البلاد، قبل وصول الصفقة، ومن الضروري أن نمنعها من ذلك أولا..

سألته:

- وماذا تفعل؟

سمها من خلفهما صوت (چيلان) تقول:

- هل أخبرك أنا؟

التفتا إليها في حركة حادة، ورأياها تقف على باب المكتب، وحولها اربعة رجال، يصوبون إليهما مسدساتهم القوية، وهي تستطرد:

- يمكنكما أن تستلما لي.

قال (نديم) في هدوء:

- ترى اين نحن؟ في (شيكاغو)؟

قالت (چيلان) في ظفر:

- سل نفسك هذا السؤال، عندما ترتدي زي (العقرب).

سألتها (غادة) محنقة:

- كيف وصلت بهذه السرعة!

ابتسمت (چيلان)، وهي تقول:

- يمكنك القول إنني أجيد التحرك في سرعة، ثم إن مكتبكما ومكتب (أكرم) يقعان في شارع واحد.. اليس كذلك؟

واتجهت نحو مقعد قريب، وجلست فوقه تشعل سيجارتها، وتنفث دخانها، قائلة:

- لقد كشف الجميع أوراقهم، فأنا أعلم الآن أنك (العقرب)، وانت تعلم طبيعة عملي..

قال (نديم):

- وطبيعة شخصيتك.

مطت شفتيها، وقالت:

- لست أظن هذا.

وتنهدت في عمق، ثم أدارت عينيها إلى (غادة)، قائلة:

- هل تعلمين من انا؟

اجابتها (غادة):

- كنت اتصور هذا، ولكنني كنت مخطئة..

نفثت (چيلان) دخان سيجارتها في عمق، وقالت:

- إنني لست (فوقية).

غمغمت (غادة) في فضول:

- من انت إذن؟

نهضت (چيلان) في صمت، واتجهت نحو نافذة المكتب، ونفثت دخان السيجارة مرة أخرى، قبل أن تقول:

- انني شقيقتها..

بدا هذا الجواب مناسبا لكل ما سبقه من غموض، بشأن شخصية (چيلان)، التي تابعت في شيء من الحزن:

- كانت صلتي بـ (فوقية) ضعيفة منذ البداية، فلقد انفصل ابونا عن أمنا، ونحن بعد رضيعين، وكانت هي من نصبب أبي، وبقيت انا في كنف أمي.

تنهدت، قبل أن تستطرد:

- لم نلتق أبدا، حتى تزوجت أنا ذلك التركي، وسافرت معه إلى (اسطنبول)، ثم توفي هو، وعدت أنا إلى (مصر) لأعلم بأمر مصرعها، من محاميها (أكرم).

امتلأت كلماتها بالبغض، وهي تتابع:

ـ أخبرني (أكرم) أنها قد تركت لي كل ثروتها، وتبلغ خمسة ملايين دولار، وأخبرني حقيقة عملها، ثم راح يوسوس لي بالعمل في مجال تهريب المخدرات والاتجار به، ويغريني بأرباحها الضخمة، حتى وقعت في براثنه، وبدأ هذا العمل البغيض..

ساد الصمت لحظة، ثم قالت (غادة) في سخرية:

- يا لها من قصة مؤثرة!

حدجتها. (چيلان) بنظرة صارمة غاضبة، ثم قالت:

- من حسن حظك أنك لن تستمعي إليها طويلا.

ثم التفتت إلى رجالها، قائلة:

- هبا.. تخلصوا منهما.

وارتفعت فوهات المسدسات نحو (نديم) و (غادة)، فهتف (نديم):

- هل ستنتقلين من خانة تجار المخدرات، إلى خانة القتلة؟

هزت (چيلان) كتفيها، وقالت:

- للضرورة أحكام.

ثم التقطت حقيبتها، واتجهت نحو الخارج، مستطردة:

- اقتلوهما بعد انصرافي يا رجال، فأنا أكره رؤية الدماء.

قالت (غادة) متهكمة:

- بالرقة طباعك!

منحتها (چيلان) ابتسامة صفراء، ثم غادرت المكان، وأغلقت الباب خلفها..

وجذب الرجال إبرات مسدساتهم، و.

حانت لحظة الموت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- خطة الأفعى..

ابتسم الرائد (حسن)، وهو يسأل العقيد (مجدي)، الذي يجلس شاردا إلى جواره به داخل سيارته، المتوقفة على بعد أمتار من مدخل البناية، التي يحتل مكتب (نديم) إحدى شققها:

- لماذا تبدو قلقا هكذا يا سيدي؟

التفت إليه (مجدي) في شرود، ثم قال:

- إنني أتساءل عما يحدث هنا!

سأله في حيرة:

- وماذا يحدث؟

مضت لحظة من الصمت، ثم قال (مجدي):

- المفروض اننا نراقب (نديم)، حتى لا يتحول خلسة إلى (العقرب) كما فعل ليلة أمس.

قال (حسن)، وقد ازدادت حيرته:

- ومن الواضح أنه لم يفعل..

هز (مجدي) راسه، وقال:

- أعلم ذلك، ولكن الم يدهشك أن يذهب (نديم) إلى مكتب (أكرم)، ثم يعود، فتلحق به (چيلان)، مع أربعة رجال اشداء، يثير مظهرهم الشك، وبعدها تنصرف وحدها، عائدة إلى مكتب (أكرم).. ما الذي يعنيه هذا في رأيك؟

غمغم (حسن):

- لست أدري..

زفر (مجدي) في توتر، وقال:

- ولا انا..

ثم أضاف في حدة:

- دعنا ننتظر إذن، حتى ندرك ما يعنيه هذا..

وكان من الواضح انه لا يشعر بالارتياح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رفع الرجال الأربعة فوهات مسدساتهم في وجهي (نديم) و (غادة)، فتنهدت (غادة)، وقالت في اسف:

- يبدو أنها النهاية يا (نديم).

خيل إليها أن ابتسامة كبيرة تملأ عينيه، وهو يقول:

- لا.. ليس بعد.

لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع من خلف الرجال الأربعة صوت صارم، يقول:

- القوا أسلحتكم ايها السادة، وإلا أطلقت النار على رؤوسكم..

تجمد الرجال الأربعة في أماكنهم، وقال (نديم) في هدوء:

- لم تتوقعوا وجود خط دفاع ثان.. اليس كذلك؟

أما (غادة)، فقد حدقت في وجه صاحب الصوت، وهتفت في دهشة:

- انت؟

ولكن (نديم) التقط حقيبتها في سرعة، واختطف منها مسدسها، وصوبه إلى الرجال الأربعة، قائلا:

- هيا ايها الأطفال الأربعة.. القوا أسلحتكم.

القى الرجال الأربعة أسلحتهم في حنق، فأطلقت (غادة) ضحكة مجلجلة، وهتفت:

- خدعة رائعة يا عم (احمد).

التفت الرجال الأربعة إلى صاحب الصوت، الذي أجبرهم على إلقاء أسلحتهم، وتفجر الغيظ والغضب في أعماقهم، عندما وقعت ابصارهم على عم (احمد) العجوز، الذي غمغم في خفوت:

- ما كنت لا سمح لهم بقتلكما يا سيدتي.

راح الرجال الأربعة يسبون ساخطين، و (غادة) تطلق ضحكة اخرى، قائلة:

- رائع يا عم (أحمد)!! رائع!! لقد فعلتها بجرأة مدهشة، وأنت لا تحمل سلاحا.

قال (نديم) في حزم:

- لا داعي للحديث الطويل.. هيا.. سنقيد هؤلاء الأربعة.

سأله عم (أحمد):

- هل نبلغ الشرطة؟

هز رأسه نفيا، وقال:

- لبس بعد، إن (چيلان) تتوقع انهم قد نجحوا في قتلنا، ومن الأفضل أن تبقى على ثقتها في هذا فترة.. سنحتفظ نحن خلالها

بهؤلاء، و.

قاطعه صوت حاد:

- في هذه الحالة سترتكب مخالفة قانونية يا عزيزي..

كان صاحب الصوت هو (مجدي)، الذي اندفع إلى الداخل، مستطردا في ظفر:

- كما تفعل الآن، وانت تحمل سلاحا دون ترخيص التقطت (غادة) المسدس بسرعة من بد (نديم) وهي تقول:

- خطا يا عزيزي (مجدي) وإنني أنا التي تحمل السلاح، ولدى ترخيصا بحمله.

عقد (مجدي) حاجبيه لحظة، ثم لوح بكفه، قائلا:

- حسنا.. لن أتشبث بنقطة سأعجز حتما عن إثباتها.

والتفت إلى الرائد (حسن) مستطردا:

- صوب انت مسدسك إلى هؤلاء الرجال الأربعة يا (حسن)، وسأتحدث أنا مع (غادة) و (العقرب)..

اقصد (نديم).

اتخذ مقعدا أمام (نديم)، وقال:

- حسنا.. إنني انتظر تفسيرا لهذا..

تبادل (تذيم) و (غادة) نظرة طويلة، ثم جلس (نديم) أمام (مجدي)، وقال في هدوء شديد:

- لا بأس يا عزيزي (مجدي).. إنني رجل لا يحمل أحقادا لأحد، وما دام هدفنا هو تحقيق العدالة، فسأبدِّل. أسلوبي هذه المرة، واكشف لك كل اوراق (چيلان شوكت).. استمع إلىّ..

وراح يروي له كل ما يتعلق ب (چيلان).. دون ذكر (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تطلع (أكرم) في دهشة إلى (چيلان)، وهي تدلف إلى مكتبه، وعلى شفتيها ابتسامة غامضة عجيبة، وسألها في حيرة:

- لماذا عدت؟

أشعلت سيجارتها في هدوء، وقالت:

- لقد تخلصت من (العقرب) وزميلته..

عاد يسألها في ريبة:

- ولماذا عدت؟

التقطت نفسا عميقا من سيجارتها، ثم نفثته في هدوء، وقالت:

- هناك تغيرات جذرية في الخطة..

عقد حاجيه وهو يقول في حدة:

- (چيلان).. الأمر لا يحتمل اية حماقات..

قالت في حزم:

ـ قلت لك إنها تغيرات جذرية.

زفر في توتر، وقال:

- حسنا يا (چيلان).. هاتي ما لديك..

هزت رأسها نفيا، وقالت:

- ليس قبل أن تصرف كل العاملين بمكتبك، فالأمر يحتاج إلى بقائنا وحدنا تماما.

تطلع إليها في شك، قبل أن يسألها:

- ماذا وراءك يا (چيلان)؟

قالت في صرامة:

- اصرفهم اولا.

مضت لحظة من الصمت، وهو يتطلع إليها في حذر، قبل أن يضغط زر الاتصال الداخلي، ويقول لسكرتيرته:

- مري الجميع بالانصراف، وانصرفي انت ايضا، فسأبقى وحدي مع السيدة (چيلان)..

عاد يجلس في مقعده، ويتطلع إلى (چيلان) في حذر، ولم ترق له ابتسامتها أبدا، وهي تقول:

- هذا أفضل.

ساد بينهما الصمت تماما، حتى انصرف الجميع من المكتب، ثم سألها (أكرم) في عصبية مفرطة:

- والآن ماذا لديك يا (چيلان)؟

تراجع في مقعده في حدة، عندما اخرجت من حقيبتها مسدسا، صوبته إليه، دون أن تفقد ابتسامتها الغامضة، فهتف:

- ما هذا يا (چيلان)؟

أجابته باسمة:

- مسدس يا عزيزي (أكرم).. الا تعرف ما هو المسدس؟ إنه سلاح صغير يسهل حمله، ويحتوي على خزانة بها عدة رصاصات، تكفي واحدة منها لاختراق جمجمة رجل بالغ، وقتله في لحظة واحدة.

غمغم في صوت متحشرج:

- (چيلان).. إنك لا تدركين ما تفعلينه..

هزت كتفيها قائلة:

- على العكس يا عزيزي (أكرم).. إنني أدرك كل خطوة اقوم بها، وربما لأول مرة في حياتي.

ارتجف وهو يشير إلى خزانته:

- هل نسيت الأوراق والوثائق، و.؟

قاطعته في هدوء:

- لا.. لم أنس شيئا يا (أكرم).. سأقتلك أولا، ثم آخذ كل الأوراق والوثائق، وانصرف.

قال في حدة:

- لن يمكنك فتح الخزانة، فذلك يحتاج إلى معرفة أرقام فتحها السرية.

قالت مبتسمة:

- إنني أعرفها.

تراجع وعيناه تتسعان في دهشة، وهتف:

- مستحيل!

ثم أضاف في عصبية:

- إنها خدعة ولا شك، فلا أحد، حتى سكرتيرتي الخاصة يعلم ارقام خزانتي السرية.

ابتسمت قائلة:

- ولكنك فتحت الخزانة امامي منذ ساعات، لتلقي داخلها ذلك الناقل الصوتي الصغير، ولحظتها راقبتك في دقة، وحفظت ارقام فتح الخزانة.

شحب وجهه، وهو يقول:

- انت كاذبة مخادعة..

ابتسمت في سخرية، قائلة:

- حقا...؟

ثم اتجهت إلى الخزانة، وضغطت أرقامها السرية في سرعة، ثم فتحتها في رشاقة، وهي تقول:

- هل يقنعك هذا؟

ندت منه حركة حادة، وكأنما سينقض عليها، إلا أنها لوحت بمسدسها في وجهه في حزم، فعاد يستقر على مقعده، ويقول في توتر:

- حسنا يا (چيلان).. خذي كل الأوراق.. لن اعترض ٠

قالت متهكمة:

- وهل تملك الاعتراض؟

انتزعت مظروفا كبيرا من خزانته، وفتحته لتلقي نظرة على محتوياته، ثم ابتسمت قائلة في ارتياح:

شكرا لأسلوبك المنظم يا (أكرم).. كل الأوراق هنا بالفعل.

طوت المظروف، ودسته في حقيبتها، ثم التقطت رزم الأوراق المالية من الخزانة، والقتها ارضا، وهي تقول:

- هل تسعدك رؤية كل هذه الأموال عند قدميك، قبل أن تلقى حتفك يا عزيزي (أكرم)؟

جفف (أكرم) عرته الغزير، وهو يقول في لهجة أقرب إلى الضراعة:

- (چيلان).. لماذا يا (چيلان)؟ لقد كنت خير عون لك، طيلة كل هذه الأعوام، و.

صرخت به:

- اخرس.

ابتلع باقي كلماته في هلع، في حين استطردت هي في غضب:

- إنك أنت دفعت بي إلى كل هذا.. انت سبب كل ما حدث ويحدث..

هتف منهارا:

- لقد صنعت منك إمبراطورة.

صاحت في مرارة:

- إمبراطورة إجرام.

ورفعت مسدسها في وجهه، مستطردة في شراسة:

- ستدفع الثمن يا (أكرم).. ستدفع الثمن حياتك.

بكى وهو يهتف:

- ولكن هذا سيقضى عليك ايضا، فلقد اتخذت ما يلزم؛ لتسليم نسخة من الأوراق والوثائق إلى..

قاطعته في حدة:

- أنا ايضا اتخذت ما يلزم، فلقد حجزت تذكرة طائرة إلى (أوربا)، سأنطلق بها فور الإفراج عن الشحنة غدا وتسليمها إلى التجار، وسيتم تحويل كل ثروتي إلى بنك في (سويسرا)، قبل أن يتم كشف جثتك، مع ملاحظة أن مكتبك يغلق أبوابه غدا، في إجازته الأسبوعية، أي أن لديّ يومين كاملين، قبل أن يبدا رجال الشرطة عملهم، وقبل انتهاء هذه الفترة، سأكون في (باريس)، أحمل اسما وهوية جديدين، وانعم بثروة هائلة، لن تنضب مدى حياتي..

أدرك أنها قد أعدت لكل شيء عدته، فقال منهارا:

- متى فعلت كل هذا؟

أجابته في زهو:

- إنني اعد له منذ أسبوع يا عزيزي، ولكنني لم أكن اعلم أنك تمتلك بعض الوثائق ضدي، إلا منذ ساعات، مما استلزم إجراء تعديل جوهري في خطتي.

غمغم:

- ولكن البكاء والانهيار هنا، و.

قالت في حدة:

- مظهر من مظاهر الضعف الانثوي.. إنني أنثي يا عزيزي (أكرم).. اليس كذلك؟

وفي هدوء رفعت فوهة مسدسها إلى رأسه، فبكى هاتفا:

- الرحمة!!

قالت في برود:

- الوداع.

وأطلقت النار

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- لعبة العقارب..

هز (مجدي) راسه في عنف، وكأنما يحاول إقناع نفسه بما قصَّه عليه (نديم)، قبل أن يهتف في وجه هذا الأخير:

- إذن فأنت تصر على أن (چيلان شوكت) مهربة مخدرات، وأنها تحضر المخدرات إلى (مصر) داخل علب مستحضرات التجميل، التي تستوردها من (اسطنبول)..

أكمل (نديم) في هدوء:

- وإنها تنتظر إتمام أضخم صفقاتها غدا.

هز (مجدي) راسه مرة أخرى، وهتف:

- مريـع

ثم استعاد لهجته الصارمة الجافة، وهو يستطرد:

- هل يفترض ان اصدق هذا؟

قال (نديم):

- لو أردت.

شملهما الصمت لحظة، وكلاهما يتطلع إلى الآخر، ثم التقط (مجدي) سماعة الهاتف في حركة حادة، وادار القرص في عصبية، وانتظر حتى سمع صوت محدثه على الطرف الآخر، وقال في توتر ملحوظ:

- إنه أنا يا سيدي العقيد (مجدي).. لدىّ معلومات، من مصدر موثوق به، تؤكد أن شحنة أدوات التجميل، التي ستصل من

(اسطنبول) غدا، لحساب (چيلان شوكت)، تحوي مخدرات مهربة.. نعم يا سيدي.. المصدر موثوق به للغاية.

ورفع عينيه يلقي نظرة على (نديم)، ثم أضاف في عصبية:

- لا يا سيدي.. ليست هناك أدلة مادية..

انتهى الاتصال، بعد تبادل عبارات روتينية سريعة، ثم قال (مجدي) لـ (نديم) في حزم:

- يمكنك اعتبار صفقة (چيلان) في خبر كان.

قالت (غادة) على الفور:

- وماذا عن (چيلان) نفسها؟

هز (مجدي) راسه في حدة، وقال:

- انت تعرفين القانون.. إنها بريئة، حتى تثبت إدانتها، وما دمنا لم نثبت وجود المخدرات في شحنة أدوات التجميل،

قاطعه (نديم):

- حتى لو حدث هذا، فقد تعجز عن إثبات تورط (چيلان) في الأمر، إذ لن يدهشني أن تكون الصفقة باسم شخص آخر، بل قد تجد لدي (جلان) حفنة من الشهود يؤكدون أن علاقتها بالشحنة لا تتعدي التمويل فقط و.

قاطعه (مجدي) في عصبية:

- ماذا تقصد باختصار؟

اتجه (نديم) إلى مكتبه في هدوء، وجل خلفه، وهو يقول:

- اقصد ان القانون قد يعجز عن الإيقاع بـ (چيلان شوكت).

أدرك (مجدي) مقصده، فقال في حدة:

- في حين لن يعجز (العقرب).. اليس كذلك؟

هز (نديم) كتفيه، وقال:

- لم أقل هذا.

فتح (مجدي) فمه، لينطق بشيء ما، إلا أنه لم يلبث أن أطبق شفتيه، وبدا في صمته وكأن صراعا رهيبا يدور في أعماقه، ما بين واجبه ومشاعره، قبل أن يشيح بوجهه قائلا في صوت مختنق:

- إنني أمثل القانون وحده..

ثم التفت إلى (حسن)، وصرخ وكأنما يفرغ فيضان مشاعره:

- وانت.. خذ هؤلاء الأوغاد إلى قسم الشرطة، واطلب التحفظ عليهم، حتى ينتهي امر (چيلان) هذه.

وفي توتر التفت إلى (نديم)، واضاف:

- هل سمعتني يا سيد (نديم)؟ القانون فقط..

واندفع يغادر المكان كالعاصفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شحب وجه (چيلان)، وكادت قبضتها تعتصر سماعة الهاتف، وهي تقول في رعب:

- ماذا تقول؟ لديهم أمر بفحص الشحنة!

خفق قلبها في عنف، وهي تتابع:

- ماذا؟! بلاغ بوجود شحنة مخدرات داخل المساحيق!

اخذت ترتجف في عنف، وخيل إليها أنها ستفقد وعيها وهي تعيد سماعة الهاتف، مغمغمة:

- مستحيل!!

القت جسدها على مقعد قريب، وزاغ بصرها في ارتياع، وهي تردد:

- كيف كشفوا أمر الصفقة.. كيف؟ ...

بدا عقلها مشتتا متوترا، وعجز فكرها المرتبك عن التفكير فصرخت:

- ماذا أفعل؟

وكرد فعل أنثوي تقليدي، انفجرت باكية.

بكت في غزارة شديدة، كما لم تبك من قبل..

ثم تو قفت دموعها بغتة..

ذهبت الصدمة، وحان وقت التفكير..

وكعادتها اشعلت سيجارتها، وراحت تنفث دخانها في توتر، وهي تقول:

- اللعنة عليك مرتين يا (أكرم).. لقد ورطتني في هذا الأمر، ولست أجدك الآن لاستشارتك في قانونية الفرار منه.

زفرت في توتر، وتابعت:

- حسنا.. فلندرس الأمر جيدا حسبما تعلمت من (أكرم)، فلن يمكنهم إلقاء القبض عليّ، أو توجيه أي اتهام لي، إلا بعد وصول الشحنة، وضبط المخدرات..

نهضت من مقعدها، وراحت تفرك كفيها في عصبية، مستطردة:

- هذا يعني إذن أنه أمامي يوم كامل لدراسة الأمر، والتصرف بأقصى سرعة.

التقطت سماعة الهاتف، وأدارت قرصه في توتر، وقالت:

- انا (چيلان شوكت).. أريد حجز تذكرة طائرة إلى (باريس) الليلة..

بدت شديدة العصبية، وهي تهتف:

- ماذا تعنين بأنه لا توجد طائرات لـ (باريس) الليلة..

اريد السفر لضرورة قصوى.. ماذا لديك؟ (جنيف).. فليكن.. اربد تذكرة ل (جنيف).

انهت الاتصال في حنق، وأسرعت إلى حجرتها، وراحت تجمع كل مجوهراتها وحليها الثمينة في حقيبة واحدة، وهي تقول محنقة:

- انا (چيلان شوكت).. الإمبراطورة.. تضطرني الظروف للفرار على هذا النحو، واخسر كل ثروتي، فيما عدا تلك المجوهرات، التي لا يتجاوز ثمنها نصف المليون..

اغلقت حقيبتها، والقت نظرة سريعة على ساعة معصمها، وقالت:

- ما زالت امامي سبع ساعات، قبل موعد إقلاع الطائرة.. ليس من المفضل أن أبقى هنا.. سأذهب إلى..

راحت تعمل فكرها في سرعة، ثم هتفت:

- نعم.. سأذهب إلى هناك.

واندفعت تغادر منزلها، وهي تحمل حقيبة المجوهرات..

آخر ما تبقى لها من إمبراطوريتها..

إمبراطورية الشر....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضغط (مجدي) جرس مكتب (أكرم) للمرة العاشرة، قبل ان يقول في عصبية:

- اين ذهب ذلك الوغد.. بواب البناية يؤكد أنه لم يغادر المكتب، في حين انصرف جميع العاملين فيه، ثم انصر فت بعدهم (چيلان)..

قال الرائد (حسن):

- ربما استسلم للنوم هنا، او...

قاطعته ضغطة قوية على ذراعه، من أصابع (مجدي)، الذي هتف:

- أو الموت.

كان هذا الخاطر يكفي، لأن يستل (مجدي) مسدسه، ويصوبه إلى رتاج مكتب (أكرم)، وهو يبعد (حسن) قائلا في حزم:

- وهذا هو الأرجح.

أطلق من مسدسه رصاصة، حطمت رتاج الباب، ثم دفع الباب بكتفه، واندفع إلى الداخل، حتى اقتحم حجرة (أكرم)، فأطلق شهقة قوية، وهتف:

- يا إلهي!

أسرع بفحص جثة (أكرم)، قبل أن يقول في انفعال:

- لقد لقي مصرعه.. أحدهم قتله برصاصة مباشرة في رأسه..

هتف (حسن):

- أحدهم؟!

هب (مجدي) واقفا، وهو يهتف:

- بل هي قتلته.. (چيلان) فعلتها..

وقفز نحو الهاتف، مستطردًا:

- سأطلب اعتقالها على الفور.

وضع (حسن) يده على كف (مجدي)، وهو يقول في قلق:

- لن يمكنك اعتقالها يا سيدي، قبل إثبات إدانتها، فما من وكيل نيابة سيوافق على إلقاء القبض عليها، إلا بعد استجوابها على الأقل.

حدق (مجدي) في وجهه لحظات في صمت ودهشة، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه في غضب، وهو يقول في حدة:

- الإجراءات.. دائما هي الإجراءات، التي تعوق كل شيء..

قال (حسن) في خبث:

- ربما لهذا يحاربها رجل مثل (العقرب)..

التفت إليه (مجدي) في حدة، ورمقه بنظرة نارية، قبل ان يقول في صرامة:

- هل تؤيده؟

ارتبك (حسن) وغمغم:

- في الواقع.. لست.. ولكن..

قاطعه (مجدي) كعاصفة عاتية:

- (العقرب) رجل يخالف القانون ويتجاهله، ويبنى عمله كله على الدوران حول كل الأعراف والنظم، ولا يمكنني أبدا ان اعتبر مثل هذا الرجل محقا..

ثم هب من مكانه، مستطردا في حدة:

- إننا سنريح هذه القضية يا (حسن)، وسننتزعها من بين يدي (العقرب).

وانفجرت الكلمة الأخيرة من حلقه كالقنبلة، عندما اضاف:

- وبالقانون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انهمك (هاني)، السكرتير الخاص لـ (چيلان شوكت) في ترتيب بعض أوراقه الخاصة، في صوان ملابسه بمنزله، حتى أنه قد انتفض في قوة، عندما سمع من خلفه صوت هادئ، يقول:

- هل تعتزم الرحيل معها؟

التفت (هاني) إلى مصدر الصوت بحركة حادة عنيفة، ولم يكد بصره بقع على (العقرب)، بزيه الأسود، وقناعه المخيف، حتى تراجع في عنف، فارتطم ظهره بالصوان في قوة، وهو يهتف:

- أنت؟!

أمسك في العقرب) كتف (هاني) في قوة، وهو يقول في برود:

- إنك لم تجب عن سؤالي.

تأوه (هاني ألمًا، من قوة القبضة، وهتف:

- ماذا تعني بالرحيل معها.. إنني باق هنا.

ضغط (العقرب) كتفه في صرامة، أجبرت (هاني) على الجلوس على طرف فراشه، وسأله في نفس البرود المخيف:

- أين يمكنني أن أجد (چيلان) الآن؟

لوح (هاني) بذراعيه في عصبية، وهو يقول:

- ومن أدراني.. ربما كانت في فيلتها..

قال (نديم):

- إنها ليست هناك.

قال اعاني) في جدة:

- ابحث عنها في إحدى أفرع الشركة إذن ٠٠ او حتى في فيلا (المعمورة)، أو..

بتر عبارته دفعة واحدة، على نحو يوحي بأنه يخفي خلفها شيئا، فسأله (العقرب) في حزم:

- او اين؟

قال وهو يشيح بوجهه جانبا:

- أو أي مكان آخر..

ساد الصمت بينهما لحظة، ثم قال (العقرب):

- هل تعلم أن رئيستك تاجرة مخدرات؟

التفت إليه (هاني) في ذهول حقيقي، وهو يهتف مستنكرا:

- تاجرة ماذا؟

أجاب (العقرب) في حزم:

- تاجرة مخدرات يا (هاني)، وهي تستورد المخدرات مع مساحيق التجميل، منذ عشر سنوات..

شحب وجه (هاني)، وهو يغمغم:

- يا إلهي!

ولكنه لم يلبث أن استدرك في حدة:

- لا.. أنت تكذب.. أنت مخادع.

سأله (نديم) في هدوء شديد:

- أأبدو لك كذلك؟

التفت (هاني) يتطلع إليه مليًا..

لم يكن يرى من وجه (نديم) سوى عينيه.. فقط عينيه..

ولكن شيئا ما في اعماق (هاني) جعله يميل إلى التصديق..

او هو شيء في عيني (نديم)..

المهم أن (هاني) قد ابعد عينيه، وتمتم:

- لا.. لست تبدو كذلك.

بدا الارتياح في صوت (نديم) ونبراته، وهو يسأله:

- أين هي إذن؟

ران الصمت لحظة، ثم قال (هاني):

- هناك منزل سري، استأجرته منذ عامين، ولا أحد يعرفه سواها وانا.

تم التقط ورقة صغيرة وقلما، واستطرد:

- ها هو ذا عنوانها..

وكتب العنوان..

عنوان (الإمبراطورة)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16- قمة السقوط..

تطلعت (چيلان) إلى ساعتها في توتر بالغ، وقالت لنفسها، وهي تفرك كفيها في عصبية:

- أربع ساعات فحسب، وينتهي هذا الكابوس..

انقضت على حقيبتها، وكأنها أنثى نمر شرسة، تنقض على فريستها، وفتحتها في حدة، وراحت تراجع محتوياتها في سرعة، ثم اغلقتها قائلة:

- كل شيء هنا.. المجوهرات.. جواز السفر.. تذكرة الطائرة كل شيء..

صمتت وهلة، وهي تعود إلى فرك كفيها، ثم لم تلبث أن هتفت في حنق:

- اللعنة!

ولوحت بذراعيها في سخط، مستطردة:

- لماذا أقف ذلك الموقف اللعين الآن؟ كان يمكنني أن اكتفي بالمائة ألف دولار، التي ورثتها عن زوجي الراحل.. لماذا ورطت نفسي في هذا الأمر؟ لماذا؟

قفز قلبها بين ضلوعها، وكاد يتوقف من شدة المفاجأة والذعر عندما اتي صوت (العقرب) من خلفها، يقول في برود:

- الا يبدو لك هذا السؤال متأخرا، أكثر مما ينبغي؟

استدارت بكيانها كله إليه، وحدقت في وجهه بذهول، وهو يجلس هادئا على المقعد المواجه لها، ولم تكن تتمالك شيئا من جأشها، حتى صرخت:

- كيف وصلت إلى هنا؟

اجاب في هدوء:

- لدي اساليبي..

قفزت الدموع من عينيها، وهي تقول:

- اتركني يا (نديم) اتركني ارحل صدقني.. لم أكن أقصد كل ما فعلت..

قال مستنكرا:

- لم تكوني تقصدين؟! باله من قول!! وماذا عن الاف الشبان والأسر: الذين دمرت مخدراتك مستقبلهم، طوال السنوات العشر الماضية!!

صرخت في انهيار:

- (أكرم) اللعين هو الذي دفعني إلى هذا.. هو الذي زين الى الشر، وقادني إلى الهاوية، دون أن أدرك..

قال في صرامة:

- اسقطي فيها إذن..

تطلعت إليه في رعب، ثم قالت:

- اسمع يا (نديم).. اتركني ارحل، وسأدفع ثمن هذا..

قال في برود:

- حقًا؟

- سأدفع لك مائة ألف جنيه.. بل مائتين.. ربع مليون جنيه لو اردت.

تطلع إليها لحظات في صمت، ثم قال:

- أتظنين أنني رجل يمكن شراؤه، بالمال؟

صرخت في عصبية:

- كل البشر يمكن شراؤهم بالمال.. كلهم.. أتظنني لا اعلم لماذا حطمت (نعمان والي) و (صالح عثمان)؟ لقد اردت ان تنفرد بالساحة وحدك.. هذه هي الحقيقة..

وأشارت إلى حقيبتها، هاتفة:

- هل ترى هذه الحقيبة؟ إنها تحوي كمية من المجوهرات، تكفي لإدارة راس أعتى الرجال.. انظر.

اختطفت حقيبتها في عنف، وفتحتها..

وفجأة وجد (العقرب) مسدسها مصوبا إلى صدره، وهي تقول بضحكة عصبية:

- خسرت هذه المرة أيها المقنع.. اليس كذلك؟

نهض في بطء، وهو يقول:

- أعترف انني لم أكن أتوقع وجود مسدس في حقيبتك..

أطلقت ضحكة متوترة، وقالت:

- ينبغي أن تتوقع كل شيء، ما دمت تحب لعب دور (زورو).

قال في هدوء مثير:

- سأتذكر هذه النصيحة.

هتفت به:

- اطمئن.. لن يكون هناك وقت لنتذكر شيئا.

سألها في بساطة، وكأنها لا تصوب مسدسها إلى صدره:

- أتتصورين أنك ستنجحين في القرار، بعد كل هذا؟

اجابته في تبجح:

- نعم.. سأنجح، على الرغم من انف الجميع.. أنني في طريقي الآن لأستقل طائرة (جنيف)، بعد أن أقتلك ولن يستطيع مخلوق واحد إيقافي، وسأرحل إلى (أوربا)، حيث لن يعثر عليّ أحد إنها مسألة وقت فحسب..

قال في نفس البساطة:

- هناك شرطة دولية..

ضحكت في توتر مرة اخرى، وقالت:

- هذا لو أنني بقيت (چيلان شوكت)، كما أنا الآن، إنني سأختلف هناك تماما.. سأحمل وجها جديدا، واسمًا جديدا و.

قاطعها بغتة:

- لقد كشفوا مقتل (أكرم).

شحب وجهها لحظات، وجف لعابها، حتى انها عجزت عن النطق لنصف دقيقة كاملة، قبل أن تقول في حدة:

- فليكن، لا مجال لتوجيه الاتهام إلى الآن، ولا أحد يعلم أنني سأسافر بعد ساعات قليلة..

قال في برود:

- أنا أعلم.

رفعت مسدسها إلى راسه، وهي تقول:

- وانت ستصبح مجرد ماض، بعد لحظة واحدة..

رآها تجذب إبرة مسدسها، قائلة:

- وداعًا يا سيد (نديم).

وفجأة تحرك (نديم) ..

لم تكن قد ضغطت زناد المسدس بعد، عندها مال هو وانحنى، وانتفى، ثم انقض عليها..

كل هذا في لحظة واحدة..

وشهقت (چيلان) في ذعر، عندما أحاطت أصابع (العقرب) القوية بمعصمها، ورفعت يدها الممسكة بالمسدس عاليًا..

وانطلقت الرصاصة في الهواء..

وصرخت (چيلان)..

وسقط مسدسها أرضا..

وانهارت الإمبراطورة، وهي تصرخ باكية:

- لا يا (نديم).. اتركني ارحل.. ارجوك.. اقسم لك إنني لن أعود إلى تجارة المخدرات أبدا.. ولن أخبر مخلوقا واحدا بشخصيتك الحقيقية.. اقسم لك.. امنحني فرصة واحدة.

جذبها في صمت وصلابة إلى مقعد ثقيل، وانتزع من جيبه اغلالا حديدية قوية، قيدها بها إلى المقعد، وهي تصرخ:

- لا.. اتركني.. خذ كل المجوهرات، واتركني..

انتهى من تقييدها، وتراجع في هدوء، والتقط حقيبتها، واخرج منها جواز السفر وتذكرة الطائرة، ومزقهما في سرعة، ثم القاهما عند قدميها، فصرخت:

- لا.. أرجوك..

ثم انفجرت باكية في انهيار، في حين قال هو في صرامة:

- كما قلت أنتِ: إنها مسألة وقت فحسب.. ستصل شحنة المخدرات غدا، وسيصدر وكيل النيابة أمرا بضبطك وإحضارك، بعد ساعات قليلة، بتهمة قتل (أكرم)، وبعدها بتهمة تهريب المخدرات والاتجار فيها، واظن أن عقوبتك على التهمتين ستكون الإعدام.

سالت دموع ندمها أنهارا، وهو يتجه إلى الباب، مستطردا:

- وعندما يحين الوقت المناسب، سيجدك رجال الشرطة..

توقف وكأنما تذكر أمرا ما، وعاد إليها، ليلحق بمقعدها بطاقة العقرب الذهبية، وهو يضيف:

- صدقيني لقد فقدتِ اللقب إلى الأبد..

واتجه مرة أخرى إلى الباب، وقال:

- لقب الإمبراطورة.

واغلق الباب خلفه في هدوء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17- الختام..

ابتسمت (غادة) ابتسامة واسعة: عندما رأت العقيد (مجدي)، وهو يعبر باب المكتب وهتفت:

- ما أسعد حظنا هذه الأيام!! إنك تزورنا يوميا تقريبا يا عزيزي (مجدي).

عقد (مجدي) حاجبيه، وهو يقول:

- لست في حالة تسمح بالعبث هذا النهار.. أين (نديم)؟

أشارت إلى حجرة (نديم)، قائلة:

- في حجرته بالطبع..

اتجه إلى حجرة (نديم)، واقتحمها دون أن يطرق بابها، فرفع (نديم) عينيه إليه، وقال في هدوء، وكأنها لم تدهشه رؤيته:

- مرحبا يا (مجدي).. تفضل..

اتجه إليه (مجدي)، واتخذ لنفسه مقعدا، وهو يقول في عصبية:

- لقد أسقط وكيل النيابة التهم عنك.

قال (نديم) في هدوء:

- هذا جيد.

ساد الصمت لحظات، ثم أضاف (مجدي):

- بعد إلقاء القبض على (چيلان)، وثبوت التهم عليها، لم يعد اتهامها لك يعني شيئا..

قالت (غادة) ساخرة:

- بالتأكيد..

رمقها (مجدي) بنظرة غاضبة، ثم عاد بدير عينيه إلى (نديم) ويقول:

- لقد انتهى الأمر كما يرغب (العقرب).. اليس كذلك؟

أجابه (نديم):

- أظن ذلك.. سأسأله فور رؤيته...

بدا الضيق على وجه (مجدي)، وكأنها لم يعد يحتمل أسلوب المحاورة هذا، ثم رفع عينيه إلى (نديم)، وقال في حزم:

- اسمع يا (نديم).. ربما نختلف أنا و (العقرب) في الأسلوب، فهو يفضل التحرك بحرية، وانا رجل يحب الالتزام بالقانون، وربما يتصور هو أنه على حق، ولكنني أيضا اظن نفسي على حق، وأومن بذلك تماما، ولن احيد ابدا عن اسلوبي، حتى ولو انتصر (العقرب) في كل المعارك..

ابتسمت عينا (نديم)، وهو يقول:

- إنني أحترم دائما كل من يصرّ على مبادئه..

تبادلا نظرة صامتة طويلة، قبل أن ينهض (مجدي) قائلا:

- وانا ايضا.

واتجه نحو باب المكتب، ثم التفت إلى (نديم) مستطردا في حزم:

- ومن هذا المنطلق سأواصل محاولاتي للإيقاع بـ (العقرب)، لأنه ما زال برأيي رجلا يعمل ضد القانون.

وانطلق مغادرا المكتب كقذيفة مدفع، ولم يكد يغلق بابه خلفه، حتى هتفت (غادة):

- يا له من عنيد!

قال (نديم):

- ولكن يخلص لعمله.

سألته في اهتمام:

- قل لي يا (نديم): ترى من منكما على حق؟

صمت لحظت، ثم أجابها في بطء:

- لست أدري حقا يا (غادة)، فلقد هاجمنا (چيلان) ونحن نتصور أنها (فوقية)، ثم ثبت أنها لم تكن كذلك..

قالت في عناد:

- ولكنها كانت مجرمة..

هز كتفيه، قائلا:

- وكان من المحتمل الا تكون كذلك، وأن يقاتلها (العقرب) بلا مبرر..

قالت مبتسمة:

- فليكن، ولكنني على كل الأحوال أفضل (العقرب)..

وتطلعت إليه في حنان، مستطردة:

- خاصة عندما يحمل اسم (نديم) ٠٠ (نديم فوزي)..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

العقرب:

مملكة الشَّر

(الرواية الرابعة - مجمعة)

عندما يعجز القانون البشري عن القصاص..

عندما تحيط العدالة عينيها بعصابة سميكة..

حينما يرتفع ذلك الحاجز بين العدالة والقانون..

عندئذ يهب هو للقتال، حاملًا ذلك الاسم، الذي يثير الرجفة في قلوب أعتى المجرمين..

اسم (العقرب).

مملكة الشر

1- المتـــــهم..

لم تستطع (غادة) منع نفسها من الابتسام، عندما شاهدت (نديم فوزي)، وهو يخطو داخل قاعة المحكمة، مرتديًا روب المحاماة، ووجهه بحمل كل علامات الرصانة والوقار، فقالت ضاحكة:

- تصور أنها أول مرة أراك فيها في هذا الزي!

أجابها في هدوء:

- هذا لأنك نادرًا ما تأتين إلى هنا، على الرغم من ترخيص مزاولة مهنة المحاماة الذي تحملينه.

ضحكت مرة أخرى، وقالت:

- وما ذنبي أنا؟ إنك تطالبني دائمًا بأعمال أخرى، لا تمت للمحاماة بصلة!

ثم مالت على أذنه، مستطردة في مرح:

- بل إلى العقارب.

لم يبتسم لدعابتها، وهو يقول:

- لا بأس هذا وذاك يسعيان إلى تحقيق العدالة..

أدركت أن محاولتها دفعة إلى الابتسام ستبوء بالفشل، فتنهدت وقالت:

- حسنًا يا (نديم) - أخبرني: ما نوع مرافعتك اليوم؟

هز كتفيه، وقال:

- إنها قضية تموينية كبيرة، و...

حدقت في وجهه بدهشة، على نحو دفعه إلى بتر عبارته، وهو يقول:

- ماذا في هذا؟

فوجئ بها تنفجر ضاحكة، وهي تقول:

- قضية تموين؟! هل ستترافع في قضية تموين؟

عقد حاجه قائلًا:

- ولم لا.. أنسيت أنني محام عام، وانني...؟ قاطعته مستنكرة:

- ولكن هذا لا يناسبك.. لا يمكنني أن أتصورك في هذا الموقف..

قال في حدة:

- لماذا؟

أتاه الجواب من خلفه، بصوت خشن، يقول:

- لأن القضايا العادية لا تليق بـ (العقرب).

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي (غادة)، وهي تتطلع إلى صاحب العبارة، في حين التفت إليه (نديم) في هدوء، وقال وكأنه لم يسمع كلمة واحدة:

- صباح الخير يا (مجدي).. كيف حالك؟ أي رياح طيبة ألقت بك هنا؟

نظر إليه العقيد (مجدي) في تحدٍّ، وهو يقول:

- يخيل إلى أنك تحاول تجاهل عبارتي تمامًا أيها (العقرب).

ربت (نديم) على كتفه، وهو يقول:

- بل أنت الذي يصر على مخاطبتي بهذا اللقب.

عقد (مجدي) حاجبيه في توتر، وهو يقول:

- اسمع يا (نديم).. إنك تتصور نفسك ذكيًا، ولكنني سأوقع بك يومًا ما، وسأثبت أنك (العقرب)، الذي...

قاطعته (غادة) هذه المرة، وهي تقول في سخرية:

- عجبًا... ألا يبدو هذا الحديث مكررًا؟ يلوح لي أنني قد سمعته في برنامج قديم..

رفع (مجدي) عينيه إليها في حركة حادة، وازداد انعقاد حاجبيه، وهو يقول:

- اسمعي ايتها الـ ...

اعترض (نديم) استمرار العبارة، وهو يقول بغتة:

- إنك لم تخبرني لماذا أنت هنا يا (مجدي).

بدا لحظة أن هذه المقاطعة قد أحنقت (مجدي) وانه سينفجر في وجه (نديم)، إلا أن كل هذا لم يلبث أن تلاشى بغتة، وقال (مجدي):

- إنني شاهد رئيسي، في قضية مخدرات كبيرة..

قال (نديم) في رصانة:

- أتقصد قضية (إبراهيم علوان)؟

لوح (مجدي) بسبابته، قائلًا:

- هو ما تقول.

ثم اندفع بغتة مبتعدًا، وهو يستطرد:

- إلى اللقاء.

ابتسمت (غادة) وهي تراقب ابتعاده، وقالت:

- يا له من لحوح!

غمغم (نديم):

- إنه يؤدي عمله..

التفتت إليه، تساله في فضول:

- من (إبراهيم علوان) هذا؟

اجابها (نديم)، وهو يسير إلى جوارها، نحو قاعة الجلسات:

- إنه عقيد في إدارة مكافحة المخدرات، تم ضبطه في كمين، وهو يحمل في حقيبة سيارته كيلو جرامين من الهيروين النقي، المسروق من إدارة مكافحة المخدرات نفسها، بعد ضبطية قضائية كبيرة.

توقفت تهتف مستنكرة:

- يا إلهي! أتعني أن العقيد (إبراهيم علوان) هذا كان يلقي القبض على مروجي المخدرات، ويصادر بضاعتهم ثم يسرقها لنفسه!!

اومأ برأسه إيجابًا، وهو يقول:

- هذا صحيح، طبقًا لأوراق القضية..

عقدت حاجبيها لحظات مفكرة، ثم قالت:

- هناك أمر لا يروق لي في هذه القضية..

سألها في اهتمام:

- ما هو؟

أجابته في حماس:

- لماذا يسرق العقيد (إبراهيم) الهيروين، بعد تسليمه إلى إدارة مكافحة المخدرات، وبعد أن يتم وزنه وتحريزه؟ أليس من الأسهل والأقل خطورة أن يسرقه عند ضبطه مباشرة؟

بدا له سؤالها منطقيا للغاية، وأثار في أعماقه حماسًا يمتزج بشيء من القلق، جعله يقول:

- نعم.. لماذا؟

ثم اعتدل مستطردًا برصانته المعهودة:

- من حسن حظنا أن قضية (إبراهيم علوان) ستنظر في نفس القاعة، التي ستشهد قضيتنا، وهذا يجعل من السهل علينا أن نتابعها أيضًا.

سألته في شغف:

- هل أثار الأمر اهتمام (نديم فوزي)، أم (العقرب)؟

خيل إليها أن عينيه قد ابتسمتا، وهو يقول:

- من يدري يا عزيزتي؟ من يدري؟

واتجه إلى قاعة الجلسات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت محاكمة (إبراهيم علوان) مثيرة بحق، فلقد لَخَص وكيل النيابة القضية، قائلًا: إن الشرطة قد تلقت بلاغًا من مجهول، يقول فيه: إن العقيد (إبراهيم علوان) سرق الهيروين من ضبطيات الإدارة، وإنه يحمل في حقبة سيارته الآن كيلو جرامين منه، وهنا أسرع رجال إدارة مكافحة المخدرات يعدّون كمينًا

للعقيد (إبراهيم)، وعثروا في سيارته على الكيلو جرامين، وبمعاودة فحص ووزن كمية الهيروين المضبوطة في الإدارة، وجد أنها تنقص هذين الكيلو جرامين، وبمراجعة أوراق الأمن، وأقوال العاملين في الإدارة، ثبت أن العقيد (إبراهيم) هو الشخص الوحيد الذي يمكنه مغادرة حجرة الضبطيات دون تفتيش، مما يجعله الوحيد القادر على الخروج بالهيروين المسروق، ومن هنا تم تحويل الأمر إلى القضاء..

وحاول محامي العقيد (إبراهيم) الدفاع عن موكله، بسرد تاريخه المشرف في إدارة مكافحة المخدرات، وبسؤال عدد من زملائه، الذين أجمعوا على كونه رجلًا شريفًا، وضابطًا عظيمًا طيلة عمله، وإن لم يجزم أحدهم باستحالة قيامه بسرقة الهيروين؛ نظرا لأن الأدلة المادية كلها تدينه..

وكانت شهادة (مجدي) إحدى هذه الشهادات، ولقد دافع عن زميله العقيد (إبراهيم) في حماس، ولكن هذه الشهادات لم ترقَ

أبدا إلى قوة أدلة الإدانة، حتى ولو أضفنا إليها إصرار المتهم الشديد على براءته من هذه التهمة المخزية.

ومالت (غادة) على أذن (نديم)، تسأله:

- ما رأيك؟

صمت لحظات، قبل أن يحبها في هدوء:

- لا أحد يمكنه الجزم بحقيقة الأمر، فقد يكون هذا الرجل بريئًا، أو أن العكس هو الصحيح، فشهادة زملائه على حسن سلوكه قد لا تعني براءته، بل ذكاءه في إخفاء حقيقة أمره.. ولقد شاهدنا مثل هذه الصورة كثيرًا..

قالت في حزم:

- ولكنه بريء.

سألها في هدوء:

- كيف يمكنك الجزم بهذا؟

ترددت لحظة، ثم قالت في عناد:

- غريزة الأنثى..

لم تكد تنطقها حتى حمدت الله سبحانه وتعالى في أعماقها؛ لأن (نديم) لا يميل إلى السخرية، وإلا لانفجر ضاحكًا، وأراحها أن استقبل قولها بجدية، وهز رأسه، قائلًا:

- معذرة يا عزيزتي، ولكن لا يمكنني الاعتماد على هذا وحده.. أحتاج إلى دليل واحد.

همست في أذنه:

- وهل يحتاج (العقرب) إلى الأدلة. للدفاع عن العدالة؟

أجابها في حزم:

- إنه أيضا لا يندفع لاقتحام قضية ما، ما لم يطمئن إلى سلامة موقفه.

انتهى القاضي - في هذه اللحظة - من مناقشة مستشاريه، فاعتدل في مقعده، وقال في مهابة ووقار:

- تؤجل الجلسة إلى الثاني من الشهر القادم للنطق بالحكم..

لم يكد القاضي بنطقها، حتى أدار (نديم) عينيه إلى حيث العقيد (إبراهيم)، وكأنما يرغب في دراسة رد فعل الرجل، وبدا له (إبراهيم) منهارًا، مفعمًا بالمرارة، يتطلع إلى الجميع في أسى، وكأنما يبحث بينهم عمن يتشبث به..

وفجأة اتسعت عينا (إبراهيم)، وتألقتا بريق عجيب، وكأنما أضئ عقله بغتة وهتف:

- اقبضوا على هذا الرجل.

قالها واشار بسبابته إلى باب القاعة، حيث بدا بعض الحاضرين في الانصراف، فأدار (نديم) و (غادة) عيونهما بسرعة إلى حيث يشير، في حين استطرد (إبراهيم) في ثورة مباغتة:

- إنه المجرم الحقيقي... ألقوا القبض عليه.. ألقوا القبض عليه..

تركزت عينا (نديم) على وجه الشاب النحيل، الذي أشار إليه (إبراهيم)، وخيل إليه أنه قد عثر على الدليل الذي ينشده، بين ملامح هذا الشاب..

وكان هذا الدليل مجرد ابتسامة..

ابتسامة ساخرة.

أماني

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- وجه العدالة..

تطلع العقيد (إبراهيم)، في يأس وحيرة، إلى وجه (نديم فوزي) داخل حجرة مدير السجن، وقال:

- أأنت محام؟! ولكن لماذا؟ هناك محام يتولى مهمة الدفاع عنى بالفعل، ولست أدري لماذا تجشمت كل هذا العناء، لتستخرج تصريحا بمقابلتي، وأنت تعلم هذا؟

جلس (نديم) أمامه، وقال في بساطة:

لقد حضرت آخر جلسات قضيتك، وقررت الدفاع عنك..

قال (إبراهيم في مراره:

- أشكر لك هذا، ولكنني لا أستطيع الاستعانة باثنين من المحامين. أعني أن قدراتي المالية لا تسمح بذلك.. أنت تعلم ضعف الراتب.. أليس كذلك.

أومأ (نديم) برأسه متفهمًا، وقال:

- سأعتبر هذا دليلا آخر على براءتك يا سيدي..

ثم أضاف وهو يميل نحوه برأسه:

- الواقع أنني لن أتقاضى قرشًا واحدًا عن الدفاع عنك.. بل ولن تحتاج إلى توكيلي رسميًا.

حدق (إبراهيم) في وجهه بدهشة، ثم لم يلبث أن هتف:

- يا إلهي! إنني أعرفك.. لقد عملنا معًا مرة، مند خمس سنوات.. أنت (نديم فوزي) أليس كذلك..

أجابه (نديم)، محاولًا تجاهل هذه النقطة:

- بلى.. والآن اخبرني، من ذلك الشاب الذي أشرت إليه في نهاية الجلسة، وناشدت الجميع إلقاء القبض عليه؟

ارتسم الغضب على وجه (إبراهيم)، وهتف:

- إنه أمين مخزن المضبوطات.. هو الوحيد الذي كان يمكنه سرقة الهيروين، و.

انهارت ملامحه بغتة، مع انهيار صوته، وهو يستطرد:

- ولكن لماذا أخبرك؟، لن يصدقني أحد.. إنهم حتى لم يحاولوا إلقاء القبض عليه.

قال (نديم) محاولًا تهدئته:

- لم يكن هناك ما يستوجب هذا، على الرغم من اتهامك له، فلقد استجوبه وكيل النيابة من قبل، وثبت أنه لم يكن يحمل الهيروين عند انصرافه، فقد تم تفتيشه كالمعتاد، ثم إنه لم يكن هناك مبرر لوضع ما سرقه في حقيبة سيارتك أنت..

صاح (إبراهيم):

- من المؤكد أنه يعمل لحسابهم.. لقد فعلوا هذا للانتقام..

اعتدل (نديم)، وسأله في اهتمام:

- من هم هؤلاء يا سيادة العقيد؟

اندفع يقول في جدة:

- تجار الموت.. بائعو السموم...

أولئك الأوغاد الأشرار، الذين قضيت حياتي أحاربهم.. لقد ابتاعوا ضميره للانتقام مني..

أشار إليه (نديم) أن يلتزم الصمت، وهو يقول:

- رويدك يا سيادة العقيد حاول أن تسيطر على انفعالاتك، وتخبرني بأسماء هؤلاء..

عض (إبراهيم) شفته السفلي في حنق، وهو يقول:

- ليتني اعلمها ليتني أعرف من هم..

تراجع (نديم) في مقعده، وغمغم:

- إذن فلست تعلم من هم!

ثم نهض بحركة مفاجئة، وهو يستطرد في حسم:

- دع أمرهم لي إذن.

سأله (إبراهيم) في حيرة:

- وماذا يمكنك أن تفعل؟ لن تجد دليلا واحدا لإدانتهم، ولن يمكنك أبدا أن..

قاطعة (نديم) في هدوء:

- ومن قال إنني سأبحث عن أدلة؟

- ماذا ستفعل إذن؟

ألقي (نديم) نظرة طويلة، عبر نافذة حجرة مأمور السجن، قبل أن يجيب:

- سأسعى لتطبيق العدالة يا صديقي.

وبدا وكأن كلماته تحمل طنا من الحزم والصرامة وهو يضيف:

- بوسيلتي الخاصة..

وفي أعماقه ابتسم (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطلق (درويش)، أمين مخزن المضبوطات، صفيرا منغوما من فمه، وهو يصعد في درجات سلم منزله، واتسعت ابتسامته في زهو وسعادة، لتلتهم وجهة النحيل كله، وهو يدندن بكلمات أغنية حديثة، ويدس مفتاحه في ثقب باب شقته، ثم يديره قائلا في مرح:

- انتهت أيام الفقر يا (درويش).. الثراء والحياة الرغدة ينتظرانك.

دلف إلى منزله، أغلق بابه خلفه، وهو يستطرد:

- وداعا للفقر.

انتفض جسده انتفاضة عنيفة، كادت تنتزع قلبه من بين ضلوعه، عندما سمع من خلفه صوتا يضيف:

- وللشرف..

استدار (درويش) في سرعة إلى مصدر الصوت، وانتفض جسده انتفاضة ثانية أكثر قوة وعنفًا، عندما وقع بصره على صاحب الصوت، الذي يختفي خلف قناع أسود، وقميص وسروالين وقفازين وحذاء من اللون نفسه..

والتصق ظهر (درويش) باب شقته، وهو يهتف في رعب:

- من أنت؟

أقترب منه (العقرب) في برود، وهو يقول في صرامة مخيفة:

- أنا من سيقنص منك ايها المجرم..

قال (درويش) في انهيار:

- لم أفعل شيئا

أجابه (العقرب):

- حقا! وماذا عن الهيروين، الذي سرقته من مخزن المضبوطات.. هل تحب أن أخبرك كيف فعلت هذا؟ لقد أخذت الكيلو جرامين، وأذبتهما في الحوض، مع المياه الجارية، ثم غادرت المخزن، وخضعت للتفتيش في ثقة لأنك لا تحمل شيئًا، في حين كان مجرم آخر يضع وزنا مساويا من الهيروين، في حقيبة سيارة العقيد (إبراهيم)، وثالث يبلغ الشرطة.. كانت خطة بسيطة وذكية، اليس كذلك؟

انكمش (دروش) في مكانه، وحمل صوته شيئا من الحدة وهو يقول:

- ماذا تريد مني بالضبط؟

ارجفته نظرة صارمة في عين (العقرب)، الذي أجاب في صوت ترتجف له الدماء في العروق:

- أريد اعترافًا.. اعترافًا كاملًا.

ران عليهما الصمت لحظات، قبل أن يخفض (درويش) عينيه، ويقول في خفوت:

- مستحيل.

نطتها واستجمع شجاعته كلها بغتة، ودفع (العقرب) في صدره، هاتفًا:

- لن أقدم نفسي للموت هكذا..

تراجع (العقرب) إثر الدفعة، في نفس الوقت الذي دار فيه (درويش) على عقبيه، وفتح باب شقته، وهمّ بالعدو خارجه،

ولكن..

أمسكت قبضة قوية بعنقه، وأعادته إلى الشقة، مصحوبة بصوت (العقرب)، وهو يقول في صرامة:

- محاولة فاشلة يا رجل..

استدار (درويش) في حدة، وطوح قبضته في وجه (العقرب)، ولكن هذا الأخير تفادي اللكمة في مرونة، وقال:

- محاولة ثانية فاشلة..

ثم انطلقت قبضته كالقنبلة، في وجه (درويش)، الذي أطلق صرخة ألم عالية، وهتف وهو يلوح بيده، ويحاول منع نزيف أنفه باليد الأخرى:

- الرحمة!! الرحمة!

انتزعه (العقرب) من مكانه بقبضتين فولاذيتين، وألصقه بالحائط في عنف، وتطلع إلى عينيه مباشرة، وهو يقول:

- هيا يا رجل أزيد اعترافا كاملا وبسرعة..

هتف (درويش) في مرارة:

لا يمكنني هذا إنهم سيقتلونني لو فعلت..

قال (العقرب) في صرامة مخيفة:

- يبدو أنك سيء الحظ كثيرًا، فسأقتلك انا لو لم تفعل..

كان من الواضح أن عبارته قد تركت تأثيرها في قلب (درويش)، فقد ارتجف الرجل ارتجافة واضحة، وأطلَّ الخوف من عينيه، وانفرجت شفتاه على نحو يوحي بأنه سيدلى باعتراف رجل منهار، لولا أن ارتفع من خلف (العقرب) فجأة صوت يموج بالظفر والتشفي، يقول:

- يا للقدر!! يبدو أنني أحيا أفضل ليلة في عمري كله.. إنني محظوظ بحق.

ادرك (العقرب) مَن صاحب هذا الصوت، قبل حتى أن يلتفت إليه.

- كان (مجدي)..

العقيد (مجدي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من المؤكد أن (غادة) كانت ملفتة للنظر في شدة، وهي تجتاز الشارع الرئيسي في حي (الباطنية)، الذي يحوز شهرة واسعة، في عالم المخدرات، مرتدية ذلك الثوب البالغ الأناقة،

الذي جعلها تبدو كأميرة تتفقد الأحياء الفقيرة في مملكتها..

وبقدر ما أثار جمالها وأناقتها الإعجاب، آثار وجودها في ذلك الحي الحيرة والشك، حتى أن (قاسم عبيد)، أكبر الرؤوس في المنطقة، قد مال على أذن مساعده (جميل) وسأله:

- ماذا تفعل فتاة مثلها هنا؟

القي (جميل) نظرة لامبالية على (غادة)، وقال:

- ربما أتت لشراء جرام أو جرامين من المسحوق الأبيض..

عقد (قاسم) حاجبيه، وهو يقول في شك:

- لا.. لست أظن هذا.. إنها لا تبدو مثل...

قاطعه (جميل) في استهتار:

- لا تجعل جمالها وأناقتها يخدعانك يا زعيمي.. إننا ناجحون في عملنا، إلى الحد الذي أفسد حتى أبناء الأسر الراقية، فأدمنوا استنشاق المسحوق.. أراهنك أن جمالها هذا ليس سوى..

كان دور زعيمه ليقاطعه هذه المرة، وهو يمسك كتفه في قوة، ويقول في حدة:

- اصمت.. إنها تتجه إلينا مباشرة.

حدّق (جميل) في (غادة)، وهو يهتف في دهشة:

- إلينا؟!

بلغت كلمته مسامع (غادة)، فارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة، زادت من قلق (قاسم) وشكوكه، وخاصة عندما مدت ز غادة) يدها تصافحه في هدوء، وتقول:

- (قاسم عبيد)، أكبر تجار المنطقة.. اليس كذلك؟

صافحها (قاسم)، وهو يقول في حذر:

- بلي.. أنا أكبر تاجر اعلاف في الـ...

قاطعته ساخرة:

- ومن ذكر أمر الأعلاف؟

ثم مالت نحوه، واستدركت في حزم:

- إنني أقصد المخدرات..

لم يكن ذلك سرًا..

صحيح أن الشرطة لم تنجح حتى الآن في التقاط دليل قوي، يصلح لإلقاء (قاسم عبيد) خلف القضبان، إلا أن كل شرطي في إدارة مكافحة المخدرات يعلم أنه الأكبر، بين كل تجار هذه السموم البيضاء..

وعلى الرغم من ذلك أرتجف (قاسم)..

لم يكن يتوقع أبدا أن تواجهه (غادة) بكل هذا الوضوح والصراحة.

لم يكن يتوقع هذا الهجوم اللفظي المباغت؛ ولهذا ظل يحدق في وجه (غادة) لحظات في ذهول، حتى سألها (جميل) في خشونة:

- من أنتِ؟ وماذا تريدين؟

التفتت إليه (غادة)، وقالت في صرامة:

- لا شأن لك بهذا، ولا تنس أبدا أنك مجرد تابع..

احتقن وجه (جميل) وهتف في حنق:

- أيتها الـ ...

استوقفه زعيمه في حزم، وهو يقول بلهجة آمرة:

- اصمت.

ثم أدار عينيه إلى (غادة)، وقال وقد استعاد هدوءه:

- لن يصلح الحديث في مثل هذه الأمور هنا.. هيا إلى مكتبي.

ابتسمت (غادة) في ثقة، وقالت في بساطة:

- لا بأس

تبعته إلى حجرة مكتبه، الملحقة بمتجره، ولم تكد تدخل إلى المكتب حتى أغلق (جميل) الباب خلفهما، فأشارت إليه (غادة)، وقالت ساخرة:

- أمن الضروري أن يجلس هذا الشيء معنا؟

ابتسم (قاسم ابتسامة غامضة، وهو يجيب:

- نعم ٠٠ إن وجوده ضروري للغاية..

لم يكد يتم عبارته، حتى سمعت (غادة) صوت (جميل) من خلفها، يقول في شراسة:

- وستعرفين لماذا..

ثم مس نصل مدية حادة عنقها، مع صوته يستطرد:

- بعد فوات الأوان..

عندئذ أدركت لماذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- اللعبة..

كان الموقف دقيقا بحق.. لقد حقق (مجدي) حلمه، وضبط (العقرب) متلبسا وعلى الرغم من ذلك، استدار (العقرب) في هدوء يواجه (مجدي)، الذي حملت شفتاه ابتسامة ظفر واسعة، وأمسكت قبضته مسدسًا حكوميًا كبيرًا، يصوبه إلى صدر (العقرب) في تحفز واضح..

وران صمت رهيب على المكان، تطمه (درويش) فجأة، عندما تعرَّف (مجدي)، فهتف في لهفة:

- القي القبض عليه يا سيادة العقيد.. إنه يهددني بالقتل..

فوجئ بـ (مجدي) يقول في خشونة:

- اصمت يا رجل..

تراجع (درويش) في دهشة وقلق، وراح ينقل بصره في خوف، بين وجهي (مجدي) و(العقرب)، حتى قال هذا الأخير في هدوء، محاولا تغيير صوته:

- هل الحظ وحده، هو الذي جاء بك إلى هنا؟

أجابه (مجدي في زهو:

- بل عقلي هو الذي فعل، فلقد شاهدت مثلك ما فعله (درويش)، في قاعة الحاكمة، وأدركت أن له صلة بالأمر، ورأيت الانفعال الذي ارتسم على وجهك حينذاك، وعلمت أنك ستسعى حتما خلف (درويش)، فانتظرت هنا، حتى سمعت صرخة هذا الأخير، فأسرعت إلى شقته، ووجدت بابها مفتوحا - لحسن الحظ وهأنذا..

قال (العقرب) في برود:

- تدهشني الوسيلة، التي بلغت بها هذا المكان، على الرغم من خطأ الاستنتاج، فأنا لم أذهب إلى أية قاعة محاكمات هذا الصباح..

أطلق (مجدي) ضحكه ساخرة عالية، وقال:

- هكذا؟! لا يا صديقي.. لن يمكنك اللعب على هذا الوتر، على الرغم من هذا القناع، ومحاولة تبديل صوتك.. الم تنتبه إلى الخطأ، الذي وقعت فيه.. كيف علمت أنني اقصد هذا الصباح، على الرغم من أنني لم اذكر هذا.

أجابه (العقرب) في بساطة:

- لأنني اعلم أن محاكمة (إبراهيم علوان) ستتم هذا الصباح، وهناك فارق كبير بين معرفتي بالأمر، وحضوري..

لم يرق هذا 1 (مجدي)، ولم يعجبه أن حطم (العقرب) قرينته بهذه السهولة، فعقد حاجبيه في صرامة، وقال في حدة، وهو يرفع مسدسه إلى وجه (العقرب):

- فليكن أيها الغرور، سنقطع الشك باليقين.

وحملت كلماته كل غضب وحزم الدنيا، وهو يستطرد:

- هيا.. انزع قناعك..

ولم يكن هناك مجال للفرار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعرت (غادة) بنصل المدية الحاد على عنقها، وأدركت على الفور أن (جميل) هذا من ذلك النوع، الذي لم يحظ بقدر كافٍ من التهذيب، بحيث يتردد أمام قتل مخلوق حي...

ولكنها لم تخف..

لقد كانت تتوقع مثل هذا الموقف، منذ وضعت قدميها في هذه المملكة الإجرامية الرهيبة..

مملكة الشر..

وعندما وضع (جميل) نصل مديته على عنقها، أدركت ان لحظة العمل قد حانت..

وبدأت قتالها..

وبلا تردد..

فجأة قفزت يدها تمسك معصم (جميل)، ثم انزلقت من ذراعه في مهارة ورشاقة، ودارت على كعبها في مرونة، ودفعت اظفارها في عنق الرجل، ثم قفزت تركل معدته بكعب حذائها الدقيق، وطارت قدمها الأخرى تضرب المدية في الوقت ذاته..

وانثنى (جميل)، وهو يمسك معدته في الم، في حين قفزت (غادة) تلتقط المدية، ووضعتها على عنقه هو، قائلة في سخرية:

- معذرة.. لم انتبه إلى حديثك السابق.. ماذا كنت تقول؟

شحب وجه (جميل) في خوف، ثم لم يلبث أن أحتقن في غضب، في حين قال (قاسم) وهو يتراجع إلى حيث مكتبه:

- ما معنى هذا؟

فوجئ بـ (غادة) تخرج من ثوبها مسدسًا صغيرًا، وتصوبه إليه قائلة:

- معناه أنك ستتلقى رصاصة في منتصف جبهتك تمامًا، لو أنك انتزعت مسدسك من درج مكتبك، كما تنوي أن تفعل..

اتسعت عينا (قاسم) في دهشة وذعر، واحتبست كلماته في حلقه، في حين سعل (جميل) في توتر، وقال:

- إنها مجنونة ولا شك.. كيف تجرؤ على مهاجمتنا هنا؟

أعادت (غادة) مسدسها إلى جيب سري في ثوبها، وهي تقول:

- اين كنت تحب أن أفعل.. في حديقة الحيوان؟

حبس كلماته في حلقه، وهو يتطلع إليها في غضب، في حين سألها (قاسم) وقد تضاعفت عصبيته:

- مرة أخرى أسألك، ما معنى هذا؟

اتخذت لنفسها مقعدًا، ووضعت إحدى ساقيها فوق الأخرى، وهي تجيب:

- معناه أنكم لا تحسنون التعامل مع الضيوف..

غمغم في دهشة:

- الضيوف؟!

أضافت في هدوء:

- ورجال الأعمال..

حدق فيها لحظات في صمت وحيرة، ثم تبادل مع (جميل) نظرة تساؤل، واتجه إلى مكتبه، وجلس على المقعد الوثير خلفه، قبل أن يسألها في حذر:

- أي نوع من الأعمال؟

أجابته في هدوء شديد:

- التوريد توريد الهيروين النقي..

عقد حاجبيه في شدة، ولاحظ العصبية الشديدة، التي انتابت مساعده (جميل)، فراح يفرك كفيه في حدة، وقال في حذر:

ولكن التعامل مع هذا المسحوق محظور، بأية صورة من الصور، و

قاطعته في لهجة توحي بالضجر:

- اسمع يا رجل.. لست أهوى لعبة القط والفأر هذه، ولست مستعدة لإضاعة نصف عمرى فيها، فلقد أجريت تحريات واسعة هذا الصباح، وعلمت منها انك زعيم تجار هذا المسحوق، وأعلم الآن أنك تخشى أن أكون واحدة من فتيات الشرطة وضباطها، ولكنني لست كذلك..

ظل يتطلع إليها في شك وحذر، عاجزا عن استيعاب أسلوبها المباشر، فاستطردت في سخرية:

- ولكنني شرطية سابقة..

اتسعت عيناه في دهشة، وهتف:

- شرطية؟!

ابتسمت متهكمة، وهي تجيب:

- نعم.. شرطية سابقة، ولا تجعل ذلك يرعبك إلى هذا الحد، فلقد استقلت من صفوف الشرطة منذ عام كامل، وأعمل الآن

محامية، وأمثل شرطيًا سابقًا أيضًا، يعمل محاميًا كذلك، ولكن في الظاهر فقط، في حين يرغب في إدارة مشروع آخر في الباطن..

سألها في حذر:

- ما اسم هذا المحامي؟

أجابته في بساطة:

- (نديم) ٠٠ (نديم فوزي).. ولكن هذا لا يهم الآن، المهم أن رئيسي هذا قد نجح في إدخال كمية كبيرة من الهيروين النقي إلى البلاد، ويحتفظ بها في مكان آمن للغاية، ويبحث عن موزع مضمون، أو مشتر جيد، يمكنه أن ينقده ثمن الكمية كلها فورًا، دون تسويف أو مماطلة، فما رأيك؟

ساد الصمت التام في حجرة مكتب (قاسم)، الذي راح يتطلع إلى (غادة) في إمعان، وكأنما يحاول أن يستشف من ملامحها ما تخفيه اعماقها، إلا أن وجهها بدا له جامدًا، على الرغم من الابتسامة الواثقة، والتي تعلو شفتيها، والتي جعلته يقول في النهاية:

- الواقع أنني لست..

قاطعته، وهي تنهض في هدوء:

- أظنك تحتاج إلى وقت للتفكير.. اليس كذلك؟

ثم اتجهت نحو الباب، دون أن تنتظر جوابه، مستطردة:

- سآتي لمقابلتك في الصباح إلى اللقاء..

غادرت المكان، وأغلقت الباب خلفها في لامبالاة، فحدق (جميل) في الباب المغلق في دهشة واستنكار، ثم التفت إلى زعيمة، هاتفًا:

- هل ستتركها تنصرف هكذا؟

تطلع إليه زعيمه لحظات في صمت، ثم لوح بكفه، قائلًا:

- بالتأكيد

هتف (جميل)

ولكنها هاجمتني، وهددتك بمسدسها و.

قاطعته في حدة:

- أنت غبي..

حدق (جميل) في وجهه في دهشة، وقال:

- انا؟!

أجابه (قاسم) في حدة:

- نعم.. أنت غبي، وعصبي، وعنيف، وكلها صفات ستوقع بك في قبضة الشرطة يوما ما، ما لم تتغلب عليها..

الم تستوعب الأمر بعد.. إننا أمام فتاة تقدم لنا عرضًا. وهذا العرض لا يحتمل سوى احتمالين لا ثالث لهما، فإما أنها خدعة من رجال الشرطة للإيقاع بنا، أو هو بالفعل تاجر جديد، يرغب في دخول عالمنا، وفي الحالتين يكون من الخطأ أن نهاجم هذه الفتاة أو نقتلها، فسيصبح هذا دليلا لإدانتنا في الحالة الأولى، وخطأ يفقدنا صفقة طيبة في الحالة الثانية..

عقد (جميل) حاجبيه يدرس الأمر، ثم غمغم:

- هذا صحيح..

تراجع (قاسم) في مقعده، وهو يقول:

- وأنا لا أحب أن أخسر لعبة مع الشرطة، أو صفقة مع تاجر جديد، ولهذا ينبغي أن العب اللعبة بطريقتي انا..

مال (جميل) نحوه، يسأله في اهتمام:

- كيف؟

أشعل (قاسم) سيجارته، ونفث دخانها في بطء، وهو يجيب:

- تماما كما سيفعلها رجال الشرطة، لو كانوا في موضعنا.

وابتسم مستطردا في سخرية:

- سنتحرى الأمر أولًا.

وحملت ابتسامته شيئًا جديدًا..

ومخيفًا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- وسقط الحاجز..

لم يكن من السهل - بالتأكيد - أن ينزع (العقرب) قناعه، ويهدد حياته وعمله ومستقبله بهذه السهولة..

ولكن الموقف لم يكن أيضًا سهلًا أو هينًا..

لقد كان (العقرب) يواجه خصمًا لدودًا، لا يتمني في حياته أكثر من فضح شخصيته، ولم يكن يحمل سلاحًا، في حين كان خصمه يصوب إليه واحدًا..

وكان الموقف يحتاج إلى لعبة ذكية، أو إلى خدعة محكمة..

وفي هدوء، عقد (العقرب) ساعديه أمام صدره، وقال:

- يخيل إلىّ أنك تمزح أيها العقيد.

جذب (مجدي) إبرة مسدسه في حزم، وهو يقول في حدة:

- هل تراهن؟

هز (العقرب) كتفيها على نحو يوحي باللامبالاة، وهو يقول:

- لست أميل إلى المراهنات، فهي تخالف الشريعة الدينية، أو الفطرة السليمة، ولكنك تعلم حتما انني لن انزع قناعي أبدًا..

قال (مجدي) في صرامة غاضبة:

- ستنزعه، وإلا أطلقت عليك النار.

هز (العقرب) رأسه في هدوء، وقال:

- لن تفعل ايها العقيد.. لن يمكنك أن تفعل؛ لأنك تلتزم بالقانون، الذي يمنعك من إطلاق النار على شخص، لم يحاول حتى مهاجمتك.

تطلع إليه (مجدي) في صمت وحذر وغضب، ثم قال في عصبية:

- اعلم ما ترمي إليه يا (نديم).. إنك تحاول دفعي إلى الاقتراب منك، لنزع قناعك بنفسي، عسى أن يمنحك هذا فرصة تجريدي من مسدسي، والفرار من هنا، قبل أن أكتشف شخصيتك، ولكنك واهم، فهذا القناع، الذي تخفي به وجهك، هو الحاجز الذي يحول بيني وبين إدانتك دائمًا، فهو يثير الشك حول حقيقة شخصيتك، والشك يميل دائما إلى كفة المتهم، ولكنني مصر على إسقاط الحاجز هذه المرة، ونزع قناعك..

ثم التفت إلى (درويش)، واستطرد في لهجة آمرة:

- انتزع أنت قناعه يا رجل..

هتف (درويش) في ذعر:

- انا؟!

أجابه (مجدي) في حدة:

- نعم لا ترتجف هكذا.. إنه مجرد رجل عادي، على الرغم من مظهره المخيف، الذي سيتلاشى فور نزعك قناعة الأسود هذا.. هيا.. انزعه..

تردد (درويش) لحظة أخرى، إلا أنه لم يلبث أن وجد الفكرة مغرية بحق، فذلك المقنع وحده هو الذي يمثل خطرا عليه، ونزعه القناع سيعني وقوع المقنع في قبضة العقيد (مجدي)، ونجاته هو بالتبعية..

ومنحته الفكرة الشجاعة اللازمة، فدار حول (نديم)، الذي ظل يعقد ساعديه أمام صدره، ومد (درويش) يده نحو القناع، وهو

يقول:

- سأنزعه.

وفجأة حلَّ (نديم) ساعديه في حركة سريعة، وأمسك ذراعي (درويش) في قوة، وجعل من الرجل درعًا، يقيه رصاصات مسدس (مجدي)، وهو يقول:

- أحسنت يا رجل..

ثم اندفع بجسد (درويش) نحو (مجدي)..

وارتبك (مجدي) بحق..

لم يكن يتوقع هذا من (العقرب)..

ولم يكن يستعد له..

ثم إنه لا يستطيع إطلاق النار على (درويش)..

ومع لحظات ارتباكه هذه، بلغه (العقرب)، ودفع (درويش) إلى صدرها وهو يقول:

- اعذرني على هذه الهدية السخيفة يا عزيزي (مجدي)..

ثم قفزت قلمه تركل المسدس من يد (مجدي)، مستطردًا:

- ولكنك اجبرتني على منحك إياه.

تفجر الغيظ في نفس (مجدي)، عندما فقد سلاحه وفرصته على هذا النحو، فأزاح (درويش) جانبا في حدة، وهو يصرخ:

- لا...

في قوة ثم انقض على (العقرب) مستطردًا:

- لن تخدعني مرة أخرى.

هوى بقبضته على فك (نديم) في قوة، ولكن بطلنا تلقى اللكمة على مساعده، وهو يقول:

- مهلا يا (مجدي).

زمجر (مجدي)، وأطلق قبضته الثانية في وجه (العقرب)، الذي استطرد في حزم:

- إنك ترتكب خطأً جسيما بشجارك معي..

ثم انحنى متفاديًا لكمة (مجدي) الذي اختل توازنه، فدار جسده حول نفسه، و(العقرب) يتابع:

- في حين أننا نسعى خلف هدف واحد..

ودفع مساعديه تحت ذراعي أمجدي)، ثم رفع كفيه لتتشابك أصابعهما، خلف عنق هذا الأخير، وهو يضيف:

- ومن الأفضل أن نتحد هذه المرة..

شلَّت هذه الوسيلة حركة (مجدي) تمامًا، فراح يطوح ذراعيه في الهواء، ويتلوى بجسده، محاولا تخليص نفسه، وهو يصرخ في غضب:

- لن تهزمني إلى الأبد.. لن تفعل..

قال (نديم) في صرامة:

- كفى يا رجل.. من المؤكد أنك تهتم بأثبات براءة زميلك (ابراهيم)، وأنا أسعى خلف الهدف نفسه، ودليل البراءة يقف أمامنا على قدميه، ويشاهد شجارنا شامتًا.. اليست هذه سخافة منقطعة النظير؟ أليس من الأفضل أن نتحد؛ لنفوز في هذه المعركة على الأقل؟

توقف (مجدي) عن المقاومة، وهو يغمغم:

- نتحد!

كان من العسير عليه أن ينطق الكلمة، وان يتصور محاولة تحويلها إلى حقيقة..

هناك حاجز رهيب، يحول بينه وبين (نديم)..

حاجز من الغضب والعناد..

حاجز مهيب عنيف..

ولم يكن من السهل أبدا أن يتصور سقوط هذا الحاجز..

بل من المستحيل أن يفعل..

ولكن كلمات (نديم) كانت منطقية للغاية..

إنهما يقاتلان من أجل هدف مشترك..

ومن المحتم أن يتحدا معًا..

ولم لا..

سيتحد مع (نديم) هذه المرة..

سيعاونه حتى ينجحا في اثبات براءة (إبراهيم)..

وبعدها يعاود قتاله معه..

وفي اعماقه سقط هذا الحاجز، ووجد نفسه يقول:

- نعم.. لن يضيرنا أن نتحد، ولو لمرة واحدة..

وهنا انتقل الشعور بالخطر إلى قلب (درويش)..

إن اتحادهما يعني المزيد من القوة لكليهما..

ويعني سقوطه هو..

ولم يكن ليحتمل السقوط..

والتفتت عيناه بسرعة إلى مسدس (مجدي)، الذي اسقطه (العقرب)، فقفز يلتقطه في حدة، ورفعه نحو (مجدي) و (نديم)، وهو يهتف في عصبية:

- في هذه الحالة يختلف الأمر كثيرًا..

وبلا تردد، اطلق النار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تألقت عينا (قاسم)، وشفت خلجاته عن ارتياح بالغ، وهو يضع سماعة الهاتف على اذنه، ويستمع إلى شخص ما في انتباه شديد، قبل أن يقول:

- هذا عظيم.. عظيم جدًا.

وأعاد السماعة إلى موضعها، وهو يبتسم ابتسامة واسعة، جعلت مساعده (جميل) يسأله في لهفة:

- أهي اخبار سارة؟

أجابه (قاسم في انفعال:

- بالتأكيد..

ثم اعتدل في مقعده، وسيطر على اعصابه الثائرة، وهو يستطرد:

- لقد اتصلت برجل يعمل لحسابنا، في مديرية الأمن، وسألته عن (نديم فوزي) هذا، فأخبرني أنه كان ضابطا برتبة رائد، في صفوف الشرطة، ثم فصله وزير الداخلية السابق، منذ ما يقرب من العام؛ بسبب عنفه، وإصراره على تخطي القوانين والإجراءات القانونية في ضبط المتهمين، ولقد حاول (نديم) فتح مكتب خاص للتحريات، ولكنهم رفضوا طلبه، وسحبوا منه رخصة السلاح، فما كان منه إلا أن افتتح مكتبا للمحاماة، وانضمت إليه زميلته (غادة)، بعد أن استقالت بدورها..

سأله (جميل) في اهتمام:

- إذن فلقد كانت الفتاة صادقة..

أومأ (قاسم) برأسه إيجابًا، وقال:

- هذا ما يبدو منطقيًا، فنحن أمام رجل يحمل كل المقت والكراهية لرجال الشرطة، بعد فصله من الخدمة، ومنعه من مزاولة عمل متميز، ومن الطبيعي أن يسعى مثل هذا الرجل إلى ما يمنحه القوة، ولذة محاربة الشرطة في آن واحد، ومن الطبيعي أن يقوده هذا إلى عالمنا..

سأله (جميل) في شك:

- ولكن من أين له بالمال الكافي، للاتجار في الهيروين النقي؟

اتسعت ابتسامة (قاسم)، وهو يقول:

- والده واحد من أكبر مليونيرات (مصر)..

أومأ (جميل) برأسه، وقال:

- إذن فقد ربحنا موَّردًا جديدًا..

مط (قاسم) شفتيه، وقال:

- أو قتيلًا جديدًا.

وانطلقت من بين شفتيه ضحكة..

ضحكة شيطانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- اللقاء..

في الاتحاد قوة..

لم يؤمن (مجدي) في حياته كلها بهذه العبارة، مثلما يؤمن بها الآن، بعد ما حدث..

كان (درويش) بصوب إليه مسدسه، ويضغط الزناد..

ثم تحرك هو و (العقرب)..

انحنى الاثنان في حركة واحدة، جعلت الرصاصة تعبر فوق رأسيهما، ثم قفزت قدم (مجدي) تركل مسدس (درويش)، واندفع (العقرب) في الوقت ذاته نحو المجرم، وكال له لكمة كالقنبلة، طارت لها اثنتان من أسنان (درويش)، قبل أن يرتطم هو بالحائط، ثم يرتد ساقطا على وجهه..

وبحركة سريعة، التقط (العقرب) المسدس، وأمسك (درويش) من شعره، وجذبه في قوة، حتى أجبره على الوقوف، وهو يقول في صرامة:

- ستدفع ثمن هذا.

كانت السماء تملا فم (درويش)، والرعب يملأ قلبه، فهتف بمزيج منهما، وهو يلوح بيده مذعورًا:

- الرحمة!! الرحمة!!

امسك (مجدي) عنق (درويش) في قوة، وقال في غضب:

- أية رحمة تنشدها، بعد محاولتك قتلنا يا رجل؟

انهار (درويش)، هاتفا في ضراعة: لم أكن أقصد هذا.. لم أكن أقصده.

أمسك (العقرب) يد (مجدي)، وهو يقول في هدوء: انتظر يا صديقي.. لقد ادرك هذا الوغد خطأه، وسيكفر عنه باعتراف بسيط.

رمقه (مجدي) بنظرة نارية، إلا انه غمغم:

- اتظنه سيفعل؟

قال (العقرب) في هدوء:

- بالتأكيد.

ثم التفت إلى (درويش)، وقال في صرامة:

- هيا يا رجل.. إننا ننتظر اعترافًا مكتوبًا..

زاغت عينا (درويش)، وهو يقول في ارتياع:

- لن أستطيع.. أقسم، إنني لا استطيع هذا، سيقتلونني لو فعلت.

كاد (مجدي) ينفجر غاضبًا، ويهيل طنا من السخط والسباب على رأس (درويش)، ولكنه لم يكد يفتح فيه لينطق، حتى فوجئ بـ (العقرب) بعقد ساعديه أمام صدره، ويقول في هدوء:

- يبدو أنك قد اخطأت فهم الغرض الحقيقي من اعترافك يا رجل.

تطلع إليه (درويش) في شك وحيرة، فأكمل بنفس الهدوء:

- لسنا نحتاج إلى هذا الاعتراف لمعرفة الجاني الحقيقي، فنحن نعلم أنه (قاسم عبيد).

شحب وجه (درويش) في شدة، وتطلع (مجدي) إلى وجه (العقرب) في دهشة، وهذا الأخير يتابع:

- إننا نعلم هذا، ولدينا ما يدين (قاسم)، ولكنه سيلقى بالتبعية كلها عليك، وسيثبت هذا بالدليل الذي لديه.. وأنت تدرك هذا الدليل..

انهار (درويش) تمامًا، عند هذه النقطة، وقال:

- اقسم انني لم أقصد الإساءة إلى العقيد (إبراهيم).. لقد أفهمني (جميل)، مساعد (قاسم) أنهم يحاوله إحراجه، وتهديده فحسب.. لم أكن أعلم أنهم يخططون لإلقائه في السجن..

قال (العقرب) في صرامة:

- أريد هذا الاعتراف مكتوبًا.. هل ستفعل؟

اجاب (درويش)، وقد بلغ انهياره ذروته:

- فسأفعل سأفعل كل ما تطلبونه، وأدلى باعتراف تفصيلي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قرأ (مجدي) اعتراف (درويش) - للمرة الثانية – في انفعال بالغ، ثم طواه ووضعه في جيبه في حرص، وهو يهتف:

- لقد حصلنا عليه.. حصلنا على الاعتراف.. لقد حققنا انتصارًا رائعًا، وسريعًا للغاية.

أجابه (العقرب) في هدوء:

- ليس بعد يا صديقي.

تطلع إليه (مجدي) في حنق، وهتف:

- ماذا تعني بليس بعد هذه؟

وبدا وكأنها تذكر بغتة غرابة الموقف، فاستطرد في حدة:

- ثم لماذا لم تعد إلى مسدسي، ما دمت تدَّعى اننا سنتعاون معا هذه المرة؟

أجابه (العقرب) في بساطة:

- ربما لأنني لا أثق في حسن تعاونك يا صديقي.

صاح (مجدي) في غضب:

- أي قول هذا.. انسيت انني أمثل القانون؟ وأنني...؟

قاطعه في حزم:

- ربما كان هذا هو السبب..

مرت لحظة ثقيلة من الصمت، و (مجدي) يتطلع إلى عيني (العقرب) في تحدٍ، قبل ان يقول في عصبية:

- اسمع يا (نديم. لقد سمحت لنفسي بالجلوس معك، وأنت تخفي وجهك بهذا القناع السخيف، ولكن هذا لا يعني أبدا أن...

قاطعه (العقرب) مرة أخرى في حزم:

- هل سنضيع الوقت في هذه السخافات؟

تفجر الغضب في وجه (مجدي)، وبدا أنه سينفجر بغتة كالقنبلة، لولا أن استطرد (العقرب) دون توقف:

- هذا الاعتراف ¢ الذي حصلنا عليه من (درويش: لا يكفي لتبرئة (إبراهيم)، فمن الممكن أن يتراجع. (درويش) عن اعترافه - بكل

بساطة أمام وكيل النيابة، بحجة اننا قد أجبرناه عليه، وفي هذه الحالة سيصبح موقف (إبراهيم) أكثر ضعفًا..

ابتلعت هذه الكلمات غضب (مجدي) وثورته، فسأل في اهتمام:

- ماذا يمكننا أن نفعل إذن؟

أجابه (العقرب):

- لابد لنا من الحصول على دليل إدانة قوي..

فسأله بنفس الاهتمام:

- كيف؟

جلس (العقرب) على اول مقعد مصادفة في هدوء، وهو يقول:

- سأخبرك كيف..

وراح يروي خطته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكد (نديم) يخطو داخل مكتبه، في الصباح التالي، حتى استقبله (أحمد)، عامل المكتب، وهو يقول في قلق:

- هناك رجل ينتظرك في مكتبك يا استاذ (نديم)..

سأله (نديم) في هدوء:

- ولماذا تنطقها بكل هذا القلق يا عم (احمد)؟

هز (أحمد) كتفيه في حيرة، وقال:

- لست أدري يا أستاذ (نديم)، ولكن هيئة هذا الرجل لا تبدو مطمئنة أبدًا..

ربَّت (نديم) على كتفه، قائلًا:

- لا تجعل هذا يقلقك.

اتجه إلى حجرته بكل هدوء، والقي نظرة على الرجل الذي يجلس داخلها، والذي نهض يستقبله، ومد يده يصافحه، وهو يقول:

- صباح الخير يا (نديم) بك.. انا (جميل).. سكرتير (قاسم بك عبيد)

فحصه (نديم) بنظرة سريعة، ثم اتجه يجلس خلف مكتبه، وسأله:

- لماذا لم يأت (قاسم عبيد) بنفسه؟

ابتسم (جميل) ابتسامة خبيثة، وقال:

- الكبار لا يبدؤون الخطوات الأولى يا (نديم) بك.

شبك (نديم) أصابع كفيه أمام وجهه، وراح يتطلع إلى (جميل) في برود، ثم سأله بغتة:

- ما رأي رئيسك في عرضي؟

ظلت نفس الابتسامة الخبيثة على شفتي (جميل)، وهو يقول:

- لو انك تقصد فكرة توريد البضاعة إلينا، فالفكرة مقبولة، ولكن...

صمت لحظات، فسأله (نديم):

- ولكن ماذا؟ أينبغي أن أسجل اسمي في سجل الموردين؟

قهقه (جميل) ضاحكًا، وقال:

- دعاية طريقة يا (نديم) بك..

ثم تلاشى مرحه بغتة، وأضاف في جدية:

- ولكن مثل هذه الأمور تعتمد على عدة نقاط..

سأله (قديم):

- مثل ماذا؟

استعاد (جميل) تلك الابتسامة الخبيثة، وهو يقول:

- مثل سعر البضاعة، ونوعيتها، وطريقة السداد..

مرت لحظة من الصمت، وكأنما يزن (نديم) الأمر في رأسه، ثم سأل (جميل):

- هل زعميك رجل شريف؟

اجابة (جميل) في حماس:

- إنه رجل شريف للغاية..

بدا الجواب ساخرًا مضحكًا، بالنسبة لـ (نديم)، إلا أنه لم يبتسم، وهو يلقي سؤاله التالي:

- أتعني أنه رجل مضمون؟

أجابه (جميل) بنفس الحماس:

- نعم: مضمون تمامًا..

مضت لحظة أخرى من الصمت، ثم قال (نديم):

- اسمع يا (جميل).. أبلغ رئيسك أنني أرغب في إتمام هذه الصفقة في خلال يومين فحسب؛ لأنني سأغادر البلاد بعدها،

واريد إتمام كل الإجراءات المطلوبة في هذه الفترة.

ثم فتح درج مكتبه، والتقط منه كيسًا صغيرًا، يمتلئ بالمسحوق الأبيض، ألقاه نحو (جميل)، مستطردًا:

- هذه هي العينة المطلوبة، أما السعر، فها هو ذا..

خط الرقم على ورقة صغيرة، ودفعها أمام عيني (جميل)، وهو يضيف في حزم:

- وهذا يعني أن الصفقة كلها تساوي مليونين من الجنيهات، يتم دفعهما نقدًا وعدًا، عند تسلم البضاعة..

رفع (جميل) حاجبيه في دهشة، وهو يطالع الرقم، الذي خطه (نديم) على الورقة، ثم لم يلبث أن أخفى دهشته، ودس الورقة في جيبه، وابتسم قائلًا:

- لا بأس يا (نديم) بك.. أنتظر رد الزعيم الليلة..

أجابه (نديم) في صرامة:

- بل بعد ساعتين لا أكثر..

تطلع إليه (جميل) في دهشة، فتراجع (نديم) في مقعده، وسأله:

- هل تعتبر هذا نوعا من الضغط؟

ابتسم (جميل)، وقال في هدوء:

- لا، لا توجد أية ضغوط.

ثم نهض مستطردًا:

- لا بأس يا (نديم) بك.. سيأتيك الجواب بعد ساعتين.

وصافحه في قوة، ثم انصرف..

وعلى الرغم من أن وجه (نديم) ظل جامدًا، إلا أن عينيه قد حملتا ابتسامة واسعة، وهو ينهض من خلف مكتبه، ويتجه إلى حجرة (غادة) المجاورة..

وابتسمت (غادة)، عندما رأته يدلف إلى حجرتها، وقالت:

- كان حديثك معه رائعًا..

اومأ برأسه في حركة هادئة، وسألها:

- هل سجلت المحادثة كلها؟

ابتسمت قائلة:

- كل حرفٍ منها..

ثم أضافت مشيرة إلى جهاز الكمبيوتر:

- وسيقوم الكمبيوتر بالباقي وحده.

هز كتفيه، وقال:

- إنه عصر التكنولوجيا بالتأكيد..

وشرد بصره وهو يضيف:

- وسنرى من سيربح المعركة هذه المرة.. التكنولوجيا أم تلك المملكة..

مملكة الشر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- وبدأت اللعبة..

التقطت عينا مراقب المنطقة، الذي يعمل لحساب تجار المخدرات في (الباطنية)، سيارة الشرطة، التي دخلت إلى الحي فأطلق صفيرًا مميزًا، نقله مراقب ثانٍ إلى ثالث، وأطلقه الثالث في قلب الحي، معلنا وصول سيارة الشرطة، فتحرك الجميع في سرعة، واختفت آثار المخدرات في دقائق، قبل أن تقتحم السيارة قلب السوق، وتتوقف أمام متجر (قاسم عبيد) مباشرة..

لم يكن داخل السيارة سوى رجل واحد، هو العقيد (مجدي)، الذي غادر السيارة في حركة حادة، وأدار عينيه في أهل الحي في صرامة، قبل أن يركز هيا على وجه (قاسم)، ويقول في خشونة:

- أنت (قاسم عبيد).. أليس كذلك؟

التقط (قاسم) نفسًا عميقًا، من مبسم نرجيلته الطويل، ونفثه في الهواء، قبل أن يقول في استهتار:

- بلى أنا (قاسم عبيد).. هل من خدمة يمكنني تقديمها؟

أمسكه (مجدي) من قميصه بغتة، وأجبره على النهوض في عنف، وهو يقول في غضب صارم:

- انهض عندما تتحدث إلى تحفز (جميل) لحظة، ثم لم يلبث أن تذكر أن هذا الذي يهين زعيمه رجل شرطة، فتراجع في توتر، في حين قال (قاسم) في هدوء:

- لقد نهضت بالفعل.. ماذا تريد مني بالضبط أيها العقيد؟

حدق (مجدي) في عينيه مباشرة، وهو يقول:

- اريد ان ارى كبير تجار السموم في المنطقة؟

ابتسم (قاسم) في سخرية، وقال:

- وما شأني أنا بهذا؟

جذبه إليه (مجدي) مرة ثانية في عنف، وقال:

- اسمع يا رجل اسمعني جيدًا.. إنني أبغض تجار المخدرات، واعلم أنه ما من دليل لإدانتك حتى الآن، ولكنني سأعثر على هذا الدليل يومًا..

قال (قاسم)، دون أن يفارقه هدوءه:

- يلوح لي أنك قد اخطأت هدفك أيها العقيد..

اجابه (مجدي) في حدة:

- لا.. لم أفعل.

ثم دفعه في غلظة، وأعاده إلى مقعده، واستدار يهم بالانصراف، إلا أنه لم يلبث أن التفت إليه، قال في حدة:

- قل لى يا رجل: لقد بلغني أن شحنة من الهيروين النقي، تبلغ عشرة كيلوجرامات قد دخلت البلاد منذ أيام، ما معلوماتك عنها؟

قال (اسم) في برود:

- لست أعلم عنها شيئًا.

رمقه (مجدي) بنظرة نارية، ثم قفز داخل سيارة الشرطة، وانطلق بها مبتعدًا، وهنا هتف (جميل) في حدة:

- إنه ضابط مغرور..

ابتسم (قاسم) وقال:

- ولكنه أفادنا كثيرًا.

تطلع إليه (جميل) في دهشة، وقال:

- كيف؟

اجابه (قاسم) مبتسمًا:

- لقد أخبرنا بأمر الكيلوجرامات العشرة، التي أدخلها (نديم فوزي) إلى البلاد، وهذا يعني أن الصفقة موجودة بالفعل..

ثم مد يده إلى (جميل)، مستطردًا:

- أرني العينة.

ناوله (جميل) كيس المسحوق الصغير، فمزق (قاسم) طرفه، وسكب القليل منه على سبابة، ثم تذوقه بطرف لسانه في حذر، وابتسم قائلًا:

- إنه نوع نقى رائع..

ثم أعاد الكيس إلى (جميل)، مستطردًا:

- والسعر جيد جدًا..

هتف (جميل):

- بل هو ممتاز.. لقد أدهشني للغاية..

ثم انعقد حاجباه دون سبب واضح، وهو يضيف:

- في رأيي أنها صفقة رائعة يا زعيمي فستربح منها مليون جنيه على الأقل..

أومأ (قاسم) برأسه موافقًا، وقال:

- هذا صحيح..

ثم اعتدل قائلا في حسم:

- سنتم الصفقة الليلة.

هتف (جميل) في دهشة:

- الليلة؟!

التقط (قاسم) نفسا من مبسم نرجيلته، وقال:

- نعم الليلة ألم تقل إن (نديم) هذا يرغب في إتمام الصفقة بسرعة؟

غمغم (جميل) في تردد:

- نعم. ولكن..

قاطعه (قاسم) في حزم:

- لا يوجد لكن.. إنها صفقة رائعة، ولن أضيع الوقت، خشية أن يجد (نديم) هذا مشتريا آخر..

هز (جميل) كتفيه مستسلمًا، وقال:

- كما تأمر يا زعيمي..

ابتسم (قاسم) في سعادة، لهذه الصفقة الجيدة، نفت دخان النرجيلة في الهواء، ثم قال:

- اذهب إلى (نديم) هذا، واخبره انني أوافق على إتمام الصفقة الليلة..

نهض (جميل) قائلًا:

- سأفعل يا زعيمي..

لم بدرك لحظتها أنه يلعب تنفس اللعبة.

لعبة (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطلقت (غادة) زفرة قوية، من أعماق صدرها، وهي تدلف إلى مكتب (نديم)، وهتفت وهي تلقى إليه حقيبة صغيرة..

- ها هو ذا

التقط (نديم) الحقيبة، في حين القت هي جسدها على اول مقعد صادفها، وهي تقول في حدة:

- لم اشعر بمثل هذه التوتر في حياتي كلها.

فتح (نديم) الحقيبة، وتطلع إلى أكياس المسحوق الأبيض داخلها، وقال في اهتمام:

- اهو هيروين نقي؟

أجابته في حدة:

- نعم بده من أنقى أنواع الهيروين، ولكنني لم أتصور نفسي ابدا في مثل هذا الموقف.. تصور ان اذهب إلى تاجر مخدرات، وابتاع نصف كيلو جرام من الهيروين!! ماذا كان يمكن أن يحدث، لو ألقي القبض على، وأنا أحمل هذه الحقيبة؟

لم يجب على النور، وإنما أعاد إغلاق الحقيبة في إحكام، وقال:

- من حسن الحظ أن هذا لم يحدث..

هتفت معترضة:

- أهذا كل ما أمكنك قوله؟

لمحت على شفتيه شبح ابتسامة، لم يلبث أن تلاشى بسرعة، فأطلقت زفرة أخرى، وغمضت في سخط:

- من أسوا الأمور أن تعمل إمراه مع رجل، لا يشعر انها كذلك..

ثم اعتدلت وسألته:

- أين ستحتفظ بهذه الحقيبة؟

أجابها في بساطة:

- هنا.

- هنا؟! ماذا لو استغل (مجدي) الموقف ليوقع بك.. اليس من المحتمل أن تجده يقتحم المكتب الآن، على رأس وحدة كاملة من وحدات إدارة مكافحة المخدرات، ويضبط الهيروين)؟

قاطعها في هدوء:

- لن يفعل..

صاحت:

- عجبا!! هل تثق به إلى هذا الحد؟

تطلع إليها لحظة في صمت، وقال:

- (مجدي) رجل شريف، وهو لن يوقع بي بتهمة زائفة.

قالت في جدة:

- ولكنه مستعد لدفع نصف عمره للإيقاع بك..

اعتدل في مقعده، وقال في هدوء:

- لأنه يتصور أن عملي في شخصية (العقرب) يخالف القانون.

حدقت فيه بدهشة، ثم لم تلبث أن لوحت بكفها، وقالت:

- فليكن.. إنك تمنح (مجدي) ثقة لا يستحقها في رأيي، فأنا لا أثق به قط..

تراجع (نديم)، وقال في بساطة:

- ولكنه لا يعلم بأمر وجود الهيروين هنا..

هتفت في دهشة:

- الم تخبرني أنه يعلم كل تفاصيل الخطة؟

لوح بكنه قائلًا:

- ليس كلها.

ابتسمت ابتسامة كبيرة، لم تلبث أن تحولت إلى ضحكة عالية، وهي تقول:

- هذا هو السبب الحقيقي إذن..

لم تكد تقم عبارتها حتى سمع الاثنان دقات هادئة على الباب، فوضع (نديم) الحقيبة جانبه، وقال:

- ادخل يا عم (احمد)..

دخل عم (أحمد) إلى الحجرة، وقال في ضيق:

- لقد عاد ذلك الرجل يا أستاذ (نديم) وهو يطلب مقابلتك..

قال نديم) في هدوء:

- دعه يدخل.

تراجع عم (أحمد)، وأفسح في الطريق لـ (جميل)، الذي اندفع داخل الحجرة، ومد يده عن آخرها ليصافح (نديم) وهو يقول:

- صباح الخير مرة أخرى يا (نديم) بك.. إنني..

بتر عبارته في حدة، عندما وقع بصره على (غادة)،

التي ابتسمت في سخرية، فانعقد حاجباه، وارتسمت على ملامحه البغضاء، وقال (نديم) في هدوء:

- لا تقلق إنها زميلتي الآنسة (غادة)..

غمغم (جميل) في حنق:

- لقد سبق أن التقينا..

ضمت (غادة) قبضتها، وقالت في سخرية:

- وكان لقاء عنيفًا..

انقبضت قبضتا (جميل) في تحفز، وتقافز الغضب من عينيه، فأسرع (نديم) يسأله:

- هل تحمل رد رئيسك.

التفت إليه (جميل)، ولانت ملامحه بغتة، وتراخت قبضتاه، وأجاب:

- نعم..

أشار إليه (نديم) بالجلوس، وهو يقول في بساطة:

- وما رده؟

جلس (جميل)، وأجاب في تعال:

- لقد وافق على إتمام الصفقة الليلة، وسيدفع المبلغ نقدا في الساعة الـ...

قاطعه (نديم) في هدوء:

- اترك لنا تحديد هذا..

انعقد حاجبا (جميل)، وهو يقول في حدة:

- لن يسمح الزعيم بهذا.. إنه لن يثق بكما مثلي و.

قاطعه (نديم) مرة اخرى في هدوء:

- اطمئن.. انت نفسك ستخبر الزعيم بالترتيبات.

ولكن (جميل) لم يشعر بالارتياح، وهو يتطلع إلى عيني (نديم)..

كان هناك نظرة غامضة مخيفة في عيني (نديم)..

نظرة عقرب...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- الخدعة..

ارتفع رنين الهاتف، في متجر (قاسم عبيد)، فالتقط قاسم سماعة الهاتف، ووضعها على اذنه، قائلًا:

- من المتحدث؟

أتاه صوت هادئ رصين، يقول:

- أنا (نديم (نديم فوزي)

ارتبك (قاسم) لحظة أمام المفاجأة، ثم قال:

- وماذا تريد يا (نديم) بك؟

اجابة (نديم) في هدوء:

- إنني أتحدث إليك بشأن صفقتنا الـ...

قاطعه (قاسم) في حدة:

- انتظر يا (نديم) بك..

ساد الصمت تمامًا، على الجانب الآخر للهاتف..

فاستطرد في لهفة قلقة:

- ضع سماعة الهاتف يا (نديم) بك، وسأتصل بك.

سمع صوت سماعة الهاتف توضع، ثم أعقب هذا صوته الأزيز المتصل للهاتف، فأعاد سماعته إلى موضعها بدوره:

وهو يغمغم:

- شديد الالتزام هو (نديم) هذا..

واتجه إلى حجرة يكتبه، وفتح درج المكتب، والتقط منه سماعة هاتف سري، وضغط ازرار رقم مكتب (نديم)، وهو يتابع:

- من حسن الحظ أنني حصلت على رقم هاتف ذلك المحامي..

سمع صوته رفع سماعة الهاتف من الطرف الآخر، فقال:

- مرحبا يا (نديم) بك.. معذرة خشيت أن يكون هذا الهاتف مراقبًا، ولهذا أتحدث إليك من هاتف آخر..

قال (نديم) بهدوئه المعهود:

- اانت واثق أن هذا الهاتف الآخر غير مراقب؟

ابتسم (قاسم)، وقال:

- بالتأكيد.. إنه خط خاص، ولقد دفعت ثروة، من أجل الحصول عليه.

ثم تلاشت ابتسامته، وذابت مع جديته وقلقه، وهو يستطرد:

- ولكن ماذا تريد بشأن الصفقة يا (نديم) بك؟ الم يصل (جميل) بعد؟

أجابه (نديم):

- لقد وصل، ولكنني أريد إتمام الصفقة في مكان آخر، وبحضورك شخصيًا..

عقد (قاسم) حاجبيه، وامتلأت نفسه بالشك، وهو يجيب في حذر:

- ولماذا حضوري شخصيا؟

أجابه (نديم) في برود، لا يخلو من الصرامة:

- لأنني أعتبر نفسي زعيمًا، ولست أحب التعامل شخصيا إلا مع الزعماء.. ثم إننا لم نلتق من قبل، والمفروض أن يتعارف من يتعاملون معًا، في مثل هذا النوع من البضائع..

بدت كلماته مقنعة إلى حد ما، فغمغم (قاسم):

- أنت على حق..

ثم عادت الريبة تملأ نفسه، فاستطرد بنفس الحذر:

- ولكن أين هذا المكان، الذي تريد أن تلتقي فيه؟

اجابة (نديم):

- فيلتي في (الهرم).

ردد (قاسم) في دهشة وشك..

- فيلتك!

قال (نديم) في بساطة:

- نعم إنها مكان مأمون، وهي ليست مسجلة باسمي ثم إن لها قبوًا سريًا، يصلح للاختباء، إذا ما داهمتنا الشرطة، كما يصلح لإخفاء البضاعة وقت اللزوم.

قال أقاسم) في حذر:

- ومن أدراك أنها ليست مراقبة؟

فسأله (نديم):

. أخبرني أنت: لماذا لم تفترض أن هاتفي مراقب؟

أجابه (قاسم):

- لأنك وجه جديد على الساحة، ولا يوجد مبرر لمراقبة هاتفك..

أتاه صوت (نديم) باردا كالثلج، وهو يقول:

- وهذا هو الجواب نفسه، بالنسبة لمراقبة الفيلا..

حملت أسلاك الهاتف صمتًا طويلًا، استغرق دقيقة كاملة من الطرفين، قبل أن يقول (قاسم) في قلق:

- لو أن (جميل) استطاع رؤية الفيلا أولًا..

قاطعه (نديم):

- لقد رآها، وها هو ذا يجلس معي، فأنا أتحدث إليك في وجوده.

تمتم (قاسم) في دهشة:

- في وجوده؟!

ثم أضاف في دهاء:

- دعني أتحدث إليه إذن..

سمع صوت (نديم)، وهو يقول في بساطة:

- إنه يريد أن يتحدث اليك يا (جميل)

مضت لحظة من الصمت، ثم مسمع صوت (جميل) يقول:

- أنا (جميل.

ميز صوته في وضوح، فسأله في همس:

- قل لي: هل يجبرك هذا الرجل على التحدث إلى: أو قول شيء يخالف الحقيقة؟

أتاه صوت (جميل)، يقول في هدوء:

- لا.. لا توجد أية ضغوط.

كانت اللهجة التي يتحدث بها مطمئنة حقًا، مما بعث الكثير من الارتياح في نفس (قاسم)، فاعتدل في مقعده، وسأل مساعده في اهتمام:

– أخبرني يا (جميل)، هل تظن أن (نديم فوزي) هذا أهل الثقة؟

سمع صوت (جميل)، يقول في حماس:

- إنه رجل شريف للغاية..

سأله:

- وماذا عن الفيلا؟ هل يبدو لك المكان آمنا؟

وبنفس الحماس، سمع (جميل) يقول:

- نعم ٠٠ مضمون تمامًا..

تنهد (قاسم) في ارتياح، وقال:

- فليكن.. دعني أتحدث مع (نديم) بك..

مضت لحظة أخرى من الصمت، ثم سمع صوت (نديم) يقول:

- هل اتخذت قرارك؟

سأله (قاسم):

- متي تحب إتمام الصفقة يا (نديم) بك؟

أجابه (نديم):

- في السابعة مساء.. مع غروب الشمس.. سأخبرك عنوان الفيلا..

استمع إليه (قاسم) في اهتمام، ثم قال:

- فليكن يا (نديم) بك سأحضر في الموعد تماما ومعي المبلغ.

أنهى الاتصال، وصمت لحظات، وهو يحك ذقنه بسبابته، ثم لم يلبث أن فتح درجا آخر في مكتبه، والتقط منه مسدسا من نوع (البريتا)، جذب مشطه، ليتأكد من حشوه، ثم دسه في جيبه، متمتمًا:

- الحذر واجب، في مثل هذه الأمور..

وتحس المسدس الراقد في جيب سترته، وكأنما يحاول أن يستمد منه شعورا بالأمان، إلا أن شيئا ما في أعماقه كان يشعر بالقلق..

وبالخوف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استنشقت (غادة) الهواء في عمق، في شرفة فيلا (الهرم)، وأغلقت عينيها في استمتاع، ثم التفتت إلى (نديم) تقول:

- ما أمتع الهواء هنا!! ألا يبدو لك المشهد والجو رائعين؟

تال في هدوء:

- إلى حد ما..

هتفت مستنكرة:

- إلى حد ما؟! ألم تعد تستمتع بالجمال.. انظر مرة أخرى يا رجل، وحاول ان...

قاطعها في ضجر:

- الوقت والظروف لا يناسبان هذا..

مطت شفتيها، قائلة:

- ربما..

ثم زفرت في ضيق، وسالته:

- كم بقي من الوقت، قبل وصول (قاسم)؟

تطلع إلى ساعته، وأجاب:

- خمس دقائق فقط هذا لو أنه ممن يلتزمون بمواعيدهم..

تطلعت إلى الطريق، وقالت:

- يبدو انه كذلك.. ها هو ذا.

نظر إلى حيث تتطلع هي، ورأى سيارة (قاسم) تقترب بسرعة، فقال في اقتضاب، حمل شيئا من الحماس الذي يملأ عروقه:

- عظيم.

وأضافت (غادة)، وهي تسيل جفنيها في تراخ:

- كل شيء يسير على ما يرام..

توقفت سيارة (قاسم) (المرسيدس) الحمراء أمام الفيلا، وهبط هو منها في حذر وتلفت حوله، قبل أن يلتقط حقيبته، ويتجه

نحو الفيلا، حيث استقبله (نديم)، وصافحه في هدوء، قائلًا:

- أهلا بك في الفيلا يا سيد (قاسم)..

ابتسم (قاسم) في خبث، هو يقول:

- اهلا بك انت في عالمنا يا (نديم) بك..

قاده (نديم) إلى ردهة الفيلا، جلس الاثنان على مقعدين متقابلين، وأشعل (قاسم) سيجارته، وهو يقول:

- هل البضاعة جاهزة؟

اشار (نديم) إلى حقيبة كبيرة، وقال:

- ها هي ذي..

هم (قاسم) بالنهوض من مقعده، لإحضار الحقيبة، ولكن (نديم) سأله في حزم:

- وماذا عن المال؟

دفع (قاسم) حقيبته إلى (نديم)، وقال:

- ما هو ذا..

التقط (قديم) الحقيبة، وفتحها، وتطلع في لا مبالاة إلى أوراق النقد المكدسة داخلها، ثم قال لـ (قاسم):

- يمكنك أخذ الحقيبة.

نهض (قاسم) من مقعده، وجذب إليه حقيبة (نديم)، ثم انعقد حاجباه، وقال في حدة:

- هذه الحقيبة خفيفة الوزن.. من المستحيل أن تحوي الكمية كلها..

هز (نديم) كتفيه، وقال:

- بالتأكيد.. الكمية مقسمة على عدد من الحقائب، كل واحدة تحوي نصف كيلو جرام من المسحوق، وستتبعك عربة تحمل الحقائب كلها.. هذه عينيه فحسب..

قال (قاسم) في حدة:

- لماذا لا أحصل على الكمية لها؟

تراجع (قديم) في مقعده، وقال:

- لأنك مراقب، كما سبق أن أخبرتني يا (قاسم)، ومن الخطر أن تحمل معك جراما واحدا من (الهيروين).

ثم أشار إليه، مستطردا في لهجة آمرة:

افحص الحقيبة التي تحملها يا رجل.. اطمئن إلى جودة البضاعة.

فتح (قاسم) الحقيبة، وألقى نظرة سريعة على المسحوق، ثم أغلقها، وابتسم قائلًا:

- أنا أثق بك يا (نديم) بك.. وأهنئك على حذرك الزائد هذا، فهو أفضل جواز للمرور والبقاء في عالمنا.

أومأ (نديم) برأسه في وقار، ثم سأله في هدوء:

- الآن أصبح الهيروين ملكك - اليس كذلك؟

ابتسم (قاسم ابتسامة واسعة، وهو يقول:

- بلى.. كل الهيروين ملكي

لم يكد يتم كلمته، حتى برز (مجدي) من الحجرة المجاورة، وصوب إليه مسدسه، وهو يقول في شماتة ظافرة:

- سأعتبر هذا اعترافًا.

واتسعت عينا (قاسم) في رعب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- العقارب..

تجمدت اطراف (قاسم)، واتسعت عيناه في ذهول، وتفجر بركان من الغضب والسخط في أعماقه، وهو يحدق في وجه (مجدي) ومسدسه، وكاد يصرخ في وجه (نديم)، ويتهمه بخيانته وخداعه، إلا أنه فوجئ بـ (نديم) يهب من مقعده ويهتف في غضب:

- لقد خدعتني يا (قاسم).. أنت أوقعتني في قبضة الشرطة..

التفت إليه (قاسم) في ذهول، وهو يهتف:

خدعتك.. أنا؟!

ولكن (مجدي) ابتسم في سخرية، وقال:

- بل خدعه هاتفه السرى يا (نديم).. لقد تصور أنه آمن من المراقبة، في حين كنت أنا أراقبه، وعلمت منه موعد ومكان صفقتكما.

صاح (نديم) في وجه (قاسم):

- أرأيت ايها الغبي.. ارأيت ما فعله بنا غرورك؟؟

غمغم (قاسم) في ذهول:

- أنا.. أنا..

إلا أنه لم يلبث أن دفع حقيبة الهيروين بعيدا عن صدره، وهو يستطرد في ارتياع:

- لا صلة لي بهذه الحقيبة أو محتوياتها.. إنها حقيبته..

قال (مجدي) في صرامة:

- البصمات فوقها ستحدد صاحبها يا (قاسم).

اتسعت عينا (قاسم) في رعب، وفرد راحتيه أمام وجهه، وراح يحدق فيهما في حنق، ثم لم يلبث أن أخفي بهما وجهه، وهو يهتف في مرارة:

- اللعنة!

مزق صوت (مجدي) البقية الباقية من أعصابه، وهو يقول في شماتة:

- لقد وقعت يا (قاسم) .. انتهيت.. ستقضى ما تبقى من عمرك خلف القضبان.. او يلتف حبل المشنقة حول عنقك.

تحسس (قاسم) عنقه في رعب هائل، في حين قال (نديم) في حدة، لا تتفق أبدا وشخصيته الهادئة الرصينة:

- لن أسمح بهذا ابدًا..

التفت إليه (مجدي)، وقال:

- لقد انتهيت أنت أيضا يا (نديم).. لماذا اخترت هذا الطريق الشائك؟ كان من الممكن أن تحمل الآن رتبة المقدم، في صفوف الشرطة، لولا..

قاطعه (نديم) فجأة في حزم:

- كم تطلب يا (مجدي).

سأله (مجدي) في دهشة:

- ماذا تعني؟!

أجابه في جدة:

- أنت تعلم أن والدي واحد من أكبر مليونيرات (مصر) وهو لن يسمح أبدا بأن يلقى ابنه الوحيد في غياهب السجون، وأنا واثق

أنه سيمنحك ثروة ضخمة، لو أنك تعاميت عما رأيته الآن.. ما رأيك؟

بدا التردد على وجه (مجدي)، فانتعش امل محتضر في أعماق (قاسم)، وقال في لهفة:

- أنا أيضا مستعد لمنحك ما تطلب مقابل هذا..

ما رأيك بربع مليون.. نصف مليون ماذا تطلب بالضبط؟

أمسك (مجدي) ذقنه بسبابته وإبهامه، وبدا وكأنه يفكر جديًا في هذا العرض، إلا أنه لم يلبث أن هز رأسه في شدة، واستعاد صرامته، وهو يقول:

- لا لا يمكنني قبول مثل هذه العروض..

قال (نديم):

- لماذا؟ إنك لن تربح من عملك في الشرطة، حتى نهاية عمرك، ربع هذا المبلغ.

ثم أضاف في صرامة:

- ثم إننا نستطيع تدمير مستقبلك، حتى ونحن داخل السجن..

بدا القلق والتردد على وجه (مجدي)، وقال:

- تدمير مستقبلي؟! ما من تاجر مخدرات يمكنه تدمير مستقبل رجل شرطة.

وتضاعف القلق في ملامحه، وهو يستطرد:

- اليس كذلك؟

لاحت في قلقه بادرة أمل لـ (قاسم)، فاندفع يقول:

- من قال هذا.. بالتأكيد يمكننا تدمير مستقبل أي ضابط شرطة..

هز (مجدي) رأسه في قلق، وقال:

- لم يحدث هذا من قبل.

هتف (قاسم):

- بل حدث.. أنت تعرف قضية (إبراهيم علوان).. لقد كنت أحد شهودها. فلتعلم إذن أننا نحن لفقنا له هذه التهمة..

خفض (مجدي) مسدسه، وهو يهتف:

- أنتم؟!

أجابه (قاسم) في حدة:

- نعم.. نحن.. لقد رشونا أمين مخازن المضبوطات، وجعلناه يوقع بالعقيد (إبراهيم).

بدا (مجدي) حائرا متوترا بضع لحظات، ثم لم يلبث أن رفع مسدسه مرة اخرى في وجه (قاسم)، وقال:

- لا.. لست أصدق هذا..

شعر (قاسم) أن فرصته الوحيدة في النجاة هي إرهاب (مجدي)، فقال في حزم:

- إن لدى الدليل..

عقد (مجدي) حاجبيه في شدة، وقال:

- انت كاذب.

وهنا اشار (نديم) إلى (قاسم) في حزم، وقال لـ (مجدي):

- ماذا ستفعل إذن: لو رأيت الدليل على أن (قاسم) استطاع تدمير مستقبل (إبراهيم علوان) هذا؟ هل تكتفي بالمال، وتتركنا نذهب إلى حال سبيلنا؟

أجابه (مجدي) في حسم:

- لن يكون أمامي سوى هذا..

تهللت أسارير (قاسم)، وهتف:

- لا بأس..

ثم دس يده في جيب سرواله، وأخرج منه شريطًا صغيرًا، ناوله إلى (مجدي) قائلًا:

- ها هو ذا الدليل..

التقط (مجدي) الشريط، وقلبه بين أصابعه، قائلًا:

- ما هذا بالضبط؟

أجابه (قاسم):

- شريط فيديو من مقياس ثمانية مليمترات الجديد ([3])، ستجد فوقه تسجيلا بالصوت والصورة، لـ (درويش)، امين مخازن المضبوطات، بمديرية أمن (القاهرة)، وهو يروي ما فعله بالهيروين، والوسيلة التي الصق بها التهمة بالعقيد (إبراهيم)، ثم وهو يتسلم الجزء الثاني من الرشوة لقد كنت احتفظ بهذا الشريط، لضمان صمت (درويش)، ولكنه حقق فائدة أخرى.

ابتسم (مجدي) وقال وهو يدس الشريط في جيبه:

- بالتأكيد يا (قاسم).. لقد حقق فائدة لن تتصورها..

ثم التفت إلى (نديم)، وقال:

- اليس كذلك يا صديقي؟

تفجر الذهول في أعماق (قاسم)، مختلطا بغضب لا حدود له، عندما استعاد (نديم) كل هدوئه، وجلس في بساطة، قائلًا:

- بالتأكيد يا عزيزي (مجدي). لقد نجحت اللعبة..

ردد (قاسم في ذهول:

- اللعبة؟!

ثم انهار على مقعده، مستطردًا:

- إذن كل هذا مجرد لعبة؟! خدعة للحصول على الشريط؟

أجابه (قديم) في بساطة:

- هذا صحيح.

راح (قاسم) ينقل بصره بين وجهي (نديم) و (مجدي) في ذهول، ثم هتف:

- ولكن كيف؟ لقد تحريت عنك جيدا!!

أجابه (مجدي):

- كل المعلومات التي حصلت عليها، بشأن (نديم) سليمة فلقد فُصل من خدمة الشرطة بالفعل..

لم يستطع (قاسم) استيعاب هذه النقطة في سهولة، فهتف:

- ولكن ماذا عن (جميل)؟ لقد أخبرني بنفسه أن الفيلا آمنة، وهو شديد الدقة في مثل هذه الأمور، و.

قاطعه (نديم) في هدوء:

- هذا لو انه فعل الواقع أننا قد أفقدنا مساعدك (جميل) وعيه، عندما جاء لزيارتنا، في المرة الثانية، وتم نقله مباشرة إلى زنزانة خاصة في قبو مديرية الأمن، مع (درويش)..

هتف (قاسم):

- مستحيل! لقد تحدثت إليه بنفسي.

هز (نديم) كتفيه، وقال:

- هنا يأتي دور التكنولوجيا يا رجل، فعندما جاء (جميل) إلى مكتبي، في المرة الأولى، سجلت زميلتي (غادة) كل حديثي معه، وبعدها اضافت التسجيل إلى الكمبيوتر، ولقنته المعلومات الخاصة بما تنتوي فعله، وعندما تحدثت أنت معي وطلبت التحدث مع (جميل)، أوصلت (غادة) الهاتف الي الكمبيوتر، الذي انتقى من عبارات (جميل) المسجلة ما يتوافق مع خطتنا، ونقله إليك، فتصورت أنت أنك تتحدث إلى مساعدك، واطمأن قلبك بشأن الحضور إلى هنا، فوقعت في الفخ كالغر الساذج..

غمغم (قاسم) في مرارة:

- نعم.. كالغر الساذج.

وفجأة وثبت يده إلى سترته، وانتزعت مسدسه، وهو يقول في غضب:

- ولكن هذا لن يدوم طويلًا..

واطلق النار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- الختـــام..

من المؤكد أن (قاسم) لم يحصل على لقب زعيم تجار المخدرات عبثًا، فلقد انتزع مسدسه في سرعة، وأطلق منه النار نحو (مجدي)، قبل أن يتخذ هذا الأخير ما يلزم، لصدّ الهجوم..

وأصابت رصاصة (قاسم) ذراع (مجدي)، الذي أطلق صرخة ألم مكتومة، لم تلبث أن تحولت إلى سباب ساخط، عندما سقط مسدسه من يده..

وبحركة حادة سريعة، قفز (قاسم) إلى الخلف، وصوب مسدسه إلى (نديم) و (مجدي)، وهو يهتف:

- انتهت اللعبة يا سادة.. ولغير صالحكما..

لم يبد الخوف على وجه (نديم) الذي ظل هادئًا، وهو يجلس على مقعده، قائلًا:

- أتتصور هذا حقا؟

أجابه (قاسم) في شراسة:

- نعم.. أتصوره.. لقد خدعتماني للحصول على الشريط، ولكنني سأستعيده من بين أشلائكما، قبل أن أنصرف من هنا..

قال (نديم) في بساطة:

- اتظن أننا هنا وحدنا؟

اطلق (قاسم) ضحكة ساخرة، وقال:

- نعم أظن هذا فمن الواضح أنكما قد فعلتما كل هذا وحدكما، دون أوراق قانونية، أو خطة مدروسة..

عضّ مجدي شفتيه، ليكتم الام جرحه، وهو يقول:

- خطأ أيها الوغد.. إننا هنا بإذن خاص من النائب العام.. وكل ما حدث هنا مسجل، بالصوت والصورة تسجيلًا قانونيًا سليمًا، سيلقي بك خلف القضبان إلى الأبد.

تلفت (قاسم) حوله في انزعاج، وهتف:

- انت كاذب.

ثم جذب إبرة مسدسه في شراسة، وهو يصوبه إلى (مجدي) صارخًا:

- أنتما وحدكما هنا أعلم أنكما كذلك..

انبعث من خلفه فجأة صوتًا انثويًا ساخرًا، يقول:

- إذن فلست من أنصار المساواة بين الرجل والمرأة يا صاح.

استدار (قاسم) إلى مصدر الصوت في حركة حادة، ولكن قدم (غادة) استقبلته وأطاحت بمسدسه، ثم تبعتها قبضتها، التي غاصت في معدته، وبطلتنا تقول ساخرة:

- ما رأيك يا زعيم أهل السم؟ هل تؤلمك قبضتي؟

انثنى (قاسم) من قوة الضربة، وسقط أرضًا، وانزلق جسده فوق الأرض الناعمة لمترين كاملين، في حين اعتدلت (غادة)، وقالت:

- لم أسمع جوابك بعد.

ولكن (قاسم) كان قد سقط إلى جوار مسدسه، فأسرع يلتقطه هاتفا في غضب هادر، وثورة عارمة:

- ها هو ذا أيتها المغرورة.

وانطلقت رصاصة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كل شيء حدث في سرعة مدهشة..

التقط (قاسم) مسدسه، وصوبه إلى (غادة)، وضغطت يده الزناد..

ولكن هناك سطر مفقود، بين السطرين السابقين..

وحدث مفقود..

فما بين تصويبه للمسدس، وضغطه للزناد، تحرك (نديم)..

كانت قفزته رشيقة، أنيقة مرنة: انزلق فيها جسده بدوره على الأرض الناعمة، حتى بلغ مسدس (مجدي)، فالتقطه، وأطلق منه النار في سرعة مذهلة، نحو (قاسم)..

واصابت الرصاصة (قاسم) في كتفه، وانطلقت من أعماقه صرخة الم..

ومع صرخته، انطلقت الرصاصة، ولكنها أخطأت طريقها..

ولم تصب (غادة)..

وبحركة سريعة، قفزت (غادة) نحو (قاسم)، وركلته بحذائها في وجهه، وهي تقول:

- إنك وغد بحق..

وارتطم رأس (قاسم) بالحائط خلفه، وكانت الضربة قوية، حتى أن عينيه قد دارتا في محجريهما..

ثم سقط فاقد الوعي..

ونهض (نديم)، وهو يسرع نحو (مجدي)، قائلًا:

- أأنت بخير؟

مط (مجدي) شفتيه وقال:

- إنه لا يحسن التصويب..

ثم أضاف في حدة:

- أتعلم انني استطيع إلقاء القبض عليك، لإطلاق النار من مسدس، وانت لا تحمل رخصة حمل سلاح؟

أطلقت (غادة) ضحكة عالية، وقالت:

- يا إلهي!! (مجدي) هو (مجدي) لا يتغير أبدًا.

اعتدل (مجدي) جالسًا، وهو بهسك جرحه، قائلًا:

- لست أميل إلى التغيير..

ثم تطلع إلى (نديم)، واضاف:

- ولكن خطتك كانت عبقرية بالفعل يا (نديم).

جلس (نديم) إلى جواره، وقال في بساطة:

- إنها خطة (العقرب).. لا خطتي أنا، وإن كان قد استعان بي لتنفيذها.

عقد (مجدي) حاجبيه في ضيق، وقال:

- أما زلت تصر على مواصلة هذه اللعبة؟

قال (نديم) في هدوء:

- أية لعبة تقصد يا عزيزي؟

هتف (مجدي) في حدة:

- اللعنة!

ثم لوح بسبابته في وجه (نديم)، مستطردًا:

- اسمع يا (نديم).. صحيح أنني قد قبلت العمل مع (العقرب) هذه المرة، ولكن هذا لا يعني أنني أوافق على اسلوبه، ولتعلم أنني..

قاطعته (غادة):

- ستوقع به يوما متلبسا اليس كذلك؟ لقد سئمت هذه العبارة يا عزيزي (مجدي).. الا تميل إلى التغيير فيها أيضا؟

عقد (مجدي) حاجبيه في غضب، وأشاح بوجهه، قائلا في سخط:

- سيأتي ذلك اليوم حتمًا.. اعلم انه سياتي...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انصرف كل رجال الشرطة من فيلا (الهرم)، بعد أن أتموا استجواباتهم، وضمدوا جراح (مجدي)، فتنهدت (غادة)، وقالت وهي تلقي جسدها فوق مقعد وثير في شرفة الفيلا:

- يا إلهي! لقد انتهت هذه القضية بسرعة..

غمغم (نديم) في هدوء:

- هذا صحيح.

استنشقت الهواء في عمق، ثم التفتت إليه، تسأله بغتة:

- ولكن اخبرني كيف علمت أن (قاسم) هو من وراء كل هذا؟ وكيف أدركت أنه يحتفظ بدليل يدين (درويش)؟

أجابها في استرخاء:

- معرفتي ان (قاسم) وراء كل هذا كان مجرد رمية من غير رامٍ، وفقني إليها المولى (عز وجل)، فلقد علمت من التحريات أنه زعيم تجار السموم، وقدرت أنه من الطبيعي أن يكون الزعيم نفسه وراء مثل هذا العمل أما بالنسبة لوجود الدليل، فخبرتي في التعامل مع هؤلاء المجرمين علمتني أن الكبار منهم يحبون أن يحتفظوا بالخيوط في أيديهم دائمًا، ولما كان من المحتمل أن ينقلب عليهم (درويش)، ويفضح سرهم، فمن الطبيعي أن يحتفظوا بدليل يدينه، ويلزمه بالصمت.

ابتسمت وهي تقول:

- أنت داهية!

غمغم:

- شكرا لك.

ران عليهما الصمت لحظة اخرى، ثم سألته:

- هذه الفيلا ملك لوالدك.. اليس كذلك؟

تمتم في تراخ:

- بلى.

قالت:

- هل وجودها هنا يرتبط بـ...

قاطعها في حزم:

- اصمتي يا (غادة).

هتفت في دهشة:

- اصمت؟!

لوح بكفه امامه، وقال:

- الا تلاحظين المشهد الرائع؟! إنه يصنع مع الجو مزيجًا مدهشًا..

هتفت في دهشة:

- أأنت الذي يلاحظ هذا، بعد كل ما حدث، و.

قاطعها:

- هل فقدت القدرة على الاستمتاع بالجمال؟!

صاحت مستنكرة:

- انا؟!

ثم أشاحت بوجهها، وعقدت حاجبيها وساعديها، مستطردة في حنق:

- يا للرجال!

تطلع إليها من بين جفنيه المسبلين، وارتسمت على وجهه ابتسامة ارتياح، لم تلبث أن ذابت على شفتيه، وهو يتنهد في ارتياح..

لقد نجح في تحطيم واحد من زعماء تلك المملكة، التي بحلم دائما بالقضاء عليها تمامًا..

مملكة السموم البيضاء..

مملكة الشر..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

العقرب:

العِصَـــابة

(الرواية الخامسة- مجمعة)

عندما يعجز القانون البشري عن القصاص..

عندما تحيط العدالة عينيها بعصابة سميكة..

حينما يرتفع ذلك الحاجز بين العدالة والقانون..

عندئذ يهب هو للقتال، حاملا ذلك الاسم، الذي يثير الرجفة في قلوب أعتى المجرمين..

اسم (العقرب).

الشيء
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

1- جــنون..

رفع اللواء (حلمي) يده بالتحية العسكرية، ردًا على التحية الرسمية، التي أدّاها له رجال شرطة الحراسة، عند بوابة مديرية أمن (القاهرة)، ثم اتجه بخطواته السريعة المعتادة نحو السلم، الذي يقود إلى الطابق الثالث، حيث مكتبه الخاص، إلا أن خطواته لم تلبث أن أبطأت، عندما وقعت عيناه على شاب نحيل، يقف منكمشًا في ركن قريب، يتطلع إليه بنظرة عجيبة..

نظرة تجمع ما بين اللهفة، والخوف، والقلق، والتردد..

نظرة شعر معها اللواء (حلمي) بنداء استغاثة..

نداء موَّجه إليه بالتحديد..

وراوده شعور خفى أن هذا الشاب هنا من أجله هو..

لم يدر لماذا راوده هذا الشعور بالذات؟

أهي خبرة عشرات السنين، في العمل بالشرطة؟

أم هي حاسة تنمو مع الأيام؟

المهم أن خطواته انتقلت بغتة إلى خانة الوقوف، وهو يلتفت إلى الشاب، ويرسم على شفتيه ابتسامة أبوية حانية، وهو يقول في هدوء:

- هل كنت تنتظرني؟

اتسعت عينا الشاب، وتراجع في حركة حادة، وكأنما بوغت بتلك المبادرة غير المتوقعة، وارتبك وهو يقول:

- نعم.. هذا صحيح في الواقع.. إنني.. إنني..

قاطعه اللواء (حلمي) في هدوء:

- أليس من الأفضل أن نتحدث في مكتبي؟

تردد الشاب لحظات أخرى، وتلفت حوله في قلق، ثم همس:

- بلى.. هذا أفضل بالتأكيد

- أشار إليه اللواء (حلمي)، وقال:

- هيا بنا إذن.

لم يتبادلا كلمة واحدة، حتى استقر بهما المقام في حجرة مكتب اللواء (حلمي)، الذي تراجع في مقعده، وسأل الشاب، الذي يجلس على المقعد المقابل للمكتب:

- والآن ماذا لديك؟

بدا التوتر الشديد على وجه الشاب، الذي ازدرد لعابه في توتر واضح، وتصبب عرق غزير على وجهه، على الرغم من مكيف الهواء بالحجرة، في حين راح اللواء (حلمي) يراقبه في صمت، دون أن ينبس ببنت شفه، وكأنما يمنحه الفرصة الكافية للسيطرة على أعصابه، حتى هدأ الشاب قليلا، ومال نحو حافة المكتب، وهو يهمس:

- اسمي (فهمي)، وأنا مهندس جيولوجي، في واحدة من شركات البترول المصرية، و.

بتر عبارته بغتة، وراح يجفف عرقه في توتر، قبل أن يندفع فجأة، قائلا:

- هناك اختلاسات رهيبة بالشركة.. اختلاسات تقدر بملايين الجنيهات.

رفع اللواء (حلمي) حاجبيه في دهشة، وقال:

- اختلاسات؟! ولكنك هنا في المباحث الجنائية، وقسم مكافحة المخدرات يا بني، والاختلاسات من اختصاص مباحث الأموال العامة..

قاطعه (فهمى في مرارة:

- لن يمكنهم فعل شيء..

سأله (حلمي) في حيرة:

- لماذا؟

عضّ (فهمي) شفته السفلى، وهو يقول في غيظ:

- لأنهم لن يجدوا دليلا واحدا..

رفع اللواء (حلمي) حاجبيه في دهشة مرة أخرى، ثم عاد يعقدهما، وهو يقول في حزم:

- مستحيل يا ولدي.. لا يمكن لمجرم، مهما بلغت براعته، أن يختلس ملايين الجنيهات - كما تقول - دون أن يترك خلفه دليلا واحدا..

قال (فهمي) في توتر:

- هذا لو أنه مجرم واحد..

ثم عاد يميل نحو المكتب، مستطردًا في قلق عجيب:

- إنهم عصابة.. الجميع يكونون عصابة واحدة، كل الشركة عصابة واحدة.

تراجع اللواء (حلمي) بمقعده، وعاد يتطلع إلى الشاب بنظرة جديدة..

إنه إذن من ذلك النوع، المصاب بجنون الاضطهاد النفسي، بحيث يتصور أن جميع من حوله قتله ولصوص، وأنهم جميعا يتربصون به..

كل شيء في الشاب يثبت هذا..

نظراته الزائغة..

خوفه الشديد..

توتره الزائد..

إنه مصاب بعقدة الاضطهاد حتما..

ارتاح عقل اللواء (حلمي) هذا التفسير، فشبك أصابع كفيه أمام وجهه، وقال في هدوء:

- إذن فالشركة كلها لصوص؟

أومأ الشاب برأسه إيمانا، ثم استدرك بسرعة:

- ليس الجميع بالطبع، بل المديرون.. فقط مديرو الأقسام.. كلهم حتى رئيس مجلس الإدارة..

غمغم اللواء (حلمي) مشفقا:

- حقا؟!

اندفع (فهمي) يقول في حماس، وكأنما تحرر أخيرا من خوفه:

- نعم يا سيدي.. إنهم يبيعون البترول لحسابهم الخاص.. الجميع يشتركون في هذا العمل القذر.. لقد كشفت أمرهم بمحض الصدفة..

عاوده خوفه، على هيئة رعب مباغت، وهو يستطرد بصوت مرتجف:

- وسيسعون للتخلص مني حتما..

غمغم اللواء (حلمي):

- ليس بهذه البساطة.

هنف (فهمي)، وهو يتشبث بحافة المكتب:

- إنهم يستطيعون قتلى بالتأكيد.. ألم أقل لك إنهم عصابة رهيبة؟

مال اللواء (حلمي) نحوه، وقال في حنان مشفق:

- أفضل وسيلة إذن هي أن تهرب منهم.

هز (فهمي) رأسه في أسي، وقال:

- سيعثرون عليّ بالتأكيد.

ابتسم اللواء (حلمي) متعاطفا، وقال:

- لا تسبح في هذه الفكرة طويلا، وإلا غرقت في أعماقها إلى الأبد.

بدا (فهمي)، وكأنه سينفجر باكيا، وهو يقول:

- لا يمكنني السباحة في أي شيء، فأنا أجهل السباحة تماما..

ثم رفع عينيه إلى اللواء (حلمي)، واستطرد مستنجدا:

- ولكنني أحتاج إلى حماية... حماية خاصة من رجال الشرطة..

كان مطلبًا مباغتًا، جعل اللواء (حلمي) يرتبك لحظة، وهو يردد:

- حماية!

ثم لم يلبث أن تمالك نفسه، فاستطرد في سرعة:

- بالتأكيد.. ستحصل على حماية الشرطة.

وغمز بعينه، مردفا:

- وبشكل سري تماما.

تهللت أسارير الشاب، وهو يقول

- حقا؟!

تراجع اللواء (حلمي) في مقعده، هاتفا في حماس مفتعل:

- بالتأكيد..

تنهد الشاب في ارتياح، ونهض يصافح اللواء (حلمي)، قائلا:

- أشكرك يا سيدي.. كنت أعلم أنك ستقف إلى جانبي.. لقد قرأت عنك الكثير..

ثم عاد يسأله في اهتمام:

- ومتى ستبدأ هذه الحراسة؟

بدأ الضجر يتسلل إلى نفس (حلمي)، وهو يقول:

- الآن.. سأصدر أوامري ببدء حراستك، فور انصرافك من مكتبي.

تهللت أسارير (فهمي) مرة أخرى، وشدّ على يد اللواء (حلمي) في حرارة، قائلا:

- أشكرك يا سيدي.. أشكرك على كل شيء، وأعدك أن أبذل أقصى جهدي؛ لجمع أدلة إدانة، توقع بالجميع في أيدي العدالة.

صافحه اللواء (حلمي)، وهو يقول:

- بالتأكيد.. سأنتظر ما تأتي به.

ولم يكد الشاب يغادر حجرة المكتب، حتى تنفس اللواء (حلمي) الصعداء، وهو يتصور أن مشكلته قد انتهت..

ولكنه كان مخطئا..

لقد بدأت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- الجريمة..

عبرت (غادة) باب مكتب (نديم فوزي) للمحاماة، في خطوات سريعة مندفعة كعادتها، وهتفت بعامل المكتب في مرح:

- صباح الخير يا عم (أحمد).. هل وصل (نديم)؟

ابتسم العامل الكهل ابتسامة حانية، تفيض بالأبوة، وهو يقول:

- في تمام الثامنة كالمعتاد يا بنيتي..

هتفت ضاحكة، وهي تدفع باب مكتب (نديم) الخاص:

- كان ينبغي أن أتوقع هذا، فعزيزنا (نديم) ينافس الساعات السويسرية، في الدقة والان..

بترت عبارتها بغتة، عندما وقع بصرها على اللواء (حلمي)، الذي جلس على المقعد المقابل لمكتب (نديم)، وهتفت:

- صباح الخير يا سيادة اللواء.. كم يسعدني أن أراك هنا..

ابدا لها شديد الحزن، وهو يغمغم:

- أشكرك يا بنيتي.. أشكرك.

اقتربت منه في دهشة، ثم رفعت عينيها إلى (نديم)، الذي بدا هادئا رصينا كعادته، وسألته:

ماذا هناك؟

أشار إليها (نديم) بالجلوس، وهو يقول:

- لقد وصلت، وأنا ألقى السؤال نفسه على سيادة اللواء (حلمي)، فلقد وصل قبل وصولك بلحظات..

جلست وهي تسأل اللواء (حلمي) في قلق:

- حسنا يا سيدي.. ماذا هناك؟

وضع اللواء (حلمي) صحيفة مطوية أمام (نديم)، وأشار إلى جزء منها، قائلا في لهجة تحمل كل مرارة الدنيا..

- اقرأ هذا الخبر.

بدا الفضول الشديد على وجه (غادة)، فقرأ (نديم) بصوت مسموع:

- غرق جيولوجي شاب في البحر الأحمر.. تفاصيل الخبر تقول:

أغرت حرارة الطقس جيولوجيا شابا، وهو المهندس (فهمي صابر)، على السباحة بعض الوقت، في مياه البحر الأحمر، بعد غروب الشمس، ولكن التيارات البحرية جذبته إلى الأعماق، فلقي مصرعه غرقا.

صمت (نديم) لحظة، بعد انتهائه من قراءة الخبر، وكأنما يحاول ربط الحادث باللواء (حلمي)، وبالحزن الذي يملأ ملامحه، ثم لم يلبث أن قال:

- حادث مؤسف.

رفع اللواء (حلمي) رأسه في حركة حادة، وقال:

- بل جريمة قتل بشعة.

شحذ القول حواس (نديم) و (غادة) في شدة، وهتفت (غادة):

- جريمة قتل؟ ما الذي يدعوك إلى مثل هذا القول يا سيادة اللواء؟

أجابها اللواء (حلمي) في مرارة:

- الجريمة نفسها يا (غادة).. لقد خطط هؤلاء القتلة لارتكاب جريمتهم، ولكنهم لم ينتبهوا إلى نقطة بالغة الأهمية..

وأشار إلى الخبر بسبابته، مستطردا في حدة:

- فهذا المهندس الشاب لا يعرف السباحة..

عقد (نديم) حاجبيه، على نحو يوحي باهتمامه الشديد بالأمر، في حين تابع اللواء (حلمي):

- هل رأيتنا رجلا يجهل السباحة، وتغريه حرارة الطقس بالنزول إلى البحر، بعد غروب الشمس؟

تمتمت (غادة) في اهتمام:

- ولا حتى بعد شروقها..

أما (نديم)، فقد انحني نحو اللواء (حلمي)، وسأله:

- ولكن كيف عرفت هذا يا سيدي؟

أو ما اللواء (حلمي) برأسه، وهو يقول في أسي:

- سأخبرك يا ولدي.. سأخبرك بكل شيء

انطلق يروي لهما كل ما حدث منذ ثلاثة أيام، ومنذ أن رأى (فهمي) في بهو مديرية الأمن، حتى انصرف هذا الأخير من مكتبه، ثم أضاف في حزن:

- لم أصدقه في البداية، وتصورت أنه مصاب بعقدة اضطهاد نفسية، والان أعتبر نفسي مسئولا عن مقتله، فلو كنت قد وفرت له الحماية اللازمة، لما..

قاطعه (نديم):

- لا تقل (لو) هذه يا سيدي، فهي تعمل عمل الشيطان، وحتى لو كنت قد أحطت (فهمي) هذا بسياج من الحراسة، للقي مصرعه بنفس الوسيلة، وفي نفس الموعد؛ لأن هذا قدره..

ثم نهض من خلف مكتبه، وبدا كما لو أنه يتحدث إلى نفسه، وهو يستطرد:

- ولكن مصرعه هذا قد يشير إلى صحة أقواله، أو إلى..

قاطعته (غادة) في سرعة:

- أو إلى أنه قد انتحر.

التفت إليها (نديم) واللواء (حلمي)، وهتف هذا الأخير في دهشة:

- انتحر؟!

قالت في هدوء:

- هذا احتمال وارد بالطبع، فالشخص المصاب بعقدة الاضطهاد قد تتضاعف مخاوفه، حتى يخيل إليه أن الأعداء يتربصون به من كل جانب، مما يحطم أعصابه تدريجيا، إلى الحد الذي قد

يدفعه إلى الانتحار، كمحاولة للفرار من هذا العذاب الذي صنعه لنفسه..

صمتت لحظة، ورأت (نديم) واللواء (حلمي) يتطلعان إليها في شك، فأضافت في غضب:

- لقد قرأت هذا في مقال عن الطب النفسي.

ران الصمت على المكان لحظة أخرى، ثم قال (نديم) في هدوء:

- هذا احتمال وارد بالطبع.

ولكن اللواء (حلمي) قال في صرامة:

- بل لقد قُتل الشاب.

ثم استطرد بكلمات سريعة:

- هذه الصحيفة، التي قرأتما فيها الخبر، هي صحيفة أمس الأول، ولقد قرأت أنا الخبر في حينه، فأسرعت أجمع بعض التحريات عن مديري هذه الشركة..

سأله (نديم) في اهتمام بالغ:

- وما الذي أسفرت عنه هذه التحريات؟

لوح اللواء (حلمي) بكفه، قائلا:

- أسفرت عن أطنان من الشك، دون دليل مادي واحد، فلهذه الشركة أربعة مديرين (عماد)، مدير الإنتاج والمتابعة، و (رضوان)، مدير المخازن، والدكتور (جمال)، المدير العلمي والفني ورئيس المعامل، والمهندس (أشرف)، المدير التنفيذي، وعلى رأس هؤلاء الأربعة رئيس مجلس الإدارة (كامل شكري).. ورواتب هؤلاء الخمسة تعد من الرواتب الضخمة، بالنسبة

لمتوسط راتب أي مدير شركة عادية، وعلى الرغم من هذا، فالخمسة يعيشون في رغد زائد، بل ويحيون حياة المليونيرات، مما يثير أكثر من علامة شك حولهم.

قال (نديم):

- من الممكن استجوابهم عن هذا، فما زال قانون (من أين لك هذا) ساريا، والجهاز المركزي للمحاسبات يمكنه مراجعة حسابات الشركة و.

قاطعه اللواء (حلمي) في مرارة:

- لقد استجوبتهم الرقابة الإدارية بالفعل، وكان لدى كل منهم تفسير قانوني لثرائه، فمنهم من تزوج من سيدة ثرية، ومن يعمل مستشارا لدى شركات خاصة، والثالث له مكتب هندسي ضخم، والرابع يمتلك مستشفى خاصا، في قلب (القاهرة)، على الرغم من أنه ليس طبيبا بشريا، والخامس ورث عن ابن عمه ثروة طائلة، تركها ابن العم الراحل في بنك أمريكي..

عقد (قديم) حاجبيه، وقال:

-- وهل يعقل أن تجتمع كل هذه المصادفات، في شركة واحدة؟

قلب اللواء (حلمي) كفيه، وقال:

- المهم هو الدليل يا ولدي، وبدونه لا يملك رجال الرقابة الإدارية سوى إغلاق ملف الاتهام، وتبرئة المتهمين، خاصة وأن الجهاز المركزي للمحاسبات لم يجد أدني خطأ، عند مراجعته حسابات وملفات الشركة، بكل دقة.

لم يحر (قديم) جوابا، وإنما اكتسي وجهه بعلامات التفكير العميق، في حين تطلعت إليه (غادة) في تساؤل صامت، قبل أن

تلتفت إلى اللواء (حلمي)، قائلة:

- ما الذي يمكن فعله إذن يا سيدي؟

تنهد اللواء (حلمي)، وقال:

- لا شيء يا بنيتي.. لا شيء..

ثم استدرك بسرعة:

- من الناحية القانونية.

ظل وجه (قديم) جامدا هادئا، لا يشف عما يعتمل في أعماقه، في حين نقلت (غادة) بصرها، من وجهه إلى وجه اللواء (حلمي)، قبل أن تسأل هذا الأخير في حذر:

- وهل هناك وسائل أخرى؟

أجابها اللواء (حلمي) دون تردد:

- حتما..

ثم تراجع في مقعده، وتحاشي النظر إلى وجه (نديم)، وهو يقول:

- أتعلمين أي اسم يقفز إلى ذهني، في مثل هذه الظروف؟

سألته، وهي تعرف الجواب تقريبا:

- أي اسم؟

صمت لحظة، اختلس خلالها نظرة، إلى وجه (نديم) الجامد، ثم أجاب:

- (العقرب).

ابتسمت (غادة)، وهي ترمق (نديم) بنظرة جانبية، قائلة

- حقا؟!

اندفع اللواء (حلمي) يقول:

- ومن غيره؟ إنه الشخص المناسب تماما، في مثل هذا الموقف، فهو - كرجال الشرطة - يسعى لتحقيق العدالة، ولكنه – على عكسهم غير مقيد باللوائح والقوانين، وضرورة اتباع وسائل أمنية خاصة.

قال (نديم) في هدوء:

- ولكن حتى (العقرب) على ما أعتقد يحتاج إلى دليل إدانة، ولو لم يكن دليلا ماديا، فهو يكره مهاجمة الأبرياء لمجرد الشك.

هر اللواء (حلمي) كتفيه، وقال:

- لو أنه يسعى لتحقيق العدالة، فمن واجبه أن يسعى للحصول على الدليل.

ثم نهض، مستطردا:

- والواقع أني لم أتمن رؤيته، في حياتي كلها، مثلما أتمنى الآن.

سألته (غادة):

- لماذا يا سيدي؟

أجابها في صوت يحمل نبرة خاصة:

- لأطلب منه أن يفعل هذا.

ثم اختلج صوته، وهو يضيف:

- من أجلي.

أجابه (نديم) في حزم

- وهو لن يتردد يا سيدي..

ثم أضاف في صوت قوي حاسم:

- من أجلك

لحظتها أدرك اللواء (حلمي، أن (العقرب) قد قبل المهمة من أجله..

ومن أجل العدالة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- الدليل..

تطلع (كامل شكري)، رئيس مجلس إدارة شركة البترول، إلى البطاقة، التي حملها إليه مدير مكتبه، وردد في حيرة:

- (أحمد عبد الغفار)، صحفي بجريدة (أخبار اليوم)؟! وماذا يريد مني هذا الصحفي؟

أجابه مدير مكتبه في بساطة:

- ربما يرغب في إجراء تحقيق صحفي، حول نشاطات الشركة، ومنجزاتها في التنقيب عن البترول، وزيادة الثروة القومية و.

قاطعة (كامل) في ضجر:

- حسنا.. حسنا.. دعه يدخل.

ابتسم مدير المكتب، وهو يقول:

- بالتأكيد يا سيدي، فنحن نرحب دائما برجال الصحافة والإعلام..

أسرع يغادر المكتب، في حين عدل (كامل) رباط عنقه، وأبتسم قائلا:

- لا بأس من بعض الدعاية.

رأى شابا وسيما يدلف إلى مكتبه، وهو يعدل من وضع منظاره الطبي فوق عينيه، فنهض يستقبله بابتسامة دبلوماسية، وهو يقول:

- أهلا بك في شركتنا يا أستاذ (أحمد)

صافحه (نديم)، الذي ينتحل شخصية الصحفي، وهو يقول في هدوء:

- شكرا يا سيد (كامل).

أشار إليه (كامل) بالجلوس، وهو يقول:

- إنني أرحب دائما برجال الصحافة، فشركتنا صاحبة إنجازات عظيمة، وواحدة من الـ...

قاطعه (نديم) في هدوء:

- معذرة يا سيدي، ولكنني لست هنا لغرض صحفي هذه المرة على الأقل.

قفز الشك إلى نفس (كامل). فجلس على مقعده في بطء، وسأل (نديم) في حذر:

- لست هنا لغرض صحفي؟! لماذا أنت هنا إذن؟

عدّل (نديم) من وضع المنظار الزائف فوق أنفه مرة أخرى، وقال:

- الواقع أنه هناك صديق لي..

قاطعه (كامل):

- وتريد تعيينه هنا؟

هز (نديم) رأسه نفيا، وقال:

- لا يمكنني طلب هذا.. ولا يمكنكم في الوقت نفسه تعيينه في أي مكان، لأنه بكل بساطه..

حمل صوته صرامة مباغتة، وهو يستطرد:

- ميت

عقد (كامل) حاجبيه، وتراجع في دهشة، مغمغما:

- مات؟!

قال (نديم) في حزم:

- لو أردنا استخدام التعبير، المناسب تماما لما حدث، فهو لم يمت، وإنما قُتل!

ارتفع حاجبا (كامل)، وهو يهتف:

- قُتل!

ثم سأل (نديم) في حدة:

- ما الذي تريده بالضبط أيها الصحفي؟

مال (نديم) نحوه، وقال:

- أظنك تعرف صديقي هذا جيدا يا سيدي، فلقد كان يعمل هنا في شركتك.. واسمه هو (فهمي).. المهندس (فهمي صابر)..

سرت ارتجافة واضحة في جسد (كامل)، وهو يقول:

- (فهمي صابر)؟!

ثم اندفع يستطرد:

- ولكن المهندس (فهمي) لم يُقتل - كما تدَّعي - لقد مات غرقا..

قاطعه (نديم)

- الواقع أن (فهمي) قد أخبرني عن أشياء عجيبة، قبل مصرعه..

اتسعت عينا (كامل) في ذعر، لم يستغرق أكثر من ثوان معدودة، عادت بعدها ملامحة تكتسي بالصرامة، وهو يقول:

- ما الذي أخبرك به؟

هر (نديم) كتفيه، وقال:

- أخبرني عن أسلوب جهنمي، لسرقة البترول، وعن تورط عدد من كبار قيادات الشركة في هذا و.

قاطعته صيحة هادرة من (كامل):

- كاذب.

ثم هب رئيس مجلس الإدارة من مقعده، مستطردا في ثورة:

- لست أسمح لك بترديد مثل هذه الأكاذيب هنا.

نهض (نديم في هدوء، وقال:

- لا بأس.. فلتقرأها على صفحات الجرائد إذن.

وغادر المكتب في سرعة، تاركا (كامل) خلفه، وقد احتقن وجهه في شدة، قبل أن يلقى جسده على مقعده، مغمغما:

- اللعنة!

ثم اختطف سماعة هاتفه، وأدار رقما داخليا في توتر، ولم يكد يسمع صوت محدثه، حتى قال في عصبية:

- احضر إلى مكتبي على الفور يا (عماد)، واصطحب معك (رضوان)، والدكتور (جمال)، و (أشرف) هناك أمر بالغ الخطورة. لابد أن نناقشه معًا.

ثم أنهى الاتصال، وحل رباط عنقه قليلا، وهو يقول:

- كنت أعلم أن الأمر لن ينتهي بهذه البساطة.. كنت أعلم هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غادر (نديم مبنى الشركة في هدوء، وفتح باب سيارة (غادة) الأيمن، وحل في المقعد المجاور لمقعد القيادة، الذي تحتله (غادة) والتي أدارت محرك السيارة فور دخوله، وسألته:

- ماذا فعل رئيس مجلس الإدارة، عندما واجهته بالأمر؟

أجابها في هدوء، وهي تنطلق بالسيارة:

- ثار وهاج وماج، وكاد يطردني من مكتبه..

ثم أضاف، وهو يسترخي في مقعده:

- ولكن ملامحه شفت عن الكثير مما يدينه.

مطت شفتيها، وقالت

- وهل تعتبر هذا دليلا؟

هز رأسه نفيا، وقال:

- كلا بالطبع، ولكن لا تنسى أن بطاقة الصحفي ما زالت هناك على مكتب (كامل)، وعليها عنوان تلك الشقة، التي استأجرتها باسم (أحمد عبد الغفار).

سألته في اهتمام:

- وهل سيمنحك هذا الدليل الكافي؟

أجابها في بساطة:

- بالتأكيد.. سيمنحني الدليل على هيئة محاولة..

وارتسمت في عينيه ابتسامة كبيرة، وهو يستطرد:

- محاولة قتل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- يعرف كل شيء؟!

نطق المهندس (أشرف هذه العبارة في هلع، قبل أن يعجز عن الوقوف، ويسقط فوق أقرب مقعد إليه، واتسعت عينا الدكتور (جمال) في ذهول، وهو يحدّق في وجه (كامل)، وكأنما لا يصدق ما قاله هذا الأخير، وعقد (عماد) حاجبيه في شدة، في حين قال (رضوان) في عصبية:

- ماذا تعني بأنه يعرف كل شيء؟

أجابه (كامل) في توتر:

- لقد أخبرني أنه صديق لذلك المهندس الغبي، الذي كشف الأمر كله، واضطررنا للتخلص منه، وقال: إن المهندس قد أخبره بكل شيء، قبل أن يلقي مصرعه.

شحب وجه الدكتور (جمال)، وهو يقول في رعب:

- مستحيل!!

أما (رضوان)، فقال في حدة:

- مهلا.. لا تجعلوا هذا يحطم أعصابكم.. لا أحد يمكنه كشف ما نفعله، فأنتم تعلمون جميعا كم يسير كل شيء بمنتهى الدقة، حتى أن الرقابة الإدارية، والجهاز المركزي للمحاسبات قد عجزا عن كشف الامر.

ثم التفت إلى (كامل)، يسأله:

- هل تعرف عنوان ذلك الصحفي؟

ناوله (كامل) البطاقة، التي حملها إليه مدير مكتبه، وهو يقول:

- لقد ترك بطاقته هنا.

التقطها (رضوان)، وهو يقول في اهتمام:

- عظيم.

سأله الدكتور جمال) في عصبية:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

أجابه (رضوان) في صرامة:

- ماذا تقترح؟ إننا لا نملك الاختيار يا رجل، فما دام هذا الصحفي صديقا للمهندس (فهمي)، فليلحق به في العالم الآخر.

هتف (أشرف):

- كنت أعلم هذا.. كنت أعلم أن الأمر لن ينتهي بالتخلص من هذا المهندس، وأننا سنتحول إلى قتلة و.

قاطعه (كامل) في صرامة:

- اصمت.

ابتلع (أشرف) كلماته في خوف، في حين التفت (كامل) إلى (رضوان)، وقال في حزم:

- أريد منك أن تنهي هذه العملية في سرعة، كما فعلت في العملية السابقة..

ارتسمت ابتسامة عجيبة على شفتي (رضوان) وهو يلتقط سماعة الهاتف، قائلا:

- اطمئن يا سيدي.. ستكون عملية نظيفة.. وسريعة.

وعندما أدار قرص الهاتف، كان هذا يعني أن المقصلة قد أفلتت من عقالها، وستهوي على عنق ضحيتها..

على عنق (نديم).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مذكرات مخرج إعلانات

4- الشـــبح..

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت الواحدة والنصف صباحا ببضع ثوان، عندما توقفت سيارة صغيرة أمام منزل من أربعة طوابق، واعتدل قائدها أمام عجلة القيادة، والتفت إلى جاره، الذي بدا ضخما أكثر مما ينبغي، حتى ليدهشك كيف حشر جسده، في عربة لها مثل هذا الحجم، وقال في لهجة آمرة:

- ها هو ذا المنزل.. هيا.. انه مهمتك بسرعة، وسأنتظرك..

بدا صوت الضخم أشبه بزمجرة ذئب شرس، وهو يقول:

- اطمئن، سأعود في لحظات.. ابق المحرك دائرا، حتى لا تضيع وقتا في الانصراف.

ثم دفع باب السيارة، وأمسك قائمها في قوة، وهو يدفع جسده خارجها، واعتدل إلى جوارها يربت على موضع جيب سترته، وكأنما يطمئن على وجود مسدسه، فقال قائد السيارة في حزم:

- لا تستخدمه.. نريدها أشبه بحادث عرض، كما فعلنا في المرة السابقة..

زمجر الضخم، قائلا:

- اطمئن.

واتجه في خطوات واسعة نحو المنزل، وصعد في درجات سلمه في خفة، تتناقض وحجمه الضخم، حتى بلغ الطابق الرابع، فأخرج من جيبه بطاقة (نديم) الزائفة، وقرأ رقم الشقة المدون بها، ثم راجعه مع الرقم المعدني، المثبت أعلى باب الشقة، وغمغم:

- انها هي

وبسرعة، أخرج من جيبه أداة رفيعة، دستها في ثقب المفتاح، وأدارها في مهارة، حتى سمع صوت لسان الباب ينزلق إلى الداخل، فابتسم في زهو، مغمغما:

- كالمعتاد.

ودفع باب الشقة في هدوء، ثم دلف إليها، وأغلق الباب خلفه، دون أن يصدر عنه إلا صوت ضعيف، يصعب أن يسمعه سواه، ثم اتجه على أطراف أصابعه إلى حجرة النوم، وفتح بابها في خفوت، وألقي نظرة على الجسد، الذي يخفيه غطاء الفراش، وأخرج من جيبه بخاخة تحوي مادة مخدرة، وهو يهمس لنفسه:

- عبقري أنت يا (بكري).. دفعة واحدة من هذا السائل العجيب، ويذهب الصحفي في غيبوبة عميقة، أفتح بعدها صمام الغاز، وأترك له مهمة إكمال الباقي، بحيث لا يدرك الصحفي أنه قد لقي مصرعه، إلا وهم يوقظونه في الجحيم.

كاد يطلق ضحكة مجلجلة، إعجابا بدعابته، ولكنه حبس هذه الضحكة في أعماقه، وتحرك على أطراف أصابعه نحو الفراش، وأزاح الغطاء عن الجسد النائم في حركة حادة، وهو يقول:

- نَم أيها الصحفي..

ولكنه تراجع في دهشة، عندما فوجئ بأن ذلك الراقد أسفل الغطاء، ليس سوى وسادة كبيرة، في نفس اللحظة التي ارتفع فيها صوت عميق، من ركن الحجرة المظلم، يقول:

- مفاجأة.. أليس كذلك؟

تحولت دهشته إلى انتفاضة عنيفة، شملته من قمة رأسه، وحتي أخمص قدميه، وهو يلتفت في حركة حادة إلى مصدر الصوت، ولوهلة، خيِّل إليه أن الركن خال، ليس به مخلوق واحد، وقفز عقله في فزع إلى حكايات الجن والعفاريت، ثم ارتعد جسده كله، وبدا له أن مخاوفه ستتحول إلى حقيقة، عندما انفصل ظل أسود عن الركن المظلم، وخطا خطوتين إلى الأمام، وهو يقول:

- ماذا أصابك؟ هل ابتلع القط لسانك؟

عندئذ فقط، تبينت عينا (بكري) الضخم ما أمامه..

كان ذلك الماثل أمامه عبارة عن شبح مخيف..

شبح يتشح بالسواد، ويخفي نصف وجهه بقناع أسود..

وفجأة نفض عقل (بكري) كل ما ملأه من مخاوف وخيالات، واستعادت غريزته القتالية سيطرتها على تفكيره، فزمجر هاتفا:

- إنها خدعة إذن!

وانقض في وحشية على ذلك الشبح الأسود..

وبخفة تثير الإعجاب، تفادي (العقرب) انقضاضة (بكري)، وهو يقول:

- مهلا أيها الخرتيت.

وبسرعة، دار (العقرب) حول الضخم، ورفع قدمه يضربه في عامودة الفقري، مستطردا:

- ليس بالقوة يتحقق النصر.

ارتطم (بكري) بالحائط في عنف، وارتد عنه ككرة من المطاط، و(العقرب) يتابع:

- بل بالعقل.

تفجرت الدماء من أنف (بكري)، الذي تحطم عند ارتطامه بالحائط، فهتف في سخط:

- فليكن، ولكنني سأستخدم عضلاتي..

قالها وانقض مرة أخرى على (العقرب)، وكال له لكمة كالقنبلة، تكفي لهدم جدار كامل، ولكن هذا الأخير تراجع برأسه ونصفه العلوي إلى الخلف في مرونة، وهو يقول:

- ليس المهم أن تمتلك العضلات أيها الخرتيت..

ثم اعتدل، ومال جانبًا، وهوى بقبضته على فك (بكري)، مستطردا:

- المهم أن تحسن استخدامها.

ترنح (بكري)، وهو يطلق صرخة ألم، ولكن (العقرب) هوى على معدته بلكمة أخرى، أعقبها بثالثة في أنفه، حتى سقط الضخم على ركبتيه، وهو يهتف في ألم يمتزج بالسخط:

- اللعنة!

أمسكه (العقرب) من شعره، ودفعه إلى النهوض، وهو يقول بلهجة آمرة قوية:

- من أرسلك أيها الفيل الغبي؟

أمسك به (بكري) فجأة، وحمله فوق ظهره، وألقاه أرضا في عنف، وهو يقول في حدة:

- لا تنتظر مني جوابًا أيها المقنّع.

الحجرة
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

ثم انتزع مسدسه، وصوله إليه، مستطردا:

- فيما عدا هذا.

تحركت قدم (العقرب) في سرعة، وركلت المسدس من يد (بكري)، ثم قفز هو واقفا على قدميه، وقال في صرامة:

- فيما عدا هذا.

لم يكد ينتهي من قوله، حتى تحركت قبضته كقنبلة، وهوت على فك (بكري)، ثم وثبت الأخرى، تحطم ما تبقى من أنف هذا الأخيرة واندفعت قدمه تركل ركبة الضخم، ثم انثنت ركبته، وغاصت في معدته، وعندما انثني (بكري)، وهو يمسك معدته المصابة، ويطلق شهقة ألم، ضم (العقرب) قبضتيه، وهوى بهما على مؤخرة عنقه..

فأطلق خوار ألم، وسقط على وجه عند قدمي بطلنا...

وبسرعة، أحاط (العقرب عنق (بكري) بذراعه، وشدد الضغط عليه، وهو يكرر سؤاله في صرامة:

- من أرسلك؟

اختنق (بكري)، وهو يقول في ألم:

- لا يمكنني القول.. سيقتلونني لو فعلت..

تجاهل (العقرب هذا الاعتراض، وقال:

- أهو (كامل)، أم (رضوان)؟ (عماد)، أمر جمال)، أم (أشرف)؟

بدأ (بكري) يجاهد: لالتقاط أنفاسه، وهو يقول في ضراعة:

- إنه (رضوان).. اتركني أرجوك.. لقد أخبرتك الحقيقة.. أقسم لك انها كذلك..

ترك العقرب) عنقه، وهو يقول:

- وأنا أصدقك.

راح (بكري) يسعل في ألم، في حين ألقى (العقرب، بطاقته إلى جواره، وهو يستطرد:

- أخبر من أرسلوك أنني قد حصلت على ما كنت أنشده منهم، وأنني خلفهم حتى النهاية.

أمسك (بكري) عنقه، وهو يقول في توتر:

- لا تخبرهم أنني كشفت لك عن...

اتسعت عيناه في ذهول، عندما التفت إلى حيث كان (العقرب).

فوجد الحجرة خالية، إلا منه، وشباكها الوحيد مفتوح على مصراعيه، مما جعله يغمغم في خوف:

- أين ذهب؟

مضت لحظة، شمله خلالها الصمت والذهول، ثم أدار عينيه في حيرة إلى البطاقة البيضاء، التي تحمل رسما لعقرب ذهبي، وغمغم مستطردا:

- ومن هو؟

دلف رفيقه إلى الحجرة بغتة، وهو يقول:

- لماذا تأخرت؟ إنني أنتظرك منذ فترة طويلة..

انتفض جسده في ذعر، وهتف:

- لقد أخفتني..

عقد رفيقه حاجبيه، وقال:

- أخفتك؟! ماذا أصابك يا رجل؟ وأين هذا الصحفي ا

قال (بكري) في توتر:

- لا يوجد أي صحفي هنا.. إنها خدعة..

رفع رفيقه حاجبيه، هاتفا في دهشة:

- خدعة؟

أجابه (بكري)، وهو يناوله بطاقة (العقرب):

- كان هناك شبح مقنع ينتظرني هنا، ولقد هاجمني، وأجبرني على..

بتر عبارته بغتة، عندما انتبه إلى ما سيوقع نفسه فيه، ولكن رفيقه سأله في صرامة:

- أجبرك على ماذا؟

شحب وجه الضخم، ولوح بذراعيه في رعب، وهو يقول:

- لا.. لا شيء.. لم أقل كلمة واحدة..

ملا الغضب ملامح رقيقه، وهو يخرج مسدسه، هاتفا:

- هل بُحت له بإسم السيد؟

كان من الممكن أن ينكر (بكري)، إلا أن أعصابه التي عانت الكثير، لم تكن قادرة على الاحتمال، فانهار قائلا:

- كنت مضطرا.. لقد أجبرني..

هتف رفيقه في غضب هائل:

- أيها الجبان.

وقبل أن يدرك (بكري) ما ينوى رفيقه فعله، كان هذا الأخير قد ألصق فوهة مسدسه بجبهته..

وأطلق النار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- جريمة..

- قتلته؟!

هتف (رضوان) بهذه العبارة في هلع، قبل أن يمسك الرجل من ياقته في عنف، مستطردا:

- لماذا قتلته؟

أجابه الرجل في صرامة:

- لأنني أبغض الجبناء، الذين يدلون بكل ما لديهم، بعد لكمة أو لكمتين..

وابتسم في خبث، واستطرد:

ثم إن قتله يحقق الغرض المنشود.

سأله (رضوان) في توتر:

- أي غرض؟

أجابه في حزم:

- إرباك رجال الشرطة، لو أن الأمر كله مجرد خدعة، أو توريط الصحفي في جريمة قتل، لو أن الأمر ليس كذلك.. اسمعني جيدا يا سيدي لقد تركت المسدس إلى جوار الجثة، ومعه تلك البطاقة العجيبة التي تحمل رسم العقرب الذهبي، ولما كان رجال الشرطة يجهلون علاقتي بـ (بكري)، فسيحيرهم وجوده قتيلا، أما لو كان الصحفي هو صاحب الخدعة كلها، فسيصبح المتهم الأول: بارتكاب الجريمة.. أليس كذلك؟

عقد (رضوان) حاجبيه، وهو يفكر في الأمر، قبل أن يقول معترضا:

- ولكنه أخبر مهاجمه أنني وراء كل هذا.

ابتسم الرجل في سخرية، وهو يقول:

- المهم هو الدليل.

ثم اتسعت ابتسامته، وهو يستطرد في ثقة:

- لا أحد يمكنه أن يمس شعرة واحدة من رأسك، دون دليل مادي قوي.

ولكن الرجل كان مخطئا..

لقد نسي أنه لا يواجه القانون المكتوب، وانما يواجه سيف العدالة البتار..

يواجه (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التقى حاجبا العقيد (مجدي) في تفكير عميق، وهو يتطلع إلى جثة (بكري)، التي التف حولها رجال المعمل الجنائي، يلتقطون لها بعض الصور الضوئية، ويجمعون من حولها الأدلة، ويرفعون البصمات، في حين راح بواب البناية يقول في انفعال زائد:

- كان باب الشقة مفتوحا، مما أثار شكي وقلقي، وعندما قرعت الجرس، لم يستجب لي أحد، فدخلت إلى الشقة، ووجدت هذا الرجل صريعا، في حجرة النوم..

التفت إليه (مجدي)، وسأله:

- من يستأجر هذه الشقة؟

أجابه الباب:

- إنها شقة مؤثثة، استأجرها أمس صحفي، يدعى (أحمد عبد الغفار)، ولكنه لم يدخلها حتى الآن.. لقد دفع إيجار شهر كامل، ووقّع العقد، وحصل على المفتاح، ثم انصرف، ولم أره بعدها..

سأله (مجدي):

- وكيف يبدو (أحمد عبد الغفار) هذا؟

هز البواب كتفيه، وقال:

- شاب عادي، نحيل بعض الشيء، ويرتدى منظارا طبيا و.

بدا الوصف أكثر من عادي، مما جعل (مجدي) يقاطعه، قائلا:

- هل يمكنك تعرّفه، إذا ما رأيته مرة أخرى؟

هتف البواب:

- بالتأكيد.

قال (مجدي):

- حسنا.. اذهب الآن، وسأستدعيك إذا ما احتجت إليك.

أسرع البواب ينصرف، وهو يحمد الله (سبحانه وتعالى)، على ابتعاده عن جثة القتيل، في حين التفت (مجدي) إلى رجال المعمل الجنائي، وسألهم:

- هل عثرت على شيء؟

نهض أحدهم، وقدم له بطاقة أنيقة، وهو يقول:

- هذه فقط.. وأظنني رأيت مثلها من قبل

لم يكد (مجدي) يلتقط البطاقة، حتى اتسعت عيناه في شدة، ووجد نفسه يهتف في قوة:

- (العقرب)؟!

التفت إليه رجال المعمل الجنائي في دهشة، ولكنه بدا كما لو أنه يتحدث إلى نفسه. وهو يستطرد في انفعال

- هو إذن وراء كل هذا! يا إلهى! لقد وقع هذه المرة.

ثم اندفع فجأة مغادرا المكان، وتاركا خلفه علامة استفهام ضخمة، على وجوه رجال المعمل الجنائي، الذين خيم عليهم صمت تام، وهم يحدّقون في باب الحجرة المفتوح في دهشة، ثم لم يلبث رئيسهم أن هز رأسه، وقال:

- يا لرجال الشرطة!

وعاد الجميع يتابعون عملهم في اهتمام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نفت (كامل) دخان سيجارته في عصبية. وهو يقول:

- شبح أسود مقنع، يترك خلفه بطاقة، عليها رسم عقرب.. ما هذا بالضبط يا د. رضوان؟ فيلم سينمائي قديم، أم أسخف كذبة سمعتها في حياتي؟

قال (رضوان) في حدة:

- لا هذا ولا ذاك يا (كامل) بك.. إنها الحقيقة بكل بساطة، فلقد ظهر ذلك المقنَّع في منزل الصحفي، وهاجم (بكري)، ومن الواضح أنه يسعى خلفنا، وأنه يعد لنا شيئا ما..

صاح (كامل) في غضب:

- أية سخافة هذه يا رجل؟ لماذا تبتكر قصة تافهة خيالية كهذه، لتبرر فشلك في التخلص من الصحفي؟

ازدرد الدكتور (جمال، لعابه في صعوبة، وقال مرتبكا:

- ألا يحتمل أنها لعبة من هذا الصحفي؟

عقد (كامل) حاجبيه في شدة، وقال:

- لعبة!

ثم اختطف سماعة الهاتف بحركة مباغتة، وأدار قرص الهاتف في سرعة، ولم يكد يسمع صوت محدثه، حتي تغيرت ملامحه بغتة، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ديبلوماسية، وهو يقول:

- صباح الخير يا (إبراهيم) بك.. أنا (كامل).. (كامل شكري): نعم.. رئيس مجلس إدارة شركة البترول.. كيف حالك يا (إبراهيم) بك، وكيف حال الجريدة.. عظيم.. ثم مال إلى الأمام، وأمسك سماعة الهاتف بكفيه في اهتمام بالغ، وهو يستطرد:

- أخبرني يا (إبراهيم) بك.. ألديكم صحفي يدعى (أحمد عبد الغفار).. لا.. ليس (محمد عبد الغفار)، بل (أحمد)..

عجبا... لا يوجد من يحمل هذا الاسم!!

قال الجزء الأخير، وهو ينظر إلى الأربعة الآخرين، فشحب وجه (أشرف)، وامتقع وجه (جمال)، وعض (عماد) شفته السفلى في توتر، في حين عقد (رضوان) حاجبيه في شدة، و (كامل) يستطرد:

- لا.. ليس للأمر أهمية خاصة.. كل ما هناك أن شابا يحمل هذا الاسم، قد تقدم للزواج من ابنة صديق لي، وادعى أنه صحفي في جريدتك.. لا.. لا داعي لإبلاغ الشرطة.. سأنهي الأمر بأسلوبي الخاص.. شكرا يا (إبراهيم) بك.. شكرا كثيرا..

وأعاد سماعة الهاتف، وهو يقول في حزم:

- لم تكن خدعة من الصحفي يا (جمال)، بل الصحفي نفسه هو الخدعة، وعاد يلتقط سماعة الهاتف، مستطردا:

- في هذه الحالة يحتاج الأمر إلى تحريات من نوع آخر..

أدار قرص الهاتف مرة أخرى، وقال عندما تم الاتصال:

- صباح الخير يا (وجيه).. أنا (كامل شكري).. اسمعني جيدا.. أريد منك أن تجمع لي كل التحريات الممكنة، من عالمك السفلى عن مقنَّع أسود يترك خلفه بطاقة تحمل رسما لـ...

اتسعت عيناه فجأة، وهو يهتف:

- تعرفه! اسمه ماذا؟ (العقرب)؟! وما الذي يفعله (العقرب) هذا.. أهو زعيم عصابة كبير أم؟

هبطت قلوب الأربعة الآخرين بين أقدامهم، مع ذلك المزيج من الدهشة والخوف، الذي ارتسم على وجه (كامل)، وهو يستمع إلى محدثه، ومع انقباضة أصابعه الشديدة على سماعة الهاتف، قبل أن يرتجف صوته، وهو يقول:

- هذا يكفي يا (وجيه).. هذا يكفي..

وأعاد سماعة الهاتف إلى موضعها، ثم اختطف علبة سجائره، والتقط منها سيجارة. أشعلها بأصابع مرتعدة، دون أن ينتبه إلى أن سيجارته الأولى ما تزال مشتعلة في المنفضة، في حين خيم على حجرته صمت رهيب، اشترك مع الوجوه الشاحبة، ليصنع لوحة للتوتر، قبل أن يقول (عماد) في حدة:

- ماذا أخبرك؟

تطلع إليه (كامل) في شرود، وهو ينفث دخان سيجارته، ثم قال:

- يقول أن (العقرب) هذا مكافح للجريمة، لا يعرف أحد من هو ولا من أين يأتي، ولا حتى كيف يختار خصومه، فهو يبدو كما لو أنه يتشمم أخبار الجرائم، وينتقي منها مالا يروق له، وهو يرتدي زيا أسود اللون، وقفازين وقناعا في لون الليل الملبد بالغيوم، ولقد تصدى العمالقة، وحطمهم جميعا من قبل، على الرغم من قوتهم، ومكانتهم الاجتماعية الكبيرة.

انهار (جمال)، هاتفا في شحوب:

- يا إلهي! لقد ضعنا..

التفت إليه (كامل) في حدة، وضرب سطح مكتبه بقبضته، وهو يهتف:

- لم يحن هذا بعد..

ثم نهض في عنف، مستطردا:

- أنتم تعلمون أن خطتنا محكمة للغاية، ولا أحد يمكنه كشف أمرنا، مهما بلغ ذكاؤه، وكل ما يملكه هذا (العقرب) هو أن يسعى خلفنا، وعلينا أن نستعد لهجومه.

ورفع كفه أمام وجهه، وفرقع سبابته وإبهامه، مردفا في حزم:

- ونقتنصه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اقتحم (مجدي) مكتب (نديم في عنف، واندفع داخله، وعم (أحمد) يعدو خلفه، صائحا في احتجاج واستنكار:

- لا يا سيدي.. لا يمكنك دخول المكتب هكذا..

ولكن (مجدي) تجاهله تماما، ولوح بسبابته في وجهي (نديم) و (غادة)، وهو يهتف:

- لقد تجاوزت حدودك هذه المرة يا (نديم) تجاوزتها كثيرا..

عقدت (غادة) حاجبيها في غضب، في حين رفع (قديم) عينيه إليه في هدوء، وهو يقول:

- من منا تجاوز حدوده يا (مجدي)؟ إنني أجلس في مكتبي، أما أنت فتقتحم هذا المكتب دون استئذان، ودون..

قاطعه (مجدي) في ثورة:

- دعك من أسلوبك الملتوي هذا يا (نديم. كلانا يعلم أنك (العقرب)، وأنك تتصور نفسك حامي العدالة الوحيد، في هذا

العالم.. وعلى الرغم من نجاحك في الإفلات منى أكثر من مرة، فلن أسمح لك أبدا ببلوغ حد القتل..

تراجعت (غادة) في حركة حادة، هاتفة:

- القتل؟

أما (نديم فقد اكتفي بنظرة صارمة، وهو يقول:

- ماذا تقصد يا (مجدي)؟

ألقى (مجدي البطاقة قوق المكتب، وهو يقول ثائرا:

- أقصد هذه البطاقة، التي عثرت عليها إلى جوار جثة رجل. داخل شقة من الشقق المؤثثة، في حي (المنيل).. هل تعرف هذه البطاقة يا (نديم)؟ أليست بطاقتك؟

بدا الاهتمام على وجه (نديم)، وهو يلقي نظرة على البطاقة، التي تحمل شعار (العقرب)، ثم رفع عينيه إلى عم (أحمد)، دون أن يفقد هدوء صوته، وهو يقول:

- اتركنا وحدنا يا عم (أحمد).

أطاعه الكهل دون مناقشة، فتراجع في سرعة، وأغلق الباب خلفه في هدوء، فالتفت (نديم) إلى (مجدي)، وقال:

- اجلس يا (مجدي)..

لم يطعه (مجدي)، وإنما قال في حدة، وهو يلوح بسبابته في وجهه:

- اسمع يا (نديم).. لن يمكنك هذه المرة أن..

قاطعه (نديم) في صرامة:

- اجلس يا (مجدي)..

كانت لهجته هذه المرة تحمل قدرا هائلا من الصرامة، أصاب (مجدي) في الصميم، فارتفع حاجباه لخطة، ثم عاد يعقدهما، واخذ مجلسه على المقعد المقابل لمكتب (نديم)، مغمغما:

- لم أتصور أبدا أنك ستبلغ هذا الحد..

قال (نديم) ث حرم

- أخبرني أولا ما حدث؟

انطلق (مجدي) يروي له تفاصيل الأمر، منذ إبلاغه بالجريمة، وحتى وصوله إلى مكتبه، واستمع إليه (نديم) في اهتمام، ثم تبادل نظرة صامته مع (غادة)، التي بدت شديدة التوتر والقلق، وقال:

- ولكن هذا الأمر عجيب بالفعل يا (مجدي)، فكلانا يعرف أن (العقرب) لا يميل أبدا للقتل.. أليس كذلك؟

قال (مجدي) في حدة:

- من يدري؟

اندفعت (غادة) تقول:

- من المؤكد أنها محاولة لتوريط (العقرب)..

رمقها (مجدي) بنطرة نارية، وهو يقول:

حتى لو كان الأمر كذلك بالفعل، ف (العقرب) متهم بارتكاب جريمة قتل هذه المرة. وسأستصدر من وكيل النيابة أمرا، بإلقاء القبض عل...

قاطعه (نديم):

- على من؟ (العقرب)؟

ارتبك (مجدي)، وانتبه فجأة إلى تلك المشكلة، التي تعترض طريقه دائما، ولكن هذا لم يزده سوى حنق، فقال:

- لن يمكنك الإفلات من العدالة إلى الأبد يا (نديم).. سأثبت حتما أنك العقرب)، وسألقي القبض عليك، بكل ما ارتكبته.

قال (نديم) في هدوء:

- هل تقتنع حقا بأن (العقرب) قد ارتكب ما يوجب إلقاء القبض عليه؟

نهض (مجدي) في حدة، وهو يقول:

- إنه يخالف القانون.

تطلع إليه (نديم) في هدوء، وقال:

- ولكنه لا يقتل أبدا يا (مجدي).. خذها كلمة مني.

ران عليهما الصمت لحظة، وكلاهما يتطلع إلى عيني الأخر، ثم لم يلبث (مجدي) أن انحنى، والتقط البطاقة من أمام (نديم)، ودسها في جيبه، وهو يقول:

- فليكن، ولكن هذا لا يمنعني من تسليم هذه البطاقة للعدالة، فهي أحد أدلة الاتهام، في جريمة قتل، سيدفع فيها القاتل الثمن..

واتجه نحو الباب، مستطردا في صرامة:

- حتمًا.

وأغلق الباب خلفه في عنف..

ومضت لحظات من الصمت، قبل أن تسأل (غادة):

- ولكن لماذا؟ لماذا قتلوا الرجل؟

أجابها (نديم) في حزم، بعد برهة من الصمت:

- إنها حرب يا (غادة)، وكل شيء مباح في الحروب.

ثم نهض من خلف مكتبه، واتجه إلى جزء من الحائط، ضغط زرا خفيا إلى جواره، فانكشفت فجوة فيه، ظهر خلفها زي (العقرب) وقناعه، و (نديم) يستطرد:

- وينبغي أن يدرك (العقرب) هذا..

لم تنبس (غادة) ببنت شفة، وهي تتطلع إلى زي (العقرب) الأسود..

لقد أدركت ما يعنيه (نديم)..

انها حرب..

حرب بلا رحمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- طبول الحرب..

اقتربت زوجة (رضوان) من زوجها، وتطلعت إليه في قلق، وهو يجلس أمام النافذة، متطلعا إلى حديقة الفيلا في خوف وتوتر واضحين، ويفرك كفيه في عصبية، ولم تكد تضع يدها على كتفه، حتى انتفض في قوة والتفت إليها في هلع، فتراجعت في دهشة وخوف، وهتفت به:

- ماذا هناك يا (رضوان).. ماذا أصابك، منذ عودتك من الشركة هذه المرة؟

لوح بيده في عصبية، وهو يقول:

- لا شيء.. لا شيء.. اتركيني وحدي..

قالت في عناد:

- لا يمكنني أن أتركك وحدك.. إنك تعاني من توتر بالغ و.

صاح بها في حدة:

- قلت اتركيني وحدي..

عقدت حاجبيها في غضب، وهي تقول:

- أريد أن أفهم ما يحدث هنا.. لقد صرت بواب الفيلا، وأتيت بدلا منه برجلين، كل منهما يذكرني بعتاة المجرمين، في الأفلام القديمة، ويحمل في جيبه مسدسا ضخما، تبرز ملامحه في وضوح، أسفل سترة ضخمة.. فلماذا تفعل كل هذا.. ما الذي يهددك؟

صرخ بها:

- قلت اتركيني وحدي.. هيا.. انصرفي..

غادرت المكان في غضب، وصفقت الباب خلفها في عنف، فقال في عصبية:

- اذهبي إلى الجحيم..

ثم عاد يجلس على المقعد المقابل للنافذة، مستطردا:

- أو يأتي الجحيم إلى هنا..

وعاد يرتجف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحسس أحد الرجلين، اللذين أحضرهما (رضوان) لحراسته، مسدسه داخل سترته الواسعة، ونقل إليه ملمسه شيئا من الاطمئنان، وهو يلتفت إلى زميله، قائلا:

- كم الساعة الآن؟

تطلع زميله إلى ساعته، وقال في تكاسل:

- الثانية إلا خمس دقائق، بعد منتصف الليل..

اكتفي الرجل بهذا الجواب ثوان، ثم عاد يقول:

- أتظن شيئا سيحدث الليلة؟

هز زميله كتفيه، وقال:

- لا.. لا أظن هذا..

ثم استدرك بسرعة:

- ولكننا سنقوم بواجبنا..

أجابه زميله:

- بالتأكيد.

ثم التقط علبة سجائره، وناوله سيجارة، ومنح نفسة أخرى، وهو يستطرد مبتسما:

- ما دمنا نتناول أجرنا..

أشعل زميله السيجارتين، ونفث كل منهما دخان سيجارته في صمت، قبل أن يقول الأول:

- هل تصدق قصة المقنّع هذه؟

هر زميله كتفيه، وقال:

- مهمتنا ليست التصديق، أو دراسة الأمر.. نحن هنا لحراسة (رضوان) بك فحسب..

ابتسم الأول، وقال:

- أعلم هذا، ولكن ماذا لو...؟

لم يتم عبارته هذه، لأن ضوء غمرهما بغتة، مع صوت توقف سيارة مسرعة، وصرير إطاراتها، وهي تحتك بالأرض، فقفز كلاهما ينتزع مسدسه، والتفتا إلى مصدر الصوت، وقد تحفزا للقتال، لولا أن سمعا صوتا أنثويا رقيقا، يقول:

- معذرة.. هل يمكنكما أن ترشداني إلى الطريق الرئيسي؟

تطلعا في دهشة إلى الفتاة الجميلة، التي تقف خلف باب الفيلا المعدني مبتسمة، ثم أسرع أولهما يعيد مسدسه إلى جيب سترته، وهو يقول:

- بالتأكيد.. إنه قريب من هنا..

سألته في عذوبة:

- أين؟

أعاد الأخر مسدسه إلى جيبه بدوره، وابتسم وهو يتابع حديث زميله مع الفتاة، عندما لاحظ أنه يطيل الشرح بلا داع، حتى أومأت الفتاة برأسها، وابتسمت ابتسامة جذابة، وهي تقول:

- شكرا لك.. لقد ساعدتني كثيرا.

أجابها الرجل في حماس:

- مرحبا بك في أي وقت.

لوحت له بكفها، وعادت إلى سيارتها، وانطلقت بها بسرعة كبيرة، والرجلان يتابعانها بصرهما في افتتان، قبل أن يغمغم الأول:

- إنها جميلة.

علق الثاني باقتضاب:

- وجذابة.

شملهما الصمت لحظة أخرى، ثم قال الأول، وهو يطلق تنهيدة عميقة:

- لعل هذا أفضل ما في ليلتنا هذه..

في نفس اللحظة، التي أطلق فيها هذه التنهيدة، كانت الفتاة تقول لنفسها في خفوت:

- هأنتذا قد قمت بدورك يا (غادة).. بقي أن ينجح (العقرب) في القيام بدوره..

وواصلت ابتعادها بالسيارة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ألقى (رضوان) نظرة متوترة على ساعة معصمه، ورفع عينيه إلى النافذة المطلة على حديقة الفيلا، ثم غمغم:

- لا.. لا أظن شيئا يحدث الليلة.. إنها الثانية والنصف، بعد منتصف الليل..

قالها، وأطلق من صدره تنهيدة ارتياح، ثم نهض من مقعده، مستطردا:

- يمكنني الان الذهاب إلى فراشي، و.

اختنقت العبارة في حلقه، وهو يدور حول مقعده، وتصلبت قدماه في موضعهما، واتسعت عيناه في ذعر وذهول، حتى كادتا تثبان من محجريهما، وهو يحدق في وجه (العقرب)، وقناعة الأسود الرهيب، وقد جلس هذا الأخير هادئا، على مقعد يواجهه تماما..

وران على الحجرة صمت مخيف، أشبه بسكون المقابر، قطعه صوت أسنان (رضوان)، وهي تصطك ببعضها البعض، ثم صوت (العقرب)، وهو يقول في هدوء مثير:

- هل أفزعتك؟

وعلى الرغم من رجلي الحراسة في الخارج، لم يطلق (رضوان) صرخة استنجاد واحدة، وإنما سقط جاثيا على ركبتيه، وقال في انهيار:

- الرحمة!

لم يغادر (العقرب) مقعده، وإنما بقى جالسا، واضعا إحدى ساقيه فوق الأخرى، وعاقدا أصابع كفيه أمام وجهه، وهو يقول في هدوء:

- الوقت سابق لطلب الرحمة يا (رضوان)، فلم يبدأ حديثنا بعد..

هتف (رضوان) مرة أخرى، وقد تجمعت دمعة كبيرة في عينيه:

- الرحمة...!

تطلع إليه (العقرب) مرة أخرى في صمت، بعينين خاليتين من أية تعبيرات، وهو يقول:

- أظنك قد انتبهت إلى أن حارسيك لن يمكنهما منعي من الوصول اليك، مهما حاولت، فهما يوليان انتباههما إلى أمور خارج عملهما، بحيث يستطيع فيل ضخم التسلل من خلفهما إلى الداخل..

انهار (رضوان) تماما، وهو يكرر:

- الرحمة! الرحمة!

مال (العقرب) نحوه في بطء وتطلع إلى عينيه مباشرة، وهو يقول:

- وما الثمن؟ ما ثمن الرحمة؟

هتف (رضوان) متوسلا:

- سأمنحك كل ما تطلبه.. خذ نصف ثروتي.. بل ثروتي كلها.. ولكن اتركني أحيا.. أرجوك.

اعتدل (العقرب)، وقال:

- لا.. لست أطلب نقودا..

هتف (رضوان):

- سأمنحك أي شيء تطلبه.

مال العقرب) نحوه مرة أخرى، في حركة حادة، وهو يقول في صرامة مباغتة:

- أريد جوابا واحدا..

انتفض جسد (رضوان)، وهو يتراجع في حركة عنيفة، واتسعت عيناه في شدة، وهو يقول:

- جوابا!

سأله (العقرب في صرامة

- كيف تختلسون البترول؟

شحب وجه (رضوان) في شدة، ونهض بساقين مرتجفتين، وألقى جسده فوق أقرب مقعد إليه، وهو يقول:

- ومن أخبرك أننا نختلس البترول؟

ثم لوح بيده كلها وهو يستطرد في توتر:

- أنت تعلم أنه من المستحيل اختلاس البترول، فكل الآبار التابعة للشركة تنتج كميات معروفة من البترول، يتم نقلها عبر أنابيب خاصة إلى ميناء (السويس)، حيث تضح داخل خزانات هائلة لناقلات البترول العملاقة، ولا يمكن لناقلة أن تبحر، دون أن يمتلئ خزانها تماما، وسعة خزان كل منها معروفة، ولا يمكن التلاعب بها.. وحتى لو اكتفت الناقلة بكمية أقل، فلن يسمح لها مسئولو الشركة هناك بهذا، وكذلك الشركة التي يصل إليها البترول في النهاية..

سأله (العقرب) في اهتمام:

- وماذا لو تم إنشاء خط أنابيب فرعي ينقل جزءا من البترول إلى ناقلات خاصة؟

أجابه (رضوان):

- هذا مستحيل، فإنشاء خط أنابيب فرعي مشروع ضخم، لا يمكن تنفيذه في الخفاء، ثم كيف يمكن نقل بترول إلى ناقلة بترول، دون أن يخضع هذا لمراقبة ومتابعة الجهات المسئولة؟

قال العقرب في صرامة:

- إنني أنتظر منك جواب هذا السؤال..

عاد وجه (رضوان) إلى شحوبه، وهو يقول:

- أي جواب؟ إنني لن..

هب (العقرب) من مقعده بغتة، وجذب (رضوان) من ياقته، قائلا في صوت يجمد له الدم في العروق:

- أريد الجواب.

وفجأة انطلقت من خلف (العقرب) صرخة رعب هائلة..

صرخة انطلقت من بين شفتي زوجة (رضوان)..

وانقلبت الأمور رأسا على عقب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- هجوم..

لم تكد صرخة الزوجة تنطلق، حتى انتفض حارسا الفيلا من موضعهما، وها واقفين، وكل منهما ينتزع مسدسه، وهتف الأول:

- ماذا حدث؟

أجابه الاخر دون انتظار:

- لست أدري.. هناك شيء ما في الفيلا.. هيا بنا.

انطلقا يعدوان نحو الفيلا، في نفس الوقت الذي تخلى فيه (العقرب) عن (رضوان)، والتفت إلى زوجته، قائلا:

- رويدك يا سيدتي.. إنني لست لصًا..

لم تناقشه الزوجة، وإنما أطلقت صرخة رعب أخرى، وهي تحدق في قناعة الأسود، وتتراجع فزعة..

ثم اقتحم الحارسين الحجرة..

ومع اقتحامهما، عادت الشجاعة بغتة إلى (رضوان)، فصاح:

- اقتلاه.. اقتلاه..

لم يكن أحدهما ينتظر صدور الأمر، ففور اقتحامهما الحجرة، رفع كل منهما مسدسه إلى وجه (العقرب)..

وفي نفس اللحظة تحرك (العقرب)..

استدار بسرعة، واندفع نحو النافذة الزجاجية المغلقة، وألقى جسده نحوها..

وانطلقت رصاصتا الحارسين.

وعبر (العقرب) النافذة مع الرصاصتين..

وعندما هبط إلى الحديقة، كان قد علم أين استقرت الرصاصتان..

لقد عبرت إحداهما الزجاج معه، أما الثانية، فقد عبرت ساقه اليسرى، ومرقت إلى جوار عظمة الساق، ثم خرجت من الناحية المقابلة مع خيط من الدم..

وصرخ أحد الحارسين:

- لقد أصبته.. لقد أصبته..

واصلت زوجة (رضوان) صراخها، فاندفع زوجها نحوها، وهوى على وجهها بصفعة قوية، وهو يصرخ:

- اخرسي أيتها الملعونة.. اخرسي.. لا أريد فضائح هنا..

أسرع الحارسان يتطلعان إلى الحديقة، عبر النافذة المكسورة، وقال أحدهما في توتر:

- أين هو يا (زهدي)

هتف (زهدي) في عصبية:

- لا بد أنه هناك.. لقد أصابته رصاصتي.. أنا واثق من هذا..

صاح بهما (رضوان):

- المهم ألا تسمحا له بمغادرة الفيلا حيا، ولو أنه نجح في عبور أسوارها للدخول، فلن نسمح له بعبورها للخروج..

هتفت زوجة (رضوان) في فزع:

- ماذا يحدث يا (رضوان)؟ هل أصبحت زعيم عصابة؟

صرخ بها في شراسة:

- اخرسي يا امرأة..

وعاد يلتفت إلى الحارسين، مستطردا:

- أسرع إلى بوابة الفيلا يا سعد)، ولا تسمح لمخلوق واحد بالخروج منها، حتى ولو اضطررت لقتله، أما أنت يا (زهدي) فتعال معي.. سنفتش الحديقة كلها بحثا عنه..

قالها واندفع نحو مكتبه، وانتزع منه مسدسا كبيرا، فصرخت زوجته:

- (رضوان)؟!

تجاهلها هذه المرة، وغادر الحجرة مع (زهدي)، وأسرع كلاهما إلى الحديقة، وأضاء (زهدي) مصباحا يدويا كبيرا أسفل النافذة، وهو يقول:

- انظر يا سيدي.. هذه دماؤه.. لقد أصيب حتما..

تلفت (رضوان) حوله، وهو يقول في توتر:

- ولكن أين ذهب؟

أجابه (زهدي في انفعال:

- سنجده حتما.. ستتبع خيط الدم، حتى نبلغ مخبأه.

راحا يتبعان خيط الدم في حذر، حتى بلغا شجرة ضخمة، فرفع (زهدي) مسدسه، وقال في حزم:

- إنه فوق الشجرة.. أدفع عمري مقابل هذا.

سمع من خلف الجذع صوتا يقول:

- يكفيني فكك.

وبرزت قبضة (العقرب) فجأة من خلف جذع الشجرة، وهوت كالقنبلة على فك (زهدي)، الذي ترنح في قوة، وسقط مسدسه من يده، ولكن (رضوان) تراجع في سرعة، صارخا:

- لا.. ليس ثانية.

وأطلق رصاصة من مسدسه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتجف جسد زوجة (رضوان) في رعب، مع دوي الرصاصات، فكتمت فمها بكفها، خشية أن تنطلق منه صرخة أخرى، وغمغمت في هلع:

- يا إلهى! ما الذي يحدث هنا؟ هل أصيب الجميع بالجنون؟

وراحت تتلفت حولها في خوف وتوتر، مستطردة:

- ماذا أفعل يا إلهي.. ماذا أفعل؟

وقع بصرها بغتة على الهاتف، وقفزت إلى ذهنها فكرة، جعلتها تتمتم:

- نعم.. ولم لا؟

أسرعت إلى الهاتف، والتقطت سماعته، وأدارت قرصه بأصابع بلغت عصبيتها ذروتها، ولم تكد تسمع صوت محدثها، حتى هتفت:

- (كامل) بك.. حمدا لله أنني وجدتك.. يؤسفني إيقاظك في مثل هذه الساعة..

أدرك (كامل شكري) على الفور، أن (رضوان) يتعرض لنوع ما من المتاعب، وبث هذا الكثير من التوتر في أعماقه، على الرغم من صوته، الذي حافظ على هدوئه، وهو يقول:

- لا.. إني لم أنم بعد.. ماذا هناك؟ هل أصاب (رضوان) مكروه ما؟

أجابته في اضطراب واضح:

- لست أدري.. إنه يتصرف على نحو عجيب.. كل شيء هنا مخيف..

- اهدني يا سيدتي، وأخبريني ماذا حدث بالضبط؟

قالت في ارتباك:

- لقد ظل (رضوان) ساهرا، حتى الثانية والنصف صباحا، ولقد أقلقني هذا، فهبطت إلى مكتبه، لأطمئن عليه، ففوجئت برجل مقنع في مكتبه..

هتف (كامل)، وقد قفز توتره إلى الذروة:

- مقنع! هل وجدت ذلك المقنع المتشح بالسواد في مكتبه؟

قالت السيدة في دهشة:

- هل تعرفه يا (كامل) بك؟

صاح بها، متجاوزا كل حدود اللياقة:

- دعك من هذا الأن، وأخبريني.. ماذا حدث عندئذ؟

أجابته بسرعة:

- لقد أطلقت صرخة، فأسرع الحارسان الجديدان إلى الفيلا، وأطلقا النار على ذلك المقنع، ولكنه قفز عبر النافذة إلى

الحديقة.. أحد الحارسين يقول: إنه قد أصابه برصاصة، ولقد خرج الجميع للبحث عنه في الحديقة، وسمعت (رضوان) يأمر الرجلين بقتله، وأنا أشعر بخوف شديد يا (كامل) بك، خاصة وقد سمعت طلقا ناريا في الحديقة، وأخشى أن..

قاطعها (كامل):

- سأقوم باللازم يا سيدتي.. اطمئني..

وانهى المحادثة في عصبية، ثم أشعل سيجارته، وهو يحدث نفسه، قائلا:

- إذن فقد هاجم ذلك (العقرب) (رضوان)، يا للسرعة، التي تجرى بها الأمور..

نفث دخان سيجارته مرات في عصبية، ثم قال في حزم:

- الأمر يحتاج إذن إلى تدخل سريع.

ثم عاد يرفع سماعة الهاتف، ويطلب رقما جديدا، وقال لصاحبه:

- إنه أنا يا (وجيه).. (كامل شكري).. نعم.. أعلم كم الساعة الان.. أريدك أن تجمع رجالك على الفور، وتتجه بهم إلى فيلا (رضوان)، فهو يقاتل (العقرب).. هناك.. نعم.. (العقرب).. وأنا أريد هذا (العقرب) الليلة يا (رضوان).. مسحوقا.

وأنهى المحادثة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من العجيب، في هذه الحياة، أنه حتى للخطأ فوائده، وأن البعض يفيد من أخطاء الآخرين..

وهذا ما حدث..

فعلى الرغم من أن (رضوان) يمتلك مسدسا، ويحمل ترخيصا خاصا بحمله واستخدامه، إلا أنه لم يطلق منه، في عمره كله، سوى رصاصة واحدة، وهي تلك التي أطلقها على (العقرب)، في حديقة الفيلا..

وكان هذا من حسن حظ (العقرب)..

لقد أطلق (رضوان، رصاصته نحو بطلنا، ولكنه لم يصب هدفه، وإنما انحرفت الرصاصة، وأصابت جذع الشجرة، فتراجع (العقرب) بسرعة، وانحنى يلتقط مسدس (زهدي)، وهو يقول:

- دوري يا (رضوان)..

ولكن (رضوان، ألقى مسدسه في رعب، ورفع ذراعيه فوق رأسه، وهو يهتف مرتجفًا:

- لا.. لا.. إنني أستسلم.

شعر (زهدي) بغضب هائل في أعماقه، وهو يرى كل ذلك الخوف، في ملامح (رضوان) وتصرفاته، ونهض في بطء، وهو يقول ساخطا:

- يا للعار.. نستسلم لرجل مصاب؟

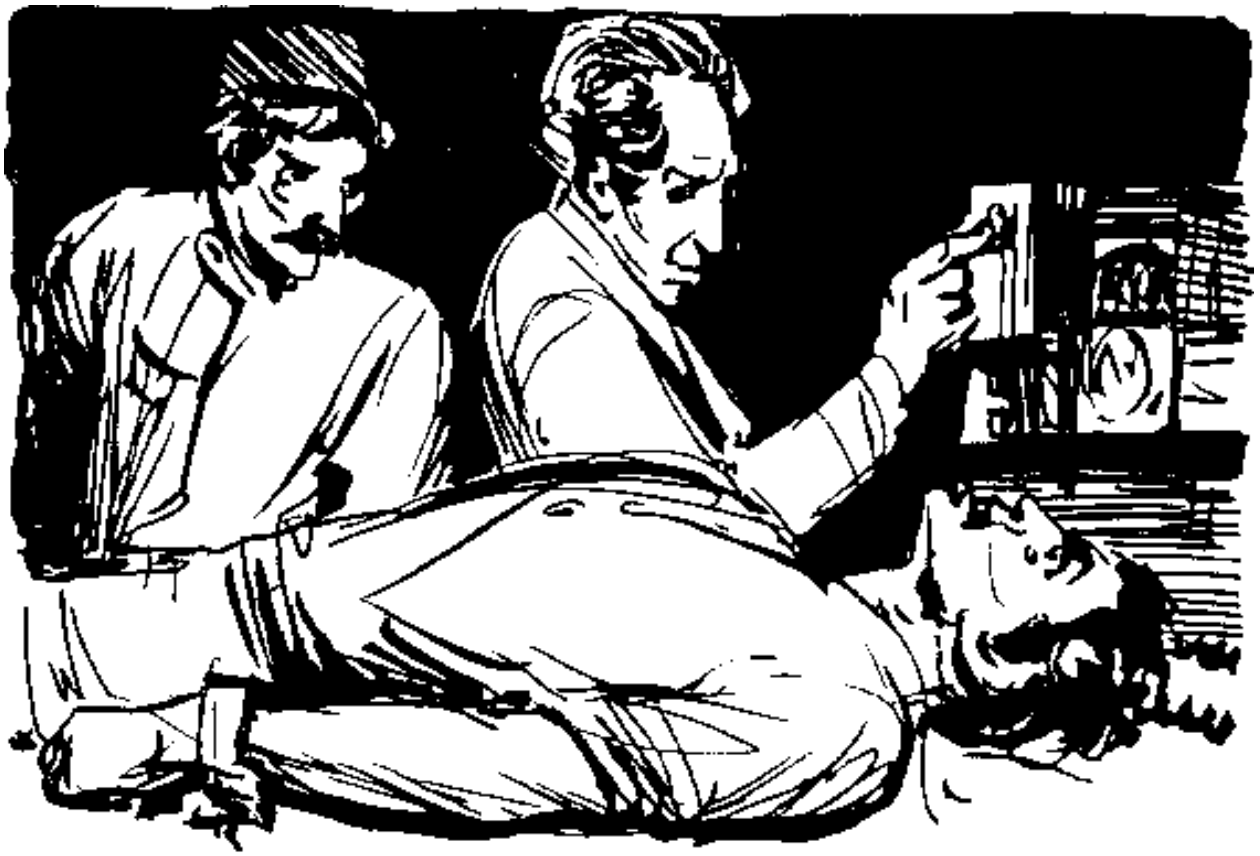

العلاج

هز (العقرب) كتفيه، وقال:

- هذا قدرك يا رجل..

ثم استدار إلى (رضوان)، وتابع في صرامة:

- ما زلت أنتظر جواب سؤالي يا (رضوان)..

تصبب عرق الخوف على وجه (رضوان)، وهو يقول:

- لست أملك جوابا.

جذب (العقرب) إبرة مسدسه، وهو يقول:

- هل تراهن على هذا؟

ولكن فجأة زال الرعب عن ملامح (رضوان)، واستعاد بعض شجاعته، وهو يقول في حدة:

- نعم.. أراهن.

وفي نفس اللحظة اندفع من خلف (العقرب) صوت صارم، يقول:

- هل يمكن المشاركة في هذا الرهان؟

وهنا صاح (زهدي):

- اقتله يا (سعد).

تراجع (العقرب) في حركة غريزية حادة، والتفت يواجه خصمه الجديد، إلا أن (زهدي) اندفع خلفه كخرتيت ثائر، وهو يكرر صارخا:

- اقتله.

ثم هوى بقبضته على فك (العقرب)، بكل ما يملأ نفسه من غضب وثورة..

وأصابت اللكمة هدفها هذه المرة..

واختل توازن (العقرب)، مع قوة اللكمة، وساقه المصابة، وارتطم ظهره بجذع الشجرة، فكال له (زهدي) لكمة أكثر قوة، وهو يصرخ:

- أو أقتله أنا.

كانت الضربة بالغة القوة، ضربت رأسي (العقرب) بجذع الشجرة، فأظلمت الدنيا أمام عينيه، ومادت به الأرض، وسقط..

سقط (العقرب) فاقد الوعي..

سقط بين خصومة..

وران صمت رهيب لحظة، وكأنما لا يصدق هؤلاء الخصوم أنهم قد أو قعوا بـ (العقرب)، ثم هتف (زهدي) في ظفر:

- لقد أوقعنا به.

انتابت (رضوان) فرحة جنونية، وهو يصرخ:

- نعم.. لقد أوقعنا به.. لقد أوقعنا به.

بدا الانفعال على وجه (زهدي)، وهو يقول:

- يكاد يقتلني الفضول لنزع قناعه، ورؤية وجهه.

أجابه (رضوان) بنفس الانفعال:

- إنني أشاركك هذا الفضول.

ثم اعتدل قائلا في حزم:

- هيا.. انزع قناعه.

أطاعه (زهدي) في سرعة، وانحنى لينزع القناع..

قناع (العقرب).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- اقتحام..

شعرت زوجة اللواء (حلمي) بالقلق، عندما استيقظت من نومها، في الثالثة إلا ربعا صباحا، فلم تجد زوجها إلى جوارها، وأسرعت تبحث عنه في ردهة المنزل، وتنهدت في ارتياح، عندما وجدته جالسا هناك، في الظلام، يتطلع عبر نافذة الردهة، إلى الحديقة الكبيرة المواجهة للمنزل، في صمت وشرود، واقتربت منه لبضع كفها على كتفه في رفق، وهي تهمس في خفوت، وكأنما تخشى انتزاعه من شروده:

- هل أصابك الأرق؟

أومأ برأسه إيجابا، وأجابها بصوت أقل خفوتًا:

- نعم.

سألته في رقة:

- لماذا لم تشعل الضوء؟

غمغم شاردا:

- الظلام يجعل أعصابي أكثر هدوءًا، ويكفيني ضوء مصابيح الطريق، المتسلل إلى هنا..

جذبت مقعدا، وجلست أمامه صامتة بعض الوقت، قبل أن تسأله:

- أهو أمر متعلق بالعمل؟

ابتسم ابتسامة شاردة، وأجاب:

- إلى حد ما.

سألته في اهتمام:

- أهناك مشكلة تواجهك؟ أعني بالنسبة للعمل؟

لم يكن من عاداتها أن تسأله عن متاعب العمل، ولم يكن من المألوف أن يجيبها لو فعلت، إلا أنه قال هذه المرة:

- بل هناك صديق يؤدي إليّ مهمة، من أجل العدالة، وأخشى أن يتعرض للخطر أو..

قاطعته في هدوء:

- إنها الضريبة.

أدار عينيه إليها في تساؤل، فأردفت في حماس:

- إنها الضريبة، التي يؤديها كل من يسعى لتحقيق العدالة.. أن يخاطر بنفسه وحياته.. أليس هذا ما أخبرتني به دوما، منذ زواجنا؟ ألم تواجه أنت نفسك الموت عشرات المرات، من أجل العدالة؟ ألم تخبرني بنفسك أنه من الطبيعي، على حماة القانون والعدالة، أن يواجهوا الموت بصدورهم العارية، في كل لحظة من لحظات حياتهم؟

انتقل حماسها إليه، وهو يقول:

- نعم.. هذا أمر طبيعي..

وتنهد في ارتياح، وكأنما انزاح عن صدره حمل ثقيل، وعاد يتطلع إلى الطريق، قائلا:

- نعم يا زوجتي العزيزة.. إنها الضريبة.. ضريبة حماة العدالة..

واسترخي في مقعده في هدوء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امتدت يد (زهدي) نحو قناع (العقرب) في سرعة..

لم يعد يفصله عنه سوى جزء من الثانية، وبعدها تنتهي سرية شخصية (العقرب)..

ويسقط القناع إلى الأبد..

ولكن فجأة سطع الضوء..

ضوء مصباحي سيارة، عبر بوابة الفيلا، وبهر عيون الجميع..

واعتدل (زهدي) في حركة، والتفت (رضوان إلى مصدر الضوء في ذعر، أما (سعد)، الذي كلفه (رضوان) مهمة حراسة البوابة، فقد استدار بجسده كله يواجه مصباح السيارة، وعلى الرغم من الضوء الساطع، فقد لمح، خلف عجلة قيادة السيارة، نفس الفتاة الجميلة، التي سألته ورفيقه إرشادها إلى الطريق الرئيسي، منذ أقل من ساعة، ولكنه لم يلمحها سوى ثوان معدودة..

ثم اقتحمت السيارة بوابة الفيلا..

اقتحمتها بضجة هائلة، انتزعت إحدى ضلفتى البوابة من مفصليها في حين انتزع (سعد) مسدسه، صارخا:

- إنها خدعة

ولكن السيارة مالت نحوه بحركة حادة، وضربته بجانبها الأيسر في عنف، فأطاحت به إلى حوض من أحواض الزهور، ثم أكملت طريقها بلا تردد، وعبرت ممر الفيلا وحديقتها في سرعة مخيفة، لتوقف على قيد متر واحد من (رضوان)، الذي تراجع صائحا:

- النجدة يا (زهدي)!!

رفع (زهدي) مسدسه نحو السيارة، ولكن الفتاة الجميلة قفزت خارجها في سرعة مدهشة، وأطلقت من مسدسها الصغير رصاصة واحدة. أصابت مسدس (زهدي)، وأطاحت به بعيدا،

فتراجع هذا الأخير في دهشة وذعر، في حين هتفت الفتاة بلهجة آمرة:

- هيا احملا (العقرب في سرعة، وضعاه داخل السيارة..

لمحت ترددهما، فأضافت في صرامة:

- أو أنسف رأسيكما بلا تردد.

كان هذا الجزء كافيا، لينتزع الاثنان نفسيهما من ذعرهما، ثم يحملان (العقرب)، ويضعانه على المقعد الخلفي للسيارة، وبعدها زمجر (زهدي)، وقال:

- لولا مسدسكِ هذا لحطمت عنقكِ.

ابتسمت ساخرة، وقالت:

- بالتأكيد، فهذه شيمة الجبناء.

ثم تلاشت سخريتها، وهي تستطرد في حزم:

- هيا.. ابتعدا..

تراجع الاثنان في سرعة، فأدارت محرك السيارة، وهتفت، وهي تلقي بطاقة من بطاقات العقرب عبر نافذتها:

- تحياتنا للجميع.

وتراجعت بالسيارة في سرعة، ثم أدارتها في مهارة مدهشة، وانطلقت بها تعبر بوابة الفيلا مرة أخرى، وصاح (زهدي) في غضب:

- اللعنة!

والتفت إلى (رضوان)، يسأله في سخط:

- ماذا ينبغي أن نفعل يا سيدي؟

أتاهما صوت زوجة (رضوان)، وهي تقول في صوت مرتجف:

- لقد فعلت أنا ما ينبغي فعله.

استدار إليها في دهشة، فأكملت في صوت أكثر ارتجافا:

- لقد أبلغت الشرطة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكد السيارة تبعد بضعة أمتار عن فيلا (رضوان)، حتى ندت عن (العقرب) آهة ألم، ارتفعت بعدها يده تتحسس رأسه، وهو يتمتم:

- ماذا حدث؟

ابتسمت (غادة) في حنان، وقالت:

- كنت أتصور أنك ستستعيد وعيك بعد ساعة على الأقل، ولكن يبدو أن رأسك أكثر صلابة، مما كنت أتوقع.

اعتدل جالسا على المقعد الخلفي، وهو يسألها في هدوء، وكأنما لم يكن فاقد الوعي منذ لحظات:

- هل اقتحمتِ بوابة الفيلا؟

لوحت بكفها في زهو ومرح، وهي تقول:

- بالطبع.. لقد نفذت الخطة الموضوعة بحذافيرها أيها القائد، فقد اتخذت أول منحنى، وأوقفت السيارة، ورحت أراقب الفيلا، من فوق صخور المقطم، ولم أكد ألمح تلك المطاردة في

حديقتها، حتى أدركت أن لحظة الاقتحام قد حانت، ولكنني لم أتوقع أن أجدك فاقد الوعي هناك، وإنما تصورت أنني سأقتحم الفيلا، وتقفز أنت إلى السيارة، ونبتعد على الفور..

وضحكت مستطردة:

- أنت إذن الذي خالف الخطة..

لم تتلق منه جوابا، فعقدت حاجبيها، مغمغمة:

- معذرة.. كنت قد نسيت أنك تكره الضحك والمرح والـ...

قاطعها في حزم:

- زيدي من سرعة السيارة يا (غادة).

سألته في دهشة:

- لماذا؟

أجابها في حسم:

- أخشى أن تصيبك رصاصات هؤلاء الأوغاد، الذين يطاردوننا..

نقلت بصرها في سرعة إلى مرآة السيارة، ورأت ضوء السيارة الأخرى، التي تقترب من سيارتها في سرعة..

ولم يكن هذا هو الشيء الوحيد الذي رأته.. لقد كانت هناك فوهة تطل من نافذة السيارة الأخرى..

فوهة مدفع آلي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- مطاردة..

دعك العقيد (مجدي) عينيه، ليذهب عنهما أثر النوم، وهو يستقبل الرائد (حسن) في ردهة منزله، ويقول في عصبية:

- أتعشم أن يكون لديك سبب قوي للغاية: لإيقاظي في الثالثة صباحا يا (حسن)، وإلا فستتمنى لو أنك لم تلتحق أبدا بكلية الشرطة، أو...

قاطعه (حسن) في انفعال:

- إنه (العقرب) يا سيدي.

انتفض (مجدي) في قوة، كما يحدث كلما سمع اسم (العقرب)، وتبخر كل أثر للنوم في عينيه ورأسه، وهو يمسك كتفي (حسن) في قوة، ويهتف به:

- أين؟

أجابه (حسن):

- - لقد هاجم فيلا في المقطم، يملكها رجل يدعى (رضوان)، يعمل مديرا لمخازن شركة بترول ضخمة و.

في هذه المرة قاطعه (مجدي)، وهو يندفع نحو حجرة نومه، هاتفا:

- سنذهب على الفور..

ابتسم (حسن)، وهو يتابع تلك السرعة، التي يرتدى بها (مجدي) ملابسة، بعد سماعه الكلمة السحرية، التي تبث النشاط والحماس في عروقه كلها..

كلمة (العقرب)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الرغم من الهدوء الشديد، الذي تتميز به شخصية (نديم)، إلا أن هذا لم يمنعه أبذا من العمل بالسرعة الواجبة، عند أدني شعور بالخطر..

وعلى الرغم من إصابة ساقه اليسرى، إلا أنه قفز في مرونة، من المقعد الخلفي إلى المقعد المجاور لـ (غادة)، وهو يقول في حسم:

- أظن أنه من الأفضل أن أقود أنا، حتى يمكننا..

قاطعته في حزم:

- بل سأتولى أنا مهمة القيادة، فساقك مصابة..

ورمقته بنظرة جانبية، وهي تردف:

- ثم أني أيضا كنت أعمل بالشرطة، لو أنك ما زلت تذكر هذا.

تراجع في هدوء، واسترخي في مقعده في بساطة، وكأنما يحيط به الأمان من كل جانب، وقال:

- فليكن.

ضغطت (غادة) دواسة الوقود، وانطلقت بالسيارة في تسارع مباغت، أدهش مطارديها، فزادوا من سرعة سيارتهم بدورهم..

وبدأت مطاردة شرسة على حافة المقطم..

وداخل سيارة المجرمين، كان (وجيه) يهتف في غضب:

- اللعنة، هذه الفتاة تقود سيارتها كالمجنونة، دون أن تبالي بالمنحنيات أو المرتفعات..

قال سائق السيارة في غيظ:

- لا تنس أيها الزعيم أن سيارتها صغيرة رياضية، على عكس سيارتنا..

قاطعه في حدة:

- اصمت.

ثم التفت إلى آخر، وقال:

- (هشام).. أنت أبرعنا في إصابة الهدف.. قل لي: هل يمكنك إصابة إطار سيارة الفتاة، مع حركتها السريعة هذه؟

تألقت عينا (هشام) في حماس، وهو يقول:

- بالطبع.. إنني قادر على إصابة ذبابة، فوق أنف قط عصبي، دون أن يشعر القط، أو..

قاطعه (وجيه) في عصبية:

- دعك من هذه المحاضرة المزهوة، وأرنا هذا عمليا..

ابتسم (هشام)، ورفع بندقيته إلى كتفه، وهو يقول:

- سترى أيها الزعيم.

كانت (غادة) تعبر في هذه اللحظة، منحنى بالغ الصعوبة، عندما صوب (هشام) بندقيته إلى إطار سيارتها الأمامي، وأطلق من شفتيه صفيرا مرحًا، ثم هتف في زهو:

- بطلقة واحدة.

وأطلق رصاصة واحدة من بندقيته..

وأصاب الهدف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الإصابة مباغتة وعنيفة بالفعل، وكان أسوأ ما فيها هو توقيتها..

إذ أصابت إطار السيارة، في نفس اللحظة، التي اتخذت فيها (غادة) اصعب زاوية للمنحنى..

وانفجر الإطار بدوى أشبه بانفجار قنبلة، وانحرفت السيارة في عنف، نحو حاجز الهاوية، وصاح (نديم):

- احترسي.

وبكل ما تملك من قوة ومهارة، تشت (غادة) بعجلة القيادة، وأدارتها في الاتجاه المضاد، فاحتك جانب السيارة بالحاجز المعدني، وتطايرت من احتكاكهما شرارات عنيفة، قبل أن تبتعد السيارة عن الحاجز، وتميل على نحو خطر، في اتجاه الصخور..

وفي السيارة الأخرى صاح (وحيد) في ظفر:

- لقد أصبتهم.. لقد نجحت يا (هشام).. رائع يا فتي!! رائع!!

ابتسم (هشام) في زهو، وهو يقول:

_ أكان لديك أدنى شك في هذا؟

أما سائق السيارة، فقد عقد حاجبيه، وهو يقول في قلق:

- ولكن المشهد يبدو لي كما لو أن هذه الشيطانة تملك زمام القيادة، في مهارة تحسد عليها، على الرغم من صعوبة الموقف..

قهقه (وجيه) ضاحكا، وهو يقول:

- فليكن يا رجل.. حتى لو لم تسقط السيارة في الهاوية، فستتوقف لانتظارنا على الأقل..

وكان محقا في قوله هذا..

فعلى الرغم من مهارة (غادة)، وأعصابها القوية، التي ساعدتها على السيطرة على الموقف، إلا أن التوقف صار ضرورة حتمية، مما جعل (غادة) تقول في سخرية مريرة، وهي تضغط فرامل السيارة:

- معذرة أيها الراكب الوحيد.. يبدو أنها أخر محطة.. إجباريا..

تأكد (نديم) من تثبيت قناعه الأسود على وجهه، وقال في حزم، وهو يراقب سيارة المجرمين، التي اقتربت منهما:

- لا بأس يا (غادة).. من الواضح أننا سنخوض معركة عنيفة هذه المرة، للدفاع عن روحينا.

مطت شفتيها، وقالت:

- لقد خدعتني غريزتي الأنثوية، فلقد كنت أشعر أننا سننجو، دون قتال.

توقفت سيارة المجرمين على قيد مترين من سيارتهما، فاعتدل (العقرب)، وهو يقول:

- لم أثق أبدا في ذلك الوهم، الذي يطلقون عليه اسم الغريزة الأنثوية.

عقدت حاجبيها في ضيق، ثم أمسكت مسدسها في حزم، عندما برز المجرمون الأربعة من سيارتهم، وكل منهم يمسك مدفع رشاشا، وغمغمت:

- هل تظن أن مسدسا واحدا يكفي، لمواجهة أربعة مدافع آلية؟

أجابها في هدوء:

- سلي غريزتك الأنثوية.

قالت في عناد:

- لقد سألتها.

ثم رفعت مسدسها إلى وجوه الرجال الأربعة، مستطردة:

- وأجابت بالإيجاب.

لم تكد تفعل ما فعلت، حتى ارتفعت فوهات المدافع الآلية الأربعة في وجهها ووجه (نديم)..

وأصبح الموقف يحتاج إلى اسم جديد..

اسم (مذبحة).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- كيف؟

ما الذي يمكن أن يحدث، في مثل هذا الموقف؟

أربعة مدافع رشاشة، في مواجهة مسدس واحد..

هل تتوقع أن تنطلق رصاصات المدافع الأربعة، فتصرع (العقرب) و (غادة)؟

هذا لن يحدث بالطبع، وإلا لانتهت قصتنا عند هذا الحد، بمصرع بطليها..

هل تهزم (غادة) المدافع الرشاشة الأربعة، بمسدسها فقط؟

هذا أيضا مستحيل، بالقياس إلى قدرات (غادة) العادية، وإلى كون (العقرب) بلا سلاح..

ماذا يمكن أن يحدث إذن؟

دعني أنا أخبرك ما حدث:

لقد كادت الأصابع تعتصر الأزندة، وكادت الرصاصات تنهمر من وعلى الجانبين كالمطر..

لولا ذلك الصوت..

صوت البوق المميز السيارة شرطة، تقترب في سرعة.. لم يكن هذا الصوت يتضح فجأة، حتى شحبت وجوه المجرمين الأربعة، وهتف قائدهم (وجيه):

- تراجعوا يا رجال.. ابتعدوا عن هنا بأقصى سرعة..

تراجع المجرمون الأربعة في ذعر، وقفزوا داخل سيارتهم، وانطلقوا بها في سرعة، وصوت سيارة الشرطة يقترب، فهتفت

(غادة) في دهشة، وهي تعيد مسدسها إلى جيبها:

- يا إلهي! هذا أعجب ما حدث لي، في عمري كله!! هل تتصور أن..

قاطعها (العقرب) في حزم:

- اختفي بسرعة.

غاصت في مقعدها، لتخفي جسدها فيه، واختفى هو بدوره، في نفس اللحظة التي مرقت فيها سيارة الشرطة إلى جوار سيارتهما، وهي تطلق بوق الطوارئ المرتفع، ثم لم تلبث أن تجاوزتهما، واختفت في منحي بعيد، فاعتدلت (غادة)، وهي تهتف:

- هل رأيت من كان داخل السيارة؟

أجابها (نديم) في رصانة، وهو يضغط شفتيه بأسنانه، في محاولة للسيطرة على آلام ساقه:

- نعم.. لقد رأيته.

أطلقت (غادة) ضحكة عالية، وقالت:

- يا لغرابة هذه الدنيا!! أتظن أن عزيزنا (مجدي) قد يخطر بباله، ولو لحظة واحدة، أنه أنقذ حياتينا، دون أن يقصد؟

أجابها في هدوء:

- أظنه سيقتل نفسه، لو كشف هذا..

أطلقت ضحكة قصيرة أخرى، قطعها هو قائلا:

- معذرة يا عزيزتي.. لست أحب قطع لحظات بهجتك، ولكن أظنك ستضطرين لاستبدال إطار السيارة التالف وحدك، فيبدو أنني قد فقدت الكثير من الدماء و...

ألقت نظرة هلعة على جرح ساقه، وهتفت:

- سأفعل بالطبع يا (نديم).. سأفعل أي شيء في الدنيا..

ورفعت عينيها إليه، مستطردة دون وعى:

- من أجلك..

ودون أن تدري، حمل إليه صوتها نبرة الحب..

كل الحب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدا (مجدي) شديد الانفعال، وهو يميل برأسه نحو زوجة (رضوان)، ويسألها بصوت مفعم بشتى المشاعر:

- إذن فقد رأيت مقنّعا يهاجم زوجك يا سيدتي.. هل يمكنك وصف هذا المقنع؟

ازدردت السيدة لعابها، في محاولة للتغلب على ذلك التوتر، الذي لم يفارقها بعد، وهي تجيب:

- إنه شاب على الأرجح، نحيل القوام، ولكنه متين البنيان، يرتدي قميصًا أسود اللون، وسروالًا وحذاءًا وقفازين، من اللون نفسه، و.

قاطعها (مجدي) في لهفة:

- وملامحه.. ماذا عن ملامحه؟

هزت كتفيها، وقالت:

- وكيف يمكنني تبين ملامحه، وهو يخفي وجهه كله تقريبا بقناع أسود سميك؟

قاطعها في حنق:

- أعلم.. أعلم..

ثم أشاح بوجهه، مستطردا في سخط:

- هذا ما يحدث دائما.

بدا مزيج من الضيق والغيظ على ملامحه، وهو يدير عينيه في المكان، قبل أن يلتفت إلى (رضوان)، ويسأله بغتة:

- قل لي يا سيد (رضوان): لماذا هاجم (العقرب فيلتك؟

ارتبك (رضوان)، وتلعثم وهو يجيب:

- إنه مجرد لص، و.

قاطعه (مجدي) في صرامة:

- ما السبب الحقيقي يا سيد (رضوان)؟

قال (رضوان) في عصبية:

- ولماذا يتحتم وجود سبب آخر؟

أجابه (مجدي) في حزم:

- لأنني أعرف (العقرب).

بدا هذا الجواب عجيبا، وهو يخرج من بين شفتي رجل شرطة، يحقق في بلاغ ضد مجهول مقنّع، لذا فقد تطلع (رضوان) وزوجته إلى (مجدي) في دهشة، شاركهما فيها الرائد (حسن)، في حين لم ينتبه إليها (مجدي) نفسه، وهو يستطرد:

- إنني أختلف معه بالطبع، وأصر دائما على أنه يعمل بأسلوب مخالف للقانون، الذي يحتم ضميري ومهنتي طاعته، إلا أنه ليس لصًا، بأي حال من الأحوال.

قالت زوجة (رضوان) في عصبية:

- بم تفسر اقتحامه للفيلا إذن؟

أدار (مجدي) عينيه في بطء إلى (رضوان)، وهو يجيبها:

- هل ألقيت هذا السؤال على زوجك؟

تطلعت في دهشة إلى زوجها، الذي شحب وجهه في شدة، وعادت تنقل عينيها إلى (مجدي)، وتقول على نحو أكثر عصبية:

- وما شأن زوجي بالجواب أيها العقيد؟

ارتسمت على شفتي (مجدي) ابتسامة باردة، وهو يقول:

- هل ألقيت عليه هذا السؤال أيضا؟

اندفع (رضوان) يقول في توتر بالغ:

- إنني رجل شريف يا سيادة العقيد، لا شأن لي بهؤلاء المجرمين المقنعين.. لقد دافعت عن نفسي، كما يفعل أي رجل شريف، وعندما أطلقت النار على ذلك (العقرب)، لم أكن أقصد أن..

قاطعه (مجدي) هاتفا

- أطلقت النار عليه؟! هل أصبته؟

أجابه (زهدي):

- أنا الذي أطلقت عليه النار يا سيادة العقيد، وأنا حارس خاص رسمي، أحمل ترخيصا بمزاولة هذه المهنة، وآخر بحمل السلاح، و.

قاطعه (مجدي)، وهو أكثر انفعالا:

- دعك من كل هذا.. هل أصبته؟

أجابه (زهدي) في دهشة:

- لقد أصبته في ساقه، و.

قاطعه (مجدي) مرة أخرى:

- أأنت واثق؟

أجاب (زهدي):

- بالطبع.

برقت عينا (مجدي) في ظفر، ومد يده إلى (زهدي)، قائلا:

- أعطني مسدسك يا رجل.

ناوله (زهدي) مسدسه، وهو يقول في توتر:

- أخبرتك أنني أحمل ترخيصا بحمله...

اختطف (مجدي) المسدس من يد (زهدي)، وهو يقول:

- قلت لك: أعلم هذا.. أعلمه..

والتفت يناول المسدس إلى الرائد (حسن)، وهو يقول في حماس:

- اعتبر هذا المسدس دليلا، وسنطبق على (نديم) الليلة، وننتزع الرصاصة من ساقه، ونقارنها برصاصات هذا المسدس، وسنثبت أن (نديم) هو (العقرب).

تبادل (رضوان) و (زهدي) نظرة سريعة، تألقت خلالها عيونهما، ثم أسرع (زهدي) يقول:

- لن يكون هذا هو الدليل الوحيد يا سيادة العقيد، فلقد حصلت على رقم سيارة الفتاة، التي عاونت ذلك (العقرب)، كما يمكنني تعرف الفتاة نفسها، حتى ولو حاولت الاختفاء وسط مظاهرة ضخمة..

خيِّل إلى الجميع أن عيني (مجدي) قد تحولنا إلى جمر ملتهب، وهو يقول بابتسامة واسعة، مفعمة بالظفر والسعادة:

- فتاة وسيارة.. يا إلهي.. إنه يوم حظي الحسن بالتأكيد.. لأول مرة تكتمل كل الأدلة والقرائن، وتجتمع كلها بين أصابعي، وأنا أواجه العقرب).

وقهقه ضاحكا بغتة، على نحو لا يتناسب قط مع الظروف والأحداث، قبل أن يستطرد في ارتياح بالغ:

- أخيرا سأسحقه..

وضم قبضته، مردفا في شراسة:

- سأسحق (العقرب).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- الدليل..

هوت صفعة (كامل شكري) على وجه (وجيه) قوية عنيفة، تموج بالغضب والثورة، قبل أن يصرخ (كامل):

- هربتم؟! هكذا بكل بساطة؟! كيف يمكنني الاعتماد على ثلة من الجبناء أمثالكم، بعد ما فعلتموه؟

احتقن وجه (وجيه)، وهو يضع يده على موضع الصفعة، ويقول في حدة:

- هل كنت تفضل وقوعنا في أيدي الشرطة؟

لوح (كامل) بذراعه في سخط شديد، وهو يهتف:

- بل كنت أفضّل أن تطلقوا النار على ذلك المقنع أولا، ثم تلوذون بالفرار، أو...

قاطعه (وجيه) في سخط:

- إذن فأنت ترى أنه كان من المفروض أن نطلق مدافعنا الرشاشة، وكأننا نعلن للشرطة عن وجودنا، ونجعل من أنفسنا هدفا لهم يا سيدي.. إننا نطيع أوامرك، ونفذ كل ما تطالبنا به؛ لأننا نحصل منك على مقابل مادي يساوى ذلك، أما أن نلقي بأنفسنا في السجن من أجلك، فهذا أمر آخر..

ثم اتسعت عيناه في شراسة مخيفة، وهو يستطرد:

- وفي المرة القادمة سأقطع يدك بلا رحمة، لو صفعتني.

أدرك (كامل) خطأ فعلته، فازدرد لعابه في توتر، وغمغم:

- إنني لم أقصد هذا بالطبع.. معذرة.. إنما هي أعصاب الثائرة و. وكفى.

ران عليهما الصمت لحظة طويلة، بدا فيها كل الغضب على وجه (وجيه)، ثم لم تلبث ملامحه أن لانت تدريجيا، وهو يقول:

- ليكن.

ثم دس بين شفتيه سيجارة، أشعلها بقداحته في حركة سريعة، ونفث دخانها. قبل أن يستطرد:

- ولكن فرارنا لن يمنعنا من اقتناص ذلك (العقرب).

عقد (كامل) حاجبيه، وهو يسأله:

- كيف؟

ابتسم (وجيه) في دهاء، وهو يقول:

- لقد حصلت على رقم سيارة الفتاة، ولى صديق يعمل بإدارة المرور يمكنه إرشادنا إلى صاحبة السيارة، وصديقة ذلك (العقرب).

هتف (كامل):

- رائع يا (وجيه).. رائع.. ومتى ستفعل هذا؟

اتسعت ابتسامة روجيه)، وهو يقول:

- سيكون أول ما أفعله في الصباح أيها الزعيم.. أن أحفر القبر..

وارتسمت في عينيه ضحكة شيطانية، مع استطراداته:

- قبر (العقرب)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يشعر (مجدي) بأدني قدر من الدهشة، عندما استقبلته (غادة) على باب منزل (نديم)، في الخامسة صباحا، وإنما ابتسم في سخرية، وقال:

- هل يبدو لك أنه من الطبيعي أن أجدك هنا، في منزل رجل عزب. في مثل هذا الوقت؟

ابتسمت ز غادة) في سخرية، وقالت:

- وهل من الطبيعي أن تختار هذا الوقت لزيارته؟

أجابها في صرامة:

- لست هنا بغرض الزيارة.. إنها مهمة رسمية.

قالت ساخرة:

- وأنا هنا لمهمة طبية.

قال في خبث:

- أراهن أنها رصاصة، أصابت عزيزنا (نديم)، في ساقه اليسرى، أليس كذلك؟

رفعت حاجبيها في دهشة مصطنعة، وقالت:

- عجبا!! هل أصبحت أحد قارئي الغيب؟

أجابها في صرامة:

- بل صرت شرطيا ناجحا، يملك - لأول مرة - قضية مكتملة.. توقع بالسيد (نديم)، ورفيقته الحسناء.

قالت في سخرية أحنقته:

- أحقا؟!

ثم أطلقت ضحكة عالية، جعلته يعقد حاجبيه في غضب، قبل أن تفسح له الطريق، مستطردة في سخرية:

- هيا إذن يا بطل الأبطال.. ألق القبض علينا.

وعلى الرغم من غضبه الشديد، اندفع (مجدي) داخل المنزل، وقطع الطريق إلى حجرة نوم (نديم) بخطوات واسعة، وهو يقول:

- سنرى من يضحك أخيرا..

شيعته بضحكة ساخرة أخرى، جعلته يدفع باب حجرة نوم (نديم) بقدمه في عنف، ويقول في حدة:

- إنني ألقي القبض عليك يا (نديم فوزي)، بتهمة الـ..

بتر عبارته بغتة، واحتبست الكلمات في حلقه، وهو يحدق في المشهد أمامه..

لم يكن (نديم) وحده في حجرته..

كان هناك طبيب..

- طبيب (نديم) الخاص.

وكان من الواضح أن الطبيب قد انتهى من عمله منذ لحظات، فقد كان يجفف يديه، بعد أن انتزع قفازه الجراحي، وهو يلتفت إلى (مجدي)، قائلا:

- صباح الخير يا (مجدى).. كيف حالك يا ولدي؟ هل أتيت للاطمئنان على زميلك القديم (نديم)؟

عقد (مجدي) حاجبيه في شدة، وقد اشتم رائحة السخرية، في كلمات الطبيب الكهل، وقال في حدة:

- بل أتيت لإلقاء القبض عليه يا دكتور (قدري).

رفع الطبيب حاجبيه، في دهشة واضحة الاصطناع، وهو يقول:

- إلقاء القبض عليه؟! بأية تهمة يا ولدي؟

قال (مجدي، في عصبية:

- دعك من التهمة، ولتقم بواجبك، كأي رجل شريف، وتسلمني الرصاصة، التي استخرجتها من جرح (نديم)..

أجابه الدكتور (قدري) في هدوء:

- ولكنني لم أستخرج أية رصاصات من جسد (نديم) يا رجل، فلقد اخترقت الرصاصة ساقه، ونفذت منه، وارتطمت بالحائط هناك، و...

قاطعه (مجدي) في غضب:

- لا تشر إلى هذا الحائط يا سيدي، فأنت تعلم أنه لم يصب بالرصاصة هنا، بل في فيلا بالمقطم، في الثالثة إلا الربع صباحا، و.

هتف الطبيب مقاطعًا

. ولكن هذا مستحيل يا ولدي، فلقد أصيب (نديم) برصاصة هنا، في الثانية صباحا تقريبا، أصابه بها زميلته (غادة)، عندما كانت تختبر مسدسها، الذي تحمل ترخيصا بحمله، ولقد اتصلت بي فور حدوث الإصابة، فهرعت إلى هنا على الفور، وبلغت المكان في الثانية والنصف...

صاح (مجدي) في ثورة:

- سيثبت الطبيب الشرعي أنك كاذب..

ابتسم الطبيب في ثقة، وقال:

- أنتصور أن أمهر الأطباء الشرعيين، يمكنه تحديد لحظة الإصابة بمنتهى الدقة، بعد تدخل جراحي؟

أُسقط في يد (مجدي)، وأدرك على الفور أنه قد خسر هذه النقطة ولن يمكنه أبدا الاعتماد عليها؛ لإدانة (نديم)، وإثبات أنه و (العقرب) وجهان لعملة واحدة، فالتفت إلى (غادة)، وقال في عصبية:

- أتعلمين أن هذا قد يعرضك لسحب ترخيص المسدس؟

هزت كتفيها في لا مبالاة، وقالت:

- قد.. لا تنس أنني محامية، يمكنني الدفاع عن خطأ غير مقصود، ثم أن (نديم) لن يتقدم بشكوى ضدي.. أليس كذلك؟

هتف (مجدي) في غيظ:

- أعلم أنه لن يفعل، ولكن هذا ليس الدليل الوحيد، الذي أملكه هذه المرة، فلقد التقط حارس الفيلا رقم سيارتك الحمراء.

رفعت حاجبيها، هاتفة على نحو تمثيلي:

- سيارتي الحمراء؟! هل عثرت عليها؟ لقد أبلغت بسرقتها عصر اليوم، ولم أتصور أن يعثر عليها رجال الشرطة بهذه السرعة.. إنكم عباقرة بحق.

قال محتدا:

- فليكن.. لقد اتخذتما احتياط كما بشأن السيارة، ولكن ماذا عنكِ؟ لقد أكد الحارس قدرته على تعرفكِ.

هزت كتفيها، قائلة:

- فليكن.. يمكنه أن يشاهدني في عرض عام، وسأعترف بكل شيء تفصيلا، لو أمكنه تعرفي..

سألها في توتر:

- ماذا تعنين؟

عادت تهز كتفيها مرة أخرى، وهي تقول:

- لا شيء، وإنما يبدو لي أن تعرف امرأة ما أمر مستحيل تقريبا، ما لم يكن ذلك الذي يحاول تعرفها وثيق الصلة بها، فأدوات الزينة والشعور المستعارة تفعل الكثير، و.

قاطعها، وقد أدرك ما ترمي إليه:

- فليكن..

ثم استطرد في سخط واضح:

- يمكنني مع كل هذا إلقاء القبض عليكما، وإلقاؤكما في السجن لبضعة أيام على الأقل، ولكنني لن أفعل.. ليس لأنني أكره مضايقتكما، ولكن لأن فرصة الإيقاع بكما تتضاءل كثيرا، عند منعكما من العمل.. وأنا مصّر على أن ألقي القبض على (العقرب) يوما، وهو يرتدي قناعه..

وبرزت أسنانه، وهو يستطرد في ثورة:

- ثم أنزع القناع عن وجهه بنفسي..

لم يكد يلقي كلمته هذه، حتى اندفع مغادرا المكان، وأغلق الباب خلفه في عنف، فابتسمت (غادة) في سخرية، مغمغمة:

- كم أشفق عليك يا عزيزي (مجدي).

أجابها (نديم) في هدوء:

- إنه يحاول تأدية واجبه بأمانة فحسب يا (غادة)

ابتسم الدكتور (قدري)، وقال:

- أنت أيضا تؤدي واجبا رائعا للعدالة يا ولدي، وكم يسعدني أن منحتني ثقتك، وكشفت لي حقيقة شخصيتك المزدوجة، وأصارحك القول أنني لم أكن أتخيل وجود شخصية مثلها، في العالم كله.. أقصد شخصية حقيقية..

قال (نديم) في رصانة، وهو يقف على قدميه:

- لم أكن لأجد من هو أفضل منك، لمنحه ثقتي، ومشاركته سري، يا سيدي.. فأنت أصدق أصدقاء والدي، وطبيبي الخاص منذ مولدي..

ثم تطلع إلى عيني الطبيب، مستطردا في عمق:

- ولكنني أطالبك بحفظ السر، وإخفائه حتى عن والدي نفسه.

ابتسم الطبيب، قائلا:

- بالطبع.

ثم أضاف بسرعة، وكأنه يرغب في الفرار من هذه النقطة:

- هل تؤلمك ساقك؟

أجابه (نديم):

- قليلا..

ثم اعتدل، وتطلع إلى (غادة)، مستطردا:

- ولكن هذا الألم لا يعني شيئا، لو قارنته بما ينتظرنا يا سيدي، فتلك المواجهة العنيفة، التي حدثت منذ ساعات، بيننا وبين هؤلاء المجرمين، تعني أننا نواجه عصابة رهيبة، مخيفة، لا

تتورع عن القتل والفتك، في سبيل ما تربحه من مال، يبلغ عدد أصفاره الستة أصفار على الأقل..

والتقط نفسا عميقا، قبل أن يستطرد:

- إننا نواجه حربا يا سيدي.. حربا شعواء..

وكان على حق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- ناقوس الحرب..

لم يثر اجتماع مديري الشركة الأربعة، برئيس مجلس إدارتها، اهتمام أي من العاملين بها، إذ كانت هذه الاجتماعات تتم على نحو شبه دوري، منذ سنوات، ولكن الشيء الذي لم يعلمه أحد، هو أن هذا الاجتماع بالذات لم يكن اجتماعا تقليديا..

لقد كان أشبه بمجلس حرب....

نعم.. مجلس حرب يتزعمها (كامل شكري)، الذي كان أكثر الجميع ثورة في حجرة الاجتماعات، وهو يضرب سطح المنضدة الكبيرة بقبضته، هاتفا:

- إنها مهزلة.. كيف يمكن لرجل واحد أن يهزمنا، ويثير رعبنا إلى هذا الحد؟

قال (رضوان)، في صوت ما زال يحمل ارتجافة كلماته:

- إنه ليس مجرد رجل واحد.. إنه شيطان..

لوح (كامل) بذراعه في حنق، وهو يهتف:

- لا يوجد شياطين على الأرض.. هذا الرجل يرهبكم ويرعبكم فحسب، بقناعة الأسود، الذي يضفي عليه الغموض، وزيه الأسود المخيف، ولكنه، وعلى الرغم من هذا، مجرد رجل واحد، يسهل علينا القضاء عليه.

ثم عاد يضرب سطح المنضدة بقبضته، مستطردا:

- والآن ماذا ستفعلون؟

ران صمت رهيب على الحجرة لحظات، ثم قال الدكتور جمال) في خفوت:

- سأرحل.

التفت إليه الآخرون في دهشة، وسأله (كامل) في حدة:

- ماذا قلت؟

ارتفع صوت (جمال)، وهو يقول في عصبية:

- قلت إنني سأرحل.. سأجمع متاعي، وأعرض المستشفى للبيع، ثم أستقيل من هنا، وأفر بأول طائرة إلى (سويسرا)، حيث أموالي..

لم يكتف بهذا القول، وإنما اندفع يستطرد في انفعال:

-- لقد سئمت كل هذا.. لم أعد أحتمل.. ثم أننا قد جمعنا ما يكفي من الأموال، في السنوات العشر الأخيرة، وحان الوقت لننعم بما جمعنا..

بدت عينا (كامل) مخيفتين، وهو يقول:

- ولكنك لست تملك الرحيل.

صرخ (جمال)

- لن يمكنكم منعي.. لا أحد يمكنه ذلك.. قلت لكم أنني سئمت كل هذا.. سئمته.

صاح به (كامل) في قسوة:

- ليس من حقك أن تفعل.. أنت بالذات لا يمكنك ترك موقعك وإلا فسدت اللعبة كلها.. اسمعني جيدا يا رجل.. لو أن الخوف من ذلك المقنّع هو ما يدفعك إلى الفرار، فسأمنحك دافعا أقوى للبقاء..

ونهض من خلف مكتبه، واتجه بخطوة واسعة إلى حيث (جمال)، وتطلع إلى عينيه مباشرة، وهو يقول في غلظة:

- إننا جميعا في قالب واحد يا رجل.. كلنا نلعب لعبة واحدة، في مضمار واحد، وانسحاب أي فرد منا يعني إفساد السباق كله، ولهذا يجب أن يكون الانسحاب جماعيا، أما من يفكر وحده في الفرار، فسيكون جزاؤه منا هو الموت.. هل تفهم؟

انتفض جسد (جمال) في رعب، و (كامل) يكرر في وحشية مرعبة:

- الموت.

ثم اعتدل (كامل)، وترك (جمال) ينهار شاحبا مرتجفا على مقعده، واستدار متجاهلا إياه، وهو يتابع:

- أما بشأن ذلك المقنّع، فقد جمعنا ما يكفينا للقضاء عليه هذه المرة.

قال المهندس (أشرف) في تردد:

- هذا ما سمعناه أمس.

التفت إليه (كامل) بنظرة نارية، وهو يقول:

- اليوم نملك معلومات أكثر، وفرصة أكبر.

ثم أشار إلى (رضوان)، مستطردا:

- أخبرهم ما سمعته من عقيد الشرطة أمس.

تنحنح (رضوان)، وقال:

- لقد قال العقيد (مجدي)، أنه لن يهدأ حتى يثبت أن (نديم) هو (العقرب).

قال (عماد) في حيرة:

- ومن (نديم) هذا؟

ابتسم (كامل) ابتسامة شرسة، وقال:

- كنت أتوقع هذا السؤال.

ثم اعتدل، مستطردا في حسم:

- لقد التقط حارس (رضوان) رقم سيارة الفتاة، التي أنقذت (العقرب)، ولقد تحريت بوسائل الخاصة عن هذه السيارة، وعلمت أنها ملك محامية شابة، اسمها (غادة)، وأنها تعمل في مكتب محام شاب، يحمل اسم (نديم)..

تطلع إليه الجميع، في مزيج من اللهفة والقلق، وهو يستطرد:

- (نديم فوزي).

خيم الوجوم على رءوسهم لحظات، وهم يتبادلون نظرات حائرة، قبل أن يقول (عماد):

- لم أسمع اسمه أبدا من قبل.

ابتسم (كامل)، وهو يقول:

- اطمئن يا رجل.. لقد اتخذت الترتيبات اللازمة لتسمع اسمه قريبا ولتقرأه أيضا..

وتحولت ابتسامته إلى ضحكة عصبية، وهو يستطرد:

- في صفحة الوفيات.

وتفجرت ضحكته الوحشية تجلجل في المكان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ابتسمت (غادة) في حنان، وهي تقدم قدح القهوة المعتاد لـ (نديم)، في حجرة مكتب هذا الأخير، وتقول:

- لم أتصور أنك ستحضر إلى المكتب في موعدك، بعد كل ما حدث.

تناول قدح القهوة من يدها، وقال:

- المفروض ألا تطغى شخصية (العقرب) على (نديم فوزي)، ثم إن ساقي لا تؤلمني كثيرا، فلقد عالجها الدكتور (قدري) بعبقريته الفذة وأصابعه الساحرة، حتى أنني أستعملها كما كانت سليمة..

قالت في تعاطف:

- هذا لأنها لم تمزق عضلات الساق، أو تخترق عظامه لحسن الحظ.

قال في هدوء، وهو يرتشف قدح القهوة:

- ولسوء حظ عصابة البترول.

اتخذت مجلسها على المقعد المقابل لمكتبه، وقالت:

- أمر هذه العصابة يدهشني بحق، فحديث (رضوان، إليك منطقيا للغاية، وليس من السهل أن يتم ضخ كمية من البترول، دون أن يشعر بها أحد، وعلى الرغم من هذا، فالأسلوب الذي يتعامل به الجميع، يؤكد أنهم متورطون في جريمة كبرى..

تنهد (نديم)، وقال:

- هذا الأمر يحتاج لاستشارة خبير في شئون البترول..

ثم اعتدل مرتشفًا رشفة أخرى من قدحه، ومستطردًا:

- أو هجوم جديد من (العقرب).

ابتسمت لحماسه، وهي تسأله:

- من هذه المرة؟

تراجع وهو يهز كتفيه، مستطردا:

- لم يستقر رأيي بعد.

لم يكد يتم كلمته، حتى دخل (أحمد) إلى الحجرة، وتنحنح لينبههما إلى وجوده، فالتفتا إليه في تساؤل، جعله يقول في سرعة:

- هناك عميلان، يطلبان مقابلتك، بشأن قضية ما، يا سيد (نديم).

أجابه (نديم في هدوء:

- دعهما يدخلان يا عم (أحمد).

نهضت (غادة) من مقعدها، واتجهت إلى أريكة جانبية، وهي تقول:

- إنه دور (نديم) هذه المرة.

نقلت بصرها إلى الرجلين، وانتاجها شعور بعدم الارتياح، وهما يتقدمان بملامح جامدة إلى (نديم)، الذي تنهض لمصافحتهما، فسأله أحدهما في برود:

- أأنت السيد (نديم فوزي)؟

أجابه (نديم) في بساطة:

- نعم.. أنا هو: وهذه زميلتي (غادة)..

قال الرجل في خشونة:

- رائع.. هذا يمنحنا فرصة إنهاء العمليتين بضربة واحدة وبسرعة لم يتوقعها (نديم)، انتزع الرجلان من جيبي سترتهما مسدسين ضخمين، صوبا فوهتيهما إلى صدره، و.

ودوى صوت رصاصتين في حجرة مكتب (نديم).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- القانون..

سعل الرائد (حسن)، على الرغم منه، وهو يدلف إلى حجرة مكتب العقيد (مجدي)، التي انعقدت في سمائها سحب الدخان، وامتلأت منفضة السجائر فيها بعشرات من أعقاب لفافات التبيغ، التي يدخنها (مجدي) في شراهة، وهو منهمك في دراسة ملف ضخم أمامه، وألقي الرائد (حسن) نظرة مشفقة على (مجدي)، قبل أن يسأله:

- معذرة يا سيدي.. هل تحتاج إلى مساعدة؟

رفع (مجدي) عينيه إليه في بطء، وانتزع من بين شفتيه بقايا سيجارة، كادت نيرانها تلسعه، وأطفأها في المنفضة في عنف، وهو يقول:

- المساعدة الوحيدة، التي يمكنك تقديمها إلى الآن، هي جمع مزيد من المعلومات عن (رضوان)، وشركة البترول، التي يعمل بها.

ابتسم (حسن)، وهو يجلس أمام (مجدي)، وقال:

- ولماذا تراجع ملف شركة البترول، بكل هذا الاهتمام يا سيدي؟

أزاح (مجدي) الملف من أمامه، وأشعل سيجارة أخرى، وهو يقول:

- إنني أعرف طبيعة (نديم)، أكثر مما يعرفها أي شخص آخر، في وزارة الداخلية كلها، وما دام قد هاجم (رضوان)، فهناك خطأ ما حتما، ارتكبه (رضوان) هذا، أو يحدث داخل الشركة، و (العقرب) يسعى خلفه.

غمغم (حسن):

- عجبا...

نفث (مجدي) دخان سيجارته، وهو يسأله في عصبية:

- وما العجب في هذا؟

التفت إليه (حسن)، وتطلع إليه لحظة في صمت، ثم قال:

- الواقع أن مشاعرك نحو (العقرب) تدهشني يا سيدي، فأنت تبغضه، كما لم تبغض شخصا من قبل، ولكنك - في الوقت ذاته - تثق تماما في أنه رجل شريف، لا يهاجم إلا المجرمين، فكيف يتفق هذا وذاك؟

ساد صمت تام في الحجرة، بعد أن ألقي (حسن) سؤاله، وانعقد حاجبا (مجدى) في شدة، وبرزت شفته السفلى إلى الأمام، وهو يفكر في الجواب، ثم لم يلبث أن سحب نفسا عميقا من سيجارته، ورفع عينيه إلى (حسن)، وقال في حزم:

- إنه يخالف القانون.

هتف (حسن):

- فقط؟!

أجابه (مجدي) في صرامة:

- هذا يكفي.. إننا رجال قانون، ومهمتنا هي الحفاظ عليه. ومنع أي مخلوق من تجاوزه، ونحن نتقاضى أجرنا مقابل هذا.

قال (حسن):

- هذا صحيح، ولكن لو أن (العقرب) شخص آخر، وليس (نديم فوزي)، فهل كنت ستقاتله بنفس الشراسة والعنف؟

أصاب هذا السؤال (مجدي) في الصميم.

هل يقاتل (العقرب) لأنه يخالف القانون حقا، أم أنه الشخصية.

التي يختفي خلفها (نديم فوزي)، ليحقق العدالة بأسلوبه الخاص، الذي قد لا يتفق - في كثير من الأحيان مع القانون المكتوب؟

أنبأه عقله بالجواب الصحيح على الفور، إلا أن عناده رفض الاعتراف به، فاعتدل في صرامة، وهو يجيب (حسن):

- بالطبع.

وعلى الرغم من صرامته، كانت كلمته تفتقر إلى رنة خاصة..

رنة الصدق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحرك (نديم) حركة غريزية سريعة، عندما دوى صوت الرصاصتين، إلا أنه لم يلبث أن تجمد في مقعده، وهو يتطلع في دهشة إلى الرجلين، وقد تراجعا في ذعر وألم، وكل منهما يمسك يده اليمنى، بعد أن فقد مسدسه، في حين أمسكت (غادة) مسدسها، الذي تتصاعد الأدخنة من فوهته.

وهي تقول في سخرية:

- تبا لكم أيها الأوغاد.. ألا تحترمون وجود امرأة جميلة؟

تطلع الرجلان إلى مسدسها المصوب إليهما في دهشة وذعر، في حين عاد (نديم) يعتدل في مقعده، وهو يسألها في هدوء عجيب:

- كيف توقعت هذا؟

هزت كتفيها، وقالت:

- الغريزة الأنثوية يا عزيزي، التي ترفض أنت الاعتراف بها، على الرغم من أنها قد صدقت أمس، عندما أفلتنا دون قتال، واليوم مع هذين الوغدين.

تطلع إليها لحظة في صمت، دون تعليق واحد، ثم أدار عينيه إلى الرجلين، في نفس اللحظة، التي اقتحم فيها (أحمد) الحجرة، هاتفا في ذعر:

- ماذا حدث؟

لم يكن يحتاج إلى جواب، مع ذلك المسدس في يد (غادة)، فتراجع قائلا في توتر:

- أأنتما بخير؟

أجابه (نديم) في هدوء:

- نعم يا عم أحمد).. أنا و (غادة) بخير.. اتركنا وحدنا..

غادر (أحمد) الحجرة في سرعة، وأغلق بابها خلفه، فعاد (نديم) يرفع عينيه إلى الرجلين، وهو يسألهما في لهجة صارمة مخيفة:

- من أرسلكما؟

تبادل الرجلان نظرة متوترة، ثم قال أحدهما في خشونة:

- هل تتوقع الحصول على جواب؟

أجابه (نديم) في برود:

- بالطبع.

ثم سأل (غادة)، دون أن يلتفت إليها:

- هل تحملين كاتم الصوت يا عزيزتي؟

التقطت (غادة) من حقيبتها أنبوبا معدنا قصيرا، أدارته عند فوهة مسدسها، وهي تقول في لهجة أقرب إلى الجذل:

- ما هو ذا مستعد للعمل.

قال أحد الرجلين، في لهجة لم تنجح في إخفاء توتره:

- خدعة سخيفة.. لن يمكنكما قتلنا..

جذبت (غادة) إبرة مسدسها، وهي تقول ساخرة:

- هل تراهن؟

وبنفس الصرامة المخيفة، سأله (نديم):

- من أرسلكما؟

توترت نظرات الرجلين، وازدرد أحدهما لعابه في صعوبة، وقال:

- أعلم أنكما لن تقتلانا..

قالت رغادة) في لهجة توحي بالضجر:

- إنك تضيع وقتك يا (نديم).. دعني أتبع معهما الأسلوب نفسه الذي اتبعته مع الرجال الثلاثة، في القضية السابقة، سأطلق النار على رأس أحدهما، فيعترف الآخر على الفور..

كانت مخادعة في كل ما تقول، إلا أن عبارتها جمدت الدماء في عروق الرجلين، خاصة عندما رفعت مسدسها إلى رأسيهما، مستطردة:

- هيا.. من منكما يفضل الموت، مع حماية زعيمه؟

هتف أحدهما في رعب:

- لا تقتليني يا سيدتي.. أرجوك.. سأخبرك بكل ما نعرف.. لقد أرسلنا (وجيه).. (وجيه شعبان).. وأقسم إننا لا نعلم شيئا عن سبب قتلكما، أو حتى من يرغب في هذا، فـ (وجيه) يتلقى الطلب، ويختار من ينفذه منا.. أقسم لكما إن هذا كل شيء.

تبادل (نديم) و (غادة) نظرة، تحمل الكثير من المعاني، ثم سأل (نديم) الرجل:

- وأين نجد (وجيه) هذا؟

أجابه الرجل:

- لست أدري.. أقسم إنني لست كاذبا، فنحن نتلقى الاسم والعنوان هاتفيا، ثم نحصل على نقودنا بالبريد، بعد التنفيذ..

تبادل (نديم) أو (غادة) نظرة أخرى، ثم قال (نديم):

- حسنا.. لن نقتلكما.

تنهد الرجلان في ارتياح، إلا أن الرعب لم يلبث أن عاد إلى قلبيهما، عندما أضاف في صرامة، وهو يرفع سماعة الهاتف:

- سنكتفي بتسليمكما إلى العدالة.

سألته (غادة):

- هل ستتصل بالشرطة حقا؟

أجابها في حزم:

- بالطبع.. هكذا ينبغي أن يفعل (نديم فوزي)، فهو ليس (العقرب)، أليس كذلك؟

ابتسمت قائلة:

- بلى.. إنه ليس (العقرب).

وعادت تصوب مسدسها إلى الرجلين في هدوء..

نفث العقيد (مجدي) دخان سيجارته في عصبية، وهو يتابع ببصره سيارة الشرطة، التي ابتعدت حاملة المجرمين، ثم التفت إلى (غادة)، وقال في حدة:

- يبدو أنك تسرفين كثيرا، في استخدام مسدسك هذه الأيام.

أجابته ساخرة:

- هل كنت تفضّل أن أستخدمه لطلاء شفتي؟

أجابها محتدا:

- نعم، فربما تحسنين استخدامه حينذاك، ثم أشار إليها، مستطردا في غضب:

- أما بالنسبة لي، فسأسعى لرفض تجديد ترخيص حمل السلاح، الذي تملكينه، في المرة القادمة.

هزت كتفيها في لا مبالاة، وقالت:

- يمكنك أن تحاول على الأقل.

كان يشعر بالغيظ، كما تحدث إليها؛ لذا فقد تحول منها إلى (نديم)، وسأله في خشونة:

- هل لك أن تخبرني، لماذا حاول هذان الوغدان قتلك؟

أجابه (نديم) في برود:

- لا يمكنني أن أخبرك.

سأله في غلظة:

- لماذا؟

أجاب (نديم):

- لأني كنت أنتظر الجواب منك.

هتف (مجدي) مستنكرا:

- منى أنا!

أجابه (نديم):

- بالطبع، فأنت رجل الشرطة، وأنا مجرد مدني، تعرض لمحاولة قتل متعمدة في مكتبه، من شخصين استقبلهما كعميلين عاديين، والمفروض أن يقدح الشرطي زناد فكره، ويجمع التحريات، ويستجوب الجميع، ثم (يطرقع) إصبعيه، ويلقى حل كل الغموض على مسامع الجميع.

استمع إليه (مجدي) مشدوها، ثم هتف:

- أين رأيت رجال الشرطة يفعلون هذا؟

أجابه (نديم) بجدية بالغة:

- على شاشة السينما.

أطلقت (غادة ضحكة عالية، في حين عقد (مجدي) حاجبيه في غضب، وكرر عبارته الشهيرة:

- ستسقط في يدي يوما يا (نديم)، وسأثبت أنك..

أكملت (غادة) في سرعة:

- (العقرب) شخصيتان لرجل واحد.. أليس هذا ما أردت قوله يا عزيزي (مجدي)؟

احتقن وجهه، وهو يرمقها بنظرة نارية، فأضافت ساخرة:

- معذرة، ولكن حتى الأغبياء يمكنهم حفظ العبارات، التي تتكرر على نحو مثير للملل..

قال (مجدي) في غضب:

- ولكنهم يبكون عندما تتحول إلى حقائق..

وكعادته أيضا، اندفع مبتعدا في سرعة، فقالت (غادة):

- كم يبدو لي صديقنا (مجدى) مكررا ومملا.

قال (نديم)، وهو يقودها إلى داخل البناية:

- دعك من (مجدي) الآن، وأخبريني.. ما الذي يوحي إليك به ما حدث؟

أجابته، وهي تصعد إلى جواره، في درجات السلم:

- إنهم يحاولون قتلنا.

هز رأسه نفيا، وقال:

- هناك ما هو أخطر.. لقد أدرك أحدهم، بوسيلة أو بأخرى، أن (نديم) و (العقرب) هما شخص واحد..

توقفت هاتفة:

- يا إلهي... هذا صحيح.. كيف لم أنتبه إليه؟

قال في هدوء:

- ربما احترقت دائرة (ترانزستور)، في غريزتك الأنثوية.

- هل تمزح، أم أن هذا مجرد هلوسة سمعية؟

تجاهل تعليقها، وقال:

- المهم أن هذا يعني أن الحرب لم تعد موجهة إلى (العقرب) وحده، الذي يستطيع أن يختفي وقتها يحلو له.. بل لقد أصبح القتال على الجبهتين وهذا أمر بالغ الخطورة، خاصة عندما نواجه عصابة عنيفة شرسة كهذه.

سألته في قلق:

- وماذا علينا أن نفعل الآن؟

تطلع طويلا إلى عينيها، ثم أجاب في هدوء وحسم:

- سنتبع خطة (نابليون) يا عزيزتي، وسنستخدم أفضل وسيلة للدفاع عن أنفسنا..

وبدا صوته أشبه بكتلة من الصرامة والحزم، وهو يستطرد:

- الهجوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- الخطة..

فركت زوجة الدكتور (جمال) كفيها في عصبية، وهي تراقب زوجها، الذي راح يعدّ حقيبته في توتر، وحاولت أن تخفي نبرة الخوف في صوتها، وهي تسأله:

- أمن الضروري أن تسافر؟

أجابها، وهو يحشر ملفًا أخيرا داخل الحقيبة، ثم يغلقها في إحكام:

- نعم.. لقد بدأت الغيوم تحيط بالأمر، وأشعر أن كل شيء سينكشف هذه المرة، والأفضل أن أرحل، قبل أن نخسر كل شيء.

قالت في خوف، وهي تنظر إلى ساعة يدها، التي أشارت إلى الثانية صباحا:

- ولكنها ليست أول مرة.. هل نسيت كيف تعرضتم لفحص كامل، من كل أجهزة الدولة، دون أن يكشف أحدها لعبتكم.. إنكم ستتجاوزون الأزمة هذه المرة أيضا.

هز رأسه في عنف، وقال:

- لا.. الأمر يختلف اختلافا ضخما، ففي المرة السابقة كنا نواجه القانون، الذي يحتم وجود أدلة مادية، لإلقاء القبض على أي متهم، أما في هذه المرة، فنحن نواجه عدوًا مجهولا، لا يبالي بالنظم والقوانين، ويسعى لتحطيمنا بأي ثمن.

قالت في ضراعة:

- يمكنك أن تبقى و.

قاطعها في عصبية:

- لماذا؟ ما المبرر للبقاء؟ لقد جمعنا ثروة طائلة، تبلغ عشرة ملايين دولار، في بنوك (سويسرا)، بالإضافة إلى المستشفى الخاص، الذي يمكنك بيعه بأربعة ملايين على الأقل، فلماذا أبقي، حتى أقع في قبضة الشرطة، وأخسر كل شيء؟

حمل حقيبته، واندفع نحو الباب، وهو يستطرد:

- ولقد كنت أستعد لمثل هذا اليوم.. كنت أعلم أنه سيأتي حتما، مهما طال الزمن.. إنني أحمل جواز سفر آخر، لا تحتاج المهنة المدونة به إلى موافقة جهة عمل، للسفر خارج البلاد، وسأسافر بعد ساعتين إلى (سويسرا)، وستلحقين بي، بعد بيع المستشفى، وهناك سنحيا حياة الملوك، دون خوف أو قلق.

تبعته في خطوات أقرب إلى العدو، وهي تقول:

- ولكن ماذا عن الآخرين؟ فرارك قد يكشف أمرهم..

لوح بذراعه كلها، صائحا:

- فليذهبوا إلى الجحيم..

توقفت عند باب الفيلا، وهو يسرع إلى سيارته، قائلا:

- إلى اللقاء.. سأنتظرك في (جنيف)، في أسرع وقت ممكن.

لوحت بكفها، وغمغمت وهو ينطلق بالسيارة:

- سأحاول..

ثم انحدرت من عينيها الدموع..

أما (جمال)، فلم يكن في قلبه مكان للعواطف، في هذه اللحظة، بل كان ينطلق بسيارته في عصبية، وهو يحدث نفسه، قائلا:

- نعم.. فليذهب الجميع إلى الجحيم.. حتى زوجتي السخيفة هذه لو استطاع الشياطين احتمالها. لقد سئمت كل شيء، وسأكون الرابح الوحيد، عندما تنقلب المائدة عليهم.. فليرفضوا الفرار، لو شاء لهم أن يفعلوا، أما أنا فسأرحل، وأربح، و.

ارتجف جسده في رعب، عندما ارتفع من المقعد الخلفي لسيارته صوت صارم، يقول:

- أأنت واثق؟

رفع (جمال) عينيه إلى مرآة السيارة في رعب، ثم ضغطت قدمه كامح السيارة في عنف، ولم تكد السيارة تتوقف، حتى فتح بابها، وحاول أن يعدوا هاربا منها، وهو يصرخ:

- لا لا.

ولكن صاحب القناع الأسود، الذي رآه في مرآة سيارته. أمسكه من عنقه بقبضة حديدية، وهو يقول:

- لم يحن وقت الفرار بعد.

أعاده (العقرب) إلى السيارة قسرا، وأجلسه على مقعد القيادة، وهو يستطرد:

- هيا يا رجل.. سنتنزه معا بعض الوقت.. انطلق بالسيارة..

تساقطت الدموع من عيني (جمال)، وهو ينطلق بالسيارة، قائلا:

- الرحمة أيها (العقرب).. إني لم أفعل شيئا.. لم تكن فكرتي أبدا.. لقد أقنعوني بها و.

لم يستطع إكمال عبارته، وإنما أخذ ينتحب فجأة كالأطفال، فقال (العقرب) في صرامة:

- جفف دموعك يا رجل. وقد السيارة كما ينبغي..

جفف (جمال) دموعه، ولكنه ظل ينتحب، وهو يقول:

- أرجوك أيها (العقرب).. هناك طائرة ستنطلق إلى (سويسرا) بعد ساعتين، وأنا مستعد لدفع ما تطلبه، حتى تتركني لألحق بها.

سأله (العقرب) في هدوء:

- كم يمكنك أن تدفع؟

أجابه في خفة:

_ مائة ألف جنيه.

أجابه (العقرب):

- يا له من رقم تافه!

هتف (جمال):

- فليكن.. سأمنحك عشرة أضعاف هذا المبلغ.. مليون جنيه دفعة واحدة.. بل مليون دولار.. ما رأيك بمليون دولار؟

سأله (العقرب) في اهتمام:

- وماذا لو قلت أني أطلب ما هو أكثر؟

هتف (حال) في ضراعة:

- سأمنحك أي شيء تطلبه.. سأمنحك مليونين.. بل ثلاثة.. بل..

قاطعه (العقرب) في غضب:

عجبا... هل تربح القذارة كل هذه الملايين؟

عادت الدموع تسيل من عيني (جمال)، وهو يقول:

- أرجوك

قال في العقرب) في صرامة:

- لو أنك تسأل عن الثمن، فهناك من واحد، يمكنني أن أقبله..

سأله (جمال) في لهفة:

- ما هو؟

اجاب (العقرب):

- الوسيلة..

شحب وجه (جمال)، وارتجف صوته، وهو يغمغم:

- أية وسيلة؟

قال (العقرب)، في لهجة جمدت لها دماء (جمال):

- الوسيلة التي تسرقون بها البترول.

انفغر فاه (جمال)، وهو يحدق في مرآة السيارة، التي تنقل إليه صورة (العقرب)، من المقعد الخلفي، وظل صامتا برهة، قبل أن ترتجف شفتاه، ويتراقص قلبه بين ضلوعه هلعا، وهو يقول:

- التي نسرق بها البترول؟!

قال (العقرب) في لهجة مخيفة:

- إنني أكره إضاعة الوقت.

ازدرد (جمال) لعابه في صعوبة، وبذل جهدا ليقول:

- نحن لا نسرقه بالمعنى المفهوم، وإنما..

توقف عن الاستطراد، وكأنما يعجز عن كشف السر، فقال (العقرب) في صرامة:

- قلت أني أكره إضاعة الوقت..

أجاب (جمال) في سرعة:

- حسنا.. حسنا. الواقع أنني المسئول تقريبا عن هذا، ولذلك كنت أحصل دائما على نسبة أعلى من الآخرين.. صحيح أنها لا

تبلغ نسبة (كامل) بك، ولكنها..

قاطعه صرير إطارات سيارة مباغت، قبل أن تنحرف سيارة ضخمة نحو سيارته، فصرخ:

- لا.. لا تقتلوني.

ومع صرخته مال بالسيارة بحركة غريزية، فصاح به (العقرب):

- احترس..

ولكن السيارة اصطدمت بالإفريز، وقفزت فوقه على نحو خطر، ثم ارتطم جانبها بجدار ضخم، ودفع الاصطدام رأس (جمال) إلى الأمام، فاصطدم بزجاج السيارة الأمامي في عنف، ثم سقط على مقعده فاقد الوعي..

وبسرعة تحرك (العقرب)..

كان يعلم أن هذا التصادم مقصود، وأن قاصديه سيهرعون إلى السيارة، للتأكد من نتائج عملهم..

وسيجدونه داخلها..

بلا سلاح..

وكان من المحتم أن يقاتل، مهما كان الثمن..

وبسرعة نزع (نديم) قناعه وقفازيه، ودسهما في جيبي سرواله، وانتظر حتى اقترب وقع الأقدام من السيارة، ثم دفع بابها بحركة مباغتة وقفز خارجها..

ورأى (نديم) أمامه رجلا أعزل، تراجع في دهشة، عندما وقع بصره عليه، فأسرع يهاجمه هاتفا:

- من الواضح أنك لم تتوقع وجودي.

ثم هوى على فكه بلكمة عنيفة، مستطردا:

- وهنا تكمن المفاجأة.

تلقى الرجل لكمة لم يكن يتوقعها، فدار حول نفسه دورة كاملة، ثم سقط على وجهه فاقد الوعي..

وتوقف (نديم)، هاتفا:

- يا إلهي! لقد انتهت المعركة بأسرع مما كنت تتوقع..

ولكنه فوجئ بصوت غاضب يقول:

- من قال هذا؟

رفع عينيه بسرعة إلى مصدر الصوت، ورأى ذلك الرجل الآخر، الذي غادر السيارة، ووقف يصوب إليه مسدسه..

ويضغط الزناد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- سقوط..

توقفت سيارة (كامل شكري) الفارهة، أمام فيلا الدكتور (جمال)، وهبط سائقها بسرعة، وانحنى انحناءة كبيرة، وهو يفتح بابها الخلفي لـ (كامل)، الذي غادرها في وقار، وعبر بوابة الفيلا في خطوات هادئة بطيئة، حيث استقبلته زوجة (جمال)، وهي تفرك كفيها بنفس الحركة العصبية، وسألته في لهفة:

- هل لحقتم به؟

ابتسم (كامل)، وهو يجيبها في هدوء:

اطمئني يا سيدتي.. لقد أرسلت بعض الرجال خلفه، والبعض الآخر إلى المطار، لمنعه من السفر.. لقد أحسنت صنعا بالاتصال بي، قبل أن ينجح ذلك الغبي في الفرار..

قالت في توتر:

- كان سيفسد كل شيء.. فراره يعني أن تتوقف العملية كلها، أو ينكشف الأمر.

أومأ (كامل) برأسه إيجابا، وقال:

- لست أظن هذا..

ثم انتقى أفضل مقاعد الردهة الوثيرة، وجلس فوقه، ووضع إحدى ساقيه فوق الأخرى، واستطرد بابتسامة لزجة

- عندما وضعت خطتي العبقرية هذه، لم أغفل هذا الاحتمال يا سيدتي.. احتمال توقف أحد أفراد الفريق عن العمل، لسبب أو لآخر، ولقد وضعت في الخطة احتمالات بديلة...

سألته في فضول:

- مثل ماذا؟

أجابها في زهو:

- أفضّل الحفاظ على هذا السر وحدي..

ثم لوح بكفه، واستطرد:

- وخاصة عندما يكون الطرف الراغب في معرفته سيدة؛ فالسيدات لا يمكنهن حفظ الأسرار.. أليس كذلك؟ السر بالنسبة لهن إما أصغر مما ينبغي، فلا يستحق الحفاظ عليه، أو أكبر مما ينبغي فلا يستطعن كتمانه..

قالها وقهقه ضاحكا، وكأنما راقت له دعابته، فمطت السيدة شفتيها في امتعاض، وقالت في غيظ:

- هل تملك القدرة على الضحك، في مثل هذه الظروف؟

هز كتفيه، قائلا:

- ولم لا؟ ما زلت أملك كل الخيوط يا سيدتي، وسأنتظر عودة رجالى بزوجك، لألقنه الدرس الذي يحتاج اليه؟

وعلى الرغم من ابتسامته، شعرت زوجة (جمال) بالخوف، وهو يستطرد:

- وسيكون درسا قاسيا جدا.

لم يكد (نديم) يلمح ذلك المسدس، المصوّب إليه، حتى مال جانبا في سرعة، ثم انحنى متفاديًا رصاصة لم تنطلق، واندفع نحو الرجل..

والواقع أن الرجل قد أصيب بالذهول..

لقد صوب مسدسه إلى العشرات، ورآهم جميعا يرتجفون أمام فوهته القاتلة، ويتلعثمون، ويبكون، وينهارون، ولكنه لم يشاهد أبدا من ينقض عليه بهذه السرعة، وكأنما يسعده تلقى رصاصة في صدره.

ولقد أفاد هذا الذهول (نديم) كثيرا..

فالرجل لم يضغط الزناد..

تجمدت سبابته، في طريق اعتصار الزناد، فلم تنطلق الرصاصة، حتى بلغه (نديم)، واستجمع قوته كلها في قبضته، وهوى بها على فك الرجل، في لكمة كالقنبلة، ارتج لها كيان الرجل كله، قبل أن يرتطم ظهره بالسيارة، ثم يسقط على وجهه فاقد الوعي..

ولكن الأمر لم ينته عند هذه النقطة..

لقد سقط الرجل أرضا، في نفس اللحظة التي توقفت فيها سيارة من سيارات الشرطة إلى جوار (نديم)، وقفز رجالها يصوبون أسلحتهم إليه فرفع ذراعيه في هدوء، وهو يقول:

- مهلا.. لقد هاجمني هذان الرجلان، وكنت أدافع عن نفسي.

أجابه الضابط في صرامة:

- ستقول هذا في أوراق التحقيق، أما الآن، فأنا ألقي القبض عليك.

وبسرعة أحاطت الأغلال بمعصمي (نديم)..

(العقرب)...

هتف (مجدي) في وجه الرائد (حسن) بعصبية:

- إنها المرة الثانية، التي توقظني فيها من نومي، بعد الثانية والنصف صباحا يا (حسن).

قال (حسن) في لهفة:

- الأمر واحد أيضا في الحالتين يا سيدي..

انتفض (مجدي)، وهتف:

- العقرب)!!

أجابه (حسن):

- بل (نديم).. (نديم فوزي).

واستدرك في سرعة:

- لو أنه هو (العقرب).

عقد (مجدي) حاجبيه في شدة، وهو يسأله:

- ماذا عن (نديم)؟ هل أصابه مكروه؟

مال (حسن) نحوه، وقال:

- لقد وقع في قبضتنا..

أمسك (مجدي) كتفيه، وهو يسأله في انفعال:

- ماذا تعني؟

أجابه (حسن) مبتسما:

- لقد ألقت سيارة شرطة النجدة القبض على شاب، يرتدي الملابس السوداء، مع رجلين يحمل كل منهما مسدسا، وهذا الشاب هو (نديم).

برقت عينا (مجدي)، وهتف:

- ملابس سوداء؟

ثم صاح بـ (حسن)، وهو يسرع إلى حجرة نومه:

- اتصل بهم هاتفيا يا (حسن). ومرهم ألا يحاولوا تفتيشه وليحتفظوا به في حجرة الضابط النوبتجي، حتى أصل إليهم..

وهتف في سعادة ظافرة:

- أخيرا يا (نديم).. أخيرا وقعت في قبضتي..

وأطلق ضحكة مزهوة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان لقاءً عجيبا بحق..

لقاء (مجدي) و (نديم)..

اقتحم (مجدي) حجرة الضابط النوبتجي في لهفة، ثم تجمد في مكانه، وهو يتطلع إلى (نديم)، وكأنما صدّق الآن فقط أنهم قد أوقعوا به..

وطوال دقيقة كاملة، لم ينطق أيهما بكلمة، أو ينبس بحرف واحد..

ثم كان (نديم) صاحب أول كلمة، مزقت حبل الصمت، وهو يقول:

- كيف حالك يا (مجدي)؟

لم يجبه (مجدي)، بل ظل يتطلع إلى زيه الأسود لحظات، قبل أن يقول، في كلمات اختلطت بتنهيدة ارتياح:

- أخيرا يا (نديم)..

قال (نديم) في هدوء:

- أخيرا ماذا يا عزيزي (مجدي)؟

ابتسم (مجدي) في سعادة، وقال:

- أخيرا وقعت بزيك الأسود؟

قال (نديم) في برود:

- هل يمنع القانون ارتداء الثياب السوداء؟

لم يغضب (مجدي) هذه المرة..

ملأت نشوة الظفر عروقه، فلم تترك فيها مجالا لأية مشاعر أخرى..

وفي ارتياح، أجابه (مجدي):

- لا يا (نديم).. القانون لا يمنع هذا، ولكنه يضعك في خانة المتهم الأول، لو عثرنا معك على باقي زي (العقرب).

والتفت إلى الضابط النوبتجي و (حسن)، قائلا:

- اقتربا. أحتاج لشاهدين..

اقترب الاثنان منه، فدس يده في جيب سروال (قديم) الأيمن، وهو يقول:

- راقبا ما أخرجه من جيبه..

أخرج القفازين السوداوين، قائلا:

- هل رأيتما؟

قال (نديم) بنفس البرود:

- أظن القانون لا يمنع ارتداء القفازات السوداء أيضا..

تطلع (مجدى إلى عينيه مباشرة، وقال:

- وماذا عن الأقنعة السوداء؟

وابتسم مستطردا:

- صدقني يا (نديم)، عندما أخرج قناع (العقرب) أو بطاقته من جيبك، في حضور شاهدين، سيعني هذا أن لعبة الشخصية المزدوجة هذه قد انتهت..

لم ينبس (نديم) ببنت شفة، وإنما أطل القلق من عينيه واضحا، في حين مد (مجدي) يده نحو جيب السروال الآخر، وهو يقول:

- الآن يا (نديم).. الآن تحين النهاية..

وكان على حق..

عندما يخرج القناع، تكون النهاية قد حانت..

نهاية (العقرب).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العصابة

16- المواجهة..

لم يكد رنين الهاتف يرتفع، في ردهة فيلا الدكتور (جمال)، حتى قفز (كامل شكري) إلى الهاتف، وانتزع سماعته، قائلا في انفعال واضح:

- من المتحدث؟

كان من الواضح أنه يستمع إلى من كان ينتظره، فقد اعتدل جسده، وأمسكت أصابعه السماعة في قوة، وهو يقول:

- نعم.. هو أنا.. لماذا لم تصل حتى الآن يا (وجيه)؟

انعقد حاجباه في قوة، نبض لها قلب زوجة (جمال) بسرعة كبيرة، كادت أصابعه تعتصر سماعة الهاتف، وهو يصرخ:

- الشرطة؟! وكيف تدخلت الشرطة؟

تقافز الغضب في كل خلجة من خلجاته، وهو يواصل:

- (العقرب)؟! مرة أخرى (العقرب).. من أين يأتي ذلك الشيطان؟ ألم توقفه إصابة ساقه بعد؟

استمع إلى محدثه بضع لحظات في صمت، فاقتربت منه زوجة (جمال)، في قلق وفضول، تسأله:

- ماذا حدث يا (كامل) بك؟! ماذا حدث؟

تجاهلها تماما، وهو يقول ل (وجيه):

- لا بأس.. استمر مع رجالك في مراقبة قسم الشرطة، حتى يغادره (جمال) و (نديم) هذا، ونفذ أوامري بشأنهما، في الوقت المناسب.

أعاد سماعة الهاتف إلى موضعها، فعادت زوجة رجال) تسأله في قلق:

- ماذا حدث؟

أشعل سيجاره، ونفث دخانه في عصبية، قبل أن يجبيها:

- لقد اختبأ (العقرب) في سيارة زوجك؟

اتسعت عيناها في ذعر، وهي تقول

- عقرب؟! أهو عقرب سام؟ هل لدغ (جمال)؟

انعقد حاجباه في ضيق، وتذكّر أنها لا تعلم شيئا عن (العقرب)، فمط شفتيه في ازدراء، وأجابها وهو يشيح بوجهه:

- إنه مجرد مصطلح، نطلقه على شخص يحاول عرقلة عملنا..

هتفت في هلع:

- شخص؟! أهو أحد رجال الشرطة؟

أجابها في ضيق وضجر:

- لا.. إنه ليس كذلك.

زفرت في ارتياح، وقالت:

- يمكننا أن نرشوه إذن.

رمقها بنظرة ضيق، فارتبكت مستطردة:

- أو نقتله.

مط شفتيه مرة أخرى، وقال:

- دعك من هذا يا سيدتي.. كل ما في الأمر أن زوجك قد تعرض لمخالفة بسيطة، وسيعيده رجالنا إلى هنا، بعد أن ينتهي من

سدادها.

ثم شرد بصره، مستطردا:

- وبعدها سيقومون بعمل آخر، يخلصنا من هذا الـ...

صمت لحظة، ثم أضاف بكل المقت والكراهية في أعماقه:

- هذا (العقرب).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن هناك، في الأرض كلها، من هو أكثر سعادة من العقيد (مجدي)، في هذه اللحظة بالذات..

لقد أوقع بـ (نديم)، وها هو ذا يحتجزه داخل حجرة الضابط النوبتجي، في أحد أقسام الشرطة، ويده تمتد لتنتزع قناع (العقرب) وبطاقته من جيب الزي الأسود، الذي يرتديه (نديم)، و.

وفجأة حدث الاقتحام..

اقتحمت (غادة) حجرة الضابط النوبتجي في عنف، وخلفها حارس الحجرة، الذي يحاول منعها في خوف وتوتر..

وتوقفت يد (مجدي)، قبل أن تلمس جيب (نديم)، واعتدل في حركة حادة سريعة، في حين التفت الرائد (حسن) إلى (غادة) في دهشة، وهبَّ الضابط النوبتجي من مقعده، هاتفا في غضب:

- ما هذا.. ما الذي يحدث هنا؟

أجابته (غادة) في غضب مماثل:

- أنا (غادة)، المحامي الخاص للأستاذ (نديم فوزي)، وأحب أن أحذركم من أنكم ترتكبون أكبر خطأ قانوني في حياتكم أيها السادة.

عقد (مجدي) حاجبيه في غضب في حين هتف الضابط النوبتجي:

- أي خطأ هذا.. إننا نقوم بتفتيش رجل، ثم إلقاء القبض عليه أثناء شجار في الطريق، استخدم فيه أحد المتشاجرين مسدسًا..

كان حارس الحجرة قد توقف في قلق، منتظرا أوامر الضابط، بشأن تلك التي اقتحمت الحجرة، فأشار إليه الضابط بالانصراف، و (غادة) تعقد ساعديها أمام صدرها، قائلة:

- ولكنكم ألقيتم القبض على ذلك الذي استخدم المسدس، وحصلتم على مسدسه بالفعل. ومن حقكم استجواب (قديم). ولكن ليس من حقكم تفتيشه.

التفت إليها (مجدي) بكيانه كله، وقال في حدة:

- أخطأت أيتها الساذجة، فقانون الطوارئ يبيح لي حق تفتيش أي مواطن، في أية لحظة من لحظات الليل أو النهار، لمجرد الاشتباه.

ابتسمت في ثقة قائلة:

- ليس إذا كانت بينك وبينه خصومة شخصية.

قال في عصبية:

- أية خصومة شخصية، إنه مجرد متهم، أو مشتبه فيه، و.

قاطعته في صرامة:

- وماذا؟ كان المفروض أن يستجوبه الضابط النوبتجي، أو حتى يقوم بتفتيشه، ولكن إيقاظك من نومك، وحضورك العاجل إلى قسم شرطة لا يخصك، ومحاولات تفتيش المشتبه فيه بنفسك، كلها عوامل تؤيد وجود خصومة شخصية بينك وبينه. خاصة عندما تضيف إلى هذا صراعك الشخصي معه. عندما كان يعمل في الشرطة.

هتف الضابط النوبتجي، في دهشة"

- في الشرطة؟! هل كان السيد (نديم) زميلا لنا فيما مضى؟

أجابته في سخرية:

-- أتعني أن العقيد (مجدي) لم يخبرك بهذا؟

لم يجب الضابط، وإنما رمق (مجدي) بنظرة ضيق صامتة، جعلت (مجدي) يقول في حدة عصبية:

- فليكن أيتها الأفعى القانونية، سأتجاهل كل ما سمعته منك الآن، وسأقوم بتفتيش (نديم)، و.

قاطعته في سخرية:

- فليكن.. تجاهل ما يحلو لك، ولكن لتعلم أولا أنني لم أكتف بالقدوم إلى هنا، لقد أبرقت بالأمر إلى وزير الداخلية، وإلى اللواء (حلمي)، ورئيس الجمهورية، و.

راحت تعدد الجهات الرسمية، التي أبرقت إليها بالأمر، حتى شحب وجه الضابط النوبتجي: وهو يقول:

- ولكن لماذا كل هذا؟ إننا نتبع القانون، ولن نتجاوزه قط.

لم يكن (نديم) قد نطق كلمة واحدة، منذ اقتحمت (غادة) الحجرة، وكان يكتفي بمراقبتها في هدوء كعادته، ولكنه خالف

هذه القاعدة، وقال في هدوء شديد، عند هذه النقطة:

- وأنا كذلك أسعى لتحقيق العدالة أيها الزميل.

التفت إليه الجميع في دهشة، وعقدت (غادة) حاجبيها في قلق للعبارة، في حين هتف (مجدي) في لهفة:

- أيعني هذا أنك ستدلى باعترافك؟

سأله (نديم) في هدوء:

- أي اعتراف؟

أجابه في انفعال:

- الاعتراف بأنك (العقرب).

خيل لـ (غادة) أنها قد لمحت شبح ابتسامة، على جانب شفتي (نديم)، وهو يقول:

- هذا اعتراف جيد منك، بأن (العقرب) يسعى لتحقيق العدالة يا عزيزي (مجدي)، ولكن ما أقصده لم يكن الاعتراف، وإنما التعاون.

قال (مجدي) في حذر:

- التعاون؟!

أجابه (نديم) في هدوء:

- نعم يا عزيزي (مجدي).. التعاون.. سأسمح لكم بتفتيشي حتى لو كان هذا مخالفًا للقانون.

هتفت (غادة) في دهشة:

- (نديم)؟!

ولكنه قال في حزم:

- إنني أعلم ما أفعل يا (غادة).

وواجه (مجدي)، مستطردا:

- هيا يا (مجدي).. قم بتفتيشي.

تردد (مجدي) لحظة، أمام هذا التحدي المباشر، ثم لم يلبث أن انقضَّ على جيب (نديم)، قائلا:

- نعم.. سأفعل.. لقد وافق أمامكم أليس كذلك؟

ولكن الجيب كان خاليا..

كل جيوب (نديم) كانت كذلك..

وفي دهشة وحنق، هتف (مجدي):

- أين القناع إذن؟

أجابته (غادة) في سخرية:

- في عقلك وحده أيها العقيد.

مضت لحظة ثقيلة من الصمت، و (مجدي) يحدق في وجه (نديم) الجامد في توتر بالغ، قبل أن يقول (مجدي) في غضب ثائر:

- أين أخفيته؟

سأله (نديم في برود:

- ما هذا الذي تعنيه؟

انقض (مجدي) على (نديم)، وجذبه من قميصه في عنف، وهو يصرخ في وجهه:

-- اسمع يا (نديم).. إني لن أسمح لك بهذا..

قاطعته (غادة) في غضب:

- إنك تتجاوز حقوقك القانونية يا (مجدي).

أما الضابط النوبتجي، فقد قال في توتر:

- معذرة يا سيادة العقيد، ولكنني لن أقبل حدوث تجاوزات في القسم في فترة نوبتجيتي.

كاد الغضب ينفجر من وجه (مجدي)، أمام كل هذه الضغوط، وشعر الرائد (حسن) أنه من الممكن أن يورط مجدي) نفسه في

مشاكل قانونية عسيرة، فقال في قلق، وهو يربت على كتفه:

- لا بأس يا سيادة العقيد.. دعنا ننصرف الآن، و.

قاطعه (مجدي) في صرامة:

- لا.. ليس الان.

ثم دفع (نديم) عنه، والتفت إلى الضابط النوبتجي، يسأله:

- هل استجوبته؟

أجابه الضابط:

- نعم.. ولقد قال إنه كان يسير وحده في الطريق، عندما شاهد سيارة تهاجم أخرى، ويحاول رجلان من السيارة الأولى قتل رجل فاقد الوعي، أصيب من ارتطام السيارة الثانية بجدار على جانب الطريق، فتدخل محاولا إنقاذ الرجل.

سأله (مجدي):

- ومن هذا الفاقد الوعي؟

أجابه الضابط:

- لقد استعاد وعيه، ولكنه متوتر الأعصاب بشدة، يطالبنا طيلة الوقت بتركه. ويؤكد في كل لحظة أنه لن يتقدم بشكوى ضد أحد. و.

قاطعه (مجدي) في حدة:

- سألتك من هو؟

لم يرق هذا الأسلوب للضابط النوبتجي، ولكنه أجاب في ضيق:

- إنه الدكتور (جمال).. صاحب المستشفى الخاص، والمدير العلمي والفني لشركة (.....) للبترول، و.

هتف به (مجدي) مقاطعا:

- شركة البترول!!

ثم التفت إلى (قديم)، وقال في صرامة:

- لماذا هذه الشركة بالذات؟

سأله نديم في هدوء:

- ماذا تقصد؟

أجابه في حدة:

- أقصد أن (العقرب) قد هاجم اثنين، من مديري شركة البترول نفسها، في يومين متتاليين، فما الذي يسعى إليه، بشأن هذه الشركة بالذات؟

هز (نديم) كتفيه، وقال في برود:

- يمكنك أن تسأله.

مضت لحظات، وكلاهما يواجه الأخر بنظرات نارية متحدية، قبل أن يقول (مجدي) في صرامة:

- فليكن يا (نديم).. سنعكس اللعبة، وسأعمل بنفسي على إطلاق سراحك هذه المرة، ولكن فلتعلم أنني قد أمسكت طرف الخيط.. وعرفت ما الذي يسعى إليه العقرب هذه المرة.. أو على الأقل أين يسعى، وسأضيق عليه الخناق، حتى أوقع به متلبسا، وعندئذ سأفعل ما أتمناه منذ زمن..

وأطبق قبضته، مستطردا في غضب:

- سأسحقه.

وكان يعني ما يقول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17- المجرمون..

مرة أخرى قفز (كامل شكري) يلتقط سماعة الهاتف، في ردهة منزل الدكتور (جمال)، ويضعها على أذنه، هاتفًا:

- من المتحدث؟

انعقد حاجباه كالمعتاد، وهو يستمع إلى محدثه في صمت، قبل أن يقول:

- حسنا. اترك أحد الرجال لمراقبة القسم، وانطلق بنفسك خلف المحامي والفتاة.

قالها وأعاد السماعة إلى موضعها في عنف، وعاد ينفث دخان سيجاره في توتر وعصبية، فاقتربت منه زوجة (جمال)، وهي تفرك كفها في عصبية: قائلة:

- ماذا حدث.. هل (جمال) بخير؟

لوح بكفه، قائلا:

- ما زالوا يحتجزونه في القسم، وأنا أجهل لماذا، ولكنهم أفرجوا عن (العقرب) وزميلته، و.

قاطعته في انزعاج:

- هل أطلقوا سراح (العقرب)؟!

زفر في حنق، وهو يدرك جهلها عما تقول، في حين استطردت هي:

- ألا يعرضنا هذا للخطر؟! أليس من الأفضل أن..

قاطعها هو هذه المرة، وهو يتجه نحو الباب، قائلا في صرامة:

- انتظري عودة زوجك يا سيدتي، وأبلغيني هاتفيا فور عودته.

- وماذا لو حاول الفرار مرة أخرى؟

أجابها في غلظة:

- فليذهب إلى الجحيم.

وغادر الفيلا في عصبية بالغة، تاركا الزوجة خلفه في حيرة. وصفق الباب في عنف، ثم دلف إلى سيارته، وهو يقول لسائقه في حدة:

- هيا.. دعنا ننصرف من هذا المكان اللعين.. هيا..

انطلق السائق بالسيارة في صمت، في حين راح (كامل) ينفث دخان سيجاره في قوة، وفي أعماقه يدور سؤال مخيف متكرر:

- لماذا احتجزوا (جمال)، وأطلقوا سراح (نديم) و (غادة)؟

لماذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أريد أن أعرف لماذا؟

نطق (جمال) هذه الجملة في عصبية بالغة، وهو يتطلع إلى وجه (مجدي)، الذي بدا له صارما غاضبا، وهو يجيب سؤاله في خشونة:

- لأنني أحتاج إلى استجوابك يا دكتور (جمال). ألا يبدو لك هذا جوابا كافيا، لسؤالك الخاص باحتجازك هنا؟

قال (جمال) في عصبية:

- ولماذا تستجوبني؟ إنني المجنى عليه، ولست الجاني!!

أجابه (مجدي) بنفس الخشونة:

- أريد أن أعرف لماذا حاول الرجلان قتلك؟

ثم مال نحوه بغتة، مضيفا:

- ولماذا يطاردك (العقرب)؟

شحب وجه (جمال) في شدة، ولم يغب شحوبه عن عيني (مجدي)، الذي يراقب ردود أفعاله في اهتمام وخبرة، قبل أن يتمتم (جمال) في توتر:

- من (العقرب) هذا؟

ابتسامة (مجدي) امتلأت بالظفر هذه المرة، وتراجع بمقعده، وهو يقول:

- عجيا! ومن أخبرك أن (العقرب) هذا اسم الشخص، وليس مجرد عقرب حقيقي؟

ارتبك (جمال) في شدة، وهو يقول:

- ماذا تعني؟

مال (مجدي) نحوه مرة أخرى في حدة، على نحو أفزع (جمال)، وجعله يتراجع بوجهه في توتر، و (مجدي) يقول بخشونته المخيفة:

- أعني أنك قد استخدمت في سؤالك لفظ (من؟)، ولم تستخدم (ما)، وهذا يعني معرفتك أن (العقرب) شخص حيّ.

مضت لحظة من الصمت، ارتسم الرعب خلالها في عيني (جمال)، قبل أن يقول في عصبية:

- هذا لا يعني شيئا.. إنه مجرد خطأ لفظي، ولست خبيرا باللغة العربية، لتحاسبني على خطأ كهذا..

رمقه (مجدى) بنظرة غاضية، قبل أن يتراجع ثانية، ثم ينهض من مقعده، ويدور حول (جمال) في بطء، ثم يسأله من خلف ظهره بغتة:

- ماذا يحدث في شركة البترول يا دكتور (جمال)؟

أدرك أنه قد أصاب هدفه مباشرة، عندما ارتجف جسد (جمال) في شدة، وكاد يسقط عن مقعده، لولا أن تشبث به في قوة، وترنح لحظة، ثم أجاب في صوت متحشرج مختنق، يشف عن انفعال جارف:

- ماذا تعني بسؤالك هذا؟ كل شيء في الشركة يسير على ما يرام.. لقد تأكد الجهاز المركزي للمحاسبات من هذا، وراجع بنفسه كل الأوراق، و

قاطعه (مجدي) في صرامة:

- وماذا عن الأمور الأخرى، التي لم يكشف الجهاز المركزي للمحاسبات أمرها؟

صاح (جمال) في حدة:

- أية أمور أخرى؟ هل تتهمني بأشياء محدودة أيها العقيد؟ أظن من حقي استدعاء محامي الشركة، في هذه الحالة.

اعتدل (مجدي)، وقال في حنق واضح:

- لا.. لست أتهمك بشيء يا دكتور (مجدي).. لقد تم استجوابك، ويمكنك الانصراف إلى منزلك الآن.

هبّ (جمال) من مقعده، وهو يهتف في عصبية:

- بالطبع.. سأرحل على الفور.

واندفع مغادرا الحجرة، خشية أن يتراجع (مجدي) في قوله، فأشار (حسن) إلى الباب، الذى صفقه (جمال) خلفه، وقال:

- هل أرسل خلفه من يراقبه؟

هر (مجدي) رأسه نفيًا، وقال:

- لا.. من الواضح أن هذا لن يفيدنا كثيرا.

وصمت لحظة مفكرا، قبل أن يضيف:

- ولكني سأبدأ في مراجعة ملف شركة البترول هذه، بحثا عما يسعى (العقرب) خلفه، وبهذه الطريقة فد يمكننا ضبط مخالفة قانونية رهيبة، و.

صمت لحظة أخرى، ثم أضاف في سخط:

- والإيقاع بـ (العقرب)، في الوقت نفسه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطلقت (غادة) ضحكة مرحة، وهي تقود السيارة، وإلى جوارها يجلس (نديم) في استرخاء، وهتفت في إعجاب:

- يا لها من فكرة بسيطة وذكية يا (نديم)! كيف خطرت ببالك في القسم؟

أجابها في تراخ، وهو يريح رأسه على المسند الخلفي لمقعده:

- كان الأمر أبسط مما تتصورين، فلقد لاحظت ذلك التجويف المحتفى بين النافذة وإطارها، وتظاهرت بالاستناد إلى الإطار،

ووضعت القناع والبطاقات داخل التجويف، وبعدها كان من السهل استعادتهما عند انصرافنا.

سألته ضاحكة:

- أكنت تعلم أنهم سيقومون بتفتيشك؟

هز كتفيه، قائلا:

- كان هذا احتمالا واردًا بالطبع.

عادت تسأله في مرح:

- ألم تخش أن يعثر عليها أحد؟

أجابها في هدوء:

- لا.. لم أخش هذا، فالقناع أسود اللون، ولقد أحطت البطاقات به، ووضعته في تجويف مظلم، لا يمكن أن ينتبه إليه سواي.

هزت رأسها في إعجاب، واختلست نظرة إليه، قبل أن تقول في هيام:

- هذا هو (نديم) الذي أعرفه، هادئ، وذكي، ودقيق..

كانت واثقة بأنه قد انتبه إلى رئة الحب في قولها، على الرغم من صمته، وتجاهله التام هذا، وإسباله جفنيه، فأضافت في لهجة شبه رسمية:

- والآن.. ماذا تقترح، بعد أن فشلت في معرفة السر من (جمال)؟

تطلع إلى ساعته، وقال:

- أقترح أن نحاول الاستفادة بالساعات الثلاث الباقية، قبل مطلع الشمس.

سألته في اهتمام:

- كيف؟

أجابها في هدوء:

- نزور (أشرف) في منزله مثلا.. إنه يقع بالقرب من هنا، في الطابق الأخير من بناية ضخمة.

سألته في قلق:

- ألا ترى معي أنها مخاطرة كبيرة؟ لقد تركنا (مجدي) منذ قليل، و.

قاطعها في هدوء:

- هذا بالضبط هو الذي دفعني إلى الاقتراح: فلن يتوقع (مجدي) أو أفراد العصابة البترولية أن نضرب ضربتنا الثانية بهذه السرعة، وفي مثل هذه الظروف.

تطلعت إلى مرآة سيارتها، وقالت:

- أخالفك القول هذه المرة، فمن المؤكد أن (مجدي) قد أرسل رجاله خلفنا، وإلا فكيف تفسر وجود هذه السيارة، التي تطاردنا، منذ مغادرتنا قسم الشرطة؟

انعقد حاجباه، واعتدل في حركة مفاجئة، ثم أمسك مرآة السيارة، وأمالها لتلائم موقعه، وألقى نظرة طويلة على السيارة الكبيرة، التي تتبع سيارة (غادة)، قبل أن يعيد المرأة إلى موضعها، قائلا:

- إنه ليس (مجدي).

ألقت نظرة سريعة على المرأة، وقالت في قلق:

- ماذا تعني بأنه ليس (مجدي)؟ أتقصد أن هؤلاء الذين يتبعوننا، ليسوا من رجال الشرطة؟

أجابها في هدوء:

- بالطبع.

كادت تهتف به:

- كيف عرفت؟

ولكنه وفر عليها إلقاء السؤال، واستطرد في حزم:

- الشرطة لا تمتلك سيارات فاخرة كهذه، ثم إنها لا ترسل أربعة رجال دفعة واحدة، لمراقبة شخصين، أليس كذلك؟

أومأت برأسها موافقة في قلق، وغمغمت:

- في هذه الحالة أظن أننا في خطر..

أجابها في هدوء:

- بالنسبة إليّ لست أظن هذا..

كانت السيارة قد اقتربت منهما كثيرا، عندما أضاف:

- أنا واثق منه..

ولم يكد يتم عبارته، حتى اندفعت السيارة إلى جوارهما، وانحرفت نحوهما انحرافًا حادا..

وقاتلا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18- ضربة عند الفجر..

عندما انحرف (وجيه) بسيارته الضخمة، نحو سيارة (غادة) الرياضية، كان يلمح (غادة) وهي تقود السيارة، وكان يتصور أنه سيسحق (غادة) وسيارتها بضربة واحدة، ثم يمضي في طريقه؛ ليزف لـ (كامل شكري) بشرى القضاء على خصمه اللدود..

ولكن (غادة) خيبت ظن (وجيه)..

لقد أدركت على الفور أن (وجيه) سينحرف بسيارته نحوها، فضغطت كامح السيارة في حزم، وخفضت سرعة السيارة على نحو مباغت، جعل سيارة (وجيه) تسبقها بعدة أمتار، ثم تنحرف أمامها في عنف..

وفي صوت قوي، يموج بالحماس، قال (نديم):

- حركة رائعة يا (غادة)، والآن تعلقي بمؤخرة سيارتهم، ولا تسمحي لهم بالعودة إلى جوارنا مرة أخرى.

نفذت ما طلبه منها، وهي تقول في قلق:

- ولكنهم سيطلقون نيران أسلحتهم نحونا من الخلف..

التقط حقيبتها، وانتزع منها مسدسها الصغير، قائلا:

- ليس عندما أستعير مسدسكِ.

كان رجال (وجيه) يستعدون لإطلاق النار عليهما من الخلف بالفعل، عندما أطلق هو رصاصة من مسدس (غادة)، انفجر إثرها الإطار الأيمن الخلفي للسيارة، ودوي صوته كقنبلة في الظلام، وانحرفت سيارة (وجيه) يمينا في عنف، فهتف (نديم:

- انطلقي إلى يسارهم يا (غادة).. الآن.

أطاعته دون تفكير، وانطلقت إلى يسار سيارة (وجيه)، الذي واجه (نديم) مباشرة، عبر نافذتي السيارتين، فصرخ في غضب:

- لن تفلت أيها الـ...

قاطعه (نديم) برصاصة ثانية، أطلقها على الإطار الأمامي الأيسر للسيارة، فاختل توازنها تماما، وأفلتت عجلة القيادة من يد (وجيه)، الذي صرخ:

- أيها الحقير.

ثم انحرفت به السيارة في عنف، وارتطمت بالحائط، ثم توقف محركها تماما..

وضغطت (غادة) دواسة الوقود، في محاولة للابتعاد بأقصى سرعتها، ولكنها فوجئت بـ (نديم) يهتف بها:

- توقفي.

انتقلت قدمها، في حركة غريزية إلى كامح السيارة، التي توقفت بصرير مفزع، وهتفت (غادة):

- ماذا ستفعل؟

قفز (نديم) من السيارة. هاتفا:

- أريد هذا الوغد.

اندفع في خطوات سريعة نحو سيارة (وجيه)، وهو يحمل مسدس (غادة)، واقترب من السيارة في حذر، حتى تأكد من أن ركابها الأربعة فاقدو الوعي، فانتزع (وجيه) من خلف عجلة القيادة، وقيد معصميه خلف ظهره، ثم حمله على كتفه، وعاد به بسرعة إلى سيارة (غادة)، فألقاه على أريكتها الخلفية، وسمعها تهتف:

- ماذا ستفعل به؟

أجابها وهو ينتقل إلى مقعده المجاور لها:

- لو صحّت ذاكرتي، فهذا الوغد هو (وجيه سمعان)، أحد أخطر مجرمي (مصر)، منذ عشر سنوات.

سألته وهي تنطلق بالسيارة مبتعدة:

- وماذا ستفعل به؟

أجابها في حزم:

- سأستجوبه.

كان جوابه المقضب كافيا، فلاذت بالصمت تماما، وواصلت انطلاقها بالسيارة بعض الوقت، ثم سألته في توتر:

- أما زلت مصرًا على زيارة (أشرف)؟

تطلع إلى ساعته ثم أجاب في هدوء:

- لست أظننا سنجد وقتا أفضل من هذا.

وعاد يسترخي في مقعده..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت ليلة شديدة الملل، بالنسبة لحارس البناية الفاخرة، التي يقيم فيها المهندس (أشرف)، فلقد عاد جميع سكان البناية إلى منازلهم، في وقت مبكر، وأغلق هو الأبواب قبل منتصف الليل، ولكنه اضطر للبقاء مستيقظا، مرتديا زيه الخاص، الذي سلمته إياه شركة الأمن. المسئولة عن البناية، خشية أن يمر أحد مسئولي الشركة، في تفتيش مفاجئ، كما حدث منذ أربعة أيام.

ولقد خسر يومين من مرتبه في ذلك اليوم، بسبب عدم ارتداء السترة الرسمية، وهو غير مستعد لخسارة يومين آخرين..

وفي ضجر، تثاءب الحارس للمرة العشرين، خلال ساعة واحدة، وراح يقلب صفحات المجلة الفنية الحديثة بين يديه، ويطالع صور الممثلين والممثلات في تراخ، حتى سمع صوتا صارما يقول:

- اعتدل يا رجل.

ألقى الرجل مجلته، واعتدل في سرعة، والتفت إلى ذلك الرجل الصارم، صاحب الشارب الأشيب الكث، الذي يرتدي سترة خاصة، تحمل شعار شركة الأمن، والذي قال مستطردا:

- أتحرس البناية، أم تطالع المجلات الفنية؟

ارتبك الحارس، وقال:

- إنها وسيلة لتمضية الوقت فحسب يا سيدي، ولكنني لم أغادر موقعي كما رأيت.

سأله الرجل:

- وماذا عن الطوابق العلوية؟

ازدرد الحارس لعابه، وقال:

- لن يصلها أي مخلوق، ما دمت أحرس المدخل يا سيدي..

مط الرجل شفتيه، وكأنما لم يرق له الجواب، ثم أزاح الحارس من أمامه، وقال في صرامة:

- افتح البوابة.

أسرع الحارس يفتح البوابة الأمامية، فعبرها الرجل في هدوء، ثم التفت إليه، قائلا في صرامة:

- عد إلى عملك.

أجابه الحارس في توتر:

- بالطبع يا سيدي.. بالطبع.

أغلق البوابة خلفه، وراقبه في قلق، حتى أغلق المصعد خلفه، ثم تنهد في عمق، وقال:

- حمدًا الله.. كنت منتبها ومتيقظا هذه المرة.

وعاد يطالع المجلة في حذر، وهو يختلس النظر إلى المصعد، في انتظار عودة مفتش الشركة، الذي استقل المصعد إلى الطابق الأخير، وهناك نزع شاربه الكث المستعار، ووضع على عينيه قناع (العقرب)، وارتدي قفازيه..

وبدأ العمل..

وفي هدوء ودقة، راح يعالج رتاج باب شقة (أشرف) الفاخرة، حتى استجاب له الرتاج، وانفتح في صمت، فدفع الباب، ودلف إلى الشقة، وأغلقه خلفه في حرص..

كانت أمامه ردهة واسعة، شديدة الفخامة، تجمع بين الثراء والأناقة، وحسن الذوق، وتزدان جدرانها بلوحات جميلة ثمينة، يحمل بعضها توقيع مشاهير الفنانين المصريين، مما جعل (نديم) يتمتم:

- لو أن الشقة كلها بهذه الصورة، فثمنها لن يقل عن ثلاثة ملايين على الأقل..

ثم تقدم نحو ثلاث درجات رخامية، تقود إلى ممر حجرات النوم، وهو يستطرد:

- ولست أظن مرتب (أشرف) يبلغ هذا الحد!

كانت تمتد أمامه، عبر الممر، خمس حجرات للنوم، ولكنه تقدم نحو أبعدها عن الممر في ثقة، ودفع بابها في حذر..

كان يعلم - من تحرياته السابقة

- أن (أشرف) يحيا وحده، ويخدمه خمسة من الخدم، يقم ثلاثة منهم في نفس الشقة، ويعود اثنان إلى منزلهما بعد انتهاء العمل..

وكان يعرف أيضا، في أية حجرة يقيم (أشرف)..

وعبر الحجرة الواسعة الفاخرة، رأى فراش (أشرف) الوثير، وهذا الأخير يرقد فيه نائما، فدلف إلى الحجرة، وأغلق بابها خلفه، واتجه إلى الفراش على أطراف أصابعه..

وفجأة سطعت الأضواء في الحجرة، وارتفع معها صوت صارم، يقول:

- هل أخطأت طريقك يا صاح؟

التفت (العقرب) في سرعة إلى مصدر الصوت، ورأى (أشرف) في ركن الحجرة، يصوب إليه مسدسا ضخما، في حين نهض أحد

رجاله من الفراش، وصوب بدوره مسدسا آخر إلى (العقرب)، وهو يقول في سخرية:

- لقد وقعت هذه المرة يا (زورو).

وأطبق الفخ فكيه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تطلعت (غادة، إلى ساعتها في قلق، وهي تغمغم لنفسها:

- ترى كم يستغرق بلوغ الطابق العلوي، والإيقاع بـ (أشرف) هذا؟

لم تكد تم عبارتها، حتى سمعت آهة ألم، انطلقت من بين شفتي (وجيه)، فالتفتت إليه في حركة حادة، ورأته يعتدل جالسا، على الأريكة الخلفية للسيارة، ويحاول التملص من قيود معصميه في عصبية، قبل أن يتطلع إليها، قائلا في حدة:

- ماذا فعلتِ بي؟

أجابته في سخرية:

- كما ترى يا ملك اللصوص.. لقد فقدت الوعي، واستيقظت لتجد نفسك مقيد المعصمين في سيارتي، فما رأيك؟

قال في عصبيه:

- رأيي أنك ستدفعين ثمن هذا غاليا.

أطلقت ضحكة ساخرة قصيرة، وهي تقول:

- كيف.. بالعملة المحلية أم الصعبة؟

قال في غلظة:

- ما رأيك لو أطلقت صرخات عالية، جذبت رجال الشرطة إلى هنا؟ كيف ستفسرين لهم وجودي داخل سيارتك مقيد المعصمين؟

قالت في برود:

- أشكر لك تحذيري..

وفجأة، وقبل أن ينتبه إلى ما ستفعله، هوت قبضتها على جبهته، فدار رأسه في ألم، وهم بإطلاق سباب ساخط، لولا أن أحاط منديل كبير بشفتيه، وشعر بيد (غادة) تعقده في إحكام خلف رأسه، وهي تقول ساخرة:

- كان يمكنك أن تفعل هذا بالطبع.. سابقا..

راح يضرب المقعد بقدميه في سخط، فرمقته بنظرة صارمة، وهي تقول:

- اسمع.. لو لم تتوقف عن هذه الحركات الصبيانية، فسأبتر قدميك دون تردد، هل تفهم؟

كانت تتحدث بصرامة مخيفة، حتى أنه توقف عن ضرب المقعد بقدميه بالفعل، وتطلع إليها في قلق، فابتسمت قائلة في سخرية:

- حسنًا فعلت.. إني أحب الصبية المطيعين.

وتطلعت إلى ساعتها، مستطردة:

- على الأقل حتى يعود الصبية الأخيار..

واكتسي صوتها بقلق وخوف مفاجئين، وهي تضيف:

- هذا إذا عادوا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الموقف دقيقا بالفعل..

لقد سقط (العقرب) في فخ حقيقي..

فخ أعده له أحد أفراد العصابة، وسقط هو فيه كغرٍ ساذج..

ولكن عقله - بطبيعته - كان يرفض فكرة الاستسلام، وفكرة الخسارة، لذا فقد عقد ساعديه أمام صدره في هدوء، وقال محاولا تغيير نبرات صوته بقدر الإمكان:

- إذن فقد كنتم تتوقعون حضوري؟

أجابه (أشرف) في صرامة:

- كنت أعلم أنك ستهاجمني لا محالة، ما دمت قد هاجمت (رضوان)، وكنت أنتظرك منذ ذلك الحين..

قال (العقرب) في هدوء:

- تفكير ممتاز أيها المهندس.. ترى أهو نفس الأسلوب، الذي اتبعته، في سرقة البترول؟

ابتسم (أشرف) في سخرية، وقال:

- لن يمكنك أبدًا التوصل إلى الأسلوب العبقري، الذي نحصل به على البترول..

هز (العقرب) كتفيه، وقال:

- من المؤكد أنه أسلوب عبقري، مادام الجميع قد فشلوا في كشفه طوال هذه الفترة..

بدت علامات الزهو على وجه (أشرف)، وهو يقول:

- إنه كذلك بالفعل..

شعر الرجل الآخر بالضجر، فسأل (أشرف) في قلق:

- هل نقتله؟

أجابه (أشرف) في حزم:

- ليس قبل استشارة (كامل) بك يا (شندي)

قال (العقرب) في هدوء:

- إذن فـ (كامل شكري) هو زعيم العصابة؟

عقد (أشرف) حاجبيه في حدة، وهو يقول

- زعيم العصابة؟! يا له من لفظ سخيف!

هر (العقرب) كفيه مرة أخرى، وقال:

- ولكنها الحقيقة.. أليس كذلك؟

وهنا قال (شندي) في توتر:

- هل نخلع قناعه هذا إذن؟

رفع (أشرف كتفيه، وقال:

- فكرة رائعة.

ثم أشار إلى (شندي) مستطردا:

- هيا.. انزع قناعه..

وفي جذل عجيب، اتجه (شندي) نحو (العقرب)، وهو يصوِّب إليه مسدسه، ليخلع عنه قناعه الأسود..

وعاد الخطر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19- العصابة..

ارتجف (الدكتور) (جمال) في شدة، وهو يقف أمام (كامل شكري)، قبل ساعة واحدة من شروق الشمس، وأخذ (كامل) يتفحصه بنظراته الصارمة الصامتة، حتى كادت أعصاب (جمال) تنهار وهو يقول في عصبية:

- نعم.. لقد حاولت الفرار.. كلنا ينبغي أن نفعل هذا.. لماذا نبقى؟ لقد جمعنا ما يكفي من الأموال، ولدينا الملايين في بنوك (سويسرا)، فلماذا لا نغادر البلاد في اللحظة المناسبة، ونتمتع بأموالنا في الخارج؟

أجابه (كامل) في صرامة:

- لأنك غبي.

تراجع (جمال) في دهشة، وهو يقول:

- غبي؟!

اعتدل (كامل)، وهتف به في غضب:

- نعم يا جمال).. لأنك غبي.. ينبغي أن تعلم أن لعبتنا لا يمكنها أن تنتهي بهذا الأسلوب، فلو غادر أحدنا موقعه، دون الاتفاق مع الآخرين، فسيعني هذا أن يحتل شخص آخر هذا الموقع، مما يعرضنا جميعا لانكشاف أمرنا، وسقوطنا، وهذا يعني أن ما فعلته يعد خيانة يا (جمال).. خيانة تستحق الموت..

شحب وجه (جمال)، وانكمش هاتفا في رعب:

- لا.. لا يا (كامل) بك.. أرجوك.

وابتسم (بكري) في تشف، وهو يجذب مشط مسدسه، قائلا:

- هل تأمرني بهذا يا (كامل) بك؟

انهار (جمال) تماما، وسقط عند قدمي (كامل)، وراح يقبلهما في رعب، هاتفا:

- الرحمة يا (كامل) بك.. الرحمة

سأله (كامل) في برود:

- أتعتقد أنك تستحق الرحمة يا (جمال)؟

انهمرت دموع (جمال) في مرارة، وهو يقول:

- كنت خائفا يا (كامل) بك.. كنت خائفا..

وعاد (بكري) يكرر:

- هل أنفذ الأمر؟

ولكن (كامل) أشار إليه بالصمت، وقال لـ (جمال) في ازدراء:

- حسنا يا (جمال).. لن أقتلك..

انهمرت دموع (جمال) أكثر، وهو يبلل بها حذاء (كامل)، قائلا:

- أشكرك. يا (كامل) بك.. أشكرك كثيرا.

دفعه (كامل) بقدمه في ازدراء، والتفت إلى (بكري)، قائلا:

- أعد مسدسك إلى غمده يا (بكري).

مطر بكري) شفتيه في أسف، وأعاد مسدسه إلى غمده، في حين انتحى (جمال) ركنًا، وراح يبكي في مرارة، و (كامل) يسأل (بكري):

- ألم يعد (وجيه) بعد، أو يتصل هاتفيا؟

هز (بكري) رأسه نفيا، وقال:

- لا.. ليس بعد.

نفث (كامل) دخان سيجارته في عصبية، وقال:

- لماذا تبدو هذه الليلة، وكأنها بلا نهاية؟

وكان على حق..

إن أحداث الليلة لم تنته بعد..

ولا أحد يعلم متى ستفعل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اللحظات التي اتجه فيها (شندي) نحو (العقرب)، كان هذا الأخير يلقي على نفسه سؤالا محدودا:

- لماذا كثر تعرضه لنزع قناعه هذه المرة؟

ولأن عقله اعتاد الدقة والهدوء، فقد أزاح هذا السؤال جانبا مؤقتا، وعاد يركز تفكيره على الموقف.. إنهم سينزعون قناعه الآن، وسيكشفون حقيقة شخصيته.. إلا إذا..

وفجأة، وقبل أن تبلغ أصابع (شندي) قناعه، قال (العقرب) في حزم:

- مهلا يا سيد (أشرف).. هل تعلم أولا إلى أية جهة أنتمي؟

ابتسم (أشرف) في سخرية، وقال:

- نعم.. لقد تحرى (كامل) بك الأمر، وعلم أنك شخص مختل التفكير، يتصور نفسه سيف العدالة في الأرض، ويواجه الجريمة وحده، و.

قاطعه (العقرب) في هدوء:

- هذا ما يشيعه الزملاء في الشرطة.

تجمدت يد (شندي) قبل أن تلمس قناع (العقرب)، في حين انعقد حاجبا (أشرف) في توتر، وهو يردد:

- الزملاء في الشرطة؟

قال (العقرب) في هدوء:

- نعم يا سيد (أشرف).. الزملاء في الشرطة.. لقد وقعت مع رفاقك في نفس الفخ، الذي وقع فيه الآخرون، عندما انطلت عليكم خدعتنا، وتصورت أنني أعمل ضد رجال الشرطة، ودفعك هذا إلى الإدلاء باعتراف تفصيلي أمامي، دون حذر.

تراجع (أشرف)، هاتفا في هلع:

- اعتراف؟

أشار (العقرب) إلى ساعة يده، قائلا:

- نعم يا (أشرف).. اعتراف نقله جهاز التسجيل الصغير في ساعتي، إلى بعض الزملاء، في سيارة الأجهزة المساعدة، أسفل البناية..

ورفع ساعته، وكأنه يدعوهما لرؤيتها، مستطردا في حزم:

- لقد وقعت يا رجل.

مال (شندي) بحركة غريزية، ليتطلع إلى الساعة، وكذلك اقترب منها (أشرف)..

وهنا تحرك (العقرب)..

تراجعت قبضته في حركة مباغتة، لترتطم بأنف (شندي) كالقنبلة، وتدفعه إلى الخلف في عنف، ثم قفزت قدمه تركل

المسدس من يد (أشرف)، الذي صرخ:

- إنها خدعة..

ودون أن يضيع (العقرب) لحظة واحدة، انقض مرة أخرى على (شندي)، وكال له لكمة عنيفة في معدته، وثانية في أسنانه، سقط لها الرجل فاقد الوعي..

واندفع (أشرف) يحاول استعادة مسدسه، ولكن (العقرب) قفز نحوه مرة ثانية، وركل المسدس بعيدا، ثم أمسك معصم (أشرف)، ولوى ذراعه خلف ظهره في قوة، جعلت هذا الأخير يصرخ في ألم:

- إنك ستكسر ذراعي..

أجابه (العقرب) في صرامة:

- صدقت.. إني سأفعل حتما، لو لم تخبرني بالوسيلة، التي تختلسون بها البترول.

هتف (أشرف) في ألم:

- إنها فكرة (كامل).. أقسم لك إنها فكرته.. هو الذي أقنعنا جميعا بها..

شدد (العقرب) ضغطه على ذراع (أشرف)، وهو يسأله:

- وما هي هذه الفكرة؟

أجابه (أشرف)، وهو يتأوه ألما:

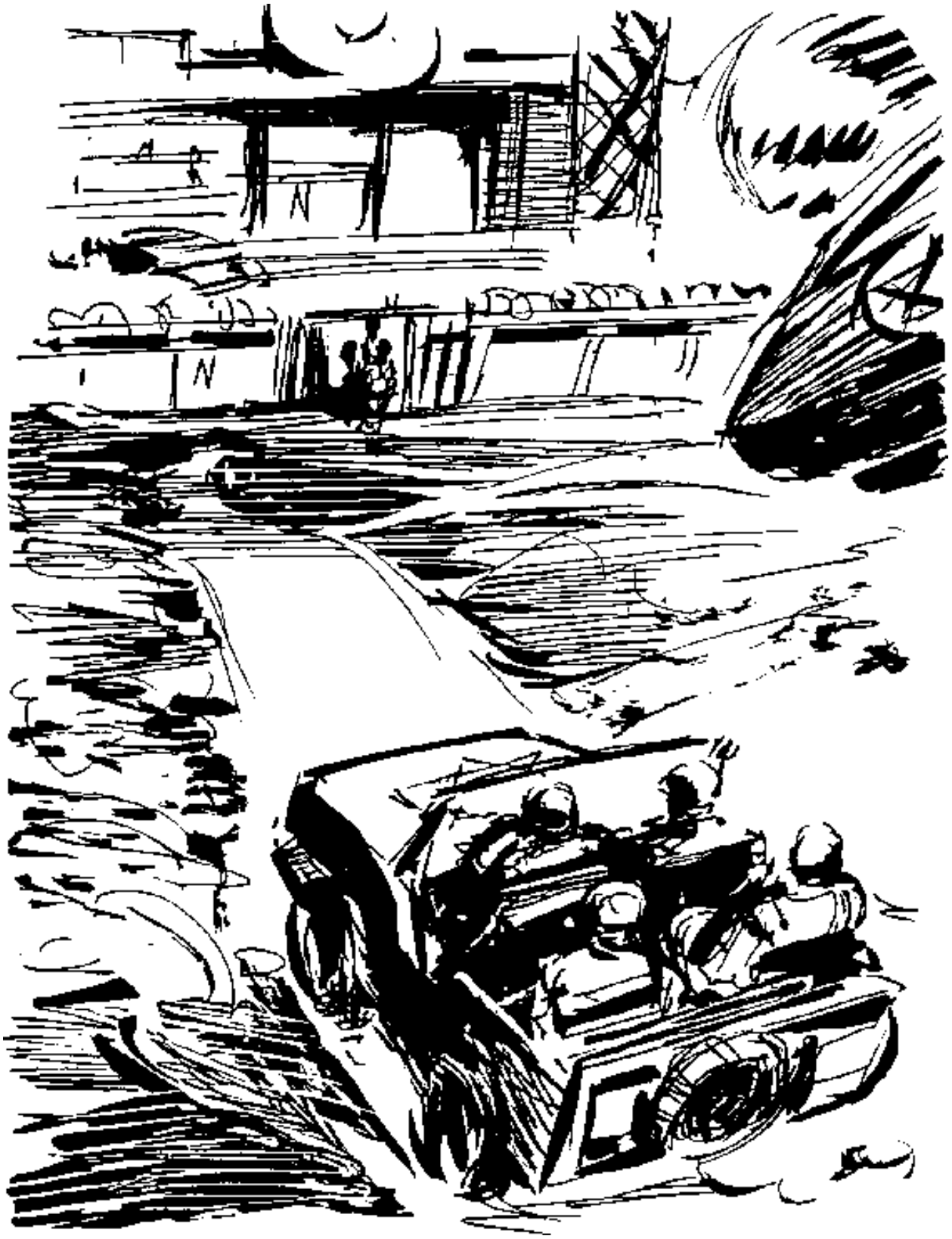

- إنه فارق أسعار الـ..

وقبل أن يتم عبارته، اندفع خدم (أشرف) الثلاثة داخل الحجرة، وهتف أحدهم في ذعر:

- ما هذا؟ من أنت؟

وصرخ (أشرف):

- هاجموه يا رجال.. انقذوني من هذا اللص..

واندفع الرجال الثلاثة نحو (العقرب) بلا تردد..

وفي قوة، دفع (العقرب) (أشرف) في وجه الخدم الثلاثة، ثم ركل وجه أحدهم بقدمه، وقفز متجاوزا الآخرين، واندفع خارج الحجرة، وأغلق بابها خلفه، ثم أسرع يغادر المكان، وهو يسمع (أشرف) يصرخ:

- ألقوا القبض عليه.. امسكوه.

ولكن (العقرب) قفز داخل المصعد، وخلع قناعه وقفازيه، وهو يهبط به إلى أسفل، وأعاد السترة والشارب الكث المستعار، وهو يغمغم في ضيق:

- لماذا تفشل اللعبة دائما، في اللحظة التي أكاد أبلغ فيها الحقيقة؟

بلغ الطابق السفلى في سرعة، ولم يكد حارس البناية يراه، حتى اعتدل في احترام، وسأله:

- هل وجدت شيئا يا سيدي المفتش؟

مطر العقرب) شفتيه، وقال:

- لا كل شيء على ما يرام.

وغادر المكان في خطوات سريعة، مستطردا:

- افتح عينيك جيدا..

أجابه الحارس:

- سأفعل يا سيدي.. سأفعل بالتأكيد.

ولم يكد (العقرب) يغيب عن عينيه، حتى تنفس الصعداء، وتمتم:

- حمدا لله.. كل شيء سار على ما يرام هذه المرة..

ولكنه لم يكد يتم عبارته، حتى هبط خدم (أشرف) في المصعد الأخر، وصاح به أحدهم:

- هل شاهدت شخصا يغادر البناية الآن؟

أجابه في قلق:

- نعم.. إنه مفتش شركة الأمن، و.

قاطعه الخادم في سخط:

- بل هو لص.. أبلغ الشرطة بسرعة.

وكاد الحارس يفقد وعيه..

أما (نديم)، فقد خلع السترة والشارب المستعار، وهو يتجه نحو سيارة (غادة)، التي لم تكد تلمحه، حتى هتفت:

- لماذا تأخرت؟ لقد أصابني قلق شديد..

ألقي نظرة لا مبالية على (وجيه)، الذي يجلس في المقعد الخلفي، وقال وهو يجلس إلى جوارها في هدوء:

- حدث أرتباك بسيط في الأحداث..

انطلقت بالسيارة على الفور، وهي تسأله:

- ارتباك بسيط؟!

أجاب في هدوء:

- إلى حد ما..

سألته في اهتمام

- وماذا عن السر؟ هل حصلت عليه؟

هو رأسه نفيا، وهو يقول:

- كلا.. للأسف.

ثم ألقي نظرة جانبيه على (وجيه)، وأضاف:

- ولكن لدينا فرصة أخرى.

واسترخي في مقعده، مستطردا:

- هيا يا عزيزتي.. انطلقي بنا إلى منطقة هادئة، فلدينا حديث طويل مع هذا الوغد.

وأسبل جفنيه في هدوء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انعقد حاجبا (مجدي) في شدة، وهو يستمع إلى خدم (أشرف)، قبل أن يسأل أحدهم في توتر:

- ألم يترك بطاقة خلفه؟

حق الخادم في وجهه بدهشة، وهو يردد:

- بطاقة؟!

لوح (مجدى) بكفه، قائلا

- حسنا.. لا عليك.. إنه مجرد سؤال.. هيا.. انصرف..

انصرف الخادم من أمامه، في حين اقترب منه الرائد (حسن)، وقال:

- من الواضح أن (العقرب) لم يهدأ هذه الليلة تم (مجدي) في حنق:

- إنه لم يضع لحظة واحدة.

ثم التفت إلى (أشرف)، وقال في عصبية:

- سيد (أشرف).. أتراهن أنني أستطيع تخمين جهة عملك؟ تطلع إليه (أشرف) في دهشة، فأضاف بعصبية أكثر:

- إنك تعمل في شركة (.....) للبترول.. أليس كذلك؟

حدق (أشرف) في وجهه بدهشة، وهتف:

كيف علمت؟

عقد (مجدي) حاجبيه في شدة، وهو يقول:

- الأمر لا يحتاج إلى كثير من الذكاء يا سيد (أشرف)، فمن الواضح أن (العقرب) ينتقي مديري هذه الشركة لهجماته هذه المرة.

شحب وجه (أشرف)، وهو يغمغم:

- ينتقيهم؟! هل هاجم (عماد) و (جمال) أيضا؟

برقت عينا (مجدي)، وهو يقول:

- إذن فأنت تعرف (جمال)؟

ارتبك (أشرف)، وهو يقول:

- بالتأكيد.. إنه زميل عمل.

سأله (مجدي):

- ومن (عماد) هذا؟

أجابه في توتر:

- إنه مدير الإنتاج والمتابعة في الشركة.

تطلع (مجدي) إلى الردهة البالغة الفخامة، وهو يسأله:

- وهل يحيا مثلك، ومثل (رضوان)، في مكان فاخر كهذا؟

أجابه (أشرف) في ارتباك:

- إني أمتلك مكتبا هندسيا معروفا، و (عماد) متزوج من سيدة ثرية.

ابتسم (مجدي) ابتسامة عصبية، وهو يقول

- بالطبع.. كل منكم لديه ما يبرر الثراء الزائد.. هذا أكيد.

ثم التفت إلى الرائد (حسن)، وأضاف

- هيا يا (حسن).. دعنا لا نخسر الجولة القادمة.. أرسل رجالنا لمراقبة محل إقامة (عماد) هذا، قبل أن يضرب (العقرب) ضربته التالية.. سيخبرك السيد (أشرف) بعنوانه الآن.. أليس كذلك يا سيد (أشرف)؟

أجابه (أشرف) متوترا:

- بلي سأخبره بالطبع.

سأله (مجدي):

- أهناك شخص آخر؟

كاد (أشرف) يخبره باسم (كامل شكري)، إلا أنه أمسك لسانه في اللحظة الأخيرة، وهو يجيب:

- لا.. لا يوجد سوى (عماد).

هتف (مجدي في حماس

- عظم.. هذا سيجعل الأمر محدودا..

غمغم (أشرف):

- بالطبع، سيجعله محدودا..

ولكنه كان يشعر بقلق شديد.

وخوف بلا حدود..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20- أول الخيط..

كان الشفق قد تلون بألوان الشروق الجميلة، عندما أوقفت (غادة) سيارتها عند سفح الهرم، والتفتت إلى (وجيه) تقول:

- نهاية الخط يا صاح..

بدا التوتر على ملامح (وجيه)، في حين غادر (نديم) مقعده، وفتح الباب الخلفي للسيارة، وجذب (وجيه) خارجها، قائلا في صرامة:

- هل أصابك الصمم يا رجل؟ ألم تسمع ما قالته زميلتي؟

ثم مد يده إلى (غادة)، مستطردا:

- هلا أعرتني مسدسك الصغير يا عزيزتي؟

ناولته (غادة) مسدسها، ونزعت الكمامة عن فم (وجبه)، الذي قال في عصبية واضحة:

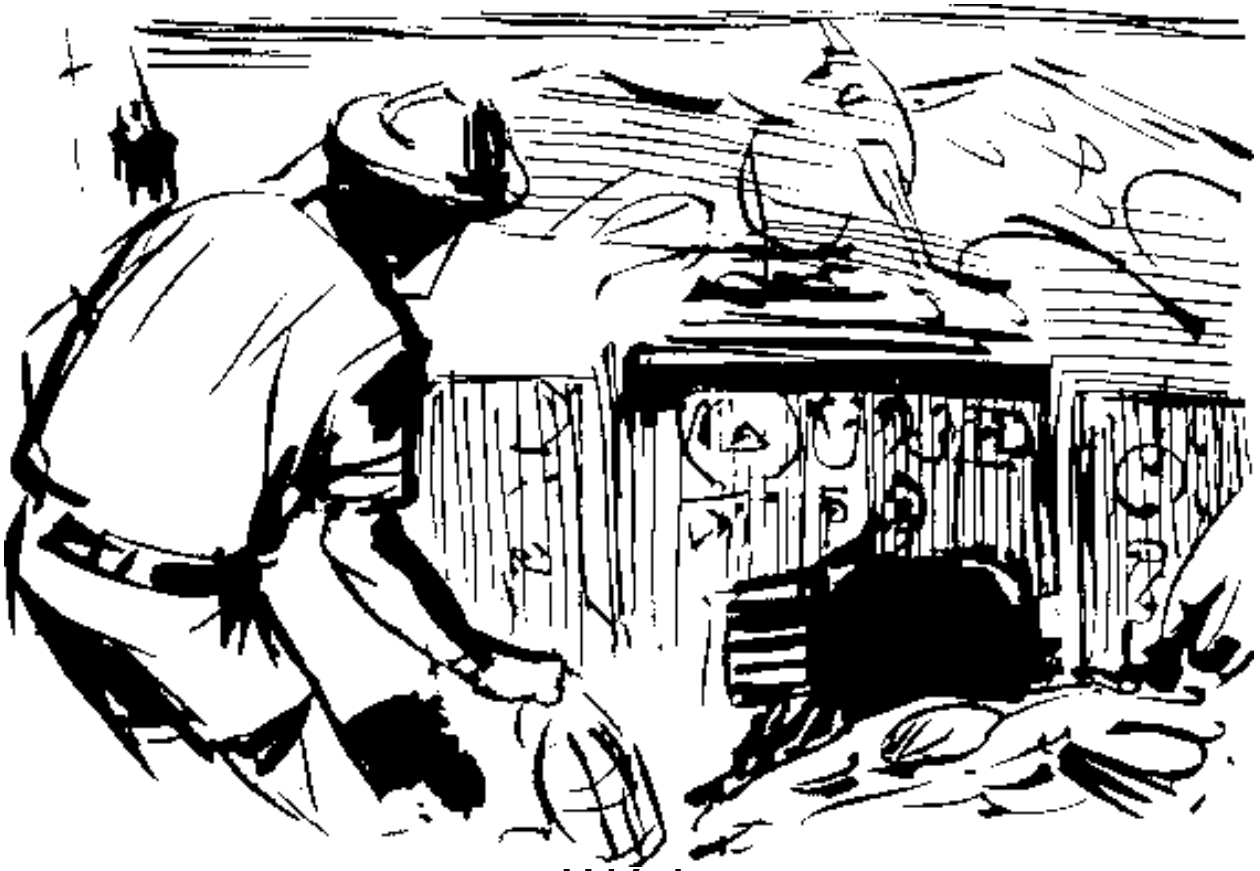

- ماذا تنوي أن تفعل؟

صوب (نديم المسدس إلى رأس (وجيه)، وقال في برود:

. ألم تفهم بعد يا رجل؟ إننا سننسف رأسك هنا..

امتقع وجه (وجيه)، وقال بمزيد من العصبية:

- أراهن أنك تحاول إخافتي فحسب..

جذب (نديم إبرة المسد، وقال

- فليكن، ولكنك لن تربح هذا الرهان.

كان يبدو صارما حازما، حتى أن روجيه) شعر بخوف حقيقي جعل العرق يتصبب على جينه، وقلبه ينبض في عنف، وهو يلتفت إلى (غادة، قائلا:

- أهو صادق في قوله هذا؟

ابتسمت في سخرية، وقالت:

- ستعرف بعد لحظة واحدة.

وألصق (نديم) فوهة المدس بجبهة (وجيه)، قائلا في برود:

- وداعا أيها الوغد.

صرخ (وجيه):

- لا.. لا.. لا تطلق النار..

سأله (نديم) في برود:

- ومن سيمنعني؟

هتف (وجيه):

- انا.

ثم استدرك في سرعة:

- يمكنني أن أدفع الثمن..

قال (نديم) في هدوء:

- لست أحتاج إلى المال.

أجابه (وجيه) في سرعة:

- لدي ما ترغب في معرفته على الأقل.

عقد (نديم) حاجبيه، وأعاد إبرة مسدسه إلى موضعها، وهو يقول:

- مثل ماذا؟

أجابه في سرعة:

- إنني أعرف اسم الرجل، الذي قتل زميله، في منزل الصحفي، إنه (بكري).. (بكري عريان).. إنني مستعد للاعتراف بهذا..

أشار (نديم) إلى (غادة)، قائلا:

- أحضري جهاز التسجيل الصغير، فسيسجل صديقنا هذا اعترافه.

أحضرت (غادة) جهاز التسجيل، وأدنته من فم (وجيه)، الذي أسرع يدلى باعتراف تفصيلي، عن إرساله رجلين للقضاء على صحفي يدعى (أحمد عبد الغفار)، وكيف أن أحدهما قل رفيقه، وحاول إلصاق التهمة بـ (العقرب)، ولم يكد ينتهي حتى أوقفت (غادة) التسجيل، وسأله (نديم) في هدوء:

- هذا الاعتراف يفيد (العقرب) يا رجل، ولكن ماذا عني أنا؟

سأله في توتر:

- وما الذي ترغب في معرفته؟

عاد (نديم) يجذب إبرة مسدسة، وهو يقول:

- كيف يختلس (كامل شكري) ورفاقه البترول؟

أجابه (وجيه) في انفعال وخوف:

- لست أدرى شيئا عن هذا.. أقسم لك.. كل ما علمته بالمصادفة، هو أن الدكتور (جمال) هو الذي يجعل الأمر سهلا، وأن (كامل) بك هو الذي اتفق مع شركة البترول الأجنبية..

عقد (نديم) حاجبيه، وقال:

- أهذا كل ما تعرفه؟

كاد الرجل يبكي، وهو يقول:

- أقسم لك أن هذا كل ما أعرفه.. أقسم لك..

أو ما (نديم) برأسه موافقا، وقال:

- إنني أصدقك.

وفي نفس اللحظة عادت (غادة، تحيط فم (وجبه) بالكمامة، وهي تقول ساخرة:

- المهم أن يصدقك رجال الشرطة.

وأدرك (وجيه) أنه سيلتقي قريا برجال الشرطة هؤلاء..

قريبا جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- إنني لم أعد أحتمل...

صاح (عماد) بهذه العبارة، وسط قاعة الاجتماعات الخاصة الملحقة بمكتب (كامل شكري)، الذي عقد حاجيه في صرامة، وهو يتطلع عبر نافذة مكتبه، ثم التفت إلى المديرين الأربعة، الذين يحتلون مقاعدهم حول مائدة الاجتماعات، وقال في صوت غاضب:

- لماذا لم تعد تحتمل يا (عماد)؟ إنك على الأقل الوحيد بيننا الذي لم يهاجمه (العقرب) بعد!

صاح (عماد):

- لن أنتظر حتى يفعل.. لقد أيقظني رجال الشرطة في الفجر، وأخبروني أنني مهدد بهجوم شخص مقنع، وحذروني منه، وتركوا بعض رجالهم لحراسة الفيلا، ولكن ذلك (العقرب) يجتاز دائما كل رجال الحراسة.

قال (كامل) في صرامة:

- وماذا تقترح؟

أجابه في عصبية:

- أن نغادر البلاد، كما أراد (جمال).

عقد (كامل) حاجبيه، على نحو مخيف، وهو يقول:

- أهذا رأيكم جميعا؟

انكمش (جمال) في مقعده، في حين قال (رضوان) في توتر:

- نعم.. إنه رأينا جميعًا

ران صمت رهيب ثقيل على المكان، وارتسم التوتر على وجوه الجميع، حتى قطع (كامل) حبل الصمت هذا، وهو يقول في صرامة:

- فليكن.. سنغادر البلاد.

سرى الارتياح في جو الحجرة، وتنفس الجميع الصعداء، قبل أن يضيف:

- ولكن ليس بالسرعة التي تتصورونها.

قال (أشرف) في حدة:

- ماذا تعني؟ إن ذلك (العقرب) يطاردنا في إصرار، وسيوقع بنا إن آجلا أو عاجلا، وبقاؤنا يعني المزيد من المخاطر.

قال (كامل) في صرامة:

- وفرارنا السريع هذا سيكشف لعبتنا كلها، وسيجعلنا مجرد مجرمين، هاربين من القانون، وربما استعان المسئولون بالبوليس الدولي (الإنتربول)، لإلقاء القبض علينا، وإعادتنا إلى هنا، حيث يكون السجن مصيرنا.

قال (جمال) في تردد:

- لا توجد اتفاقية لتبادل المجرمين، بين (مصر) و (سويسرا)، ولو غادرنا البلاد الليلة، فسنكون في مأمن هناك، مع مطلع فجر الغد.

مضت لحظات أخرى من الصمت، قبل أن يقول (كامل) في صرامة:

- فليكن.. سترحل جميعا في طائرة منتصف الليل، إلى (سويسرا).

وشرد ببصره، مستطردا في غيظ:

- وسيؤلمني كثيرا أن يجبرنا ذلك (العقرب) اللعين، على إفساد عمل كل هذه السنين، والفرار على هذا النحو..

غمغم (جمال):

- هذا أفضل من قضاء ما تبقى من العمر خلف القضبان.

وافقه (عماد) بإيماءة من رأسه، وتنهد (رضوان) في عمق، في حين قال (أشرف):

- هذا صحيح.

مط (كامل) شفتيه، وقال:

- فليكن.. الليلة، ومع منتصف الليل تماما، تنتهي لعبتنا..

وعاد يشرد بصره، مستطردا:

- وإلى الأبد.

عقد عم (أحمد)، العامل الخاص بمكتب (نديم) حاجيه، عندما رأى (مجدى) أمام باب المكتب، وهو يسأله بخشونته المعهودة:

- هل وصل (نديم) في موعده اليوم؟

أجابه عم (أحمد) في ضيق:

- بالطبع.. وما الذي يدعوه للتأخير؟

قال (مجدي)، وهو يندفع نحو مكتب (نديم):

- الليلة الماضية.. لقد كانت حافلة للغاية..

هتف به (احمد):

- مهلا.. ينبغي أن أبلغ السيد (نديم) أولا، و.

ولكن (مجدي) اقتحم الحجرة في غلظة، وأدهشه أن وجد (نديم) خلف مكتبه، أنيقا هادئا كعادته، وأحنقه أن استقبله (نديم) في برود، قائلا:

- مرحبا يا (مجدي).. ألم يكن من اللائق أن تطرق الباب أولا؟

جلس (مجدي) على المقعد المقابل لمكتب (نديم)، وهو يقول في عصبية:

- لقد تركت اللياقة لك..

ثم مال نحوه، مستطردا:

- ولـ (العقرب):

تطلع إليه (نديم) في هدوء مثير، قبل أن يسأله:

- هل (العقرب) هو سبب زيارتك هذه؟

تجاهل (مجدي) السؤال، وقال:

- هل تعرف مجرما يدعى (وجيه سمعان)؟

قال (نديم) في هدوء:

- إني أذكره، من أيام عمل بالشرطة.

قال (مجدي) بسخرية عصبية:

- عجبا!! كنت أظنك قد التقيت به فجر اليوم، وتركه مقيدا ومكمما عند سفح الهرم الأكبر، وفي جيبه شريط تسجيل، يحوي اعترافا تفصيليا منه، ينفي تهمة القتل عن (العقرب).

سأله (نديم) في هدوء:

- هل فعل به (العقرب) هذا؟

قال (مجدي) في حدة:

- إنه يتهمك أنت بهذا؟

رفع (نديم) حاجبيه، وهو يقول:

- أنا؟! ولكنني كنت..

قاطعه (مجدي) في حدة:

- أعلم.. أعلم أنك أعددت كل شيء، لثبت بعدك عن مكان الحادث بعشرات الكيلومترات، ولا أحد يستمع إلى كلمة مجرم مثل (وجيه)، أمام كلمتك أنت، وخاصة مع عدم وجود دليل.. أعلم هذا..

ثم نهض من مقعده، مستطردا:

- وإنما أردت إخبارك فقط..

قال (نديم) في هدوء:

- فقط؟!

قال (مجدي) في عصبية:

- لا.. مازالت هناك نقطة أخرى.. لقد راجعت ملف شركة البترول، وأعلم أنه هناك أمر غير قانوني يحدث هناك، ولكني فشلت في كشفه، وإن كنت واثقا من أن (العقرب) يعلمه، ويطارد مديري الشركة لهذا السبب..

هز (نديم) كتفيه، وقال:

- ربما..

رمقه (مجدى) بنظرة صارمة غاضبة، قبل أن يلوح في وجهه بسبابته، قائلا:

- اسمع يا (نديم).. مهما كانت الأسباب، فليس من حق (العقرب) أن يتدخل في أمور العدالة، ولو حاول مهاجمة (عماد)، كما هاجم الباقين، فسيقع في يدي حتما..

لم ينبس (نديم) ببنت شفة، حتى انتهى (مجدي) من قوله، واندفع يغادر المكان في عنف كما دخله، ولم يكد يبتعد، حتى دفعت (غادة) باب مكتب (نديم)، ودخلته قائلة في حنق:

- يا لـ (مجدي) السخيف هذا! لقد أيقظني من نومي بصياحه.

قال (قديم) في هدوء:

- إنه يؤدي واجبه.

ألقت نفسها على أول مقعد صادفها، وهي تسأله:

- هل عثر على (وجيه)؟

أومأ برأسه إيجابا، ثم مال يستند إلى مكتبه بمرفقيه، وهو يقول:

- ولكن (وجبه) لم يتهم (كامل) مباشرة، وهذا يعني أن لعبتا نحن لم تنته بعد.

سألته في تكاسل:

- هل توصلت إلى شيء، بخصوص عملية اختلاس البترول؟

أجابها:

- ليس بعد.

ثم تراجع بمقعده، مستطردا:

- المعلومات التي لدينا قاصرة للغاية..

غمغمت (غادة):

- إنها طرف خيط على الأقل..

أغلق (نديم) عينيه، وهو يفكر في عمق، قائلا

- دعينا نراجع ما لدينا، فالدكتور (جمال) قال: إنه أهم شخص في اللعبة كلها، وإنه يحصل هذا على نسبة أعلى من الآخرين، وأيد (وجيه) قوله، مضيفا أن (كامل) هو الذي اتفق مع شركة البترول الأجنبية.. وأخيرا أشار (أشرف إلى وجود فارق ما في الأسعار، يحقق هذا الاختلاس، فأي فارق هذا؟

هزت (غادة) رأسها، قائلة:

- لقد قضيت ساعة كاملة في التفكير في هذا، دون أن أتوصل إلى شيء ما..

أجابها (نديم):

- وأنا أيضا، فكمية البترول خاضعة لمراقبة شديدة، تجعل من المستحيل تجاوزها، أو التقليل منها، وسعة ناقلات البترول مدروسة ومعروفة، ومن المستحيل بالفعل إقامة خط أنابيب فرعي، فكيف يمكن اختلاس البترول؟

ابتسمت (غادة) في سخرية، وهي تقول

- ربما يضيفون إليه بعض الماء، ويحصلون على فارق الأسعار!

لم يستقبل الدعابة كعادته، وإنما هز رأسه مستنكرا، وهو يقول:

- مستحيل، فالبترول لا يمتزج بالماء، كما أن هذا لا يفيد الشركة الأجنبية، ولو كان الـ..

بتر عبارته بغتة، وانعقد حاجباه في شدة، قبل أن يقول في حماس:

- بالطبع.. هذا هو التفسير المنطقي..

التفتت إليه (غادة)، وهتفت به:

- هل توصلت إلى الوسيلة؟

أجابها في حماس

- نعم.. إنها وسيلة شيطانية، ولكنها التفسير الوحيد لكل هذا..

صاحت:

- أخبرني بها بالله عليك.. هيا.. لن أحتمل الانتظار.

أجابها في اهتمام

- سأخبرك بها بالطبع يا (غادة)، ولكن ينبغي أن نتحرك في سرعة، وإلا أفلت الصيد من القفص..

وأخذ يروي ما توصل إليه..

وكانت الخطة شيطانية..

شيطانية بحق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21- السقوط..

تطلع اللواء (حلمي) في قلق إلى (مجدي)، الذي بدا شديد العصبية، وهو يقدم له ملف شركة البترول، قائلا:

- ما رأيك يا سيدي؟ هناك انحرافات مالية خفية.. أليس كذلك؟

أجابه اللواء (حلمي):

- ربما يا (مجدي)، ولكن أجهزة الدولة كلها لم تنجح في كشف هذه الانحرافات المالية، ونحن نحتاج إلى دليل مادي قوي؛ لإقناع وكيل النيابة بإصدار أوامر القبض، على كل مديري الشركة دفعة واحدة.

أغلق (مجدي) الملف في حدة، وهو يقول غاضبا:

- هذا ما يميزه عنا..

سأله اللواء (حلمي):

- من تقصد؟

أجابه في غضب:

- (العقرب).. إنه يضرب ضربته، دون الحاجة إلى أدلة مادية، أو تقارير من المعمل الجنائي، أو أوامر قبض.. إنه يتحرك بالحرية، التي نحتاج نحن إليها..

ابتسم اللواء (حلمي) في تعاطف، وهو يقول:

- وهل تقبل العمل بأسلوب (العقرب)؟

هتف (مجدي):

- مستحيل! إنه يخالف القانون.

ربَّت (حلمي) على كتفه، وقال:

- القانون يا ولدي وسيلة لحفظ الحقوق والحريات، وتلك التعقيدات الكثيرة فيه شديدة الأهمية، لضمان العدل والحق، ولكنه ككل القوانين البشرية الوضعية، يحوى بعض الثغرات، و (العقرب) يعمل لسد هذه الثغرات، وتحقيق العدالة عبرها.

حق (مجدي) في وجهه بشدة، وهتف:

- هل توافق على أسلوب (العقرب) يا سيدي؟

هر حلمي) كتفيه، وقال:

- إنه لا يؤذي الأبرياء على الأقل.

صاح (مجدي) مستنكرا:

- ولكنه يخالف القانون.

ابتسم اللواء (حلمي)، وسأله في حنان أبوي:

- ألم تراودك أحيانا الرغبة في مخالفة القانون، لتحقيق العدالة؟

أجابه في سخط:

- بل راودتني كثيرا، لإلقاء القبض على (نديم)، وإثبات أنه (العقرب).

تطلع إليه (حلمي) لحظات في صمت، ثم عاد يجلس خلف مكتبه وقال:

- أتعلم يا (مجدي).. لو أني في موضعك، لما تعاملت مع (العقرب) بهذه العدوانية.

سأله (مجدي) في ضيق:

- وكيف كنت ستتعامل معه يا سيدي؟

فاجأه جواب (حلمي)، وهو يقول:

- كنت سأعاونه.

صاح (مجدي) مستنكرا:

- تعاونه؟!

أجابه اللواء (حلمي):

- نعم.. كنت سأفسح له الطريق على الأقل يا (مجدي)، حتى يوقع من يعجز القانون عن الإيقاع بهم، ما دام هذا يحقق العدالة.

صمت (مجدي) لحظات، تطلع خلالها إلى اللواء (حلمي) في حيرة، قبل أن يقول في حدة:

- لا.. لا يمكنني هذا.

قال اللواء (حلمي) في بساطة:

- ولم لا. خذ قضية مثل قضية شركة البترول هذه.. إننا جميعا نشعر بوجود تلاعب مالي هناك، ولكن كل الجهات الرسمية عجزت عن إثبات هذا، في حين قد ينجح (العقرب) في هذا.

لوح (مجدي) بذراعه، هاتفا في سخط:

- ومن قال إنه سينجح؟

ارتفعت طرقات منتظمة على الباب، عند هذه اللحظة، فقال اللواء (حلمي):

- ادخل

دخل إلى الحجرة شرطي، تقدم إلى حيث يجلس اللواء (حلمي).. وأدى التحية العسكرية في احترام، ثم ناول اللواء (حلمي) مظروفا مغلقا، وهو يقول:

- رسالة خاصة لك يا سيدي.

سأله اللواء (حلمي)، وهو يلتقط منه المظروف:

- من أحضرها؟

أجابه الشرطي:

- سيدة عجوز، قالت إنه خطاب شخصي لك.

أومأ اللواء (حلمي) برأسه، قائلا:

- لا بأس.. يمكنك الانصراف.

انصرف الشرطي في سرعة، في حين فتح اللواء (حلمي) الظروف، وهو يقول:

- ترى من أرسل هذا إلى..

قبل أن يتم عبارته، سقطت من المظروف بطاقة أنيقة، اتسعت عينا (مجدي)، وهو يحدِّق فيها هاتفا:

- (العقرب).. إنها رسالة من (العقرب).

كانت البطاقة تحمل رسم العقرب الذهبي في وضوح، مما جعل اللواء (حلمي) يلتقط الرسالة المرفقة بها في لهفة، لم تبلغ حد خفة (مجدى)، وهو يسأله:

- ماذا يقول في رسالته يا سيدي؟ ماذا يقول فيها؟

قرأ اللواء (حلمي) الرسالة في سرعة، واتسعت عيناه في شدة، وهو يهتف في انفعال:

- يا إلهي! إنه الحل يا (مجدي).. لقد توصل (العقرب) إلى الحل..

سأله (مجدي) في انفعال شديد:

- حل ماذا؟

ناوله اللواء (حلمي) الخطاب، وهو يجيب:

- حل لغز عصابة البترول يا (مجدي).. لقد فعلها (العقرب).. لقد فعلها.

وعندما اختطف (مجدي) الخطاب، أدرك أن اللواء (حلمي) على حق..

لقد فعلها (العقرب)..

فعلها في مهارة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهى (بكري) من إعداد حقيبة (كامل)، والتفت إليه يسأله:

- هل تأمر بشيء آخر أيها الزعيم؟

نفث (كامل) دخان سيجاره، وهو يقول في حدة:

- لا تستخدم هذا اللفظ مرة أخرى يا (بكري).

ابتسم (بكري)، قائلا:

- فليكن يا سيدي.. لن أستخدمه.

واقترب من (كامل)، يسأله:

- أصحيح أنك ستغادر البلاد إلى الأبد؟

أجابه (كامل) في عصبية

- نعم.. ولقد منحتك مكافأة سخية.. أليس كذلك؟

قال (بكري)، في لهجة أقرب إلى السخرية:

- هل تراها حقا سخية أيها الزعيم؟

التفت إليه (كامل)، وقال:

- لقد منحتك خمسين ألف جنيه دفعة واحدة.. ألا يكفيك هذا؟

أجابه (بكري) في غلظة:

- ليس عندما تنعم أنت بالملايين أيها الزعيم..

قال (كامل) في حدة:

- إنها نقودي.

أجابه (بكري):

- بل هي نقود الشركة، لو توخيا الدقة.

تطلع إليه (كامل) لحظة في صرامة، ثم سأله في حدة:

ماذا تريد بالضبط يا (بكري)؟

أجابه في شراهة عجيبة:

- مليون جنيه.

هتف به (كامل):

- مليون جنيه!، هل جننت؟

صاح به (بكري) في غضب:

- لماذا؟ لقد ساعدتك في الحصول على الملايين، وفي حماية ما حصلت عليه.. ألا أستحق في النهاية مليون جنيه؟

مضت لحظات الصمت، قبل أن يبتسم (كامل) ابتسامة غامضة، ويقول:

- بل تستحق الكثير يا (بكري)..

ومد يده إلى جيب سترته، مستطردا:

- تستحق هذا.

وفي حركة سريعة، انتزع من جيب سترته مسدسا، أطلقه على صدر (بكري) بلا تردد، فجحظت عينا هذا الأخير، وانفرجت شفتاه لينطق بشيء ما، إلا أنه لم ينطق به قط، فقد هوى عند قدمي (كامل) جثة هامدة..

وفي ازدراء دفع (كامل) جدة (بكري) بقدمه، وقال:

- هذا جزاء الطمع أيها الغبي.

أتى صوت صارم من خلفه، يقول:

- أتظن هذا؟

التفت في حدة وذعر إلى مصدر الصوت، ورأى قدما ترتفع في سرعة وقوة، لتطيح بمسدسه، ثم وقع بصره على الوجه ذي القناع..

وجه (العقرب)..

وفي عصبية هتف (كامل):

- من أنت؟ وماذا تريد مني؟

أجابه (العقرب) في هدوء:

- أظنك تعرفني جيدا يا سيد (كامل)، وتعرف لماذا أنا هنا؟

صاح (كامل) في توتر:

- أنت مخطئ كثيرا، فالمخالفات المالية للشركة مجرد شائعة..

قال (العقرب) في برود:

- لا داعي لهذا القول يا (كامل)، لقد كشفت أمرك، وأمر عصابتك كلها..

سقط فك (كامل)، وهو يقول:

- كشفت أمرى؟!

ثم استعاد سيطرته على نفسه في سرعة، واستطرد في حدة:

- أتحداك.. أتحداك أن تجد دليلا واحدا، على أننا نختلس شيئا من الشركة.

قال العقرب في ثقة:

لا داعي للتحدي يا (كامل).. صحيح أن خطتكم عبقرية، ولكنها انكشفت، كما يحدث لكل مجرم.. لقد حيرني الأمر في البداية، ولكنني توصلت إلى الحل أخيرا، وأنت تعلم مثلي أن مجرد التوصل إلى الحل يفسد اللعبة كلها، ويجعل الحصول على الدليل مهمة بسيطة للغاية.. أليس كذلك؟

تصبب العرق على وجه (كامل)، وهو يقول:

- أتحداك!!

قال (العقرب):

- قلت لك لا داعي للتحدي يا (كامل)، فستدان على الأقل بتهمة قتل (بكري)..

لوح (كامل) بكفه، قائلا في جدة:

- سأنكر معرفتي به.. إنه مجرد لص، تسلل إلى هنا، وحاول قتلى، فدافعت عن نفسي، وقتلته.. ومسدسي هذا مرّخص.

هزر العقرب كتفيه، وقال

- فليكن، ولكن اللعبة الأخرى انكشفت كلها.

عاد يكرر في حدة:

- أتحداك.

ارتسمت على شفتي (نديم) ابتسامة باهتة، لم تلبث أن تلاشت في سرعة، وهو يقول:

- ستخسر التحدي يا (كامل).

ثم مال نحوه، مستطردا:

- أنت تعلم - مثلي - أن لعبتكم كلها تعتمد على جودة البترول الخام.

اتسعت عينا (كامل) في ذعر، وترك جسده يتهاوى على أقرب مقعد إليه، و (العقرب) يستطرد:

- كل نوع من خامات البترول له سعر خاص، يتفاوت تبعًا لجودة الخام ونقاوته، وفي لعبتكم هذه حدّدتم جودة أقل لخام الموقع، بحيث يصبح سعره أقل مما ينبغي، واتفقت مع الشركة الأجنبية على شراء الخام بسعر مناسب، يزيد كثيرا عن سعر الخام الأقل، ويقل كثيرا أيضا عن سعره الحقيقي، وكان من السهل أن يحدد الدكتور (جمال) جودة الخام باقل من حقيقتها، بل وأرسل عينات غير حقيقية إلى المعامل المركزية في (القاهرة)، ليثبت رسميا عدم جودة الخام، وبعدها بدأت اللعبة..

الشركة الأجنبية تتلقى خاما من أفضل طراز، وتدفع ثمن خام رديء، وفي نفس الوقت تحصلون أنتم على فارق أسعار منافس، يجعل الشركة الأجنبية رابحة، وكذلك أنتم، في حين تخسر الشركة المصرية الفارق الحقيقي..

انهار (كامل) تماما، و (العقرب) يتابع:

- ولكن اللعبة كلها تفشل بالطبع، عندما يعرف شخص واحد هذه الحقيقة، ففي هذه الحالة سيتم تحليل خام البئر مرة ثانية، وستنكشف الحقيقة، وتنهار العصابة كلها..

انتزع (كامل) من بين شفتيه عبارة قصيرة، وهو يقول:

- كم تريد؟

هز (العقرب) رأسه، وقال:

- أريدكم خلف القضبان للأسف.. وهذا هو الثمن الوحيد الذي يرضيني، ولقد أرسلت خطابا إلى مديرية الأمن، وآخر إلى الجهاز المركزي للمحاسبات، أكشف فيه اللعبة كلها، وأظن الشرطة في طريقها إلى هنا الآن..

لم يكد يتم عبارته، حتى بدا صوت أبواق سيارات الشرطة واضحا..

فأضاف في برود:

- هيا يا رجل.. تقّبل الخسارة بروح رياضية.

واتجه نحو الباب، وغاب كالشبح..

ولدقائق، راح صوت سيارات الشرطة يقترب ويقترب..

ولكن (كامل) لم يبارح مقعده..

لقد انهار عمله كله..

سقطت لعبته.. وخسر ملايينه كلها..

بل خسر حياته..

وفي بطء.. أدار (كامل شكري) عينيه إلى ركن الحجرة، حيث سقط مسدسه..

وفي بطء أيضا نهض يلتقط المسدس، ويدير فوهته إلى صدغه، مغمغمًا:

- لقد خسرنا كل شيء..

وضغط الزناد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22- الختام..

أشارت (غادة) إلى صحيفة الصباح التالي، وهي تهتف في حرارة:

- هل قرأت هذه العناوين الرئيسية، في صفحة الحوادث؟

انتحار رئيس مجلس إدارة شركة البترول، وإلقاء القبض على مديروها الأربعة.. لقد حقق (العقرب) انتصاراً جديدا كالمعتاد، وحطم عصابة إجرامية هذه المرة..

أجابها (نديم) في هدوء:

- هذا ما اختاره هدفا لحياته..

همَّت بقول شيء ما، لولا أن دخل عم (أحد) إلى الحجرة، وقال وهو يبتسم في حنان:

- لديك زائر خاص يا سيدي.

ومن خلفه ظهر اللواء (حلمي)، يقول:

- صباح الخير يا (نديم).

نهض (نديم) يصافحه في حرارة، وهو يقول:

- صباح الخير يا سيدي.. كيف حالك؟

أشار اللواء (حلمي) إلى صدره، قائلا:

- في خير حال يا ولدي.. قلبي يشعر بالارتياح التام الآن.

وصافح (غادة)، مستطردا بابتسامة أبوية:

- بفضلكما.

تبادلت (غادة) ابتسامة حذرة مع (نديم)، لاحظها اللواء (حلمي)، فاتسعت ابتسامته، وهو يقول:

_ أقصد بفضل (العقرب).

قال (نديم) في هدوء:

_ لقد أدي عمله يا سيدي..

أضاف اللواء (حلمي):

- وحقق العدالة..

ثم اعتدل، وسأل (نديم):

- أتعلم ما ستفعله الدولة؟ إنها ستستعيد الملايين العديدة، التي أودعها هؤلاء اللصوص في بنوك (سويسرا)، وستصادر ممتلكاتهم، وتلقي بهم خلف القضبان.

قال (نديم):

- إنهم يستحقون هذا.

هتف اللواء (حلمي):

- بالطبع.

ثم رمق (نديم) بنظرة امتنان، وهو يستطرد:

- ولكنني أتمنى مقابلة (العقرب) الآن.

سألته (غادة):

- لماذا؟ هل ستمنحه وساما؟

ابتسم قائلا:

- لم أكن لأتردد، لو أن هذا في نطاق سلطتي..

قال (نديم) في هدوء:

- لست أظنه يهتم بالأوسمة يا سيدي..

وافقه (حلمي) بإيماءة من رأسه، وقال:

- أعلم هذا يا ولدي.. أعلم هذا، ولكني أردت مقابلته لأشكره على استجابته لنداء صديق.

قال (نديم):

- إنه لا يتردد في هذا يا سيدي.

وأضافت (غادة):

- ما دام يحقق العدالة.

أومأ (حلمي) برأسه مرة أخرى موافقا، وقال:

- نعم يا ولدي.. نعم يا بنيتي.. هذا هو ما توقعته.

وابتسم في إعجاب وحنان، مستطردا:

- وهذا هو (العقرب).

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

العقرب:

مهمة رسمية

(الرواية السادسة - مجمعة)

عندما يعجز القانون البشري عن القصاص..

عندما تحيط العدالة عينيها بعصابة سميكة..

حينما يرتفع ذلك الحاجز بين العدالة والقانون..

عندئذ يهب هو للقتال، حاملا ذلك الاسم، الذي يثير الرجفة في قلوب أعتى المجرمين..

اسم (العقرب).

العقرب

مهمة رسمية

1- زيارة مفاجئة..

من المؤكد أن (غادة)، زميلة (نديم فوزي)، في مكتب المحاماة، لم تشهد زحاما، في منطقه وسط المدينة، مثلما شهدته في ذلك الصباح الحار، وهي تدور بسيارتها، وتدور وتدور، بحثا عن موقع واحد للانتظار..

ولقد استغرق منها هذا الأمر نصف ساعة كاملة، قبل أن تجد مكانا منزويا لسيارتها..

واحتاجت إلى عشر دقائق كاملة، لتصل إليه وتغادر سيارتها، هاتفة في حنق:

- يا إلهي ماذا يريدون منا بالضبط؟! أن نتحول إلى بهلوانات؟

ضحك منادي السيارات القريب لعبارتها، وعلق في سخرية:

- أمر طبيعي يا سيدتي.. البهلوان وحده يمكنه قيادة سيارته في وسط المدينة.

زفرت مغمغمة:

- الواقع أن الازدحام قد بلغ حدًا غير محتمل.. لابد من وجود حل له، قبل أن يأتي يوم لا نجد فيه موطأ لقدم.

ابتسم الرجل، قائلا:

- اطمئني يا سيدتي... أعتقد أن المشكلة ستجد حلا جذريا، خلال عام واحد على الأكثر..

ابتسمت ساخرة وهي تغلق سيارتها، قائلة:

- يا لك من متفائل!

هز كتفيه، قائلا:

- ليس للأمر علاقة بالتفاؤل.. إنهم ينشئون هنا جراجًا متعدد الطوابق بالفعل، يمكنه استيعاب ما يقرب من ثلاثين ألف سيارة.

ارتفع حاجباها في دهشة، وهي تهتف:

- هنا.. في وسط المدينة؟!

أشار بيده إلى منطقة قريبة، قائلا:

- نعم يا سيدتي.. هل ترين ذلك المبني ذا الطابقين هناك المبنى القديم الطراز.. إنهم يبدئون في هدمه بالفعل، وعلى مساحة أرضه الضخمة، سيقيمون مبني من ثلاثين طابقا.. بالإضافة إلى ثلاثة طوابق تحت أرضية، وسيتم استغلال تلك الطوابق الثلاثة، بالإضافة إلى أربعة من طوابق من المبنى، كجراج متعدد الطوابق، أما الطوابق الباقية، باستثناء معظم الطابق فستحتلها شركات ومؤسسات خاصة شهيرة.

سألته في اهتمام:

- وماذا عن الطابق الأرضي؟

بدا متهللا على نحو أدهشها، وهو يلوح بذراعيه، مجيبا:

- هذه هي المفاجأة.. إنهم سينشئون هنا مجمَّعا تجاريا عملاقا، يمكنك أن تجدي فيه كل شيء.. من الإبرة إلى الصاروخ..

ارتفع حاجياها بدهشة، وهي تحدق فيه بحيرة تمتزج بالشك والتساؤل.. تُرى كم تبلغ تكلفة مشروع عملاق كهذا؟

كم؟؟

كم؟؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- " نصف مليار جنيه على الأقل ".

نطق (نديم) الجواب في هدوء ورصانة كعادته، وهو يجلس خلف مكتبه الأنيق، عندما روت له الأمر كله، فارتفع حاجباها بدهشة كبيرة وهي تهتف مستنكرة:

- نصف مليار جنيه؟! يا إلهي! ومن يمتلك مثل هذه الثروة الهائلة؟

شبك أصابع كفيه أمامه وهو يجيب بنفس الهدوء:

- ربما هي مجموعة من المستثمرين.

هتفت بنفس الدهشة:

- وكم سيربحون من مشروع كهذا؟!

صمت بضع لحظات، وهو يتطلع إليها بملامح جامدة خاوية، قبل أن يجيب في بطء يوحي بتفكير عميق:

- ربما لا يعنيهم هذا كثيرا.

أدهشها الجواب، فحدقت فيه بدهشة، مغمغمة:

- ماذا تعني يا (نديم)؟!

أتاهما صوت هادئ رصين وقور، يجيب:

- إنه يشير إلى عملية غسيل الأموال القذرة يا بنيتي..

التفتت (غادة) في دهشة مستنكرة إلى مصدر الصوت، في حين نهض (نديم) من خلف مكتبه، وهو يبتسم في هدوء قائلا:

- مرحبا يا سيادة اللواء.. كم تدهشنا وتسعدنا زيارتك المفاجئة هذه.

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتي اللواء (حلمي)، وهو يلوح بملف صغير في يده، ويهز كتفيه، قائلا:

- معذرة لدخولي بهذا الأسلوب، الذي يفتقر إلى اللياقة، ولكن عم (أحمد) لم يكن هنا، وأنا في عجلة من أمري، و....

قاطعه (نديم)، وهو يتجه إليه، ويصافحه في حرارة حقيقية:

- أنت على الرحب والسعة دوما يا سيادة اللواء.

وابتسمت (غادة)، في محاولة لإخفاء توترها، وهي تتمتم:

- بالتأكيد..

واصل اللواء (حلمي ابتسامته الباهتة، وهو يتجه إلى مقعد قريب، قائلا:

- الواقع أنني كنت في الجوار، ورأيت أن أزوركما بعض الوقت.

ربَّت (نديم) على ركبته، قائلا بابتسامة ودود:

- أهلا بك في أي وقت يا سيادة اللواء.

اكتسبت ابتسامة اللواء (حلمي) بعض الحرارة، وقال، وهو يضع الملف على مكتب (نديم):

- الحقيقة أن رؤيتك تسعدني دوما يا (نديم)، فأنت واحد من أفضل تلاميذي، وأكثرهم كفاءة وبراعة.

قالت (غادة)، في شيء من الحذر:

- كان هذا فيما مضى يا سيادة اللواء..

ابتسم اللواء (حلمي) ابتسامة كبيرة، قائلا:

- ربما اختلفت الوسائل والمسميات، ولكن الهدف مازال واحدا يا بنيتي.

وأدار عينيه مرة أخرى إلى (نديم)، مستطردا:

- أليس كذلك؟

ابتسم (نديم)، وتراجع في مقعده، قائلا:

- بالتأكيد.

رمقت (غادة) (نديم) بنظرة جانبية دون تعليق، وتراجعت في مقعدها بدورها وعقدت ساعديها أمام صدرها، في انتظار الخطوة التالية..

ولم يطل انتظارها، فما إن ساد السكون لحظة، حتى تنحنح اللواء (حلمي)، واعتدل في مقعده، قائلا:

- الواقع أنه هناك قضية تقلقنا بشدة، في الآونة الأخيرة..

سأله (نديم) في اهتمام:

- أية قضية؟

هز اللواء (حلمي) كتفيه، قائلا:

- نفس ما كنتما تتحدثان حوله الآن.. قضية غسيل الأموال القذرة.

وتنحنح مرة أخرى، قبل أن يتابع:

- من العجيب أن هذا الأمر قد انتشر على نحو مخيف في السنوات العشر الأخيرة، وخاصة مع تكثيف الحملات ضد تجار ومهربي المخدرات ومحاصرة مزوري العملة، وتشديد الرقابة على الحدود، والمشكلة أنه ليس لدينا قوانين للرقابة على إيرادات البنوك، مثل تلك المطبقة في الولايات المتحدة الأمريكية مثلا، والتي تحظر إيداع مبلغ يزيد على عشرة آلاف دولار، دون تحديد مصدره بدقة؛ مما أحداث فوضى في الإيداعات، أدت إلى ظهور عدد مفاجئ من المليونيرات ورجال الأعمال، أنشئوا عشرات المشروعات العملاقة، دون تحديد مصادر ثرواتهم..

غمغم (نديم):

- أمر مخيف بحق يا سيادة اللواء.

تنهد اللواء (حلمي)، وقال:

- نحن لا نستطيع بالطبع ملاحقة كل هؤلاء ومراقبتهم، لكشف حقيقة نشاطاتهم، وما من وكيل نيابة سيسمح بالتنصت على محادثاتهم الهاتفية، أو تسجيل اجتماعاتهم؛ لأن..

صمت لحظة، قبل أن يتطلع إلى عين (نديم) مباشرة مضيفا:

- لأن القانون يحظر هذا.

ارتفع حاجبا (غادة) في دهشة، وخيل إليها أنها قد فهمت ما يرمي إليه اللواء (حلمي)، في حين ابتسم (نديم) بنفس الرصانة، قائلا:

- بالتأكيد.

تنهد اللواء (حلمي) على نحو يوحي بأنه يحمل في أعماقه كل هموم الدنيا، قبل أن يشير بيده، متسائلا في شيء من الحذر:

- هل تعرف اسم (رشاد السلباوي) يا (نديم)؟

بدا الاسم مألوفا لـ (غادة)، فانعقد حاجباها في شدة، وهي تعتصر ذهنها لتتذكر أين سمعته أو قرأته، أما (نديم)، فقد أجاب بهدوء عجيب:

- بالطبع.. (رشاد السلباوي) اسم يتردد كثيرا، في الآونة الأخيرة، فهو رجل أعمال أقام في الولايات المتحدة الأمريكية لربع قرن تقريبا، ثم عاد إلى (مصر)؛ ليقيم المشروعات الضخمة، مثل القرى السياحية في الساحل الشمالي، وساحل البحر الأحمر، وشركات الاتصالات، والمراكز التجارية العملاقة، وغيرها.

أومأ اللواء (حلمي) برأسه موافقا، وأضاف:

- وهو صاحب ذلك المبنى، الذي يضم جراجا متعدد الطوابق، على مقربة من هنا.

هتفت (غادة):

- هو صاحبه؟! آه.. تذكرت الأن أين قرأت الاسم.. كان مكتوبا على لافتة كبيرة معلقة على المبنى الذي يتم هدمه..

لم يعلق اللواء (حلمي) على عبارتها، وإنما تنهّد مرة أخرى، تلك التنهيدة الملتهبة..

فمال (نديم) وحده، وسأله على نحو مباشر

- ما الذي يقلقكم بشأن (رشاد السلباوي) يا سيادة اللواء؟

هز اللواء (حلمي) رأسه، قائلا:

- الرجل سليم ونظيف من الناحية القانونية، ومشروعاته كلها مقامة بإجراءات وأوراق سليمة، ولكن..

توقف عند هذه النقطة، وبدا عليه توتر أكثر، جعل (نديم) يسأله في بط:

- ولكن ماذا؟

لوح اللواء (حلمي) بذراعه، وكأنما يشعر بالحيرة، قبل أن يضيفا:

- إننا لا نعرف شيئا عن مصدر ثروته الضخمة هذه، فقد عاد من الولايات المتحدة الأمريكية، ليفتح أحد البنوك بربع مليون دولار فحسب، وبعدها وصلتة ملايين الدولارات، عن طريق تحويلات بنكية مباشرة من دول (أمريكا اللاتينية)، التي لا توجد بها تشريعات لتقنين الإيداع النقدي بالبنوك.

غمغم (نديم):

- هذا قانوني تماما.

أشار إليه اللواء (حلمي)، قائلا:

- بالضبط.. والمثير للانتباه والاهتمام هو أن المبالغ التي وصلته، والتي لا تتجاوز ستة ملايين من الدولارات كانت آخر ما وصله من تحويلات؛ إذ أصدرت تلك الدول، في (أمريكا اللاتينية) تشريعات جديدة، جعلت تحويل مثل هذه المبالغ الضخمة أمرا مستحيلا.. وعلى الرغم من هذا، فقد بدأ في إقامة مشروعات عملاقة تتكلف عشرات الملايين من الدولارات، بما يفوق مركزه المالي عدة مرات.

سأله (نديم) في اهتمام:

- ولماذا لم يتم سؤاله عن مصدر أمواله؟!

تنهد اللواء (حلمي)، قائلا:

- الرجل له نشاط اجتماعي وسياسي كبير، وصلاته بعدد من كبار المسئولين، تضفي عليه نوعا ما من الحصانة غير الرسمية، بحيث لا يمكننا توجيه أية اتهامات إليه، دون أدلة قوية حاسمة لا تقبل الشك..

ثم تراجع على مقعده، ورمق (نديم) بنظرة جانبية، مضيفا:

- ولا يمكننا أن تحصل على تلك الأدلة، بشكل قانوني محض.

تراجع (نديم) بدوره، وهو يقول في بطء وحذر:

- يمكنني استيعاب هذا.

نقلت (غادة) بصرها بينهما في دهشة عارمة، وهي تتساءل: ما الذي يحدث بالضبط؟

ما الذي يحاول اللواء (حلمي) إبلاغه لـ (نديم)؟!

ترى هل.....؟

قبل أن يكتمل التساؤل في أعماقها، كان (نديم) يسأل في اهتمام:

- أهذه نقطة الشك الوحيدة؟

هز اللواء (حلمي) رأسه نفيا، وهو يجيب:

- كلا.. هناك أيضا تلك الأموال الطائلة، التي يقوم (رشاد السلباوي) بتحويلها إلى حساب شركته، في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي شركة بدأت صغيرة بسيطة، ثم لم تلبث أن تحولت، بفضل تحويلاته الضخمة، إلى شركة من أكبر شركات (لوس أنجلوس)..

غمغم (نديم)، وكأنه يحدث نفسه:

- والأموال التي يتم تحويلها من هنا، تعتبر بالنسبة للقانون الأمريكي، واردة من مصدر معلوم ولا جناح على إيداعها هناك.

هتف اللواء (حلمي):

- بالضبط.

ثم نهض من مقعده، ودار حول مكتب (تيم)، وهو يضيف:

- إنها باختصار، عملية تهدم اقتصاد (مصر) كله، وأمنها وسلامتها على المدى الطويل، ولكنها لعبه تتم على نحو قانوني ماكر، بحيث نعجز نحن، كجهاز أمن رسمي، عن التصدي لها، ولكن..

امتدت يده في هدوء نحو جزء خفي من الجدار، خلف مكتب (نديم) مباشرة، وضغطه في رفق، وهو يوليه ظهره مكملا:

- ربما كان هناك من يمكنه السعي وراء العدالة، دون التقيد بكل تعقيدات القانون.

كاد قلب (غادة) يقع بين قدميها، عندما انكشفت تلك الفجوة في الجدار، إثر ضغطة اللواء (حلمي)، ليظهر خلفها زي أسود اللون مع قناع من اللون نفسه، لم يلق عليهما اللواء (حلمي) نظرة واحدة، وهو يبتسم مكررا:

- ربما..

قالها وغادر المكتب بخطوات ثابتة قوية، دون أن يحاول الالتفات إلى زي (العقرب) لحظة واحدة، في حين حبست (عادة) أنفاسها بقوة، حتى أغلق الباب خلفه، فهتفت في ذعر:

امتدت يده في هدوء، نحو جزء خفي من الجدار، خلف مكتب نديم مباشرة، وضغطه في رفق..

- رباه إنه يعرف كل شيء.

ارتسمت ابتسامة على شفتي (نديم) وهو يقول:

- بالتأكيد.

نطقها، ثم التفت إلى ذلك الملف الذي تركه اللواء (حلمي) عمدا على سطح مكتبه، وفتحه ليلقي نظرة على محتوياته، قبل أن تتسع ابتسامته في ثقة وارتياح.. فالملف كان يضم كل المعلومات الممكنة عن الهدف الجديد...

عن (رشاد)..

(رشاد السلباوي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- عودة (العقرب)..

" كل شيء قانوني تماما ".

نطق (إدوارد)، محامي (رشاد السلباوي) العبارة في خبث، وهو يبتسم ابتسامة واسعة عريضة، ويغمز بعينه، مضيفا:

- حتى الشحنة الأخيرة، التي وصلت إلى الجمارك صباح اليوم، أوراقها كلها سليمة تماما..

غمغم (رشاد) في خشونة:

- أمر طبيعي.

وصمت لحظة، قبل أن يضيف في صرامة:

- المهم ألا نفقد ورقة واحدة.

اتسعت ابتسامة (إدوارد)، وهو يقول:

- لا توصني.. أنا أعرف كل شيء، وأشرف عليه بنفسي.

تمتم (رشاد) في اقتضاب:

- عظيم.

وعاد يخفي وجهه بين الأوراق التي يطالعها، متابعا:

- أخبرني عندما تصبح الشحنة كلها في مخازننا، وأبلغ شركاءنا في (لوس أنجلوس) أننا سنقوم بتحويل المبلغ المعتاد إليهم، في نهاية الأسبوع.

تساءل المحامي، في شيء من الخبث:

- مليونا دولار كالمعتاد؟

أجابه (رشاد) في صرامة:

- أنت تعرف أكثر مني.

ران عليهما الصمت بضع دقائق، بعد هذه العبارة الأخيرة، انشغل خلالها (رشاد)، أو تشاغل، بمطالعة بعض أوراقه، وكأنما يعلن محاميه بانتهاء المقابلة، إلا أن هذا الأخير لم يبرح مقعده، وإن لاذ بالصمت أيضا، وظل يتطلع إليه بنظرة صارمة غاضبة، قبل أن يقطع الصمت بغتة، قائلا:

- بلغني أنك تنوي ترشيح نفسك، في انتخابات مجلس الشعب القادمة.

انعقد حاجبا (رشاد) في شدة، وكأنما بوغت بالعبارة، لم يلبث أن خلع منظاره بنفس البطء، الذي رفع به عينيه إلى المحامي، قائلا في شيء من الشراسة، لم يستطع كبحه:

- وماذا في هذا؟؟

قال المحامي بصرامة:

- كان ينبغي أن تستشير الأصدقاء في (لوس أنجلوس) أولا.

زمجر (رشاد)، قائلا في حدة:

- وما شأنهم بأمر كهذا؟ من الطبيعي أن أسعى بكل السبل، لدعم موقفي هنا، وعضوية مجلس الشعب تمنحني حصانة قانونية، وسلطة كبرى، يحتاج إليها العمل.

هتف المحامي:

- خطأ يا (رشاد) بك.. خطأ.. عضويتك لمجلس الشعب ستضعك في دائرة الضوء، وتحت اهتمام ورقابة رجال الصحافة، الذين كشفوا من قبل تورط بعض أعضاء مجالس الشعب

السابقة في تجارات غير مشروعة؛ مما دفع المجالس إلى سحب عضويتهم، وتقديمهم للمحاكمة.

صاح (رشاد)، وهو ينهض من خلف مكتبه بحركة حادة:

- أغبياء الصحافة لا تتوقف عن النبش خلفنا، سواء أكنت عضوا في مجلس الشعب أو لا، ربما كان هؤلاء الأصدقاء الأمريكيون عباقرة في مضمارهم، ولكنهم يجهلون كل شيء عن طبيعة شعبنا وحياتنا، ولا يدركون أن حصانة كهذه تمنحك القوة على تجاوز كل القوانين..

قاطعة فجأة أزيز جهاز الاتصال الداخلي الخاص على مكتبه، فبتر عبارته بغتة، على الرغم من احتقان وجهه، وضغط زر الاتصال، قائلا بصوت مختنق، لم يفارقه الانفعال بعد:

- ماذا هنالك يا (نسرين)؟!

أجابته سكرتيرته الحسناء في صوت خافت حذر:

- معذرة يا (رشاد) بك، ولكن هنا شخص يصرّ على مقابلتك شخصيا.

هتف في حدة:

- مقابلتي أنا؟ ومن هو بالضبط؟!

صمتت لحظة، قبل أن تجيب في حذر:

- محام شاب يدعى (نديم فوزي).

قال في عصبية:

- (نديم فوزي)؟ وماذا يريد محامٍ شاب مني شخصيا؟ لماذا لم يلتق بأحد أفراد الشئون القانونية؟

لم يكد (إدوارد) يسمع اسم (نديم)، يتردد على شفتي (رشاد)، حتى انتفض جسده في عنف، وهبَّ من مقعده بوثبة مباغتة، وأمسك يد (رشاد)، هاتفا بصوت مبحوح يموج بالانفعال:

- دعه ينتظر لحظة.

حدق فيه (رشاد) بدهشة مستنكرة، فتابع (إدوارد)، وهو يضغط زر إنهاء الاتصال، مستطردا في توتر:

- أريد منك أن تلتقي به.

انعقد حاجبا (رشاد) في غضبا، ولكنه عاد يضغط زر الاتصال، قائلا لسكرتيرته:

- فليكن.. دعيه ينتظر بضع لحظات، وسألتقي به فورا..

ثم أنهى الاتصال، وهو يلتفت إلى محاميه، هاتفا في حنق:

- ما معنى هذا بالضبط؟ لماذا تريد أن ألتقي بمحام شاب تافه؟!

تراجع (إدوارد)، وأشعل سيجارته في عصبية، وهو يقول:

- (نديم فوزي) محام شاب بالفعل، ولكنه ليس تافها أبدا.. وزيارته لك شخصيا، تعني أنه قد وضعت على قائمته، وهذا أمر مقلق للغاية.

حدق (رشاد) قيه يدهشه، قبل أن يهتف ساخطا:

- ما الذي يعنيه كل هذا بالضبط؟! تتحدث عن ذلك المحامي الشاب، وكأنه (سوبرمان) مثلا..

هز المحامي رأسه، وهو ينفث دخان سيجارته في توتر، قائلا:

- إنه ليس كذلك بالتأكيد، ولكنه أيضا شخص لا يستهان به.. ربما تجده شابا هادئا، رصينا، بسيطا، عندما تلتقي به في

شخصيته المعلنة، ولكنني واثق من أنه لن يروق لك أبدا أن تلتقي به في شخصيته الأخرى..

حدَّق فيه (رشاد) بدهشة أكبر، وهو يقول:

- شخصية أخرى.. أهو مصاب بازدواج في الشخصية؟!

ابتسم (إدوارد) في سخرية عصبية، نفث بها دخان سيجارته مرة أخرى، قبل أن يجيب:

- نعم.. ولكنه ازدواج لن يروق لك أبدا.. ازدواج من نوع بالغ الخطورة، فما إن يستثير حماسه أمر ما، حتى يتحول إلى...

ومال نحو (رشاد) بشدة، مضيفا:

- عقرب.

اتسعت عينا (رشاد) أكثر، وحملت ملامحه بلاهة لا يتميز بها أبدا، فتراجع (إدوارد)، قائلا:

- دعك من التفكير الطويل، فلنلتق به أولا لتعرف ماذا يريد منا، ثم أشرح لك كل شيء فيما بعد.

بقي (رشاد) على دهشته لحظات، ثم لم يلبث أن هز رأسه، وكأنما ينفض عنه كل هذا قبل أن يشير بيده، قائلا:

- فليكن.. سنلتقي به.

نطقها بتوتر شديد، لم يفارقه لحظة واحدة، وهو يستقبل (نديم) في مكتبه، ويفحصه من قمة رأسه، وحتى أخمص قدميه، متسائلا في حذر:

- أهلا يا سيد (نديم).. هل لي أن أعرف سر هذه الزيارة المفاجئة، وسر إصرارك على مقابلتي شخصيا؟

جلس (نديم) على المقعد المواجه لمكتب (رشاد)، دون أن يدعوه هذا الأخير لذلك، ورمق(إدوارد)، الذي يقف عند النافذة صامتا، بنظرة لا مبالية، وهو يقول:

- لقد أقمت دعوى قضائية ضدك يا سيد (رشاد)، وأردتك أن تعرف بأمرها، قبل أن تصلك عريضة الدعوى رسميا.

انعقد حاجبا (إدوارد) في توتر، غير مصدق أن يكون هذا هو السبب الحقيقي لزيارة (نديم)، في حين قال (رشاد) في عصبيه:

- دعوة قضائية؟! بشان ماذا؟!

هز (نديم) كتفيه في بساطة، قائلا:

- إنك تفسد البيئة، بذلك المبنى الحديث الضخم، الذي ستقيمه في وسط المدينة فطرازه جزء من التلوث البصري، و....

قاطعه (رشاد) في حدة:

- هذا فقط؟!

ابتسم (نديم) ابتسامة غامضة، استفزت الرجل أكثر، فهبَّ من خلف مكتبه، مستطردا في غضب:

- هل طلبت مقابلتي شخصيا لسبب تافه كهذا؟!

اتسعت ابتسامة (نديم)، وهو ينهض في هدوء، قائلا:

- هل تعتبر تشويه البيئة سببا تافها يا سيد (رشاد)؟

انعقد حاجبا (رشاد) في ثورة، وتجاهل إشارة (إدوارد) المتوترة، وهو يضغط زرّ الاستدعاء على مكتبه، قائلا:

- إنه كذلك بالتأكيد.

لم تمض لحظة على ضغطة الزر، حتى ظهرت السكرتيرة (نسرين) على عتبة الحجرة بصحبة اثنين من رجال أمن الشركة، أشار إليهما (رشاد)، قائلا في حدة:

- اصطحبا السيد (نديم) للخارج.

تحرك الحارسان نحو (نديم) بعدوانية ظاهرة، إلا أنه ظل على هدوئه، وهو يتجه إلى الباب، قائلا:

- ستصل عريضة الدعوى بعد غد على الأكثر..

صاح (رشاد) في حدة:

- لا تسمحوا له بمقابلتي مرة أخرى.

احتقن وجه (إدوارد)، والحارسان يصطحبان (نديم) خارج الحجرة، وما إن أغلقا الباب خلفهما، حتى قال في حدة عصبية:

- خطأ يا (رشاد) بك.. خطأ.. ما كان ينبغي أن تفقد أعصابك أبدا.

صاح (رشاد):

- ألم تسمع ما قاله ذلك الوقح؟!

قال (إدوارد في توتر:

- (نديم) لم يكن ليبلغك بأمر دعوى كهذه حتما.. إنه يحاول دراسة شخصيتك ورؤية أفعالك.

ثم انعقد حاجباه في شدة، وهو يتطلع إلى المقعد الذي غادره (نديم) منذ لحظات مضيفا في عصبية:

- أو أن له هدفا أخر.

ازداد انعقاد حاجبيه، عندما بلغ هذا الحد من التفكير، واندفع يلتقط جهاز الهاتف الداخلي، ويضغط أزراره في سرعة، ثم

يقول:

- (جابر).. اسمعني جيدا.. هناك محامٍ شاب سيغادر المكان الآن.. أرسل خلفه أحد رجالنا.. أريد أن أعرف أين سيذهب، ومن سيقابل.. نعم.. أريده أن يلازمه كظله، حتى إشعارٍ أخر.. اسمعني أيضا.. أريد منك أن تصعد بنفسك، لفحص حجرة مكتب (رشاد) بك.. نعم.. هناك احتمال لا يمكن تجاهله.

لم يكد ينهي المحادثة، حتى هتف (رشاد) في غضب:

- يفحص مكتبي؟! أي هراء هذا؟! ما الذي تتوقعه بالضبط؟ أجهزة تنصت؟

قال (إدوارد) في صرامة عصبية:

- ولم لا؟

اتسعت عينا(رشاد) في ارتياع، وهو يهتف:

- يا إلهي، أهذا ممكن؟

بدا المحامي أشبه بالشيطان ذاته، وهو يدير عبئيه في الحجرة يتوتر بالغ، قائلا:

- إنه أحد الاحتمالات القوية، وإلا فلماذا جاء (نديم) لمقابلتك شخصيا؟ لماذا؟!

نعم أبها المحامي الثعلب.

هنا هو السؤال..

لماذا جاء (نديم)؟!

لماذا؟!

لماذا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

" لقد أرسلوا من يتبعك بالفعل "

نطقتها (غادة في سخرية، وهي تختلس النظر، من خلف ستارة النافذة السميكة. إلى الرجل الذي يقف على الإفريز المواجه للبناية، متظاهرا باللامبالاة، وهو يراقب المكان جيدا، فابتسم (نديم) في هدوء، وهو يقول:

- عظيم..

سألته في دهشة مستنكرة:

- لماذا دفعتهم إلى هنا؟

هز كتفيه مجيبا:

- أنا لم أنفعهم إلى أي شيء.. كل ما فعلته هو أن ذهبت لزيارتهم، ولكن شعورهم بالخطر هو الذي دفعهم لإرسال أحد رجالهم خلفي.

ثم تراجع في مقعده بهدوء، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه، مضيفا:

- وهذا من وجهة نظري، اعتراف بالذنب.

التقى حاجباها، وهي تشير بسبابتها، قائلة:

- السؤال هو: هل يتعقبون (نديم فوزي) المحامي، أم...

ومالت نحوه، مضيفة بلهجة ذات مغزى؛

- أم (العقرب)..

اتسعت ابتسامته، وهز كتفيه، قائلا بنفس الهدوء:

- من الناحية المنطقية، ليس هناك سبب واحد، يدعوهم لإرسال أحد رجالهم، ليتعقب محاميا، بسبب دعوى بيئية أقامها ضدهم.. وليس من المنطقي أيضا، أن يعرف أشخاص عاديون، لا همَّ لهم سوى التجارة وإنشاء المشروعات المختلفة، أن (نديم فوزي)، هو في حقيقة الأمر مكافح سري للجريمة، يحمل اسم (العقرب).

ونهض من خلف مكتبه، واتجه بدوره إلى النافذة، مضيفا:

- وكل هذا يعني أننا نسير في الطريق الصحيح، وأن (رشاد السلباوي)، ومن خلفه، ليسوا مجرد رجال أعمال كبار.. إنهم في الواقع من العمالقة.

واختلس نظرة إلى الرجل الذي يراقب المكان، مكملا في حزم:

- عمالقة الجريمة.

لم يرق لها كثيرا ما سمعته، فقالت في توتر:

- ما تقوله بالغ الخطورة يا (نديم)، فهو لا يعني أنك تواجه عتاة إجرام فحسب، ولكن يعني أيضا أنه لم يعد هناك غطاء قوي، على حقيقة شخصيتك..

صمت لحظة، قبل أن يجيب في حزم:

- لقد انكشف الغطاء، منذ نزعت الإمبراطورة قناعي أمام رجالها، منذ عام أو يزيد، وأنتِ تعلمين، بحكم عملنا السابق كضابطي شرطة، أن الأخبار تنتشر بسرعة مدهشة، في العالم السفلي.

هتفت في ارتياع:

- رباه هذا يعني أننا سنواجه الخطر طوال الوقت.

قال في صرامة:

- إننا نواجهه بالفعل طوال الوقت..

ثم رفع رأسه إليها، مضيفا:

- ولكن الأمر يختلف كثيرا هذه المرة.

قالها، واتجه إلى ما خلف مكتبه، وضغط الزر الخفي في الجدار، لتنكشف الفجوة التي تحوي زيه الأسود، وهو يكمل:

- فالعقرب لا يعمل هذه المرة منفردا.. إنه يعمل من خلال مهمة.

وتراقصت ابتسامة جذلة أمام شفتيه، وهو يضيف في حزم:

- مهمة رسمية.

وأدركت (غادة) أن (العقرب) قد عاد إلى عالم مكافحة الجريمة..

وبكل قوته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- الشحنة..

فغر (رشاد) فاه في ذهول، وهو يحدق في وجه محاميه، ويستمع إليه في دهشة ما بعدها دهشة، والأخير يروي له كل ما يعرفه عن (نديم فوزي) و (العقرب)..

ولدقيقة كاملة، بعد أن انتهى (إدوارد) من روايته، ظل (رشاد) صامتا، داه، مصدوما، قبل أن ينتزع نفسه من كل هذا في عنف هاتفا:

- مستحيلا لا يمكن أن يكون لدينا شيء كهذا في (مصر).. مستحيل..

قال المحامي في صرامة:

- لكل شيء بداية..

لوح (رشاد) بذراعه، هاتفا:

- إلا هنا.. (مصر) ليست (المكسيك) أو (نيويورك)، ليظهر فيها (زورو) أو (باتمان).. إننا شعب مختلف تماما.. حتى إنك لو حولت ما أخبرتني به إلى فيلم سينمائي، لما صدقة مشاهد واحد، ولاتهموك بالمبالغة والتخريف..

قال المحامي بصرامة أكثر:

- ربما، ولكن ما أخبرتك به واقعي وصحيح تماما، وأخشي آن..

تراجع (رشاد) بحركة حاده، هاتفا في هلع:

- أواجهه؟!

قال المحامي في شراسة:

- نعم.. لو ظللت تولول كالأرامل، بدلا من أن تستوعب الأمر، وتتصدى له بالصرامة اللازمة.

هتف (رشاد)، وهو يواصل تراجعه المذعور:

- أتصدي له: أنت تعلم أنني لا أستطيع هذا.. تلك الأمور من اختصاصك انت.

اعتدل (إدوارد)، مجيبا:

- بالتأكيد.. كلانا يعلم هذا، وكذلك الأصدقاء في (لوس أنجلوس): لهذا استخدموك كواجهة أنيقة فحسب، في حين وضعوا كل السلطات الأخرى في قبضتي أنا.

لوح (رشاد) بذراعه، قائلا في عصبيه:

- فليكن أيها المتباهي.. تولَّ أنت الأمر كله، وتذكر أنني لا أريد أن أعرف ما ستفعله.

قال (إدوارد) في سخرية متوترة:

- رقة المشاعر وحساسية الدم مرة أخرى: لست أدري كيف يمكن لمثلك أن يعمل معنا..

هتف(رشاد) في حدة:

- تذكر أنهم هم سعوا إليَّ، ولم أسعَ أنا إليهم.

قال المحامي في سخرية.

- ربما لأنك الطراز الذي يحتاجون إليه بالضبط.. الطراز الذي يعمل بناء على الأوامر. ويجيد الحديث واللباقة فحسب، ولكنه لا يجرؤ على خداعهم، أو الاستيلاء على أموالهم، بأية صورة كانت..

صاح به (رشاد):

- أنت حقير.

هز (إدوارد) كتفيه، ودس كفيه في جيبي سرواله، قائلا:

- هذا أحد مقومات وظيفتي.

ثم ترك حاجبيه يلتقيان، وهو يتحرك في المكان، متابعًا:

- الشيء الوحيد المؤكد الآن هو أن (العقرب) دس أنفه في شئوننا، وهذا يعني انه ولسبب ما، يشك في أمرنا، ويستمد الجولة قريبة معنا، وهذا نذير بسيل من المتاعب، لا يمكننا معرفة أو تحديد مداه، ولا يمكننا أيضا أن نجلس، في انتظار قدومها.. لابد أن نكون اول من يتحرك، و.

قبل أن يتم عبارته، ارتفع رنين هاتفه المحمول بغتة، فاختطفه من جيبه في سرعة، وضغط زر الاتصال، قائلا في لهفة:

- من المتحدث؟

انعقد حاجباه في شدة وهو يستمع إلى محدثه قبل أن يسأله في توتر:

- ما الموقف الآن يا (جابر)؟!

احتقن وجهه بشدة، وهو يصرخ:

- ماذا؟

انتفض قلب (رشاد) في صدره هلعًا، وامتقع وجهه بشدة، وهو يهتف:

- ماذا حدث؟ ماذا حدث؟!

ولكن المحامي تجاهله تماما، وهو يصرخ عبر الهاتف:

- أغبياء.. حمقى.. ما كان ينبغي أن يحدث هذا أبدا.. قُل لهؤلاء الأوغاد أن يبذلوا قصارى جهدهم للعثور عليه.. هل تفهم؟!

أنهى المحادثة في عصبية زائدة، فأمسك (رشاد) كتفيه في ذعر، هاتفا:

- أخبرني ماذا حدث بالله عليك؟

التفت إليه المحامي بوجه محتقن، هاتفا:

- لقد فقدوا أثره..

تراجع (رشاد) كالمصعوق، وهو يهتف بصوت مختنق:

- فقدوا أثره؟!

لوح المحامي بذراعه، وهو يقول في عصبية:

- ذلك الشيطان خدعهم، وتسلل من تحت أنفهم، واختفى.. اختفى تماما.

انتفض جسد (رشاد) كله هذه المرة وهو يهتف:

- اختفي؟! يا إلهي!! وماذا ستفعل الآن؟! ماذا ستفعل؟!

أشار إليه المحامي في صرامة عصبية، قائلا:

- اصمت يا رجل.. كف عن الارتجاف هكذا كالنساء، ودعني أحاول التفكير في هدوء.

أمسك به (رشاد) في رعب، وهو يردد:

- ولكنه سيهاجمنا.. أليس كذلك؟! سينقض علينا بغتة، كما فعل مع من قبلنا، و.

قاطعة المحامي بصرخة هادرة:

- قلت اصمت.

ارتجف (رشاد) في رعب، كطير ذبيح، وهو يلقي نفسه على مقعده في انهيار، في حين راح المحامي يتحرك في المكان في عصبية، قائلا:

- لقد أدرك إذن أننا نراقبه.. بل ربما كان هو من دفعنا إلى هذا؛ ليتبين حقيقة أمرنا.. يا للسخافة! وأنا وقعت في الفخ كالغر الساذج، ولم أتريث لأمنح نفسي مهلة للتفكير.. يا للغباء.. يا للغباء كان ينبغي أن أتمهل، قبل أن أقدم على هذه الحماقة.

ضاعف حديثه العصبي من ارتياع (رشاد) ورعبه، ولكنه لم ينبس ببنت شفة، وإنما اكتفي بمراقبة المحامي بعينين زائغتين، وهذا الأخير يواصل حديثه مع نفسه، قائلا بكل عصبية:

- ولكن لماذا هرب منهم؟ ما الذي يسعى إليه بالضبط؟ إلى أين أذهب أنا، لو كنت في مكانه؟

وتوقف بغتة، وهو يعتصر ذهنه، بكل ما يمتلك من قوة وطاقة مكملا:

- أين يمكن أن يكون الآن؟ أين؟

نعم أيها المحامي الثعلب..

أين؟؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوقفت (غادة) سيارة (نديم) في حذر، إلى جوار أكبر مخازن شركات (رشاد السلباوي)، وهي تقول في توتر:

- اقتحامك لمخزن (السلباوي) بهذه السرعة، مغامرة غير مأمونة العواقب.

ابتسم (نديم)، وقال، وهو يرتدي قفازيه السوداوين:

- على العكس يا عزيزتي.. القاعدة التي أثبتت نجاحها دوما، هي ضرورة طرق الحديد وهو ساخن..

ثم التقط قناعه من جيبه، ووضعه على وجهه، مكملا:

- هؤلاء الأوغاد تحركوا فور مغادرتي شركتهم، ولو تأخرنا نحن في خطوتنا سنمنحهم الوقت لاتخاذ كل التدابير اللازمة لمنعنا من بلوغ أهدافنا..

كانت تشعر بقلق مبهم، في هذه الليلة بالذات، مما جعلها تسأله:

- وما الذي تتوقع العثور عليه في المخزن؟! الشحنة التي تسلمها (السلباوي) اليوم، تم فحصها جيدا جدا، بواسطة ضباط الأمن والجمارك، وتقريرهم يؤكد أنها سليمة تماما، ولا تحوي آية أشياء ممنوعة.

عقد قناعه جيدا، وهو يقول:

- ربما لا يمكنني الاقتناع بأن (رشاد السلباوي) يمكن أن يستورد شحنة من الكتب الثقافية..

غمغمت في قلق:

- ربما هي محاولة لتغطية شحنة أخرى قادمة.

هز كتفيه، قائلا:

- ربما..

ثم غادر السيارة مستطردا في حزم:

- وهذا ما على (العقرب) أن يكشفه..

ارتجفت شفتاها، وهي تقول:

- انتبه جيدا الليلة.

ابتسم، وهو يشير إليها، مجيبا:

- وأنت.. لا تغادري السيارة أبدا.

غمغمت:

- سأحاول.

أشار إليها بيده مرة أخرى، وهو يتجه نحو المخزن في خفة، ثم سرعان ما تلاشى وسط الظلام..

وفي توتر لا مثيل لها ارتجف قلبها بين ضلوعها، وعقلها يتساءل: لماذا تشعر بكل هذا القلق الليلة؟!

لماذا؟!

أما هو، فقد تسلق أحد الأعمدة الخشبية الملاصقة لجدار في سرعة ورشاقة، قبل أن يثب على سطحه في خفة، ثم يتجمد في مكانه، وعيناه تدوران فيما حوله في حذر..

لا حراسة على السطح..

نقطة في صالح (رشاد)، توحي بأن الشحنة لا تحوي ما يمكن أن يخشى ضياعه، ولكن كتب ثقافية؟!

ليس هذا الطراز من البشر..

أما هو، فقد تسلق أحد الأعمدة الخشبية الملاصقة لجدار المخزن، في سرعة ورشاقة، قبل أن يثب على سطحه في خفة، ثم يتجمد في مكانه..

هناك شيء ما يختفي حتما، وراء تلك الشحنة الثقافية..

ودون أدنى شك..

جمد في مكانه لدقيقتين كاملتين، ثم عاد يتحرك بمنتهى الخضة بحثا عن مدخل إلى المخزن..

وكان الأمر أسهل مما تصور..

لقد عثر على نافذة علوية، غير مغلقة، ولا يحيط بها أي حراس..

وبمرونته المعهودة، ربط طرف الحبل الذي يحمله، في إطار النافذة المعدني، ثم تدلي بواسطته إلى داخل المخزن..

كان المكان غارقا في ظلام دامس، فيما عدا الضوء الخافت المتسلل من النوافذ، والذي يحمل لمحة من ضياء القمر..

ولكنه لم يشعل مصباحه اليدوي..

فقط توقف في مكانه صامتا ساكنا، حتى اعتادت عيناه ذلك الضوء الخافت، ثم عاد يتحرك في خفة..

كان المخزن ضخما يحتل ما يزيد على ألفي متر، توزعت فيها صناديق البضائع على نحو متناثر غير منتظم لا يتفق مع شركة ضخمة شهيرة مثل شركة (السلباوي)..

ولكن (العقرب كان يبحث عن شحنة بعينها..

تلك الشحنة التي وصلت ظهر اليوم، والتي لم يتم فرزها والتعامل معها بعد..

ولقد عثر عليها في الركن الشمالي من المخزن..

ما يقرب من ثلاثمائة صندوق من الورق المقوى، محاطة بإحكام، بأشرطة معدنية رفيعة تضمن قوتها وتماسكها، وهي

متراصة بعضها فوق البعض، في عشرة صفوف متجاورة..

وفي رشاقة وسرعة، تسلق (العقرب) ذلك الهرم من الصناديق، ثم اخرج مطواته

السويسرية، وراح يعالج أحد الصناديق، حتى فتحه، والتقط من داخله أحد الكتب، وراح يتأمله في اهتمام على الضوء الخافت..

إنها كتب ثقافية بالفعل..

موسوعات بالغة الأناقة، ذات غلاف أحمر زاه من الجلد الطبيعي، المزدان بنقوش ذهبية، منحته فخامة تفوق المعتاد..

ترى أهذا كل ما تحويه الشحنة؟

فحص الكتاب عدة مرات في اهتمام بالغ، ثم لم يلبث أن دسه في قميصه، مغمغما:

- الأمر يحتاج إلى فحص أكثر دقة..

لم يكد ينطقها، حتى اشتعلت أضواء المخزن بغتة..

وعلى الرغم من التوتر الشديد، الذي سري في كل ذرة من كيانه، إلا أنه ثبت في مكانه تمامًا، وقد بهر الضوء المباغت عينيه، وأجبره على إغلاقهما، و....

"كنت واثقا من أنني سأجدك هنا ".

اخترقت العبارة الساخرة الشامتة أذنيه، ففتح عينيه في حركة سريعة، وحدَّق في ذلك المشهد أمامه..

فهناك وعند كومة أخرى مجاورة من الصناديق، كان يقف (إدوارد)، محامي (رشاد السلباوي)، وحوله أربعة من رجال الأمن الأقوياء، وهو يتابع في ثقة:

- يبدو أنني نجحت في قراءة أفكارك هذه المرة، أيها (العقرب).

كان الموقف عصيبًا وشديد الحساسية بالفعل.. الان ان (العقرب) تماسك في سرعة وهو يقول:

- عظيم.. والآن وبعد أن قرأت أفكاري، وعثرت عليّ هنا، ماذا تنوي أن تفعل؟ هل ستقتلني بحجة أنني دخلت مخزن رئيسك خلسة؟

ارتفع حاجبا المحامي، في دهشة مصطنعة، وهو يقول:

- أقتلك؟! يا لها من فكرة..

ثم عادت اساريره تنبسط، في ثقة شامتة، وهو يضيف:

- خطا أيها (العقرب).. خطأ.. أنا رجل قانون، وكل ما أفعله قانوني مائة في المائة.. لقد شككت في أنك تتوي سرقة مخازننا، واتخذت الإجراء القانوني تماما.

"هذا صحيح".

جاءت العبارة الأخيرة من خلف مجموعة من الصناديق المجاورة، وعلى إثرها اندفع فريق من رجال الشرطة، من كل صوب، وصوبوا مدافعهم الآلية إلى (العقرب)، ثم لحقهم صاحب العبارة، وعيناه تتألقان في ظفر، وهو يتابع:

- ولقد كانت فرصة لا يمكن أن أضيعها؛ لألتقي بك وجها لوجه على الأقل.

وانعقد حاجبا (العقرب) في شدة...

فذلك القادم، كان آخر شخص يتمنى رؤيته، في مثل هذه الظروف.. لقد كان عدوه الأول، في صفوف الشرطة، والرجل

الذي اعتبر أن هدفه الأول في الحياة هو الإيقاع بـ (العقرب)..
كان (مجدي)..
العقيد (مجدي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العقـــرب

مهمـــة رسميـــة

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٦٨٢٧٠٠٤

4- الفخ..

كان من الواضح أن الموقف شديد التعقيد، وفي غير صالح (العقرب)، على طول الخط.. فهو داخل مخزن يمتلكه (رشاد السلباوي)، ويحيط به رجال الشرطة بمدافعهم الآلية، ويواجه (إدوارد)، المحامي الثعلب، مع العقيد (مجدي)، رجل الشرطة، الذي لا همَّ له في الحياة سوى إثبات أن (نديم فوزي) ضابط الشرطة السابق، والمحامي الحالي، هو نفسه (العقرب..

وفي موقف كهذا، لم يعد الأمر عسيرا على الإطلاق.. يكفي أن يتقدم (مجدي) نحوه، وينزع قناعه، و.

" أظنك قد وقعت أخيرا يا سيد (نديم) ".

نطقها (مجدي) في ظفر شامت مبتهج، وهو يتطلع إلى (العقرب)، بقناعة الأسود، الذي يخفي معظم ملامحه، في حين ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتي (إدوارد)، وهو يلوح بيده قائلا:

- أرأيت؟! كل شيء قانوني مائة في المائة.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي (العقرب)، وهو يلتقط الكتاب ذا الغلاف الأحمر الفاخر، من طيات ثيابه، ويرفعه إلى جوار وجهه، قائلا:

- حتى هنا؟

احتقن وجه (إدوارد) بشدة، وانقلبت سحنته على نحو مدهش، وهو يحدق في الكتاب، حتى إن حاجبي (مجدي) انعقدا في توتر، وهو يسأل في عصبية:

- ما أهمية هذا الكتاب بالضبط؟!

لم يبد حتى أن ادوارد) قد سمعه، وهو يهتف برجال الأمن الأربعة التي يحيطون به:

- استعيدوا الكتاب منه.. بسرعة.

لم يكد هتافه يكتمل، أو ربما قبل هذا بلحظة، حتى أندفع رجال الأمن الأربعة نحو (العقرب)، في شراسة عنيفة، وانتزع أحدهم مسدسه بحركة حادة، فصرخ العقيد (مجدي) في عصبية آمرة:

- لا تطلقوا النار.

اقترنت أخر حروف كلماته بفرقعة مكتومة..

ثم انقطع التيار الكهربي دفعة واحدة..

ومع المفاجأة دوي في المكان صوت طلق ناري، والتمع مهج رصاصة مقترنًا بصرخة (مجدي) وهو يقول:

- قلت: لا تطلقوا النار

ولكن صرخته ضاعت وسط هرج ومرج عجيبين، سادا المكان، وسط الظلام الدامس، وبدا وكأن الجميع يتحركون على نحو عشوائي متخبط.. وظهر وهج رصاصة أخرى، مقترنا بدويها، مع صرخة (مجدي) الغاضبة:

- أغلقوا كل المداخل.. إنكم تفسدون كل شيء.

لم يكد يتم عبارته، حتى فوجئ بأصابع قوية تنغرس في كتفه، وسمع من يهمس في أذنه في لهجة صارمة:

- لو أنني في مكانك لما غادرت قبل أن أفحص هذه الكتب الأنيقة.

استدار بسرعة إلى مصدر الصوت، صارخًا:

- انه هنا.

ولكن أصابعه قبضت على الفراغ، في نفس اللحظة التي انتزعت فيها تلك الأصابع القوية من كتفه، وارتفعت في الظلام ضحكة ساخرة مستفزة..

ضحكة (العقرب)..

ويكل غضبه وثورته، صرخ (مجدي):

- أغلقوا كل الأبواب.

وتبعه (إدوارد)، صائحا:

- لا تسمحوا لأحد بالخروج من هنا.. سيعمل مولد الطوارئ بعد دقيقة واحدة.

اندفع الرجال يتخبطون ويتصادمون، وسط الظلام الدامس، وارتفعت الصرخات الغاضبة من كل صوب..

ثم بدأ المولد الاحتياطي عمله، واشتعلت الأضواء كلها دفعة واحدة، لتغمر المخزن..

وبحركة واحدة التفتت العيون كلها إلى حيث كان يقف (العقرب)، ثم اندفعت تبحث في كل صوب..

ولكن باستثناء (إدوارد) ورجال الأمن الأربعة، و (مجدي) ومن تبعه من رجال الشرطة، لم يكن هنالك أثر لمخلوق آخر..

ادني أثر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"لم يكن أمامي سوى هذا ".

غمغمت (غادة) بالعبارة، وهي تنطلق بسيارة (نديم) مبتعدة عن منطقة مخازن (رشاد السلباوي)، فانتزع (نديم) قناعه، وألقاه داخل حقيبة صغيرة، وهو يبتسم قائلا:

- كان هذا أعظم رد فعل رأيته في حياتي كلها.

هزت رأسها، قائلة:

لقد رأيتهم يدخلون المخزن، وأدركت أنهم سيحاصرونك، ولما لم أجد ما أفعله، فقد اتجهت إلى كشك الكهرباء الرئيسي، ونزعت المحولات الأساسية.

قال، وهو يستبدل ثيابه في سرعة:

- كانت مخاطرة كبيرة.

- وماذا كان البديل؟ أن أتخلى عنك؟!

ابتسم وهو يتمتم:

- مستحيل.

تضرج وجهها بحمرة الخجل، وهي تغمغم:

- لو تبدل الوضع، كنت ستفعل المثل.. أليس كذلك؟!

تطلع إليها لحظة، قبل أن يجيب برصانته المعهودة:

- بالتأكيد.

كان قد انتهى من نزع ثياب (العقرب) السوداء، التي يرتديها فوق ثيابه، فدسّها في حقيبته مع القناع، والتقط سترته من الأريكة الخلفية للسيارة، وهو يقول:

- أتعشم أن يفعل (مجدي) ما نصحته به.

سألته في اهتمام، وهي تنحرف بالسيارة إلى الطريق الرئيسي:

- وما الذي نصحته به؟

التقط نسخة الكتاب الفاخرة وناولها إياه، وهو يقول:

- أن يفحص شحنة الكتب هذه.

انعقد حاجباها، وهي تفحص الكتاب بمنتهى الاهتمام، قبل أن تقول:

- وما الذي تتوقع أن يجده فيها؟

هز رأسه قائلا:

- لست أدري..

وصمت لحظة، قبل أن يضيف في حزم:

- ولكن من المستحيل أن يستورد رجل مثل (رشاد السلباوي)، شحنة من كتب ثقافية دون أن يكون وراء هذا هدف خفي.

قالت في اهتمام:

- ربما هي شحنة تمويهية.

هز كتفيه، ومط شفتيه، مغمغما:

- ربما.

لم يكد ينطقها، حتى سطع ضوء قوي في وجهيهما، وظهرت حواجز طرق تسدّ الطريق أمامهما، وعلى جانبيها عدد من رجال الشرطة، فغمغمت (غادة) في عصبية:

- هل نتوقف؟

انعقد حاجباه، وهو يعتدل في مقعده، مجيبا في صرامة:

- بالتأكيد.

تساءلت في عصبية أكثر:

- وماذا لو أنهم ينتظروننا بالتحديد؟ أعني لو أن العقيد (مجدي) قد اتصل بهم لاسلكيا، وطلب منهم أن..

قاطعها في حزم:

- هذا هو.

سألته في دهشة عصبية:

- ومازلت ترغب في أن نتوقف؟

قال بكل الصرامة والحزم:

- بالتأكيد.

ضغطت فرامل السيارة في توتر، وتركتها تتوقف على جانب الطريق، على مسافة متر واحد من الحواجز، فاتجه أحد رجال الشرطة نحوهما، وهو يحمل سلاحه الشخصي، ثم انحني يطلق ضوء مصباحه اليدوي في وجهيهما، قبل أن يبتسم، قائلا:

- مساء الخير يا سيد (نديم).

واعتدال، ليضغط زر جهاز الاتصال اللاسلكي، قائلا:

- من الحاجز الأول إلى سيادة العقيد (مجدي).. لقد استوقفنا الهدف بالفعل.. وفي المكان المتوقع.

وهنا شعرت (غادة) بكل غضب وسخط الدنيا، وهي تتطلع إلى حقيبة (نديم)، الملقاة في المقعد الخلفي، وبداخلها ثوب وقناع (العقرب)...

وفي أعماقها، بدا لها أن المصيدة قد أطبقت عليهما هذه المرة..
بمنتهى الوضوح..
والقوة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

" ما الذي تحتويه هذه الكتب بالضبط؟ ".

ألقى العقيد (مجدي) السؤال في عصبية شديدة، على المحامي (إدوارد)، فانقلبت سحنة هذا الأخير في شدة، وهو يجيب:

- وما الذي يمكن أن تحتويه؟ ثقافة ومعلومات عامة.. إنها مجرد موسوعات..

رماه (مجدي) بنظرة نارية، وهو يسأله:

- لماذا إذن أحتقن وجهك عندما رأيت أحدها في يد (العقرب)؟!

صاح (إدوارد) في حدة:

- ماذا دهاك أيها العقيد؟! هل فقدت القدرة على التمييز بين اللص والشريف؟! هل نسيت أنك هنا لتلقي القبض على ذلك المقنع، الذي اقتحم مخازننا عنوة؟

قال (مجدي) في صرامة:

- أنا هنا لتطبيق القانون، وتحقيق العدالة.

صاح (إدوارد):

- حقا؟ لماذا عجزت ورجالك عن الإمساك بذلك المقنع المتسلل إذن؟؟

رفع (مجدي) جهاز الاتصال اللاسلكي، وهو يهتف:

- ألم تسمع بنفسك؟! لقد استوقفته دوريتنا على الطريق.

رفع (مجدي) جهاز الاتصال وهو يهتف:
- ألم تسمع بنفسك؟ لقد استوقفته دوريتنا على الطريق..

هتف (إدوارد):

- دوريتكم استوقفت (نديم فوزي)، وليس (العقرب).

انعقد حاجبا (مجدي) في شدة، وهو يقول في صرامة:

وكيف عرفت أنه (نديم فوزي)؟!

انتفض جسد (إدوارد)، وهو يقول في عصبية:

- ما تعني؟!

بدا (مجدي) شرسًا على نحو عجيب، وهو يلوح في وجهه بجهاز اللاسلكي، قائلا:

- أعني أن أحدا لم يذكر اسم (نديم فوزي) كاملا قط.. لقد اتصلت برجالي، وطلبت منهم إيقاف سيارة (نديم) إذا ما وجدوها على الطريق، تتجه نحو القاهرة.. وعندما أبلغوني بإيقافها اكتفوا بقول: إنهم قد استوقفوا الهدف، فمن أين جئت باسم (نديم)؟!

صمت (إدوارد) لحظة، قبل أن يقول في حدة:

- إنه محام مثلي، ومن الطبيعي أن أعرفه.

قال (مجدي) في سرعة وصرامة:

ولكن ليس من الطبيعي أن تربط بينه وبين (العقرب)

ثم تراجع في حركة حادة، مستدركا:

- إلا إذا..

سأله (إدوارد) في عصبية:

- إلا إذا ماذا؟!

لم يجب (مجدي) سؤاله، وإنما تطلع إلى عينيه مباشرة كما لو أنه يقرأ ما يدور في حماقه، قبل أن يقول في بطء صارم:

- لوانك نطقت اسم (العقرب)، أمام أي مواطن عادي، لما وجدت لديه أي صدي له، ولو خبرته باسم (نديم فوزي)، لتذكر أنه قد شاهد لافتة على مكتب في وسط المدينة تحمل هذا الاسم، أو ربما كان يجهله تماما.. قلائل هم من يعرفون (نديم فوزي)، وندرة من يعرفون (العقرب)، وفئة واحدة فحسب هي التي يمكنها أن تربط بين هذا وذاك.

سأله (إدوارد) في حذر زائد:

- أية فئة تلك؟!

رمقه (مجدي) بنظرة صارمة أخرى، قبل أن يقول:

- قل لي يا سيد (إدوارد): هل يمكنني الحصول على أحد هذه الكتب الأنيقة؟!

تضاعف حذر (إدوارد)، وهو يسأله:

- ولماذا؟

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتي (مجدي)، وهو يقول:

- سأدفع ثمنه بالطبع.

ران عليهما الصمت لحظات، وكل منهما يتطلع إلى عين الآخر، بنظرة تحمل تحديا غامضا مكبوتا، قبل أن يقول إدوارد) في روية حذرة:

- غذا سأرسل إليك موسوعة كاملة يا سيادة العقيد.

انحنى (مجدي) يلتقط نسخة من الصندوق الذي فتحه (العقرب)، قائلا:

- سأكتفي بكتاب واحد، و.

أمسك (إدوارد) معصمه فجأة في قوة وهو يقول في صرامة عصبية:

- كلا.

رفع (مجدي) عينيه إليه في تحدٍ، قائلا:

- وماذا لو أصررت؟

أجابه (إدوارد) في حدة:

- في هذه الحالة، سأصر أنا على وجود إذن من النيابة.

غلفهما الصمت بضع لحظات أخرى، وكلاهما يتطلع إلى عيني الأخر مباشرة، قبل أن يقول (مجدي) في صرامة، وهو يفلت نسخة الكتاب:

- فليكن.. ما دمت تصرّ.

وأشار إلى رجاله، مستطردا:

- سنتصرف الآن يا سيد (إدوارد)، ولكن ثق بأننا سنعود غدا.

ثم التفت إليه، وأطلت من عينيه نظرة غاضبة صارمة، وهو يضيف:

- مع إذن النيابة.

انعقد حاجبا (إدوارد) في شدة، وهو يتابع انصراف رجال الشرطة، حتى قال أحد رجال الأمن في توتر:

- هل ألقوا القبض على ذلك المقنع بالفعل؟؟

ازداد انعقاد حاجبي (إدوارد)، وهو يقول

- لا تشغل ذهنك بهذا الآن، فلدينا الكثير من العمل هنا الليلة.

والتقط هاتفه المحمول من جيبه، وهو يضيف في صرامة:

- أما ذلك المقنع، فسنستدعي من يمكنه التعامل معه.

قالها، وهو يضغط أزرار هاتفه الخلوي في سرعة، ثم أشار إلى الرجل، ليبتعد عنه، قبل أن يسمع صوت محدثه عبر المحيط، فيقول في حزم:

- هاي (شارلي).. إنه أنا (إدوارد).. أتحدث من القاهرة.. اسمعني جيدا يا (شارلي)... هنالك بعوضة تسبب لنا الأرق هنا.. أخبر الرفاق في لوس أنجلوس) أننا نحتاج إلى مبيد قوي ليخمد صوتها للأبد.. لا.. لن يمكنني الانتظار حتى ترسلوا مبيدا من الولايات المتحدة.. دعهم يرسلوا أحد مبيدات (أوروبا).. نعم.. بأسرع وسيلة ممكنة.

ثم أنهى الاتصال، وحاجباه يكادان يمتزجان، من فرط انعقادهما، وهو يغمغم بكل سخط وغضب الدنيا:

- فليكن أيها (العقرب).. لقد أفسدت الأمور كلها هنا.. لنر كيف ستواجه مبيدًا محترفا.

نطقها، ثم أعاد هاتفه إلى جيبه، وهو يلقي أوامره الجديدة لرجاله..

الأوامر التي ستشعل النيران في كل شيء..

كل شي..

بلا استثناء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- صراع الذئاب..

تألقت عينا العقيد (مجدي) في ظفر واضح، وهو يوقف سيارته عند حاجز الطريق، وغادرها في انفعال، واتجه في خطوات متئدة نحو سيارة (نديم)، التي جلس داخلها هذا الأخير في هدوء مستفز، على عكس زميلته (غادة)، التي بدت شديدة العصبية، وهي تهتف:

- هل يمكنني أن أفهم معنى ما يحدث هنا؟!

ابتسم (مجدي) في سخرية عصبية متشفية، وهو يقول:

- ألا تفهمين معناه حقًا؟

أشار إليه أحد رجال الشرطة، قائلا في توتر:

- إنهما يرفضان الخروج من السيارة.

انعقد حاجبا (مجدي) في غضب، وهو يقول في حدة:

- سنجبرهما على هذا.

أشار (نديم) بسبابته، قائلا في هدوء صارم حازم:

- أحذرك من فعل هذا، ففي حكم القانون، تعتبر السيارة مكانا خاصا وتماما مثل المنزل، ولا يمكنك اقتحام كليهما، إلا بناء على أمر مباشر، أو إذن من النيابة وإلا تعرضت للمساءلة، ولاحتمال التقاضي والتعويض أيضا.

قال (مجدي) في حدة:

- وماذا عن الاشتباه؟!

هز (نديم) كتفيه، قائلا:

- لابد أن تسبقه تحريات جادة أو يقترن بعدم حمل الشخص لأوراقه الشخصية أو هويته، وبالنسبة لحالتنا هذه، لقد عملنا معًا لبعض الوقت وهذا يعني أنك تعرفني جيدا ومن السهل إثبات هذا؛ مما يحتم أن..

قاطعه (مجدي) في غضب:

- وماذا لو ضربت بكل هذا عرض الحائط، وقمت بتفتيش سيارتك قسرا، وعثرت فيها على زي (العقرب)؟

مط (نديم) شفتيه في لا مبالاة، وهو يقول:

- لن يكون لهذا أية أهمية، لأنه تفتيش غير قانوني، وكل ما ينجم عن خطأ فهو خطأ أيضا، و.

قاطعه (مجدي) بصيحة هادرة:

- فليكن.. لن يعنيني أن ترفض النيابة الاعتراف بالدليل.. يكفيني أن أتيقن أنا من الأمر بصفة شخصية.

هز (نديم) رأسه، قائلا:

- كان يمكنك هذا بالفعل، لولا أنك أضعت وقتا ثمينا في هذه المحاورة.

سأله (مجدي) في عصبية شديدة:

- ماذا تعني؟

ارتسمت على شفتي (نديم) ابتسامة لم ترق له أبدا، وهو يشير بسبابته إلى ما خلف (مجدي) مجيبا:

- أعني أن رئيسك قد وصل.

استدار (مجدي) إلى حيث يشير (نديم)، في حركة حادة، والتقى حاجباه في غضب شديد، عندما رأي سيارة اللواء (حلمي) تتوقف، ويغادرها هذا الأخير، وهو يقول في حدة:

- ماذا تفعل هنا أيها العقيد؟

أطلقت (غادة) من أعمق أعماقها زفرة حادق وهي تهتف:

- أخيرا.

أما (مجدي)، فقال في عصبية:

- أؤدي عملي يا سيادة اللواء.

قال اللواء (حلمي) في غضب صارم، وهو يتجه نحوه:

- لست أذكر أنني قد نقلتك إلى قسم دوريات الطرق السريعة أيها العقيد.

صاح (مجدي) في حدة:

- لدي ما يبرر اعتقالي لهذا الرجل يا سيادة اللواء.

سأله في صرامة:

- وما مبرراتك؟

قال في عصبية شديدة:

- أشك في أنه (العقرب).

صاح اللواء (حلمي) في غضب:

- تشك؟ فقط تشك؟

هتف (مجدي) وقد تضاعفت عصبيته:

- لو أنني عثرت في سيارته على ثياب (العقرب)، فسوف...

قاطعه اللواء (حلمي) في حدة غاضبة:

- لو!! أهذا ما تعلمته طوال عملك في الشرطة؟! لو؟؟

قال (مجدي) في حدة:

- سيادة اللواء.. أرى أنك تنحاز بشدة لـ...

قاطعه (نديم) في سرعة:

- للقانون يا عزيزي (مجدي).. للقانون وحده.

احتقن وجه (مجدي) في شدة وهو يدير عينيه إليه في حركة حادة، في نفس الوقت الذي عقد فيه اللواء (حلمي) ساعديه أمام صدره، قائلا في صرامة:

- والآن، لو أنك تحمل إذنا من النيابة بالتفتيش فافعل، أما لو لم تكن، فلينصرفا فورا..

ثم التفت إلى رجال الشرطة، مكملا بنفس الصرامة:

- ارفعوا الحواجز.

أسرع الرجال يزيحون حواجز الطريق فأدارت (غادة) محرك سيارة (نديم)، وهي تغمغم في توتر شديد:

- سأغادر هذا المكان بأقصى سرعة.

- ابتسم (نديم)، وهو يقول:

- بل بكل هدوء وثقة يا عزيزتي.. هذا سيستفز صديقنا (مجدي) أكثر.

لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع أزيز جهاز اللاسلكي، الذي يحمله (مجدي)، فرفعه هذا الأخير إليه في سرعة، قائلا:

- العقيد (مجدي).. ماذا هناك؟

اتسعت عيناه بشدة، على نحو جذب انتباه الجميع، وجعل (غادة) تتمتم:

- ترى ماذا؟!

قبل أن تتم عبارتها، هتف (مجدي) بانفعال شديد:

- سأحضر على الفور.

ثم أنهى الاتصال، واستدار إلى اللواء (حلمي) مستطردا بكل انفعالاته:

- مخازن (رشاد السلباوي).. لقد اشتعلت فيها النيران كلها..

واتسعت عيون الكل عن آخرها..

فقد كانت مفاجأة..

مذهلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتفاضة مباغتة سرت في جسد (غادة)، وجعلتها تهب من نومها مضطربة، قبل أن تتطلع فيما حولها، ثم تطلق زفرة عصبية، مغمغمة:

- أه.. مرة أخرى أقضي ليلتي في المكتب.

نهضت من الأريكة الوثيرة في حجرة مكتبها، وتثاءبت في إرهاق، وهي تلقي نظرة على ساعة يدها، قبل أن تضيف:

- السابعة والربع.. عظيم.. يبدو أن هذه أضمن وسيلة، لكي أصل إلى العمل مبكرا، وأجد موقفًا لانتظار السيارة أيضا.

مالت تتطلع إلى المرأة الصغيرة في حجرتها، ثم مطت شفتيها، مكملة:

- وأضمن وسيلة لأبدو قبيحة في الصباح أيضا.

أخرجت حقيبتها، وراحت تولي زينتها عناية سريعة، قبل أن تغادر حجرتها، وتتجه إلى حجرة (نديم)، التي ترك بابها مفتوحا على مصراعيه، وقالت وهي تدلف إليها:

- من الواضح أنك لم تنم لحظة واحدة منذ مساء أمس.

غمغم، وهو بقلب الكتاب الأحمر الفاخر بين يديه:

- لقد حاولت.. وفشلت.

ثم مال إلى الأمام، مستطردا في شيء من التوتر، أفسد، هدوءه التقليدي:

- فحصت هذا الكتاب أكثر من مائة مرة، ولم أجد شيئا..

جلست على مقعد قريب، وهي تقول:

- ربما الأمر لا يكمن في الكتاب نفسه.. ربما في الصناديق التي تحوي الكتب، أو في مكان سري بالمخزن، أو...

قاطعها في حزم:

- كلا.. إنك لم تر وجه (إدوارد)، عندما لوحت له بالكتاب.. ثم إن إحراق المخازن يعني محاولة إخفاء أمر ما.. أمر يتعلق بشحنة الكتب هذه.

قلبت كفيها في استسلام، قائلة:

- ولكنك لم تجد شيئا.

قلب الكتاب بين يديه مرة أخرى، قبل أن يقول في حزم:

- ربما لم أبحث بأسلوب سليم..

تراجعت في مقعدها، قائلة في توتر:

- كل مرة أتأكد من أنك عنيد للغاية يا (نديم)..

قال في سرعة:

- هذا صحيح.

ثم مال نحوها، مستدركا:

- ولكنني لست مكابرا.

ظهر عم (أحمد) فراش المكتب، في هذه اللحظة، وبدت عليه الدهشة، وهو يقول:

- أنتما هنا في هذه الساعة؟

لوح (نديم) بيده، قائلا:

- العمل مرة أخري يا عم (أحمد).. ما رأيك لو أعددت لنا قدحين من القهوة المركزة؟؟

ارتفع من خلف مم (أحمد) صوت صارم قاس، يقول:

- اجعلهما خمسة.

ثم برز (إدوارد) عند باب حجرة مكتب (نديم)، وخلفه اثنان من رجال أمن شركات (رشاد السلباوي)، بجسديهما الضخمين، وعضلاتهما المفتولة، وتلك النظرة الشرسة المتحفزة المطلة من عيونهما..

وبحركة سريعة، أمال (نديم) بيده الممسكة بالكتاب الأحمر الفاخر، خلف حافة المكتب، ودسه في درج مفتوح ثم أغلق ذلك الدرج في بطء، وهو يقول هادئًا:

- يا لها من زيارة في هذه الساعة المبكرة!

من حركة عيني المحامي، أدرك (نديم) أنه قد لمح ما فعله، ولقد أعلن هذا بلهجته الصارمة القاسية، وهو يقول:

- أظنك قد احتفظت بشيء يخصنا، من باب الخطأ يا سيد (نديم).

تراجع (نديم) في مقعده بهدوء، قائلا:

- أي شيء هذا؟

نقلت (غادة) بصرها بينهما في حذر، والمحامي يجيب في شراسة:

- كتاب أحمر أنيق، من القطع الكبير.. جزء من موسوعة عامة بالتحديد.

صمت (نديم) لحظة، ثم مال إلى الأمام، قائلا بنفس الهدوء، وان اكتست نبرته بشيء من الصرامة هذه المرة

- وبم يفيدكم هذا الجزء، وقد أحرقت الموسوعات كلها، حسبما سمعت؟!

احتقن وجه المحامي غضبا، ومد يده إلى الأمام، قائلا بكل صرامة:

- الكتاب يا سيد (نديم).

تبادلا نظرة طويلة متحدية، قبل أن يتراجع (نديم) في مقعده، ويلتقط سماعة هاتفه، قائلا في صرامة واضحة:

- ليس لدي أي شيء يخصكم يا سيد (إدوارد)، ولو لم تغادروا مكتبي الأن، فسوف...

قبل أن يتم عبارته تراجع المحامي الذئب خطوة حادة إلى الخلف، ثم أشار بيده في صرامة، فاندفع الحارسان في آن واحد وكل منهما يستل مسدسه، وأحاط أحدهما عنق عم (أحمد) بذراعة القوية، وألصق فوهة مسدسه بعنقه المتغضن، فشهق المسكين في رعب، في نفس اللحظة التي نقض فيها الثاني على (غادة)، وجذبها من شعرها في قسوة، قبل أن يلصق فوهة مسدسه بأذنها اليمني، قائلا في وحشية:

- كلمة واحدة وأصنع قناة مباشرة بين أذنيك.

هب (نديم) من مقعده قائلا في غضب:

- ما هذا بالضبط؟!

أجابه (إدوارد) في سرعة وصرامة:

- أسلوب أفضل في التعامل مع عقرب مثلك يا سيد (نديم).

صاح به (نديم):

- هذا الأسلوب ينقلك من قائمة المحامين إلى خانة البلطجية.

أجابه (إدوارد) في تحد:

- بالضبط.. ولكن بأسلوب قانوني وذكي أيضا، فالمسدسان مزودان بكاتمي صوت، كما لابد أنك قد لاحظت ولدينا عشرة شهود على الأقل، على أن ثلاثتنا لم نغادر مقر الشركة لحظة واحدة منذ اندلع حريق المخازن، وحتى تحضر الشرطة لاستجوابنا.. ثم إن المسدسين مستعملان، وكلاهما سيتم تعرفه كسلاح مستخدم في جرائم سابقة في الصعيد.

تطلع (نديم) لحظة إلى الرعب المطل من عيني (غادة) وعم (أحمد)، وإلى الوحشية الواضحة في نظرات وتصرفات رجلي أمن شركات (رشاد السلباوي) ثم إلى تلك الصرامة القاسية الشرسة في وجه (إدوارد)، قبل أن يقول في توتر:

- ماذا تريد بالضبط؟

حملت كلمات (إدوارد) نبرة ظافرة، وهو يقول:

- الكتاب يا سيد (نديم)، وأية نتائج حصلت عليها من فحصه.

اخترقت العبارة الأخيرة مخ (نديم) مباشرة، وأطلقت صفارة إنذار كبيرة.. إذن فالكتاب يحوي شيئا ما بالفعل..

شيء جازف (إدوارد) بهجوم مباشر لاستعادته..

وبأي ثمن..

" الكتاب والنتائج يا سيد (نديم)، والا ".

أطلق (إدوارد) عبارته في صرامة وحشية رهيبة، فمط (نديم) شفتيه، قائلا:

- فليكن.

وفي استسلام عجيب، انحنى يفتح درج مكتبه، و.

" انتظر ".

هتف (إدوارد) بالكلمة في حدة، وهو يستل مسدسه، ويصوبه على (نديم)، مستطردا في عصبية:

- ببطء، ودون أية مفاجآت.

ارتسمت ابتسامة ساخرة، على ركن شفتي (نديم)، وهو يقول:

- اطمئن أيها الحقير.. لست أهوى التعامل مع الأسلحة النارية.

ثم اعتدل، وهو يحمل ذلك الكتاب الأحمر الأنيق، مستطردا:

- فالأسلحة لا تكون بالضرورة نارية.

مد (إدوارد) يده في لهفة، ليلتقط الكتاب و...

وفجأة، ارتفع رنين جرس الباب مع صوت قوي، يهتف:

- افتح الباب.. شرطة.

هتف (إدوارد) بالكلمة في حدة، وهو يستل مسدسه، ويصوبه إلى (نديم)..

تراجع (إدوارد) بحركة حادة، وامتقع وجهه بشدة، واضطرب حارساه..

ويحركه مباغتة سريعة، وثب (نديم) عبر المكتب، وانقض على الرجال الثلاثة..

واشتعل الموقف كله دفعة واحدة..

بمنتهى العنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- المبيد.

انحنى فني المعمل الجنائي يفحص بقايا الحريق في اهتمام، قبل أن يهز رأسه في حيرة:

- عجبا!

تثاءب العقيد (مجدي) في إرهاق، قبل أن يسأله:

- ماذا هناك؟

هز الفتى رأسه مرة أخرى، قائلا:

- لقد كان حريقا مدمرا، حتى إنه قد التهم كل شيء، كما لو أنه لا توجد أية نظم أمن مضادة للحريق، في المكان كله.

قال (مجدي) في اهتمام:

- ولكنها كلها كتب.. أوراق سريعة الاشتعال..

عاد الفني يهز رأسه، ويقول:

- ولو.. أين نظم الأمن الصناعي إذن؟! لقد عاينت يوما حريقا ضخما، في مطبعة كبرى، استغرق ما يقرب من الساعة، وعلى الرغم من هذا، كانت هناك بعض الكتب التي لم يصبها التلف تماما؛ لأن أجهزة إطفاء الحريق غمرتها بالماء أو الرغوة المطفئة.

تلفَّت العقيد (مجدي) حوله، مغمغما:

- من الواضح أنهم لا يستخدمون هذه النظم هنا.

نهض الفني، قائلا:

- مستحيلا كيف حصلوا على الترخيص إذن؟؟

ثم أضاف في سرعة:

- إلا إذا..

سأله (مجدي) بسرعة أكبر:

- إلا إذا ماذا؟

هز الفني رأسه، وتردد لحظة، قبل أن يقول في حذر:

- إلا إذا كان أحدهم قد تعمَّد ألا تعمل أجهزة إطفاء الحريق.

انعقد حاجبا (مجدي) في شدة، وهو يسأله:

- هل تعني أن هذا الحريق متعمد؟

تراجع الرجل، ولوح بكفه في ذعر، هاتفا:

- أنا لم اقل هذا.. هذا قرار سابق لوقته، وليسن من. حقي حتى ان اتخذه.. لابد من إتمام الفحص أولا، و....

قاطعه (مجدي) في حدة:

- لست أسألك رأيًا رسميا يا رجل.

تلفت الرجل حوله في هلع، قبل أن يهمس:

- أتعني أنني لست مضطرا لتكرار هذا أمام وكيل النيابة، أو القاضي، أو...

قاطعه (مجدي) بزمجرة عصبية، قائلا:

- لست مضطرا لأي شيء.

تلفت الرجل حوله مرة أخرى، ثم همس في الفعال:

- لو أردت رأيي الشخصي إذن فهو حريق متعمد.

اعتدل (مجدي)، مغمغما في توتر:

- هكذا..

مال الرجل على أذنه، مكملا:

- أما بالنسبة للكتب، فلم تحترق كاملة.

هتف (مجدي) في غضب:

- ولكنك قلت إن..

قاطعه الرجل في ذعر:

- أخفض صوتك بالله عليك.. إنني أقصد أن الكتب لم تكن كاملة، عندما تعرضت للحريق.

عاد حاجبا (مجدي) ينعقدان، وهو يتساءل في عصبية:

- ماذا تعني؟

مال نحوه أكثر، وهو يلوح ببقايا غلاف أحمر محترق، وهو يجيب:

- لقد انتزعوا منه جزءا مهما.

وانخفض صوته، وكأنما يخشى أن يسمع نفسه، وهو يضيف؟

- الكعب.

واتسعت عينا (مجدي) عن آخرهما..

فقد كانت مفاجأة بحق..

مفاجأة جديدة..

ومدهشة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من المؤكد أنه، وعلى الرغم من سنوات عمله في المحاماة، إلا أن (نديم فوزي) لم يفقد لياقته قط، كرجل شرطة سابق..

وكعقرب حالي..

فقد وثب عبر مكتبه، وركل مسدس (إدوارد) ركلة قوية، قبل أن يلقي الكتاب الأحمر بكل قوته، نحو حارس الأمن، الذي يمسك عم (أحمد)، في نفس اللحظة التي انزلقت فيها (غادة) بمرونة مدهشة، من يد الحارس الآخر، ثم دارت حول نفسها في رشاقة؛ لتهوي بقبضتها على أنفه مباشرة..

وفي لحظة واحدة ارتفعت تأوهات الحارس الثاني، مع تحطم أنفه، وانطلقت شهقة مكتومة من الحارس الأول، الذي أصاب الكتاب رأسه، وألقاه أرضا في عنف..

وبكل الرعب، تراجع عم (أحمد)، واتكمش في أحد الأركان، في حين دار (نديم) حول نفسه ليركل الحارس الأول ركلة كالقنبلة في أنفه، ثم أخرى في معدته، في نفس اللحظة التي انقض فيها الحارس الثاني على (غادة)، وهو يطلق صرخة غاضبة وحشية..

وبنفس الرشاقة، انخفضت (غادة)، متفادية انقضاضة الحارس الثاني، وتركته يتجاوزها ثم دارت حول نفسها، وركلته في ظهره بكل قوتها، فاندفع إلى الأمام، ليرتطم رأسه بحافة مكتب (نديم)، ثم يسقط أرضا، وهو يطلق شخيرا عجيبا مختنقًا..

أما الحارس الأول، فقد تراجع مع ضربتي (نديم)، ثم عاد ينقض فجأة على (نديم)، ويكيل له لكمة عنيفة، تراجع معها (نديم) في حدة، وارتطم بالمحامي (إدوارد)، الذي كبَّل ذراعيه من الخلف صائحا:

- هيا يا (جابر).. حطم عنقه.

هوت قبضة (جابر) بكل قوتها على عنق (نديم)، إلا أن هذا الأخير دفع جسده إلى الخلف بغتة، فاختل توازن (إدوارد)، وسقط معه أرضا، فطاشت لكمة (جابر)، في نفس اللحظة التي ارتفعت فيها قدم (نديم)، لتركله في فكه ركلة قوية عنيفة، ألقته خلفا، ليسقط على ظهره أرضا، فاستقبلته (غادة) بركلة أخرى، هاتفة:

- هيا، اسقط أيها الوغد.

انطلق من حلق (جابر) خوار كالثور، تم انهار جسده فاقد الوعي، في نفس اللحظة التي انفلت فيها (نديم) من ذراعي (إدوارد)، ثم وثب يلتقط مسدس هذا الأخير، ويصوبه إليه، قائلا:

- أعتقد أن اللعبة قد انتهت هنا يا سيد (إدوارد).

أدار (إدوارد) بصره بين رجليه الفاقدي الوعي، قبل أن يقول في عصبية، وهو ينهض من سقطته:

- لو أنك تتصور أنك بهذا قد انتصرت، فأنت واهم.

ابتسم (نديم) في سخرية، وهو يقول:

- ولو أنك تتصور أنك عبقري، فهذا أكبر دليل على حماقتك، خاصة وقد خدعتك بجهاز انذار بسيط، أوهمك بقدوم رجال الشرطة..

عدَّل (ادوارد) رباط عنقه، وهو يقول:

- خدعة طريفة يا سيد (نديم).. عيبها الوحيد هو أنه يستحيل تكرارها.

هز (نديم) كتفيه، قائلا:

- مازال في جعبتي الكثير.

مال (إدوارد) إلى الأمام، وهو يقول في صرامة غاضبة:

- وأنا أيضا.

مع آخر حروف كلمته، ارتفع رنين هاتفه الخلوي بغتة، فالتقطه بحركة آلية، وقال في عصبية:

- (إدوارد).

أتاه صوت أحد رجاله في المطار، وهو يقول:

- سيد (إدوارد).. إنه أنا.. لقد وصل المبيد من (إيطاليا).

تألقت عينا (إدوارد)، وهو يهتف:

- وصل؟!

ثم اتسعت ابتسامة ظافرة كبيرة على وجهه، وهو يكمل:

- عظيم.. قل له: إنني أريده أن يبدأ عمله فورا.. وسيحصل على مكافأة سخية للغاية

لو أتمه بنجاح.

أنهى المحادثة، وأعاد الهاتف إلى جيبه، في نفس اللحظة التي استعاد فيها حارساه وعيهما، فقال(نديم) في حذر:

- أراهن أنه خبر شرير، ذلك الذي أسعدك هكذا.

رمقه (إدوارد) بنظرة مستفزة، قائلا:

- بالنسبة لي هو خبر ممتاز يا سيد (نديم) -

ثم أشار إلى حارسيه، مستطردا:

- أعتقد أنك لن تبلغ الشرطة بما حدث؛ لأن هذا يضعك أيضا في دائرة التساؤل، خاصة وأن الكل رأي (العقرب) أمس، وهو ينصرف بنسخة الكتاب هذه، وهذا يعني أنه يمكننا أن ننصرف بكل هدوء.

قال(نديم) في صرامة:

- على ألا تعودوا مرة أخرى.

ثم انتزع خزانة مسدس (إدوارد)، وألقاها في سلة المهملات، وجذب مشط المسدس؛ ليفرغ الرصاصة المتبقية في ماسورته، قبل أن يلقيه إليه، مستطردا:

- المسدسان الآخران سنتخلص منهما بمعرفتنا.

قال (إدوارد) في سخرية:

- لا بأس.. لدينا العشرات مثلهما.

وأشار مرة أخرى إلى رجليه، واتجه ثلاثتهم نحو الباب، فهتف به (نديم) في صرامة:

- تذكروا ألا تعونوا هنا مرة أخرى.

ابتسم (إدوارد) في سخرية، قائلا:

- من يدري؟! ربما اضطررنا للعودة..

ثم استدار يتطلع إلى عيني (نديم) مباشرة، مستطردا:

- للتعزية.

قالها، وأطلق ضحكة ساخرة عالية وهو ينصرف مع حارسيه، فهتف عم (أحمد)، في ارتياع مستنكرًا:

- ألن نبلغ الشرطة حقا؟

ابتسم (نديم)، قائلا:

- لا تقلق نفسك بهذا يا عم (أحمد).. هيا.. انس أمر القهوة، وسنكتفي بكوبين من النعناع الساخن لتهدئة أعصابنا.

حدق الشيخ في وجهه لحظة، ثم لم يلبث أن هز كتفيه في استسلام، مغمغما:

- يا للشباب.

ابتسم (نديم)، وسأل (غادة):

- أأنت بخير؟؟

أشارت بيدها، قائلة:

- لم أكن أبدا أفضل، ولكن هل تعلم ما الذي يعنيه ما حدث الآن؟!

انحنى يلتقط الكتاب الأحمر الملقي أرضا، وهو يجيب:

- أهم ما يعنيه هو أن (رشاد السلباوي) مجرد واجهة لأمر إجرامي رهيب، يديره. فعليا ذلك الذئب (إدوارد)، و.

بتر عبارته بغتة، عندما انفصل كعب الكتاب بين أصابعه على نحو مفاجئ، فرفعه يحدق فيه، قبل أن يهتف:

-رباه من كان يتصور هذا؟!

اندفعت (غادة) نحوه، قائلة:

. ماذا وجدت؟!

ولم تكد تتطلع إلى كعب الكتاب الذي يحمله في يده حتي سرت في جسدها كله ارتجافة قوية..

فقد كان ما تراه مدهشا، وغير متوقع..

على الإطلاق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العقرب

مهمة رسمية

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

7- اغتيال..

فرك (رشاد السلباوي) كفيه، بكل توتر الدنيا، وهو يتحرك في مكتبه بعصبية بالغة قائلا:

- إذن فقد تركتم الكتاب هنالك على الرغم من كل ما حدث.

أجابه (إدوارد)، في هدوء صارم:

- لم يكن هناك حل آخر.

لوح (رشاد) بذراعه، هاتفا:

- إنها كارثة.. كارثة بكل المقاييس.. لو كشفوا الموجود في كعب الكتاب، سنـ..

قاطعه (إدوارد) في صرامة قاسية:

- لا تقلق نفسك بهذا.

صاح (رشاد) في ثورة:

- لا أقلق نفسي بهذا؟! أي قول أحمق سخيف هذا يا (إدوارد)؟! كلانا يعلم أن الشحنة، واردة باسمي واسم شركاتي، وأن المسئولية المباشرة..

هب (إدوارد) من مقعده بحركة حادة قائلا في صرامة:

- أية مسئولية؟! أنت تعلم أن رجالنا يتولون الأمر كله منذ البداية، وأنني هنا، بكل خبراتي ويراعتي القانونية لحمايتك وتأمينك، وضمان عدم وجود أي ثغرة، يمكن أن ينفذ منها القانون المصري اليك.

ثم مال نحوه، وبدت ملامحه شيطانية شرسة، وهو يضيف، متطلعا إلى عيني (رشاد) مباشرة:

- إنها مليارات الدولارات ولن نتركها حتمًا دون حماية قوية.

غمغم (رشاد) بصوت مرتجف:

- وماذا لو كشفوا الـ..

قاطعه (إدوارد) بشراسة أكتر

- لن يكشفوا شيئا.. لقد انتزعنا كل ما نريده، من تلك الموسوعات السخيفة، ثم أحرقناها كلها.

ازدرد (رشاد) لعابه في صعوبة، وغمغم:

- هناك نسخة لدي ذلك (العقرب).

تألقت عينا (إدوارد)، وتراجع قائلا بلهجة مخيفة:

- هذا لا يهم أيضا، فيعد دقائق قليلة، لن يكون هناك وجود لذلك (العقرب)، أو للمحامي (نديم فوزي) ...

حدق (رشاد) في وجهه متمتمًا:

- هل.. هل..

تابع (إدوارد)، وهو يشعل سيجارا ضخما، وكأنما لم يسمعه:

- فقد استوردت له مبيدًا إيطاليا خاصا، يجيد عمله بمهارة المحترفين.

ردد (رشاد)، في حذر متوتر:

- مبيد!

تألقت عينا (إدوارد)، وهو يقول:

- نعم.. مبيد يدعى (ماريو).

قالها، ثم أطلق ضحكة طويلة ممطوطة...

ضحكة شيطان..

حقيقي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حفرت الدهشة خطوطها العريضة، على وجه (غادة)، وهي تحدق في تلك القطع المتلألئة الصغيرة، التي تناثرت من كتب الكتاب الأحمر الفاخر، قبل أن تهتف:

- ماس!!

أجابها (نديم) في الفعال، وهو يلتقط الماسات في حرص:

- نعم يا عزيزتي.. هذا ما تخفيه كعوب شحنة الموسوعات الفاخرة.. الماس.. الماس الثمين.

هتفت بدهشة أكبر:

- ولكن كعب هذا الكتاب وحده يحوي ست ماسات، ولو افترضنا أن هذا هو متوسط محتوى كل نسخة من شحنة الموسوعات، فنحن أمام...

قاطعها مكملا بنفس الانفعال:

- مليارات الدولارات يا (غادة)..

ثم اعتدل، وتألقت عيناه بشدة، وهو يضيف:

- من الواضح أننا أمام أضخم عملية غسيل أموال قذرة، في العالم كله.

رددت مبهورة:

- مليارات الدولارات؟! يا إلهي!

ثم أمسكت ذراعه في قوة مستطردة:

-(نديم).. لابد أن نبلغ اللواء (حلمي).. فورا.

التقى حاجباه، وهو يقول في حزم:

- سنبلغه بالتأكيد.

وصمت لحظة، ثم أضاف بصرامة أكثر:

- ولكن ليس الأن.

سألته في دهشة عصبية:

- ولم لا؟!

أجابها، وهو يضع الماسات في علبة صغيرة، دسها في جيبه:

- إنهم يدركون أننا نستطيع كشف أمرهم، ولو بالمصادفة البحتة، كما حدث الآن، ومن

المؤكد أن حريق المخازن مجرد خطوة في خطة واسعة، تهدف إلى محو كل أثر لعملياتهم، ولو أبلغنا اللواء (حلمي) الآن، فلن يجد دليلا واحدا، يمكنه إدانة فرد واحد منهم به..

قالت في إصرار:

- ولكن من الضروري أن يعرف.

شرد ببصره لحظات، ثم أجابها في حسم:

- اللواء (حلمي) رجل شرطة، حتى ولو تعامل بمرونة في هذه القضية، فهو لن يخفي أمرًا على القيادات العليا، التي ستتحرك حتما في سرعة، وربما أفسد تحركها الأمر كله وبخاصة مع ثعلب شرس مثل (إدوارد).

سألته في عناد:

- وماذا لو أخبرناه وطلبنا منه إخفاء الأمر من القيادات العليا؟

هز كتفيه، وأجاب بنفس البصر الشارد:

- ولماذا نضغط على مشاعره وأعصابه دون مبرر؟!

- ليمد لنا يد العون على الأقل.

انتزعته عبارتها الأخيرة من شروده، وجعلته يلتفت إليها، قائلا:

تراجعت بدهشة، فاستطرد في صرامة:

- في عملية ضخمة كهذه، لا ينبغي قط أن تنتشر الأخبار، أو أن تبلغ فردا واحدا، يزيد عن الحد الأدنى المحتم للقيام بها؛ فلا يمكنك قط ضمان عدم وجود خائن ما بين الصفوف.

هتفت مستنكرة في انزعاج:

- صفوف الشرطة؟!

أجابها في سرعة:

- الشرطة ليسك كلها جنود وضباط.. ثم إن العاملين فيها مجرد بشر، وليسوا ملائكة، وغسيل مليارات الدولارات، يستلزم إنفاق الملايين لتأمين العملية، وربما ضعفت نفس البعض، أمام إغراء تلك الأرقام الهائلة، فتتحول إلى عين المجرمين، في قلب جهاز الشرطة..

بدا عليها الذعر، فاستدرك بسرعة:

- مجرد احتمال.

غمغمت في عصبية:

- بفزعني مجرد التفكير فيه.

قال في حزم:

- لا ينبغي إهمال أية احتمالات في عملية كهذه.

تطلعت إليه لحظة في صمت، ثم لوحت بذراعيها في توتر، متسائلة:

- ما الذي ستفعله إذن؟؟

عاد (نديم) إلى شروده بضع لحظات، قبل أن يجيب في حزم:

- هذه الخطوة تحتاج إلى (العقرب).

سألته في توتر:

- وما الذي يمكن أن يفعله (العقرب) هذه المرة؟

استدار إليها، مجيبا:

- الكثير.

حدقت في وجهه لحظة، قبل أن تهز رأسها في قوة، ثم تتجه إليه، قائلة:

- اسمع يا (نديم).. هذه المرة ت...

لم تكن قد أتمت عبارتها بعد، عندما لمح هو ذلك الوميض، عبر الشارع، من البناية العتيقة المقابلة..

وقيل حتى أن يستوعب عقله معناه ومغزاه، تحطمت النافذة بغتة..

وانطلقت صرخة (غادة) عالية..

وتناثرت الدماء في حجرة مكتب (نديم)..

وبعنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"ما الذي يثير توترك إلى هذا الحد أيها العقيد؟ ".

القى اللواء (حلمي) سؤاله هذا في هدوء شديد، ضاعف من توتر العقيد (مجدي)، وهو يقول في عصبية:

- الأمر كله أعجز عن فهمه يا سيادة اللواء.. فبغض النظر عن الآراء الشخصية، نحن نعتبر (العقرب) مجرما خارجا عن القانون، والمفترض أن نسعي للإيقاع به، وكشف أمره، لا أن نهرع لإنقاذه، من كل مأزق يقع فيه.

أخفى اللواء (حلمي) ابتسامته بصعوبة، وهو يقول:

- حسبما أذكر، وحسبما تقول الأوراق الرسمية، لا يوجد أي أمر من النيابة أو القضاء، بضبط وإحضار هذا (العقرب).

قال (مجدي) في حدة:

- أمر طبيعي لأنه لا يوجد عمليًا ورسميا شخص يدعى (العقرب) وكلنا نعلم أنه اسم مستعار، يتخذه ذلك المحامي الفاشل (نديم فوزي)، عندما يضع قناعه السخيف ويخرج لمحاربة الجريمة، متصورا أنه (زورو) أو (باتمان).

مال اللواء (حلمي) إلى الأمام وهو يسأله في رصانة هادئة:

- هل يوجد رسميا، ما يثبت أن (نديم فوزي) هو (العقرب)؟!

قال (مجدي) في عصبية:

- هذا ما نسعى لإثباته.

تراجع اللواء (حلمي) في مقعده، وقال

- عظيم.. والى أن نثبته، سيظل نديم فوزي) شخصا مسالما بريئا، لا يمت لأدنى صلة بـ (العقرب).

هتف (مجدي) في حنق:

- أي عبث قانوني هذا؟

ابتسم اللواء (حلمي)، وعلى الرغم مما في أسلوب (مجدي) من تجاوز، وقال في هدوء:

- نفس العبث القانوني، الذي يسعي (العقرب) لتجاوزه، وهو يوجه خصومه، الذين يحتمون بثغرات وفجوات القانون.

أدرك (مجدي) ما يعنيه اللواء (حلمي)، فتراجع برأسه ورفعه مع شد قامته، وهو يقول في اعتداد صارم:

- القانون هو القانون.

هز اللواء (حلمي) كتفيه، وقال:

- بالتأكيد.

ثم واصل في سرعة، وكأنما يسعى لتجاوز هذا الموقف:

- قل لي: ما الذي انتهى إليه تقرير البحث الجنائي، حول حريق مخازن (رشاد السلباوي)؟!

نجح أسلوبه في تحويل دفة الحديث، فقد قال (مجدي) في توتر:

- إنه حريق متعمد.

أومأ اللواء (حلمي) بكتفيه، مغمغما:

- أمر متوقع.

أضاف (مجدي):

- ولقد انتزعوا كعوب الكتب قبل إحراقها.

التقى حاجيا اللواء (حلمي)، وهو يقول في توتر:

- كعوب الكتب؟؟

ورفع يده إلى ذقنه، وهو يفكر في هذه النقطة في عمق، و (مجدي) يقول:

- كانوا يخفون شيئا ما فيها حتما..

أشار اللواء (حلمي) بسبابته، قائلا في اهتمام شديدة:

- السؤال هو: ما هذا الشيء؟! ما الذي أخفوه في كعوب الكتب، ونجحوا في تهريبه الى البلاد؟

غمغم (مجدي) في حذر:

- من يدري؟

نهض اللواء (حلمي) من خلف مكتبه، وهو يشير إلى رأسه، قائلا:

- الأمر يحتاج إلى معادلة منطقية، فلو أن (رشاد السلباوي) مجرد واجهة لمنظمة خطيرة تسعى لغسيل أموالها القذرة لدينا، فمن المؤكد أن ما حوته كعوب الكتب كان شيئا صغير الحجم، غالي الثمن في الوقت ذاته، والشيء الوحيد الذي يمكن أن تنطبق عليه هذه الصفة هو الـ....

قاطعه رنين هاتفه المباغت، فالتقط سماعته بحركة آلية، وقال في شيء من التوتر:

- اللواء (حلمي).

انعقد حاجباه في شدة، وهو يستمع إلى محدثه، قبل أن يقول في عصبية، بلغت حدا عجيبا:

- سنحضر فورا.

هتف (مجدي)، في فضول متوتر، لم يستطع كبحه:

- ماذا حدث؟!

التفت إليه اللواء (حلمي) بوجه شاحب ممتقع، قبل أن يقول في ارتياع واضح:

-(نديم) و (غادة) تم اغتيالهما.

واتسعت عينا (مجدي) عن آخرهما..

فعلى الرغم من اعتراضه على أسلوب (نديم)، كان الخبر بالنسبة إليه صدمة..

صدمة عنيفة..

للغاية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- استيراد.. وتصدير..

لم يكد الهاتف المحمول الخاص بالمحامي (إدوارد) ينطلق، حتى التقطه هذا الأخير في سرعة، ووضعه على أذنه، قائلا:

- كيف الحال؟

أتاه صوت خشن جاف، يقول بالإيطالية:

- المهمة انتهت، تمت إبادة الهدف بنجاح.

تألقت عينا (إدوارد) في نشوة، وهو يقول بالإيطالية أيضا:

- رائع.. غادر موقعك فورا يا (ماريو).. الشرطة المصرية تتحرك بسرعة في مثل هذه الحوادث.. نفذ فورا.

قال (ماريو)، بصوته الخشن الجاف:

- ماذا عن السيارة؟!

أجابه في سرعة وانفعال:

- ستنتظرك في الموقع المتفق عليه.. ولا تنس أن تترك البندقية ذات المنظار خلفك.

غمغم (ماريو):

- بالتأكيد.

أضاف (إدوارد) في صرامة:

- اللحية والجلباب الأبيض أيضا لهما أهمية بالغة.. هل تفهم؟؟

صمت (ماريو) لحظة، قبل أن يقول في خشونة أكثر جفافا:

- هذا أسخف أمر في العملية كلها.

أجابه (إدوارد) في صرامة شرسة:

- نفذ الأوامر؛ لتتقاضى أجرك كاملا.

غمغم (ماريو):

- فليكن.

ثم أنهى المحادثة في عنف أحنق (إدوارد)، وجعل (رشاد) يتساءل في عصبية:

- هل.. هل اغتالهما؟

رمقه (إدوارد) بنظرة ازدراء، وتجاهل تساؤله تماما، وهو يضغط أزرار هاتفه المحمول في سرعة، ثم يقول:

- (جابر).. إنه أنا.. المبيد الإيطالي أنهى مهمته. اعملوا على استعادة كتابنا فورا.

لم يكد ينهي الاتصال، حتى قال (رشاد) في حدة:

- أسلوب التجاهل هذا لا يناسبني قط.

استدار إليه (إدوارد)، متسائلا في برود:

- ما الذي يناسبك إذن؟

صاح في غضب

- أريد معرفة ما يحدث.

أدار (إدوارد) جسده كله إليه، وقال في صرامة جافة:

الأمر ببساطة أن المبيد، الذي استوردناه من (إيطاليا)، قد أتم مهمته بنجاح وقام بتصدير الطردين الى الجحيم مباشرة.

لوج (رشاد) بذراعه هاتفًا:

- مبيد، واستيراد، وتصدير، وجحيم.. أشعر وكأنني جزء من منظمة إجرامية ضخمه.

رمقه (إدوارد) بنظرة نارية، وهو يقول:

- أنت كذلك بالفعل.

امتقع وجه (رشاد)، وكأنما باغته الجواب، وارتعدت ساقاه؛ مما جعله يأوي إلى أقرب مقعد إليه، وهو يغمغم في شحوب:

- هذه الأمور لن تمضي على خير أبدا.

أجابه (إدوارد) في صرامة:

- هذه الأمور تمضي على خير ما يرام.. لقد جعلت منك مليونيرا، وأحد رجال الأعمال المعدودين في (مصر)، ومنحتك الكثير دون عمل.

انتفض (رشاد)، هاتفا:

- دون عمل؟! إن كل ما تفعلونه يحمل اسمي يا رجل.. كل المسئولية المدنية والجنائية أحملها على كاهلي وحدي!

قال (إدوارد) في حدة:

- وتحصل على مقابل رهيب لهذا.

صاح (رشاد):

- وماذا لو انقلبت الأمور؟

أجابه بكل صرامة:

- لن تنقلب.

لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفع رنين هاتفه المحمول مرة أخرى، فالتقطه في عصبية قائلا:

- من المتحدث؟!

انعقد حاجباه بغتة بشدة، واحتقن وجهه حتى كادت تتفجر منه الدماء فهتف (رشاد) في ارتياع:

- ماذا هناك؟

حدق فيه (ادوارد) بعينين زائغتين، دون أن ينطق بحرف..

حرف واحد..

فبالنسبة إليه كانت المفاجأة عنيفة..

ومذهلة..

بشدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكد (جابر) يتلقى أمر المحامي (إدوارد)، حتى هتف بزميله:

- هيا.. سنستعيد ما لنا.

اندفع الاثنان يصعدان إلى حيث مكتب (نديم)، وهتف (جابر)، عندما بلغا الطابق المنشود.

- تولَّ أنت أمر عامل المكتب، وسأستعيد أنا الكتاب.

اقتحما المكتب في عنف وهما يحملان سلاحيهما..

ولكن عم (أحمد) لم يكن هنالك...

كان باب المكتب مفتوحا، ولا أثر فيه للشيخ، في حين كانت ساق (غادة) تبدو واضحة على أرضية حجرة مكتب (نديم)، وحولها بقع من الدم، فهتف الرجل الآخر:

- أين ذهب ذللك المأفون؟

أجابه (جابر)، وهو يندفع نحو حجرة مكتب (نديم):

- أصابه الرعب وفر هاربا حتما.. دعك منه الأن.. ينبغي أن نتم مهمتنا هنا قبل عودته.

كانت الحجرة تحمل آثار ما حدث في وضوح عندما اقتحماها، فقد كان زجاج النافذة محطما، والدماء متناثرة في كل مكان، و (غادة) ملقاة أرضا، مع بقعة كبيرة من الدم في ظهرها، و.

«أين المحامي؟!»

هتف زميل (جابر) بالعبارة في دهشة مذعورة، وهو يحدق في أرضية الحجرة، ولم يكد يفعل، حتى انبعث من خلف الباب صوت صارم غاضب، يقول:

- هنا.

استدار الرجلان بسلاحيهما إلى مصدر الصوت بحركة سريعة.. ولكنها لم تكتمل أبدا...

فقبل أن يكمل الأول التفاتته، كانت قبضة (نديم) تحطم أنفه بلكمة كالقنبلة، دفعته إلى الخلف في عنف في نفس اللحظة التي انقض فيها (نديم) على (جابر)، بكل عنف وغضب الدنيا، هاتفا:

- أيها الأوغاد.

أراد (جابر) أن يرفع فوهة سلاحه..

أو أن يفعل أي شيء..

ولكن الغضب الذي يملأ نفس (نديم)، بعد إصابة زميلته (غادة)، كان قد حوله إلى وحش كاسر وأسد هصور، لا يمكن لأي قوة في الأرض أن تعترضه أو توقفه...

وهذا ما شعر به (جابر)، عندما تلقى لكمة في معدته وكادت تقذف أحشاءه خارج حلقه، مع تلك الشهقة التي أطلقها، وهو ينثني على نفسه، قبل أن تتحطم أسنانه بلكمة أخرى أكثر عنفًا، انتزعته من مكانه، وألقته مترين كاملين إلى الخلف، ليرتطم

بالجدار، ثم تستقبله لكمة أخرى في أنفه تفجرت معها الدماء لتغرق كل وجهه وغامت بعدها الدنيا أمام عينيه، وحاول أن يندفع إلى الأمام، أو أن يضرب أي هدف عشوائي بقبضتيه، لولا أن ارتطم فكه بلكمة جديدة، أسقطته أرضا فاقد الوعي..

وفي نفس لحظة سقوطه، نهض زميله مترنحا، واستعاد مسدسه، وهو يهتف في ثورة:

- أيها الـ...

قبل أن يتم عبارته، اضطر مرغما لابتلاع ثلاث من أسنانه، حطمتها قبضة (نديم)، ودفعتها نحو حلقه، قبل أن يجذبه هذا الأخير من شعره، وينتفع به عبر الحجرة، ليضرب رأسه بالجدار، بكل ما يملأ جسده من قوة ويأس..

وسقط الرجل أرضا، مع دوي أبواق سيارة الإسعاف وسيارات الشرطة، التي تهرع الي المكان، فالتقط (نديم) من ثلاجة حجرته الصغيرة زجاجة من الماء البارد، وسكبها كلها على رأس (جابر)، الذي انتفض في عنف، وهتف في ألم وذعر شديدين:

- ما الذي....

قبل أن يتم عبارته، جذبه (نديم) من شعره في قسوة، وسأله:

- من فعل هذا؟

هز (جابر) رأسه لحظة، فتلقى قنبلة أخرى في معدته، جعلته يبصق الدم مع شهقته.. قبل أن يكرر (نديم) سؤاله، بكل صرامة الكون:

- أعلم أنها أوامر ذلك الحقير (إدوارد)، ولكن مَن فعلها؟ من قام بالتنفيذ؟

تعالى وقع أقدام رجال الشرطة والإسعاف على سلالم المبنى، مع لهاث (جابر)، وهو يجيب:

- لست أدري.. إنه شخص أجنبي.

سأله (نديم) في قسوة، وهو يلوح بقبضته:

- وما هي جنسيته؟

لهث (جابر) على نحو أكثر عنفا، وهو يقول، محاولا حماية وجهه:

- إيطالي على الأرجح.

ثم هتف في ذعر وألم:

- أقسم أن هذا كل ما أعرفه.

هوى (نديم) على فكه بلكمة خطافيه سفلية، وهو يقول:

- وهذا كل ما أردت معرفته.

في نفس اللحظة، التي سقط فيها (جابر) فاقد الوعي مرة أخرى، والتي التقط فيها (نديم) هاتفه المحمول من حزامه، اندفع رجال الشرطة والإسعاف إلى المكان، وخلفهم عم (أحمد) يهتف في ارتياع:

- أسرعوا بالله عليكم...أسرعوا...

اعتدل (نديم)، ودس هاتف (جابر) في جيبه، قائلا:

- أسرعوا.. إنها مصابة، وتحتاج إلى إسعاف عاجل.

حدق عم (أحمد) في وجهه، هاتفا:

أستاذ (نديم).. حمدا لله.. لقد تصورت أن...

أجابه (نديم)، قبل أن يتم عبارته:

- الرصاصة اخترقت جسد (غادة)، وجرحت ذراعي فحسب، يا عم (أحمد).

هتف به أحد رجال الإسعاف:

- الدماء تغرق ذراعك.. إنك تحتاج إلى إسعاف.

قال (نديم) في صرامة

- (غادة) أولا..

سأله أحد رجال الشرطة في توتر:

- ماذا حدث بالضبط؟

أشار (نديم) إلى النافذة المحطمة، وهو يتابع حركة رجال الإسعاف، الذين ينقلون (غادة) إلى محفتهم، قائلا:

- يبدو أنه حتى الأساليب الأجنبية يتم استيرادها هذه الأيام.

ثم أدار عينيه على رجل الشرطة، مضيفا في حنق:

- إنه قاتل محترف.

اتسعت عينا رجل الشرطة، وهو يهتف:

- قاتل محترق؟؟

أجابه (نديم) في توتر، وهو يشير إلى النافذة مرة أخرى:

- الديك تفسير آخر؟

حدق ضابط الشرطة في النافذة المحطمة، قبل أن يندفع نحوها، ويفحص ما أصابها، ثم يتطلع إلى المبنى المقابل، قائلا في صرامة:

- هذه الأساليب لا تصلح هنا، ولو أنهم....

كان يلتفت إلى (نديم)، وهو يتحدث إليه، فبتر عبارته دفعة واحدة، وهو يدير عينيه في الحجرة، متسائلا في حيرة:

- أين السيد (نديم)؟!

في نفس اللحظة التي انطلق فيها تساؤله، كان (نديم) يهبط درجات السلم وهو يلتقط من جيبه هاتف (جابر) المحمول، ويضغط رقم (إدوارد) في سرعة، ولم يكد يسمع صوت الأخير، حتى قال في لهجة قاسية، صارمة، مخيفة:

- العقرب) يرسل تحياته أيها الوغد.. قاتلك الحقير لم ينجح في إتمام مهمته.. حاول أن تحيط نفسك بكل حراسة الدنيا، لأنني قادم إليك لأحطمك.

ثم أنهى المحادثة، وألقي هاتف (جابر) بعيدا، وقد امتلأت نفسه بهدف واحد...

الثأر..

وبمنتهى العنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتزع (ماريو) تلك اللحية المستعارة، التي أجبره (إدوارد) على ارتدائها، وألقاها بعيدًا في حده هاتفا:

- لست أدري ما الداعي لكل هذه السخافات!

أجابه (إبراهيم)، أحد رجال (إدوارد):

- السيد (إدوارد) بعيد النظر، وما دام قد أمرك بهذا، فلديه أسبابه حتما.

سأله (ماريو)، وهو يخلع الجلباب الأبيض، ويلقيه بعيدا بدوره:

- أين هو؟ لدينا أمور ينبغي أن نحسمها.

أشار (ابراهيم) بيده، قائلا

- إنه في انتظارك، ولقد أمر برفع درجة الأمن إلى الحد الأقصى.. يبدو أن الأمور لا تسير على النحو المطلوب.

مط (ماريو) شفتيه، مغمغمًا:

- كنت أتصور العكس تماما.

وعلى الرغم مما أخبره به (إبراهيم)، شعر (ماريو) بدهشة حقيقية، عندما استوقفه رجال الأمن ثلاث مرات، للتحقق من هويته، خلال الأمتار القليلة، التي قطعها، حتى مكتب (رشاد السلباوي)؛ لذا فلم يكد يلمح (إدوارد) داخله، حتى هتف في حدة وعصبية:

- ألا يبد ولكم أنكم تبالغون في نظم الأمن كثيرا أيها المصريون؟

أجابه (إدوارد) في حدة:

- كل هذا بفضلك أيها الإيطالي الفاشل.

تسمر (ماريو) في مكانه، وهتف بمزيج من الدهشة، والغضب، والاستنكار:

- فاشل؟ أنا؟

صاح به (إدوارد):

- نعم.. لقد فشلت في اغتيال خصمنا، وجعلته ينطلق خلفنا كالمسعور.

هتف (ماريو) في حدة

- أنا لم أفشل.. لقد أطلقت عليه النار، وزميلته اعترضت طريق الرصاصة في اللحظة الأخيرة.

صاح (إدوارد):

- أرأيت؟

أشار (ماريو) إلى صدره، وهو يهتف في غضب:

- ولكنني محترف يا سنيور (إدوارد).. محترف يدرك جيدا ما يفعله.. لقد اخترقت رصاصة بندقيتي جسدها، ثم عبرته إلى جسده.. تلك البندقية التي استخدمتها بعيدة المدى، ورصاصاتها قادرة على اختراق أقوى الدروع، و.

قبل أن يتم عبارته، انبعث رنين هاتف (إدوارد) المحمول، فالتقطه هذا الأخير في آلية، قائلا في عصبية:

- من هنالك؟

أتاه صوت أحد رجال أمن الشركة، وهو يقول في توتر:

- سيد (إدوارد).. هناك رجل شرطة يصر على مقابلتك فورا.

ردد (إدوارد) في عصبية أكثر:

- مقابلتي أنا؟

أجابه الحارس في حزم:

- شخصيا.

صمت (إدوارد) بضع لحظات، محاولا السيطرة على عصبيته وتوتره، قبل أن يسأل الحارس في حدة:

- هل تأكدت من هويته؟! أعني اهو ضابط شرطة بالفعل؟

أجابه الحارس في سرعة:

- إنه يحمل بطاقة هوية صحيحة..

ثم استدرك:

- ويعلم أنك هنا.

زفر (إدوارد) في توتر، وهو يقول بعصبية زائدة:

- فليكن.. سألتقي به.

وأغلق هاتفه المحمول، وهمَّ بوضعه في جيبه، عندما عاودته شكوكه فجأة فعاد يضغط أزراره، ليسأل الحارس بنفس العصبية:

- ذلك الشرطي.. هل...

قاطعه الحارس في سرعة، متصورا أنه قد فهم ما يقصده:

- لقد سمحنا له بالدخول يا سيد (إدوارد).

صاح به (إدوارد) في حنق:

- اسمه أيها الغبي.. ما اسمه؟

راجع الحارس أوراقه في سرعة، قبل أن يجيب:

- (نديم) يا سيد (إدوارد).. (نديم فوزي).

اتسعت عينا (إدوارد)، في شيء من الارتياع، وهو يهتف:

- يا للشيطان إنه هنا.

سأله (ماريو في توتر:

- ماذا تقول؟! وجهك وصوتك يوحيان بحدوث أمر جلل.

تجاهله (إدوارد تماما، وهو يهتف عبر الهاتف المحمول:

- إنه ضابط شرطة سابق أيها التعس.. أغلق أبواب المبنى كلها، ولا تسمح لأي مخلوق بالخروج، واضغط زر صفارة الطوارئ فورا. هل تفهم؟

ضغط الحارس الزر على نحو غريزي، وهو يهتف في انفعال:

- كما تأمر يا سيد (إدوارد).. كما تأمر.

مع انطلاق صفارة الطوارئ، في المبنى كله، استل (ماريو) مسدسه بحركة غريزية، وهتف في توتر شديد:

- ماذا حدث؟

أجابه (إدوارد) بالإيطالية:

- الهدف، الذي فشلت في تصديره في المرة الأولى، أتي بقدميه إليك هنا..

تألقت عينا (ماريو في وحشية، وهو يقول:

- حقا؟ سيروق لي كثيرا أن أعيد الجولة، بأسلوب جديد..

ضغط (إدوارد) عدة أزرار على مكتبه، وهو يقول في انفعال:

- ولن تكون وحدك.

وبأوامر قصيرة محدودة، تحول رجال الأمن، في المبنى كله، بقيادة القاتل الإيطالي المحترف (ماريو)، إلى فرقة قنص، تنشد فريسة واحدة..

العقرب..

وبأي ثمن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العقرب

مهمة رسمية

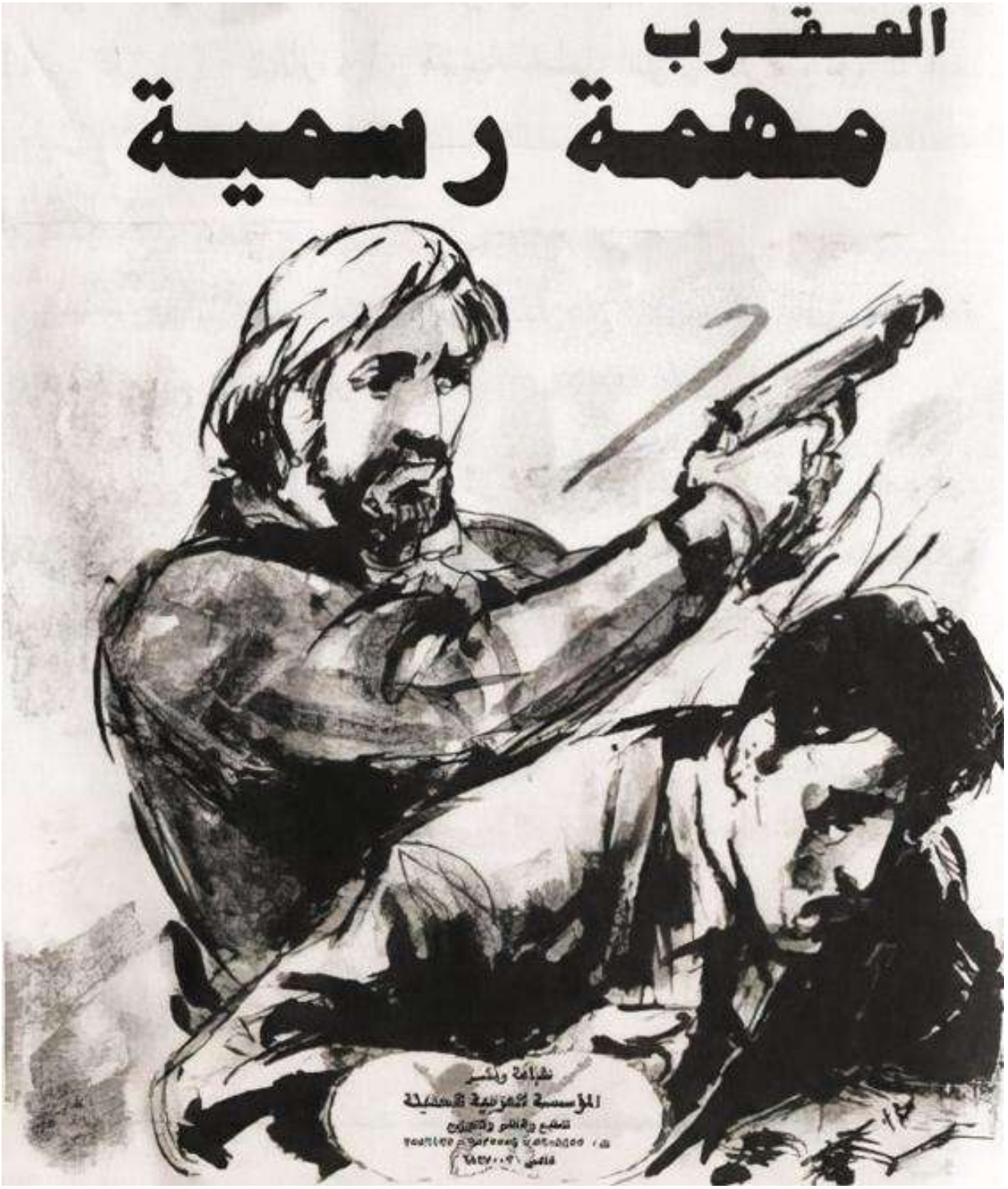

9- حماية..

انعقد حاجبا اللواء (حلمي) في شدة، وهو يستمع إلى العقيد (مجدي) في اهتمام قبل أن يحك ذقنه بسبابته، مغمغما في شيء من التوتر:

- شخص ملتح، يرتدي جلبابا أبيض؟؟ ما الذي يحاولون الإيحاء به بالضبط؟

أجابه (مجدي) في سرعة:

إن محاولة اغتيال (نديم) ترتكز على سبب عقائدي محض.

تطلع إليه اللواء (حلمي) مباشرة، وهو يقول:

- وهل يبدو لك هذا منطقيا؟

هز (مجدي) رأسه في قوة، قائلا:

- مطلقا.

ثم شد قامته، في وقفة عسكرية قوية، وهو يضيف:

- صحيح أنني أختلف مع (نديم)، منذ كنا زميلين في الشرطة، ولكنني أعلم جيدا أنه ما من سبب منطقي، لمحاولة اغتياله لسبب عقائدي.

نهض اللواء (حلمي) من خلف مكتبه، وهو يقول في حزم:

- أضف إلى هذا أن البندقية، التي تركها القاتل خلفه، من طراز غير مألوف هنا، واستخدامها أيضا ليس بالأمر المألوف، بالنسبة لتلك الجماعات أو غيرها.

وتوقف ببصر شارد، ليضيف:

- إنني أشتم من هذا رائحة أجنبية.

ردد (مجدي) في حذر:

- أجنبية؟

لم يجيب اللواء (حلمي) تساؤله الحذر هذا، وهو يواصل الشرود ببصره وأفكاره بضع لحظات أخرى، قبل أن يلتفت إليه، ويسأله فجأة:

- أين (نديم) الآن؟

لوح (مجدي) بيده، مجيبا في شيء من العصبية:

- لقد اختفى، في أثناء معاينة رجالنا لمسرح الجريمة، على الرغم من أنه مصاب في ذراعه.

سأله اللواء (حلمي) في توتر:

- وماذا عن (غادة)؟!

أجابه في أسف:

- إصابتها خطيرة كما يقولون، وهي الآن في حجرة العمليات بالفعل، فالرصاصة اخترقت ظهرها، ونفذت من صدرها، وهناك احتمال أن..

قاطعه اللواء (حلمي)، متسائلا في اهتمام بالغ:

- أين يمكن أن نجد (نديم) في رأيك؟؟

تضاعف حذر (مجدي)، وهو بجيبه:

- وكيف لي أن أعرف؟؟

أشار اللواء (حلمي) بيده، قائلا:

- إننا رجال شرطة، والمفترض أن نكتسب القدرة على استنتاج ما لا نراه بأعيننا.

غمغم (مجدي):

- بالتأكيد.

تابع اللواء (حلمي) في اهتمام:

- على الرغم من كل ما حاولوا الإيحاء لنا به، فكلانا يعلم أن (نديم) يستهدف (رشاد السلباوي) هذه المرة.

شعر (مجدي) بانفعال جارف، يسري في عروقه، وهو يقول في تحفز متوتر:

- بافتراض أنه (العقرب)..

تجاهل اللواء (حلمي) العبارة تماما، وهو يتابع:

- وتحرياتنا تؤكد أن (رشاد) على علاقة ببعض المنظمات غير الشرعية في الولايات المتحدة الأمريكية، و (إيطاليا)، و (نديم) يعلم هذه الحقيقة أيضا.

تساءل (مجدي) بنفس الانفعال:

- وكيف علمها؟

مرة أخرى تجاهله اللواء (حلمي)، وهو يقول:

- الأسلوب الذي تمت به محاولة اغتيال (نديم)، هو أسلوب قاتل محترف، وهذا يقودنا إلى احتمال تورط (رشاد)، أو محاميه الداهية (إدوارد)، في تلك المحاولة.. وسقوط (جابر)، رجل الأمن بمبنى (السلباوي)، يمنحه الدليل القاطع على هذا.

غمغم (مجدي)، في انفعال شديد:

- سيادة اللواء، يلوح لي أن...

قاطعه اللواء (حلمي)، وهو يلتفت إليه مرة أخرى، مكملا:

- ضع نفسك إذن مكان (نديم)، وأنت تعلم كل هذا، ثم تصاب زميلتك إصابة قاتلة أمام عينيك.. ما الذي تسعى إليه عندئذ؟

بذل (مجدي) جهدا خطيرا للسيطرة على أعصابه، وهو يجيبه:

- الانتقام.

هتف اللواء (حلمي)، في توتر بالغ:

- بالضبط.

ثم أمسك ذراعي (مجدي) في شدة، هاتفا:

- يا إلهي لابد أن تسرع يا (مجدي).. لابد أن نتحرك بأقصى سرعة؛ لو أردنا ألا نفقده.

هتف (مجدي)، في عصبية شديدة:

- نفقد من؟!

أجابه اللواء (حلمي)، وهو يندفع نحو باب حجرة مكتبه:

- سلاحنا السري يا رجل.. (نديم).، (نديم فوزي).

ومرة أخرى، تفجر انفعال جارف في أعماق (مجدي)..

فكل شيء من حوله كان يحمل ألف علامة استفهام..

بل آلاف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحت قيادة القاتل الإيطالي المحترف (ماريو)، انتشر رجال الأمن، في المبنى الإداري الضخم، لمجموعة شركات (رشاد السلباوي)، وراحوا يفتشون كل حجرة.. وكل شبر..

بل كل سنتيمتر..

وبكل صرامته وتوتره الإيطالي، راح (ماريو) يهتف:

- أوقفوا المصاعد كلها، وافصلوا التيار عنها تماما.. كل طابق يتم تفتيشه يغلق تماما، وتوضع عليه حراسة مشددة.. وليذهب فريق من أفضل رجالكم؛ لحماية الزعيم مباشرة.

سأله أحد رجال الأمن في حذر:

- هل تقصد (رشاد) بك بلقب الزعيم هذا؟

كان (ماريو) يقصد الإشارة إلى (إدوارد) في الواقع، ولكن تساؤل رجل الأمن جعله بجيب في حدة:

- بالتأكيد أيها الغبي.. ومن غيره؟

كان الرجال غير المدربين يشعرون بتوتر بلا حدود؛ لأنهم يواجهون هذا الموقف لأول مرة، لذا فقد تعلقوا بقيادة (ماريو) المحترف، وراحوا ينفذون أوامره بمنتهى الطاعة والدقة..

وفي الطابق الثالث من المبنى، كان رجلان من رجال الأمن يتحركان في توتر وسرعة لتفتيش المكان كله، وأحدهم يسأل زميله:

- ترى ماذا يحدث هنا؟ الأمر يبدو كما لو أننا في حرب؟

غمغم زميله:

- يبدو أن الشخص الذي تسلل إلى المبنى، يثير قلقهم بشدة.

تساءل الأول:

- ومن ذلك الإيطالي الذي يدير الأمور هنا؟

تنهد زميله، وقال، وهو يدفع باب حجرة أدوات النظافة:

- لا أحد يعلم أي شيء عنه، سوى أنه يحظى باهتمام السيد (إدوارد) شخصيا، وهذا يعني...

قاطعه صوت من داخل حجرة أدوات النظافة، يقول في صرامة:

- وغد مثله..

جفل الرجلان مع المفاجأة، وسحب أحدهما مسدسه في سرعة، وهو يهتف:

- يا إلهي إنه..

قبل أن يتم عبارته، انقض عليه (نديم) كالصاعقة، وركل يده الممسكة بالمسدس، فأطاح به في قوه، قبل أن تثب قبضته، لتضرب فكه بلكمة كالقنبلة..

وفي نفس اللحظة، التي سقط فيها الرجل فاقد الوعي، كان زميله ينقض على (نديم)، صائحا:

- أنت هو.

قالها، وهو يلكم (نديم) في صدره لكمة قوية، شعر معها هذا الأخير بألم عنيف، وهو يتراجع ليرتطم بالجدار، إلا أنه لم يلبث أن ارتد في سرعة، وهو يهتف:

- نعم.. أنا هو.

ومع قوله، غاصت قبضته اليمنى في معدة رجل الأمن، قبل ان يسحب مسدسه بلحظة واحدة، وما إن انثنى الرجل، من فرط

الألم، حتى ارتفعت نفس القبضة، لتهوي على فكه كصاعقة، أعادته إلى وضعه، وزادته انحناءً إلى الخلف ليسقط على ظهره في عنف وهو يصرخ:

- النجدة يا..

قبل أن تكتمل صرخته، ركله (نديم) في أنفه بعنف، فارتطم رأسه بالأرض، وغاب عن الوعي على الفور..

وفي سرعة، ودون أن يضيع لحظة واحدة، وعلى الرغم من ذراعه المصابة، جذب (نديم) الرجلين، داخل حجرة أدوات النظافة، وهو يغمغم:

- كان هذا ضروريا للأسف، على الرغم من ثقتي بأنكما تجهلان ما يحدث هنا..

وفي إحكام، أغلق الباب خلفه وخلفهما، مستطردا بكل صرامة، وعيناه تتألقان على نحو عجيب:

- ولكنه خطأ أولئك الأوغاد الذين يستأجرون غير المحترفين للقيام بأعمال المحترفين..

وتضاعف تألق عينيه، وهو يضيف:

- وعليهم أن يدفعوا ثمن هذا..

ثم بدأ عمله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"خطأ يا (إدوارد).. خطأ.. "

هتف (رشاد السلباوي) بالكلمة، في غضب هادر، وهو يقف أمام نافذة حجرة مكتبه الكبيرة، قبل أن يلوح بذراعه كلها، مستطردا بكل عدة والانفعال:

- من الواضح أنك لم تستوعب وجودك في (مصر) بعد، ومازالت تتعامل وكأنك في (شيكاغو) أو (لوس أنجلوس).. هل تتصور أن الأمور تسير في العالم كله على وتيرة واحدة؟!

عقد (إدوارد) كفيه خلف ظهره في صرامة وهو يجيب:

- هذا صحيح.

هتف به(رشاد):

- ما الصحيح؟

أجابه في صرامة أكثر:

- الأمور تسير في العالم كله، على وتيرة واحدقا مع شيء يسير من التعديل، بين كل مكان وأخر.

ثم مال نحوه، مستطردا في شراسة:

- فالقوة والنفوذ وحدهما، يحكمان كل شيء.

صاح به (رشاد) في غضب:

- وماذا عن القانون؟

اعتدل (إدوارد)، مجيبا:

- القانون أيضا يخضع للقوة والنفوذ، ويتحور مع وجودهما، على نحو يرضي مالكهما.

صاح (رشاد):

- ليس في (مصر).

أجابه (إدوارد)، في صرامة مخيفة:

- بل في كل مكان في العالم..

لوح (رشاد) بذراعه مرة أخرى، قائلا في حدة:

- وكيف تنقذك القوة، ويحميك النفوذ، من محاولة اغتيال، جلبت لنا، أول ما جلبت محاولة انتقام مباشرة من الشخص المفترض تصفيته؟!

أجابه (إدوارد) في حزم:

- القوة والنفوذ يبعدان الشبهات عنك من الأساس أيها الأحمق..

لم يكن يتم عبارتها حتى ارتفع صوت سكرتيرة مكتب (رشاد)، عبر جهاز الاتصال الداخلي، وهي تقول:

- سيد (إدوارد).. أحد رجال أمن المبني هنا، ويصرّ على مقابلتك فورا.

انعقد حاجبا (إدوارد) في شدة، وهو يقول:

- مقابلتي أنا.. ولماذا؟

أجابته السكرتيرة، وصوتها يحمل رنة توتر:

- يقول إن هذا يتعلق بالمتسلل، و.

بترت عبارتها، لتصرخ فجأة:

- أنت.. ماذا تفعل؟

لم يكد جهاز الاتصال الداخلي ينقل صرختها، حتى انتفض جسد (رشاد) في عنف، وتراجع بحركة عشوائية حادة، هاتفا:

- ماذا يحدث؟! ماذا يحدث؟!

أما (إدوارد)، فقد قفزت يده بسرعة إلى جيب سترته، حيت يحتفظ بمسدسه الصغير..

وفجأة، اقتحم (نديم) الحجرة، وقال في صرامة، وهو يصوب فوهة مسدس كبير، إلى رأس (إدوارد) مباشرة:

- إياك أن تحاول..

تجمدت يد (إدوارد)، قبل أن تبلغ مسدسه، وامتقع وجه (رشاد) بشدة، وراح جسده يرتجف في عنف، في حين لحقت السكرتيرة بـ (نديم)، صائحة:

- ليس من اللائق أن...

اختنقت صيحتها في حلقها، عندما وقع بصرها على المسدس المصوب إلى رأس إدوارد)، وأطلقت شهقة مذعورة، فهتف بها هذا الأخير في حدة:

- اصمتي..

نقلت بصرها في ارتياع، بين (نديم) و (إدوارد)، فهتف (رشاد) في رعب:

- سنبلغ الشرطة.. (نسرين).. أبلغي الشرطة فورا، قبل أن....

صاح به (إدوارد):

- اصمت يا رجل، وتمالك أعصابك.

ارتجف صوت السكرتيرة وهي تقول:

- هل أبلغ الشرطة؟

أجابها (إدوارد) في صرامة:

- كلا. أنصرفي إلى مكتبك، وسنستدعيك إذا ما احتجنا إليك..

عادت تنقل بصرها، بين وجه (رشاد) الشاحب، وملامح (إدوارد) العصبية الصارمة، والمسدس في يد (نديم)، قبل أن تغادر الحجرة، وتغلق بابها خلفها في عصبية، ولم تكد تفعل، حتى قال (نديم):

- من الواضح أن محاميك أكثر حكمة منك أيها الحقير..

اتسعت عينا (رشاد) وهو يقول:

- حقير.. من تقصد بكلمة حقير هذه؟!

استوقفه (إدوارد) بإشارة صارمة من يده، وهو يقول:

- لماذا أنت هنا يا سيد (نديم)؟!

أجابه (نديم) في صرامة:

- السؤال الأكثر عملية هو: لماذا أثار وجودي توترك إلى هذا الحد أيها الوغد؟

عقد إدوارد ساعديه أمام صدره، مجيبًا:

- لست أتذكر أن أحدًا قد دعاك إلى هنا يا سيد (نديم).

أجابه (نديم) في سرعة:

- الواقع أنني قد تلقيت دعوة الحضور في مكتبي، ولكن من أرسلته بها أخطأ العنوان فمنحها لزميلتي (غادة)، التي لو أصابها مكروه، فلن تكفيني حياتكما معا تعويضا عنها.

ازداد امتناع وجه (رشاد)، وارتبك على نحو ملحوظ، حتى إن ساقيه قد عجزنا عن حمله فاستند إلى أقرب مقعد إليه، وهو يردد:

- يا إلهي. يا إلهي..

جلس على المقعد، وركبتاه تصطكان ببعضهما، في حين قال (إدوارد)، في شيء من البرود:

- لست أفهم بالضبط ما تعنيه يا سيد (نديم).

جذب (نديم) إبرة المسدس، الذي حصل عليه من أحد رجلي الأمن، اللذين أفقدهما وعيهما، وهو يقول في صرامة:

- أتظنني مضطرا لمنحك دعوة مماثلة حتي أنعش ذاكرتك؟

ابتسم (إدوارد) في شيء من السخرية، وهو يقول:

- أنا واثق من أنك لن تفعل.. هذا لا يتفق مع طبيعة شخصيتك.

قال (نديم) في غضب:

- حتى بعد ما فعلتموه بزميلتي أيها الوغد؟

التقى حاجبا (إدوارد)، وهو يقول في توتر:

- إنك لم تقتل أحدا طوال تاريخك كله.

سأله (نديم)، وهو يصوب المسدس، إلى رأسه مباشرة وسبابته تتلاعب على الزناد:

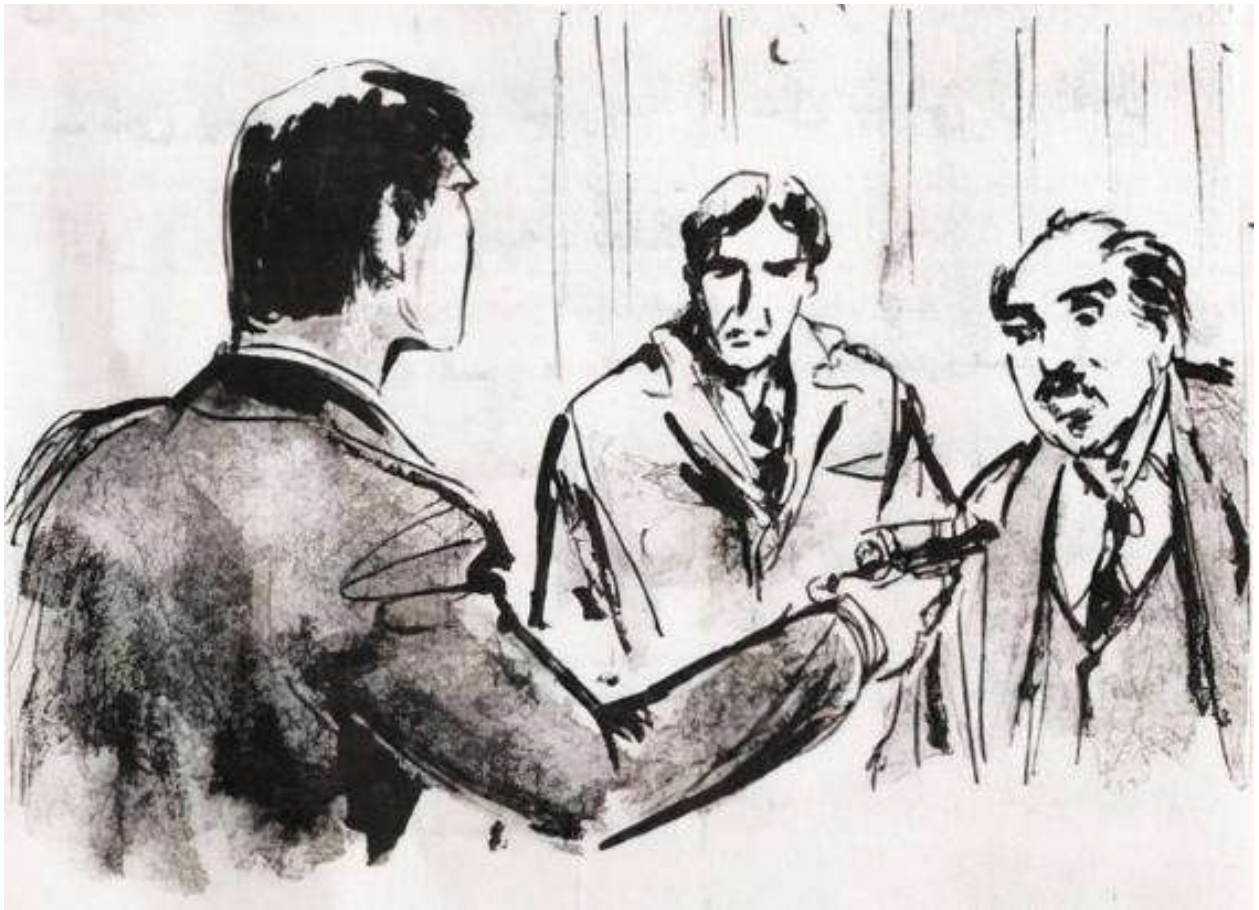

- أي تاريخ تقصد؟ تاريخ (نديم فوزي)، ضابط الشرطة السابق، أم...

أكمل (إدوارد) في سرعة:

- أم تاريخ (العقرب) الحالي؟

قال (نديم) في صرامة:

- لم يعد هناك فارق.

كاد (رشاد) يفقد وعيه، من شدة خوفه، وهو يتمتم في انهيار:

- كان ينبغي أن تبلغ الشرطة.. كان ينبغي أن نفعل.

أدار (نديم) عينيه إليه، قال:

- إنني أتفق معك في هذا.. أي شخص شريف، في نفس موقفك، كان سيتصل بالشرطة مباشرة، ولكن يبدو أن محاميك لا يرغب في أن تدس الشرطة أنفها هنا.

عاد (إدوارد) يسأله في عصبية:

- لماذا أنت هنا يا سيد (نديم)؟!

أعاد (نديم) بصره إليه قائلا:

- تستطيع أن تقول: إنني ألعب دور " البوسطجي ".

ردد (إدوارد)، في حذر متسائل:

- " البوسطجي "

أجابه (نديم):

- نعم.. لتوصيل رسالة مباشرة..

اتسعت عينا (رشاد)، في رعب هائل، وهو يحدق في فوهة المسدس، الذي يمسك به (نديم)، وقد خيل إليه أنه قد فهم ما يعنيه، ولكن هذا الأخير تابع بنفس الصرامة:

- رسالة تقول: إنه إذا ما أردت أن أصل إليكم فسأفعل، مهما أحطتما نفسيكما بكل حماية.

غمغم (إدوارد) في حذر أكثر:

- فقط!

قال (نديم) في صرامة:

- ضغطة واحدة على الزناد، وأضيف تأكيدا جديدا، لا يقبل الجدل، أو...

بتر عبارته بغتة، عندما لاحظ اعتدال (رشاد) على مقعده، وذلك التألق في عيني (إدوارد)..

وبسرعة، وبمزيج من براعة الاستنباط وغريزة المقاتل، استدار (نديم) خلفه في سرعة، ورفع فوهة مسدسه، ولمح لحظة وجه (ماريو)، الذي عبر بابًا خفيا في الجدار، و...

وقبل أن تكتمل استدارته، هوت على رأسه ضربه عنيفة..

وأظلمت الدنيا دفعة واحدة..

تماما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- قبضة العدو..

خفق قلب عم (أحمد) في عنف، وامتقع وجهه بشدة، وهو يقف أمام حجرة عمليات الطوارئ بالمستشفى، وراحت عيناه الزائغتان تتابعان في ارتياع ملهوف، كل من يدخل ويخرج منها، قبل أن يتعلق بذراع أحد الممرضين، ويسأله في توتر بالغ:

- كيف حالها؟

أزاحه الممرض بيده، وهو يجيب في آلية:

- الأطباء يفعلون كل ما في استطاعتهم.

لحق به عم (أحمد) مرة أخرى، متسائلا:

- هل.. هل اخترقت الرصاصة قلبها؟

هز الممرض رأسه، قائلا:

- لست أدري.. هذا أمر يفهمه الأطباء وحدهم.

حاول الرجل أن ينصرف لشأنه، ولكن عم (أحمد) عاد يتعلق بذراعه مرة أخرى، متسائلا:

- قل لي بالله عليك: هل ستنجو؟

صاح به الممرض في حدة:

- ومن أدراني؟

تراجع عم (أحمد)، وانكمش على نفسه في ضعف مغمغما:

- معذرة يا ولدي.. كنت فقط اسأل.

شعر الممرض بتأنيب الضمير، وبالشفقة على الشيخ، فربت على ظهره، مغمغما:

- سامحني يا والدي.. أعباؤنا كثيرة، وأعصابنا دائما في قمة التوتر..

أومأ عم (أحمد) برأسه متفهما، وقال:

- أعلم هذا يا بني.. أعلمه جيدا، ولكنك لا تدرد كم أشعر بالخوف عليها.

انحدرت الدموع من عينيه، مع الجزء الأخير من عبارته، وارتجفت شفتاه في مرارة، فعاد الممرض يربت على ظهره، قائلا:

- لا بأس يا والدي.. لا بأس.. سأعود إلى حجرة العمليات، وسأبلغك خيرا بإذن الله:

تبعه عم (أحمد) ببصره، وهو يعود إلى غرفة العمليات، ثم غمغم:

- ساعدها يا إلهي ساعدها.

مضت دقائق، بدت له أشبه بدهر كامل، وهو يقف في انتظار عودة ذلك الممرض وتعلقت عيناه بباب حجرة عمليات الطوارئ، و....

وفجأة انفتح الباب..

وخفق قلب عم (أحمد) في قوة، واشرأب ببصره، متوقعا رؤية ذلك الممرض..

ولكنه لم يكن قادم..

كانت ممرضة شابة، اندفعت خارج حجرة العمليات، وانطلقت تعدو في الممر فصاح بها عم (أحمد):

- ماذا حدث؟

صاحت به في توتر بالغ:

- لا وقت لهذا أيها الشيخ.. الموقف خطير للغاية..

وهوى قلب عم (أحمد) بين قدميه..

بمنتهى العنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتفخت أوداج (ماريو)، وهو يصوب مسدسه إني رأس (نديم)، الذي سقط فاقد الوعي، وقال في سخرية وحشية:

- إنه لم يكن ذكيا كما تصور.

تم جذب إبرة مسدسه، مستطردا:

- هل أنسف راسه؟؟

قبل أن تنفرج شفتا (إدوارد) بحرف واحد، هبَّ (رشاد) من مقعده صائحا بكل عصبية الدنيا:

- لا.. ليس هنا.

تطلع إليه (ماريو) في سخرية، ولكن (إدوارد) قال في صرامة:

- إنه على حق.

هتف (ماريو في عصبية:

- أي حق؟! إنه متسلل.. دخل المكان دون وجه حق، والمسدس الذي كان يمسك به يحمل بصماته حتما، ويمكننا أن ندعي أنه حاول قتل سنيور (رشاد)، أو....

قاطعه (رشاد) في حدة:

- لا.. لا تقحم اسمي في هذا الأمر..

قال (ماريو في حدة:

- لقد تم إقحامه بالفعل، فالمبنى كله يحمل اسمك، والصحف سوف..

قاطعه (إدوارد) في صرامة:

- الصحف لن تعلم بما حدث هنا.

رفع (ماريو) عينيه إليه بحركة حادة، قبل أن يقول في عصبية:

- كيف تفكرون هنا بالضبط؟؟

أجابه (إدوارد) بزمجرة شرسة:

- بالأسلوب الصحيح، الذي لا يعلمه الحمقى أمثالك..

انعقد حاجبا (ماريو) في عصبية، فتابع (إدوارد)، بنفس الصرامة الشرسة العنيفة:

- أنت لا تعرف الصحافة هنا، وفي أي مكان آخر.. (السلباوي) يقيم مبنيً ضخما، في قلب المدينة، وهذا المحامي أقام دعوى ضده بالفعل، لمنعه من إتمام المشروع، بحجة أنه نوع من التلوث البصري البيئي، والصحف ستفسر مقتله هنا، بأنه نوع من بلطجة أثرياء رجال الأعمال، وسيتحول اسم (السلباوي) إلى مضغة في الأفواه، ربما لعام كامل، والعمل الذي تقوم به هنا.. أقصد العمل الحقيقي، لا يتفق مع لفت انتباه الصحافة، حتى ولو وجدنا ألف مبرر قانوني لمقتله هنا.

لوح (ماريو) بذراعيه، هاتفا:

- هل ستتركه يرحل إذن؟

التقى حاجبا (إدوارد)، في صرامة وحشية، وهو يقول:

- كلا بالطبع.. إننا سنتخلص منه.

ثم شد قامته، مضيفا:

- بعيدا عن هنا.

تألقت عينا (ماريو)، وهو يقول:

- آه.. فهمت.

تابع (إدوارد)، في صرامة امتقع لها وجه (رشاد) أكثر:

- قل لـ (إبراهيم) أن يعاونك، وقيداه جيدا، ثم ضعاه في صندوق السيارة الكبيرة وأصعدا به إلى جبل المقطم، و....

كشر (ماريو) عن أسنانه القذرة، وهو يقول:

- لقد فهمت.

ثم انطلقت من حلقه ضحكة وحشية مجلجلة، وهو يلتقط هاتفه المحمول، ويضغط ازراره، قائلا:

- (ابراهيم).. تعال إلى حجرة سنيور (رشاد) فورا.. ادخل من الباب الخلفي، المتصل حجرة الاجتماعات، وليس من الباب الرئيسي..

وبضغطة زر أخرى، أنهى الاتصال، وأعاد الهاتف إلى جيبه، فقال (رشاد) في عصبية:

- هذا لا يروق لي..

أجابه (إدوارد) في صرامة:

- هذا لا يهم.

قهقه (ماريو) ضاحكا مرة أخرى، ثم مال يضرب مؤخرة عنق (نديم) بكعب مسدسه،

فهتف (رشاد) في حنق:

- ولماذا؟ إنه فاقد الوعي بالفعل؟

تألقت ضحكة وحشية، في عيني (ماريو)، وهو يجيب:

- لا ضير من تامين أكثر.

هز (رشاد) رأسه في عنف، وضرب سطح مكتبه بقبضته، هاتفا في عصبية تمتزج بالمرارة:

- لم أعد أحتمل هذا.. لم أعد أحتمله.

أجابه (إدوارد) في صرامة، وهو يتابع (ماريو)، الذي انهمك في تكميم (نديم) وتقييد معصميه خلف ظهره:

- لابد أن ترّوض نفسك على احتماله إذن، فعملنا يحتاج إلى الأقوياء، وليس إلى الضعفاء الخائفين أمثالك.

صاح به (رشاد) في حدة:

- هكذا؟؟ لماذا لم يسندوا العملية كلها إليك إذن أيها المغرور؟

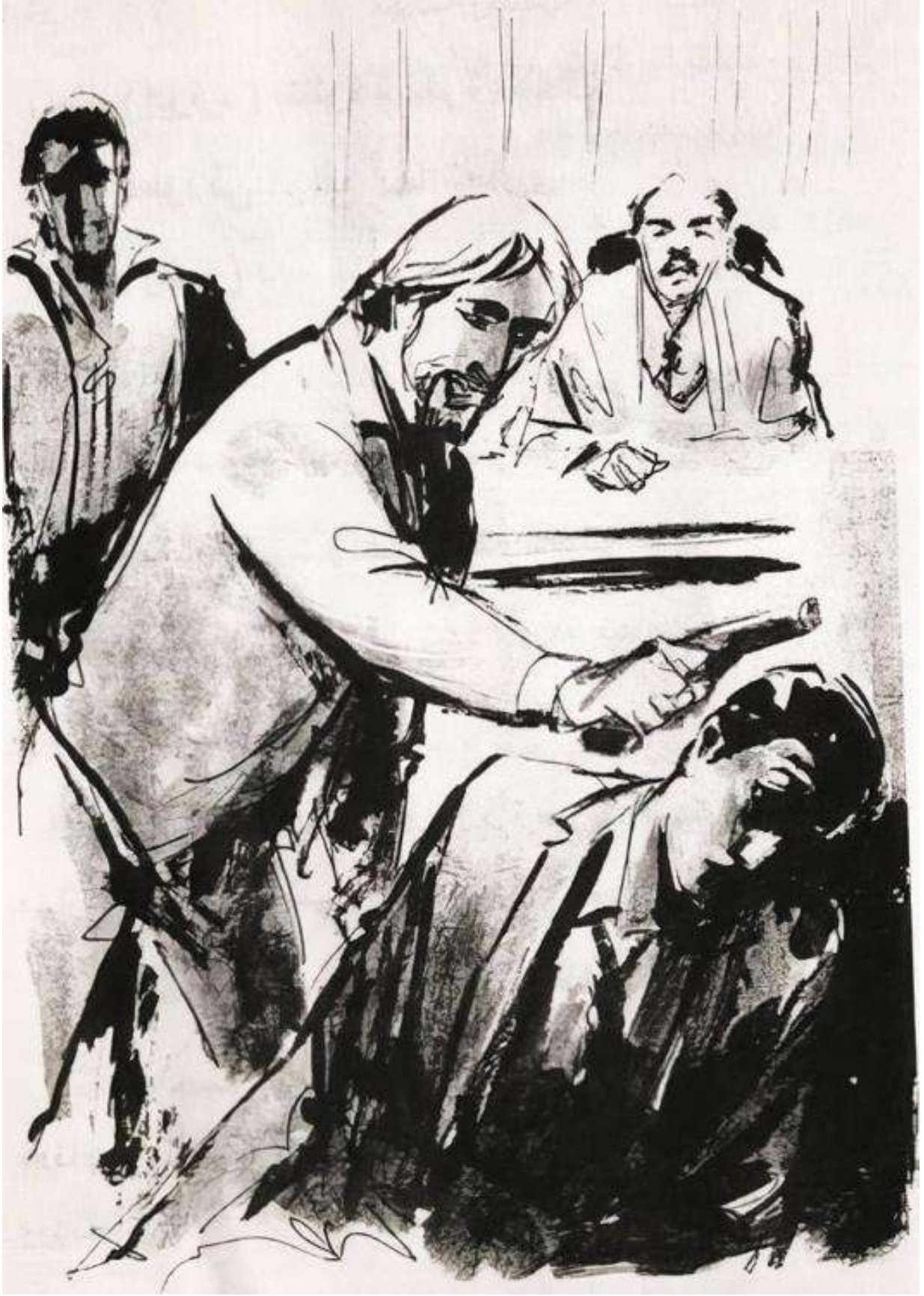

رمقه (إدوارد) بنظرة ساخرة، قائلا:

- لقد فعلوا في الواقع أبها العبقري.

هتف (رشاد):

- وماذا عني؟

أشار بيده وهو يجيبه في صرامة:

- واجهة، مجرد واجهة أنيقة للعملية كلها.

أحتقن وجه (رشاد) في شدة، وهو يهتف:

- أيها الـ...

قبل أن يتم عبارته، ارتفع فجأة صوت السكرتيرة، عبر جهاز الاتصال الداخلي، وهي تقول في عصبية شديدة:

- (رشاد) بك.. رجال الشرطة هنا.

انتفض جسد (رشاد) على مقعده في عنف واتسعت عيناه في ارتياع، وهو يحدق في نديم الفاقد الوعي، ويهتف:

- الشرطة؟ ألم يقل لك السيد (إدوارد)....

قاطعته السكرتيرة في سرعة عصبية:

- لقد أتوا من تلقاء أنفسهم.

انعقد حاجبا (إدوارد) بشدة، وأشار إلى (ماريو)، هاما في صرامة:

- احمله إلى حجرة الاجتماعات، وتعاون مع (إبراهيم)؛ لإخراجه من الباب الخلفي..

نفذ (ماريو) الأمر على الفور، في حين راح (رشاد) يدور حول نفسه في انهيار، مرددا:

- يا إلهي يا إلهي..

صاح به (إدوارد في صرامة غاضبة:

- تمالك نفسك يا رجل.

وانتظر حتى أغلق (ماريو) باب حجرة الاجتماعات خلفه، ثم انحنى يضغط زر جهاز الاتصال الداخلي، قائلا:

- (رشاد) بك مريض يا (نسرين)، ولا يمكنه في الواقع مقابلة أحد، ولكننا لا نستطيع منع رجال الشرطة.

وأدار بصره بنظرة صارمة إلى (رشاد)، وهو يستطرد:

- دعيهم يتفضلون.

ثم اعتدل، ورفع يده عن زر جهاز الاتصال الداخلي، قائلا لـ (رشاد) في صرامة:

- تمالك نفسك أيها الجبان.

بذل (رشاد) جهدا مستميتًا للسيطرة على أعصابه، وهو يجلس خلف مكتبه، إلا ان جسده راح يرتجف في عنف وهو يحدق برعب في باب حجرة مكتبه، الذي انفتح في هدوء، ودلف عبره اللواء (حلمي)، وخلفه العقيد (مجدي)، فاستقبلهما (إدوارد) بابتسامة هادئة، وصوت أكثر هدوءا، وهو يصافحهما، قائلا:

- مرحبا أيها السيدان.. ترى ما الحدث السعيد الذي جعلنا نتشرف بزيارتكما؟

تطلع رجلا الشرطة إلى وجه (رشاد) الشاحب الممتقع، قبل أن يقول اللواء (حلمي):

- رجال الأمن لديكم يقولون: إن متسللا نجح في دخول المبنى ببطاقة شرطة غير صحيحه.

تضاعف شحوب وجه (رشاد)، وراحت شفتاه ترتجفان على نحو عجيبة وبدا صوت اصطكاك أسنانه مسموعًا، و (إدوارد) يبتسم، قائلا:

- ولماذا يفعل أي شخص هذا؟! إنه مبنى تجاري، وأي شخص يمكنه الدخول، لو أن لديه ما يبرر هذا.

سأله (مجدي) في صرامة

- هل تنكر ما قاله رجال أمنك؟

هز (إدوارد) رأسه نفيا، وأجاب بنفس الابتسامة:

- كلا، ولكن من الواضح أنهم قد أساءوا الفهم.. لقد كان أمرا بسيطا، ولكنهم حولوه الى حرب مضحكة.

سأله (مجدي) مرة أخرى:

- وأين ذلك المتسلل؟!

أجاب (إدوارد) بسرعة:

- ومن أدراني؟!

اتكمش (رشاد) في مقعده، وهو يحدق في باب حجرة الاجتماعات في رعب، و(إدوارد) يستدرك:

- لقد أدركت مدى سخافة الموقف كله، فأمرت بإنهاء كل هذا فورا.

تطلع اللواء (حلمي) إلى (رشاد) مباشرة، وهو يقول:

- عجبا! فعلى الرغم من هذا، كدنا نطلق النار على رجال أمنكم؛ حتى يمكننا الوصول.

هز (إدوارد) كتفيه، مجيبا:

- من العسير العثور على خبراء أو أذكياء، في هذه المهنة.

همَّ (مجدي) بإلقاء سؤال آخر، لولا أن توجه اللواء (حلمي) نحو (رشاد) مباشرة، وهو يسأله:

- ماذا بك يا سيد (رشاد)؟!

خيل له أن (رشاد) سيفقد الوعي، من شدة شحوبه وامتقاعه، وهو ينكمش في مقعده أكثر فأكثر، ويقول بصوت رجل يحتضر:

- إنني.. إنني مريض..

رمقه اللواء (حلمي) بنظرة فاحصة، وهو يقول:

- يا له من مرض عنيف، إنك تبدو كما لو أنك ستفقد الوعي.

ارتجفت شفتا (رشاد) في عنف، وهو يحدق فيه، ويجاهد لانتزاع أية كلمات من حلقه، ولكن اللواء (حلمي) استدار إلى باب حجرة الاجتماعات، وهو يتابع:

- ثم إنك تحدق طوال الوقت في هذا الباب.

انعقد حاجيا (إدوارد) في شدة، في حين قال (رشاد)، وهو على وشك أن يفقد الوعي بالفعل؟

- هذا الباب؟

اتجه اللواء (حلمي) نحو باب حجرة الاجتماعات مباشرة، وهو يقول في حزم:

- ترى ماذا يوجد خلف هذا الباب؟

زاغت عينا(رشاد) في محجريهما، في حين عاد (إدوارد) شد قامته في توتر، وهو يقول:

- الديك إذن بالتفتيش يا سيادة اللواء؟

أمسلك اللواء (حلمي) مقبض الباب، وهو يقول في بساطة:

- وهل يستحق الأمر هذا؟!

التقى حاجبا (إدوارد) مرة أخرى، دون أن يجيب، فأدار اللواء (حلمي) المقبض، ودفع الباب، و.....

ولم يكن هناك أحد..

حجرة الاجتماعات كانت خالية تماما، على نحو شعر معه (رشاد) وكأن روحه قد ردت إليه، فاعتدل في مقعده، وقال:

- إنها خالية، كما كان ينبغي أن تتوقع يا سيادة اللواء.

استدار إليه اللواء (حلمي)، قائلا:

- ومن الواضح أنه تعدّ دواء جيدا لمرضك يا سيد (رشاد).

مع آخر حروف كلماته، ارتفع رنين هاتف العقيد (مجدي) المحمول، فالتقطه في سرعة، وتساءل:

- من المتحدث؟!

رأي الجميع حاجبيه ينعقدان في شدة وتوتر فتسائل اللواء (حلمي) في قلق بالغ:

- ماذا حدث؟!

رفع (مجدي) عينيه إليه، مجيبا في عصبية:

إنها (غادة).

سأله اللواء (حلمي) في لهفة:

- ما أخبارها؟!

ازدرد (مجدي) لعابه في صعوبة، وأجاب:

- لقد توقف قلبها عن النبض..

واتسعت عينا اللواء (حلمي)..

بكل الارتياع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوقف (ماريو سيارة الشركة الكبيرة، عند تلك الحافة، أعلى جبل المقطم، والتفت إلى (إبراهيم)، قائلا:

- هذا المكان يبدو مناسبا.. أليس كذلك؟

غمغم (ابراهيم)، وهو يتلفت حوله:

- بلى.. إنه مرتفع بما يكفي، ولن يلمحنا أحد من هذه الزاوية.

فرك (ماريو كفيه، قائلا:

- عظيم

وغادر السيارة، مضيفا في جذل وحشي:

- الطبيعة عندكم جميلة للغاية، والمشهد رائع من هنا.

غمغم (إبراهيم) في عصبية، وهو يلحق به:

- هل أصبحت رومانسيا فجأة؟

قهقه (ماريو) ضاحكا في شراسة، وقال:

- رومانسيا؟ كلا بالتأكيد، ولكن عمليات القتل تملأ نفسي بنوع من النشوة، لا يمكنني وصفه.

غمغم (إبراهيم)، وهو يفتح حقيبة السيارة:

- يا للبشاعة.

قهقه (ماريو) مرة أخرى، وهو ينحني ليرفع جسد (نديم) على كتفه، ثم اتجه به نحو الحافة قائلا:

- انتظر حتى ترى جسده يهوي من حالق: لتدرك ما أعنيه بالنشوة.

مط (إبراهيم) شفتيه، وهو يسير إلى جواره، حتى بلغا الحافة، فقال (ماريو)، وعيناه تتألقان في وحشية:

- هيا أيها المحامي.. قل وداعا لهذه الدنيا.

وفي هذه المرة، جلجلت ضحكته في المنطقة كلها..

ضحكته الوحشية..

القاتلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العقرب

مهمة رسمية

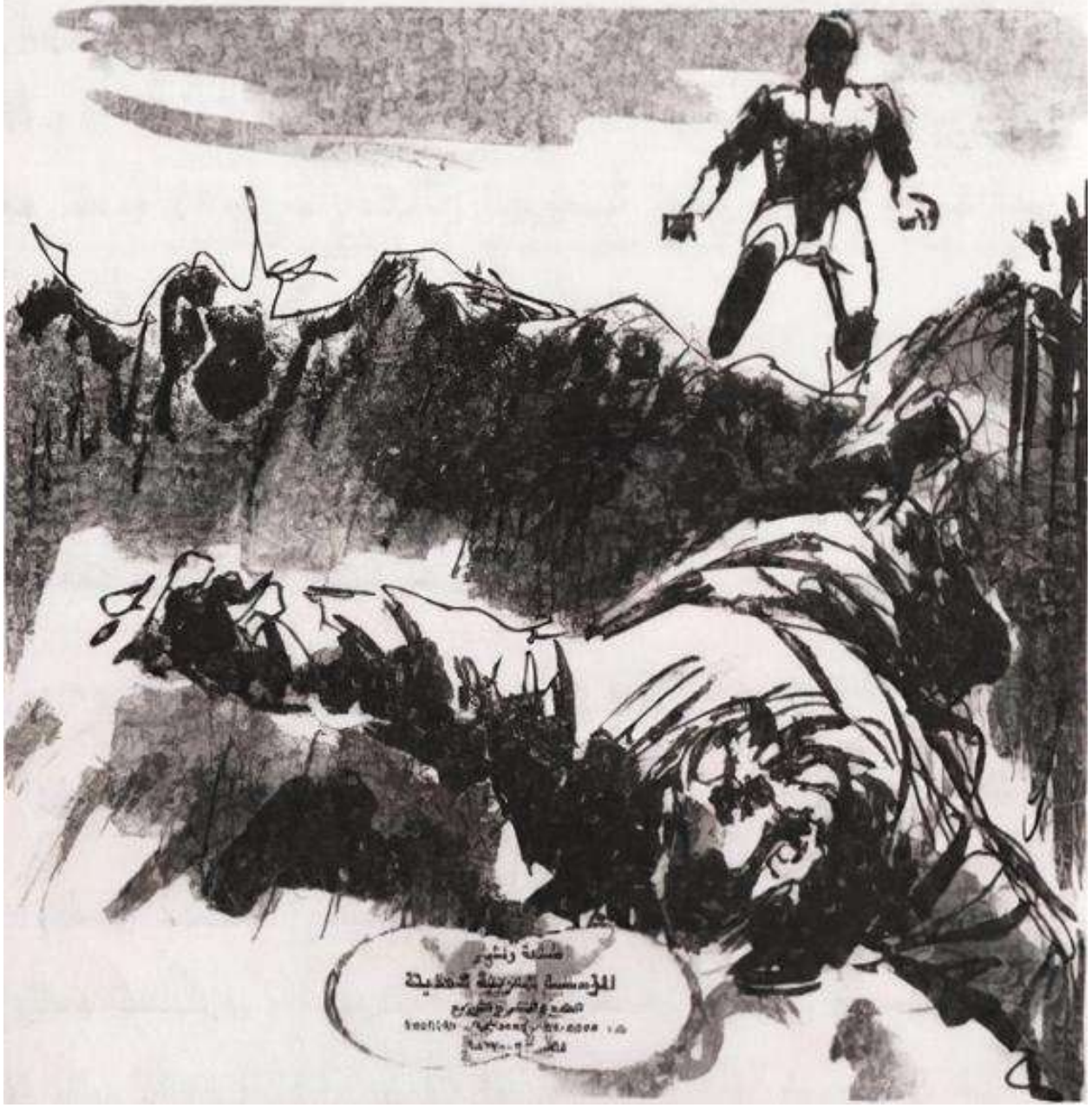

11- الفريسة..

" كل شيء قانوني تماما "

نطق العقيد (مجدي) العبارة في سخط واضح، وهو يجلس إلى جوار اللواء (حلمي)، داخل سيارة الشرطة، التي تنقلهما إلى المستشفى، الذي ترقد فيه (غادة)، فانعقد حاجبا اللواء، وهو يقول:

- هل يحنقك هذا؟

لوح (مجدي) بيده، قائلا:

- بالتأكيد.. إننا نعلم أن (نديم) وراء كل ما حدث هناك، في شركة ذلك الوغد (رشاد السلباوي)، وأن شحوب رجل الأعمال واضطرابه، كانا أقرب دليل على هذا، على الرغم من هدوء وثبات محاميه الذئب (إدوارد)، ولكننا عاجزون عن اتخاذ أي إجراء رسمي، دون دليل قانوني، وإذن من النيابة، وتقارير وتحريات، وألف إجراء ورقي آخر..

رمقه اللواء (حلمي) بنظرة جانبية، وهو يقول:

- ما الحل في رأيك إذن؟

هتف في حدة:

- آه لو أننا نستطيع..

بتر عبارته دفعة واحدة، فابتسم اللواء (حلمي)، مكملا:

- تجاوز الإجراءات القانونية قليلا..

ثم مال نحوه، مضيفا في خبث:

- مثلما يفعل العقرب).

انتفض (مجدي) في عنف، هاتفا:

- كلام.

ثم التقى حاجباه في شدة، مضيفا في صرامة:

- القانون هو القانون.

زفر اللواء (حلمي) في ضجر، وهو يعود إلى الاعتدال، قائلا:

- بالتأكيد.

ازداد التقاء حاجبي (مجدي)، وهو يسند ظهره بقوة إلى مقعده، ويطبق شفتيه، وعقله يعيد دراسة الموقف كله..

كل صراعاته مع (نديم) عبرت ذهنه في لحظات...

كل خلافاتهما..

واختلافاتهما..

ثم توقف عند النتائج..

لقد نجح (نديم) عدة مرات، في مواجهة مجرمين، اتخذوا من القانون وثغراته درعا لإخفاء جرائمهم والتحايل على القواعد...

نجح في كل مرة واجه فيها عتاة المجرمين، وعمالقة اللصوص، بأسلوب يناسب أمثالهم..

أسلوب المواجهة المباشر..

ولكن لا..

القانون هو القانون..

ربما يفلح تجاوزه مع بعض المجرمين، ولكن الالتزام به يحمي الأبرياء حتمًا..

هذا ما آمن به، وما سيؤمن به دومًا..

القانون هو القانون..

مهما كانت الأسباب..

والجريمة أيضا هي الجريمة..

المجرم عدو للمجتمع والشعب..

عدو للأخلاق والقيم..

والقضاء -

المجرم والجريمة، هو هدف كل إنسان سوي شريف..

وهذا ما يفعله (نديم فوزي)..

ولكن بأسلوبه الخاص..

الخاص جدا..

اعتدال في مجلسه فجأة، عند بلوغه هذه النقطة، وقال في حزم صارم:

- لا يمكن أن نترك الأمور تسير على هذا النحو

التفت إليه اللواء (حلمي) في دهشة، قائلا:

- ماذا تعني؟!

أجابه في حماسة شديدة أدهشته:

- لا يمكن أن نترك (نديم) في قبضتهم يا سيادة اللواء.

واكتسي صوته بحزم لا مثيل له، وهو يضيف:

- إنه زميله، زميل سابق..

كانت دهشة اللواء (حلمي) عارمة، إلا أنه تساءل في اهتمام:

- وما الذي تقترحه؟!

أجابه (مجدي)، وهو يحل حزام مقعده بالفعل:

- واصل أنت طريقك إلى المستشفى، للاطمئنان على (غادة) يا سيادة اللواء، وسأعود أنا إلى شركة (السلباوي).

قالها، وهتف بالسائق، يطالبه بالتوقف فسأله اللواء (حلمي) في حيرة، قبل أن يغادر السيارة:

- ولماذا تعود إلى الشركة؟

أجابه (مجدي)، وهو يشير إلى إحدى دوريات الشرطة الراكبة:

- لا يمكن أن أترك (نديم) وحده.

وارتفع حاجبا اللواء (حلمي) إلى أقصى مداهما، في دهشة بالغة..

فما حدث الآن أمامه، كان تحولا خطيرا في شخصية العقيد (مجدي)...

خطير للغاية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلقت ضحكة الإيطالي (ماريو) عالية وحشية، وهو يحمل (نديم) ليلقيه من حافة جبل المقطم، وهتف وهو يشد عضلاته كلها:

- هيا.. اذهب إلى الجحيم أيها المصري.. الحق بزميلتك هناك..

نطقها بالإيطالية، وبلهجة عامية مبتذلة، وهو يدفع جسد (نديم) إلى الأمام و.

ولكن فجأة، تشبثت أصابع (نديم) بذراعه، في قوة هائلة...

كان قد استعاد وعيه، في نفس اللحظة التي أطلق فيها (ماريو) هتافه، ووثبت إلى ذهنه صورة واحدة..

صورة (غادة)، وهي تصاب بالرصاصة في ظهرها، وتسقط بين ذراعيه، والدماء تتفجر من موضع الإصابة في عنف..

وتفجر الغضب، في كل ذرة من كيانه..

وعندما همَّ (ماريو) بإلقائه، من حافة المقطم، تشبث (نديم) بذراعه في قوة، وهو يستنفر كل قوته وإرادته، ليدفع نفسه إلى الخلف هاتفا في غضب:

- لن تكمل جريمتك بسهولة أيها الحقير.

تلك المبادرة المباغتة غير المتوقعة، دفعت جسد (نديم) إلى الخلف، ليهبط على قدميه، وراء (ماريو)، الذي اختل توازنه مع المفاجأة، فضرب الهواء بذراعيه، محاولا التشبث بأي شي وهو يطلق سبابا إيطاليا بذيئا..

ماريو، الذي اختل توازنه مع المفاجأة، فضرب الهواء بذراعيه، محاولًا التشبث بأي شيء..

أما (إبراهيم)، فقد انتفض بعنف مع المفاجأة قبل أن يندفع نحو (نديم)، هاتفًا:

- مستحيل.

وثب منقضًا على (نديم)، الذي لم يستعد كامل وعيه وتوازنه بعد، إلا أن غريزته، التي تذكر كل ما تدرب عليه وتفوق فيه، خلال فترة دراسته، في أكاديمية الشرطة، جعلته يميل جانبا، متفاديا انقضاضة (إبراهيم، الذي اختل توازنه بدوره، مع اختفاء خصمه المفاجئ، فواصل اندفاعه لمتر آخر ليرتطم بالإيطالي ارتطامه خفيفة..

وعلى الرغم من ضعف اصطدامه به، إلا أن هذا كان كافيا تماما، لكسر ما تبقى من توازن القاتل المحترف الذي أطلق صرخة رعب مائلة، وتضاعفت قوة ضرب ذراعيه للهواء قبل أن يهوي جسده من حالق..

وبمنتهى العنف ارتطم جسده بالصخور في أسفل، وتهشم بصورة مخيفة، جعلت إبراهيم يطلق شهقة ارتياع ورعب، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يتخيل نفسه في الموقف ذاته..

وعندما استدار، محاولا الفرار إلى سيارة الشركة ارتطم بصره بوجه (نديم)، الذي حمل نظرة صارمة قاسية، وهو يقول:

- إلى أين؟

حاول (إبراهيم) أن ينتزع مسدسه من حزامه، إلا أن قبضة (نديم) كانت أسرع منه، وهي تهوي على فكه بلكمة كالقنبلة، تراجع معها مترا واحدا إلى الخلف، و.

واختل توازنه في عنف..

لقد بلغ الحافة بتراجعه، ومال جسده إلى الخلف، وصار السقوط حتميا..

ولكن فجأة، قبضت أصابع (نديم) القوية على سترته، ثم جذبته إلى الداخل، لتهوي قبضته الأخرى على فكه بلكمة ثانية، سقط الرجل بعدها على ركبتيه، وهو يهتف والدماء تتناثر من بين شفتيه..

- الرحمة.. أرجوك.. سأخبرك بكل ما تريد معرفته.. بكل شيء.. كل شي..

وعندما رفع عينيه، المغروقتين بالدموع إلى وجه (نديم)، انتفض جسده في عنف وارتياع..

فوّجه هذا الأخير كان يحمل المقت والقسوة والغضب..

كل الغضب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحتقن وجه (إدوارد) في سخط وهو يعيد هاتفه المحمول إلى جيبه، قائلا:

لماذا لا يجيب (إبراهيم)؟! هاتفه يرن طويلا دون إجابة وهذا يقلقني كثيرا.

قال (رشاد)، وهو يستدير الي لوحة كبيرة خلف مكتبه:

- أما أنا، فهذا يفزعني الى حد الهلع.

انعقد حاجبا المحامي عندما رآه يزيح اللوحة جانبًا؛ ليكشف خزانة سرية تختفي خلفها:

- ماذا تفعل بالضبط؟

أجابه (رشاد)، وهو يضغط أزرار رتاج الخزانة الإلكتروني، بأصابع مرتجفة:

- في موقفنا هذا، يصبح من الخطورة أن تحتفظ بهذه الملفات..

قالها، وفتح الخزانة؛ ليخطف من داخلها ثلاث أسطوانات مدمجة، فهتف به المحامي في حدة:

- ماذا تعني؟

أجابه (رشاد) بعصبية مفرطة:

- أعني أنه من المحتم تدمير كل المعلومات والوثائق الإلكترونية، قبل أن تعثر عليها الشرطة، وينتهي أمري تماما.

انقض عليه (إدوارد) لينتزع الأسطوانات من يده، صالحا في غضب:

- هل جننت هذه الأسطوانات تحوي عناوين كل الجهات، التي تتعامل معها، وأرقام الحسابات السرية في بنوك (سويسرا) و (مونت كارلو)، و (أمريكا)، (اليونان)..

صاح (رشاد)، وهو يقاومه في حدة:

- وما قيمة المال لو لم نجد الفرصة لإنفاقه؟!

صرخ (إدوارد)

- لقد جننت حتما..

وقرن صرخته هذه بلكمة غاضبة، حطم بها أنف (رشاد)، قبل أن ينتزع تلك الأسطوانات الثلاث من يده عنوة، مستطردا في صرامة:

- الأصدقاء في (لوس أنجلوس) لن يعجبهم ما أصابك أبدا..

مسح (رشاد) الدماء التي تفجرت في أنفه، وهو يقول في عصبية بالغة:

- الأوغاد في (لوس أنجلوس) لا يعنيهم أمري، أو حتى أمرك.. كل ما يهمهم هو أموالهم القذرة، وبراعتنا في غسيلها هنا.

دس (إدوارد) الأسطوانات في جيبه، وهو يقول في صرامة:

- من الواضح أنك لم تعد تصلح للعمل.. إننا نحتاج إلى شخص قوي..

قال (رشاد) في حدة:

- وماذا ستفعل؟ هل ستقتلني؟

دس (إدوارد) يده في جيبه وأخرج مسدسا مزودا بكاتم للصوت، وهو يقول بلهجة مخيفة:

- اقتراح لا بأس به.

اتسعت عينا (رشاد) عن آخرهما، وهو يتراجع ملوحا بيده، وهاتفا في رعب:

- لا.. لا.. لقد أخطأت.. أعترف أنني أخطأت.. سأفعل كل ما تأمرني به.. أقسم لك.. حتي الأسطوانات لن أحتفظ بها بعد اليوم.. إنها لك.. أرجوك.

جذب (إدوارد) إبرة مسدسه، وهو يقول في صرامة:

- لم تعد هناك فائدة يا رجل.. إنني أنفذ أوامر الأصدقاء في (لوس أنجلوس).. إنها ليست مسألة شخصية.

سقط (رشاد) على ركبتيه، هاتفا:

- لا.. أرجوك.. الرحمة.

بدا صوت (إدوارد) قاسيا كلوح من الصلب، وهو يقول:

- وداعا يا (رشاد).

قبل أن يضغط الزناد، ارتفع رنين هاتفه المحمول فجأة، فالتقطه من جيبه بيسراه، في حركة حادة، دون أن يبعد فوهة مسدسه عن (رشاد)، الذي انهار تماما من فرط الرعب، وقال في صرامة، بعد أن ألقي نظرة على الرقم على شاشة الهاتف:

- أين كنت يا (إبراهيم)؟! إنني..

قاطعه صوت (نديم)، وهو يقول في صرامة:

- أنا لست مساعدك الوغد أيها الحقير.. أنا الكابوس، الذي لن يفارقك ليلة واحدة لو أنه تبقى لك المزيد من العمر.

انتفض جسد (إدوارد) في عنقه واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يهتف في عصبية:

- أنت!! مستحيل.

أجابه (نديم) بنفس الصرامة:

- المستحيل هو أن تفلت بأفعالك القدرة أيها الحقير. لقد أتيت لأجبرك علي دفع فاتورة قذاراتك التي زكمت أنوف الشرفاء.

ظلت عينا (إدوارد) متسعتين لحظة من فرط الدهشة، التي لم تلبث أن تحولت إلى غضب هادر، وهو يقول:

- اسمع يا هذا.. سواء أكنت عقربًا أو حتى ثعبانًا، فلن أسمح لك بأن تمس شعرة واحدة مني، سآمر الرجال بقتلك فورا، ودون أدني رحمة لو حاولت مجرد محاولة، أن تقترب من هنا، أو...

قاطعه (نديم) بضحكة ساخرة وهو يقول:

- أقترب من هنا؟! يا لك من غير ساذج، على الرغم من حقارتك.. إنني هنا بالفعل أيها الوغد.

ومع أخر حروف عبارته الساخرة، تحطم زجاج حجرة المكتب في عنف ليثب عبره جسدٌ قوي، يتشح بالسواد، من قمة رأسه، وحتى أخمص قدميه..

لقد كان (نديم).. (نديم فوزي)..

ولكن في الزي الذي بفضله، في مثل هذه الظروف..

زي (العقرب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- المواجهة الأخيرة..

لنصف دقيقة كاملة، راح المحامي (إدوارد) يحدِّق في وجه (العقرب) وقناعة الأسود في دهشة أقرب إلى الذهول، تمتزج بذعر عصبي، قبل أن يتمالك جأشه ويقول في توتر:

- وسيلة عنيفة للدخول يا سيد (نديم)، ثم إن هذا القناع لم يعد بإمكانه أن يخدع أحدا في الوقت الحالي.

هز (نديم) كتفيه، وهو بعقد ساعديه أمام صدره، قال في صرامة:

- إنه يشعرني بالارتياح على الأقل.

أدار (إدوارد) فوهة مسدسه المزود بكاتم للصوت نحوه، وهو يقول في حده:

- أتعني كما يشعرني مسدسي هذا بالارتياح؟

تطلع (نديم) إلى فوهة المسدس بلا مبالاة، قبل أن يقول:

- لو أن قوتك تكمن في سلاحك فحسب.

انعقد حاجبا (إدوارد) في غضب، وهو يلوح بمسدسه، هاتفا:

- انزع قناعك السخيف هذا عن وجهك.. أريد أن أتحدث إلى (نديم فوزي)، وليس إلى (العقرب).

انتزع (نديم) قناعه في هدوء، وهو يتساءل، في لهجة حملت رنة ساخرة:

- أيصنع ذلك فارقا؟

أجابه في حدة:

- بالنسبة لي على الأقل.

ارتفع صوت (رشاد) من خلفه فجأة، وهو يهتف في انفعال مرتجف:

- الأسطوانات يا سيد (نديم).. خذ الأسطوانات من جيبه.. سأعترف بكل شيء، على أن تعتبروني شاهد، و.

قاطعه (إدوارد)، وهو يستدير إليه في حركة حاده صالحا..

- اخرس أيها الغبي..

ومع صيحته، ضغط زناد مسدسه..

وانطلقت الرصاصة بدوي مكتوم..

ومع انطلاقها، وقبل حتى أن تنطلق شهقة الموت، من بين شفتي (رشاد السلباوي)، وثب (العقرب)...

وشبه لينقض على (إدوارد) في عنف، هاتفا:

- خطا أيها الوغد.

وبركلة قوية، أطاح بالمسدس من يد (إدوارد)، مستطردا:

- لا تبعد عينيك عن خصمك، في ظروف كهذه أبدا.

كانت قبضته تنطلق نحو فك المحامي الداهية، عندما ارتفع ساعد هذا الأخير بحركة سريعة ماهرة ليصد الضربة خالد غضب:

- مشكلتك أيها المقنع..

ودار حول نفسه برشاقة مدهشة، ليركل (العقرب) في صدره ركلة عنيفة، ألقت هذا الأخير إلى الخلف والمحامي يتابع:

- أنك تتصور نفسى الأكثر براعة.

ثم وثب في مرونة مذهلة، ليهبط على مسافة نصف المتر من (نديم)، مستطردا:

- والأكثر قوة.

كانت مفاجأة حقيقية لبطلنا، ولكنها لم تمنعه من صد لكمة كالقنبلة، صوبها المحامي إلى أنفه، قبل أن يتراجع بقفزة خلفية، قائلا:

- من الواضح أنك تجيد الرياضات القتالية، على الرغم من حقارتك.

ابتسم إدوارد) في سخرية، وقال وهو يتخذن وضعًا قتاليا حازما..

- منذ شبابي، وأنا أتفوق في هذه الرياضات أيها المهرج المقنع، وعندما قضيت بضع سنوات في الولايات المتحدة الأمريكية، حرصت على مواصلة التدريب على يد عمالقة في هذا المضمار.

ثم وثب بغتة ليركل (العقرب) مرة أخرى في صدره، هاتفا:

- ما رأيه في النتائج؟

كانت الضربة من القوة، حتى إنها دفعت (نديم) دفعة عنيفة، جعلته يرتطم بالجدار في شدة، في نفس اللحظة التي انقض فيها المحامي عليه، متابعًا في سخرية قاسية:

- أم نترك هذا للطب الشرعي؟!

كانت قبضته تندفع نحو فك (العقرب) في قوة إلا أن هذا الأخير خفض رأسه في سرعة؛ لترتطم قبضة المحامي بالجدار خلفه، قبل أن يعتدل، ويهوي بقبضته على فك المحامي صائحًا:

- ما رأيك لو نتركه لمحاضر الشرطة؟

تراجع المحامي مع عنف اللكمة، وانطلقت من حلقه صرخة غضب وألم، وهو يهتف:

- أيها المقنع الـ...

قبل أن يتم عبارته، وقع بصره على مسدسه الملقي أرضا، فتألقت عيناه، وهو يهتف:

- أنت أيضا أخطأت أيها (العقرب).

لمح (نديم) المسدس في اللحظة الأخيرة نفسها، وأدرك أنه بالفعل في متناول يد المحامي، فاندفع نحوه بكل قوته..

ولكن (إدوارد) كان الأكثر قربا..

والأكثر خفة..

لقد استغل كل مهاراته لينحني كقطعة من المطاط، ويلتقط مسدسه، ثم يعتدل في سرعة مدهشة، وهو يصوب فوهته نحو (العقرب)، هاتفا:

- آه.. خسرت أيها المقنع.

وجذب إبرة المسدس، مستطردا في صرامة قاسية:

- ها هي ذي أسطورة جديدة تنمحي من الوجود.

وعلى الرغم من أن مسدسه مزود بكاتم للصوت، فقد رددت طرقات وممرات الشركة كلها دوي الرصاصة..

الرصاصة التي أصابت هدفها..

بمنتهى الدقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

" رصاصة واحدة ".

نطق كبير الجراحين العبارة، وهو يواجه اللواء (حلمي)، قبل أن يتابع في انفعال:

لقد أصابتها في ظهرها، ونفذت من صدرها، في موضع شديد الحساسية، حتى إن قلبها قد توقف في أثناء العملية، ونحن نسعى لإيقاف النزيف الداخلي.

ثم التقط نفسا عميقا ليستطرد في ارتياح:

- ولكننا نجحنا في إعادة النبض إليه، بتوفيق من الله (عز وجل) ...

تنهد اللواء (حلمي)، مغمغما:

- حمدًا لله.. حمدًا لله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن هناك شيء، يمكن أن يَحول بين (نديم) ورصاصة المحامي الداهية (إدوارد)..

فالرجل يجيد التصويب، والمسافة التي تفصله عن (العقرب) محدودة، و.

ولكن فجأة اقتحم العقيد (مجدي) المكان..

وبمنتهى العنف..

مع صرخة الاحتجاج، التي أطلقتها السكرتيرة (نسرين)، استدار (إدوارد) بحركة غريزية نحو القادم الجديد..

واستدارت معه فوهة مسدسه..

وكمحترف لم يضيع (مجدي) ثانية واحده..

وأطلق النار..

ودوت رصاصة مسدسه في الشركة كلها وامتزجت بصرخة الرعب، التي أطلقتها السكرتيرة وبصوت ارتطام الرصاصة بمسدس (إدوارد)، لتطيح به بعيدًا..

وانطلقت شهقة ألم مذعورة، من حلق المحامي.. وقبل حتى أن تكتمل، كان (العقرب) يثب نحوه، ويهوي على فكه وأنفه بلكمتين سريعتين هاتفًا:

- انحسمت اللعبة أيها الحقير.

تراجع جسد المحامي في عنف، وارتطم مع تراجعه بجثة (رشاد)، فاختل توازنه، وسقط أرضا، ليتلقى فكه ركلة أكثر عنفا، من قدم (نديم) الذي أضاف:

- لصالح (العقرب).

انعقد حاجبا (مجدي)، دون أن ينبس ببنت شفة، في حين أطلقت السكرتيرة صرخة رعب أخرى وهي تحدق في جثة (رشاد)، وبركة الدم التي تحيط بها، فقال لها (نديم) في صرامة:

- أبلغي الشرطة.. أسرعي.

أثارت عينيها المتسعتين إلى (مجدي)، الذي لوح بمسدسه، قائلا:

- افعلي ما أمرك به.

تراجعت السكرتيرة في سرعة، وهي تغلق باب حجرة المكتب خلفها، وأسرعت تنفذ ما أمروها به في حين انحنى (نديم)، يلتقط الأسطوانات المدمجة الثلاث، من جيب (إدوارد).

ثم ناول (مجدي) إياها قائلا:

- بهذه ستجد لديك قضية متكاملة، من قضايا غسيل الأموال القذرة، بالإضافة إلى جريمة قتل، ضحيتها (رشاد السلباوي)، ومجرمها المحامي (إدوارد).

أعاد (مجدي) مسدسه إلى غمده، والتقط الأسطوانات في حرص، فتابع (نديم)، وهو يشد قامته أمامه، في زي (العقرب):

وربما كانت هناك قضية ثالثة أيضا.

أدرك (مجدي) ما يعنيه على الفور، فأومأ برأسه إيجابا، وغمغم:

- القانون هو القانون.

التقط (نديم) نفسا عميقا، وقال:

- بالتأكيد.. أعلم أن هذا هو مبدأك دوما..

ثم أشار إلى قناعة، الملقى على مقربة من (مجدي)، مضيفا:

- وها هي ذي الحقيقة أمامك بعد أن انكشف عنها القناع، والشك داخلك تحوّل إلى يقين..

عض (مجدي) شفتيه، وهو يكرر:

- القانون هو القانون.. إنه الحماية المثلى للأبرياء..

أدار عينيه إلى جثة (رشاد)، والمحامي الملقي فوقها، قبل أن يضيف في مقت واضح:

- أما المجرمون، فيحتاجون إلى قانون خاص..

وفي بطء، انحنى يلتقط قناع (نديم)، ثم ناوله إياه، مضيفا:

- ومكافح للجريمة من طراز خاص.

ارتفع حاجبا (نديم) في دهشة، فابتسم (مجدي) ابتسامة متوترة، وهو يكمل:

- وربما تتحقق العدالة بحق لو امتزج هذا بذاك.

التقط (نديم) قناعه، ودسه في جيبه، قائلا بابتسامة هادئة:

- نعم.. ربما.

صمت الاثنان بضع لحظاته وكلاهما يتطلع إلى عيني الأخر مباشرة، قبل أن يلوح (مجدي) بيده قائلا:

- هيا.. انصرف أنت واذهب للاطمئنان على زميلتك، وسأنتظر أنا قدوم الزملاء من رجال الشرطة.

صافحه (نديم) في صمت، قبل أن يبتسم، قائلا:

- أعتقد أن عودتك إلى هنا لم تكن رسمية، لذا فهنالك إجراء بسيط، يعفيك من المسئولية تماما.

ابتسم (مجدي)، قائلا:

- بطاقتك؟

أجابه (نديم) بابتسامة مماثلة:

- بالضبط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد كلمته باثنتي عشرة دقيقة فحسب، وصل رجال الشرطة إلى مبنى شركة (السلباوي) وإلى حجرة مكتب هذا الأخير؛ ليجدوه أمامهم جثة هامدة، وفوقه سقط المحامي (إدوارد) فاقد الوعي، وعلى صدره بطاقة بيضاء صغيرة، تحمل رمزا يعرفونه جيدا..

رمز (العقرب)..

ولكن أحدًا منهم - باستثناء العقيد (مجدي) - لم يتصور قط أن هذه المهمة، كانت تختلف تماما عن كل مهمة سابقة له..

فقد كانت أول مهمة رسمية..

بحق..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

العقرب:

خلف القنـــاع

(الرواية السابعة.. والأخيرة)

عندما يعجز القانون البشري عن القصاص..

عندما تحيط العدالة عينيها بعصابة سميكة..

حينما يرتفع ذلك الحاجز بين العدالة والقانون..

عندئذ يهب هو للقتال، حاملا ذلك الاسم، الذي يثير الرجفة في قلوب أعتى المجرمين..

اسم (العقرب).

1- التحـــدي..

من هنا أيها السادة ووفقا لكل ما أمامكم، فأنا أطالب ببراءة موكلي، من كافة التهم المنسوبة إليه...

دوي صوت المحامي الشهير (فؤاد ثعلب)، في قاعة المحكمة، وهو يقف بمظهره الفخم المهيب، أمام منصة القضاء، مشيرا إلى رجل، احتل مقعدا في الصف الثاني من القاعة، محاطا بعدد من أعوانه، على نحو لا يوحي أبدا بأنه المتهم، الذي تدور حوله المحاكمة..

وعلى الجانب الآخر من القاعة، جلس (نديم فوزي)، رجل الشرطة السابق، والمحامي الحالي، صامتًا، يتابع الموقف دون تعليق، وإن انعقد حاجباه قليلا، وبدا أكثر وسامة في روب المحاماة الأسود، الذي يوحي بأنه الخصم، في القضية ذاتها...

وفي توتر، مالت مساعدته (غادة) على أذنه، تهمس:

- ماذا تتوقع؟!...

غمغم في حزم:

- البراءة.

تراجعت مستنكرة، وهي تقول:

- بعد كل ما فعلناه؟!

أشار إليها بالصمت والهدوء، في حين انسحب القضاة إلى حجرة المداولة للتشاور بشأن إصدار الحكم النهائي، فالتفت (ثعلب) إلى أنديم)، وقال في تشفٍّ:

- أخطأت هذه المرة يا (نديم).

عقدت (غادة) حاجبيها في ضيق، في حين ظل (نديم) محتفظا بهدوئه، وهو يقول:

- القضية كانت تحوي كل الأدلة والبراهين والوثائق التي تثبت فساد موكلك، ولو أن الأمور سارت على النهج السليم، لكان في الـ...

قاطعه المحامي الشهير بزمجرة قاسية، قبل أن يقول:

- أي قانون تتحدث عنه يا (نديم)؟ ... أنت تعلم أن الوثائق لم تعد في حوزتك، والادلة كلها يعاد تفسيرها في المعتاد، خاصة في وجود من أقرَّ بالجرم.

واصل (نديم) هدوءه، وهو يقول:

- أظن أنهم يطلقون على هذا اسم (استغلال النفوذ)..

مال المحامي الشهير عليه، وهو يقول في تحدٍ:

- نعم... إنه (أسوأ استغلال للنفوذ).

بدت دهشة مستنكرة على وجه (غادة)، من هذا الرد المتبجح، واندفعت تهمّ بقول شيء ما، ولكن (نديم) ضغط يدها في رفق، يدعوها إلى التراجع، وهو يقول بنفس الهدوء:

- هل يمكنك تكرار هذا في حضور القضاة؟

لوح (ثعلب) بيده هاتفًا:

- إنهم يعلمون.

ثم عاد يميل نحوه، مستطردًا في تحدٍ أكبر:

- ولكن ماذا بيدهم ليفعلوا؟!

واعتدل بحركة حادة، ملوحًا بيده على نحو مسرحي، مضيفا:

- إنه القانون.

غم (نديم) في صرامة:

- نعم.. إنه القانون.

وصمت لحظة، ثم أضاف في صرامة أكثر:

- ولكن ماذا عن العدالة؟

ارتسم الغضب على وجه (فؤاد ثعلب)، وهو يقول:

- اسمع يا نديم)، لو أردت نصيحتي، فابعد تلك الأفكار، التي تدور في رأسك الفارغ هذا عنه ولا تنس أننا نعرف عنك كل شيء..

وبدا صارمًا قاسيًا، وهو يضيف بعينين ملتهبتين:

- هل تفهمني؟ ... كل شيء.

تبادل معه (نديم) نظرة متحدية بضع لحظات، قبل أن يقول في هدوء، يحمل نبرة واثقة متحدية:

- من حسن الحظ أنني لم أرد نصيحتك.

تراجع المحامي في غضب، وهم يقول شيء ما، ولكن أحد رجال المتهم وصل إليه، في هذه اللحظة، ووضع يده على كتفه، وهو يهمس في أذنه بكلمات، بدا من ملامحه أنها شديدة الأهمية، خاصة وأنه قد نهض بعدها مباشرة، متجها نحو المتهم، وإن لم ينس أن يقول قبل انصرافه.

- لا تنس ما قلته لك.

غمغم (نديم) بنفس الهدوء، الذي يحمل رنة صارمة:

- وكيف يمكن أن أنسى..

تابعت (غادة) ببصرها المحامي، وهو يلتقي بالمتهم، ويتبادل معه حديثًا هامسًا، ثم مالت على أنديم)، تقول:

- لقد حذرتك من البداية يا (نديم).

أجابها في حزم:

- القضية كانت مكتملة الأركان، عندما توليتها..

غمغمت في توتر:

- ولكنها قضية ضد (أحمد عزيز) شخصيًا..

قال في هدوء:

- وماذا في هذا؟! أليس مواطنًا مصريًا مثلنا؟!

قالت في توتر أكثر:

- عم... إنه مواطن مصري، ولا... هو ليس مثلنا.

انعقد حاجباه دون أن يجيب، فتابعت بنفس التوتر:

أنه لا يحتل أي منصب رسمي، ولكن الدولة كلها تعلم أنه الرجل الثاني

فعلية في (مصر)؛ فهو يدير شئون الحزب، والمسئول الأول عن كل عضو فيه، وهو أكثر رجال النظام ثراءً وقوة، و.

قاطعها في حزم:

- كنت أعلم كل هذا، عندما بدأت القضية، قالت في سرعة:

- ولقد حاولت تحذيرك.

صمت (نديم) لحظات، قبل أن يقول بكل الحزم:

- اسمعيني جيدا يا (غادة)... أنا أعلم منذ البداية، أن (أحمد عزيز) هذا هو الرجل الثاني في (مصر)، وأنه سيستخدم كل ما له من نفوذ حتى يطمس الحقائق، ويخرج من الاتهام مثل الشعرة من العجين... وكنت واثقة أيضا من أنه سيحصل على البراءة في النهاية، مهما قلنا أو فعلنا.

سألته في دهشة:

- لماذا أثرت القضية إذن؟!

أجابها بنفس الحزم:

- أولا، لأن المصدر، الذي جلب لنا كل الأدلة والوثائق، هو أحد ضحايا (أحمد عزيز) وفساده وتجاوزاته، وعدد كبير من المحامين خشي الوقوف إلى جواره؛ بسبب نفوذ وقوة ومكانة (أحمد عزيز)، لهذا فقد وجدت أنه من واجبي، إحقاقا للعدالة، أن أساند المظلوم..

سألته في اهتمام

- وثانيًا.

صمت لحظة، قبل أن يجيب:

- لأن هذا يمنحني كل الحق، في بدء الخطوة التالية..

بدا عليها توتر زائد، وهي تقول:

- حذار يا (نديم)... حديث (ثعلب) يؤكد أنهم يعرفون كل شيء عن هويتك السرية، وعن أنك كنت ذات يوم (العقرب).

غمغم في هدوء أدهشها:

- ليست لدي ذرة شك في هذا.

ثم أضاف بابتسامة باهتة:

- ولكن لدي تصحيح صغير يا عزيزتي...

وتطلع إلى عينيها الجميلتين مباشرة، وهو يضيف:

- فأنا ما زلت (العقرب).

همَّت بقول شيء ما، ولكن القضاة عادوا إلى المنصة، في هذه اللحظة، فلاذت بالصمت، وانتبهت جيدًا..

ولم يأت الحكم بخلاف التوقعات..

براءة (أحمد عزيز)، من كافة التهم المنسوبة إليه...

وبينما يتلقى (أحمد عزيز) التهنئة من رجاله، في تعالٍ ملحوظ، عاد المحامي (ثعلب) إلى (نديم)، قائلا:

- الأمر لم ينته بعد.

أجابه (نديم) في تماسك:

- كنت اظن، وفقا لما تعلمناه، أنها المرحلة الأخيرة للتقاضي..

مط المحامي الكبير شفتيه، وقال:

- ربما انتهت المواجهة هنا، في ساحة القضاء، ولكنك أسأت إلى (أحمد) باشا، واتهمته علانية بالفساد واستغلال النفوذ..

غمغم (نديم):

- أليس كذلك بالفعل؟!

تجاهل المحامي تعليقه، وواصل وكأنه لم يسمعه:

- وهو ليس ممن يغفرون الإساءة أبدا.

هز (نديم) كتفيه، قائلا:

- يمكنه رفع دعوى رد شرف، أو...

قاطعة المحامي بإشارة صارمة من يده وهو يقول:

- أخبرتك أن اللعبة قد انتهت في ساحة القضاء..

وقسا صوته في شدة مع إضافته:

- وبدأت في ساحة الحياة.

تطلع إليه (نديم) لحظات قبل أن يقول:

- وهي ساحتي المفضلة.

بدا المحامي أكثر قسوة وشراسة، وهو يقول:

- فليكن... ما دمت ترى هذه... ولكن عليك أن تدرك جيدة، أن قناعك لن يجدي هذه المرة، ومناوراتك القانونية أيضا لن تفلح، لأنك قد أغضبت الرجل الثاني في الدولة.. ولو أردت النصيحة الوحيدة للنجاة من هذا الموقف، فهي تكمن في كلمة واحدة.

ومال نحو (نديم) بشدة، حتى أن (غادة) شعرت بالتوتر، وخاصة عندما أضاف بلهجة مخيفة:

- هاجر.

مضت لحظات، وكلاهما يتطلع إلى عيني الآخر في تحد سافر، قبل أن يقول (نديم) في بطء وصرامة:

- إنني أحيا في وطني، أظنني سأبقى فيه.

تراجع المحامي، وهو يقول في شراسة:

- ستنفتح لك أبواب الجحيم إذن... لقد أغضبت (أحمد عزيز)، ولم يعد البلد يسمح بوجودكما معًا..

مال (نديم) نحوه هذه المرة، وهو يلتقط حقيبة أوراقه، قائلا:

- انصحه إذن بأن يرحل..... وقبل فوات الأوان.

تراجع المحامي في دهشة مستنكرة، في حين كان (أحمد عزيز) يغادر القاعة، محاطًا بجيش من الصحفيين واعلاميين، وغمغمت (غادة) بصوت مرتجف:

- أظنك فتحت بالفعل أبواب الجحيم، هذه المرة يا (نديم).

قال في صرامة، وهو يغادر القاعة:

- من يدري؟!

ومن خلفه، هتف المحامي الكبير في غضب:

- تذكَّر أنني قد حذرتك... وتذكَّر هذا اليوم جيدًا... الثالث والعشرين من يناير، عام ألفين وإحدى عشر... تذكر أنه بداية نهايتك.

أشار (نديم) إلى الباب، الذي خرج منه (أحمد عزيز)، وهو يقول في حزم:

- أو نهايته..

امتقع وجه (غادة)، وهي تقول:

- (نديم)... لقد تجاوزت كل الحدود هذه المرة بالفعل.

أجابها في حسم، وهو يغادر معها مبنى المحكمة:

- بل هم من تجاوزوا كل الحدود يا عزيزتي... قمعوا الرأي، وقهروا الفكر، وحولوا الوطن إلى دولة بوليسية، لا يأمن فيها مخلوق واحد على نفسه، وحتى الانتخابات الأخيرة.. زوروها

على نحو سافر سافل، لا يقيم وزنا حتى لعقول المصريين وكرامتهم.

ثم التفت اليها، وهو يفتح باب سيارته، مضيفا:

- صدقيني يا عزيزتي.. لقد حانت نهايتهم، ولكنهم ككل الطغاة، لا يدركون..

لم يكد يتم عبارته، حتى شعر بيد ثقيلة: على كتفه، وسمع من خلفه صوتا غليظا يقول:

- أستاذ (نديم فوزي)

التفت (نديم) إلى ضابط شرطة، يحمل رتبة عقيد، واصل حديثه بنفس الغلظة، قائلا:

- معي أمر اعتقال باسمك.

تراجعت (غادة) كالمصعوقة، هاتفة:

- أمر اعتقال؟!... ولكن لماذا؟!

وشد (نديم) قامته، وهو يقول في حزم:

- أليس من المفترض، قانونا، أن تسبق أمر الاعتقال تحريات واسعة، و.

قاطعه الضابط في تحدٍ:

- كل شيء سليم يا سيد (نديم)، وفقا لقانون الطوارئ... لدينا سجل مراقبة وتحريات كامل، يثبت أنك نفس الشخص المطلوب قانونا، والمعروف باسم (العقرب).

سأله (نديم، وقد بدأ التوتر يتسلل إلى نفسه، مع قوات الأمن، التي أحاطت بسيارته:

- الديكم دليل واحد يثبت هذا؟!

لوح الضابط بيده، وهو يقول:

- ليس هذا من شأني.

وأضاف في سرعة:

- ولكن لدى ما هو أقوى من أي دليل.

وأخرج من جيبه ورقة، تحوي ختما سيادية، وهو يضيف، في لهجة أقرب إلى التشفي:

- أمر من وزير الداخلية شخصيًا باعتقالك.

تراجعت (غادة) أكثر، وهي تردد:

- يا إلهي... يا إلهي...

ومع قولها، أحاطت بهما قوات الأمن أكثر...

وبدا من الواضح أنه ما من وسيلة للإفلات هذه المرة...

على الإطلاق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- الوزيـــر..

اندفع (مجدي) على نحو ملحوظ، إلى تلك الحجرة، التي يحتجزون فيها (نديم) تمهيدا لترحيله إلى أحد السجون، بناء على أمر الاعتقال، الصادر من وزير الداخلية شخصيًا..

كانت (غادة) تجلس صامتة، إلى جوار (نديم)، الذي بدا، على الرغم من حساسية موقفه، شديد الهدوء والتماسك، حتى أنه رفع عينيه في بطء إلى (مجدي)، في حين هتفت (غادة) فور رؤيته:

- العميد (مجدي).

وقف (مجدي) يتطلع إليها لحظات قبل أن يجلس في بطء على مقعد مواجه لهما، ويشير إلى أحد الضباط، قائلا:

- أتركونا وحدنا.

كان الضابط أقل منه رتبة، وعلى الرغم من هذا، فقد قال في شيء من الصرامة:

- أوامر سيادة الوزير ألا...

قاطعه (مجدي) في حدة:

- قلت: أتركونا وحدنا.

نقل الضابط بصره في توتر، بين (مجدي) و(نديم) و (غادة)، قبل أن يشير إلى جنوده بمغادرة الحجرة، وهو يكرر:

- أوامر سيادة الوزير ألا..

بدا (مجدي) شديد الصرامة والقضب، وهو يقول:

- هل سمعتني جيدا أيها الرائد؟

انعقد حاجيا الضابط في توتر، ولكنه أطاع الأمر، وغادر الحجرة وما أن أغلق الباب خلفه، حتى التفت (مجدي) إلى (غادة)، يسألها في شيء من الحدة:

- ماذا تفعلين هنا؟ ... معلوماتي تشير إلى أن أمر الاعتقال صادر بحق (نديم) وحده..

قالت في توتر:

- وأنا محاميته، ومن حقي...

قاطعها (نديم) هذه المرة، قائلا في هدوء:

- عبثا حاولت أن أشرح لها، أن هذه الحالة لا تندرج تحت البنود القانونية المعروفة.

غمغم (مجدي) في أسي:

- للأسف.

بدت (غادة) عصبية، وهي تقول:

- اسمع يا سيادة العميد..

استوقفها (مجدي) بإشارة من سبابته، وهو يغمغم:

- اللواء يا عزيزتي (غادة)... لقد حصلت على الترقية، في نفس النشرة الدورية التي خرج فيها سيادة اللواء (حلمي) من الخدمة.

قال (نديم) في هدوء:

- من الطبيعي أن تبقى أنت، ويخرج هو، في زمن كهذا..

نظر إليه اللواء (مجدي) لحظات في صمت ثم خفض عينيه، وقال:

- عندما كنت أطاردك بهذا الإلحاح، وأسعى طوال الوقت، لإثبات أنك (العقرب)، لم أفعل هذا بدافع شخصي يا (نديم)، وإنما حفاظا على القانون، الذي أقسمت أن أحترمه وأدافع عنه.

قال (غادة) في عصبية:

- مثل قانون الطوارئ.

أجابها في سرعة وحزم:

- كلا..

وصمت لحظة أخرى، قبل أن يضيف:

- ذلك القانون موجود، منذ بدأ صراعنا يا (نديم)، ولكنك تعلم أنني لم أحاول استخدامه ضدك مرة واحدة..

أجابه (نديم)، وهو يتساءل عن مغزى الحوار:

- هذا صحيح... كنت دوما خصما شريفا.

صمت اللواء مجدي) بضع لحظات أخرى، ثم قال:

- ولكن الخصم هذه المرة ليس شريفا بالقدر نفسه يا (نديم)، وهو يمتلك نفوذًا أكبر مما تتصور... وبناء على طلبه، تم تفتيش منزلك ومكتبك بمنتهى الدقة هذه المرة، وبواسطة طاقم فني خاص جدا..

سأله (تنديم) في اهتمام:

- وما الذي عثروا عليه؟!

هر (مجدي) رأسه في أسف، وقال:

- نفس ما سعيت أنا للعثور عليه، منذ سنوات.

قالها، وهو يخرج من جيبه قناع العقرب، ويضعه أمام عيني (نديم)، فانعقد حاجبا (غادة) في شدة، وهي تحدق في القناع، في حين ظل (نديم) محتفظ بهدوئه، وهو يقول:

- لست أظن هذا يصنع فارقا، في ظل هذه الظروف.

غمغم اللواء (مجدي):

- أنت على حق.

اندفعت (غادة) تقول في توتر شديد:

- ولكنك تعلم أن (نديم) لم يرتد هذا القناع منذ سنوات، وأن (أحمد عزيز) هذا هو الذي يرتدي قناعا زائفا، أمام المجتمع كله... قناع لا يمكن العثور عليه بتفتيش كل قصوره وممتلكاته.

أضاف (نديم) في حزم:

- ذلك القناع، الذي أردت رفعه عن وجهة القبيح، لتبدو حقيقته أمام الجميع.

تراجع اللواء مجدي) ينظر إليه في صمت، في حين قالت (غادة) في يأس مرير:

- يبدو أنهم قد أحكموا الخناق هذه المرة يا نديم).

بدا (نديم) هادئًا إلى حد مستفز، وهو يقول:

- نعم... يبدو هذا... دولة بأكملها، في مواجهة رجل واحد... ماذا تنتظرون من هذا؟!

رمقه اللواء (مجدي) بنظرة عجيبة، قبل أن يميل نحوه، ليسأله:

- ألا تبالي باعتقالك يا (نديم)؟!

جاء دور (نديم)؛ ليصمت بضع لحظات، قبل أن يجيب في حزم:

- اسمع يا (مجدي)... لقد فعلت ما فعلت، وأنا أؤمن بكل خطوة خطوتها، ومادامت أؤمن بما أفعل، فأنا أتقبل عواقبه بنفس راضية.

سأله (مجدي) في بطء:

- أيا كانت؟

أجابه (نديم) بكل الحزم:

- أيا كانت.

بدا شبح ابتسامة عجيبة، على شفتي (مجدي)، وهو ينتزع مسدسه، قائلا:

- في هذا نتفق.

ثم فجأة ودون سابق إنذار، هوى بمسدسه على راس (غادة)... مباشرة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدا الضابط المكلف بحراسة (نديم) شديد التوتر، وهو يحدِّث مساعد وزير الداخلية، قائلا:

- أوامر سيادة الوزير كانت ألا يغيب المتهم عن نظري لحظة واحدة، حتى يتم ترحيله إلى معتقل (وادي النطرون)، ولكن سيادة اللواء (مجدي) أصرَّ على البقاء معه وحدهما يا سيدي، ولم يمكنني معارضته.

أجابه مساعد الوزير في اهتمام:

- لا بأس ... (نديم فوزي) هو قضية (مجدي) منذ سنوات، ولا ريب في أن لديه الكثير ليعرفه منه، بعد وقوعه في قبضتنا.

قال الضابط، في توتر أكثر:

- ولكن أوامر سيادة الوزير...

قبل ان يتم عبارته، بلغ مسامعه صوت شجار عنيف داخل الحجرة، التي ترك فيها (نديم) ومحاميته، مع اللواء (مجدي)، فسحب مسدسه، وهو يدفع بابها في قوة هاتفا برجاله:

- استعدوا.

توقف دفعة واحدة عند باب الحجرة، وتوترت كل عضلة في جسده، عندما وقع بصره على (غادة)، الملقاة أرضا، والدماء تنزف من جرح برأسها، في حين يقبض (نديم) على عنق اللواء (مجدي)، وهو يصوب مسدس هذا الأخير إلى رأسه، واللواء (مجدي) يهتف في عصبية؛

- المتهم جن جنونه، واختطف مسدسي، وضرب به محاميته، و.

رفع الضابط مسدسه في سرعة، وهو يهتف:

- اترك سيادة اللواء والا..

قاطعة (نديم) في لا مبالاة:

- والا ماذا؟!... هل تتوقع أن تفلح التهديدات الجوفاء، مع ضابط شرطة سابق يعرف جيدة كيف تسير الأمور؟

هتف الضابط في صرامة عصبية:

- لدي اوامر من سيادة الوزير، بإطلاق النار عليك بلا تردد عند محاولتك الفرار.

قال (نديم) في صرامة:

- وماذا عن اللواء (مجدي)... الديك اوامر بقتله أيضا؟؟

ارتبك الضابط، ولم يدر أي قرار يتخذ، في مثل هذه الظروف، فصاح به اللواء (مجدي) في حدة:

- المسح الطريق يا رجل... أنني أتحمل عنك المسئولية كاملة.

تردد الضابط لحظات، فصرخ فيه (مجدي)

- قلت: افسح الطريق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هل جننت يا هذا؟ ...

صرخ وزير الداخلية بالعبارة، بكل غضب الدنيا، عبر هاتفه الخاص، قبل أن يواصل صارخا في الضابط:

- هل تخبرني أنه قد غادر مديرية الامن، بكل جنودها وضباطها، وتجهيزاتها واستعداداتها، هكذا بكل بساطة!!...

بدا الضابط مرتجفة، وهو يجيب:

- لقد كان يأسر اللواء مجدي) يا سيادة الوزير، وبحكم كونه ضابط شرطة سابق فقد كان يعلم كل طرقنا ووسائلنا، ولقد احتاط لها كلها، ثم استخدم سيارة سيادة اللواء للفرار.

سأله الوزير في عصبية:

- وأين اللواء مجدي)؟؟

بدا الضابط شديد الارتباك، وهو يقول:

- اصطحبه في فراره، يا سيادة الوزير.

صرح الوزير:

- أغبـــــياء.

ثم أنهى المحادثة في عنف، والتقط هاتفه المحمول، وطلب رقما خاصا مميزة، قبل أن يقول في توتر:

- (أحمد) باشا.... لدى خبر مزعج بعض الشيء..

بدا (أحمد عزيز) هادئًا، وهو يقول:

- أتعنى خبر فرار ذلك المحامي، من مديرية الأمن؟؟

حمل صوت الوزير دهشته، وهو يقول في توتر:

- كيف علمت بهذا ؟!... الخبر بلغني على التَو!

تجاهل (احمد عزيز) إجابة السؤال، وهو يقول:

- ولقد علمت أيضا أن رجالك لم ينطلقوا بسيارات الشرطة خلفه مباشرة؛ لأنه هدد بقتل اللواء (مجدي)، لو حاولوا هذا.

أضيف الغضب إلى صوت الوزير، وهو يقول:

- كيف تعلم كل هذا؟!..... ألديك عيون في قلب وزارتي؟؟

مرة أخرى، تجاهل (أحمد عزيز) إجابة الأسئلة، وهو يقول:

- ربما كان هذا من حسن حظنا يا سيادة الوزير.

قال الوزير في دهشة متوترة:

- وكيف هذا؟

أجابه (أحمد عزيز) في حزم:

- فراره العلني هذا، يعني أنه لم يعد تحت مسئولية وزارة الداخلية، وأنه قد صار رسميا، خارجا على القانون.

قال الوزير في انفعال:

- كونه خارجا على القانون، يجعله تحت مسئولية وزارة الداخلية، في كافة الاحوال.

أجابه (أحمد عزيز) في صرامة هذه المرة:

- من الناحية الرسمية فحسب، وخاصة عندما تصدرون بيانكم الرسمي، عقب العثور على جثته.

غمغم الوزير بكل الدهشة:

- جثته؟!

بدا (أحمد عزيز) هادئا واثقا، وهو يقول:

- بالتأكيد... رجالي خلفه في هذه اللحظة، وهم على عكس رجالك... لا يلتزمون بأية قوانين...

ولم يحر الوزير جوابا هذه المرة..

على الإطلاق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- يمكنك النزول هنا يا سيادة اللواء...

قالها (نديم)، وهو يوقف سيارة (مجدي)، عند منطقة هادئة، من كورنيش (المعادي)، ثم التفت إليه، وحاول أن يبتسم، وهو

يضيف:

- أعدك أن أبذل قصارى جهدي؛ للحفاظ على سيارتك.

التقط (مجدي) نفسًا عميقا، وهو يقول:

- عندما يجازف الإنسان بتاريخه كله، فلن تكون لسيارته عندئذ قيمة.

سأله (نديم) في اهتمام:

- ولكن لماذا (غادة)؟!... ماذا كانت ضرورة أن توِّجه إليها تلك الضربة القاسية؟

ابتسم اللواء (مجدي) ابتسامة شاحبة، وهو يقول:

- ستحتاج حتما إلى مقاتل في الخارج، وتلك الضربة ستخرجها من دائرة المسئولية..

قالها، وغادر السيارة، ثم التفت إلى (نديم)، قائلا:

- اسمعني جيدا يا (نديم)... بفرارك من مديرية الأمن، على هذا النحو، صرت رسميا خارجا من القانون، وهذا يعني أن شخصية (نديم فوزي) لم تعد قادرة حتى على الظهور والمناورة، ولم تعد لديك سوى شخصية واحدة.

وأخرج قناع العقرب من جيبه، مع مجموعة من بطاقاته، وناول كل هذا لـ (نديم)، وهو يضيف في حزم:

- (العقرب).

التقط (نديم) القناع، مع مجموعة البطاقات، وغمغم:

- كيف يمكنني أن أشكرك؟

أجابه (مجدي) في حزم:

- اقضِ على ذلك الوغد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

" (أحمد) باشا كان على حق... "

نطقها رجل يجلس في سيارة بعيدة، ويتابع ما يحدث عند سيارة (مجدي)، فأضاف آخر، وهو يسحب مسدسه، ويجذب أجزائه في قوة:

- ذلك اللواء ساعده على الفرار.

غمغم الأول:

- هل نقتنص اللواء أيضا؟!

أجابه الثاني في حزم:

- كلا... الأوامر تقول: المحامي وحده.

رأيا اللواء (مجدي) يتراجع، وسيارته، التي يقودها (نديم) تواصل طريقها، نحو منطقة (حلوان)، فانطلقا خلفها، في نفس اللحظة التي استوقف فيها اللواء (مجدي) سيارة أجرة، وطلب من السائق توصيله إلى طريق (صلاح سالم)، وهو يجري اتصاله بمديرية الامن قائلا، متصنعًا التوتر:

- أين أنتم؟!... لقد تركني بالقرب من المقابر، وفر هاربًا، في اتجاه (مصر القديمة).

وبينما يدلى بمعلوماته المضللة إلى زملائه، كان (نديم) ينحرف بالسيارة، في حركة حادة، نحو منطقة شبه مقفرة، فانحرفت خلفه سيارة مطارديه، وراكبها الأول يهتف:

- لا تدعه يفلت منك.

كان الثاني بضغط دواسة الوقود بكل قوته، عندما لمح سيارة اللواء (مجدي) متوقفة إلى جانب الطريق، فنقل قدمه إلى فرامل السيارة في سرعة، وأصدرت السيارة صريرا مزعجا، وهي تتوقف على نحو مفاجئ، ووثب منها الأول في سرعة، وهو يندفع نحو سيارة (مجدي) هاتفا بزميله:

- أبق المحرك دائرًا.

وبلا تردد، وعلى الرغم من أن المنطقة ليست مقفرة تماما، صوب مسدسه نحو مقعد السائق...

وأطلق النار نحو هدفه...

مباشرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- غادة..

لماذا تحتجزوني بالضبط؟!...

ألقت (غادة) السؤال في عصبية، على الرجلين اللذين يقفان في حجرة المستشفى، التي ترقد فيها؛ لعلاج إصابة رأسها، ولكنها لم تتلق جوابا منهما، وهما يتطلعان إليها في صمت وصرامة...

خبرتها في العمل بالشرطة، أنبأتها بانهما ليسا من رجال الشرطة...

إنهما أقرب إلى اللصوص...

أو البلطجية...

اعتدلت محاولة مغادرة فراشها، وهي تقول، في حدة:

- إن لم أتلق جوابا، فسوف...

اندفع إليها الرجلان، قبل أن تتم عبارتها، واعاداها بالقوة إلى فراشها، فصرخت وهي تقاومهما:

- ليس من حقكما... إنني محامية، واحتجازي يحتاج إلى إذن من نقيب المحامين.

كانت نظرات الرجلين تحمل شراسة وقساوة، مما جعلها تستكين في فراشها، وهي تقول في عصبية:

- إنني أصرّ على حقوقي القانونية.

فتح الباب في هذه اللحظة، وظهر عنده وجه مألوف إعلاميًا، فتراجع الرجلان عنها في سرعة، ووقفا في ركن الحجرة، في حين دلف (أحمد عزيز) إلى حجرتها، وهو يقول في هدوء:

- لماذا كل هذا الصراخ يا آنسة (غادة)؟!... المفترض أن هذه هو الجناح الهادئ من المستشفى.

أدهشها حضوره شخصيًا، ولكنها قالت في صرامة:

- بأي حق تحتجزونني هنا؟

هز رأسه نفيا في ثقة، وهو يجيب:

- بلا أية حقوق... إننا نحتجزك فحسب.

قالت في دهشة:

- هكذا؟!

هز كتفيه، قائلا:

- نعم... هكذا.

ثم مال نحوها، قائلا في صرامة:

- لو أنك تصورت أن لعبة إصابة رأسك هذه ستخدعني، فأنت وعقربك واهمين.

غمغمت في حذر:

- أي عقرب؟

- تجاهل تعليقها تماما، وهو يواصل:

- إنها وسيلة لإخراجك من الصورة، على نحو قانوني؛ حتى تصبحين سلاح العقرب الحرّ.

قالت في حذر أكثر:

- إنك تكثر من الحديث عن العقارب، على نحو غير مفهوم..

اعتدل مبتسما في سخرية، وهو يقول:

- محاولتك هذه لن تجدي نفعا، فأنا على معرفة تامة بما فعله (نديم) هذا، منذ سنوات، ولدىّ ملف كامل عنه، لا يتوافر حتى لوزارة الداخلية نفسها.

هزت راسها، قائلة:

- أيا كانت أوهامك، فليس من حقك احتجازي هنا.

مط شفتيه، وقال، وهو يشير من خلف ظهره:

- أنت على حق... صحيح أن المستشفى مملوك لي، ولكنه مكان عام، لا يصح احتجازك فيه: منعا للقيل والقال.

مع إشارته، اقترب أحد الرجلين منها، وهو يحمل محقنا، في حين اندفع الثاني نحوها، وكمم فمها بأحد يديه، وهو يكبل حركتها باليد الأخرى، وهي تقاوم في شراسة، فتراجع (أحمد عزيز)، قائلا:

- بحركة واحدة، سأجرد العقرب من سلاحه الخارجي، وأضمن وسيلة مناسبة للإيقاع به، في الوقت ذاته.

غرس الرجل الأول المحقن في عروقها، و (أحمد عزيز) يبتسم، مكملا:

- وربما لا تكون هناك حاجة لكل هذا في النهاية؛ فعقربك الآن يلقى مصرعه على الأرجح..

كان هذا أخر ما سمعته (غادة)، قبل أن تسقط في هوة عميقة...

عميقة..

بلا قرار...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن المنطقة التي أوقف فيها (نديم) سيارة اللواء (مجدي) مقفرة تماما، وعلى الرغم من هذا، فلم يتردد أحد الرجلين، ان السيارة الأخرى، في إطلاق النار عليها...

وعلى موضع السائق مباشرة...

كان يعدو نحو السيارة، عندما وثب (نديم) من خلفها فجأة، وهو يرتدي قناع (العقرب) وانقض على الرجل في رشاقة مذهلة، أخذت الرجل على حين غره، فسقط أرضا، وانطلقت من مسدسه رصاصة أخرى في الهواء قبل أن يهوي (نديم) على فكه بلكمة كالقنبلة، أفقدته وعيه على الفور...

وكرد فعل غريزي، وثب الآخر من السيارة، وهو ينتزع مسدسه، صارخا:

- أيها الـ...

قبل أن يتم عبارته، اختطف (نديم) مسدس الأول، وأطلق منه رصاصة، أصابت مسدس الثاني مباشرة، وأطاحت به بعيدا....

تراجع الرجل بضع خطوات، ثم رأى فوهة المسدس في يد (نديم) مصوبة إليه، فاستدار عائدًا إلى السيارة...

ولكن (نديم) بدا كالفهد، وهو يثب في الهواء، وينقض عليه من الخلف، ثم يجذبه من عنقه، ليسقطه أرضا...

وعندما قاوم الرجل، واستدار بمسدسه، كان (نديم) يضم قبضتيه ويهوى بهما على أنفه مباشرة...

وانطلقت رصاصة من مسدس الرجل، ضاعت في الهواء، قبل أن يتلقى ضربة أخرى، من قبضتي (نديم) المضمومتين، فيهوى

فاقد الوعي بدوره...

وعندما نهض (نديم)، ورفع رأسه، رأي العيون تحدق فيه، من نوافذ البنايات القليلة في المكان، وقد بدا فيها الرعب، ممتزجا بالدهشة، من رؤية شخص مقنع، أشبه ما يكون بأفلام السينما...

ولم يتوقف (نديم) طويلا أمام هذا، وإنما وثب إلى سيارة الرجلين، وانطلق بها مبتعدًا، تاركا الرجلين خلفه فاقدي الوعي، وسيارة اللواء (مجدي)، المصابة برصاصاتهم مستقرة في مكانها، وما أن ابتعد قليلا، حتى خلع قناع (العقرب)، ودسه في جيبه، وهو يتساءل في اعماقه..

أين يمكن أن يذهب، في مثل هذه الظروف؟

أين؟!...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استعادت (غادة) وعيها في صعوبة، مع ذلك الثقل الشديد، الذي تشعر به في رأسها فأغلقت عينيها وفتحتهما عدة مرات، قبل أن تتبين طبيعة المكان، الذي توجد فيه..

كان حجرة جيدة التأسيس، أشبه بحجرة فندق فاخر، ملحق بها حمام أنيق للغاية، مجهَّز بكل ما يلزم، وبها دولاب ملابس، يضم ثيابا تناسب قياسها إلى حد مدهش...

ولكنها كانت حجرة مغلقة تماما.

صحيح أنه بها مصدرا للتهوية الصناعية، يجعل جوها منعشًا، ولكنها بلا أية نوافذ على الأطلاق....

فقط باب من الفولاذ، يشبه أبواب السجون، به فتحة صغيرة علوية ذات قضبان فولاذية ومغلقة من الخارج بشباك معدني صغير وفتحة أخرى في أسفل الباب من الواضح أنها لإدخال الطعام...

باختصار، كانت زنزانة خمسة نجوم...

ولكنها، وفي كل الأحوال.... زنزانة...

وفي غضب، هتفت (غادة):

- أين أنا بالضبط؟

لثوان، لم يأتها جواب لسؤالها، ثم فجأة، أضيئت شاشة التلفاز، المعلق على الجدار، وظهرت عليها صورة (أحمد عزيز)، وهو يقول:

- اطمئني يا أنسة (غادة)... انت ضيفتي.

قالت في حدة:

- في زنزانة!!

ابتسم، وهو يقول:

- تسمونه في الشرطة (إجراء احترازي) ... هذا لو أنك ما زلت تذكرين أيام عملك في حماية القانون.

قالت في تحدٍ:

- أمثالك لا يعترفون بالقانون.

لم يبد عليه الغضب، من قولها أو أسلوبها، وهو يقول:

- أمثالي هم من يضعون القوانين، لا من يتبعونها... وهذا هو الفارق بيني وبين عقربك... كلانا يرى القانون عائقا، ولكن الصراع بيننا هذه المرة غير متكافئ.. فأنا أضع القوانين، وهو الآن خارج عن القانون...

قالت في توتر:

- حديثك المستمر عن العقارب يـ...

قاطعها في شراسة مفاجئة:

- من السخافة الاستمرار في هذه اللعبة يا امرأة.. عقربك انكشف أمره، ولم تعد اللعبة حتى ممتعة..

صمتت (غادة) بضع لحظات، قبل أن تقول:

- إذن فلديك ملف كامل عن (العقرب).

أجابها في زهو:

- ملف لا تملكه الداخلية نفسها.

حمل صوتها رنة التحدي، وهي تقول:

- إذن فأنت تعلم أنه قد قهر عمالقة وأباطرة من قبلك، وأنه إذا ما بدأ الصراع بينكما فأنت الخاسر في النهاية.

صمت (أحمد عزيز) بضع لحظات، وهو يتطلع إليها على الشاشة، ثم انفجر فجأة في ضحكة عالية واثقة ساخرة...

واستمر يضحك، والشاشة تخفت..

وتخفت...

وتخفت...

ومع غياب صورته، وجدت (غادة) نفسها تتساءل: ترى هل يمكن أن ينتصر (العقرب) هذه المرة؟ ...

هل؟!...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"(نديم)؟"

هتف اللواء (حلمي) بالعبارة، بكل دهشة الدنيا، عندما وجد (نديم) أمامه، داخل حجرة مكتبه، في منزله الجديد، في مدينة (الشروق)..

وبكل انفعاله سأله:

- كيف وصلت إلى هنا؟!...

لم يحاول (نديم) إجابة سؤاله، وهو يغمغم:

- لقد بحثت عنك طويلا، يا سيادة اللواء.

أسرع إليه اللواء (حلمي)، وهو يقول:

- لواء سابق يا ولدي... لم يكن من الممكن أن أستمر في العمل، في وجود كل هذا الفساد.

رفع إليه (نديم) عينيه، في صمت وإرهاق، فتابع في حنان:

- ولكنني ما زلت أعرف كل ما يدور هنالك.

كان من الواضح أن (نديم) شديد الإرهاق، وهو يسأل:

- هل تعلم أين (غادة)؟!

ربَّت عليه اللواء (حلمي)، في حنان أبوي، وهو يقول:

- إنني أعلم الكثير من الأمور يا ولدي، ولكنك تحتاج إلى بعض النوم والراحة أولا.

غمغم (نديم):

- لهذا أتيت إليك.

قال اللواء (حلمي):

- توقعت شيئا كهذا... وما دمت توقعته، فهم أيضا سيتوقعونه، ولهذا فوجودك هنا ليس أمنا..

لم يعلق (نديم) على عبارته، وهو يحاول فتح عينيه في صعوبة، فاتجه اللواء (حلمي) نحو مكتب صغير، وأخرج منه سلسلة مفاتيح، وهو يقول:

- من حسن حظك أن ابنتي وزوجها لن يعودا قبل أسبوع أو أسبوعين، ولقد أعطياني مفتاح فيلتهما الصغيرة، وهي مجهزة بكل ما يلزم، ولا أحد يعلم عنها شيئا...

سأنقلك إلى هناك؛ لتحظى ببعض النوم والراحة، وبوجبة ساخنة تسترد معها عافيتك، وبعدها..

قاطعه (نديم)، في إرهاق وتوتر:

- ماذا فعلوا بـ (غادة)؟!

صمت اللواء (حلمي) لحظات، ثم قال:

- (مجدي) أخبرني أنه تم نقلها إلى مستشفى خاص لعلاج إصابة رأسها، إلا أنها..

قاطعه (نديم) مرة أخرى في توتر:

- اختفت؟

ثم نهض من مقعده، مستطردا في غضب:

- بل اختطفوها على الأرجح.... كنت أعلم أن رجلا مثل (أحمد عزيز)، لن يتورع عن هذا..

حاول اللواء (حلمي) تهدئته، وهو يقول:

- ليس هناك دليل واحد على هذا... ربما غادرت بإرادتها، أو...

قاطعه (نديم) بإشارة من بده، وهو يقول:

- ليس بإرادتها... لدينا إشارة متفق عليها بيننا... رسالة نصّية قصيرة، عبر الهاتف المحمول، تخبرني فيها أنها حرة، وهي لم ترسلها حتى الآن.

تردد اللواء (حلمي)، وهو يقول:

- ربما فقدت هاتفها.

هز (نديم) رأسه نفيًا، وقال:

- يمكنها إرسالها من أي هاتف.

امتقع وجه اللواء (حلمي)، وهو يغمغم:

- إذن فهي في خطر حقيقي.

أشار (نديم) بيده، ا قائلا:

- لقد احتجزها (احمد عزيز) حتما؛ ليجبرني على الظهور، وخاصة بعد أن حطمت أنف رجليه، اللذين أرسلهما لقتلى.

انعقد حاجبا اللواء (حلمي)، وهو يقول:

- (أحمد عزيز) لا يشبه من واجهتهم من قبل يا (نديم)... حتى (العقرب)، لن يجد سبيلا للوصول إليه.

صمت (نديم) لحظات، ثم قال في حزم:

- لا يوجد شخص منيع إلى هذا الحد.

رفع اللواء (حلمي) سبابته، وهو يقول محذرًا:

- (أحمد عزيز) هو عمليًا، الرجل الثاني في الدولة، ويستطيع تجنيد كل إمكانيات الدولة ضدك، باعتبارك خارج عن القانون.

قال نديم) في تفكير عميق:

- ربما هنا تكمن نقطة ضعفه..

بدا التساؤل في عيني اللواء (حلمي)، ولكن (نديم) تابع في اهتمام:

- هل يمكنك أن ترشدني إلى كل المعلومات عن (أحمد عزيز)، وشركاته وممتلكاته.

مال اللواء (حلمي) نحوه، قائلا:

- بالطبع يمكنني هذا، ولكن (أحمد عزيز) ليس مجرد شركات وممتلكات... إنه قوة سياسية لا يستهان بها.

أشار (نديم) بيده، قائلا:

- قديمًا، قالت والدتي، رحمها الله، أنه كلما علا شأن شخص ما، كان سقوطه مدويًا..

قال اللواء (حلمي):

- المهم أن تجد السبيل لسقوطه..

لم يكد يتم عبارته، حتى ارتفعت أصوات أبواق سيارات شرطة، تحيط بالمنطقة، وانعكس ذلك الضوء الأزرق والأبيض على النوافذ، وارتفع في الوقت ذاته صوت طرقات قوية، على باب المنزل..

وفي توتر بالغ، غمغم اللواء (حلمي):

- لقد أتوا..

ولم يحر (نديم) جوابا...

أي جواب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- حصار..

رفع (أحمد عزيز) عينة في لا مبالاة ليلقي نظرة على وزير الداخلية الذي يلقبونه بأنه أقوى رجل في (مصر)، وهو يدلف إلى مكتبه في مقر الحزب، وضغط زر، في لوحة أزرار جهاز الكمبيوتر أمامه، وهو يشيح بنظره عن الوزير، قائلا في لهجة جافة:

- أهلا... ليس من المعتاد أن نراك هنا.

بدا وزير الداخلية شديد التوتر، وهو يقول:

- يتردد أنك تحتجز زميلة ذلك المحامي.

بدا (احمد عزيز) أكثر برودة ولا مبالاة، وهو يقول:

- أي محام؟

ارتسم الغضب، على وجه وزير الداخلية وهو يقول في توتر:

- لاحظ أنك تتحدث مع وزير الداخلية.

ضاقت عينا (احمد عزيز)، وهو يقول في صرامة، أقل ما توصف به، هو أنها شرسة:

- يبدو أنك أنت لم تلاحظ، أنك تتحدث إلى الرجل، الذي يمكنه إقالة وزير الداخلية بمحادثة هاتفية واحدة.

تراجع وزير الداخلية في سرعة، وهو يقول، على نحو أكثر توترا:

- هذه المرة تختلف... قديما كان رجالك يحرصون على الا يتركوا خلفهم ما يرشد إليهم... أو إليك. أما هذه المرة، فهم يتجاوزون كل عرف وقانون.

سأله في شراسة:

- أي قانون؟!

تراجع وزير الداخلية، وهو يغمغم في دهشة:

- قانون الدولة.

ضرب (احمد عزيز) سطح مكتبه بكل قوته، وهو يصرخ:

- أنا هنا القانون.

تراجع الوزير في دهشة أكبر، وخاصة عندما اندفع الحرس الخاص لـ (أحمد عزيز)، إلى مكتب هذا الأخير، إثر صراخه، فأشار إليهم بالانصراف، وهو يكمل:

- القانون يسنه مجلس الشعب... وأنا أختار مجلس الشعب... إذن فانا القانون...

هل تستوعب هذا؟!

تمتم وزير الخارجية في عصبية:

- البلد يغلي، والبعض يقول: إنه على وشك الثورة.

هتف (أحمد عزيز) في استهزاء:

- ثورة؟!

ثم مال على سطح مكتبه، وهو يضيف في حزم واثق:

- لقد خبرنا هذا الشعب طويلا، وتوصلنا إلى القاعدة الذهبية..

بدا الترقب على وجه وزير الداخلية، في انتظار سماع تلك القاعدة الذهبية، فصمت (أحمد عزيز) لحظات ربما ليمنح التأثير المطلوب، قبل أن يكمل بمنتهى الحزم:

- الشعب المصري لا يثور..

قالها، ثم أعتدل، وبدا وكأنه قد محا في لحظة كل انفعالاته السابقة مع قوله في صرامة:

- تجاهل أمر تلك المحامية الشابة، وأطلق رجالك كلهم؛ لاقتناص ذلك الأحمق ذي القناع.

وانعقد حاجباه في شدة، وهو يضيف:

- اثبت له أننا لسنا في فيلم من أفلام (ديزني).

وفي هذه المرة لم ينطق وزير الداخلية بحرف واحد، مع ذلك الشعور العجيب، الذي ملأ نفسه..

شعور أقوى رجل في مصر بالضعف..

كل الضعف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ماذا هنالك يا ولدي؟

تثاءب اللواء (حلمي)، وهو يلقى السؤال على ضابط الشرطة، الذي طرق بابه، في هذه الساعة المتأخرة، فارتبك الضابط، وهو يقول:

- معذرة يا سيادة اللواء..

ابتسم اللواء (حلمي)، مغمغما:

- سابقا يا ولدي... سابقا.

أومأ الضابط برأسه في احترام، قائلا:

- ما زلت أستاذنا الذي ندين له بالفضل، بعد الله (سبحانه وتعالى)، يا سيادة اللواء. ولكننا كنا نبحث عن (نديم فوزي)، ويقول الخبراء إنه من المحتمل أن يلجأ إليك.

رسم اللواء (حلمي) الدهشة على ملامحه، وهو يقول:

- (نديم فوزي)؟!... زميلكم السابق؟!... لماذا؟ ... ماذا فعل (نديم)

مال الضابط برأسه، ليلقي نظرة على المنزل، من خلف كتف اللواء (حلمي)، وهو يجيب:

- لست أدري ما تهمته بالضبط يا سيدي، ولكن صدر أمر باعتقاله، وسيادة وزير الداخلية شخصية مهتم بالعثور عليه.

رفع اللواء (حلمي) حاجبية، في دهشة مصطنعة وهو يقول:

- الوزير شخصيا؟!

ثم أفسح الطريق، قائلا:

- وتتصورون أنه ربما لجأ إلىّ... فليكن. قم بواجبك يا ولدي، ومر جنودك بتفتيش المنزل.

تردد الضابط في ارتباك وهو يغمغم:

- تكفيني كلمتك يا سيادة اللواء.

بدا اللواء (حلمي) صارمة، وهو يقول:

- قم بواجبك يا ولدي.

تردد الضابط لحظات أخرى، ثم التفت إلى جنوده، قائلا:

- أريد تفتيش المكان في سرعة ودقة، وإياكم أن تمسّوا شيئا.

اندفع الرجال داخل المنزل، ووقف اللواء (حلمي)، مرتكنا إلى مكتبة كبيرة، يتابع عملهم في هدوء، حتى عادوا يتجمعون أمام الباب وأحدهم يؤدي التحية للضابط قائلا:

- ليس هنا يا سيدي.

غمغم الضابط:

- كما توقعت.

والتفت يؤدي التحية بدوره للواء (حلمي)، قائلا:

- معذرة يا سيادة اللواء... لم أرد هذا حقا... كانت ستكفيني كلمتك.

غمغم اللواء (حلمي):

- لقد قمت بواجبك.

وما ان انصرف الضابط والجنود، وأغلق الباب خلفهم، حتى تمتم:

- كان من المستحيل أن أعطيك كلمتي، وأنا أعلم أنه هنا.

ثم التفت إلى المكتبة، التي يرتكن إليها، مكملا بابتسامة:

- أليس كذلك يا (نديم)؟!

لم يتلق جوابا، فانعقد حاجباه في شدة، والتفت نحو المكتبة، مكررا في قلق:

- (نديم).

أزاح ضلفة ذات نقوش أنيقة، في الجزء السفلي من المكتبة، حيث اختبا (نديم)، و.

وتراجع في حركة حادة...

فعلى الرغم من أنه قد أغلق الضلفة عليه بنفسه، قبل أن يفتح الباب للشرطة، لم يكن هناك أثر در نديم) خلفها بعد انصرافهم...

أي أثر...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طرقت (غادة) باب تلك الزنزانة في حدة، وهي تهتف:

- أريد مقابلة (أحمد عزيز) ... فورا.

أزاح أحدهم من الخارج، تلك النافذة المعدنية في أعلى الباب، وأطل من خلف قضبانها بوجهه القبيح، وهو يقول في خشونة:

- ماذا تريدين؟

أجابت في حدة:

- لقد سمعتني... أريد مقابلة (أحمد عزيز).

زمجر، قائلا:

- لا أحد يطلب مقابلة الباشا... الباشا وحده يقرر متى وأين وكيف يقابل من يشاء..

مالت نحو النافذة، قائلة في تحدٍّ:

- وهل سيقابل الله (عز وجل) وقتما يشاء ايضا؟

بدت ملامح الرجل أشبه بوحش كاسر، وهو يقول:

- تحتاجين إلى درس في الأدب.

تراجعت عن الباب، واتخذت وقفة صارمة، وهي تقول متحدية:

- لماذا لا تأتي إذن، وتلقنني إياه؟

قال في شراسة:

- ربما أفعل.

ثم تراجع في سرعة، مستدركا:

- بعد استئذان الباشا.

شعرت بخيبة أمل لإجابته..

لقد كانت تتوقع أن تستفزه بقولها، وتدفعه لفتح الباب؛ حتى تنقض عليه، وتستعيد معه بعض دروس الرياضات القتالية، التي برعت فيها، إبان عملها بالشرطة.

وكمحاولة أخيرة لبلوغ هذا، قالت متحدية:

- أتخشى مواجهة امرأة؟!

زمجر مرة أخرى، وأجاب في عصبية خشنة:

- بل أخشى مواجهة الباشا، لو علم.

مع أخر حروف كلماته، انبعث صوت من جهاز اللاسلكي الكبير الذي يحمله، يقول صاحبه في توتر:

- هنالك دلائل على وجود دخيل.

وارتجف جسد (غادة)، عندما سمعت العبارة.... دخيل؟!.... أيمكن أن يعني هذا أن (نديم) قد اهتدى إلى مكانها؟!

أمن الممكن أن يكون هو؟!...

سمعت ذلك الغليظ يبتعد عن الباب، ناسيًا أن يغلق نافذته المعدنية، وهو يقول، عبر جهاز اللاسلكي:

- قم بكل الإجراءات المطلوبة... أطلق الكلاب في الحديقة، وأوصل التيار الكهربي للأسوار، ومُر الرجال كلهم باتخاذ مواقعهم... أنت تعرف الأوامر جيدا... إطلاق النار دون إنذار، على أي دخيل... هل تسمعني جيدًا... دون إنذار.

وارتجف قلب (غادة) هذه المرة...

إنه حصار كامل، يستحيل أن ينجو منه أي دخيل..

لحظتها، وعلى الرغم من لهفتها، فقد تمنت ألا يكون ذلك الدخيل هو (نديم)...

تمنت هذا، من كل قلبها..

أو من كل خلية فيه..

بلا استثناء...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان من الواضح جدا، مما حدث في تلك الفيلا، التي يحتفظ فيها (أحمد عزيز) بـ (غادة)، أنه بماله من سلطة ونفوذ، وبما يملكه من ثروات طائلة، قد انتقى أفضل عناصر الأمن السابقين، ممن يملكون خبرة كبيرة، وقدرا هائلا من الحنكة، مع قدر ضئيل من المبادئ، وزودهم بأحدث ما يمكن أن يشتريه المال من تكنولوجيا؛ لحماية هذه الفيلات بالذات . . .

الفيلا الوحيدة، التي لم يسجلها رسميا باسمه، والتي يحتفظ فيها بكل وثائقه الخاصة، وكل مستنداته ذات الأهمية البالغة.

لم يكن أحدًا، حتى ممن يحرسون الفيلا، يدرك ما تحويه، ولا أين يخفيه (أحمد عزيز) بالضبط..

بل لم يكن شخص واحد، في الوجود كله، يمكن أن يدركه او يعرف..

فهذه قاعدة (أحمد عزيز) الذهبية...

"لا تثق في مخلوق حي فاذا ما تجاوز السر لسانك لا يعود سرا..."

ولكن طاقم الأمن لم يكن يفكر حتى فيما تحويه الفيلا..

إنهم يتلقون مرتبات باهظة، لم يحلموا بها يوما، ليس ليعلموا ماذا هنالك، ولكن ليحموا فقط كل ما هنالك...

ولقد كانت لديهم إمكانيات، لم يحصلوا على مثلها، حتى عندما كانوا يعملون في أجهزة أمنهم، التي يفترض أنها الأكثر تطورا.

وعندما تم الإبلاغ عن احتمال وجود دخيل، تم تفعيل كل الوسائل دفعة واحدة...

كهربة الأسوار...

تشغيل أجهزة الرؤية الليلية، والرصد الحراري..

تشغيل مجسات الحركة.....

إطلاق كلاب الحراسة الشرسة، المدربة على كشف الدخلاء ومهاجمتهم..

توزيع القناصة على أسقف الفيلا ونوافذها...

إغلاق القبو، الذي تم حجز (غادة) فيه، بحاجز فولاذي مزدوج..

كان حصارًا أمنيا كاملا..

بكل معنى الكلمة...

أما الرجال أنفسهم، فقد تحفزت كل خلية في أجسادهم..

وتحفزت سباباتهم، على أزندة مسدساتهم...

وراحت الدقائق تمضي، والكل متحفز..

دقائق توالت، وكأنها ساعات، وساعات مرت وكأنها أيام وشهور، حتى قال قائد الحراسة في حدة..

- من أعطى الإنذار وجود دخيل؟

اجابه أحد الرجال في توتر:

- جهاز كشف الحركة أشار إلى...

قاطعه قائد الحراسة في غضب:

- جهاز كشف الحركة؟ ... الجهاز الذي يمكن القط يعدو، أن يقوم بتشغيله؟!... ألم يكن لديك أي تأكيد بصري يا رجل؟!

هز الرجل رأسه نفيًا في قلق، فصاح به:

- أتعني أننا هنا منذ ساعتين؛ لخطأ في جهاز كشف الحركة فحسب؟

أشار الرجل بسبابته، قائلا في توتر؛

- الأوامر أن نتحرك بمجرد الشك.. و.

استوقفته نظرة صارمة من قائد الحراسة فبتر عبارته، وخفض عينيه، وهو يغمغم:

- في المرة القادمة سأنتظر تأكيدا بصريا.

رمقه قائد الحراسة بنظرة قاسية متوعدة، ثم أشار إلى رجل آخر، قائلا في عصبية:

- سنلغي حالة التأهب، فقد أوشك الفجر أن ينبلج... ربما نحظى بقليل من النوم قبل أن يمضي الليل.

فتثاءب الرجل الآخر في إرهاق، وقال:

- كما تأمر أيها القائد.

مط قائد الحراسة شفتيه في ضيق، والتقط هاتفه المحمول، ليرسل عبره رسالة قصيرة، لم تكد تصل إلى مستقبلها، حتى ارتفع رنين هاتف قائد الحرس، الذي ضغط زر الاستماع في سرعة، وهو يقول:

- إنذار خاطئ يا باشا... مجرد خلل في جهاز كشف الحركة.

قال (أحمد عزيز)، عبر الهاتف في صرامة:

لا يمكنني أن أقتنع بتفسير كهذا... انا رجل اعتاد الشك في كل شيء، وعدم ترك لمحة واحدة للاحتمال...

شد قائد الحراسة جسده في توتر، قائلا:

- وبم تأمر يا باشا؟

أجابه بلهجة آمرة صارمة:

- ابقِ على التيار الكهربي في أسوار الفيلا، وأرسل فريقين من الرجال، فريق لحراسة بوابة الفيلا، والآخر لتفتيش كل ركن من

حديقتها، وكل حجرة من حجراتها..

أجابه بلهجة عسكرية:

- عُلِم ويُنفذ.

قال (أحمد عزيز) بنفس اللهجة:

- قبل أول ضوء للشروق، أريد تقريرا مفصلا بالموقف.

قال قائد الحراسة:

- ربما قبل هذا أيضا يا باشا.

تابع (أحمد عزيز)، وكأنه لم يسمعه:

- وبعدها أريد طاقم حراسة دائم، على مدخل القبو، وكل من يدخله أو يخرج منه يخضع للتفتيش الدقيق، حتى ولو كان أكثر من تثق فيه من رجالك.

تردد قائد الحراسة لحظة، قبل أن يقول في حذر:

- ألن يكون هذا مبالغة بعض الشيء؟؟

صاح به (احمد عزيز) في شراسة:

- نفذ الأوامر بلا مناقشة.

انعقد حاجبا الرجل في ضيق، وهو يقول:

- كما تأمر يا باشا.

أنهى الاتصال، وأضاف في حنق:

- لماذا وظفتنا إذن، ما دمت من سيضع الخطة الأمنية؟

آتاه صوت يقول:

- ربما لأنكم فاشلون.

انتفض جسد الرجل في عنف، خاصة وأن ذلك الموت قد أتاه من أعلى، وسحب مسدسه، في حركة سريعة، وهو يرفع رأسه إلى السقف...

وكان الانقضاض عنيفا للغاية، ولكن أخر بما رآه قائد الحراسة، كان قناعا...

قناع العقرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- الثعلب..

ارتفع حاجبا (فؤاد ثعلب)، المحامي الشهير، في دهشة بالغة، عندما فوجئ باللواء (مجدي) أمامه، في تلك الساعة، التي أوشك فيها الفجر على الانبلاج، فحدَّق فيه غير مصدق، في حين بدا اللواء (مجدي) شديد الهدوء، وهو يقول:

- كنت أعلم أنك تواصل عملك دوما، حتى مطلع الفجر.

ازدرد (فؤاد) لعابه، قبل أن يقول، في شيء من الصرامة:

- ولكن هذا لا يعطيك الحق، في أن...

قاطعه (مجدي)، في صرامة مفاجئة:

- أين (غادة)؟!

حق فيه (فؤاد)، في دهشة أكبر، وهو يغمغم:

- (غادة) من؟!

دفعه (مجدي) داخل مكتبه، وأغلق الباب خلفه، وهو يقول:

- من سوء حظك أنك تصرف العاملين في مكتبه عندما تعمل فيه، في قلب الليل، وكأنك لا تريد أن يشاركك أحد ظلماتك.

هتف (فؤاد)، في حدة عصبية:

- ألا تعرف من أنا أيها اللواء؟!

امتزجت صرامة (مجدي) بشيء من السخرية، وهو يجيب:

- دعني أسترجع ما أذكره من ملفك... نعم.... أنت (فؤاد ثعلب)، أقذر محامٍ في مصر كلها، والذي لا يقل المبلغ الذي يتقاضاه، عند دفاعه عن أحد الفاسدين، عن ستة أصفار..

قالها، وهو يدفع (فؤاد) أمامه، فصاح هذا الأخير، في عصبية أكثر، حاول أن يخفي بها خوفه:

- عملائي كلهم من علية القوم، وبعضهم يضع رجال أمنه لحراسة مكتبي، وصرخة واحدة أطلقها، ستجلب جيشا من الحرس الخاص إلى هنا، و.

قاطعه (مجدي) مرة أخرى، وهو ينتزع مسدسه، ويجذب مشطه في حزم:

- كم أتوق إلى هذا... إلا أنني أتساءل: أي صوت سيكون أعلى؟ صرختك، أم دوي

رصاصة مسدسي؟!...

وألصق فوهة المسدس بجبهة (فؤاد)، مضيفا بكل الصرامة:

- وأيهما سيسيق الآخر؟

ارتجف جسد (فؤاد ثعلب)، مع ملمس الفوهة الباردة، ويدا صوته ترتجفا، وهو يقول:

- هل تدري ما تفعله أيها اللواء؟

هز (مجدي) كتفيه، قائلا:

- المشكلة أنني لا أدريه فحسب، ولكنني استمتع به أيضا، على نحو فاق كل ما شعرت به في حياتي كلها.. الآن فقط أدركت سر ما كان يفعله (العقرب)، طوال كل تلك السنوات.

ارتجف (فؤاد)، على الرغم من محاولته التماسك وهو يقول:

- إنني المحامي الخاص بأقوى رجل في (مصر).. (أحمد عزيز) ... هل تعلم ما الذي يمكن أن يفعله لو علم بموقفك هذا..

هز (مجدي) كتفيه مرة أخرى، مجيبًا:

- الوزير أخبرني صراحة اليوم، أنه لا ينوى مد فترة خدمتي، في حركة الضباط القادمة، وهذا أراحني بأكثر مما أزعجني في الواقع؛ فلقد أنبأني بأنه لم يعد لديّ ما أخسره.

غمغم (فؤاد) مرتجفًا:

- مع (أحمد عزيز)، ستخسر كل شيء.

بدت ابتسامة عجيبة، على وجه (مجدي)، وهو يقول:

- من الواضح أنك لم تفهمني.

ثم مال نحوه بشدة، وألصق فوهة مسلمه أكثر بجبهته، مستطردا في صرامة قاسية:

- كل هذا لم يعد يعنيني.

اتسعت عينا (فؤاد) عن آخرهما، وعجز لسانه عن النطق، في حين بدا صوت (مجدي) مخيفا، وهو يقول:

- والآن، فلنعد إلى السؤال الأول.. اين يحتفظ سيدك الحقير هذا بالمحامية (غادة)؟!

وفي هذه المرة، ارتجف جسد (فؤاد ثعلب) كله..

وبمنتهي القوة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعرت (غادة) يتوتر ما بعده توتر، مع الحركة التي تشعر بها في الخارج، وإدراكها أن الأمر حتما يتعلق بـ (نديم)..

كانت واثقة من أنه سيسعى إلى إنقاذها، مهما كلفة هذا...

وأيا كان الثمن...

وهذا أكثر ما يقلقها...

فالخصم هذه المرة يختلف...

إنه ليس زعيما إجراميا، أو امبراطور عصابات قوي....

إنه (أحمد عزيز) ...

الرجل الثاني في (مصر)...

الرجل الذي يملك كل السلطات...

وكل الإمكانيات.

ومواجهته أشبه بمواجهة دولة...

وهذا يعني أن (نديم)، حتى ولو أرتدي قناع (العقرب)، يخوض أعنف وأشرس مواجهة في حياته كلها...

إنه عقرب واحد... في مواجه دولة...

في نفس اللحظة، التي دارت فيها هذه الأفكار في رأسها، كان (نديم) يجثم فوق صدر قائد الحراسة، في فيلا (أحمد عزيز)، والذي أفقده الوعي، وهو يكتم أنفاسه نسبيًا؛ حتى يطمئن إلى أن أحدا لم ينتبه إلى الأمر..

كان قد بنى خطته على أنه ما من نظام أمني منيع بنسبة مائة في المائة، وأنه وعلى الرغم من أن (أحمد عزيز) قد أحاط فيلته، ومعظم عقاراته، بكل وسائل الحماية الاليكترونية، ويعدد كبير من حراس الأمن، إلا أن غروره سيجعل اعتماده الرئيسي على

قوته، وخوف الناس منه، بأكثر مما سيعتمد على وسائل الأمن...

حتى رجال أمنه أنفسهم، سيتغلغل في أعماقهم الشعور نفسه...

أنه لا أحد سيجرؤ على اقتحام فيلا مملوكة لثاني رجل في (مصر)...

ولهذا فقد تعاملوا من هذا المنطلق...

حتى عندما طالبهم (أحمد عزيز) نفسه، بالمزيد من الانتباه، لم يستطيعوا التخلي عن غطرسة الإحساس بالقوة...

كانوا يتصورون دوما أنهم الأعلى، وأن الشعب كله أسفلهم...

ولهذا كانوا ينظرون دوما إلى الأسفل...

إلى أسوار الفيلا..

وليس إلى سطحها....

ومن هنا، وجد سبيله إليهم...

بتر أفكاره صوت شخص يتحرك نحوه، فاعتدل في سرعة، وجذب جسد قائد الحراسة إلى جانب الحائط، ثم التصق بالجدار يرصد وقع الأقدام الذي يقترب...

ويقترب . . .

فجأة، برز ذلك الرجل أمامه...

عملاق ضخم الجثة، أشعث الشعر، غليظ الملامح، مفتول العضلات...

كان يفوقه حجما بمرتين على الأقل...

وكان يحمل مدفعا آليا قصيرا...

ولم يكن هو يحمل سلاح...

أي سلاح...

إلا أنه وعلى الرغم من هذا، كان يمتلك مزية رائعة...

المفاجأة...

لقد بوغت العملاق برؤيته، فتراجع خطوة ذاهلة إلى الوراء، مع مرآي القناع الأسود. و.

ودون إضاعة ثانية واحدة، بادره (نديم) بلكمة كالقنبلة، في أنفه مباشرة، ثم وثب يلاحق تراجعه، بلكمة أشد قوة في أسنانه، وركلة أطاحت بمدفعه الى القصير..

وعلى الرغم من عنف اللكمتين، أطلق العملاق خوارا كالثور، وتجاهل الدماء التي تنزف في غزارة، من أنفه وفمه، وانقض على (نديم)...

كان أكثر قوة...

ولكن (نديم) أكثر رشاقة..

لذا فقد تفانى الانقضاضة بوثبة جانبية مرنة، ولكم العملاق في معدته، بكل ما يملك من قوة ويأس..

ومرة أخرى، انطلق ذلك الخوار، قبل أن يقبض العملاق على وسطه بقبضتيه ويرفعه عن الأرض في قوة، وكأنه يحمل طفلا صغير.

ثم ألقاه نحو الجدار...

وبكل قوته...

وكان الارتطام بالجدار مؤلما بحق، شعر معه (نديم) وكأن كل عظمة في جسده قد صرخت من فرط الألم...

ورأى العملاق ينقض عليه في غضب، فدفع نفسه جانبا، ودار حول جسده في سرعة..

ولكن العملاق أمسك ساقه، وجذبه إليه في قوة، وضربه مرة أخرى بالجدار...

في هذه المرة، شعر (نديم) أنه يوشك على فقدان الوعي، وأدرك أن العملاق سينقض عليه مرة ثالثة...

وفي هذه المرة، لن يتوانى عن قتله..

وبلا رحمة...

ومن طرف عينيه، لمح ذلك المدفع الآلي القصير، على قيد مترين منه، فاستنفر كل قواه، ودفع جسده نحوه...

وفي هذه المرة، أمسك العملاق عنقه من الخلف يكفيه، وهو يقول في غضب:

- اراهنك أن أحدا لن يشعر بـ...

قبل أن يتم عبارته، دارت يد (قديم)، لتضربه بالمدفع القصير في وجهه مباشرة...

وعلى الرغم من قوة العملاق وبأسه، كانت الضربة من العنف، حتى أنها أرخت قبضتيه عن عنق (نديم)...

وكان هذا يكفي...

لقد انزلق (نديم)، مفلتًا عنقه من قبضتيه، ثم هوى على رأسه بذلك المدفع مرة ثانية..

وثالثة..

ورابعة...

ومع الدماء التي تفجَّرت من رأس العملاق، وامتزجت بدماء أنفه المكسور، وأسنانه المحطمة، جحظت عينا الرجل، ودارتا في محجريهما...

ثم هوى...

ودون أن ينتظر لحظة واحدة تحرك (نديم) في سرعة، حاملا ذلك المنافع الآلي القصير، باحثا عن المكان، الذي يمكن أن يحتفظوا فيه بزميلته (غادة)...

لم يكن الأمر سهلا، في فيلا كبيرة، احتشدت برجال الأمن...

ولكن لم يكن هناك مجال للتراجع..

أي مجال...

في نفس اللحظة، كانت (غادة) تتحرك في عصبية، في محبسها الفاخر...

شيء ما أنبأها بأن (نديم) هنا...

على مقربة منها....

ولم تدرِ حتى لماذا راودها هذا الشعور...

ولكنها... ولسبب ما، كانت واثقة من شعورها بشدة...

ودون مقدمات أضيئت فجأة تلك الشاشة الكبيرة وظهر عليها وجه (أحمد عزيز) يبتسم في زهو وثقة. قائلا:

- أظن أن فترة احتجازك هنا قد شارفت نهايتها ايها الحسناء.

التفتت الى الشاشة في حركة حادة قائلة في عصبية:

- وما الذي يفترض أن يعنيه هنا؟

لوح بيده، في حركة مسرحية مزهوة، وهو يجيب:

- كنا نحتجزك، حتى نجبر عقربك على الظهور فحسب.

قالت في عصبية، وذلك القلق يتصاعد في أعماقها:

- لست أظنه من الحماقة، بحيث يلقى بنفسه بين أيديكم.

أطلق (أحمد عزيز) ضحكة ساخرة طويلة، قبل أن يقول:

- من الواضح أنك لا تعرفين عقربك جيدًا..

ثم مال نحو الشاشة، مستطردا في سخرية:

- كنت أظنكما حبيبين، وليس مجرد زميلين.

ازدردت لعابها في صعوبة، دون أن تقول شيئا، فاعتدل هو، وقال في صرامة:

- من سوء حظك وحظه، إنني رجل شديد الشك، ولا أمنح ثقتي لأي مخلوق حي، ولهذا، وعلى الرغم من كل رجال حراسة الفيلا، فقد زرعت في كل ركن فيها كاميرات خفية دقيقة، لا يدركون هم أنفسهم وجودها..

ومال بحركة واحدة نحو الشاشة، لتمتزج صرامته بسخريته، وهو يضيف:

- ولهذا حصلت على تسجيل ممتع..

اختفت صورته من الشاشة دفعه واحدة وحملت فيلما، تم تصويره من مكان مرتفع؛ لقتال (نديم) مع ذلك العملاق...

وشهقت (غادة) في ارتياع...

ومع شهقتها، اختفى الفيلم عن الشاشة، وعاد وجه (أحمد عزيز) إليها، وهو يقول:

- تستطيعين أن تقولي وداعًا لعقربك يا حسنائي، فقبل أول ضوء النهار، سأكون قد سحقته سحقا.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، مضيفا:

- حتى التاريخ، لن يذكر عنه شيء....

قالها، وأطلق ضحكة ساخرة ظاهرة عالية، وصورته تتلاشي عن الشاشة تدريجيا، في حين هوى قلب (غادة) بين قدميها...

بمنتهى العنف....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

" أقسم أنني لست أعلم شيئا... "....

نطقها (فؤاد ثعلب)، وهو يرتجف على نحو عجيب، في حين بدا اللواء (مجدي) شديد الهدوء إلى حد مخيف وهو يقول:

- أمن المفترض أن أصدق هذا؟!... إنك المحامي الخاص بـ (أحمد عزيز)، ولاريب في أنك تعلم عنه كل شيء.

لوح (فؤاد) بذراعيه في شدة، هاتفا:

- ما يخص قضاياه فحسب...

تلاعب اللواء (مجدي) بمسدسه، قائلا بنفس الهدوء المخيفة:

هتف (فؤاد)، وحلقه الجاف يعوق كلماته

- إنك لا تعرف (أحمد عزيز) ... إنه رجل لا يمنح ثقته لأي مخلوق... الشك يمتزج بخلاياه، ويسري في عروقه مسرى الدم.

غمغم (مجدي) ساخرة

- هذا لو أن عروقه يسري فيها دم بشري مثلنا..

بدا (فؤاد) منهارة، وهو يقول:

- (أحمد عزيز) ثاني أقوى رجل في الدولة، من الناحية النظرية، ولكنه أقوى رجل في الدولة، من الناحية العملية... إنه يسيطر تماما على كل شيء... حتى الرئيس وولديه... كلهم يستمعون إليه، ويثقون في نصائحه وخياراته... ولكي يحافظ على هذه المكانة، فهو لا يثق في مخلوق واحد.

قال (مجدي) في صرامة:

- ولكن هناك مكان حتما، يحفظ فيه أدق أسراره..

أجابه (فؤاد)، في صوت مرتجف مبحوح:

- تلافيف مخه وحدها، وربما...

بتر عبارته دفعة واحدة في ذعر ملحوظ، فابتسم (مجدي) في ظفر، ومال نحوه قائلا:

- وربما تلك الفيلا الصغيرة القديمة، المطلة على النيل... أليس كذلك؟

كان صوت (فؤاد ثعلب) أشبه بالبكاء، وهو يغمغم مرتجفا:

- أنا لم اخبرك شيئا..

أخرج (مجدي) من جيبه جهازا رقميًا صغيرًا، وهو يتراجع، قائلا:

- بل أخبرتني كل شيء.

ضغط زرًا صغيرة في جانب الجهاز، فانبعث منه صوت (فؤاد) واضحا، في تسجيل لكل ما دار بينهما، فاتسعت عينا (فؤاد) في ذعر كبير، وهو يهتف بصوت مختنق:

- سيقتلني لو علم.

هز (مجدي) كتفيه، وهو يعيد مسدسه، وذلك الجهاز الرقمي إلى جيبه، قائلا:

- لن يعلم... لو حافظ كلانا على سرية هذا اللقاء..

انهار (فؤاد ثعلب)، وهو يقول:

- لن أخبره... أقسم أنني لن أخبره.

ابتسم (مجدي) في سخرية مزدرية، واتجه نحو الباب، وهو يقول، دون أن يلتفت إليه:

- تمالك نفسك يا هذا، فكل الشواهد تؤكد أن أيام (أحمد عزيز) شارفت نهايتها..

وصفق الباب خلفه..

في قوة....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لاريب في أن اطقم الحراسة، في فيلا (أحمد عزيز)، كانوا مرهقين للغاية.

أو أن اقتراب الفجر، قد أصابهم بذلك التراخي التلقائي، الذي يصيب كل من لم ينعم بالنوم ليلا...

لقد كانت الفيلا تبدو وكأنها خالية، حتى أن (نديم) استطاع التجول في معظم ممراتها دون أن يعترضه أحد...

وفي حذر، هبط إلى الطابق الأرضي، وهو يتساءل: أين يمكن أن يحتجزوا (غادة)؟ ...

أين؟!...

كان يتحرك في خفة شديدة، عندما لمح مدخل القبو أسفل السلم الذي يقود إلى الطابق العلوي، فتوقف يدرس موقفه جيدا...

الفيلا قديمة الطراز نسبية، على الرغم من التجديدات الواضحة فيها...

وفي مثل هذا الطراز، يوجد قبو كبير، يحتل مساحة الفيلا كلها، ويحوي عدة حجرات.

هذا هو المكان الأمثل إن، للاحتفاظ بزميلته (غادة) واحتجازها...

ألقى نظرة على ساعة يده، وتساءل في قلق، كيف يمكن أن يخلو الطابق الأرضي من أطقم الحراسة على هذا النحو....

التفسير الوحيد، الذي جال بذهنه، هو أن أحدهم لم يتوقع أن تأتي المواجهة من داخل الفيلا..

وأنهم جميعا يحرسون خارجها...

ولكن هناك حتما من يحرس مقر احتجاز (غادة)...

هذا لو أنهم يحتجزونها بالفعل في القبو...

وعندما وصل إليه، تيقن من صحة استنتاجه..

فباب القبو لم يكن مجرد باب عادي...

لقد كان مصنوعا من الصلب، وله رتاج خاص، لا يمكن فتحه إلا من خلال بطاقة ممغنطة، تحوي شفرة سرية...

وها هي ذي عقبة جديدة توضع أمامه...

اختفى أسفل السلم، يبحث عن وسيلة لتجاوز هذه العقبة الرقمية الجديدة، و.

وفجأة، أضيئت كل أنوار الطابق الأرضي..

والتفت (نديم) بكل سرعته...

وتحفزت كل عضلة في جسده...

ثم تجمد في مكانه تماما...

لم يدر من أين جاء كل هؤلاء الرجال، الذين تشعَّ من ملامحهم كل القسوة والشراسة...

ولكن ما أدركه، وبكل وضوح، هو فوهات مدافعهم الآلية، المصوَّبة نحوه مباشرة على نحو يوحي بأنها النهاية...

نهاية (العقرب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- الفخ..

"ننتظر أوامرك يا باشا..."

تراجع (أحمد عزيز) في مقعده بانتعاظ شديد، وأشرق وجهه بنشوة الظفر، قبل أن يقول في حزم:

- لو سألتني رأيي، فأنا أرغب في سحقه سحقا.

لم يفهم قائد الحراسة مغزى العبارة بالضبط، فتساءل، في شيء من الحذر:

- نقتله؟

أجابه (أحمد عزيز) في استمتاع واضح:

- ليس بهذه البساطة.

ثم مال نحو الشاشة، متسائلا في شيء من الصرامة:

- لماذا لم تنتزعوا قناعه على الفور؟

أجابه قائد الحراسة في سرعة وقلق:

- تصورت أن سعادتك ترغب في نزعه بنفسك.

اتسعت ابتسامة (أحمد عزيز)، وهو يقول:

- لأول مرة، تكون على حق..

ثم فرد قامته، وأضاف في صرامة:

- سأصل إليكم، خلال عشرين دقيقة.

وانعقد حاجباه في شدة، وهو يضيف:

- وإياكم أن يفلت من بين أيديكم.

أجابه الرجل بنفس السرعة:

- مستحيل.... لقد احتجزناه مع زميلته في تلك الزنزانة الحصينة.

قال (أحمد عزيز) في حدقه وهو ينهض من أمام الشاشة:

- هذا لا يكفي...، أريد خمسة رجال مسلحين أمام الزنزانة، ومراقبة دقيقة طوال الوقت.

تم أضاف، قبل أن يطفئ الشاشة مباشرة:

- وعند أول بادرة للشك... أطلقوا النار على الاثنين.

في نفس اللحظة التي نطقها، كانت (عادة) تتطلع إلى (نديم) في يأس، وهي تقول في مرارة:

- كنت أعلم أن هذه المواجهة لن تنتهي لصالحنا..

أدهشها أنه بدا هادئا أكثر من اللازم، وهو يقول:

- لكل شيء نهاية.

همَّت أن تقول شيئا، ولكنه أضاف، في لهجة أسكتتها:

- ولكل شخص نهاية أيضا.

ولأنها تعرفه جيدة، أكثر من أي شخص آخر، فقد انتبهت إلى أنه لم ينطق عبارته الأخيرة على النحو الذي اعتاده...

لقد نطقها وكأنه يرسل إليها رسالة ما، مع معرفته أنهما مراقبان حتما...

وفي أعماقها، ارتجف شيء ما...

إنهما سجينان، داخل زنزانة حصينة، في قبو فيلا أقوى رجل في (مصر)، ومحاطان بحراسة تمنع فرار جيش كامل، وعلى الرغم

من هذا فهو يخفي شيئا ما...

حاولت أن تستنبط طبيعة هذا الشيء...

ولكنها لم تنجح في هذا...

في كل الحسابات المنطقية، وحتى غير المنطقية، كان فرارهما من هذا المكان، وبكل المقاييس...

لذا فقد طرحت الأمر كله عن رأسها، وسألته في شيء من الحذر:

- لماذا أبقوا على قناعك؟!

هز كتفيه، وابتسم ابتسامة هادئة، وهو يقول:

- ربما لم يحن وقت نزعه بعد.

قالت في عصبية:

- ولكننا الآن في قبضتهم..

استرخي على مقعد كبير، وهو يجيب في مبالاة مستفزة:

- هذا صحيح..

شعرت بتوتر شديد جعلها تقول في حدة:

- (نديم)... أنت تثير أعصابي في شدة..

اعتدل، قائلا:

- لماذا؟ 1... ألأنني أواجه الواقع؟!

قالت في عصبية:

- هذا الواقع يقول: إن أمرك قد انكشف وقناعك لم تعد له جدوى، وهؤلاء لن يتعاملوا معنا بذرة واحدة من الرحمة.

عاد يسترخي على مقعده، وهو يقول:

- ومن ينتظر الرحمة، ممن خلت قلوبهم منها؟!

ثم اعتدل فجأة، يسألها في اهتمام:

- ما الذي تتوقعين حدوثه، يوم الخامس والعشرين من يناير؟

حدقت فيه مندهشة من السؤال، فتابع وكأنه لا ينتظر منها جوابا:

- هنالك دعوات للخروج في مظاهرات غضب، يوم عيد الشرطة.

قالت في عصبية:

- ما صلة هذا بموقفنا الحالي؟

مرة أخرى تابع حديثه، متجاهلا تعليقها:

- من الواضح أن الشعب لم يعد يحتمل كل هذا الفساد، وهذه التجاوزات.

صاحت به:

- (نديم)... ماذا أصابك؟!

ابتسم، واسترخي مرة أخرى في مقعده، قائلا:

- لا شيء... كنت أفكر بصوت مرتفع فحسب.

ومرة أخرى، لم تفهم شيئا...

أي شيء...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعر رجال (أحمد عزيز) بدهشة حقيقية، عندما طلب هو إعداد موكبه، في تلك الساعة التي أوشك فيها الفجر على الانبلاج، وتصوروا كالمعتاد، انه استدعاء عاجل من رياسة الجمهورية...

ولكن الموكب لم يتجه نحو رئاسة الجمهورية كما توقعوا..

لقد اتجه نحو تلك الفيلا الصغيرة القديمة المطلة على كورنيش النيل في حي (المعادي)..

وكما اعتادوا لم يطرح أحدهم سؤالا واحدة...

ومع تلون الشفق، بأضواء الفجر الأولى، وصل الموكب إلى تلك الفيلا الصغيرة...

وفي زهو، استقبله قائد حراسة الفيلا، وهو يقول:

- العقرب في القفص.

أجابه (أحمد عزيز) في خشونة:

- هذا لن ينجيك من عقابي..

بدا الرجل منزعجا، وهو يقول في ارتباك:

- ولكننا أوقعنا به.

أجابه في غضب وهو يدلف إلى الفيلا:

- أوقعتم به داخل الفيلا.

أدرك الرجل ما يعنيه (أحمد عزيز)، فانكمش وهو يتبعه في صمت، إلى قبو الفيلا، حيث توقف (أحمد عزيز) أمام باب زنزانة (نديم) و (غادة)، وهو يقول في زهو:

- الذي فشلت فيه الداخلية كلها في فعله، خلال سنوات انجزه (أحمد عزيز)، في أقل من ثمان وأربعين ساعة.

ثم أشار إلى رجاله، ففتح أحدهم باب الزنزانة، في حين شهر الآخرون أسلحتهم في تحفّز، وتقدم قائد الحراسة مع اثنين من رجاله، يصوبون أسلحتهم إلى (نديم) و(غادة)، ثم تبعهم (احمد عزيز)، وهو يبتسم في زهو ظافر شامت...

ولقد أدهشه في الواقع أن ظل (نديم) هادئا، مسترخيا على مقعده، وهو يستقبله بابتسامة قائلا:

- كنت أعلم أنك لن تقاوم فكرة المجيء شخصيًا..

أجابه (أحمد عزيز) في سخرية:

- تماما كما وصفوك أيها المتحذلق... تحتفظ بهدوئك دوما، حتى في أحلك المواقف..

بدت (غادة) شديدة التوتر، في حين أعتدل (نديم) على مقعده، وهو يقول:

- وأنت كما وصفوك تماما يا هذا... قصير، مغرور، متغطرس... لا تتصور أنه هناك من يمكنه هزيمتك..

صاح قائد الحراسة في (نديم)، وهو يصوب مدفعه إليه في عصبية:

- قف وأنت تتحدث مع الباشا..

هز (نديم) كتفيه في استهتار، وهو يقول:

- إنني أفضل الجلوس.

همَّ قائد الحراسة بالصراخ في وجهه مرة أخرى، ولكن (أحمد عزيز) استوقفه بإشارة من يده، وهو يقول:

- لا بأس... لن يصنع هذا فارقًا... عقربنا يفضل الموت جالسًا.

هز (نديم) كتفيه مرة أخرى، قائلا:

من تحدث عن الموت؟ ... إنني سأقف متفرجا فقط، عندما يضعونك خلف القضبان.

شعر رجال (أحمد عزيز) بالغضب، وهتف أحدهم:

- هل أطلق النار عليهما؟

توترت (غادة) في شدة ودارت لتقف خلف مقعد (قديم)، وكأنها تحتمي به، فأطلق (أحمد عزيز) ضحكة ساخرة وهو يقول:

- هذا القناع لن يحميك يا حسنائي، كما لن يحمي صاحبه.

مال (نديم) نحوه، قائلا في هدوء:

- وماذا لو فعل؟

رمقه (أحمد عزيز) بنظرة حاول أن يخفى فيها غضبه، وهو يقول:

- إما أن الغرور قد سيطر عليك، او أنك فقدت عقلك، مع أول وآخر هزيمة تتلقاها أيها العقرب التافه.

قالت (غادة) في حدة:

- لا أحد يمكنه أن يصف (العقرب) بالتافه.

أطلق (أحمد عزيز) ضحكة ساخرة طويلة، قبل أن يقول:

- عقربك ليس تافها فحسب يا حسنائي... إنه عقرب فقد ذيله السام أيضًا..

عاد (نديم) يسترخي في مقعدها وربت على يد (غادة)، التي تقبض على مسند المقعد من خلفه، وهو يقول:

- ولكنه لم يفقد قناعه بعد.

ارتسمت ابتسامة ساخرة، على شفتي (أحمد عزيز)، وهو يقول:

- لن يفقد قناعة فحسب، ولكن حياته كلها أيضا.

قالها، واتجه نحو (نديم)، في حين سبقه رجاله الثلاثة، يصوبون مدافعهم نحو رأس هذا الأخير مباشرة، وشعرت (غادة) بخوف شديد، لم تنجح تربيتة يد (نديم) في تهدئته، في حين قال هو في هدوء عجيب:

- هل تعلم لماذا لم تنطلق الدفاعات الجوية على الرغم من هجوم الطائرات الإسرائيلية في الخامس من يونيو، عام 1967 م؟

لم يبد للسؤال أي محل من الأعراب، في مثل هذا الموقف، فانعقد حاجبا (أحمد عزيز)، وهو يواصل تقدمه نحو (نديم)، ويمد يده لينزع عنه قناع العقرب، فتابع هذا الأخير بنفس الهدوء:

- لأن القائد الأعلى للقوات المسلحة، كان داخل طائرة، في سماء (سيناء)؟؟

مال (أحمد عزيز) نحوه، وهو يقول في غلظة:

- اتعشم أن تفيدك دروس التاريخ هذه في الآخرة.

ارتسمت ابتسامة عجيبة، على شفتي (نديم)، وهو يقول:

- لقد كنت واثقا، من أنك لن تقاوم فكرة نزع قناعي بنفسك.

ومع قوله، ضغط زر ضبط العقارب في ساعته، و، ...

ودوت عدة انفجارات صغيرة مباغتة...

وانقطع التيار الكهربي دفعة واحدة...

وساد الظلام داخل القبو...

وفي سرعة مدهشة، ومع الجزء الأول من الثانية الأولى، التي انقطع فيها التيار الكهربي، انحني (نديم) في خفة، وركل (أحمد عزيز) بين ساقيه في قوة، ثم لم ينتظر حتى ليسمع تأوه هذا الأخير، وإنما دفع المقعد الذي كان يجلس عليه للخلف، وسمع دوي الرصاصات فوق رأسه، أعقبها صراخ قائد الحراسة:

- لا تطلقوا النار أيها الأغبياء... الباشا في القبو..

في اللحظات التي استغرقها هتاف قائد الحراسة، شعرت (غادة) بيد (نديم) تجذبها في قوة، ثم أحاطت يده بوسطها، وهو يدفعها دفعا إلى حيث لا ترى وسمعت لكمة أو لكتمين، ثم راحت تعدو مع (نديم)، دون أن تدري إلى أين يتجه...

وعلى الرغم من كل هذا، فقد لاذت بالصمت تماما، ولم تنبس ببنت شفة، ولكنها شعرت أنهما يعدوان عبر الممر الطويل، الذي يقود إلى القبو...

وسمعت (غادة) لكمة ثانية.

وثالثة.

ثم سمعت صوت (نديم)، يقول في حزم:

- سنصعد إلى السطح...

كان كل رجال أمن (أحمد عزيز) يندفعون نحو القبو، عندما عاد التيار الكهربية عبر المولد الاحتياطي للفيلا، وشاهدت (نديم) لأول مرة، وهو يعدو معها، عبر سلالم الطابق الثاني، فهتفت به:

- كيف يمكن أن نفلت منهم، إذا ما صعدنا إلى السطح؟

أجابها، وهم يقطعون الدرجات القليلة التي تقود إلى سطح المبنى:

- هل شاهدت من قبل أفلام (طرزان) -

مرة أخرى، لم تر ارتباطا واضحا، بين سؤالها وجوابه، ولكنه شعرت بالحركة العنيفة أسفلها، وسمعت قائد الحراسة يصرخ برجاله:

- السطح... إنهما يتجهان إلى السطح..

وقفت مع (نديم) على سطح الفيلا حائرة، وشاهدته يغلق باب السطح في إحكام، فهتفت:

- سيقتحمونه في دقائق قليلة.

أجابها في حزم:

- هذا أكثر مما نحتاج إليه.

رأته يندفع نحو حبل، يمتد من أعلى بناية قريبة، ومربوط في قائم طبق الاستقبال الفضائي، ورأته يحلّ الطرف، فغمغمت في توتر:

- (نديم).. لست أظنك..

كان رجال (أحمد عزيز) قد بدأوا يضربون باب السطح بالفعل، عندما أحاط هو وسطها

بذراعه القوية، وهو يقاطعها قائلا:

- تشبثي بقوة.

أدار طرف الحبل حول ساعده، وأمسك به في قوة، ثم انطلق يعدو معها نحو حافة السطح وعند نهايتها، وثبا...

وعلى الرغم منها، أطلقت (غادة) شهقة قوية، عندما طار جسداهما في الهواء، والحبل الطويل يدور بهما حول الفيلا، ثم يدفعهما نحو حديقة خلفية لمجموعة من البنايات القريبة...

وفي ذهول، شاهد رجال حراسة الحديقة ذلك المشهد العجيب، وأطلق بعضهم رصاصاته في الهواء، يشق سكون لحظات الفجر الأولى، في محاولة لاصطياد ذلك المقنع الطائر، ولكن لمفاجأة، مع سرعة الانزلاق الهوائي لهما، جعلت الرصاصات تطيش في الهواء، قبل أن يقول (نديم) في حزم:

- معذرة... الهبوط لن يكون سهلا..

قالها، وهو يفلت طرف الحبل...

وهوى جسداهما...

ومن ارتفاع أربعة أمتار....

وعلى نحو غريزي، أطلقت (غادة) صرخة، أيقظت من لم يوقظهم دوى الرصاصات بعد، قبل أن يسقط كلاهما على أرضية تلك الحديقة...

وعلى الرغم مما شعرت به من آلام شعرت ب (نديم) بنهض في سرعة، ويجذبها من يدها، قائلا:

- إننا لم نبتعد بعد..

انطلقت تعدو الى جواره في آلية، وهي تهتف لاهثة:

- يا إلهي... لقد فعلتها يا (نديم)... لقد فعلتها.

هتف بها:

- ليس بعد.

قفز متجاوزا سور الحديقة القصير، ورأى ثلاثة كلاب حراسة تعدو نحوهما، وهي تنبح في شراسة، فعاونها على عبور السور، وهو يكمل:

- المنطقة كلها ليست آمنة... لابد وأن نبتعد بقدر الإمكان.

هتفت لاهثة في شدة، من فرط الإرهاق والانفعال:

- سيطلق شرطة (مصر) كلها خلفنا.

جذبها من يدها، وراح يعدو بكل قوته، قان في حزم:

- الأمر لن يقتصر على الشرطة وحدها...

في نفس اللحظة، كان (أحمد عزيز) يصرخ، في مزيج من الألم والغضب؟

- لو أفلت منكم، سأقتلكم جميعا... هل تفهمون؟!... سأقتلكم جميعا.

وثب الرجال داخل سيارتهم، وانطلقوا بها، إلى كل الشوارع المحيطة بالفيلا، وسمعت (غادة) مدير السيارات، فغمغمت بنفس اللهاث:

- لقد انطلقوا خلفنا يا (نديم)، و.

قبل أن تتم عبارتها، توقفت أمامها فجأة سيارة رباعية الدفع، بصرير فرامل عنيف، وانبعث منها صوت يقول:

- لقد عثرت عليكما.

وأسقط في يدها...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- العقرب والثعبان..

لم تشهد (القاهرة) كلها انتشارا لدوريات الشرطة، مثلما شهدته في ذلك اليوم...

كانت الدعوات إلى الخروج الغاضب، في اليوم التالي، الذي يوافق عيد الشرطة، تتصاعد على نحو غير مسبوق...

حتى خطة الخروج، وتوزيع المتظاهرين على الميادين، تم نشرها في وضوح، عبر شبكة الانترنت من خلال مواقع التواصل الاجتماعي.

ولقد تصور البعض، أن انتشار دوريات الشرطة، هو تداعٍ لتلك الدعوات..

ولكن المدهش أن شبكات التواصل الاجتماعي كانت في وادٍ، ومسئولو الدولة كلهم، بما فيهم جهاز الشرطة ووزارة الداخلية، كانوا في وادٍ آخر...

(أحمد عزيز) بالذات، كان يشتعل غضبًا، على نحو لم يعهده أحد فيه من قبل..

وفي مكتب وزير الداخلية، قال هذا الأخير في عصبية:

- (أحمد) باشا... لقد نفذت ما طلبته، وأطلقت جيشا من دوريات الشرطة، للبحث عن عقربك هذا.

أجابه (أحمد عزيز) في حدة:

- ولكنها الواحدة ظهرا، ولم يعثروا له على أثر بعد.

مال وزير الداخلية على مكتبه، قائلا في توتر:

- (القاهرة الكبرى) ليست مدينة صغيرة يا (باشا)... إنها واحدة من أكثر مدن العالم ازدحامًا، وتعداد سكانها يربو عن الثمانية عشر مليونا... أي أنها تزيد في تعدادها عن كثير من الدول، والبحث عن شخص واحد فيها، أشبه بالبحث عن إبرة في كومة من القش.

صرخ (أحمد عزيز) بكل غضبه:

- ولكن هذه الإبرة أهانتني، وأفلتت من بين أصابعي، كما لو أنها تفلت من قطعة من الزبد.

تردد وزير الداخلية لحظة، ثم قال في حسم:

- الواقع أنك أنت منحته الفرصة يا (باشا).

صباح (أحمد عزيز) في وجهه، غاضبا ومستنكرا:

- أنا؟

حاول وزير الداخلية تهدئته، بإشارة من يده، وهو يقول:

- اتحدث من منظور مهني، وليس من منظور شخصي.

بذل (أحمد عزيز) جهدا للسيطرة على أعصابه، سائلا في توتر:

- وكيف هذا؟

اعتدل وزير الداخلية، وتنحنح مرتين قبل أن يقول:

- إصرارك على أن تنزع قناعه بنفسك، منحه فرصة لوضع خطة الفرار، وحفظ سبيل الخروج، ثم أنه كان من الذكاء، بحيث أدرك أن وجودك بشخصك وسط رجالك، عن انقطاع التيار الكهربي، سيمنعهم من إطلاق النار عليه، وخطة دخوله وخروجه إلى الفيلا كانت مبتكرة وغير نمطية، و.

قاطعة (أحمد عزيز) في حدة:

- هل يثير إعجابك إلى هذا الحد؟

ارتبك وزير الداخلية، وهو يلوح بكفه، قائلا:

- اخبرتك أنني أتحدث من منظور مهني بحت..

ثم عاد يميل نحوه مستطردا:

- ودعنا لا ننسى أن هذا الرجل كان أحد ضباط الشرطة، أي أنه تلقى تدريبات على أعلى مستوى، وملفه يقول: إنه كان يتمتع بمرونة وخفة، فاقت كل أقرانه، وهذا يعني أننا لا نواجه خصما عاديا..

صاح (أحمد عزيز):

- أيا كان... إنه مجرد رجل واحد.

ثم أضاف بكل الحدة:

- وقناعه السخيف هذا، لن يضيف إليه شيئا.

أطلق وزير الداخلية زفرة متوترة، متمتمًا:

- ليس القناع، وإنما ما خلف القناع..

رمقه (أحمد عزيز) بنظرة غاضبة، قائلا:

- وهل تعجز وزارة الداخلية كلها، عن ضبط رجل واحد، حتى ولو أرتدي ألف قناع؟؟

قال الوزير في شيء من العصبية:

- وزارة الداخلية كلها مشغولة بتجهيزات عيد الشرطة، وهناك تلك الدعوات التي...

قاطعه (أحمد عزيز) في حدة:

- دعوات؟ لا تقل لي أنك تولى عبث الشباب هذا اهتماما كبيرا.. إنهم مجرد مجموعة من الفاشلين، لا عمل لهم سوى الجلوس أمام شاشات الكمبيوتر، وتبادل السخافات.. والتظاهر بالفهم والوعي...

قال الوزير في توتر:

- ولكنهم يضعون خطة للتظاهر لأول مرة ودعواتهم منتشرة في طول البلاد وعرضها، والتقارير تحذر من أن ينقلب الأمر إلى ثورة، و....

عاد (أحمد عزيز) يقاطعه، في حدة أكثر:

- ثورة؟!... ألم تتعلم شيئا من تاريخ هذا الشعب يا رجل؟!... هذا الشعب قد يغضب وينفعل، ويلعن ويسب أيضا، ولكنه لا يثور.

غمغم وزير الداخلية في عصبيه:

- لابد من اتخاذ كل الاحتياطات، على أية حال..

هتف (أحمد عزيز)، في سخرية شديدة العصبية والغضب والاستنكار:

- احتياطات؟

ثم مال هو نحو مكتب الوزير، مضيفا في حدة صارمة:

- اسمعني جيدة... أيا كانت الاحتياطات أو التوقعات أريد وضع العثور على ذلك (العقرب) على رأس أولويات الوزارة..

واعتدل بحركة حادة ملوحة بذراعيه معًا، وهاتفًا:

- أريد أن أعرف كيف اختفى ذلك الحقير... وأين؟!

وكان هذا هو السؤال، في تلك اللحظة..

كيف اختفى (نديم)؟!...

وأين؟ ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإجابة على السؤال، تحتم علينا العودة بعقارب الساعة عدة ساعات إلى الوراء..

الى نسمات الفجر الاولى لذلك اليوم.

إلى تلك اللحظة التي عبر فيها (نديم) و (غادة) سور الحديقة القصير، وتوقفت أمامهما تلك السيارة رباعية الدفع...

"لقد عثرت عليكما... "..

نطقها قائد السيارة، فحدقت فيه (غادة) لحظة، قبل أن تهتف غير مصدقة:

- اللواء (مجدي)..

دفع اللواء (مجدي) باب السيارة، وهو يقول في حزم:

- دعونا لا نضيع لحظات ثمينة، ولنبتعد من هنا بأقصى سرعة.

وثب الاثنان داخل السيارة، التي انطلقت بهما بأقصى سرعتها، و (غادة) تهتف في سعادة:

- كيف عثرت علينا؟

أجابها (مجدي)، وهو ينحرف في طريق جانبية، ومنها إلى أخرى:

- الضجة التي أحدثتماها، كافية لجلب جيش كامل.

قال (نديم) وهو يستقر على المقعد المجاور له:

- إنك لم تأت إلى هنا بمحض الصدفة.

أجابه (مجدي)، وهو يواصل الغوص، في شوارع حي (المعادي) المتشابكة:

- لا بالطبع... لقد استعنت بصديق..

رددت (غادة) في حيرة قلقة:

- صديق؟!

غمز (مجدي) بعينه، مجيبا:

- (فؤاد)... (فواد ثعلب).

تفجرت الدهشة في ملامحها، في حين قال (نديم) في هدوء، زاد من دهشتها:

- هذا سيارته... اليس كذلك؟؟

أطلق (مجدي) ضحكة قصيرة، قبل أن يقول:

لاريب في أنه يبلغ من سرقتها الآن.

ومع قوله، أوقف السيارة إلى جانب الطريق بغتة، مضيفا:

- ومن المؤكد أن شياطين (أحمد عزيز) قد رصدوها أيضا... ولهذا...

غادر السيارة، وأشار إليهما بمغادرتها معه، وهو يشير الى سيارة صغيرة، مكملا بابتسامة:

- سنتركها لهم هنا، ونستبدلها بهذه..

هتفت (غادة) في سعادة:

- رائع..

أسرعت تدلف إلى المقعد الخلفي للسيارة، واستقر (مجدي) خلف عجلة القيادة، فقال (نديم) في حزم:

- انتقلي إلى المقعد الأمامي.

تطلع إليه الاثنان في حيرة، فالتفت إلى (مجدي)، يسأله:

- ألديك مأوى آمن لها؟!

أجابه (مجدي)، وهو يتطلع إليه بنظرة متسائلة:

- بالتأكيد.. لن يمكنهم العثور عليها فيه، حتى ولو نبشوا الأرض نبشًا..

هتفت (غادة):

- لماذا تسأل؟!... ولماذا لم تدخل السيارة معنا؟

غمغم (مجدي):

- بل سليه: لماذا لم ينزع قناعه بعد؟!

شد (نديم) قامته، والتقط نفسا عميقا، وهو يقول في حزم:

- لم يحن وقت نزعه بعد.

حاولت (غادة) أن تقول شيئا، إلا أن (مجدي) استوقفها بإشارة من يده، وهو يسأله:

- هل تعرف ماذا تفعل؟

أجابه في حزم واقتضاب:

- بالتأكيد.

ثم مد يده إليه، مستطردا:

- سيادة اللواء... من كان يصدق أن نصافح بعضنا يوما على هذا النحو.

صافحه (مجدي)، وهو يقول:

- كنت أنفذ القانون، وأعمل من أجله..

سأله (نديم) مبتسمًا:

- واليوم؟

بدا (مجدي) قوية حازمة، وهو يجيب:

- من أجل مصر.

تصافحا في قوة واحترام، ثم لوح لهما (نديم) بيده، فسألته (غادة)، والسيارة تنطلق:

- إلى أين؟

ابتسم ابتسامة هادئة مجيبًا:

- إلى حيث لا يمكن أن يتوقعوا.

وما هي إلا لحظات حتى كان قد اختفى تماما...

مع أول أضواء الفجر....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صرخ (أحمد عزيز)، فيمن تبقوا من رجاله، داخل تلك الفيلا القديمة مع مطلع الفجر..

- كيف يحدث هذا؟!... المفترض أنكم من أفضل رجال الأمن والحراسة، في (مصر) كلها، فكيف يفلت منكم رجل وامرأة بهذه البساطة.

أجابه قائد الحراسة بكل توتره:

- إنه مغامر من طراز لم نعتده، ولم نستعد لمواجهته... بل ولم نتصور حتى إمكانية وجوده... لقد وضع خطته في حرفية شديدة، واعتمادا على وجودك يا (باشا)، فمن منا كان سيجرؤ على إطلاق النار، داخل حجرة مظلمة، تتواجد فيها بشخصك.

صاح فيه (أحمد عزيز) في غضب:

- بل قل إنه قد استغل غباءكم وغفلتكم، عندما تركتم السطح بلا حراسة.

قال قائد الحراسة، مدافعا عن نفسه:

- الإنذار الذي انطلق، معلنا وجود دخيل، دفعنا للانتشار في الحديقة، وحول الفيلا، ولم يكشف أنها مجرد حلقة معدنية، ألقاها نحو كواشف الحركة، إلا بعد وقوعه في قبضتنا..

قال (أحمد عزيز) في حدة:

وعلى الرغم من هذا، فقد فر أيضا عبر السطح.

بدا قائد الحراسة شديد الضيق، وهو يقول:

- الموقف كله كان مضطربا مرتبكا، وهو يتحرك في سرعة، وبخطة فرار معدة مسبقا.

ثم شد قامته، محاولا استعادة صلابته، مضيفا:

- وعندما يعود الرجال من مطاردته والبحث عنه، سنعيد توزيع خطة الحراسة، ولن نسمح بتكرار هذا الأمر أبدا.

صرخ (أحمد عزيز) في وجهه فجأة:

- تكراره.... لو تكرر أمر واحد، مما حدث هنا الليلة، لن يجد أحدكم فجوة في جدار، يستطيع الاختباء فيها مني..

قالها، واندفع نحو باب الفيلا، فهتف به قائد الحراسة في توتر:

- هل ستغادر يا باشا؟!

أجابه في حدة:

- حتى لا يعوقكم وجودي مرة أخرى.

لحق به قائد الحراسة هاتفا:

- وماذا لو ظفر الرجال به؟!... هل...

قاطعه (أحمد عزيز) بكل صرامته، وهو يتجه نحو سيارته:

- أقتلوه.

ثم التفت إليه، مضيفا في غلّ:

- وفور رؤيته.

ودلف إلى سيارته، وانطلق موكبه مبتعدا عن الفيلا الصغيرة، فتنفس قائد الحراسة الصعداء، مغمغما في مقت:

- لو قال غيرك نصف ما قلت، لمزقت عنقه بأظافري.

ثم التفت إلى أحد رجاله، متسائلا في صرامة:

- كم رجلا بقي هنا؟

أشار الرجل بمسدسه، مجيبة:

- خمسة فقط أيها القائد، وهذا يشملنا معا والباقون كلهم يمشطون شوارع (المعادي) بسيارتهم، بحثا عنه.

قال قائد الحراسة في صرامة، كمن يفرغ كل الغضب المختزن في أعماقه:

- عندما يعودون، سأعقد اجتماعا مع الجميع سنضع خطة جديدة لحراسة الفيلا، وسنقوم بوضع نقطة حراسة دائمة على سطحها..

تساءل الرجل في اهتمام:

- وماذا عن الأن؟!

كانت أشعة الشمس قد بدأت تنساب على الحديقة، فأجابه قائد الحراسة في صرامة:

- لن يجازف ذلك المغامر المقنع بهجوم نهاري، فأمثاله لا يخرجون إلا ليلا..

تطلع إليه الرجل، في شيء من الحذر، فأضاف في حدة:

- هل تتصور مثله رجل يسير في وضع النهار، مرتدية ذلك القناع الأسود السخيف يا رجل؟!

قالها، وعاد إلى داخل الفيلا، التي بدت بحاجة إلى إعادة ترتب، بعد موقعة الساعات الماضية، وصعد إلى الطابق العلوي، وهو يقول في مقت:

- ذلك المغرور يتصور، لأنه أقوى رجل في (مصر)، انه يستطيع إهانة الجميع، دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض... يا له من

قصير فاشل... كيف يتهمنا بالفشل والخيبة، بعد كل ما نفعله هنا..

فاجأه صوت من أعلاه، يقول ساخرا:

- لقد أخبرتك من قبل.

رفع رأسه في سرعة، وحاول أن يرفع سلاحه، مع العبارة المكملة:

- لأنكم فاشلون بالفعل.

وفي هذه المرة، كانت انقضاضة (العقرب) عنيفة قوية...

وإلى أقصى حد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- بالقانون..

في نفس اللحظة، التي غادر فيها (أحمد عزيز) مبنى وزارة الداخلية، ارتفع رنين هاتفه المحمول، فالتقطه وألقي نظرة على شاشته، التي حملت ما يشير إلى أن رقم المتصل غير متاح، مما جعله يعتدل، ويلتقط نفسًا عميقا، قبل أن يجيب الهاتف في احترام:

- أفندم.

كان يتصور أن الاتصال جاء، من أحد أبني الرئيس، أو حتى من الرئيس نفسه، إلا أنه باغته صوت (نديم)، وهو يقول في هدوء ساخر:

- خذها نصيحة مني، وتخلص من طاقم حراسة فيلتك القديمة..

كانت صدمة عنيفة له، جعلته يقبض على هاتفه في قوة بحركة غريزية عصبية، وهو يقول في حدة:

- من أي هاتف تتحدث؟

أجابه (نديم) بنفس اللهجة:

- على الرغم من شغلك الشديد بالتكنولوجيا، فسيدهشك ما يمكن أن تفعله فعليا عبر شبكة الانترنت.

حاول (أحمد عزيز) أن يكتم غيظه وغضبه، أمام رجالة، الذين يقفون في انتظار ركوبه سيارته، وقد فتح له أحدهم بابها في احترام، وسأل:

- من أين حصلت على هذا الرقم الشخصي؟

ارتفعت نبرة السخرية في صوت (نديم)، وهو يقول:

- ليس هذا فقط ما حصلت عليه.

اندفع (أحمد عزيز) نحو سيارته، وهو يقول في عصبية:

- أنت مجرد متحذلق مغرور، يجيد التعامل مع التكنولوجيا.

أجابه (نديم):

- التكنولوجيا لا بديل عنها، في هذا العصر.

لم يكد (أحمد عزيز) يستقر داخل سيارته حتى أوصل هاتفه بجهاز خاص، يتيح له تتبّع الاتصال، عبر شبكات الهواتف المحمولة، وتطلع إلى شاشته في اهتمام، في حين قال (نديم)، وكأنه يعلم ما يفعله:

- وبالمناسبة... لا ترهق نفسك بتتبع المحادثة، فأنا أجلس في حجرة مكتبك القديمة، في الطابق الأرضي في فيلا (المعادي)، استمتع بمطالعة تلك المستندات، التي كنت تخفيها في خزانتك السرية، في قاع المكتبة الخشبية الصغيرة.

اشتعل غضب الدنيا في نفس (أحمد عزيز)، وخاصة عندما فشلت شاشة جهاز التتبع في أن تؤكد أن (نديم) يتحدث بالفعل من الفيلا القديمة، واكتسب صوته نبرة وحشية شرسة، وهو يقول في حدة، أدهشت سائقه وحارسيه الخاصين:

- إنك تحفر قبرك بيديك أيها (العقرب).

أجابه (نديم)، في استهتار واضح:

- لست أعتقد هذا... بل أعتقد أنني أحفر قبرك أنت يا (باشا)، فما تحويه تلك المستندات يكفي لإلقائك خلف القضبان، لمائة عام على الأقل.

صرخ (أحمد عزيز) بكل غضبه وانفعاله:

- أنت واهم..

ثم أنهى الاتصال في عنف، وصرخ في سائقه:

- إلى فيلا (المعادي) فورا.. وبأقصى سرعة.

غمغم السائق، وهو يزيد من سرعة السيارة في توتر:

- الطرق مزدحمة الآن، و.

صرخ فيه، قبل أن يتم عبارته:

- سر في عكس الاتجاه... أو ارتطم بالسيارات لو اقتضى الأمر... من سيجرؤ في (مصر) كلها على ايقاف أو اعتراض (أحمد عزيز)؟!

صرخها، وهو يدرك في أعماقه أنه، حتى وان كانت (مصر) كلها في قبضته، فهناك شخص واحد لا يقيم له وزنا...

شخص واحد...

أو عقرب واحد....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

" لن أبقى هنا..." .....

قالتها (غادة) في إصرار شديد، وهي تنهض من مكانها في حركة حادة، فنهض (مجدي) بدوره قائلا:

- لا داع للمجازفة يا بنتي.. رجال (احمد عزيز) كلهم يبحثون عنك، ولما له من سلطة وسطوة، سيطلق وزارة الداخلية كلها خلفك وخلف (نديم) أيضا.

قالت في عناد:

- ولهذا لا ينبغي أن أظل هنا، وأتركه يواجههم وحده في الخارج.

حاول استيقافها، وهو يسألها:

- وكيف يمكنك مؤازرته في مثل هذا الموقف... إننا لا نعرف حتى أين هو الآن، ولا ماذا يفعل؟

توقفت حائرة وبدت شديدة التوتر، وهي تقول:

وماذا لو أنهم قد ظفروا به؟

لم يجد لديه جواب، فتمتم:

- سأحاول معرفة هذا.

التقط سترة زيه الرسمي، وحاول أن يبتسم، وهو يضيف:

- ما زلت أعمل رسميا في وزارة الداخلية... أليس كذلك؟!

سألته في توتر أكثر:

- وهل سيخبرونك، لو أنهم فعلوا؟

ارتدي سترته الرسمية في صمت، وهو يبحث عن جواب مناسب في ذهنه، قبل أن يغمغم:

- ربما... لو أنهم هم من ظفر به.

تضاعف توترها، ولوحت بذراعها، وهي تقول في عصبية:

- ولكنني لا أحتمل البقاء هنا ساكنة، وهو يواجه كل هذا في الخارج.

ربت على كتفها في حنان أبوي، وهو يقول:

- في كثير من الأحيان، يكون العامل الأهم في النصر، هو الصبر والانتظار، حتى تحين اللحظة المناسبة.

منحها ابتسامة مشجعة، وهو يضيف:

- سأحاول العودة بأسرع ما يمكنني... انتظريني، ولا تغادري مكانك هذا أبدا، حتى أعود.

كان يهم بمغادرة المكان، عندما غمغمت:

- (نديم) كان على حق.

التفت إليها بنظرة متسائلة، فتابعت:

- من كان يتصور أن ينقلب موقفك، من جانب إلى آخر، على هذا النحو؟

توقف لحظات صامتا، أمام الباب، ثم قال في حزم دون أن يلتفت إليها:

- ومن كان يتصور أن تبلغ تجاوزاتهم هذا الحد؟

قالها، وغادر المكان، وأغلق الباب خلفه...

وبكل هدوء...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تفجَّر غضب (أحمد عزيز) إلى ذروته، وهو يقف أمام باب فيلته القديمة، وقبل حتى أن يفتحه...

فمنذ اللحظة الأولى، أغضبه أن وجد باب الحديقة مفتوحا، ولم يجد أثرًا لرجال حراسته في الحديقة نفسها...

ومع غضبه، اندفع اثنين من حرسه الشخصي، يعبرون الحديقة نحو الفيلا...

وامام باب الفيلا توقفوا، وتفجر غضبه هو إلى الذروة..

فالباب، الذي لم يكن مغلقة في إحكام كالمعتاد كانت ملصقة عليه بطاقة صغيرة...

بطاقة تحمل رسمة لعقرب...

ويكل غضبه، انتزع (أحمد عزيز) البطاقة، ومزقها في حدة، وألقى قطعها خلف ظهره، وهو يدفع الباب هاتفا:

- أين ذهب أولئك الحمقى؟

كانت الفيلا كلها مضاءة، ولكنها خالية تماما، على الرغم من أن كل سيارات رجاله تقف أمامها، فصاح بحارسيه الشخصيين، وهو يندفع نحو حجرة مكتبة القديمة:

- ابحثوا عن الفاشلين.

شهر حارساه مسدسيهما واندفعا يفتشان الفيلا، في حين عض هو شفته السفلى في غضب حتى كاد يدميها، وهو يحدق في باب حجرة مكتبه القديمة المفتوح والذي يحرص على اغلاقه برتاج خاص به، واندفع نحو خزانته السرية ليشتعل غضبه..

لقد فعلها (العقرب)..

عثر على خزانته السرية...

واقتحمها...

واستولى على كل ما بها من مستندات شديدة الخطورة..

ولكن كيف؟

طرح على عقله السؤال، وغضب هادر يتصاعد في أعماقه، مع شعور لم يشعر به، منذ سنوات طوال، حتى كاد ينسي وجوده... شعور بالهزيمة...

أقوى رجل في (مصر)، ينهزم أمام عقرب بشري واحد...

كان غضبه يغلي في أعماقه..

ويغلي...

ويغلي..

وطرح عقله المشتعل بالغضب سؤالا آخر:

أين كان رجال حراسته، الذين انتقاهم في دقة شديدة مع كل هذا؟!...

أين؟!...

عثرنا عليهم يا (باشا).....

نطقها أحد الحارسين الشخصيين في قوة فانتفض جسد (أحمد عزيز)، بكل تلك الانفعالات الجارفة في أعماقه وهو يسأله في حدة:

- أين؟

أجابه حارسه في سرعة حذرة، وكأنما يخشى رد فعله:

- كلهم هناك... في تلك الزنزانة الحصينة في القبو..

كان (أحمد عزيز) يهم بالصراخ بكلمة ما، عندما اضاف الحارس الشخصي، في توتر ملحوظ:

- فاقدي الوعي..

تراجع (أحمد عزيز) بحركة حادة، وهو يقول مصدوما:

- كيف؟!

ثم اندفع يسبق حارسه الشخصي إلى القبو، والسؤال يشعل نيران غضبه أكثر وأكثر، على نحو لم يشعر به، في حياته كلها...

كيف فعلها (العقرب)؟!

كيف...

لا أحد يدري "...

قالها مدير المباحث في وزارة الداخلية، في توتر كبير، للواء (مجدي)، قبل أن يلوّح بذراعه كلها، مكملا في عصبية:

- لم تعثر له دورية شرطة واحدة على أدنى أثر، وكأنما ذاب وتلاشي، في قلب (مصر).

أخفى اللواء (مجدي) إعجابه، وهو يتساءل:

- وكيف هذا؟!... ألم يتم توزيع صورته على كل الدوريات الراكبة؟

هتف مدير المباحث في عصبية أكبر:

- ونشرة كاملة بأوصافه أيضا، وبكل مكان يمكن أن يلجأ إليه.

تردد اللواء مجدي) لحظة، قبل أن يتساءل في حذر:

- ربما ظفر به رجال (أحمد عزيز)..

حدق فيه مدير المباحث لحظات، وكأنما لا يصدق أنه قالها، ثم تلفت حوله، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد، قبل أن يهمس في توتر:

- لو حدث هذا، لأوقفوا عمليات البحث بأية حجة..

ثم تراجع، مكملا في شيء من الحدة:

- والواقع أنني لست أدري سر الاهتمام المفاجئ بذلك (العقرب)، وسط كل هذه الظروف... مهما تكن أهميته أو خطورته، فأمامنا الكثير من الاستعدادات لعيد الشرطة غدا..

وهنالك تلك الدعوات السخيفة للتظاهرات، ولابد وأن نستعد لمواجهتها أيضا.

سألته (مجدي) في اهتمام:

- هل تعتقد أنها ستسفر عن شيء؟

صمت مدير المباحث لحظات مفكرة، قبل أن يهز راسه، مجيبًا:

- المعتاد... سيتظاهرون، ويحيط بهم جنود الأمن المركزي، وتتعالى هتافاتهم، ويتجاوزون بالقول واللفظ بعض الوقت، ثم تنهال العصي الغليظة على رءوسهم فيتفرقوا بعد أن يكونوا قد أفسدوا علينا عيد الشرطة.

لم يكن (مجدي) يتفق معه في هذا، إلا أنه لم يعارضه، مع إدراكه أن الرجل لا يستطيع الصعود بخياله إلى ما هو أكبر من هذا...

فمنذ انتهت الانتخابات البرلمانية الأخيرة بكل ما حدث فيها من تجاوزات، فاقت كل الحدود، وهو يلمح ويقرأ الغضب في عيون المصريين...

كل المصريين...

تقريبا...

ومن واقع خبرته، كان يدرك أن الأمر لن يمضي في سلام...

وأنه سيتجاوز كل التوقعات...

ولقد قدم مذكِّرة بها، إلى وزير الداخلية شخصيا، ثم أدرك أن الكل لا ينظر إلى الأمر من نفس الزاوية، التي ينظر هو إليها، وأيقن من أنهم لن يحسنوا التعامل مع العاصفة القادمة، و....

"سيادة اللواء.."

ظهر ذلك الضابط عند باب حجرة مكتب مدير المباحث، فالتفت إليه هذا الأخير مع (مجدي)، في آن واحد، مما جعله يرتبك، قائلا:

- كنت أقصد سيادة اللواء (مجدي)..

بدا الارتياح على وجه مدير المباحث، في حين تساءل (مجدي) في حذر:

- ماذا هنالك؟

عاد الضابط يشد قامته، وهو يجيب:

- سيادة الوزير يطلبك في مكتبه... فورا.

وحبس (مجدي) أنفاسه..

فمع هذه الأحداث، لا يمكن أن يحمل له استدعاء وزير الداخلية الخير...

على الإطلاق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بكل العصبية، راحت (غادة) تتحرك في ذلك المنزل القديم الذي وضعها فيه اللواء (مجدي)... ما علمته منه أنه منزل كانت تقيم فيه والدته الراحلة، في حي شعبي من أحياء القاهرة القديمة، وأن أحدا من زملائه في الداخلية لا يعلم بوجوده، ولهذا فقد اعتبره منزلا أمنا لها...

ولم يكن هذا ما يقلقها في الواقع...

لقد كانت شديدة القلق على (نديم)، الذي لم تعرف عنه شيئا، منذ تركهما في الفجر...

ولأنها تعرفه جيدة، كانت واثقة من أنه قد عاد إلى فيلا (أحمد عزيز) القديمة؛ فقد كانت فرصة مثالية، لا يمكن أن يضيعها...

الفيلا خلت أو كادت من رجال الحراسة الذين خرجوا للبحث عنه وعنها، وهي - كما علما - تحوي أدق أسرار أقوى رجل في (مصر)..

والعودة إليها، دون أن يخطر هذا ببال أحد، قد يضع يديه على أخطر أسرار (أحمد عزيز) ...

ولهذا فهو سيعود...

ولكن ماذا يمكن أن يحدث هناك؟!...

ماذا؟ ...

هل ستسير الأمور لصالحه، أم تمضي عكس التيار؟ ...

ثم أن اللواء (مجدي) قد منعها من إجراء أية اتصالات، مهما كانت الأسباب، خشية أن تكون الهواتف مراقبة..

أو أنها كذلك بالفعل؛ مما يقود زبانية (أحمد عزيز) إليها...

ولكنها لا تحتمل البقاء في هذا المكان...

أو هذا الموقف...

منذ البداية، اعتادت أن تكون إلى جوار (نديم) دوما...

تواجه كل ما يواجهه، وتحتمل كل ما يحتمله ومستعدة مثله لنفس العواقب والنتائج..

وفي هذه المرة، ولأول مرة، تتركه يعمل وحده...

وبقناع (العقرب)...

وهي غير قادرة على احتمال هذا...

على الإطلاق...

ليس فقط لأنها تؤمن بنفس ما يؤمن به، من حتمية تغليب العدالة على القانون، إذا ما عجز الأخير عن تحقيق الأولى...

ولكن لسبب أهم.

سبب ربما لم تجرؤ على الاعتراف به لنفسها طويلا...

انها تحبه..

ومن قبل حتى أن تعمل معه...

كانت قد وصلت بتفكيرها إلى تلك النقطة، عندما ارتفعت دقات قوية فجأة، على باب المنزل، فانتفض جسدها في قوة، وتراجعت في سرعة، متطلعة إلى الباب في قلق، ومتسائلة عن هوية الطارق...

ثم فجأة، وقبل أن تمضي في تفكيرها بعيدة، اقتحم ثلاثة رجال المكان، ووجدت نفسها أمامهم دون مقدمات، فأطلقت شهقة

مكتومة، وخاصة عندما تبعهم أحد حراس (أحمد عزيز) الشخصيين، وهو يقول، وعيناه تلتمعان في ظفر:

- كنا نعلم أننا سنجدك هنا..

وفور عبارته، ارتفعت فوهات ثلاثة مسدسات قوية...

في وجهها مباشرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- الساعات الأخيرة..

" تجاوزت حدودك أيها اللواء....."

صرح وزير الداخلية بالعبارة في وجه اللواء (مجدي)، الذي بذل قدرا هائلا من الجهد؛ للحفاظ على تماسكه وهدوء أعصابه، وهو يقول:

- من أية ناحية يا سيادة الوزير؟؟

ضرب الوزير سطح مكتبه بقبضته، وهو يقول:

- هل تتصور أنك تستطيع التلاعب بنا، كما يتلاعب المحامون بنصوص القوانين... إننا نعرف عنك ما قد لا تعرفه أنت عن نفسك.

بدأ الشك يتسرب إلى نفس (مجدي)، وهو يقول:

- لم تخبرني بعد ماذا فعلت يا سيادة الوزير..

ظهر الغضب على وجه الوزير أكثر، وهو ينحني على سطح مكتبه، قائلا في حدة صارمة:

- هل تصورت أننا حقا نجهل أمر منزل والدتك القديم، في ذلك الحي الشعبي؟

سقط قلب (مجدي) بين قدميه، ولم ينبس ببنت شفة، مع امتقاع وجهه، فتابع الوزير، وهو يعود للاعتدال على مقعده:

- (أحمد عزيز) غاضب من موقفك هذا بشدة، و (فؤاد ثعلب) أخبره بكل شيء، بعد أن عثروا على سيارته، بالقرب من الفيلا القديمة، وغضبه منك انعكس على غضبه مني أيضا.. والوسيلة الوحيدة؛ لأنجي نفسي من نتائج هذا الغضب، هي أنت...

لم ينبس (مجدي) ببنت شفة، هذه المرة أيضا، إلا أنه شعر فجأة بقوة عجيبة، تدب في نفسه، وتعيد التورد إلى وجهة، مع لحظة الصمت القصيرة التي غابت خلالها كلمات الوزير..

قبل أن يعود، في صرامة عصبية غاضبة:

- لقد أصدرت قرارا بإحالتك إلى التقاعد، اعتبارا من هذه اللحظة.

في ظروف أخرى، وربما منذ اعوام مضت، كانت تلك الكلمات ستهبط على رأس وعقل وقلب اللواء (مجدي) كالصاعقة...

ولكنها، ويا للعجب، هبطت بردا وسلاما عليه، وجعلته يغمغم في ارتياح:

- حمدًا لله.

أدهشت غمغمته هذه الوزير بشدة... وأغضبته بشدة أيضا، في الوقت ذاته، فصاح فيه في حدة:

- هل تحمد الله على أنني أحلتك إلى التقاعد؟؟

جرأة عجيبة، سرت في كل عروق اللواء السابق (مجدي)، وجعلته يشد قامته في اعتداد، على الرغم من وقوفه في مواجهة وزير الداخلية مباشرة، ويقول في حزم:

- أحمد الله سبحانه وتعالى، على أن جاء القرار في هذا التوقيت بالتحديد؛ فلا أحد يعلم ماذا سيحدث غدا.

احتقن وجه الوزير، وهو يقول في حدة أكثر:

- ما سيحدث هو أنه سيتم تقديمك لمحاكمة عسكرية، لتجاوزك مهام وظيفتك ومنصبك.

اندهش (مجدي) نفسه، عندما سأل في جرأة:

- من أية ناحية؟

أجابه الوزير، في مزيج من الدهشة والاستنكار والغضب:

- إنك تساعد مجرمة على الفرار، وتأوي تلك المحامية الشابة في منزل والدتك

القديم

قال (مجدي) في جرأة أكثر، زادت من دهشته شخصيا:

- المجرم هو من يصدر ضده حكم مدينًا؛ فالقاعدة تقول: " إن المتهم برئ، حتى تثبت إدانته... أما (غادة)، فهي مجرد صديقة، لم توَّجَه إليها حتى أية اتهامات، ومن حقي (قانونا)، استضافة من أشاء، في منزل والدتي..

ضغط كلمة (قانونا) بشدة وهو ينطقها فتطلع إليه وزير الداخلية لحظة مستنكرا، قبل أن يميل مرة أخرى على مكتبه، قائلا في غضب صارم:

- ألم أقل لك: إنك قد تجاوزت حدودك؟ القانون هو لعبة تدار في قاعات المحاكم بين المحامين والنيابة والقضاء... أما هنا، فنحن في لعبة أكبر، وقواعدها توضع من طرف واحد فقط..

ثم اعتدل، مضيفا:

- وأنت لست هذا الطرف بالتأكيد.

قال (مجدي) في هدوء حازم:

- لا أحد يدري، من سيكون الطرف الذي يحكم قواعد اللعبة، في المرحلة القادمة.

مزج الوزير سخريته بغضبه، وهو يقول:

- لا تأمل كثيرة... قواعد اللعبة ستظل كما هي، لثلاثة عقود قادمة على الأقل... إننا لم نبذل كل ما بذلناه؛ ليرث الأبن حكم الأب، إلا لنضمن هذا.

حمل صوت (مجدي) مزيجا من الحزم والخشوع، وهو يقول:

- يمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين..

انعقد حاجبا الوزير، في غضب ومقت شديدين، وقال في صرامة، وهو يضغط زرا على سطح مكتبه:

- هكذا؟!.....

دلف مدير مكتبه إلى المكان، إثر رنين الجرس، فأشار الوزير إلى (مجدي)، وهو يقول في لهجة آمرة صارمة:

- اللواء (مجدي) تمت إقالته، وسيصدر قرار آخر، من جهة سيادية، يحرمانه من المكافأة والمعاش، وتجريده من رتبته ونياشينه... احرص على أن يسِّلم سلاحه ومتعلقاته وزيه الرسمي فورا.

تقدم مدير المكتب، وأمسك ذراع (مجدي) في قوة، إلا أن هذا الأخير لم يبال، بتلك المسكة، التي تتعارض حتى مع أبسط قواعد الاحترام ولا حتى بقرارات وأقوال وزير الداخلية...

فكل ما كان يشغل باله في تلك اللحظة، هو (غادة)...

لقد كشفوا مكمنها، الذي كان يتصوره أمنا...

فماذا سيفعلون بها؟ ...

ماذا؟!....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما رفع الرجال الثلاثة مسدساتهم، في وجه (غادة)، كانوا يرونها مجرد فتاة حسناء ستنهار فور رؤيتها فوهات الأسلحة...

وأن مهمتهم ستكون سريعة...

وناجحة..

فمع ثلاث مسدسات تزود كل منها بكاتم صوت قوي، يمكن أن تنتهي المهمة بضغطة

واحدة على الزناد...

ولكن المفاجأة جاءت من نصيبهم هم...

فالفتاة الحسناء، ضئيلة الجسد، تحركت بغتة، ووثبت في خفة، لتدفع الجدار المجاور لها بقدمها، وتتخذ من هذا قوة اندفاع كافية، لتعبر بحركة رشيقة فوق رءوس الرجال الثلاثة، وتركل مع عبورها أنف أحدهم بقدمها الأخرى...

ولكن الرجال الثلاثة، بالإضافة إلى الحارس الشخصي، لم يكونوا أيضا رجالا عاديين...

لقد كانوا محترفين...

محترفين تلقوا تدريبات عنيفة...

وعلى أعلى مستوى...

فعلى الرغم من سقوط الرجل، الذي ركلت هي أنفه أرضا، تحرك الباقون في سرعة، وأداروا فوهات مسدساتهم نحوها، حتى

الحارس الشخصي، الذي لا يحمل مسدسًا كاتما للصوت مثلهم...

حاولت (غادة) أن تركل مسدسا آخر، ولكن صاحبه تراجع بحركة احترافية، ثم صوَّب فوهة مسدسه إلى رأسها.

وفي نفس اللحظة، حذا الآخران حذوه، و.

وفجأة انطلقت تلك الصرخة، من خلفهم مباشرة....

استداروا - كمحترفين في سرعة بالغة، وتراجعوا بحركة عصبية، عندما شاهدوا ذلك العدد من سكان الحي، وهم ينقضون عليهم صارخين، ملوحين بكل ما استطاعوا حمله، مما يصلح كسلاح بدائي...

وعلى الرغم من احترافية الرجال الأربعة، فقد انهالت عصا غليظة على ذراع أحدهم، وأجبرته وهو يطلق صرخة مدوية، على إفلات مسدسه، في حين حاول آخر إطلاق النار، على الأعداد التي تقتحم المكان، وتتزايد في سرعة مفزعة، وكلها تطلق صرخة واحدة...

" الله أكبر..."

وتراجعت (غادة) ذاهلة، تحدق فيما يحدث، غير مصدقة كيف ازدحم المنزل القديم بكل هذا العدد في لحظات قليلة..

ومع الزحام الشديد، لم تدرك ماذا أصاب الرجال الأربعة؟!

كل ما سمعته، هو صوت الحارس الشخصي لـ (أحمد عزيز)، وهو يصرخ في صوت حمل كل الرغبة..

- ألا تدرون ما تفعلون... أنتم تواجهون...

ثم بتر صرخته بصرخة أخرى، حملت كل الألم.

والتصقت هي بالجدار، محاولة الفهم، حتى فوجئت بالهدوء يسود فجأة، ورات رجلا شعبي المظهر، له شارب شديد الضخامة، يشق الزحام نحوها، ويسألها في تعاطف أبوي قلق:

- أأنت بخير يا آنسة (غادة)؟

أدهشها سؤاله، وأدهشتها اللهجة التي نطقه بها، وبدت لها الأمور أكثر غموضا وغرابة، فاكتفت بإيماءة من رأسها، ارتسم بعدها الارتياح على وجه الرجل، وانتقل في سرعة إلى الأخرين، وهو يضع راحته على صدره، قائلا:

- أنا المعلم (خليل)، صاحب أكبر مقهى في المنطقة كلها..

تمتمت بحروف، لم تعِ هي نفسها فحواها، فابتسم في شيء من الفخر، وهو يقول:

- سيادة اللواء (مجدي) أوصانا بحمايتك.

رددت في دهشة:

- (مجدي)؟!

أجابها في حماس:

- إنه ابن حيّنا... ولد ونشأ وتربى فيه... ومنذ التحق بالشرطة، وهو يولينا بحمايته ورعايته، ومعظم العائلات هنا، له في رقبتها دين واجب السداد...

غمغمت في دهشة:

- إذن فقد أخبركم.

قال في فخر:

- بل أوصانا...

ثم أضاف في حماس:

- وما من مخلوق هنا سيكشف سره، حتى ولو قطعوا رقابنا واحدة بعد الأخر.

لمحت الرجال الأربعة في هذه اللحظة، وهم فاقدي الوعي، وبعض أبناء الحي يقومون بتقييدهم، فأشارت إليهم، قائلة في قلق:

- ولكنكم لا تعلمون من هؤلاء الرجال... إنهم..

قاطعها بإشارة حازمة حاسمة من يده:

- أيًا كانوا... لقد طلب منا سيادة اللواء حمايتك، وطلباته على رقابنا أوامر..

ثم أشار إلى الرجال الأربعة إشارة صارمة مكملا:

- حتى ولو كانوا من طرف الرئيس شخصيا.

هزت رأسها هزة خفيفة، وقالت في خفوت:

- يمكنك أن تقول: إنهم يشبهون هذا.

بدا صارمًا، وهو يقول:

- لا يهم..

ثم مال نحوها، مستطردا:

- ألا تدركين أن الوقت قد حان... نحن هنا لسنا معزولين عن الدنيا.... شبابنا يتابع الانترنت مثل معظم شباب (مصر)... وكلنا سنخرج غدا لنقول لهم: إن الكيل قد فاض بنا، ولم نعد نحتمل..

كان الجميع يقفون منتبهين، يتابعون حديث المعلم (خليل) معها، فأدارت عيناها في وجوههم، ثم شدت قامتها، قائلة:

- أنت على حق... لقد حان الوقت..

ومالت نحوه، متسائلة في صوت سمعه الكل:

- في هذه الحالة، هل يمكن أن أطلب مساعدتكم؟

أدهشها أنها ما أن انتهت من سؤالها، حتى اعتدلوا جميعا في وقفة حاسمة مشدودة وكأنهم جيش نظامي مدرب وكأنهم يعلنون موافقتهم المسبقة، على كل ما تطلبه منهم، في حين بدا المعلم (خليل) أشبه بقائد عسكري، وهو يرفع يده إلى عنقه، مجيبة بكل الحسم والعزم:

- برقابنا.

وهنا أدركت (غادة) أن الوقت قد حان...

بالفعل...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

" الباشا؟!...."....."

هتف بها قائد الحراسة، في فيلا (أحمد عزيز) القديمة، عندما استعاد وعيه، وفوجئ بهذا الأخير يجلس أمامه، وخلفه يقف حارسه الشخصي في صرامة...

وارتجف جسده كله، وهو يحاول النهوض، مكملا في هلع:

- لقد باغتنا يا (باشا)... لم نتوقع عودته إلى هنا، بعد أن نجح في الفرار، ولقد. قاطعه (احمد عزيز)، في صرامة غاضبة:

- قنبلة غاز منوم... أعلم هذا... الرائحة مازالت تترك بعض أثارها هنا، ربما لهذا فتح باب الفيلا ونوافذها، بعد أن ألقاكم كلكم هنا، وأغلق الزنزانة عليكم في إحكام..

كان الرجل شديد الارتباك والتوتر، وهو يقول:

- لسنا ندري من أين جاء بها ا. ربما كانت منزلية الصنع، تركها في ركن خفي على السطح، ثم عاد ليلتقطها، ويستخدمها، و.

مرة أخرى، قاطعه (أحمد عزيز)، بصرخة غضب هادرة:

- فاشلون.

امتقع وجه الرجل، وحاول أن يستعيد، تماسكه، وهو يغمغم:

- لم نكن تتوق..

قاطعه (أحمد عزيز) للمرة الثالثة، صارخا:

- رجل الأمن الناجح، لابد وان يتوقع كل شيء، وأي شيء... هل تدرك عواقب فشلكم هذا؟!... لقد عمل ذلك العقرب على تخديركم، واحتجزكم فاقدي الوعي هنا، ثم راح يتجول في المكان، ويفتشه بكل هدوء وراحة وثقة حتى عثر على خزانتي السرية.

غمغم الرجل في دهشة:

- أية خزانة!

صرخ فيه:

- أما زلت تتساءل؟؟

وبدا وجهه أشبه بشيطان غاضب، في قلب الجحيم، وهو يقول:

- تلك المستندات والوثائق، التي حصل عليها شديدة الأهمية والخطورة، ولابد من استعادتها بأي ثمن.

هتف قائد الحراسة، محاولا استعادة مكانته:

- سنقلب الأرض بحثا عنه، و.

قاطعه هذه المرة في حدة شديدة، وهو يلوح بذراعه كلها:

- يا زعيم الفاشلين... لقد قمت وحدي بالعمل كله، بعد أن أدركت عجزكم، عن القيام بأية مهمة غير تقليدية... لقد تراخيتم مع مضي الوقت، عندما علمتم أنكم تعملون لدى أقوى رجل في (مصر)، وتصورتم، كما تصورت أنا، أنه ما من مخلوق، في مصر كلها، سيجرؤ على الاقتراب من فيلا يملكها (أحمد عزيز).

وزفر في قوة، وكأنما يحاول إطلاق بعض المرارة الغاضبة المشتعلة في أعماقه، قبل أن يكمل بحدة أكبر:

ثم جاء: (العقرب) وكسر كل الحواجز، وتجاوز كل الحدود، وبلغت به حالته حد تحدي (أحمد عزيز)..، والأسوأ أنه بسبب عجزكم وفشلكم قد نجح فيما يسعى إليه.

غمغم الرجل في تخاذل مرتجف على الرغم من قامته الفارهة، وعضلاته المفتولة وجسده القوي:

- مرنا يا (باشا).

زفر (أحمد عزيز) مرة أخرى، وتراجع في مقعده، وضم شفتيه في قوة، وكأنما يحاول كتمان انفعالات التي تفي بحجم بركان غضبه في أعماقه، لم أعتدل دفعه واحدة قائلا في صرامة:

- لقد علمت أين تختبئ زميلته، وأرسلت من يعيدها إلى هنا... وبقي أن أضع يدي على ذلك (العقرب)، وأستعيد منه أوراقي.

بدا الرجل شديد التخاذل، وهو يسأله، في خفوت شديد:

- ألم تعلم أيضا أين هو يا (باشا)؟!

التقط (أحمد عزيز) كمية كبيرة من الهواء في محاولة لتبريد نيران غضبه، وألقى نظرة على جهاز صغير في يده، قبل أن يقول:

- إنه يجيد التعامل مع التكنولوجيا، مثل كل بني جيله، ولكنه يفوقهم بخبرته وذكائه، وفهمه المدهش للطبيعة البشرية..

لم يفهم قائد الحراسة، ولا حتى الحارس الشخصي، ما الذي يعنيه (أحمد عزيز) بقوله هذا، إلا أن كلاهما لاذ بالصمت، وتركاه يتابع:

- ولكن التكنولوجيا التي يعرفها ويجيدها، هي التكنولوجيا المتاحة للمواطن العادي وليس التكنولوجيا المتاحة لذوي السلطة.

تنحنح قائد الحراسة، وتساءل في حذر شديد الخفوت:

- ولكن هل علمت أين هو يا (باشا)؟

التقط (احمد عزيز) نفَسَا عميقا آخر، وألقي نظرة أخيرة على شاشة الجهاز الصغير الذي يحمله، قبل أن يجيب، في لهجة لم تخل من كل التوتر واتسعت عيون قالد الحراسة والحارس الشخصي عن آخرهما:

فقد كانت المفاجأة مذهلة...

جدًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- الختام..

أسرع اللواء (مجدي) الخطى، وهو يغادر مبنى وزارة الداخلية، بعد أن سلَّم زبه الرسمي وسلاحه وأوسمته، بناء على قرار إقالته، الذي أصدره تعسفًا وزير الداخلية، والتقط هاتفه المحمول من جيبه ليجري اتصاله بالمعلم (خليل)، وفق المصطلحات المتفق عليها؛ للاطمئنان على (غادة)، عندما استوقفه عميد شرطة حديث العهد برتبته، وهو يقول في لهجة متعمدة الاستفزاز:

- إلى أين؟

واجهه (مجدي) في تحدٍ، وهو يقول:

- إلى الخارج... من الواضح أنك علمت بخبر إقالتي، وإلا لأدّيت لي التحية أيها العميد.

لم ترق له ابتسامة ذلك العميد الحديث وهو يقول في تشفٍ واضح:

- ليس هذا فقط ما علمته..

ثم شد قامته، واكتسبت لهجته صرامة مصطنعة، وهو يضيفه:

- لقد أمر سيادة الوزير بالتحفظ عليك، ومنعك من مغادرة مبنى الوزارة لحين صدور أوامر أخرى.

تطلع إليه (مجدي) في صمت دون تعليق ودون حتى انفعال...

كان يتوقع هذا إلى حد ما...

ولكنه ربما كان يأمل ألا يحدث بهذه السرعة...

فاحتجازه الآن، يعني أنه لن يعلم ما يدور في الخارج...

ماذا أصاب (نديم)؟!...

وكيف صارت (غادة)؟!

وعلى الرغم من ذلك العدد المبالغ من رجال الشرطة، والذي أحاط به على نحو مدروس، وكأنه واحد من كبار الإرهابيين العالميين، وعلى الرغم حتى من تلك الأسلوب المستفز، الذي انتزع به ذلك العميد حديث العهد، هاتفه المحمول من يده، إلا أنه ظل هادئًا، متماسكا، وهو يقول:

- من الواضح أن التجاوزات قد بلغت ذروتها.

أجابه العميد في خشونة:

- لا تجاوزات أيها المواطن.. كل ما نقوم به قانوني تماما..

سأله، في لهجة هادئة، لم تخف نبرة سخرية لاذعة:

- وفقا لأي قانون؟!

أجابه العميد في غلظة خشنة:

- قانون الطواري.

هز (مجدي) رأسه في هدوء، قائلا:

- هل تعلم؟ ... الواقع أنني أشعر بالندم..

أدهشت العبارة ذلك العميد حديث العهد، فغمغم غير مصدق:

- حقًا..

حملت شفتا (مجدي) ابتسامة عجيبه، وهو يقول:

- بالتأكيد.

ثم مال نحوه مستطردا:

- إنني أشعر بالندم لأنني لم أعمل إلى جوار (العقرب) منذ البداية.

اتسعت عينا الرجل من شدة هلعه، ثم انعقد حاجباه في غضب، وهو يقول:

– سنرى..

استعاد (مجدي) ذلك الشعور، الذي يملأ نفوس أبناء الحي الشعبي، الذي ينتمي إليه والذي ينبئ بأن الغد سيحمل الكثير، وقال في ثقة:

- نعم..... غدا سنرى.

وعلى الرغم من دهشته وغضبه، لم يفهم ذلك العميد شيئا...

أي شيء...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

" ولكن هذا مستحيل...".....

على الرغم منه، هتف قائد حراسة فيلا (أحمد عزيز) القديمة بالعبارة، أمام هذا الأخير الذي أشار بذلك الجهاز الصغير الذي يحمله بيده، قال في شيء من الزهو، على الرغم من غضبه:

- هذه هي التكنولوجيا، التي لا يملكها ذلك (العقرب)... خزانتي السرية كانت مزودة بجهاز تأمين من نوع خاص، مجهز بحيث يطلق سائلا غير مرئي، على كل محتوياتها، إذا ما فتحها أحدهم عنوة... وجزء من ذلك السائل، سيصيب ملابس من يفتحها حتما...

وهذا الجهاز الصغير، يمكنه كشف وجود ذلك السائل، في الخواص المغناطيسية، خلال مدي محدود... وما أرصده هنا، يؤكد أن السائل على مسافة قريبة مني.

واستعاد غضبه وعصبيته، وهو يضيف:

- وداخل الفيلا بالتحديد.

تحرك قائد الحراسة في حركة عصبية، توحي باندفاعه للبحث في الفيلا، ولكن (أحمد عزيز) استوقفه بإشارة صارمة من يده، وهو يقول في حدة:

- إلى أين أيها الفاشل؟!

أجابه الرجل في توتر شديدة:

- تقول: إنه مازال الفيلا يا (باشا)، وعلينا أن...

قاطعه (أحمد عزيز) كعادته في حدة:

- عليك أن تستمع إلىّ هذه المرة أيها الغبي.

تراجع الرجل في توتر أكثر، وتطلع إليه ينتظر أوامره، فرفر (أحمد عزيز) مرة أخرى في قوة قبل أن يقول:

- لن أسمح له بتحقيق انتصار جديد، على (أحمد عزيز) ... هذه المرة ستسير الأمور وفقا للخطة التي أضعها أنا.

ثم تراجع في مقعده، واتخذ وضعية متغطرسة، وكأنه ملك يجلس على عرشه، وهو يضيف:

- سنقوم بتشغيل كل وسائل الأمن والحراسة، وننشر الرجال في حديقة الفيلا وحولها، ولكن لنمنع الخروج منها هذه المرة، وليس الدخول إليها... وسيصعد أحد قناصينا إلى سطح إحدى

البنايات المجاورة لمراقبة السطح، واصطياد أي عقرب يصعد إليه أو يحاول الفرار عبره... هكذا تكون قد أحكمنا الحصار، وبعدها...

- لا داع لكل هذا.....

قاطعته العبارة بلهجة شديدة السخرية، جعلت الجميع يلتفتون إلى مصدرها بحركة حادة، قبل أن يتفجر مزيج من الدهشة والغضب والاستنكار في نفوسهم، إلى حد جعل (أحمد عزيز) يهتف بلا وعي:

- مستحيل!

فعند باب القبو، وفي هدوء شديد، كان يقف أخر شخص يمكن توقعه..

(العقرب)...

لم يكن حتى يحمل سلاحا يصوبه إليهم...

كان فقط يقف هناك عاقدًا ذراعيه أمام صدره، ومستندًا إلى جانب الباب، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة...

والأهم، أنه كان يرتدي ذلك القناع الأسود المعروف....

قناع (العقرب)...

وفي حركة عصبية عنيفة، سحب الحارس الشخصي مسدسه، وبحث قائد الحراسة عبثا عن سلاحه، ولكن (نديم) ظل محتفظة بهدوئه، وهو يقول:

- ذلك السائل لم ينطلق من خزانتك بالمناسبة.

انعقد حاجبا (أحمد عزيز) في شدة، وشعر، وربما لأول مرة في حياته، انه عاجز عن النطق...

كل ما فعله، هو أن أمسك معصم حارسه الشخصي؛ ليمنعه من إطلاق النار على (نديم) الذي تابع بنفس الهدوء:

- ربما لأنني توقعت أمر كهذا، ففصلت التيار الكهربي عن الخزانة، قبل أن أحطم رتاجها الخاص..

لم تكن فكرة فصل التيار الكهربي تلك، قد خطرت ببال (أحمد عزيز)، مما أورثه المزيد من الغضب، إلا أنه لم يملك سوى الاعتراف بذكاء وبراعة (نديم)، على الرغم منه، وهو يشعر بغصة في حلقه، ويقول بعد جهد جهيد، في صوت خرج من بين شفتيه مختنقا متوترة:

- ولكن الوثائق هنا.... جهازي رصدها.

هز (نديم) كتفيه، قائلا:

- جهازك رصد السائل، الذي انسكب داخل الخزانة، عندما حطمت الزجاجة الصغيرة التي تحويه، ولم يرصد الوثائق..

صاح قائد الحراسة في عصبية:

- ماذا تنتظر يا (باشا)؟!... فلنقتله على الفور.

قال (نديم) في سرعة، دون أن يمنح (أحمد عزيز) فرصة الإجابة:

- (الباشا) لن يصدر مثل هذا الأمر، قبل أن يعلم يقينا أين وثائقه ومستنداته؛ فهو ليس من الطراز، الذي يمكنه أن يجازف بهذا..

اعتدل (أحمد عزيز) منتفضا، وبدا شديد الغضب، وهو يقول:

- ربما... ولكن لدىّ وسائل أخرى.

انتبه (نديم)، في تلك اللحظة فقط إلى تلك الحركة الخفيفة من خلفه، وحاول الاستدارة بكل سرعته، ولكن تلك الضربة كانت أكثر سرعة وهي تهوى على مؤخرة عنقه في قوة.

وفي اللحظة التالية، أظلمت الدنيا أمام عينيه..

وهوى فاقد الوعي...

امام (أحمد عزيز).

مباشرة...

اما ذلك الذي تسلل خلفه؛ وباغته بتلك الضربة، فقد صوب مسدسه إلى رأسه، وسحب إبرته و.

" ليس الآن... "

هتف بها (أحمد عزيز)، بكل الصرامة والعصبية، فارتفعت إليه كل العيون، ليضيف في مقت واضح..

- لدي خطط أخرى بشأنه.

ومع قوله، أدرك الموجودون أن الموت ليس هو ما ينتظر (نديم) --

بل هو ما سيتمناه قريبا...

وبشدة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يدرِ (نديم) كم من الوقت بقي فاقد الوعي، ولم تكن هناك نافذة واحدة، في ذلك القبو الحصين، يمكن أن تنقل إليه كيف

هو الضوء في الخارج، ولكنه، وعندما استعاد وعيه، كان (أحمد عزيز) يجلس على مسافة أمتار قليلة منه يتناول إفطاره على مائدة أضيفت إلى القبو، وأحد رجاله يقوم على خدمته، والباقون يقفون على مسافة قريبة، في وقفة عسكرية، وكأنهم في طابور رسمي....

وما أن فتح (نديم) عينيه، حتى توقف (أحمد عزيز) عن تناول إفطاره، والتفت إليه بنظرة شامتة، وهو يجفف فمه بمنشفة غالية الثمن، وقال متحديا:

- من المدهش والمفاجئ، أن رأسك لم يكن بالصلابة التي تصورناها، فلقد بقيت فاقد الوعي لأكثر من عشر ساعات..

التفت (نديم) يلقي نظرة على تلك الشاشة الكبيرة التي يتركها (أحمد عزيز) داخل القبو، للاتصال بمن يحتجزه فيه، ثم قال في هدوء:

- كنت أحتاج إلى النوم، بعد أن قضيت يوما كاملا، في إثبات فشل رجال أمنك.

توتر الرجال بشدة مع عبارته، ولكن (أحمد عزيز) ابتسم، واستدار بجسده كله إليه، وهو يقول:

- ربما اتفق معك في هذا، ولكتلك خسرت في النهاية.

لم يندهش (نديم) من أسلوب (أحمد عزيز)، وذلك الهدوء الذي يتحدث به...

ولم يندهش أيضا، من كونه مقيدا إلى ذلك المقعد الكبير في إحكام، في منتصف الحجرة أمام (أحمد عزيز) مباشرة...

بل ولم يندهش حتى، لأنهم تركوا قناعه على وجهه...

كان يبدو وكأنه قد توقع كل هذا، وهو يقول في هدوء، لا يناسب شخصا في موقفه:

- النهاية لم تأت بعد.

والتمعت عيناه في تحدٍ، مضيفا:

- فأنت لم تعثر على مستندات ووثائقك التي تثبت فسادك وتجاوزاتك ورجل مثلك لن يقدم على التخلص مني، قبل أن يستعيد كل ما يدينه.

تلاشى هدوء (أحمد عزيز) الزائف مع تلك الكلمات، وبدا شرسًا إلى حد كبير، وهو يقول في حدة:

- أين اخفيتها؟! لقد فتشنا كل ركن في الفيلا، وحتى في الحديقة، طوال الساعات العشر الماضية، ولم نعثر لها على أثر..

ابتسم (نديم) في سخرية، وهو يقول:

- من الواضح أنك تدرك مدى خطورتها على مستقبلك.

صاح فيه (أحمد عزيز):

- مستقبلي؟ ... هل تتصور أن متحذلقًا مقنعًا مثلك، يمكن أن يهدد مستقبل رجل مثلي؟

اكتسب صوت (نديم) صرامة مفاجئة، وهو يقول:

- القناع الذي أضعه على وجهي يرمز إلى العدالة، التي يختفي خلفها رجل قانون أدرك ذلك الخيط الرفيع، بين القانون والعدالة، أما ما خلف القناع الذي تضعه أنت، فهو ذئب وحشي شرس، وقرد يجيد تسلق السلطة، وليس حتى من أجل مبدأ أو فكر أو عقيدة، بل من أجل المال والنفوذ، والشعور بالقوة الزائفة، والقدرة على فرض الإرادة..

بدا وكأن الكلمات قد صدمت (أحمد عزيز) ورجاله، فقد ساد المكان صمت عجيب بعدها، واتسعت عينا أقوى رجل في (مصر) لحظات، قبل أن يرتسم الغضب بأبشع صورة على ملامحه، وهو يقول، بكل ما يعتمل في نفسه:

- لو أنك تصورت أنك، بكلماتك الإنشائية هذه، يمكن أن تربح المعركة، فأنت واهم... وغبي أيضا.... تلك المستندات، ومهما بلغت من خطورتها، لا قيمة لها، في مواجهة أقوى رجل في (مصر)... الرجل الذي يمكنه أن يزيح وزير العدل نفسه من موقعه، بمحادثة هاتفية واحدة... حتى ولو قدمتها إلى النائب العام شخصيا، فما أن تبدأ التحقيقات الرسمية، حتى تكون قد اختفت بوسيلة ما، وسيربح (أحمد عزيز) في النهاية كالمعتاد...

مال (نديم) برأسه قليلا، وهو يسأله في اهتمام:

- إذن فأنت تعترف بأنك فاسد، بل زعيم الفساد، في (مصر) كلها، وبأنك قد تحايلت وزورت، وتجاوزت، للاستيلاء على مصالح، وشركات، وأراضي، ومشاريع كبرى، وجنيت من المال الحرام أموالا بالمليارات، نهبتها من عرق وكد المصريين.

صاح فيه (أحمد عزيز)، وهو ينهض من مقعده، ويندفع نحوه في حدة:

- فليكن... إنني أعترف بكل هذا، ولكن بِم سيفيدك اعترافي، وأنت تحيا لحظاتك الأخيرة في هذه الدنيا.

التمعت عينا (نديم)، على نحو أدهشه، وهو يقول:

- ربما أفادني، بأكثر مما يمكنك أن تتصور..

توقف (أحمد عزيز) بغتة، وراوده شك مفزع جعله يجذب (نديم) من ياقته في عنف وهو يقول:

- لماذا عدت إلى القبو؟

ابتسم (نديم) ابتسامة هادئة، وهو يقول:

- حاول أن تستنتج.

انعقد حاجبا (أحمد عزيز) في شدة، وهو يقول:

- كان بإمكانك أن تفرّ، دون أن نظفر بك... ولم تكن تحمل حتى سلاحا، في محاولة للسيطرة علينا!!... فلماذا عدت إلى هنا؟

قبل أن يجيب (قديم)، اندفع أحد رجال (أحمد عزيز) إلى القبو، وهو يقول في توتر شديد:

- معذرة يا باشا، ولكن هناك لواءان من الداخلية، يريدان مقابلتك فورا، ويقولان إن الأمر بالغ الخطورة..

التفت إليه (أحمد عزيز) في حده وهو يقول:

- أي أمر هذا؟

فوجئ بالجواب يأتيه من (نديم)، الذي قال في هدوء مستفز:

- ربما آتيا ليخبراك أن الوزير يحاول الاتصال بك دون جدوى... وربما من أكبر من الوزير ورئيس الوزراء أيضا، فلقد نسيت أن أخبرك، أنني قد وضعت في القبو جهازا خاصا يمنع إشارات الاتصالات من بلوغ أية هواتف محمولة.

احتقن وجه (أحمد عزيز)، وهو يعود إليه بصره مرة أخرى، فتابع (نديم) بنفس الهدوء:

- فكلهم يريدون تحذيرك، من أنك ضيف على شبكة الانترنت من خلال بث مباشر من داخل القبو..

وأدار رأسه إلى الشاشة الكبيرة المعلقة على الجدار، مضيفا في ظفر:

- عير الكاميرا الصغيرة في شاشتك هذه، والتي أوصلتها بشبكة الانترنت مباشرة في هذه المرة كان احتقان وجه (أحمد عزيز) بالغ الشدة، حتى لقد بدا وكأن الدماء ستتفجر من وجهه، ونديم يكمل في ارتياح:

- ليس (مصر) كلها، ولكن العالم أجمع شاهد اعترافك هذا، على الهواء مباشرة، وأنا أعلم العالم كله الآن، إنني (نديم فوزي)، المحامي الذي ترافع ضدك منذ أيام، فإذا ما أقدمت على قتلى بعدها، فسيضيف هذا إلى جرائمك، جريمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد، ولست أظنك بحاجة إلى أن تكون محاميًا، لتعلم أن عقوبة هذه الجريمة وحدها هي الإعدام شنقا..

امتقعت وجوه رجال (أحمد عزيز)، وتبادلوا نظرات هلعة ملتاعة، وقد أدرك كل منهم أن الكاميرا قد نقلت وجوههم جميعا، وأن العقوبة ربما تشملهم أيضا....

أما (أحمد عزيز) نفسه، فقد صرخ بصوت محتقن..

- حطموا تلك الشاشة.

بدا (نديم) ساخرًا، وهو يراقبهم يندفعون نحو الشاشة، وينهالون عليها بأسلحتهم، حتى أسقطوها محطمة، وقال في هدوء:

- ترى كم مليونا سجلوا هذا، وسينقلونه إلى ملايين غيرهم؟

هتف الحارس الشخصي في توتر بالغ:

- لابد وأن نبتعد من هنا بسرعة يا (باشا).

صرخ فيه (أحمد عزيز):

- ابتعدوا أنتم. (أحمد عزيز) لا يفر من أمام رجل واحد أبدا.

اندفع رجل أخر من رجاله إلى المكان، وهو يقول مرتجفا:

- لواءا الشرطة انصرفا على عجل يا باشا، فهناك آلاف يحيطون بالفيلا، ويحاولون اقتحامها.

صرخ (أحمد عزيز):

- أطلقوا عليهم النار... اتصلوا بوزارة الداخلية... بقوات الأمن المركزي، بـ...

قاطعه الرجل مع شدة ذعره:

- إنهم آلاف يا باشا.... الان.. المشهد مفزع للغاية... لابد وأن تفر من هنا، قبل أن...

قاطعه فجأة دوي صرخات قوية ورصاصات تتطلق، على نحو يوحي بأن اقتحام الفيلا قد تم بالفعل، فتحول وجه (أحمد عزيز) من الاحتقان إلى الامتقاع، في حين أمسك حارسه الشخصي ذراعه، وهو يقول في حزم:

- ما من سبيل آخر يا (باشا).. الكثرة تغلب الشجاعة والقوة.... لابد وأن تخرج من هنا... وبأقصى سرعة.

ألقى (أحمد عزيز) نظرة شديدة المقت على (نديم)، وحاول أن ينتزع مسدس حارسه الشخصي ليطلق عليه النار، ولكن الحارس

جذبه في شيء من العنف، وهو يقول:

- هيا يا (باشا)..

كان رجال أقوى رجل في (مصر) (سابقا)، قد بادروا بالفرار من القبو، فلم يملك هو سوى اللحاق بهم، وقد امتلأت نفسه بمزيج من الغضب والمقت والهزيمة، في حين تصاعدت الصرخات والهتافات في نفس الوقت الذي توقف فيه دوي الرصاصات، وسمع (نديم) وقع اقدام تقترب عدوا من القبو، ثم ظهرت (غادة) عند مدخله، وخلفها المعلم (خليل)، وما أن رأته حية، حتى هتفت في ارتياح:

- حمدًا لله.. حمدًا لله.

أسرعت تحل وثاقه، يعاونها المعلم (خليل)، الذي سأله في حماس وانفعال:

- هل وضعوا هذا القناع على وجهك؟

أجابه (نديم)، وهو يتحرر من قيوده:

- إنهم لم ينزعوه..

هتفت (غادة)، وهي تشعر برغبة شديدة في احتضانه:

- لقد فعلتها يا (نديم).. (العقرب) حقق أعظم انتصاراته.

كان هناك المزيد من الرجال، يندفعون إلى القبو، فهتف بهم المعلم (خليل):

- ابقوا خارجا، وافسحوا لنا المجال سنخرج لكم نحن..

سأل (نديم) (غادة)، وهو يتجه وسط الحشد المندهش من قناعه، إلى خارج القبو:

- أنتِ أتيتِ بهم؟

أجابته فرحة مزهوة:

- إنهم شعب (مصر)... الشعب الحقيقي، بشهامته، ومروءته، وعظمته.

وابتسم المعلم (خليل)، وهو يفتل شاربه، قائلا:

- اعتبرناها بروفة، لما سنقوم به بعد ساعات في كل ميادين (مصر).

غمغم أحد الرجال في حيرة، عندما بلغوا مدخل الفيلا:

- لقد قبضنا على كل الرجال هنا، ولكننا لم نعثر على (أحمد عزيز).

قال (نديم) في هدوء:

- لديه حتما وسيلة للفرار من هنا، ولكن لن توجد لديه وسيلة واحدة؛ للفرار من كل شعب (مصر).

غمغم الرجل مرة أخرى، في حيرة أكبر:

- وماذا عن هذا القناع؟؟

كان ضوء الشمس يغمرهم جميعا، عندما وضع (نديم) يده على كتف (غادة)، وتنهد في ارتياح، ثم نزع القناع عن وجهه بيده الأخرى، قائلا في حزم:

- لم تعد له ضرورة الآن بالتأكيد.

قالها، وألقى قناع (العقرب) في الهواء، والتفت إلى (غادة بابتسامة ثقة وارتياح كبيرة...

وسجَّل التاريخ تلك اللحظة، باعتبارها مشهد النهاية، في أسطورة (العقرب)...

ومشهد البداية، في أسطورة أعظم..

أسطورة الثورة..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات:

العقرب..

سيف العدالة (الرواية الاولى)

1-المجرم..

2- رجال الشر..

3- المولد..

4- الحفل..

5- التحدي..

6- حلبة النزال..

7- اعلان ميلاد..

8- بلا كلل..

9- الشك..

10- احتيال..

11- لسعة العقرب..

12- الطعنة..

13- حصار..

14 - الفخ..

15- اختفاء..

16- هجوم...

17- الاعداد..

18- المباغتة...

19- كل الاحتمالات..

20- يوم المعركة..

21- من يربح؟..

22- الجولة الاخيرة.

ملك الجريمة (الرواية الثانية)

1-قضية جديدة..

2- العودة..

3- الملك..

4- وبدأ القتال..

5- السقوط..

6- حصار..

7- زائر غامض..

8- صفقة الموت...

9- ابتسامة الموت..

10- في اللحظة الأخيرة..

11- فرصة..

12- صفقة الموت..

13- النجاة..

14- الجولة الثانية..

15- التحدي..

16- في ظلام الليل..

17- المحترفة..

18- وجها لوجه..

19- القتال..

20- الهجوم..

21- الدليل..

22- المأزق..

23- الاستدعاء..

24—المواجهة..

25- وبدأت النهاية...

26- زيارة ليلية..

27- انهيار...

28- النهاية..

الإمبراطـورة (الرواية الثالثة)

1- صـورة..

2- المناورة الأولى..

3- شبح الماضي..

4- وبدأت المعركة..

5- قواعد اللعبة.

6- المساومة..

7- الفخ..

8- ليلة (العقرب)..

9- هزيمة..

10- قتل.. وقتل..

11- وراء القضبان..

12- زيارة ليلية..

13 - كشف الأوراق..

14- خطة الأفعى..

15- لعبة العقارب..

16- قمة السقوط..

17- الختام..

مملكة الشَّر (الرواية الرابعة)

1- المتـــــــهم..

2- وجه العدالة..

3- اللعبة..

4- وسقط الحاجز..

5- اللقاء..

6- وبدأت اللعبة..

7- الخدعة..

8- العقارب..

9- الختـــام..

العِصـَـابة (الروية الخامسة)

1- جـــنون..

2- الجريمة..

3- الدليل..

4- الشـــبح..

5- جريمة..

6- طبول الحرب..

7- هجوم..

8- اقتحام..

9- مطاردة..

10- كيف؟

11- الدليل..

12- ناقوس الحرب..

13- القانون..

14- الخطة..

15- سقوط..

16- المواجهة..

17- المجرمون..

18- ضربة عند الفجر..

19- العصابة..

20- أول الخيط..

21- السقوط..

22- الختام..

مهمة رسمية (الرواية السادسة)

1- زيارة مفاجئة..

2- عودة (العقرب)..

3- الشحنة..

4- الفخ..

5- صراع الذئاب..

6- المبيد.

7- اغتيال..

8- استيراد.. وتصدير..

9- حماية..

10- قبضة العدو..

11- الفريسة..

12- المواجهة الأخيرة..

خلف القناع (الرواية السابعة والأخيرة)

1- التحـــدي..

2- الوزيـــر..

3- غادة..

4- حصار..

5- الثعلب..

6- الفخ..

7- العقرب والثعبان..

8- بالقانون..

9- الساعات الأخيرة..

10- الختام..

Notes

[←1]

(روبين هود): واحد من أكثر الشخصيات خصوصا في الأدب الانجليزي، فلقد كتبت عنه عشرات الروايات والأناشيد، دون أن يجزم مخلوق واحد بها إذا كان حقيقة أم خيالا وهو طبقا للروايات – شابا من اسرة نبيلة، لجأ الى غابات (شيرود)، بسبب ظلم ملك البلاد، وجمع حوله مجموعة من الرجال الاشداء، وراحوا يسلبون أموال الأثرياء، ويوزعونها على الفقراء.

[←2]

(*) لمزيد من التفاصيل، راجع قصة (العقرب) سيف العدالة.

[←3]

(*) الفيديو (8 مم): نوع جديد من أنظمة تسجيل واستعادة (الفيديو) تم ابتكاره عام 1980 م، وهو صغير الحجم يستخدم شرائط مغناطيسية، في نفس حجم الشرائط المستخدمة في أجهزة التسجيل الصوتية (الريكوردر)، ويعتبره العلماء الصورة التي ستكون عليها كل أجهزة الفيديو في المستقبل..

كتاب كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية

أزاق

رواية مجمعة
(اربعة اجزاء في كتاب واحد)

د. نبيل فاروق

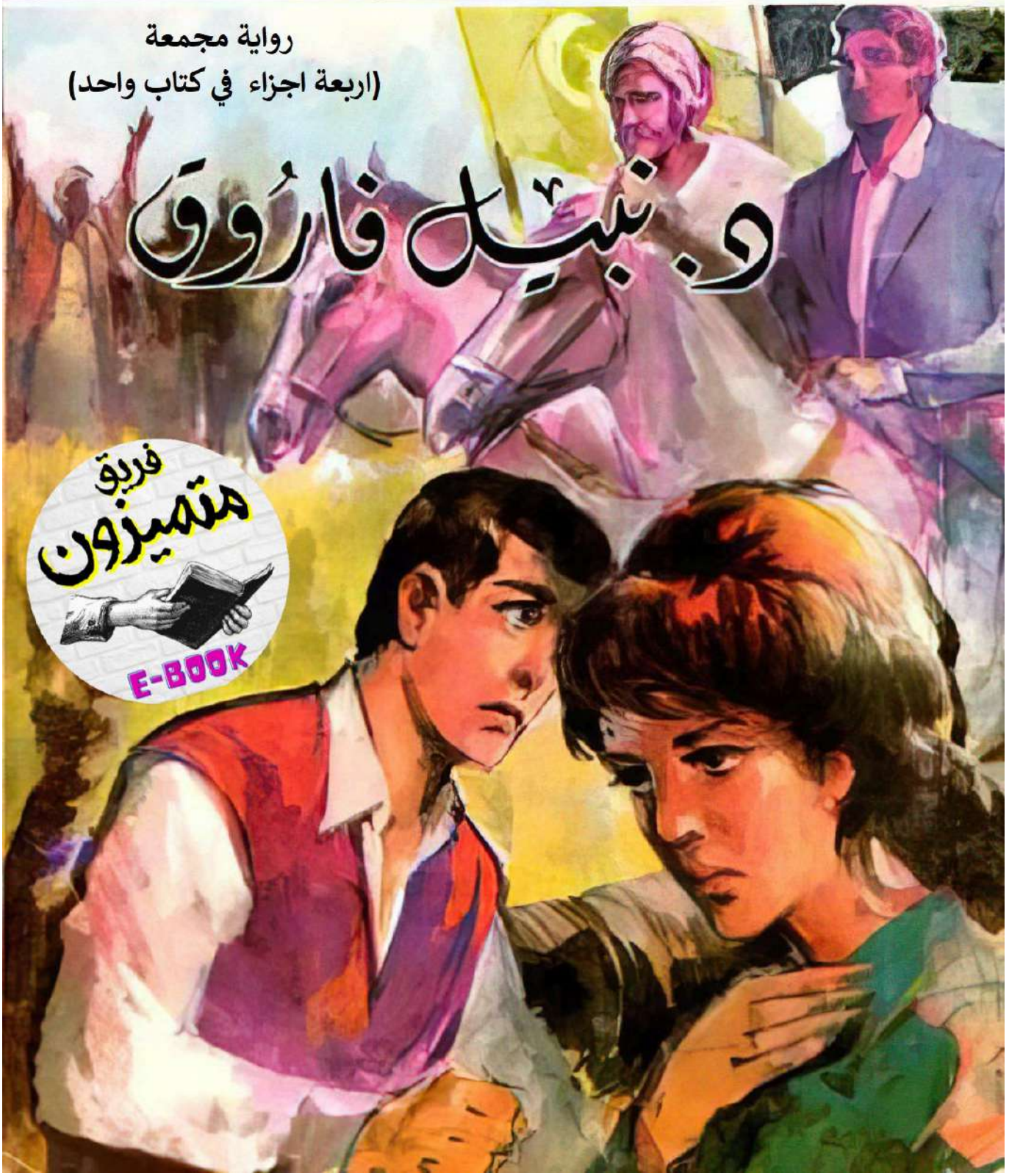

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل والتجميع لرواية (أرزاق)

فريق
متميزون
E-BOOK

Link – لينك القنـــــاة
Link - لينك الجروب

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل رواية أرزاق للراحل د. نبيل فاروق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها، كما ننوه بأن د. نبيل فاروق كتب، عبر حسابه على موقع التدوينات القصيرة «تويتر»:

"أعلن أنا د. نبيل فاروق عن تنازلي التام ودون أي مقابل مادي عن الحقوق الأدبية والمادية عن تحويل جميع مؤلفاتي وكتاباتي المطروحة والمستقبلية للطباعة بطريقة برايل للمكفوفين لأي جهة يمكنها تقديمها لهم دون استهداف الربح المادي."

مع تحيات:
فريق (متميزون)
(محمد شوقي)
(محمد ماهر)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب
Link – لينك القنـــــاة

رواية:

أرزاق

الأجزاء الأربعة (مجمعة)

د. نبيل فاروق

رواية اجتماعية طويلة، تبدأ أحداثها مع البدايات الاولي لثورة الثالث والعشرين من يوليو عام 1952، وتحكي قصة أسرة ريفية، ارتبط قدرها، كما ارتبط قدر مصر كلها، في تلك الأيام، بالثورة وأبناءها، وجرت بها الاحداث.. مثيرة.. عنيفة.. يتصارع فيها القديم مع الجديد، والعدل مع القوة، والحب مع المطامع..
وفي خضَّم الاحداث تولد قصص الحب.. وتموت، وتتضح صورة التغيير الاجتماعي المصاحب للثورة، وتنمو أجيال جديدة، تطأ بأقدامها القديم.. ويصعد نجم الاسرة مع مولد العهد الجديد، وينتقل الصراع الي داخلها، مع التطورات المتلاحقة للمجتمع الذي يخوض أمواج السياسة المتلاطمة، ويتصدى للأطماع والعدوان..
ويتطور المجتمع ويتشكل في سرعة دون ان يتوقف لحظة ليسأل نفسه: الي اين يقوده هذا؟ وكيف ستحاسبه الأجيال القادمة..
على كل ما حققه.. وكل ما أخفق فيه..
على الانتصارات والهزائم..

د. نبيل فاروق

أرزاق

الجزء الأول

د. نبيل فاروق

من قلب الليل يأتي النهار.. ومن قلب الظلم تأتي الرحمة.. ومن المحال أن نأمل دوام الحال..

د. نبيل فاروق

(حسين)

(البنهاوى)

(مليحة)

(مفيد)

1- العائلة..

تمايلت أشجار القطن الصغيرة، ذات الثمرات البيضاء الناصعة، عبر مساحة شاسعة من الحقول، وبدت في استجابتها لنسمات الهواء أشبه بعذراء طروب، تفتح قلبها للحياة، وانتعشت عروقها بحب نابض حالم، فأسبلت عينيها، وراحت تتمايل مع خفقات قلبها...

وفي نشوة، راح الحاج (محمد البنهاوي) يراقب أرضه الواسعة، وقد سرت في نفسه نشوة نصر، لم تفارقه منذ زمن..

إنه يمتلك كل هذه الأراضي يمتلك ألف فدان دفعة واحدة

وأطلق الحاج (البنهاوي) من أعماق صدره تنهيدة قوية، وهو يعود بذاكرته إلى الوراء..

إلى ربع قرن مضى..

كان آنذاك فقيرا معدما، نزح إلى تلك القرية من قرى محافظة الغربية، باحثا عن عمل، أو مصدر جديد للرزق، بعد أن انقطعت أسباب رزقه في قريته، القريبة من مدينة (بنها)، إثر شجار نشب بينه وبين مأمور الناحية..

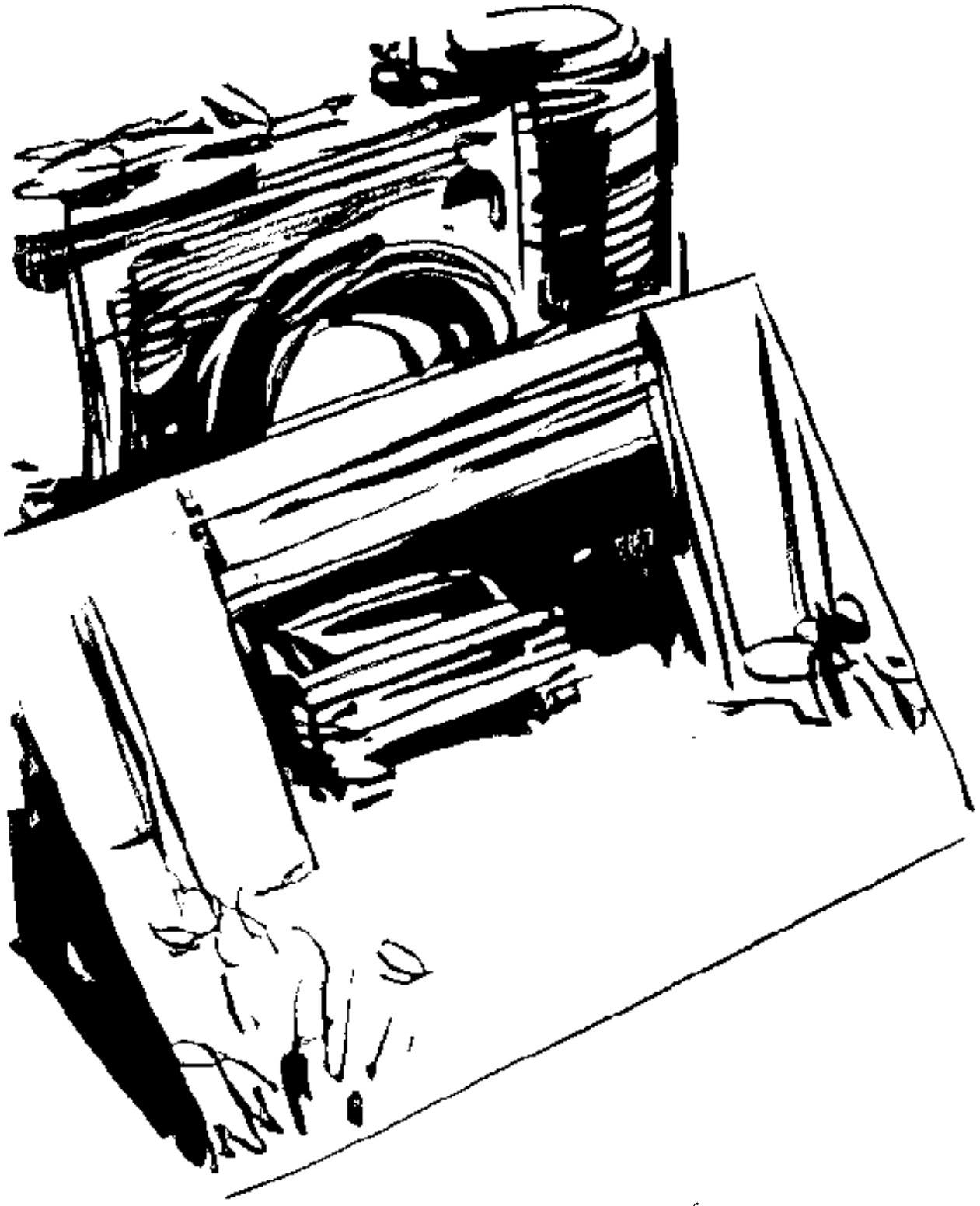

وفي تلك القرية، بدأ حياته وفيها حمل اسم (البنهاوي)، نسبة إلى أصله

وطوال ثلاثة أعوام كاملة، راح يدخر الملاليم والقروش، ويحيا حياة أقرب إلى الضنك، حتى استطاع شراء أول قطعة أرض، كانت قيراطين، في واحدة من أفضل أراضي القرية..

(الزوجـة)

وبامتلاكه القيراطين، استطاع (البنهاوي) أن يتقدم للزواج من ابنة الحاج (علام)، شيخ القرية، وكانت هذه الزوجة هي قدم الخير، كما تقول الأمثال الشعبية، فمع زواجه منها تضاعف الرزق، وانهالت عليه الأموال، ومع ابنته الأولى (نعيمة)، التي أصر على أن يطلق عليها اسم أمه، استطاع (البنهاوي) أن يمتلك فدانا كاملا

من الأرض الزراعية الخصبة، راح يعمل فيه بكل كد وجهد، حتى ضاعفه إلى فدانين في العام التالي، مع مولد توحيده)، ابنته الثانية.

وعلى الرغم من سعادته بإنجاب (توحيده)، إلا أن جزءا من نفسه راح يتمنى لو أنه أنجب ولدا يعاونه في عمله فيما بعد، ويحمل اسمه إلى الأجيال المقبلة، ويرث الأراضي التي يحلم بامتلاكها.
وعندما أصبح (البنهاوي) يمتلك خمسة أفدنة دفعة واحدة، أنجبت له زوجته الابنة الثالثة (زينب)، التي ورثت الكثير من جمال أمها، بالإضافة إلى أنف والدها الطويل..

وتضاعف الحلم في أعماق (البنهاوي). حلم إنجاب الولد..
وفي واحدة من جلساته مع شيخ الخفراء (بسيوني)، سأله هذا الأخير وعيناه تحملان مسحة خبث:
- الا تفكر في إنجاب ولد يا حاج؟ تنهد الحاج (محمد البنهاوي)، وغمغم في أسي - وهل ينجب المرء بالتمني والتفكير.. إنها مشيئة الله (سبحانه وتعالى) أجابه (بسيوني) في دهاء:
- اسع يا عبد يسع الله (سبحانه وتعالى) معك
التفت إليه الحاج (البنهاوي)، يسأله في دهشة
- ماذا تعني؟
أجابه في دهاء:
- لو أن ابنة (علام) لا تنجب أولادا، فغيرها تفعل
ارتد الحاج البنهاوي مذعورا.. أيتزوج أخرى؟ أيطعن زوجته بلا جريرة، سوى أنها لا تنجب أولادا؟!!
وماذا عن مشيئة الله (سبحانه وتعالى).. من أدراه أن الجديدة ستنجب ذكورا؟ وفي صرامة قال:

- لا يا (بسيوني).. لن أتزوج أخرى أمسك (بسيوني) ذراعه، وهو يقول في لهجة الناصح:
- صدقني يا حاج.. الذكر عزوة.. من سيرث أرضك؟ من سيعاونك في شيخوختك لابد من الولد.
أربكت العبارة تفكير الحاج (البنهاوي) مرة أخرى
نعم.. من سيرثه... لابد من الولد.. لابد

وعاد الحاج (البنهاوي) إلى منزله وراسه يدور، وكلمات (بسيوني تملأ كيانه وأعماقه
هل يتزوج أخرى؟ هل يسعى إلى الولد؟ وفي تلك الليلة لم ينم الحاج (البنهاوي)..
ظل ساهرا حتى الفجر، يقيم الصلاة، ويكثر من صلاة الاستخارة، حتى اهتدى قلبه إلى قرار..
لن يتزوج أخرى سينتظر رزقه.. وبعد صلاة الفجر، نام الحاج (البنهاوي) ملء جفنيه وبعد سبعة أشهر، رزقه الله (سبحانه وتعالى) بالولد..
وكانت فرحة الحاج (البنهاوي) لا توصف..
لقد أنجب الولد.. أنجب الوريث..
وأقام الحاج (البنهاوي) احتفالا كبيرا في القرية، امتلأت فيه البطون بالخيرات، ونقصت فيه خزانة الحاج إلى النصف تقريبا ولكنها عادت تمتلئ
لم يكد (حسين) يبلغ عامه الأول، حتى كان الحاج (البنهاوي) يمتلك عشرين فدانا دفعة واحدة، في نفس الوقت الذي أنجبت فيه زوجته (شريفة)..
وفي العام التالي، كان يمتلك مئة فدان، ويستطيع مصادقة عمدة القرية، ودعوة مأمور الناحية لتناول الغذاء، وزراعة عشرة أفدنة

بالفواكه والموالح
وعندما أنجب ابنه الثاني (حافظ)، كان قد صار من أثرياء القرية، وبلغ مجموع ما يمتلكه مائتي فدان
ومع مولد (ناهد)، كان يمتلك مئتين وخمسين فدانا وفي النهاية جاء (مفيد)، واكتمل عدد الأفدنة ثلاثمائة فدان..

وهكذا أصبح للحاج (البنهاوي) عائلة كبيرة، وأصبح له ثمانية أبناء خمس من الإناث وثلاثة من الذكور
وقرر الحاج (البنهاوي) أن يجعل عائلته على رأس عائلات القرية، وراح يدرس الأمر طويلا، حتى توصل إلى أن أضلاع مثلث القوة هي: المال والنفوذ، والعلم..
وقرر أن يمنح أبناءه الأضلاع الثلاثة كان لديه المال، بعد أن صار يمتلك أربعمائة فدان بقي أن يمنحهم العلم والنفوذ... انقطعت أفكاره بغتة، مع صوت يهتف به من بعيد في انفعال:
- برقية يا حاج.. برقية من (القاهرة). التفت إلى صاحب الصوت في لهفة..
كان (عبد الحميد)، العامل في أرضه، وقد راح يعدو نحوه منفرج الأسارير، ملوحا بالبرقية، عبر حقول القطن، مستطردًا:

(حسين)

- برقية من (حسين) بك.

وعلى الرغم من لهفته الشديدة، ظل الحاج واقفا في مكانه، مكتفيا بابتسامة هادئة، حفاظا على وقاره وهيبته، حتى بلغه (عبد الحميد)، فأطرق برأسه أرضا، وكأنما لا يجرؤ على التطلع إلى

وجه سيده، وهو يناوله البرقية، قائلا في صوت اختلط انفعاله بلهاثه:
- لقد وصلت على التو، ورأيت أن أهرع بها إليك يا حاج.
تناول منه الحاج البرقية، وفضها في توتر، ولم يكد يقرأها حتى التمعت عيناه ببريق يشف عن فرحة عارمة، وهو يقول:
- لقد نجح سيدك (حسين) في الالتحاق بالكلية الحربية يا (عبد الحميد). هتف (عبد الحميد) في فرح:
- مبارك يا حاج.. سيصير سيدي (حسين) إذن من الضباط مبارك.. مبارك
ابتسم الحاج ابتسامة عريضة، وهو يقول له في سعادة، عجز هذه المرة عن إخفائها:
- اذهب فأخبر الجميع، وعلق الزينات والرايات، وليشرب الجميع شراب نجاح سيدك (حسين)
هتف (عبد الحميد) في سعادة غامرة:
- سأفعل يا حاج.. سأفعل
قالها وهو يعدو عائدا إلى القرية في سعادة، في حين، تضاعف بريق الظفر في عينى الحاج (البنهاوي)، وهو يتطلع مرة أخرى إلى أرضه المترامية الأطراف..
لقد نجح (حسين)، اقترب حلم الحاج (البنهاوي) لقد أصبح يمتلك المال.. ألف فدان دفعة واحدة والعلم، بعد أن التحق كل أبنائه بالمدارس كأبناء الأثرياء والآن النفوذ أول خطوة في طريق النفوذ اليوم التحق (حسين) بالجيش، ولن يلبث أن يصير ضابطا مُهابا أى نفوذ أكبر من الجيش؟
إن أمله كله معقود على أبنائه الثلاثة. (حسين)، و(حافظ)، و(مفيد)، فالبنات لن يكمل تعليمهن
تكفيهن المرحلة الابتدائية وبعدها يتزوجن

واليوم بالذات، مع قدوم خبر نجاح (حسين)، سيلتقي بالشاب الذي طلب يد (نعيمة)
فرحتان في يوم واحد
هكذا العائلة
عائلته..

راح يخترق حقول القطن في مهابة، وعصاه تشق طريقها قبله، عائدة معه إلى ذلك القصر الفاخر، الذي يقيم فيه مع أبناءه، والذي استبدله بذلك المنزل الصغير، الذي تزوج فيه أمهم
أمهم التي رحلت منذ عامين أو يزيد، وتركتهم في رعايته.
وعندما بلغ القصر، كانت الرايات والزينات تملأ المكان، وأكواب الشراب تدور على المهنئين، الذين استقبلوا الحاج بعبارات التهنئة والدعوات الحارة..

وفي المساء وصل (حسين)
واستقبلته القرية كلها استقبال الأبطال، كأنما قد فتح الكلية الحربية، أو استعمرها لحسابهم...

ومع أذان العشاء قرأ الحاج (البنهاوي) الفاتحة، مع والد زوج ابنته (نعيمة) المقبل، وأقيمت الأفراح والليالي الملاح.. ومع قدوم منتصف الليل، هدأت الأمور، وآوت (نعيمة) إلى فراشها وابتسامة الفرح تعلو شفتيها، وإلى جوارها شقيقاتها، وكلهن يحلمن بأن يأتي يوم قريب ترتدين فيه ثوب العرس.

ومع سكون الليل، جلس (حسين) مع والده، الذي ابتسم ابتسامة واسعة، وهو يقول له:

- مبارك يا ولدي، أنت الآن على أول طريق القوة، فالضباط هم القوة في كل العصور والأزمنة..
رفع (حسين) حاجبيه في نوع من الغطرسة والغرور، وهو يقول:
- هذا طبيعى، فالضباط يملكون أسلحة القوة كلها.
اتسعت ابتسامة الحاج (البنهاوي) أكثر، وهو يقول:
- المهم أن تسعى دوما إلى النفوذ والسطوة، وما أمتلكه من مال سيجعل طريقك إلى ذلك أكثر سهولة
أومأ (حسين) برأسه موافقا، وقال:
- بمناسبة الحديث عن السطوة والنفوذ، أظنك تحتاج إلى إطار جديد، يتيح لك هذا يا أبي.
غمغم الحاج في حيرة: - إطار جديد؟! ماذا تعني يا ولدي؟
لوح (حسين) بكفه، وهو يقول في لهجة نصوح:
- إنك على الرغم من ثرائك، مجرد فلاح عادي، أو إقطاعي يمتلك ألف فدان، ولا يتجاوز نفوذه نفوذ العمدة أو مأمور الناحية>
سأله والده في اهتمام: - وماذا يمكننا أن نفعل، للحصول على ما هو أكبر؟ مال (حسبن) نحوه، وقال في حزم:
- نحتاج إلى لقب.
تراجع الحاج (البنهاوي) مغمغما في دهشة: - لقب؟
اعتدل (حسين)، وبرقت عيناه ببريق شهواني، وهو يجيب:
- نعم يا أبي.. نحتاج إلى لقب وتضاعف بريق عينيه، وهو يستطرد:
- لقب (باشا).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- اللقب..

كان حفل زفاف (نعيمة) رائعا، تحدثت عنه القرية، والقرى المحيطة، طويلا، وحضره عمدة القرية، وعمد القرى المجاورة، ومأمور الناحية، وناظر عزبة الباشا..

ونحرت عشرات الذبائح في ذلك اليوم.. ودارت أقداح الشراب بلا نهاية.

وفي الحجرة المخصصة لكبار القوم، جلس (حسين) إلى جوار والده الحاج (البنهاوي) مزهوا، مرفوع الرأس، منتشيا لكونه الابن الوحيد من أبناء (البنهاوي)، الذي يشارك الكبار مجلسهم، في حين انهمك الأب مع الآخرين في عدد من الحوارات حول أحوال الدولة والسياسة، وقال المأمور، وهو يلوح بيده في غطرسة:

- اؤكد لكم أن البلد على حافة بركان، فالوزارات تتبدل كل فترة وجيزة، وهناك تلك المنشورات.

سأله (حسين) في اهتمام: - أية منشورات؟

اعتدل المأمور في مجلسه، وأدار عينيه في وجوه الجالسين، وكأنها راق له أن يجذب حديثه الاهتمام إلى هذا الحد، قبل أن يقول في صوت منخفض، ولهجة توحي بخطورة الأمر:

- منشورات الضباط الأحرار فسأله الحاج (البنهاوي) في دهشة:

- من؟!

كرر المأمور:

- الضباط الأحرار ثم قال مستطردا في اهتمام مسرحي - إن أمر هذه المنشورات ما يزال سريا إلى حد كبير، لا يعلم به إلا كبار القوم..

ضغط حروف الكلمة الأخيرة، وكأنما يؤكد بها انتماءه إلى فئة كبار القوم، قبل أن يتابع، وقد بدأ شبح ابتسامة يرتسم على شفتيه:

- يقولون إنهم مجموعة من ضباط الجيش، لا تروق لهم أحوال البلاد وخاصة بعد حرب في فلسطين، وقضية الأسلحة الفاسدة.
هز (حسين) كتفيه في لا مبالاة، وقال:
- مجرد عبث، الجيش كله يدين بالولاء لمولانا الملك، أسرع المأمور يقول مستطردا:
- إنه ليس رأيي الشخصي، بل هو ما يردده الكبار ثم أطلق ضحكة عصبية، وهو يتراجع..
مط ناظر عزبة الباشا شفتيه، وهو يقول:
- مولانا لا يتأثر بهذه التفاهات.
هتف عمدة القرية:
- بالطبع..
كان من الواضح أن جوا من التوتر والحذر قد ساد المكان، مما دفع الحاج (البنهاوي) إلى محاولة تغيير مجرى الحديث، قائلا:

(البنهاوى)

- ألا يعلم أحدكم متى ينعم مولانا بالألقاب على رعيته؟

اتجهت العيون كلها إليه في دهشة، قبل أن يسأله العمدة في حذر:

- ولماذا تسأل يا حاج؟ ألديك أية أنباء في هذا الشأن؟ هم الحاج (البنهاوي) بالنفي، لولا أن اندفع (حسين) يقول في زهو:

- بالطبع.. لقد بلغنا نبأ سعيد

ثم التفت إلى والده، مستطردا في فخر:

- لقد تضمن كشف الإنعام اسم أبي الحاج (البنهاوي) وانتفخت أوداجه، وهو يستطرد:
- سينعم عليه مولانا بلقب...
وصمت لحظة، ليخلق مزيدا من الإثارة لعبارته، وهو يدير عينيه في الوجوه، قبل أن يردف في قوة:
- لقب (باشا).
احتبست أنفاس الجميع، وهم يحدقون في وجهى (حسين) ووالده، وقد احتقن وجه الأخير في توتر، وهو يختلس النظر إلى ابنه في ضيق، قبل أن يشق صوت المأمور جدار الصمت، وهو يقول في خفوت:
- سيشرفنا هذا بالطبع ثم نهض مستطردا:
- أظن أنه ينبغي أن أنصرف، فلدى الكثير من العمل هب الحاج (البنهاوي) هاتفا:
- محال.. سيصل الطعام بعد لحظات ثم هتف بابنه:
- تعجل الطعام يا (حسين)

لم تمض لحظات حتى كانت الموائد متخمة بالطعام، وراح الجميع يأكلون في صمت، وقد خيم جو عجيب على المكان، حتى انتهى الطعام، فبادر الضيوف بالانصراف على الفور، ولم يكد الطريق يجمع بين العمدة والمأمور، على صهوة جوادين، حتى قال الأخير في سخرية وعصبية:
- (محمد البنهاوي) باشا؟! يا للسخرية!
أجابه العمدة في حنق:
- إنها دولة حمقاء.. تصور يا سيدى، إنه جاء إلى هذه القرية منذ ربع القرن تقريبا، ممزق الثياب، حافي القدمين...
قال المأمور في حدة:

- ولكنه يمتلك اليوم ألف فدان، بالإضافة إلى حدائق الفاكهة والموالح، وسراي ينافس سراى عزبة الباشا
واختلس نظرة جانبية إلى العمدة، قبل أن يستطرد في خبث:
- لن يدهشني أن يرشح نفسه لمنصب العمدة في العام القادم انتفض العمدة، هاتفا في جزع:
- منصب العمدة؟! مستحيل!
ثم أضاف في حدة عصبية:
- هذا المنصب تتوارثه أسرتي منذ أجداد أجدادي
قال المأمور في دهاء:
- ولكن (البنهاوي) صار أكثر ثراء، وسيصبح ابنه ضابطا في الجيش، وبعد حصوله على لقب (باشا)، لن تكون هناك صعوبة في..
قاطعة العمدة:
- مستحيل!! وانعقد حاجباه في شدة، وهو يستطرد:
- لن يصبح هذا التافه عمدة أبدا. تابع المأمور، وكأنه لم ينتبه إلى المقاطعة:
- ستقلب المأمور تماما، بعد أن يحصل على لقب (باشا)، فبدلا من أن يتودد هو إلى، ويتقرب مني، سيكون على أنا أن أسعى إليه وأخطب وده..
قال العمدة في حزم:
- مالم..
التفت إليه المأمور، مغمغما في دهشة:
- مالم ماذا؟
أجابه في توتر:
- مالم نمنع حصوله على لقب (باشا).
أوقف المأمور جواده، وسأل العمدة في دهشة:

- وكيف يمكننا أن نمنع هذا.. إنه إنعام ملكى
قال العمدة في خبث:
- ولو.. هل ينعم جلالته على مناهضيه بالألقاب؟ ازدادت حيرة المأمور، وهو يقول:
- كلا بالطبع، ولكن ما معنى هذا؟ كلنا نعلم أن الحاج (البنهاوي) لم يناهض النظام الملكي أبدا، بل هو من كبار مؤيديه ومناصريه.
قال العمدة في خبث:
- ولكن ابنه طالب في الكلية الحربية.
حدق المأمور في وجه العمدة لحظات، ثم عقد حاجبيه في شدة، وهو يقول:
- اسمع يا رجل.. لست أحب الألغاز.. أفصح عما لديك أو أصمت.
تنهد العمدة، وهو يقول:
- رويدك يا باشا.. ألم تتحدث عن أولئك الضباط، الذين يطلقون على أنفسهم في منشوراتهم اسم الضباط الأحرار؟
سأله في اهتمام:
- بلى.. ما صلتهم بالأمر؟
رفع العمدة أحد حاجبيه، وهو يقول:
- لو ورد تقرير منى، وآخر منك، يشيران إلى صلة الحاج (البنهاوي) وولده بتنظيم الضباط الأحرار، وعثر رجال البوليس السياسي على رزمة من منشورات هذا التنظيم في سراى الحاج، سيصبح الحاج من مناهضي النظام، وسيستحيل أن يمنحه جلالة الملك لقب (باشا)، أو حتى (بك).
برقت عينا المأمور، وهو يقول:
- يا لك من داهية!! ثم عاد يعقد حاجبيه، مستطردا
- ولكن من أين لنا بمنشورات تنظيم الضباط الأحرار؟
أجابه العمدة مبتسما:

- ألا تملك بعضها؟
تنحنح المأمور، وقال في ضيق
- لا.. لست أملك أيا منها.. لقد سمعت بالأمر فحسب
صمت العمدة لحظة مفكرا، ثم قال:
- لا بأس.. سنصنعها نحن
هتف به المأمور:
- هل جننت؟ أتطبع منشورات تنظيم مناهض؟
هز العمدة كتفيه، وقال:
- ولم لا؟
ثم أضاف في انفعال:
- من أجل الورود تسقى الأشواك، ولدينا مطبعة ابن شقيقي في المركز، ويمكننا كتابة منشورات ساخنة، تضمن إلقاء الحاج وابنه في السجن لربع قرن على الأقل..
صمت المأمور بعض الوقت مفكرا في الأمر، قبل أن يهز رأسه، قائلا:
- ولكننا تناولنا الطعام في منزل الرجل منذ ساعة واحدة.
أجابه العمدة في غلّ:
- أتحب أن تنتظر حتى يأتي يوم، يلقى إلينا فيه فتات مائدته؟
عقد المأمور حاجبيه، وهو يقول في حزم:
- لا.. لست أحب أن يأتي مثل هذا اليوم
ثم مد يده إلى العمدة، مستطردا
اتفقنا يا عمدة.. سننفذ خطتك..
والتقت أكفهما..
وتصافحا..
ونام الشيطان هانئا تلك الليلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞
- كيف تدعى أمر اللقب هذا؟
هتف الحاج (البنهاوي) بالعبارة الساخطة في وجه ابنه (حسين)، الذي ابتسم في هدوء، وقال في شماتة:
- هل رأيت وجوههم عندما قلت هذا يا أبي؟ أراهنك أن أحدهم لن يذوق طعم النوم الليلة.
صاح به الحاج محنقًا
- ولكنك كذبت عليهم.. أنت وأنا نعلم أن روايتك كاذبة وأن جلالة الملك لم يسمع حتى باسمي..
اتسعت ابتسامة (حسين)، وهو يقول:
- ولكنني أعددت كل شيء
تدخل (حافظ) قائلا:
- أرى يا أبي أن فاطمة..
(حسين) في صرامة:
- لا تقاطعني
بتر (حافظ) قوله في خوف، وانكمش في مقعده، دون أن ينبس ببنت شفة، وقد علمه والده أن يحترم شقيقه الأكبر ويخشاه، في حين عقد (مفيد) شفتيه، وأشاح بوجهه، وقد قرر ألا يتدخل في النقاش قط، وعاد (حسين) يلفت إلى والده متابعا:
- لقد التقيت بكبير أمناء مولانا الملك، وتناقشت معه في أمر حصولك على اللقب يا ابي
حدق الأب في وجهه بدهشة، قبل أن يقول:
ـ تقابلت معه؟
أجابه (حسين) في زهو:
- نعم.. لقد طلبت مقابلته، بواسطة زميل لي في الكلية الحربية، يمت له بصلة القربي، ولقد استمع إلىّ الرجل جيدا، وسألني عنك

وعن ثروتك، ثم قرر أن الأمر ليس صعبًا كما نتصور.
جف حلق (البنهاوي)، وغمغم في انفعال واضح:
- أتعنى أنه من الممكن أن أحصل على اللقب؟
لوح (حسين) بكفه، وهو يقول في غرور:
- بالطبع
ثم ابتسم وهو يضيف:
- مقابل مبلغ بسيط
جف حلق (البنهاوي) تماما، وخفق قلبه على نحو لم يحدث من قبل، عندما أضاف ابنه في حزم:
- مقابل مئة ألف جنيه

وانهار الحلم في أعماق (البنهاوي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3 - الأرض..

لم تكد تشرق الشمس، حتى فتح (مفيد) نافذة حجرته، واستنشق الهواء في عمق وهو يملأ صدره بعبير الريف النقي، ثم لم يلبث أن أرتدي ثيابه، وانطلق وسط الحقول، وهو يشعر بنشوة جارفة ملأت عروقه، وسط الحضرة..

كان على عكس شقيقه (حسين)، يعشق الريف بأرضه وخضرته.. يعبد هذه الأرض، التي منحتهم الخير والثروة..

(مفيد)

ويحب..

يحب (مديحة)، ابنة عم (إسماعيل)، المسؤول عن رعاية مواشي العائلة..

لم يكد يتذكرها، حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة، وبدت له الحقول الممتدة أمامه أشبه بروضة من رياض الجنة، تمتلئ سماؤها بوجه (مديحة) الصبوح، وابتسامتها المشرقة..

يحبها من أعمق أعماق قلبه. ربما كانت هي السبب الحقيقي لحبه لقريته وأرضه ولكن الجميع يقولون إنه ما زال طفلا..
كلهم يتعاملون معه كطفل، على الرغم من تجاوزه السادسة عشرة من عمره ببضعة أشهر..
(مديحة) وحدها تراه رجلا بالغا، خاصة وأنه يكبرها بعامين كاملين..
وهي أيضا طالبة..
خفق قلبه عندما رآها من بعيد، وهي تسير وسط الحقول، ممسكة بكتابها، كعادتها كل صباح، فأسرع إليها كطير فرح، وهمس لها في هيام:
- صباح الخير يا (مديحة) ارتسمت على شفتيها ابتسامة تجمع بين الفرحة والحياء، وهي تجيب:

(هديـة)

- صباح الخير يا (مفيد) بك.. كيف حالك؟

ابتسم وهو يسألها في حنان:

- كيف حالك أنت؟ هل اقتربت امتحانات نهاية العام؟

أومأت برأسها إيجابا، وقالت:

- ستبدأ في أول يوليو بإذن الله.

- أمامك شهر كامل إذن..

ران عليهما الصمت لحظات، قبل أن تسأله هي في حياء
- وماذا عن امتحاناتك أنت؟
هز كتفيه قائلا:
- ستبدأ في نفس الموعد تقريبا
سألته في اهتمام:
- هل تفكر في الالتحاق بالكلية الحربية، مثل (حسين) بك؟
هز رأسه نفيا، وقال في حزم:
- مطلقا
سألته في دهشة:
- لماذا؟
عقد حاجبيه، وهو يقول:
- ربما لأن (حسين) التحق بها.
لم تدر ماذا يعنيه بإجابته، ولكن صوته ولهجته وهو ينطق العبارة، كانا يحملان شيئا من البغض، جعلها تشفق عليه في أعماقها، فتدير دفة الحديث، قائلة:
- كيف حال (حسين) بك، وحال شقيقاتك؟
اجابها وكأنما الأمر لا يعنيه:
- (حسين) في الكلية الحربية كما هو، وسيتخرج بعد عام واحد، و(نعيمة) في بيتها مع زوجها، وأظنها سعيدة لمجرد أنها تزوجت، و(توحيده) تستعد للزواج من ابن عمدة القرية المجاورة، و (زينب) اكتفت بشهادة مدرسية بسيطة، وكذلك (شريفة) و (ناهد)، وكلهن يجلسن في انتظار العريس.
أطرق برأسها، وهي تقول في حياء:
- كل البنات يحلمن بعرسهن.
تأملها في حنان، وهو يقول في همس:
- حقا!! كلهن؟

ابتسمت في خجل، وهي تتمتم في خفوت شديد:
- تقريبا
ران عليهما الصمت طويلا بعد كلمتهما الأخيرة، و(مفيد) يملأ عينيه بوجهها في هيام، حتى امتلأت نفسه فجأة بالشجاعة، وقرر أن يصارحها بحبه، فاعتدل وهو يقول في جدية:
- (مديحة).. إنني..
قبل أن يتم عبارته، ارتفع صوت أخته (زينب) تهتف به:
- (مفيد).. ماذا تفعل عندك؟
ارتبك في شدة، ولعن ذلك التوقيت الذي تدخلت فيه (زينب)، ورأى وجه (مديحة) يحمر خجلا، وهي تقول في ارتباك:
- شقيقتك تناديك ثم أسرعت تبتعد في خطا مرتبكة متعثرة، في حين عادت (زينب) تهتف:
- (مفيد).. إني أخاطبك التفت إليها هاتفا في حدة قائلا:
- ماذا تريدين؟
ابتسمت في خبث، وهي تقول:
- هل ضايقك أن قطعت حديثكما؟
قال في حدة:
- دعك من هذا.. ماذا تريدين؟
ظلت ابتسامتها تحمل طابع الخبث، وهي تقول:
الحاج يطلبك في السراى، فلقد وصل (حسين)، من (القاهرة).
هتف في دهشة:
- (حسين)؟! ولكن الساعة لم تتجاوز الثامنة بعد..
هزت كتفيها قائلة:
- ليس هذا من شأني.. لقد وصل مبكرا، ويجلس مع الحاج، ومعهم (حافظ)، ولقد طلب مني الحاج أن أستدعيك لتشاركهم مجلسهم.
عقد حاجبيه في ضيق، وهو يقول:

- مجلسهم؟! أمجلس حرب هو؟
ضحكت قائلة - ربما، فلقد وصل (حسين) بالزي الرسمي..
قالتها وراحت تسرع الخطأ نحو السراى، وهو يتبعها في ضيق، متسائلا في أعماقه عن سر هذه الترتيبات المعقدة، ولم يكد يبلغ السراى، ويرى (حسين) وهو يقف وسط حجرة الضيوف شامخا، بزيه الرسمي ذي الأزرار اللامعة حتى غمره الضيق، فغمغم في برود:
- مرحبًا يا (حسين).. صباح الخير يا أبي..
التفت إليه (حسين في غطرسة، دون أن يجيب تحيته، في حين قال الحاج (البنهاوي):
- صباح الخير يا (مفيد).. اتخذ لنفسك مجلسا، فلدينا قضية ينبغي أن يناقشها الجميع..
عقد (حسين) حاجبيه، وهو يقول في حدة :
- لست أرى داعيا لذلك.
التفت إليه الوالد، قائلا في صرامة:
- إنه أمر يخص الجميع، ولابد من مشاركتهم فيه
اتخذ (مفيد) مجلسه، وهو يقول في ضيق:
- أي أمر هذا يا أبي؟
أجابه (حسين) في صرامة:
- سيحصل أبي على لقب (باشا).. ما رأيك؟
رفع (مفيد) عينيه إليه في تحد، وهو يقول:
- وما الثمن؟
عقد (حسين) حاجبيه في غضب، وكأنما لم يرق له أن يلقى أصغر أشقائه مثل هذا السؤال، وقال في حزم:
- مئة ألف جنيه.

خفض (حافظ) عينيه، دون أن ينبس ببنت شفة كعادته، في حين هتف (مفيد) مستنكرا:
- مئة ألف جنيه؟ إنه مبلغ باهظ يا (حسين).
أجابه (حسين) في صرامة:
- اللقب يساوى ما هو أكثر من ذلك
لوح (مفيد) بذراعه في حدة، وهو يقول
- ولكن أبي لا يملك هذا المبلغ حتما..
أجابه الحاج (البنهاوي):
- إني أملك سبعين ألفا تقريبا، بما في ذلك ثمن بيع القطن لهذا العام. وسيحتاج الأمر إلى بيع مائتا فدان على الأقل.
تراجع (مفيد)، هاتفا في ذعر:
- تبيع الأرض؟!
ثم اندفع نحو والده، وهو يستطرد:
- لا يا أبي لا تفعل هذا أبدا.. لاتبع أرضًا.. الأرض هي الخير يا أبي.. هي كل شيء..
قاطعه (حسين) في حدة:
- هراء.. اللقب يساوي أرضنا كلها، فبه وحده نحوز القوة والنفوذ.
ثم التفت إلى والده، مستطردا في انفعال:
- ألا تعلم ما سيفعله اللقب؟ إنه سيدفع العمدة إلى التزلف لك ونيل رضاك.. بل إن مأمور الناحية نفسه سيصبح رهن إشارتك، وسيتقرب إليك علية القوم، و....
قاطعه (مفيد) هذه المرة:
- ويسخرون من الرجل الذي باع أرضه في سبيل لقب تافه صرخ (حسين) في غضب:
- لقب تافه.. لقب (الباشا) لقب تافه؟ إنه أنت التافه المغرور.
هب (مفيد) صائحا:

- لست أسمح لك...
قاطعته صيحة الأب الهادرة:
- (مفيد).
توقف بغتة، والتفت إلى والده بوجه محتقن، فاستطرد هذا الأخير:
- إياك أن تتحدث إلى شقيقك الأكبر بهذا الأسلوب أبدا.. إياك أن تفعل.. حتى بعد موتي.. إياك أن تعصي أوامره.
احتقن وجه (مفيد) في شدة، وهو يقول
- ولكن يا أبي.. قاطعه بصيحة أخرى هادرة:
- إياك يا (مفيد)
كان هناك بركان ثائر في أعماق (مفيد)، إلا أنه لم يجرؤ على التفوه بحرف واحد، فعاد إلى مجلسه، مغمغما في حنق:
- كما تأمر يا أبي.
تألقت عينا (حسبن) بابتسامة ظفر، وافتر ثغره عن ابتسامة واثقة شامتة، وهو يدير عينيه في الوجوه، قبل أن يقول الحاج في ضيق:
- سيقول الناس حقا إني قد بعت أرضي من أجل اللقب، وهذا لن يروق لي..
ابتسم (حسين) في غرور، وهو يقول:
- لن يقول مخلوق واحد هذا؛ لأنك لن تبيع أرضك سأله الحاج في دهشة:
- كيف سأحصل على المبلغ إذن؟
اتسعت ابتسامته المغرورة، وهو يقول:
- لقد تناقشت في هذا الأمر مع كبير أمناء مولانا، وتوصلنا إلى اتفاق جيد. ومال إلى الأمام، وهو يتابع في زهو:
- إنك لن تبيع أرضك يا أبي.. ستهب مائتي فدان للخاصة الملكية، ولن يجرز مخلوق واحد على التفوه بحرف ضدك بعد هذا.
تمتم (مفيد في حنق:

- يا للعقل الشيطاني!
التفت إليه (حسين)، قائلا في حدة:
- ماذا تقول؟
لوح بكفه، قائلا في حنق:
- لا شيء.. لم أقل شيئا.
تردد الحاج (البنهاوي) لحظات، ثم قال:
- أظنه حلاً معقولا يا ولدي، ولكنه يحتاج إلى موافقة شقيقيك التفت (حسين) إلى (حافظ)، قائلا في صرامة
- ما رأيك يا (حافظ)؟
ارتجف (حافظ)، وغمغم في خوف واضح:
- كما ترى يا (حسين).. كما ترى.
ابتسم (حسين) في ظفر، واستدار إلى (مفيد)، يسأله في صرامة:
- ما رأيك أنت؟ أجابه (مفيد في تحد:
- لست أوافق.. ثم نهض مستطردا:
- ولكن هذا لن يغير من الأمر شيئا
أجابه (حسين) في حدة:
- بالطبع.
لوح (مفيد) بكفه في يأس وضيق، فعقد (حسين) حاجبيه.
قائلا في صرامة:
- ما زلت طفلا، تجهل الكثير من حقائق الحياة
التفت إليه (مفيد)، قائلا:
- أحقا؟! وأنت أتدرك حقائق الحياة؟
انتصب (حسين) في اعتداد، وأشار إلى صدره في فخر قائلا:
- بالتأكيد، ولولا هذا ما التحقت بالجيش
سأله (مفيد) بأسلوب استفزازي:
- وهل تعتقد أن هذا هو الاختيار الصحيح؟

عقد (حسين) حاجبيه قائلا:
- بالتأكيد الجيش هو سيف البلاد ودرعها.
هتف (مفيد) في سخرية:
- سيف البلاد ودرعها؟! وماذا فعل جيشك الهمام هذا في حرب (فلسطين).
أجابه محتدا:
- كانت الأسلحة فاسدة .
سأله في تهكم:
- وماذا فعلتم عندما كشفتم هذا؟
أشاح (حسين) بوجهه، قائلا في صرامة:
- لا تسألني عن هذا، فلم أتخرج من الكلية الحربية بعد.
قال (مفيد) في مزيد من السخرية:
- حقا؟! ماذا فعل جيشك إذن عندما احترقت (القاهرة)؟
هتف (حسين) في غضب
- لا تتحدث عما لا تفهمه
صاح به:
- وهل تفهم أنت معني بيع الأرض؟
صرخ الأب في غضب:
- (مفيد).. لقد حذرتك من التحدث مع شقيقك هكذا..
هتف (مفيد) محنقا:
- حسنا.. لن أتحدث إليه أبدا
واندفع خارج الحجرة، مستطردا:
- ولتذهب الأرض كلها إلى الجحيم.
ران صمت ثقيل على الحجرة، في الثواني التي أعقبت انصراف (مفيد)، ثم هتف (حسين) في غضب:
- هذا الفتى يحتاج إلى التهذيب

غمغم الحاج إنه ما يزال صغيرا
ثم خفض عينيه، مستطردا:
- ليكن.. سنهب الأرض للخاصة الملكية، ونستبدل بها اللقب.
تهللت أسارير (حسين)، وهو يهتف:
- نعم القول والفعل يا أبي
ولكن الحاج (البنهاوي) لم يبتسم، ولم يشعر بالارتياح ..
لقد تخلى عن أرض جمعها بكفاحه، وانتزعها من عرق حياته ..
وفي موضعها من قلبه تكونت غصة..
غصة مؤلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4 – المكيدة..

تهللت أسارير (زينب)، وهي تستقبل شقيقتها (نعيمة) في سراى العائلة، وضمتها إلى صدرها في سعادة، وهي تهتف:

- مرحبًا يا (نعيمة)، مرحبًا بك في منزلك.

قبلتها (نعيمة)، وهي تقول في رصانة رأت أن تصطنعها، لتؤكد أنها الزوجة الوحيدة وسط شقيقاتها:

- لم يعد منزلي يا (زينب)

ضربت (زينب) صدرها براحتها، وهي تهتف:

- محال.. سيبقى منزلك ما دامت أبوابه مفتوحة

ثم ربتت على بطنها، مستطردة في مرح:

- أم أن ولى عهدك سيغير أفكارك.

أطلقت (نعيمة ضحكة مزهوة، وهي تقول:

- من يدري؟ المهم أن يستعد الحاج لاستقبال أول أحفاده

ثم انقلبت لهجتها إلى الجدية بغتة، وهي تردف في اهتمام:

- وبمناسبة الحديث عن الحاج.. أصحيح ما سمعته؟

سألتها (زينب) في خبث أنثوي:

- وما الذي سمعته؟

زفرت (نعيمة)، وهي تقول في لهجة واضحة الاصطناع:

- سمعت من زوجي أن الحاج قد وهب مائتا فدان من أجود أرضه إلى الخاصة الملكية.

أجابتها (زينب في أسف:

- هذا صحيح.

ضربت (نعيمة) صدرها براحتها، وكأنما فاجأها الخبر، وهتفت:

- وكيف يفعل أبى هذا؟

تنهدت (زينب)، وأجابتها:

- إنها مشورة (حسين).
هتفت (نعيمة):
- ولماذا؟
تنهدت (زينب) مرة أخرى، وقالت:
- ليحصل أبي على لقب (باشا).
هتفت (نعيمة) مستنكرة:
- لقب (باشا)! أيتنازل والدي عن أرضه مقابل هذا؟ ولماذا لم يسألنا رأينا؟
أجابتها ساخرة في مرارة:
- ومنذ متى يسألنا أحد رأينا؟
عقدت حاجبيها، وهي تقول:
- ولكن زوجي يستنكر هذا تماما.
رفعت (زينب) حاجبيها في دهشة، وهي تقول:
- وما شأن زوجك بهذا؟
غمغمت (نعيمة) في عصبية:
- أليست أرض والدي بمثابة أرضي؟
قالت (زينب) في حدة
- أرضك أم أرضه هو؟
هزت (نعيمة) كتفيها، وهي تقول في عناد:
- لا فارق بيني وبين زوجي و.
همت (زينب) بقول شيء ما، لولا أن بلغت مسامعها أصوات ترحاب واستحسان، فهتفت في جذل:
- اصمتي لقد وصل عريس (توحيده).
هتفت (نعيمة) في شغف:
- ابن العمدة؟ ثم أضافت في لهفة:
- أريد رؤيته..

أسرعتا إلى باب حجرة صغيرة، تصل ما بين حجرتهن وحجرة استقبال الضيوف، وانحنيتا تختلسان النظر عبر ثقب الباب في صعوبة، وتناهى إلى مسامعهما صوت الأب، وهو يسأل العريس:
- كيف حالك يا ولدي؟ وكيف حال زراعتك
أجابه الشاب في خجل:
- في خير حال يا حاج.. شكرا لك. ثم تجرأ قليلا، وسأله:
- وكيف حال (توحيده)؟
ابتسم الأب، وهو يقول:
- إنها بخير.. اطمئن.
اتسعت ابتسامة العمدة، والد العريس، وهو يسأل الحاج (البنهاوي):
- ما قولك يا حاج، ابني يتعجل الزفاف
ابتسم الحاج (البنهاوي)، وقال:
- لا مانع عندي، فكل شيء على ما يرام، ولكن..
هتف به العمدة في استنكار:
- ولكن ماذا يا حاج؟ ألم تقل إن كل شيء على ما يرام؟
أجابه الحاج (البنهاوي):
- بلى أيها العمدة، ولكن من الضروري أن نسأل (حسين) رأيه
قال العريس معترضا:
- وما شأن (حسين)؟
انعقد حاجبا الحاج (البنهاوي) في غضب، وهو يقول في صرامة
- (حسين) هو ابني الأكبر، وهو صاحب الكلمة من بعدى.
قال العمدة ملطفا الجو:
فليمنحك الله (سبحانه وتعالى، طول العمر يا حاج، ولكن رأيك هو الأول، خاصة وأنه لا يصح أن أنتظر أنا رأى (حسين).
تردد الحاج (البنهاوي) لحظات، ثم غمغم:

- صدقت.
واعتدل مستطردا في حزم
- فليكن.. سيتم الزفاف يوم الخميس القادم بإذن الله.
ابتسمت (توحيده) من خلف الباب في سعادة وحياء، على حين نسيت (زينب) أنها إنما تستمع إلى ما يحدث خلسة، فأطلقت زغرودة قوية، تعبر بها عن سعادتها..

وعمت الفرحة في السراي، حتى وصل (حسين) في المساء، ولم يكد يسمع بالأمر، حتى عقد حاجبيه في غضب، وهو يقول في حدة:
- كان ينبغي أن تستشيرني أولا يا أبي
هتف الحاج (البنهاوي) مستنكرا:
- أستشيرك؟: أي قول هذا يا ولدي؟ لقد كان العمدة بنفسه هنا وكان معه عمدة قريتنا، ولم يكن من اللائق أن ننتظر مشورتك.
قال (حسين) في صرامة:
- ربما لا يروق إلىّ العريس يا أبي..
أجابه والده في حزم:
- لماذا؟ لقد وافقت عليه مسبقا، وهو ابن عمدة القرية المجاورة،
قاطعه (حسين):
- لقد اختلفت الظروف يا أبي.
كان (مفيد) يجلس صامتا، رافضا التدخل في الأمر، إلا أن العبارة الأخيرة استفزته، فقال ساخرا:
- كيف؟ هل أصبحت الشمس تشرق من المغرب؟
التفتت إليه (حسين) قائلا في تحد:
- أكثر..
ثم عاد يلتفت إلى والده، مستطردا في حزم:

- لقد أصبح لقب الباشا قيد خطوة واحدة منك يا أبي.. لقد التقيت اليوم كبير الأمناء، ونقدته مبلغ السبعين ألف جنيه، ومستند هبة المائتي فدان الخاصة الملكية، ولقد أدرج اسم (محمد البنهاوي) في كشف الانعامات الملكية، وسيصدر المرسوم الملكي بالإنعام عليك برتبة الباشوية في أول أغسطس القادم، وعندئذ ستزوج ابنتك ابن وزير، لا مجرد ابن عمدة قرية صغيرة.

تردد الحاج البنهاوي لحظات، ثم قال في حزم:

- ولكنني أعطيت العمدة كلمتي، ولن اتراجع عنها ابدا.

دلفت (شريفة) إلى الحجرة في هذه اللحظة، وهي واضحة التوتر والارتباك، وقالت لوالدها، وهي تفرك كفيها:

- أبي.. هناك بعض الرجال يريدون مقابلتك.

قال في دهشة:

- بعض الرجال؟! من هم؟

قبل أن تجيبه ابنته، اقتحم الحجرة رجل ممشوق القوام، عريض المنكبين، تشف ملامحه عن صرامة واضحة، وخلفه عدد من الرجال قساة الملامح والوجوه، فارتفع حاجبا الحاج في دهشة، وقفز (مفيد) من مقعده في توتر، في حين انكمش (حافظ) في مقعده خوفا، وهتف (حسين) في غضب:

- ما هذا؟ كيف تقتحمون المكان هكذا؟

سأله الرجل الصارم:

- أأنت (حسين البنهاوي)، الطالب بالكلية الحربية؟

أجابه في حدة:

- هو أنا، وهذا منزلي.. من أنت؟

تجاهل الرجل قوله، وهو يشير للرجال المصاحبين له، قائلا في حزم - فتشوا المكان.

اندفع الرجال يعيثون في المكان فسادا، قبل أن يدرك (البنهاوي) أو أبناؤه ما يحدث، وأسرعت (شريفة) تغادر المكان في ذعر، في حين هتف (مفيد) في غضب:
- إنك لم تجب عن السؤال، من أنتم؟
اعتدل الرجل، وهو يقول في صرامة:
- أنا الصاغ (إبراهيم مكى) من البوليس السياسي.
ازداد انكماش (حافظ) في مقعده، وتجلى الرعب على وجهه، وهتف (مفيد) في ذهول:
- البوليس السياسي؟!
أما (البنهاوي)، فقد شحب وجهه في شدة، وسمع ابنه (حسين) يقول في اضطراب واضح:
- وما شأن البوليس السياسي بنا؟
أجابه الصاغ (إبراهيم) في صرامة:
- ستعرف بعد لحظات
اندفع إليه أحد رجاله، في اللحظة ذاتها، وناوله رزمة أوراق، وهو يقول:
- وجدنا هذه المنشورات يا سيدى
شحب وجه الحاج في شدة، وغمغم (حسين) في ارتياع:
- منشورات؟!!
أما الصاغ (إبراهيم مكى)، فقد تألقت عيناه في ظفر، والتفت إلى الحاج (البنهاوي) و (حسين)، قائلا في صرامة شديدة:
- الحاج (محمد البنهاوي)، وابنه (حسين البنهاوي).. إني ألقي القبض عليكما بتهمة التآمر على مولانا الملك.
وانطلقت صرخة (شريفة) ترج السراى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5 – الشماتة..

أوقف العمدة والمأمور جواديهما، أمام سراى (البنهاوي)، وغمغم المأمور، وهو يهبط عن صهوة جواده:

- أخف ابتسامتك يا عمدة، فالحزن الذي تحاول رسمه على وجهك لم ينجح في سترها.

أجابه العمدة في خفوت:

- قلبي يعجز عن حجبها يا باشا

قال المأمور في صرامة، وهو يتجه نحو باب السراى:

- حاول.

استقبلهما (عبد الحميد)، العامل في أرض (البنهاوي)، وعيناه تسبحان في بحر من الدموع، وأسرع يفسح لهما الطريق إلى حجرة الضيوف، حيث جلس (مفيد) واجما، دامع العينين، وإلى جواره شقيقه (حافظ)، وقد انخرط في بكاء حار، ومعهما عدد من رجال القرية، يواسونهما في مصابهما، ونهض (مفيد) يستقبل المأمور والعمدة، فقال الأول، وهو يصافحه في قوة، متظاهرا بالجزع:

- ماذا حدث بالضبط؟ النبأ الذي بلغني لم يحو الكثير من التفاصيل

أجابه (مفيد) في مرارة:

- لقد ألقى البوليس السياسي القبض على أبي و (حسين)

هتف العمدة، وهو بذل أقصى جهده لرسم كمية هائلة من الدهشة على وجهه:

- البوليس السياسي؟! لماذا؟

كان صوت بكاء النسوة يصل إلى حجرة الضيوف عاليا، مما اضطر(مفيد) إلى رفع صوته بدوره، وهو يجيب:

- يتهمونهما بتأييد حركة الضباط الأحرار، ولقد عثروا هنا على بعض منشورات هؤلاء الأحرار.
هتف المأمور :
- عثروا على منشورات؟! إذن فالتهمة صحيحة.
عقد (مفيد) حاجبيه في ضيق، وهو يقول:
- مستحيل؟ لقد كان أبي يسعى للحصول على رتبة الباشوية، فكيف يعادى نظاما، وهو يسعى ليصبح أحد أركانه؟
هز العمدة كتفيه، وهو يقول:
- من يدري؟
كان قناع الحزن الذي يرسمه على وجهه قد سقط فبدت شماتته واضحة في صوته وملامحه، مما دفع (مفيد) إلى أن يقول في صرامة:
- هناك شيء يحيرني يا عمدة.. لقد عثروا على المنشورات أسفل ذلك المقعد، الذي كنت أنت تجلس عليه.
انتفض العمدة، وهو يهتف:
- ماذا تعني؟
قال (مفيد) في برود:
- ما الذي تتصور أنني أعنيه؟
ارتسم غضب هائل على وجه العمدة، وهتف في ثورة:
- هل تتهمني بتلفيق التهمة لأبيك وشقيقك؟
قال (مفيد) في حدة:
- من يدري؟
احتقن وجه العمدة، وراح يرغي ويزبد، ويسب (مفيد) في ثورة غضب، فصاح به المأمور في صرامة:
- كفي يا عمدة..
التفت العمدة اليه قائلا:

- ألم تسمع ما قاله يا باشا؟
قال (مفيد) ساخرا:
- باشا؟! ومتى حصل مأمورنا العظيم على رتبة الباشوية؟
احتقن وجه المأمور بدوره، وهو يقول:
- ماذا تقصد يا ولد؟
صاح به (مفيد) في غضب:
- لا تخاطبني بكلمة (ولد) هذه.
بات من الواضح أن الموقف قد بلغ ذروة التوتر، ما دفع الحاج (سعفان) أحد كبار القرية إلى التدخل، هاتفا:
- كفى يا (مفيد).. لا تغضب يا عمدة.. اهدأ يا سيادة البك المأمور لا أحد يقصد ما قاله الليلة.. إنها الأعصاب الثائرة فحسب.
اعتدل المأمور في حدة، وهو يقول:
- إني أكره التواجد مع من لا يقيمون وزنا لاعتبارات السن والمقام؛ ولذلك فسأغادر المكان، ولن أعود إليه حتى يعود صاحبه سالما بإذن الله.
ثم التفت إلى العمدة هاتفا:
- هيا يا عمدة
هب العمدة، قائلا في حنق:
- هيا يا باشا
قال (مفيد) مستفزا:
- باشا مرة أخرى؟
احتقن وجه المأمور غضبا، وهتف مرة أخرى
- هيا يا عمدة.
ولم يكد يصل مع العمدة إلى باب السراي، حتى التفت إلى (مفيد)، وقال في غضب صارم:
- ستدفع ثمن هذا

أجابته نظرات (مفيد) الصارمة، فاندفع يغادر المكان محنقا، وسمع الجميع وقع حوافر جواده وجواد العمدة يبتعدان، فغمغم الحاج (سعفان):
- كان ينبغي أن تتحكم في أعصابك يا ولدي.
قال (مفيد) في صرامة:
- كانا يستحقان هذا، فهما شامتان فيما أصاب أبي وشقيقي.
غمغم الحاج (سعفان):
- خيالك هو الذي صور لك هذا.
بدت له عبارته خاوية، خالية من الحماس، حتى أنها عجزت عن إقناعه هو نفسه، فأضاف في خفوت، وهو يتنهد في أسف:
-لقد أصبح الزمن رديئا التفت (مفيد) إلى شقيقه (حافظ)، الذي ما زال يبكى في حرارة، وهتف به محنقا:
- كفى يا (حافظ).. إنك تولول كالنساء
انحدرت كلمات (حافظ) مع دموعه، وهو يقول:
لقد أخذوا أبي يا (مفيد).. أبي و (حسين) .
أجابه في صرامة:
- إنها ليست نهاية العالم.
ربت الحاج (سعفان) على كتف (مفيد)، وكأنما يعبر له عن إعجابه بصلابته، التي تفوق سنوات عمره القليلة، وقال:
- أظن أنه من الضروري أن نذهب - أنت وأنا - غدا إلى المديرية لتعرف ماذا حدث لوالدك وشقيقك.
غمغم (مفيد):
- بل إلى (القاهرة)، ما دام الأمر يتعلق بالبوليس السياسي، فلست أظن المديرية كلها تعلم أين أبي و (حسين) الآن.
وتنهد في عمق، قبل أن يضيف:
- معذرة يا عماه.. سأذهب لحظات للاطمئنان على شقيقاتي

هتف الحاج (سعفان):
- بالطبع.. اذهب يا ولدي.. اذهب.
التفت (مفيد) إلى (حافظ)، وقال في صرامة:
- قلت لك كفي.
ولكن (حافظ) ظل بيكي بنفس الحرارة، مما أثار حنق (مفيد)، وهو يغادر حجرة الضيوف إلى جناح شقيقاته، فغمغم:
- يا لها من عائلة!! شقيق متغطرس، وآخر كالنساء.

لم يكد يدلف إلى جناح شقيقاته، حتى رآهن وقد انخرطن جميعا في بكاء حار، وعلى الأخص (شريفة)، التي بدت أقرب إلى الانهيار، فجلس على طرف فراشها، وربت على كتفها في حنان، مغمغما:
- كفى يا (شريفة).. سيعود الاثنان سالمين بإذن الله (سبحانه وتعالى)
رفعت عينيها الدامعتين إليه، ثم عادت تنخرط في بكاء شديد، وهي تسند رأسها إلى يده، في حين هتفت (نعيمة):
- ولكن زوجي يؤكد أنه ما من أحد يعود سالما، ما دام الأمر يتعلق بالبوليس السياسي..
التفت إليها، قائلا في غيظ:
- وأين هو زوجك؟ لماذا لم يأت ليزيدنا من خبرته وشجاعته؟
توقفت دموعها بغتة، وقالت في غضب:
- هل تسخر في مثل هذه الظروف يا (مفيد)؟
قال في حدة:
- بل أتساءل فحسب، لماذا يكتفي هذا الهمام دوما بمتابعة الأمور من الخارج؟ لماذا خشي المجيء إلى هنا؟ أتحبين أن أخبرك أنا لماذا؟ لأن فارسك الهمام خاف أن يتهموه بأنه أيضا يؤيد حركة الضباط الأحرار، لو أنه أتى إلى هنا في مثل هذه الظروف.

هفت (نعيمة) في غضب:
- (مفيد).. احترم شقيقتك الكبرى.
صاح ثائرا:
- لماذا؟ لمجرد أنها أكبرنا؟
هتفت بهما (توحيده):
- كفى.. كفى شجارا.. الأجدى أن نبحث عن وسيلة لاستعادة ابي و(حسين).
زفر (مفيد) في قوة، وهو يقول:
- وأنت.. ثم رفع عينيه إليها، وغمغم مشفقا.. لقد تأجل زواجك بسبب هذا
تفجرت الدموع في عينيها، وهي تهتف:
- فلأبق عانسا عمري كله، ولا يقضي أبي ليلة واحدة في سجنه
تنهد في يأس، وهو يقول:
- سيعودان يا (توحيده).. سيعودان بإذن الله
ولكنه في أعماقه كان يشعر بالشك في عبارته..
بالشك إلى حد اليأس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راح المأمور ينهال بالسباب على رأس (مفيد)، طيلة الطريق من سراى (البنهاوي) إلى نقطة الشرطة، حتى هتف به العمدة:
- كفى يا باشا.. إنه مجرد ولد صغير..
صاح المأمور في غضب:
- ولكنه يحتاج إلى التهذيب.
رفع العمدة أحد حاجبيه في خبث، وهو يقول:
- ولم لا؟

أدار المأمور عينيه إليه بنصف التفاتة، ثم عاد يعتدل، وهو يقول:
- ماذا يدور في رأسك يا عمدة؟

قال العمدة في لهجة تقطر حروفها دهاء:
- عملية تأديب بسيطة يا باشا.
ابتسم المأمور في شغف، وهو يقول:
- وهل ستحتاج إلى مطبعة ابن شقيقك أيضا؟
قال العمدة في زهو:
- لا يا باشا.. إني رجل أحب التجديد .
سأله المأمور في اهتمام:
- ماذا تقترح هذه المرة إذن؟
خفض العمدة صوته، وهو يقول
- سرقة مواش
رفع المأمور حاجبيه، وهو يكرر في دهشة:
- سرقة مواش!...
ثم التفت إليه مستطردا:

- ومن سيصدق أن ابن (البنهاوي) يسرق المواشي؟!
لوح العمدة بكفه، قائلا:
- كل الأبناء ينحرفون.
سأله في حدة:
- ولكن لماذا ينحرف؟ لابد من سبب منطقي
اتسعت ابتسامة العمدة، وهو يقول:
- اطمئن يا باشا.. اترك لي هذا، وسيكون لديك سبب منطقي.
تطلع إليه المأمور لحظات في صمت، ثم غمغم:
- أتعلم أنني أصبحت أخشاك يا عمدة؟
هتف العمدة في فخر، وقد بدت له العبارة تقريظا مناسبًا:
- حاشي لله يا باشا.. محال أن تمتد أناملي إلى التراب الذي تطأه بقدمك
غمغم المأمور في حذر:
- ليست أناملك ما يخيفني يا عمدة، فلقد برزت أنيابك في عملية (البنهاوي)، ويبدو أن نجاحك فيها قد حفز عقلك، وأثار شهيتك لمزيد من الدماء، فصرت تتفنن في إيجاد وسائل التدمير وابتكارها.
غمغم العمدة في خبث
- تلميذك يا باشا
ابتسم المأمور، وفتل شاربه الضخم، وهو يقول:
- يبدو أنك تكره (البنهاوي) كثيرا يا عمدة..
قال العمدة في حقد واضح:
- لقد دخل قريتنا فقيرا معدما، ولن يغادرها إلا وهو كذلك يا باشا.
والتمعت عيناه ببريق الشر، وهو يستطرد:
- هذا وعد منى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6 – السجن..

ارتجف (حسين) في شدة، وراح يقاوم رغبته في البكاء، وهو يجلس في ركن تلك الزنزانة الرطبة الضيقة، التي ألقاه فيها رجال البوليس السياسي مع والده، وانهارت كل الأمال العريضة، التي رسمها لحياته، في أعماقه، وراح يندب ذلك الحظ السيئ، الذي ألقاه في هذا المكان، بعد أن صار قاب قوسين أو أدنى من القوة والسطوة..

وانطلق عقله يبحث عن تفسير لما حدث

إنه بالتأكيد لا يؤيد حركة الضباط الأحرار هذه..

ليس لأنه يرفضها، أو لأنه يؤيد النظام الحالي، بل لأنه - وبكل بساطة - لا يدري عنها أكثر مما سمعه من المأمور، ليلة زفاف (نعيمة)..

إنه حتى يجهل تماما كيف وصلت تلك المنشورات إلى السراي!!

إن والده لا يؤيد الضباط حتما.. ولا(حافظ) بالتأكيد أيحتمل إذن أن يكون (مفيد) هو صاحب المنشورات؟!

بدا له ذلك الخاطر فجأة منطقيا، متناسبًا مع شخصية (مفيد) الثائرة، وعناده التقليدي، فانتابه شعور بالحنق الشديد، مع تصوره أن (مفيد) صاحب تلك المنشورات، وأنه تركه ووالده يدفعان ثمن وجوده..

والده...

ترى كيف هو الآن..

رفع عينيه إلى حيث انكمش والده، في الركن المقابل للزنزانة، وهاله أن يرى كل هذا الشحوب والامتناع على وجه الرجل، فنهض من مكانه، واتجه اليه مغمغمًا:

- سينتهى كل شيء على ما يرام يا أبي، بإذن الله، إننا أبرياء، ولن يلبث رجال البوليس السياسي أن يتبينوا هذا..
رفع إليه الحاج (البنهاوي) عينين زائغتين، وهو يغمغم في انهيار:
- بعد كم من السنين؟
ثم طفرت من عينيه دمعة يأس، وهو يستطرد:
- كل شيء ضاع: الأرض، والأموال، واللقب.. حتى العمر والحرية.. كل شيء ضاع
هتف (حسين) في مرارة:
- لا تقل هذا يا أبي.. لا تقل هذا.. سنغادر هذا المكان، وسنعود إلى الأرض والمال، و.....
قاطعه صوت ساخر يقول:
- كم يروق لي أن أرى شخصا متفائلا هنا.
اقترن الصوت بفتح باب الزنزانة، وظهر جندي على عتبته، استطرد بنفس اللهجة الساخرة:
- هيا لنختبر دقة تفاؤلك أيها الهمام، فسيادة الصاغ (إبراهيم مكى) يطلب رؤيتك.
نهض (حسين) في توتر وبدا جسده يرتجف بالفعل، وهو يغمغم:
- وماذا عن أبي؟
ألقي الجندي نظرة سريعة على الأب المسكين، الذي انكمش في ركن الزنزانة، واكتفى ببكاء صامت يائس، ثم قال في سخرية:

- لا تقلق.. سيأتي دوره عما قريب
ودفع (حسين) أمامه في عنف، مستطردا:
- هيا.. سيادة الصاغ لا يحب الانتظار طويلا.

راح يدفعه في قسوة وامتهان، عبر ممر طويل، حتى وصلا إلى مكتب ضخم، طرق الجندي بابه، ثم دخل إليه وأمامه (حسين)،

وأدي التحية العسكرية للصاغ (إبراهيم مكى) الذي جلس خلف مكتبه في عظمة، وقال:
- السجين (حسين البنهاوي) يا سيدى
قال الصاغ (إبراهيم) في برود:
- أتركه واذهب.
أدى الجندي التحية العسكرية مرة أخرى، في مزيد من الصخب، وهو يدق كعبيه بعضهما ببعض في قوة، قبل أن يغادر الحجرة في سرعة، ويغلق بابها خلفه في إحكام، في نفس اللحظة التي غمغم فيها (حسين):
- السجين!
ابتسم الصاغ (إبراهيم) في سخرية، وهو يقول
- ألم يرق لك اللقب؟
أجابه (حسين) في خفوت:
- كنت أفضل لقب (المتهم) بالتأكيد، فهو يمنح شعورا بالأمل في البراءة، أما لقب (السجين)، فيوحي بأن الحكم قد صدر بالفعل.
تأمله (إبراهيم) في صمت لحظات، ثم قال:
- اجلس يا (حسين).
تردد (حسين) في شك، فكرر (إبراهيم) في حزم:
- اجلس
جلس (حسين) على المقعد المواجه للمكتب، وراح يتطلع إلى (إبراهيم) في حذر، فابتسم هذا الأخير، وكأنما يحاول أن يبث في نفس (حسين) بعض الاطمئنان، قبل أن يقول:
- أنت طالب بالكلية الحربية.. أليس كذلك؟
أومأ (حسين) برأسه إيجابا، وازدرد لعابه في صوت مسموع، قبل أن يجيب:
- نعم.

مال (إبراهيم) نحوه، وسأله بغتة:
- ما معلوماتك عن الضباط الأحرار؟
هتف (حسين)، وكأنما كان يتوقع هذا السؤال وينتظره:
- أقسم بالله إنني لا أعلم عنهم شيئا، أكثر مما يردده البعض، وأقسم بكل عزيز لدى، إنني وأبي من مؤيدى مولانا الملك المعظم، وأن تلك المنشورات التي وجدتموها في السراى مدسوسة علينا، و.....
قاطعه (إبراهيم):
- إنها منشورات زائفة.
حدق (حسين) في وجهه في ذهول، قبل أن يهتف بكل ما دفعته العبارة في نفسه من أمل:
- زائفة؟!
أومأ (إبراهيم) برأسه إيجابا، وقال في هدوء:
- كل شيء فيها زائف على نحو واضح للغاية، فلم يلتزم مزيفها بنوع الورق ولا الأسلوب، ولا حتى شكل الحروف.. إنها مزيفة من أولها إلى آخرها.
هتف (حسين) في فرحة
- إذن فأنتم تعلمون أنني وأبي بريئان.. حمدا لله.
ابتسم (إبراهيم مكى) في سخرية، دون أن ينبس ببنت شفة، واكتفى بمراقبة فرحة (حسين)، الذي استطرد في لهفة:
- ستطلقون سراحنا إذن.. أليس كذلك؟
أجابه (إبراهيم في هدوء:
- الأمر ليس بمثل هذه السهولة
تهاوى الأمل في أعماق (حسين) بغتة، وشحب وجهه، وهو يسأل:
- لماذا؟ ألم تتأكدوا من أننا بريئان؟
مط (إبراهيم) شفتيه، وقال:

- في مهنتنا هذه لا تسير المأمور بتلك البساطة يا (حسين)، فمن السهل على أي منا أن يصدر قرارا باعتقال شخص ما، ولكن من العسير أن نصدر قرارا بالإفراج عنه، حتى ولو ثبتت براءته.
ازداد شحوب (حسين)، وهو يقول:
- لماذا؟ أليس من المنطقي أن..
قاطعه (إبراهيم) في صرامة:
- الفارق الوحيد بالنسبة لك ولوالدك هو أننا لن نستجوبكما، وصدقني.. سيوفر لكما هذا الكثير.. من كرامتكما على الأقل.
ثم ابتسم ابتسامة واسعة، وهو يستطرد:
- الواقع أنكما محظوظان يا (حسين).
ردد (حسين) في ذهول:
- محظوظان!!
وتجمعت في عينيه دمعة كبيرة، عجز عن كبتها هذه المرة، وهو يقول:
- ماذا سيكون مصيري ومصير أبي إذن؟!
هز (إبراهيم كفيه، قائلا
- ستبقيان معنا بعض الوقت .
سأله في انهيار:
- إلى متى؟
هز كتفيه مرة أخرى، وابتسم ابتسامة أقرب إلى الجذل، وهو يغمغم:
- من يدري؟
وخيّل لحسين) أنه هوى في حفرة
حفرة عميقة..
في بئر لا قرار لها..
ولا أمل في النجاة منها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن (مفيد) أبدا ممن ينبهرون بـ (القاهرة)، مثلما يفعل سكان الريف عادة، ومثلما بدا الحاج (سعفان)، الذي يرافقه في رحلته، منذ توقف بهما القطار القادم من (طنطا)، في محطة (مصر)..
(مفيد) ما زال كما هو، يعشق الريف بأرضه وخضرته وبـ (مديحة).. ثم إن ضخامة (القاهرة) لم تكن الشيء الذي يشغل بال (مفيد). بل كان كل ما يفكر فيه هو البحث عن والده وشقيقه.
ولهذا لم يضع لحظة واحدة، فاستقل واحدة من سيارات الأجرة، وهتف بسائقها:
- البوليس السياسي.
بسمل السائق وحوقل، واستعاذ بالله (سبحانه وتعالى) من شياطين الإنس والجن، وانطلق في طريقه لاعنًا حظه السيئ، الذي سيذهب به إلى ذلك المكان، الذي يخشى كل مصري مجرد المرور من أمامه، في حين راح (مفيد) يسأل الحاج (سعفان) في المقعد الخلفي للسيارة:
- أتظننا سنجدهما يا حاج؟
تردد الحاج (سعفان) لحظة، ثم أجاب في خفوت:
- فليفعل الله ما فيه الخير يا ولدي.
قال (مفيد) في أمل:
- سيرشدوننا إلى مكانهما على الأقل
سأله السائق في حذر:
- هل اعتقل البوليس السياسي أحد أقاربك؟
أجابه (مفيد):
- نعم.. أبي وشقيقي.
زفر السائق في أسف، وهو يقول:

- لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.. شد حيلك يا ولدي
شحب وجه (مفيد)، وهو يغمغم:
- هل تعلم شيئا عن مثل هذه الأمور؟
هتف السائق، وكأنما ينفي عن نفسه تهمة بغيضة:
- لا.. لست أعلم شيئا..
سأله (مفيد) مرة أخرى أتظننا سنجدهما؟
كرر السائق في رعب:
- لست أدري.. لست أدري.. لست أعلم شيئا..
وأطبق شفتيه بعدها، فلم ينبس بحرف واحد، حتى وصلت السيارة إلى المبنى المنشود، فراح يرمقه في خوف، حتى هبط (مفيد) والحاج (سعفان) من السيارة، ونقده (مفيد) أجره، فانطلق بالسيارة وكأنما يفر من شياطين الدنيا كلها..
واتجه (مفيد) في ثبات إلى حارس البوابة، وقال:
- أريد مقابلة الصاغ (إبراهيم مكى)،
تطلع الحارس في استهتار وسخرية إلى ذلك الفتى اليافع، الذي يقف أمامه في ثبات، وسأله
- تريد مقابلته؟! أأنت قريب له؟
أجابه (مفيد) بنفس الثبات:
- بل أريد أن أسأله عن أبي وشقيقي.
سأله الحارس:
- وما شأنه بهما؟
أجابه في حزم:
- لقد اعتقلهما أمس، و.
هتف الحارس مقاطعا:
- اعتقلهما؟! وتريد أن تسأله عنهما؟!
قال (مفيد):

- نعم.. وماذا في هذا؟
دفعه الحارس بكعب بندقيته، وهو يقول في غلظة:
- اذهب يا فتى.. اذهب
هتف به (مفيد):
- كيف أذهب.. لقد أتيت أسأل عن أبي وشقيقي، و.....
صاح به الحارس في خشونة، وهو يدفعه مرة أخرى بعيدا:
- قلت لك اذهب
قال (مفيد) في عناد:
- وماذا لو لم أفعل؟
أدهشه أن صوب الحارس فوهة بندقيته إلى صدره، وهو يقول في قسوة:
- حاول، وستخترق رصاصتي قلبك، فالأوامر لدى تحتم اتخاذ هذا الأسلوب، مع كل من يحاول الدخول إلى هنا عنوة.
أمسك الحاج (سعفان) كتفى (مفيد)، وجذبه إلى الخلف، وهو يقول في مرارة:
- تعال يا ولدي.. من الواضح أن هذا الطريق مسدود في وجوهنا، وأننا قد فقدنا أثر والدك وشقيقك.
غمغم (مفيد)، وهو يبتعد عن المبنى في ألم:
- نعم.. لقد فقدناهما.. فقدناهما.
وسالت من عينيه الدموع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- الاتهام..

كان قرص القمر يتوسط سماء صافية انتشرت فيها نجوم لامعة كالدرر، عندما تسللت (مديحة) من منزلها، وراحت تحث الخطا وسط الحقول الخضراء، في طريقها إلى حيث شجرة الصفصاف الكبيرة، على حافة أرض (البنهاوي)..

لم تكن أول مرة تتسلل فيها من منزلها في مثل هذا الوقت..

ولا أول مرة تذهب فيها إلى حيث شجرة الصفصاف..

وفي أعماقها كانت تشعر بسعادة كبيرة..

سعادة عاشقة صغيرة، لم تتجاوز منتصف سن المراهقة بعد..

وعند جذع شجرة الصفصاف، كان (مفيد) ينتظرها ولقد استقبلها في لهفة وحب حقيقيين.

وعندما تشابكت أصابعهما، كان قلبيهما يخفقان في حنان وهيام، وكانت حمرة الخجل تكسو وجه (مديحة) كله، وهي تغمغم:

ـ كيف حالك؟

همس (مفيد):

- كيف حالك أنت؟
لم يجب أيهما السؤال، فقد كانا يعلمان أنه مدخل لتهدئة لواذع قلبيهما الصغيرين، ومفتاح لبدء الحديث بينهما..
ولقد عاونها (مفيد) على الجلوس عند جذع الشجرة، وسألها في حنان:
- هل أنهيت امتحاناتك؟
أومأت برأسها إيجابا، وهي تقول
- نعم.. لقد انتهيت منها اليوم
ثم سألته في لهفة
- وماذا عنك؟
ابتسم مجيبا:
- بقي أمامي اختبار واحد.
غلفهما الصمت لحظات بغلافه الرقيق، الذي بدا في قلوب العاشقين أبلغ من قصائد شعر ودواوين غزل، وراح هو يتأمل وجهها الصبوح، وقد غلفه ضوء القمر بغلالة فضية صافية، زادت من بهائه وحسنه، فاحمرت وجنتاها خجلا، وزادها هذا فتنة، فخفضت عينيها في حياء، مغمغمه:
- أما من أخبار عن الحاج و (حسين) بك؟
لم تكد تنطق بسؤالها، حتى شملتها موجة قوية من الندم، فقد ارتسم الحزن على ملامحه كلها، وغمغم في مرارة:
- لا.. لقد حاولنا أن نعثر على أثر لهما، ولكننا عجزنا
ربتت على كتفه متعاطفة، وسألته:
- ألا يعلم أي مخلوق أين ذهبا؟
هز رأسه نفيا، وقال:
- الجميع يؤكدون أنه ما من وسيلة لمعرفة مكانهما، سوى البوليس السياسي نفسه، ولقد عجزت عن الوصول إلى الصاغ (إبراهيم

مكى)، الذي اعتقلهما من السراى، ويقيني أنه الوحيد الذي يمكنه إرشادي إليهما.
قالت مشفقة:
- وما وقع هذا على السراى؟
زفر في مرارة، وأجاب:
- كل الأمور مقلوبة، ف (حافظ) يكاد يكون منهارا، إذ أنك تعلمين شدة ارتباطه بأبي، و (نعيمة) تركت منزلها تقريبًا لتقيم معنا، وهي تشارك أخواتي الأخريات في بكائهن المتواصل ليل نهار، أما زوج (نعيمة) فما زال يتحاشى زيارتنا، على عكس خطيب (توحيده)، الذي يهتم بأحوالنا كثيرا.
سألته في حنان:
- وماذا عنك أنت؟
رمقها بنظرة امتنان، وكأنما يشكرها سؤالها عنه، وغمغم:
- أحاول احتمال الموقف.
غمغمت وهى تربت على كتفه مرة أخرى في حنان:
- أنت دائما قادر على الاحتمال.
تطلع إلى عينيها في حب، وتسللت أصابعه تحضن أصابعها الرقيقة، و.....
وفجأة، دوى طلق ناري بعيد، ارتجف له جسداهما، وهتفت هي في رعب:
- ما هذا؟
عقد حاجبيه، وهو يتطلع إلى حيث دوي الطلق النارى، وقال:
- لست أدري
تعاقبت الأعيرة النارية في الهواء، على نحو يوحي بحدوث أمر جلل، مما جعل (مديحة) تهتف مذعورة:
- رباه... ماذا يحدث؟

أجابها في صلابة، تفوق سنوات عمره بكثير
- لا تقلقي.. عودي إلى منزلك على الفور، ولا تغادريه.
أسرعت تعدو عائدة إلى منزلها القريب، وسط ارض (البنهاوي)، وتابعها هو بصره في اهتمام، حتى اطمأن إلى وصولها إلى المنزل، على ضوء القمر المكتمل الاستدارة، ثم أسرع الي السراي، ولم يكد يبلغها، حتى استقبلته (شريفة)، وهي تسأله في خوف:
- ماذا هناك؟
هز رأسه، مغمغما:
- لست أدري.. ربما هي محاولة سرقة، أو شيء من هذا القبيل
أسرعت إليهما (ناهد) من الداخل، تقول في قلق:
- ادخلا إلى المنزل، فقد يصيبكما عيار طائش.
أسرع الثلاثة إلى داخل السراى، وران الصمت في الخارج، بعد أن توقفت الأعيرة النارية، فقالت (توحيده) في خفوت:
- ترى من يسرق من؟
أجابها (مفيد):
- لن نلبث أن نعلم كل التفاصيل، عندما تشرق شمس الغد، فالأخبار تنتشر في قريتنا في سرعة.
هتفت (ناهد) في ضيق
- هل ستنتظر حي الغد؟
رمقها (مفيد) بنظرة استنكار، ثم التفت إلى (توحيده) يسألها:
- كيف حال (حافظ)؟
أجابته وهي تتنهد في عمق:
- حاله تقلقني.. فهو لا يتناول سوى النذر اليسير من الطعام، ويبكى طيلة الوقت تقريبا.
قال في ضيق

- كم يضايقني ضعفه هذا! ينبغي أن يتماسك قليلا كرجل
قالت محاولة إيجاد مبرر:
- أنت تعلم شدة تعلقه بأبي.
قال معترضا:
- هذا ليس مبررا.
تناهى إلى مسامعهما في تلك اللحظة وقع حوافر عدد من الخيول، يقترب من السراي، فقالت (شريفة) في قلق:
- يارب خيرا
وهتفت (ناهد):
- ترى هل يتعلق قدومهم بطلقات النيران؟
سمع الجميع الخيول تتوقف أمام باب السراى مباشرة، فهتف (مفيد):
- عبد الحميد.
أسرع إليه (عبد الحميد)، بزيه الرث، ونحوله الشديد، فاستطرد:
- فلتر من بالباب.
غاب (عبد الحميد) لحظات، ثم عاد يقول:
- البك المأمور يطلب رؤيتك يا سيدى (مفيد)
قال (مفيد) في قلق:
- رؤيتي أنا؟
واتجه إلى حجرة الضيوف معقود الحاجبين، ولم يكد يلجها، حتى رأي العمدة والمأمور وبعض جنود الشرطة والخفراء، وقد بدت الصرامة في وجوههم جميعا، فقال:
- مرحبًا بكم.. خيرا.
أجابه المأمور في صوت صارم:
- جرت منذ لحظات محاولة لسرقة مواشي العمدة.
سأله (مفيد) في هدوء:

- أكان هذا تلك الأعيرة النارية، التي انطلقت منذ قليل؟
أجابه العمدة بابتسامة غامضة:
- نعم.. هو السبب طبعا.
رمقه (مفيد) بنظرة باردة، وقال:
- وما شأني أنا بهذا يا سيادة المأمور؟
قال المأمور بنفس الصرامة:
- لقد طارد خفراء العمدة السارقين، ونجحوا في إلقاء القبض على أحدهم.
عاد (مفيد) يسأله بنفس البرود:
- وما شأني بهذا أيضا؟
رماه المأمور بنظرة طويلة أشد برودا، قبل أن يلتفت إلى أحد جنوده، قائلا في صرامة:
أحضر اللص.
ظل (مفيد) ثابتًا هادئا، محتفظا بكل قلقه وتساؤلاته في أعماقه، حتى عاد الجندي باللص، ودفعه داخل الحجرة، فتطلع إليه (مفيد) في حيرة، وأيقن من أنه لم ير وجهه قط من قبل، ولهذا كانت دهشته عارمة، عندما رفع اللص عينيه إليه، وهتف:
- (مفيد) بك.. أنقذني.
هتف (مفيد) في دهشة:
- أنقذك؟! هل أعرفك يا رجل؟
قال اللص:
- تعرفني؟! هل تريد التخلي عنى يا (مفيد) بك؟ ألست أنت من أمرنا بسرقة المواشي؟
تراجع (مفيد) كالمصعوق، وهو يهتف
- أنا؟
ارتسمت على شفتي العمدة ابتسامة متشفية، وهو يقول:

- لقد اعترف الرجل يا (مفيد).
رفع (مفيد) عينيه إلى وجهي العمدة والمأمور، وفهم اللعبة كلها من ابتسامتهما على الفور، فعقد حاجبيه، هاتفا:
- يا لكما من لعينين!! ولكن خطتكما لن تفلح أبدا.
هتف اللص:
- ولكن لماذا تنكر يا (مفيد) بك؟ لقد اعترفت أنا لأريح ضميرى انت كنت معنا في أثناء السرقة.
صاح به (مفيد) في غضب:
- كذبت أيها اللعين!!
سأله المأمور في صرامة:
- أين كنت إذن، عندما انطلقت الأعيرة النارية؟
لم ينبس (مفيد) ببنت شفة لحظات لقد استعاد ذهنه الموقف في سرعة.. لقد كان مع (مديحة) عندما انطلقت الأعيرة النارية..
كان معها عند جذع شجرة الصفصاف ولكن من المستحيل أن يذكر ذلك للمأمور، لن يفضح الإنسانة التي أحبها أبدا..
وبكل صلابة، قال:
- كنت أتنزه وحدي وسط الحقول.
هتف اللص:
- بل كنت معنا نسرق المواشي، بناء على خطة وضعتها أنت.
صاح به (مفيد):
- خسئت أيها الحقير كيف تتهمني باتهام وضيع كهذا؟! لماذا ألجأ إلى سرقة مواشي العمدة، ووالدي يمتلك أضعاف أضعافها؟
أجابه المأمور بابتسامة ساخرة شامتة:
- حتى لا يعلم والدك كم تنفق على لعب القمار
هتف (مفيد):
- القمار؟! أي قمار؟ أجابه العمدة في دهاء:

- القمار.. الميسر يا فتى.. إن لدينا شهودا على أنك تدمنه، وتتسلل من منزلك يوميا وتمارسه مع شلة من أدني فئات المجتمع، ومن بينهم هذا اللص، وأنك تخشى أن يدرك والدك ما تفعله، عندما تطالبه بنقود لتغطية خسائرك الباهظة ولذا فلم يكن لديك سوى سرقة المواشي وبيعها، لتغطية نفقاتك.

قلب (مفيد) شفتيه في امتعاض، وهو يقول:

- شهود وخطة ودوافع.. لقد تحالفتما مع الشيطان حقا هذه المرة.

ابتسم المأمور في سخرية، وهو يقول:

- كف عن تلك السفسطة.. لقد وقعت هذه المرة، وأنا ألقي القبض عليك بتهمة السرقة.

ومرة أخرى، انطلقت صرخة (شريفة) ترج السراى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8 - الانهيار..

- لماذا يارب؟ لماذا؟

هتف الحاج (البنهاوي) بهذه العبارة، بكل ما يملأ نفسه من ألم ويأس ومرارة وإحباط، ثم لم تلبث الدموع أن تفجرت في عينيه، وغمرت وجهه الذي كسته لحية نمت مع قلة العناية والاهتمام، فاقترب منه ابنه (حسين)، وغمغم في تعاطف مرير:

- رويدك يا أبي.. إننا مظلومان.. الجميع هنا يعلمون هذا.

هتف الحاج (البنهاوي) في ألم:

- لا فائدة يا ولدي.. لا فائدة

وعادت الدموع تغرق وجهه، وهو يستطرد:

- لقد خسرت كل شيء.. خسرت كل ما ربحته، وكل ما حلمت به طيلة عمري.. إننا هنا في جحيم أرضي يا ولدي.. في قبر يدفن فيه الأحياء.

قال (حسين) محاولا تهدئته:

- لا يا والدي.. إننا سنخرج من هنا قريبا.. قريبًا جدا.

هز الحاج (البنهاوي) رأسه في يأس، وهو يقول:

- لا تحاول خداع نفسك بهذا يا ولدي.. أنت تعلم مثلى أن من يدخل إلى هنا لا يخرج أبدا.. أنت تعلم هذا..

تراجع (حسين) مغمغما في ارتياع:

- لا يا أبي.. لا تقل هذا.. لا تقل هذا..

والتصق بجدار الزنزانة، مستطردا:

- لا تحطم أحلام عمري كلها بهذه البساطة

غمغم (البنهاوي) في مرارة:

- أحلام عمرك؟!

ثم رفع عينيه إليه، مستطردا في انهيار:

- حتى الأحلام صارت سجينة هنا يا ولدي.. حتى الأحلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطلق المأمور ضحكة ظافرة عالية، وهو يدق بيده على فخده، هاتفا:

- رائع يا عمدة!! أنت فعلا عبقرى.. عبقري كبير.. على الرغم من أنك تعجز عن كتابة اسمك في وضوح.

لوح العمدة بكفه، وهو يبتسم في دهاء، قائلا:

- وماذا فعل المتعلمون؟

أطلق المأمور ضحكة مجلجلة أخرى، قبل أن يقول:

- صدقت.. وماذا فعل المتعلمون؟

ثم ابتسم في جذل، مستطردا:

- ولكن خطتك كانت عبقرية بحق، فأنت دفعت رجالك لمراقبة الفتى طيلة الأسبوع الماضي، وعلمت أنه يتسلل من منزله كل ليلة؛ ليلتقي بحبيبة قلبه عند جذع شجرة الصفصاف، واستغللت ذلك، واثقا من أن شهامته ستمنعه من ذكر الحقيقة، ومن تبرئة نفسه على حساب سمعة الفتاة، مما يسهل إدانته في قضية السرقة.

قال العمدة مبتسما في ظفر:

- لقد ساعدنا (مرزوق) كثيرا أيضا، فعلى الرغم من أنه لص كبير، إلا أنه أوفي بوعده تماما، واتهم (مفيد) بأنه المحرض على السرقة، والمشارك فيها.

وانخفض صوته، وهو يستطرد:

- ومن الضروري أن نوفي بوعدنا له بدورنا.

لوح المأمور بكفه هاتفا في مرح:

- بالطبع.. سنوفي بما وعدناه به

ثم تنهد في ارتياح، وقال:

- المهم أننا ما زلنا نواصل تحطيم عائلة (البنهاوي).
قال العمدة في ثقة:
- لن تقوم لهم قائمة بعد ذلك.. صدقني، فلقد أشعت في القرية كلها أن (حسين) ووالده يؤيدان تنظيم الضباط الأحرار، وأن (حسين) بالذات أحد كبار التنظيم، ونشرت خبر إلقاء القبض على (مفيد) بتهمة السرقة.
وأطلق ضحكة قصيرة، قبل أن يستطرد:
- والبقية في الطريق.
تألقت عينا المأمور، وهو يقول:
- نعم.. البقية في الطريق
وازداد بريق عينيه، وهو يستطرد:
- لقد انتهت عائلة (البنهاوي).. انتهت تماما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس (مفيد) في زنزانته شاردا، يفكر فيما آل إليه أمر العائلة في الآونة الأخيرة، فلقد انهالت المصائب عليهم بغتة من كل صوب، وراح الجميع يكيلون لهم التهم والأباطيل، كما لو أن سنوات المودة بينهم وبين أهل القرية قد انتهت بغتة بلا رجعة..
ولكن لماذا؟ لماذا كرههم الجميع فجأة، وعلى رأسهم العمدة والمأمور؟ ما الذي تبدل في حياتهم؟
الأن (حسين) قد التحق بالكلية الحربية؟ أم لأن والده كان قاب قوسين أو أدنى من الحصول على رتبة الباشوية؟
بدت له النقطة الأخيرة أكثر منطقية، لأنها كانت ستصنع فجوة مباغتة بين والده والآخرين..

فجوة تجعله يعلو العمدة والمأمور معًا، بعد أن كان يسعى دوما لخطب ودهما..
وفي مرارة، ارتسمت على شفتيه ابتسامة، وهو يغمغم:
- قر عينا إذن يا (حسين)، ها هو ذا ما جلبه لنا سعيك وراء اللقب..
انتفض جسده بغتة، عندما تناهى إلى مسامعه صوت هامس حنون، يهتف باسمه، فهب واقفا، وتعلق بقضبان نافذة الحجز، وهو يهتف في صوت خافت:
- (مديحة).. أهو أنت؟
أتاه صوتها الحنون مفعما باللوعة، وهي تقول:
- نعم يا (مفيد).. هو أنا.. كيف أنت؟ ماذا فعلوا بك؟
أجابها في مرارة:
- بل قولي ماذا فعلوا بأسرتى يا (مديحة).. إنهم يسعون لتدميرنا جميعا قالت في صوت حمل زخمة من الدموع التي تغرق وجهها:
- ولكنك بريء يا (مفيد).. لقد كنت معي عندما سمعنا الأعيرة النارية، و.....
قاطعها في حزم صارم
- إياك أن تذكري هذا الأمر لمخلوق يا (مديحة).. إياكِ.
هتفت في ألم:
- ولكن يا (مفيد).
صاح في صرامة لا تقبل الجدل:
- إياك يا (مديحة).
سمع صوتها وهي تبكي، وهو يعجز عن رؤيتها لارتفاع قضبان الحجز، فقال مشفقا:
- عودي إلى منزلك يا (مديحة).. عودي قبل أن ينتبه عم (إسماعيل) إلى غيابك.

قالت باكية:
- يؤلمني أن أتركك وحدك يا (مفيد)
أجابها محاولا التسرية عنها:
- لست وحدي.. فذلك اللص الذي شهد ضدي في الحجرة المجاورة.
قالت وهي تنتحب:
- ماذا سيفعلون بك يا (مفيد)؟
تنهد في مرارة، وقال:
- لست أستبعد أن يفعلوا بي أي شيء.. حتى أن يقتلوني.
صرخت في رعب:
- يقتلونك؟!
أجابها:
- نعم.. يدعون محاولة فرارى، ويطلقون على النار.
قالت ملتاعة:
- لا تقل هذا يا (مفيد).. لا تقل هذا.
تنهد في عمق، وقال:
- لا تشغلي عقلك بدناءاتهم يا (مديحة).. هيا.. عودي إلى منزلك
بللت دموعها وجهها كله، وهي تقول:
- كم أحبك يا (مفيد)!!
اختلج قلبه، على الرغم من القضبان المحيطة به، وتشبثت قبضتاه بأسوار سجنه، وهو يهتف:
- تحبينني؟!
وانطلقت عواطفه كلها مع صوته، وهو يتابع:
- يا لعجائب هذه الدنيا!! إني أتمنى منذ عرفتك أن أسمع منك هذه الكلمة، ويشاء الله (سبحانه وتعالى) ألا أسمعها منك إلا وأنا محاط بهذه القضبان، وأصابعي تعجز عن احضان أصابعك.

هتفت:
- لا يا (مفيد).. لن تعجز أبدا.
راحت ترفع قامتها الضئيلة، بأقصى ما يمكنها، وتمد يدها إلى أعلى في شدة وامتدت أصابعه هو خارج قضبان النافذة..
وتلامست أصابعهما..
لم تنجح يده في أحضان كفها الرقيقة.. ولكن الأصابع تلامست وسرى تيار الحب بينها..
وهتف (مفيد) من أعمق أعماق قلبه:
- أحبك يا (مديحة).. أحبك.
سالت الدموع من عينيها مرة أخرى، وهي تهتف
- أنا أيضا أحبك.
كان القلبان الصغيران يعرفان الحب لأول مرة يعرفان حبًا صافيا نقيا...
وفي حنان الدنيا كلها، قال (مفيد):
- هيا يا (مديحة).. اذهبى.
غمغمت في أسي
- أذهب؟
قال:
- نعم.. عودي إلى منزلك.
هتفت وهي تجفف دموعها:
- اهتم بنفسك كثيرا
قال في قلق:
- سأفعل، ولكن اذهبى بسرعة، فأنا أسمع وقع أقدام تقترب.. اذهبى.
تركت موقعها، وراحت تبتعد عن المكان في سرعة، إلا أنها لم تلبث أن توقفت، وغمغمت:

- ترى ماذا يريدون منه، في مثل هذا الوقت؟
وفجأة، تناهى إلى مسامعها صوت أحد الجنود يهتف:
- السجين يحاول الهرب.
سقط قلبها بين قدميها، وهي تتذكر حديث (مفيد) عن اغتياله في أثناء محاولة فرار ملفقة، وهتفت في ذعر:
- (مفيد).
وفجأة انطلق دوي الرصاصات في حجرة الحجز، وصرخت (مديحة) في لوعة لا مثيل لها:
- (مفيد).. لا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9 - التحول..

هب عم (إسماعيل) من فراشه فزعًا، وهتف بزوجته ملتاعًا:

- أين (مديحة)؟

نهضت الزوجة من الفراش، وهي تسأله في حيرة وقلق:

- في فراشها طبعا.. لماذا تسأل؟

غادر الفراش، وهو يضع يده على صدره، قائلا في صوت لاهث، من شدة الانفعال:

- يخيل إلى أني قد سمعتها تصرخ في الخارج

غمغمت زوجته، وقد سرى قلقه إلى صدرها:

- في الخارج؟! وماذا تفعل (مديحة) في الخارج الآن؟

لم يكد بصر الرجل يقع على فراش ابنته الكبرى الخالي. حتى أطلق شهقة ذعر، وهتف وهو يختطف جلبابه:

- (مديحة)؟ ابنتي؟

ارتدي جلبابه، وهو يعدو خارج منزله الصغير، عبر الحقول، إلى حيث انطلقت صرخة ابنته، حتى لمح جسدها الصغير، ملقى بين أعواد النباتات، فهرع إليها يحملها بين ذراعيه هاتفا في لوعة:

- (مديحة).. ابنتي!!

فتحت (مديحة) عينين مغرورقتين بالدموع، وهي تنتحب قائلة:

- لقد قتلوه يا أبي، قتلوا(مفيد).

اتسعت عينا الرجل في رعب، وهو يهتف:

- قتلوه؟!

انتحبت هاتفة:

- نعم يا أبي، قتلوه.. العمدة والمأمور قتلاه.. ادعيا أنه حاول الفرار، وأمرا رجالهما بقتله.

حدق في وجهها في ذهول وذعر لحظات، قبل أن يعقد حاجبيه، قائلا في صرامة:

- اذهبي إلى البيت.

هتفت:

- لقد قتلاه يا أبي.

صاح بها في حدة:

- اذهبي إلى البيت
وقفت تترنح أمامه، فأضاف في صرامة قاسية:
- سنتحدث عن سبب وجودك هنا، في هذه الساعة المتأخرة، عندما أعود إلى المنزل..
وعلى الرغم من ألمها وحزنها على (مفيد)، شحب وجهها رعبًا لصرامة أبيها، وانطلقت تعدو نحو المنزل، في حين اتجه (إسماعيل) إلى نقطة الشرطة، وهو يغمغم في توتر ذاهل:
- مستحيل أن يكونا قد قتلاه! إن (مفيد) بك هو أكثر أبناء الحاج (البنهاوي) عقلا ورصانة، على الرغم من صغر سنه، حتى أني أجزم بأن عملية سرقة المواشي هذه ملفقة.. سترك يا رب الكون.. سترك.
راح يتقدم من نقطة الشرطة في قلق وتوتر، حتى بلغها وقد امتقع وجهه كثيرا، وسال أحد جنود الحراسة في توتر:
- ماذا حدث؟
وأجابه الجندي في هدوء، وكأنما الأمر لا يعنيه
- لقد حاول أحد اللصوص الفرار، فأطلق عليه خفير الحراسة النار، وأرداه قتيلا.
جف لعاب (إسماعيل)، وهو يغمغم:
- ومن هذا اللص؟
رمقه الجندي بنظرة طويلة، قبل أن يجيب في بساطة.
- (مرزوق)
وخفق قلب عم (إسماعيل) في ارتياح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (حسين) في حالة يرثى لها حقا، عندما تم استدعاؤه إلى مكتب الصاغ (إبراهيم مكى)، في الخامسة صباحًا، فقد نمت لحيته في شدة، واتسخت ثيابه.. وتحطم الكبرياء في نفسه تماما، حتى أن الدهشة قد رجته من أعماقه، عندما استقبله (إبراهيم) بابتسامة عريضة، ونهض من خلف مكتبه يستقبله في حرارة. ويصافحه في قوة هاتفا:

- مرحبًا يا (حسين).. كيف حالك؟ وكيف حال الحاج؟

غمغم (حسن) في شك:

- في أسوأ حال كما ترى.

هتف (إبراهيم) في حرارة:

- لا تقل هذا يا رجل.. إنك كأخي.. والحاج كوالدي تماما.

رمقه (حسين) في حيرة شديدة، وقد أدهشه ذلك التحول الكبير في شخصية الصاغ (إبراهيم مكى)، وغمغم في حذر:

- أهي وسيلة استجواب جديدة؟

هتف (إبراهيم) مستنكرا:

- استجواب؟! ولماذا استجوبك يا رجل.. إنك لم ترتكب جريمة.

وأسرع ينادى حارس مكتبه الخاص، وهو يغمز (حسين) في مودة، مستطردا:

- لا ريب أنك ترغب في ارتداء زي نظيف، وحلاقة ذقنك.. اليس كذلك؟

غمغم (حسين) في شك وحذر:

- بلى.

التفت (إبراهيم) إلى حارسه، وقال في حزم:

- أحضر شفرة حلاقة نظيفة لـ (حسين) بك، وحلة من صواني الخاص، وأحضر للحاج (البنهاوي) شفرة أخرى جديدة، وثوبًا يليق به..

وربت على كتف (حسين) في حرارة، هاتفا:
- اجلس يا رجل.. اجلس.. ما رأيك في قدح من القهوة؟
جلس (حسين)، وهو يسأله في حذر:
- ماذا حدث بالضبط؟
أجابه (إبراهيم) بابتسامة عريضة:
- لم يحدث شيء.. أنت والحاج بريئان، ولا يوجد أي داع لاحتجازكم هنا.. ومن الضروري أن نطلق سراحكما على الفور.
سأله في دهشة:
- ولكنك قلت إن أحدا لا يجرؤ على إطلاق سراحنا
أشار (إبراهيم) إلى صدره، قائلا في حزم:
- أنا أجرؤ
وعاد يبتسم بتلك الابتسامة العريضة، مستطردا:
- من الضروري أن يتخذ الإنسان موقفا حازما، في الوقت المناسب أليس كذلك؟
تمتم (حسين)، وقد تضاعف حيرته:
- بلى
اعتدل (إبراهيم)، وهو يقول مبتسما:
- أتعلم أنني أحترم الشخص، الذي يجيد اختيار طريقه يا (حسين) بك؟
رمقه (حسين) بنظرة صامتة، وقد تضاعف التساؤل الحائر في أعماقه. عما يقصده الصاغ (إبراهيم) من هذا التحول المفاجئ، قبل أن يميل هذا الأخير نحوه، ويستطرد:
- مثلك أنت والحاج..
ردد (حسين) خلفه، في دهشة وحيرة:
- مثلي أنا والحاج؟!
قال (إبراهيم)، وقد بدت ابتسامته وكأنها نحتت على شفتيه نحتا:

- بالتأكيد.. لقد كان تأييدكم للضباط الأحرار منتهى الحكمة.
تطلع إليه (حسين) طويلا، قبل أن يقول:
- ألم أقل لك إنه استجواب جديد؟
مال (إبراهيم) نحوه، وهو يقول:
- بل تأييد يا (حسين) بك.. تأييد وتهنئة..
غمغم (حسين)، وقد بلغت حيرته ذروتها:
- تهنئة بماذا؟
تراجع (إبراهيم)، وازدادت ابتسامته اتساعا، حتى بلغت أقصاها، وهو يقول:
- لقد قام أصدقاؤك بانقلاب في صفوف الجيش، ومن الواضح أنهم سيربحون اللعبة كلها.. تهاني أيها البطل.. تهنأتي على نجاح حركة الضباط الأحرار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هب العمدة من فراشه وجلا، على صوت دقات عالية على باب منزله، فهتف ينادي خفيره الخاص:
- ماذا حدث أيها الخفير؟ ماذا حدث؟
أسرع إليه الخفير، وعيناه تحملان أثر نوم لم يتلاش بعد، وهو يقول:
- البك المأمور يا جناب العمدة.
هتف العمدة في دهشة بالغة:
- البك المأمور هنا؟ وما الذي أتى به في هذه الساعة المبكرة؟
ثم أسرع يرتدي جلبابه، مستطردا:
- ادخله إلى حجرة الضيوف يا رجل، وسأهرع إليه على الفور.
قال الخفير:

- لقد دخل إليها يا جناب العمدة، ويطلب رؤيتك على الفور .
أسرع العمدة إلى حجرة الضيوف، وهو يردد:
- خيرا بإذن الله.. خيرا بإذن الله..
ولكنه لم يكد يلج حجرة استقبال الضيوف، ويشاهد وجه المأمور الممتقع، حتى تخاذلت قدماه، فترك جسده يسقط فوق أريكة قريبة، وهو يقول في شحوب:
- خيرا يا سعادة البك المأمور.
هتف المأمور في لمحة تشف عن توتره وذعره:
- مصيبة يا عمدة مصيبة..
سأله العمدة في صوت متحشرج، من شدة جفاف حلقه:
- مصيبة لمن؟
ضرب المأمور كفا بكف، وهو يهتف في مرارة:
- نحن فعلناها يا عمدة.. نحن لفقنا لـ (البنهاوي) وابنه تهمة التضامن مع الضباط الأحرار، ونحن لفقنا لـ(مفيد) تهمة سرقة المواشي، وجعلنا (مرزوق) يعترف أمام الجميع، ويؤكد التهمة على (مفيد)، ثم تخلصنا من (مرزوق)، حتى لا يتراجع في أقواله، ويكشف أمرنا.. نحن فعلناها يا عمدة..
غمغم العمدة في شحوب تام، وقد زاده ذعر المأمور وهلعه انهيارا:
- وماذا حدث؟ هل كشف أحدهم أمرنا؟
هتف المأمور:
- بل حدثت مصيبة يا عمدة.. مصيبة كبيرة.
ثم أمسك كتفي العمدة في قوة، مستطردا:
- لقد قام الضباط الأحرار بانقلاب ناجح، وعلى رأسهم اللواء (محمد نجيب)، وأذاعوا بيانا بذلك في الإذاعة.. أتدري من أذاعه

يا عمدة؟ إنه (أنور السادات)، ذلك الضابط الذي اتهم في قضية مقتل (أمين عثمان) لقد ميزت صوته جيدا.
ظل العمدة يتطلع إليه في ذهول، وهو يهتف بهذا، ثم لم يلبث أن غمغم:
- قاموا بانقلاب؟!
وعلى عكس ما توقع المأمور، أطلق العمدة تنهيدة ارتياح قوية، وهو يقول:
- أهذا هو كل شيء؟
حدق المأمور في وجهه في ذهول، قبل أن يهتف مستنكرا:
- أي برود هذا يا عمدة؟ أقول لك إن الضباط الأحرار قد قاموا بانقلاب، فتستهين بالأمر إلى هذا الحد؟
لوح العمدة بذراعه، قائلا:
- الأمر هين بالفعل، يا سعادة البك المأمور، فما الذي يعنيه قيام الجيش بانقلاب؟ إنها مجرد حركة تمرد، وغضب ينطلق في صورة مسلحة، تماما مثلما حدث أيام (عرابي).. ثورة وهياج، ثم ينتهي الأمر بإعلان المطالب، والاستجابة لها، ويذهب قادة الانقلاب للتوقيع في سجل التشريفات بالسراى، وينتهي كل شيء.
ألقى المأمور جسده، الذي هده الانفعال، فوق أقرب مقعد إليه، وهو يغمغم في دهشة:
- أهذا كل ما تتوقعه؟
أجابه العمدة في ثقة:
- بالتأكيد.. إنه مجرد انقلاب عسكري، ربما ينتهي بتولي (نجيب) وزارة الحربية، أو منصب قائد القوات.. مجرد تغيرات عسكرية لا شأن لنا بها..
وابتسم في دهاء، وهو يستطرد:

- ثم إنه لا شأن لنا - رسميا - بإلقاء القبض على (البنهاوي) وولده، أما عن (مفيد) فشهادة (مرزوق) هي التي دفعتنا لإلقاء القبض عليه.. كل خطواتنا قانونية تماما.. أطمئن.

بدأ بعض الهدوء يتسلل إلى نفس المأمور، وهو يتمم:

- اتظن هذا حقا؟

هتف العمدة في حماس:

- دون أدنى شك ثم ابتسم مستطردا:

- والآن ماذا تحب أن تتناول على الإفطار؟

ابتسم المأمور بدوره، وهو يقول:

- فطائر بالجبن والعسل بالطبع

قال العمدة في حماس:

- فليكن ثم استطرد وهو يستعيد ابتسامته:

- سأهدي إليك طنا من الفطائر، عندما ينتهي هذا الانقلاب، وأقسم بشرفي إنه لن يستمر لأكثر من أسبوع.. أسبوع واحد على الأكثر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10 – العودة..

أطلقت (شريفة) زغرودة قوية، تحمل كل سعادتها وفرحتها، قبل أن تندفع نحو والدها الحاج (البنهاوي)، وهو يدلف إلى السراى، هاتفة:

- أبي.. مرحبًا بك في بيتك يا أبي.

التفت الفتيات حول والدهن، الذي بدا شديد الشحوب والنحول، ورحن يغمرن وجهه بالقبلات، في حين أجهش (حافظ) ببكاء حار، وغمغم (حسين) بابتسامة مرتبكة:

- هل ستكتفين بالترحاب بأبينا فقط؟

أسرعت شقيقاته إليه، ورحن يغمرن وجهه بالقبلات بدوره، في حين اتجه الحاج (البنهاوي) نحو ابنه (حافظ)، وربت على رأسه في حنان، مغمغما:

- كيف حالك يا (حافظ)؟

انهار (حافظ) على كف أبيه، يغمرها بقبلاته ودموعه، وهو يهتف:

- كيف حالك أنت يا أبي. حمدا لله على عودتك سالما.

قال (البنهاوي) في صرامة:

- لا تبك يا ولدي.. البكاء ليس للرجال

انهمرت دموع (حافظ) في غزارة أكثر، وهو يقول:

- لن ابكى يا أبي.. لن ابكى.

هتفت (زينب)، وكأنما تحاول تغيير دفة الحديث:

- هل استمعت إلى بيان الانقلاب يا أبي؟ من الواضح أنها حركة جادة بالفعل.

غمغم الأب:

- يبدو هذا يا بنيتي.. يبدو هذا.

ثم تلفت حوله، مغمغما:

- ولكن أين (مفيد)؟
لم يكد يلقى سؤاله، حتى ساد المكان صمت رهيب، على نحو أقلقه، فعاد يسأل في توتر وجزع:
- أين (مفيد.. ماذا أصابه؟
انهمرت دموع صامتة من عين (شريفة)، وأشاحت (ناهد) بوجهها، وأخفت (توحيده) عينيها بدموعها، فهتف بهن، وقد بلغ به الذعر مبلغه:
- ماذا أصاب شقيقكن الأصغر؟ أجبن؟
قالت (زينب)، في لهجة من حسمت أمرها
- سأخبرك أنا يا أبي
وترددت لحظة، بدت له كالدهر، قبل أن تضيف:
- لقد ألقى المأمور القبض على (مفيد).. بتهمة السرقة
اتسعت عينا (البنهاوي) في ذعر، وهو يهتف:
- السرقة؟! مستحيل!!
أسرعت (زينب) تقول:
- كلنا نعلم أنها تهمة ملفقة يا أبي، وسيتم عرض (مفيد) على النيابة اليوم
ردد الأب الملتاع:
- على النيابة؟
ثم التفت إلى ابنه الأكبر، مستطردا:
- هيا بنا يا (حسين).. هيا نهب لنجدة شقيقك
قال (حسين) في حزم:
- هيا يا أبي.
ثم التفت إلى شقيقاته، مستطردا في صلابة:
- سنعود بـ (مفيد).. هذا وعد.

انكمشت (مديحة) في فراشها الصغير، وراحت تذرف الدمع بلا حدود، وقد انقسم قلبها بين نوعين من المشاعر، اهترأت لهما نفسها الصغيرة، وانكسرت لهما روحها الحالمة..
كانت تخشى والدها، بعد عثوره عليها خارج المنزل أمس، وتحاول تفاديه، بعد أن أوت إلى فراشها فور عودتها، وتظاهرت بالنوم عند عودته، خشية عقابه واستجوابه لها.
وكانت في الوقت ذاته تشعر بالحزن من أجل (مفيد)...
صحيح أنها علمت من حديث والدها، عند عودته أمس، أن (مفيد) لم يكن القتيل..
لقد سمعته يخبر أمها ذلك، فاختلج قلبها فرحا، وإن لم تغادر فراشها، خشية العقاب..
ومن العجيب أن والدها لم يخبر أمها بأمرها هي..
صحيح أن أمها قد استقبلتها أمس في ذعر، وأنها قد حاولت معرفة سبب خروجها، في هذه الساعة المتأخرة، إلا أنها لم تلبث أن تركتها، عندما شعرت - بغريزة الأمومة في أعماقها - أن ابنتها على وشك الانهيار..
وعندما عاد الأب، لم يناقش هذا الأمر أبدا.. لا مع زوجته، ولا مع (مديحة) نفسها..
وكانت هي واثقة من أنه يعلم بأمر تظاهرها بالنوم، إلا أنه كان على الرغم من أميته - رجلا متفتح العقل، لين العريكة..
ولكن (مديحة) كانت تشعر بحزن من أجل (مفيد)؛ لأنه سيدفع ثمن جريمة لم يرتكبها.
هي وحدها تعلم أن (مفيد) لم يكن يسرق المواشي، في الوقت الذي اتهم فيه بذلك، لأنه كان معها.
ولكن (مفيد) نفسه يمنعها من ذكر هذا..

هو نفسه يئد الدليل الوحيد على براءته، حتى لا يسيء إلى سمعتها بحرف واحد.
يا لشهامته! يا لرجولته المبكرة!...
لحظتها أدركت كم تحبه
وأدركت كم تعشقه
وفجأة انتزعها من أفكارها صوت والدها، وهو ينطق اسمها في هدوء، على بعد خطوة واحدة من رأسها، فانتفض جسدها الصغير في خوف ورهبة وأرادت أن تتظاهر بأنها ما تزال نائمة، إلا أنها وجدت نفسها تجيب في خفوت:
- نعم يا أبي
قال أبوها في هدوء:
- انهضى
نهضت جالسة على طرف الفراش، وجسدها الصغير يرتجف في قوة، ولكن والدها نظر إليها في إشفاق وحنان، وهو يقول:
- لا تخافي يا صغيرتي.. لن يؤذيك أحد.
خفتت ارتجافتها، مع تربيته الحنون على رأسها، فسمرت عينيها بوجهه وهي تنكمش في مجلسها، حتى سألها:
- ماذا كنت تفعلين في الخارج يا (مديحة)؟
أجابته على نحو مباشر:
- كنت أزور (مفيد) يا أبي.
تطلع إليها في دهشة، وهو يغمغم:
- تزورينه؟! أين؟
أجابته منكمشة:
- في التخشيبة يا أبي.
هتف مستنكرا:
- في هذه الساعة المتأخرة؟

خفضت عينيها وكأنها تعترف بذنبها، وقالت مبررة:
- كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لزيارته يا أبي، فأنا أتسلل عبر الحقول، لأراه من نافذة التخشيبة الخلفية، وأخشى أن يراني أحد.
تطلع إليها والدها طويلا في صمت، قبل أن يزدرد لعابه في مرارة، ويقول:
- وهل فعلت هذا من قبل؟
غمغمت:
- فعلت ماذا؟
سألها في مرارة:
- هل التقيت بـ (مفيد) بك قبل ذلك، في أوقات متأخرة من الليل؟
كان يمكنها أن تنفي وتنكر، إلا أنها أجابت في استسلام:
- نعم.
اختلج قلب الأب بين ضلوعه، وهو يسألها في خفوت ورهبة:
- وماذا كنت تفعلان؟
أجابته:
- نتحدث
سألها في حذر:
- فقط؟
رفعت عينيها إليه، وأجابت في استكانة مست شغاف قلبه:
- فقط يا أبي.. أقسم لك.
تنهد في ارتياح، وأغلق عينيه، وهو يغمغم:
حمدا لله.
سالت دموعها في صمت، وشاركها هو صمتها لحظة، قبل أن يقول في هدوء:
- اسمعى يا (مديحة).. أنا أعلم أن (مفيد) بك شاب ملتزم شهم، وأنه لم ولن يسيء إليك أبدا، ولكنني أريد منك وعدا بعدم مقابلته

مرة أخرى.
ارتجف قلبها في لوعة كيف يطلب منها الابتعاد عنه؟ كيف يطالبها بانتزاع جزء من قلبها؟ وعلى الرغم من لوعتها، غمغمت مستسلمة:
- كما تأمر يا أبي
اعتدل في ارتياح، وهو يقول:
- كنت أعلم أنك ستطيعينى!
سالت دموعها في غزارة، وهي تقول:
- ولكن يا أبي..
بترت عبارتها، مما أعاد إليه قلقه، وهو يسألها:
- ولكن ماذا؟
أجابته في تردد:
- ولكن (مفيد) بريء من تلك التهمة.
عقد حاجبيه، وهو يسألها:
- وكيف يمكن الجزم بذلك؟
خفضت عينيها في حياء، وهي تقول:
- لقد كان معي، في ذلك الوقت، الذي اتهموه فيه بالسرقة
اتسعت عينا الرجل، وهو يهتف:
- كان معك؟!
أجابته باكية:
- نعم.. وهو يمنعني من ذكر ذلك، ويصر على أنه لن يقبل اعترافى لإنقاذه.
صمت (إسماعيل)، وهو يتأمل ابنته، ذات الخمسة عشر ربيعا، وأدهشه أنها قد نضجت هكذا، دون أن يشعر بذلك، وراح يجول بعينيه في تضاريس أنوثتها المبكرة، قبل أن يتنهد في عمق، متمتما:

- يا له من شهم!
تشبثت به ابنته، وهي تقول ضارعة:
- من الضروري أن أدلى بشهادتي يا أبي.. سيدينونه ظلما لو لم أفعل
هتف مستنكرا:
- ولكن هذا مستحيل... لن يمكنني أن أواجه أهل القرية، عندما تعترفين بأنك كنت معه وحد كما، في هذه الساعة المتأخرة، ولن يصدق مخلوق واحد أنكما كنتما تتحدثان فحسب.. مستحيل.
بكت في حرارة، وهي تقول:
- أرجوك يا أبي.. إنه مستقبله.. مستقبل ابن الرجل الذي يرعانا، والذي نعمل في أرضه.. مستقبل من رفض البراءة، لو أن ثمنها هو سمعة ابنتك.
حار (إسماعيل) فيما يسمعه من ابنته، وغمغم:
- ولكن هذا مستحيل! إنك حتى تفسدين ما يسعى إليه باعترافك
اتسعت عيناها في ذعر، وهي تهتف:
- هل ستتخلى عنه إذن؟ هل ستتركه يدان؟
زفر مرة أخرى في عمق، ونهض من مكانه، مغمغما:
- لا.. لن نتركه.
واتجه نحو نافذة الحجرة الصغيرة، وراح يطل منها على أرض (البنهاوي)، التي تحيط بمنزله الصغير من كل جانب، وهو يدرس الأمر، ويديره في رأسه
ثم لم يلبث أن التفت إلى ابنته، وهو يقول:
- لا يا بنيتي.. لن يدان (مفيد) بك..
وانعقد حاجباه، وهو يستطرد في حزم:
- لقد وجدت الحل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- بطولة بلا بطل..

لم يكد الحاج (البنهاوي) وولده (حسين) يخطوان في شوارع القرية الضيقة، في طريقهما إلى نقطة الشرطة، حتى أحاط بهما أهل القرية من كل جانب، وراحوا يصافحون الحاج (البنهاوي) في حرارة، ويهنئونه بالبراءة، والبشر والحبور يملان وجوههم، مع ابتسامات عريضة، ثم التفوا حول (حسين)، وراحوا يهتفون به:

- مبروك يا بطل.. زملاؤك الأبطال هزموا الحكومة.. أنت وهم أعظم من أنجبتهم (مصر).

حاول الحاج (البنهاوي) أن يشرح لهم الأمر، إلا أن (حسين) أمسك كفه في قوة، وهو يهمس في أذنه في حسم:

- لا تقل شيئا يا أبي.. أرجوك.

غمغم (البنهاوي) في دهشة وحيرة:

- ولكننا لا ننتمي بالفعل لأولئك الضباط الأحرار..

قاطعه في حدة:

- ليس الآن يا أبي.. سنتحدث عن هذا فيما بعد.. ارجوك.

صمت (البنهاوي) مرغما، وقد وجد الوقت غير ملائم لمناقشة ابنه في هذا الأمر، واكتفي برد تحية أهل القرية، وشكرهم على حسن استقبالهم، حتى أصبح هو وولده يسيران على رأس موكب كبير، أثار دهشة المأمور وذعره، عندما رآه يتجه نحو نقطة الشرطة، فأسرع يستقبل (البنهاوي) وولده، فاتحا ذراعيه هاتفا:

- مبروك يا حاج.. مبروك يا (حسين).. إنه لأسعد أيام قريتنا ألف ألف مبروك.

صافحه الحاج (البنهاوي) في استسلام، في حين استقبله (حسين) في مزيج من البرود والتعالي، وهو يقول:

- كانت مسألة وقت فحسب أيها المأمور.
امتقع وجه المأمور، وخيل إليه أنه يفهم ما يعنيه (حسين)، وغمغم وهو يقودها إلى الداخل:
- بالطبع.. بالطبع.. كنت أعلم أنكما ستخرجان حتما.
قال (البنهاوي) في خفوت:
- الواقع أننا لم..
قاطعه (حسين)، مكملا في حزم:
- الواقع أننا لم نفهم سر عثور رجال البوليس السياسي على تلك المنشورات، فلقد كنا نخفي المنشورات الحقيقية في مكان سري للغاية.
التفت إليه والده في دهشة، في حين امتقع وجه المأمور، وهو يغمغم:
- المنشورات الحقيقية؟! أيعني هذا أنكما؟
قاطعه (حسين) في حزم:

- نؤيد الضباط الأحرار منذ البداية بالتأكيد، وأنا مندوبهم في الكلية الحربية.

شحب وجه المأمور، وهو يلقى جسده فوق مقعده، في حين ضغط (حسين) كتف أبيه في قوة، حتى لا يفسد خطته بدهشة واضحة. أو استفسار مفاجئ..

لقد كان (حسين) يعلم أن حركة الضباط الأحرار ناجحة تماما، بدليل ذلك التحول العجيب في موقف الصاغ (إبراهيم مكى) منه ومن والده، بعد نجاح الانقلاب
وكان يرغب في استثمار الموقف لصالحه تماما
وفي تلك اللحظة بالذات، كان يدرك أنه على حق في أسلوبه هذا، فقد بدا المأمور شديد الارتباك والتوتر، وهو يقول في لهجة تخالف لهجته المعتادة وتحمل الكثير من الاحترام والتوقير:
- لقد كان انقلابا مباركا بالفعل يا (حسين) بك.. لقد أحسنت اختيار الجانب الرابح.
تجاهل (حسين) هذا القول، وهو يسأله في غطرسة:
- أين (مفيد)؟
اجابه المأمور، وقد سقط قلبه بين ساقيه:
- في النيابة.. أنا آسف.. كنت أؤدي واجبى فحسب.. لقد اتهمه لص محترف، و....
قاطعه (حسين) في حزم
- لا بأس.. سنذهب إليه
شحب وجه المأمور أكثر وهو يقول:
- سأسرج لكما جوادين، فالمسافة بعيدة..
قال (حسين) في برود:
- هذا أفضل بالطبع.
ويا له من تحول!!
لقد غادر (حسين) وأبوه نقطة الشرطة على صهوة جوادين، وخلفهما موكب رائع مهيب، من أبناء القرية، الذين صار (حسين) بالنسبة لهم رمزا للقوة والثورة.
وهمس (البنهاوي) في ضيق:
- ما الذي تفعله يا ولدي؟

أجابه (حسين) في حزم:

- أعتلى الموجة الرابحة يا أبي

همس الوالد في ضيق أشد:

- وماذا لو فشلت الموجة، وتم إحباط الانقلاب؟

أجابه في ثقة:

- ومن سيحبطه؟ لقد قلتها أنت قديما يا أبي.. الجيش هو القوة، ولقد هب ذلك الجيش ليفوز بالغنيمة، وأسر كل الضباط الكبار، الموالين للملك، ومن الواضح أنه قد قام بانقلاب ناجح للغاية، إلى الحد الذي دفع (إبراهيم مكى) إلى المخاطرة بإطلاق سراحنا، لمجرد تأكيد اعترافه وولائه لقادة الانقلاب الجديد.. ونحن نملك فرصة ذهبية، وهي أن الجميع يتصورون أنا ننتمي إلى القادة الجدد، وليس من مصلحتنا أن نعارض ذلك.. دعهم يؤمنون بنا، ودعنا نحن نبلغ القمة على أكتافهم.

- لم يعترض (البنهاوي) على كلام ابنه الأكبر، الذي يعقد عليه جل آماله، بل اكتفي بأن غمغم مستسلما:

- كما ترى يا ولدي.. كما ترى

أنعشت اللهجة (حسين)، فانتصبت قامته في اعتدال، فوق صهوة جواد المأمور، وقال في حزم، وهو يتجه مع والده إلى حيث مكتب وكيل النيابة:

- سترى أنني على حق يا أبي.. سترى أنني الرابح دوما.

وبينما يقول هذا، كانت عيناه تبرقان بوميض قوي..

وميض شره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تطلع وكيل النيابة الشاب إلى (مفيد) في هدوء، وهو يسأله:

- كم تبلغ من العمر؟

أجابه (مفيد):

- سبعة عشر.

عاما رفع وكيل النيابة حاجبيه في دهشة، وهو يقول:

- فقط؟! عجبًا!! تصورتك في العشرينات

ثم لانت لهجته، وهو يضيف:
- أتعلم أن هذا يجعلك - قانونا - مجرد حدث يا (مفيد)؟
غمغم (مفيد) في ضيق:
- وما الفارق؟
ابتسم وكيل النيابة مشفقا، وهو يقول:
- الفارق أضخم ما تتصور، فأنت غير مسؤول عن أفعالك، من الوجهة القانونية، حتى تبلغ الثامنة عشرة من عمرك، وهذا يعني أنه يمكن لقاضى الأحداث إطلاق سراحك، مع أخذ التعهدات اللازمة على والدك، و.....
قاطعه (مفيد) في حزم:
- ولكنني بريء.
تطلع إليه وكيل النيابة في صمت لحظات ثم سأله بنفس الابتسامة المشفقة:
- هل يمكنك أن تثبت هذا؟
قال في حدة:

(مفيـد)

- عليكم أنتم إثبات أنني مذنب .

هز وكيل النيابة كتفيه، وقال:

- هناك إثبات على ذلك بالفعل، فلقد اعترف شريكك بذلك، قبل أن يلقي مصرعه، ولقد سمعه العمدة والمأمور، و.....

قاطعه (مفيد) مرة أخرى:

- اعترافه لا يعني شيئا، فربما أدلى به تحت ضغوط شديدة.

سأله في هدوء:
- مثل ماذا؟
أجابه محتدا:
- التعذيب مثلا، أو التهديد، أو حتى مقابل المادة.
مط وكيل النيابة شفتيه، وقال:
- ربما.
ثم اعتدل، ومال نحو (مفيد)، مستطردا في حزم:
- سأسألك سؤالا مباشرا إذن.. هل ارتكبت السرقة؟
أجابه في حزم:
- لا.
سأله في سرعة:
- أين كنت إذن وقت ارتكابها؟
حدق (مفيد) في وجهه لحظة، ثم عقد حاجبيه، قائلا:
- هذا شأني وحدي.
هز وكيل النيابة رأسه نفيا في بطء وهو يقول:
- لا.. لم يعد شأنك وحدك يا (مفيد).. إننا نحقق في أمر حادث سرقة، ولابد لك من تبرئة نفسك، ما دام هناك أمر يدينك..
تردد (مفيد) لحظة، ثم قال:
- كنت أجلس وسط حقول أبي؟
سأله في اهتمام:
- وحدك؟!
هم (مفيد) بقول يقول شيء ما في تردد، ولكن قبل أن ينبس بحرف واحد، انفتح الباب بغتة، وظهر على عتبته (حسين)، فعقد وكيل النيابة حاجبيه في غضب واستنكار، في حين هتف (مفيد) في سعادة:
- (حسين)؟! حمدا لله على سلامتك، أين أبي؟

سمع من خلف (حسين) صوت أبيه يقول بقلب كسير - هأنذا يا ولدي.
ألقى نفسه بين ذراعي والدة الحانيتين، وهو يهتف:
- حمدا لله على سلامتك يا أبي.. حمدا لله على عودتك
هتف وكيل النيابة في غضب:
- ما الذي يحدث هنا؟ كيف تقتحمان الحجرة هكذا، في أثناء تحقيق رسمي؟
اتجه إليه (حسين)، وقال في استعلاء
- أنا (حسين البنهاوي)، مندوب الضباط الأحرار.
قال وكيل النيابة في حدة
- وماذا تريد يا مندوب الأحرار؟
قال (حسين) في حزم، وقد ضايقه أن عبارته لم تترك التأثير المنشود، في نفس وكيل النيابة:
- إنني شقيق (مفيد).
أشار وكيل النيابة إلى الخارج، في حزم أشد:
-انتظر بالخارج إذن، حتى انتهى من استجوابه.
هتف (حسين):
-قلت لك انى مندوب الضباط الأحرار.
صاح به وكيل النيابة في صرامة غاضبة:
- وأنا أمرتك أن تنتظر خارجا.
تدخل (مفيد) مربتا على كتف شقيقه، وهو يقول لتهدئة الموقف:
- انتظر خارجا يا (حسين)، أرجوك.
التفت إليه (حسين) في غضب، في نفس اللحظة التي ظهر فيها (إسماعيل) عند باب حجرة وكيل النيابة، وهو يقول في خفوت:
- لدي ما أدلى به في قضية (مفيد) بك يا سيادة وكيل النيابة.

أدار الجميع عيونهم إليه، على الرغم من الخفوت الشديد الذي نطق به عبارته، وتطلع إليه (مفيد) في دهشة، في حين هتف (حسين):
- عم (إسماعيل)؟!. ماذا لديك هنا؟
هب وكيل النيابة من مقعده، هاتفا في غضب:
- ألم آمرك بالانتظار خارجا، يا مندوب الأحرار؟
كاد (حسين) ينفجر ثائرا مرة أخرى، إلا أن الحاج (البنهاوي) أمسك كفه في قوة، قائلا:
- كفي يا ولدي.. كفى.
ثم التفت إلى وكيل النيابة، مستطردا:
- ستنتظر خارجا
وجذب ابنه في رفق إلى الخارج، في حين ردد (إسماعيل) مرة أخرى:
- لدي ما أدلى به.
أشار إليه وكيل النيابة، قائلا:
- ادخل وأغلق الباب خلفك.
نفذ (إسماعيل)، الأمر في هدوء، و(مفيد) ما زال يتطلع إليه في دهشة، في حين سأله وكيل النيابة في اهتمام:
- ماذا لديك؟
أجابه (إسماعيل)، وهو يتحاشى النظر في وجه (مفيد):
- إني واثق من أن (مفيد) بك برئ
قال وكيل النيابة:
- مجرد ثقة؟
أجابه (إسماعيل):
- لدى دليل قاطع .
سأله وكيل النيابة في اهتمام

- ما هو؟
تردد (إسماعيل) لحظة، ثم حسم أمره بغتة، ليقول في حزم:
- إني أعلم أن (مفيد) بك لم يكن يسرق المواشي، عندما حدثت السرقة، فقد كان في هذه اللحظة وسط حقول والده.
عقد وكيل النيابة حاجبيه، وهو يتطلع إلى (إسماعيل)، فقد أثار انتباهه أن يتطابق قوله هذا مع آخر كلمات (مفيد)، على الرغم من أن وكيل النيابة يشعر، منذ دخل (إسماعيل) إلى مكتبه، أن الرجل سيدلى بشهادة كاذبة، تهدف إلى تبرئة (مفيد) فحسب، وعلى الرغم من شعوره هذا، فقد سأل (إسماعيل):
- وكيف عرفت؟
أجابه:
- إنه لم يكن وحده.
سأله وكيل النيابة في حزم:
- ومن كان معه؟
خفق قلب (مفيد) في عنف، وأنبأه قلبه بأن أمره مع (مديحة) قد انكشف، وأنبأته محاولات (إسماعيل) لتحاشي النظر إليه بصحة هذا الاستنتاج، وكاد يهتف مانعا (إسماعيل) من مواصلة الحديث، قبل أن يهوى جواب هذا الأخير على أذنه كالقنبلة، وهو يقول في حزم:
- أنا.. أنا كنت معه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- انقلاب..

(مديحة)

استيقظ (مفيد) مع شروق الشمس كعادته، إلا أنه لم يغادر فراشه هذه المرة، وإنما ظل مستلقيا فيه، يستعيد ما حدث له في الأيام الماضية، وقد اختنقت في حلقه غصة مريرة، كادت تدفعه إلى بصق روحه من بين شفتيه..

لقد أنقذته شهادة عم (إسماعيل) من الإدانة، ولكنها لم تعفه من الحيرة.. مازال يذكر دهشة وكيل النيابة، التي فاقت دهشته، وهما يحدقان في وجه إسماعيل)، بعد أن أدلى بشهادته، واستعاد في ذاكرته صوت وكيل النيابة، وهو يسأل عم (إسماعيل):

- هل أنت واثق من صحة قولك هذا؟

أجابه (إسماعيل) لحظتها في اعتداد:

- وأصر عليه.

ران الصمت - آنذاك - على حجرة وكيل النيابة، قبل أن يسأل (إسماعيل) في خفوت:

- هل تعلم عقوبة شهادة الزور؟

أجابه (إسماعيل) في حزم:

- نعم

سأله وكيل النيابة:

- ومازلت تصر على أقوالك؟

أجابه في صلابة:

- نعم

ولم يناقش (مفيد) أو يجادل. فقد صمت مستسلما.. حائرا.. قلقا كانت شهادة (إسماعيل) تشير إلى احتمالين، لا ثالث لهما إما أنه يحاول إنقاذه، وفاء لوالده... أو أنه يعلم الحقيقة..

وكان الاحتمال الثاني هو الذي يرجف قلب (مفيد) إنه لم يناقش عم (إسماعيل) في الأمر، لم يجد حتى الفرصة لذلك..

لقد غادر حجرة وكيل النيابة، بعد أن أصدر هذا الأخير قراره بالإفراج عنه، بناءً على شهادة عم (إسماعيل)، ليستقبله والده وشقيقه في سعادة وحرارة، أنستهما حتى أن يوجها الشكر إلى (إسماعيل)، الذي انصرف في خطوات مسرعة، تشف عن عدم

انتظاره أو تقبله هذا الشكر، ومنذ تلك اللحظة، لم ير (مفيد) (مديحة)..
لم يجرؤ حتى..
لقد اكتفي بالبقاء في منزله، منتظرا اللحظة المناسبة ليهرع إليها..
وهو لا يدري متى تأتى تلك اللحظة المناسبة..
غرق في أفكاره طويلا، وهو يسترجع لحظاته الحلوة معها، دون أن يدري كم مر به من الوقت، حي أيقظه من شريط ذكرياته صوت طرقات على باب حجرت جعله يهب من فراشه في جزع لا مبرر له، ويهتف في توتر:
- من بالباب؟
انفتح الباب في هدوء، وظهرت على عتبته أخته (زينب)، وهي تقول:
- لا داعي لهذا التوتر.. إنه أنا.
زفر في قوة، وجلس على فراشه مغمغما
- ماذا تريدين يا (زينب)؟
جلست إلى جواره، وهي تقول:
- أريد منك أن تهبط إلى حجرة استقبال الضيوف، حيث يجلس والدنا.
سألها في بساطة:
-ولماذا؟
أجابته في صوت يحمل رنة حزن:
- لأن والدنا يحتاج إلى وجودنا جميعا إلى جواره، في هذا اللحظة.
التفت إليها بحركة حادة، وهتف:
- لماذا؟ ماذا حدث؟
تنهدت في أسف واضح، وهي تجيب:

- إنها قرارات هؤلاء الضباط الأحرار.. لقد أنذروا الملك بضرورة مغادرة البلاد، و.
بترت عبارتها لحظة، جعلته يتف بها في توتر
- وماذا؟
أجابته في خفوت حزين؛
- وأصدروا قرارا بإلغاء الألقاب
اتسعت عيناه، وهو يتراجع مرددا:
- إلغاء الألقاب!!
ثم لم تلبث ملامحه ولهجته أن أصبحتا مثالا للغضب الحانق، وهو يستطرد:
- كنت أعلم أن هذا سيحدث.. كنت أعلم أن سعينا خلف هذا اللقب السخيف لن يربح شيئا.. كنت أعلم أننا لن نجنى منه سوى الخسارة.
قالت (زينب) في حزم:
- ادخر مشاعرك الشخصية لما بعد.. المهم الآن أن تمنع والدنا من أي انهيار قد يصيبه، بشأن هذا القرار.
نهض مغمغما في حنق
- أنت على حق.
هبط إلى الطابق الأسفل، حيث يجلس والده صامتا، وقد جلس إلى جواره كل ابنائه وبناته، والصمت يلفهم جميعا، فقدم هو نحو والده، وانحني يقبل يده كعادته قائلا:
- صباح الخير يا أبي.
رفع إليه والده عينين حزينتين، وهو يجيب:
- صباح الخير يا ولدي.
جلس إلى جواره صامتا بدوره، باحثا عن وسيلة لبدء حوار ما، ينتزع الوالد عن حزنه وصمته، إلا أن (حسين) سبقه إلى الحديث،

وإن لم يتجاوز حديثه الأزمة، وهو يهتف في سخط:
- الأمر لا يستحق كل هذا.. النقود تأتي وتذهب.
رفع الوالد عينيه الحزينتين إلى (حسين)، وهو يقول:
- ضياع النقود لا يحزنى يا (حسين)، وإنما يحزنني ضياع الأرض. الأرض التي أفنيت عمري لجمعها.. الأرض هي كل ما يؤلمني يا ولدي.
وزفر في مرارة، قبل أن يستطرد:
- كانت حماقة حقيقية مني أن أوافقك على فكرة اللقب هذه.
احقن وجه (حسين) في شدة، وهب من مجلسه هاتفا:
- لم تكن هناك أية حماقات.. إنها تلك المتغيرات المفاجئة فحسب، فمن كان يتصور أن يحدث انقلاب كهذا، تنقلب فيه أمور (مصر) كلها؟! إن ما حدث خارج عن إرادتنا جميعا، ولو لم يحدث هذا الانقلاب، لكنا في طريقنا للحصول على اللقب الآن.
لم ينبس (حافظ) ببنت شفة، وهو يتطلع إلى شقيقه في خوف، في حين غمغم (مفيد) في حنق يحمل رنة سخرية مريرة:
- نعم.. ربما.
التفت إليه (حسين) في حدة، ورماه بنظرة نارية صارمة، قبل أن يتابع في عصبية:
- لقد حدث ما حدث، ولا سبيل لرده.. المهم الآن أن نواصل سعينا للحصول على القوة.
سألته (شريفة) في شغف:
- كيف؟
التفت إليها، وكأنه يتحدث لها وحدها، وقال في حماس:
- من الواضح الآن أن الضباط الأحرار هم القوة الفعلية في البلاد، فلقد تجاوزوا كل الأحزاب، حتى حزب الوفد، ذي الشعبية الضخمة، ونجحوا في فرض سيطرتهم على الملك نفسه، وصار

من العسير أن يتوقفوا، بعد أن ذاقوا طعم السطوة والقوة، وهم سيواصلون تقدمهم، حتى يملكوا الدنيا كلها في قبضتهم.
سألها (مفيد في حدة:
- وماذا يعنيك في هذا الأمر؟
قال (حسين) في حزم، دون أن يلتفت إليه:
- لقد أدركت قوتهم منذ اللحظة التي أطلق الصاغ (إبراهيم مكى) فيها سراحى وسراح والدي، خشية أن يعاقب على الإساءة إلى أحد أصدقائهم؛ ولهذا، أرسلت لهم برقية تأييد باسمى، فور مغادرتنا سجن البوليس السياسي.
حدق الجميع في وجهه بدهشة، وغمغم والده:
- أكانت هذه البرقية لهم؟! ولكن لماذا لم تخبرني لحظتها؟
أجابه في سرعة:
- خشيت أن تعترض، أو أن يقلقك الأمر.
هتف الوالد مستنكرا:
- ولكن كان من الضروري أن تخبرني، وأن تستشيري في الأمر، فلقد كانت مخاطرة كبيرة أن ترسل تلك البرقية.
ابتسم (حسين) في زهو، وهو يقول:
- كانت مخاطرة محسوبة وصمت لحظة، ثم أضاف وعيناه تلتمعان:
- وناجحة.
ثم عاد يبتسم، مستطردا:
- وهذا ما شجعني على إرسال برقية تأييد أخرى منذ ساعة واحدة
حدق الجميع في وجهه في ذهول، قبل أن يغمغم والده، وكأنه لا يصدق أذنيه:
- تأييد لماذا؟

عقد (حسين) حاجبيه في شدة، وكأنما يعلن موقفه، قبل أن يدلي بدلوه قائلا في حسم:
- تأييد لقرار إلغاء الألقاب تبادل الجميع نظرات ذاهلة، قبل أن يهتف (البنهاوي):
- أترسل لهم برقية تأييد، لقرار انتزع منا مائتى فدان، وسبعين ألفا من الجنيهات، بلا طائل.
اندفع (حسين) يقول في صرامة:
- لقد ضاعت الأرض والنقود، سواء أرسلنا برقية التأييد أم لا، ولكننا الآن نربح موقفا.. ها أنتم أولاء ترون أن الضباط الأحرار قد أدركوا حقيقة قوتهم، وأنهم قد انطلقوا إلى نهاية الشوط، فطالبوا الملك بالتنازل عن عرشه، وألغوا الألقاب، ولن يتوقفوا عند هذا.. لن يتوقفوا قبل أن ينالوا القوة المطلقة..
هتف الأب:
- وما شأننا بذلك؟
صاح ملوحا بذراعيه في حدة:
- إننا نختار الطريق الصحيح.. طريق القوة.
قال (البنهاوي) في مرارة:
- القوة بأن نخسر مائتى فدان؟!
هتف (حسين) في حزم:
- لا.. بألا نخسر إلى جوارها موقفنا.
ران صمت ذاهل عجيب على المكان، استمر لحظات طوالا، قبل أن يغمغم (مفيد):
- موقف ثعالب.
التفت إليه (حسين) في غضب، وهو يقول محتدا:
- بل موقف الأذكياء ثم أدار عينيه في وجوه الجميع، مستطردا:
- سترون أنني على حق.

زفر (البنهاوي) في قوة، وهو يقول:
- لا فارق.. لم تعد هناك فائدة حتى لذلك..
ران الصمت مرة أخرى على المكان، وطال في هذه المرة كثيرا، وكأنما فرغ الكلام من كل الأفواه، ثم اعتدل الحاج (البنهاوي) بغتة، وقال في حزم:
- ينبغي أن نتم زواج (توحيده).
تطلع إليه الجميع في دهشة، وغمغم (حافظ):
- زواج (توحيده) يا أبي؟!
أجابه في حزم:
- نعم.. زواج (توحيده) لقد تقدم لها زوج مناسب، ولست أدري ما إذا كنت سأحيا لأراها عروسا أم لا، والأفضل أن يحدث هذا الآن.
وخفت صوته، وهو يستطرد في مرارة:
- قبل أن يصدر الضباط الأحرار قرارا بمنع الزواج.
بدا الغضب على وجه (حسين)، وكأنها تهينه العبارة على نحو مباشر، في حين قال (مفيد):
- لا بأس يا أبي.. فلنتم زواجها..
وكان قوله - لأول مرة - هو فصل الختام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13 – المفاجأة..

جرت الاستعدادات على قدم وساق، داخل السراى، لحفل زفاف (توحيده)، وعادت الابتسامة ترسم على الوجوه، بعد أن غابت عنها طويلا، والجميع يتسابقون لإعداد المكان، وتعليق الزينات، أو طهو كميات الأطعمة الهائلة، المعدة لضيوف الحفل..

الحجاج (البنهاوي) وحده كان يحمل على شفتيه ابتسامة باهتة ابتسامة لها طعم المرارة كان من العسير جدا عليه أن ينسي أمر أرضه، التي ضاعت سدى.. لقد عاش عمره كله من أجل هذه الأرض عاش يصنع بكفاحه كل متر منها.. كل حفنة تراب.. كل قطرة ماء..

لقد تمزق قلبه حقا، وهو يوقع وثيقة التنازل عنها للخاصة الملكية، إلا أن اللقب المنتظر، ولهفة ابنه (حسين) إليه، جعلاه يقنع نفسه قليلا، بأن ذلك التنازل كان ضروريا..

أما الآن، وقد خسر الأرض واللقب، فالمرارة تسكن قلبه، وتحفر بصماتها على جدرانه، حتى ليستحيل أن تفارقه في يسر..

لقد وضع فكرة التعجيل بزواج ابنته الثانية، لينتزع نفسه من تلك المرارة.. ولكن هيهات.. يبدو أنه لن ينسى أبدا..

ليس من الهين أن ينسى المرء ضياع ثمرة كفاح عمره.. من المستحيل أن يفعل وعلى الرغم من آلامه، كان يحافظ على ابتسامته فوق شفتيه وكان واثقا من أن أحدا من أبنائه لا يشعر به... وكان هذا صحيحا نسبيا..

لقد انشغلت بناته كلهن في إعداد العروس للزفاف، والاستعداد لاستقبال المدعوين، في حين راح (حسين) يشرف على إعداد المكان في استعلاء كعادته، وكأنما هو قائد حربي خطير، أما

(حافظ)، فأخذ ينفذ أوامر شقيقه الأكبر في استسلام تام، يحمل لمسة من الخوف والرهبة..
(مفيد) اختفى في ركن ما.. هذا دأبه ولم يكن الحاج (البنهاوي) يدري أن (مفيد) لم يكن متهربا من العمل لقد كان يسعى خلف (إسماعيل).. كان يحتاج إلى التحدث معه في شدة وكان (إسماعيل) يتهرب من ذلك اللقاء في استماتة.. وأخيرا التقى به (مفيد) وحدهما، فاتجه إليه في سرعة، وقال:
- عم (إسماعيل).. لماذا تهرب مني؟
تطلع إليه الرجل بنظرة غامضة، قبل أن يشيح بوجهه، قائلا:
- ولماذا أتهرب منك يا ولدي؟ قال (مفيد):
- إنني أنتظر الجواب منك.
صمت (إسماعيل) طويلا، وارتسمت الصلابة على ملامحه، وهو يبعد عينيه عن (مفيد)، الذي تابع في حزم:
- لماذا أدليت بشهادة زور يا عم (إسماعيل)؟
قال الرجل في مرارة:
- ألم تكن حقا وسط الحقول، لحظة السرقة؟
أدرك (مفيد) على الفور ما يعنيه ذلك، فأجاب في سرعة وحسم:
- نعم.. كنت مع (مديحة).. ابنتك.
أدار الرجل عينيه إليه في دهشة، ثم لم تلبث الدموع أن ترقرقت في العينين، دون أن ينبس اللسان حرف واحد، حتى أضاف (مفيد) في صلابة:
- إنني احترم (مديحة) يا عم (إسماعيل)، وأطلب يدها منك.
حدق الرجل في وجهه بدهشة بالغة، ثم أشاح بوجهه، مغمغما في اضطراب رجل سمع على التو ما لم يتوقعه أبدا:
- ماذا تقول يا ولدي؟
كرر (مفيد) في حزم:

- اقول إني احترم (مديحة) ابنتك، وإنه ليشرفني أن أطلب يدها منك.
بقي الصمت بينهما لحظات، ثم أدار الرجل عينيه إلى (مفيد)، يتفرس في ملامحه في توتر، وكأنما أراد أن يستشف منها صدق الفتي وجديته، قبل أن يغمغم في انكسار:
- ولكن (مديحة) لا تصلح لك يا ولدي
قال (مفيد) في حدة:
- من قال هذا؟ إنها فتاة رائعة، و....
قاطعه مكملا:
- ووالدها أجير لدى والدك
عقد (مفيد) حاجبيه في شدة، وهو يقول:
- وماذا في هذا؟ ألم يبدأ عهد جديد؟ ألم تلغ الألقاب؛ لتنتشر المساواة بين الناس؟
غمغم (إسماعيل):
- هذا مبدأ نظري بحت يا ولدي، فالناس درجات، منذ بدء الخليقة إلى يوم الدين.
هتف (مفيد):
- بل هم على قدم المساواة.. كلهم بشر.. كلهم من نسل (آدم) و(حواء).
تمتم (إسماعيل) مستسلما:
- ربما يا ولدي.. ربما.. ثم أضاف في انكسار
- ولكن والدك وأشقاءك لن يقبلوا زواجك منها قال (مفيد) في حرارة:
- دع هذا لي يا عم (إسماعيل)، وعدني أن توافق أنت على زواجي منها لو وافق والدي وأشقائي.. عدني بذلك..
ارتسمت ابتسامة حانية فرحة على شفتي (إسماعيل)، وهو يقول:

- لن أجد لابنتي من هو أفضل منك يا ولدي تهللت أسارير (مفيد)، وهو يهتف
- أشكرك يا عم (إسماعيل).. أشكرك
وترك الرجل، وانطلق مسرعا إلى حيث يجلس والده، إلا أن حماسه لم يلبث أن أحبط بغتة بموجة من العقل..
هل يصلح هذا الوقت، لمناقشة والده في مثل هذا الأمر؟ ألا ينبغي أن يحصل على (البكالوريا) أولا؟
بدا له أنه من الأفضل تأجيل مناقشة الأمر، حتى انتهاء حفل زفاف (توحيده) على الأقل، وعلى الرغم من أن هذا القرار قد ضايقه، إلا أن رجاحة عقله المبكرة جعلته يتقبله، لما ينطوي عليه من حكمة ورصانة، فعاد أدراجه إلى حيث وقف شقيقه (حسين)، يلقى أوامره إلى العاملين، ووقف إلى جواره صامتا، فالتفت إليه (حسين)، وقال في مزيج من السخرية والصرامة:
- أين أنت؟ إنني أبحث عنك منذ زمن
تمتم (مفيد):
- كنت أودى بعض الأعمال قال (حسين) في لهجة أقرب إلى السخرية:
- أعمال؟!
وهم بإضافة عبارة أخرى، لولا أن ارتفع صوت يهتف:
- (حسين) بك.. (حسين) بك.. هناك برقية عاجلة لك
كان هذا هو عامل مكتب بريد القرية، وقد انطلق يعدو نحو السراى، والفرحة تملأ وجهه كله، حتى أن الأمر قد دفع الجميع إلى التوقف بغتة عن العمل، و(حسين) يسأله في لهفة وقلق
- أية برقية تلك؟
بلغ الرجل موقع (حسين) في هذه اللحظة، فدفع إليه البرقية، وهتف وهو يلهث، ووجهه يحمل ابتسامة عريضة

- إنها برقية من زملائك الأبطال
هتف (حسين)، وهو يخطف البرقية:
- من زملائي؟
وراح يلتهم كلمات البرقية في سرعة، وعيناه تلتمعان ببريق ظافر قوى، قبل أن يندفع بغتة إلى حيث يجلس والده، هاتفا:
- ألم أقل لك إنني على حق؟! لقد ربحنا الموقف كله
فسأله والده في دهشة:
- أي موقف؟ وماذا تعني؟
فرد البرقية أمام والده، وهو يهتف في سعادة رائعة:
- انظر يا أبي.. إنهم يستدعوني للقائهم.. يدعوني لأصبح واحدا منهم..
غمغم والده في دهشة وحيرة:
- من هم؟
أجابه والفرحة تتقافز من كل حرف من حروف كلماته:
- الضباط يا أبي.. الضباط الأحرار..
وكانت مفاجأة حقا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14 – استثناء..

(حسين)

ارتبك (حسين) كثيرا، وهو يقف أمام مكتب البكباشي (رفعت كساب)، الذي أرسل إليه برقية تحمل توقيع (الضباط الأحرار)، وراح (حسين) يهندم زيه الرسمي للمرة الألف، ويتحسس أكتافه في توتر، وقد آلمه - لأول مرة - أنه لا يحمل على كتفيه رتبة

رسمية، بل يحمل فقط تلك العلامة التي تشير إلى كونه طالبا بالكلية الحربية..
ولم يطل انتظاره، فلم تمض دقائق على وصوله، حتى خرج إليه جندى المراسلة الخاص بالبكباشي (رفعت)، وقال في احترام:
- تفضل يا سيدى.
ازدرد (حسين لعابه في توتر، وخطا داخل حجرة (رفعت كساب) الذي بدا له أكثر شبابا مما كان يتوقع، وهو يرفع عينيه إليه، قائلا بابتسامة عريضة:
- إذن فأنت (حسين البنهاوي)!
غمغم (حسين)، وقد عجز عن السيطرة على توتره:
- نعم يا سيدي.. هو أنا
راح (رفعت) يتأمله في صمت بضع لحظات، ثم لوح بكفه، قائلا:
- أتعلم أنك صاحب أول برقية تأييد تلقتها حركتنا يا (حسين)؟
قال (حسين) في سعادة:
- ولي كل الشرف يا سيدى
عاد (رفعت) يبتسم وهو يقول:
- كانت شجاعة حقيقية منك أن تبادر بتأييد حركة لم يتضح مصيرها بعد
قال (حسين) في حزم:
- لم أكن أتردد في ذلك يا سيدى، فلقد فعلتم ما حلمنا به كلنا
أوما(رفعت) برأسه موافقا ومستحسنا، ثم سأل (حسين) فجأة:
- هل كان حفل زفاف شقيقتك جيدا أمس؟
حدق (حسين) في وجهه في دهشة، وغمغم
- حفل زفافها؟ ابتسم (رفعت) في زهو وكأنما أسعدته دهشة (حسين)، وقال في تلذذ
- لقد تزوجت ابن عمدة القرية المجاورة لكم.. أليس كذلك؟

تمتم (حسين) في ذهول:
- بلى يا سيدى، ولكن كيف...
قاطعه (رفعت):
- لا تسألني كيف عرفت، فهذه طبيعتي.. أحب أن أعلم دوما كل شيء عمن أعمل معهم.
غمغم (حسين) في حيرة:
- تعمل معهم؟
اعتدل (رفعت)، ومال نحو (حسين)، وهو يقول في لهجة تشف عن خطورة الأمر:
- اسمعني جيدا يا (حسين).. إننا بصدد إنشاء جهاز أمنى جديد، على غرار جهاز المخابرات البريطاني، مهمته هي أن يعلم كل شيء عن كل شيء، ومثل هذا الجهاز يحتاج إلى رجال مخلصين، لا يترددون في الإبلاغ عن أقرب أقربائهم، لو اشتموا في حديثه وأسلوبه رائحة كراهية حركتنا، أو محاولة تسفيهها.. إننا بداية عهد جديد يا (حسين)، ولكل عهد اعداء.. هل تفهم؟
قالها والتفت إلى (حسين)، الذي كان يحدق فيه في ذهول، ثم ابتسم في زهو، وأضاف:
- ومنحه رتبة ملازم أول أيضا.
أدي جندي المراسلة التحية العسكرية، وذهب لتنفيذ الأمر، في حين هتف (حسين) مبهورا:
- سيدى.. هذا مستحيل!! عقد (رفعت) حاجبيه، قائلا
- لا تنطق هذه الكلمة أبدا.. مع (رفعت كساب) لا يوجد مستحيل
هتف (حسين)، وقد تضاعف انبهاره:
- بالتأكيد يا سيدي.. بالتأكيد ابتسم (رفعت) ابتسامة الرجل، الذي يروق له قيادة الآخرين، وقال:

- هيا.. عد إلى قريتك، لتبلغ والدك خبر ترقيتك الاستثنائية، ولكن حذار أن تبلغ أي مخلوق بأمر ذلك الجهاز الجديد.. هل تفهم؟
هتف (حسين) في حماس: وهو يؤدي التحية العسكرية لـ (رفعت) في قوة:
- بالتأكيد يا سيدى.. بالتأكيد
- وكانت النشوة تملأ عروقه عن آخرها
نشوة الظفر..
وبدء حياة جديدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مخادع.. أراهنك أنه مخادع...
نطق العمدة تلك العبارة في حنق هائل، وهو يجلس مع المأمور وحدهما، في ساحة منزل الأول، فقال المأمور في مرارة:
- كيف يا عمدة؟ ألم تر كيف التفت البلدة كلها حوله وحول أبيه، بعد الإفراج عنهما
هتف العمدة
- القرية كلها كانت تتفاعل مع شائعة أطلقناها نحن، وكل ما فعله ذلك الثعلب (حسين)، هو أنه أحسن استغلال الموقف بكل دهاء وخبث.
سأله المأمور في عصبية:
- هل تجد مبررا للإفراج عنهما، فور قيام حركة الضباط الأحرار ونجاحها إذن؟
هز العمدة كتفيه، وقال:
- إنها الفكرة نفسها.. لقد تصور ضابط البوليس السياسي، الذي ألقي القبض عليهما، أنهما ينتميان حقا إلى تنظيم الضباط الأحرار،

ولم يشأ جلب غضب هذا التنظيم على نفسه، فأفرج عنهما:
قال المأمور متوترا:
- ولكن (حسين) قال لي
قاطعه العمدة:
- مخادع يا بك.. إنك لن تفهم هذا اللعين أكثر منى... ثم مال نحوه، مستطردا
- هل تحب أن أثبت لك هذا؟
سأله المأمور في دهشة:
- كيف؟
نهض قائلا في حزم:
- سنسأل (البنهاوي) نفسه على نحو مباشر
هتف المأمور:
- تسأله؟
أجابه في حسم:
- بالطبع.. إنه لن يكذب أبدا.. هيا..
امتطى الاثنان جواديهما، واتجها إلى سراى (البنهاوي)، ولقد استقبلهما الحاج في حرارة حقيقية، وقد تصور أنهما إنما أتيا لتهنئته بزفاف ابنته، وقادهما إلى حجرة استقبال الضيوف، وهو يردد:
- شكرا لكما.. شكرا لك يا سعادة البك المأمور، وشكرا لك يا عمدة.
جلس العمدة وهو يسأله في خبث
- كيف حالك الآن يا حاج؟
أجابه (البنهاوي)، وابتسامته العريضة تملأ وجهه:
- في خير حال والحمد لله يا عمدة.. كيف تتصور حالي، وقد تم زفاف ابنتي الثانية أمس فقط؟

قال المأمور بغتة، وكأنما لم يطق صبرا على الانتظار:
- هل سمعت ما يردده الناس في القرية يا حاج؟
سأله (البنهاوي)، وابتسامته ماتزال تملأ وجهه:
- ماذا يقولون؟
تبادل المأمور نظرة عصبية مع العمدة، ثم قال:
- يقولون إن انتماءك و (حسين) إلى الضباط الأحرار مجرد شائعة
بهت الحاج (البنهاوي)، وتطلع إلى ضيفيه في حيرة، ثم غمغم
- الواقع أن..
قاطعه صوت (حسين)، وهو يقول في صرامة:

- سأقطع لسان كل من يقول هذا.

وعندما التفت الجميع إليه، كان يحمل على كتفيه دليلا لا يقبل الشك، على انتمائه للضباط الأحرار..
كان يحمل رتبته الاستثنائية الجديدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15 - إلى المجد..

لم يشعر الحاج (البنهاوي) في حياته كلها بالسعادة، مثلما شعر وهو يتحسس الرتبة الجديدة، على كتفي ابنه، بعد انصراف المأمور والعمدة، قبل أن يهتف، وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

- أخيرا.. أخيرا يا (حسين).. أخيرا رأيتك ضابطا يا بنى.

قال (حسين) في زهو:

- وليس مجرد ضابط عادى يا أبي.. إنني أحد رجال الضباط الأحرار، وأحمل رتبة لن يحملها رفاق دفعتى، إلا بعد سنوات.

سأله (مفيد) في دهشة:

- وكيف حدث هذا؟

اجابه (حسين) مزهوا:

- ألم أقل لك إني أجيد قواعد اللعبة؟ كل هذا بسبب البرقيات التي أرسلها.

سألته أخته (زينب)، في مزيج من الدهشة والفرح:

- كيف؟

راح يقص عليهم كل ما حدث بالتفصيل، وكلهم يستمعون إليه في انبهار، حتى انتهى من روايته، فهتف زوج (نعيمة):

- مبارك يا (حسين) بك.. هكذا يفخر المرء بمصاهرة عائلة (البنهاوي).

عقد (مفيد) حاجبيه في صرامة، وهو يقول:

- ألم تكن تفخر بذلك من قبل؟

أدار الرجل عينيه إليه في استنكار، وغمغم:

- بالطبع.. بالطبع

أما (حافظ)، فقد سأل (حسين) في اهتمام:

- أيعني هذا أنك قد أصبحت أقوى من المأمور؟

أجابه (حسين):
- بالطبع
أطلقت (شريفة) زغرودة طويلة، واحتضنت (ناهد) شقيقتها في سعادة وهى تهتف:
- إنك تستحق هذا يا (حسين)
شعر (حسين) بالفخر، لهذا الاهتمام والتبجيل، الذي أحاطه بهما أسرته، والتفت إلى (مفيد)، يسأله في لهجة أشبه بالأوامر:
- وانت.. ما رأيك؟
هز (مفيد) كتفيه، وقال:
- رأيى أنها مأساة.
ران الصمت التام بغتة داخل المكان، وحدق الجميع في وجه (مفيد) في دهشة تمتزج بالاستنكار، قبل أن يهتف الحاج (البنهاوي):
- مأساة؟! مأساة أن يبلغ شقيقك هذا الشأن؟
هز(مفيد) رأسه نفيا، وقال:
- بل مأساة أن تنتهك القواعد هكذا
صاح به (حسين) محنقا
- أية قواعد؟!
التفت إليه (مفيد)، وقال لي هدوء:
- حاول أن تفهمني يا (حسين).. الأمر لا يقتصر على ترقيتك الاستثنائية، ولكنه أكبر من ذلك.. لقد سن (رفعت كساب) هذا سنة سيئة، وهي أن التقرب إلى رجال الحركة يمنح امتيازات خاصة، وسيدفع هذا عشرات المنتفعين إلى الالتفاف حول حركة الجيش، دون تأييد حقيقى صادق، وهذا في حد ذاته أخطر من أن يعلنوا عدم تأييدهم لها.
صاح (حسين):

- كف عن فلسفتك السخيفة هذه.. من الطبيعي أن تمنح حركة الضباط الأحرار امتيازات خاصة، لمن تمنحه ثقتها.
قال (مفيد) في ضيق:
- ولكن ليس من الطبيعي أن يملك بكباشي سلطة منح طالب في الكلية الحربية ترقية استثنائية.
صرح به (حسين) في ثورة:
- اخرس.. لست تفهم شيئا
تنهد (مفيد) في يأس، وقال:
- حسنا يا (حسين).. لن أناقش هذا الأمر، ولكن ما حدث اليوم يجعلني على يقين من أننا نتجه نحو عهد فوضوى عنيف.
ابتسم (حسين) في عصبية وازدراء، وهو يقول:
- ايها الغر الساذج إ! كيف لك أن تحكم على عهد جديد، وأنت لم تحصل على البكالوريا بعد؟
قال (مفيد) في هدوء:
- وهل يحتاج الأمر إلى شهادة البكالوريا، ليفهم المرء مثل هذه الأمور؟
صاح (حسين) في صرامة:
- ولا حتى الليسانس
ولوح بكفيه، مستطردا:
- إنها أمور أعظم وأكبر من أن تدركها يا فتى.. أعظم بكثير.
لم يواصل (مفيد) المناقشة، ولكنه شعر في أعماقه بخوف مبهم.. خوف من المستقبل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استلقت (زينب) على فراشها شاردة، تسترجع تفاصيل ما حدث في تلك الليلة
قصة (حسين)
اعترض (مفيد)..
الموقف كله
وراحت في أعماقها تتساءل: من منهما على حق؟
(حسين) أم (مفيد)؟
كانت لكل منهما مكانة خاصة في نفسها، فـ (حسين) هو أكبر البنين من أشقائها، و (مفيد) هو آخر العنقود كما يقولون..
ولكنها في الواقع أكثر ميلا لـ (مفيد)..
ربما لأنها لا نشعر به كشقيق فقط، وإنما كابن أيضا، فهي التي تعهدته برعايتها واهتمامها، بعد وفاة أمهما، وهو بعد رضيع مسكين، وهي التي شاهدته ينمو لحظة بلحظة
ثم إنه يبدو بالنسبة لها أرجحهم عقلا، على الرغم من صغر سنه وهي تشاركه مشاعره وأحاسيسه دوما
هي أيضا تشعر بقلق مبهم، تجاه المرحلة القادمة
قلق قد يبدو - في ظل الظروف الحالية

ليس له ما يبرره، ولكنها تشعر به
قطع أفكارها بغتة صوت (شريفة)، وهي تتسلل إلى فراشها، قائلة بابتسامة خبيثة:
- حان دورك.
التفتت إليها في دهشة، وهي تقول:
- دورى؟! أي دور؟ ماذا تعنين؟
أجابتها (شريفة)، وهي تحتفظ بابتسامتها الخبيثة على شفتيها:
- حان دورك في ركب الزواج.. لقد تزوجت (نعيمة)، وستنجب الحفيد الأول بعد شهور قليلة، ولحقت بها (توحيده) أمس، وهذا يعني أنك التالية.
ابتسمت (زينب) في شرود، وهي تقول:
- هل يهمك الأمر إلى هذا الحد؟
هتفت وهى تندس إلى جوارها، تحت غطاء الفراش الرقيق
- بالطبع، فلقد أصبحت العقبة الوحيدة في طريقي الآن
ضحكت (زينب)، وهي تقول:
- عقبة؟! أنا عقبة أيتها الـ..
صاحت (شريفة) تستوقفها:
- لا.. لن أقبل سبابا واحدا
ضحكت (زينب) في مرح، وواجهت شقيقتها، قائلة
- ما رأيك لو قلت لك: إني لا أفكر حاليا في الزواج؟
مالت (شريفة) نحوها، حتى كاد أنفاهما يتلامسان، وهي تقول في سخرية:
- سأقول لك: إنك كاذبة،
أطلقت (زينب) ضحكة صافية عالية، وهي تقول:
- وما الدليل أيتها العبقرية؟
أدنت (شريفة) شفتيها من أذن (زينب)، وهمست:

- (ماهر).
ارتجف جسد (زينب) ارتجافه لذيذة، وتخضب وجهها بحمرة الخجل وهي تغمغم في خفوت وحياء:
- (ماهر)؟!
همست شريفة):
- نعم (ماهر).. ذلك الطويل النحيل الوسيم، الذي يحلو له التنزه إلى جوار السراي، وتحت نافذة حجرتنا بالذات، والذي يتصادف وقوفك في النافذة مع موعد مروره..
ضربتها (زينب) بأناملها في رفق، وهي تتمتم في حياء
- أيتها الخبيثة
ضحكت شريفة)، قائلة:
- أقول يتصادف.
وانفجرت الاثنتان في ضحك مكتوم، خشية أن يبلغ صوتهما حجرة (حسين)، ثم شردت (زينب) بصرها لحظات وغمغمت:
- أتعلمين ماذا أتمنى يا (شريفة)؟
سألتها في اهتمام:
ماذا؟ شردت ببصرها لحظات أخرى، ثم قالت في حنان
- أن أتزوج (ماهر)، ونحيا معا ألف عام. ضحكت (شريفة)، وقالت:
- أما أنا فأتمنى أن أتزوج أي مخلوق، وأن أنجب ألف طفل
انطلقت ضحكاتهما المرحة معا، دون أن تدرك إحداهما ما يخبئه لهما القدر
ويا له من قدر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رفع (حسين) يده بالتحية العسكرية في قوة، أمام (رفعت كساب)، الذي ابتسم، قائلا:
- ممتاز يا (حسين).. لقد حضرت في موعدك تماما، وهذه واحدة من صفات الرجال الذين أبحث عنهم.
قال (حسين) في حماس: - في خدمتك دوما يا سيدى
جلس (رفعت) خلف مكتبه، وهو يقول:
- اسمع يا (حسين).. المهمة التي ستؤديها ليست بالمهمة السهلة، فهذا النوع من العمل السري يحتاج إلى خبرات ومهارات خاصة، ليس من الهين اكتسابها، لذا فستحتاج إلى تدريبات مكثفة، قبل أن تبدأ عملك معنا
قال (حسين) في حسم:
- أنا رهن إشارتك يا سيدى
ارتسمت ابتسامة على شفتى (رفعت)، وكأنما يروق له ذلك الأسلوب الذي يتسم بالطاعة والولاء الشديدين، والذي يستخدمه معه (حسين)، وقال:
- إني أضع آمالا عظيمة على كتفيك يا (حسين)، وأريد أن تبذل أقصى جهدك لتحقيق ما نصبو إليه.. لقد تحديت (جمال) نفسه في أني أستطيع أن أصنع منك محترفا.
سأله (حسين) في اهتمام:
- (جمال) من يا سيدى؟
تطلع إليه (رفعت) لحظات في صمت، ثم قال:
- البكباشي (جمال عبد الناصر).. هل سمعت به؟
أجابه في سرعة:
- بالطبع يا سيدى.. إنه ذلك الشاب الهادي، الذي يقولون عنه إنه الرجل الثاني في الحركة، بعد سيادة اللواء محمد نجيب) نفسه..
عقد (رفعت) حاجبيه، وهو يقول:

- من الواضح أنك لا تعرفه جيدا، فـ (جمال) لا يقبل لنفسه موقع الرجل الثاني أبدا.
سأله (حسين) في حيرة واهتمام:
- ماذا تعنى يا سيدى؟
هز (رفعت) كتفيه، ثم قال في حزم:
- دعك من هذا.. إننا لن تضيع الوقت في التحدث عن (جمال).. لقد طلبت منك الحضور إلى هنا، لتلتقي بالرجل الذي سيتولى مهمة تدريبك على أعمال وظيفتك الجديدة.
ثم ضغط زر الجرس المجاور لمكتبة، وقال لجندي المراسلة الخاص، الذي لبى النداء على الفور:
- اطلب من الصاغ أن يأتي.
أدى الجندي التحية العسكرية، وغاب خارج الحجرة، ثم لم يلبث شاب قوى البنية، أن دلف إلى الحجرة، وهو يقول في هدوء:

- في خدمتك يا سيادة البكباشي.

ولم يستطع (حسين) كان ذلك الذهول، الذي ملأ نفسه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه فلقد كان مدربه هو آخر شخص يتوقعه.. كان رجل البوليس السياسي، الصاغ (إبراهيم).. (إبراهيم مكى) .

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16 – المدرب..

مضت لحظات من الصمت، و (حسين) يحدق في وجه (إبراهيم مكى) في ذهول، قبل أن يقفز من مقعده، هاتفا

- ولكن هذا مستحيل!! سأله (رفعت) في دهشة

- ما هو المستحيل؟!

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي (إبراهيم)، في حين هتف (حسين) في سخط:

- هذا الرجل ينتمي إلى البوليس السياسي.. إنه واحد من رجال الملك

قال (إبراهيم) في مزيج من السخرية والبرود:

- من رجال الملك؟!

ياله من قول... إنني لم أكن أبدا من رجال الملك أيها الملازم، وإنما كنت أؤدي عملى.

صاح (حسين) في غضب:

- أي عمل هذا؟ أن تعتقل الأبرياء؟!

أجابه في برود:

- بل أن أحمي الحكومة، التي تمنحني مرتبى

هتف (حسين):

- حكومة الملك؟!

هب (رفعت) من مقعده، وقال في صرامة:

- كفي.. لست أسمح لكما بالتشاجر هكذا في مكتبى

التفت إليه (حسين)، يقول في توتر:

- هذا الرجل يا سيدى

قاطعه (رفعت) في حزم:

- لقد كان يؤدي عمله، ويطيع أوامر رؤسائه

ثم عاد يجلس، مستطردا:
- ونحن نحتاج إلى خبرته الآن
ارتسمت ابتسامة ساخرة شامتة، على شفتي (إبراهيم)، واحتقن وجه (حسين) في سخط، لم يمنعه من أن يغمغم:
- كما تأمر يا سيدى أشار (رفعت) إلى (إبراهيم) بالجلوس، وهو يوجه حديثه إلى (حسين) قائلا:
- سيبدأ الصاغ رفعت) تدريبك، اعتبارا من اليوم، وعليك أن تبذل أقصى جهدك لاستيعاب كل ما سيلقنك إياه، بحيث يمكنك مباشرة العمل بعد اسبوعين على الأكثر.
سأله (حسين) في قلق:
- هل الأمر عاجل إلى هذا الحد يا سيدى؟
أجابه في لهجة تشف عن أهمية الأمر
- بل هو أكثر من ذلك وتراجع في مقعده مستطردا في حزم:
- إنه مستقبلي.. ومستقبل الحركة كلها.. مستقبل (مصر).

لم يكد (حسين) ينفرد بد (إبراهيم)، في مكتب هذا الأخير، حتى سأله في حنق واضح:
- كيف فعلت هذا؟
استرخي (إبراهيم) في مقعده، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة مستهترة، وهو يقول:
- فعلت ماذا؟
هتف (حسن)
- كيف بلغت هذه المرتبة، بعد قيام حركة الجيش؟
أجابه مبتسما:
- مثلما فعلت أنت.. تسلقت أكتاف الآخرين.
صاح (حسين):

- أيها الوقح
انعقد حاجبا (إبراهيم) في صرامة مخيفة، وهو يقول:
- حذار أيها الملازم.. الزم حدودك، ولا تنسى أنك تخاطب ضابطا يفوقك رتبة.
انتبه (حسين) إلى تلك الحقيقة، التي أخفاها الغضب عنه فاحقن الغضب وجهه، وعاد يجلس على مقعده، متمتما:
- لن أنسى. ثم استدرك وكأنما يعجز عن ضبط فضوله:
- ولكن كيف؟
ابتسم (إبراهيم) ابتسامة رجل يعرف قدر نفسه جيدا، وقال في هدوء:
- لم أفعل سوى ما فعلته أنت.. أرسلت برقية تأييد للحركة، ولم تكن برقيتي نتاج مخاطرة هوجاء، مثلما فعلت أنت، وإنما كانت لعبة ذكية، بناء على ما توفر لدى من معلومات عن قوة الضباط الأحرار، وضعف الجهاز الحاكم والملك.
قال (حسين) في توتر:
- إذن فالبرقية وحدها قد..
قاطعه مبتسما:
- لا.. ليست وحدها، فلم يكد الأمر يستقر، حتى ذهبت إلى (رفعت) بك، وعرضت عليه خبراتى وخدماتى، ولم يرفض بالطبع، بل رحب بي، وكنت أنا صاحب فكرة إنشاء هذا الجهاز الجديد.
هتف (حسين) في دهشة:
- أنت؟
هز (إبراهيم كفيه، قائلا:
- بالطبع.. والفكرة ليست فكرتي في الواقع، بل هي فكرة طرحها زميل من الزملاء، وأعدت أنا طرحها على (رفعت) بك، دون أن

أذكر اسم الزميل بالطبع..
حدق (حسين) في وجهه، وهو يقول:
- وتخبرني هذا بكل بساطة؟! أجابه بابتسامة عريضة:
- ولم لا؟ ليست هناك جدوى من أن تخبر أحدا بالأمر، فهم يتشبثون بى في مجلس قيادة الحركة، وبخاصة (رفعت كساب).
ران الصمت عليهما لحظات، و (حسين) يحاول استيعاب واقعه الجديد قبل أن يغمغم في تردد:
- ولكن ما تزال هناك نقطة أخرى تحيرني
سأله (إبراهيم) في هدوء:
- ماهي؟
اعتدل (حسين)، وهو يقول
- لقد كنت تعلم - كما أخبرتني أن المنشورات التي عثرتم عليها في سراى والدي، والتي تحمل توقيع الضباط الأحرار زائفة، وعلى الرغم من ذلك فلقد أطلقت سراحى وسراح والدي، على نحو يوحي بأنك تؤمن تماما بانتمائنا إلى حركة الضباط الأحرار، فما الذي يعنيه هذا؟
هز (إبراهيم) كتفيه، كعادته، وأجاب في هدوء:
- يمكنك اعتبار هذا نوع من الحذر الزائد، فلقد ألقيت على نفسي حينذاك سؤالا واحدا، الا وهو: وماذا لو أنهما ينتميان إليها؟ وحسما للصراع في داخلي، أطلقت سراحكما..
ثم اعتدل قائلا في حزم:
- والآن لا مزيد من الأسئلة.. ستستمع فحسب، فستبدأ تدريباتنا على الفور.
صمت (حسين) تماما، وراح يصغى إليه في اهتمام شديد، وفي أعماقه راح يعد خطة جديدة..
خطة الإطاحة به (إبراهيم مكى)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس الحاج (البنهاوي) في شرفة السراى ساكنا، وبصره يشرد بعيدا.. أبعد من المكان والزمان لقد اقترب حلمه من مهبط الواقع..

أنه قد خسر ما يقرب من مئة وعشرين ألفا من الجنيهات، مع خسارته لمائتي فدان من أرضه، جمعها بعرق وكفاح ودماء السنين، إلا أنه ما يزال أغنى أغنياء القرية، والقرى المحيطة..

إنه حتى اكثر ثراءً من الباشا السابق، صاحب العزبة المجاورة ولقد بلغ ابنه (حسين) شأنا كبيرا في السلطة وفي المنصب..

آه لو حقق (حافظ) و (مفيد) حلمه مثله..

استرجع في ذهنه بسرعة طبيعة (حافظ) المستكينة المرتاعة المنطوية، وفشله لسنوات في نيل شهادة البكالوريا، واستسلامه التام لكل الأمور، وزفر في مرارة، وهو يغمغم:

- لك الله يا (حافظ).. إنك أضعف أبنائي بالفعل

كان (مفيد) هو أمله، بعد (حسين)، إلا أن عناد (مفيد الشديد وأسلوبه الجاف العنيف في معالجة المأمور كان يقلقه، وكان يخشى أن تنهار المملكة التي صنعها بكفاحه بعد وفاته، بسبب اختلاف أبنائه..

وكان هناك حل وحيد ينقذه من هذا حل وحيد يحافظ على اسم (البنهاوي) على مر الأجيال

انتبه من شروده على صوت شاب يتنحنح، فالتفت إلى مصدر(الصوت)، ووقعت عيناه على شاب طويل وسيم مليح، يقول في ارتباك:

- صباح الخير يا حاج

أجابه (البنهاوي) في هدوء: - صباح الخير يا ولدي.. تفضل

جلس الشاب مرتبكـا، ولم يشأ الحاج (البنهاوي) أن يزيد من ارتباكه، بسؤاله عمن يكون؟ أو لماذا جاء؟ فالتزم الصمت، وهو يتطلع إليه في هدوء، حتى قال الشاب:
- اسمى (ماهر سليمان).. ابن الحاج (سليمان)، صاحب الطاحونة القبلية.
ابتسم الحاج (البنهاوي)، وهو يقول:
- كريم وابن كريم يا ولدي.. كيف حالك، وكيف حال والدك؟
لم يجب (ماهر) عن سؤال الحاج، وإنما قال في سرعة، وكأنما يخشى أن يعاوده الارتباك، فيعجز عن إكمال ما أتي من أجله؛
- أنا حاصل على ليسانس الحقوق يا حاج، وأمتلك بإسمي ستة أفدنة وأعمل في وظيفة محترمة، بديوان مديرية الغربية، و.....
قاطعه الحاج، وهو يبتسم ابتسامة أبوية:
- وماذا تريد يا ولدي؟ ا
ندفع (ماهر) يقول:
- (زينب)، ثم ارتبك في شدة، وتضرج وجهه بحمرة الخجل، وهو يستطرد في سرعة:
- أقصد أنني أطلب يد كريمتك الآنسة (زينب)، ولى جم الشرف،
قاطعه الحاج في اهتمام:
- هل تعرف (زينب)؟
بدا وجه (ماهر) شديد الحمرة، وهو يقول
- ومن يجهل منزلك وأبناءك يا حاج.. أنتم أعلام قريتنا
ابتسم الحاج في حنان، وهو يسأله:
- ولماذا لم يأت والدك لطلب يدها يا ولدي؟ أليست هذه هي التقاليد؟
خفض (ماهر) عينيه، وهو يقول في حياء..

- لقد خشي والدي أن يرفض طلبه؛ لأننا أقل منكم ثراء، وأردت أنا أن أستطلع رأيك، قبل أن يواجه هو الموقف، و.....
صمت (ماهر)، وكأنما يعجز عن إتمام عبارته، فابتسم الحاج (البنهاوي)، وقال:

- عندما أتيت إلى قريتكم، كنت أفقر أهلها يا ولدي.. المال لا يصنع الرجال، ولكن الرجال يصنعون المال.
ثم ربت على كتفه مستطردا:
- قل لوالدك أن يأتي لزيارتي
تهللت أسارير (ماهر)، وهو يهتف في سعادة:
- حقا يا حاج؟
اتسعت ابتسامة الحاج، وهو يقول
- بالتأكيد يا ولدي.. سأنتظره هذا المساء
هتف (ماهر): - شكرا يا حاج.. شكرا..
ثم انطلق يعدو عائدا إلى منزله، وكأنما لا يطيق صبرا على إخبار والده، في حين أسرعت (شريفة)، التي كانت تختلس السمع، إلى

حجرة (زينب)، وهتفت بها في سعادة:
- (زينب).. (زينب).. عندي لك خبر يستحق مكافأة كبيرة.
سألتها (زينب) في لهفة:
- أي خبر؟
مالت (شريفة) نحوها، وهي تقول في سعادة
- كان (ماهر) هنا.. مع والدي.
خفق قلب (زينب) في قوة، وارتجفت حروف كلماتها، وهي تقول:
- (ماهر)؟! هنا؟
صفقت (شريفة) بكفيها كالأطفال، وهي تقول في جذل:
- نعم.. ولقد وافق والدي
أمسكت (زينب) كتفى (شريفة) في قوة، وهي تهتف:
- وافق؟ وافق على زواجنا؟
أومأت (شريفة) برأسها إيجابا، وهي تبتسم ابتسامة واسعة، تكاد تلتهم وجهها كله، وتستطرد في سعادة:
- نعم يا (زينب)، وافق مبدئيا، وسيحضر والد (ماهر) لمقابلته، وطلب يدك رسميا الليلة.
عاد قلب (زينب) يخفق في قوة، وارتفع حاجباها في حب وحنان، وهى تهمس في سعادة:
- الليلة!!
مالت (شريفة) تطبع قبلة على وجنة شقيقتها، وهي تقول:
- مبارك يا شقيقتي العزيزة.. الليلة سيتحقق حلمك، ستزوجين (ماهر)، وتعيشان معا ألف عام.
استلقت (زينب) على فراشها في نشوة، وهي تقول:
- وغدا يتحقق حلمك أنت يا (شريفة)، وتتزوجين رجلا فاضلا عظيما، وتنجبين ألف طفل:
ضحكت (شريفة)، وهي تقول

- هذا إذا ما أتى الغد

نعم

إذا ما أتى الغد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17 – الصدمة..

رفع (رفعت كساب) عينيه عن أوراقه، عندما سمع طرقات على باب مكتبه، وقال بلهجته الصارمة المتعالية:

- ادخل

دلف (حسين) إلى مكتبه، وأدى التحية العسكرية في قوة، فقال (رفعت):

- ماذا تريد يا (حسين)؟ هل أنهيت تدريبك الأول؟

أجابه (حسين) بصوت جهوري:

- نعم يا سيدي

ابتسم (رفعت) قائلا:

- لا داعي لذلك الصوت القوى، استرح.. إننا نتعامل هنا دون قيود صارمة.

أرخى (حسين) وقفته العسكرية المتشددة، وهو يغمغم:

- شكرا يا سيدي

اعتدل (رفعت)، ووضع قدمه فوق أوراقه وهو يقول

- حسنا.. ماذا لديك؟

تنحنح (حسين)، وقال:

- إنه أمر يتعلق بالصاغ (إبراهيم مكى) يا سيدى

سأله مبتسما

- ماذا عنه؟

هز(حسين) كتفيه، دون أن ينتبه إلى أنه بذلك يقلد (رفعت) كثيرا. وقال في صوت منخفض، شأن من يذيع سرا خطيرا:

- لست أثق به

مرت لحظة من الصمت، قبل أن ينفجر(رفعت) مقهقها، على نحو احتقن له وجه (حسين)، قبل أن يقول (رفعت) ضاحكا:

- لا تثق به.. يا لها من عبارة، ثم مال إلى الأمام، يسأله بغتة:
- ولماذا لا تثق به.. الأنه كان يعمل في البوليس السياسي؟
عقد (حسين) حاجبيه، وهو يقول في ضيق
- بل لأنه غير أهل للثقة يا سيدى،
تطلع إليه (رفعت) طويلا في صمت، ثم تراجع في مقعده، وراح يعبث بقلمه، قائلا:
- اسمع يا (حسين).. كلنا في مجلس القيادة نعلم حقيقة (إبراهيم مكى) وأمثاله.. إلا أننا نحتاج إلى خبراتهم؛ لذا فنحن نسمح لهم بالعمل معنا، عن ثقة في أنهم لن يجدوا من هو أفضل منا، في الوقت الحالي على الأقل، ولكن هذا لا يعني أن نمنحهم كل ثقتنا.
وعاد يميل إلى الأمام بغتة، مستطردا في اهتمام:
- هذا أريد منك أن تراقبه بهت (حسين) للعبارة، وغمغم في دهشة
- أراقبه؟
أجابه (رفعت) في حزم:
- نعم.. أريد منك أن تستفيد منه أقصى استفادة ممكنة، وأن تسلبه كل خبراته، دون أن تمنحه ثقتك في الوقت ذاته، وفي نفس الوقت أريد منك أن تنقل إلىّ كل ما يفعله أو يقوله، حتى نتخذ حذرنا منه.. هل تفهم؟
هتف (حسين) في حماس:
- بالتأكيد يا سيدى ورقص قلبه طربا في ظفر
لقد جاءته الفرصة على طبق من ذهب
فرصة تحطم خصمه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي الحاج (البنهاوي) وهو يستقبل (ماهر) ووالده في السراي، وصافح والد (ماهر) في حرارة وهو يقول:
- مرحبًا بك يا حاج.. مرحبًا بك في منزلك أجابه والد (ماهر في سعادة:
- هو منزل الكرم والكرماء يا حاج.. ونعم النسب
جلس الثلاثة في حجرة استقبال الضيوف، وانضم إليهم (مفيد) و (حافظ)، وراح الجميع يتبادلون أحاديث عادية، حول حركة الضباط، وشعبية (محمد نجيب)، وغيرها من المواضيع العامة، و(شريفة) و(زينب)، و (ناهد) يسترقن السمع من الحجرة المجاورة في لهفة، حي تنحنح والد (ماهر) واعتدل في مجلسه، ليقول:
- لقد أتيناك الليلة لشأن حث عليه الله ورسوله يا حاج. ابتسم الحاج (البنهاوي)، وقال:
- وأنا رهن إشارتك يا حاج (سليمان).. مر بما تشاء
هتف الحاج (سليمان):
- عفوا يا حاج.. أنت سيد الجميع.
ثم ابتسم بدوره، وهو يقول:
- أتيت أطلب يد..
قبل أن يعم عبارته، تهللت أسارير الحاج (البنهاوي)، وهو يتطلع إلى باب الحجرة، هاتفا:
- لقد وصل ابنى (حسين)..
هب الجميع لتحية (حسين)، الذي رد تحيتهم في نوع من التعالي المغرور، وهو يلقي نظرة فاحصة طويلة على (ماهر) ووالده، في حين هتفت (زينب) في الحجرة المجاورة في سخط:
- أكان من الضروري أن يصل (حسين) الآن؟!

كان والد (ماهر) سيطلب يدى..
ضحكت (شريفة)، وهي تقول:
- اصبري أيتها المتعجلة.. إن غدا لناظره قريب
أما (حسين) فقد جلس وهو يدير عينيه في الحاضرين، قبل أن يقول والده مبتسما:
- الحاج (سليمان) صاحب الطاحونة القبلية، وابنه (ماهر).
قال (حسين) في لامبالاة:
- تشرفنا
أشاح (مفيد) بوجهه في ضيق من أسلوب شقيقه الفظ، في حين انكمش (حافظ) في مقعده، كعادته في وجود (حسين) وتنحنح والد (ماهر)، وهو يقول:
- الواقع أننا قد أتينا نطلب يد الأنسة (زينب) لولدى (ماهر).
كان من الواضح أن الحاج (البنهاوي) يوافق على هذا، فقد اتسعت ابتسامته في سعادة وحنان، وخفق قلب (زينب)، وهي تنتظر الجواب، وقبل أن يتفوه والده بكلمة واحدة، قال (حسين) في برود:
- ليس هذا وقت زواج (زينب).
احتقن وجه الحاج (سليمان) في شدة، وشحب وجه ابنه (ماهر)، وهو ينقل بصره بين وجهي الحاج (البنهاوي)، الذي تجمدت ملامحه في شدة ودهشة، و (حسين) الذي بدا شديد البرود، وغمغم (ماهر):
- ولكن الحاج قال.. أعني أن.. أرتج عليه، فلم يتفوه بكلمة زائدة، في حين قال (حسين) بنفس البرود
- لم تمض أيام بعد على زواج (توحيده)، و..... قاطعه والده في حزم يحمل رنة الغضب:
- والأفضل أن يتم زواج (زينب) بعد أسبوعين

ارتجف قلب (زينب) بين ضلوعها، وحدق (حسين) في وجه والده في ذهول، في حين التمعت عينا (مفيد) في إعجاب، وهتف (ماهر) غير مصدق:
- إذن فأنت توافق يا حاج
رمق الحاج (البنهاوي) ابنه (حسين) بنظرة صارمة، وهو يقول:
- نعم.. أوافق ثم مد يده إلى الحاج (سليمان)، قائلا:
- فلنقرأ الفاتحة.. وانطلقت زغرودة فرحة، من بين شفتى (شريفة)..
لم يناقش (حسين) والده فيما حدث.. لقد انسحب قبل قراءة الفاتحة وذهب إلى حجرته غاضبا، ينتظر أن يستدعيه والده بعد قليل، إلا أن الحاج (البنهاوي) تجاهله تماما، حتى أنه لم يسأل عنه مطلقا، عندما لم يجده حول مائدة الإفطار في الصباح التالي، ولم يناقشه في الأمر، عندما اجتمعا حول مائدة الغداء، فلم يطق (حسين) صبرا، وقال في غضب:
- لقد أهنتني إهانة بالغة أمس يا والدي انعقد حاجبا الحاج (البنهاوي) في شدة، وهو يقول في حدة:
- أنا أهنتك؟ بل أنت الذي صرت تتعالى على الجميع، ولا تتورع حتى عن إهانة والدك.
بهت (حسين) لثورة والده، التي لم يعهدها من قبل، فغمغم:
- إنني لم أقصد أن..
قاطعه والده في ثورة:

- ليس من حقك أن تتدخل في أمر يخص الكبار، ما دمت أنا حيًا.. لقد طلب (ماهر) يد(زينب)، وأنا وافقت، وسيتزوجان برغم أنف الجميع هل تفهم؟ برغم أنف الجميع.

انكمش (حسين) في مقعده، وهو يغمغم:

- كما تأمر يا أبي.. كما تأمر

كان من الواضح أن الحاج (البنهاوي) شديد الثورة هذه المرة، وأنه لم يعد يسمح لأحد بفرض إرادته عليه.. حتى ابنه (حسين)، لذا فقد تابع بنفس الثورة، التي احتقن لها وجهه في شدة:
- إنك لم تعد كما كنت.. لقد أصابتك السلطة بالغرور، ولم تعد تستحق ما منحتك إياه.. لم تعد تستحقه.
تمتم (حسين):
- حسنا يا أبي أنا لم أكن أقصد، و. قاطعه صوت العمدة، وهو يقول: - لماذا هذا الشجار؟
أدار الجميع عيونهم إلى العمدة، وبذل الحاج (البنهاوي) جهدا رهيبا، ليسيطر على أعصابه، وهو يقول:
- إنه مجرد حوار عائلي.. مرحبًا يا عمدة.. تفضل الطعام
حمل وجه العمدة ابتسامة متشفية، لم ترق لـ (مفيد)، وهو يقول:
- لقد تناولت غدائي، ولكني أتيت أسأل (حسين) بك عن صحة ما أذاعه المذياع.
التفت إليه (حسين)، يقول في توتر:
- ماذا أذاع؟
تطلع العمدة إلى وجه (البنهاوي)، الذي احقن على نحو مخيف، وقال في بطء، يحمل نبرة تشف واضحة:
- لقد أصدروا قرارا بتحديد الملكية الزراعية.. سيصادرون ما يزيد على المائتي فدان
اتسعت عيون الجميع في دهشة وجزع، وأدار (مفيد) عينيه إلى والده في خوف وقلق، ورأي وجه الحاج (البنهاوي) يزداد احتقانا في شدة، وعيناه تكتسيان بعروق رفيعة متكاثفة.

وفي أعماق (البنهاوي)، انهار كيان ضخم.. أرضه ضاعت الأرض التي جمعها بكفاحه وعرقه ذهبت

ذهبت بقرار واحد
هدف حياته وكفاحها انهارا في لحظة
وشعر بنهر من الدماء يصعد إلى راسه وعينيه، و....
وسقطت رأسه فوق المائدة وانطلقت صرخة (مفيد):
- أبي.. أبي.
وألصق أذنه بصدر أبيه، في محاولة لسماع دقات قلبه، ثم لم يلبث أن رفع وجهه في شحوب هائل، وهو يقول في انهيار:
- لقد مات.. مات ابي !!
وسقط (حافظ) فاقد الوعى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18 – الميراث..

كانت جنازة (البنهاوي) مهيبة بحق، وهي تعبر شوارع القرية في صمت تام، خلا حتى من صراخ النساء التقليدي، في القرى المصرية، وهن يشيعن موتاهن، وكأنما أضفى وقار الراحل وهيبته طابعا خاصا على تشيع جنازته، أو أن ذلك الإطار الذي أحيطت به الجنازة قد حبس الصرخات في حلوق النساء، فلم تخرج القرية كلها لتشيع الرجل إلى مثواه الأخير، مدفوعة بحبه واحترامه فحسب، وإنما انضم إلى الصورة حشد من رجال الجيش، تلتمع رتبهم الرسمية على أكتافهم، ويتقدمهم عدد من الضباط الأحرار، الذين هم محور حياة (مصر) كلها، في ذلك الوقت..

ومضت الجنازة صامتة، حتى تم إيداع (البنهاوي) مثواه الأخير، في تراب القرية التي شهدت كفاحه ونموه، ثم بدأ أبناؤه يتقبلون العزاء، وصافح (رفعت كساب) (حسين) في حرارة، وهو يقول:

- البقاء لله.. لا تستسلم للأحزان أجابه (حسين) في لهجة عسكرية، بدت عجيبة في إطار الموقف:

- لن أفعل يا سيدى

التفت (رفعت) يصافح (مفيد)، قائلا وهو يشد على يده في قوة:

- القول نفسه ينطبق عليك غمغم (مفيد)، وهو يجتر الكلمات من حزنه اجترارا:

- سأحاول

ربت رفعت) على كتفه، ثم التفت إلى (حسن)، وقال وكأنما نسى جلال الموقف:

- متى ستأتي إلى مكتبي؟ أجابه (حسين) في سرعة:

- وقتما تشاء يا سيدي

لوح (رفعت) بكفه، قائلا
- خذ أسبوعا كاملا، ولكن حاول أن تتخلص من الأحزان في سرعة أجابه بنفس اللهجة العسكرية:
- سأحاول يا سيدى
شعر (مفيد) بغصة في حلقه، وباشمئزاز، عنيف في أعماقه.. كيف يمكنهما أن يتحدثا هكذا، في موقف له كل هذا الجلال؟! ألم يعد لمشاعرهما مجال أو مكان؟ أصارت السلطة في الحياة ملهية لهم عن الموت؟...
تمني لحظتها لو انفجر في وجه شقيقه، واتهمه بالعقوق والنكران، إلا أنه راح يقاوم رغبته هذه في شدة، وهو يفكر في شقيقهما (حافظ)، الذي لم تحتمل أعصابه الصدمة، فانهار تماما
هكذا هو (حافظ) دوما أضعف من أن يحتمل أية صدمة
ترى ماذا سيفعل المسكين، بعد أن فقد والده والوحيد الذي كان ينقذه من بطش (حسين) به؟
يا للبائس المسكين..
أفاق (مفيد) من أفكاره على وجه أثار دهشته
وجه شاب وسيم، برز من بين الصفوف فجأة، واتجه إليه، ومد يده يصافحه، وهو يقول في هدوء بحمل نبرة قوة واضحة:
- البقاء لله صافحه (مفيد) في حيرة، وهو يتساءل: اين رأى هذا الوجه من قبل؟
ثم فجأة تذكر.. وأدهشته الذكرى..
إنه ضابط البوليس السياسي، الذي ألقي القبض على والده، وعلى (حسين)، منذ شهور..
إنه الصاغ (إبراهيم مكى) نفسه..
وفي دهشة بالغة، حدق (مفيد) في وجه (إبراهيم)، الذي استدار إلى (حسين)، ومد يده يصافحه في هدوء، مكررا عبارته نفسها.

وأدرك (مفيد) على الفور أن علاقة ما قد نشأت بين (حسين) و(إبراهيم)..
لم يدر طبيعة تلك العلاقة بالضبط، ولكنهما تصافحا على نحو يؤكد اعتياد كل منهما على الآخر، وتبادلا نظرة غامضة عجيبة، توحي بأن كلا منهما يحمل في قلبه كراهية لاحد لها، تجاه الآخر.
ولكن الموقف لم يكن يحتمل التفكير في هذه النقطة أو بحثها؛ لذا فقد انشغل (مفيد) و (حسين) في تقبل العزاء، حتى انفض الموقف، فعادا إلى السراى، وقد بدأ الحزن يتخذ مسارا جديدا في نفسيهما، بعد جرعة المشاعر المفرطة التي حقنهما بها الموقف، منذ الوفاة.
في السراي لم تكن النيران قد خمدت بعد..
كانت بنات (البنهاوي) يذرفن الدمع في غزارة، ويبكين وينتحبن في مرارة وحزن لا حد لهما..
مطلقا
وحدها (زينب) بدت متماسكة إلى حد كبير، على الرغم من إلتماعة دمع تملأ عينيها، فاتجه إليها (مفيد)، وسألها:
- اين (حافظ)؟
أجابته والمرارة تتقاطر من صوتها:
- يجلس وحده في الشرفة الخلفية
سألها في قلق:
- هل يبكى؟
هزت رأسها نفيا، وهي تقول:
- لا.. ثم أضافت في حيرة:
- وهذا ما يقلقني في الواقع
تنهد (مفيد) وقال:
- سأذهب إليه.

اتجه إلى حيث يجلس (حافظ)، الذي بدا صامتا جامدا، كتمثال من حجر، وعيناه تشردان بعيدا في الفراغ، وقد بدتا أقرب إلى عيني جثة هامدة، فجلس (مفيد) إلى جواره صامتا بعض الوقت، ثم ربت على كتفه، مغمغما:

- لا تستسلم لأحزانك هكذا..

لم يبد أن (حافظ) قد سمعه.. ولا حتى أنه قد شعر بوجوده لقد ظل صامتا، جامدا، يحدق في الفراغ، فتابع (مفيد):

- إنه والدنا كلنا..

لم يتم عبارته، بل لم يشعر حتى بالرغبة أو الحاجة إلى ذلك..

إنه يعلم جيدا أن احتمال (حافظ) للصدمة بالغ الضعف، وأنه سيمضي وقت طويل حتى يمكنه استيعاب ذلك التغير، الذي طرأ على الأسرة.

وعلى فقدان أبيه، وسنده، ودرعه

وتنهد (مفيد) مرة أخرى، وربت على كتف شقيقه، ثم نهض يغادر الشرفة، إلا أن همسة تحمل اسمه جعلته ينتفض، وجعلت قلبه يدق في عنف، وهو يلتفت إلى مصدرها، هاتفا بكل الوجد في أعماقه

- (مديحة)؟!

كانت تختفي بجسدها الضئيل وسط أشجار المانجو والبرتقال، في حديقة المنزل الخلفية، ووجهها الرقيق يحمل خليطا من القلق واللهفة والحنان، وهى تلوح لـ (مفيد) بكفها الصغير، وهم (مفيد) بالاندفاع نحوها، ولكنها لوحت له، قائلة:

- ليس الآن

ثم أضافت في حنان وتعاطف - البقية في حياتك.. لقد أتيت لتعزيتك هتف بها في خفوت:

- أريد أن أراك

ترددت لحظة، ثم أجابته:

- الليلة، في نفس الموعد والمكان
غمغم:
- فليكن
أسرعت تنصرف مبتعدة، وتابعها هو ببصره، وقلبه يخفق خلفها، وعاوده كل شوقه وحنينه إليها، ثم لم يلبث أن شعر بغتة بتأنيب الضمير، لأنه يفكر في هذا، ولم يمض سوى يوم واحد على وفاة أبيه، فتمتم في توتر:
- يا لها من حياة!
وألقي نظرة أخرى على (حافظ) الجامد، ثم اتجه إلى حجرة استقبال الضيوف، ووقع بصره فيها على (حسين) والحاج (سعفان)، و (ماهر) ووالده الحاج (سليمان)، وزوج شقيقتيه (نعيمة) و (توحيده)، ولم يكد الحاج (سعفان) يلمحه، حتى نهض يصافحه، قائلا:
- رحم الله والدك يا ولدي.. كان خير الرجال
شكره (مفيد) بتمتمة مبهمة، واتخذ مكانه وسط المجلس، وساد الصمت لحظات، قبل أن يتنحنح (عمر)، زوج (نعيمة)، ويقول بصوت مرتفع:
- البقاء لله.
همهم الجالسون بعبارات مبهمة، يصعب تمييزها، وعاد الصمت يغلف المجلس مرة أخرى، قبل أن يقول (عمر):
- أظن الأمر سيحتاج بعض الوقت، لإتمام الإجراءات
التفت إليه الجميع في دهشة، وسأله (حسين) في شيء من الحدة
- أية إجراءات؟
رسم (عمر) على شفتيه ابتسامة بلهاء، وهو يقول
- إجراءات الميراث

بدأ الجواب أشبه برنين حاد، انطلق بغتة في حجرة صامتة، فساد صمت تام بعده، والجميع يحدقون في وجه (عمر)، في مزيج من الدهشة والاستنكار، قبل أن يهتف (عبد الحكيم)، زوج (توحيده):
- أهذا وقت الحديث عن الميراث يا رجل؟ قال (عمر) في حدة:
- وماذا يمنع؟ هتف (عبد الحكيم) غاضبا:
- الرجل لم يبرد في قبره بعد
قال (عمر) في تبجح:
- الحق لا يعرف موعدا
كاد(عبد الحكيم) ينفجر في وجهه مرة أخرى، لولا أن قال (حسين) في صرامة:
- أي حق يا رجل؟ التفت إليه (عمر)، وقال:
- حق الجميع.. ألسنا كلنا شركاء في هذا الميراث؟
لقد تركت لكم الحكومة مائتى فدان، وسيبلغ نصيب زوجتي منها ما يقل قليلا عن عشرين فدانا، و.....
بدا الغضب على وجه (حسين)، وهب من مقعده بحركة حادة، فهتف (عمر)، وهو يتراجع حاميا وجهه بذراعه:
- إنني أطالب بحق زوجتي فحسب. صاح (حسين) غاضبا:
- أنت أحقر مخلوق رأيته في حياتي
هتف (عمر):
- إنه حق
تنحنح الحاج (سعفان)، وقال مترددا:
- ليس لك الحق في قيراط واحد يا (عمر).
التفت إليه (عمر)، صارخا:
- هل تجامله يا حاج (سعفان)؟ الشرع لا يقبل المجاملة.. ستصادر منهم الحكومة ثمانمائة فدان، وستترك مائتين، وستوزع الأفدنة

الباقية على الجميع وبحسبة بسيطة ستجد أن نصيب زوجتي هو واحد من أحد عشر نصيبا، و.....
قاطعه الحاج (سعفان) في صرامة:
- قلت لك إنك لن تحصل على قيراط واحد
صاح (عمر)، وقد أفزعه مجرد تصور عدم حصوله على شيء:
- ماذا تعني يا حاج (سعفان)؟ أما (مفيد) فقد شعر بالقلق، وهو يغمغم:
- ماذا تقول يا حاج (سعفان)؟ أطلق الحاج (سعفان) من صدره زفرة قوية، وقال:
- أنتم تعلمون جميعا أن الحاج (البنهاوي) كان يحلم دوما بأن يمتد اسمه إلى عشرات الأجيال، و.....
قاطعه (حسين) في توتر صارم:
- لا داعي للمقدمات الطويلة، أدخل في الموضوع مباشرة. تنحنح الحاج (سعفان)، وبدا الحرج على وجهه، وهو يقول:
- الواقع أن الحاج (البنهاوي) (رحمه الله)، لم يترك ميراثه للتقسيم الشرعي.
ثم أشاح بوجهه، وكأنما يتجنب مواجهة الموقف، قبل أن يستطرد:
- لقد كتب أرضه كلها لـ (حسين).. (حسين) فقط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19 – الظلم..

حدق الجميع في وجه الحاج (سعفان) في ذهول، وكان أكثرهم ذهولا هو (حسين) نفسه، الذي كان أيضا أول من تحدث، مغمغما

- إلى أنا؟!

أوما الحاج (سعفان) برأسه إيجابا، وقال متحاشيا النظر في وجوه الجميع:

- لقد كان (رحمه الله) يخشى أن تتفتت الأرض من بعده، وأن يسيء كل منكم التصرف في نصيبه منها؛ لذا فقد واتته تلك الفكرة، ولقد حاولت أنا إثناءه عنها، وإقناعه بترك الشريعة لمجراها، ولكنه أصر على أن يكتب أرضه كلها باسم (حسين)، بعقود بيع صحيحة، سدد عنها الرسوم المطلوبة كاملة، على أن

يتولى (حسين) مهمة الإنفاق على الجميع، ومنحهم أنصبتهم الشرعية من إيراد الأرض سنويا.
هتف (عمر) بحنق:
- ولكن هذا ظلم.. ظلم بين.
صرخ (حسين) في وجهه
- تحشم يا رجل.. إنها إرادة أبي.
صاح (عمر) محتجا:
- إرادته تتجاوز شرع الله؟
صرخ (حسين) بكل صرامته:
- اخرس.. لا تنطق بكلمة واحدة ضد أبي، وإلا ألقيت بك في السجن.
انكمش (عمر) في مقعده، وهو يعلم أن منصب (حسين) الجديد يمنحه القدرة على تحويل تهديده إلى حقيقة، خاصة وأن طبيعة (حسين) لا تجعله يتورع عن ذلك، وران صمت قصير على المكان، والجميع يتطلعون في وجوه بعضهم البعض في حيرة ودهشة، قبل أن يشق صوت (مفيد) حاجز الصمت، وهو يقول:
- إنه حقا ظلم.
التفت إليه (حسين) في حركة حادة عنيفة، وبوجه يحمل كل الغضب والاستنكار، فرفع (مفيد) صوته، مكررا في حزم:
- إنه حقا ظلم.. ليس من حق مخلوق في الكون كله أن يخالف قانون الخالق.
هتف (حسين) في غضب:
- اصمت.
ولكن (مفيد) تابع متجاهلا الأمر:
- لقد حدد الخالق (عز وجل) كل قواعد الإرث، ولن نبلغ حكمته سبحانه أبدا، مهما بلغنا من الشأن والقوة والحكمة، والواجب هو

أن نطيعه دون نقاش، ودون تحوير لأوامره.
هتف به (حسين) مرة أخرى:
- قلت لك اصمت
قال (مفيد) في صرامة:
- لا.. لن أصمت عن الحق.. الساكت عن الحق شيطان أخرس.. إن ما حدث ظلم، ظلم.. ظلم
صاح (حسين) إلى غضب:
- هكذا؟! وماذا لو أن أبى قد منحك أنت الأرض كلها؟ أكنت ستجد الأمر ظلما أيضا؟
لوح (مفيد بكفه في مرارة، واستدار متجها إلى الخارج، فصرخ به (حسين) في ثورة:
- إلى أين؟ إنني لم أتم حديثى بعد
أجابه (مفيد في غضب:
- سأنصرف يا (حسين).. سأنصرف قبل أن أختنق
ثم التفت إليه، مستطردا في حنق:
- وحتى لا نوصم دوما بأننا، في ليلة دفن والدنا، قد رحنا نتشاجر من أجل الميراث.
واندفع يغادر المكان في حدة واضحة، فهتف (حسين) في غيظ:
- غبى
نهض ماهر ووالده، وقال الأول في حياء:
- أظن أنه قد حان وقت الانصراف.. البقية في حياتك أنت يا (حسين) بك
غمغم (حسين في اقطاب:
شكرا. صحبهما الحاج (سعفان) في انصرافهما، دون أن يتبادل كلمة واحدة مع (حسين)، سوى أن غمغم وهو يصافحه:
- كل الأوراق ستجدها في دولاب والدك.

صافحه (حسن) في صمت، وودعه حتى بوابة السراي، ثم عاد إلى حجرة استقبال الضيوف، وتطلع إلى زوج شقيقتيه في تحد سافر، وهو يقول:
- ما رأيكما فيما سمعتماه؟ عقد (عمر) حاجبيه في غضب وهو يقول:
- سنقول رأينا في المحكمة
وهب مغادرا المكان في غضب، وهو يهتف باسم زوجته، التي لحقت به في سرعة، وتبعته في انكسار وحزن، وبطنها الممتلئة بجنينها الأول تترجرج أمامها، في حين سأل (حسين) (عبد الحكيم) في صرامة:
- ما رأيك أنت؟ تبادل معه (عبد الحكيم) نظرة متحدية، قبل أن ينهض قائلا
- لم نكن أبدا في حاجة إلى أموال والدك. ولم يلبث أن انصرف مع زوجته في صمت وبقى (حسين) وحده
والعجيب أنه، على الرغم من حزنه لوفاة والده، قد شعر في تلك الليلة بنشوة عجيبة.
نشوة القوة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (مفيد) يحتاج حقا إلى لقاء (مديحة) هذا المساء. إنه لم يرها منذ زمن طويل.. منذ كشف والدها الحاج (إسماعيل) طبيعة العلاقة بينهما.. وهو يشعر بشوق هائل إليها
ثم إنه يحتاج إلى من يستمع إلى أحزانه ولوعته، وإلى من ينتشله من ذلك الشعور العام بالاختناق، الذي أورثته إياه وصية والده
كان يشعر أن هذا ظلم مجحف..

ظلم بيّن
لماذا فعل والده هذا؟
لماذا خالف مشيئة الخالق (عز وجل)، ومنح (حسين) وحده الثروة كلها؟
لم يكن حزن (مفيد) من أجل الثروة، ولا من أجل فوز (حسين) بالغنيمة كلها، ولا حتى من أجل فقدان الأرض، التي يعشقها
وإنما كان من أجل الظلم
لم يكن يحتمل أبدا مبدأ الظلم
انتزعه من أفكاره صوت (مديحة)، وهي تهمس
- (مفيد).
التفت إليها بكل جوانحه وجوارحه.. بكل شوقه وحبه.. بكل لهفته ولوعته..
ولم تكد تلقى كفيها الرقيقتين في راحتيه، وقلبها يرتجف حبا وشوقا، حتى كاد يضمها إلى صدره، ويفرغ على شفتيها لواذع قلبه، لولا أن أخلاقه وشهامته قد منعاه من تدنيسها بفعل حرمه الله (سبحانه وتعالى) إلا على الأزواج، فهتف في همس يحمل كل الحب:
- أوحشتني.
تضرج وجهها بحمرة الخجل، مغمغمه:
- وأنت.

جلسا متجاورين فوق العشب الطري، عند جذع الشجرة الكبيرة، وتشبثت أصابع كل منهما بكف الآخر، وهما يلتهمان وجهي بعضهما البعض، بنظرات ملؤها اللهفة والشوق والحب، حتى همست (مديحة):

- البقية في حياتك.

غمغم:

- أشكرك.

ثم سألها في خفوت:

- هل يعلم والدك أنك هنا؟

تمتمت وهي تملأ عينيها بوسامته:

- إنه يتظاهر بأنه لا يعلم، ولكني واثقة من معرفته بلقائنا، ويبدو أنه يعلم كم تعاني، ولم يشأ منعي من التخفيف عنك.

تنهد مغمغما:

- والدك رجل رائع يا (مديحة)

تنازعته عوامل شتى، ما بين لهفته للقياها، وذلك الوعد الذي قطعه بأن تكون علاقتهما واضحة نظيفة، ثم لم تلبث أخلاق الفارس في

أعماقه أن انتصرت، فنهض قائلا في حزم:
- (مديحة).. صحيح أنني أتلهف شوقا لقضاء حياتي كلها معك، ولكن. لابد لك من العودة إلى منزلك.
سألته في دهشة وخوف:
- لماذا؟ ماذا حدث؟
أمسك كفيها بكفيه، وتطلع إلى عينيها مباشرة، وهو يقول:
- اسمعى يا (مديحة).. لقد كنت أذوب طلبا للقائنا هذا، وكان لدى الكثير لألقيه على مسامعك، إلا أنني قد قطعت وعدا بعدم لقائك سرا مرة أخرى.
سألته في دهشة:
- لمن قطعت هذا الوعد؟
أجابها في حزم:
- لا عليك في هذا، المهم أننا لن نلتقي مرة أخرى، إلا على نحو رسمى وشرعي تماما، وعلينا أن نحتمل الفراق، حتى يأتي ذلك اليوم.
ترقرقت الدموع في عينيها، مع حيرتها وقلقها، فرسم على شفتيه ابتسامة، وهو يضيف:
- ولن يتأخر ذلك اليوم يا (مديحة).. لن تمض شهور قليلة، إلا وتصبحين..
اتسعت ابتسامة، وهو يضيف في حنان:
- زوجتى.
وانطلقت في قلبها زغرودة فرح قوية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حافظت (زينب) على ثباتها وتماسكها، حتى أوى الجميع إلى فراشهم، ثم اندست في فراشها، وتركت لدموعها العنان..
وانسكبت دموعها تغرق وسادتها لقد أحبت والدها كما لم تحب فتاة والدها.. كان لها بمثابة مثل أعلى، وصرح تحترمه وتوّقره..
إنها حتى، في اختيارها لـ (ماهر)، كانت تحب تلك الصورة فيه، التي تذكرها بكفاح والدها في شبابه.
صورة الشاب المقاتل، الذي لا يتراجع أمام الصعاب لهذا تحب (ماهر).. وهذا تتمنى أن تتزوجه.. فجأة امتلأت نفسها بعذاب الضمير.. كيف تفكر في الزواج، ولم يستقر والدها في قبره سوى صباح اليوم؟
آلمتها الفكرة، فانهمر مزيد من الدموع من عينيها، ودفنت وجهها في الوسادة في شدة..
ولكن (ماهر) ظل يلح على أفكارها ودون وعي، عادت تفكر في أمره.. ترى هل تحبه حقا، أم تحب فيه صورة شباب والدها فحسب؟ بدا لها أن الوسيلة الوحيدة للتيقن من هذا هو أن تتزوجه، وبعدها سيتضح الأمر..
راودتها فجأة فكرة عجيبة، خفق لها قلبها
- هل ستتزوج (ماهر) حقا؟
لقد وافق والدها على إتمام هذا الزواج، ثم رحل، وترك كل شيء لـ (حسين)، فهل يوافق (حسين) على ما وافق عليه والده؟
لا أحد يدري..
لقد انتهى عهد (محمد البنهاوي).. وبدأ عهد (حسين البنهاوي).. ومن المستحيل أن يتساوى العهدان، وأن يتشابها هذا هو المستحيل بعينه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20 – القفرة..

ابتسم العمدة ابتسامة باهتة، وهو ينهض لاستقبال المأمور في ساحته، وصافحه في هدوء، قائلا:

- صباح الخير يا (باشا).

تلفت المأمور حوله في جزع، وهو يقول:

- صه يا رجل.. لا تخرب بيوتنا.. لقد ألغوا الألقاب

ضحك العمدة، وهو يقول:

- ألغوا الألقاب الفعلية يا سعادة المأمور، وليس الشرفية.

عقد المأمور حاجبيه، وهو يقول في حدة:

- ماذا تقصد

ضحك العمدة مرة أخرى، قائلا:

- لا شيء يا سعادة المأمور لا شيء.. ما رأيك في قدح من الشاي؟

جلس المأمور إلى جواره، وهو يقول في صرامة:

- قبل تناول الغذاء أم بعده؟ أطلق العمدة ضحكة خبيثة، وقال:

- قبله وبعده.. نحن رهن إشارتك يا سعادة المأمور

لم تمض إلا دقائق حتى وصلت أقداح الشاي، وارتشف المأمور رشفة من قدحه، قبل أن يقول في مرارة:
- أرأيت ما آل إليه الأمر يا عمدة؟ لقد مات (البنهاوي)، وترك كل شيء لابنه (حسين)، الذي أصبح أحد أصحاب الشأن في العهد الجديد، وخسرنا نحن كل شيء.
ابتسم العمدة في دهاء، وهو يقول:
- خسرنا؟! من قال هذا يا سعادة المأمور، كل ما في الأمر هو أن اللعبة قد اتخذت مسارا جديدا، يتناسب مع متغيرات الحياة.
قال المأمور صارما:
- لن يمكننا محاربة (حسين البنهاوي) الآن يا عمدة، أطلق العمدة ضحكة صفراء، وقال:
- لماذا يا سعادة المأمور؟ الأنه يتمسح في ركب رجال حركة الجيش؟ لا يا باشا.. عيبك هو أن تلك الأمور تبهرك، وتلغي قدرتك على حسن تقديرك للأمور، ولكن من حسن الحظ أنها لا تفعل هذا في، فـ (حسين) الآن ليس سوى تابع يخشى فقدان موقعه، وأمثاله يدفعهم التوتر إلى الحذر الزائد، في نفس الوقت الذي يدفعهم فيه الإحساس بالقوة إلى إبراز مواطن سطوتهم، وهذا التناقض يوقعهم عادة في حماقات يسهل تحطيمهم بواسطتها.
سأله المأمور مبهوتا:
- أتظن هذا؟
رفع العمدة قدح الشاي إلى شفتيه، وهو يقول
- بالتأكيد يا سعادة المأمور.. إن الأمور لم تختلف كثيرا كما أخبرتك
وارتشف رشفة كبيرة من الشاي، في صوت مسموع، قبل أن يضيف
- وحربنا مع عائلة (البنهاوي) لم تحسم بعد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ابتسم (رفعت كساب) في إعجاب، عندما رأى (حسين) يخطو إلى مكتبه، بعد ثلاثة أيام فقط من وفاة والده، ويؤدي التحية العسكرية في قوة، فمد يده يصافحه، وهو يقول:

- لماذا لم تتم إجازتك؟

أجابه (حسين):

- أحب أن أدفن أحزاني في عملى يا سيدى

أومأ (رفعت) برأسه، وقال:

- رائع.. هكذا أحب الرجال

ثم جلس، وتراجع في مقعده، واستطرد في اهتمام

- كيف حال تدريباتك؟

أجابه (حسين، وكأنما كان ينتظر هذا السؤال: إنني أتقدم في سرعة، ولكن..

سأله (رفعت) في قلق:

- ولكن ماذا؟

عقد (حسين) حاجبيه، وكأنما يوحي بأهمية الأمر وخطورته، قائلا

- لست أثق في إخلاص هذا الرجل، أو ولائه للحركة سأله (رفعت):

- أتقصد (إبراهيم مكى)؟

أومأ (حسين) برأسه إيجابيا، وهو يجيب

- ومن غيره؟

استرخى (رفعت) في مقعده مرة أخرى، وهو يسأله:

- وما الذي يجعلك تشك في أمره؟

أجابه (حسين) في سرعة:

- إنه يتعامل مع الأمر في سخرية، كما لو كان لا يثق في استمرار نجاح حركتنا.
سأله (رفعت) في لهجة توحي بأنه لم يهتم كثيرا بالنقطة الأولى:
- وماذا أيضا؟
ارتبك (حسين)، وبدا له أن محاولته قد باءت بفشل ذريع، وتمتم:
- إنه.. إنه. ثم اندفع فجأة يستطرد
- إنه أحد أعضاء البوليس السياسي سابقا
ابتسم (رفعت)، وهو يقول:
- أهذا هو أسلوب تفكيرك؟
زاد هذا من ارتباك (حسين)، فقال متوترا:
- إنني لا أثق فيه فحسب.
تأمله (رفعت) لحظة من صمت، ثم نهض يربت على كتفه، قائلا:
- اسمع يا (حسين).. سبق أن أخبرتك أننا نحتاج إلى خبرة (إبراهيم مكى)، وأننا لا نهتم كثيرا بولائه للحركة من عدمه، ولكن من الواضح أنك تكرهه للغاية، وأنك تحاول إقصاءه بوسائل صبيانية.
قال (حسين) في توتر:
- سيدى.. إنني..
قاطعه (رفعت) مبتسما:
- لست أريد تفسيرات أو تبريرات.. سنعتبر أنك لم تقل شيئا، وأني لم أسمع شيئا.. قل لي:
- ما رأيك لو تصحبني إلى نادي الجزيرة؟
هتف (حسين) مبهوتا:
- نادي الجزيرة؟!
ألا يقولون إن هذا النادي يقتصر على الأمراء، و.؟
لوح (رفعت) بكفه، قائلا:

- لقد مضى هذا العهد.. ستفتح أبواب نادي الجزيرة للشعب.. إنه عصر المساواة..
ثم عاد يبتسم، مستطردا:
- والآن هيا بنا.. ستجد الجميع هناك
ابتهج (حسين)، وشعر بالفخر كثيرا، وهو يجلس إلى جوار (رفعت)، في سيارة الجيش، التي نقلتهما إلى نادي الجزيرة، وشعر وهو يخطو بقدميه على أرض النادي، أنه قد قفز قفزة اجتماعية خطيرة..
لقد استطاع دخول نادي الجزيرة، الذي لم يكن يسمح بدخوله فيما مضى، سوى لحاملي الألقاب الرسمية وأسرهم، من الأمراء والباشوات
وفي كثير من الزهو، صحب (رفعت) إلى تلك القاعة الأنيقة، التي مازالت تحمل شعار الملكية، والتي صارت منذ قيام حركة الجيش مقرا لاجتماع مجلس قيادة الحركة، وقتما يحلوا لأعضائه.
والتقى (حسين) - للمرة الثانية في حياته - بالضباط الأحرار، وصافحهم واحدا واحدا، وبخاصة ذلك الشاب الطويل، ذو العينين اللامعتين، الذي يحمل اسم (جمال عبد الناصر)..
وداعبه (عبد الحكيم)، وهو يمتنى له حظا سعيدا في النادي، غامزا بعينيه على نحو خاص، في حين قال (صلاح سالم) في حزم:
- معذرة يا فتى.. هذا الاجتماع يقتصر على أعضاء مجلس القيادة.
ارتبك (حسين)، واحتقن وجهه خجلا فابتسم (رفعت)، وربت على كفه، قائلا:
- لا تتوتر إلى هذا الحد.. هيا.. اذهب وأمرح قليلا في النادي، وسنرحل معا.
غمغم (حسين) - شكرا يا سيدى.

غادر القاعة الفاخرة، وهو يلقي نظرة أخيرة على التاج الملكي، الذي يزين أحد جدرانها، وراح يسير في حديقة النادي على غير هدى، حتى سمع صوتا أنثويا بالغ الرقة وبدا في أذنيه أشبه بتغريد عشرات البلابل، يقول:

- أأنت أحدهم؟

التفت إلى مصدر الصوت بكيانه كله، وتطلع مبهورا إلى شابة فاتنة، لها بشرة في لون اللبن، المختلط بقطرات من عصير الفراولة، وعنق ناعم طويل، وشعر أسود فاحم طويل، ينسدل على كتفيها في رقة ونعومة، ويصنع من وجهها لوحة رائعة، بعينيها الواسعتين الخضراوين، وفمها الدقيق الساحر..

وابتسمت تلك الفاتنة ابتسامة تؤكد ثقتها في سحرها، وفي تأثيرها عليه وقالت بصوت أكثر رقة:

- أما من جواب؟

تمتم مسحورا مأخوذا

- جواب لماذا؟

اتسعت ابتسامتها، فبدت أكثر جمالا من (أفروديت) نفسها، وهي تقول:

- سألتك أأنت أحدهم؟

تمتم مبهورا:

- أحد من؟!

أطلقت ضحكة عذبة قصيرة، اختلج لها قلبه بين ضلوعه، وهي تقول:

- أحد الضباط الأحرار بالطبع

أجابها في خفوت:

- لا.. لست أحدهم

ثم استدرك في سرعة:

- ولكنني أعمل معهم.. إنني الذراع اليمني للبكباشى (رفعت كساب).
رفعت حاجبيها الرفيعين الجميلين، وهي تقول
- إذن فأنت رجل ذو شأن
هتف في حماس:
- بالطبع
تأملته لحظات بعينيها الساحرتين، قبل أن تقول في خفوت:
- أتعلم أنك وسيم جدا؟
لم يصدق أذنيه، وهو يسمع تلك العبارة، من فاتنة مثلها، فهتف:
- أنا؟
ثم استدرك:
- أشكرك يا سيدتي
رفعت رأسها في ترفع، وهي تقول:
- الأميرة (عايدة)
هتف مبهورا، وهو يملأ عينيه بوجهها وفتنتها مرة أخرى
- أميرة؟

قالت في لهجة تحمل شيئا من السخرية:

- ايبهرك أن تتحدث إلى أميرة؟

لم ينتبه إلى الرنة الساخرة في صوتها، وهو يقول:

- بل يسحرني أن أتحدث إلى فاتنة مثلك ابتسمت شأن امرأة نجحت في إغواء رجل، وقالت في هدوء:

- أشكرك. ثم استدارت تنصرف في هدوء، فاستوقفها هاتفا:

- أهذا كل شيء؟
التفتت إليه تسأله في رصانة
- ماذا تعني؟
ارتبك وهو يقول:
- أعني ألن نلتقي مرة أخرى؟
ابتسمت قائلة
- سأفكر في هذا ثم أضافت في سرعة:
- إنني آتي إلى هنا كل يوم
وابتعدت في خطوات رقيقة سريعة، وهي تعلم أنها قد تركت خلفها رجلا مسحورا..
رجلا قفز قفزة واسعة
في سماء الحب

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21 - قضية..

أطلق (حسين) صفيرا منغوما من بين شفتيه، وهو يرتدي ثيابه في الصباح التالي، وتضاعفت داخله تلك الفكرة، التي تراود عقله منذ زمن، في أن يبحث عن شقة أنيقة في (القاهرة) لسكناه، بعد أن مل السفر يوميا إلى هناك، وبدا شديد الاهتمام بزيه هذا الصباح، وشديد العناية بالنجوم التي تزين كتفيه، وكأنما يسعى إلى إبراز رتبته جيدا، وبدا مرحا للغاية، حتى أنه قد ابتسم ابتسامة واسعة في وجه (مفيد)، وهو يدلف إلى حجرته، وقال له في مرح واضح:

- صباح الخير يا(مفيد).. كيف حالك؟

جلس (مفيد) على طرف فراش شقيقه، وهو يقول

- في خير حال.. ولكن (حافظ) ليس كذلك؟

فسأله (حسين)) بنفس المرح:

- لماذا؟

أجابه (مفيد في حدة مباغتة

- إنك لا تهتم بشأنه قط يا (حسين) على الرغم من أنه مصاب بنوع من الانهيار العصبي الفائق، حتى أنه لم يذرف قطرة دمع واحدة، حزنا على والدنا، إلى هذه اللحظة.

عقد (حسين) حاجبيه في صرامة، وهو يقول

- الرجال لا يبكون

صاح (مفيد):

- هذا القول لا ينطبق على (حافظ).. أنت تعلم أنه ضعيف الشخصية ولا يحتمل الصدمات عادة، ومن الواضح أن وفاة والدنا قد أصابته بصدمة شديدة.

قال (حسين) في حدة:

- لست طبيبًا متخصصا لتقول هذا

لوح (مفيد) بذراعه، قائلا:
- فلنسمع قول طبيب متخصص إذن
صمت (حسين)، وهو يتطلع إليه، قبل أن يقول مستنكرا:
- أتريد أن تعرض (حافظ) على طبيب نفساني؟
قال (مفيد):
- ولم لا؟
صاح (حسين) غاضبًا:
- ألا تدرك طبيعة وضعى ومركزى الآن؟ أتريد أن يقال إن شقيق (حسين البنهاوي) مصاب بالجنون؟
هتف (مفيد):
- أليس هذا أفضل من أن يصاب بالجنون بالفعل؟
صاح (حسين):
- ومن أدراك أن هذا سيحدث؟
- ومن أدراك أنه لن يحدث؟
- هذه الأمور في علم الغيب
- ولكن الله (سبحانه وتعالى) أمرنا بالأخذ بالأسباب
- لا ترتد عباءة الدين
- ولا تنزع أنت معطف العلم.. شقيقنا يتعرض لأزمة نفسية عنيفة
وصمت لحظة، قبل أن يتابع في مرارة:
- ولو كان أبي حيا ما تركه هكذا.
ران الصمت لحظات، و (حسين) يتطلع إليه في غضب، ثم قال في صرامة:
- ولو.. واندفع يغادر الحجرة كالعاصفة، فعض (مفيد) شفتيه في غيظ، مغمغما:
- صدقت (زينب).. لقد بدأ عهد جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يدر (ماهر) ما الذي يمكن أن يحدث، بشأن زواجه من (زينب)، بعد وفاة (البنهاوي)، وشعر بالحرج من مناقشة الأمر، في مثل هذه الظروف، ولكنه راح يسير جيئة وذهابا أمام السراي، وتحت نافذة حجرة (زينب)، وهو يأمل رؤيتها يوما، دون أن يدري أن المسكينة كانت تراقبه من فتحات النافذة الخشبية، وقلبها يخفق في لوعة وأسى، ويحاول إقناعها بمناداته، ولكن عقلها يعود فيستنكر مجرد التفكير في أمر الزواج من (ماهر)، وهي لم تخلع ثوبها الأسود بعد.

وفي هذه الليلة بالذات لم تعد تحتمل، فلم تكد تلمحه يسير أسفل النافذة، حتى فتحتها، وأطلت عليه دون أن تنبس ببنت شفة...
ولم ينبس هو أيضا ببنت شفة فقط اختلج قلباهما في حب ولهفة، وكل منهما يملأ عينيه بملامح الآخر لحظتها فقط أدركت (زينب) أنها تحب (ماهر)... لحظتها فقط حددت مشاعرها نحوه..
وبكل الحب، لوحت له بكفها، وارتسمت على شفتيها ابتسامة حانية محبة، اختلطت بخيطين من الدموع الصامتة، انحدرا على وجنتيها.
ودون أن تنطق ألسنتهما حرفا، دار بينهما حوار طويل:
- أحبك
- وأنا أيضا
- طال اشتياقي إليك
- لن يبلغ شوقي
- ترى هل نلتقي؟
- إني أحلم بهذا

- متى؟
- من يدري؟
- سأنتظر
- لن يطول الانتظار بإذن الله
وفي حنان، مال (ماهر) على أنامله، وأودعها قبلة دافئة، ثم رفع كفه إلى شفتيه، ودفع القبلة إلى شفتى (زينب) بنفخة هادئة كالنسيم..
وتلقت (زينب) القبلة على شفتيها، كما لو أن (ماهر) يحتويها بين ذراعيه على الرغم من الأمتار التي تفصل بينهما، وهي تطل عليه من نافذة الطابق الثاني..
وفي صعوبة، انتزع هو قدميه من الأرض انتزاعا وفي عسر، جذبت هي ضفتي النافذة الخشبية وافترق الحبيبان وقد بردت نار شوقهما قليلا.. افترقا على وعد بلقاء غامض لقاء لا يدري سوى الله وحده، أهو في هذه الدنيا...؟
أم في دار البقاء...؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ابتسمت الأميرة (عايدة) ابتسامة هادئة واثقة، عندما رأت (حسين) يعبر بوابة نادي الجزيرة، وعيناه تبحثان عنها في لهفة، وتعمدت تركه يبحث عنها لحظات، قبل أن تلوح له بيدها، هاتفة:
- أنا هنا.
تهللت أساريره كلها، وهو يتجه نحوها في خطوات أشبه بالعدو، قبل أن يهتف:
- كيف حالك؟
ضحكت قائلة:

- هذه الاستهلالية تناسب الرجال لا النساء
غمغم خجلا مرتبكا:
- معذرة.

أمسكت كفه في بساطة، وهي تبتسم في دهاء، وكأنما تعلم جيدا تأثير ملمس أناملها الرقيقة لكفه، وقادته إلى مائدة منعزلة، في شرفة النادي، وقالت:
- كنت أعلم أنك ستأتي
هتف بها في حماس:
- ماكنت لأتأخر أبدا
ابتسمت في ثقة، وكأنما راق لها الجواب، أو كانت تتوقعه، ثم سألته في اهتمام:
- كيف حال عملك مع (رفعت كساب)؟
أجابها في زهو:
- عظيم.. إنني أستعد لتقلد منصب كبير، في إدارة جديدة، ستصبح أقوى سلطة في الدولة يوما ما.
قالت في حماس
- رائع ثم مطت شفتيها، مستطردة:
- على الرغم من أنني لا أؤيد هذه الحركة كثيرا
سألها في دهشة:
- لماذا؟
أجابته في ضحكة عصبية:
- أتسألني؟، لقد أتيتم للقضاء علينا، ولتجريدنا من كل القابنا وممتلكاتنا.
قال محاولا الدفاع
- إننا نهدف إلى المساواة

قالت ساخرة:
- أية مساواة؟ حتى بين المتسولين توجد فروق، فهناك من يرأس آخرين، ومن يتسول في مناطق راقية، وهناك من يرأسه غيره، ولا يملك حتى نصف ما يتسوله.
سألها في دهشة:
- وكيف تعلمين أمرا كهذا؟ قالت ساخرة:
- من الروايات ثم مالت نحوه، تضيف في تحد:
- أخبرني ما الذي فعلته حركتكم هذه حتى الآن...؟ لم تفعل سوى التدمير.. إلغاء الألقاب، مصادرة أموال وممتلكات أسرة (محمد على)، منع السفر خارج البلاد بدون تصاريح خاصة، اعتقال السياسيين.. قانون الإصلاح الزراعي ونزع الملكية.. أهكذا ترون الثورية؟ منع فقط؟
ارتبك وهو يقول:
- إنها مجرد مرحلة، ثم..
قاطعته ساخرة:
- ثم ماذا؟ هل ستذبحوننا؟
زفر في ضيق، وهو الذي كان يتوقع لحظات عاطفية سعيدة، لا هجوما شرسا، وقال:
- يبدو أنك تنظرين إلى الثورة بمنظار أسود
قالت في سخرية:
- ثورة؟ هل تطلق على انقلابكم هذا اسم الثورة؟
ثم لوحت بكفها، مستطردة:
- هذا لا يغير من الأمور شيئا على أية حال.. فلتكن ثورة.. سيضفي هذا عليها لمسة شاعرية على الأقل.
عقد حاجبيه، قائلا
- أهذا كل ما نتحدث فيه؟

ضحكت قائلة:
- لا بالطبع.. إنه مجرد حوار.. ثم إنني لست ناقمة عليكم على أية حال، على الرغم من أنكم قد استوليتم على بعض مجوهراتي.. أعني كلها..
ثم مالت نحوه بغتة، مستطردة:
- قل لي: أين تقيم؟ أ
دهشه السؤال، ولكنه أجاب في سرعة:
- في سراى والدي، في قريتنا
رفعت حاجبيها، هاتفة في دهشة:
- سراى! إذن فأنت أحد أعيان الريف
ثم رسمت على شفتيها ابتسامة ساحرة، وهي تستطرد:
- ولماذا لا تقيم في (القاهرة)؟
تمتم وكأن الفكرة لم تخطر بباله أبدا:
- هنا؟
مالت نحوه، وهي تقول في همس:
- سيكون هذا أفضل، فلو أنك تقيم هنا، فسيمكننا أن نلتقي في شقتك
خفق قلبه، وهو يقول:
- حقًا؟!!
ازداد ميلها نحوه، حتى شعر بأنفاسها العطرة تملأ أنفاسه، وهى تهمس:
- أليس هذا أفضل من اللقاء هنا؟
همس وقلبه ينبض في عنف:
- بالتأكيد.. لقد حسمت قضية تشغل فكري منذ زمن وضرب سطح المنضدة في رفق، مستطردا في حزم:
- سأترك القرية، وأحيا هنا، في (القاهرة)..
وبدأت ملامح العهد الجديد تتضح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22 - مفاجأة..

رفع (رفعت كساب) عينيه إلى (حسين)، وتطلع إليه طويلا، قبل أن
يبتسم قائلا:
- تقيم في القاهرة).. بالطبع.. هذا ما كان ينبغي لك أن تفعله منذ البداية.. ماذا ستفعل في قريتك الصغيرة؟ المستقبل هنا.. في قلب الثورة.
ونهض في حزم، مستطردا:
- سنبحث لك عن شقة أنيقة واسعة، تليق بك ومنصبك الجديد ما رأيك في شقة على النيل، في (جاردن سيتي)؟
لم يصدق (حسين) أذنيه، وهو يهتف
- هذا أروع مما تصورت يا سيدى
قال (رفعت) في حماس:
- فليكن.. لقد أمرت الثورة بترحيل صحفى ارمنى خارج البلاد، وشقته خالية في الوقت الحاضر، ويمكنك أن تتسلمها من الغد.
هتف (حسين) في امتنان بالغ
- كيف أشكرك يا سيدى؟ كيف؟
رفع (رفعت) سبابته أمام وجهه، محذرا:
- ستدفع إيجارها بالطبع ضحك (حسين)، وهو يقول
- بالطبع ابتسم (رفعت)، وهو يقول:
- بالمناسبة، هناك شكوى مقدمة ضدك
عقد (حسين) حاجبيه، وهو يسأله في دهشة
- ضدي أنا؟!
ضحك (رفعت)، قائلا:

- لا تقلق هكذا.. إنها شكوى تافهة، قدمها زوج شقيقتك (عمر) إلى (محمد نجيب) نفسه، يقول فيها إنك قد استوليت على ميراث والدك كله لنفسك، ويطالب بالعدل والإنصاف.
هتف (حسين) في غضب
- ذلك الحقير!! لقد كتب والدي الأرض كلها باسمي قبيل وفاته.
أجابه (رفعت في هدوء:
- أعلم ذلك، ولكن أحد المحامين الكبار يقول: إنه لو استطاع أشقاؤك إثبات أن عقد البيع صورى، وأنك لم تملك أبدا ما يكفي ثمنا للأرض، فسيمكنهم استصدار حكم بعدم صحة البيع، وتوزيع الميراث شرعيا!
اندهش (حسين) لحظات، ثم قال في عصبيه:
- هذا لو وصل الأمر إلى القضاء اتسعت ابتسامة (رفعت)، وهو يقول
- لقد وصل
حدق (حسين) في وجهه بدهشة، فاستطرد
- لقد رفع (عمر) قضية بهذا الشأن صباح اليوم هتف (حسين):
- كيف عرفت ذلك يا سيدى؟
رفع (رفعت) حاجبه، هاتفا:
- كيف عرفت؟! يا له من سؤال يا (حسين).. أنسيت أنك تتلقى تدريبات في هذا الشأن؟ في فن المعرفة.
تمتم (حسين):
- بالتأكيد
ثم استطرد في توتر وقلق:
- ولكن ماذا أفعل لو أن (عمر) استصدر قرارا بإلغاء البيع؟
ابتسم (رفعت) ابتسامة غامضة، وقال:
- لن يفعل

قال (حسين):
- كيف.. إنه رجل شره للمال، وشديد العناد
قاطعه (رفعت) مبتسما:
- دع لي هذا الأمر.. وسيتنازل (عمر) عن القضية ثم أشعل سيجارته، مستطردا في غموض
- لن يكون أمامه سوى أن يفعل واتسعت ابتسامته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تابع (مفيد) بعينيه شقيقه (حسين)، وهو يعد حقائبه، للانتقال إلى شقته الجديدة في (القاهرة، وقال في ضيق:
- إنك تترك أمورا خلفك بلا حسم يا (حسين)
قال (حسين) في برود:
- كل الأمور يمكن حسمها، ثم إنني لست ذاهبًا إلى القمر.. إنها (القاهرة) فحسب.
- وماذا عن زواج (زينب)؟
- هذا ال (ماهر) لا يروق لي.
- ولكن والدنا (رحمه الله) وافق على زواجها منه
- فليكن.. لتتزوجه، لو أنه يحلو لها.
- بهذه البساطة؟
- أتحب أن ألجأ إلى التعقيدات؟
- لا.. وبالمناسبة، لقد عرضت (حافظ) على طبيب التفت إليه (حسين) في حدة، عندما بلغ هذه النقطة وهتف مستنكرا:
- طبيب؟! ألم نناقش هذا الأمر من قبل؟
تجاهل (مفيد) ذلك السؤال الاعتراضي، وأكمل:

- والطبيب يقول إنه مصاب بانهيار عصبى تام، وبانفصام شخصية وقتى، بسبب عجزه عن تقبل الأمر الواقع، وصراع رغباته مع واقعه، ويؤكد الطبيب ضرورة نقله إلى مستشفى الأمراض النفسية لعلاجه.

قاطعه (حسين) في صرامة:

- لن يذهب.

قال (مفيد في حدة:

- سيصاب باكتئاب تام لو لم يذهب

هتف (حسين) في غضب:

- قلت لك إنه لن يذهب.. لن يردد خصومي أبدا أن شقيقي مجنون

صاح (مفيد):

- في هذه الحالة سأذهب أنا معه

انتزع (حسين) مسدسه من سترته، وهو يقول في غضب صارم

- عندئذ أفضل أن أقتله

وكان (مفيد) يعلم أن (حسين) قادر على فعلها حقا ودون تردد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أدارت (عايدة) عينيها في أرجاء شقة (حسين) الفاخرة، وهي تقول في لامبالاة:

- جيدة إلى حد ما

هتف (حسين) في حماس:

- إنني أراها رائعة

ابتسمت في سخرية، وهي تقول:

- من الطبيعي أن تراها أنت كذلك

ضغطت في قوة حروف لفظ (أنت)، إلا أنه لم ينتبه إلى المعنى الذي تقصده، وهو يضع يديه على كتفيها من الخلف، قائلا في هيام:
- أخيرا أصبحنا وحدنا
قالت دون أن تلتفت إليه:
- أخيرا
واتجهت في هدوء نحو مقعد وثير، وتركت جسدها يغوص فيه، وهى تسأله:
- قل لي يا (حسين): ألم تغادر (مصر) أبدا؟
جلس على المقعد المجاور لها، وهو يقول:
- لست أشعر بالرغبة في هذا
قالت لي حماس
- خطأ يا (حسين).. إنك لم تر (أوروبا).. قارة الجمال.. لو أنك رأيت في باريس) مرة واحدة فستعشقها إلى الأبد، ولو أنك شاهدت (روما) وآثارها ومتاحفها، فستسعى لها طيلة العمر، ولو أنك..
قاطعها في ضجر:
- ولكني أحب (مصر)
مطت شفتيها في ازدراء، وقالت:
- تحبها؟! حبها كما يحلو لك، ولكن سافر لترى الدنيا ثم غاصت أكثر في مقعدها، والتمعت عيناها ببريق خاص، وهي تضيف:
- أم أنك تعجز عن الحصول على تصريح سفر خاص؟
أشار إلى صدره، وهو يقول في زهو:
- أنا؟! إنني أسافر وقتما أشاء.
التمعت عيناها مرة أخرى، ونهضت من المقعد، وجلست على مسند مقعده، ومالت برأسها نحوه، وهي تقول هامسة:

- كم أتمنى لو نذهب إلى (باريس).. إلى عاصمة الفن والحب والجمال.. هناك تتألق المشاعر، و.....
قاطعها في لهفة:
- هنا أيضا تتألق المشاعر..

أصغر مسرحية في الكون..

أطلقت ضحكة عابثة طويلة، وقالت:
- لا.. (باريس) شيء آخر.
هم بتطويق خصرها بذارعه، عندما ارتفع فجأة رنين جرس الباب، فأجفلت هاتفة:
- هل تنتظر أحدا؟
هز رأسه نفيا، وقال:
- مطلقا.. لا ريب أنه زائر للساكن السابق لم يعلم بأمر ترحيله بعد
قالت في قلق:
- من الأفضل أن نحتاط.. سأختبئ في حجرة النوم
قال وهو يتجه نحو الباب:
- هذا أفضل بالفعل.. اذهبى
أغلقت خلفها باب حجرة النوم، في حين اتجه هو إلى الباب، وفتحه.. وتجمدت الدماء في عروقه.

وجد أمامه آخر شخص يحب أن يراه، في هذه اللحظة بالذات وجد أمامه (إبراهيم)..
الصاغ (إبراهيم مكى).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

23 – عينا الثعلب..

كان (إبراهيم مكى) هو آخر شخص يتوقع أو يتمنى (حسين) رؤيته، وخاصة في مثل هذه الظروف، حتى أنه بقي يحدق طويلا في عيني (إبراهيم)، الشبهين بعينى ثعلب ماكر، قبل أن يقطع (إبراهيم) حبل الصمت، قائلا في هدوء خبيث:

- ألن تدعوني للدخول؟ تراجع (حسين) مفسحا الطريق له، وهو يغمغم مسلوب الإرادة:

- بالطبع.. تفضل..

خطا (إبراهيم) داخل المنزل في بطء، وراح يدير عينيه في المكان، قبل أن يقول بابتسامة غامضة، لم يرتح لها قلب (حسين) أبدا:

- شقة رائعة.. أنت حسن الحظ بحق

اجابه (حسين) بصوت مختنق

- كيف علمت بأمر الشقة؟

اتسعت ابتسامة (إبراهيم)، وهو يقول:

- يا له من سؤال! إنني أنا من اختارها لك

هتف (حسين) في ذهول:

- أنت؟

قال (إبراهيم) في هدوء، وهو يواصل تأمل الشقة:

- بالطبع.. لقد طلب منى (رفعت) بك أن أبحث عن شقة لك، حتى تقيم هنا في (القاهرة)، من قبل حتى أن تطلب أنت منه ذلك، ولما كان ذلك الأرمني، صاحب الشقة، رجلا متزمتا سخيفا، يصر على تعليق صورة الملك السابق في صدر ردهة منزله، على الرغم من قيام الثورة، فقد قمنا بترحيله، وبقيت الشقة لك.

وبدا مزيج من الخبث والسخرية في صوته وابتسامته، وهو يدير عينيه إلى (حسين)، مستطردا:
- لقد كنت أتوقع منك شكرا لهذا
تمتم (حسين) مرتبكا:
. إنك تستحقه بالتأكيد
أدار (إبراهيم) عينيه في الشقة مرة أخرى، ثم قال في هدوء:
- أتعلم أنها أول مرة أرى الشقة، على الرغم من كل هذا؟ واتجه بغتة نحو حجرة النوم، التي تختبئ داخلها (عايدة)، وهو يستطرد:
- هذه حجرة النوم.. أليس كذلك؟
تجمد (حسين) في مكانه، واتسعت عيناه في ذعر، واحتبست الكلمات في حلقه، عندما امتدت يد (إبراهيم) إلى مقبض باب حجرة النوم..
ماذا لو فتح الباب، ووجد (عايدة) أمامه.. ماذا يمكن أن يفعل؟ وماذا يكون موقفه هو؟ بل ما موقف (عايدة)؟
تلاشت مخاوفه وأفكاره دفعة واحدة، عندما تراجعت يد (إبراهيم) بغتة عن مقبض الباب، وهو يقول مبتسما:
- لا.. ليس من اللائق أن يشاهد المرء حجرة نوم آخر..
ووقف يتطلع إلى الشقة مرة أخرى، قبل أن يدير عينيه إلى وجه (حسين) الشاحب، ويقول:
- مبارك.
تمتم (حسين) في صعوبة:
- شكرا لك.
اتسعت ابتسامة (إبراهيم) أكثر وأكثر، وخيل لـ(حسين) أنها تحمل خبث الدنيا كلها، فقال محاولا إخفاء توتره:
- هل تتناول شيئا؟
لوح (إبراهيم) بكفه، قائلا:

- لا.. إنني مرتبط بموعد هام.. لقد أتيت لتهنئتك فحسب واتجه إلى الباب في خطوات سريعة، مستطردا
- سنلتقي في المكتب
تنفس (حسين) الصعداء، وهو يقول
- بإذن الله
كان يشعر بارتياح شديد؛ لأن (إبراهيم) سينصرف، دون أن ينتبه إلى وجود (عايدة)، إلا أن ارتياحه هذا لم يلبث أن تحول إلى ذعر هائل، عندها توقف (إبراهيم) فجأة، بعد أن فتح الباب، وقال وهو يتسم في خبث ساخر:
- لا تنسى أن تبلغ تحياتي إلى الأميرة (عايدة)
جف لعاب (حسين)، وشحب وجهه وهو يتمتم
- (عايدة)!!
قال (إبراهيم) بنفس اللهجة الساخرة الخبيثة:
- نعم.. إنك لن تبذل جهدا في البحث عنها لإبلاغها، فهي هناك، في حجرة نومك.
ثم أطلق ضحكة عالية ساخرة، وهو يغلق الباب خلفه، تاركا (حسين) وقد تجمدت الدماء في عروقه، وفي نفس اللحظة اندفعت (عايدة)، خارج حجرة النوم، وهي تقول في غضب:
- يا للوغد!
هتف بها (حسين) في شحوب
- ولكن كيف عرف؟
اتجهت نحو البار الصغير، الذي يحتل ركنا من الردهة الكبيرة، والتقطت زجاجة خمر في عصبية، وصبت بعضا من محتوياتها في كأس، وهي تقول:
- كان يراقبك بالتأكيد وجرعت الكأس دفعة واحدة، فازدادت بشرتها احمرارا، وهي تستطرد:

- إنه وغد حقيقى
ألقي (حسين) جسده على أقرب مقعد إليه، وهو يتمتم منزعجا
- يا إلهي... إذن فقد علموا.. ماذا سأفعل؟
صرخت به في غضب:
- ماذا دهاك؟ إنه لم يضبطك مع عاهرة محترفة.. انا أميرة..
تطلع في صمت إلى جمالها الفتان، وإلى الكأس في يدها، والسيجارة التي أشعلتها في عصبية، وذلك الثوب الرائع الذي ترتديه، والذي يساوى راتبه في شهرين كاملين، ثم أطلق من أعمق أعماق صدره تنهيدة حارة، قبل أن يقول:
- من يدري؟ ربما كانت العاهرة أفضل، في هذه الأيام..
تقافز الغضب من كل خلية من خلاياها، وهي ترمقه بنظرة قاسية، قبل أن تقول في ازدراء:
- يا لك من وقح!
وملأت كأسها مرة أخرى في عصبية، ونفثت دخان سيجارها في حدة، وهي تستطرد:
- ولكنها مرحلة.. مرحلة مؤقتة
رفع عينيه إليها، وهو يسألها:
- ماذا تعنين بأنها مرحلة مؤقتة؟
جرعت الكاس دفعة واحدة كعادتها، وقالت ووجهها يبدو أشد فتنة، مع تلك السحابة الحمراء، التي تسللت تحت بشرتها:
- هل قرأت تاريخ الثورة الفرنسية؟ لقد ثار الرعاع أيضا، وبلغوا مقاعد الحكم، وأعدموا الملك والملكة، إلا أنهم لم يلبثوا أن انقلبوا على بعضهم البعض، والتهمت الثورة أبناءها، وعادت الملكية.. بل الإمبراطورية.
سألها في توتر:
- وهل تتوقعين أن يحدث هذا هنا؟

نفت دخان سيجارتها في قوة، وقالت بإلتماعة عين أثارت قلقه:
- بالتأكيد.
خامره شعور قوي بالقلق، وتساءل عن مصيره لو حدث هذا بالفعل، إلا أنه لم يلبث أن طرد كل هذا من ذهنه، وهو يقول في عصبية:
- ليست هذه هي المشكلة الآن، المشكلة الحقيقية هي أن (إبراهيم مكى) هذا مجرد وغد، يسعى للإيقاع بي، وتدميري، وسيجد في وجودك هنا فرصة مثالية لذلك، وسيبلغ (رفعت) بك، و٠٠٠٠
قاطعته في حزم:
- اطمئن.. إنه لن يفعل
قال في حدة:
- ولماذا لا يفعل؟
ابتسمت ابتسامة خبيثة، وهي تقول:
- لأنه لا يسعى لتدميرك كما تظن. ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى في عمق، قبل أن تضيف:
- بل للسيطرة عليك. ردد مبهوتا:
- السيطرة!!
أطلقت ضحكة عابثة طويلة، وكأنما راقت لها سذاجته ودهشته، واتجهت نحوه، وألقت كفيها الرفيقتين على كتفيه، ومالت بوجهها نحوه، وهي تقول:
- دعك من هذا الآن.. إنك مجرد ضابط صغير، لن تلبث أن تدرك تلك الألاعيب فيما بعد، أما أنا، فقد تربيت في أحضان المكائد والدسائس، وفي أروقة قصر، يسعى كل من فيه للسيطرة على الآخر، ولا تقلق، سأمنحك كل خبرتي، و.....
مالت أكثر، وصار صوتها همسا، وهي تضيف
- وحبى.

خفق قلبه في وله، وهتف وهو يحاول ضمها إليه:
- حقًا؟
أطلقت ضحكة عابثة أخرى، وأفلتت من بين ذراعيه في خفة، والتقطت كأسها مرة أخرى، ورفعتها عاليا، وهي تقول:
- في (باريس).
وفي تلك اللحظة انتبه (حسين) إلى أن عينى (عايدة)، تحملان شيئا شبيها بعيني (إبراهيم).
انتبه إلى أن كليهما يحمل عينى ثعلب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بكت (زينب) في حرارة، بين ذراعي شقيقها الأصغر (مفيد)، وهى تقول بقلب كسير:
- لا يا (مفيد).. لا تقل هذا.. لا تقل إن (حافظ) قد صار مجنونا.
ربت (مفيد) على ظهرها لي حنان، وهو يقول في مرارة:
- هذا ما قرره الأطباء يا (زينب)، ولا حيلة لي في هذا، ثم إنه ليس مجنونا.. إنه مصاب فقط بانهيار نفسي حاد، ونوع من انفصام الشخصية، ويحتاج إلى دخول مصحة نفسية للعلاج، و.....
دفعت جسدها عنه، وهي تهتف
- مستشفى مجاذيب؟! لا مستحيل!
قال في ضيق:
- لو أن هذا في صالحه فمن الضروري أن..
قاطعته صارخة –
لا.. لن يذهب أخي إلى مستشفى مجاذيب إلا على جثتي
هتف (مفيد) في صرامة:

- ولكن هذا أمر محتم، وكل الأطباء يصرون على أنها الوسيلة الوحيدة لعلاجه قالت في صرامة شديدة:
- قلت لا.
ثم أشاحت بوجهها مستطردة:
- لن يغادر أخي هذا المنزل.. سنعالجه هنا واستدارت إليه تهتف كنمرة شرسة:
- مهما كان الثمن
زفر (مفيد) في يأس ومرارة، وقال:
- أرجوك يا (زينب)، ليس هذا وقت العناد.
هتفت في حدة
- قلت لا .
ثم استطردت في حزم:
- سأتصل بـ (حسين) في (القاهرة)، وأطلب منه أن يفعل شيئا.
قال في سخرية تحمل الكثير من المرارة:
- (حسين)؟! لم يعد (حسين) بك متفرغا لنا.. لقد صار واحدا من رجال الحكم.. إنه حتى لم يمنحنا عنوان شقته الجديدة في (القاهرة).
قالت في عناد:
- ولكنه يمتلك سلطات واسعة، ويمكنه أن يفعل الكثير،
هز كفيه قائلا:
- ربما.
ودون أن يضيف كلمة أخرى، استدار وانصرف إلى حجرته، وكأنما أعياه اليأس من محاولة شفاء شقيقه..
وفي أعماقه، كان (مفيد) يعلم أن شفاء (حافظ) شبه مستحيل..
ليس لأن مرض (حافظ) من نوع غير قابل للشفاء، وإنما لأن (حافظ) نفسه شخص غير قابل للشفاء، بكل ما يملأ نفسه من

ضعف وتخاذل واستكانة..
إنه يختلف كثيرا عنه، وعن (حسين).. ولكن ما العجب في هذا؟ إنه و (حسين) يختلفان تمام الاختلاف، فلماذا لا يختلف (حافظ) عنهما؟
سرح مع محاولة عقد المقارنات بينه وبين (حسين) و (حافظ) عندما سمع دقا على باب حجرته، أعقبه صوت شقيقته (ناهد)، تقول:
- (عمر) يريدك يا (مفيد).
اعتدل وهو يسألها:
- (عمر) من؟
كررت ضاحكة:
- (عمر) من؟! (عمر) زوج (نعيمة) بالطبع.. هل نسيته؟
ابتسم وهو يفتح الباب، متمتمًا:
- معذرة.. كنت شارد الذهن فحسب
ربتت على كتفه، قائلة في إشفاق:
- كان الله في عونك
هبط إلى حجرة استقبال الضيوف في الطابق السفلي للسراى، ورأي (عمر) يجلس والغضب يملأ ملامحه، فسأله مبتسما:
- ماذا أصابك؟
أجابه (عمر) في جفاء:
- أتيت فقط لأخلص ضميرى
سأله (مفيد)، والابتسامة لم تفارق شفتيه بعد
- من ماذا؟
أجابه (عمر) في صرامة:
- لقد شكوت شقيقكم (حسين).. أعلم أنه يظن نفسه فوق المسئولية، ولكنني لن أتنازل عن حق زوجتي في ميراث أبيها، ولقد رفعت

الأمر للقضاء كما تعلم، ولكنني لم أكتف بذلك، لقد شكوت (حسين) للشخص الوحيد الذي يمكنه أن ينتزع لي حقي منه..
وانتفخت أوداجه، وهو يستطرد في زهو:
- اللواء (محمد نجيب) نفسه.
وأدرك (مفيد) لحظتها أن المعركة ستحتدم..
ستحتدم كثيرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

24 – اللعبة..

استقبل (رفعت كساب) (حسين) بابتسامة مرحة واسعة، وهو يقول:

- أهلا يا (حسين)، يبدو أنك تثير حولك عادة الكثير من المشاكل.

هوى قلب (حسين) بين قدميه، وهو يقول

- مشاكل؟! أية مشاكل يا سيدي؟

لوح (رفعت) بكفه، قائلا:

- لقد اتصل بي (محمد نجيب) بشأنك هذا الصباح

ردد (حسين)، وقد تضاعف ذعره:

- اللواء (محمد نجيب) بنفسه!!

ضحك (رفعت)، وهو يقول:

- نعم.. هو نفسه.. تصور.. لقد أبلغني أنه غاضب بشأن مسألة عائلية تخصك..

قال (حسين) في دهشة:

- مسألة عائلية!

أجابه (رفعت)، وهو يواصل ضحكه:

- نعم.. لقد التقى به زوج شقيقتك (نعيمة)، وشكا له أمر أرض والدك، التي منحك إياها بعقود بيع، وطلب منه أن يتدخل لتطبيق الشرع.

غمغم (حسين) في توتر:

- لم أتصور أن يبلغ هذا المدى!

لوح (رفعت) بكفه مرة أخرى، وهو يقول

- دعك منه

قال (حسين) في تردد:

- ولكنه شكا الأمر لقائد الثورة نفسه

أطلق (رفعت) ضحكة عالية، وهو يقول:
- قائد الثورة؟! لا.. اطمئن.. صحيح أن (نجيب) هو الأكبر سنا ورتبة، ولكنه ليس قائد الثورة.
واعتدل فجأة، مستطردا:
- ثم إنني وعدتك بإنهاء هذه المسألة تماما
غمغم (حسين):
- نعم يا سيدي.. لقد وعدتني
اعتدل (رفعت) في مجلسه، وابتسم وهو يقول:
- ألم تفكر بعد في دعوتنا إلى تلك السراى، في قريتكم؟
هتف (حسين) بذلك الكرم الفطري في أعماقه:
- على الرحب والسعة دوما يا سيدى
غمز (رفعت) بعينه، وهو يقول:
بس كنت أقصد مجلس قيادة الثورة كله، بكل ما يتكلفه ذلك من طيور مذبوحة وفطائر ريفية، .....
كرر (حسين) في حسم:
- الجميع على الرحب والسعة يا سيدى.
أطلق (رفعت) ضحكة ارتياح، وهو يقول:
- تماما كما يقولون عنك يا (حسين).. كريم ومندفع
تمتم (حسين) في شيء من الحياء:
- انى لأفعل أي شيء من أجلك يا سيدى.
ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي (رفعت)، وغمز بعينه، قائلا في خبث:
- من أجلى وحدي، أم من أجل الأميرة (عايدة) أيضا؟
شحب وجه (حسين)، وارتبك في شدة، وهو يقول:
- سيدى.. اسمح لي أن أشرح الأمر، ولا تصدق ما أخبرك به الصاغ (إبراهيم مكى)، و....

قاطعه (رفعت) بضحكة مجلجلة، وهو يقول:
- لا يا(حسين).. لم يخبرني (إبراهيم مكى) بأي شيء، ولم تكن هناك حاجة إلى أن يخبرني، فنادى الجزيرة كله يعلم بأمر علاقتك مع الأميرة (عايدة)، كما يعلم بأمر علاقة (صلاح سالم) بالأميرة (فوزية)..
ثم مال نحوه، مستطردا:
- وهذا الأمر لا يدعو للقلق، فأنت شاب وسيم، وهي شابة فاتنة
وأطلق ضحكة أخرى، قبل أن يستطرد:
- ثم إن هذا هو تحالف قوى الشعب العاملة.. أليس كذلك؟
انطلق يضحك في مرح، وكأنما راقت له دعابته، في حين تمتم (حسين) في مزيج من الدهشة والحيرة، وهو الذي لم يتوقع أبدا أن يمر الأمر بهذه السهولة:
- بالطبع يا سيدى.. بالطبع
ربت (رفعت) على كتفه في قوة، وقال:
- هيا.. أمرح وتمتع بشبابك كما يحلو لك، ولكن حاول ألا تتورط كثيرا
سأله في ارتباك:
- ماذا تعني يا سيدى؟
أجابه ضاحكا –
أعني أنها تزورك كثيرا في شقتك.. أليس كذلك؟
هتف (حسين):
- بلى، ولكن أقسم لك إن علاقتنا لا تتجاوز..
قاطعه ملوحا بكفه:
- هذا أمر يخصك وحدك يا (حسين).
ثم عاد يجلس خلف مكتبه، ويسأله في بساطة:
- والان.. متى تدعونا لتناول فطائرك الريفية؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هتف العمدة بالكلمة في ذعر، قبل أن يستطرد متوترا:
- هل تتحدث جادا يا جناب المأمور؟ هل يأتي مجلس قيادة الثورة كله إلى ها إذا؟
ضرب المأمور خده بأطراف أصابعه، وهو يقول في غيظ:
- وهل يصح الهذر في مثل هذه المأمور يا عمدة؟
أقول لك إن إشارة عاجلة قد وردت من الرئاسة في (القاهرة)، تقول: إن مجلس قيادة الثورة مدعو لتناول طعام الغداء هنا، في سراى (البنهاوي) ويطلب تأمين أقصى حماية ممكنة، على الرغم من وجود ثلة من الحرس معهم..
وضرب خديه بكفيه، مستطردا في مرارة:
- أرأيت أي شأو بلغ ابن (البنهاوي) يا عمدة؟
عقد العمدة حاجبيه، ومط شفتيه في غضب، وهو يقول
- يا له من زمن!
هتف المأمور:
- ونحن الذين كنا نأمل في تحطيم أسرة (البنهاوي) كلها
قال العمدة في صرامة
- من قال إن هذا لن يحدث؟
رماه المأمور بنظرة قاسية غاضبة، وهو يقول:
- كفالك يا عمدة.. كفاك الحديث بلا عمل.. إنني لن أصدقك بعد الآن ولن أعتمد عليك.. لقد أوهمتني من قبل أن حركة الجيش هذه مجرد حركة مؤقتة يعود بعدها الجيش إلى ثكناته، ثم ها هم أولاء يحكمون البلاد كلها، و.....
قاطعه العمدة في خبث

- وهل أنا قارئ للغيب يا جناب المأمور؟
- هتف المأمور:
- بل أنت مخطط فاشل
ضرب العمدة صدره براحته، وهو يقول:
- أنا يا جناب المأمور؟! على العكس.. إن خططي كلها تسير على خير ما يرام، ولكن القدر يتدخل لإفسادها.
وعاد يبتسم بنفس الخبث، مستطردا:
- ولكن دوام الحال من المحال.. لن يبقى الأمر على ما هو عليه إلى الأبد لن يلبث حظ آل (البنهاوي) أن يتبدل، وعندئذ سنضرب ضربتنا
هتف المأمور في لهفة:
- حقا يا عمدة؟
اتسعت ابتسامة العمدة، حتى كادت تلتهم وجهه كله، وهو يقول:
- بالتأكيد يا جناب المأمور إن اللعبة لم تنته بعد، وعندما تنتهي لن نكون نحن الخاسرين.. بل هم.. وسنمحو اسم (البنهاوي) من خريطة الزمن.. وإلى الأبد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكد (مديحة) تلمح (مفيد)، وهو يقترب من الشجرة الكبيرة، حتى خفق قلبها في قوة، وارتفع حاجباها في حنان، وهي تهتف:
- (مفيد)..
قطع الأمتار الباقية في ثلاث خطوات، واختطف كفها في راحتيه واحتواها بكل حنان، وهو يملأ عينيه بجمال عينيها، هامسا:
- (مديحة).. لقد أوحشتني كثيرًا
تمتمت وهي تشيح بوجهها حياء:

ـ أنت الأكثر.

جلسا في صمت عند جذع الشجرة الكبيرة، وراحتاه ما تزالان تحتضنان كفها، ولفهما الصمت طويلا برداء وردى مخملي هادي، وعيونهما تطلق حوارا عاشقا بريئا، قبل أن يغمغم هو:

ـ صرتِ أكثر جمالا يا (مديحة)

تمتمت في حياء:

- وأنت صرت أكثر رجولة بشاربك هذا.
ابتسم قائلا:
- هل يعلم عم (إسماعيل)، أنك هنا؟
قالت نافية:
- لا.. خشيت أن أخبره فيرفض
تنهد في عمق، وقال
- إنه محق في غضبه
ثم التفت إليها، مستطردا:
- اسمعى يا (مديحة).. لقد نلت شهادة البكالوريا كما تعلمين، وقررت الالتحاق بكلية التجارة في (القاهرة)، فما رأيك لو نتزوج، وتذهبين معي إلى هنالك؟
رقص قلبها الصغير فرحا، وأشاحت بوجهها في حياء، وهى تهمس
- هل تسألني يا (مفيد)؟
تهللت أساريره، وهو يقول في حماس:
- سأخبر (حسين) غدا
ترددت لحظات، ثم قالت
- ولكن والدي يقول إنه من الأفضل أن نؤجل الأمر قليلا
سألها في دهشة:
- لماذا
أجابته بكلمة مقتضبة
- التقاليد
قال في حيرة:
- أية تقاليد
قالت في ضيق:

- تقاليد القرية، التي تحتم أن يمر عام على الأقل، على وفاة والدك الحاج (محمد) - رحمه الله - قبل أن تتقدم لخطبتي.
قال في حدة:
- وماذا يضير والدي، لو أنني خطبتك الأن؟ لقد انقطعت علاقته بالدنيا منذ وفاته.
- والدي شديد التمسك بالتقاليد، ثم ربتت على كفه في حنان، مستطردة:
- ثم إنه لن يضيرنا أن ننتظر حتى يمضي العام.
شرد بصره طويلا، يتطلع إلى النجوم، قبل أن يتمم
- لا بأس.. لكل شيء أوانه
ران عليهما الصمت لحظات أخرى، ثم سألته في اهتمام:
- قل لي يا (مفيد).. أصحيح أن مجلس قيادة الثورة كله سيتناول طعام الغداء لديكم غذا؟
أجابها وهو لم يفارق شروده بعد:
- نعم.. هذا صحيح ثم التفت إليها، مستطردا في ضيق:
- أتعلمين كم كلفنا هذا من جهد ومشقة، إلى جانب المال؟
ردت:
- ما دمتم قادرين يا (مفيد).
قال بنفس الضيق:
- ماديا.. نعم ولكن (حسين) فاجأنا بالخبر، ولم يحدد حتى عدد المدعوين ولذا فقد قامت شقيقاتي بذبح كميات هائلة من مختلف أنواع الطيور، وهن ينهمكن في تنظيفها وطهوها، إلى جانب مقادير ضخمة من الأرز والخضراوات، والفطائر التي طلبها (حسين) ولست أظنهم ينتهون منها قبل صباح الغد.
تمتمت على استحياء:
- يمكنني أن أذهب لمعاونتهم

ابتسم وربت على كفها، قائلا
- لا عليك.. (فاطمة) ابنة عم (عبد الحميد) تعاونهم قالت في شفقة:
- فتاة طيبة (فاطمة) هذه، ولكنها تفتقر إلى الجمال، ثم إن صوتها الأجش يذكرني بالرجال.
ضحك ضحكة قصيرة للغاية، وهو يقول
- المهم أن تجيد التنظيف والطهو.
ثم زفر في قوة، وأضاف:
- ولكن (شريفة) و (ناهد) لن يعجبهما طهو أية مخلوقة، مهما بلغت براعتها، فهما شديدتا التزمت في هذه الأمور.
وابتسم في شرود مستطردا:
- على الرغم من أن (شريفة) هي أشد المتحمسات لتلك الدعوة، ربما لأنها ستضم أشهر رجال في البلاد الآن.
قالها دون أن يدري أن تلك الدعوة ستكون سببًا في تغيير حياة (شريفة)..
شريفة) بالذات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

25 - الوليمة..

كان يوما مبهرا، تحدثت عنه القرية لسنوات تالية، وارتفعت فيه هامة أسرة (البنهاوي) عاليا، بعد أن توافد رجال مجلس قيادة الثورة، في زيهم العسكرى، داخل عربات حربية، وامتلأت بهم ردهة السراى، وراح (عبد الحميد) و(إسماعيل) يخدمان الحاضرين في حماس وسعادة، وهما يشعران بالفخر والزهو، لأنهما يقومان على خدمة أبطال الساعة، في حين التف أهل القرية حول السراي، يطلقون صيحات الفرح، ويخدمون الحراس التابعين لرجال الثورة بكل الإخلاص والسعادة..

كان عيدا للقرية الصغيرة، ولأسرة (البنهاوي) بالذات.. وعلى الرغم من خلافه مع (حسين)، استقبل (مفيد) رجال الثورة بكل الترحاب والحرارة والاعتزاز، وقدم لهم (عبد الحكيم) زوج (توحيده)، و(ماهر) خطيب (زينب) في فخر، في حين لم يحضر (عمر) الوليمة، بعد أن علم أن (محمد نجيب)، بالذات لم يقبل الدعوة بسبب خلاف مهم بينه وبين بعض رجال مجلس قيادة الثورة، الذين بدوا غاية في المرح والبساطة في ذلك اليوم، فيما عدا (جمال عبد الناصر)، الذي اكتفى كعادته بابتسامة رصينة هادئة، وبعبارة واحدة، سأل بها (حسين):

- بدو أنك أرستقراطي المنشأ. أليس كذلك؟ أجابه (حسين) في زهو:

- بل كان والدي مكافحا بحق.. لقد نشأ من الصفر، وصنع كل هذا بكده وعرقه.

رفع (جمال) حاجبيه، وهو يقول في إعجاب:

- حقا.. إنه لرجل عظيم إذن.. أقصد كان كذلك (رحمه الله).

وبعدها لم يشارك (جمال) في الحديث، ولا في الدعابات التي تبادلها الرجال، مع بعضهم البعض، وهم يتناولون طعام الغداء، أو يشربون أقداح الشاي والشراب المثلج، ولقد أبدى الجميع إعجابهم بالسراي، وبعائلة (البنهاوي)، وجذب (مفيد) انتباههم برشاقة أسلوبه، وبساطته المحببة، ورصانته التي تفوق سنوات عمره بكثير، وعند انصرافهم، مال (رفعت) على أذن (حسين) وهو يصافحه، وقال:

- أهنئك.. كانت زيارة ناجحة للغاية، توقع ترقية قريبا

غمغم (حسين)، وهو يكاد يطير من فرط السعادة:

- كان شرفا عظيما لنا وللقرية كلها يا سيدي، وكم كنت أتمنى لو اكتمل فرحنا بوجود سيادة اللواء (محمد نجيب)، و.....

قاطعه (رفعت) في استهتار:

- دعك منه

تراجع (حسين)، متمتما في دهشة:

- ماذا؟!

أطلق (رفعت) ضحكة قصيرة، وقال:

- يبدو أن التسلسل القيادي ما زال يملا كيانك، ولكن لا بأس.. قل لي: مَن مِن زوج شقيقتيك صاحب الشكوى؟

هز (حسين) رأسه نفيا، وقال:

- ليس أيهما.. إنه لم يحضر الوليمة..

ابتسم (رفعت) ابتسامة غامضة، وهو يقول:

- عظيم.. هذا يجعل الأمور أكثر سهولة.

انصرف رجال مجلس قيادة الثورة، في موكب رائع، صنعه أهل القرية، وعلى رأسهم العمدة والمأمور، وبدا (حسين) غاية في السعادة، وهو يعود إلى السراى، هاتفا:

- ما رأيكم؟

أجابه (مفيد) بابتسامة كبيرة:
- كانت دعوة رائعة.
بدت له عبارة (مفيد) عظيمة بحق، وهو الذي اعتاد أن يختلفا في كل صغيرة وكبيرة، فالتفت إليه بكيانه كله، يسأله:
- حقا يا (مفيد)؟
أجابه (مفيد) بصدقه المعتاد
- بالتأكيد.. إنهم مجموعة رائعة
وصلت (زينب) إلى الحجرة، قائلة:
- حماهم الله لشبابهم.
ووضعت صينية تحمل أكواب الشاي الساخنة أمام (حسين) و(مفيد) ثم أشارت إلى (عبد الحكيم) و (ماهر) في حياء، مغمغمه:
- الشاي
نهض (عبد الحكيم)، قائلا:
- لن يمكنني تناول فطيرة واحدة منه للأسف، فمعدتي متخمة بالطعام عن آخرها.. سأعود إلى المنزل.
شعر (ماهر) بالضيق لموقف (عبد الحكيم)؛ فقد كان هذا يضطره أدبيا للانصراف، فنهض بدوره متمتما:
- سأنصرف أنا أيضا.
قالت (زينب) في صوته يحمل خيبة أمل واضحة:
- أنت أيضا؟؟
ثم لم يلبث وجهها أن تخضب بحمرة الخجل، عندما لاحظت أنها قد نطقت عبارتها بصوت واضح مسموع، فأسرعت تغادر المكان في خطوات متعثرة، زادت من ارتباك (ماهر)، فأضاف وهو يتجه نحو الباب:
- طاب مساءكم.

لم يعترضه (حسين) أو (مفيد)، على عكس المألوف في الأرياف، وكأنما يرغبان في البقاء وحدهما، وبالفعل لم يكد يذهب، حتى سأل (حسين) شقيقه الأصغر (مفيد) في لهفة:
- ما انطباعك عن رجال الثورة؟
لم يجب (مفيد) على الفور، وإنما حدق في سقف الحجرة، وكأنما يسترجع في ذهنه كل أحداث الزيارة، قبل أن يقول في بطء:
- لو ظلوا على بساطتهم، فالمستقبل الذي ينتظر البلاد مشرق للغاية ولكن...
سأله (حسين) في اهتمام
- ولكن ماذا؟ هيا.. أخبرني بكل ما لديك اعتدل (مفيد)، وواجه شقيقه، قائلا:
- لو أنك أردت رأيي بكل صراحة، فهؤلاء الشبان أبسط من أن يتولوا وحدهم حكم دولة كـ (مصر)، فلم يعمل منهم بالسياسة من قبل سوي (أنور السادات)، وهأنتذا تراه صامتا، يكتفي بالابتسام، والضحك مجاملة لهم مما يعني أن مركزه وسطهم ليس قويا، على عكس (صلاح) و (جمال سالم)، فشخصيتهما قوية مسيطرة، لا يعيبها سوى العصبية المفرطة، وشيء من الغرور والخيلاء، و (عبد الحكيم عامر) بسيط للغاية، وطيب القلب، وأمثاله يندفعون في إصدار قراراتهم، و.
قاطعه (حسين) في ضيق:
- أنت تراهم جميعا لا يصلحون إذن؟
قال (مفيد في سرعة:
- على العكس، إن بينهم من ولد قائدا بطبعه، ويملك شخصية قوية مسيطرة، ستجعله يوما على رأس الجميع.
سأله في اهتمام زائد:
- من تقصد؟ (صلاح سالم)؟

هز (مفيد) رأسه نفيا، وأجاب:
- بل (جمال).. (جمال عبد الناصر).
امتزجت العبارة في رأس (حسين)، بعبارة سابقة سمعها من (رفعت) عن (جمال عبد الناصر)، فهمهم في رهبة:
- يبدو أن لهذا الرجل سحرا عجيبا.. ثم مال نحو شقيقه، مستطردا في انفعال:
- هل رأيت عينيه؟ إنهما يشبهان عينى أسد.. اليس كذلك؟
تمتم (مفيد):
- بالتأكيد
واسترخي في مقعده، مستطردا في حسم:
- وستجده يومًا على رأس الجميع، كما أتوقع.. هل تراهن على ذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدت (شريفة) شديدة الفرح، وهي تقول لأختها (زينب) في حجرتهما:
- هل رأيت يا (زينب)؟. كل أكابر البلد أتوا إلى هنا.. هل رأيتِ أي شأن بلغه شقيقنا؟
ابتهجت (زينب)، وهي تقول:
- كان هذا رائعا بحق.
وتلاشت ابتسامتها في بطء، وهي تتابع:
- ولكن هناك أمرا ألمني للغاية اليوم
سألتها (ناهد) في دهشة، وهى تصفف شعرها أمام المرآة:

- أي أمر هذا؟

اجابتها(زينب) في حزن:

- (حافظ).. لقد أصر (حسين) على عزله في حجرته، وعلى الا يراه رجال مجلس قيادة الثورة.

قالت (ناهد) في حزم:

- أمر طبيعى يا (زينب)، أتريدين منه أن يخبرهم - بكل بساطة - أن شقيقه مصاب بانهيار نفسي؟
- كلا بالطبع.. ولكن.
سألتها في حزم أشد
- ولكن ماذا؟
تنهدت (زينب)، وأسبلت جفنيها، متمتمه في استسلام:
- لا شيء.. فليفعل الله (سبحانه وتعالى) ما فيه الخير.
ران الصمت على الحجرة لحظات، ثم أضافت (زينب):
- ولكنني أشعر بالقلق على مصير (حافظ).
أجابتها (شريفة):
- إنا نبذل أقصى طاقتنا لرعايته
قالت في حزن:
- وماذا بعد أن نتزوج.. من سيرعاه؟
أجابت (ناهد) في سرعة:
- فاطمة.
سألتها (زينب) في دهشة.
- من!! (فاطمة)؟ اجابتها في بساطة:
- (فاطمة) ابنة عم (عبد الحميد).. كانت توليه برعايتها طوال النهار، على الرغم من انشغالها في تنظيف المنزل والطهو معنا.. إنها - والحق يقال بارعة كل البراعة في هذا المضمار، و (حافظ) يشعر معها بالارتياح.
قالت (زينب) في ضيق:
- لن تلبث (فاطمة) أن تتزوج، وتحيا مع زوجها.
ران عليهما الصمت لحظات، وكل منهما تبحث في ذهنها عن حل للمشكلة، ثم قالت (شريفة) فجأة في حماس:
- لدي فكرة مجنونة، ولكنها قد تصلح للأمر تماما

سألتها (زينب) في اهتمام:
- ما هي؟
اعتدلت (شريفة) على فراشها، وقالت بنفس الحماس
- ما رأيكما لو تزوج (حافظ) (فاطمة؟
التفتت إليها (ناهد) بكل الاستنكار والازدراء، وهتفت (زينب):
- يتزوجها؟! هل جننت؟
ضحكت (شريفة)، وهي تقول:
- ألم أقل لكما إنها فكرة مجنونة.. ولكن دعونا ندرس ذلك الجنون بكل ما لدينا من عقل.. لقد أصيب (حافظ) بمرض ذهنى نفساني خطير، وكلنا تعلم أن طبيعته لن تسمح له بالشفاء أبدا، ولن ترضى فتاة واحدة بالزواج منه، وهو على هذه الحالة، أما (فاطمة)، فهي فتاة فقيرة، تفتقر إلى الجمال - إلى حد ما- وستجد أنه من حسن طالعها أن تتزوج ابن (البنهاوي) دفعة واحدة، ثم إن (حافظ) يشعر نحوها بالارتياح والتفاهم.
بدت لهما فكرتها منطقية ومعقولة للغاية، وعلى الرغم من ذلك، فقد قالت (ناهد) في استهجان:
- لا.. مستحيل. وتمتمت (زينب) في حذر
- الواقع أنني أراها فكرة معقولة
هتفت بها(ناهد)
- بل هي فكرة مجنونة ثم أضافت وهي تشبك شعرها بمشبك في رقيق:
- ثم إن (حسين) سيرفضها تماما
قالت شريفة في حماس:
- هل تراهنين؟
ران عليهما الصمت مرة أخرى، وكل منهن تدير الاقتراح في رأسها، قبل أن تهز (ناهد) رأسها مرة أخرى في عناد، قائلة:

- لا.. إنها فكرة سخيفة هزت (شريفة) كتفيها، قبل أن تندس تحت غطاء فراشها، قائلة
- من يدري؟! وفي كتاب القدر، حفرت العبارة نفسها
نعم.. من يدري؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

26-العرض..

(حسين).. أغثني يا أخي!! أغثني...

قفز (مفيد) من فراشه، ووجد نفسه ينطلق إلى ردهة السراى كالصاروخ، بعد أن ميز في تلك الصرخة الملتاعة صوت شقيقته (نعيمة)، التي راحت تصرخ وتبكي وتولول، وتلطم خديها، وقد أحاطت بها شقيقاتها، اللاتي انتزعتهن صرخاتها من فراشهن، بعد الفجر بنصف الساعة فحسب ورحن يحاولن تهدئتها، ومعرفة سر صراخها في جزع، فهتف بها (مفيد):

- ماذا حدث يا (نعيمة)؟ ماذا أصابك؟

هتفت (نعيمة) في انهيار:

- أين (حسين)؟ أين أخي؟

بلغ (حسين) الردهة في تلك اللحظة، وسألها متوترا:

- ماذا حدث؟ لم تصرخي هكذا؟

تشبثت به هاتفة:

- زوجي يا (حسين).. زوجى (عمر)، انتزعوه من فراشه في الفجر

اتسعت عيون الجميع في ذعر وذهول، وهتف (حسين):

- انتزعوه من فراشه؟! من هم؟

لطمت خديها، هاتفة بفيض من الدموع:

- رجال السلطة يا أخي.. رجال السلطة صاح بها (حسين):

- أية سلطة؟ إن أعلى رجال السلطة في (مصر) تناولوا غداءهم هنا أمس فحسب.

انهمرت الدموع من عينيها أنهارا، وهي تهتف:

- لست أدري.. لست أدري.. لقد اقتحموا المنزل قبيل الفجر، وعلى رأسهم شاب طويل صارم، وانتزعوا (عمر) من فراشه،

وحملوه معهم.
أمسك كفيها، وهو يسألها في حدة
- من هذا الشاب؟ ما اسمه؟ قالت لي انهيار:
- اسمه (إبراهيم).. الصاغ (إبراهيم مكى) اتسعت عينا (حسين) في ذهول، وهو يردد
- (إبراهيم مكى)؟! ثم انعقد حاجباه في حزم، وهو يضيف:
- الكلب الحقير وهتف في صرامة:
- اطلب من عم (عبد الحميد) إعداد السيارة يا (مفيد).. سأسافر إلى، القاهرة) على الفور
تعلقت (نعيمة) بذراعه، هاتفة:
- خذني معك.. أريد زوجي.. أريد (عمر). دفعها عنه في حزم، وهو يقول: - اطمأني يا (نعيمة)، سيعود إليك (عمر)، قبل غروب الشمس وضغط أسنانه في غضب، مستطردا:
- وسيدفع الوغد الثمن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتسمت ابتسامة خبيثة، تجمع ما بين السخرية والشماتة، على شفتى (إبراهيم مكى)، عندما اقتحم (حسين) مكتبه في عنف، ووقف أمامه يصيح:
- أين (عمر)؟ سأله (إبراهيم) ببروده المعتاد
- من عمر؟
صاح (حسين) في غضب:
- (عمر) زوج شقيقتي، الذي ألقيت القبض عليه في الفجر، كمحاولة لإيذائي.

مال (إبراهيم) إلى الأمام، وحدق في عيني (حسين) بكل ما يملأ نفسه من سخرية وبرود، وهو يقول في لهجة لا تخلو من الصرامة:
- يبدو أنك تنسي أحيانا أيها الملازم، أنني رئيسك في العمل، وأن رتبتى تفوق رتبتك، مما يجبرك على التحدث إلى بنوع من الاحترام، برغم أنفك.
صدمت العبارات (حسين)، وجعلته يعتدل في توتر ملحوظ، وهو يغمغم:
- لقد كنت غاضبا، و.
قاطعه (إبراهيم)، وهو يواصل بنفس الصرامة
- ثم إنني لا ألقي القبض على مخلوق واحد، دون أوامر من رئيسنا المباشر.
قال (حسين) في دهشة
- ماذا تعني؟
تراجع (إبراهيم في مقعده، وشبك أصابعه أمام وجهه، مجيبا بتلك اللهجة، التي تجمع ما بين السخرية والشماتة:
- لقد ألقيت القبض على زوج شقيقتك بأمر من (رفعت كساب) نفسه.
بدار حسين) كالمصدوم، وهو يحدق في وجه (إبراهيم)، قبل أن يغمغم في صوت شاحب كوجهه:
- وهل كان يعلم أنه زوج شقيقتي؟
ابتسم (إبراهيم) ساخرا، وهو يجيب:
- بالتأكيد
ترك(حسين) جسده يتخاذل فوق أقرب مقعد إليه، وهو يغمغم
- ولكن لماذا؟
هز(إبراهيم، كتفيه، وهو يقول في شماتة واضحة:

- ريما وجدوا أنه من أعداء الثورة. هتف (حسين) مستنكرًا:
- (عمر)!!
مال (إبراهيم) نحوه، وقال في هدوء:
- لِم لا تسأل (رفعت) بك نفسه؟
بهت (حسين)، فتمتم في رهبة
- أسأله؟!
قال (إبراهيم) في هدوء:
- نعم.. اسأله مباشرة، وثق أنه سيخبرك بالسبب على الفور
تردد (حسين) لحظات، وهو يدير الأمر في رأسه، ثم لم يلبث أن قال:
- نعم.. ولم لا؟
نهض من مقعده، وغادر حجرة (إبراهيم مكى)، متجها بكل حزم نحو حجرة (رفعت)، إلا أنه لم يكد يبلغ حجرة ذلك الأخير، حتى تلاشى حماسه كله، وحل محله قلق شديد، وتردد لحظات، ثم طرق الباب في خفوت، وانتفض جسده كله، عندما سمع صوت (رفعت) يدعوه للدخول، فالتقط نفسا عميقا من الهواء، ودفع باب حجرة (رفعت كساب)، ودلف إلى الداخل وارتسمت الابتسامة التقليدية على وجه (رفعت)، وهو يقول:
- أهلا (حسين).. من المؤكد أنك ابن حلال، فلقد كنت بصدد البحث عنك.
تمتم (حسين) في توتر:
- عني أنا!
أشار (رفعت) إلى المقعد المقابل لمكتبه، وهو يقول:
- اجلس يا رجل.. اجلس، فلدى حديث طويل معك.
جلس (حسين) متوترا، وهو يضرب أخماسا في أسداس، محاولا استنتاج طبيعة هذا الحديث، و(رفعت) يقول:

- كانت وليمة رائعة في سراى أسرتك أمس.. أتعلم أن مجلس القيادة كله قد أتخذك محورا للحديث، حتى ساعة متأخرة من ليلة أمس؟
ازدرد (حسين) لعابه في صعوبة، دون أن يعلق بحرف واحد، في حين استطرد (رفعت)، وكأنما لم يكن ينتظر تعليقا:
- (عبد الحكيم عامر) و (أنور السادات) أبديا ثناء كبيرا عليك، و(صلاح) و (جمال سالم)، قالا إنك وأسرتك رمز لما ينبغي أن يكون عليه كل مواطن مصري مكافح، أما (جمال عبد الناصر)، فقد سألني عن سر تحمسى لك بالذات، على الرغم من أنك لم تكن أحد رجالنا قبل الثورة، فأجبته بأن شجاعتك قد راقت لي، بتأييدك الفوري والمباشر لنا، قبل حتى أن تتضح الأمور، وقلت له إن من يفعل هذا بلا تردد، هو شخص أهل للثقة، وأنا أحب الشجعان.
تمتم (حسين):
- شكرا لك يا سيدي مال رفعت) نحوه، وسأله بغتة:
- قل لي: هل تعرف اليوزباشي (فؤاد)؟
تمتم (حسين)، وهو يتساءل في أعماقه عن مغزى السؤال
- نعم يا سيدي.. إنه شقيق أحد رجال مجلس قيادة الثورة حسبما أظن
اتسعت ابتسامة (رفعت)، وهو يتراجع في مقعده، قائلا:
- بالضبط، ولقد أعجب بك وبأسرتك كثيرا، حتى أنه يرغب في أن يصبح أحد أفراد الأسرة.
سأله في حيرة
- ماذا تعني يا سيدى؟
قال (رفعت) بنفس الابتسامة
- يريد أن يتزوج شقيقتك
قال (حسين) في دهشة، يخالطها شيء من الفرح:

- شقيقتي أنا؟ قال (رفعت) مبتسما:
- نعم.. أنا أعلم أنه ما زالت لديك شقيقتان لم تتزوجا بعد، وهو يرغب في الزواج من إحداهما، على الرغم من أنه لم يرهما أبدا.. باختصار إنه يريد أن يصاهرك فحسب هتف (حسن) في حماس:
- لي كل الشرف يا سيدي
ثم لم يلبث أن تذكر أمر (عمر) بغتة، فخفض صوته، مستطردا:
- ولكن لدي تساؤل هام بخصوص.. بخصوص
سأله (رفعت) في اهتمام:
- بخصوص (فؤاد)؟
هز (حسين) رأسه نفيا، وقال:
- لا يا سيدي، وإنما بخصوص (عمر)، زوج شقيقتي ابتسم (رفعت)، ولوح بكفه، قائلا:
- آه.. لا بأس.. هل تريد رؤيته؟
ثم ضغط زرا فوق مكتبه، قبل أن يسمع جواب (حسين)، ولم يكد يفعل حتى أطل جندي داخل المكتب، فقال (رفت) بلهجة آمرة:
- أحضر لي (عمر)، من القبو السفلى ثم عاد يقول لـ(حسين) بابتسامة عادية:
- لقد ألقينا القبض عليه كهدية لك
غمغم (حسين) في دهشة:
- هدية!!
أومأ (رفعت) برأسه إيجابا، وقال مبتسما:
- نعم.. لقد عرضت الأمر على مجلس قيادة الثورة، فوافقني الجميع، فيما عدا (جمال) الذي اعترض على تدخلنا في أمور شخصية، ولكنه لم يكد يعلم بأمر الشكوى، التي قدمها زوج شقيقتك إلى (محمد نجيب)، حتى وافق على الفور، وبدأت أنا التنفيذ دون إضاعة لحظة واحدة.

ثم اتسعت ابتسامته، وهو يغمز بعينه، مستطردا:
- فلقد كانت الوليمة رائعة بحق.
تطلع إليه (حسين) في مزيج من الدهشة والحيرة، وهو يتساءل عن صلة الوليمة بزوج شقيقته (عمر)، واستنكر في أعماقه أن يكون السبب هو عدم حضور (عمر) للوليمة، وراح يبحث عن رابطة أخرى أكثر قوة، حتى سمع الجندي يقول:
- المتهم هنا يا سيدى
قال (رفعت) في حزم:

أدخله

تعلقت عينا (حسين) بباب الحجرة، ثم لم يلبث أن تراجع في ذعر

لقد رأى أمامه شيئا بشعًا

بشعًا للغاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

27 - القوة..

انشغلت (زينب) تماما بعملها في مطبخ السراي، حتى أن جسدها قد انتفض في قوة، عندما وضعت (شريفة) يدها على كتفها، فانفجرت (شريفة) ضاحكة: وهي تقول:

- إلى هذا الحد واستدارت إليها (زينب)، تهتف في غضب:

- يا لسخافتك! لقد أفزعتني.

واصلت (شريفة) ضحكها، وهي تقول:

بل انتزعتك من أحلام الحب الجميلة ثم مالت على أذنها، مستطردة في همس:

- ولكنني أحضرت لك الأصل ارتفعت دماء الخجل إلى وجه (زينب) في سرعة، وهي تقول:

- الأصل؟!

ابتسمت (شريفة)، وهى تهمس في خبث أنثوي ظريف:

- بالطبع.. (ماهر) ينتظرك في الحديقة الخلفية.

ارتبكت (زينب)، وراحت تمسح كفيها بثوبها في توتر، وتضاعفت حمرة الخجل في وجهها، وهي تقول متلعثمة:

- (ماهر) هنا!!. يا إلهي.. وماذا لو رآه أحد؟

ربتت (شريفة) على كتفها، قائلة:

- اطمأنى (حسين) سافر إلى (القاهرة) في الصباح، ولحقت به و (نعيمة) بصحبة (مفيد)، للاطمئنان على (عمر)، و (حافظ) في حجرته كالمعتاد، و (فاطمة) تدلله، وتشمله برعايتها.

وهزت رأسها، مستطردة في زهو

- صدقوني.. (فاطمة) هي خير من تصلح زوجة لـ (حافظ).

أزاحتها(زينب) جانبا، وهي تقول في لهفة.

- دعينا منهما الآن، إن (ماهر) يضيق بالانتظار.

بدت وكأنها تطير عبر ردهة السراي، حتى بلغت الحديقة الخلفية، فتوقفت تلهث، وتضرج وجهها بحمرة الحياء، وهي تبتسم متمتمه:
- صباح الخير يا (ماهر).
التهمها بعينيه في حب جارف، وهو يهرع إليها، ويلتقط كفها في راحته، ويعتصرها في رفق وحنان، هاتفا:
- صباح الخير يا (زينب).
ودون اتفاق مسبق، وبتلقائية شديدة، جلسا معا على سور سلم السراى الخلفي، وهمس (ماهر):
طال الانتظار يا (زينب).
خفضت وجهها في حياء، وهي تقول:
- إن غدا لناظره قريب يا (ماهر).
سألها في لهفة، وهو يضم كفها إلى صدره؟
- متى يلتئم شملنا؟
تنهدت وقالت:
- لست أدري.. لن يمكنني سؤال (حسين). أجابها في حماس:
- سأسأله أنا
ابتسمت في فرح وحياء، وهي تقول:
- حقا؟
نهض قائلا في حزم:
- نعم.. لم أعد أطيق صبرا على الانتظار.. سأسافر إليه في (القاهرة) هذا المساء، وأطلب منه تحديد موعد الزفاف.
تمتمت في قلق
- هل سيوافق؟
اجاب في دهشة:
- وام لا؟

ألقت عليه نظرة جانبية، دون أن تنبس ببنت شفة ودون أن تفصح عن مخاوفها الحقيقية..
إنها لم تنس بعد موقف (حسين)، عندما تقدم (ماهر) ووالده بطلب يدها.. ذلك الموقف الذي تسبب جزئيا في وفاة والدها (رحمه الله) وهي لا تدري ماذا سيكون موقفه الآن!! ولكنها تخشى التفكير في احتمال الرفض مجرد التفكير.
ولما طال صمتها، عاد (ماهر) يسألها:
- ولم لا؟
هزت رأسها في صمت، وتمت:
- إنه مجرد تساؤل.
ابتسم في حنان، وربت على رأسها، قائلا
- اطمأنى يا (زينب). سيتم كل شيء كما تمنينا
لم تنبس ببنت شفة هذه المرة أيضا، ولكن قلبها امتلأ بالخوف كل الخوف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تسمر (حسين) في مكانه، وهو يحدق في ذلك الذي يقف أمامه
لم يكن (عمر) الذي يعرفه كان بقايا (عمر)..
بقايا إنسان
وكان من الواضح أنه قد عومل بأسوأ ما تكون المعاملة، في الساعات القليلة التي مرت، منذ انتزاعه من فراشه..
كان محطما، منهارا، منكسرا، تحيط بعينه اليمني كدمة زرقاء مخيفة، ويسيل من وسط خصلات شعره خيط من الدم اللزج، وقد تمزق جلبابه شر ممزق..
وكانت عيناه تحملان نظرة مؤلمة..

نظرة تجمع ما بين المرارة والهوان والكراهية
- نظرة مظلوم..
وبابتسامة ساخرة مزهوة، أشار (رفعت كساب) إلى (عمر)، وهو يقول لـ (حسين):
- لقد وقَّع زوج شقيقتك تنازلا عن القضية الخاصة بميراثك، وتعهدا بعدم التعرض لك.
ردد (حسين) مبهوتًا
- عدم التعرض إلى؟!
أكمل (رفعت) مبتسما:
- لقد أقنعه رجالنا بذلك.
ران الصمت تماما على الحجرة، بعد هذه العبارة، ثم نهض (حسين) من مقعده في بطء، واتجه نحو (عمر)، ووضع يده على كتفه، قائلا.
- سيحصل الجميع على أنصبتهم الشرعية، من إيراد الأرض.
- تميم (عمر) في لهجة أقرب إلى البكاء:
- بالتأكيد
ربت (حسين) على كتفه مرة أخرى في إشفاق، ثم التفت إلى (رفعت)، يسأله:
- هل يمكنه العودة إلى منزله يا سيدى؟
هز (رفعت) كتفيه بلا مبالاة، وقال:
- هذا أمر يخصك وحدك.. مر الرجال بإعادته إلى منزله، لو أن التنازل عن القضية يكفيك، أو مرهم بإعادته إلى السجن الحربي، لو..
صرخ (عمر) في رعب:
- لا.. أرجوك. ثم أدار عينيه إلى (حسين)، وتشبث به، مستطردا في انهيار:

- لا تدعهم يعيدونني إلى هذا الجحيم يا (حسين) بك.. أرجوك.. أرجوك.
ارتاع (حسين لذلك الموقف، وأدرك كم قاسى (عمر) في تلك الساعات القليلة، فربت على كتفه مطمئنا مرة أخرى، وقال:
- اطمئن يا (عمر).. ستعود إلى منزلك.. اطمئن.
أطلق رفعت) ضحكة ساخرة، وقال:
- كما تحب يا (حسين).. هيا يا رجال.. أعيدوا الرجل إلى منزله.
اصطحب الرجال (عمر) إلى الخارج، في حين عاد (رفعت) يجلس خلف مكتبه، وهو يسأل (حسين) في زهو:
- هل راق لك الأمر؟ جلس (حسين) مبهوتا، وهو يتمتم
- لقد حطموه تماما
هتف (رفعت) في حماس:
- بالتأكيد. ثم مال نحو (حسين)، وبرقت عيناه ببريق قوي، وهو يقول:
٢٢

- هذا ما ينبغي أن يكون دوما يا (حسين).. أن يعلم الجميع أن الثورة قوية، لا تأبه بسخافاتهم، وأن يعلموا أن التعرض لشعرة واحدة من رأس رجل من رجال الثورة يعني الدمار.
وضرب سطح مكتبه بقبضته في قوة، مستطردا:
- ينبغي أن يعلموا أننا القوة.. القوة الوحيدة في هذا المجتمع.. هل تفهم؟
ردد (حسين) مبهورا:
- نعم.. أفهم
تراجع (رفعت) في مقعده بارتياح، وأشعل سيجارته، ونفث دخانها في قوة، وهو يقول:

- وهكذا ينبغي أن نتعامل مع الآخرين دوما يا (حسين).. تعامل على أنك الأقوى.. هكذا يعامل أحد رجالنا.
امتلأت نفس (حسين) بنشوة عارمة، وهو يستمع إلى هذا الحديث، بتلك اللهجة الحماسية، التي يتحدث بها (رفعت)..
وبدا الشعور بالقوة يسري في عروقه
بالقوة المطلقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطلقت الأميرة (عايدة) ضحكة عابثة عالية النبرة، ولوحت بكأس الخمر في يدها، وهي تقول في سخرية:
- القوة؟! إذن فهم يسعون إلى القوة.
ابتسم (حسين) وهو يقول:
- لقد حصلوا عليها بالفعل. هزت كتفيها، وقالت في بغض:
- هراء.
جرعت كأسها دفعة واحدة كعادتها، وأضافت في حدة
- هذا ما يتصورونه.
تلاشت ابتسامته، وهو يسألها في قلق
- هل تكرهين الثورة إلى هذا الحد؟
هزت راسها نفيا، وقالت في سخرية:
- لا.. لست أكره الثورة.
تنهد في ارتياح، وقال:

- هذا أفضل.

اقتربت منه، وقالت في حدة:

- هل صدقت حقا أني لا أكره الثورة ورجال الثورة؟ يا لك من غر ساذج!!

قال في دهشة:

- ولكنك قلت منذ لحظة..

قاطعته وهي تلقي نفسها إلى جواره:

- قلت ماذا؟ ما الذي تنتظره من أميرة مثلى، استولت ثورتكم على كيانها كله، وتسعى لإزالته من الوجود؟

تمتم متوترا:

- اخفضي صوتك يا (عايدة).. أرجوك

أطلقت ضحكة عابثة، وأحاطت عنقه بذراعها، وهي تقول:

- هل تخاف منهم

ارتبك مغمغما:

- لا.. ولكن

قاطعته في همس يزخر بالدلال:

- اطمئن.. لست أكره كل رجال الثورة.. إني أحب أحدهم

ازدرد لعابه في صعوبة، وتطلع إلى عينيها الفاتنتين، وهمس في لهفة:
- (عايدة).. هل تقبليني زوجا؟
تراجعت في حركة حادة، وهي تقول
- أقبلك ماذا؟ كرر مرتبكا:
- زوجا يا (عايدة).. إني أسألك الزواج.
خيل إليه أن عينيها قد برقتا في ظفر، وهي تنهض في بطء، وتتجه نحو البار الصغير في الردهة، وتصب لنفسها كأسا في صمت..
وتضاعف ارتباكه، وهو يسألها
- ما رأيك يا (عايدة)؟
استدارت إليه في بطء، وجرعت كأسها دفعة واحدة، وتوردت وجنتاها بفعل الخمر، وابتسمت ابتسامة جعلتها صورة مجسمة للفتنة، وهي تقول:
- ما رأيك أنت؟
ردد في حيرة:
- رأيي أنا؟!
أطلقت ضحكة عابثة مرة أخرى، ثم قالت:
- إنني أوافق يا (حسين).
رقص قلبه طربًا بين ضلوعه، وهو يهتف:
- حقا يا (عايدة).. إنني.
قاطعته في حسم:
- ولكن بشروط
عاد إلى مكانه، متمتما في قلق:
- أية شروط؟
قالت في دلال:

- أريد حفل زفاف لا مثيل له، تتحدث عنه (القاهرة) عام كامل على الأقل.
أجابها في حماس:
- لك هذا
أضافت في دلال أكثر:
- وأريد ثوب زفاف متميز من (باريس).
قال في حماس أشد:
- سوف أطلبه صباح الغد، و.....
قاطعته في حزم:
- لا.. أريد أن أسافر لشرائه بنفسي
ابتسم قائلا:
- لا بأس.. أهذه كل الشروط؟
ابتسمت أكثر ابتساماتها عذوبة، وهي تقول:
- نعم.. هذه هي
قام من مكانه، واتجه إليها، وأمسك كفيها بحب، وهو يتطلع إلى عينيها، قائلا:
- (عايدة).. إنها أجمل لحظات حياتي.
غمغمت في دلال - وأنا أيضا..
وفجأة ارتفع رنين جرس الباب، فابتعد بعضهما عن بعض بحركة حادة، وتطلعا إلى الباب، وهتف (حسين) لي قلق:
- من الزائر هذه المرة؟
قالت (عايدة) في توتر:
- لست أدري.. ربما هو (إبراهيم مكى) أيضا
تمتم في انفعال:
- يا إلهي ال.. مرة أخرى
أسرعت تحمل حقيبتها الأنيقة، واتجهت نحو حجرة النوم، قائلة:

- سأختبئ مؤقتا، وأيا كان الزائر، حاول أن تصرفه بسرعة.
اختفت داخل حجرة النوم، وازدرد هو لعابه في توتر، واتجه نحو الباب، مع ارتفاع رنين جرس الباب للمرة الثانية.
وفتح (حسين) الباب وارتفع حاجباه في دهشة، عندما وقع بصره على (ماهر)، وهتف:
- (ماهر)؟!
ابتسم (ماهر) في خجل، وهو يقول:
- معذرة يا (حسين) بك.. لم أكن أحب أن أصل متأخرا، ولكنى بحثت عن المنزل طويلا، و.
منعه الارتباك من إتمام حديثه، ووقف الاثنان أمام بعضهما البعض في صمت، قبل أن يقول (حسين) في توتر:
- تفضل يا (ماهر).. تفضل
دلف (ماهر) إلى الداخل في حياء ولم يكد يستقر فوق مقعده، حتى قال:
- أتيت بشأن (زينب).
جلس (حسين) أمامه، وراح يختلس النظر إلى حجرة النوم، حيث اختفت (عايدة)، وسأله:
- ماذا عنها؟
فرك (ماهر) كفيه، وهو يقول مرتبكا: - الواقع أن خطبتنا قد تمت منذ عدة أشهر، و.....
طال صمته من فرط ارتباكه، وتزايد قلق (حسين)، خشية أن ينتبه (ماهر) إلى رائحة عطر (عايدة) المميز، الذي يملأ المكان، فقال في عصبية:
- وماذا؟
ازدرد (ماهر) لعابه، وقال:
- وأظن أن الوقت قد حان لكي.. أعني أن.. آن..

قاطعه (حسين) في توتر
- اتريد أن تتم الزفاف؟
بدا الارتياح على وجه (ماهر)، وهو يقول في لهفة:
- نعم يا (حسين) بك.. هذا ما أريده بالتحديد.
لم يكن (حسين) مستعدا لمناقشة الأمر الآن، ولم يكن يرغب في الوقت ذاته في الدخول في جدل طويل مع (ماهر)، أضف إلى هذا شعور عقله الباطن بالخوف والذنب، لعلاقته السرية بـ (عايدة)..
كل هذا دفعه إلى أن يقول في سرعة:
- لا بأس.. فليتم الزفاف.
لم يصدق (ماهر) أذنيه، ولم يصدق أن الأمر قد تم بهذه البساطة، فهتف في انفعال وسعادة:
- متي يا حسين) بك.. متي يتم الزفاف؟
قال (حسين) في توتر، وهو يختلس النظر إلى حجرة النوم:
- في الوقت المناسب يا (ماهر).. لم يمض بعد عام كامل على وفاة أبي كما تعلم، و.....
قاطعه (ماهر) في لهفة:
- يمكننا أن نتم الزفاف دون أن نقيم حفلا
زاد توتر (حسين)، وهو يقول:
- لا بأس.. لا بأس..
هذا أفضل
سأله (ماهر) في انفعال:
- متى يا (حسين) بك.. متى؟
بلغ توتر (حسين) مبلغه، وأراد أن ينهي تواجد (ماهر) بأي ثمن
- الخميس القادم.. الخميس القادم بإذن الله
صاح (ماهر) في فرح:
- أشكرك يا (حسين) بك.. أشكرك كثيرا.

واندفع يغادر المكان في لهفة، وهو يتمنى أن ينقله بساط سحري إلى (زينب) في طرفة عين، ليبلغها البشري، دون أن يدرك أن صاحب الفضل في سعادته هو نوع من العطر
عطر أميرة سابقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

28 – مفاجأة..

تم حفل زفاف (ماهر) و (زينب) في هدوء، بعكس التقاليد المتبعة في ريف (مصر)، في تلك الفترة، وأقتصر المدعوون فيه على أفراد أسرتي العروسين، بالإضافة إلى العمدة والمأمور وزوجتيهما، وعلى الرغم من ذلك بدا (ماهر) و (زينب) وكأنهما بسبحان في بحر من الفرح والسعادة، وإن بدا (حسين) ضجرا ملولا، وكأنما يتعجل العودة إلى (القاهرة)، التي لم يعد يحتمل الابتعاد عنها، بعد ان توطدت علاقته بـ (عايدة)..

وفي ركن من أركان ردهة القصر، حيث أقيم حفل الزفاف الهادئ، مال العمدة على أذن المأمور، وقال في ضيق:

- هل رأيت مثل هذا الجحود من قبل؟ يقيمون حفل زفاف، قبل أن ينقضي عام على وفاة والدهم؟

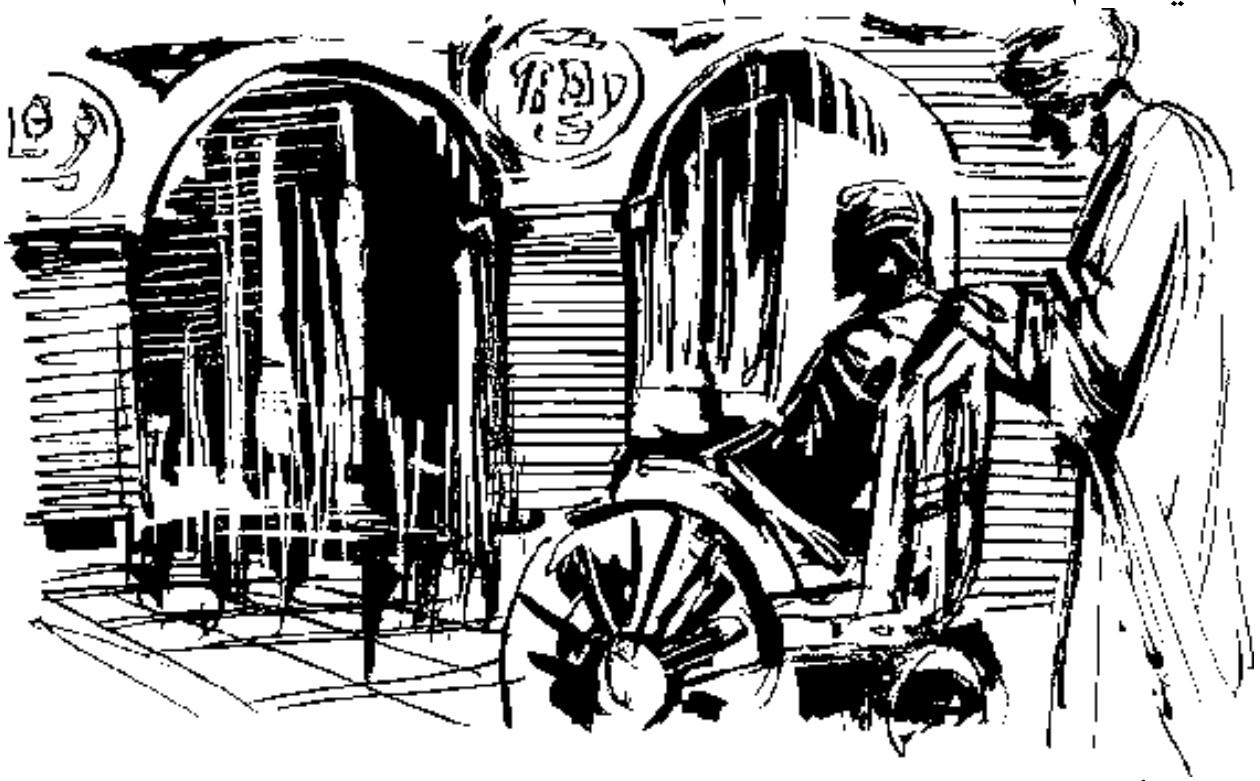

تنهد المأمور، وقال:

- ومنذ متى التزم أبناء (البنهاوي) بالأصول والأعراف.. إنهم حتى لا يرتدون الثياب المعتادة في القرية منذ نشأتهم، بل يصرون دوما على ارتداء ثياب أهل المدن.

همس العمدة في حدة:
- هكذا أرادهم والدهم..
أضاف المأمور في مرارة:
- لعنه الله.
ثم أشار من طرف خفي إلى (مفيد)، مستطردا:
- ولكن انظر إلى آخر العنقود هذا.. يبدو أنه يشاركنا رأينا، فهو لا يظهر أية لمحة من السرور، في حفل زفاف شقيقته.
غمغم العمدة في سخرية:
- حفل زفاف!! أتسمى ذلك الاجتماع العائلي حفل زفاف؟
ابتسم المأمور في سرية بدوره، وهو يقول:
- صدقت.
وفي الركن المقابل، اتجهت (شريفة) نحو شقيقها (مفيد)، وربتت على كتفه هامسة:
- مالك تبدو حزينا هكذا؟ من يراك لا يتصور أبدا أنه حفل زفاف شقيقتك.
قال في مرارة:
- إني أحاول الابتسام يا (شريفة)، ولكن عقلي يأبى إقناع شفتي بهذا، وهو غارق في الحزن والمرارة حتى نخاعه.
ارتفع حاجباها، وهي تهتف في دهشة: - حزن ومرارة؟!
ثم امسكت كفه، وقادته إلى حجرة جانبية، وهي تقول
- هيا.. أخبرنا.. أي حزن هذا؟ وأية مرارة؟ رفع عينيه الحزينتين إليها، وهو يقول:
- هل رأيت (عمر) زوج (نعيمة)، بعد عودته من أيدي هؤلاء الثوار؟
ضغط حروف الكلمة الأخيرة على نحو واضح، وكأنما يكره النطق بها فأجابت (شريفة) في اهتمام:

- لا.. لم أره، ولكن (نعيمة) تقول إنه لم يخاطبها بحرف واحد، منذ عودته، بل لم يلمسها، أو حتى يقبل ابنته الصغيرة، حتى ليخيل إليها أنه.. أنه..
أكمل (مفيد في مرارة:
- يكرهها.. أليس كذلك؟
تمتمت في خفوت:
- بلى.. هذا هو المصطلح الذي استخدمته بالتحديد، وهي تبكي في حزن.. لقد لاحظت بالطبع أنه لم يحضر حفل الزفاف، وإن لم يحاول منع (نعيمة) من الحضور مع طفلتها.
تنهد (مفيد) في الم، وقال:
- من الطبيعي أن يفعل هذا.. لقد أهين بشدة، وامتهنت كرامته وانسانيته، وكل هذا بسبب (حسين)، شقيق زوجته، ومن الطبيعي أن يبغض هذه الزوجة، وأن يكره تواجده معها، وهي التي تعلم بهوانه ومزلته، وأنا على يقين من أنه لولا سلطة (حسين)، لطلق (عمر) زوجته بلا تردد..
اتسعت عينا (شريفة) في هلع، وهي تهتف:
- يطلقها؟! لا يا (مفيد).. لا تقل هذا.. الطلاق أمر بشع
أجابها بنفس مرارته:
- كثيرا ما يكون عدم حدوثه أكثر بشاعة يا (شريفة).
لم تستطع هضم الفكرة، فهزت رأسها في عنف، وكأنما تطردها في قوة، وقالت:
دعك من أمر (نعيمة) و (عمر)، وأخبرني.. ما رأيك بـ(فاطمة)، ابنة عم (عبد الحميد)؟
بدا له ذلك الانتقال إلى الحديث عجيبا، فتطلع إليها في دهشة، وهو يقول:
- (فاطمة)؟! ولماذا تطلبين رأيي فيها الآن؟

ابتسمت في جذل طفولي، وهي تقول:
- أريد أن أعرف رأيك.. هلا تصلح (فاطمة) كزوجة؟
تضاعفت دهشته، وهو يهتف:
- زوجة؟! (فاطمة)؟ ماذا تقصدين بالضبط؟
قالت في لهفة:
- ألم تلحظ شدة اهتمامها بـ (حافظ)، وشدة ارتياحه هو لوجودها؟
انخفض صوته، وهو يقول:
- مرة اخرى ماذا تقصدين يا (شريفة)؟
مالت نحوه، وقالت في مرح:
- أقصد أن (فاطمة) تصلح زوجة لـ (حافظ).
تراجع في حدة، هاتفا:
- ماذا؟ هل تمزحين؟
اعتدلت قاتلة في جدية:
- مطلقا
ثم عادت تميل نحوه، متابعة في خفوت:
- حاول أن تنظر إلى الأمر، مثلما أنظر أنا.. لقد تزوجت (زينب) الليلة، ولن ألبث أن أتزوج أنا و(ناهد)، وتنتقل كل منا إلى منزل زوجها، من سيرعى (حافظ) حينذاك؟
أجاب في حماس:
- أنا.
هزت رأسها نفيا، وقالت:
- لا تكن خياليا.. حتى أنت ستتزوج يوما، ولن تقبل أن تعمل زوجتك كخادمة لشقيقك، فـ(حافظ) بحالته هذه لا يحتاج لأكثر من خادمة، ولكن من تقبل رعايته من هذا المنطلق؟ أضف إلى هذا أن (فاطمة) تحسن رعايته، وأن زواجها منه سيمنحه خادمة رخيصة دائمة.

عقد حاجبيه في غضب، وهو يقول:
- إنني أرفض هذا المنطق الأناني
قالت في حدة:
- دعك من هذه الفلسفة الحمقاء.. إني أجدها فكرة رائعة
ثم أضافت في رجاء
- وأريد منك أن تنقلها إلى (حسين).
ازداد انعقاد حاجيه، وهو يقول في صرامة:
- مستحيل.. قلت لك إني أرفض هذا المنطق تماما
هتفت في حدة:
- كما يحلو لك.. ثم أضافت في حزم وترفع
- سأخبره أنا
لوح بكفه محنقا، وهتف:
- هذا شأنك
تركته بحركة حادة، ورآها تتجه مباشرة نحو (حسين)، وتهمس في أذنه بضع كلمات، تطلع (حسين) بعدها إليها في حيرة، ثم نهض من مقعده، واتجه معها إلى حجرة جانبية، وهناك رآها(مفيد) تشرح وجهة نظرها لـ (حسين) في حرارة، ورأى الدهشة ترتسم على وجه (حسين) في عنف، ثم تتحول إلى غضب واضح، استقبلته (شريفة) في هدوء، وهي تواصل شرح وجهة نظرها، فغمغم (مفيد) لنفسه في ضيق:
- مستحيل.. لن يوافق (حسين) على هذا المبدأ أبدا.
تنهد في مرارة، وغادر مكانه إلى الردهة، وبذل أقصى جهده ليرسم على شفتيه ابتسامة هادئة.
وفجأة عبر أذنه صوت (حسين)، وهو يقول:
- عم (عبد الحميد).. تعال.. اريدك هنا.

التفت إليه (مفيد) في دهشة، وتضاعفت دهشته، عندما رأى تلك الابتسامة الظافرة على شفتى (شريفة)، وهي تتجه إليه، وتجلس إلى جواره، وتقول:
- ارأيت؟
حدق في وجهها في ذهول، وهو يقول:
- هل وافق؟ وبهذه السرعة المذهلة؟
اجابته مزهوة:
- لقد رفض بشدة في البداية، ولكنني شرحت له وجهة نظري، وأخبرته أن زواج (حافظ) من فتاة مسكينة مثل (فاطمة)، سيزيل قلقنا الدائم بشأن (حافظ)، وسيضمن لـ(حسين) عدم حدوث أية اضطرابات مفاجئة في المستقبل، قد تعترض عمله أو سمعته.
بدا الضيق على وجه (مفيد)، وقال:
- إذن فقد عزفت على أخطر أوتار (حسين).. عمله وسمعته
قالت في فخر:
- بالطبع
أدار عينيه مرة أخرى إلى حيث وقف (حسين) مع (عبد الحميد)، وتمني لو استطاع معرفة محور حديثهما..
تمنى من كل قلبه..
أما بالنسبة لـ (عبد الحميد) نفسه، فقد كانت المفاجأة مذهلة.
لقد لبى نداء سيده، وأقصى ما يدور بخلده هو أن (حسين) سيكلفه عملا ما، ولكنه فوجئ بـ (حسين) يقول في صرامة:

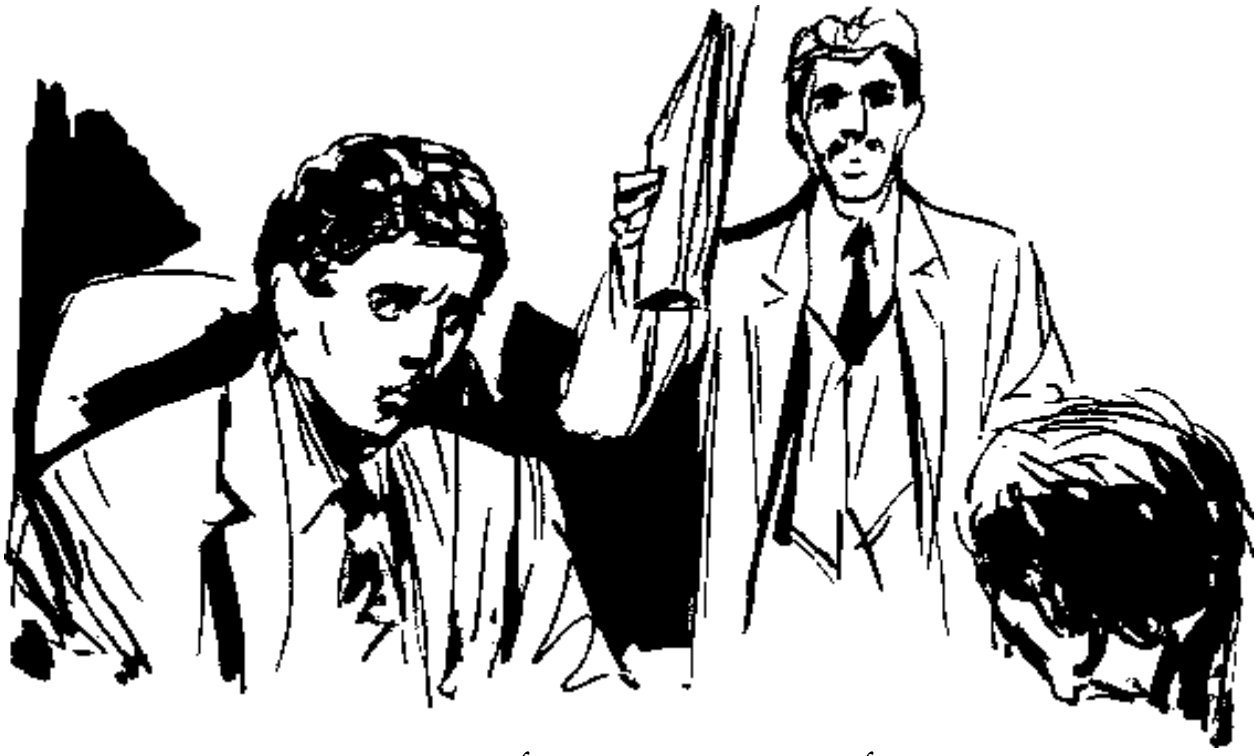

- هل تحدث إليك أي شخص، بشأن ابنتك (فاطمة) يا (عبد الحميد)؟

شعر الرجل بالحيرة، وهو يقول:

- في أي شأن يا سيدى؟

قال (حسين) في ضجر عصبى:

- هل طلبها أحدهم للزواج؟

كان (عبد الحميد) يعلم أن ابنته تفتقر كثيرا إلى الجمال والأنوثة، بقامتها المديدة، وكفيها العريضتين، وصوتها الأجش ولذا فقد غمغم في حزن:

- لا يا سيدي.. ليس بعد

قال (حسين) في توتر

- حسنا.. إننا نطلبها للزواج

حدق (عبد الحميد) في وجهه في ذهول، وهو يقول

- تطلبها لماذا يا سيدي؟

أجابه في حدة

- للزواج يا رجل.. هل أصابك الصمم؟

ارتجف قلب (عبد الحميد) بين ضلوعه، وانتقلت ارتجافته إلى جسده كله، وهو يردد:
- الزواج يا سيدى.. تطلب ابنتي أنا للزواج؟!
أجابه في صرامة
- نعم يا (عبد الحميد).. ستزوج ابنتك أخي (حافظ) اتسعت عينا (عبد الحميد)، وهو يهتف مبهوتا:
- (حافظ)؟
قال (حسين) في عنف:
- نعم يا رجل.. ابنتك (فاطمة) ستزوج سيدها(حافظ) بك (البنهاوي).. ألديك اعتراض على هذا؟
لم ينبس (عبد الحميد) ببنت شفة لحظات طوالا لقد صدمه اختيار (حافظ) كزوج لابنته الوحيدة
صحيح أن (فاطمة) تفتقر كثيرا للجمال والأنوثة، ولكن القرية كلها تعلم أن (حافظ البنهاوي) قد فقد عقله..
كيف تتزوج ابنته رجلا مجنونا.. طال صمته، فسأله (حسين) مرة أخرى
- الديك اعتراض؟
كان صوت (حسين) هذه المرة يجمع ما بين الحزم والصرامة والتهديد والوعيد، مما جعل (عبد الحميد) ينكمش داخل نفسه في خوف وانكسار وهو يتمتم في خفوت بدا عسيرا على السمع:
- (فاطمة) خادمتكم وجاريتكم يا سيدى؟
قال (حسين) في سرعة، وكأنما يرغب في إتمام هذه الفكرة المجنونة، قبل أن يرفضها عقله:
- عظيم.. أبلغها أن تستعد إذن، فسنعقد قرانها على (حافظ) الليلة قبل أن ينصرف الشيخ (كامل)، مأذون القرية.
هتف الرجل في ارتياع:

- الليلة يا سيدى؟! ولكنها مفاجأة، ولم نستعد أنا ووالدتها، و.....
قاطعه في حزم ضجر:
- إننا لا ننتظر منكم شيئا يا (عبد الحميد).. هيا سأسافر إلى (القاهرة) في منتصف الليل، وأحب أن ينتهي كل شيء، قبل أن أذهب.. هيا.
خفض (عبد الحميد) رأسه في انكسار، وتتم في استسلام مرير
- كما تأمر يا سيدي.. كما تأمر
وانصرف بخطوات ثقيلة مريرة، تاركا خلفه (حسين)، يغمغم في توتر.
- فكرة جنونية بحق، ولكنها ستعفينا من القلق الدائم على (حافظ)
ثم أدار عينيه إلى حيث تجلس (شريفة)، واستطرد
- بقي أمر واحد، وأمحو كل المشاكل من عقلي واتجه نحو (شريفة)، وقال في حزم:
- تعالى يا (شريفة).. أريد التحدث إليك تبعته في خفة، حتى انتقلا إلى الحجرة الجانبية، فأسرعت تسأله
- هل وافق (عبد الحميد)؟ هتف مستنكرا:
- وافق؟! ليس له حق القبول أو الرفض.. لقد وافق على الرغم من أنفه.. وسيتم عقد القران الليلة.
هفت مشدوهة:
. الليلة؟! ولكن
قاطعها في ضيق:
- دعي إلى هذه الأمور.. إنني لم أنفرد بك لاستشارتك في هذا، أو إبلاغك بما تم.. فقط أريد أن تعلمي أن أحد ضباط الجيش سيأتي لخطبتك هنا، الخميس القادم
ارتجف قلبها، وهي تهمس في انفعال:

- سيأتي لخطبتى! بدت السعادة واضحة على شفتيها وملامحها كلها، و (حسين) يضيف:
- استعدي لمقابلته، عليك إعداد وليمة فاخرة، بالتعاون مع (ناهد) و(فاطمة)، ولا أريد أن يظهر (حافظ) أو (فاطمة) في أثناء تواجد اليوزباشي (فؤاد).
سألته في لهفة:
- هل يدعى (فؤاد)؟
أومأ برأسه إيجابا، وقال في ضجر:
- نعم.. وهو شقيق أحد رجال مجلس قيادة الثورة.
سألته في حياء:
- أهو وسيم؟ ابتسم في سخرية، وهو يقول:
- إنه شقيق أحد الكبار.. وهذا يكفي
وصمت لحظة، ثم اضاف:
- ولكنه، على الرغم من هذا، وسيم بالفعل.
: تهللت أساريرها على نحو واضح، فضحك وقال:
- هيا.. اذهبي إلى (حافظ)، وأخبريه أنه سيتزوج الليلة من (فاطمة) هيا.
هتفت في جذل:
- شكرا يا (حسين).. شكرا يا أخي العزيز.
انطلقت والفرحة تملأ صدرها، إلى حجرة شقيقها (حافظ).. وبدت لها هذه الليلة من أجمل ليالي العمر كله وكيف لا؟ لقد تم فيها زفاف (ماهر) و (زينب).. وسيتم بعد قليل عقد قران (حافظ) و (فاطمة) وفيها أعلنها شقيقها بخطبتها إلى ضابط وسيم، من رجال الثورة الليلة تبدو لها بالفعل من أجمل ليالي العمر ولكن من يدري ماذا يخبي القدر في طياته؟
من يدري؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

29 - تصريح سفر..

تطلع (رفعت كساب) إلى (حسين) طويلا في صمت، وهذا الأخير يقف أمامه قلقا، في حجرة مكتب (رفعت)، الذي قطع صمته، وهو يتراجع بمقعده، ويشعل سيجارته، قائلا في بطء:

إذن فأنت ستتزوج الأميرة (عايدة)؟!

أجابه (حسين) بلهجة عسكرية صرفه:

- تماما يا سيدى

نفث (رفعت) دخان سيجارته مرة أخرى، وسأله

- وهل وافقت هي على هذا الزواج؟

أجابه (حسين) في دهشة

- بالطبع يا سيدى

هز (رفعت) رأسه في حيرة، وكأنا يرفض تصديق هذا، إلا أنه لم يلبث أن غمغم:

- ربما

ثم ابتسم، مستطردا:

- ألف مبارك إذن يا (حسين).. سيكون من الطريف حقا أن يتزوج ابن مكافح مثلك من أميرة سابقة.

ومال نحوه، مضيفا بابتسامة أكبر:

- وماذا تريد كهدية زواج.. سيارة؟

ابتسم (حسين)، وهو يقول:

- إنني أمتلك سيارة بالفعل يا سيدى، وشقة فاخرة، مؤثثة على أحدث طرازا، أهدتها إلى إياها.

ضحك (رفعت) في زهو: وقال:

- حسنا.. ماذا تريد؟

أجابه (حسين) في لهفة

- تصريح بالسفر يا سيدى اتسعت ابتسامة (رفعت) كثيرا، وهو يقول - هل تنوى قضاء شهر العسل في (أوروبا)؟
هز (حسين) رأسه نفيا، وقال:
- لا يا سيدي.. كل ما أريده هو تصريح بسفر (عايدة) إلى (باريس)، لشراء ثوب الزفاف.
عقد (رفعت) حاجبيه، وعاد يتراجع مقعده، متمتما:
- لشراء ثوب الزفاف؟! فقط؟
أجابه (حسين) في بساطة:
- فقط يا سيدى.
ران الصمت على الحجرة لحظات، و (رفعت) ينفث دخان سيجارته ويتطلع إلى (حسين) في اهتمام، قبل أن يعتدل قائلا:
- فليكن يا (حسين)، سأمنحها تصريح السفر هذا
تهللت أسارير (حسين)، وهو يقول
- شكرا لك يا سيدي.. شكرا لك.
غادر حجرة (رفعت)، واتجه إلى مكتبه في سعادة، ورفع سماعة هاتفه وطلب رقم (عايدة)، ولم يكد يسمع صوتها، حتى قال:
- (عايدة).. لقد حصلت على تصريح السفر خيل إليه أن صوتها كان يحمل قدرا هائلا من السعادة والفرح، وهي تهتف:
- حقا!! أجابها في فرح لفرحتها، مع شيء من الزهو بنجاحه - بالطبع يا عزيزتي.. لقد سألتني إياه، وكان من الضروري أن أحضره لك.
سألته في لهفة عارمة قوية:
- ومتى أسافر إلى (باريس) يا (حسين)؟ متى؟
أجابها في سرعة:
- في أقرب فرصة بإذن الله.. ثم أضاف في لهفة محب عاشق
- المهم متي أراكِ؟

أجابت في سرعة:
- الليلة لو أردت
قال في سعادة:
- فليكن.. ستلقى الليلة في منزلي.. في التاسعة
قالت في ثقة:
- حسنا.. ولكن لا تنس إحضار التصريح معك أجاب في حنان:
- لن أنسى أبدا.
لم يكد ينهي الاتصال، حتى دلف (إبراهيم مكى) إلى المكتب، وبدت ابتسامته المقيتة أشد سخرية وخبثا، وهو يقول:
- لقد استخرجنا لك تصريح السفر
تمتم (حسين) في ضيق:
- شكرا لك
جلس (إبراهيم) على المقعد المواجه لمكتب (حسين)، وقال في هدوء، لا يخلو من الخبث:
- هل تريد التصريح الآن؟
قال (حسين) في حذر:
- لو أمكن هذا.
ناوله (إبراهيم ورقة تحمل موافقة سفر الأميرة (عايدة)، مذيلة بتوقيع (رفعت كساب)، وخاتم قيادة الثورة، وتناول (حسين) الورقة في حذر، ودسها في جيبه، وهو يكرر:
- شكرا لك
ساد الصمت لحظات، ثم سأله (إبراهيم) في خبث:
- هل تثق في الأميرة (عايدة) حقا؟
أجابه (حسين) في ضيق:
- إنها ستصبح زوجتى
ابتسم (إبراهيم) ابتسامة ساخرة، وهو يقول:

- إذن فأنت تثق فيها تماما أجابه (حسين) في حزم:
- تمام الثقة
مط (إبراهيم) شفتيه، وهز رأسه، قائلا:
- يبدو أننا نختلف تماما في هذه النقطة
غمغم (حسين):
- هذا لو أننا نتفق في أية نقاط أخرى
تجاهل (إبراهيم) هذا التعليق تماما، وأكمل
- إنني لا أثق في أية أميرة سابقة
تمتم (حسين) ساخرا:
- فلنحمد الله أنني لا أشاركك نفس العقد النفسية
أطلق (إبراهيم ضحكة تهكمية عالية، وقال:
- إنك لم تشاركني أيضا سنوات عملي في خدمة الملك والأمراء والأميرات.
أجابه (حسين) على نحو أقرب إلى الاستفزاز:
- وإنني لأفخر بهذا.
ابتسم (إبراهيم في استخفاف، وتابع وكأنه لم يسمع تعليق (حسين):
- إن هؤلاء الذين يتربعون على قمة السلطة، لا يسهل عليهم التخلي عن مواقعهم المتميزة أبدا.. قد يتعاملون مع من هم أقل منهم منزلة، ولكن في سبيل مصالحهم فحسب.
قال (حسين) في حزم
- هذا رأيك
ابتسم (إبراهيم) في استخفاف، ونهض قائلا
- بالطبع.. ونهض مستطردا في خبث:
- أتمنى لك زواجا سعيدا
تمتم (حسين):
- شكرا لك

وأنتظر حتى انصرف (إبراهيم) من مكتبه، وأضاف في حنق
- يا لك من حاسد مغرور؟
وعاد إلى أحلامه بلقاء (عايدة) في المساء
وعاد إلى نبض قلبه بحبها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكد رنين جرس باب منزله يرتفع هذا المساء، حتى هرع إلى الباب في لهفة، وفتحه على مصراعيه، وهو يهتف:
- (عايدة)..
شمله الانبهار من قمة رأسه حتى أخمص قدميه هذه المرة.. لقد كانت (عايدة) ساحرة فاتنة كانت أجمل وأروع من كل المرات، التي رآها فيها من قبل.. وكانت تبتسم أروع ابتسامة وقعت عليها عيناه، في عمره كله..
وأمسك كتفيها بأصابع مرتجفة، وهو يحدق في عينيها، قائلا:
- (عايدة).. أنت اليوم فاتنة..
ضحكت في ثقة، وانفلتت من بين يديه، وخطت داخل المنزل، وهى تقول:
- أعلم هذا ثم التفتت إليه، تسأله في لهفة:
- هل أحضرت تصريح السفر؟
التقط التصريح من جيب روبه المنزل، وناولها إياه، وهو يقول مبتسما:

ـ ها هو ذا.

اختطفته من يده في لهفة، وقرأته في سرعة، ثم تنهدت في ارتياح، فاقترب هو منها، وأحاط وسطها بذراعيه، وهو يقول:

ـ ألا أستحق مكافأة؟

قالت:

ـ بالطبع.

إلا أنه لم يكن يميل نحو وجهها بوجهه، حتى أزاحته عنها، وأسرعت تشعل سيجارتها، وهي تقول:
- قل لي: متى يمكنني السفر إلى (باريس)؟
ضايقه ابتعادها عنه، وإشعالها سيجارتها، فجلس على أول مقعد صادفه وهو يقول:
- صباح الجمعة القادم هفت محنقة:
- صباح الجمعة؟!
بعد أربعة أيام كاملة؟!
أجابها في ضيق:
- كان هذا هو أول موعد ممكن
تراجعت عن ثورتها في سرعة، وغمغمت:
- فليكن.. لقد انتظرت طويلا، ولن يضيرني أن أنتظر أربعة أيام أخرى
ثم جلست على مسند مقعده، وداعبت شعره، وهى تضيف في دلال:
- إنني أتعجل زفافنا كثيرا
حاول أن يضمها إلى صدره مرة أخرى، ولكنها أفلتت منه، وهي تطلق ضحكة عابثة، والتقطت حقيبتها، قائلة:
- سأنصرف الآن
هتف في دهشة وغضب واستنكار
- تنصرفين؟! مستحيل!. لقد حضرت منذ لحظات
قالت في لا مبالاة
- الظروف تحتم انصرافي مبكرة الليلة..
وداعبت شعره مرة أخرى، مستطردة
- لقد فكرت في الاعتذار، ولكنني لم أحتمل فكرة عدم رؤيتك الليلة
سألها في اشتياق:

- ومتى أراك ثانية؟
مطت شفتيها، وهزت كتفيها، قائلة:
- الخميس مثلا
قال في ضيق:
- لقد دعوت أحد زملائي لتناول الغداء في سراي الأسرة، يوم الخميس.
قالت في استهتار:
- يمكنك تأجيل الدعوة.
أجاب في توتر:
- مستحيل.. إنه متقدم لخطبة شقيقتي (شريفة).
ابتسمت في سخرية، وقالت:
- ابق معه إذن، ولنلتقِ صباح الجمعة، وأنت توصلني إلى المطار.
قال في خفوت:
- سأشتاق إليك كثيرا
أجابته في سرعة:
- وأنا أيضا.. إلى اللقاء.
غادرت منزله في خطوات سريعة، دون أن تضيف حرفا آخر، وبقي وحده في المنزل محقنا، حزينا، وغمغم:
- لا بأس.. لن تلبث أن تصبح زوجتي، ونقضي معا عمرنا كله
وفي تلك اللحظة ابتسم القدر
ابتسم في سخرية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

30 – الصدمة..

بدأ الاستعداد لدعوة الغداء منذ فجر الخميس، حيث استيقظت (شريفة) مبتهجة، وأيقظت (ناهد) و (فاطمة)، ورحن يطهين أصناف الطعام في حماس، على الرغم من معرفتهن بأن الوليمة لن تضم هذه المرة سوى ضيف واحد..

ولكن هذا الضيف كان العريس المنتظر.. عريس (شريفة) وفي مرح هتفت (ناهد):

- لم يعد باقيا سواى

ضحكت (شريفة)، وهي تقول:

- لا تقلقي بشأن هذا، فأنت أكثرنا جمالا، وسيتهافت الشباب لخطبتك

قالت (ناهد) في دلال:

- حقًا!!

ضمتها (شريفة) إلى صدرها، وقالت:

- بالتأكيد يا شقيقتي العزيزة.. يبدو أن أمنا (رحمها الله) قد ادخرت الجمال كله لك.

ضحكت (ناهد) في مرح وسعادة، وقالت:

- وعلى الرغم من ذلك، سأكون آخر من تتزوج.

غمغمت (فاطمة) بصوتها الأجش

- من يدري؟

صاحت بها(شريفة) في غلظة:

- اخرسي، وأكملي طهو الأرز في صمت

مطت (فاطمة) شفتيها في اعتراض، وهي تقول:

- لماذا تتعاملان معي على هذا النحو؟ إنتي زوجة شقيقكما

هتفت بها(ناهد):

- ماذا تقولين؟! إياك أن تضعي تلك الفكرة الحمقاء في رأسك الأجوف.. لقد كنتِ، وما زلتِ، وستظلين مجرد خادمة.
غمغمت (فاطمة) في غضب:
- كيف؟ إنني زوجة شقيقكما (حافظ)، على سنة الله ورسوله
أطلقت (شريفة) ضحكة ساخرة، وقالت:
- يا لك من مسكين يا (حافظ)!
وهتفت (ناهد):
- ضعي في رأسك دوما أن زواجك من (حافظ) كان مجرد وسيلة لتوفير خادمة دائمة له، وأن..
انطلق فجأة صوت صارم غاضب يهتف:
- (ناهد).
التفتت (ناهد) إلى مصدر الصوت في ضيق، وهي تقول:
- (مفيد).. لقد أفزعتني
صاح بها غاضبًا:
- كيف تتعاملين مع زوجة شقيقك على هذا النحو؟
ألقت (ناهد) نظرة ازدراء على (فاطمة)، وقالت في اشمئزاز
- زوجة شقيقي؟! هل ستوافقها على هذه السخافة؟
قال في حزم:
- السخافة هي ما تقولين يا (ناهد)، فـ (فاطمة) هي زوجة (حافظ) شرعيا ورسميا، شئت هذا أم أبيت..
مصمصت (شريفة) شفتيها، وقالت:
- من سوء حظه
أجابها في حدة:
- وباختيارك وإصرارك
قالت في سخرية
- كنت عمياء القلب حينذاك

صاح في غضب:
- كفي.. إنك..
كانت المقاطعة من نصيبه هو هذه المرة، عندما اندفع (عبد الحميد) داخل المطبخ، هاتفا:
- لقد وصل (حسين) بك وضيفه..
أسرع (مفيد) يستقبل (حسين) و (فؤاد)، في حين بدا الارتباك على (شريفة)، وهي تردد:
- وصلا.. وصلا. ضحكت (ناهد) وقالت:
- نعم.. لقد وصلا، وعلى العروس أن تترك المطبخ، وتتزين، تمهيدا لمقابلة العريس..
وصحبتها إلى خارج المطبخ، مستطردة في صرامة:
- أريد كل شيء معدا لحظة الغداء يا (فاطمة).. هل تفهمين؟
تمتمت (فاطمة) في استسلام
- أفهم ثم انحدرت من عينيها دمعة
دمعة هوان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استقبل (مفيد) (حسين) وضيفه في ترحاب، واتخذ الثلاثة مجلسهم في حجرة الضيوف، وقال (فؤاد):
- رائع هو هذا السراى يا (حسين).. لقد أبدع والدك تأثيثه
تمتم (حسين) مزهوا:
- إنه بيت العائلة يا (فؤاد) بك
أومأ (فؤاد) برأسه متفهما، وقال:
- ونعم العائلة..

وبسرعة اتصل الحديث بين الثلاثة، حول أحوال البلد والسياسة، وبدا (مفيد) متحفظا إلى حد كبير، وكأنما يخشى إثارة غضب شقيقه، أو حزن (شريفة) لو أنه صارح عريسها المنتظر برأيه الحقيقي فيما يحدث..

ومن خلف باب الحجرة التي تصل ما بين ردهة السراى وحجرة الضيوف اختلست (شريفة) و (ناهد) النظر إلى (فؤاد)، وهمست (شريفة) في سعادة:

- انظرى يا (ناهد).. كم هو وسيم وأنيق في زيه العسكري!! ربتت (ناهد) على كتفها في حنان، وهي تقول:

- مبارك يا شقيقتي العزيزة.. إنه يبدو لائقا لك تماما

راحتا تختلسان النظر والسمع طويلا، حتى هتف (حسين):

- ألن نتناول طعام الغداء؟

أسرعتا إلى المطبخ، وارتجفت (شريفة)، وهي تحمل الأطباق إلى حجرة الضيوف،

- إني أشعر بخجل شديد.

ضحكت (ناهد) قائلة:

- هذا شأن كل عروس.

نهض (فؤاد) واقفا، عندما رآهما تدلفان إلى الحجرة، وترصان أطباق الطعام على المائدة، وقال (حسين)، وهو يقدم له (شريفة):

- أختي (شريفة). وابتسم مستطردا:

- العروس.

احمر وجه (شريفة) خجلا، في حين صافحها (فؤاد) في احرام، قائلا

- تشرفنا.

سحبت يدها من يده في حياء، وأسرعت عائدة إلى المطبخ، وهي ترتجف من فرط الانفعال، في حين قدم (حسين) (ناهد) إلى (فؤاد)، قائلا:

- شقيقتي الصغرى (ناهد)

ضحكت (ناهد) في مرح، وهي تصافح (فؤاد)، قائلة:

- آخر عنقود بنات العائلة.

أضاف (فؤاد) مبتسما:
- يقولون إن آخر العنقود هو أكثره حلاوة.
ضحكت قائلة:
- يبدو أنهم على حق.
التفت (فؤاد) إلى (حسين)، وسأله ضاحكا
- هل يعني هذا أن خطيبتك الأميرة (عايدة) آخر عنقود أيضا؟
استدارت العيون إلى (حسين) في دهشة، وبدا هذا الأخير مرتبكا. وهو يقول:
- نعم.. هي كذلك.
سألته (ناهد):
- هل خطبت أميرة؟ ابتسم في زهو، قائلا:
- نعم.. وسيتم زفافا قريبًا بدا الضيق على وجه (مفيد)، وهو يقول:
- ولماذا لم تخبرنا من قبل؟
قال في صرامة:
- كنت أنتظر الوقت المناسب.
ضحك (فؤاد)، وقال:
- وأنا اخترت هذا الوقت المناسب
قال (حسين)، محاولا التخلص من حرج الموقف:
- هيا نتناول الطعام، قبل أن يبرد.
تركتهم (ناهد) يتناولون طعامهم، وأسرعت إلى المطبخ، وقالت لشقيقتها (شريفة) في سعادة:
- (حسين) سيتزوج أميرة يا (شريفة).. الأميرة (عايدة)
هتفت (شريفة) في فرح:
- أميرة؟! حقا؟! إن (حسين) يستحق زوجة كهذه بالفعل ثم التفتت إلى (فاطمة)، وأضافت في ازدراء:
- حتى لا يسوء حظه ك (حافظ)

عقدت فاطمة) حاجبيها، دون أن تنبس ببنت شفة، في حين صفقت (ناهد) بكفيها في جذل طفولى، قائلة:
- زوجة شقيقنا (أميرة)، يا لها من روعة! ثم أمسكت يد (شريفة) في قوة، مستطردة في فرح:
- وأنت ستكونين زوجة أحد رجال الثورة.. أرأيت كم تقفز أسرتنا إلى أعلى؟
شردت (شريفة) ببصرها، وانحدرت دمعة على وجنتها، وهي تقول
- هذا ما تمناه أبي في حياته
مسحت (ناهد) دمعة (شريفة) بأصابعها، وهي تقول:
- لا دموع اليوم ثم أضافت في مرح:
- دعينا نختلس السمع إلى الرجال ولنعرف ماذا يقولون عنا.
وافقتها (شريفة) بالإيماءة هادئة من رأسها، وصحبتها إلى الحجرة المجاورة لحجرة الضيوف في لهفة، في نفس اللحظة التي انتهى فيها الرجال من تناول طعامهم، وقال (فؤاد) مبتسما:
غداء رائع يا (حسين).. كما عودتنا دوما
أجاب (حسين) في فخر وسعادة:
- يسعدني أن راق لك يا (فؤاد) بك
قال (فؤاد) في حماس:
- بالتأكيد.. واتخذ لنفسه مقعدا، وأشعل سيجارته، ونفث دخانها في عمق، وقال:
- أنت تعلم بالطبع أنني أرغب في الزواج من شقيقتك يا (حسين).. أليس كذلك؟
أو ما (حسين) برأسه إيجابا، وقال:
- بلى يا (فؤاد) بك.. لقد أخبرني (رفعت بك كساب) وهذا شرف كبير لأسرتنا.. ولن أجد لشقيقتي (شريفة) زوجا أفضل، و.

قاطعه (فؤاد)، وهو ينفث دخان سيجارته في هدوء:
- هذه هي المشكلة
سأله (حسين) في دهشة:
- أية مشكلة؟
مال (فؤاد) إلى الأمام، وقال:
- إنني لا أريد الزواج من (شريفة).
كاد قلب (شريفة) يتوقف، عند سماعها هذه العبارة، في حين سأله (مفيد) في دهشة:
- ماذا تعني؟
ابتسم (فؤاد) في هدوء، وهو يقول
- أريد (ناهد).. أريد الزواج من (ناهد)، لا(شريفة)
وكانت صدمة لـ (شريفة)..
صدمة قاسية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

31- صفعة..

أطلقت الأميرة (عايدة) ضحكة عالية، وهي تجلس إلى جوار (حسين)، في سيارة هذا الأخير، التي تنطلق بهما إلى المطار، والتفتت إليه تقول:

- طلب يد (ناهد) بدلا من (شريفة)! يا له من موقف! وماذا فعلت أنت!

- لم أدر ماذا أقول.. لقد هزتني المفاجأة من الأعماق، فطلبت منه مهلة للتفكير.

وزفر مرة أخرى، قبل أن يهتف محنقا

- ولكن لماذا وضعني في هذا المأزق الحرج؟ ابتسمت (عايدة) في سخرية، وهي تقول:

- لأنه الآن أشبه بطفل مدلل، حاز شقيقه كل السلطة بضربة واحدة وهو لا يتصور أن يرفض مخلوق مطلبه، مهما بلغت غرابته.

لم ينبس (حسين) ببنت شفه، وإن عقد حاجبيه في ضيق، فداعبت (عايدة) شعر رأسه، وهي تستطرد:

- ولن يمكنك رفض مطلبه. أليس كذلك؟

قال في مرارة:

- لا يمكنني هذا.. أنت تعلمين شقيق من هو، ولكن المشكلة أن (ناهد) ترفض الزواج منه، حتى لا تجرح شقيقتها.

مطت (عايدة) شفتيها، وقالت:

- غبية.

ارتفع حاجبا (حسين) في دهشة، وهو يقول:

- غبية؟! ولكنها تساند شقيقتها، التي جرح مطلب (فؤاد) مشاعرها إلى أقصى حد.

قالت في حدة:

- أية مشاعر؟! إن (شريفة) لم ترتبط بـ (فؤاد) هذا من قبل، ولا تجمعهما قصة حب أو هيام.. إنه مجرد شاب تقدم لخطبتها، ولقد وقع اختياره على شقيقتها، وهذا حقه.
أجاب في ضيق:
- ربما كان هذا منطق العصر، ومنطق المدن، ولكن هذا يختلف في الأرياف، فـ(شريفة) هي الأخت الأكبر، ومن الضروري أن تتزوج قبل (ناهد).
لوحت بكفها في حزم:
- لا توجد ضروريات فيما يتعلق بالزواج
بدا الضيق على وجهه، فمالت نحوه، وأبدلت لهجتها بأخرى ناعمة دافئة، وهي تقول:
- ولكن دعنا من هذا.. سأشتاق إليك كثيرا في (باريس).
قال وهو يرنو إليها في حب جارف
- سأشتاق أنا إليك أكثر هنا..
ثم ضغط كفها بأصابعه في حرارة، مستطردا:
- أرسلي لي برقية فور وصولك إلى (باريس) يا (عايدة).. أرجوك
ابتسمت ابتسامة ساخرة، وهي تقول:
- اطمئن يا حبيبي.. سأفعل بكل سرور.
- وعودى بسرعة
أطلقت ضحكة عالية، وأشاحت بوجهها عنه، وتطلعت إلى المطار الذي يقترب في سرعة، وقالت:
- سأحاول يا (حسين).. سأحاول
ولكن لهجتها كانت تحمل شيئا لم يرق له
شيئا غامضا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

احتضنت (ناهد) شقيقتها (شريفة) في قوة، وهي تهتف مخلصة:
- لن أقبل يا (شريفة).. لن أقبل هذا الزواج أبدا
أزاحتها (شريفة)، وقالت في مرارة:
- لماذا يا (ناهد)؟ إنه يطلبك أنت لا أنا، وهذا حقه
صاحت (ناهد):
- لعنة الله عليه.. إنه لن يفرق بيننا، لن أتزوجه ما دام يرفضك
انحدرت دمعة من عينى (شريفة)، وهي تقول:
- لن يسمح (حسين) بهذا.
قالت في عناد:
- إنه لم يوافق بعد
- ولكنه سيفعل
- من المستحيل أن يسمح له (حسين) بإيذائك.
- أنت تجهلين طبيعة (حسين) إذن.. إنه لن يخاطر برفض شقيق أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة.
- ولكني أرفضه.
- لن يعنيه هذا كثيرا.
- مستحيل يا (شريفة).. مستحيل!
- لماذا يا (ناهد)؟ إنه مجرد زواج تقليدي.. إنني لم أرتبط مع هذا الضابط بقصة حب، حتى أنهار لمجرد زواجك منه
- ولكن

- تزوجيه يا (ناهد).

نطقت (شريفة العبارة الأخيرة في صرامة وحزم، وكأنها قد حسمت رأيها، واتخذت قرارها في هذا الشأن، فتطلعت إليها(ناهد) في حيرة، ورأت كيف أن دموع شقيقتها قد جفت أو نفدت، فتمتمت:

- (شريفة).. صدقيني.. إنني.

قاطعتها (شريفة) في حزم:

- (فؤاد) شاب جيد يا (ناهد)، ومن الخطأ ألا تصاهره أسرتنا، ثم إن مصاهرتنا له ستمنحنا القوة، التي حلم بها والدنا (رحمه الله) طيلة عمره، ولن أسمح لنفسي بأن أكون السبب في عدم تحقيق حلم أبي.

تطلعت إليها (ناهد) في حيرة، ثم خفضت عينيها مغمغمه

- سيفعل الله (سبحانه وتعالى) ما فيه الخير حتما..

وغادرت الحجرة في خطوات بطيئة، ولم تكد تغلق الباب خلفها، حتى انهار قناع التماسك على وجه (شريفة)، وانفجرت باكية..

كانت أول صفعة لأنوثتها..

وأقسى صفعة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ابتسم (إبراهيم مكى)، وهو يدلف إلى حجرة (حسين)، الذي نهض واقفا، وقال في لهجة لا تحمل أية مشاعر:

- مرحبًا بك في مكتبي.

جلس (إبراهيم) على أقرب مقعد إلى مكتب (حسين)، وقال بلهجته الغامضة القلقة:

- لقد رأيت أن أقضي معك بعض الوقت.. هل يضايقك هذا؟

كان (حسين) يضيق بالجلوس مع (إبراهيم مكـى) بالفعل، إلا أنه جلس في بساطة، وهو يقول:

- اهلا بك.

ران عليهما الصمت لحظات، وكلاهما يتطلع إلى الآخر، وكأنما ينتظر منه بدء الحديث، ثم لم يلبث (إبراهيم) أن قال في هدوء، وبابتسامة لم ترق لـ(حسين) أبدًا..

- لقد سافرت الأميرة (عايدة).. أليس كذلك؟

بدا الضيق على وجه (حسين)، وهو يقول:

- نعم.. لقد سافرت هذا الصباح

لم ترق له لهجة (إبراهيم) هذه المرة أيضا، وهو يقول:

- وهل ستعود؟

عقد (حسنين) حاجبيه، وهو يقول في صرامة:

- بالطبع

أطلق (إبراهيم) ضحكة قصيرة ساخرة خبيثة، جعلت (حسين) يقول في توتر:

- ما الذي تسعى إليه بالضبط؟

أجابه (إبراهيم)

- إنني أشفق عليك في الواقع

قال (حسين) في عصبية
- ومن قال انى أحتاج إلى شفقتك؟
مال (إبراهيم) نحوه، وقال في بطء وبرود:
- لو أنك لا تحتاج إليها الآن، فستسعى إليها غدا
قال (حسين) في حدة
- أتحداك
تراجع (إبراهيم)، قائلا في سخرية:
- تتحداني؟!
ثم أطلق ضحكة تهكمية مجلجلة، انتزعت (حسين) من خلف مكتبه، وجعلته يهتف في غضب:
- لماذا تتعمد إثارتى؟
ألقى عليه (إبراهيم) نظرة مستهترة، مرددا:
- إثارتك؟ ثم عاد يميل نحوه، مستطردا:
- لا تكن كالزوج، آخر من يعلم يا فتى، إن (عايدة) لن تعود إلى (مصر) أبدا.
تقافزت شياطين الغضب من وجه (حسين)، وهو يهتف:
- أي قول أحمق هذا؟
أجابه (إبراهيم في سخرية:
- القول الحق، الذي لم تشعر به أبدا أيها الغر الساذج، والذي شعرنا به كلنا.. لقد كانت (عايدة) تلعب بك، وتتخذك وسيلة للحصول على تصريح بالسفر إلى (باريس)، حيث الأموال التي هربتها إلى هناك، والمجوهرات التي تكفل لها العيش في المستوى الذي ألفته.
شحب وجه (حسين)، وهو يجلس على مقعده في بطء، مغمغما
- وسيلة؟!

تابع (إبراهيم) في تهكم
- كلنا كنا نعلم هذا.. أنا و(رفعت) بك.. وحتى القادة الكبار، ولكننا رأينا أنك تحتاج إلى درس قوى، لتعلم كيفية التعامل مع هذا العهد الجديد ووجدنا أنه لن يضيرنا كثيرا أن نسمح لـ (عايدة) بالفرار، لنربح ضابطا قويا في هذا المجال الجديد.
ردد (حسين) في شحوب:
- مستحيل!
ثم اعتدل بغتة، مستطردا في حدة
- إنها خدعة جديدة.. أليس كذلك؟
هز (إبراهيم) رأسه، وقال:
مطلقا
والتقط من جيبه برقية مطوية، ناولها إلى (حسين)، قائلا:
- وهذا هو الدليل.
مد (حسين) أصابعه المرتجفة نحو البرقية، والتقطها من بين أصابع (إبراهيم)، وبذل جهدا لفضها، مع ارتجافة أصابعه الشديدة، ولم يكد يقرأ الكلمات القليلة المسطورة عليها، حتى هوى قلبه بين قدميه، وتوقف عن النبض تماما...
كانت الكلمات بالإنجليزية، تقول:
- اذهب أنت وثورتك إلى الجحيم...
وأسفلها اسم (عايدة).. وأنهار (حسين).. انهار عاطفيا ومعنويا لقد صفعته (عايدة) بالفعل
صفعته صفعة لن يحتملها..
صفعة كالقنبلة..

وفي انهيار ألقي البرقية، وتركها تتراقص في الهواء، قبل أن تستقر بين قدميه أرضا..

وفي هدوء نهض (إبراهيم مكـى)، والتقط البرقية، وطواها مرة أخرى، ووضعها في جيبه، قائلا في لهجة واضحة الشماتة:

- إنه فشل ذريع يا رجل

تطلع إليه (حسين) منهارا مستجديا مستنجدا وهو يغمغم:

ماذا أفعل؟ سيحطم هذا مستقبلي تماما ابتسم (إبراهيم) في ظفر، وكأنما راق له أن يلجأ (حسين) إليه على هذا النحو، أو كأنه كان يسعى إلى هذا بالذات، وقال في هدوء:

- هل تريد رأيي حقا؟

تمتم (حسين): أرجوك

اعتدل (إبراهيم)، وبدت قامته أكثر طولا، وهو يقول

- سارع بإتمام زواج شقيقتك (ناهد) من (فؤاد).

تطلع إليه (حسين) في دهشة وحيرة، فابتسم (إبراهيم) في خبث، وقال:

- سيضمن لك هذا حماية كافية وبدت له الفكرة منطقية ومقبولة. إنه بإتمام الزواج سيصبح صهرا لواحد من أقوى رجال مجلس قيادة الثورة.. وسيحصل على الحماية..

كل الحماية.

وفي نفس اللحظة التي راح عقله يدرس فيها الفكرة، استرجعت ذاكرته عبارة قديمة قالتها (عايدة) عن (إبراهيم مكى)..

(إنه لا يسعى لهزيمتك، وإنما لفرض سيطرته عليك..)

وأدرك لحظتها أنها كانت على حق

على حق تماما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

32 - الخسارة..

أقيم حفل زفاف (ناهد) و (فؤاد) في أحد الفنادق الفاخرة، في قلب (القاهرة)، وشعر (حسين) بالارتياح يغمر قلبه، عندما حضر معظم مجلس قيادة الثورة الحفل، وبدوا كرمز للقوة والسطوة، بأزيائهم الرسمية ذات الأزرار اللامعة، وهم ينتشرون داخل الحفل، بعد ساعات من إعلان الجمهورية، وإلغاء الملكية.

وعلى الرغم من ابتسامة (شريفة)، التي لم تفارق شفتيها طيلة الحفل، كان قلبها يشعر بشيء من الخوف؛ لأن شقيقتها الصغرى قد سبقتها إلى الزواج.

أما (ناهد) نفسها فقد أنساها ثوب الزفاف، وأنستها مظاهر الفرح موقفها المساند لشقيقتها، فأينع وجهها بابتسامة فرح وزهو، وهي تجلس إلى جوار عريسها الوسيم، وسط باقات الزهور، ورجال السلطة في البلاد.

ولم يحضر (عمر) الحفل كالمعتاد، وإن لم يمنع زوجته من حضوره، على الرغم من أنه يقام في (القاهرة)، بخلاف كل حفلات الزفاف السابقة في الأسرة، وحضر (عبد الحكيم) وزوجته (توحيده)، وقد شملهما تحفظهما التقليدي، فاكتفيا بالابتسام، ومتابعة الحفل في رصانة، في حين انتحي (مفيد) ركنا قصيا في صمت، يراقب رجال مجلس قيادة الثورة، بأكثر مما يراقب العروسين، إلى أن ربت (رفعت كساب) على كتفه، وهو يجلس على المقعد المجاور له، قائلا:

- كيف حالك يا (مفيد) بك؟ هل ستكتفي بالمشاهدة فحسب؟

أجبر (مفيد) نفسه على الابتسام، وهو يقول

- نظام حفلات الزفاف في الفنادق الكبرى، لا يسمح لأقارب العروس بغير هذا.

ضحك (رفعت)، وهو يقول:
- هذا أفضل.. أليس كذلك؟
ودون أن ينتظر جوابًا من (مفيد)، مال نحوه مستطردا:
- ولكن لماذا تبدو قلقا؟
ابتسم (مفيد) ابتسامة باهتة، وقال:
أنك شديد الملاحظة
أجابه (رفعت) في زهو:
- إنه عملى.. ثم أضاف في اهتمام:
- ولكنك لم تجب عن سؤالي بعد.. لماذا تبدو قلقا؟
شرد(مفيد) ببصره لحظات، وهو يتساءل عما إذا كان من اللائق أن يخبره بسبب قلقه الحقيقي أم لا.
لقد كان الموقف كله يقلقه..
رجال الثورة بأناقتهم المفرطة، وزهوهم الواضح..
سعادة (ناهد) الجمة، وهي تزف إلى الرجل الذي جاء يخطب شقيقتها في البداية..
الحزن الكامن في أعماق(شريفة)، والذي تخفيه ابتسامتها الشاحبة
عدم حضور (فاطمة) و (حافظ) الحفل.
كل هذا يحنقه ويقلقه، ولكن سبب قلقه الفعلي كان يختص بـ (ماهر) و(زينب)، ولقد أفصح عن هذا السبب الأخير لـ (رفعت)، قائلا:
- الواقع أن تأخر (ماهر) و (زينب) يقلقني، فلقد ابتاع (ماهر) سيارة جديدة، وأصر على الحضور بواسطتها إلى (القاهرة)، وهو لم يجد قيادة السيارات بعد، و....
قاطعه (رفعت) مبتسما:
- لا تجعل هذا يقلقك.. سأرسل دورية للبحث عنهما على الطريق، ربما أصيبت سيارة (ماهر) بعطب أو خلل ما.. اطمئن.

تركه وذهب ليلقى أوامره بإرسال الدورية، في حين راح (مفيد) يتطلع إلى الحفل مرة أخرى، وهو يتذكر (مديحة)، التي لم يرها منذ أكثر من شهر، والتي لم يستطع دعوتها مع والدها لحضور حفل زفاف شقيقته..

وتساءل في أعماقه: هل يوافق (حسين) على زواجه من (مديحة)، كما وافق على زواج (حافظ) من (فاطمة)؟

لم يستطع إيجاد جواب حاسم منطقى، لعجزه عن استنتاج مواقف وقرارات (حسين)، التي تتناسب دوما مع حالته النفسية.

وحالة (حسين) النفسية تبدو له غامضة هذه الأيام إنه يبدو أشد صرامة وقسوة، على الرغم من حزن دفين في أعماقه، تفصح عنه عيناه في وضوح.

ثم إنه لم يعد يتحدث عن زواجه بتلك الأميرة السابقة.. لقد تشاجر حتى مع (شريفة)، ومنعها من ذكر الأمر، عندما سألته عنها لا ريب أنهما قد انفصلا أو اختلفا.

بحث ببصره عن (حسين)، حتى رآه يجلس في ركن القاعة، حول منضدة واحدة مع (إبراهيم مكـى)، ولم يتصور لحظتها أنهما يتحدثان عن نفس المرأة.. عن الأميرة (عايدة)..

كان (إبراهيم) يقول:

- هل علمت أن (عايدة) قد افتتحت متجرا فاخرا للأزياء في (باريس)؟

أشاح (حسين) بوجهه، وهو يجيب:

- نعم.. لقد أخبرني مندوبنا هناك

نفث (إبراهيم) دخان سيجارته، وهو يقول:

- يلوح لي أن هذا العمل يناسبها كثيرا، فهو يعتمد على المظاهر الخداعة والبراعة في إقناع العملاء.

تمتم (حسين) في اقتضاب، وكأنما يرغب في إنهاء الحديث حول هذه النقطة:
- هذا صحيح
ابتسم (إبراهيم) في خبث، وكأنما أدرك غرض (حسين)، والتفت يتابع فقرات الحفل، قبل أن يسأل (حسين) في هدوء:
- هل علمت بالخلاف بين (محمد نجيب)، وأعضاء مجلس قيادة الثورة؟
التفت إليه (حسين) في دهشة: - أي خلاف؟! لقد أعلنوا إلغاء الملكية وقيام الجمهورية اليوم فحسب!
اتسعت ابتسامة (إبراهيم)، وكأنما راق له أن يدهش الخبر (حسين)، وقال:
- إنه خلاف قديم، فلقد وضعوه على رأسهم، على الرغم من أنه لم يقد الثورة فعليا، ولكنه يرفض الاعتراف بهذا، ويصر على الظهور بمظهر الزعيم وهذا لا يروق لهم طبعا، وبخاصة لـ (جمال عبد الناصر)، القائد الحقيقي للثورة.
سأله (حسين) في اهتمام
- وهل تتوقع أن يتطور هذا الخلاف؟
التفت إليه (إبراهيم)، وأجاب في حسم
- بالتأكيد ثم مال نحوه، مستطردا:
- وأظننا سنضطر قريبا إلى تحديد موقفنا في حسم، ما بين تأييد (جمال أو...
ازدرد (حسين) لعابه في توتر وسأله:
- ومن تختار في هذه الحالة؟
أجابه في حسم:
- (جمال عبد الناصر)، وبلا تردد
سأله (حسين) في دهشة:

- أتثق في قدراته إلى هذا الحد؟
ابتسم (إبراهيم) في خبث، وهو يقول:
- تستطيع أن تقول إنني أمتلك حاسة خاصة، تقودني دائما إلى أصحاب القوة.
كانت هذه آخر عبارة تبادلاها خلال الحفل، وإن راح (حسين) يسترجعها، ويقلبها على كل الوجوه، حتى حانت زفة العروس، وانتقلت (ناهد) مع عريسها إلى حجرتهما، في الفندق نفسه، وهدأت المأمور نسبيا وراح (حسين) يصافح المهنئين، ويشكر رجال مجلس قيادة الثورة في أثناء انصرافهم، ثم التفت إلى شقيقه (مفيد)، يسأله في ابتهاج:
- ما رأيك؟ كان حفلا رائعا.. أليس كذلك؟!
بدا له (مفيد) واجما متوترا، فكرر سؤاله الأخير في حدة:
- أليس كذلك يا (مفيد)؟
رفع (مفيد إليه عينين شاردتين، وبدا وكأنه ينتبه إلى وجوده بغتة، وهو يقول:
- معذرة يا (حسين).. لم أنتبه إليك.. كنت أفكر في أمر (زينب) و(ماهر).
سأله في توتر
- ماذا عنهما؟
قال (مفيد) في قلق واضح:
- إنهما لم يحضرا الحفل، ولقد أرسل (رفعت كساب) دورية خاصة. للبحث عنهما، و..... بتر عبارته بغتة، وهو يشير إلى ما خلف (حسين)، هاتفا:
- ها هو ذا.. لقد عاد.
التفت (حسين) إلى (رفعت كساب)، الذي تقدم نحوها بخطوات سريعة، وبدا جامدا، وكأنما يحاول إخفاء أمر ما، فسأله (حسين)

في قلق:
- هل عثرت على شقيقتي وزوجها يا (رفعت) بك؟
- تماسك يا (حسين).. أنت رجل، والرجال يحتملون أشد المواقف، و.....
صاح (مفيد) في هلع:
- ماذا حدث يا (رفعت) بك.. ماذا حدث؟
خفض (رفعت) عينيه، وهو يقول: - لقد تعرضت سيارة (ماهر) لحادث سير، و٠٠٠٠٠٠.
قاطعه (مفيد) صارخا:
- وماذا؟
ران الصمت لحظة واحدة، بلغ خلالها شحوب وجه (حسين) أقصى مداه، وخفق فيها قلب (مفيد) ألف خفقة على الأقل، قبل أن يقول (رفعت):
- والبقية في حياتكما.. لقد لقيا مصرعهما معا
وخيل لـ(مفيد) لحظتها أن قلبه قد توقف عن الخفقان إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

33 – الحزن..

تسللت (مديحة) عبر أعواد القطن، إلى جذع الشجرة الكبيرة، وارتفع حاجباهما في حنان وإشفاق، وهي تتطلع إلى (مفيد)، الذي ارتكن إلى جذع الشجرة بظهره، وضم ركبتيه إلى صدره، وشرد ببصره بعيدا، وقد التمعت عيناه بدموع حبيسة، تأبي كرامته السماح لها بالانطلاق معلنة حزنه.

ودون أن تتفوه بحرف واحد، جلست (مديحة) إلى جواره، وتسللت يدها الرقيقة تتحسس كفه، وتربت عليها في تعاطف، فمنحها نظرة امتنان، وهو يغمغم في خفوت:

ـ كنت أعلم أنك ستأتين يا (مديحة)

قالت في حنان:

ـ ما كنت لأتركك وحدك، مع كل هذا الحزن

تنهد في حرارة، وقال:

ـ لقد أحاط بنا حزن هائل، منذ بلغنا الأمر يا (مديحة)، فلقد كانت (زينب) زهرة أسرتنا، واللمسة الرقيقة لحياتنا، وبالنسبة لي بالذات لم تكن مجرد شقيقة، وإنما كانت أما أيضا، بعد أن فقدت امي مع مولدى كما تعلمين.

فرت دمعة من عينيه دون أن يدري، وسالت على وجنتيه، وانفطر لها قلب (مديحة)، فشاركتها بدمعة حزن من عينيها، وهي تقول:
- إنه القدر يا (مفيد)، وأنت رجل مؤمن.
تمتم:
- نعم.. إنه القدر.
وشرد ببصره لحظات أخرى، سال فيها الدمع على وجهه دافئا، فربتت (مديحة) على كفه مرة أخرى في حنان، وسمعته يقول في حزن:
- أول مرة أرى فيها (حسين) يبكى في حرارة.. لقد كانت صدمة قاسية له، ولـ (ناهد)، التي علمت الخير صباح زفافها، و (شريفة) لا تزال تبكى حتى هذه اللحظة، على الرغم من مرور أسبوع كامل على وفاة (زينب) و (ماهر).
وصمت لحظات، قبل أن يضيف:
- ولكن (عمر) زوج (نعيمة) لم يأت لتعزيتنا.. لقد أرسل برقية عزاء فقط، مثلما يفعل الغرباء، في حين وقف (عبد الحكيم) زوج (توحيده) إلى جوارنا وقفة فارس..
حقا.. المصائب تبرز الرجال
غمغمت:
- أنت تعلم موقف (عمر) من أسرتكم، منذ حادثة (حسين) وقضية الميراث.
هز رأسه، وقال:
- الموت أجلّ من أن تعترضه مثل هذه الخلافات
تنهدت وقالت:
- ليت الجميع مثلك
ثم سألته في اهتمام:

- وهل عاد (حسين) إلى شقته في (القاهرة)؟ أومأ برأسه إيجابا، وقال:
- من العسير على رجل في وضع (حسين) أن يبتعد عن مكان عمله طويلا
ربتت على كفه مرة أخرى، فالتفت إليها، وقال في حزن:
- لست أدري لماذا يفعل بنا القدر هذا يا (مديحة)؟ كلما اقترب موعد لقائنا باعدت بيننا أحداث مؤلمة
- لكل شيء موعده يا (مفيد).
أراح رأسه على جذع الشجرة، وهو يتمتم
- نعم.. لكل شيء موعده
ولكن القدر كان يخفى لهما الكثير
الكثير جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اندفع العمدة داخل حجرة الضيافة بمنزله، وهو يهتف في قلق:
- خيرا يا سعادة البك المأمور.. أخبروني أنك تطلب رؤيتي على وجه السرعة.. ماذا حدث؟!
أجابه المأمور في انفعال واضح
- لقد استقال (محمد نجيب) هتف العمدة في دهشة
- استقال!! وألقى جسده على أريكة قريبه، وعقد حاجبيه في شدة، وهو يكرر:
- استقال!! وكيف.. لماذا؟
لوح المأمور بكفه، قائلا
- لا أحد يدري.. لقد نشر بيان استقالته في صحف الصباح
غمغم العمدة ذاهلا

- يا لها من مفاجأة!
مال المأمور نحوه، وقال
- هناك مفاجأة أخرى تثير القلق
رفع العمدة عينيه إليه، وسأله:
- أية مفاجأة؟
اعتدل المأمور، وتلفت حوله في قلق، ثم عاد يميل على أذن العمدة، قائلا:
- (حسين البنهاوي) هنا في القرية، وهو يعلن تأييده لاستقالة (محمد نجيب)، ويصر على أن (جمال عبد الناصر) أحق منه بالرياسة.
عقد العمدة حاجبيه في شدة، وهو يقول:
- عجبًا... من المؤكد أن لديه ما يدفعه لهذا التأييد، فهو أحد رجال السلطة، ويعلم حتما ما يخفي عنا نحن.
هز المأمور رأسه نفيا، وقال:
- كلا.. يبدو لي أنه مجرد انفعال عاطفى، فلقد اتصلت بابن شقيقتي في (القاهرة)، وعلمت منه أن الشعب كله ثائر لاستقالة (نجيب)، وأنه سيعود إلى موقعه حتما.
برقت عينا العمدة، وهو يقول:
- أتعني أنه في حالة عودته يكون ابن (البنهاوي) قد..
قاطعه المأمور في لهفة:
- وقع.. نعم يا عمدة.. لو عاد (محمد نجيب) إلى الحكم، بعد ما يفعله (حسين البنهاوي)، فسيعني هذا أن ابن (البنهاوي) قد وقع شهادة وفاته بنفسه.
ازداد بريق عيني العمدة، وهو يقول:
- وأن ما ننتظره قد حان..
وفي صوت واحد، أكمل الاثنان:

- بداية نهاية عائلة (البنهاوي).
وعلى شفتيهما، ارتسمت ابتسامة
ابتسامة ظفر
وشر...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- خطأ..
نطق (إبراهيم مكـى)، الكلمة في غضب صارم، وهو يضرب سطح مكتبه براحته كلها، فغمغم (حسين) في توتر.
- لماذا؟ لقد فعلت نفس ما أشرت أنت إليه.. لقد قمت بتأييد (جمال عبد الناصر) بلا تردد، فور نشوب الخلاف بينه وبين (نجيب).
صاح (إبراهيم)، وهو يلوح بكفه:
- افعل هذا في أعماقك، ولا تعلنه على هذا النحو.
سأله (حسين):
- لماذا؟ لقد انتصر (عبد الناصر) بالفعل صاح (إبراهيم).
- ليس بعد
ثم مال نحوه، مستطردا في حدة:
- ألم تصلك أخبار المظاهرات في كل مكان.. ألم تعلم أن الشعب كله يطالب بعودة (محمد نجيب)؟ ألم تدرك أنه أول احتجاج شعبي جارف، على أحد قرارات الثورة؟
شحب وجه (حسين)، وهو يتمتم
- يا إلهي!! هل يعني هذا...؟
لوح(إبراهيم) بكفه، وقال:
- إنه لا يعني شيئا.. أو بمعنى أدق، لم يعن شيئا بعد، ولكن توقف عن الخوض في لعبة السياسية، ولتكتف مثلى بطاعة الأوامر،

والانتماء إلى من يحكم أيا كان.
ران عليهما الصمت لحظة، ثم سأله (حسين) في قلق
- هل تتوقع عودة (نجيب)؟
أجابه في حزم:
_ بالتأكيد
عاد وجه (حسين) إلى شحوبه، وهو يتمتم:
- يا الهى!
مط (إبراهيم) شفتيه، وقال في صرامة
- ولكن هذا لن يستمر طويلا
سأله (حسين) في لهفة:
- ولماذا تؤكد هذا؟
صمت (إبراهيم) لحظات، ثم قال:
- دراستي لشخصية (جمال عبد الناصر) تؤكد أنه محب للسلطة والزعامة، وأن هذا يجري في عروقه مجرى الدم، ولن يسمح أبدا بأن يرأسه (محمد نجيب)، بل سيفسح له في المجال قليلا، حتى يجد الوسيلة المثلى للتخلص منه، دون أن يؤذيه هذا.
سأله (حسين):
- ومتى سيفعل؟
شرد (إبراهيم) ببصره، وقال:
- قريبا.. قريبًا جدا
ثم عاد يرمق (حسين) بنظرة صارمة، مستطردا:
- المهم أن تطيع ما أشير به عليك دوما، ودون مناقشة
انكمش (حسين) دون أن يدري، وهو يغمغم
- سأفعل يا (إبراهيم) بك.. سأفعل
ولم يدرك لحظتها أن نبوءة (عايدة) قد تحققت، وأن (إبراهيم مكـى) قد سيطر عليه..

تماما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

34 – تمرد..

شردت (شريفة) بأفكارها طويلا هذه المرة، وهي تقف في مطبخ السراى مع (فاطمة)، وقفزت بها أفكارها إلى عدة أشهر مضت إلى يوم زفاف (ناهد) إلى (فؤاد):

نفس اليوم الذي اختطف فيه القدر سعادتها وزهو أنوثتها، واختطف فيه الموت أحب شقيقاتها إليها...

وفي تلك اللحظة بالذات استعادت حديثا قديما، دار بينها وبين شقيقتها الراحلة (زينب)، وانتهى بأن تمنت كل منهما أمنية..

تمت (زينب) أن تتزوج (ماهر)، وأن تحيا معه ألف عام

وتمنت هي أن تتزوج أي رجل، وأن تنجب منه ألف طفل

وتزوجت (زينب) (ماهر)، ولكنها لم تحيا معه حتى ألف يوم ولم تتزوج هي حتى الآن

أي قدر هذا..

بل أي مصير؟

ومن عينيها انحدرت دموع ساخنة، لاحظتها (فاطمة)، فربت على كتفها في حنان، وغمغمت متعاطفة:

- لا تبكى يا (شريفة).

أزاحت (شريفة) يد (فاطمة) عن كتفها في عنف، وصاحت بها وهي تمسح دموعها:

- لا تنطقي اسمى مجردا هكذا يا ابنة (عبد الحميد).. لا تخاطبيني إلا باسم سيدتي (شريفة).

تراجعت (فاطمة)، وهي تهتف مستنكرة:

- سيدتي؟! لماذا؟! إنني لست خادمتكم، بل أنا زوجة شقيقكم.

صرخت بها(شريفة) في ثورة، وكأنها تفرغ في (فاطمة) كل ما تجيش به نفسها من انفعالات:

- وبئس الزوجة!
صاحت (فاطمة)
- المهم أنني زوجته، ولم أعد أحتمل أسلوبكم هذا في التعامل معي.
كانت أول مرة تواجه (فاطمة) الثورة بالثورة؛ لذا فقد حدقت فيها (شريفة) في دهشة لبضع دقائق، قبل أن تهتف بها في غضب:

- كيف تجرؤين؟

صاحت (فاطمة):
- ولم لا أجرؤ.. إننا نتساوى هنا ثم رفعت أحد حاجبيها، مستطردة في شماتة - بل أنا أفوقك الآن.
امتقع وجه (شريفة)، وخيل إليها أن (فاطمة) تشير إلى عدم زواجها، فغمغمت في مرارة غاضبة.
- أيتها الحقيرة.. كيف...؟
قاطعها صوت (مفيد)، وهو يقول في حدة:
- ماذا حدث هذه المرة؟ ألا يمكن تركككما وحدكما، دون أن تندلع الحرب بينكما..
صاحت (شريفة، في غضب
- هذه الحقيرة تعيرني بعدم الزواج
التفت (مفيد) إلى (فاطمة)، وسألها في صرامة:
- أهذا صحيح؟
هزت كتفيها، وقالت:
- أنا لم أقل هذا
صاحت (شريفة):
- ولكنك أشرت إليه
قالت (فاطمة) في خبث:
- كل يتحسس كدمة رأسه
صرخت (شريفة):
- أرأيت؟
قال (مفيد) في حدة:
لست أسمح بهذا يا (فاطمة)، صحيح أنك زوجة شقيقي، ولكن..
ولأول مرة في حياتها، قاطعته (فاطمة) في غلظة:
- ليس لك الحق في أن تسمح أو لا تسمح.. إن لي زوجا
أدهش موقفها (مفيد) في شدة، فتمتم:

- ولكنى
قاطعته مرة أخرى هاتفة
- قلت ليس لك الحق
ثم اندفعت تغادر المطبخ، إلى حجرة (حافظ)، فالتفت (مفيد) إلى (شريفة)، يسألها في دهشة:
- ماذا أصابها؟
عقدت حاجبيها في غضب، وهي تقول:
- يبدو أنها قد أصيبت بالجنون.
لم تكد تتم عبارتها حتى برز (حافظ) خارج الحجرة، وخلفه (فاطمة) تبكى، وقال (حافظ) لـ (مفيد في توتر:
- لماذا تؤذي مشاعر زوجتي؟
بدا ذلك الموقف عجيبًا بحق، فقد كانت المرة الأولى التي يتخذ فيها (حافظ) موقفا إيجابيا، منذ وفاة والده..
بل منذ مولده..
وبارتباك أحدثته المفاجأة، غمغم (مفيد):
- لم يؤذ أحد مشاعرها يا (حافظ).. إنه مجرد نقاش عادى بينها وبين (شريفة)، و.
قاطعه (حافظ) في توتر زائد:
- لن أسمح لأحد بإيذائها بعد هذه اللحظة.
حدقت (شريفة) في وجه شقيقها في ذهول، ثم نقلت بصرها إلى (فاطمة)، التي وقفت خلفه تبتسم في خبث وشماتة، وسألتها:
- كيف فعلت هذا؟
داعبت (فاطمة) خصلة من شعرها الخشن وارتفع حاجباها في زهو، ثم ألقت قنبلة من جملة واحدة:
- أنا حامل.
واتضحت صورة المعجزة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

برقت عينا المأمور، وهو يمسك سماعة الهاتف في قوة، صائحا في انفعال:

- هل أنت واثق من هذا؟ هل عاد (محمد نجيب) حقا؟

دفعه الانفعال إلى إطلاق ضحكة مجلجلة، وهو يعيد سماعة الهاتف ويلتفت إلى العمدة قائلا:

- أرأيت يا عمدة؟ أرأيت؟ لقد عاد (محمد نجيب) إلى الحكم في يومين فحسب.. ألم أقل لك.. لقد خسر ابن (البنهاوي) كل ما ربحه منذ قيام الثورة.

قال العمدة في فرحه:

- أتظنه قد خسر اللعبة بالفعل؟

قهقه المأمور ضاحكا مرة أخرى، وقال:

- ماذا تفعل أنت به، لو أنك في موضع (محمد نجيب)، بعد أن وقف هو يؤيد (جمال عبد الناصر) علنا؟

برقت عينا العمدة بذوره، وهو يقول

- صدقت ثم سأله في اهتمام:

- والآن ماذا سنفعل به؟

لوح المأمور بكفه، وقال بابتسامة عريضة، كادت تلتهم وجهه كله:

- سننتظر حتى يأتي إلى القرية

هتف العمدة:

- ثم ماذا؟

أطلق المأمور تنهيدة قوية، ثم عاد يبتسم تلك الابتسامة العريضة، ويجيب:

- ثم نعيده إلى حجمه الحقيقي

وأدني سبابته وإبهامه من بعضهما البعض، وأضاف في غطرسة:
- حجم الحشرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدا (حسين) شديد التوتر، وهو يجلس إلى جوار (إبراهيم مكى)، في مكتب هذا الأخير، وراح يفرك كفيه في قلق، وهو يسأله:
- ماذا سيحدث الان؟
أجابه (إبراهيم)
- لا شيء.. لست أظن أن (محمد نجيب) سيذكر تأييدك لـ (عبد الناصر) من عدمه.
قال (حسين) في قلق شديد:
- وماذا لو فعل؟
تنهد (إبراهيم)، واتجه إلى النافذة، وعقد كفيه خلف ظهره، وهو يتطلع منها، مغمغما:
- لست أدري.
ران عليهما الصمت لحظة، ثم التفت (إبراهيم) إلى (حسين)، وقال في صرامة مباغتة:
- ابتعد
سأله (حسين) في دهشة
- ماذا تعني؟
أجابه في حزم:
- أعني أن أفضل ما تفعله الآن هو أن تبتعد عن مسرح الأحداث.. اذهب إلى قريتك، واقض بضعة أشهر هناك، حتى تهدأ الأمور.
غمغم (حسين) في حيرة:
- وماذا عن العمل هنا؟

قال (إبراهيم):
- اترك على هذا
ارتفع فجأة صوت (رفعت كساب)، يقول في ضيق:
- لن يكون ذلك عسيرا.
التفت إليه الاثنان في سرعة، وهب (حسين) واقفا في احترام، فأشار اليه (رفعت) بالجلوس مرة أخرى، وهو يقول:
- يبدو أنك قد وقعت أخيرا في الخطأ يا (حسين).
امتقع وجه (حسين) في شدة، وهو يتمتم
- الخطا!
جلس (رفعت) خلف مكتب (إبراهيم)، وزفر في حرارة، وهو يضرب سطح المكتب براحته المفتوحة، ويقول:
- لقد تسرعت بتأييد (عبد الناصر) علنًا، قبل أن تتضح الأمور.
لم يدر (حسين) لماذا فشل أسلوبه هذه المرة..
لقد أيد قيام الثورة علنا، قبل أن تتضح المأمور، فقادته هذه المبادرة إلى قمة السلطة
وعندما كرر اللعبة خسر
خسر كثيرا
وبحروف مرتجفة، وقلب مرتعد، تمتم (حسين):
- وماذا حدث بسبب هذا يا سيدي؟
زفر (رفعت) مرة أخرى في حدة، وقال:
- حدث أن (محمد نجيب) قد أصدر قرارا بإيقافك عن العمل.
خيل لـ (حسين أن قلبه قد توقف عن الخفقان، وأنه سيسقط جثة هامدة، حتى لقد أدهشه أن هذا لم يحدث، وهو يتمتم منهارا:
- إيقاف!! إلى متى؟!
ربت (رفعت) على كتفه، وقال في ضيق:

- من يدري إلى متى؟ هيا.. اذهب إلى سراى والدك، كما اقترح (إبراهيم)، فأظنها أفضل خطوة الآن.
وأدرك (حسين) أن لحظات الخسارة قد حانت وأن الدنيا تدير وجهها إليه.

وطوال الطريق من (القاهرة) إلى قريته، ترك دموعه تسيل على وجهه..
كيف يواجه أشقاءه وشقيقاته، بعد أن فقد كل شيء؟
بل كيف يواجه خصومه؟
انطلق بسيارته في بطء، وكأنما يخشى العودة إلى القرية، إلا أنه لم يكد يقترب من مدخلها، حتى لمح المأمور على صهوة جواده، يشير إليه بالتوقف، فأوقف سيارته، وهو يجفف دموعه في سرعة، وقال للمأمور في صرامة، بذل جهدا ليمنح صوته إياها:

- ماذا تريد أيها المأمور؟
أدهشه أن قال المأمور في غطرسة:
- بل ماذا تريد أنت؟ ثم مال نحوه مستطردا في ازدراء:

- إن قريتنا ترفض استقبال الخونة، فكلنا نؤيد الرئيس الشرعي للبلاد وركل المأمور مقدمة سيارة (حسين)، ثم ألقى نظرة صارمة على هذا الأخير، وابتعد بجواده في خيلاء..

لحظتها فقط تأكدت الصورة.

لقد أدارت الدنيا وجهها

أدارته بعيدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

35 - العدم..

هب (عمر) من مقعده، ومال برأسه نحو زوجته، وبدا وكأنما يطلق زغرودة فرح، وهو يهتف:

- أوقفوه عن العمل؟! هل أوقفوا (حسين) شقيقك عن العمل حقا؟!

جففت (نعيمة) دموعها، وهي تقول:

- لا يمكنك أن تتصور ما أصابه من جراء هذا.. لقد نحل كثيرا، و.....

قاطعتها ضحكة مرحة أطلقها (عمر)، وأذهلها أن يكون هذا هو انطباعه عن الموقف، فحدقت في وجهه مستنكرة، في حين هتف هو:

- لقد نال ما يستحقه، ذلك الظالم المفترى

صاحت به:

- (عمر).. كيف تقول هذا عن شقيقي الـ.....؟

قاطعها صارخا في صرامة هذه المرة:

- اخرسي

حدقت في وجهه ذاهلة، فأمسك كتفيها في عنف، وبدا لها كوحش شرس وهو يهزها في قوة، صائحا:

- لعنة الله عليك وعلى شقيقك السارق النصاب، الذي استباح لنفسه أرضكم وأموالكم، بعد أن منحه والدكم الظالم هذا الحق بعد وفاته.. لقد احتملت كل ما فعله بي، ولزمت الصمت طيلة الوقت، انتظارا لهذا اليوم والآن فقط أستطيع أن أفرغ كل الغضب الكامن في أعماقي

ودفعها في قسوة، مستطردا في ثورة:

- اذهبى.. أنت طالق.. طالق.. طالق،

ولم تحتمل (نعيمة) صدمة الموقف ومن أعماقها انطلقت صرخة ارتياع
وسقطت فاقدة الوعي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- طلقك؟!
هتف (مفيد) في ذعر، قبل أن يستطرد
- ولكن لماذا؟ لماذا فعل هذا؟
بكت في انهيار، وضمت طفلتها الصغيرة إلى صدرها، وهي تقول:
- يقول إنه يتمنى هذا منذ زمن طويل، ولكنه كان ينتظر خروج (حسين) من السلطة.. وهو لم يكتف بتطليقي فحسب، وإنما راح يوزع أكواب الشراب على الجميع، احتفالا بإيقاف (حسين) عن العمل، وأقسم أن يتزوج بأخرى، قبل أن ينصرم الأسبوع.
تمتم (حسين) في مرارة:
- يا للوغد!!
التفت إليه (مفيد) محنقا، وهو يقول
- أنت المسؤول عن كل هذا.. أنت الـ..
قاطعه (حسين) في ثورة:
- كفي.. لست أحتمل حرفا واحدا
وابتعد بخطوات سريعة إلى حجرته، وأغلق بابها خلفه في إحكام، فزفر (مفيد) في توتر وغمغم:
- إنها اللعنة تحل علينا..
لعنة الظلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظل يشعر بالمرارة في حلقه وقلبه، حتى التقى بـ (مديحة) عند جذع الشجرة الكبيرة كعادتهما، وانتبهت هي إلى آلامه، فربت على كفه، وهمست في حنان:
- أمن المحتم أن تحمل دوما كل هموم الدنيا على كتفيك؟
زفر مغمغما:
- كم أتمنى ألا أفعل، ولكن يبدو أن هذا قدري.. أن أحمل دوما مشاكل الآخرين.
ترددت لحظة، ثم سألته في خفوت
- وماذا عن مشكلتنا نحن؟
استدار يتطلع إليها طويلا، حتى أن دماء الخجل قد تصاعدت إلى وجنتيها، وهي تتمتم:
- لم أقصد هذا، وإنما..
جاء دوره هذه المرة ليربت على كتفيها، ويقول في حنان
- يبدو أني أظلمك كثيرا معى يا مديحة
رفعت عينيها إليه، وهي تهمس:
- أنت لا تظلم أبدا
تطلع إليها بامتنان، وامتدت أصابعه تداعب شعرها الأسود الناعم، قبل أن يقول في حزم:
- لا بأس يا (مديحة).. لقد انتظرتِ طويلا، وسأطالبك بالانتظار لآخر مرة، حتى نهاية أكتوبر القادم، وعندئذ سأعمل على أن يتم زواجنا، مهما كانت الظروف والملابسات.
ابتسمت في سعادة، وهي تسأله في دلال:
- ولماذا أكتوبر؟
شرد ببصره لحظة، ثم أجاب
- سأكون قد بلغت الحادية والعشرين حينذاك

لم تفهم ما الذي يعنيه ذلك، إلا أنها غمغمت في حب:
- حسنا يا حبيبي.. سأنتظر
وكانت مخلصة في قولها، ولكن القدر لا يعترف بالإخلاص والحب والعواطف
إنه القدر..
وهذا يكفي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يدر أحد، ولا حتى (حسين) نفسه، كيف مرت الأشهر التالية..
بالذات (حسين) لم يشعر بمرورها، على الرغم من كونه المصاب الأول فيها..
لقد بدت له أيامه كالعدم وتقوقع في حجرته، مبتعدا عن أسرته، ومشاكلها وحتى أفراحها وترك أمواج الحياة تحمله إلى أي شاطئ تشاء. وراح يجتر مرارته وأحزانه لما أصابه، والحياة من حوله تمضي بلا توقف
لقد تزوج (عمر)، من فتاة جميلة، ابنة عمدة قرية مجاورة، وأقام لها حفل زفاف رائع، تحدثت عنه المنطقة كلها، وبدا هو خلاله أشبه بالسعادة نفسها، وإن حملت عيناه شماتة لا حصر لها.
وانهارت (نعيمة) ليلة زواجه، وفاضت عيناها بدموع القهر، وهي التي ظلت تحمل في قلبها الكثير من الحب لزوجها السابق، والكثير من الأمل لعودتها إليه.
والطريف أن (عمر) قد أرسل دعوة زفاف أنيقة إلى سراى (البنهاوي)، يدعو فيها الأسرة كلها لحضور حفل زفافه، وكأنما يتشفى فيما أصاب (حسين) علانية.
وراح شعور (حسين) بالمرارة والغضب والحنق يتضاعف..

وراحت بطن (فاطمة) تتكور وتبرز، معلنة قرب قدوم الضيف الجديد، ابن (حافظ)، وحفيد (البنهاوي) ..

ونافستها بطن (ناهد)، فيما راحت (شريفة) تراقب هذه المنافسة في مرارة وألم، وعبارة (فاطمة) تتردد في أذنيها، مذكرة إياها أنها لم تتزوج بعد..
وبدا لها الزواج أملا بعيد المنال وخاصة بعد أن فقد (حسين) بريق السلطة وزهوها.

أما (مديحة)، فقد انصاعت لطلب (مفيد)، واكتفت بوعده لها، وباتت تحلم باقتراب نهاية أكتوبر؛ لتلتقي بمن وهبته قلبها وحبها.

والتحق (مفيد) بكلية التجارة في (القاهرة)، وفقدت (فاطمة) بابتعاده الصوت الوحيد الذي يرتفع للزود عنها وحمايتها من لسان (شريفة)، الذي انتهز بدوره فرصة إقامة (مفيد) في (القاهرة)، لينهال على (فاطمة) بكل ما تعافه النفس من شر الألفاظ والنعوت، مفرغة في سلاطتها ما تجيش به نفسها من إحباط ومرارة وغيرة وحقد.

ولم يعد (حسين) يعلم شيئا عن (رفعت كساب)، أو رجال الثورة.
الخبر الوحيد الذي بلغه هو أن (إبراهيم مكى) قد استولى على تلك الشقة الفاخرة، التي كان يقيم فيها هو في (جاردن سيتي)، وأنه قد انتزع اللافتة الأنيقة، التي تحمل اسم (حسين البنهاوى) ووضع بدلا منها لافتة تحمل اسمه هو
وهذا الخبر بالذات ابكى (حسين) طويلا في حجرته..
لقد سلبه الخبر آخر أمل في العودة إلى السلطة والقوة، فاحتلال (إبراهيم مكى) لشقته يعني أن (رفعت كساب) قد تخلى عنه..

وأن الزمن قد أولاه ظهره تماما..
وبينما كان غارقا في آلامه وأفكاره ودموعه، انطلقت في السراى صرخة قوية...
ولأول مرة منذ زمن طويل، لم تكن صرخة حزن أو موت كانت صرخة (فاطمة)، التي أعلن رحمها تأهبه للفظ جنينها إلى الدنيا كانت صرخة ميلاد..
انترعت الصرخة (حسين) من فراشه بل من نفسه، بكل أحزانها وآلامها ومرارتها
انتزعته المعجزة الربانية، التي تحدث كل يوم من حولنا، دون أن نشعر بعظمتها وقيمتها وإعجازها..
معجزة الميلاد
وكأنما ألقى الأشهر الأخيرة كلها خلف ظهره، انطلق (حسين) من حجرته، وراح يعدو هابطا إلى حجرة (حافظ) و (فاطمة)، في الطابق السفلي، واستقبلته (شريفة)، وهي تعدو خارج حجرة (حافظ)، فهتف بها:
- ماذا حدث؟
تعالى من داخل الحجرة صراخ (فاطمة)، و (شريفة) تقول في اضطراب:
- إنها (فاطمة).. يبدو أن جنينها سيأتي إلى الحياة، قبل خمسة عشر يوما من موعده.
سألها مرتبكا
- وماذا ينبغي أن نفعل؟
صاحت وهي تعدو نحو باب السراى:
- لا شيء.. سأرسل (عبد الحميد): لإحضار القابلة
فتحت باب السراى، وراحت تهتف:
- (عبد الحميد).. (عبد الحميد).

أسرع إليها الرجل متوترا، ولم يكد صراخ ابنته يبلغ مسامعه، حتى فهم الموقف كله على الفور، وخفق قلبه بين ضلوعه، وشحب وجهه في شدة، في حين صاحت به (شريفة) في اضطراب شديد:
- استدع القابلة (الداية) يا (عبد الحميد).. ابنتك تلد
ازداد شحوب وجه الرجل، وبدا وكأنه سينفجر باكيا، وهو يقول:
- ولكن القابلة (أم سرحان) ليست هنا.. لقد سافرت إلى ابنها في (طنطا)..
صاحت في ذعر:
- استدع طبيب الوحدة الصحية إذن
كاد (عبد الحميد) يسقط فاقد الوعي، وهو يقول في انهيار:
- الطبيب لا يقيم بالوحدة الصحية.. إنه أحد أبناء (سمنود)، وهو يسافر إليها كل مساء، و.
قاطعه (حسين) في انفعال:
- لا بأس.. سأستدعى أحد أطباء المدينة هاتفيا..
انطلق نحو الهاتف، و (عبد الحميد) يحدق فيه ذاهلا، فلم يكن المسكين يتخيل يوما أن يهرع ضابط مهيب مثل (حسين البنهاوي)، لإسعاف ابنته هو..
ولم يكد (حسين) يضع سماعة الهاتف على أذنه، حتى عقد حاجبيه، وصاح في توتر:
- الهاتف اللعين لا يعمل وألقى السماعة فوق الهاتف، وهو يلتفت إلى (عبد الحميد)، ويسأله
- أين يمكنني أن أجد هاتفا آخر؟
تردد (عبد الحميد) لحظة، ثم قال:
عند العمدة أجاب (حسين) في حزم:
- سأذهب إليه.

التقى في أثناء عدوه نحو الباب ب (نعيمة)، التي أيقظها صراخ (فاطمة)، وارتباك الآخرين، فسألته حائرة قلقة:
- ماذا هناك هتف بها وهو يغادر السراى
- (فاطمة) تلد.
ضربت صدرها بكفها، وهي تهتف في استنكار:
- تلد!! نطقتها وكأنها لا تتصور أن تلد (فاطمة)، على الرغم من حملها، لم تكن تتصور أن يكون لشقيقها ابن من تلك الغليظة، ابنة (عبد الحميد)... ولكن (حسين لم يكن يفكر في هذا..
لقد استقل سيارته، وانطلق بها نحو دار العمدة، وهو يدعو الله أن تعبر (فاطمة) وابنها هذا الموقف في سلام، ولم يكد يبلغ الدار، حتى أوقف سيارته، وقفز منها، وراح يدق باب العمدة في توتر، حتى فتح العمدة بابه، وقال في حدة:
- ماذا هناك؟ هتف به (حسين) في لهفة
- (فاطمة) تلد يا عمدة، ونحتاج إلى هاتفك، الـ..
قاطعه العمدة في صرامة:
- أسف
حدق (حسين) في وجهه بدهشة، وقال محنقا:
- ماذا تقول يا عمدة؟ إننا نحتاج إلى الهاتف؛ لاستدعاء طبيب، و.....
قاطعه العمدة مرة أخرى:
- قلت آسف
تراجع (حسين) في ذهول، في حين استطرد العمدة في لهجة لم تخل من الشماتة:
- هذا الهاتف حكومي يا بن (البنهاوي)، ولا يصح أن يستخدمه إلا رجال الحكومة، أو من يؤيدونهم، والحكومة يرأسها رجل نحترمه جميعا، وندين له بالولاء.. اسمه (محمد نجيب).

ثم مال نحو (حسين)، مستطردا في سخرية: - هل تعرفه؟
انعقد حاجبا (حسين) في غضب، وقال
- ستدفع ثمن هذا يا عمدة
قال العمدة في سخرية أشد
- نقدا أم بالتقسيط المريح؟!
وانطلق يقهقه ضاحكا في سخرية وشماتة، في حين انطلق (حسين)، نحو سيارته، وأدار محركها، ليبتعد عن المكان بأقصى سرعة، وضحكات العمدة تلاحقه، وتزيد جراحه، وتسيل دماء كرامته الجريحة..
وبكل ما يملأ نفسه من غضب ومرارة صرخ
- ستدفع الثمن يا عمدة.. ستدفع الثمن.
وردد ليل القرية كلها صدى صرخته..
ووعيده..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

36 – استدعاء..

هبط (مفيد) من السيارة، التي أقلته حتى باب السراى، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة، وهو يتطلع إلى المكان الذي شهد طفولته وصباه وشبابه وأغلق عينيه وهو يملأ صدره بشهيق عميق من الهواء..

هواء القرية النقى

هواء الأرض التي يعشقها

ثم فتح عينيه؛ ليجول ببصره في الحقول، ومنازل صغار الفلاحين، المنتشرة بينها وحولها.

وتوقفت عيناه طويلا عند الشجرة الكبيرة.. وخفق قلبه في حنان وحب

إنها المكان الذي شهد حبه وذكريات قلبه النابض

وطافت صورة (مديحة) بذهنه، فاكتست ابتسامته بهيام وود، جعلاه يغمغم:

- كم أشتاق إليك يا حبيبتي!!

ثم صعد في درجات سلم السراى، وهو يتوقع أن يفاجئ الجميع بعودته من، القاهرة) في هذه الساعة المبكرة..

ولكن المفاجأة كانت من نصيبه هو لقد كان كل من في السراي مستيقظا حتى (حسين).. وكان الإرهاق يملأ وجوههم، حتى أنه هتف بهم منزعجا:

- ماذا أصابكم؟ ماذا حدث هنا؟

ابتسم (حسين) ابتسامة باهتة، وهو يجيب:

- خيرا.. لقد أنجبت (فاطمة) فجر اليوم هتف في فرح:

- أنجبت؟! يا له من خبر! كيف حالها وحال طفلها أو طفلتها، أذكر هو أم أنثى؟

أجابته (شريفة)، في صوت لم يخف غيرتها:
- انها بخير.. هكذا تكون تلك الفئة الوضيعة من القوم. إنهم ينجبون كالأرانب، دون تعب أو متاعب..
رمقها بنظرة عتاب، وهو يكرر سؤاله الثاني
- أطفلا أنجبت أم طفلة؟
أجابه (حسين) هذه المرة
- أنجبت طفلا ذكرا.. ولقد طلبت منها أن تطلق عليه اسم والدنا، ولكن (شريفة) ترفض في شدة..
التفت إلى (شريفة)، يسألها في دهشة
- لماذا ترفضين؟
أجابته في حدة
- لن يحمل ابن (فاطمة عبد الحميد) اسم والدنا الراحل.. أبدا
ابتسم (مفيد) في إشفاق، وهو يغمغم
- إنه سيحمل اسمه على أية حال ثم زفر في قوة، مستطردا:
- فليكن.. سنسميه اسما جديدا.. ما رأيكم في (طارق) مثلا؟
قال (حسين):
- (طارق البنهاوي).. لا بأس.. إنه اسم طريف ثم أشار إلى (مفيد) بالجلوس إلى جواره، وهو يسأله:
- ولكن ما سر عودتك المفاجئة هذه؟ هل نفذت نقودك؟
ابتسم (مفيد)، وقال:
- لا.. ولكن اليوم يوافق عيد مولدي، الذي سيشاركني فيه (طارق)
هتفت (شريفة):
- يا إلهي.. كيف نسيت هذا؟ إنك ستتم واحدا وعشرين عاما اليوم يا (مفيد).. أليس كذلك؟ إنه الخامس والعشرون من أكتوبر
أومأ (مفيد) برأسه ايجابًا، وهو يبتسم، ثم التفت إلى (حسين)، الذي ابتسم بدوره ابتسامة باهتة، وقال:

- هذا يعني أنك قد أصبحت راشدا
قال (مفيد) في مرح:
- بالطبع ثم مال نحو شقيقه، واكتست ملامحه بجدية مباغتة، وهو يستطرد:
- وهذا يشجعني على أن أطلب منك الموافقة على أمر هام
سأله (حسين) في اهتمام:
- ما هو؟
مال على أذنه، مجيبا في سرعه:
- زواجى.
تراجع (حسين) في دهشة، وحدق في وجه شقيقه لحظة، ثم نهض قائلا في حزم:
- تعال.
تبعه (مفيد) إلى حجرته، و (شريفة) تتابعهما ببصرها في لهفة والفضول يقتلها لمعرفة حديثهما، حتى أغلق (حسين) الباب خلفهما والتفت يتطلع إلى (مفيد) قائلا:
- إذن فأنت تريد أن تتزوج!
أومأ (مفيد) برأسه إيجابا، فمال (حسين) نحوه، يسأله في اهتمام:
- أهي واحدة من فتيات (القاهرة)؟
أجابه (مفيد)، ووجهه يتهلل بشرا:
- لا.. إنها واحدة من هنا. (مديحة).. ابنة عم (إسماعيل)
تراجع (حسين) في حركة حادة عنيفة، وهتف في قوة كالمصعوق:
- (مديحة)؟
ثم هتف محنقا:

- هل تريد الزواج من ابنة عامل في أرضنا؟

كان (مفيد) مستعدا لذلك التراشق الكلامي؛ لذا فقد قال في سرعة:

- وماذا في هذا؟ (فاطمة) أيضا ابنة عامل في أرضنا

قال (حسين) في غضب:

- لا ينبغي أن نكرر الخطأ نفسه مرتين

صاح (مفيد):

- أي خطأ؟

هم (حسين) بإلقاء الجواب، لولا أن ارتفعت بغتة طرقات قوية على باب الحجرة، مصحوبة بصوت (نعيمة)، تقول في توتر:

- هناك رجلان يطلبان مقابلتك يا (حسين). خفق قلب (حسين) في قوة، وهو يسألها:

- أهما من الجيش؟

أجابته في قلق واضح:

- لست أدري.. إنهما يرتديان ثيابًا مدنية، ولم أر أحدهما من قبل.

عقد حاجبيه في توتر، ولم يستطع كتمان اضطرابه، وهو يلتفت إلى (مفيد)، قائلا:
- حسنا.. ستتم حديثنا فيما بعد
أراد (مفيد) أن يعترض، ولكن (حسين) لم يمنحه الفرصة لذلك، فقد اندفع يغادر الحجرة في توتر، فلم يكن من (مفيد) إلا أن قلب كفيه، وزفر في قوة، مغمغما:
- لا بأس. إن غدا لناظره قريب
وكانت الحكمة صحيحة..
لو أتي الغد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صافح (حسين) الرجلين، اللذين لم يرهما في حياته كلها، وقال أحدهما في هدوء، وهو يشد على يد (حسين):
- الملازم (حسين البنهاوي).. أليس كذلك؟
غمغم (حسين) في حيرة وتوتر:
- بلى.. هو أنا
قال الآخر في هدوء، لا يخلو من الحزم:
- معذرة يا سيدي، ولكن لدينا أوامر بأن نصحبك إلى حيث تستقبلك شخصية هامة.
هبط قلبه بين ضلوعه، وهو يقول:
- شخصية هامة!! من؟
قال الأول في حزم:
- ستعلم فيما بعد.. والآن هيا بنا
ارتبك (حسين) في شدة، وهو يقول:
- هل.. هل سأتغيب كثيرا؟ أعنى.. هل أعد حقيبتي؟

أجابه الآخر:
- لا داعي.. ستجد كل ما يلزمك لدينا.
وقال الأول في لهجة لا تقبل النقاش:
- دعنا لا نضيع الوقت يا سيدى، فالأوامر تقضى ألا نضيع لحظة واحدة.. هيا بنا.
قال وقد ساد الشحوب وجهه تماما:
- سأبلغ شقيقي إذن
قال الثاني في حزم:
- سنبلغه نحن.
قاداه من حجرة استقبال الضيوف إلى باب السراي، وهو يتبعهما عاجزا مستسلما، لا يجرؤ على التفوه بحرف واحد.
وكانت هناك سيارة تنتظر أمام باب السراي، وبداخلها سائق واحد، لم يكد يطمئن إلى ركوب (حسين) والرجلين، حتى انطلق بالسيارة على الفور.
وانكمش (حسين) في مقعده، وقد بلغ به الرعب مبلغه إنهم يعتقلونه ولا شك إنه خبير بمثل هذه الأمور وخبير بما يحدث بعد الاعتقال، وارتجف جسده في شدة ولم يجرؤ على إلقاء سؤال واحد على الرجلين وكان يعلم أنه ما من جدوى من إلقائه لن يجيب أحدهما بحرف واحد.. إنها مهنتهما.. وهو أدرى الناس بها.
وانطلقت به السيارة في طريقها إلى (القاهرة)، ومع كل كيلو متر تقطعه كان يزداد انكماشا وشحوبا..
وراح عقله يستنتج الأمور، والنتائج، ولكنه عجز عن استنتاج شخصية هذا المسؤول الكبير.. أهو (رفعت كساب)..
أم (إبراهيم مكـى؟
جال بخاطره لحظة أن يكون (محمد نجيب) نفسه، إلا أنه لم يلبث أن استبعد هذا الخاطر؛ لمرور ثمانية أشهر كاملة على إقالته.

وما هي إلا ساعة وبضع دقائق، حتى توقفت السيارة أمام منزل صغير، في حى (مصر الجديدة)، وهبط منها الرجلان، ليقول أحدهما:

- تفضل يا (حسين) بك لم يدر سر لقب الباكوية هذا، الذي منحه إياه الرجل جزافا! أهو نوع من الاحترام الزائد؟ أم هي سخرية.. أو شماتة؟

وسار بين الرجلين وجسده كله ينتفض، نحو ذلك المنزل الصغير، الذي يقودانه إليه..

وداخل المنزل، اصطحبه أحد الرجلين إلى حجرة مكتب أنيقة وقال في هدوء:

.معذرة.. سيحضر السيد بعد قليل.

لم يجرؤ (حسين) حتى على الجلوس، وراح يرتجف وسط تلك الحجرة الأنيقة، التي احتشدت مكتبتها بعشرات الكتب، حتى تناهى إلى مسامعه صوت باب الحجرة يفتح من خلفه، ثم يغلق في هدوء..

- وبجسد شملته رعدة باردة قوية، استدار (حسين) يتطلع إلى الداخل..

وكقط مبتل في يوم عاصف بارد، انتفض جسده كله انتفاضة عنيفة قوية واتسعت عيناه في ذهول، وهو يحدق في وجه ذلك الشاب الطويل، العريض المنكبين، الذي راح يتطلع إليه في هدوء تام، بعينين شبيهتين بعيني أسد.

كان آخر شخص يتوقع رؤيته كان (جمال) (جمال عبد الناصر) نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

37 – انتفاضة..

مضت لحظات رهيبة من الصمت التام، والسكون المطبق، وعينا (عبد الناصر)، الشبيهتان بعيني أسد هصور تجوبان وجه وجسد (حسين)، الذي راح ينتفض في قوة، أمام تلك النظرات القوية الحازمة الصارمة الفاحصة، عاجزا عن تمالك نفسه، إلى أن قال (عبد الناصر) في هدوء مخيف:

- كيف حالك يا (حسين)؟

أتي صوت (حسين) مرتجفا، خافتا، يحمل رهبة العالم كله، وهو يجيب:

- في خير حال يا سيدى.

بدت ابتسامة صغيرة للغاية، على طرف فم (جمال)، وهو يقول:

- لقد عزلك (نجيب) من منصبك، بسبب تأييدك العلني لي.. أليس كذلك؟

ازدرد (حسين) لعابه في صعوبة، وهو يجيب:

- بلى يا سيدى .

حمل صوت (جمال) من الفضول أكثر مما حمل من الحزم، وهو يقول:

- ألا يبدو لك هذا التأييد العلني نوعا من الحماقة؟

أجاب (حسين)، وقد بدا له أنه من غير اللائق أن يؤيد هذا القول:

- مطلقا يا سيدى.

سأله (جمال) في اهتمام:

- ألا تشعر بالندم إذن؟

أجاب (حسين) في ضيق:

- محال أن أفعل يا سيدى

ارتسمت ابتسامة واثقة على شفتي (عبد الناصر)، وهو يقول:

- عظيم.. إنك تصر على موقفك، على الرغم من كل ما قاسيته، وما يبدو واضحا في نحولك وشحوبك..
واقترب خطوة من (حسين)، وربت على كتفه، مستطردا:
- هذا هو الرجل الذي أحتاج إليه.
ثم استدار، واتجه إلى مكتبة صغيرة، في ركن حجرة مكتبه، وعقد كفيه خلف ظهره، وهو يراجع محتوياتها في صمت، مما أورث (حسين) مزيدا من التوتر والقلق، وجعله يتساءل في أعماقه للمرة الألف: فيم ولم استدعاه (جمال عبد الناصر)، ثم انتفض جسده، عندما التفت إليه (جمال) على نحو مباغت وقال في حزم:
- اسمعني جيدا يا (حسين).
أصغى إليه (حسين) بكل حواسه وقلقه وتوتره، و (جمال) يتابع بنفس اللهجة الحازمة، التي يشوبها شيء من الصرامة:
- اعتبارا من الغد، ستدخل الثورة مرحلة جديدة، وخطيرة.. مرحلة تحتاج فيها لكل رجل مخلص، من أجل القضاء على أعدائها، وتصفيتهم، ووضع كل رجل من رجالها في موضعه الصحيح، تمهيدا للانطلاق نحو القمة.
ازدرد (حسن) الشيء النذير من لعابه، وهو يتمتم:
- القمة؟!
لوح (عبد الناصر) بيده، قائلا:
- نعم يا (حسين).. إن هذا الشعب، الذي تنتمي إليه، لمن أعظم وأعرق الشعوب، ولا تنقصه سوى القيادة الحازمة المخلصة، لينطلق إلى قمة الحضارة، ويتخذ مكانه بين شعوب العالم الأولى.
ثم ضم قبضته، مستطردا:
- وسأبذل عمري في سبيل دفعه إلى هذا.
تضاعف توتر (حسين)، وتزايدت حيرته، وهو يستمع إلى كلمات (جمال) الحماسية، حتى أنه غمغم في تردد:

- وما دوري أنا يا سيدي؟
ابتسم (عبد الناصر)، واتجه إليه مرة أخرى، وربت على كتفه، وقال:
- ستكون ذراعي اليمني يا (حسين).
كانت مفاجأة أعظم من أن يحتملها (حسين)، الذي هتف في ذهول:
- أنا؟!!!
أجابه (عبد الناصر) في حزم، وبلهجة رجل لا يحتمل أو ينتوى النقاش:
- نعم.. أنت.. لن أمنحك أية صفة رسمية حاليا، ولكنني سأمنحك سلطة مطلقة، اعتبارا من صباح الغد، وحتى تنتهي الأزمة، التي ستبدأ غدا والمطلوب منك هو أن تعتقل كل من تتضمنه قائمة خاصة، سأمنحك إياها الأن، وأن تضيف إليها كل من تشك في أمره، أو في ولائه للثورة ولى وبالسلطة التي أمنحك إياها، يمكنك أن تنتزع حتى مدير الأمن من موقعه، وعليك أن تحسن استغلالها جيدا، أما بالنسبة لعائلتك، فقد أرسلت من يلغهم بعودتك إلى عملك، ويشيع الأمر في القرية، ثم يؤكد لهم أنك هنا في القيادة لأمر بالغ الأهمية، حتى لا يقلقهم غيابك، وستجد هنا كل الملابس والأدوات التي تحتاجها، حتى نهاية الأزمة.
بلغ انفعال (حسين) ذروته، وهو يسأل:
- وما نوع تلك الأزمة يا سيدى؟
لم ير في حياته كلها عينين أشد غموضا من عينى (عبد الناصر)، ولا ابتسامة أكثر إثارة للخوف والقلق من ابتسامته، وهو يجيب:
- ستعلم غدا يا (حسين)، وإن غدا لناظره قريب.
غذا لناظره قريب..
قريب جدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-لقد أطلقوا النار على (عبد الناصر) في (المنشية)..
هتف المأمور بتلك العبارة، وهو يلقى نفسه على أريكة واسعة، في دار العمدة، وقد شحب وجهه في شدة، وراح يلهث ويتصبب عرقا، من فرط التوتر والانفعال، وشاركه العمدة توتره، وهو يقول في صوت مختنق:
- كيف؟ ولماذا؟ و.....
قاطعه المأمور، وهو يلوح بذراعيه في شدة:
- كان يلقي خطابا، كما يفعل رجال الثورة عادة، في السادس والعشرين من اكتوبر، عندما أطلق عليه أحدهم النار، وراح (عبد الناصر) يهتف مطالبًا الناس بالبقاء في أماكنهم، ومتحديا الرصاصات، التي تنهال عليه، وصائحا بأنه لا يهاب الموت، وبأنه لو مات (جمال عبد الناصر)، فكل الشعب (جمال عبد الناصر)، وبأنه هو الذي علمنا العزة والكرامة، و.....
هتف العمدة مستنكرا:
- هو الذي علمنا العزة والكرامة؟ ألم يملكهما شعبنا من قبل حتى أن يولد (جمال) هذا؟
أمسك المأمور يد العمدة في قوة، وهو يقول في حدة:
- دعك الآن من هذه النعرة القومية، وأخبرني.. هل تجد رابطا بين هذا وتلك الشائعة، التي تتردد في القرية منذ مساء أمس، عن عودة (حسين البنهاوي) إلى عمله؟
قال المعدة في حدة:
- أنا لم أصدق هذه الشائعة. ثم صمت لحظة، وأضاف في توتر:
- ثم كيف يرتبط هذا بذاك؟ إن (عبد الناصر) لم يكن يعلم حتما أن أحدهم سيطلق النار عليه في (المنشية).. أليس كذلك؟

ازداد المأمور شحوبا، وتراجع في الأريكة، وعاد وجهه يتصبب عرقا وهو يقول:
- من يدرى يا رجل؟
من يدري؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حثت (مديحة) الخطا، وهي تعبر الحقل، في طريقها إلى جذع الشجرة الكبيرة، ولم تكد تلمح (مفيد)، وهو يستند بظهره إلى الجذع القديم كعادته، حتى زادت من سرعة خطواتها، وغمغمت في حب، وهي تجلس إلى جواره:

- مساء الخير يا(مفيد)

انتزع نفسه من شروده، وامتلأ وجهه بابتسامة حب حانية، وهو يلتفت إليها، مغمغما:

- مساء الخير يا (مديحة).. كيف حالك؟

تجرأت على مداعبة خصلة من خصلات شعره بأناملها، وهي تهمس - في خير حال، ما دمت إلى جوارك يا (مفيد).

تسللت يده تحتضن كفها، وهو يقول:
- كم أحبك يا (مديحة)
أطرقت في حياء، وتضج وجهها بحمرة الخجل، وهي تهمس:
- هل.. هل تحدثت إلى (حسين)؟
ضغط كفها في رفق، مجيبًا:
- لقد فعلت.
رفعت عينيها إليه، تسأله في لهفة
- وبم أجاب؟
تنهد في عمق، وقال:
- لم يجد الوقت ليفعل..
انقبض قلبها، وهي تسأله في قلق؟
- ماذا تعني؟
قص عليها ما حدث في كلمات موجزة، فانكمشت في موضعها، وغمغمت:
- هل تظنه يوافق؟
أجابها في حزم:
- ليس أمامه سوى أن يفعل.
ازداد انكماشها، وهي تتمتم
- قد يرفض، لأن والدي..
قاطعها في حزم:
- لن أمنحه الحق في هذا
رفعت عينيها إليه في حيرة، فأضاف:
- يبدو أنك لم تدركى لماذا انتظرت، حتى أبلغ الحادية والعشرين.. لقد فعلت لأضمن قدرتي على القتال من أجلك يا (مديحة).. إني أسأل (حسين) رأيه من الناحية الأدبية فحسب، بصفته شقيقي

الأكبر، أما من ناحية الحقوق فسأتزوجك، شاء هو أم أبي، ولن أسمح لمخلوق واحد بفرض وصايته على عواطفى.
ترقرقت عيناها بالدموع، وهي تتمم:
- حقا يا (مفيد؟
ربت على كتفها، وضم كفها إلى صدره في حرارة وحب، وهو يقول
- لن يفرقنا مخلوق يا (مديحة).. صدقيني
كانت تبتغى تصديقه، ولكن شيئا ما في أعماقها كان يرتجف..
ويبكى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تشهد (مصر) كلها، حتى هذا التاريخ، حملة اعتقالات واسعة، كتلك التي حدثت، بعد واقعة إطلاق النار على (جمال عبد الناصر) في المنشية..
كل الإخوان المسلمين.. كل السياسيين، من عهد ما قبل الثورة..
كل زعماء الأحزاب..
كل خصوم الثورة.. بل بعض أبنائها..
التهمت النيران الجميع..
حتى أصحابها..
هكذا شعر (رفعت كساب)، بعد أسبوعين كاملين من بداية حملة الاعتقالات، عندما واجه (حسين البنهاوي) أمامه في مكتبه، فهتف والقلق يملأ نفسه:
- (حسين).. كيف حالك يا رجل؟ لقد علمت من (إبراهيم مكى) خبر عودتك إلى العمل، وخروجك على رأس حملة اعتقال أعداء الثورة، و.....

قاطعه (حسين) في برود:
- معذرة يا (رفعت) بك، ولكني لست هنا لزيارة عادية.. إن لدى أوامر خاصة ومحدودة..
هوى قلب (رفعت) بين قدميه، وخيل إليه أن مخاوفه كلها تتخذ صورة واضحة ملموسة، وهو يحدق في وجه (حسين)، هاتفا بصوت متحشرج مختنق:
- أوامر محدودة؟!
أجاب (حسين) بنفس البرود، وبشيء من الصرامة:
- نعم يا (رفعت) بك.. معذرة.. إنني أنفذ واجبى
ردد (رفعت) مرة أخرى:
- واجبك؟!
لم يشأ (حسين) إضاعة المزيد من الوقت، في شرح ما لديه، فقال في حزم:
- إن لدى أمرا باعتقالك، وتحديد إقامتك في منزلك، تحت الحراسة.
قاطعه (رفعت) صارخا:
- اعتقالي!! تحديد إقامتى؟! هل جننت؟
قال (حسين)، في مزيج من الحزم والصرامة:
- أرجو ألا أضطر للجوء إلى القوة، و.....
قاطعه (رفعت) صارخا:
- القوة؟! هل بلغ الأمر هذا الحد؟ هل نسيت من أنا ومن أنت يا رجل؟ إني أحد رجال هذه الثورة! أنا الذي بنيت هذا الجهاز السرى كله.. أنا الذي صنعت أمن الثورة منذ بدايتها، أنسيت أنك كنت مجرد طالب من طلاب الكلية الحربية، وأنك ما كنت لتحلم ببلوغ ما بلغت لولاي.. أنا الذي جذبك إلى هنا.. وأنا الذي..
قاطعه (حسنين) هذه المرة:

- إنني أنفذ الأوامر
صرخ (رفعت):
- أوامر من؟
أجابه في حزم:
- أوامر (جمال عبد الناصر)، لوح (رفعت) بذراعيه، وهو يصرخ:
- ومن أعطى (عبد الناصر) حق إصدار الأوامر.. إن (محمد نجيب) لايزال الرئيس الرسمي للبلاد، وليس من حق مخلوق غيره إصدار مثل هذا الأمر.
مط(حسين) شفتيه، وقال:
- إنك لم تترك لي الخيار إذن يا سيدى
ثم انتزع مسدسه في حركة مباغتة، وألصقه بجبهة (رفعت)، وهو يستطرد:
- فأوامرى تقضي قتلك، في حال مقاومتك لأمر الاعتقال.
شحب وجه (رفعت)، وجحظت عيناه في رعب وذهول، ثم لم يلبث أن انهار، وأخفى وجهه بكفيه، وهو يهتف:
- أنا لم.. لم أقاوم.. ثم رفع عينين مغرورقتين بالدموع إلى (حسين)، واستطرد:
- ولكن اكراما لصداقتنا السابقة، ورعايتي لك، أرجوك أن تأمر الجنود حسن معاملتى.
ربت (حسين) على كتفه، وقال
- اطمئن.
وعندما ابتعد الجنود بـ (رفعت كساب)، كانت عبارة من عبارات الأميرة (عايدة) تتردد في عقل (حسين)...
(وكما حدث في الثورة الفرنسية، ستلتهم هذه الثورة أبناءها.. وتموت)

لقد رأى بنفسه نصف النبوءة يتحقق لقد بدأت الثورة مرحلة التهام أبنائها ولكن هذا لم يقلقه هو بالذات، بل منحه شعورا بالقوة..
القوة بلا حدود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

38 – الحساب..

كانت ليلة شديدة البرودة، من ليالي (نوفمبر)، عندما طرق (حسين) باب شقته القديمة، في (جاردن سيتي)، ووقف ينتظر، وذكرياته تعود به إلى الماضي، عندما كان يلتقي في هذه الثقة بـ (عايدة)، عندما فاجأه فيها (إبراهيم مكـى)، و.....

وقطع (إبراهيم مكـى) سيل ذكرياته هذه المرة، عندما فتح باب الشقة، التي استولى عليها، بعد إقالة (حسين)، وابتسم في هدوء، وهو يواجه هذا الأخير، قائلا:

- مرحبا يا (حسين).. كنت أنتظرك.

تجاوزه (حسن) إلى داخل الشقة، وراح يملأ عينيه بمحتوياتها، التي لم تتغير منها قشة واحدة، منذ رآها آخر مرة، ثم التفت إلى (إبراهيم)، وقال في لهجة تحمل الكثير من الشماتة.

- أكنت تنتظرني حقا؟

ابتسم (إبراهيم ابتسامة ماكرة، وهو يقول:

- بالتأكيد.. إنني أعلم كيف تسير مثل هذه الأمور، ومنذ اعتقال (رفعت كساب) أمس، أعددت حقيبتي، وجلست أنتظر..

شعر (حسين) بدهشة حقيقية، وهو يواجه (إبراهيم) هذه المرة، وأدهشه كيف يتقبل مثل هذه الأمور، بكل البساطة واللامبالاة وبشيء من الحدة، سأله:

- أتعلم لماذا أنا هنا؟

هز (إبراهيم) كتفيه في هدوء، وقال دون أن تفارق ابتسامته شفتيه:

- لتعتقلني بالطبع.

أغاظه أن يعلم (إبراهيم) هذا، وأن يتقبله بكل هذه البساطة، إلى الحد الذي يفقده هو لذة التشفي والظفر، فعقد حاجبيه، وقال:

- هذا يعني أنني ربحت المعركة
أطلق (إبراهيم) ضحكة قصيرة، وقال:
- بل ربحت هذه الجولة.
احتد (حسين)، وهو يقول:
- ومن أدراك أنها ليست الجولة الأخيرة؟
ابتسم (إبراهيم) في سخرية، وأشعل سيجارته في بطء وهدوء، ونفث دخانها بعيدا، قبل أن يقول:
- لا توجد جولة أخيرة، في لعبة الحكم والسياسة يا (حسين).. كل ما تراه عبارة عن مرحلة، ستمضي إن عاجلا أو آجلا، وتأتي بعدها مرحلة تالية، ثم مرحلة تالية، وهكذا.. وفي هذه المرحلة تقوم أنت باعتقالي، ولكن من يدري، ربما أشرف أنا على إعدامك، في مرحلة قادمة.
قالها وأطلق ضحكة ساخرة عالية، انتفضت لها دماء الغضب في عروق (حسين)، وهتف:
- لن تأتي هذه المرحلة أبدا وانتزع مسدسه، وصوبه إلى (إبراهيم)، مستطردا في حدة:
- أتعلم أني أستطيع قتلك الآن، مدعيا أنك حاولت الهرب؟
هز (إبراهيم) كفيه في لامبالاة، وقال:
- بالطبع.. ولن يحاسبك أو يعاقبك مخلوق واحد على هذا.. بل قد تحصل على وسام الشجاعة والفداء.
وصمت لحظة، ثم أضاف:
- ولكنك لن تفعل
جذب (حسين) إبرة المسدس، وهو يقول في غضب
- لن يمكنك أن تجزم
عاد (إبراهيم) يهز كتفيه، وينفث دخان سيجارته، ثم قال:

- ربما أمكنني أن أستنتج، فأنت تنتمي إلى أصل كريم، وفي أعماقك تختفي شهامة ريفية، ستمنعك حتما من قتلى غيلة.
ران عليهما الصمت لحظات، ومسدس (حسين) مصوب إلى رأس (إبراهيم) ثم أعاد (حسين) إبرة مسدسه إلى موضعها، وأعاد المسدس نفسه إلى جيبه، وهو يقول
- لا بأس.. سأعفو عنك هذه المرة، فالمصير الذي ينتظرك أسوأ من الموت.
ابتسم (إبراهيم)، وهو يطفئ سيجارته، ويلتقط حقيبته، قائلا
- من يدري يا صديقي. أينا ينتظره المصير الأسوأ.
وعلى الرغم منه، ارتجف جسد (حسين)، وانحفرت العبارة في أعمق أعماقه، وهو يقود (إبراهيم مكى) إلى سيارة الجيش، التي تنتظر لتقوده إلى المعتقل، وتابع السيارة بصره وهي تبتعد، وعبارة (إبراهيم) تنازع لذة الظفر في أعماقه.
لقد تخلص من أقوى خصومه ولكن المعركة لم تنته بعد وانتقامه لم يتحقق إلى الان ولن تهدأ حتى يكتب له النصر.
كل النصر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اندفعت (شريفة في السراي، تلقي نفسها بين ذراعي شقيقها (حسين)، وهي تهتف:
- (حسين).. شقيقي الحبيب.. كم اشتقنا إليك.
طبع على وجنتها قبلة روتينية، ثم أزاحها جانبا، وأشار إلى سيارتي الشرطة العسكرية، اللتين تقفان إلى جوار سيارته، وهو يقول في لهجة آمرة:
- أريد مأمور الناحية هنا، بعد نصف الساعة فقط.. هيا.

انطلقت واحدة من السيارتين؛ لتنفيذ الأمر، في حين بقيت الثانية أمام السراى، وخطا هو داخل المكان في خطوات سريعة، وهو يسأل (شريفة):
- أين (مفيد) و (نعيمة)؟
أجابته وهي تسرع خلفه
- (مفيد) في الخارج، و (نعيمة) مع ابنتها في حجرتها سألها وهو يجلس فوق مقعد والده، ويضع إحدى ساقيه فوق الأخرى
- أما زالت (نعيمة) ترغب في العودة إلى زوجها؟
تنهدت، وجلست على المقعد المجاور له، قائلة:
- إنها تحبه كما تعلم
ابتسم وهو يقول
- لابد من إعادته إليها إذن
لم يكد يتم عبارته، حتى اندفعت (فاطمة) إلى المكان، وهتفت بصوتها الأجش، الشبيه بأصوات الرجال:
- مرحبًا يا (حسين) بك.. مرحبًا.. أضأت السراى بقدومك.
قاطعها في صرامة:
- كفي.. لست أحب هذه الأساليب المبتذلة:
رمقتها (شريفة) بنظرة شامتة، في حين انكمشت هي في انكسار، وغمغمت في خفوت واستكانة:
- هل تحب أن أعد لك شيئا من الطعام، أو..
قاطعها في ازدراء:
- لا.. ليس أنت.
ازدادت انكسارا، وهي تقول:
- هل أخبر (حافظ) بقدومك، أو أتيك بـ (طارق)؟
قال في صرامة:
- ليس الآن.. اغربي عن وجهي في هذه اللحظة..

هنا. تراجعت في خزي، وانسحبت في صمت، فهتفت (شريفة) في شماتة
- أحسنت الفعل.. هذا النوع من الغوغاء يحتاج إلى الحزم والصرامة
ابتسم في زهو ظافر، وربت على كتف شقيقته، ثم نهض قائلا
- أخبرى (نعيمة) أن تستعد
سألته في دهشة
- تستعد لماذا؟
أجابها وهو يسرع إلى الخارج
- للعودة إلى زوجها بالطبع.
حدقت فيه غير مصدقة، وهو يغادر السراى، ويقول لأحد جنود سيارة الشرطة العسكرية:
- أنتظر هنا يا رجل، وأحضر المأمور إلى دار العمدة، عندما يأتي به زملاؤك.
ضرب الجندي كعبيه بعضهما ببعض، وأدي التحية العسكرية في حماس، وهو يقول:
- كما تأمر يا سيدى.
أما (حسين)، فقد انطلق بسيارته، ولحقت به سيارة الشرطة العسكرية وراح هو يقود سيارته عبر طرقات القرية الضيقة، في زهو واضح، والجميع يتطلعون إلى موكبه وهيبته، حتى بلغ منزل (عمر)، زوج (نعيمة)، فأوقف السيارة، وغادرها وهو يقول لجنود الشرطة العسكرية:
- لا تسمحوا لمخلوق بالاقتراب.
قفز الجنود من السيارة، وشهروا أسلحتهم، وهم يحيطون بباب المنزل، في عنف، حتى فتح (عمر) الباب، ووقف يحدق في وجه

(حسين) في شحوب ورعب، فدفعه هذا الأخير جانبا، وخطا داخل المنزل، وأغلق الباب خلفه، وهو يقول:
- أهلا يا (عمر).. كيف حالك وحال زوجتك الجديدة؟
لم ينبس (عمر) ببنت شفة، وهو يزداد شحوبا، في حين اتخذ (حسين) مجلسه في هدوء، واستطرد في شماتة ساخرة:
- هل بلغتك الأخبار الجديدة؟ لقد تم اعتقال (محمد نجيب)، وتحديد إقامته في فيلا (المرج)، وعزله من منصب رئيس الجمهورية، و (جمال عبد الناصر) الآن هو الرجل الأول في (مصر)..
ازدرد (عمر) لعابه الجاف في صعوبة، وارتجف جسده في رعب هائل، وهو يستعيد ما فعله به (رفعت كساب) ورجاله من قبل، في حين تابع (حسين):
- ولقد أسند إلى (جمال عبد الناصر) مهمة اعتقال أعداء وخصوم الثورة، دون أن يقيدني بأعداد خاصة، مما يتيح لي اعتقال أي كائن أشاء.
انهار (عمر) تماما، وترقرقت الدموع من عينيه، حتى قال (حسين):
- ولكني لا أستطيع اعتقال زوج شقيقتي بالطبع ارتجف جسد (عمر)، وهو يقول بصوت شاحب واهن:
- سأعيد (نعيمة) إلى عصمتي بالطبع.. الآن لو أردت
مط(حسين) شفتيه، وقال:
- كنت أتمنى هذا، ولكني أرفض تماما أن تكون شقيقتي زوجة ثانية انهار(عمر) أكثر، وهو يقول:
- ولكن زوجتي حامل، و....
قاطعه (حسين) بصوت هادر:
- لست أقبل الأعذار يا رجل.. أنت تفهم ما أقول تماما، لقد أرسلت في طلب مأذون القرية، وسيكون عليك أن تطلق زوجتك طلقة

بائنة أولا، ثم تعقد قرانك على شقيقتي، وتقيم لذلك حفلا فاخرا كبيرا، يفوق حفل زواجك الثاني، وإلا فأعود لاصطحابك الليلة.. هل تفهم؟
بكى (عمر) بدموع حقيقية، وهو يقول:
- فهمت يا (حسين) بك.. فهمت
وعندما غادر (حسين) منزل (عمر)، كان شعوره بالظفر يتضاعف ويكبر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتفض جسد العمدة، عندما توقفت سيارة (حسين) أمام داره، وهبط منها هذا الأخير، وخلفه عدد من جنود الشرطة العسكرية، ولكن انتفاضة العمدة لم تمنعه من فتح ذراعيه عن آخرهما، وهو يندفع نحو (حسين)، هاتفا:
- مرحبًا بالكريم ابن الكريم.. مرحبًا يا (حسين) بك
استقبله (حسين) بنظرة باردة، وهو يقول:
- أهلا يا عمدة.
ثم تجاوز الذراعين المفتوحين، وجلس على اريكه مجاورة للباب، وقال في لهجة تحمل رائحة ساخرة:
- سنستعير حجرة الضيافة لديك، لأداء عمل ما يا عمدة
هتف العمدة، وهو يدفع في صوته أكبر قدر ممكن من الحماس:
- على الحب والسعة يا (حسين) بك.
ابتسم (حسين) في سخرية، ثم أشار إلى الجنود، فأسرع أحدهم إلى الخارج، ثم عاد بصحبة المأمور، الذي لم يكد يلمح (حسين) حتى اندفع
نحوه هاتفا:

- (حسين) بك.. مرحبًا بك في..
قاطعه (حسين) في صرامة:
- أتعلم أنني قد اقتنعت بمبدئك أيها المأمور؟
توقف المأمور مبهوتا، وهو يقول
- أي مبدأ يا (حسين) بك؟
قال (حسين) في برود:
- مبدأ أن القرية لا تحتمل وجود خائن داخلها.
استعاد ذهن المأمور على الفور موقفه السابق مع (حسين) عند مدخل القرية، فتفجرت الدموع من عينيه بغتة، وهتف:
- الرحمة يا (حسين) بك!! الرحمة!
تجاهل (حسين) دموع الرجل، وهو يقول:
- لقد استصدرت قرارا بإحالتك إلى التقاعد أيها المأمور.
بكى المأمور في حرارة، و (حسين) يستطرد في شماتة:
- ولقد تم نقلك أولا إلى (كوم أمبو)، في محافظة (أسوان)، وعليك أن تعد العدة للانتقال مع أسرتك إلى هناك، قبل أن يصلك قرار الإحالة إلى التقاعد، وأنصحك ألا تحاول العودة منها، خشية أن يصدر قرار باعتقالك هل تفهم؟
بكى الرجل أكثر، وهو يقول
- أفهم يا (حسين) بك.. أفهم
قال (حسين) في صرامة:
- حسنا.. والآن هيا.. انصرف.
انصرف المأمور منهارا، ودموعه تسيل في حرارة، في حين شحب العمدة شحوبا شديدا، وانكمش في مقعده، وهو يتابع ما حدث في رعب، إلى أن التفت إليه (حسين)، قائلا:
- هل توافقني فيما فعلت يا عمدة؟

انحبس صوت العمدة في حلقه لحظات، ثم غمغم في صوت متحشرج:
- أنت صاحب الأمر يا حسين) بك
ابتسم (حسين) في سخرية، وقال:
. أحقا يا عمدة؟
خفت صوت العمدة، وشحب وجهه أكثر، وهو يقول:
- بالتأكيد يا (حسين) بك
مال (حسين) نحوه، وسأله:
- لماذا رفضت أن أتحدث من هاتفك إذن؟
لم يجب العمدة، وإن دل اتساع عينيه عن إدراكه، أن الوقت قد حان ليلعب هو دور الضحية، في حين اعتدل (حسين)، مستطردا:
. لقد ألمني ذلك كثيرا يا عمدة، حتى أنني قررت أن أحرمك من هذا الهاتف.
ارتجف قلب العمدة، وهو يقول في ذعر:
- تحرمني منه؟!
أومأ (حسين) برأسه ايجابًا في هدوء، وقال:
- نعم يا عمدة.. سأنقله إلى دار رجل آخر ثم أردف، وهو يتبسم في شماتة:
- إلى دار (عبد الحميد)، والد (فاطمة).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

39 – الانتقال..

حدق العمدة في وجه (حسين) في ذهول ورعب.. إنه سينتزع منه الهاتف الحكومي...

والهاتف الحكومي، في منزل العمدة، هو هيبته وكرامته، ورمز سطوته، في ريف (مصر) كله.

ثم لمن سيمنح (حسين) الهاتف؟ لـ (عبد الحميد) العامل الاجير في أرض (البنهاوي)!!

وبكل الانفعال في أعماقه، هتف العمدة:

- لمن يا (حسين) بك؟

أجابه (حسين) في تشف:

- لـ (عبد الحميد) والد (فاطمة)، زوجة أخي يا عمدة.

هتف العمدة في انهيار:

- ولكن منصب العمدة لم يخرج من عائلتي، منذ مائتي عام أو يزيد
أبتسم (حسين) في شماتة، وهو يقول:
- وآن له أن يخرج يا عمدة
كانت هذه هي الصدمة التي لا يحتملها العمدة ولا أي عمدة.. لقد انهار المسكين، وهو يردد:
- ولكن لماذا يا (حسين) بك؟ لماذا؟
هز (حسين) كفيه، وقال:
- إنها ضربة مزدوجة يا عمدة، فانتخابات العمد ستحين بعد أيام، ولو فاز (عبد الحميد) بالمنصب، فسأكون قد رفعت من شأن زوجة أخي، فبدلا من أن تكون ابنة عامل أجير، ستصبح ابنة العمدة، ويصبح من اللائق أن يتزوجها أخي، وفي الوقت نفسه أضمن وجود هاتف حكومى، إذا ما أتت ولادة مبكرة.
قالها ونهض مستطردا في حزم:
- أعدَّ الهاتف يا عمدة، فسيتم نقله إلى دار العمدة الجديد بعد أيام
انقبض صدر العمدة، وراحت أنفاسه تتلاحق في ألم، وشعر بنيران تستعر في صدره، و (حسين) يقول:
- الوداع يا عمدة انتقل الألم إلى كتف العمدة، وذراعه اليسرى، وهو يغمغم
- مستحيل!!
وعندما ابتعدت سيارة (حسين)، وخلفها سيارتا الشرطة العسكرية، كانت زوجة العمدة تصرخ:
وكانت رائحة الموت تفوح في المكان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لقد قتلته..
هتف (مفيد) بالعبارة في وجه شقيقه (حسين)، الذي استقبل ثورته بصرامة، وهو يقول:
- اهدأ يا (مفيد).. لقد أصيب العمدة بأزمة قلبية أودت بحياته، ولست مسئولا عن كل من يموت.
صاح (مفيد):
- ولكنك أنت قتلته.. إنه لم يحتمل انتزاع السلطة منه
أشاح (حسين) بوجهه، وكأنه ينهي الحديث، قائلا:
- كانت الظروف تختلف.
- وهذا لن يمنعني من الزواج، من الفتاة التي أحبها.
- كف عن تهورك وعنادك يا (مفيد).. إنني الآن في موقع الصدارة، ويمكنني أن أزوجك ابنة وزير، وأن أمنح (شريفة) زوجا تحلم به أية فتاة في (مصر) كلها.
- لو ظل الأمر على ما هو عليه، فلن تتزوج (شريفة) أبدا
- وهل يعني ذلك أن تتزوج أنت ابنة عامل حقير؟
تراجع (مفيد)، وتطلع إلى شقيقه في تحد، قائلا:
- هذا هو الشيء الوحيد، الذي لا يمكنك الحيلولة بيني وبينه يا نصف الإله.. إني في الحادية والعشرين من عمري الآن، وسأتزوج (مديحة)، شئت هذا أم أبيت، ولتنعم وحدك بأموال أبي، فلست أريد منها شيئا.
قالها واندفع خارج المكان في ثورة، وانقبض قلب (شريفة)، التي تستمع إلى الحوار منذ بدايته، وخرجت من حيث تختبئ، وربتت على كتف (حسين)، وهي تقول:
- لا تجعل عناد هذا الأخرق يفسد شهيتك يا (حسين). قال في غضب:
- إنه غبى.

ربتت على كتفه مرة أخرى، دون أن تضيف كلمة واحدة، فأزاح يدها في حنق، ثم جلس، وضم كفيه أمام وجهه، وبدا أنه قد استغرق في تفكير عميق فسألته في تردد:

- هل أعد الطعام الآن؟

التفت إليها في شرود، ثم تألقت عيناه بغتة، وهب من مقعده، وهو يهتف:

- لا.. ليس الآن

ثم أسرع إلى حيث يقف أحد جنود الشرطة العسكرية، وألقي على أذنه بعض أوامره، في صوت خافت، أنهاه بأن أضاف في صوت مرتفع بعض الشيء:

- انقلهما إلى مكتبي في (القاهرة) على الفور.. هل تفهم؟

أدى الجندي التحية العسكرية في قوة، وقال:

- ما تأمر يا سيدى

سألته (شريفة) في قلق:

- بم أمرته؟ ابتسم في ظفر، وهو يقول:

- ما سيحل المشكلة كلها

ثم التقط قبعته الرسمية، وأسرع إلى الخارج، فلحقت به هاتفة

- إلى أين؟ ألن تتناول طعام الغذاء؟

أجابها وهو يقفز داخل سيارته، ويدير محركها

- سأتناول في مكتبي في (القاهرة).

وابتعد بالسيارة، وخلفه واحدة من سيارتي الشرطة العسكرية، تاركا (شريفة) خلفه، وهي تتساءل: عما يخفيه القدر..

وترتجف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تشعر (مديحة)، في حياتها كلها بالخوف، مثلما شعرت به تلك اللحظة، وهي تقف مع والدها، بين صفين من جنود الشرطة العسكرية، داخل ممر مبنى حديث التشييد، في قلب (القاهرة)
لقد انتزعها الجنود مع والدها، من دارهما الصغيرة، ونقلوهما إلى تلك - السيارة، التي نقلتهما إلى (القاهرة)، دون أن يسمحوا لهما بمجرد السؤال..
وكان الرعب يملأ نفسها ونفس والدها، مع مزيج من الحيرة والتشاؤم..
ولم تنجح هي أبدا في استنتاج سبب ما يحدث، وإن لم يبد لها الأمر خيرا، حتى قادها أحد الجنود مع والدها إلى حجرة واسعة، فاخرة الأثاث، يتصدرها مكتب فاخر كبير، لم تكد تلمح وجه الجالس خلفه، حتى هفت:
- (حسين) بك؟!
كان المفروض أن ينتزع منها وجوده قلقها، إلا أن شيئا ما في أعماقها ضاعف هذا القلق، وحوله إلى خوف وارتياع، في حين شف صوت والدها عن فرحة الخلاص، وهو يتقدم نحو مكتب (حسين)، صائحا:
- (حسين) بك؟! حمدا لله.. لقد تصورنا أن.
أوقفه جندي الشرطة العسكرية، وهو يقول في صرامة
- قف يا رجل، وإلا أطلقت عليك النار.
تجمد (إسماعيل) في مكانه، وتطلع إلى (حسين) في حيرة، وأدهشته حقا تلك الابتسامة الملتوية، التي ارتسمت على وجه هذا الأخير، وهو ينهض من خلف مكتبه، ويتجه نحوه، ثم يتطلع إلى عينيه مباشرة، ويقول:
- لماذا تعادي الثورة يا عم (إسماعيل)؟

انتفضت كل خلية في جسد الرجل وجفت كل قطرة دم في عروقه..
وبكل الرعب، راح يحدق في وجه (حسين)، وقد اختنقت الكلمات في حلقه وعلى لسانه، في حين تراجعت (مديحة) كالمصعوقة، وهتفت:
- يعادى الثورة؟ ماذا تقول يا (حسين) بك؟
التفت إليها (حسين)، وملامحه تحمل كل الغلظة والقسوة، وقال:
- أقول إن أمامي قائمة، تحمل اسم ابيك، ضمن أسماء أعداء الثورة، المطلوب اعتقالهم، وإلقائهم في السجون، وانتزاع الاعترافات منهم بالقوة، قبل محاكمتهم، و٠٠٠٠٠
وأدار عينيه إلى (إسماعيل)، مستطردا في صرامة
- وإعدامهم.
جحظت عينا الرجل في رعب هائل، وخيل إليه أن قدميه تعجزان عن حمله، فترنح في قوة، وكاد يسقط أرضا، لولا أن أسرعت (مديحة) تسنده بذراعيها، وهي تهتف:
- ولكن هذا مستحيل! أنت تعرفه منذ مولدك يا (حسين) بك، وتعلم أنه لا شأن له قط بالساسة أو السياسة، ثم إنه كان من أسعد أهل الأرض بقيام الثورة، فكيف يعاديها؟ وكيف...؟
زمجر(حسين) في صرامة، وهتف:
- لا أريد مناقشة:
- ثم صاح بالجندي:
- خذه إلى المعتقل
لم يكد الجندي يطبق يده على (إسماعيل) حتى انهار المسكين تماما:
- الرحمة!! الرحمة!
وهنا ابتسم (حسين) في ظفر، وأشار إلى الجندي، قائلا.

- انتظر
تراخت قبضة الجندي، وانفجر (إسماعيل) باكيا، في مشهد انفطر له قلب ابنته، ففاضت الدموع من عينيها بذورها، وهي تقول:
- لماذا تفعل بنا هذا؟ لماذا؟
أجاب (حسين) في قسوة وصرامة:
- هناك بديل واحد لاعتقاله
سألته في لهفة:
- ما هو؟
أجابها في حزم:
- أن تغادر أسرتكم كلها القرية، ولا تعود إليها أبدا
لحظتها فقط أدركت المغزى وراء كل هذا.. لحظتها فقط فهمت اللعبة ولدقائق، راحت تتطلع في ألم ومرارة إلى عينى (حسين)، وبدا لها أنها تقرأ فيهما هدفه.
إنه يمنعها من الزواج من (مفيد).. ينتزع حبها من قلبها انتزاعا
يا للقسوة!! يا للعار!!
ولكن نظرة واحدة لأبيها المنهار الشاحب الباكى، كانت تكفي لتحسم رأيها، وتخفض عينيها، متمتمه في حزن الدنيا كلها:
- سنفعل.. سنفعل يا (حسين) بك
تألقت عيناه ببريق ظافر، وهو يقول:
- بقي أمر واحد سألته في ذل وانكسار:
- ما هو؟
كاد قلبها يقفز من بين ضلوعها، أو يتوقف عن الخفقان في صدرها، عندما أجاب في قسوة صارمة:
- أن تتزوجي من أحد أبناء عمومتك.. الليلة
وهوى قلبها ذبيحا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

40 - النهاية..

شرد (مفيد) بأفكاره طويلا، وهو يجلس عند الشجرة القديمة، ويرتكن بظهره إلى جذعها الكبير..

كان يفكر في (مديحة)

في حبهما.. وعشقهما.

ويفكر في (مصر)..

إن قلبه يمتلئ بالخوف، منذ رأى ما يفعله شقيقه بإسم الثورة..

بل ما تفعله الثورة بنفسها..

أي مستقبل ينتظر هذا البلد؟

أي مصير؟

أرخى رأسه مستندا إلى الجذع، وترك ذكرياته تسبح مع أيام حبه لـ (مديحة)، حتى وجد نفسه يهتف:

- سأتزوجها.. سأتزوجها مهما كان الثمن.

لم يكد يتم عبارته، حتى لاح له ظل أنثوي يعدو نحوه من بعيد، فهتف وقلبه يخفق في قلق مبهم، لم يدر لحظتها مغزاه:

- (مديحة)؟! ولكن لا.. إن صاحبة الظل أكبر حجما إنها لا تحمل رقة (مديحة) وحنانها.

وفجأة اتضحت الصورة، ووجد نفسه يهتف في دهشة بالغة، وقد تضاعف القلق في أعماقه أضعافا:

- (فاطمة)؟!. ماذا حدث؟

نهض يستقبلها وهي تلهث في شدة، وتهتف به في انفعال

- (مديحة) يا (مفيد). (مديحة)!

انتفض قلبه بين ضلوعه، وبدا له صوتها الأجش أشبه بنعيق البوم، وهو يمسك كتفيها في قوة، ويهتف بها:

- ماذا أصابها.. انطقي.. ماذا حدث؟

حاولت أن تلتقط أنفاسها، وهي تقول في انفعال:
- لقد عادت سيارة من سيارات الجيش، وحملت أمها وأشقاءها، ورحل الجميع من القرية، تحت حراسة مشددة.
صرخ بكل الفزع واللوعة في أعماقه:
- متى؟ وكيف؟ وماذا فعلوا بـ (مديحة)؟
أجابت لاهثة:
- لقد أخذوا (مديحة) وعم (إسماعيل) منذ الظهر، ثم عادوا لإلقاء القبض على الآخرين في المساء.
- عند الظهر؟! ولماذا لم يخبرني أحد؟ لماذا؟
أجابته بصوتها الأجش:
- أنت تجلس هنا منعزلا، منذ شجارك مع (حسين)، ولقد خشيت إبلاغك لحظتها، و....
لم ينتظر ليسمع حديثها، بل دفعها بعيدا، وراح يعدو نحو دار (إسماعيل)، ولم يكد يبلغها حتى صرخ في لوعة..
كان كل شيء محطما منهارا، وكأنما دكته قدم عملاقة.. وكان المكان خاليا..
لم يلتف حتى أهل القرية حوله، كما يحدث عادة، وكأنما بات الجميع يخشون مجرد الوقوف في مكان وطئته قدم البطش.
وبكل لوعته صرخ
- (مديحة)
ثم عاد يعدو نحو السراى إنه يعلم من فعل بها هذا
يعلمه.. ولن يغفر له أبدا
ولم يكد يقتحم السراي، حتى رآه أمامه
رأى (حسين) يجلس هادئا مبتسما، ويتطلع إليه في ظفر واضح..
وبكل الغضب والثورة، انقض عليه، وصرخ
- ماذا فعلت بـ (مديحة)؟

قبل أن يبلغه، فوجئ بجنديين يكبلان ذراعيه، ويمنعانه من الانقضاض على شقيقه الأكبر، وسمع هذا الأخير يقول في صرامة:
- اهدأ أيها الغبي.. لقد أنقذتك من نفسك
راح (مفيد) يقاوم الجنديين في استماتة، وهو يصرخ:
- لست إلها يا (حسين).. إنك لا تملك الحق في تصريف الأمور كما تشاء.. أعد إلى (مديحة).. أعد إلى من أحب.
عقد (حسين) حاجبيه، وقال في صرامة
- لم تعد هناك فائدة
ثم أردف في قسوة حازمة
- لقد تزوجت (مديحة).
هبط الجزء الأخير على (مفيد) هبوط الصاعقة، فتزلزل له كيانه وارتجف له قلبه، وانهارت أعماقه وهو يتمتم:
- تزوجت؟
وفي عينيه تجمعت قطرة دمع، حملت كل مرارته وعذابه وألمه، وتراخت عضلاته، وانهارت مقاومته تماما، و (حسين) ينهض قائلا في صرامة:
- انسها تماما.. لقد تزوجت ابن عمها، ورحلت، ولن تعود إلى القرية أبدا.
ترك الجنديان (مفيد) الذي انهار مع قلبه، وسقط على أقرب مقعد إليه، وشقيقه يغادر السراي، وخلفه الجنديان..
كيف؟
كيف خسر (مديحة)؟
لم يكن يصدق
من المستحيل أن يفعل

وتناهى إلى مسامعه صوت محرك سيارة (حسين) تبتعد، معلنة نهاية قصة حبه، وبداية عهد جديد
عهد بلاحب وبكل الثورة في أعماقه، صرخ (مفيد):
- لا يا (مديحة)..
لا.. لا. ولكن صرخته ضاعت في فراغ هائل.
وتلاشت وسط ظلام طويل..
وليل بلا أمل

[نهاية الجزء الأول]

أرزاق

الجزء الثاني

د. نبيل فاروق

من قلب الليل يأتي النهار.. ومن قلب الظلم تأتي الرحمة.. ومن المحال أن نأمل دوام الحال..

د. نبيل فاروق

41- ذكريات..

أطلقت (شريفة البنهاوي) تنهيدة حارة، من أعماق صدرها، وهي تقف وحيدة، في مطبخ سراى والدها الراحل، في ذلك الصباح..
تنهيدة حملت كل ما يموج به صدرها، من انفعالات ومشاعر وذكريات..
ومن عينيها انحدرت دمعة ساخنة. انزلقت على وجنتها. وذابت فوق شفتيها، دون أن تشعر هي بمذاقها الملحي المرير..
كانت ذكرياتها تسبح بعيدا في بحر سنوات مضت..
تذكرت والدها الحاج (محمد البنهاوي)، ووفاته المفاجئة، عندما استولى قانون الإصلاح الزراعي على أكثر من ثلثي أرضه، التي قضى عمره كله يكافح من أجلها..
تذكرت كيف أنه ترك ثروته كلها لشقيقها (حسين)، مقابل أن يمنح (حسين) أشقاءه أنصبتهم الشرعية، من إيراد الأرض، دون ضابط او رابط.
وكانت هذه هي المأساة، التي تفكك عندها شمل الأسرة، وانفرط عقدها..
صحيح أن (حسين) قد بلغ بعدها شأنا كبيرا، في عهد السنوات الأولى لثورة يوليو، إلا أن كل شيء، فيما عدا هذا لم يسر في الطريق الصحيح..
شقيقتها زينب) لقيت مصرعها مع زوجها (ماهر)، في أيام زواجهما الأولى..
شقيقها (حافظ) أصيب بانهيار عصبى حاد، بعد وفاة والده، وعاش حياته كالمعتوه، حتى زوجه (حسين) من (فاطمة)، ابنة (عبد الحميد)، العامل في أرضهم..
وكان هذا أكثر ما يحنقها في ذكريات الماضي..

ولكنه ليس أكثر ما يملأ نفسها بالمرارة..
المرارة الحقيقية كانت في ذكريات زواج شقيقتها (ناهد)، التي اقترنت بـ (فؤاد) زميل (حسين)، الذي أتى في البداية للزواج منها هي..
من (شريفة)..
فرت بذهنها وذكرياتها بسرعة من هذه النقطة، وحاولت أن تشغل نفسها بإعداد الطعام، قبل وصول (حسين) وضيوفه من (القاهرة)، إلا أن نهر الذكريات لم يلبث أن شق طريقه في عقلها، حاملا صورة أختها (نعيمة)، التي طلقها زوجها، عندما أبعد (محمد نجيب) شقيقها (حسين) عن العمل، ثم أجبره (حسين) على استعادتها، عندما أعاده (جمال عبد الناصر) إلى عمله، ومنحه سلطات جديدة..
ثم قفزت بها الذكريات إلى أصغر أشقائها، وأحبهم إلى قلبها.. إلى (مفيد)
وامتلأت نفسها بالحزن من أجله..
لقد كان زهرة شباب القرية كلها، يمتلئ، قلبه بحب الدنيا، الذي وهبه كله لـ (مديحة)، حبيبة قلبه وعمره، ابنة عم (إسماعيل)، التي بادلته حبًا بحب، ونما حبهما الطاهر في قلبيهما، حتى انتزعهما (حسين) من بعضهما البعض دون رحمة، فأجبر (مديحة) على الزواج من أحد أبناء عمومتها، والخروج من القرية مع أسرتها، حيث انقطعت أخبارهم تماما.
ومنذ ذلك الحين تحطم قلب (مفيد) تماما ولم يعد يخفى كراهيته لشقيقه (حسين).. ولم يتوقف أبدا عن البحث عن حبيبته الضائعة..
يا له من مسكين
إنه - في رأيها - أكثر من دفع ثمن ديكتاتورية (حسين) وقسوته..

لم تكد العبارة الأخيرة ترد بخاطرها، حتى نبض قلبها في عنف، وتلفتت حولها في قلق، وكأنها تخشى اتهام (حسين) بالقسوة، حتى في أعمق أعماق عقلها.
ولكن قلبها اعترف بالحقيقة
نعم.. (حسين) من أكثر من عرفتهم حياتها قسوة.
انها لا تنسى ما فعله بالمأمور والعمدة، عندما أمسك خيوط السلطة كلها في يده..
لقد نقل الأول إلى آخر الدنيا، وتسبب في وفاة الثاني بأزمة قلبية، عندما انتزعه من مقعد العمودية، ووضع بدلا منه (عبد الحميد)، والد (فاطمة).
انقلبت شفتاها في امتعاض، عندما تذكرت (فاطمة)..
تلك القبيحة الخشنة الصوت والمظهر، التي عملت لديهم كخادمة، قبل أن يوافق (حسين) على اقتراحها هي بالذات، ويزوجها لشقيقهما (حافظ)، نظرا لأنها الوحيدة التي تقبل الحياة مع مختل مثله.
امتلات نفسها بالغضب، عندما امتلأ عقلها بصورة (فاطمة)، فألقت ما بيدها، واندفعت خارج المطبخ هائفة:
- (فاطمة).. أين أنت؟
ظهرت (فاطمة) من حجرة قريبة، وهي تقول في تراخ استفزازى:
- ماذا هناك؟
صاحت بها (شريفة) في حدة:
- هل ستتركينني وحدي بالمطبخ؟ تعالى لمعاونتى
أجابتها (فاطمة) بصوتها الأجش
- سأنتهي من حمام (طارق) أولا.

صرخت (شريفة)، وكأنها تفرغ توترها كله في ثورتها:
- لن أقضي يومي كله في المطبخ، من أجل عيد ميلاد ابنك.
قالت (فاطمة)، وهي تمط شفتها السفلي في غلظة:
- ومن قال إنني أرغب في الاحتفال بعيد مولده؟ إنه شقيقك (حسين)، الذي طلب هذا الاحتفال، حتى يمكنه دعوة بعض رفاقه.
صرخت بها (شريفة):
- لا تنطقي باسم (حسين) قط، وأسرعي لمعاونتي، وإلا أمرته بتحطيم رأسك، عندما يصل.
كان من الواضح أن لذكر اسم (حسين) تأثير كبير داخل الأسرة، فقد عقدت (فاطمة) حاجبيها الكثين في ضيق، ولكنها غمغمت بخشونتها المعهودة:
- حسنا.. سألبس (طارق) ثيابه، وأضعه في مهده، وآتي لمساعدتك.
صاحت (شريفة):
- بسرعة.
شعرت أن صراخها في وجه (فاطمة) قد أفرغ الكثير من توترها، فعادت إلى المطبخ، تعد أصناف الطعام، وذكرياتها تسترسل مرة أخرى..
لقد أصبحت وحيدة في السراى ٠٠
بل الأسوأ أنها تقيم مع (فاطمة) و (حافظ)..
(فاطمة) بخشونتها وغلظتها، و (حافظ) الذي يقضي يومه صامتا في شرفة السراى، لا يتحدث إلا لماما، ولا يبتسم إلا وهو يداعب ابنه (طارق) أو يحادثه.
إنه يعلم أن الجميع لا يقيمون له وزنا، فلا أحد يهتم بأمره، سوى زوجته (فاطمة)، و (عبد الحكيم)، زوج شقيقتهم (توحيده)، الذي

يعامله بود ومحبة، ويجالسه طويلا، كلما أتي مع زوجته وأبنائهما إلى السراى..
أما هي، فلم تتزوج بعد..
لم يتقدم أحد لخطبتها، منذ رفض (فؤاد) الزواج منها، وفضَّل عليها شقيقتها (ناهد)..
إنها تشعر بغصة في حلقها، كلما أتت (ناهد) وزوجها مع أطفالهما إلى السراي، فهذا يذكرها بموقف (فؤاد)، الذي يبدو أنها وحدها تذكره، بعد أن نسيه (فؤاد) نفسه، ونسيته حتى (ناهد) شقيقتها..
هي وحدها بين نساء الأسرة تذكره..
تذكره؛ لأنها لم تتزوج أو تنجب بعد..
حتى (فاطمة)، التي تبدو أشبه بالرجال تزوجت، وانجبت ابنها (طارق)، الذي سيحتفلون بعيد مولده الأول الليلة..
أطلقت تنهيدة حارة أخرى، وعادت تنهمك في عملها ومحاولة الفرار من النهر..
نهر الذكريات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أليس هذا هو (مفيد) يا حاج (سعفان)؟...
رفع الحاج (سعفان) شفتيه عن كوب الشاي، الذي اعتاد تناوله عصرا، في مقهى (جودة)، على مشارف القرية، وأدار عينيه إلى موقف السيارات القريب، وتطلع مشفقا إلى (مفيد)، الذي بدا شاردا متعبًا حزينا، وهو يغادر إحدى سيارات الأجرة، ويتجه إلى طريق السراى، في خطوات متهالكة، اشتركت مع ذلك النحول، الذي أصابه في الأشهر الأخيرة، لتمنحه مظهرا يفوق سنوات عمره، التي بلغت اليوم بالذات العامين بعد العشرين. وقال في أسف:

- نعم يا (جودة).. هو (مفيد).. (مفيد البنهاوي).
وضع أمامه (جودة) قدحا من الماء، وهو يقول في لهجة تحمل رائحة السخرية:
- أما زال يبحث عن (مديحة) ابنة (اسماعيل)؟
قال الحاج (سعفان)، وهو يواصل متابعته لـ (مفيد):
- سيمضي وقت طويل، قبل أن يتوقف عن هذا يا (جودة)، فالطريقة التي انتزعها بها منه (حسين)، تركت في قلبه جرحا لا يندمل.
تلفت (جودة) حوله في ذعر، وقال:
- أرجوك يا حاج.. لا تذكر هذا الأمر هنا
سأله الحاج (سعفان) في دهشة:
- أي أمر؟! هل نتحدث عن شيطان رجيم؟!
مال (جودة) نحوه، وهو يقول في هلع:
- أرجوك يا حاج.. الحديث عن الشيطان الرجيم أهون أمرا، فهو على الأقل يكتفي بالوسوسة، أما من أخشاهم فقد يلقون بك في جحيم حقيقى.
هتف الحاج (سعفان) مستنكرا:
- جحيم حقيقي؟! أي قول سخيف هذا؟
شحب وجه (جودة)، ولوح بكفه قائلا:
- حسنا يا حاج.. تظاهر بأنني لم أقل شيئا، ولكن لا ترفع صوتك بهذا.. أرجوك..
ثم استطرد في صوت مرتفع، محاولا التغطية على الموقف:
- شاي وقهوة.. من يطلب شايا أو نرجيلة؟
وابتعد في سرعة، جعلت الحاج (سعفان) يضرب كفا بكف، وهو يقول:
- لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. ماذا أصاب هؤلاء الناس؟

هز رأسه مستنكرا، ومستعيذا بالله (سبحانه وتعالى) من الشيطان الرجيم، ثم عاد يتطلع إلى (مفيد)، الذي بلغ نهاية الطريق تقريبا، وأكمل مشفقا:
- لك الله يا ولدي.. لك الله..

أما (مفيد) فلم ينتبه إلى الحاج (سعفان)، صديق والده الراحل، ولا الى (جودة) وقهوته وزبائنه، فقد كان ذهنه كجسده، مكدودا مرهقا، بعد يوم جديد، قضاه في البحث عن (مديحة).
لم يكن باستطاعته الاستسلام لفكرة اختفائها من حياته، على الرغم من مرور ما يقرب من عام كامل على رحيلها مع أسرتها من القرية، وانقطاع أخبارها تماما.
كل ما يعلمه عنها هو أن شقيقه (حسين) قد أجبرها على الزواج من أحد أبناء عمومتها.
حتى هذا لا يثق به.. ربما لأن مصدره الوحيد هو (حسين)..

امتلأت أعماقه بالغضب والكراهية، عندما تذكر شقيقه، وما فعله بحبيبته بكل القسوة والجبروت والطغيان، ثم لم يلبث الغضب والكراهية أن تحولا إلى احساس عميق باليأس والمرارة..
إنه يعلم استحالة عثوره على (مديحة)، وهو يجهل أين اتخذ لها زوجها مستقرا، بين مدن (مصر) كلها
ثم أنه ما جدوى العثور عليها؟
انها لم تعد له...
لم تعد الفتاة التي عشقها وأحبها، في عفة وطهارة، وهما بعد صبيين صغيرين.
لقد صارت زوجة
زوجة رجل آخر.

اختنق حلقه بغصة كادت تدفع الدموع الى عينيه، فازدرد لعابه في محاولة للتغلب عليها، إلا أن هذا لم يزده إلا شعورا بالاختناق، فتوقف عن مقاومة الدموع، وتركها تتفجر من عينيه، وتنهمر على وجهه حارة غزيرة.
ومن بين سحب الدموع رأي السراي أمامه
لقد بلغه دون أن يدرى
قادته قدماه إليه في شروده.

وأسرع يجفف دموعه، ثم توقف في مرارة، يتطلع إلى سيارة فارهة تقف أمام السراي، وإلى جوارها جنديان، حمل كل منهما سلاحه في تأهب، كما لو كانا يتحفزان لشن هجوم على القرية كلها..
وأدرك ما يعنيه هذا المشهد لقد وصل الطاغية..
طاغية ال (البنهاوي)..
وصل (حسين).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

42 - خفقات القلب

ارتفعت ضحكة (حسين البنهاوي) في حجرة الضيوف بالسراي، وبدا شديد الزهو والغرور، وهو يدير عينيه في وجه شقيقاته وأزواجهن الذين اجتمعوا جميعا لاستقباله مع ضيفيه، واستقبلوا الثلاثة استقبالا حارا حافلا، أثلج صدر(حسين)، الذي ما دعا رفيقيه إلا ليبرز لهما مكانته في قريته، وبين اسرته..

وبلهجة تحمل نبرة استخفاف، اتجه (حسين) إلى شقيقته (نعيمة)، يسألها:

- أين زوجك (عمر)؟

ارتبكت (نعيمة)، وحاولت أن ترسم على شفتيها ابتسامة خاوية، وهي تجيب:

- إنه.. إنه مريض، ويرسل تحياته لك بالطبع، ولكن مرضه أعجزه عن مشاركتنا عيد ميلاد (طارق).

كان يعلم أنها كاذبة، وأن (عمر) لم يطأ أرض السراى بقدمه، منذ أجبره هو على إعادة (نعيمة) إلى عصمته، وتطليق زوجته الثانية، وأنه يتحاشى مقابلته، منذ ذلك الحين، إلا أن إجابتها كانت تناسب الموقف، مما جعله يكتفي بها، ويسأل بنفس اللهجة:

- وأين (مفيد)؟

أسرعت (شريفة) تجيب:

- أنه يقضي بعض شنونه في الخارج، وسيأتي بعد قليل وفي بساطة متناهية، أضافت:

- أما (حافظ) فهو هنا، يستعد مع (فاطمة)، لحضور حفل عيد ميلاد (طارق)، و.

أنبأها ذلك الوجوم، الذي ساد المكان، مع النظرة الصارمة الغاضبة في عيني (حسين)، بفداحة ما نطقت به، في رأي

(حسين) على الأقل، فبترت عبارتها، وامتقع وجهها في خوف، واتسعت عيناها في ذعر، في حين لم ينتبه (صلاح) و (أمجد) رفيقا (حسين) إلى ما حدث، فابتسم الثاني، وهو يتطلع إليها، قائلا:
- وماذا؟
أتت كلمته كناقوس مدوّ، وسط السكون الرهيب، الذي ران على المكان، فالتفتت العيون كلها إليه، فيما عدا عينى (شريفة)، التي أشاحت بوجهها في شحوب، متمتمه:
- لا شيء.. معذرة.. سأذهب لإحضار الشاى.
ران على المكان سكون ثقيل، بعد انصرافها مسرعة من المكان وأدرك (أمجد) أنه لم يحسن التصرف، فاحتقن وجهه، وارتبك على نحو واضح، في حين أبتسم (صلاح) ابتسامة خبيثة، وكأنما يسعده خطأ رفيقه.
كان كلاهما زميلا ومرؤوسا لـ (حسين)، في منصبه الجديد، ولكنهما كانا متناقضين تماما في كل شيء تقريبا، فقد كان (صلاح) قصيرا، غليظ الملامح، يلوح الخبث من سماته، ويطل من ملامحه وعينيه، في حين كان (أمجد) طويلا وسيم الطلعة، تنطق قسماته كلها بالصدق وسلامة الطوية.
ولكن (صلاح) كان يتميز عن (أمجد) بصفة خاصة، ألا وهي سرعة الفهم، والقدرة على سبر أغوار الآخرين..
شأن أي داهية
وعندما طال الصمت، وازداد ثقلا. كان (صلاح) هو أول من قطعه، وهو يقول:
- مازالت استقالة (صلاح سالم) تدهشني
كانت عبارة ذكية، طرقت واحدا من أكثر أحداث هذه الفترة سخونة، وغيرت مجرى الحديث في سرعة، إذ قال (حسين) في ثقة، وهو يتكىء في مقعده في خيلاء:

- إنها لم تدهشني أنا، فلقد تقدم (صلاح سالم) باستقالته أكثر من مرة، منذ قيام الثورة، وكان من الطبيعي أن يسأم (جمال) هذا الأسلوب، ويقبل استقالته يوما.
اعتدل (عبد الحكيم)، زوج (توحيده)، وهو يقول في اهتمام:
- ولكنني لم أتوقع أبدا أن يحدث هذا، فلقد كان (صلاح سالم) من أبرز شخصيات مجلس قيادة الثورة، بعد (جمال عبد الناصر)، و(عبد الحكيم عامر).. ولن أنسى أبدا ما فعله في (السودان).
اندفع (أمجد) يقول مستنكرا:
- كانت مهزلة
هتف (عبد الحكيم) في دهشة
- مهزلة؟! أجابه (أمجد) في انفعال:
- بالطبع.. كيف لضابط في مكانته أن يرقص عاريا، وسط بعض القبائل البدائية.
عقد (حسين) حاجبيه في صرامة، وهو يقول:
- كان يجاريهم في تقاليدهم فحسب.
أدرك (أمجد) من لهجة (حسين)، أنه ليس من اللياقة ذكر مثل هذا الأمر، فتورد وجهه مرة أخرى، وأضاف في ارتباك:
- ولكن هذا لا يمنع كونه واحدا من أبرز رجال الثورة.
غمغم (عبد الحكيم) متراجعا:
- هذا صحيح
ابتسم (صلاح) في خبث مرة أخرى، وكأنما يسعده أن يخطئ (أمجد) كثيرا، ثم قال في هدوء:
- ولكن (عبد الناصر) هو أعظم الجميع بلا منازع.
قال (حسين) في سرعة:
- هذا صحيح
ثم لم يلبث أن مط شفتيه، مستدركا:

- ولكنني كنت أتوقع منه مكافأة أعظم بكثير، بعد موقفي إلى جواره، في أحداث اكتوبر الماضي.
ابتسم (صلاح)، وهو يقول:
- ولكنك حصلت على ترقية استثنائية رائعة يا سيدى، فأنت الآن برتبة (صاغ) (*رائد)، وزملاء دفعتك لم يحصلوا بعد على رتبة (يوزباشي) (**نقيب).
مط (حسين) شفتيه مرة أخرى، وقال:
- كنت أتوقع ما هو أكثر من ذلك ثم اعتدل بغتة، مستطردا:
- لقد ارتفعت شعبية (جمال عبد الناصر) كثيرا، بعد حادثة (المنشية) هذه، فلقد ظهر أمام الناس في صورة البطل المغوار، الذي يقف ثابتا في مواجهة النيران، ويطالبهم بالصمود، متحديا الموت والرصاصات.
قال (أمجد) في اهتمام:
- مازال هذا الحادث يحيرني يا سيدى، فأنا أظن - في بعض الأحيان - أن (عبد الناصر) كان على علم به قبل وقوعه.
تردد (حسين) لحظة، اتجهت إليه خلالها أنظار الجميع في اهتمام بالغ، قبل أن يهز كتفيه، قائلا:
- أظنه كان يعلمه على نحو أو آخر
تراجع (عبد الحكيم) في حدة، في حين هتف (فؤاد) مستنكرا:
- هل تعني أنه مدبره؟!
أسرع (حسين) يقول:
- أنا لم أقل هذا..
ثم التقط أنفاسه في صوت مسموع، وتابع:
- فارق عظيم بين معرفة الشيء وتدبيره.. فأنتم لا تعرفون (جمال عبد الناصر) كما أعرفه.. إنه كتلة من الحماس والحزم والطموح والعناد.. وحتى لو علم بأمر محاولة الاغتيال، عن طريق جهازنا

مثلا أو أحد الأجهزة الأخرى، فلم يكن هذا ليمنعه عن إلقاء خطبته في (المنشية)، والوقوف أمام الجماهير، التي يمنحها دائما كل ثقته وحبه.. صدقوني.. ربما كان (عبد الناصر) يعلم بأمر محاولة اغتياله، ولكن هذا لن يمنعه من الوقوف في وجهها شامخا.

هز (عبد الحكيم) رأسه، وقال:

- عظيم هو هذا الرجل

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة، وهو يستطرد في حماس:

- هل رأيتم كيف استقبلته الجماهير عند عودته من مؤتمر (باندونج)، في الثاني من (مايو) الماضي. لقد كان استقبالا حارا يذكرني باستقبال (مصر) لـ (سعد زغلول) باشا، عند عودته من المنفي، بعد أن..

حبست نظرة (حسين) الصارمة المستهجنة كلمات (عبد الحكيم) في حلقه، فازدرد لعابه في رهبة. وتمتم:

- بل كان أعظم من ذلك كثيرا.. كثيرا جدا.

وصلت (شريفة) في هذه اللحظة، تحمل صينية كبيرة، فوقها عدد من أكواب الشاي، وراحت تقدمها للجميع، وعندما قدمت أحدهما لـ (أمجد)، ارتجف الكوب في يدها، مع اختلاجة قوية لقلبها.

لقد كانت عينا (أمجد) العسليتان تتطلعان إليها في اهتمام بالغ اهتمام رجل بامرأة.. وخفق قلب (شريفة) بين ضلوعها خفق كما لم يخفق من قبل لقد جذب (أمجد) انتباهها، منذ قدومه مع (حسين).

جذبها بوسامته، وعينيه العسليتين العميقتين، اللتين يطل منهما حنان الدنيا كلها، حتى لقد تساءلت: كيف تسني لمثله العمل مع شقيقها (حسين)، في جهاز أمني واحد؟

وعندما التقط (أمجد) الكوب من بين أصابعها، تلامست أناملهما فارتجف جسدها كله، وأسرعت تترك الكوب بين أصابعه،

وتسحب يدها كلها في حياء، وجسدها يواصل ارتجافته اللذيذة.
وارتفعت دقات قلبها في شدة، وهي تقدم أكواب الشاي الأخرى للباقين، حتى لقد خشيت أن تبلغ هذه الدقات مسامعهم، فيفتضح أمرها وينكشف ارتباكها.
وعندما انتهت من تقديم الشاي للجميع، استدارت بسرعة، وغادرت المكان وقدماها تتعثران في بعضهما البعض، واختفت في حجرتها ودقات قلبها تتسارع أكثر، وأكثر، وأكثر..
لقد خفق قلبها أخيرا
ولكن هل تربح هي من هذه الخفقات؟
انتزع السؤال منها تلك النشوة، التي فاضت في عروقها، فعاودها قلقها، وهي تسال نفسها
- نعم.. هل أربح أنا؟
وبقي السؤال في أعماقها حائرا.
دون جواب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتشف (حسين) رشفة من كوب الشاي الساخن، ثم استرخي في مقعده، وقال:
- أين (طارق).. ألسنا هنا للاحتفال بعيد مولده؟
قالت (ناهد):
- كنت أظننا سنحتفل به في المساء، لنوقد الشموع، وننشد أنشودة عيد الميلاد.
هز (حسين) رأسه نفيا، وقال:
- لن يمكننا هذا للأسف، فالمأمور تمضي بسرعة هذه الأيام، والأحداث تتلاحق على نحو يحتاج إلى وجودنا باستمرار.

سأله (عبد الحكيم) في اهتمام:
- هل سيقيم (عبد الناصر) علاقات مع الأمريكيين؟
ابتسم (حسين)، وأسبل جفنيه قليلا، ورفع سبابته على نحو تمثيلي، يجعله يبدو في صورة العليم ببواطن المأمور، وهو يقول:
- لم يحن موعد اجابة مثل هذا السؤال بعد.
كان من الواضح أن أسلوبه هذا قد أتي ثماره، إذ تراجع (عبد الحكيم) مبهورا، وهو يتمتم:
- بالطبع.. بالطبع وفجأة ارتسمت على شفتي (حسين) ابتسامة واسعة، وهو يقول:
- (مفيد).. أهلا يا شقيقي العزيز.. لماذا تأخرت في العودة حتى الان؟
نهض لمصافحة (مفيد) في حرارة، ولكن هذا الأخير صافحه في برود، حاول أن يخفى به مقته، ثم صافح (صلاح) و (أمجد) في سرعة، وقال:
- معذرة.. سأذهب إلى حجرتي بعض الوقت، و.
قاطعته (نعيمة):
- ولكن هذا مستحيل.. أنسيت أننا لا نحتفل بعيد ميلاد (طارق) وحده، وإنما بعيد ميلادك أيضا، الذي يتوافق معه؟
هتف (حسين)، وكأنما لم ينتبه إلى الأمر، إلا في هذه اللحظة
- يا إلهي! هذا صحيح ثم التفت إلى شقيقته (ناهد)، وقال:
- هيا يا (ناهد).. أحضري (البنهاوي) الصغير، وسنحتفل بعيدى الميلاد معا.
أسرعت (ناهد) لإحضار (طارق)، ولكن (مفيد) استوقفها في حزم، قائلا:
- لا تحضري (طارق) وحده

وجم الجميع، وتطلعوا إلى (حسين) في قلق، وعقد هذا الأخير حاجبيه في توتر، لم يلبث أن تحول إلى غضب عارم، عندما أضاف (مفيد) في عناد:

. أحضري أيضا والديه.. (حافظ) و (فاطمة).

وهوت القلوب بين الضلوع لقد أشعل (مفيد) الفتيل

فتيل العاصفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

43 – العاصفة..

انعقد حاجبا (فاطمة) الكثين في غضب، وراحت تزفر في غيظ، وهي تعقد ساعديها، أمام النافذة الصغيرة، المطلة على الفناء الخلفي للسراى. في حجرة (حافظ)، وتطلع إليها زوجها في خنوع، وهو يحمل طفله الصغير في حنان، وتردد طويلا، قبل أن يسألها في خفوت:

- ماذا حدث؟

استدارت إليه في غضب، وهتفت بصوتها الأجش:

- أتسألني ماذا حدث؟ ألا تملك شعورا أو إحساسا يا رجل؟! كيف يكون اليوم هو أول أعياد ميلاد طفلنا الوحيد، ثم يصدر شقيقك (حسين) أوامره بألا نحضر حفل عيد الميلاد؟

أطرق أرضا، وهو يغمغم:

- انه شقيقي الأكبر.

- هذا لا يمنحه الحق في منعنا من حضور حفل عيد ميلاد ابننا

حاول أن يهدئ من حدتها، وهو يتمتم في استكانة:

- ومنذ متى يقيمون حفلات أعياد الميلاد في قريتنا؟

قالت محتدة:

- لا شأن لي بما يحدث في القرية، فأنتم لا تتبعون قواعدها منذ مولدكم يا آل (البنهاوي).. إنكم حتى ترتدوا ثياب أهل المدن منذ طفولتكم.

قال في لهجة أقرب إلى الضراعة:

- ولكننا لم نكن نحتفل بأعياد الميلاد

قالت في غضب:

- ولكنكم تفعلون، وها هوذا حفل عيد الميلاد يقام في السراى. وسيكون ابننا هو صاحبه، دون أن نراه يفعل هذا.. أهذا عدل؟

عاد يطرق برأسه أرضا، وهو يقول في خفوت:
- لا أحد يمكنه معارضة (حسين)
قالت في حدة:
- لماذا؟ إنه شقيقك، وكلكم تملكون مثلما يملكه.
هز رأسه نفيا، وقال:
- لا.. أنت تعلمين أن والدنا. رحمه الله. قد أعطى كل شيء لـ (حسين)، و.
قاطعته ساخطة:
- هذا ظلم
تجمعت دمعة كبيرة في عينيه، وهو يقول:
- لا تصفى والدي - رحمه الله. بالظلم يا (فاطمة).. لقد كان أفضل أب في الدنيا كلها، ولو أنه على قيد الحياة لما..
لم يستطع إنهاء عبارته، عندما انهمرت الدموع من عينيه غزيرة، فقالت (فاطمة) في عصبية، زادت من خشونة صوتها:

- كف عن ضعفك هذا.

قال منتحبًا:

- لا يمكنني نسيان والدي أبدا

لوحت بذراعها، وقالت:

- لقد مات منذ سنوات، والجميع الأن يحيون حياتهم العادية ولا يفكرون حتى في زيارة قبره، وأنت وحدك تبكيه إلى الآن.

لم يجب، وهو يترك لدموعه العنان، فزفرت مرة أخرى في غيظ ومرارة، وعادت تتطلع من النافذة، مستطردة:
- لا فائدة.. إنه رزقي.. رزقي أن أحظى بالأضعف دائما، ولعل الله (سبحانه وتعالى) يعوضني عن هذا خيرا..
ثم عقدت حاجبيها أكثر، مضيفة:
- في الدنيا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلبد جو الحجرة بغيوم كثيفة، بعد أن نطق (مفيد) عبارته الأخيرة، وتسمرت (ناهد) في مكانها، وهي تنقل بصرها في خوف وقلق، بين وجه (حسين)، الذي انعقد حاجباه، وتطايرت شرارات الغضب من عينيه واضحة، ووجه (مفيد)، الذي بدا أشبه بتمثال للتحدي والعناد.

وأدرك (صلاح) بدهائه وجود مشكلة عائلية كبيرة، تخص (حافظ) و (فاطمة)، وأن (مفيد) يبغض شقيقه (حسين) كل البغض، واختزن عقله الخبيث هذه المعلومات، وهو يدرك أنها قد تفيده يوما، في حين بدد (حسين) ضباب الصمت الرهيب، المخيم على المكان، وهو يقول في لهجة أمرة، ونبرات باردة كالثلج:

- (حافظ) مريض

قال (مفيد) في حدة:

- وماذا عن (فاطمة)؟

أجابه (حسين) بنفس البرود:

- واجب الزوجة أن ترعى زوجها

واجه (مفيد) شقيقه بجسده كله، وهو يقول في تحد سافر:

- لست أظن هذا يمنعها من حضور أول اعياد ميلاد طفلهما الوحيد.

ساد الصمت مرة أخرى، واتجهت الأنظار كلها إلى (حسين)، وتركزت على شفتيه، في انتظار جوابه، في حين راح عقل هذا الأخير يعمل في سرعة.

من الواضح أن (مفيد) يحاول إحراجه، وتحديه علنا، أمام (صلاح) و (أمجد)، وهذا يضعه في موقف حرج للغاية.

إما أن يتصدى له، ويرفض حضور (حافظ) و (فاطمة)، مما قد يدفع (مفيد) إلى اعلان السبب الحقيقي لعدم إحضارهما، فيذاع السر، ويعلم (صلاح) و (أمجد) على الأقل أن شقيقه مختل العقل،

وإما أن يقبل بحضور (حافظ) و (فاطمة)، فيفقد بهذا هيبته وسط عائلته، وأمام مروسياه.
ولم يستغرق تفكيره أكثر من دقيقة واحدة، ارتسمت بعدها ابتسامة مخيفة على شفتيه، وهو يقول:
- بالطبع لن يمنعهما هذا من الحضور، وهذا ما أخبرتهما به، ولكنهما أصرا على عدم إزعاجنا بمرض (حافظ)، حتى لا يفسدا على ابنهما حفل عيد ميلاده الأول.
بدا الجواب منطقيا لـ (أمجد)، في حين ابتسم (صلاح) في خبث. وقد أدرك أن رئيسه يحيك خيوط لعبة ما، أما أفراد أسرة (حسين)، فقد تبادلوا نظرات القلق، وقد بدا لهم جواب (حسين) عجيبا، وتحول قلقهم إلى خوف يمتزج بدهشة بالغة، عندما أضاف هذا الأخير:
- هيا يا (مفيد).. سنحضرهما معا.
اتجه إلى شقيقه، ووضع يده على كتفه، ودفعه أمامه في رفق إلى حجرة (حافظ)، وفتح بابها وهو يقول في صوت مرتفع، حرص على أن يسمعه الجميع:
- مساء الخير يا أخي العزيز (حافظ).. مساء الخير يا زوجة أخي الحبيبة.
وتضاعف الخوف والقلق والدهشة في القلوب، عندما دلف مع (مفيد) إلى الحجرة. وأغلق بابها خلفهما في هدوء.
ووسط الصمت الرهيب، عادت (ناهد) تجلس إلى جوار زوجها وعيناها تتطلعان في قلق إلى باب حجرة (حافظ)، في حين تنحنح (عبد الحكيم)، والتفت إلى (صلاح) و (أمجد)، قائلا:
- هل تتوقعان إعلان الجمهورية في (السودان)؟
جذبهما السؤال إلى حديث آخر، حول (السودان) وظروفه بعد الاستقلال، في حين مالت (ناهد) نحو زوجها (فؤاد)، وسألته في

قلق:
- أتظن أن (حسين) سيستجيب لـ (مفيد) أجابها (فؤاد). وهو يتطلع بدوره إلى حجرة (حافظ):
- سيدهشني كثيرا لو فعل، فهو لم يعتد التنازل عن رأيه أبدا
سألته:
- ما الذي سيفعله إذن؟
هز رأسه مجيبا:
- مع شقيقك (حسين) يستحيل استنتاج هذا أو توقعه، ولكن ثقي أنه سيفعل أي شيء ليربح.
وصمت لحظة. ثم استطرد:
- أي شيء

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكد (حسين) يغلق باب حجرة (حافظ) خلفه، حتى تلاشت تلك الابتسامة الزائفة، التي يرسمها على شفتيه، وانعقد حاجباه في غضب عنيف، وهو يلتفت إلى (مفيد). قائلا:
- هل تحاول إحراجي أمام ضيفي؟
قال (مفيد) في حدة:
- بل أنت الذي يحاول فرض ارادته على الجميع، في ديكتاتورية لا مثيل لها.
قال (حسين) في غضب:
- إنني أحاول المحافظة على سمعة عائلة (البنهاوي) واسمه
صاح (مفيد) في وجهه:
- بل تحافظ على اسمك وحده، ولكنني لن أتراجع عن قولى يا (حسين) بك سيحضر (حافظ) و (فاطمة) حفل عيد ميلاد

(طارق)، وإلا خرجت لزميليك المحترمين. وأوضحت لهما حقيقة رئيسهما الأناني المغرور.
خشيت (فاطمة) ثورة (حسين)، فقالت مرتجفة:
- لا داعي لهذا يا (مفيد) بك.. لست أريد حضور حفل عيد الميلاد هذا.
هتف (مفيد):
- بل ستحضرينه، وسيحضره (حافظ) أيضا
تمتم (حافظ) في خوف:
- لو أمرني (حسين) قال (حسين) في عصبية
- هل رأيت؟ انهما يرفضان الحضور
هتف (مفيد):
- بل هما يخشيانك
لوح (حسين) بكفه، قائلا
- فليكن.. المهم انهما لن يحضرا الحفل
قال (مفيد) في عناد:
- بل سيحضرانه يا (حسين)، والا كشفت حقيقتك للجميع.
أمسكه (حسين) من ياقته في عنف، وهو يقول:
- لا تحاول تهديدى يا (مفيد).. إنني مستعد لسحق أي مخلوق يحاول اعتراض مسيرتي وطموحي، حتى ولو كان أنت.
دفعه (مفيد) في حدة، قائلا:
- أتحداك أن توقفني
هتف (حسين) في غضب:
- فليكن
وأطلقت (فاطمة) شهقة ذعر، واحتضنت ابنها في قوة، في حين تراجع (حافظ) في خوف، عندما أخرج (حسين) مسدسه بحركة حادة. وألصقه بصدغ شقيقه، و.

وقفزت سبابته إلى الزناد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

44 - القوة..

تسللت (نعيمة) إلى حجرة (شريفة) على أطراف أصابعها، وابتسمت في خبث، عندما رأت تلك النظرة الشاردة الهائمة، في عيني (شريفة)، فاقتربت منها في خفة، ومالت على أذنها هامسة:

- هل بلغت الجنة؟

انتفضت (شريفة) في ذعر، وكأنها لم تنتبه لقدوم شقيقتها، إلا في هذه اللحظة، وهتفت وهي تهب جالسة على الفراش:

- (نعيمة).. لقد أفزعتني

ضحكت (نعيمة) في مرح، وهي تقول:

- أفزعتك أم انتزعتك من أحلام الحب والهوى؟

تضرج وجه (شريفة) بحمرة الخجل، وهي تقول:

- أي حب وأى هوى يا (نعيمة)؟ أنت تعلمين أنني لا أغادر السراى تقريبا

مالت (نعيمة) نحوها، وابتسمت قائلة

- ومن قال إن الحب يحتاج إلى الخروج من السراى؟

ثم غمزت بعينها، مستطردة في خبث

- لقد جاء إلى هنا

أشاحت (شريفة) بوجهها في حياء، وهي تتمتم:

- لست أفهم ماذا تعنين

أطلقت (نعيمة) ضحكة أخرى، وهمست:

- (أمجد).. ذلك الوسيم.. هل أدركت ما أعنيه؟

تضاعفت علامات الخجل على وجه (شريفة)، وهي تقول في ارتباك:

- ماذا به؟

قرصتها (نعيمة) مداعبة، وهي تقول:

- أتظنين شقيقتك الكبري غبية!! لقد لاحظت نظراته اليك، منذ رآك.. انه يلاحقك بعينيه أينما ذهبت.
وضحكت مرة أخرى، قبل أن تستطرد
- لقد سقط في بحر الهوى.
خفق قلب (شريفة) لكلمات شقيقتها، وشعرت بالسعادة؛ لأن غيرها قد انتبه إلى اهتمام (أمجد)، ولكنها عادت تشيح بوجهها خجلا، وهى تقول:
- أي قول هذا يا (نعيمة)؟ إنني لم أره، ولم يرني، إلا منذ ساعات قليلة، فهل يمكن أن ينبت الحب. في هذا الوقت القصير؟
كانت لهجتها تحمل من التساؤل واللهفة، أكثر مما تحمل من الاستنكار، مما جعل (نعيمة) تبتسم في حنان، ثم تهمس في أذن شقيقتها:
- لم لا نسأله هذا السؤال؟
تضرج وجه (شريفة) بحمرة الخجل، وهي تقول:
- يا الهى! ومن يجرؤ على فعل هذا؟
أطلقت (نعيمة) ضحكة أخرى، وانحنت تطبع قبلة حانية على وجنة شقيقتها، وهي تقول:
- أسعدك الله يا أحب شقيقاتي إلى قلبي.
اختلط الخجل بالسعادة في قلب (شريفة)، وأسرعت تحاول تغيير مجرى الحديث، وهي تسأل شقيقتها:
- كيف حال زوجك (عمر)؟
لم تدر لماذا اختارت هذا السؤال بالذات، ولكن يبدو أن فكرة الزواج، التي تملا رأسها، هي التي قادتها إليه، ولكنه - على أية حال - لم يكن بالسؤال المناسب فلقد تلاشى المرح من ملامح (نعيمة) فور سماعه وبدا الحزن في عينيها واضحا، وهي تقول في أسى:

- صدقيني يا (شريفة).. إنني أحيا مع (عمر) تحت سقف واحد ولكننا نحيا كغريبين.. إنه حتى لا يتحدث معي الا لماما، ولا يداعب ابنته الا نادرا.
تجمعت دمعة كبيرة في عينيها، وسقطت على وجنتيها بسرعة، وهي تستطرد:
- لقد علمت أنه يزور زوجته الأخرى سرا، وخاصة بعد أن أنجبت له ذكرا، واظنه قد تزوجها مرة أخرى.
ضربت (شريفة) صدرها براحتها، هاتفة
- تزوجها مرة أخرى؟! يا للنذل.. ينبغي أن تخبري (حسين) و.
قاطعتها (نعيمة) في هلع:
- لا.. أرجوك.. لا أريد أن يعلم (حسين) أي شيء عن هذا
هتفت بها (شريفة) في دهشة
- لماذا؟ (حسين) يمكنه أن يجبره على أن يطلقها ثانية
قالت (نعيمة) في حدة:
- ومن قال انني ارغب في هذا؟ ثم جففت دموعها بكفها، وهي تستطرد في أسى:
- لقد أجبر (حسين) (عمر) على اعادتي، ولكنه لا يستطيع إجباره على أن يحبني.. إن (عمر) يكرهني يا (شريفة)..نعم يكره (حسين) في شخصي انا.. صحيح أنه لا يستطيع اساءة معاملتي، خشية اغضاب (حسين)، الا أن هذا وحده لا يكفي لإسعاد أية زوجة.. أنني اريد حبه يا (شريفة).. اريد المودة والرحمة، اللذين هما عماد أي زواج.
فليتزوج (عمر) أخرى لو أراد، لو أن هذا سيعيد إليّ حبه.
انهمرت الدموع من عينيها غزيرة، عند هذه النقطة، فأحاطت (شريفة) كتفيها بساعديها في حنان، وربت عليهما مغمغمه:
- سيعود إليك حبه يا (نعيمة) صدقيني

احتضنتها (نعيمة)، قائلة:
- كم أتمنى هذا يا (شريفة).. كم أتمنى هذا وعادت دموعها تنهمر في غزارة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يشعر (مفيد) بالخوف، عندما التصقت فوهة مسدس شقيقه بصدغه..
بل لم يشعر حتى بالدهشة..
إنه يتوقع إقدام شقيقه على أي أمر، مهما بلغت وضاعته، لو أن هذا يعود عليه بالنفع..
حتى قتله.
لن يدهشه حتى أن يبلغ هذا المبلغ وفي حدة، تطلع (مفيد) إلى عيني شقيقه، وقال:
- هل ستقتلني؟
اجابة (حسين) في غضب صارم:
- نعم.. لو اضطرني الأمر
هتفت (فاطمة) في ذعر:
- لا.. الشقيق لا يقتل شقيقه الدماء أبدا لا تتحول إلى ماء و.
قاطعها (حسين) في غضب:
- اصمتي
انكمشت في موضعها رعبا، وأطرق (حافظ) بوجهه ارضا، وهو يعض شفته السفلى في مرارة، في حين شعر (طارق) الصغير بجو الاضطراب والتوتر، الذي يسود الحجرة، فانفجر باكيا، وهو يتشبث بأمه في هلع، فراحت (فاطمة) تربت على ظهره مهدئة، وهي تتطلع في خوف إلى (مفيد)، الذي قال في تحد:

- حسنا يا (حسين).. أطلق النار لو أردت.. اقتلنى لو أنك لا تجد غضاضة في هذا يا شقيقي.. هيا.. اقتل أخاك يا (قابيل).
ارتجفت شفتا (حسين) في غضب، وهو يبعد مسدسه عن صدغ (مفيد). قائلا:
- لا يا (مفيد).. لن أقتلك ثم أضاف في صرامة:
- ولكنني سأقتل من لا تتردد في قتل نفسك من أجله.
امتقع وجه (مفيد)، وتطلع إليه في تساؤل قلق، فأعاد (حسين) مسدسه إلى جيبه، وهو يستطرد في غضب مخيف:
- إنك تقضي أيامك كلها في البحث عن (مديحة).. أليس كذلك؟ أنا أعرف أين هي.
اتسعت عينا (مفيد)، وهو يقول بصوت مختنق:
- تعلم؟؟
أجاب (حسين) في حدة:
- نعم.. أعلم.. ولن أخبرك بمكانها أبدا، ولكنني قد أرسل أحد رجالى لتصفيتها، إذا ما لزم الأمر.
هتف (مفيد) في هلع، وهو يلتصق بالحائط
- تصفيتها.. أتقصد قتلها؟!
أجابه (حسين) في صرامة
- نعم.. قتلها
عض (مفيد) شفتيه في غضب، وأمسك صدر شقيقه، صائحا:
- أيها الوغد القذر
دفع (حسين) يده جانبًا في قسوة، وهو يقول:
- إياك يا (مفيد).. إياك أن تلفظ بلفظ واحد يسيء إلى، سواء أكنا وحدنا، أو مع الآخرين، وإياك أن تتحدى أوامري مرة أخرى على هذا النحو، وإلا فأقسم بكل ما حققته حتى الآن. أن تكون حياة

(مديحة) هي الثمن، عندئذ فقط سأخبرك أين هي.. أو بمعنى أدق.. أين قبرها.
شحب وجه (مفيد) في شدة، وخيل إليه أنه سيهوى أرضا، فاقد الوعي، وأن الغثيان قد يدفعه لإفراغ محتويات معدته تحت قدمى شقيقه الا أنه بذل أقصى جهده ليتماسك، وهو يقول في مرارة:
- أعلم أنك قادر على فعلها
قال (حسين) في صرامة
- ودون أدنى تردد.
لم ينبس (مفيد) ببنت شفة هذه المرة، ولكن ملامحه أنبأت شقيقه بقبوله للأمر، من أجل (مديحة)، لذا فقد اعتدل (حسين) في ظفر ومد يديه إلى (فاطمة)، قائلا:
- هاتى (طارق).
ناولته الصغير، الذي تشبث بها باكيا، فضمه إلى صدره، وهمس في آذنه في لهجة حانية، بدت شديدة التناقض، مع صرامته السابقة:
- اهدأ أيها الصغير.. أهدأ يا حفيد (البنهاوي)
ثم استعاد صرامته بغتة، وهو يلتفت إلى (مفيد)، مستطردا:
- هيا بنا.
تبعه (مفيد) في استسلام ومرارة إلى الخارج، ولم يكد (حسين) يغادر الحجرة، حتى عادت تلك الابتسامة الزائفة ترتسم على شفتيه، وهو يقول:
- ألم أقل لكم؟ لقد رفضا الحضور.
وكان من الواضح للجميع أن (حسين) قد ربح المعركة.. ربحها بكل جدارة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان حفل عيد الميلاد سريعا قصيرا، على الرغم من أصناف الطعام العديدة، التي حفلت بها المائدة، ولم يتناول (مفيد) لقمة واحدة: بسبب تلك الغصة، التي المت حلقه، في حين أقبل (صلاح) على الطعام في نهم واضح، والتهبت وجنتا (شريفة) بالخجل، وخفق قلبها في سعادة؛ لان (أمجد) لم يرفع عينيه عنها طيلة الوقت.

وبعد أن انتهى الجميع من تناول الطعام، وقفت (شريفة) تقدم المناشف للجميع، بعد غسل أيديهم، وعندما حانت لحظة تقديمها المنشفة لـ (أمجد)، تطلع هذا الأخير إلى عينيها، وهو يقول في ارتباك:

- انسة (شريفة).. تسعدني جدا مقابلتك اليوم.

خفضت عينيها في حياء، وغمغمت:

- أشكرك

ران عليهما الصمت لحظة، تلفت (أمجد) خلالها حوله، ليتأكد أن أحدا لا ينتبه إليهما، قبل أن يقول:

- انسة (شريفة).. هل.. هل

لم يتم كلمته، وانتظرت هي أن يفعل، إلا أن الوقت بدا لها أطول مما ينبغي، فتمتمت:

- هل راق لك الطعام؟

لم تحصل على جواب لهذا السؤال أيضا، فرفعت عينيها إليه في بطء ولم تكد عيناها تلتقيان بعينيه، حتى بدا وكأنه قد حسم أمره على الفور وسألها في سرعة:

- آنسة (شريفة).. أتقبلينني زوجا؟

وكادت (شريفة) تسقط فاقدة الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

45 - من القلب..

اتخذ (صلاح) المقعد المجاور لـ (حسين)، وأشعل سيجارته، وهو يقول في لهجة تفوح منها رائحة النفاق:

- اليوم فقط عرفت سر عبقريتك يا (حسين) بك

التفت إليه (حسين) في تراخ ظاهري، وهو يسأله:

- أي سر هذا؟

أجابه (صلاح):

- إنك تمتلك شخصية قوية، يعجز أي مخلوق عن تحدي أوامرها وهذا يبدو واضحا.

أومأ (حسين) برأسه في بطء، وكأنما يعلن موافقته، ثم استرخي في مقعده، وأسبل جفنيه، فنفث (صلاح) دخان سيجارته، ومال على أذن (حسين)، هامسا:

- لقد وصلتني بعض المعلومات من (باريس).

بثت العبارة الكثير من الحماس في عروق (حسين)، فرفع عينيه في سرعة، وألقي نظرة سريعة على أفراد أسرته؛ ليتأكد من انهماكهم في أحاديث جانبية، ثم مال نحو (صلاح)، يسأله في اهتمام بالغ:

- عن (عايدة)؟

أجابه (صلاح) بابتسامته الخبيثة:

- نعم يا سيدي.. عن الأميرة السابقة (عايدة).

قفزت ذاكرة (حسين) إلى علاقته الماضية بالأميرة (عايدة)، التي خدعته، وتظاهرت بوقوعها في حبه، حتى حصلت منه على تصريح بالسفر إلى (باريس)، حيث أموالها ومجوهراتها، ثم نبذته في ازدراء مهين، مازال يؤلم كرامته حتى اليوم.

وبكل لهفته، سأل (صلاح):

- ماذا لديك عنها؟
أجابه (صلاح):
- إنها تحيا حياة لاهية عابثة في (باريس)، وتلعن الثورة ورجالها في كل مجلس، وهي تصادق الأن ثريا فرنسيا، يمتلك فندقا كبيرا، في قلب (باريس)، أبتاع لها فيلا أنيقة، في أرقى ضواحي العاصمة.
استمع إليه (حسين) في انتباه، ثم سأله:
- ألم تتزوج بعد؟
هز (صلاح) رأسه نفيا، وقال بابتسامته الخبيثة
- لا.. ليس بعد.. يبدو أن حياة الاستقرار لا تناسبها.
وافقه (حسين) بإيماءة شاردة، ثم اعتدل في مقعده، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه، وعقد حاجبيه في تفكير عميق، فمال (صلاح) نحوه، وقال:
- يمكننا تصفيتها في سهولة
هز (حسين) رأسه نفيا في حزم، وهو يقول
- لا.. ليس هذا
قال (صلاح):
- ما رأيك في إحراق الفيلا؟
قال (حسين)
- وليس هذا أيضا
ثم التفت إلى (صلاح)، وقال في صرامة
- أريدها هنا
تراجع (صلاح)، والتمعت عيناه في قوة، وهو يقول:
- هنا؟
أجابه (حسين) في نفس الصرامة:

- نعم يا (صلاح).. أريدها هنا.. هل يمكنك إحضار الأميرة (عايدة) إلى هنا؟
ارتسمت على شفتي (صلاح) ابتسامة شبيهة بابتسامة ذئب، وهو يقول:
- بالطبع.. يمكنني هذا
ثم استدرك في سرعة:
- لو أمرتني به
اعتدل (حسين)، وأدار جسده كله إلى (صلاح)، وقال:
- حسنا يا (صلاح).. أنا أمرك بإحضار (عايدة) إلى هنا.. على قيد الحياة.
التمعت عينا (صلاح) أكثر، ونفث دخان سيجارته في بطء، وهو يقول:
- سأحضرها يا سيدى.. سأحضرها على قيد الحياة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يخفق قلب (شريفة)، في عمرها كله، كما خفق في هذه اللحظة و(أمجد) بكل وسامته. يطلب يدها، على هذا النحو الصريح..
ولدقيقة كاملة، تجمدت كتمثال من الرخام، وهي تتطلع إليه في ذهول..
أهذه حقيقة أم حلم؟ هل طلب يدها حقا؟ هل شاء لها القدر أخيرا أن تنعم بالحب والزواج؟
دوى صوت دقات قلبها في أذنيها، أو هكذا خيل لها، عندما كرر (أمجد) سؤاله في ترقب قلق:
- هل تقبلينني زوجا يا آنسة (شريفة)؟
هنا فقط خفضت عينيها في حياء، وتمتمت في ارتباك:

- (حسين) وحده صاحب الرأي في هذا
سألها في تشبث:
- وماذا عنك؟ أريد رأيك الشخصي
أومأت برأسها ايجابًا في حياء، ثم ألقت المنشفة بين يديه، واندفعت نحو حجرتها، وأغلقت بابها خلفها، ثم هتفت في سعادة:
- نعم.. نعم.. أوافق.. أوافق يا (أمجد) ورقص قلبها طربا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انهمرت دموع المرارة من عينى (مفيد) غزيرة، وهو يجلس فوق فراشه، ويضم ركبتيه إلى صدره في قوة..
كان ما حدث بينه وبين (حسين)، منذ ساعة واحدة، يمزق قلبه تمزيقا.
لم يصدق أبدا أنه سيخضع يوما لديكتاتورية (حسين)..
لقد تصور أنه الوحيد القادر على التصدي له ومواجهته، مهما كان الثمن..
ولكن الثمن كان أكثر فداحة مما يتصور بل مما تصورته حتى أبشع كوابيسه.. الثمن هو حياة من يحب. حياة (مديحة).. وعلى الرغم مما يدعيه العلماء، من أن الدموع كلها ذات منشأ وتركيب كيميائى واحد، إلا أنه شعر بمذاق دموعه يختلف، عندما ذكر قلبه اسم (مديحة)..
لقد تحولت من دموع المرارة إلى دموع اللوعة والحرمان..
تري أين هي؟
أين ذهبت؟
عادت به الذاكرة إلى أيامهما معا، ولقاءاتهما عند جذع الشجرة العجوز..

تذكر كيف هرعت إليه، عندما اتهمه العمدة والمأمور بالسرقة، وكيف تلامست أناملهما عبر قضبان نافذة حجرة الحجز..
وبكل اللوعة والوجد في صدره، وجد نفسه يهتف:
- فعلتها من أجلك يا (مديحة).. من أجلك يا حبيبتي
وانهمرت الدموع من عينيه أكثر غزارة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تطلع (حسين) إلى ساعة معصمه، وقال في لهجة شبه آمرة:
- حان موعد الرحيل نهض (صلاح) على الفور، وهو يقول:
- أنا على أتم استعداد للرحيل أما (أمجد)، فقد ارتبك وفرك أصابعه في توتر، وهو يغمغم:
- بهذه السرعة.
التفت إليه (حسين)، وتطلع إليه لحظات في تساؤل، ثم سأله على نحو مباشر:
- ماذا هناك؟ نهض (أمجد)، وهو يقول في تلعثم:
- هناك أمر.. أعني موضوعا خاصا.. أردت أن أتحدث فيه معك يا سيدى.
سأله (حسين):
- أي أمر هذا؟
ألقى (أمجد) نظرة مرتبكة على (صلاح)، وكرر:
- إنه أمر خاص و.
أدرك (حسين) مقصده على الفور، فالتفت إلى (صلاح)، وقال امرا:
- انتظرنا في السيارة.
ابتسم (صلاح) في خبث، وقال:

- سمعا وطاعة يا سيدى
وغادر السراي في خطوات سريعة، دون أن يصافح أسرة (حسين)، في حين قال (حسين) لـ (أمجد) في حزم:
- تعال.
تبعه (أمجد) في استسلام إلى حجرة جانبية، في حين تابعهم الجميع بأبصارهم في حيرة، وقالت (توحيده):
- ماذا حدث؟ لقد انصرف (صلاح) بك دون تحيتنا، وها هوذا (حسين) يصحب (أمجد) إلى حجرة جانبية.
حاول (عبد الحكيم) إخفاء قلقه، وهو يقول:
- ربما هو أمر يخص عمل (حسين).. إن عمله بالغ السرية، اليس كذلك؟
جاءت لهجته أكثر إثارة للقلق، إلا أن أحدا لم ينبس ببنت شفة، وإنما تعلقت أنظارهم بالحجرة، وأرهف كل منهم سمعه، في محاولة لمعرفة ما يدور داخلها.
أما (أمجد)، فقد تضاعف ارتباكه، عندما وجد نفسه وحيدا مع (حسين)، الذي سأله في صرامة:
- حسنا. ما هو هذا الأمر الخاص؟
أجابه (أمجد) في سرعة، وكأنما يخشى أن يلجم لسانه، لو لم يبح بما لديه على الفور؛
- الأنسة (شريفة)
عقد (حسين) حاجبيه، قائلا
- ماذا عنها؟
فرك (أمجد) أصابعه في توتر، وهو يجيب:
- إنني.. أعني أن.. الواقع
قال (حسين) في غضب:
- قل ماذا لديك على الفور

ازدرد (أمجد) لعابه، واندفع يقول:
- أريد الزواج منها.
رفع (حسين) حاجبيه في دهشة، هاتفا:
- الزواج؟!
ثم شبك أصابع كفيه أمام صدره، واستطرد:
- لماذا؟
بدا السؤال عجيبا، مما أدهش (أمجد)، وزاد من ارتباكه، فغمغم:
- الزواج سنة من سنن الكون يا سيدي، وكل الأديان تحض عليه، في..
قاطعة في حدة:
- لست أريد محاضرة فلسفية، بل أريد جوابا واحدا.. لماذا (شريفة) بالذات؟
ثم اعتدل مستطردا:
- ألأنها شقيقتي؟
هز (أمجد) رأسه نفيا في بطء، ثم أطرق بوجهه أرضا، وقال:
- كان يمكنني أن أجيب بالإيجاب يا سيدي، فسيسعدني بالطبع أن أصاهرك، ولكن الواقع أن سبب اختياري للأنسة (شريفة) يعود إلى حيائها الواضح، فمنذ صباى أؤمن تماما بأن الحياء هو عنوان أنوثة المرأة، وأن المرأة الخجول تكون دائما زوجة صالحة.. هكذا كانت أمى وهكذا أتمنى زوجتي دائما.
ران عليهما الصمت لحظة، ثم سأله (حسين):
- أهذا هو السبب الوحيد؟
أومأ برأسه إيجابا، وقال:
- نعم يا سيدي.. هذا هو السبب الوحيد.
تأمله (حسين) لحظات في صمت، ثم نهض من مقعده، وشبك كفيه خلف ظهره، وقال:

- اسمع يا (أمجد).. أنت شاب ممتاز، سينتظرك حتما مستقبل مبهر، ولن أجد من هو أفضل منك زوجا لشقيقتي، و.
قاطعه (أمجد) في لهفة: - أيعني هذا موافقتك يا سيدى؟
ابتسم (حسين)، وهو يقول:
- ما رأيك أنت..
وتهللت أسارير (أمجد).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحركت (شريفة) في حجرتها في قلق، وهي تسأل نفسها عما سيسفر عنه حديث (أمجد) و (حسين)..
كانت الوحيدة التي أدركت مغزى اجتماعهما معا في الحجرة الأخرى، فلم تحتمل البقاء والانتظار، وأسرعت مرة ثالثة إلى حجرتها..
وفي عقلها دارت عشرات التساؤلات هل يوافق (حسين)؟ هل يرضى بـ (أمجد) زوجا لها؟
راحت تحلم بزواجها من (أمجد)، وتبني القصور في بحر أحلامها حتى سمعت دقات رصينة على باب الحجرة، تعرفت فيها دقات (حسين)، فانتفض قلبها بين ضلوعها، وهي تقول:
- تفضل
دلف (حسين) إلى الحجرة، ووجهه يحمل ابتسامة كبيرة، وقال:
- كيف حال شقيقتي العزيزة؟
تضرج وجهها بحمرة الخجل، وهي تقول:
- في خير حال.

اتجه إلى فراشها، وجلس على طرفه، وراح يتطلع إليها لحظات في صمت، قبل أن يقول في هدوء:

- يبدو أنك كنت فاتنة هذا المساء

سألته في حياء:

- لماذا؟

ابتسم وهو يقول:

- هناك من سقط صريع هذه الفتنة.
تضرج وجهها بحمرة الخجل، وارتبكت، وأشاحت بوجهها في حياء فاتسعت ابتسامته، وهو يضيف:
- أتعلمين أن زميلي (أمجد).. اليوزباشي (أمجد)، قد طلب يدك مني منذ قليل؟
رقص قلبها طربا، وخفق في سعادة، وكادت تبكي بدموع الفرح، لولا أن أضاف (حسين) في صرامة وقسوة مفاجأتين:
- ولكنني رفضت طلبه..
رفضته تماما
وهوي قلبها صريعا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

46- القلق..

اختطفت (فاطمة) طفلها، من بين يدي (نعيمة) في لهفة، وانهالت عليه بالقبلات في حرارة، فمصمصت (نعيمة) شفتيها، وهي تقول:

- إلى هذا الحد؟!

رمقتها (فاطمة) بنظرة عصبية، وهي تضم الصغير إلى صدرها،

- إنه ابنى

مصمصت (نعيمة) شفتيها مرة أخرى، وقالت في ازدراء:

- ابن الغبراء

أجابتها (فاطمة) في تحد ساخط:

- إنه ابن شقيقك على الأقل.

هزت (نعيمة) كتفيها في احتقار، وغادرت الحجرة، لتصفق بابها خلفها في عنف، فقالت (فاطمة) في غضب، وهي تلقم الصغير الجائع ثديها:

- لماذا تعاملني شقيقاتك بهذا الازدراء؟

رفع (حافظ) عينيه إليها في استكانة، وغمغم:

- انهن طيبات القلب

مطت شفتيها في شدة، وهي تقول:

- طيبات القلب؟! يا لك من غر ساذج ثم ربتت على الصغير في حنوّ بالغ، وهي تضمه إليها، قائلة:

- لماذا وافقن على زواجي منك، ما دمن يحتقرنني إلى هذا الحد؟

شرد ببصره، وهو يتمتم:

- (حسين) هو الذي وافق على زواجنا

بدا المقت في نظراتها وصوتها، وهي تردد:

- (حسين).

كان الاسم يبعث في نفسها دائما ذلك المزيج، من الرهبة والمقت والخوف، فهي تبغض احتقاره لها، وتدين له بنقل والدها من مصاف العامل الأجير، إلى منصب عمدة القرية في الوقت ذاته.
صحيح أنها تعلم أنه لم يفعل هذا من أجلها ولا من أجل والدها لقد فعله من أجل نفسه.. من أجل أن يصبح حموه عمدة القرية، لا مجرد عامل أجرى..
وحتى بعد أن أصبح والدها عمدة، مازالت شقيقات زوجها يعاملنها كالخادمات.
وفجأة عجز قلبها عن كتمان ما يجيش به صدرها، فنقل غضبها ومقتها إلى لسانها، وهي تقول في حدة:
- حمدا لله أن (حسين) قد انصرف.
غمغم (حافظ)، وهو يلقي بصره عبر النافذة، إلى السيارة المدنية الأنيقة، ذات الرقم الفردي الصغير:
- إنه لم ينصرف بعد
هتفت في دهشة
- لم ينصرف؟!
ثم اتجهت إلى النافذة، وألقت نظرة بدورها على السيارة، ورأت (أمجد) يغادر السراى، ووجهه يحمل باحتقانه عدة معان، ويدلف إلى جوار (صلاح) في السيارة، فغمغمت:
- لماذا بقي؟
وحدثها قلبها أن بقاء (حسين) يعني قرب اتخاذ قرار جديد في الأسرة..
قرار حاسم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تستطع (شريفة) كتمان دموعها هذه المرة.. لقد حطم (حسين) قلبها للمرة الثانية حطمه بلا رحمة..
وتفجرت الدموع من عينيها غزيرة، فأشاحت بوجهها لتخفيها عن شقيقها، إلا أن نحيبها تجاوز حلقها وشفتيها، فهتف (حسين) في غضب:
- أيتها الغبية.. لقد رفضت هذا الزواج من أجلك
تمتمت في مرارة:
- من أجلي أنا؟ لوح بذراعه هاتفا:
- نعم.. من أجلك أنت.. أتتصورين أنك لا تستحقين سوى الزواج من يوزباشي في إدارتى؟! لا يا (شريفة).. أنت لا تفهمين الحياة إذن.. تلك الطيبة والوداعة، اللتان يتظاهر بهما (أمجد) هذا، لن تخدعاني قط.. السبب الحقيقي الوحيد لرغبته في الزواج منك هو استغلال مركزى وموقعى، للرقي والترقي.. ألا تفهمين هذا؟
أرادت أن تهتف به.. إنها لا تفهم هذا لم تفهمه أبدا
هو وحده يفهم تلك العلاقات المريبة المعقدة، التي تستغل الزواج نفسه التحقيق الأغراض والطموحات.
هو نفسه فعل هذا، عندما وافق على أن يتزوج (فؤاد) شقيقتها (ناهد) بدلا منها، لمجرد أنه شقيق أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة..
أما هي، فلا تفهم سوى طبيعة مشاعرها، وأنوثتها ولقد شعرت أن (أمجد) يريدها بحق.. يريد فيها الأنثى، لا شقيقة رئيسه ولكن ماذا يمكنها أن تفعل؟ كيف يمكنها أن تعترض على رأي شقيقها؟
وفي مرارة، راحت دموعها الحارة تغرق وجنتيها، و (حسين) يواصل:
- إنتي ادخر لك زواجا رائعا، لن تحلم فتاة بمثله أبدا.. صدقيني يا (شريفة).. ستتزوجين يوما من وزير.. وهذا وعد.

خفضت عينيها، متمتمه في ألم:
- كما تشاء يا (حسين)
تطلع اليها لحظة في صمت وصرامة، وهو يشعر أنها لم تقتنع بقوله.. ولكن هذا لم يكن يعنيه كثيرا المهم انها خضعت لأمره هذا هو المهم.
وفي صمت، ودون أن يبالي بقلبها المحطم، أو مشاعرها الممزقة غادر حجرتها، وأوصد بابها خلفه في حذر، ثم هبط إلى الطابق السفلى، وألقى تحية الوداع على شقيقاته وأزواجهن، ثم غادر السراي إلى السيارة، وجلس في أريكتها الخلفية، دون أن يلقي نظرة واحدة على (أمجد)، الذي بدا محتقن الوجه، كسير القلب، ممزق الفؤاد.
وانطلقت السيارة لتغادر القرية، وهي تحمل الصمت، إلى جانب ركابها الثلاثة، حتى قال (صلاح)، محاولا تحطيم ذلك الراكب المعنوي الرابع:
- ما رأيكما في ذلك الميثاق العسكري، الذي تم توقيعه، بين (مصر) و (سوريا).
لم ينبس (أمجد) ببنت شفة، إذ لم يجد في نفسه الرغبة في الحديث في حين قال (حسين) في هدوء، وهو يسبل جفنيه، ويسترخي في مقعده:
- خطوة موفقة، وهي الصفعة الثانية للأمريكيين، بعد صفقة الأسلحة التشيكية، التي أعلن عنها (جمال)، في معرض التصوير الضوئي، الذي أقامته إدارة الشئون العامة للجيش.
هز (صلاح) رأسه، وقال:
- عظيم هو (جمال) هذا.. أراهن أن الأمريكيين يمقتونه أشد المقت بعد كل ما فعله ويفعله بهم.
ثم التفت إلى (أمجد)، يسأله في خبث:

- أليس كذلك أيها الزميل؟
لم يسمع (أمجد) السؤال، كان ذهنه شاردا، يفكر في رفض (حسين) زواجه من شقيقته ويتساءل: لماذا فعل (حسين) هذا؟
من المؤكد أنه ينتظر لشقيقته زوجا أفضل من(أمجد)..
أيقظه صوت (حسين) من أفكاره، فانتفض انتفاضة خفيفة، لم ينتبه إليها زميلاه، لحسن حظه، والتفت إلى (حسين)، قائلا:
- ماذا يا (حسين) بك؟ سأله (حسين) في صرامة:
ما رأيك فيما يقول (صلاح)؟ تطلع إليه (أمجد) في حيرة، فابتسم (صلاح) في خبث، وهو يقول:
- من الواضح أنك لم تسمع ما أقول
غمغم (أمجد):
- هذا صحيح
رمقه (حسين) بنظرة صارمة، وقال:
- من الخطأ أن تشرد أفكار رجل يعمل في مجالنا يا (أمجد)، فلحظة شرود واحدة، قد تكلف المرء مستقبله كله.
احتقن وجه (أمجد)، وهو يتمتم:
- معذرة يا (حسين) بك
قالها وأشاح بوجهه في ضيق، فرمقه (حسين) بنظرة صارمة أخرى، ثم التفت إلى (صلاح) وقال:
- أظن أنه من الأفضل أن تستعد للسفر قريبًا يا (صلاح).
أدرك (صلاح) ما يرمي إليه رئيسه المباشر على الفور، وعلى الرغم من هذا، فقد سأله في اهتمام:
- إلى أين يا (حسين) بك؟
التقط (حسين) نفسا عميقا، استرجع معه عشرات الذكريات من الماضي، يتوسطها وجه (عايدة)، بجمالها وفتنتها، وشعرها الأسود الفاحم الطويل، المنسدل على كتفيها في رقة ونعومة،

وعينيها الخضراوين، وفمها الدقيق الساحر، قبل أن يقول في حزم:
- إلى (باريس)
تألقت عينا (صلاح)، وتراجع في مقعده، وهو يقول هامسا:
- فهمت يا (حسين) بك.. فهمت
وكان في القول الكفاية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحا، عندما دفع (عمر) زوج (نعيمة) باب منزله، وعبره في صمت، ثم اتجه إلى حجرة نومه في خطوات واسعة، ولم يكد يدلف إليها، حتى استقبلته نظرات (نعيمة)، التي تحمل عتابا عميقا، يختلط بحزن لا حصر له، وهي تقول:
- مساء الخير
ألقى عليها نظرة تفيض بالكراهية، وهو يغمغم:
- مساء الخير
راح يبدل ثيابه في تجاهل تام لوجودها، حتى قالت في خفوت:
- (حسين) يرسل إليك تحياته.
همهم بكلمات مبهمة، لم تع منها شيئا، ثم اتجه إلى الفراش، ودس جسده تحت أغطيته، دون أن يتبادل معها كلمة زائدة، وتطلعت إليه هي لحظات في ضيق، قبل أن تقول في عصبية:
- كنت عندها.. أليس كذلك؟
قال دون أن يلتفت إليها:
عند من؟
أجابته في حدة:

- عند (فاتن).. زوجتك الثانية ساد الصمت لحظة، قبل أن يجيبها في برود
- ومن قال ان لي زوجة ثانية؟
ثم اضيفت إلى صوته رنة ساخرة مريرة، وهو يضيف
- الم يخبرك شقيقك أنني طلقتها؟
قالت في عصبية تمتزج بالمرارة:
- ولكنك أعدتها إلى عصمتك، وخاصة بعد أن أنجبت لك (نجيب)
قال في اقتضاب:

- خطأ

صرخت:
- بل صواب.. الجميع في البلدة يعلمون هذا، ويعلمون أيضا أنك تقضي معظم وقتك عندها.
نهض في حركة حادة، وهو يقول:
- لماذا لا تخبرين شقيقك العظيم بهذا إذن؟ ربما أمكنه إجباري على تطليقها مرة ثانية، ولكن هل يمكنه منع (نجيب) من كونه ابنى؟
سالت الدموع من عينيها، وهي تقول:
- أعلم أنك تكرهني بسبب هذا.. تكرهني منذ أجبرك (حسين) على اعادتي لعصمتك، ولكن ما ذنبي أنا؟ إنني زوجتك يا (عمر)، ولست مسئولة عما فعله بك شقيقى.. إنني لم أطلب منه أن يفعل شيئا مما فعل.
قال في سخرية غاضبة:
- حقا!
بكت في حرارة، وهي تقول:

- أقسم لك ألا شأن لي بما حدث.. إنه لم يطلب من رجال الثورة إلقاء القبض عليك في المرة الأولى، كما لم يسألني رأيي، قبل أن يجبرك على اعادتي لعصمتك في المرة الثانية.
أشاح بوجهه عنها، دون أن يعلق بحرف واحد، فتشبثت بكتفه مستطردة:
- أبق على (فاتن) لو أردت يا (عمر).. أبق عليها زوجة ثانية لك، فهذا حق منحك الله (سبحانه وتعالى) إياه، ولكن تذكر أنه حق مشروط بالعدل، فلابد لمن يتزوج أكثر من واحدة أن يعدل بين زوجاته وأنت لا تفعل.
غمغم في مرارة:

- لا يمكنني أن أفعل.. العدل يحتاج إلى شيء من الحب على الأقل.
اعتدلت في حركة حادة، وشعرت بطعنة عنيفة في كرامتها، فجفت الدموع من عينيها، وقالت في عصبية:
- لا يوجد سوى حل واحد إذن
سألها في ضجر:
- ما هو؟
أجابته في انفعال:
- أن تطلقني يا (عمر).. وإلى الأبد وبدا من الواضح أنها ليلة طويلة
طويلة جدا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

47 – المسافر..

ارتسمت ابتسامة واسعة، على شفتي (جودة)، وهو يرفع كفه إلى رأسه، مرسلا تحية إلى (مفيد)، وهاتفا:

- صباح الخير يا (مفيد) بك.. تفضل

رد (مفيد) تحيته، وهو يهمهم بكلمات غير مسموعة، في طريقه إلى موقف السيارات بالقرية، ولكن (جودة) صاح به في حرارة:

- تفضل يا (مفيد) بك.. لا توجد سيارات الان.. يمكنك انتظار وصول أية سيارة هنا.

غمغم (مفيد):

- أشكرك يا معلم (جودة).. إنني..

ولكن (جودة) قاطعه، وهو يحمل مقعدا، ويسرع به إلى حافة المقهى، فيضعه أمام (مفيد)، هاتفا:

- تفضل يا بك.. تفضل.. لا يصح أن تقف، والمقهى على قيد خطوات.

تردد (مفيد) في حرج، إلا أن خجله منعه من رفض دعوة مقدمة على هذا النحو، فاتجه في حياء إلى المقعد، ولم يكد يستقر فوقه، حتى كانت أمامه مائدة معدنية صغيرة، وفوقها كوب من الشاي الساخن، فتمتم:

- شكرا يا (جودة)

ابتسم (جودة) في دهاء، وهو يقول:

- إنه مقهاك يا (مفيد) بك.

لم يكن (مفيد) يشعر برغبة حقيقية في تناول الشاي، ولكنه التقط الكوب الساخن، وارتشف منه رشفة صغيرة، خشية إحراج (جودة)، الذي قدم إليه سيجارة رفيعة، وهو يبتسم قائلا:

- أفضل أنواع التبغ في المنطقة

هز (مفيد) رأسه نفيا، وقال:
- لست أدخن
هتف (جودة) مستنكرا:
- لماذا.. ألم تحصل على شهادتك الكبرى؟
ابتسم (مفيد) ابتسامة شاحبة، هو يقول؛
- وما شأن شهادتي بالتدخين؟
هز (جودة) كتفيه، قائلا:
- الحصول على الشهادة يعني أنك قد أصبحت رجلا، والتدخين يعنى الرجولة.
سأله (مفيد) في دهشة:
- من قال ان التدخين يعني الرجولة؟ إنه على العكس، يعني ضعف الإرادة والرجولة.
هتف (جودة):
- خطا
ثم لوح بكفه، وهو يضيف كخبير هزلى:
- الدخان هو أكبر علامات الرجولة، والشهامة، وأتاه صوت من خلفه، يقول في صرامة:
- كفاك وسوسة أيها الشيطان
التفت الاثنان إلى مصدر الصوت، وأطلق (جودة) ضحكة باهتة قائلا:
- صباح الخير يا حاج (سعفان).. جزاك الله على وصفى بالشيطان.
جذب الحاج (سعفان) مقعدا، وجلس إلى جوار (مفيد)، وهو يقول لـ (جودة)
- إنك كذلك بالفعل.. شيطان الإنس.. هيا.. أحضر لي كوبًا من الشاي كالمعتاد.

ذهب (جودة) لإحضار الشاي، في حين التفت الحاج (سعفان) إلى (مفيد)، وقال:
- صباح الخير يا ولدي.. كيف حالك، وكيف حالكم جميعا، بعد زيارة (حسين) بك؟
تنهد (مفيد)، وقال:
- لقد أشعل النيران في الأسرة كلها كالمعتاد.
رفع الحاج (سعفان) حاجبيه في دهشة، وهو يقول:
- أشعل النيران؟! كيف؟
مط (مفيد) شفتيه، وقال:
- أهان (فاطمة) و (حافظ)، ورفض زوجا لـ (شريفة)، فأصابها بجرح لم يندمل بعد، كما تركت (نعيمة) زوجها، وهي تصر على طلب الطلاق منه.
ضرب الحاج (سعفان) كفا بكف، وقال:
- لا حول ولا قوة إلا بالله.. كنت أتصور أن زيارته ستسعدكم.
تنهد (مفيد)، دون أن يجيب، وتلفت إلى موقف السيارات، فسأله الحاج (سعفان) في تردد:
- أما زلت تبحث عنها؟
لو ألقي هذا السؤال على شخص آخر لاستنكره، أو نفاه في عصبية،
أما (مفيد)، فقد استقبله في بساطة، وهو يهز رأسه نفيا في حزن، ويقول:
- لا.. لم أعد أفعل.
ساد الصمت لحظة، بينه وبين الحاج (سعفان)، قبل أن يضيف في خفوت:
- إنني أبحث عن وظيفة
رفع الحاج (سعفان) حاجبيه عن آخرهما، وهو يهتف

- تبحث عن وظيفة؟! أنت تبحث عن وظيفة؟!
سأله (مفيد):
- وماذا في هذا؟
كان (جودة) قد أحضر شاي الحاج (سعفان)، في هذه اللحظة، فتطوع بالجواب، قائلا:
- المفروض أن يجلب لك نفوذ (حسين) بك ألف وظيفة، دون أن تبذل أدنى جهد.
قال (مفيد) في حدة:
- لا شأن لـ (حسين) بهذا.
أجابه (جودة)، وهو يقلب الشاي:
- من قال هذا؟ كل شيء هنا يسير بالوساطة، ووساطة رجل مثل (حسين) بك لا يمكن رفضها، ولا..
قاطعه (مفيد) في عصبية:
- قلت لك: لا شأن له بهذا ثم نهض مستطردا:
- ما ثمن الشاي؟
قال (جودة) في حماس:
- إنه على نفقة المقهى
صاح به (مفيد) في صرامة:
- لا.. إنني أصر على دفع ثمنه
ربت الحاج (سعفان) على كفه، قائلا:
- لا عليك يا ولدي.. إنه أمر بسيط، فثمن الكوب لا يتجاوز قرشا واحدًا.
ألقي (مفيد) القرش على المائدة، وهو يقول:
- ها هوذا.. معذرة.. سأضطر للانصراف، فقد وصلت إحدى السيارات. قالها واندفع مغادرا المقهى، فهتف (جودة) في دهشة:
- لماذا غضب هكذا؟

أجابه الحاج (سعفان):
- هكذا هو يا (جودة).. إنه أقرب الجميع إلى والده - رحمه الله. شهم، كريم، وقوي في الحق.
لم يسمع (مفيد) هذه العبارة الجميلة، وهو يسرع نحو السيارة الكبيرة، التي هبط سائقها يستقبله في احترام، ثم أفسح له وحده المقعد المجاور له، الذي يحتله - عادة - ثلاثة ركاب، وأنتظر حتى اكتظت الأريكة الخلفية بالبشر، ثم انطلق بالسيارة إلى (طنطا)، ومحركها يصدر سيمفونية أشبه بالأنين، من كثرة ما يحمله من أجساد مكدوده متعبة.
ولقد اعتاد (مفيد) هذا الأنين..
اعتاده كما اعتاد ذلك العذاب، الذي يملأ قلبه، منذ ما يقرب من عام كامل.
عذاب فقدان محبوبته (مديحة)..
لقد بحث عنها، حتى كلت قدماه، وانفطر قلبه، فلم يعد يحتمل المزيد.
وأخيرا قرر أن يتوقف عن البحث..
اتخذ قراره هذا، في نفس ليلة عيد ميلاد (طارق)، بعد ذلك العذاب، الذي تركه (حسين) خلفه، قبل أن يرحل عائدا إلى (القاهرة).
ليلتها قرر أن يبعد (مديحة) عن تفكيره تماما، بعد أن كشف أنها صارت نقطة ضعفه والامه، التي نجح (حسين) في استغلالها، لتحطيم ارادته، ومنعه من منح (فاطمة) و (حافظ) حق الاحتفال بعيد ميلاد ابنهما الوحيد.
ولم يكن القرار سهلا لقد تعذب بسببه طويلا وما يزال يتعذب..
إنه لم ينس (مديحة). لن ينساها أبدا كل ما حدث هو أنه قرر إيقاف حملة بحثه عنها..

هذا ما تصوره، ولكن عقله الباطن لم يقنع بهذا القرار، فقد خدعه وخدع عينيه وجعلهما تجوبان محطة القطار في (طنطا)، بحثا عن وجه (مديحة).
لقد ضبط عينيه تفعلان هذا، فعقد حاجبيه في ضيق، وهتف في أعماقه يستنكر فعلتهما، قبل أن يقفز داخل قطار (القاهرة)، ويلقى جسده على أقرب مقعد للباب، ومع جلوسه، ارتطم جسده بجسد ضئيل، فاحت منه رائحة عطرية هادئة وجميلة، جعلته يلتفت إلى صاحبته، وهو يقول معتذرا:
- أسف.. لم أنتبه إلى..
استقبلته ابتسامة عذبة، انفرجت عن أسنان كاللؤلؤ، وصاحبتها تقول في رقة:
- لا عليك
تطلع إلى وجهها لحظة في انبهار. كانت جميلة بحق.
جميلة بذلك الجمال الهادي المحترم، الذي يجبرك منذ اللحظة الأولى على توقيره وتقديره.
كانت في أوائل العشرينات من عمرها، يحيط بوجهها حجاب أنيق يتوسطه وجه بيضاوي، يحوي عينين واسعتين سوداوين، وشفتين نصف ممتلئتين، وذقنا رفيعة، يتوسطها طابع حسن جميل.
وكانت ابتسامتها فاتنة بل ساحرة.. إنها ابتسامة تحمل كل وداعة الأنوثة ورقتها وكل طيبة الدنيا..
والعجيب أن هذا الوجه بدا له مألوفا، وإن لم يذكر اين رآه من قبل فسألها ببساطته المعهودة:
- هل التقينا من قبل؟
ابتسمت وهي تقول
- إننا نسافر سويا باستمرار
رفع حاجبيه في دهشة، وهو يهتف:

- حقا!
أومأت برأسها ايجابًا في حياء، وهي تقول
- نعم، ولكنك لم تنتبه إلى هذا؛ لأنك دائما تجلس وحيدا وحزينا، وبترت عبارتها بغتة، وتضرج وجهها بحمرة الخجل، وهي تتمتم
- معذرة.. لم أقصد هذا
ولكنه لم يبال بما قالته، وإنما سألها في اهتمام:
- إذن فنحن نسافر معا منذ زمن
أومأت برأسها إيجابا، فهتف:
- لا ريب أنني أعمى إذن
هتفت في سرعة:
- بعد الشر ثم خفضت عينيها في حياء، وقلبها ينبض في سعادة وكان من الواضح أن المسافر قد وجد أخيرا محطة جديدة..
وقلبًا جديدا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(فاطمة).. أين أنت أيتها الكسول؟ صاحت (شريفة) بالعبارة في حدة، وكأنها تفرغ الكثير من التوتر، الذي لم يفارقها، منذ يوم عيد ميلاد (طارق)، وزفرت في غضب، وهي تضيف:
- أين ذهبت تلك السخيفة؟
أتاها صوت (فاطمة) الأجش، وهي تقول في لهجة استفزازية:
- أنا هنا يا سيدة الدار.. لماذا تناديننني؟
صاحت بها (شريفة):
- أريد تنظيف السراي اليوم، ولن أفعل هذا وحدي.. أليس كذلك؟
هزت (فاطمة) كتفيها، وهي تقول:
- أرسلي في طلب من تعاونك إذن.

صاحت بها (شريفة):
- وماذا عنك أيتها المتحذلقة؟ أنسيت من أنت؟
أجابتها (فاطمة) في غلظة:
- ليس لدي وقت لتنظيف السراى.
أطلقت (شريفة) شهقة استنكار، قبل أن تهتف:
- لماذا يا سيدة الحسن والجمال؟ ماذا لديك لتفعليه؟
رفعت (فاطمة) أحد حاجبيها، وقالت في سخرية:
- لدى زوج أرعاه، وطفل أرضعه.. ولكنني أعذرك، فأنت تجهلين ما يعنيه هذا
شحب وجه (شريفة)، وانحبست الكلمات في حلقها، وشعرت بالطعنة تغوص في قلبها، و (فاطمة) تنسحب من المكان، وعلى شفتيها ابتسامة ظافرة شامتة كبيرة، ثم لم تلبث أن هتفت في غضب:
- أيتها الحقيرة.
ثم اندفعت خلفها تواصل:
- غدا أتزوج أفضل رجل في (مصر) كلها
أطلقت (فاطمة) ضحكة ساخرة، وقالت:
- عندما يأتي غدا هذا..
ظهرت (نعيمة) عند مدخل الردهة، وهي تهتف في (فاطمة) بغضب:
- اخرسي أيتها الملعونة.
هزت (فاطمة) كتفيها في لا مبالاة، وكأنما اعتادت هذا، وأسرعت إلى حجرتها مع زوجها، وأغلقت بابها خلفها في إحكام، فصاحت (نعيمة) خلفها:
- يا ابنة الملاعين. ثم التفتت إلى (شريفة)، التي انخرطت في بكاء حار، وأضافت

- لا تجعلي هذه الحقيرة تدفعك للبكاء
هتفت (شريفة) من وسط دموعها:
-. إنها لا تطاق.
قالت (نعيمة) في حدة:
- إنها مشورتك أنت
صاحت (شريفة):
- كانت مشورة سوداء
أومأت (نعيمة) برأسها موافقة، وهي تمط شفتيها في ازدراء:
- سأطلب من (حسين) وضع حل لهذه المهزلة. جففت (شريفة) دموعها، وقالت:
- وماذا عن مشكلتك أنت؟ ألن تطلبي منه حلها؟
عقدت (نعيمة) حاجبيها، وهي تقول في حدة:
- لا.. لست أريد أن يتدخل (حسين) هذه المرة.
سألتها (شريفة):
- لماذا؟ إنه يستطيع إجباره على تطليق زوجته مرة ثانية، و.
صاحت بها (نعيمة):
- قلت لك لا أريد منه أن يتدخل هذه المرة.. لا أريد منه حتى أن يعلم بما بيني وبين زوجي.
تمتمت (شريفة):
- لا بأس يا (نعيمة).. إنه لن يعلم
ولكنها في أعماقها كانت قد اتخذت قرارا عكسيا لقد قررت أن يعرف (حسين) ما حدث، بين (نعيمة) و (عمر).. وأن يتدخل هذه المرة أيضا..
وبكل قوته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

48 - الرحلة..

رسم (صلاح) على شفتيه ابتسامة منافقة واسعة، وهو يدخل مكتب (حسين)، في الصباح، قائلا:

- صباح الخير يا (حسين) بك.. كيف حالك هذه الأيام؟

لوح (حسين) بيده، قائلا

- مرهق للغاية يا (صلاح)، فمن الواضح أن شهر ديسمبر هذا سيكون حافلا.

أجابه (صلاح)، وهو يتخذ مجلسه، على مقعد قريب:

- بالتأكيد، في (السودان) أعلن قيام الجمهورية، و (أمريكا) و(انجلترا) أعلنتا موافقتهما على تمويل مشروع السد العالي، ولا ريب أن الرؤساء سيطلبون فيضا من المعلومات.

مط (حسين) شفتيه، وقال:

- لقد طلبوها بالفعل

استرخي (صلاح) في مقعده، وقال:

- مشروع ضخم هو ذلك السد، الذي ينوون إقامته في (أسوان).. يخيل إلى أنه سيلتهم ميزانية الدولة كلها، لأكثر من ربع قرن.

ابتسم (حسين)، وقال:

- ليس إلى هذا الحد ثم التفت إليه، يسأله في اهتمام:

- هل حصلت على تأشيرة (فرنسا)

أومأ (صلاح) برأسه إيجابا، وغمز بعينه في خبث، وهو يقول:

- كل شيء يسير على ما يرام يا (حسين) بك.. جواز سفري يقول إنني رجل أعمال، ومكتبنا في (باريس) أعد كل شيء هناك؛ لاستكمال الصورة.

هز (حسين) رأسه، وقال:

- عظيم ثم انعقد حاجباه، وهو يضيف في مقت واضح:

- أريد منك أن تحضرها إلى هنا يا (صلاح)، وأن يكون أول وجه تراه، عندما تصل إلى (القاهرة)، هو وجهى أنا.
ابتسم (صلاح) في دهاء، وقال:
- سأفعل ثم اعتدل في مقعده، مستطردا:
- ولكن يدهشني أنك نجحت في وضع ميزانية ضخمة لهذه العملية على الرغم من أنها، ومعذرة لقولى، عملية شخصية بحتة.
هز (حسين) كتفيه، وقال:
- ومن قال إنها كذلك؟
ثم مال نحوه، وابتسم في مكر، وهو يستطرد:
- لقد أدرجتها في كشف عمليات تحطيم أعداء الثورة في الخارج.
تألقت عينا (صلاح)، وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة واسعة وهو يقول:
- عبقرى يا (حسين) بك، عبقرى
تراجع (حسين)، وهو يرمقه بنظرة طويلة، قبل أن يقول:
- المهم أن تنجح العملية يا (صلاح).
تنهد (صلاح) في ارتياح، واسترخي أكثر في مقعده، وهو يقول:
- ستنجح يا (حسين) بك.. ستنجح، اطمئن
وكانت ابتسامته أشبه بابتسامة ذئب
ذئب مفترس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن أصبح لرحلة القطار معنى جديد..
معنى ينبض بعلاقة تولد، بين قلبين بسيطين، جمعتهما رحلة يومية، وهدف مشترك

وفي ذلك اليوم بالذات، شعرت (سوسن) بالقلق، عندما شارف القطار على الانطلاق، قبل أن يصل (مفيد)..
وخفق قلبها في قوة، عندما بدأ القطار تحركه بالفعل.. ثم ظهر (مفيد)..
ظهر بوجهه الشاحب النحيل، وهو يصعد في درجات السلم عدوا، ثم يركض نحو القطار في لهفة، فمدت (سوسن) يدها عن آخرها إليه وهي تهتف:
- أسرع يا (مفيد).. أسرع.
تعلق بقائم الباب، وقفز داخل القطار، وهو يمسك كفها، ويلهث في قوة.
وارتجف جسدها كله كانت أول مرة تتلامس فيها أصابعهما أول مرة تشعر بكفها في راحته، منذ تحدثا لأول مرة...
وفي هدوء، ترك (مفيد) كفها، وألقى جسده إلى جوارها، فوق المقعد الخشبي الكبير، فهمست له في حنان:
- كدت تفقد القطار.
لهث وهو يجيب:
- كان الطريق مزدحما
قالت وهي تتطلع إليه:
- حمدا لله أنك وصلت في الموعد
ثم أطلقت ضحكة خجلي، وهي تضيف:
كنت سأفتقدك كثيرا، لو سافرت وحدي
ابتسم مغمغما:
- وأنا كذلك
ساد بينهما الصمت لحظات، ثم سألته في اهتمام:
- أتظننا سننجح في العثور على وظيفة اليوم؟
هز كتفيه، قائلا:

- ربما.. إننا نبحث بلا جدوى منذ أكثر من شهر ونصف الشهر
هتفت في دهشة:
- هل مضي شهر ونصف الشهر حقا؟!
أسيل جفنيه في إرهاق، وهو يقول:
- تصورى.
لم تكن تتصور حقا أن كل هذا الوقت قد مضى، فهي تسعد بكل لحظة تقضيها معه، بكل ثانية.. إنها تحبه قلبها يعلم هذا ويدركه جدا تحبه قبل حتى أن يتحدثا..
كان دائما يجذب انتباهها، وهو يدلف إلى القطار، ويجلس وحيدا، وعيناه تحملان حزن الدنيا كله
وطالما تساءلت عن سر كل هذا الحزن.. حتى في هذه اللحظة، وهو يجلس شبه نائم إلى جوارها، كانت تتساءل:
من الواضح أنه يحمل في قلبه حزنا عميقا، استقر طويلا في أعماقه حتى حفر لنفسه منزلا في عينيه.
ولكنها تحبه.. تحب وسامته، وأدبه، ورقي مشاعره تحب كل خلجة من خلجاته المهذبة ولكن ما شعوره تجاهها؟
صحيح أنه يعاملها بكل تقدير واحترام، ولكنها تشعر دائما أن علاقته بها لا تتجاوز علاقة الزمالة أو الصداقة.
انها لا ترقي أبدا إلى علاقة حب هناك حاجز ما، يحول بينها وبينه.
حاجز لم تنجح في بلوغه او معرفته بعد، ولكنها ستبذل أقصى جهدها لتفعل. وتعبر الحاجز إلى عقله..
والى قلبه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الهدوء يحيط بالسراى، بعد غروب الشمس، ولم يكن (مفيد) قد عاد من (القاهرة) بعد، عندما أنهت (شريفة) أعمالها المنزلية، وألقت تحية المساء على شقيقتها (نعيمة)، التي سألتها في دهشة:
- أتأوين إلى الفراش، في هذا الوقت المبكر؟
أجابتها (شريفة) بإيماءة من رأسها، وهي تجيب:
- اشعر بإرهاق. من كثرة العمل.
لوحت (نعيمة) بكفها، وهي تقول:
- إنك تعملين أكثر مما ينبغي
تنهدت (شريفة)، دون أن تجيب
نعم.. إنها تعمل أكثر مما ينبغي
لتنسى..
هذه هي الحقيقة
انها تعمل أكثر مما ينبغي؛ لتنسى ذلك الحزن، الذي غرسه (حسين) في أعماقها، دون أن يدري، عندما رفض زواجها من (أمجد)..
صحيح أنها لم تلتق بـ (أمجد) هذا، إلا لساعات معدودة، ولكن شيئا ما في قلبها تعلق به.
ربما لوسامته أو لأدبه وربما لأنه أول رجل، يطلب منها الزواج مباشرة، على هذا النحو
أول رجل تلمح في عينيه كل هذا الإعجاب
أول رجل يوقظ في أعماقها مشاعر الأنثى ٠٠ والانثى لا تنسى أبدا الرجل، الذي يفعل بها هذا لا يلفظه خيالها قط ولكنها كانت تشعر بمرارة أكثر، كلما استعادت هذه الذكرى..
ولهذا تعمل كثيرا
ولهذا أيضا أرادت تغيير الموقف، فسألت (نعيمة):
- ألم تصلك أية أخبار عن (عمر)؟

بدا الضيق والحزن على وجه (نعيمة)، وضمت ابنتها (نادرة) إلى صدرها، وهي تقول:
- يقولون: إنه يكثر من زيارة (فاتن)، منذ غادرت أنا المنزل، وإنها..
تفجرت الدموع فجأة من عينيها، وهي تضيف:
- وأنها حامل
قالت (شريفة) في حدة:
- يا لحقارته! ثم أضافت في حزم:
- لو أردت رأيي، فالمفروض أن نبلغ (حسين)
هتفت (نعيمة) في ذعر
- لا.. أرجوك.. (حسين) لن يصلح الأمر كما تتصورين، بل سيزيده سوءا
ثم خفضت عينيها، مستطردة في ألم:
- كان المفروض ألا أغادر منزلي أبدا، فـ (عمر) لم يحاول السؤال عني، أو عن (نادرة) مرة واحدة.
قالت (شريفة) لنفسها:
- ولن يفعل
ثم قالت لشقيقتها بصوت مرتفع:
- من يدري؟ ربما أتي فيما بعد
وألقت عليها تحية المساء، ثم صعدت إلى حجرتها وأغلقت (شريفة) باب الحجرة خلفها، ثم التفتت إلى حيث فراشها.
وفجأة أحاطت يد كبيرة بشفتيها، وكتمت صوتها، فشهقت في أعماقها، وارتجفت في رعب هائل، قبل أن تسمع صوتا يقول في لهجة أقرب إلى الرجاء:
- لا تصرخي.. أرجوك.

ارتجف قلبها، عندما تعرفت صوته، وهوى بين ضلوعها، وهو يديرها لتواجهه، وانطلقت من حلقها. على الرغم منها. شهقة، وهي تحدق في وجهه..

في وجه (أمجد)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نفث (فؤاد) زوج (ناهد)، دخان سيجارته في عمق، قبل أن يسأل زوجته في اهتمام:
- أخبريني.. أما تزال العلاقة بين (حسين) و (عمر) متوترة؟
تنهدت، قبل أن تجيبه:
- نعم.. للأسف، ولست أظنها تنصلح، فالخلاف بينهما جوهرى، و (عمر) يشعر بجرح في كرامته، ليس من السهل اندماله.
مط (فؤاد) شفتيه، وهو يومئ برأسه متفهما، قبل أن يقول في هدوء:
- لو أردت رأيي، فـ (عمر) على حق
تلاحقت ضربات قلبها في قلق، وهي تقول:
- ليس هذا من شأننا
اعتدل وهو يقول في حدة مباغتة
- من قال هذا؟
نهضت بدورها من الفراش، وقالت في توتر، وهي تخشى أن يتصاعد الأمر:
- إنه خلاف بين (حسين) و (عمر)، ولست أظن هذا يمسنا بسوء، أو..
جذب نفسا عميقا من سيجارته، قبل أن يقاطعها، قائلا:
- خطأ يا (ناهد).. إنه خلاف بين (حسين)، وبينكم جميعا.
ثم نفث الدخان في قوة، مستطردا:
- اليس خلافا يتعلق بميراثكم؟
كانت هذه هي النقطة التي تخشاها
نقطة الميراث
وفي عصبية، قالت:
- لا يوجد خلاف بيننا وبين (حسين)، بشأن الميراث، فقد ترك والدنا الأرض كلها لـ (حسين) وحسين يمنحنا نصيبنا الشرعي من

إيرادها، دون أن يخل بهذا مرة واحدة،
لوح بذراعه كلها، وهو يقول في صرامة:
- وماذا عن الأرض نفسها؟ ألم يكن من المفروض أن يمتلك كل منكم نصيبه؟ ماذا لو أراد أحدكم بيع أرضه مثلا؟
هتفت في ذعر:
- بيع الأرض؟! لا يا (فؤاد).. مستحيل أن يفكر أحدنا في بيع نصيبه من أرض (البنهاوي)
عقد حاجبيه، وهو يقول في خشونة:
- أقول: مثلا
ثم نهض واقفا، ولوح بكفه، مستطردا:
- صحيح أنني أحمل لـ (حسين) معزة خاصة، ولكنه مخطئ في هذا الأمر.
تضاعف توترها، وهي تقول:
- إنها إرادة أبي، لقد ترك كل شيء لـ (حسين)، و.
قاطعها في حزم:
- ارادة مخالفة للشرع والقانون.
ثم نفث دخان سيجارته مرة أخرى، قبل أن يستطرد في لهجة، أصابت (ناهد) بخوف شديد:
- وهي إرادة يمكن إلغاءها سألته في صوت مرتجف:
- ماذا تعني؟؟
ارتسمت على شفتيه ابتسامة مخيفة، وهو يقول:
- أعني أن (عمر) لم يخسر معركته مع (حسين)، لأن القانون لم يكن في صفه، وإنما خسرها لأن (حسين) كان في الجانب الأقوى - حينذاك. أما عندما تكون المعركة بيني وبين (حسين)، فالنتيجة تختلف.
ثم أطفأ سيجارته في عنف، مستطردا:

- ستختلف تماما..
وانتقلت الارتجافة إلى قلب (ناهد)..
بل إلى جسدها كله

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

49 – السر..

لم يتوقف جسد (شريفة) عن الارتجاف، حتى بعد أن وقع بصرها على (أمجد)، الذي رفع كفه عن شفتيها، وتراجع في ارتباك، وهو يغمغم:

- معذرة.. لم أكن اقصد اخافتك، ولكن.. الواقع أنني لم أستطع.. أعنى..

شعرت نحوه بشيء من الشفقة، تغلب على الجزع والذعر، اللذين يسيطران على مشاعرها، فانحلت عقدة الخوف عن لسانها، وهي تغمغم:

- لم تستطع ماذا؟

تطلع اليها لحظات في صمت، قبل أن يتهدج صوته، وهو يقول:

- لم أستطع مقاومة رغبتي في رؤيتك.

حان دور قلبها هذه المرة، ليرتجف بين ضلوعها، وهي تتطلع إلى عينيه.

لقد كان صادقا في قوله لا يمكن أن يخطئ قلبها رنة الصدق الواضحة في صوته...

تلك الرنة التي أصابت أنوثتها بسهم وردي ناعم، ففجرت مشاعرها، وألهبت عواطفها، وهي تهمس:

- ثم؟

تقدم خطوة نحوها، وأمسك كتفيها في رقة، وهو يقول:

- صدقيني يا آنسة (شريفة).. إنني لم أشعر بما فعلت.. لقد هتف قلبي باسمك، فوجدت نفسي أهرع إليك.. اعذري لهفتي.

تطلعت إليه في هيام وانبهار، دون أن تنبس ببنت شفة، فواصل في همس حنون:

- أعلم أنني أرتكب حماقة كبيرة، بقدومي إلى هنا، وتسللي إلى حجرتك خلسة، وأخاطر بتحطيم مستقبلي وحياتي، ولكنني لم أستطع البقاء بعيدا.
همست في انفعال، وقلبها يختلج في صدرها
- وكيف علمت أنها حجرتى؟
قال في حنان:
- قلبي أرشدني إليها..
رقص قلبها طربا لعبارته، وتمنت لو ألقت نفسها بين ذراعيه، ودفنت رأسها في صدره القوي، ولكن أخلاقها منعتها من الاستسلام لرغبتها فاكتفت بالتطلع إليه في صمت، وهو يقول:
- لست أدري لماذا رفض شقيقك زواجنا، ولكنني أردت أن أخبرك أنني لن أستسلم أبدا لرفضه هذا.. سأحاول مرة ثانية، وثالثة.. سأفعل المستحيل، حتى نلتقي يا انسة (شريفة).
أومأت برأسها إيجابا، واغرورقت عيناها بدموع الفرح، فمال نحوها، وتطلع إلى عينيها مباشرة، وهو يقول:
- ولكن هذا سيحتاج إلى بعض الوقت
هتفت في خفوت:
- سأنتظر
اتسعت عيناه في سعادة، وتهللت أساريره، وهو يستقبل منها هذه الموافقة الواضحة.. كلمتها. والطريقة التي نطقتها بها، تعني أنها تشاركه مشاعره.
وكان هذا يكفيه
يكفيه كثيرا وبكل الحماس والسعادة في أعماقه، أمسك كتفيها في قوة، وقال:
- انسة (شريفة).. انني أسعد مخلوق في الدنيا، وأعدك أن...
قاطعته فجأة دقات هادئة على باب حجرة (شريفة)، مصحوبة

بصوت يقول:
- (شريفة).. أتسمحين لي بالدخول؟
واتسعت عينا (شريفة)، وهي تهتف في ذعر:
- يا إلهي! إنه (مفيد).. شقيقى (مفيد) وهوى قلبها بين قدميها

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اندفعت (سوسن) إلى منزلها في حيوية كعادتها، وألقت ابتسامتها البشوش على والديها، وهي تهتف في مرح:
- مساء الخير يا أهل الخير.
تهللت أسارير أمها، وكأنها تراها لأول مرة، في حين ابتسم والدها بطيبته المفرطة. وهو يقول في حنان
- مساء الخير يا (سوسن)
لماذا تأخرت في العودة اليوم يا بنيتي.. أصابنا القلق عليك
اتجهت إليه، وانحنت تطبع قبلة على جبينه، وهي تقول:
- لقد وصل القطار في موعده، ولكنني ذهبت لزيارة مسجد (السيد البدوي) أولا، قبل العودة للمنزل.
سألتها أمها في دهشة:
- أكانت لديك حاجة، ترجينه قضاءها؟
ضحكت (سوسن)، وقالت:
- لا يا أمي، فـ (السيد البدوي) ليس إلها يقضي الحاجات، ولا توجد وساطة بين العبد وربه، حتى نرجو وليًا راحلا.
هتفت أمها في جزع:
- لا تقولي هذا يا بنيتي، فـ (السيد البدوي) ولّى من أولياء الله الصالحين.
ضحكت (سوسن) مرة أخرى، وقالت:

- على عيني وراسي يا أماه، ولكنه ليس نبيا.. أليس كذلك؟
عقدت الأم حاجبيها في غضب، والتفتت إلى الأب، قائلة:
- هذه الفتاة لا تحترم معتقدات عصرنا وجيلنا
ابتسم الأب في حنان، وهو يقول:
- لأنها من جيل آخر
انحنت (سوسن) تطبع قبلة أخرى على جبينه، وهي تهتف في حماس:
- أرأيت الأفكار المتقدمة يا أماه؟
قالتها واندفعت نحو حجرتها، فهتفت بها أمها
- إلى أين؟ ألن تتناولي طعامك؟
صاحت:
- فيما بعد
وأغلقت الباب خلفها، ثم ألقت نفسها على فراشها، وراح صدرها يعلو ويهبط في انفعال، وهي تستعيد ذكريات اليوم.
لأول مرة، منذ عرفت (مفيد)، تلوح منه بادرة تشف عن حبه لها..
لأول مرة ترى في عينيه نظرة دافئة حنونا، عندما أنقذها من عثرتها. وهي تغادر القطار
لن تنسى هذه اللحظة أبدا
كانت تهبط من القطار، عندما زلت قدمها، وكادت تسقط على وجهها لولا أن أمسكها هو في سرعة وقوة، وسألها في جزع:
- أأنت بخير؟
كانت نظراته تحمل. حينذاك. اعترافا غير صريح بحبه لها. ويا له من اعتراف!
أغلقت عينيها في سعادة، وهي تستعيد تلك الذكرى مرات، ومرات، ومرات..

لقد ظل قلبها يختلج في صدرها طويلا، وظل جسدها يرتجف للمساته، حتى امتلأ قلبها بالذنب، فعرجت على مسجد (السيد البدوي)، في طريق عودتها، وانزوت في ركن السيدات، تصلي وتستعيذ بالله (سبحانه وتعالى) من همزات الشيطان، الذي يضاعف من إحساسها بلمسات (مفيد)، حتى زالت من ذهنها ذكرى اللمسات، ولم تعد تذكر سوى تلك النظرة، التي لن تنساها أبدا.

واعترفت لنفسها أنها تحيا أسعد لحظات حياتها.. أسعدها على الإطلاق.

وفي نعومة، تسلل النوم إلى جفنيها، فاستسلمت له في استكانتها علها تلتقي بحبيبها مرة أخرى..

في عالم الأحلام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مضت لحظات من الصمت والسكون، قبل أن تفتح (شريفة) باب حجرتها لشقيقها (مفيد)، وهي شاحبة الوجه، مرتجفة الأطراف، حتى أن (مفيد) سألها في جزع:

- ماذا بك؟ أأنت مريضة؟

هزت رأسها نفيا، وهي تقول في صوت مرتجف:

- لا.. إنني مرهقة فحسب.

تحسس جبينها بكفه في حنان، وقال وهو يدلف معها إلى حجرتها في رفق:

- حمدا لله.. حرارة جسدك تبدو طبيعية ثم التفت إلى النافذة المفتوحة، وأضاف:

- الأفضل أن تغلقي النافذة، خشية أن تصابي بالبرد.

قرن القول بالفعل، فاتجه إلى النافذة، وأغلقها في إحكام، ثم التفت إلى شقيقته، التي هدأت نفسها قليلا، فزال شحوبها، وإن ظل قلبها ينبض في قوة، و (مفيد) يقول:
أيمكنك الاستماع إلىّ قليلا؟ أحتاج إلى من أتحدث إليه
قالت في شرود:
- قل ما يحلو لك
بدا مرتبكا مترددا بعض الوقت، قبل أن يقول:
لقد عثرت على عمل
رددت بلهجة خاوية:
- وماذا بعد؟
ثم استوعب عقلها الموقف بغتة، فاعتدلت هاتفة
- عمل؟! أكنت تبحث عن عمل، طوال هذه الفترة؟
أجابها، وكأنه لم يسمع سؤالها:
- إنه عمل بسيط، ولكن
صاحت به:
- عمل بسيط؟! ولماذا تحصل على عمل بسيط.. (حسين) يمكنه أن يحصل لك على عمل رائع، وأن..
قاطعها في حدة: لا.. لا شأن له (حسين) بهذا.
حدقت في وجهه لحظة في دهشة، ثم هتفت مستنكرة:
- ماذا أصابك؟ ماذا أصابكم جميعا؟ لماذا ترفضون تدخل (حسين) في أعمالكم وشئونكم؟ أليس المسؤول عن الأسرة كلها؟
صاح بها في غضب:
- لا.. ليس المسؤول عنا.. كلنا بلغنا سن الرشد.
مطت شفتيها مستنكرة، وضربت راحة يدها اليسرى بظهر كفها اليمني، وهي تقول:
- وما ذلك العمل العظيم، الذي حصلت عليه أيها الراشد؟

لم ترق له رنة السخرية في قولها، ولكنه أجاب، وهو يشيح بوجهه عنها:
- كاتب حسابات في مطعم صغير
صاحت في استهجان:
- كاتب حسابات؟! وفي مطعم صغير؟! ابن (محمد البنهاوي) يعمل في مطعم صغير.. لا يا (مفيد).. لقد تجاوزت الحد.
أجابها متوترا:
- صحيح أنه عمل بسيط، ولكن..
قاطعته في حدة:
- ولكن ماذا؟ لن يرضي (حسين) أبدا عن هذا، ولن..
صاح بها غاضبًا:
- قلت لك لا شأن لـ (حسين) بهذا.
ثم هب من مكانه، مستطردا في انفعال:
- لقد أخطأت في حديثي معك، ولن أحاول دفعك إلى مشاركتى مشاعرى بعد الأن.
واندفع يغادر حجرتها في غضب، دون أن يتحدث إليها عن الأمر الحقيقي، الذي دفعه إلى مقابلتها..
عن (سوسن).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظ يا رجل.. استيقظ..
انتفض (حافظ) في ذعر، وهب جالسا في فراشة، وحدق في وجه زوجته في هلع، وهي تستطرد بصوتها الأجش الغليظ:
- انظر ماذا يحدث في بيتكم المحترم.. بيت (البنهاوي)، الذي تتيهون به فخرا سألها في جزع:

- ماذا يحدث؟
مصمصت شفتيها، ولاكت الهواء بفمها، قبل أن تقول، في لهجة نصف ساخرة، ونصف مستهجنة:
- شقيقتكم (شريفة).
سألها في ذعر:
- ماذا أصابها؟
مالت نحوه، وهمست:
- كان هناك رجل في حجرتها. انتفض جسده، وهو يهتف في هلع
- رجل؟!
تراجعت في تشف، وهي تقول:
- نعم.. رجل.. رجل في حجرتها، من خلف ظهر الجميع
انكمش في مقعده، وهو يتمتم:
- مستحيل! مستحيل يا (فاطمة)! أنت تعرفين أخلاق (شريفة).
مصمصت شفتيها مرة أخرى، وقالت
- كنت أظنني أعرفها، ولكن.
لوح بكفه، هاتفا في ذعر
- لا يا (فاطمة).. لا تقولي هذا.. لا تخبري أي شخص بهذا
ضربت صدرها براحتها، هاتفة:
- أهذا كل ما أمكنك فعله؟ أن تطلب مني كتمان الأمر؟! يا لك من رجل.. أهذه شهامتك؟
صاح بها، في صوت أقرب إلى البكاء
- اصمتي يا (فاطمة).. اصمتي.. لا تقولي هذا. ثم انفجر فجأة باكيا وهنا توقفت (فاطمة)..
توقفت متطلعة إليه في إشفاق، ثم لم تلبث أن مدت كفها تتحسس رأسه، قبل أن تضمه إلى صدرها في حنان..

لم تدر أبدا سر حبها له، على الرغم من خنوعه وخضوعه الشديدين شيء ما في أعماقها يهيم به..
ربما تحبه؛ لأنه الوحيد، من بين أبناء (البنهاوي)، الذي يعاملها في حب واحترام حقيقيين، دون أن يشير، ولو لحظة واحدة، إلى حقيقة منشئها.
هو وحده يستقبل والدها بابتسامة ترحاب، وبحرارة حقيقية في اللقاء.
إنه، وعلى الرغم من ضعفه ومرضه. أفضل آل (البنهاوي) - من وجهة نظرها - وفي حنان جففت دموعه، وتحسست رأسه، وهي تقول:
- حسنا يا (حافظ).. إنني لم أر شيئا، ولم يحدث أي أمر هنا ولكنها رأت..
رأت (أمجد)، وهو يهبط من نافذة حجرة (شريفة) على عجل ويسرع بالاختفاء، وسط الحديقة المحيطة بالسراى
وعلى الرغم من هذا، فلن تخبر أحدا - سوي (حافظ) - بما رأت..
ستحتفظ بالأمر سرا، فربما احتاجته فيما بعد، للسيطرة على (شريفة)، أو هزيمتها يوما ما...
ربما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

50- لقاء هناك..

احتفالات رأس السنة الميلادية الجديدة، في (باريس)، تختلف عنها في أي مكان آخر في العالم..

في (باريس) تتحول المدينة كلها إلى شعلة من النور، يتوسطها برج (ايفل). الذي تتدلى من قمته إلى قاعدته عناقيد المصابيح الملونة لتحيل ليل (باريس) إلى نهار من المرح والأضواء والسعادة.

وفي ملهى (الليدو). أشهر ملاهي العاصمة الفرنسية، تألقت الأميرة (عايدة) بجمالها الفتان، وثوبها الذي يخطف الأبصار. وهي تطلق ضحكاتها المرحة، وتراقص صديقها الفرنسي الثرى، في رشاقة حسدتها عليها الباريسيات.

كانت أشبه بماسة تتألق تحت أضواء مبهرة، فوق وشاح من المخمل الاسود الذي يضاعف من انفرادها وروعتها.

وبفرنسية طليقة، راحت تتبادل النكات والدعايات، مع رواد الحفل الصاخب، ومع صديقها الفرنسي، الذي شقت ضحكاته الضجيج، وهو يشعر بالزهو والفخر؛ لأنه الرجل الذي يحوز تحفة الحفل وفاتنته.

وكانت الأميرة (عايدة) تتبادل حديثا ضاحكا مع احدى ضيفاتها، حول مائدة الثري الفرنسي الضخمة، عندما سمعت من يهمس في أذنها:

- أتسمح جميلة الجميلات، بمشاركتي هذه الرقصة؟ التفتت إلى صاحب الحديث في دهشة، وتطلعت إليه لحظة في صمت..

لم تكن عبارة الغزل التي استخدمها، هي مبعث دهشتها، فقد اعتادت سماع عبارات أكثر جرأة من معجبيها، كما لم يكن مطلبه - بالطبع - هو السبب..

وخاصة في (باريس)، وإنما كان مبعث دهشتها الحقيقي هو اللغة التي استخدمها..
اللغة العربية
صحيح أنها قضت حياتها. أو معظمها على الأقل، في (مصر)، إلا انها، ومنذ رحلت إلى (باريس)، واستقرت بها، لم تقم أية علاقات مع مصريين، فيما عدا أبناء الأسرة الملكية، الذين فروا بدورهم إلى (باريس)...
وحتى هؤلاء، لم يكونوا يستخدمون العربية في أحاديثهم قط، حتى عندما لا يكون هناك فرنسي واحد حولهم.
كانوا وكأنهم يتبرأون من مصريتهم، أو يعلنون نفورهم منها، وهم يعيشون في العاصمة الفرنسية.
ولهذا كان من العجيب أن تسمع من يدعوها إلى مشاركته الرقص باللغة العربية، وبلهجة مصرية خالصة وعندما التفتت تتطلع إلى صاحبها، وجدت أمامها شابا وسيما، حلو الطلعة، يكاد ينافس بأناقته وجماله، أشهر نجوم السينما في عصره، بل ويتفوق عليهم أيضا، بابتسامته الجذابة، وعينيه الزرقاوين، اللتين يطل منهما دفء الدنيا كلها، ويذوب في أعماقهما نسيم بحار العالم أجمع.
وعندما طال صمت (عايدة). كرر الشاب سؤاله، بابتسامته العذبة:
- ما رأيك يا أميرتي؟ أتوافقين على مشاركتي هذه الرقصة؟
كان الثري الفرنسي قد عقد حاجبيه في ضيق، أمام ذلك المنافس الخطير، في حين تطلع ضيوفه إلى الشاب في انبهار، مما جعل (عايدة) تقول بابتسامة من ابتساماتها الساحرة:
- بالطبع
ثم نهضت لمشاركته الرقصة، متجاهلة غضب صديقها الفرنسي الواضح

لم يكن من الممكن أن تتركه لغيرها.. لقد اعتادت دائما الحصول على الأفضل، وهذا الشاب هو أجمل رواد الحفل.
وعندما دارت معه في حلبة الرقص، على الأنغام الهادئة، وجدت نفسها تسأله في اهتمام:
- أأنت مصري حقا؟
أومأ برأسه إيجابا، دون أن تختفي ابتسامته العذبة، وهو يقول
- نعم.. لماذا يدهشك هذا
هزت كتفيها، قائلة
- سيدهشني لو أنك ما تزال تحيا في (مصر)
قال في بساطة
- أفعلى اذن، فالجواب بالإيجاب.
هتفت:
- أما زلت تحيا هناك بالفعل؟
أجابها في هدوء:
- بلى، وأنا رجل أعمال معروف وثرى هناك.
هتفت في دهشة مستنكرة:
- مستحيل! هؤلاء الثوار لن يسمحوا بوجود ثري بينهم
ضحك قائلا:
- إنهم لم يتدخلوا في شئون رجال الأعمال بعد، ثم إن علاقتي بهم جيدة للغاية، حتى أنني أحصل على تصاريح السفر بمنتهى البساطة.
هزت رأسها قائلة:
- عجبًا!!
غمز بعينه، هو يقول:
- وهم لا يعلمون - في الوقت ذاته - أنني أمتلك عدة شركات، في (لندن) و (روما)، وأنني بصدد افتتاح فرعا لشركاتي هنا.. في

(باريس).
هتفت مبهورة
- حقًا!!
أومأ برأسه ايجابًا مرة أخرى، وقال:
- معذرة.. نسيت تقديم نفسي اليك.. (أكرم عماد الدين).
ابتسمت قائلة:
- اهلا بك في (باريس) يا (أكرم) بك.. أما أنا.
قاطعها بابتسامته العذبة:
- الأميرة (عايدة).. أجمل أميرات العائلة الملكية المصرية، وزهرة (باريس) الماسية.
تطلعت إليه لحظة في دهشة، ثم قالت:
- أنت تعرفني إذن
قال في همس:
- ومن ذا الذي يجهلك يا اروع من ترى العين؟
توقفت الموسيقى في هذه اللحظة، فانحني أمامها نصف انحناءة. وقال:
- كانت أسعد لحظات حياتي ولا شك
قالت في سرعة:
- وانا أيضا.
اتسعت ابتسامته، وهو يلتقط أصابعها الرقيقة، ويلثمها بقبلة دافئة قائلا:
- هل سنلتقي مرة أخرى؟
أجابته في حسم
- بالتأكيد ألقى نظرة سريعة على مائدة الثري الفرنسي، وابتسم قائلا:
- من الواضح أن صديقك الفرنسي غاضب للغاية.

هزت كتفيها، قائلة:
- دعك منه.. ثم أضافت في اهتمام:
- هل تعرف متجري؟
أومأ برأسه إيجابا، فأضافت:
- ستجدني هناك يوميا، فيما عدا يومي السبت والأحد، من الواحدة ظهرا، وحتى الثامنة مساء.
قال بابتسامة أذابت قلبها:

- لن أنسي هذا أبدا.

ولثم أصابعها مرة أخرى، ثم انحني أمامها في احترام، واختفى وسط رواد الحفل، وهي تتابعه ببصرها، قبل أن تطلق من أعماقها زفرة حارة، وترتسم على شفتيها ابتسامة عابثة، وهي تغمغم:

- لا بأس يا (عايدة).. لن تضيرك مغامرة مصرية قصيرة.. أليس كذلك؟

وأطلقت ضحكة عابثة، ثم عادت تنضم إلى ضيوفها، وتواصل دعاباتها معهم.
وعاد صديقها الفرنسي يبتسم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان ذلك اليوم شاقا وبالنسبة لـ (حسين)، فقد انهمك منذ الصباح الباكر في جمع وترتيب المعلومات التي طلبها مكتب رئيس الوزراء، عن (يوجين بلاك)، مسئول البنك الدولي، استعدادا لتوقيع الاتفاق مع البنك، بشأن تمويل مشروع بناء السد العالي، وكان غارقا في هذا حتى أذنيه، عندما سمع دقات على باب مكتبه، فقال في توتر:
- ادخل ايها الطارق.
دلف إلى الحجرة جندي من جنود الحراسة، ضرب كعبيه ببعضهما البعض في قوة، وهو يرفع يده بالتحية العسكرية، قبل أن يقول:
- (مراد) بك يطلب رويتك يا سيدى
اعتدل (حسين)، وأجابه:
- حسنا.. سأذهب إليه على الفور
غادر الجندي المكتب، في حين نهض (حسين) يجمع في عجلة عددا من التقارير، التي تحمل اسم (يوجين بلاك)، وأودعها ملفا صغيرا، ثم حملها وعدل رباط عنقه، واتجه في خطوات سريعة إلى مكتب (مراد صقر)، مدير الجهاز الجديد.
واستقبله (مراد) بنظراته المتفرسة، وملامحه الجامدة كالمعتاد وهو يقول في لهجة تخلو من أية معان:
- مرحبًا يا حسين).. اجلس.

جلس (حسين) على المقعد المقابل لمكتب (مراد صقر)، ورفع يده بالملف إلى هذا الأخير، وهو يقول:
- لقد نجح رجالنا في جمع المعلومات المطلوبة عن (يوجين)، وهذا الملف يضم..
قاطعه (مراد)، وهو يلتقط الملف، ويضعه فوق مكتبه في لا مبالاة:
- دعاك من هذا الأن
شعر (حسين) ببعض القلق؛ إذ لم يكن من الطبيعي أن يتجاهل (مراد صقر) المعلومات المطلوبة، على هذا النحو، مالم يكن هناك أمر جلل، يدفعه إلى هذا، ومادام قد استدعاه هو إلى مكتبه، فهذا يعني أن الأمر يتعلق به على نحو أو آخر، لذا فقد لاذ بالصمت تماما، وجلس يتطلع إلى (مراد) في قلق، وهو يفرك كفيه في توتر، حتى سأله (مراد)، دون أن ينظر إليه:
- ما المشكلة التي تتعلق بميراث والدك يا (حسين)؟
هبط السؤال على (حسين) كالصاعقة، فلم يكن يتوقع أبدا هذا الموقف، مما جعله يرتبك لحظات، قبل أن يقول في خفوت:
- لا توجد أية مشاكل في هذا الشأن يا سيدى، وهذا أمر يعود إلى أعوام..
مط (مراد) شفتيه، وقال:
- لماذا يشكوك (فؤاد) بشأنه إذن؟
كاد يقفز في مقعده. وهو يهتف:
- (فؤاد)؟! كان هذا آخر ما يتوقعه بالفعل (فؤاد)!! (فؤاد) يشكوه بشأن ميراث والده؟ وما شان (فؤاد) بهذا؟ لماذا تذكر هذا الأمر، بعد كل هذه السنين..
امتلات نفسه بحنق شديد، وهو يتذكر كيف اختار (فؤاد) زوجا لشقيقته، وكيف خضع لرأيه، عندما رفض الزواج من (شريفة)،

وأصر على الزواج من (ناهد) لقد وافق - حينذاك - لأنه كان يتصور أن مصاهرته لـ (فؤاد) ستعلى من شانه، بسبب وجود شقيق (فواد)، ضمن أعضاء مجلس قيادة الثورة
وها هوذا يدفع الثمن من الخطأ الذي ارتكبه، عندما اختار لشقيقته زوجا يفوقه قوة وفي مرارة، أجاب سؤال رئيسه:
- لست أدري لماذا فعل (فؤاد) هذا يا سيدي، فلا شأن له بميراثي من ابى.
رمقه (مراد) بنظرة جانبية، وهو يقول:
- ولكنه زوج شقيقتك.. اليس كذلك؟
كتم (حسين) غيظه، وهو يقول:
- هذا صحيح، ولكن شقيقتي نفسها لا شأن لها بالأمر، فالميراث قانوني ولا أحد يمكنه أن..
قاطعه (مراد) في صرامة.
- لست أتحدث عن قانونية الأمر يا (حسين).
خفق قلب (حسين) في قوة، عند هذه النقطة إذن فقد استغل (فؤاد) نفوذ شقيقه، لانتزاع الأرض من قبضته يا للحقارة! ولكنه لن يسمح له بهذا لن يسمع له أبدا وفي صرامة، تابع (مراد):
- لقد أبلغني شقيق (فؤاد) أن هذا الوضع لا يروق له، وانت تعلم منصب شقيق (فؤاد)، ووضعه في مجلس قيادة الثورة، ومادام الوضع لا يروق له، فلابد من تعديل هذا الوضع بما يرضيه.. أنت تفهم هذا بالطبع.
تمتم (حسين) في مرارة:
- بالطبع.
ابعد (مراد) نظره عن (حسين)، وهو يقول في حزم:
- افعل ما يحلو لك يا (حسين)، ولكنني أريد أن ينتهي هذا الوضع بأسرع ما يمكن، وعلى النحو الذي يرضي زوج شقيقتك، وشقيقه

بالطبع.
كان (حسين) يشعر بغضب عارم، يعربد في أعماقه، ولكنه أجاب في خفوت:
- كما تأمر يا سيدى.
أشار إليه (مراد صقر) بيده، إشارة تدعوه إلى الانصراف، فنهض (حسين)، وغادر مكتب (مراد) في صمت، واتجه إلى مكتبه في غضب شديد، وراح يزفر في شدة، وهو يجلس خلف مكتبه..
إذن فـ (فؤاد) يرغب في إعلان تفوقه، على أسرة (البنهاوي)... يريد أن يثبت للجميع أنه الأقوى. وليس (حسين البنهاوي).. لا.. مستحيل!!. لن ينجح (فؤاد) في هذا أبدا.. ولكن ما وسيلته إلى الفوز هذه المرة؟
نهض من خلف مكتبه، ووقف يتطلع من النافذة في شرود، وهو يفكر في الأمر في عمق..
وفي هذه اللحظة فقط، شعر بشوق شديد إلى وجود شخص محنك خبير إلى جواره..
شخص مثل (إبراهيم).. (إبراهيم مكي)
لم يكد الاسم يقفز الى ذهنه، حتى انعقد حاجباه في شدة، وراودته فكرة مجنونة. لم يلبث أن طرحها جانبا، ثم استدار يلتقط سماعة هاتفه ويطلب رقما داخليا قصيرا، ولم يكد يسمع صوت محدثه، على الطرف الآخر، حتى قال في حزم:
- هل عاد (صلاح) من (باريس)؟
أجابه صاحب الصوت:
- ليس بعد يا سيدى
سأله في عصبية:
- ومتي يعود؟
أجابه الرجل مرتبكا:

- لست أدري يا سيدي.. أنت تعلم أن أحدا لا يبلغنا بهذا، وخاصة بالنسبة للعمليات السرية، و.

هتف به (حسين) مقاطعا:

- حسنا.. اعلم هذا.. أعلم هذا.

وأعاد السماعة الى موضعها في عنف، وعاد إلى النافذة، وتلك الفكرة المجنونة، الخاصة بـ (إبراهيم مكى) تعاود هجومها على عقله..

وفي إصرار شديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

51 – الصدام..

تهللت أسارير (سوسن) في سعادة، وهي تستقبل (مفيد)، في قطار الصباح كالمعتاد، وأفسحت له مكانا إلى جوارها، وهي تقول:

- صباح الخير.. كيف حال العمل؟

ابتسم وهو يجلس قائلا:

. عظيم.. إنه يمنحني شعورا جميلا بالارتياح، على الرغم من راتبه الضئيل.

همست في مرح:

- يكفي أنه يوفر لك طعاما مجانيا

ضحكا معا، قبل أن يسألها هو:

- وماذا عن عملك أنت؟

هزت كتفيها، قائلة

- لا بأس به، فالمتجر شهير معروف، وأنا أحصل على نسبة، من مبيعات القسم الذي أعمل به.. ثم استعادت مرحها، مستطردة:

- لن أصبح مليونيرة حتما، ولكنه عمل جيد.

ابتسم دون أن يجيب، فتطلعت اليه لحظات، ثم لاذت بالصمت بدورها، وان لم يتوقف قلبها عن تلك الخفقات، التي تلازمه كلما كان هو إلى جوارها.

وتمنت لو رأت في عينيه تلك النظرة الحانية مرة أخرى

بل لقد راودتها رغبة عارمة، في أن تفتعل السقوط، حتى تحظى منه بلحظات حنان ودفء أخرى، ولكنها قاومت رغبتها هذه، واستنكرتها في أعماقها، واكتفت منه بأحاديث السفر، ولحظات القرب، وبالأحلام التي تملأ لياليها، وتبعث في ساعات النوم سعادة لا مثيل لها.

ولقد سألت نفسها، وهي تتطلع إليه اليوم، عن السبب في شعورها بوجود حاجز يفصله عنها!!
أهو خوف كامن في أعماقها؟ أم مجرد وهم أو هو سبب يكمن فيه هو؟... في صمته، أو هدوئه الشديد لماذا لا تشعر - إلا لماما - أنه يبادلها حبًا بحب؟ لماذا تبدو مشاعره نحوها حذرة، مترددة..
لم تكن تدرك، وهي تطرح هذه الأسئلة على نفسها، أن عقله هو أيضا كان بحرا متلاطما، من الأسئلة والمخاوف..
كان يسأل نفسه الأسئلة نفسها تقريبًا: لماذا يخشى الاقتراب منها أكثر؟ لماذا يشعر في أعماقه بحذر بالغ، تجاه محاولات التقارب بينهما؟
والسؤال الأكثر خطورة هو: لماذا يصر قلبه على مقارنتها دائما بـ (مديحة)..
إنهما لا تتشابهان أبدا، وهو لا يدري حتى كيف أصبحت (مديحة) الان، بعد الزواج والإنجاب.
هذا لو أنها تزوجت بالفعل، كما أخبره (حسين).. ترى أين هي الأن.. أين (مديحة)..

شعر بيد تهزه في رقة، مع صوت (سوسن) الهادي، وهي تقول:
- لقد وصلنا
اعتدل في سرعة، وهو يقول:
- حمدا لله على السلامة يا (مديحة)
انتبه فجأة إلى زلة لسانه، ولكن.. بعد فوات الأوان
وعندما استدار إلى (سوسن) في سرعة، أدرك فداحة ما نطق به وشعر بقبضة باردة تعتصر قلبه في عنف..
لقد كانت (سوسن) تحدق في وجهه بارتياع، ووجهها يحمل شحوب الدنيا كلها.

كانت أشبه بجثة
جثة هامدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استقبل (فؤاد) (حسين) بابتسامة واثقة، في منزله بـ (مصر الجديدة)، ومد يده يصافحه، وهو يقول:
- أهلا.. أهلا بصهري العزيز.
تجاهل (حسين) اليد الممدودة إليه، وهو يقول في صرامة:
- ما هذا الذي فعلته؟
لم يصر (فؤاد) كثيرا على إتمام المصافحة، وإنما أعاد يده إلى جواره في هدوء، وهو يقول بابتسامته الواثقة:
- وما هذا الذي فعلته؟
اندفعت (ناهد) في هذه اللحظة، للترحيب بشقيقها، وهي تهتف في حرارة:
- مرحبًا يا (حسين).. مرحبًا بك يا أخي العزيز
ولكن (حسين) استقبلها بقول صارم
- اتركينا وحدنا يا (ناهد).
تجمدت في مكانها، ونقلت بصرها في خوف، بين وجهي زوجها وشقيقها، وغمغمت:
- ماذا حدث
صاح بها (حسين) في حدة
- قلت لك اتركينا وحدنا
أسرعت إلى حجرتها، وقلبها ينبض في رعب وجزع، في حين جلس (فؤاد) على أقرب المقاعد إليه، وهو يقول:
= يبدو أنك شديد العصبية هذا المساء يا (حسين) بك

أجابه (حسين) في غضب:
- وأنت شديد الطمع
أطلق (فؤاد) ضحكة ساخرة، وقال:
- الطمع؟! ياله من اتهام خطير! ولماذا تعتقد هذا يا (حسين) بك؟
أجابه (حسين) في انفعال:
- لماذا شكوت أمر ميراثي لشقيقك؟
رفع (فؤاد) حاجبيه، في دهشة مصطنعة، وهو يقول:
- ميراثك؟ كنت أظنه ميراث الجميع وضاقت حدقتاه، وهو يضيف في خبث:
- هكذا يحتم الشرع.. أليس كذلك؟
قال (حسين) في حدة:
- وما شأنك أنت بهذا الميراث؟
صاح به (فؤاد) في صرامة:
- إنه ميراث زوجتي، ومن حقها عليّ أن أحافظ على حقوقها المسلوبة.
انعقد حاجبا (حسين) في شدة، وهو يقول في غضب:
- (ناهد) هي التي طلبت منك ذلك؟
اندفعت (ناهد) خارج حجرتها، وهي تهتف:
- لا يا (حسين).، لا أخي، فليقطع لسانى، قبل أن أطلب شيئا كهذا.
التفت إليها (فؤاد) في غضب، وصاح بها
- عودي إلى حجرتك:
ترددت لحظة، بين ناري زوجها وشقيقها، ثم أسرعت عائدة إلى حجرتها، وأغلقت بابها خلفها في إحكام، في حين قال (حسين) لـ (فؤاد) في غضب:
- إذن فأنت وحدك صاحب الفكرة هز (فؤاد) كتفيه، وقال: - وماذا في هذا.. إنه حق الجميع.. أليس كذلك؟ تبادلا نظرات صارمة، مع

بعضها البعض، ثم قال (حسين) في حدة:
- أتظن أنك تستطيع إجباري على هذا؟
هز (فؤاد) كتفيه، وقال في ثقة:
- من يدري؟
استفزت الكلمة (حسين)، على نحو جعله يهتف في غضب:
- سنرى
ثم اندفع مغادرا منزل (فؤاد)، هو يعلم أنه - بعبارته الأخيرة - قد أشعل الموقف أكثر وأكثر..
وبدأ الصراع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نهض (أكرم) بحلته الأنيقة، ووسامته المتناهية، يستقبل الأميرة (عايدة)، في مطعم (مكسيم)، أشهر مطاعم (أوروبا)، وانحنى يقبّل أصابعها في حرارة، وهو يقول في إعجاب واضح:
- كل مرة تحملين لي مفاجأة يا أميرتي.
ضحكت وهي تقول:
- وما المفاجأة هذه المرة؟
قال مبتسما:
- جمالك الذي يزداد تألقا كل يوم
أطلقت ضحكة مرحة، توحي بأن إطراءه قد راق لها، وجلست على المقعد المقابل له، وهي تقول:
- من الواضح أنك منافق كبير ثم استدركت في سرعة
- ولكنك تروق لى
أطلق ضحكة عذبة قصيرة، وقال:
- هذا يعني أنني أكثر رجال الدنيا حظا

رمقته بنظرة مرحة، قبل أن تقول:
- كم مرة أدرت فيها هذه الأسطوانة، على آذان الفتيات؟
أجاب بسرعة:
- ولا مرة.
ضحكت قائلة
- أيها الكاذب
مال نحوها، والتقط كفها بين أصابعه، وهو يتطلع إلى عينيها، قائلا:
- أتصدقينني لو أخبرتك، أنها أول مرة في حياتي كلها، أشعر بكل هذا الميل والانبهار، في حضرة واحدة من الجنس الناعم؟
مالت نحوه بدورها، وقالت ضاحكة:
- أتحاول إقناعي أنه لم تكن لك علاقات نسائية سابقة؟
ابتسم قائلا:
- لم أقل هذا
تراجعت هاتفة:
- في هذه الحالة أصدقك
تطلع إلى عينيها مرة أخرى طويلا، وقال:
- أما زلت تصرين على العيش مع ذلك الفرنسي؟
هزت رأسها نفيا، وهي تقول في خفوت
- كلا.. لست أصر على أي شيء.
تراجع مبتسما في ارتياح، وقال:
- (عايدة)، ما رأيك في رحلة خاصة إلى (أمريكا)؟
غمزت بعينها، وهي تسأله:
- ماذا تعني برحلة خاصة وأجابها في بساطة:
- أعني أنها رحلة ذات طراز خاص، تبدأ بالسفر في طائرتي الخاصة، ثم الوصول إلى قصر خاص، في (ميامى) الأمريكية،

وقضاء إجازة خاصة، يتمناها الملوك والأمراء، وتليق بأجمل أنثى في العالم كله.
ضحكت قائلة
- هل تحاول إغوائى؟
ضحك بدوره، قائلا:
- أهناك ما يمنعك؟
أطلقت ضحكة عابثة طويلة جذبت إليها أنظار الجميع، قبل أن تقول:
- لا يا (أكرم).. ليس هناك ما يمنع، ولكن تذكر: أنك ستسافر مع أميرة، وليس مع غانية.. هل تفهم؟
أومأ برأسه إيجابا، وقال بابتسامته الجذابة:
- بالطبع
تنهدت في عمق، وقالت:
- فليكن امنحني أسبوعا واحدا
سألها:
- ولماذا هذا الأسبوع؟
قالت بابتسامة حالمة:
- أريد إعداد ثياب خاصة، تليق برحلة خاصة
واسترخت في مقعدها، مستطردة:
- خاصة جدا
واتسعت ابتسامتها أكثر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هرع العمدة (عبد الحميد)، والد (فاطمة)، يستقبل (حسين) في منزله بحرارة شديدة، وهو يهتف في ترحاب:

- مرحبًا بك يا سيد شباب القرية، مرحبًا بك
استوقفه (حسين) بإشارة من يده، وكأنه يمنعه من مصافحته، وهو يقول في لهجة جافة:
- أهلا يا (عبد الحميد).. كيف حال العمودية معك؟
فهم (عبد الحميد) الإشارة، فانكمش في مكانه، وخفض عينيه في مذلة، وهو يقول:
- إننا نحيا في خيرك يا (حسين) بك.
اتخذ (حسين) مجلسه، دون أن يدعوه العمدة لذلك، ووضع إحدى ساقيه فوق الأخرى في غطرسة واضحة، وهو يقول:
- أيروق لك منزل العمودية الجديد يا (عبد الحميد)؟ إنه أفضل من عشتك القديمة.. أليس كذلك؟
غمغم الرجل في مرارة:
- كله من خيرك يا بك
أكمل (حسين):
- كان من الضروري أن أجد لك منزلا كهذا، فلقد كان من العار أن يعلم الزملاء، في مجلس قيادة الثورة أن حما شقيقى مجرد فلاح أجير، يحيا في عشة حقيرة.
لم ينبس (عبد الحميد) ببنت شفة، وان شعر بسياط من نار تلهب أذنيه وقلبه، مع كلمات (حسين)، الذي أنتظر لحظات ليضمن أن أسلوبه قد أحدث التأثير المطلوب، قبل أن يقول في صرامة:
. هناك عمل، أريد منك أن تقوم به من أجلى يا (عبد الحميد)..
غمغم العمدة:
- أنا رهن إشارتك يا (حسين) بك
تفرس (حسين) في ملامحه لحظات، قبل أن يقول في لهجة آمرة:
- هناك شيء سأمنحك إياه، على أن أسترده بكامله فيما بعد
ثم مال نحو (عبد الحميد)، مستطردا في صرامة

- وسأتخذ الإجراءات اللازمة لاسترداده بالطبع.
أومأ (عبد الحميد) برأسه صاغرا، ثم سأل في تردد:
- وما هو هذا الشيء يا (حسين) بك؟
أجابه (حسين)، وهو يتراجع في حزم:
- الأرض.
لم يفهم (عبد الحميد) ما يعنيه (حسين)، حتى أضاف هذا الأخير:
- أرض (البنهاوي) كلها وارتجف العمدة، من فرط المفاجأة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

52- حول الهدف..

تسللت (شريفة) من الباب الخلفي للسراى، وتلفتت حولها في حذر وهي تندس بين أشجار البرتقال في الحديقة الملاصقة، ثم أسرعت الخطا على الأرض الجافة، حتى بلغت سور الحديقة، وهناك عادت تدير عينيها حولها في قلق، حتى سمعت صوتا يهمس بها في توتر:

- (شريفة).. أنا هنا.

التفتت في لهفة إلى مصدر الصوت، وتهللت أساريرها، وهي تسرع نحو (أمجد)، الذي ارتدى جلبابا ريفيا، وأخفى وجهه بوشاح خفيف وتركت أيديها لكفيه في حرارة، وهي تهتف في صوت خافت:

- أهلا يا (أمجد).. طال غيابك هذه المرة.

احتضن كفيها في حنان، وهو يقول:

- أوحشتني كثيرا.

تمتعت:

- وأنت أيضا

تطلع كل منهما إلى الآخر في لهفة ووجد، وسرت بينهما تلك الموجة العاطفية الناعمة، التي تحيط بهما كلما التقيا، فهتفت (شريفة):

- أسنبقى هكذا دائما

أجابها (أمجد) في توتر:

- لا.. لم أعد أحتمل هذه اللقاءات اللصوصية أكثر من هذا.. سأتحدث مع (حسين) بك مرة ثانية حتما..

سألته في لهفة:

- متى؟؟

بدا شديد التوتر والقلق، وهو يقول:
- قريبًا.. قريبًا جدا
تطلعت إليه في حيرة، وترددت وهي تقول:
- إننا نلتقي على هذا النحو، منذ أكثر من شهرين، وأخشى أن..
بترت عبارتها، عندما لاحظت اضطرابه، وتلفته حول نفسه في قلق شديد، فسألته في توتر:
- ماذا هناك يا (أمجد)؟
التفت إليها، وتطلع إلى عينيها لحظة، قبل أن يقول، في صوت امتزج الاضطراب بكل حرف من حروفه:
- (حسين).
- لم يكد ينطق الاسم، حتى انتفض جسدها في هلع، وشحب وجهها وصوتها، وهي تسأله:
- ماذا عنه؟
شاركها شحوب صوتها، وهو يجيب:
- إنه هنا
اتسعت عيناها في رعب، وخفت صوتها، حتى سمعة هو بالكاد، وهي تردد:
- هنا؟
أومأ برأسه، قائلا، واضطرابه يتصاعد:
- نعم.. هنا.. لقد رأيت سيارته أمام بيت العمدة، ومن المؤكد أنه سيأتي إلى هنا.
لوحت بكفيها في ذعر، هاتفة:
- ارحل إذن.. ارحل قبل أن يصل
أخفي وجهه بالوشاح، وهو يسألها في توتر:
- متى نلتقي مرة أخرى؟
هتفت به، وهي تتراجع:

- الأسبوع القادم، في نفس الموعد.
استدارات عائدة إلى السراى، دون أن تلقى عليه تحية الوداع، ولم تكد تعبر أشجار البرتقال، حتى فوجئت بـ (فاطمة) أمامها.
وكانت (فاطمة) تبتسم..
تبتسم ابتسامة خبيئة ماكرة، تحمل عشرات المعانى، التي يكفي الواحد منها ليهوى قلب (شريفة) بين قدميها.
وبكل توترها وعصبيتها، هتفت (شريفة):
- ماذا تفعلين هنا
هزت (فاطمة) كتفيها، وهي تقول بصوتها الخشن:
- أشاهد أشجار البرتقال. فهي توحي بالحب؛ ارتجف جسد (شريفة)، وهي تقول
- الحب!، أي قول فاجر هذا؟
أطلقت (فاطمة) ضحكة خشنة قصيرة، وقالت:
- لو أن القول فاجر، فماذا عن الفعل؟
ثم أطلقت ضحكة مماثلة، وهي تستدير لتدخل السراي، وتختفي في سرعة، تاركة (شريفة) جامدة في مكانها، ووجهها شاحب كالموتى وقلبها ينتفض في ارتياع..
(فاطمة) تعلم شيئا ما حتما لقد رأتها مع (أمجد).. أو سمعتهما على الأقل.
ارتجف جسمها من قمة رأسها، وحتى أخمص قدميها، لمجرد طرح الفكرة في ذهنها، وخيل إليها أنها ستصاب بشلل مفاجئ، أو تسقط جثة هامدة، وهي تتصور ما يمكن أن تفعله (فاطمة)، إذا ما علمت أمرا كهذا.
وفجأة ارتفع صوت (نعيمة)، وهي تهتف:
- (شريفة).. أين أنت؟ لقد جاء (حسين).

وهنا كادت (شريفة) تسقط بالفعل، تراخت قدماها، وكادتا تفقدان قدرتهما على الوقوف، لولا أن تشبثت بقائم الباب الخلفي للسراى، وهي تقول في شحوب:
- سأحضر.. سأحضر على الفور.
جرجرت قدميها إلى الداخل، ورأت (حسين) يصافح (نعيمة) في صرامة كعادته، وهو يسألها:
- من حسن الحظ أن أجدك هنا يا (نعيمة).. أهي زيارة صباحية؟
ارتبكت (نعيمة)، وهي تقول:
- نعم.. كنت أزور (شريفة)، وأطمئن على السراي
سألها، وهو يتلفت حوله
- وأين هي (شريفة)؟
وقع بصره على شقيقته. التي تهم بدخول المكان،
فقال بابتسامة باهتة:
- صباح الخير يا (شريفة).. كيف حالك؟
صافحته بأصابع باردة مرتجفة، في حين قالت (نعيمة)، محاولة اخفاء انفعالها:
- سأذهب لأعد لك طعام الغذاء هتف بها:
- سأكتفي بقدح من الشاي، فسأرحل على الفور.
قالت (شريفة) في ارتباك:
- ولماذا الرحيل السريع هذا؟ إنك لم تأت منذ عدة شهور
قال ملوحا بكفه:
- انه العمل
أسرعت (نعيمة) تقول: سأعد الشاي إذن.
وابتعدت بسرعة، قبل أن يلمح شقيقها اضطرابها وتوترها، في حين جلس (حسين)، وسأل (شريفة) في روتينية:
- كيف حال الجميع؟

أجابته، وهي تفرك أصابعها في توتر:
- بخير
انتبه إلى إجابتها المقتضبة، فتطلع إليها لحظات في صمت، ثم اعتدل يسألها في صرامة:
- ماذا هناك؟ إنك تبدين شاحبة للغاية.
خفق قلبها في عنف، وكادت تنهار، وتعترف له بكل شيء، ولكنها قالت في سرعة:
- هناك بعض المشاكل
انعقد حاجباه، وهو يسال في حدة
- أي نوع من المشاكل؟
ارتبكت أكثر، فلم تجد أمامها سوى أن تقول:
- (نعيمة) على خلاف مع زوجها، وتطلب الطلاق قال في غضب:
- هل أساء إليها هذا الحقير؟
أسرعت تقول
- لا.. لم يفعل، ولكن..
لم تجد ما تقول، فتوترت. وارتبكت، مما جعله يقول في حدة:
-ولكن ماذا؟
أجابته في خوف:
- لقد أعاد (فاتن) إلى عصمته، وهي حبلى، في حين يقاطع (نعيمة) تماما.
تضاعف الغضب في وجه (حسين) وصوته، وهو يهتف:
- يا لحقارته؟
ارتبكت (شريفة) أكثر، وخشيت أن تعلم (نعيمة) بما فعلت فخفضت صوتها، وهي تقول في توسل:
- أرجوك ألا تفعل شيئا، فلقد أقسمت لـ (نعيمة) ألا أخبرك بما حدث

صاح في غضب
- لماذا؟
أجابته في ارتياع:
- أرجوك يا (حسين).. إنه شأنها.
هب من مقعده، صائحا:
- بل هو شأن الأسرة كلها
ثم صاح في غضب:
- (نعيمة).. أين أنت؟
هرعت إليه (نعيمة)، شاحبة الوجه، تحمل قدح الشاي، في حين انكمشت (شريفة) في مقعدها هلعة. لا تدري كيف تعتذر لشقيقتها عما فعلته، وصاح (حسين) في وجه (نعيمة):
- أتطلبين الطلاق من زوجك؟
جاء رد فعلها أعنف مما توقع، ومما توقعت (شريفة)، فقد امتقع وجهها في ثانية واحدة، حتى بدا وكأنه فقد فجأة كل ما به من دماء وعجزت أصابعها عن حمل قدح الشاي، فسقط من يدها، وتحطم على الأرض في عنف، وهي تحدق في وجه (حسين) بدهشة وذعر، قبل أن تسأله:
- من أخبرك هذا؟
تجاهل سؤالها، وهو يكرر سؤاله في غضب أكثر:
- أتطلبين الطلاق من زوجك؟
انهارت هائفة:
- أرجوك يا (حسين).. أقبل قدميك يا أخي.. لا تتدخل في الأمر هذه المرة.
صاح في ثورة:
- لماذا؟ كيف أترك هذا الحقير يحطم هيبة عائلة (البنهاوي) على هذا النحو؟

تفجرت الدموع من عينيها، وهي تقول في ضراعة:
- وكيف ستنقذ هيبة العائلة.. هل ستجبره على تطليقها مرة أخرى؟ ربما يمكنك أن تفعل هذا يا (حسين)، ولكن هل يمكنك اجباره على محبتى؟
لم يجب تساؤلها هذه المرة. لقد كانت على حق..
صحيح أنه يستطيع إجبار (عمر) على تطليق (فاتن) للمرة الثانية ولكنه لن يستطيع أبدا مد جسور الود والمحبة، بينه وبين شقيقته..
هذا بالذات لا يحدث بالقوة.
وفي صمت، تطلع (حسين) إلى وجه شقيقته طويلا، قبل أن يقول، في صوت فقد الكثير من عصبيته وثورته:
- فليكن يا (نعيمة)
لم تصدق أذنيها، وهي تحدق في وجهه، فهتفت:
- حقا؟! ألن تتدخل هذه المرة حقا يا (حسين)؟
هز رأسه نفيا، وقال:
- لا يا (نعيمة).. سأترك لك مشاكلك العائلية هذه المرة.
واندفع نحو باب السراي في حدة، فعدت (شريفة) خلفه، هاتفة: - ألن تتناول الشاي؟
أجاب وهو يلوح بكفه:
- فيما بعد.. فيما بعد
وقفز داخل السيارة، وانطلق بها عائدا إلى (القاهرة)، وهو يشعر أنه قد انتهى من إعداد الخطوة الأولى في المعركة
معركة الأرض..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضرب الثري الفرنسي المنضدة بقبضته في غضب، وهو يصيح في وجه الأميرة (عايدة):
- لا.. لن أسمح لك بالسفر مع ذلك المصري.
التقطت قطعة طعام بشوكتها في أناقة وهدوء، ورفعتها إلى شفتيها الجميلتين في استخفاف، وهي تقول:
- ومن قال إنك تملك حق السماح والرفض يا عزيزى (جان)؟
لوح بسبابته في وجهها، وهو يقول مهددا:
- لو غادرت هذا القصر، فلن تعودي إليه ابدا.
توقفت عن الأكل، وهي تتطلع إليه في صرامة، قائلة:
- أهذا تهديد؟
هتف في غضب:
- يمكنك اعتباره كذلك
انعقد حاجباها الجميلان، وهبّت واقفة، وألقت منشفة المائدة في وجهه، وهي تقول:
- إنني أرفضه إذن
ورفعت أنفها في كبرياء، وهي تغادر المائدة، فهتف خلفها:
- لا يا (عايدة).. أرجوك.
تجاهلته تماما، وهي تصعد إلى الطابق الثاني، حيث حجرة نومها، فأسرع خلفها، صائحا:
- حسنا.. أنا أعتذر.
واصلت تجاهلها له، وهي تدلف إلى حجرتها، وتبدأ في وضع ملابسها في حقيبة ضخمة، فقال في عصبية، وهو يقف عند باب الحجرة:
- قلت إنني أعتذر أجابته في صرامة
- وأنا لا أقبل اعتذارك
صاح في غضب:

- هذا المصري لن يبقى في (باريس) إلى الأبد.. إنه سيرحل حتما إلى موطنه، وأنت ترفضين العودة إلى (مصر)، فما الذي ستفعلينه عندما يرحل؟
التفتت إليه في حدة، وقالت:
- ماذا دهاك يا (جان)؟ إنك تتحدث كما لو كنت أنا عاهرة، تحيا من فضلك! أنسيت من أنا؟ أنسيت أنك تتحدث إلى أميرة ملكية مصرية. يعود نسبها إلى أعرق العائلات التركية؟
قال في حدة مماثلة:
- يبدو أنك أنت نسيت هذا
رمقته بنظرة نارية غاضبة، ثم أغلقت الحقيبة في عنف، وقالت في تعال:
سأكتفي بهذه الثياب، وسأرسل في طلب الباقي فيما بعد.
قال متوسلا:
- (عايدة).. أرجوك.
تحركت في شموخ نحو باب الحجرة، وأزاحت الفرنسي جانبا، وهي تقول:
- ادع الخادم، لينقل الحقيبة إلى سيارتي.
كادت تنفجر ضاحكة، وهو يعدو خلفها متوسلا، ولم تتبادل معه كلمة واحدة، حتى وضع الخادم الحقيبة في سيارتها المكشوفة، فانطلقت بها على الفور، وتركت الفرنسي يلوح بقبضته خلفها، مهددا ومتوعدا. وأطلقت ضحكة قصيرة، قائلة:
- يكفيك هذا القدر يا عزيزى (جان).. إنك تحيا مع أميرة منذ عامين، وهذا أفضل مما يحصل عليه الكثيرون.
انطلقت سيارتها بسرعة تتجاوز المسموح به كالمعتاد، وتركت شعرها الأسود يتطاير خلفها في نعومة، وهي تبتسم ابتسامة نشوة وظفر، حتى بلغت الفيلا التي يقيم فيها (أكرم)، وقبل أن تميل

بسيارتها إلى مرآب (جراج) الفيلا، جذب انتباهها وجود سيارة أخرى هناك. إلى جوار سيارة (أكرم)، فأوقفت سيارتها خارج الفيلا، وغمغمت لنفسها:

- يبدو أنه يستقبل زائرا.

ثم انعقد حاجباها، وهي تستطرد:

- أو زائرة.

شعرت بشيء من الغيرة للفكرة، وراودتها فكرة عابثة، فغادرت سيارتها، وسارت على أطراف أصابعها إلى داخل الفيلا، وتجاوزت بابها في خفة، ثم اتجهت إلى أقرب نافذة، وتطلعت منها خفية، فوقع بصرها على رجل غليظ الملامح، قصير القامة، يقف في مواجهة (أكرم)، الذي بدا مرتبكا متوترا، كتلميذ خائب، يواجه اختبارا عسيرا، في حين كان القصير يلوح بسبابته في وجهه بخشونة، قائلا:

- لا يا (سليمان).. لقد استغرقت أكثر مما ينبغي؛ لإتمام هذه المهمة.

أدهشها أن يخاطب ذلك القصير (أكرم) باسم (سليمان)، فالتصقت بالنافذة أكثر، وسمعت أكرم يقول في ارتباك:

- الأمر ليس هينا كما تتصور يا (صلاح) بك، فلو شعرت هي بأدنى قدر من الشك، سترفض مشاركتي الرحلة حتما، ولن يمكننا إعادتها إلى (القاهرة) أبدا.

خفق قلبها في سرعة، وتلاحقت أنفاسها، وسمعت القصير يقول في صرامة:

- لا يا (سليمان.. إنك تضيع الكثير من الوقت، ولن يعجب هذا (حسين) بك.. لن يعجبه أبدا.
اتسعت عينا (عايدة) في هلع، وتراجعت في عنف، وكأنما أصابتها صاعقة.
لقد فهمت اللعبة
فهمتها تماما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

53- وضاقت الدوائر..

ابتسم شيخ الخفراء (بسيوني)، عندما رأى (فاطمة)، بقامتها الشبيهة بالرجال، وبملامحها الغليظة، وهي تعبر بوابة منزل العمدة، حاملة صغيرها (طارق)، وقال ضاحكا:

- صباح الخير يا (فاطمة).. مرحبًا بك في دارك

ردت تحيته بصوتها الأجش، وقالت:

- كيف حالك يا عم (بسيوني)؟ أين أبي؟ بلغني أنه يطلب رؤيتى.

أشار إلى حجرة استقبال الضيوف، وهو يقول:

- العمدة في الداخل، مع البك المأمور يا (فاطمة)، وسينصرف المأمور بعد لحظات، فقد انتهى من تناول الطعام، وشرب ثلاثة أكواب من الشاي.

ثم ضحك قائلا:

- يا للقدر يا (فاطمة)! من كان يتصور أن يصبح عم (عبد الحميد) عمدة القرية كلها.

تنهدت، وقالت:

- أرزاق يا عم (بسيونى).

جلست إلى جواره، فداعب الصغير بسبابته في حنان، ثم قال:

- كم يشبه والده

قالت في أسي - من حسن حظه أنه لم يشبه أمه.

ابتسم عم (بسيوني) في حنان، وهو يقول لها:

- الجمال ليس جمال الوجه يا بنيتي، وإنما جمال الروح

ابتسمت في مرارة، وهي تقول:

- قل هذا لآل (البنهاوي)

- سألها في خفوت:

- أما زالوا يسيئون معاملتك؟

ترقرق الدمع في عينيها، وهي تومئ برأسها إيجابا، فهز (بسيونى) رأسه متفهما، وقال:
- من يدري يا بنيتي، ربما صرت يوما أفضل منهم جميعا.
مسحت دموعها، قبل أن تنسكب، في حين هب (بسيونى) واقفا وضرب كعبيه ببعضهما البعض، وهو يؤدي التحية العسكرية، في قوة. ورأت (فاطمة) المأمور يغادر حجرة الضيافة، ويتجه إلى سيارة الشرطة في خطوات قوية صارمة، ووالدها خلفه يهتف:
- شرفت الدار يا سيادة المأمور.. شرفت القرية كلها يا باشا.
أنتظر حتى الصرف المأمور بسيارة الشرطة، ثم التفت إلى ابنته وانحنى يطبع على جبينها قبلية في حنان، وهو يقول:
- أهلا يا (فاطمة).. كيف أنت يا بنيتي؟
همهمت بكلمات مبهمة، وقالت:
- بلغني أنك تطلب مقابلتي يا أبي.
جذبها إليه في حنان، وهو يقول:
- نعم يا (فاطمة)، أريدك في أمر هام.
دخلا معا الى قاعة الضيافة، وأغلق هو الباب خلفه في إحكام، ثم التفت إليها يقول:
- حدث أمر جلل يا (فاطمة).
سألته في قلق:
- ما هو يا أبي؟
تلفت حوله في حذر، ثم مال عليها هامسا:
- (حسين البنهاوي) جاء إلى هنا أمس غمغمت:
- أعلم هذا.
تلفت حوله مرة أخرى، وأضاف:
- ولقد كتب أرضه كلها باسمي.
اتسعت عيناها في ذهول، وهي تحدق في وجهه، قبل أن تهتف

- ماذا تقول يا أبي؟
همس في انفعال:
- أقول إنه كتب الأرض كلها باسمي.. أرض (البنهاوي)،
مضت لحظات من الصمت، وهي تحقق في وجهه بذهول، وكأنها لا تصدق ما سمعته، قبل أن تهتف:
- باسمك أنت؟! لماذا؟
عاد يتلفت حوله للمرة الثالثة، وكأنما يخشى أن تسمعه جدران الحجرة، ثم همس:
- لست أدري.. يبدو أن شيئا ما يتهدده.
هتفت في انفعال: المهم أن أرض (البنهاوي) صارت ملكا لنا.. أليس كذلك؟
هز رأسه نفيا، وقال:
- ليس تماما.. لقد حصل مني على عقد بيع عكسى، بدون تاريخ، بحيث يمكنه استرداد أرضه في أية لحظة
تألقت عيناها في شدة، وهتفت
- لن يستردها أبدا
صاح في ارتياع:
- ماذا تقولين يا (فاطمة)؟ من يمكنه الوقوف في وجه (حسين البنهاوي)؟
صاحت في خشونة:
- أنا
- أنت مجنونة
صاحت في غلظة
- سأكون كذلك بالفعل، لو أعدت أرض (البنهاوي) إلى هؤلاء المتغطرسين
أصابه الهلع، خشية أن يتسرب صوتها للخارج، وهمس في رعب:

- وماذا ستفعلين أيتها المجنونة؟ برقت عيناها في جشع، وهي تقول:
- أسرق عقد البيع العكسي.. سأقتل (حسين) نفسه، لو اقتضى الأمر.. المهم أنني لن أتخلى عن هذه الفرصة النادرة، للتحكم في آل (البنهاوي).. لن أتخلى عنها أبدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انهمرت دموع (سوسن) كالشلالات، وهي تدفن رأسها في وسادتها..
أخيرا عرفت سر ذلك الحاجز، الذي يحول بينها وبين (مفيد)..
أخيرا أدركت سر عجزه عن التفاعل معها.. إنها (مديحة)..
تلك التي نطق اسمها، دون أن يدري، وهو يخاطبها هي.
انها لم تسأله أبدا عن (مديحة) هذه، على الرغم من ذلك الأثر العنيف، الذي تركه نطق الاسم في نفسها.
لقد سمعت (مفيد) ينطق اسم (مديحة)، فتطلعت إليه في هلع، ثم لم تلبث أن أشاحت بوجهها، وكتمت لوعتها وحزنها ودموعها، دون أن تنطق بحرف واحد..
وهو لم يحاول شرح الأمر.. لقد اكتفي بالصمت..
صمت رهيب أحاط بهما، وهما يغادران القطار في (القاهرة)، وينصرف كل منهما إلى عمله، دون حتى أن يتبادلا التحية كالمعتاد.
ولم تستطع العمل في ذلك اليوم..
لم تستطع أبدا أن تبتسم في مواجهة زبائن المتجر، وتحتمل أسئلتهم ومطالبهم، وكل ذلك الحزن يملا قلبها.

ولذلك انصرفت.. طلبت إجازة مرضية من صاحب المتجر، وانصرفت.
ولم يستطع صاحب المتجر رفض مطلبها، إذ كان شحوبها وتهالكها أكبر دليل على مرضها بالفعل، فوافق على منحها إجازة بنصف راتب، الأسبوع كامل، وهو يطالبها بالعودة بعد نهاية المدة، ومزاولة عملها كالمعتاد.
وعندما عادت (سوسن) إلى منزلها، أصيبت أمها بالذعر، حينما رأتها على هذا الوضع، فأحاطتها برعايتها وحنانها، وأرقدتها في فراشها، وأسرعت تستدعي طبيبًا لفحصها.
ومنذ ذلك اليوم ومنذ أربعة أيام كاملة، لم تغادر (سوسن) فراشها..

ولم تتوقف عن البكاء. ولم يهدأ قلب والديها أبدا.
وفي هذا اليوم، بعد أربعة أيام كاملة، دخل والدها الطيب إلى حجرتها، وقد انتقل شحوبها وتهالكها إليه، وجلس على طرف فراشها وقلبه يكاد ينفطر حزنا عليها، وربت على شعرها في حنان، وهو يقول في لوعة:
- ماذا أصابك يا بنيتي.. أي عين حسود أصابتك؟
زفرت أمها في مرارة، عند باب الحجرة، وقالت في حزن:
- لقد بخرتها ببخور مكى خمس مرات، واستشرت الشيخ (محمد محرم) بشأنها، ولا فائدة
جففت (سوسن) دموعها، واعتدلت قائلة:
لا تقلقا يا أبي، ويا أمي.. إنني بخير.. مجرد متاعب بسيطة ستزول حتما مع مرور الوقت.
سألها والدها في حنان:
- أي نوع من المشاكل يا (سوسن)؟ هل فقدت عملك.. لا بأس بهذا يا بنيتي.. إننا لا نحتاج إلى عملك، ولقد حاولنا إقناعك بالتخلي عن

فكرة العمل مرارا.
هزت رأسها نفيا، وقالت:
- لا يا أبي.. لم أفقد عملى، أخبرتكما أكثر من مرة أنني حصلت على إجازة لأسبوع كامل.
سألتها أمها، وهي تكاد تبكى كالمعتاد:
- ماذا بك إذن.. اخبرينى يا (سوسن).. إنك ابنتنا الوحيدة، وحزنك هذا يكاد يذهب عقلينا، ويفطر قلبينا.
أدركت لحظتها كم هي محظوظة بأبوين مثلهما، وأدركت أيضا كم تعذبهما وتؤرقهما بحزنها وملازمتها الفراش، فجففت ما تبقى من دموعها، وأجبرت شفتيها على ابتسامة شاحبة، وهي تقول:
- ما أسعدني بكما.. حنانكما وحده يكفي لشفائي
تهللت أسارير أمها، واغرورقت عينا والدها بالدموع، وهو يقول بصوت متهدج:
- حمدا لله.. حمدا لله يا بنيتي
ارتفع رنين جرس الباب في هذه اللحظة، فقالت أمها، وهي تتجه للاستجابة اليه:
- إنه الشيخ (محمد محرم) بالتأكيد.. لقد وعدني بالحضور لرؤيتها
ابتسمت (سوسن) في تهالك، وقالت لوالدها بابتسامتها الشاحبة: - أما زالت أمي تؤمن بالشيوخ، أكثر من إيمانها بالأطباء؟
رمقها بنظرة عتاب حنون، وهو يقول:
- الشيوخ بركة يا بنيتي
عادت أمها في هذه اللحظة. وعلى شفتيها ابتسامة واسعة، وهي تقول:
- يبدو أن غيابك يترك أثرا كبيرا يا (سوسن)، فقد جاء بعضهم لرؤيتك.
سألتها في دهشة:

- من جاء؟ (إلهام)، أم (منى)؟
جاء من خلف أمها صوت حنون يقول:
- بل هو أنا يا آنسة (سوسن).
وخفق قلب (سوسن) في قوة، وهي تتطلع إلى وجه صاحب الصوت..
لقد كان (مفيد)..
(مفيد البنهاوي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رفع (مراد صقر) عينية في بطء، يتطلع إلى وجه (حسين) في برود، قبل أن يقول بصوته الجاف، الخالي من أية انفعالات..
- اجلس يا (حسين).. أريد التحدث معك قليلا.
جلس (حسين) على المقعد المقابل للمكتب كالمعتاد، وتجاهله (مراد) متعمدا، ومتشاغلا بمراجعة ملف صغير، ووضع بعض الملاحظات بقلمه الأحمر، على أجزاء متفرقة منه، تاركا (حسين) لأفكاره وتوتره، ثم لم يلبث أن وضع قلمه إلى جوار الملف، والتفت إلى (حسين)، يسأله في صوت جاف:
. ماذا فعلت بشأن مشكلة الميراث هذه؟
ازدرد (حسين) لعابه في توتر، وأجاب:
- لم يعد باقيا من ميراث والدي سوى السراي، و (فؤاد) يمكنه أن يقيم فيه، أو..
قاطعه (مراد صقر) في برود:
- أتعلم أنني راجعت ملفك كله.
ازدرد (حسين) لعابه مرة أخرى، وهو يتطلع إلى (مراد)، وشعر بجفاف شديد في حلقه، وهو يتساءل عن سر هذه العبارة، ولكن

(مراد) لم يمنحه الوقت الكافي للقلق والتساؤل، إذ أضاف ببروده الشهير، وهو يتراجع بمقعده في هدوء:
- أدهشني كثيرا أسلوب انضمامك الينا، فلقد تم ذلك على نحو عشوائي سريع، دون إجراء تحريات كافية، أو اتخاذ ضمانات مناسبة، وبتوصية خاصة من الزميل (رفعت كساب)، قبل أن تعتقله بنفسك.
أدرك (حسين) على الفور ما يعنيه (مراد) بحديثه، إذ كان عبارة عن تهديد ضمني واضح، بفصله من الجهاز، لو لم يستسلم لرغبات (فؤاد) وشقيقة، لذا فقد كرر في خفوت:
- أؤكد لك يا سيدي، أنه لم يعد باقيًا من الميراث سوى..
قاطعه (مراد) مرة أخرى في صرامة:
- لماذا قمت بذلك التسجيل الصوري يا (حسين)؟
شحب وجه (حسين)، وهو يغمغم:
- أي تسجيل صورى يا سيدى؟
أجابه في خشونة:
- لقد سجلت الأرض كلها باسم (عبد الحميد)، عمدة قريتك.. لماذا لجأت إلى هذا الأسلوب التحايلي السخيف؟
ازداد شحوب وجه (حسين)، وانكمش في مقعده، و (مراد صقر) يواصل في غضب:
- إننا لسنا ساحة قضاء يا (حسين)، ولسنا في مجال التلاعب بالقوانين.. أنسيت أنك تمتلك من الأرض ما يتجاوز المسموح به، طبقا لتعديلات قانون الإصلاح الزراعي؟
أتحب أن تصادر الدولة تلك الزيادة من (عبد الحميد)؟ بل يمكنني أن أدفعهم، بتقرير واحد، إلى مصادرة أرضه كلها.. أي أرضك التي سجلتها باسمه يا رجل.. ايروق لك أن أفعل

انتفض قلب (حسين) في هلع.. لم يدر كيف علم (مراد صقر) بكل هذا؟! كيف فهم اللعبة كلها؟ وكيف سيتصرف هو؟ إنه لا يستطيع منح (فؤاد) نصيب (ناهد) من الأرض، وإلا كان هذا
إعلانا بضعف سطوته وبدء سقوطها..
ولا يستطيع - في الوقت ذاته - رفض هذا، خوفا على منصبه، الذي يمنحه كل هذه السطوة.
وارتبك عقله، وهو يبحث عن الحل، في حين تصاعد صوت (مراد صقر) جادا صارما. وهو يقول:
- لا تلجأ إلى هذه الأساليب الساذجة السخيفة مرة أخرى، وأريد منك أن تحل هذه المشكلة في أسبوع واحد لا أكثر.. هل تفهم؟
أومأ (حسين) برأسه إيجابا، وتمتم في شحوب:
- أفهم يا سيدي. أفهم.
أشار إليه (مراد صقر) بالانصراف، فأسرع يغادر مكتبه، واتجه إلى حجرته، وجلس فيها شاحبا، ضائعا.
كان يبحث عن حل يمنحه الفوزين في آن واحد، بحيث يحتفظ بأرضه وسطوته معا.
ولكن عقله لم يمنحه هذا الحل أبدا وفجأة استعاد هذا العقل فكرته المجنونة..
وفي هذه اللحظة بالذات، بدت له كأفضل فكرة في الدنيا كلها. فنهض في حركة حادة، واندفع مغادرا المبني كله، ومنطلقا إلى آخر مكان يرغب أي مصري في الاقتراب منه. في هذا العصر بالذات..
إلى السجن..
السجن الحربي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

54 - قواعد اللعبة..

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بنصف الساعة على الأقل، عندما عاد (عمر) إلى منزله، ودفع بابه في تراخ، ثم أغلقه خلفه في هدوء، وسار إلى حجرة نومه، وأشعل مصباحها، و.

وتوقف مبهوتا..

توقف لحظة واحدة، وهو يتطلع إلى (نعيمة)، التي انكمشت وسط الفراش الكبير، وهي تضم إليها ابنتها (نادرة)، وتتطلع إليه بعين كسيرة، تحمل استسلاما واستكانة، لم يعتدهما منها، ثم واصل تحركه نحو الفراش، مغمغما في برود:

- مساء الخير أجابته (نعيمة):

- مساء الخير يا (عمر).. أأعد لك طعام العشاء؟

أجابها وهو يبدل ثيابه:

- لقد تناولت عشائي منذ ساعتين.

كانت تعلم أين تناول العشاء، ولكنها لم تشر إلى هذا، وإنما تركت ابنتها النائمة على الفراش، ونهضت تعاونه على استبدال ثيابه في استكانة، وهو لا يوليها أدنى اهتمام، حتى اتجه إلى فراشه، فوقفت أمامه تتطلع إليه في صمت ورجاء، قبل أن تهمس:

- أنا أسفه يا (عمر)

سألها في برود:

- على ماذا؟

انحنت نحوه، مجيبة

- على تركي المنزل، وطلب الطلاق.

لم يجد ما يقول. وهي تعتذر له لأول مرة منذ زواجهما، فلاذ بالصمت، وهو يتطلع إليها، مما شجعها على أن تجلس على طرف

الفراش المجاور له، وتقول:
- لقد أخبرت (شريفة) (حسين) عن خلافاتنا نهض في توتر، وهو يقول في حدة:
- وما الذي ينوي شقيقك فعله هذه المرة؟
أسرعت تقول، وهي تمس صدره بأصابعها:
- لا شيء يا (عمر).. لقد طلبت منه الا يتدخل هذه المرة.
لم يفهم سر استسلامها الشديد هذا. فتطلع اليها في حذر، دون أن يبدي تعليقا، وأدهشه أن انهمرت الدموع من عينيها. وهي تستطرد:
- رفضت تدخله في شدة، وأخبرته صراحة أنه سبب فشل حياتى الزوجية، وأنني أرفض تدخله فيها من الآن فصاعدا.
اعتدل وهو يحدق في وجهها. ويغمغم في دهشة:
- حقا!!
القت راسها على صدره، وبكت في حرارة، وهي تقول:
- ليس لي سواك يا (عمر).. أنت زوجي، والزوجة تتبع زوجها. ولو إلى الجحيم، سامحني يا (عمر).. سامحني حتى على ما فعله بك (حسين)..
لم يجد ما يقوله، وهو يضمها إلى صدره في رفق وحذر، في حين تابعت هي في انفعال:
- لن أطالبك بتطليق (فاتن).. ابنة (شاهين الحبروك).. لن أشير حتى إلى هذا أبدا.. كل ما أطلبه هو أن تغفر لي.
كان الموقف يبدو له عجيبا، غير متوقع، فاكتفي بالصمت المطبق وهو يتساءل في أعماقه.
هل يمكنه حقا أن يغفر
وبقى سؤاله معلقا.
وبلا جواب

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقفت سيارة الأميرة (عايدة)، على بعد مترين فحسب، من الطائرة الخاصة، التي يقف أمامها (أكرم)، وغادرتها وهي تحمل على شفتيها ابتسامة واثقة ساخرة، ولوحت بكفها، قائلة:

- اهلا (أكرم). تبدو متألقا هذا الصباح

أسرع اليها (أكرم)، وقبل كفها في حرارة. وهو يقول:

- جمال الدنيا كلها يذوب أمام جمالك المبهر يا أميرتي

قالت ضاحكة:

- حقًا!!

لاحظ رنة السخرة في كلمتها، إلا أنه لم يهتم بها كثيرا. فقد كانت السخرية جزءا من شخصيتها. لا ينفصم عنها، فاعتدل مشيرا إلى الطائرة، قائلا:

- هيا يا أميرة الأميرات.. الطائرة تنتظر.

ارتكنت بمرفقها إلى مقدمة سيارتها. وهي ترمق الطائرة بنظرة مستهترة، قائلة:

- دعها تنتظر.

لم يرق له اسلوبها هذا الصباح، ولكنه لم يعترض، وانما احتفظ بابتسامته، وهو يقول:

- اتروق لك طائرتي الخاصة؟

- مطت شفتيها قائلة

- الى حد ما

ثم أخرجت علبة سجائر ذهبية، التقطت منها سيجارة طويلة، دستها بين شفتيها الجميلتين، وهي تستطرد في سخرية:

- ولكن العجيب أنها لا تبدو لي كطائرة يمكنها عبور المحيط، إلى (أمريكا).
أجابها مبتسما، وهو يشعل سيجارتها بقداحته:
- إنها أقوى مما تتصورين.
أطلقت ضحكة ساخرة خبيثة، وقالت وهي تنفث دخان سيجارتها في عمق:
. أتعلم أنني تشاجرت مع (جان) من أجلك؟
رد مبتسما:
- حقا؟
أومأت برأسها إيجابا، ونفثت بخان سيجارتها مرة أخرى، وهي تقول:
- ولكنني عدت فتصالحت معه أمس
بدا له الأمر عجيبا، مما بدأ يبذر في نفسه بذرة الشك، فغمغم:
- لماذا؟
اتسعت ابتسامتها، وهي تقول:
- من الأفضل ألا يحرق المرء كل مراكبه.. أليس كذلك.
لم يجب هذه المرة، وإنما تطلع إليها في قلق واضح، فأطلقت ضحكة عابثة طويلة، ردد المطار الخاص الخالى صداها، قبل أن تقول ساخرة:
- هل تشك في حديثي؟
أجاب في تلقائية:
- إلى حد ما
ضحكت مرة أخرى، وقالت:
- أنت أيضا تدهشني، فيلوح لي أنك لا تصلح لحمل اسم (أكرم) هذا الصباح.

أضيئت في أعماقه مصابيح الخطر، وهو يسألها في حذر: - أي اسم يصلح لي إذن؟
تطلعت إليه لحظة في صرامة، وهي تجيب
- (سليمان).
اتسعت عيناه لحظة، من فرط المفاجأة، ثم لم يلبث أن تراجع في حركة سريعة، وهو يقول في حدة:
- إذن فقد كشفت ِكل شيء
- ما رأيك؟ هل أصلح للعمل معكم؟
فوجئت به ينتزع من سترته مسدسا كبيرا، ويصوبه إليها، قائلا في غضب:
مطلقا
ثم أضاف في صرامة شديدة:
. هيا يا أميرة العهد البائد.. ستدخلين إلى الطائرة، وستعودين معنا إلى (القاهرة).. شئت أم أبيت.. هيا.. أسرعى.
ولكن فجأة ظهرت تلك السيارات الضخمة، من خلف حظيرة الطائرات واتجهت إلى حيث الطائرة الخاصة في سرعة، وأحاطت بها في لحظات وبرز منها عشرات الرجال، الذين يحملون المدافع الالية، ويصوبونها إلى (أكرم)، فشحب وجه هذا الأخير، وألقى مسدسه، ليرفع يديه استسلاما.
وهنا ابتسمت (عايدة) في سخرية، وربت على كتف (أكرم)،
- أأدركت الآن لماذا تصالحت مع (جان) يا (سليمان) بك؟ المال المال يصنع الكثير هنا في (أوروبا) يا صديقي.. ولقد أرسلت برقية إلى (حسين بك البنهاوي)، أعلنه فيها بفشل لعبته السخيفة.
قال (أكرم) في غضب
- انها مجرد جولة
قالت ساخرة:

- ولكنها لم تنته بعد يا صديقي.. لم تنته بعد
وجلجلت ضحكتها العابئة مرة أخرى
في المطار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ابتسم (إبراهيم مكى) ابتسامة واسعة، تجمع ما بين الجذل والسخرية، وهو يتطلع إلى (حسين)، في حجرة قائد السجن الحربي، وقال في استهتار:
- اهو انت يا حسين) بك.. وأنا الذي تساءلت عمن يجرؤ على زيارتي هنا، في ذلك الجحيم.
تجاهل (حسين) هذا الأسلوب الساخر، وقال في رصانة:
- كيف حالك يا (ابراهيم)؟ إنك تبدو في صحة جيدة، على الرغم من كل شيء.
هز (ابراهيم) كتفيه، وقال في لا مبالاة:
- إنه مجرد حبس احتياطي، فلست متهما، ولا أحد يرغب في الحصول على اعترافات خاصة مني، ولكن ليتك ترى أفراد تنظيم الإخوان المسلمين أراهن أنك ستعجز عن تعرفهم، بعد ما فعله بهم الزملاء هنا.
ثم أضاف في خبث:
. هذا باستثناء من رفضوا احتمال حفلات المرح هنا، ففضلوا الرحيل إلى الدار الآخرة، والذين..
لم يكن (حسين) يميل إلى سماع هذه الأمور. فقاطعه قائلا:
- ألا ترغب في الخروج من هنا؟
بتر (إبراهيم) حديثه، وتطلع إليه لحظات في صمت، قبل أن يقول في سخرية:

- أهو عرض بعودتي إلى العمل؟
عقد (حسين) حاجبيه في صرامة، وهو يقول:
- أتتصور أنه من الممكن أن تعود إلى عملك، بعد كل هذا؟
هتف (إبراهيم):
- أتصور!
ثم قهقهه ضاحكا، على نحو أثار دهشة (حسين)، قبل أن يستطرد:
- من الواضح أنك لا تفهم شيئا من القواعد يا صديقى، على الرغم من خبرة السنوات الماضية.
سأله (حسين) في خشونة
- أية قواعد؟
لوح (إبراهيم) بكفه، قائلا:
- قواعد اللعبة يا رجل.. لعبة السياسة
ثم اعتدل، وأضاف وكأنه يلقي محاضرة خاصة:
- إنها لعبة شديدة التعقيد يا صديقي، فالساسة يمقتون أمثالنا، من ذوي الخبرة، ولكنهم يحتاجون إليهم في الوقت ذاته، وعندما يصيبهم الخوف منا كثيرا، فإنهم يلقوننا في السجون، ولكنهم لا يسيئون معاملتنا أبدا، انتظارا للحظة التي يبلغ فيها خوفهم من الاخرين ما يفوق خوفهم منا.. عندئذ يلجأون إلينا، لحمايتهم من هؤلاء الآخرين.
استمع إليه (حسين) في اهتمام، على الرغم من ضيقه، وأدهشه ذلك التحليل الدقيق، الذي ينطبق أكثر ما ينطبق عليه، فعلى الرغم من كراهيته لـ (إبراهيم مكي)، إلا أنه لم يجد أمامه، عندما تأزمت الأمور سوى اللجوء إليه، للاستفادة بعقل الذنب الكامن في جمجمته، وبقلب الثعلب، الذي ينبض في صدره،
وفي عصبية، قال (حسين):
- إنني أحمل لك عرضا سخيا

استرخي (إبراهيم) في مقعده، ووضع ساقا فوق أخرى، وهو يسأله:
- عرض شخصي أم رسمى؟
أجابه (حسين):
- شخصي تماما
مط (إبراهيم) شفتيه لحظات، قبل أن يقول
- حسنا.. فلنستمع لعرضك أولا

مال (حسين) نحوه، وقال:

- سأخرجك من هنا

سأله (ابراهيم) في هدوء:

- وهل سأعود إلى عملي؟

عقد (حسين) حاجبيه في ضيق، وأجاب:

- أنت تعلم أن إخراجك من هنا، في حد ذاته، مشكلة ضخمة. وستحتاج إلى وقت وجهد كبيرين، و.
قاطعه (ابراهيم) مبتسما:
- حسنا. العرض يتضمن الخروج من هنا فحسب ثم مال نحوه، مستطردا في حزم:
- وما المقابل المطلوب؟
تطلع إليه (حسين) لحظة في صمت، ثم نهض من مقعده، وابتعد بضع خطوات، وتشاغل بالتطلع إلى صورة قديمة، تزين مكتب قائد السجن، قبل أن يقول:
- لدي مشكلة ضخمة
سأله (إبراهيم) في اهتمام، وكأنما يروق له الأمر
- ما هي؟ أجابه (حسين) في توتر:
- انها مشكلة الميراث القديمة
ابتسم (ابراهيم)، وقال
- ألا يمكنك اعتقال (عمر)، زوج شقيقتك، مرة أخرى؟
أجابه في ضيق:
- ليس (عمر) من أثار المشكلة هذه المرة، ولكنه (فؤاد).
رفع (إبراهيم) حاجبيه لحظة، ثم عاد يخفضهما، ومط شفتيه، قائلا:
- إنك تدفع ثمن جشعك للقوة والسلطة
قال (حسين) في حدة: - العرض لا يتضمن احتمالى لسخافاتك.
أطلق (إبراهيم) ضحكة قصيرة، وكأن غضب (حسين) يسعده، ثم سأله:
- المفروض اذن أن شقيق (فؤاد) يتدخل بنفوذه، في مجلس قيادة الثورة، للضغط عليك، وإجبارك على الامتثال لرغبات (فؤاد).. أليس كذلك؟

أومأ (حسين) برأسه إيجابا، وقال:
- بلى، ولقد حاولت التلاعب بالموقف، ولكن (مراد) بك كشف ما فعلت.
سأله (إبراهيم)، في اهتمام:
- (مراد صقر)؟
أوما (حسين) برأسه ايجابًا مرة أخرى، فغمغم (إبراهيم):
- وكيف حاولت التلاعب؟ لا تقل لي: إنك سجلت الأرض باسم شخص آخر؟
أشاح (حسين) بوجهه في ضيق، قائلا:
- بل هذا ما فعلت
ابتسم (إبراهيم) ابتسامة ساخرة. لم يرها (حسين)، وقال:
- عيبك يا صديقي أنك مباشر أكثر مما ينبغي، وهذه الأساليب المباشرة تصلح للتعامل مع من تفوقهم قوة، لا مع من يفوقونك سطوة وقوة.
التفت إليه (حسين). وسأله في اهتمام:
- ماذا يمكنني أن أفعل إذن؟
أجابه (إبراهيم) بأسلوب خبير:
- ينبغي أن تشغل شقيق (فواد) عن التفكير في أمر أرضك وميراثك. سأله في لهفة
- كيف؟
رفع (إبراهيم) سبابته أمام وجهه، وأجاب:
- بأن تكون مشكلاته الشخصية عديدة، بحيث لا يكون لديه وقت للتفكير في مشكلات شقيقه.
كرر (حسين) بلهفة أكثر:
- كيف يا (إبراهيم)؟ كيف
تراجع (إبراهيم) في مقعده بزهو، وابتسم في ثقة، وهو يقول

- انني لم اخرج من هنا بعد.
هتف به (حسين):
- ستخرج يا (إبراهيم).. ستخرج خلال يومين فحسب ثم ضرب سطح مكتب المأمور بقبضته، مستطردا في حزم
- هذا وعد.
وأسرع يغادر السجن الحربي، الذي نسي تسجيل هذه المعجزة، التي لم تشهد مثلها أسواره قط.
معجزة رجل، ولد الأمل في صدره، في قلب الجحيم جحيم السجن الحربي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

55 – انقلاب..

هب النسيم رقيقا عليلا، في تلك الأيام الأولى من شهر (مارس)، واستعدت البراعم لاستقبال الربيع، الذي اقتربت أيامه الجميلة، وبدا (مفيد) و (سوسن)، وهما يسيران جنبا إلى جنب، إلى جوار كورنيش النيل، أشبه بزهرتين تفتحتا قبل الأوان، وفاح منهما عبير الحب.

وكان قلب (سوسن) ينبض في انفعال، و (مفيد) يقول:

- هذه هي القصة كلها يا (سوسن).. قصة (مديحة)، التي منحتها قلبي وحبي في صباى، وفرق بيننا شقيقي في قسوة، ففقدتها إلى الأبد.

مضت لحظات، وهي لا تدري ماذا تقول، بعد أن روى لها قصته كلها في صراحة ووضوح، ثم لم تلبث أن غمغمت في حذر:

- أما زلت تحبها؟

خفض عينيه، وهو يجيب في خفوت:

- أكون كاذبا، لو أجبتك بالنفي يا (سوسن)، فما زلت أذكر كل لحظة قضيتها مع (مديحة)، وكل همسة حب بيننا، ولكن..

صمت لحظة، مضت بالنسبة إليها أشبه بدهر كامل، قبل أن يكمل:

- ولكنني أحمل لك شعورا قويا جارفا.

لم ينبس ببنت شفة، وإن ضايقها أنه لم يصف شعوره هذا بالحب وشعرت في قلبها بشيء من الغيرة، تجاه (مديحة)، التي لم تلتق بها أبدا، وحاولت التغلب بعقلها على مشاعرها هذه، وهو يتابع:

لم أكن أدرك حقيقة هذا الشعور يا (سوسن)، أو أدرك قوته، حتى اختفيت عني لأربعة أيام كاملة.. لحظتها كدت أصاب بالجنون.. اشتياقا لك، وعرفت كم أصبحت مرتبطا بك، ولماذا كان يوم

الجمعة يبدو بالنسبة لي كئيبا خاويا؟ لقد كان كذلك لإنه اليوم الذي لا أراك فيه.
غمغمت في خجل:
- الأحد هو اجازتي، ولكن إجازتك أنت يوم الجمعة.
ابتسم قائلا:
- لهذا استبدلت اجازتي بالأحد، لنلتقي يوم الجمعة أيضا ضحكت في مزيج من السعادة والحياء، وقالت:
- لا يمكنك ان تتصور كم كانت سعادتى، عندما جئت لزيارتي في منزلي.. أتعلم ماذا قالت عنك أمي، بعد انصرافك؟
سألها بابتسامة رقيقة:
- ماذا قالت؟
أجابته بحياء أكثر:
- قبلتني، وقالت إنك تستحق أن يمرض المرء من أجلك.
ضحكا معا، ثم تسللت يده إلى كفها، فارتجفت أصابعها بين أصابعه وغمغمت:
- إنك لم تخبرني حتى الآن.. كيف عرفت عنوانى؟
أجابها مبتسما:
- من المتجر.. ادعيت أنني ابن عمك، وأنني أجهل عنوانكم الجديد في (طنطا)، فاخبروني إياه.
غمغمت في سعادة:
- يا لك من مثابر!
استوقفها بغتة، والتفت إليها، وهو يقول في جدية:
- (سوسن).. أيمكنك مساعدتي، على تجاوز محنتي مع (مديحة)، وإزالة ذلك الحاجز، الذي يحول بيني وبينك؟
صمتت لحظات، ثم سألته في حياء وخفوت:
- هذا لو أنه هناك أمل في أن أحل يوما محلها.. في قلبك..

أمسك كفيها، وهو يتطلع اليها هامسا:
- من يدري يا (سوسن)؟ من يدري؟
ارتجف قلبها، وهو يردد السؤال نفسه
من يدري؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لأول مرة، منذ تسلم (مراد صقر) قيادة الجهاز، حملت ملامحه غضبًا واضحا، وهو يواجه (حسين) في مكتبة هذا الصباح، قائلا:
- ما الذي يحدث في هذه الإدارة.. ما الذي تفعله من خلف ظهري يا (حسين)؟
ارتجف (حسين) في أعماقه، وهو يقول
- وما الذي أفعله يا سيدى؟
لوح (مراد) بذراعه كلها في غضب، وهو يقول:
- الكثير.. لقد أرسلت (صلاح) في مهمة شخصية فاشلة إلى (باريس)، انتهت بإهانة رجلنا (سليمان) هناك، وإعادته إلى هنا بملابسه الداخلية، داخل صندوق خاص، يحمل توقيع الاميرة (عايدة) وبتحطيم طائرة خاصة، اضطررنا إلى دفع ثمنها، من الميزانية السرية للجهاز، وبعد كل هذا تتدخل للإفراج عن (إبراهيم مكى)، فما الذي تعنيه بكل هذا؟ أتظن أن كل هذه الإدارة مجندة لخدمة أغراضك الشخصية؟
ارتبك (حسين) في شدة، وتصبب العرق على جبينه، وهو يغمغم:
- لم أكن أقصد أن..
- قاطعه (مراد) في حدة
- وهناك أيضا تلك التقارير السرية، التي ترسلها إدارتك إلى (جمال عبد الناصر) شخصيا، حول شقيق (فؤاد).. ما الذي

تقصده؟
جفف عرقه في توتر، وهو يجيب
- لست أنا من يرسلها يا سيدي.. بل (صلاح)
انعقد حاجبا (مراد صقر) على نحو مخيف، وهو يقول في غضب:
- إنك تلعب ألعابا بالغة الخطورة يا (حسن)، وأنا أحذرك من عواقبها بشدة.. لقد كدت أصدر أمرا بنقلك إلى مكتبنا في (أسوان)، لولا أن طلب مني (جمال) بنفسه التجاوز عن أخطائك هذه المرة.. هذه المرة فقط.
تمتم (حسين)، غير مصدق أنه قد نجا من براثن (مراد صقر)، على الرغم من غضب هذا الأخير:
- شكرا لك يا سيدي.. شكرا لك
أشار (مراد) بكفه، هاتفا
- هيا انصرف.
استدار (حسين) في سرعة، وبدا وكأنه سيركض بكل قواه، ليغادر الحجرة كالصاروخ، قبل أن تنقلب الأمور مرة أخرى، لولا أن استوقفه (مراد) بصوته الجهوري:
- (حسين)
تجمد في مكانه، والتفت مرة أخرى إلى رئيسه، الذي صاح:
لا تنس أبدا أنني الرئيس هنا، ومن المحتم أن أوافق على كل ما يحدث.. هل تفهم؟
هز رأسه في قوة، قائلا:
- أفهم يا سيدي.. أفهم
وأسرع يغادر حجرة (مراد صقر)، وقد أدرك أن العاصفة قد مضت في سلام هذه المرة، وأن المرحلة القادمة ستكون أكثر دقة وأكثر حسما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تر (ناهد)، منذ زواجها، زوجها (فؤاد) أكثر غضبًا وثورة، مما رأته في ذلك اليوم، وهو يضرب كل شيء أمامه، ويصيح في ردهة المنزل:

- أرأيت ما يفعله شقيقك الحقير؟ أرأيت كيف يلعب ألعابه القذرة، لحرمانك من ميراث والدك؟

صاحت به (ناهد) في غضب

- لست أسمح لك بوصف أخي بالحقارة، ولا يوصف أعماله بالـ..

صرخ في وجهها:

- تسمحين لي؟! ومن قال إنك تمتلكين الحق في تنظيم أقوالى وأفعالى؟ لا يا بنة (البنهاوي).. إنك هنا لست شقيقة (حسين) بك الخطير.. أنت هنا زوجتي فحسب.

صاحت غاضبة:

- وما الذي فعله (حسين)، لتفعل كل هذا؟

لوح بذراعيه، صارخا:

- إنه حقير قذر.. لقد حاول في البداية تسجيل الأرض باسم رجل آخر للتهرب من استرداد حق شقيقاته، وبعدها أخذ يرسل بعض التقارير الزائفة الحقيرة ولتشويه سمعة أخي في المجلس، وإضعاف ناصيته.

شعرت في أعماقها بشيء من الفخر؛ لأن شقيقها نجح في كسر شوكة زوجها، فرفعت قامتها في اعتداد، وهي تقول:

- أنت الذي بدأ الحرب

صرخ:

- حرب؟! اتظنين الحرب قد بدأت بعد؟ سترين أن شقيقك المحترم لن يلبث أن يخر على ركبتيه طالبا الرحمة، عندما تبدأ الحرب

الحقيقة.
صاحت غاضبة:
- ولماذا كل هذا؟ إنني لا أريد الأرض.. سأتركها لأخي عن طيب خاطر.
ثارت ثائرته، وهو يقول:
- بل ستستعيدين ارضك.. ستستعيدينها برغم انفك..
- لقد أصبحت صراعا شخصيا اذن
اجابها في عنف:
- نعم هي كذلك. وسترون ما الذي سيفعله شقيقى بـ (حسين) هذا سيحطمه تحطيما.
تم مال نحوها بحركة حادة، مستطردا في شماتة:
- سأخبرك بأمر اردت ادخاره للوقت المناسب.. اتعلمين ما الذي سيفعله (مراد صقر) بشقيقك (حسين).. لقد احتفظ به في إدارته على الرغم منه، حتى لا يغضب (جمال عبد الناصر)، ولكنه يسعى الان للإيقاع به في فخ خاص، يثير غضب (عبد الحكيم عامر)، بحيث يضغط (عبد الحكيم) على (جمال)، ويجبره على ازاحة شقيقك عن الطريق وسترين أن لعبة (مراد) بك ستنجح، ولن يمضي وقت قصير، حتى يكون شقيقك المتغطرس ضابطا سابقا، أو ضيفا عزيزا على السجن الحربى.
قهقه ضاحكا في عصبية. في حين اتسعت عينا (ناهد) في هلع وسقط قلبها بين قدميها، وهي تهتف في لوعة باسم شقيقها..
باسم (حسين).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهت (شريفة) من عملها، وجففت كفيها بمنشفة المطبخ، وهى تقول لـ (فاطمة) في حدة، ليس لها ما يبررها:
- اين (طارق)؟
أجابتها (فاطمة) في برود:
- مع والده
قالت (شريفة) في لهجة استفزازية:
- ولماذا لا تحملينه أنت؟ انسيت أنك هنا لرعاية (حافظ)، وليس لتكليفه مهمة رعاية ابنك؟
أجابتها (فاطمة)، في شيء من الحدة
- انه ابنه أيضا
قالت (شريفة) في حدة:
- ولو.
استدارت (فاطمة) لتواجه (شريفة) بجسدها، ووضعت كفيها في وسطها، وهي تقول:
- من يسمعك يتصور أنك خير من يعرف الخطأ والصواب، يا سيدة الدار هتفت بها (شريفة) غاضبة:
- انني كذلك بالفعل
أطلقت (فاطمة) شهقة مستنكرة، وقالت:
. هكذا؟! أخبريني إذن يا (ست البنات).. أمن الصواب أن تلتقي ابنة الحسب والنسب خلسة، ب (أمجد) بك، في حديقة السراى؟
شحب وجه (شريفة) في شدة، وارتعدت أطرافها، وزاغ بصرها. وهي تقول في اضطراب عنيف:
- ماذا.. ماذا تقولين يا أبنة (عبد الحميد)؟
رفعت (فاطمة) وسطاها فوق حاجبيها، وهي تقول:
- ابنة العمدة يا (بنهاوية).. أم أنك نسيت هذا؟

اغرورقت عينا (شريفة) بدموع القهر والمرارة، وصاحت بصوت مختنق:
- كيف تجرؤين؟
أطلقت (فاطمة) ضحكة ساخرة شامتة، وقالت:
- أجرؤ على ماذا يا ابنة العفاف والكمال؟
كاد الأمر يتحول إلى مشادة كلامية عنيفة، لولا أن سمعتا صوت سيارة تتوقف أمام باب الفيلا، فهتفت (شريفة) في ارتياع:
- (حسين)؟
تألقت عينا (فاطمة)، وقالت لـ (شريفة) في سرعة:
- لا تقلقي.. لن أخبره بشيء من هذا
واندفعت تستقبل (حسين) في لهفة شديدة، وهتفت في حرارة:
- مرحبا بـ (حسين) بك.. مرحبًا وألف مرحب بك.
أدهشه استقبالها الحافل، وإن لم يمنحها أدنى اهتمام كالمعتاد، وهو يسألها:
- أين (شريفة)
أجابته وهي تضع على شفتيها ابتسامة واسعة كبيرة:
- في الداخل يا بك.. سيسعدها حضورك كثيرا
ثم امسكت سترته، مستطردة في لهفة:
- هلا خلعت سترتك.. سأحتفظ بها على مشجب خاص، فالجو يميل اليوم إلى الحرارة.
مرة أخرى أدهشته حفاوتها، وضايقه صوتها الخشن الأجش، ففضل أن يترك لها سترته، عن أن يناقشها في الأمر، وقال في خشونة:
- حذار أن تتسخ
برقت عيناها في ظفر، وهي تقول:
- لا تخش شيئا يا (حسين) بك.. سأضعها في عيني.

ثم أسرعت بالسترة إلى الداخل، هاتفة:
- عمتى (شريفة).. عمتي (شريفة).. لقد وصل (حسين) بك.
جاءت (شريفة) لاستقبال شقيقها، في حين هرعت (فاطمة) بالسترة إلى حجرتها، وراحت تفتش جيوبها في لهفة، حتى عثرت على حافظة (حسين)، و (حافظ) يسألها في قلق:
- ماذا تفعلين يا (فاطمة)؟ سترة مَن هذه؟
فتشت الحافظة في لهفة أكثر، وبرقت عيناها في ظفر، حينما عثرت على عقد مكتوب، فأسرعت به إلى زوجها، وهي تقول:
- هذه السترة هي طريقك إلى القوة يا زوجى ثم أعطته العقد، قائلة:
- اقرأ هذا، وأخبرني ما يحتويه جرت عيناه على الورقة في سرعة، وقال في دهشة
- إنه عقد بيع قطعة كبيرة من الأرض، من والدك لـ (حسين).
ثم رفع عينه إليها، مستطردا في حيرة:
- ما هذا يا (فاطمة)؟
خيل إليه أن بريق عينيها يكاد يضيء الحجرة، وهي تقول:
- هذا طريقنا إلى السيادة يا (حافظ).. السيادة التي ستمنحك إياها زوجتك.
قبل أن يسألها عما تعنيه، كانت قد غادرت حجرته، وغادرت السراى كله، وأسرعت تعدو حتى منزل والدها، واقتحمت حجرته، هاتفة:
- خذ يا أبي.. هذا هو أول طريق الخلاص ولهثت في انفعال جارف، وهي تضيف:
- الخلاص من سطوة عائلة (البنهاوي). وخفق قلبها في عنف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

56 - بداية السقوط..

تألقت عينا (إبراهيم مكى) في ظفر، وهو ينفث دخان سيجار كوبى فاخر، فوق مقعد وثير، في شقته الجديدة، الأنيقة، وابتسم ابتسامة واثقة، وهو يقول لـ (حسين):

- أرأيت ما فعله شهران فقط، من التلاعب مع شقيق (فؤاد)؟ ها هي ذي التقارير، التي ارسلناها باسم (صلاح) وباسمك، إلى (جمال) تعمل عملها، وتزعزع موقع الرجل في مجلس القيادة.

أجابه (حسين) مبتسما:

- لم يكن الأمر عسيرا للغاية، فأخطاء الرجل عديدة بالفعل.. يكفي استيلاؤه على ذلك القصر على النيل، وعلى بعض مجوهرات أسرة (محمد على)، وتلك التحف واللوحات، التي تملا فيلته الجديدة في (المعمورة)، وأنت تعلم أن (جمال) يكره هذه الأفعال، ويرفض تماما أسلوب القرصنة هذا.

نفث (إبراهيم) دخان سيجارته، وقال:

- من حسن حظنا أنه ليس كل رجال المجلس كـ (جمال)، وإلا فما وجد أمثالنا عملا في هذا البلد.

ضحك الاثنان للعبارة، وهز (حسين) رأسه، وهو يقول:

- إنه رجل شريف، ما في ذلك شك، ولكن أفكاره تبدو لي أحيانا شديدة الجنون.. أتعلم أن بعض المعلومات قد وصلت، عن انسحاب (بريطانيا) من تمويل مشروع (السد العالى)، فلم يكن من (جمال) إلا أن طرح علينا فكرة تأميم (قناة السويس)، وطلب منا دراستها، وإفادته بالتقرير اللازم.

غمغم (إبراهيم) مبهورا:

- يا إلهي!!

بدا شاردا بعدها لحظات، حتى سأله (حسين):

- فيم تفكر؟
أجابه بنفس الشرود:
- فيما يمكن أن تسفر عنه المأمور، لو أقدم الرجل على تأميم القناة بالفعل.
هز (حسين) كتفيه، وقال:
- وما الذي يمكن أن يحدث؟ بعض الغضب والاحتجاجات، ثم يقبل العالم الأمر، وتعود المياه إلى مجاريها..
مط (إبراهيم) شفتيه، وقال:
- لا يا رجل.. لن تكون الأمور بهذه البساطة، فتأميم القناة سيكون أكبر صفعة على وجه (انجلترا) و (فرنسا)، ولن يقبل (إيدن) بهذا في (بريطانيا)، وسيبذل أقصى جهده لاستغلال الموقف، وإقناع (فرنسا) بمشاركته الهجوم على (مصر)، وإعادة احتلالها، بإسم المحافظة على مصالح (أوروبا)، في قناة (السويس).
ضحك (حسين)، وقال:
- لا.. لست أظن الأمر يصل إلى هذا الحد ثم جلس على المقعد المقابل لـ (إبراهيم)، وهو يستطرد في اهتمام
- ولكن أخبرني.. هل سنستمر في لعبة التقارير هذه إلى الأبد؟
هز (ابراهيم) رأسه نفيا، وقال:
- كلا بالطبع.. إننا بهذه التقارير نربك الخصم فحسب، وبعدها تأتي مرحلة القضاء عليه
سأله في لهفة:
- ومتي تأتي هذه المرحلة؟
سحب (إبراهيم) نفسا عميقا من سيجارته، وقال:
- مع حل مجلس قيادة الثورة.
عقد (حسين) حاجبيه، وهو يسأله
- أتظنهم سيحلونه بالفعل؟

أومأ برأسه إيجابا، وقال:
- نعم.. في الذكرى الثالثة لقيام الجمهورية، كما سبق أن أعلنوا
تراجع (حسين) متمتما:
- لم أعد أومن كثيرا بما يعلنونه.
ساد الصمت بعض الوقت في المكان، وكأنما فرغ كل منهم مما لديه، حتى قال (إبراهيم) في هدوء، لا يخفى اهتمامه:
- كيف حال علاقتك بـ (مراد صقر) هذه الأيام؟
تنهد (حسين)، وقال:
. لست أدري.. إنه يناصبني العداء علانية، ولكنني أشعر أنه يخفى لي الكثير، فلقد أسند إلى مهمة قذرة، أكره مجرد التفكير فيها، ولكنني مضطر لتنفيذها، وإن كنت أخشى عواقبها.
ابتسم (إبراهيم)، قائلا:
- نفذها يا رجل، ولا تخش شيئا، فاشتراكك مع رجل مثل (مراد صقر)، في مهمة قذرة، يجعل الإطاحة بك أكثر صعوبة.
قال (حسين) في ضيق:
- ولكن هذه المهمة تتنافى مع أخلاقي وعقائدي.
أطلق (إبراهيم) ضحكة عالية، تجمع ما بين السخرية والاستهتار، قبل أن يقول:
. عجبًا! ألم تتعلم أن تترك هذه الأشياء خارجا، وأنت تدخل الجهاز يا رجل؟
تطلع إليه (حسين) لحظات في صمت، ثم قال:
- أتعلم.. لو أن الأمر بيدى، لأعدتك فورا إلى منصبك بالجهاز، فأنت خير من يعمل في مجالنا يا رجل، وكم يدهشني أننا لم نتصادق من قبل.
ابتسم (إبراهيم) ابتسامة واسعة، وقال:

- لا تقلق يا صديقي.. سأعود حتما يوما ما ونفث دخان سيجاره في عمق، وهو يستطرد:
- وربما قريبًا..
قريبًا جدا
والتمعت في عينيه تلك النظرة، التي طالما أثارت رجفة باردة، في جسد (حسين)
نظرة الذئب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت (سوسن) منزلها بادية المرح، وارتسمت على شفتيها ابتسامة واسعة، وهي تهتف بأمها:
- مساء الخير يا أجمل أم.
طبعت على خد أمها قبلة، استقبلتها أمها بهمهمة غير مفهومة، ولكن (سوسن) لم تنتبه إلى ضيق أمها، وهي تنتقل إلى أبيها، هاتفة:
- كيف حال أعظم الآباء؟
همت بالانحناء لتقبيله، ولكنه أستوقفها بيده في رفق، وهو يقول في حزم، يحمل في جنباته بعض الضيق:
- أريد أن أتحدث إليك يا (سوسن).
انتبهت في هذه اللحظة فقط، إلى ذلك الوجوم. على وجهي والديها، فتلاشت ابتسامتها، وهي تجلس إلى جوار والدها، متمتمه
- ماذا هناك؟
أجابها صمت مطبق من والديها، وهما يتبادلان نظرة باهتة حرجة. قبل أن تقول والدتها في ارتباك:
- كيف حال (مفيد)؟

أدركت - عندئذ - سر التوتر والوجوم، فتنحنحت في حرج، وقالت:
- بخير.. سيأتي لزيارتكما قريبا، وقاطعها والدها:
- لو أراد زيارتنا لفعل يا (سوسن)
شحب وجهها، وهي تقول:
- ما الذي يعنيه هذا القول؟
بدا أن والدها قد حسم أمره، وقرر مواجهتها، وهو يقول في صرامة، لم تعتدها منه أبدا:
- اسمعي يا (سوسن).. عندما حضر(مفيد) لزيارتك هنا، فهمت سر مرضك وحزنك، ولم أعارض في وجوده، وفي سفركما معا، مفترضا أنك شابة مهذبة مؤمنة، لن تخالف تعاليم دينها، وتقاليد مجتمعها أبدا، وأنه كذلك شاب مهذب، من أسرة طيبة، لم يحاول الالتفاف حول الأمور او العبث بمشاعرك، ولكن معلوماتى عنه تقول: إنه لا يفتقر إلى المال اللازم للزواج، فلماذا لم يتقدم لخطبتك، بعد كل هذا الوقت؟
جف لعابها في شدة، حتى أنها وجدت صعوبة في النطق، وهي تقول:
- هل أطلب منه هذا؟
أجابها في حزم:
- بل تمتنعين عن مقابلته، لو لم يطلب هو هذا.
شحب وجهها أكثر وأكثر، وهي تقول
- أمتنع عن مقابلته؟!
قال والدها في غضب واضح:
- نعم يا (سوسن).. تمتنعين عن مقابلته، من أجل سمعتك وكرامتك.
واكتسي صوته بصرامة شديدة، وهو يضيف:

- هيا يا (سوسن).. أريد وعدا منك بهذا.
انكمشت في مقعدها في شدة، وخيل إليها أن قبضة باردة قاسية تعتصر قلبها..
كيف تمتنع عن مقابلة (مفيد)؟ كيف تمتنع عن رؤية الانسان الوحيد، الذي أحبته في الدنيا كلها؟ الموت أفضل لها من هذا وفي حزم، قال والدها:
- أريد وعدا يا (سوسن).
خفت صوتها، واكتسى بدموعها، وهي تقول:
- امنحني يوما واحدا يا أبي
قال في ضيق:
- وبعدها؟
انتقلت الدموع من صوتها إلى عينيها، وهي تقول:
- وبعدها أعدك أن أمتنع عن مقابلة (مفيد)، لو لم يتقدم لطلب يدي.
وتركت دموعها تنهمر في غزارة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعرت (توحيده) في ذلك المساء، أن زوجها (عبد الحكيم) ليس على ما يرام، منذ عاد إلى منزله، إذ تفادي التحدث إليها طوال الوقت وانتحى ركنا من شرفة المنزل، يدخن سجائره واحدة بعد الأخرى، وينفث الدخان في قوة، وهو يتطلع إلى الحقول الواسعة، التي أضاءها القمر فبدت كعيدان من الفضة، تتمايل مع هبات النسيم، فانتظرت (توحيده) حتى أطعمت طفلها (عماد)، وأرضعت (وحيد)، ثم وضعت الصغيرين في فراشهما، وذهبت إلى زوجها في الشرفة، وسألته:
- ماذا بك يا (عبده)؟

تطلع اليها لحظة في صمت، ثم نفث دخان سيجارته، وقال وهو يعاود التطلع إلى الحقول:
- أمر ما يقلقني. جذبت مقعدا، وجلست إلى جواره، قائلة:
- أخبرني ما يقلقك.. إنني زوجتك
جذب آخر أنفاس سيجارته، وألقاها وسط المزروعات، وتطلع لحظات إلى التبغ المشتعل، قبل أن يقول:
- لست أدري ما إذا كان الأفضل أن أخبرك به، أم
قالت في لهفة:
- أخبرني به يا (عبده).. لا تتردد.. أنا زوجتك وكاتمة أسرارك
بدا لحظات وكأنه يدرس الأمر في عقله جيدا، ثم التفت إليها، قائلا
- أتعدينني - لو أخبرتك - ألا تخبري (حسين) شيئا عن الأمر، حتى اتأكد منه؟
تراجعت مغمغمه في دهشة:
- وما شأن (حسين) بالأمر؟
قال في صرامة:
- أتعدينني؟
ترددت لحظة، ثم قالت:
- نعم يا (عبد الحكيم).. أعدك
تنهد في عمق، وفرك ذقنه براحته، ثم قال:
- أتعرفين (شوقى)؟ زميل دراستي القديم، الذي يعمل في الشهر العقاري.. أتعرفينه؟
أجابته في اهتمام:
- نعم أعرفه.. ماذا عنه؟
تردد لحظة أخرى، ثم قال:
أخبرني اليوم أن (عبد الحميد)، والد (فاطمة)، كان هناك منذ أسبوعين.. في الشهر العقاري.

سألته في دهشة:
- وما الذي كان يفعله هناك؟
أجابها في خفوت، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد.. كان يسجل أرض زراعية، باسم (حافظ). تراجعت أكثر، هاتفة:
- (حافظ)؟! وهل يمتلك (عبد الحميد) أرضا زراعية، سوى تلك القراريط، التي منحه إياها (حسين)، ليمكنه الترشيح للعمودية؟
تلقت (عبد الحكيم) حوله في قلق، وقال:
. لست أقصد هذه القراريط المحدودة، فقد كان يسجل أرض (البنهاوي) كلها، مائتى فدان دفعة واحدة.
صاحت في ذعر:
- ماذا؟!
هتف بها:
- لا ترفعي صوتك
خفضت صوتها، وهي تقول في انفعال:
- ومن أين له (عبد الحميد) بأرض أبي
هز كتفيه، وقال:
- لست أدري.. سأتأكد من الأمر غدا
قالت في حدة، وهي تهز رأسها في قوة:
- ستجد أن صديقك هذا واهما حتما.. من المستحيل أن تصل أرضنا إلى (عبد الحميد)!. مستحيل!
ولكن قلبها كان ينبض في عنف
وفي خوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تضرج وجه (سوسن) بحمرة خجل قانية، وانخفضت عيناها في حياء، وهي تقول لـ (مفيد)، الذي يستمع اليها في انتباه:
- هذا ما قاله والدي بالضبط.. أقسم لك انني لم..
قاطعها بلمسة حانية من أصابعه، وهو يقول:
- لا تقسمى ثم ابتسم في حب، مستطردا:
- أظن أنه لم يعد أمامنا سوى أن ننفذ رغبة والدك.. اليس كذلك؟
سألته في انفعال:
- ماذا تعني؟
ابتسم قائلا:
- وما الذي تتصورين أنني أعنيه؟ أن أتقدم لطلب يدك من والدك بالطبع
لم تصدق أذنيها، وهو يستقبل الأمر بهذه البساطة..
لم تصدق نفسها، حتى وجدته يجلس أمام والدها، في حجرة الصالون، في منزلها بـ (طنطا)، ويتحدث إليه بصراحته وبساطته المعهودتين قائلا:
- بالطبع كان هدفي من الارتباط بـ (سوسن) شريفا يا عماه، ولكنني كنت أنتظر - في الواقع - الوقت المناسب للتقدم اليك، طالبًا يدها.
سأله والدها، وهو يحاول إخفاء فرحته:
- وهل حان الوقت المناسب يا ولدي؟
أدهشه أن أجابه (مفيد) في صراحة:
- لا يا عمي.. لم يحن بعد.
ضربت أم (سوسن) صدرها براحتها، وهي تستمع إليه من الحجرة المجاورة خلسة، في حين شحب وجه (سوسن)، التي تقف إلى جوار أمها، وقال الوالد في دهشة:
- ماذا تعني يا ولدي؟

أجابه (مفيد):
- أرجو ألا تخطيء فهمي يا عماه، فصحيح أن أسرتى ثرية، وأننى أحصل على إيراد جيد. من ميراث والدي، ولكن هذا لم يكن في نظري أبدا مناسبًا للزواج، وإلا ما بذلت كل هذا الجهد، للحصول على وظيفة في (القاهرة).. الوقت المناسب في رأيي، هو عندما أجد وظيفة دائمة مناسبة
سأله والد (سوسن) في تردد:
وماذا عن وظيفتك الحالية؟
أجابه على الفور:
- لا.. ليس هذا هو المستقبل، الذي أطمح إليه.. إنني أواصل البحث عن وظيفة، أو عمل له مستقبل مضمون، وعندما أعثر على هذه الوظيفة، أو هذا العمل، سأعتبر نفسي أهلا للزواج من الأنسة (سوسن).
لم يجد الوالد ما يقوله، فهمهم بعبارات مبهمة، ابتسم لها (مفيد)، وقال:
- وأنا أقترح أن نقرأ الفاتحة الأن.
ارتبك الأب، وهو يقول:
- الواقع يا ولدي أن التقاليد تحتم وجود أسرتك، و.
قاطعه (مفيد) في لهجة مهذبة:
- إنني أطلب مهلة قصيرة يا عمي.. أطلب شهرا وبضعة أيام، حتى منتصف يوليو، وأعدك أن يتم كل شيء على النحو الذي يرضيك، في هذا الموعد بالتحديد.
صمت الأب لحظات، خيل إليه خلالها أنه يكاد يسمع أنفاس ابنته اللاهثة، من الحجرة المجاورة، قبل أن يبتسم، قائلا في طيبة واضحة:
- لا بأس يا ولدي.. إنني أوافق.

وانطلقت زغرودة أم (سوسن).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

57 – التشفي..

انعقد حاجبا (فؤاد) في شدة، وهتف في غضب. وهو يواجه (حسين)، في ردهة منزله:

- أتجد في نفسك الصفاقة الكافية، لتأتي إلى هنا؟

ابتسم (حسين) في سخرية، وهتفت (ناهد) في غضب

- (فؤاد).. كيف تجرؤ؟

صاح (فؤاد) ثائرا:

- ألا تفهمين؟ كيف يمكنني أن أستقبله هنا، بعد كل ما فعله بأخي؟

واجهه (حسين) في سخرية شديدة، وهو يقول:

- أخوك؟! يبدو أنك لا تتابع أخبار بلدك يا عزيزى (فؤاد).. إننا في الخامس والعشرين من يونيو، عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين. ألا تدرك ما يعنيه هذا التاريخ؟

صاح به (فؤاد):

- اخرج من بيتى.

ولكن (حسين) تجاهله، واتخذ لنفسه أفضل مقاعد المنزل مجلسا ولو يتابع:

- لقد تم حل مجلس الثورة يا عزيزى، وتم انتخاب (جمال عبد الناصر) اليوم، رئيسا للجمهورية المصرية.

صاح (فؤاد) في ثورة:

- أعلم هذا أيها المتعالي ويا سارق ميراث شقيقاتك، ولكنك لا تفهم:

- بيان حلّ مجلس قيادة الثورة لا يعني ضياع سطوة أفراده.. وستتأكد من هذا، عندما ترى ما سيفعله بك شقيقي.

أطلق (حسين) ضحكة ساخرة عالية، وقال:

- أتظنني ساذجا إلى هذا الحد يا رجل.. أتظنني أترك عملى وأحضر إلى هنا، لمجرد أنهم قد حلوا مجلس قيادة الثورة؟ لا يا عزيزي.. الأمر يفوق هذا بكثير.. ثم انعقد حاجباه، وهو يقول في صرامة: - - لقد صدر أمر بتحديد إقامة شقيقك يا (فؤاد) بك.
شهقت (ناهد)، وامتقع وجه (فؤاد)، وهو يحدق في وجه (حسين) في ذهول، في حين تابع (حسين)، في تشف واضح:
- الرئيس (جمال عبد الناصر) شعر بخطورة ما يفعله شقيقك، من انتهاكات للمال العام والتقاليد الاجتماعية، فأصدر أمرا بتحديد إقامته وكلفني (مراد) بك بنفسه تنفيذ هذا الأمر، ولقد انتهيت من اتخاذ الإجراءات اللازمة منذ قليل، وأتيت لأبلغك الخبر بنفسي.
وازداد امتقاع وجه (فؤاد)، وأنهار فوق أول مقعد صادفه، دون أن ينبس ببنت شفة، في حين هتفت (ناهد) في ارتياع:
وهل يمس هذا (فؤاد)؟
أجابها (حسين)، وهو يرمق (فؤاد) بنظرة صارمة:
- يمكن أن يفصله من الجيش
اتسعت عينا (فؤاد) في هلع، وقال:
- لا.. لا يا (حسين) بك.. أرجوك.
رمقه (حسين) بنظرة أخرى صارمة، وهو يقول:

- هذا يتوقف عليك.

ردد (فؤاد) في انهيار:

- أرجوك

كانت شماتة (حسين) واضحة جلية، وهو ينهض قائلا:

- اطمئن يا رجل، ولا تبك هكذا كالنساء.. إنني لن أوذي أبدا زوج شقيقتي.

ردد (فواد)، في صوت متهدج:
- شكرا لك.. شكرا لك
أضاف (حسين) في حزم:
- لن أوذيه، ما دمت راضيا عنه، ومادام لا يتدخل فيما لا يعنيه
ثم ألقي نظرة على (ناهد)، وأضاف:
- ويسعد شقيقتي
ردد (فواد) في انهيار:
- سأفعل.. سأفعل كل ما تطلب
لم يكن (حسين) يتوقع انهيارا سريعا على هذا النحو، إلا أن ما حدث. راق له كثيرا، فرفع رأسه في شموخ، وقال:
- وينبغي أن تتعلم الدرس يا صديقي.. من الخطر ان تحاول مقاتلة آل (البنهاوي).. هل تفهم؟
وغادر المنزل، دون كلمة إضافية واحدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ومن الخطأ أن يستغرق وقتا طويلا، قبل أن يضرب ضربته
قالها (إبراهيم مكى) في هدوء، فابتسم (حسين)، وقال:
- لن يجد ما يكفي من الوقت، ليستوعب هذا الدرس الأخير
مال (إبراهيم) نحوه، وقال:
- المهم أن تتعلمه أنت.
مال (حسين) نحوه بدوره، وهو يسأله – كيف؟
سأله (إبراهيم):
- هل سجلت كل أحاديثك مع (مراد صقر)، كما طلبت منك؟ أجابه (حسين):

- نعم.. سجلتها كلها، دون أن يشعر (مراد) بك بهذا، ولكن لماذا طلبت مني ذلك؟
تراجع (إبراهيم)، وهو يقول:
- لأن (مراد صقر) ليس رجلا سهلا، وهو لا يغفر لأحد قط، والمهمة التي كلفك إياها قذرة بالفعل، ولا تشبه - من قريب أو بعيد - الأعمال المألوفة في عالمنا.. ثم ان تلك الممثلة التي تدور حولها المهمة، قريبة للغاية من (عبد الحكيم عامر) شخصيا، وهذا يدعو للشك.
سأله (حسين) في قلق:
- ما الذي تتصور أنه يسعي اليه؟
هز(إبراهيم) رأسه، وقال:
لست أدري، ولكن ينبغي أن تتخذ جانب الحذر
أومأ (حسين) برأسه، مغمغما:
- بالطبع
ثم تطلع إلى (إبراهيم) في إعجاب، وهو يتراجع في مقعده بدوره، وقال:
- من العجيب أن أصبحنا بكل هذا القرب يا (ابراهيم)، بعد كل ما حدث بيننا في الماضي.
ابتسم (إبراهيم) في خبث، وهو يقول:
- لست أذكر الماضي عادة.. كل ما أراه هو المستقبل فحسب.
قفزت فجأة عبارة قديمة إلى رأس (حسين)، وهو يجلس هكذا أمام (إبراهيم)، في شقته هو في (جاردن سيتي).. تلك الشقة التي انتزعها منه (إبراهيم) يوما، ثم استعادها هو منه، عندما اعتقله..
عبارة قالتها الأميرة (عايدة)، في نفس الشقة قالت: إن (إبراهيم) لا يسعى لتدميره، بل للسيطرة عليه والآن يسأل نفسه السؤال ذاته، ولكن على نحو يناسب الموقف الحالي.

هل يسعى (ابراهيم) لخدمته؟ أم للسيطرة عليه...
دار السؤال في رأسه لحظات، ثم لم يلبث أن طرحه جانبا، وصورة (عايدة) تحتل المكان الأكبر في ذهنه، قبل أن يقول في اهتمام:
. أتذكر (عايدة)؟
أجابه (إبراهيم) في هدوء، دون أن يلتفت إليه:
- الأميرة (عايدة)؟! إنني أذكرها بالطبع.. ما الذي جعلك تتذكرها الان؟
قال (حسين)، والضيق يبدو واضحا في نبراته:
- لقد حاولت إعادتها لـ (مصر)، انتقاما منها، ولكنني فشلت
التفت إليه (إبراهيم) في اهتمام، وهو يقول:
- وكيف حاولت هذا؟
شرح له (حسين) الخطة كلها، التي نفذها (صلاح)، واستمع إليه (إبراهيم) جيدا، ثم ابتسم قائلا:
- يا للعجب! إنك تلجأ إلى الأساليب المباشرة، عندما تدعو الحاجة إلى التلاعب، ثم تدعو إلى التلاعب، عندما يحتاج الأمر إلى عمل مباشر.
سأله (حسين) في اهتمام بالغ:
- ماذا تعني؟
هم (إبراهيم) بشرح خطته، عندما ارتفع رنين جرس الباب، فهتف (حسين) بخادمه في توتر:
- افتح الباب ثم التفت إلى (إبراهيم) يكرر:
- هيا.. أخبرني ماذا تعني؟
ولكن (إبراهيم) تطلع إلى القادم، وغمغم:
- أظننا سنضطر لتأجيل هذا لما بعد

التفت (حسين) إلى القادم، وهتف في سعادة حقيقية. (مفيد).. أهلا بك يا شقيقي العزيز.
نهض يصافح (مفيد).. ويعانقه في حرارة، ثم قدمه إلى (إبراهيم)، قائلا:
- شقيقى (مفيد).. لقد تقابلتما من قبل.. أليس كذلك؟
ابتسم (ابراهيم) في غموض، وقال:
- بلى.
في حين تطلع (مفيد) إلى (إبراهيم)، في مزيج من الدهشة والحيرة..
كان يذكره بالطبع
يذكر ذلك اليوم، الذي أتى فيه (إبراهيم) إلى السراى، ليعتقل (حسين) ووالده..
واليوم الذي أتى لتقديم العزاء في وفاة الحاج (محمد البنهاوي)...
وللمرة الثانية، يسأل نفسه، عن سر العلاقة التي تربط (حسين) بـ (إبراهيم مكى)..

وللمرة الثانية أيضا، لا يعلن تساؤله هذا، بل يصافح (إبراهيم) في جدية مضيفا:
- نعم.. لقد التقينا من قبل
دعاه (حسين) للجلوس، وهو يقول في حماس:
وستتناول طعام الغذاء معي بالطبع
غمغم (مفيد):
- لا بأس
أما (ابراهيم)، فقد ابتسم بنفس الغموض، وهو يسأل (مفيد):
- أما زلت تمثل جبهة المعارضة في الأسرة؟
هز (مفيد) كتفيه، وقال:

- لا.. لم يعد هناك ما يدعو للمعارضة، فكل شيء يسير على ما يرام، إلى حد كبير، إعلان الحياد الايجابي، وانسحاب الانجليز من مبني البحرية في (بورسعيد)، كآخر موطئ لهم في (مصر)، وحل مجلس قيادة الثورة، وانتخاب الرئيس (جمال عبد الناصر)، والسير قدما في مشروع السد العالي.. كلها أمور تبشر بالخير، فيما عدا..

بتر عبارته بغتة..

فسأله (إبراهيم) في اهتمام:

- فيما عدا ماذا

تردد لحظة، ثم اندفع قائلا:

- فيما عدا تلك الترقيات الاستثنائية، لـ (عبد الحكيم عامر)، و.

قاطعه (حسين) في قلق:

- لسنا هنا لمناقشة الأمور السياسية.. أليس كذلك؟

تراجع (مفيد) عن اندفاعه، وهو يقول

- بلى، لسنا هنا لذلك

ربت (حسين) على ركبة شقيقه، وسأله في اهتمام:

- كيف حالك، وكيف حال الجميع في القرية؟

أجابه في اقتضاب:

- كلهم بخير، ولكنني أردت مقابلتك لـ..

تردد في ذكر السبب، فتنحنح (إبراهيم)، قائلا:

- أظن أنه من الأفضل أن أنصرف ولكن (مفيد) أسرع يقول:

- لا.. الأمر ليس سرا. وقبل أن يفقد اندفاعته وسرعته، تابع

- أريد التقدم لخطبة فتاة

ابتسم (إبراهيم)، وتهللت أسارير (حسين)، وهو يقول:

- مبارك يا (مفيد).. مبارك يا شقيقي العزيز.. من هي؟ ابنة من بالقرية.

أجابه في سرعة:
- إنها ليست من القرية.. بل من (طنطا)، ووالدها مدرس بمدرسة. (الرافعي) الثانوية، وأمها ربة منزل، و.
قاطعه (حسين) ضاحكا:
- لا بأس.. لا بأس.. إنني أوافق
ثم مال نحوه، مستطردا:
- متى تحب أن نقابل والدها، لخطبتها؟
بدا الارتياح على وجه (مفيد)، وهو يقول:
- اليوم السابع من يوليو، ولقد وعدتها بالتقدم لخطبتها، قبل منتصف الشهر.
أطلق (حسين) ضحكة مرحة، وربت على كتف شقيقه، هاتفا:
- فليكن.. سنخطبها في الموعد تماما وكانت أول مرة يقوم فيها (حسين) بعمل طيب.. من وجهة نظر (مفيد) على الأقل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انعقد حاجبا الأميرة (عايدة) في غضب، وهى تندفع إلى قاعة المعيشة، في قصر الفرنسي (جان)، هاتفة:
- إلى متى تعتبرني - مجرد صبية عابثة، لابد من وضعها تحت المراقبة يا (جان)؟
أجابها صديقها الفرنسي في حدة:
- ومن قال إنني أعتبرك كذلك؟ هؤلاء الرجال لحراستك، وليس لمراقبتك أنسيت ما حاول المصريون فعله معك؟ ألم يحاولوا اختطافك سابقا؟
ضربت مسند المقعد بقبضتها، وهي تهتف غاضبة:

- وهل قررت أن تضعني في سجن داخلى، حتى لا يمكنهم نقلي إلى سجن خارجى؟
كرر في صرامة
- هؤلاء الرجال لحمايتك
زفرت في غضب، ولوحت بذراعها، هاتفة:
- ولكنك تحيطني بحراسة تفوق ما يحيط ب (ديجول) نفسه المصريون لن يجندوا جيشا لاختطافي.
قال في حدة:
- من بدري؟
لوحت في وجهه بسبابتها، وهي تقول في صرامة:
- اسمع يا (جان).. إنني أرفض أسلوبك هذا، حتى ولو كان الهدف هو حمايتى وحراستي، ولن أقبل بعد اليوم بتلك الفرقة المسلحة، التي تتبعني أينما ذهبت، وسأكتفي بحارس واحد، أو أغادر هذا المكان بغير رجعة.
قال في غضب:
- أتهدديننـي؟
قالت في حدة:
- نعم.. أهددك.
مضت لحظة صارمة، وكلاهما يتطلع إلى عيني الآخر في غضب، ثم لم يلبث (جان) أن قال في عصبية:
. فليكن يا (عايدة).. سنكتفي بحارس واحد، ولكنك ستتحملين نتائج ما يمكن أن يحدث.
أسعدها انتصارها هذا، فرفعت أنفها في شموخ، وهي تقول في صلابة:
- اتفقنا

ولم تكن تدري لحظتها، أن هذا الانتصار القصير هو بداية هزيمة مفجعة، لن تلبث أن تورثها الندم.
أشد الندم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

58 – الانبهار..

من المؤكد أن كل من عرف (حسين البنهاوي) سيصاب بحيرة بالغة. وهو يحاول تحليل شخصيته، بعد ما حدث في ذلك اليوم، الذي تمت فيه خطبة (مفيد) و (سوسن)..

لقد التقي بوالد (سوسن)، قبل هذا بأربعة أيام، وكان ودودا بشوشا طيلة الوقت، ووافق على كل مطالب الرجل دون اعتراض، بل وأضاف استعداده لتحمل كل نفقات حفل الخطبة، كهدية شخصية منه للعروس.

وشعر (مقيد) بامتنان شديد لشقيقه، في ذلك اليوم، وفي يوم الخطبة، وان أدهشه ذلك الجانب، الذي لم ينتبه إليه من قبل، في شخصية (حسين).

كان شقيقه سخيا، كريما، يحمل لأسرته ولاسم (البنهاوي)، كل الفخر والاعتزاز، ولا يتردد في منحهم كل ما يمكنه من سعادة، ولكن بشرط واحد.

الا يتعارض هذا مع تقدمه وطموحه. وكان يميل كثيرا إلى الزهو، وإلى استعراض القوة وهذا ما بدا واضحا في يوم الخطبة.

لقد اكتظ منزل (سوسن) بباقات الورود الجميلة، التي تحمل كل منها بطاقة انيقة، باسم واحد من الرجال، التي ترتجف لذكرهم القلوب، في ذلك العهد، حتى أن أم (سوسن) قررت جمع كل هذه البطاقات والاحتفاظ بها، لعرضها على الأقارب والمعارف فيما بعد، والتباهي بذلك النسب المشرف، على حد ظنها.

ولقد ازدان الطريق كله بالمصابيح، وحضر (حسين) مع (صلاح) و(أمجد)، في سيارة سوداء كبيرة، احتبست لها الأنفاس في رهبة وحضر بعده كل أفراد عائلة (البنهاوي)، وعلى الأخص ازواج نساء العائلة

حتى (عمر)...
لم يكن حضوره خوفا من (حسين) هذه المرة، وإنما حبًا لـ (مفيد). الذي يصعب أن يكرهه أي شخص ممن يعرفونه، لدماثة خلقه، وحسن معاشرته للجميع.
ولم يتخلف كالمعتاد سوى (حافظ) و (فاطمة). و (عبد الحميد).
والعجيب أن (مفيد) لم ينتبه إلى غيابهم هذه المرة، أو أنه لم يشأ إفساد ليلة خطبته، بالسؤال عن شقيقه وزوجته، والإصرار على حضورهما، واكتفى بطبع قبلة على خد (طارق)، الذي حملته عمته شريفة) في زهو، وكأنها تحمل ابنها
وامتلات نفس والد (سوسن) بالفخر والسعادة، وهو يستقبل انسباءه الجدد. وان لم تبلغ سعادته ربع سعادة (سوسن) نفسها. التي حظيت، في هذه الليلة بكل ما تحلم به.
فازت بـ (مفيد).. وبعائلة تحسدها عليها كل فتيات الحي.
ووسط حفل الخطبة، بكل ما شمله من مرح وسعادة، مال (فؤاد) على أذن (ناهد)، وهمس في شيء من العصبية:
- ماذا أصاب شقيقك الليلة؟ إنه يبدو سعيدا هاشا باشا، على نحو لم اعهده فيه قط؟
أجابته في صوت يحمل رنة غضب وعتاب
- (حسين) حنون، وهو يحب (مفيد).
قال ساخرا:
- حنون ويحب (مفيد)! أواثقة أنت من أنك تتحدثين عن (حسين البنهاوي)؟
انعقد حاجباها في ضيق، وقالت:
- اصمت يا (فؤاد)، ودع الليلة تمضي على خير
تجاهل عبارتها، وهو يتابع، بنفس السخرية المريرة:

- اليس (حسين) هذا هو من حرم (مفيد) من حبيبته (مديحة) فيما مضى؟
أرادت أن تتجاهل قوله، ولكنها وجدت نفسها تقول في حدة:
- كان يفعل ما يراه صوابا
قال في صوت مرتفع:
- طبعًا.
ثم خفض صوته، مستطردا:
- أينطبق هذا أيضا على ما فعله بالعمدة السابق، ومأمور الناحية؟
قاطعته في عصبية:
- كفي يا (فؤاد).. قلت لك لا تفسد الليلة.. وعلى أية حال، سأتركك وحدك هنا.
وابتعدت عنه في ضيق، واختلطت بمعازيم الحفل، وهي تلقي نظرة بعيدة على (نعيمة) و (عمر)، قبل أن تتابع بعض الأغنيات المرحة التي ينطلق بها شباب الحى.
وفي هذه اللحظة كان (عمر) يقول لـ (نعيمة):
- ابن حلال هو شقيقك (مفيد) هذا.. إنه يختلف عنكم جميعا سألته مبتسمة
- فيم؟
أجابها في صراحة مباشرة:
- إنه يحب الحق
ضايقها أن يشير إلى هذا الأمر، في مناسبة جميلة كهذه، فغمغمت
- أه.. ربما.
قال في صرامة
- ليس ربما.. إنه بالفعل يختلف عنكم جميعا، في هذه النقطة.
قالت في توتر وضيق
- حسنا.. حسنا يا (عمر).. أنت على حق.

وقررت ألا تناقشه في الأمر، حفاظا على جو المكان. فالتفتت إلى شقيقتها (شريفة)، التي تقف إلى جوارها، وغمغمت:
- (مفيد) متألق كالبدر الليلة، أليس كذلك؟
أومأت (شريفة) برأسها ايجابا، وان لم تسمع حرفا واحدا، مما نطقت به أختها، فقد كان قلبها متعلقا بعينيها، اللتين تختلسان النظر طوال الوقت إلى عينى (أمجد)، وتتبادلان معه حديث لوعة طويل..
إنهما لم يلتقيا، منذ ذلك اليوم، الذي واجهتها فيه (فاطمة) بمعرفة امرها..
والشوق يلهب قلبها إليه. صورته لا تفارق خيالها قط قلبها يفيض لهفة اليه
ثم إنها تجهل ما فعل، منذ آخر لقاء لهما هل تحدث مع (حسين) مرة أخرى، بشأن زواجهما؟
أم أنه خشى مواجهته. واكتفى بكتمان حبهما في قلبه. والتلظى بنيران شوقهما الملتهبة؟
وهو أيضا كان يلتهب شوقا إليها...
ولكنه لم يكن يجد الوقت المناسب للقائها، والتحدث معها، أو لمفاتحة شقيقها مرة أخرى، في شأن زواجهما..
وها هو ذا، يرتجف في لوعة ولهفة إليها، وهي تقف على قيد أمتار منه، دون أن يملك إلا تبادل النظرات معها.
تلك النظرات التي انتبه إليها (صلاح)، وتابعها بدوره خلسة، وهو يدرسها في خبث..
الآن أدرك أنه توجد علاقة ما، بين (أمجد) وشقيقة (حسين)..
وكالمعتاد، اختزن هذه المعلومة في أعماقه، ليرجع إليها وقت الحاجة، والتفت الى رئيسه (حسن)، الذي بدا منهمكا في حديث باسم مع والد (سوسن)، وهو يقول له في حماس:

- عام واحد يكفي للخطبة.. لا يوجد ما يدعو للانتظار أكثر من هذا ستدفع المهر الذي يليق بمقام العروس، ويمكنهما الاقامة في السراى، أو هنا في (طنطا)، أو حتى في (القاهرة) لو ارادا سأحضر لهما شقة مناسبة. في أي مكان يرغبانه..

غمغم والد (سوسن):

- على بركة الله.. على بركة الله

وإلى جوارهما، مالت (توحيده) على أذن (عبد الحكيم)، هامسة

- هل نخبره؟

لكزها زوجها بمرفقه، قائلا في حزم:

- الموقف لا يناسب هذا

همست في انفعال:

- وماذا ستنتظر؟ أنصمت حتى نجد الأرض في يد (فاطمة)، ابنة خادمنا

أجابها في صرامة معاتبة:

- لقد انتظرنا طويلا بالفعل، ولن يضيرك انتظار يوم آخر، ثم إن (فاطمة) ابنة العمدة الان.

هتفت مستنكرة:

- عمدة!! عمدة العار والندامة.. أنسيت أن (حسين) هو الذي..

قاطعها في صرامة:

- كفى.. ليس هذا وقت الحديث عن ذلك.

صمتت على الرغم منها، وهي تشعر بالكثير من الغيظ في أعماقها، واكتفت بمصمصة شفتيها، كل لحظة وأخرى، والتطلع إلى شقيقها (مفيد)، وهو يجلس إلى جوار (سوسن)، وكلاهما يحمل على وجهه ابتسامة كبيرة سعيدة.

وكلاهما شارد عن الحفل..

كان هو يسترجع ذكرياته كلها، منذ كان طفلا بالقرية. وحتى هذه اللحظة..
ذكريات الطفولة،
والصبا، والشباب..
تذكر والده، بهيبته ووقاره..
ثم تذكر لحظة اقتحام (إبراهيم مكي) للسراى، واعتقاله والده و(حسين)..
وفي حيرة، وعند هذه النقطة، أدار عينيه بين رواد الحفل، بحثا عن (إبراهيم مكى)، وأدهشه أنه لم يجده، فتساءل عن السر في عدم حضوره، على الرغم من ذلك الود، الذي راه بينه وبن شقيقه (حسين) في الآونة الأخيرة..
لم يكن يدري أن (حسين) لم يدع (إبراهيم) إلى الحفل عمدا وبناء على رأي (إبراهيم) نفسه.
لقد رأى (- إبراهيم) أنه ليس من المفضل أن تصبح علاقته بـ (حسين) علانية.
في الوقت الحاضر على الأقل ولم يفكر (مفيد) طويلا في هذه النقطة، فقد انتقل فكره من (ابراهيم) إلى (مديحة)... بل لقد أزاحت صورة (مديحة) كل صورة أخرى. حتى صورة (سوسن) نفسها دون أن يدري، وجد نفسه غارقا في خضم ذكرياته مع (مديحة).. ووجد قلبه يخفق في لوعة وهيام وكان خفقانه يختلف كثيرا عن اي خفقان اخر.
صحيح أنه يشعر نحو (سوسن) بشعور رائع عظيم، ولكنه أبدا لن يبلغ ذلك الشعور الذي لا يوصف، والذي كان يربط بينه وبين (مديحة)..
ترى أين هي الآن؟ اين (مديحة)

ضبط نفسه غارقا في ذكرياته معها، فشعر بالخجل، وبتأنيب الضمير، لأنه يجلس إلى جوار (سوسن)، ويفكر في (مديحة)..
وحتى تأنيب الضمير هذا، كان مزدوجا على نحو عجيب..
كان مزيجا من الشعور بالخطأ، لأنه ارتبط بـ (سوسن)، قبل أن يمحو من ذهنه وقلبه صورة، (مديحة)، وشعور بالخجل، لأنه يضع في اصبعه الان دبلة خطبة، تحمل اسما غير اسم (مديحة).
وفي نفس الوقت، كانت (سوسن) أيضا تفكر في (مديحة)..
كانت تسأل نفسها عما إذا كان (مفيد) قد استطاع نسيان (مديحة) حقا، قبل أن يتقدم لخطبتها، أم أنه أقدم على هذه الخطبة، بدافع من شهامته الريفية، وأخلاقه المهذبة، التي تمنعه من الإساءة إليها أمام والديها، وأمام المجتمع كله؟
كان كل من الاحتمالين يسعدها، ولكنها كانت تتمنى من أعماق قلبها لو كان الاحتمال الأول هو الأكثر صحة.
وعلى الرغم من كل هذا، وأيا كانت الاحتمالات، فهي تحبه.. تحبه من أعماق قلبها وهي اليوم أسعد مخلوقة في الدنيا كلها؛ لأنها أصبحت خطيبته.
واستغرقتهما الأفكار، وهما يتابعان حفل الخطبة في شرود وحتى سمع (مفيد) شقيقه (حسين) يقول له مبتسما:
- سنرحل يا عريس.. لقد تآخر الوقت، وأظنك ترغب في البقاء وحدك بعض الوقت.
ارتبك (مفيد)، وتطلع إلى ساعة يده. التي أشارت عقاربها إلى الحادية عشرة، وغمغم:
- لا.. سأرحل معكم
أمسكت (سوسن) يده. وقالت في رجاء
- ألا تبقى قليلا
ابتسم لها في رقة، قائلا:

- تأخر الوقت بالفعل.. سنلتقي بعد غد بإذن الله
صافح والديها. وقبلته أمها - لأول مرة - في حنان، وهبط مع اسرته الى حيث تنتظرهم سياراتهم، ورأى (توحيده) تتناقش مع زوجها في عصبية. بصوت هامس، ورأى زوجها يحاول منعها، ولكنها تفلت منه وتسرع نحو (حسين)، وتسأله في لهفة واضحة:
- استعود معنا إلى القرية؟ ابتسم (حسين)، وقطع محادثته مع زميليه، والتفت إليها، قائلا:
- لا.. ليس في هذه الليلة. فالأوتار مشدودة للغاية في (القاهرة)، والأمر يحتاج إلى وجودنا هناك
تلاقي حاجباها، وهي تقول في عصبية:
- هناك أمر يحتاج إلى عودتك الى القرية أزعجه أسلوبها، فسألها في قلق: - أي أمر هذا؟
فتحت فمها لتخبره بأمر الأرض، التي سجلها (عبد الحميد) باسم (حافظ)، لولا أن هتف أحد أقارب (سوسن):
- أسمعتم آخر الأخبار؟ لقد سحب البنك الدولي تمويله للسد العالي.
هوى الخبر على روس الجميع كالصاعقة، فقد كان السد العالي، في هذه المرحلة، حلما يراود خيال كل المصريين، وأملا زرعته الثورة في النفوس، حتى بات تحطيمه أشبه بتحطيم أعماق المصريين جميعا...
وران صمت رهيب على المكان، قبل أن يقول (حسين) في حزم:
- معذرة أيها السادة، أظن الأمر يحتاج إلى عودتنا على الفور إلى (القاهرة)..
بدا الضيق على وجه (توحيده)، وتبادل (أمجد) مع (شريفة) نظرة متوترة، وتطلع أقارب (سوسن) إلى (حسين) في مهابة وانبهار، ثم دخل هذا الأخير سيارته، وتبعه (صلاح) و (أمجد)..

وانطلقت السيارة عائدة إلى (القاهرة) وبات من الواضح أن الأمور ستتطور في سرعة.. وان زعيم الثورة سيبدأ معركته الجديدة..

ومن الواضح أيضا، في أعماق (توحيده)، أن المواجهة بين (حسين) والعمدة قد تأجلت..

تأجلت إلى أجل غير مسمى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

59 – اختطاف..

كانت الأميرة (عايدة) فاتنة، في ذلك المساء، وهي تغادر قصر صديقها الفرنسي الثرى. متأبطة ذراعه، ومتألقة كأروع ما تكون وعندما جلست إلى جوار (جان)، في الأريكة الخلفية لسيارته الفاخرة، لم يستطع السائق منع نفسه من إلقاء نظرة مفتونة على الأميرة في مرآة السيارة المواجهة له. في نفس الوقت الذي هتف فيه (جان):

- أنت فاتنة هذه الليلة يا أميرتي

ابتسمت في زهو، وهي تقول؟

- وفي كل ليلة.

أطلق ضحكة قصيرة، ثم التفت يشير إلى الحارس الخاص، من الزجاج الخلفي، فاستقل هذا الأخير سيارته الصغيرة، وتبع سيارتهما كظلها فعقدت (عايدة) حاجبيها الجميلين، وهي تقول:

- أما زلت تصر على وجود هذا الخرتيت

أومأ برأسه إيجابا، وقال:

- وجوده ضروري وحتمى يا عزيزتي، على الاقل لحماية كل تلك المجوهرات، التي تتزينين بها، والتي تكفي لإسالة لعاب ملك اللصوص.

مطت شفتيها الجميلتين، ربما لم تكن تبالي كثيرا بتلك المخاوف والمحاذير، التي تملا نفس (جان). وكانت تتصور دائما أن ما فعلته بـ (سليمان)، في المحاولة السابقة كان يكفي وحده لتلقين (حسين) درسا قاسيا، ومنعه من أية محاولات أخرى لاستعادتها فيما بعد، كما كانت تتصور أن هذا الأسلوب التحايلي هو الأسلوب الوحيد الذي يجيده (حسين) ورجاله.

وفي أعماق نفسها كانت تشعر بهدوء شديد، والسيارة تقطع الطريق من تلك الضاحية الهادئة، التي بني فيها (جان) قصره. إلى قلب باريس).

وفجأة سمعت صرير إطارات السيارة، واندفع جسدها وجسد (جان) إلى الأمام في حدة، فهتفت في سخط:

- احترس أيها السائق.. إنك تفسد زينتى

اضطرب صوت السائق، وهو يقول:

- معذرة يا سيدتي، ولكن هناك سيارة تعترض الطريق، و.

عجز السائق عن إتمام عبارته، وهو يتطلع في قلق إلى السيارة، التي اعترضت طريقه، والتي قفز خارجها رجلان مسلحان واندفعا نحو سيارة (جان). وواجها جانبيها في سرعة، وأحدهما يصوب مسدسه إلى السائق، قائلا في صرامة:

- حركة واحدة، ويتحول جسدك إلى مصفاة.

تجمد السائق في مكانه، ورفع ذراعيه عن عجلة القيادة في ذعر، في حين هتفت (عايدة):

- ما الذي يحدث هنا؟

أما (جان)، فقد التفت في سرعة وتوتر إلى سيارة حارسه الخاص، التي تتبعهما، وارتجف جسده في هلع، عندما رأى حارسه يغادر السيارة محتقن الوجه، رافعا ذراعيه في استسلام، أمام رجلين آخرين، يصوبان اليه أسلحتهما أيضا. وتراجع (جان) منهارا على مقعده. وهو يردد:

- إنهم المصريون.

امتلأت نفس (عايدة) رعبًا وارتياعا، عندما سمعت عبارته، ولم يليث رعبها وارتياعها أن بلغا الذروة، عندما فتح أحدهم الباب المجاور لها، وأطل منه، قائلا في مزيج من السخرية والشماتة:

- مساء الخير يا أميرتي.

كادت تسقط فاقدة الوعي، وهي تتطلع إلى وجهة المألوف، قبل أن تهتف في انهيار:
- (أكرم)؟؟
جذبها من ذراعها إلى خارج السيارة في خشونة، وهو يقول:
- بل (سليمان) يا أميرتي.. (سليمان طاهر).
تمنت لحظتها لو أطلقت صرخة رعب عالية، أو حاولت الافلات منه بكل قوة، ولكن كرامتها الملكية أبت عليها أن تفعل، وتغلبت على خوفها، وهي تقول في حدة:
- ما هذا الأسلوب؟ أتحولتم إلى قراصنة أيها المصريون؟
دفعها أمامه في غلظة، نحو سيارته، وهو يقول:
- ربما
كان يعاملها بفظاظة شديدة، إذ لم يكن قد نسى بعد ما فعلته به، في المرة السابقة، عندما جعلت رجال (جان) يجردونه من حلته، ويرسلونه في طرد خاص إلى (القاهرة)
وكان يرغب في الانتقام منها، وإذلالها. إلى أقصى درجة..
وعندما بلغ معها سيارته، دفعها نحوها في عنف، ثم لوي ذراعها خلف ظهرها في قسوة، جعلتها تصرخ:

- أيها الوقح.

ولكنه تجاهل صراخها، ولوي ذراعها الأخرى خلف ظهرها، وأحاط معصميها بقيد حديدي، من تلك القيود التي يستخدمها رجال الشرطة فصرخ (جان) من السيارة الأخرى:

- أهكذا تعاملون الأميرات، أيها الـ..

أخرسته ضربة عنيفة، من مسدس الرجل الآخر على فكه، كادت تحطم أسنانه، وذاق في حلقه طعم الدم، فأطبق شفتيه، ولاذ بالصمت، وهو يتطلع في هلع إلى الأميرة (عايدة)، التي راحت تصرخ في غضب، وهي تقاوم قيود معصميها في ثورة:
كيف تجرؤ أيها الوغد؟ كيف تجرؤ ايها الحقير؟
جذبها (سليمان) من شعرها في قسوة وهو يقول
- أهكذا تنطق الأميرات، يا للعار
صرخت:
- ستدفع الثمن غاليا.. ستدفع الـ..
ولكنه كتم صراخها هذه المرة بشريط لاصق قوي. ألصقه على فمها فاتسعت عيناها، وراحت تهمهم بصرخات مكتومة، فابتسم هو في تشف، وقال:
- معذرة يا أميرة الأميرات، ولكنها أفضل وسيلة لإغلاق فمك الجميل.
ثم حملها فجأة، مستطردا:
- ومن المؤسف أنه يؤلم في شدة، عند نزعه قاومت بقدميها في توتر، ولكنها فوجئت به يفتح حقيبة سيارته قائلا:
- ما رأيك في منزلك الجديد أيتها الأميرة؟
صرخت في أعماقها بذعر واستنكار، وقاومت بكل ما تملك من شدة ولكنه ألقاها داخل حقيبة السيارة في غلظة، وأحاط قدميها بقيد حديدى مماثل، وهو يقول في لهجة تقطر تشفيا:
- إلى اللقاء يا أميرتي.. إلى اللقاء في (القاهرة).
وأغلق الحقيبة في قوة، ثم اعتدل وعيناه تبرقان في ظفر، والتفت إلى رجاله، وأشار إليهم اشارة خاصة، فهوى أحدهما على فك الحارس الخاص بلكمة قوية، ثم اندفع الجميع نحو سيارة

(سليمان)، التي انطلقت على الفور مبتعدة، وهي تحمل في حقيبتها الأميرة (عايدة).
وساد الصمت والسكون المكان لحظة، قبل أن ينتفض (جان) في شدة، ويخرج منديله من جيبه؛ ليجفف به الدماء التي تملا فمه ويهتف:
- هل نتركهم يختطفون الأميرة هكذا؟
ارتجف صوت السائق، وهو يقول:
- وماذا يمكننا أن نفعل يا سيدى؟
صاح به:
- انطلق يا رجل.. انطلق
أدار السائق محرك السيارة بالفعل، وهو يقول في ارتياع:
- ولكن من الخطر مطاردتهم يا سيدي، فهم مسلحون
- صاح به (جان):
- اننا لن نطاردهم يا رجل، ولكننا لن نقف مكتوفي الأيدي، في الوقت ذاته.. هيا اذهب بنا إلى (شارل).. إننا نحتاج إلى استشارة خبير في هذه الأمور، وبأقصى سرعة.
انطلق السائق في سرعة، نحو الهدف الذي حدده سيده، في حين واصل (جان) تجفيف الدماء، التي تسيل من ذلك الجرح، في ركن فمه وهو يسأل نفسه في توتر بالغ:
- ترى أين سيذهبون بالأميرة؟
أين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استمع السفير المصري إلى (سليمان) في توتر، ثم هز رأسه نفيا في قوة، وهو يقول:

- لا يا سيد (سليمان).. ما تطالب به يفوق المعقول، ولن يمكنني الاستجابة لمطلبك، قبل استشارة الرؤساء في (القاهرة).
أجابه (سليمان) في غلظة:
- لا يوجد وقت لاستشارة أحد، ثم انها عملية سرية، وقد لا تجد من سمع بها، ممن ستتصل بهم، ولقد قرأت بنفسك الأوراق الرسمية، التي تأمرك بتسهيل مهمتى، والتعاون معي، إلى أقصى حد.
قال السفير في عصبية:
- ولكن هذا يخالف مهام منصبى يا سيد (سليمان)، فعملي هنا يقتصر على التعاملات الدبلوماسية، والتمثيل السياسي والرسمي، وهذا يعتمد على تحسين العلاقات، لا على إفسادها.
هتف (سليمان) في حدة:
= وهل تتصور أن نقل هذه الحقيرة إلى (مصر)، يفسد العلاقات بيننا وبين (فرنسا)؟ إنها مجرد أميرة عربية.. ألا تدرك كيف ينظرون هنا إلى أميرات العرب؟
صاح السفير
- لا شأن لي بهذا، ولن يمكنني معاونتك قط
انعقد حاجبا (سليمان) في غضب، وهو يقول:
- إنك إذن تضطرني لذكر ما لم أكن أرغب في ذكره يا سيدى
ومال نحو الرجل أكثر، مستطردا:
- هذه العملية تتم، بناء على أوامر عليا، من ارفع المستويات القيادية في (مصر)، ووقوفك في طريق نجاحها يعرض منصبك نفسه للخطر.

مضت لحظة صمت، بعد أن أنهي (سليمان) حديثه القصير، وهو يتبادل مع السفير نظرات جافة باردة، ثم لم يلبث السفير أن استدار

إلى مكتبه، في حركة حادة، والتقط ورقة من فوقه، خط فوقها بضع كلمات في سرعة، ثم اعتدل وهو يناولها إلى الملحق العسكري بالسفارة، الذي لم ينطق بكلمة واحدة طوال الوقت، وقال له في لهجة جافة صارمة:
- خذ.. إنني أبلغك رسميا بمرضى، وبملازمتي الفراش، وأسند إليك مهام السفير، اليوم بالذات.

وترك الورقة في يد الملحق العسكري، وغادر الحجرة محنقا، فقال (سليمان) في حدة:
. هذا أفضل
سأله الملحق العسكري في اهتمام:
- ماذا تطلب بالضبط؟
أجابه في سرعة:
- صندوق دبلوماسي كبير، سنضع الأميرة داخله، وتنطلق به على الفور إلى المطار، وهنالك تنتظرنا طائرة خاصة، ستقلع بنا على الفور إلى (القاهرة).
قال الملحق العسكري في بساطة:
- هذا أمر يسهل - تدبيره - سأعد الصندوق، وستحملكم سيارة السفارة إلى المطار، ومن..
ارتفع رنين الهاتف فجأة ليبتر عبارته، فالتقط سماعته في الية وقال بالفرنسية:
- السفارة المصرية، من المتحدث؟ أتاه صوت فرنسي: يقول:
- هنا (شارل دوفان).. من الشرطة الفرنسية.. أظنكم تحتجزون لديكم مواطنة مصرية. تحظى بالحماية الفرنسية. بعد اختطافكم لها، دون وجه حق.
عقد الملحق العسكري حاجبيه في صرامة، وقال في غلظة:

- لست أفهم ما الذي تعنيه، أو ما الذي تتحدث عنه يا مسيو (دوفان)، ولكن أظنك تتجاوز حدودك الرسمية بهذا. فحتى لو كنا نحتجز رئيسك نفسه، فلن يمكنك اتخاذ أية إجراءات: لأن أرض السفارة تعد أرضا مصرية، و.
قاطعه (شارل):
- اطمئن يا سيدى، فلن اقتحم السفارة. لإخراج مواطنتك بالقوة ولست مستعدا لتحمل وزر إشعال أزمة دبلوماسية بين بلدينا، ولكنني أظنك أيضا غير مستعد، لتحمل أزمة صحفية هنا.
سأله الملحق في حذر:
- ما الذي تعنيه بقولك هذا؟ أجابه (شارل):
- الأمر لا يحتاج إلى شرح طويل يا صديقى، فقط ألق نظرة من نافذة السفارة. وستجد أنها محاطة بجيش من الصحفيين، من كل صحف (فرنسا)، وكلهم مصرون على إثبات ما تفعلون على أرضنا.
امتقع وجه الملحق العسكري، ورفع عينيه إلى (سليمان)، وقال في توتر، وهو يكتم مسماع الهاتف بيده:
. لقد أبلغوا الصحافة، وهم يحاصرون المبنى
ردد (سليمان) في دهشة – يحاصرونه:
واتجه في حركة حادة إلى النافذة، فأزاح ستارتها في عنف، ولم يكد يفعل، حتى تألقت في وجهه عشرات من مصابيح التصوير. واتجهت إليه عدسات الصحفيين، فتراجع هاتفا:
- يا للهول.
ثم التفت إلى الملحق العسكري، قائلا في عصبية:
- أسرع بإحضار الصندوق تراجع الملحق العسكري، وهو يقول:
- لا.. لم يعد ذلك سهلا.. ستكون فضيحة رهيبة، قد تؤدي إلى عزلي من منصبي.. أنت لا تعرف الصحافة، وما يمكنها أن تفعله.

صاح (سليمان) في غضب:
- لن يجرؤ أحدهم على الاقتراب من الصندوق، أو من السيارة، ولن..
قاطعة الملحق في حدة:
- ولكنهم سيلتقطون عشرات الصور، التي ستملأ صحف الغد وسيشعلون الرأي العام الفرنسي، ولن يمكننا احتمال هذا.
احتقن وجه (سليمان) في غضب، وراح جسده يرتجف من فرط الانفعال.
لم يكن يحتمل أبدا فكرة الهزيمة، بعد أن بلغ هذه المرحلة لن يحتمل أن تسخر منه الأميرة (عايدة) مرة ثانية، بعد أن فعل بها كل هذا..
لن يحتمل هذا قط.
وبصوت مرتجف، يموج بالتوتر، غمغم الملحق العسكري:
- أظن أنه لم يعد لدينا خيار.. سنطلق سراحها
هتف به (سليمان):
- هل جننت؟ الإفراج عنها الآن هو دليل إدانة أكثر ضخامة سيلتقط هذا الجيش الصحفي مئات الصور لها، وهي تغادر السفارة، وستصبح تلك الحقيرة بطلة، في يوم وليلة.
صاح الملحق العسكري:
- فلتصبح امبراطورة، لو أن هذا ينهي الأزمة
لوح (سليمان) بيده في حدة، قائلا:
- لا.. لابد من وجود حل اخر.
قالها واتجه إلى النافذة في توتر بالغ، وراح يحك ذقنه في عصبية وهو يختلس النظر الى الصحفيين، من خلف الستار.

كان في مأزق حقيقى ولم يكن هناك مخرج مناسب منه وفي أعماقه شعر بالهزيمة، قبل أن يعترف بها لسانه
لن يستطيع الإفلات من هذا الموقف قط.
دون خسارة
لن يمكنه هذا الا بحل واحد
بمعجزة.
لم تكد الكلمة تقفز إلى ذهنه، حتى اندفع السفير داخل الحجرة شاحب الوجه، وهو يقول في انفعال:
- أسمعتم آخر الأخبار؟
التفت إليه الملحق العسكري، هاتفا في ذعر
- هل أذاعوا الخبر؟
هتف السفير، وجسده يرتجف. من فرط الانفعال:
- لقد فعلها (عبد الناصر).. فعلها
سأله (سليمان) في قلق:
- ما الذي فعله (عبد الناصر)؟
تهالك السفير على أول مقعد صادفه، وهو يجيب:
- آممها.. أصدر قرارا جمهوريا، بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس، وتحويلها إلى شركة مساهمة مصرية.
اتسعت عينا الملحق العسكري في ذهول، في حين تألقت عينا (سليمان) في شدة، وهتف:
- عظيم
صاح به السفير:
- ما العظيم في هذا.. الا تعلم، ما سيجره علينا تأميم القناة من ويلات؟ إنها السقطة التي كانوا ينتظرونها.. سيحتلون (مصر) مرة أخرى، و.
قاطعه (سليمان) في انفعال:

- المهم أن الموقف السياسي ملتهب، في الوقت الحالي، وذلك الجيش من الصحفيين يتوق إلى معرفة رد فعل السفارة المصرية، على ذلك القرار. ثم التفت إلى الملحق العسكري، مستطردا في حماس:
أحضر الصندوق الدبلوماسي بسرعة، ثم اخرج لمواجهة هؤلاء الفرنسيين، وقل لهم أي شيء يروق لك، بخصوص قرار التأميم.
سأله الرجل شاحب الوجه:
- ماذا أقول؟
أجابه في انفعال:
- أي شيء يخطر ببالك، تأييدا للقرار ..
قل: إنه جاء لمصلحة (مصر)، ولحتمية الظروف.. أي شيء..
ثم تألقت عيناه أكثر، وهو يستطرد:
- هذه هي المعجزة، التي كنت أنتظرها.. المعجزة التي ستبعد كل الأنظار عن أميرتنا المصونة.
وارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة، وهو يضيف في تشف
- وتعيدها إلى (القاهرة).
وكان على حق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

60 – القرار..

هز قرار تأميم قناة السويس (مصر)، من أقصاها إلى أقصاها، بل وارتجت له الأوساط السياسية في العالم كله، وكان أبرز مظاهر ذلك الارتجاج، الاحتجاج البريطاني العنيف على الموقف، والرفض الفرنسي الشديد له.

وبات من الواضح أن الأمور تقترب من حافة البركان.. كل هذا، في اليوم التالي مباشرة للقرار.

في ذلك اليوم، السابع والعشرين من يوليو، عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين، كانت (مصر) كلها تتحدث عن هذا القرار..

وعن عواقبه.

وفي نشاط واضح، وبخطة محكمة، كان عدد من الخبراء والمهندسين، ورجال الأمن، قد نجح في احتلال مبنى قناة السويس والسيطرة على الموقف تماما، قبل حتى أن يتم (جمال عبد الناصر) خطبته الشهيرة، وعلى رأسهم المهندس (محمود يونس)، زميل (جمال) القديم، في التدريس بكلية أركان الحرب.

وكرد فعل مباشر للموقف، جمدت (بريطانيا) أرصدة (مصر) لديها، وكانت تبلغ مائة واثنا عشر مليون جنيه استرليني، وتبعتها (أمريكا) فيما بعد، فجمدت ستين مليون دولار، من أرصدة (مصر).

وانقلب الجهاز، الذي يعمل به (حسين) رأسا على عقب، ونشط جميع أفراده لجمع أكبر قدر من المعلومات، قد يفيد القيادة السياسية في تقييم الموقف، وحساب ردود الأفعال

وفي الصباح الباكر، استدعى (مراد صقر) (حسين) إلى مكتبه وبدا واضح الانفعال، على نحو يندر حدوثه. وهو يقول له:

- الموقف مشتعل يا (حسين)، ونحن نتوقع ردود أفعال عنيفة ونحتاج إلى معرفة الموقف الاسرائيلي، وإدارتك زرعت أحد الرجال هناك، في قلب (إسرائيل).. أليس كذلك؟
تنحنح (حسين)، وقال:
- رجلنا لم يستقر هناك بعد يا سيدي، ولكن الزميل (عبد المحسن فائق) لديه رجل أفضل، يحيا في قلب (إسرائيل)، ويمتلك شركة سياحية هناك.
قال (مراد) في توتر:
- أرسل إلى الرجلين، في طلب كل المعلومات الممكنة، فالأمر أخطر مما تتصور
تمتم (حسين)، وهو يدرك خطورة الموقف بالفعل:
- أعلم هذا يا سيدي.. أعلم هذا
انصرف عائدا إلى مكتبه. والتوتر يملأ كل خلية من خلاياه، والتقى في مكتبه بـ (أمجد)، فسأله عن آخر الأخبار؟
أجابه (أمجد) بسرعة، وكأنما كان ينتظر السؤال:
- لقد أنهى (إيدن) عشاءه مبكرا، في (دوانينج ستريت)، واجتمع مع كبار السياسيين والعسكريين، والسفير الفرنسي، والقائم بالأعمال الأمريكي، وأرسل برقية إلى (أيزنهاور)، يطلب فيها وضع الاحتمال العسكري في الاعتبار.
ردد (حسين) في قلق:
- الاحتمال العسكري؟!
ثم أضاف، وهو يلتف حول مكتبه، ويجلس على مقعده خلفه:
- يبدو أن الأمور ستتطور بأعنف مما كنا نتصور
تمتم (أمجد) في رهبة:
- يبدو هذا.

لم يكد يتم تمتمته، حتى طرق (صلاح) الباب. ثم دفعه ليدلف إلى الحجرة، قبل أن يأذن له (حسين)، الذي رفع عينيه إليه، وقال في دهشة:

- (صلاح)؟! متى عدت من (باريس)

أجابه (صلاح) بابتسامة كبيرة:

- فجر اليوم ثم غمز بعينه، مستطردا:

- ولقد أحضرنا الطرد هذه المرة. سرت قشعريرة في جسد (حسين)، عندما طرقت هذه العبارة أذنيه إنه يفهم ما يعنيه (صلاح) ٠٠ لقد نجحوا هذه المرة.. نجحوا في احضار (عايدة)..

تراجع مبهورا، وتلاحقت أنفاسه في سرعه

إذن فقد عادت (عايدة) إليه

عادت بعد أن خدعته، ودفعته إلى تهريبها، دون أن يقصد وانتفض قلبه انفعالا..

لم يدر لماذا انتابته كل هذه المشاعر، عندما علم أنها صارت على قيد أمتار منه؟

لقد ظل يحلم سنوات بعودتها، وبرؤيتها أمامه ذليلة كسيرة، ولكنه لا يجد في نفسه القدرة الآن على الذهاب لرؤيتها، بعد أن حقق حلمه بالفعل.

لماذا يشعر بهذا؟

لماذا يرتجف لمجرد التفكير في مواجهتها.

أهو وصولها في وقت غير مناسب، اشتعلت فيه المواقف كلها وارتفعت فيه درجة توتره وانفعاله. الى الحد الذي لم يعد يحتمل فيه مزيدا من الانفعالات به؟

أم هي بقايا حب قديم، ما زالت بصماته عالقة في قلبه؟

اخافه الاحتمال الأخير، وأقلقه كثيرا، وخاصة عندما سأله (صلاح)، مبتسما في ظفر:

- اتحب رؤيتها الأن يا (حسين) بك؟
رفع عينيه إليه، وفكر لحظة في رفض رؤيتها، ثم لم يلبث أن قرر مواجهة مخاوفه في حسم. فنهض قائلا:
- نعم.. ولم لا
ثم أشار الى (أمجد)، مستطردا:
- انتظرني، سأعود بعد قليل.
وسار إلى جوار (صلاح)، في طريقهما إلى قبو المبنى و (صلاح) يقول في زهو:
- كانت خطة ناجحة هذه المرة. نفذها (سليمان) في مهارة. يستحق عنها مكافأة استثنائية.
لم يجب (حسين)، الذي راح يدفع قدميه دفعا نحو القبو. وهو يتمنى لو يؤجل هذا اللقاء لأطول فترة ممكنة، و (صلاح) يواصل:
- لقد قاومت في شراسة، واتصل صديقها بالصحافة، التي كادت تصنع فضيحة كبرى. لولا أن غطت أخبار التأميم على كل الأخبار الأخرى.
كان (حسين) يشعر بالضيق، من استرسال (صلاح) في هذا الأمر؟ ولكنه لم يحاول مقاطعته، وهو يهبط في درجات السلم الى القبو. ثم يعبر ممره الطويل. الى حجرة نصف مظلمة وقف على بابها جندي حراسة لم يكد يلمح (حسين) و (صلاح)، حتى أدي التحية العسكرية في قوة وافسح الطريق في حركة سريعة منتظمة.
وتوقف (حسين) لحظة عند باب الحجرة..
توقف في تردد، وخشية المواجهة تعاوده على نحو أكثر عنفا، حتى قال (صلاح):
- هيا يا سيدي
وهنا حسم تردده، وخطا داخل الحجرة ثم تجمد مرة أخرى في مكانه. عندما وقع بصره عليها:

على (عايدة)...

لم تكن تشبه أبدا آخر مرة رآها فيها..

صحيح أنها كانت ترتدي ثوبا ثمينا. يبلغ ثمنه قدرا تعجز عنه زوجة أى مسؤول مصري، وطاقم من المجوهرات، يكفي ثمنه لشراء أسلحة تكفي لواء مشاة كامل، ولكن مظهرها - على الرغم من ذلك - كان يدعو إلى الرثاء.

كانت منهكة إلى حد كبير، وقد فقد وجهها تورده، واتسخ ثوبها ببقع من الشحم، وتناثر شعرها الناعم الجميل حول وجهها، على نحو غير منتظم، واللاصق مازال يحيط بفمها، ويداها مقيدتان خلف ظهرها. بذلك القيد الحديدي، وكذلك قدماها، وهي ملقاة في اهمال. فوق جوال قديم متسخ.

ولقد رفعت عينين دامعتين. تتطلع بهما اليه في قهر ومذلة ولم يحتمل (حسين) ..

لم يحتمل ابدا رؤيتها على هذا النحو..

صحيح انه يبغض ما فعلته به، ويسعى منذ زمن لرد الصاع صاعين اليها، ولكنه لم يحتمل أبدا رؤيتها كسيرة مهانة هكذا.

وبكل الدهشة والارتياع في أعماقه. هتف (حسين):

- يا إلهي.. من فعل بها هذا؟

تلاشت ابتسامة (صلاح). وارتبك وهو يقول:

- كنت أظنك ترغب في..

قاطعه (حسين) في غضب:

- حل قيودها يا رجل، وارفع تلك الكمامة اللعينة عن شفتيها.. لقد طلبت إحضارها، ولم أطلب إهانتها.

ارتبك (صلاح) أكثر، وأشار في سرعة إلى حارس الغرفة، فأسرع يحل القيد من معصميها وكاحليها. ثم جذب اللاصق عن فمها في عنف جعلها تطلق شهقة ألم، فهتف به (حسين) في غضب:

- رفقا أيها الغبي.

انكمش الجندي في مكانه، وتمتم بكلمات اعتذار غير مفهومة، ثم ابتعد عن (عايدة) في سرعة، فاقترب منها (حسين)، وانحنى يمس كتفيها في رفق، قائلا:

:

- أأنت بخير؟
رفعت إليه عينيها الجميلتين الدامعتين، وتطلعت إلى عينيه لحظة في صمت، قبل أن تقول بصوت باك:
- أتشعر بالانتصار الان يا (حسين) بك؟
شعر بسؤالها يطعن عقله وقلبه في الصميم:
انه نفس السؤال، الذي يلقيه على نفسه، عندما وقعت عيناه عليها من لحظات.
هل يشعر حقا بالانتصار؟؟
لماذا لا يشعر به؟
لماذا يتمنى. في هذه اللحظة بالذات، لو لم يكن قد سعى إلى احضارها؟
لماذا يشعر بالخجل، بدلا من القوة؟
كررت (عايدة) سؤالها في عصبية
- أتشعر الأن بالنصر؟
ثم انفجرت باكية في مرارة وانفطر قلبه مع بكائها..
لم يحتمل قطرات الدمع الساخنة، وهي تنهمر من عينيها، فتلهب قلبه ومشاعره
لم يحتمل حتى التطلع إلى وجهها، وهي تبكي هكذا
كانت أول مرة في حياته كلها، يرى منها لحظة ضعف واول مرة يشعر نحوها بكل هذه الشفقة
وفي بطء، نهض واقفا، وقال لـ (صلاح):
- لدينا منزل آمن في (جاردن سيتي).. بالقرب من منزلي.. رافق سمو الأميرة إليه.
ردد (صلاح) في دهشة مستنكرة:
- من!!! سمو الاميرة!؟؟
جابة (حسين) في صرامة:

- نعم.. سمو الأميرة (عايدة).. واتصل بمدام (لولى)، لتأخذ مقاييسها، وتصنع لها بعض الأثواب المناسبة، ثم أرسل خادمة وطباخا لخدمتها، حتى تنتهي ازمة القناة هذه.
تطلعت إليه (عايدة) في دهشة، فلم تكن تتصور أبدا أنه سيمنحها هذه المبادرة السخية الكريمة، بعد أن نجح في إحضارها إلى (القاهرة).
كانت تتوقع منه تصرفا انتقاميا متشفيا، يسعى إلى تحطيمها واهانتها واذلالها.
حتى (صلاح) شعر بالدهشة، فهتف:
- اترسل اليها خدما ايضا؟
صاح به (حسين) في غضب
- ارأيت في عمرك كله أميرة، تخدم نفسها بنفسها؟
حدق فيه (صلاح) بدهشة، ثم غمغم:
- كما تأمر يا (حسين) بك.
وفي شفقة، التفت (حسين) إلى (عايدة)، التي تتطلع إليه في دهشة، وقال:
- ساراك فيما بعد.
لم تنبس ببنت شفة، وهي تنظر إليه، فاستدار، وغادر القبو في خطوات سريعة، وهو يشعر في أعماقه بشعور عجيب..
بالارتياح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- (سوسن).. (سوسن).. خطيبك هنا
تهللت أسارير (سوسن)، وتضرج وجهها بحمرة الخجل، وهي تتطلع إلى (مفيد)، الذي اقترب من موضع عملها. وهو يبتسم

ابتسامته الهادئة الوسيمة، وقال:
- مساء الخير.. ألم تنته ساعات العمل بعد؟
تطلعت إليه زميلاتها في فضول، وارتسمت الابتسامات على وجوههم، في حين غمغمت هي في خجل:
- بقيت خمس دقائق
ابتسم قائلا:
. حسنا.. سأنتظرك بالخارج، لنذهب إلى محطة القطار معًا.
أومأت برأسها إيجابا، فلوح لها بيده، وانصرف على الفور، فالتفت زميلات (سوسن) حولها، وهتفت إحداهن في مرح:
- خطيبك وسيم للغاية يا (سوسن).
صاحت أخرى:
- ولكنه نحيل جدا
ضحكت (سوسن) في حياء، وقالت:
- انه يروق لى
هتفت فتاة أخرى
- ولي أيضا.

ضحكن جميعا في خفوت، خشية أن يسمعهن مراقب القسم، وواصلن عملهن للدقائق الباقية، ثم أسرعت (سوسن) تستبدل ثياب العمل، التي تحمل اسم المتجر، والتقت بـ (مفيد) عند الباب، وهتفت:
- هل تأخرت عليك كثيرا؟
ابتسم ابتسامته الهادئة، وهو يقول:
- يمكنني انتظارك للأبد.
التقت أصابعهما في دفء، وسارا متجاورين، في طريقهما إلى محطة القطار، وهو يسألها:

- هل كان يومك جيدا؟
ابتسمت قائلة
- كل أيامي متشابهة..
ماذا عنك أنت؟
هز كتفيه، قائلا:
- العمل في شركة الآلات الزراعية يختلف كثيرا عن العمل في مطعم صغير، ولكنه أفضل بالتأكيد.
سألته في مرح:
- ومتى ستصبح مدير الشركة؟
ضحك قائلا:
- بعد عمر طويل.
سارا صامتين بعض الوقت، وكفه يحتضن كفها في حنان، ثم سألها في اهتمام:
- أتظنين أن الأمر سينتهي إلى حرب، كما يتوقع البعض؟
لم تكن تميل كثيرا إلى الأمور السياسية، أو تفهم تفاصيلها، ولكنها أجابته في دبلوماسية:
- ما رأيك أنت؟
أجاب:
- ستندلع الحرب حتما، فلن تضيّع الدول الكبرى هذه الفرصة، لتحطيم زعامة (عبد الناصر)، التي امتدت من المحيط الى الخليج، وهم يحاولون تدمير مبادرته، باقتراح إشراف دولي على القناة، وإغراء المرشدين الأجانب بترك العمل في القناة.
قالت في حماس:
- سيهزمهم (عبد الناصر) حتما.
ابتسم قائلا:
- لماذا تبدين واثقة هكذا؟

قالت في حماس أكثر
- إنه زعيم العرب.. أليس كذلك؟
شرد ببصره لحظات، وتنهد قائلا:
- لست أشك لحظة في زعامة (جمال) يا (سوسن)، ولكن يضايقني أنه هو نفسه لم يؤمن بزعامته بعد.
سألته في حيرة: - كيف؟
هز كتفيه، قائلا:
- أسمعت نتائج انتخابه؟ لقد حصل على تسعة وتسعين، وتسعة من عشرة في المائة، وهذا مستحيل.
هتفت معترضة:
- لماذا مستحيل! الجميع يحبون (جمال عبد الناصر).
ابتسم قائلا:
- وماذا عن أصحاب الألقاب المفقودة، والإقطاعيين القدامى، ورجال القصر، والحرس الملكي، والأحزاب المحلولة، والـ...
قاطعته:
- مجرد نسبة صغيرة من الشعب
قال في هدوء:
- وماذا عن رفض ترشيح أي شخص آخر، أمام (جمال)؟
قالت معترضة:
- ومن يجرؤ على الترشيح ضده؟
- أرأيت.. هذا ما أعنيه، وهذا ما يؤسفني
شعرت أن هذه المناقشة تضايقها، فقالت:
- هل ستتحدث طيلة الوقت عن السياسة.
ابتسم قائلا:
- لا.. ليس طيلة الوقت
قالت في اهتمام:

- أتحب رؤية حجرة النوم، التي وقع اختياري عليها؟
قال مبتسما:
- بالطبع.. يروق لي رؤية ذوقك، في هذا المضمار
جذبته من يده في حماس، قائلة:
- ستعلم أن ذوقي متميز، فهي رائعة ثم همست ضاحكة
- وسعرها مناسب أيضا
ضحك بدوره، وتبعها مستسلما، وهما يعبران الطريق، وقال محذرا:
- تذكري أن القطار سيرحل بعد نصف الساعة فحسب قالت في عجلة:
- لا عليك.. سنلحق به بإذن الله، محطة القطار على قيد خطوات من هنا.
ابتسم لحماسها، وتركها تقوده إلى متجر أثاث كبير، وأشارت إلى حجرة نوم أنيقة، قائلة في لهفة:
- ها هي ذي، ما رأيك؟
لم يستطع اقناع نفسه بالاهتمام بالأمر، وهو يتطلع إلى حجرة النوم، قائلا:
- جميلة.
هتفت به:
- جميلة؟! إنها رائعة.. ألا ترى النقوش والأركان، و.
لم يسمع حرفا واحدا، مما نطقت به، بعد هذه الكلمات، فقد تعلق بصره بصورة انعكست على زجاج المتجر..
صورة جعلت قلبه ينبض في قوة، قبل أن يهتف لسانه في لهفة:
- (مديحة)؟!

انتفض قلب (سوسن) مع الكلمة، وكادت تهوى فاقدة النطق والوعي، عندما تركها (مفيد) فجأة، واندفع كالصاروخ يعبر الطريق، إلى الجانب الآخر، وسط السيارات، التي انطلق نفيرها وصرير عجلاتها في عنف، وهو يعبر بينها، وكأنه لا يشعر بوجودها، حتى بلغ الإفريز المقابل، فأمسك كتفي فتاة، وأدار وجهها إليه، هاتفا:

- (مديحة)؟!. خفق قلبه، وخفق قلبها، وارتجف صوتها وتهدج، وهي تهتف:

- (مفيد)؟!

وكان لقاء عاصفا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

61 - كل الحيرة..

تنهد (حسين) في عمق، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه، وهو يسند ذقنه إلى إبهاميه، قائلا لـ (ابراهيم مكى):

- لم أستطع مس شعرة واحدة منها.. لم أكد أجدها أمامي، في هذه الحالة المزرية، حتى تمنيت لو أحتويها بذراعي، وأنهال على شفتيها تقبيلا.

ابتسم (إبراهيم) في استخفاف، مغمغما:

- هل شعرت بالضعف؟

كان يتصور أن (حسين) سينكر ذلك تماما، ولكنه فوجئ به يجيب في أسف:

- نعم.. شعرت أمامها بضعف شديد، وكأن الحب الراقد في أعماقي، والذي كنت أتصور أنه مات منذ رحيلها، قد انبعث فجأة حيا، وراح يلهث بحب الحياة مرة أخرى.

كان الجواب مباغتا بالنسبة لـ (إبراهيم)، الذي تخلى دون أن يدرى عن حذره، وهو يهتف:

- إذن فأنت تحبها!!

هز (حسين) رأسه إيجابا، وقال في خفوت:

- نعم.. يبدو هذا.

مضت فترة صمت طويلة، بعد هذا الجواب، و (إبراهيم) يحدق في وجه (حسين) في دهشة واستنكار، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه، وابتسم في ظفر وخبث، وكأنما وقعت يداه في النهاية على نقطة ضعف كبيرة، في شخصية (حسين)، وقال:

- هل التقيت بها، بعد عودتها؟

هز (حسين) رأسه نفيا، وقال:

- لا.. لم أجد في نفسي الشجاعة لرؤيتها، بعد ما أحضرتها على هذا
النحو.
تراجع (إبراهيم)، واسترخي في مقعده، وهو يقول:
- اطمئن.. إنها لن تشير إلى هذا قط
سأله (حسين) في دهشة
- لماذا تقولها بهذه الثقة؟
أجابه في بساطة:
- لأنني أعرف طريقة تفكير الأميرات.
لم يفهم (حسين) تماما ما الذي يعنيه (إبراهيم)، إلا أنه لم يسأله تفسيرا، وإنما أطلق من أعماق صدره زفرة قوية، وحاول أن يسترخي في مقعده، وهو يضع يده على جبينه، ويغلق عينيه، قائلا:
- كم أتوق لقليل من الراحة، عقلي يكاد ينفجر، من شدة التوتر والتفكير سأله (إبراهيم) في اهتمام:
كيف حال العمل؟ أما زالت الأمور متوترة؟
زفر (حسين) مرة أخرى، وقال
- أكثر مما تتصور.
كان (إبراهيم) يتوقع منه استطرادا، وشرحا للأمور وتفاصيلها، والأبعاد السياسية للموقف، إلا أن طبيعة عمل (حسين) كانت قد وضعت بصمتها على شخصيته، فلم يضف حرفا واحدا إلى ما قال، وإنما نهض قائلا:
- أظنني أحتاج إلى إجازة قصيرة في قريتي، وإلا فلن يمكنني المواصلة.
سأله (إبراهيم):
- أمن الممكن أن تحصل على إجازة في مثل هذه الظروف؟

أومأ (حسين) برأسه إيجابا، وقال:
- لقد حصلت عليها بالفعل. فهم يدركون جيدا ضرورة العمل بأعصاب هادئة في مجالنا هذا.
ثم لوح بيده، مستطردا:
- إلى اللقاء قريبا.
منحه (إبراهيم) ابتسامة هادئة، وهو يغادره. ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه في غضب وصرامة، وهو يقول:
- من الواضح أن الأمور تسير نحو منحني جديد يا (حسين) بك ومن يدري.. ربما عادت الأمور إلى ما كانت عليه. واصبحت أنا الأقوى.
ثم أشعل سيجارته، ونفث دخانها في قوة محنقة. قبل أن يضيف في حسم:
- ربما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان اللقاء حارا عاصفة وكانت الدهشة قوية عنيفة لم يصدق كل منهما عينيه وأذنيه..
ولثوان ظل كل منهما يحدق في وجه الآخر، وعيناه تجوبان ملامحه في لهفة ولوعة واشتياق.
ثم هتف (مفيد) مرة أخرى، وصوته يتهدج:
- (مديحة).. مستحيل! لقد بحثت عنك في (مصر) كلها، ولم أتصور أبدا أنني سأراك مرة أخرى. في هذه الدنيا على الأقل.
اغرورقت عيناها بالدموع، وامتدت أصابعها المرتعدة تتحسس وجهه، وكأنها تحاول التيقن من أنه يقف أمامها بالفعل، وأنها لا تحلم بوجوده.

وخفق قلبها في قوة، عندما لامست أصابعها وجهة النحيل، وتمنت لو القت نفسها بين ذراعيه، وأفرغت دموعها على صدره..
هي أيضا لم تتصور أنها ستراه مرة ثانية أبدا
وفي حرارة، سالت دموعها على وجنتيها. وهي تردد
- (مفيد).. أهو أنت حقا؟
قال في حب جارف، تدفق مع كل حرف من حروف كلماته:
- نعم يا (مديحة).. هو أنا.. لقد وجدتك يا (مديحة).. وجدتك ولن نفترق أبدا.
هبطت يدها من وجهه إلى كفه، وتعانقت أصابعهما في شوق ولهفة ووجدا نفسيهما يسيران جنبًا إلى جنب في هيام، وقد نسي كل منهما دنياه، ولم يعد يذكر سوى أنهما قد التقيا..
التقيا بعد طول فراق.
ولم يتبادلا حرفا واحدا لربع ساعة كاملة، وهما يسيران جنبًا إلى جنب، وكفه يحتضن كفها في قوة. وكأنما يخشى لو أفلت أصابعها الا يجدها مرة ثانية، حتى قادتهما أقدامهما إلى (جروبى)، فدخلاه معا دون مناقشة الأمر، واتخذا مائدة جانبية، وتعانقت أصابعهما مرة أخرى فوقها، لتنحل عقدة لسان (مفيد). وهو يسألها في لهفة:
- أين كنت؟ أين ذهبت؟
أطرقت بعينيها ارضا، وهي تقول:
- أنت تعلم ما فعله بنا (حسين).
سألها في خفوت
- لماذا لم تحاولي الاتصال بي حينذاك؟
هزت راسها قائلة:
- لم يكن هناك ما يمكنك فعله.
كان يعلم أنها على حق؛ لذا فلم يعترض على قولها، وإن شعر في اعماق صدره بمرارة. أعادت اليه شعوره بالقهر والعذاب، في

ذلك اليوم المشئوم، الذي أجبر فيه (حسين) (مديحة) ووالدها عم (إسماعيل) على الرحيل من القرية.
وسألها (مفيد) في اهتمام:
- وماذا فعلت بكم الدنيا بعد رحيلكم؟
تنهدت وقالت:
- لم نمت جوعا على الاقل
صمتت لحظة، ثم عادت تتابع:
- لقد نقلنا (حسين) بك إلى (القاهرة)، وحصل لوالدي على عمل صغير، في جريدة (الاهرام)، كعامل طباعة تحت التدريب، وأجبر ابن عمي (فهمي) على عقد قرانه على، ثم لم يلبث أن نسي أمرنا، بعد ان اطمان لسيطرته علينا
ردد (مفيد) في مرارة:
عقدت قرائك على (فهمي)؟؟
خفضت عينيها، قائلة:
- قرانا صوريا فحسب.. ارضاءً لشقيقك، ولكن (فهمي) كان شهما كريما، لم تقبل رجولته الاقتران بي على هذا النحو، وأبت كرامته إجبارى على معاشرته، فأنتظر بضعة أشهر، حتى هدأت الأمور، ثم أرسل لي قسيمة الطلاق في صمت.
تهللت أسارير (مفيد)، وهتف:
- حقا! ايعني هذا أنك؟
قاطعته بإيماءة ايجاب من رأسها
فتنفس الصعداء، وهتف في سعادة:
- انه قدرنا يا (مديحة).. قدرنا أن نلتقي مرة أخرى، وأن تكوني لي، كما تمنينا دائما.
تغلب حبها على كل مشاعرها الأخرى، في هذه اللحظة، فهتفت
- لن نفترق هذه المرة ابدا يا (مفيد).

قبض على أصابعها في حرارة، وهو يهتف من أعمق أعماق قلبه
- أبدا يا (مديحة).. أبدا
ولم ينتبه في هذه اللحظة إلى أنه قد تخلى، دون أن يدري، عن قلب آخر، عندما عثر على قلبه القديم
عن قلب (سوسن)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تهللت أسارير (شريفة)، وارتسمت على شفتيها ابتسامة واسعة وهي تستقبل (حسين) في السراي، هاتفة:
- مرحبًا يا (حسين)، مرحبًا يا أخي الحبيب.. اهلا بك في دارك.
صافحها (حسين)، وقبل وجنتيها في هدوء، وابتسم ابتسامة منهكة، وهو يسألها
- كيف حالك يا (شريفة).. كيف حال (حافظ) و (طارق)؟
قالت في حرارة، وهي تحمل عنه حقيبته
- الجميع بخير
ثم سألته في اهتمام:
- هل ستقضي معنا إجازتك كلها؟
أومأ برأسه إيجابا، وقال:
- نعم.. ولكنها اجازة قصيرة. فسأعود إلى (القاهرة) فجر بعد غد.
ثم هتف:
- ولكن أين (طارق)؟ أريد أن أرى هذا (البنهاوي) الصغير
مطت شفتيها. وقالت:
-(البنهاوي) ابن المأفونة
فتدارك قائلا:
- أما زالت علاقتك ب (فاطمة) سيئة؟

هزت كتفيها. قائلة:
- ومن يصلحها؟
صاح (حسين) في صرامة:
- (فاطمة).. (فاطمة).. اين انت؟
هرعت إليه (فاطمة) من حجرتها، وهي تقول:
- (حسين) بك.. مرحبًا يا بك.. مرحبًا
سألها في خشونة:
- اين (طارق)؟
اجابته في خبث:
- مع والده.. إنه يهوى تدليله.
مط (حسين) شفتيه في ازدراء، ثم ازاحها عن طريقه، واتجه إلى حجرة شقيقه. ودفع بابها. فالتفت إليه (حافظ). ولم يكد يراه. حتى انكمش على نفسه، وهو يردد في خوف:
- اهلا يا (حسين).. أهلا يا أخي.
ابتسم له (حسين) ابتسامة باهتة، وقال:
- أهلا يا (حافظ).. كيف حالك، وكيف حال (طارق).
احتضن (حافظ) ابنه بحركة غريزية، وكأنما يخشى أن ينتزعه منه (حسين) قسرا. وغمغم:
- بخير يا أخي.. بخير
اتجه إليه (حسين)، وقال
- أعطني الصغير.
انكمش (حافظ) على نفسه أكثر، وضم الصغير اليه في قوة، ثم لم تلبث قوته أن تراخت، وهو يتطلع إلى (حسين) في خوف، ومد يده بالصغير إلى شقيقه، فالتقط (حسين) الصغير، وارتفع حاجباه في حنان. وهو يتطلع إليه، قائلا:
- كيف حالك أيها (البنهاوي) الصغير.

ابتسم له الصغير، وداعب وجهه بأصابعه الصغيرة. فاتسعت ابتسامة (حسين) في سعادة، وهتف في فرح:
- انه يحبني.
كان من الواضح أن الصغير يفجر في أعماقه مشاعر خاصة. كثيرا ما تكتمها صرامته. وتمنعه طبيعته من إعلانها.
ولثوان، داعب (حسين) الصغير، ثم أعاده إلى (حافظ)، قائلا:
- أبقاه الله لك.
اختطف (حافظ) ابنه في لهفة، وضمه إلى صدره في ارتياح، في حين غادر (حسين) الحجرة. ولم يكد يخرج إلى الردهة، حتى وقع بصره على (توحيده) وهي تتقدم نحوه ببطنها المنتفخ، فاردة ذراعيها وهاتفة؟
- (حسين).. اخي الحبيب.. لم يكد شيخ الخفراء يخبرني بوصول سيارتك. حتى هرعت الى هنا لمقابلتك.
قبلها في حرارة. وربت على بطنها ضاحكا، وهو يقول:
- يبدو أن ولي العهد الثالث سيصل قريبًا ضحكت قائلة :
- أمامه أقل من شهر واحد.
جلس مع شقيقتيه في حجرة الضيوف، في حين عادت (فاطمة) إلى حجرتها، وهتفت (توحيده):
- اصحيح أنك لن تقضى هنا سوى يومين
أجابها بهزة من رأسه، وقال:
- الموقف لا يحتمل أكثر من هذا
قالت في حدة:
- ولكن هناك أمورا تحتاج إلى وجودك هنا.
أرجعت عبارتها إلى ذاكرته عبارة أخرى، نطقتها هي أيضا، ليلة خطبة (مفيد)، فاعتدل في مقعده، يسألها في اهتمام:
- ما هذه المأمور بالضبط؟

انعقد حاجباها، وهي تقول:
- هل سجلت الأرض باسم (عبد الحميد)، والد تلك المأفونة، زوجة (حافظ)؟
شهقت (شريفة) في دهشة، في حين انعقد حاجبا (حسين) في غضب، وهو يقول:
- من اخبرك بهذا
هتفت (شريفة):
- هل فعلت ذلك حقا!
أجابها في خشونة وصرامة:
- نعم.. كان هناك ما يحتم هذا، وأنا المسؤول عن ميراث (البنهاوي)، واعلم كيف يمكنني حمايته.
قالت (توحيده) في حدة:
- وهل تعتمد حمايته على تسجيله باسم أضعف شخص في العائلة
أجابها في غضب:
- (عبد الحميد) ليس أحد أفراد العائلة، وليس..
قاطعته قائلة:
- لست أقصد (عبد الحميد).. بل اقصد من سجل (عبد الحميد) الأرض باسمه.
هب من مقعده صائحًا :
- سجل الأرض باسمه؟! من تعنين
صاحت محنقة:
- (حافظ).. لقد سجل الأرض باسم (حافظ).
جاء من خلفهم صوت (فاطمة) تقول في تشف
- بل باسمي انا.
التفت اليها الجميع في ذهول، فوضعت كفيها في وسطها، وقالت في لهجة حاسمة.

- أنا الأن صاحبة الأرض.. وبرقت عيناها في قوة. مع اضافتها
- ارض (البنهاوي).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

62 - البركان..

لم يكد عم (اسماعيل) يعود من عمله منهكا، حتى اندفعت ابنته (مديحة) تعانقه في سعادة، وهي تهتف:

- أبي.. أبي.. لن تصدق ما سأخبرك به

ابتسم الرجل في تعب، وهو يسألها:

- هل عثرت على وظيفة؟

هتفت في سعادة جمة:

- بل على ما هو أعظم يا أبي

ومالت نحوه تتابع، والفرح يقفز من أطراف لسانها:

- لقد عثرت على (مفيد)

اتسعت عينا والدها في ذعر، وتراجع في حركة حادة كالمصعوق وهو يهتف:

- (مفيد)؟! (مفيد البنهاوي)؟!

تراجعت مشاعرها أمام رد فعله العنيف، وتمتمت في حيرة:

- نعم يا أبي.. (مفيد البنهاوي)

بدا لها شاحبًا ممتقعا، إلى حد كبير، وهو يقول:

- أين التقيت به؟

- أجابته ومشاعرها تنكمش أكثر وأكثر:

- في شارع (قصر النيل).. كنت أبحث عن عمل، عندما..

قاطعها في ارتياع:

- وهل راك؟

أجابته في حذر:

- نعم.. وتحدثنا معا، و.

بترت عبارتها بإرادتها هذه المرة، مع ذلك الشحوب الشديد، وتلك النظرات الزائغة، التي تمتلئ برعب هائل، يطل من عيني والدها،

الذي هتف:

- يا ألهى! لماذا فعلت هذا.. لماذا فعلت هذا

قالت وهي تكاد تبكى ذعرا:

- وما الذي فعلته يا أبي لقد التقيت بـ (مفيد)، وتحدثت إليه قليلا

صاح في انهيار:

- وهل كان من العسير أن نعثر عليه؟ زيارة واحدة للقرية كانت تكفي.. ألم تفهمى بعد سر عزوفنا عن العودة لقريتنا؟ ألم تفكرى لحظة في أسرتك، وفي عواقب فعلتك هذه؟
سالت الدموع من عينيها بالفعل، وهي تردد:
- انني لم..
قاطعها مواصلا:
- ألا تعلمين أننا نتصارع هنا، لنحيا وسط خضم البشر، وأنني أحتمل كل ما أحتمل، في سبيل هذه الأسرة..
انهارت تماما، وهي تقول:
- أعلم يا أبي.. أعلم
سألها في غضب:
- وهل أخبرت (مفيد) بك بعملي ومحل إقامتنا؟
انكمشت في خوف، وهي تقول:
- نعم.. لقد أخبرته
أخفي وجهه بكفه. وهو يهتف
- رحماك يا إلهي! ثم اغرورقت عيناه بالدموع، وهو يضيف:
- الله وحده يعلم ما الذي يمكن أن يفعله بنا (حسين) بك، عندما يعلم ما حدث.. لقد جنيت على أسرتك كلها يا (مديحة).. حطمتنا جميعا مرة أخرى يا بنيتى.
هوى قلبها بين ضلوعها كالصريع، وعبارة أبيها تتردد في عقلها لقد حطمت أسرتها..
حطمتها مرة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت لحظة، ساد فيها الصمت التام، داخل سراى (البنهاوي) وكأنما توقف الزمن، وجمدت عقارب الساعة، وتحول الجميع إلى تماثيل من الرخام، قبل أن ينفجر (حسين) فجأة كبركان ثائر، وهو يصرخ:
- أنتِ؟! أنتِ أيتها الحقيرة صاحبة أرض (البنهاوي)..
هتفت به (فاطمة) في حدة:
- نعم.. أنا الأن صاحبة الأرض، وكل شيء بالقانون.. أنت كتبت الأرض باسم والدي، وهو منحها لزوجي. وزوجي اعطاني توكيلا عاما.
هوى (حسين) على وجهها بصفعة كالقنبلة، وهو يصرخ:
- اخرسي
القتها الصفعة ارضا، و (توحيده) تهتف:
- انها تستحق القتل
أما (شريفة). فصاحت:
- انت أيتها الحقيرة تملكين أرض (البنهاوي)؟ .. موتك أهون من هذا.
نهضت (فاطمة هاتفة:
- بل أمتلكها.. كل قيراط من ارض (البنهاوي) مسجل باسمي.. كل شبر هنا أصبح ملكا لي، حتى هذا السراى.
صرخ (حسين) مرة أخرى:
- قلت اخرسي
وراح يهوى على وجهها بصفعات قوية متتالية، وهي تصرخ ليس من حقك أن تضربني هكذا.. ان لي زوجا يحميني.
ولكن (حسين) لم يتوقف عن صفعها، حتى سقطت أرضا، فانحنى يجذبها من شعرها في قسوة، وهو يقول:

- سألقى اباك في السجن.. إنني أحمل عقدا موقعا منه، يعيد إلى ملكية الأرض.
هفت وهي تحمي وجهها بيدها
- لقد سرقته.. لم تعد تلك الأرض أو العقد معك.
تراجع هاتفا:
- سرقته؟
ثم انتزع حافظة أوراقه من جيبه بحركة حادة، وفحص محتوياتها في سرعة، قبل أن يحتقن وجهه، ويهتف:
- أيتها الحقيرة
صاحت في شماتة:
- الم اقل لك؟ كل شيء قانوني.. أرضكم أصبحت ملكى
أمسك عنقها في يده وهو يهتف:
- سأقتلك إذن، قبل أن تنعمي بذرة رمل منها اختنق صوتها، وهي تقول:
- اقتلني، وسيرث ابني الأرض.
وفي هذه اللحظة خرج (حافظ) من حجرته، واتسعت عيناه في ذعر، وهو يرى ما يفعله شقيقه، وهتف:
- (حسين).. ماذا تفعل؟
وانفجر (طارق) باكيا، وهو يهتف باسم أمه في هلع، فتراخت أصابع (حسين)، من حول عنق (فاطمة)، وتراجع خطوة في رهبة، ونهضت (فاطمة) تسعل في شدة، في حين تفجرت الدموع من عيني (حافظ)، وهو يردد:
- ماذا تفعل يا (حسين).. ماذا تفعل؟
اندفع نحوه (حسين)، وامسكه في قوة، وهو يقول:
- أخبرني.. هل منحت تلك الحقيرة توكيلا شاملا؟
ارتجف (حافظ) من قمة رأسه، حتى أخمص قدميه، وهو يقول:

- نعم.. لقد منحتها أياه.. إنها زوجتي.. أليس كذلك؟ أليس كذلك يا (حسين)؟
صاح به (حسين)، وهو يهزه في قوة:
- ألغ هذا التوكيل أيها الغبي.. سأصحبك الآن إلى الشهر العقاري، لتلغيه على الفور.
هتفت (فاطمة في شراسة:
- لن يفعل.. لن أسمح له بفعل هذا
التفت إليها (حسين) بكل ثورته، وجذبها إليه في قسوة، هاتفا:
- لا يهمني أن يفعل.. سأحصل على شهادات من الأطباء النفسيين تؤكد أنه غير مؤهل عقليا لمنحك مثل هذا التوكيل، وسأحجر عليه.
صاحت في حدة:
- ولكن الأرض لن تعود كلها إليك أبدا.. أبدا
احتقن وجه (حسين) في شدة.. انها على حق.
لقد أصبحت الأرض ملكا لـ (حافظ) رسميا، ولو تم الحجر عليه الان، فستعود الى الجميع، وليس إليه وحده.
وسيفقد سطوته..
سيفقد أرض (البنهاوي)، التي يستمد منها جزءا من قوته، وسط الأسرة كلها..
ولكن لا.
لن يسمح بهذا ابدا
وفي صرامة وقسوة، أنعقد حاجبا (حسين) في شدة. وقال:
- لا يا بنة (عبد الحميد).. لن تهزمي (حسين البنهاوي) أبدا إنك لا تصلحين حتى خصما له.
والتفت الى (شريفة)، قائلا:
- أرسلي في طلب جندي الحراسة من سيارتي.

هرعت (شريفة) لتنفيذ ما طلبه، في حين قالت (فاطمة) في عصبية، زادتها خشونة صوتها حدة:
- حتى لو أدخلتني السجن. ستظل الأرض ملكا لـ (طارق).
رمقها بنظرة احتقار شديدة، حتى وصل جندي الحراسة، فالتفت إليه قائلا في حزم:
- احتجز هذه المرأة في حجرتها، وأطلق عليها النار بلا تردد. لو اعترضت بحرف واحد.
شحب وجه (فاطمة) في شدة.
وهتف (حافظ) في ارتياع
- لا يا (حسين).. لا تقتلها.. أرجوك
انتزع (حسين) منه (طارق) في صرامة، وناوله للجندي، قائلا
- واقتل معها هذا الصغير ايضا .
صرخ (حافظ) في رعب:
- لا.. لا يا (حسين)،
أما (فاطمة) فقد تراجعت في هلع، وارتجف قلبها على صغيرها.
وهتفت (شريفة):
- حسين).. إنك لن.
قاطعها (حسين) في ثورة:
- اصمتي ثم جذب(حافظ) من ذراعه، وقال في قسوة بالغة:
- هيا يا شقيقي العزيز.. سنذهب معا إلى الشهر العقاري، وهناك ستقوم بإلغاء التوكيل، وتسجيل الأرض باسمي.. هل تفهم:
بكى (حافظ) في انهيار، وهو يقول:
- سأفعل كل ما تطلبه يا (حسين).. كل ما تطلبه.. ولكن لا تؤذ أبني أرجوك.
صاح به (حسين):
- هيا اذن.

جذبه في عنف إلى الخارج، وعندما وصل معه إلى باب السراي، التفت إلى (فاطمة)، وقال في غضب مخيف:
- سنعيد الأمور إلى نصابها، ثم يأتي دورك ودور والدك الحقير
ثم انصرف مع (حافظ)، تاركا سحابة سوداء داخل السراي
سحابة مخيفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استقبل (عبد الحكيم) (عمر) في منزله بالترحاب، فصافحه في حرارة، ودعاه إلى الدخول، وهو يقول:
- كيف حالك يا رجل؟ لم نعد نراك إلا لماما
غمغم (عمر):
- إنها مشاغل الدنيا
فسأله (عبد الحكيم):
- وكيف حال مناحل العسل هذا العام؟
أجابه (عمر) في اقتضاب:
- جيدة ثم سأله:
- ألا تفكر في بدء أعمال جديدة؟
ابتسم (عبد الحكيم)، وقال:
- إنني أكتفي بإيراد الحدائق هذه الأيام
هز (عمر) رأسه، وقال:
- لا يا رجل.. لن يكفيك هذا مع مرور الزمن، ولابد لنا من عمل جيد، يناسب العصر.
سأله (عبد الحكيم):
- مثل ماذا؟
مال نحوه، قائلا

- المقاولات مثلا ..
هتف (عبد الحكيم):
- المقاولات؟! ومالنا نحن بها يا رجل؟
قال (عمر) في حماس:
- ألن تبدأ الدولة مشروع السد العالي. بعد فترة قصيرة؟ سيحتاجون حتما إلى عدد من شركات المقاولات، وهذه فرصتنا.
تراجع (عبد الحكيم)، قائلا:
- لا أحد يعلم بعد ما الذي سيحدث. بالنسبة للسد العالي
هتف (عمر):
- ماذا تعني بأن أحدا لا يعلم بعد؟ ألم يعلن (عبد الناصر) نفسه أنه سيقبل عرض التمويل السوفيتي، لو سحب الأمريكيون والبريطانيون عرضهم؟
أجابه (عبد الحكيم):
- هذا صحيح، ولكن بقاء (عبد الناصر) نفسه صار أمرا محاطا بالشكوك، فقد تشتعل الحرب، و.
صاح (عمر):
- وماذا؟ ثم أضاف في عصبية:
- لابد لنا من العثور على عمل بديل.. لقد أصبحت أمقت هذه القرية. التي أنجبت شخصا مثل (حسين البنهاوي).
ارتبك (عبد الحكيم)، وهو يقول:
- اخفض صوتك يا رجل، لا نريد مشاكل
سأله في سخرية:
- أتخشى أن يسمعك؟
أجابه (عبد الحكيم) في اضطراب:
- إنه هنا.
سأله في دهشة

- هنا في منزلك؟
هز رأسه نفيا، وقال:
- بل في القرية.. لقد أخبرنا (بسيونى) أنه في السراى، فذهبت (توحيده) لمقابلته.
انعقد حاجبا (عمر) في مقت، وقال:
- فليلعنه الله في كل خطوة يخطوها.
ابتسم (عبد الحكيم)، وقال:
- ألم تنس ما فعله بك بعد؟
هز رأسه نفيا، وأجاب:
- وكيف يمكنني نسيانه؟
ثم نطقت كل خلجة من خلجاته بالمقت الشديد، وهو يضيف:
- ويوما ما سيدفع (حسين) ثمن ما فعله بى.. وسيكون الثمن باهظا.. باهظا جدا.
وارتجف (عبد الحكيم) وهو يستمع إلى هذه العبارة، وإلى الأسلوب الذي نطقها به (عمر)، وأيقن أن الأيام القادمة تخفي الكثير لـ (حسين)..
الكثير جدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

63 – انهيار..

لم تبك (سوسن) هذه المرة ..
لم تذرف قطرة دمع واحدة..
لقد رات (مفيد) يتركها وحدها، ويخاطر بعبور الطريق في لهفة. ليلتقي بحبيبته القديمة، ثم يسير معها، وقد نسي او تناسى وجودها تماما.
رأت هذا يحدث أمام عينيها، وسمعت دوي قلبها يتحطم في أعماقها ومادة بها الأرض، وكادت تسقط جثة هامدة.
ولكنها لم تبك، ترنحت قليلا كالذبيحة، وزاغ بصرها وهي تراقبهما يسيران جنبًا الى جنب، ويبتعدان عن مجال رويتها، واصابعهما متعانقة في ود وهيام و (مفيد) لا يلتفت ولو مرة واحدة اليها. وكأنها لم تكن بالنسبة اليه شيئًا..
أو كأنها من العدم.. وربما هي كذلك بالفعل.. إنها لم تعد تشعر حتى بوجودها..
صارت بالنسبة الى نفسها اشبه بالعدم، حتى انها لم تعد تؤمن ان قلبها ينبض بين ضلوعها..
وفي آلية، واصلت طريقها إلى محطة القطار. ولم تشعر إلا وهي تغادره في طنطا. وتسير مترنحة إلى منزلها.
وفي المنزل استقبلتها والدتها في ارتياع وكذلك استقبلها والدها.
لم تكن تبكي او تنتحب كالمرة السابقة، ولكنهما ارتعدا لرؤيتها ولشحوبها الشديد، فهتفت بها أمها:
- ماذا حدث يا (سوسن)
التفتت إليها (سوسن) بلا مشاعر، وقالت:
- لا شيء يا أماه.. لماذا تسألين؟
تحسست أمها وجهها في قلق، وقالت:

- إنك تبدين شاحبة للغاية وسألها والدها الطيب
- اتشعرين بإرهاق يا بنيتي؟
وجدت في سؤاله ملاذا، فغمغمت:
- نعم يا أبي انني مرهقة
قادتها أمها إلى حجرتها، وهي تقول في لوعة:
- ارقدي في فراشك إذن يا بنيتي لا ريب أنهم حسدوك يا صغيرتي، حسدوك على خطبتك. وعلى أسرة خطيبك.
انطلقت في أعماقها ضحكة ساخرة. حسدوها على خطبتها يا لسخرية القدر! انه ليس حسدا، بل تاريخا أو هو حب قديم..
وعندما أغلقت أمها عليها باب حجرتها. راحت تبدل ثيابها في الية ثم ألقت نفسها فوق فراشها، دون أن تسقط من عينيها دمعه واحدة..
نعم.. إنه حبه القديم ذلك الحب الذي كانت تخشى عودته في أية لحظة..
كثيرا ما ارتجف قلبها، وهي تتخيل ما حدث دائما كانت تخشى عودة (مديحة)..
واليوم عادت..
واليوم أيضا أدركت حقيقة مشاعر (مفيد) نحوها. إنه لم يحبها ..
لم يحبها أبدا.. ربما وجد فيها بديلا عن حبه الضائع، أو سدا لفجوة قلبه.. ولكنه أبدا لم يحبها ليس كما أحب (مديحة) على الأقل.. إنه حتى لم يشعر بوجودها، منذ وقعت عيناه، على (مديحة).. لقد نسيها تماما، وهو يتعلق بحبه القديم
كم تحسد هي (مديحة).. كم تحسدها على كل هذا الحب ومع كل هذه الأفكار والذكريات، لم تذرف عيناها قطرة مع واحدة.. ولكن قلبها كان يبكي في مرارة..
يبكي بدموع من دم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أتأمرين بأي شيء يا سمو الأميرة؟...
نطقتها الخادمة في احترام بالغ، وهي تنحني أمام (عايدة)، التي رمقتها بنظرة طويلة خاوية، قبل أن تقول في خفوت:
- لا. ليس الآن
انحنت أمامها الخادمة مرة أخرى، وانصرفت في خفة، في حين عادت الأميرة إلى شرودها، الذي أخرجتها منه الخادمة..
كانت قد استكانت لوجودها في (القاهرة)، بعد تلك المعاملة الكريمة، التي أمر بها (حسين)، وإن لم تفهم بعد سر ذلك السخاء الشديد، الذي يعاملها به، وهي التي كانت تنتظر انتقاما بشعًا عنيفا على يديه.
أما زال يحبها حقا؟! كلماته ولمساته ونظراته، عندما التقى بها، تشير كلها إلى هذا بل تؤكده في شدة. وانطلقت ذاكرتها تستعيد علاقتها القديمة معه.
لقد كان دائما مهذبا، كريما، شهما، في كل تعاملاته معها، في حين لم تكن هي أبدا أمينة أو مخلصة، في تعاملها معه.
ولكنه طموح.. وطموحه هذا هو الذي يدفعه إلى كل ما يفعله ولكن..
لماذا لم يأت لزيارتها، منذ أمر بتسليمها هذه الشقة؟
إنه حتى لم يأمر باحتجازها فيها، فهي تخرج وقتما يحلو لها، وتعود في أي وقت تشاء.
ما الذي يسعى إليه إذن؟
لم يكن من السهل عليها أن تفهم شخصية (حسين) المتناقضة، وإن شعرت في أعماقها بشيء من الاحترام والود تجاهه..

وفجأة انتزعها من شرودها وذكرياتها رنين الهاتف، فأسرعت إليه تختطف سماعته هاتفة:
- أنا (عايدة).
أتاها صوت (جان)، يهتف بالفرنسية:
- أوه.. أخيرا يا (عايدة).. كم يسعدني سماع صوتك.. أأنت بخير؟
لم تشعر بسعادة كبيرة لسماع صوته، فقالت في هدوء:
- نعم يا (جان).. أنا بخير.
صاح في لهفة:
- أيعاملونك هناك معاملة جيدة. هل تركوا لك مجوهراتك؟
تجاهلت سؤاليه، وهي تقول:
- كيف عرفت رقم الهاتف يا (جان)؟
أجابها في شيء من الزهو:
- لدى مصادرى. ثم أضاف في حماس:
- يبدو أنني سأنجح في إعادتك إلى (باريس) قريبًا يا عزيزتي
غمغمت دون حماس:
- حقا؟
- نعم.. لقد وجدت وسيلة جديدة، أظنها ستفلح.. وسيلة مباشرة.
انقطعت المحادثة بغتة، قبل أن يخبرها ما لديه، فهتفت في فضول:
- الو.. هل تسمعني يا (جان).. الو
ولكن لم يجاوبها سوى ذلك الرنين المتقطع الذي يعلن انتهاء المحادثة، فأعادت سماعة الهاتف إلى موضعها، وهي تسأل نفسها عما يعنيه:
ومن ذلك الذي سيتصل به مباشرة..
من..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بكت (فاطمة) في قهر ومرارة، وهي مسجونة مع ابنها في حجرتها.
لم تكن تتصور أبدا أن خطتها واهية إلى هذا الحد
لم تكن تظن أنه من السهل تحطيم كل شيء بضربة واحدة
أو لم تكن تعلم أنها بكل هذا الضعف
لقد رسمت خطتها، وأقنعت والدها بالتحايل على (حسين البنهاوي).. والتصدي له، وهي تتصور أنها ستحصل على الأرض كلها، وستحكم عائلة (البنهاوي)، التي تعاملها بكل هذا الازدراء والاحتقار.
ولكنها تأخرت في خطوة واحدة.
تأخرت في تسجيل الأرض باسمها هي بموجب التوكيل الذي منحها إياه زوجها.
لو أنها فعلت، لصارت الأرض ملكا لها، وأصبح من العسير أن يستعيدها (حسين).
ولكن هل كان من الممكن أن تضحي بصغيرها، من اجل الأرض؟
وهل كان (حسين) قادرا على قتل الصغير بالفعل؟
امتلأ عقلها بالتساؤلات، التي لم تلبث أن انمحت جميعها، ليستقر سؤال واحد في عقلها.
ما مصير والدها، بعد ما حدث؟
ما الذي سيفعله به (حسين)؟
إنه سينتقم منه حتما، ولكن كيف؟
توقفت أفكارها، عندما سمعت صوت سيارة (حسين) تتوقف أمام السراى، وسمعت صوت (حسين). وهو يقول في غضب:
- أين ابنة (عبد الحميد)؟

اندفع الجندي إليها، ودفعها امامه إلى الخارج، ووجدت زوجها منكمشا في رعب، و (حسين) يمسك بعض الأوراق في يده. ويرمقها بنظرة نارية. و (توحيده) تسأله في لهفة:

"

- هل استعدت الأرض؟

أجابها في صرامة، وهو يلوح بالأوراق:

- نعم.. لقد أعاد ملكيتها إليّ رسميا، وسأخصم مصاريف تسجيلها من نصيبه.

ثم أشار إلى (فاطمة)، وانتفض (حافظ)، وهو يقول في ذعر:

- أطلقها؟!

أجابه (حسين) في حدة

- نعم.. ستطلقها الأن اغرورقت عينا (حافظ) بالدموع، وهو يقول:

- لماذا يا (حسين)؟ لقد استعدت كل الأرض، فماذا تريد منها؟

صاح به (حسين):

- قلت لك طلقها.

ارتجف قلب (فاطمة)، وتطلعت إلى زوجها، الذي ارتجف، وهو يقول:

- ولكنها زوجتي يا (حسين).. زوجتي وأم طفلي الوحيد.

قال (حسين) غاضبًا:

- هذه الحقيرة لا تستحق الانتماء إلى عائلة (البنهاوي).

خفض (حافظ) عينيه، وقال:

- لا يا (حسين).. لا يمكنني تطليقها

خفق قلب (فاطمة) في قوة، عندما نطق زوجها هذا إنها لم تكن تتوقع منه هذا الموقف..

- - - - -

لم تكن تنتظر أن يواجه (حسين)، الذي يخشاه الجميع، بكل هذه الصلابة.

.
وأن يرفض تطليقها بهذا الحزم..
لقد قبل إعادة الأرض إلى (حسين) دون مناقشة، ولكنه لم يقبل تطليقها.
وتضاعف حبه في قلبها، مع هذا الموقف.
تضاعف أضعافا مضاعفة، وهي تتمنى لو تحيط رأسه بذراعيها، وتسنده على صدرها، وتمنحه كل حبها وحنانها ودفئها.
ومنحها شعورها هذا قوة، و (حسين) يقول في غضب:
- ستطيعنى أو أحطم رأسك يا (حافظ).. هيا.. طلقها.. الآن
اندفعت تقول في حدة:
- من تظن نفسك يا (حسين) بك؟
صحيح أنك تملك السلطة ولكنك لست إلها، ولن يمكنك إجبار رجل على تطليق زوجته قط.
صرخ في وجهها:
- اخرسي أيتها الحقيرة.. قتلك أفضل من انتمائك لعائلة (البنهاوي).
أطلقت شهقة استنكار عالية، وهتفت:
- ومالها عائلة (البنهاوي) يا (حسين) بك.. أتظنها عائلة الشرف والعفاف؟
صاح غاضبًا:
- إنها كذلك برغم أنفك
أطلقت ضحكة عصبية ساخرة، وقالت:

- وما دامت كذلك، فلماذا تتسلل سليلة عائلة الشرف والعفاف إلى الحديقة، في ظلام الليل، لتلتقي ب (أمجد) بك.
اتسعت عينا (شريفة) في رعب، وعجزت قدماها عن حملها فتهاوت جالسة، وحدقت (توحيده) في وجهها بذهول، في حين انعقد حاجبا (حسين) في غضب هادر وهو يرمي (فاطمة) بنظرات مشتعلة كالحمم، قبل أن يلتفت إلى (شريفة)، قائلا في ثورة:
- أهذا صحيح؟
نظرة واحدة إلى وجه شقيقته، كانت تحمل الجواب
كل خلجة من خلجاتها كانت تنبىء باعتراف صريح، لا يقبل الشك.
وعلى الرغم من هذا كرر (حسين) بغضب الدنيا كلها:
- هل كنت تلتقين ب (أمجد) سرا هنا؟
أومأت برأسها ايجابًا في انهيار، فضربت (توحيده) صدرها براحتها، هاتفة:
- أنت يا (شريفة)؟ تفجرت الدموع من عيني (شريفة)، وهي تقول في انهيار:
- لم نرتكب أي خطأ.. إنه يريد الزواج منى فحسب، ولقد رفض (حسين) مطلبه، فلم يكن أمامنا الا هذا.
صاح (حسين)، وهو يضغط أسنانه في غضب:
- يا للحقير!
ثم التفت إلى (فاطمة)، مستطردا في غضب مكتوم:
- عودي إلى حجرتك، واعتبري نفسك سجينة هنا، حتى انتهى من إعادة النظام إلى العائلة كلها، ومعاقبة من أساء إليها.
هتفت (شريفة)، في هلع:
- ماذا ستفعل به؟ إنه لم يرتكب أي خطأ.. إنني..

قاطعها بصيحة صارمة:
- اخرسي.. لا أريد كلمة واحدة. اندفع نحو باب السراي، وهو يهتف بجندية:
- هيا بنا
تبعه الجندي عدوا، في حين هتفت (توحيده):
- هل ستعود؟
التفت إليها، وقال في صرامة:
- فيما بعد.. عندما يعود كل شيء إلى مجراه.
وغادر السراى، وقد أدرك جميع من فيه أن البركان قد ثار، ولن يهدأ حتى تلتهم حممه الجميع..
وبلا رحمة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

64 – الغضب..

مضت دقيقة كاملة من الصمت، والأميرة (عايدة) تتبادل نظرة ملؤها الدهشة والحيرة والقلق، مع (حسين)، الذي لم يلبث أن قطع حبل الصامت قائلا:

- أتسمحين لي بالدخول؟

- عندما أخبرتني الخادمة بوجود من يطلب مقابلتى، لم أتصور أبدا..

صمت متطلعا إليها في ارتياح، وارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة لا تعكس أبدا ذلك البركان الثائر في أعماقه، فأفسحت له الطريق، قائلة:

- تفضل يا (حسين) بك.. تفضل.

تقدم إلى الداخل في خطوات بطيئة، ثم التفت إليها وهي تغلق الباب، وتأملها وقلبه يخفق في هيام..

لقد تغيرت بعض الشيء، عن آخر مرة رآها فيها، قبل رحيلها إلى (باريس)..

صارت أكثر جمالا ونضجا وأكثر فتنة..

وعندما التفتت تواجهه، خفقت أجنحة قلبه، وهو يهم بالطيران إليها والغوص في بحر عينيها الواسعتين، فتمتم بصوت متهدج:

- شعرت بالحاجة إلى رؤيتك.

قادته إلى حجرة الصالون في رقة، وهي تقول:

- كنت أنتظرك منذ زمن.

جلسا متقابلين، وكلاهما يتطلع إلى الآخر في صمت.. وفي هذه اللحظة أيقن أنه يحبها.

اعترف بهذا دون تردد، مع تلك العاطفة الجياشة، التي سرت في عروقه، وهو يتطلع إليها.

وتساءل في حيرة عن حقده القديم عليها، وعن رغبته السابقة في تحطيمها واذلالها..
تلك الرغبة التي تحطمت وتلاشت تماما، عندما رآها أمامه منهكة مقيدة ذليلة.
وهي أيضا سألت نفسها عن حقيقة شعورها نحوه..
لقد كانت تتصور أنها تمقته، وتتمنى إذلاله وإهانته، باعتباره رمزا لتلك الثورة، التي انتزعت منها لقبها وثروتها وعلو شأنها يوما ولكنها، وهي تجلس أمامه الان، تجده شخصا يختلف كثيرا، عن الصورة التي رسمها عقلها قديما.
إنه مجرد رجل..
رجل تثبت كل خلجة وكل لمحة في جسده أنه غارق في حبها، من قمة رأسه، وحتى أخمص قدميه..
وما الذي تتمناه المرأة، أكثر من هذا؟
حتى لو كانت هذه المرأة أميرة، فهي لن تسعد بأكثر من رجل يمنحها كل هذا الحب.
وكل ذلك الاحترام.
وفي خفوت، سألته:
- لماذا لا تبدو بخير؟
أجابها وهو يتنهد في عمق:
- انني عائد من قريتي على التو
سألته في اهتمام
- أتوجد مشكلات هناك؟
أومأ برأسه متمتما:
- كالمعتاد
التقطت من علبة سجائرها سيجارة، وقدمت إليه أخرى، فرفضها بإشارة من رأسه، جعلتها تسأله، وهي تشعل سيجارتها:

- أما زلت لا تدخن؟
أومأ برأسه ايجابا، وقال:
- ويضايقني مشهد المرأة المدخنة.
ترددت لحظة أمام عبارته، وكادت تطفي سيجارتها، احتراما لرأيه، إلا أن عنادها لم يلبث أن غلب عقلها، فواصلت تدخين سيجارتها في عمق، وهي تقول:
- ما نوع المشكلات هذه المرة؟
وجد نفسه يندفع قاصًا على مسامعها مشاكله كلها، وكأنما كان ينتظر منها هذا السؤال ويتمناه..
قص عليها قصته مع (عبد الحميد) و (فاطمة) ومشكلة (شريفة) و(أمجد).. واستمعت إليه هي في اهتمام، ثم هزت رأسها، قائلة:
- ولكن أية مشكلة في موضوع شقيقتك وزميلك هذا؟ إنهما يميلان إلى بعضهما البعض، فلماذا لا يتزوجان؟
عقد حاجبيه في توتر. وهو يقول
- لقد رفضت زواجهما من قبل.
هزت كتفيها، قائلة في بساطة:
- اقبله الأن
هز راسه في قوة. قائلا في عناد غاضب:
- لا.. لن يضطرني ذلك الحقير إلى الموافقة على ما رفضت من قبل إنني لن أغفر له هذا أبدا.. سأحطمه تحطيما.
قالت في سخرية
- وتحطم معه سمعة شقيقتك
ازداد انعقاد حاجبيه في شدة، وهو يقول:
- ماذا تعنين؟
أجابته وهي تنفث دخان سيجارتها في عمق:

- سينتشر الخبر حتما، وحتى لو حاولت إخفاء الأمر، سيعلم الجميع أن علاقة (أمجد) بـ (شريفة)، هي السبب في قتالك له.
صمت لحظة، مفكرا فيما قالته، ثم قال في صرامة
- ليس الا إذا كان هناك سبب منطقي لتحطيمه
سألته، وقد عاودتها الرغبة في معاندته:
- وأين ستجد هذا السبب المنطقي؟
أجاب في حدة:
- سأجده حتما
ثم نهض دفعة واحدة، مستطردا:
- الأمر يحتاج إلى بعض الصبر فحسب
وذهبت صرامته بغتة، وهو يتطلع إليها، قائلا
- أهناك ما تحتاجين إليه؟
أرادت أن تستغل الفرصة، وتطلب منه إعادتها إلى (باريس)، إلا أن هذا بدا لها أشبه باعتراف بالهزيمة، فهزت رأسها نفيا في كبرياء، وقالت:
- لست أحتاج شيئا.
ابتسم مغمغما:
- أراك فيما بعد.
وانصرف تاركا إياها في حيرة من مشاعرها نحوه، ولكن هذه الحيرة لم تلبث أن تلاشت، وحلت محلها رغبة عارمة في الانتصار عليه، فقفز ذهنها إلى (جان)، وعادت تسأل نفسها مرة أخرى..
من هذا الذي اتصل به (جان)؟
من هو؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تطلع (مفيد) إلى ساعته في لهفة، وهو يجلس في (جروبى)، ويرفع عينيه بين لحظة وأخرى إلى الباب، في انتظار حضور (مديحة)..
لقد تواعدا على اللقاء هنا.. وهي لم تحضر بعد..
لم يكن من عادتها أبدا أن تخلف موعدها، وكان يقلقه في شدة أن تفعل هذه المرة، فراح يلتمس لها الأعذار، متعللا بأن (القاهرة) تختلف عن القرية، وأن بعض اختناقات المرور قد تحول بينها وبين وصولها في موعدها..
ولكن الوقت راح يمضي، ويمضي، دون أن تأتي (مديحة)..
وتصاعدت نبضات قلب (مفيد)، مع كل لحظة تمر.
مع كل دقيقة وكل ساعة.
ثم انهار قلبه تماما، وكاد يتوقف عن النبض، عندما انتبه إلى أن ساعتين قد مضيتا، على موعدها معه..
ولم يعد هناك مبرر للانتظار إنها لن تحضر حتما
شيء ما منعها من الحضور
شيء لا يدركه هو
وغادر (مفيد) المكان، وهو يشعر بشعور أشبه بالذعر
ماذا أصابها؟
أي شيء منعها من الحضور؟
واستوقف أول سيارة أجرة صادفته، وألقى عنوان (مديحة) لسائقها، ثم جلس داخلها يرتجف، من فرط انفعاله..
كان يسترجع ذكريات تجربته السابقة معها
ذكريات حبهما وفراقهما.. وفي أعماقه وجد نفسه يلعن (حسين)، الذي تسبب في كل هذا

وبالكاد منع دموعه من الانهمار، وإن غامت الدنيا أمام عينيه، فلم يعد يرى سوى صورتها، تطل من قلبه الحزين..
وأخيرا بلغ العنوان وبكل لهفته وتوتره، صعد إلى حيث شقتها، وراح يطرق بابها وما من مجيب وعندما ارتفع صوت طرقاته، خرجت إليه جارتها، وسألته في حذر:
- من تريد هنا؟
أجابها في لهفة:
- عم (اسماعيل)، وابنته الانسة (مديحة) مصمصت شفتيها في حسرة، وقالت:
- ليتك وصلت منذ نصف ساعة فقط.
سألها في جزع:
- ماذا حدث هل أصابهم مكروه؟
هزت راسها نفيا في قوة، هاتفة
- بعد الشر ثم تراجعت وزفرت في حرارة، مستطردة. لقد انتقلوا من هنا، منذ نصف الساعة فقط.
- انتقلوا!!
أصابت الكلمة قلبه كقنبلة شديدة الانفجار. واشتعل عقله وهو يستند إلى الجدار خشية السقوط..
لقد فقد (مديحة)..
فقدها مرة ثانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انخرطت (شريفة) في بكاء حار، بعد رحيل (حسين) لم تكن تصدق أن قصة حبها الوحيدة قد انتهت، على هذا النحو وكانت تشعر بالخوف الشديد على (أمجد). من انتقام (حسين).. ترى ماذا سيفعل به... أي عقاب سينزله بالرجل الذي منحته قلبها.. وأية

جريمة ارتكبها (أمجد)، ليستحق هذا.. أجريمته أنه أحبها؟ أخطيئته أن طلب الزواج منها، على سنة الله ورسوله؟
لماذا يفعل بها (حسين) هذا؟ لماذا هي، من دون شقيقاتها؟ كلهن تزوجن وأنجين حتى (ناهد) حتى شقيقتها الصغرى..
فلماذا هي؟
وعلى الرغم من دموعها، التي تنفطر لها القلوب، هتفت بها (توحيده) في غضب:
- أنتِ يا (شريفة)؟! أنت تفعلين هذا؟
صاحت بها (شريفة):
- وماذا فعلت؟ إنني لم أرتكب خطيئة.
هتفت بها (توحيده):
- بل ارتكبت.. التقيت بشاب غريب، من خلف ظهورنا جميعا وجعلت جربوعة مثل ابنة (عبد الحميد) تطعننا بك.
بكت (شريفة)، وهي تقول:
- أمن العار أن أحب وأتزوج؟
أجابتها في صرامة:
- بل من العار أن تحبي دون زواج
صاحت معترضة:
- فليوافق (حسين) على زواجنا إذن
أجابتها (توحيده) في حدة:
- لن يوافق بعد ما حدث
صرخت:
- لماذا
صاحت (توحيده) :
- لأن الناس ستقول إنه قبل زواجكما مرغما لفضيحة ما
صرخت (شريفة):

- فلتقطع ألسنتهم.. من يجرؤ على القول؟
أجابتها (توحيده):
- (فاطمة) على الأقل.
صاحت (شريفة)
- تلك الحقيرة.. سأقطع لسانها لو..
قاطعها صوت (فاطمة)، وهي تقول في خشونة
- لو ماذا يا سليلة الحسب والنسب؟ هل ادعيت عليك شيئا كذبا؟
أجابتها (شريفة) في غضب:
- أنت سبب البلاء كله
هزت (فاطمة) وسطها الغليظ، وقالت:
- لماذا يا سيدة الدار؟ هل كذبت، أم خدعت؟ إنني يا حلوة زوجة أمينة مخلصة، لم أخن زوجي قط.
صاحت بها (توحيده):
- بل أنت سارقة حقيرة.. أنسيت سرقتك للعقد، ومحاولتك لسرقة أرضنا؟
عقدت (فاطمة) حاجبيها الكثين، وقالت:
- لا.. لم أنس هذا.
ثم استدارت، ودخلت إلى حجرتها، وصفقت بابها خلفها في عنف
فهب (حافظ) من نومه، صائحا في فزع:
- ماذا حدث؟
اقتربت منه، وربتت عليه في حنان، وهي تقول:
- لا شيء يا (حافظ).. واصل نومك.. لم يحدث شيء
سألها وهو يعود إلى نومه في اطمئنان:
- ظننت أحدهم يقتحم الحجرة
أجابته في خفوت:
- لا أحد يجرؤ على هذا

ثم أضافت في غضب:
- ويوما ما ستجدهم جميعا هنا، يطلبون رضاك.. وسترى
وفي أعماقها برز سؤال ضخم أيمكن أن يأتي هذا اليوم حقا؟
وبقي السؤال دون جواب في الوقت الحالي
على الأقل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

65 - الضياع..

على الرغم من مرور أسبوعين على لقاء (مفيد) بـ (مديحة)، إلا أن (سوسن) لم تذرف بعد قطرة دمع واحدة..

ولم تلتق بـ (مفيد)..

إنه لم يحاول الذهاب إليها، والاعتذار حتى عن موقفه، وكأنه نسى وجودها تماما، مع ظهور (مديحة)..

والعجيب أنها استسلمت للأمر تماما، كما لو لم يكن يعنيها..

صحيح أنها سألت في البداية عن (مفيد)، وعلمت أنه أصبح يستقل قطار الفجر إلى (القاهرة)، وأنه حصل على إجازة طويلة من عمله، ولكنها لم تعد تسأل بعد هذا

تقبلت مصيرها في استكانة، دون أن تقاوم، أو تدافع عن حبها كانت تعلم أنها الخصم الأضعف في هذا الصراع.

(مفيد) نفسه أعلن هذا، وحسم الأمر، عندما نسى وجودها، مع ظهور (مديحة)..

وفي آلية، واصلت حياتها، وكأن شيئا لم يكن.. ولكن الجميع شعروا بما أصابها الجميع انتبهوا إلى أن (سوسن) لم تعد كما كانت..

صحيح أنها تحضر في نفس الموعد، وتستقل نفس القطار، وتتناول نفس الأطعمة، ولكن كل هذا كان يفتقر إلى شيء هام..

إلى الروح.. كل أفعالها كانت خالية من الروح والمشاعر لم تعد تبتسم. أو حتى تتجاوب مع الأخرين.

وذات يوم..

، سألتها إحدى زميلاتها

- ماذا أصابك يا (سوسن)؟

التفتت إليها (سوسن)، وسألتها بلهجة خاوية من أية انفعالات:

- وماذا أصابني؟
أجابتها زميلتها مشفقة
- إنك تبدين كما لو أن شيئا في العالم لم يعد يهمك.. أين مرحك المعهود؟ أين سعادتك كلما تحدثت عن خطيبك؟ وبالمناسبة.. أين هو؟
هل هو سبب كل هذا؟
لم تجب (سوسن)..
لم تشعر بالرغبة في أن تجيب.
وفي لامبالاة، تركت زميلتها، دون أن تمنحها جوابا، وعادت تواصل عملها في هدوء.
وحتى في منزلها، بكت والدتها طويلا، وهي تسألها:
- ماذا أصابك يا (سوسن)؟ أخبريني يا بنيتي.. أرجوك.
أجابتها في هدوء شديد:
- لم يصبني شيء يا أماه.. أؤكد لك
سألتها أمها في حزن:
- لماذا لم يعد (مفيد) يأتي لزيارتنا إذن؟ هل تشاجرتما؟
هزت (سوسن) رأسها نفيا، وقالت:
- صدقيني يا أمي.. لم نتشاجر.. لم نتشاجر قط.
جفف والدها دموعه، وقال لأمها سرا:
- هناك خلاف بينهما.. هذا واضح للغاية
وعندما اختلى بأمها في حجرتهما، قال في حزن وحسم:
- سأذهب إليه
لم تعترض الأم، على الرغم من أن هذا يخالف التقاليد، التي نشأت عليها..
لم تعترض، لأن الشيء الوحيد، الذي كان يهمها، هو ابنتها..
ابنتها فقط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رفع (مراد صقر) عينيه إلى (حسين)، وهو يقول له في صرامة:
- تعال يا (حسين)
اقترب منه (حسين)، حتى وقف في مواجهته تماما، وقال:
- أمرك يا (مراد) بك
سأله (مراد) في اهتمام:
- ما أخبار رجلك في (إسرائيل)؟
أجابه (حسين):
- رجل (عبد المحسن) بك أرسل تقريرا شفريا ماما، يقول فيه أنه واثق من وجود اتصالات فرنسية بريطانية مع المسئولين في (إسرائيل)، ولكنه لم يؤيد هذا بأية وثائق، أما الرجل الذي زرعناه نحن، فهو في موقع أفضل، يتيح له الحصول على المعلومات والوثائق المطلوبة، ولكنه يعجز - في الوقت الحالي - عن الخروج من (اسرائيل)، ولا توجد وسيلة للحصول على ما لديه من معلومات.
قال (مراد) في صرامة:
- لا وجود لهذه العبارة في عالمنا يا (حسين).. ابحث عن وسيلة للحصول على المعلومات، حتى لو اضطررت إلى إرسال أحد رجالنا إلى (إسرائيل)، لمقابلة عميلنا هناك، والحصول منه على المعلومات المطلوبة.
برقت عينا (حسين)، مع سماعه الجملة الأخيرة، وقال:
- سنفعل يا (مراد) بك.. سنجد الوسيلة حتما.
ثم انصرف من حجرة (مراد صقر) في سرعة، فالتقى حاجبا (مراد) في كراهية، وغمغم:

- نعم إفعل يا (حسن). فقد تكون هذه آخر عملياتك معنا
والتقط سماعة هاتفه، وطلب رقما خاصا، وقال:
- مساء الخير يا سيادة المشير.. إنه أنا.. (مراد صقر).. كيف حالك أنت؟ شكرا لك.. اعذرني، فما سأخبرك به سيضايقك بعض الشيء..
ثم اعتدل، مستطردا:
- لا.. إنه أحد رجالى.. ولقد قام بهذا العمل القذر لحسابه الخاص بالطبع.. سأخبرك..
وابتسم في خبث مظفر، وهو يردف:
- سأخبرك بكل التفاصيل.
أما (حسين)، فقد عاد إلى مكتبه، وهو يفكر في عمق، والتقى هناك بـ (صلاح)، الذي سأله بخبثه المعتاد:
- هل كان اللقاء مع (مراد) بك جيدا؟ أجابه (حسين) في شرود:
- نعم.. كان يقترح إرسال أحد رجالنا إلى (إسرائيل)، للحصول على المعلومات، من عميلنا هناك.
هتف (صلاح):
- إلى (إسرائيل)؟ ولكن هذا خطأ عمليا يا (حسين) بك فالموقف الان مشتعل، و (إسرائيل) تفكر في التدخل عسكريا، وهذا يعني أنهم سيكونون شديدي الحذر هناك، ومن العسير التسلل وسط صفوفهم، والأفضل أن يحاول عميلنا الاتصال بعميل (عبد المحسن) بك هناك، وينقل إليه المعلومات المطلوبة.
ابتسم (حسين) في شرود، وهو يقول:
- ولكن (مراد) بك طلب إرسال أحد رجالنا هناك، وعلينا تنفيذ امره.
أدرك (صلاح) على الفور أن (حسين) يخطط لشيء ما، فمال نحوه، يسأله:

- هل تقترح رجلا بعينه يا سيدى؟ صمت (حسين) لحظات، ثم التفت إليه، قائلا:
- (أمجد).
تألقت عينا (صلاح)، وتراجع متطلعا إلى (حسين) في دهشة، قبل أن يقول في خبث:
- ولكنها مهمة بالغة الخطورة، وقد لا يعود المكلف إياها قط
هز (حسين) كتفيه، وقال:
- سيكون هذا قدره
ارتسمت على شفتي (صلاح) ابتسامة خبيثة كبيرة، وهو يقول:
- أهذا بسبب الأنسة (شريفة)؟
التفت إليه (حسين) في حركة عنيفة، وانعقد حاجباه في غضب فقال (صلاح) في سرعة:
- انها أول مرة أذكر فيها هذا لأي مخلوق.
ظل (حسين) يتطلع إليه لحظات في غضب، ثم أشاح بوجهه، قائلا في صرامة:
- اتصل بـ (أمجد). وقل له أن يستعد للسفر على الفور
ثم انعقد حاجباه في صرامة أكثر، وهو يستطرد:
- إلى قلب (إسرائيل)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك من يطلب مقابلتك يا عم (اسماعيل)
ارتجف جسد (إسماعيل) في قلق، عندما سمع عبارة زميله، وترك الأوراق المعدّة للطباعة، واتجه في خطوات متوترة إلى حجرة الانتظار ولم يكد يعبر بابها، حتى تجمد في مكانه، وتمتم في لهجة أقرب إلى الارتياع:

- (مفيد) بك!!
تطلع إليه (مفيد) بوجه شاحب، وعينين زائغتين، ونهض هاتفا في لهفة:
- عم (إسماعيل).. أخيرا وجدتك.
تهالك (إسماعيل) في استسلام، واتجه في خطوات أشبه بالزحف إلى حيث يقف (مفيد)، وجلس إلى جواره، وهو يقول في خفوت يعكس مرارته:
- كيف عثرت على؟
أمسك (مفيد) يده، وهو يقول:
- (مديحة) أخبرتني أنك تعمل في مجال الطباعة، في جريدة (الأهرام)، فذهبت أبحث عنك هناك، وعلمت منهم أنك تركت العمل، فجردت الصحف ومطابعها، حتى عثرت عليك هنا..
ثم أردف في ضراعة:
- كيف حال (مديحة)؟
تطلع إليه (إسماعيل) لحظات، ثم أشاح بوجهه، قائلا:
- انس (مديحة) يا ولدي
هتف (مفيد) في ارتياع:
- أنساها؟!. كيف تطالبني بهذا يا عم (اسماعيل)؟ ألا تعلم ما الذي يربطني بها؟
صاح به (إسماعيل)
- ألا تدرك أنت كم أعول غيرها؟
ثم انتبه إلى تصاعد صوته، فعاد يخفضه، وهو يتمتم:
- اسمع يا ولدي.. سأحصل على إذن بالانصراف، ونخرج للتحدث في مكان آخر، فمن الخطر أن يسمع بعضهم ما سنناقشه.
أجابه (مفيد) في استسلام:
- كما ترغب يا عم (إسماعيل).. كما ترغب.

حصل (إسماعيل) على الأذن المطلوب، وغادر مبنى الصحيفة مع (مفيد)، وهو يقول:
- ارحمنا يا ولدي.. ارحم أسرة عانت الكثير، لمجرد أنك تحب واحدة من أفرادها.
قال (مفيد) في ألم:
- لماذا تتحدث إلى وكأنني شيطان رجيم يا عم (إسماعيل)؟ أنني لا أطلب سوى ما حلله الله (سبحانه وتعالى)..
أوما الرجل برأسه إيجابا، وقال في مرارة:
- أعلم يا ولدي.. أعلم، ولكن هذا الحلال يراه شقيقك حراما.
صاح (مفيد):
- لن يحرمني (حسين) من (مديحة) مرة أخرى.. سأتصدى له بكل قواى هذه المرة.
هز (إسماعيل) رأسه، وقال:
- من الواضح أنك مازلت صغيرًا.. وأنك تجهل الكثير عن شقيقك وسلطاته يا ولدي.. إنك لن تنجح في التصدي له قط.
قال (مفيد) في عناد:
- بل سأنجح.. سأنجح بإذن الله
هتف به (إسماعيل):
- على جثة من؟ قد يمكنك التصدي لشقيقك، والتشاحن معه.. بل قد يمكنكما أن تتشاجرا بالأيدي، ولكننا - أنا وأسرتي - سنكون ضحية هذا الصراع.. (حسين) بك سيسحقنا بقدمه، في طريقه للصراع معك.
قال (مفيد) في حدة:
- لن يمكنه هذا
ابتسم (إسماعيل) في مرارة، وهو يقول:
- ولكنه فعل من قبل مرة، فما الذي أمكنك فعله حينذاك؟

كانت العبارة أشبه بصفعة على وجه (مفيد)، الجمت لسانه، ومنعته من النطق لحظات، قبل أن يتمتم:
- لم أجد الوقت للتصدي له حينذاك
أجابه في أسي
- ولن تجده هذه المرة ايضا
ثم واجهه في حزن، قائلا:
- أرجوك يا (مفيد) بك.. أرجوك.. لا تحطم أسرة كاملة، لمجرد أنك تحب (مديحة).. صحيح أنك مستعد لفعل المستحيل من أجلها، وهي أيضا مستعدة لتحدي العالم من أجلك، ولكن هذا يعد تفكيرا أنانيا محضًا.. لو أن التقاءكما سيدمر حياتي وحياة أسرتي كلها.. وهي أسرة (مديحة) في الوقت ذاته.
حتى ضميرهما لن يحتمل ما سيحدث، وستعتبرك المسؤول عن هذا إلى الأبد، حتى ولو لم تصرح لك بهذا.
انهار (مفيد)، وهو يقول في لهجة أقرب إلى البكاء:
- ولكنني أحبها
قال (إسماعيل) في مرارة:
- ولكن شقيقك يرفضها يا ولدي.. ويرفضنا بالتالي، وسيكون ثمن زواجكما فادحا.. سيكون أكثر هولا مما تتصور.
ثم أمسك كف (مفيد)، وأضاف متوسلا في ضراعة شديدة:
- انسها يا ولدي.. أرجوك.. أقبّل يديك
قالها وانحنى بالفعل لتقبيل يديه، ولكن (مفيد) سحبهما في سرعة، قائلا:
- أستغفر الله العظيم يا عم (إسماعيل).. أستغفر الله العظيم
انهمرت الدموع من عيني الرجل، وابتعد منهارا، وكأنما تضاعف عمره عشرات السنين، في هذه الدقائق، التي قضاها مع (مفيد)، أو كأنما ناء كتفاه بحمل أنهكهما، فانحنى ظهره في تهالك..

أما (مفيد)، فقد احتواه فجأة شعور بالضياع
مستحيل أن يكون هذا ما حدث!!
مستحيل أن يجد (مديحة) ويفقدها مرة ثانية، على هذا النحو
هل بلغت سطوة (حسين) هذا الحد؟
هل بلغ الظلم ذلك القدر، الذي يحرم حبيبين من التلاقي والزواج؟
أي زمن هذا؟
بل أية دولة؟
وفي ضياع تام، اتخذ طريقه إلى محطة القطار، وكأنما تقوده يد خفية، وضعته داخل القطار، وأيقظته من شروده في محطة (طنطا)، فغادر القطار كالنائم، واستقل واحدة من سيارات الأجرة إلى قريته، دون أن تفارق المرارة حلقه..
لقد علم ما فعله (حسين) بـ (حافظ) و (فاطمة) وعلم قبلها بكل ما يفعله (حسين) بمن يعارضه ولكن مرارته لم تبلغ قط هذا الحد..
حتى في المرة السابقة، عندما حرمه (حسين) من (مديحة)، لم يكن يشعر بكل هذه المرارة..
بل كان يشعر بالقهر
أما في هذه المرة، فهو لا يشعر إلا بالمرارة.
ربما يشعر بها؛ لأن (مديحة) كانت قاب قوسين أو أدنى منه، عندما انتزعها منه الظلم هذه المرة.
الظلم الذي حطم الكبرياء في النفوس، وسلب النفس ايمانها وأمنها.
وعندما غادر السيارة، على مشارف القرية، كان يبدو أكثر شحوبا وتهالكا من عادته، فهتف به (جودة):
- مساء الخير يا (مفيد) بك.. تفضل يا بك.. تفضل
تطلع إليه بنظرات خاوية، ثم وجد قدميه تقودانه إلى المقهى، حيث استقبله (جودة) في ترحاب شديد، وأفرد له مائدة خاصة، في ركن شرفة المقهى، وجلس أمامه، يسأله في خبث:

- ماذا بك اليوم يا بك؟ لست تبدو على ما يرام.
تمتم (مفيد)، في صوت يكاد يقطر بدموع المرارة:
- لا شيء يا معلم (جودة).. لا شيء
ردد (جودة) في دهاء:
- لا شيء؟! لا تقل هذا يا (مفيد) بك.. إننا أولاد بلد، ونفهم الحزن من رائحته.
وجذب نفسًا عميقا من نرجيلته، وأطلقه في الهواء الطلق، ثم مال نحو (مفيد)، مستطردا:
- ما رأيك فيمن يزيل أحزانك في لحظات؟
ابتسم (مفيد) في مرارة، وغمغم:
- كيف؟
أدار (جودة) يديه في الهواء بحركة مسرحية، ثم دس أصابعه في جيب صديريته، وأخرج منه سيجارة ذات طرف رفيع، قدّمها إلى (مفيد)، قائلا بابتسامة ملؤها المكر والدهاء:
- بهذا.. هذا هو الشافي الوافي، من جميع الأمراض
تطلع (مفيد) إلى السيجارة، قائلا في دهشة:
- السيجارة!
هز (جودة) رأسه نفيا، وهو يبتسم قائلا:
- إنها ليست سيجارة عادية، فهي لا تحوي مجرد التبغ، بل هناك مع التبغ ذلك الدواء الجديد، الذي تزيل أبخرته الأحزان والهموم.
أدرك (مفيد) ما يقصده (جودة)، وارتجف في خوف لقد رأى العديدين يدخنون ذلك الدخان الازرق رآهم وقد ذهبت عقولهم، وذهبت معها كرامتهم ورصانتهم.
رأى رجال تهتز لهم المجالس، وهم يترنحون، ويسقطون.. وفي حزم هب واقفا، وهو يقول:
- لا.. لا يا (جودة)

قال (جودة) بابتسامته الماكرة:
- جربه مرة واحدة فحسب
لوح (مفيد) بكفه في قوة، هاتفا:
- لا.
واندفع مغادرا المقهى في سرعة، وكأنما يفر من شيطان رجيم، ومن خلفه هتف (جودة) ضاحكا:
- لا بأس يا بك .. ستجدها في انتظارك، في أي وقت
واصل (مفيد) سيره بسرعة، متجها نحو سراى والده، ولم يكد يبلغه، حتى استقبلته (شريفة)، وهي تهمس في عصبية:
- لماذا تأخرت يا (مفيد)؟ الرجل ينتظرك منذ زمن
سألها في حيرة وقلق:
- أي رجل؟
نهض والد (سوسن) واقفا، وهو يقول:
- أنا يا ولدي
واتسعت عينا (مفيد) في هلع.. ا
لان فقط تذكرها
بعد أسبوعين كاملين، تذكر (سوسن)..
وانهار قلبه في هذه المرة.
انهار بحق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

66 – صدمة..

استقبلته (سوسن) في هدوء شديد، لم يكن يتوقعه منها أبدا..
كان هو يرتجف من فرط الخجل، في حين لم ترتجف ذرة واحدة من كيانها الظاهر، وهي تصافحه قائلة:
- صباح الخير يا أستاذ (مفيد).
ارتبك وهو يتمتم:
- صباح الخير يا (سوسن).
أشارت إليه بالجلوس، قائلة
- تفضل.. ألم تذهب إلى عملك اليوم؟
أجاب وهو يتحاشى النظر إلى عينيها :
- اليوم الأحد كما تعلمين.
جلست على المقعد المقابل صامته، تتطلع إليه في هدوء، وكأنها تنتظر منه بدء الحديث، فداعب أصابعه في عصبية، وهو يقول:
- كيف يمكنني أن أعتذر؟
سألته في هدوء:
- عن ماذا؟
أدهشه قولها، فرفع عينيه اليها، ورأى ملامحها جامدة مبهمة، على الرغم من شحوبها الواضح، وأضاف في حيرة:
- عن ذلك الموقف
سألته بنفس الجمود:
- أي موقف؟
كان أسلوبها يربكه أكثر وأكثر، ويدفعه إلى التلعثم، وهو يقول:
- موقفي مع (مديحة).. أرجوك أن تقدري هذا.. لقد رأيتها فجأة، ولم أستطع كتمان مشاعري، و.
قاطعته في هدوء

- إنني أقدر
هذا قال في توتر:
- لقد شرحت لك علاقتي بـ (مديحة)، بكل تفاصيلها، ومن الضروري أن تقدّري ما حدث.. لقد كانت فرصة نادرة أن أراها، ومصادفة يمكن ألا تتكرر أبدا.
قالت:
- بالطبع
فرك أصابعه بعصبية أكثر، وهو يقول:
- كان من الضروري أن أتحدث إليها، وأن أعرف ما حدث منذ افترقنا.
سألته في هدوء؟
- وهل عرفت؟
لم يحتمل هذا الأسلوب، فصاح في عصبية:
- (سوسن).. لماذا تتحدثين معي بهذه الطريقة؟
ظلت ترمقه بنظرة باردة خاوية، ثم قالت في هدوء
- هل يضايقك أسلوبي هذا؟
قال في حدة:
- يضايقني كثيرا.
مالت نحوه قليلا، وهي تسأله:
- وماذا عن أسلوبك أنت؟
ارتجف للسؤال، وارتبك وهو يجيبها:
- اسلوب الحديث؟
قالت في صرامة:
- بل أسلوب التعامل معي.
لم ينبس ببنت شفة، وهو يشعر في أعماقه بفداحة الخطأ، الذي ارتكبه في حقها، فتابعت في شيء من الحدة:

- لقد كنت تسير معي، ودبلتي تتوسط أصابعك، ثم رأيت حبيبتك القديمة، فتركتني فجأة، دون حتى أن تعتذر، وهرعت إليها، وأمسكت يدها في حب وحنان، دون أن تهتم بمشاعري، أو تشعر حتى بوجودى، وسرت معها مبتعدين، وكأنني لم أكن، وغبت أكثر من أسبوعين كاملين، دون أن تعتذر، ودون حتى أن تحاول شرح موقفك، وبعدها تأتي بعد زيارة والدي لك، وتقول إنك آسف.. أتجد هذا كافيا؟

ردد والخجل يكاد يلتهم كلماته:

- إنني أعترف بالخطأ.

قالت وحدة كلماتها تتصاعد:

- بعد أسبوعين أو أكثر؟

قال في عصبية:

- يمكننا أن ننسى ما حدث، وأن...

هتفت في استنكار:

- ننساه؟! أمن السهل أن تنسى مشاعرك؟

ثم تراجعت، قائلة في حدة:

- وماذا لو كان الأمر عكسيا؟

رفع عينيه في دهشة، قائلا:

- ماذا تعنين؟

قالت غاضبة:

- ماذا لو أنني أنا التي تركتك في منتصف الطريق، وهرعت إلى حبيب قديم، ووضعت يدي بين أصابعه، وتجاهلتك تماما، وأنا أمضى معه؟ أكنت تغفر لي هذا؟

انتفض جسده لهول الصورة بالنسبة إليه، وهتف في ارتياع:

- ماذا تقولين يا (سوسن)؟

- أرأيت؟ إنك حتى لم تحتمل الفكرة.. ماذا عني أنا إذن، وقد عايشت كل لحظة منها!
كان انفعالها يتفجر لأول مرة، منذ وقع الأمر، فراح جسدها يرتعد، وهي تتابع:
- هل لك أن تفسر لي سر اختفائك التام، طوال هذه المدة؟ أهو الخجل أم النسيان؟
اعترف في قرارة نفسه أن السبب هو النسيان..
لقد نسيها بالفعل، في غمرة توتره وانفعاله، وبحثه عن (مديحة) لثاني مرة..
نسيها تماما
ولكن كيف يعترف بهذا؟
كيف يعترف لها أنه نسيها؟
وفي خفوت، قال:
- (سوسن).. صدقيني.. لم أكن أدرك ما أفعل.. كانت مشاعرى كلها مضطربة، متوترة، وكانت الحيرة تملأ نفسى، و.
أسكتته في صرامة:
- لا تعتذر يا (مفيد).. الأمر لا يستحق الاعتذار.. لقد واجهت لحظة اختيار فحسب، وأصدر قلبك حكمه بشأنها.
ردد في حيرة:
- لحظة اختيار!
أجابته في كبرياء:
- بالطبع.. كنت تسير معي، ثم رأيت (مديحة)، وكان عليك أن تختار في حزم، بيني وبينها، فاخترتها دون تردد.. بل ونسيتني تماما في الوقت نفسه.
غمغم في صعوبة:
- الأمر ليس بهذه الصورة.

قالت في حدة:
- بل هو كذلك، ولكنك تأبى الاعتراف بالحقيقة
قال في توتر:
- (سوسن)؟، ما رأيك لو نبدأ من جديد؟
رمقته بنظرة صامتة طويلة، ثم سألته بغتة
- لماذا عدت يا (مفيد)؟
ارتبك لسؤالها، وأجاب:
- عدت من أجلك يا (سوسن).
- وأين (مديحة)؟
كان يمكنه أن يكذب، وأن يدعي أنه اختارها هي، وأن قلبه رفض (مديحة)، ولكنه عجز عن قول هذا، ووجد نفسه يقول في خفوت وعيناه تنخفضان أرضا:
- لقد فقدتها مرة ثانية.
رفعت رأسها في كبرياء، ورمقته بنظرة نارية طويلة، قبل أن تقول في صرامة:
- بل فقدتنا معا يا (مفيد).
هتف في ذعر
- ماذا تعنين؟
نهضت من مقعدها، واتجهت إليه، وخلعت دبلته من إصبعها ووضعتها أمامه قائلة في حزم:
- لقد انتهى كل شيء يا (مفيد).
- لا يا (سوسن).. أرجوك
أدارت ظهرها له، وهي تقول في صرامة:
- كل شيء قسمة ونصيب يا أستاذ (مفيد).
نهض وهو يردد:
- (سوسن).. لا تفسدي كل شيء

ترقرقت عيناها بالدموع لأول مرة، منذ بدأت المشكلة، وهي تهز رأسها، قائلة:
- لقد فسد كل شيء بالفعل يا (مفيد).. فسد ولم يعد يصلح مرة ثانية.
كان يعلم أنها على حق.. ولهذا لم يناقش..
التقط دبلتها في استسلام، وغادر المكان في صمت..
وهنا
هنا فقط
انفجرت (سوسن) باكية..
وفي لوعة هرعت أمها إليها، وضمتها إلى صدرها، وقلبها يبكي حزنا من أجلها..
ومن وسط دموعها الحارة الغزيرة، هتفت (سوسن):
- لقد انتهى كل شيء يا أمي..
انتهى
وانتقلت الدموع إلى قلبها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ابتسم (إبراهيم مكى) في سخرية، وهو يتطلع إلى (حسين)، هاتفا:
- أرسلته إلى (إسرائيل)! أهذه وسيلتك للتخلص منه؟
أجابه (حسين) في حزم:
- إنها ضربة مزدوجة، فلو فشل في مهمته، سيلقى الإسرائيليون القبض عليه، وتكون في هذا نهايته، أما لو نجح، فستكون ضربة رائعة، ويحصل على ترقية استثنائية، ويصبح بهذا مؤهلا للزواج من شقيقتي.

تلاشت ابتسامة (إبراهيم) الساخرة، وهو يقول:
- يا الهى! لقد أصبحت خبيرا.
ابتسم (حسين) في ثقة، وقال:
- تلميذك يا (إبراهيم) بك
شعر (إبراهيم) - لأول مرة - بالخوف، من هذا التقدم الهائل، الذي يحرزه (حسين)، في مجال التآمر والتخطيط، وغمغم في خفوت:
- من الواضح أنك تتعلم بسرعة
تطلع إليه (حسين) في استخفاف، وقال:
- أسرع مما تتصور يا صديقي
ران عليهما الصمت لحظات، قبل أن يسأله (إبراهيم)، وكأنه يتعمد إبدال موضوع الحديث:
- هل التقيت بـ (عايدة) مرة أخرى؟
هز (حسين) رأسه نفيا، وقال:
- لا.. ليس بعد تلك المرة، التي أخبرتك عنها
سأله (إبراهيم):
- وماذا تنوي أن تفعل بها؟
تنهد (حسين)، وقال:
- لست أدري.
ثم استدرك في حزم:
- ولكنني لن أعيدها إلى (باريس) على الأقل.. ليس في الوقت الحالي.
سأله (إبراهيم) في خبث:
- هل تفكر في الزواج منها؟
صمت (حسين) قليلا، ثم أجاب:
- لم أحسم رأيي في هذا الشأن بعد.

كان من الواضح أن الحديث في هذا الأمر لا يروق له، ولقد أدرك (إبراهيم) هذا بحاسته المرهفة، فقال:
- وماذا عن (عبد الحميد)؟ ماذا تنوي أن تفعل به؟
انعقد حاجبا (حسين) في صرامة غاضبة، وهو يقول:
- سأحطمه
سأله (إبراهيم) في جذل، وكأن مثل هذه الأمور تروق له:
- كيف؟
ضم (حسين) قبضته، وهو يقول:
- سأسلبه كل ما منحته إياه، ثم اعتصر قبضته في غضب، مستطردا:
- ثم أسحقه
سأله (إبراهيم):
- ولماذا لم تفعل حتى الآن؟
برقت عينا (حسين) في شراسة، وهو يقول:
- لأن الانتظار يحطم أعصابه أكثر، فهو يعلم الأن أنني سأنتقم منه حتما، وانتظار هذا الانتقام أسوأ من وقوعه بالفعل.
ردد (إبراهيم):
- وقوع البلاء ولا انتظاره.. أليس كذلك؟
أومأ (حسين) برأسه إيجابا، وانعقد حاجبا (إبراهيم) في شدة لقد صار (حسين) خبيرا بالفعل
بل صار أكثر خبرة منه هو
كم سيكون الصراع عنيفا، لو التقيا مرة أخرى كخصمين في الساحة؟
هذا لو عاد هو إلى عمله ولو اكتسب (حسين) مزيدا من الخبرة..
أراد (إبراهيم) أن ينفض تلك الفكرة عن رأسه، فسأله، محاولا البحث عن موضوع جديد، بعيد عن كل الأحداث..

- قل لي: هل ستحتفلون بعيد ميلاد (طارق)، كالعام السابق؟
هز (حسين) رأسه نفيا، وقال:
- لا.. والداه لا يستحقان هذا
وصمت لحظة، ثم أضاف:
- كما أن الأمور تزداد التهابا.
سأله (ابراهيم):
- كيف؟
أجابه في اهتمام:
- القرار الذي أصدره مجلس الأمن، في الخامس من هذا الشهر، كان يمكنه أن يحل المشكلة، ولكن (بريطانيا) و (فرنسا) أفسدتا الأمر، والجميع يتوقعون أن يكون شهر (أكتوبر) هذا حافلا بالأحداث.
وكالعادة، اكتفي (حسين) بهذا القول، دون أن يكشف أية أسرار تتعلق بعمله، ولكن (إبراهيم) كان مصرا على معرفة المزيد هذه المرة، فسأله:
- وماذا عن التقارير الواردة من (إسرائيل)؟
لم يجب (حسين)، ولم يلتفت إليه، بل قال في هدوء، وكأنه لم يسمع السؤال:
- أتحب تناول قدح من الشاي؟
كان في الواقع مخلصا لعمله، على الرغم من كل عيوبه، وكان يصر دائما على كتمان كل ما لديه من أسرار، حتى عن أقرب المقربين إليه.
ولكن (ابراهيم) كان أشد عنادا وخبثا، لذا فقد قال وهو يبتسم
- ليس الآن.. أخبرني أولا: ما موقف الإسرائيليين حتى الان؟
هز (حسين) كتفيه، وقال:
- لم يعلنوا موقفا رسميا حتى الان.

كان تهربا رائعا من الجواب، حتى أنه أثار إعجاب (إبراهيم) نفسه فقال مبتسما:

- هكذا!

لم يكد ينطق كلمته، حتى ارتفع رنين الباب على نحو متصل، جعل (حسين) يعتدل قائلا في قلق

- من هذا الطارق المتعجل؟

في حين هرع خادمه إلى الباب، وفتحه، ثم تراجع في حركة حادة فنهض (حسين) من مقعده، قائلا:

- من الطارق؟

فوجئ برجلين يدخلان الردهة، وهما يرتديان الزي الخاص برجال الحرس الجمهوري، وواجهة أحدهما قائلا:

- (حسين) بك.. لدي أوامر مشددة بحملك إلى السيد الرئيس، بأسرع وسيلة ممكنة.

شحب وجه (حسين)، وهو يغمغم

- الرئيس (جمال)؟!

أجابه ضابط الحرس الجمهوري في صرامة:

- ومن غيره.. إنها أوامر سيادة الرئيس (جمال).. (جمال عبد الناصر).

وارتجف قلب (حسين) بين ضلوعه

وكذلك قلب (إبراهيم مكى)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

67 – اللقاء..

سار (أمجد) الهويني، بالقرب من أسوار ميناء (تل أبيب)، وهو يرتدي تلك الثياب نصف الرثة، التي يرتديها عمال الميناء، وتظاهر بنقل صندوق صغير، وهو يختلس النظر إلى رجال الأمن الإسرائيليين، الذين يفحصون كل من يدخل إلى الميناء، ثم تلفت حوله، بحثا عن الرجل الذي خاض كل هذه المخاطر؛ للالتقاء به..

لقد نجح في دخول (إسرائيل)، منذ ما يزيد عن شهر كامل، منتحلا شخصية سائح أمريكى، وساعده بعض الفلسطينيين هناك على انتحال شخصية عامل من عمال الميناء، وحصلوا له على ترخيص زائف بالعمل في دائرة الشحن، ومن هناك راح يبذل أقصى جهده، للوصول إلى العميل المصري هناك، والحصول على ما لديه من معلومات.

كان يعلم أن مهمته بالغة الخطورة، ولكنه لم يكن ليتردد لحظة واحدة في أدائها، لو أن هذا يخدم وطنه.

واليوم يخوض مخاطرته الكبرى..

لقد نجح أخيرا في الاتصال بالعميل المصري، الذي أكد له وجود المعلومات لديه، واتفق معه على اللقاء في الميناء، لتسليمه المعلومات كلها...

وها هوذا ينتظر العميل..

ومن بعيد، لمح الرجل يتجه إليه في اضطراب واضح، وهو يتلفت حوله في حذر، فتحرك نحوه بدوره، وانحرفا ما خلف صندوق ضخم.

وهناك قال العميل في توتر بالغ:

- أسرع.. لا وقت لدينا

ثم التقط من جيبه مظروفا، ناوله إلى (أمجد)، مستطردا:

- ها هي ذي المعلومات.. لابد من إبلاغها إلى (القاهرة) بأسرع ما يمكن، فهؤلاء الأوغاد يعدّون لهجوم شامل، في التاسع والعشرين من هذا الشهر، وأظنهم يشكّون في أمري.
سأله (أمجد) في قلق؟
- لماذا؟
أجابه مضطربا:
- سأشرح لك الأمر فيما بعد.. المهم أن تبتعد الأن بأقصى سرعة، وأن تحاول الخروج من هنا، و.
بتر الرجل عبارته بغتة، واتسعت عيناه في هلع، وهو يهتف
- يا الهى! لقد كشفوا الأمر
التفت (أمجد) في سرعة، إلى حيث يشير الرجل، ورأي عددا من رجال الأمن الإسرائيليين يندفعون نحوهما، في حين صاح العميل:
- أسرع يا رجل.. أسرع
والتقط من جيبه مسدسا، وضعه في يد (أمجد)، مستطردا؛
- فليكن ثمنك غاليا.
لم يضع (أمجد) لحظة واحدة بعدها، وإنما حمل مسدسه، وانطلق يعدو بأقصى قواه، محاولا الفرار من قبضة الإسرائيليين.
ولكن لم يكن هناك مفر..
لقد أحكم الإسرائيليون الفخ جيدا، فها هوذا محاصر، ما بين أسوار الميناء، ومياه الخليج.
وارتفع من خلفه صوت أحد الإسرائيليين يهتف
- توقف أيها المصري.. توقف أو نطلق النار..
ولم يتوقف (أمجد) كان يعلم أن الأمل في نجاته يكاد يكون معدوما، ولكنه لم يتوقف..
إنه يعلم ضرورة وصول هذه المعلومات الى (القاهرة) بأي ثمن وسيبذل كل ما يمكنه ليرسلها إلى هناك، حتى ولو كانت حياته

نفسها هي الثمن.
ومن خلفه انطلقت رصاصة وثانية ولم يعد هناك سوى حاجز المياه..
وبلا تردد، اندفع (أمجد) نحو حاجز المياه في الميناء، ورأى جنديين إسرائيليين يعترضان طريقه، فأطلق نحوهما النار، وشعر برصاصة تحتك بجانب فخذه الأيسر، ولكنه واصل انطلاقه وقفز..
ومع قفزته انهالت عليه الرصاصات، قبل أن يرتطم جسده بالماء ويغوص فيه.
ولحق الإسرائيليون بموضع غوصه، فأمطروا الماء برصاصات مدافعهم الالية، حتى تصاعدت بقعة من الدماء إلى سطح الماء، فاعتدل الإسرائيليون، وابتسم قائدهم في ظفر، وهو يرفع جهاز اللاسلكي الخاص به إلى فمه، ويقول في زهو:
- تم احباط العملية، والمصري الآن في قرار الخليج
وأنهى الاتصال، وهو يتطلع إلى بقعة الدم على سطح الماء، وهي تتسع..

وتتسع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت المرة الثانية، التي يقف فيها (حسين)، في حجرة مكتب (جمال عبد الناصر) الخاصة.
وفي المرتين كان يرتجف..

وعندما دخل (عبد الناصر) الحجرة هذه المرة، كان ذلك الغضب البادي على وجهه، والمطل من عينيه العميقتين، الشبيهتين بعينى الأسد، كافيا، لتتحول ارتجافة (حسين) إلى قشعريرة رعب، شملت جسده كله، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، إلى الحد الذي عجزت معه قدماه تقريبًا عن حمله، لولا أن تشبث بالمقعد المجاور له، وهو يقول في صوت متحشرج:

- (حسين البنهاوي) في خدمتك يا فخامة الرئيس.

رمقه (جمال) بنظرة نارية،

قبل أن يقول في غضب هادر:

- أية سخافات ترتكب هذه الأيام يا (حسين)؟ ألا تدرك ما تمر به الدولة من مخاطر؟ أمن المفروض أن أترك كل هذا، وأتجاهل عنق الزجاجة، الذي تمر به الدولة، لأهتم بالمباذل والمساخر، التي تتركون عملكم لارتكابها؟

شحب وجه (حسين) أكثر، وهو يقول:

- مباذل ومساخر؟ ما الذي تعنيه يا سيادة الرئيس؟ إننا جميعا نؤدي عملنا بكل اخلاص، و.

قاطعة الرئيس في غضب:

- بل بكل قذارة وحقارة.

ثم التقط من فوق مكتبة ورقة، لوح بها في وجه (حسين)، مستطردا:

- أتعلم ما الذي تحتويه هذه الورقة؟ إنها استقالة (عبد الحكيم عامر).. في مثل هذه الظروف يرسل لي استقالته، ويعلن غضبه، بسبب بعض الأعمال القذرة، التي تقوم بها أنت، لمراقبة وتصوير ممثلة من ممثلات الدرجة الثانية.. أي تهريج يحدث في هذه الدولة؟ أي استهتار هذا بكل القيم والمبادئ والظروف؟

قال (حسين)، وهو يرتجف في قوة:

- سيدي الرئيس.. إنني..
لم يبد أن الرئيس مستعد لسماعه، وهو يواصل هتافه الغاضب:
- أبهذا تدار الدولة؟ أيدخل ذلك ضمن مهام وظيفتكم، التي تتقاضون من أجلها أجوركم؟
تمتم (حسين):
- أرجوك يا سيادة الرئيس.. إنني..
لوح (عبد الناصر) بذراعه في غضب، هاتفا:
- لا توجد سوى وسيلة واحدة، لرتق الثقوب، واصلاح الأخطاء، في هذه المرحلة الحاسمة.. أتعلم ما هي؟
ازدرد (حسين) لعابه في صعوبة، دون أن ينبس ببنت شفة، وهو يتطلع إلى عيني (عبد الناصر)، الذي تابع في صرامة:
- فصلك من الخدمة يا (حسين).. هذا هو الحل الوحيد، الذي يرضي (عبد الحكيم)، ويدفعه إلى نسيان غضبته السخيفة هذه، والاهتمام بمشاكل الدولة، ونحن نواجه احتمال تدخل عسكري أجنبي.
كاد (حسين) يسقط فاقد الوعي، عندما لفظ الرئيس عبارته الأخيرة، انه لن يحتمل هذا لن يحتمله أبدا.. فصله من الجهاز، يعني ضياع كل ما كافح من أجله حتى الآن وضياع سلطته وسطوته... وفي انهيار، هتف:
- سيدي الرئيس.. إنك تظلمني بقرارك هذا
صاح به (عبد الناصر):
- إنني لا أظلم أحدا، ولكنني أبغض تجاوز حدود الأخلاق والتقاليد
قال (حسين) في ضراعة:
-كنت أنفذ الأوامر
لوح (جمال) في وجهه بغضب، صائحا:

- لا يا (حسين).. لا تحاول خداعى لقد فعلت هذا لحسابك الشخصي، ولغرض ما في نفسك، يتنافى مع عراقة تقاليدنا وأخلاقنا.
هتف (حسين):
- بل كنت انفذ الأوامر يا سيدى، ولدى الدليل.
عقد (عبد الناصر) حاجبيه في صرامة، وهو يتطلع إليه في صمت فأسرع (حسين) يخرج من جيبه شريط تسجيل صغير، من طراز لم يكن مألوفا في هذه الأيام، وهو يقول:
- كنت أشعر بالقلق، وأنا أنفذ هذه المهمة يا سيدي الرئيس، لنفس السبب الذي ذكرته فخامتك.. لأنها تتنافى مع قيمنا وأخلاقنا.. ولكن طبيعة عملنا تحتم علينا تنفيذ الأوامر، دون السؤال عن سببها وهدفها ولذلك فقد تجاوزت حدود العمل بعض الشيء، وسجلت كل محادثاتى مع (مراد بك صقر)، وهو يأمرني بتنفيذ هذه المهمة القذرة.
ازداد انعقاد حاجبي الرئيس، وهو يقول:
- (مراد صقر)، هو الذي أمرك بتنفيذ هذه المهمة؟
أجابه (حسين) في انفعال:
- أقسم لك أن هذا ما حدث يا سيدي الرئيس، وهذا الشريط دليلي على ذلك.
التقط منه الرئيس شريط التسجيل، وهو يحدجه بنظرة صارمة، ثم قال، وقد هدأت ثورته كثيرا:
- هذا الشريط يحتاج إلى جهاز خاص، للاستماع إليه
ثم ابتسم ابتسامة باهتة، وهو يضيف:
- لدي جهاز يناسبه، في حجرة نومى.
ثم غادر حجرة المكتب، وتركه وحده فيها، ولم يكد يغلق الباب خلفه حتى انهار (حسين) فوق أقرب المقاعد إليه، وتصبب على

جبينه عرق غزير، وهو يلهث في انفعال:
لقد فعلها (مراد صقر) لقد أعد له فخا للإطاحة به، وتحطيم مستقبله يا له من عالم قذر!!
من حسن حظه أن استمع الى نصيحة (إبراهيم مكى)، وسجل كل كلمة دارت بينه وبين (مراد صقر)..
هذا وحده قد ينقذه من الضياع هذه المرة..
ومضت نصف ساعة كاملة، تركه فيها الرئيس وحده، في حجرة مكتبه الخاصة، قبل أن يعود إليه، من دون شريط التسجيل، ويتطلع اليه لحظة.، بنظراته القوية النفاذة، قبل أن يقول في هدوء، لا يخلو من الحزم:
- من الخطأ أن تسجل ما يدور بينك وبين رئيسك من محادثات
عاد الخوف يملا قلب (حسين)، وهو يقول:
- العلاقة بيني وبينه شديدة التوتر يا سيدى، ولقد راودتني الشكوك في طبيعة المهمة.
قال (جمال) في حزم:
- ولو
ثم اتجه إلى مكتبه الضخم، وجلس خلفه متطلعا إلى (حسين) لحظة قبل أن يقول بصوته القوي العميق:
- اسمع جيدا يا (حسين).. عندما أبلغني (عبد الحكيم) بهذا الأمر رفضت تصديقه في البداية، لأنني عرفتك عن قرب، وشاهدت بيتك وأسرتك، وأنا أعلم أن من تربى في بيئة كهذه، يستحيل أن يؤدي عملا قذرا كهذا، ولعل هذا هو السبب الوحيد، الذي دفعني الى مقابلتك، وكان بإمكاني أن أصدر أمرا بفصلك، أو حتى باعتقالك، دون رؤية وجهك أو سماع دفاعك.
حاول (جسين) أن يقول شيئا ما، ولكن الرئيس منعه بإشارة من يده وهو يواصل حديثه:

- إننا نبني مجتمعا جديدا يا (حسين)، وكل المجتمعات الجديدة تواجه تحديات صعبة، ونحن نواجه تحديا يفوق كل التحديات المعروفة، فهو تحد عالمي، لابد لنا من التصدي له، والوقوف في وجهه، حتى نتجاوزه، ونحكم سيطرتنا على دولتنا.. وعندما يحدث هذا سنكون قد وضعنا أيدينا على أول الطريق، وبدأنا في بناء دولة قوية، يمكنها أن تتصدى يوما - وبحق - لكل القوى العظمى.. وبداية الطريق هذه قد تضطرنا إلى احتمال ما لا يحتمله الآخرون، والاستعانة بكل الطرق والوسائل والأشخاص، الذين يمكنهم إدارة عجلة الدولة، في ظروف الطوارئ.

ثم ابتسم ابتسامة باهتة، وأضاف:

- و (مراد صقر) واحد من هؤلاء.

صمت (حسين)، ولم يحاول التعليق بحرف واحد، في حين تراجع الرئيس في مقعده، وشبك أصابع كفيه فوق سطح مكتبه، وهو يتابع:

- وقد يكون (مراد صقر) عنيفا، وقاسيا، وبلا قلب في بعض الأحيان، ولكنه رجل مخلص لوطنه، يجيد عمله في كفاءة، ويبذل أقصى جهده من أجل الثورة.

تمتم (حسين) - إنه يبغضني

ابتسم الرئيس، قائلا:

. هذا أمر شخصى، وسأعمل على منعه من التربص بك مرة أخرى، ولكن هذا لا يتعارض مع ثقتي به، وبكفاءته وقدراته.

ثم أعتدل مضيفا:

- سأنهي المشكلة مع المشير يا (حسين)، ولكن عليك ألا تذكر حرفا واحدا، مما دار بيننا هنا.. هل تفهم؟

انهض (حسين)، وقد عادت إليه روحه، وقال في حماس:

- أفهم يا سيادة الرئيس.. أفهم كل أوامرك وتوجيهاتك

عاد الرئيس يتراجع، وهو يقول:
- هناك أمر آخر
خفق قلب (حسين) مرة أخرى في قلق، وهو يقول:
- ما هو يا سيدي؟
حدجه الرئيس لحظات بنظرة صامتة متفحصة، قبل أن يقول في عمق:
- الأميرة (عايدة).
انتفض جسد (حسين) في عنف، وحدق في وجه الرئيس في ذهول، وهو يقول:
- الأميرة (عايدة)؟!
أجابه الرئيس في هدوء:
- نعم.. الأميرة (عايدة)، التي تم اختطافها من قلب (باريس)، وإحضارها إلى (القاهرة) في صندوق دبلوماسي
ارتجف صوت (حسين)، وهو يقول:
- ماذا عنها يا سيادة الرئيس؟
أجابه الرئيس في هدوء:
. لقد أخبرني (حسنين هيكل) أن رئيس تحرير (لوموند) الفرنسية، قد سأله التوسط لدىّ، لإعادتها إلى (باريس).
ثم انعقد حاجباه بغتة، وهو يستطرد في صرامة
- وأنا أكره أعمال القرصنة
تمتم (حسين) في خوف
- أنا رهن إشارتك يا فخامة الرئيس
قال (جمال) في حزم:
- لن أسألك عن سبب اختطافها، ولا عن سر حضورها، أو إحضارها إلى هنا، ولكنني أرغب في أن تظل صورتنا جيدة

ومتحضرة، في عيون الجميع، وهذا يعني حتمية عودة الأميرة (عايدة) إلى (باريس).. هل تفهم؟
غمغم (حسين):
- أفهم يا سيدي.. أفهم
وفي رأي (حسين)، كانت المقايضة عادلة
لقد ربح مستقبله..
وخسر (عايدة)..
وهذا يرضيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

68 - لمسة الرحمة..

اختفى عم (إسماعيل).. لم يجد له (مفيد) أدنى أثر هذه المرة.. لقد ترك حتى ذلك العمل، الذي انتقل إليه، ولا أحد يعلم عنوانه، أو عمله الجديد

ومعه اختفت (مديحة).. مرة ثانية يفقدها (مفيد).. وفي هذه المرة لم يفقدها وحدها لقد فقد معها كل شيء..

كان اليوم يوافق عيد مولده الثالث والعشرين، ولكنه كان - على الرغم من هذا - أتعس أهل الأرض جميعا.

وبعد يوم شاق، حفيت فيه قدماه، بحثا عن أي أثر لـ (مديحة) أو (إسماعيل)، ألقى جسده المكدود داخل واحدة من سيارات الأجرة، التي تنقله من (طنطا) إلى قريته، وغامت عيناه بسحابة من الدمع المكتوم، وهو يفكر في كل ما أصابه.

لماذا التقى بـ (مديحة) مرة أخرى؟

لماذا ظهرت في حياته ليوم واحد، فتحطمت حياته كلها؟

ألم يكن من الأفضل ألا يراها، في ذلك اليوم؟

كان على الأقل سيحتفظ بـ (سوسن)..

لم يكد يذكر (سوسن)، بملامحها الوديعة البشوش، وابتسامتها المرحة الهادئة، حتى شعر بندم يعتصر قلبه وصدره..

لماذا فعل بها هذا؟ لماذا حطم ذلك الحب الهادي، الذي كان يجمع بين قلبيهما؟

اعتدل في مجلسه، وتظاهر بطرد ذبابة وهمية عن وجهه، ليمسح دمعة كادت تخدعه، وتفر من عينيه، وهو يسأل نفسه: أكان يحب (سوسن) حقا؟؟

صحيح أنه كان يسعد لقربها، ويرتاح لحديثه معها، ويجد الدفء، كل الدفء في عناق أصابعهما، ولمساتها، ولكنه تخلى عنها دون

تردد حينما لمح (مديحة).
وهذا لا يعني أبدا أنه يحبها.
والواقع أنه يشعر بالحيرة، عندما يحاول تفسير مشاعره نحوها، بعد ما فعل..
وبالندم؛ لأنه تخلى عنها
قطع السائق حبل أفكاره بغتة، وهو يسأله:
- ألا تفكر في شراء سيارة خاصة يا (مفيد) بك؟
التفت إليه (مفيد) لحظة في شرود، ثم استوعب عقله السؤال بعدها فقال في سرعة، وكأنما يحاول نفي شروده:
- لا.. لم أفكر في هذا بعد
هتف السائق:
- كيف يا بك؟ من المحتم أن يركب أمثالك أفخر وأعظم السيارات أتعرف (رضا).. ابن (على العبد)؟ إنه يمتلك الأن سيارة (فورد)، من أحدث طراز.، ويقولون إنه يخطط لعمل بعض المشروعات الصناعية الكبيرة، و.
لم يسمع (مفيد) باقي العبارة.. كان قد اعتاد أحاديث السائقين، واعتاد عدم سماع ثلاثة أرباعها، وهو يسبح مع أفكاره وذكرياته، حتى بلغت السيارة القرية، فغادرها مسرعا وعبر أمام مقهى (جودة)، الذي هب من مقعده، ولوح بيده، هاتفا:
- تفضل يا (مفيد) بك.. تفضل
لوح له (مفيد) بيده، وواصل سيره إلى السراي، وهناك وجد شيخ الخفراء (بسيوني) ينتظره، جالسا على إحدى درجات السلم، ولم يكد يراه حتى هب واقفا، ورفع يده بالتحية، وهو يقول:
- حمدا لله على سلامتك يا بك
سأله (مفيد) في قلق:
- ماذا هناك يا (بسيونى)؟

تلفت شيخ الخفراء حوله في قلق، ثم مال عليه، هامسا:
- العمدة يرغب في مقابلتك
لم يفهم (مفيد) سر هذا الهمس، فقال:
- فليتفضل على الرحب والسعة
هز (بسيوني) رأسه، وقال في حسرة:
- إنه لا يستطيع الحضور يا (مفيد) بك، فهم لا يسمحون له بالدخول إلى السراي، حتى لرؤية ابنته، والرجل منهار، منذ موقف (حسين) بك مع (حافظ) بك، وهو يتوقع أن ينتقم منه (حسين) بك في أية لحظة، وهذا يحطمه، حتى أنه لم يعد قادرا على مغادرة فراشه.
ردد (مفيد) في إشفاق:
- إلى هذا الحد؟!
كان يعلم ما حدث بين (حسين) و (فاطمة)، ويعلم ما فعلته (فاطمة)، من محاولتها الاستيلاء على الأرض، وما أسفر عنه ذلك ولكنه كان يرى أن هذا التمرد مجرد نتاج لقسوة (حسين)، وسيطرته على مشاعر الجميع.
حتى قصة شقيقته مع (أمجد)، كانت في رأيه نتاج أسلوب (حسين)، في التعامل مع أسرته، ومع الاخرين..
وكان يشعر بالإشفاق على الجميع، من هذه القبضة الباردة القاسية، التي لا ترحم.
حتى (فاطمة)... وحتى والدها
ولهذا قال لشيخ الخفراء في حسم:
- لا بأس،ـ سوف أحضر معك.
صحبه إلى منزل العمدة، وهاله مرأى الرجل، وقد شحب ونحل كثيرا حتى بدا أشبه بهيكل عظمي حي، ولم يكد يرى (مفيد)، حتى هتف:

- (مفيد) بك.. حمدا لله.. حمدا لله.
هم بالنهوض من فراشه، ولكن ضعفه أعجزه عن هذا، فتهالك فوق الفراش مرة أخرى، مما جعل (مفيد) يهتف به:
- سلامتك يا عم (عبد الحميد).. ماذا أصابك؟
تشبث الرجل بكفه، وقال وهو يكاد يبكـى:
- الرحمة يا (مفيد) بك.. الرحمة.. ليس لدي من امل سواك.
جلس (مفيد) إلى جواره، وهو يقول
- لماذا يا عم (عبد الحميد)؟ ماذا حدث؟
بكى الرجل في انهيار، وهو يقول:
- (حسين) بك يتوعدني بانتقام بشع.. أكاد لا أنام، من شدة رعبي مما ينتظرني.. أرجوك يا (مفيد) بك.. أتوسل إليك أن تطلب منه العفو عني.. أرجوك.
كانت هذه أبشع صورة رآها (مفيد) للخوف وتضاعفت كراهيته للظلم مع رؤيتها..
كان يعلم أن (حسين) يتعمد ترك الرجل على هذا الوضع، ليحطمه وكان يبغض هذا، وبكل كراهيته ومقته لهذا الأسلوب، شد على يد الرجل، قائلا:
- لن يفعل بك (حسين) شيئا يا عم (عبد الحميد).. سأتصدى أنا له هذه المرة.. وبكل حزم.
تهالك (عبد الحميد)، وهو يقول
- حمدا لله يا ولدي.. حمدا لله أن وجدتك.
ولكن (مفيد) كان يعلم أن وعده هذا قد لا يساوي شيئا، أمام سطوة (حسين) وقوته:
ولكن هذا الوعد كان كل ما يملكه وكل ما يستطيعه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استقبلت الأميرة (عايدة) (حسين) في شقتها هذه المرة، وهي تبدو كأكثر ما تكون فتنة وجمالا، وكأنها تسعى للتأثير عليه، وابتسمت ابتسامة ساحرة وهي تقول في عذوبة:
- لم أصدق نفسي، عندما تلقيت مكالمتك، وأسعدني كثيرا أن تأتي لزيارتي.
تطلع إليها في افتتان، وهو يتمتم
- تبدين رائعة هذا المساء
قالت في دلال:
- هذا المساء فقط؟
ثم قادته في نعومة إلى شرفة المنزل، وهي تقول:
- سنقضي هذه الأمسية معا، وسنستعيد ذكريات أمسيات الماضي.
تبعها في صمت، واستقر على أحد مقعدين، يحيطان بمائدة صغيرة، يتوسطها شمعدان فضي أنيق، على نحو أضفي رومانسية محببة على الموقف، وسألته هي في خفوت، يتناسب كثيرا مع الموقف:
أتتناول شرابا أولا؟
أشار بيده نافيا، وقال
- (عايدة).. أريد أن أتحدث إليك
ابتسمت في عذوبة، قائلة –
كلى آذان صاغية.
خفض عينيه عنها لحظات، وكأنه يفكر في عمق، ثم عاد يرفعهما إليها، قائلا:
- إنني أشعر بالأسف، لذلك الأسلوب، الذي أحضرتك به إلى (القاهرة).
نبض قلبها في قوة، وتألقت عيناها، وهي تستمع إليه يضيف:

- لم أكن أحب أبدا أن نلتقي على هذا النحو، ولا أن تعود علاقتنا على كره منكِ.
اعتدلت تشعل سيجارتها في عصبية، وهي تستمع إليه.
كان من الواضح أنه يطرق مباشرة ذلك الموضوع، الذي تحاول هي جذبه إليه منذ عادت إلى (القاهرة)، وأنه يسير نحو النقطة التي تتمناها منه..
نحو العودة إلى (باريس)..
أما هو فقد كان يلعب لعبته الكبرى، في علاقته بها.
كان يعلم أنه مضطر لإعادتها إلى (باريس)، بناء على أوامر رئيس الجمهورية، ولكنه يحاول الإيحاء إليها بأنه يتخذ هذا القرار من تلقاء نفسه.
كان يسعى لمد جسر من الود بينهما، قبل أن ترحل على الرغم منه ولقد نجح في هذا
كان صوته يتهدج بانفعال مدروس، وهو يقول:
- لن أجبرك على البقاء هنا يا (عايدة)..
نفثت دخان سيجارتها في عصبية، وحاولت أن تقول شيء ما، ولكنها عجزت عن هذا تماما، في حين تابع هو:
- لقد اتخذت قرارا حاسما، تحطم له قلبى، وارتاح له ضميرى
خفق قلبها أكثر، وهو يضيف:
- ستعودين يا (عايدة)
كادت تنفجر باكية، من فرط الانفعال، وهي لا تصدق أذنيها
ستعود أخيرا
سيتحقق حلمها القصير
ستعود إلى (باريس)
لم تصدق أن (حسين) قد اتخذ هذا القرار..

كل شيء كان يسير على عكس ما توقعت، منذ وصلت إلى (القاهرة) وفي حزن حقيقي، أخرج (حسين) من جيبه تذكرة طائرة، ناولها اياها، وهو يقول:
- سيكون لديك وقت ضيق، لإعداد حقيبتك يا (عايدة)، فستقلع طائرتك بعد ثلاث ساعات فحسب.
اتسعت عيناها في دهشة وسعادة.
ثلاث ساعات فقط، وتبدأ رحلة العودة..
ثلاث ساعات فحسب
وفي حماس وسعادة، نهضت من مقعدها، واتجهت نحو (حسين)، وقالت:
- سأنتظرك يا (حسين).
رفع عينيه اليها، فمالت نحوه، حتى استنشق أنفاسها العطرة، وهي تضيف:
- سأنتظرك في (باريس).
ورقص قلبه طربا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنهدت (شريفة) في عمق، وهي تتطلع من نافذة حجرتها إلى القمر والنجوم في حزن..
لقد انقطعت صلتها بـ (أمجد)، منذ تلك الليلة المشؤومة، التي أعلنت فيها (فاطمة) عن تلك اللقاءات المختلسة، التي كانت تحدث بينها وبينه..
وحتى (حسين) لم يعد إلى القرية، منذ ذلك الحين. وهي لا تعلم ما أصاب (أمجد)..

الشيء الوحيد، الذي يوقن منه قلبها، هو أنه لن يكون أبدا بخير، ما دام (حسين) قد علم ما بينهما.
قاس هو (حسين).. عنيف في كل ما يتعلق بسطوته ونفوذه..
ولكنها لا تستطيع أن تكرهه..
إنه شقيقها، وكبير الأسرة، بعد رحيل والدها، ولقد نشأت على حب واحترام كبير الأسرة، مهما كانت الأسباب
ولكنها تكره (فاطمة)
تضاعفت كراهيتها لها، بعد ما فعلته، كل شيء في (فاطمة) يحنقها ويثير ضيقها
غلظتها
خشونة صوتها..
ألفاظها السوقية.
حتى حب (حافظ) لها ب
ل لعل هذا أكثر ما يحنقها بشأن (فاطمة)..
إنها في - رأيها. تفتقر إلى كل معالم وملامح الأنوثة والجمال، وعلى الرغم من هذا فشقيقها (حافظ) يحبها إلى درجة العبادة.
يكفي أنه قضى حياته كلها سلبيا، فيما عدا مرتين، تصدي خلالها للجميع، من أجل زوجته..
من أجل (فاطمة)..
إنها لن تنسى أبدا ذلك الموقف، عندما طلب منه (حسين) تطليق (فاطمة)، فاعترض ورفض، على الرغم من خشيته الطبيعية من (حسين)، وخوفه منه.
وتمنت من أعماقها لو أن (حافظ) طلق (فاطمة)، في ذلك اليوم..
تمنت لو أنه أطاع شقيقه، وطلقها، وألقاها إلى عرض الطريق بلا رحمة..

ثم تذكرت (طارق).. والعجيب أنها كانت تحب الصغير، بنفس القدر الذي تكره به أمه
ابتسامته وحدها كانت الطريق لنزع الأسى والحزن من قلبها..
عدوه خلفها، ومناداتها بحروف متعثرة، كان ينتزع منها حتما ابتسامة حب وحنان، مهما كانت الأحزان، التي تحيط بها..
ربما لأنه يوقظ الأمومة الكامنة في أعماقها
أو لأنه الطفل الوحيد، في الأسرة كلها، الذي يحمل اسم (البنهاوي).. الذي شهدت مولده ونموه لحظة فلحظة.
حتى تذكرها له ينتزع من قلب حزنها ابتسامة، تألقت على وجهها وانعكس فوقها ضوء القمر ونجومه.
وفجأة انتفض جسدها، مع تلك الطرقات العنيفة المباغتة، على باب حجرتها، وصوت (مفيد)، وهو يهتف:
- (شريفة).. لقد حدثت كارثة
أسرعت تفتح الباب، وهي تسأله في هلع:
- ماذا حدث؟ أجابها في صوت أقرب إلى البكاء:
- لقد بدأت الحرب.. الإسرائيليون يهاجمون قواتنا في (سيناء)
وارتجف قلبها في رهبة
وتذكرت شخصا واحدا..
(أمجد).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

69 – الحرب..

هكذا كانت البداية..

أعلن الإسرائيليون أنهم أرسلوا طابورا مدرعا إلى (سيناء)، للقضاء على الفدائيين هناك، ليلة التاسع والعشرين من اكتوبر، عام ١٩٥٩م، وبعدها هبطت قوات المظلات التابعة لهم في ممر (متلا). في الليلة نفسها.

ثم صدر الإنذار الأنجلو -فرنسي، على نحو جاف، يطالب بوقف إطلاق النار، وانسحاب (مصر) و (إسرائيل) لعشرة أميال، على جانبى (قناة السويس)، وإلا فستضطر (انجلترا) و (فرنسا) للتدخل عسكريا، بعد اثنتي عشرة ساعة من الإنذار، الذي ينتهي في السادسة والنصف من صباح آخر أيام أكتوبر.

واجتمع رجال الأحزاب، وطالبوا (جمال عبد الناصر) بالتنحي عن الحكم، بحجة أن هذا العدوان يستهدفه بالدرجة الأولى، فصدرت الأوامر باعتقالهم جميعا، وبنقل (محمد نجيب). من فيلا (زينب الوكيل) بـ (المرج). إلى (طهما) بجنوب الصعيد، خشية أن يحاول الغزاة الاستعانة به، في حال نجاح الغزو.

وتم سد القناة بسفينتين من سفن الشحن، جعلا العبور في القناة مستحيلا.

ومع ضرب الإذاعة في (القاهرة)، أسرعت إذاعات (عمان) و(دمشق) تذيع برامج مصرية، تحمل العبارة الشهيرة (هنا القاهرة)، وتآزر العرب جميعا لصد العدوان، والوقوف إلى جوار (مصر)، في معركتها الكبرى.

ووقف المصريون صفا واحدا. في وجه العدوان الثلاثي.

الجميع نسوا خلافاتهم

الكل تحت قضية واحدة..

خطبة (جمال عبد الناصر)، في (الأزهر الشريف) ألهبت حماس الجميع، وأقنعتهم بالقتال والمقاومة، ولو من قرية إلى قرية..
وأنزل العدو قواته في (بور سعيد)، التي قاومت مقاومة باسلة سجلها لها التاريخ في أعظم صفحاته وأخلدها.
وفي (باريس)، أطلق (جان) ضحكة ساخرة عالية، وهو يرفع كأسه في وجه ضيوفه، هاتفا:
- نخب قواتنا الباسلة، التي ستجبر المصريين على الركوع والخضوع.
رفع الجميع كؤوسهم في مرح، فيما عدا الأميرة (عايدة)، التي عقدت حاجبيها في ضيق، وأزاحت كأسها جانبا، فقال (جان) ضاحكا:
- ألا تشربين نخب هذا؟
قالت في ضيق:
- لا يحق لي كمصرية أن أفعل
سألها في دهشة:
- أما زلت تشعرين بالانتماء إلى (مصر)؟ أنسيتِ ما فعله بك المصريون؟
هتفت في حدة:
- انني مصرية.. صحيح أنني أبغض الثورة ورجالها، ولكنني لا أبغض (مصر) نفسها.
قهقه ضاحكا، وهو يقول:
- عجيب هذا القول، من مصرية تحيا في (باريس)
قالت في غضب:
- إنه أمر مؤقت.. سينتهي عصر الثورة ورجالها يوما، وعندئذ سأعود.
ثم رفعت كأسها، مستطردة في حزم:

- هذا هو النخب، الذي سأشرب من أجله
وجرعت كأسها دفعة واحدة.
كعادتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تصاعدت فقاقيع الهواء في نرجيلة (جودة)، ونفث هو الدخان عاليا في قوة، قبل أن يقول بصوته الجهوري المرتفع:
- سيد الرجال هو زعيمنا (جمال عبد الناصر).. إنه يقف كالأسد في وجه المعتدين.. لن يمكنهم هزيمته أبدا.
غمغم الحاج (سعفان) في قلق:
- ليتني أشاركك ثقتك هذه يا (جودة)، ولكن الأخبار التي وصلتني، تقول: إن الإسرائيليين قد احتلوا (سيناء) كلها، في حين نجح البريطانيون والفرنسيون في احتلال (بور سعيد).
هتف (جودة):
- ليس كلها
ثم أضاف، وهو يلوح بأصابعه:
- لقد هبطوا فيها فحسب، ولكن المقاومة الشعبية هناك تمنعهم من احتلالها، كما أن (صلاح سالم) صنع من (السويس) حصنا.
تنهد الحاج (سعفان)، وقال:
- كل هذا جميل، ولكن ماذا عن الجيش؟ أين الجيش؟
تلفت الجميع حولهم في خوف، خشية أن يكون بعض رجال الحكومة قد سمعوا عبارة الحاج (سعفان)، ثم هتف أحدهم، وكأنه يحاول تغيير الموضوع:
- سمعت أن (مفيد) بك، ابن المرحوم الحاج (البنهاوي)، تطوع في المقاومة الشعبية.. أهذا صحيح؟
أجابه (جودة) في سخرية:

- أبناء البهوات لا يقاتلون.. إنه لم يغادر السراي قط، منذ بدأت الحرب.
وعلى الرغم من سخريته، كان (جودة) على حق.. إن (مفيد) لم يغادر السراى بالفعل، منذ بدأت الحرب. كان يتصور أن هذه الحرب هي نهاية العالم أو رمعا هكذا صورت له نفسه المحبطة، بعد أن مر بكل ما مر به
كان يتابع الأخبار بكل اهتمام، ولكن بقلق لا حدود له وكان يبنى موقفه على حسابات منطقية..
على قوة الجيوش البريطانية والفرنسية والإسرائيلية، ومقارنتها بقوة الجيش المصري..
وهذا يورثه شعورا بالعجز واليأس..
ولقد شعرت (شريفة) بالقلق من أجله، وهو يقضي جل وقته في حجرته، فطرقت باب الحجرة في حذر، وهي تقول:
- (مفيد).. أيمكنني أن أجلس معك بعض الوقت؟
فتح لها الباب، وهو شاحب الوجه، مطلق اللحية، وقال:
- ادخلى يا (شريفة).. كنت أستمع إلى بعض الإذاعات الأجنبية.
سألته:
- وماذا تقول هذه الإذاعات
جلس إلى جوار المذياع، قائلا:
- العالم كله يغلي، من أجل ما يحدث.. (إيدن) و (جى دى موليه) يتعرضان لموجة نقد ومعارضة عنيفة، والمظاهرات تبلغ ذروتها، في (لندن) و (باريس)، وتهتف بسقوط (إيدن) و (دى موليه).. حتى مجلس العموم البريطاني يواجه ثورة وسط أعضائه، ووزير الدولة (أنتونى ناتنج) استقال، احتجاجا على هذا العمل العدواني، والولايات المتحدة بدأت تتخذ موقفا معارضا لـ (انجلترا) و (فرنسا).

هتفت في دهشة:
- وهل تتابع كل هذا؟
أومأ برأسه إيجابا، وقال:
- وهل لدي ما أفعله سوى هذا؟
سألته:
- وعملك؟ إنك لم تذهب إلى العمل، منذ أكثر من شهر؟
أجاب في خفوت:
- لقد استقلت
هتفت مستنكرة:
- استقلت؟! لماذا كان كل سعيك خلف الوظيفة إذن
قال في مرارة:
- أصبحت أكره السفر.
حدقت فيه بدهشة وحيرة إنه لم يعد (مفيد) الذي تعرفه.
هذا الجالس أمامها لا يشبه (مفيد) الا في هيئته فحسب، أما في أعماقه وتصرفاته، فهو شخص يختلف
يختلف تماما

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فجأة اختلفت الصورة..
في مساء الخامس من نوفمبر أرسل المارشال (نيكولاي بولجانين) رسالة إلى (ايدن) يحذره فيها من استمرار الأمر، ويعلنه أن هذا سيعنى أن تتطور الحرب إلى حرب عالمية ثالثة، ويشير فيه في صراحة إلى أن (الاتحاد السوفيتي) قد يضطر إلى ضرب (لندن) بالصواريخ عابرة القارات، لو لم تتوقف الحرب، وتضع أوزارها..

وخطاب مماثل الى (لي مولية) - وثالث إلى (بن جوريون) ولم يتردد الأمريكيون في تأييد الإنذار السوفيتي.. وكان على العالم أن يستوعب هذه الحقيقة الجديدة لقد اختلف ميزان القوى.
لم تعد (إنجلترا) و (فرنسا) هما القوتين العظميين، كما كانتا قبل بداية الحرب العالمية الثانية..
الآن أصبح هناك معسكران، شرقى وغربى.. وعلى باقي الدول أن تخضع لهذا..
وفي صباح السادس من نوفمبر تم إعلان وقف إطلاق النار، في منتصف الليل، بتوقيت (جرينتش): أي في الثانية صباحا، بتوقيت (القاهرة).. ووضعت الحرب أوزارها.. وانتصر (جمال عبد الناصر).
كان انتصارا سياسيا، بأكثر مما هو عسكرى، ولكنه كان انتصارا حقيقيا لـ (جمال عبد الناصر)، الذي قفزت شعبيته إلى الذروة، ليس في (مصر) وحدها، وإنما في العالم العربي كله..
وانعكست الأدوار على نحو عجيب.
لقد بدأت الحرب، وهم يستهدفون إسقاط النظام، وإقصاء (عبد الناصر) عن حكم (مصر)، وانتهت وقد قويت مكانة (عبد الناصر) أكثر، وبدأ انهيارهم هم..
(إيدن) اعتزل الحكم، وانزوى في جزيرة (جامايكا)، حتى تقدم باستقالته، في التاسع من يناير عام ١٩٥٧
و (جي موليه) سقطت وزارته بعدها، في مايو من العام نفسه..
أما في (مصر)، فقد بدأ الانسحاب في ديسمبر، ورحل آخر المعتدين يوم الثاني والعشرين من ديسمبر.
وأصبح الثالث والعشرين من ديسمبر عيدا للنصر، تحتفل به (مصر) في كل عام..

أما الاسرائيليون، فقد تحدوا القرار كعادتهم، ثم لم يلبثوا أن انسحبوا، مدمرين كل شيء خلفهم، لينتهي انسحابهم في السابع من مارس من العام التالي.
وفي ذلك اليوم فقط انتهت الحرب رسميا وفعليا، وبدا (حسين) شديد المرح والسعادة، وهو يقول لـ (صلاح) في مكتبه:
- انتصرنا يا رجل.. رحل آخر الغزاة بالفعل
غمغم (صلاح):
- لم يرحلوا دون مكاسب سأله (حسين) في تحد:
- وأي مكسب هذا؟
أجابه (صلاح):
- لقد حصل الإسرائيليون على حق المرور في خليج العقبة.. أليس كذلك؟
قهقه (حسين) ضاحكا، وقال:
- إنها خسارة بسيطة يا رجل، لو قورنت بما كان يحتمل أن يحدث لقد ربحنا (قناة السويس) على الأقل..
لم يكن قد انتهى من ضحكته بعد، عندما فوجئ بـ (مراد صقر) يدخل إلى مكتبه، فاعتدل في سرعة، وكذلك فعل (صلاح)، وهتف (حسين):
- أهلا (مراد) بك.. مرحبًا بك في مكتبي المتواضع.
كان حاجبا (مراد) معقودين في غضب، وهو يواجه (حسين)، وأشار بيده إلى (صلاح)، الذي فهم الإشارة، فأسرع يغادر الحجرة، ويغلق بابها خلفه في إحكام، وظل (مراد) يتطلع بعدها إلى (حسين) لدقيقة كاملة في صمت، ثم قال في صرامة:
- إذن فقد التقيت بـ (جمال).
لم ينبس (حسين) ببنت شفة، وان ارتسمت على شفتيه ابتسامة ثقة ضاعفت من غضب (مراد)، وهو يقول:

- لقد وصل قرار خاص من رياسة الجمهورية بشأنك اليوم..
وازداد انعقاد حاجبيه، وهو يتابع:
- الرئيس (عبد الناصر) أصدر قرارا جمهوريا، بتعيينك المسؤول الخاص عن أمور رياسة الجمهورية هنا.
تألقت عينا (حسين) في ظفر..
هذا إذن ما كان يقصده الرئيس (جمال)، بالوسيلة التي ستمنع (مراد صقر) من التربص به مرة أخرى.
لقد حصل على ترقية، وحماية في الوقت ذاته ولكن هل سيغفر له (مراد صقر) هذا؟
كان من الواضح أن الجواب سلبيا، فقد بدا (مراد صقر) شديد الحنق والسخط، وهو يبلغه القرار، وخاصة عندما قال:
- اتعشم أن يكون هذا بداية لاهتمامك بشئون العمل، أكثر من شئونك الشخصية.
تمتم (حسين):
- أشكرك يا سيدى
غادر (مراد) مكتب (حسين)، والحنق يملا وجهه ونفسه، وأشار إلى (صلاح)، قائلا:
- اتبعني إلى مكتبي.
تبعه (صلاح) إلى مكتبه، ولم يكد يغلق بابه خلفه، حتى سأله (مراد) في صرامة:
- لماذا لم تبلغني أن (حسين البنهاوي) كان يسجل كل محادثاته معي؟
شحب وجه (صلاح)، وقال:
- لم أكن أعلم هذا يا (مراد) بك.. أقسم لك
ضرب (مراد) سطح مكتبه في غضب، وهو يقول
- إنني أبغض كلمة (لم أكن أعلم) هذه.. مهنتك هنا هي أن تعلم

أومأ (صلاح) برأسه إيجابا، وقال:
- بالطبع يا سيدى.. بالطبع
جلس (مراد) خلف مكتبه، وراح ينفث غضبة مع زفراته الحارة، قبل أن يرفع عينيه إلى (صلاح)، قائلا في صرامة:
- أريد منك أن تكون أكثر يقظة هذه المرة.. كل حرف ينطق به (حسين البنهاوي)، وكل حركة يأتيها، وكل مكان يذهب إليه، أو شخص يلتقي به، أريد أن يكون لدي تقرير كامل عنه.
ابتسم (صلاح) في خبث، وقال:
- كما تأمر يا سيدى.
تابع (صلاح) في حدة:
- ضع أيضا وحدات تسجيل، في كل مكان يذهب إليه، أو يجلس فيه.. في مكتبه، ومنزله، وحتى في سراي أسرته، لو أمكنك هذا.
أومأ (صلاح) برأسه ايجابا، وقال في لهجة أقرب إلى الجذل
- سأبذل قصارى جهدى يا سيدى
لوح (مراد) بكفه، قائلا:
- هيا.. اذهب
لم يكد (صلاح) يستدير لينصرف، حتى استوقفه (مراد)، قائلا:
- هل تعرف عنوان (إبراهيم مكى)؟
التفت إليه (صلاح)، قائلا:
- بالطبع يا سيدي.. هل ترغب في زيارته؟ شرد (مراد) ببصره، وقال في حدة تشف عن غضبه ومقته:
- نعم.. إنني أحتاج إلى (إبراهيم مكى) هذه المرة
ثم تطلع إلى (ملاح) مستطردا:
- فلا يفل الحديد إلا الحديد
وأطل من عينيه الغضب
كل الغضب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

70 – الحساب..

- (حسين) وصل..

لم تكد (شريفة) تهتف بهذه العبارة، حتى سقط قلب (فاطمة) بين قدميها.

إنها تخشى مجيء (حسين)، منذ ذلك الصدام، الذي حدث بينهما.. تخشاه؛ لأنها تعلم أنه سيكون بداية النهاية لوالدها المسكين، الذي يكاد يلقي حتفه، قبل حتى أن يصل إليه (حسين)..

وفي هلع أسرعت توقظ زوجها، هاتفة:

- (حافظ).. (حافظ).. لقد عاد (حسين).

انتفض (حافظ)، وهب جالسا، وهو يهتف في رعب:

- عاد!!

حاولت مساعدته على النهوض، وهي تقول:

- نعم.. عاد.. هيا.. استيقظ.. لا تقضى حياتك كلها نائما.. شقيقك أتى لينتقم مني ومن والدي، وينبغي أن تتصدى له.

ارتجف صوته، وهو يقول:

- أتصدى لـ (حسين)؟! لن.. لن يمكنني هذا أبدا

لطمت خديها، هاتفة:

- انهض وقف في وجهه يا رجل.. ماذا أفعل؟ بمن أستنجد

استيقظ (طارق) باكيا في فزع، فحملته في حنان، وهي تبكي قائلة

- لم يعد لنا من تستند إليه يا ولدي.. لم يعد هناك من يحمينا

تضاعف بكاء الصغير، وكأنه فهم ما تعنيه، فضمته إلى صدرها تحاول إسكاته.

وفجأة فتح (حسين) الباب..

فارتجفت وتراجعت في رعب، وهي تحمي (طارق) بجسدها.

وانكمش (حافظ) في مكانه هلعا، وهو يهتف:

- ارحمهما يا (حسين).. ارحمهما
هتفت (شريفة)، من خلف (حسين):
- هذه الحقيرة لا تستحق الرحمة.
ولكن (حسين) ابتسم ابتسامة غامضة، يصعب تحديد مغزاها، وهو يتقدم نحو (فاطمة)، ثم مد يده اليها قائلا:
- أعطيني الصغير.
تشبثت بابنها في رعب، ولكن (حسين) أمسك (طارق) في رفق وقال في حنان عجيب، بدا - لحظتها - بعيدا اشد البعد عن طبيعته.
- تعال أيها (البنهاوي) الصغير.. لا تخف.. تعال..
استسلم له الصغير في هدوء، جعل (فاطمة) تتخلى عنه في الية فاحتضنه (حسين)، وداعية في حنان، استجاب له الصغير بضحكة عالية، وردد اسم (حسين) على نحو مضحك، فابتسم له هذا الأخير ابتسامة كبيرة، وقال:
- أتعلم أيها (البنهاوي) الصغير؟ لقد ارتكبت أمك، في حق الاسم الذي تحمله، جريمة كبرى، تستحق القتل من اجلها.
امتقع وجه (فاطمة)، والتصقت بزوجها في رعب، وردد (حافظ):
- لا يا (حسين).. أرجوك
نقل (حسين) بصره بين وجهى (حافظ) و (فاطمة) في هدوء، قبل أن يتابع:
- ولكنني سأغفر لها، من أجلك..
شهقت (شريفة) في استنكار، في حين انفجرت (فاطمة) باكية غير مصدقة بنجاتها من انتقام (حسين)، الذي تابع في برود:
- ولكن من العسير أن يمضي الأمر دون عقاب جحظت عينا (فاطمة) مرة أخرى في هلع، و (حسين) يستطرد - فيما مضى كنت أحصل على إيراد الأرض كله، وأقوم بتوزيع الأنصبة الشرعية منه على الجميع، طبقا لوصية والدي، ولكن (حافظ) أتي

من الأفعال ما يؤكد أنه غير قادر على القيام بمسئولياته، فما الذي يحدث، في مثل هذه الأمور؟
قالت (فاطمة) في خوف؛
- هل ستحرمنا نصيبنا؟
أجابها (حسين) بنفس البرود:
- بل سأحجر على (حافظ)، يا زوجة أخي العزيزة.. لن يحصل على مليم واحد من إيراد أرضه، ولكنه سيحصل على مطالبكما الضرورية فحسب.. الطعام والكساء.
هتفت باكية
- هذا ظلم
ولكن (حسين) أدار عينيه إلى (حافظ)، وقال في صرامة:
- أتوافق على هذا العقاب؟
أطرق (حافظ) بعينيه أرضا، وقال في مرارة واستسلام:
- أوافق يا (حسين).. أوافق
- رفع (حسين) رأسه في ظفر، وداعب أصابع (طارق) قائلا:
- أرأيت يا صغيري؟ لقد انتهى الأمر في سلام
أتاه صوت (مفيد) من خلفه، يقول في صرامة:
- لا يا (حسين).. لم ينته الأمر بعد
التفت إليه (حسين) في صرامة، وانعقد حاجباه في شدة، عندما رآه بلحيته الطويلة، ووجهه الشاحب، فقال له في غضب:
- ما هذا؟ لماذا تبدو أشبه بشحاذين (الحسين) هكذا؟
تجاهل (مفيد) قوله، وقال في حدة:
- ليس من حقك أن تحرم (حافظ) من نصيبه
قال (حسين) في صرامة:
- لا تتدخل فيما لا يعنيك
صاح (مفيد) في غضب:

- أنت الذي يتدخل فيما لا يعنيه.. من أعطاك الحق في التحكم في شئوننا إلى هذا الحد.. أنت ظالم! ظالم!
فجأة ارتفعت يد (حسين)، وهوت على وجه شقيقه بصفعة هائلة صفعة ارتج لها كيان (مفيد) كله..
وعندما حدق في وجه (حسين) في غضب، صاح به هذا الأخير في صرامة:
- لقد حذرتك من قبل.. كلمة واحدة زائدة، وتكون حياة (مديحة) هي الثمن..
انفجر (مفيد) باكيا فجأة، وهو يقول:
- لقد ضاعت (مديحة).. ضاعت إلى الأبد.. لقد فقدتها للمرة الثانية، بعد أن نجحت في العثور عليها.. فقدتها لأن والدها كان يخاف الظلم.
يخافك أنت
انعقد حاجبا (حسين) في حدة، وهو يقول:
- خيرا فعل، فلقد أقسمت أن ألقيه في غياهب السجن الحربي إلى الأبد، لو عادت ابنته اليك
صرخ (مفيد):
أيها الظالم
صاح به (حسين) مرة أخرى.. أخرس
ثم التفت إلى (شريفة)، مستطردا في صرامة:
- أرسلي في طلب الحلاق.. أريد هذا الصبي نظيفا متألقا، بعد ساعة واحدة، وإلا فلن ترضى خطيبته بالنظر إلى وجهه..
ترددت وهي تقول:
- لقد ترك خطيبته
صاح (حسين) غاضبًا:

- ولماذا لم يخبرني أحد؟ لماذا أكون دائما آخر من يعلم هنا؟ ثم اندفع خارجا، وهو يستطرد:
- هذه الأسرة تحتاج إلى المزيد من الحزم حتما اندفعت (فاطمة) خلفه هاتفة: - (حسين) بك.. اغفر لوالدي.. أرجوك يا (حسين) بك
التفت إليها يرمقها بنظرة ازدراء، وهو يقول:
- لا تأملي بأكثر مما حصلت عليه بالفعل
هوت على قدميه تقبلهما، وهي تهتف:
- لا.. الرحمة يا بك.. الرحمة
واندفع (مفيد) نحوه، صائحًا:
- إياك أن تمس عم (عبد الحميد) بسوء، لقد وعدته
صرخ به غاضبًا:
- لا تعد بما لا يمكنك الوفاء به
صاح (مفيد):
- قلت لك اتركه.. اتركه وشأنه
اندفع شيخ الخفراء (بسيونى) داخل السراى، في هذه اللحظة، وهو يهتف:
- (فاطمة).. والدك يا (فاطمة).. والدك
امتقع وجه (فاطمة)، وتهالكت منهارة، في حين هتف به (مفيد):
- ماذا أصابه؟ ماذا أصاب عم (عبد الحميد)؟
بكى (بسيوني) في مرارة، وهو يقول:
- لم يكد يسمع ان (حسين) بك قد وصل إلى القرية، مع عدد من الجنود، حتى سقط فاقد النطق، وحاولنا اسعافه، ولكن.. ولكن
لم يكن بحاجة إلى إكمال قوله، وهو ينتحب في حزن
الجميع فهموا ما يعنيه وانطلقت صرخة من حلق (فاطمة)، ثم انهارت باكية في حرارة..
أما (مفيد)، فقد وقف كالمذهول، يردد:

- مستحيل! مستحيل!
وبكت (شريفة) لهول الموقف، في حين بقي (حسين) صامتا جامدا لحظات، قبل أن يقول في حزم:
- هذا أفضل
وفي رصانة وقوة، اتجه نحو باب السراي، في طريقة للانصراف قبل أن يصرخ (مفيد) من خلفه:
- هذا ظلم! ظلم! ظلم!
ولكن (حسين) لم يبال بصراخه لقد انتهت الأمور إلى ما كان يريد ودون مجهود كبير
أمر واحد بقي دون أن يحسم
أمر جعله يتوقف. قبل أن يبلغ باب السراي، ويلتفت قائلا:
- (شريفة). هرعت إليه شقيقته متسائلة، فقال في صرامة:
- كانت هناك مهمة دقيقة. في قلب (إسرائيل)، تحتاج إلى متطوع شجاع.
لم تفهم ما يعنيه، فتطلعت اليه في حيرة، حتى قال
- ولقد تقدم (أمجد) متطوعا للقيام بها.
اتسعت عيناها في ذعر، وتراجعت في هلع، وأخفت فمها بكفيها وكأنها تكتم صرخة هائلة، أرادت أن تنطلق من بين شفتيها، وهي تقول:
- وماذا اصابه؟
قال في حزم
- ستنال اسرته معاش شهيد
أطلقت (شريفة) صرخة ذعر، وسقطت في لوعة، وتفجرت عيناها بالدموع، فألقي (حسين) عليها نظرة باردة. وغادر السراي في خطوات حازمة، واستقل سيارته مغادرا القرية، وتاركا خلفه بحرا ضخما

بحرا من المرارة والغضب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صافح (عبد الحكيم) زوج (توحيده)، (عمر) في حرارة، وهو يسأله:
- مساء الخير يا (عمر). لماذا طلبت رؤيتي؟
دعاه (عمر) إلى الجلوس، ومال نحوه يسأله:
- أبلغك ما فعله (حسين) بك صباح اليوم؟
هز (عبد الحكيم) رأسه في أسف، وقال:
- إنها مأساة.
مط (عمر) شفتيه، وهو يقول:
- أما زلت تفضل البقاء هنا، واستثمار حدائقك؟
سأله (عبد الحكيم):
- ماذا تعني؟
اعتدال (عمر)، وقال في حماس:
- الم تسمع ما يرددونه في هذه الأيام؟ إنهم يشجعون الصناعة كل الصناعات.. الكبيرة والصغيرة..
سأله (عبد الحكيم):
- وما شأننا بهذا؟
أجابه وكأنه يفشي سرا:
- أتعرف (رضا)؟ ابن (على العيد) أومأ (عبد الحكيم) برأسه إيجابا، فتابع (عمر):
- لقد بدأ مشروع مصنع صغير، للغزل والنسيج، في (المحلة الكبرى)، وهو يحتاج إلى شركاء.. ما رأيك؟
عقد (عبد الحكيم) حاجبيه مفكرا، ثم سأله

- وكم يحتاج من المال؟
أجابه (عمر):
- حوالي عشرة الاف جنيه
رفع (عبد الحكيم) حاجبيه، هاتفا
- يا ألهى.. انه مبلغ ضخم
قال (عمر):
- ولكنه مشروع مربح.. وصدقني يا رجل.. هذه الدولة مقبلة على عهد التصنيع، وليس عهد الزراعة.. ومشروع السد العالي وحده سيحتاج الى عشرات الصناعات والأعمال المعاونة، ويمكننا من الان ان نتعاقد مع شركات المقاولات العاملة به، لصنع وتوريد ملابس العمال فيها.. ما رأيك؟
بدت علامات التفكير طويلا على وجه (عبد الحكيم)، ثم لم يلبث أن قال:
- لا بأس.. لست أظنني أندم على هذا الأمر
تهللت أسارير (عمر)، ومد يده يصافح (عبد الحكيم) قائلا:
- رائع يا (عبده).. أوكد لك أن مشروعنا الصغير هذا لن يلبث أن يصبح قلعة صناعية ضخمة، تتضاءل إلى جوارها مشاريعنا الزراعية الصغيرة.
وحملت عيناه كل علامات التشفي والحقد، وهو يتابع: وسنصبح أكبر حتى من (حسين) بك نفسه
ورددت جدران المنزل ضحكته لأول مرة، منذ سنوات
وكانت ضحكة واثقة وظافرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتفع رنين جرس الباب، في شقة (ابراهيم مكى) الجديدة، فنهض (ابراهيم) في تراخ، وتمتم وهو يتجه إلى الباب:
- من المؤسف أن راتب التقاعد لا يكفي لاستئجار الخدم والحشم، مثلما يفعل (حسين) بك.
فتح باب شقته بنفس التراخي، ولكنه لم يكد يرى زائره، حتى اعتدل في احترام، وهتف في دهشة:
- (مراد) بك!
حدجة (مراد صقر) بنظرة طويلة باردة، قبل أن يقول:
- أتسمح لي بالدخول؟
أسرع (إبراهيم) يفسح له الطريق، هاتفا:
- بالطبع يا (مراد) بك.. تفضل.. إنه منزلك
خطا (مراد) في هدوء داخل المنزل، وألقي نظرة سريعة على محتوياته، قبل أن يقول:
- منزلك أنيق يا (إبراهيم).
قال (إبراهيم)، وهو يتساءل في أعماقه، عن سر هذه الزيارة العجيبة المفاجئة:
- بعض ما عندكم يا (مراد) بك
انتقى (مراد) أفضل مقاعد الردهة، واستقر فوقه، وهو يقول:
- ترى من انتقى أثاث هذا المنزل؟ أنت أم...
رفع عينيه، لتلتقيا بعيني (إبراهيم) بغتة، قبل أن يستطرد:
- أم (حسين البنهاوي)؟
لم يكن من السهل أن يستفز ذلك الأسلوب رجلا محنكا، مثل (ابراهيم مكى)، الذي ابتسم ابتسامة ماكرة، تشف عن حنكته، وخبرته في هذا المضمار، وهو يقول:
- إنها شقة مؤثثه مسبقا
ظل (مراد صقر) يتفحصه بنظراته لحظات، ثم قال:

- إذن فأنت الرأس المدبر لـ (حسين البنهاوي).
جلس (ابراهيم) في هدوء، وهو يجيب:
- كان هذا في البداية فقط يا (مراد) بك، ولكنه أصبح الآن أستاذا
تمتم (مراد) في بغض:
- لقد لاحظت هذا
وتنهد في عمق، ثم استطرد:
- كان ينبغي أن أنتبه إلى هذا، عندما سعى (حسين) للإفراج عنك.
هز (ابراهيم) كتفيه، وقال
- كانت صفقة مناسبة
رمقه (مراد) بنظرة طويلة، قبل أن يقول في حذر
- لدى صفقة أفضل
اعتدل (ابراهيم)، وسأله في اهتمام:
- ما هي؟ ت
راجع (مراد صقر) في مقعده، وقال:
- حسين البنهاوي) يرأس الأن إدارة جديدة، وهذا يعني أن إدارته السابقة تحتاج إلى رئيس جديد، وأنت تعلم أن اختيار رؤساء الإدارات، في مهنتنا، عملية شاقة، وتحتاج إلى الموثوق فيهم، بأكثر مما تحتاج إلى الخبراء.
ضاقت حدقتا (إبراهيم)، وهو يقول:
- أهو عرض بعودتي إلى العمل؟
عقد (مراد صقر) حاجبيه، وكأنما لا يروق له أن يفسد (إبراهيم) مفاجأته، وقال في صرامة:
- لقد استصدرت أمرا بعودتك إلى عملك بالفعل.
برقت عينا (إبراهيم)، وكاد يطلق صيحة ظفر قوية، إلا أنه سيطر على مشاعره في قوة وحزم، وهو يسأل:
- وما المقابل؟

قال (مراد صقر) في حذر:
- إننا نحتاج إلى خبرتك
قال (ابراهيم):
- خبرتي؟
انعقد حاجبا (مراد صقر) مرة أخرى، وهو يقول
- وأنا أحتاج إلى علاقتك الجيدة بـ (حسين البنهاوي) ثم اعتدل، مستطردا في بغض:
- انني لم أعتد أبدا أن يهزمني أحد رجالي، ولن أقبل قط تلك الهزيمة التي كبدني اياها (حسين) هذا.. لقد حصل على حماية (عبد الناصر) نفسه، ولكنني لن أهدأ، حتى أحطم ثقة (عبد الناصر) به، وأذيقه مر الهزيمة.
قال (إبراهيم)، وهو ينتقي كلماته في حذر:
- الرئيس (جمال عبد الناصر) ليس سهلا، واللعب ضده يحتاج إلى مزيج من القوة والجرأة والذكاء.
أجابه (مراد) في حزم:
- ولست أفتقر إلى كل هذا.
ثم واجه (إبراهيم) في صرامة، مستطردا:
- والان.. هل تقبل العودة إلى العمل، بشرط أن تلتحق بفريقي أنا؟
أجابه (إبراهيم) بلا تردد:
- بالطبع
نهض (مراد) على الفور، وكأنه كان ينتظر هذا الجواب، وصافحه قائلا في حزم:
- اتفقنا.. أراك غدا، في مكتبك الجديد.
وغادر المنزل في ارتياح، تاركا (إبراهيم مكى) في سعادة لا يمكن وصفها، يملؤه شعور عارم بالثقة والظفر، وهو يضم قبضته، هاتفا:

- الان فقط يبدأ الصراع الحقيقي بيننا يا (حسين).
واعتصر قبضة في قوة ..
وأعلن بدء صراع جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

71 - كل القوة..

لم يحظ (عبد الحميد)، والد (فاطمة)، في مماته، كما في حياته، بالاحترام والتقدير الكافيين، فعلى الرغم من أنه مات وهو العمدة الرسمي القرية، إلا أن جنازته كانت صغيرة صامتة، لم يخرج فيها سوى أقل القليل من أهل القرية، وعلى رأسهم الحاج (سعفان)، و(بسيونى)، و (مفيد البنهاوي)، الذي أصر في شدة على أن يتم دفن الرجل في مدافن أسرة (البنهاوي)، وكأنما يحاول بهذا التكفير عن قدر، ولو ضئيل، من ذنب (حسين) في مصرع الرجل، الذي قضى نحبه خوفا وانهيارا.

وخلف الجنازة سارت (فاطمة) في ثوبها الأسود، تبكي في حرارة ومرارة، دون أن تنطلق من حلقها صرخة واحدة، على عكس المتبع في القرى.

ولم يجرؤ الكثيرون على حضور الجنازة..

كان الجميع يعلمون بقصة (حسين) مع (عبد الحميد)، حتى أن بعضهم خشى حضور الجنازة، حتى لا يبدو حضوره وكأنه تأييد لموقف المتوفي المسكين..

حتى بعد وفاة الرجل، خشي الجميع الانضمام إليه ولم يبك أمام قبره سوى رجل وامرأة..

(مفيد البنهاوي)، الذي رأي فيما حدث أكبر دليل على الظلم والقهر في ذلك العهد، و (فاطمة) الملتاعة بفقد والدها.

وبعدها عادت (فاطمة) إلى السراى.. عادت كسيرة الفؤاد، محطمة القلب، لا تملك سوى المزيد من البكاء والحسرة..

أما (مفيد)، فلم يطق العودة إلى السراى.

كان هناك شعور عنيف بالاختناق يحيط بعنقه، وهو يعتبر نفسه مسئولا عن جزء مما حدث؛ لمجرد أنه يحمل اسم (البنهاوي)..

كان قد حلق لحيته، ولكنه بدا أشبه بجثة تمشي على قدمين، من شدة شحوبه ونحوله، حتى أن الحاج (سعفان) سأله في قلق:
- ماذا بك يا ولدي.. أأنت مريض؟
هز (مفيد) رأسه نفيا، وقال:
- لا يا حاج (سعفان).. لقد تذكرت والدي فحسب
ربت الحاج (سعفان) على ظهره، وتنهد قائلا:
- فلتعش طويلا وتتذكر يا ولدي.. كان والدك سيد الرجال
قال (مفيد) في مرارة:
- ولكنه ظلمنا جميعا يا حاج (سعفان)،
هتف الرجل مستنكرا:
- ظلمكم؟! لا تذكر والدك (رحمه الله) بهذا يا ولدي
قال (مفيد)، وصوته يكاد يختنق:
- كيف تصف ما فعله بنا إذن، عندما خالف شرع الله سبحانه وتعالى)، ومنح الأرض كلها (حسين)؟
تنهد الرجل مرة أخرى، وغمغم:
- اذكروا محاسن موتاكم يا ولدي.. ولكل جواد كبوة.
هز (مفيد) رأسه، وقال في مرارة شديدة:
- كلنا ندفع ثمن هذه الكبوة يا حاج (سعفان).. حتى (عبد الحميد) المسكين، (رحمه الله)، دفع حياته جزءا من ثمنها.
قال الحاج (سعفان) في حزم:
- وصية والدك لم تمنح (حسين) كل هذه السلطة والقسوة يا ولدي
تمتم (مفيد):
- ولكنها ساعدته على هذا.
زفر الحاج (سعفان)، وهو يقول
- لست أظن هذا

لم يجد (مفيد) في نفسه ميلا للمناقشة، فاكتفى بالسير إلى جوار الحاج (سعفان) في صمت، حتى اقتربا من مقهى (جودة) فخرج (جودة) يهتف كالمعتاد:
- تفضل يا (مفيد) بك.. تفضل.
كان هذا النداء يدفع (مفيد) للإسراع مبتعدا فيما مضى، أما في هذه المرة، فقد مال إلى تلبيته في شدة، فانحرف نحو المقهى، وهو يقول للحاج (سعفان):
- ما رأيك لو نتناول قدحين من الشاي عند (جودة) يا حاج؟
أجابه الحاج (سعفان) في بساطة:
- لا بأس يا ولدي.. لا بأس
استقبلهما المعلم (جودة) في ترحاب شديد، وهتف بصبية في حرارة:
- أفضل قدحى شاى في المقهى كله، على نفقتي الخاصة
قال الحاج (سعفان)، وهو يلكز (جودة) بمرفقه:
- أما زلت منافقا
هتف (جودة)، وهو يجذب مقعده ونرجيلته، ليجلس معهما:
- إنني أرحب بالأصدقاء والأحبه يا حاج
ثم جذب نفسا عميقا من نرجيلته، وتابع:
- الحق يقال إن (عبد الحميد) هذا كان رجلا طيبا، ولكنه كان يحتل مقعدا متسعا بالنسبة إليه، وكان من الصعب أن يمتلئ به المقعد.
غمغم الحاج (سعفان):
- ولكنه كان يؤدي عمله بأمانه.
لوح (جودة) بكفه، قائلا:
- الأمانة وحدها لا تكفي.. من الضروري أن يمتلك العمدة أيضا شيئا من المهابة والقوة، إلى جوار الأمانة.
تطلع إليه (مفيد) لحظة، وقال:

- أنت على حق.
ابتسم (جودة) في زهو؛ لأن (مفيد) أيد قوله، وقال:
- ولكن من يمكنه الترشيح لمنصب العمدة الأن؟ ما رأيك يا حاج (سعفان)؟
قال الحاج (سعفان).. هناك كثيرون.. (خليفة الصاوي)، و (نعمان القط)..
قاطعه (جودة):
- كلهم لا يصلحون
ثم مال نحوه، وغمز بعينه، مستطردا:
- ما رأيك لو رشحت نفسك للمنصب يا حاج (سعفان)؟
هتف الحاج مستنكرا:
- أنا؟!
أجابه (مفيد):
- انني أراك أصلح من يتولى هذا المنصب، في القرية كلها يا حاج (سعفان).
تفكر الحاج (سعفان) لحظات في الأمر، ثم هز كتفيه، ونهض قائلا:
- لا.. لست أظن هذا
ثم سأل (مفيد):
- هل ترحل؟
غمغم (مفيد) في تردد:
- لم أتناول قدح الشاى بعد
قال الرجل:
إلى اللقاء إذن.
انصرف من المقهى في رصانة ووقار، فقال (جودة):
- صدقني، هو خير من يصلح لها.

تمتم (مفيد):
- بالتأكيد
وتردد لحظة، ثم سال (جودة):
- قل لي: أما زلت تحتفظ بها؟
(جودة) في لا مبالاة:
- بماذا؟
تردد (مفيد) لحظة أخرى، ثم سأله:
- بتلك السيجارة.
تألقت عينا (جودة) في ظفر ودهاء، وهو يهتف في حرارة:
- بل هناك ماهي أفضل منها.
ودس يده في جيب صديريته، والتقط سيجارة أخرى مدببة الطرف ناولها إلى (مفيد)، قائلا بأسلوبه السوقي:
- أفضل صنف وصل إلى الأسواق.. طازج وقوى..
ثم ابتسم ساخرا، وهو يضيف:
- يطلقون عليه اسم (العدوان الثلاثي).
ابتسم (مفيد) ابتسامة مضطربة، والتقط السيجارة ذات المخدر، ودسها بين شفتيه، مغمغما في توتر:
- كم يبلغ ثمنها يا (جودة)؟
صاح (جودة):
- ثمنها؟! أقسم بالطلاق ثلاث مرات ألا تدفع قرشا واحدا.. هذه السيجارة هدية محبة مني إليك.
ثم أشعل له السيجارة، مستطردا في خبث:
- ربما فيما بعد.
التقط (مفيد) أنفاس السيجارة، وسعل في البداية. ثم راح يستنشق الأبخرة الزرقاء اللعينة..

وفي لحظات. مرت أمامه عشرات الذكريات تذكر (مديحة).. وعم (إسماعيل)... و (سوسن)، وتذكر حتى (حسين) و (شريفة) و(فاطمة). ثم انمحي كل شيء من ذاكرته، ولم يتبق سوى سحب الدخان.
الدخان الأزرق
وفي مكر، سأله (جودة):
- ما رأيك؟
اجابه وهو يسعل:
- أظنها عنيفة بعض الشيء
قهقه (جودة) ضاحكا. وهو يقول:
- في البداية فحسب
التقط (مفيد) أنفاسا أخرى من المخدر، وهو لا يدرك أنها بالفعل البداية.
بداية عهد جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف (حسين البنهاوي) في شرفة منزله، في (جاردن سيتى) الذي يطل على نيل (القاهرة) الساحر في الليل، وقد انعكست فوقه الأضواء وتألقت..
وكان يشعر - في هذه اللحظة - أن الدنيا كلها ملك يديه لقد حقق الكثير هذه المرة..
هزم كل من تصدى له
نال ترقية جديدة، ومنصبًا ذا شان أكد سلطته وسطوته في العائلة
أي شيء يتمناه أكثر من هذا؟

شرد ببصره لحظات، ثم ارتسمت أمام عينيه صورة جميلة صورة الأميرة (عايدة)
كانت المعركة الوحيدة، التي لم يحقق فيها انتصارا قويا. بل نال فيها هزيمة..
وللمرة الألف، اعترف في أعماقه بحبه لها.. كان يحبها من كل قلبه ويعشقها و.
انتزعه صوت خادمه من شروده، وهو يقول:
- برقية لك يا سيدى
التفت إليه في هدوء، والتقط منه البرقية، الموضوعة داخل مظروف حكومي، وقال:
- اريد قدحا من الشاي.
ذهب الخادم ليعد الشاي، في حين فض هو المظروف، والتقط البرقية من داخله، وخفق قلبه عندما رأى، في خانة (الجهة المرسل منها)، اسم (باريس)، فهبطت عيناه في سرعة إلى كلمات البرقية، التي تقول:
- مازلت أنتظرك ثم توقيع { عايدة).
وارتسمت على شفتيه ابتسامة ظفر وثقة، وهو يرفع عينيه مرة ثانية إلى النيل، ويملا صدره بهواء (مصر) في انتعاش..
الان لم تعد في حياته هزيمة واحدة..
الآن أصبح يشعر بالقوة..
كل القوة.

نهاية الجزء الثاني

أرزاق

الجزء الثالث

د. نبيل فاروق

من قلب الليل يأتي النهار.. ومن قلب الظلم تأتي الرحمة.. ومن المحال أن نأمل دوام الحال..

د. نبيل فاروق

72- لقاء هناك..

ازدحم مطار (أورلى) في (باريس) في ذلك اليوم، على غير العادة، بسبب الطقس الرديء، الذي أدى إلى تأخر هبوط عدد من الطائرات، التي اضطرت كلها فيما بعد، إلى الهبوط في وقت واحد تقريبا.

ووسط جموع المستقبلين، وقفت حسناء فاتنة تلتقط أنفاس سيجارتها، وتنفثها في شيء من العصبية، وعيناها تتطلعان إلى بوابة خروج القادمين، بنظرة خاصة، تجمع ما بين اللهفة والتوتر والضجر.

كان من الواضح أنها ليست باريسية، على الرغم من أناقتها الواضحة، وجمالها المثير، إلا أنها نجحت في جذب أنظار العديدين، بشعرها الأسود الفاحم الناعم، وشفتيها الجميلتين الممتلئتين، وثوبها الذي لا يقل ثمنه عن ثمن سيارة جديدة، والذي يشف عن الثراء وأناقة الذوق في الوقت ذاته..

وفجأة تبدلت نظرة الفاتنة..

لقد تلاشى منها التوتر والضجر، واتسعت فيها مساحة اللهفة، لتملأ عينيها الساحرتين كلهما، وهي تتحرك إلى الأمام، وتلوح بيدها، هاتفة:

- (حسين).. (حسين).. أنا هنا

انتقلت الأعين منها إلى ذلك الشاب الوقور، ذي البشرة السمراء والشارب الكث، والذي ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة، بدت أكثر وضوحا في عينيه، اللتين احتوتا الحسناء في لحظة واحدة، وهو يتقدم نحوها، وسط نظرات الحسرة والحسد، التي أطلت من عيون الجميع، وخاصة عندما اختطفت الفاتنة كف الشاب،

واحتضنتها بأصابعها في لهفة، وهي تهتف به باللغة العربية، التي يجهلونها تماما:
- حمدا لله على سلامتك يا (حسين).. أوحشتني كثيرا.. لقد طال غيابك هذه المرة.
ابتسم (حسين البنهاوي) في نشوة واضحة، وهو يحتضن أصابع الأميرة (عايدة) بدوره، هامسا في وجد:
- أنت أوحشتني أكثر.
ثم مال يطبع قبلة على خدها البض، فتهللت أساريرها، وتأبطت ذراعه في لهفة.. أو أنها احتضنتها في شوق، وهي تقول:
- لماذا تأخرت هذه المرة؟ ألم تفكر في رؤيتي مرة واحدة، طوال أربعة أشهر كاملة.
ربت على كفها، وهو يقول:
- أنت تعلمين أنني لا أستطيع القدوم إلى (باريس) وقتما أشاء، بل أضطر إلى انتظار أية فرصة، تسمح لي بالقدوم إلى مكتبنا هنا؛ لأنعم بقربك.
أطلقت ضحكة تموج بالدلال، وهي تقوده إلى سيارتها، وتسأله:
- من يصدق هذا؟ كنا يوما عدوين لدودين، فكيف صار كل منا يعشق الآخر هكذا؟
ابتسم وهو ينقد عامل المطار أجره، بعد أن وضع أمتعته في حقيبة السيارة المكشوفة، ثم جلس على المقعد المجاور لها، وهو يقول:
- أنا عشقتك دائما.
هزت كتفيها، وهي تقود السيارة، قائلة:
- هذا أمر طبيعي.. الجميع يعشقونني من النظرة الأولى.
انعقد حاجباه في ضيق، فعادت تضحك، وهي تستدرك في سرعة:
- ولكنني لا أعشق سواك.

أرضت العبارة شيئا في نرجسيته، فانبسطت أساريره، واسترخى في مقعده، وهو يسألها:
- كيف حالك هنا؟ هل أجريت التجديدات التي أخبرتني بها، في متجر الأزياء الذي تمتلكينه؟
أجابته في زهو:
- نعم.. إنه لم يعد متجرا عاديا، بل صار واحدا من أرقي متاجر الأزياء في (باريس) كلها.
ثم سألته في اهتمام:
- كيف حالك أنت؟! أما زالت علاقتك برئيسك (مراد صقر) متوترة؟
مط شفتيه، وتنهد وهو يقول:
- إنها كذلك دائما.. المشكلات لا تنتهي أبدا، ولكننا يهادن بعضنا البعض في الوقت الحالي، وإن كنت واثقا من أنه ينبش خلفي طوال الوقت، بحثا عن الخطأ الذي يتيح له فرصة التخلص منى.
ضحكت في خبث، قائلة:
- مثلما تفعل أنت.
صمت لحظات، قبل أن يجيب:
- لست أنكر هذا.. أنا أيضا أتحين الفرصة للقضاء عليه، إذا ما اضطرني إلى هذا.
سألته في شغف فضولى:
- وماذا عن (إبراهيم مكى).. رجل البوليس السياسي السابق، الذي رويت لي قصته، والذي صار اليوم زميلك في العمل.. لأي الجانبين ينحاز.. لك أم لرئيسك؟
هز كتفيه، وهو يقول:
- لا أحد يمكنه إجابة هذا السؤال سوى (إبراهيم مكى) نفسه.
وشرد ببصره لحظات، قبل أن يستطرد:

إنه رجل غامض للغاية، وخبير محنك في مجاله، ولا يمكنك أبدا استنتاج ما يفكر فيه، أو ما يدور في ذهنه، مهما بلغت درجة قربك منه.
وتنهد مضيفا
- إنني أعامله بحذر شديد طوال الوقت
ضحكت قائلة
- يا لها من حياة! كيف تطيق التعامل طوال الوقت مع من لا تأمن شرهم؟
قلب كفه، وهو يقول في شيء من الأسى:
- إنه قدرى.
شعرت أن حديثها حول عمله قد بدد الكثير من بهجة اللقاء فأدارت الدفة بسرعة وذكاء، وهي تسأله:
- وكيف حال عائلتك؟
اعتدل، وهو يجيب:
- أحوالهم لم تتبدل كثيرا عما أخبرتك به في زيارتي الأخيرة.. (نعيمة) تعيش راضية مستكينة مع زوجها (عمر)، على الرغم من زواجه من (فاتن)، ابنة (شاهين الحبروك)، التي أنجب منها ولدين، أطلق على أحدهما اسم (نجيب)، والآخر اسم (فاروق)..
ضحكت بشدة، وقالت ساخرة:
- وهل سيطلق على الثالث اسم (جمال)؟!
لم ترق له سخريتها، فتابع وكأنه لم يسمعها:
- أما (توحيده) فهي مستقرة كعادتها مع زوجها (عبد الحكيم)، الذي شارك (عمر) و (رضا) ابن (على العبد)، في مصنع للغزل والنسيج، في (المحلة الكبرى)، ويبدو أن أعمالهم في رواج.
رفعت حاجبيها في دهشة، وهي تقول:

- أعمالهم؟! عجبًا... هل تخلت ثورتكم المجيدة عن ميولها الشيوعية، وقررت أن تسمح للمصريين بأن يصبحوا رجال أعمال؟
عقد حاجبيه في غضب، وهو يقول:
- وما صلة الثورة بالشيوعية؟ هتفت ساخرة:
- ماصلتها؟! يبدو أنني مخطئة، فكل ما فعلته ثورتك المباركة، هو أنها ألغت الألقاب، وصادرت الممتلكات، وفرضت الحراسات، و.
قاطعها في صرامة:
- أهذا كل ما تذكرينه عن الثورة؟ أنسيت أنها أعادت الحقوق لأصحابها، وأنشأت مجتمعا ديموقراطيا، و.
صاحت في تهكم شديد:
- ديموقراطيا؟! أأنت الذي يقول هذا؟
ثم انفجرت ضاحكة، على نحو فجر غضب الدنيا في أعماقه فقال في حدة:
- (عايدة).. سبق أن أخبرتك أكثر من مرة، أنني أرفض سخريتك من (مصر) وإنجازاتها.. لا تنسى أبدا أنك مصرية مثلى.
أجابته في عصبية:
- نصف مصرية.. إنني أنتمي إلى أعرق الأسر التركية قال في صرامة:
- لم يعد هذا مثار فخر أو زهو الآن، بل ربما..
أمسك لسانه في اللحظة الأخيرة، قبل أن تنطلق منه عبارة غاضبة، لم تبد أبدا لائقة، ولكن الأميرة (عايدة) فهمت ما يعنيه، فاحتقن وجهها في شدة، وانفجرت هاتفة:
- ربما ماذا؟ هه.. قل ما كان يدور بذهنك.. ربما كان هذا يدعو للخجل.. أليس كذلك؟

ضم شفتيه، دون أن ينبس ببنت شفة، وأشاح بوجهه عنها، وهي تواصل غاضبة:
- ربما كان هذا صحيحا، في (مصر) فقط، بعد أن غسلتم عقول الناس، وأقنعتموهم بأن الفخر، كل الفخر هو أن تكون فقيرا معدما، خاضعا للسلطة والمتسلطين.. كلا يا (حسين)، يا ابن (محمد البنهاوي).. أنا أميرة تركية، وسأظل أفخر بهذا، حتى آخر رمق، وحتى...
التفت إليها بغتة، وصاح:
- (عايدة).
أدهشتها حدته الشديدة، وتلك النظرة المشتعلة في عينيه، فانعقد لسانها في خلقها، وسرى شيء من الخوف في عروقها، جعلها تحدق في وجهه صامتة، وهو يتابع:
- إننا لن نفعل هذا في كل مرة نلتقي فيها.. أنت تكرهين الثورة.. فليكن.. لن أحاول إقناعك بالعكس، أو حتى مناقشتك في الأمر، ولكنني سأظل أحبها، وأحب كل ما فعلته.. هذا شأني.
دفعت عنادها كله إلى لسانها، لتقول بصوت مختنق:
- هذا أمر طبيعي.. لقد استفدت منها كثيرا
قال في حدة:
- هذا صحيح.. ولكنني لن أناقشه أيضا، فالوقت لا يكفي التشاحن.
فجأة، شعرت بقلبها يخفق في صدرها بقوة، مع عبارته الأخيرة، فسألته في جزع أنساها كل حديثهما العصبي:
- الوقت لا يكفي؟! ماذا تقول يا (حسين)؟ إنني لم أرك منذ أربعة شهور، ثم تأتي لتقول: إن الوقت لا يكفي.!!. قل لي: كم ستبقى هنا؟
أجابها في اقتضاب، وبصوت لم يتخلص من عصبيته بعد:
- أربعة أيام.

صرخت:
- ماذا؟
ومع صرختها، ضغطت دواسة الفرامل بكل قوتها، فأطلقت الإطارات صريرا مخيفا، وانحرفت السيارة في عنف، فصاح هو بها:
- ماذا تفعلين أيتها المجنونة؟
أوقفت السيارة على جانب الطريق، وسط أبواق التنبيه المعترضة، والأصوات الغاضبة المستنكرة، والتفتت إليه تهتف:
- هل ستقضي معي أربعة أيام فحسب؟! أي قول هذا؟ ما الذي يضطرك إلى العودة مبكرا هكذا؟
أجاب في توتر:
- ضروريات العمل، و.
بتر عبارته بغتة، فمالت نحوه، حتى امتلأ صدره كله بأنفاسها العطرة، وهي تسأله في همس ملهوف:
- وماذا؟
تطلع إلى وجهها لحظة في صمت، وتركزت عيناه على شفتيها الممتلئتين، فخفق قلبه في عنف، إلا أنه قاوم رغبته، وأشاح بوجهه عنها، وهو يجيب في خفوت:
ثم إنه عيد ميلاد (طارق).
تراجعت وهي تصرخ في غضب:
- عيد ميلاد من؟!
امتلأت نفسه بالضيق أكثر وأكثر، وهو يجيبها في حدة:
- عيد ميلاد (طارق).. ابن شقيقى (حافظ) وزوجته (فاطمة).. أنت تعلمين كم أحبه، ثم إنني لم أتخلف عن حضور عيد مولده قط، طوال السنوات الخمس الماضية، ولن أتخلف عنه هذه المرة.

حدقت في وجهه بدهشة كبيرة، وتصاعد في أعماقها غضب بلا حدود، جعل أصابعها ترتجف، ووجهها يعود إلى احتقانه، الذي زاد بشرتها توردا..
كانت تعلم كم يحب هذا الطفل، على الرغم من كراهيته لأمه، واستهانته بأبيه، ولكنها لم تكن لتقبل أبدا أن يتركها رجل، أي رجل، من أجل شخص آخر..
حتى ولو كان هذا الشخص هو (طارق)..
وعلى الرغم من الثورة العارمة، التي تفجرت في أعماقها، إلا أنها لم تصرخ، أو تبكى، أو حتى تبدي اعتراضا..
لقد تراجعت في مقعدها في بطء، وقد امتلأ وجهها بملامح الكبرياء والعناد، ثم أعادت إدارة محرك السيارة، فغمغم (حسين):
- (عايدة).. حاولي أن تفهميني.
سألته في حزم:
- أيهما تفضل.. فندق (ريتز)، أم (هيلتون)؟
انعقد حاجباه، وهو يقول:
- ما الذي يعنيه هذا السؤال يا (عايدة)؟ إنني أقيم عادة في فيلتك.
. أدارت المقود، وهي تقول
- ليس هذه المرة.
لم يرق له أسلوبها، وهو الذي اعتاد أن يأمر فيطاع، فقال في حدة:
- (عايدة).. لن أقبل هذا الأسلوب
صاحت به في غضب:
- اقبله أو ارفضه.. هذا لا يعنيني في كثير أو قليل.. ما دمت ستتركني من أجل طفل تافه، فلم يكن هناك من داع لقدومك.
تصاعد غضبه، وهو يقول
- (عايدة).. إياك أن تنسى أنني (حسين البنهاوي) صرخت في ثورة جنونية:

- وأنا (عايدة).. الأميرة (عايدة).
ثم ضغطت فرامل السيارة ثانية، وعلى نحو أزعج رواد الطريق كلهم، قبل أن تتابع صارخة:
- ولا أريدك في سيارتي.. هيا.. أخرج.
صدمة قولها، فاتسعت عيناه دهشة واستنكارا، وهو يهتف: - (عايدة)!
صرخت كالمجنونة، وهي تضرب المقود بقبضتيها:
- قلت لك اخرج.. اخرج قبل أن أنادي أحد رجال الشرطة
ثم التفتت إليه بعينين تحملان غضب الدنيا كله، مستطردة:
- ولا أعتقد أن رجال الشرطة هنا يدخلون ضمن نطاق سلطتك أيضا.. أليس كذلك؟
احتقن وجهه بشدة، وانعقد حاجباه حتى كادا يمتزجان، وهو يقول:
- ستدفعين ثمن هذا يا (عايدة).. ستدفعينه غاليا.
أشاحت بوجهها في ازدراء، فتضاعف احتقان وجهه، حتى خيل إليه أنه سينفجر، وهو يدفع باب السيارة، التي لم يكد يغادرها، حتى انطلقت بها (عايدة) مبتعدة، دون حتى أن تعيد إليه أمتعته وتركته يقف هناك وحيدا..
في قلب (باريس)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تتغير القرية كثيرا، في السنوات الثلاث الماضية
كل شيء بقي على هيئته، وفي نفس موضعه، كما لو أن يد الزمن قد نسيته، فلم تمر عليه بأصابع التغيير والتبديل، أو حتى التطوير..

الوحدة الصحية مازالت تحتل مكانها، في مدخل القرية، وعلى قيد أمتار منها موقف السيارات الصغير، الذي تطل عليه مباشرة قهوة (جودة)..
والقهوة لم تتغير قط..
كل ما حدث هو أن مقاعدها وموائدها ازدادت قدما وتهالكا وأصبح هناك صبيان يعاونان (جودة) في القهوة صباحا، وفي ترويج مخدراته ليلا..
الشيء الوحيد، الذي ربما يلفت انتباهك، لو أنك من المترددين على المكان، هو (مفيد البنهاوي)
لقد كان في الماضي يكتفي بالمرور بالقهوة، عندما يتوجه من سراى والده الراحل إلى الموقف، أو العكس، أما الآن فقد صار زبونا دائما في المقهى، يقضي فيه معظم يومه، وجزءا من ليله..
ولكن، لو أنك لم تتردد على المكان منذ فترة طويلة، لكان من الصعب عليك أن تنتبه لوجود (مفيد)..
ربما لأنه - بطبعه - هادي رصين، لا تكاد تشعر بوجوده، إلا لو تحدث إليك مباشرة..
أو لما أصابه من تغير..
لقد ازداد نحوله، حتى بدا أشبه بهيكل عظمي، يكسوه بعض الجلد، دون شحم أو لحم، ولم يعد يهتم بمظهره، أو تصفيف شعره، أو حتى حلاقة لحيته..
هكذا رآه الحاج (سعفان)، عمدة القرية الجديد، في ذلك الصباح، فتنهد في أسي، وهو يقول لشيخ الخفراء (بسيوني):
- ماذا أصاب (مفيد) بك؟ لقد صار أشبه بشخص محطم..
أجابه (بسيوني) في حزن:
- إنه كذلك بالفعل.. لقد صار زبونا مستديما عند ذلك الشيطان (جودة)، الذي علمه تدخين المخدرات، حتى يستنزف أمواله أولا

فأول.
ضرب الحاج (سعفان) كفا بكف، وهو يقول:
- المخدرات؟! (مفيد) ابن (محمد البنهاوي) يدخن المخدرات؟! يالها من مصيبة! من يصدق هذا؟ لقد كنت أتصور أن (مفيد) هذا بالذات لا يمكن أن يسير في طريق الخطأ أبدا.. ماذا أصابه؟
هز (بسيونى) رأسه في أسي، وهو يقول:
- إنه بشر من لحم ودم يا جناب العمدة.. كيف تتوقع منه أن يحتمل كل ما أصابه.. فقد (مديحة)، بنت عم (إسماعيل)، ثم خطيبته الطنطاوية.. ولم يستطع منع شقيقه من تدمير (فاطمة) وأبيها، و.
قاطعة الحاج (سعفان) في توتر شديد:
- لا تتحدث عن هذا يا (بسيوني).. لا شأن لنا بعائلة (البنهاوي).. إنهم يديرون شئونهم بأنفسهم.
كاد (بسيوني) يطلق ضحكة كبيرة، ولكنه كتمها في أعماقه وهو يتطلع إلى قفا الحاج (سعفان)، ويغمغم في نفسه:
- بالطبع يا جناب العمدة.. بالطبع.. فمن لدغة الثعبان يخشى الحبل، ومن لم يتعلم مما أصاب اثنين من العمداء قبلك، فهو أعمى البصر والبصيرة.
قال هذا في أعماقه، ثم أضاف بصوت مسموع:
- أنت على حق يا جناب العمدة.. مالنا نحن وعائلة البنهاوية إنهم يديرون شئونهم بأنفسهم، وربما أفضل مما سنفعله نحن.
أجابه الحاج (سعفان) في سرعة:
- بل أفضل بكثير.. إن (حسين) بك وحده يـ..
بتر عبارته بغتة، وانتفض جسده في عنف، فهتف (بسيونى)، وهو ينتزع بندقيته من كتفه بسرعة:
- ماذا حدث؟ صاح الحاج (بسيونى)، وهو يعدو نحو قهوة (جودة):

- (مفيد) بك.. (مفيد) بك.

اتسعت عينا (بسيوني)، وهو يحدق في القهوة، حيث سقط (مفيد) أرضا، والتف حوله عدد من رواده، وقد بدأت هيئته المزرية وملامحه الشاحبة وكأنه قد انهار

أو..

أو مات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

73- الضياع..

ضربت (نعيمة) صدرها براحتيها، وهي تندفع داخل السراى وتصرخ في هلع وجزع:

- (مفيد).. أخي (مفيد).. ماذا أصابه؟ كيف هو؟

استقبلتها (فاطمة) بعينين دامعتين، وهي تقول:

- بخير يا (نعيمة).. بخير بإذن الله.. لقد أصابه التعب في مقهى (جودة)، ولكنهم حملوه إلى الوحدة الصحية، و.

لطمت (نعيمة) صدرها مرة أخرى، وهي تهتف مستنكرة:

- الوحدة الصحية؟! أخي أنا يعالج في الوحدة الصحية؟! ماذا يقول الناس؟! لماذا لم ترسلي في استدعاء أكبر طبيب في (طنطا) يا ابنة الكلاب؟

انعقد حاجبا (فاطمة) الكثين في غضب، وقالت بصوتها الأجش في حدة:

- لست ابنة كلاب، بل أنا زوجة شقيقك

صاحت (نعيمة) وهي تلوح بذراعيها:

- زوجة البؤس والندامة.. كان يوما أسود

حبست (فاطمة) دموعها في عينيها، وهي تشيح عنها، قائلة:

- أسود أو أبيض.. إنها القسمة والنصيب، ولا فائدة من الولولة على هذا الأن.. المهم أن ينهض (مفيد) بالسلامة..

قالتها، وغادرت المكان كله، متجهة إلى حجرتها، فصاحت بها نعيمة):

- أين تذهبين أيتها اللعينة؟ كيف تنصرفين من هنا، قبل أن أسمح لك بهذا؟ كيف؟

هرعت إليها (شريفة)، وهي تقول متوترة:

- ماذا حدث يا (نعيمة)؟ الطبيب طالبنا بالتزام الهدوء، وأنت تملئين الجو صراخا.. ألا تخافين على صحة (مفيد)؟
تذكرت (نعيمة) بغتة أنها هنا لرؤية (مفيد)، فاستعادت جزعها كله دفعة واحدة، وهي تقول:
. أين هو؟ ماذا حدث؟
تنهدت (شريفة)، وهي تجيب:
- إنه لم يتناول طعاما منذ أسبوع كامل، ويذهب كل يوم ليدخن ذلك السم، في مقهى (جودة)، ولم يحتمل جسده كل هذا، ففقد الوعي.
قالت (نعيمة) غاضبة:
- يالـ (جودة) وقهوته اللعينة! إلى متى سيبقون ذلك الشيطان هنا؟
أجابتها (شريفة) في حزم:
- سأبلغ (حسين) بأمره، عندما يعود من السفر غدا.
سألتها (نعيمة) في دهشة
- هل أخبرك أنه سيعود غدا؟
هزت رأسها، وهي تقول:
- كلا، ولكن عيد ميلاد (طارق) غدا، و (حسين) لا يتخلف عن عيد ميلاد (طارق) أبدا.
مطت (نعيمة) شفتيها، وعقدت حاجبيها، وهي تقول في سخط:
- (طارق).. (طارق).. دائما هذا الولد.. إنني أكرهه بسبب أمه الحقيرة، التي تصر دائما على التعامل معنا وكأنها واحدة منا.
زفرت (شريفة)، وهي تقول:
- ماذا أفعل أنا إذن؟ إنني أقيم معها في منزل واحد، ومشاجراتنا ومشاحناتنا لا تنتهي أبدا.
هتفت (نعيمة):
- يا للحقيرة! لا تيأسي يا (شريفة).. كل هذا سينتهي عندما تتز.....

بترت عبارتها دفعة واحدة، قبل أن تنطق الكلمة.. ولكن (شريفة) فهمت وانقبض قلبها في مرارة.. فهمت أن شقيقتها تعني أن كل شيء سينتهي عندما تتزوج.. هذا لو تزوجت وسالت دموع قلبها اليائس في مرارة، وهي تسترجع أحداث المرتين، اللتين تقدم فيهما من يطلبانها للزواج..
مرة طلب (فؤاد) يدها، ثم تركها ليتزوج شقيقتها (ناهد)..
ومرة أحبت (أمجد)، زميل (حسين)، ولكن الأخير رفض الموافقة على هذا الزواج..
رفض بشدة.. و
(شريفة).. أنا لم أقصد هذا...
قطعت (نعيمة) أفكارها بهذا القول، فحاولت أن تبتسم، إلا أن ابتسامتها جاءت حزينة مضطربة، وهي تقول:
- لا بأس يا (نعيمة).. لا بأس يا شقيقتي.
وكمحاولة لكبح دموعها، أبدلت مسار الحديث، وسألت (نعيمة):
- أين (عمر)؟
لم تدر لماذا اختارت هذا السؤال بالذات، من دون الأسئلة جميعها، فقد ارتبكت (نعيمة)، وهي تقول:
- إنه مشغول بشدة في المصنع، ولكنه سيأتي بإذن الله لرؤية مفيد)، بعد أن..
لم تتم عبارتها، ولم تحاول (شريفة) أن تسألها عن بقيتها، فهى تعلم أن (عمر) قد أقسم ألا يطأ أرض السراى بقدمه قط، منذ أجبره (حسين) يوما على أن يطلق زوجته (فاتن)، ابنة (شاهين الحبروك)، وأن يعيد (نعيمة) إلى عصمته.
وحتى بعد أن استسلمت (نعيمة) للأمر، ورضيت بأن يتزوج (عمر) أخرى، حتى لا يحيا معها كارها، لم يتراجع (عمر) عن قسمه..

ولم يدخل السراى قط
وفي توتر، قالت (نعيمة)، وهي تتجه إلى سلم السراي الداخلي
- هل (مفيد) نائم أم مستيقظ؟
أجابتها في خفوت:
- بل مستيقظ، ومعه (توحيده) و (عبد الحكيم) في حجرته.
قالت (نعيمة)، وهي تصعد في درجات السلم بسرعة: -
سأنضم إليهم إذن.
هتفت بها (شريفة):
- سأعد الشاي، وألحق بكم.
وراقبت (نعيمة)، حتى اختفت في الدور العلوي، ثم أطلقت دموعها الحبيسة في مقلتيها، وتركتها تنحدر على وجنتيها..
ولكن هذه الدموع لم تكن تحمل حزنها على شقيقها (مفيد)، وإنما كانت تحمل توقيعا أخر
توقيع (أمجد).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انهمك (مراد صقر) في مراجعة بعض التقارير الواردة من (سوريا)، والتي تحوي الكثير من المعلومات عن تنظيم جديد مناهض للوحدة، التي أقامتها معها (مصر)، في عام (١٩٠٨ م)، وانعقد حاجباه وهو يراجع الأسماء والوظائف، قبل أن يرتفع أزيز منخفض من جهاز الاتصال فوق مكتبه، فضغط زره في الية، وهو يقول:
- نعم.
أتاه صوت مدير مكتبه، قائلا في احترام:
- سيادة العقيد (إبراهيم مكي) يطلب مقابلتك يا سيادة المدير.

اعتدل (مراد صقر) في اهتمام واضح، وهو يقول
- دعه يدخل فورا
واكتسي وجهه بذلك القناع الجامد، الخالي من المشاعر، الذي يستقبل به مرؤوسيه في المعتاد، وشبك أصابع كفيه على سطح مكتبه، وهو يتطلع إلى الباب، الذي انبعثت منه ثلاث طرقات خافتة قبل أن يفتحه (إبراهيم مكى)، ويدلف إلى الحجرة، قائلا بابتسامته الهادئة، التي تمنحك شعورا سخيفا بأنه يستهين بك دائما:
- صباح الخير يا (مراد) بك
أشار إليه (مراد صقر)، قائلا:
- ادخل يا (إبراهيم)
أغلق (إبراهيم) الباب في هدوء شديد، وتقدم نحو المكتب في بطء، وكأنه يتعمد إثارة لهفة رئيسه وتوتره، ثم جلس على المقعد وترك جسده يغوص فيه في استرخاء، قبل أن يقول:
- أعتقد أننا نقترب من الهدف يا (مراد) بك
سأله (مراد) في اهتمام واضح:
- ألديك أخبار جديدة؟ أ
خرج (إبراهيم) من جيبه مظروفا، ناوله لرئيسه، وهو يقول:
- هذه الصور أرسلها (حلمي) من (باريس).
التقط (مراد صقر) المظروف، وهو يقاوم لهفته، التي تلح في اختطافه خطفا، وفضه بأصابع لم تنجح في كتمان انفعالها، وأخرج الصور.
ثم انعقد حاجباه في شدة.. كانت مجرد مجموعة من الصور، تجمع (حسين) بالأميرة (عايدة)، وهما يلتقيان في (باريس)، ثم وهما يستقلان سيارتها معا..
ولم يدر (مراد صقر) كيف يمكن أن تستخدم مثل هذه الصور، لتحطيم (حسين البنهاوي)..

انها مجرد صور..
صحيح أن عايدة) أميرة سابقة، من أميرات العهد الملكي البائد
ولكن ماذا في هذا؟
لقد ثبتت الجمهورية أقدامها جيدا، ولم تعد تحمل تلك الحساسيات القديمة للأسرة المالكة كذي قبل.
وفي شيء من الغضب، ترجم (مراد صقر) أفكاره إلى كلمات مسموعة، وهو يقول:
- ما الذي تعنيه هذه الصور؟
أجابه (إبراهيم) في هدوئه المستفز:
- إنها تثبت وجود علاقة وثيقة، بين (حسين البنهاوي)، والأميرة (عايدة).
تراجع (مراد صقر)، وحاول أن يسيطر على أعصابه، حتى لا ينفجر في وجه (إبراهيم مكى)، وعلى الرغم من هذا، فقد بدت عبارته أشبه بالرصاصة، وهو يقول:
- وبم يمكن أن يفيدنا هذا؟
هز (إبراهيم) رأسه، وبدت ابتسامته لـ (مراد صقر) بغيضة وهو يقول:
- في الوقت الحالي، لن يفيدنا بأي شيء.
التقى حاجبا (مراد صقر) في شدة، حتى كادا يمتزجان، وهم بقول شيء ما، لولا أن أضاف (إبراهيم) بسرعة:
أما فيما بعد، فسيفيدنا كثيرا.
بقي (مراد صقر) صامتا لحظات، وهو يتطلع إلى وجه (إبراهيم مكى)، محاولا استشفاف ما يدور في ذهنه.
ولكنه لم ينجح أبدا، وفي أعماقه، وعلى الرغم من قوة منصبه، ومن أنه الرئيس الأعلى لـ (إبراهيم مكى)، شعر ببعض الرهبة تجاهه..

إنه يعلم جيدا أن (ابراهيم مكى) ليس بالرجل الهين..
إنه مزيج من ثعلب ماكر، وذئب مفترس، في ثوب ادمى نصف معتم، لا يمكن أن تتبين ما خلفه قط، إلا لو مزقته.
وربما كان هذا هو السر في بقاء (إبراهيم) طوال هذه الفترة، من البوليس السياسي في العهد الملكي، إلى ذلك الجهاز الأمني الخطير في عصر الجمهورية..
وفي بطء، قال (مراد صقر):
- ومتي يأتي (فيما بعد) هذا؟
رفع (إبراهيم) حاجبيه وخفضهما، وهو يجيب:
- عندما تكتمل أركان القضية، ونثبت التهمة على الأميرة السابقة (عايدة).
سأله (مراد صقر) في حذر:
- أية قضية؟
اتسعت ابتسامة (إبراهيم) قليلا، وهو يميل نحو رئيسه، ويجيب في لهجة عجيبة يسيل منها الدهاء سيلا:
- قضية التجسس لحساب دولة أجنبية.
انعقد حاجبا (مراد صقر)، وهو يتراجع في مقعده في بطء، وعيناه تحدقان في وجه (إبراهيم مكى)، وابتسامته المخيفة..
لقد فهم ما يدبره (إبراهيم) لـ (حسين البنهاوي).. فهمه، وتضاعفت في أعماقه مشاعر الرهبة تجاه (إبراهيم).. تضاعفت ألف مرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخيرا، أصبح (مفيد) وحده..
فمنذ استعاد وعيه في حجرته، لم يخل المكان لحظة واحدة من الزائرين، الذين أتوا للاطمئنان عليه، من أفراد أسرته وأبناء

القرية، الذين بدا جزعهم واضحا، ممتزجا بأسفهم على ما آل إليه حالة، مما ملأ نفسه بالألم والمرارة، وجعل الدموع التي كبتها في عينيه، تسيل أنهارا في قلبه، ويغص بها حلقه، فلم يستطع النطق بكلمة واحدة، على الرغم من وجود الجميع حوله..
كان يشعر أن شفتيه تطبقان على دموعه، وتسجنانها خلفها، ولو أنه فتحهما ليتكلم، ستنهمر الدموع من عينيه دون انقطاع..
حتى الابتسامة، كان يعجز عن تزيينها على شفتيه، ولكن الجميع التمسوا له العذر، باعتبار أنه مريض منهك، واكتفوا بحديثهم الحنون المجامل له، فلم يجد أمامه سوى التظاهر بالنوم، حتى يصمتوا، أو ينصرفوا عنه.
وأخيرا، تحقق له ما أراد، وانصرف الجميع على أصابعهم، بناء على نصيحة زوج شقيقته (عبد الحكيم)، وأغلقوا عليه باب حجرته، بعد أن أطفئوا الأنوار، لينام ملء جفنيه.
وفي تلك اللحظة فقط، أطلق (مفيد) سراح دموعه، وتركها تنهمر لتغرق وجهة النحيل..
ما الذي أصابه؟!
كيف وصل به الحال إلى هذا؟!
أهو فشله المتكرر في علاقاته العاطفية؟!
لقد أحب (مديحة) حبًا لا يمكن وصفه في صباه، وتعاهدا على أن يتزوجا، عندما ينتهي من دراسته الجامعية..
ولكن (حسين) لم يرض بهذا.. لقد انتزعها منه..
بل انتزع منه قلبه، دون شفقة أو رحمة، وألقاه أمام عينيه في أتون ملتهب، من الحزن والمرارة والعذاب.
ولم ينس قلبه هذا
لم ينسه أبدا

لقد ظل ينزف بحب (مديحة) طوال عام كامل، قضاه في البحث عنها، حتى أنهكت روحه، وتحطم أمله، والتهمه اليأس القاتل
ثم ظهرت (سوسن)..
تلك الرقيقة الجميلة الهادئة، التي ضمد حبها جراح قلبه، وداواه ببلسم شاف، فعاد يخفق مرة أخرى بالحب..
ولكن القدر كان له بالمرصاد..
أو هو قلبه، الذي لم يقنع بذلك الحب العظيم، الذي منحته إياه (سوسن)، فلم يكد يلمح (مديحة) ذات يوم، حتى ألقي كل مشاعره خلفه، وركض يحتضن ذكرياته..
وفي هذه المرة، خسر (سوسن).. خسرها؛ لأن قلبه لم يخرج من سجن (مديحة) بعد..
لم يستطع نسيانها، على الرغم من فيض الحب والحنان، الذي غمرت به (سوسن) قلبه.
ولو أنه صادق مع نفسه، لاعترف بأنه لم ينسها حتى الآن حتى هذه اللحظة ولكنه لم يعد يبحث عنها..
بل، وصار يتمنى لو أن عينيها لا تلتقيان قط بعينيه وخاصة وهو على هذه الصورة..
لم يكد يبلغ هذا القدر من تفكيره، حتى اختنق بغصة كبيرة في حلقه، وامتلأت أعماقه بمرارة لا حد لها، فتحامل على نفسه، ونهض من فراشه، وسار مترنحا عبر الحجرة، حتى توقف أمام المرأة الصغيرة، وتطلع إلى وجهه فيها..
ولولا أنه واثق من أن هذه الصورة، التي تطالعه في المرأة، هي صورته شخصيا، لاستنكر واستهجن بشدة هذا الوجه البشع، الذي يطل عليه.
وجه نحيل أشعث الشعر، نمت لحيته على نحو عشوائي، وتجعدت ثيابه تحتها بشكل بشع.

ولثوان، وقف (مفيد) يحدق في وجهه في المرأة، قبل أن يتمتم:
- لا فائدة.. لا فائدة.
ومن عينيه انهمرت الدموع في غزارة مرة أخرى، وفي ذهنه، بدا له وجهه أشبه بوجه مسخ رهيب، أو عفريت من الجن، فخفض عينيه، وهو يبكي، ويتمتم في ألم وأسى:
- ماذا أصابني؟ ماذا أصابني؟ ولم يدر لماذا امتلأ ذهنه لحظتها بصورة واحدة صورة (حسين)..
لقد بدأت كنقطة صغيرة في أعماقه، ثم راحت تتعاظم وتتعاظم حتى أصبحت لوحة عملاقة، تحتل تفكيره كله..
وفي بطء، انحنى (مفيد) يفتح الدرج الصغير أسفل المرأة، والتقط منه موسى حلاقة جديدا، وتطلع مرة ثانية إلى لحيته وشعره الأشعث، ثم قال في أسي..
- سامحيني يا (مديحة).. سامحيني يا (سوسن).. سامحوني جميعا.
وانتزع الموسى من غلافه، و
وقطع شريان معصمه الأيسر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

74- طارق..

ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجه (صلاح)، لم تنجح في إخفاء شيء من ملامحه الغليظة، ولا من أمارات الخبث المحفورة في قسماته، وهو يستقبل (حسين) في المطار، ويهتف في لهجة يقطر منها النفاق:

- (حسين) بك.. حمدا لله على سلامتك يا (حسين) بك..

صافحه (حسين) في تعال، وهو يقول:

- كيف حالك يا (صلاح)؟ وكيف حال الجميع في الإدارة؟

سار (صلاح) إلى جواره في خطوات سريعة، أقرب إلى العدو، مع قامته القصيرة الممتلئة، وهو يجيب لاهثا:

- كل شيء على ما يرام يا (حسين) بك.. لقد افتقدناك كثيرا

ثم تلفت حوله، وسأل:

- ولكن أين حقائبك يا (حسين) بك؟

بدا الضيق على وجه (حسين)، وأجاب في شيء من الصرامة وهو يلوح بالحقيبة التي يحملها:

- لقد اكتفيت بهذه

هتف (صلاح): -

ولكن

كان يرغب في القول بأنه شاهده يسافر وبصحبته ثلاث حقائب، إلا أنه أدرك بسرعة أنه ليس من حقه دس أنفه في مثل هذا الأمر فاستدرك بسرعة، وهو يفتح باب السيارة:

- حمدا لله على سلامتك يا (حسين) بك.

دلف (حسين) إلى السيارة، ودس (صلاح) نفسه إلى جواره، وهو يشير إلى السائق، الذي انطلق على الفور، فاعتدل (حسين)، وسأل في هدوء:

- هل وصلت المعلومات المطلوبة من (سوريا)؟
أومأ (صلاح) برأسه إيجابا، وهو يقول:
- وصلت يا (حسين) بك، ولكنها ليست جيدة كما كنا نتمنى.
سأله (حسين) في اهتمام:
- ماذا تعني بأنها ليست جيدة؟
أجابه (صلاح)، وهو يقلب كفه بحركة سخيفة:
- إنهم لا يميلون للوحدة هناك، وبعضهم يهاجمها، ويطالب بالانفصال.
رفع (حسن) حاجبيه في دهشة، وهو يقول:
- عجبًا... السوريون يطالبون بفصم الوحدة؟! من يصدق هذا؟ أليسوا هم من حملوا سيارة الرئيس (جمال عبد الناصر) بأيديهم، عندما زارهم هناك، إثر إعلان الوحدة، عام ألف وتسعمائة وثمانية وخمسين.
أجابه (صلاح) في خبث:
- هذا صحيح يا (حسين) بك، ولكن الأمور تغيرت كثيرا منذ ذلك الحين.
سأله (حسين) في شيء من الحدة:
- أية أمور؟
تراجع (صلاح)، ولوح بكفيه، وهو يقول:
- ليس هذا رأيي الشخصي، ولكنني سأنقل إليك ما تقوله التقارير، عما يرددونه هناك.
ثم عاد يميل عليه، شأن من يهم بكشف سر خطير، وهمس:
- انهم يقولون هناك: إن المصريين يتعاملون في (سوريا) وكأنهم جيش احتلال، وليس باعتبار البلدين مندمجين في وحدة شاملة، والبعض يشير إلى أن (عبد الحكيم) يتصرف هناك كإمبراطور، وليس كحاكم عادى ديموقراطي، و.

قاطعه (حسين) في حزم:
- هراء.. كل هذا كذب وافتراء.. لقد تعاملت مع المشير (عبد الحكيم) بنفسي، وهو رجل طيب القلب، مباشر وصريح، ومثله لا يتحول أبدا إلى ديكتاتور.
ارتسمت على شفتي (صلاح) ابتسامة خبيثة، وهو يقول:
- الطيبة لا تصلح لصنع قائد ناجح
التفت إليه (حسين) غاضبا، وهو يقول:
- ماذا تعنى يا (صلاح)؟ هه.. ماذا تعني؟
تراجع (صلاح) في سرعة، وهو يجيب:
- ناقل الكفر ليس بكافر يا (حسين) بك.. إنني أردد ما ورد في التقارير فحسب.
كان كأي داهية، يعلم جيدا متى يتراجع، متى ينحني أمام العاصفة، ولكن (حسين) لم ينتبه إلى هذه المناورة الخبيثة، وإنما تراجع عن غضبه بسرعة، وعاد يسترخي في مقعده، وهو يقول:
- فليكن.. عندما نصل إلى الإدارة، سأراجع هذه التقارير في سرعة، قبل أن أسافر إلى قريتي.. ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة، تحمل شيئا من الحنان، وهو يستطرد:
- إنه عيد ميلاد (طارق) كما تعلم.
تنحنح (صلاح)، وهو يقول:
- أعلم يا (حسين) بك.. أعلم.. ولكن..
وتردد لحظة، جعلت (حسين) يعتدل، ويسأله في قلق:
- ولكن ماذا؟
خفض (صلاح) صوته، وهو يجيب:
- ولكنني أعتقد أنه من الأفضل أن تتجه إلى القرية مباشرة.
وثب قلب (حسين) في عنف، عندما سمع هذا القول، الذي يحمل معنى مزدوجا، يكفي كل من طرفيه لتوجيه ضربة قاصمة إليه..

هل يعني (صلاح) أنه من الأفضل أن يتجه إلى القرية مباشرة؛ لأنه لم يعد من المسموح له أن يدخل مبنى الإدارة، أم أنه يعني أن كارثة قد حدثت في القرية؟!
قارن الأمرين في رأسه بسرعة، ووجد نفسه يتمنى لو أن المعنى الثاني هو الصحيح، وحمل صوته توتره وقلقه، وهو يسأل:
لماذا؟ ماذا حدث؟
خفض (صلاح) عينيه، وهو يقول:
- إنه أمر يتعلق ب (مفيد) بك.. شقيق سيادتكم.. أمر محزن،
ولم يتم (صلاح) عبارته، مع الدهشة العارمة التي ملأت نفسه ازاء رد الفعل المباشر، الذي بدر من (حسين)..
وكان رد الفعل هذا يقتصر على تنهيدة..
تنهيدة ارتياح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انهمرت دموع (فاطمة) غزيرة، وهي تنكمش في ركن سريرها، في الحجرة التي تجمعها بزوجها (حافظ) وابنها (طارق) في السراي، ومد الأخير يده الصغيرة، يربت بها على كتفها، وهو يهمس في حنان طفولى عذب:
- لا تبكي يا أمي.. سأضربهم جميعا.. سأضرب كل من أساء إليك.. لا تبكي.. أرجوك.
ضمته إلى صدرها في حنان، لم يمنعها من التحدث بنبرة قاسية وهي تقول:
- نعم يا (طارق).. ستضربهم جميعا.. سيأتي يوم تصبح فيه على رأس الجميع، وعندئذ لا ترحمهم.. لا ترحمهم أبدا.
رفع (حافظ) عينيه الحزينتين إليها، وهو يقول:

- لا تزرعى روح الانتقام في أعماق الولد يا (فاطمة)
أجابته في حدة، وهي تضم (طارق) إلى صدرها أكثر وأكثر:
- وما الذي أزرعه سواها يا بن (البنهاوي)؟ هل يرضيك ما آل إليه حالنا، منذ حرمنا (حسين) من نصيبنا في إيراد الأرض؟ ألم تنتبه أبدا إلى أنني لم أبدل ثوبي هذا، منذ عامين على الأقل؟! لقد نفذ تهديده، ولم يعد يمنحنا إلا طعامنا وشرابنا فحسب، وحتى هذان تتحكم فيهما تلك العقربة (شريفة).
قال في ضعف:
- ولكنه يبتاع الثياب الجديدة لـ (طارق) باستمرار.
هتفت في حنق:
- يا لفرحتي وسعادتي.. يحرموننا من الخبز والماء، ويبتاعون لأبننا أفخر الثياب... ماذا دهاك يا رجل؟ هل فقدت شعورك وإحساسك؟! لماذا لا تطالب شقيقك بنصيبك الشرعي من إيراد الأرض؟ أليس هذا حقك؟ أليس حقنا جميعا؟!
خفض عينيه، قائلا في مرارة:
- لا يمكنني أن أطالب (حسين) بهذا
صرخت في غضب ساخط:
- أعلم.. أعلم أنك لا تستطيع مطالبة أي مخلوق بأي شيء.. أعلم أن نصيبي في الدنيا هو أن أعيش في كنف رجل ضعيف.. ظل رجل.. بل ربما كنت أقل من هذا..
ارتجفت شفتاه، وهو يقول:
- لو أن أبي لم يمت..
قاطعته صائحة:
- هل ستعود لتكرار هذا القول السخيف؟ لقد مات والدك يا سيد الرجال.. مات ولن يعود من قبره قط.. حاول أن تفهم هذا.. حاول..

تفجرت الدموع من عينيه بغتة، وراح يبكي وينتحب في مرارة، كطفل صغير أساء إليه والداه، أو فقد أعز لعبة إليه..
والعجيب أن دموعه هذه كانت تهزمها دائما..
كانت تبغض ضعفه واستسلامه، وتتمنى لو أنه يتحول إلى أسد هصور، يواجه (حسين) وعائلة (البنهاوي) كلها؛ ليستعيد حقوقه، ويدافع عنها وعن ابنهما.
ولكنه، ما إن يبكي، حتى ينقلب شعورها تجاهه على الفور.. إنها تفقد الشعور بأنه زوجها، وتقبل عليه كما لو كان ابنا لها.. بل تشعر وكأنه ابنها البكري، من قبل أن تنجب (طارق)..
وفي حنان، أزاحت الصغير جانبا، وهرعت إلى (حافظ)، واحتوته بين ذراعيها، وضمته إلى صدرها، وراحت تمسح رأسه في حنان، هامسة:
- كفى.. كفى يا (حافظ).. صدقني.. أنا لم أقصد كل هذا، ولكن أختك (نعيمة) استفزتني لليوم الثاني على التوالي، بإصرارها على أن تتعامل معي كما لو كنت خادمة، وليس باعتبارى زوجة اخيها..
بكى أكثر، وكأنما يشعر بضعفه وهوانه، ويتحسر على نفسه، فضمته إلى صدرها أكثر، وشاركته بدموعها، وهي تتابع:
- إنها تمنعني حتى من الاطمئنان على (مفيد).. الوحيد من بين أشقائك، الذي أشعر بأنه يحبنا ويحنو علينا دائما.
قاوم دموعه، وانتحب وهو يسألها :
- وكيف حالة الأن؟
أجابته وابتسامتها تمتزج بدموعها:
- لقد نجا.. حمدا لله.. (طارق) هو الذي أنقذه.
رفع عينية الدامعتين إليها، وقال في دهشة:
- (طارق)؟!

أومأت برأسها إيجابا، وهي تقول:
- نعم، فبعد انصراف الزائرين، أصر على رؤية عمه.. أنت تعلم كم يحبه.. واصطحبته (شريفة) لرؤية (مفيد) في حجرته، ففوجئت به واقفا أمام المرآة، والدماء تسيل من معصمه، فلم يكن منها إلا أن راحت تصرخ وتولول، وجرت حافية إلى الوحدة الصحية، فهرع معها الطبيب إلى هنا، وأنقذه من الموت.
خفض (حافظ) رأسه ودفعه في صدرها أكثر، وكأنما يشعر معها بالأمان، وهو يرد:
- حمدًا لله.
لم يكن يتم عبارته، حتى بلغت مسامعهما جلبة واضحة، من ناحية مدخل السراي، وتحرك (طارق) بغتة، فانتبهت أمه إليه بعد أن ظل صامتا طوال الوقت، يراقب ما يدور بين والديه برهبة عجيبة، واتجه نحو الباب، وهو يهتف بطفولته البريئة:
لقد وصل عمي (حسين)، وصل عمي (حسين). وانعقد حاجبا (فاطمة) الكثين في شدة، مع هذا الهتاف..
إذن، فقد وصل (حسين) إلى السراى، وهذا يعني أياما جديدة من التعب
ومن المهانة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- كيف فعلت بنفسك هذا؟!
صرخ (حسين) بالعبارة في وجه (مفيد)، الذي رقد في فراشه صامتا شاحبا، في هيئة تدعو للرثاء، ولكن (حسين) تابع في صرامة وغضب..

- ماذا يقول الناس، عندما يعرفون أن ابن (البنهاوي) قد مات منتحرا؟! كيف يكون موقفي أمام رؤسائي؟
رمقه (مفيد) بنظرة حانقة، وهو يقول في ضعف:
- أهذا كل ما يهمك؟
كان يعلم الجواب مسبقا، إلا أنه تمنى من أعماقه لو أن شقيقه استنكر هذا، وأعلن أنه إنما يفعل هذا من أجله.
ولكن (حسين) لم يفعلها.. لقد أجابه في قسوة، لا تحمل ذرة من المجاملة:
- بالطبع.. هذا كل ما يهمني.. لو أن حماقتك بلغت ذلك الحد، الذي يجعلك تقدم على الانتحار، فهذا شأنك.. ألق نفسك في التهلكة لو أردت، ولكن لا تجعل هذا يمس عملي أو مستقبلي، أو سمعتى.
عض (مفيد) شفتيه في مرارة، وهو يقول:
- اطمئن يا (حسين) بك.. في المرة القادمة سأحرص على أن يبدو الأمر كحادث عادى، لا يسيء إلى سمعتك ومستقبلك.
رمقه (حسين) بنظرة قاسية، وهو يقول:
- أهذا كل ما أمكنك قوله؟! أهذا هو اعتذارك عما فعلته.. ألم تدرك أنك بفعلتك هذه، قد تفسد الاحتفال بعيد ميلاد (طارق)، الذي هو عيد ميلادك في الوقت ذاته؟!
بدت الدهشة على وجه (مفيد)، وهو يغمغم:
- عيد ميلاد (طارق).. كيف لم أنتبه إلى هذا؟!
صاح (حسين)، وهو يلوح بذراعه في وجهه:
- إنك لم تعد تنتبه إلى شيء.. لم تعد تدرك ما تفعله بنفسك وبعائلة (البنهاوي).. هل رأيت وجهك في المرأة.. إنك تبدو أشبه بمتسول مخبول، وليس بواحد من أكبر عائلات هذه القرية، وشقيق (حسين البنهاوي) نفسه.

خفض (مفيد) عينيه هذه المرة، دون أن يعترض أو يستنكر فقد كان يعلم أن (حسين) على حق تماما هذه المرة..
لقد أخطأ في حق نفسه وفي حق عائلته كلها
وفي صرامة، تابع (حسين):
- ولكنني درست هذا في عقلى، طوال الطريق، من (القاهرة) إلى هنا، وأظنني وضعت أصابعي على أصل المشكلة.
رفع (مفيد) عينيه إليه في تساؤل حقيقى، فأضاف في حزم:
- إنه الفراغ
وأصابت الكلمة قلب (مفيد) في الصميم
نعم..
إنه الفراغ..
فراغ القلب، الذي لم يعد يمتلئ بالحب كذي قبل
وفراغ الوقت، بعد أن ترك عمله في (طنطا)، ولم يعد له من هم سوى الجلوس في مقهى (جودة)، وتدخين تلك السموم، التي تغيب عقله، وتنتزعه من عالمه.. ولكنها لم تحل أبدا مشكلته بل ربما أضافت إلى حياته مشكلة جديدة، أشد خطرا وضررا..
مشكلة تدخين المخدرات، وحشو جسده بتلك السموم، التي لم تلبث أن أفسدت حياته تماما.
وفي لهفة واهتمام حقيقيين، تابع (مفيد) حديث (حسين) الذي يقول:
- والحل الوحيد لهذه المشكلة هو أن تجد عملا مناسبا، يشغل معظم وقتك، ويمنعك من تدمير نفسك.
ثم واجهة بنظرة صارمة، مستطردا:
- وسأجد لك هذا العمل
تمنى (مفيد) لو أن شقيقه فعل هذا..
لأول مرة، منذ فترة طويلة، يتمنى لو أن (حسين) تدخل في حياته، وانتزعه من تلك الحفرة، التي يرقد في قاعها منذ فترة طويلة..

وفي حزم، قال (حسين)، قبل أن يغادر الحجرة:
- والان، انهض من فراشك، واحلق لحيتك، وصفف شعرك، وارتد ثوبا نظيفا، وتعال لتلحق بنا، فسنحتفل جميعا بعيد ميلاد (طارق).
رفع (مفيد) رأسه إليه، وهو يسأل
- جميعا؟!
التقى حاجبا (حسين) في صرامة شديدة، وهو يفتح الباب، قائلا:
- نعم.. جميعا
ثم استدرك بسرعة:
- فيما عدا (حافظ) و (فاطمة)
وصفق الباب خلفه في عنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكد (حسين) يهبط من الطابق العلوي، حتى نهض الجميع لاستقباله، في مزيج من الرهبة والاحترام.
كل العائلة كانت هناك تقريبا..
(توحيده) وزوجها (عبد الحكيم)، و(ناهد) و(فؤاد)، و(نعيمة)، و(شريفة)، وكل أحفاد (البنهاوي).. (نادرة) ابنة (نعيمة)، و(عماد)، و(وحيد)، و(رأفت)، أبناء (توحيده)، و(خيرى)، و(محمد)، و(دلال)، أبناء (ناهد)..
و (طارق).. ابن (حافظ)..
وفي سعادة، اندفع (طارق) نحو عمه، الذي رفعه عن الأرض، وطبع على خده قبلة كبيرة، وهو يبتسم قائلا:
- كل سنة وأنت طيب أيها (البنهاوي) الصغير
بادله (طارق) قبلته بقبلة صغيرة، وهو يقول:

- وانت طيب يا عمي.
ظل (حسين) يحمله، ويضمه إلى صدره في حنان، وهو يصافح الجميع، وسألته (شريفة) في لهفة:
- كيف حال (مفيد) الان؟
أجابها في حزم:
- سيلحق بنا بعد قليل
هتفت (نعيمة):
حقا؟ حمدا لله.. حمدا له
وتنهد (عبد الحكيم)، وهو يقول في أسف:
- ماذا أصاب (مفيد)؟ لقد كان خيرة شباب القرية كلها.
هتفت (شريفة) في سخط:
- كله من ذلك الإبليس (جودة)
التفت إليها (حسين)، وهو يسألها في اهتمام:
- من (جودة) هذا؟

ابتسم (فؤاد) في سخرية تمتلئ بالغيظ، وهو يقول:
- عجبًا... كنت أظنكم تعرفون كل شيء يا (حسن) بك.
رمقه (حسين) بنظرة نارية، انكمش لها (فؤاد) في مقعده، على نحو أثار شفقة الجميع، قبل أن يكرر (حسين) سؤاله:
- من (جودة) هذا؟ أجابته (شريفة) بسرعة:
- إنه أصل البلاء في القرية، منذ افتتح مقهاه في مدخلها.. إنه يلهي الشباب بلعب الطاولة والدومينو في الصباح، ثم يغيب عقولهم بمخدراته في المساء.
هتف (حسين) في غضب:
- مخدرات؟! هل تعنين أن (مفيد)...؟!
لم يتم سؤاله، ولكنها فهمت، وأجابته مرتجفة:

- نعم يا (حسين).. لقد كان زبونا دائما في مقهى (جودة) صباحا ومساء.
صرخ (حسين) في غضب هادر:
- مخدرات؟! هل بلغ الأمر هذا الحد؟ لماذا لم تخبريني من قبل؟! لماذا أخفيتم الأمر عني جميعا؟!
باغته صوت من خلفه، يقول:
- كل شيء يمكن إصلاحه يا (حسين) بك؟
بدت الدهشة في عيون الجميع، في حين استدار (حسين) بسرعة إلى مصدر الصوت، فارتطم بصره بآخر شخص يتمنى رؤيته، في مثل هذا الموقف
بـ (إبراهيم)..
(إبراهيم مكى).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

75-الانتقام..

نفثت الأميرة (عايدة دخان سيجارتها في قوة وعنف، حتى بدت أشبه ببركان ثائر، وهي تهتف غاضبة:

- يا للوغد!

تطلع إليها صديقها الثري الفرنسي (جان) في دهشة، وهما يجلسان في ملهى (الليدو)، ومال نحوها يسألها:

- ماذا دهاك؟ كنت تضحكين في مرح منذ لحظات، فماذا أصابك هكذا بغتة؟

أطفأت سيجارتها في عصبية، وهي تقول:

- تذكرت ما فعله بي ذلك الحقير (حسين البنهاوي).. تصور أنا (عايدة).. الأميرة التركية، التي تتمنى نصف (باريس) تقبيل أناملها، يرفض مصري ريفي حقير أن يقضي معي وقته كله؛ لأنه يرغب في العودة إلى القاهرة)، لحضور حفل عيد ميلاد ابن أخيه.

سألها في حيرة:

- ولكنك أخبرتني أنك تعلمين أنه يحب هذا الصغير جدا.

أشارت إلى صدرها، قائلة في حدة:

- فليحبه كما يحلو له، ولكن عندما تحين لحظة المفاضلة فلا ينبغي أبدا أن يفضله على.

ضحك (جان)، وهو يتراجع بمقعده، قائلا :

- لا داعي لكل هذا الغضب.. انه لم يتركك من أجل امرأة أخرى

صرخت في غضب:

- وهل يجرؤ؟!

التفتت إليها أنظار الجميع في دهشة، وشعر صديقها الفرنسي بالحرج، فهمس وهو يميل نحوها متوترا:

- (عايدة).. انتبهي.. إنك تتصرفين بعصبية زائدة، وهذا يلفت إلينا الأنظار.
قالت في حدة، وهي تشعل سيجارة أخرى:
- هذا لا يؤرقني، فقد اعتدت أن تلتفت كل الأنظار إلى، أينما ذهبت.
تطلع إليها لحظات، قبل أن يهز رأسه، قائلا:
- من العسير على أن أفهمك بالفعل يا (عايدة).. قديما كنت تعتبرين هذا الرجل خصما لدودا لك، وفجأة، أصبحت غارقة في هواه، وتركتني من أجله، والآن عدت تناصبينه العداء.. ما طبيعة علاقتكما بالضبط؟
نفثت غضبها وسخطها وتوترها، مع دخان سيجارتها، وهي تقول في عصبية:
- ليس هذا من شأنك
ثم تراجعت بمقعدها، وأشاحت بوجهها محنقة..
نعم.. ما طبيعة علاقتها بـ (حسين البنهاوي)؟!:.
لقد بدأت علاقتهما وهي تبغضه، بحكم ارتباطه برجال الثورة، التي صادرت أموالها ومجوهراتها وسطوتها...
ولكنها كانت تحتاج إليه..
تحتاج لمن يعاونها على مغادرة (مصر)؛ والتمتع بما أخفته من أموالها في (باريس)، قبيل المصادرة وفرض الحراسات.
ولقد نجحت في استغلاله، كما خططت تماما وهربت إلى (باريس).. ولم يغفر لها (حسين) هذا أبدا..
لقد بذل قصارى جهده، واستغل إمكانيات الجهاز الذي يعمل به، حتى تمكن معاونوه من اختطافها، من قلب (باريس)، وشحنها إلى (مصر) في صندوق ديبلوماسي.

ولم تشعر في حياتها كلها بمثل هذه المرارة.. ولا بكل هذا الخزي والعار وكانت تتوقع انتقاما عنيفا قاسيا من (حسين البنهاوي).. ولهذا كانت دهشتها عظيمة، عندما حدث العكس تماما.
لقد عاملها (حسين) معاملة راقية ومهذبة للغاية، وأسكنها شقة فاخرة في حي (جاردن سيتى)، وأرسل إليها الخدم والحشم، ثم لم يلبث أن أعادها إلى باريس)، وهو يعلن أنه غارق في حبها، إلى الحد الذي منعه من أن يمس شعرة واحدة من رأسها.
ومنذ تلك اللحظة، شعرت أنها أسيرة لحبه..
وفي (باريس)، التقت به كحبيب، منذ عامين، بعد مراسلات استغرقت عاما كاملا، بثته فيها حبها، واستقبلت منها غرامه وهيامه بها..
ولكن أبدا لم تكن علاقتهما بسيطة أو مستقرة.
كانا في كل مرة يلتقيان فيها يتشاحنان كثيرا، ثم يقضيان بعض الأوقات الممتعة، ويعودان للشجار والنقار
هكذا في كل مرة.
ثم كانت الطامة الكبرى، عندما رفض البقاء معها، للحاق بحفل عيد ميلاد (طارق) هذا.
وفي هذه المرة، تفجر كل الغضب في أعماقها غضب أنثى نرجسية أنانية، لم تعتد أن يرفضها أحد.
لم تعتد هذا قط..
- أدفع مليون فرنك، لأعرف فيم تفكرين الأن...

نطقها (جان) بابتسامة كبيرة، فانتزعها من شرودها وأفكارها، وجعلها تلتفت إليه في حدة، فتابع:

- أراهن على أنك تفكرين فيه

أطفأت سيجارتها الثانية، وهي تقول في عصبية:

كنت أفكر في ذلك الحقير، وفي الطريقة المناسبة للانتقام منه.

تراجع في دهشة، قائلا:

- الانتقام؟!

أجابته في حدة:

- بالطبع.. وهل كنت تتوقع أن يعامل أحدهم الأميرة (عايدة) بهذا الاحتقار، ثم لا تسحقه بانتقامها.

بدت الدهشة عليه لحظات، وهو يتطلع إلى وجهها، الذي بدا وكأنه قد فقد كل جماله وفتنته، مع القسوة التي نطقت بها عبارتها، ثم لم يلبث أن ابتسم في ارتباك، وهو يسألها:

- وأي انتقام هذا، الذي يمكن أن يسحق رجلا مثله، تقولين: إنه من رجال السلطة في (مصر)؟
أشعلت سيجارة جديدة، نفثت دخانها في عصبية، وهي تجيب:
- أنت لم تر الوجه الآخر من الأميرة (عايدة) بعد، وعندما يتحقق انتقامى، ستدرك أنني أستطيع سحق من هم أعظم من (حسين البنهاوي).
وعندما نطقت عبارتها الأخيرة هذه، كان عقلها الشيطاني قد استقر على خطة للانتقام..
خطة رهيبة..
رهيبة بحق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من المؤكد أن ظهور (إبراهيم مكـى) في سراى (البنهاوي)، كان مفاجأة مذهلة بكل المقاييس
مفاجأة بدت واضحة في عيني (حسين) وملامحه، وهو يحدق في (إبراهيم، الذي واصل تقدمه نحوه في هدوء، وشفتاه تحملان ابتسامة يعرفها (حسين) جيدا..
ابتسامة تجمع ما بين الخبث والدهاء والسخرية والظفر ابتسامة ذئب، صار واثقا من قدرته على الظفر بفريسته
أما الباقون، فقد كان تأثير المفاجأة عليهم يختلف كثيرا.
لقد رأوا شخصا غريبًا يدخل السراى، ويتحدث مع (حسين) في هدوء وثقة، مما أوحي إليهم بأنه وثيق الصلة به، ويساويه تقريبًا في منصبه وسلطاته..
وبحركة تلقائية، نهضوا لتحيته ومصافحته والترحيب به.. فيما عدا (شريفة) هي وحدها تعرفت (إبراهيم)، لحظة أن وقعت

عيناها عليه.
تعرفت فيه رجل البوليس السياسي، الذي دخل السراى منذ ما يزيد على الثمانية أعوام، ليعتقل والدها وشقيقها..
وفي عنف، لطمت (شريفة) صدرها براحتها، وانطلقت من حلقها شهقة ذعر، أثارت دهشة وحيرة الجميع، فالتفت إليها (حسين)، وقال في صرامة:
- (شريفة).
لم يكد ينطق اسمها، حتى تزلزل كيانها كله، وارتجفت ركبتاها حتى كادت تسقط فاقدة الوعي، لولا أن أشاح (حسين) بوجهه عنها، وقال في سرعة:
- أهلا (إبراهيم) بك.. مرحبًا بك في سراى (البنهاوي).
تصافحا في قوة، دون أن يرفع أحدهما عينيه عن الآخر، وبدت ابتسامة (إبراهيم) أكثر خبثا وغموضا، وهو يقول:
- (صلاح) أخبرني أنك توجهت إلى هنا مباشرة، لأن شقيقك مصاب بوعكة صحية، فأتيت على الفور، للاطمئنان على كليكما.
صمت (حسين) لحظة، وهو يتطلع إلى عيني الذنب، اللتين تطلان من وجه (إبراهيم)، قبل أن يقول:
- بيتك ومطرحك يا (إبراهيم) بك.. تفضل على الرحب والسعة.
كانت عبارته هذه أشبه بإشارة بدء، فقد اندفع الجميع بعدها يصافحون (ابراهيم مكى) في حرارة، فيما عدا (شريفة)، التي صافحته في حذر، ثم جذبت يدها من بين أصابعه في سرعة، وكأنها تخشى أن يقبض عليها، ويجذبها منهما إلى معتقل جديد.
وفي هدوء واثق، جلس (إبراهيم) بين أفراد الأسرة، وهو يقول:
- مشكلة المخدرات هذه أصبحت مشكلة عامة.
عض (حسين) شفتيه في غيظ، حاول أن يكتمه في أعماقه، وهو يجلس بدوره قائلا:

- هذا صحيح، وأعتقد أن الدولة بصدد إصدار تشريع جديد، يضاعف عقوبة التعامل معها.
استرخي (إبراهيم) في مقعده، وهو يعلق، قائلا:
- عقوبتها تضاعفت بالفعل، في ظل الثورة المباركة، ولكن البعض يعتقد أن هذا غير كاف، ولكن الدولة مشغولة كلها الآن بالخطة الخمسية الأولى، التي بدأت منذ العام الماضي، فهي وسيلتنا للنهوض اقتصاديا كما تعلم.
غمغم (حسين)، وعقله يعمل في سرعة:
- هذا صحيح، وأعتقد أنها ستشمل الإقليم الشمالي أيضا
كان يتحدث وعقله يعمل في توتر بالغ، في محاولة للبحث عن تفسير مقنع، لإقدام (إبراهيم) على زيارته في السراي، في سابقة تعد الأولى من نوعها، منذ واقعة إلقاء القبض عليه وعلى والده.
ومن المؤكد أن هذه الزيارة لا تحمل الخير في أعماقها إنها أشبه بزيارة استكشافية أو بدراسة الميدان الخصم.. تلك الدراسة، التي تسبق الهجوم في المعتاد.. وهذا يعني له الكثير.. الكثير جدا..
-وما الذي تنوي أن تفعله يا (حسين) بك؟...
ألقى (إبراهيم) هذا السؤال في هدوء خبيث، وهو يتطلع إلى (حسين) الذي أفاق من شروده وأفكاره، وسأله:
- أفعل ماذا؟
ابتسم (إبراهيم) تلك الابتسامة الغامضة، وهو يقول:
- أقصد ما الذي ستفعله بشأن (جودة) هذا ومقهاه؟
شعر (حسين) بحنق ساخط عنيف في أعماقه، فقد أدرك على الفور أن (إبراهيم) يشير في وضوح إلى نقطة الضعف، التي يظن أنها ستلوي ذراعه..
نقطة الضعف، التي تتمثل في علاقة شقيقه (مفيد) بالمخدرات..
وكم تمني لحظتها لو أنه خنق (مفيد) بيديه، قبل أن يجلب له

هذا العار..
لقد اختنق بالغضب والحنق، حتى أنه لم يستطع إجابة (إبراهيم)، الذي بدا وكأنه لم يكن ينتظر الجواب، وهو يتابع في خبث:
- أرجوك يا (حسين) بك.. اترك لي هذه المهمة.. أريد أن أثبت محبتي لك.. أرجوك.
تضاعف ذلك المزيج من الحنق والسخط والغضب، في أعماق (حسين)، وهو يقول:
- لا بأس يا (إبراهيم) بك.. إنها لك
التقط (إبراهيم) نفسا عميقا، وهو يقول:
- عظيم
ثم أضاف في سرعة:
- ولكن أين (مفيد) بك.. كنت أريد الاطمئنان عليه قبل عودتى إلى (القاهرة).
هتف (عبد الحكيم) في حماس:
- عودتك إلى (القاهرة)؟! هذا مستحيل! ليس قبل أن تتناول معنا طعام الغداء، وتشرفنا بحضور حفل عيد ميلاد (طارق).
أجابه (إبراهيم)، وهو ينهض:
- كنت أتمنى هذا، ولكنك تعرف طبيعة عملنا.. إنها لا تمنحنا وقتا كافيا لأهوائنا قط.. وربما يمنعني هذا أيضا من رؤية (مفيد) بك، فمن المؤكد أنه مرهق الآن، فالذين يدخنون هذه السموم، يكونون عادة...
قاطعه صوت (مفيد)، وهو يقول في حزم:
- أنا هنا يا (إبراهيم) بك.
هوى قلب (حسين) بين قدميه، وهو يلتفت بسرعة إلى مصدر(الصوت، وعقله يصرخ في أعماقه:

كيف؟ كيف يجرؤ (مفيد) على النزول بهيئته الزرية، في حضرة (إبراهيم مكى)؟! كيف؟
ولكنه عندما أكمل التفاتته، كانت أمامه مفاجأة
مفاجأة مدهشة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن الدهشة العارمة من نصيب (حسين) وحده هذه المرة..
لقد توزع تأثيرها على الجميع، في نفس اللحظة التي وقعت فيها أبصارهم على (مفيد)، وهو يهبط في السلم الداخلى للسراى..
لم يكن ذلك الشخص المنهار، الذي رأوه في حجرته منذ ساعة واحدة أو أقل..
لم يعد كذلك أبدا لقد تحول، فيما يشبه المعجزة، إلى شخص آخر يختلف تماما
صحيح أنه مازال على نحوله وشحوبه، إلا أنه حلق لحيته، وصفف شعره بعناية، وارتدي قميصا أبيض نظيفا، وسروالا أسود أنيقا، وبدا وقد استعاد الكثير من ثقته بنفسه، وهو يتقدم نحو (إبراهيم مكى)، ويصافحه في هدوء، قائلا:
- مرحبًا بك هنا يا أستاذ (إبراهيم).. لم أكن أتوقع مقابلتك مرة ثانية، في سراى (البنهاوي)
ابتسم (إبراهيم)، وهو يقول:
- عندما يتعلق الأمر بي، ينبغي أن تتوقع أي شيء يا فتى.
أما (حسين)، فقد انتشت نفسه، وشعر وكأن حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهله، حتى أنه هتف في مرح، وهو يضع يده على كتف (إبراهيم):
- لماذا لا تبقى لتناول الغداء بالفعل؟ العمل يمكن تأجيله.

قال (إبراهيم) في هدوء، دون أن تفارقه ابتسامته الخبيثة الواثقة:
- لدى بعض الارتباطات ولوح بكفه للصغير (طارق)، مستطردا:
- عيد ميلاد سعيد يا (طارق)
ثم عاد يصافح (مفيد)، وهو يضيف في خبث:
- وعيد ميلاد سعيد لك أيضا يا (مفيد) بك..
قال (مفيد) في شيء من البرود:
- عجبًا! كنت أتصور أن الألقاب قد ألغيت منذ فترة طويلة
أطلق (إبراهيم) ضحكة ساخرة، قبل أن يربت على كتفه، قائلا:
- لا تصدق كل ما تقرؤه يا فتى
ثم مال نحوه، مستطردا:
- واطمئن بشأن مشكلتك.. سأتولى أمرها بنفسي
أجابه (مفيد) في سرعة وحزم:
- لست أعاني أية مشكلات.
أثلج الجواب صدر (حسين)، فانتفخت أوداجه في زهو، وتمنى لو أنه عانق أخاه، وشكره عما فعل..
ولكن شيئا ما في أعماقه ظل يشعره بقلق مبهم، ذاب فيه زهوه، وتلاشت معه ثقته في سرعة..
لماذا يبدو (إبراهيم) هادئا واثقا، على الرغم مما فعله (مفيد) وقاله؟

ما الذي يدفعه للضحك على هذا النحو؟
بل ما السبب الحقيقي، الذي جعله يقطع الطريق، من (القاهرة) إلى هنا..
تصاعد القلق في أعماق (حسين) أكثر وأكثر، وهو يتطلع إلى ابتسامة (إبراهيم مكـى)، الذي صافح الجميع، وهو يقول:

- إلى اللقاء.. كنت أتمنى قضاء وقت أطول معكم، ولكن ظروفي لا تسمح بهذا للأسف.
وعندما صافح (فؤاد)، شد على يده أكثر، وبدت ابتسامته أكثر خبنا وغموضا، وهو يقول له:
- تسعدني مقابلتك يا (فؤاد) بك، وأعتقد أننا سنلتقي كثيرا فيما بعد..
لم يفهم (فؤاد) ما يعنيه (إبراهيم) بعبارته، ولم يجد معنى لتلك الغمزة الخفية السريعة، التي رماه بها، قبل أن يستدير مزمعا الانصراف، ولكنه تمتم في خفوت:
- بإذن الله.
وتحرك (إبراهيم) نحو باب السراى، وكأنه يهم بالانصراف، إلا أنه لم يلبث أن توقف بغتة، والتفت إلى (فؤاد) مرة ثانية، مستطردا بصوت مرتفع:
- آه.. بالمناسبة يا (فؤاد) بك.. تقبل تهانئي
سأله (فؤاد) في حيرة:
- علام؟!
شحذ (حسين) حواسه كلها، وهو يتطلع إلى (إبراهيم) في اهتمام، فابتسم هذا الأخير بخبثه المعهود، قبل أن يجيب:
- لقد صدر قرار جمهورى برفع الحراسة عن شقيقك، وإعادة كل سلطاته إليه.
تألقت عينا (فؤاد) في شدة، في حين انعقد حاجبا (حسين) في توتر بالغ..
لقد كان هذا يعني أن الصراع القديم سيبرز إلى السطح مرة أخرى..
صراع الأرض..
أرض (البنهاوي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

76- وعاد الصراع..

رفع (حافظ) عينيه في تخاذل، يتطلع إلى (فاطمة)، التي تختلس النظر والسمع، عبر فرجة الباب، وقال في خفوت، يغلب عليه الحياء والتردد:

- عيب يا (فاطمة).. لا تسترقى السمع على هذا النحو

لوحت بيدها، قائلة بخشونتها المعتادة:

- اسكت يا (حافظ).

انفرجت شفتاه؛ لينطق بشيء ما، إلا أنه لم يلبث أن أثر السلامة، فأطبقهما مرة أخرى، واكتفى بمراقبتها، حتى سمعها تقول في اهتمام مشوب بالشماتة:

- هذا أفضل ما سمعت، في الفترة الأخيرة.

أراد أن يسألها عما تعنيه، إلا أنه لم يحول رغبته هذه قط إلى فعل، ولم تمنحه هي الفرصة ليفعل، وإنما التفتت إليه، وتابعت شامتة:

- يقولون: إن شقيق (فؤاد) زوج (ناهد)، قد عاد إلى موقعه في السلطة.

بدت في عينيه نظرة متسائلة، فتابعت متشفية:

- وهذا يعني أن الصراع سيحتدم مرة أخرى، بين (فؤاد) و (حسين).

سألها (حافظ) في تردد:

- أي صراع؟

جلست على طرف الفراش، وهي تجيب:

- الصراع على أرض (البنهاوي).. أنسيت ما حدث منذ ثلاث سنوات، عندما حاول (فؤاد) أن ينتزع نصيب زوجته بالقوة، مستغلا سلطة شقيقه، مما اضطر شقيقك (حسين) إلى أن يسجل الأرض باسم أبي (رحمه الله)؟

بدا شيء من الارتياع على وجه (حافظ)، وهو يقول:
- وكيف يمكن نسيان هذا؟
استعاد ذهنها، في لحظة واحدة، تفاصيل تلك الفترة العصيبة عندما سجل (حسين) الأرض باسم والدها، ولم تكن هي تعلم بهذا، حتى دفعت أباها إلى تسجيل الأرض باسم زوجها (حافظ)، الذي منحها توكيلا رسميا شاملا بدوره، فأصبحت المتحكمة الوحيدة في كل أرض (البنهاوية)..
ولكن (حسين) لم يسمح بهذا..
لقد أجبر زوجها (حافظ) على إعادة الأرض إليه، وحطم والدها، وعاقبها مع زوجها أشد العقاب.
وفي بغض واضح، أطلقت من أعمق أعماق صدرها زفرة نارية، قبل أن تقول:
- نعم.. كيف يمكنني أن أنسى أن أرض (البنهاوي) كلها، كانت في قبضتي يوما؟
خفض (حافظ) عينيه، وهمهم بعبارة غير مسموعة، ولكنها تجاهلتها تماما، وهي تقول بلهفة شامتة:
- أراهنك على أن (حسين) يحترق الآن في أعماقه، وتغلى دماؤه في عروقه، لأنه يعلم أن (فؤاد) سيعود حتما للمطالبة بنصيب (ناهد) من الأرض.
تمتم (حافظ):
- لا أحد يمكنه أن يغلب (حسين).
اعتدلت في حدة، قائلة:
- أهذا رأيك؟! ثم مصمصت شفتيها متحسرة، قبل أن تستطرد:
- ولكن ما الذي أتوقعه غير هذا، من رجل استسلم تماما لفكرة أن تحتفل أسرته سنويا بعيد ميلاد ابنه، دون أن تسمح له أو لزوجته بالحضور؟

تمتم بعبارة متخاذلة غير مفهومة، وهو يخفض عينيه، اللتين أغرقتهما الدموع، فهتفت (فاطمة) بصوتها الخشن الغليظ:
- ألم أقل لك؟
ثم نهضت مرة أخرى إلى الباب، مضيفة في لهفة:
- والان اتركني استمع إلى ما يقولون، حتى أعرف كيف سيبدأ الصراع هذه المرة.
قالتها وعادت تسترق السمع والنظر، وهي تتمنى في أعماقها أن يحتل (فؤاد) مقعد الفائز هذه المرة..
وإلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خيم وجوم واضح على عيد ميلاد (طارق)، في هذا العام..
لقد أدرك الجميع أن الأخبار، التي أتى بها (إبراهيم مكى)، قد أشعلت نارا محرقة في عقل (حسين)، وفرت كل أطماع الماضي في نفس (فؤاد)، الذي غرق في أفكاره، وهو يعيد دراسة الموقف، في صمت وشرود، حتى أنه لم ينتبه إلى (شريفة)، التي توقفت أمامه، حاملة صينية فضية، تراصت فوقها فناجين الشاى الأنيقة، فقالت في حرج للمرة الثالثة:
- تفضل يا أستاذ (فؤاد)..
انتفض (فؤاد)، وكأنه يستيقظ من سبات عميق، وأسرع يأخذ فنجانه، وهو يقول:
- معذرة.. لقد شردت لحظات.
قال (حسين) في سرعة:
- فيم؟
تطلع إليه (فؤاد) بنظرة متحدية، وهو يقول:

- في كل الامتيازات، التي ستمنحني إياها عودة شقيقي إلى السلطة.
بدا صوت (حسين) صارما للغاية، وهو يقول:
- لا تفكر في هذا كثيرا، فمن المحتمل أن تعود الأمور إلى سابق عهدها، قبل أن تنتهي من تفكيرك.
رفع (فؤاد) أحد حاجبيه، قائلا في شيء من الحدة:
- من يدري؟ ربما تغيرت أمور أخرى.
اعتدل (حسين) في حركة عنيفة، أثارت قلق الجميع، وهو يقول في صرامة:
- مثل ماذا؟
ولو أنه أتي هذا التصرف منذ ساعات محدودة، لارتجف (فؤاد) من قمة رأسه، حتى أخمص قدميه، وانكمش في مقعده مذعورا، أما في تلك اللحظة، فقد واتته شجاعة عجيبة، جعلته يهتف في وجه (حسين) بحدة:
- مثل أسلوبك الديكتاتوري في التعامل معنا.
لم يكد ينطقها، حتى هبط على المكان كله صمت مطبق، وتركزت كل العيون على وجه (حسين)، الذي احتقن في شدة، ثم قطع (مفيد) ذلك الصمت، وهو ينهض من مقعده، قائلا في قلق متوتر:
- إنه عيد ميلاد (طارق)، ولا داعي لأن نفسده، أو
قاطعه (حسين) في صرامة مخيفة:
- اصمت.
ابتلع (مفيد) لسانه في توتر بالغ، وتساءل في أعماقه عن رد الفعل، الذي سيقوم به (حسين)، في هذا الموقف..
إنه لن يرضى أبدا أن يحطم (فؤاد) هيبته في العائلة، ولكنه لن يستطيع - في الوقت ذاته - أن يقاتله في عنف، حتى لا يضطر فيما بعد لمواجهة شقيقه..

فما الذي سيفعله (حسين) ٠٠؟
لم يكن ذلك التساؤل قاصرا على (مفيد)، وإنما كان يملأ أعماق الجميع، وعلى رأسهم (فؤاد) نفسه، الذي شعر أن هذه اللحظات حاسمة للغاية، في تحديد موقفه وكيانه وسط أسرة أصهاره.
وفجأة، تكلم (حسين):
كان الجميع يتوقعون رد فعل عنيف، ولكنهم فوجئوا به يلتفت إلى الأطفال، قائلا:
- (خيري).. (محمد).. (دلال).. ارتدوا ثيابكم، فستعودون إلى منزلكم الان.
احتج الأطفال في حزن، في حين ارتسمت الدهشة على وجوه الجميع، واحتقن وجه (فؤاد)، على عكس (ناهد)، التي شحب وجهها في شدة، وهي تقول:
- هل تطردنا يا (حسين)؟
نهض (حسين) في صرامة، وهو يقول:
- إلى اللقاء يا (ناهد).. اصطحبي أطفالك وزوجك، في رحلة عودتك إلى منزلك.
تفجرت الدموع من عينيها، وهي تهتف:
- هل تطردني من سراى والدى يا (حسين)؟
لم يحاول أحد الحاضرين التدخل، حتى (مفيد)، الذي خفض عينيه في أسي، وشعر بالدوار يعاوده، مع ذلك الاختناق الذي ملأ عنقه ونفسه، في حين قال (فؤاد) في حدة:
- ليس هذا من حقك.. السراي ملك للعائلة كلها
أجابه (حسين) بصرخة هادرة صارمة:
- تقدم بشكوى لشقيقك إذن.
تضاعف احتقان وجه (فؤاد)، مع تلك العبارة الأخيرة، التي تعني أن (حسين) قرر خوض المعركة بكل قوته، وأغرقت الدموع وجه

(ناهد)، وهي تلملم أشياءها، وتدفع أولادها أمامها، مغادرة السراي، وشاركتها شقيقاتها الدموع، دون أن يرتفع صوت واحد محاولا الاعتراض، أو حتى الرجاء..
وقبل أن يعبر باب السراي، التفت (فؤاد) إلى (حسين)، وقال
- ستندم على هذا
صرخ فيه (حسين):
- اخرج.
كان من الواضح أن عيد ميلاد (طارق) قد فسد تماما هذه المرة، ولم يعد من الممكن رتقه، وامتلأت نفس (مفيد) بالحزن والحسرة، وهو يراقب سيارة (فؤاد)، التي حملته مع زوجته وأبنائه بعيدا، وتمنى لو أنه استطاع مواجهة (حسين)، كما كان يفعل في الماضي، إلا أنه لم يجد في نفسه القدرة على هذا، فترك دموعه تنهمر في صمت، وعقله يتساءل في حيرة..
كيف فعل (حسين) هذا؟
كيف يتحدى (فؤاد) بهذه الصورة السافرة، على الرغم من عودة شقيقه إلى موقعه وسلطاته؟
والواقع أنه لم يكن قرارا سهلا أبدا، بالنسبة لرجل مثل (حسين البنهاوي)..
لقد استعاد (فؤاد) قوته، بعد عودة شقيقه إلى السلطة، وتحداه علانية وسط العائلة..
ولم يكن من الممكن أبدا أن يسكت على هذا..
فلو فعل، ستنهار هيبته كلها، ويدرك الجميع أن (فؤاد) صار أكثر قوة، فيسرعون بالالتفاف حوله، وتختل موازين القوة تماما من وجهة نظره..
وهو لن يسمح بهذا قط..

ثم إن المواجهة كانت آتية لاريب، ولن يتوانى (فؤاد) لحظة واحدة عن الدخول معه في صراع عنيف، لاستعادة الأرض، التي فشل في استعادتها من قبل..
وهكذا لم تكن هناك وسيلة لاتقاء الأمر، فلا مانع إذن من الهجوم.. وبكل شراسة..
وفي توتر، نهض (عبد الحكيم)، وأشار إلى زوجته، وهو يقول:
- اسمح لنا بالانصراف يا (حسين) بك، فأنا أشعر بوعكة صحية.
أشار إليه (حسين) في شرود، قائلا:
- إلى اللقاء
انسحب (عبد الحكيم) وعائلته في هدوء، وبصحبتهما (نعيمة) وابنتها، في حين بقيت (شريفة) جالسة إلى جوار (حسين)، وهى تهمس مترددة:
- هل أعد لك بعض الطعام؟ هز (حسين) رأسه نفيا، وهو يجيب في شيء من الحدة:
- كلا
ثم التفت إلى (مفيد)، وقال:
- أعد نفسك جيدا، فسأجد لك عملا مناسبا، قبل نهاية الأسبوع.. هل تفهم؟
كان (مفيد) يشعر بغصة في حلقه، تمنعه من الكلام، فاكتفى بإيماءة من رأسه، ولم يغادر مكانه، حتى استقل (حسين) سيارته وغادر المكان..
أما (حسين) نفسه، فوسط كل الغضب والتوتر، اللذين امتلأت بها أعماقه، كان هناك تساؤل يبرز على السطح، ويؤرقه في شدة:
لماذا قطع (إبراهيم مكى) كل هذه المسافة، ليلقى خبرا كهذا؟ لماذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لتشتيت انتباه الخصم.

نطق (ابراهيم مكى) هذه العبارة بابتسامة واسعة، تجمع ما بين الخبث والثقة والدهاء، في مواجهة رئيسه (مراد صقر)، الذي تراجع في مقعده، ورمقه بنظرة طويلة، قبل أن يشبك أصابع كفيه أمامه، قائلا:

- يا لك من داهية!

جلس (إبراهيم) على المقعد المواجه لرئيسه، وهو يقول:

- إنها ليست لعبة عسيرة أو معقدة يا سيدي.. إنها بعض القواعد البسيطة، التي نستخدمها في عملنا.. إننا نعد العدة للإطاحة بـ (حسين البنهاوي)، ومن الطبيعي أن نلفت انتباهه، ونبعد أنظاره عنا، حتى ننتهي من عملنا، فلا يفيق إلا وهو بين أصابعنا.

سأله (مراد صقر):

- أتعتقد أن هذا سيشغله طويلا؟

هز (إبراهيم) كتفيه، وقال:

- بالتأكيد، فـ (فؤاد) يتمنى استعادة أرض زوجته، ولقد حاول أن يفعل منذ ثلاث سنوات، ولكن (حسين) هزمه هزيمة نكراء، بعد أن عمل على إزاحة شقيقه من مقعده.

قال (مراد) بسرعة:

- بمعاونتك

ابتسم (إبراهيم)، وهو يقول:

- ولي الفخر.. لقد أعددت الخطة كلها، ولم يكن على (حسين البنهاوي) سوى التنفيذ، أما الآن، فقد أصبح على أن أواجه شريكى القديم، وأن ألعب معه اللعبة نفسها.

ثم تلاشت ابتسامته، وانعقد حاجباه في شدة، مع استطراداته:

- وعندما أنتهي منها، فإن ما سيتبقى منه، لن يصلح حتى لترقيع حذاء قديم..
وازدادت صلابة صوته، وهو يضيف:
- وهذا وعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قهقه (عمر) ضاحكا في شدة، حتى ارتج جسده كله، قبل أن يضرب فخذه براحته، هاتفا في شماتة:
- إذن فقد عادت المواجهة، بين (فؤاد) وابن (البنهاوي)! يا له من زمن دوار.. لكل شخص يوم، يعلو فيه شأنه.
قال عبد الحكيم):
- ولكن (حسين) واجهه في عنف، وطرده مع ناهد) وأبنائهما من السراى.
لوح (عمر) بكفه، وقال في سخط
- وماذا في هذا؟ هل طردهما من الجنة؟! من ذا الذي يرغب في البقاء في مكان كهذا؟
ابتسم (عبد الحكيم) ابتسامة مشفقة، وهو يقول:
- أنت تقول هذا؛ لأنك تبغض (حسين البنهاوي)
هتف (عمر):
- أبغضه؟! ليس هذا هو القول المناسب يا رجل، فأنا لا أبغض (حسين البنهاوي) فحسب، وإنما أكرهه كراهية تكفي لقتل نصف أهل الأرض.
أطلق (عبد الحكيم) ضحكة عالية، وهو يقول:
- إلى هذا الحد؟!
لوح (عمر) بكفه، قائلا في ازدراء:

- دعنا من الحديث عن (حسين البنهاوي)، وعن كل البنهاوية، وأخبرني.. كيف حال الآلات الجديدة في المصنع؟
تراجع (عبد الحكيم) في مقعده، وهو يقول:
- رائعة.. لقد ضاعفت الإنتاج مرتين على الأقل، و (رضا العبد) يؤكد أن الشركة التي أنتجتها تضمنها السبع سنوات كاملة.
هتف (عمر) في سعادة:
. عظيم.. عظيم.. هذا يعني خطوة جديدة، تبعدنا عن سيطرة (حسين) بك وسطوته، ولن يمضي عام آخر، حتى يمكنني أن أواجهه، دون أن ترتجف أطرافى.
تنهد (عبد الحكيم)، وقال:
- أما في الوقت الحالي، فمن الأفضل أن تظل علاقتنا به جيدة، فقد يمكننا أن نستفيد يوما من سلطاته.
مط (عمر) شفتيه في كراهية واضحة، وهو يقول:
- كم أتمنى ألا يأتي أبدا ذلك اليوم، الذي أحتاج فيه لشخص مثل (حسين البنهاوي).
هز (عبد الحكيم) كتفيه، وهو يقول:
- لا يمكنك التنبؤ بهذا الأمر قط، فالبلد يخوض مرحلة جديدة ولا أحد يدري ما الذي يمكن أن تتطور إليه الأمور.
أقلقت لهجته (عمر) فسأله مترددا:
- هل تتوقع شيئا محدودا؟
تنهد (عبد الحكيم)، قبل أن يقول في قلق واضح:
- منذ أشهر قليلة، جمعت الدولة كل أصحاب ورؤساء الصحف، وأبلغتهم أنها قررت تنظيم الصحافة، على حد قولها، ومن هذا المنطق، أممت صحفهم جميعا، وحولتهم إلى موظفين لديها، تمنحهم الترقيات والعلاوات لو أحسنوا القول، وتلقيهم وراء الشمس لو خالفوا القواعد.

هب (عمر) من مقعده، وهو يهتف:
- أتعتقد أنه من الممكن أن يحدث هذا لنا؟
تنهد (عبد الحكيم) مرة أخرى، وشرد ببصره، وسال القلق مع كلماته، وهو يتمتم:
- من يدري يا (عمر)؟ من يدري؟
وكان على حق..
من يدري؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

77- موسم الخداع..

لأول مرة، منذ فترة طويلة، استيقظ (مفيد) مع شروق الشمس، وفتح نافذة حجرته؛ ليستنشق الهواء النقي، ويملأ به صدره الضعيف، ويستعيد معه كل ذكريات الماضي..

كانت حياته تسير داخل عقله، كما لو أنها فيلم سينمائي قديم، بهتت بعض أجزائه، وبقيت أخرى قوية واضحة، تحتل مكانها على شاشة الذكريات.

ومع رائحة الهواء الرطب، المشبع بنسيم الحقول، وقطرات الندى المتساقطة على الأوراق الخضراء، استعاد ذهنه ذكرياته مع أول حب ملأ قلبه..

مع (مديحة).

وتداعت أفكاره وذكرياته في سرعة، ليستعيد أحداثا تصور أنها ماتت في أعماقه، ولم يعد من الممكن أن يستعيدها عقله ثانية..

ودون أن يشعر، انهمرت من عينيه الدموع، وكاد يمتلئ بالحزن، عندما تسلل إلى مسامعه صوت (فاطمة) الخشن الغليظ، وهي تقول:

- صباح الخير يا (مفيد) بك التفت إليها في بطء، وهو يمسح دموعه، وغمغم:

- صباح الخير يا (فاطمة).. ما حكاية (مفيد) بك هذه؟! إنك تخاطبينني دائما بلا ألقاب.

زفرت في هوان، قبل أن تقول:

- كان هذا فيما مضى .

اقترب منها، وهو يسألها في حيرة:

- وما الذي تغير؟ هل أسأت معاملتكم يوما؟

لم يكد يتم سؤاله، حتى أجابت في سرعة:

- مطلقا.. قالتها في حماس شديد، قبل أن تتراجع مستطردة: د ولكن العين لا تعلو على الحاجب. قال في دهشة:
- أية عين، وأي حاجب يا (فاطمة)!! إننا أسرة واحدة.. أنت زوجة شقيقي، وهذا يجعلك بمثابة أخت لي؟
رمقته بنظرة جانبية، وهي تقول في خفوت مختنق:
- هل تذكرت هذا؟
قالتها، وانفجرت في بكاء حار، وتركت عبارتها تخترق صدره كخنجر مسموم..
نعم.. أما زال يذكر هذا، أم أنه نسيه منذ فترة طويلة! لقد فهم ما تعنيه (فاطمة).
لقد كان المدافع الوحيد عنها في الماضي، عندما كانت شخصيته أفضل، وكان يمنع الجميع من الإساءة الدائمة إليها، وخصوصا (شريفة)، التي لا تكف عن سبها، أو معايرتها بنسبها، من الصباح إلى المساء..
ولكنه ذاب طويلا وسط سحب الدخان الأزرق، الذي انتزعه من عالمه، وألقى به في بئر عميقة بلا قرار ..
بئر من الخنوع والضياع والاستسلام.. ولكن لا..
لقد انتصر على ضعفه، وخرج من البئر، ولن يسمح لنفسه بالعيش في هذا التخاذل طويلا.
سيستعيد شخصيته القديمة.. سيبذل قصارى جهده لاستعادتها..
وفي حسم، ربت على كتف (فاطمة)، وهو يقول:
- أنا لم أنس أبدا يا (فاطمة).. ولن أنسى بإذن الله
قالها وهو يعني كل حرف منها..
كل حرف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتفعت عينا (حسين) في توتر ملحوظ، تتطلعان إلى وجه (صلاح) الخبيث المكتنز، قبل أن يسأله في لهفة:
- هل حصلت على شيء؟
أخفي (صلاح) ابتسامته في دهاء، وهو يهز رأسه بأسى مفتعل، ويجيب في مسكنة خبيثة:
- لا شيء يا (حسين) بك.. لا شيء.. يبدو أن الرجل حريص على تفادي أي شيء، يمكن أن يسيء إلى مركزه ثانية.
لوح (حسين) بذراعيه في حدة، وهو يقول:
- مستحيل! لا يوجد شخص كامل، وخصوصا هذا الرجل.. انبش خلفه جيدا يا (صلاح)، وستجد حتما ما يدينه.. هل نسيت ما كان يفعله في السابق؟
أجابه (صلاح):
- إنه حريص تماما هذه المرة.
كان الحديث يدور حول شقيق (فؤاد)، الذي عاد إلى مقعد السلطة، ولقد بدا (حسين) شديد التوتر والعصبية، وهو يقول:
- الوقت ليس في صالحنا يا (صلاح).. لقد طردت (فؤاد) من السراي منذ أسبوعين، ومن المؤكد أنه أبلغ شقيقه، وأن هذا الأخير يرتب للإطاحة بي، ولابد لي من أن أسبقه إلى تدميره.
مال (صلاح) نحوه، وقال مبتسما:
- اطمئن يا (حسين) بك.. كل شيء تحت السيطرة.
هتف (حسين) في حنق:
- أية سيطرة؟! هكذا أنت دائما.. من يستمع إليك يتصور أنك قادر على صنع المعجزات، وعندما يتعامل معك، يكشف أنك مجرد خيال ماته، لا تشفع ولا تنفع..
بدت ابتسامة (صلاح شديدة الخبث، وهو يقول:

- سترى ما سأفعله هذه المرة يا (حسين) بك.
زفر (حسين) في توتر بالغ، وأشاح بوجهه عنه لحظات، وكأنما يكتم انفعالاته، ثم عاد يلتفت إليه، ويسأله:
- ماذا فعلت في أمر وظيفة (مفيد)؟
أجابه (صلاح):
- كل شيء تم إعداده يا (حسين) بك، وكل ما على (مفيد) بك هو أن يذهب ليتسلم عمله الجديد..
تمتم (حسين):
- فليكن.. تول هذا الأمر، فلست في مناخ نفسي يسمح بهذا
انحنى (صلاح) أمامه في نفاق شديد، وهو يقول:
- اطمئن يا (حسين) بك.. اطمئن.
ثم تنحنح مرتين، فسأله (حسين) في عصبية
- ماذا هناك؟
ناوله (صلاح) ورقة مطوية، وهو يجيب:
- هذه البرقية وصلت إلى منزل سيادتك يا (حسين) بك، ولكنني رأيت؛ لشدة أهميتها، أن أحملها إليك هنا مباشرة..
التقط (حسين) البرقية في شيء من القلق، وفضها في اهتمام، ثم انعقد حاجباه في شدة، وهو يقرأ كلماتها الموجزة:
- أحضر فورا.. الأمر بالغ الأهمية.. أنا في أشد الحاجة إليك..
ولم تكن العبارة وحدها هي التي أثارت توتره وقلقه، وإنما هو التوقيع..
توقيع (عايدة)..
الأميرة (عايدة)
ولقد سرى القلق في عروقه، فور أن وقعت عيناه على هذا التوقيع..
لماذا أرسلت (عايدة) مثل هذه البرقية؟

ما الذي دفعها إلى هذا؟
وتعاظمت تساؤلاته في أعماقه، وامتزجت بقلقه العارم، الذي راح يتصاعد..
ويتصاعد..
ويتصاعد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تهللت أسارير الحاج (سعفان)، عندما وقع بصره على (مفيد البنهاوي)، الذي يسير الهوينا وسط الحقول الخضراء، وأقبل عليه هاتفا في سعادة:
- حمدا لله على السلامة.. حمدا لله على سلامتك يا (مفيد) بك
صافحه (مفيد) بابتسامة هادئة، وهو يقول:
- ما معنى (مفيد) بك هذه يا عمدة؟! تصورت أنهم ألغوا الألقاب منذ زمن.
قهقه الحاج (سعفان) ضاحكا، وهو يقول:
- على الورق فقط يا ولدي
أومأ (مفيد) برأسه، مغمغما:
- صدقت يا عمدة.. كل شيء يحدث على الورق فحسب.
ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخطة، مع استطراداته:
- حتى الورق أمموه هذه الأيام.. الصحافة والأدب، وكل شيء.
تصاعد شيء من الدهشة في أعماق الحاج (سعفان)، فمنذ فترة طويلة لم يسمع من (مفيد) أية انتقادات لسياسة الدولة، كما كان يفعل من قبل..
لقد بدا وكأن السموم التي دفعه إليها (جودة)، قد سلبته اهتماماته بكل ما يدور حوله..

بوطنه، وأسرته وحتى بنفسه
ولكن ها هو ذا يعود اليوم لمناقشة السياسات العليا وانتقادها.. وهذا يعني أنه يستعيد نفسه.. يستعيد شخصيته، التي جذبت إليه الجميع يوما.
ومن الطبيعي أن يشعر الحاج (سعفان) بالسعادة لهذا التطور ولكن سعادته هذه لم تكن خالصة..
كانت تمتزج بالكثير من الخوف والرهبة، اللذين جعلاه يتلفت حوله، قبل أن يتمتم في توتر:
- لا شأن لنا بهذا يا ولدي
تطلع إليه (مفيد) في دهشة، هاتفا:
- ماذا تعني بأنه لا شأن لنا بهذا يا عمدة؟! إنه وطننا هذا الذي نتحدث عنه؟
انخفض صوت الحاج (سعفان) أكثر، وتضاعفت فيه نبرة التوتر، وهو يقول:
- بالطبع يا ولدي.. بالطبع، ولكن دعنا نبتعد عن السياسة
صاح به (مفيد) مستنكرا:
- نبتعد عن السياسة؟! أأنت الذي يقول هذا يا عمدة؟! أنت ترغب في الابتعاد عن السياسة، وأنت الممثل الرسمي لسياسة الدولة هنا.
بدأ الحاج (سعفان) يشعر بالندم؛ لأنه استوقف (مفيد البنهاوي)، وهتف في صوت أقرب إلى الهمس:
- أنا أمثل الجهاز التنفيذي للدولة فحسب يا ولدي، أما السياسة فلا شأن لي بها على الإطلاق.
أطلق (مفيد) ضحكة ساخرة مريرة، وهو يقول:
- هذا ما يظنه الجميع للأسف.. كل شخص يتصور أنه لا شأن له بالسياسة لمجرد أنه لا يناقش القرارات السياسية للدولة، ولكنه لا

يدرك أن لكل قرار سياسي انعكاسا اقتصاديا واجتماعيا، يمكن أن يؤثر على أصغر فرد في المجتمع.
كان من الواضح أن (مفيد) قد استرجع شخصيته تماما، بل وامتلأت نفسه بالمزيد من السخط والعناد والتحدي، وكأنه يعوض ما فاته، في السنوات الثلاث الأخيرة.
ولكن الحاج (سعفان) لم يكن ليحتمل هذا.. وخصوصا في تلك الأيام لذا فقد غمغم في توتر:
- هذا صحيح يا ولدي.. صحيح تماما، ولكن اعذرني، فلدي موعد عاجل، و.
قبل أن يتم عبارته، اندفعت سيدة عجوز من بين أعواد الذرة القريبة، وألقت نفسها على يد (مفيد)، تقبلها في لهفة، صارخة في لوعة واضحة:
- ابني يا (مفيد) بك.. ابني.. أقبل يديك.. أعد إلى ابني.
سحب (مفيد) يده منها في دهشة مرتاعة، وهو يهتف بها
- ماذا دهاك يا أماه؟ . من ابنك هذا؟ وما شأنى به؟
أغرقت دموع العجوز يديه، وهي تختطفها مرة أخرى، وتغمرها بالقبلات، صارخة:
- ابنى يا (مفيد) بك.. ليس لي بعد الله (سبحانه وتعالى) سواك.. أعد إلى ابني بالله عليك
سحب (مفيد) يديه منها مرة أخرى، أو انه انتزعها بالقوة، وهو يحدق في وجهها ذاهلا، فتطوع الحاج (سعفان) بتوضيح الموقف، قائلا:
- إنها والدة (جودة).. صاحب مقهى موقف السيارات.
سأله (مفيد) في دهشة:
- وماذا أصاب ولدها؟

رفعت العجوز عينيها إليه في دهشة بالغة، شاركها فيها الحاج (سعفان)، وهو يقول:
- ألم تسمع بما حدث؟
هز(مفيد) رأسه في حيرة، مغمغما:
- وما الذي حدث؟
أجابه الحاج (سعفان):
- لقد هاجمت ثلاث سيارات رسمية مقهى (جودة)، بعد مغيب الشمس، منذ عدة أيام، وحطموا كل مقاعد وموائد المقهى، ثم ألقوا القبض على (جودة) وصبيه (سلامة)، وحملوهما معهم، وانصرفوا بعد أن أثاروا موجة من الذعر والفزع في المكان.
قال (مفيد) في دهشة:
- أهم رجال مكافحة المخدرات؟
صاحت العجوز باكية:
- وما شأن ابني بالمخدرات يا (مفيد) بك؟ إنه حتى لا يدخن سيجارة واحدة.
فتح (مفيد) شفتيه، ليقول لها شيئا ما، ثم لم يلبث أن أطبقهما مراعاة لمشاعرها في تلك اللحظات، في حين قال الحاج (سعفان):
- هذا ما تصورناه جميعا، وبناء عليه، فقد ذهبت مع بعض رجال القرية، إلى الشرطة للسؤال عنه، ولكنهم أخبرونا هناك بأنه لا علم لهم بما حدث، وبأن هؤلاء الذين حطموا المقهى، وألقوا القبض على (جودة) و (سلامة)، لا ينتمون قط إلى جهاز الشرطة، وهنا ثار شقيق (جودة) واعترض، وطالب رجال الشرطة بالتدخل، للبحث عن شقيقه المختطف، ولكن ضابط النقطة أجري بعض الاتصالات، ثم عاد إلينا شاحب الوجه، ونصحنا بالعودة إلى منازلنا، وبعدم إثارة الأمر، وإلا..

توقف الرجل لحظة ليلتقط أنفاسه، أو ليزن كلماته قبل أن ينطقها، ثم تابع في خفوت:
- وفهمنا جميعا على الفور.. حتى شفيق (جودة) ابتلع لسانه، وسجنه خلف أسنانه، وعاد معنا إلى القرية صامتا، يجر أذيال الخوف والرهبة والمرارة.
قال (مفيد) في حدة:
- أتعني أن من أخذوه..
قاطعه الحاج (سعفان) في ارتياع شديد، وهو يلوح بذراعيه في ذعر:
- لست أعني شيئا.. أقسم بالله العظيم ثلاثا إنني لم أكن أعني شيئا.. إنني أردد ما سمعته فحسب.
لم يصدق (مفيد) عينيه وأذنيه، وهو يحدق في وجه الحاج سعفان)..
لم يصدق أبدا أن ذلك الجبان الرعديد، الذي يرتجف خوفا أمامه، هو نفسه ذلك الشيخ الحكيم الصارم، الذي طالما تصدى للظلم، وحارب في سبيل العدل.
ومرة أخرى، انهالت العجوز على يديه بالقبلات، مرددة العبارة نفسها:
- ولدى يا (مفيد) بك.. ولدي
وعندئذ، أدرك (مفيد) أن الأمور قد تغيرت كثيرا
كثيرا جدا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كاد (مراد صقر) يقفز من خلف مكتبه، ويصرخ في وجه (حسين) في سعادة، إلا أنه تماسك في قوة يحسد عليها، ونجح في دفع أكبر

قدر من اللامبالاة إلى صوته، وهو يقول:
- هل تريد السفر إلى باريس)؟! ما سبب مطلبك هذا؟
غمغم (حسين) في شيء من الضيق:
- الواقع أنه سبب شخصى.
عقد (مراد) حاجبيه في صرامة مدروسة، وهو يقول:
- أنت تعلم أنه لا توجد أسباب شخصية في عالمنا
تنهد (حسين)، قبل أن يقول:
- نعم.. أعلم
وصمت لحظة، وكأنما يجمع شتات نفسه، ثم استطرد في لهجة حاسمة:
- الوقع أنني أريد السفر، لمقابلة خطيبتي هناك
هتف (مراد صقر): - الأميرة (عايدة)؟!
لم يكد ينطقها، حتى كاد يحطم أسنانه بنفسه، في حين انعقد حاجبا (حسين) في شدة، وبركان ثائر يتفجر في أعماقه..
إذن فهم يعلمون! إنهم يعرفون بأمر علاقته بالأميرة السابقة (عايدة)! لماذا لم يصارحه أحدهم أبدا؟!... لماذا اكتفوا بالحصول على المعلومة، وكتمان الأمر عنه؟!...
ثم إلى أي مدى يعرفون طبيعة علاقته بها؟! وماذا لديهم في هذا الشأن؟!
كانت كل هذه التساؤلات كافية، لتفجير قلقه وحذره إلى أقصى حد، وعلى الرغم من هذا فقد أجاب بسرعة:
- نعم.. إنها هي!
جال (مراد) ببصره في ملامح (حسين) لحظات، وكأنما يسعى لسبر أغواره، وكشف ما يدور خلف قسماته، إلا أن (حسين) استقبل عيني (مراد صقر) بوجه جامد، تعلم كيف يخفى انفعالاته،

حتى قال هذا الأخير، وهو يخفض عينيه، وكأنما يتشاغل بمراجعة بعض التقارير الواردة إليه:
- فليكن.. سأمنحك أسبوعا واحدا للذهاب والعودة
قال (حسين) في هدوء عجيب، لم يتوقعه:
- أشكرك يا (مراد) بك
ولم يكد (حسين) يغادر مكتبه، حتى ضغط (مراد) زر جهاز الاتصال الخاص، وهو يقول لمدير مكتبه في حزم:
- أريد العقيد (إبراهيم مكى) فورا.
لم تمض دقائق معدودة، حتى كان (إبراهيم) يقف أمامه في مكتبه، فقال له في توتر ملحوظ:
- (حسين) طلب السفر إلى (باريس).. أهذا الأمر من تدبيرك؟ هز (إبراهيم) رأسه نفيا، وهو يقول:
- مطلقا.. لقد أرسلت إليه (عايدة) برقية، تطلب منه فيها السفر إليها بأقصى سرعة، لسبب لم تحدده.
ثم مال نحوه، مستطردا في خبث:
- ولكن سفره سيفيدنا كثيرا
أومأ (مراد) برأسه، وهو يقول:
- أعلم هذا، ولكن المشكلة أنني نطقت أمامه باسم (عايدة)، على الرغم من أنه لم يصارحني بعلاقته بها قط.
هتف (إبراهيم):
- ماذا؟!
ثم تراجع بسرعة، مستدركا:
- ولكنني لست أعتقد أن هذا سيصنع فارقا كبيرا، فالجميع يعرفون علاقته السابقة بها، وسيتصور هو أنك تعلم هذا بحكم منصبك.
قالها مجاملا، وإن كان يؤمن في أعماقه بأن هذا قد يوقظ روح الشك في أعماق (حسين)، ويدفعه إلى المزيد من الحرص والحذر

مما يزيد من صعوبة المهمة..

ولكنه لن يؤدي بها إلى الفشل قط..

- وهل تعتقد أنه من المناسب أن نواصل خطتنا؟...

قطع (مراد) سيل أفكاره بهذا السؤال، فتطلع إليه (إبراهيم) لحظة، قبل أن يقول بابتسامة غامضة:

- بالتأكيد، فلقد عاونتنا الأميرة (عايدة) بنفسها على نجاح الخطة، مع تلك الاتصالات التي أجرتها مؤخرا.
اعتدل (مراد صقر)، وهو يسأله في اهتمام:
- اتصالات مع من؟
ازدادت ابتسامة (إبراهيم) خبثا وغموضا، وهو يجيب:
- اتصالات مع الشركة العالمية للاستيراد والتصدير.
تراجع (مراد) بحركة حادة، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يستمع إلى الاسم؛ فقد كان نصف المسئولين في إدارته يعلمون أن هذه الشركة، التي تحتل ثلاثة طوابق كاملة، في أكبر شوارع (باريس)، ليست سوى ستار خفي، يعمل من خلفه جهاز المخابرات..
المخابرات الإسرائيلية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

78- الهاوية..

- لست أصدق هذا..

هتف الثري الفرنسي (جان) بهذه العبارة، في مزيج من الدهشة والحنق، وهو يحدق في وجه (عايدة)، التي أطفأت سيجارتها في عصبية، وهي تقول:

- صدق أو لا تصدق يا (جان).. هذه أنا، وهذا ما أفعله لمن يجرح كرامتى.

صاح فيها:

- أية كرامة؟! ما الذي فعله (حسين) هذا، حتى تفكري بذلك الأسلوب، الذي ينافس أساليب عصابات (مارسيليا) القديمة؟! كل ما فعله هو أنه اعتذر عن البقاء، للحاق بعيد ميلاد ابن شقيقه، الذي يعتبره بمثابة ابنه، فما الذي يجرح كرامتك في هذا؟

صرخت، وهي تشعل سيجارة أخرى:

- لا أحد يترك (عايدة).. أنا أترك من أشاء، ولا أحد يتركني مهما كانت الأسباب.

رمقها بنظرة دهشة، قبل أن يلوح بيده، قائلا:

- كيف لم أنتبه إلى هذا من قبل؟! أنت لست إنسانة عادية أنت كتلة من النرجسية والأنانية، إلى حد يقترب من الجنون.

رفعت عينيها إليه في غضب هادر، فتابع في حدة:

- وعقلك الفارغ يختلق المعارك من الفراغ، ثم يدفعك لإتيان أعمال طائشة، ستجرك يوما إلى الهاوية.

بدا صوتها صارما مخيفا، وهي تقول:

- أهذا رأيك؟

- بل هو رأي أي شخص عاقل.. لقد ارتكب الرجل معك هفوة بسيطة، وكان ينبغي عليك تقدير مشاعره، ولكنك بدلا من هذا،

رحت تخططين لتحطيمه بانتقام جنونى، دفعك للتورط في أمور بالغة الخطورة، وربما تنجحين في تدمير مستقبله، بتلك اللعبة الحقيرة ولكن هذا لن يمنعك من السقوط معه في الهاوية نفسها، و.
قبل أن يتم عبارته، التقطت منفضة السجائر من أمامها، وألقت كل محتوياتها في وجهه بكل قوتها..
وفي ذهول، قفز (جان) من مقعده، وحدق في وجهها، وران صمت رهيب على ملهى (الليدو)، والجميع يتطلعون إلى (عايدة) في دهشة بالغة، ولكن هذا لم يمنعها من تحطيم الصمت بصرخة هادرة:
- اخرس.. ينبغي أن تتعلم كيف تتعامل مع أميرة مثلي.. ألم تدرك أبدا أنني أتواضع كثيرا بصداقتي لك؟! هل نسيت من انت ومن أنا؟!
انتزعه غضبه من ذهوله، وهو يهتف بها:
- كلا.. لم أنس يا (عايدة).. لم أنس أنني عندما التقيت بك، كانت مصروفاتك تزيد على ضعف إيراداتك، وأنني الرجل الذي حقق الموازنة، وغطى العجز في الفارق بين دخلك وإنفاقك.. بل إنني صاحب كل فرنك افتتحت به متجرك
تراجعت في مقعدها، ونفثت دخان سيجارتها في وجهه، وهي تقول:
- هل يمكنك إثبات هذا؟ نفض رماد السجائر عن حلته الفاخرة، وهو يقول:
- كلا يا (عايدة).. لن أحاول حتى إثبات هذا.. إنني أعتبره ثمنا مناسبا، فلكل عاهرة ثمنها في (باريس).
قفزت من مقعدها صارخة في وجهه:
- اخرس.. اخرس أيها الحقير.. سأقاضيك من أجل هذا السباب القذر.

ابتسم في سخرية عصبية، هو يقول:
- سباب قذر؟! أفعلى إذن يا (عايدة).. قاضيني لو أن لديك الشجاعة لتفعلى.
ثم مال نحوها، والتقت عيناه الغاضبتان بعينيها الجميلتين، وهو يستطرد:
- ولكنني عندئذ، سأكشف كل الأوراق.. هل تفهمين؟ كل الأوراق؟
واعتدل بحركة حادة، ورفع رأسه في كبرياء، وانطلق يغادر الملهى في صرامة، تاركا إياها خلفه، وهي تنفث دخان سيجارتها في قوة وعقلها يفكر في كل كلمة نطقها..
كل كلمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطلق (فؤاد) زفرة عصبية، وهو ينهي محادثته مع شقيقه في عنف، فسألته زوجته (ناهد البنهاوي) في حذر:
- ماذا حدث هذه المرة؟
أجابها في حدة:
- كما يحدث في كل مرة.. إنه يطالبني بالصبر بعض الوقت، حتى يستقر تماما في مقعده، ثم يسعى معي لاستعادة أرضك من شقيقك المغرور هذا.
كان قلب (ناهد) يتمزق، بين شقيقها وزوجها، على الرغم مما فعله (حسين) معها، فهي ترغب قطعا في استعادة نصيبها من أرض والدها، ولكنها تخشى، في الوقت ذاته، أن ينجح زوجها وشقيقه في إيذاء (حسين)، الذي تكن له الكثير من الحب والمودة الأخوية.
وفي خفوت، غمغمت:
- فليكن.. دعنا نصبر قليلا إذن

صاح في غضب:
- مستحيل! لقد طردنا من السراى.. طردنا من سراى والدك.. لقد أعماه الغرور، فتصور أنه فوق كل شيء، ومن الضروري أن ألقنه درسا لا ينساه أبدا.
قالت في خنوع:
- وما الذي يمكنك أن تفعله؟
قال في حنق:
- المفترض أنه يمكنني أن أصنع الكثير، مع عودة شقيقي إلى منصبه، ولكن يبدو أنه ما زال يذكر أن (حسين) هو الذي نجح في إزاحته، في المرة السابقة، وما زال يحمل له بعض الرهبة في أعماقه.
ثم اعتدل، وأضاف في حزم:
- ولكن شقيقي ليس الشخص الوحيد، الذي يمكنني من خلاله تدمير (حسين البنهاوي).
ارتجف قلبها، مع كلمة (تدمير) هذه، فوضعت راحتها على صدرها، وكأنها تحاول إيقاف خفقان قلبها الملتاع، وهي تسأل زوجها في صوت شاحبًا:
- ومن غيره؟
أجاب بسرعة:
- (إبراهيم) ثم برقت عيناه في شيء من الشراسة، وهو يضيف:
- (إبراهيم بك مكى).
وعلى الرغم من أنها لم تكن تعلم الكثير عن صاحب الاسم، إلا أن قلبها عاد يخفق في عنف..
وفي ارتياع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فرك (حسين) كفيه في عصبية، وهو يستقبل (صلاح) في مكتبه، وقال في توتر شديد:
- اجلس يا (صلاح).. أريد أن أتحدث معك.
أدرك (صلاح) بطبيعته الخبيثة أن رئيسه يواجه مشكلة كبيرة، فجلس أمامه متحفزا، وهو يقول في حماس مفتعل:
- أنا رهن إشارتك يا (حسين) بك.
رمقه (حسين) بنظرة طويلة، قبل أن يسأله بغتة
- لحساب من تعمل يا (صلاح)؟
كان السؤال مباغتا، حتى أن قناع (صلاح) الخبيث هوي بغتة، فاتسعت عيناه في دهشة، وحدق لحظة في وجه (حسين)، الذي ظل صامتا، حتى انتزع (صلاح) نفسه من ذهوله، وأجاب:
- كلنا نعمل من أجل (مصر)،
قاطعه (حسين) في صرامة:
- دعك من تلك الردود الإنشائية، ولا تحاول اللف والدوران معي، وأجب بكل صراحة ووضوح.. لحساب من تعمل هنا؟ الحسابي أنا، أم لحساب (إبراهيم مكى)؟
مرة أخرى كانت الصراحة مباغتة ومثيرة للحيرة، على نحو أربك (صلاح)، الذي ازدرد لعابه، وأجاب في خفوت:
- وهل يحتاج الأمر إلى سؤال؟ إنني أعمل لحسابك بالطبع يا (حسين) بك.
تراجع (حسين) في مقعده، وهو يقول:
- ربما.
ارتبك (صلاح) أكثر، وتصور أن (حسين) قد كشف أمر تلك التقارير السرية، التي يقدمها عنه للعقيد (إبراهيم مكى)، فلاذ بالصمت التام، واستمع إلى (حسين)، وهو يتابع في صرامة:

- ولكن تحديد الموقف أمر بالغ الأهمية والخطورة يا (صلاح) فقديما نصحني شخص محنك، بأن أراهن دائما على الجواد الرابح وسأنقل هذه النصيحة إليك يا (صلاح).
ثم مال نحوه بحركة حادة، مستطردا:
- لا تراهن إلا على الجواد الرابح يا (صلاح).
كان لتلك الحركة المسرحية تأثيرها الواضح، فقد تراجع (صلاح) في حركة حادة، ثم ازدرد لعابه مرة أخرى، وقال:
- بم تأمرني يا (حسين) بك؟
تراجع (حسين) في مقعده، وأطلت من عينيه نظرة ظافرة، وهو يقول:
- سأسافر بعد ساعات إلى (باريس).
قال (صلاح) بسرعة:
- سفرا موفقا وعودا حميدا بإذن الله يا (حسين) بك
تجاهل (حسين) هذا القول تماما، وتابع في حزم:
- وأنا واثق من أن (إبراهيم مكي) يدبر لي أمرا ما، ولكنني أجهل طبيعة هذا الأمر بالتحديد..
وعاد يميل نحو (صلاح) بغتة، مستطردا:
- وهذه مهمتك..
تطلع إليه (صلاح) لحظة في دهشة، قبل أن يقول
- هل تطلب مني مراقبة (إبراهيم مكى)؟
شبك (حسين) أصابع كفيه أمامه، وهو يقول في حزم:
- كل ما أريده هو أن أعرف ما يدبره لي (إبراهيم مكى)، فهل يمكنك هذا، بأية وسيلة كانت؟
صمت (صلاح) طويلا، وهو يدرس هذا الموقف المعقد في ذهنه.. إنه يعمل بالفعل لحساب (إبراهيم مكى)؛ لمراقبة (حسين البنهاوي)، فكيف يمكنه أن يلعب اللعبة نفسها، في الاتجاه

العكسي؟!
ولم يستغرق عقله طويلا، ليتخذ قراره في هذا الشأن
وفي حسم، أجاب:
- أنا رهن إشارتك يا (حسين) بك ارتسمت ابتسامة ظافرة على شفتي (حسين)، وهو يقول:
عظيم.. في هذه الحالة
قبل أن يتم عبارته، قاطعة رنين هاتفه الخاص، فأشار إلى (صلاح) بالانتظار، والتقط سماعة الهاتف، قائلا:
- ماذا هناك؟
أتاه صوت حارس أمن البوابة، وهو يقول:
- هنا زائر يصر على مقابلتك يا (حسين) بك!
عقد (حسين) حاجبيه، وهو يقول في صرامة:
- زائر؟! ألا تعلم يا رجل أنه من المحظور استقبال أي زائر عشوائي هنا؟
قاطعة الرجل في سرعة:
- إنه شقيق سيادتك، ويدعى (مفيد محمد البنهاوي).
ارتفع حاجبا (حسين) في دهشة بالغة، وهو يهتف:
- (مفيد)؟! وما الذي آتي به هنا؟ ثم سيطر على مشاعره بسرعة، مستطردا:
. فليكن.. دعه ينتظر في استراحة المدنيين، وسأهبط إليه فورا.
ثم أعاد الساعة إلى موضعها، وهو يقول لـ (صلاح):
- عد إلى مكتبك الأن يا (صلاح)، واستعد لتوصلني بسيارتك إلى المطار، فلم ينته حديثنا بعد.
أسرع (صلاح) ينصرف، وهو يقول بأسلوبه المنافق:-
كما تأمر يا (حسين) بك.. كما تأمر.

تركه (حسين) يغادر المكتب، والتقط سترته، وهو يتساءل في أعماقه:
لماذا يقوم (مفيد) بزيارته في مقر عمله؟ لماذا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- من أجل (جودة)...
نطق (مفيد) بهذا الجواب في شيء من الغضب، جعل (حسين) يقول في صرامة:
- وماذا تريد من ذلك الحقير؟ هل عاودتك الرغبة في تدخين تلك السموم؟
قال (مفيد) في حدة:
- لا شأن للسموم بهذا.. إنني أتحدث عن حقه كمواطن
ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي (حسين)، وهو يقول:
- حقه؟!
ثم ربت على كتف (مفيد)، مستطردا:
- اسمع يا (مفيد).. دعك من (جودة) ومشكلاته، فهو يستحق كل ما يواجهه الان، واستمع إلى جيدا.. لقد حصلت لك على عمل ممتاز.. لقد تم تعيينك بالفعل كمدرس في مدرسة (طنطا) الثانوية للبنات.
قال (مفيد) في دهشة
- مدرس؟! أجابه (حسين) في حزم:
- نعم.. إنها أفضل وظيفة تناسبك، ولقد حصلت عليها بموافقة الوزير نفسه، والمفترض أن تتسلم عملك صباح الغد.
قال (مفيد):
- وماذا عن (جودة)؟

أجابه (حسين) في صرامة:
قلت لك دعك منه
هتف (مفيد) محنقا:
- ولكنه مواطن مصري، وله كل الحقوق والواجبات، التي يتمتع بها أي مواطن، حتى ولو كان أحد تجار المخدرات، و.
قاطعه (حسين) في صرامة:
- لا شأن للمخدرات بإلقاء القبض على (جودة) هذا
قال (مفيد) في حدة:
- لا يمكنكم إلقاء القبض على مواطن، بدون تهمة محددة.
ارتسمت ابتسامة واثقة على شفتي (حسين)، وهو يقول:
- بالطبع.. لقد ألقينا القبض على (جودة) بتهمة محددة.
سأله (مفيد):
- وما هي؟
صمت (حسين) لحظة، قبل أن يجيب في صرامة:
- محاولة قلب نظام الحكم
واتسعت عينا (مفيد) في ذعر ودهشة إنه لم يكن يتصور أن الصورة بهذه القتامة.. لم يكن يتصور هذا أبدا وبكل وضوح، ارتسمت أمارات الامتعاض والمرارة على وجهه.. في حين قال (حسين):
- ولكنني أعدك بدراسة موقفه مرة أخرى، بعد عودتي من (باريس).
سأله (مفيد) في خفوت، وكأنما انكسر كل حماسه في أعماقه
- أهذا وعد؟
أومأ (حسين) برأسه إيجابا، وهو يقول:
- نعم يا (مفيد).. هذا وعد.

نطقها بكل حزم وحسم وثقة، لأنه كان صادقا في وعده، وفي إعادة النظر في موقف (جودة)، ولكن..
عند عودته من (باريس)..
المشكلة الوحيدة هي أنه لم يكن يدري ما الذي ينتظره في العاصمة الفرنسية..
لم يكن يدري
قط!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

79- باريس..

- (حسين).. (حسين)...

لوحت (عايدة) بيدها في حرارة، عندما لاح لها وجه (حسين)، من بين وجوه الركاب، الذين وصلوا على متن الطائرة القادمة من (القاهرة)، ولمحها هذا الأخير، وهي تقف بين المستقبلين بفتنتها وسحرها، في ثوب أحمر، تألق فوق جسدها على نحو عجيب، وتناغم في أناقة مع بشرتها الوردية، وطلاء شفتيها اللامع، فاتجه نحوها مباشرة، وقال وهو يصافحها:

- تبدين في صحة جيدة يا (عايدة).

ضحكت في خبث، وهي تقول:

- هذا أمر طبيعى، فأنا أعيش حياتي بالطول والعرض كما يقولون.

تطلع إليها في دهشة، وسار إلى جوارها، إلى خارج المطار وهو يسأل:

- أنت مرحة أيضا.. عجبًا... برقيتك أشارت إلى أنك تواجهين مشكلة.

قادته إلى سيارتها، قائلة:

- مشكلة؟! لست أذكر قط أنني أشرت إلى أية مشكلات.. كل ما قلته هو أنني في أمس الحاجة إليك، وأن الأمر هام للغاية.

توقف أمام السيارة، وهو يقول في حدة:

- هل سنبدأ في اللعب بالكلمات الآن؟ ما الذي تعنيه برقيتك لو أنها لا تشير إلى مواجهتك لمشكلة ما؟

هزت كتفيها، قائلة:

- ربما تشير إلى أمر آخر

سألها في غضب:

- مثل ماذا؟
مالت على أذنيه، اللتين احستا بأنفاسها الحارة، قبل أن تهمس في اغراء:
- صفقة مثلا
تطلع إليها في دهشة مستنكرة، قبل أن يقول في حدة:
- وما شأني أنا بالصفقات؟! هل أخبرتك يوما أنني رجل أعمال؟
ضحكت، وهي تقول:
- أنا واثقة من أن هذه الصفقة بالذات ستروق لك
هتف محنقا:
- (عايدة).. لست أحب أسلوب الغموض والأسرار هذا
رفعت حاجبيها في دهشة مصطنعة، وهتفت في سخرية:
- أنت لا تحب الغموض والأسرار؟! كيف هذا يا حبيب القلب، وكل عملك يرتبط بالغموض والأسرار؟
احتقن وجهه وصاح بها في سخط غاضب:
- هل أرسلت أي طلبي، لتسخري مني على هذا النحو؟
- أنا؟! أنا أسخر منك.. فليقطع لسانى قبل أن أفعل يا حبيبي.
وعادت تميل نحوه، لتطبع قبلة على وجنته، قبل أن تمنحه واحدة من أكثر ابتساماتها عذوبة، وهي تستطرد:
- هيا.. سنذهب إلى متجري أولا، وهناك ستفهم كل شيء.
ثم تلفتت حولها، هاتفة:
- ألم تحضر سوى حقيبة واحدة؟
أجابها في صرامة:
- هذا أفضل، ففقد حقيبة واحدة أهون من فقد ثلاث حقائب
أطلقت ضحكة منتشيه عجيبة، وهي تقفز إلى مقعد القيادة، قائلة:
- أما زلت تذكر هذا؟

دفع حقيبته في المقعد الخلفي، ثم جلس على المقعد المجاور لها، فانطلقت بالسيارة على الفور، وهى تسأله:
- كيف كانت رحلتك هذه المرة؟
أجابها في اقتضاب:
- جيدة. لم يكن شعوره بالحذر قد فارقه بعد، مع تساؤله عما دفع عايدة) لإحضاره إلى (باريس) على هذا النحو..
وعاوده ذلك القلق المبهم، مع الابتسامة الظافرة المنتشية، التي ارتسمت على شفتيها الجميلتين، والتي بدت له أشبه بابتسامة ثعلب، عثر أخيرا على ثغرة مثالية، يمكن أن تقوده إلى قلب حظيرة دجاج منيعة.
ومع حيرته وقلقه وتساؤلاته، لم يتبادل معها كلمة واحدة إضافية، طول الطريق من المطار إلى متجرها الأنيق، الذي توقفت أمامه، وهي تضحك قائلة:
- هل ستظل صامتا إلى الأبد؟
قال، وهو يغادر السيارة، ويقف أمام المتجر:
- لم أجد بعد ما يستحق القول.
شعرت بالحنق لإجابته المفتقرة إلى اللياقة، ولكنها كظمت غيظها، وأشارت إلى المتجر قائلة:
- لا بأس.. من المؤكد أنك ستجد الكثير لتقوله في الداخل.
تبعها إلى داخل المتجر، واستقبلتهما البائعات الباريسيات فيه بحرارة، فالتفتت (عايدة) إلى إحداهن، وسألتها في صرامة:
- هل وصل مسيو (روبير)؟
أشارت العاملة بيدها، قائلة:
- نعم يا سيدتي.. إنه ينتظر في حجرة العرض كما طلبت
تألقت عينا (عايدة) ببريق ظافر عجيب، وهي تقول:
- عظيم.

ثم اتجهت إلى حجرة خلفية، وهي تقول لـ (حسين):
- استعد يا حبي، فستبدأ الصفقة الأن.
لم يفهم (حسين) ما تعنيه، حتى دلف خلفها إلى الحجرة، ووقع بصره على ذلك الرجل الطويل النحيل الأصلع، ذي اللحية القصيرة والشارب الرفيع، الذي نهض لاستقبالها بابتسامة كبيرة منافقة وهو يقول:
- مرحبًا يا أميرة (باريس)، وأهلا بك يا أستاذ (حسين).. يسعدني كثيرا أن نلتقي.
وتجمد (حسين) في مكانه، واتسعت عيناه في شدة، وهو يحدق في وجه الرجل، الذي يلتقي به لأول مرة، ولكنه يحفظ صورته عن ظهر قلب، من خلال عمله.
وعندما من الرجل يده نحوه، كان من العسير أن يصافحه بهذه البساطة؛ فهو يعلم جيدا أن ذلك الأصلع الواقف أمامه، هو أحد أخطر ضباط المخابرات..
المخابرات الإسرائيلية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكد (مفيد) يهبط من سيارة الأجرة، التي أقلته إلى (طنطا)، حتى راح قلبه يخفق في شدة، وانطلقت عيناه تلتهمان المكان في لهفة عجيبة، لم يفسدها سوى ذلك الألم في قلبه، وتلك الغصة في حلقه..
لقد استعاد عقله وقلبه ذكريات سابقة، كانت لها أكبر الاثر في حياته..
وبسرعة، أزاح هذه الذكريات جانبا، وحاول أن يطرحها خلف ظهره، وهو يسير في خطوات سريعة، متجها إلى مدرسة (طنطا) الثانوية، التي استخدم شقيقه سلطاته، ليمنحه وظيفة مدرس فيها..

ولكن ذكرياته عادت تلح عليه في عناد..
وفي أعماقه، ارتسمت صورة لفتاة رقيقة، ذات جمال هادئ وابتسامة عذبة..
صورة (سوسن).. واختلج قلبه في عنف.. كيف لم ينتبه إلى كل هذا الحب، الذي يحمله لها في أعماقه؟! بل في كيانه كله؟ كيف لم يشعر به إلا بعد أن خسره؟!
انتابه ندم عنيف، وهو يستعيد ذكرى تلك الأيام، وذكرى آخر لقاء له مع (سوسن)، و.
وفجأة، أفاق من ذكرياته، وهو يقف أمام باب المدرسة، والبواب يسأله في شك ممزوج بحدة صارمة:
- ماذا تريد يا أستاذ؟
لم يدر لماذا شعر بالارتباك، أمام هذا السؤال، فازدرد لعابه، وهو يغمغم:
- أريد.. أريد مقابلة ناظرة المدرسة
سأله البواب بلهجة هجومية:
- لماذا؟ أأنت قريب لإحدى الطالبات هنا؟
انخفض صوت (مفيد) أكثر، وهو يجيب:
- بل أنا المدرس الجديد.
حدق البواب فيه باستنكار، وهو يتساءل عما يفعله الحمقى في الوزارة، الذين يرسلون شابا وسيما كهذا، للعمل كمدرس في مدرسة بنات، تجمع فتيات في عمر الزهور..
ولكنه لم يكن يملك سوى ذلك الاستنكار، الذي لم يتجاوز أعماقه، وهو يفتح البوابة، ويشير بيده في شيء من السخط، قائلا:
- ثالث حجرة إلى اليمين.
عبر (مفيد) البوابة، واتجه في خطوات سريعة إلى حجرة الناظرة، ودق بابها في رفق، وأنتظر حتى سمع صوتها يدعوه للدخول،

فدفع الباب في هدوء، ودلف إلى الحجرة، وهو يقول:
- صباح الخير.. أنا (مفيد).. (مفيد البنهاوي) نطقها في شيء من الارتباك، وهو ينقل بصره بين وجه ناظرة المدرسة، التي تجلس خلف مكتبها، ووجه حسناء فاتنة، تقف أمام المكتب، وتتطلع إليه بدورها في فضول واضح..
وجذبه وجه هذه الحسناء منذ اللحظة الأولى..
كانت في أوائل العشرينيات من عمرها، متوسطة الطول، بيضاء البشرة، لها عينان واسعتان، في لون سماء يوم صحو، تطل منهما ابتسامة مرحة، تشبه تلك المرتسمة على شفتيها الصغيرتين الجميلتين، اللتين تشبهان ثمرتي فراولة ناضجتين، وترتسمان في أناقة، أسفل أنف دقيق، ووسط وجه بيضاوي متناسق، يحيط به شعر كستنائي ناعم قصير، منحها مظهرا أشبه بنجمات السينما..
أما ثوبها فكان أنيقا، على الرغم من بساطته وقماشه الرخيص..
ولثوان، تعلقت عينا (مفيد) بوجه تلك الحسناء، في انبهار واضح، استوعبته هي على الفور، فتسلل إلى ابتسامتها مزيج من الثقة والزهو الظافر، في نفس اللحظة التي هبت فيها الناظرة من خلف مكتبها، وهي تهتف في حرارة:
- (مفيد البنهاوي).. (مفيد محمد البنهاوي).. أهلا.. أهلا يا (مفيد) بك.. تفضل.
بدت الدهشة على وجه الحسناء، وارتفع حاجباها الجميلان، وهي تتساءل عن سر هذا الاهتمام المبالغ، في حين استقبل (مفيد) الأمر بشكل طبيعي، وكأنه كان يتوقعه، وغمغم:
أنا المدرس الجديد
أجابته الناظرة، وهي تصافحه في حرارة:
- نعم.. نعم.. أعلم هذا.. لقد أبلغوني أنك قادم إلينا.. أهلا بك في المدرسة.

في هذه المرة، انعقد حاجبا الحسناء، وتضاعفت دهشتها وتصاعدت نبرة التساؤل في أعماقها.
مدرس جديد؟!
ومنذ متى تستقبل الناظرة المدرسين الجدد، بكل هذا الحماس؟!
وبدأ فضولها يتحول إلى اهتمام شديد، وهي تتابع ما يحدث والناظرة تقول بابتسامة منافقة كبيرة:
- متى تحب أن تتسلم عملك يا (مفيد) بك؟ أجابها في شيء من الخجل:
- غدا لو أمكن
قالت في حماس:
- بالطبع.. يمكنك أن تتسلم عملك غدا، ما دمت تريد هذا يا (مفيد) بك.
غمغم في شيء من الارتباك:
- معذرة يا سيدتي، ولكنني أفضل لقب الأستاذ، أو السيد
احتقن وجه الناظرة، وهي تقول:
- آه.. فليكن يا (مفيد) بك.. أعني يا أستاذ (مفيد).. هذا أفضل.
ثم التفتت إلى الحسناء، واستطردت في شيء من الحدة، وكأنها تفرغ فيها توتر الموقف كله:
- عودي إلى فصلك يا آنسة (جيهان).. سأبحث مشكلتك فيما بعد.
وخفق قلب (مفيد). اسمها (جيهان) إذن.. يا له من اسم جميل...
اسم يتناسب مع جمالها وفتنتها، اللذين خلبا لبه، منذ وقعت عيناه عليها..
ومرة أخرى، اختلج قلبه في عنف، عندما أدارت تلك الفاتنة عينيها الساحرتين إليه، بابتسامتها المرحة، وهي تقول للناظرة:
- فليكن.. سنؤجل الأمر كله لما بعد.
قالتها، وكأنها تخاطبه هو، أو ترسل إليه رسالة من طرف خفى..

رسالة تقول: إنه سيكون لها شأن كبير في حياته..
كبير جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتي (إبراهيم مكـى)، وهو ينهض لاستقبال (فؤاد) في مكتبه، ويصافحه في حرارة، قائلا:
- أهلا.. أهلا.. أنرت المكان كله يا (فؤاد) بك
قال (فؤاد)، والتوتر يفصح عن نفسه في صوته ولهجته:
- أشكرك يا (إبراهيم) بك، ولكنهم أرهقوني كثيرا في الواقع قبل أن أصل إلى هنا.. أسئلة، وفحص لبطاقتي الشخصية ونظرات مستريبة، و.
قاطعه (إبراهيم)، دون أن يفقد ابتسامته:
- دعني أعتذر نيابة عنهم يا (فؤاد) بك، ولكنك تعلم حساسية وضعنا، ودقة موقفنا.
همهم (فؤاد) بعبارة غير مفهومة، ولكنها تحمل نبرة مستسلمة، جعلت (إبراهيم) يدعوه إلى الجلوس، قبل أن يتراجع بمقعده، ويتطلع إليه بعينيه الخبيثتين، قائلا:
- خيرا يا (فؤاد) بك.. ما الخدمة التي يمكنني تقديمها لك؟
ازدرد (فؤاد) لعابه، وبدا عليه التردد لحظات، ظل خلالها (إبراهيم) صامتا، يراقبه بابتسامة خبيثة، حتى حسم أمره، فقال:
- أنت تعرف بالطبع مشكلة الميراث القديمة، بيني وبين (حسين البنهاوي).
أومأ (إبراهيم) برأسه إيجابا، وهو يقول:
- لدي فكرة معقولة عنها.
استجمع (فؤاد) جرأته، وهو يتابع في توتر:

- إنه أمر غير قانوني، وغير شرعي أيضا، فليس من حق محمد البنهاوي) أن يمنح أرضه لواحد من أبنائه دون الآخرين. هذا يخالف قواعد الميراث الشرعي.
هز (إبراهيم) كتفيه، وقال:
- لقد منح الأرض لابنه في حياته، ولا شأن لهذا بالميراث وقواعده.
بدا الضيق على وجه (فؤاد)، وهو يقول:
- ما الذي يعنيه هذا؟
هز (إبراهيم) رأسه نفيا، وقال:
- لا شيء.. إنه مجرد تعليق عادى
ازدرد (فؤاد) لعابه مرة أخرى، قبل أن يقول:
- فليكن.. المهم أنني لم أقبل ما حدث قط، ولقد حاولت استعادة نصيب زوجتي من يد (حسين) ذات مرة، ولكن..
قاطعه (إبراهيم) في هدوء:
- ولكن (حسين) أزاح شقيقك، ومنعك من إكمال محاولتك
احتقن وجه (فؤاد)، وهو يقول:
- كانت مناورة قذرة، أنجبها عقل شيطاني، ولكنها نجحت في تجميد الموقف تماما.
كاد (إبراهيم) يطلق ضحكة ساخرة، وهو يتخيل ملامح (فؤاد)، لو علم أنه هو شخصيا كان صاحب تلك الفكرة، ولكنه ترك ضحكته تنفجر في أعماقه، وحافظ على هدوء ملامحه، وهو يتطلع إلى وجه (فؤاد)، قائلا:
- ولكن شقيقك عاد إلى مقعد السلطة الأن.
قال (فؤاد) في حدة:
- نظريا، ولكن الواقع أنه عاد خائفا حذرا، يخشى اتخاذ أية خطوة في هذا الشأن، حتى لا يُمس منصبه مرة أخرى.

مط (إبراهيم) شفتيه، وهو يقول:
- هذا أمر طبيعي.. كل أصحاب المناصب العليا يفكرون بهذا الأسلوب، ولا يخاطرون بمقاعدهم قط من أجل الآخرين، حتى...
بتر عبارته، ومال نحو (فؤاد)، مستطردا في لهجة ملؤها الخبث:
- حتى ولو كانوا أشقاءهم
تطلع (فؤاد) إلى عينيه مباشرة، وهو يقول:
- ولهذا أتيت إليك يا (إبراهيم) بك.
التقط (إبراهيم) نفسا عميقا، وشبك أصابع كفيه على سطح مكتبه، وضاقت عيناه قليلا، مع قوله:
- وما الذي يمكنني فعله يا (فؤاد) بك؟
اندفع (فؤاد)، قائلا في لهفة:
- أي شيء.
رفع (إبراهيم) حاجبيه في دهشة مصطنعة، وهو يكرر:
- أي شيء؟!
أجابه (فؤاد) في لهجة أكثر لهفة:
- نعم يا (ابراهيم) بك.. افعل أي شيء.. أي شيء تراه مناسبًا أيا كان.. المهم أن أستعيد نصيب زوجتي من أرض (البنهاوي).
صمت (إبراهيم)، وهو يتطلع إليه بنظرة خبيثة، ثم قال في هدوء:
- كما تأمر يا (فؤاد) بك.
تهللت أسارير (فؤاد)، وقفز من مقعده، وهو يندفع ليصافح (إبراهيم) في حرارة، هاتفا:
- أشكرك.. أشكرك كثيرا يا (إبراهيم) بك.. كنت أعلم أنك لن تخذلني قط.. كنت واثقا من هذا.. أنت نعم الرجل ونعم الصديق..
قاطعه (إبراهيم) فجأة:
- ولكل شيء ثمن يا (فؤاد) بك.

امتقع وجه (فؤاد)، وهوى حماسه دفعة واحدة، وهو يقول في شحوب:
- ثمن؟!
أجابه (إبراهيم):
- بالطبع يا (فؤاد) بك.. إنك تطالبني بمحاربة أحد زملائي، والدخول معه في صراعات عنيفة، قد تصيبني بعض شظاياها، وكل هذا حتى تستعيد نصيب زوجتك من الأرض، فهل تتصور أنني سأفعل هذا دون مقابل؟
هوى جسد (فؤاد) مرة أخرى على مقعده، وارتبك في شدة، وهو يقول:
- كلا.. ولكن
قاطعة (إبراهيم) بسرعة:
- ولكن ماذا يا (فؤاد) بك؟
جف حلق (فؤاد)، وخفض عينيه، وكأنه يخشى مواجهة (إبراهيم)، وظل على هذا الوضع لدقيقة كاملة أو يزيد، قبل أن يتمتم في شحوب:
- ما الذي تطلبه يا (إبراهيم) بك؟
مال (إبراهيم) نحوه، وهو يقول في حزم:
- الولاء الكامل والطاعة العمياء
رفع (فؤاد) عينيه إليه في دهشة بالغة، وهتف:
- ماذا؟!
تابع (إبراهيم بنفس الحزم:
- ستنفذ كل ما أطلبه منك، وتطيع أوامري دون مناقشة، مهما بدت لك عجيبة أو غريبة، حتى نصل إلى ما نبتغيه، وأول هذه المطالب هو أن تحسن علاقتك ب (حسين البنهاوي)
كاد (فؤاد) يثب من مقعده، وهو يصرخ:

- ماذا؟
رمقه (إبراهيم) بنظرة نارية، وهو يقول في صرامة قاسية:
- تذكر.. الطاعة العمياء دون مناقشة.
ارتجف (فؤاد)، من رأسه حتى أخمص قدميه، ولكنه لم يعترض أو يناقش هذه المرة..
لقد أدرك تماما أنه وضع يده بإرادته في جحر الثعابين، ولم يعد من حقه أن يشكو لدغتها..
ثم لماذا يشكو أو يعترض، ما دام (إبراهيم) سيحقق له ما يطلبه، وسيعاونه على تحطيم سطوة (حسين)؟!
ولم يكن يدري لحظتها أن (إبراهيم) لا يسعى لتحطيم سطوة (حسين البنهاوي) فحسب.
إنه يسعى لتحطيم (حسين) نفسه
وبلا رحمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

80- اغتيال..

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتي ضابط المخابرات الإسرائيلي الذي يطلق على نفسه اسم (روبير)، وهو يمد يده لمصافحة (حسين البنهاوي)، قائلا:

- أهلا بك في (باريس) يا (حسين) بك.. أقدم لك نفسي.. (روبير)..

قاطعه (حسين) في صرامة، وهو يتجاهل اليد الممدودة إليه:

- خطأ.. اسمك الحقيقي هو (ميخائيل بن ناثان)، من الفرقة (س ١٠٧)، في المخابرات الإسرائيلية، والمسئول عن النشاط الأوروبي، منذ شهر مارس عام ١٩٩٠ م.

اتسعت ابتسامة (ميخائيل)، وهو يعيد يده إلى جواره، قائلا

- عظيم.. أنا أيضا أحب اللعب بأوراق مكشوفة، فالمناورات لا تفيد مع المحترفين مثلنا.. أليس كذلك؟

أدار (حسين) عينيه، بحثا عن (عايدة)، ولكنها كانت قد انسحبت في خفة، وأغلقت باب الحجرة عليهما، فعاد بعينيه إلى (ميخائيل بن ناثان)، وهو يقول في حدة:

- ماذا تريد مني يا (بن ناثان)؟

أشعل (ميخائيل) سيجارته، وهو يقول مبتسما:

- بل ماذا تريد أنت منا يا (حسين) بك؟ إنني هنا بناء على طلبك..

احتقن وجه (حسين)، وهو يهتف:

- بناء على طلبي؟!

نفث (ميخائيل) دخان سيجارته، وجلس على مقعد مجاور، وهو يقول:

- بالطبع.. إننا نتحرك بسرعة، في مثل هذه الأمور.. لقد أبلغتنا الأميرة (عايدة) برغبتك في التعاون معنا، ونحن نقدر هذا كثيرا، ويمكننا استيعاب غضبك على نظام الحكم في دولتك، وسنمنحك

راتبًا ضخما بالطبع، بالدولارات الأمريكية، أو الجنيهات الاسترلينية، أو حتى الماركات الألمانية، حسبما ترغب، هذا بالإضافة إلى المكافآت، والحماية الكاملة.
قاطعه (حسين) بصرخة هادرة:
- (عايدة)؟! (عايدة) هي التي أخبرتك هذا؟
تلاشت ابتسامة (ميخائيل بن ناثان)، وهو يقول:
بالطبع.. لقد طلبت منها الاتصال بنا.. أليس كذلك؟
صاح (حسين):
- تلك الحقيرة القذرة.. ماذا تصورت، وهي تقدم على هذا التصرف الأخرق؟! هل فكرت لحظة واحدة، بأنه من الممكن أن أخون وطني، مهما كانت انتقاداتى له؟!
انعقد حاجبا (ميخائيل) في شدة، دون أن ينبس ببنت شفة، في حين واصل (حسين) صياحه في وجهه في غضب:
- كلا أيها الإسرائيلي.. (حسين البنهاوي) لا يخون وطنه قط، ولو أعطيتموه أموال الدنيا كلها.. والان أخرج من هنا، قبل أن أخنقك بيدي، وأدفنك وسط أكوام الثياب القديمة، وسأعرف كيف أؤدب تلك الأميرة المغرورة الفاسقة على ما فعلته.
نهض (ميخائيل) في حدة، وهو يقول:
- أتعني أنك لم تطلب منها الاتصال بنا؟
صاح (حسين):
- مطلقا.. لم ولن أفعل هذا قط.. هل تفهم أيها الحقير.. لن أفكر لحظة واحدة في خيانة وطني.
أطفأ (ميخائيل) سيجارته في عصبية، وهو يقول:
- فليكن.. يمكننا أن نعتبره سوء تفاهم وليس أكثر.
ثم اندفع يغادر المكان في حدة، تاركا (حسين) خلفه، يقول في غضب:

- تلك الحقيرة القذرة.. لماذا فعلت هذا؟ لماذا أقدمت على هذا التصرف الغبي؟
واندفع بدوره يغادر المكان، وهو يسأل إحدى الموظفات في غضب:
- أين الأميرة (عايدة)؟
أجابته الفتاة في خوف، وهي تتطلع إلى ملامحه الغاضبة الثائرة:
- في الخارج.. إنها تستعد للانصراف بسيارتها.
وثب إلى الخارج، ورآها تدير محرك السيارة بالفعل، فانقض عليها، وانتزع مفتاح السيارة من مكانه، وهو يصرخ:
- إلى أين أيتها الحقيرة.
انكمشت في مقعدها، هاتفة:
- إياك أن تمس شعرة واحدة مني.. القوانين هنا عنيفة للغاية ضد المعتدين.
سألها في غضب:
- لماذا فعلت هذا؟
قالت في عصبية، وهي تبحث في حقيبتها عن علبة سجائرها
- أنت تستحق هذا.. لقد أهنتني، وكان من الضروري أن أنتقم.
كاد ينفجر غضبا وغيظا، وهو يقول:
. تنتقمين مني؟! ألم تفكري مرة واحدة في مغبة ما أقدمت عليه؟ هل تصورت أنك تستطيعين العبث في عالمنا، دون ان تحرقك نيرانه؟! أمن أجل فكرة سخيفة حمقاء، صنعت هذا الموقف الغبي؟!
أشعلت سيجارتها في عصبية، وهي تقول:
- لن يحدث شيء.. أنت تبالغ فحسب.. ثم إنني لم أفعل كل هذا لتلتقي بالإسرائيلي لحظات فقط.. لقد فعلته لامتلاك سلاحا ضدك، يمنعك من إهانتي في المستقبل.

تراجع، هاتفا في حدة:
- سلاح؟! أي سلاح هذا؟
فتحت شفتيها، لتنطق شيئا ما، ولكن عينيها اتسعتا بغتة في ارتياع، وصرخت في رعب هائل:
- احترس يا (حسين).
وقبل أن تكتمل صرختها، ارتفع هدير دراجة بخارية تخترق الطريق، مع دوى رصاصات عديدة، شعر (حسين) ببعضها يخترق ظهره، ورأي بقعة دم كبيرة تلوث ثوب (عايدة)، قبل أن تظلم الدنيا أمام عينيه، ويرتطم بجسم السيارة في عنف..
وقبل أن يسقط جسده أرضا، اندفع رجلان نحو السيارة، وتلقى أحدهما (حسين) بين ذراعيه، ثم فتح باب السيارة الخلفي، ودفعه داخله، ثم قفز خلفه، في نفس اللحظة التي أزاح فيها زميله (عايدة) من أمام عجلة القيادة، واحتل موقعها، ثم انطلق بالسيارة بأقصى سرعة، قبل أن يظهر رجال الشرطة.
ومن بعيد، أشعل رجل أصلع نحيل سيجارته، وهو يبتسم في سخرية ظافرة..

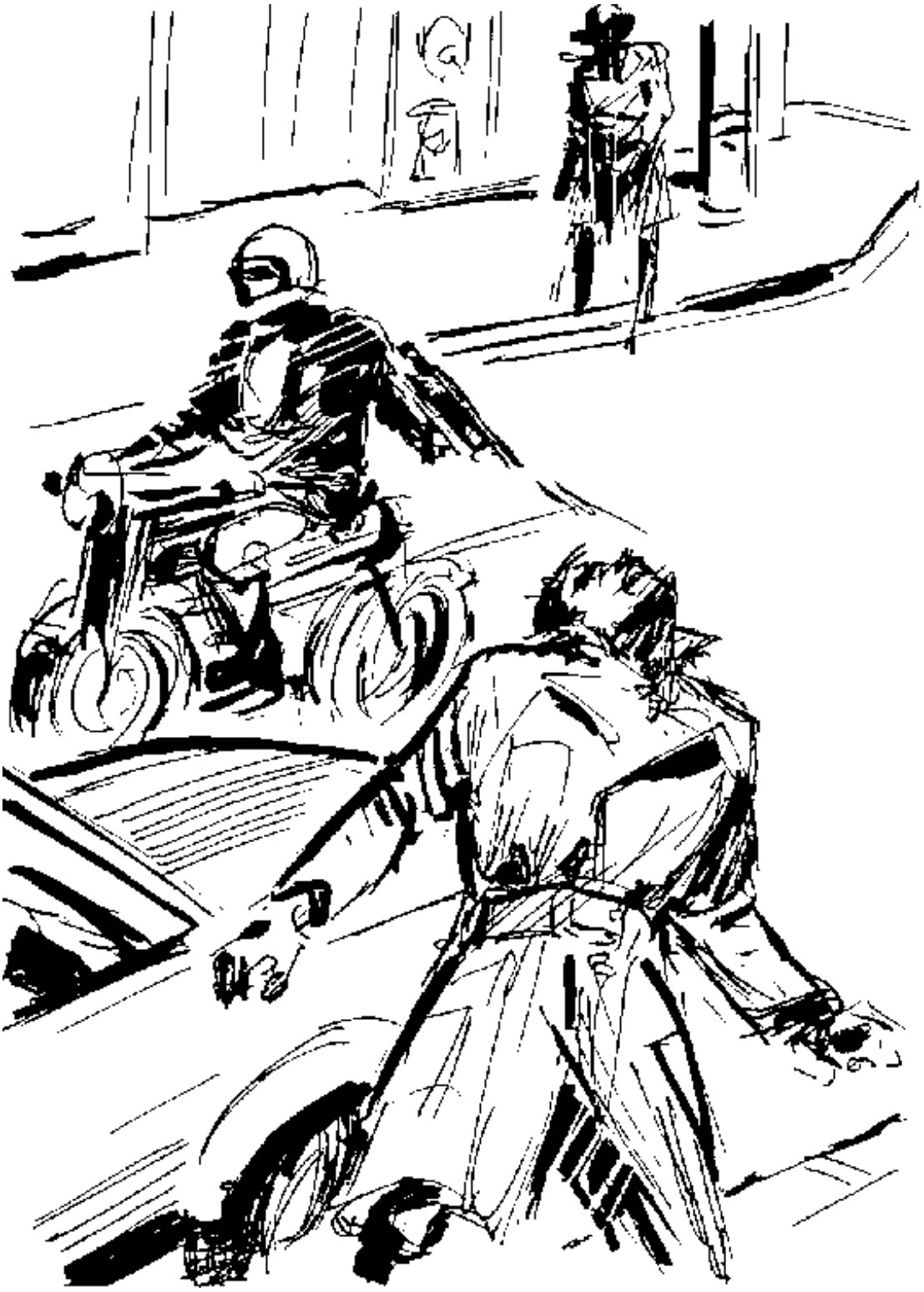

وكان هذا الرجل هو (ميخائيل).. ميخائيل بن ناثان).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أستاذ (مفيد).. أستاذ (مفيد)...؟

توقف (مفيد) أمام حجرة المدرسين، واستدار يتطلع في لهفة إلى (جيهان)، التي منحته ابتسامة عذبة ساحرة، وهي تقترب منه،

قائلة:
- أردت أن أهنئك باستلام العمل.. أهلا بك في المدرسة
تطلع إلى وجهها الفاتن في انبهار، قبل أن يغمغم:
- أشكرك يا آنسة (جيهان).. أشكرك كثيرا.
ضحكت في ثقة، بعد أن رأت تأثيرها عليه، وقالت:
- هل تعلم أنك المدرس الشاب الوحيد هنا؟ كل الباقين تجاوزوا الخمسين من عمرهم، والتسعين بعقولهم المغلقة، وتقاليدهم العتيقة.
قال بلهجة مهذبة
- من المؤكد أنهم نوابغ في عملهم.
ضحكت مرة أخرى، قبل أن تقول:
- بالطبع.. بالطبع.
ثم مالت نحوه، وتركته يشم رائحة عطرها الجديد، وهي تسأله:
- ولكن قل لي: ما سر ذلك الاستقبال الحار، الذي منحتك إياه ناظرة المدرسة؟
هز كتفيه، قائلا:
- إنها سيدة فاضلة طيبة القلب، و.
قاطعته ضحكتها هذه المرة، فخفق قلبه بشدة، وهي تقول:
- الناظرة طيبة القلب؟! يبدو أننا لا نتحدث عن الشخص نفسه بالتأكيد، فالناظرة التي نعرفها غليظة، صارمة، لا تتغاضى عن أي خطأ، ولا ترحم قط.
ابتسم قائلا: - من الواضح أن فكرتك عنها قاسية للغاية .. تطلعت إليه بعينيها الجميلتين، قائلة في همس مثير: - من حقك ألا تصدق هذا، فتعاملها معك يختلف كثيرا.
ازدرد لعابه في صعوبة، وخيل إليه أن حلقه أكثر جفافا من الصحراء الغربية كلها، وهي تميل نحوه أكثر، وتهمس:
. ولكن لماذا؟ ما الذي يميزك عنا؟

أجاب دون وعى:
- أخي.
تراجعت في دهشة، هاتفة:
- أخوك؟!
شعر بالضيق لأنه طرح مثل هذا الأمر، وعلى الرغم من هذا فقد تابع في خفوت:
- نعم، فأخي يحتل منصبًا رفيعا، وله اتصالات عديدة بذوي النفوذ، وهو الذي حصل لي على هذه الوظيفة.
رفعت أحد حاجبيها، وهي ترمقه بنظرة غريبة، قائلة:
كانت تهم بإلقاء سؤال آخر، عندما لاحظت فجأة ذلك الشحوب الذي اعتراه، وهو يحدق في الحجرة المقابلة، عبر الممر الطويل، فاستدارت في سرعة، لتتطلع إلى ما أثار توتره إلى هذا الحد، ووقع بصرها على واحدة من زميلاتها، وهي تقف شاحبة بدورها، عند باب حجرة المدرسات، وتبادل (مفيد) نفس النظرة العصبية الذاهلة..
وفي فضول، تساءلت (جيهان) عن السر، الذي يربط زميلتها بذلك القادم الجديد، ولكن استنتاج الأمر كان عسيرا للغاية، فهى لا تعرف عن تلك الزميلة سوى اسمها..
(سوسن).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطلقت (شريفة البنهاوي) زفرة حارة، قبل أن تصرخ في حنق:
- (فاطمة).. أنت أيتها الغبية.. أين أنت؟
برزت (فاطمة) من المطبخ، وهي تقول في لهجة ظاهرها الاحترام، وباطنها السخرية والتهكم:

- أنا هنا يا سيدة الدار، أعد الطعام الذي ستتناولونه جميعا، أم أنك نسيت أن أختك المحروسة (نعيمة) ستتناول طعام الغداء معنا، هي وابنتها ست الحسن (نادرة)؟
صاحت بها (شريفة) في غضب:
- لا.. لم أنس يأبنه (عبد الحميد)، فـ (نعيمة) هذه سيدتك وتاج رأسك، والسراى سراى والدها، وستتناول طعامها فيه في أي وقت تشاء، هي وكل البنهاوية.
مسحت (فاطمة) يديها في منشفة قذرة، وهي تقول:
- صدقت يا سيدة الدار.. كل البنهاوية لهم الحق في هذا السراي، وعلى رأسهم زوجى (حافظ).
أطلقت (شريفة) ضحكة ساخرة عصبية، قبل أن تقول:
- (حافظ).. يا فرحتي.. زوج الخيبة والندامة
هتفت (فاطمة) بخشونتها الفظة:
- (حافظ) سيد الرجال
قهقهت (شريفة) ساخرة، وقالت:
- سيد الرجال.. صدقت يأبنه (عبد الحميد).. (حافظ) الضعيف المتخاذل هو سيد الرجال.. يا للروعة!
انغرست سخرية (شريفة) في قلب (فاطمة) كخنجر حاد مسموم، ومزقته في قسوة، فانخفض صوتها مع عينيها، وهي تتمتم:
- إنه في رأيي سيد الرجال
ضحكت (شريفة) ساخرة مرة أخرى، وهي تقول:
أمر طبيعى، فلكل حبة فول فاسدة كيال أعمى .. مرة أخرى، مزقت سخريتها نفس (فاطمة)، فأشاحت بوجهها وحاولت أن تدير دفة الحديث بعيدا، وهي تقول:
- فليكن.. ما الذي كنت تصيحين من أجله أشارت (شريفة) إلى أحد مقاعد حجرة الضيوف، وهي تصيح:

- المحروس ابنك أتلف غطاء المقعد.
قالت (فاطمة) في ضيق
- لا بأس.. سأصلحه بعد أن أنتهي من طهي الطعام صاحت بها (شريفة):
- وحذري ابنك من العبث بأثاث المنزل، وإلا كسرت رقبته وفي المرة القادمة لن أرحمه.. هل تفهمين؟
وجدتها (فاطمة) فرصة لرد الصاع صاعين، فقالت متشفية:
- هذا أمر طبيعى، فمن كانت مثلك لا تطيق رؤية ابن أخرى
امتقع وجه (شريفة)، وهي تقول:
- ماذا تعنين أيتها العقربة؟ ماذا تقصدين بتلميحك هذا؟
لوحت (فاطمة) بيدها، قائلة في تهكم مستتر:
- لست أقصد شيئا يا.. يا آنسة (شريفة).
قالتها، وأدركت أن سهمها قد أصاب هدفه بمنتهى الدقة، وأدى الغرض المقصود منه تماما، عندما شحب وجه (شريفة) لحظات، ثم احتقن في شدة، وهي تصرخ:
- أيتها الـ.. الـ..
لم تستطع إكمال عبارتها، مع تلك الغصة التي اختنق بها حلقها فتجمعت الدموع في مقلتيها، واختنقت الكلمات في أعماقها.. مع تلك الابتسامة الساخرة، التي ارتسمت على شفتي (فاطمة)، وامتزجت بنظرتها الشامتة، وهي تعود إلى المطبخ.
ومع اختفاء (فاطمة)، تركت (شريفة) لدموعها العنان، وصدرها يكاد يطبق عليها من المرارة والسخط والألم.
لقد كانت (فاطمة) على حق إنها تبغض (طارق)؛ لأنه يذكرها بأنها لم تتزوج بعد..
وخاصة إنها العانس الوحيدة، في عائلة (البنهاوي).. ويا لها من مرارة ا.

إنها تبكي طويلا كل ليلة في حجرتها، عندما تفكر في أنها وحيدة، في حين أن الباقيات حتى (فاطمة)، يأتنسن بأزواجهن طوال الوقت..

(نعيمة) نفسها لم تحتمل وحدتها، على الرغم من زواج (عمر) من ابنة (شاهين الحبروك)، وسعت إليه ليردها إلى قلبه، بعد أن أجبره (حسين) على ردها إلى عصمته..

و (توحيده) تعيش في سعادة وهناء، مع زوجها (عبد الحكيم) وأبنائها منه..

و (ناهد).. (ناهد) بالذات تعيد إليها شعورا بالمرارة، لم يفارق نفسها قط.

إنها لم تنس أبدا أن (فؤاد) أتي إلى السراى خصيصا ليتزوجها هي، ولكنه لم يكد يرى (ناهد)، حتى تراجع عن طلب يدها، وألقى نفسه في لهفة تحت قدمى شقيقتها، التي لم تلبث أن أصبحت زوجته، وأم أبنائه الثلاثة..

- يا ربى.. ماذا بك يا (شريفة)؟

انتزعها هتاف (نعيمة) من أفكارها، ورأتها تندفع نحوها، وخلفها أبنتها (نادرة)، وهي تواصل هتافها الملتاع:

- لماذا تبكين؟ هل أساءت إليك أبنة (عبد الحميد) الملعونة؟ لوحت (شريفة) بيدها، وهي تقول:

- هذا يحدث دائما.. لقد اعتدته تقريبا.

صاحت (نعيمة) في غضب:

- يا للحقيرة! من تتصور نفسها ابنة الملاعين هذه.. أقسم بالله أن ألقنها درسا لا تنساه أبدا، هي وابنها الغبي.

قالت، واندفعت نحو المطبخ، الذي خرجت منه (فاطمة)، وهي تصبح بخشونتها وفظاظتها:

- أي درس هذا يا ابنة الأسياد؟ إياك أن تطاوعك نفسك على مس شعرة واحدة من رأس ابني أو من رأسي.
صاحت (نعيمة):
- الله.. الله.. ابنة (عبد الحميد) العلاف، نبت لها لسان
زمجرت (فاطمة)، وهي تقول:
- نعم.. نبت لي لسان طويل يا سنيورة.. هل ترغبين في تجربته؟
ضربت (نعيمة) كفيها ببعضهما، وأبعدتهما هاتفة:
- بل أنت التي ستجربين التأديب والتهذيب على أصولهما، عندما يعود (حسين)، أم أنك نسيت ما فعله بك قديما؟
انقبض قلب (فاطمة)، وهي تستعيد تلك الذكريات المؤلمة، وانخفض صوتها، وهي تهمهم بعبارة مبهمة، فصاحت بها (نعيمة) في ظفر:
- أرأيت يأبنه الحقراء.. لا أحد ينسى أبدا ما يفعله شقيقى (حسين)، ولا ما...
قاطعها بغتة صوت شخص يتنحنح، فالتفتت إلى باب السراي في دهشة، ووقع بصرها على (صلاح) بقامته القصيرة ورأسه الأصلع، وتعرفته (شريفة) على الفور، فهتفت في قلق:
- (صلاح) بك؟! أهلا بك.. تفضل.. ترى ما سر هذه الزيارة المفاجئة؟
تنحنح (صلاح) مرة أخرى، وقال:
- معذرة يا سيدتي، ولكنني هنا من أجل (حسين) بك. أجابته (نعيمة) في قلق:
- (حسين) ليس هنا.. إنه مسافر إلى (فرنسا)، وربما يعود غدا أو بعد غد.
خفض (صلاح) عينيه، وهو يقول:

- هذا ما أتيت من أجله يا سيدتي، فـ (حسين) بك لن يعود من (فرنسا) غدا أو بعد غد، و.
وانخفض صوته أكثر، مع استطرادته:
- ولن يعود أبدا.
ولم يكن الأمر يحتاج إلى توضيح أكثر؛ لذا فقد صرخت (نعيمة):
- (حسين).. أخي (حسين)
وأطلقت (شريفة) صرخة مدوية، ارتجت لها السراي كلها ووسط كل هذا، انطلقت زغرودة صامتة في الأعماق..
أعماق (فاطمة)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

81- ودارت الدنيا..

سرت نشوة عجيبة في جسد (مراد صقر)، وهو يتطلع إلى وجه (إبراهيم مكـى)، قائلا في لهفة، لم يحاول كتمانها هذه المرة:

- وكيف حدث هذا؟ إنه لم يذهب إلى (باريس) في عملية رسمية هذه المرة، فلماذا تغتاله المخابرات الإسرائيلية؟!

أجابه (إبراهيم بابتسامته الخبيثة:

- من الواضح أن للأمر علاقة باتصالات (عايدة) بالإسرائيليين فالرجل الذي أرسلناه لمراقبة (حسين)، قال في تقريره: إن (حسين) تشاجر مع (عايدة) أمام متجرها، بعد انصراف (ميخائيل بن ناثان)، وكان من الواضح أنه غاضب وثائر للغاية، قبيل اغتياله بلحظات.

تنهد (مراد)، وقال:

- عظيم.. هذا يضع نهاية للصراع، ويحسم معركتنا مع (حسين البنهاوي).. قل لي: متى يصل جثمانه من (باريس)؟

قال (إبراهيم)، وهو يراقب انفعالات رئيسه جيدا - لا يمكننا تحديد هذا الأن يا سيدى.

قال (مراد) في مزيج من الدهشة والصرامة:

- ماذا تعني؟ ألم تتخذوا الإجراءات اللازمة في هذا الشأن بعد؟

هز (إبراهيم) رأسه، وقال:

- ليست هذه هي المشكلة يا سيدى.

قال (مراد) في حدة

- ما المشكلة إذن؟

شد (إبراهيم) قامته، وهو يقول:

- المشكلة هو أنه ليس لدينا أي جثمان.

تراجع (مراد صقر) بمقعده، وحملت عيناه نظرة تساؤل، جعلت (إبراهيم) يتابع في سرعة:
- لقد اغتال الإسرائيليون (حسين)، ثم اختطفوا جثته مع جثة الأميرة (عايدة)، في سيارة هذه الأخيرة، واختفوا في قلب (باريس)، ولم يمكنا التوصل إليهم قط.
انعقد حاجبا (مراد صقر) في شدة، عندما استمع إلى هذا القول وارتسمت على وجهه أمارات التفكير العميق لبعض الوقت، قبل أن يتمتم:
- عجبًا!!
قال (إبراهيم)، وهو يراقبه في إمعان:
- هل يدهشك هذا التصرف، مثلما أدهشني يا سيدى؟
هز (مراد) كتفيه، وهو يقول:
- بالتأكيد، فليس هذا من عادة الإسرائيليين أبدا.. لقد أطلقوا عليه النار واغتالوه بالفعل، فلماذا يختطفون جثته؟!
قال (إبراهيم) في تفكير:
- إنني أبحث عن تفسير منطقى طوال الوقت، ولم أتوصل إلا لفكرة واحدة.
اعتدل (مراد)، وسأله في اهتمام:
- وما هي؟
أشار بسبابته، قائلا:
- ربما ظن الإسرائيليون أن (حسين) يحتفظ بشيء ما معه.. وثائق سرية، أو ميكروفيلم، أو أي شيء شبيه، فقرروا خطف الجثة، لتفتيشها جيدا، قبل التخلص منها.
وزن (مراد) الأمر في رأسه، قبل أن يقول
- فكرة معقولة وصمت لحظة أخرى، ثم أضاف في حزم:

- على أية حال، سنتخذ كل الإجراءات المناسبة، في مثل هذه الظروف، بالنسبة للمعاش والمكافآت وخلافه.
سأله (إبراهيم) في خبث:
- وماذا عن عمله في رياسة الجمهورية؟
تطلع إليه (مراد) لحظة في صمت، قبل أن يقول في صرامة
- سنعرض الأمر على سيادة الرئيس، ليتخذ القرار بنفسه.
سأله (إبراهيم)، وهو يميل عليه:
- ولكننا سنطرح عليه بعض الأسماء بالطبع.
مط (مراد) شفتيه، وهز رأسه قليلا، ثم ابتسم مجيبًا في اقتضاب:
- بالطبع
وتراجع (إبراهيم) في ارتياح، بعد أن تلقي هذا الوعد غير المباشر..
الوعد بأن يحتل موقع (حسين البنهاوي)..
الراحل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (مفيد) يختنق من المرارة والألم، داخل سيارة الأجرة، التي تعود به إلى القرية..
لقد حدثت المواجهة التي يخشاها.. المواجهة بينه وبين (سوسن)..
لقد تصور حدوث هذا الأمر طويلا، ووضع له عشرات السيناريوهات في ذهنه، ولكنه جاء على نحو لم يتوقعه قط..
ويا لها من مصادفة .. (سوسن) تعمل في نفس المدرسة، التي ألحقه بها (حسين)..
إنه لم يصدق عينيه، عندما وقعتا عليها، وشعر بالبرد يسري في أوصاله، التي بدت له أشبه بقطع من الثلج، وهو يتطلع إليها، وبذل

جهدا خرافيا لينتزع قدميه من موضعهما، ويندفع نحوها في لهفة..
ولكنها لم تمنحه الفرصة ليفعل..
لقد تجاوزت المفاجأة قبله، وانطلقت مبتعدة في خطوات سريعة، لم يكد ينجح في الخروج من دهشته، ويهتف باسمها، حتى كانت قد غادرت المدرسة كلها..
ولكنها قبل أن تفعل، رمته بنظرة ازدراء، شقت قلبه إلى نصفين..
نظرة مازالت تمزق كيانه كله، حتى هذه اللحظة..
ويجهد يتجاوز قدراته في المعتاد، كتم (مفيد) دموعه، وجاهد ليحبسها في مقلتيه، وهو يتمنى أن تقطع السيارة المسافة بسرعة خرافية، حتى يمكنه أن يخلو إلى نفسه في حجرته في السراي، ويبكي ملء جفنيه
ولم تطاوعه السيارة أبدا..
لقد ظلت تتهادي على الطريق في بطء، وبداخلها ضعف العدد المصممة لاستيعابه، حتى خيل إليه أنها استغرقت دهرا كاملا، قبل أن تتوقف في ذلك الموقف البدائي، عند مدخل القرية، فاندفع يغادرها، وألقي نظرة سريعة على ذلك المكان، الذي كان يحتله مقهى (جودة)، قبل أن يسير بخطوات واسعة، متجها نحو السراي، ولكنه فوجئ بالحاج (سعفان) يهرع إليه، وهو يهتف في حزن:
- (مفيد) بك.. البقية في حياتك يا (مفيد) بك.. البقاء لله سبحانه وتعالى) وحده.
انقبض قلبه في عنفا، وسقط بين قدميه، وهو يقول في شحوب:
- ماذا تقصد يا عمدة.. من تقصد بقولك هذا؟
ربت الحاج (سعفان) على كتفه، قائلا:
- (حسين) بك يا ولدي.. شقيقك (حسين) رحمه الله
صرخ (مفيد) في ارتياع ولوعة:

- (حسين)؟! مستحيل... مستحيل!
وانطلق يعدو بكل قوته نحو السراى، وصرخاته لا تتوقف في أعماقه..
مستحيل! أن يكون المقصود هو (حسين).. مستحيل!! ولكن عقله أجابه في صرامة.. ولماذا مستحيل؟!
أليس (حسين) مجرد بشر؟ وكل البشر مصيرهم الموت، مهما طال بهم الزمن؟
الأنه طاغية؟
تصورت أنه لا يموت؟!
الأنه قاس، صارم، لا يرحم، خيل إليك أن الموت سيخشى الاقتراب منه؟!
وعندما بلغ (مفيد) السراي، كانت دموعه قد انطلقت من سجنها، لتغرق وجهه كله، فاستقبلته شقيقته (شريفة) بالصراخ والعويل، وهي تلطم خديها.
- (حسين) مات يا (مفيد).. (حسين) مات.
احتواها بين ذراعيه، محاولا مزج حزنها بحزنه، وهو يربت عليها، قائلا من وسط دموعه:
- إنها إرادة الله يا (شريفة).
أفرغت دموعها في صدره، وهو يسير معها في رفق إلى حجرة الاستقبال، التي اكتظت بأهل القرية، الذين استقبلوه بعبارات الأسف والعزاء..
وبسرعة، دارت عيناه في كل الوجوه، بحثا عن أزواج شقيقاته، وشعر بالارتياح، عندما وقع بصره على (عبد الحكيم)، الذي اندفع إليه يشد على يده في حرارة، قائلا:
- البقاء لله يا (مفيد).

أومأ (مفيد) برأسه، وهمهم بكلمات تحشرجت في حلقه، قبل أن يجلس وسط المعزين، ويعاود البحث عن (فؤاد) و (عمر) بين وجوههم

ومن بعيد، بلغه صوت (توحيده) و (نعيمة)، وهما تطلقان صرخات قوية ملتاعة، فهرع إليهما في الحجرة الأخرى، وقال في عصبية:

- لا داعي للصراخ.. إننا لم نفعل هذا عندما مات والدنا رحمه الله.

صرخت (نعيمة)، وهي تلطم صدرها:

- لا داعي لماذا؟! ألا تريد مني أن أصرخ من أجل (حسين)؟! لمن أصرخ إذن؟

صاح فيها بصرامة شديدة:

- قلت لا صراخ.

كانت صرامته مفاجئة للجميع، فألجمتهم لحظات، قبل أن تندفع (نعيمة)، هاتفة في عصبية شديدة:

- بالطبع.. من حقك أن تصرخ وتحكم الآن، مادام السبع قد رحل.

لوح بسبابته في وجهها، وهو يقول في حدة:

- كفي عن هذا يا (نعيمة).. لن ينطلق الصراخ في سراى (البنهاوي)، وأنا على قيد الحياة.. هل فهمت؟

ابتلعت لسانها هذه المرة، وانكمشت في خوف، لم يلبث أن تحول إلى موجة بكاء عنيفة، شاركتها فيها (توحيده) و (شريفة)، فأشاح (مفيد) عنهن بوجهه، وغادر الحجرة ليجد (حافظ) أمامه والدموع تغرق عينيه، فربت على كتفه، وهو يسأله في حنان:

- (حافظ).. لماذا غادرت حجرتك؟

سأله (حافظ) في تخاذل:

- أصحيح هذا يا (مفيد)؟ هل مات (حسين)؟

تمتم (مفيد)، وهو يحبس دموعه في صعوبة:

- سبحان الحي الذي لا يموت يا (حافظ).
انفجر (حافظ) بغتة باكيا، وكأنما كان يحتاج إلى هذا التأكيد من (مفيد)، ليقتنع بحدوث الأمر، ومصمصت (فاطمة) شفتيها، قبل أن تقول في خشونة:
- كلنا ستموت يوما.
نطقتها بكل انفعالها، ولم تستطع كتمان شماتتها، فأطلت منها واضحة، على نحو أزعج (مفيد)، الذي أشار إليها، قائلا في ضيق:
- خذي (حافظ) إلى حجرته يا (فاطمة)
أجابته في تحد فظ:
. فليجلس ليتلقى العزاء في أخيه.
كان (مفيد) يدرك أن مشاعر (حافظ) الرقيقة لن تحتمل مثل هذا الموقف، لذا فقد كرر في صرامة:
- خذى (حافظ) إلى حجرته يا (فاطمة).
فتحت شفتيها الغليظتين؛ لتعترض مرة أخرى، إلا أنها لم تلبث أن أطبقتهما، دون أن تتفوه بحرف واحد، وسحبت (حافظ)، الذي تبعها في استسلام تام، وهو يبكي وينتحب في مرارة، حتى أغلقت عليهما باب حجرتهما.
ومرة أخرى، عادت دموع (مفيد) تنهمر، ولكنه مسحها بكفه في حسم، وكأنما يمسح معها ضعفه وعواطفه، ثم شد قامته، وعاد أدراجه إلى حجرة الاستقبال، وقبل أن يبلغها رأي أحد أزواج شقيقاته يدلف إلى السراى..
واتسعت عيناه في دهشة..
إنه لم يكن يتوقع أبدا أن يدخل (عمر) السراى، بعد أن أقسم يوما ألا يطأها بقدمه قط.
ولكن مهلا

الان يستطيع (عمر) أن يدخل السراي بكل بساطة، بعد أن زال السبب، الذي جعله ينفر منها لسنوات..
أو بمعنى أدق، بعد أن زال (حسين) من الوجود..
واعتصر الحزن صدر (مفيد)، و (عمر) يتجه إليه في خطوات حازمة، وتصور أنه سيعبر عن ارتياحه لمصرع (حسين)، إلا أن (عمر) صافحه في حرارة، وهو يقول في صوت قوي، يحمل روح التعزية والرثاء:
- البقاء لله يا (مفيد).. كلنا إلى فناء.
قالها بشهامة حقيقية، ولهجة مواساة خالصة، بلا تشف أو شماتة، مما جعل الدموع تترقرق في عيني (مفيد)، وهو يقول:
- (عمر).. تصورت أن..
لم يستطع إكمال عبارته، فربت (عمر) على كتفه، وهو يقول في حزم:
- لا شماتة في الموت يا فتى.. البقاء لله وحده.
لم يكد يتم عبارته، حتى وقع بصره على (ناهد) و (فؤاد) وهما يدلفان إلى السراى..
وفي عيني (فؤاد)، لمح (مفيد) ذلك الشيء،
الذي لم يفارقه.
لمح ابتسامة
ابتسامة متشفية
ولم يحتمل (مفيد) هذا..
لم يحتمل حتى أن يصافح (فؤاد)، فاندفع إلى حجرة الاستقبال ليستمع مرة أخرى إلى عبارات التعزية والرثاء..
واحتقن وجه (فؤاد) في شدة، وارتسم الغضب على ملامحه، ولكن (عمر) استدار إليه يصافحه، وهو يقول:
- أهلا يا (فؤاد) بك.. البقاء لله

أجابه (فؤاد) في توتر:
- ونعم بالله يا استاذ (عمر).. قل لي: هل لاحظت ذلك التصرف الوقع، الذي قام به (مفيد)؟ إنه حتى لم يصافحني
قال (عمر):
- لا يلام أحد الليلة يا (فؤاد) بك.. الشاب حزين لوفاة شقيقه أنت أدرى بمنزلة (حسين) في العائلة.
مط (فؤاد) شفتيه في مقت، وهو يهمس:
- منزلة زائفة.. لقد كان طاغية قاس، لا يهمه في الدنيا سوى مصالحه الشخصية، ولا يتردد لحظة في سحق العائلة كلها، لو أن هذا يمنحه خطوة زائدة، في سلم النجاح.
تنهد (عمر)، وقال:
- اذكروا محاسن موتاكم.
هتف (فؤاد) في صوت منخفض:
- وهل كانت له محاسن؟
بدا التوتر على وجه (عمر)، وهو يقول:
- رويدك يا رجل.. إنه لم يبرد في قبره بعد.
أطلق (فؤاد) ضحكة ساخرة قصيرة، بدت عجيبة وسط جو الحزن المخيم على المكان، قبل أن يقول:
- قبره؟! وأين قبره هذا؟ إنهم لم يعثروا على جثته أبدا.
هتف (عمر) في دهشة:
- لم يعثروا على جثته؟! كيف تأكدوا من موته إذن؟
قال (فؤاد) في شماتة مقززة:
- لهم أساليبهم بالتأكيد، ولكن هذا لا يعنيني.. المهم أنه مات، وذهب إلى أغوار الجحيم، وترك لنا أرض (البنهاوي) كلها..
ثم سأله في لهفة:
- أعتقد أننا سنرثه جميعا.. أليس كذلك؟

أومأ (عمر) برأسه، وقال
- سيرثه شقيقاه وشقيقاته فرك (فؤاد) كفيه، قائلا:
عظيم.. غذا نستخرج إعلام الميراث، و.
قاطعه (عمر):
- ليس بهذه السرعة
ابتسم (فؤاد)، قائلا:
- هذا ما تتصوره.. شقيقى سيختصر لنا زمن الإجراءات إلى الربع على الأقل.
قال (عمر)، وهو يتلفت حوله في قلق:
- ليس هذا ما أقصده، ولكنني أعني أن استخراج اعلام ميراث يحتاج بالضرورة إلى إثبات الوفاة.
عقد (فؤاد) حاجبيه، وهو يقول في عصبية:
- إثبات الوفاة؟! أي إثبات وفاة يا رجل.. ألم يبلغوا بوفاته رسميا؟
اجابة (عمر):
- ولكنهم لم يعثروا على جثته بعد، وهذا يجعله رسميا، في حكم المفقودين، مما يعني ضرورة الانتظار لعدة سنوات.. ثلاث أو خمس سنوات.. لست أذكر بالتحديد، قبل الاعتراف بوفاته رسميا، وحتى ذلك الحين، لا يمكنك استخراج اعلام ميراث مطلقا.
وكانت صدمة لـ (فؤاد). صدمة قاسية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

82 - المنزلق..

- آنسة (سوسن).. آنسة (سوسن)...

هتف (مفيد) بهذا النداء، وهو يتجه في خطوات واسعة، أقرب إلى العدو، نحو (سوسن)، التي تجاهلت النداء تماما، وضاعفت من سرعتها، في محاولة لتفادي مواجهة (مفيد)، الذي انطلق يعدو بالفعل هذه المرة، حتى اعترض طريقها، وهو يقول في مرارة:

- لماذا تفرين منى؟ إننا نعمل في مكان واحد، منذ شهر كامل، وأنت ترفضين حتى تبادل التحية معي.

قالت في توتر، وهي تشيح بوجهها عنه:

- لقد واسيتك عند موت شقيقك

قال في أسي:

- كان هذا من شهر كامل، ولم أسمع منك سوى عبارة واحدة مقتضبة، ثم انصرفت بأقصى سرعة، قبل حتى أن أشكرك.

قالت في عصبية:

- لم أكن أنتظر الشكر

أجابها في خفوت، وبلهجة أقرب إلى الضراعة:

- ولكنني كنت أنتظر ولو لمحة واحدة

قالت بخفوت مماثل:

- لمحة من ماذا؟

بدا وكأنه ينتحب، وهو يجيب:

- من الحب الذي جمع بيننا يوما.

استدارت إليه في حركة حادة، وقالت في شراسة لا تتفق قط مع طبيعتها:

- لا تقل هذا.

ثم أشاحت بوجهها في سرعة، قبل أن ترتسم الدهشة على ملامحه، وهي تضيف في مرارة شديدة:
- الحب لم يجمع بيننا أبدا
هتف ملتاعا:
- لم يجمع بيننا أبدا؟! ماذا تقولين يا (سوسن)؟ هل نسيت تلك الأيام؟! هل نسيت سفرنا بالقطار، و.
قاطعته في حنق:
- كلا.. لم أنس
وصمتت لحظة، حاولت خلالها أن تعتصر تلك الدموع، التي يبكي بها قلبها، قبل أن تبلغ عينيها، فتفضح حقيقة مشاعرها، ثم أضافت بصوت متحشرج مختنق:
- ولست أنكر أنني أحببتك بكل جوارحي آنذاك
هتف:
- وأنا أيضا
قاطعته في صرامة:
- لا.. لا تقلها يا (مفيد).. أنا أعترف بأنك كنت أيضا غارقا في الحب..
ثم أدارت عينيها إليه، وأطل منهما حزن وهوان الدنيا كلها، وهي تضيف:
- في حب (مديحة).
انقبض قلبه في عنف، وارتجفت شفتاه، واختنق صوته في حلقه، حتى أن ما تسلل منه عبر شفتيه، بدا أشبه بحشرجة محرك قديم، وهو يهمس:
- ألا يغفر قلبك أبدا؟
أشاحت بوجهها مرة أخرى، وهي تقول:

- على العكس.. قلبي كان غارقا في حبك، حتى أنه لم يكن ليتردد في أن يغفر لك كل ما حدث، لو..
خفق قلبه مع ذلك الحرف الأخير، وتعلقت عيناه بشفتيها، وهي تتابع في مرارة:
- لو أنك عدت إلى مختارا
كادت مشاعره تنهار أمامها، وهو يتمتم:
- ماذا تعنين؟
استعاد صوتها غضبه وصرامته، وهي تجيب:
- أعني أنك لم تعد إلى، إلا لأن (مديحة) تخلت عنك ثانية.. ولو أنها عادت إليك لنسيتني تماما.
وزفرت في مرارة أكثر، مع إضافتها:
- أتريد أن ان أغفر هذا؟! هل تتصور أنه توجد فتاة واحدة، في العالم كله، يمكنها أن تغفر هذا؟!
ولم يجد ما يجيب به هذه المرة... إنها على حق.. على حق تماما..
ما من امرأة، في العالم كله، يمكنها أن تغفر لرجل أنه تخلى عنها، من أجل امرأة أخرى
ربما يمكنها أن تتغاضى قليلا أو تتجاهل الأمر ظاهريا ويمكنها أن تتناساه في أحاديثها وتصرفاتها ولكنها لا تغفره أبدا
أبدا
وأمام ذلك المنطق، لاذ (مفيد) بالصمت، وبدا أشبه بتمثال شاحب متهالك، وهي تندفع مبتعدة عنه، دون أن تضيف حرفا واحدا..
وفجأة، صت مسامعه ضحكة..
ضحكة أنثوية عابثة، لمح فيها صوت (جيهان)، فالتفت إليها في غضب، قائلا:
- لماذا تضحكين؟
أقدمت نحوه، وهي تقول مبتسمة:

- لا تنظر إلى بهذا الغضب، فلن أحتمل كل هذا
زفر في حدة، وهو يقول:
- آنسة (جيهان).. لست في ظروف تسمح بالمزاح
اقتربت منه أكثر، وهي تضحك قائلة
- حاول أن تغير هذه الظروف إذن
قال محذرا:
- أنسة (جيهان)، إنني
قاطعته في مرح:
- لست أحب لقب آنسة هذا.. إننا زميلا عمل.. لماذا لا تخاطبني باسم (جيهان) فقط.
أشاح بوجهه عنها، وهو يقول:
- لن يمكنني هذا.
التقطت بعض البسكويت من حقيبتها، وهي تقول:
- فليكن.. خاطبني بالأنسة (جيهان)، وسأخاطبك بالأستاذ (مفيد).. هل تريد بعض البسكويت يا (مفيد) بك؟
- (جيهان) ال...
انطلقت الصيحة تهز ساحة المدرسة، فانتفضت (جيهان)، قبل أن تطلق ضحكة خافتة، وتهتف:
- آه.. هادمة اللذات ومفرقة الجماعات.
ظهرت ناظرة المدرسة، وهي تعقد حاجبيها في صرامة شديدة، وصاحت في (جيهان) في غلظة وخشونة:
- ماذا تفعلين هنا؟! أليست لديك حصة الآن؟ أشارت (جيهان) إلى ساعتها، وهي تقول:
- أنا في طريقي إلى الفصل، فالحصة لم تبدأ بعد.. مازال أمامي دقيقتان.

قالتها وأسرعت إلى فصلها، وهي تكتم ضحكتها، في حين التفتت الناظرة إلى (مفيد)، وقالت في حدة:
- وانت يا أستاذ (مفيد).. ماذا تفعل هنا؟! هذه مدرسة، وليست ملهى ليليا، ولن أسمح بهذه اللقاءات الخفية أبدا
قال في حدة:
- أية لقاءات خفية؟! إننا نقف في ساحة المدرسة
صرخت في وجهه:
- لا تناقشني
كان هذا القول بالذات يستفزه في شدة، فصاح بها:
- كيف لا أناقشك؟ من حق أي إنسان أن يدافع عن نفسه.
هاجمته بغتة في عنف شديد:
- من تتصور نفسك يا هذا؟ كيف تتحدث إلى بهذه اللهجة؟ هل نسيت من أنت ومن أنا؟! إنني أتساءل: كيف ترسل إلينا الوزارة مدرسا يجهل قواعد التربية مثلك؟! سأتقدم بشكوى في هذا الشأن، وسأطالب بنقلك من هنا.. وربما من (طنطا) كلها.
اتسعت عيناه في دهشة، مع ذلك الهجوم العنيف، وراح يقارنه بالاستقبال الحار، الذي استقبلته به الناظرة في بداية عمله..
وامتلأت نفسه بمزيج من المرارة والاشمئزاز.. إنه من الطبيعي أن تفعل به الناظرة هذا..
لقد بالغت في الاحتفاء به عند قدومه؛ لأن (حسين) كان على قيد الحياة، ويحتل مكانة عالية في السلطة..
أما الآن، فلماذا تبتسم حتى في وجهه؟!
وفي أعماقه، أدرك (مفيد) أن تصرف الناظرة لن يكون التغيير الوحيد، الذي سيصيب عائلة (البنهاوي)، بعد رحيل (حسين)..
ستكون هناك حتما تغيرات كثيرة.. وكثيرة جدا

و (مفيد) يؤمن دائما بالقاعدة التي تقول: إن من عاش بالقوة يموت أيضا بالقوة،
ولقد عاشت عائلة (البنهاوي) مستندة إلى القوة والسطوة.. وذهبت القوة..
والآن أصبح على العائلة أن تستعد للهبوط عبر منزلق طويل ومهين.
منزلق بلا نهاية

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحرك (فؤاد) في عصبية بالغة، داخل حجرة مكتب (إبراهيم مكي)، وهو يقول في حدة:
- افعل شيئا يا (إبراهيم) بك.. افعل شيئا.. من السخف أن ننتظر كل هذه السنوات، قبل أن نحصل على أنصبتنا من الأرض!
أجابه (إبراهيم) في برود عجيب:
- إنها قوانين الدولة
لوح (فؤاد) بذراعه، وهو يهتف في حدة:
- قوانين الدولة؟! ومنذ متى تهتمون بالدولة وقوانينها؟! انعقد حاجبا (إبراهيم مكى)، وهو يقول في صرامة:
- هل تقول شيئا عن الدولة وقوانينها يا (فؤاد)؟
ارتجف جسد (فؤاد)، وهتف بسرعة وخوف:
أنا لم أقصد هذا ثم ألقى جسده على المقعد المقابل لمكتب (إبراهيم)، مستطردا في ضراعة:
- ولكنني أعتقد أنه توجد حتما وسيلة لتفادي هذه الروتينيات.
التقط (إبراهيم) نفسا عميقا، وتراجع في بطء، وهو يرمق (فؤاد) بنظرة باردة، قبل أن يقول في اقتضاب:

- بالتأكيد
هتف (فؤاد) في لهفة:
- حقا؟! هل توجد وسيلة لهذا؟
هز (إبراهيم) كتفيه، وقال:
- لكل مشكلة حل، ولكن.. ما الذي يدفعني للدوران حول الأمور، والبحث عن وسيلة ملتوية، لتحقيق نفع شخصي لك، ولعائلة (البنهاوي)؟
قال (فؤاد) في دهشة. ألم نتفق من قبل؟ ابتسم (إبراهيم) في سخرية خبيثة، وهو يقول:
- اتفقنا على ماذا.. على أن تنقل إلى كل أسرار (حسين البنهاوي)؟ اسف يا (فؤاد) بك.. لست أعتقد أن اتفاقنا يصلح الان.
قال (فؤاد) في لهفة متوترة:
- فليكن.. سنعقد اتفاقا آخر.. ماذا تطلب يا (إبراهيم) بك؟
أطلت نظرة مخيفة من عيني (إبراهيم)، وهو يتراجع في مقعده، ويشبك أصابع كفيه أمام ابتسامته الغامضة، قبل أن يجيب:
- خمسة وعشرين في المئة
ردد (فؤاد) في حيرة:
- خمسة وعشرين في المائة؟!
اعتدل (إبراهيم)، وهو يضيف في حسم:
- نعم.. أريد ربع أرض (البنهاوي)، مقابل مساعدتكم في استرداد الأرباع الثلاثة المتبقية.
انعقد حاجبا (فؤاد) في شدة، وهو يقول في عصبية: أي مطلب هذا يا (إبراهيم) بك؟
اجابة (إبراهيم في برود:
- مطلب عادل.. إنكم تحتاجون لعدة سنوات، قبل أن تعود إليكم الأرض رسميا.. وحتى عندما تحصلون على شهادة وفاة قانونية

ستظل أمامكم مشكلة عويصة، وهي أن القانون لا يسمح بملكية أكثر من خمسين فدانا، في حين أن مساحة أرض البنهاوية تبلغ مائتى فدان.. صحيح أن أحدا لم يعترض على زيادة المساحة عما يسمح به القانون من قبل، إلا أنه لو تدخل أحد ذوي النفوذ، سيضطر المسئولون لتنفيذ القانون، والاستيلاء على مائة وخمسين فدانا، وهذا يعني أن المتبقي..

قاطعه (فؤاد) في توتر

- فليكن

توقف (إبراهيم)، وتطلع إليه بابتسامته الخبيثة، فاستطرد في عصبية:

إنني أوافق على مطلبك هذا، ولكنني لست المستفيد الوحيد من الأرض، ومن الضروري أن أحصل على موافقة الآخرين، قبل أن أعلن موافقتنا على هذا العرض.

قلب (إبراهيم) كفه، وهو يقول:

- خذ وقتك كله يا (فؤاد) بك.. لست أنا الذي يتعجل الأمور ولن...

قاطعه رنين الهاتف على مكتبه، فانعقد حاجباه، والتقط ساعته، قائلا:

- من المتحدث

استمع إلى محدثه لحظات، قبل أن يقول:

- نعم.. أذكر هذه العملية.. كانت منذ ثلاث سنوات تقريبًا ثم انفجر القناع الجامد عن وجهه دفعة واحدة، وهو يهتف:

- ماذا؟! ماذا تقول؟! فقد كان ما سمعه مدهشا

مدهشا بحق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بكت (نعيمة)، وانتحبت في مرارة، وهي تجلس في حجرة (شريفة)، التي ربتت على كتفيها في حنان مشفق، وهي تهمس:
- كفي يا أختي.. كفى.. لم يحدث أي شيء بعد.. كلها مجرد أوهام في رأسك وحدك، ولن يقدم (عمر) على تطليقك أبدا، حتى بعد موت (حسين).. رحمه الله.
قالت (نعيمة) من وسط نهر دموعها الغزيرة:
- بل سيطلقني.. أنا واثقة من أنه سيفعل.. لقد كان يبقي على فقط خوفا من (حسين)، ولن يقيم لي وزنا بعد موته.. إنه يقضي الأن معظم وقته مع (فاتن)، زوجته الثانية، ويعايرني بأنها أنجبت له ولدين.. إنها مسألة وقت فحسب.. أنا أقرأ هذا في عينيه صدقيني.. سيطلقني يا (شريفة)، إن عاجلا أو آجلا..
قالت (شريفة) في مرارة:
- لو أراد أن يفعل لفعل منذ زمن يا (نعيمة).. لماذا أنتظر شهرا كاملا، منذ وفاة (حسين)، وحتى الان.
جفت (نعيمة) دموعها، وهي تقول:
- لست أدري.. لقد لمحت الشماتة في عينيه، عندما بلغه نبأ موت (حسين).. ألم تنتبهي إلى أنه أتي بنفسه إلى السراى، التي أقسم ألا يطأها بقدمه، مادام (حسين) حيا؟
هتفت (شريفة) في غضب:
- قطعت قدماه. ثم انتبهت إلى أنه مازال زوج شقيقتها، فاستدركت في سرعة:
- ولكن المهم أنه أدى واجب العزاء
عادت (نعيمة) تبكى، وهي تقول:
- إنني أشعر بالخوف يا (شريفة).. أشعر بخوف شديد
ربتت (شريفة) عليها مرة أخرى، وقالت:

- اطمئنى يا (نعيمة).. (عمر) لن يطلقك.. تأكدي من هذا.. سأحضر لك بعض عصير الليمون، لتهدئة أعصابك، ثم نواصل حديثنا.
قالت (نعيمة)، وقد شاب لهجتها شيء من صرامة مباغتة:
- ولماذا تصنعينه بنفسك؟ اطلبي من (فاطمة) أن تصنعه، وتحضره إلى هنا.
مصمصت (شريفة) شفتيها، وهي تقول:
- (فاطمة).. ليت هذا ممكن.. ليت هذا ممكن.. إنك لا تعرفين ما أصاب (فاطمة)، منذ موت (حسين)... لقد أصبحت (فاطمة) هانم. لا أحد يستطيع التحدث معها، أو مع ابنها الملعون.
لم تكد (شريفة) تأتي على ذكر (طارق)، حتى تلفتت (نعيمة) حولها، وقالت في حدة:
- أين (نادرة)؟! هزت (شريفة) كتفيها، قائلة:
- من المؤكد أنها تلعب مع (طارق)، في الحديقة الخلفية، فهكذا يفعلان كلما التقيا.
عقدت (نعيمة) حاجبيها، وهي تقول في حنق:
- ابنتك لن تلعب مع ابن الملعونة هذا.. أحضريها أرجوك يا (شريفة)، وأخبريها أنني سأضربها في قسوة، لو عاودت فعلتها.
نهضت (شريفة) لتنفيذ مطلب شقيقتها الكبرى، وهبطت إلى الطابق الأرضي، وهي تنادى:
- (نادرة).. (نادرة).. أين أنت؟
استقبلتها (فاطمة) بملامحها الغليظة، وصوتها الأجش الخشن وهي تقول:
- إنها تلعب مع (طارق) في الحديقة صاحت بها (شريفة):
- وكيف سمحت لها بهذا؟
أطلقت (فاطمة) شهقة استنكار سوقية، قبل أن تهتف:

- كيف؟ ماذا؟! معذرة يا سادة الأسياد.. هل تخشون أن تصاب ابنتكم الأميرة بعدوى الفقر من ابني الفلاح؟! لا يا سيدة الدار.. لم يعد هناك كبار وصغار هنا، فكلنا أصحاب أملاك، وللذكر مثل حظ الأنثيين.. هل تذكرين هذا.. (حافظ) سيحصل على ضعف نصيبك يا ملكة الملكات وسيدة الحسن والجمال.

صرخت (شريفة):

- أيتها اللعينة... أكنت تنتظرين موت (حسين)، حتى ترثى نصيب (حافظ) من الأرض؟

قالت (فاطمة) متحدية في غلظة

- ألم يكن هذا هدفكم جميعا؟

لوحت (شريفة) بكفها، وهي تهرع نحو الحديقة الخلفية هاتفة:

- كفي.. كفى.. لم أعد أحتمل مجرد سماع صوتك

لاحقتها (فاطمة) بشهقة سوقية أخرى، صائحة:

- لماذا؟ أصوتك هو الشبيه بصوت أم كلثوم، يا فريدة العصر والأوان؟

جرت (شريفة) إلى الحديقة الخلفية، وهي تقول في حنق:

- رباه! إلى متى سأحتملها؟ إلى متى؟ وراحت تسير في الحديقة، مناديه:

- (طارق).. (نادرة).. أين أنتما؟

باغتها فجأة صوت هامس ملهوف، يقول:

- أنسة (شريفة).

انتفض جسدها كله مع الصوت، ووثب كيانها بأكمله يلتفت إلى حيث مصدره، ثم اتسعت عيناها في ذهول، وانطلقت من حلقها

شهقة قوية عنيفة، وهي تحدق في وجه صاحبه، وتصرخ من أعمق أعماقها:

- أنت؟

وكانت على حق في ذهولها وذعرها؛ فالواقف أمامها كان آخر شخص تتوقع رؤيته

آخرهم على الإطلاق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

83- لحم الحي..

.. (أمجد)؟!... هتف (مراد صقر) بالاسم في دهشة بالغة، وهو يحدق في وجه (إبراهيم مكى)، قبل أن يسأله في انفعال:

- إذن فهو لم يمت إ! عجبًا! أين اختفى إذن، طوال السنوات الثلاث الماضية؟!

أجابه (إبراهيم)، وهو يشير إلى التقرير في يده:

- لقد فقد الذاكرة تماما، بعد إصابته، وإشرافه على الغرق، وأنقذه أحد العرب في قلب (إسرائيل)، وراح يرعاه ويداويه سرا، طوال هذه السنوات الثلاث، وأخفى أمره عن جنود الاحتلال تماما، حتى استعاد (أمجد) ذاكرته، منذ ما يقرب من الشهر، فعاونه العربي على العودة إلى هنا سرا.

هز (مراد صقر) رأسه، وهو يقول:

- يا لها من قصة! إنها تشبه أفلام السينما القديمة.. ولكن، اين هو الان؟

أجابه (إبراهيم) في سرعة:

- هنا.. في (مصر)

قال (مراد) في عصبية:

- أعلم هذا.. لقد أخبرتني به من قبل، ولكنني أسأل: لماذا لم يأت إلى الجهاز مباشرة، ليقدم تقريره عن فترة غيابه؟

هز (إبراهيم) رأسه، وقال:

- لست أدري.. يمكننا استجوابه في هذا الشأن، عند وصوله إلى هنا.

ثم مال نحو (مراد)، مستطردا في لهجة مختلفة

- ولكن دعنا من أمره الآن يا سيادة المدير، فلدي ما أريد التحدث معك بشأنه.

انعقد حاجبا (مراد) في صرامة شديدة، وهو يقول:
- ليس هناك وقت للأحاديث الجانبية يا (إبراهيم). اعتدل (إبراهيم)، وهو يقول:
- إنه ليس حديثا جانبيا يا سيدي.. إنه أمر بالغ الأهمية
لم يعترض (مراد) هذه المرة، ولكنه عقد حاجبيه أكثر، ومط شفتيه دلالة عن عدم الرضا، وهو يتطلع إلى (إبراهيم)، الذي واصل بسرعه:
- بشأن الأسماء التي تم تقديمها إلى السيد رئيس الجمهورية قال (مراد صقر) في غلظة:
- سيادته لم يوافق بعد على أي منها
قال (إبراهيم)، في صوت شابته بعض الحدة:
- ولكن القائمة لم تتضمن اسمى
رمقه (مراد) بنظرة صارمة، وهو يقول:
- ولماذا تتضمنه؟
جاء دور (ابراهيم)، ليعقد حاجبيه، وهو يقول:
- لأننا اتفقنا على هذا
صاح (مراد) في وجهه فجأة:
- اتفقنا؟! أي قول هذا يا رجل؟! هذه العبارة لا تصلح أبدا هنا؟ في هذا الجهاز.. إننا هنا لا نتفق على أي شيء، إلا إذا كانت فيه مصلحة الوطن.. هل تفهم؟
فوجئ بـ (إبراهيم) يجيب في سرعة:
- أفهم يا (مراد) بك.. أفهم.
والواقع أن عبارة (إبراهيم مكـى) لم تكن تحمل ذرة واحدة من النفاق..
إنه بالفعل يفهم.

يفهم أن كل الاتفاقيات السابقة، التي تمت بينه وبين (مراد صقر)، كانت نوعا من التآزر، في مواجهة (حسين البنهاوي)..
والان لم يعد هناك (حسين) ٠٠ ولم تعد هناك أية اتفاقيات هذه طبيعة الدنيا. لا أحد يمنحك شيئا، إلا لو كانت فيه مصلحة شخصية و(إبراهيم مكى) يدرك هذا المبدأ جيدا ويطبقه خير تطبيق ولقد استقبل ما فعله (مراد صقر) في هدوء شديد
هدوء الشخص، الذي كان يعلم مسبقا، ما ستؤول إليه الأمور.
ولكن هذا الهدوء أقلق (مراد صقر) بشدة..
أقلقه إلى الحد الذي بدأ معه يفكر جديا في خطة مناسبة لإزاحة خصم جديد من الساحة..
خصم يدعى (إبراهيم)..
(إبراهيم مكى)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بكت (شريفة) ملء جفنيها، بين ذراعي (أمجد)، الذي احتواها في حنان، وراح يروي لها قصته، منذ فقد ذاكرته في قلب (إسرائيل)، وحتى عاد إلى الوطن، ثم أضاف في همس مملوء بالوجد والهيام والحب؟
- كان المفروض أن أتجه إلى الإدارة مباشرة؛ لأقدم تقريرى حول الفترة الماضية، ولكنني لم أستطع، فبمجرد وصولي إلى (مصر) أتيت إلى هنا مباشرة لكي.. لكي أراك.
خفق قلبها، وترنمت أوتار أنوثتها بلحن لم تعزف مثله من قبل وهي تتعلق به، وتبكي قائلة في سعادة:
- المهم أنك هنا.. لست أصدق نفسي.. لقد أخبرني (حسين) أنك لقيت مصرعك، وتحطم قلبي من بعدك تماما، ولم أتصور أبدا

أنني سألقاك ثانية.
أمسك كفيها في هيام، وهو يقول:
- ولكنني عدت.. عدت من أجلك يا (شريفة)، ولن أفارقك ثانية قط، وكل أملى أن يوافق (حسين) بك على زواجنا هذه المرة، وأن...
لم تكد تسمع اسم (حسين)، حتى انفجرت باكية، وراحت تفرغ كل عواطفها وانفعالاتها عبر عينيها، هاتفة:
- (حسين)؟! ألم يبلغك أمر (حسين)؟ سألها في جزع حقيقى:
- ماذا أصابه؟
روت له القصة كلها، من بين دموعها، واستمع هو إليها في دهشة، قبل أن يقول:
- ألم يعثروا على الجثة حتى الآن؟
هزت رأسها نفيا، وهي تبكي قائلة:
- أبدا .. شهر كامل ولم تظهر جثته بعد
انعقد حاجباه، وهو يقول:
- عجبًا!! هذا يخالف طبيعة الإسرائيليين تماما.
كانت هناك عشرات الأفكار، التي تعربد في عقله، وعشرات التصورات التي تملأ ذهنه، إلا أن طبيعته منعته من الإفصاح عنها وهو يربت على كتف (شريفة) في حنان، قائلا في رفق وتعاطف:
- البقاء لله وحده.. تقبلي تعازي، و
قاطعته شهقة عنيفة، وصوت ارتطام راحة يد بصدر امرأة، مع صوت خشن غليظ يهتف:
- ياالليلة السوداء!
انتفض جسد (شريفة) كله في عنف، واستدارت في ارتياع، تحدق في وجه (فاطمة)، التي حدقت بدورها في وجه (أمجد)،

مستطردة:
- أنت! بسم الله الرحمن الرحيم.. لقد أخبرونا أنك مت منذ زمن طويل.
أجابها (أمجد) في توتر:
- كانوا مخطئين.. هأنذا أمامك على قيد الحياة.
حدقت فيه لحظات أخرى في ذهول، قبل أن تعاود لطم صدرها، هاتفة بصوتها الخشن الغليظ، وتشفيها الواضح:
- يا للفضيحة! وما الذي تفعله في الحديقة الخلفية يا ملك الملوك؟ هل يدخل الشرفاء البيوت من أبوابها أم من نوافذها؟
ارتبك (أمجد)، وهو يقول:
- سيدتي.. أنا لم أقصد.
قاطعته (شريفة)، قائلة في توتر شديد
- (فاطمة).. (أمجد) بك جاء لتقديم واجب العزاء في (حسين).
ابتسمت (فاطمة) في سخرية، وهي تقول بصوت مرتفع:
- هكذا؟! وهل أخبروه أن سرادق العزاء مقام في الحديقة الخلفية للسراي، أم أنه ضل طريقه إلى هنا؟
انخفض صوت (شريفة)، وتحولت نبرته إلى التوسل، وهى تقول:
- أرجوك يا (فاطمة).. لا داعي للفضائح.
كانت (فاطمة) ترغب، وبشدة، في تصعيد الأمر، والانتقام من (شريفة) بفضيحة مجلجلة، إلا أن عقلها لم يلبث أن درس الموقف كله، وقرر أن يتجاوز الموقف، حتى يمكنها استغلاله في ظروف أخرى، فرسمت على شفتيها الغليظتين ابتسامة مقيتة، وهي تقول:
- أنت على حق يا سيدة الدار.. لا داعي للفضائح ثم التفتت إلى (أمجد)، واستطردت في صرامة:
- تفضل يا (أمجد) بك.. نحن نتلقى العزاء في حجرة الاستقبال.. وأخبرني أولا.. كيف تفضل قهوتك؟

قالتها في لهجة خاصة، وهي ترمي (شريفة) بنظرة تحمل الكثير من التشفي والانتصار
وأي انتصار

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دلف (عمر) إلى حجرة شريكة (عبد الحكيم)، في مصنع النسيج في (المحلة الكبرى)، وابتسم عندما وقع بصره على (فؤاد)، وفتح ذراعيه عن آخرهما، قائلا:
- مرحبًا.. مرحبًا.. أهلا بك في مصنعنا يا أستاذ (فؤاد).. أهلا أهلا
تعانقا في حرارة، ودعاه (عمر) للجلوس، وهو يكمل:
- أثرت المصنع كله يا عديلي العزيز.. إننا ننتظرك في فرح، منذ اتصلت بنا، وأخبرتنا أنك في طريقك إلينا.
نقل (فؤاد) بصره بين (عمر) و (عبد الحكيم)، قبل أن يقول في جدية شديدة:
- إنني أريدكما لأمر بالغ الأهمية سأله (عبد الحكيم):
- أمر يخص ماذا؟
أجابه (فؤاد) بسرعة:
- يخص الأرض.. أرض (البنهاوي)
بدت الدهشة على وجهيهما، وتبادلا نظرة سريعة، قبل أن يقول (عمر):
- ألم أخبرك من قبل أنه من المستحيل - قانونا - السير في إجراءات الميراث، قبل عدة سنوات؟
قال (فؤاد) في لهفة منفعلة
- عندي حل لتجاوز هذا
سأله (عبد الحكيم) في دهشة:

- حقا؟!
أجاب (فؤاد) في انفعال واضح:
- نعم.. لي صديق من ذوي النفوذ، يمكنه حل هذه المشكلة، ولكن..
وصمت لحظة، نقل خلالها بصره بين وجهيهما، قبل أن يستطرد في توتر:
- ولكنه يطلب المقابل
تبادلا نظرة أخرى، ملؤها الدهشة، قبل أن يهتف (عبد الحكيم):
- أي مقابل؟!
أجاب (فؤاد) في سرعة، وكأنما يخشى لو أنتظر قليلا، أن يعجز عن قولها:
- ربع الأرض.
قفزت دهشتهما إلى ذروتها، وهما يحدقان في وجهه، فتابع متوترا:
- لقد شرح لي الأمر، وبدا منطقيا للغاية.
ونقل إليهما كل ما سمعه من (إبراهيم مكى)، دون أن يفصح عن شخصية هذا الأخير، ولم يكد ينتهي من حديثه، حتى قال (عبد الحكيم في حدة:
- من هذا الشخص بالضبط؟ أجابه (فؤاد) في عصبية:
- ليس هذا من شأنكما.. إنه يرفض الإفصاح عن شخصيته، ولن يمكنني أن أفعل.
قال (عمر) في لهجة هجومية:
- إنه شقيقك.. أليس كذلك؟
صاح (فؤاد) في توتر شديد:
- كلا.. إنه ليس هو.. أقسم لكما.. شقيقى تولى منصبًا في (سوريا)، واستقر في (دمشق)، ولا شأن له قط بهذا الاقتراح..

ثم إن شخصية صاحب الاقتراح ليست من شأنكما.. المهم هو: هل توافقان عليه أم لا؟
عادا يتبادلان نظرة طويلة، وكأن كلا منهما يستشير صاحبه، ثم قال عبد الحكيم) في حدة:
- لا شأن لي بأرض (البنهاوي).. المفترض أن أسأل (توحيده)
أما (عمر)، فقد ابتسم، وهو يقول:
- أما أنا، فيروق لي كثيرا أن أستعيد تلك الأرض، التي عانيت من أجلها الكثير.
ثم اعتدل، مستطردا في حماس:
- أنا أوافق يا أستاذ (فؤاد)
أشاح (عبد الحكيم) بوجهه، وهو يقول:
- هذا الأمر لا يروق لي.
أجابه (عمر) في حماس:
- بل هو أمر منطقي للغاية.. الأرض من حقنا كما تعلم، وكل ما سنفعله هو أننا سنحصل على حقنا، بالأسلوب الذي يناسب ظروفنا، فما المشكلة في هذا؟
تعلقت عينا (فؤاد) بـ (عبد الحكيم)، الذي استغرق في التفكير لحظات، قبل أن يقول:
- أعتقد أنك على حق.. لا توجد مشكلة.
تنهد (فؤاد) في ارتياح، إلا أن تنهيدته احتبست في صدره عندما استدرك (عبد الحكيم في سرعة:
- بل مشكلتان.
حبس (فؤاد) أنفاسه، في حين سأل (عمر) في قلق حائر:
- وما هما؟
التفت (عبد الحكيم) إليهما لحظات في صمت، ثم اعتدل بجسده كله، وهو يجيب في حزم:

- (مفيد) و (شريفة).
وكان على حق في قوله هذا..
على حق تماما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لكل مشكلة حل..
نطق (إبراهيم مكى) هذه العبارة بابتسامة كبيرة، ملؤها الخبث والدهاء، وهو يتراجع في مقعده، متطلعا إلى (فؤاد)، الذي قال في توتر شديد:
- لقد تصورت هذا، ولكن (مفيد) استنكر الفكرة بشدة، وأنا أحاول إقناعه منذ أسبوعين كاملين، أما (شريفة)، فهي تنفجر باكية، كلما فاتحتها في الأمر، ثم إنها مشغولة تماما بزميلكم هذا، الذي تقدم لخطبتها.
اعتدل (إبراهيم) في حركة حادة، وهو يقول:
- من؟! (أمجد)؟؟
أجابه (فؤاد) في حنق:
- نعم.. (أمجد).. (أمجد) الذي ظل يتردد على السراي، حتى انقضت ذكرى الأربعين لـ (حسين البنهاوي)، وفي اليوم التالي مباشرة، تقدم لخطبة (شريفة).
قال (إبراهيم)، وهو يفكر في عمق:
- ومن المؤكد أنها وافقت على الفور، فهي ترتبط به عاطفيا منذ زمن طويل.
أجابه (فؤاد)، وهو يلوح بيده ساخطا:
- بالطبع.. هي وافقت، و (مفيد) وافق، ولكن العائلة كلها رفضت الاحتفال بالخطبة رسميا، إلا بعد مرور عام على موت (حسين).

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي (إبراهيم)، وهو يقول:
- أمر طبيعى، بالنسبة لعائلة ذات انتماء ريفى قوى. ثم عاد يتراجع في بطء، مستطردا:
- ولكن هذا سيفيدنا بالتأكيد
سأله (فؤاد) في لهفة متوترة:
- كيف؟!
هز (إبراهيم) كتفيه، ومط شفتيه، وهو يجيب:
- سنضع (مفيد) و (شريفة) أمام اختيار محدود، فإما الأرض، أو خطيب الدرة المصونة، والجوهرة المكنونة.
بدا مزيج من الشك والقلق على وجه (فؤاد)، وهو يسأله:
- وكيف يمكنك إجبار (شريفة البنهاوي) على وضع خطبتها في الميزان، من أجل الأرض؟
أطل الخبث والدهاء مرة أخرى، من عيني (إبراهيم)، وهو يقول:
- يبدو أنك لم تسمع ما قلته جيدا يا (فؤاد) بك.. لكل مشكلة حل.. هل نسيت أن (أمجد) قد اختفى ثلاث سنوات في قلب (إسرائيل)، قبل أن يعود إلينا؟!
بدت الحيرة على وجه (فؤاد)، وهو يقول:
- وما الصلة بين هذا وذاك؟
اتسعت ابتسامة (إبراهيم)، وهو يقول:
- إننا جهاز شديد الحساسية يا (فؤاد) بك، وليس من السهل أن يعود أحد رجالنا إليه، بعد غياب ثلاث سنوات، إلا لو حظي بمنتهى الثقة، وباقتناعنا التام بأنه ما زال يدين لنا بالولاء.
ثم ضاقت حدقتاه، وهو يتابع بلهجة خبيثة:
- والأمران يسهل التشكيك فيهما، فثلاث سنوات فترة كافية لتجنيد شخص ما في المخابرات الإسرائيلية.. أليس كذلك؟

قالها وأطلق ضحكة قصيرة مدمجة، انتفض لها قلب (فؤاد) بين ضلوعه.
ضحكة، جعلته يبدو في عينيه أشبه بالشيطان..
شيطان الإنس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

84- واستحكمت حلقاتها..

عقد الرئيس جمال عبد الناصر) حاجبيه، وهو يراجع قائمة الأسماء الجديدة، التي قدمها له (مراد صقر)، ثم هز رأسه في عدم اقتناع، وهو يقول:

- لم يمر على من قبل اسم واحد، من هذه الأسماء يا (مراد)

أجابه (مراد) بسرعة:

- ولكنهم جميعا من أكفأ رجال الإدارة يا فخامة الرئيس

تنهد الرئيس (جمال)، وهو يهز رأسه مرة أخرى، وألقي القائمة على سطح مكتبة، وهو يقول:

- صعب يا (مراد).. من الصعب جدا أن أجد بديلا لـ (حسين البنهاوي)، فأنا أعرف هذا الشاب منذ الأيام الأولى للثورة، ولقد زرت منزله، وتناولت طعامى هناك، ويمكنني أن أمنحه ثقتى المطلقة.. أضف إلى هذا أنه ذكي، ومهذب، ولماح، ومعه لا أكون مضطرا للشرح والتفسير..

كان (مراد صقر) يشعر بالحنق والغضب، مع كل حرف ينطق به الرئيس، في مدح (حسين)، إلا أنه لم يجد غضاضة، بعد موت هذا الأخير، من أن يؤيد الرئيس قائلا:

هذا صحيح يا فخامة الرئيس.. (حسين البنهاوي) (رحمه الله)، كان أفضل وأكفأ من عمل في الإدارة، ولن يمكننا أبدا تعويضه بأي فرد آخر.

ثم خفض صوته، مستطردا:

- ولكن الضروريات تحتم وجود ضابط اتصال شخصى، بيننا وبين فخامتكم، حتى بعد رحيل (حسين البنهاوي).

صمت الرئيس (جمال) بضع لحظات، وهو يفكر في عمق، ثم رفع عينية الشبيهتين بعيني الأسد؛ ليواجه (مراد)، قائلا:

- فليكن يا (مراد).. اترك القائمة، وامنحني أسبوعا واحدا لاتخاذ القرار، فالموقف في (دمشق) يحتاج منى إلى تركيز واهتمام كاملين.
قال (مراد) في لهجة تشف عن الامتثال:
- كما تأمر يا فخامة الرئيس
ثم اكتسب صوته لهجة خاصة بالعمل، وهو يستطرد:
- وبمناسبة الحديث عن (سوريا).. هل راجعتم فخامتكم التقارير الأخيرة، الواردة من هناك؟!
أومأ الرئيس برأسه إيجابا، وأشار إلى أحد الملفات فوق مكتبه قائلا:
- كلها.. لقد قرأتها كلمة كلمة، ثلاث مرات على الأقل، وما جاء بها يثير القلق، وما يبشر بالخير أبدا، فـ (عبد الحكيم) ورجاله يتعاملون ويتصرفون هناك على نحو يستفز السوريين، ويثير المسئولين.
سأله (مراد) في حذر:
- ماذا تقصد برجال (عبد الحكيم) يا فخامة الرئيس؟ كل الذين هناك من رجالنا..
ابتسم الرئيس (جمال) في شيء من المرارة، وهو يقول:
- هذا ما يبدو ظاهريا يا (مراد).. أما الواقع، فهو يختلف كثيرا.. صحيح أن الجميع يتصورون أن (جمال عبد الناصر) هو الآمر الناهي، وصاحب القبضة الحديدية، التي تحكم (مصر) كلها، ولكن الواقع أن (عبد الحكيم عامر) هو الذي يحكم الجيش، والجيش هو اليد الباطشة، التي تملك القوة الحقيقية، ولقد أحكم سيطرته تماما على جيشنا، بعد العدوان الثلاثي.
وتنهد في عمق، قبل أن يستطرد:
- ولكنه خطئي أنا، فقد كان المفترض أن..

وبتر عبارته بغتة، وكأنما لم يجد من اللائق أن يتمها، ثم استعاد صرامته الطبيعية، وهو يرفع عينيه مرة ثانية إلى (مراد)، قائلا:
- المهم أنك ستترك القائمة.. انحنى (مراد صقر) في احترام واضح النفاق، وهو يقول:
- أمرك يا فخامة الرئيس.. هل من أوامر أخرى؟
منحه الرئيس (جمال) ابتسامة هادئة، وهو يقول في حزم بسيط:
- كلا يا (مراد).. يمكنك الانصراف.
انصرف (مراد) على الفور، وتابعه الرئيس بابتسامته، حتى غادر الحجرة، فتلاشت الابتسامة، وأطلت من عيني الأسد نظرة صارمة غاضبة، وهو يقول:
- مناورة طريفة يا (مراد)، ولكنني لست بالساذج الذي تصورتماه.. أنت ومن تعمل لحسابه، وعندما تحين اللحظة المناسبة، ستعرفان من هو (جمال).
ثم عاد يلتقط قائمة الأسماء، ويراجعها بكل دقة
وبكل هدوء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هب (مفيد) من مقعده في غضب شديد، وهو يقول لـ (فؤاد) في حدة:
- كلا يا (فؤاد).. لن أقبل هذا التهديد قط.
وانخرطت (شريفة) في بكاء حار، في اللحظة التي قال فيها (فؤاد) في عنف:
لا تتسرع في اتخاذ قرارك يأبن (البنهاوي)، ولا تتحد أو تكابر.. أنت لا تتصور مدى سطوة أولئك الذين تتحداهم.
أجابه (مفيد) في غضب:

- بل أتصور.. أتصور وأعرف جيدا يا أستاذ (فؤاد)، ولقد شاهدت ما يمكن أن تفعله هذه السطوة بنفسي، عندما كان (حسين) حيا.. وأنت تذكر هذا جيدا

هب (فؤاد) من مقعده بدوره، وهو يقول:

إذن فأنت تتحدانا علانية

أشار إليه (مفيد)، وهو يقول:

- نعم.. وأتحداك أنت شخصيا يا (فؤاد).. أنت وكل من تستند إليهم، ولن أتنازل عن شبر واحد من أرض (البنهاوي) بإرادتي.. القوني في السجن لو أردتم، أو أرسلوني خلف الشمس، كما تفعلون بكل من يعترض قراراتكم أو سياستكم، أو حتى صادروا ثلاثة أرباع الأرض، ولكنني لن أقبل صفقة حقيرة كهذه، ولن..

قاطعته (شريفة) وهي تنتحب:

- (مفيد).. كفى.. كفى يا (مفيد)

التفت إليها في دهشة، فاستطردت منهارة:

- إنك لا تقدر الموقف.. إنك تضحي – بـ (أمجد) وبى، في مقابل الأرض.

حق (مفيد) فيها بدهشة، وهو يقول:

- ماذا تقولين يا (شريفة)؟! هل توافقين على ما يقوله (فؤاد)؟!

هتفت ودموعها تتقافز مع كلماتها:

- وهل تجد حلا بديلا؟

اتسعت عيناه في ارتياع، وهي تتابع يائسة:

- إنه مستقبل (أمجد).. بل وحياته نفسها، فإما أن يعود إلى عمله، أو يحاكموه بتهمة العمل لحساب دولة أجنبية.. وما المقابل؟! الأرض.. الأرض.. التي فرقت بيننا، وصنعت كل مشكلاتنا.. لم أعد أريدها يا (مفيد).. لم أعد أريد هذه الأرض، التي ستحرمني من أملي الوحيد في الحياة.. من (أمجد)..

تألقت عينا (فؤاد) في ظفر، وهو يقول:
- تفكير ذكي وحكيم.. أهنئك على قرارك يا (شريفة).. لقد حللت نصف المشكلة.. بل المشكلة كلها.. سأتفق مع (إبراهيم) بك على أن يقبل ربع أنصبتنا جميعا، فيما عدا (مفيد).. بل ويمكننا أن نعوضه عن نصيب (مفيد) بجزء إضافي في أنصبتنا.. هذا أفضل من أن نفقد الأرض كلها بحكم القانون.
قال (مفيد) في حدة:
- وما الذي يمنعك من أن تفقدها في المستقبل أيها الذكي؟
أجابه (فؤاد) في عنف:
- تقسيم الأرض في حد ذاته يخرجها من دائرة الخطر أيها العبقري، فالقانون حدد الحد الأقصى للملكية بخمسين فدانا فحسب، ولكن (حسين) يمتلك مائتى فدان دفعة واحدة، ولو تم توزيعها على ثمانية أنصبة، ستصبح قيمة النصيب الواحد خمسة وعشرين فدانا.. أي أنك و (حافظ) سيحصل كل منكما على خمسين فدانا، في حين تحصل كل شقيقاتكما على خمسة وعشرين فدانا، وستصبح أنصبة الجميع قانونية تماما، وتتفق مع الحد الأقصى للملكية.
قال (مفيد) ساخرا:
- أضف إلى هذا أن (إبراهيم) بك هذا سيستولي على ربع القيمة
هتف (فؤاد):
- هذا أفضل من لا شيء فـ (إبراهيم) بك سيستخرج لنا شهادة وفاة قانونية لـ (حسين البنهاوي)، ولولا ذلك لانتظرنا أكثر من...
قاطعه (مفيد) في شيء من الصرامة:
- إنه (إبراهيم مكى).. أليس كذلك؟!
امتقع وجه (فؤاد)، وانتبه لأول مرة إلى أنه كشف - دون وعي منه - عن ذلك السر، الذي أكد (إبراهيم مكى) على ضرورة الحفاظ

عليه، فارتبك في شدة، وهو يقول:
- كلا.. ليس هو.. ليس هو بالتأكيد فاجأه (مفيد) بسؤاله التالي:
- (إبراهيم) من إذن
صاح به (فؤاد) في عصبية:
- لا شأن لك بهذا لسنا نريد منك شيئا.. لقد وافقت (شريفة)، وسنضحي بجزء آخر من الأرض، مقابل تجاهل عنادك وإصرارك الغبي، وبهذا تكون المشكلة قد انتهت، وال...
- ليس بعد.
قاطعته العبارة، التي نطقتها (فاطمة) في غلظة وخشونة وصرامة، فاستدار الجميع إليها في دهشة، وهي تتابع:
- (حافظ) لم يوافق بعد
حق الجميع فيها بدهشة، وهي تقف عند باب الحجرة، وقد تعلق (حافظ) بذراعها في وهن، وعيناه تتحاشيان التطلع إليهم وتتركزان على ابنه (طارق)، الذي تعلق بجلبابه، وكأنما شعر بتوتر الموقف، ثم اندفع (فؤاد) يقول في حدة
- ماذا تقولين أيتها المأفونة؟! (حافظ) سيوافق حتما على كل ما أقول.
قالت في غضب خشن:
- هذا ما تصورته يا (فؤاد) بك.. إنك لم تضع (حافظ) في اعتبارك لحظة واحدة، وأنت تعد خطتك، ولهذا لم تحاول حتى طرح الفكرة عليه.. كلا يا سيد الرجال.. (حافظ) أيضا له نصيب مساو لنصيب (مفيد)، وضعف نصيب كل من شقيقاته، وكان من الواجب أن تطلب رأيه أيضا.
صاح بها (فؤاد) في غضب:
- وما شأنك أنت بهذا؟ هذا الأمر يخص (حافظ) وحده
هتفت (فاطمة) في حدة:

- بل هو شأني وشأن ابني يا سيد الرجال، فأرض (حافظ) هي أرضنا.
قال (فؤاد) في عصبية:
- ليس في حياة (حافظ).. هيا تكلم يا رجل.. قل لزوجتك الا شأن لها بأرضك.. أنت الرجل، والقرار لك وحدك.. هيا.. قل هذا.
ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي (فاطمة)، وهي تقول:
- ماذا تنتظر يا (حافظ)؟ قل لهم ما يريدون سماعه.. قل
خفض (حافظ) عينيه أكثر، وهمهم بكلمات لم يسمعها أحد فصاح به (فؤاد):
- ارفع صوتك يا رجل
التقط (حافظ) نفسا عميقا، قبل أن يستجمع شجاعته، ويقول:
- فا... (فاطمة) هي صاحبة القرار
اتسعت عينا (شريفة) في دهشة بالغة، لم تلبث أن تحولت إلى بغض شديد، أطل من عينيها واضحا، وهي تتطلع إلى (فاطمة) بابتسامتها الساخرة، في حين انعقد حاجبا (فؤاد) في شدة، وهو يقول:
- هكذا؟!
ابتسم (مفيد) في سخرية، وهو يقول:
- أعتقد أن هذا يفسد خطتك تماما يا (فؤاد).. استدار إليه (فؤاد)، وهو يقول في حدة:
- من قال هذا؟ ثم عاد ينظر إلى (فاطمة)، مستطردا:
- كل ما في الأمر أن القرار قد انتقل من (حافظ) بك إلى (فاطمة) هانم.
أطلقت (فاطمة) ضحكة سوقية خشنة، قبل أن تقول في سخرية فظة:

- (فاطمة) هانم.. فليسترك الله يا (فؤاد) بك.. إنها المرة الأولى، في حياتي كلها، التي يخاطبني فيها أحد ما بهذا اللقب.
هتفت (شريفة) في حنق:
- وأنت لا تستحقينه بالتأكيد.
رمقتها (فاطمة) بنظرة غاضبة، وكانت تشتبك معها في مشادة كلامية أخرى، لولا أن قال (فؤاد) بسرعة:
- مهلا.. دعونا لا نضيع الوقت في هذا.. المهم الآن أن نتخذ القرار في مشكلة الأرض هذه.
ثم استطرد في شيء من اللهفة:
- والآن ما هو قرارك يا (فاطمة) هانم.. إنك توافقين بالطبع على اقتراحي.. أليس كذلك؟
تعلقت عيونهم جميعا بشفتي (فاطمة)، التي انعقد حاجباها في صرامة، قبل أن تجيب بخشونتها العنيفة:
- كلا.. لست أوافق.
برقت عينا (مفيد) في ارتياح، وأطلت دهشة عارمة من عيني (شريفة)، وأشاح (حافظ) بوجهه أكثر، في حين هتف (فؤاد) ذاهلا:
أجابته (فاطمة) في خشونة أكثر:
- كما سمعت يا (فؤاد) بك.. لست أوافق على التنازل عن شبر واحد من نصيب (حافظ) في الأرض.
هتف (مفيد) في حماس:
- أحسنت يا (فاطمة)
وصاحت (شريفة):
- وماذا عن (أمجد)؟
أما (فؤاد)، فقال في غضب:

- ماذا تقولين يا ابنة (عبد الحميد)؟ هل تتحدين أسيادك يا سليلة الحقراء؟
ضربت (فاطمة) راحتيها ببعضهما، ولوحت بهما في الهواء، قائلة:
- تعالوا وانظروا يا أهل العقل والصواب.. في لحظة واحدة أصبحت (فاطمة) هانم، وفي اللحظة التالية صرت سليلة الحقراء! هل رأيتم تخبطا كهذا؟
صاح بها (فؤاد):
- كفي عن هذه الأفعال السوقية، واسمعيني جيدا يا امرأة.. يبدو أنك عجزت عن فهم الأمر.
أجابته (فاطمة) في غلظة
- بل فهمته يا عبقري العباقرة، ولكنني لست مستعدة للتنازل عن قيراط واحد من الأرض، وإنما أفضل الصبر والانتظار، وأنا واثقة من أنك لن تقدم أبدا، أنت ومن خلفك، على اقتطاع أي جزء من الأرض، لأنكما تتطلعان إليها في طمع وجشع يفوقان طمعنا وجشعنا بعشرات المرات.
احتقن وجه (فؤاد)، وهو يقول:
- أيتها ال.. ال..
قاطعه (مفيد) في صرامة:
- إياك أن تخطئ في حقها يا (فؤاد)، فهي زوجة أخي، ولن أسمح لك بأن تمس شعرة واحدة من رأسها.
رمقته (فاطمة) بنظرة امتنان، في حين قال (فؤاد) في غضب:
- شعرة واحدة؟! هذا ما تظنه أيها المغرور المكابر.. هل تعتقد أننا لم نضع هذا الاحتمال في اعتبارنا؟! مخطئ أنت لو تصورت هذا.. إنكم تتعاملون مع عقلية فذة أيها السادة.. عقلية اعتادت أن

تدرس الأمر بكل احتمالاته، وتضع خطة متقنة، للتغلب على كل العقبات.
ابتسم (مفيد) في سخرية قائلا:
- وكيف تتغلب العقلية الفذة على هذه العقبة؟
هتف (فؤاد):
- بالجنون!
بدا الجواب عجيبًا مدهشا، فتطلع إليه الجميع في حيرة، جعلته يتابع في عصبية شديدة:
- سنتهم (حافظ) بالجنون، ونستخرج الشهادات الرسمية، التي تؤيد هذا، وعندئذ يصبح من حقنا الحجر عليه، و.
قاطعه (مفيد) غاضبًا:
- وسأصبح أنا وصيا عليه على الأرجح، بصفتي شقيقه
احتقن وجه (فؤاد)، وهو يقول:
- في هذه الحالة، لن يتبقى أمامنا سوى الحل الأخير
شحب وجه (شريفة)، وهي تقول:
- أي حل؟ انعقد حاجبا (فؤاد) في شدة وهو يقول:
- القتل.
شهقت (شريفة) في ارتياع، وهتف (مفيد):
- إلى هذا الحد
صاحت (فاطمة):
- ولم لا؟ الطمع يفعل المعجزات
قال (مفيد) في غضب شديد:
- فليكن يا (فؤاد).. سأقبل هذا التهديد، وأتحداه أيضا.. اقتلونى لو كان هذا هو الحل الوحيد، ولكنني لن أتنازل عن شبر واحد من أرض (البنهاوي)، ما دام في جسدي عرق ينبض.
صاح به (فؤاد):

- إنني أتحداك..
قاطعة هذه المرة صوت صارم، لا يمكن أن يخطنه أحدهم قط وهو يقول:
- لا تتحده يا (فؤاد).
استدار الجميع إلى مصدر الصوت في ذهول، وارتجف جسد (فاطمة) كقطة مبتلة، في حين أطلقت (شريفة) شهقة قوية، وامتقع وجه (فؤاد) في شدة، وهتف (مفيد) ذاهلا، وصاحب الصوت يتابع بنفس الصرامة القاسية:
- فلم يحن الوقت بعد للعبث بأرض (البنهاوي).
وكان صاحب الصوت هو آخر شخص يمكن أن يتخيل أحد رؤيته الان على قيد الحياة
كان (حسين):
(حسين البنهاوي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

85- العودة..

لم يصدق (مراد صقر) عينيه، وهو يحدق في (حسين البنهاوي)، الذي وقف أمامه سليما معافي، يقول في لهجة واثقة:

- من حسن حظي أن الثرى الفرنسي (جان)، كان يشعر بالقلق على صديقته الأميرة (عايدة)، لذا فقد أرسل اثنين من المخبرين الخصوصيين لمراقبتها وحمايتها، وعندما أطلق الإسرائيليون النار علينا، أمام متجرها في (باريس)، أسرع المخبران يحملاننا داخل سيارتها، ويفران بنا من مسرح الحادث.. ولقد نقلانا بأقصى سرعة الى مستشفى خاص، يمتلكه (جان)، وهناك تم إجراء عمليتين جراحيتين عاجلتين لنا، بواسطة فريق من أمهر الجراحين الفرنسيين، تم استدعاؤه بأقصى سرعة، وفي سرية تامة... ونجحت الجراحتان والحمد لله، وأنقذ الفرنسيون حياتي، وكان على أن أقضي أسبوعين في حجرة العناية المركزة، ثم شهر للنقاهة والعلاج الطبيعي، وبعدها سمح لي (جان) بالسفر، ورجاني أن أحتفظ بالأمر كله سرا، ثم وعدني بمنع (عايدة) من تكرار مثل هذا العبث الصبياني في المستقبل.

هتف (إبراهيم مكى) مبهورا:

- يا لها من قصة! إننا لم نتوقع هذا قط، على الرغم من كل التحريات التي أجريناها!

مط (حسين) شفتيه، وقال:

- هذا يؤكد دقة (جان)، ونجاحه في إحاطة الأمر بسرية مطلقة

اعتدل (مراد)، وهو يسأله في اهتمام:

- ولكن كيف كان رد فعل الجميع في قريتك، عندما وجدوك أمامهم حيا ترزق، بعد أن قدموا واجب العزاء فيك منذ أكثر من أربعين يوما؟

ابتسم (حسين)، وكأنه يسترجع الذكرى، وقال:
- الذهول طبعا.. كل من رآني أصابه الذهول، وبعضهم كان يعدو مذعورا، وكأنما رأى شبحا، في حين سقط البعض الآخر مغشيا عليه، وأقبل الباقون يصافحونني في حرارة وانبهار.. أما عن أسرتى..
وانعقد حاجباه بغتة، قبل أن يتابع:
- فقد كان أثر المفاجأة عليهم أكثر عنفا.
سأله (إبراهيم) في قلق:
- كيف؟
صمت (حسين)، وهو يستعيد المشهد في ذهنه، ويتذكر كيف انهار (فؤاد) وهو يحاول شرح الأمر وتفسير موقفه، في نفس الوقت الذي قفز فيه (حافظ) إلى كفيه، وراح يقبلها في حرارة، ويبكي في سعادة، وانكمشت (فاطمة) في شحوب، وفقدت (شريفة) وعيها، وأقبل عليه (مفيد) يعانقه في فرح طبيعى، ويتنافس مع (طارق) في غمر وجهه بالقبلات..
وتذكر كيف انتشر الخبر في القرية، فامتلأ السراى بالجميع، وعلى رأسهم شقيقاته والعمدة وشيخ الخفراء.
(عمر) وحده تخلف عن الحضور وهو يعرف السبب..
وعلى الرغم من أن ذهنه قد استعاد كل التفاصيل في لحظة واحدة، إلا أنه أجاب (إبراهيم) في برود متعمد:
- إنها أسرار عائلية.
انعقد حاجبا (مراد)، في حين تراجع (إبراهيم) في سرعة وقال دون أن يفقد ابتسامته الجامدة:
- بالطبع.. بالطبع
التقط (مراد) نفسا عميقا، ثم قال:

- حمدا لله على عودتك سالما يا (حسين).. المفروض الآن أن تقدم تقريرا بكل ما حدث، و.
قاطعه (حسين)، وهو يضع أمامه عدة أوراق، قائلا:
- ها هو ذا.. أعني أنها نسخة من التقرير الرسمي الشامل، الذي قدمته للسيد رئيس الجمهورية فور عودتى.
هتف (مراد):
- رئيس الجمهورية؟! هل ذهبت إلى سيادة الرئيس؟
أجابه (حسين) في خبث واضح:
- بالطبع.. وقبل حتى أن أذهب إلى القرية.
بدا التوتر على وجه (مراد) لحظة واحدة، أخفاه بعدها خلف قناع جامد، وهو يسأل (حسين):
- وكيف كان رد فعل سيادة الرئيس؟
ابتسم (حسين) في ثقة، وهو يجيب بلهجة ذات مغزى:
- أعظم مما توقعت.. لقد استقبلني سيادته في حرارة شديدة، وخرج بنفسه لمقابلتى، قبل أن أبلغ مكتبه، وهنأني على سلامتى وطلب مني أن أقضي إجازة قصيرة، ثم أعود لاستلام العمل في مكتبه بأقصى سرعة؛ لأنه يفتقدني كثيرا.
أخفي (مراد صقر) حنقه، خلف قناع جامد كعادته، وهو يقول:
- عظيم.. أعتقد أنك قضيت إجازتك في قريتك، والمفروض أن تعاود عملك مع الرئيس غدا.
كان يلوم نفسه بشدة، لأنه مدح (حسين) أمام الرئيس، وأكد كفاءته، دون أن يتصور أنه سيعود يوما، ليواصل إثارة غيظه وحنقه.
ويبدو أن (حسين) قد قرأ أفكاره، فقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة، وهو ينهض قائلا:

- أشكرك على حسن استقبالى يا (مراد) بك، وأستأذنك في العودة إلى مكتبي.
أشار (مراد) بيده، قائلا:
- بالطبع.. تفضل يا (حسين).. مرحبًا بعودتك إلينا.
انصرف (حسين) و(إبراهيم) من حجرة مكتب (مراد صقر) ولاذا بالصمت بضع لحظات، وهما يقطعان الممر الذي يقود إليها، ثم قطع (حسين) هذا الصمت، وهو يقول في هدوء مثير:
- بلغني أن بعضهم حاول استغلال غيابي، لتحقيق مكاسب خاصة.
تجاهل (إبراهيم) العبارة تماما، وارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتيه، قبل أن يسأل بنفس الهدوء:
- ماذا ستفعل مع (فؤاد)؟
كانا أشبه بثعلبين ماكرين، يتحاوران ويتناوران في حرفية أنيقة، و(حسين) يجيب في لا مبالاة ظاهرية، وكأنهما يتحدثان عن أشخاص آخرين:
- إنه منهار الآن، وينتظر انتقامى منه، وأفضل ما أفعله به، هو أن أتجاهله بعض الوقت، وأتركه يتعذب، فأنت تعرف المثل الشعبي، الذي يقول: وقوع البلاء أفضل من انتظاره.
سأله (إبراهيم):
- هل تعتقد أنه يستحق هذا؟
صمت (حسين) لحظة، ثم أجاب في صرامة:
- كل من يطمع في أرض (البنهاوي) يستحق ما هو أكثر من هذا.
استقبل (إبراهيم الرسالة، ولكنه أخفاها في أعماقه، وهو يقول في بساطة مدهشة:
من المؤكد أن عودتك ستعيد الكثير من الأمور إلى نصابها
شرد (حسين) ببصره لحظات، ثم أجاب في حزم:

- هذا صحيح.. الكثير من الأمور ستعود إلى نصابها.. وأشار بيده إلى (إبراهيم)، مستطردا:
- إلى اللقاء مؤقتا؛ فلدى بعض العمل في مكتبى.
قالها، واتجه إلى مكتبه على الفور، فتابعه (ابراهيم) ببصره لحظات، قبل أن يغمغم في سخرية عجيبة:
- نعم يا (حسين).. عودتك ستغير الكثير من الأمور، و.
وضاقت عيناه، قبل أن يضيف في حزم:
- ومن الخطط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رسمت ناظرة المدرسة ابتسامة كبيرة على شفتيها، وهي تتجه نحو (مفيد)، قائلة في حرارة وحماس:
- صباح الخير يا أستاذ (مفيد).. حمدا لله على سلامة (حسين) بك.. لقد أسعدنا الخبر للغاية.. حمدا لله على سلامته.
صافحها (مفيد) بابتسامة هادئة، وهو يقول:
- أشكرك يا سيدتي.. أشكرك كثيرا
كتمت (جيهان) ضحكتها، ثم أطلقتها خافتة، فور ابتعاد الناظرة، وهمست في أذن (مفيد):
- هل رأيت في حياتك كلها نفاقا أكثر وضوحا؟
ابتسم (مفيد) في بساطة، وقال:
. لقد أصبحت سمة العصر، فالناظرة جزء من المجتمع وتصرفاتها تعبير عما آل إليه حاله، بعد أن فقد إرادته، وحقه في الاختيار، وتحول إلى..
قاطعته في ضجر:

- هل ستعود إلى ذلك الحديث الممل عن السياسة، وتأثيرها في حياة المواطن البسيط؟ أرجوك يا (مفيد).. لقد سئمت هذا..
التفت إليها، دون أن تفارقه ابتسامته، وهو يقول:
- فليكن.. لن نناقش السياسة اليوم
تهللت أساريرها، وهي تقول
- ممتاز.. قل لي إذن: ما رأيك في فيلم (سعاد حسني) الجديد؟
هز كتفيه قائلا:
- لست من متابعي الحركة السينمائية.
هتفت مستنكرة:
- كيف؟! ألا تذهب إلى السينما أبدا؟!
بدت عليه إمارات التفكير، وهو يجيب:
- بل ذهبت مرتين.. أو ثلاث على الأرجح
ضحكت وهي تهتف:
- مستحيل... من أنت يا هذا؟ رجل الكهف.. السينما يا بنى هي واحدة من منع العصر..
ثم سألته في دلال:
- ما رأيك لو ذهبنا لمشاهدة الفيلم الجديد، في سينما (أمير)؟
انتبهت فجأة إلى شروده، فأدارت عينيها إلى حيث ينظر، ورأت (سوسن) تعبر ساحة المدرسة في خطوات واسعة، وتتحاشى النظر إليها، فابتسمت وقالت ضاحكة:
- أما زال قلبك يخفق، كلما رأيتها؟
أجاب شاردا:
- بلى
ثم انتفض فجأة، وتضرج وجهه خجلا، عندما انتبه إلى عبارته، واستدرك في ارتباك:
- أعني أنني.. أنه..

أطلقت (جيهان) ضحكة عابثة، وهي تقول:
- لا تضطرب هكذا.. يمكنني استيعاب مثل هذه الأمور.. ثم مالت على أذنه، مستطردة:
- وتجاهلها.
التفت إليها في دهشة، ووجد نفسه يتطلع إلى عينيها مباشرة، من مسافة لا تزيد عن بضع سنتيمترات، وهو يقول:
- ماذا تعنين؟
ارتسمت على شفتيها الجميلتين ابتسامة ساحرة، وواصلت تطلعها إلى عينيه مباشرة، وتركت أنفاسها تلفح وجهه بعطر أنوثتها الفواح، وهي تجيب في همس دغدغ حواسه كلها:
- أعني أنني لا أغار
وفي تلك اللحظة، نسى (مفيد) أمر (سوسن)..
بل نسى أمر نفسه شخصيا، ولم يعد يملأ ذهنه وعقله وحواسه سوى اسم واحد
اسم (جيهان)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هل تحبينه؟
تسلل السؤال إلى أذني (جيهان)، من بين شفتي شقيقتها، وهما ترقدان فوق فراشهما المشترك في الحجرة التي تضمها مع شقيقتهما الثالثة، وشقيقتهما الأصغر، فارتسمت ابتسامة عابثة على شفتي (جيهان)، وهي تجيب:
- وما شأن الحب بهذا؟
بدت الدهشة على وجه شقيقتها، وهي تقول:
- ألم تقولي إنك تفعلين كل ما يمكنك؛ لجذبه إليك؟

هزت (جيهان) كتفيها في استهتار، وهي تقول:
- هذا صحيح، ولكنه لا يعني أنني أحبه.. كل ما في الأمر هو أنني أراه مناسبًا لى.
سألتها شقيقتها بابتسامة كبيرة:
- لأنه وسيم؟
تألقت عينا (جيهان) الجميلتين، وهي تقول:
- بل لأنه ثري
تراجعت شقيقتها، هاتفة في دهشة
- ثري؟!
أجابت (جيهان) في لهفة شديدة:
- نعم.. ثرى.. لقد تحريت عن هذا جيدا، وسألت (سوسن) نفسها.. إنه واحد من أكبر الأثرياء في قريته، وأسرته أكبر أسرة فيها.. أسرة (البنهاوي) بجلال قدرها.
قالت شقيقتها في دهشة أكبر:
- هل اخترته فقط لأنه ثري؟!
أجابتها في حدة:
- ألا يبدو لك سببا كافيا؟ ألم تسأمي بعد تلك الحياة المتقشفة التي نحياها؟! ألم تنتابك الرغبة، ولو مرة واحدة، في شراء شيء ما، لمجرد أنك ترغبين في شرائه، دون أن تقضي يومين كاملين في مراجعة نفسك، وميزانيتك، والتفكير ألف مرة في حتمية شرائه؟! أنا كرهت كل هذا.. كرهت أن ينبت جمالي في حديقة الفقر هذه، التي تذبل فيها زهرة الفتنة نفسها.. الجمال يا شقيقتي العزيزة مثل الزهرة الرقيقة.. فإما أن يرويها المال، فتترعرع وتبرز فتنتها، أو تذبل وتنزوى، وتفقد رائحتها إلى الأبد.
حدقت فيها شقيقتها قائلة:
- من وضع في رأسك هذه الفكرة؟

هتفت (جيهان) بسرعة:
- الزمن.. الأثواب الثلاثة، التي نتبادلها بيننا، ونشكر الله على أنه جعل أجسادنا تصلح لمقياس واحد.. الحذاء اليتيم، الذي تملكه كل منا، والذي تقدم بألف شكوى، من الزمن والدهر والإصابات، التي ملأت جسمه ونعله وكعبه.. كل هذا وضع في رأسي فكرة واحدة، وهي أنني لن أقضي عمري كله في هذا الفقر.. لن أفعل..
هزت شقيقتها رأسها أسفا، قبل أن تقول:
- ومن يضمن لك أن (مفيد) هذا سيتقدم لخطبتك؟
ارتسمت ابتسامة واثقة على شفتى (جيهان)، وهي تعود للاسترخاء على فراشها، قائلة:
- من هذه الناحية اطمئني، فشقيقتك ليست مجرد معلمة بسيطة بل هي مدرسة كاملة.. مدرسة لا تفشل أبدا..
واتسعت ابتسامتها..
أكثر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ألقت الأميرة (عايدة) منفضة السجائر بكل قوتها، وتركتها ترتطم بالجدار في عنف، وهي تصرخ في عصبية شديدة:
- لم أعد أحتمل.. لقد سئمت كل هذا
صاح بها (جان) في غضب:
- رويدك يا أميرتي.. الموقف أعقد من أن يحتمل هذه التعنتات.. ثم إن كل ما أفعله هو أنني أحاول الحفاظ على حياتك.
هتفت في سخط، وهي تشعل سيجارتها:
- ولكن هذا مستحيل! إنني لم أغادر قصرك اللعين هذا منذ أكثر من شهرين.. لقد كرهت نفسي.. ما فائدة الحياة، لو لم نستمتع بكل

لحظة فيها؟
أجابها في حدة:
- ولكنني لم أعزلك عن الحياة يا أميرة الشرق.. إننا نقيم الحفلات هنا أسبوعيا، ولكن من العسير في الوقت الحالي أن تغادرى القصر.. هل نسيت ما حدث؟! هل غاب عن ذاكرتك أنك المسئولة عن كل هذا؟
صاحت، وهي تلوح بذراعها كلها:
- كلا.. لم أنس يا (جان)، ولكنني أرفض أن أخرّ ساجدة أمامك، وأقبل يديك شكرا، كل صباح ومساء.
قال في دهشة:
- ولكنني لم أطلب هذا.
صرخت في وجهه:
- ولا تكف عن تذكيري بأنني المسئولة عما حدث
هتف معلقا:
- إنها الحقيقة.. لقد تصرفت كمراهقة عنيدة، دون أدنى إحساس بالمسئولية، وتورطت في عالم لا قبل لك أو لي به، ولولا حسن حظك لقتلتك رصاصاتهم في اللحظة الأولى.
صرخت:
- ولكنني نجوت، ومن حقي أن أستمتع بالحياة، وإلا فإنني أفضل استدعاء هؤلاء القتلة مرة أخرى، ليخلصوني من سجني هذا.
رمقها (جان) بنظرة طويلة متوترة، قبل أن يقول بغتة:

- أهذه هي الحقيقة؟

نفت دخان سيجارتها في عصبية، وهي تقول:

- ماذا تعني؟

أجابها في حدة:

- أعني هل هذا فقط هو سر عصبيتك؟

حدقت في وجهه لحظة في غضب، ثم أشاحت بوجهها، قائلة في عصبية أكثر:
- وماذا غيره؟
أجابها دون أن يهتم بمشاعرها:
- رحيل (حسين البنهاوي) مثلا.
اخترقت العبارة أذنيها، وانطلقت منهما إلى قلبها، ومزقته في عنف، جعل صوتها يرتجف بين شفتيها الجميلتين، وهي تقول:
- ولماذا يضايقني هذا؟
أجابها في انفعال واضح:
- لأن حبيب القلب رحل على الفور، دون أن يحاول الاطمئنان على سلامتك، أو حتى إلقاء تحية وداع.
ثم انعقد حاجباه في شدة، وهو يضيف:
- مازلت تحبينه يا (عايدة).. أليس كذلك؟
انتفض قلبها، وتلوى ألما في صدرها، وأرادت أن تصرخ مستنكرة، وأن تعترض على كل حرف نطق به (جان)، إلا أن لسانها انعقد في حلقها، وعجز تماما عن ترديد حرف واحد بين شفتيها..
ومع تلك الدموع، التي تجمعت في مقلتيها، واحتبست ساخنة في عينيها، لم يكن أمام الأميرة السابقة (عايدة)، بكل غطرستها وكبريائها وزهوها، سوى أن تعترف بأنها - ولأول مرة في حياتها. تحب...
تحب (حسين البنهاوي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكد (مفيد) يدلف إلى السراى، في السابعة مساء، حتى استقبله صوت (حسين)، وهو يسأل في شيء من الصرامة:
- لماذا تأخرت اليوم في العودة؟
التفت إليه (مفيد) في دهشة، قبل أن يتجه نحوه، هاتفا:
- (حسين)... يالها من مفاجأة! لم أتوقع زيارتك لنا اليوم.
أجابه (حسين)، وهو يصافحه في هدوء:
- إنني أزوركم وقتما يحلو لي، فالمسافة من (القاهرة) إلى هنا تحتاج إلى ساعة واحدة تقريبا، ولكن أخبرني.. لماذا تأخرت اليوم في العودة؟ إنني أنتظرك منذ ساعتين على الأقل.
تضرج وجه (مفيد) بشيء من حمرة الخجل، وهو يغمغم.
- ذهبت إلى السينما.
ارتفع حاجبا (حسين) في دهشة، وهو يردد:
- السينما؟!
ارتبك (مفيد)، وهو يتمتم:
- نعم.. ذهبت مع زميلة لي،
ولم يستطع إتمام عبارته، فابتسم (حسين)، وهو يقول:
- أه.. فهمت.
ثم جذبه من يده، ودعاه إلى الجلوس، وهو يقول:
- على أية حال.. أنا هنا لمناقشة أمر ما معك.
سأله (مفيد) في اهتمام:
- أي أمر؟
التفت (حسين) إلى (فاطمة)، وقال في صرامة:
- اطلبي من (شريفة) الحضور، واصنعى لنا بعض الشاي.. هيا..
أسرعت (فاطمة) تتصرف لتنفيذ الأمر، ولم تمض دقيقة واحدة، حتى أتت (شريفة)، وهي تبتسم قائلة:
- هل تريدني يا (حسين)؟

أشار إليها (حسين)، قائلا:
- نعم.. اجلسى يا (شريفة).
جلست إلى جوار (مفيد)، وتعلقت عينا كل منهما بشفتي (حسين)، الذي استرخي في مقعده، وتطلع إليهما لحظة في صمت، قبل أن يقول:
- علمت أنه أثناء غيابي، ظهر (أمجد)، واتضح أنه لم يمت في (إسرائيل).
خفق قلب (شريفة) في قوة، عندما بدأ (حسين) الحديث حول (أمجد)، وارتجف جسدها وهي تستمع إليه يضيف:
- وعرفت أيضا أنه تقدم لطلب يد (شريفة)، وأنك وافقت على مطلبه يا (مفيد).
قال (مفيد) في بساطة:
- إنه شاب مهذب، ولقد رأيت أنه
قاطعه (حسين) بإشارة صارمة من يده، وهو يقول:
- لسنا بصدد مناقشة هذا الأن.. كل ما أردت أن أقوله هو فور استقرار الأمور، ومعرفتي بهذا، اتصلت بـ (أمجد)، وطلبت منه مقابلتي في مكتبي على الفور.
هوى قلب (شريفة) بين قدميها، وانتفض في هلع، وهي تقول في همس مختنق:
- ثم ماذا؟
انعقد حاجبا (حسين) في صرامة، وهو يستطرد:
- ثم أبلغته أن يعتبر الأمر وكأنه لم يكن؛ لأنه لن يتزوج (شريفة) أبدا، ما دمت على قيد الحياة.
وكانت صدمة رهيبة،
وانهارت (شريفة)
انهارت تماما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

86- الصفعة.

اقتحم (عبد الحكيم) مكتب (عمر) في مصنع النسيج، وهو يهتف في ارتياع:

- مصيبة.. مصيبة يا (عمر).

هب (عمر) من مقعده، وهو يقول متوترا:

- مصيبة؟! أية مصيبة يا رجل؟ هل يحترق المصنع؟!

ألقي (عبد الحكيم) جسده فوق أقرب مقعد إليه، وهو يلهث في انفعال، قائلا:

- بل أسوأ يا رجل.. لقد أعلنت الدولة التأميم.

صاح (عمر):

- يا للنهار الأسود! ماذا تقول يا (عبد الحكيم)؟

أجابه (عبد الحكيم)، وهو يدفن وجهه بين راحتيه:

- أقول إنهم فعلوا ما كنا نخشاه منذ زمن يا (عمر)، و (رضا العبد) يجري من مكتب إلى مكتب، محاولا تحديد موقفنا من هذا.

سقط (عمر) على مقعده، وامتقع وجهه لحظات، قبل أن يقول:

- يا رب العالمين... إذن فقد بدأت مرحلة الاستيلاء على الأموال.. كان ينبغي أن نتوقع هذا.. لقد نجحوا في تحديد الملكية الزراعية، ومن الطبيعي أن يتجهوا بعدها إلى رءوس الأموال.

قال (عبد الحكيم)، وهو يجفف وجهه بمنديله في توتر:

- المهم هو ما الذي نفعله الآن.. لقد صدرت بعض قرارات التأميم بالفعل، وعندما قابلت (رضا) منذ قليل، أخبرني أن الحكومة أممت مصانع (نايف عماد) للصابون في (طنطا)، ومصنع الكتان، وفابريقة المياه الغازية، ولا شك عندي في أن الدور يتجه إلينا.

لم يكد يتم عبارته، حتى دلف (رضا العبد) إلى الحجرة، شاحب الوجه، زائغ البصر، فسأله (عمر) في لهفة:

- ماذا وجدت يا (رضا)؟ ماذا حدث!
أجابه (رضا) في مرارة:
- كارثة يا رجل.. إنهم يؤممون كل شيء تقريبا، حتى أن صاحب كشك السجائر المواجه للمصنع يخشى أن يؤمموه أيضا.
امتقع وجه (عمر) أكثر، وهو يقول:
- لا يوجد سوى حل واحد إذن.. دعنا نبيع المصنع كله، قبل أن يقع في دائرة التأميم.
ابتسم (رضا) في مرارة، وهو يقول:
- وهل تصورت أنني لم أفكر في هذا؟ إنك لست الذكي الوحيد يا رجل.. لقد جالت الفكرة بخاطر الجميع، ولكن لا أحد يجازف بدفع قرش واحد في مصنع، قد يتعرض للتأميم في اليوم التالي.
هتف (عمر):
- يمكننا أن نعرضه للبيع بأي ثمن، حتى ولو خسرنا نصف قيمته الفعلية.
هز (رضا) رأسه نفيا في أسى، وهو يقول:
- حتى هذا أصبح مستحيلا الأن..
انهار (عمر) على مقعده، في حين راح (عبد الحكيم) يهتف:
- ولكن هذا حرام.. حرام أن نخسر كل ما صنعناه بعرقنا وكفاحنا.. لقد أنشأنا هذا المصنع الصغير بدمائنا وجهدنا، ثم تأتى الدولة لتستولي عليه هكذا، بجرة قلم.. هذا حرام.. أكبر حرام.
وضرب (عمر) كفيه ببعضهما، وهو يقول:
- عليه العوض ومنه العوض.. ضاع كل شيء.. ضاع عرق وجهد الأيام والليالي.
رفع (رضا) عينيه إليهما، وهو يقول:
- ربما لم يضع كل شيء بعد.
التفتا إليه في لهفة، وسأله (عبد الحكيم):

- هل تعتقد أنه هناك أمل، في ألا يخضع مصنعنا للتأميم؟ نقل (رضا) بصره بينهما، وهو يقول:
- نعم.. هناك أمل واحد فقط
سأله (عمر) في لهفة، كغريق يتعلق بآخر أمل في النجاة:
- وما هو؟
صمت (رضا) لحظة، قبل أن يجيب في حزم:
- سلطة (حسين).. (حسين البنهاوي).
وخفق قلب (عمر) في عنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحولت وسادة (شريفة) إلى بحر من الدموع، التي أغرقتها كالمعتاد، كما تفعل طوال الأشهر الستة الماضية.
إنها لم تستطع تقبل الأمر قط، أو الاستسلام لمصيرها، على الرغم من مرور نصف عام كامل، على رفض (حسين) لزواجها من (أمجد) للمرة الثانية.
ومنذ ذلك الحين، لم تر (شريفة) (أمجد) قط.
لقد أخبرها (حسين) أنه حذره من الاقتراب من القرية، وإلا فإنه سيحطم مستقبله تماما..
وهي لم تفهم أبدا سر هذا الرفض العدواني من (حسين).. لماذا يصر على عدم زواجها من (أمجد)؟... لماذا يعتبر الأمر نوعا من التحدي الشخصي؟!
إنها لن تنسى كلماته قط، وهو يؤكد لها أن (أمجد) ليس بالشخص المناسب لها، وأنها لن تلبث أن تنسى الأمر كله مع الوقت..
ولكنها لم تنس.. لم تنس (أمجد) لحظة واحدة..

إنها لم تكن تحتمل فراقه، عندما تصورت أنه لقي مصرعه في قلب (إسرائيل)، وظلت ذكراه تملأ قلبها، طوال ثلاث سنوات كاملة، فكيف بها الآن، وهي تعلم أنه حي يرزق، على مسيرة ساعة واحدة منها..

إنها تشتاق إليه

تشتاق إليه بشدة.....

- (شريفة).. أأنت نائمة؟!

نطقت (فاطمة) تلك العبارة في صوت خافت، أقرب إلى الهمس إلا أن خشونتها الطبيعية جعلتها أشبه بحشرجة حاكى قديم، حتى أن (شريفة) انتفضت في عنف، ووثبت من فراشها، هاتفة في سخط:

- ما هذا؟! كيف تدخلين إلى حجرتي دون استئذان؟

وضعت (فاطمة) سبابتها على شفتيها معذرة، وهي تقول:

- لا ترفعي صوتك، حتى لا نوقظ (مفيد).

شعرت (شريفة) بالدهشة، لذلك الأسلوب الذي تستخدمه (فاطمة)، ولكنها خفضت صوتها بدورها، وهي تسألها:

- لماذا؟ ماذا هناك؟

همست (فاطمة):

- الحقي بي في الطابق السفلي.. عند الحديقة الخلفية

قالتها وغادرت الحجرة في سرعة، و (شريفة) تهتف خلفها:

- لماذا؟ لماذا؟

وعلى الرغم من ارتباكها وتوترها، إلا أنها أسرعت ترتدي ملابسها، ولحقت بها عند الحديقة الخلفية، وسألتها في حدة:

لماذا أتيت بي إلى هنا؟ ابتسمت (فاطمة) في خبث، وهي تقول:

- الأستاذ طلب مني هذا؟

استدارت (شريفة) إلى حيث تشير (فاطمة)، ثم شهقت هاتفة

- (أمجد)!!
خفق قلبها في عنف، وهي تهتف باسمه، واندفعت خطوة إلى الأمام، وكأنها ستلقى نفسها بين ذراعيه، إلا أنها سيطرت على مشاعرها في اللحظة الأخيرة، فاتسعت ابتسامة (فاطمة) الساخرة، وهي تقول:
- سأعود بعد ربع الساعة.
كان تصرفا عجيبًا وغير مألوف، من شخصية مثل (فاطمة)، ولكن (شريفة) لم تضع هذا في اعتبارها، أو لم تفكر فيه قط، وهي تملأ عينيها بوجه (أمجد)، الذي بدا لها مختلفا للغاية..
لم يعد هو (أمجد) نفسه، الذي رأته منذ ستة أشهر تقريبا، في آخر زيارة رسمية للسراى..

لقد فقد الكثير من وزنه، وبدا أكثر شحوبا وتوترا، ولكن عيناه ظلتا تحملان ذلك الحب الواضح، الذي مسح به وجه (شريفة) في دقيقة صامتة، قبل أن يهمس:
- أوحشتني كثيرا
ارتجف لسانها بين شفتيها، وهي تهمس بدورها:
- أنت أكثر
ران عليها الصمت لحظات، وكل منهما يملأ عينيه وقلبه بمرآى الآخر، ثم همست هي في قلق:
- كيف أتيت إلى هنا؟ لقد أخبرني (حسين) أنه حذرك من هذا! هز رأسه في تصميم، قبل أن يجيب:
- لم أعد أحتمل.. كنت مصرا على رؤيتك والتحدث إليك، حتى ولو كان الثمن هو حياتي نفسها.
اختلج قلبها لسماع العبارة، وشعرت أنها تحبه ألف مرة أكثر من ذي قبل، فاقتربت منه خطوة، وهي تتمنى أن يختطفها إلى صدره،

ولكنه كان يتحدث في جدية شديدة، وهو يكمل قائلا:
- ولقد درست الأمر كله، وقتلته بحثا وتفكيرا، ولم أجد أمامنا إزاء إصرار (حسين) بك وتعنته وعناده، سوى حل واحد.
سألته بأنفاس مبهورة:
وما هو؟
طال صمته هذه المرة، وهو يتطلع إلى عينيها مباشرة، قبل أن يجيب في حزم:
. أن نتزوج.. سرا.
وخفق قلبها مرة أخرى في عنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتبك صوت (حافظ) الخافت، وهو يقول لزوجته في تخاذل خجل:
- على من تتنصتين يا (فاطمة)؟
أجابته (فاطمة)، وهي تختلس النظر والسمع إلى ما يحدث في الحديقة الخلفية للسراى، عبر فرجات الشيش:
- على أختك. المصون، وهي في لقائها مع رجل غريب انتفض جسده في ارتياع، وهو يهتف:
- مع من؟
لوحت (فاطمة) بيدها في غلظة، وهي تقول:
- ليس رجلا غريبًا بالمعنى المفهوم.. إنه خطيبها السابق (أمجد)، الذي منعه (حسين) من القدوم إلى هنا.
قال (حافظ) في دهشة:
- كيف جرؤ على الحضور إذن؟
التفتت إليه في حدة، ثم مصمصت شفتيها، قائلة

- أتصورت أن كل الناس ضعفاء مثلك
خفض عينيه في هوان، وهو يتمتم:
أنا.. أنا ضعيف يا (فاطمة).
هتفت في سخرية:
- بل أنا الضعيفة يا سيد البنهاوية.. أنا التي يجور الجميع على حقوقي، وأنا...
قطعت عبارتها بغتة، وانخلع قلبها لمرأى خط الدموع، الذي يسيل على خد (حافظ)، فهرولت إليه، هاتفة في ألم:
- فليقطع لساني ألف مرة.. سامحني يا (حافظ).

احتضنته في حنان عجيب، وكأنها تضم إليها فلذة كبدها، وتركت رأسه يستريح على صدرها، الذي مسح دموعه، ويدها تربت على شعره، مستطردة:
- سامحني يا أغلى زوج في الدنيا.. أنا المجرمة، التي تستحق قطع لسانها.. سامحني على ما قلت.
بكي (حافظ) في صمت، وارتج رأسه على صدرها، فمزق نياط قلبها أكثر وأكثر..
أنها تحبه..
على الرغم من ضعفه وتخاذله، تحبه.. وفي حنان، همست في أذنه
- كفي.. قل إنك سامحتني، وإلا فلن أغفر لنفسي قط
همس بصوت باك:
- إنني أسامحك دائما يا (فاطمة).
اختلج قلبها مع همسه، وضمته إلى صدرها أكثر وأكثر، وانحنت لتطبع قبلة على رأسه، عندما تناهى إلى مسامعها وقع أقدام، تتحرك في ردهة السراى، فانتزعت نفسها من (حافظ)، وهي تهتف:

- إنه (مفيد).. يا للمصيبة! سيلمح (شريفة) و (أمجد) في الحديقة الخلفية.. سأذهب لتحذيرهما بسرعة.
تركت (حافظ) في لهفة قلقة، واندفعت إلى خارج الحجرة، و. وتسمرت في مكانها في رعب هائل.. فذلك الذي سمعت وقع قدميه في الردهة، لم يكن (مفيد). لقد كان (حسين).. (حسين البنهاوي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لطمت (شريفة) خديها في رعب، عندما أبلغتها (فاطمة) الأمر، وهتفت في ارتياع، وهي تحدق في وجه (أمجد) المرتبك:
- يا للمصيبة! ياالليلة السوداء!! (حسين) هنا؟! يا لحظي الأسود.. ما الذي أتى به الليلة، وفي هذا الوقت المتأخر؟!
أجابتها (فاطمة) بسرعة:
- ليس هذا وقت إلقاء الأسئلة.. لقد رأيته دون أن يراني، فهرعت لأحذرك على الفور.. أسرع يا (أمجد) بك بالانصراف، قبل أن ينتبه إلى وجودك.
سأل (أمجد) (شريفة):
- متى أراك ثانية؟
لوحت بكفيها، وهي تقول مذعورة:
- ليس هذا وقت الاتفاق.. اذهب الآن، وسنتفق على كل شي فيما بعد.. اذهب بالله عليك.. اذهب..
أسرع (أمجد) إلى سور الحديقة الخلفي، في نفس اللحظة التي ارتفع فيها صوت (حسين)، وهو يهتف:
- (شريفة).. (مفيد).. (فاطمة).. ألا يوجد أحد هنا؟
أسرعت إليه (شريفة) بوجهها الشاحب المتوتر، وهتفت في فرح مصطنع:

- (حسين).. يا لها من مفاجأة!
انعقد حاجباه، وهو يتطلع إلى وجهها، قبل أن يسألها في صرامة:
- ماذا حدث؟ لماذا تبدين شاحبة هكذا؟ ثم ماذا كنت تفعلين في الحديقة الخلفية؟!
امتقع وجهها أكثر، واحتبست الكلمات في حلقها، وأطلت من عينيها نظرة ارتياع، كادت تفضح أمرها، لولا أن أسرعت (فاطمة) تقول:
- إنها ليلة ليلاء يا (حسين) بك.. لقد تسلل ثعلب صغير إلى حظيرة الدجاج، في الحديقة الخلفية، واختطف دجاجتين، وأصاب الأخريات بالذعر، فانطلقن في الحديقة، ولولا أن ساعدتني (شريفة) في جمعها، لأضعت الليل كله، قبل أن أنجح في هذا..
هتفت (شريفة):
- نعم.. هذا ما حدث.
أطل الشك من عينيه لحظة، ثم توارى عنهما في سرعة، وهو يقول:
- حسن.. أعدي لي قدحا من الشاى يا (شريفة)، فلقد حضرت مبكرا، قبل موعدي مع (عمر) و (عبد الحكيم).
قالت في دهشة:
- ألديهما موعد معك هنا؟
هز كتفيه، وقال:
- لقد اتصلا بي في شقتي في (القاهرة)، وقالا: إنهما يريدان مقابلتي لأمر هام وعاجل، فوجدتها فرصة مناسبة لزيارتكم، وطلبت منهما مقابلتي هنا في السراى.
خفق قلبها، وهي تقول:
- خيرا فعلت.. سأعد لك الشاى فورا.
هتفت (فاطمة) في حماس:

- دعيه لي.. سأعده أنا.
صاح بها (حسين) في صرامة:
- كلا.. اتركى (شريفة) تعده، فأنا أريده نظيفا.
احتقن وجه (فاطمة)، وتصاعد داخلها الشعور بالمهانة وأسرعت (شريفة) تقول:
- بالطبع.. بالطبع.. تعالي لتساعديني يا (فاطمة)
ثم همست في أذنها، وهي تجذبها معها إلى المطبخ:
- أشكرك يا (فاطمة).. أشكرك كثيرا.
غمغمت (فاطمة) بأسلوبها السوقي، وخشونة ألفاظها المعهودة:
- المهم أن يجدي هذا.
وما أن اختفيتا داخل المطبخ، حتى ظهر (مفيد)، وهو يهبط من الطابق الثاني، هاتفا بابتسامته التلقائية البسيطة:
(حسين)؟! أهلا يا (حسين).. مرحبًا بك.. يا لها من مفاجأة!
صافحه (حسين) في لا مبالاة، وهو يسأله:
- مفاجأة! ألم يخبرك (عمر) و (عبد الحكيم) أنني سأقابلهما هنا الليلة!؟
أجابه (مفيد):
- كلا.. لم يفعلا.. لقد عدت متأخرا، ولم تكن هناك فرصة لألتقي بها.
ابتسم (حسين)، وهو يسأله
- أهي السينما مرة أخرى؟
تضرج وجه (مفيد) بحمرة الخجل، وهو يغمغم:
- نعم.. إنها هي.
جلسا على مقعدين متجاورين، وتراجع (حسين) في بطء، وهو يتطلع إلى (مفيد) في صمت، دام عدة ثوان، قبل أن يسأله:
- أهي جميلة؟

هرب (مفيد) بعينيه من مواجهته، وهو يقول:
- السينما؟!
أطلق (حسين) ضحكة قصيرة، ثم مال نحوه، وهمس في أذنه:
- بل رفيقة السينما.
تضاعفت حمرة الخجل في وجه (مفيد)، فعاد (حسين) يتراجع، وهو يبتسم قائلا:
- عجبًا... أراهن أنك أكثر حياء منها
اندفع (مفيد) يقول فجأة
- اسمها (جيهان)، وهي زميلتي في المدرسة، و.
قاطعه (حسين) ضاحكا:
- هذا يكفيني.. لقد سئمت جمع المعلومات ثم مال نحوه ثانية، مضيفا بغمزة ضاحكة:
- المهم أنها تروق لك
تطلع إليه (مفيد) في دهشة، وقد أثارت تلك البساطة، التي يعالج بها الأمر حيرته، وهو الذي اعتاد ميل (حسين) إلى تعقيد أبسط الأمور، ولكنه لم يشأ مناقشة هذا الأمر معه، فنقل دفة الحديث بسرعة، وهو يقول:
- قل لي يا (حسين): ما هذه التأميمات، التي يتحدثون عنها؟
هز (حسين) كتفيه، وهو يجيب:
- إنها سياسة جديدة، تنتهجها الدولة، لمنع الاحتكارات، والسيطرة على غلاء الأسعار.
رد مفيد:
- وهل تعتقد أن انتزاع الملكيات بدون وجه حق، سيحقق للدولة التوازن الاقتصادي الذي تنشده؟! أليس الأفضل أن تبذل الدولة قصارى جهدها، لتخفيض الإنفاق أو ترشيده؟
عقد (حسين) حاجبيه في صرامة، وهو يقول:

- لا شأن لي أو لك بسياسات الدولة أو قراراتها.
هتف (مفيد)، في شيء من الحدة:
- من قال هذا؟ كل مواطن في (مصر) له شأن بالسياسة أو القرارات، التي تتخذها الدولة.. كل مواطن يدفع ثمن أي قرار عشوائي غير مدروس.
بدا الغضب على وجه (حسين)، وهو يقول:
- لن نناقش هذا الأن
واصل (مفيد)، وكأنه لم يسمع اعتراض (حسين):
- الدولة تتخذ قرارا بالتأميم، فيتحول مواطنون فجأة من أصحاب مؤسسات وشركات إلى عاطلين وضائعين، وتهتز الثقة في اقتصاد البلد، فتنخفض قيمة عملتها، وتقل قدرتها الشرائية، ويتأثر بهذا كل المواطنين، ثم تقول لي: إنه لا شأن لنا بسياسات أو قرارات الدولة!؟
قال (حسين) في حدة:
- أصمت يا (مفيد)
ومرة أخرى تجاهل (مفيد) القول، وتابع في حدة أكثر:
ثم لماذا تؤمم الدولة المصانع والشركات؟ لماذا لا ترفع الضرائب على أصحابها مثلا، وتتركهم يديرونها؟ ولماذا لا...
وفجأة أخرسته صفعة قوية، رنت في البهو كله.. صفعة أعقبها صوت (حسين)، وهو يصرخ ثائرا:
- قلت: اصمت.. ألا تفهم أبدا؟
واحتقن وجه (مفيد) في شدة، وبدا من الواضح أنه سينقض على (حسين)، وسيشتبك معه في معركة عنيفة، و.
وخطيرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

87- شركاء..

- يا للسخافة!...

هتفت الأميرة (عايدة) بالكلمة في سخط عنيف، جعل صديقها (جان) يسألها في ضجر:

- ماذا هناك هذه المرة؟!

أجابته في عصبية:

- ذلك الحقير (حسين البنهاوي).. إنه يتجاهلني تماما.. تصور أنني أرسلت إليه ثلاث برقيات حتى الآن، أطلب منه فيها الحضور إلى (باريس) دون أن أتلقى منه ردا واحدا.

ابتسم (جان) في سخرية، وهو يقول:

- ماذا تنتظرين من شخص، كدت تدمرينه بعبثك الأهوج، وعدم تقديرك للمسئولية؟

قالت في حدة:

- كنت ألقنه درسا فحسب

قال في غضب:

- حقا؟! ومتى كنت تتوقعين أن ينتهي الدرس؟ عندما يوضع عنقه تحت المقصلة؟!

قالت محتدة:

- لا توجد مقصلة عندنا في (مصر).. ثم إنني لن أضيع عمرى في سماع تأنيبكم هذا لي..

زفر في ضجر، وأشاح بوجهه عنها دون تعليق، وتركها تنفث حسم غضبها مع أنفاسها المتلاحقة، وتتحدث إلى نفسها بصوت عال، قائلة

- المفترض أن يتجاوز الموقف، ما دام كل شيء قد انتهى على خير.. من الضروري أن يدرك أنني فعلت كل هذا لأنني أحبه.

غمغم (جان) في سخرية عصبية:
- هذا يذكرني بقصة الرجل، الذي قتله دبه، من شدة حبه له.
التفتت إليه في حدة، قائلة:
- كف عن تعليقاتك السخيفة هذه
قال في غضب:
- إنني داخل قصرى، ومن حقي أن أفعل كل ما يروق لي فيه
صرخت:
- هل تطردني يا (جان)؟
ضرب كفا بكف، وهو يقول:
- هل سمعتني أقول هذا؟
كانت كعادتها، تقلب الأمور كلها رأسا على عقب، وتقفز من ساحة قتال، تخشى الهزيمة فيها، إلى حلبة جديدة، تضع هي قواعدها وقوانينها..
وبأسلوب أنثوي خبيث، وبدقة مدروسة، أطلقت لدموعها العنان، هاتفة:
- ليس هكذا تعامل أميرة سابقة ثم انفجرت باكية، وراحت تنتحب في صوت مسموع، فزفر (جان) في توتر، وتراجع عن ثورته، شأن أي سيد مهذب، في مثل هذه الظروف، وربت على كتفها في رقة، قائلا:
- إنني أعتذر.. لم أكن أقصد هذا.
ارتسمت في أعماقها ابتسامة ظافرة كبيرة، ولكنها واصلت دموعها لحظات أخرى، ثم تركتها تجف بسرعة، وهي تقول في صوت أحسنت تهدجه:
- لا بأس.. لا بأس..
ثم سألته في اهتمام مباغت، وكأن انفعالاتها كلها قد تلاشت دفعة واحدة:

- قل لي: أما زلت ترتبط بصلة صداقة، مع هؤلاء السينمائيين؟
بدا له السؤال عجيبا، لا صلة له بحديثهما، فأجاب في دهشة حائرة:
- بلى.. ماذا تريدين منهم؟
ارتسمت على شفتيها ابتسامة خبيئة، وهي تشير بسبابتها وإبهامها، قائلة:
- خدمة بسيطة.
أدرك لحظتها فقط أن (عايدة) لم تتعلم من الدرس، ولم تستوعبها أخطاء المرة السابقة، ومازالت تخطط للعبة جديدة..
لعبة شيطانية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

للوهلة الأولى، ومع ذلك المزيج الذي فار في أعماقه، من الغضب والمهانة، تحرك (مفيد) في عنف، وكأنه سينقض على (حسين)، ويرد إليه صفعته..
ولكن في نفس اللحظة، وصلت (شريفة)، حاملة قدح الشاي وما أن رأت نظرة الغضب، المطلة من عين شقيقيها، حتى أطلقت شهقة قوية، أطاحت بكل ما كان يندفع إليه (مفيد)، فتسمر في مكانه، وأدهشه أنه فكر، ولو لحظة واحدة، في رد الصفعة لشقيقه الأكبر، فتصاعدت مشاعره كلها إلى رأسه، وتفجرت في عينيه اللتين اغرورقتا بالدموع، التي تجاهلها (حسين) تماما، وهو يقول في صرامة غاضبة:
. إياك أن تعارض سياسات الدولة في هذا السراى.
اختنق (مفيد) بكلماته، وهو يقول في حدة:

- هذا أبسط حقوق المواطن، في أي بلد حر.. أن ينتقد سياسة بلده، بدافع حب الوطن، والغيرة على مصالحه.
لوح (حسين) بذراعه كلها، هاتفا:
- كلام نظري بحت.. لو أنك استخدمت حقك المزعوم هذا، فقد يؤدي هذا إلى نتائج وخيمة.. ليس بالنسبة لمستقبلي فحسب، ولكن بالنسبة لمستقبل عائلة (البنهاوي) كلها.
قال (مفيد)، وقد جند كل مشاعره وانفعالاته للتصدي لشقيقه:
- ولكنني لم أعلن رأيي هذا في ندوة عامة، ولا في مؤتمر شعبى.. إنني أقول رأيي بكل حرية، في المكان الذي أقيم فيه.
صاح (حسين):
- ولو.. الجدران لها آذان كما يقولون.
قال (مفيد) في عناد وتحد:
- جدران سراى (البنهاوي) كلها صماء، ولا أحد يمكنه معرفة ما يدور خلفها.
!

ابتسم (حسين) في سخرية عصبية، وهو يقول:
- أهذا ما تظنه أيها العبقري؟! سلني أنا عن معرفة ما يدور خلف الأبواب المغلقة.. لم تعد هناك موانع في هذا العصر يا ذكى.. لقد علمنا عملنا كيف يمكننا التجسس على رئيس الجمهورية نفسه لو أردنا.. إننا نسمع دبيب النمل، ولدينا تسجيلات لكل مسؤول في (مصر)، وكل شخص يشتبه في معارضته للنظام.
اتسعت عينا (مفيد) في ارتياع، وهو يقول:
- رباه... أهذا ما آل إليه الأمر في (مصر)؟! هل أصبحتم مجرد أداة ضخمة لهتك ستر الجميع؟! أفي هذا المجال وحده تبرزون قوتكم.

هتف (حسين) في حدة:
- هذا المجال بالغ الأهمية، لكل كيان ناشئ جديد.. ثم إنه ليس كل عملنا، فنحن نحمي هذا الوطن، في الداخل والخارج، ويوما ما سيسمحون بنشر بعض أعمالنا، وسيعلم الجميع كم من الأبطال يعملون باسم (مصر) ولمصلحتها في صمت.
قال (مفيد) في مرارة:
- ولكنكم تفسدون عملهم بتجاوزات لا مبرر لها.
لوح (حسين) بذراعه، قائلا:
- أنت لا تفهم شيئا.. لا تفهم شيئا على الإطلاق.
ومع آخر حروف عبارته الأخيرة، تنحنح (عبد الحكيم) عند الباب، وقال:
- معذرة.. هل نقاطع حديثا هاما؟ التفت (حسين) في حسم، ليواجه (عمر) و (عبد الحكيم) و (رضا العبد)، الذين قادتهم (شريفة) إلى حجرة الاستقبال، وقال:
- مطلقا.. إنها بعض الفلسفة السياسية، التي يثرثر بها شقيقى الأصغر، بين الحين والحين، دون أن يفهم مضمونها جيدا.
ثم التفت إلى (مفيد) في صرامة، مستطردا:
- ثم إنه سيصعد إلى حجرته على الفور، فقد حان موعد نومه.
احتقن وجه (مفيد) في شدة، وعاوده شعوره بالغضب والمرارة، وخيل إليه أن الدموع ستنفجر من عينيه، فاستدار دون أن يصافح الضيوف، واندفع إلى حجرته، وهم يتابعونه في اشفاق، حتى قال (حسين) بصوته القوى، ولهجته الآمرة التقليدية:
- تفضلوا بالجلوس.
جلس الثلاثة أمامه في ارتباك، واسترخي هو في مقعده، وهو يرمق (عمر) بنظرة ظافرة، قبل أن يقول:
- أخيرا دخلت السراي، وأنا على قيد الحياة يا (عمر).

مط (عمر) شفتيه، وانعقد حاجباه لحظة، ثم غمغم في حنق:
- أبقاك الله لنا يا (حسين) بك.
ابتسم (حسين) مزهوا، وأدار عينيه إلى (رضا)، قائلا:
- أنت إذن (رضا العبد).. ابن (على العبد)، شريك زوجى شقيقتي في مصنع الغزل والنسيج في المحلة.. أعتقد أنك متزوج من ابنة الحاج (مرسى)، ولك منها ولد وبنتان، وتقيم في... أه.. لا داعي لكشف كل ما لدي دفعة واحدة.. فلنؤجل الباقى لحين الحاجة إليه.
شحب وجه (رضا)، وازدرد لعابه في صعوبة، ونجحت مناورة (حسين) في التأثير على ثقته ومعنوياته، وهو يغمغم:
- أنا رهن إشارتك يا (حسين) بك.
استرخي (حسين) في مقعده أكثر، ودار بعينيه الظافرتين في وجوه الثلاثة، قبل أن يقول:
- حسن.. ما الذي كنتم تريدونني بشأنه؟
تبادلوا نظرة قلقة، قبل أن يقول (عبد الحكيم): - نحن هنا طمعا في كرمك يا (حسين) بك
سأله (حسين) في برود:
- بشأن ماذا؟!
ازدرد لعابه في صعوبة، قبل أن يجيب:
- بشأن التأميمات
انعقد حاجبا (حسين)، وهو يردد
- التأميمات؟
وفجأة، اندفع (رضا) يقول:
- سأشرح لك الأمر بكل صراحة يا (حسين) بك.. لقد بلغتنا أخبار حملة التأميمات، التي تنتشر بسرعة في (مصر)، ولقد أخبرني أحد أصدقائي، أن الرئيس (جمال عبد الناصر) قال بنفسه: إنه لو اضطره الأمر لتأميم المحال التجارية الصغيرة، فلن يتردد عن

فعل هذا، وثلاثتنا ندرك أن مصنعنا سيخضع، إن عاجلا أو آجلا للتأميم.
اعتدل (حسين)، وراح عقله يعمل في سرعة، وهو يسأل:
- وما المطلوب مني إذن؟
ارتسمت ابتسامة مضطربة على شفتي (رضا)، وهو يقول:
- المطلوب من سعادتك أن تستخدم شيئا من سلطاتك، لمنع السادة زملائك من تأميم مصنعنا، الذي أنفقنا على إنشائه مدخرات عمرنا كله.. ستتخرب بيوتنا لو أمموه يا (حسين) بك.. أرجوك
شعر (عمر) بغصة في حلقه، مع توسلات (رضا) واستعطافه، ولكنه لم يتدخل، أو يحاول منعه، وإنما اكتفى بالإشاحة بوجهه بعيدا، في نفس الوقت الذي كان فيه عقل (حسين) يعمل بسرعة الصاروخ..
إنه يعرف الكثير عن التأميمات وقوانينها، وقواعدها التي وضعها الرئيس (جمال) بنفسه، ويدرك جيدا أنها لن تمتد إلى مثل هذه المصانع الصغيرة على الأرجح..
ولكن هؤلاء الثلاثة يجهلون هذا.. يجهلونه إلى الحد الذي يمنحه امتيازا ضخما في تعامله معهم... امتيازا، ينبغي له أن يحسن استغلاله وإلى أقصى حد..
وفي هدوء ظاهرى، يتنافى مع البركان الثائر في أعماقه، شبك (حسين) أصابع كفيه أمام وجهه، وقال:
- التأميم قرار سياسي، ومن الطبيعي أن يمتد إلى كل المصانع والمنشآت.
هوت قلوبهم بين أقدامهم، ولهث (عبد الحكيم) في انفعال، في حين أطلق (رضا) شهقة مذعورة، فاستدرك (حسين) في سرعة:
- إلا إذا.

وثبت قلوبهم إلى موضعها، مع ذلك الاستدراك، وسأله عبد الحكيم) في لهفة:
- إلا إذا ماذا؟
جال (حسين) ببصره في وجوههم في بطء متعمد، وطال صمته، حتى يدفع أكبر قدر من التأثير في عروقهم، قبل أن يجيب:
- إلا إذا كان أحد الشركاء من ذوي النفوذ.
انعقد حاجبا (عمر) في شدة، وأفلتت من عينيه نظرة غضب وبغض، وارتسمت الحيرة على وجه (عبد الحكيم)، في حين سأل (رضا العبد) مرتبكا:
- ماذا تعني يا (حسين) بك؟
أجابه (حسين)، وهو يسترخي في مقعده، ويضع إحدى ساقيه فوق الأخرى، في استهتار واضح:
- أعني أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ مصنعكم من التأميم، هو أن أصبح شريكا لكم فيه.
تفجر غضب الدنيا في أعماق (عمر)، فاندفع يقول في حدة:
- إذن فهذا هو الثمن!
أما (رضا) و (عبد الحكيم)، فقد شحب وجهاهما في شدة وتمتم الأخير:
- ألا يوجد حل آخر يا (حسين) بك؟
هز (حسين) رأسه نفيا في بطء، قبل أن يقول في صرامة:
- هذا هو الحل الوحيد.
ازداد شحوب وجه (رضا)، ودفنه بين كفيه، في حين همهم (عمر) بكلمات غير مفهومة، وقال (عبد الحكيم):
- هل يمكنك أن تمنحنا مهلة للتفكير؟
أجابه (حسين) في لا مبالاة:

- خذ كل الوقت الذي تحتاجه، ولكن حذار أن يطول تفكيرك، فمنع تأميم المصنع أسهل بكثير من إلغاء قرار تأميمه.
تبادل الشركاء الثلاثة نظرات محبطة بائسة، قبل أن يغمغم (عمر):
- ليس أمامنا سوى الموافقة، فخسارة ربع الأرباح، أفضل من خسارة المصنع كله.
رفع (حسين) سبابته، وهو يقول:
- لحظة يا سادة.. من الواضح أنه هناك سوء فهم ينبغي توضيحه، قبل أن تتخذوا قراركم، فأنا لن أصبح شريكا بالربع.
اضطربت ملامحهم، و (رضا) يسأله في خفر
- كم تطلب إذن؟
استنشق (حسين) نفسا عميقا، قبل أن يقول في حزم:
- النصف.. نصف المصنع
وهوت قلوبهم مرة أخرى
بين أقدامهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

88- وأطبق الفخ..

تسللت (جيهان) على أطراف أصابعها، من خلف (مفيد)، حتى أصبحت على مسافة ربع المتر منه، فمالت على أذنه، وهمست:

- حذر.. من أنا؟

انتفض لحظة، قبل أن يلتفت إليها، ويبتسم في بساطة، قائلا

- صباح الخير يا (جيهان).

سألته ضاحكة:

- هل أفزعتك؟

أجابها ولهجته تحمل نبرة ضيق خفية:

- كلا.. لقد أخرجتني من شرودى فحسب.

سألته في اهتمام:

- فيم كنت تفكر؟

صمت لحظة، وهو يسرح ببصره بعيدا، قبل أن يقول

- في أشياء كثيرة.

تطلعت إليه في تساؤل، ثم قالت:

- أعتقد أنها ليست بالأشياء السارة

أومأ برأسه إيجابا، وهو يقول:

- هذا صحيح

تحركت عمدا، لتلصق شيئا من جسدها بجسده، وتهمس في أذنه مباشرة:

- هل ترغب في أن تروى لي شيئا منها؟

تنهد في عمق، وقال:

- بالتأكيد يا (جيهان)، وربما يزيح هذا شيئا من الحزن عن قلبى..

وراح يروى لها ما حدث بين (حسين) وزوجي شقيقتيه منذ أسبوعين كاملين، وانتهى من قصته، قائلا:

- وفي النهاية، وبعد أن انهار (رضا العبد)، وكاد يصاب بأزمة قلبية، ومع توسلات (عمر) و (عبد الحكيم)، وافق (حسين) على أن يحصل على ثلث المصنع، مقابل منع قرار تأميمه.. أو التوسط لفعل هذا بمعنى أدق.

كان يتوقع منها تآزرا أو تعاطفا، ولكنه فوجئ بها تقول في حماس:

- رائع

رد في دهشة بالغة:

- رائع؟! وما الروعة في هذا؟

أجابته في حماس:

- لقد أحسن شقيقك (حسين) استغلال الموقف كله لصالحه، وفي الوقت نفسه منحهم الأمان الذي ينشدونه، وفي رأيي أنها صفقة عادلة.. ثلث المصنع مقابل عدم تأميمه.. ولو أردت رأيي، فهم الرابحون في النهاية.

قال مستنكرا:

- الرابحون؟! وكيف هذا بالله عليك؟ لقد خسروا ثلث مشروعهم، دون ذنب جنوه!!

قالت بنفس الحماس:

- كان من الممكن أن يخسروه كله.

هز رأسه نفيا في قوة، وقال:

- خطأ.. لقد خدعهم (حسين) في الواقع، فبعد توقيع عقود المشاركة الجديدة، وبعد أن أصبح يمتلك ثلث المصنع بالفعل، اكتشف الثلاثة أن الدولة لا تفكر في تأميم المصانع الصغيرة مثل مصنعهم وأن كل رفاقهم، الذين يمتلكون مصانع مماثلة، لم يتعرضوا لذلك.

ضحكت في جذل، قبل أن تقول:

- وهذا يثبت أن شقيقك هذا عبقرى أجابها في حدة: - بل يثبت أنه مخادع
تطلعت إليه لحظة، وقالت:
- لماذا يحنقك هذا؟ إنه أمر بينه وبينهم.
قال في مرارة:
- بل هو أمر يمس شرف وكرامة عائلة (البنهاوي) كلها
قالت في دهشة:
. لماذا؟ شقيقك (حسين) شخص مستقل بذاته، وهو يحيا في (القاهرة) كما أخبرتني، ويعمل لصالح أسرته.. أعني زوجته وأولاده، و.
قاطعها في ضيق: (حسين) لم يتزوج بعد
ارتفع حاجباها في دهشة، وهي تهتف:

- عجبًا!! ولماذا لم يفعل؟ إنه في موقع ممتاز، ولديه شقة فاخرة كما وصفتها، في حي (جاردن سيتى)، ودخل كبير من وظيفته الحساسة، وإيراد أرضه في القرية، ولست أعتقد أنه قبيح الوجه، أو غليظ اللسان، فما الذي يمنعه من الزواج؟

ابتسم في سخرية مريرة، وهو يقول:

- طموحه.. أنت لا تعرفين (حسين).. كل شيء في الوجود يتراجع أمام طموحه اللامحدود.. أنا واثق من أنه حتى لم يفكر في الزواج، حتى هذه اللحظة.
هزت كتفيها، قائلة:
- ربما لم يجد الزوجة المناسبة بعد
تنهد قائلا
- ربما.. أو أنه
بتر عبارته بغتة، وتعلقت عيناه بـ (سوسن)، التي عبرت الساحة في خطوات سريعة، متحاشية النظر إليهما، فضحكت (جيهان)، وهي تجذب ذقنه بسبابتها، قائلة:
- إياك أن تنظر إليها وأنا معك.
انتزع عينه من (سوسن) في صعوبة، واستدار يتطلع إلى (جيهان) في دهشة..
كيف يمكنها أن تضحك، في موقف كهذا؟
إن كل تصرفاتها معه تشير في وضوح إلى أنها تحبه، وعندما تحب المرأة، فهي تشعر بالغيرة حتما، إذا ما نظر من تحب إلى أخرى..
وخاصة لو كانت هذه الأخرى حبه القديم.. ولكن (جيهان) تضحك.. تضحك وكأنها لا تحمل له في قلبها ذرة واحدة من الحب..
وقبل أن يتمادى في دهشته وأفكاره، قالت (جيهان)، وهي تتطلع بعينيها الجميلتين إلى عينيه مباشرة:
. أعلم أنها كانت خطيبتك فيما مضى، ولكنني أثق في نفسى، ومالت نحوه أكثر، حتى غاب في نشوة عطرها، وهي تستطرد هامسة:
- وفي حبك لي.

أسكرته أنفاسها الحارة، وخلب جمالها لبه مرة أخرى، فوجد نفسه يقول في همس مضطرب، وجسده كله يرتجف:
- (جيهان).. أريد زيارتك في منزلك
تراجعت في حركة حادة، وهي تقول في دهشة:
- في منزلي؟!
أجاب في لهفة وسرعة:
- نعم يا (جيهان).. أريد أن أحضر لزيارتكم، حتى.. حتى أطلب يدك من والدك.
تألقت عينا (جيهان) في قوة، ووثبت إلى شفتيها ابتسامة كبيرة ظافرة، لتعلن أن الفخ الذي صنعت في صبر ودقة وإحكام قد اكتمل، وأطبق على الصيد المنشود..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكد (حسين) يصل إلى مكتب رئيس الجمهورية، في ذلك الصباح، حتى استقبله سكرتيره الخاص، قائلا في لهفة:
- أهلا أستاذ (حسين).. سيادة الرئيس طلب رؤيتك في مكتبه فور وصولك.
سأله (حسين) في قلق:
- أهو أمر عاجل إلى هذا الحد يا (محمود) بك؟
لوح السكرتير بيده في جزع، قائلا:
- لا تستخدم هذه الألقاب هنا يا أستاذ (حسين).. أرجوك سيادة الرئيس يبغض هذا تماما.
ثم دفع (حسين) في رفق، نحو باب حجرة مكتب الرئيس، مستطردا:
- المهم الآن أن تقابل سيادته على الفور، كما أمر.

دلف (حسين) إلى الحجرة على أطراف أصابعه، وتعلق بصره في دهشة وحيرة برئيس الجمهورية، الذي جلس خلف مكتبه، وأسند مرفقية إلى سطح المكتب، وغاص بوجهه بين راحتيه، على نحو يوحي بالإرهاق والإحباط، فتنحنح مغمغما:

- صباح الخير يا سيادة الرئيس

رفع الرئيس (جمال) عينية إليه، وقال:

- أهلا يا (حسين).. تعال.. إنني أنتظرك منذ فترة

تقدم منه (حسين)، وتطلع إليه في اهتمام، وهو يستطرد:

- الأحوال تتردي أكثر وأكثر في (سوريا) يا (حسين) والمشكلة أنه لم يعد بإمكاني السيطرة عليها.

قال (حسين) في دهشة:

- كيف يا سيادة الرئيس؟! يكفي أن تصدر أوامرك، و.

قاطعه الرئيس في ضيق:

- لا تردد هذا القول يا (حسين).. لا تتحدث على النحو نفسه، الذي يتحدث به أي مواطن عادى، يتصور أن (جمال عبد الناصر) هو الكل في الكل.. المفروض أن تعلم، بحكم موقعك، أن البلد قد انقسم فعليا إلى قسمين.. أنا وخلفي الشعب البسيط، و (عبد الحكيم)، وخلفه الجيش، بكل أسلحته ومعداته.

قال (حسين) في حماس:

- لن يصمد الجيش أمام الإرادة الشعبية يا سيادة الرئيس.

ابتسم الرئيس وتنهد، قبل أن يقول:

- فكرة رومانسية أنيقة يا (حسين)، ولكنها نظرية أكثر منها واقعية.

أجابه (حسين)

- ولكنها تحققت بالفعل يا سيادة الرئيس.. في الثورة الفرنسية على الأقل.

قلب الرئيس كفه، وهو يقول في أسف:
- لست أنكر احتمالات نجاح هذا، ولكنه يحتاج إلى ظروف خاصة، وإلى فتيل قوى، ينجح في تفجير طاقات الشعب وحماسته وليس في الظروف العادية.
ثم أعتدل في مقعده، مستطردا في حزم:
- المهم.. دعنا من كل هذا الان، واستمع إلى جيدا
أجاب (حسين) في حماس:
- كلي آذان مصغية يا سيادة الرئيس
قال الرئيس:
- لست أثق كثيرا في تلك التقارير، التي ترد إلى من (سوريا)، وكلي ثقة في أن الأحوال هناك أكثر تدهورا مما تبدو، و (مراد صقر) يميل كثيرا إلى (عبد الحكيم)، وأعتقد أنه يخفي بعض التقارير، التي تسيء إلى هذا الأخير ورجاله، ولذلك أريد منك أن تسافر بنفسك إلى (دمشق)، وأن تجمع أكبر قدر من المعلومات عن الأوضاع هناك، ثم تعود إلى هنا، خلال أسبوعين فحسب، لتنقل إلى الموقف كله.. هل يمكنك هذا؟
أجابه في حماس شديد:
- بالطبع يا سيادة الرئيس.
تراجع الرئيس (جمال) في مقعده، وهو يقول في ارتياح:
- عظيم.. (محمود) سيرتب لك كل شيء، وسيكون عليك أن تسافر إلى هناك مساء اليوم.
قال (حسين) في سرعة:
- أنا مستعد للسفر إلى هناك فورا يا سيادة الرئيس.
ابتسم الرئيس، وهو يقول:
- حاول أن تؤدي مهمتك على أكمل وجه يا (حسين)، وإذا ما نجحت فيها، سيكون لك شأن كبير في عملك.. وهذا وعد.

امتلأت نفس (حسين) بالنشوة، والعبارة تتردد في أذنيه، طوال طريق العودة إلى منزله..
لقد أصبح من الضروري أن يبذل قصارى جهده، لينجح في تلك المهمة في (سوريا).
ليس من أجل وطنه فحسب، ولكن من أجل نفسه أيضا.
لقد وعده الرئيس بترقية كبيرة، وهذا يتناسب مع طموحاته وتطلعاته..
يتناسب تماما.
ولم يفارقه شعور النشوة هذا، حتى بعد أن وصل إلى منزله في جاردن سيتي)، وراح يعد حقيبة السفر ثم ارتفع رنين الهاتف..
وفي حركة سريعة، انعكست عليها انفعالاته، اختطف (حسين) سماعة الهاتف، وهو يقول:
- حسين البنهاوي).. من المتحدث؟
أتاه صوت (مفيد)، وهو يقول في حياء عجيب:
- إنه أنا يا (حسين).. هل.. هل اتصلت في موعد مناسب؟
هتف (حسين) في حرارة:
- (مفيد)؟ أهلا بك يا أخي العزيز.. من أين تتحدث؟
أجابه (مفيد):
- من محطة (مصر).. لقد وصلت الآن فقط، ووجدت أنه من الأفضل أن أتصل بك أولا، فأنا أريدك في أمر عاجل.. هل أجد لديك بعض الوقت؟
أجابه (حسين)، وهو يلقي نظرة على ساعته:
- بالطبع.. أمامي خمس ساعات كاملة.. تعال على الفور، وسنتناول طعام الغداء معا، وتروى لي ما لديك.. هيا.. لا تتأخر.
غمغم (مفيد):
سأصل بأسرع ما يمكننى

أنهى (حسين) الاتصال، وألقي نظرة أخرى على ساعة يده، قبل أن يبتسم قائلا:
- أراهن أنه أمر يخص رفيقة السينما.. ثم هز رأسه، وتنهد مستطردا:
- أتعشم أن تكون الأخيرة.
وعاد ينهمك في ترتيب حقيبة السفر، ولم يكد ينتهي منها، حتى سمع رنين جرس الباب، فأسرع إليه قائلا لنفسه:
- لقد وصل بأقصى سرعة بالفعل.
وفتح الباب، مستطردا بابتسامة كبيرة:
- مرحبًا يا...
اختنق الاسم في حلقه، وهو يحدق في القادمة بدهشة بالغة قطعتها هي بابتسامة خبيثة ظافرة، وهي تقول:
- كيف حالك يا (حسين) بك؟
وكانت مفاجأة مدهشة، فتلك التي تقف أمامه كانت أميرة سابقة الأميرة (عايدة)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

89- شريط الذكريات..

خلع (إبراهيم مكـى) منظاره الشمسي، وابتسم في خبث، وهو يتطلع إلى (فؤاد)، قائلا:

- من الواضح أنك تميل إلى العمل بأساليبنا يا (فؤاد) بك، فهذا الموعد خارج الإدارة، واختيار ركن قصي في الكازينو للجلوس، وارتداء المنظار الشمسي للتمويه، كلها أساليب اعتدناها في عملنا، وتوحي بسرية أو أهمية اللقاء.

قال (فؤاد) في شيء من العصبية:

- لم أكن أحب أن يعلم (حسين البنهاوي) أنني ألتقي بك

رفع (إبراهيم) حاجبيه، في دهشة مصطنعة، وهو يقول

- آه.. الأمر يخص (حسين) إذن .

قال (فؤاد) في حدة:

- ومن سواه؟

ثم تلفت حوله في قلق عصبى، قبل أن يستطرد:

- لقد أذلني كما لم يفعل مخلوق من قبل.. هل تتصور أن عودته المفاجئة من موته المزعوم، أصابت أعصابي في عنف، حتى أنني انهرت وبكيت أمامه.

ابتسم (إبراهيم)، مغمغما في برود:

حقا؟

ضرب (فؤاد) سطح المنضدة بقبضته، وهو يقول في حنق:

- لن أنسى أبدا ابتسامته الساخرة المتشفية، عندما فعلت هذا.. لقد سخر مني، واتهمني بالحقارة والجبن، ثم أعلن أن سيحرمني من إيراد الأرض إلى الأبد، عقابا لي على محاولتي استعادتها.. ذلك الحقير. هل نسي أنني كنت أفعل هذا، متصورا أنه قد مات وتعفن في باطن الأرض؟

قال (إبراهيم)، وهو يشبك أصابع كفيه أمام وجهه:
- إذن فقد حرمك من إيراد الأرض
لوح (فؤاد) بذراعه، صائحا:
- وليس هذا من حقه
ثم انتبه إلى أن صوته قد ارتفع عن المفروض، فعاد يخفضه، وهو يقول في حنق:
عندما ترك له والده الأرض كلها، اشترط عليه أن يمنحنا نصيبنا من إيراداتها، وكأننا ورثنا الإيراد، دون أن ترث الأرض نفسها، ولكن (حسين) بك نسي هذا، في غمرة سطوته، ولا مبالاته بكل من حوله، وتصور أنه صاحب الأرض الحقيقى، يعطي جزءا من إيرادها لمن يشاء، ويمنعه عمن يشاء.
قال (إبراهيم) في هدوء خبيث:
- إنه صاحبها الفعلي.. رسميا على الأقل
احتقن وجه (فؤاد)، وهو يقول في غضب:
- لن يدوم هذا إلى الأبد
انعقد حاجبا (ابراهيم) لحظة، ثم مال نحو (فؤاد)، وسأله:
- فيم تفكر بالضبط يا (فؤاد)؟! هل ترغب في إزاحة (حسين) عن الطريق؟ أو بمعنى أكثر وضوحا وصراحة.. هل تريد قتل (حسين البنهاوي)؟
هتف (فؤاد) في ارتياع:
- قتله؟! مطلقا.. لم يخطر هذا ببالى قط
تراجع (إبراهيم)، وهو يسأله في حيرة حذرة:
- ما الذي تسعى إليه إذن؟
امتلأ صوت (فؤاد) بالحقد، وهو يجيب:
- إنها فكرة أشرت أنت إليها، ودرستها أنا، ووجدت أنها جديرة بالتنفيذ، فما دام (حسين البنهاوي) يستخدم إيراد الأرض كسلاح،

حتى أنه حرم منه شقيقه (حافظ)، ثم شقيقته (ناهد)، التي هي زوجتي، فلن أخسر شيئا، لو حرمته هو أيضا منه.
سأله (إبراهيم) في اهتمام:
- وكيف يمكنك هذا؟
مال (فؤاد) نحوه، وهو يجيب في بغض واضح:
- بالقانون.. (حسين البنهاوي) يمتلك ما يزيد عن الحد الأقصى للملكية الزراعية، وسأعمل على مصادرة الفائض منه.
تألقت عينا (إبراهيم)، وهو يقول:
- وهل تظن هذا سهلا؟! (حسين البنهاوي) ليس الوحيد، الذي يمتلك ما يزيد عن الحد الأقصى للملكية الزراعية، ولكن هؤلاء الذين تجاوزوا القانون، لهم من السلطات ما يتيح لهم هذا، وليس من السهل الوقوف في وجوههم.
أجابه (فؤاد) في توتر:
- لا تنس أن شقيقي أيضا له سلطاته.. وله اتصالاته أيضا، منذ تسلم عمله في (دمشق)، فقد توطدت أواصر الصداقة أكثر وأكثر بينه وبين المشير (عبد الحكيم عامر)، وأنت تعرف قوة المشير.
أن البعض يؤكدون أنه حتى الرئيس نفسه، لا يمكنه مواجهته الآن بعد أن اكتسب حب ورضا أسلحة الجيش كافة.
ازداد انعقاد حاجبى (إبراهيم مكـى) في شدة، وهو يقول:
- مادام شقيقك بالقوة التي تصفها، فما الذي تريده مني إذن؟ تراجع (فؤاد) في مقعده، قائلا:
- أريدك أن تتولى الأمر بنفسك؛ فأنت أعلم بالموقف هنا، وأكثر خفة في الحركة، و.
قاطعه (إبراهيم) بغتة:
- مقابل ماذا؟
جاء دور (فؤاد)، ليعقد حاجبيه، قائلا:

- مقابل أن نتعاون معا لتدمير (حسين البنهاوي).. ألا تبدو لك صفقة رابحة؟
لاذ (إبراهيم) بالصمت لحظات، وهو يتطلع إلى وجه (فؤاد)، ثم ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيه، وهو يقول:
- نعم.. إنها صفقة رابحة بالتأكيد.
تهللت أسارير (فؤاد)، واندفع يصافح (إبراهيم) في حرارة، قائلا:
- أشكرك يا (إبراهيم) بك.. أؤكد لك أنك لن تندم على قرارك هذا.. لن تندم أبدا.
ارتسمت ابتسامة على شفتي (إبراهيم)، وهو يقول في خبث:
- اطمئن يا (فؤاد) بك.. أنا واثق من أنني لن أندم على قرارى هذا أبدا.
ولكن ابتسامته بدت غامضة
غامضة للغاية...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لثوان، وقف (حسين) يحدق في وجه الأميرة (عايدة) في دهشة، حتى قالت هذه الأخيرة بابتسامة غريبة:
- ألن تدعوني للدخول؟
هتف، وهو يفسح لها الطريق:
- كيف أتيت إلى هنا؟
أجابته في سخرية، وهي تدلف إلى الشقة، وتدير عينيها فيها في بطء:
- بالطائرة.. تصور.. لقد اكتشفت أنه يوجد خط جوى، بين (القاهرة) و (باريس).
قال في خشونة:

- كفي عن أسلوبك هذا، وأخبريني.. كيف جرؤت على القدوم إلى هنا، بعدما فعلته في (باريس)؟
تجاهلت سؤاله تماما، وهي تقول:
- لم تتغير شقتك كثيرا يا (حسين).. يبدو أنك من ذلك الطراز، الذي لا يميل إلى التغيير في المعتاد. جذبها من نراعها في عنف، وهو يقول في غضب:
لماذا أتيت يا (عايدة)؟
صرخت:
- كفى.. إنك تؤلمني
وجذبت ذراعها من يده في حدة، مستطردة:
- لماذا تتصرف معي بهذا الأسلوب الوقح.. أنت تعلم أنني لم أكن أقصد الإساءة إليك.
صاح في غضب:
- حقا؟! تتصلين بالإسرائيليين، وتقنعينهم بأنني أرغب في التعاون معهم، وترتبين لقاء بيني وبين أحد ضباطهم، ثم تقولين: إنك لم تقصدي الإساءة إلى؟! ما مفهوم الإساءة في نظرك إذن؟
قالت في حدة عصبية:
- مفهوم يختلف تماما
ثم أشعلت سيجارتها، ونفثت دخانها في عنف، مستطردة:
- ألم تسأل نفسك لماذا أتيت إليك؟! لقد أرسلت لك عدة برقيات، أطلب منك فيها العودة إلى، فلما لم أجد استجابة منك، قررت أن آتي أنا إليك.
قال في صرامة:
- ألا تخشين أن أمنعك من العودة إلى (باريس)؟
ابتسمت في ثقة، قائلة:

- لن يمكنك هذا، فأنا أحمل الجنسية الفرنسية الآن، وليس من حقكم احتجاز مواطن من دولة أخرى، دون وجه حق.
قال في غضب:
- أنت قلتها.. دون وجه حق.. من الواضح أنك تجهلين أساليبنا هنا أيتها الأميرة السابقة، فعندما أحتجزك هنا، سيكون كل شيء قانونيا تماما، وسنجد لك تهمة مناسبة، تبيح لنا احتجازك رسميا، وربما اعدامك، لو أردنا هذا.
هزت كتفيها بلا مبالاة، قائلة:
- حبيبى (حسين) لن يطاوعه قلبه على أن يفعل بي هذا.
أجابها في حدة:
- كان هذا فيما مضى.. أما الآن فالوضع يختلف
عادت تهز كتفيها في لا مبالاة، وهي تقول:
- لم يختلف كثيرا، فأنت تمتلك السلطة هنا، وأنا أمتلك سلاحا ضدك.
سألها في توتر:
- سلاح؟! أي سلاح هذا؟
فتحت حقيبتها بحركة سريعة أنيقة، والتقطت منها بكرة فيلم سينمائي صغيرة، ناولته إياها، قائلة:
- ها هو ذا. التقط البكرة في قلق شديد، وهو يسألها:
- وما هذا بالضبط؟!
أجابته بابتسامة خبيثة:
- شاهده أولا، وثق من أنه ليس النسخة الوحيدة، فالأصل أحتفظ به مع عدد من النسخ في مكان شديد السرية في (باريس)، وهناك من لديه أوامر صريحة بإرسال النسخ إلى عدد من المسئولين هنا، وعلى رأسهم رئيس الجمهورية نفسه، لو تلقى أمرا واحدا مني، أو توقفت رسائلي المنتظمة إليه لأسبوع كامل.

تطلع إلى البكرة في قلق مضاعف، وهو يقول في حدة:
- هل ستعودين إلى تلك المناورات البوليسية السخيفة؟
أطلقت ضحكة عابثة طويلة، قبل أن تقول
- شاهد الفيلم أولا، ثم اتصل بي.. إنني أقيم في (هيلتون النيل).
قالتها، واتجهت في سرعة إلى باب الشقة، ولم تكد تلمس مقبض الباب، حتى ارتفع رنين الجرس، فهتف (حسين):
- انتظرى.. إنه (مفيد). ولكنها تجاهلت هتافه التحذيري، وفتحت الباب. وارتفع حاجبا (مفيد) في دهشة..
كان يعرف الأميرة (عايدة)، ويعلم شيئا عن ارتباط شقيقه بها قديما، ولكنه لم يكن يتصور أبدا أن يراها أمامه هكذا..
وفي شقة (حسين).. وبابتسامة شبه متهكمة، قالت (عايدة):
- إذن فأنت (مفيد)
ظهر (حسين) من خلفها، وهو يقول في توتر:
- أهلا يا (مفيد).. أقدم لك الأميرة (عايدة).. كنا نتباحث في أمور خاصة بالعمل.. تفضل.
ثم صافح (عايدة)، قائلا في صرامة:
- إلى اللقاء يا سيدتي.. سأطالع مستنداتك، وأتصل بك بأسرع وقت.
صافحته (عايدة) بابتسامة ساخرة، وهي تقول:
- سأنتظر
أغلق (حسين) الباب خلفها، والغضب يمتزج بالسخط في أعماقه، وحاول أن يطفئ نيران عنقه، وهو يلتفت إلى (مفيد)، قائلا:
- مرحبًا بك يا (مفيد).. يسعدني كثيرا أن تزورني في شقتي.. اجلس يا فتى.. اجلس.
جلسا على مقعدين متجاورين، وبدا (مفيد) مرتبكا، وهو يقول:
- آسف لحضوري دون موعد سابق، ولكن..

قاطعه (حسين) في شيء من العصبية:
- هات ما لديك دون مقدمات.
كان سلوكه هذا يتناقض تماما مع حفاوة حديثه عبر الهاتف، فتطلع إليه (مفيد) في دهشة، ثم لم يلبث أن تجاوز هذا بسرعة وهو يقول:
- فليكن.. الواقع أنني أريد أن أتقدم لخطبة زميلة لي.
فسأله (حسين) بسرعة:
- أهي رفيقة السينما؟
أجابه بإيماءة من رأسه، فتراجع (حسين) في مقعده، وقال في توتر ملحوظ:
- اسمع يا (مفيد).. لست أعترض على الفكرة، ولكنني أحتاج إلى بعض الوقت، للسؤال عنها وعن عائلتها، ثم أنني سأسافر لأسبوعين، في مهمة خاصة، فأمهلني هذه الفترة.
أومأ (مفيد) برأسه، وقال:
- فليكن.. سأطلب منها تأجيل موعد المقابلة، لحين عودتي
نهض (حسين)، وهو يقول:
- عظيم.. والآن تقبل اعتذاري عن دعوتي لك لمشاركتي طعام الغداء، فلدي عمل بالغ الأهمية، أريد أن أنجزه قبيل سفرى.
ارتبك (مفيد)، مع هذا الأسلوب الباتر، فنهض وصافح شقيقه، مغمغما:
- سأنتظر عودتك.
قاده (حسين) إلى الباب، وهو يقول في عجالة:
- بإذن الله.. بإذن الله.

لم يشعر، في غمرة توتره، مدى قلة الذوق، التي يتسم بها أسلوبه مع شقيقه، ولم يكد يغلق الباب خلفه، حتى ألقي نظرة على ساعته، وهو يندفع إلى حجرة مكتبه، حيث الة العرض السينمائي، وأعد

الفيلم الذي أعطته إياه (عايدة) للعرض بسرعة، مغمغما في سخط حانق:
أنت كذلك دائما يا (عايدة).. لا تحملين لي سوى المشكلات.
وضغط زر العرض، وانطلق الضوء يغمر الشاشة الصغيرة، ثم راحت الصور تتعاقب عليها، مع صوت واضح جلي..
واتسعت عينا (حسين) في دهشة وفي انزعاج كامل.
لقد كان أمامه عرض كامل للقائه بالإسرائيلي (ميخائيل بن ناثان) في الحجرة الخلفية لمتجر (عايدة) في (باريس)..
ولكنه لم يكن مطابقا لما حدث بالفعل.
لقد امتدت إلى الفيلم يد خبيرة، علت بعض أجزائه ومقاطعه، وأعادت ترتيب مشاهده وحواره بدقة مدهشة، بحيث بدا المشهد وكأنه (حسين) يتفاوض مع (ميخائيل بن ناثان) بالفعل، ويعرض خيانة وطنه، مقابل ثمن مناسب.
وخفق قلب (حسين) في عنف.. ومعه خفق عقله بقوة أكبر..
صحيح أن هذا الفيلم زائف، ولكنه متقن إلى حد كبير، يكفي لإقناع المسئولين بأنه خائن حقير، إلى الحد الذي يستحق معه محاكمة عسكرية صارمة..
وعلى كل الأحوال، سينتهي الأمر بتحطيمه وبلا رحمة وتصبب عرق بارد على جبين (حسين)، وهو يهتف غاضبًا:
- يا لحقارة تلك الأميرة السابقة المجنونة!! هذا جزاء ارتباطى بشخصية هستيرية مثلها... إنها مستعدة لتدمير حياتي ومستقبلى وكأنها تمارس لعبة سخيفة، دون أن تشعر لحظة واحدة بالأسف، أو بتأنيب الضمير.
وألقى نظرة أخرى على ساعته، ثم اختطف سترته، مستطردا في حنق:
- والوقت ضيق.. ضيق للغاية.

لم يدر كيف قطع المسافة، من منزله إلى فندق (هيلتون النيل)، الذي لا يبعد عنه كثيرا، ولكنه وجد نفسه أخيرا يقف أمام (عايدة)، التي استقبلته في بهو الفندق بابتسامة ظافرة، وهي تقول:
- لم أتوقع قدومك، بمثل هذه السرعة
سألها في حدة:
- ماذا تريدين مني بالضبط يا (عايدة)؟
هزت كتفيها، وهي تنفث دخان سيجارتها، قائلة:
فلنبدأ باعتذارك عن تجاهل برقياتي إليك
قال في عصبية:
- فليكن.. أنا أعتذر.. ماذا أيضا؟
ابتسمت في ظفر أكثر، وأشارت إلى المقعد المجاور لها، قائلة:
- اجلس أولا، فالمطلب التالي يحتاج إلى كل انتباهك
جلس، وهو يقول في توتر غاضب:
- (عايدة).. ليس لدي وقت لهذا العبث، المفروض أن أسافر بعد حوالي ثلاث ساعات.
قالت في حدة:
- ماذا؟! هل تمارس معي ألعابك هذه مرة أخرى؟! هل ستتركني لتسافر ثانية؟! اسمع.. لن أقبل هذا قط هذه المرة اعتذر عن السفر، أو حتى تقدم باستقالتك، ولكنني لن أسمح لك بالعبث بي، أو تجاهل وجودى.
تلفت حوله، قائلا:
- لا يمكنني الاعتذار عن السفر.. إنها مهمة خاصة للغاية وبتكليف من السيد رئيس الجمهورية شخصيا.. إنها الحقيقة صدقيها أو لا تصدقيها، ولكنها الحقيقة بالفعل.
نفثت دخان سيجارتها في عصبية، وهي تدرس الأمر، ثم سألته:

- وكم ستستغرق رحلتك هذه المرة؟
زفر في ضيق، قبل أن يجيب:
- أسبوعين.
مطت شفتيها في غضب، ثم لم تلبث أن هزت كتفيها، قائلة:
- هذا يمنحك فرصة جيدة للتفكير في العرض.
قال في حدة، وبصوت خافت، حتى لا يثير إليه الانتباه:
- إنني لم أسمع العرض بعد
قالت في غطرسة:
- إنه عرض بسيط ومباشر، فإما أن أقدم نسخ الفيلم للمسئولين هنا، وأعرض مستقبلك كله للخطر، وإما أن تقبل عرضى.
سألها في عصبية أكثر:
- مازلت لم أعرف عرضك هذا.
نفثت دخان السيجارة في وجهه مباشرة، وأسبلت جفنيها قليلا قبل أن تجيب في حزم:
- أن تتزوجني
وانفجرت قنبلة دهشة في أعماق (حسين)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

90- المفاجأة..

ارتسمت ابتسامة واثقة ظافرة، على شفتي (جيهان) الجميلتين، وهي تدخل إلى حجرة المدرسات، وتتجه مباشرة إلى حيث تجلس (سوسن)، قائلة:

- صباح الخير يا (سوسن).. هل تسمحين لي بالجلوس إلى جوارك؟

صمتت (سوسن) لحظة، ثم لملمت أوراقها، وهي تقول:

- تفضلي في مقعدي نفسه، فقد كنت على وشك الانصراف،

أمسكت (جيهان) كتفها، لتمنعها من النهوض، قائلة في شيء من الحزم:

- كلا.. لا تنصرفي الآن، فلدي ما أتحدث معك بشأنه

توترت (سوسن)، وهي تعاود الجلوس، وسألتها:

- خيرا؟!

جذبت (جيهان) مقعدها، والتصقت بها تقريبا، وهي تقول:

- أظنك علمت أن (مفيد) يطلب يدي.

شعرت (سوسن) بالضيق، وتساءلت: لماذا تبلغها (جيهان) بهذا، ولكنها أجابت في خفوت:

- ألف مبروك.

رمقتها (جيهان) بنظرة شامتة، وهي تقول بصوت مرتفع، سمعه كل من بالحجرة:

- لقد طلب زيارتنا، وسينتظر عودة شقيقه (حسين) من الخارج، ليطلب يدي من والدي رسميا.

كررت (سوسن) في حذر:

- مبروك.

مالت (جيهان) نحوها، وخفضت صوتها، وهي تستطرد: - ولكنني أحتاج لمعرفة بعض المعلومات عنه منك انعقد حاجبا (سوسن)، وهي تقول في عصبية :
- ولماذا مني بالذات؟
ابتسمت (جيهان) في خبث، مجيبة:
- لقد كان خطيبك فيما مضى، قبل أن يتركك، و. قاطعتها (سوسن) في حدة:
- (مفيد) لم يتركني.. أنا تركته
سألتها (جيهان) بسرعة: - لماذا؟!
حدقت (سوسن) في وجهها بدهشة، مغمغمه:
- لماذا ماذا؟
سألتها (جيهان) بلهفة:
- لماذا تركت شابا كهذا؟
انفرجت شفتا (سوسن)، وبدا لحظة وكأنها ستروي كل ما لديها وستقص على (جيهان) كيف تركها (مفيد) فجأة في وسط الطريق؛ لأنه لمح حبيبته القديمة (مديحة)..
ولكنها فجأة، أطبقت شفتيها، وأشاحت بوجهها، قائلة في صرامة:
- لدى أسبابى، التي أرفض البوح بها. قالت (جيهان) في إصرار:
- ولكن الأمر يثير دهشتي بالفعل، فـ (مفيد) شاب وسيم، مهذب، من عائلة كبيرة، ويمتلك أرضا في قريتهم، و.
قاطعتها (سوسن) فجأة:
- (مفيد) لا يمتلك شيئا.
التقى حاجبا (جيهان)، وانتفض جسدها بغتة، وهي تستقبل هذه المعلومة، قبل أن تقول في حدة:
- من قال هذا؟ لقد علمت أن أسرته ثرية، وأنهم يمتلكون ما يقرب من مائتي فدان من أكثر أراضي القرية خصوبة، ونصفها حدائق

يانعة، و.
مرة أخرى قاطعتها (سوسن)، قائلة:
- معلوماتك قاصرة يا آنسة (جيهان).. ليست عائلة (مفيد) هي التي تمتلك كل هذا.. إنه شقيقه (حسين) فحسب.
انتفض جسد (جيهان) مرة أخرى، وهي تهتف:
- ماذا تقولين؟
أجابتها (سوسن) في توتر:
- (حسين) وحده يمتلك أرض (البنهاوي) كلها، ويوزع إيراداتها بينه وبين أشقائه وشقيقاته، ويمكنه أن يتوقف عن هذا وقتما يشاء.
شحب وجه (جيهان)، وتراجعت كالمصعوقة، وهي تتمتم:
- إذن فـ (مفيد) لا يمتلك شيئا
تطلعت إليها (سوسن) لحظة، قبل أن تهمس:
- وهل يؤثر هذا على قرارك بقبول خطبته لك؟
هتفت (جيهان):
- بالطبع ثم استدركت بسرعة- لأنه أخفى عني هذا.
سألتها (سوسن):
- هل سبق لك سؤاله مباشرة عما يمتلك؟ أشك في هذا فـ (مفيد) لن يكذب قط.
رمتها (جيهان) بنظرة نارية غاضبة، ثم هبت واقفة في حركة حادة، وهي تقول:
- ليس هذا من شأنك
واندفعت مغادرة الحجرة، وبداخلها بركان ثائر بركان الغضب والفشل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- انتهى الأمر.. لم أعد أحتمل..
نطق (رضا العبد) تلك العبارة في مرارة شديدة، داخل حجرة مكتب (عمر) في المصنع، ولوح بكفه في يأس، مستطردا:
- هذا البلد لا يشجع السعي والاستثمار، وما فعله بنا (حسين البنهاوي) ليس سوى البداية، ولن يتوقفوا قبل أن تتحول إلى دولة شيوعية كاملة، مثلما حدث في الاتحاد السوفيتي.
قلب (عبد الحكيم) كفيه في أسف، وهو يقول:
- وماذا بيدنا لنفعله؟ إنها سياسة الدولة، وكل من يعارضها يلقى به في السجون والمعتقلات، أو يختفي، فلا يعلم حتى أهله مكانه.
مط (عمر) شفتيه، قائلا:
- ولقد مررت بهذه التجربة شخصيا ذات يوم
أومأ (رضا) برأسه متفهما، وهو يقول:
- أعلم ذلك.. كلنا نذكر ما حدث
ثم أضاف في حزم:
- ولكنني لن أنتظر، حتى يلحق بي ما أصابك.
سأله (عمر):
- وماذا يمكنك أن تفعل؟
التقط (رضا) نفسا عميقا، وقال
- يمكنني أن أهاجر إلى بلد آخر
ابتسم (عبد الحكيم) في مرارة، قائلا:
- حتى هذا مجرد حلم بعيد المنال، فمن العسير أن يحصل المرء على موافقة سفر إلى الخارج.
صمت (رضا) لحظات، قبل أن يقول:
- أنا حصلت عليها.
ارتسمت الدهشة على وجهي (عمر) و (عبد الحكيم)، وهتف الأول:

وكيف حصلت على لبن العصفور هذا؟
أجاب (رضا) في همس، وكأنه يخشى أن يكون للجدران آذان بحق:
- هل تذكران تلك الشركة، التي أراسلها منذ فترة، بحجة شراء بعض الآلات الحديثة منها للمصنع؟ لقد أرسلت عن طريق صديق لي، يعمل في (أمريكا)، أشرح لهم ظروف البلد في الوقت الحالي، وأخبرتهم أن الوسيلة الوحيدة للسفر، هي أن أحصل على عقد عمل خارج البلاد، ومن حسن حظي أنهم تفهموا الأمر على الفور وأرسلوا لي عقد عمل رسمى، موثق في مكتب العمل لديهم وبوساطته حصلت على تصريح السفر، وتأشيرة دخول للولايات المتحدة الأمريكية.
هتف (عبد الحكيم) في دهشة:
- ومني فعلت كل هذا؟
أشار إليه (رضا) بخفض صوته، وهو يجيب في همس متوتر:
- إنني أسعى في هذا الأمر، منذ وقعنا عقودنا مع (حسين البنهاوي)، ولكنني اتبعت النصيحة التي تقول: واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.
ران على الحجرة صمت ثقيل، قطعه (عمر)، وهو يقول:
- شكرا يا (رضا).. أشكرك لأنك منحتنا ثقتك، وأبلغتنا بالأمر قبل سفرك.
تنهد (رضا)، وقال:
- لم آت إلى هنا لأخبركما فحسب، ولكن لأعيد الأمور إلى نصابها أيضا.
بدت الدهشة عليهما مرة أخرى، وسأله (عبد الحكيم):
- أية أمور، تلك التي ستعيدها إلى نصابها يا (رضا)؟
اعتدل (رضا)، وأجاب في حزم:

- قبل أن يدس (حسين البنهاوي) نفسه في شركتنا، كان كل منا يمتلك ثلث المصنع، وقبل سفرى، قررت أن أبيعكما نصيبي في المصنع، وهكذا يمتلك كل منكما ثلث المصنع، كما كان الأمر من قبل.
ثم زفر مرة أخرى، قبل أن يستطرد:
- وبهذا.. بهذا فقط، سأشعر بأنني قد ثأرت لنفسي من ابن (البنهاوي).. ومن يدري؟ ربما دارت عجلة الزمن، واكتمل ثأري ذات يوم.
نعم.. من يدري؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فركت (جيهان) كفيها في عصبية، وهي تقول لشقيقتها في غضب:
- النذل الجبان خدعني، وجعلني أظنه ثريا.
قالت شقيقتها مشفقة:
- ولكنه لم يخبرك بهذا قط
هتفت محنقة:
- يكفي أنه تركني أخذ هذا الانطباع
ابتسمت شقيقتها، قائلة:
- هل ستظلين هكذا دائما.. تلقين تبعة أخطائك على الآخرين؟
لوحت (جيهان) بذراعها، وهي تقول في غضب:
- أية أخطاء؟! لقد درست الأمر جيدا، وتحريت عن (مفيد البنهاوي) بقدر استطاعتي، قبل أن أتخذ قرارى بشأنه، ولكن الذين أخبروني ما لديهم من معلومات، كانوا يجهلون تلك المعلومة تماما.
تراجعت شقيقتها على الفراش، وقالت:

- إذن فقد ألغيت مشروع (مفيد البنهاوي).
عقدت (جيهان) حاجبيها في شدة، وهي تقول:
- لست أحب المشاريع الفاشلة
سألتها شقيقتها في فضول:
- وكيف تبلغين (مفيد) بهذا؟
أجابتها في عصبية:
- سأترك هذا للوقت المناسب
اعتدلت شقيقتها، قائلة في دهشة:
- الوقت المناسب؟ ومتى يحين هذا الوقت المناسب؟
نفثت غضبها في توتر، وهي تقول:
عندما تكتمل اللعبة
بدا القلق على ملامح شقيقتها، وهي تقول: - اللعبة؟! فيم تفكرين بالضبط يا (جيهان)؟ لوحت (جيهان) بسبابتها، قبل أن تقول:
- تعديل بسيط في القواعد.. عملية استبدال، ستحل كل مشكلات اللعبة، وتعيد الأمور إلى نصابها.
سألتها شقيقتها في قلق أكبر:
- استبدال ماذا؟
ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتى (جيهان)، وتألقت عيناها في جشع، وهي تجيب:
- استبدال (مفيد البنهاوي) بصاحب الثروة الحقيقي (حسين البنهاوي).
قفزت شقيقتها من فراشها، هاتفة:
- هل جننت؟! إنك لا تعرفين حتى شكل (حسين) هذا.
أجابتها في حزم:
- ولكنني سأصل إليه، وسأجعله يحتل موقع شقيقه بإرادته
انعقد حاجبا شقيقتها، وهي تقول في حدة:

- حذار يا (جيهان).. إنك تورطين نفسك فيما يفوقك حجما، وثقتك الزائدة بجمالك لن تفيدك كثيرا، عندما تحاولين استبدال شاب بشقيقه.
أجابتها (جيهان) في حدة شرسة:
- لا شأن لك بهذا.. اتركي الأمر كله لي
وأطل جشع الدنيا كله من عينيها، وهي تضيف:
- أنا أدرك ما أفعله.. أدركه جيدا
وتضاعف قلق شقيقتها..
تضاعف ألف مرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنهدت (عايدة) في ضجر، وقالت لسائق سيارة (جان)، التي تطوف بها حي (الشانزليزيه) في (باريس):
- هل ستكتفي بهذه الجولة السخيفة، مثلما يحدث في كل مرة، أم أنه من الممكن أن أجول وحدي بعض الوقت؟
أجابها السائق في برود حازم:
- إنتي أنفذ أوامر مسيو (جان)، الذي يصر على عدم مغادرتك للسيارة، ويرسل خلفنا اثنين من الحراس بصفة دائمة.
ألقت نظرة من نافذة السيارة، على السيارة المجاورة، وبداخلها الحارسان، وقالت في ملل:
- أعلم هذا ثم انفجرت فجأة، مستطردة:
- ولكنني سئمت كل هذا، ولم أعد أحتمل هذا السجن السخيف، الذي يضعني فيه (جان)، بحجة حمايتي من الإسرائيليين، الذين يسعون لتلقيني درسا قاسيا، بعدما فعلته بهم.. لقد سافرت إلى (القاهرة) منذ عشرة أيام، ولن ينلني سوء.

قال السائق بابتسامة خفيفة:
- أعتقد أن الإسرائيليين يتحركون هنا بخفة، أكبر مما يمكنهم في (القاهرة).
هتفت بسرعة
- بالطبع؛ فهذا بلد حر للجميع
ثم عادت تتنهد، مردفه:
- فيما عداى.
ألقي عليها السائق نظرة سريعة، في مرآة سيارته الداخلية، قبل أن يقول في لهجة مهذبة:
- مسيو (جان) يحاول حمايتك بالفعل يا سيدتي، فالحرية تمنح فرصة أكبر للجميع، حتى المجرمين والجواسيس.
قالت في حدة:
- هذا ما ينبغي أن تفهموه، فلو أن الإسرائيليين يسعون لتأديبي بالفعل، فلن تنقذني منهم سيارتك هذه.
لم تكد تتم عبارتها، حتى سمعت السائق يهتف:
- رباه! إنهم..
لم يتم عبارته، ولكنها أدركت ما أراد قوله، وهي تحدق في سيارة الحارسين، التي هاجمها أربعة رجال فجأة، وأطلقوا بعض الرذاذ من رشاشات بأيديهم، في وجهي الحارسين، اللذين فقدا وعيهما على الفور، فصاحت هي في ذعر وارتياع:
- اهرب يا رجل.. اهرب.
لم يكن السائق بحاجة لصيحتها، فقد ضغط دواسة الوقود بالفعل، واندفع يتجاوز السيارة التي أمامه، ولكن الإشارة الحمراء المزدحمة اعترضته، فاضطر للتوقف على الرغم منه، واختطف سماعة هاتف السيارة، وهو يهتف:

ـ سأتصل بالشرطة، لا بد أن..

قاطعه رجل فتح باب السيارة الأمامي الأيمن، ووثب داخلها، وصوب إليه مسدسه، قائلا في صرامة عنيفة:

ـ لو أنني في مكانك، لما أكملت هذه المحادثة، أبدا

تجمد السائق في موضعه، واتسعت عيناه رعبا، في حين أطلقت (عايدة) شهقة فزع، وحاولت أن تقفز خارج السيارة، ولكنها

فوجئت برجل يعترضها، وهو يقول بابتسامة ساخرة:
- مساء الخير يا أميرة (باريس).
وهنا، وقع قلبها بين قدميها؛ فقد كان ذلك الشخص هو ميخائيل)..
(ميخائيل بن ناثان)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

91- عرض جديد..

تجمد لسان (عايدة) في حلقها، فلم تستطع نطق حرف واحد فدفعها (ميخائيل) ليعيدها إلى السيارة، وجلس إلى جوارها، ثم أشار للسائق، قائلا في صرامة:

انطلق.. الإشارة خضراء الآن

ومع المسدس المصوب إلى رأسه، أطاع السائق الأمر على الفور، في حين التفت (ميخائيل) إلى (عايدة)، وقال بابتسامة كبيرة:

- كيف حالك يا سمو الأميرة؟ هل راقت لك رحلتك إلى (القاهرة)؟

اتسعت عيناها في ذعر، وهي تهتف:

- هل كنتم تعلمون؟

أجابها في هدوء:

- بالطبع.. كان رجالنا برفقتك، لحظة فلحظة.. هل تحبين أن أبلغك برقم مقعدك في الطائرة، أم بساعة وصولك إلى (القاهرة)؟ أم هل تفضلين معرفة رقم حجرتك في (هيلتون النيل)؟

ارتجفت مع كلماته، ثم هتفت في توتر:

- ماذا تريدون مني؟ اقتلني الآن، لو أن هذا ما تسعون إليه.

ابتسم في خبث، وهو يقول:

- نقتلك؟! وهل نجرؤ على هذا يا أميرتي؟

قالت في حدة:

- لقد حاولتم من قبل.

هز كتفيه قائلا:

- الأمر الآن يختلف كثيرا

حلت دهشتها محل خوفها، وهي تقول:

- يختلف؟! وفيم يختلف؟!

صمت (ميخائيل) لحظة، وهو ينظر إلى عينيها مباشرة، ثم التفت إلى السائق، قائلا في صرامة:
- توقف هنا.
أطاع السائق الأمر على الفور، فأشار (ميخائيل) إلى حامل المسدس، الذي دفع السائق خارجا، وهو يقول في غلظة:
- هيا يا رجل.. المكان لا يتسع لنا جميعا.
ارتجفت (عايدة)، عندما وجدت نفسها وحيدة مع (ميخائيل بن ناثان) في السيارة، وسألته في عصبية:
- هل ستقتلني الان؟
ابتسم (ميخائيل) في سخرية، وقال متجاهلا سؤالها:
- هل تعلمين يا سمو الأميرة؟ لقد أهاننا ما فعلت بنا كثيرا حتى أنني، كرد فعل مباشر، قررت أن أقتلك، ولكن من حسن حظنا أنك نجوت مع ذلك المصري، بفضل عناية صديقك (جان)، فقد أعدنا دراسة الموقف، ووجدنا أننا لم نخسر كثيرا بسبب عبثك، بل الواقع أننا ربحنا فرصة مناسبة، قد لا يمكننا تعويضها بسهولة.
سألته في حذر:
- فرصة ماذا؟
مرة أخرى تجاهل سؤالها، وواصل حديثه:
- وعندما أغلق مسيو (جان) متجرك، في فترة علاجك، استطعنا استغلال الفرصة لتفتيشه جيدا، وعثرنا على المكان الذي أخفيت فيه آلة التصوير، في الحجرة الخلفية، ولم يكن الأمر بحاجة إلى الكثير من الذكاء، لنعلم أنك التقطت فيلما لكل ما حدث.
تمتمت متوترة:
- هذا صحيح
ابتسم في ظفر، قائلا:

- عظيم.. أنت لا تدركين ما يمكننا أن نفعله بفيلم كهذا يا سمو الأميرة.. وخاصة أن صديقك (حسين البنهاوي) من الرجال الذين يشكلون لنا أهمية بالغة، لعلاقته المباشرة بالرئيس (جمال).
ثم توقف ليسألها في اهتمام:
- أنت طبعا لا تحبين الرئيس (جمال عبد الناصر).
سألته مرتجفة:
- هل تسعون للنيل منه؟
لوح بكفه، قائلا:
- لسنا وحدنا في هذا المضمار يا أميرتي، فالرجل لم يعد مجرد رئيس دولة من الدول النامية، وإنما صار زعيما عربيا كبيرا، ورمزا للنضال ضد الاستعمار، في العالم العربي كله، وبإشارة واحدة من سبابته، يمكنه أن يحرك مائة مليون عربي، من المحيط إلى الخليج، وهو يخيفنا ويرهقنا كثيرا، خاصة وأننا لم نجد له نقطة ضعف واضحة، يمكن التسلل منها إليه، فهو ليس سكيرا، ولا مقامرا، ولا يمكن استمالته بالمال أو بالنساء.. باختصار.. إنه أصعب خصم واجهنا حتى الآن.
قالت متهكمة:
- إذن فصحيح ما يرددونه هنا، من أن المخابرات الأمريكية حاولت رشوته بمليون دولار، فأخذها ليبني بها برج (القاهرة).
انعقد حاجباه في ضيق، وهو يقول:
. لسنا هنا بصدد مناقشة نزاهة الرجل.. المهم أننا نريد (حسين البنهاوي) بالفعل، ونظرا لتعنته، وعناده الشديد، فلم نجد أمامنا سوى وسيلة واحدة للوصول إليه.
سألته في فضول:
- وما هي؟

تطلع إلى عينيها مباشرة، وكأنما يسبر أغوارها، قبل أن يجيب في صوت قوى:
- أن تعملي لحسابنا
وانتفض جسدها.. انتفض في عنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حث (مفيد) الخطا ليلحق بـ (جيهان)، في الشارع المجاور للمدرسة، وهو يهتف بها:
- انسة (جيهان).. توقفي.. أريد التحدث معك
توقفت (جيهان)، وهي تطلق زفرة ضجرة، والتفتت إليه، قائلة:
- ماذا تريد مني يا أستاذ (مفيد)؟
هتف في دهشة:
- ماذا أريد منك؟! ماذا أصابك يا (جيهان)؟ هل أغضبك منى شيء ما؟
أجابته في ملل واضح:
- كلا.. أنت شخص مهذب تماما، ولكن لدى بعض المشكلات التي تقلقني، وتشغل فكرى.
سألها في قلق:
- أهي مشكلات تخصني؟
قالت في سأم: - كلا.. كلا.. اتركني أنصرف الآن من فضلك
قال في مرارة:
- ليس قبل أن تخبريني بسر هذا الجفاء العجيب.
كانت تشعر بضجر حقيقى منه، جعلها تقول، محاولة تجاهل تساؤلاته:
- هل عاد شقيقك من رحلته؟

هتف (مفيد)، وقد خيل إليه أنه أمسك السبب الحقيقي لغضبها:
- آه.. أهذا ما يضايقك؟ صدقينى يا (جيهان).. كان المفترض أن يعود (حسين) بعد أسبوعين بالفعل، ولكن ضرورات عمله اضطرته للبقاء أسبوعين آخرين، ولكنه سيعود مساء بعد غد بإذن الله، وسنحضر أنا وهو لطلب يدك من والدك.
قالت في توتر:
- فليكن.. إلى اللقاء الآن.
كان يرغب في المزيد من الحديث معها، ولكن فجأة، ظهر أمامهما ضابط شرطة شاب، مع عدد من المخبرين، وسأل (مفيد) في صرامة:
- ماذا تفعلان هنا؟
ارتبك (مفيد)، وهو يقول:
إننا زميلان، و.
قاطعه الضابط الشاب في حدة:
- زميلان في ماذا أيها المدلل؟! في لقاءات الحب والغرام
صرخت (جيهان):
- يا للمصيبة... ماذا تقول أيها الضابط؟! إنك تمس سمعتي وشرفي.
جذبه جمالها الواضح، وخلبت فتنتها لبه، وذاب في سحرها الطاغي، فتطلع إليها لحظة في صمت، أما (مفيد) فقد هتف في غضب:
- إياك أن تمسها بكلمة واحدة أيها الضابط، وإلا..
التفت إليه الضابط الشاب في حدة، وصاح غاضبًا:
- وإلا ماذا أيها الرقيع؟ هل تتحداني؟؟!! ثم أشار إلى المخبرين المصاحبين له، هاتفًا

- احملوه إلى القسم.. من الواضح أنه يحتاج إلى التهذيب ورفع رأسه في زهو أمام (جيهان)، مستطردا:
- باسم القانون.
انقض المخبرون على (مفيد)، وصفعه أحدهم في قوة، وهو يصرخ فيه:
تعال معنا
صاحت (جيهان) مذعورة:
- ماذا تفعلون؟! ألا تعرفون من هذا؟ ابتسم الضابط في سخرية، وهو يقول:
- ومن سيكون؟ (أحمد رمزى)، أم (عبد الحليم حافظ)؟!
هتفت والمخبرون يحملون (مفيد) في قسوة إلى سيارة الشرطة:
- إنه (مفيد).. شقيق (حسين البنهاوي).
لم تكد تذكر اسم (حسين)، حتى امتقع وجه الضابط الشاب، وارتجفت أطرافه، وجحظت عيناه، وهو يقول في ارتياع:
- (حسين بك البنهاوي)، الـ...
لم يتم عبارته، مع سقوط قلبه بين قدميه، وشحب وجهه في شدة، حتى كاد يحاكى وجوه الموتى، في نفس اللحظة التي بلغ مسامعه فيها صوت الصفعة الثانية، التي تهوى على وجه (مفيد)، فاستدار بسرعة، صارخا في المخبرين:
- كفي.. كفى أيها الحقراء.
ثم اندفع ينتزع (مفيد) من بين أيديهم، وهو يقول في خوف واضح:
- (مفيد) بك.. تقبل أسفي واعتذارى يا (مفيد) بك.. كنت أجهل تماما من أنت.. سامحني يا (مفيد) بك.. أرجوك.
ارتفع حاجبا (جيهان) في دهشة، مع ذلك الانقلاب الشديد، الذي صاحب ذكر اسم (حسين)، واختلج قلبها في شدة، وهي تهتف في أعماقها:

- رباه... أيمتلك (حسين البنهاوي) كل هذه السطوة؟
كان الضابط الشاب يكاد يبكي، أمام أعين مخبريه المندهشة، وهو ينفض غبارا وهميا عن ثياب (مفيد)، قائلا:
- قل لي إنك سامحتني يا (مفيد) بك.. أرجوك.. عدني بألا تغضب، وألا تشكو الأمر لـ (حسين) بك.
مسح (مفيد) خيط الدم، الذي سال على طرف شفتيه، وهو يقول: - اطمئن.. لن أفعل.. بدا الارتياح على وجه الضابط الشاب، وهو يهتف:
- أشكرك.. أشكرك كثيرا يا (مفيد) بك.
تضاعفت دهشة (جيهان)، مع الموقف كله، الذي بدا أشبه بمشهد هزلي، في فيلم سينمائي رديء، ولم تكد سيارة الشرطة تبتعد، حتى هتفت:
- رائع.. هل رأيت ما فعله بهم ذكر (حسين)؟
هز (مفيد) رأسه في مرارة، وهو يقول:
- نعم.. إنها كارثة
قالت في دهشة:
- كارثة؟
أجابها في حزن:
- بالطبع.. إنها كارثة، أن ترتبط حقوقك وأدميتك بوساطتك، وليس بالعدل والقانون.. هل تتصورين ما كان يمكن أن يحدث، لو لم أكن شقيق (حسين البنهاوي)؟ لاحظي أنني لم أرتكب جرما يعاقب عليه القانون.. كل ما فعلته هو أنني تحدثت مع فتاة جميلة على قارعة الطريق، فحاول ضابط شاب أن يبرز عضلاته أمامها على حساب الحق والعدل والقانون.
قالت في دلال:
- ألم تكن لتفعل هذا، لو كنت مكانه؟

كانت تتوقع منه مدحا لجمالها وفتنتها، ولكنها فوجئت به يجيب في مرارة:
_ لست أتمنى أبدا أن أحتل مكانه
عقدت حاجبيها، وهي تقول في عصبية:
- على أية حال، هذا يثبت أن لشقيقك (حسين) سطوة كبيرة. ابتسم في مرارة، وهو يقول:
- كل ما رأيته مجرد قشرة صغيرة.. سليني أنا، فسلطات وسطوة (حسين) تتجاوز هذا بكثير..
بكثير جدا
أشعل هذا لهفتها وطموحها أكثر وأكثر، وصرخ صوت الطمع في أعماقها:
- لا تتركي (حسين) هذا يفلت منك أبدا
لحظتها، اتخذت (جيهان) قرارها الأخير، وكان قرارا حاسما.. وجريئًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتجفت (شريفة البنهاوي)، وهي تتسلل إلى حديقة السراى الخلفية، حاملة حقيبة ملابسها، وهمست لـ (أمجد) في هلع:
- أأنت واثق من أنه الحل الوحيد؟
أجابها، وهو يستقبلها في لهفة:
- جربي التفكير في حل آخر.. لقد أحكم (حسين) حصاره حولنا، حتى لم يعد أمامنا من سبيل سوى أن نتزوج، ونضعه أمام الأمر الواقع.
قالت في توتر، وهي تقترب معه من سور الحديقة الخلفية:

- ولكن ثورة (حسين) ستكون عارمة، ولن يغفر لي أبدا وسيسعى للانتقام مني ومنك، حتى ولو كان هذا آخر ما يفعله في حياته
توقف (أمجد)، وسألها في حزم:
- (شريفة).. هل تشعرين بالندم؟
هتفت على الفور:
- مطلقا.. إنني أحبك يا (أمجد)، ولم أحب سواك، في حياتي كلها، ولست أتردد لحظة واحدة في الذهاب معك إلى آخر الدنيا.
ثم انخفض صوتها، مع استطراداتها:
- ولكنني أشعر بالخوف.
أمسك كتفيها، وقال محاولا طمأنتها:
- لا تقلقي يا حبيبتي.. لقد درست الأمر جيدا، وأعتقد أننا عندما نتزوج، سنضع (حسين) أمام الأمر الواقع تماما، وسيخشى تأثير الفضيحة على مستقبله، إلى الحد الذي يضطر معه لقبول الأمر.
غمغمت مرتجفة:
- أتمنى هذا.
ربّت على كتفها، ومنحها ابتسامة مشجعة، وهو يقول:
- اطمئني.. كل شيء سيسير على ما يرام بإذن الله.
ثم تلفت حوله، وسألها في حذر: - أخبريني.. هل يعلم أي مخلوق بما سنفعله؟
هزت رأسها نفيا في قوة، قائلة:
- مطلقا.. لقد احتفظت بالأمر سرا، حتى أنني لم أخبر شقيقاتى.
سألها في اهتمام:
- وهل تركت رسالة لتوضيح الأمر؟
أجابته بسرعة:
- نعم، ولكن أحدا لن يعثر عليها قبل الصباح.
تنهد في عمق، وقال:

- فليكن.. دعينا نمض في خطتنا، على بركة الله.
ناولته حقيبتها، وهي ترتجف من فرط الانفعال.
كانت تعلم أنها ترتكب جريمة بكل المقاييس، عندما تفر من السراي على هذا النحو، وتتزوج (أمجد) سرا.
ولكن (حسين) هو المسئول عن هذا..
هو الذي اضطرها إلى مثل هذا الإجراء، بتعنته، وعناده، وإصراره على رفض زواجها من (أمجد)، بدون إبداء الأسباب..
وما يحزنها في الواقع، هو أن تعنت (حسين) سيحرمها من رؤية أسرتها طويلا..
وطويلا جدا على الأرجح
فهي تعرف (حسين) جيدا..
إنه لن يغفر لها ما فعلته..
لن يغفره قط..
وسالت دموعها على خديها، وهي تراقب (أمجد)، الذي تسلق السور في رشاقة، وترك جسده كله يتدلى من الجانب الآخر، الذي نقل إليه حقيبتها، وهو يمد يده إليها، قائلا:
- ناوليني يدك، لأساعدك على الصعود.. لم تكد تمد يدها إليه، حتى ارتفع صوت أحد الخفراء، يصرخ:
- من هناك؟ من عند سور السراي؟
اتسعت عيناها في هلع، وصاح بها (أمجد)
- ابتعدى يا (شريفة).. ابتعدى..
ارتفع الصوت يصرخ مرة أخرى
- قف عندك.
شهقت (شريفة) في ارتياع، عندما اختفى (أمجد) من أمامها، مع وقع أقدام الخفير، وهو يعدو مقتربا، ويصرخ:

- قف.. قف وإلا أطلقت النار ثم دوت الرصاصات، لتشق سكون الليل.. وصرخت (شريفة) في رعب.. وسالت الدماء في القرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

92- زائرة..

استقبل الرئيس (جمال عبد الناصر) (حسين) في مكتبه بلهفة واضحة، وصافحه في حرارة وبساطة، وهو يقوده إلى أريكة واسعة، قائلا:

- حمدا لله على سلامتك يا (حسين).. كيف وجدت الأوضاع هناك؟

تنهد (حسين)، وهو يقول في أسف:

- كنت أتمنى أن أنقل إليك صورة وردية يا سيادة الرئيس، ولكن الحقيقة تخالف ذلك للأسف، فالأوضاع متردية للغاية هناك، وتجاوزات العسكريين المصريين بلغت حدا استفزازيا، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في رفض السوريين تماما لفكرة التأميم التي تمهد لتطبيقها هناك.

قال الرئيس في ضيق:

- هذا أمر طبيعى، فالمفترض أن (مصر) و (سوريا) قد أصبحتا (الجمهورية العربية المتحدة)، وليس من المنطقي أن نطبق التأميم في الإقليم الجنوبي، ثم لا يتم تطبيقه في الإقليم الشمالي.

أجابه (حسين):

- هذا صحيح يا سيادة الرئيس، ولكن السوريين تجار بطبعهم، وأي تاجر يرفض فكرة التأميم من جذورها.

أومأ الرئيس برأسه متفهما، قبل أن يقول:

- هل تعلم يا (حسين)؟ لقد ظللت أحلم طيلة عمري بقيام الوطن العربي الأكبر.. إنه حلم لم يفارقني قط منذ حداثتى.. حلم أن يصبح العرب كلهم أمة واحدة قوية، من المحيط إلى الخليج، تخشاها الأمم كلها.. وعندما تمت الوحدة بيننا وبين (سوريا)، تصورت أنها الخطوة الأولى في الحلم الكبير، وخاصة بعد أن طلب (العراق) الانضمام إلينا..

ثم تنهد في حرارة، مستطردا:
- ترى ما شعورك، عندما تحقق حلما، أو تقترب من تحقيقه، ثم تراه يتحطم أمام عينيك، بسبب بعض التصرفات غير المسئولة؟
غمغم (حسين):
- إنه أمر مؤسف بالفعل.
هز الرئيس رأسه، وتمتم:
- وأي أسف؟
ثم استعاد صوته حيويته، وهو يستطرد:
- هل كتبت تقريرا بكل ما رأيته هناك؟
أجابه (حسين) بسرعة:
- بل لدى ملف كامل يا سيادة الرئيس، ولقد سلمته للسيد (محمود)، سكرتير سيادتكم الخاص.
غمغم الرئيس:
- عظيم.
ثم نهض معلنا نهاية اللقاء، ورسم على شفتيه ابتسامة كبيرة، مستطردا:
- أشكرك يا (حسين)، وحمدا لله على سلامتك مرة أخرى
صافحه (حسين) مغمغما:
- أنا رهن إشارتك يا سيادة الرئيس
وعندما انصرف من مكتب الرئيس، كان يشعر ببعض الضيق في أعماقه..
لماذا لم يشر الرئيس إلى ما وعده به؟ لماذا لم يتحدث بحرف واحد عن ترقيته؟
لازمه ذلك الشعور بالضيق، حتى وصل إلى منزله في (جاردن سيتى)، وهناك استقبله خادمه في حرارة، قائلا:

- حمدا لله على سلامتك يا (حسين) بك.. لماذا لم تخبرني بأمر سفرك مسبقا، حتى أتواجد في المنزل لأودع سيادتك؟
ناوله (حسين) سترته، وهو يقول:
- كانت مأمورية عاجلة.
واصل الخادم حديث المجاملة، ولكن (حسين) لم يسمع حرفا واحدا منه، وهو يسترخي فوق الأريكة الوثيرة، في حجرة الاستقبال، وراح عقله يسترجع تفاصيل آخر لقاء له مع (عايدة) قبل سفره..
كم أدهشه يومها أن تطلب منه الزواج منها...
(عايدة) المتغطرسة المغرورة، صاحبة الشموخ والكبرياء، والعناد بلا حدود، تستخدم فيلما زائفا، لترغمه على الزواج منها!!
كيف يمكن لها أن تفعل هذا؟ بل كيف يمكن أن تقدم امرأة عادية على تصرف كهذا؟!
ولم يقنع عقله أبدا بأي تفسير ولكن هذه هي (عايدة).. مخلوقة عابثة متقلبة، لا يمكن التنبؤ بتصرفاتها قط...
- هناك زائرة تطلب مقابلتك يا (حسين) بك....
انتزعه خادمه بهذه العبارة من أفكاره وتساؤلاته، فرفع عينيه إليه، قائلا في دهشة:
- زائرة؟! كيف أتت بهذه السرعة؟
واعتدل جالسا بسرعة، وهو يعدل رباط عنقه، قائلا:
- دعها تتفضل بالدخول. ونهض يرتدي سترته على عجل، متوقعا أن تدخل إليه الأميرة (عايدة)، بين لحظة وأخرى، لذا فقد ارتفع حاجباه في دهشة واضحة، عندما رأى فتاة جميلة، ساحرة، ذات فتنة طاغية، تدلف إلى الحجرة، قائلة:
- مساء الخير يا أستاذ (حسين).. معذرة لأنني أتيت دون موعد سابق، ولكنني كنت أرغب في مقابلتك فور عودتك، الأمر بالغ الأهمية.

ثم مدت يدها لتصافحه في رقة، وهي ترسم على شفتيها أكثر ابتساماتها سحرا وعذوبة، وتهمس بصوت مثير:
- دعني أقدم نفسي أولا.. أنا (جيهان).. زميلة (مفيد) في المدرسة.
هتف بسرعة:
- آه.. تفضلي يا آنسة (جيهان).. مرحبًا بك في أي وقت
التقطت طرف ثوبها، وهي تجلس في رقة وأناقة، ومع حركتها المدروسة، تطاير عطرها ليملأ الحجرة، ويتسلل إلى أنف (حسين)، الذي جلس إلى جوارها، وهو يبتسم قائلا:
- أنت إذن رفيقة السينما.
أومأت برأسها إيجابا، فتأملها مليا، قبل أن يضيف:
- أنت أجمل مما تصورت بكثير.
أثلجت العبارة صدرها، وضاعفت ثقتها بنفسها، وبالخطة التي وضعتها لغزو قلبه، وخاصة عندما سمعته يضيف:
- (مفيد) محظوظ حقا، لأنه سيحظى بفاتنة مثلك.
كان هذا هو طرف الخيط الذي تنشده، لذا فقد جذبته في رفق وهي تخفض عينيها الجميلتين، هامسة:
- هذه هي المشكلة
سألها (حسين) في قلق
- أية مشكلة؟
تنهدت في عمق، ورسمت الحزن على وجهها في إتقان، وهي تجيب:
- مشكلة (مفيد) معي.. إنني أتعامل معه بصفته صديقا، وزميلا في العمل، ولكنه أساء فهم هذا الأسلوب، وتصور أنني غارقة في حبه.
قال (حسين) في دهشة:

- عجبًا! كنت أتصور أنك تبادلينه مشاعره، لأنه طلب مني أن اصطحبه لطلب يدك، فور عودتي من السفر!
أجابته في سرعة:
- وهذا ما يقلقني، فأنا لم أطلب منه هذا، ثم إن..
توقفت بغتة، وركزت عينيها في عيني (حسين)، مستطردة في همس مثير:
. ثم إن (مفيد) ليس الطراز الذي يروق لي.
غرق لحظة في عينيها الجميلتين، ثم سألها في خفوت:
- وما الطراز الذي يروق لك إذن؟
تركته يذوب في عينيها بعض الوقت، قبل أن تجيب في همس الأفعى:
- طرازك أنت.
كانت مبادرة بالغة الجرأة منها، ولكن تلك الاختلاجة في شفتيه وعينيه أنبأتها بأنها تسير في الطريق الصحيح..
الصحيح تماما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عدّل طبيب الوحدة الصحية بالقرية منظاره الطبي، وزفر في ارهاق، وهو ينتزع محقنه من ذراع (شريفة)، التي راحت تبكي وتنتحب في انهيار كامل، وغمغم متوترا:
- يا لها من ليلة! من النادر أن نصادف هذا في قرية عادية سأله (مفيد) في قلق:
- هل تعتقد أن هذا الدواء سيفيدها؟
أومأ الطبيب برأسه إيجابا، وقال:

- بالتأكيد.. إنه عقار مهدي، وهي مصابة بانهيار عصبي حاد وتحتاج إلى بعض النوم والهدوء.
مصمصت (نعيمة) شفتيها، وقالت في حسرة:
- يا للمسكينة! لقد أفزعتها الطلقات النارية، فمن النادر أن تسمعها هنا.
عقد (مفيد) حاجبيه في ضيق، في حين أخفي الطبيب ابتسامته وهو يقول:
- يبدو أنها ليلة النوادر.
سأله (مفيد):
- وماذا عن الآخر؟
هز الطبيبة رأسه، وقال:
- حالته ليست مطمئنة.. لقد أجرينا له كل ما تستطيع من إسعافات أولية، ولكن إصابات بالغة، فقد اخترقت إحدى الرصاصات ظهره، من الناحية اليسرى، وعلى مقربة من القلب، وغاصت الثانية في معدته، والثالثة قطعت وريده العنقي، ولكنها لم تستقر في جسده، ومع كل هذه الإصابات، أعتقد أنه سيحتاج حتما إلى جراحة عاجلة، بأيدي أطباء مهرة، ولهذا أرسلناه بسيارة الإسعاف إلى المستشفى العام في (طنطا).
سأله (مفيد) في قلق: - وما فرصته في النجاة في رأيك؟ أومأ الطبيب برأسه عدة مرات، قبل أن يقول:
- لا أعتقد أنها تتجاوز العشرين في المائة.
انفجرت (شريفة) باكية مرة أخرى، وراحت تنتحب في شدة..
فرمقها الطبيب بنظرة جانبية، واستطرد:
- ولكن ينبغي أن يكون إيماننا بالله (سبحانه وتعالى) كاملا.
تنهد (مفيد)، وقال:
- إنه كذلك والحمد لله.

ولم يكد يغادر الحجرة، ليوصل الطبيب إلى باب السراي، حتى قالت (فاطمة) بخشونتها المعهودة:
- يا للفضيحة! يا للعار! كيف يرى أهل القرية وجوهنا بعد ذلك؟
قالت لها (نعيمة) في غضب:
- اصمتي يا (فاطمة).
لوحت (فاطمة) بكفيها، وهي تقول:
- أصمت؟! أصمت على ماذا يا صاحبة السعد والهناء؟! هل تظنين أن القرية ستنسى الفضيحة، لو التزمت أنا الصمت؟
صاحت بها في غضب أشد:
- قلت لك: اصمتي
ولكن (فاطمة) تجاهلت الأمر تماما، وهي تقول مولولة:
- تري ماذا سيفعل (حسين) بك، عندما يعرف ما فعلته أخته؟
انتفض جسد (نعيمة) من شدة الغضب هذه المرة، وهي تصرخ:
- هل تتعمدين استفزازى يا امرأة؟ اخرجي من هنا.. لم أعد أطيق رؤية وجهك القبيح.
هزت (فاطمة) كتفيها في استهتار، وهي تتجه إلى الباب، قائلة:
- سأخرج يا ربة الصون والعفاف، ولكن هذا الوجه القبيح، الذي لا تطيقين رؤيته، لم يمنح نفسه لرجل إلا بالحلال.
بكت (شريفة) أكثر وأكثر، على الرغم من تأثير العقار المهدي، الذي أرسل النوم إلى جفونها، في حين قالت (نعيمة) في سخط:
- هذه الحقيرة تستحق القتل
أجابتها (شريفة) في مرارة:
- دعيها يا (نعيمة).. دعيها تقول ما لديها، فلم يعد هناك ما يهمني، بعد ما أصاب (أمجد).
تطلعت إليها (نعيمة) لحظات في استنكار، قبل أن تقول محتدة:
- لست أصدق نفسي!! كيف جرؤت على فعل هذا يا (شريفة)؟!

كيف طاوعتك نفسك على تعريض اسم (البنهاوي) لهذا العار؟!
هتفت (شريفة)، من وسط دموعها:
- لم يكن هناك حل آخر.. (حسين) لم يترك لي سوى هذا.
أجابتها (نعيمة) في غضب:
- حتى لو اضطرتك الظروف للبقاء دون زواج طيلة عمرك، ما كان لك أبدا أن تفعلى هذا.
عضت (شريفة) شفتيها قهرا، وهي تقول:
- بالطبع.. من السهل على زوجة مثلك أن تقول هذا.. من السهل عليكن جميعا أن تنتقدن ما فعلت، وأن تعترضن وتبدين الأسف والامتعاض، فما من واحدة منكن جربت البقاء هكذا دون زواج.
شعرت (نعيمة) بتأنيب الضمير، فربتت عليها، قائلة في إشفاق:
- لا تقولي هذا يا (شريفة).. أنت أجمل بنات القرية، وكل شاب في الدنيا يتمنى الزواج منك.
ابتسمت (شريفة) في سخرية مريرة، على الرغم من الدموع التي تغرق وجهها، وهي تقول:
- أين هم إذن؟ أرسلي في طلبهم، وسيخبروك أنني لست بالجميلة التي تتصورينها.. سلى (فؤاد)، الذي جاء لخطبتي، ولم يكد يرى (ناهد)، حتى طرحني خلف ظهره، وكأنني كم قمامة، وتشبث بها.. اطلبي من (حسين) أن يشرح لك لماذا وافق على هذا؟ بل استدعى (فاطمة)، وسليها: ما موقعي في السراى بالضبط.. لقد أصبحت خادمة يا (نعيمة).. مجرد خادمة لعائلة (البنهاوي) كلها.. حتى في المواسم والأعياد، عندما تجتمع الأسرة كلها، لا تحاول واحدة منكن أن تغسل الأطباق التي تأكل فيها، مع زوجها وأولادها.. إنكم تتناولون طعامكم، وأقداح الشاي، وأطباق الحلوى والفاكهة، ثم ينصرف الجميع، تاركين ما تبقى للخادمة الحقيرة (شريفة البنهاوي).

همهمت (نعيمة) في أسي:
- كنا نتصور أن (فاطمة) تتولى الأمر كله
هتفت (شريفة):
- (فاطمة)؟! إنك تذكرين السبب الرئيسي لغضبى ونقمتي.. إنني الوحيدة المضطرة لاحتمال تلك الحقيرة ليل نهار.
تنهدت (نعيمة)، قائلة:
- كان الله في عونك
انهمرت دموع (شريفة) مرة أخرى، وهي تقول:
- لقد كان (أمجد) بالنسبة لي هو الأمل.. الأمل في الفرار من كل هذا.. في أن أصبح ربة منزل، لا يشاركني فيه أحد.. منزل أكون أنا أميرته وصاحبته وسيدته.. كان (أمجد) هو الحب الوحيد الذي ملأ قلبي، في حياتي كلها.
ربتت عليها (نعيمة) في أسي وإشفاق، مغمغمه: - كلنا نحبك يا (شريفة)
قهقهت (شريفة) ضاحكة في مرارة شديدة، وهي تقول:
- آه.. هذا واضح.. انظري كيف تلتفون جميعا حولي في محنتى؟
شهقت (نعيمة)، قبل أن تهتف:
- لا تسيئي تفسير الموقف يا (شريفة).. إننا لم نبلغ (ناهد)، حتى لا يعلم زوجها (فؤاد) بالأمر، فأنت تعرفين سوء العلاقة بينه وبين (حسين)، ولم نشأ أن نمنحه فرصة للتشفي والشماتة، أما (توحيده)، فهي مريضة جدا هذه الأيام، حتى أن زوجها (عبد الحكيم) يفكر في عرضها على كبار الأطباء في الخارج. تمتمت (شريفة)، وهي تمسح دموعها:
- إنني أدعو لها دائما بالشفاء.
انخفض صوت (نعيمة)، وبدت شديدة التوتر، وهي تقول:

- الشيء الذي يقلقني بشدة، هو ماذا سيفعل (حسين) عندما يبلغه أمر ما حدث؟
انتفض جسدها مع جسد (شريفة) في عنف، عندما ارتفع من خلفها صوت (حسين)، وهو يقول في غضب:
- لا داعي للتساؤل، فسيأتيك الجواب على الفور قفزت (نعيمة) من مقعدها، وهي تهتف:
- (حسين).. اهدأ يا (حسين).. سأشرح لك كل شيء.
أما (شريفة)، فقد أخفت وجهها بذراعيها، وراحت تصرخ:
- لا.. لا يا (حسين).. أرجوك
صاح (حسين) في غضب صارم:
- لن أضربك يا (شريفة)، ولن ألمس شعرة واحدة من رأسك، ولكنني سأعاقبك على نحو آخر.
قال (مفيد) من خلفه في حدة: - هل ستحرمها من إيراد الأرض أيضا؟
التفت إليه (حسين)، قائلا:
- لا شأن لك بهذا.. لا تتدخل في الأمر
ولكن (مفيد) واجهه متحديا، وهو يقول:
- (شريفة) أختي، مثلما هي أختك يا (حسين)، ولن أسمح لأحد أبدا أن يمسها بسوء، ثم إنني سئمت أسلوبك الملتوي هذا.. إنك تتحجج بالغضب وبأخطاء الآخرين، لتحرمهم من نصيبهم في إيراد الأرض، وتحتفظ به لنفسك.. لقد نسيت وصية والدنا رحمه الله واستبحث لنفسك كل شيء؟
اشتعل غضب الدنيا كله في وجه (حسين)، وهو يقول:
- أهذا ما تظنه.. صحيح أننا شقيقان، ولكن من الواضح أنك تجهل تماما من هو (حسين البنهاوي).. إنني لا أستبيح لنفسي فقط قرشا واحدا من أموال الآخرين، وكل مليم من نصيب (حافظ) أو

(ناهد)، من إيرادات الأرض، يوضع بانتظام في دفتري توفير، الأول باسم (طارق)، والثاني باسم (ناهد) نفسها.
شعر (مفيد) بتأنيب الضمير، وهو يغمغم مرتبكـا:
- لم أكن أعلم هذا.
أجابه (حسين) في صرامة:
- ولكن كان ينبغي أن تتوقعه.
خفض (مفيد) عينيه أرضا لحظة، ثم لم يلبث أن اعتدل في حزم، وهو يقول:
- هذا عظيم بالنسبة لـ (ناهد) و (حافظ)، ولكنني مازلت أمنعك من أن تمس (شريفة) بسوء.
أجابه (حسين) في غضب:
- لو أنني أردت تمزيقها إربا، فلن يمكنك اعتراض طريقي أيها التافه..
ثم التفت إلى (شريفة)، التي تولاها الرعب، مستطردا:
- إنني لن أغفر لك هذا أبدا يا (شريفة)، وبناء على ما حدث ستتغير معاملتي لك إلى الأبد، أما بالنسبة لـ (أمجد)، فقد أذعت في القرية كلها أنه مجرد لص، حاول سرقة السراي ليلا، فأطلق عليه الخفير النار.
قال (مفيد) في حدة:
- وماذا لو أنكر (أمجد) هذا؟
أجاب (حسين) في صرامة:
- لن يفعل. ثم أضاف في سرعة:
- أنا قادم على التو من المستشفى العام في (طنطا)
حدقت فيه (شريفة) في ارتياع، وخفق قلبها في عنف، وهو يستطرد:

- البقاء لله.. لقد لقي (أمجد) مصرعه، في حجرة العمليات الجراحية.
ولثانية أو ثانيتين، ران على الحجرة صمت رهيب، قطعته (شريفة) بصرخة رهيبة..
صرخة قلب
يحتضر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

93- الانفصال..

اندفعت (سوسن) تعبر ساحة المدرسة، في خطوات سريعة كعادتها، إلا أن خطواتها هذه أبطأت كثيرا، في ذلك اليوم بالذات، عندما وقع بصرها على (مفيد)، الذي يجلس وحيدا في أحد الأركان، وقد دفن وجهه بين كفيه، وبدا من الواضح أنه يتمزق نفسيا بشدة..

وخفق قلبها من أجله

صحيح أنهما انفصلا رسميا، منذ ما يقرب من أربعة أعوام، إلا أن قلبها مازال يحمل له الكثير والكثير من المشاعر..

وفي صمت مشفق، وقفت (سوسن) تتطلع إليه بعض الوقت وقلبها يتصارع مع عقلها في عنف، وكل منهما يقاتل لفرض ارادته، والانتصار لموقفه.

عقلها يطالبها بمواصلة السير، وترك (مفيد) وشأنه، حتى لا يتصور أنها مازالت تحبه، وتسعى لاستعادته..

وقلبها يصرخ في عناد: نعم تحبينه.. تحبينه من كل قلبك وما غضبك وثورتك إلا تعبير عن هذا الحب...

الحب الذي لم يحتمل رؤيته، وهو يندفع نحو (مديحة)، ويتخلى عنك..

اعترفي يا (سوسن)

أنت تحبينه..

تحبينه.. تحبينه –

- صباح الخير يا (مفيد)....

جاءت العبارة هامسة مرتجفة، معلنة انتصار قلبها في معركة المشاعر، فرفع (مفيد) عينيه إليها في دهشة، وانتفض قلبه مع كلماته، وهو يهتف:

- (سوسن)؟! غير معقول.
ارتجف جسدها مرة أخرى، وهو ينطق اسمها، وراودتها نفسها على الفرار، إلا أنها أسرعت تجلس إلى جواره، قبل أن يهزمها عقلها، وقالت مشفقة:
- لماذا تبدو حزينا هكذا؟
وكم أسعده سؤالها!
كم ملأ قلبه بحب لا حدود له، وهو يتطلع إلى وجهها الهادي الجميل...
وفي حنان حزين، سألها:
- أما زال أمري يهمك يا (سوسن)؟
تخضب وجهها بحمرة الخجل، وأشاحت به مرتبكة، فارتفع حاجباه في حنان، وخفق قلبه في لهفة:
إذن فهذا حقيقي إنها لم تكرهه، كما كان يتصور.. إنها تحبه.. مازالت تحبه..
ولكن خجلها غلب حبها هذه المرة، فنهضت محاولة الانصراف إلا أنه تشبث بكفها، قائلا في ضراعة:
- لا.. لا تنصرفي.. أرجوك.
سرت في جسدها قشعريرة عنيفة، مع تلامس يديهما، وجذبت كفها منه في توتر، وهي تقول:
- ماذا تفعل؟! أنسيت أننا وسط ساحة المدرسة؟
قال متوسلا:
- لا أحد هنا.. الإجازة الصيفية لم تنته بعد، والجميع سوانا يحضرون متأخرين.
ثم كرر:
- وأنا أحتاج إلى التحدث إليك.. أرجوك.. ترددت لحظة، ثم عاودت الجلوس، وسألته: - أأنت حزين بسبب انفصالك عن

(جيهان)؟
ابتسم في مرارة، وهو يجيب:
- أنا حزين لألف سبب آخر، فالسراى عندنا أصبحت كئيبة، وكل شيء لم يعد على ما يرام، منذ أصيبت (شريفة) بالانهيار العصبي، وأصبحت منعزلة في حجرتها طوال الوقت، و (فاطمة) هي التي تقوم بكل العمل وحدها، ولا تتوقف عن الشكوى والصياح، وشقيقتي (توحيده) تتدهور صحتها باستمرار.. ويمكنك إضافة انفصال (جيهان) غير المفهوم.. هل تكفيك كل هذه الأسباب لتبرير حزنى، أم أنك مستعدة لسماع الباقي؟!
أشاحت بوجهها، وهي تقول:
- (جيهان) لم تكن تناسبك أبدا.. لقد سعت خلف ثرائك، وتصورت أنك منقذها من الفقر الذي تعيش فيه، وعندما كشفت أن كل شيء باسم (حسين)، انهار السبب الذي سعت إليك من أجله فانفصلت عنك دون ترتد.
قال في دهشة:
- أهذا كل ما يهمها؟! المال والثروة؟!
تنهدت قائلة:
- ربما بدا لك هذا نوعا من الحقارة والوصولية، ولكنك لم تذق طعم الفقر أبدا، ولو أنك فعلت، فمن يدري ما ستكون عليه شخصيتك، وما ستسير عليه من مبادئ.
قال في ضيق حاد:
- لو أننا التمسنا الأعذار لكل خائن ومنافق، لما وجدنا من يستحق العقاب في العالم أجمع، فالسارق يحتاج إلى النقود، والقاتل مضطر لما فعل، وحتى النصاب والمغتصب والسفاح.. كل منهم لديه المبرر لما فعل.. أمام نفسه على الأقل.
أشارت إليه قائلة:

- فليكن.. لم أكن أقصد ما قلته بالضبط.. كانت مجرد محاولة لتهدئة الموقف، ولكن يبدو أنني أسأت التعبير.
تنهد في عمق، وقال:
- معذرة.. من الواضح أن أعصابى متوترة للغاية
غمغمت في خفوت:
- من الواضح أن انفصال (جيهان) عنك يؤرقك
هز رأسه نفيا، وقال:
- ليس انفصالها في حد ذاته، ولكن الوسيلة التي استخدمتها لتفعله.. لقد تجاهلتني تماما، وراحت تعاملني بجفاء شديد، وغلظة لا مبرر لها، وفي النهاية، أخبرتني بكل قسوة أنها لن تستمر معى لأنها مرتبطة بأخر.
تطلعت إليه (سوسن) لحظات في حذر، قبل أن تسأله:
- ألم تخبرك من هو هذا الآخر؟
أجاب في تلقائية:
- كلا
ثم انعقد حاجباه بغتة، وهو يسترجع أسلوب ولهجة (سوسن)، في نطق السؤال، والتفت إليها، يقول في توتر:
. ولكنك تعرفينه يا (سوسن).. أليس كذلك؟
ارتبكت (سوسن)، وهي تقول:
- الواقع انني..
قاطعها في انفعال:
- أخبريني من هو.. إنك تعرفينه.. لا داعي للإنكار .
خفضت (سوسن) عينيها لحظات في صمت وأسى، قبل أن تجيب:
- إنه (حسين)
- تراجع (مفيد) كالمصعوق، وهو يقول:
- (حسين)؟! (حسين) من؟!

غمغمت (سوسن):
- (حسين) شقيقك.. (حسين البنهاوي).
وكانت الصدمة عنيفة
عنيفة للغاية

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تطلع (حسين) إلى (إبراهيم مكـى) في دهشة لبضع لحظات، قبل أن يمسك ذقنه بسبابته وإبهامه، قائلا في حذر:
- إذن فـ (فؤاد) يفكر جديا في الإبلاغ عن تجاوز أرض (البنهاوي) للحد الأقصى للملكية الزراعية!
أومأ (إبراهيم) برأسه إيجابا، وقال:
- نعم.. ولقد طلب مني مساعدته على القيام بهذا.
عقد (حسين) حاجبيه، وتراجع قليلا، وهو يتطلع إلى ابتسامة (إبراهيم) الخبيثة، قبل أن يقول:
- يدهشني أنك لم تفعل.
اتسعت ابتسامة (إبراهيم)، إزاء هذه المواجهة الصريحة، وهو يقول:
- من المؤكد أن هذا كان كفيلا بإثارة سعادتي وحماسي، في ظروف أخرى، أما الآن، وبعد أن واجهت بعض المواقف، التي قلبت الموازين في رأسي، وبعد دراسة متأنية للأمر، وجدت أنه من الأكثر حكمة ألا أفعل.
ابتسم (حسين) في سخرية، قائلا:
- لا تقل لي: إنك فجأة، أصبحت تهتم بمصالحى
هز (إبراهيم) رأسه نفيا، وهو يقول:
- بالطبع لا..

ثم تراجع بمقعده، مستطردا بنفس الابتسامة، التي تسيل خبثا ودهاء:
- ولكنني أطبق قاعد بسيطة، علمتك إياها قديما.. أيام كنت مجرد طالب في الكلية الحربية.. هل تذكرها؟
سأله (حسين) في حذر
- كلا.. ما هي بالضبط؟
اتسعت ابتسامة (إبراهيم)، وهو يميل نحوه مرة أخرى، ويجيب:
- فكر جيدا، قبل أن تتخذ قرارك، واختر دائما الجانب الأقرب إلى الربح.
فتح (حسين) شفتيه، وهم بقول شيء آخر، عندما اقتحم (صلاح) الحجرة بغتة، وهو يهتف في انزعاج واضح:
- هل سمعتما آخر الأخبار؟
التفت إليه الاثنان في دهشة وتساؤل، وهو يتابع في سرعة:
- لقد قام السوريون بانقلاب عسكري، وأعلنوا انفصالهم عن الوحدة، وأيقظوا المشير (عبد الحكيم عامر) من نومه، ووضعوه في الطائرة بالبيجاما، وأرسلوه إلى هنا.
وثب (حسين) من مقعده، وهو يقول:
- يا لها من تطورات! كنت أتوقع هذا.. كنت أتوقعه منذ عودتي من (دمشق).
واختطف سترته، مستطردا
- أراهن على أن الموقف متوتر للغاية الآن، وأن سيادة الرئيس سيطلبني على الفور.
هتف به (إبراهيم)، وهو يتابع انصرافه السريع:
- إلى أين؟
أجابه (حسين) في انفعال:
- هل تعتقد أنني سأنتظر، حتى يطلبني سيادته؟

وكعادته، لم يضع (حسين) لحظة واحدة، وانطلق بسيارته بأقصى سرعة، حتى وصل إلى منزل الرئيس، وهناك، كان من الواضح أن الموقف متأزم للغاية، فقد اجتمع الرئيس (جمال) بالمشير (عبد الحكيم عامر)، الذي ارتدى ثيابه العسكرية، ومعهما (على صبري)، وعدد من قادة الجيش، الذين يرغون ويزيدون، والرئيس يواجههم في صرامة، هاتفا:

- كلا.. هذا قراري الأخير، ولن أتراجع فيه قط

مال (حسين) على أذن السكرتير الخاص للرئيس، وهو يسأله:

- ماذا حدث؟! أجابه السكرتير في توتر، عم المكان كله:

- عندما عاد المشير من (سوريا)، كان منفعلا وغاضبًا للغاية، حتى أنه أقنع سيادة الرئيس بإرسال فرقة من رجال المظلات إلى هناك، لقمع الانقلاب، وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه، وبعد أن انطلقت الطائرة بالفعل، راجع الرئيس موقفه، وبدا له أن هذا الإجراء لا يناسب الموقف أبدا، فمعناه الوحيد أننا قد تحولنا إلى دولة استعمارية، تفرض الوحدة بالقوة، وهكذا أصدر سيادته أوامره بإلغاء العملية، وعودة الطائرة، قبل هبوط جنود المظلات، والمشير غاضب للغاية، ويحاول إقناع الرئيس باستخدام القوة، وسيادة الرئيس يرفض الأن بشدة.

أومأ (حسين) برأسه متفهما، وهو يقول:

- موقف حكيم.

ثم سأل في اهتمام:

- ولكن هل تعتقد أن وجودي ضروري الأن؟

أجابه السكرتير في لهجة مهذبة:

- أنت من المرحب بوجودهم في أي وقت يا أستاذ (حسين)، والأوامر لدي حراس البوابة، تتيح لك القدوم وقتما تشاء، ولكنني أعتقد أنه من الأفضل، في مثل هذه الظروف، أن تترك القادة

وحدهم؛ فهم لا يميلون إلى أن يشاهدهم أحد، في لحظات الغضب والثورة.
مرة أخرى، أومأ (حسين) برأسه متفهما، وقال:
- فليكن.. أنا في منزلي، لو طلبني السيد الرئيس.
لم يكن ذلك الانفصال مفاجئا له بالفعل، فقد اطلع بنفسه على تردي الأحوال في (دمشق)، وكان يتوقع بلوغ هذا الحد..
وفي منزله، راح يدرس الموقف مرة أخرى، ويحاول استنتاج التطورات القادمة، وهو يرتشف قدح شاى ساخن في الشرفة متطلعا إلى شروق الشمس، و.
وفجأة، ارتفع رنين جرس الباب وفي دهشة، تطلع (حسين) إلى ساعته، وهو يتمتم:
- عجبًا! من يأتي في مثل هذه الساعة؟
استيقظ الخادم على رنين الجرس، ولكن (حسين) سبقه إلى الباب، وفتحه في لهفة، وهو يتوقع رؤية أحد رجال الحرس الجمهوري، أو زملاء عمله، أو..
واتسعت عيناه في دهشة بالغة، وهو يحدق في وجه الأميرة (عايدة)، التي ابتسمت في صعوبة، وهي تقول:
- هل.. هل أيقظتك؟
لم تكن (عايدة) نفسها التي يعرفها، وإنما كانت أخرى، منتفخة الأجفان، زائغة البصر، وبين سبابتها ووسطاها سيجارة مشتعلة، امتد رمادها لسنتيمترين أو يزيد، وثوبها مرتبك، وكأنما ترتديه منذ شهر كامل.
وعلى الرغم من دهشته، أفسح لها (حسين) الطريق في سرعة، وهو يقول:
- مطلقا.. إنني مستيقظ بالفعل.. تفضلى يا (عايدة).. تفضلى. دلفت إلى الشقة في خطوات مرتبكة، ولوحت بيدها، قائلة:

- معذرة يا (حسين)، ولكنني شعرت برغبة عارمة في رؤيتك ولم أستطع مقاومة الحضور، و.
قاطعها (حسين) في قلق:
- متى وصلت من (باريس) يا (عايدة)؟
ارتجفت شفتاها، وهي تقول:
- منذ.. منذ ثلاثة أيام
هتف في دهشة:
- ولماذا لم تأت إلى على الفور؟
خفضت عينيها، وبدت له يائسة بائسة، على نحو لم يعهده فيها قط من قبل، حتى أنه، وعلى الرغم من كل ما فعلته به، شعر نحوها بالشفقة، وكرر في صوت منخفض:
- لماذا يا (عايدة)؟
وفجأة انفجرت (عايدة) باكية، وهي تهتف:
- (حسين).. إنني أشعر بالخوف.
ثم ألقت نفسها بين ذراعيه، وتركت دموعها تغسل صدره، مستطردة:
- أكاد أموت خوفا.
احتواها في حنان قلق، وهو يهمس في أذنها:

- لا تخافي أبدا وأنت معي يا (عايدة).. لا أحد يمكنه أن يمس شعرة واحدة منك، وأنا على قيد الحياة.

دفنت رأسها في صدره، وهي تبكي في مرارة، قائلة:

- لا أريد العودة إلى (باريس) يا (حسين).. أرجوك.. لا أريد العودة إلى هناك.

تنهد وهو يربت على رأسها، مغمغما:

- سنرى ما يمكننا فعله يا (عايدة).. سنرى.
ولكن عقله ظل يردد في شك حذر قلق: ولكن لماذا يا (عايدة)؟! لماذا؟!
وكان على حق في تساؤله.. لماذا تخشى العودة إلى (باريس) إلى هذا الحد؟ لماذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قهقه (ميخائيل بن ناثان) في ظفر، وهو يقول لمساعده:
- وبالشهامة المصرية التقليدية، لن يستطيع (حسين) بك مقاومة دموع الأميرة المسكينة، التي طارت من (باريس) إلى (القاهرة)، في حالة مؤسفة مزرية؛ لتستنجد بفارسها المغوار، الذي سيسعى لإثبات تفوقه أمامها، ويحتويها في قبضته، دون أن يدري أنها هي التي تحتويه فعليا..
سأله مساعده في قلق:
- ولكن هل تعتقد أن الأميرة ستحسن القيام بدورها، وستظل على ولائها لنا؟
أجابه (ميخائيل) في ثقة:
- اطمئن.. كل النساء موهوبات في فن التمثيل والخداع، والأميرة تخشانا في شدة، ولن تجرؤ على خداعنا قط.
أومأ المساعد برأسه، قائلا:
- المهم أن يصدقها الرجل
ضحك (ميخائيل)، قائلا
- إنه غارق في هواها، والمصريون لديهم مثل شعبي يقول: مرآة الحب عمياء، ثم إن مبرراتها منطقية للغاية، فقد تعرضت معه

لمحاولة قتل بالفعل، في قلب (باريس)، ومن الطبيعي أن تخشى العودة إليها.
قال المساعد مبتسما:
- نعم يا سيدي.. أعتقد أن كل شيء سيسير على ما يرام
لوح (ميخائيل) بيده، قائلا:
- بالتأكيد.. لقد أحسنا وضع الخطة، وقريبًا جدا، سيصبح لدينا جاسوس مثالي، يجهل حتى أنه يعمل لحسابنا.
وانعقد حاجباه في شدة، وهو يضيف:
- جاسوس في مكتب الرئيس المصري.. في مكتب (جمال عبد الناصر) نفسه.
وانطلقت ضحكته ظافرة مجلجلة قائلا:
- جاسوس اسمه (حسين البنهاوي).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

94- تمرد..

وهل سمعت آخر الأخبار يا أستاذ (مفيد)؟

نطق الحاج (سعفان) هذه العبارة، في محاولة لانتزاع (مفيد) من شروده، وهما يجلسان في المقهى الجديد، الذي أقيم في نفس الموقع، الذي كان يحتله مقهى (جودة)، فالتفت إليه (مفيد) في بطء، وقال:

- ما هي؟! أشار الحاج (سعفان) إلى الصحيفة التي يمسكها، قائلا:

- المؤتمر القومي وافق على صدور الميثاق، وتقرر إلغاء الاتحاد القومي، وتشكيل الاتحاد الاشتراكى.

ابتسم (مفيد) في سخرية مريرة، وهو يقول:

- وما الفارق؟!

هتف الحاج (سعفان):

- فارق كبير يا أستاذ (مفيد).. هذا اتحاد قومى، وذاك اتحاد اشتراكى.

ضحك (مفيد) ساخرا، وهو يقول:

- وما الفارق بينهما وبين هيئة التحرير؟! صدقني يا عمدة، كلها مسميات لنظم سخيفة وفاشلة، ترسم صورة باهتة لديموقراطية زائفة، في محاولة لإخفاء وجه الديكتاتورية، أو تجميله بأصباغ خادعة.

امتقع وجه الحاج (سعفان)، وتلفت حوله في ذعر، هاتفا

- ماذا تقول يا (مفيد) يا ولدي؟

أجابه (مفيد) في حدة، وفي صوت سمعه الجميع:

- أقول الحقيقة يا عمدة.. إننا نعيش في ظل نظام ديكتاتوري صرف، وإلا ما ارتجفتم جميعا، لمجرد أنني أقول الحقيقة.

سرت موجة من التوتر في المقهى، وبدأ رواده يتسللون منصرفين، وكأن كلمات (مفيد) تبث في نفوسهم الرعب، في حين مال عليه الحاج (سعفان)، هامسا في ارتياع:

. لا داعي لهذا يا ولدي.. أرجوك.. حديثك هذا لن يجلب لنا سوى المتاعب.

قال (مفيد) بصوت أكثر ارتفاعا، وكأنه يتحدى العالم كله:

. أعلم هذا يا حاج (سعفان).. أعلم أنه لم يعد لنا حتى حق الاعتراض أو الانتقاد.. بل وأعلم أن هذا المقهى ليس مجرد مكان عادى، لتناول الشاي والقهوة، أو لعب النرد والدومينو والشطرنج.. ألم تسأل نفسك من (شعبان) هذا، الذي ظهر في القرية من العدم، وأنشأ هذا المقهى، في موضع مقهى (جودة) القديم بالتحديد؟! ألم ينتبه أحدكم إلى أن اهتمامه بالأحاديث الدائرة في المقهى، يفوق اهتمامه بطلبات زبائنه؟! ثم أين ذهب (جودة)؟ أين اختفى؟! لو أننا في بلد حر يا حاج (سعفان) لما تلاشى مواطن هكذا من الوجود، بحيث لم تعد أمه نفسها تعلم أين هو، ولا ماذا أصابه.

تلفت الحاج (سعفان) حوله في توتر هلع، وهمهم بكلمات مضطربة متوترة، ثم نهض في حدة، وهو يقول:

- معذرة يا (مفيد) يا ولدي.. لقد تذكرت فجأة موعدا هاما..

وهرول مبتعدا عن المقهى، الذي خلا من رواده تقريبا، فتابعة (مفيد) ببصره في ازدراء، وهو يقول:

- لك الله يا (مصر).. لم يعد أحد يجرؤ حتى على سماع الحقيقة.

لم يكد يعود إلى موضعه، حتى اصطدمت عيناه بعيني (شعبان)، الشبيهتين بعيني ثعلب، وهو يقول بابتسامة لا تبعث الارتياح:

- أية مطالب أخرى يا (مفيد) بك؟

أجابه (مفيد) في صرامة:

- نعم.. لدي مطلب واحد
ثم نهض في حركة حادة، مستطردا:
- اتركنا لحالنا، وعد إلى رؤسائك، وقل لهم: الله يمهل ولا يهمل.. ولا تنسى ذكر اسمي وعنوانى.
لم ينبس (شعبان) ببنت شفة، ولم تختف ابتسامته أو تخفت، أو تفقد طابعها الثعلبي الخبيث.
إنه حتى لم يعترض..
لقد ظل صامتا، مبتسما، وهو يراقب (مفيد)، الذي غادر المكان في حدة، قائلا:
- ولكن ما الفائدة..
وعندما بلغ (مفيد) ذلك الطريق الترابي، الذي يمتد إلى السراى اغرورقت عيناه بالدموع، وتصاعدت غصة كبيرة إلى حلقه، وانقبض صدره في مرارة..
إنه لم يعد يحتمل حبس كل هذا القهر والغضب في أعماقه لم يعد يحتمل كل ما يحدث حوله..
لقد مرت عليه الأشهر الستة الماضية كألف عام، منذ علم من (سوسن) أن (جيهان) قد تركته وتخلت عنه، لتلقي نفسها في أحضان (حسين)..
(حسين)، شقيقه الأكبر، الذي تسبب بأنانيته ونرجسيته في تدمير الجميع.
شريفة) أصبحت مجرد ظل امرأة، تتحرك وتعمل، وتؤدي كل المطلوب منها، دون أن تشكو أو تعترض، أو حتى تدخل في تلك المشاحنات المستمرة مع (فاطمة)..
و (فاطمة) نفسها أصبحت أكثر شراسة، تميل للتحرش بالجميع دون مبرر، حتى بزوجها (حافظ).
الوحيد الذي لم يفقد مرحه وشقاوته هو (طارق)..

(طارق)، الذي لولاه لأصبحت الحياة في السراي أشبه بالعيش داخل قبر مغلق..
أما (سوسن) فقد تحسنت علاقتها به، ولكنها لم تعد أبدا كما كانت..
لقد افتقرت لعامل بالغ الأهمية
إنها تشعر معه بالقلق والحذر، على الرغم من أنهما يلتقيان في المدرسة، ويتحدثان لفترات طويلة، قد تصل إلى ساعة أو ما يزيد.
حتى في فترة الدراسة، كانا ينتهزان الفرصة في فترة الفسحة، وفترات الراحة بين الحصص المختلفة، ليتبادلا بعض الحديث والآراء..
وفي كل مرة تقريبا، كانت (جيهان) تلمحهما، ثم تبتسم في سخرية، وكأنها تعلن انتصارها، وانتقالها من (البنهاوي) البسيط، إلى ملك البنهاوية وصاحب السلطة والسطوة (حسين البنهاوي)..
ومع ابتسامتها هذه، كانت (سوسن) تذوب خجلا وارتباكا، وتضطرب في وقفتها معه، أو تنصرف مسرعة، وحمرة الخجل تخضب وجهها..
وكان من الواضح أن (حسين) سخي للغاية في علاقته بـ (جيهان)، فقد تبدلت هيئتها، وازدادت فتنتها وتضاعف سحرها، وأصبحت ترتدي ثيابا جديدة أنيقة، وأحذية لامعة غالية الثمن، وبلغت ثقتها بنفسها حدا فاق الغرور، حتى أنها استوقفت (سوسن) ذات مرة، قائلة:
- كيف حال حبيب القلب؟
ارتبكت (سوسن) عندئذ، وهي تقول:
- حبيب القلب من؟!
أجابتها (جيهان) في سخرية:
- لا داعي للمناورة.. كلنا نعرف أن علاقتك بـ (مفيد) عادت أفضل مما كانت من قبل.

تخضب وجهها بحمرة الخجل، وهي تتمتم مرتبكة:
- الأمر ليس كما تتصورون.. (مفيد) مجرد زميل، و.
قاطعتها (جيهان) بضحكة ساخرة، ضاعفت خجلها وارتباكها، قبل أن ترمقها بنظرة متعالية متهكمة، وهي تقول:
- لا تقلقي أو تضطربي هكذا يا عزيزتي (سوسن)، فأمر (مفيد) لم يعد يعنيني على الإطلاق.. إنه مثل حذاء أعجبني، فارتديته بعض الوقت، ولن يقلقني قط التفكير فيمن سيرتديه من بعدى.
كانت عبارة وقحة للغاية، وتفتقر إلى أبسط قواعد الذوق واللياقة، حتى أنها مزقت قلب (سوسن) في عنف، وجعلتها تنفجر باكية، فارتسمت على شفتى (جيهان) ابتسامة ظافرة، وكأنها بهذا قد بلغت ما تبتغيه، وانصرفت في زهو ظافر مختال
ولولا بكاء (سوسن) العنيف، وأعصابها المنهارة، لما علم (مفيد) بما حدث قط.
إنه حتى لم يعرفه من (سوسن) نفسها، وإنما من زميلة لها، تصادف أن التقط سمعها الجزء الأخير من الحوار.
ويومها اشتعل غضبا، وكاد ينقض على (جيهان)، ويشبعها ضربا، لولا أن منعته تربيته وأخلاقه، وتوسلت إليه (سوسن) ألا يفعل، حتى لا يتحول الأمر إلى فضيحة، وبالذات في بلدة صغيرة مثل (طنطا).
ومنذ ذلك اليوم، كره (مفيد) (جيهان).
كرهها وكره موقفها، وموقف (حسين)، الذي لم يجد غضاضة في انتزاعها منه، دون أن يتردد لحظة واحدة..
وكعادته، لم يحتمل كتمان الأمر في أعماقه، فواجه به (حسين)، واتهمه بخيانته وخداعه، ولكن (حسين) استقبل الأمر في برود عجيب، واكتفي بأن قال:
- صدقني يا (مفيد).. هذه الفتاة لا تناسبك.

قال له في غضب:
- ومن أدراك أنها لا تناسبني؟
رمقه (حسين) بنظرة خاوية، قبل أن يجيب:
- لو أنها تناسبك، لما تركتك بهذه البساطة.
لم تستغرق مناقشتها أكثر من هذا، وشعر (مفيد) أن (حسين) على حق تماما فيما قاله، وأن (جيهان) لم تكن تناسبه بالفعل.
ولكن هذا لم ينتزع حنقه وغضبه من أعماقه..
وربما كانت ثورته المضاعفة هذه، على الدولة وسياساتها والحريات المفقودة فيها، ليست سوى انعكاس لغضبه وثورته على (حسين)..
ربما..
- (مفيد) بك.. (مفيد) بك....
انتزعه النداء من شروده وأفكاره، ورأى شيخ الخفراء (بسيوني) يهرع نحوه، فسأله في لهفة قلقة:
- ماذا هناك يا (بسيوني)؟ ماذا حدث؟
لهث الرجل في شدة، وهو يجيب منفعلا:
- شقيقتك يا (مفيد) بك.. شقيقتك (توحيده) هتف (مفيد) في هلع:
- ماذا أصابها يا رجل؟! أجب
خفض (بسيوني) عينيه، مغمغما في حزن وأسى:
- البقاء لله يا (مفيد) بك وكانت صدمة عنيفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يحدث في تاريخ القرية كلها، أن حظيت امرأة بسرادق عزاء، في ضخامة ذلك الذي أقيم لـ (توحيده البنهاوي)..

لقد احتل مساحة واسعة للغاية، أمام السراى مباشرة، ليمكنه استقبال تلك الأعداد الهائلة من المعزين، الذين توافدوا من القرية ومن (طنطا) و (القاهرة)، لتقديم واجب العزاء لعائلة (البنهاوي).. وبالذات (حسين البنهاوي).

ويبدو أن القرى البسيطة لا تعتاد رؤية كبار القوم في سهولة فعلى الرغم من أن العديدين من أصحاب الوجوه المعروفة، والأسماء الشهيرة، قد زاروا سراى (البنهاوي) مرة أو مرتين، في ضيافة (حسين)، إلا أن وجودهم جميعا في زمان ومكان واحد، كان كفيلا بإبهار أهل القرية، ومضاعفة احترامهم ورهبتهم من عائلة (البنهاوي)..

ولم يتخلف شخص واحد عن الحضور..

حتى (عمر)، جاء لتقديم واجب العزاء، وأصر على البقاء حتى النهاية، وتلقى العزاء بنفسه، باعتباره أحد أفراد العائلة.

أما النساء، فقد كان حزنهن عارما وعتيا..

صحيح أن (توحيده) ظلت تعاني المرض طويلا، ولكن أحدا لم يكن يتصور أن مشوار العلاج الطويل سينتهي بها إلى الموت..

وخاصة أن زوجها (عبد الحكيم) لم يدخر جهدا أو مالا، في سبيل علاجها، وكانت صحتها قد تحسنت بالفعل في أيامها الأخيرة، كما لو أنها تستنفد آخر أنفاسها دفعة واحدة..

أو أنها صحوة الموت..

ولقد بكت (شريفة) كثيرا في ذلك اليوم، وكأنها انتهزت الفرصة لإفراغ كل دموع وانفعالات نفسها دفعة واحدة..

و (فاطمة) نفسها بكت، كما لم تبك من قبل..

ربما لأن (توحيده) كانت أقل أفراد عائلة (البنهاوي) قسوة، في التعامل معها..

أو لأنها لم تكن تحتك بها كثيرا..

أما الأطفال، فلم يثر الأمر فيهم الكثير من الانفعالات أو الأحزان.
كل ما ملأ قلوبهم الصغيرة، هو أنها فرصة اجتمعوا فيها، ليمارسوا لهوهم ولعبهم معا، فانتشروا في الحديقة الخلفية وتعالت صيحاتهم المرحة، لتمتزج بنحيب النساء، وأصوات المقرئين، وتصنع صورة خاصة، لا يمكنك أن تراها في مثل هذه الظروف..
ووسط كل هذا، وصلت (جيهان) إلى القرية..
كانت ترتدي ثوبا أسود بسيطا، وتتحرك في توتر ملحوظ، وعيناها تجوبان المكان في لهفة واضحة..
ولم يكد بصرها يقع على (حسين)، وهو يودع (إبراهيم مكى) و (مراد صقر) و (صلاح)، حتى اتجهت نحوه في جرأة، ودون لحظة واحدة، وانتظرت حتى انطلق الثلاثة بسيارتهم، وتقدمت نحو (حسين)، قائلة:
- البقاء لله يا (حسين) بك.
التفت إليها (حسين) في حركة حادة، ورمقها بدهشة وضيق، قبل أن يصافحها قائلا:
- سعيك مشكور يا آنسة (جيهان).. تفضلي بالداخل، فعزاء النساء هناك، و.
قاطعته بعصبية هامسة:
- لماذا تتجاهلني هكذا؟
انعقد حاجباه في صرامة، وهو يقول:
- ليس هذا مكان وزمان مناقشة مثل هذه الأمور
تابعت، وكأنها لم تسمعه:
- لقد اتصلت بك عشر مرات على الأقل، وحاولت مقابلتك أكثر من مرة، ولكنك تتجاهلني تماما.
قال في حدة:
- قلت لك: ليس هذا وقت مناقشة تلك الأمور

صاحت في حنق:
- متى إذن؟
كان صوتها أعلى مما ينبغي، حتى أنها لفتت إليها أنظار الجميع، فأثار هذا حنق (حسين) في شدة، وجعله يقول لها في صرامة:
- اسمعي.. لم تخلق بعد المرأة، التي يمكنها أن تضعني في موقف محرج، مهما كانت الظروف.. انصرفي الأن، أو ادخلى السراي، لتقديم واجب العزاء لشقيقاتي، ولكن إياك أن تتكلمي أو تتحدثي معي الآن، في أي شأن كان.
قالت متحدية:
- وماذا لو لم أفعل؟
انعقد حاجباه في صرامة، وهو يقول:
- ستدفعين الثمن غاليا.. غاليا جدا
وبدلا من أن تخيفها كلماته، كما كان يتوقع، اندفعت تقول في حدة:
- ماذا تظنني يا (حسين) بك؟ واحد من رجالك في العمل؟! هل تتصور أنني سأنسحب أو أتراجع، لمجرد أنك هددتني على هذا النحو؟! ما الذي يمكنك أن تفعله معي؟ هل ستحاول اعتقالى؟
أجابها، وقد بلغ غضبه ذروته:
- هناك وسائل أكثر فاعلية
أطلقت ضحكة عالية، فجرت دهشة الجميع، قبل أن تقول:
- أرني تلك الوسائل إذن يا (حسين) بك.. هيا.. هأنذا أمامك.. حاول أن..
أخرستها بغتة صفعة قوية، هوت على خدها، من يد (حسين البنهاوي)، الذي صاح في أحد رجاله في غضب:
- ألق هذه الحقيرة خارجا
حدقت (جيهان) في وجهه بذهول، قائلة
- (حسين)... أنا لم أكن أقصد أن..

انقض عليها رجال (حسين)، فلم تستطع إكمال عبارتها، في حين تطلع (حسين) إلى عينيها مباشرة، وهو يقول غاضبًا:
- لا تنسى ما قلته لك.. ستدفعين الثمن غاليا.
انتزعها الرجال بعيدا، قبل أن تضيف حرفا واحدا، وساد وجوم عجيب في المكان، والكل يتساءلون عن الفتاة، وعما فعلته، مما استفز (حسين) إلى هذا الحد، ولكن هذا الأخير استعاد سيطرته على نفسه بسرعة مدهشة، والتفت إلى الجميع، قائلا في هدوء عجيب:
- شكر الله سعيكم.
(مفيد) وحده كان يختنق مما حدث، على الرغم من أنه لم يحاول التدخل أبدا
لقد فهم من الموقف أن (حسين) لم يعد يلتقي بـ (جيهان) كذي قبل..
لقد بدأ يتجاهلها في لا مبالاة كعادته، كلما سئم ما لديه..
ولكن، هل كان (حسين) جادا، عندما أشار إلى أنه سيجعلها تدفع الثمن؟!
ثم ما ذلك الثمن، الذي يمكن أن تدفعه (جيهان)؟! ما هو بالتحديد؟
مر به السؤال في ذهنه طويلا، وحمل عشرات الأجوبة، ولكن (مفيد) لم يكن واثقا من أي جواب منها..
لم يكن واثقا أبدا
الشيء الوحيد الذي يثق به، هو أن (حسين) لن يغفر لها ما فعلته أبدا، وأن الثمن الذي ستدفعه سيكون فادحا..
فادحا للغاية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخطأت يا (جيهان)... هتفت شقيقتها بالعبارة في جزع، قبل أن تستطرد مذعورة:
- ما كان لك أن تفعلى هذا قط.. إنك تتحدين (حسين البنهاوي)، على الرغم من ثقتك بسلطاته وقدرته على الانتقام!! كيف تقع (جيهان) في مثل هذا الخطأ؟ لقد كنت أعتبرك دائما أستاذة في التخطيط والتدبير! كيف غلبك انفعالك هذه المرة؟!
فركت (جيهان) كفيها في عصبية، وهي تقول:
- لست أدري.. أنا نفسي أدهشني ما حدث، ولكن (حسين) يتجاهلني بالفعل، منذ فترة طويلة، مما أثار أعصابى بشدة، وجعلني أشعر أن كل ما بنيته ووضعت خططه، ينهار أمام عيني بمنتهى البساطة.
ثم لوحت بذراعها، مستطردة في حدة:
- هل تعلمين ما يعنيه تخلي (حسين) عني؟! إنه يعني أنني قامرت بكل أوراقي على جواد خاسر.
أجابتها شقيقتها في حذر:
- لست أدرى يا (جيهان).. يلوح لي أنك أخطأت حساباتك هذه المرة.
قالت (جيهان) في عصبية شديدة:
- أخطأت؟ لماذا أخطأت؟ لقد درست الأمر ألف مرة، وجمعت كل المعلومات الممكنة عن عائلة (البنهاوي)، وبالذات عن (حسين)، وبعدها زرته في منزله.
هزت شقيقتها رأسها، وقالت:
- كان تصرفا بالغ الجرأة منك
أجابتها في حزم عصبى:
- ولكنه كان ضروريا.. لقد أنفقت يومها نصف ما لدي، لشراء زجاجة عطر جديدة، لها رائحة أنثوية فواحة، تدير روس الرجال،

ونجحت في استمالته بالفعل، حتى أنني لم أغادر منزله، إلا بعد أن طلب مني أن ألقاه مرة أخرى.. وطوال ثلاثة أشهر كاملة كان كل شيء يسير على ما يرام، فأسافر إليه في نهاية كل أسبوع وأقضي يومي كله معه، وهو يغمرني بالهدايا والثياب والعطور، حتى تصورت أنني أحكمت قبضتي عليه تماما، ولكنه فجأة ألقاني جانبا، وراح يتجاهلني تماما، فلم أحتمل الأمر، ووجدت أن موت شقيقته فرصة مناسبة لمقابلته، وكان ما كان..

تنهدت شقيقتها في أسف، قائلة:

- وفي هذه المقابلة خسرت كل شيء، والأدهى أنه هددك بالانتقام.

قالت (جيهان) في غضب:

- بل الأدهى أنه جرؤ على صفعي أمام الجميع

وضعت شقيقتها يدها على كتفها، قائلة في تعاطف حنون:

- (جيهان).. صحيح أنني شقيقتك الصغرى، ولكن أرجوك أن تستمعي إلى نصيحتي.. تخلى عن هذا الأمر يا (جيهان)، فاللعبة أصبحت أكبر منك.. اتركي كل شيء، قبل أن تتقلب الأمور على رأسك، وتندمين عندما لا ينفع الندم.

هتفت (جيهان) في حنق:

- مستحيل! مستحيل! ثم انتزعت نفسها من يد شقيقتها، مستطردة في عصبية شديدة:

- أنت تطلبين مني التخلي عن أحلامي.. عن طموحاتي.. عن الصورة التي وضعت نفسي فيها، كزوجة لرجل ثري، من ذوي النفوذ، تطلبين مني الانسحاب، وبكل بساطة، من معركة حشدت كل جيوشي من أجلها.. لا.. لن أتراجع الآن قط، وسأمضي في معركتي حتى النهاية.

سألتها شقيقتها في قلق مشفق:

- ولكن ماذا ستفعلين؟! لقد سد (حسين) في وجهك كل الطرق.

أجابتها في حدة:
- ليس بعد
ثم انعقد حاجباها في تصميم، وهي تستطرد:
- مازال أمامي إجراء أخير.. إجراء قد يعيد إلى كل ما خسرته، ويجعلني أربح المعركة في النهاية..
تضاعف قلق شقيقتها، وهي تسألها:
- أي إجراء هذا؟
ولم تجب (جيهان)، فقد كانت تدرك أن هذا الإجراء بالذات بالغ الجرأة..
أو بالغ الحماقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

95- قرار..

تنحنح (صلاح)، وارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة المقيتة الصفراء، وهو يدلف إلى مكتب (حسين)، قائلا بلهجة ملؤها النفاق والتزلف:

- صباح الخير يا (حسين) بك.. كيف حال سعادتك هذا الصباح؟ لم يبال (حسين) بالرد على التحية، وهو يسأله في اهتمام:

- هل أنجزت ما طلبته منك يا (صلاح)؟

أجابه (صلاح) بنفس الابتسامة:

- بالطبع يا (حسين) بك.. طلباتك كلها أوامر.. إنني لا أتأخر لحظة واحدة، في تنفيذ كل ما تأمرني به، وعلى أكمل وجه ممكن.

انعقد حاجبا (حسين)، وهو يقول:

- أريد أن يتم الأمر بالصورة التي طلبتها تماما.

انحنى (صلاح)، وهو يقول:

- اطمئن يا (حسين) بك.. لقد أعددنا كل شيء، ولا ينقصنا سوى أوامر سيادتكم، وإشارتكم بالتنفيذ.

ثم سأل في خبث:

- هل حددت سعادتك الموعد المناسب للتنفيذ؟

صمت (حسين) لحظات، ثم أشار بيده، قائلا

- ليس بعد.

اعتدل (صلاح)، وهو يقول:

- فليكن يا (حسين) بك.. نحن رهن إشارتك دائما.

أشار إليه (حسين) بالانصراف، ولكن (صلاح) ظل واقفا، حاملا ابتسامته الثقيلة على شفتيه، فسأله (حسين) في حدة:

- ماذا هناك؟ أجابه (صلاح)، بنفس اللهجة المتزلفة:

- معذرة يا (حسين) بك، ولكن هناك أمر ما، أعتقد أنه من الأفضل أن أطلعك عليه.
تسأل القلق إلى نفس (حسين) وصوته، وهو يسأل:
- أي أمر هذا؟
مال (صلاح) نحوه، وهمس:
- أمر يتعلق بشقيق سيادتكم (مفيد) بك.
أزاح القلق كل المشاعر الأخرى، عند هذه النقطة، واحتل مكان الصدارة في قلب (حسين)، الذي سأل في توتر:
- ماذا يخص (مفيد)؟ أخبرني يا رجل؟
اعتدل (صلاح)، بعد أن تيقن من أنه قد ترك التأثير المنشود، وأجاب:
- سيادتك تعلم أننا أقمنا مقهى آخر، في موضع مقهى (جودة)، وأننا عينا هناك واحدا من رجالنا، لتسمع الأحاديث، وجمع المعلومات عن كل من يناهض النظام، ولقد وافانا رجلنا هذا بتقرير ضخم عن (مفيد) بك، يقول فيه: إنه يهاجم الدولة وسياساتها، وقوانينها، ونظمها علانية، وطوال الوقت.
امتقع وجه (حسين)، وهو يقول:
- وأين هذا التقرير؟
هز (صلاح) رأسه في أسف، قائلا:
- لقد راودتني نفس الفكرة يا (حسين) بك.. أن أحضر التقرير وأعدمه، ولكن (شعبان) أصر على تسليمه لـ (مراد) بك مباشرة.
سرت قشعريرة في جسد (حسين)، ثم لم تلبث أن تحولت إلى غضب هادر، وهو يدرس الموقف في سرعة:
- إذن فهذه لعبة (مراد صقر) الجديدة.
هذا هو الأسلوب، الذي توصل إليه، للانتقام منه، وإضعاف مركزه..

لقد حصل على معلومات رسمية، تؤكد أن (مفيد) أحد المناهضين للنظام، ولن يجد صعوبة في استصدار أمر باعتقاله على الفور..
و (مفيد) منحه هذه الفرصة على طبق من فضة..
(مفيد) بعناده وسخافاته، أصر على تحدي النظام كله، حتى أوصل الأمور إلى هذه الهاوية.
كم نصحه ألا يفعل..
كم حاول إقناعه بالعدول عن حماقاته وسخافته ولكن..
ما فائدة البكاء والندم الان؟!
لقد وقع المحظور، وأصبح (مراد صقر) يمتلك سلاحا قويا، يصلح لتدميره تماما..
وهو يعلم ما سيفعله (مراد) بهذه المعلومات..
إنه لن يكتفي بإصدار أمر باعتقال (مفيد)، وإنما سيقدم تقريره، ليؤكد أنه شقيقه، ويطالب باستبعاده من العمل، وإحالته للتقاعد.
ولن تكون هناك وسيلة لمنع هذا
ولكن لا..
انتفض جسد (حسين) في حزم، وهو يطلق تلك الصرخة في أعماقه..
لن يحطم (مفيد) مستقبله، بسبب تصرفاته الهوجاء غير المسئولة..
لن يدمر أحلامه كلها لن يقف في سبيل طموحاته ولكن، كيف السبيل لمنع كل هذا؟ انطلق عقله يدرس ويبحث في سرعة وتوتر وفجأة، قفزت الفكرة إلى رأسه كانت فكرة عنيفة، قاسية ولكنها كانت الحل الوحيد وبلا تردد، وبكل الحزم في أعماقه، رفع (حسين) عينيه إلى صلاح)، وقال:
- أريد أن أسند إليك عملا عاجلا.
اعتدل (صلاح)، قائلا:
- أنا رهن إشارتك يا (حسين) بك

وبدون كلمة إضافية، سحب (حسين) ورقة كبيرة من أمامه وراح يدون بها قراره..
أصعب قرار في حياته كلها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتفع حاجبا خادم (حسين) في دهشة، وهو يتطلع إلى وجه (جيهان)، التي بدت في ذلك اليوم صورة للفتنة الطاغية، في ثوبها الوردي الأنيق، الذي يتناسق على جسدها في إبداع كامل، وزينتها المتقنة، وذلك العطر الأنثوي الفواح، الذي يدير رءوس أعتى الرجال..
وفي ارتباك، قال الخادم:
- معذرة يا آنستي.. (حسين) بك أمرني بـ... دفعته في حزم، وأزاحته جانبا، وهي تدلف إلى الشقة، قائلة:
- (حسين) هو الذي طلب مني الحضور إلى هنا
ارتبك الخادم أكثر، وغمغم:
- ولكنها أوامره
استدارت إليه، ورسمت على شفتيها ابتسامة عذبة، وهي تقول:
- هل تصورت أنه من الممكن أن أحضر إلى هنا، لو لم يطلب منى ذلك بنفسه؟
بدت الحيرة على وجه الخادم، وتردد بضع لحظات، قبل أن يحسم أمره، قائلا:
- فليكن يا آنستي، مادامت هذه أوامر (حسين) بك
أشارت بيدها في رقة، قائلة:
عظيم.. والآن.. أعد لي كوبا من عصير الليمون، فالجو حار جدا في الخارج، وحلقى جاف للغاية.

انحنى لها الخادم في احترام، قائلا:
- أمرك يا آنستي
ولم يكد ينصرف لإعداد عصير الليمون، حتى تطلعت إلى المرأة وتحسست شعرها في حذر، وتأملت ثوبها وزينتها، وقلبها يخفق في عنف..
لقد قررت أن تستخدم آخر سلاح في جعبتها، للاستيلاء على قلب (حسين البنهاوي).. أنوثتها اليوم ستحكم سيطرتها عليه ستجعله يتنسم عطر أنوثتها، كما لم يفعل من قبل.. ولكنه لن يمس شعرة واحدة منها ستلهب مشاعره، وتسيل لعابه، دون أن تسمح له بالاقتراب وهذا سيشعله حتما.. سيستفز رجولته في عنف.. ومع إصرارها، سيدرك أنه ما من سبيل إليها، سوى الزواج
فقط الزواج
وابتسمت مزهوة بنفسها، وهي تطالع وجهها في المرأة للمرة الأخيرة، في نفس اللحظة التي سمعت فيها صوت المفتاح، يدور في ثقب الباب، فاستدارت تواجه القادم، وهي ترسم على شفتيها أكثر ابتساماتها سحرا وعذوبة، و.
وانتفض جسدها كله في عنف لم يكن ذلك القادم هو (حسين) كما توقعت، ولكنه (عايدة) الأميرة (عايدة)...
وفي دهشة، حدقت كل منهما في الأخرى، والأسئلة تصرخ في العيون، وتسيل من الشفاه..
ما الذي يعنيه هذا؟ فاتنة تدخل المنزل بمفتاحها، فتجد أمامها أخرى في ردهته!! أي موقف هذا؟ من صاحبة الحق في التواجد هناك؟! وفي ذهول، هتفت (جيهان):
- من أنت؟
رمقتها (عايدة) بنظرة طويلة، تفيض بالاستعلاء والازدراء، من أسفلها إلى أعلاها، قبل أن تقول:

- يا له من سؤال، يشف عن السخافة والحماقة! ثم صاحت في صرامة:
- (رشاد).. أين أنت؟ هرع إليها الخادم، وهو يرتجف قائلا:
- في خدمتك يا سمو الأميرة
صرخت (جيهان):
- سمو ماذا؟
أجابتها (عايدة) في سخرية لاذعة:
- سمو الأميرة يا عزيزتي.. ألم تسمعي اللقب من قبل؟ إنه يعني أنني نبيلة الأصل، ذات دماء زرقاء، وأنه من التواضع الجم أن أتحدث لفتاة مثلك، من عامة الشعب.
كان من الواضح أن (عايدة) قد استرجعت شخصيتها الطبيعية تماما، فقد احتقن وجه (جيهان)، وهي تقول في عصبية:
- كنت أتصور أن زمن الأميرات قد انتهى، مع قيام الثورة.
أطلقت (عايدة) ضحكة طويلة ساخرة، قبل أن تقول:
- لا تصدقي كل ما يدرسونه لك في المدرسة أيتها الذكية.
هتفت بها (جيهان)، ودموعها تكاد تفر من عينيها:
- كيف تجرؤين على..
قاطعتها (عايدة) بصيحة صارمة:
- اخرسي
تراجعت (جيهان) كالمصعوقة، و (عايدة) تتابع في غضب:
- أنا أجرؤ على فعل ما يحلو لي.. أنا التي أحمل مفتاح الشقة، وهذا يعني أن صاحبها لم يسمح لسواى بدخولها.
وأشارت إليها، وهي تسأل الخادم:
- من سمح لهذه الحشرة بالدخول؟
ارتبك المسكين، وهو يقول:
- لقد أخبرتني أن سيدى (حسين) هو الذي

صاحت (جيهان) في حدة:
- لست حشرة.
صاحت بها (عايدة):
- بالتأكيد، فأنت أحقر من هذا.. اندفعت (جيهان) نحوها، وهي تهتف: - أنا أيتها الـ.. استقبلتها (عايدة) بصفعة عنيفة، صارخة:
- إياك أن تنطقيها.
جن جنون (جيهان) مع الصفعة، فانقضت على (عايدة) وجذبتها من شعرها في قسوة، وارتفع صريخهما معا،
وهما تتشابكان بالأيدي، والخادم المسكين يحاول عبثا تخليصهما حتى ارتفع صوت (حسين) فجأة، وهو يقول في غضب صارم:
- ما الذي يحدث هنا؟
انفض الاشتباك فجأة، فور سماعهما لصوته، وهتفت (عايدة):
- (حسين).. من حسن الحظ أنك وصلت الان.. هذه المتوحشة اقتحمت المنزل، وانهالت على ضربا.
صرخت (جيهان):
- بل هي التي صفعتني على وجهي، وكادت تفقأ عيني بأظفارها الطويلة.
صاحت (عايدة):
- كاذبة حقيرة.. أنت التي..
قاطعهما (حسين) في غضب:
- كفي.. لو نطقت أحداكما بحرف واحد، سألقيها من النافذة دون تردد.
ثم التفت إلى (جيهان)، وسألها في شراسة:
- ماذا تفعلين هنا؟
أجابته متوترة:
- أتيت لزيارتك.. كنت أود أن

قاطعها في حدة:
- ومن طلب منك الحضور لزيارتي؟
تراجعت كالمصعوقة، وهتفت:
- (حسين).. إنني..
مرة أخرى، قاطعها، وهو يشير بسبابته إلى الخارج، قائلا في غضب:
- اخرجى.
هتفت مصدومة، مع ابتسامة (عايدة) الظافرة الساخرة:
- (حسين)؟! هل تطردني؟
أجابها في قسوة:
- نعم.. إنني أطردك من المنزل.. ومن حياتي كلها.. هيا.. اخرجي.. لا أريد رؤية وجهك بعد الآن قط.
احتقن وجهها بشدة، وبدا لحظة، من انفراجة شفتيها، وارتفاع حاجبيها، أنها ستتوسل إليه، إلا أنها لم تلبث أن هتفت في صرامة:
- كلا يا (حسين).. لن أخرج.. لن أخرج إلا بعد أن أؤكد لك أنني لن أتهاون عن فضح أمرك في (مصر) كلها.. لقد خدعتني يا (حسين).. خدعتني وجعلتني أتخلى عن الدنيا كلها من أجلك ولن أرضى لك بأقل من الفضيحة.
انعقد حاجباه، وهو يقول في غضب:
- هل تتصورين أنك قادرة على تحدي (حسين البنهاوي)؟
كانت ترغب في إجابته بالإيجاب، إلا أن شيئا ما في لهجته، أو صوته، أو نظرة عينية الحادة الغاضبة، جعل لسانها ينعقد في حلقها، ومنحه الفرصة ليستطرد:
- فليكن.. سأعلمك كيف تكون الفضيحة يا (جيهان).
ارتجف جسدها كله، مع آلام الهزيمة والذل والهوان، واندفعت تغادر شقته عدوا، ثم انفجرت باكية، تنعى خسارتها واندحارها..

أما (عايدة)، فقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة ظافرة، وهي تقول:
- هذا هو (حسين) الذي أعرفه.

ألقي عليها (حسين) نظرة صارمة محنقة، ثم التقط سماعة الهاتف، وطلب رقم الإدارة، ولم يكد يسمع صوت محدثه، حتى قال في حزم:
- (صلاح).. بالنسبة للأمر الذي أعددته، بخصوص (جيهان).. أريد منك أن تنفذ المطلوب الليلة.
وعندما أنهى المحادثة، كان وجهه كله يتصبب عرقا، فاتخاذ قرار رهيب كهذا، يحتاج إلى حزم..
بل إلى قسوة..
قسوة بلا حدود..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقفت اثنتان من سيارات الشرطة أمام سراى (البنهاوي)، في السادسة مساء، وهبط منها عدد من الجنود المسلحين وضابط واحد، اقتحم السراي في وقاحة عنيفة، جعلت (فاطمة) تطلق شهقة قوية، وهي تهتف:
- ما هذا؟ ماذا تفعلون؟! احترموا حرمة السراى.
سألها الضابط في صرامة:
- أهذه سراى (البنهاوي)؟
أجابته في حدة خشنة:
- نعم.. هذه سراى (البنهاوي).. ماذا تريدون منها؟
وصلت (شريفة) في هذه اللحظة، وانقبض قلبها لمرأى رجال الشرطة، فسألت ضابطهم في قلق:
- ماذا تريد يا حضرة الضابط؟

أجابها في صرامة:
- أريد (مفيد البنهاوي).. أين هو؟
سألته مضطربة:
- وماذا تريدون من (مفيد)؟
صاح بها الضابط:
- أهو هذا أم ماذا؟
أتاه صوت (مفيد)، وهو يهبط من الطابق العلوي، قائلا:
- أنا هنا يا حضرة الضابط.
التفت إليه الضابط في حركة حادة، وانعقد حاجباه، عندما لاحظ نحوله الواضح، وقال:
- أنت (مفيد البنهاوي).
وصل عنده (مفيد)، وهو يجيب:
- نعم.. أنا (مفيد البنهاوي).. ما المطلوب مني بالضبط؟!
شد الضابط قامته، وهو يقول:
- معي أمر مباشر باعتقالك.
اتسعت عيون الجميع في ذهول، وشهقت (فاطمة) في ارتياع، في حين صرخت (شريفة):
- مستحيل... أنت مخطئ بالتأكيد أيها الضابط.. لا يمكن أن يكون لديك أمر باعتقال (مفيد)! ألا تعلم شقيق من هذا؟! إنه شقيق (حسين بك البنهاوي).
ابتسم الضابط في سخرية، وهو يلتقط ورقة من جيبه، قائلا:
- من الأفضل أن تطالعي أمر الاعتقال هذا يا سيدتي
اختطفت (شريفة) الورقة من يده، ومال (مفيد) ليطالع التوقيع على الأمر، ولم يكد يفعل، حتى انطلقت من حلقه وحلق (شريفة) صرخة استنكار ذاهلة..

هذا لأن أمر الاعتقال كان يحمل - وبكل وضوح - توقيع (حسين)..
(حسين البنهاوي)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

96- الفضيحة..

حفر الذهول ملامحه في وضوح، على وجه (عمر)، وهو يضرب كفا بكف، ويهتف في استنكار:

- هل وصل الأمر بـ (حسين) إلى هذا الحد؟! يا للعار!

أومأ (عبد الحكيم) برأسه في أسى، وقال:

- أنا نفسي لم أصدق هذا في البداية، ولا (شريفة) صدقته، فهرعت إلى (حسين) في (القاهرة)، ولكنه أكد لها في وقاحة، أنه هو الذي أصدر أمر اعتقال (مفيد)، بتهمة مناهضة السياسة العليا للدولة، وقال لها: إن (مفيد) هو المسؤول عن اتخاذه لهذا القرار؟ لأنه ظل يتحدى النظام، ويعلن معارضته للدولة في كل مكان، وكان من الضروري كبح جماحه، قبل أن يتسبب في تدمير العائلة كلها.

ابتسم (عمر) في سخرية، على الرغم من المرارة التي حفل بها صوته، وهو يقول:

- بل قل: قبل أن يتسبب في الإساءة إلى (حسين) نفسه؛ فلا أحد يعرف ابن (البنهاوي) هذا مثلي.. إنه مستعد لإشعال النار في القرية كلها، لو أن هذا يناسب طموحاته.

قال (عبد الحكيم في أسى:

- ولكنك لا تعلم ما فعله قراره هذا بالعائلة.. بل بالقرية كلها.. إنني أعتقد أن الشيء الوحيد، الذي أجمع عليه الكل، في قريتنا هذه، هو حب (مفيد البنهاوي)، فالشاب مثال للأدب والتهذيب وحسن المعاملة.. هل تعلم أن (شريفة) تكاد تستنفد دموعها، من كثرة البكاء عليه؟ حتى (فاطمة)، تبكي في حرقة من أجله.

لوح (عمر) بكفه، وقال:

- ومن المؤكد أن (نعيمة) تشاركهما انهيارهما، فهي تعتبر (مفيد) هذا مثل ابنها.

هز (عبد الحكيم) رأسه في أسف، وقال:
- عجيب هو (حسين) هذا!! أحيانا يبدو لي ابن بلد، شهما وكريما ومجاملا، وفي أحيان أخرى أجده قاسيا، صارما، لا يرحم.
أجابه (عمر) في مقت واضح:
- إنه مزيج من كل هذا، ومن الممكن أن تبرز شهامته، ويبهرك كرمه، لو لم يتعارض الأمر مع طموحاته وأحلامه، أما عندما يحدث هذا، فإنه ينقلب على الوجه الآخر مباشرة، فيلقى الكرم والشهامة جانبا، ويتحول إلى وحش كاسر، لا يتورع عن افتراس أقرب الناس إليه، دفاعا عن نفسه.
قال (عبد الحكيم) مستنكرا:
- كلنا نعرف عنه هذا، ولكن أن يصل الأمر إلى اعتقال شقيقه، فهذا ما لا يمكنني هضمه أبدا!
ابتسم (عمر) مرة أخرى في سخرية، وقال:
- لو أنك تفهم (حسين) مثلما أفهمه، لما أدهشك هذا قط.. أراهنك على أن بعضهم حاول استغلال موقف (مفيد)، وتحدياته العلانية لسياسة الدولة، لضرب (حسين) نفسه، وكإجراء وقائي، لم يجد (حسين) أمامه سوى أن يأمر هو نفسه باعتقال (مفيد)، وهكذا يثبت أنه شديد الانتماء للدولة وسياساتها، حتى أنه لا يتردد لحظة واحدة في اعتقال شقيقه نفسه، لو عارضها.
حدق فيه (عبد الحكيم) في انبهار، قبل أن يقول:
- ألا توجد حدود لما يمكن أن يفعله (حسين البنهاوي)؟
هز (عمر) رأسه، وقال:
- مطلقا.. عندما يتعلق الأمر بطموح (حسين) أو مظهره وكبريائه، فلا توجد حدود لما يمكن أن يفعله.. لا توجد حدود..
قالها دون أن يدري أنه في هذه الليلة بالذات، سيثبت (حسين) أنه لا حدود لردود أفعاله..

أو لانتقامه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أنا يطردني من منزله؟! أنا؟!؟؟
تقافز غضب هادر من كلمات (جيهان)، وهي تنطق هذه العبارة، وتلوح بذراعيها في ثورة، فقالت شقيقتها محاولة تهدئتها:
- كان ينبغي أن تتوقعي رد فعل كهذا، وخاصة مع شخص مثل (حسين البنهاوي)، الذي اعتاد أن يأمر فيطاع.
صاحت (جيهان) في غضب:
- ليس معي.. ليس مع (جيهان).. تلك الحقيرة التي تطلق على نفسها لقب الأميرة، لا يمكنها أن تبلغ ربع جمالي وفتنتى، و(حسين) لن يحتمل البقاء معها لشهر واحد.
قالت شقيقتها في خفر:
- ولكنه احتمل هذا البقاء لعدة شهور بالفعل.
هتفت في حنق عصبى:
- لن يستمر هذا طويلا.. صدقيني.. أنا أعرف من أنا، وما تأثيري عليه.. لقد رأيت الرغبة في عينيه، كلما تطلع إلى عندما كنا نلتقي.. أنا أعلم أنه لن يحتمل فراقي طويلا، وسترين.. سترين أنه لن يلبث أن يسعى إلى راكعا على ركبتيه.
شعرت شقيقتها بالإشفاق عليها، وهي تغمغم:
- طبيعتك لا يمكنها احتمال الخسارة يا (جيهان).
صاحت بها في عصبية:
- الخسارة؟! أية خسارة؟! قلت لك: إنه سيسعى إلى بنفسه.
قالت شقيقتها في توتر:
- فلنأمل فقط ألا يحاول الانتقام منك

صرخت (جيهان) في ثورة:
- إنك لا تفهمين.. لا تفهمين أبدا
دخلت والدتهما الحجرة، في هذه اللحظة، وهي تقول في دهشة:
- هل تتشاجران؟
انعقد حاجبا (جيهان) في توتر، في حين أسرعت شقيقتها تقول:
- أبدا.. كنا نناقش أمرا نختلف فيه كثيرا
نقلت الأم عينيها بينهما في شك، ثم لم تلبث أن تنهدت، قائلة:
- هذا شأنكما.
ثم التفتت إلى (جيهان)، مستطردة:
- جارتنا (هناء) تطلب مقابلتك يا (جيهان).
لوحت (جيهان) بكفها في ضجر، قائلة:
- دعيها تأتي.
لم تمض لحظات، حتى كانت (هناء) معها في حجرتهما، فتصافحا، وتبادلا القبلات، وبعض العبارات التقليدية، قبل أن تختلس النظر إلى شقيقة (جيهان)، وهي تهمس لهذه الأخيرة:
. لقد اتصل بك شخص ما في منزلي
تألقت عينا (جيهان)، وهي تسألها في لهفة:
- وما اسمه؟
بدت الدهشة على وجه (هناء)؛ لهذه اللهفة الواضحة، وتطلعت إلى شقيقة (جيهان) في قلق، فقالت الأخيرة في عصبية:
- تحدثي في حرية.. إنها تعرف كل شيء.
بدا الارتياح على وجه (هناء)، وأجابت بسرعة:
- اسمه (حسين البنهاوي).
قفزت (جيهان) من مكانها، وهي تهتف:
- من؟!
ثم التفتت إلى شقيقتها، مستطردة في انفعال جارف:

- ألم أقل لك؟! ها هو ذا يتصل بي.. ألم أقل لك: إنه لن يحتمل فراقي طويلا؟؟

وعادت إلى (هناء)، تسألها في انفعال أكبر:

- ماذا كان يريد؟ هه.. ما الذي طلبه منك؟

أجابتها (هناء) مبتسمة:

- يريد مقابلتك الآن، لأمر عاجل للغاية.

صفقت (جيهان) بكفيها جذلا كالأطفال، وهتفت:

- رائع.. هذا أعظم مما كنت أتمنى.

ثم تلاشى حماسها بغتة، وهي تقول متوترة:

- ولكن كيف أقابله؟! لا يمكنني السفر إلى (القاهرة) ليلا.

هزت (هناء) رأسها، وهي تقول:

- إنه ليس في (القاهرة).. إنه هنا.. في (طنطا)

بهتت (جيهان)، وحدقت في وجهها بدهشة، قائلة:

- هنا في (طنطا)؟! أين؟!

ناولتها (هناء) ورقة مطوية، قائلة:

- ها هو ذا العنوان.. لقد أملاني إياه عبر الهاتف.. إنه ينتظرك في لهفة.

وثبت (جيهان) إلى دولاب ملابسها، صائحة:

- سأذهب إليه على الفور.. لن أضيع لحظة واحدة..

نطقتها دون أن تدري أنها تنطلق، بكل هذه اللهفة، إلى المصيدة.. مصيدة (حسين البنهاوي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتسمت ابتسامة مفعمة بالثقة والزهو، على شفتى (جيهان) الجميلتين، وهي تقف أمام الشقة، التي طلب (حسين) مقابلتها فيها،

والتي تطل على ميدان الساعة، أكبر وأشهر ميادين مدينة (طنطا)، وتحسست شعرها الكستنائي الناعم، وهي تغمغم في ظفر..
- كنت أعلم أنه لن يقاوم طويلا.
كانت تشعر بثقة كبيرة، في جمالها وذكائها، وفي قدرتها على التأثير على الآخرين، وعلى الرغم من هذا فقد أخرجت المرأة الصغيرة من حقيبة يدها، وتأملت ملامحها وزينتها لحظة، قبل أن تتسع ابتسامتها، وتتضاعف ثقتها، فشدت قامتها، وضغطت جرس الباب في انفعال.
ومضت ثوان قليلة، بعد رنين الجرس، بدت لها وكأنها استغرقت دهرا كاملا، ثم خفق قلبها في عنف، عندما انفتح الباب، و.
وتراجعت (جيهان) في عنف ودهشة.. لم يكن الواقف أمامها هو (حسين البنهاوي).. بل لم يكن حتى يشبهه..
كان رجلا قصيرا، أصلع الرأس، له ابتسامة خبيثة، أشبه بابتسامة ثعلب متمرس، وصوت لزج أجش، انطلق من بين شفتيه خشنا، وهو يقول:
- أهلا يا آنسة (جيهان).. تفضلى..
سألته في توتر:
هل (حسين) هنا؟ أقصد الأستاذ (حسين البنهاوي)؟
أفسح لها (صلاح) الطريق، وهو يدعوها للدخول، قائلا:
- بالطبع.. إنه ينتظرك.. تفضلى.
ترددت (جيهان) لحظة، ثم بدا لها أنه من الحماقة أن تتراجع الآن، بعد أن وصلت إلى المكان، فدلفت إلى الشقة..
وارتفع حاجباها في دهشة مرة ثانية ولكنها لم تكن دهشة خالصة هذه المرة.. كانت تمتزج بالكثير من القلق والتوتر..
وخاصة مع المشهد الذي طالعها في الردهة..

كان هناك عدد من الرجال والنساء، والجميع يبتسمون ابتسامات عجيبة، وفي أيديهم كؤوس الخمر، وبين أصابعهم سجائر..
ولكن ثياب النساء كانت السبب الفعلي لقلقها كن يرتدين ثيابا، أقل ما يقال عنها، هو أنها فاضحة.. وفي توتر شديد، قالت (جيهان):
- أين (حسين)؟
أغلق (صلاح) الباب، قائلا بلهجته الخبيثة:
- سيصل بين لحظة وأخرى. تفجر الارتياع بغتة في أعماقها، فتراجعت مذعورة، وصرخت:
- دعني أخرج من هنا.
احتواها (صلاح) بين ذراعيه بغتة، وهو يضحك متشفيا، ويقول:
- لا تتعجلي هكذا يا جميلة الجميلات.. سنخرج كلنا بعد لحظات
صرخت، وهي تتملص منه:
- أتركني.. أتركني انصرف من هنا.
ثم اندفعت نحو باب الشقة، وفتحته، و.
- فليبق كل في مكانه
انتفض جسدها في عنف، وهي تحدق في وجه الضابط، الذي أطلق العبارة، والذي فوجئت به أمام الشقة، وهتفت في هلع:
- لست أنتمي إليهم.
ولكن الضابط أمسك يدها في قسوة، في نفس اللحظة التي اندفع فيها عدد من الجنود والمخبرين إلى الشقة، وألقوا القبض على الباقين، دون مقاومة تذكر، وكأنهم كانوا ينتظرون وصول رجال الشرطة، في حين صرخت هي:
- ماذا تريدون مني؟
ابتسم الضابط في سخرية، قائلا: - نحن شرطة مكافحة جرائم الآداب.

اتسعت عيناها في ارتياع، وصرخت في رعب وانهيار:

- لا.. لا شأن لي بهم.. أقسم لك.

ولكن (صلاح) مال على أذنها، وهو يقول ساخرا:

- لا فائدة.. (حسين) بك يرسل تحياته، ويسأل: هل عرفت الآن ما تعنيه كلمة فضيحة؟!

حدقت في وجهه برعب، قبل أن تنهار هاتفة:

- لا. أرجوك ليس هذا.. إنني مستعدة لتقبيل قدمى (حسين)، ولكن لا تدعه يفعل بي هذا.
ظلت تصرخ وتولول، ورجال الشرطة يجذبونها مع الأخريات إلى الخارج، وكل سكان البناية تقريبًا يتطلعون إليهن في ازدراء.
وفي تلك اللحظة فقط، تذكرت (جيهان) قول شقيقتها.. لقد تجاوزت حدود اللعبة بالفعل تجاوزتها كثيرا ولقد خسرت هذه المرة.. وكانت خسارة كبيرة.. :
وفادحة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هتفت إحدى زميلات (جيهان)، في تلذذ سادى عجيب، وهي تروي القصة المدرسين والمدرسات، في ساحة المدرسة:
- وكانت فضيحة رهيبة، وخاصة عندما وضعوا الأغلال في معصميها، وقاد الضابط قطيع الساقطات كله، من البناية إلى القسم، عبر ميدان الساعة.. كان الأمر يبدو كما لو أنه يتعمد فضحهن.
قالت أخرى، وهي تمصمص شفتيها في حسرة زائفة:
- هذا يفسر ذلك التطور الذي بدا عليها في الأشهر الماضية الثياب الانيقة، والأحذية المتناسقة، والعطور الغالية.. كان ينبغي أن نفهم هذا على الفور..
هزت ثالثة كتفيها، قائلة:
- الخبيئات مثلها لا يظهرن حقيقتهن أبدا.. إنها تتظاهر طوال النهار بأنها فتاة شريفة، في حين أنها في الحقيقة..
لم تتم عبارتها..

ولم تكن بحاجة إلى هذا في الواقع، فقد فهم الجميع ما تعنيه على الفور، وانفجرت شفتا زميلة رابعة، همت بقول شيء ما، لولا أن اندفعت (سوسن) تقول في حدة:

- هل تشعرون بالارتياح الان؟

التفت الجميع إليها في دهشة، وقال أحد الزملاء:

- ماذا يغضبك هكذا يا آنسة (سوسن)؟

صاحت في حنق:

- هل تسألني؟! ألم تنتبه إلى ما يغضبني يا أستاذ التربية الدينية؟! هل يروق لك أن تنهش في عرض زميلة، قبل أن تتيقن من جريمتها؟

أجابها في عصبية:

- لقد ألقوا القبض عليها متلبسة قالت غاضبة: - هل رأيت هذا بنفسك؟

أجابها متحديا:

- كلا، ولكن شقيقي شاهد الموقف كله، و.

قاطعته قائلة في توتر:

- كل ما شاهده شقيقك هو أن رجال الشرطة ألقوا القبض عليها.

أجاب زميل آخر:

- هذا يكفي

التفتت إليه، تسأله في حدة:

- وماذا لو ثبت أنها بريئة؟

أجابتها إحدى زميلاتها:

- هذا لن يصنع فارقا كبيرا يا (سوسن)، فلقد تلوثت سمعتها وانتهى الأمر، ولن يقدم شاب واحد على طلب الزواج منها بعد الآن.

وابتسمت أخرى في خبث، وقالت وهي ترمق (سوسن) بنظرة جانبية:
- ألتمس العذر لـ (سوسن)، فغياب زميلنا (مفيد) يصيبها بالتوتر.
تخضب وجه (سوسن) بحمرة الخجل، واحتقن في شدة، وانحبست الكلمات في حلقها، ولم تستطع النطق بكلمة واحدة للدفاع عن نفسها..
ولكن لماذا تحاول الدفاع عن نفسها؟! إن زميلتها لم تخطئ أبدا..
السبب الحقيقي لتوترها وعصبيتها هو غياب (مفيد)، وما سمعته عن اعتقاله..
لقد تأكدت الآن فقط من أنها تحبه.. تحبه كما لم تحب شخصا من قبل.. ولكن السؤال هو: ما مصير (مفيد) الأن؟!
وفي تلك الفترة، كانت إجابة مثل هذا السؤال مستحيلة..
مستحيلة تماما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

97- المستحيل..

نفثت (عايدة) دخان سيجارتها في عصبية شديدة، وهي تدلف إلى بهو فندق سميراميس)، المطل على نيل (القاهرة)، وأحكمت وضع المنظار الشمسي الداكن فوق عينيها، وهي تعبر البهو في خطوات سريعة، ثم تنحرف يسارا، حيث استقرت أريكة صغيرة من مقعدين، في ركن هادي صغير، أسفل سلم الطابق الثاني، ووقفت لحظة، تلفتت خلالها حولها، ثم اتخذت مجلسها فوق الأريكة، وراحت تنقر بأطراف أظفارها على مسندها في توتر..

ولم تمض دقائق خمس، حتى اتجهت نحوها سيدة أنيقة، في أواخر الأربعينات من عمرها، وجلست إلى جوارها، قائلة في هدوء:

- هل تأخرت عليك؟

أجابتها (عايدة) في عصبية:

- كلا، ولكنني أشعر بتوتر بالغ، في كل مرة نلتقي فيها هنا

ابتسمت السيدة، قائلة:

- اطمئني يا سمو الأميرة، كل شيء على ما يرام.. رجالنا يدرسون مثل هذه الأمور بمنتهى الدقة.

تلفتت (عايدة) حولها مرة أخرى، وهي تطفئ سيجارتها في عصبية، وتلتقط أخرى من علبتها، لتشعلها قائلة:

- ولو.. لست أشعر بالارتياح..

أمالت السيدة شفتيها في ازدراء، وكأنما تبغض هذه الصورة من الضعف البشري، وسألتها:

- هل من معلومات جديدة؟

ناولتها (عايدة) مظروفا صغيرا في توتر، وهي تقول:

- هذا كل ما أمكنني الحصول عليه؟

التقطت السيدة المظروف في رشاقة، وألقته في حقيبتها الصغيرة، وأغلقتها في سرعة، وهي تقول في هدوء شديد:
- مسيو (روبير) يقول: إنه ينبغي أن ننتقل إلى النقطة التالية
أجابتها (عايدة) في حدة:
- محاولة تجنيد (حسين)؟! لا.. مستحيل! لن أقدم على هذا أبدا.. أنت لا تعلمين ما الذي يمكن أن يفعله (حسين)، لو أنني..
ابتسمت السيدة، قائلة:
- اتركي لنا التفكير في هذا الأمر، فلدينا خبراء نفسانيون يجيدون تحليل مثل هذه الأمور.
قالت (عايدة) في عصبية:
- ولكنني شاهدت نتائج المحاولة الأولى بنفسي.. لقد كاد (حسين) يفتك بي، عندما التقى بـ (روبير) في (باريس)..
أجابتها السيدة:
- هذا لأن الأمر باغته حينذاك، أما هذه المرة، فنحن نؤهله لاستقبال الأمر، ولدينا عدة أسلحة كافية لإخضاعه.. الفيلم الذي التقطته للقائه مع (روبير) مثلا.. سيدهشك ما فعلناه به، وكيف حوله خبراؤنا إلى دليل يدينه تماما.. ثم هناك تلك المعلومات، التي كنت تنقلينها إلينا، عن لقاءاته بالرئيس (جمال).. إنها تكفى لإدانته بتهمة التجسس، أو على الأقل بتهمة إفشاء أسرار الدولة.
سألتها (عايدة) في قلق:
- هل ستواجهونة بهذا؟
أطلقت السيدة ضحكة خبيثة، قائلة:
- لقد واجهناه بكل هذا بالفعل
تراجعت (عايدة) بدهشة بالغة، وهي تهتف:
- متى فعلتم هذا؟
بدا الزهو على السيدة، مع قولها في ثقة:

- قلت لك اتركي لنا هذا الأمر.. كل ما يمكنك معرفته الآن، هو أن (حسين) أصبح مؤهلا للتجنيد تماما، خاصة مع طموحاته الشديدة، وخوفه الدائم من كل ما يعترضها

ثم تراجعت، مستطردة في خيلاء

- صدقيني يا سمو الأميرة.. نحن نجيد مثل هذه الأمور تماما، ومهما بلغ المصريون من ذكاء، لن يمكنهم أن يبزونا في هذا المجال.

نفثت (عايدة) دخان سيجارتها مرة أخرى، قبل أن تقول في حدة:

- وماذا أفعل أنا الآن، ما دمتم تتعاملون معه مباشرة، من خلف ظهرى؟

أجابتها في صرامة:

- وجودك ضروري جدا؛ لأنك جزء من خطة السيطرة على الرجل.. إنه غارق في حبك، وهذا يجعله أسلس انقيادا.

زفرت (عايدة) في عصبية، قائلة:

- ما زلت لا أشعر بالارتياح!

تطلعت إليها السيدة لحظة، ثم قالت في بطء:

هل تحبين أن أمنحك دليلا على ثقتنا في الأمر، واطمئناننا إلى أن عملية تجنيد (حسين البنهاوي)، لن تفشل قط؟

نظرت إليها (عايدة) بعينين متسائلتين، فتابعت بابتسامة غامضة:

- هل تعرفين من سيصل إلى هنا غدا، للقاء (حسين البنهاوي)، والتعامل معه مباشرة؟

سألتها (عايدة) في لهفة وفضول:

- من؟!

اكتسبت ابتسامة السيدة الكثير من الثقة، وهي تجيب:

- مسيو (روبير) نفسه.

وارتفع حاجبا (عايدة) في دهشة بالغة، فقد كان هذا بالفعل أكثر مما تتوقعه..
أكثر بكثير

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما دخل (حسين البنهاوي) إلى مكتب الرئيس (جمال عبد الناصر)، في ذلك الصباح، كان الرئيس واقفا أمام النافذة، يتطلع إلى حديقة منزله في صمت، وهو يوليه ظهره، فتنحنح (حسين) لينبهه إلى وجوده، وهنا التفت إليه الرئيس، وابتسم قائلا:
- صباح الخير يا (حسين)
قال بسرعة:
- صباح الخير يا سيادة الرئيس.. بلغني أن سيادتك طلبت مقابلتى على وجه السرعة.
أشار الرئيس إلى الأريكة، وهو يقول:
- اجلس يا (حسين).. أريد التحدث إليك في أمر ما.
شعر (حسين) بالدهشة، عندما جلس الرئيس إلى جواره في بساطة، بدلا من أن يجلس خلف مكتبه كالمعتاد، فقال في حماس:
- أنا رهن إشارتك يا سيادة الرئيس.
ابتسم الرئيس (جمال)، وهو يسأله
- هل أصدرت أمرا باعتقال شقيقك يا (حسين)؟
انتفض جسد (حسين) في عنف، مع هذا السؤال المباغت، وهتف:
- سيادة الرئيس.. أريد توضيح الموقف
اتسعت ابتسامة الرئيس، وهو يربت على كتف (حسين)، قائلا:
- لا داعي.. يمكنني فهم الأمر جيدا.. أنا نفسي اضطررت لاعتقال أحد أشقائي يوما؛ لأنه حاول استغلال أخوته لي، لتحقيق مصالح

ومكاسب شخصية.
ثم تنهد في عمق، قبل أن يضيف:
- أعلم جيدا أنه ليس بالقرار السهل، ففي أعماقك، تتصارع مشاعرك مع واجبك، وتتقاتل عاطفتك مع عقلك، وإحساسك بالمسئولية والواجب، وحتمية أن تكون قدوة، في تطبيق المبادئ والأخلاقيات، التي تنادي بها.
وعادت إليه ابتسامته، وهو يربت على كتف (حسين) ثانية، مستطردا:
- وصدقني يا (حسين).. قليلون هم من يمتلكون القدرة على اتخاذ مثل هذا القرار، والانتصار للمبادي على حساب العواطف والمشاعر والأحاسيس..
واكتسي صوته بالفخر والإعجاب، وهو يقول:
- وأنت واحد من هؤلاء يا (حسين).
خفق قلب (حسين) في قوة، ورقص بين ضلوعه، وهو يستمع إلى حديث الرئيس..
إذن فقد أتت لعبته ثمارها
رسالته وصلت بالصيغة التي أرادها بالتحديد..
وفي نشوة كاملة، راح يستمع إلى الرئيس، الذي نهض، وأخذ يسير في حجرة مكتبة، متابعا:
- الأمور لم تعد كما كانت بالتأكيد، ولم تعد لي السيطرة على مواقف مختلفة.. تصور أن المشير يعود من (سوريا) بتلك الصورة المخزية، ثم يصر على عدم محاكمة رجالة، على ما اقترفوه هناك، مما تسبب في استفزاز الشعب السوري، والوصول إلى الانفصال!! كان المفروض أن يفقدوا رتبهم على الأقل، ولكن ماذا أفعل، والجيش كله في قبضة (عبد الحكيم)؟!
ثم التفت إلى (حسين)، وعاد يبتسم، قائلا:

- ولكن اطمئن.. شقيق (فؤاد) لن يضايقك بعد الآن.. لقد أخبرني أنك تمتلك أرضا تفوق الحد الأقصى للملكية الزراعية، ولكنني تحريت الأمر، وعلمت أنك الراعي الرسمي لتلك المساحة، وأنك تتفق إيرادها على الجميع، وهذا يجعلها ملكهم كلهم، بصورة أو بأخرى.

اتسعت عينا (حسين) في دهشة، إزاء تلك المفاجأة، وانفرجت شفتاه لحظة، وكأنه يهم بقول شيء ما، إلا أنها لم تلبثا أن انطبقتا، محافظتين على صمته، في حين واصل الرئيس حديثه، قائلا:

- ولقد أصدرت أوامري للجميع بعدم المساس بك، مهما كانت الأسباب، وأخبرتهم أنك تحت رعايتى مباشرة. وربت على كتفه للمرة الثالثة، مستطردا:

ليس من السهل أن يجد المرء رجالا مثلك يا (حسين).

كاد (حسين) يطير فرحا، وهو يستمع إلى تلك الكلمات، من بين شفتي الزعيم، ولم يسعفه لسانه إلا بغمغمة مرتبكة:

- أشكرك يا سيادة الرئيس.. أشكرك كثيرا

أومأ الرئيس (جمال) برأسه مبتسما، ثم قال:

- بقي أمر واحد سأله (حسين) في لهفة:

- وما هو يا سيادة الرئيس؟ أجابه الرئيس:

- يقولون في الأمثال: (من أجل الورد نسقي الأشواك) وأنا أميل إلى تطبيق هذا المثل كثيرا، ولهذا، فمن أجل مواقفك، أصدرت أمرا بالإفراج عن شقيقك، وإعادته إلى عمله.

وكان هذا ذروة ما يتمناه (حسين البنهاوي)، في تلك اللحظة لقد ربح المعركة ربحها بكل جدارة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ماذا تريد مني؟!.
نطقها (مفيد) في غضب هادر، أو انفجر بها في وجه (حسين)، في ردهة السراى، قبل أن يضيف في عصبية شديدة:
- لقد فعلت بي أسوأ ما يمكن أن يفعله أخ بأخيه.. لقد أكلت لحمى نيئا يا (حسين)، ولم يعد من حقك أن تعلن أخوتك لي..
كان من الواضح أن التجربة كانت مريرة للغاية تجربة الاعتقال، والسجن، والتأديب..
صحيح أن الجميع في المعتقل، كانوا يعلمون أنه شقيق (حسين)، وأنه لن يبقى طويلا هناك بالتأكيد، فعزلوه عن باقي المعتقلين، وأحسنوا معاملته على نحو كبير، إلا أنه كان يلتقي بالآخرين في الصباح، في ساحة المعتقل، ويرى آثار التعذيب في أجسادهم، ويستمع منهم إلى قصص يشيب لهولها الولدان..
وهناك تعلم (مفيد) الكثير..
تعلم أكثر مما تعلمه طيلة عمره..
هناك فقط، أدرك كم تتردى البلاد في الهاوية
هناك فقط علم أن (مصر) تسير نحو نهاية مفزعة
لا يمكن أبدا أن ينمو شعب ويتطور، والحريات تهان وتمتهن فيه على هذا النحو..
من المستحيل أن تتلمس الأصابع سلم الحضارة، وهي تنحدر بالآدمية والإنسانية إلى ما بعد الدرك الأسفل..
مستحيل... مستحيل!
والعجيب أنه التقى هناك بـ (جودة)، صاحب المقهى القديم وكانت دهشته عارمة..
ليس لأنه التقى به هناك، ولكن لأن وجوده كشف عن فجوة أخرى. في ذلك العالم الرهيب..
لقد أعاد (جودة) صنع عالمه الخاص، في قلب المعتقل..

صنع مقهى صغيرا، يعد فيه الشاي والقهوة، ويمنحهما مجانا للضباط والجنود، وبالذات لصول المعتقل الضخم، الذي يشبه ذلك الفيل الهندي، الذي كان حديث الصحف يوما، ولكنه يبيعها لزملائه، مقابل الطعام أو الخدمات ولكن العجيب أنه يبيع المخدرات أيضا

لا أحد يدري من أين يمكنه الحصول عليها، ولكن بعض الأصابع تشير إلى الصول نفسه، وإلى أنه المسؤول الفعلي لتلك التجارة الملعونة.

وفي المعتقل، التقى (مفيد) أيضا بعدد من أفضل العلماء والأدباء والمفكرين، الذين كانوا دائما مثار إعجابه واحترامه وتقديره..

ومنهم تعلم الكثير..

وعرف الأكثر..

وعلى الرغم من الفترة القصيرة للغاية، التي قضاها داخل أسوار المعتقل، إلا أن التجربة لم تمح من عقله قط..

وفي ذلك اليوم، عندما حضر (حسين) لرؤيته، تفجر غضبه وحنقه وثورته دفعة واحدة، فراح يصرخ في وجهه، ويتهمه بالخيانة والحقارة والجحود..

ومن العجيب أن (حسين) لم يعترض بحرف واحد.

لقد ترك شقيقه يفرغ كل غضبه وتوتره وانفعاله، وكأنه يعترف بجرمه، ثم قال في صرامة:

- أنت المسؤول عن كل ما أصابك.. لقد نصحتك مرار بالكف عن انتقاد الدولة وسياساتها، ولو لم أعتقلك أنا لفعلها آخر، ولما كان من الممكن أبدا أن تعود إلى منزلك الآن.

كان (مفيد) يعلم أنه على حق تماما، ولكنه قال في حدة:

- وما الذي تريده مني الآن؟ تصفيقا حارا، أم اعترافا بعبقريتك؟!

قال (حسين) في صرامة مخيفة، وهو يتطلع إلى عيني (مفيد) مباشرة:
- لا هذا ولا ذاك.. كل ما أريده هو ألا تضطرني لإعادتك إلى المعتقل ثانية.
بهت (مفيد)، وحلق في عيني شقيقه، في مزيج من الدهشة والارتياع، فتابع (حسين) بنفس الصرامة:
- كف عن اعتراضاتك السخيفة هذه، وابتلع انتقاداتك، واكتف بتصليح المنكر بقلبك فحسب، وإلا..
ولم يكن بحاجة لإتمام عبارته، فاللهجة التي نطق تهديده بها، وتلك النظرة المخيفة في عينيه، والذكريات التي تداعت في ذهن (مفيد)، كانت كلها كافية لتسرى في جسده قشعريرة مفزعة، جعلته يتساءل:
لو أنه يشعر بكل هذا الخوف، من العودة إلى المعتقل، على الرغم من أنه لم يذق ذرة واحدة، مما ذاقه الآخرون هناك، فكيف يكون شعورهم هم؟
كيف يواصل بعضهم نضاله وقتاله من أجل الحرية، بعد أن خطا بقدمية إلى الجحيم نفسه؟!
وفي أعماقه، شعر (مفيد) بموجة عارمة من الاحتقار والازدراء..
احتقار خوفه، وازدراء روح الجبن في أعماقه..
وفي تلك اللحظة بالذات، ومع الغصة في حلقه، والمرارة في قلبه، والدموع في مقلتيه، شعر (مفيد) بالاشتياق إلى شخص واحد بالتحديد..
إلى (جودة)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لقد أفرجوا عن (جيهان)
نطقت (سوسن) هذه العبارة في سعادة واضحة، انتزعت (مفيد) من شروده، فالتفت إليها، هاتفا في لهفة:
- حقا؟؟
أجابته (سوسن)، في ارتياح واضح:
- نعم.. النيابة برأتها تماما، وخاصة بعد أن اختفى كل الرجال الذين ألقت الشرطة القبض عليهم في الشقة، في تلك الليلة المشؤومة، ولم يعد هناك أي شهود للواقعة.
هز (مفيد) رأسه، وهو يقول في سخرية مغموسة في الألم والمرارة:
- إذن فما زالت لديه قطرة من الرحمة
سألته في دهشة:
- من تقصد؟
صمت لحظة، وهو يمط شفتيه، قبل أن يقول:
- أقصد ذلك النذل، الذي دبر هذا كله.. كان يمكنه أن يواصل لعبته القذرة حتى النهاية، ويدين تلك المسكينة بالفعل، ولكنه اكتفي بالفضيحة، ومنع رجاله من التواجد، لتنهار القضية من أساسها.
تنهدت (سوسن)، قائلة:
- هذا لا يصنع فارقا، بالنسبة لـ (جيهان) المسكينة للأسف فالفضيحة تتساوى مع الإدانة، في نظر الجميع، وحتى لو أصدرت محكمة النقض نفسها ألف حكم ببراءتها، ستظل في نظر الكل مدانة، بأبشع تهمة، يمكن أن تدان بها فتاة.
تجمعت دمعة كبيرة في عينيه، وهو يتمتم:
- الله (سبحانه وتعالى) يمهل ولا يهمل
ولم يدر لماذا قفز ذهنه لحظتها إلى (مديحة)؟!

لماذا انتخبها عقله، ليملأ بها كيانه، ويعيد إلى قلبه ذكريات أعوام مضت؟!
ربما لأنها هي أيضا، كانت واحدة من ضحايا (حسين)..
بل كانت أول ضحاياه..
من أجل حبها لـ (مفيد)، اضطرها (حسين) للزواج من ابن عمها، ومغادرة القرية إلى الأبد..
ولن ينسى (مفيد) أبدا أن (حسين) هو الذي حطم حبه آنذاك حطم أول حب في حياته..
- ما رأيك في قدح شاى دافئ؟...
ألقت عليه (سوسن) السؤال، وهي تبتسم في حنان، في محاولة لانتزاعه من شروده الحزين، الذي رسم ملامحه على وجهه، فتنهد بذهن نصف شارد، وغمغم:
- ليست بى رغبة لتناول أي شيء الآن يا (مديحة).
لم يكد الاسم يتجاوز شفتيه، حتى انتبه إلى ما فعله، فانتفض جسده كله في عنف، واستدار إلى (سوسن) في ارتياع، مستدركـا:
- أقصد يا (سوسن)..
ولكن نظرة واحدة إلى وجهها، جعلت قلبه يهوي بين قدميه..
لقد غاضت منه الدماء دفعة واحدة، وتركته شاحبًا ممتقعا، زائغ البصر، منفرج الشفتين، تطل الصدمة من كل خلجة من خلجاته..
وفي هلع، تمتم (مفيد):
- (سوسن).. اعذريني، فقد...
ولكنها لم تسمح له بإتمام عبارته..
لقد اندفعت مبتعدة عنه بغتة، على نحو جعل كيانه كله يمتلئ بالندم، ولكن..
بعد فوات الأوان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

98- الثعالب..

أشعل (ميخائيل بن ناثان) قداحته في بطء، وأدنى شعلة اللهب من طرف سيجارته، وهو يبتسم في ثقة وظفر، ويتطلع مباشرة إلى (حسين البنهاوي)، الذي بدا شديد التوتر، يتلفت حوله في عصبية، ويعدل وضع منظاره الشمسي، كل لحظة وأخرى، وعيناه تتعلقان مرة بأهرامات الجيزة، التي تقف شامخة، على بعد أمتار قليلة منه، ثم تعودان ثانية إلى وجه (ميخائيل)، الذي نفث دخان سيجارته في تلذذ، قبل أن يقول:

- اهدأ يا عزيزى (حسين).. اهدأ.. المفروض أن تكون العصبية من نصيبي أنا، فأنت تجلس في وطنك.

أجابه (حسين) في حدة:

- وماذا لو رآني أحدهم معك؟

ضحك (ميخائيل) في ظفر، قائلا:

- اطمئن يا (حسين) بك.. أنت ترى بنفسك ما فعله خبراؤنا بملامحي.. لقد حلقت شاربي ولحيتى، وارتديت هذا الشعر الأسود المستعار، مع المنظار الطبي، وتبدلت هيئتي تماما، ثم إن جواز سفرى صادر من (بيروت)، واسمي أصبح (غندور الصافي)، تاجر لبنانى بسيط، لا شأن له بعالم الجاسوسية والسياسة.

قال (حسين)، وهو يلوح بيده في عصبية:

- هل تعتقد أنه يمكنك خداع المحترفين بهذا؟

قهقه (ميخائيل) ضاحكا هذه المرة، وقال:

- أي محترفين يا (حسين) بك؟ أنت أكثر دراية منى بجهازكم وبالفساد الذي يستشري فيه.. صحيح أنكم قمتم ببعض العمليات الناجحة، وأفسدتم بعض عملياتنا، إلا أن كفاءتكم لا تقارن قط بكفاءتنا.

تراجع (حسين)، قائلا في غضب:
- هل تظن هذا؟
نفث (ميخائيل) دخان سيجارته في بطء، قبل أن يقول:
- بل أثق به تمام الثقة، وإلا لما جازفت بالحضور إلى هنا بنفسى.
هز (حسين) كتفيه، وقال:
- هذا يعتبر خطأ تكنيكيا في عالمنا
قلب (ميخائيل) كفية، وهو يقول في استهتار:
- على العكس يا (حسين) بك.. لقد درسنا هذه النقطة بالذات ووجدنا أننا أمام احتمالين، لا ثالث لهما، فإما أن القادم سيتفاوض معك مباشرة، بكل وضوح وصراحة، مطمئنا إلى أنك لن تخدعه، أو أن نشك في الأمر كله، فلا نرسل أي مخلوق، وفي الحالة الأولى لن يكون هناك فارق كبير، بين ارسال شخص جديد، أو حضورى شخصيا لأداء المهمة، فالتفاوض مع شخص مثلك، يحتاج إلى خبير كما تعلم.
سأله (حسين):
- وماذا لو أنني أخدعكم؟
ابتسم (ميخائيل) في ثقة، وهو يجيب:
- لقد راقبناك طويلا، وأصبحنا واثقين من أنك لن تحاول هذا.
عقد (حسين) حاجبيه في ضيق، وقال:
- اسمع يا (بن ناثان).. إنني أشعر بالضجر مع المقدمات الطويلة.. أخبرني مباشرة ماذا تريدون مني، ودعنا ننته من هذا الأمر السخيف.
أومأ (ميخائيل) برأسه متفهما، وقال:
- أنت قريب للغاية من الرئيس (جمال)، وهذا يفيدنا كثيرا
سأله (حسين) في عصبية:

- فيم؟! برقت عينا (ميخائيل)، ومال نحوه بشدة، وهو يجيب: -
في التخلص منه
تراجع (حسين) في عنف كالمصعوق، وهو يهتف:
- ماذا؟
أشار إليه (ميخائيل)، قائلا:
- رويدك يا رجل.. اخفض صوتك، ولا داعي لأن نخبر كل سائح في الهرم، بأننا نخطط لتصفية زعيم الحرية العربية.
قال (حسين) في عصبية شديدة، وبصوت منخفض:
- هل تتصور أنه من الممكن أن أساعدكم في هذا العمل القذر؟
أجابه (ميخائيل) في صرامة:
. لست مخيرا في هذا، فإما أن تفعل، أو ندمر مستقبلك تماما، بالوثائق التي لدينا.
هتف (حسين) محنقًا:
- إنكم تدمرون مستقبلي في الحالتين.
هز (ميخائيل) رأسه نفيا، وقال:
- مطلقا.. لن يربط أحد بينك وبين ما سيحدث قط.. إننا لسنا جهازا غبيا ساذجا، حتى يحدث هذا يا رجل.. سيتم التخلص من (جمال عبد الناصر) بأسلوب بطيء بارع، لن يتم كشفه قط، حتى بوساطة الطب الشرعي.
سأله (حسين):
- أي أسلوب هذا؟
تراجع (ميخائيل) في بطء، وابتسم قائلا في خبث:
- هل علموك أنه من السهل أن يكشف المرء أساليبه هكذا؟
لوح (حسين) بكفه، قائلا:
- ومن يرغب في معرفتها؟ لن أشارك في هذا العمل قط.
انعقد حاجبا (ميخائيل) في صرامة، وهو يقول:

- اسمع يا (حسين).. لست هنا لتدليلك، أو التوسل إليك القيام بالعمل.. أنت تعلم ما يمكننا فعله بشأنك.. ستؤدي هذا العمل لحسابنا، وليس أمامك بديل آخر.
صمت (حسين) لحظات، ثم قال في حزم:
- اسمع أنت يا (بن ناثان).. أسلوبك السخيف هذا لن يفيد قط، افعلوا ما يحلو لكم فعله، ولكن (حسين البنهاوي) لن يجازف بحياته ومستقبله، دون أن يعرف حتى كيف سيتم هذا.. دعني أطمئن إلى الأسلوب أولا، وبعدها اطلب ما بدا لك، إما هذا، أو اكشف ما يحلو لك كشفه من أمور.
قالها، وهب واقفا، مزمنا الانصراف، فتلقت (ميخائيل) حوله في عصبية، وقال:
- انتظر
تطلع إليه (حسين)، في صمت صارم، فاستطرد:
- اجلس، وسأشرح لك الأمر.
عاد (حسين) للجلوس، فأشعل (ميخائيل) سيجارة أخرى، وهو يقول:
- حسن.. ما ستفعله بسيط للغاية، فكل ما عليك هو أن تستبدل بالمحبرة الرخامية، على مكتب الرئيس، محبرة أخرى تشبهها تمام الشبه.
قال (حسين) في دهشة:
- فقط؟!
لوح (ميخائيل) بكفه، قائلا:
- فقط
صمت (حسين) لحظات مفكرا، قبل أن يقول:
- وما الذي ستفعله تلك المحبرة البديلة.. هل تحوي جهاز تنصت مثلا؟

هز (ميخائيل) رأسه نفيا، وأجاب:
- بل تطلق نوعا من غاز الأعصاب، بلا لون أو رائحة، ونظرا لأن الرئيس يقضي معظم وقته في مكتبه، فسيصاب بتسمم بطيء وترتبك قراراته، ويصبح عصبيا ثائرا، ثم ينتهي به الأمر إلى شلل تام، ثم وفاة حتمية.
اتسعت عينا (حسين) في هلع، وهو يستمع إلى هذا، وغمغم مرتاعا:
- يا لها من خطة!
ابتسم (ميخائيل) في زهو، وهو يقول:
- إننا نحسين عملنا.. أليس كذلك؟
فرك (حسين) كفية متوترا، وبدا الصراع واضحا في ملامحه قبل أن يسأل في خفوت عصبى:
- وأين تلك المحبرة البديلة؟
التقط (ميخائيل) حقيبة صغيرة، وناوله إياها، قائلا:
- ها هي ذي.
فتح (حسين) الحقيبة، وألقي نظرة سريعة على محتوياتها، قبل أن يعيد إغلاقها، ويضعها إلى جواره، قائلا:
- عظيم.. هذا كل ما كنا نرغب في معرفته
تراجع (ميخائيل) كالمصعوق، هاتفًا:
- كنتم؟!
لم يكد يتم عبارته، حتى أحاط به فجأة عدد من الرجال، وقال أحدهم في صرامة:
- (ميخائيل بن ناثان).. أنا وكيل نيابة أمن الدولة العليا.
اتسعت عينا (ميخائيل) في ارتياع، وحدق في وجه (حسين)، الذي ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، ثم هتف في ثورة:
- إنها (عايدة).. لقد خانتنا.. أليس كذلك؟

هز (حسين) رأسه نفيا، وهو يجيب:
- كلا يا (بن ناثان).. (عايدة) تجهل أنني كشفت أمرها منذ اللحظة الأولى، وأنني طلبت من رجالي مراقبتها، وعندما فعلوا كشفوا أمر لقاءاتها المتصلة بسيدة الفندق، وهكذا تظاهرت أمامها بالغباء، ورحت أبلغها بعض المعلومات الوهمية، بالتنسيق مع السيد رئيس الجمهورية شخصيا، حتى اطمأن قلبكم، وقررتم الانتقال إلى النقطة الثانية، وتركناك تدخل البلاد في بساطة، وكأننا لم نكشف تنكرك، حتى ألتقي بك شخصيا، ونكشف الغرض من لعبتكم، والهدف من محاولة تجنيدى.
انعقد حاجبا (ميخائيل) في شدة، وهو يقول في مرارة:
- أهنئكم.. لقد أحسنتم اللعبة هذه المرة.
هز (حسين) كتفيه، قائلا في ظفر:
- بالطبع.. ثقتكم الزائدة بأنفسكم، واستهتاركم التام بقدراتنا، ساعدنا كثيرا على الإيقاع بكم.. وبالمناسبة.. في هذه اللحظة بالذات، يلقي فريق من رجالنا القبض على سيدة الفندق، وعامل المحطة، وباقي أفراد شبكة التجسس.
ثم انعقد حاجباه، مستطردا في صرامة:
- أما (عايدة)، فقد طلبت منهم ادخارها لي، فأنا أحب أن ألقي القبض عليها بنفسي.
وبرقت عيناه على نحو عجيب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اعترض (مفيد) طريق (سوسن)، أمام فصلها تماما، وهو يقول في ألم وأسف:
- (سوسن).. استمعي إلى أرجوك.. أريد تفسير موقفى.

أجابته في صرامة، وهي تشيح بوجهها عنه:
- أستاذ (مفيد).. أرجوك.. ستبدأ حصتي بعد دقيقة واحدة.
قال في ضراعة:
- أحتاج إلى نصفها لشرح ما حدث.
هزت رأسها نفيا في عنف، وقالت:
- لا فائدة يا أستاذ (مفيد).. لم أعد أرغب في سماع حرف واحد، ثم..
وانخفض صوتها، وهي تستطرد:
- ثم إنه لم تعد هناك فائدة من هذا
خفق قلبه في هلع، وهو يسألها:
- ماذا تعنين؟
صمتت لحظة، وهي تزدرد لعابها في صعوبة، ثم أجابت بصوت مختلج:
- أنت تعلم أن الأستاذ (حسن) قد عرض على الزواج أكثر من مرة، و.
لم تستطع إتمام عبارتها، فابتلعتها في مرارة، جعلته يرتجف، وهو يسألها:
ماذا تعنين يا (سوسن)؟ حاولت أن تجيب، ولكن لسانها عجز عن هذا، فاكتفت برفع كفها اليمني أمام عينيه، اللتين تعلقتا بتلك الدبلة الذهبية في وسطاها، فانشق قلبه، وهو يغنم في صعوبة:
- (سوسن).. هل...
جرت من أمامه، قبل أن يتم سؤاله، وغابت في فصلها، وأغلقت بابه خلفها، تاركة إياه نصف صريع أمامه، وخنجر من نار يمزق قلبه بلا هوادة..
لقد فقدها مرة أخرى.. فقدها، بعد أن تصور أنه صار قاب قوسين أو أدنى منها

وفي هذه المرة أيضا، فقدها بسبب (مديحة)
(مديحة) التي اختفت من أمام عينيه، ولكنها لم تختف من حياته
وفجأة، انتبه (مفيد) إلى أن دموعه تسيل من عينيه، وتغرق وجهه كله
وفي أعماقه، نما وتصاعد شعور قوي بالوحدة..
وبالضياع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- السادة المسافرون على طائرة (مصر للطيران)، المتجهة إلى (باريس)، عليهم التوجه مباشرة إلى بوابة السفر رقم سبعة، وهذا هو النداء الأخير.
ألقت (عايدة) نظرة متوترة على ساعتها، ونفثت بخان سيجارتها في عصبية، وهي تقول:
- أأنت واثق من أن السفر إلى باريس) لن يعرضني للخطر؟ أومأ (حسين) برأسه إيجابا، وهو يقول:
- تمام الثقة، فهم لا يعلمون أنك أبلغتنا بخطتهم، منذ اللحظة الأولى، وأنك تعاونت معنا للإيقاع بهم في فخنا، فقد أوهمناهم أنك مشتركة معهم في محاولتهم للنيل من الرئيس، وأننا نسعى لإلقاء القبض عليك، وبعدها سنعلن غضبنا وسخطنا؛ لأنك نجحت في الفرار إلى (باريس)، قبل أن نوقع بك.. ثم إن رحيلك المفاجئ، بدون حقائب أو حتى أدوات زينة، سيقنعهم بالأمر تماما.
حاولت أن تبتسم، وهي تقول في اضطراب:
- إذن فسيمكنني أن أحيا باطمئنان في (باريس).
أجابها في هدوء:

لن يمر الأمر بالبساطة التي تتصورينها، فالشك جزء من تكوينهم، ولكن كل شيء سيؤيد أقوالك، وبخاصة سفرك إلى (باريس)، فالطبيعي، في حالة خيانتك لهم، أن تفضلي البقاء هنا خشية انتقامهم منك هناك.

هزت رأسها في قوة، قائلة:

- لست أحتمل العيش هنا أومأ برأسه متفهما، وقال:

- أعلم هذا.

التقطت نفسا عميقا من سيجارتها، وتطلعت إليه طويلا، قبل أن تسأله:

- وماذا عن الفيلم؟

هز كتفيه في لا مبالاة، قائلا:

- لم تعد له أية قيمة بعد ما حدث.

قالت مبتسمة:

- إذن فقد فقدت سلاحي الوحيد، ولم يعد بإمكاني إقناعك

سألها في اهتمام:

- بماذا؟ مالت على أذنيه، وهمست:

- بأن تتزوجني

قالتها، وطبعت قبلة دافئة على خده، فابتسم قائلا:

-الوداع يا (عايدة)

رفعت أحد حاجبيها، قائلة:

- بل قل: إلى اللقاء، فالتخلص مني ليس بالبساطة التي تتصورها.

مسح طلاء شفتيها عن خده، وهو يراقب طائرتها، التي انطلقت إلى (باريس)، وانطلقت من صدره زفرة ارتياح، وهو يراجع كل الأمور في ذهنه، ويبتسم في ثقة واعتداد.

لقد انتهت كل الأمور لصالحه هذه المرة، وهذا يعني أنه سينعم بفترة هدوء طويلة

طويلة للغاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

99- ويمضى الزمن..

انعقد حاجبا (بسيونى) شيخ الخفراء، وهو يزيح طاقيته، ويهرش رأسه في حيرة، وأشار إلى سراى (البنهاوي)، وهو يقول:

- انظر يا جناب العمدة.. السراي تزينه الأضواء.. هل سيتزوج أحد أبناء (البنهاوي)

تطلع الحاج (سعفان) إلى السراي بدوره، قبل أن يلوح بيده، قائلا:

- كلا.. إنه عيد ميلاد (طارق).. هل نسيت تاريخ اليوم؟ هتف (بسيونى):

- أه.. هذا صحيح، ثم هز رأسه، مستطردا:

- الحقيقة يا عمدة أن ال (البنهاوي) وحدهم يحتفلون بهذه المناسبة، في قريتنا كلها.. إنهم يتعالون علينا بتصرفاتهم وملابسهم البندرية.

قال الحاج (سعفان) في صرامة:

- لا تدس أنفك في شئون الآخرين يا (بسيوني).

تمتم شيخ الخفراء في بلادة، وهو يحمل بندقيته على كتفه:

- بالطبع يا جناب العمدة.. بالطبع.. زادك الله (سبحانه وتعالى) حكمة ووقارا.

سارا بضعة أمتار في صمت، ثم عاد (بسيوني) يسأل:

- هل بلغتك أخبار (طارق البنهاوي) يا جناب العمدة؟ إنه ولد شقي للغاية.. لقد بلغ الثانية عشرة من عمره، ومازال يتصرف كالأطفال، فأمس اختطف طاقية (محمود)، ابن (طه المهراوى)

قاطعة العمدة:

- قلت لك: لا تدس أنفك في شئونهم.

مط (بسيونى) شفتيه، وكأنما لم يرق له أن يمنعه العمدة من الخوض في الحديث، ولكنه قال صاغرا:

- كما تأمر يا جناب العمدة.. كما تأمر.

حملتهما أقدامهما إلى ذلك المقهى، عند مدخل القرية، واستقر بهما المقام حول إحدى موائده، وصفق الحاج (سعفان) بكفيه، قائلا:
- قدحان من الشاي مع كثير من السكر ارتفع عندئذ صوت مرح، يهتف:
- طلبات العمدة على حسابى التفت العمدة وشيخ الخفراء إلى صاحب الصوت، ثم هتف الأول:
- (جودة)؟! غير معقول
ونهض يعانقه في حرارة، وهو يسأله في دهشة:
- متى أفرجوا عنك؟!
ابتسم (جودة)، مجيبا:
- أول أمس يا عمدة.. وعدت إلى هنا مساء أمس، وهأنذا أبدأ عملي في المقهى اليوم.
هتف الحاج (سعفان) مندهشا:
- تبدأ عملك هنا؟! أين (شعبان) إذن؟
هز (جودة) كتفيه، وقال:
- أعتقد أنه رحل.. لم تعد هناك حاجة لوجوده بعد عودتى.
لم يفهم العمدة أو (بسيوني) ما علاقة وصول (جودة) برحيل (شعبان)، إلا أن أحدا منهما لم يتوقف ليفكر كثيرا في هذه النقطة، وإنما قال (بسيونى)، وهو يتطلع إلى (جودة):
- لم تتغير كثيرا يا (جودة)، على الرغم من غيابك لخمس سنوات.
رفع (جودة) سبابته، قائلا:
- بل ست يا (بسيونى).. ست سنوات تقريبا، من عام ستين، وحتى عام ستة وستين.
ربت العمدة على كتفيه، قائلا:
- خمس أو ست حمدا لله على سلامتك، على أية حال يا رجل.. قل لي.. هل ستستقر هنا؟

لوح (جودة) بكفه، قائلا بابتسامة كبيرة:
- بالطبع يا عمدة.. إنها قريتي ومسقط رأسي، ثم إن العيش هنا صار يروق لي أكثر من ذي قبل.. يروق لي كثيرا.
قالها، وعيناه تتألقان، وابتسامته تحمل الكثير من السخرية.. ومن الغموض.

استرخي (مفيد) في مقعد وثير، متطلعا إلى سقف حجرة الاستقبال في السراي، وأذناه تتجاهلان ذلك الضجيج، الذي يصنعه أطفال العائلة من حوله..
كان عقله يسبح بعيدا.. بعيدا.. يسبح في أربع سنوات مضت، ومن قلبه، سالت دمعة كبيرة.. أمور كثيرة تغيرت، في هذه السنوات الأربع.
(سوسن) تزوجت، وأنجبت طفلتين، واستقالت من العمل لتتفرغ لتربيتهما، وانقطعت صلته بها تماما..
و (جيهان) اختفت من المدينة كلها.
لم تحتمل العار والفضيحة، فحملت حقيبتها ذات يوم، واستقلت القطار إلى (الإسكندرية) في الفجر، ولم يعد أي مخلوق يعرف عنها اي شيء.
أما (شريفة)، فقد استوعبت مصرع (أمجد) وهضمته، وعادت تتعايش مع واقعها في استسلام وانكسار، وكأنما لم يعد أمامها سوى اليأس، بعد أن بلغت السادسة والثلاثين من عمرها، ولم تتزوج بعد..
ومازالت (فاطمة) تتعامل معها، ومع الجميع بغلظة وخشونة ومشاحناتها مع نساء الأسرة لا تتوقف قط..
و (حافظ) لا يتدخل في مثل هذه الأمور قط.
إنه ـ كما كان دائما ـ صامت، منكسر، يكتفي بمراقبة الأمور دون التدخل فيها أو حتى الاقتراب منها..
وعلى الجانب الآخر، يصر (فؤاد) دائما على دس أنفه، في كل ما يخص الأسرة، بحجة أنه زوج (ناهد)، على الرغم من أن (عمر) لا يحاول التدخل في مثل هذه الأمور قط، و (عبد الحكيم) انعزل تقريبا، بعد وفاة (توحيده)، منذ أربع سنوات، ولم يعد يلتقي

بالأسرة إلا في الأعياد والمناسبات، حين يلتقي الجميع، ويزدحم السراي، وينطلق الأطفال يلعبون ويمرحون..
- أين (نادرة)؟...
انتزعته (نعيمة) من شروده بسؤالها هذا، فاعتدل يتطلع إلى وجهها لحظة، قبل أن يجيب، وهو يتلفت حوله:
- لست أدري.. كانت هنا منذ قليل.. ربما ذهبت إلى الحديقة. قالت (نعيمة) في غضب: ان هذه السخيفة.. لقد طلبت منها معاونة خالتها في المطبخ، ولكنها اختفت تماما..
نهض يربت على كتفها مهدئا، وهو يقول:
- سأبحث عنها.. لا تقلقي نفسك بالأمر.
وراح يبحث عن (نادرة) في حجرات الطابق الأرضي، ثم سأل (عماد)، ابن الراحلة (توحيده):
- هل رأيت (نادرة) يا (عماد)؟ ابتسم (عماد) في خبث، وهو يقول:
- ربما تجدها في الحديقة الخلفية مع (طارق).. إنهما يجلسان هناك كثيرا هذه الأيام.
بدت الدهشة على وجه (مفيد)؛ لهذا الأسلوب الماكر، الذي يتحدث به (عماد)، الذي لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره بعد، وغمغم مبتعدا:
- سأبحث عنهما هناك.

اتجه على الفور إلى الحديقة الخلفية، ولم يكد يتجاوز مدخلها حتى ارتفع حاجباه في تعاطف، وهو يتطلع إلى (طارق) و (نادرة)..
كانا ينهمكان في حديث هامس، عند قاعدة شجرة الجوافة الجديدة، في ركن الحديقة الخلفية، وكل منهما يولى الآخر كل اهتمامه وانتباهه..
وتحرك قلب (مفيد) في صدره..

كانا في موقفهما هذا يذكرانه بأيام حبه الأولى مع (مديحة)، عندما كانا يلتقيان عند الشجرة العتيقة في الحقل..
لقد بدأ حبه لها، وهو بعد في الثالثة عشرة من عمره.. تماما مثل عمر (نادرة) الان.. ولكن (طارق) يصغر (نادرة) بعام كامل، و.
ما هذا الذي يفكر فيه؟ ما شأنهما بمسألة العمر هذه الآن؟
من أدراه أن أحدهما قد راودته فكرة أن يتزوج الآخر يوما!!
- (طارق)..
لم يدر كيف انفلت النداء من بين شفتيه بغتة، ولكن (طارق) سمعه، فانتفض واقفا في سرعة، وهو يقول:
- أنا هنا يا عمى
اتجه على الفور إلى الحديقة الخلفية، ولم يكد يتجاوز مدخلها، حتى ارتفع حاجاه في تعاطف.
أما (نادرة)، فقد تخضب وجهها بحمرة الخجل، وارتبكت وهي تنهض بسرعة، وخفضت عينيها أرضا في صمت، فابتسم (مفيد)، وقال:
كنت أبحث عن (نادرة)؛ فوالدتها تطلبها.
تمتمت (نادرة) في ارتباك:
- سأذهب إليها على الفور.
أفسح لها الطريق، فتجاوزته في خطوات أقرب إلى الركض، دون أن تنظر إليه، في حين تنحنح (طارق) في حرج، فأشار إليه (مفيد)، قائلا:
- هل تشعر بميل إليها؟
تخضب وجهه بحمرة الخجل أيضا، وهو يجيب مرتبكا
- إنها ابنة عمتي، و
لم يستطع إجابة السؤال، من شدة خجله وارتباكه، فتجاوز (مفيد) الأمر، وهو يقول:

- الجميع هنا لحضور عيد ميلادك، فلم لا تجلس معهم قليلا
أجابه (طارق) في حرج:
. سأفعل بالطبع.
ابتسم (مفيد) في حنان، وهو يتابعه ببصره، في أثناء توجهه إلى حجرة الاستقبال، وغمغم في خفوت:
- الزمن يمضي، والصغار يكبرون.
سمع صوتا يهتف به:
- (مفيد).. هل تحدث نفسك؟
التفت إلى (شريفة)، وابتسم قائلا:
- أعتقد أنها نهاية طبيعية، لكل من ينتمي إلى عائلة (البنهاوي). أليس كذلك؟
هتفت معترضة:
- بعدا للشر.. عائلتنا هي أفضل عائلة في البر كله
ثم اتجهت إلى المطبخ، مستطردة في أسى:
- والمفروض أن أعد عشاء يكفيها كلها.
ربت (مفيد) على كتفها، وهو يقول:
- هذا ليس جديدا بالنسبة لك
غمغمت في حزن:
- بالطبع.. المهم أن يصبح يوما مجرد ذكرى.
أدرك ما تعنيه بقولها هذا، فعاد يربت على كتفها في صمت، ثم تركها متجها إلى حجرة الاستقبال، وهناك كان (عبد الحكيم) يهمس لـ (عمر) في اهتمام:
- هل بلغتك آخر أخبار (رضا العبد)؟
هز (عمر) رأسه نفيا، وهو يجيب:
- آخر ما وصلني منه كان منذ ستة أشهر .. هل من جديد؟
أجابه (عبد الحكيم) مبتسما:

- بل هناك الكثير من الأخبار الجديدة، فقد تزوج هناك من أمريكية ثرية، ويدير كل أعمالها ومشاريعها، إلى جوار مشاريعه الخاصة، التي بلغ رأس مالها ما يقرب من مليون دولار.
أومأ (عمر) برأسه، قائلا:
- ما شاء الله.. ما شاء الله.. (رضا) يستحق كل خير.
وافقه (عبد الحكيم) بإشارة من رأسه، وقال:
- مصنعنا أيضا حقق أرباحا عظيمة هذا الموسم.
ابتسم (عمر) في سخرية، وقال
- نعم.. و (حسين) حصل على ثلثها
مال عليه (عبد الحكيم)، وهمس:
- أما زلت تفكر في هذا الأمر؟
عقد (عمر) حاجبيه، وهو يسأله:
- وهل يمكنك نسيانه؟
لوح (عبد الحكيم) بيده، قائلا:
- لقد علمت نفسي النسيان.. هذا أفضل كثيرا
أجابه (عمر) في مقت:
- أما أنا، فقد علمت نفسي الصبر، والانتظار
سأله (عبد الحكيم):
- هل تتوقع تغير الأمور في (مصر)؟
هز (عمر) كتفيه، وقال:
- سيحدث هذا إن عاجلا أو آجلا، فدوام الحال من المحال.
ابتسم (عبد الحكيم)، وهو يقول:
- السؤال هو: هل سيكون التغيير إلى الأفضل، أم إلى الأسوأ؟
تنهد (عمر)، قائلا:
- لا يمكنك التنبؤ بالجواب، في بلد كهذا.. تنام فيه على قرار بالسير نحو الشرق، وتصحو لتجد أن الجميع يسيرون غربا.

هم (عبد الحكيم بالتعليق، لولا أن هتف (رأفت)، ابن (ناهد):
- خالى (حسين) وصل،
سرت موجة من التوتر في المكان، مع وصول (حسين)، الذي جاء منفردا هذه المرة، ولم يصحب معه بعض المعارف أو الأصدقاء، كما كان يفعل في السنوات الماضية.
لم يكن قد تجاوز الثامنة والثلاثين من عمره بعد، إلا أن بعض الشعيرات البيضاء تسللت إلى شاربه وفوديه، فمنحته مظهرا يفوق عمره بعدة سنوات، ويزيده هيبة ووقارا..
ونهض الجميع لتحيته في احترام شديد أو قل هو خوف ورهبة..
وفي هدوء لا يخلو من الغطرسة، صافحهم (حسين)، ثم اتخذ مجلسه في صدر المكان، وسأله (عبد الحكيم):
- هل أتيت وحدك هذه المرة يا (حسين) بك؟
أجابه (حسين) في شيء من اللامبالاة:
- رأيت أنه من الأفضل أن يكون الاحتفال عائليا
غمغم (فؤاد) في شيء من الضجر:
- هذا أفضل
التفت إليه (حسين) في صرامة، فأسرعت (ناهد) تقول:
- هل تبدأ الاحتفال على الفور، أم تنتظر قليلا؟
نجحت مناورتها في جذب انتباه (حسين)، فاستدار إليها، قائلا:
- ولم الانتظار.. دعينا نبدأ الآن.
تحركت (ناهد) لإعداد الحفل، ولكن (طارق) استوقفها، قائلا في صرامة عجيبة، لا تتفق أبدا مع سنوات عمره الاثنتي عشرة:
- لحظة يا عمتي
التفتت العيون كلها إليه في دهشة، وابتسم (حسين) في حنان وهو يسأله:
- ماذا هناك يا (طارق)؟

أجابه (طارق) في حزم:
- قبل إعداد الحفل، أحب أن أقول: إنني لا أرغب في الاحتفال بعيد ميلادي هذا العام.
اتسعت العيون في دهشة أكبر، وهتفت (شريفة):
- ماذا تقول يا (طارق)؟
عقد ساعديه أمام صدره، وهو يكرر
- أقول إنني لن أحتفل بعيد ميلادي هذا العام.. إلا إذا.
سأله (حسين) في سرعة:
- إلا إذا ماذا؟
انتقل الانعقاد إلى حاجبى (طارق)، وهو يجيب في صرامة:
- إلا إذا حضر أبي وأمي عيد ميلادى.
وفي هذه المرة، لم تتسع العيون وحدها في دهشة، بل انفغرت الأفواه أيضا، وانتقلت الأبصار كلها إلى وجه (حسين)، في انتظار رد فعله، بعد هذا التحدي المباشر من (طارق)، الذي التفت إلى عمه، مستطردا في عناد واضح:
- ما رأيك يا عمي؟
بقي (حسين) صامتا لحظات، ووجهه خال من أية تعبيرات، ثم انفرجت شفتاه..
وألقى جوابه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

100- الخطوة الأولى..

أطلقت (عايدة) ضحكة عالية، وهي تلوح بكأسها في الهواء، في ملهى (الليدو)، وتهتف في مرح عابث:

في صحة (فرنسا) الحرة. ضربت كأسها في كأس (جان)، ثم جرعتها دفعة واحدة، واحتقن وجهها في شدة، وهي تعاود الهتاف:

- في صحة الحرية في كل مكان.

ارتشف (جان) رشفة من كأسه، وتطلع مشفقا إلى قطرة الدمع الكبيرة، التي تجمعت في عينيها، ثم مال نحوها، هامسا:

- (عايدة).. هل تبكين؟

مسحت دموعها بأصابعها بسرعة، وهي تقول في عصبية

- أبكي؟ مستحيل! إنها ذرة رمل تسللت إلى عيني، و.

قبل أن تتم عبارتها، غلبها تأثرها بغتة، وفوجئت بنفسها تنفجر باكية، فتراجع (جان) في دهشة، وهتف:

- (عايدة).. ماذا بك؟

أجابته، وهي تنتحب:

- يبدو أنني أسرفت في الشراب.

ابتسم متعاطفا، وقال:

- بل يبدو أنك أسرفت في الضغط على عواطفك

قالت وهي تشيح بوجهها، وتمسح دموعها ثانية:

- أنت لا تعرف ما تتحدث عنه

هز رأسه مبتسما في اشفاق، وهو يقول:

- بل أعرفه جيدا يا (عايدة).. وأنت أيضا تعرفينه، ولكنك ترفضين الاعتراف به، وهذا ما بدل حالك، وغيرك تماما، ألم ترهقك المقاومة بعد؟! إنك تصارعين قلبك منذ أربع سنوات.. ألم تحن لحظة استسلامك له بعد؟

رفعت عينيها إليه، وقالت:
- (جان).. إنني..
قاطعها بابتسامة حنون:
- أنت غارقة حتى أذنيك في حب (حسين البنهاوي).
هزت رأسها نفيا، وأرادت أن تصرخ مستنكرة، إلا أن مشاعرها لم تطاوعها، فاكتفت بالصمت، وتركت دموعها تنحدر على خديها، وتابع (جان):
- إنني أشعر بهذا منذ البداية.. ما من رجل شغل تفكيرك، مثلما فعل (حسين) هذا.. إنك متيمة به يا (عايدة)، ويمكنني أن أقول، دون أدنى تردد، إنه الحب الوحيد في حياتك ثم عاد يميل نحوها، ويسألها:
- لماذا لا تعودين إليه؟
أجابته، وهي تبكي في مرارة:
- لم يعد بإمكاني هذا.. عودتي إلى (القاهرة) ستكون بمثابة اعتراف صريح، بأنني خدعت الإسرائيليين، وعندئذ لن أسلم من انتقامهم، لو حاولت العودة إلى هنا.
ابتسم قائلا:
- هل تتصورين أن الإسرائيليين مازالوا يذكرونك؟! لقد مضت أربع سنوات كاملة، ولو أنهم يشكون في أمرك، فما الذي منعهم من الانتقام منك، طوال كل هذه الفترة.. ثم إنك لو عدت إلى (القاهرة)، وتزوجت (حسين)، فما حاجتك للعودة إلى هنا؟! لا تتحججى بمتجر الثياب، فستجدين من يديره بكفاءة، ويرسل لك إيراداته شهريا.. ليست هذه هي المشكلة.
ومد أصابعه يمسح دموعها، قبل أن يستطرد:
- المشكلة الحقيقية هي: هل يحبك (حسين) مثلما تحبينه؟، وهل هو مستعد للزواج منك؟

حاولت أن تبحث عن جواب مؤكد في عقلها وقلبها، إلا أنها وجدت نفسها تقول في النهاية:
- لا يمكنني الجزم
تراجع، قائلا:
- اسأليه إذن
غمغمت:
- ماذا تقول؟
أجاب في حزم:
- أقول إنك سألته الزواج يوما، عندما كنت تهددينه بذلك الفيلم الزائف، أما الآن، فأريد منك أن تسأليه: هل يقبل الزواج منك، إذا ما عدت إلى (القاهرة)؟
ارتجفت أصابعها، وهي تلتقط سيجارتها، وعجزت عن إشعالها بفداحتها عدة مرات، وهي تقول:
- أتعتقد أن هذا الأسلوب يليق بأميرة مثلي؟
ابتسم قائلا، وهو يشعل سيجارتها بقداحته:
- بل يليق بعاشقة والهة
ارتبكت وهي تنفث دخان سيجارتها، وغمغمت:
- هذا يحتاج إلى بعض التفكير يا (جان).
قالتها وعقلها يعتصر قلبها لاتخاذ قرار حاسم.. قرار يمكنه أن يغير مصيرها.. بل حياتها كلها

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انحبست الأنفاس في الصدور، وجفت الحلوق والعيون، والكل ينقلون أبصارهم بين (طارق) و (حسين)، في انتظار لما سيسفر عنه الموقف.

(مفيد) بالذات راح يراقب المشهد في لهفة وفضول، وهو يتساءل: من سيفرض رأيه هذه المرة؟
وعلى الرغم من كل توقعاتهم، وكل ما استنتجوه بشأن ما سيحدث، إلا أن الدهشة كانت من نصيبهم جميعا، عندما ابتسم (حسين)، قائلا:
- فليكن.. طلباتك أوامر أيها (البنهاوي) الصغير.
كانت مفاجأة مدهشة بحق، أثبتت أن (طارق) بالذات يحتل في قلب (حسين) مكانة خاصة، لا ينافسه فيها أحد..
مكانة، جعلته يتخلى عن عناده، ويوافق على انضمام (فاطمة) و(حافظ) لحفل عيد الميلاد، لأول مرة في حياتهما..
أما (فاطمة)، التي كانت تتنصت على ما يحدث، فقد خفق قلبها في عنف، وهتفت بزوجها في سعادة بلا حدود:
- هل سمعت يا (حافظ)؟ هل فهمت يا رجل؟ إنني وأنت سنحضر حفل عيد ميلاد (طارق)! يا لصغيري الحبيب.. لقد صار رجلا، ولم يقبل هواننا أبدا.
تهللت أسارير (حافظ)، وهو يقول:
- لقد فعل ما طلبت منه أنت بالضبط.
احتقن وجهها، وهي تهتف به:
- يا للمصيبة! إياك أن تشير إلى هذا يا رجل.. هل تحب أن يتراجع (حسين) بك في رأيه؟
أجابها قلقا:
- كلا.. كلا.. إنني أتمنى حضور عيد ميلاد (طارق) منذ مولده.
لم يكد يتم عبارته، حتى اقتحم (طارق) الحجرة، وهو يقول في سعادة:
- أبي.. أمي.. استعدا.. ستنضمان إلى العائلة، لحضور حفل عيد ميلادى.

اغرورقت عينا (حافظ) بالدموع، وهو يقول:
- عيد ميلاد سعيد يا ولدي.
انكب (طارق) على كف والده، يغمره بالقبلات، ثم استدار إلى أمه، التي احتوته في صدرها، وسكبت دموع الفرح على شعره، وهو يقول بصوت متهدج:
- لم يمكنني الاحتفال بدونكما.
هتفت (فاطمة) بصوتها الأجش الغليظ، الذي لم يحجب نبرة الحنان القوية فيه:
- بوركت يا (ولدى).. بارك الله فيك يا (طارق).
ثم التفتت إلى (حافظ)، مستطردة في لهفة:
- لقد احتفظت لنا بثوبين نظيفين، لحضور الحفل.
غمغم (حافظ)
- أكنت واثقة من النتائج إلى هذا الحد؟
أجابته في شراسة:
- إنه ابني الوحيد
ثم ضمت (طارق) إلى صدرها ثانية، مستطردة:
- إنه الأمل
ومن عينيها، أطل بريق قوي..
ومخيف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان لعيد ميلاد (طارق) طعما مختلفا في هذا العام، وطابعا متميزا، يختلف عن كل السنوات الماضية، لاجتماع الأسرة كلها فيه لأول مرة..

ولقد سكب (حافظ) دموعا غزيرة، في حين ظلت (فاطمة) قوية متماسكة، يملؤها شعور بالزهو والفخر، أثار حنق (نعيمة) و(شريفة)، اللتين تعمدتا تجاهلها تماما طوال الوقت، في حين بدا (حسين) بسيطا، على نحو أثار دهشة الجميع، وملأهم بالحيرة والقلق، فهمس (عبد الحكيم) في أذن (عمر):

- هل يبدو لك (حسين) طبيعيا الليلة؟!

ابتسم (عمر) في سخرية، قائلا:

- حتى الشيطان يحتاج أحيانا إلى لحظة من الراحة.

تمتم (عبد الحكيم)، وهو يختلس النظر إلى (حسين):

- أهذا رأيك؟

هز كتفيه قائلا:

- هل أصبحت الآراء الشخصية محظورة أيضا؟

بدا (عبد الحكيم) شاردا، وهو يتطلع إلى (حسين)، فلكزه (عمر) بمرفقه، قائلا بابتسامة خبيثة:

- لا تتردد هكذا... هيا.. افتح معه الحوار مباشرة

سأله (عبد الحكيم في قلق:

- هل تعتقد هذا؟

لوح (عمر) بكفه، وقال مبتسما:

- لن تجد ظروفا أفضل من هذه

تردد (عبد الحكيم) لحظة، ثم حسم أمره، قائلا

- أنت على حق.. سأفاتحه في الأمر، على بركة الله.

قالها، واتجه نحو (حسين) مباشرة، ولكنه لم يكد يبلغه، حتى زايله حسمه، وذهبت عنه شجاعته، فارتبك وتنحنح، مغمغما:

- عيد ميلاد سعيد لـ (طارق) يا (حسين) بك.

أجابه (حسين) في هدوء عجيب:

- شكرا يا (عبد الحكيم)

تردد (عبد الحكيم) لحظة أخرى، ثم اندفع يقول
- هل يمكنني التحدث إليك وحدنا؟!
تطلع إليه (حسين) في دهشة، ثم نهض قائلا
- بالتأكيد.. تعال بنا إلى الحجرة الأخرى.
ذهبا معا إلى حجرة الضيوف، وجلسا صامتين لدقيقة أو يزيد، و(حسين) يتطلع إلى (عبد الحكيم) مترقبا، قبل أن يقول في ضجر:
- ماذا لديك يا (عبد الحكيم)؟
تنحنح (عبد الحكيم) مرة أخرى، وقال في ارتباك:
- أنت تعلم أنني، ومنذ وفاة (توحيده)، أحيا وحيدا، مع (عماد) و(وحيد) و(رأفت)، وأتولى كل شئونهم، إلى جانب عملي في المصنع، وإشرافي على الحدائق التي أمتلكها.
قال (حسين) في اهتمام:
- نعم.. أعلم هذا.
ازدرد (عبد الحكيم) لعابه، وقال:
- ولكن الأمور تزداد صعوبة في كل يوم، ولم يعد باستطاعتى وحدي تحمل كل هذه المسئوليات، و.
قاطعه (حسين) بغتة، وهو يقول في صرامة:
- (عبد الحكيم).. هل تفكر في الزواج مرة أخرى؟
ارتبك (عبد الحكيم) بغتة، ثم أجاب بسرعة:
- هذا صحيح، ولكن
قاطعه (حسين) مرة أخرى في صرامة أكبر
- ولكن ماذا؟
توتر (عبد الحكيم) أكثر، وهو يجيب:
- ولكن اختيار الزوجة المناسبة عملية شاقة للغاية، وخاصة مع وجود ثلاثة أولاد.. من تلك التي ستحتمل تربية ثلاثة من أبناء

زوجة سابقة.. الدافع الوحيد لهذا، هو أن يكون حبها لهم مساويا لحب أمهم، أو مقاربا له.
سأله (حسين) في حيرة:
- وأين ستجد زوجة كهذه؟
أجابه (عبد الحكيم في سرعة:
- لقد وجدتها بالفعل
تطلع إليه (حسين) في دهشة، فاستدرك فورا:
- إنها (شريفة):
- الأنسة (شريفة البنهاوي)..
وكانت مفاجأة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- مستحيل!!
هتفت بها (شريفة) في عنف، قبل أن تتفجر الدموع من عينيها، مستطردة:
- لن يمكنني أبدا أن أحتل مكان (توحيده).. لست أتصور نفسى أبدا في منزلها أو فراشها.. إنني مستعدة لرعاية أبنائها، حتى آخر نفس في صدري، ولكن دون أن أتزوج (عبد الحكيم).
قال (حسين) في صرامة:
- ولكنني أجدها فرصة مناسبة، وأنا شخصيا أوافق على زواجك.
تفجر غضب هادر في أعماقها، وكادت تصرخ في وجهه: الان يجدها فرصة مناسبة أن تتزوج زوج شقيقتها الراحلة! لماذا إذن رفض كل من تقدم لخطبتها من قبل؟!... لماذا رفض زواجها من (أمجد)، دون مبرر واضح؟! إنه المسئول عما آل إليه حالها وهي لن تسمح له بتدميرها.. أو بمعنى أدق، بتدمير ما تبقى منها..

واحتفظت (شريفة) بصرخاتها في أعماقها، وهي تجيب شقيقها في عصبية:
- فليكن يا (حسين).. وافق على زواجي من (عبد الحكيم)، ولكن عليك أن تعلم أنك بموافقتك هذه، لا تضع أمامي سوى حل واحد.
وصرخت في ثورة:
- أن أنتحر.
قالتها، وانهارت باكية في حرارة، على نحو أثار شفقته وإحساسه بالذنب في أعماقه، فصمت تماما، وهو يتطلع إليها مليا ثم قال:
= (عبد الحكيم) ليس متعجلا يا (شريفة).. لقد فاتحني في الأمر أمس، في أثناء عيد ميلاد (طارق)، وقال: إنه يعلم أن الأمر ليس سهلا، لذا فهو يمهلك كل ما تحتاجينه من الوقت للتفكير واتخاذ القرار.
ثم ربت على كتفها، مستطردا:
- خذي كل ما تريدينه من وقت يا (شريفة).. لن يتعجلك أحد.
لم تصدق نفسها، وهي تسمع كلماته الحانية الرقيقة، وتابعته ببصرها في دهشة، وهو ينطلق بسيارته عائدا إلى (القاهرة) ومسحت دموعها في حيرة، وهي تتمتم:
. عجبًا... أهذا هو (حسين)؟
هزت رأسها، وعانت أدراجها إلى الداخل، ولكنها سمعت خفير السراي، يهتف، وهو يهرول نحوها:
- (شريفة) هانم.. (شريفة) هانم

كانت تبغض هذا الخفير بالذات، لذا فقد أشاحت بوجهها عنه، فلحق بها وهو يلهث، قائلا:
سيدتي (شريفة).. أرجوك سامحيني.. أربع سنوات كاملة، وأنت ترفضين مجرد النظر إلى وجهي.. ما ذنبي يا سيدتي؟ كيف لي أن

أعلم أن ذلك الذي يعبر سور السراي هو خطيبك؟! لقد طلبت منه التوقف، ولكنه واصل الجري، فأطلقت عليه النار.
قالت له في حدة:
- ماذا تريد يا رجل؟ ك
اد الخفير يبكي، وهو يجيب:
- ضميري يؤنبني طوال أربع سنوات يا سيدتي، ولا أنام الليل قط، ولكن ما ذنبي؟ السيدة (فاطمة) أخبرتني أنها تلمح ظلا يحوم حول السراى، فـ..
اتسعت عينا (شريفة) من فرط الصدمة والذهول، والتفتت إليه صارخة:
- تقول من؟! من أخبرك بهذا؟ تراجع الرجل مذعورا، وأجاب مرتبكا:
- (فاطمة) هانم.. هي التي طلبت مني مراقبة الأسوار.
اشتعلت النيران في قلب (شريفة)، وصرخ الغضب في أعماقها..
إذن ف (فاطمة) هي التي فعلتها هي التي خططت لقتل (أمجد)..
لقد استدرجته إلى السراي، وجعلته يطمئن إليها وإلى موقفها المؤيد، ثم أرسلت الخفير خلفه، وشحنته بمخاوف زائفة، اعتصرت زناد بندقيته، وجعلته يطلق النار على (أمجد)..
وفي ثورة، اندفعت (شريفة) نحو المطبخ، وهي تصرخ:
- (فاطمة).. أيتها اللعينة الحقيرة. وانقضت عليها، لتنتزعها من مكانها، مستطردة:
- أنت قتلت (أمجد).. أنت السبب في مصرعه
صاحت بها (فاطمة)، وهي تتملص منها في عنف:
- ماذا تقولين أيتها المجنونة؟
انتزعت (شريفة) سكينا من المطبخ، صارخة:

- أنت فعلتها.. أنت قتلت (أمجد).. ستدفعين الثمن ستدفعينه من دمك.
كانت تهم بطعنها بالسكين، من فرط غضبها، ولكن (فاطمة) أمسكت معصمها في قوة، ولوته في عنف، فأسقطت السكين من يدها، ثم صفعتها في عنف، قائلة في غلظة صارمة خشنة:
- إياك أن تفعلى هذا؟ في المرة القادمة سأقتلك لو فعلت
ودفعتها في قسوة، فألقتها أرضا، وهي تستطرد:
- نعم.. أنا فعلتها.. أنا خططت لحرمانك من حبك.. أنا تعمدت أن يقتله الخفير.. ماذا يمكنك أن تفعلى؟ هل ستخبرين أخاك؟! هيا.. أخبرية، وسأشرح له كيف كنت تلتقين بـ (أمجد) هذا في الحديقة الخلفية، وكيف كنت تخططين لتمريغ شرف عائلة (البنهاوي) في الوحل، بالفرار معه، والزواج منه.
صرخت (شريفة):
- أيتها الحقيرة.. أيتها الملعونة!
مطت (فاطمة) شفتيها الغليظتين، ومسحت بيدها على شعرها الخشن، وهي تقول:
- حقيرة وملعونة، ولكنني لست ساذجة أو ضعيفة يا سيدة الدار.. أنا زوجة شقيقك، وأم الذكر الوحيد في العائلة كلها، الذي يحمل اللقب..
وبرقت عيناها في قوة، مع استطراداتها
- لقب (البنهاوي). قالتها، وكأنها تتحدى العالم كله، أو.
أو تقرأ لوح الغيب المسطور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

101- أيام الخطر..

استقبل (مراد صقر) (حسين) في مكتبه بنظرة غاضبة، وبادره بصوت ثائر، وهو يقول في حدة:

- من أبلغ الرئيس بأمر زواج المشير والفنانة (برلنتي)؟ عقد (حسين) حاجبية، وهو يقول:

- هل تشك في أنني فعلت هذا؟

أشار إليه (مراد) في غضب، صائحا:

- بل إنني أتهمك بهذا.

أثار الأسلوب حنق (حسين)، وجعله يقول في عصبية:

- إذن فمعلوماتك قاصرة للغاية يا سيادة المدير.. (برلنتي) نفسها أعلنت هذا، وطبعته على هيئة منشور، وزعته على المسئولين، لتعلن زواجها بالمشير،

ارتفع حاجبا (مراد) في دهشة، وهو يهتف

- مستحيل! ثم استعاد صرامته في سرعة، مستطردا:

- ولكنني واثق من أنك ذلك الشخص الذي أوصل المنشور للرئيس.

قال (حسين) في عصبية:

- وحتى لو كنت أنا من فعل هذا، فما المشكلة؟! هل حاول الرئيس منع المشير من العيش مع زوجته الجديدة؟ هل طلب منه أن يطلقها؟ إنه لم يحاول التدخل قط في حياته الشخصية، على الرغم من غضبه مما حدث؟

صاح به (مراد) مرة أخرى:

- آه.. هأنتذا تعترف بأنك ناقشت الأمر مع الرئيس .

قال (حسين) في صرامة:

- سل الرئيس نفسه

انعقد الغضب في وجه (مراد)، وتقافزت ثورة هائلة من عينيه، وهو يقول:
- لقد تجاوزت حدودك بالفعل يا (حسين).. صلتك المباشرة بالرئيس ملأت نفسك غرورا، وجعلتك تتصور أنك في مأمن، وأن أحدا لن يمكنه النيل منك قط.
أجابه (حسين) بابتسامة ساخرة:
- لكل شخص الحق في أن يحاول
قال (مراد) في غضب:
- هكذا؟! فلتعلم إذن أن الرئيس (جمال) ليس القوة الوحيدة، التي تحكم (مصر).. لقد أثرت غضب وسخط المشير، وهو لن يغفر لك هذا أبدا.
قال (حسين) في حدة:
- كم يدهشني موقفك هذا يا سيادة المدير.. بل كم يدهشني موقف المشير نفسه.. الموقف متوتر تماما على كل الجبهات، ونحن نطالب قوات الطوارئ الدولية بالانسحاب من (سيناء)، والرئيس يفكر في اتخاذ قرار بإغلاق (خليج العقبة)، في وجه الملاحة الإسرائيلية، وأنت لا تقلق نفسك إلا بأمر زواج المشير؟!
صاح به (مراد صقر) في غضب:
- حذار أن تتجاوز حدودك مرة أخرى
أجابه (حسين):
- فليكن.. لن أتجاوز حدودي مرة أخرى، لأنني لن أظل هنا.
قالها، واندفع يغادر مكتب (مراد صقر)، ويتجه إلى مكتبه، والتقى في طريقه بـ (إبراهيم مكى)، الذي سأله مبتسما:
- ماذا حدث؟ كلنا سمعنا صياحكما، أنت والمدير.. هل كنتما تتشاجران؟
أجابه (حسين)، وهو يدلف إلى مكتبه:

- دعك منه.. إنه يتحرش بي عمدا، ولكنني لا أخشاه، فسيادة الرئيس يشملني برعايته، ولن يمكنه المساس بى قط.
دخل (إبراهيم) المكتب بدوره، وجلس على أول مقعد صادفه، وهو يقول:
- حذار أن تعتمد على هذا، لا أحد يدري ما الذي يمكن أن يأتي به الغد؟
مط (حسين) شفتيه، وهو يجلس خلف مكتبه، قائلا:
- لم يعد بمقدوري الاحتمال.
قال (إبراهيم) في دهشة:
- ماذا أصابك.. إنك قوى الشكيمة في المعتاد.
زفر (حسين) في توتر، وهو يقول:
. لم أذق طعم النوم منذ ليلتين كاملتين، فلقد طلب سيادة الرئيس تقريرا مفصلا عن موقف رجالنا في (اليمن)، وعن الموقف على خط المواجهة مع الإسرائيليين، بالإضافة إلى كل ما وصلنا من معلومات، بعد الحديث عن انسحاب قوات الطواري، وإغلاق خليج (العقبة)، ويبدو أنه يستعد لخوض الحرب.
صمت (إبراهيم) لحظات مفكرا، ثم قال:
- لست أعتقد أننا مستعدون لخوض حرب مع الإسرائيليين الأن.
سأله (حسين) في دهشة:
- ولم لا؟! المفروض طبقا لما لدينا من معلومات، أن تسليحنا يقول تسليح الإسرائيليين.
هز (إبراهيم) رأسه، وقال:
- المسألة ليست مجرد تفوق في التسليح.. إنها تتجاوز هذا إلى التدريبات، والإعداد، والاستعداد النفسي للقتال، ولقد أهدرنا الكثير من جهدنا وقواتنا في حرب (اليمن)، وليس لدينا القادة المؤهلين لخوض المعركة.

ابتسم (حسين)، وهو يقول:
- قل هذا للرئيس (جمال)، فالمفروض أن يلتقي بالقادة غدا، ليشرح لهم الموقف السياسي والعسكري كله.
أومأ (إبراهيم) برأسه، قائلا:
- آه.. لهذا يريد التقارير والمعلومات.
تثاءب (حسين)، وهو يقول:
- ولهذا لم أذق طعم النوم.
تأمله (إبراهيم) لحظة في صمت، ثم سأله فجأة.
- كيف حال الأميرة (عايدة)؟
ابتسم (حسين)، وهو يقول:
- إنها تخاطبني هاتفيا باستمرار، وأعتقد أن العلاقة بيننا تتطور، من الحسن إلى الأحسن.
سأله (إبراهيم) في اهتمام
- ألم تقرر الزواج منها بعد؟
هز (حسين) رأسه نفيا، وهو يجيب:
- لا.. ليس بعد
كانا يتحدثان كما لو أنهما صديقان حميمان، لم يتربص أحدهما بالآخر، منذ سنوات قليلة مضت..
ربما لأن الظروف قد جمعتهما معا، ضد (مراد صقر)، ومجموعته المؤيدة للمشير (عبد الحكيم عامر)..
أو لأن كلا منهما قد أدرك مدى ما يتمتعان به من قوة، عندما يعملان جنبًا إلى جنب..
ولكن صداقتهما الجديدة هذه لم تكن خالصة..
كانت أشبه بتحالف ثعلبين، يتفقان على اقتحام حظيرة الدجاج، دون أن يغفل أحدهما عن الآخر لحظة واحدة.
علاقة بنيت على الحذر والتوجس وعدم الثقة.

إلا أن (ابراهيم) بالذات كان يتشبث بهذه الصداقة، ويسعى لتقويتها وتدعيمها...
ربما لأنه مازال يتبع نفس المبدأ القديم مبدأ الانحياز لصاحب الفرصة الأكبر.
أما (حسين)، فقد وجد أمر ارتباطه بـ (إبراهيم) هو أفضل وسيلة، لتفادي شرور وخداع هذا الأخير..
ليس لأن الصداقة ستمنعه من إيذاء (حسين)، ولكن لأنها ستجعلهما قريبين، إلى الحد الذي يتيح لـ (حسين) مراقبة كل خطوة يخطوها (إبراهيم)..
ومن منطلق التقارب الحذر، روى (حسين) لـ (إبراهيم) كل ما حدث بينه وبين (مراد)، فقال (إبراهيم) في قلق:
- عليك أن تحترس إذن، فـ (مراد صقر) ليس بالرجل الهين أو السهل.. إنه مزيج من الثعلب الماكر والذئب المفترس، وليس من الحكمة أن نقلل من قدره.
وجدت هذه الكلمات طريقها إلى قلب (حسين) وعقله، وبدأ شعور بالقلق والخوف يتصاعد في أعماقه..
لقد تحدى (مراد صقر) علانية، دون أن يضع في اعتباره ما يمكن أن يفعله هذا الأخير
والآن بدأ يشعر بأن بإمكان (مراد) أن يصنع الكثير
والكثير جدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- عمى (مفيد)...
ردد (طارق) الكلمة في حذر، فالتفت إليه (مفيد)، وابتسم حينما قرأ الخجل والارتباك في ملامحه، وسأله:

- ماذا تريد يا (طارق)؟
تردد (طارق) بضع لحظات، قبل أن يخفض عينيه في حياء، مغمغما:
- كنت أريد التحدث معك قليلا
وضع (مفيد) يده على كتفه، قائلا:
- كلى آذان مصغية.
ظل (طارق) على خجله بضع لحظات، فابتسم (مفيد) في حنان، ومال على أذنه، هامسا:
- أهو أمر يخص (نادرة)؟
تضاعف خجل (طارق)، وهو يومئ برأسه ايجابًا في صمت، فقال (مفيد) في جدية:
- لا يوجد ما يخجل في هذا الأمر، ما دامت عواطفك نحوها شريفة وجادة.
تنهد (طارق)، وقال:
- إنني أحبها للغاية يا عمي، وهي تحبني كذلك، وكل ما نتمناه هو أن نتزوج عندما نكبر.
ارتفع حاجبا (مفيد) في دهشة، وهو يستمع إلى هذا القول، الذي بدا له أكبر من عمر الصبي، ولكنه أبتسم قائلا:
- لو أنكما جادين في مشاعركما هذه، فما الذي يمنع زواجكما في المستقبل؟
تنهد (طارق)، وهز رأسه في أسي، وهو يقول: - للأسف يا عمي.. إننا نشعر أن هذا سيكون عسيرا للغاية.
سأله في دهشة:
- لماذا؟
أجابه في حزن لا يليق بعمره:

- كلنا نعلم أن أحدا في العائلة لا يحب أمي أو يميل إليها.. كلهم يكرهونها لسبب أجهله.. ألم تلاحظ أن عمتى (شريفة) تعاملها ببغض شديد، منذ عيد ميلادي الماضي؟! إنها تتحرش بها طوال الوقت، وتدخل معها في مشاجرات ومشاحنات عنيفة، وتعاملها دائما وكأنها خادمة، وليست فردا من أفراد الأسرة

انفطر قلب (مفيد) مع حديث الصبي، ووضع يده على كتفه قائلا:

- أنت واهم بالتأكيد يا (طارق)، فوالدتك بالفعل فرد من أفراد الأسرة.

سأله الصبي في حدة:

- لماذا إذن ترتدي ثيابا مزرية هي وأبي، في حين ترتدون جميعا أفضل الثياب؟! إنني أبغض ارتداء ما يحضره لي عمي (حسين) من ثياب أنيقة، لأن أبي وأمي لا يحصلان على مثلها.

ولم يجد (مفيد) ما يقوله (طارق)، ولكنه شعر في أعماقه أن الجيل الجديد من أحفاد (البنهاوي)، سيصنعون انقلابا في العائلة.. انقلابا عنيفا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مط (مراد صقر) شفتيه في شدة، وهو يجلس في مكتبه، بعد عودته من ذلك الاجتماع، الذي ضم الرئيس (جمال عبد الناصر)، مع كل قيادات الجيش، وأشار إلى (صلاح)، قائلا:

- من يتصور (جمال عبد الناصر) نفسه هذه المرة؟! أهو كاهن أم عراف يتنبأ بالمستقبل والغيب؟!

ضحك (صلاح)، وهو يقول:

- هل سمعته وهو يؤكد أن الإسرائيليين سيهاجموننا يوم الرابع أو الخامس من يونيو؟! لقد شرح الخطة كلها، وكأنه قرأها في اللوح

المسطور.. بل وحدد أنهم سيهاجمون ما بين السابعة والعاشرة صباحا، وسيبدؤون يضرب المطارات الحربية، وممرات الهبوط.
ثم قهقه ضاحكا، قبل أن يستطرد:
- يبدو أنه نسي تنبؤاته السابقة، أيام تأميم (قناة السويس)، عندما أكد أن البريطانيين والفرنسيين لن يحاولوا اللجوء إلى القوة العسكرية، حتى لا يتهمهم المجتمع الدولي بأنهم مستمرون في سياستهم الاستعمارية.
هز (مراد صقر) رأسه في أسف، قائلا:
- وكل تنبؤاته كانت فاشلة حينذاك، وعلى الرغم من هذا، فقد انتصر في معركته السياسية، بعد خسارته المعركة العسكرية، ولولا تدخل الأمريكيين والسوفييت، وتوجيهها للإنذارين التاريخيين، لكانت هزيمة منكرة.
سأله (صلاح) في اهتمام:
- هل تعتقد أن أحدا من القادة سيصدق تنبؤاته هذه المرة؟
هز (مراد) رأسه نفيا، وأجاب في وقار:
- مطلقا.. لقد تعلموا الدرس من المرة السابقة
ثم أشار بيده، مستطردا:
- ولكن دعنا من الرئيس وتنبؤاته، وأخبرني.. ماذا فعلت بشأن (حسين البنهاوي)؟
هز (صلاح) رأسه قائلا:
- إنه حريص للغاية، وعلاقته المباشرة بالرئيس تحميه من الوقوع في أي مأزق عادى.
قال (مراد) في عصبية:
- ماذا تعني؟ ألا توجد وسيلة للتخلص منه إذن؟
أطل المكر من عيني (صلاح)، وهو يقول:
- بل توجد وسيلة واحدة

ثم مال نحو رئيسه، مستطردا، بلهجة ذات مغزى خاص:
- واحدة فقط.
تراجع (مراد صقر) بمقعده، وانعقد حاجباه في شدة، وهو يشبك أصابع كفيه أمام وجهه، ويفكر في عمق، ثم لم يلبث أن سأل:
- ومن سيقوم بالتنفيذ؟
ابتسم (صلاح)، وهو يعتدل قائلا:
- كل ما عليك هو أن تأمر يا (مراد) بك؟
ازداد انعقاد حاجبى (مراد) لحظات، ثم قال في حزم:
- فليكن.. أتخذ ما يلزم يا (صلاح)، وعندما أذهب لقضاء الصيف في (المعمورة)، في يوليو القادم، لا أحب أن يكون هناك وجود لمن يحمل اسم (حسين البنهاوي)..
وهكذا صدر الحكم
حكم الإعدام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استنشق (حسين) هواء الصباح النقي، وهو يقف في شرفة شقته المطلة على النيل، في (جاردن سيتي)، وارتشف رشفة من قدح الشاي الدافئ، وراح عقله يسبح مع عشرات الأفكار والمشكلات، التي لا تفارقه قط.

كانت كلمات (إبراهيم) تقلقه كثيرا، وتجعله يشعر بأن (مراد صقر) يتربص به، وأنه ينتظر الفرصة المناسبة، ليطيح به من

مكانه، ويسحقه سحقا.
وهذا يعني أن عليه أن ينتبه دائما
وألا يغمض عينيه أبدا
-سيدى.. السيدة وصلت...
انتزعته عبارة خادمه من شروده، وأدهشه أنه لم ينتبه إلى رنين جرس الباب، فالتفت إليه يسأله:
- أية سيدة؟
فاجأه صوت (عايدة)، وهي تقول للخادم مبتسمة:
- قل: سمو الأميرة أيها الوقح
لا يمكنه أن ينكر أن رؤيتها أسعدته كثيرا، حتى أنه هتف متهللا
- (عايدة).. مستحيل!
ألقت نفسها بين ذراعيه دون مقدمات، وطبعت قبلة على خده وهي تقول:
. (نابليون) قال:
- في قاموسى لا توجد كلمة مستحيل..... لقد أوحشتني كثيرا، ولم أعد أحتمل فراقك، فتركت (باريس) كلها، وأتيت إليك مباشرة.
ملأ عينيه بوجهها الفاتن، وهو يقول:
- ولكنها مجازفة كبيرة، فلو علم الإسرائيليون أنك أتيت إلى هنا، سيتأكدون من أنك قد خدعتهم، و.
وضعت أصابعها على شفتيه، لتمنعه من الاستطراد، وهي تهمس:
- أطمئن.. لقد استخدمت نفوذ (جان)، واستخرجت جواز سفر زائفا، ودرت حول نصف الأرض، قبل أن آتي إلى هنا.. من (باريس) إلى (جنيف)، ومنها إلى (روما)، ثم إلى (مصر). كل هذا بشعر مستعار وثياب لا تناسب أميرة.
ابتسم وهو يلقي نظرة على ثوبها الفاخر، قائلا:
- ولكنك تبدين في خير حال.

ضحكت قائلة:
- لقد أبلت ثيابي في الفندق بالطبع.
ران عليهما الصمت لحظات، وكل منهما يتطلع إلى الآخر، قبل أن يقول (حسين) بابتسامة كبيرة:
- أوحشتني حقا يا (عايدة).. لقد تضاعف جمالك، خلال السنوات الأربع الماضية.
ضربت صدره بقبضتها في دلال، قائلة:
- لو أن هذا صحيح، لبذلت شيئا من الجهد لرؤيتي، كما فعلت أنا.
هز كتفيه، وقال:
- لست مجنونا مثلك
هتفت ضاحكة:
- أيها الوقح، ما كان ينبغي أن أفعل هذا
قال في سعادة حقيقية:
- بل أحسنت فعلا.
لم يكد ينطقها، حتى ارتفع رنين الهاتف، فأسرع الخادم يجيب ثم قال:
- إنه (إبراهيم) بك يا سيدى
مط (حسين) شفتيه، وابتسم قائلا
- معذرة.. لا يمكن تجاهل مكالمة كهذه.
سألته في دهشة: - أهو (إبراهيم مكى)؟
أومأ برأسه إيجابا، وهو يتجه نحو الهاتف، فقالت مستنكرة:
- كيف يمكنك أن تتعامل معه، بعد كل صراعاتكما السابقة؟
التقط الهاتف وهو يجيبها:
- عملنا لا يعرف الأحقاد الشخصية
مطت شفتيها بعدم اقتناع، في حين وضع هو الهاتف على أذنه قائلا:

- أنا (حسين) يا (إبراهيم)، تري ما الـ...
قاطعه صوت (إبراهيم)، بكل ما يحمله من لهفة وتوتر، وهو يهتف:
- لقد تحقق ما ذكره الرئيس بالضبط يا (حسين).. الإسرائيليون هاجموا كل مطاراتنا.
وانتفض جسد (حسين) في عنف.. لقد كانت هذه الأنباء مفجعة
بل كانت كارثة
كارثة في تاريخ (مصر)
بأكمله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

102- النكسة..

لا أحد كان يتوقع ما حدث أبدا..

خطب الرئيس القوية الواثقة، كانت تمنح الشعب كله انطباعا بأننا أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط، وأننا، مع أول مواجهة عسكرية، سنلقي (إسرائيل)، ومن وراء (إسرائيل) في البحر.

وعندما بدأت الحرب، في صباح الخامس من يونيو، عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين، راحت وسائل الإعلام تطلق البيانات الحماسية، وتعلن أننا نسقط الطائرات كالذباب، حتى بلغ عدد ما أسقطته البيانات مائة طائرة..

وشمل الحماس الشعب كله، وتصور الجميع أن جيشنا صار قاب قوسين أو أدنى من (تل أبيب)

وفي القرية، راح شيخ الخفراء (بسيوني) يرقص طربا، وهو يهتف:

- انتصرنا.. انتصرنا على الإسرائيليين أخيرا.

ولكن أحد الجالسين على مقهى (جودة)، قال في قلق:

- ولكن الإذاعة الإسرائيلية تؤكد العكس تماما، وتقول: إن مطاراتنا الحربية كلها لم تعد صالحة للاستعمال، وإن أكثر من نصف طائراتنا المقاتلة تم تدميرها على الأرض، وأننا ننسحب من (سيناء) بشكل عشوائي.

رمقه الحاضرون بنظرة غضبا، وصاح به أحدهم:

- هل جننت يا رجل؟ أتعترف علانية بأنك تستمع إلى الإذاعة الإسرائيلية؟!

ثم من ينبغي أن تصدق؟ إذاعتنا أم إذاعتهم شحب وجه الرجل، وهو يقول مدافعا عن نفسه:

- إذاعتنا بالطبع.. لقد استمعت إلى إذاعتهم مصادفة، وأنا أدير مؤشر الراديو.
كان الحماس هو الشعور الغالب على الجميع، وخاصة مع مانشيتات الصحف، يوم السادس والسابع والثامن من يونيو، والتي أشارت إلى فداحة خسائر العدو، وإلى معارك الدبابات والمدرعات العنيفة، التي تدور في قلب (سيناء)، و.
ولم يكن من الممكن أن يستمر الزيف طويلا..
لقد انهارت الأقنعة كلها، وانكشف المستور، وعرف الشعب كله أننا انهزمنا هزيمة منكرة، وأن جيشنا قد اندحر عن آخره، في قلب (سيناء).
وكانت الصدمة قاسية وعنيفة..
وانهار (مفيد) باكيا في مرارة، وهو يعض شفتيه قهرا وغيظا فمصصت (فاطمة) شفتيها، وقالت:
- عشنا ورأينا الرجال يبكون هكذا
صاحت بها (شريفة) في غضب:
- ألا يمكنك تقدير الموقف أبدا.. (مصر) انهزمت أمام (إسرائيل).. ألا يكفي هذا سببًا للبكاء؟
أجابتها (فاطمة) في خشونة:
- بل يكفي لأن نتماسك، ونحاول لم شملنا، واستعادة قوتنا، لنهزمها في المعركة القادمة، ولو أننا استهلكنا قوتنا في البكاء فلن تقوم لنا قائمة بعد الآن.
اخترقت كلماتها قلب (مفيد) كخنجر مسموم، وانفجرت في عقله كألف قنبلة.
من أين أتت (فاطمة) بكل هذه الحكمة؟ كيف توصل عقلها البسيط إلى هذا القول؟ إنها على حق تماما الموقف لم يعد يصلح لهذا البكاء لن يعيد الشهداء، ولن يوقف الدماء المسفوكة

وفي حسم، مسح دموعه، قائلا في مرارة:
- (مصر) انهزمت يا (فاطمة) مطت شفتيها الغليظتين، قائلة: - أمر طبيعى، مادام كل قادتها من طراز شقيقك (حسين) بك.
صاحت بها (شريفة)
- ماذا تقصدين أيتها الحقيرة؟
لوحت (فاطمة) بكفها، قائلة في سخط
- لست أقصد شيئا.. سأعود إلى حجرتى.. هيا يا (طارق).
تردد (طارق) لحظة، ثم ربت على كتف (مفيد)، قائلا:
- اطمئن يا عمي.. لو أن (إسرائيل) هزمتنا اليوم، فسنسعى لنهزمها نحن غدا.. الدنيا لا تدوم لأحد.
ثم اندفع للحاق بأمه في حجرتها الوحيدة، تاركا (مفيد) خلفه، يتابعه في صمت، وهو يقول لنفسه في أعماقه:
- صدقت يا (طارق).. الدنيا لا تدوم لأحد.. لا تدوم أبدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- الرئيس أعلن تنحيه عن الحكم...
شحب وجه (حسين) في شدة، عندما ألقي (إبراهيم) هذه العبارة، وانهار على أقرب مقعد إليه، قائلا في ارتياع:
- يتنحى؟! مستحيل!
أجابه (إبراهيم) في توتر واضح:
- ولكنه أقدم على هذا بالفعل.. لقد أعلن تنحيه عن الحكم، وتولية (زكريا محيي الدين) بدلا منه.
اتسعت عينا (حسين) في دهشة، وهو يهتف:
- (زكريا محيي الدين).. هل تدرك ما يعنيه هذا؟
أومأ (ابراهيم) برأسه إيجابا، وقال:

- بالطبع.. إنها رسالة موجهة إلى السوفييت والأمريكيين فالجميع يعرفون ميل (زكريا) للأمريكيين، والرئيس يريد أن يعلن أن السير في ركب السوفييت قد أدى إلى الهزيمة، وأنه مستعد للتنحي، ووضع شخص أمريكي النزعة بدلا منه

قال (حسين):

- بل إنه ينتقي الشخص المتناقض معه تماما، وكأنه يضع الشعب كله أمام خيار عسير، ومفاضلة لن تأتي حتما في صالح (زكريا).

انعقد حاجبا (إبراهيم) في شدة، وهو يقول:

- هل تريد رأيي يا (حسين)؟ إنني أعتقد أن الرئيس لا ينوي التنحي بالفعل، وأن كل هذا مجرد مناورة مدروسة.

سأله (حسين) في دهشة:

- ولماذا يلجأ الرئيس إلى هذا؟

أشار بيده، قائلا:

- إنه يدرك تعلق الشعب الشديد به، ويعلم أن (مصر) كلها لن تحتمل فكرة تنحيه عن الحكم، في مثل هذه الظروف، وأراهنك على أن شعبيته ستتضاعف في الأيام القادمة، على الرغم من الهزيمة.

بدت الحيرة على وجه (حسين)، وهو يقول في عصبية:

- حديثك يبدو كالألغاز اليوم يا (إبراهيم)

ارتسمت على شفتي (إبراهيم) ابتسامة خبيثة، وهو يقول:

- غدا ستدرك ما كنت أقصده.

لم يكد يتم عبارته، حتى اقتحم (مراد صقر) الحجرة، وتألقت عيناه في شماتة، وهو يقول لـ (حسين):

- هل سمعت آخر الأخبار؟

لاذ (حسين) بالصمت التام، وهو يتطلع إليه متوترا، فتابع:

- الرئيس (جمال) تنحى، وما هو إلا يوم أو يومان، وتتغير أمور كثيرة في (مصر)، وعندئذ..
لم يتم عبارته، ولكن بريق عينيه، وتلك الابتسامة الشرسة الشامية على شفتيه، أعلنا ما يقصده بالضبط..
وانتفض قلب (حسين) في ارتياع. لقد فهم ما يعنيه (مراد صقر) بالضبط لقد فقد مصدر قوته، ولم يعد هناك من يحميه من مخالب أعدائه ولا أحد يدري ما الذي سيأتي به الغد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(مصر) كلها خرجت تهتف بحياة الزعيم (جمال عبد الناصر)، وتنادى ببقائه في الحكم، على الرغم من الهزيمة الرهيبة، التي لحقت بجيشنا كله..
وفي التاسع والعاشر من يونيو، أعلن الشعب كله تمسكه بقيادته، وإصراره على تحدي الهزيمة، ومواصلة المسيرة مع الرئيس (جمال).
ثم أعلن الرئيس تراجعه عن قرار التنحي.
وعلى شاشات التليفزيون، رأت (مصر) كلها أحد نواب مجلس الأمة، وهو يرقص طربا، مع عودة الرئيس..
ولم يعد (مفيد) يفهم كيف تسير الأمور..
شعب انهزم شر هزيمة، واندحر أسوأ اندحار، ولكنه يتمسك بقادة الهزيمة في استماتة، ويرقص طربا لبقائهم في الحكم.
أما (طارق)، فقد تهللت أساريره، وراح يهتف في سعادة: - بابا (جمال) لن يترك الحكم يا عمى
تنهد (مفيد)، وقال:

- هذا صحيح يا (طارق)، وأعتقد أن (مصر) هي الدولة الوحيدة، في العالم أجمع، التي يمكن أن يحدث فيها هذا.
هتفت (فاطمة)
- وهل يمكننا العيش دون الرئيس (جمال عبد الناصر)؟ ابتسم (مفيد) في مرارة، وقال:
- القبور مليئة بأولئك، الذين ظنوا أن الحياة لن تسير بدونهم
ارتسمت الحيرة على وجهها، وهي تقول في دهشة
- وما الذي يعنيه هذا؟
أجابتها (شريفة) في مقت:
- الجهلاء أمثالك لا يمكنهم فهم أي شيء
قالت (فاطمة) في غضب:
- منك نستفيد يا أستاذة الأساتذة صرخت (شريفة)، وهي تشير إلى (حافظ):
- هل ستتركها تفعل بي هذا يا (حافظ)؟
خفض (حافظ) عينيه، ولاذ بالصمت في انكسار، فصاحت (شريفة):
آه.. كيف نسيت هذا.. إنك مجرد ظل رجل.
قالت (فاطمة) في حدة خشنة:
- بل هو رجل وسيد الرجال أيضا، ولكن كيف أشرح هذا لمن تجهل معنى الزواج. صرخت (شريفة):
- ماذا تقولين أيتها الحقيرة؟
لم يحتمل (مفيد) هذا التشاحن المتواصل، في مثل هذه الظروف، فتسلل خارجا، وترك قدميه تحملانه إلى حيث تشاء، وهو يحاول مقاومة تلك الغصة في حلقة.
إذن فقد انهزمت (مصر)..

(مصر) التي يعشقها حتى النخاع، خسرت خير شبابها في حرب سريعة، إن دلت على شيء، فإنما تدل على استهتار وفساد القائمين على الحكم..
ولكن من يفهم هذا؟ (فاطمة) وحدها لمست لب الحقيقة بفطرتها وبساطتها.. (فاطمة) وحدها عرفت أسباب الهزيمة.
كان يسير على غير هدى، عندما وجد نفسه أمام مقهى (جودة)، الذي استقبله بابتسامة واسعة، وهو يهتف في حماس:
- (مفيد) بك، زميل الكفاح.. أهلا.. أهلا.. شرفت المقهى يا زينة شباب القرية.. تفضل.. تفضل
جلس (مفيد) عند مائدة خالية، وسأله في خفوت:
- هل عدت لمزاولة نشاطك يا (جودة)؟
فرك (جوده) كفيه، وهو يقول: - بالطبع يا (مفيد) بك.. عمر الشقي بقي.
ازدرد (مفيد) لعابه، وهو يسأله:
- كل نشاطك..
فهم (جودة) مغزى السؤال على الفور، فابتسم في خبث وانحنى يهمس:
- أنا رهن إشارتك يا (مفيد) بك.. هل أتحفك بتحفة جديدة؟ ابتسم (مفيد) في توتر، وهو يسأله:
- ماذا أطلقتم عليها هذه المرة؟
قهقه (جودة) ضاحكا، وناوله قطعة من المخدرات، داخل ورقة سيلوفان رقيقة، وهو يغمز بعينه، قائلا:
- النكسة.
تطلع (مفيد) إلى قطعة المخدر في يد (جودة)، ودار في عقله صراع عنيف..
صراع يحتاج إلى قرار ..

قرار قد يؤثر على مصيره إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توتر (مراد صقر) في عصبية شديدة، وهو يتطلع إلى (حسين)، الذي دلف إلى مكتبه بابتسامة شامتة متشفية، ووقف صامتا، ينظر إليه بنظرة ظافرة، جعلته يقول في حدة:

- كنت أنتظرك

ابتسم (حسين) في سخرية، قائلا

- أعلم هذا

لملم (مراد) بعض الأوراق من فوق مكتبه، ولكن (حسين) أشار إليه، قائلا:

- الأوامر تحتم ترك كل شيء في مكانه.

مط (مراد) شفتيه، واعتدل في عصبية، وعقد كفيه خلف ظهره، وهو يسأل:

- هل تحوي القائمة اسمي وحدي، أم أنها تتضمن (صلاح) و (إبراهيم) أيضا؟

أجابه (حسين):

- إنها تحوي أسماء عديدة، ولكن ليس من بينها (صلاح) أو (إبراهيم).. وبالمناسبة.. (صلاح) أخبرني عن حكم كنت قد أصدرته ضدى، وطلبت منه تنفيذه.

انعقد حاجبا (مراد صقر)، وهو يقول:

- أمر طبيعى، فالفئران أول من يغادر السفينة قبل غرقها.

لم يحاول (حسين) إخفاء شماتته، وهو يجذبه من ذراعه قائلا:

- هذا صحيح، ولكن القطط هي التي تدفع الثمن.

رمقه (مراد) بنظرة غاضبة، تفيض بالمقت والكراهية، وهو يقول:
- الدنيا لا تدوم لأحد يا (حسين) بك..
وغدا ستعلم أنني على حق..
غدا قد تتبدل الأمور، واتي أنا لاعتقالك.
دفعه (حسين) أمامه في قسوة متعمدة، وهو يقول:
- فليكن.. دعنا ننتظر حتى يأتي هذا الغد.
وكان يشعر لحظتها بالظفر والقوة..
كل القوة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- إذن فقد انتحر المشير!
قالتها (عايدة) في دهشة، وهي تجلس مع (حسين) في شرفة منزله، حول مائدة صغيرة، يتوسطها شمعدان أنيق، وتتناول معه طعام العشاء، تحت أضواء (القاهرة) ونيلها الساحر، فابتسم (حسين)، وهو يقول:
- كان هذا أفضل ما يفعله، في مثل هذه الظروف، فالرئيس (جمال) طبق سياسة الاستفادة من الكوارث بأذكى ما يمكن، حتى أنني أشهد له بالعبقرية المطلقة.. لقد انهزم الجيش في المعركة، وخرج الشعب كله يؤيد الرئيس، وكان هذا المد الشعبي هو المفجر، الذي كان ينتظره، لانتزاع السلاح الذي يمنح المشير القوة، واعتقال كل معارضيه.. ولم يكن من السهل أن يتقبل المشير هذا الموقف ولقد قاتل وثار، وأحاط نفسه بعدد من مؤيديه ورجال قريته، ولكن هيهات.. لقد حطمت الهزيمة قوة هؤلاء الرجال تماما، وضاعفت من قوة الرئيس (جمال)، مما ساعده على

السيطرة على الموقف كله، وإحكام قبضته على الجيش والشعب في آن واحد، ولم يعد أمام المشير إلا أن يتعرض للمحاكمة والإدانة، أو أن ينتحر، ويفر من الموقف كله.
هزت رأسها في حيرة، قائلة:
- لن أفهم دهاليز السياسة قط.. وخاصة في (مصر).
ضحك قائلا:
- لا تحاولي فهمها.. يكفيك جنونك الطبيعي.
هتفت في مرح:
- يا لوقاحتك! ثم مالت نحوه، تسأله في فضول
- ولكن ماذا عنك؟ ألم تستفد من الكارثة بدورك؟
انتفخت أوداجه زهوا، وهو يقول:
- ماذا تسمين ما حدث إذن؟ لقد حصلت على ترقية استثنائية، وأصبحت مدير شئون رئاسة الجمهورية، وتخلصت من (مراد صقر)، ومن شقيق (فؤاد)، ومصنع النسيج، الذي أمتلك ثلثه، حصل على حق إمداد الجيش بالقماش اللازم لصنع الخيام.. ماذا تريدين أفضل من هذا؟
ابتسمت قائلة:
- وماذا عن عائلة (البنهاوي)؟ هز كتفيه، قائلا:
. أعتقد أن كل شيء سيسير على ما يرام، فـ (مفيد) لم يعد يناقش السياسات وعواقبها، و (فؤاد) لن يجرؤ على الإساءة لـ (ناهد)، و(شريفة) لم تعد تعارض في شدة أمر زواجها من (عبد الحكيم)، وأعتقد أنها بدأت تعيد دراسة الموقف.. باختصار، لم يعد هناك ما يمكن أن يقلقني.
ثم تطلع إليها مبتسما، قبل أن يستطرد:
- وهل تعلمين؟ إنني أفكر في دعوتك لحضور حفل عيد ميلاد (طارق) القادم، حتى تتعرفي أفراد الأسرة مباشرة.

هزت كتفيها، وهي تقول في دلال:
- وبأية صفة ستقدمني لهم؟
فهم ما ترمي إليه، فضحك ضحكة طويلة، وقال:
- دعينا نترك هذا لوقته..
وكانت المفارقة عجيبة بالفعل،
تحت أضواء (القاهرة)..
(مصر) انهزمت هزيمة منكرة، و (حسين البنهاوي) انتصر انتصارا ساحقا
(مصر) ذاقت مرارة الهوان، وهو يلعق عسل النصر
ولكن من يدري ما الذي يمكن أن تأتي به الأيام القادمة؟!
من يدري؟

[نهاية الجزء الثالث]

أرزاق

الجزء الرابع

د. نبيل فاروق

من قلب الليل يأتي النهار.. ومن قلب الظلم تأتي الرحمة.. ومن المحال أن نأمل دوام الحال..

د. نبيل فاروق

103 الوداع..

- الوداع يا (جمال)، يا حبيب الملايين... الوداع ..

هكذا بدأت تلك الأغنية التلقائية، التي رددتها الملايين، في ذلك اليوم الذي لم تشهد (مصر) مثيلا له، في تاريخها كله..

يوم جنازة الزعيم

جنازة (جمال عبد الناصر)...

خبر الوفاة المفاجئة، الذي أعلنه (أنور السادات)، وهو يطل على الشاشات في هيئة مزرية، كان صدمة عنيفة، ليس للمصريين وحدهم، ولكن لكل دول الأرض تقريبا..

كان (جمال) قد انتهى من توديع آخر الملوك العرب، بعد مؤتمر قمة طارئ؛ لإيقاف نزيف الدم الفلسطيني في (الأردن)، عندما شعر بآلام في صدره.

وما هي إلا ساعات، حتى كان زعيم الزعماء الذي هز أركان العالم بخطبه ومواقفه، قد انضم إلى الطابور، الذي ينضم إليه حتما كل بشري في النهاية.

طابور الموت

وغرقت (مصر) في بحر من الدموع

الصرخات الملتاعة بلغت عنان السماء

أو تجاوزته...

ثم توالت ردود الأفعال..

كل من اتفق، أو حتى اختلف مع (ناصر) نعاه في حرارة مخلصة.

حتى (إسرائيل) نفسها..

الرؤساء والملوك توافدوا على (مصر)، من كل أنحاء العالم؛ للمشاركة في الجنازة، التي شيعها ملايين البشر، في مشهد لم تشهده جنازة واحدة. في التاريخ كله..

وفي تلقائية، راح الكل ينشدون أغنية الوداع..
حتى أولئك، الذين يتابعون المشهد على شاشات التلفاز، انهمرت دموعهم غزيرة، وتحركت شفاههم بكلمات الأغنية..
كل من يتفق أو يختلف مع سياسة (ناصر) وأسلوبه، لم يجرؤ على المساس بأهم أمرين في حياته..
وطنيته ونزاهته...
وفي سراى (البنهاوي)، حيث اجتمعت العائلة كلها، حتى (عبد الحكيم)، زوج الراحلة (توحيده)، ران صمت تام حزين، والكل يطالعون شاشة التلفاز، الذي احتل مكانا خاصا، في قاعة اجتماعات العائلة.
(نعيمة) و (ناهد) و (شريفة) و (فاطمة) انهمكن في بكاء حار، ورفت وجوههن بدموعهن، في حين بدا (عبد الحكيم) حزينا في عمق و (فؤاد) زوج (ناهد) عصبيا متوترا، في حين غاب زوج (نعيمة) عن المشهد كعادته، واختفى (حافظ) في حجرته، وكأنه يخشى مواجهة فكرة الموت، التي مازالت تذكره بوالده (محمد البنهاوي)، الذي فقدته عائلة (البنهاوي) منذ أعوام طوال.
(طارق)، والذي اقترب من إتمام عامه السادس عشر، انحدرت الدموع من عينيه في صمت، وهو يتابع الجنازة، أما عمه (مفيد) فقد كان الوحيد، الذي لم يحمل وجهه أية انفعالات، في تلك اللحظات التاريخية..
المتأمل لملامحه لم يكن ليتصور أبدا إنه يتأمل ملامح بشرى... بل ملامح تمثال
تمثال من شمع جاف، لم يضف إليه المثّال لمحة إنسانية واحدة. حتى عيناه فقدتا بريقهما القديم.
وعلى الرغم من بكاء (طارق) إلى جواره، اكتفى هو بالتحديق في الشاشة، وذهنه يسبح في بحر آخر تماما بحر الذكريات..

ذهنه الشارد كان يسترجع أحداثا، قد لا ينتمي معظمها إلى ما تعرضه الشاشة..
أو حتى إلى اللحظة التاريخية.
كان يسترجع تاريخ عائلة (البنهاوي) تقريبًا...
يسترجع ما سمعه من والده الراحل، عن كفاحه الطويل، منذ أتى من قريته، التابعة لمركز (بنها)، إلى تلك القرية، التابعة لمركز (طنطا)..
كان فقيرا معدوما، ولكنه يمتلئ بالأمل والطموح..
ولأنه أتي من (بنها)، أطلقوا عليه في القرية اسم (البنهاوي)، الذي حملته الأسرة، حتى ذلك اليوم.
كافح وتعب وعمل، حتى امتلك قيراطين، سمحا له بالزواج من ابنة الحاج (علام) شيخ القرية؛ لينجب منها عائلة (البنهاوي)، التي منحته الفخر والعزوة، إلى جانب الثراء، الذي كان يهبط عليه، مع كل مولود جديد، وكأن كل مولود يأتي برزقه معه كما يقولون.
(نعيمة)، ثم (توحيده)، و (زينب)... ثم أتي (حسين)، أول الذكور، وفاتحة الخير على (البنهاوي)...
بعده جاءت (شريفة)، ثم (حافظ)، و (ناهد)، قبل أن يختم ذريته بآخر العنقود (مفيد)، الذي كان آخر هبة حياة تخرج من زوجة (البنهاوي)، قبل أن تفارق الحياة، وتترك (محمد البنهاوي) وقد بلغت أرضه ألف فدان، وبلغت عزوته ثمانية أبناء، خمسة إناث، وثلاثة ذكور..
سراى (البنهاوي) صار أكبر وأفخم سراى في الناحية وأبناء (البنهاوي) صاروا زهرة شباب القرية..
- ألن يأتي (حسين) بك؟!.
ألقي (عبد الحكيم) السؤال في حذر، فغمغم (فؤاد) في مقت لم يستطع، أو يحاول إخفاءه:

- في مثل هذه الظروف؟!... مستحيل طبقا... لا ريب في أنه منشغل للغاية في إجراء حساباته.
غمغمت (شريفة) مستنكرة، من وسط دموعها:
- حساباته؟!
أشار إلى شاشة التلفاز، قائلا في صوت، برزت فيه شماتته:
- ألا تدركون أن ذلك، الذي تتابعون جنازته، كان الراعي الرسمي له؟ اعتدل (طارق)، وهو يتساءل في حيرة:
- وهل يصنع هذا فارقا يا عماه؟؟
لوح بذراعه، مجيبًا:
- بالتأكيد
هز (عبد الحكيم) رأسه، قائلا:
- لست أظن هذا رأى الجميع، وإلا كان (عمر) هنا معنا الآن.
امتقع وجه (نعيمة)، وارتبكت (شريفة)، وسرعان ما انتقل ارتباكها إلى (عبد الحكيم) نفسه، فانكمش في مقعده، في توتر شديد، فالكل كان يعلم أن (عمر) زوج (نعيمة)، لن يطأ أرض السراى، ما دام (حسين) يتمتع بمنصبه ونفوذه...
هذا لأنه لا ينسى ما حدث، عقب وفاة الحاج (محمد البنهاوي)، عندما فوجئ الجميع بأنه قد كتب أرضه كلها، وحتى سراى العائلة باسم (حسين) وحده، على أن يتولى توزيع الأنصبة الشرعية على الجميع بالعدل.
أيامها ثار (عمر)، وطلب الحصول على الميراث الشرعي لزوجته. وكانت النتيجة كالكابوس..
(رفعت كساب)، عضو مجلس قيادة الثورة جامل (حسين)، وألقى القبض على (عمر)، بتهمة محاولة قلب نظام الحكم، وتم ضربه وتعذيبه وإهانته وحبسه؛ لإجباره على التنازل عن قضية رفعها؛ للحصول على الميراث.

وتنازل (عمر) مكرها
وكره (حسين)... و (نعيمة)..
ولأنه لم يستطع لمسها، بعد أن صارت تذكرة بشقيقها، وبكل ما ناله من عذاب ومهانة على يديه، تزوج (عمر) من (فاتن) ابنة عمدة القرية المجاورة.
وعلم (حسين)، ورأى في ذلك تحد لسلطته وسطوته، فأجبره على طلاق (فاتن)، على الرغم من حملها
وكره (عمر) (حسين) أكثر وأكثر، وكره (نعيمة) أكثر وأكثر وأكثر، وأقسم ألا يطأ السراى بقدميه مرة أخرى، و.
- أين (حافظ) يا (فاطمة)؟!....
ألقي (عبد الحكيم) السؤال؛ في محاولة لترطيب الأجواء، ومحو ما تركته كلماته السابقة من أثر سيئ، فغمغمت (فاطمة) بصوتها الخشن وأسلوبها الفظ:
- يختفي في حجرته كالمعتاد.
ابتسم (فؤاد) في سخرية، فرمقته (ناهد) بنظرة قاسية، جعلته يغمغم مشيحا بوجهه:
- اتركيه براحته.
واصلت (ناهد) نظرتها القاسية له، وهي تختلس النظر إلى (فاطمة)؛ في محاولة لرصد رد فعلها..
إنها لم تنس أبدا كيف انهار (حافظ)، وبلغ درجة أشبه بالاختلال، عقب وفاة والده، مما دفعهم إلى فكرة جنونية، بعد عجزهم عن رعايته طوال الوقت
(فاطمة)، ابنة (عبد الحميد)، كلاف مواشي الأسرة، والتي كانت أكثر من تعتني بـ (حافظ)، وأكثر من يرتاح (حافظ) لها، زوجوه إياها؛ حتى تصبح خادمة دائمة بلا أجر.
ولكن (فاطمة) لم ترض أبدا بهذا.

لقد. شعرت بالمهانة، عندما ظلت الأسرة تعاملها كخادمة، حتى بعد زواجها الرسمي من (حافظ)...
ولكن سرعان ما حملت حصانة خاصة في أحشائها.... أول حفيد ذكر، يحمل لقب (البنهاوي)...
- (طارق)...
قالها (مفيد) في جمود، فالتفت إليه (طارق) في اهتمام، وهو يمسح دموعه قائلا:
- أمرك يا عماه.
بنفس الجمود، سأله (مفيد):
- هل حضر (جودة) اليوم؟!
على الرغم من الجمود، الذي نطقها به، فجرت عبارته قنبلة من المشاعر والانفعالات في المكان.
(عبد الحكيم) حدق فيه في دهشة، و (فؤاد) تراجع منزعجا، في حين لطمت (نعيمة) صدرها براحتها، وهتفت (شريفة) في مرارة:
- يلعن (جودة)، وأبو (جودة)، وعائلة (جودة) كلها.... لقد كنت زينة شباب القرية يا (مفيد)... ماذا أصابك على يد ذلك المجرم الفاسق؟!
لم يبد (مفيد) أي انفعال، وهو يستمع لما تقول.. بل ولم يلتفت حتى إليها.
لقد ظل جامدا ضائعا، وكأنما خدرت، سموم (جودة) حواسه، فلم تعد تتجاوب مع ما يحيط بها.
كل ما استوعبته حواسه، هو أنهم يتحدثون عن (جودة)، صاحب المقهى في مدخل القرية، والذي اشتهر بتوزيع السموم على شبابها..
(جودة) الذي أعطاه أول سيجارة مخدرات في حياته..
والذي صار المورد الأساسي له..

- (جودة) لن يدخل هذا السراى يا عماه...
قالها (طارق) في حزم صارم، على الرغم من أنه أصغر الموجودين عمرا، فتطلعت إليه (نعيمة) في دهشة، في حين غمغمت (ناهد):
- (طارق)... ماذا تقول لعمك؟!
كان المفترض أن تكون لهجة سؤالها مستنكرة، إلا أنها، وعلى الرغم منها، خرجت من بين شفتيها متخاذلة، توحي بامتلاك حفيد (البنهاوي) لسطوة خاصة، على الرغم من سنوات صباه، فابتسمت (فاطمة) في زهو، ووضعت راحتها على صدرها، وكأنها تحاول منع قلبها الفرح، من أن يثب برقصاته خارج صدرها..
ابنها الوحيد صارت له كلمة في عائلة (البنهاوي)، وهو بعد في السادسة عشرة من عمره.
الحلم الذي راودها طيلة عمرها، بدأت ملامحه الأولى تتضح
حلم السيادة على عائلة (البنهاوي)...
كلها.
- ولكنني أحتاج إليه
قالها (مفيد) بنفس الجمود، فأجابه (طارق) بنفس الصلابة، التي تفوق ضعف سنوات عمره:
- وهذا ما يسعى هو إليه يا عماه أن تظل دوما في حاجة إليه وتحت سيطرته.
ثم نهض فجأة، وهو يضيف في حزم:
- وأنا لن أسمح بهذا أبدا.
بهت الكل لصلابة الصبي وحزمه، وانعقد حاجبا (فؤاد) زوج (ناهد) في شدة، وهو يتطلع إليه بنظرة عجيبة، في حين خفض (مفيد) عينيه، متمتما:

- مازلت صغيرا.
ضرب (طارق) صدره بيده، وهو يقول:
- ولكنني (بنهاوى) يا عماه، وسراى (البنهاوي) لن يلوثها ذلك القذر بقدميه.
انتفض جسد (فاطمة) على الرغم منها، وهي تسمع تلك الكلمات القوية، تنطلق من بين شفتي ابنها، في حين هتفت (شريفة) في انفعال:
- سلم لسانك يا (طارق)... سأطلب من الخفراء إطلاق النار عليه، لو أنه اقترب من السراي مرة أخرى.
غمغم (عبد الحكيم) في حذر:
- وماذا لو ذهب الأستاذ (مفيد) إليه؟!
قالها وهو يختلس النظر إلى (مفيد)،
فقال (طارق) في حزم:
- لن يذهب.
وفي بطء، التفت (مفيد) إليه.
لم يلتفت غاضبًا أو رافضا أو مستنكرا..
لقد التفت يتطلع إلى (طارق) في صمت، وكأنه يرى فيه وجها آخر..
وجه يعرض ماضيه هو..
من سنوات، كان هو الذي يلعب هذا الدور..
هو كان المقاتل الشريف في الأسرة...
الوحيد الذي يتصدى لديكتاتورية (حسين)...
ولكن (حسين) كان ينتصر في كل مرة... أيا كانت النتائج وأيا كان الثمن كل ما كان يعني (حسين) هو قوته، وسطوته، ونفوذه، وسلطته...

من أجلهم خاض معارك وحشية مع ذئاب لا تعرف الرحمة... (إبراهيم مكى)... و (مراد صقر)...
وحتى شقيق (فؤاد)، الذي حاول يوما اعتلاء عرش السلطة والسطوة في العائلة، فلم يتردد (حسين) عن سحقه سحقا؛ ليعيده مرة أخرى تحت سلطته.
ومن أجلهم حرمه من كل من خفق له قلبه.
ومن حب عمره كله.. (مديحة)، حب طفولته وصباه ومراهقته.
بمنتهى القسوة، طردها (حسين) مع عائلتها من القرية...
ثم (جيهان)، التي حاولت اللعب على الشقيقين، هو و (حسين)، فدمرها (حسين) بلا رحمة أو هوادة، ودمر سمعتها تماما، مما دفعها للفرار من (طنطا)، وربما من (مصر) كلها.
بل إنه لم يتردد حتى في اعتقاله هو شخصيا..
اعتقال شقيقه الأصغر؛ ليثبت ولاءه للنظام. ولقد نجح (حسين) بضرباته المتتالية في تحطيمه...
كسر قلبه، ونهش طموحاته، وأخضع إرادته، فلم يعد أمامه سوى (جودة)، وقهوة (جودة)...
ربما لهذا تطلع إلى (طارق)...
تطلع إليه، وكأنما يرى فيه نفسه، كما كانت، قبل أن تنكسر روحه..
كان يتطلع إليه بنظرة خاوية، على الرغم من المشاعر التي تتفاعل في أعماقه، عندما هتفت (شريفة):
- أخي (حسين) اعتقله لنفس السبب من قبل، ولكن من الواضح أنه لم يتعلم الدرس... سأخبره ليبعده عن هنا مرة أخرى، و.
قاطعها (مفيد) في بطء:
- لن يفعل
هتفت (شريفة) في تحد:

- أخي (حسين) يستطيع أن يفعل أي شيء.
غمغم (فؤاد)، وهو يضع إحدى ساقيه فوق الأخرى:
- حتى بعد رحيل الراعي الرسمي؟!
رمقته (ناهد) بنظرة صارمة، فأشاح بوجهه، وهمهم بكلمات غير مفهومة، في حين لم تنتبه (شريفة) لقوله، الذي توازي مع تكرار (مفيد):
- ولكنه لن يفعل.
التفت إليه الجميع في دهشة، وبدا (طارق) أكثرهم اهتماما، وهو يتطلع إلى عمه، في حين قالت (شريفة) مستنكرة:
- ولماذا لن يفعل؟!
أجابها (مفيد) في هدوء:
- لأنك أنت التي لم تتعلمي الدرس.
عاد (طارق) يجلس في بطء وهدوء، وكأنما يعنيه في شدة سماع تعليق عمه، الذي تابع بنفس البطء والهدوء:
- ألم تسألوا أنفسكم، لماذا ظهر (شعبان) فور اختفاء (جودة)، ثم عاد يختفي مع عودة (جودة)؟
غمغم (عبد الحكيم) في حذر:
- (شعبان) كان مخبرا للحكومة.
بدت ابتسامة شاحبة على شفتي (مفيد)، وهو يغمغم:
- (شعبان) الذي استبدلوه بـ (جودة)؟!
اتسعت عيونهم جميعا، وكأنهم يدركون الحقيقة لأول مرة...
(جودة) كان معتقلا، ولكنه عاد...
عاد بعد أن استبدل عمله بآخر.
كان مجرد صاحب مقهى، فصار عينا للحكومة والنظام...
ولهذا سمحوا له بالعودة..
غمغم (طارق)، وهو يربت على كتف (مفيد) في حنان:

- دوما أتعلم منك الكثير يا عماه.
تمتم (فؤاد):
- منه هو؟!
رمقته (ناهد) مرة أخرى بتلك النظرة الصارمة، فعاد يشيح بوجهه، في حين قالت هي معترضة:
- غير منطقي... لو أن (جودة) يعمل لحساب الحكومة، فسيعلم (حسين) حتما أنه الوغد، الذي يزود (مفيد) بالمخدرات.
ارتسمت ابتسامة شاحبة ساخرة حزينة على شفتي (مفيد)، وهو يغمغم:
- ليس لدي من شك في أنه يعلم.
هتفت (نعيمة) مستنكرة:
- أي قول هذا؟!
هز (مفيد) رأسه بالابتسامة نفسها، دون أن يجيب، في حين مصمصت (فاطمة) شفتيها، مغمغمه:
- لن أستبعد.
التفتت إليها (نعيمة)، صائحة في غضب
- قطع لسانك
هب (طارق) من مقعده، هاتفا في صرامة:
- عمتي
ارتبكت (نعيمة)، وهو تغمغم:
- لست أحتمل ذكر اسم أخي (حسين) بسوء
قال (طارق) في صلابة:
. هذا ينطبق على، بالنسبة لأبي وأمي. مطت (نعيمة) شفتيها، مغمغمه في ازدراء:
- أمك؟!
أجابتها (فاطمة) في خشونة:

- نعم
شعر (فؤاد) و (عبد الحكيم) أن الجو يتكهرب، فنهضا والأخير يقول:
- لقد أوصلوا جثمان (ناصر) إلى مثواه... فليتغمده الله سبحانه وتعالى برحمته.
تمتم (فؤاد):
- لو أنه يستحقها.
شعر (عبد الحكيم) بالحرج، فتحرك في سرعة يصافح الجميع ولاحظت (فاطمة) أن مصافحته ليد (شريفة) استغرقت وقتا أكثر من الباقين، وأن تلك الأخيرة قد سحبت كفها من يده، ووجها يتخضب بحمرة الخجل، فعادت تمصمص شفتيها، مغمغمه:
- حكم..

وتناهت كلمتها إلى مسامع (عبد الحكيم) فارتبك أكثر، وسارع الخطى نحو باب السراي، ولحق به (فؤاد) و (ناهد) في خطوات متئدة، والتقى الثلاثة في ساحة السراى، وهناك مال (فؤاد) على (عبد الحكيم) يسأله:
- بمن يذكرك (طارق)؟!
أجابه (عبد الحكيم) في حذر، وهو يحاول انتقاء الجواب المناسب:
- بالحاج (محمد البنهاوي) رحمه الله.
هز (فؤاد) رأسه نفيا، وقال في حزم:
بل بالديكتاتور
هتف (عبد الحكيم):
- (حسين)؟!
نظرة الاستنكار في عيني (ناهد)، جعلته يستدرك في سرعة وحرج:

- أهذا ما تقصده؟!
اعتدل (فؤاد) وهو يقول:
- أرأيت حزمه وصرامته، وهو بعد في السادسة عشرة من عمره؟!... حاول أن تتخيل ما سيكون عليه، عندما يصل إلى السادسة والعشرين.
ولم يجب (عبد الحكيم)، وهو يختلس النظر إلى (ناهد)، خشية رد فعلها، فتابع (فؤاد)، وكأنه لم يكن ينتظر جوابا:
. سيكون نسخة أكثر قسوة وسطوة من عمه (حسين)، وسيحكم عائلة (البنهاوي) كلها، و.
قاطعته (ناهد) بصيحة مستنكرة:
- ابن (فاطمة)؟!
التفت إليها متحديا، وهو يقول:
- بل الحفيد الوحيد (البنهاوي) في العائلة.
هتفت في حدة:
- حتى هذه اللحظة... أخي (حسين) متزوج من أميرة، وابنه بإذن الله سيكون ابن الحسب والنسب... أمه أميرة، وأبوه (حسين البنهاوي).
قال ساخرا:
- ولماذا لم يأت سليل الحسب والنسب هذا حتى الآن؟!... ألم يتزوج (حسين) بك الأميرة (عايدة)، منذ ثلاث سنوات؟!
أجابه في عصبية:
- الأميرة (عايدة) تربيت في (باريس)، ومن عاداتهم هناك ألا تنجب العروس فور الزواج، وإنما تستمتع بشهر عسل طويل، ثم..
قاطعها (عبد الحكيم)، وهو يشير إلى مدخل السراى، قائلا في انفعال:
- انظرا من جاء.

التفت معا إلى حيث يشير، ثم تفجرت الدهشة في ملاحهما معا فالقادم كان آخر شخص يتوقع الجميع رؤيته على الإطلاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

104- التغيير..

استرخت الأميرة (عايدة) في مقعد وثير، ووضعت إحدى ساقيها فوق الأخرى، في معطف منزلي حريري قصير وردي اللون، وراحت تتأمل طلاء أظفارها في عدم رضا، وهي تقول، في لهجة تحمل لمحة من السخرية:

- أخيرا مات!

التفت إليها (حسين) في غضب، وبدا شديد العصبية، وهو يلتقط سماعة الهاتف، قائلا:

- هل تسخرين، في مثل هذه الظروف؟!

ابتسمت ابتسامة خبيثة، وهي تقول:

- أبدى دهشتي فحسب.

قال وهو يدير قرص الهاتف في عصبية:

- الرجل مات مثلما يموت كل البشر

هزت كتفيها، واسترخت أكثر في مقعدها، في لامبالاة، وهي تغمغم:

- كنتم تقدسونه، حتى صرتم تتصورون أنه كالآلهة... لا يموت.

كان يشعر بالحنق، لأن محاولته الاتصال بـ (إبراهيم مكى) لم تفلح للمرة الخامسة؛ بسبب انشغال الخط المستمر، فأعاد السماعة إلى موضعها، وهو يقول في حدة:

- لم نكن نقدسه، بل كنا ندرك زعامته وعظمة دورة القيادي ولم نتوقع وفاته في الخمسينات من العمر.

حمل صوتها خبثا أكثر، وهي تسأله:

- هل تعتقد أنها وفاة طبيعية؟!

هتف مستنكرا:

- بالطبع. الرجل بذل جهدا خرافيا، طوال الأيام التي سبقت وفاته في محاولة لإيقاف مذبحة (الأردن)، وقلبه المريض من ثقل الهموم، لم يحتمل أن...
قاطعته وهي تعتدل:
- هل عرفتني أهتم بالتفاصيل؟!
انعقد حاجباه، وهو يقول:
- أنت من سأل.
لوحت بيدها، وكأنها لا تبالي، فاعتدل يواجهها، وهو يقول:
- ألا تدركين تأثير وفاة الرجل في حياتنا ومستقبلنا؟!
مالت نحوه، تقول في لهجة عابثة مستهترة:
- هل سنتقبل العزاء هنا أم ماذا؟!
التقط سماعة الهاتف مرة أخرى في عصبية، قائلا
- هذا لو ظل هناك (هنا)
أطلقت ضحكة عابثة، تزامنت مع رنين انشغال الخط، الذي حملته له سماعة الهاتف، فأعادها إلى موضعها في عنف، وهو يقول في حدة:
- متى تتعاملين مع الأمور بجدية؟! قالت بنفس اللهجة العابثة المستهترة:
- تقصد بهلع.
رمقها بنظرة غاضبة ولكنها التقطت علبة سجائرها، وهي تعود للاسترخاء في مقعدها، مضيفة:
- مثلك.
أحنقته كلماتها وأغاظه أسلوبها، فجلس على المقعد المجاور لها، وهو يقول في عصبية:
- (عايدة)... طوال عمر الزعيم، كنت واحدا من أقرب الناس إليه، وهذا ما منحني كل القوة والسلطة والنفوذ... وما حماني أيضا عبر

تلك السنوات.
قلبت شفتيها وهي تقول:
- حذرتك أكثر من مرة، من بناء قوتك استنادا على الكبار، فعلى الرغم من صعودك معهم، تهوى أيضا معهم، وبعنف يفوق عنف سقوطهم.
هتف مستنكرا:
- في هذا البلد؟!
ثم مال نحوها، مستطردا بعينين محمرتين:
- في بلدنا هذا، الطريق الوحيد للترقي والصعود، هو الاستناد على أحد الكبار... تصعدين معه كل درجة سلم يصعدها.
قالت في استهتار: - وتهبط معه في مصعد كهربى.
هتف:
- لو لم تحسني إدارة اللعبة
أدارت عينيها إليه قائلة:
- تعترف إذن أنها مجرد لعبة.
أشار بسبابته إلى أعلى، قائلا في حزم عصبى:
- أخطر لعبة في الحياة كلها... لعبة القوة والسطوة والنفوذ. لعبة إما أن تربحيها، فتصعدي إلى عنان السماء، أو تخسريها فتدفنين في أعماق الأرض.
تساءلت في هدوء:
- أهذا رأيكم جميعا؟!
عاد يلتقط سماعة الهاتف، قائلا:
- أنا و (إبراهيم) على الأقل.
مطت شفتيها، وهي تقول:
- (إبراهيم مكى)؟!... لم أرتح قط لذلك الرجل... إنه لا يوحي أبدا بالثقة.

كان يدير قرص الهاتف، وهو يقول:
- من الخطأ الثقة في ابن (مكى) هذا، ولكن الاستفادة من عقليته التآمرية الجبارة تمنحك قوة إضافية.
غمغمت:
- لو أنها تعمل في اتجاهك
قال في عصبية، وهو يعيد سماعة الهاتف إلى موضعها في حدة:
- هذا ما أحرص على توجيهه طوال الوقت.
هزت رأسها، قائلة، وهي تنفث دخان سيجارتها:
- لست أفهمك أنت أو (إبراهيم) هذا!!... اعتقلك أنت ووالدك قبل انقلاب اثنين وخمسين، واعتقلته أنت عندما هيمن (عبد الناصر) على السلطة، ثم عدت تفرج عنه، عندما احتجت إليه، واليوم تتعاملان كصديقين، على الرغم من أن كل منكما شديد الحذر مع الآخر.
غمغم:
- تستطيعين أن تقولي: إنها صداقة ذئبين... وجودهما في قطيع واحد يمنحهما قوة، ولكن كل منهما ينام بنصف عين، خشية أن ينقض عليه الآخر، إذا ما غفا ولو لحظة.
ابتسمت متمتمه:
- أستطيع تفهم هذا.
التقط السماعة مرة أخرى، مغمغما:
- حقا؟!
ابتسمت، ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى، قائلة:
- لو أنك عشت حياة القصور شهرا واحدا لفهمت
تطلع إليها لحظة في دهشة، قبل أن يطلب رقم (إبراهيم) مرة أخرى، قائلا:
- العجيب أن (إبراهيم) أخبرني هذا ذات يوم.

هزت كتفيها، قائلة:
- لقد بدأ حياته في البوليس السياسي كان هذا بالنسبة إليها جوابا كافيا.
وبالنسبة إليه أيضا..
ولكن صوت الخط المشغول جعله يمط شفتيه في مقت، ويعيد سماعة الهاتف، هاتفا في سخط:
- شبكة الهاتف في أسوأ حالاتها اليوم
تساءلت في استرخاء:
- لماذا لا تذهب إليه، بدلا من كل المحاولات الفاشلة هذه للاتصال؟!
هتف مستنكرا:
- اليوم؟! العالم كله في القاهرة اليوم، والبشر أنفسهم يسيرون في صعوبة، فما بالك بالسيارات؟
هزت كتفيها في لا مبالاة، ونهضت من مقعدها، متجهة نحو الشرفة المطلة على نيل (القاهرة)، في حين مد هو يده مرة أخرى إلى سماعة الهاتف، ولكن قبل أن تلمسها أصابعه، ارتفع رنين الهاتف فجأة، فانتفض جسده انتفاضة خفيفة، قبل أن يختطف السماعة هاتفا:
- (إبراهيم)؟!
أتاه صوت رصين هادئ، يقول:
- هل كنت تنتظر مكالمة من (ابراهيم مكى) يا (حسين)؟!
في هذه المرة كانت انتفاضة جسد (حسين) حقيقية وقوية...
فالصوت الذي تحدث إليه عبر الهاتف، والذي ميز نبراته على الفور، لم يكن صوت (إبراهيم مكى)...
كان صوت من هو أعلى مكانة منه...
بكثير

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- عماه...
قالها (طارق) فيما يشبه الهمس، وهو يجلس إلى جوار (مفيد)، بعد أن خلا المكان إلا منهما، فالتفت إليه (مفيد)، وارتسمت على شفتيه ابتسامة شاحبة، وهو يقول في خفوت، أقرب إلى الهمس:
- نعم يا (طارق). سأله الصبي في اهتمام واضح:
- لماذا تصورت أن عمي (حسين) يعلم ما يفعله بك جودة؟!
تطلع إليه (مفيد) طويلا في صمت، وهو يحاول إجابة السؤال في ذهنه أولا...
لماذا تصور أن (حسين) يعلم ما يفعله (جودة) به؟!... أو بمعنى أدق، لماذا هو واثق من هذا؟!
معرفته بشقيقه وطبيعته السيكوباتية، التي لا تقيم وزنا في الحياة إلا لذاته، جعلته يتساءل: لو أن (شعبان) هو رجل الحكومة وأذنها وعينها، فكيف تسحبه الحكومة من القرية، بعد عودة (جودة)؟!...
الجواب الوحيد هو أن (جودة) تم تجنيده في المعتقل؛ لكي يحل محل (شعبان)، ويصير هو أذن الحكومة وعينها.
ومادام كذلك فسيدرك أن (حسين البنهاوي) من قيادات كل الحكومات، وأن يجرؤ على وضع المخدرات في طريق شقيقه، إلا إذا...
ومن الضروري أن يتوقف لحظة عند (إلا إذا) هذه...
فشقيقه (حسين) لا يغفر أبدا أية محاولة للخروج من سيطرته، أو منافسته في سطوته.
ولو أن (جودة) حاول السيطرة عليه هو، دون أوامر مباشرة من (حسين)، فسيبطش به هذا الأخير بلا رحمة أو هوادة...

بل سيسحقه سحقا... (جودة) واثق إذن أن (حسين) لن يفعل به هذا لأنه يفعل ما يفعله بأوامر مباشرة منه... من (حسين البنهاوي)...
- لم تجبني يا عمي ابتسم (مفيد) ابتسامة حانية، وربت على كتف (طارق)، هامسا:
- لأن عمك (حسين) يعلم كل ما يحدث، في كل مكان. مال نحوه (طارق)، وهو يسأله في فضول شديد:
- ولكن كيف يسمح بحدوث هذا؛ لو أنه يعلمه؟!
ربت (مفيد) على كتف (طارق) مرة أخرى، وهو يهمس:
- لا يمكنك أبدا أن تعلم كيف يفكر عمك (حسين).
أطلت نظرة مستنكرة من عيني (طارق)، فأضاف (مفيد)، محاولا أن يبتسم:
- إنها طبيعة عمله
تراجع (طارق) معتدلا في إحباط، وهو يقول:
- إنني لا أعرف أبدا ماهية عمل عمي (حسين)... كل ما أعلمه هو أنه بالغ السلطة والنفوذ.
صمت (مفيد) لحظات، قبل أن يقول في بطء هامس:
- كل ما أعلمه أنه قد انضم إلى جهاز أمني استثنائي، عمل على نحو سرى، عقب قيام ثورة يوليو مباشرة؛ كسبيل لحماية الثورة من أعدائها، وعندما تم إنشاء جهاز أمني أرفع مستوى، عام خمسة وخمسين، أسندوا إليه منصبًا رفيعا فيه، وبعدها صار مندوب اتصال خاص برياسة الجمهورية.
سأله (طارق) بفضوله الصبياني الطبيعي:
- وماذا بعد رحيل الزعيم؟!
مط (مفيد) شفتيه، ولوح بكفه لحظات، إلا أنه لم يقل شيئا لدقيقة كاملة، تمتم بعدها:
- لا تقلق على عمك (حسين)... إنه يجد دوما وسيلة للصعود

تساءل (طارق) في حيرة:
- الصعود إلى ماذا؟!
هز (مفيد) رأسه، وبدا منه ما يشبه ضحكة ساخرة قصيرة، وهو يقول في خفوت:
- إلى الشيء الوحيد، الذي يقاتل من أجله طيلة عمره
ثم أدار بصره إليه، مضيفا:
- السلطة.
- أتفق معك تماما
استدار كلاهما إلى مصدر الصوت، وتهللت أسارير (طارق)، وهو ينهض قائلا
- عمي (عمر).
ارتفع حاجبا (مفيد) في دهشة حقيقية، وهو ينهض بدوره، في نفس الوقت الذي اندفعت فيه (نعيمة) من الداخل، هاتفة في فرحة:
- (عمر)؟!... أنت هنا؟!
كان قلبها يختلج فردا؛ لأن زوجها (عمر) قد كسر ذلك الحظر، الذي وضعه بإرادته، تجاه سراى (البنهاوي)، بعد أن قهره (حسين) ثلاث مرات، آخرها عندما صار شريكا بالثلث في مصنع الغزل والنسيج الذي أنشأه هو مع (عبد الحكيم)، و (رضا) ابن (على العبد) بالقوة...
وفي سعادة حقيقية، صافح (مفيد) (عمر)، قائلا:
- لن تتصور مدى سعادتي برؤيتك هنا يا (عمر).
هتفت (نعيمة) في لهفة فرحة:
- هل أعد لك شيئا تأكله، أم ترغب في شرب الشاي أولا؟!
بدا صارما بعض الشيء، وهو يقول:
- لا هذا ولا ذاك... لو أن الأمر يتعلق بالطعام والشراب، لما وطأت قدماى هذا السراى.

تراجعت مصدومة في إخفاق، فربت (مفيد) على ذراعه، قائلا:
- أنت على الرحب والسعة دوما هنا يا (عمر).
غمغمت (نعيمة) في ضيق
- هل أتيت لأن (ناصر) مات، و (حسين) يمكن أن..
قاطعها في شيء من الحدة:
- لا شأن لي بشقيقك (حسين).
خفضت عينيها في أسي، في حين التفت هو إلى (مفيد)، مستطردا:
- لقد أتيت من أجلك أنت يا (مفيد).
غمغم (مفيد):
- من أجلي أنا؟!
مال نحوه، مجيبًا :
- نعم يا (مفيد)... إنها مسألة حياة... حياة أو موت
وتراجع (مفيد) بكل دهشة الدنيا
كلها...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يبد (إبراهيم مكى) في حياته كلها قلقا، كما بدا في ذلك اليوم عقب انتهاء الجنازة الرسمية للزعيم..
كانت أول مرة، في عمره كله، يخطئ فيها في اختيار مساره، دون حتى أن ينتبه بهذا.
فمنذ سنوات طوال، سعى لتوطيد علاقته بثلاثة ممن بدوا له أقوى رجال السلطة، لسنوات طويلة قادمة..
راهن عليهم كعادته..
وعلى الرغم من ذكائه، وعقليته التآمرية الفذة، وقدرته على سبر أغوار النفس البشرية، لم يكن (أنور السادات) واحدا منهم.

الرجل دوما هادئ بسيط، لا يتحدث إلا لماما، وينفذ الأوامر في طاعة تامة، ولا يحيط نفسه بشلة قوة، مثلما يفعل (على صبرى) مثلا.
وربما لهذا بدا له، وكأنه رجل بلا طموح.
حتى تم تعيينه كنائب للرئيس (جمال)، بعد مرحلة لم يسع إليها، ولم يتصور أنها ستستمر حتى وفاة (جمال)...
لقد بدا له أشبه بتعيين مؤقت، لحين عودة (جمال) من جولة مباحثات خارجية، في ظروف ما بعد النكسة.
وكان من الشائع، حتى في الأوساط الأمنية العليا، التي انتقل إليها مع (حسين البنهاوي)، أن (ناصر) يسعى لاستبداله في القريب العاجل بعضو مجلس قيادة الثورة القوى (عبد اللطيف بغدادى)...
ولقد بنى هو كل حساباته على هذا...
تقرب من (على صبري)، رئيس الاتحاد الاشتراكي، التنظيم السياسي الوحيد في (مصر)، و (عبد اللطيف بغدادى)، نائب الرئيس المنتظر و (سامي شرف)، سكرتير الرئيس للمعلومات، والرجل الأقوى في مؤسسة الرياسة.
ولكن القدر أفسد مخططاته بضربة مفاجئة، لم يعمل لها أي حساب مات (ناصر) فجأة
مات و (أنور السادات) نائبة، والذي سيصعد بعده إلى سدة الحكم، وفقا للنظام المعمول به. بالطبع سيكون هناك استفتاء شعبي على رئاسته لـ (مصر)، ولكنه هو شخصيا أكثر من يعرف كيف تدار الاستفتاءات.
النتيجة ستأتي وفق رغبة الكبار ..
فقط ..
رغبة الكبار..

ارتفعت دقات على باب مكتبه؛ لتنتزعه من أفكاره وتوتراته، فأسرع يعود إلى خلف مكتبه، وتنحنح وهو يقول في حزم كبير، أراد أن يخفى به توتره:

- ادخل

انفتح باب الحجرة في هدوء، ودلف إليه (سمير خضر) شاب جديد، انضم إلى الجهاز، نقلا من سلاح المدرعات، وأثبت كفاءة نادرة في هذا العمل، بالغ الحساسية والخطورة، مما جعل (مكى) يضمه إلى مكتبه

كان (سمير) يختلف عنه تمام الاختلاف...

صريح..

مباشر

مخلص

طيب القلب، على نحو جعل (مكي) يشعر أنه يستطيع الثقة به، كمدير لمكتبه الشخصي..

وعلى الرغم من توتره، تنحنح (إبراهيم مكى)، قائلا:

- ماذا هناك يا (سمير)؟!

شد (سمير) قامته، على نحو مازال يعتاده، من أيام خدمته في سلاح المدرعات، وهو يقول:

- لقد اجتمعوا كما توقعت تماما يا سيد (إبراهيم).

تراجع (إبراهيم) في مقعده، وهو يسأله في اهتمام:

- جميعهم؟!

أومأ برأسه ايجابًا :

- جميعهم يا سيد (إبراهيم).

تردد (مكى) لحظة، قبل أن يسأله:

- و (أنور السادات)؟!

هز (سمير) رأسه نفيا:

- لم يدعوه للاجتماع.
اخذ (مكى) نفسا عميقا، وعادت نظرة الذئب الشهيرة تطل من عينيه، وهو يغمغم في ثقة:
- كما توقعت... إنهم لا يقنعون به خلفا للزعيم
قال (سمير) في تردد:
- ولكن الدستور والشرعية يضعان النائب (أنور السادات) في مقدمة اللائحة يا سيد (إبراهيم).
قال (مكى) في ثقة:
- ربما... ولكنهم ليسوا ممن يقنع بدستور أو شرعية، لو أن هذا يتعارض مع مصالحهم.
تساءل (سمير) في حيرة: - وفيم تتعارض مصالحهم مع هذا؟!
ابتسم (مكى) ابتسامة الذئب، وهو يجيب:
- (على صبرى) رئيس الحزب الاشتراكى، وأقوى رجل في (مصر)، حتى في وجود (أنور السادات)، و (حسين الشافعي) يرى أنه الأحق بالرياسة، وبخلافة (ناصر)، باعتباره أكبر أعضاء مجلس قيادة الثورة سنا، و (عبد اللطيف بغدادي) يعلم أن (ناصر) كان بصدد وضعه مكان (السادات)، لو أمهله القدر شهرا واحدا إضافيا وقادة الجيش والشرطة والمخابرات، بالإضافة إلى الإعلام والاتحاد الاشتراكي، يقفون على الجانب المعاكس للنائب (أنور السادات)
قال (سمير):
- مع كل هذا، مازالت الشرعية مع سيادة النائب غمغم (مكى) في سخرية:
- ليس قبل أن يقول الشعب كلمته، في استفتاء عام.
هز (سمير) كتفيه، قائلا:
. الكلمة للشعب إذن.

أدهشه أن ينفجر (مكى) ضاحكا أثر عبارته، ومال نحوه قائلا:
- الشعب؟!...
ثم عاد يتراجع في مقعده في بطء، وهو يضيف في سخرية واضحة
- مازال أمامك الكثير لتتعلمه هنا يا (سمير).
بدا مزيج من الحيرة والتوتر على وجه (سمير)، وتساءل عما يمكن أن يعنيه (مكى)، الذي سرعان ما اعتدل مرة أخرى، وهو يسأله في اهتمام:
- ألديك أية فكرة عن أين هو (السادات) الآن؟!
أومأ (سمير) برأسه ايجابًا وقال:
- لقد عاد من الجنازة إلى القصر الجمهوري، لاستقبال المعزين، وطلب إجراء بعض اللقاءات.
سأله (مكي) في اهتمام:
- مع من؟!
أجابه في سرعة:
- بعض كبار موظفي القصر، ووزير الخارجية، والسيد (حسنين هيكل).
قلب (مكى) شفته السفلى، وهو يغمغم:
- لقد بدأ تدريباته من الآن، على لعب دور الرئيس
وافق (سمير) بإيماءة من رأسه، ثم أضاف:
- والسيد (حسين البنهاوي)
اتسعت عينا (مكى)، وهو يثب من مقعده، هاتفا:
- من؟!
فقد كان هذا بالفعل صدمة له
صدمة قاسية
للغاية...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

105- الذروة..

ماذا أصابك؟!

هكذا بادر (عمر) (مفيد) وهما يسيران معا في الحديقة المحيطة بسراى (البنهاوي)، فغمغم (مفيد) بلا انزعاج:

- وماذا أصابني؟!

قال (عمر) في حزم:

- ماذا أصابك؟!... أتتساءل ماذا أصابك يا (مفيد)!!... هل نسيت كيف كنت وكيف أصبحت صحيح أنك أصغر أبناء الحاج (محمد) رحمه الله ولكنني كنت أرى فيك دوما الامتداد الحقيقي للحاج (البنهاوي) رحمه الله... صادق، وأمين، وقوى في الحق عف اللسان عذب القول، منفتح الذهن... أهذا ما أنت عليه الآن؟!

لم ير دموعا في عيني (مفيد)، ولكنه شعر بها في كلماته، وهو يجيب في صوت متهدج:

- لم أستطع الاحتمال يا (عمر)... الدنيا كلها كانت تحاربني.

قال في حزم أكثر

- ليس الدنيا كلها... فقط شقيقك (حسين).

توقف (مفيد)، والتفت إليه بعينين منكسرتين، قائلا:

- (حسين) حطم كل طموحاتي وأحلامي يا (عمر) أحببت (مديحة) في صباى، ولم يرق له هذا، فقهرها وقهر والدها، وأجبرهما على ترك القرية كلها، وقهر إرادتى، عندما أردت منح (حافظ) و (فاطمة) حقهما، في حضور عيد ميلاد (طارق)... حتى (جيهان)...

قاطعه (عمر):

- (جيهان) كانت تعبث بعواطفك يا (مفيد)، وأنت تعلم هذا.

قال في مرارة:

- ولكنه لم يتردد في إقامة علاقة معها
قال (عمر) في إصرار:
- أنت تعلم أنني لا أثق في (حسين)، ولكنه في هذا الموقف بالذات كان يحاول حمايتك.
أشاح (مفيد) بوجهه، وهو يغمغم:
- كانت هناك ألف وسيلة، يفعل بها هذا، دون أن يورطها في قضية دعارة، تدمر سمعتها وسمعة عائلتها.
زفر (عمر)، وهو يقول:
- مشكلة (حسين) هي أنه، عندما تتملكه شهوة الانتقام، والرغبة في إثبات القوة والنفوذ، لا يعمد أبدا إلى أساليب بسيطة، بل لابد له من سحق خصمه سحقا وبلا أدني رحمة أو شفقة.
غمغم (مفيد):
- المثل القديم يقول: من عاش بالسيف مات بالسيف.
مال (عمر) نحوه، قائلا:
- المهم متى يموت بالسيف... قبل أم بعد أن يذبح به كل من حوله؟!
انعقد حاجبا (مفيد)، فاعتدل (عمر)، قائلا:
- المهم دعنا من (حسين) وحكاويه... لقد أتيت لك من أجل أمرين هامين..
ابتسم (مفيد) ابتسامة باهتة، وهو يغمغم:
- وأنا أريدك أيضا في أمر هام.
سأله (عمر) في اهتمام حقيقى:
- مر يا (مفيد)... أنت تعلم قيمتك عندي... لو طلبت حياتي نفسها لما ترددت في منحك إياها.
اتسعت ابتسامة (مفيد) قليلا، وهو يربت على ذراع (عمر)، قائلا:

- ليس لدي شك في هذا يا (عمر)، والقلوب عند بعضها... ولكنني أفضل سماع ما لديك أولا.
ابتسم (عمر) بدوره، وهو يقول:
- لا بأس.
ثم عاد يميل نحوه، مستطردا في اهتمام:
- كنت أفكر في أمرك، وفيم وصلت إليه، منذ أن تركت العمل في مدرسة طنطا، وصرت زبونا دائما عند (جودة)، ولا تفارق السراى إلا فيما ندر... ولأن أمرك يهمني كثيرا، واعتبرتك منذ خطبت (نعيمة)، بمثابة ابن لي، بحثت في ذهني عن حل، يعيدك إلى ما كنت عليه.
غمغم (مفيد) في مرارة:
- أتظن أن هذا ممكن؟!
لم يتوقف (عمر) عند تعليقه، وهو يواصل حديثه:
- الجواب الذي أتاني هو العمل.
غمغم (مفيد)، في مزيج من الدهشة والحذر:
- العمل؟!
هتف (عمر) في حماس:
- بالطبع يا (مفيد)... العمل... انهماكك في عمل ما، سيملأ الكثير من فراغ يومك، وسيمنحك دافعا للعودة إلى ما كنت عليه.
سأله (مفيد)، في شيء من القلق:
- هل تقترح أن أعود إلى عملي في المدرسة؟!
لوح (عمر) بيده، هاتفا:
- مدرسة؟!... العمل في المدرسة لم يكن يناسب إمكانياتك من الأساس يا (مفيد).
عاد (مفيد) يسأله، وقلقه يتزايد:
- أين أعمل إذن؟!

مال نحوه، يقول في حماس:
- في المصنع... مصنع الغزل والنسيج.

تراجع (مفيد) في حركة حادة، وهو يهتف مستنكرا:
- مصنع (حسين)؟!
اعتدل (عمر) في غضب، وهو يقول:
- مصنعى يا (مفيد)... مصنعي ومصنع شريكى (عبد الحكيم)... أرمل شقيقتك توحيده.
قال (مفيد) في مرارة:
- ومصنع شريككم الثالث (حسين البنهاوي).
بدا الغضب على وجه (عمر)، وهو يقول:
- أنت تعلم جيدا كيف فرض (حسين) شراكته علينا، عندما خشينا أن يتم تأميم مصنعنا، وتصورنا أنه باستطاعته استخدام موقعه ونفوذه؛ لمنع هذا.
مط (مفيد) شفتيه، قائلا:
- مازال شريككما
عاد (عمر) يميل نحوه، قائلا:
- شريك برأس المال فحسب، ولكن (حسين البنهاوي) لم يطا أرض المصنع بقدمه مرة واحدة، حتى بعد توقيع عقد المشاركة... أراهنك أنه لن يشعر حتى بعملك في المصنع... إننا نرسل إليه كشف الحساب السنوي الختامي، ونودع نصيبه في حسابه فحسب، وهو لم يراجعنا في هذا مرة واحدة، فلماذا سيفعل الآن؟!
تساءل (مفيد) في قلق:
- وماذا لو فعل؟!
ابتسم (عمر)، وربت على كتفه، وهو يقول
- سأتقبل كل ما يحدث من أجلك

تطلع إليه (مفيد) في صمت وامتنان، فسأله (عمر) في اهتمام:
- ما رأيك؟!... هل توقع عقد العمل اليوم؟!
صمت (مفيد) لحظات، ثم لم تلبث ابتسامة هادئة كشخصيته أن تسللت إلى شفتيه، وهو يقول:
- أخبرني بالأمر الآخر، الذي أردتني من أجله
رفع (عمر) سبابته، وهو يقول:
- آه... أظنه سيكون أكثر أهمية بالنسبة لك
ثم مال نحوه، وأضاف في لهجة لها رنين خاص:
- لقد عرفت أين هي.
التقى حاجبا (مفيد)، وهو يسأله
- من؟! أجابه (عمر) في حماس:
- (مديحة)... حبيبتك القديمة (مديحة)...
وانتفض جسد (مفيد) وقلبه معا
وبمنتهى العنف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الرغم من رغبته في التماسك، لم يستطع (حسين البنهاوي) كبح جماح توتره الشديد، وهو يقف أمام (أنور السادات)، في نفس المكتب، الذي كان يلتقي فيه، منذ أيام قليلة، بالرئيس جمال عبد الناصر)
لم تكن أول مرة يلتقي فيها بالنائب (أنور السادات)، ولكنها كانت المرة الأولى، التي يلتقي به فيها، وهو على وشك أن يرث ذلك المنصب الذي احتله زعيم الأمة العربية، التي كانت خطبة قادرة على رج العالم العربي كله، من المحيط إلى الخليج..

لم يكن (أنور السادات) يمتلك نصف قوة شخصية (جمال عبد الناصر)، إلا أن أبجديات المرحلة، وما يحيط بها من صراع خفي، قد لا يدركه المواطن العادي، حول مقعد السلطة، كانت تجعل الجميع في حالة من القلق والتوتر، في انتظار ما ستسفر عنه الأمور..

حتى عندما استدعاه (أنور السادات) بنفسه، وليس عن طريق سكرتارية الرياسة، لم يكن يدرك، أخير هذا أم شر.

ولماذا الآن، وجثة (ناصر) لم تبرد في قبرها بعد؟!... لماذا؟!...

- استرح يا (حسين)...

قالها (أنور السادات) في هدوء، ولكن في لهجة عسكرية صرفه جعلت (حسين) يقول:

- أمرك يا ريس.

خرجت العبارة منه في تلقائية، فابتسم (السادات)، وأشار إلى المقعد أمام مكتبه، قائلا:

- اجلس يا (حسين).

اتجه (حسين) إلى المكتب، وجلس حيث أشار (السادات)، الذي اعتدل في مجلسه، وخلع منظاره الطبي، ووضعه على سطح المكتب امامه، قبل أن يقول:

- الوضع الحالي حساس للغاية، كما تعلم يا (حسين).

اكتفي (حسين) بإيماءة من رأسه، فتابع (السادات) في اهتمام:

- لو سارت الأمور على نحو طبيعى، المفترض أن أتولى رياسة (مصر) بعد أيام قلائل، على نحو رسمى، وسيعني هذا أن أحتاج إلى فريق من المعاونين، يماثل ذلك الفريق الذي أحاط به (ناصر) رحمه الله نفسه.

صمت (السادات) لحظة، التقط خلالها منظاره مرة أخرى، ووضعه على عينيه، وقرأ شيئا من ورقة أمامه، قبل أن يسأل

(حسين):
- ماذا تعرف عن زميل لك، يدعى (إبراهيم مكى)؟!
بدا السؤال أشبه بصدمة، أصابت صدر (حسين) مباشرة، فراح قلبه يخفق في قوة، وخاصة بعد أن جاء اسم (مكى) بعد الحديث عن فريق المعاونين.
ولثانية أو ثانيتين، احتبست الكلمات في حلق (حسين)، قبل أن يتنحنح في توتر، مجيبًا :
- إنه زميل ممتاز يا سيادة الرئيس
غمغم (السادات) في حزم:
- الأفضل أن نكتفي بلقب (النائب)، في هذه المرحلة.
قال (حسين)، وتلك الغصة لم تفارق حلقه بعد:
- أمر سيادتك
خلع (السادات) منظاره مرة أخرى، وهو يقول:
- إذن فأنت تراه كزميل ممتاز.
ازدرد (حسين) لعابه في صعوبة، وهو يجيب:
- إنه كذلك بالفعل يا سيادة الـ.. النائب... صحيح إنه كان جزءا من البوليس السياسي، قبيل ثورة يوليو، ولكنه أثبت كفاءة وخبرة، طوال فترة عمله بعد الثورة.
أشار (السادات) إلى الأوراق أمامه، وقال في اهتمام:
- مكتوب هنا أنه تم اعتقاله، أيام خلافنا مع (نجيب)، وأنك أنت من سعيت للإفراج عنه.
غمغم (حسين)، وقد بدأ اليأس يتسلل إليه:
- هذا صحيح.
مط (السادات) شفتيه، وأومأ برأسه عدة مرات، قبل أن يسأل:
- بكل صراحة ومباشرة ووضوح.. هل تثق فيه يا (حسين)؟
صمت (حسين) لحظة، ثم أجاب:

. ليس بحيث أوليه ظهري يا سيادة النائب
ابتسم (السادات) ابتسامة غامضة، وهو يقول:
- جواب ممتاز يا (حسين).
ثم عاد يشير إلى الأوراق أمامه، مضيفا:
- (على صبرى) رشحه لي؛ ليرأس مكتب المعلومات الخاص بي، عندما أتولى الرياسة.
لم يجد (حسين) ما يقوله، فاكتفي بهز كتفيه، مما جعل (السادات) يتراجع في مقعده، ويتطلع إليه لحظة، قبل أن يقول:
- لقد كنت أحد أعضاء مكتب المعلومات، التابع للرئيس (جمال)، قبل أن يتولى الرياسة، وعندما كان وزيرا للداخلية، في بدايته.
غمغم (حسين):
- هذا صحيح
تابع (السادات):
- وظللت أحد أهم مصادر المعلومات لديه، حتى لحظة رحيله.
اكتفي (حسين) بإيماءة إيجاب،
فعاد (السادات) يبتسم، وهو يقول:
- الواقع أن ملف (مكي) هذا لم يوح لي بالثقة الكافية ربما كان خبيرا في عمله، ولكنني مازلت أثق في (جمال) رحمه الله وفي موهبته في فهم طبيعة من يحيطون به.
قالها ثم مال إلى الأمام، مستطردا:
- وبناء على هذا، وقع اختياري عليك يا (حسين)؛ لترأس إدارة المعلومات التابعة لي، عندما أستقر في منصب الرئيس، إن شاء الله.
وثب قلب (حسين) من بين ضلوعه، وهو يقول:
- أشكرك يا سيادة النائب... يا سيادة الرئيـــس "
قالها باعتبار ما سيكون.

نهض (السادات) يصافحه، وهو يقول:
- بالمناسبة... يمكنك الاستمرار في عملك هنا، حتى ذلك الحين
صافحه (حسين) في امتنان شديد:
- وماذا عن (إبراهيم مكى)؟!
هز (السادات) كتفيه، وهو يقول:
- لسبب ما، لست أثق فيه ثم غمز بعينه، مضيفا - ولا في (على صبرى) نفسه:
وضحك (حسين) ضحكة قصيرة، لم تشف عن كل ما يعتمل في أعماقه في الواقع..
فقد كانت هذه أسعد لحظات حياته...
على الإطلاق...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على عكس ما توقع (إبراهيم مكى)، لم يعترض أحد الأقوياء على السير في الطرق الشرعية، ووضع (السادات) على مقعد الرياسة، خلفا للزعيم (عبد الناصر)...
ربما لأنهم رفضوا أن يبدو الأمر، كما لو أن شركاء الثورة يتصارعون على مقعد الحكم.
أو لأنهم تصوروا أن (السادات) شخص يمكن وضعه في المواجهة كخيال مآته لهم، يسيطرون عليه، ويحكمون البلد من خلفه، دون أن يعترض أو يواجههم
أو لأنهم كانوا يعملون ويدركون صعوبة موقف من سيأتي بعد زعيم عظيم مثل (ناصر)، وأن الشعب سيعجز عن تقبله، أيا كانت شخصيته..

وأرادوا تفادي تلك المواجهة مع الشعب، وتركها لشخص يمكن التخلص منه فيما بعد، عندما يعتاد الشعب رحيل (جمال)...
المهم أنهم لم يعارضوا.. ولم يسعوا حتى لتزوير الاستفتاء على رئاسة الجمهورية كعادتهم لقد تركوا الأمور تسير في مجراها، وربما لأول مرة، منذ قيام ثورتهم.
ولهذا فلم يفز (السادات) في الاستفتاء بنسبة خرافية مستحيلة كما فاز (عبد الناصر) من قبل.
وهنا برز دهاء (السادات) للمرة الأولى، عندما خرج على الشعب، في أول خطبه كرئيس للدولة، ليشكر من انتخبوه، وليشكر أيضا من رفضوه...
كانت مبادرة شديدة الذكاء، يوصل بها للمصريين أنه رئيس الكل، وليس من قبلوا به وحدهم.
وفي سرعة، ولأن أحدا لم يتصد للأمر، اتخذ (السادات) موقعه كرئيس للبلاد
واستقر (حسين) كمدير للمكتب الخاص بالرئيس للمعلومات.

وكان هذا ذروة ما كان من الممكن أن يصبوا إليه، بعد رحيل راعيه الرسمي، كما يصفه (فؤاد) زوج (ناهد)، والذي كان أكثر نسباء عائلة (البنهاوي) غضبا، وهو يقول:
- الآن صرنا كلنا عبيد ال (حسين) بك.
رمقته (ناهد) بنظرة متشفية، وهي تقول، محاولة أن تبدو هادئة بسيطة:
- أخي (حسين) هو دوما سيد الكل.
قال في غل:
- أخي كاد يطيح به يوما.
أخفت شماتتها، وهي تغمغم:

- كاد.
احتقن وجهه في شدة، وهو يهتف:
- ماذا تعنين؟!
نفسها كانت تدعوها لمعاندته ونكايته، ولكن عقلها كزوجة وأم، جعلها تقول في اهتمام:
- هل علمت أن (مفيد) هو مدير حسابات مصنع الغزل الآن؟!
كان يعلم أنها تبعده عن الشجار، ولكنه أشاح بوجهه، مغمغما في عصبية:
- أخبرني (عمر) منذ أسبوعين.
قالت في حماس:
- (عبد الحكيم) يقول: إنه شديد الإخلاص والتفاني في العمل، وكأنه خلق لهذه المهنة بالذات.
غمغم:
- (مفيد) هو درة عائلة (البنهاوي).
وافقته بإيماءة فرحة، وقالت في حنان:
- كم أتمنى أن يتزوج وينجب أطفالا.
قال في لهجة، اشتمت فيها لمحة من السخرية:
- ادع لأختك (شريفة).
انعقد حاجباها في ضيق، عندما أتي على ذكر هذا الأمر..
فحتى هذه اللحظة، مازالت تشعر بتأنيب الضمير، كلما ذكر أحدهم عدم زواج (شريفة)...
إنها لم تنس أبدا أن زوجها (فؤاد) أتي في البداية لخطبة (شريفة)، إلا أنه عندما رآها، طلب يدها هي...
وانكسر قلب (شريفة)... ولكنها لم تعترض.
تعلقت بفكرة القسمة والنصيب، ورفضت أن تقف في وجه شقيقتها الصغرى، خاصة وأن (حسين) لم يعترض، على الرغم من

مخالفة هذا التقاليد؛ بسبب شقيق (فؤاد)، الذي كان أيامها أحد أقوى رجال الثورة.
وتم زفافها هي على (فؤاد)؛ حتى يشق (حسين) طريق طموحاته.
في البداية تمنت أن تتزوج (شريفة) بعدها بقليل، حتى يطفئ هذا نيران ضميرها
وخاصة عندما ظهر (أمجد)...
الشاب الوسيم، الذي كان يعمل تحت إمرة (حسين)، والذي انبهر بشقيقتها فور رؤيتها، وتقدم لطلب يدها.
وكان حبه قد ملك شغاف قلب (شريفة) بالفعل ولكن (حسين) رفض.. وبمنتهى الإصرار.
رفض أن يزوج شقيقته من رجل يعمل تحت إمرته... لم تكن هذه هي صورة الزواج، كما يراها هو
الزواج كان بالنسبة إليه دوما ارتقاء...
صفقة تضمن الوثب إلى أعلى
لهذا لم يعارض في زواج (فؤاد) من (ناهد)، على الرغم من أنه أتى أساسا للزواج من (شريفة)...
ولكن (أمجد) ظل يلتقي بـ (شريفة)، على الرغم من رفض (حسين)...
وهنا طبق (حسين) شريعته
شريعة القوة والنفوذ...
شريعة الغاب.
- لست أفهم، لماذا ترفض (شريفة) الزواج من (عبد الحكيم)، على الرغم من عنو...
بتر حديثه دفعة واحدة، قبل أن يكمل كلمة (عنوستها)، ولكن (ناهد) فهمت ما يريد قوله، فهتفت ثائرة:

- (شريفة) ست بنات القرية كلها، ولو أرادت الزواج، ستغلق طرقات القرية من طوابير الشباب.
ابتسم في سخرية، وهو يقول:
- لماذا؟!... هل سيعتقل (حسين) بك من لا يتقدم للزواج بها؟!
احتقن وجهها في شدة، قبل أن تقول في لهجة متحدية:
- كيف حال شقيقك الآن؟!
انتقل احتقان الوجه إليه، وهو يقول في عصبية
- ومن أتي على ذكر شقيقي الآن؟! أجابته متشفية:
- إنه مجرد سؤال
هتف في غضب:
- سؤال لا محل له.
ابتسمت في ظفر، مغمغمه، وهي تشيح بوجهها:
- كما تشاء.
ظل وجهه محتقنا، وهو يدرك أنها قصدت إغاظته، ثم قال في تحد، لم يكن له ما يبرره:
- هل أخبرتك (نعيمة) شيئا؟!
سألته في لامبالاة:
- بشأن ماذا؟!
مال يجيبها، بنفس اللهجة المتحدية:
- بشأن (طارق) و (نادرة).
التفتت إليه في حركة حادة، وهي تهتف:
- ماذا عنهما؟!
راقه أن أفزعها، فتراجع في مقعده، يجيب:
- كنت أتصور أنها تعلم شيئا عنهما.
قالت في عصبية:
- أي شيء تقصد؟!

قال في بطء:
- الواقع أنني لمحتهما وسط الحقول، أثناء عودتي من (طنطا). ثم مال إلى الأمام في حركة حادة، مضيفا بلهجة متشفية:
- وكانا يتعانقان
وارتج جسد (ناهد) في عنف، واتسعت عيناها عن آخرهما فقد كانت هذه أقوى صفعة تلقتها في حياتها..
أقواها بالفعل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

106- التاريخ..

بذل (إبراهيم مكى) جهدا خرافيا؛ للسيطرة على أعصابه، وهو يجلس داخل القصر الجمهوري، في انتظار مقابلة (حسين البنهاوي)...

لم يكن يستطيع تقبل هذا على الإطلاق (حسين البنهاوي) صار في موقع، يسمح له باستدعائه يا لسخرية القدر!!...

إنه لم ينس أبدا أن المرة الأولى، التي التقى فيها (حسين البنهاوي) ووالده، كانت عندما كان هو ضابطا في البوليس السياسي، و(حسين) مجرد طالب في الكلية الحربية.

وكان هو يعتقله ووالده، بتهمة مناهضة النظام الملكي ثم جذب الضباط الأحرار (حسين) إليهم. أو أنه هو جذبهم إليه..

وبترقية استثنائية تلو الأخرى، صار (حسين) مساويا له، على الرغم من أنه هو دربه في البداية، ثم سرعان ما صعد (حسين)، وتغلبت شهوته للسلطة على الشهامة الريفية في أعماقه، وصار ذئبًا مثله، ولكن بمخالب أطول، وأنياب أكبر وأحدّ...

ومع ترقيته وصعوده في السلطة، تحول من ذئب إلى وحش.. وحش مفترس، لا يعرف الرحمة... وحش لا يتردد لحظة في سحق كل ما يعترضه أو يعترض طريقه... ودون ذرة واحدة من شفقة أو رحمة...

- إبراهيم) بك

انتزعه صوت (لطفى)، مدير مكتب (حسين) الشاب من ذكرياته، وهو يستطرد في احترام:

- (حسين) بك سيلتقي بك الآن.

تضاعف الحنق في أعماق (مكى)، وهو ينهض لدخول مكتب (حسين)...

(حسين) بك سيلتقي به!! حقا... يا لسخرية القدر!!...
انعقد حاجباه، عندما دخل المكتب، الذي بدا له أفخم بكثير مما تصوره، في حين نهض (حسين) يستقبله في مودة مدروسة، وصافحه قائلا:
- معذرة لانتظارك يا (إبراهيم)
كنت أتحدث مع الرئيس في أمر هام وعاجل.
كانت أول رسالة يرسلها (حسين) إلى (مكى)؛ ليخبره فيها أنه قد بلغ شأنا يسمح بالتحدث مع الرئيس مباشرة وشخصيا.
ولأن (مكى) أستاذ تآمرات، فقد استقبل الرسالة في تماسك، وهو يغمغم:
- كان الله في عونك يا (حسين) بك.
ربت (حسين) على كتفه:
- (حسين) فقط يا (إبراهيم)... إنها عشرة عمره
كان نوعا من التواضع المدروس، الذي علمه إياه (مكي) نفسه فيما سبق، لذا فقد ابتسم وهو يغمغم:
- بالطبع.
دعاه (حسين) للجلوس، وجلس على المقعد المقابل له، وهو يسأله بابتسامة:
- كيف أحوال العمل في الجهاز؟!
أجابه (مكى) في هدوء:
- على خير ما يرام.
كان (حسين) يهم بقول شيء آخر، عندما بادره (مكى) على نحو مباشر :
- ترى ما سر هذا الاستدعاء؟!
بقي (حسين) جامدا لحظة، وكأنه لم يستوعب تلك المباشرة غير المتوقعة، ثم لم يلبث أن تراجع في مقعده، وطرح المجاملات جانبا

وهو يسأله:
- هل تتابع تحركات الكبار هذه الأيام يا (إبراهيم)؟!
سأله (مكى) في حذر:
- من أية ناحية؟!
سأله (حسين) في اهتمام:
- هل بلغك ما حدث، في جلسة الاتحاد الاشتراكي؟!
أدرك (مكى) ما يعنيه (حسين)،
فاعتدل بدوره، وهو يقول:
- هذا جزء من عملي... أعلم أن الأعضاء لم يحسنوا استقبال سيادة الرئيس، وهتفوا باسم (جمال).
وصمت لحظة، ثم استدرك:
- ولكن سيادة الرئيس سيطر على الموقف
أشار (حسين) بيده، وهو يقول:
- سيادة الرئيس سيطر على الموقف، لأنه أكثر ذكاء ودهاء مما كان الكل يتصور، ولديه قدرة مدهشة على فهم الأمور، واستيعاب ما يدور حوله.
تمتم (مكى):
- هذا ما يبدو واضحا
مال (حسين) نحوه، وهو يقول في اهتمام:
- ولهذا فسيادة الرئيس يدرك أن الذين دبروا هذا يحيكون شيئا ما من حوله.
تساءل (مكى) في اهتمام حذر
- والمطلوب مني؟!
ابتسم (حسين)، وهو يميل نحوه أكثر:
- نفس ما علمتني إياه، في بداية حياتي... اختر الجبهة الرابحة، حين تحين لحظة المواجهة.

تطلع إليه (مكى) في صمت، وهو يحبس تساؤلاته في أعماقه
يختار الجبهة الرابحة؟!...
المبدأ صحيح، ولكنه لا يجيب السؤال من هي الجبهة الرابحة.
الغاضبون من (السادات) هم كل قيادات (مصر)، ورؤوس قوتها... الجيش والمخابرات والداخلية والإعلام والاتحاد الاشتراكى وحتى سكرتير الرئيس نفسه
في يدهم كل مقاليد القوة بلا استثناء، فماذا لدي (السادات)؟!... الشرعية؟! وهل يمكن للشرعية وحدها، أن تقف في وجه كل القوي في (مصر)؟!
(حسين) يطلب منه اختيار الجبهة الرابحة، فماذا يقصد يا ترى؟!...
هل يختبره؟!... هل يعلنه أنه مع الآخرين، مستغلا موقعه؟!... أم ماذا؟!... دار كل هذا في ذهنه، في لحظة واحدة، غمغم بعدها:
- سأختار حتما الجبهة الرابحة.
ثم استدرك في سرعة:
- إذا ما حدثت المواجهة.
تراجع (حسين) في مقعده في بطء، وهو يتطلع إليه بنظرة، بدت بالنسبة لـ (مكى) وكأنها تحمل معان بلا حدود، وصمت بضع لحظات، قبل أن ينهض إلى ما خلف مكتبه، وهو يقول في صرامة:
- المهم أن يكون موقفك واضحا، قبل أن تنحسم الأمور، وليس بعدها.
ورمق (مكى) بنظرة بالغة الصرامة، وهو يكرر:
- قبلها يا (إبراهيم)... وكما حدث في البداية، استقبل (مكى) الرسالة الجديدة...
تماما

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«كيف حال نسيبي العزيز؟!

قالها (عمر) بابتسامة كبيرة، وهو يدلف إلى مكتب (مفيد)، في مصنع الغزل والنسيج، فابتسم (مفيد) ابتسامة شاحبة باهتة، وهو يغمغم:

- في خير حال يا (عمر)... أسبوع واحد، وينتهي جرد كل أقسام المخازن.

جلس (عمر) على مقعد مواجه لمكتب (مفيد)، وهو يلوح بيده قائلا:

- من الواضح أن قرار تعيينك هنا، كان أفضل قرار اتخذته في حياتي... لقد أعاد إلينا (مفيد) الذي نعرفه، وهذا أهم ما في الأمر.

غمغم (مفيد):

- الفضل لله سبحانه وتعالى، ثم لك يا (عمر).

مال (عمر) نحوه في مودة:

- الفضل الله عز وجل وحده يا نسيبي العزيز. ثم اعتدل، يسأله في حيرة:

- ولكن لماذا أرى الحزن في عينيك طوال الوقت؟!

رفع (مفيد) عينيه الحزينتين إليه، وهو يتساءل في مرارة:

- ألا تعلم حقا لماذا؟!

تنهد (عمر) في حرارة، قبل أن يقول:

- إنني لم أسألك أبدا كيف كان لقاؤك مع (مديحة).

غمغم (مفيد):

- وليس هذا وقت السؤال

نطقها في حزن شديد، ضاعف من فضول (عمر) لمعرفة ما حدث، إلا أنه بذل جهده؛ ليخفي فضوله هذا في أعماقه، احتراما لمشاعر (مفيد)، وهو يقول، محاولا الابتسام:
- ألا يدهشك أن كلينا قد انشغل بمفاجأة العثور على (مديحة)، فلم تخبرني حتى الآن ماذا كنت تريد مني يومها، وأنا لقلة ذوقي لم أسألك أبدا.
غمغم (مفيد):
- أنت أبو الذوق كله يا (عمر).
ابتسم (عمر)، ومال نحوه قائلا:
- ماذا تكون أنت إذن
هيا أخبرني ماذا كنت تريد يومها، ولم تخبرني به؟!
تردد (مفيد) لحظات، فمال (عمر) أكثر عبر المكتب، ليربت على كتفه، وهو يقول في حماس:
هات ما لديك يا نسيبي العزيز... لو أنك تطلب عيني، فسأقتلعها وأهديك إياها، عن طيب خاطر.
ابتسم (مفيد) ابتسامة (باهتة)، وهو يقول:
- إنه شيء أقرب إلى عينك، ولكنه ليس لي أنا في الواقع
تراجع (عمر)؛ ليعود إلى مقعده، وهو يتساءل في فضول واهتمام:
- لمن إذن؟!
أجابه (مفيد):
- (طارق).
عاد (عمر) يبتسم، وهو يقول في حماس:
- عيناى لحفيد (البنهاوي) إنني أحترم هذا الصبي وأحبه في الواقع، خاصة وأنه يذكرني بصباك يا (مفيد).
تنهد (مفيد)، وهو يقول:

- سبحان الله.. التاريخ يعيد نفسه بالفعل يا (عمر)، وكأنما هي دورة، تتكرر كل جيل.
وافقه (عمر) بإيماءة من رأسه، وهو يسأل مبتسما:
- وماذا يريد (طارق) باشا بالضبط؟!
مال (مفيد) نحوه، قائلا:
- أنت قلت: إن (طارق) يذكرك بصباى، فهل تذكر متى أحببت أنا (مديحة) ابنة عم (إسماعيل).
ضحك (عمر) وهو يقول:
- كنت في مثل سنه تقريبًا:
- تراجع (مفيد)، قائلا
- ألم أقل لك: إن التاريخ يعيد نفسه؟!
حاول (عمر) أن يربط الحديثين ببعضهما البعض، وهو يتساءل:
- ومن يحب (طارق) باشا بالضبط؟!
تنحنح (مفيد)، والتقط نفسا عميقا، وكأنما يمهد نفسه لقول ما لديه قبل أن يشحذ كل همته، ويجيب في توتر:
- ابنتك... (نادرة).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- يا للمصيبة!!...
لطمت (نعيمة) صدرها، وهي تصرخ بالكلمة في ارتياع، جعل (عمر) يقول في دهشة:
- مصيبة؟!... وأية مصيبة في هذا؟! ابن خالها، وحفيد عائلة (البنهاوي) هل تحلمين لابنتك بأفضل من هذا؟
صاحت مستنكرة:
- إنه ابن (فاطمة).

قال في صرامة:
- بل ابن (حافظ البنهاوي). لطمت صدرها مرة أخرى، وهي تهتف:
- يا لمرارى!!... ابنتي الوحيدة، ألقيها بنفسي في المستنقع.
احتقن وجه (عمر)، وهو يقول في حدة:
- لا أستطيع أن أفهمكم أبدا يا آل (البنهاوي) متباهون ومتغطرسون دوما بحسبكم ونسبكم، على الرغم من أن هذا الحسب والنسب يبدأ من والدكم فحسب، والذي جاء إلى القرية فقيرا معدما حافيا كما يذكر الكل.
صرخت:
- أبي كان سيد الرجال.
تجاهل تعليقها تماما، وهو يواصل بنفس الحدة.
- ومن الخارج تبدون أسرة قوية متماسكة، تنعم بسطوة ونفوذ وديكتاتورية (حسين) باشا، الذي يبني مجد الأسرة بالدم والسيف والكرباج.
صرخت في انفعال أكثر:
- لا تمس أخي (حسين) بحرف واحد
علا صوته، وهو يواصل في حدة أكثر:
- ولكن من الداخل، أنتم مجرد أعواد حطب متفرقة، كل منكم يحيا في واد منعزل عن الباقين، ولا يجمعكم سوى سراى، بات بالنسبة لي أشبه بالسجن الحربى، دخوله هو قمة كوابيسى.
صاحت في انفعال شديد العصبية:
- قل ما يحلو لك ولكن ابنتي الوحيدة لن تتزوج ابن (فاطمة عبد الحميد) أبدا.
قال في خشونة صارمة:

- للمرة الأخيرة أخبرك أن (طارق) ليس ابن (فاطمة عبد الحميد). إنه ابن (حافظ البنهاوي)، شقيق (حسين البنهاوي)، كبير أكابر هذا البلد

هزت رأسها في قوة وعناد، صارخة:

- تلك الحقيرة لن تنفذ مآربها، وتفوز بنسب جديد لعائلة (البنهاوي).

بدا غضب (عمر) هادرا، وهو يقول:

- وماذا لو أن (نادرة) تبادله حبًا بحب؟!

هتفت:

- مستحيل!

انعقد حاجباه في شدة، وصاح:

- (نادرة)... تعالى.

دخلت ابنته ترتجف، مع ما تناهى إلى مسامعها من شجارهما، وهى تغمغم:

- نعم يا أبي.

قبل أن تنفرج شفتاه، صرخت فيها (نعيمة):

- هل ما يقوله والدك صحيح يا قليلة الأدب والحياء؟!

زمجر (عمر) معترضا، في حين انكمشت (نادرة) في خوف، وهى تجيب مرتجفة:

- (طارق) ابن خالي، وهو شهم ومحترم، و.

قاطعتها بصوت أشبه بعاصفة عاتية:

- هل تحبينه؟!

انكمشت البنت أكثر وتطلعت إلى والدها في خوف، قبل أن تهمس:

- نعم... إنه

في هذه المرة لم تقاطعها صرخة أمها...

لقد قاطعتها صفعة قوية على وجهها

صفعة لم تهو على وجهها فحسب.
ولكن على قلبها الصغير
وبمنتهى منتهى القسوة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مطت الأميرة عايدة شفتيها في ازدراء، وهي تمشط شعرها الطويل، أمام مرآة حجرة النوم، التي عكست صورة (حسين)، وهو يرتدي ثياب النوم، وقالت في بطء:
- هل تثق به؟!
سألها بلا اهتمام:
- من؟!
قالت في ضيق:
- (إبراهيم مكى) بالطبع.
صمت لحظات، وهو يكمل ارتداء ثيابه، قبل أن يتجه نحو فراشهما وهو يجيب في هدوء:
- أخبرتك من قبل أنه هناك فارق كبير، بين أن أعمل مع شخص أثق في قدراته، أو أثق في شخصه... (مكى) أستاذ في مضماره، وعقليته تآمريه من الطراز الأول، وقدرته على فهم الأمور، واستيعاب التطورات مدهشة، ولهذا أحاول دوما ضمه إلى صفى؛ لأن العكس يخلق خصما رهيبا، تكلف مواجهته الكثير من الجهد والوقت، مع احتمالات غير محدودة للخسارة.
التفتت تحدق فيه في دهشة، وهو يندس تحت الغطاء
لقد اختلف كثيرا عن يوم عرفته..
اختلف عن (حسين) الريفي الهادي الشهم..

(حسين) الذي خدعته؛ وأوهمته بحبها، لكي تحصل منه على تصريح بالسفر، يتيح لها الذهاب إلى (باريس)، حيث أموالها ومجوهراتها..
إنه الآن (حسين) آخر
(حسين) مختلف تماما
لقد صار قويا، حاسما، حازما، صلبا، واثقا... حتى مشاعره اختلفت لم تعد قوية كما في السابق ولم يعد من السهل التلاعب بها ولكن العجيب أن هذا ما تحبه في الرجال..
كل الرجال، الذين ارتموا تحت أقدامها حبًا وولها، طوال مشوار حياتها، لم يحظ أحدهم بذرة من احترامها.
كلهم كانوا بالنسبة لها مثالا للضعف البشرى الذكوري، في أسوأ صورة.
ولأنها قوية، فهي لا تقبل الضعف في الرجال لا تقبله أبدا..
تأملت (حسين) بضع لحظات، وهو يراجع بعض الأوراق في الفراش، وكأنها تراه لأول مرة، على الرغم من فترة زواجهما الطويلة نسبيا وشعرت في أعماقها بشعور عجيب، لم تشعر به من قبل قط شعور الأنثى، التي تزهو بأنها زوجة..
وفي بطء، وبحركات أنثوية مدروسة، خلعت روبها المنزلي، وضبطت هندام ثوب النوم الحريري القصير، ثم اندست تحت الغطاء إلى جواره، وهي تميل نحوه؛ لكي يصل عطرها إلى أنفه، قائلة:
- أمن الضروري أن تواصل العمل، حتى ونحن في الفراش؟!
غمغم، دون أن يلتفت إليها:
- إنه تفريغ لبعض التسجيلات الهاتفية الهامة.
قالت في دلال، وهي تلتصق به:
- ألا يمكنه أن ينتظر للغد؟!

تسلل عطرها الأنثوي الرقيق إلى أنفه بالفعل، ودغدغ مشاعره الذكورية على نحو خاص، فوضع الأوراق جانبا، وهو يقول مبتسما:
- يمكنه بالطبع
أطلقت ضحكة ناعمة رقيقة، تحمل كل علامات الدلال الأنثوية، مع دعوة صريحة للحب، فالتفت إليها بجسده كله، واحتواها بين ذراعيه، ولكنه فوجئ بها تسأله في دلال:
- (حسين)... لماذا لم ننجب حتى الآن؟!
أدهشه السؤال، في هذه اللحظة بالذات، فهمس في أذنها، وهو يضمها إليه أكثر:
- المفترض أن أطرح أنا عليك هذا السؤال؛ فأنت من ترفض الإنجاب منذ زواجنا.
انعقد حاجباها الجميلان في شدة، وهي تترك نفسها بين ذراعيه.
إنه على حق..
منذ زواجهما وهي ترفض فكرة الإنجاب
ربما لأنها اعتبرت زواجها منه مجرد نزوة، أو انفعال مؤقت، لن يلبث أن يزول..
أو ربما لأن عشقها لجسدها يفوق إحساسها بالرغبة في الأمومة، والكامن في أعماق كل أنثي.
أو لأنها، مع (حسين) القديم، لم تكن ترغب في ارتباط أبدى بطفل..
أما مع (حسين) الجديد، فهي ترغب في هذا بل وتشتاق إليه
تشتاق إلى ابن، يحمل اسم (حسين البنهاوي). بدت لها الفكرة عابثة بضع لحظات، إلا أنها لم تلبث أن شعرت بالارتياح لها، فأحاطت عنق (حسين) بذراعيها البيضين، وهي تهمس؟
- هل ترغب في ذكر أو أنثى؟!

أجاب، وهو يقبل وجنتها:
- ذكر بالطبع... (بنهاوى) صغير، يرث أرض (البنهاوي) وسراى (البنهاوي).
ضحكت هامسة:
- مازلت فلاحا كما أنت.
همس:
- وأنت ازددت جمالا، و.
قبل أن يتم كلمات الغزل، ارتفع رنين الهاتف المجاور لفراشهما فجأة على نحو جعل (عايدة) تنتفض هاتفة في استنكار:
- في هذا التوقيت!!.
استدار هو يلتقط سماعة الهاتف في سرعة؛ لأنه يعلم أن قليلين فقط من يجرؤون على الاتصال به، في مثل هذه الساعة، وهتف:
- من؟!
أتاه صوت (لطفى) مدير مكتبه، وهو يقول في اضطراب شديد:
- سيدى... لابد وأن تأتي فورا.
اعتدل (حسين)، وهو يسأله في توتر:
- ماذا حدث يا (لطفى)؟!
انتبهت كل حواس (عايدة)، في انتظار معرفة الأمر، ولكنها، وعلى الرغم من أنها قد أرهفت سمعها، لم تسمع ما قاله (لطفى)، ولكنها رأت تأثير كلماته في وجه (حسين) وملامحه.
فلقد كان من الواضح أنه يتلقى صدمة عنيفة
بكل ما تحمله الكلمة من معان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

107- القوي..

- ماذا تريد مني يا أستاذ (مفيد)؟!

تراجع (مفيد) مصدوما، عندما استقبلته (مديحة) بهذا السؤال، في عصبية بالغة، أمام مقر الشركة، التي تعمل فيها في (الإسكندرية)، وغمغم في ألم:

- أستاذ؟!

صاحت به في حدة:

- ماذا تريد مني؟!... وماذا أفعل لتتركنا في حالنا؟!... إنك تطاردني في كل مكان، وشقيقك يطاردك، وينكل بنا نحن..

خفض عينيه مصدوما، وهو يقول في مرارة:

- لم تكن لي يد في هذا.

قالت في شراسة، تتعارض تماما مع صورتها الجميلة، التي عاشت في ذهنه طويلا:

- ولم تكن لك قدرة على حمايتنا أيضا.

رأته يتراجع وينكمش في انهزام، فخففت من حدتها وشراستها وهي تضيف:

- أستاذ (مفيد)... أنت إنسان طيب، وصادق وكبير القلب ثم مالت نحوه، واستعادت جزءا من شراستها، مردفه:

- ولكنك ضعيف.

انتفض جسده كله في عنف، كما لو أنها قد استجمعت كل مشاعرها في صفعة واحدة، هوت بها على كيانه كله...

ضعيف؟!... إنها أول مرة في حياته، يصفه فيها أحد بالضعف

مشكلته طوال حياته هي أنه يرفض الضعف

من أجل هذا كان الوحيد، الذي يواجه (حسين) في قوة...

والوحيد الذي لا يخشى قول ما لديه

الوحيد الذي اعتقله شقيقة؛ ليكسر قوته واندفاعه...
ولكنها على حق...
إنه ضعيف
شقيقه (حسين) نجح في سلبه قوته، وكسر قلبه وإرادته.
سلطته ونفوذه، وتلك العقدة النفسية التي تحكم حياته، والتي يطلق هو عليها اسم (هرم البنهاوي)، جعلته قاسيا عنيفا، لا يعرف الرحمة ولا يرى في حياته كلها إلا أمرين.
طموحه وتفوقه.. وأرض (البنهاوي)..
ولقد حاول التصدي له أكثر من مرة، ولكن الأمر كان أشبه يشبل، يحاول منع زعيم قطيع الأفيال، من بلوغ النهر.
وما يفعله (حسين) مع كل من يعترض طريقه،
لم يتردد لحظة في أن يفعله معه
سحقه
حطمه
كسر إرادته
وبكل السبل الممكنة
فعندما يستفز شيء ما سلطة (حسين) وسطوته، فهو لا يعرف الرحمة.
وليست لديه طرق، لا يمكنه أن يسلكها وربما لهذا استعان بذاك الحقير (جودة)..
أخرجه من المعتقل، وأعاده إلى مقهاه في البلدة، ليس ليصير عينا وأذنا له فحسب، ولكن لكي يقود (مفيد) إلى طريق جديد، يبعده عن مسار حياته تماما
طريق غياب العقل وضعف الإرادة.. طريق المخدرات
- أستاذ (مفيد) .. انصرف أرجوك

انتزعته (مديحة) من أفكاره بهذه العبارة الصارمة، فتطلع إليها بعينين حزينتين بائستين، وهو يغمغم في مرارة:
- ألا تمنحينني دقائق قليلة، لكى..
قاطعته في صرامة:
- لا يا أستاذ (مفيد) إننا نقف أمام مقر عملي، الذي أفنيت عمري من أجله، والذي لن أسمح لك بطردي منه هذه المرة.
تراجع كمن تلقى صفعة، وهو يهتف بصوت مختنق:
- طردك!!
استعادت شراستها، وهي تميل نحوه، وكأنها تهم بافتراسه، قائلة:
- تركنا القرية إلى (القاهرة)، ولكنك ظهرت في حياتي، واضطررت أبي رحمه الله إلى نقلنا إلى هنا.
اتسعت عيناه، وهو يهتف:
- ياه!... هل مات عم (إسماعيل)؟!...
أجابته في شراسه مضاعفة:
- نعم... مات مقهورا... بسببك
تراجع مصعوقا، في حين اعتدلت هي، مضيفة في مقت واضح:
- ولم يعد لي الآن سوى زوجي وأولادي... ولن أخسرهم بسبب إنسان ضعيف مثلك.
اتسعت عيناه عن آخرهما، وهي تتركه، وتندفع لعبور الشارع، إلى حيث مقر عملها.
- زوجها وأولادها؟!... كيف لم يخبره (عمر) بهذا؟!
كيف؟!
وكالميت الحي، راح يسير بمحاذاة كورنيش الإسكندرية... وكان الجو لطيفا، في تلك الفترة من العام. ولكن الأمطار كانت تنهمر تنهمر من عيني (مفيد)...
وبكل غزارة...

- هل سمعت ما حدث؟!
اندفع (عمر) إلى مكتبه، وهو يهتف بالسؤال في انفعال، فرفع (مفيد) عينيه إليه بمشاعر خاوية، وهو يغمغم:
- وماذا حدث؟!
مال (عمر)؛ ليستند على سطح مكتبة براحته، وهو يكمل في حماس انفعالى:
- كل الكبار، الذين كنا ترتجف لمجرد ذكر اسمهم.
غمغم (مفيد):
- ماذا عنهم؟!
اعتدل (عمر)، ولوح بذراعيه في الهواء، وهو يهتف:
- السادات أطاح بهم جميعا..
ثم ضم قبضته، والتمعت عيناه، مضيفا:
- وبضربة واحدة...
واتسعت عينا (مفيد)
بكل دهشة الدنيا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلك الأيام كانت ساخنة وملتهبة بالفعل
كل القوى في (مصر) اجتمعت ضده...
وزير الحربية
ووزير الداخلية
ووزير الإعلام
ومدير المخابرات
ورئيس مجلس الشعب
وحتى سكرتير مكتبه نفسه

وبكل حسابات الدنيا، كان من الضروري أن ينجح هذا التحالف المخيف في الإطاحة بالسادات، وإحكام قبضته على (مصر)...
ولكن دهاء (السادات) فاق كل التوقعات حتى توقعات خصومه أنفسهم.
لقد تقدموا جميعا باستقالتهم دفعة واحدة، وتبعهم المئات من قيادات الاتحاد الاشتراكي، التنظيم السياسي الوحيد بالبلاد، في ذلك الحين..
استقالة جماعية، أصابت (مصر) كلها برجة عنيفة، وبحالة من الذعر والفزع، باعتبار أن هذا يخلق فراغا دستوريا مباغتا، يمكن أن يؤدي إلى فوضى عارمة في البلاد.
وفور إعلان الاستقالات، تصور الكل أنه لن تشرق شمس الغد، إلا ويكون (السادات) خلف القضبان، والكبار يدرسون من سيجلس منهم مكانه، على كرسي الحكم..
ولكن (السادات) تحرك في سرعة، لم تخطر ببال أحد..
أعلن قبول الاستقالات، وبعد دقائق كان وزراء الحربية والداخلية والإعلام الجدد، يؤدون أمامه اليمين الدستورية، ويحملون خطابات تنصيبهم إلى وزاراتهم، في نفس الوقت الذي تحرك فيه الحرس الجمهوري، بقيادة (الليثي ناصف)، ليعتقل كل المستقيلين دفعة واحدة، وفي توقيت واحد تقريبا، ويلقيهم في السجون.
الكل عمل طوال الليل، حتى لم تشرق شمس اليوم التالي، إلا وكان الرئيس (السادات) يسيطر على البلد، وكل خصومه لا يملكون حتى السيطرة على زنازينهم.
وبقدر ما كانت صدمة الشعب، كان انبهاره برئيسه، الذي حل محل الزعيم الراحل.
وانتشت القلوب والعقول والأجساد، بخبر سقوط أولئك، الذين كانت ترتجف لذكرهم القلوب..

ولأول مرة، منذ توليه الرياسة، خرج الناس إلى الشارع، يهتفون باسم (السادات)، الذي أزال حملا جثم طويلا، على قلوبهم وصدورهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- الآن يبدأ عهد جديد...
قاله (حسين) في نشوة، وهو يتطلع عبر نافذة مكتبه، قبل أن يلتفت إلى (إبراهيم مكى)، متسائلا بابتسامة:
- هل كنت تتوقع هذا بالله عليك؟!
هز (مكى) رأسه نفيا في بطء، وهو يجيب:
- مطلقا.
ثم اعتدل، مضيفا:
- بكل حسابات الدنيا، كان من الطبيعي أن أنحاز إليهم، وليس إلى الرئيس؛ فهم يملكون كل مفاتيح القوة، في أي بلد.
ابتسم (حسين) مغمغما:
- لهذا أطلق عليهم سيادة الرئيس اسم (مراكز القوى).
أومأ (مكى) برأسه إيجابا،
فتحرك (حسين) ليجلس أمامه، متسائلا:
- لماذا إذن اخترت جبهة سيادة الرئيس وليس جبهتهم؟!
صمت (مكى) لحظة، ثم مال نحوه، مجيبًا
- الكراهية.
تراجع (حسين) في دهشة: الكراهية؟!... اخترت جبهتنا، فقط لأنك تكرههم؟!
أطلق (مكى) ضحكة قصيرة، قبل أن يقول:

- أنت تعرفني أفضل من هذا بكثير يا (حسين) بك... العواطف والمشاعر لم تدخل في حساباتي قط.
وارتسمت تلك الابتسامة الذئبية الخبيثة على شفتيه، وهو يضيف:
- وأظننا نتفق كثيرا في هذا.
لم يرق القول الأخير لـ (حسين)، إلا أنه تجاوزه، وهو يسأل (مكى) في اهتمام:
- لماذا وصفت السبب بمصطلح (الكراهية) إذن؟!
أشار (مكى) بيده، مجيبًا :
- أولئك الرجال كانوا يملكون مفاتيح القوة، إلا أنهم كانوا مكروهين من الشعب بشدة، وكان هذا يعني أن أحدا من الشعب لن يقف إلى جوارهم. إذا ما حدثت المواجهة.
قال (حسين) في تشكك:
- ولكن مع كل ما يملكونه من قوى، لم يكونوا بحاجة إلى الشعب إذا ما ضربوا ضربتهم.
رفع (مكى) سبابته، قائلا:
- إذا... لا تنس كلمة إذا هذه... لقد قضيت ليلتين كاملتين، أدرس فيهما ملفاتهم جميعا، قبل أن أدرك حقيقة هامة.
مال (حسين) نحوه، يسأله في اهتمام:
- وما هي؟!
أشار (مكى) بيده، مجيبًا :
- لقد كانت لديهم ثقة مفرطة في قوتهم، تجعلهم لا يتخيلون أن يجرؤ إنسان على الوقوف أمامهم، ولا حتى الرئيس نفسه... ثم أن أساليبهم كلها اعتمدت على تلك الثقة المفرطة، والتي بلغت في الواقع حد الغرور، حتى أنهم لن يعمدوا إلى ضرب ضربتهم دفعة واحدة ولو فعلوا لسقط الرئيس في قبضتهم، قبل حتى أن يدرك ما حدث.

غمغم (حسين):
- من حسن الحظ أنهم لم يفعلوا.
مال (مكى) نحوه، قائلا في حزم واثق
- كان من المستحيل أن يفعلوا.
بدت الدهشة في عيني (حسين)، فتابع (مكى) مبتسما:
- لقد افترضوا أن انتصارهم أمر محسوم، وأرادوا أن يسبقوه بمشهد درامي، يمهد الشعب لاستقبال ما سيحدث كأنهم يعدون المسرح لمسرحية قبل أن تبدأ.
حدق فيه (حسين) لحظات، ثم لم يلبث أن انفجر ضاحكا، وهو يقول:
- مشهد ومسرحية وكواليس؟!... أشعر أنني أجلس مع (يوسف وهبي)، وليس مع ذئب الذئاب.
غمغم (مكى) مستنكرا:
- ذئب الذئاب؟!
ضحك (حسين) مرة أخرى:
- هذا مدح وليس ذم يا صديقي.
حاول (مكى) أن يبتسم مجاملا، في حين تابع (حسين) في اهتمام:
- هل تعلم لماذا أردت أن تنضم إلينا يا (إبراهيم)؟!
غمغم (مكى) في حذر:
- صداقتنا؟!
ضحك (حسين)، مجيبًا :
- صداقتنا؟!... لقد قلتها بنفسك يا (إبراهيم)... لا شأن للعواطف أو المشاعر في حساباتنا.
تساءل (مكى)، وحذره يتزايد:
- لماذا إذن؟!

مال (حسين) نحوه، وشبك أصابع كفيه أمامه، وهو يسند مرفقيه على فخذيه، قائلا في جدية:
- المواجهة بين سيادة الرئيس ومراكز القوى كانت حتمية، وخاصة بعد أن عزل (على صبري)، الرجل القوي في البلاد، من رياسة الاتحاد الاشتراكي، الذي غضب عليه سيادة الرئيس، منذ أساء أعضاؤه استقباله، في أول خطبة له هناك وبحسبة بسيطة، كان من المتوقع أن تصنع المواجهة خطا فاصلا في تاريخ (مصر)... وهذا ما كان.
غمغم (مكى):
سمعت أن الرئيس ينوى إلغاء الاتحاد الاشتراكى.
أومأ (حسين) برأسه إيجابا، وقال:
- القرار مدروس، منذ تلك الجلسة المستفزة لسيادة الرئيس هناك... في اللجنة المركزية، وكانت فقط مسألة وقت، واختيار التوقيت.
سأله (مكى) في اهتمام:
- وكنت واثقا من ربح الرئيس للمواجهة؟!
مرة أخرى، أوما (حسين) برأسه إيجابا، وابتسم وهو يتراجع في مقعده، مجيبًا :
- عندما تعمل فترة، إلى جوار سيادة الرئيس، تدرك كم هو داهية جم الذكاء، ولديه الجرأة، والقدرة على اتخاذ القرارات الحاسمة في سرعة، وفي الوقت المناسب.
حدق فيه (مكى) في دهشة، غير مصدق أنه يجلس أمام (حسين البنهاوي)، الذي كان يوما تلميذه، يجلس أمامه حائرا مرتبكا، يسأله المشورة!!
(حسين البنهاوي)، الذي أخرجه يوما من المعتقل؛ لأنه عاجز عن تسيير أموره، ومواكبة ما حوله من مؤامرات وتآمرات!!...

(حسين) الذي يجلس أمامه الآن لم يعد تلميذه... لقد صار أستاذا... زعيما القطيع الذئاب وحش مفترس، له عقلية مخيفة، تنافس الشيطان نفسه. ومع كل تلك المشاعر، غمغم (مكى) مستسلما:

- كل هذا لا يبرر ما فعلته معي يا (حسين) بك

قال (حسين) في اهتمام:

- اسمع.. سيادة الرئيس اليوم له شعبية جارة، وهو يهدم المعتقلات ويطلق حرية الصحافة، ويحرق التسجيلات وعندما يسقط الاتحاد الاشتراكي، ستصبح الساحة في (مصر) خالية، بدون تنظيم سياسى مهيمن، أو مراكز قوى مسيطرة.

غمغم (مكى)، مستعيذا حذره:

- أية ساحة خالية، هي جاذب قوى لمراكز قوى جديدة.

قال (حسين) في حزم:

- وهناك بالفعل مراكز قوى جديدة، متأهبة للسيطرة على الساحة وبكل الفضول والاهتمام والحذر، سأله (مكى):

- من؟!

مال (حسين) نحوه بشدة، وتألقت عيناه على نحو وحشى، وهو يجيب بابتسامة ذئب:

- نحن.

وتراجع (مكى) في حدة، وكيانه كله يرتجف في عنف... ودون أدنى مبالغة، راودته فكرة الانحناء أمام الملك

ملك الذئاب..

الجديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- (نادرة)...

همس (طارق) بالاسم، في خفوت حنون، فالتفتت إليه (نادرة) بوجه محمر، وهو تهمس بدورها:
- (طارق). كانت تجلس إلى جوار الساقية القديمة على جذع شجرة متآكل فجلس إلى جوارها، وهو يقول في أسى:
- أليس من العار ألا أجد سبيلا للالتقاء بك إلا سرا وأنت ابنة عمتي؟
هزت كتفيها بدون أن تجيب، وترقرقت دمعة في عينيها، دون أن تنبس ببنت شفة، فتساءل في مرارة:
- ألأننا مازلنا صغيرين؟!
هزت رأسها نفيا، وقالت في أسى:
- ليس هذا هو السبب
تساءل في ألم:
- ماذا إذن؟!
انسالت دموعها على خديها الورديين في صمت، جعل قلبه يدمى، مما أشعره بغصة في حلقه، جعلته يلوذ بالصمت بضع لحظات، قبل أن يتساءل في لهجة عجيبة، بدت وكأنها تحمل في حزنها لمحة من الأمل:
- أبسبب خلاف عمي (حسين)، مع عمي (عمر)؟!
هزت رأسها نفيا، ودموعها تغرق وجهها، وتمتمت:
- على العكس... أبي كبير العقل وحكيم، ولا يضع مشاعره عقبة أمام قراراته.
وازدادت غصة في حلقها، قبل أن تضيف:
- ثم إنه يحبك.
غمغم:
- شعور متبادل.

غلفهما الصمت لحظات، مسحت هي خلالها دموعها، ولكن ما أن جف وجهها، حتى عاد يبتل بدموع جديدة، تعجز عن السيطرة عليها، في حين غمغم هو:
- عمي (مفيد) علمني أن بلوغ أي مأرب شريف، لا يتم إلا بوسائل شريفة، وأنه مادام الحب يربط بين قلبينا، فالأسلوب الأمثل هو أن أتقدم لخطبتك مباشرة.
وازدرد غصته مرة أخرى، قبل أن يضيف:
- وهذا ما فعلته.

كانت عيناه جافتين، إلا أن صوته كان يقطر بالدموع، مما جعلها تتردد لحظة، ثم ربتت على كفه في حذر، جعله يميل أصابعه، ليحتضن بها أصابعها، دون أن ينبس كلاهما ببنت شفة..
وطوال خمس دقائق كاملة، ظلا على صمتهما، إلى أن قال هو في مرارة:
- لا يمكنك أن تتصوري كم كنت أتمنى، أن يكون الخلاف مع عمي (حسين) سبب الرفض.
تمتمت في دهشة:
- تتمني؟!
أجابها بكل مرارته:
- نعم؛ لأنه لو لم يكن كذلك، فالسبب هو أمر أبغض مجرد التفكير فيه.
ازدردت لعابها في توتر، وهي تخشى أن يكمل، ولكنه أفلت أصابعها، ونهض واقفا، يكمل في مرارة، تسلل إليها شيء من الحدة:
- أمى.
سرت في جسدها قشعريرة، وهي تغمغم في تخاذل:

- ماذا تقول يا (طارق)؟!
أجاب، وقد غلبت حدته مرارته:
- هذا هو السبب الوحيد، الذي تبقى أمامي يا (نادرة) السبب الذي لابد وأن أعترف به، حتى ولو كان يغضبني.
عمتي رفضتني زوجا لك؛ لأنها تكره أمي.
ازداد تخاذلها، وهي تتمتم في خفوت:
- لا تقل هذا.
لوح بذراعه كلها، هاتفا:
- دفن الرأس في الرمال لا يحل أية مشكلة، كما علمني عمي (مفيد) منذ حداثتى.
تمتمت في أسى:
- لماذا يدفن هو رأسه في الرمال إذن؟!
لم ينتبه لعبارتها، وهو يواصل، ومشاعره تنتقل إلى خانة الغضب:
- كراهية عمتي (نعيمة) لأمي ليست خافية على أحد... تكرها لأن أصلها لم يكن مثل أصل (البنهاوية)... تكرهها لأنها تشعر أن أمي كانت ومازالت خادمة في السراي، وليست زوجة أخيها.
احتقن وجهه لحظات، قبل أن يستطرد صارخا:
- وهذا ظلم بيّن.. أمي تزوجت (بنهاوى)، وهذا يعني أنها، ومنذ زواجها به، صارت (بنهاوية) مثله.. ولن أسمح أبدا بأن يعاملها أحد بأقل من هذا.
شعرت بالشفقة والأسى من أجله، وهي تنهض وتمسك كفه، قائلة:
- (طارق)... أرجوك... إني...
قبل أن تتم عبارتها، ارتفعت صيحة هادرة غاضبة:
- (نادرة).
وكاد قلباهما الصغيران يهويان بين أقدامهما..
وبكل العنف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

108- انكسار..

- (فاطمة)... أين أنت يا عرة النساء؟!

سمعت (فاطمة) الصيحة، التي تحمل صوت (نعيمة) الغاضب، وهي تقف إلى جوار (شريفة)، في مطبخ السراى، فالتفتت إليها (شريفة) في قلق، في حين التقطت هي منشفة صغيرة لتجفيف يديها، وهي تزفز قائلة بصوتها الخشن:

- أعوذ بالله من خلق الله ثم كشرت عن أنيابها، وهي تندفع خارج المطبخ، صائحة بدورها:

- أيها الجالسون، يكفيكم شر القادمين... نعم يا ست الستات وابنة الناس المحترمين... ماذا تريدين من عرة النساء؟!

اندفعت خلفها (شريفة)، وهي تغمغم في انفعال:

- يا ساتر يارب ماذا حدث؟!

لم تكد (فاطمة) تخرج إلى صالة السراي، حتى فوجئت بـ (نعيمة) أمامها، منقلبة السحنة، مكفهرة الوجه، محمرة العينين واستقبلتها صارخة:

- ألن تكفي عن ألاعيبك ومخططاتك، يا ابنة كلاف البهائم؟!

عقدت (فاطمة) حاجبيها، ووضعت قبضتها في وسطها، وهي مازالت تمسك منشفة المطبخ الصغيرة، هاتفة، في خشونة وشراسة:

- أبي رحمه الله، عندما مات كان عمدة القرية.

صرخت فيها (نعيمة):

عمدة القرية؟!... عرة العمد هل نسيت يا خادمة السراى، من وضع كلاف البهائم على مقعد العمدة؟!... من رفع خادمه؛ حتى يصير في موقع، لا يشعرنا بالخزي والعار؟

احتقن وجه (فاطمة)، وهي تصيح:

- الباشا ابن الباشا يا بذيئة اللسان... نقبل كفوفنا شكرا وعرفانا لكنك أنت من نسى، يا غراب الشؤم، من وضع أبي في قبره... أليس الباشا ابن الباشا أيضا؟!

بدت (نعيمة) أشبه بالمجنونة، وهي تصرخ:

إياك أن تذكري اسم أخي (حسين) على لسانك، أيتها العقربة المتوحشة.

مصمصت (فاطمة) شفتيها، وضربت راحتها اليمني بظهر كفها الايسر، وهي تقول في خشونة غليظة متحدية:

- ومن أتي على ذكر ابن الأكابر.

صرخت (نعيمة)، وهي تنقض عليها، وتراجعت (فاطمة)، وهي ترفع قبضتها، فاندفعت (شريفة) تحول بينهما، وهي تمسك (نعيمة)، هاتفة في ذعر:

- ماذا حدث يا (نعيمة)؟!... لماذا كل هذا؟!

صرخت (نعيمة)، وهى تلوح في وجه (فاطمة) بسبابتها:

- تلك الحقيرة تخطط للاستيلاء على أرض (البنهاوي)... تتصور أن مؤامرتها الجديدة يمكن أن تنجح، فيما فشلت فيه مؤامراتها القديمة عندما سرقت ورقة الضد من (حسين).

انعقد حاجبا (فاطمة) الكثين، وهي لا تدري حقا، ما تعنيه (نعيمة) بكلماتها تلك.

إنها لا تنكر سعيها الدائم لبلوغ هذا الحلم حلم السيطرة على أرض (البنهاوي).. ولكن تجربتها السابقة في المواجهة، جعلتها تكتفي بالحلم.

ومع ذكر تلك المحاولة القديمة، التي أسفرت عن موت والدها خوفا وتقليص نصيبها ونصيب زوجها، من إيراد أرض (البنهاوي)، شعرت بالمزيد من المقت، على أسرة (البنهاوي) كلها، فهتفت في شراسة:

- أية مؤامرة تلك، التي غزلها خيالك المختل أيتها المرأة المأفونة؟!
ثارت ثائرة (نعيمة)، وكادت تفتك بـ (شريفة)؛ لكي تبعدها عن طريق (فاطمة)، وهي تصرخ في جنون:
- المرأة المأفونة هي أمك، التي ماتت حافية، في زريبة البهائم أيتها الـ...
- (نعيمة)..
قاطعتها تلك الصيحة الملتاعة، التي حملت صوت (حافظ)، فالتفتت إليه، وهو يقف نحيلا ممصوصا شاحب الوجه، عند باب حجرته، التي لا يغادرها إلا لماما، وقد اتسعت عيناه في ذعر.
كانت (نعيمة) في قمة الثورة، إلا أنها لم تكد تلمح (حافظ) بمظهره هذا، حتى لطمت صدرها فزعة، وهي تهتف:
- (حافظ)؟!... كيف بلغ بك الأمر هذا الحد؟!
هتفت (فاطمة) في شراسة:
- لو أنك فقط تلقين التحية على شقيقك، كل حين وآخر، يا أم الذوق والواجب، لما أدهشك مرأه الآن.
استدارت إليها (نعيمة) في شراسة، صارخة:
- اخرسي.
بدا من الواضح أن (فاطمة) ستصرخ في وجهها، لولا أن صرخ (حافظ):
- (نعيمة) ماذا تفعلين؟!
صرخت (نعيمة):
- اخرس أنت أيضا
وهنا هزتها (شريفة) من ذراعيها في قوة، وهي تصيح بها:
. ماذا أصابك؟!... اقتحمت المكان، كما لو أنك قاطرة مسرعة بلا سائق، وتطيحين في الجميع بلا ضابط أو رابط، ودون أن نعرف

حتى سبب ثورتك.
بدا (حافظ) أكثر شحوبا، في هيئته وصوته، وهو يقول:
- نعم... أخبرينا لماذا؟!
صاحت في حدة:
- زوجتك المصون خططت لخطف ابنتي الوحيدة.
تفجرت الدهشة في وجوه الجميع، ورفعت (فاطمة) حاجبيها الكثين في دهشة، ثم خفضتهما، وهي تمصمص شفتيها، قائلة:
- مخبولة.
صرخت فيها (نعيمة):
- أنت المخبولة ابنة المخبولة.
اكتفت (فاطمة) بمصمصة شفتيها مرة أخرى، في حين عادت (شريفة) تهز (نعيمة) في قوة، هاتفة:
- أي قول هذا؟!... اهدأي وأخبريني ماذا تعنين؟!
راحت (نعيمة) تلهث بشدة، بعض الوقت، في محاولة للسيطرة على أعصابها الثائرة، قبل أن تقول:
- هذه الحقيرة دفعت ابنها؛ للعب دور العاشق الولهان على ابنتى.
ارتفع حاجبا (فاطمة) الكثين، وهي تغمغم بصوتها الخشن:
- (طارق)؟!
أما (شريفة) فقد انتفض جسدها، وهي تردد مبهوتة:
- العاشق الولهان!!
في حين بدا (حافظ) حائرا، وهو يغمغم في ارتباك:
- ما الذي يعنيه هذا؟!
استعادت (نعيمة) شراستها، وهي تقول:
- ألقى شباكه حولها، وخدعها بكلامه المعسول، ويلتقي بها سرا، و.
قاطعتها (شريفة) بصيحة دهشة:

- (طارق)؟!
وتضاعفت نظرة الحيرة، المطلة من عينى حافظ، في حين لم تعلق (فاطمة) بحرف واحد، على الرغم مما يختلج به قلبها..
(طارق)، ابنها الوحيد، حفيد (البنهاوي)، صار صبيا يحب ويعشق!!...
نضج إلى هذا الحد؟!...
شعرت بمزيج من الحنان والفخر؛ لأن (البنهاوي) الصغير يخطو أولى خطواته، في عالم الرجولة.
وحتى عندما اختار، اختار زينة بنات القرية، ووردتها المشرقة.. (نادرة). فتاة طيبة القلب، رقيقة، جميلة، تقطر حنانا ورفقا.
عيبها الوحيد هو أنها ابنة الحيزبون (نعيمة).
- تصوروا أن ابن العقربة، جرؤ على طلب يد ابنتى!!
انتزعتها (نعيمة) بصيحتها هذه، فعاد حاجباها الكثان ينعقدان، وهي تغمغم في غلظة وخشونة:
- يطلب يدها بدوننا؟!
شهقت (نعيمة) مستنكرة، ورفعت سبابتها فوق حاجبيها، وهي تهتف:
- بدونكما؟!... هذا ما كان ينقص!!!... (نعيمة) ابنة (البنهاوي)، تضع يدها في يد (فاطمة) ابنة الكلاف!
رفعت (فاطمة) إحدى حاجبيها، وهي تقول:
- بل قولي إن (عمر)، والد (نادرة)، سيضع يده في يد (حافظ) بك... ابن (البنهاوي).
صرخت (نعيمة)، وهي تقفز من مكانها:
- الصلعاء تتباهى بشعر ابنة أختها... مالك أنت وعائلة (البنهاوي) يا عقربة الغيطان؟!...
هزت (فاطمة) كتفيها، وهي تقول في تحد مستفز:

- على الأقل، أنا زوجة (بنهاوى).
صرخت (شريفة)، وقد فقدت أعصابها القدرة على الاحتمال:
- كفي أنت وهي... كفى... كفى.
كلمتها الأخيرة صرخت بها على نحو هستيري، جعل (نعيمة) تتراجع مصدومة، و (فاطمة) تعقد حاجبيها في شدة.
والعجيب أن الصمت خيم على صالة السراى تماما بعدها، ولدقيقة كاملة على الأقل، قبل أن يتساءل (حافظ) في ضعف:
- وماذا يغضبك يا (نعيمة)؟!... الولد طرق البيوت من أبوابها وطلب يد البنت!!
هتفت (نعيمة):
- بتخطيط من هذه العقربة.
وثبت الشراسة إلى ملامح (فاطمة) مرة أخرى،
فأسرعت (شريفة) تقول في حدة:
- أي تخطيط يا (نعيمة)؟!... أين ذهب مخك بالضبط؟!
قبل أن تجيب (نعيمة)، سمع جميعهم صوتا صارما، يقول:
- سأخبرك أنا.
وكانت مفاجأة...
مدهشة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رفع (صلاح) مساعد (حسين) السابق عينية، إلى (إبراهيم مكى)، في حذر شديد، وهو يغمغم:
- لماذا الزيارة يا (إبراهيم) بك؟!
سأله (مكى) في هدوء:
- ماذا تفعل الآن يا (صلاح)؟!

ابتسم (صلاح) ابتسامة مريرة، وهو يجيب:
- أجلس في شرفة منزلى، وأصلى لله سبحانه وتعالى شكرا، على أنهم اكتفوا بفصلي من الخدمة، ولم يضعوني في السجن مع مراكز القوى.
تطلع إليه (مكى) لحظات في صمت، قبل أن يقول:
- أخطأت اختيار معسكرك يا (صلاح).
اكتفي (صلاح) بالتلويح بيده، كجواب على عبارة (مكى)، الذي تابع في اهتمام:
- عذرك بالطبع أن العقل والمنطق وحسابات القوة، كانت تؤكد أن (السادات) هو الطرف الأضعف.
استعاد (صلاح) ابتسامته المريرة، وهز رأسه متفقا في أسي، فتراجع (مكى) في مقعده، وقال:
- و (السادات) فاجأنا... أليس كذلك؟!
غمغم (صلاح):
- بلى.
ثم اعتدل يكرر سؤاله في توتر:
- لم تخبرني بعد لماذا طلبتني يا (إبراهيم) بك؟!
شبك (مكى) أصابع كفيه أمام وجهه، وهو يقول:
- هناك مشروع نستعد له، أنا و (حسين البنهاوي).
بدت الدهشة في ملامح (صلاح) وصوته، وهو يغمغم:
- مشروع؟!
قال (مكى) في سرعة:
- نعم... مشروع كبير أكبر بكثير مما تتصور
غمغم (صلاح) في حذر:
- عظيم.
مال (مكى) نحوه، قائلا

- وسنحتاج إليك معنا
هتف (صلاح) في دهشة:
- أنا؟!... وكيف يحتاج عملاقان مثلكما لقزم مثلي؟!
صمت (مكى) لحظات، وهو يتطلع إلى (صلاح)، الذي شعر بتوتره يتصاعد، مع كل ثانية تمر، حتى قال (مكى):
- هل تميل إلى الأسلوب المباشر يا (صلاح)؟!
السؤال أقلقه في شدة، فغمغم بكل الحذر:
- دوما يا (إبراهيم) بك
مال (مكى) نحوه أكثر، وهو يقول في حزم:
- الأعمال القذرة.
تراجع (صلاح) مصدوما، مع هذا الرد المباشر، وردد في عصبية:
- القذرة؟!
تراجع (مكى) في مقعده، وهو يقول:
- أليس هذا ما نطلقه عليها دوما؟!
صمت (صلاح) بضع ثوان، استوعب خلالها المفاجأة، يسأل في حذر أكثر:
- المصطلح ينطبق على الكثير من الأعمال.. أيها تقصد يا (إبراهيم) بك.
أجابه مباشرة:
- كلها
رأى أثر الصدمة واضحا، في عيني (صلاح)، فتابع:
- أنت تعلم مثلي أنه كلما كانت المشاريع ضخمة، كانت المتاعب والصعاب والحواجز بمثل ضخامتها، ومن الطبيعي ألا يمكن تجاوز كل هذا بالقوانين والوسائل التقليدية.
غمغم (صلاح):

- بالطبع.
أشار (مكى) بيده، مكملا:
- ولأنني و (حسين) بك نحتل موقعين شديدي الحساسية، فقد يعجزنا هذا عن مواجهة بعض التحديات والعقبات، بالوسيلة المناسبة لتجاوزها.
التقط (صلاح) نفسا عميقا، وقال:
- فهمت.
ثم استدرك في اهتمام:
- هل سيعني هذا أن أعود إلى العمل؟!
أجابه (مكى) في صرامة:
- كلا
تراجع (صلاح) في إحباط، فتابع (مكى) في حزم:
- ولكنك ستتمتع بسلطة أقوي.
تساءل (صلاح) في قلق:
- ومن سيمنحني إياها؟!
قال (مكى) في هدوء:
- أقوى رجل في (مصر)، في الوقت الحالي وصمت لحظة، ثم استطرد في حزم:
- (حسين)... (حسين بك البنهاوي).
ولم تكن مفاجأة لـ (صلاح)...
على الإطلاق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- (عمر) بك... صرت تأتي إلى السراي كثيرا هذه الأيام!!

قالتها (فاطمة) في لهجة عجيبة، لا تدري إن كانت ساخرة أم متحدية، عندما دخل (عمر) صالة السراى غاضبا، في حين امتقع وجه (نعيمة)، وهي تقول في عصبية:
- ماذا تفعل هنا؟!
صاح بها أمامهم:
- بل ماذا تفعلين أنت هنا؟! ألم أمرك بعدم الإقدام على هذه الحماقة؟! ابتسمت (فاطمة) في تشف، مغمغمه:
- وهل تتخلى الأفعى عن سمها؟!
احتقن وجه (نعيمة)، وهي تلتفت إليها في شراسة
- لا شأن لك أيتها العقربة الـ
قاطعها (عمر) بصرخة هادرة:
- كفى
ازداد احتقان وجه (نعيمة)؛ لأنه يصيح فيها أمام (فاطمة)، في حين اندفعت (شريفة) محاولة تهدئة الموقف:
- خير إن شاء الله... خير. استهدوا بالله، واجلسوا، وسأعد لكم شيئا يهدئكم.
أمسك (عمر) ذراع (نعيمة)، وهو يقول في صرامة:
- سنشربه في درانا.
أطلقت (فاطمة) ضحكة ساخرة قصيرة، ثارت لها أعصاب (نعيمة)، فجذبت ذراعها من يد (عمر)، هاتفة:
- اذهب أنت إلى الدار... أنا في سراى ابى.
شهقت (شريفة) مذعورة، لما يمكن أن يسفر عنه هذا، في حين تمتمت (فاطمة) في شماتة:
- أطيعي زوجك يا برنسيسة.
اعتصر الغضب قلب (نعيمة)، وعز عليها أن تنهزم أمام (فاطمة)، فصرخت:

- اخرسي وإلا فقأت عينك.
وهنا قال (حافظ) في عصبية:
- عين من؟!
قوله جعل الكل ينتبه لوجوده بغتة،
فقال (عمر) في عصبية:
- أستاذ (حافظ) اعذرني... ولكن شقيقتك (نعيمة) تحتاج إلى من يؤدبها، ويعيدها إلى صوابها.
أطلقت (فاطمة) ضحكة ساخرة صغيرة أخرى، جعلت (نعيمة) تصرخ:
- تؤدب من، وتعيد من إلى صوابه؟!... هل نسيت نفسك؟! صاح غاضبًا:
- (نعيمة).
كان يحاول إعادتها إلى صوابها، ولكن وجود (فاطمة) تراقب ما يحدث، أشعل كل النار في عقلها، فاحترقت بها حكمتها، وطاش صوابها، على نحو جعلها تصرخ:
- إياك أن ترفع صوتك مرة أخرى، على ابنة (البنهاوي)... هل نسيت كيف كسر أخي (حسين) أنفك، وكيف وضع رأسك في الطين؛ عندما تجاوزت حدودك سابقا؟
احتقن وجهه في شدة، وصاحت (شريفة) مذعورة:
- إنها لا تقصد يا (عمر)... لعن الله الشيطان، الذي دخل بينكما
صرخت (نعيمة) كالمجنونة، وهي تشير إلى (فاطمة):
- هذا هو الشيطان، يقف أمامك مبتسما، و.
قاطعتها صيحة هادرة من (عمر):
- (نعيمة).
التفتت إليه في شراسة مجنونة،
فاستطرد في حزم صارم قوى:

- أنت طالق.

شهقت (شريفة) في ارتياع، ولطمت (فاطمة) صدرها في ذعر، في حين حدقت فيه (نعيمة)، في صمت وذهول..
الآن فقط، ومع الصدمة القاسية، استعادت عقلها. الآن فقط تبخرت ثورتها..
وبنفس الحزم الصارم، استدار (عمر)، قائلا وهو يتجه نحو باب السراى:
- أنا عند زوجتي الرقيقة المحبة المخلصة (فاتن)، في انتظار (حسين) بك وزبانيته.
والتفت يلقي عليها نظرة أخيرة، مستطردا:
- هذا أهون من العيش مع حمقاء مثلك.
انهار كيانها كله من الداخل، وهو يغادر السراي أمام عينيها، في حين هتفت (شريفة) في أسى ومرارة:
- ماذا فعلت أيتها التعسة؟!
غمغمت (نعيمة) مصدومة:
- (عمر) طلقني
وارتجف صوتها في شدة، مع نهر الدموع، الذي ملأ عينيها، وهي تضيف:
- للمرة الثانية.
كررت (شريفة) باكية ملتاعة
- ماذا فعلت بنفسك؟!
كررت (نعيمة) ذاهلة مصدومة:
- (عمر) طلقني
ثم التفتت إلى (فاطمة) هاتفة:
- بسببك أنت.

قالتها، وانقضت على (فاطمة)، التي استعادت صراعاتها القديمة أيام حياة الفقر، فرفعت المنشفة الصغيرة، ورفعتها في حركة سريعة وهي تتراجع إلى الخلف لتحمي وجهها.. وبكل العنف، ارتطمت المنشفة بوجه (نعيمة)، التي تراجعت مصعوقة، غير مصدقة أن (فاطمة)، خادمة السراي القديمة، قد جرؤت على فعل هذا، وحدقت في وجه (فاطمة) ذاهلة مستنكرة، في حين هتفت (شريفة) في فزع، خشية تطور الأمور، وخروجها عن السيطرة:

- استهدوا بالله..

صرخت (نعيمة):

- يا ابنة الكلاف ستري بعد ما فعلته، يا حقيرة. يا وضيعة. ليس لك عيش في السراي.. سأتصل بشقيقي (حسين)؛ ليلقيك خارجه كالكلاب.

بدت (فاطمة) كلبؤة شرسة، تدافع عن عرينها، وهي تهتف

- لا أحد سيخرج قدمي من هذا السراى

كادت (نعيمة) تجن، وهي تصرخ:

- سنكسرها داخله إذن

تضاعف فزع (شريفة) وهي تهتف:

- كفى يا (نعيمة) أرجوك.

ولكن (نعيمة) الجريحة كانت تحتاج لما هو أكثر من الكلمات، في تلك اللحظة بالذات، وجراحها تنزف في غزارة، و.

- إياكم أن يمس أحدكم زوجتي.

صرخ بها (حافظ)؛ ليقحم نفسه بها في المشهد دفعة واحدة، وجسده كله ينتفض في قوة، فحدق فيه الجميع في ذهول، حتى فاطمة نفسها وهو يتابع في غضب شديد، لم يبده في حياته قط:

- أنا (بنهاوى) مثلكم جميعا.. بنهاوى مثل (حسين)، ومثل كل واحد منكم، ولن تجبرني قوة في الأرض على مغادرة سراى ابى.. إنه حقي بأكثر مما هو حقك، أو حق أي واحد منكم.
كان ذلك الانقلاب المباغت في شخصيته مذهلا، حتى أنه صدم الكل وجعل (نعيمة) تتراجع مغمغمه في عصبية:
- الأمر لا يتعلق بك يا (حافظ).
اندهشت (فاطمة)، عندما صاح في عصبية بالغة:
- ما يمس زوجتي يمسني.. هي أيضا صاحبة الحق في التواجد في السراى.. مادامت زوجتي، فقد صارت (بنهاوية) مثلنا.
صاحت (نعيمة):
- كلا وألف كلا... إنها لن...
قاطعها صارخا في هستيرية:
- كفى... كفى... كفى.
راح يردد الكلمة على نحو عجيب، جعل (نعيمة) تتراجع مرة أخرى في خوف مذعور، وشريفة تهتف وجسدها يرتجف:
- (حافظ) اهدأ يا شقيقي. اهدأ
ولكنه واصل الصراخ، في هستيرية شديدة،
فاندفعت (فاطمة) نحوه، واحتضنته في حنان حقيقي، وهي تقول في قلق شديد، على الرغم من خشونتها وغلظتها:
- لا بأس يا (حافظ)... لا بأس... ستتوقف.
فشل حنانها أيضا في أن يوقف صرخاته المتكررة، وهو يمسك شعره، وتزوغ عيناه، ويصرخ..
ويصرخ... ويصرخ.. وأثر صرخاته، جاء خفير السراي يهتف في قلق:
- ماذا هناك يا سادة؟!

كانت (نعيمة) ذاهلة مصدومة، و (فاطمة) مازالت تحتضن (حافظ) في خوف، فهتفت (شريفة) بكل رعب الدنيا:
- طبيب يا (عوضين)... أحضر طبيبًا بالله عليك.

مع هتافها، وقبل أن يتحرك (عوضين) من مكانه، احتقن وجه (حافظ) فجأة، وتوقفت صرخاته، وارتجف جسده كله، وتضاعف اتساع عينيه، على نحو جعل (نعيمة) تلتصق بالجدار في رعب، وفاطمة تهتف في ارتياع:
- (حافظ) ماذا بك؟!
وارتفعت صرخة (شريفة)، ترج السراى كله...
سراى (البنهاوي).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

109- الغضب..

- (بسيونى)... أين أنت يا (بسيونى) ٠٠٠

ارتفع صوت العمدة الحاج (سعفان)، وهو ينادى شيخ الخفر، الذي أتي إليه مهرولا:

- أمرك يا جناب العمدة. سأله العمدة (سعفان) في قلق واهتمام:

- ماذا يحدث هنا؟!... اسمع هتافات من الناحية القبلية أجابه (بسيوني) في ارتباك:

- إنهم مجموعة من شباب القرية يا جناب العمدة. سأله في صرامة:

- وماذا يفعلون بهتافاتهم هذه؟!

حاول (بسيوني) أن يعثر على جواب مناسب في ذهنه، ثم قال أخيرا في تردد:

- يرفضون يا جناب العمدة.

كانت أول مرة، في حياة القرية كلها، التي تحدث فيها مظاهرة من أي نوع، وتحت أية ظروف، ولهذا فقد ارتفع حاجبا الحاج (سعفان) في شدة، وهو يلتقط عصاه، قائلا:

- يرفضون ماذا يا شيخ الخفر؟!... أي عبث يحدث هنا؟

اكتفي (بسيونى) بهز كتفيه في حيرة، فواصل العمدة (سعفان) وهو يهبط في سلم منزل العمودية في حزم:

- اجمع الخفر كلهم يا (بسيوني)، وتعال نر بم يعبث هؤلاء الشبان.

لم تمض دقائق خمس، حتى كان العمدة والخفر يعترضون مسيرة المظاهرة الصغيرة، التي ضمت دستة من الشباب فحسب..

المفاجأة الحقيقية كانت من يقود تلك المظاهرة الصغيرة...

- (طارق) بك؟!

هتف بها العمدة (سعفان) بكل الدهشة، وهو يحدق في (طارق)، الذي تقدم نحوه في تحد، قائلا:
- ليس من حقك أن تعترض طريقنا، أنت وخفرك يا عمدة.
سأله الحاج (سعفان) في توتر:
- هل يعلم (حسين) بك بما تفعله يا (طارق) بك؟!
هتف (طارق) في حدة:
- لا شأن لعمي (حسين) بما أفعله.
أدرك العمدة من الجواب، أن (حسين البنهاوي) ليس لديه علم بما يفعله ابن شقيقه، مما شجعه على أن يقول، في تحد مماثل:
- سألتك إن كان يعلم
تقدم (طارق) خطوة، وهو يقول في حزم عنيد:
- وأنا أخبرتك أنه لا شأن له يا عمدة
- هتف أحد الشبان في غضب
- هل تحاول إرهابنا باسم (حسين البنهاوي) يا عمدة؟!
ارتفع صوت العمدة في صرامة، وهو يجيب:
- بل أحاول تنبيهكم إلى ما تفعلونه. الدولة في حالة حرب، وشعار (لا صوت يعلو فوق صوت المعركة) مازال ساريا.
مال (طارق) نحوه، وهو يقول:
. هذا بالضبط ما نتظاهر من أجله يا عمدة.. المعركة.
أطلت من عيون العمدة و (بسيونى) والخفر نظرة، تجمع ما بين الحيرة وعدم الفهم، فتابع في حزم:
- (السادات) أكد أنه لن يمض عام 1972 م، دون وضع حل حاسم للمعركة، وها نحن ذا في نهايات ديسمبر، دون أن يحدث شيء.
هتف العمدة:
- وما شأنكم أنتم بهذا أيها الشباب.. لستم على دراية بالظروف او الحسابات العسكرية، والرئيس قال إن الضباب السياسي..

قبل أن يكمل عبارته، انفجر الشباب كلهم ضاحكين في سخرية، على نحو جعل وجه العمدة يحتقن في غضب..
وفي غيظ أيضا...
فعدد المتظاهرين كان أقل من عدد الخفر الذين يحيطون بهم، وباستطاعة العمدة، بإشارة واحدة من سبابته، أن يفض المظاهرة في دقيقة واحدة أو أقل...
لولا وجود (طارق البنهاوي)...
صحيح أن (حسين البنهاوي) لن يوافق حتما على ما يفعله ابن شقيقه ولكنه من المحال أن يسمح بأن يمس مخلوق واحد أي فرد، من عائلة (البنهاوي)...
ولقد أثبت هذا في مواقف شتى.
اثنان ممن سبقوه في العمودية، تم سحقهما سحقا؛ لأنهما مسا (البنهاوية) بسوء.
وهو ليس لديه أدنى استعداد، لأن يكون ثالثهما ولكن الموقف عسير.. عسير بالفعل فالحكومة، التي وضعته في مكانه، لن ترضى بخروج مظاهرة في قريته، في سابقة هي الأولى من نوعها، وستعتبرها دليلا على ضعف سيطرته على قريته، وعدم استحقاقه موقعه.
ولو حاول فض المظاهرة بالقوة، سيضطر لمواجهة (طارق البنهاوي).
و (حسين البنهاوي)...
خياران أحلاهما شديد المرارة واللذوعة... فماذا يمكن أن يفعل؟!...
ماذا؟!...
- ابتعد عن طريقنا أنت وخفرك يا عمدة؟!

تبادل الخفر نظرة متوترة قلقة، وتساءل (بسيوني) كيف سيواجه العمدة الموقف، ولكن الحاج (سعفان) قال في حزم:
- (حسين) بك لن يرضيه ما تفعله يا (طارق) بك
قال (طارق) في تحد:
- لن يستطيع أن يفعل شيئا.
أدار العمدة نظره في وجوه باقي الشباب، وهو يقول:
- ربما بالنسبة لك ولكنه سينكل بكل من تبعك... ستأتي الشرطة بأعداد كبيرة إلى القرية، وستنقض على منازلهم، وتقلبها رأسا على عقب، وستهين آباءهم وأمهاتهم، ثم سيأخذونهم بكل القسوة.
كانت وجوه الشباب قد امتقعت بالفعل، وهم يتخيلون ما يمكن أن يصيب منازلهم وعائلاتهم، عندما أضاف العمدة في صرامة:
- والله سبحانه وتعالى وحده يعلم هل سيعودون، أم ستنقطع أخبارهم، كما حدث مع من سبقهم.
قال (طارق) في عصبية:
- ماذا تحاول يا عمدة؟!... أن توقع الرعب في قلوبنا؟!
تجاهله العمدة تماما، وهو يقول للشبان الذين يتبعونه في صرامة قاسية:
- عودوا إلى دياركم.
تردد الشباب لحظات، ولكن تلك الصورة المفزعة، التي غرسها العمدة في أذهانهم، جعلتهم يتراجعون في بطء، فهتف بهم (طارق):
- هل ستتراجعون؟!
غمغم أحدهم في تخاذل:
- العمدة على حق... نحن نجهل الحسابات العسكرية.
ابتسم العمدة في ظفر، عندما رأى الشبان ينفضون من حول (طارق)، الذي فغر فاه محبطا وغاضبا، فاتجه العمدة نحوه،

ووضع يده على كتفه، قائلا في حنان أبوي، يختلف عن صرامته منذ دقيقة واحدة:
- تعال يا (طارق) بك... أريد التحدث معك قليلا.
كاد (طارق) يبكي وهو يقول في غضب:
- ماذا تريد يا عمدة؟!... ألم تنتصر في المواجهة؟!
ابتسم العمدة في حنان، وهو يقول:
- مواجهة ماذا يا ابني؟!... كل ما أريده أن نتناول معا كوبا من الشاي.
غمغم (طارق) في مرارة:
- فيما بعد يا عمدة... فيما بعد.
وعندما تركه وانصرف، غمغم (بسيوني) في حيرة:
- ماذا أصاب (طارق) بك يا عمدة؟!... لماذا هو غاضب هكذا؟!
تنهد الحاج (سعفان)، وهو يغمغم:
- من حقه يا (بسيوني)... من حقه جدا..
ولم يفهم (بسيوني) ما يعنيه هذا..
أبدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يفهم (حسين) سر ابتسامة الرئيس الهادئة، الممتلئة بالرضا وهو يقرأ التقارير الواردة، بشأن مظاهرات الطلاب، احتجاجا على عدم التزامه بوعده في حسم المعركة، قبل نهاية العام.
ولقد ارتفع حاجباه في دهشة عندما أنهى الرئيس قراءة التقارير وقال في ارتياح:
- عظيم.
وفي تردد غمغم (حسين):

- يبدو أن أخبار المظاهرات لا تقلقك، يا سيادة الرئيس.
ابتسم الرئيس، وهو يقول:
- على العكس إنها تسعدني.
ارتفع حاجبا (حسين) في دهشة، فضحك الرئيس (السادات)، وهو يضع التقارير جانبا، ويقول في هدوء:
- أمور كثيرة ستدهشك، ما دمت تعمل إلى جوارى يا (حسين)
غمغم:
- بالتأكيد يا سيادة الرئيس.
لملم (حسين) التقارير ليضعها في خزانة المعلومات الخاصة بالرئيس، عندما فوجئ به يسأله في اهتمام:
- منذ متى لم تزر أهلك يا (حسين)؟!
اعتدل (حسين)، وقد أدهشه اهتمام الرئيس بأمر شخصى كهذا، في مثل هذه الظروف، وتنحنح قبل أن يجيب:
- مضت فترة طويلة في الواقع يا سيادة الرئيس.
سأله الرئيس:
- وكيف حال شقيقك (حافظ)؟!... هل تجاوز حالة الشلل المؤقت التي أصابته؟!
ازدرد (حسين) لعابه في صعوبة، وهو يجيب:
- ليس على نحو كامل يا سيادة الرئيس.. الأمر حدث بسبب انفعال عاطفي عنيف، وسيادتك أمرت بعلاجه في مستشفى القوات المسلحة في (المعادي)، وهو الآن قادر على الكلام في شيء من الصعوبة، ولكنه يعاني إعاقة واضحة في الحركة.
غمغم الرئيس:
- كان الله في عونه... وعونك
ثم بدا شديد الاهتمام، وهو يسأل:
- والآن أخبرني... ماذا يقول الناس عني في الشارع؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- وهل أخبرته كل شيء؟!
ألقى (إبراهيم مكي) السؤال في اهتمام، فقلب (حسين) كفيه، وهو يجيب في حيرة:
- ودون أدنى مواربة... هذه أوامره المشددة
مال (مكى) نحوه، يسأل في اهتمام أكبر:
- ألم يغضب من النكات، التي تسخر منه؟!
هز (حسين) رأسه نفيا، وقال بنفس الحيرة:
- لقد بدا وكأنه كان يتوقع هذا.
أومأ (مكى) برأسه متفهما، وتراجع في مقعده في بطء، وهو يفكر في عمق، مما جعل (حسين) يسأله:
- هل يفهم مخ الثعالب في جمجمتك شيئا؟!
أشار (مكى) بيده، وهو يجيب في لهجة شبه شاردة:
- إنه يريد أن يراه الناس كذلك
هتف (حسين)، بكل دهشة واستنكار الدنيا:
- يريد؟!
رفع (مكي) سبابته أمام وجهه، قائلا:
- كنت على حق... الرجل أكثر دهاء مما يبدو بكثير.
نهض من خلف مكتبه، يلقي نظرة خاوية عبر النافذة، فسأله (حسين) في توتر:
- ما الذي تعنيه بهذا بالضبط؟!... أريد أن أفهم
صمت (مكى) لحظات، وهو يدير الأمر في ذهنه، قبل أن يقول، وكأنه يحادث نفسه:
- خطة استراتيجية

تمتم (حسين) في توتر أكثر:
- ماذا تعني؟!
أجاب في تفكير:
- أي رئيس في الدنيا، يشعر بالقلق، إذا ما خرجت مظاهرات ضده، تتهمه بالتقاعس عن استرداد حق بلاده ولكن (السادات) يشعر بالارتياح!! والتفسير المنطقي الوحيد لهذا، هو أن ما يحدث يتمشى مع خطة استراتيجية في ذهنه.
نهض (حسين) يلحق به عند النافذة، وهو يسأله في فضول:
- خطة ماذا؟!
التفت إليه (مكى)، قائلا:
- خطة خداع... الرجل يرسم لنفسه صورة الرئيس العاجز عن اتخاذ قرار الحرب، على الرغم من أن كلينا يعلم جيدا، أنه يمتلك الجرأة اللازمة لذلك... إنه يريد إذن خداع عدوه، وإيهامه بأن الحرب فكرة بعيدة المنال. وليست في الحسبان.
انعقد حاجبا (حسين)، وهو يعيد دراسة الأمر في ذهنه بدوره:
- هذا يفسر ذلك القرار، بأن نضع في مكاتبنا آيات قرآنية تحض على السلام.
أشار (مكى) بسبابته، قائلا:
- ولهذا التقطوا ألف صورة لقادة الجيش، ونشروا فقط الصور التي توحي بالهدوء والاسترخاء.
أمسك (حسين) ذراعه في قوة، وهو يقول في انفعال:
- هل تعلم ما يعنيه هذا؟!
تألقت عينا (مكى)، وهو يجيب:
- الحرب.
شملهما معا حماس قوى، حبس الكلمات في حلقيهما، وكل منهما يعود إلى مقعده، ثم غمغم (مكى)، وكأنه يستعيد قدرته على الكلام

في صعوبة:
- هل ستسافر حقا إلى قريتك؟!
أومأ برأسه، مجيبًا :
- سيادة الرئيس أعطاني إجازة خاصة لهذا.
مال (مكي) نحوه، وهو يسأله في خبث:
- وهل ستذهب الأميرة (عايدة) معك؟!
- كلا بالطبع
هتفت بها (عايدة) في عصبية شديدة، جعلته يسألها في دهشة غاضبة:
- ولماذا بالطبع؟!
قالت في حدة:
- لا أشعر بالراحة هناك
قال في غضب
- الجميع هناك يعاملونك، بأفضل مما كنت تعاملين في القصر
لوحت بذراعها، هاتفة في ازدراء:
- أمر طبيعى
أمسك معصمها بغتة، وهو يهتف بها:
- ماذا أصابك؟!
صاحت في حدة:
- أفلت معصمي.
ولكنه لم يفلت معصمها، وإنما ضغطه في قوة أكثر، وهو يقول في غضب حاد:
- أعصابك منفلتة، وتتعاملين بسوقية، لا تليق بأميرة سابقة
جذبت معصمها عبئا من يده، وهي تصرخ:
- أميرة حالية وليست سابقة... الأمراء لا يخسرون ألقابهم، حتى ولو انتزعها منهم فلاحون مثلكم.

صرخ فيها مرة أخرى:
- ماذا أصابك؟!
اغرورقت عيناها بالدموع بغتة، وجعلها كبرياؤها تشيح بوجهها عنه؛ لتخفي دموعها، وهي تقول في ألم وخفوت:
- أنت تؤلمني.
لم ير دموعها، ولكنه سمعها في صوتها، فأفلت معصمها، واحتواها بين ذراعيه، وتركها تفرغ دموعها الصامتة على صدره لحظات، وهو بربت عليها في حنان، قبل أن يهمس لها في حب:
- ماذا حدث، لتنفلت أعصابك على هذا النحو؟!
قالت منتحبة:
- بل قل ماذا لم يحدث.
التقى حاجباه، وهو يغمغم:
- مسألة الحمل؟!
أجابته في مرارة:
- زرت الدكتور (صفوت) اليوم، وأخبرني أنه لم يحدث حمل، ثم طلب منا إجراء بعض الفحوص الطبية.
غمغم في توتر:
- منا؟!
مسحت دموعها بأناملها، قبل أن ترفع وجهها إليه، قائلة
- نعم... أنت وأنا
تساءل في عصبية
- ولماذا أنا؟!
أجابته في سرعة:
- لأنني..
بترت عبارتها دفعة واحدة، قبل أن تخبره بأنها أجهضت حملا؟ ذات مرة، خلال علاقتها بالثري الفرنسي (جان)؛ مما يثبت أنها،

وحتى ذلك الحين على الأقل، كانت قادرة على الحمل، واستدركت في سرعة:
- لأنني وأنت نصنع طفلنا معا
أفلتها في توتر، وابتعد عنها قليلا، قبل أن يقول في عصبية:
- هل تعلمين ماذا يمكن أن يقال عنى، لو علم بعضهم بأمر تلك الفحوصات؟!
قالت، مستعيدة عنادها:
- سيقال إنك تسعى لإنجاب وريثك... وريث عائلة (البنهاوي).
لوح بذراعه، هاتفا:
- أنت لا تدركين كيف تسير الأمور هنا.
هتفت في حنق:
- كيف؟!... هل يخشون أن ينجبوا، فيفقدون مناصبهم وسلطاتهم؟!
قال في حدة:
- ليس هذا مجال السخرية.
هتفت:
- مجال ماذا إذن؟!... إنني لا أطلب منك أن تتنازل عن منصب أو جاه أو ثروة، كما فعلتم بى... كل ما أطلبه هو أن تتنازل وتتكرم وتتعطف وتجرى بعض الفحوص، من أجل أن تجعلني أما... أهذا كثير؟!
بدا شديد العصبية، وهو يقول:
- اتركيني أفكر في هذا
صاحت ثائرة:
- تفكر في ماذا؟!... في إنجاب ابن مني؟!... من الأميرة (عايدة) سليلة الأسرة الملكية؟!... هل كنت تحلم يوما، بأن تمتزج دماؤك الريفية بدمائي الملكية؟
زمجر قائلا:

- الدماء كلها واحدة... هذا ما نتعلمه في ساحة القتال
قالت في شراسة أنثوية:
. إذن فدماء (البنهاوية)، تتساوى مع دماء أحقر فلاح في أحقر وأصغر قرية في (مصر).
احتقن وجهه، وهو يقول في حدة:
- انتبهي لحديثك يا (عايدة).
صاحت:
- انتبه أنت إلى تصرفاتك يا (حسين).
رمقها بنظرة غاضبة، قبل أن يلتقط حقيبته، ويندفع نحو الباب، قائلا في صرامة وحدة غاضبة:
- سنناقش هذا عندما أعود
التقطت فازة ثمينة، وألقتها نحوه بكل قوتها، وهي تصرخ:
- اذهب إلى الجحيم.
ارتطمت الفازة بالباب، الذي صفقة خلفه في قوة، فتحطمت وتناثرت حوله، فاحتقن وجهها هي هذه المرة، وهي تهتف:
- عد إلى مسقط رأسك أيها الفلاح.
ثم انهمرت الدموع مرة أخرى من عينيها، وهي تستطرد:
- أريد أن أصبح أما.
ولأول مرة في حياتها، انهمرت الدموع من عينيها غزيرة... وملتهبة جدا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امتلأت عينا (مفيد) بنظرة حانية مشفقة، وهو يتطلع إلى (طارق)، الذي جلس حزينا صامتا منكسرا أسفل شجرة البرتقال الكبيرة، في الحديقة الخلفية للسراى...

كم كان يذكره بنفسه، في نفس المرحلة العمرية... حتى انكسار القلب، تكرر معه مرة أخرى...
يا للمسكين!!... ذاق قلبه العذاب، وهو بعد في صباه وأول شبابه كان يقترب منه في صمت، عندما انتبه إليه (طارق)، فالتفت في بطء وغمغم في انكسار:
- عمي (مفيد).
جلس (مفيد) إلى جواره، وربت على ظهره في حنان، وهو يسأله:
- هل ستقضى شبابك كله حزينا؟!
هز (طارق) رأسه في أسى، وهو يغمغم:
- وماذا يفرح من حولنا؟!
شعر (مفيد) بصدره ينقبض حزنا على الصبى، فربت عليه مرة أخرى، وهو يقول في حنان:
- لا تدخل في نفق التشاؤم المظلم في هذا العمر يا بني... أنت بعد في مقتبل الحياة، وطريق الآمال العريضة يمتد أمامك.
كاد الصبي يبكي، وهو يقول:
- أية أمال يا عمي؟!... (نادرة) التي أحبها منذ حداثتى، لم ترفض عمتي (نعيمة) زواجي منها بإصرار فحسب، ولكن منذ تسللت خلفها، وباغتتنا عند الساقية القديمة، تمنعها تماما من الخروج، ولولا عمي (عمر)، لما خرجت حتى للدراسة.
وصمت لحظة، على نحو جعل (مفيد) واثقا من أنه يزدرد غصة في حلقه، قبل أن يكمل في أسي شديد:
- كنت وبالا عليها يا عمي.
على من أحب
جاء دور (مفيد)، ليزدرد في صعوبة تلك الغصة في حلقه، وهو يستعيد صراخ (مديحة) في وجهه، بأنه دمر حياتها..

أهو قدر؟!... كل من أحب من عائلة (البنهاوي)، صار لعنة على من يحب (زينب) أحبت (ماهر)، فلقي كلاهما مصرعه في حادث سيارة.. (نعيمة) أحبت (عمر)، فكاد (حسين) يفتك به، وشاركه عنوة في مصنعة.. (شريفة) أحبت (أمجد)، فلقي مصرعه برصاص خفير بسيط. وهو أحب (مديحة)، ففسدت حياتها، وتشردت من قريتها وأحب (سوسن) فجرح قلبها مرتين، وترك فيه جرحا غائرا وأحب (جيهان)، فحطم (حسين) سمعتها، وأجبرها على ترك البلاد والآن جاء (طارق)، ليقف في طابور اللعنة.. لعنة (البنهاوية)... وبكل مرارته، ربت على ظهر (طارق) مرة أخرى، وهو يقول:

- الأمر لم يحسم بعد... ربما ترفض عمتك (نعيمة) زواجكما في شدة، ولكن عمك (عمر) يباركه، ومع مرور الوقت من يدرى ربما.

قال (طارق) في مقت:

- لم أعد أطيق رؤية عمتي (نعيمة)، وخاصة بعدما أصاب أبي بسببها.

غمغم (مفيد) في أسى:

- ولكنك مضطر للتعايش معها، خاصة وأنها تقيم معنا في السراى بعد طلاقها من (عمر)..

لوح (طارق) بيده، قائلا:

- وأحالت السراي إلى ساحة حرب مستمرة الشجارات بينها وبين أمي لا تنقطع وكل منهما تحمل الأخرى مسئولية ما أصاب أبي، وعمتي (نعيمة) تهددنا كلنا بعمي (حسين) طوال الوقت، وهذا يستفز أمي، وعمتى (شريفة) ممزقة بينهما، وحائرة في محاولة إعادة الهدوء إلى السراي، أما أبي فلم يعد يبالي بما يحدث، ولكن نظرات المقت تطل من عينيه طوال الوقت، و.

قبل أن يتم عبارته، انطلقت صرخة قوية من قلب السراى...
صرخة تحمل كل الرعب
الرعب الحقيقي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

110- الحرب..

- كيف حدث هذا؟!

بدا (حسين)، بزمجرته هذه، أشبه بأسد جائع، يهم بالانقضاض على فريسته، حتى أن (فاطمة) انكمشت في مكانها في رعب، و(مفيد) أطبق شفتيه في عصبية شديدة، ونعيمة نفسها ارتجفت، وهي تقول:

- لم يقترب أحد منه... لقد انزلق وحده، وسقط، وانكسرت ساقه

عاد (حسين) يزمجر بكل القسوة، هاتفا ومكررا:

- كيف حدث هذا؟!... أريد الحقيقة

غمغمت (شريفة) في توتر:

- هذه هي الحقيقة

كانت تهم باستكمال حديثها، عندما قال (طارق) في حزم غاضب:

- كلا يا عمتي... ليست هذه هي الحقيقة.

التفت إليه (حسين) في حركة حادة، ولكن (طارق) واصل، دون أن يتردد:

- عمتي (نعيمة) كانت تتشاجر مع أمي كالمعتاد، عندما أراد أبي تهدئة الأمور، فحدث ما حدث.

صمت (حسين) تماما، وهو يستمع إليه في اهتمام، قبل أن يستدير إلى (نعيمة)، قائلا في صرامة:

- كالمعتاد؟!

قالت (نعيمة) في عصبية:

- لقد تجاوزت حدودها، و

اندفعت (فاطمة) تقول، بصوتها الغليظ الخشن:

- لم أتجاوز شيئا... لقد كنت

هتف بها (حسين):

- اصمتي تراجعت منكمشة في خوف، فاحتقن وجه (طارق)، وخاصة مع نظرة الشماتة، التي أطلت من عيني (نعيمة)، وقال في عصبية:
- لماذا تصمت يا عمي؟!
بهت الكل لقوله، حتى أمه نفسها، واعتدل (مفيد) في اهتمام، وقد ذكره هذا بمواقف سابقة له.. وفي أعماقه تساءل: كيف سيواجه (حسين) اعتراض (طارق)...
إنه لا يحتمل مجرد الاعتراض، على أي قول له، فكيف سيتفاعل مع الموقف، خاصة وأنه يتم أمامهم جميعا؟!...
كيف؟!
تعلق بصره بوجه (حسين)، الذي حمل لمحة غضب في البداية، ثم لم يلبث أن قال في حزم:
- لأنني أريد أن أستمع إلى ما حدث، منك أنت يا (طارق).
بهت الكل للعبارة، التي قلب بها (حسين) الموقف كله في لحظة وببراعة ذئبيه، تثبت أن الأشهر السابقة قد أكسبته خبرة كبيرة فيها.
حتى (طارق) نفسه بهت، ونسي عصبيته، وهو يغمغم:
- منى أنا؟!
استدار (حسين) بجسده كله إليه، وهو يقول:
- نعم يا (طارق)... أنت لن تكذبني القول... أنت (بنهاوى).
كاد (مفيد) يخبره أنه أيضا (بنهاوى)، إلا أنه أثر الصمت؛ ليرى كيف سينتهي هذا الأمر.
أما (طارق)، فقد تنحنح في توتر، قبل أن يقول:
- ربما هذه هي المشكلة يا عمي عمتي (نعيمة) تكره أمي، بزعم أنها ليست (بنهاوية).
اندفعت (نعيمة) تهتف:

- ولن تصبح أبدا إنها خادمة... كانت وستظل خادمة
قال (طارق) في حدة:
- أمي ليست خادمة يا عمتي... إنها زوجة أخيك
هتفت:
- وبئس الزوجة... إنها
قاطعها (حسين) بصيحة هادرة:
- (نعيمة)... ابتلعت باقى عبارتها، وتراجعت منكمشة، وهي تغمغم:
- لابد وأن تعرف مقدارها.
صمت (حسين) بضع لحظات، وهو ينقل بصره بين الجميع، قبل أن يتوقف عند (فاطمة)، قائلا في صرامة، غلفها بمحاولة للياقة مفتعلة:
- (فاطمة)... انظرى ماذا يحتاج زوجك.
كانت (فاطمة) تريد أن تعترض، إلا أنها آثرت السلامة، فأومأت برأسها ايجابًا صاغرة، ودلفت بالفعل إلى حجرة (حافظ)، فاحتقن وجه (طارق)، وهو يعترض:
- عمي... ليس من المفترض.
قاطعه (حسين) في صرامة:
- ساعد أمك، في العناية بوالدك يا (طارق).
تطلع إليه (طارق) مستنكرا في دهشة، فأضاف في صرامة أكثر:
- اذهب
أدرك الصبي أن عمه (حسين) يريد أن ينفرد بعمه (مفيد) وعمته (نعيمة) لسبب ما، فأطاعه في توتر، وأغلق الباب خلفه، في حجرة أبيه، وهنا التفت (حسين) إلى (نعيمة) و (شريفة) و (مفيد)، قائلا بصرامته، التي صارت لهجته الطبيعية، في حديثه مع كل من يتعامل معهم:

- إلى حجرة الضيوف.
اتجه الثلاثة في استسلام إلى حيث أشار، وجلسوا في مواجهته، وهو يقول في صرامة غاضبة قاسية:
- ماذا أصابكم؟!... تركتكم بضعة أشهر، فقلبتم الدنيا رأسا على عقب؟
هتفت (نعيمة):
- تلك الحقيرة...
قاطعها (حسين) هادرا:
- (طارق) على حق تلك زوجة (حافظ البنهاوي)... زوجته وليست خادمته.
قالت في عصبية:
- أنت تعلم ماذا كانت، ولماذا اخترناها زوجة له
قال بكل صرامة:
- ولكنها صارت زوجة (بنهاوى)... وأم (بنهاوى) أيضا.
امتقع وجهها، وهي تقول في عصبية:
- ماذا تقول يا (حسين)؟!
غمغم (مفيد):
- يقول الصدق يا (نعيمة).
هتفت في حدة:
- أتريدون أن تهزمني هذه الـ
قاطعها (حسين) في حدة أكثر شراسة:
- إنها ليست حريا
تراجعت مصعوقة، في حين تابع هو في قسوة:
. هذا السراى ظل محترما، منذ بناه (البنهاوي) الكبير، ولن أسمح بتحوله إلى ساحة حرب، يتناقل أهل القرية أخبارها.
غمغمت:

- ولكن..
صاح دون أن يمنحها فرصة الاستطراد:
- كل من يقيم في هذا السراى عليه أن يحترم اسم وسمعة عائلة (البنهاوي)، أو.
صمت لحظة، شد خلالها قامته وحمل صوته وملامحه شراسة لا حدود لها، وهو يضيف:
- أو يغادره.
شهقت (نعيمة) مصعوقة، في حين هتفت (شريفة):
- ماذا تقول يا (حسين)؟!
زمجر:
- أقول ما سمعته
التقط (مفيد) نفسا عميقا، وقال في خفوت:
- ليس هكذا تحل الأمور
هتف به (حسين):
- كيف إذن أيها العبقري؟!... أنت تقيم معهما في السراي، ولم تستطع حل الأمر، وإيقاف تلك الحرب السخيفة.
قال (مفيد) في ضيق:
- (نعيمة) تمتلئ بالغضب، لأنها تعتقد أن (فاطمة) هي سبب طلاقها الثاني من (عمر)، وفاطمة غاضبة، لأنها تعتقد أن (نعيمة) مسئولة عما أصاب (حافظ).
قال (حسين) في حدة:
- وأنت و (شريفة) تكتفيان بالمشاهدة والمتابعة، ومصمصة الشفاه... أليس كذلك يا سيد الرجال؟!
غمغمت (شريفة)، في خوف وانكسار:
- وماذا بيدي لأفعله؟!...
هتف بها:

:
- افعلي كما يفعل شقيقك الأصغر
والتفت إلى (مفيد)، مضيفا في حدة
- اكتفى بالسلبية
أشاح (مفيد) بوجهه، دون أن يجيب، فعاد (حسين) يشد قامته وهو يقول لـ (نعيمة) في صرامة:
- لست أدري لماذا طلقك (عمر) للمرة الثانية، ولكنني مازلت أذكر أنك طلبت مني، في المرة السابقة، عدم التدخل في علاقتك به.
بكت (نعيمة)، وهي تعض شفتها السفلى في مرارة، فتابع بنفس الصرامة:
- ولهذا لن أتدخل هذه المرة... ولكن هذا يعني أن تقيمي هنا، في الوقت الحالي، وليس من المنطقي أن تشعلي النار في السراي كله؛ لمجرد أنك غاضبة بشأن طلاقك.
تردد (مفيد) لحظة، ثم قال:
- غضبها ليس بشأن طلاقها فحسب.
استدار إليه (حسين) بنظرة حادة متسائلة، في حين هتفت (شريفة) محذرة:
- (مفيد).
ولكن (حسين) استوقفها بإشارة صارمة محذرة، وهو يسأل (مفيد) في صرامة:
- مم أيضا؟!
أدار (مفيد) نظره، بين (شريفة) الملتاعة، و (نعيمة) الشاحبة، قبل أن يجيب:
- (طارق)... (طارق) و (نادرة).
وهوى قلب (نعيمة) بين قدميها

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راجع الدكتور (صفوت) كل النتائج المدونة في التقرير الطبي أمامه قبل أن يرفع عينيه إلى الأميرة (عايدة)، قائلا بابتسامة هادئة:

- كل شيء على ما يرام، وطبيعي تماما يا سمو الأميرة.

غمغمت (عايدة) في ارتياح:

- لم يخاطبني أحد بهذا اللقب، منذ ثورة الفلاحين يا دكتور (صفوت).

تلفت الطبيب حوله في توتر، خشية أن يكون هناك من سمع عبارتها على الرغم من أنها تجلس معه وحدهما، في حجرة الكشف بعيادته الخاصة، ثم مال نحوها مغمغما:

- لا تنسى أنني كنت الطبيب الخاص للبرنسيسة والدتك المصون يا... يا سمو الأميرة.

ابتسمت، قائلة:

- قليلون هم من يجرعون على قول هذا

ثم اعتدلت، وأخرجت سيجارة من حقيبتها، وهي تسأله:

- هل تسمح لي بالتدخين؟!

، قائلا:

- المفترض الا أسمح بهذا، في حجرة الكشف

ثم خفض صوته، وهو يميل نحوها، مستطردا:

- ولكن الأميرات يأمرن ولا يستأذن.

اتسعت ابتسامتها الواثقة، وأشعلت سيجارتها في أناقة، ونفثت دخانها عالية، قبل أن تسأله:

- لا يوجد إذن ما يحول بيني وبين الحمل أجاب في حماس:

- مطلقا
انعقد حاجباها الجميلان، وهي تسأله:
- لماذا لم يحدث الحمل إذن؟!
التقط نفسا عميقا، وهو يقول:
- عدم حدوث الحمل له أسباب عديدة، جزء منها يتعلق بالرجل وجزء آخر بالمرأة، وجزء ثالث يتعلق بإرادة الله سبحانه وتعالى، حيث لا نجد سببًا واضحا لعدم الإنجاب، مع جودة نتائج الفحوص الطبية للرجل والمرأة.
اعتدلت في عصبية، متسائلة:
- وكيف يمكن حسم هذا؟!
أشار إلى التقارير الطبية أمامه، وهو يجيب:
- لقد استبعدنا الاحتمال الأول، مع نتائج فحوص الطبية.
غمغمت، وهي تنفث دخان سيجارتها متوترة:
- يبقى أمامنا احتمالان.
لوح بيده، قائلا:
- الاحتمال الثاني يمكن تأكيده أو استبعاده بوسيلة بسيطة.
غمغمت، وهي تهز ساقيها في عصبية:
- أن يجري (حسين) الفحوص الطبية اللازمة.
ضرب الدكتور (صفوت) سطح مكتبه براحته، وهو يجيب في حماس:
- بالضبط
نفثت دخان سيجارتها ثلاث مرات، في عصبية شديدة، قبل أن تلتفت إلى الدكتور (صفوت)، قائلة:
- أخبره إذن.
انتفض جسد الطبيب، وهو يقول في ارتياع:
- أنا؟! نفثت دخان سيجارتها بنفس العصبية، وهي تقول:

- نعم ألست طبيب العائلة؟!
ارتبك في شدة، وهو يقول:
- ولكنني لم ألتق بـ (حسين) بك، مرة واحدة في حياتي.
نهضت، قائلة:
- اجعلها المرة الأولى إذن.
كانت تلملم أشياءها، استعدادا للانصراف، وكأنما حسمت الأمر بكلماتها ولكنه استوقفها في توتر:
- لن أستطيع فعل هذا
سألته في حدة:
- ولماذا؟!
لم يكن باستطاعته أن يخبرها أن السبب الفعل هو أنه لن يجرؤ على مواجهة (حسين البنهاوي)...
ولن يجرؤ على طلب هذا الأمر منه ولم يكن من الممكن حتى أن يواجهه، لذا فقد اكتفى بالتكرارر:
- لن أستطيع فعل هذا.
أطفأت سيجارتها على سطح مكتبه، وهي تهتف في غضب:
- ماذا أصاب الرجال في (مصر)؟!
خفض عينيه، وهو يغمغم في خجل:
- لن أستطيع
رمقته بنظرة ازدراء، قبل أن تقول في حدة:
- فليكن... سأخبره أنا
ثم جذبت تقاريرها الطبية من أمامه في عنف، مستطردة:
- وسأنصحه بطبيب آخر... طبيب لديه لمحة من الرجولة.
تركها تنصرف كالعاصفة، ثم رفع عينيه، يتطلع إلى الباب الذي صفقته خلفها، وهو يتمتم في مرارة:
- ابحثى خارج (مصر) إذن.

ثم استعاذ بالله (سبحانه وتعالى) من الشيطان
ومن (حسين).
(حسين البنهاوي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- وماذا فعل (حسين البنهاوي)، عندما علم هذا؟!
ألقى (عمر) السؤال على (مفيد) في قلق، فهز (مفيد) كتفيه وهو يقول:
- لم يقل شيئا.
سأله (عمر) في دهشة:
- أي شيء؟!
هز (مفيد) كتفيه مرة أخرى، وهو يقول:
- لقد أخبرته، فحدق في وجهي بدهشة، ثم نظر إلى (نعيمة) لحظات، وبعدها أخبرنا أنه سيذهب للنوم، ولا يريد أن يوقظه أحد.
تراجع (عمر) في دهشة:
- أي رد فعل عجيب هذا؟!
غمغم (مفيد):
- أراد أن يحسبها أولا.
هتف (عمر) مستنكرا:
- يحسب ماذا؟!... (طارق) ابن شقيقه، و (نادرة) ابنة شقيقته... ما الذي سيحسبه؟!
أطلق (مفيد) زفرة حارة، قبل أن يجيب:
- المكسب والخسارة.
هتف (عمر) مستنكرا:

- أي مكسب وأية خسارة... إنه ارتباط عائلي بحت. ثم تراجع، مستطردا في توتر:
- إلا لو كان يرفض ارتباط (البنهاوية) بي أكثر
زفر (مفيد) مرة أخرى، وهو يقول:
- كل شيء في حياة (حسين) مكسب وخسارة... هل يكسبه هذا المزيد من الصعود والسلطة والنفوذ، أم سيجعله يخسر شيئا من هذا؟!... هذه هي الحسبة الوحيدة في حياته.
تساءل (عمر):
- ولكنه قضى ثلاثة أيام معكم في السراى... ألم يتخذ قراره خلالها؟!
هز (مفيد) رأسه نفيا، وقال:
- لم يشر إلى الأمر حتى، وكأنه يرفض مناقشته.
صمت (عمر)، وقد ضايقه أن يخضع مستقبل ابنته لهذا وبذل جهدا للسيطرة على بذرة غضب تنمو في أعماقه، قبل أن يسأل، محاولا إدارة دفة الحديث إلى واجهة أخرى:
- هل تعتقد أن (السادات) سيحارب حقا؟!
هز (مفيد) رأسه، وهو يجيب:
- من الصعب التنبؤ بخطوات وقرارات (السادات)... إنه يحيا بعقله في زمن يختلف عن زمننا، ويقيس الأمور بمقياس يختلف عن مقاييسنا.
تساءل (عمر):
- أهذا مدح أم ذم؟!
عاد (مفيد) يهز كتفيه، مجيبًا :
- لا هذا ولا ذاك إنها محاولة لتقييم الرجل فحسب.
قال (عمر) مستنكرا:
- بألا تعلم عنه شيئا؟!

قبل أن يجيب (مفيد)، دق (عبد الحكيم) باب حجرة المكتب، وهو يقول:
- أهو اجتماع مغلق، أم أنه باستطاعتي الانضمام اليكما؟
هتف (عمر) في حرارة:
- على الرحب والسعة.
وابتسم (مفيد)، وهو يغمغم:
- إنها أرضك، وهو مصنعك
ضحك (عبد الحكيم)، وهو يتخذ مجلسه، قائلا:
- فيم كنتما تتحدثان؟!
أجابه (عمر):
- عن (السادات) واستعداده لخوض حرب مع (إسرائيل)؛ لاستعادة (سيناء).
مط (عبد الحكيم) شفتيه، قائلا:
لست أظنه سيفعلها منذ بدايات عام ثلاثة وسبعين، لم يعد الحديث عن الحرب حماسيا، كما كان قبل هذا.
قال (مفيد) في اهتمام:
- الرئيس يقول: إن السوفييت خذلونا.
مط (عبد الحكيم) شفتيه مرة أخرى، وهو يقول:
- الرئيس يقول الكثير من الكلام.
ضحك (عمر):
- ويرتدى الكثير من الأزياء.
ابتسم (مفيد) ابتسامة باهتة، وهو يغمغم:
لم نعتد هذا، في زمن (ناصر) رحمه الله.
هتف (عبد الحكيم):
- شتان بين هذا وذاك
قال (عمر) ضاحكا

- بالتأكيد... (ناصر) صعيدي، و (السادات) فلاح.
ضحك (مفيد) و (عبد الحكيم) لما قاله، ثم تساءل (عبد الحكيم)، وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:
- هل أخبرته يا (عمر)، أم أخبره أنا؟!
ابتسم (عمر) ابتسامة مماثلة، وهو يجيب:
- كنت أنتظرك لتخبره.
نقل (مفيد) بصره بينهما في دهشة، وهو يقول:
- تخبرني ماذا؟!
تبادل الرجلان نظرة عابثة، لا تتناسب مع طبيعتهما، ثم مال (عبد الحكيم) نحو (مفيد)، وهو يقول:
- سأخبرك أنا عندما أخبره
واتسعت عينا (مفيد) عن آخرهما
فقد كان ما أخبره به مفاجأة.
مدهشة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

111- الضربة..

نفثت الأميرة (عايدة) دخان سيجارتها في عصبية، وهي ترقد على فراشها، في ثوب نوم مثير، تراقب (حسين)، وهو يرتدي ثيابه، فقال هذا الأخير في صرامة، دون أن يلتفت إليها:

- قلت أكثر من مرة: لا تدخني في حجرة النوم.

قالت في عصبية:

- أنا حرة.

التفت إليها بنظرة قاسية، ثم اتجه نحوها بخطوتين واسعتين، واختطف سيجارتها، من بين سبابتها وإبهامها، وأطفأها في المنفضة البلورية إلى جوار الفراش، فاحتقن وجهها، وهي تهتف:

- كيف تجرؤ!!

كرر في صرامة شديدة:

- لا أحتمل رائحة دخان السجائر.

التقطت علبة سجائرها بحركة حادة، والتقطت منها سيجارة أخرى، دستها بين شفتيها، وهمت بإشعالها، ولكنه اختطفها من بين شفتيها وهو يقول في حدة:

- يجب أن تعتادي طاعة زوجك.

قفزت من الفراش صارخة:

- طاعة من؟!... الأميرة (عايدة) تطيع فلاحا؟!... هل تتصور أن قبولي الزواج منك، يعني أن الفوارق الطبقية بيننا قد زالت؟!

مال نحوها، قائلا في قسوة:

- الفوارق الطبقية بيننا موجودة، ولكنها على عكس ما تتصورينه، أنت أميرة سابقة، تحيا على ذكريات زمن لن يعود، وأنا (حسين البنهاوي)، أقوى رجل في (مصر)...

هتفت متحدية:

- ما زلت فلاحا، وعائلة (البنهاوي) تلك ليست سوى
قاطعها بصيحة هادرة:
- اصمتي.
تراجعت في دهشة، وبحركة عنيفة، كما لو أنها قد تلقت منه صفعة قوية، واتسعت عيناها عن آخرهما، عندما مال نحوها، بعينين يطل منهما كل غضب الدنيا، مستطردا:
- لو لفظت حرفا واحدا، يمس عائلة (البنهاوي) بسوء، لن تغادرى هذه الحجرة حية هل تفهمين؟!
ولأول مرة في حياتها، شعرت بالرعب منه..
تلك النظرة، التي أطلت من عينيه، وهو ينطق كلماته الأخيرة، لم ترها قط، منذ تعرفته لأول مرة، في نادي (الجزيرة)، عقب ثورة يوليو.
شعرت بالحنق في نفسها؛ لأنها وصفتها بالثورة... إنها كانت ومازالت تصر، على أنها مجرد انقلاب.
انقلاب أطاح بكل مستقبلها دفعة واحدة ولكن هذه ليست النقطة الأساسية الآن...
إنه (حسين البنهاوي) ...
وليد انقلاب الفلاحين، الذي انتزع منها لقبها وثروتها..
(حسين) الذي تزوجته أو التي أخطأت بزواجها منه
- إنك تخيفني.
هتفت بالكلمة في عصبية، وهي تتراجع مبتعدة عنه، فصاح بها في غضب:
- وأنت تثيرين جنوني... الأمور كلها ملتهبة في البلد، وأنا أعمل ليل نهار، والرئيس نفسه لا ينام تقريبا، وكل ما يشغلك هو الإنجاب والحفاظ على مظهر الأميرة.
صاحت في حدة:

- كل أنثى في الدنيا تحلم بأن تكون أما.
صاح بها:
- إذا كانت صالحة لهذا.
شعرت برغبة عارمة في إشعال سيجارة، وهي تقول في عصبية:
- التقارير الطبية كلها أكدت أنني صالحة لهذا.
مط شفتيه في ازدراء، قائلا:
- ومن تحدث عن التقارير الطبية؟!
قالت في عصبية:
- ماذا تعني؟!
مال نحوها، وهو يجيب في صرامة:
- الأمومة ليست زهوا تتباهى به ذوات الحسن والجمال؛ لاستكمال صورة الأنوثة إنها مسئولية والتزام، وقدرة على تربية جيل صالح.
احتقن وجهها، وهي تقول:
- وأنت تراني غير أهل لهذا.
اعتدل في حركة حادة، مجيبًا في قسوة:
- بالتأكيد
احتقن وجهها أكثر، وهي تقول غاضبة:
- من تخدع بهذه العبارات الأنيقة، والدروس السخيفة
انعقد حاجباه في غضب، فتابعت مندفعة في عصبية:
- إنك فقط تحاول إخفاء السبب الحقيقي، الذي يمنعك من إجراء الفحوص الطبية؛ لمعرفة قدرتك على الإنجاب.
نظر إليها باستخفاف عصبي، وهو يلتقط رباط عنقه:
- هكذا؟!
- نعم... هكذا... ستة أشهر وأنت ترفض إجراء الفحوص الطبية، بعد أن علمت أن نتائج فحوصي إيجابية؛ لأنك فقط تخشى أن يعلم

أحدهم بالأمر.
غمغم في مقت، وهو يعقد رباط عنقه:
- غبية
صاحت به:
- أنت تعلم أنني على حق، وأنك مستعد للتضحية بكل شيء في الوجود، حتى لا تخسر صورتك وهيبتك.
كان يهم بالرد عليها، عندما ارتفعت طرقات الخادمة على باب الحجرة، فقال في صرامة عصبية:
- ادخلى يا (هند).
دلفت الخادمة إلى الحجرة، ونقلت بصرها بينهما في توتر، يوحي بأن شجارهما قد بلغ مسامعها، وهي تقول:
- (إبراهيم) بك هنا، ويطلب مقابلتك يا باشا.
انعقد حاجبا (عايدة) في تساؤل، في حين غمغم (حسين)، في دهشة متوترة:
- (إبراهيم مكى)؟!
أومأت (هند) برأسها، مغمغمه:
- نعم يا باشا إنه ينتظرك في الصالون
ألقي نظرة على ساعة يده في دهشة، وتساءل في قلق عن سر زيارة (مكي) له، في مثل هذه الساعة، ثم قال للخادمة في صرامة:
- أخبريه أنني أكمل ارتداء ثيابى، وسآتي إليه على الفور، وأعدي له فنجانا من القهوة... هيا.
انصرفت الخادمة في استسلام، وأغلقت الباب خلفها، فقالت (عايدة) في عصبية:
- اللياقة تقتضي أن يبلغنا مسبقا بقدومه.
تجاهل (حسين) قولها تماما، وكأنه لم يسمعه، وذهنه منشغل بالسؤال الأهم:

لماذا أتى (مكي) فجأة، في هذه الساعة؟!...
لماذا؟!...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ذلك الخبر المنشور في الصفحة الثالثة، من جريدة الأهرام غدا ...
قالها (مكى)، وهو يناول الجريدة لـ (حسين)، الذي غمغم وهو يطالع الإعلان:
- إنه إعلان عن فتح باب عمرة رمضان، لضباط وصف ضابط القوات المسلحة.
قال (مكى) في انفعال:
- أرأيت البراعة؟!
رفع (حسين) عينيه الحائرتين إليه، وهو يسأل:
- البراعة بشأن ماذا؟!
أشار (مكى) بيده، قائلا
- هل تذكر ذلك الخبر، الخاص بزيارة الأميرة (مارجريت) لـ (مصر)؟! جهازنا يرتب تفاصيل الزيارة بالفعل
قال (حسين) في حذر:
- هذا ترتيب طبيعى
قال (مكي) في حماس:
- المهم في التوقيت هناك أيضا استعدادات لزيارة قائد القوات الجوية (حسني مبارك) لدولة (ليبيا)، في الخامس من أكتوبر.
لم يستطع عقل (حسين) ربط تلك الأمور ببعضها البعض، وخاصة مع ما خلفه شجاره مع (عايدة) في نفسه من توتر، فقال في شيء من العصبية:

- ماذا تريد أن تقول يا (إبراهيم)؟!
مال (مكى) نحوه، وبدا شديد الانفعال والحماس، وهو يجيب في حماس حار:
- الحرب.
تراجع (حسين) في دهشة، وهو يكرر:
- الحرب؟!
اعتدل (مكي)، قائلا بكل حماسه وانفعاله:
تلك الأخبار في حد ذاتها قد لا تعني شيئا، حتى بالنسبة لمحلل سياسى محنك، ولكنني ربطت هذا بسعادة (السادات)، بعدم مصداقيته أمام الشباب، بما يتناقض مع طبيعته، وتوصلت إلى الحقيقة.
وعاد يميل نحو (حسين)، مضيفا:
- إنهم يستعدون للحرب
شعر (حسين) بصدمة عنيفة في كيانه، عندما سمع هذا من (إبراهيم)...
لم تكن الصدمة بشأن ما يقوله (مكى)...
ولكن الصدمة؛ لأنه لو صح قول (مكي)، فالرئيس قد أخفى عنه ما يحدث.
ولهذا دلالة كبيرة...
ومخيفة. جدا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- يا عمدة...
راح شيخ الخفر (بسيوني) يصرخ بالكلمة، وهو يعدو عبر طرقات القرية، فتابعه الكل في دهشة، وخرج العمدة الحاج (سعفان) أثر

صراخ (بسيونى)، وصاح فيه:
. ماذا حدث يا (بسيوني)؟!... هل انطبقت السماء على الأرض حتى تصرخ على هذا النحو؟!
صاح (بسيونى) في انفعال:
- أكثر يا عمدة... أكثر...
ولهث ثانيتين في شدة، قبل أن يستطرد صائحا:
- الحرب اندلعت يا عمدة.
اتسعت عينا العمدة في دهشة، وهو يهتف:
- الحرب؟!... مع (إسرائيل)؟!
لهث (بسيوني) أكثر، وهو يهتف:
- ألنا عدو سواها يا عمدة؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لا أستطيع تصديق هذا
هتف بها (عبد الحكيم)، مع هتافات النصر، التي انطلقت من أفواه عمال المصنع، فأجابه (مفيد) في حماس:
- ولم لا؟! إنها ست سنوات عصيبة، قضيناها في الإعداد والتدريب.
غمغم (عبد الحكيم) مبهورا، وهو يستمع إلى المذياع في حماس:
- ولكن خبرتى تقول: إن بياناتنا العسكرية ليست صادقة... في أيام النكسة خدعونا ببيانات عن إسقاط مئات الطائرات، ثم فوجئنا بالهزيمة
بدا (مفيد) منتشيا، وهو يقول:
هذه المرة تختلف يا (عبد الحكيم)... قلبي يخبرني أن هذه المرة تختلف.

هز (عبد الحكيم) كتفيه، قائلا في شك:
- ربما. ثم التفت إلى (مفيد)، مستطردا:
لو صحت توقعاتك، سأصرف نصف شهر مكافأة، لكل عمال وموظفي المصنع.
ابتسم (مفيد)، فاستدرك (عبد الحكيم) في سرعة:
- بعد إذنك بالطبع
ارتفع حاجبا (مفيد) في دهشة، وهو يبتسم قائلا:
- إذني؟!
ربت (عبد الحكيم) على كتفه، وهو يقول:
- بالطبع... ألست شريكا في المصنع.
تراجع (مفيد) في مقعده في بطء، وعقله يسترجع ذكرى ذلك اليوم، الذي أخبره فيه (عبد الحكيم)، في حضور (عمر)، أنهما قررا جعله شريكا في مصنع الغزل والنسيج.
كانت مفاجأة مدهشة له، لم يتوقعها قط. ولقد رفض الفكرة كلها في البداية رفضها لأنه لا يملك ما يساهم به في رأس المال... ورفضها لأنه كان واثقا من أن (حسين) لن يقبل بهذا. ولكن (عمر) و(عبد الحكيم) كانت لهما مبرراتهما.
دخل المصنع تضاعف، منذ تولى هو شئونه المالية، حتى أنهم بصدد شراء مصنع آخر، وتوسعة الأعمال..
وهذا وحده يمنحه الحق في أن يكون شريكا...
الأهم أنه فوجئ بأن (حسين) قد وافق على هذا، بل وأكتفي بربع نصيب في المصنع، بدلا من الثلث، حتى يحصل (مفيد) على ربع آخر...
وقد كان
وحتى تلك اللحظة، لم يفهم (مفيد) لماذا فعل (حسين) هذا؟!... ف (حسين) ليس بالرجل الذي يمنح أبدا إلا لو كان هذا في صالحه

والسؤال هو: ما الذي يراه (حسين) في صالحه، إذا ما صار هو شريكا في مصنع الغزل؟!
ما الذي يراه؟!... وما الذي لا يستطيع هو أن يراه؟!
- يبدو أن العمال سيفوزون بنصف الشهر
قالها (عبد الحكيم) في حماس، فانتزع (مفيد) من ذكرياته، وجعله يعتدل متسائلا:
- حقًا!!
هتف (عبد الحكيم):
- ألم تسمع يا رجل؟!... لقد ارتفع العلم المصري، على الضفة الشرقية لقناة (السويس)...
وشمله الحماس، من رأسه حتى أخمص قدميه، وهو يضيف:
*
- لقد عبرنا يا (مفيد) عبرنا.
وفي أعماق (مفيد)، شعر بأمر لم يشعر به، منذ زمن طويل... بالانتصار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تصدق (عايدة) عينيها، وهي تشاهد طوابير الأسرى الإسرائيليين، على شاشة التليفزيون المصري
لقد انتصروا...
انتصر المصريون..
انتصروا على الإسرائيليين، الذين تصورت، كما تقرأ عنهم، أنهم لا ينهزمون أبدا.
طوال إقامتها في (أوروبا)، سمعت الكثير عن جيش الدفاع الإسرائيلي، الذي لا يقهر.

ولأنها تبغض الثورة وكل ما فعلته، صدقت دعاية الإسرائيليين ومع نكسة يونيو، شعرت بالكثير من الشماتة لقد انهزم الفلاحون، الذين سرقوا لقبها وثروتها.. انهزموا، وخسروا (سيناء) كلها وهذا ما يستحقونه، من وجهة نظرها.

وحتى عندما كان (حسين) يخبرها عن الاستعدادات، لم تلق بالا للأمر؛ لثقتها في أن كل هذا غير مجد.

الفلاحون لن يهزموا جيش الإسرائيليين الذي لا يقهر أبدا...

أبدا..

ولكن ما تراه أمامها يثبت أنها كانت على خطأ تماما

المصريون فعلوها حقا

عبروا قناة (السويس)، أقوى مانع مائى، وحطموا خط (بارليف)، أقوى خط دفاعي في التاريخ، ورفعوا علمهم على أرض سيناء، ونشروا قواتهم فيها بكثافة.

إنهم ينتصرون!!...

كانت تنفث دخان سيجارتها في عصبية، وهي تتابع شاشة التلفاز عندما وضعت الخادمة (هند) أمامها فنجان القهوة، قائلة:

- القهوة يا مدام.

قالت دون أن تلتفت إليها:

- أميرة يا (هند)... أنا أميرة. قالت (هند) في رياء:

- عفوا يا سمو الأميرة... اغفري لي.

أشارت إليها (عايدة) بأناملها لتنصرف، إلا أن (هند) ظلت واقفة تقول بابتسامة متزلفة:

- سمو الأميرة... تعلمين كم أحبك... أليس كذلك؟!

سألتها (عايدة) في ضجر وصرامة:

- ماذا تريدين يا (هند)؟!

مالت (هند) نحوها، وهي تقول في نعومة مدروسة:

- اغفري لي يا سمو الأميرة، ولكنك لا تجيدين التعامل مع (حسين) باشا.
التفتت إليها (عايدة) في حركة حادة، هاتفة في استنكار غاضب:
- كيف تجرؤين على التحدث في أمور شخصية كهذه؟!
لم ينجح غضبها واستنكارها في دفع (هند) للتراجع، وهي تقول:
- صدقيني يا سمو الأميرة الرجال كالأطفال، لا يحبون العناد، ولا يمكن إجبارهم على فعل شيء بهذا الأسلوب.
هتفت بها في غضب: - هذا ليس شأنك أدهشها أن (هند) لم تتراجع، وهي تواصل في إصرار:
- الرجل في (مصر) لا يقبل نصيحة من زوجته، حتى لو كانت أميرة جميلة مثل سموك. إنهم يحتاجون إلى سلاح آخر لردعهم.
كانت الأميرة (عايدة) تريد أن تصرخ في وجهها، إلا أن فضولها الشديد جعلها تسألها في تعال:
- وأنت تعرفين هذا السلاح يا (هند)؟!
أدركت (هند) أنها قد نجحت في جذب انتباهها، فأجابت في حماس مدروس:
- كل نساء الأرض تعرفنه يا أميرتي
ثم مالت على أذنها، مستطردة:
- الأنوثة والدلال.
انعقد حاجبا (عايدة)، وهي تقول في عصبية:
- كان هذا ينفع في السابق فقط
اعتدلت (هند) وهي تقول:
- ألم أقل لك: إن الرجال مثل الأطفال يا سمو الأميرة.
نفثت (عايدة) تخان سيجارتها، وهي تسألها في اهتمام، وكأنها نسيت مؤقتا الفارق الاجتماعي والفعلي بينهما:
- يملون بسرعة؟!

هزت (هند) رأسها نفيا، وهي تقول:
ليس هذا يا أميرتي عفوا الرجال مثل الأطفال، لأنهم لا يتعلقون إلا باللعبة التي في واجهة المتجر، أما ما بين أيديهم فيزهدونه.
انعقد حاجبا (عايدة) في شدة، وعادت تنفث دخان سيجارتها في عصبية، وهي تغمغم:
- صدقت
ثم استدركت في عصبية:
- على الرغم من أنه لم يكن يحلم بمصاهرة أسرة ملكية
قالت (هند) في حكمة شعبية:
- هنا تكمن المشكلة
التفتت إليها (عايدة) بحركة حادة، ونفثت دخان سيجارتها في وجهها، وهي تقول في عصبية:
- ماذا تعنين أيتها الـ
قاطعتها (هند) في سرعة، قبل أن تنطق سبابها:
- الرجال مثل أي طفل يا سمو الأميرة قبل أن ينالك، يكون مستعدا لفعل أي شيء، ويكون للأنوثة والدلال سحرهما عليه ولكن بعد الزواج...
توقفت عند هذه النقطة؛ لترى تأثير كلماتها على (عايدة)، التي أطفأت سيجارتها، وهي تسألها في اهتمام:
- ماذا يحدث بعد الزواج؟!
ضمت (هند) قبضتها، وهي تقول في حماس:
- يشعرون أنهم ملكوك وشعور الامتلاك هذا يجعلهم لا يحتملون منك ما كانوا يحتملونه قبل الزواج.
غمغمت (عايدة):
- هذا صحيح.
ثم أشعلت سيجارة أخرى، وهي تقول في عصبية:

- حتى الدلال يفقد تأثيره
قالت (هند) في سرعة:
- لأنه بعد الزواج، لا يكفي الدلال، ولا تكفي الأنوثة وحدهما؛ لصنع التأثير نفسه في الرجال.
شعرت الأميرة (عايدة) بالدهشة؛ لأن امرأة شعبية مثل (هند)، يمكنها أن تفهم العلاقات الذكورية الأنثوية بهذا الوضوح..
يبدو أن ما قرأته، وسخرت منه يوما، كان حقيقيا
هذا الشعب ليس جاهلا أبدا ربما هو ليس متعلم كما ينبغي. ولكنه شديد الثقافة ولكنها ثقافة من نوع خاص جدا...
ثقافة يكتسبها من الشارع، ويصقلها من معترك الحياة، ويتناقلها مع خبراتها من جيل إلى جيل.
وفي اهتمام حقيقي، وبينما تنفث دخان سيجارتها، سألت (هند):
- وما الذي يحتاجه الأمر بعد الزواج؟
أشارت (هند) بسبابتها مجيبة:
- الدلال والأنوثة، مع عامل أساسي
ثم عادت تميل على أذن (عايدة)، مضيفة:
- الانكسار.
وانعقد حاجبا (عايدة) في شدة
الانكسار هو أبعد صفة عن طبيعتها ونشأتها..
ولكن (هند) أعطتها وصفة سحرية، لخوض الجولة التالية مع (حسين البنهاوي).
الجولة الحاسمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

112- انفتاح..

كل شيء تغير في (مصر)، عقب انتصارها في حرب اكتوبر 1973 م

الشعب انتشى، بعد أن وضع عن كتفه ثقل هزيمة، جثمت عليه ثقيلة مهينة لست سنوات.

رجال الجيش استعادوا كرامتهم وثقتهم.

و (السادات) صار زعيما شعبيا وعربيا؛ باعتباره أول قائد مصرى يهزم (إسرائيل)، ويكسر أسطورة جيشها، التي قالت عنه إنه لا يقهر.

ولأنه نجح أخيرا في حفر مكان له، إلى جوار أسطورة (ناصر) الراحل، بدا (السادات) يخطط لبدء عهد جديد في (مصر)..

وبأبجديات مختلفة

تماما

أما في سراى (البنهاوي)، فقد اختلف كل شيء في داخله، عن كل ما يدور من حوله.

الناس في كل مكان في القرية، كانت تشعر بالفخار. وداخل السراي، كان الكل يشعر بالانكسار.

(شريفة) كانت تشعر بذلك الانكسار، الذي لم يفارقها قط، منذ مصرع (أمجد)، على أسوار السراى، خاصة وأنها العانس الوحيدة في أسرة (البنهاوي)..

(نعيمة) كانت كسيرة القلب، تشعر بمرارة لا حصر لها، وبمقت يتجاوز كل الحدود، تجاه (فاطمة)، التي كفت عن التشاجر معها، خوفا من تهديد (حسين)، إلا أنها لم تستطع منع عيناها من نظرة شامتة ترميها بها كلما مرت أمامها.

نظرة كانت تزيد من انكسار (نعيمة) ومرارها، وتذكرها بأن لسانها قد دفعها نحو طلاقها الثاني من (عمر)، زوجها ووالد ابنتها الوحيدة..
الرجل الوحيد الذي أحبته، في حياتها كلها..
ربما لم تصارحه أبدا بهذا، ولكنه كان كامنا في أعمق أعماق قلبها منذ أول ليلة قضتها بين ذراعيه.
كان أول رجل في حياتها... وآخر رجل...
وهي تشتاق إليه كثيرا... وفي كل ثانية..
وهذا ما يضاعف شعورها بالانكسار ألف مرة...
(حافظ) كان يشعر بالانكسار، كما شعر دوما، ولكن شعوره هذا تضاعف، مع صعوبة حركته، التي صارت دائمة، بعد شفائه من صدمة المخ التي أصابته، وجعلته أشبه بأريكة قديمة ملقاة في حجرة شبة مظلمة
لم يكن يفعل شيئا طوال يومه، سوى الجلوس في حجرته، مغلقا نوافذها، مكتفيا بالتطلع إلى جدرانها، في شرود، دون أن يدري أحد ما يدور في عقله..
و (طارق) كان أكثرهم انكسارا، على الرغم من أنه في أحلى فترات شبابه.
، ويسير قدما نحو عامه الحادى والعشرين
صحيح أن (نادرة)، أبنة عمته وحبيبته لم تتزوج بعد، على عكس المعتاد مع بنات الأرياف، في تلك الفترة من الزمن، إلا أن التحاقها بكلية الآداب في (طنطا)، كان المبرر الذي قالته للكل، وبخاصة أبيها (عمر) لتبرير عزوفها عن الزواج، قبل استكمال دراستها.
(عمر) نفسه تظاهر بأنه يصدق هذا، ولكنه في أعماقه كان يدرك السبب الحقيقي لعزوف ابنته من (نعيمة) عن الزواج.

إنها تحفظ نفسها، من أجل (طارق)...
هو يدرك هذا، ويدرك أن الشابين ربطهما رباط الحب، وأن كليهما يشتاق إلى الآخر.
ولكن العقبات في سبيل زواجهما لم تزل قائمة...
ربما لم تعد (نعيمة) تتشاجر مع (فاطمة)، بعد تهديدات (حسين) القاسية، إلا أنها لم تستطع هضم فكرة زواج ابنتها الوحيدة من ابن (فاطمة).
كان هذا، بالنسبة لها، بمثابة انتصار لـ (فاطمة) ابنة (عبد الحميد) الكلاف عليها
صحيح أن (طارق) ابن شقيقها (حافظ)، ولكن الكل يعلم تماما أن (فاطمة) هي من يحكم (حافظ)... ومن يحكم (طارق) أيضا، على نحو غير مباشر
وحلم (فاطمة) منذ الأزل، هو أن تفوز بأرض (البنهاوي)... وبسراى (البنهاوي).. وهي لن تسمح لها بهذا أبدا..
كلهم كانوا يمرون بمرحلة انكسار نفسي.
حتى (مفيد)..
صحيح أنه صار أكثر ثراء، بعد مشاركته (عمر) و (عبد الحكيم)، في مصنعي الغزل والنسيج، بل وصار مديرا للمصنع الجديد، ومديرا ماليا للمصنعين معا، وتزايد دخله على نحو لم يبلغه من قبل.
ولكنه مازال يشعر بالانكسار في أعماقه يشعر بالانكسار؛ لأن كل من حوله في السراى منكسر ولأن قلبه، الذي يحاول إخماد لواذعه، مازال يلتهب بآلام حبه الضائع
مازالت (مديحة) تراوده في أحلامه كل ليلة تقريبًا...
ما زال يراها كما كانت يوم أحبها
صبية جميلة رقيقة، يفيض قلبها بالحب والمشاعر الجميلة..

وفي كوابيسه، كان يستعيد تفاصيل آخر لقاء لهما..
- ماذا تريد مني يا أستاذ (مفيد)؟!
وجه غاضب، وصوت يفيض بالكراهية والمقت!! كيف بلغت بها الأمور هذا الحد؟!... كيف لم تدرك أن كل ما أصابها لم يكن بإرادته؟!...
- لم تستطع حمايتى...
تلك العبارة كانت تمزقه كلما استعادها...
تقتله
تقطع قلبه إربا..
ما زال يذكر كيف لاحقها...
- أنت وجه الخير علينا يا (مفيد)
قالها (عبد الحكيم) في حرارة، وهو يدخل حجرة مكتب (مفيد)، في المصنع الجديد، فانتزع (مفيد) من ذكرياته في عنف، ولكنه نهض يستقبل (عبد الحكيم) بابتسامة كبيرة، وهو يسأله:
- خيرا. هل ألغوا ضرائبنا أم ماذا؟!
هتف (عبد الحكيم):
- بل أفضل من هذا بكثير
ضحك (مفيد) من وراء قلبه، وهو يقول:
- كنت أتصور أن إلغاء الضرائب هو أعظم شيء، يمكن أن يحظى به مستثمر.
أشار (عبد الحكيم) بيده، مجيبًا في حرارة:
- وزيادة الاستثمار أفضل وأفضل
ثم مال نحوه، مضيفا في حماس:
- (السادات) بدأ يتحدث عن الانفتاح.
تراجع (مفيد) جالسا على مقعده، وهو يردد:
- الانفتاح؟!... أي انفتاح؟!

لوح (عبد الحكيم) بذراعيه في الهواء، مواصلا حماسه:
- انفتاح اقتصادى يا رجل.. (السادات) قرر أن ننفتح على العالم. الاستيراد سيعود..، والتصدير سيتزايد الدنيا ستصبح أفضل بكثير.
غمغم (مفيد) في دهشة:
- ولكن نظام (مصر) اشتراكى، وهذا جزء أساسي من الدستور
هز (عبد الحكيم) كتفيه، قائلا:
- الاتحاد الاشتراكي نفسه ألغاه (السادات)، الدنيا تغيرت من حولنا يا (مفيد)، ولابد وأن نتغير معها، وإلا صرنا مجرد أتباع أذلاء، يسيرون في ذيلها.
قال (مفيد) في قلق:
- ولكن اقتصادنا ظل مغلقا لسنوات طوال، وانفتاح مفاجئ على العالم قد يؤدي إلى كارثة.
نظر إليه (عبد الحكيم) في دهشة:
- أتعتبر تدفق أموال الاستثمار على (مصر) كارثة؟!
أشار (مفيد) بيده، مجيبًا في توتر:
- ربما لا يكون كارثة بالنسبة لك ولى، ولكل رجل أعمال في (مصر)، ولكنه كذلك بالنسبة للبسطاء، وذوي الدخول المحدودة.
جلس (عبد الحكيم) أمامه، وهو يقول في حيرة:
- ولكن تزايد الاستثمارات سيعني المزيد من فرص العمل، وارتفاع في مستويات الأجور.
قال (مفيد) في حزم:
- وارتفاع كبير في الأسعار بالتالي.
قلب (عبد الحكيم) كفه، قائلا:
- أليس هذا أمرا طبيعيا؟!
أجابه (مفيد):

- بلى، ولكن خبرتي علمتني أن الثراء يصنع حالة من التوحش الاقتصادي، والشراسة المالية، ومع ثراء مفاجئ كهذا، ستنشأ طبقات جديدة.. طبقات مفترسة، تجمع المال وتسعى إليه، بكل السبل الممكنة بغض النظر عن قانونيتها وشرعيتها.
تمتم (عبد الحكيم)، وقد خفت حماسته كثيرا:
- كل المجتمعات الرأسمالية حدث فيها هذا
وافقه (مفيد) بإيماءة من رأسه، قائلا:
- وانسحقت فيها طبقات بسيطة، وانطحنت طبقات أخرى، وأثرى البعض ثراء فاحشا، على حساب جوع الآخرين وعريهم.
نهض (عبد الحكيم) يطلق زفرة حارة، وهو يقول:
- جعلت المستقبل شديد السواد يا (مفيد).
هز (مفيد) رأسه نفيا، وهو يقول:
- إنه ليس كذلك... ليس بالنسبة لنا على الأقل... ليس بالنسبة لك، أو لي، أو لـ (عمر)... أو حتى (حسين).
رفع (عبد الحكيم) سبابته، قائلا في حزم:
- (حسين) بك شريك بالربع، في المصنع القديم فحسب، أما هنا...
قاطعه (مفيد) في اهتمام:
- ليس لهذا شأن بما أردت قوله، الحقيقة أنه بالنسبة لكل مستثمر فالانفتاح سيكون فاتحة خير كبيرة.. رءوس الأموال ستتضاعف، والاستثمارات ستتزايد، وثراء الطبقة الرأسمالية سيتضاعف، مرتين على الأقل، ولكن...
قاطعه (عبد الحكيم)، وهو يضرب سطح مكتبة براحته:
- وهذا كل ما يهمنا.
تراجع (مفيد) بنظرة دهشة مستنكرة، فاستند (عبد الحكيم) براحتيه على سطح مكتبه؛ ليميل نحوه مستطردا:
- وكل ما سيهم (حسين) بك حتما

غمغم (مفيد) في توتر:
- (حسين)؟! أجابه (عبد الحكيم) في حزم:
- إنه قريب من مركز صنع القرار، فلا تقل لي: إنه لم يكن أول من استعد لهذا الانفتاح.
أدرك (مفيد) أنه على حق تماما:
- (حسين) حتما أول من سيستفيد من قرار الانفتاح هذا...
ولكن كيف؟!
كيف؟!
هذا هو السؤال...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أكبر شركة للتصدير والاستيراد في (مصر).
قالها (حسين) في زهو، وهو يلوح بملف صغير، في وجه (إبراهيم مكى)، الذي تراجع في مقعده مبتسما، وهو يقول في هدوء:
- كل أوراقها سليمة وقانونية مائة في المائة... ورسميا، هي ملك (صلاح)... حتى الشركة اسمها (الصلاح).
ثم مال إلى الأمام، مضيفا في خبثه الذئبي المعتاد:
- وفعلا هي ملك لي ولك.
غمغم (حسين) مبتسما:
- (صلاح) يملك عشرة في المائة من الأرباح.
أشار (مكي) بسبابته، قائلا في حزم:
- ودون أن يدفع قرشا واحدا... أظنها أفضل صفقة عقدها في حياته.

اتخذ (حسين) مجلسه، على أريكة وثيرة، أمام النافذة الكبيرة مباشرة، وهو يقول:
- لقد توليت أمر أذون الاستيراد، التي وقعها المسئولون دون مناقشة فور اتصالى بهم، من رئاسة الجمهورية.
كان (مكى) يدرك أن ما أقدم عليه (حسين) ليس جيدا، بالنسبة لشخص يحرص على عدم الظهور في الصورة، ولكنه لم يفصح عن هذا وهو يسأله بابتسامة:
- كم؟!
أشار (حسين) بيده، مجيبًا :
- ست أذون استيراد، وكلها بضائع استهلاكية، ستنفد فور طرحها في الأسواق؛ لأن الناس تقرأ عنها منذ زمن، ولم ترها إلا في محال شارع (الشواربى)، كبضائع مهربة غالية الثمن.
اتسعت ابتسامة (مكى)، وهو يقول:
- أتقصد أنواع الشوكولاتة الفاخرة، والعلكة، وعلب البلوبيف والتونة...
أشار (حسين) بيده، وهو يكمل في حماس:
- وعلب المشروبات الغازية، والملابس الداخلية الأنثوية الحريرية، وكل تلك التفاهات.
صمت (مكي) لحظات، قبل أن يقول في حذر:
- ولماذا لم نبدأ بأمور أكبر وأكثر أهمية؟!
مال (حسين) نحوه، وهو يجيب:
- الواقع أن هذا كان اقتراح (عايدة)... تلك الأشياء سيتم استيرادها، إن عاجلا أو آجلا، ومن يفعل أولا يربح الساحة. ثم إن الأرباح التي ستدرها تلك الشحنات، ستجعل باستطاعتنا تطوير عملنا، واستيراد معدات المصانع فيما بعد.
اعتدل (مكى) في اهتمام، متسائلا:

- هل بلغك أن الحكومة تنوي تغيير معدات مصانعها؟!
ابتسم (حسين) ابتسامة غامضة، وهو يجيب:
- ليس مصانع الحكومة يا رجل.
ثم مال أكثر، مضيفا
- إنه الانفتاح
عاد (مكى) يتراجع في مقعده، وهو يغمغم:
- نعم. إنه الانفتاح وصمت لحظة، ثم أضاف في تفكير:
- كنت على حق منذ البداية يا صديقي... الساحة تفتح ذراعيها لمراكز القوى الجديدة.
والتقط نفسا عميقا، قبل أن يضيف:
- نحن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- وماذا عني أنا؟!
قالتها الأميرة (عايدة) في دلال، جعل (حسين) يلتفت إليها مبتسما وهو يتساءل:
- ماذا عنك؟!
كانت متألقة في تلك الليلة، بزينتها البسيطة المتقنة، وثوب نومها الهفهاف القصير، وطلاء شفتيها الأحمر اللامع، وتلك النظرة المطلة من عينيها الجميلتين، وهي تقترب منه، وتلمس صدره مجيبة:
- ألا ينطبق الانفتاح على أيضا؟! ابتسم مجيبًا:
- أرباح الشركة ستعيدك إلى الطبقة الأرستقراطية، التي تنتمين إليها، والتي تفتقدينها طوال الوقت.
غمغمت في دلال، وهي تداعب صدره:

- الانفتاح سيضع الكثيرين في تلك الطبقة، حتى من لا يستحقون هذا.
تطلع إلى عينيها الجميلتين لحظات، قبل أن يسألها مباشرة:
- ماذا تريدين بالضبط يا (عايدة)؟!
أرادت أن تصرخ في وجهه أنها كانت ومازالت، وستظل تريد طفلا إلا أنها اتبعت نصيحة خادمتها (هند)، وهي تجيب بكل دلال:
- متجر للثياب الفاخرة.
غمغم في دهشة:
- أنت؟!
استخدمت كل دلالها وأنوثتها وسحرها، وهي تجيب:
- نعم... أنا... الأميرة (عايدة)، ذات الذوق الملكي الخاص الانفتاح كما أخبرتك، سينتج طبقة أرستقراطية جديدة طبقة عاشت عمرها كله، تحلم الحلم الملكي وكل نساء تلك الطبقة الجديدة، سينبهرن بفكرة أن تختار لهن أميرة سابقة ما يرتدين في حفلاتهن... إنه مشروع ناجح مائة في المائة.
تطلع إليها في دهشة مستنكرة:
- أنت يا (عايدة)... الأميرة (عايدة)، تتحول إلى صاحبة متجر ثياب؟!
ابتعدت عنه، وهي تجيب في حماس:
- ليس أي متجر ثياب، سيكون متجرا للطبقة الأولى فحسب..
أضخم وأفخر متجر، في (مصر) كلها... سأطلق عليه اسم الأميرة.
وسأختار له أفضل مكان في المدينة كلها.
تطلع إليها في دهشة، وكأنما يرى ذلك الجانب منها لأول مرة، قبل أن يقول في بطء:
- متجر للثياب الفاخرة، لا ينبغي أن يكون في المدينة

انعقد حاجباها الجميلان في دهشة، فتابع في حزم:
- بل في أفخم فنادق (القاهرة)... ويطل على النيل مباشرة.
هتفت:
- أيعني هذا أنك قد وافقت؟!
اتسعت ابتسامته، وهو يجيب:
- غذا سيكون إذن الاستيراد بين يديك، و.
قاطعته في حزم
- لا أريد إذن استيراد.
انعقد حاجباه في شدة، وهو يتطلع إليها في توتر، فأضافت بنفس الحزم:
- أريد السفر لشرائها وانتقائها بنفسي.
وحمل صوتها كل توترها، وهي تستطرد:
- من (باريس).
ازداد انعقاد حاجبيه في شدة، وهو يحدجها بنظرة نارية صارمة، قبل أن يميل نحوها في بطء، مجيبا بكل صرامة:
- كلا
احتقن وجهها في شدة، وتخلت عن كل نصائح (هند)، وهي تقول في شراسة:
ماذا تعني بكلا هذه؟!... هل تخشى أن أذهب ولا أعود؟!...
اعتدال، قائلا في صرامة:
- سبق لك أن فعلتيها
قالت في حدة:
- لم نكن زوجين حينذاك
أشاح بوجهه عنها، وهو يقول:
لست أظن هذا يصنع فارقا لديك.
صاحت بكل الغضب:

- أيعني هذا أنني سجينة هنا؟!
أجابها في صرامة، وهو يندس في فراشه:
- بحكم القانون
صاحت غاضبة ومستنكرة:
- قانونك أنت؟!
أجاب في برود:
- بل قانون الدولة، الذي يمنع الزوجة من السفر، دون إذن زوجها.
صرخت ثائرة:
- متخلفون... فلاحون... ألم تتعلموا بعد، أن المرأة لها نفس حقوق الرجل، في كل العالم المتحضر؟!
التقط بعض أوراقه، وهو يقول بنفس البرود:
- كنا ننتظرك لتعلمينا.
احتقن وجهها أكثر، حتى شعرت أنها تكاد تنفجر، فصرخت:
- ليس رجلا من يقهر زوجته على هذا النحو.
نحى الأوراق جانبا، وأطلت من عينيه نظرة نارية غاضبة، وهو يقول:
- تمالكي نفسك، قبل أن تصبح العواقب وخيمة.
صاحت غاضبة:
- رجولتك تمثل لك دوما نقطة استفزازية شديدة... لهذا ترفض إجراء الفحوص الطبية، و
قاطعها في صرامة:
- أهذا ما نصحتك به (هند)؟!
عبارته صدمتها، أو ربما صعقتها، فامتقع وجهها في شدة، وتراجعت بحركة حادة، في حين اعتدل هو على فراشه، مواصلا:
- هل أخبرتك أن استفزاز رجولتى، هو الوسيلة الأمثل؛ لدفعي لإجراء تلك الفحوص السخيفة؟!...

غمغمت مصعوقة:
- هل تتجسس على يا (حسين)؟!
قال في صرامة:
- لست بحاجة إلى هذا... الفارق واضح بين أسلوب الأميرة، وسوقية الخادمة.
هتفت في غضب شاحب:
- زرعت أجهزة تنصت هنا... أليس كذلك؟!
زمجر في غضب:
- قلت لك: إنه من المستحيل أن أفعل هذا في منزلي.
هتفت في حدة:
- كيف إذن... قاطعها قبل أن تتم سؤالها:
- كيف عرفت أنك تتلقين النصائح من خادمتك؟!... أليس هذا ما تريدين قوله... الأمر ليس عسيرا كما تتصورين أيتها الأميرة؛ فعندما يعاشر رجل امرأة لسنوات، من السهل عليه أن يلحظ التغيير المفاجئ في سلوكها تجاهه.
غمغمت محنقة:
- كنت أريد طفلا.
عاد يرقد على الفراش، وهو يقول:
- واليوم تريدين السفر إلى (باريس).
كانت مباغتته لها مازالت تبلبل أفكارها، فغمغمت في عصبية:
- أريد استقلالا اقتصاديا
أجابها في صرامة:
- غدا أستأجر المتجر، في أفخر فنادق (القاهرة)، وبعد أسبوعين فقط، سيحمل لافتة (الأميرة).
غمغمت، وقد عجزت عن فهمه هذه المرة:
- حقا..

جذب الغطاء على جسده، مضيفا:
- وفي نفس الوقت، سيسافر شريكك إلى (باريس)؛ لانتقاء ما يناسب متجر أميرة.
هتفت مستنكرة:
- شريكى؟! أدار ظهره لها، مجيبًا :
- أنا.
ومرة أخرى، عجزت عن فهمه...
تماما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

113- الذئاب..

ترقرقت الدموع في عيني (شريفة)، وهي تجلس وحدها في شرفة السراى، مع مغيب الشمس..

كانت هذه دوما هي أهم لحظات يومها الطويل..

مغيب الشمس..

كل يوم، بعد أن تنتهي من العمل في السراي، وبعد أن يتناول الجميع طعامهم، ويهدأ المكان، تأتي هي إلى الشرفة الخلفية للسراى، لتتأمل مغيب الشمس..

وفي أعماقها، يتصاعد شعور بالأسى والمرارة، كلما غاصت الشمس في الأفق.

ربما لأن هذا يذكرها بأفول شمس حياتها هي...

الكل من حولها استقر في حياته، ومضى به قطار العمر، في نمو وازدهار، فيما عداها هي..

وحدها انكسر قلبها، مع كل حب خفق به. وحدها ظلت وحيدة، بلا زواج... هناك لعنة، ظلت تطارد دوما كل من سعي للزواج منها (فؤاد) رآها، فخفق قلبه لأختها (ناهد)... و (أمجد) قتل غدرا...

وحتى (عبد الحكيم)، أرمل شقيقتها الراحلة (توحيده)، طلبها للزواج ثلاث مرات، ولكنها لم تحتمل أن تحل محل شقيقتها في فراشها.

ثم، وبعد عام أو أكثر، مالت نفسها للموافقة... ولكنه لم يتقدم لطلبها منذ ذلك الحين وهكذا بقيت وحيدة.. وحيدة في أعماقها، حتى في وجود كل من حولها.

وحتى بعد أن انضمت إليها (نعيمة)، عقب طلاقها الثاني من (عمر)، ظلت تشعر بتلك الوحدة في أعماقها..

فالمرارة التي تشعر بها (نعيمة)، جعلتها لا تتحدث طوال الوقت إلا عن أمرين، كلاهما ينتهي بها إلى نهر من الدموع...
طليقها (عمر)... و (فاطمة).. وهي لم تعد تحتمل سماع الأمرين... لم تعد تحتمل سماع عذابات الآخرين، وهي الغارقة في عذاباتها الشخصية.
و (طارق) لم يعد يتحدث إليها ولا إلى أي مخلوق، بخلاف والديه، اللذين يلتقي بهما لماما.
و (مفيد) يأتي من المصنع مرهقا، بعد مغيب الشمس، فيتناول طعامه ويأوي إلى فراشه، بعد صلاة العشاء...
هي بالفعل إذن وحيدة.. وحيدة في وجودهم جميعا. وهذه أبشع صور الوحدة...
وحدة النفس
- ماذا تفعلين هنا يا ست البنات؟!....
انتزعتها (فاطمة) من شرودها، بهذه الكلمات الخشنة الغليظة، التي تتعمد بها استفزازها، فزفرت في حنق، وهي تقول في توتر، دون أن تلتفت إليها:
- ماذا تريدين يا (فاطمة)؟!
أجابتها (فاطمة) بخشونتها المستفزة:
- أنسيت أن غدا عيد ميلاد (طارق البنهاوي)، صاحب هذا السراي؟!
التفتت إليها (شريفة) في حدة، هاتفة في استنكار غاضب:
- صاحب ماذا؟!. منذ متى يا ابنة (عبد الحميد) الكلاف؟!... هذا السراى سراى (البنهاوي).
قالت في غلظة:
- أوليس هو حفيد (البنهاوي).... الوحيد؟!

ضغطت حروف كلمتها الأخيرة متعمدة، فنهضت (شريفة) في حدة:
- السراي له صاحب، يدعى (حسين البنهاوي)، وسأجعله يؤكد لك هذا بنفسه، عندما يأتي غدا
هزت كتفيها العريضتين، قائلة:
- سمعنا هذا كثيرا... الصلعاء دوما تتباهى بشعر ابنة أختها.
احتقن وجه (شريفة)، وهمت بقول شيء ما، عندما مالت نحوها (فاطمة)، وسألتها في غلظة:
- ترى ماذا ستفعلون، لو مات (حسين) بك فجأة؟!
هتفت (شريفة) مذعورة:
- بعدا للشر
اعتدلت (فاطمة)، وعادت تهز كتفيها العريضتين مرة أخرى، قائلة:
- كل ابن أدم يموت، إن عاجلا أو آجلا.
هتفت بها (شريفة)، وهي تفرد أصابع كفها في وجهها:
- أطال الله (سبحانه وتعالى) في عمره، وأبعد عنه شر حاسد إذا حسد.
مطت (فاطمة) شفتيها، وغمغمت بغلظتها وخشونتها:
- كلهم يموتون.
ثم استدارت مستطردة:
- هيا يا ست البنات... أمامنا الكثير لنعده، من أجل من سيأتون غدا.
حدقت فيها (شريفة) وهي تبتعد، وقد أثير السؤال الذي أفزعها في رأسها الخوف..
ماذا يمكن أن يفعل (البنهاوية) بدون (حسين)؟!...
ماذا؟!...

انتفض جسدها للفكرة، وتلفتت حولها، وكأنها تبحث عمن يمنحها الشعور بالأمان...
وبدون أن تدري، تركز تفكيرها في شخص واحد
(طارق)...
(طارق البنهاوي)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أول الغيث...
قالها (عمر) في حماس، وهو يلوح بورقة في يده، أمام (مفيد) و(عبد الحكيم)، فسأله الأول في اهتمام:
- ما هذا بالضبط؟!... أجابه في حماس:
- بيت أزياء انجليزي كبير (جى جى كو)... يريد عقد صفقة كبيرة مع مصنعنا؛ لتوريد أقمشة برسوم مصرية، في ديسمبر القادم.
هتف (عبد الحكيم) في فرح:
- فليحيا الانفتاح.
أما (مفيد)، فتساءل في حذر:
- مصانعنا؟ وكيف علم بيت الأزياء الكبير هذا بأمر مصانعنا؟
ربت (عمر) على ظهره في حماس، وهو يواصل التلويح بالورقة هاتفا:
- هذا لا يعنيني يا رجل... المهم أن تتم الصفقة
غمغم (مفيد) في قلق:
- دون أن تعرف مع من نتعامل؟!
التقط (عبد الحكيم) الورقة من يد (عمر)، وألقي نظرة عليها، قبل أن يقول:

- الخطاب الذي أرسلوه يحوي عنوانهم، وأرقام هواتفهم، ومن السهل التحري عنهم.
ثم التفت إلى (مفيد)، مستطردا بابتسامة:
- شكوكك هذه كفيلة بإفساد مهرجان من الفرح يا صديقي
تراجع (مفيد) في مقعده، وهو يقول:
- مازلت أتساءل: كيف علموا بأمر مصنعنا؟!
أجابه (عمر) في حماس:
تلك الشركات الكبيرة لديها وسائلها المهم أن اختيارها قد وقع علينا، وليس على سوانا.
غمغم (عبد الحكيم):
- من حسن طالعنا.
هز (مفيد) كتفيه، دون أن يجيب، فتبادل (عمر) و (عبد الحكيم) ابتسامة، قبل أن يقول الأول:
- هل ستحضران عيد ميلاد (طارق) الليلة؟!
أجاب (عبد الحكيم)، في سرعة وحماس:
- بالطبع
وأضاف (مفيد)، بابتسامة باهتة:
- إنه عيد مولده الحادي والعشرين... هذا يعني أنه لم يعد صبيا، من الناحية الرسمية... لقد صار رجلا.
غمغم (عبد الحكيم) مبتسما: بس صار (بنهاويا).
تراجع (عمر) في مقعده، قائلا:
- إنه كذلك، من اليوم الأول
تطلع إليه (مفيد) في صمت، في حين أسرع (عبد الحكيم) يسأل:
ترى لماذا اختار كلية التجارة؟!... الأن عمه المفضل تخرج منها؟! غمغم (مفيد)، قائلا:
- مجموعة أختارها.

غمز (عبد الحكيم) بعينه،
- هذا لا ينفي أنه يعتبرك مثله الأعلى.
اعتدل (عمر)، وهو يتساءل في اهتمام:
- ولماذا ليس (حسين)؟!
اكتفى (مفيد) بمط شفتيه، دون أن يجيب، في حين قال (عبد الحكيم) في حذر:
- علاقته به ليست جيدة.
عاد (عمر) يتراجع في مقعده، وهو يقول:
- وعلى الرغم من هذا، فـ (فؤاد) زوج (ناهد)، يراه امتدادا لـ (حسين)، وليس لـ (مفيد).
تمتم (مفيد) في اهتمام:
- حقا؟!
خشى (عبد الحكيم) أن يتوتر الموقف، فأطلق ضحكة عالية، وهو يقول:
- المهم أنه (بنهاوى).
لم يكن للكلمة معنى، عندما نطقها (عبد الحكيم)، في المصنع الجديد ولكنها حملت طنا من المعاني، في الليلة نفسها، في سراى (البنهاوي)...
السراى، ازدانت كما لم يحدث من قبل، وكأنه يحتفل بزفاف أميرة، وليس بعيد ميلاد (البنهاوي) الشاب.
الكل حضر... أبناء البنهاوي، وأزواجهن، و (حافظ) و (فاطمة). وحتى (عمر) نفسه.
كانت مفاجأة اهتز لها قلب (نعيمة)، أن يحضر (عمر) بنفسه عيد ميلاد (طارق) الحادي والعشرين.
عيد ميلاد ابن (فاطمة)، الذي يكره سراى (البنهاوي)، والذي يأبى مواجهة (حسين)، حضر عيد ميلاد (طارق)، وهو يعلم أن

(حسين) قادم مع زوجته (عايدة)..
أيحاول إغاظتها؟!... أم أنه يثبت لها أن أمرها لم يعد يعنيه؟!...
شعرت بحنق شديد في أعماقها، وبجرح في كرامتها، جعلها تبدو عصبية، وهي تسأل (مفيد):
لماذا تآخر (حسين) هذا العام؟!
أشار بيده في هدوء، مجيبًا :
- ستحضر الأميرة (عايدة) معه هذه المرة، وأنت تعرفين طرازها. ستقضي نصف يوم أمام المرآة، قبل أن تخطو خطوة خارج منزلها طالت بنفس العصبية:
سمعت أنه قد افتتح لها متجر أزياء فاخرة، في فندق يطل على نيل (القاهرة).
غمغم: هذا صحيح
تصاعدت عصبيتها، وهي تقول: لابد وأن هذا قد كلفه ثروة.
كان يدرك كم تعاني من الموقف كله، لذا فقد التفت إليها، وقال في حنان:
- (نعيمة) هناك أمران أحب أن أخبرك بهما، حتى لا يصدمك حدوثهما الليلة.
امتقع وجهها، وهي تتراجع قائلة:
- مصيبة جديدة؟!
هز رأسه نفيا، وهو ينهض قائلا
- تعالى... الأفضل أن أخبرك بهذا وحدنا.
ازداد امتقاع وجهها، وهي تتبعه مغمغمه:
- إلى هذا الحد؟!
اكتفي بالصمت، حتى جمعتهما حجرة الضيوف، فالتفت إليها، متسائلا في حنان:
- أمازلت ترفضين زواج (طارق) من (نادرة)؟!

تحول وجهها من الامتقاع إلى الاحتقان، وهي تقول في عصبية:
- وسأظل أرفض ما دمت حية... ابنتي الوحيدة، التي ليس لي سواها لن تتزوج ابن (فاطمة).
قال في ضيق:
- إنه ابن (حافظ البنهاوي).
قالت في حدة:
- أضعف أعمدة عائلة (البنهاوي)، وسبب تعاستها وخزيها.
غمغم مستنكرا:
- خزيها؟
هتفت:
- أهناك خزي يفوق زواجه من ابنة كلاف البهائم؟!
قال، محاولا تهدئة ثائرتها:
- ألم تبد لك الفكرة مثالية حينذاك؟!
ارتفع صوتها أكثر، وهي تقول في حدة:
- تلك الحقيرة لم تحمد الله (سبحانه وتعالى) على هذه النعمة بل تصورت أنها قد تساوت بنا؛ لمجرد زواجها من (حافظ).
غمغم:
- العرف يقول هذا.
هتفت محتدة:
- ليس مع ابنة كلاف البهائم.
زفر في توتر، قبل أن يقول:=
- ليست هناك وسيلة إذن، لإقناعك بقبول ما سيحدث.
اتسعت عيناها، وهي تسأله في جزع:
- وماذا سيحدث الليلة؟! سكت لحظات يتأملها، قبل أن يجيب في توتر:
- لاحظى أن (عمر) قد وافق على هذا.

ارتجف قلبها بين ضلوعها، وهي تهتف في صوت مبحوح، من فرط الانفعال:
- وافق على ماذا؟!
مال نحوها، مجيبًا في حذر:
- (نادرة) ستحضر عيد ميلاد (طارق) الليلة اتسعت عيناها عن آخرهما، وتراجعت كالمصعوقة، فأسرع يضيف:
- لم يكن من المنطقي أن يحضر كل أحفاد البنهاوي فيما عداها.
احتقن وجهها، وتصاعدت غصة كبيرة في حلقها، منعتها من النطق فاحتواها (مفيد) بين ذراعيه لتهدئتها، وهو يغمغم:
- إنها ستأتي في وجودنا جميعا. قريبة تحضر عيد ميلاد ابن خالها... هذا أمر طبيعي بحت.
تصاعدت تلك الغصة في حلقها، مع الدموع التي ملأت عينيها، وانهمرت من قلبها دامية
(نادرة) ستحضر ...
و (عمر) وافق..
و (مفيد) يبارك هذا..
الكل يتآزر ضدها.
لم يتبق لها إذن سوى (حسين).
لابد وأن تلجأ إليه، وتجتذبه إلى جوارها، و
توقفت الأفكار في ذهنها، مع زغرودة قوية، انطلقت من بين شفتى (فاطمة)، وبلغت مسامعها كرصاصة قاتلة.
زغرودة يستحيل أن تطلقها، مع قدوم (حسين) و (عايدة)
زغرودة فرح و
وانتصار
وعاد وجهها يمتقع في شدة...
إنها تحتفي بانتصارها

(فاطمة) تحتفي بوصول ابنتها (نادرة)...
السبيل إلى أرض وسراى (البنهاوي)...
اتسعت عيناها عن آخرهما، فأمسك (مفيد) كتفيها في قوة، وهو يقول:
- تماسكى هذه المرة... لا تفسدي المناسبة.
انسالت دموع القهر من عينيها، وهي تقول:
- تلك الحقيرة.
قاطعها في سرعة:
- دعك منها الليلة... لا تجعليها تفسد زواجك مرة أخرى. حدقت فيه من وسط دموعها، قائلة:
- زواجي؟!... ماذا أصابك يا (مفيد)... زواجي انتهى، منذ ما يقرب من عام.
ابتسم ابتسامة مشفقة عطوف، وهو يسألها:
- ألا ترغبين في العودة إلى زوجك؟!
أغرقت دموعها وجهها، وهي تقول في مرارة:
- (عمر) لم يعد زوجي... (عمر) طليقي... ولقد مر على طلاقنا ما يقرب من العام، وهذا يعني أنه لابد وأن يتقدم لطلب يدي مرة أخرى، و ..
قاطعها وهو يميل نحوها، قائلا:
- هذا هو الأمر الثاني، الذي أردت إخبارك به.
تطلعت إليه في توتر متسائل، فابتسم ابتسامة باهتة، وهو يضيف:
- لست طليقة (عمر) يا (نعيمة)... أنت زوجته... ما زلت زوجته
واتسعت عيناها عن آخرهما، ودار رأسها في شدة فالمفاجأة كانت أقوى من قدرتها على الاحتمال
ألف مرة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«هذه كل الأوراق
قالها (صلاح)، وهو يضع ملفا أمام (إبراهيم مكى)، الذي سأله في صرامة:
- كلها؟!
أجابه (صلاح) وهو يتراجع:
- كلها يا (إبراهيم) باشا.
مال (مكي) يفحص الأوراق في اهتمام، قبل أن يعتدل قائلا:
- إذن فـ (حسين البنهاوي) جعلك شريكا للأميرة (عايدة)، في بوتيك الأميرة..
أومأ (صلاح) برأسه إيجابا، وهو يقول:
- بنفس أسلوب شركة الاستيراد والتصدير يا (إبراهيم) بك... شريك صوري، على الأوراق فقط، مقابل عشرة في المائة من الأرباح.
غمغم (مكى):
- ودون أن تدفع قرشا واحدا كالمعتاد
أومأ (صلاح) برأسه إيجابا، فتابع (مكى) بابتسامة ثعلبية:
- محظوظ أنت يا (صلاح)
خفض (صلاح) عينيه، وهو يغمغم:
- بفضلك يا (إبراهيم) باشا.
استغرق (مكى) في تفكير عميق بضع لحظات، فلاذ (صلاح) بالصمت التام، وهو يتطلع إليه في خبث، حتى اعتدل قائلا في صرامة:
- ستبقى نسخة من هذه الأوراق في مكتبي، وعليك أن تجد دليلا على أن (حسين البنهاوي) هو الشريك الفعلي، في بوتيك الأميرة

(عايدة).
التمعت نظرة الثعلب في عيني (صلاح)، وهو يقول:
- وماذا عن شركة الاستيراد والتصدير؟!
أجابه (مكى) في صرامة:
- ليس هذا من شأنك
تراجع (صلاح) مستسلما في الظاهر، ولكنه ابتسم في أعماقه في خبث..
الذئاب بدأت تتصارع اللعبة ..
بدأت من جديد..
وعليه أن يحسن التعامل مع الأمر وأن يستفيد منه إلى أقصى حد...
هكذا علمه أساتذته الكبار.
(حسين البنهاوي)، و (إبراهيم مكى)...
عندما يتصارع الذئاب الكبار، أنتظر متحفزا.
ففي صراعهما ليس هناك منتصر
بل ليس هناك لكلمة انتصار
وجود كل منهما سيثخن الآخر بالجراح...
أحدهما سيلقى مصرعه
والآخر سيخرج مترنحا.
وعندئذ انقض
واربح.
ابتسامته الثعلبية لم تغب عن عينى (مكى)، الذي انعقد حاجباه في شدة، وهو يقول في صرامة:
- اطرح عن ذهنك ما تفكر فيه يا (صلاح).
انتفض (صلاح)، وهو يعتدل هاتفا:
- ما أفكر فيه؟!

مال (مكى) نحوه، وهو يقول في شراسة:
- تذكر أنك تلميذي، وتدين لي بكل ما تعلمته، ومن النادر في عالمنا، أن يتفوق التلميذ على أستاذه.
انتفض انتفاضة مدروسة هذه المرة، وهو يقول:
- محال أن أحاول يا (إبراهيم) باشا.
اعتدل (مكى)، وهو يقول، في مزيج من صرامته وشراسته:
- الأفضل لك ألا تفعل، لأن كل شيء يخصك في درج مكتبي، وكل ما يحتاجه تدميرك توقيع صغير.
كان (صلاح) يدرك أن هذه حقيقة، إلا أنه لم يشعر بالخوف، الذي أراده (مكى) أن يشعر به...
ربما لأنه أيضا ذئب ولأنه يدرك جيدا قواعد قطيع الذئاب ولكن عليه أن يجاريه في المسرحية وحتى الفصل الأخير ولهذا نهض متظاهرا بالتوتر، وهو يقول:
- اسمح لي بالانصراف يا (إبراهيم) بك
أشار إليه (مكي) بالذهاب، وهو يشيح بوجهه عنه وفي صمت، انصرف (صلاح)، وعلى شفتيه ابتسامة غامضة...
وفي هدوء، استقل سيارته، وانطلق بها حتى نيل (جاردن سيتى)، وما هي إلا دقائق، حتى سمع سؤالا، يلقيه صاحبه بكل الاهتمام:
- هل سلمته كل الأوراق كما طلب؟!
اعتدل (صلاح) وهو يجيب:
- كما أمرت تماما يا باشا
وكان هذا الباشا، الذي يقف أمامه (صلاح) هو (حسين)...
(حسين البنهاوي)...
شخصيا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

114- القهر..

آخر من حضر إلى حفل عيد ميلاد (طارق) الحادي والعشرين، كان على غير المعتاد، (حسين البنهاوي)، والأميرة (عايدة).

حضرا في سيارة فاخرة، تتبعها سيارة حراسة خاصة، بعد العاشرة مساء ببضع دقائق، وهو يعد وقتا متأخرا، بالنسبة لتلك المناطق الريفية..

وكرد فعل طبيعى، خرج الكل لاستقبالهما، عند باب السراى في البداية، ارتسمت ابتسامة مدروسة على الوجود، عندما هبط (حسين) من السيارة، ولكن عندما هبطت (عايدة)، ارتفعت حواجب الكل في انبهار، وقد خيل إليهم أن عهد الأمراء والملوك قد عاد بغتة إلى (مصر).. وإلى قريتهم بالتحديد.

فلقد كانت (عايدة) في ذروة جمالها وأناقتها تلك الليلة، في ثوب وردى حريرى، مطرز بشظايا الألماس، عقد من الماس الحر، تألق تحت فيض الأضواء، التي غمر بها (حسين) واجهة السراى.

وبكل انبهارها، غمغمت (شريفة)، وهي تقف إلى جوار (فاطمة):

- زوجة أخي حورية من الجنة..

ثم استدركت في سرعة، وهي ترمي (فاطمة) بنظرة جانبية..

- أخي (حسين).

التفتت إليها (فاطمة) في حركة حادة، إلا أن لسانها اللاذع لم ينبس ببنت شفة..

ليس لأن المناسبة لا تحتمل هذا، ولكن لأنها لا تستطيع أن تعترض بحرف واحد، وخاصة مع المقارنة غير العادلة، بينها بخشونتها وغلظة ملامحها وصوتها، وسوقية تصرفاتها، وبين (عايدة) بجمالها الأخاذ وأناقتها المبهرة..

ولقد صافحت (عايدة) الجميع في ترفع، وكأنها تصافح خدمها في القصر، ثم ألقت نظرة مستهترة شبه ساخرة على السراي وأنواره، قبل أن تخطو داخله في عظمة، باعتبارها أميرة سابقة، وزوجة (حسين)، عميد عائلة (البنهاوي)، وصاحب الكلمة الأولى والأخيرة فيها.

(طارق) وحده استقبل الأميرة (عايدة) بلا انبهار، وفي بساطة أدهشت الكل، وأشعرتهم أن هذا الشاب يختلف.

ولكن الواقع أن (طارق) لم ينبهر بالأميرة (عايدة)، ولا بعمه (حسين، على الرغم من حرسه الشخصي، الذي وقف يحرس باب السراى، ويرهب الكل بمهابته وقوته؛ لأنه كان في الواقع يحيا انبهارا بشخص آخر..

(نادرة)..

كانت أول مرة يراها، منذ عام كامل...

وكانت هي قمة في الجمال والرقة هذا المساء..

في نظره على الأقل...

إنه لم يستطع كبح جماح انتفاضة قلبه القوية، عندما رآها تدلف إلى السراي، ووالدها (عمر) يستقبلها.

(فاطمة) نفسها اختلج قلبها لرؤية الفتاة، التي خفق قلب ابنها الوحيد حبها، فلم تشعر إلا وهي تطلق زغرودة قوية، أفرغت بها حماس قلبها. وجعلت (عمر) يبتسم في حنان، وكأنه يعلن موافقته الضمنية، على هذا الحب العذري الشريف.

(نادرة) أيضا اختلج قلبها الصغير بين ضلوعها، وهي تصافح (طارق) في صمت..

كانت تريد أن تهنئه ببلوغ عامه الحادي والعشرين، إلا أنها لم تستطع فتح شفتيها، مع اختلاجة قلبها، فصافحته، وتراجعت

لتجلس إلى جوار والدها، وقلبها ينبض في عنف، حتى لقد خشيت أن يسمع والدها نبضاته...
وطوال الوقت، وعلى الرغم من تبادل الكل الأحاديث في صالة السراى الذي يجمعهم جميعا كل عام، في ذكرى مولد (طارق)، لم ينبس (طارق) أو (نادرة) بحرف واحد.
فقط راح كل منهما يختلس النظر إلى الآخر، وكأنهما يتبادلان حديث حب صامت، فصلهما عن كل من يحيط بهما.
حتى وصل (حسين) و (عايدة)...
الكل انبهروا بقدومهما، وانشغلوا به، فتسلل (طارق) إلى جوار (نادرة)، وهمس لها بكل شوقه:
- أوحشتني.
خفق قلبها بشدة، وهي تهمس بكلمات مرتجفة:
- وأنت أيضا.
كان (عمر) يقف على مسافة مترين منهما، ولكنه شعر بما يحدث بينهما، فغمغم في حزم:
- تعالى إلى جوارى يا (نادرة).
تخضب وجهها بحمرة الخجل، وهي تبتعد عن (طارق)، وتسرع إلى جوار والدها الذي وضع يده على كتفها، وكأنما يثبت أنه المدافع الأساسي عنها.
واحتقن وجه (طارق)، وهو يتراجع إلى داخل السراى، متزامنا مع دخول (حسين) و (عايدة).
ولهذا لم يصافح (عايدة) في انبهار أو حتى في اهتمام..
ولم يرق هذا بالطبع للأميرة السابقة، فرمقته بنظرة متعالية، وهي تقول:
- أأنت من أقاموا من أجله هذا المهرجان؟!
ابتسم (حسين)، وربت على كتف (طارق) في حرارة، وهو يقول:

- إنه الحفيد (البنهاوي) الوحيد.
أدارت عينيها إليه، قائلة في لهجة ذات مغزى خاص:
- وما الذي يمنعك؟!
احتفظت ملامحه بجمودها لحظات، قبل أن يميل على أذنها، هامسا بابتسامة:
- من أن أصفعك وأهين كرامتك أمامهم جميعا؟!
احتقن وجهها، وهمت بقول شيء ما، إلا أنها خشيت أن يقدم على تحويل تهديده إلى حقيقة، خاصة وأنها واثقة من أنه ليس مستعدا لخسارة هيبته وسط عائلة (البنهاوي)، حتى ولو ضحى بها شخصيا..
ودون أن يطرف له جفن، سنوات عمله حولته إلى ذئب مخيف، مصاص دماء، لا يذرف دمعة واحدة على ضحاياه، مادام موتهم يؤمن له الحياة والبقاء.
وبجهد شديد، حافظت على ابتسامتها، وهي تلتفت إلى الجميع، قائلة:
- عيد ميلاد سعيد.
قالتها بالفرنسية، فارتسمت الدهشة والحيرة على وجوههم، فيما عدا (مفيد)، الذي أجابها بالفرنسية:
- للجميع.
شعرت (شريفة) بالتوتر الخفي في الموقف، فقالت محاولة إدارة دفة حديث لطيف:
- سمعت أنك قد افتتحت متجرا للثياب يا (عايدة).
أجابتها (عايدة) في زهو:
- أفخم متجر في (مصر) كلها، وفي أفخم فنادق (القاهرة).
وضعت (فاطمة) يدها على صدرها، وهي تقول في استنكار حذر:
- الأميرة تعمل حائكة ثياب؟!

التفتت إليها (عايدة) في استنكار، وما أن وقع بصرها عليها، حتى أطلقت ضحكة ساخرة عالية، قبل أن تغمغم:
- أهذا أقصى ما يصل إليه خيالك؟!
شعرت (نعيمة) بالشماتة، فاندفعت تقول:
- متجر يبيع الثياب ولا يحيكها يا جا... يا (فاطمة).
احتقن وجه (فاطمة)، مع سخريتهم منها، وشماتة (نعيمة) الواضحة، وقالت في عصبية:
- سنبتاع كل ثيابنا منها على الأقل.
ارتفع حاجبا (عايدة) في دهشة، وهي تتطلع إلى ثياب (فاطمة)، قبل أن تطلق ضحكة ساخرة أخرى، انعقد لها حاجبا (حسين)، وهو يقول في صرامة:
- (عايدة) تتعامل مع زوجات الوزراء وكبار المسئولين، ثم استطرد في حزم، حتى لا يمنح أحدا فرصة التعليق أو المواصلة:
- دعونا نوقد شموع الرشد... لقد أحضرت أكبر كعكة عيد ميلاد، تم إعدادها خصيصا لحفيد (البنهاوي).
نجح (حسين) في السيطرة على الموقف كعادته، وأرغم الجميع على اتباع السيناريو الذي يضعه هو، حتى انتهى الجميع من إطفاء الشموع، وتناول الكعكة الفاخرة، ثم مال (مفيد) على (حسين)، هامسا:
- هل يمكننا أن نتحدث وحدنا قليلا؟!
تطلع إليه (حسين) لحظة في صمت، ثم نهض، قائلا في حزم:
- تعال.
جلسا أمام بعضهما البعض وحدهما، في حجرة الضيوف، وسأله (حسين) في اهتمام صارم:
- ماذا لديك؟!!
أجابه (مفيد) في خفوت:

- (طارق) بلغ اليوم عامه الحادي والعشرين، وصار من الناحية القانونية، رجلا ناضجا، و.
قاطعه (حسين) في حدة:
- انتقل إلى الهدف، ولا تضيع وقتي في التفاصيل.
ازدرد (مفيد) لعابه في صعوبة، قبل أن يتنحنح، قائلا:
- لقد قررت تقديم هدية لـ (طارق)، تناسب مرحلة بلوغه سن النضج القانوني.
مال (حسين) نحوه في اهتمام، فتنحنح (مفيد) مرة أخرى، قبل أن يتابع في حذر متوتر:
- نصيبي في المصنع الأول.
انعقد حاجبا (حسين) في شدة، وهو يتطلع إليه بنظرة قاسية، قبل أن يتراجع في مقعده في بطء، دون أن يرفع عينيه عنه، فازدرد (مفيد) لعابه في توتر، وهو يقول:
- أظنه يستحق هذا، باعتباره..
قاطعه (حسين) في صرامة:
- إنك تدفعني بقرارك هذا إلى أمر واحد لا غير.
امتقع وجه (مفيد)، وهو يتطلع إليه، وقلبه ينبض في قوة، في حين عاد (حسين) يميل نحوه، مضيفا بكل قسوة وصرامة:
- تجريدك من كل ما تملك... في المصنعين
وانتفض جسد (مفيد) في عنف..
وهوى قلبه بين قدميه..
صريعا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ولكن لماذا؟!
هتف (عبد الحكيم) بالسؤال، في انزعاج واستنكار، وهو يحدق في (مفيد) غير مصدق لما سمعه، ثم لوح بذراعه في حيرة، وهو يستطرد:
- بالأمس يقيم حفلا أسطوريا في السراي، من أجل عيد ميلاد (طارق)، ثم يرفض في شراسة جعله شريكا بالمصنع؟
زفر (مفيد) في عصبية، وهو يقول:
- (حسين) يشعر أن هذا سيفقده السيطرة على العائلة.
تساءل (عمر) مستنكرا:
- وماذا يمكن أن يفعل (طارق)؟!
أجابه في مرارة:
- يستقل اقتصاديا، ويملك أمر نفسه، ولا تعود لـ (حسن) سيطرة عليه، أو على (حافظ) و (فاطمة).
قلب (عمر) شفتيه، وهو يغمغم في غضب:
- السيطرة.. السيطرة... أهذا كل ما يفكر فيه هذا الديكتاتور.
ارتبك (عبد الحكيم)؛ خشية أن يغضب الحديث عن (حسين)، على هذا النحو شقيقه، ولكن (مفيد) غمغم في أسي:
- هذه حقيقة.
ران عليهم صمت ثقيل، بعد عبارة (مفيد)، تبادل خلاله (عبد الحكيم) نظرة متوترة مع (عمر)، قبل أن يسأل (مفيد) في حذر :
- وماذا تنوي أن تفعل؟!... هل ستتحداه؟!
صمت (مفيد) لحظات، قبل أن يجيب:
- لو أن المصنع ملكي وحدي لفعلت، ولكن (حسين) لا يقبل الخسارة أبدا ولو أنني تحديته على هذا النحو، لن يكتفي بتدمير

المصنع القديم فحسب، وإنما سيسعى لتدمير ثلاثتنا، وربما (طارق) أيضا؛ ليثبت للكل أنه الأقوى.
عاد (عمر) و (عبد الحكيم) يتبادلان تلك النظرة المتوترة، قبل أن يقول (عمر) في أسف:
- عندما تزوجت أختك (نعيمة)، كان (حسين) هذا شابا طموحا ولكنه يملك شهامة الريف المعتادة... واليوم أشعر أنني أتعامل مع شخص يختلف تماما.
غمغم (عبد الحكيم)، وهو يتلفت في حذر، وكأنه يخشى أن يسمعه (حسين) بوسيلة أو أخرى:
- إنها السلطة وشهوتها.
زفر (مفيد) مرة أخرى، قائلا:
- شهوة السلطة لا تفوقها شهوة؛ لأنها تمنحك كل الشهوات الأخرى.
تمتم (عمر):
- لهذا يتقاتل الناس كالكلاب المسعورة من أجلها.
زفر (مفيد) مرة ثالثة، دون أن يقول شيئا، وران على ثلاثتهم صمت ثقيل، استغرق ما يقرب من دقيقة كاملة، قبل أن يغمغم (عمر):
- وصلتنا برقية جديدة من (جى جى كوم).
رفع (عبد الحكيم) و (مفيد) عيونهما إليه في اهتمام، فتابع بابتسامة ظافرة:
- وافقوا على كل شروطنا. هتف (عبد الحكيم) في فرح:
- حقا؟
أما (مفيد)، فقد تراجع في قلق، مغمغما:
- كلها؟!... لم يعترضوا على شرط واحد؟!
قال (عمر) في حماس:

- على الإطلاق.
تطلع (عبد الحكيم) إلى (مفيد)، الذي بدت عليه علامات التفكير والشك، وضحك قائلا:
- هادم اللذات ومفرق الجماعات... ماذا بك يا رجل؟!... هل تم تطعيمك ضد الفرحة أم ماذا؟!
ابتسم (مفيد) ابتسامة باهتة، وهو يعتدل، قائلا:
- ليس من الطبيعي، في صفقات بهذا الحجم، أن يوافق طرف على شروط الآخر، دون مناقشة... ما يحدث دوما هو مساومة، يحاول كل طرف فيها الحصول على أفضل ما يمكن.
مال (عمر) نحوه، وهو يقول:
- ولكنهم وافقوا، وسيحضر رئيس مجلس إدارتهم بنفسه؛ لتوقيع العقد.
غمغم (مفيد) في شك أكثر:
- بنفسه؟!
تراجع (عمر) هاتفا:
- افرح معنا مرة يا (مفيد)... إنها صفقة العمر، ولو فاز بها مصنع آخر، لأقام حفلا للاحتفال بالمناسبة.
غمغم (مفيد)، وهو يحاول أن يبتسم:
- بالطبع.
ما أن أتم عبارته، حتى سمع طرقات على باب مكتبه، جعلته يعتدل وهو يقول في رصانة:
- تفضل.
دلف سكرتيره إلى المكان، وهو يقول في توتر:
- هناك من يرغب في مقابلتك يا أستاذ (مفيد).
تساءل (عمر) في قلق:
- من؟!

قبل أن يجيبه السكرتير، دفعه ذلك الزائر في خشونة، وهو يجيب في صرامة:
- (فريد عبد الرحمن)... من مصلحة الضرائب التجارية.
وقبل أن ينبس أحدهم ببنت شفة، اندفع عدد من الرجال إلى الحجرة، أحاطوا بكل شيء، فهتف (عبد الحكيم) في عصبية:
- ما هذا بالضبط؟!
انعقد حاجبا (مفيد)، وهو يتراجع في مقعده، مغمغما:
- (حسين).
وانتفض جسدا (عمر) و (عبد الحكيم)..
(حسين) يضرب ضربته الاستباقية للكل.. وكعادته بلا رحمة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صمت (مكى) طويلا، وهو يتطلع إلى (حسين)، قبل أن يقول في حذر وبطء:
- أليس هذا قاسية بعض الشيء؟!
أجابه (حسين) في شراسة:
- لابد من هذا.
صمت (مكى) بضع لحظات أخرى، قبل أن يغمغم:
- نصف مليون جنيه مبلغ مبالغ للغاية، مبيعاتهم كلها يستحيل أن تبلغ هذا الرقم، فما بالك بضرائبهم؟
تراجع (حسين) في مقعده، وهو يقول بنفس الشرسة:
- التقرير الذي كتبه (فريد)، يقول: إن أرباحهم خمسة أضعاف هذا الرقم.
اعتدل (مكى)، قائلا :
- أنت تعلم مثلى أن هذا مستحيل!...
نحن أكبر شركة استيراد وتصدير في (مصر)، وأرباحنا لم تبلغ المليون جنيه بعد.
هز (حسين) كتفيه بلا مبالاة، وهو يقول:
- إنه تقدير جزافي، من حقهم الطعن عليه سأله (مكى) في حذر:
- وماذا عن الحجز التحفظي؟!
عاد يهز كتفيه، مجيبًا :
- إجراء قانونى بحت.
تطلع إليه (مكى) بضع لحظات في صمت تام.
مستحيل أن يكون هذا (حسين)، الذي عرفه قديما!!...
الجالس أمامه هو وحش..
وحش كاسر، فقد قلبه منذ زمن، ولم يعد هناك ما يمكن أن يطرف جفنه من أجله..

وحش يفترس بلا رحمة، كل من يفكر مجرد تفكير، في الوقوف أمامه..
أيا كان..
وحش عليه أن يأخذ كل الحذر منه، حتى وهو يقف إلى جواره...
فماذا لو تصور يوما، مجرد تصور، أنه يقف في طريقه؟!...
لقد أطاح بشقيقه وابن شقيقه بلا رحمة؛ لمجرد أنهما حاولا ممارسة حقهما الطبيعي فماذا لو أنه عاداه هو؟!...
كان يدرس الأمر في ذهنه، عندما اعتدل (حسين) فجأة، قائلا:
- أتعلم أنني أقنعت سيادة الرئيس، بأن يسمح للسيدة الأولى بممارسة عمل تجارى؟
فاجأ الخبر (مكى)، فتساءل في دهشة:
- أي عمل تجارى؟!
أشار (حسين) بيده، وهو يبتسم ابتسامته الذئبية، مجيبًا :
- سيارات الليموزين الفاخرة.
صمت (مكى) لحظات مندهشا، قبل أن يغمغم في حذر:
- إنها المرة الأولى، التي يحدث فيها هذا
هز (حسين) كتفيه، قائلا في سخرية.
- وهي المرة الأولى أيضا، التي نستخدم فيها لقب السيدة الأولى في (مصر)، ولم يحدث شيء.
تأمله (مكى) في قلق بضع لحظات، قبل أن يسأله في اهتمام:
- ولكن لماذا؟!... إنك لا تفعل شيئا بلا هدف.
ابتسم (حسين) ابتسامة الذئب، وهو يقول:
- (إبراهيم مكى) الذي عرفته، لم يكن ليلقى مثل هذا السؤال.
صمت (مكى) بضع لحظات، قبل أن يقول في بطء:
- إنك تحمي نفسك.
اعتدل (حسين) يسأله في اهتمام فضولى:

- كيف؟!
أجاب (مكى)، بنفس البطء الحذر:
- لو أن السيدة الأولى لديها عمل تجارى، لا يمكن أن يحاسب الرئيس أحد أتباعه، إذا ما امتلكت زوجة التابع عملا تجاريا.
تألقت عينا (حسين)، وهو يقول:
- لم تفقد مهارتك بعد يا (إبراهيم).
ابتسم (مكى) ابتسامة خبيثة، وهو يجيب:
- وأنت اكتسبت مهارات مخيفة يا (حسين).
التقت نظراتهما لثوان، من العسير معرفة ما حوته أو تناقلته.. لقد كانت نظرة ذئب لذئب.
نظرة فيها تحفز ووحشية...
وحذر...
وتحد..
نظرة استغرقت ثوان معدودة، قبل أن يتراجع (حسين)، سائلا في لهجة خاصة:
- متى كانت آخر مرة رأيت فيها (صلاح) يا (إبراهيم)؟!
أجابه (مكى) على الفور:
- مساء أمس.
سأله:
- وما الذي أحضره لك هذه المرة؟!
سرت قشعريرة باردة في جسد (مكى)، وإن حافظ على جمود ملامحه ثبات وأعصابه، وهو يقول:
- كشف حساب الشركة كالمعتاد
ابتسم (حسين) ابتسامة الذئب، وهو يقول:
- فقط؟!
سرت تلك القشعريرة مرة أخرى في جسد (مكى)، وهو يقول

- ماذا تعني؟!
صمت (حسين) بضع لحظات، وهو يتطلع إليه بابتسامة مخيفة، قبل من يجيب في بطء:
- لا عليك... إنه مجرد سؤال.
ثم نهض، مستطردا بنفس الابتسامة:
- في المرة القادمة، حاول أن تذكره بالقاعدة الذهبية.
سأله (مكي) بكل قلقه:
- أية قاعدة؟!
فتح (حسين) باب المكتب، وأجابه دون أن يلتفت إليه:
- حسن اختيار الجانب الرابح.
قالها، وخرج يغلق الباب خلفه، فانعقد حاجبا (مكى) في شدة، وهو يتطلع إلى الباب، الذي أغلقه (حسين) خلفه، قبل أن يغمغم في توتر:
- هناك قاعدة ماسية يا (حسين) بك، والتقط سماعة هاتفه، وهو يضيف:
- تغذي بخصمك، قبل أن يتعشى بك.
وأدار قرص الهاتف، وذهنه يعد الخطة... خطة ضربته القادمة لخصمه المخيف..
الضربة التي ستحسم الصراع..
إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

115- العودة..

نفثت الأميرة (عايدة) دخان سيجارتها في استمتاع، وهي تجلس على مقعدها الخاص، في بوتيك (الأميرة)، تتطلع عبر الواجهة الزجاجية، إلى ذلك المشهد البديع، لانعكاس أشعة شمس الغروب، على سطح اول (القاهرة) الساحر، الذي يمنحها دوما ذلك الشعور بالانتعاش والاستمتاع.

كان البوتيك يحقق أرباحا أكبر مما توقعت، مع نوعية الثياب الفاخرة التي يعرضها، واقتصار كل طراز منها على قطعة واحدة، تضمن لصاحبتها ألا تنافسها أخرى في أناقتها، في أي حفل رسمي..

أما هي، فعلى الرغم من زواجها من (حسين البنهاوي)، أقوي رجل في (مصر)، إلا أنها لم تعد إلى العالم الأرستقراطي بحق، إلا باعتبارها الأميرة السابقة (عايدة)، صاحبة أشهر بوتيك ثياب في (مصر)..

وعلى الرغم من الأثواب الفاخرة لديها، والتي أقبلت عليها نساء الطبقة الأرستقراطية الجديدة، كما توقعت تماما، إلا أنها، وفي كل حفل دعيت إليه، نجحت في أن تتألق كدرة الحفل، بجمالها، وأناقتها، وتلك اللمسات المدروسة بعناية من المكياج على وجهها الرقيق..

وحياة القصور، التي عاشتها سابقا، جعلت منها أستاذة في المداهنة والرياء، تنساب من بين شفتيها الجميلتين كلمات معسولة، تنطقها في رقة ونعومة، فتخلب لب النساء قبل الرجال..

وكونها أميرة سابقة، جعل الكل يضعونها في مكانة خاصة، مع عصر الانفتاح، الذي كثرت فيه الأموال، وصار الكل يحلم بالتميز..

- اختيارك للأثواب رقيق جدا يا أميرة...
انتزعها ذلك الصوت الأنثوي غير المألوف من أحلامها، فاعتدلت تلتفت إلى صاحبته، التي تزور البوتيك لأول مرة...
كانت امرأة جميلة في وضوح، ذات ملامح متناسقة، وعينين لهما لون جذاب، وشعر مصفف في عناية..
الأهم أنها كانت ترتدي ثوبا شديد الأناقة، يعود إلى بيت أزياء بلجيكى شهير، ورائحة عطرها الفاخر تضفي عليها جاذبية من نوع خاص جعلت (عايدة) تنهض لاستقبالها بنفسها، وهي تقول:
- لا يوجد مثلها، في أي مكان في (مصر).
ابتسمت الجميلة، وهي تقول:
- لا أبتاع ثيابى من (مصر) في المعتاد
تأملتها (عايدة) في اهتمام، قبل أن تسألها في فضول:
- إنها أول مرة تزورينا فيها... أين تقيمين بالضبط؟!
ابتسمت الجميلة في هدوء، وهي تجيب:
- في (ليفربول)... لدى ضيعة كبيرة هناك
قالت (عايدة) في دهشة:
- ولكنك مصرية جدا.
ابتسمت الجميلة، قائلة:
انا كذلك، ولكنني غادرت (مصر) منذ فترة، وسافرت إلى (انجلترا).
سألتها في فضول:
- هل أدرت عملا هناك؟
صمتت الجميلة لحظات، شردت خلالها ببصرها، وكأنها تستعيد ذكرى قديمة، قبل أن تعود بعينيها إلى (عايدة)، وتستعيد ابتسامتها الهادئة، مجيبة:
- ليس في البداية.

حاولت (عايدة) أن تجيبها بابتسامة مماثلة، وهي تقول:
- امتلاك ضيعة كبيرة في (ليفربول) ليس بالأمر السهل
وافقتها الجميلة بإيماءة خفيفة من رأسها، قبل أن تقول:
- زوجى هو سير (ماهر جلال)، كبير أطباء (لندن كلينيك).
رفعت (عايدة) حاجبيها في دهشة، وهي تقول مبهورة:
- سير؟!... ومصرى؟!
قالت الجميلة في هدوء:
- كلانا حاصل على الجنسية البريطانية منذ فترة.
كانت (عايدة) تهم بإلقاء سؤال آخر، عندما سألتها الجميلة:
- أنت الأميرة (عايدة)، زوجة (حسين) بك (البنهاوي)... أليس كذلك؟!
ابتسمت (عايدة)، ونفثت دخان سيجارتها في أناقة، قبل أن تجيب في زهو:
- بلى... من الواضح أن إقامتك في (ليفربول)، لم تقطع صلاتك المعلوماتية بـ (مصر).
حملت ابتسامة الجميلة غموضا عجيبا، وهي تقول:
- المال يفتح كل الأبواب
غمغمت (عايدة)، وقد تسلل إلى مشاعرها قلق خفى:
- بالطبع.
أشارت الجميلة إلى السيجارة بين أصابع (عايدة)، وهي تقول:
- من الخطر التدخين وسط متجر للثياب، فالأقمشة الطبيعية نباتية المنشأ في المعتاد، ورائحة الدخان قد تستقر بين طياتها لفترة طويلة.
ألقت (عايدة) نظرة على السيجارة، ثم تراجعت خطوتين، لتسحقها في منفضدة بلورية، وهي تقول بلمحة عصبية:
- من الواضح أنه لديك خبرة كبيرة، في التعامل الأقمشة.

اتسعت ابتسامة الجميلة، وحملت لمحة أخرى من الغموض، وهي تمد يدها إليها، قائلة:
- مدام (جى جى)... رئيس مجلس إدارة شركة (جى جى كو) للملابس.
تصافحتا وكل منهما تتطلع إلى عيني الأخرى مباشرة... وكانت البداية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هذا صحيح ...
قالها (عمر) في صرامة باردة، جعلت وجه (نعيمة) يحتقن في عضب، وهي تقول:
- إذن فقد أعدتني إلى عصمتك، وتركتني أجهل لعام أو يزيد، وأحيا في الجحيم، مع ابنة الكلاف؟!
رمقها بنظرة باردة، وهو يجيب:
- أهنتني أمام الجميع، ولم تتركى لي سوى لطم كرامتك بالمقابل.
حدقت فيه غير مصدقة، ومكررة في استنكار:
- مع ابنة الكلاف!!
اعتدل، قائلا في صرامة:
كان من الضروري أن تتعلمي التعايش معها... وذلك السراي الذي تصفينه بالجحيم، ضمكما سويا، يا عائلة (البنهاوي).
صرخت:
- (فاطمة) ليست من عائلة (البنهاوي).
زمجر في شراسة:
- دفن الرأس في الرمال لا يغير من الحقيقة شيئا... (فاطمة) هي زوجة (حافظ البنهاوي)، وأم (طارق البنهاوي)، وشئت أم أبيت،

هي الآن فرد من عائلة (البنهاوي).
صرخت في هيستريا:
- مستحيل!! مستحيل!!... ابنة الكلاف لن تكون أبدا جزءا من عائلة (البنهاوي).
صرخ فيها بكل قوته:
- ماذا أصابك؟!... (ناهد) و (شريفة) تقبلتا الأمر، وتعايشنا معه منذ زمن... أنت وحدك تلتهبين من مجرد ذكر اسم (فاطمة)!!... أجنون هذا أم ماذا؟!
تراجعت مصعوقة، وهي تحدق فيه مصدومة لم يصدمها ما قاله، بقدر ما صدمها ما أيقظه في عقلها... نعم... لماذا هي؟!... (شريفة) أيضا تبغض (فاطمة)، ولكنها تتعايش معها..
و (ناهد) بعيدة عن العائلة، بسبب طبيعة زوجها (فؤاد)، وخاصة بعد أن خرج أو أخرج من الجيش.
هي وحدها تحمل في أعماقها ذلك الغضب المشتعل المستعر تجاه (فاطمة)..
فلماذا؟
ألأنها في طفولتها رأت والدها رحمه الله، يدلل (فاطمة) بأكثر مما يدللها؟!
أمن الممكن أن تترك ذكريات طفولة، كل هذا البغض؟!... أم لأن (فاطمة) تحمل كل ما تبغضه في أية أنثى؟!..
خشنة...
غليظة...
سوقية... وبكل تلك الصفات السيئة، هي زوجة أخيها (حافظ).
أضعف أخوتها على الإطلاق أو ربما كل هذا في آن واحد...
ربما..
ولكنه حتما ليس جنونا!!... ليس جنونا!!...

- أنا لست مجنونة!...
صرخت بالعبارة في عصبية، فمال (عمر) نحوها في تحد، وهو يقول في صرامة:
- ما من مجنون يدرك أنه مجنون.
امتقع وجهها، وهي تتراجع، قائلة في هلع:
- ماذا تنوى يا (عمر)؟!
تراجع في هدوء مستفز، وجلس يضع ساقا على ساق، وهو يجيب:
- أنوى عرضك على طبيب نفسي
تحول امتقاع وجهها إلى شحوب، وهي تغمغم مصعوقة:
- طبيب نفسي؟! اعتدل في صرامة:
- هذا شرطي لاستمرار الحياة بيننا يا (نعيمة)... أن تقبلي العرض على طبيب نفسي عصبيتك الزائدة لم تعد طبيعية... لقد تجاوزت كل الحدود، وتحتاج إلى ضابط ورابط.
غمغمت منكمشة:
- طبيب نفسي؟!
مال كثيرة نحوها، وهل يقول في صرامة قاسية، أقرب إلى الشراسة:
- ما قولك؟!
انكمشت أكثر، وتصاعد رعب كبير في أعماقها
- طبيب نفسي؟!... لن يفهم الناس هذا... سيرددون أنها قد أصيبت بالجنون...
الكل سيتداول هذا...
بعضهم سيشفق
وبعضهم سيسخر والبعض الثالث سيشعر بالشماتة...
فكرة الشماتة قفزت بذهنها إلى عدوتها اللدود.. (فاطمة)..

مجرد ورود الاسم في ذهنها، جعل كيانها كله ينتفض، وهي تهتف في عصبية شديدة:
- قولي لا يهم.
تطلع إليها في دهشة مستنكرة، فتخلت عن انكماشها، وعاودت هجومها، وهي تستطرد:
- المهم قول (حسين).
تراجع في توتر، مع ذكر اسم (حسين)، وبدا هذا واضحا عليه، مما شجعها على رفع صوتها، وهي تتابع في حدة:
- (حسين البنهاوي)... لابد من معرفة رأيه، حول عرض شقيقته على طبيب نفسي. ترى هل يتفق هذا أم يختلف مع مسار حياته وطموحاته؟!
غمغم في غضب:
- هذا الأسلوب لا يفيدك.
أدركت بغمغمته أنها على وشك ربح معركتها، فواصلت في حدة أكثر:
- دعنا نسأله، وليقل هو كلمته.
قال في حدة:
- (حسين البنهاوي) لن يحكم بيتى.
قالت متحدية:
- إنه يحكم (مصر)، وبيتك جزء ضئيل منها.
صمت محتقن الوجه، وهو يتطلع إليها في غضب، وراح يبحث عن رد مناسب لهجومها باسم (حسين)..
إنه يعلم أنها على حق، في جزء من قولها.. (حسين البنهاوي) لن يقبل أبدا أن تعرض شقيقته على طبيب نفسى.
لن يتقبل احتمال معرفة مخلوق واحد بهذا.. هذه حقيقة، يعرفها جيدا. ولكنها حقيقة تجرح رجولته.

وبشدة ..
ولهذا فعليه أن يرد..
وبعنف..
ولكن كيف؟!...
السؤال الفعلي هو..
كيف؟!...
الطلاق ليس حلا هذه المرة؛ لأنه سيكون الطلاق الثالث، الذي لا رجعة فيه.
وهذه خطوة لن يقدم عليها.
على الأقل من أجل ابنته الوحيدة منها من أجل (نادرة).. ولكن هناك حتما وسيلة أخرى.. وسيلة يرد بها الصفعة، ويجبر بها زوجته على الخضوع له... وهذا يعيد السؤال إلى ذهنه...
كيف؟!...
كيف؟!...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انحدرت دمعة ساخنة من عينى (نادرة)، وهي تسير إلى جوار (طارق)، في طريقهما إلى محطة القطار في (طنطا)، وغمغمت في مرارة:
- لست أجد سبيلا يا (طارق)... أبي يثق بك، ويوافق تماما على امر زواجنا، بل ويراه مناسبا. ولكن أمي ترفض في شدة وإصرار حتى أنها أقسمت أن تقتل نفسها، لو أن خطبتنا تمت.
قاوم الدموع في عينيه، وهو يقول:
- عمتي تعاقبني على خلافها مع أمي.
سالت دموعها، وهي تغمغم:

- إنها لا تدري أنها تعاقبني أنا.
شعر بغصة في حلقه، جعلته يتمتم في خشونة:
- لعن الله الغضب.
سارا بعدها صامتين، جنبا إلى جنب، عبر شارع (المديرية)، المؤدى إلى المحطة، قبل أن ينتزع (طارق) نفسه من غصته، وهو يقول:
- امتحاناتك ستنتهي بعد أسبوع واحد يا (نادرة)، وبعدها لن يكون لديك مبرر للخروج من دارك.
تمتمت في مرارة:
- ولن يمكننا أن نلتقي ثانية.
خفض بصره، وهو يقول:
- الأمر الآخر أن هذا عامك الأخير، وأنا ما زلت طالبا في عامي الأخير... ستحصلين على شهادتك قبلى بعام كامل.
غمغمت، وهي تمس كفه بأصابعها:
- لن يصنع هذا فارقا.
التقط نفسا عميقا، قبل أن يقول:
- لن يكون هذا، الفارق الوحيد.
عاد الصمت يغلفهما مرة أخرى، ومحطة القطار تقترب، وشعرت هي من صمته، بالثقل الملقى على قلبه، فازدردت لعابها، وقالت، محاولة التخفيف عنه:
- هل ستعمل في المصنع بعد تخرجك؟!
غمغم:
- لم أتخذ قرارى بعد
هزت كتفيها الصغيرين، قائلة:
- وأي قرار يحتاجه هذا؟!... أبي أخبرني أنه أعد لك وظيفة جيدة في قسم الحسابات، تحت إدارة خالى (مفيد).

صمت بضع لحظات، قبل أن يجيب:
هذا سيتوقف على القرار
سألته في حيرة:
- أي قرار؟!
أجاب في حزن:
قرار زواجي منك... لو تم زواجنا، سأقبل تلك الوظيفة، أما او تواصل رفض عمتي لذلك، وعجزنا عن إقناعها بالعكس، فسأطلب من عمي (حسين) إيجاد عمل لي في (القاهرة): حتى ابتعد عن قريتنا وعن (طنطا) كلها.
ارتجف قلبها بين ضلوعها، وهي تقول في شحوب:
- أتعني ألا أراك مرة ثانية؟!
شعرت بالدموع تتسلل مرة أخرى إلى مقلتيه، وهو يقول في أسى:
- لا يمكن أن أحتمل رؤيتك زوجة لرجل آخر.
هتفت مذعورة:
- مستحيل!!
تعانق كفاهما، وهما يصعدان في السلم، إلى رصيف المحطة، ووقفا صامتين ينتظران القطار..
قطار العمر
والقدر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ما كل هذا بالضبط؟!. ...
قالها (مفيد) في دهشة، ما تلك الاستعدادات الكبيرة في المصنع الجديد، لاستقبال مدام (جى جى)، رئيسة مجلس إدارة شركة (جى

جى كو) البريطانية، التي ستحضر، حسب موعدها، بعد أقل من ساعة واحدة.
فابتسم (عمر)، وهو يقول:
الصفقة مع شركتها كبيرة، وتستحق ما هو أكثر من هذا.. أخشى أن يفرض السادات رسوما إضافية، على التعاقد مع شركات أجنبية.
هز (مفيد) كتفيه، قائلا:
- اطمئن. إنه لن يفعلها.
ابتسم (مفيد) ابتسامة باهتة، وهو يقول:
- يكفي أنه أعاد الاخوان المسلمين الي الحياة السياسية.
- مع (السادات)، يمكنك أن تتوقع أي شيء.. وعودة متطرفي الإسلام إلى الحياة السياسية؛ فقط للقضاء على فلول الشيوعية وأنصار الفكر الناصري.
قال (عمر) في حذر:
- ربما أراد أن يطفئ النار بالماء.
هتف (مفيد):
- نار وماء؟!... على العكس يا صديقي إنه كمن يستجير من الرمضاء بالنار... لقد أطلق سراح ذئب مفترس، ليقضي على فأر يحتضر... أولئك الذين أعادهم إلى المجتمع، سيكونون أشد ضررا وضراوة ألف مرة.
تمتم (عمر):
- من يدري؟؟
أشار (مفيد) بسبابته، قائلا في حزم:
- سوف ترى.
شعر أنه قد أسرف في التشاؤم، فسأل (عمر)؛ ليخرج من حديث السياسة:

- قل لي: ماذا فعلت مع (نعيمة)؟!... لقد تركت السراي وعادت اليك، ولم تعد تأتي على ذكر (فاطمة).
صمت (عمر) لحظة، يستعيد فيها ما حدث، قبل أن يجيب:
- صدمتها بما أيقظ عقلها.
ارتفع حاجبا (مفيد)، وهو يقول:
- أي مصطلح أدبي هذا؟!
حاول (عمر) أن يبتسم، وهو يقول:
- لم أقصد أن يكون كذلك، ولكنه ما أفرج عنه عقلي، وأنا أحاول توصيف ما حدث.
وصمت لحظة، التقط خلالها نفسا عميقا، قبل أن يضيف:
- لقد أخبرتها في وضوح، أنها لو لجأت إلى (حسين)؛ لتربح معركتها، سأطلقها للمرة الثالثة، وعندئذ لن يستطيع (حسين)، أو أية قوة في الأرض، إجباري على إعادتها؛ لأن هذا سيتنافى مع الشرع.
هز (مفيد) رأسه، وهو يقول في أسى:
- أشعر بشفقة حقيقية على (نعيمة)، مع كل ما يشتعل في أعماقها من غضب.
زفر (عمر)، وهو يقول:
- هناك من الناس من يفتقر إلى القدرة على الغفران والنسيان. والتعايش مع الواقع.
استعاد (مفيد) ذكرى أليمة، وهو يغمغم:
- على الرغم من أن النسيان نعمة من نعم الخالق عز وجل، ينعم بها على من يرضى عنه من عباده.
وصمت لحظة، ثم التفت إلى (عمر)، مستطردا:
- لماذا لا تستخدم مع (نعيمة)، العلاج نفسه الذي استخدمته معي؟!
سأله (عمر) في حيرة:

- أي علاج؟!
مال (مفيد) نحوه، مجيبًا :
- العمل.
هم (عمر) بسؤاله عما يعنيه، عندما اندفع (عبد الحكيم) نحوهما، وهو يهتف في انفعال:
- لقد وصلت... مدام (جى جى) وصلت.
التفت كلاهما إلى ثلاث سيارات (مرسيدس)، من أحدث طراز، تدخل ساحة المصنع، ولهث (عبد الحكيم)، وهو ينضم إليهما، قائلا في حماس:
- إنه موكب أميرة.
غمغم (مفيد):
- بل قل استعراض أميرة.
توقفت السيارات أمامهم، وسط انبهار عمال وحراس المصنع، وقفز اربعة رجال، من السيارتين الأمامية والخلفية، وأحاطا بالسيارة الوسطى، التي خرج سائقها ليفتح بابها الخلفي، وهو ينحني انحناءة كبيرة، جعلته أشبه بالرقم ستة وهو ينحني..
وفي عظمة وخيلاء متعمدين، خرجت مدام (جى جى) من السيارة، ووقفت أمامها تبتسم في ظفر..
واتسعت عينا (مفيد) عن آخرهما في ذهول..
صحيح أن ملامحها قد تغيرت قليلا مع الزمن، ولكنه من المستحيل أن ينسى هذا الجمال أبدا...
جمال مدام (جى جى)...
أو كما عرفها قديما باسم آخر
اسم (جيهان).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

116 – الصدمة..

- ماذا تقولين يا (نعيمة)؟!

هتف (عمر) بالعبارة في استنكار، في وجه زوجته (نعيمة)، التي از دردت لعابها في صعوبة، واستجمعت شجاعتها، وهي تجيب:

- كما سمعت يا (عمر) (وليد)، ابن (كمال)، شقيق زوج (ناهد)، طلب يد (نادرة).

حدق في وجهها مستنكرا، قبل أن يقول في حدة:

- و (طارق)... ماذا عن (طارق)؟!

قالت في إصرار:

- (وليد) يعمل في وزارة الداخلية، ووالده يسعى لجعله ملحقا سياسيا في سفارة (مصر) في (إسبانيا).

عاد يسألها في غضب:

- وماذا عن (طارق)؟!

هتفت به:

- ماذا عنه؟!

قال في حدة:

- ألم يطلب يد (نادرة) رسميا؟!

قالت في عصبية:

- ونحن رفضناه.

صاح بها:

- أنت رفضتيه... أنا وافقت.

انتفض جسدها، وهي تهتف:

- على جثتى.

زمجر هاتفا:

- (نعيمة).

صرخت في هستيرية:
- ماذا يا (عمر)؟! هل ستطلقني، وتقطع الصلة بيننا إلى الأبد؟!
صاح بها في غضب:
- لن أتورع عن هذا، لو..
قاطعتهما فجأة صرخة ارتياع هائلة، انطلقت من بين شفتي (نادرة)، فالتفتا إليها في ذعر، ورأياها تقف هناك شاحبة ممتقعة، زائغة العينين عاجزة عن الوقوف على قدميها، حتى أنها تستند إلى ظهر مقعد كبير، وقد بدت أقرب إلى شبح، منها إلى إنسان.
وبكل لوعة الدنيا، هرعت إليها (نعيمة)، هاتفة:
- (نادرة) ابنتي.
اما (عمر)، فقد اتسعت عيناه عن آخرهما في ارتياع، وهو يحدق في وجه أبنته.
وفي سرعة، احتوت (نعيمة) ابنتها بين ذراعيها؛ لتمنعها من السقوط، في حين تجمد كيان (عمر) كله، فظل واقفا في مكانه، عاجزا عن الذهاب إلى حيث ابنته، التي أجلستها (نعيمة) في رفق على المقعد وهي تسألها:
- ماذا بك يا (نادرة)؟!
لم تجب (نادرة) سؤالها، وإنما التفتت إلى والدها، قائلة في صوت، نافس شحوبه وجهها:
- أبي... أنا موافقة.
ازدرد لعابه في صعوبة، قبل أن يسألها في صوت مبحوح:
- على ماذا؟!
صمتت لحظات، مع الغصة المؤلمة في حلقها، قبل أن تجيب، في صوت بلغ شحوبه أقصاه:
- على الزواج من (وليد).
اتسعت عيناه مصدوما، في حين هتفت (نعيمة) في انفعال:

- مبارك يا ابنتي.. مبارك يا (نادرة)... لقد أحسنت الاختيار.
أما (عمر)، فلم ينبس بحرف واحد، وإنما اتسعت عيناه عن آخرهما، وخاصة مع تطلعه إلى وجه ابنته..
لقد غاصت الدماء من وجهها، وانهمرت الدموع من عينيها غزيرة. ولقد بدت له دموعها كالحمم..
أو أشد لهبًا...
ألف مرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تطلعت (جيهان)، في مزيج عجيب من القلق والاستهتار، إلى (إبراهيم مكى)، الذي يقف أمامها، عند مدخل جناحها الخاص بالفندق. قبل أن تقول في صرامة باردة:
- ألا تنص قواعد الفندق، على عدم صعود الضيوف إلى أجنحة الرواد؟!
أجابها بنفس الصرامة الباردة:
- هذا لا ينطبق على.
قالت في لهجة شبه ساخرة:
- أنت فوق القانون إذن؟!
أجاب في حزم:
- فوق كل القوانين.
تطلعت إليه لحظات في صمت، وبلا أية انفعالات، قبل أن تقول في هدوء:
- على نحو رسمي أم غير رسمى يا (إبراهيم) بك.
لم يكن قد قدم نفسه لها بعد، مما جعله يعقد حاجبيه، وهو يقول في صرامة، تسللت إليها نبرة غضب:

- من الواضح أننا نعرف بعضنا جيدا يا مدام (جى جى).
ابتسمت في استهزاء، قائلة:
- (جيجى) يا (إبراهيم) بك... أو (جيهان)، كما كنت تعرفها قديما.
قال في حزم:
- لا شأن لي بما أصابك قديما.
تطلعت إليه من أعلى إلى أسفل، قبل أن تقول:
- أعلم هذا يا (مكى) بك.
استخدمت لقبه هذه المرة؛ لكي يدرك أنها تعرفه جيدا، فشد قامته، وتأهب الذئب في أعماقه، وهو يقول:
- من الواضح أنك لم تضيعي وقتك عبثا في (مصر).
هزت كتفيها، قائلة:
- لم آت لأضيع وقتى.
صمت كلاهما بعدها، وهما يتبادلان نظرة وحشية، قبل أن يتساءل (مكى):
- هل سنقضي الوقت كله أمام باب جناحك؟
أفسحت له الطريق، وهي تبتسم في خبث، فدلف إلى جناحها الفاخر وهو يقول:
- ما دمنا نكشف أوراقنا على هذا النحو، فأنا أعلم أنك هنا من أجل (حسين البنهاوي).
قالت في برود:
- لن أنكر هذا.
وبالذات أمام صديقه.
وصمتت لحظة، ثم أضافت في خبث:
- وشريكه.
رمقها بنظرة نارية، ثم أشاح عنها بوجهه، وهو يقول:
- يمكنك اعتبارى صديقه اللدود.

ارتفع حاجباها في دهشة لحظية، ثم عادا ينخفضان، مع قولها شبه الساخر:
- أمصطلح أدبي جديد هذا؟
تجاهل تعليقها، وهو يختار مقعدا وثيرا للجلوس، قائلا:
علاقتك بالأميرة (عايدة) تستهدف تدمير (حسين البنهاوي). أليس كذلك؟!
جلست قبالته، وهي تجيب في مقت:
- لو احتاج الأمر، سأنفق آخر بنس أمتلكه، في سبيل رؤيته محطما.
مال نحوها، قائلا:
- هذا يجعلنا اثنين
انعقد حاجباها، وهي تقول في حذر:
- أفخ هذا أم ماذا؟!
تراجع في مقعده، ووضع إحدى ساقيه فوق الأخرى، قائلا:
- أية ضمانات تريدين؟!
تطلعت إليه صامتة بضع لحظات، قبل أن تسأله
- أخبرني لماذا تريد التخلص من (حسين البنهاوي)، على الرغم من أنكما شريكين في شركة الاستيراد والتصدير، التي سجلتماها باسم ذلك الكلب.
غمغم:
- (صلاح)؟!... معلوماتك أكبر مما كنت أتصور يا مدام (جيهان).
هزت كتفيها، قائلة:
- المال يفتح كل الأبواب يا (مكي) بك... وبخاصة في هذا الزمن.
مال إلى الأمام، يقول في شيء من الحدة:
- معلوماتك تفوق ما يمكن أن يجلبه المال
ابتسمت في سخرية، قائلة:

- ربما أنت من يجهل ما يمكن أن يجلبه المال.
والتمعت عيناها بخبث عابث مخيف، وهي تضيف:
- الكثير من المال..
تراجع يراقبها في صمت واهتمام، قبل أن يغمغم:
- من حسن حظك أننا في جانب واحد.
استعادت ابتسامتها الساخرة، وهي تقول:
- من حسن حظك أنت.
اعتدل في حركة حادة، توحي بأنه سيقدم على فعل اندفاعى، إلا أنها سألته في سرعة:
- أية ضمانة ستقدمها لي؛ لإثبات حسن نواياك؟!
تراجع في بطء، وهو يسأل في حذر:
- أية ضمانة تطلبين؟!
عادت عيناها تلتمعان ببريق وحشي مخيف، وهي تجيب في صوت كالفحيح.
- (صلاح).
وانعقد حاجبا (مكى) في شدة...
لقد اختار بالفعل حليفا قويا ووحشيا..
للغاية...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شبك. (حسين) أصابع كفيه أمام وجهه، وهو يتطلع إلى (نعيمة) في ضيق وضجر، قبل أن يقول في صرامة مستنكرة:
- أتيت من القرية إلى (القاهرة)؛ لتخبريني هذا؟!
قالت في توتر:
- أردت الحصول على موافقتك يا (حسين).

مط شفتيه في ضيق واضح، وهو يقول:
- عريس تقدم لخطبة (نادرة)، فما شأني أنا؟!... المفترض أنك ووالدها أصحاب الشأن في هذا.
ازدردت لعابها في توتر، قبل أن تقول:
- إنه ليس (طارق).
اعتدل في حركة حادة، عندما ذكرت هذا، وسألها في توتر:
- ألم يتقدم لخطبتها بالفعل؟!
قالت في عصبية:
- ولكنني رفضت.
زمجر في غضب، قائلا:
- ألم ننته من هذا الأمر؟!... ألم..
قاطعته، هاتفة في توتر:
- العريس الجديد ديبلوماسي.
هتف غاضبًا:
- هذا لا يهم.
واصلت في توتر أكثر:
- وابن (كمال)، شقيق (فؤاد).
تراجع في مقعده في بطء، متسائلا:
- (كمال حسنين).
أومأت برأسها إيجابا، فاستغرق في التفكير طويلا، حتى أنها سألته في صوت خافت، محاولة كسر ذلك الصمت، الذي ضاعف من توترها:
- أين زوجتك؟!
لم يجبها.. بل ولم يبد حتى أنه سمعها ..
كان ذهنه كله منشغلا بحسابات شديدة التعقيد..

(كمال حسنين) عاد من معزله، في عهد (السادات)، وصار عضوا في مجلس الشعب.
وابنه حتما لم ير (نادرة) قط فلماذا يتقدم لخطبتها؟!...
لماذا؟!
أهي محاولة للتقرب منه، أم أنها محاولة للنيل منه؟!...
هل يسعى (فؤاد) وشقيقة لتأمين نفسيهما، عبر مصاهرة الرجل الأقوى في (مصر)، أم أنهما يبحثان عن مسمار جحا، في سراى (البنهاوي)؟!
راح عقله يراجع كل التفاصيل، ويدرس كل الاحتمالات، في صمت استغرق دقيقتين كاملتين، قبل أن يسأل (نعيمة) فجأة:
- أين رأي ابن (كمال) (نادرة)؟!
أجابته في سرعة، وكأنها كانت تنتظر السؤال:
- في صورة تم التقاطها، في عيد ميلاد (طارق)... الصورة كانت ملونة، و(فؤاد) أراد أن يتباهى بها أمام شقيقه، ووقع بصر ابنه (وليد) على (نادرة)، و.
أشار إليها بالكف عن الحديث، وأسبل جفنيه، وهو يستغرق في تفكيره الصامت لحظات أخرى، قبل أن يعتدل، قائلا في صرامة:
- لماذا يا (نعيمة)؟!
ارتدت في عصبية، متسائلة:
- لماذا ماذا؟!... زمجر، وكأنه يحذرها من الكذب، قبل أن يسأل:
- لماذا أتيت بالفعل؟! للحصول على موافقتي، أم لضمان مؤازرتى؟!
امتقع وجهها، وهي تغمغم منكمشة:
- ماذا تعني؟! زمجر مرة أخرى، قائلا:
- (نعيمة)... لن تأتي إلى (القاهرة)، فقط للحصول على موافقتي... اتصال تليفوني كان سيكفي... لقد أتيت تنشدين مؤازرتى، عندما

تصرين على اختيار (وليد) هذا، ورفض (طارق).
ظل وجهها ممتقعا بضع لحظات، ثم عاد يحتقن، وهي تقول في حدة:
- ابنتي لن تتزوج ابن (فاطمة).
قال في صرامة:
- أخبرتك ألف مرة، إنه ابن (حافظ البنهاوي).
عاد وجهها يمتقع في شدة، وهي تغمغم في ارتياع:
- ماذا تعني؟!
تراجع في مقعده في بطء، وهو يقول، مستعيذا تفكيره العميق:
- ليس بعد يا (نعيمة)... ليس بعد
وتضاعف ارتياعها..
بلا حدود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ولماذا الانتظار؟!....
ألقت (جيهان) سؤالها في خبث، على الأميرة (عايدة)، التي نفثت دخان سيجارتها في عصبية، قبل أن تجيب:
- (حسين) مازال يرفض إجراء الفحوص.
مالت نحوها، قائلة:
- ولكن العمر لن ينتظر، حتى يوافق (حسين) باشا على عمل الفحوص.. صحيح أنك أميرة، تجري في عروقك الدماء الملكية، ولكنك في النهاية أنثى، تجاوزت الأربعين.
انعقد حاجبا (عايدة) في شدة، مع ذكر (جيهان) لعمرها، إلا أن هذه الأخيرة واصلت بنفس الخبث:

مشكلتنا كنساء، أن قدرتنا على الإنجاب تنخفض، عند بلوغ الخامسة والثلاثين، وتواصل الانخفاض بعدها على نحو مخيف، قبل أن تأتي تلك المرحلة، التي نخسر فيها كل شيء بلا رجعة.
تضاعف توتر الأميرة (عايدة)، وبدا ذلك واضحا في وسيلة نفث دخان سيجارتها، وفي صوتها العصبي، وهي تقول:
- وماذا يمكنني أن أفعل؟!
مالت (جيهان) نحوها في شدة، وهي تقول، في صوت كالفحيح:
- الكثير..
قالتها، وتراجعت في مقعدها، ترتشف فنجان قهوتها في هدوء واستمتاع، فنفثت (عايدة) دخان سيجارتها في عصبية أكثر، وهي تسألها:
- مثل ماذا؟!
ابتسمت (جيهان) ابتسامة هادئة، أخفت بها أنياب الأفعى في أعماقها، قبل أن تقول:
- تأكدي أن الإنجاب هو الهدف الرئيسي للزواج، وكل أنثى قادرة عليه، من الخطأ أن تضيع فرصتها، تحت أي مبرر، أيا كان.
غمغمت (عايدة) في عصبية، وهي تطفئ سيجارتها:
- ماذا تريدينني أن أفعل بالضبط؟!
اتسعت ابتسامة الأفعى، وجيهان تجيب:
- لا يفل الحديد إلا الحديد.
سألتها في عصبية أكثر:
- ماذا تعنين؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- طلاق؟!

هتف (حسين) بالكلمة في غضب هادر، وهو يرمقها بنظرة تفيض بالحمم، والثورة، ولكنها تماسكت في مواجهته، كما نصحتها (جيهان)، وقالت في عناد:
- كما سمعت تماما يا (حسين) بك... أريد الطلاق.
صاح بها في غضب:
- هل جننت؟!
ثارت فعليا، وهي تصرخ:
- جننت لأنني أريد أن أكون أما؟! أهذا في نظرك هو الجنون.
صاح:
- وماذا منعك من أن تكوني؟!
صرخت في هستيرية:
- أنت ترفض إجراء الفحوص، على نحو جعلني أوقن من أنك المسؤول عن عدم حملى.
صاح في غضب:
- رجولتى كاملة، وأنت أكثر من يدرك هذا.
صرخت:
- وما شأن هذا بالقدرة على الإنجاب؟!... هل ستتعامل كفلاح عنيد أم كرجل يتواكب مع العصر؟
أشاح بوجهه عنها في عصبية غاضبة، فتابعت ثائرة:
- العلم أثبت أنني صالحة للإنجاب حتى الآن... والعلم نفسه يقول: إن هذا لن يدوم طويلا وأنت ترفض مجرد إجراء فحص طبي عادى.. لا تبالي بضياع حلمى وعمري، لمجرد ألا يقال إن جناب (حسين باشا البنهاوي)، قد أجرى فحصا طبيا.
قال في حدة:
- ليس الأمر كذلك.
صرخت:

- كيف هو إذن؟!
شعر بجرح عميق في كبريائه، وهو يقول:
- لست تفهمين شيئا.
احتقن وجهها في شدة، مع قولها الغاضب:
. بل أفهم يا (حسين)... أفهم أنه بعد أعوام قليلة، لن يكون باستطاعتي الإنجاب، حتى لو أردت.. أفهم أنه إما أن تجري الفحوص الطبية، التي تثبت أنك قادر على الإنجاب، وأن عدم إنجابنا هو قدر، لا سيطرة لنا عليه، أو تتركني أبحث عن الإنجاب عند آخر.
التفت إليها في غضب وحشى، صارخا:
- آخر؟!
قالت في شراسة مماثلة:
- سأفعل أي شيء، من أجل أن أصبح أما، و.
بترت عبارتها دفعة واحدة، وهي تطلق صرخة قوية، عندما قاطعها (حسين) بأمر، لم تتخيل يوما أن يفعله..
أمر أودعه كل غضبه وثورته..
صفعة..
صفعة زلزلت كيانها
من أعمق أعماقها

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنتظر (طارق) طويلا، عند الساقية القديمة
أنتظر...
وأنتظر
وأنتظر

ولكن (نادرة) لم تأت...
وبقدر ما شعر بالقلق، من عدم حضورها، كان قلبه ينبض بحزن شديد عميق، لم يدر له سببا لحظتها..
(نادرة) لم تأت، وهذا قد يعني الكثير، و.
- أنت هنا؟!
سمع صوت عمه (مفيد)، فالتفت إليه، قائلا في خفوت حزين:
- أنا دوما هنا يا عمي.
جلس (مفيد) إلى جواره، ولفهما الصمت بضع لحظات، قبل أن يقول:
عندما كنت في مثل سنك، كنت التقى أحيانا بـ (مديحة) هنا.
أومأ (طارق) برأسه متفهما، دون أن ينبس بيت شفة، فربت عليه (مفيد) مشفقا، وهو يتابع:
- وعندما خسرت (مديحة)، تصورت أن الدنيا قد انتهت، ولكن الحياة استمرت.
لم يرق هذا الحديث لـ (طارق)، فسأله:
- ما زلت تتعامل مع (جودة) يا عمي؟!
بدت الدهشة على (مفيد)، وهو يغمغم:
- ما مناسبة السؤال؟!
غمغم (طارق)، وهو يشيح بوجهه:
- رأيتك أمس تلتقي به، في حديقة السراى، بعد منتصف الليل.
حمل صوت (مفيد) توتره، وهو يقول:
- رأيتني؟!
التفت إليه (طارق) متسائلا في عتاب:
- لماذا يا عمي؟!
لم يستطع (مفيد) الإجابة مباشرة، وزاغت عيناه لحظة، قبل أن يخفضهما، مغمغما:

- ما زلت أشعر أحيانا بالاحتياج، لما يذهب عقلى.
قال (طارق):
- السم لا يمكن أن يكون علاجا.
أجابه في سرعة:
- ولكنه مخدر وقتى.
قال (طارق) في إصرار:
- مخدر تغيب معه عن الوعي، ثم تستيقظ منه، ليصدمك العالم بواقعه المحيط بك.
صمت (مفيد) تماما، وقد شعر بالخجل من الموقف، الذي تبذلت فيه الأدوار، فجلس هو، الذي تجاوز الثلاثين، يستمع إلى نصيحة ابن شقيقه الصغير..
الأهم أنها نصيحة صادقة...
وحقيقية.
ذلك السم يذهب عقله لساعات، ثم يعود العالم يصدمه بواقعيته في عنف..
ولكنه اعتاده بشدة أو، لو شاء الدقة، أدمنه..
انطلقت زغرودة من بعيد، انتزعت كلاهما من أفكاره، فاعتدل (طارق) يهم بالنهوض، وهو يتساءل:
- ما هذا بالضبط؟!
أمسك (مفيد) كفه، وكأنما يدعوه لمعاودة الجلوس، وهو يقول:
- هذا ما أتيتك من أجله يا (طارق).
اختلج قلب الشاب بين ضلوعه، وهو يتساءل:
- ماذا يا عماه؟!
ازدرد (مفيد) لعابه في صعوبة، قبل أن يقول:
عمتك (نعيمة) زارتنا اليوم في السراي، لدعوتنا.
سأله (طارق)، وقلبه ينبض في قوة:

- إلى ماذا؟!
صمت (مفيد) لحظات، استجمع خلالها إرادته، قبل أن يجيب في صوت مبحوح:
- حفل زفاف (نادرة).
واتسعت عينا الشاب، وسقط قلبه من بين ضلوعه فقد كانت صدمة قاسية..
للغاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

117 - أرض العدو..

انهار من الدموع، انهمرت من عيني (طارق)، في ذلك اليوم..
شلال فاض وانسكب من قلب جريح، كسير، ممزق..
زفاف (نادرة) تم في حفل كبير، حضرته الأسرة كلها..
فيما عداه..
لم يستطع رؤيتها في ذراع رجل آخر..
لم يحتمل..
ووحده، جلس في شرفة السراي، يسكب دموع القهر والمرارة...
في تلك الليلة، ومع أصوات الحفل، التي تأتيه من بعيد، تفجرت في كيانه كله مشاعر جديدة...
مشاعر قاسية...
مؤلمة..
ملتهبة..
فياضة..
مشاعر كراهية..
في تلك اللحظة، شعر أنه لا ينتمي إلى عائلة (البنهاوي)...
وأنه يبغض كل ما ينتمي إلى (البنهاوية).
وحتى أرض سراى (البنهاوي)... وبالذات عمه (حسين)، وعمته (نعيمة)..
عمه (حسين) يعلم بحبه لـ (نادرة)، ولكنه تغاضى عن هذا، واختار مصالحه الشخصية، ليأمن شر شقيق (فؤاد)، زوج عمته (ناهد)..
وعمته (نعيمة)، التي تبغض أمه، كما لا تبغض الموت نفسه..
تبغضها حتى أنها دعتها وأبيه، لأول مرة، فقط لترى الحسرة في عينى أمه..

الكراهية والبغض صارا الأساس، الذي ترتفع فوقه عائلة (البنهاوي) وتعلو..
الكراهية، والبغض، والمصالح، ولقد تصور طويلا أنه يستطيع أن ينأى بنفسه عن تلك المشاعر ولكنها لعنة (البنهاوية)، كما وصفها عمه (مفيد).. تلك اللعنة، التي تصيب كل من يحب، من عائلة (البنهاوي)... بل وحتى كل من يحبه فرد من عائلة (البنهاوي)..
(نادرة) تساق اليوم إلى مذبح الزوجية، لأنه أحبها..
ولأنه ابن (فاطمة عبد الحميد)، ابنة كلاف عائلة (البنهاوي) السابق.. لا مجال للحب في عائلة (البنهاوي)...
لا مجال للسلام في أرضهم، التي بدت له في هذه اللحظة، أرض العدو..
إنه لم يتصور قط أن جسده كله، يمكن أن يحوي كل هذا القدر من الدموع، التي راحت تنسكب من عينيه، حتى سمع موسيقى الزفاف من بعيد..
عندئذ توقفت الدموع من عينيه..
جفت الدموع..
وجفت مشاعره..
كيانه كله أصيب بحالة من الجمود، كما لو أنه قد تحول إلى تمثال من الشمع، مع ذلك الهدوء، الذي ساد القرية، عقب الزغاريد، التي تلت موسيقى الزفاف..
الآن لم تعد (نادرة) له لقد صارت لرجل آخر..
لم تعد له إلى الأبد..
وربما كان جمود مشاعره هذا وسيلة نفسية دفاعية؛ لمقاومة رغبة قلبه في الانهيار
ربما...

غلفته حالة من الصمت والسكون والجمود، لوقت لم يدر كم طال حتى شعر بيد توضع على كتفه، وسمع صوت أمه، تسأله في حنان مشفق حزين:
- لك الله يا ولدي.
حاول أن يجيب بشيء...
ولكن تلك الغصة في حلقة منعته من الكلام، واحتبست الكلمات في كيانه، فجلست (فاطمة) إلى جواره، تربت عليه مشفقة، وهي تتمتم في ألم وأسى:
- كل شيء نصيب.
غمغم في صعوبة:
- أجل.
قاوم في استماتة تلك الغصة في حلقه؛ ليقول في صوت متحشرج:
- أين أبي؟!
أجابته في خفوت:
- عمك (مفيد) أوصله إلى حجرته.
غمغم بنفس الحشرجة:
- وماذا عن عمي (حسين)؟!
أشارت بيدها، مجيبة:
- لقد عاد إلى (القاهرة)، فور انتهاء حفل الزفاف.
تمتم:
- مع الأميرة (عايدة)؟!
هزت رأسها قائلة:
- الأميرة لم تأت.
ثم مالت نحوه، مضيفة في لهجة متوترة نوعا ما:
- ومن حسن الحظ أن عمك (حسين) وطاقم حراسته كانوا هنا.
التفت إليها يسألها بلا مشاعر:

- ولماذا؟!
اعتدلت مجيبة، بصوتها الخشن الغليظ:
- أولئك الشباب، الذين يطلقون لحاهم، كانوا يحومون حول الحفل طوال الوقت، والغضب يطل من عيونهم، ولولا طاقم حراسة عمك (حسين)، لانقضوا علينا، وأفسدوا الحفل، كما فعلوا في حفل زفاف (نبوية)، ابنة الحاج (سيد).
تمتم بلا مشاعر:
- أحدهم أوهمهم أن الموسيقى حرام.
قالت في حدة، زادت من خشونتها وغلظتها:
- وهل العنف والغضب حلال؟!
هز كتفيه دون أن يجيب، فزفرت قائلة من حنق:
- لست أدري لماذا أعادهم (السادات) إلى الحياة العامة... أمثالهم لا يستحقون سوى السجن.
لم يكن مستعدا لمناقشة أمور سياسية، في هذه الليلة بالذات، فلوح بيده، وأشاح بوجهه في صمت، إلا أنها واصلت بنفس الحنق:
- ألم يدرك أن قتلهم للشيخ (الذهبي) مجرد بداية؟!
غمغم في صعوبة:
- أمي.
لم يبد حتى أنها سمعته، وهي تواصل:
- هل سينتظر، حتى يقتلونه هو نفسه؟!
لم يجد وسيلة لمنعها من الضغط على أعصابه، سوى أن ينهض، وهو يقول في توتر:
- سأذهب للنوم.
راقبته بقلب كسير، وهو ينصرف من الشرفة، ثم تنهدت مغمغمه في أسى:
- لك الله يا ولدي... كسروا قلبك الصغير؛ لمجرد أنك ابني.

ثم نهضت، تدير عينيها فيما حولها، وكأنها تخترق الظلام ببصرها:
وهي تضيف في غضب:
- ولكنهم يوما ما سيدفعون الثمن.. ويوما ما، ستكون كل أرض (البنهاوية) ملكا لك.
ومن قلبها، انحدرت دمعة ألم...
ملتهبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- الأميرة (عايدة)؟!
غمغم (مكى) بالكلمة في دهشة حقيقية، وهو يحدق في الأميرة (عايدة)، التي تقف أمام منزله، والتي قالت في شيء من الحدة:
- أفسح الطريق.
أفسح لها الطريق بالفعل، وهو يسألها في قلق:
- هل يعلم (حسين) بك أنك هنا؟!
دلفت إلى المنزل، ودفعت الباب بقدمها؛ لتغلقه خلفها، ثم جلست على الأريكة الكبيرة، وأشعلت سيجارتها في عصبية، وهي تجيب:
- (حسين) في حفل زفاف ابنة شقيقته.
جلس أمامها، وهو يقول في حذر:
- ولكنه لو علم أن..
قاطعته في حدة:
- لن يعلم.
ونفثت دخان سيجارتها، على نحو أوضح مدى توترها، فحاول هو أن يسترخي في مقعده، وهو يسألها:
- ولكن كيف عرفت عنوان منزلى يا سمو الأميرة؟!

نفثت دخان سيجارتها مرة أخرى في توتر، وهو تجيب:
- لدى وسائلى.
أطلت نظرة الذئب من عينيه، وهو يميل إلى الأمام في بطء، قائلا في لهجة ذات إيقاع خاص:
- وهل تحمل هذه الوسائل اسم مدام (جى جى)؟!
انعقد حاجباها الجميلان في شدة، وهي تقول:
- لا شأن لك بهذا.
ابتسم ابتسامة ظافرة، وهو يتراجع في مقعده مرة أخرى، متسائلا:
- فليكن... بم يمكن أن أخدمك يا سمو الأميرة؟
صمتت لحظات، ثم أطفأت سيجارتها بحركة عنيفة، قبل أن تنتهي ورفعت عينيها إليه، قائلة:
- أريد العودة إلى (باريس).
داعب ذقنه بسبابته وإبهامه، قبل أن يقول في حذر:
- (السادات) ألغي القيود على السفر، و..
قاطعته في عصبية:
- (حسين) يحتفظ بجواز سفري الفرنسي في خزانته، واستخرج لي جواز سفر مصرى.
قال في بطء:
- ومع جواز السفر المصري، لا يمكنك مغادرة البلاد، دون موافقة الزوج.
قالت في حدة، وهي تشعل سيجارة جديدة:
- هكذا تقول قوانينكم العقيمة، التي لا تحترم المرأة وحريتها..
ران عليهما الصمت لحظات، وهو يتطلع إليها في حين تفادت هي نظراته، وهي تنفث دخان سيجارتها في عصبية، قبل أن يقول بلهجة شبة آمرة:
- أطفني هذه السيجارة.

حدقت فيه مستنكرة، فأضاف في لهجة آمرة صريحة:
- أطفئيها.
تملكها عناد الأميرات لحظة، ثم لم تلبث أن أدركت أنها تحتاج إليه وأنه لكل شيء ثمن، فأطفأت سيجارتها في توتر عصبى، مما جعله يبتسم في ظفر ذئبي، وهو يقول:
- هل تسعين للحصول على موافقة مزورة؟!
هزت رأسها نفيا، وهي تقول:
- لو أنني زوجة عادية لفعلت، ولكن زوجة (حسين البنهاوي)، لا يمكنها أن تغادر البلاد، دون أن يتم إخطاره بهذا.
شبك أصابع كفيه أمام وجهه، وهو يقول:
- يتبق أمامنا سرقة جواز سفرك الفرنسي من خزانته.
هتفت:
- بالضبط.
اتسعت ابتسامته الذئبية، وهو يسألها:
- وما الثمن؟!
غمغمت في عصبية:
- الثمن؟!
أشار بيده، قائلا:
- الثمن الذي ينبغي أن تدفعه الأميرة (عايدة)، جميلة جميلات العصر الملكي؛ لاستعادة جواز سفرها الفرنسي، الذي سيؤمن لها الفرار من (مصر).
اتسعت عيناها، وضمت صدرها بيدها، قائلة بكل التوتر:
- (مكى) بك... لعلك تشير إلى..
قاطعها في حزم: - ليس ما يدور في ذهنك بالتأكيد.
أفلتت صدرها، وهى تسأله:
- ما الثمن الذي تريده إذن؟!

صمت لحظات، وهو يتطلع إليها، قبل أن يقول:
- هذا يتوقف على سبب رغبتك في الفرار.
أجابته في عصبية، وهي تمد يدها إلى علبة سجائرها:
- ذلك الفلاح الحقير صفعني.
غمغم في دهشة:
- صفعك؟!
لم يبد له السبب كافيا لكل هذا البغض، فاستطرد في حذر:
- أبسبب عدم رغبته في إجراء فحوص الإنجاب؟!
انتفض جسدها، وهي تحدق فيه بذهول، فاتسعت ابتسامته الذئبية أكثر وأكثر، وهو يضيف:
- من حق كل أنثى أن تكون أما، مادامت قادرة على هذا.
قالت في حدة:
- لن أسألك كيف علمت هذا، ولكنه ليس من شأنك.
مال نحوها، قائلا في اهتمام:
- العقبة التي تقف في طريقك إذن هي (حسين البنهاوي).
غمغمت في مقت:
- لو أن الأمر بيدى، لقتلته بنفسي.
التمعت عيناه، وهو يقول:
- اتفقنا إذن
انعقد حاجباها، وهي تسأله في عصبية:
- على ماذا؟!
مال نحوها كثيرا، وبدا صوته وكأنه قادم من أعماق الجحيم، وهو يجيب:
- الثمن
واتسعت عيناها الجميلتان عن آخرهما، في حين تراجع هو، والتماعة عينيه تتزايد..

وتتزايد..
وتتزايد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اندفع (عبد الحكيم) داخل حجرة (مفيد) بالمصنع، وهو يهتف في انفعال:
- هل رأيت ما فعله (السادات)؟!
رفع (مفيد) عينيه عن الأوراق، متسائلا في قلق:
- لم أستمع إلى خطابه اليوم هل فجر مفاجأة جديدة؟!
هتف (عبد الحكيم)، وهو يلقى جسده على مقعد كبير:
- بل مفاجأة صادمة.
أزاح (مفيد) الأوراق جانبا، واستند بمرفقية على سطح المكتب، متسائلا:
- إلى هذا الحد؟!
مال (عبد الحكيم) نحوه، وبدا وكأنه يلهث، وهو يقول بنفس الانفعال:
- لقد أعلن أنه مستعد للذهاب إلى (إسرائيل)، لو تلقى دعوة بهذا.
اتسعت عينا (مفيد)، وهو يهتف بكل الدهشة:
- (إسرائيل)؟!... أهذا معقول؟!
هتف (عبد الحكيم):
- تصور (إسرائيل) التي تعلمنا كراهيتها، منذ عام ثمانية وأربعين، يقول (السادات): إنه مستعد لزيارتها.
تراجع (مفيد) في مقعده في بطء، وهو يحدق في (عبد الحكيم)، وكأنه لا يصدق ما سمعه من بين شفتيه..

(إسرائيل)؟!... العدو الأزلي؟!...
كيف؟!...
وماذا عن الدماء التي أريقت؛ لتروى رمال (سيناء)؟!... ماذا عن سنوات الحرب، وضحايا التفجيرات؟!
ماذا عن عمال مصنع (أبي زعبل)، وأطفال (بحر البقر)، وشهداء سبعة وستين، وثلاثة وسبعين!!
ماذا؟!...
- الرجل جن ولا شك..
هتف بها (عبد الحكيم)؛ لينتزع (مفيد) من أفكاره، فاعتدل يقول في توتر:
- ربما هو مجرد قول لا يعنيه.
قال (عبد الحكيم) مستنكرا:
- لا يعنيه؟!... (السادات) ثعلب كبير، لا ينطق شيئا، إلا بعد أن يديره في مخه جيدا.
صمت (مفيد) لحظة، ثم قال في تردد:
- لقد قالها، ولكن يبقى السؤال الأهم..
مال (عبد الحكيم) نحوه، وكأنه ينتظر السؤال، فمال (مفيد) عبر مكتبه بدوره، وسعل مرتين، احتقن خلالهما وجهه، قبل أن يقول:
- هل سيستجيب الإسرائيليون؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لقد أرسلوا دعوة رسمية يا سيادة الرئيس.
قالها (حسين) في قلق واضح، وهو يمسك الدعوة الإسرائيلية، أمام الرئيس (السادات)، الذي بدا هادئا، وهو يقول:

- اطلب من (عزمى) أن يتم الإجراءات المطلوبة.
لم يحمل صوته ذرة من المفاجأة، وكأنه كان ينتظر تلك الدعوة، ولم تكن لديه أية شكوك في وصولها، فغمغم (حسين) في توتر:
- إجراءات ماذا يا سيادة الرئيس؟!
أجابه (السادات) في صرامة
- السفر إلى (إسرائيل)
كانت أول مرة يتحدث فيها (السادات) إليه بتلك الصرامة، مما جعله يغمغم في توتر:
- فورا يا سيادة الرئيس... سأبلغ الأمن أيضا بتأمين الزيارة .
قاطعه (السادات)، في صرامة أكثر:
- لا شأن لك بعملية التأمين.
تراجع (حسين) مصدوما، وهو يشعر بقلبه يكاد يثب من بين ضلوعه..
ماذا حدث؟!...
لماذا يعامله الرئيس بهذا الأسلوب الجاف؟! ماذا تغير؟!... أو ماذا وصله؟!...
لم يكن الوقت مناسبًا لطرح مثل هذه الأسئلة، لذا فقد تراجع (حسين)، وهو يغمغم في توتر، لم ينجح في إخفائه:
- كما تأمر يا فخامة الرئيس... كما تأمر.
ولكنه ما أن أبلغ ما لديه، وعاد إلى مكتبه، حتى التقط سماعة هاتفه، وطلب رقم (مكى)، ولم يكد يسمع صوته، حتى قال في توتر:
- (إبراهيم)... أريد أن ألتقي بك الليلة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أظنك تبالغ في الأمر يا (حسين) بك..
قالها (مكى) في هدوء، وهما يجلسان في منزله، في تلك الليلة فهز (حسين) رأسه في عصبية، وهو يقول:
- لست أبالغ يا (إبراهيم)... إنك لن تتصور تلك الصرامة الجافة التي عاملني بها الرئيس اليوم.
ابتسم (مكى) ابتسامة هادئة في ظاهرها، وكبيرة مقهقهه في أعماقه وهو يقول:
- الموقف ليس عاديا، والرئيس يواجه الكثير من الضغوط الداخلية والخارجية. كل الناصريين يهاجمونه في شراسة، منذ أعلن استعداده السفر إلى (إسرائيل)، ونصف المجتمع على الأقل وصف موقفه بالخيانة والكثير من الدول العربية مصدومة، والفلسطينيون..
قاطعه (حسين) في عصبية:
- أدرك كل هذا يا (مكى)، ولكن..
مال (مكى) بحركة سريعة، يسأله:
- ولكن ماذا؟!... هل تصورت أن الرجل جدار صلب، يمكنه احتمال الضربات إلى ما لا نهاية؟
انعقد حاجبا (حسين)، وهو يقول:
- الرئيس أصلب مما يتصورون بكثير.
أشار (مكى) بيده، قائلا:
- ولكنه مازال بشريا، والضغوط عليه أكبر من أن يحتملها جبل.
صمت (حسين) طويلا، يدرس الأمر في ذهنه، قبل أن يتراجع في مقعده، مغمغما في صوت، لم يفارقه توتره:
- ربما..
صمت لحظة أخرى، قبل أن يقول:

- (صلاح) أخبرني أنك طلبت منه سحب مبلغ كبير من رصيد الشركة وتسليمه لك.
ابتسم (مكى)، مغمغما:
- واضح أنك على اتصال مستمر به
انعقد حاجبا (حسين)، وهو يقول في صرامة:
- أليس هذا ما يفترض؟!
اتسعت ابتسامة (مكى)، وهو يجيب:
- بلى.
ثم نهض إلى دولاب صغير، التقط منه مظروفا، عاد به إلى (حسين)، وهو يقول:
- هذا إيصال إيداع نصيبك كله، في ذلك البنك في (زيورخ). فتح (حسين) المظروف، وألقي نظرة على الإيصال، قبل أن يسأله في اهتمام:
- ولكن لماذا؟!
عاد (مكى) إلى مقعده، وهز كتفيه، قائلا:
- الحذر أفضل، مع شخص مثله.
اعتدل (حسين)، يسأله في قلق:
- ألديك ما يريبك بشأنه؟!
صمت (مكى)، وكأنه يدرس الإجابة في رأسه، قبل أن يهز كتفيه قائلا في تردد:
- ليست لدي أدلة ملموسة، ولكن..
بتر عبارته على نحو أثار اهتمام (حسين) أكثر، وجعله يسأل:
- ولكن ماذا؟!
صمت (مكى) لحظات، ثم عاد يشير بيده قائلا:
- أمهلني بضعة أيام، وسأخبرك.
ازداد انعقاد حاجبى (حسين)، وهو يسأله:

- هل تنصح باستبعاده؟!
هز (مكى) رأسه نفيا في بطء:
- ليس بعد.
ثم اعتدل يسأل في اهتمام، وكأنما يريد أن يبعد ذهن (حسين) عما ألقاه في عقله:
هل ستصحب الرئيس إلى (تل أبيب)؟!
نجح أسلوبه في تحويل دفة عقل (حسين)، وهو يهز كتفيه، مجيبًا :
- أعتقد هذا... أنا خزانة معلوماته.
ذكره لفظ (خزانة)، جعل (مكي) يبتسم على الرغم منه، وهو يقول:
- أظنها ستكون زيارة تاريخية.
أشار (حسين) بيده، مغمغما:
- إنها كذلك بالتأكيد ثم نهض، مستطردا:
- وهذا يستدعي أن أتواجد في مكتبي طوال الوقت، فربما يحتاج سيادة الرئيس إلى شيء ما.
غمغم (مكى):
- هذا أفضل بالتأكيد.
كان هذا آخر ما قاله، قبل أن ينصرف (حسين)، ولكن ما أن أغلق هذا الأخير الباب خلفه، حتى التقط (مكى) سماعة هاتفه، وطلب رقما، ولم يكد يسمع صوت محدثته، حتى أضاف نبرة خشنة إلى صوته، وهو يقول:
- هل يمكنني التحدث إلى سمو الأميرة؟!... أنا (عبده) حارس أمن الفندق..
مضت لحظات، قبل أن يسمع صوت (عايدة)، تسأل في حيرة:
- (عبده) من؟!
أجابها في صرامة:

خادمتك (هند) أجابت الهاتف، ولن أسمح بأن تصبح ثغرة كبيرة في العملية.
غمغمت في عصبية:
- معذرة... لقد..
قاطعها في حزم:
- لا بأس... أردت فقط أن أخبرك أنني حددت ساعة الصفر.
تبادلا حديثا قصيرا بعدها، ثم أنهى هو المحادثة، وتراجع في مقعده، والتمعت عيناه في شدة..
لقد استخدم كل عبقريته وخبرته، لترتيب هذه الضربة
ضربة عنيفة
قاسية
مزدوجة
ضربة معدة بمهارة فائقة ووحشية...
للغاية

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

119 - الجولة الأولى..

زيارة (السادات) لـ (إسرائيل)، كانت حدثا هز العالم كله..
لأول مرة في التاريخ، يزور رئيس عربي (إسرائيل)، زيارة رسمية معلنة..
وسواء من أيدوا هذه الزيارة أو عارضوها، أدركوا أنها لحظة تاريخية، ستضع حتما حدا فاصلا، بين ما قبلها وما بعدها..
(إسرائيل) والعالم كله تقريبا، باستثناء الدول العربية، أيدوا الزيارة، وأكدوا أنها أعظم خطوة يخطوها رئيس عربى، في طريق السلام.
(فلسطين) والدول العربية رفضتها، وهاجمتها، واتهمت (السادات) بالخيانة والعمالة، وبيع القضية الفلسطينية وفي الكنيست الإسرائيلي، وقف (السادات) يلقي كلمته يلقيها وسط (إسرائيل)، وتحت علم (مصر)... وبغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف معها، فقد كانت كلمة قوية... واضحة..
وصريحة..
- الإسرائيليون انبهروا بكلمة الرئيس...
قالها (لطفى)، مدير مكتب (حسين)، والذي رافقه في زيارة الرئيس فابتسم (حسين) ابتسامة رصينة، وهو يقول:
- يكفي أن العلم المصري قد ارتفع في قلب (إسرائيل)، وأن آلاف الإسرائيليين قد اصطفوا لتحية الرئيس.
تردد (لطفى) لحظة، قبل أن يقول:
- ولكن قد يؤدي هذا إلى ارتفاع العلم الإسرائيلي يوما في (مصر) يا (حسين) بك
انعقد حاجبا (حسين) في ضيق، وهو يحاول طرد تلك الصورة من ذهنه، مغمغما:

- لكل شيء بداية.
زفر (لطفى)، وهو يغمغم:
- ستكون بداية مؤسفة.
ازداد انعقاد حاجبى (حسين)، وهو يقول في عصبية:
- كفي.. الزيارة انتهت بكل الأحوال، وسنعود بعد ساعات إلى (القاهرة)، و.
قاطعته دقات على باب حجرة الفندق، فأشار إلى (لطفى)، الذي أسرع يفتح الباب؛ ليجد أحد خدم الفندق، يقول في احترام:
- مكالمة من باريس لأدون (بنهاوى)، ونستأذن في تحويلها إلى هاتف الحجرة.
التفت (لطفى) إلى (حسين)، الذي غمغم في توتر:
- من (باريس)؟!
. وكيف هنا؟! من يعلم!!
استغرق لحظات في التفكير، قبل أن يشير بيده، قائلا بالعبرية:
- لا بأس.
ابتسم خادم الفندق الإسرائيلي، وهو يومئ برأسه، وتراجع ليبلغ المسئول، في حين أشار (حسين) إلى (لطفى)، قائلا في صرامة متوترة:
- سأتلقى المكالمة وحدي.
أسرع (لطفي) يغادر الحجرة، ويغلق الباب خلفه، في حين أنتظر (حسين) معقود الحاجبين، حتى ارتفع رنين هاتف حجرته، فالتقط سماعته، قائلا بالفرنسية:
- مرحبًا... أنا (حسين البنهاوي)، وانتفض جسده عندما سمع صوت الأميرة (عايدة)، تجيبه بالعربية، في لهجة ساخرة شامتة:
- أطمئن يا حبيبي... لن أخطئ معرفة صوتك.
هتف بكل الدهشة:

- (عايدة)؟!... من أين تتحدثين؟!
أجابته بنفس اللهجة:
- من مقهى في (الشانزليزيه) استمتع بالهواء النقي، مع صديقى العزيز (جان).
صرخ بكل غضبه:
- أنت كاذبة.
سمعها تطلق ضحكة عابثة ساخرة، قبل أن تجيب:
- يا لك من متعجرف مغرور!! دوما تتصور نفسك أكثر أهل الأرض براعة ودهاء... ولكنني أيها الفلاح، أرتب هذا منذ فترة.
كاد يعتصر سماعة الهاتف بأصابعه، وهو يصيح بها:
- (عايدة). لا وقت لهذا العبث
أطلقت ضحكة عابثة أخرى، قبل أن تقول:
- أرأيت كيف يتفوق ذكاء الأميرات على خبث الفلاحين؟؟... غرورك جعلك تحتفظ بجواز سفري الفرنسي في خزانة المنزل؛ لأنك لم تتصور إمكانية اقتحامها، أو أن يجرؤ شخص ما على فعلها.
احتقن وجهه في شدة، وانتقل احتقانه إلى صوته، وهو يقول:
- هل سرقت خزانتي؟!
أجابته في شماتة متحدية:
- أخذت جواز سفري، وبعض الأوراق الهامة، كتأمين لمستقبلي وضمان لعدم إقدامك على خطوة حمقاء لإعادتى، كما فعلت في المرة السابقة.
كرر في صوت مختنق:
- سرقت خزانتي يا (عايدة)؟!
واصلت، وكأنها لم تسمعه:

- بعض هذه الأوراق تحمل تجاوزات خطيرة، لو بلغت (السادات)، فسينتهي مستقبلك، وستعود مجرد فلاح كما بدأت.
شعر بكيانه كله ينهار، حتى أنه لم ينبس ببنت شفة، في حين واصلت هي، وقد حمل صوتها مقتا وشراسة:
- تلك الأوراق ستبقى معي يا (حسين) بك، ولن أرسلها إلى (السادات)، لو أنك نفذت شرطي الوحيد.
همهم بكلمة غير مفهومة، فأضافت في صرامة شرسة:
- أن تطلقني.
اعتصر القهر قلبه، وأعجزه عن النطق، وشعر بخدر يسري في أطرافه وهي تستطرد، وقد استعادت لهجتها الساخرة العابثة:
- وهذا من أجل سمعتك وكرامتك؛ فمنذ الليلة، سأكون بين ذراعي (جان).
ووثبت الشراسة مع المقت إلى صوتها مرة أخرى، مع إضافتها:
- وسأنجب منه ابنا.
قالتها، وأنهت الاتصال في عنف، فانتفض جسده كله، واحتقن وجهه في شدة، وشعر بكيانه كله ينهار..
ينهار تماما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- إنه محترف..
قالها (مكى)، وهو يفحص الخزانة المفتوحة، في حجرة نوم (حسين)، الذي بدا مستسلما عصبيا، وهو يسأله:
- أأنت واثق؟!
أشار (مكى) بسبابته، قائلا:
- كل الثقة.

هذا عمل محترف ولا شك... لقد استخدم سماعة طبية، لتحديد الأرقام السرية.. لقد ترك بوقها هذا الاثر هنا. ثم أتلف قفل الخزانة بآلة حادة رفيعة.

غمغم (حسين) في انكسار:

- وكل هذا بمعرفة (عايدة) ومباركتها.

صمت (مكى)، وهو يتطلع إليه، متظاهرة بالتعاطف، وإن كان الذئب في أعماقه يطلق ضحكة ساخرة عالية ظافرة، قبل أن ينقل التعاطف الزائف إلى صوته، وهو يسأله:

- هل طلقتها كما طلبت؟!

أومأ (حسين) برأسه إيجابا، وهو يغمغم:

- لم تترك لي الخيار..

صمت لحظة، ثم استدرك في غضب:

- رجولتي لم تسمح لي بالإبقاء على زوجة، تحيا بين ذراعي رجل آخر.

ابتسم (مكى) ابتسامة صغيرة، على الرغم منه، قبل أن يخفيها في سرعة، وهو يقول:

- من الواضح أنها قد دبرت كل هذا منذ فترة... لقد باعت البوتيك لمدام (جى جى) منذ شهرين، وسحبت كل رصيدها من البنوك و..

هتف (حسين) مستنكرا:

- لـ جيهان)؟!... تلك اللعينة..

وضع (مكى) يده على كتفه، قائلا:

- أنصحك ألا تحاول المساس بها.

انتفض في غضب، هاتفا:

- ولماذا؟!

مال نحوه قائلا، في لهجة بذل قصارى جهده، حتى لا تفضحه شماتته:

- لقد أنفقت الكثير من الأموال، في الفترة السابقة، على مشروعات خيرية، ترعاها السيدة الأولى... ومع حضورها كل المناسبات، صارت صديقة شخصية للسيدة الأولى..
ثم مال أكثر، مضيفا في لهجة كالفحيح:
- صديقة من الخطر المساس بها.
احتقن وجه (حسين)، وهو يغمغم:
- يا للأفعى!!
ثم انتفض جسده مرة أخرى، وهو يقول في انفعال:
- ولكن مهلا... كيف باعت (عايدة) البوتيك لـ (جيهان)؟! المفترض أنني أمتلك نصفه.
تظاهر (مكى) بالتفكير، وهو يقول:
- باسم (صلاح).
قال (حسين) في عصبية:
- لدى أوراق تثبت أنه...
بتر عبارته دفعة واحدة، مع احتقان وجهه، وهو يقول في صوت مبحوح:
- الأوراق كانت في الخزانة.
التمعت عينا (مكي)، وهو يسأله:
- كلها؟!
غمغم (حسين) في غضب:
- كلها.
وللمرة الثالثة، انتفض جسده في غضب، وهو يضيف:
- (صلاح) الحقير هذا... أراهن أنه ساعد (عايدة) في سرقة الخزانة، ليستعيد الأوراق.
تمتم (مكى) في خبث:
- هذا أكيد.

هتف (حسين) في ثورة:
- لابد وأن يدفع الثمن.
أمسك (مكى) معصمه، وهو يقول في صرامة:
- ليس في حالة غضب.. الغضب يفسد القدرة على التفكير السليم.
قال (حسين) في عصبية:
- لا يمكن أن يفلت بفعلته هذه.
أجابه في حزم:
- بالتأكيد.. ولكن دعنا نفعلها في احترافية.
سأله (حسين) في توتر:
- ألديك خطة؟!
التمعت عينا (مكى) في شدة، وهو يجيب:
- بالتأكيد...
وعندما شرح له خطته، أدرك (حسين) أنه أمام شيطان...
شيطان حقيقى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- التموين يا (مفيد) بك...
قالها (جودة) وهو يبتسم ابتسامة شيطانية، جعلت (مفيد) يعقد حاجبيه، وهو يلتقط السجائر المحشوة بالمخدرات من يده، قائلا في عصبية:
- طلبت منك أكثر من مرة، ألا تأتي في وضح النهار يا (جودة).
احتفظ (جودة) بابتسامته، وهو يلوح بيده، قائلا:
, الدنيا تغيرت يا (مفيد) بك.. الكل يضبط دماغه هذه الأيام.. الانفتاح جعل هذا متعة مشروعة.
سعل (مفيد)، وهو يقول في توتر:

- لو أنها مشروعة، لتم بيعها علانية.
هتف (جودة) في حماس:
- وسيحدث... أنا واثق من أنه سيحدث يا (مفيد) بك.
مط (مفيد) شفتيه، مغمغما:
- أنت واهم.
هتف (جودة) بنفس الحماس:
- سترى.
- ماذا تفعل هنا أيها الشيطان؟!
انطلق الهتاف الغاضب، فأسرع (مفيد) يدس السجائر في جيبه، في حين انكمش (جودة) وتراجع، وهو يحدق بعينين متسعتين في رعب إلى (طارق)، الذي اندفع نحوه ثائرا، وصائحا:
- ألم أمرك بعدم القدوم هنا مرة أخرى.
تراجع (جودة)، وهو يرفع ذراعيه ليحمي وجهه، هاتفا في رعب:
- (مفيد) بك أراد.
قبل أن يتم عبارته، لكمه (طارق) في معدته، على نحو جعله يخفض ذراعيه، فهوى (طارق) على فكه بلكمة أخرى، أسقطته أرضا، وجعلت مفيد) يهتف به:
- لا يا (طارق).
ولكن (طارق) انقض على (جودة)، وراح يكيل له اللكمات في ثورة تفوق الموقف، وهو يصرخ في غضب:
- أيها الحقير... أيها القذر... أيها الحيوان..
كان (جودة) يصرخ على نحو متصل، جعل (شريفة) و (فاطمة) تهرعان لرؤية ما يحدث، في حين حاول (مفيد) جذب (طارق) بعيدا وهو يهتف:
- كفى يا (طارق)... كفى.

انفلت (جودة) من تحت (طارق)، مستغلا جذب (مفيد) له، وانطلق يعدو مبتعدا بكل قوته، و (طارق) يصرخ خلفه:
- لو رأيتك هنا مرة أخرى سأقتلك... هل تفهم... سأقتلك..
أطلق (عوضين) خفير السراى رصاصة في الهواء، جعلت (جودة) يزيد من قوة عدوه كالمجنون، في نفس الوقت الذي اندفعت فيه (فاطمة) تحتضن ابنها، وهي تهتف في لوعة:
- رويدك يا ابني.. رويدك يا (طارق).
ووضعت (شريفة) يدها على صدرها، متسائلة وهي تلهث في انفعال:
- ماذا حدث؟!
صرخ (طارق):
- ذلك الحقير يواصل بيع المخدرات لعمى، على الرغم من أنني حذرته أكثر من مرة.
غمغم (مفيد) في توتر:
- أكان هذا يستحق كل ما فعلته؟!
صاح به (طارق):
- هل أحضرها لك أم لا؟!
صمت (مفيد)، وهو يختلس نظرات خجلي متوترة، إلى (فاطمة) و(شريفة)، حتى غمغمت (فاطمة)، بصوتها الخشن الغليظ:
- تحدث إلى عمك في احترام يا (طارق).
احتقن وجه (طارق) في شدة، وبدا من الواضح أنه يقاوم انفعالا ارقا في أعماقه، قبل أن يخفض عينيه، مغمغما، في صوت لم يفارقه التوتر بعد:
- أمرك يا أمي
شعرت (شريفة) بالدهشة، من تأثير (فاطمة) على ابنها، وغمغمت في خفوت:

- سأعد لكما كوبين من الينسون؛ لتهدئة أعصابكما.
وضع (مفيد) يده على كتف (طارق)، وسعل مرتين، قبل أن يقول متحشرجا:
- أحضريهما في حجرة الضيوف... أريد التحدث مع (طارق) وحدنا حديث رجل لرجل.
انهمرت دمعة عصبية من عيني (طارق)، وهما يجلسان في حجرة الضيوف، وقال في توتر شديد:
- تلك السموم ستدمرك يا عمي... كنت أحاول فقط حمايتك من ذلك الثعبان.
تطلع إليه (مفيد) لحظات في صمت، قبل أن يقول:
- أكان هذا هو السبب الحقيقي لثورتك يا (طارق)؟!
أشاح (طارق) بوجهه، مغمغما:
- ألا يستحق؟!
صمت (مفيد) لحظات أخرى، ثم قال في هدوء:
- تصورت أننا سنتحدث بالفعل، حديث رجل لرجل.
ظل (طارق) صامتا، مشيحا بوجهه بضع لحظات، قبل أن يغمغم في صوت مختنق:
- ما الذي تريد قوله يا عمي؟!
تنهد (مفيد)، قبل أن يغمغم:
- (محمد وليد كمال).
قاوم (طارق) دموعه في صعوبة، مع إضافة (مفيد) الحزينة:
- ابن (نادرة)، الذي ولد أمس.
ذكر اسم (نادرة) أفقد الشاب قدرته على المقاومة، فسالت دموعه الحارة على وجهه، وارتفع صوت نحيبه، فنهض (مفيد) يحتويه بين ذراعيه، ويربت عليه في حنان مشفق، مغمغما:

- لا تفسد حياتك كما أفسدها عمك يا (طارق)... لا تجعل قلبك يتجمد عند فترة زمنية يرفض تجاوزها..
غمغم الشاب، من وسط دموعه:
- وهل استطعت أنت نسيان (مديحة)؟!
ازدرد (مفيد) لعابه في صعوبة، وهو يقول:
- وهل نجحت كل دموع الدنيا في إعادتها؟!
انتحب الشاب لحظات أخرى، قبل أن يغمغم:
- الذكرى تؤلمني يا عمي.
قال (مفيد) مشفقا:
- حاول النسيان إذن.
قال في حرقة:
- مستحيل!!
أطلق (مفيد) زفرة حارة، قبل أن يقول:
- جيلكم يختلف عن جيلي، ولديكم الآن الكثير من الأمور، التي يمكن أن تشغل عقولكم، وتساعدكم على النسيان.
مسح (طارق) دموعه، وهو يقول:
- مستحيل يا عمي!... مستحيل!
ثم أبتعد عن (مفيد)، وهو يستطرد في مقت:
- لأن السبب يحيا معي طوال الوقت.
نظر إليه (مفيد) في دهشة حائرة، فأردف في حنق:
- أمي.
هتف (مفيد) في استنكار:
- أمك؟!... هل تحمل أمك مسئولية الـ
قاطعه (طارق) في عصبية:
- لا تخطئ فهمى يا عمي... أنا أحب أبي وأمي، وأحترمهما، وهما بالنسبة لي كل دنياى، ولكن السبب الوحيد لرفض عمتي (نعيمة)

زواجى من ابنتها، وإصرارها على هذا بكل عناد الدنيا، هي أنها تكره أمي ولا تحترمها.
لم يستطع (مفيد) قول شيء، مع إدراكه أن ما يقوله ابن شقيقه حقيقة، فاكتفى بإشارة من يده، جعلت (طارق) يواصل في مقت واضح:
- ولكنني أثق في الله سبحانه وتعالى، وفي أنه سيعيد إلى أمي وأبي اعتبارهما ذات يوم، وسيجبر الكل على احترامهما كما ينبغي.
ربت (مفيد) على كتفه، مغمغما:
- ونعم بالله يا (طارق)... ونعم بالله.
استرجع (مفيد) حواره هذا مع (طارق)، وهو يجلس في شرفة حجرته، في الطابق الثاني من السراي، يدخن واحدة من سجائر المخدرات، التي أحضرها له (جودة)..
كلمات (طارق) جعلته يشعر أن الشاب صار يمقت نسبه ولقبه؛ بسبب الاضطهاد الذي تتعرض له أمه.
وكم يؤلمه هذا..
صحيح أنه لا يتفق أبدا مع شقيقه (حسين)، ولا يرضى بما فعله والده الراحل، عندما كتب كل ثروته باسم أكبر أولاده الذكور وحده..
ولكنه مازال (بنهاويا). ومازال ينشد العلو لعائلته..
ولكنه يختلف على معنى العلو، مع شقيقه (حسين) - (حسين) يرى أن قوة الأسرة في السطوة والمال والنفوذ.. وهو يرى أن القوة الحقيقية تكمن في العدل والرحمة والتواضع.
زفر في حرارة، وهو يستعيد كل مواجهاته السابقة مع (حسين)... كلها كانت من أجل عائلة (البنهاوي)...
ولكن (حسين) كان ينتصر دوما، حتى أنه بدأ يشك في أنه مخطئ في فهمه المثالي للقوة..

وربما كان فعلا مخطئا
القوة حسمت كل شيء في العائلة وفي (مصر) كلها..
هز رأسه في قوة، وكأنما يطرد منها كل تلك الأفكار والذكريات، ولكن هذا جعله يسعل في قوة، جعلته يلهث في شدة، ويتراجع في مقعده وكأنه كان يعدو منذ ساعات..
وعلى الرغم من لهائه وألمه، عاد ذهنه يقفز إلى طارق..
الحفيد الوحيد، الذي يحمل اسم (البنهاوي). من الضروري أن يمحو من قلبه تلك الكراهية، تجاه العائلة... إنه الامتداد الوحيد لاسم (البنهاوي)، حتى هذه اللحظة ولابد وأن يشعر أنه كذلك وأن يفخر بأنه (بنهاوى)...
لابد
ما فعلته (نعيمة)، لابد وأن يسعى هو لإصلاحه.. هي احتقرت (فاطمة)، وعليه هو أن يحترمها وعلى نحو علنى... هذا وحده قد يزيل بعض الكراهية من قلب (طارق)... هذا وحده يمكن أن يعيده (بنهاويا)..
سعل بشدة أكثر، عند هذه النقطة، فالتقط منديله، يخفى به فمه ويبصق فيه ما تصور أنه غصة في حلقة..
ثم اتسعت عيناه عن آخرهما، عندما رأى ذلك، الذي تلوث به منديله..
الدم..
الدم (البنهاوي).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

119 – الطعنة..

- الأستاذ (صلاح مروان)؟!

نهض (صلاح) من خلف مكتبه، يستقبل ذلك الذي ألقى السؤال، وأدار عينيه فيمن يحيطون به، مغمغما في حذر:

- هو أنا.

سأله الرجل في صرامة لم يعتدها:

- أنت صاحب ومدير شركة الاستيراد والتصدير؟

استجمع (صلاح) إرادته، وقال في حدة:

- ماذا تريد يا هذا؟!... ومن أنت؟!

أشار الرجل إلى من حوله، وهو يقول بنفس الصرامة:

- العقيد (مدحت السبع)، من إدارة مكافحة المخدرات.

تراجع (صلاح) مصدوما، وهو يهتف:

- مخدرات؟!... وما شأن شركتي بهذه السموم؟

ابتسم العقيد، وهو يقول:

- شحنة الملابس، التي تم استيرادها من (تركيا)، كانت تخفي مائة كيلو جرام من مخدر الحشيش.

سقط (صلاح) على مقعده، وهو يهتف في شحوب:

- مستحيل!!

شد العقيد قامته، وهو يقول بكل الصرامة:

- أستاذ (صلاح).. أنا ألقي القبض عليك، بتهمة إدخال مواد مخدرة محظورة إلى البلاد، و.

صاح (صلاح)، وجنديان يجذبانه؛ لوضع الأغلال في معصميه:

- لا شأن لي بهذا... أقسم لك.

بدا العقيد أكثر صرامة، وهو يقول:

- البلاغ الذي تلقيناه قال: إنها ليست أول مرة تفعل فيها هذا، وأنك..
صرخ (صلاح)، وهم يكبلون معصميه بالفعل.
- أي بلاغ؟!... إنها مكيدة واضحة أيها العقيد.
أشاح العقيد بوجهه، وهو يقول:
- أعط النيابة كل ما يثبت هذا..
هتف (صلاح)، وهو يقاوم من يجذبانه:
- أنا لست المسئول الفعلي عن هذه الشركة... أنا مجرد واجهة.
التفت إليه العقيد في اهتمام شديد وقال:
- ألديك ما يثبت هذا؟!
هتف في توتر:
- بالطبع... في خزانتى ستجد نسخة من الأوراق، التي تثبت أن هذه الشركة ملك (إبراهيم مكى) و (حسين البنهاوي)، وأنا مجرد...
قاطعة العقيد مصدوما:
- حسين بك البنهاوي)؟!
هتف (صلاح):
- نعم... افتح الخزانة، وستجد ما يثبت هذا.
رمقه العقيد بنظرة نارية، قبل أن يقول في شراسة:
- اسمع يا رجل... محاولة الزج بأسماء كبيرة في القضية، للإفلات من العقوبة، أسلوب سخيف، لا يؤتي ثماره في معظم الأحيان، بل وقد تقلب وبالا عليك.
قال (صلاح) في عصبية:
- افتح الخزانة وستري..
قالها وهو يشير إلى خزانة معدنية كبيرة، أدار العقيد بصره إليها لحظات في شك، قبل أن يقول في صرامة:

دعوه يفتحها.
جذب رجلان (صلاح) إلى الخزانة، التي أدار قرصها في توتر شديد وهو يقول:
عندما تقرأ الأوراق بنفسك، ستجد أن...
بتر عبارته في ذهول مصدوم، وهو يحدق في الخزانة الخاوية، في حين اعتدل العقيد في حزم، وهو يقول:
- الخزانة فارغة يا أستاذ (صلاح).
صمت (صلاح) لحظات، ثم أدار وجهه شديد الشحوب إلى العقيد مغمغمًا:
- (إبراهيم مكى)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ولكن الثمن كبير جدا...
قالها (حسين) في توتر، جعل (مكي) يبتسم، وهو يقول:
- من حسن حظنا أننا قد استعدنا كل مالنا، منذ شهر واحد .
اعتدل (حسين)، وهو يقول متوترا:
- وخسرنا شركة تدر الكثير.
ابتسم (مكى) في خبث، وهو يلوح بيده، قائلا:
- لقد خسرناها بالفعل، منذ بدأ (صلاح) يخوننا.
انعقد حاجبا (حسين)، وهو يدرس الأمر في ذهنه، قبل أن يغمغم:
- الأرباح كانت كبيرة.
اتسعت ابتسامة (مكي) الذئبية، وهو يقول:
- كما أنشأناها ننشىء غيرها.
هز (حسين) كتفية دون تعليق، وهو يبحث في ذهنه عن بديل لـ (صلاح)، في أية شركة جديدة، ثم لم يلبث أن تساءل في قلق:

- ماذا لو أن (صلاح) أثار ضجة بشأننا؟!
أجابه (مكى) في هدوء:
- لم يعد يملك أي إثبات بشأن هذا.
قال (حسين) في توتر:
- لا أتحدث عن إثباتات قانونية، بل عن إساءة للسمعة.
هز (مكى) رأسه نفيا في بطء، وألقي نظرة على ساعته، قبل أن يقول في حزم واثق:
- لم يعد باستطاعته هذا.
عاد حاجبا (حسين) ينعقدان، وهو يقول:
- من أية ناحية؟!
لوح (مكى) بيده، قائلا بنفس الحزم الواثق:
- من ناحية قانونية وعملية تماما..
ثقته الزائدة جعلت (حسين) يميل نحوه،
، متسائلا:
- ماذا لديك يا (مكى)؟!
لم يكد يتم سؤاله، حتى ارتفع رنين الهاتف، فأشار إليه (مكى) بسبابته أن ينتظر، والتقط سماعة الهاتف، واستمع في صمت، دون أن ينبس ببنت شفة، ثم أعاد السماعة إلى موضعها، فتساءل (حسين) في دهشة:
- ما الذي يعنيه هذا؟!
بدت له ابتسامة (مكى) أشبه بابتسامة ذئب وحشى، انتهى على التو من التهام فريسته، وهو يجيب:
- (صلاح مروان) أقدم على تصرف أحمق، وحاول الفرار، وقاوم رجال الشرطة، و...
قاطعه (حسين) منزعجا: - هل تقصد أنهم قبل أن يتم سؤاله، قال (مكى) في حزم:

-وقتلوه أثناء فراره.
اتسعت عينا (حسين)، وتراجع مصعوقا، غير مصدق ما وصلت إليه الأمور، فابتسم (مكى) ابتسامة أكثر ذئبيه.
ها هي ذي نقطة ضعف جديدة، تثبت له أنه أقوى كثيرا من (حسين)..
الضمير..
على الرغم من كل ما يفعله (حسين)، مع كل من يعترض طريق طموحه، إلا أنه مازال هناك جزء حي من أعماق ضميره...
جزء لم يحتمل فكرة القتل أيا كانت مبرراتها ربما لأن شهامة الريف مازالت تختبئ، في ركن ما من أعماقه.
- عندي خبر لن يروق لك، ولكن من الضروري أن تعلمه...
رفع إليه (حسين) عينين محمرتين، وهو يتساءل في مرارة:
- أكثر من مصرع (صلاح)؟
صمت (مكى) لحظة، قبل أن يقول:
- إنه يخص الأميرة (عايدة).
اتسعت عينا (حسين)، دون أن ينبس ببنت شفة، فتابع (مكى) بلا رحمة:
- إنها حامل
تضاعف اتساع عيني (حسين)، وشعر وكأن مطرقة هائلة قد هوت على قلبه، فانتفض من موضعه..
الهلع على ملامحه أثلج قلب (مكى)، فتراجع في مقعده، وهو يضيف في لهجة قاسية:
- من (جان).
انهار قلب (حسين) تماما، مع تلك المعلومة الأخيرة، وأشاح بوجهه ليخفي انفعالاته عن (مكى)، الذي تعمد الطرق على أعصابه الملتهبة. وهو يواصل:

- لقد تزوجا منذ شهر، و..
رفع (حسين) كفه، قائلا في صوت مختنق:
- كفى.
التمعت عينا الذئب في وجه (مكى)، وهو يتراجع في مقعده في ظفر، ولاذ بالصمت بضع لحظات، قبل أن يعتدل، قائلا:
- لماذا لا تجرى تلك الفحوص، التي كانت سببًا في انفصالكما؟
لم يجب (حسين)، وهو يقاوم رغبة عارمة في البكاء فأضاف (مكى)، وهو يتراجع مرة أخرى في مقعده:
- لتعرف على الأقل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هل تتصور أنه سيفعلها؟!
ألقت (جيهان) السؤال على (مكى) في اهتمام، فابتسم ابتسامته الذئبية، وهو يقول:
- لن يمكنه مقاومة الفكرة، وخاصة بعد حمل الأميرة (عايدة).
تطلعت إلى (مكي) بضع لحظات في صمت، قبل أن تقول بابتسامة هادئة:
- هل تعلم ما هي أكبر نقطة ضعف، لدي (حسين البنهاوي)؟!
غمغم في حذر:
- ريفيته؟!
هزت رأسها نفيا، ثم مالت إلى الأمام، مجيبة:
- أنه وثق في ذئب مثلك.
تراجع (مكي) في دهشة، قبل أن يقول في صرامة:

- هذا الذئب نفذ الجزء الخاص به، وتخلص من (صلاح)، الذي سبب لك تلك الفضيحة في الماضي.
هزت كتفيها في لا مبالاة، قائلة:
- (صلاح) كان مخلب الذئب فحسب، ولكن انتقامي من الذئب الأصلي لم يدخل حيز التنفيذ النهائي بعد.
تطلع إليها لحظات في ضيق غاضب، ثم قال في صرامة:
- حذار يا مدام (جيهان) الذئب الذي تسعين خلفه، يمكن أن يتحول في لحظة واحدة. من فريسة إلى صياد.
أطلقت ضحكة عالية عابثة، قبل أن تتخذ مجلسا متغطرسا، قائلة:
- ألم أقل لك؟.. أكبر نقطة ضعف في (حسين البنهاوي)، هي أنه أطلق سراح ذئب مفترس، ووضع ثقته فيه، متصورا أنه سيساعده في الانقضاض على خصومه، دون أن يضع في اعتباره أنه يمكن أن ينقض عليه شخصيا، إذا ما تعارضت المصالح.
انعقد حاجباه في شدة، وهو يقول في صرامة:
وهذا ينطبق على علاقتنا أيضا.
أطلت نظرة ماكرة من عينيها، وهي تغمغم:
- لم تتعارض مصالحنا بعد.
ثم اعتدلت في حركة مفاجئة، مستطردة:
- وبشأن الشركة الجديدة، سيكون كل شيء على ما يرام.
صمت لحظة، ثم أضاف في صرامة:
- ولن تضم (حسين البنهاوي).
غمغمت:
- بالتأكيد.
شملهما الصمت لحظة أخرى، قبل أن تقول (جيهان):
- بعد توقيع اتفاقية (كامب ديفيد)، أعتقد أنه سيكون هناك تمثيل ديبلوماسي لـ (إسرائيل) في (مصر).

تراجع متمتما:
- أمر طبيعي... ولكن منذ متى تهمك المأمور السياسية
هزت كتفيها، قائلة: - لا تهمني على الإطلاق.
شعر بالدهشة لعبارتها، وتساءل في أعماقه عما يدور في ذهنها ويعجز هو عن سبر أغواره، قبل أن تضيف هي:
- كل ما يهمني الآن، هو (حسين البنهاوي).
التقط نفسا عميقا، وقال:
الصيد تلقى طعنات كثيرة، في الآونة الأخيرة، ولم يتبق سوى الانقضاض عليه.
التمعت عيناها على نحو عجيب، وهي تقول:
أنتظر وسترى.
وتراجع (مكى) مع التماعة عينيها..
فمع ما تملكه (جيهان) من جمال، ومال ودهاء، ورغبة في الانتقام، تولد داخله شعور، لم يشعر به في حياته من قبل...
الخوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انعقد حاجبا (نعيمة) في شدة، وهي تميل على أذن (شريفة)، متسائلة في حنق:
- ماذا يفعل أخوك هذه الأيام؟!
اعتدلت (شريفة) تسألها:
- (حسين)؟!
أجابتها في حدة:
- بل (مفيد)... أرأيت كيف يعامل تلك الملعونة هذه الأيام!!
تنهدت (شريفة) في ضيق، قبل أن تقول:

- إنه يفعل هذا من أجل (طارق).
مصمصت شفتيها، قائلة:
- عقرب أبن عقربة.
قالت (شريفة) في ضيق:
- (طارق) ابن أخي (حافظ)، وهو زينة شباب القرية.
تسلل الحنق إلى صوتها، وهي تضيف:
- الشيء الذي لا أفهمه، أنك ما زلت تبغضين (فاطمة)، حتى بعد أن نفذت ما خططت له، وزوجت (نادرة) لـ (وليد) هذا.
اعتدلت (نعيمة)، هزت كتفيها، قائلة:
- وهل أذنبت لأنني أخذت لابنتي الأفضل... ها هي ذي تحيا في (لندن)، وزوجها مستشار ديبلوماسي ما شاء الله.
قالت (شريفة) في غلظة:
- (نعيمة)... السبب في زواج (نادرة) من (وليد) لم يكن منصبه، وإنما كان الكيد لـ (فاطمة) وابنها.
هتفت (نعيمة) في عناد:
- وصالح ابنتي أيضا رفعت (شريفة) سبابتها إلى شفتيها، محذرة:
- اخفضي صوتك.
رفعت (نعيمة) صوتها أكثر في عناد، وهي تقول:
- هل تخشين أن تسمعنا العقربة؟!
ظهرت (فاطمة) عند باب حجرتها، وهي تقول بخشونتها وغلظتها وغضبها:
- كلا يا ست الستات... أنها تخشى أن يسمعك الضيف.
رمقتها (نعيمة) بنظرة مقت، قبل أن تنحني مرة أخرى على أذن (شريفة)، متسائلة:
- ألدينا ضيف؟!
همست (شريفة) بدورها:

- إنه ذلك الشاب، الذي حضر مرة مع (حسين).
تمتمت (نعيمة):
- (لطيف)؟
هزت (شريفة) رأسها نفيا، وهي تقول:
- (لطفى) اسمه (لطفى).
ازداد انعقاد حاجبى (نعيمة)، وهي تتساءل:
- وما سبب هذه الزيارة؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- (شريفة) هانم.
تراجع (مفيد) في شيء من الدهشة، عندما نطق (لطفى) كلمته وتطلع إلى (لطفى) لحظة في صمت، قبل أن يسأله:
- أستاذ (لطفى)... كم يبلغ عمرك تقريبًا.
ازدرد (لطفى) لعابه، قبل أن يجيب:
- لقد تجاوزت الثانية والثلاثين، منذ شهر وبضعة أيام
سأله (مفيد) في هدوء:
- وهل تعرف عمر (شريفة)؟!
اعتدل الشاب، وهو يقول في حزم:
- هذا لا يصنع فارقا، بالنسبة لي على الأقل.
التقط (مفيد) نفسا عميقا، وسعل مرتين، قبل أن يخرج منديله ويمسح شفتيه، ثم يقول:
- ولماذا (شريفة) بالذات؟!
بدا الحرج على وجه (لطفى)، وهو يغمغم:
- لقد وقع بصري عليها، وقبل أن يكمل كلماته المترددة، سأله (مفيد) فجأة:
- وهل يعلم (حسين) أنك هنا؟!

ارتبك (لطفى) في شدة، وهو يجيب:
- الواقع أنني لم أشأ مفاتحة (حسين) بك في الأمر، قبل أن أطمئن إلى موافقة (شريفة) هانم أولا.
- أنا موافقة...
قالتها (شريفة) في حزم، جعل أختها (نعيمة) تهتف مستنكرة:
. هكذا؟!... دون أن تعرفي شيئا عنه؟!
قالت (فاطمة) في خشونة:
- من السهل قول هذا، لأن ..
صاحت فيها (نعيمة) في غضب:
- وما شأنك أنت أيتها الـ
قاطعها (مفيد) هذه المرة، وهو يهتف في حدة:
- كفى.
التفتت إليه (نعيمة) في شراسة، إلا أنه دخل في نوبة سعال عنيفة جعلت (فاطمة) تسرع إحضار كوب ماء له، شربه دفعة واحدة، قبل أن يستعيد صرامته، قائلا:
- هذا الأمر يخص (شريفة) وحدها.
قالت (شريفة) في حزم:
- وأنا وافقت يا (مفيد)... والكرة الآن في ملعب (حسين).
تطلع إليها (مفيد) لحظات مشفقا، قبل أن يغمغم:
- هل تخشين أن يرفض؟!
تمتمت (فاطمة) في حسرة:
- كالمعتاد.
التفتت إليها (نعيمة) في شراسة، فابتسمت وهزت كتفيها، في حين اجابته (شريفة) في مرارة:
- (حسين) لن يعنيه ما أنا فيه سيحسب الأمور ويزنها بموازينه.. من سيرفع من قدره سيوافق عليه، وإلا فإنه سيرفض بشدة.

اندفعت (فاطمة) تقول في حنق:
- ولكن هذا حرام.
صرخت فيها (نعيمة):
- اصمتي أنت.
صاح (مفيد) في حدة:
- قلت كفى.
في هذه المرة كان سعاله أكثر عنفا، حتى أنه أخرج منديله؛ ليخفى به فمه، ثم ألقي نظرة عليه، قبل أن يدسه بسرعة في جيبه، وهو يقول في صرامة:
- عودي إلى منزلك يا (نعيمة).
هتفت به (نعيمة) مستنكرة:
- هل تطردني من سراي أبي؟!
هتف في ضعف:
- (نعيمة)... أرجوك... لم أعد أحتمل.. أريد مناقشة هذا الأمر مع (شريفة) وحدنا.
أطلقت (فاطمة) ضحكة شامتة، جعلت (نعيمة) تلتفت إليها في غل، فقال (مفيد) متوترا:
- (فاطمة)... أدخلي حجرتك... أرجوك
صرخت (نعيمة) في ثورة:
- هل ترجوها؟!... اصفعها على وجهها، وستعود إلى داخل حجرتها، مثل أي...
قاطعها سعاله الشديد، الذي امتقع معه وجهه، فهتفت (شريفة)، وهي تسرع لتحضر له كوبا آخر من الماء:
- كفي يا (نعيمة)... إنك تقتلينه.
هزت (نعيمة) كتفيها في غضب، في حين تراجعت (فاطمة) إلى حجرتها، وهي تغمغم بخشونتها المعهودة:

- كل ما تقوله أوامر يا (مفيد) بك.
هتفت (نعيمة) خلفها في مقت:
- يا للأفعى!
صاحت بها (شريفة):
- كفى يا (نعيمة)... أنا نفسي لم أعد أحتمل.
لملمت (نعيمة) حاجياتها في عصبية، وهي تقول في حدة:
- سأعود إلى بيتي.. التواجد معكم صار محبطا.
أنتظر (مفيد) حتى غادرت (نعيمة) السراى، ثم قال:
- لو أنك توافقين، أعدك أن أقاتل بكل قوتي؛ لإقناع (حسين) بالموافقة هذه المرة.
هزت كتفيها، قائلة:
- وهل تعتقد أنه يمكن لأية قوة في الوجود إقناع (حسين)، بأمر يتعارض مع مصالحه؟!
صمت لحظات، قبل أن يجيب في خفوت يائس:
- كلا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ولماذا كلا؟!
هتف (فؤاد) بالسؤال في غضب، جعل (ناهد) تقول في حدة:
- لأنها محاولة فاشلة أخرى يا (فؤاد).
قال في إصرار:
- أخي (كمال) صار مقربا من الرئيس (السادات)، ولم يعد (حسين) هو القوة الوحيدة في العائلة، ولو طالبت اليوم بميراثك الشرعي، فلن..
قاطعته في عصبية:

- أي ميراث شرعي؟!
حدق فيها في دهشة، مجيبًا :
- نصيبك في الأرض والسراى.
قالت بنفس العصبية:
- هذا ليس ميراثا.
هتف مستنكرا:
- أي قول هذا؟!
علا صوتها، وهي تقول في حدة:
- الميراث هو ما يتركه المتوفي بعد وفاته، ولكن والدي كتب الأرض والسراي لـ (حسين) في حياته، وهذا يخرج الأمر من خانة الميراث.
انعقد حاجباه في شدة، فأضافت في حدة أكثر:
- وهذا ليس رأيي الشخصي، بل هو رأي دار الإفتاء نفسها.
بدا مصدوما مما قالته، فترك جسده يسقط على مقعد قريب، وهو يغمغم:
- ليس ميراثا!!
قالت في عصبية:
- نعم... ليس ميراثا... أرح نفسك.
صمت لحظات محتقن الوجه، ثم غمغم في سخط:
- كل شيء بإسم (حسين)... هذا ظلم.
غمغمت في عصبية:
- هذا قدر (البنهاوية).
اعتدل بحركة حادة، قائلا:
- هل تعلمين أن أحدا، في سلسلة نسبكم كلها، لم يحمل يوما اسم (البنهاوي)؟!
ضايقها قوله، فقالت متحدية:

- نعم أعلم... لأنه لم تكن هناك بطاقات هوية شخصية في ذلك الحين، وكانوا يعتمدون على شيخ القرية وشيوخ الحارات، ولقب (البنهاوي) كان ما يلقبون به أبي هنا، لأنه جاء من (بنها).
لوح بذراعه، هاتفا:
- الغطرسة (البنهاوية) إذن ليس لها ما يبررها.
عضت نواجذها في غضب، ثم قالت:
- ما أعلمه أيضا هو أن جدك كان ساعيا في الحكومة، ولولا الثورة...
صاح يقاطعها في غضب:
- كفى.
اندفع ابنهما (خيري) إلى المكان في هذه اللحظة، وهو يهتف في انفعال:
- من الضروري أن تشاهدوا ما يعرضه التلفاز، وأسرع يشعل التلفاز الرئيسي، مستطردا:
- من كان يصدق أن يحدث هذا؟!
حدق كلاهما في شاشة التلفاز، وانقبض قلباهما معا. فقد كان ما يعرضه التلفاز أمر يصعب هضمه..
تماما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

120 - انهيار..

- للأسف يا (حسين) باشا... قالها الدكتور (صفوت) في توتر شديد، جعل قلب (حسين) ينقبض وهو يقول في عصبية:

- للأسف ماذا؟!

ازدرد الدكتور (صفوت) لعابه في صعوبة، وربت على نتائج الفحوص الطبية أمامه، وهو يقول في صعوبة:

- النتائج التي أمامي، تقول إن إمكانية الإنجاب لديك مستبعدة تماما.

قال (حسين) في عصبية شديدة:

- تقصد أنها صعبة؟

ازدرد الرجل لعابه مرة أخرى، وشحب وجهه وصوته، وهو يتمتم:

- بل منعدمة.

حدق (حسين) في وجهه مصدوما، وهو يغمغم مكررا:

- منعدمة؟!

ربت الدكتور (صفوت) على النتائج مرة أخرى، وهو يجيب شحوب:

- هكذا تقول النتائج يا (حسين) باشا... سائلك لا يحوي أية حيوانات منوية على الإطلاق.. حالة نادرة، نطلق عليها اسم (أزوسبيرميا) (Azoospermia)، و

قاطعه (حسين) في مرارة عصبية:

- كفى.

وجذب إليه نتائج الفحوص، وهو ينهض، قائلا:

- لو سافرت إلى الخارج، هل يمكن أن...

لم يكمل سؤاله، ولكن الدكتور (صفوت) هز رأسه في توتر، مغمغما:
- كلا للأسف.
غادر عيادة الدكتور (صفوت)، والألم يمزق قلبه، ومرارة العلقم تملأ فمه، ولثوان، بعد مغادرته العيادة، ظل الدكتور صفوت يحدق في الباب، الذي أغلقه (حسين) خلفه، قبل أن يلتقط سماعة الهاتف بيد مرتجفة ويطلب رقما، وما أن سمع صوت محدثه، حتى غمغم في عصبية:
- لقد نفذت كل ما أمرت به يا باشا... والآن بخصوص تلك الصور سعادتك تعلم أنني رجل متزوج، وصوري مع (جانيت) يمكن أن...
أغلق الطرف الآخر الخط، دون أن يجيب، فامتقع وجه الدكتور (صفوت) في شدة، وهو يعيد سماعة الهاتف إلى موضعها في بطء، مغمغما في صوت مرتجف:
- لقد نفذت كل ما أمرت به...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أخيرا يا (حسين) يا (بنهاوى)..
أخيرا واجهت مالا يمكنك السيطرة عليه أو احتوائه...
قدرك..
القدر، الذي حكم عليك بأن ينقطع نسلك في الدنيا، مهما بلغت قوتك وسطوتك، أو بلغ نفوذك.
أخيرا يا (حسين) وجدت ما يهزمك...
ولأول مرة، منذ زمن طويل جدا، انحدرت من عينيه الدموع...
دموع القهر والمرارة...

دموع العجز..
كبير (البنهاوية) عاجز عن الإنجاب..
ليس لديه بذور يزرعها، في سلسال (البنهاوية)..
ويا له من قهر!!
المشكلة الأكبر هي في (البنهاوية) أنفسهم..
أموالهم وممتلكاتهم كلها ملكه هو..
هو وحده..
كان قد بلغ منزله، عندما التقط سماعة هاتفه، وطلب رقم مكتبه، ولم يكد يسمع صوت (لطفى)، حتى قال في مرارة:
- أريدك يا (لطفى).
سأله (لطفى) في توتر:
- الآن يا (حسين) باشا؟!
أجابه بنفس المرارة:
- الآن يا (لطفى).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنهى (لطفي) المحادثة، وهو يشعر بتوتر شديد، يملأ كيانه كله..
لماذا الآن؟!
إنه لم يفعلها من قبل قط!!
أهذا بشأن طلبه يد (شريفة)، أم ماذا؟!
ظلت تلك التوترات ترتجف في أعماقه، حتى صار أمام (حسين)...
وكم شعر بالدهشة لحظتها..
إنه يقف أمام الرجل، الذي عمل كمدير لمكتبه طويلا، ولكنه يشعر أنه أمام رجل مختلف تماما..

رجل محبط...
منكسر..
بائس..
رجل تكلم معه بصوت خافت، وربما لأول مرة في حياته، وهو يناوله ورقة، قائلا:
- قدم لسيادة الرئيس هذا الطلب غدا، وأخبره أن حالتي الصحية تستلزم الراحة لبضعة أيام و..
قاطعه في توتر:
- غدا يا (حسين) باشا؟!
سأله (حسين) في ضيق:
- ماذا هناك يا (لطفى)؟!
أجابه في توتر شديد:
- غدا المأدبة، التي أقامها سيادة الرئيس، للوفد الديبلوماسي الإسرائيلي، وعدم حضور سيادتك، قد تتم إساءة تفسيره.
اندهش (حسين)؛ لأنه نسي مثل هذا الأمر الجلل، وأدرك أن مدير مكتبة على حق.
لو أنه غاب عن المأدبة، فسيسرع خصومه لتصوير الموقف، بأنه رفض لسياسة الرئيس.
وهذا سيضر مستقبله..
وبشدة.
نعم...
مدير مكتبه على حق
أيا كانت عذاباته، لابد وأن يحضر تلك المأدبة...
لابد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أين كنت، كل تلك السنوات يا (جيهان) هانم؟!
ألقت حرم الرئيس السؤال بابتسامة كبيرة، على جيهان، التي بادلتها الابتسام، وهي تقول:
- ظروف قهرية، أجبرتني على مغادرة البلاد يا (هانم).
قالت حرم الرئيس مجاملة:
- أية ظروف تلك، التي يمكن أن تجبر فاتنة مثلك، على مغادرة البلاد؟
رمقت (جيهان) (حسين)، الذي يحاول تجاهلها، منذ بداية الوليمة، قبل أن تجيب:
- جمالي هو الذي فعل بي هذا يا هانم.
ارتفع حاجبا حرم الرئيس في دهشة:
- جمالك؟!... إلى ماذا تشيرين بالضبط يا (جى جى) هانم؟!
رمقت (جيهان) (حسين) بنظرة مقت أخرى، ثم قالت:
- الواقع يا هانم أن قصتي أشبه بروايات السينما، حتى أني أخشى أن أقصها على أحد فيكذبني.
قالت حرم الرئيس في إلحاح:
- ولكنك أثرت فضولى بشدة، ومن الضروري أن أعرف.
ابتسم الذئب في أعماق (جيهان)، وهي تميل نحو حرم الرئيس، قائلة:
- اسمعينى جيدا يا هانم... أقسم لك أولا أن كل ما سأرويه لك حقيقة
غمغمت حرم الرئيس في اهتمام:
- أنا واثقة من هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- مصادفة عظيمة أدون (حسين)...
انعقد حاجبا (حسين) في شدة، عندما سمع ذلك الصوت المألوف من خلفه، فالتفت إلى صاحبه، الذي تابع بابتسامة خبيثة كبيرة:
- أن نلتقي ثانية، بعد كل هذه السنوات، لهو أمر يسعدني
حدق (حسين) بكل دهشته، في (ميخائيل بن ناثان)، رجل (الموساد)، التي كانت له معه جولة في (باريس) سابقا، وقال في توتر:
- ماذا تفعل هنا؟!
أشار الإسرائيلي بيديه، مجيبًا:
- أنا ضمن الوفد الديبلوماسي الإسرائيلي أدون (حسين).
شعر (حسين) بتوتر شديد يسري في كيانه، وخاصة مع صوت (ميخائيل) المرتفع، والذي جذب إليهما العديد من الأنظار في فضول، وجعل الرئيس نفسه يلتفت إليهما في اهتمام، فقال في شيء من الحدة:
- من حسن الحظ أنني لا أعمل في السلك الديبلوماسي، حتى لا أضطر للتعامل معك
أطلق (ميخائيل) ضحكة عالية، جذبت المزيد من الأنظار إليهما، قبل أن يرفع صوته أكثر، قائلا:
- يا للخسارة!!... كنت أتمنى أن نعيد تعاوننا، كما في السابق.
امتقع وجه (حسين)، مع تلك التساؤلات والشكوك، التي اندلعت في عيون الكثيرين، ومع انعقاد حاجبي الرئيس في شدة، وهو يرمقه بنظرة عجيبة، جعلته يقول في حدة:
- إننا لم نتعاون قط في السابق يا (ميخائيل).
أطلق (ميخائيل) ضحكة عالية ساخرة، ثم ابتعد عنه، وهو يلوح بيده، قائلا:
- كما تشاء أدون (حسين) كما تشاء.

امتقع وجه (حسين) أكثر، وخاصة مع تلك النظرة القاسية، التي رماه بها الرئيس، حتى أنه لم ينتبه إلى تلك الإيماءة الخفيفة، التي تبادلها (ميخائيل بن ناثان) مع (جيهان)، والتي رسمت كل البؤس على وجهها، على الرغم من الابتسامة الظافرة في أعماقها، وحرم الرئيس تسألها في غضب:
- ومن ذلك الحقير، الذي لفق قضية مهينة كهذه إلى فتاة جميلة ولمجرد أنه لم يظفر بها؟!
اصطنعت (جيهان) كل الضعف والمرارة، وهي تقول:
- هل ستصدقينني لو أخبرتك يا هانم؟!
أجابتها حرم الرئيس في حزم:
- بالتأكيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- (حسين).
ارتجفت أعصاب (حسين)، عندما نطق الرئيس (السادات) اسمة، بهذه الصرامة القاسية، وهو يقف أمامه في مكتبه في الصباح، فغمغم في توتر ملحوظ:
- رهن إشارتك يا فخامة الرئيس.
كان يشعر في كيانه كله، بتوتر بلا حدود، وخاصة مع الطريقة التي استقبله بها (لطفى)، فور وصوله إلى مقر عمله، وهو يقول في توتر شديد:
- معذرة يا (حسين) باشا، ولكن فخامة الرئيس أمر أن تذهب إليه فور حضورك، وقبل أن تدخل مكتبك.
كلمات (لطفي) وتوتره، جعلاه يدرك أنه إزاء أمر جلل... ما فعله ذلك الحقير (ميخائيل) أمس، بذر بذرة الشك في نفس الرئيس...

- من أين تعرف (ميخائيل بن ناثان)؟!
ألقي (السادات) السؤال، في غضب صارم قاس، جعل صوت (حسين) مضطرب، على الرغم منه، وهو يغمغم:
- كانت عملية قديمة يا سيادة الرئيس، و..
قاطعه (السادات) بنفس الصرامة:
- لماذا لم يشر ملف خدمتك إلى لقائك به؟
ازدرد لعابه في صعوبة، وهو يغمغم:
- يمكنني تفسير كل شيء، يا فخامة الرئيس.
- تراجع (السادات) في مقعده، وهو ينظر إليه في شك غاضب. جعله عاجز عن الكلام، حتى اعتدل (السادات) فجأة، وهو يسأله في صرامة:
- ما معلوماتك عن (جيهان المصري)؟!
شعر (حسين) بضربة في صدره، مع اللهجة التي ألقى بها الرئيس سؤاله، فتراجع خطوة في حركة لم يقصدها، وهو يقول:
- مصرية حاصلة على الجنسية البريطانية، وزوجة سير (ماهر جلال) كبير أطباء (لندن كلينك)، و.
أكمل (السادات) في حدة:
- وشابة سابقة، لفق لها أحدهم تهمة قاسية، أجبرتها على مغادرة البلاد؛ لمجرد أنها لم تستجب له.
انتفض (حسين) في قوة، وهو يهتف:
- ليس هذا ما حدث يا فخامة الرئيس... أقسم لك أن
استوقفه (السادات) بإشارة غاضبة من يده، هاتفا:
- لا تقسم.
ثم خفض عينيه إلى الأوراق التي أمامه، مستطردا في لهجة آمرة صارمة:
- لا تعد إلى مكتبك يا (حسين).

امتقع وجهه في شدة، وهو يقول:
- فخامة الرئيس... إنني.
قاطعه الرئيس مرة أخرى، في صرامة أكبر:
- أنت في إجازة مفتوحة يا (حسين البنهاوي).
بلغ امتقاع وجه (حسين) حدا جعله أشبه بجثة تقف على قدمين وعجز تماما عن النطق، وهو يحدق في الرئيس ذاهلا، في حين ضغط الرئيس زر استدعاء على مكتبه، وهو يقول في صرامة قاسية، ودون أن يرفع عينيه إليه:
- اذهب يا (حسين).
انتزع (حسين) قدميه من الأرض في صعوبة، وبدا وهو يغادر جناح الرئيس، وكأنه سينهار تماما، حتى أن (لطفى) أسرع يمسك يده، وهو يقول مخلصا:
- (حسين) باشا... أنا رهن إشارتك... مرنى، تجدني أطوع لك من بنانك..
التفت (حسين) يتطلع إليه، وكأنه لا يراه، فتابع الشاب في قلق:
- سأرسل سائقا يوصلك إلى منزلك.
لم يقل (حسين) شيئا، ولكن (لطفي) أسرع يستدعى أحد سائقي القصر الجمهوري؛ ليوصله إلى منزله..
وفي الطريق إلى منزله، شعر (حسين) بكيانه كله ينهار داخله، وبقلبه يكاد يتوقف، من شدة الألم والقهر..
كل شيء بناه في حياته، انهار في لحظة واحدة...
كل شيء..
السلطة..
السطوة..
النفوذ..
القوة..

جملة واحدة، نطقها رجل (الموساد) السابق، دمرت كل ما قاتل طيلة عمره لبنائه وحمايته.
كيف سيواجه العالم، بعد أن فقد كل ما استند إليه طيلة عمره؟!
بل كيف سيواجه عائلة (البنهاوي)؟!...
كيف؟!...
استعاد ذهنه في لحظات، كل الصراعات التي خاضها، منذ أرسل أول برقية تأييد للضباط الأحرار، وحتى هذه اللحظة.
ولم يكن في حاجة إلى الكثير من الحسابات؛ ليدرك أنه ترك خلفه عشرات الخصوم، الذين ما أن يدركوا أنه قد خسر سلطته ونفوذه، حتى ينقضوا عليه بلا رحمة سيفتكون به، دون أدنى شك.
ودون أدنى رحمة أو شفقة.. وبكل الشماتة..
والظفر..
وهو لن يحتمل هذا..
لن يحتمله أبدا..
وعائلة (البنهاوي) أيضا لن تحتمله...
عائلة (البنهاوي)...
(البنهاوية)...
بعد أن كان لعقود مصدر قوتها، سيصير اليوم نقطة ضعفها
كيف سيمكنه أن يواجه هذا؟!...
كيف؟!...
اعتدل فجأة، وهو يقول للسائق:
- لن أذهب إلى المنزل يا أسطى (ناجي)... لدي مشوار هام أولا.
قال السائق في احترام:
- كما تأمر يا باشا... إلى أين إن شاء الله؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- إلى (القاهرة) يا (مفيد) بك.
لابد وأن تزور (حسين) باشا اليوم حالته النفسية سيئة للغاية..
هتف (لطفى) بالكلمات عبر الهاتف في توتر، فسأله (مفيد) في قلق شديد:
- لماذا يا أستاذ (لطفى)؟! أبسبب طلبك الزواج من (شريفة)؟!
أجابه (لطفى) بكل توتره:
- لم أفاتحه في هذا بعد يا (مفيد) بك... لم تكن هناك مناسبة صالحة.. إنه يمر بحالة نفسية سيئة، بعد مقابلته لسيادة الرئيس، ولست أدري ماذا دار بينهما.
انعقد حاجبا (مفيد)، وسعل في قوة، كعادته كلما شعر بالانفعال وقال بصوت متحشرج:
- سأنطلق إليه على الفور يا أستاذ (لطفى)... أشكرك.
أنهى المحادثة في توتر، فسأله (عمر) في قلق
- ماذا أصاب (حسين)؟!
هز رأسه، مغمغما في توتر:
- لست أدرى... إنها المرة الأولى التي يمر فيها بهذا.
غمغم (عبد الحكيم):
- ربما نبت له قلب فجأة
التفت إليه (عمر) بنظرة صارمة... فتراجع مستدركا:
- أقصد ربما آلمه قلبه... الباشا يبذل الكثير من الجهد
نهض (مفيد)، قائلا:
- سأسافر إليه في (القاهرة) فورا.
سأله (عمر) في اهتمام مخلص:
- هل تحب أن أرافقك؟!
هز (مفيد) رأسه نفيا، وسعل مرتين، قبل أن يلوح بيده، مجيبًا:

- لن يروق له هذا.
قال (عبد الحكيم) في قلق:
- أنا لا يروق لي تعبك هذا... لابد وأن تعرض نفسك على طبيب أخصائي.
حاول (مفيد) أن يبتسم، وهو يغمغم:
- سأفعل... بإذن الله سأفعل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أنا على ما يرام يا (مفيد) اطمئن...
قالها (حسين) في هدوء زائد عن الحد، حتى أن (مفيد) شعر بقلق حقيقى، وهو يسأله:
- حقا؟
هز (حسين) كتفيه، قائلا:
- إرهاق عمل ليس إلا.
ثم ابتسم ابتسامة باهتة، مستطردا:
- حتى النسور، لابد لها من أن تهبط يوما... أليس كذلك؟!
كان هادئة للغاية، حتى أن (مفيد) شعر بقلق حقيقى، جعله يسأله في تردد:
- هل تحب أن أبيت معك الليلة؟!
ربت (حسين) على كفه، وهو يبتسم، قائلا:
- أنت على الرحب والسعة دوما، ولكنني أفضل البقاء وحدي الليلة..
غمغم (مفيد):
- ألا تريدني أن أعد لك شيئا قبل رحيلي؟!

هز (حسين) رأسه مع ابتسامة، لم ير (مفيد) مثلها على وجهه أبدا، فغمغم:
- كما تشاء يا (حسين)... كما تشاء يا أخي.
هم بالنهوض، ثم لم يلبث أن عاود الجلوس، وهو يقول في تردد:
- هناك أمر أرغب في مفاتحتك به، قبل أن أنصرف:
- أشار إليه (حسين) بيده، يدعوه إلى الاستمرار، فالتقط نفسا عميقا، قبل أن يقول:
- (لطفى)، مدير مكتبك، طلب منى يد (شريفة).
بدت الدهشة على وجه (حسين)، وهو يقول:
- (لطفى)؟!... لم يفاتحني أبدا في هذا..
ازدرد (مفيد) لعابه، وقال بنفس التردد:
- كان يخشى مفاتحتك، قبل أن يعرف رأى (شريفة)
شرد (حسين) ببصره لحظات، فأضاف (مفيد) في حذر:
- (شريفة) موافقة، ولكنها تنتظر موافقتك.
تواصل شرود (حسين) لحظات، قبل أن يلتفت إلى (مفيد) بعينين حزينتين، مغمغما:
- المهم موافقتك أنت يا (مفيد).
شعر (مفيد) بصدمة قوية، جعلته يتراجع في مقعده بحركة حادة، هاتفا:
- موافقتي أنا؟!
ربت (حسين) على كفه مرة أخرى، وابتسم ابتسامة شاحبة، وهو يقول:
- ألست شقيقها العاقل الرصين؟!
واتسعت ابتسامته قليلا، وهو يضيف:
- والأمين.
تضاعف القلق والخوف في قلب (مفيد)، وهو يقول:

- (حسين)... أخي... أنت تقلقني.
ربت (حسين) على يده مرة ثالثة، ثم نهض، والتقط مظروفا كبيرا، ناوله إياه وهو يقول:
- احتفظ بهذا المظروف واحرص عليه، وافتحه في الوقت المناسب.
التقط (مفيد) المظروف في توتر، وهو يسال في قلق:
- ومتي هو الوقت المناسب؟!
صمت (حسين) لحظات، ثم بدت ابتسامته شاحبة للغاية، وهو يجيب في اقتضاب:
- ستعرف.
تردد (مفيد)، وهو يسأله:
- (حسين)... هل..
قاطعه قبل أن يكمل سؤاله:
- هيا يا (مفيد)؛ حتى لا يتأخر بك الوقت.
حاول (مفيد) أن يقول شيئا، ولكن (حسين) استوقفه بإشارة من يده، وهو يكرر في حزم:
- اذهب يا (مفيد).
لم يكن أمام (مفيد) سوى الطاعة، على الرغم من كل ما يشعر به من قلق، ولم يكد (حسين) يغلق الباب خلفه، حتى أغمض عينيه في قوة، وتمتم:
- الوداع يا (مفيد)... الوداع يا (بنهاوية).
اتجه إلى شرفته المطلة على النيل، واختار أفضل مقعد بها، وجلس لحظات يتأمل نيل (القاهرة)، ويسترجع ذكرى الليالي، التي قضاها مع (عايدة) في تلك الشرفة، قبل أن يغمغم في مرارة:
- الوداع أنت أيضا يا (عايدة).
وأخرج مسدسه، من جيب معطفه المنزلي..

واستيقظ حي (جاردن سيتى) كله، على دوى الرصاصة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

121 – البديل..

جنازة (حسين البنهاوي) لم تختلف كثيرا عن حياته الحافلة..
كانت جنازة كبيرة مهيبة، سار فيها العديد من رجال السياسة والاقتصاد، مع بعض الأسماء اللامعة، اجتماعيا وفنيا..
ولأنه، وحتى لحظة موته، كان يشغل منصبًا في رياسة الجمهورية فقد تصدر الجنازة مندوب عن رئيس الجمهورية، وآخر عن وزير الدفاع، مع عدد من الرتب الكبيرة..
نصف القرية تقريبًا سافر للمشاركة في الجنازة، التي عبرت أهم شوارع (القاهرة)، مع نعش يلتف بعلم الجمهورية...
وعلى الرغم من سطوته وقوته في قريته، ذرف الحاضرون منها أنهارا من الدموع، وهم يسيرون خلف نعشه، ويواسون (مفيد)، الذي سار إلى جوار مندوب رئاسة الجمهورية، ووجهه غارق في دموع الحزن والأسى...
أما تقرير الوفاة الرسمي، فلم يشر من قريب أو بعيد، إلى السبب الحقيقي لمصرع (حسين البنهاوي)...
السبب الذي ذكره التقرير، كان انفجارا في شرايين المخ، نتيجة إجهاد فائق..
الطبيب الذي وقع شهادة الوفاة، لم يفعل شيئا سوى توقيعها... لم ير جثة (حسين)...
ولم يكتب حتى شهادة الوفاة..
الشهادة أتت إليه، مع مندوب خاص من الرياسة، وكل بياناتها مكتوبة، ولا ينقصها إلا توقيعه..
ولقد فعل دون مناقشة.
ولهذا لم يعلم مخلوق واحد، لا في العائلة أو خارجها، كيف لقي حسين البنهاوي) مصرعه فعليا.

وحتى بعد انتهاء الجنازة، تم نقل الجثمان في سيارة تابعة لرياسة الجمهورية، مع اثنين من رجال الأمن، أشرفا على عملية الدفن، ليرقد جثمان (حسين) إلى جوار رفات والده الحاج (البنهاوي).
مراسم العزاء أقيمت في جامع (عمر مكرم) في (القاهرة)، وعانت خلالها الشرطة معاناة كبيرة، مع الأعداد الهائلة، التي توافدت على قاعة العزاء، والتي كان معظمها من الأسماء اللامعة في (مصر)...
(مفيد) و (عمر) و (عبد الحكيم) و (فؤاد) وقفوا لتلقى العزاء، في حين جلست (ناهد) و (شريفة) و (نعيمة) في قاعة النساء، وهن تبكين في حرقة وحرارة، شقيقهن الراحل، الذي كان دوما عزوتهن وسندهن، وتستقبلن العزاء من زوجات المسئولين وبناتهم.
أما (طارق) و (فاطمة) و (حافظ)، فقد بقوا في السراي، يستقبلون المعزين، الذين لم تسمح ظروفهم بالسفر إلى (القاهرة) -
الكل بكى (حسين البنهاوي)، على الرغم من تاريخه...
الكل بلا استثناء...
ربما كان السبب وفاته المفاجئة...
أو الحزن على موته في سن مبكرة...
أو لأنه، وفي كل الأحوال، جعل قريتهم محط الأنظار لعقود.
وعقب انتهاء العزاء، عادت الأسرة من (القاهرة)، وقد شملها صمت مهيب، إلا من أصوات النحيب والبكاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- الآن ستعود الأرض إلى أصحابها.

غمغم (فؤاد) بالعبارة، وهو يجلس في سيارة (عبد الحكيم)، فانعقد حاجبا هذا الأخير في ضيق غاضب، في حين قال (عمر) في حدة:
- هل ماتت مشاعرك يا هذا؟!... الرجل لم يبرد في قبره بعد!!
هز كتفيه في عصبية، وهو يقول:
- وهل ستعيده اللباقة إلى الحياة!!
تبادل (عمر) و (عبد الحكيم) نظرة امتعاض، ولم يحاول أحدهما مجادلته، إلا أنه، وبعد وهلة من الصمت، اعتدل يسأل في اهتمام:
- المرحوم (حسين) طلق الأميرة (عايدة) قبل موته، ألا يعني هذا أن أسرته هم الورثة الوحيدون له؟
صاح به (عبد الحكيم) في حدة:
- ماذا أصابك يا (فؤاد)؟!... هل تثير أرض (البنهاوي) لهفتك إلى هذا الحد؟!...
انعقد حاجباه، وهو يقول في حدة:
- لا ضرر في عودة الحقوق لأصحابها.
صاح به (عمر) في غضب:
- اصمت يا (فؤاد).. اصمت.
تراجع (فؤاد) في المقعد الخلفي في حنق، وحافظ على صمته لعشر دقائق، قبل أن يعتدل فجأة، متسائلا:
- كم يستغرق إعلان الميراث؛ ليصبح نافذا؟!
صرخ (عمر) بكل غضبه:
- اصمت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لماذا يا (حسين)؟!

غمغم بها (مفيد)، من وسط دموعه الغزيرة، وهو يجلس في شرفة حجرته في السراى، قرب انبلاج الفجر، يدخن واحدة من سجائر (جودة)، ويشعر بعذاب شديد في ضميره.
لم يكن ينبغي له أن ينصرف، عندما طلب منه (حسين) هذا. كان عليه أن يبقى إلى جواره... (حسين) كان يحتاج - يومئذ - لمن يؤازره، ويبقى إلى جواره... لماذا انصرف وتركه؟!...
لماذا؟!
انهمرت الدموع غزيرة من عينيه، وراح يسعل بقوة، حتى أنه عندما مسح فمه بمنديله، اصطبغ معظمه بلون الدم، الذي بدا مذاقه واضحا في حلقه
- لماذا يا (حسين)؟!
كررها مرة أخرى، قبل أن يتذكر فجأة أمرا هاما...
ذلك المظروف
المظروف الذي سلمه له (حسين)، وطلب منه فتحه في الوقت المناسب..
كان يشعر بمصيره إذن... نهض يستعيد ذلك المظروف، وأمسك به بيديه معا، وهو يسأل نفسه:
- هل حانت لحظة فتحه؟!... الجواب أتاه في سرعة، مع خفقات قلبه القوية.. ترى ماذا يحوي ذلك المظروف؟!...
ماذا؟!
فض المظروف بأصابع مضطربة، وألقى نظرة داخله...
هناك مفتاح له هيئة عجيبة، وعليه رقم معلق ببطاقة ممغنطة، وعدد من الأوراق، الممهورة بالأختام الرسمية.
وبنفس الأصابع المضطربة، التقط الأوراق، التي ألصق بها (حسين) كلمات قليلة بخطه..

وفي سرعة ولهفة وتوتر، التهمت عيناه تلك الكلمات القليلة ثم انتفض قلبه، واتسعت عيناه عن آخرهما فما تركه له (حسين) كان مفاجأة...
مفاجأة صادمة..
إلى أقصى حد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ألم أقل لك؟!
قالتها (جيهان) في هدوء، يحمل لمحة ساخرة، جعلت (مكى) يعقد حاجبيه، وهو يقول في عصبية:
- ماذا قلت لي بالضبط؟!
هزت كتفيها، قائلة:
- من الخطأ أن تصادق ذئبا، متصورا أنه لن ينشب مخالبه في جسدك يوما.
قالتها، وأطلقت ضحكة ساخرة مستفزة، جعلته يقول في صرامة:
- من أين اكتسبت هذه الحكمة؟!
مالت نحوه، مجيبة في سرعة:
- من رأس الذئب المقطوع.
ثم أطلقت ضحكة ساخرة أخرى، زادت من ضيقه وتوتره، فمال نحوها بحركة حادة، قائلا في شراسة:
اسمعي أيتها المتحذلقة... لو تصورت أنك قادرة على اللعب بـ (إبراهيم مكى) فأنت واهمة لقد سحقت من هم أكثر قوة منك كثيرا، بأطراف أناملي..
قالت ساخرة:
- حقا؟

أجابها في خشونة:
- نعم حقا يا امرأة... لقد كان بيننا اتفاق... عقد شراكة، وأنا نفذت الجزء الخاص بي من العقد، وبقيت الخطوة الأخيرة.
التمعت عيناها، وهي تقول:
- الشركة؟!
تراجع في مقعده، قائلا في صرامة شرسة:
- نعم... مع توقيع عقدها، تكون الصفقة المتفق عليها قد تمت.
ابتسمت ابتسامة لم ترق له، وهي تقول:
- وتصبح أنت من كبار رجال المال والأعمال في (مصر).
قال في خشونة:
- هل يزعجك هذا؟!
هزت كتفيها، قائلة:
- مطلقا!
ثم نهضت مستطردة:
- ولكن اسمح لي... ستقلع طائرتى بعد ثلاث ساعات، ولابد وأن أعد
حقائبى.
هتف مستنكرا:
- حقائبك؟!... أتتصورين أنه يمكنك خداعي بهذه البساطة.
قالت في سخرية:
- خداعك؟!... تفكر كذئب وحشى يا (مكى)، وتجهل كيف تتعامل مع سيدة محترمة.
ثم مالت نحوه، مضيفة:
- قبل أن أغادر الفندق، سيكون مدير أعمالي الفرنسي (رينو)، قد وقع معك عقد الشركة.
قال في شك قاسي:

- مدير أعمالك؟!... ولماذا لا توقعينه بنفسك.
اتسعت ابتسامتها الساخرة، وهي تقول:
- سل أقارب (حسين)، وسيخبرونك أن (رينو) هو من يوقع كل عقودى... ثم أنه يمكنك أن تأمر أحد رجالك بمراقبتى، حتى يتم توقيع العقد.
جذبها من معصمها، وهو يقول في حدة:
- لو أنك تخدعينني.
لم يتم عبارته، ولم يكن حتى بحاجة إلى هذا، إلا أنه لم ترق له ابتسامتها على الإطلاق، وهي تجيب:
- أتظنني أجرؤ على هذا؟!
ثم أفلتت معصمها من يده في رقة، واعتدلت مستطردة:
- وأحب أن أخبرك أنك كنت مصدر إلهام كبير لي... أشكرك.
قالتها، وقبلت أطراف أصابعها، ثم فردتها أمامها، ونفخت أصابعها، وكأنها ترسل القبلة إليه، قبل أن تلوح بأصابعها، قائلة:
- الوداع يا (مكى) بك... أسعدني كثيرا التعاون مع ذئب مثلك.
انعقد حاجباه في شدة، وهو يشاهدها تبتعد في أناقة، وأتبع نصيحتها، فأشار إلى أحد رجاله بمتابعتها ومراقبتها، وجلس يلتهم توتره الشديد، وعقله يستعيد كل عبارة نطقتها..
كل جملة..
كل كلمة..
بل كل حرف..
وفي أعماقه تصاعدت شكوك عديدة، و.
- مسيو (مكى)؟!
أتاه السؤال من خلفه بالفرنسية، فالتفت إلى شاب أشقر وسيم يقف خلفه، مستطردا: - (رينو بولارد). مدير الأعمال.
عاد حاجبا (مكى) ينعقدان، وهو يسأله:

- هل تحمل عقد الشركة؟!
جلس (رينو) أمامه، قائلا:
- بكل تأكيد.
فتح حقيبة أنيقة، والتقط منها عقدا من نسختين، ناوله إياه، وهو يقول في هدوء:
- يمكنك أن تقرأه جيدا بالطبع، قبل التوقيع عليه غمغم (مكى) في صرامة: - سأفعل بالتأكيد.
قرأ العقد في دقة حرفا بحرف، قبل أن يرفع عينيه إلى (رينو)، قائلا في خشونة:
- هناك فقرة تقول: إنني سأحصل على مائة ألف دولار، فور توقيع هذا العقد، كدليل على حسن النوايا.
أخرج (رينو) مظروفا منتفخا من حقيبته، وهو يقول:
- ها هي ذي يا مسيو (مكى). عدا ونقدا، ويمكنك عدها، قبل التوقيع على العقد.
صمت (مكى) لحظات مفكرا، قبل أن يغمغم:
- لا بأس... سأمنحكم ثقتي هذه المرة.
وقع العقد بالفعل، ومد يده يلتقط المظروف، و.
- (إبراهيم مكى)... سمع اسمه بكل الصرامة، فالتفت إلى ناطقه، الذي واصل في قسوة:
- البلاغ كان صحيحا... كل شيء تم تسجيله بالصوت والصورة، بإذن وتصريح نيابة أمن الدولة.
صدمة الموقف، ولكنه قال في عصبية:
- عقود العمل لا تخضع لنيابة أمن الدولة... ربما هو تجاوز قانونى، ولكن..
قاطعه الرجل، وهو يميل نحوه، قائلا بكل صرامة:

- البلاغ لم يكن بشأن التجاوزات الوظيفية يا (مكي) بك، ولكن حول تقاضي رشوة من جهة أجنبية؛ لتسليمها معلومات بالغة السرية.

امتقع وجه (مكى)، وهو يهتف مختنقا:

- جهة أجنبية... معلومات سرية؟!

اعتدل الرجل، ونظر إلى (رينو) في صرامة، قائلا

- ألا تتفق معي في هذا يا أدون (دافيد)؟!

انتفض جسد (مكى) في قوة، وهو يهتف:

- (دافيد)؟!... إنه (رينو بولارد)، مدير أعمال الـ

قاطعه الرجل في صرامة أشد قسوة:

- هذا الرجل هو (دافيد ليكنشتاين) ... سكرتير بالسفارة الإسرائيلية التي أبلغتنا عن تفاوضك معها، وأيدت السيدة (جيهان) تلك المعلومة، بعد أن طلبت منها التوسط، لعقد تلك الصفقة القذرة.

اتسعت عينا (مكى) عن آخرهما في ذهول، وهو يحدق في وجه الرجل..

سكرتير في السفارة الإسرائيلية؟!... فعلتها (جيهان)...

- كنت مصدر إلهام لى...

- من الخطأ أن تصادق ذنبا، متصورا أنه لن ينشب مخالبه في جسدك يوما...

استعاد كلماتها، وهو يحدق ذاهلا في الرجل، الذي أشار لرجاله بإلقاء القبض عليه، في حين ارتسمت ابتسامة ظافرة على وجه (دافيد)، وهو يقول:

- أظن هذا دليل على حسن نوايانا بشأن السلام يا كولونيل.

صافحه الرجل بلا حماس، وهو يغمغم:

- شكرا لكم وللسيدة (جيهان)، على تعاونكما المثمر.

مستحيل أن يكون هذا حقيقيا..

مستحيل أن تهزمه هاوية، وهو الذي سحق المحترفين بذكائه ودهائه طوال عقود!!...
مستحيل!!...
وبكل الازدراء، قال الرجل، وهو يشير إلى أحد رجاله:
- لست أدري، كيف لرجل له تاريخ حافل مثلك، أن ينهي حياته بخيانة حقيرة لوطنه!!
لم يحاول (مكى) التعليق، مع الغصة الكبيرة، التي أغلقت حلقه تماما.
وبينما كان الرجال يحيطون معصميه بالأغلال، شاهد بوجه محتقن وعينين زائغتين (جيهان)، وهي تسير خلف حامل حقائبها في أرستوقراطية واضحة.
وعندما وقع بصره عليها، مع ملامحها الذئبية الناعمة، التمعت عيناها ولوحت له بأناملها في رقة، مع ابتسامة ظافرة..
لقد فعلت ما عجز العمالقة عن فعله طويلا
واجهت قطيع الذئاب..
والتهمته..
كله..
وانتقمت..
انتقمت انتقام امرأة...
غاضبة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حمل صوت (فؤاد) كل غضبه وتوتره، وهو يجلس في حجرة مكتب (مفيد) في المصنع، قائلا:
- إلى متى سننتظر؟!

تبادل (عمر) و (عبد الحكيم) نظرة متوترة غاضبة، في حين بدا (مفيد) هادئا، باستثناء سعاله مرتين، قبل أن يتساءل:
- تنتظرون ماذا؟!
هتف (عبد الحكيم):
- (مفيد)... ليس لنا شأن فيما يقصده (فؤاد)... أننا..
قاطعه (مفيد) بإشارة من يده، وهو يعاود سؤاله، في شيء من الحزم هذه المرة:
. تنتظرون ماذا يا (فؤاد) بك؟!
أجابه (فؤاد) في عصبية:
- إعلام الميراث... أليس من الطبيعي أن يتم توزيع ميراث المرحوم (حسين)، على ورثته الشرعيين؟!
لم يجب (مفيد)، وهو يتراجع في مقعده في هدوء، متطلعا إلى (فؤاد) في صمت، استفز هذا الأخير، فضرب سطح المكتب بقبضته، وهو يهتف:
- مضى أكثر من شهر الآن، على وفاة المرحوم (حسين)، وأنت اختفيت لأسبوع كامل.
غمغم (مفيد) في هدوء:
- كنت مسافرا خارج البلاد.
لوح (فؤاد) بذراعه كلها في حدة، وهو يهتف:
- هذا شأنك... ولكن واجبك أن تستخرج إعلام الوراثة، اللازم لتوزيع ثروة (حسين).
ظل (مفيد) صامتا، يتطلع إليه في هدوء، في حين قال (عمر) بكل توتره:
- لماذا العجلة يا (فؤاد)؟!... أنت تعلم أن (مفيد) رجل شريف ومن المستحيل أن..

قاطعه (فؤاد) بضربة أخرى، على سطح مكتب (مفيد)، وهو يصيح بكل الغضب والحدة:
- أريد حق زوجتي... هل تفهمون؟!... فرطوا أنتم في حقوقكم لو أردتم، ولكنني لن أفعل.
تبادل (عمر) و (عبد الحكيم) نظرة متوترة أخرى، في حين بدا (مفيد) هادئا أكثر مما ينبغي، في مثل هذا الموقف، باستثناء شحوب وجهه، وصوت أنفاسه المرتفع، وهو يقول:
- اطمئن يا (فؤاد) بك... كل شيء سيكون قانونيا تماما.
تراجع (فؤاد) في مقعده، وهو يغمغم في عصبية:
- هذا كل ما أنشده.
عاد (مفيد) إلى صمته لحظات أخرى، ثم اعتدل، قائلا في حزم:
- الليلة في السراى... ستجتمع الأسرة كلها؛ لأخبركم كم تبلغ ثروة حسين - رحمه الله - بالورقة والقلم والمستندات.
التمعت عينا (فؤاد)، وهو يقول:
- هكذا يكون الكلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ولكن لماذا؟!
غمغم (طارق) بالسؤال، في حجرة والديه، فربتت (فاطمة) على كتفه في حنان، وهي تقول بصوتها الخشن:
- لماذا ماذا يا ولدي؟!
أشار (طارق) بيده، متسائلا:
- لماذا يجمع عمي (مفيد) الأسرة كلها، لإعلان ثروة عمي (حسين) - رحمه الله -!!... ألم يكن إعلام ميراث يكفي؟!
تنهدت، وواصلت مساعدة (حافظ) على ارتداء ثيابه، وهي تقول:

عمك (مفيد) هو أشرف وأفضل فرد، في عائلة (البنهاوي) كلها ولا ريب أنه لديه مبرراته.
ثم ابتسمت في حنان، مضيفة:
- ألم تر بنفسك، منذ عملت في المصنع، كم يحبه كل العاملون هناك؟!
ارتسمت على شفتيه ابتسامة حانية، وهو يغمغم:
- من الصعب ألا تحبي عمي (مفيد).
ربتت على صدره مبتسمة، قبل أن تسأله في اهتمام:
- هل حضر الآخرون؟!
أجابها في سرعة:
- كلهم هناك في انتظارنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- يا للزمن الأغبر!!...
غمغمت (نعيمة) بالكلمات في حنق، فرمقها زوجها (عمر) بنظرة قاسية، في حين تطلع إليها (مفيد) في هدوء، ولكنها تابعت في حنق أكبر:
عائلة (البنهاوي) كلها، تجلس في أنتظر وصول البرنسيسة (فاطمة).
زمجر (عمر)، قائلا في صرامة:
- اصمتي.
واصل (مفيد) التطلع إليها، في حين بدا (فؤاد) عصبيا، وهو يقول:
هل سننتظر طويلا؟!
ظهرت (فاطمة) على باب الحجرة، وخلفها (طارق) يعاون والده على السير، فهتفت (نعيمة) في حدة:

- أخيرا جاءت البرنسيسة.
احتقن وجه (فاطمة)، وهمت بقول شيء ما، ولكن ابتسامة (مفيد) الحانية جعلتها تغمغم:
- (حافظ) احتاج بعض الوقت.
قال (مفيد) في حنان:
- لا بأس يا (فاطمة) المهم أن نجتمع جميعا.
قال (فؤاد) في عصبية:
- وما دمنا قد اجتمعنا، فلا داع لإضاعة المزيد من الوقت.
تطلع إليه (مفيد) في صمت، في حين بدا التوتر والحرج على الجميع، وغمغمت (ناهد) محنقة:
- (فؤاد).
التفت إليها بنظرة غاضبة، فقال (مفيد):
- (فؤاد) بك على حق... لا داع لإضاعة المزيد من الوقت.
ثم التقط ورقة من جيبه، وفضها قائلا:
بخلاف الأرض والسراى، ترك (حسين) نصيبه في مصنع الغزل القديم، وحوالي عشرة آلاف جنيه مصري في البنك.
هتف (فؤاد) مستنكرا:
- فقط؟!... (حسين البنهاوي) بجلالة قدره، لم يترك سوى عشرة آلاف جنية، بعد كل هذه السنين؟!
رفع (مفيد) عينيه إليه، وقال:
- حسابات (حسين) - رحمه الله - كانت كلها مودعة في بنك خاص في (زيورخ).
هتف (فؤاد):
- لهذا سافرت لمدة أسبوع؟
سرت همهمة بين الجميع، فأنتظر (مفيد) حتى هدأت، قبل أن يجيب:

- هذا صحيح... (حسين) ترك لي قبل وفاته، كل ما يلزم للتعامل مع حسابه السري في (زيورخ) وهناك وجدت أنه يمتلك حوالي مليوني دولار.
هتف الكل في انبهار:
- مليونا دولار دفعة واحدة.
وقال (فؤاد) في انفعال:
- هذا يساوي مليون ونصف مليون جنيه بالمصري، بالسعر الرسمي.
غمغم (مفيد):
- تقريبًا... ولكن جزء من هذا المبلغ من حق (عمر) و (عبد الحكيم)؛ لأن (حسين) استولى على ثلث مصنعهما القديم بسيف القهر.
بدت الدهشة على وجهي (عمر) و (عبد الحكيم)، في حين غمغمت (نعيمة) مبتسمة:
- المال الحلال لا يضيع.
أما (فؤاد)، فصاح في غضب:
- ليس من حقك، المال مال الجميع، وليس من حقك توزيعه كما تشاء، و...

قاطعة (مفيد) في صرامة مفاجئة:
- (فؤاد) بك... هل تذكر ما فعله والدي الراحل قبل وفاته؟!
قال (عمر) في توتر:
- كتب ثروته كلها باسم (حسين) وحده.
رفع (مفيد) سبابته، قائلا في حزم:
- بشرط توزيع الأنصبة الشرعية بالعدل على الجميع.
غمغمت (فاطمة) في حسرة:

- لم يكن - رحمه الله. عادلا معنا.
وأضاف (طارق):
- كان يعاقب أمى.
أمسك (حافظ) يده، قائلا:
- هو عمك وشقيقي، ولا تجوز عليه اليوم سوى الرحمة.
صاح (فؤاد):
- ما شأننا نحن بحديث قديم كهذا؟!
شد (مفيد) قامته، وهو يقول في حزم:
- لأن (حسين) - رحمه الله - كرر نفس ما فعله والدي الراحل.
امتقع وجه (فؤاد)، وهو يقول:
- ماذا تعني؟!
أجابه في صرامة:
- لقد كتب كل ما يمتلك باسمي وحدي، وبنفس الشروط... أن أقوم بتوزيع الأنصبة الشرعية على الجميع بالعدل..
وكانت صدمة هائلة..
للكل..
بلا استثناء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

122 – النصيب..

يا لها من مسئولية جسيمة.
(حسين) وضعك حيث أردت الفرار دوما..
وضعك في موضع المسئولية..
أموال (البنهاوية) كلها صارت ملكا لك..
وعلى نحو قانونى تام..
(عمر) و (عبد الحكيم) تقبلا الأمر دون مناقشة، وحصلا على مائة ألف جنيه، تعويضا عما أصابهما من ضرر، مع تنازله لهما عن نصيب (حسين) في المصنع القديم؛ ليعود الحق إلى أصحابه.
(فؤاد) لجأ لشقيقه، وأقام الدنيا وأقعدها، ورفع الأمر للقضاء...
وخسر..
(نعيمة) و (ناهد) أيضا تقبلتا الأمر على مضض، ثقة منهما في أن (مفيد) لن يلبث أن يعيد الأمور إلى نصابها..
(طارق) لم يعجبه الأمر، ولكنه لم يعترض..
(حافظ) لم يبال..
(فاطمة) شعرت أن وجود المال مع (مفيد) أكثر أمانا، خاصة وانه قد أعاد لها كل ما خصمه (حسين) من نصيب (حافظ)، خلال السنوات الماضية، وأعاد إليها نصيبها الشرعي دون انقطاع...
أما (شريفة)، فلم تبال كثيرا بهذا، وخاصة عندما جاء (لطفى) للتعزية، وكرر طلبه ليدها في حياء.
لم تبال إطلاقا؛ لأن (مفيد) وافق، على ألا يتم الزفاف قبل مرور عام على وفاة (حسين)...
ولكن قبل مرور ثلاثة أشهر، تم زفافها على (لطفى)، دون حفل زفاف أو صخب..

والعجيب أن (فاطمة) قد بكت كثيرا وهي تحتضنها، قبل أن تغادر السراي إلى منزل (لطفى) في (القاهرة).
بكت بمشاعر حقيقية
كان من الواضح أن (فاطمة)، على الرغم من سوقيتها وخشونة صوتها وغلظتها، تخفى في أعماقها قلبًا طيبا، حجبه الغضب عن ظاهرها.
وفي شرفة حجرته، جلس (مفيد) يسعل في شدة كعادته..
السعال صار جزءا سخيفا معتادا من حياته وهو يدرك جيدا ماهيته، التي لم يخبر بها أحدا قط..
ورم خبيث في الرئة...
ورم لا علاج له..
يا للقدر!!...
نسل (البنهاوية) ينقطع..
(حسين) مات، وهو في سبيله إلى هذا، و (حافظ) لا يصلح لموقع كبير العائلة.
وهناك الأرض والسراي والثروة...
كنز (البنهاوية)
لمن سيذهب؟!...
لمن؟!
عند هذه النقطة، تعالى سعاله وتواصل، حتى أن الدماء تناثرت من فمه هذه المرة، لتلوث سور الشرفة، وشعر بالأرض تميد به، وبساقيه تعجزان عن نهوضه، فهتف:
- (طارق)...
لم تمض ثوان، حتى كان (طارق) يندفع إلى حجرته، هاتفا:
- عمي (مفيد).

ماذا بك؟! شاهد الدماء التي تلوث سور الشرفة، والشحوب الشديد في وجه (مفيد)، فأسرع يسنده بجسده، ويحيطه بذراعيه، صارخا:
- أمي... أمي..
وكان هذا آخر ما سمعه (مفيد)، قبل أن تظلم الدنيا أمام عينيه.. تماما...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لا أخفي عنكم... الحالة متأخرة للغاية.
سمع (مفيد) العبارة في صعوبة، وهو يستعيد وعيه في بطء، فأبقى عينيه مغمضتين، وسمع صوت (عمر) يقول في ارتياع:
- نستطيع نقله إلى أكبر مستشفى خارج البلاد، و.
قاطعه الطبيب في أسف:
- الأمر تجاوز العلاج بكثير يا أستاذ (عمر)... ربما لو بدأنا قبل سنة.. ربما.. الآن المرض انتشر في جسده كله في الكبد، والمعدة، وحتى في المخ.
تساءل (عبد الحكيم)، في صوت أقرب إلى البكاء:
- نحن مستعدون لدفع كل ما نملك، من أجل شفائه.
بدا صوت الطبيب أكثر أسفا، وهو يجيب:
- ليت المال قادر على شفاء تلك الأمراض المستعصية.
تناهي صوت بكاء حار لأذني (مفيد)، الذي ظل مغلق العينين، يميز أصوات شقيقاته وأزواجهن من حوله، قبل أن يشعر بيد تقبض على كفه، وصاحبها يقول في حزن شديد:
- ماذا يمكننا أن نفعل؛ لنخفف معاناته على الأقل؟!
غمغم الطبيب:

- هنا سنفعل كل ما بوسعنا... والآن أرجوكم أن تنصرفوا جميعا حتى يمكننا القيام بعملنا.
تشبث (طارق) بيد (مفيد)، وهو يقول:
- أنا سأبقى إلى جواره.
هتفت (ناهد) من وسط دموعها:
. كلنا سنبقى.
قال الطبيب في صرامة:
- لا يمكننا أن نسمح إلا ببقاء مرافق واحد.
كرر (طارق)، في إصرار حاسم:
- أنا سأبقى.
ظل (مفيد) مغلق العينين، مع ما يشعر به من ضعف شديد، حتى أدرك أن الكل قد غادر حجرته، ولم يتبق سوى (طارق)، الذي مازال يمسك يده في حنان، ففتح عينيه في بطء، وحاول أن يبتسم في صعوبة، وهو يغمغم:

- كيف حال (البنهاوي) الصغير؟!
تهللت أسارير (طارق)، وانسالت الدموع من عينيه، وهو يقول:
- بخير، ما دمت بخير يا عمي.
حاول (مفيد) أن يشد على يده، إلا أن ضعفه الشديد لم يمكنه من هذا فتمتم في تهالك:
- أنت الامتداد الوحيد لعائلة (البنهاوي) يا (طارق).
شد (طارق) على يده، قائلا في حنان مشفق:
- أطال الله في عمرك يا عمي.
حاول (مفيد) أن يبتسم، وسعل مرة، نشرت ألاما مبرحة في كيانه كله، قبل أن يغمغم، في صوت مختنق متحشرج:
- البركة فيك أنت يا (طارق).

مسح (طارق) دموعه، وهو يقول:
- البركة فيك يا عمي إن شاء الله، ستنهض بألف سلامة، و.
تطلع إليه (مفيد)، ثم أسبل عينيه، وراحت حياته تنطلق في ذهنه وكأنه يستعرض كل لحظة منها..
ثم توقفت ذكرياته ومشاعره كلها عند أمر واحد...
(مديحة).
لم يحظ بها في الدنيا، وربما ينعم الخالق عز وجل عليه بها في الآخرة.
- (مديحة).
غمغم باسمها في خفوت شديد، لم يستوعبه (طارق)، فمال نحوه، متسائلا:
- ماذا تريد يا عماه؟!
فتح عينيه في صعوبة، وتراخت أصابعه بين أصابع (طارق)، وهو يتمتم مكررا:
- البركة فيك يا (طارق)... يا (بنهاوى).
مع آخر حروف كلماته،
تراخت أصابع (مفيد) تماما، وارتسمت على شفتيه ابتسامة جافة، وتجمدت عيناه، على نحو ارتجف له جسد (طارق)، وهو يهتف في هلع:
- عمي (مفيد).. عمى (مفيد)...
ولكن ذلك الأزيز المتصل، الذي انبعث من جهاز مراقبة القلب، وهروع الطبيب وطاقم التمريض إلى الحجرة، جعله يدرك الحقيقة المفزعة..
عائلة (البنهاوي) تتقلص..
وبسرعة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الرغم من أن جنازة (مفيد البنهاوي) لم تكن بنفس مهابة جنازة (حسين)، إلا أنها كانت تختلف في أمر آخر..
الحب..
والحزن..
القرية كلها بلا استثناء، سارت خلف نعش (مفيد)...
عمال المصنعين بالكامل تسابقوا لحمل النعش، وإيصال (مفيد) إلى مثواه الأخير..
دموع الحب والحزن، التي انسكبت خلال الجنازة، كانت تكفي لرى أرض القرية لعام على الأقل.
(جودة) وحده لم يحضر الجنازة، لأن شباب القرية كلهم بقيادة (طارق) حطموا مقهاه وطردوه خارج القرية، وهددوا بقتله، لو وطأها بقدميه مرة أخرى...
لم يكن هناك سرادق عزاء في المساء؛ لأن القرية كلها تحولت إلى سرادق عزاء كبير.
الحب الذي يكنه كل فرد في القرية، وكل عامل في المصنع، كان العزاء الأساسي، الذي شعرت به القرية.
كل النساء ارتدين السواد لشهرين كاملين، وكأنما أعلنت القرية الحداد، على خيرة شبابها وأطيبهم وأشرفهم وأكثرهم رحمة وحنانا....
وعلى الرغم من أنهن جميعهن متزوجات، شعرت نساء (البنهاوية) بأنهن قد فقدن السند والحماية بوفاة (مفيد)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- تلك الحقيرة لابد وأن تغادر السراى

هتفت (نعيمة) بالعبارة في مقت، فصاحت بها (ناهد):
- أي قول هذا يا (نعيمة)... (فاطمة) زوجة (حافظ البنهاوي)، وأم (طارق البنهاوي)، ومن حقها أن تقيم في السراي معهما.
صاحت في حقد:
- لن ترث تلك العقربة سراى (البنهاوي).
قالت (شريفة) في حدة:
- كفى يا (نعيمة)... (فاطمة) لا تستحق منك كل هذا.
صاحت (نعيمة) في غل:
- ولا تستحق ابنة كلاف البهائم هذه، أن تقيم في سراى أبى.
برز (عمر) في هذه اللحظة، وهو يقول في صرامة:
- على العكس هي وحدها تملك حق الإقامة في ذلك السراى الملعون
تراجعت (نعيمة) مصعوقة، وهي تقول في ارتياع:
- ماذا تعني؟!
- (مفيد) كتب كل شيء باسم (طارق)؟!
هتف بها (فؤاد) في هلع، فأومأ (عبد الحكيم) برأسه، مجيبًا :
- كل شيء.
الأرض... والسراى... وحتى النقود السائلة، ونصيبه في المصنع.
اتسعت عينا (فؤاد) في ذعر ذاهل، قبل أن يهتف في ثورة:
- أية عائلة مجانين هذه؟!
أشار (عبد الحكيم) بيده، قائلا:
- لقد وضع الشرط نفسه، الذي وضعه من قبل والده وشقيقه الراحلين... أن يقوم (طارق) بتوزيع الأنصبة بالعدل.
صاح (فؤاد):
- أي عدل؟!... كلهم ظالمون... كلهم.
التقط (عبد الحكيم) نفسا عميقا، وهو يقول:

- كل شيء قانونى تماما.
هتف (فؤاد):
- كلا... أية تعاملات أو عقود خلال مرض الموت، غير معترف بها.
غمغم (لطفي) الذي ظل صامتا منذ البداية:
- المرحوم (مفيد) كتب كل شيء باسم الأستاذ (طارق)، بعد أسبوع واحد، من انتقال الثروة إليه.
تراجع (فؤاد) شاحبا، في حين غمغم (عبد الحكيم):
- ألم أقل لك.
- كل شيء قانوني تمام.
قالها (طارق) في صرامة شديدة، في وجه عائلة (البنهاوي) كلها، فاحتقن وجه (نعيمة) في شدة، وهي تهتف:
- وهل تتصور أن...
قاطعها بكل صرامة:
- ما أتصوره يا عمتي، أنك اليوم تجلسين في سراى لا تملكين شبرا واحدا فيه.
تراجعت مصعوقة، في حين جذب هو (فاطمة) إليه، مستطردا بكل الصرامة والحزم:
- ولكي تبقى فيه، لابد لك من الحصول على موافقة صاحبته.
انحدرت الدموع من عينى (فاطمة)، وهي تمسك كف ابنها، الذي أضاف في قوة:
- أمي.
اتسعت عيونهم جميعا في ذهول مصعوق، وغمغمت (نعيمة)، وقلبها يكاد يتوقف:
- (فاطمة)؟!
هتف في حدة:

- (فاطمة) هانم... مالكة أرض (البنهاوي) وسراياه... (فاطمة) هانم، التي ستأتون إليها كل عام، لتوزع عليكم أنصبتكم الشرعية.
والتمعت عيناه، وهو يضيف:
- لو أنكم تريدونها.
واحتضن والديه في قوة حانية، وهو يتطلع إلى الكل في تحد...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- سبحان العاطي الوهاب
قالها الحاج (سعفان) عمدة القرية، وهو يقترب من سراى (البنهاوي)، الذي تراصت أمامه سيارات الأسرة، قبل أن يتنهد مستطردا:
- عام وشهر مضيا، على وفاة (مفيد بك البنهاوي)، وها هي ذي عائلة (البنهاوية) تجتمع صاغرة أمام (فاطمة) ابنة (عبد الحميد)، لتوزع عليهم أنصبتهم.
غمغم (بسيونى) في حيرة:
- ولكنني سمعت يا حضرة العمدة، أن (مفيد) بك رحمه الله، قد ترك كل شيء لـ (طارق) بك، وليس لـ (فاطمة).
أومأ العمدة (سعفان) برأسه، وهو يقول:
- و (طارق) بك أراد أن يعوض أمه، عما لاقته على يد (البنهاوية) من اضطهاد، فجعل كل الأمور بيدها.
غمغم (بسيوني) في دهشة:
- في يد (فاطمة)!!
ابتسم العمدة، قائلا:
- لم تعد (فاطمة) يا شيخ الخفر... إنها الآن (فاطمة) هانم.

كانا يمران بمدخل السراى، عندما ألقى العمدة نظرة على الشرفة الواسعة، حيث جلس (حافظ) مبتسما، وإلى جواره (فاطمة) مرفوعة الرأس، وخلفهما (طارق) يضع راحتيه على كتفيهما في صلابة، في حين يجلس البنهاوية كلهم أمامهم منخفضي الرؤوس، في انتظار أنصبتهم من إيراد أرض (البنهاوية)، فهز رأسه، وهو يكرر مرة أخرى:

- سبحان الله..

وافقه شيخ الخفر (بسيوني) بإيماءة من رأسه، وهو يضيف:

- أرزاق.

ثم جمعهما الصمت، وهما يبتعدان عبر أرض (البنهاوي) عن السراى...

ويبتعدان

ويبتعدان.

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب
Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات:

الجزء الأول

1- العائلة..

2- اللقب..
3 - الأرض..
4 – المكيدة..
5 – الشماتة..
6 – السجن..
7- الاتهام..
8 - الانهيار..
9 - التحول..
10 – العودة..
11- بطولة بلا بطل..
12- انقلاب..
13 – المفاجأة..
14 – استثناء..
15 - إلى المجد..
16 – المدرب..
17 – الصدمة..
18 – الميراث..

19 – الظلم..
20 – القفرة..
21 - قضية..
22 - مفاجأة..
23 – عينا الثعلب..
24 – اللعبة..
25 - الوليمة..
26-العرض..
27 - القوة..
28 – مفاجأة..
29 - تصريح سفر..
30 – الصدمة..
31- صفعة..
32 - الخسارة..
33 – الحزن..
34 – تمرد..
35 - العدم..

36 – استدعاء..

37 – انتفاضة..

38 – الحساب..

39 – الانتقال..

40 - النهاية..

الجزء الثاني

41- ذكريات..

42 - خفقات القلب

43 – العاصفة..

44 - القوة..

45 - من القلب..

46- القلق..

47 – المسافر..

48 - الرحلة..

49 – السر..

50- لقاء هناك..

51 – الصدام..

52- حول الهدف..
53- وضاقت الدوائر..
54 - قواعد اللعبة..
55 – انقلاب..
56 - بداية السقوط..
57 – التشفي..
58 – الانبهار..
59 – اختطاف..
60 – القرار..
61 - كل الحيرة..
62 - البركان..
63 – انهيار..
64 – الغضب..
65 - الضياع..
66 – صدمة..
67 – اللقاء..
68 - لمسة الرحمة..

69 – الحرب..

70 – الحساب..

71 - كل القوة..

الجزء الثالث

72- لقاء هناك..

73- الضياع..

74- طارق..

75-الانتقام..

76- وعاد الصراع..

77- موسم الخداع..

78- الهاوية..

79- باريس..

80- اغتيال..

81- ودارت الدنيا..

82 - المنزلق..

83- لحم الحي..

84- واستحكمت حلقاتها..

85- العودة..
86- الصفعة.
87- شركاء..
88- وأطبق الفخ..
89- شريط الذكريات..
90- المفاجأة..
91- عرض جديد..
92- زائرة..
93- الانفصال..
94- تمرد..
95- قرار ..
96- الفضيحة..
97- المستحيل..
98- الثعالب..
99- ويمضى الزمن..
100- الخطوة الأولى..
101- أيام الخطر..

102- النكسة..

الجزء الرابع

103 الوداع..

104- التغيير..

105- الذروة..

106- التاريخ..

107- القوي..

108- انكسار..

109- الغضب..

110- الحرب..

111- الضربة..

112- انفتاح..

113- الذئاب..

114- القهر..

115- العودة..

116 – الصدمة..

117 - أرض العدو..

119 - الجولة الأولى..

119 – الطعنة..

120 - انهيار..

121 – البديل..

122 – النصيب..